التيسير من علم التفسير

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

فهرس السور

الفاتحة	5
البقرة	28
آل عمران	314
النساء	453
المائدة	624
الأنعام	765
الأعراف	886
الأنفال	1010
التوبة	1050
يونس	1132
هود	1187
يوسف	1251
الرعد	1304
إبراهيم	1335
الحجر	1362
النحل	1389
الإسراء	1450
الكهف	1544
مريم	1619
طه	1679
الأنبياء	1759
الحج	1847
المؤمنون	1932
النور	1994
الفرقان	2075
الشعراء	2129
النمل	2210
القصص	2283
العنكبوت	2373
الروم	2445

فهرس السور

لقمان	2503
السجدة	2563
الأحزاب	2591
سبأ	2671
فاطر	2726
يس	2776
الصافات	2825
ص	2883
الزمر	2938
غافر	3000
فصلت	3065
الشورى	3105
الزخرف	3167
الدخان	3208
الجاثية	3229
الأحقاف	3250
محمد	3278
الفتح	3308
الحجرات	3333
ق	3365
الذاريات	3386
الطور	3406
النجم	3426
القمر	3443
الرحمن	3461
الواقعة	3483
الحديد	3504
المجادلة	3537
الحشر	3558
الممتحنة	3582

فهرس السور

الصف	3598
الجمعة	3606
المنافقون	3624
التغابن	3635
الطلاق	3655
التحريم	3673
الملك	3684
القلم	3716
الحاقة	3752
المعارج	3779
نوح	3802
الجن	3824
المزمل	3849
المدثر	3883
القيامة	3908
الإنسان	3931
المرسلات	3970
النبأ	3996
النازعات	4028
عبس	4066
التكوير	4086
الانفطار	4107
المطففين	4122
الانشقاق	4149
البروج	4167
الطارق	4180
الأعلى	4194
الغاشية	4207
الفجر	4219
البلد	4241

فهرس السور

الشمس	4250
الليل	4259
الضحى	4273
الشرح	4282
التين	4288
العلق	4296
القدر	4310
البينة	4318
الزلزلة	4326
العاديات	4333
القارعة	4340
التكاثر	4347
العصر	4355
الهمزة	4363
الفيل	4370
قريش	4376
الماعون	4382
الكوثر	4389
الكافرون	4396
النصر	4403
المسد	4410
الإخلاص	4418
الفلق	4427
الناس	4434

تفسير

سورة الفاتحة

للشيخ د. يوسف الشِّبل

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأُسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، واتبع سنته إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد:

أيها الإخوة الكرام! السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وحياكم الله في هذا اللقاء لقاء الأربعاء في هذا المسجد المبارك نجتمع حول هذا الدرس الأسبوعي وكان حديثنا في اللقاء الماضي حول بيان عظمة هذا القرآن وعناية الأمة وسلف الأمة بهذا القرآن والاهتمام به، ثم الحديث عن الاستعاذة، والاستعاذة هي طلب اللجوء إلى الله ولما تستعيذ معنى: أنك تطلب اللجوء إلى الله والاعتصام بالله من أي شيء من أشد الخلق عداوة لك، وهو الشيطان الرجيم فتقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

معنى الاستعاذة:

والاستعاذة سنة عند قراءة القرآن كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**﴾ [النحل:98] فيُشرع لمن أراد أن يقرأ القرآن أن يستعيذ والحكمة من ذلك: أن الإنسان قد يتلوث لسانه بأمور لا ينبغي كالكذب والغيبة ونحو ذلك، فإذا أراد أن يتكلم بأعظم كلام وهو كلام الله كان ينبغي له أن يُطهر لسانه بالاستعاذة، هاذ من وجه.

ومن وجهٍ آخر: أن الإنسان إذا استعاذ فإنه يطرد الشيطان، لأن الشيطان إذا رأى الإنسان يقرأ القرآن ويُقبل على القرآن يأتي إليه ويشوش عليه القراءة ويُشغله ويُذكره بأمور حتى يدع المصحف ويدع القراءة ويخرج أو يشتغل بأمر آخر غير القرآن، فإذا تعوذ واصطحب النية

واستحضر الاستعاذة لابد أن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم باستحضار استحضر معنى الاستعاذة عندما تأتي بها.

وكما ذكرنا أن الاستعاذة لها مواضع أخرى عند الغضب عند رؤية أو سماع أو عندما رؤيا الإنسان رؤيا في منامه سيئة أو مزعجة فإنه يتعوذ بالله، وإذا نزغه الشيطان وأشغله الشيطان وسول له الشيطان أمورًا يتعوذ بالله من الشيطان.. وهكذا.

فإذا أردت أن تقرأ القرآن أولًا: أن تبدأ بالاستعاذة سواءً كنت تبدأ بأول القرآن أو في آخره أو أول السورة أو وسط السورة أو آخرها أو اقرأ آية واحدة فإنك أول ما تبدأ لا تدخل على القرآن هكذا وإنما تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وفي الصلاة إذا كبر الإنسان تكبيرة الإحرام فإنه يأتي بدعاء الاستفتاح ثم يتعوذ ويقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ويتعوذ في أول الصلاة في الركعة الأولى فقط، هذه ما تُسمى بالاستعاذة، إذا قرأ الاستعاذة وأتى بالاستعاذة في صلاته بعدها يأتي بالبسملة، والبسملة هي قول: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحَيمِ**﴾، وفي خارج الصلاة البسملة تكون عند بداية السورة فقط يعني أنت لو تريد أن تقرأ في وسط السورة أو في آخر السورة أو تقرأ أي آية في القرآن فإنك لا تُبسمل، وإنما تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم مثل ما تقول: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر:9] تريد أن تقرأ هذه الآية فإنك تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تأتي بالآية، لأن هذه الآية ليست كأول السورة.

معنى البسملة:

البسملة: هي في أول السورة فقط، ونلاحظ كثير من الناس يغفل عنها عندما يأتي بالأذكار

أو بالأوراد أو أذكار الصلاة وأراد أن يقرأ آية الكرسي لا يتعوذ يقول: الله لا إله إلا هو، فالسنة أنك إذا أدت أن تقرأ القرآن تتعوذ قد يأتي شخص ويقول: هذه من الأذكار والأذكار قرآن إذا أردت أن تقرأ سورة الإخلاص والمعوذتين تبدأ بالاستعاذة ثم البسملة ثم تخلص هذه السُّنَّة، لو تركت هذا فقط لكن اتبع السُّنَّة فيها، هذا هو المقصود.

أي سورة من سور القرآن أردت أن تقرأها من أولها تبدأ بالبسملة سواء الفاتحة أو البقرة أو أي سورة من سور القرآن تبدأها بالبسملة.

البسملة هل هي آية؟ نقول: هي آية مستقلة ليست آية من السور نزلت في الفصل بين السور، كان الصحابة لا يعرفون بداية السورة ولا يعرفون نهايتها إلا بالبسملة، فجاءت البسملة تفصل بين السور فهي آية مستقلة والاستعاذة ليستْ آية، الاستعاذة لا أحد يقول: إن الاستعاذة آية من القرآن ولذلك لا تجدها مكتوبة في المصحف البسملة موجودة في كل سورة ما عدا سورة براءة وعرفنا السبب في ذلك، لكن البسملة تعتبر آية مستقلة لكل سورة من سور القرآن إلا سورة الفاتحة هي التي اختلف العلماء فيها، هل البسملة هي آية من سورة الفاتحة، وأن الإنسان لابد أن يأتي بها؟ الآن تفتح المصحف تجد سورة الفاتحة رقم واحد ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ**﴾، رقم اثنين الحمد لله رب العالمين، فهي مكتوبة في المصحف على أنها آية من الفاتحة، وإذا قُلت: إنها آية من الفاتحة معنى هذا: أنك لو قرأت الفاتحة بدون البسملة ما تمت، والنبي ﷺ يقول: «**لمن لم يقرأ بأم القرآن**» أو «بفاتحة الكتاب»، ولذلك اختلف العلماء:

فمنهم من قال: إن البسملة آية من الفاتحة ولابد أن تأتي بها.

ومنهم من يقول: لا، والصحيح أن البسملة ليست آية من الفاتحة، البسملة آية مستقلة خارج الفاتحة وخارج جميع السور جيء بها للفصل بين السور فقط وليست آية من الفاتحة بدليل أن النبي ﷺ كما قال أنس رضي الله عنه كان خادم النبي وكان ملازم النبي يقول: «**صليت خلف النبي وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين**» لا يقولون ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ**﴾.

ومذهب الشافعية نسمع في مصر وفي بعض الدول إذا كبر تكبيرة الإحرام في الصلاة جهر بالبسملة، وهذا على رأي مذهب الشافعية لأنهم يرون أن البسملة آية من سورة الفاتحة.

والرأي الثاني: أنها ليست آية، ولذلك لو أن إنسانًا كبر للإحرام ولم يأت بالاستفتاح ولم يأت بالاستعاذة ولم يأت بالبسملة، وإنما كبر وقال: الحمد لله رب العالمين، صحت صلاته.

ومما يدل على أن البسملة ليست من الفاتحة: حديث النبي ﷺ في «**صحيح مسلم**» قال: «إن الله قال: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ قال الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ قال: مجدني عبدي، وإذا قال: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، وإذا قال: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل».

فالشاهد من هذا أن الذي قال: «**قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال: الحمد لله**» فهذا يدل على أن البسملة ليست آية من الفاتحة.

ما الفرق لما تقول: البسملة والتسبيح؟ البسملة أن تقول: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ**﴾

هذه صيغتها، والتسمية أن تقول: بسم الله.

➢ **متى تقول هذا ومتى تقول هذا؟**

نقول: البسملة تقال: عند بداية السورة إذا أردت أن تقرأ أي سورة من سور القرآن تقول: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحَيمِ**﴾، والبسملة تُقال: عند الخطابات لما تخطب أو تتكلم أو تكتب خطاب أو تكتب رسالة أو تكتب كتاب تقول: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحَيمِ**﴾، الله عز وجل يقول في قصة ملكة سبأ ﴿**إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [النمل:30] هذا الكتاب: ﴿**قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [النمل:30] هذه تُسمى بالبسملة.

ما التسمية فالتسمية مواضعها كثيرة كل أمر طيب محمود ينبغي لك أن تُسمي أن تقول: بسم الله، إذا أردت أن تركب الدَّابة أو السيارة تقول: بسم الله ما تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، السُّنَّة أن تقول: بسم الله، ﴿**وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا**﴾ [هود:41].

وإذا أردت أن تتوضأ تقول: (بسم الله).

وإذا أردت أن تدخل بيتك تقول: (بسم الله ولجنا).

وإذا أردت أن تخرج من بيتك تقول: بسم الله، توكلت على الله، فهذه تُسمى التسمية.

إذا أردت أن تذبح تقول: بسم الله والله أكبر.. وهكذا مواضع كثيرة ليست محدودة تكون في الأمور الطيبة الحسنة.

إذا أردت أن تنام تقول: بسم الله وضعتُ جنبي.. وهكذا. هذه تُسمى التسمية، وأما الأولى: تُسمى البسملة.

وسنبين سورة الفاتحة من أعظم سور في القرآن بل هي أعظم سورة في القرآن، ومعانيها عظيمة، وجاء عن الحسن البصري أنه قال: «إن الله أنزل كتبًا كثيرة، وجعل علوم هذه الكتب كلها في ثلاثة في التوراة والإنجيل والقرآن، ثم جعل علوم هذه الكتب الثلاثة في القرآن، ثم جعل علوم القرآن كله في الفاتحة، ثم جعل علوم الفاتحة في قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾» كلمة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:خل5] جمعت العلوم كلها، وهذا يتضح لك لما نقف معها ونتأملها بإذن الله في لقاء قادم.

سورة الفاتحة سورة عظيمة، ومما يدل على عِظم هذه السورة أن الإنسان يقرأها في اليوم سبع عشرة مرة في الفرائض فقط في الصلوات الخمس فقط، في الصلوات الخمس يُكرر سورة الفاتحة سبع عشرة مرة من غير السنن والرواتب ومن غير الصلوات الأخرى كصلاة الضحى والليل وغيرها، فلو جمع هذه الصلوات كلها لجاوزت الثلاثين مرة وهو يُكرر هذه السورة، هذه تدل على عِظم هذه السورة.

هذه السورة ينبغي لنا أن نتأمل آياتها وأن فيها دلالات عظيمة.

جاء عن بعض السلف أنه قال: «إن الله أنزل أربعة كتب، وجعل العلم كله في هذه الكتب الأربعة في التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، ثم جمع علم هذه الكتب الأربع في القرآن العظيم، ثم جمع علوم القرآن الكريم في المفصل، ثم جمع علوم المفصل في الفاتحة، ثم جمع علوم كل ما تقدم في قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾».

هذه السورة ورد فيها فضائل كثيرة عن النبي ﷺ.

➢ **مما يدل على عِظم هذه السورة أحاديث كثيرة تدل على فضل هذه السورة:**

أول فضل لهذه السورة: أنها أعظم سورة في كتاب الله كما دل ذلك من حديث أبي سعيد بن المعلى أنه كان يصلي في المسجد فناداه النبي ﷺ فلما سلم جاء إلى النبي قال: «ألا أُعلمك أعظم سورة في كتاب الله؟ فلما خرج مع النبي ﷺ من باب المسجد قال: يا رسول الله، قُلت لي: ألا أُعلمك أعظم سورة في كتاب الله فما هي؟ قال: هي فاتحة الكتاب هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُوتيته» فهذا يدل على أن سورة الفاتحة هي أعظم سور القرآن سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة أعظمُها سورة الفاتحة، فإذا كانت بهذه المكانة فينبغي لنا أن نقرأها ونتأمل آياتها.

- **مما يدل على عِظم هذه السورة**: أن الصلاة لا تصح إلا بها لابد أن يأتي بها يقول النبي ﷺ: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**»، وقال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن**»، فسماها فاتحة الكتاب وسماها أم القرآن وقال: «**لا صلاة**» وجاء في حديث آخر: «**كل صلاة لا يُقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج**» يعني ناقصة لم تتم الصلاة، وإذا صلى الإنسان منفردًا يجب عليه أن يأتي بالفاتحة ركن في كل الركعات، وإن كان إمامًا يجب عليه أن يقرأ الفاتحة في كل ركعة، أما المأموم ففيه خلاف هل يتحمل الإمام أو لا يتحمل؟ **والصحيح من أقوال أهل العلم**: أنه لابد أن يأتي بالفاتحة حتى ولو كان مع الإمام.

أما الصلاة السريَّة كالظهر والعصر؛ فهذه لاشك أنه يأتي بها، وأما الصلاة الجهرية كالمغرب والعشاء والفجر فالأصح في أقوال أهل العلم: أنه يأتي بالفاتحة ولو شرع الإمام في سورة بعد الفاتحة أنت اقرأها في سكتات الإمام وحاول أن تأتي بها بوقت يسير ولا تُطيل فيها فلابد أن يأتي بها، ولكن لو تركها الإنسان ولم يقرأها فصلاته صحيحة لأن هناك قول لأهل

العلم يدل على صحة الصلاة.

حتى أن النبي ﷺ سماها الصلاة في الحديث القدسي أن الله قال: «**قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: «أثنى علي عبدي..**» إلى آخر هذه الصلاة، فهذا الحديث دليل على أن سورة الفاتحة تسمى بالصلاة، فيدل على عِظم هذه السورة.

– **من فضائل هذه السورة**: أنها رقية، وأنها شفاء، جاء في الحديث عن النبي ﷺ أن عددًا من صحابة النبي ﷺ خرجوا من المدينة ومروا بحيٍّ من أحياء العرب، وطلبوا الضيافة فتركوهم ولم يضيفوهم فجلسوا في ناحية، فلُدغ سيد هذا القوم فبحثوا عن علاج فلم يجدوه فأمروا جاريةً أن تذهب إلى هؤلاء الضيوف فقالت: «**إن كان عندكم شفاء فإن سيدًا قد لُدغ، فقال أحد الصحابة: نعم. فقام وذهب فقرأ عليه سورة الفاتحة، فكأنما نشط من عقال فشفي**» فأمر هذا السيد بقطيع من الغنم ثلاثين شاة وقال: خذوا فتحرج الصحابة، وقالوا نأتي النبي ﷺ ونسأله هذا قرآن كيف نأخذ عليه، فلما جاءوا للنبي ﷺ قال: «**اقسموه واضربوا لي بسهم**» حتى تطمئنوا فتقاسموه، فيدل على أن السورة هذه سورة فيها شفاء فيها علاج.

يقول ابن القيم: «**وأتيت من الشام إلى مكة وأقمتُ بها فأُصبت بوعكة شديدة فلزمتُ سورة الفاتحة فشُفيت**» فسورة الفاتحة شافية، والنبي ﷺ قال في القصة هذه قصة الصحابة قال: ألم تعلم أنها هي الشافية الكافية؟ فيدل على أنها شفاء.

– **مما يدل على عظم وفضائل هذه السورة**: أن النبي ﷺ كان جالسًا وعنده جبريل فسمع نقيضًا يعني صوت قوي، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: فُتح باب من السماء لم يُفتح قط قبل

هذا، ونزل منه ملكٌ لم ينزل قط قبل هذا فلما نزل جاء إلى النبي ﷺ فقال: «**يا محمد أبشر بنورين أُوتيتهما لم يؤتهما أحدٌ قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة**» فهذا يدل على أن هذه السورة نور.

- **ومن فضائلها**: أن الصلاة لا تصح بها.
- **من فضائلها**: أنها أعظم سورة في كتاب الله.
- **من فضائلها**: أنها شفاء ورقية.
- **من فضائلها**: أنها نور. فأنت إذا قرأتها وتدبرتها صارت نور في صدرك.

أسماء سورة الفاتحة:

ودائمًا كثرة الأسماء على المسمى تدل على عظمته فأسماء الله كثيرة وأسماء محمد ﷺ كثرة وأسماء القرآن الكريم كثيرة، فهذه السورة لها أسماء حتى ذكر بعض أهل العلم أن أسماءها جاوزت خمس وعشرين اسم من أشهر هذه الأسماء أنها تُسمى بـ «**الحمد**» لأنه افتتحها بكلمة (الحمد) تُسمى سورة الحمد.

وتُسمى بسورة (الفاتحة) لأن الله افتتح كتابه بها.

وتُسمى بـ (أم القرآن)، لأنها أصل القرآن كل القرآن يرجع إليها.

وتُسمى أيضًا (بالسبع المثاني)؛ لأنها سبع آيات قال الله عز وجل: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ [الحجر:87]، وتسمى بالسبع المثاني ومعنى كلمة (المثاني) قالوا: لأنها تُثنى تُكرر كثير تُكررها كل ركعة، ومن أسماءها: أنها تُسمى بالشافية وأسماء كثيرة لها أسماء كثيرة.

أيضًا هذه السورة ذكر أهل العلم أنها نزلت كاملة وهي أول سورة نزلت كاملة نزل قبلها آيات مثلًا سورة العلق آيات الآيات الخمس الأولى هي أول نزول القرآن المدثر الآيات الخمس ما نزلت سورة كاملة إلا الفاتحة هي أول سورة نزلت كاملة سورة الفاتحة قال بعضهم: أنها نزلت في مكة، وبعضهم قال: أنها نزلت في مكة وفي المدينة مرتين، وهذا يدل على عظم هذه السورة، ينبغي لنا أن نتدبرها ونتعلمها، فيها علوم لما يقال لك الآن : فيها علوم الأولين والآخرين وفيها علوم الشريعة كلها حتى قال بعضهم من قوله: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:خل5] أنت تتأمل هذه السورة تجدها تتحدث عن عقيدة وعن التوحيد بأنواعه الثلاثة: توحيد الربوبية ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة:2] رب العالمين يعني خالقهم ورازقهم والمتصرف فيهم والمدبر أمورهم، فهذا معنى رب العالمين، فالعالمين هم عالم الإنسان وعالم الجن وعالم الملائكة عالم الطير عالم الحيوان كل الخلق سوى الله داخل في العالمين، توحيد الألوهية أو العبادة: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ [الفاتحة:2] اعترفت بأن الله هو الواحد الأحد بأنه المنفرد بالخلق أنه المنفرد بالعبادة وأن العبادة لا يستحقها إلا الله.

توحيد الأسماء والصفات من قوله: ﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ [الفاتحة:3] أسماء الله وصفاته، وفيها أيضًا العبادة أصول العبادة كلها ترجع إلى ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:خل5] أي: لا نعبد إلا أنت أنت في صلاتك تقول: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:خل5] معنى هذا الكلام: أي: لا نعبد إلا أنت، لذلك أهل العلم يقولون: هذه صيغة حصر أي: لا نعبد إلا أنت، الإخلاص: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:خل5] أي: لا نستطيع أن نعبدك إلا بإعانتك لا يمكن أن تعبد الله إلا أن يُعينك لذلك قال: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:خل5] فلا يُمكن

للإنسان أن يُحقق أي عبادة من العبادات سواء عبادة فعلية كالصلاة أو قولية كالذكر أو قلبية كالخشوع ونحوه كل العبادات بأنواعها لا يُمكن الإنسان أن يقوم بها بنفسه إلا أن يُعينه الله ولذلك أنت تقول في الصلاة: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ [الفاتحة:خل5]، وتأمل أن جميع أنواع التشريع وسعادة العبد في الدنيا والآخرة تجدها في قوله تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة:6] إذا أردت الهداية وأردت السعادة في الدنيا والآخرة والنجاة والسلامة في قوله تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة:6] والمستقيم ما هو؟ هو الإسلام هو الدِّين هو الشرع هو صراط الله المستقيم فإذا اهتديت به وهداك الله إليه فزت في الدنيا والآخرة، ما هو الصراط المستقيم؟ ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ من هم الذين أنعم الله عليهم؟ قال الله في الآية الأخرى: ﴿**وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء:69] هذا الكلام هو الذي تقوله أنت في الفاتحة لما تقول: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ أنت تقصد هؤلاء، ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ وهم هؤلاء فأنت تُريد أن تُحشر في زمرتهم وأن تكون رفيقًا مع هؤلاء مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

هذا أيها الإخوة كله يدور حول سورة الفاتحة حتى الآن ما دخلنا في معانيها ما معنى الحمد لله ما معنى رب العالمين، ما معنى مالك يوم الدِّين ما معنى هذه الآيات؟ هذا فقط فضائل هذه السورة وأسماؤها ودلالات هذه السورة .

ما زلنا مع أعظم سورة في كتاب الله وكلٌّ منا يقرؤها ويُكررها في اليوم.

فمن الضروري أنك إذا كنت تقرؤها وتُكررها على لسانك وتسمع هذه الآيات من الإمام ينبغي لك أن تفهم هذه السورة فهمًا عظيمًا، وتتدبر هذه السورة وتتأمل هذه الآيات، هذه السورة اشتملت على سبع آيات، والله سبحانه وتعالى قال لنبيه محمدٍ ﷺ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾ [الحجر:87] فمدح الله هذه السورة في كتابه، وهذه السورة العظيمة كما قال أهل العلم: إن هذه السورة اشتملت على جميع العلوم كل العلوم فيها وكل العبادات فيها، وإذا تدبرتها وتأملتها وجدتها تدور على ثلاثة محاور أساسية:

- **الأمر الأول**: التوحيد والعقيدة والإيمان.

واشتملت على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ثم من محاورها: أنها اشتملت على جميع أنواع العبادات ما من عبادة من العبادات إلا تجدها في هذه السورة كل عبادة شرعها الله وأمر بها داخلة في قوله تعالى: (﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾).

المحور الثالث الذي تدور عليه السورة: المنهج. منهجك أنت أيها المسلم في حياتك منهجك في حياتك في الدنيا والآخرة في قوله تعالى:

(﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾) أن تتريد أن تسلك منهجًا في حياتك تنجو به في حياتك وتسلم به في حياتك وتسعد ثم تنجو النجاة العظيمة في الآخرة وتسعد السعادة العظيمة التي لا سعادة فوقها ولا فوز فوقها في الدار الآخرة إذا قُلت: (﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾) وتقوله

وأنت تتدبر هذا المعنى ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ مَن هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟ حتى قال الله في آخرها: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:69]، فأنت تطلب أن تكون في رفقة هؤلاء كل يوم نقرأها في الصلاة لا نتدبر هذا المعنى تريد أن تسلك منهجًا في حياتك، هذا المنهج تريد أن تعيش في عافية وفي صحة وفي أمان وفي طمأنينة وفي سعادة وفي إيمان يغبطك ويحسدك عليه كثير ممن لم يسلك هذا الطريق اسأل الله سبحانه وتعالى أن يهديك هذا الصراط المستقيم وأن يثبتك عليه حتى الممات، وأن يهديك في هذا الصراط بسلوك هذا الصراط: السورة تدور كلها على هذه المحاور الثلاثة: التوحيد، العبادة، المنهج الصحيح الذي يسير عليه لا يُمكن أن تسير أنت في هذه الحياة وأنت ما تعرف التوحيد ولا تعرف الله ولا تعرف الإيمان بالله، ولا يُمكن أن تعيش في هذه الحياة وأنت ما تعرف أن تعبد ربك، كيف تعرف: (﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾) ؟ بعدما تعرف المنهج الصحيح.

هذه السورة أيها الإخوة اشتملت على سبع آيات:

أول هذه الآيات لما تفتح المصحف تجد أن أول آية: هي البسملة ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وهي أصلًا آية لكل سورة من سور القرآن آية مُستقلة تُفتتح بها كل سورة وسورة الفاتحة لما كُتبت في المصحف الكوفي ونحن نقرأ بقراءة الكوفة لأنك تقرأ أنت بقراءة حفص عن عاصم الكوفي وقد رُسم المصحف في وقته لوضع البسملة على أنها آية، وإن قُلت: البسملة ليست آية وأخرجتها عن أنها ليست آية وهذا هو الصحيح كما ذكرنا في اللقاء الماضي تقول: أين السابعة؟ هي سبع آيات تقول: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هذه آية

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:7] فأصبح عندنا سبع آيات.

نأخذ الآية الأولى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحَيمِ﴾ كثير منا يستخدمها في حياته ويتكلم فيها ويذكرها لكن هل نعرف معناها؟ الباء معروف حرف جر متعلق بالكلمة التي بعدها (اسم) وكل جار ومجرور لازم يتعلق بفعل محذوف فأنت تقول: (بِسْمِ اللهِ) يعني ابتدئ أقرأ أتلو القرآن أفعل بسم الله وهكذا. والباء هنا قالوا: هي للاستعانة يعني البسملة كلها تقولها أنت لكي تستعين بالله على قراءة هذه الآيات فتقول: (بِسْمِ اللهِ) وتكون الباء للتبرك فأنت تتبرك بهذا الاسم العظيم وهو اسم الله، والاسم هنا يشمل جميع أسماء الله من غير استثناء كل أسماء الله، أسماء الله الحسنى كلها التي أنت تقرأها جميع القرآن كله حتى نفهم أن سورة الفاتحة كل القرآن فيها لما تقول: بسم الله، هذا اشتمل على جميع أسماء الله الحسنى من أول القرآن إلى آخره، أي آية في القرآن فيها اسم الله أو اسم من أسماء الله الحسنى هو داخل في قوله: (بِسْمِ اللهِ).

(اللهِ) وهو أعرف المعارف هو الله، لكن إذا أردت أن تعرف ما معنى كلمة (اللهِ) لو يسألك واحد يقول لك: الله، تقول: الله جل جلاله ما يحتاج إلى تعريف أنا سأسألك ما معنى كلمة (اللهِ) تعرف الرحمن من الرحمة والعزيز من العزَّة والقوي من القوة، لكن الله مأخوذ من أين؟ فنقول: مأخوذ من الإله ما معنى الإله؟ قالوا: هو المألوه المعبود المحبوب فقولك: (الله) يعني المعبود لما تقول: لا إله إلا الله يعني لا معبود بحقٍّ إلا الله، فكلمة (الله) أولًا: لابد أن نعلم أن هذا الاسم لا يمكن أن يُطلق إلا على الله لا يُسمى أي مخلوق ولم يتسم به أي مخلوق لا في الجاهلية ولا في الإسلام ولا أي مخلوق من المخلوقين يتسمى أن يقول: أنا الله

سموني الله حتى فرعون الذي يدَّعي الألوهية ما قال: سموني الله قال: ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾ [القصص:38]، أو يقول: ﴿**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾ [النازعات:24] وهو قالها ادعاءً فقط وإلا في خاصته يعرف أن الله هو الله، فالله هو ذو الجلال والعظمة والمحبة لما تقول: الله يعني يا ذا الجلال الله يعني يا ذا المحبة والعظمة والكبرياء هذا معنى كلمة (الله) ولذلك في دعائك تقول: اللهم، كلها تعود إلى كلمة (الله) فهذا معنى لما تقرأ أو تسمع تقول: (الله) هذا معنى كلمة (الله) والله هذا اسم خاص بالله لا يتسمى به أي مخلوق، وهناك أسماء خاصة بالله كالله، والرب، لا يُمكن أن يطلق على أي مخلوق أبدًا ولا يُمكن أي يُسمي نفسه أنا الرب، (الرحمن) من خصائص أسماء الله الخالق لا خالق إلا الله البارئ، هناك أسماء أخرى قد يشترك فيها المخلوق فتقول: العزيز الكريم، الكريم تقوله لله وتقوله في المخلوق فلان كريم، والعزيز ﴿**وقالت امرأة العزيز**﴾ هذه أسماء يشترك فيها الخالق والمخلوق، أما الخلاق أو الخالق لا يُمكن أن يُطلق إلا على الله، فقوله: (بسم الله) قال بعدها: ﴿**الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ يعني البسملة فيها ثلاثة أسماء: الله، الرحمن، الرحيم، ومعنى الرحمن الرحيم أي: ذو الرحمة العظيمة وذو الرحمة الواسعة، وكل اسم من أسماء الله هذه خُذها قاعدة كل اسم من أسماء الله الحُسنى تستطيع أن تُخرج منه صفة فتقول: الرحمن يعني من صفته أنه ذو رحمة، والرحمة ذو رحمة، ثم كل اسم له صفة تُستخرج من الصفة، وكل صفة لها أثر على الخلق، فتقول: الرحمن اسم والرحمة صفة، وأثرُها قال: يرحم سبحانه وتعالى يرحمُ خلقه حتى الكفار يرحمهم الله يعني يرزقهم ويعطيهم الصحة فرحمته وسعت كل شيء رحمة الله وسعت كل شيء، قد يأتيك سائل ويقول: ما الفرق بين الرحمن والرحيم؟ واحدة تكفي؟

نقول: لا، الفرق (الرحمن) هذه صفة ذاتية لله (الرَّحِيمِ) صفة فعلية فتقول: رحيم بالمؤمنين، رحيم بكذا، الرحمن أبلغ وأعظم لما تقول: فلان غضبان يعني امتلأ غضبًا تقول: الله رحمن، يعني الرحمة وسعت كل شيء رحمته وسعت كل شيء والرحمن يعني لا يُمكن أن نستغني أن نقول: الله فقط هو الرحمن ولا نقول: رحيم، ولا يمكن أن تقول: هو الرحيم بلا رحمن، لا، لابد أن يأتي الاسمان لأن هذا له معنى وهذا له معنى، فالرحمن متعلقة بالله سبحانه وتعالى وهي صفة ذاتية، والرحيم هي من أسماء الله ولكنها متعدية إلى الخلق فتقول: (بالمؤمنين رحيم) ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:43] بل هي متعدية، فكلاهما واحد له معنى وله دلالة.

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحَيمِ﴾ [الفاتحة:1] هذه آية من آيات الله تأملناها وعرفنا دلالات هذه الآية ومعنى البسملة ومعنى هذه الأسماء العظيمة الجليلة التي اشتملت عليها وأنت تقول: بسم الله، فتتبرك بهذا الاسم فتقول: بسم الله وتستعيذ بالله على هذا الاسم.

تأتي بعدها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولاشك أن المسلم عندما يقرأ هذه السورة العظيمة لابد أن يفهم معانيها ودلالات هذه السورة الجليلة وما فيها من كنوز عظيمة احتوت عليها إذا كان القرآن كله وما فيه من آيات

وأحكام وقصص كلها جمعها الله سبحانه وتعالى في هذه السورة، إذًا هذه السورة كنز عظيم ينبغي للإنسان ألا يفوته هذا الكنز وأن يتدبر تأملنا وقرأنا أول هذه السورة ومر معنا بيان الآيات الأُول الثلاث التي هي لله سبحانه وتعالى لأن الحديث يقول: «**قسمتُ الصلاة**» يعني الفاتحة «**فإذا قال العبد: (الحمد لله) قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: الرَّحمَنِ الرَّحَيمِ، قال الله: أثنى علي عبدي، وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال الله: مجدني عبدي**» هذه ثلاث آيات كلها في تمجيد الله وتحميده والثناء عليه.

ثم بعد ذلك إذا قال العبد: «**﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال الله: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل**» فالآن منتصف السورة: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ حقٌّ لله وحقٌّ للعبد: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾» يعني في هذه الآية يأتي مقام العبودية لله سبحانه وتعالى واعتراف العبد بأنه يعبد ربه ويخضع لله لأنه قدم مقدمات فيها محامد لله سبحانه وتعالى وفيها ثناء وفيه تمجيد لله حتى يصل إلى أن يعترف بأنه ضعيف فقير وأنه مخلوق، وأنه يجب أن يخضع لربه وخالقه الذي له ملك السماوات والأرض القادر على كل شيء يبدأ الآن عملية الخضوع لله سبحانه وتعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، ولاحظ عبادة واستعانة العبادة لله والاستعانة تكون للعبد فلا يُمكن أن يعبد الله بغير الاستعانة، لا يُمكن أن يُحقق ولا شيء ولا يستطيع أن يذكر ذكرًا من أذكار الله ولا عبادة يستطيع أن يقوم بها إلا بعون من الله، ولذلك هو يعترف بأنه يعبد ربه وأنه لا يعبده حتى يُعينه الله سبحانه وتعالى ولن تستطيع أنت تأتي إلى الصلاة وتؤديها وتعمل وتقرأ وتذكر الله إلا بعونٍ من الله للعبد، وهذا اعتراف واعتراض بأن العبد محتاج إلى ربه وضعيف .

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هذه قال أهل العلم: صيغة حصر بمعنى: نعبدك ولا نعبد غيرك، وهذا فيه إطناب بأن الذي يستحق العبادة هو الله وينبغي أن يُخلص العبد عبادته لربه وأن يعبد الله لا يعبد غيره: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد إلا أنت، والعبادة هي: كل ما في شرع الله وكل ما في القرآن والسنة مجموع في قوله: نعبد، كل الشرائع والعبادة والإقرار والتوحيد وأنواع التوحيد والأعمال كالصلاة والزكاة والصوم والحج وسائر الأعمال التي يعبد الإنسان ربه بها كلها مجموعة في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: نخضع ونتذلل ونخشع ونعبد الله سبحانه وتعالى، ولا يعبد الإنسان ربه إلا بعونٍ من الله فهو يعترف بأن الذي يستحق العبادة هو الله والذي يُعين هو الله ولذلك قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نستعين بك لا نستعين بغيرك وهذا فيما لا يقدر عليه البشر، أما الأمور التي يقدر عليها البشر فتجوز الاستعانة بالقلم على الكتابة، وتستعين بكذا على كذا فيما هو في قدرة البشر، أما الأشياء التي ليس للإنسان فيها قدرة أو المخلوق فإنه لا يجوز الاستعانة إلا بالله سبحانه وتعالى فقيامك بالطاعة والعبادة لا تستطيع أنت بنفسك إلا أن يُعينك الله ويوفقك ويُسددك، فهذا منتصف السورة ثلاث آيات ونصف لأنها سبع آيات، وثلاث آيات ونصف الأخيرة قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ كلنا جميعًا نقرأ هذه السورة، لكن ينبغي لنا أن نتأملها لما تقرأ أول السورة وتثني على الله وتحمده وتُمجده وتعترف بأنه هو المعبود وأنه هو الذي يستحق العبادة وهو الذي يعين بعد ذلك يأتي افتقارك إلى الله بأن تطلب منه الدعاء الآن يأتي وقت الدعاء: (﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾) وهو أجل دعاء وأعظم دعاء من كتاب الله أن تسأل الله سبحانه وتعالى أن يهديك الصراط المستقيم، والصراط المستقيم: هو شرع الله هو الإسلام أنت

تسأل الله قد يأتيك سائل يقول لك: الحمد لله نحن نُصلي ونعبد كيف نسأل الله أن يهدينا ونحن قد اهتدينا ؟ نقول: معناها اللهم وفقنا وزدنا وثبتنا فالذي لم يهتد يسأل الله الهداية والذي هداه الله يسأل الله الثبات، ويسأل الله أن يوفقه وأن يزيده ولذلك قال أهل العلم: معنى: (﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾)، أي: اهدنا إلى الصراط واهدنا في هذا الصراط فأنت تسأل الله أن يهديك وأن يدلك على هذا الصراط بأن تتمسك به وتسير عليه ويهديك ويدلك لما في هذا الصراط، لما فيه من العبادات فإن الصراط هو الإسلام كله كل الإسلام والدين والشرع في هذه الكلمة: (﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾) ووصف الله صراطه بأنه: مستقيم لا اعوجاج فيه لأن الطرق الأخرى كلها ملتوية الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ**﴾ كلها متفرقة وتضيع هذا هو طريق النجاة والسلامة: (﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾) ولذلك بين الله لك ما هو هذا الصراط المستقيم؟ (﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾) لم يقل: صراط الأنبياء والصالحين لا، قال: الذين أنعمت عليهم فكأن الله تفضل عليهم وأنعم عليهم وكل إنسان لولا نعمة الله عليه لهلك لكن نعمة الله ومنَّته عليه سبحانه وتعالى وأعظم منَّة ونعمة أن تهتدي إلى هذا الدِّين وتتمسك وتسأل الله أن يثبتك حتى تلقاه: (﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾) أنت الذي أنعمت يا رب العالمين على هؤلاء الذين شرفتهم بنعمة التمسك بالصراط المستقيم من هم هؤلاء؟ الأنبياء والصالحين كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ **الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا**﴾ [النساء:69] فنِعم الرفقة أن تكون مع هؤلاء الذين أنعم الله عليهم أنعمتَ عليهم حقيقة أنت تسمع هذا الكلام ينبغي لك وأنت تُكبر وتصلي

راتبة المغرب أو صلاة العشاء أو أي صلاة تأتيك وأنت تتأمل ما معنى: (﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾) نتأمل هذه الأشياء حتى نتفكر فيها حقيقة أنعمت عليهم.

ثم قال: (﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾) اهدنا هذا الطريق طريق النجاة والسلامة طريق الذين أنعمت عليهم وجنبنا الطُّرق الأخرى ما هي الطرق الأخرى؟ هي طرق كثيرة طُرق الهلاك لا تُعد ولا تُحصى أعظمها طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين، ولاحظ قال: (﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾) ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم، لماذا؟ لأنه لا ينبغي لمسلم تأدُّبًا مع الله أن ينسب الشر لله يقول: أنت الذي غضبت، ولذلك انظر إبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:80] لم يقل: وإذا أمرضتني مع أن المرض من الله، والمغضوب عليهم: هم الذين عرفوا الحق وأعرضوا عنه كل من علم وعرف الطريق إلى الله وزاغ عنه وتركه ولم يسلكه هذا داخل في المغضوب عليهم، وأعظم فِرقة غضب الله عليها اليهود الذين أنعم الله عليهم بالعلم والأنبياء الذين أُرسل إليهم وعلموا بذلك ومنَّ الله عليهم وكان منهم العلماء والأحبار، لكنهم تركوا الطريق إلى الله فغضب الله عليهم.

(﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾) هو كل من لم يعرف طريق الله أي شخص يمشي على هذه الحياة ولا يعرف الطريق إلى الله ولا يعرف شرع الله ولا عبادة الله فهو من الضالين، لأنه لا يعرف ضال، وأعظم فِرقة هم النصارى الذين يعبدون الله على جهل، وكل من عبد الله على جهل داخل في قوله: (﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾) وكل أهل البدع الذين يعبدون الله على جهل كلهم في هذه الفِرقة فرقة الضالين، وأنت تدعو وتتدبر وأنت تدعو الله عز وجل في صلاتك تقول: يا رب اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم هؤلاء اجعلنا معهم وفي رفقتهم وجنبنا يا رب

العالمين صراط من غضبت عليهم أو المغضوب عليهم وصراط الضالين الذين لم يعرفوا الطريق إلى الله، وإذا انتهيت من هذا وأنت في صلاتك أن تقول: آمين، وإن كنت خلف الإمام وقال الإمام آمين فبادر بقولك: آمين: «**من وافق تأمينه تأمين الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه**». فأنت تعلم أن الملائكة تحضر الصلاة تحضر المساجد وإذا قال الإمام آمين قالت الملائكة آمين، وأنت تقول بعد الإمام مباشرة آمين ويكون تأمينك يوافق تأمين الملائكة فيُغفر لك ما تقدم من ذنبك. هذه حقيقة ينبغي لنا أن نتأملها وأن نتفكر فيها لا نُكبر ونُصلي ونقرأ ونقول: آمين ولا ندري ما معنى هذه الأشياء ينبغي أن نتفطن لها وأن نتدبرها يعني اللهم استجب لنا هذا الدعاء.

ختامًا في هذه السورة العظيمة وأقول وأُكرر أيها الإخوة هذه السورة العظيمة حقها لا تنتهي في دقائق ولا في أيام ولا في ساعات تحتاج إلى وقت طويل هذه السورة أعظم سورة، هذه السورة كل علوم الدنيا فيها وكل علوم الشرع في هذه السورة حقُّها عظيم، اشتملت على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية رب العالمين، توحيد الألوهية الله، توحيد الأسماء والصفات الرحمن الرحيم مالك، الملك، وأيضًا اشتملت على إخلاص العبادة لله، وأنه ينبغي للمسلم أن يعبد الله ولا يعبد إلا الله ولا يخضع إلا لله، وأن يستعين بربه وأن يتوكل عليه وكذلك اشتملت السورة على الإيمان باليوم الآخر: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ واشتملت على الإيمان بالقضاء والقدر وغير ذلك من الأمور التي اشتملت عليها هذه السورة التي تستطيع أنت عندما تقرؤها وتُكررها تستخرج ما فيها من دلالات عظيمة.

لا أُطيل عليكم السورة عظيمة تحتاج منا وقفات طويلة، ولكن ما ذكرناه لعل فيه الكفاية

ولعل فيه النفع.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن ينفعنا بما نقول وبما نسمع والله.

والله تَعَالى أَعْلَم

وصَلَّى الله وسلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّد وَعَلَى آله وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْن.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الْبَقَرَةِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(5)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ لقاء الأربعاء في تفسير القرآن العظيم، نجتمع في هذا المقام المبارك ونتدارس القرآن الكريم، ونتناول بعضًا من آياته، وهذا اليوم هو اليوم العاشر من شهر ربيع الآخر من عام ألف وأربعمائة واثنين وأربعين، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا، وأن يعيننا، وأن يسددنا.

والسورة التي بين أيدينا هي سورة البقرة، وهي أطول سورة في كتاب الله.

قال بعض أهل العلم: **"فيها ألف أمر، وفيها نهي، وفيها ألف حلال، وألف حرام"**؛ يعني آيات تتعلق بالحلال وبالحرام، وبالأمر وبالنهي، وفيها كل ما يحتاجه المسلم في حياته.

هذه السورة إذا قرأتها وتأملتها وتدبرت آياتها فإنها تكفيك في حياتك.

☜كما قال ﷺ قال: **«أَخْذُهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ»**. هذه الكلمة تكفي أن أخذ هذه السورة بركة وتركها حسرة، والحسرة هي الندامة؛ أن الإنسان إذا ترك هذه السورة وأهملها ولم يعطها حقها ولم يقرأها سيندم، سيندم؛ هذا معنى تركها حسرة، فالإنسان الحريص اللبيب العاقل لا يمكن أن يمر عليه يوم أو يومان إلا ويقرأ هذه السورة.

فأخذها بركة، وقد حدثنا بعض الإخوة قال: إنني لازم هذه السورة في بيتي بعد صلاة الفجر أقرؤها يوميًا، فلازمت قراءتها شهرًا كاملًا ووجدت البركة في مالي، وفي ولدي، وفي زوجتي، وفي داري، وجدت آثار البركة.

حتى يقول: والله إني آتي باحتياجات البيت لأضعها في الثلاجة كانت في عادة تنتهي خلال يومين، يقول: والله تمضي أيام موجودة هذه البركة، تجد أثرها بركة في أشياء كثيرة؛ في أثاث البيت، في أشياء في مصاريف البيت، مصاريف الأولاد، تجد هذه السورة لها بركة تدخل في كل شيء.

لا نطيل كلام في فضل السورة يطول جدًا، لكن نأخذ بدايات هذه السورة؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 1]. وأنت كل ما تقرأ أول السورة لازم تأتي بالبسملة، أما في وسط السورة ما تأتي بالبسملة، في وسطها وفي آخرها ما تأتي بالبسملة، إنما تأتي بالاستعاذة؛ لأن الله يقول: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98].

أما البسملة في أول السور إلا سورة براءة، سورة التوبة، ما فيها بسملة، أما بقية السور إذا ابتدأت فإنك تأتي بالبسملة، والبسملة آية مستقلة ليست لها علاقة في السورة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الم﴾ [البقرة: 1]. هذه حروف افتتح الله فيها بعض سور القرآن الكريم.

- كم سورة؟

تسع وعشرون سورة.

- كم عدد الحروف؟

تقريبًا نصف حروف الهجاء؛ أربعة عشر حرفًا من غير المكرر من غير المكرر [2، 3].

افتتح الله بعض السور بحرف واحد: ﴿ن﴾ [القلم: 1]، ﴿ص﴾ [ص: 1]، ﴿ق﴾ [ق: 1].

وبعضها افتتحها بحرفين مثل: ﴿حم﴾ [غافر: 1]. وبعضها افتتح بثلاثة أحرف مثل: ﴿الم﴾ [البقرة: 1]. وبعضها افتتحت بأربعة أحرف مثل: ﴿المص﴾ [الأعراف: 1]. وبعضها بخمسة أحرف أقصى شيء خمسة أحرف؛ مثل مريم: ﴿كهيعص﴾ [مريم: 1]. ومثل الشورى: ﴿حم 1 عسق﴾ [الشورى: 1-2]. هذا أقصى شيء، أقصى شيء.

- قد يسأل سائل يقول: ما معنى هذه الحروف؟ يعني إيش الغرض منها؟ ولماذا افتتح الله بهذه الحروف؟ ما الفائدة؟ ما معناها؟

الجواب: اختلف أهل العلم واختلف المفسرون في معنى هذه الحروف؛ فبعضهم يقول: **"الله أعلم، حروف وبس، ولا ندخل فيها"**. وبعضهم اجتهد وبدأ يفسرها بتفسيرات بعيدة؛ يقول: **"معناها كذا، ومعناها كذا، معناها السورة، ومعناها الآية، ومعناها كذا"**.

- والصحيح أن الإنسان يتوسط في هذا الأمر، ما الصحيح معناها؟

الجواب: هي حروف من حروف الهجاء، حروف الهجاء ألف باء تاء ثاء، هي حروف من حروف الهجاء.

- إذا كانت حروفًا من حروف الهجاء ما الفائدة من افتتاح السور فيها؟

الجواب: هذا إقامة الحجة على العرب، وإذا قرأ الإنسان وهو عربي يعرف أن هذا القرآن مكون من حروف عربية مثل ما أن العرب يأتون ويفتتحون قصائدهم، وينظمون القصائد الطويلة، والأشعار والخطب من حروف مكونين يكونونها من حروف.

فكأنهم كأن هذا القرآن يقول: مثل ما أنكم أنتم تنظمون القصائد الطويلة وتكتبون الخطب الطويلة هذا القرآن لا فرق مثله، فالقرآن مكون من حروف تعرفونها، ولذلك تلاحظ أن الله تحداهم قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23]. وقال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: 38]. يعني يتحداهم الله أن يأتوا بسورة.

لماذا؟ يقول: أنتم عرب تعرفون العربية وتعرفون الحروف، هاتوا زي هذا، مثل ما قال بعضهم، قال لو نشاء لقلنا مثل هذا.

قال بعض المعاندين الكفار: **"لو نشاء لقلنا مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين"**.

هات لي مثل هذا؛ سورة واحدة، أقصر سورة، سورة الكوثر ما تستطيع أن تأتي تجمع حروف تأتي مثل هذه السورة في بلاغتها ما يمكن أحد، مستحيل.

- ولذلك الله تحدى من؟

تحدى الجن وتحدى الإنس، تحدى الناس كلهم الخلق كلهم، قال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]. لو تعاونوا تكاتفوا ما يأتون ولا بسورة واحدة.

إذًا القرآن معجز، وإعجازه في كونه مكونًا من هذه الحروف، ولذلك احتج لذلك أراد الله إعجازهم، أراد الله إعجازهم فقال: هذا القرآن تسمعونه مكونًا حروفًا، اسمعوا: ﴿الم﴾ [البقرة: 1]، ﴿ق﴾ [ق: 1]، ﴿ص﴾ [ص: 1].

هذه حروفكم تعرفونها أنتم عرب؛ إما أن تؤمنوا بهذا القرآن وتصدقوه وتتبعوه، وإن كنتم تعاندون وتكفرون به فأتوا بمثله إن كنتم تقولون أن محمدًا هو الذي افتراه من عنده وأتى به من عنده فأتوا أنتم بمثله، اجتمعوا كلكم وأتوا بسورة واحدة، محمد جاء أتاكم بمئة وأربع عشرة سورة، أنتم هاتوا واحدة، لا يستطيعون.

وهذا معنى ﴿الم﴾ كما قال بعض المعاصرين: **"الحروف لا معنى لها ولكن لها مغزى"**؛ هي ما لها معنى، أنت لو تيجي واحد يقول لك ما معنى باء وجيم؟ ما أدري ما معنى، لكن إذا كونتها

مع بعض أعطتنا معنى، فلها مغزى، لها هدف، لها غاية، وهو إعجاز العرب أن يأتوا مثل هذا القرآن.

هذه لا بد أن نفهمها، لأن كثيرًا من الناس يقرأ ﴿حم * عسق﴾ يقرأ هذه الحروف لا يدري ما معناها، لا بد أن نعرفها حتى لو جاء سائل يسألك؛ قد يكون حديث عهد بالإسلام جديد، أو جاهل لا يعرف، يقول لك: يا أخي أقرأ في القرآن الم، حم، إيش معناه هذا الكلام؟

تقول: هذه حروف تدل على أن القرآن مكون من حروف هجائية، هذا القرآن العربي يعرفه.

ولذلك العرب في زمن النبي ﷺ كان إذا قرئ عليهم القرآن يستوعبون معانيه؛ لأنهم يعرفون عرب يعرفون ويستوعبون بلاغة القرآن ويقفون عنده، يقفون عنده.

ولذلك حوادث كثيرة وقصص كثيرة سواء من جاهلية العرب أو من المسلمين وقفوا عند آيات تعجبوا منها تعجبوا من هذه الآيات. هذا معنى كلمة ﴿الم﴾ قال الله بعدها: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ [البقرة: 2]. هذا ثناء من الله ومدح من الله لكتابه القرآن العظيم.

يقول: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ هذا القرآن الذي أنت بين يديك وتحفظه في صدرك وتقرؤه، هذا الكتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

بعض أهل العلم يقول: **"أعظم كلمة سمعتها في كل مؤلفات الكتب التي يكتبها العلماء يؤلفونها، لم أجد مثل هذه الكلمة التي افتتح الله بها سورة البقرة قال: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾"**.

يعني لا يمكن أن يطرأ عليه شك ولا ريب، ولا اختلاف ولا تناقض، ولا أي شيء؛ يعني أنت تسلم بأن هذا القرآن كامل من كل الوجوه. لماذا؟ لأنه كلام الله، لا يمكن أن يأتي شخص يقول: والله أنا لاحظت على الكتاب في كذا، والله أنا عندي كذا وعندي ملاحظة، هذا يمكن تقوله في مؤلف من المؤلفات، أو قصيدة، أو خطبة أمام خطيب ممكن تنتقده، لكن هذا الكتاب ما يمكن أن تنتقده، لماذا؟ لأن الله قال في أول شيء: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾.

وإذا كان القرآن إذا نفى الله عنه لا بد أن يكون كتابًا موصوفًا بالصدق واليقين؛ لأن النفي المحض ليس مدحًا، لا بد أن يكون النفي متضمنًا للإثبات.

فإذا قلنا هذا الكتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ معناه كتاب صدق ويقين وحق من الله، قد يأتيك شخص ويقول لك: ﴿ذَٰلِكَ﴾ كلمة تشار إلى البعيد، لما تبي تشير إلى شيء بعيد مرتفع تقول: ذلك.

أما اللي عندك تقول: ذا، هذا. والقرآن بين أيدينا لماذا الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما هو بعيد عنا؟ نقول كلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيد لشرف القرآن، لعظمة القرآن، لمكانة القرآن، أشار إليه للبعيد لهذه المكانة العظيمة.

قال: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ هذا أول مدح للقرآن يمدح الله كتابًا.

ثم قال بعدها: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]. هدى؛ يعني هذا القرآن بذاته كتاب هداية، كتاب هداية، لكن هذه الهداية ليست لكل الناس، ليست لكل الناس يهتدي بهذا القرآن.

- من الذي يهتدي بالقرآن؟

الذي يقبل على القرآن، إذا أعطيت نفسك القرآن اهتديت بهذا القرآن، أما تسمع وتقرأ هكذا قراءة ما تستفيد ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾. ولذلك خص الله الهداية لمن؟ قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم هم الذين ينتفعون بالقرآن أما ما سواهم ما ينتفع بالقرآن.

- قد يأتيك سائل يقول لك: في آيات أخرى يقول: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185]. كيف ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وهنا ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾؟

الجواب: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ لإقامة الحجة عليهم، والهداية هداية إرشاد وإقامة الحجة؛ فمن اهتدى فلنفسه، والهداية هنا ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هداية توفيق، في فرق يا إخوان، هداية الإرشاد والتوضيح والبيان هذه لكل على كل الناس؛ الكافر والمؤمن والمنافق كلهم.

لكن هداية التوفيق والإلهام لا تكون إلا لمن يستحقها، ولذلك الله قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هداية توفيق والله وفقهم.

الذي وفق أهل القرآن لقراءته وتدبره وفهمه والعمل به هو الله عَزَّ وَجَلَّ، هو الذي هداهم والقرآن سبب للهداية، سبب لمن أقبل عليه، فمن أقبل على هذا القرآن وجد الخير والهداية فيه؛ هداية في طاعة الله، هداية في حياتك، حتى في هداية القرآن يهديك حتى في حياتك حتى يوفقك كل شيء.

ولذلك تجد بركة القرآن في حياة من يحفظ القرآن ومن يهتم بالقرآن ويعتني به، يجد أثر هذا القرآن في حياته، يوفق للخير في كل شيء، فكلمة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يعني أثر القرآن في أصحابه وأهله، وهم المتقون.

- من هم المتقون؟

هم الذين عرفوا الله المتقون هم الذين عرفوا الله عَزَّ وَجَلَّ فخافوه، عرفوا عقابه فتجنبوا معاصيه، تجنبوا غضب الله، عرفوا طاعته فأقبلوا عليها، عرفوا رضا الله ومحبته فأقبلوا عليها.

فالمتقي هو الذي يخاف الله في حياته حتى المتقي يتجنب المعاصي، كل ما فيه شيء يغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليبتعد عنه.

عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه جاءه رجل سأله قال له: ما التقوى؟ القرآن مليان كلمات التقوى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ما التقوى؟ قال: **"هل نزلت في أرض فلاة؟"** أرض واسعة وفيها أرض فيها زرع وفيها حشيش وفيها شوك وفيها، فماذا تصنع؟ قال: **"إذا نزلت أشمر، أشمر ثيابي وأتقي انظر إذا مكان ما يناسب ابتعد عنه"**. قال: **"هذه التقوى، هذه هي التقوى، تقوى الله أن تشمر في طاعة الله، وأن تبتعد عن كل ما يضرك"** للمعاصي، معاصي ضرر عليك.

فهذا معنى ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خص بهداية القرآن لهؤلاء فقط، هم أولياء الله هم الذين لما قال الشيطان قال لآتينهم بين أيديهم قال: ﴿إِلَّا عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42].

هؤلاء هم المتقون، هؤلاء هم الذين لا يستطيع الشيطان أن يدخل عليهم، هم الذين عرفوا الطريق إلى الله، عرفوا الصراط المستقيم، أقبلوا إلى الله. فهذا أثر طاعة واجتناب المعاصي.

- من هم المتقون؟

فسر الله وبين لنا من هم المتقون قال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]. انظر ثلاث صفات:

الصفة الأولى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وهذا يتعلق بعقيدة المسلم، يتعلق بعمل القلب: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾.

ثم قال الأعمال الأخرى، قال: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ هذا عمل جوارح عمل ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ وهذا إقامة الصلاة هذا بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذا أيضًا من الأعمال الظاهرة ولكنه بين المسلم وإخوانه؛ يعني إحسان وعمل بينك وبين الله في الصلاة، الذي يربطك بين الذي يربطك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي الصلاة، والذي يجعلك ترتبط مع إخوانك هو الإحسان إليه وتفقده.

فهذه هذه أصول الشريعة، أصول الشريعة تركز على هذه الأمور؛ أولًا عندنا الإيمان بالغيب.

- ما معناها؟ لما تسمع هذه الآية وتقرؤها يقول لك: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ كيف يؤمنون بالغيب؟

الجواب: أنت تصدق بكل ما غاب عنك، هل رأيت الله؟ ومع ذلك تؤمن.

- هل رأيت الملائكة؟

ومع ذلك تؤمن بالملائكة.

- هل رأيت محمدًا ﷺ؟

ما رأيت، ومع ذلك تؤمن به، هذا معنى إيمان الغيب.

الإيمان بالغيب معنات أن تصدق بكل ما جاءك من خبر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإن لم تشاهده، وهذا الذي يميز المؤمن عن الكافر، الكافر لا يؤمن بالغيب ما يآمن إلا بشيء يشاهده، أما المؤمن لا، المؤمن يؤمن بما يشاهده ويؤمن بما غاب عنه.

- هل تؤمن باليوم الآخر؟

هذا غيبي، تؤمن بعذاب القبر، بنعيم القبر، نؤمن به وإن لم نره، وإن لم نر هذا الشيء، نؤمن بكل ما يجري يوم القيامة، ونؤمن بالجنة ونؤمن بالنار، كل هذا معنى الإيمان بالغيب.

هذا الذي يميز المؤمن عن غيره، وهذه أقوى وأعظم صفة يتميز بها المؤمن، ولذلك قدمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أول صفة في المتقين أنهم يؤمنون بالغيب ولا يعترضون على ذلك، لا يقدم العقل إذا جاءه خبر من السماء في القرآن أو في سنة محمد ﷺ بما يخبر عن شيء غائب.

نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصالح وثمود، ما نعرفهم ولا رأيناهم، ومع ذلك نؤمن بأنهم رسل أرسلهم الله لأقوامهم وهكذا؛ لأن هذا يميز المؤمن إيمانه بالغيب، هذا الذي يجعل المؤمن يتميز عن غيره.

قال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ انظر لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويقيم ما قال أقاموا الصلاة، قال: ﴿يُقِيمُونَ﴾ يعني باستمرار استمرار يوميًا ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾. وشوف لما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ غير يصلون؛ يصلون كلهم يصلون صفين ثلاثة، عشر صفوف، عشرين صف يصلون، نعم يصلون، هل هم يقيمون الصلاة؟ لا، الذي يقيم الصلاة قلة.

معنى تقيم الصلاة يعني أنك تأتي بالصلاة وأنت تستحضر هذه الصلاة؛ تأتي بأركانها وواجباتها وسننها وتخشع فيها، تستحضر هذه الصلاة، عظمة هذه الصلاة.

- من الذي يفعلها؟

إذا كبر تكبيرة الإحرام انقطع عن الدنيا كلها. من حالنا إذا كبر تكبيرة الحرام جت الدنيا كلها أمامه وانشغل بدأ يفكر أن يسلم، وإذا سألت قلت: ماذا قرأ الإمام؟ قال لك: والله ما أدري. هذا هل هذا أقام الصلاة؟ هذا ما أقام الصلاة، هذا صلى هذا صلى فقط، لذلك الله ما قال ويصلون قال: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾.

ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه الصفة الثالثة من صفات المتقين، ومعنى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه النفقة والإحسان إلى الخلق وإلى المحتاجين؛ نفقة الزكاة، والنفقات الواجبة على الزوجة، وعلى الأولاد، وعلى الوالدين، والنفقة المستحبة النفقات الصدقات العامة بوجوه الخير والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين وأبناء السبيل واليتامى، يدخل كل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

ولتعلم أن الذي تنفقه أنت هو خير لك، والذي تنفقه أنت أصلًا المال هذا ليس لك، الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا يقول؟ يقول: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33]. والله جعلنا مستخلفين في هذا المال سنذهب ونت، وابن آدم يقول: **"مالي مالي"**، قال: **"مالك ما قدمت، وما لوارثك ما أخرت"**، فما تقدم لك وهذا معناه.

ولذلك الله قال: ﴿مِمَّا﴾ قال شيء قليل مما رزقناه، وقال: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ ما قال من مالك، قال: نحن رزقناكم فأنفقوا من مال الله ليس لكم منا فيه، فإحسانك إلى هذا يرجع إليك أنت.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: 20]. انظر كلمة أقرضوا، ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الله مو محتاج القرض، الله غني عنك عن كل عن كل مخلوق، لكن تقرض هذا القرض لأن معناه أنك إذا قدمت هذا المال فالله يعيده لك أكثر وأكثر، كأنك أقرضت شخصًا أعطيته مئة ألف وأعادها لك مضاعفة، فهذا معنى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. الصفات الباقية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: 4].

إلى آخره تحتاج منا وقت أطول ولا نريد الإطالة عليكم، لعل نكتفي بهذا القدر وإن شاء الله نستكمل في اللقاء القادم ما توقفنا عنده، جزاكم الله خير على حضوركم وعلى إنصاتكم وبارك الله فيكم.

(6)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعل هذا اللقاء لقاءً مباركاً نافعاً.

وهذا اللقاء هو لقاء الأربعاء في تفسير القرآن العظيم، نجلس هذا المجلس المبارك ونتدارس آيات من كتاب الله، وحيث إننا لا زلنا في هذه السورة في بداياتها، وهي سورة البقرة، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول هذه السورة التنويه بالقرآن الكريم وعظمة هذا الكتاب بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، فوصف الله كتابه الشريف العظيم بوصفين عظيمين: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2] بأي وجه من الوجوه، ثم قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، فالمتقون هدى لهم وهم المنتفعون بهذا الكتاب.

لما نوه بكتابه وبين أنه هداية للمتقين ويهتدون به، ذكر الله أوصاف المتقين؛ من هم المتقون الذين اهتدوا بالقرآن وهداهم الله لهذا القرآن العظيم وعرفوا عظمة هذا القرآن وقيمته؟

قال: أولئك الذين يصفهم الله لك بهذه الأوصاف العظيمة، وينبغي للمسلم إذا سمع مثل هذه الأوصاف أن يتفكر فيها؛ هل هو ممن دخل في هذه الأوصاف واتصف بها، أو هو مقصر في شيء من هذه الأوصاف العظيمة؟ لأن هذا القرآن هداية للمتقين.

والمتقون هم الذين ذكرهم الله في سورة الفاتحة لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7].

- من هم الذين أنعم الله عليهم؟

هم المتقون الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، هم المتقون في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]. فذكر أوصافهم فبدأها بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]؛ يؤمنون بالغيب، يؤمنون بكل ما غاب عنهم.

- ما معنى يؤمنون بالغيب؟

"أن يصدقون بكل ما جاءهم من خبر السماء على لسان الرسل"، كل ما جاء في كتاب الله أو على لسان رسله من كل ما يغيب عنك أخبرك الله به، مما يتعلق بالله، بأسمائه، وصفاته، أو يتعلق بما غاب عنك مما يتعلق باليوم الآخر والجنة والنار وغير ذلك؛ كل ما غاب داخل في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3].

ثم ذكر من أوصافهم قال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]. لاحظ أن الإيمان بالغيب شيء يتعلق بالقلب ويتعلق بعقيدة المسلم، أن من عقيدة المسلم أنه يؤمن بالغيب، ومن الإيمان الذي يتميز به عن غيره أنه يؤمن بما شاهده وبما غاب عنه؛ أما الكفار فإنهم لا يؤمنون إلا بما يشاهدون، أما ما غاب عنهم فلا يؤمنون به، وهذا هو الذي يميز المؤمن عن غيره.

وذكر أجلّ أعمالهم الظاهرة، لما ذكر عملاً خفياً واعتقاداً خفياً في القلب ذكر ما يظهر على الجوارح فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 3]، وهي أعظم أعمال الإسلام الظاهرة، أعظم أعمال الإسلام الظاهرة هي إقام الصلاة، وهي التي تميز المسلم من غيره؛ **«الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»**.

قال: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 3] ولاحظ أنه جاء بفعل المضارع قال: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 3]؛ هذا يدل على أنهم يستمرون على هذا الأمر. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]، أي أنهم حالهم الإنفاق في كل وقت، لأنه قال: ينفقون؛ ودل ذلك على كثرة واستمرار إنفاقهم في سبيل الله، كل هذا تقدم الحديث عنه.

ثم ذكر من أوصاف هؤلاء المتقين قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 4]، وهذه صفة يتميز بها المتقون؛ أنهم يؤمنون بكل ما نزل من الكتب.

- كم عدد الكتب التي أنزلت؟

لا حصر لها، وإذا كانوا يؤمنون بما أنزل إلى الرسول ﷺ وهو القرآن العظيم، يؤمنون بما أنزل على الأنبياء السابقين مما ذكره الله في كتابه ومما لم يذكره في القرآن، كل ذلك يؤمنون به: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 4].

ويقتضي الإيمان بالكتب أنه يؤمن أيضاً بمن أنزلت عليهم هذه الكتب وهم الرسل؛ فهذا يقتضي أن تؤمن بالكتب جملةً وتفصيلاً، وأن تؤمن بمن أنزل عليهم هذه الكتب الشريفة وهم الأنبياء الذين اختارهم الله وأنزل عليهم كتبه، ويؤمنون بمن ينزل هذه الكتب وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويؤمنون بمن يكون واسطة في إنزالها وهم الملائكة، وعلى رأسهم روح القدس الذي يتنزل بالكتب والذي ينزل هذه الكتب؛ فهذا يقتضي الإيمان بالكتب، وهو من أركان الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

فهذه الآية تقتضي أن المؤمن يؤمن بالقرآن الكريم ويؤمن بكل ما أنزله الله، وهذا من مقتضيات وأركان الإيمان، وهذا كله داخل في الإيمان بالغيب؛ لأن الكتب فيها ما هو غيب لا تشاهده ولم تحضره، والأنبياء فيهم من لم تشاهده، وكل ذلك داخل في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3].

قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4].

ما هي الآخرة؟

هو اليوم الآخر؛ يبدأ من خروج الروح، ما بعد الموت يدخل في اليوم الآخر، كل من مات قامت قيامته وانتهى أمره وانتهت أعماله وانقطع عن الدنيا وأقبل على الآخرة، وهم يؤمنون بالآخرة، واليوم الآخر هو اليوم الذي يبعث الله فيه الأولين والآخرين، ويبدأ من حال القبر إلى أن يستقر كل فريق في استقراره؛ فريق في الجنة يستقر فيها، وفريق في السعير يستقرون فيها.

هذا معنى الإيمان باليوم الآخر؛ فهم يؤمنون، وليس فقط يؤمنون، لاحظ أن الله قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]، واليقين أعلى درجات العلم، يعني يعلمون علماً يقيناً يصل إلى درجة اليقين كالمشاهدة بالإيمان باليوم الآخر؛ فكأن اليوم الآخر أمامك تشاهده بعينيك، هذا حقيقة الإيمان باليوم الآخر، لا يطرأ على ذلك شك ولا يطرأ على ذلك تردد في نفس المسلم؛ هل هناك بعث؟ هل هناك جنة؟ هل هناك؟

لا؛ المؤمن التقي الذي وصفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذه الأوصاف وجعله من المتقين، هم الذين يرون اليوم الآخر أمامهم رأي العلم، ولذلك قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4].

فيؤمنون بالقبر وبما يجري في القبر من سؤال الملكين، ويؤمنون بنعيم القبر وبعذاب القبر، ويؤمنون بالبعث والنشور، ويؤمنون بكل ما يجري في يوم القيامة من الحر، ومن تطاير الصحف، ومن الميزان، ومن الصراط، ومن الجنة، ومن النار؛ كل هذه يؤمنون بأنها حقائق واقعية، وأنها ستقع وسيشاهدونها بأعينهم.

هذه قد لا تحصل لكل إنسان؛ الكفار لما جاءهم النبي ﷺ كان أمامهم الشيء الأعظم أنهم لا يؤمنون باليوم الآخر، كانوا يكفرون باليوم الآخر: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: 82].

فكانت عقيدتهم إنكار اليوم الآخر مطلقاً بجميع تفاصيله، لا يؤمنون باليوم الآخر، فجاءت الآيات القرآنية في كثير تقرر عقيدة الإيمان باليوم الآخر، وأن كل إنسان يجب عليه أن يتعلم ويجب عليه أن يتفقه فيما ستجري في هذا اليوم العظيم من أهوال وأحوال وانقسام الناس.

ولذلك فصل الله تفصيلاً عظيماً في أحوال اليوم الآخر، ومن يقرأ الجزء الأخير من القرآن جزء عم سيشاهد أمامه اليوم الآخر رأي العين.

☜ لذلك النبي ﷺ يقول: **«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ رَأْيَ الْعَيْنِ فَلْيَقْرَأْ سُورَةَ التَّكْوِيرِ وَسُورَةَ الِانْفِطَارِ وَسُورَةَ الِانْشِقَاقِ»**. تجدها كلها ما يجري من النفخة الأولى والنفخة الثانية، كل ذلك تجد تفاصيله في هذه السور، من سورة النبأ إلى آخر القرآن كله تفاصيل في تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات أوصاف المؤمنين المتقين قال بعدها: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5]؛ أشار إليهم في البعيد لشرف مكانتهم.

قال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ [البقرة: 5]، ولاحظ أنه جاء بالحرف (على)؛ لأنهم مستعلون على الهدى، كأن الله رفعهم وجعلهم فوق الهدى، فأولئك على هدى.

- ولاحظ في أهل الضلال ماذا قال الله فيهم؟

قال: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: 22]، يعني منغمسون في الضلال؛ أما أهل الخير والصلاح فهو ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ [البقرة: 5]، رفعهم الله ورفع مكانتهم وأعلى شأنهم، أولئك على هدى؛ فهم يهتدون بهدى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويستنيرون بنور الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 5] وليست أي هدى، لا، هذه الهدى من ربهم.

قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5]، ولاحظ لما قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5] يفهم من ذلك أن الفلاح لهم لا لغيرهم؛ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5] هم لا غيرهم، الفلاح لهم لا لغيرهم. فمن أراد الفلاح فليتصف بهذه الصفات.

- ما معنى الفلاح؟

"الفلاح هو أن تفوز بكل مطلوب وتنجو من كل مرهوب"؛ أن تفوز بكل ما تطلبه النفس، وتسلم وتنجو من كل ما تخافه هذه النفس، كل ما تخافه من عقاب ونحوه تنجو، هذا معنى الفلاح، ولذلك وصفهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنهم هم المفلحون.

لما ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ أوصاف أهل القرآن الذين قال الله فيهم: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، ثم ذكر أوصاف أهل القرآن بهذه الأوصاف العظيمة مما يتعلق بعقيدة المسلم أو بأعماله الظاهرة كالصلاة والإنفاق في سبيل الله وبذل الخير ووجوه الخير للمسلمين؛ ذكر ما يقابله، ذكر ما يقابل هؤلاء تحذيراً من أن يسلك المسلم سلوكهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6].

الذين كفروا بالله، وكفروا برسله، وكفروا بما أنزل الله، وكفروا بما أخبر الله، كل ذلك داخل في الكفار؛ فالكفار هم الذين جحدوا وكفروا ما أخبر الله به وما شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وما أراد الله لعباده لما أنزل الكتب وأرسل الرسل وأمر وكلف ونهى، فهم كفروا بذلك.

أخبر الله أن هؤلاء الكفار الذين اتصفوا بهذه الصفة لا ينفع معهم الإنذار: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6]، لأنهم استمروا على كفرهم، ولأن الكفر طمس قلوبهم، وطمس أعينهم، وطمس سمعهم، فلا يؤمنون.

وهذه الآية قد تشكل على كثير من الناس، يقول لك: الله أخبر بأنه ما ينفع معهم الإيمان ولا الإنذار، لا يؤمنون ولو أنذرتهم أو لم تنذرهم، ونجد كفاراً كانوا كفاراً فآمنوا وأصبحوا أئمةً في الإسلام؛ كانوا كفاراً ممن كانوا في عهد النبي ﷺ من أهل مكة، أبو سفيان إلى سنة ست وهو يقاتل النبي ﷺ ويحاربه إلى يوم الفتح لم يؤمن، ولم يؤمن إلا يوم الفتح وحسن إسلامه وأصبح من الصحابة رضوان الله عليهم وغيره.

- فكيف يقول الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6] ونجد من دخلوا في الإسلام وآمنوا وصلحت أعمالهم؟

الجواب: هذه الآية أولاً لابد أن نعرف أنها تسلية للرسول ﷺ-؛ تسلية لمن لا يؤمن أبداً، لمن كتبت عليه الشقاوة، أما من لم تكتب عليه الشقاوة وكان في أول أمره كافراً ثم أسلم فهذا لا يدخل بهذه الآية، لا يدخل بهذه الآية.

ولذلك أهل العلم يقولون: **"هذا من العام المراد به الخصوص"**، يعني يراد به طائفة معينة هم لا تنفع معهم الدعوة ولا يمكن أن يؤمنوا؛ كأبي لهب، وأبي جهل، وكفرعون، هؤلاء لا يؤمنون، لماذا؟ لأنها كتبت عليهم الشقاوة؛ لا تنفع معهم الدعوة، لذلك قال: ﴿أَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة: 6] ودعوتهم وحذرتهم ﴿أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6].

لماذا؟ قال: لأن الله ختم على قلوبهم؛ لما كفروا وأصروا على كفرهم عاقبهم الله. حتى نفهم أن الله لا يبادر بالختم على القلوب وإضلال الناس، إنما الله عَزَّ وَجَلَّ يضل من ضل، ويعاقب من أعرض، ولذلك لما أعرضوا واتصفوا بالكفر ولم يؤمنوا ولم يقبلوا، عاقبهم الله بأي شيء؟ بأن ختم على قلوبهم، لأنهم لا يستحقون الهداية أبداً؛ فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7].

- ما معنى ختم الله؟

نجد في مواضع أخرى قال: ﴿طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: 108]، والختم والطبع هو الإغلاق على الشيء؛ إذا عندك علبة مغلقة تقول هذه مختومة عليها طابع، لا يمكن أن يدخلها شيء ولا يخرج منها شيء لأنها قد ختمت، هذا شيء مختوم.

فهذا الكافر ختم الله على قلبه؛ فلا يقبل أن يدخل عليه موعظة ولا يخرج منه شيء، مختوم عليه، مغلق، القلب مغلف مغلق، لا يمكن أن يقبل بسبب الذنوب والمعاصي: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 7]. السمع لا يقبل؛ يسمعون لا يسمعون الحق، يسمعون غير الحق، فتنصح، وتعظ، وتتحدث، وتقف أمامهم، لا يتقبل الواحد منهم أبداً.

ولذلك قال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 7]. أما الأبصار ما قال ختم عليهم، قال: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: 7]؛ حاجب حجبت عليهم، جاء حجب أمامهم لا يستطيع أن ينظر الحق ولا يقبله.

الآيات والنذر أمامه ولا يؤمن، وتأتيه النذر أمامه وتأتيه الدعوات والعبر أمامه ولا يتقبل ولا ينظر إليها نظر اعتبار؛ ينظر إليها ولكنه لا يعتبر، ينظر إليها، له سمع يسمع وله بصر يبصر ولكنه لا يبصر الحق، ولا يعترف بالحق، ولا يتيقن، ولا يؤمن بذلك؛ ولذلك قال: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: 7].

هذه العقوبات أيها الإخوة عقوبات في الدنيا، الكفار يعاقبهم الله في الدنيا؛ أما في الآخرة فما هو عقابهم؟ قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 7]، لا يقدر قدره إلا الله، عذاب عظيم، وصف الله

عذابه الذي ينتظر هؤلاء الكفار المعاندون الذين استمروا على طغيانهم وكفرهم ولم يقبلوا الحق، ينتظرهم العذاب العظيم، وإذا وصف الله عذاباً بأنه عذاب عظيم فإنه مخيف، فإنه عظيم شديد لا يستطيع أي إنسان أن يصفه.

هذه الآيات تتعلق بعظمة القرآن والتنويه بشأنه، وأيضاً ذكر وتنويه بأوصاف أتباع القرآن الذين هم على هدى من ربهم والذين اهتدوا بالقرآن؛ فمن كان على هذه الأوصاف فليحمد الله وليزدد.

ثم يقابلها التحذير والإنذار من أن يسلك الإنسان مسلك هؤلاء الكفار الذين توعدهم الله بهذا الوعيد الشديد، يأتي بعد ذلك الآيات التي تبين لنا من هم الذين ليسوا مع المؤمنين ولا مع الكفار، وهم المنافقون؛ الذين أبطنوا الكفر في قلوبهم وأظهروا الإيمان، تأتيك الآيات تبين وتحذر من أوصاف المنافقين، والنفاق أخطر من الكفر؛ لأن أهل النفاق في الدرك الأسفل، والنفاق قد يظهر أمام الناس أنه معك وهو ضدك، وخطورة النفاق أشد.

ولذلك حذر الله في آيات كثيرة، ثلاث عشرة آية كلها تتحدث عن النفاق، يأتي الحديث عن النفاق إن شاء الله في اللقاء القادم؛ أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(7)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة نجلس هذا المجلس المبارك من مجالس الذكر والقرآن الكريم في مغرب هذه الأمسية يوم الأربعاء ليلة الخميس، وهذا المجلس هو المجلس الثالث من مجالس هذه السورة الجليلة وهي سورة البقرة، الله جل جلاله أنزل هذه السورة العظيمة الطويلة التي بلغت آياتها مائتان وست وثمانون آيةً.

ومضت تنزل عشر سنواتٍ منذ أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة واستقر بها إلى أن توفي ﷺ؛ فهذه السورة أخذت عشر سنواتٍ وهي تنزل.

ابتدأها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذكر صفات المؤمنين المتقين في ثلاث آياتٍ بخمس صفاتٍ، ثم ذكر صفات الكافرين في آيتين، ثم ذكر صفات المنافقين في ثلاث عشرة آيةً. وهذه الآيات الثلاث عشرة التي تتحدث عن النفاق والمنافقين، بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها صفات المنافقين وهي ست صفاتٍ، ثم ذكر نتيجة هذا النفاق وأثر هذا النفاق عليهم ومآل المنافقين، ثم ذكر مثلين؛ مثل ناري ومثل مائي يتعلق بحال المنافقين عندما يسمعون الآيات القرآنية.

يقول الله جل سبحان جل جلاله في بيان صفات المنافقين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8].

⬅ الصفة الأولى: النفاق لم يكن موجوداً في مكة، النبي ﷺ لما بعث في مكة مكث فيها ثلاث عشرة سنةً ما فيها نفاق ولا منافقين، لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة واستقر بها ونصر الله نبيه في غزوة بدر وظهرت قوة الإسلام، دخل أولئك المنافقون في الإسلام وأبطنوا الكفر في قلوبهم وأظهروا الإيمان على أنهم مع المؤمنين وأنهم يصلون وأنهم يتصدقون وأنهم يجاهدون حتى يحموا أنفسهم ويحموا دماءهم وأموالهم؛ ففي هذا هذه الحال وهذا الوقت ظهر النفاق.

ثم بعد ذلك بدأت الآيات تنزل وتكشف عوارهم وتبين خططهم وكيدهم وحقدهم على الإسلام والمسلمين، ولولا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته أنزل هذه الآيات التي تكشف حال المنافقين لم يعرف المنافق، ولم يعرف أحد أن هذا منافق أو هذا. ولذلك عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه على جلالة قدره ومكانته وأن النبي ﷺ بشره بالجنة، يأتي إلى حذيفة ويقول: **"هل عدني رسول الله من المنافقين؟"**

وهو عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه؛ ما كان أحد يعرف من هو المنافق، يدخل معك في المسجد ويصلي ويتصدق ويجاهد ما تدري حتى كشف الله عوارهم وبين خزيهم، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آياتٍ كثيرةٍ وفي سورٍ.

بل أنزل سورةً كاملةً سميت بسورة المنافقون، وذكرهم الله في كثيرٍ من سور القرآن وبين أحوالهم، وهذه السورة التي بين أيدينا وهذه الآيات تبين لك صفات المنافقين؛ وأول صفة من صفات المنافقين أنهم يبطنون الكفر في قلوبهم ويظهرون الإيمان وهذا يسمى النفاق الاعتقادي، وهذا النفاق يخرج من الملة؛ يخرج من الملة وصاحبه كافر خارج عن دائرة الإسلام. هناك نفاق يسمى نفاق عملي؛ أهون ولا يخرج من الملة.

☚ كما قال النبي ﷺ: **«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا عَاهَدَ لَمْ يَفِ بِعَهْدِهِ...»** وإذا خاصم فجر، صفات هذه عملية لا تخرج.

لكن هذه الصفات النفاق الاعتقادي الذي يكون في القلب هذا مخرج من الملة، وأول صفة من صفاتهم أنه يبطن الكفر ويظهر أمام الناس أنه من المؤمنين، اسمع ماذا يقول؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]، لاحظ **"يقول"** يعني بلسانه، بلسانه من الناس يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، لماذا؟

لأن قلبه يخالف لسانه، ويظهر على لسانه أنه يدعي أنه آمن بالله وباليوم الآخر وأنه مع المؤمنين ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]، في الحقيقة ليسوا بمؤمنين إنما هذا على لسانه فقط.

وأما داخله في قلبه فهو يبطن الكفر والحقد للمسلمين، هذه الصفة الأولى.

⬅الصفة الثانية: يقول: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 9]، هذه الصفة الثانية؛ صفة المخادعة والكيد، يبطنون في أنفسهم الخداع والكيد والمكر للمسلمين في كل وقت وهم يظهرون، إذا كانت هناك صولة وجولة لأعداء الإسلام ظهروا، وإذا كان للمسلمين قوة وصولة فإنهم يضعفون ولا يظهرون أمام الناس ويتبعون المسلمين في كل شيء.

ولذلك هم يخادعون الله! تخدع ربك؟ تخدع الله سبحانه الذي يعلم ما في السماوات، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، الذي قلب الإنسان بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء.

هؤلاء يخادعون الله والذين آمنوا؛ يخادعون الله لأنهم يدعون أنهم يظهرون الإيمان وأنهم مع المؤمنين وأنهم يجاهدون وأنهم ينفقون، يظنون أن الله لا يعلم أحوالهم ولا يعلم خباياهم ولا يعلم ما يخفون في صدورهم، فيدعون أنهم يخادعون الله والذين آمنوا لأنهم يظهرون الإيمان حتى بعضهم كانوا يسابقون إلى الصلاة وإلى الصفوف ويصلون مع المسلمين ويشهدون مجالس النبي ﷺ، وإذا خرج النبي للغزو خرجوا معه ويتصدقون، كل ذلك مخادعة ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: 9]. الله سبحانه أخبر قال من صفاتهم المخادعة ولكن هذه المخادعة تعود عليهم؛ ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾.

- ما هي المخادعة؟

المخادعة أن يكون الإنسان يريد أن يمكر بك بطريقةٍ خفيةٍ بحيث لا تشعر، يستطيع أن يخدعك بطريقةٍ بحيث إنه ينتصر عليك أو يأخذ شيئاً يكسب شيئاً من ورائك وأنت لا تدري؛ هذه المخادعة.

وهم يظنون أنهم يخادعون الله ويخادعون المؤمنين، ولكن هذا الخداع يعود عليهم لذلك قال: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 9]، لاحظ **"ما يشعرون"** ما قال ما يعلمون؛ قال ما يشعرون لأن الشعور إحساس وهو لا يشعر لا يحس، ما يخطر بباله أنه يخادع يظن أنه ما خادع وهو يخادع.

⬅الصفة الثالثة: فقلوبهم مريضة، قال الله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: 10].

- ما هو هذا المرض؟

المرض نوعان:

⬅النوع الأول: المرض الذي يتعلق بالقلب لا يتعلق بالبدن.

يتعلق بالقلب نوعان:

⬅النوع الأول: مرض شبهات.

⬅النوع الثاني: مرض شهوات، مرض الشهوات الذي في قلبه شهوة الزنا والفواحش والمعاصي كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما نهى قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: 32]، مرض الشهوة مرض الفواحش.

المرض الثاني مرض الشبهات وهو هذا مرض المنافقين؛ يبحثون عن الشبهات والبدع والمعاصي وعدم قبول الشرع والتمرد عليه، هذا يسمى مرض الشبهات.

هذا مرض المنافقين الذين قال الله فيهم ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: 10]، والنتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10]، لماذا؟ لأن الإنسان إذا كان في قلبه مرض ولم يعالجه واستمر على هذا المرض واستمر وزاد مرض المعاصي والإعراض والكفر والطغيان، فإن الله يقابل هذا بأن يزيده في طغيانه كما قال: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15].

وكل من يزيغ ويبعد عن طاعة الله يعاقبه الله بالبعد والإضلال كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]، والله لا يضل أحداً هكذا على فطرته إنما هو السبب في إضلال نفسه، فإذا ضل وعصى ربه وتمرد على شرع الله زاده الله بعداً.

وإذا تابوا وأقبلوا فإن الله يقبل، ولذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17]، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، الذي يقبل إلى الله فإن الله يقبل عليه، وإذا أعرض الله عنه؛ ولذلك لما كان في قلوبهم مرض قال الله ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 10]، هذه من صفات المنافقين وهذه الصفة الثالثة.

⬅الصفة الرابعة: فدعواهم أنهم يصلحون في المجتمع؛ يدعون أنهم يريدون الإصلاح: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11].

هو لا يعترف بفساده؛ هو فاسد في قلبه وفاسد في أعماله ويريد أن يلوث المجتمع بفساده، وإذا قيل له لا تفسد قال إنما نحن مصلحون ويريد أن يقلب الحقائق أمام الناس ويجعل المعروف منكراً والمنكر معروفاً كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]. انظر العقاب **"نسوا الله فنسيهم"** فالمنافقون إذا جئت إليهم ادعوا أنهم يصلحون وأنهم يقصدون الصلاح للمسلمين وأنهم يريدون يفعلون وكذا وكذا، كل هذه دعاوى كاذبة باطلة وفي الحقيقة هم يفسدون.

ولذلك إذا قيل لهم لا تفسدوا ونهوا عن الإفساد في الأرض بالكفر والطغيان والمعاصي قالوا إنما نحن مصلحون، رد الله عليهم وتلاحظ أن كل آية يرد الله عليهم؛ انظر في أول شيء لما قالوا آمنا بالله واليوم الآخر قال ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]، لما أخبر الله سبحانه قال يخادعون الله قال ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: 9]، في قلوبهم مرض قال ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10]، كل هذه العقوبات تنزل بهم.

وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون رد الله عليهم قال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: 12]، انظر أسلوب حصر؛ هم المفسدون لا غير هم المفسدون حقيقةً، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 12].

الشعور مثل ما ذكرنا إحساس بالشيء، ما يحس ما يشعر ما يحس أنه يفسد يظن أن هذا هو الإصلاح وأنه يبحث ويسعى بإصلاح المجتمع وهو في الحقيقة يفسد.

⬅الصفة الخامسة: الاستهزاء بالمسلمين؛ الاستهزاء بمن آمن حقيقةً.

انظر الصفة الأولى أنه يبطن الكفر ويظهر لك الإيمان أمامك، والصفة الثانية المخادعة، والصفة الثالثة أن قلوبهم مريضة، والصفة الرابعة الإفساد في الأرض، والصفة الخامسة

استهزاؤهم بالمؤمنين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: 13] هؤلاء المؤمنون دخلوا الإسلام وآمنوا، آمنوا كما آمن الناس ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: 13]، هؤلاء السفهاء يعنون المسلمين من المهاجرين الذين يقولون انظروا إلى هؤلاء المهاجرين هؤلاء المسلمين تركوا مكة وتركوا ديارهم وتركوا أموالهم وأهليهم كل ذلك حتى يتبعوا محمداً، هم هؤلاء هم السفهاء.

فإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء، قال الله رداً عليهم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13]، لا يعلم أنه سفيه وهو السفيه حقيقةً؛ حقيقة السفه صفة السفه في هؤلاء المنافقين وليست في المؤمنين الصادقين المهاجرين الذين نصروا الله ونصروا رسوله وتركوا أموالهم وديارهم كل ذلك نصرةً للإسلام والمسلمين.

⬅الصفة السادسة: المؤامرة على المسلمين في كل وقت، اسمع: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ [البقرة: 14]، إذا لقوا المؤمنين ورأوا عزة الإسلام والمسلمين أخفوا أنفسهم وقالوا نحن معكم قالوا آمنا، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾ [البقرة: 14] إلى كبرائهم وعظمائهم، إذا ذهبوا إليهم إلى شياطينهم ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: 14].

ونحن معكم في صفوفكم وفي نصرتكم حتى لو كان هؤلاء الكبراء من أعداء الإسلام من الكفرة أو من اليهود فإنهم يقفون معهم مباشرةً، إذا خلا المنافقون مع اليهود ومع الكفرة فإنهم يظهرون أمامهم أنهم في صفوفهم وأنهم معهم، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ [الحشر: 12] فهم يدعون أنهم معهم وفي صفوفهم.

إذا لقوا الذين آمنوا أخفوا كفرهم وطغيانهم، وإذا خلوا إلى شياطينهم وعظمائهم وكبرائهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون بالمسلمين، رد الله عليهم ولاحظ كل آية وكل موقف من مواقفهم يرد الله عليهم قال الله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستهزئ بمن يستهزئ به، ويمكر بمن يمكر به، ويكيد بمن يكيد؛ هذه الصفات ليست صفاتٍ طيبةً حسنةً ولا تكون استقلالاً تصف الله بأن الله مستهزئ، لا، ولا تقول إن الله يمكر هكذا، لا، وإنما تقول الله يستهزئ بمن يستهزئ، ويمكر بمن يمكر به، وهكذا تكون بالمقابلة.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67] وهكذا تكون؛ ما تقول إن من صفات الله أنه ينسى، لا، ما ينسى الله، لكن ينسى من ينساه على وجه العقوبة؛ على وجه العقوبة. والله يستهزئ بهم يستهزئ بهم لأنه تركهم على ما هم عليه، ثم بعد ذلك عاقبهم وأنزل بهم العقوبات، هذا وجه هذا الاستهزاء بهم.

الله يستهزئ بهم ومن استهزائه أنه يمدهم ويمهل لهم في طغيانهم يعمهون، والعمه غير العمامة؛ العمى عمى بصر أن لا يبصر، لكن العمه عمى بصيرة عمى قلب، فيمدهم في طغيانهم يعمهون يتخبطون يبصر بعينيه لكن لا يرى الحق، لا يرى الحق فيستمر في طغيانه فيستمر في طغيانه.

ولذلك قليل ما يعود من المنافقين إلى الإسلام ويتوب، أغلب النفاق إذا دخل في قلوب المنافقين أن صاحب النفاق لا يعود بل يستمر يموت على نفاقه وشواهد ذلك كثيرة حتى في عهد النبي ﷺ مات كثير من المنافقين على ما هم عليه مع أنهم رأوا الآيات وأعطوا فرصةً في الاستغفار والتوبة والعودة إلى الله ومع ذلك استمروا على ما هم عليه.

قال الله ولاحظ في بعد ختام هذه الصفات الست يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في نتيجة هذا النفاق وأثره عليهم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16].

اشتروا الضلالة بالهدى كأن الضلالة سلعة تباع والهدى هو الثمن، الثمن غالي عندك تدفعه على شيء ما يستحق هذا نقص في العقل؛ فهم اشتروا الضلالة، بحثوا عندهم هدى وعرفوا الطريق إلى الله وعرفوا عظمة الإسلام وهذا الدين ودخلوا فيه ثم خرجوا عنه، فاشتروا الضلالة وتركوا الهدى وتركوا الإيمان والطاعة وسلكوا مسالك الضلالة، ولذلك قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16].

- لم تربح تجارتهم؛ هنا سؤال: لماذا لم يقل ما ربحوا هم؟

إنما جعل الربح للتجارة قال **"ما ربحت تجارتهم"** هم لأنهم أصلاً المنافقون ليس لهم وجه في الربح، وليس لهم استطاعة إلى الربح، ولا يقدرون على الربح وليس للربح مسلك إليه، ولذلك نسب أو أضاف الربح إلى التجارة فإن تجارتهم وتعاملهم خاسرة.

ولذلك قال: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16] بل كانوا في ضلالٍ مبينٍ. هذه نتيجة النفاق وهذه ثمرة النفاق والمنافقين أنهم خسروا دنياهم وخسروا آخرتهم، لم يكسبوا لا في الدنيا ولا في الآخرة.

هذه الصفات وهذه النتيجة كلها يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أوائل هذه السورة، ثم يختم صفات المنافقين بأن يضرب لنا مثلين في حالهم؛ مثل مائي ونزول الماء من السماء، ومثل ناري كالذي استوقد ناراً، هذان المثلان يأتي الحديث إن شاء الله عنهما في اللقاء القادم بإذن الله.

وعلى المسلم أن يقرأ القرآن وأن يتدبر مثل هذه الأمور وأن لا تمر عليه مرور الكرام بل يقف عندها ويتأمل هذه الآيات ويحذر أن يسلك مسالك النفاق، ويحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن كشف عوارهم وبين حقائقهم وعرف المسلم هذه الصفات صفات المنافقين، وأن يحذر أن يسلك مسالكهم ويسأل الله سبحانه أن يعافيه من هذه المسالك ومن هذه المزالق السيئة.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يجعلنا وإياكم من المتدبرين لكتابه، وأن ينفعنا بما سمعنا وبما قلنا، وأن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(8)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المتجدد، اللقاء المبارك في بيت من بيوت الله، لقاء الأربعاء مع تفسير القرآن العظيم، لا زلنا في تفسير آيات النفاق والمنافقين الواردة في سورة البقرة، والتي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ثلاث عشرة آية، ووصف لنا صفات المنافقين وكشف أمرهم وأبانهم وفضحهم، وذكر من صفاتهم أنهم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 9] وأن في قلوبهم مرضًا، وأنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وأنهم هم السفهاء لا غير.

- كيف نتدبر الفرق بين عاقبة المؤمنين وعاقبة هؤلاء المنافقين؟

الجواب: لما تسمع مثل هذه الصفات؛ صفات المنافقين، وترجع قليلاً قبلها بآيات وتنظر في صفات المؤمنين المتقين ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ 3 وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 3 - 4]، ماذا قال الله فيهم وبماذا وعدهم الله؟

قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 5] لا غير، فأنت تتأمل أيها المسلم لما تسمع مثل هذا الكلام وهذه الصفات الطيبة وهذه الثمرة الطيبة لهم، ثم تنظر في صفات المنافقين وأيضًا ثمرة هذا النفاق وصفاته لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16]، لما تتأمل هذه الصفات وهذه الصفات تعرف فضل الله عليك بأن جعلك من المؤمنين، فاسأل الله المزيد من الطاعة والتقوى والثبات عليه.

- لماذا استخدم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسلوب ضرب الأمثال في وصف حالهم؟

الجواب: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر المنافقين والنفاق وصفات المنافقين، أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يزيدك أيها القارئ وأيها المسلم، أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يزيدك في بيان حالهم بضرب المثل؛ لأن ضرب الأمثال تقرب لك الصورة، أشياء أحيانًا أشياء معنوية تسمع كلام وتقرأ ما تتصور، لما يضرب لك مثل حسي تشاهد أمامك.

الأمور المشاهدة الحسية أمامك تنظر إليها بعينك غير لما تسمع وأنت لا تبصر، فإذا جاءك خبر ما تتصور مثل أنت إذا كنت حاضر في هذا الخبر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يضرب لنا الأمثال وقال في كتابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مبينًا الحكمة، قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43].

- ما هي أبرز الأمثلة التي ضربها الله في القرآن لتقريب هذه الصور؟

الجواب: ضرب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمثلة كثيرة، فالقرآن مليء بالأمثلة العظيمة، يمثل حال اليهود ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: 5]، ويمثل بحال من ترك ما أنعم الله عليه بالعلم، يمثل حاله بالكلب ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: 176]، وهكذا تجد أمثالاً كثيرة في القرآن، والمنافقون مثل الله حالهم بأي شيء؟

قال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]، يعني حالهم وصفتهم إن أردت أن أقربها لك أكثر وأوضحها لك أكثر، فحالهم مثل حال شخص كان في ظلمة، في ظلمة شديدة،

ظلمة الليل، ظلمة السحاب، ظلمة شديدة، ثم احتاج إلى أن يستوقد نارًا حتى تضيء له ما حوله، حتى يعرف أين مكانه، فمثلهم كمثل الذي استوقد؛ يعني طلب النار، طلب أخذ شعلة من النار واستوقد من هذه النار ليرى طريقه ويرى ويبصر مكانه.

- كيف انتهى حالهم في هذا المثل الناري؟

الجواب: قال الله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17]، هذا واضح جدًا، شخص في صحراء في ليلة مظلمة، واحتاج إلى نور حتى يبصر مكانه، فوجد نارًا تتأجج وأخذ منها عودًا ورأى مكانه، ثم انطفأ هذا العود فأصبح في ظلمات، وبعدين ما حال المنافقين؟

نقول إن المنافقين رأوا الإسلام ونظروا في هذا الدين وهذه الشريعة فدخلوا فيها، فلما دخلوا فيها مثل الذي أوقد نارًا أضاءت في قلبه، أضاء في قلب هذا المنافق هذا الإيمان، فلما أضاء ما حوله وأبصر وعرف الدين وعرف الشريعة وعرف الإسلام، خرج عن هذا الإسلام وتركه وبدأ ينقلب ضد الإسلام، فماذا صنع الله به؟ ذهب الله به، أخذ نور الإسلام وأصبح في ظلمات؛ أصبح هذا المنافق في ظلمات الكفر وظلمات الطغيان وظلمات الغل والحسد للمسلمين.

- لماذا تحول الخطاب من المفرد في "استوقد" إلى الجمع في "بنورهم"؟

الجواب: قد يسأل سائل يقول أول الآية يقول ﴿كَالَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17] واحد، ثم قال ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17] كثير، نقول حتى يكون الحكم عامًا للمنافقين؛ لأن قوله ﴿كَالَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾ يشمل الواحد والكثير، ثم ما ثمرة هذا النفاق ولما سلب الله عنه هذا الإيمان وجعله في ظلمات لا يبصر؟ ماذا ثمرته؟

قال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18]، صم يسمعون ولكن لا يسمعون الحق أبدًا، آذانهم ليس فيها عيب ولكنه لا يريد أن يسمع الخير، بكم والبكم الذي لا يتكلم في الخير أبدًا ولا يتكلم في الحق بل يتكلم في الباطل، ثم قال عمي لا يبصر الحق أبدًا، سلب الله منه أن يبصر الحق، هذه كلها عقوبات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه تمرد وعصى فعاقبه الله، فهم لا يرجعون أبدًا [5، 6].

- هل هناك مثل آخر يوضّح حالهم بطريقة مختلفة؟

الجواب: يذكر لك أيضًا الله عَزَّ وَجَلَّ مثلاً آخر مائيًا، المطر له أسماء عند العرب كثيرة، ومن أسمائه أنه يسمى صيبًا، قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 19]، الصيب هو الماء المطر الذي ينزل من السماء، يسمى صيبًا لأنه يضرب على الأرض بقوة، ينصب على الأرض بقوة، أي حال هؤلاء المنافقين كحال من أصابه المطر.

قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: 19]، المطر لما يأتي فيه الظلمات؛ ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر، والرعد وهو الصوت الذي يخرج من السحاب، والبرق وهو النور واللمعة التي تخرج من السحاب، ولا نريد أن ندخل في تفاصيل ما هو الرعد وما هو البرق وما قاله علماء الفلك من نظريات، فنحن نقول الله أعلم، الله أخبر بأنه رعد، والعرب تعرف الرعد، وهو الصوت الذي يخرج من السحاب والبرق هو النور.

- كيف يصور القرآن رعبهم وخوفهم في هذا المثل؟

الجواب: الرعد يخيف والبرق يخطف الأبصار، قال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 19]، يخاف هؤلاء الذين في هذه الصحراء والمطر يضرب من فوقهم صيب قوي، في خوف شديد ورعب، والله عَزَّ وَجَلَّ فوق ذلك كله قد أحاط سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهم، لا يستطيعون أن يخرجوا عن قدرته.

قال الله: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة: 20]، ومعنى هنا قاموا أي وقفوا وتحيروا، ما يدرون أين يذهبون في ظلمة شديدة ومطر، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 20]، أنت الآن تتخيل أن هؤلاء القوم يمشون في طريق في الصحراء وقد اشتد عليهم المطر والظلمات والرعد والبرق والصواعق من فوقهم، فهم في خوف شديد ورعب.

- كيف ينطبق هذا الوصف الحسي على حال المنافقين مع الإسلام؟

الجواب: هذا المثل يمثل الله سبحانه حال المنافقين تجاه الإسلام والقرآن، فالإسلام والدين والقرآن مثل المطر مثل الغيث.

كما قال ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ»، فالصيب هذا مثل الإسلام نزل وهذا القرآن مليء بالخيرات وبالآيات التي تنفع الناس، ولكن الغيث أحيانًا قد يكون فيه هدم واضرار.

وهذا القرآن يضر المنافقين، فالآيات قوية عليهم، وكما قال سبحانه أخبر عن هؤلاء المنافقين أنهم يخافون ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: 4]، في رعب وخوف شديد، وكما قال سبحانه: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ﴾ [التوبة: 64]، يحذرون ويخافون أن يفضحهم الله، وقد فضحهم الله في سورة التوبة.

- بمَ نادى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الناس جميعًا؟

الجواب: لما ذكر الله لنا صفات المؤمنين، ثم ذكر حال الكفار، ثم ذكر حال النفاق والمنافقين، نادى كل هؤلاء، ناداهم بخطاب قال فيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]، اعبدوا ربكم، والعبادة هي الخضوع والتذلل لله، اخضع وتذلل وأطع واسمع ماذا يريد الله منك، ولا تطع الشيطان، اعبد الذي خلقك، يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ بالنعمة، من الذي أوجدك ومن الذي خلقك وأنت قبل سنين معدوم ليس لك ذكر؟ هو الله، إذًا هو الذي يستحق العبادة، والسر والحكمة قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فإذا عبدت ربك وأطعت الله واستقمت على طاعته أصبحت من المتقين الذين وعدهم الله بجنات النعيم.

- ما هي النعم التي ساقها الله في الآيات لبيان استحقاقه للعبادة وحده؟

الجواب: بدأ يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نعمه علينا، يقول: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة: 22] منبسطة تستطيع أن تبني عليها وتعيش عليها، ثم قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: 22] نعمة عظيمة أن ترفع رأسك وتجد السماء المزينة بالمجملة بالنجوم والكواكب تسر الناظرين، ثم قال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة: 22]، هذا الرزق، لولا الماء مات الإنسان ومات كل حي، فإذا كان الله هو الذي أنعم علينا بهذه النعم التي لا تعد ولا تحصى ماذا قال؟

قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: 22]، لا تجعل لله معبودات من دونه، لا تجعل له إلهًا آخر، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]، تعلمون أن هذه الأنداد لا تنفع ولا تضر، بل تضرك في الدنيا والآخرة، وإلى هذا ينتهي الحديث عن نداء الناس والامر بالعبادة، لعلنا نقف عند هذا القدر، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(9)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله أيها الإخوة في هذا المجلس الطاهر، المجلس المبارك، مجلس من مجالس الذكر، نجتمع في هذا المقام لنقرأ آيات من كتاب الله ونبين معانيها، ونتدبر هذه الآيات، ونتفكر فيها، لا زلنا أيها الإخوة في أوائل هذه السورة المباركة؛ سورة البقرة، وعند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23].

إذا أردت أن تفهم القرآن الكريم جيدًا، تفهم المعاني، تستوعب هذه الآيات؛ ينبغي لك أن تقرأ هذه الآيات وتقرأ ما قبلها وتقرأ ما بعدها حتى يكون عندك تصور واضح للآيات، وقد سُئل بعض التابعين عن فهم الآيات، أو سُئل عن آية من كتاب الله فقال: **"اقرأ ما قبلها واقرا وما بعدها يتضح لك الأمر"**.

فهنا في هذه الآية: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23]؛ لما تقرأ الآيات التي قبلها، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في الآيات التي قبلها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21].

هذه الآية تفيد لنا أو تفيدنا بأن الله يأمرنا بأي شيء؟ أو يأمر الناس قاطبة جميعًا يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والعبادة لا تكون عبادة ولا تكون مقبولة عند الله إلا إذا تم فيها شرطان: الإخلاص والمتابعة.

ما معنى هذا؟

لا تصح العبادة -أي عبادة من العبادات- حتى يتم فيها هذان الأمران: الإخلاص والمتابعة؛ يعني أنك تخلص العبادة لله وحده لا شريك له، ولا يشوب عملك شرك لأي مخلوق، والثاني المتابعة في عبادتك لرسول الله ﷺ.

لا بد؛ ولذلك لما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]، أي ينبغي لك أن تعبد الله وحده لا شريك له، وأن تكون عبادتك وخضوعك لله وحده لا شريك له.

قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]. هذا الشرك، أين الإخلاص؟ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22].

فينبغي للمسلم أن تكون عبادته خالصة لله وحده لا شريك له، طيب إذا عرفنا الشرط الأول في قبول العبادة.

أين الشرط الثاني الذي هو المتابعة؟

قال الله بعدها: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23]. هذه الآية تفيد أنه ينبغي للمسلم أن يقتدي بالنبي ﷺ، وأن يعترف أولًا برسالته ﷺ، وأنه رسول من عند الله، وأنه مبلغ لرسالة ربه، وأنه قد أنزل الله عليه هذا الكتاب حتى يبلغ رسالة الله من خلال هذا القرآن العظيم.

كيف تعرف أحكام الله وكيف تعرف شرائع الله إلا عن طريق النبي ﷺ؟

هو الذي بين لك وهو الذي دلك على هذا، فدل ذلك على أنك لا بد أن تكون متابعًا لما جاء عن النبي ﷺ، فدل ذلك على أن العمل المقبول عند الله لا بد أن يكون خالصًا لله، ويكون متابعًا فيه العبد لرسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23]؛ لما كان المشركون في شك من رسالة النبي ﷺ، وفي شك أيضًا مما أنزل عليه وهو القرآن العظيم.,

والمؤمن على يقين، على يقين بأن هذا القرآن كلام الله وأنه منزل من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ تنزل معهم فقال: إن كنتم في شك، تشكون في رسالة النبي ﷺ، وأن محمدًا قد افترى هذا القرآن من عنده وجاء به من عنده ويدعي أنه نزل عليه وحي من الله وأنه جاءه الوحي بهذا القرآن وأردتم مثل ذلك؛ فمحمد أمامكم والقرآن أمامكم، فـ ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23]. هو أتاكم بقرآن كامل فيه سور عظيمة كثيرة، أنتم ائتوا بسورة واحدة حتى نقر لكم بأن محمدًا افترى هذا القرآن.

تحدّاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، والسورة في القرآن الكريم التي لها مبدأ ولها نهاية، أقصر سورة في كتاب الله سورة الكوثر؛ سطر واحد، ثلاث آيات، الله يتحدى الكفار كلهم أجمعين أن يأتوا بسورة واحدة، ولم يستطيعوا مع أنهم هم أهل البلاغة والفصاحة والخطابة، ومع ذلك ما استطاعوا ولم يقدروا على ذلك، وتحداهم الله في آيات كثيرة في أكثر من آية؛ قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: 23]، ثم قال هنا قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23].

وقال في سورة أخرى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: 13]، ومع ذلك ما استطاعوا، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تحديًا للإنس جميعًا وللجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله.

لماذا لا يأتون بمثله؟ لماذا يتحداهم الله؟

لأن هذا القرآن هو كلام الله؛ كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يمكن لأي مخلوق ضعيف مسكين أن يكون كلامه مثل كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما يمكن أبدًا، لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بآية واحدة ما استطاعوا؛ لأن كلام الله فوق كل شيء.

ولذلك قال: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ [البقرة: 23]، ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول سورة البقرة ماذا وصف كتابه؟ قال: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: 2]؛ نفى عنه الريب، ثم نجد هنا يأتي الريب من الكفار، الريب صادر من الكفار ليس في القرآن، ليس في القرآن. لو جاءك رجل أعمى وقال: الشمس لم تظهر هذا اليوم، ونقول له: لماذا لم تظهر؟ قال: ما رأيتها. العيب فيك أنت، أنت أعمى ما شفتها لكن الشمس موجودة.

وهنا نقول الريب فيكم أنتم أما القرآن ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ﴾ [البقرة: 2]، لا ريب فيه ولا شك فيه بوجه من الوجوه. قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ﴾ [البقرة: 23]، ولاحظ أنه جاء بجملة شرطية قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23].

انظر كيف يشرف الله محمدًا ﷺ بأي شيء؟ بوصف العبودية؛ يقول: ﴿نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23]. وصف العبودية شرف، لما جاء عند نزول القرآن قال: ﴿نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: 23].

لما جاء في أعظم المعجزات وهي معجزة الإسراء والمعراج قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1]؛ ما قال برسوله ولا نبيه، قال: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1]، لأن العبودية شرف.

وفي مقام الدعوة قال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: 19]؛ فالعبودية شرف، شرف أن تكون عبدًا لله جل جلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23]؛ ﴿فَأْتُوا﴾ [البقرة: 23] تحدي لهم، تحدي صريح أن تأتوا بـ... ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: 23] ما يستطيعون.

- ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23]، في سورة أخرى قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: 38]. ما الفرق؟

الجواب: ﴿مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23] ولو مشابهة، ولو قريبة، ومع ذلك ما استطاعوا ولن يستطيعوا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: 38]، ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 23]. شهداءكم وشركاءكم وأعوانكم، وكل من تريدون أن تستغيثوا به من البشر وغيرهم ائتوا بهم، ومن معبوداتكم من دون الله الذين تخضعون لها وتعبدونها ائتوا بها.

- لماذا يأتون بها؟

يأتون بها حتى تساعدهم وتعينهم وتكون ظهيرًا لهم في أن يأتوا بها، انظر التحدي الصارخ القوي؛ يتحداهم بسورة واحدة، وأن يجتمع كلهم ويدعوا غيرهم كلهم في صعيد واحد على أن يأتوا بسورة ما استطاعوا.

- ما هي النتيجة؟

النتيجة القرآن كلام الله، والنتيجة أن محمدًا رسول الله، والنتيجة أن القرآن منزل من عند الله؛ ليس محمد قد افتراه وأتى به من عنده كما يدعون هم. ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [هود: 13] تسمع كثير في القرآن ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [يونس: 38]؛ ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ [هود: 35]، آيات كثيرة.

يدعون افتراء؛ أن الرسول افتراه وأنه ادعى أن هذا القرآن منزل من عنده وهو قد أتى به من نفسه، لا، غير صحيح؛ هذا القرآن كلام الله. ولذلك لاحظ قال: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 23] في أن النبي محمد قد افترى فأتوا مثله أنتم، لماذا لا تفترون؟ محمد افترى قرآن كامل مئة وأربع عشرة سورة، أنتم افتروا سورة واحدة، ليش هو يفتري وأنتم لا تفترون؟ إذًا بُكتوا وأُلزموا الحجة وأقيمت عليهم حجة.

الآن أمامهم ماذا؟ أما أن يجب عليهم أن يؤمنوا ويتبعوا النبي ﷺ ويصدقوا بهذا القرآن وأنه من عند الله، وإما الوعيد الشديد لأن قامت عليهم حجة. الوعيد الشديد ماذا؟

ولذلك قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: 24]؛ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: 24] أي شيء؟ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: 24] وتأتوا بسورة واحدة، ثم قال: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: 24] حتى في المستقبل، يعني أنتم الآن الحاضر لن تستطيعوا أن تفعلوا، ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: 24] ولو بعد حين، ولو جلستم وأخذتم أوقاتًا طويلة في التفكير وجمع الذهن واجتماعكم في مجالس على أن تأتوا.

ولذلك قال حتى في المستقبل إلى قيام الساعة: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: 24].

- ما هي النتيجة؟

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: 24]؛ هذا الوعيد الشديد، عليك أن تؤمن وتتبع ما جاءك من الله حجة عليك، وما أُرسل به ﷺ وهو القرآن، يجب عليك أن تذعن وأن تتبعه وإلا موعدك نار جهنم.

ولذلك هددهم الله قال خلاص قامت عليكم الحجة، ليس لكم طريق آخر إلا اتباع محمد ﷺ أو النار أمامكم، ولذلك فقال: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: 24].

وهذه النار ليست كنار الدنيا، هذه النار ليست كنار الدنيا؛ هذه نار الدنيا ساعة ساعتين وتخمد، نار الآخرة لا تخمد؛ نار الآخرة ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: 97]. نار الدنيا وقودها الحطب، ونار الآخرة ما هي وقودها؟ قال هنا قال: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]. وقودها الناس ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: 97]؛ فاتقوا الله، اتقوا النار واحذروا أن تكونوا حطبًا لنار جهنم، يحذرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24]. وقوله: ﴿أُعِدَّتْ﴾ [البقرة: 24] لاحظ تأمل أن النار مخلوقة وأن النار موجودة الآن، خلافًا لمن يدعي يقول النار يخلقها الله بعدين، هذا كلام غير صحيح؛ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿أُعِدَّتْ﴾ [البقرة: 24]، هذا كلام عربي صحيح ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24] أي خُلقت ووُجدت لهم، والنبي ﷺ لما أُسري به رأى النار، رآها بعينه، شاهد النار؛ فهذه النار موجودة بلا شك، قال: ﴿أُعِدَّتْ﴾ [البقرة: 24] لمن؟ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24].

وهذا يدل على أن من لم يؤمن بالقرآن ولم يصدق برسالة النبي ﷺ وأن القرآن منزل عليه فهو في عداد الكافرين ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24]. ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا جاء بالآيات التي فيها التخويف وفيها ذكر النار وترهيب العباد، يأتيك بمقابل ذلك حتى يكون المسلم دائمًا خائفًا مما قد يقع فيه وتكون عاقبته سيئة، ويكون قبل الخير راجيًا ما عند الله.

- ولذلك انظر لاحظ لما تقرأ الآيات ماذا قال الله سبحانه بعدها؟

قال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: 25]. آمنوا بالله جل جلاله، وآمنوا برسوله، وآمنوا بأن هذا القرآن منزل ولم يقولوا بأن القرآن افتراه محمد وادعاه، هذا الإيمان؛ وبشر الذين آمنوا، كل ما يدخل في الإيمان بالغيب والإيمان بما يجب الإيمان به هم مؤمنون.

قال: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: 25]؛ وحتى نفهم جميعًا أن الإيمان بالقلب لا يكفي، تجد بعض الناس يقول: أنا مؤمن بقلبي، أنا أهم شيء القلب، صلاح القلب، أنا مؤمن بقلبي، وهو لا يعمل الصالحات.

ولذلك لاحظ قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: 25]. إذا لم يكن إيمانك في قلبك يدعوك للعمل ليس إيمانًا؛ الإيمان قول وعمل، أما تقول بلسانك أنا مؤمن، أو تقول أنا أحمد الله قلبي فيه إيمان بالله وأنا معترف بوجود الله وبأن الله هو الذي خلقني ثم لا تعمل، هذا تناقض؛ ولذلك دائمًا نلاحظ في القرآن: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: 25]؛ حقيقة الإيمان أن تعمل الصالحات وأن تسابق في وأن تنافس في الأعمال الصالحة.

بشرهم بأي شيء؟ قال: ﴿بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: 25] بأي شيء؟ قال: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: 25]. يعني البشارة العظمى؛ بشارة بالفوز بالدار الآخرة، ليست البشارة العظمى في الدنيا أن تُبشر بشيء، بشارة الدنيا بشارة شيء حقير ينتهي، الدنيا تنتهي كلها، لكن البشارة الحقيقية أن يبشرك رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يبشرك في كتابه وعلى لسان رسوله بأن لك جنات تجري من تحتها الأنهار.

لماذا؟ مقابل إيمانكم وعملكم الصالح؛ الإيمان والعمل الصالح هو الذي بعد رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سبب في دخول الجنة، سبب في دخول الجنة، وفوق ذلك رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: 25].

- ما هي الجنات؟

الجنات عند أهل العرب يعرفونها؛ الجنات هي الحدائق والبساتين الواسعة. ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا 31 حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ [النبأ: 31-32] لا حد لها، لا حد لها.

«شَجَرَةٌ طُوبَى فِي الْجَنَّةِ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا سَبْعِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَا يَقْطَعُهَا»؛ شجرة واحدة، فكيف بالجنات التي يعدك الله؟ وليست جنة أو جنتين أو ثلاث، قال لهم: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: 25].

وهذه جنات يعني مما يدل على عظمها وعلى قدرها عند الله أن الأنهار تجري من تحتها، فإذا اكتملت هذه الجنات واكتمل حولها الماء أصبحت على أعلى مراتب الجنان، ولذلك قال: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: 25]؛ تجري هذه الأنهار تحت الجنات وتحت القصور وتحت الغرف كلها تجري من تحتها الأنهار.

فإذا كان هذا مسكنك وهذا مقامك في جنات النعيم؛ وخذ مما يزيدك إقبالًا وبشارة، قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا﴾ [البقرة: 25]. يعني فيها ثمرات، فيها المقام الطيب الحسن، والثمرة والثمرات الطيبة.

قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ [البقرة: 25] وكلمة ﴿كُلَّمَا﴾ [البقرة: 25] تدل على التكرار دائمًا؛ كلما، مثل ما تقول: كلما دخلت المسجد وجدته فلان، يعني دائمًا، وقال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا﴾ [البقرة: 25] يعني الرزق يأتيه، وفي سورة أخرى قال: ﴿لَّهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 62].

يعني في وقت البكرة ووقت العشي، والجنة ما فيها عشي ولا بكرة، لكن بمقدار البكرة والعشي وهو أول النهار وآخره، قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: 25]. كل ما جاءتهم ثمار من ثمار الجنة وبدأوا يأخذون هذه الثمار ويتناولونها قالوا: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: 25]. كيف من قبل؟ يعني تأتيهم الثمار فيتذكرون الثمار التي أكلوها قبل أن تأتيهم هذه فيقول: هذا الذي نفسه هذا الذي رزقنا من قبل.

وهذا يدل على كمال نعيم الدنيا، إذا سيق لك أو جاء لك بطعام أو بثمار ثم بعد ساعة جيء لك بهذا، ماذا تقول؟ تقول: هذا أطيب من الأول، أو الأول أطيب من الثاني، هذا يختلف عن الأول.

الجنة ما تقول هذا أطيب من هذا، تقول: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: 25] نفسه؛ نفسه ما تغير. ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: 25]؛ يعني متشابه في لونه، في طعمه، في رائحته، كلها متشابهة.

فيؤتى لهم بالفواكه بشتى أنواعها، لا تقتصر على نوع تقول هذا موجود هذا غير موجود؛ لهم فيها من كل الثمرات من غير حد، الموز والتفاح والبرتقال والخوخ والرمان والعنب، وخذ من أسماء الفواكه التي لا حد لها لهم فيها من كل الثمرات.

وقال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: 25]. ويحتمل أن قولهم: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة: 25] يحتمل أنهم إذا أُتيت بهم الفاكهة يقولون: هذه الفاكهة كنا نعرفها في الدنيا، هذا موز وهذا تفاح وهذا عنب، هذا اللي كنا نرزق كنا نأخذه في الدنيا فيعرفونه.

لكن فرق كبير بين فاكهة الجنة وفاكهة الدنيا، فرق كبير؛ لكنهم يقولون هي متشابهة كما قال ابن عباس: **"ليس في الجنة من الدنيا إلا الأسماء بس"**، الاسم أما الطعم والرائحة واللون بلا شك أنه يختلف اختلافًا كبيرًا. قال: ﴿رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: 25]؛ أي بالفاكهة هذه، يشبه بعضه بعضًا في الطعم والرائحة كما ذكرنا واللون ونحو ذلك.

قال: إذا كنت أنت في هذا المقام في جنات النعيم وهذه الفواكه، وكما ذكر الله سبحانه في سور أخرى عن شراب الجنة: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الصافات: 45].

وهنا الثمرات، ثم يضيف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من نعيمه أن يذكر لك قال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: 25].

- ما هي الأزواج؟

الحور العين، وأزواج الدنيا؛ كلها لك في جنات النعيم، لك من الحور النعيم التي خلقها الله لأهل النعيم في الجنة وأيضًا من أزواج الدنيا، لكن أزواج الدنيا والحور بما وصفهم الله؟ قال: ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: 25]. مطهرة في أي شيء؟ مطهرة من أي شيء؟ مطهرة في الخَلق والخُلق، مطهرة في الخَلق والخُلق.

- وخُلقها طاهرة؛ كيف يكون الخَلق طاهرًا؟

لا حيض، لا نفاس، لا بول، لا بصاق، لا رائحة كريهة كما تجدها في الدنيا، كله كذلك قد طهرها الله؛ من نساء الدنيا ومن نساء الجنة. وأيضًا في أخلاقها طاهرة، لا تتكلم إلا بكلام طيب ولا تفعل إلا أفعالًا طيبة، فطهرها الله من هنا وهنا، فأصبحت كاملة في الطهارة، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من.

قال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 25]. ما معنى هذه الجملة: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 25]؟ خالدون في أي شيء؟ قال: دائمًا في الدنيا إذا كان المكان اللي أنت فيه ما استقررت فيه تجد عندك قلق وانزعاج متى أستقر؟ حتى في بيوت الدنيا إذا أنت قد استأجرت دارًا تخشى من يوم من الأيام يأتيك صاحب الدار ويقول لك: اخرج من البيت ما استقر.

لكن جنات النعيم ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: 108]؛ هم لا يريدون أن يخرجوا منها وليس هناك من يريد أن يخرجهم، فهم قد استقروا في ملك الجنة لهم فيها قد ملكوها؛ فدارك في الجنة وقصرك في الجنة وغرفك في الجنة لا تخرج منها أبدًا، لا يبغون عنها حولًا، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 25].

- لماذا جاء بهذه الجملة؟

حتى تستقر النفس، إذا عرفت أنك هذه الدار ما أحد يستطيع أن يخرجك منها طمأنة النفس.

انظر كيف هذه البشارات لما تقرأ هذه الآيات؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَبَشِّرِ﴾ [البقرة: 25]، قف عندها، إذا مررت على هذه الآية قرأتها قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبَشِّرِ﴾ [البقرة: 25]، قف! إيش يبشرك الله به؟ ثم أنت من أنت حتى يبشرك؟ وما الأوصاف التي هي فيك حتى تكون منهم؟ هل أنت منهم؟ ﴿بَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: 25]، وخذ من الأوصاف والبشارات الطيبة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يضرب الأمثال في القرآن كثيرًا، وأنت تقرأ تجد أمثلة كثيرة.

ومر معنا: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]، أو ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 19]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضرب أمثالًا كثيرة؛ فوجد من الجهلة من الكفار والمنافقين من اعترض على.

قال: كيف يضرب الله الأمثال؟ ولا يضرب الأمثال الله عَزَّ وَجَلَّ بأشياء حقيرة، يقولون إن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ [الحج: 73]؛ فيضرب الأمثال بالأشياء الحقيرة، الذباب.

ومرة يضرب بالعنكبوت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: 41]. فقالوا: كيف يضرب الله؟ فرد الله عليه، رد الله قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: 26]. حتى البعوضة الصغيرة الحقيرة، وهي الناموس الصغير وهو من أحقر المخلوقات الصغيرة، يضرب الله به المثل ويضرب ما هو فوق هذا بعض من الأمثلة، وخذ من الأمثلة، ليس ذلك عيبًا أن تضرب الأمثال لتتحقق من هذه الأمور ولتوصل هذه المعلومات للناس، ليس ذلك عيبًا في ذلك.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ [البقرة: 26]؛ وهذه الآية فيها نفي الاستحياء في هذا المقام مع إثبات الحياء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إثبات الحياء والحياة صفة من صفات الله، لكن لا نستطيع أن نصل إلى حقيقة هذه الصفة؛ صفة الله أعلم حقائقها لا نعلمها، لا نعلم حقيقة الصفة لكن لا نعلم كيفيتها؛ كيفية الصفات صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نؤمن بأن هذه الصفة حقيقة ثابتة لله، لكن عن الكيف لا نعلم، ولذلك الإمام مالك لما سُئل عن الاستواء، كيف استوى الله على عرشه؟ قال: **"الاستواء معلوم حقيقته معلومة استواء، والكيف ما ندري كيف غاب عنا وغيب عنا فلا ندري، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة"**.

فقال هنا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: 26]؛ أي مثل ولو مثل البعوضة فما فوقها، حتى لو كان في الحشرات والجراد وغيرها من الحشرات والذباب والعنكبوت فما فوقها.

قال: فإذا ضرب الله الأمثال فما موقف الناس منها؟

قال: موقف الناس على موقفين؛ قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 26] الذين صدقوا وآمنوا وعرفوا أن هذا مثل ضربه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: 26].

يصدقون ويعلمون لما ضرب الله مثلًا بكذا ومثلًا في كذا، و ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ﴾ [الجمعة: 5]، ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: 176]؛ موقف المؤمن ما؟ الإيمان والتصديق بأن ما ضربه الله حق، هذا الذي يجب عليك أنت.

قال: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: 26]؛ يتخبطون ويتحيرون لا يدرون ماذا يقولون، يقول: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [البقرة: 26]. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ردًا عليهم: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26].

أي بهذا المثل؛ يضل من يشاء بهذا المثل إذا كان متحيرًا لا يؤمن ولا يصدق فإن الله يضل، ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26]؛ من الذي يضله؟ قد يأتيك شخص يقول: طيب أنا اهتديت وآمنت بهذا، لكن من هم الذين أضلهم الله؟ أعطاك أوصافًا قال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: 26] الذين خرجوا عن طاعة الله ولم يؤمنوا ولم يصدقوا. وماذا بعد من صفاتهم؟ قال: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة: 27]؛ كلما عاهدوا الله نقضوا مواثيقهم.

﴿مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 27]؛ كل هذه صفات من صفات الفاسقين، صفات الذين لا يؤمنون بالله ولا يؤمنون بما ضرب الله من الأمثال.

قال: أولئك النتيجة ما هي؟ قال: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 27]؛ هم الذين خسروا أنفسهم لم يخسر غيره، إنما هم الذين خسروا أنفسهم.

من اتصف بهذه الصفات ولم يؤمن بالله ولم يؤمن بكتابه ولم يؤمن بما احتواه كتابه من هذه الأمثال الحقائق؛ فالنتيجة أنه هو الذي خسر نفسه، خسروا أنفسهم وأهلهم، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 27].

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ونتدبر ونتأمل هذه الآيات ونستفيد منها؛ هذه الآيات فيها دروس، فيها عبر، فيها ما يقرأه الإنسان ويفهمه من أحكام وحكم، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(10)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بالهدى إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله جميعًا في هذا اللقاء المبارك؛ نجتمع في هذا المقام وفي بيت من بيوت الله حول آيات من كتاب الله جل جلاله.

وقف بنا الحديث في اللقاء الماضي عند قوله جل جلاله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28]. **"كيف تكفرون"**؛ هذا استفهام على وجه التعجب والاستغراب والإنكار، كيف يحصل منكم الكفر بالله؟

والآيات التي قبلها أخبر الله فيها أنه نادى الناس جميعًا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21].

ثم ظهر من الناس من لم يؤمن بالله، ولم يؤمن بالرسول، ولا بالقرآن، حتى وُجِد منهم من سخر من الأمثال التي يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه في قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: 26].

فبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متعجبًا ومنكرًا على من يكفر بالله: كيف تكفرون بالله؟ كيف تكفر بالله جل جلاله؟ تكفر بالذي خلقك، والذي رزقك، والذي أوجدك من العدم، تكفر به وتكفر بعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتعبد من دونه أندادًا لا تضر ولا تنفع، تعبد الشجرة والحجر الذي لا يسمع ولا يدفع عن نفسه شيئًا.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: 28]؛ أي في عالم العدم، ما كانوا موجودين، الناس قبل خلق آدم ما في أحد؛ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1]. ما كان أحد موجود من بني آدم ولا آدم.

كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا؟

ثم أحياكم بخلق آدم، ثم بخلقكم أنتم أحياكم، قال: **"فأحياكم"**، ثم قال: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: 28]؛ متى؟ إذا جاء أجلكم وانتهت مدة مقامكم في هذه الدنيا، فكل إنسان له مدة يبقى فيها في هذه الدنيا ثم ينتقل.

ثم يحييكم؛ متى يحييكم؟

زمن البعث إذا أراد الله بعث الناس من قبورهم بعثهم، ثم يحييكم ثم إليه ترجعون؛ فالخلق كله يرجع إلى الله، فيجازي الناس بأعمالهم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

كلٌّ يأخذ جزاءه وعمله، فكيف يكفر الإنسان بالله؟ والله الذي أحياه من العدم، ثم يميته إذا قضى عليه بالأجل، ثم يحييه ويخرجه من قبره، ثم يرجع إلى الله للحساب والجزاء؛ إما الجنة وإما النار.

- كيف يكفر الإنسان وهو يعلم؟

لذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استدل على قدرته جل جلاله في خلق الناس بما خلقه قبل الناس، في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29].

الأرض وما فيها خلقها الله قبل خلق آدم. خلق الأرض كلها وخلق الأرض وما فيها من الأقوات، وما فيها من الأرزاق، وما أودع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بطن هذه الأرض خلقه الله للإنسان، وفي هذا استدل أهل العلم على إباحة كل ما على الأرض إلا ما دل الدليل على التحريم؛ فكل ما على الأرض مباح للناس، سخر الله كل ما في هذه الأرض وما عليها وأباحه من طعام وشراب وأرزاق للإنسان، إلا ما دل الدليل على أنه محرم، وإلا فالأصل الإباحة، والأصل أن الأرض طاهرة ومباحة إلا ما دل الدليل على تحريمه.

ولما بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه خلق الأرض هذه كلها، خلقها وأوجدها قبل خلق الإنسان، أيضًا بين لك أنه خلق الأرض قبل السماوات؛ ولذلك قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 29]. خلق السماء بعد خلق الأرض كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: 9]، إلى أن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11]. فدل على أن الأرض خُلقت أولًا، ثم خلق الله بعد ذلك السماوات.

قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: 29]. ما كانت السماوات السبع موجودة ولا كانت الأرض موجودة؛ كان عرشه على الماء، ثم خلق الأرض، ثم خلق السماوات.

قال: **"ثم استوى إلى السماء"**؛ أي قصد إلى السماء. **"استوى"** إذا تعدى الفعل بـ **"إلى"** فبمعنى قصد، وإذا تعدى بـ **"على"** فبمعنى علا وارتفع؛ كما في قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5]؛ أي علا وارتفع، وإذا لم يتعدَّ بشيء، قيل: **"استوى"** بمعنى كمل وتم؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ [القصص: 14]؛ أي بلغ التمام والاستواء والنضج.

فقال: **"ثم استوى"**؛ أي قصد إلى جنس السماء، فخلقها سبع سماوات طباقًا؛ كل سماء مترامية الأطراف لا حد لها، ومرتفعة بلا عمد، وما بين السماء والسماء مسيرة خمس مئة سنة، وكل سماء فيها خلقٌ خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إلى السماء السابعة وفوق السماء السابعة الجنة، ثم عرش الرحمن جل جلاله.

قال الله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 29]؛ يعني لا يخلق الخلق عبثًا، ولم يخلق الخلق هكذا أو جاء الخلق صدفة، وإنما خلقه عن علم سابق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يخلق خلقًا إلا قد علم هذا الخلق وعلم كيف يخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك كثيرًا في القرآن الكريم ونحن نقرأ الآيات، دائمًا يقرن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين اسمين: **"العليم القدير"**؛ فإذا جاء في آيات الخلق والإنشاء والإيجاد قال: **"العليم القدير"**، لأنه قدّر عن علم، لا يقدر هكذا، وإنما قدرته جاءت عن علم سابق.

لما أخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه خلق الأرض وخلق السماوات، فأوجد الأرض أولًا ثم أوجد السماوات وسواها في أحسن صورة وفي أبدع ما يكون، والتسوية معناها الخلق بإبداع وإحكام.

لما ذكر ذلك، أخبرنا بخلق آدم وهو أبونا عَلَيْهِ السَّلَامُ، الخلق الأول. وهذه الأخبار من أين أتت؟ ومن أين جاءت؟ محمد ﷺ عاش في مكة، أمي لا يقرأ ولا يكتب، من أين جاءت هذه الأخبار؟ جاءته بالوحي ومن السماء.

وهذا يدل دلالة صريحة على أن القرآن وحي من الله، وأن الله تكلم به وسمعه جبريل ونزل به على محمد ﷺ وأوحى به، وسمعه محمد ﷺ فحفظه في صدره ثم بلغه أمته.

فهذا القرآن وحي بلا شك، أما الذين يدعون أن محمدًا افتراه أو أنه أساطير الأولين فهذا لا يمكن؛ فالله يخبر بأخبار غيبية ما كان محمد ﷺ ولا أمة محمد ولا أحد من الناس يعلمها؛ ﴿مَا كُنتَ

تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: 52]، ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: 49].

ولذلك أخبر هنا عن خلق آدم، اسمع قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]. **"وإذ قال"**؛ يعني واذكر يا محمد لقومك، واذكر للناس إذ قال ربك للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة، وهو آدم.

قال: إني خالق آدم، وخالقٌ خلقًا يكون خليفة؛ يخلف بعضهم بعضًا خلائف في الأرض، أو أنه خليفة الله في إقامة الشرع في الأرض؛ إن آدم وذريته يقيمون شرع الله على الأرض، وهم يخلفون الله في إقامة الشرع، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن داوود: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: 26].

- ماذا قالوا الملائكة؟

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]. أولًا: ينبغي لنا أن نعرف أن سؤال الملائكة ليس اعتراضًا على الله، ولا يمكن أن تعترض الملائكة وهي خلق من خلق الله على حكم الله أبدًا، ليس اعتراضًا وإنما استفهام، قالوا يعني كأنهم يريدون أن يعرفوا ما الحكمة من ذلك؟ الله لما أخبرهم بأنه جاعل في الأرض خليفة، وخالقٌ بشرًا من طين، ما الحكمة من ذلك؟

- هل هي لعبادتك يا رب؟

فنحن نعبدك، نسبح بحمدك ونقدس لك، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ ردًا عليهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]؛ أعلم من الحكم التي تترتب على خلق آدم والغايات التي لا يعلمها الملائكة، يعلمها الله عَزَّ وَجَلَّ.

- قد يسأل سائل يقول: لماذا قالت الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ من أين أتوا بهذا الشيء؟

الجواب: أهل التفسير ذكروا أقوالًا كثيرة، وأقرب هذه الأقوال أن الجن خُلقت قبل الإنس، وأبو الجن إبليس كان يتعبد مع الملائكة، والجن كانت ذريته موجودة؛ لأن الله خلق الجان كما قال: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ [الحجر: 27]. فكان الجن قد خُلق من قبل، وكان فيه من يفسد ويسفك الدماء، فقالوا: أتجعل فيها من يفسد كالجن؟ ونحن نعبد.

قال: إني أعلم؛ لأن الله سبحانه لما أراد أن يخلق آدم وذرته وينشرهم في الأرض، من حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ذلك أن يتخذ أولياء، وأن يكون له أنبياء وأصفياء، وأن تظهر عبادته على الأرض، وأن يعبده الناس وهو غني عن ذلك كله سبحانه، لكنه أراد أن يظهر هذا الأمر لحكم عظيمة.

قال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. ثم أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يثبت للملائكة أنه خلقه عن علم، وأن آدم سيكون أفضل من الملائكة بالعلم، وأن الله فضل هذا المخلوق بالعلم.

ولذلك اختبر الملائكة حتى يبرز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للملائكة فضل آدم وفضل العلم، قبل ذلك قال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]؛ أسماء كل شيء، كل ما يخطر ببالك الله علم آدم الأسماء كلها من غير استثناء، كلها: الجدار، والسماء، والأرض، والحائط، والشجر، والجبل، والماء، وكل شيء؛ حتى قال بعض المفسرين **"القصعة والقصيعة والقدر"**، كل شيء.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: 31]. عرَض ماذا؟ عرض هذه الأشياء المسميات؛ الجبل والشجر والماء ونحو ذلك، عرض هذه كلها على الملائكة، ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 31]. **"إن كنتم صادقين"** أنكم تقولون ما

تقولون، فأخبروني عن أسماء هذه الأشياء؛ ما أسماؤها؟ ما أسماء هذا الجدار وهذا الحجر وهذا الشجر؟ ما أسماء هذه الأشياء؟ أخبروني بها: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32].

قالوا: **"سبحانك"** تنزيهًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعلموا شيئًا لم يعلمهم الله إياه. قالوا: سبحانك ليس لنا علم أبدًا، لا علم لنا إلا ما أنت أخبرتنا به نعلمه، أما ما لم تخبرنا به فليس لنا علم، ولا أحد يستطيع أن يوصل إلينا علمًا بعد علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. **"إنك أنت العليم الحكيم"**؛ انظر كيف تعظيم الملائكة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ووقوفهم عند هذا الحد لا يتجاوزونه.

قالوا: **"لا علم لنا"**، مع أن الله أنعم عليهم بالعلم وأعطاهم من العبادات، ومع ذلك يقفون عند هذه الحدود. ولذلك استنبط بعض أهل العلم **"أن الإنسان ينبغي له إذا سئل عن شيء يجهله أن يقول: لا علم لنا، الله أعلم، لا علم لنا إلا ما علمتنا"**.

ولذلك الملائكة قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32]. العليم بكل شيء، محيطٌ علمك بكل شيء، وحكيمٌ تضع الأمور مواضعها، ولم تخلق آدم عبثًا وإنما خلقته لعلم وحكمة. الآن بدأت الملائكة تعرف الغرض من خلق آدم.

قال الله بعدُ: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: 33]؛ أسماء هذه المسميات. ﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾؛ أنبأ آدمُ الملائكةَ بأسماء المسميات كلها، قال هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا إلى آخره، إلى أن انتهى الأمر.

لما أنبأهم بأسمائهم، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 33]. قال الله للملائكة: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض؟ أعلم ما غاب وما ظهر. **"غيب السماوات"**؛ كل ما غاب في السماوات والأرض يعلمه الله، لا يخفى عليه شيء لا في السماوات ولا في الأرض. ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾؛ ما تظهرونه أنتم، ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ في صدوركم. كل ذلك يعلمه الله، كل ذلك سواء لا يخفى على الله شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا كله يدل على سعة علم الله جل جلاله.

لما ميز الله آدم بالعلم، وجعله في هذه القضية يتميز على الملائكة بأن الله علمه وأصبح ارتفع بالعلم، أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يزيد آدم من الفضل على الملائكة، فماذا قال؟ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: 34].

واذكر أيضًا إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، أمر الله الملائكة جميعًا، كل الملائكة أمرهم أن يسجدوا لآدم سجود تحية واحترام لا سجود عبادة؛ فسجود العبادة لا يكون إلا لله. وهم امتثلوا أمر الله وأطاعوا ربهم فسجدوا لآدم؛ سجد الملائكة كلهم أجمعون.

قال هنا: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34]. إبليس كان مع الملائكة من جهة العبادة، أما في الخلق فلا؛ إبليس مخلوق من نار كما يقول: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف: 12].

والملائكة خُلقت من نور، وإبليس له ذرية يتناسلون والملائكة لا يتوالدون وليس لهم ذرية، فهم يختلفون، ليس إبليس كالملائكة، وإنما كان معهم في العبادة فقط؛ كان يتعبد كما تتعبد الملائكة، ولذلك قال: **"فسجدوا"** أي الملائكة كلهم، ثم قال: **"إلا إبليس"**. لما كان معه في المسجد لم يسجد؛ **"أبى"** أي امتنع عن السجود، ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾. وفي آيات أخرى قال: ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61].

فأبى وامتنع واستكبر وكان من الكافرين؛ ثلاثة أمور: **"أبى"** أي امتنع، **"واستكبر"** من التكبر والتعالي وعدم التواضع لله وعدم طاعة الله؛ استكبر عما أمره الله، وامتنع وكان من

الكافرين الجاحدين لأمر الله، وفي نفسه كفر. ولذلك سبب امتناعه هو الحسد والكبر؛ حسد أنه حسد آدم وتكبر عليه، قال: ﴿وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

ثم بعد ذلك يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما سجد الملائكة كلهم لآدم، وأصبح فضل آدم قد رفعه الله؛ فضله بالعلم أولًا وبسجود الملائكة، فصار آدم أبو البشر على هذه المكانة العالية، أمره الله أن يسكن في الجنة وهو وحده، ما معه أحد وحده، ثم خلق منه زوجه حواء؛ تأتي قصة آدم وحواء لأنه قال: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35].

وفي آية أخرى قال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1].

- من أين خلق زوجه؟

☜ قال أهل العلم وجاء في أحاديث النبي ﷺ: **«أَنَّ آدَمَ كَانَ قَدْ نَامَ فَخَلَقَ اللَّهُ مِنْ ضِلْعِهِ الْأَيْسَرِ الْأَسْفَلِ»**؛ الضلع من الأضلاع اليسرى، الجهه اليسرى الأسفل، خلق منه حواء؛ خُلقت من ضلع أعوج، وخلقها في أحسن صورة وجمال.

ثم لما استيقظ آدم فإذا عنده زوجته حواء؛ قال: من أنتِ؟ قالت: أنا حواء زوجتك. فعاش هو وإياها في الجنة، ثم أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الله قال له: **"اسكن"**؛ أي أقم في هذه الجنة لن تخرج منها، ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، وكُلا من نعيم الجنة، لكن: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35]. شجرة واحدة حددها امتحانًا واختبارًا وابتلاءً؛ إلا هذه الشجرة فإن أكلتما تكونا من الظالمين.

فوسوس له الشيطان، وبدأ يزين: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: 120]. وبدأ يزين لهم حتى أوقعهم في المعصية. الحديث عن هذا يأتي إن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله، نستكمل فيه الحديث عن لما سكن آدم الجنة وأباح الله له أن يأكل رغدًا من كل مكان وحرم ومنعه من هذه الشجرة؛ ماذا ترتب عليه وماذا حصل؟ يأتي الحديث إن شاء الله في اللقاء القادم.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن ينفعنا جميعًا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(11)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، صلَّى وسلَّم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ أما بعد:

أيها الإخوة سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا المجلس المبارك، مجلس الأربعاء في قراءة كتاب الله وبيان معانيه وتفسيره، نجلس في هذا المجلس المبارك الذي تحفه الملائكة بإذن الله ونتدارس آياتٍ من كتاب الله.

توقف بنا الحديث في اللقاء الماضي عند قول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34]، هذه الآية لا تزال أو لا يزال الحديث فيما تقدم عن خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وخلق آدم بيده من طينٍ، وأسكنه الجنة، وأراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يشرف آدم ويرفع قدره ويعظمه عند الملائكة؛ عرض على الملائكة جميع المسميات وقال أنبئوني بأسماء هذه المسميات.

فقالوا: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32]، فلما توقفوا عن علم هذه الأشياء ولم يعرفوها، وقد أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبل ذلك آدم بأسماء هذه المسميات كلها، قال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 33].

أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا لما شرف آدم بالعلم، أراد أن يرفع قدره أيضًا بأن يفضله على الملائكة؛ فأمر الملائكة جميعًا أن يسجدوا لآدم، وهذا السجود سجود تحيةٍ وإكرامٍ، وليس سجود عبادةٍ؛ لأن سجود العبادة لا يكون إلا لله، فأمر الله ملائكته جميعًا أن يسجدوا لآدم، فسجدوا جميعًا إكرامًا وتعظيمًا لآدم؛ فرفع الله شأن آدم بهذه المكانة بأن علمه كل شيءٍ بالعلم، ثم بسجود الملائكة كلهم أجمعون لآدم.

قال الله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34]، وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61]، تكبّر واستكبر واعترض ولم يقبل ذلك.

إبليس هو أبو الجن، إبليس خلقه الله من نارٍ، قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، فخلقه الله من طينٍ. دخوله في عالم الملائكة دخولٌ في العبادة والطاعة فقط، لا في الجنس؛ الملائكة خلقت من نورٍ ولا تتوالد ولا تأكل ولا تشرب، وإبليس يتوالد وله ذريةٌ: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50]، له ذريةٌ وخلق من نارٍ، والملائكة خلقت من نورٍ، وفرقٌ بين هذا وهذا، وإنما كان معه في العبادة، ولذلك أبى واستكبر؛ امتنع وتكبر، وكان من الكافرين الجاحدين لطاعة رب العالمين.

لما حصل ما حصل قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لآدم: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35]، لما أسجد ملائكته لآدم، وشرف آدم بهذه المنقبة، بعد ذلك سكن آدم الجنة وحده، ولكن العيش وحده لا يستطيع.

ولذلك خلق الله لآدم زوجته منه، خلق من آدم زوجته حواء وأسكنها معه؛ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك، وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحكمة من خلق حواء لآدم، قال ليسكن إليها؛ ترتاح النفس وتستقر النفس إذا وجدت من هو من جنسها، أما أن يعيش وحده لا يمكن.

ولذلك الله ذكر الحكمة من الزواج، قالوا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما خلق حواء لآدم قال لآدم: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35].

أباح له السكنى والإقامة في الجنة، والجنة هي الجنة ليس هناك جنةٌ أخرى، هي جنة عدنٍ التي خلقها الله بيده وهذه هي الجنة، وأسكن الجنة وأباح له كل شيءٍ فيها من الأطعمة ومن الفواكه كل شيءٍ، قال: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: 35]، رغدًا يعني في سعةٍ من الطعام والإباحة، في سعةٍ من الطعام والإباحة، ورغد العيش والطمأنينة والسعة.

قال: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: 35]، من أي مكانٍ من الجنة ومن أي شجرةٍ، ثم منعهم أو منعهما من شجرةٍ واحدةٍ ابتلاءً وامتحانًا، قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35]، فدل على أن هذا الأمر محرمٌ، وأن النهي هنا نهيٌ للتحريم؛ لأنه قال: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 35].

قال الله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: 36]، الشيطان بدأ يزين لآدم ويحرضه على أكل هذه الأشياء حتى يقع في المعصية، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عن عداوة الشيطان لآدم، قال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6]، يدعو حزبه ليكون من أصحاب السعير، وهو يجر بني آدم ليكونوا حزبًا معه في نار جهنم، ولذلك أول ما بدأ مع آدم، فازلهما آدم وزوجه، أزلهما أي جعلهما يزلان في الخطيئة ويقعان في الخطيئة.

في سورةٍ أخرى قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ 20 وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ 21 فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 20-22].

- كيف بدأت سوآتهما؟

قال أهل التفسير: **"إن الله ستر آدم وحواء، ستر عورتهما بنورٍ لا ترى عورتهما بهذا النور"**، وقيل بشيءٍ مثل الأظفار بحيث إنها فلما أكلا من الشجرة ذهب النور وانكشفت عورتهما، وبدأ كل واحدٍ منهما ينظر إلى عورة الآخر، واستنكر هذا الأمر واستحيا؛ فبعد ذلك بدأ ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 22]، يأخذان من أوراق الشجر ويخصفانها، يعني يجعلان بعضه على بعضٍ حتى يسترا عورتهما.

وهذا في دلالةٍ على أن من طرق الشيطان وأقوى طرق الشيطان أن يحرض الإنسان على كشف عورته؛ سواءً كان رجلًا أو امرأةً، حتى ما تصنعه النساء من كشف الوجوه وإبداء الزينة أمام الرجال هذا كله من الشيطان، كله من الشيطان، أقوى ما يستطيع الشيطان أن يبدي هذه العورة لهذا الإنسان.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: 36]، أخرجهما من هذا النعيم، نعيم الجنة، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوٌ؛ لما وقع آدم في هذه المعصية وأكل من الشجرة، أخرجهم الله من الجنة وأهبطهما من الجنة، ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: 36].

أي بين اهبطوا آدم وحواء وإبليس، بعضكم لبعضٍ عدوٌ أي بعضكم لبعضٍ؛ الشيطان مع بني آدم عداوةٌ مستمرةٌ إلى قيام الساعة، عداوةٌ مستمرةٌ، قال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي

الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: 36]، هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان، عاش عليها آدم وحواء واستقروا عليها زمنًا ثم انتقلوا.

قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: 36]، تتمتعون فيه إلى زمنٍ محددٍ وهو انتهاء الآجال، وخلفته ذريته واستمرت، يخلف بعضهم بعضًا إلى قيام الساعة، يستقرون على هذه الأرض سنين عددًا ثم انتقلون إلى عالم البرزخ ثم إلى الآخرة.

قال الله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]، لاحظ أن آدم لما وقع في المعصية عاد إلى ربه هو وحواء واستغفر، قال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، ولاحظ الفرق بين آدم وبين إبليس.

ماذا طلب إبليس؟

قال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: 36]، ما قال أتوب ولا أستغفر، إنما قال أنظرني، يرتكب المعصية ويطلب أن يمد له في وقته، وأما آدم وقع في الخطيئة وتاب ورجع فتاب الله عليه واجتباه، وكان بعد توبته خيرًا مما قبلها، ففتح الله له باب التوبة، وهذا ينبغي للمسلم أنه إذا وقع في خطيئةٍ أن لا يسلك طريق الشيطان ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وإنما عليه أن يعود إلى ربه ويستغفر ويتوب.

قال: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]، تاب الله.

- ما هي الكلمات هذه التي تلقاها آدم من ربه؟

هي قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، وهذا من أفضل الأدعية في الإقلاع من الذنب والتوبة والعودة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37].

قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، طيب ذكر الله قبل ذلك الهبوط، فلماذا كررها؟

لأن قال: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: 36]، ثم مرةً ثانيةً قال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: 38] مع أنهم هبطوا؟ نقول ليرتب على ذلك حكمًا جديدًا، وهو أنه لما قال ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ قال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38]، يخاطب آدم وحواء وذريته إلى قيام الساعة أنه إذا جاءكم هدىً من الله فاتبعوه، فإن من اتبع هدى الله؛ وهدى الله كيف يأتي؟

يأتي بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فإذا أرسل الله الرسل وأنزل الكتب فإن هذه الرسالات تحمل الهداية للناس، ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 38].

- ما الفرق بين الخوف والحزن؟

قال لا خوفٌ عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما مضى؛ فمن تمسك بما أمره الله وأخذ بهدى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا يخاف على ما يأتيه أمامه لا يخاف في المستقبل، ولا يحزن على ما فاته.

قال الله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 39]، من كفر بآيات الله ولم يقبل هداه ولم يأخذ بما جاءه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [البقرة: 39] توعدهم الله بالوعيد الشديد، قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 39].

حكم الله في بني آدم أن من أطاع الله واتبع هداه فلا خوفٌ عليه ولا حزنٌ ومصيره إلى جنات النعيم، ومن عصى الله وخالف أمره وكذب بآياته وكفر فموعده النار، قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ

النَّارِ﴾ [البقرة: 39] الملازمون لها لا يفارقونها، ملازم الغريم لغريمه لا يفكه أبدًا، أصحاب النار، قال: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 39] لا يخرجون منها، ولذلك قال: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة: 37].

قال الله بعدها: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40]، لما حكى الله قصة آدم وانتهى الأمر في أنه أنزلهما إلى الأرض، ثم بدأ يرسل الرسل إليهم وينزل الكتب حتى تقوم الحجة عليهم ولا يكون لأحدٍ حجةٌ بأنه لا يعرف النجاة ولا يعرف الطريق إلى الله؛ بعد ذلك جاء الحديث عن بني إسرائيل.

- من هم بنو إسرائيل؟ ومن هو إسرائيل؟

إسرائيل هو يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم، يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم هو إسرائيل، وذريته يوسف وإخوته ثم تناسلوا بعد ذلك وأصبح كلهم يعودون إلى يعقوب، ويعقوب نبيٌّ من أنبياء الله وكريمٌ كريمٌ عند الله، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينادي بني إسرائيل وهم اليهود يشرفهم ويذكرهم بجدهم يعقوب وهو إسرائيل، يقول أنتم بنو إسرائيل.

- من هو إسرائيل؟

أنتم تتشرفون بهذا النبي الكريم، فلماذا لا تتخلقون بأخلاقه ولا تتمسكون بشريعته؟ فيذكرهم فيقول: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40].

هذه الآية وما بعدها تأتي سلسلةٌ طويلةٌ جدًا في مخاطبة بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم الرسل وبعث فيهم الأنبياء، وتمردوا على الله وعلى شرعه وعلى أنبيائه، ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87]، وهذه سيرتهم سيرةٌ سيئةٌ وأخلاقٌ ذميمةٌ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومع شرعه ومع أنبيائه، قتلة الأنبياء؛ فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يقيم عليهم الحجة بما أرسله برسالة محمد ﷺ.

وهذا القرآن وهذه الآيات تخاطبهم، تخاطب من كانوا في عهد النبي ﷺ إلى عصرٍ حاضرٍ، كل من ينتمي إلى هذا النبي الكريم يعقوب إسرائيل.

قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 40] نعم الله كثيرةٌ عليهم، بعث بهم الأنبياء وشرفهم وجعلهم ملوكًا وفضلهم على عالمين عصرهم، ومع ذلك تمردوا، فذكرهم بهذه النعمة، ثم أمرهم بالوفاء بالعهد الذي أخذ عليهم، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40].

إذا تمسكتم بما عاهدتم الله عليه من التمسك بشرعه وبما أمركم الله به من المعاهدة والعهود، فإن النتيجة فإن الله يجازيكم؛ قال ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40] وأجازيكم عليه، ثم قال ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40] تخويفًا لهم أن يخافوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تخويفًا لهم لأن دعوتهم للتخويف من الله تجعلهم يرجعون إلى الله ويتوبون إليه.

ثم بدأت الأوامر فقال: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: 41].

- ما هو الذي أنزله الله مصدقًا لما معهم؟ ما هو الذي معهم؟

التوراة، ما الذي أنزله الله؟ القرآن، فهو يخاطبهم يقول آمنوا بهذا القرآن؛ هذا القرآن الذي نزل على محمد وأنتم سمعتم عنه وجاءتكم أخباره آمنوا به، وهذا القرآن الذي بين أيدينا هو مصدقٌ لما معكم، هو يصدق التوراة ما يخالفها، يصدق التوراة ويخبر بما في التوراة، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: 41]؛ لا تكفروا يا بني إسرائيل بمحمد وبهذا القرآن،

فإن كفرتم وكنتم أول من يكفر به فإن من تبعكم في كفركم فعليكم وزره إلى يوم القيامة، ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: 41].

ثم قال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: 41]، لاحظ أن هذه الأوامر كلها نقضوها ولم يقبلوا بها إلا من رحم الله، إلا قلةٌ جدًا منهم، لكن غالبهم لم يقبل منهم؛ اذكروا نعمة الله لم يذكروا الله، أوفوا بعهده لم يوفوا بل هم ينقضون العهود والمواثيق، وإياي ارهبون لا يخافون الله، وآمنوا بما أنزلت مصدقًا لما معكم لم يؤمنوا برسالة محمد بل كفروا بها، قال ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: 41].

اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلاً، اعتاضوا بآيات الله وأخذوا بدينهم وشرعهم وما أنزل الله عليهم من المواثيق وما أنزله من الأحكام بالتوراة؛ أخذوا بعرضٍ من الدنيا مقابلها، واشتروا بدينهم شيء عرض من الدنيا وشيء زهيد من الدنيا، قال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: 41] تأخذون الرشاوى وتكذبون على الناس وكل هذا مقابل أن تجحدوا آيات الله وتخفوها، قال ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: 41] اتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا تتقوا غيره.

قال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 42]، هم يلبسون على الناس الحق بالباطل، لا يظهرون الحق لا في التوراة ولا في صفات محمد ولا في القرآن ولا في شريعة محمد، بل يخفون على الناس ويلبسون على الناس، قال ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾.

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 42]، ما هو؟

يكتمون ما جاء بالتوراة أن الله أمرهم أن يؤمنوا بمحمد ويكتبون ذلك ويغيرون، قال ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. ثم كل ذلك لم يقبلوه ولم يمتثلوا أمر الله، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: 43]، هذا من المواثيق التي أمرهم من أعظم المواثيق التي أمر بها بنو إسرائيل، وأمرهم الله به أن يقيموا الصلاة على ما أمرهم الله به بشريعتهم، وأن يؤتوا الزكاة مستحقيها، ومع ذلك لم يمتثلوا. قال ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: 43] اجتمعوا وكونوا جماعةً واحدةً وصلوا مع الجماعات وحافظوا عليه على صلاة جماعةٍ فإنها خيرٌ لكم وفضائلها كثيرةٌ، ومع ذلك لم يقبلوا هذا الأمر وردوا ذلك كله.

كل هذا يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثالبهم ويذكر صفاتهم السيئة ومواقفهم مع شرع الله، مع الله ومع شرعه ومع أنبيائه؛ للحديث بقيةٌ إن شاء الله في الآيات القادمة، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(12)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي تفسير القرآن العظيم، وحديثنا هذه الليلة الشريفة المباركة مع آيات من سورة البقرة، وتوقف بنا الحديث في لقائنا الماضي عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44].

هذه الآية هي جاءت في سياق التوجيهات التي وجهها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى بني إسرائيل، وهي كما سبق في الآيات الماضية؛ بدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مخاطبة بني إسرائيل أولًا بتذكيرهم بأنهم ينتسبون إلى إسرائيل، وإسرائيل هو نبي من أنبياء الله، وهو يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم، فيذكرهم بأنهم هم من ذرية نبي شريف كريم، فكيف يحصل منهم ما يحصل من التمرد على شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعلى أنبيائه؟

فيقول لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطبًا لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: 40]. ثم ذكر مجموعة من الأوامر والنواهي المختصرة، ثم يأتي بعد ذلك تفصيلات وتوسع في ذكر النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل.

في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44]، هذا فيه إنكار على بني إسرائيل، إنكار عليهم كيف يحدث من توبيخ وإنكار، كيف يحصل منكم أنكم تأمرون الناس بالخير وبالبر وأنتم لا تفعلونه؟

ففي هذا خلق سيء، أن الإنسان يأمر الناس بفعل الشيء الحسن وهو لا يفعله؛ أولُ تبدأ بنفسك، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 3].

- كيف تفعل هذا الشيء؟

ففعلهم هذا أنكر الله عليهم أنهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، ثم قال ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: 44] والحال أنكم تقرأون الكتاب وتعرفون أحكام الله، ثم قال ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44] وفي هذا دلالة على أن من يفعل مثل هذه الأمور فيه جهل؛ هذا دلالة على أنه جاهل، لأن قال ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 44].

- أين عقولكم التي تدلكم على أنكم تفعلون هذه الأشياء؟ قد يسأل سائل ويقول: هل بنو إسرائيل يأمرون الناس بالبر ويأمرون الناس بالخير؟ هم كيف يأمرونهم بالخير وهم من أشد الناس بعدًا عن الخير والبر؟

الجواب: هم على طوائف ليسوا على درجة واحدة، فمنهم من يفعل الخير ومنهم المؤمن الصالح ومنهم من هو أقل من ذلك، ومنهم من يفعل ومنهم من لا يفعل، وهم على طبقات وعلى درجات.

ووقفة مهمة؛ إنه وإن كان هذا الخطاب موجهًا لبني إسرائيل فإنه موجه لهذه الأمة، فأنت مخاطب بأنك تأمر الناس بالبر وأنت لا تمتثل؛ هذا من الخطأ ومن العيب أنك تفعل هذا الشيء، بأنك تأمر الناس بالإحسان والبر وغيره من الأعمال والطاعات وأنت لا تمتثل، ابدأ بنفسك وامتثل أمر الله ثم اصنع ذلك.

وأيضا هنا أيضا مسألة، وهي لا يعني هذا أن الإنسان إذا كان مقصرًا في أمر من الأمور أنه يقول إنه لا يأمر الناس بالخير، هذا خطأ؛ وإن كنت مقصرًا في هذا الشيء فأمر غيرك، فإذا كنت مثلا لا تتصدق لظروف ما أو لأسباب ما، لا يعني هذا أنك لا تأمر الناس صدقةً.

وإذا كنت مثلا مقصر في بعض الطاعات لا يعني ذلك أنك لا تأمر من تحتك من أبنائك وزوجتك أو من جيرانك أو من هم تراهم لا يعني هذا حتى لو كنت مرتكبًا معصيةً من المعاصي لا يعني أنك لا تنهى الناس عن هذه المعصية؛ فلا بد أن نفهم هذه الآية يعني على ما أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45]، يستعينون على هذه الأوامر وهذه النواهي وما جاءه من الله، فإن الذي يعينك بعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صبرك وتحملك.

تصبر على فعل الطاعات؛ الطاعات تحتاج منك صبرًا، تحتاج منك جلدًا وتحملًا، كثير من الطاعات قد تكون شاقةً عليك فتحتاج منك التصبر، **«وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ»**. فيخاطب الله بني إسرائيل أن يصبر، وكل هذه الآيات وإن كانت خطابات لبني إسرائيل لا يمنع أن تكون خطابات لنا، ما دام أنها يعني تتوافق مع شريعتنا.

قال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة: 45] الصبر على الطاعات، الصبر عن المعاصي؛ أن تبتعد عن مواطن المعاصي وعن أهل المعاصي، وتصبر نفسك عن البعد عن الوقوع في المعاصي، وكذلك تصبر نفسك على ما يقع عليك من أقدار يقدرها الله ومن مصائب تصيبك، فعليك أن تصبر إذا واجهتك مصيبة أن تصبر.

قال ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة: 45] إنسان يستعين على ما يواجه في حياته ويكابده في حياته على الصبر؛ الصبر خير معين لك، ثم الأمر الثاني قال ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45]، والصلاة أيضًا من الأمور المهمة التي تعين على فعل الأشياء، قد يجد الإنسان صعوبةً سواء حتى لو كانت في أمور الدنيا، يعني سواء في أمور الطاعات وأمور الدين أو حتى في أمور الدنيا، في أمور الدنيا يستعين الإنسان عليها بالصلاة، **«كَانَ - ﷺ - إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزِعَ إِلَى الصَّلَاةِ»**.

ولكن ليس صلاة، ليست كل صلاة تعينك على تحمل المشاق في أمور الدين أو الدنيا، قد تصلي لكن لا تنفع بصلاتك، لماذا؟ تأمل هذه الآية، قال ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة: 45] أي الصلاة عظيمة وكبيرة وقد تكون شاقة على كثير من الناس، قال ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: 45].

فالخاشعون هم المنتفعون بالصلاة، والخاشعون في صلاتهم هم الذين يجدون أثر هذه الصلاة عليهم وتكون عونًا لهم، تكون عونًا لهم وتعينهم على فعل كثير، إذا كنت قد أتيت إلى الصلاة بخشوعها؛ أما أن تؤديها بركوع وسجود وقيام وأنت لا تخشع فيها فالصلاة لبها وحياتها الخشوع، فإذا ذهب الخشوع فهي شكل لا فائدة فيها، ما تستفيد منها، ولذلك الله ركز عليه.

وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى وعلق الفلاح على الذين يخشعون في صلاتهم ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ 1 الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 1-2]. فالصلاة الخشوع، إذا لم تستحضر هذه الصلاة، تستحضر عظمة هذه الصلاة أمامك، ومن تصلي ولمن تصلي ومن الذي أمامك تصلي له؟ إذا استحضرت هذا الأمر استعظمت هذا الأمر، حصل لك الخشوع، وإذا حصل الخشوع وجدت أثر الصلاة عليك في دفع الفواحش والمحرمات والمنكرات.

تجد أثرها الطيب المبارك عليك في حياتك، في حياتك وفي سلوكك وفي أخلاقك وفي تعاملك وفي أبنائك، ولذلك إبراهيم في دعائه ماذا يقول؟ ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 40] فهذه الصلاة لها أثر عظيم، ولذلك قال ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: 45].

ثم أمر آخر أيضًا يعينك غير الصبر وغير الصلاة التي فيها الخشوع، أمر آخر عظيم، قال الله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 46]، يظنون هنا بمعنى يستيقنون، الظن هنا بمعنى اليقين، يعني عندهم اليقين كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول الصفات قال ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4].

فالذين يظنون أنهم ملاقو ربهم يظنون أي يجزمون ويعتقدون ويستيقنون أنهم سيلاقون ربهم يوم القيامة، ويلاقونه بأعمالهم الحسنة الطيبة، ويلاقيهم بجزائهم الطيب الحسن، هذا معناه.

فأنت إذا اعتقدت وجزمت بأنك تعمل هذه الأعمال في الدنيا لأنك ستلقى ربك وقد رضي عنك وأرضاك، عملت هذه الأشياء، وهذه تعينك على فعل الخيرات وتعينك على تحمل المصائب في الدنيا، كل ذلك لأنك تنتظر هذا اليوم، ولذلك قال ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 46].

فحقيقة اليوم الآخر واليقين باليوم الآخر ولقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولقاء جزاءك يوم القيامة، كل ذلك مما يعين على فعل الخيرات والمسارعة والمسابقة والتنافس في الطاعات، وعلى تحمل مشقات الدين والدنيا.

قال لما ذكر هذه الأمور ونتأملها ونتفكر فيها ونستفيد منها في حياتنا، قال مرة أخرى مناديًا بني إسرائيل مذكرًا لهم بما أنعم عليهم، وهذه نعم كلها، قال ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: 47].

ولما يذكر الله في أول الآيات ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [البقرة: 40] ثم يعيد مرة ثانية ليرتب عليه تذكيرهم بأي شيء؟ تذكيرهم بيوم القيامة؛ هو ذكرهم بما أمرهم ونهاهم عنه ولم يمتثلوا، عاد تذكيرهم بأنهم سيلاقوا ربهم يوم القيامة.

ولذلك قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 47]. فضل الله بني إسرائيل على العالمين في وقتهم، في زمانهم، أما على أمة محمد لا، أمة محمد هي خير أمة أخرجت للناس وهي أفضل الأمم على الإطلاق؛ لكن لو جاءك سائل وقال لك الله يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 47] نقول نعم، على عالم زمانهم، على وقتهم فقط، وأما بعد فإن أمة محمد هي فوق الأمم كلها.

قال: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 47]، ثم ذكرهم بلقاء ربهم قال ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: 48]، هذا اليوم يوم عصيب، يوم هول، يوم شديد، يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبه، ما فيه تجد يعني أصعب وأشد منها مثل هذا اليوم الشديد الذي قال الله فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: 19] ولو كانت أقرب الناس لا تملك نفس شيئًا.

ولذلك قال هنا قال يوما لا تجزي، لا تنفع نفس ولا تدفع نفس عن أخرى شيئًا، ولا شيء، لا قليل ولا كثير، لو تريد حسنة يأتي الوالد لابنه لولده ويقول حسنة يا ولدي ما يعطيه، وتأتي الزوجة إلى زوجها والزوج والعكس، لا أحد يعطي أحد، كل يقول نفسي نفسي.

ولذلك قال لا تجزي نفس عن نفس مطلقًا، لو كانت أقرب الناس إلى الله كالأنبياء والصالحين فلا ينفعون أبدًا في هذا اليوم، ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: 48]. حتى هذه النفس إذا أرادت أن تشفع عند الله، تريد أن تشفع لغيرها لا تقبل شفاعتها

إلا إذا أذن الله ورضي عن المشفوع، إلا إذا أذن الله ورضي عنه، فلا تقبل منه شفاعة، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48].

هذا اليوم الشديد العصيب لا يقبل من أحد، لو جاء بملء الأرض ذهبًا لا يقبل ولا يقبله أي أن يريد أن يفتي.

يفتدي ما يستطيع، ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: 11] ما يمكن أن- أن يفدي ولا بأي شيء، فلا خلاص ولا مناص من هذا اليوم، قال ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: 48] لا أحد يستطيع أن ينصره في ذلك اليوم إلا منه من الله ورحمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعمل صالح ينفعه.

بعد ذلك تأتي الآيات تفصل بما أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على بني إسرائيل، وأنت تقرأ هذه الآيات وتتفكر في هذه النعم التي يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لبني إسرائيل يذكرهم بذلك فيقول ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 49].

هذه من أعظم النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، كانوا يعيشون في اضطهاد وتعذيب؛ يذكرون الله سبحانه يقول وإذ نجيناكم، الذي نجاهم وأنعم عليهم بالإنجاء هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأنت تقرأ هذه الأخبار وأنت لا تعلمها، وقبل نزول القرآن ما كان أحد يدري عن هذه الأخبار بدقة وتفاصيل إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أوحى بها إلى محمد ﷺ حتى أنك تتعجب من بني إسرائيل الذين عاشوا في زمن النبي ﷺ وهذه الأخبار تساق إليهم تفصيلًا دقيقًا ومع ذلك يعرضون ويكفرون ويغفرون.

بمحمد ﷺ، قال الله ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: 49] أعظم نعمة على بني إسرائيل أنه خلصهم من عذاب فرعون وآل فرعون، التعذيب.

- ما هذا العذاب؟

قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 49] يسومونكم يعني لا يقفون عند حد معين، الصوم هو الاستمرار على الشيء يعني والبقاء عليهم لا ينقطع، هذا معناه يسومون سوء العذاب أي لا يقفون عند حد معين، بل يسلطون عليكم العذاب المستمر ليلًا ونهارًا بأشق أنواع العذاب، يسومونكم سوء العذاب، العذاب السيء الشديد يسلطونه عليكم، كانوا قد تسلطوا عليهم بأشد أنواع العذاب.

- من أنواع العذاب الذي واجهه بنو إسرائيل ما هو؟

قالوا ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: 49]، الأبناء إذا ولد من بني إسرائيل ذبحوه لماذا؟ لسببين:

⬅ السبب الأول: أنهم لا يريدون انتشار وكثرة بني إسرائيل في مصر حتى تكون لهم القدرة والقوة والسلطة.

⬅السبب الثاني: أن الكهنة أخبروا فرعون بأنه سيذهب ملكه تحت أحد من بني إسرائيل، تحت واحد من بني إسرائيل سيذهب بملكه، فلما أخبروه بذلك بدأ يذبح الرجال منه والأبناء، ولما رأى أنه قد يعني استحر القتل بهم ولم يبق منهم أحد عرضوا عليه أن يقتل سنةً ويترك سنةً ولذلك هارون ولد في السنة التي لا يقتل فيها.

ومن البلاء والامتحان أن موسى يولد في السنة التي يقتل فيها، ولم يستطع فرعون ولا آل فرعون قتله.

قال ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: 49]، يستحيون يعني يحيونها يبقونها أحياء، يبقون البنات والأحياء لا يذبحونهم لماذا؟

أيضًا لسببين:

⬅السبب الأول: هو أنهم يستعملونهم في العرض والفاحشة.

⬅السبب الثاني: أنهم يجعلوهم خدمًا لهم، يجعلون هؤلاء النساء من بني إسرائيل يقومون بخدمتهم.

- قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 49]، في ذلكم ما هو؟ الإنجاء ولا العذاب؟ التعذيب؟

الجواب: نقول كلاهما، البلاء يكون في الخير ويكون في الشر ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35] ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: 168] فالبلاء يكون على الخير ويكون على الشر، فإذا عرفنا أن البلاء والامتحان قد يمتحن الإنسان، ولذلك سليمان لما أعطاه الله أعطاه الملك التام ماذا قال؟

قال: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: 40] امتحان، يقول هذا لي امتحان؛ فهنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال وفي ذلكم أي في إنجائكم يا بني إسرائيل لما أنجيناكم من فرعون وآل فرعون من العذاب هذا امتحان لكم أتشكرون أم تكفرون؟ وكذلك نقول وفي ذلكم بلاء أي تعذيب فرعون وملئه بني إسرائيل بلاء وامتحان من الله امتحان لهم.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَإِذْ﴾ [البقرة: 50] لما قال ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: 49].

- لو سألك السائل قال: كيف نجاهم؟ كيف نجاهم؟

الجواب: نقول نجاهم بإرسال موسى إليهم أولًا، ثم ما ذكره الله بعدها في هذه الآية ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 50]، لما اشتد العذاب والتعذيب من فرعون وآله على بني إسرائيل وعلى موسى وقومه ورأوا شدة العذاب منه، أوحى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى موسى ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ [الشعراء: 52] ليلًا، جمع قوم المؤمنين وأمره بالخروج من مصر حتى يتخلص من فرعون وعذاب فرعون، فخرجوا ليلًا وتوجهوا شرقًا.

فلما توجهوا خارجين علم فرعون وأُخبر بأن موسى وقومه قد فروا هاربين وخرجوا فلحق بهم هو وقومه، فلما وصلوا على أطراف البحر فإذا فرعون في الصباح، فإذا فرعون قد قدم هو وجيشه، فقالوا لموسى: العدو ورانا والبحر أمامنا فأين نذهب؟ قال ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62].

فلما وصل البحر ضربه ﴿فأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ63 وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: 63-64] فقال هنا ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة: 50]، فرقنا يعني فصلنا البحر، لما ضربه موسى انفلق اثني عشر طريقًا ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: 77]، أوحى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يضرب بعصاه البحر فانفرق عدة طرق، وكان كل فرقة من بني إسرائيل يسلكون طريقًا، يسلكون طريقًا، وأصبح يبسًا، يبسًا ومشوا في وسط البحار وقطعوه.

قال: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 50]، فلما خرجوا من البحر وتجاوزوه التفت موسى ليضرب البحر حتى يعود ماءً، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان: 24] لا تضربه، اتركه حتى ينزل هؤلاء، قال ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ [الدخان: 24].

لما وصل فرعون ورأى هذه الطرق اليابسة والناس يمشون نزل مباشرة معه ليلحق بهم، فلما اكتمل جيش فرعون في البحر ترك الله البحر ليعود كما كان، فتراطمت الأمواج عليهم وغشيهم من اليم ما غشيهم، وأضل فرعون قومه وما هدى.

قال هنا: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 50]، هذا أعظم نعمة، أنك تشاهد عدوك الذي تسلط عليك في الليل والنهار وتشاهده أمامك يغرق ويموت، وفي آية أخرى قال ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: 92] وهم ينظرون أمامكم، فهذه من أعظم النعم التي يسوقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: 51]، موسى أخبر قومه أنه إذا نجاه الله من فرعون أنه سينزل عليه كتابًا فيه هدايتهم، فلما تجاوزوا البحر سألوه قالوا: أين الكتاب الذي وعدك الله؟ وأين الذي سينزل عليك؟

فبعد ذلك وعد الله موسى أربعين ليلة ليلقى الله بالميقات وينزل عليه الكتاب، والحديث عن هذا يأتي إن شاء الله في لقائنا القادم بإذن الله، نستكمل ما توقفنا عنده، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(13)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، صلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، نجتمع في هذا المقام المبارك لنقرأ آيات من كتاب الله، ونتأمل ما فيها، ونتدبرها، ولا زلنا في هذه الآيات التي تتحدث عن بني إسرائيل وما أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم من النعم العظيمة.

ومن أعظم هذه النعم ما تحدثنا عنه في اللقاء الماضي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 49]، وقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 50]، كل هذه نعمٌ عظيمةٌ يذكر الله بها بني إسرائيل.

ثم من النعم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أنجى بني إسرائيل من فرعون وملئه، وجاوزوا البحر، وقد وعدهم موسى أن يذهب إلى ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن ينزل عليه كتابًا فيه هدىً ورحمةٌ لهم وفرقانٌ، فذهب موسى إلى ربه وقد واعده ربه أن يأتي إليه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: 51]، فذهب إلى ميعاد ربه ومكث أربعين ليلةً يناجي ربه في هذه الأيام الأربعين.

وقد ذكر بعض المفسرين: **"أن هذه الأيام هي شهر ذي القعدة المحرم مع عشر ذي الحجة"**، فلما ذهب إلى ميقات ربه اتخذ قومه عجلًا، ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: 148]، وعبدوه من دون الله، وذلك أن السامري وهو كان رجلًا منافقًا دخل معهم فصنع لهم عجلًا من ذهب.

أخذ من حليهم وحلي بني إسرائيل وحلي فرعون وقومه الذين كانت معهم، فصنع له عجلًا وقال: هذا إلهكم وإله موسى، ولكن موسى نسي إلهه وذهب يبحث عنه وسيرجع، فبدأ القوم يعبدونه ويطوفون حول هذا الإله، صنع لهم عجلًا جسدًا له خوارٌ فعبدوه من دون الله.

وقد أنكر عليهم هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن موسى لما ذهب إلى ميقات ربه جعل هارون أخاه مكانه، قال: ﴿وَاخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 142]، ولكن القوم لم يسمعوا له كما قال هو: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: 150]، فعبدوا، فلما رجع وقد أخبره الله سبحانه قال: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى 83 قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى 84 قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: 83-85]، فأخرج لهم عجلًا جسدًا له خوارٌ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: 51]، اتخذتموه إلهًا، حذف كلمة إلهًا لأنها لا تليق، لأنه لا يستحق، والعجل معروف ببلادته وكسله وضعفه، فكيف يتخذونه؟!

اتخذوه وكانوا ظالمين، لم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا فاتخذوه، قال: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: 51]، والحال أنكم ظالمون أنفسكم، كيف ترون هذه الآيات العظيمة والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينجيكم من فرعون ويهلك فرعون أمامكم في البحر ثم بعد ذلك تعبدون إلهًا آخر من دونه؟!

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: 52]، عفا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن عبدة العجل بأن يقتل بعضهم بعضًا، قال: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 52]،

تشكرون نعمة الله بأن رفع عنكم وتجاوز عنكم، ثم بعد ذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 53]، في ذهابه إلى ميقات ربه أنزل الله عليه الألواح وأنزل عليه التوراة.

ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا ورأى أنهم قد عبدوا العجل ألقى الألواح، ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: 154]، فلما رآه أنكر عليهم وغضب عليهم غضبًا شديدًا، فهذا معنى قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾، الكتاب هو التوراة الذي أنزله الله على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ-، والفرقان وصفٌ له؛ لأن فيه التفريق بين الحق والباطل والهدى والضلال، قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 53]، بهذا الكتاب ويكون هدايةً ونورًا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44].

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: 54]، بدأ الحوار معهم لما اتخذوا العجل إلهًا، ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 54]، توبتهم أن يقتل بعضهم بعضًا بالخناجر والسكاكين والسيوف، فبدأ يقتل بعضهم بعضًا، هذه توبتهم.

حتى ذكر بعض المفسرين: **"أنه قُتل في يوم أكثر من سبعين ألفًا من عبدة العجل"**، وكان الذين يقتلونهم هم الذين لم يعبدوا العجل، ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي يقتل بعضكم بعضًا، ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 54].

ثم إن الله سبحانه بعد ذلك لما شكى كثيرٌ من بني إسرائيل إلى موسى أن القتل استحر وبدأوا يتضرعون إليه، قالوا: ادعُ الله وادعُ لنا الله أن يرفع عنا هذا السيف، فرفع الله عنهم، فتاب الله عليهم إنه هو التواب الرحيم، ولاحظ قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾.

- اختار كلمة بارئكم، ما هو البارئ؟

الله ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الحشر: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: 24]، فكان هذه درجات، **"الخلق عام وواسع، والبارئ أخص، فالبارئ أخص من الخالق لأن إبراء الشيء هو إظهار خلقه وإظهاره بإبداع، ثم بعد ذلك قال المصور، والمصور أدق لأن التصوير أدق من الخلق، خلق مع تشكيل وإبداع وإظهار هذه الأشياء"**.

وهذا معنى واختيار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الاسم، قال: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ أي الذي أنشأكم وأوجدكم بهذا الشكل وبهذا الجمال وبهذا الحسن والبهاء، كيف تعبدون صنمًا؟! تعبدون عجلًا؟! تعبدون آلهةً من دون الله لا تنفع ولا تضر وتتركون الذي خلقكم وبرأكم وأنشأكم بهذا الخلق البديع الجميل؟!

ثم إن موسى لما بعد ذلك اختار من قومه سبعين من النقباء من خيرة قومه، ليذهبوا معه إلى الطور ويعتذروا إلى رب العالمين عما فعله قومهم من عبادة العجل، فاختار موسى قومه سبعين رجلًا وذهب بهم.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]، هذه من جراءة ومن سخافة عقولهم، هم جاءوا من الاعتذار ما جاءوا، ولذلك لاحظ الأسلوب كيف يقول: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾، كل هذا وكل هذه الآيات والنعم وتقفون عند هذا الحد تقول: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ يا موسى؟!

يعني لن نصدق برسالتك ولن نصدق بأن الله كلمك، ولن نصدق بأن الله أنزل عليك التوراة، ولن نصدق بهذه الآيات كلها التي شاهدوها أمامهم أحيانًا.

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، وهذا كله تعنتٌ، تعنتٌ لا يريدون الوصول إلى الحق، وهذه من سخافات هؤلاء اليهود، وذلك لما جاءوا إلى الطور ليعتذروا عن قومهم وكلم الله موسى قالوا: لا نؤمن حتى نرى الله جهرةً، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 55]، الصاعقة أنهم ماتوا، الصاعقة أحيانًا يموت الشخص منها وأحيانًا يغمى، هنا ماتوا، وفي قصة موسى لما سأل الله الرؤية نالته الصاعقة هذه إغماء؛ لأنه عاد مرةً أخرى، مات هنا.

- ما الدليل على أنهم ماتوا؟

قال الله بعدها: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لعلكم تشكرون﴾ [البقرة: 56]، قال حتى قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون لأنهم ماتوا واحدًا واحدًا هؤلاء السبعين، وكل ينظر إلى الآخر وهو يسقط ميتًا، ولذلك قال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾، ينظر بعضكم إلى بعض، ثم بعثناكم من بعد موتكم، أحياهم الله من بعد موتكم لعلكم تشكرون نعمة الله بأن أعادكم إلى الدنيا وإلا متم.

هذه هي الآية الأولى من الآيات التي ذكر الله فيها أنه يحيي الموتى في الدنيا، لو نقرأ في القرآن في سورة البقرة ذكر الله خمس آيات بين فيها قدرته سبحانه على إحياء الموتى في الدنيا: هذه أول آية، والثانية مع قتيل بني إسرائيل ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [البقرة: 73]، والثالثة في الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف قال الله: ﴿مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: 243]، والرابعة في الرجل الذي مر على قرية أماته الله مائة عام ثم بعثه، والخامسة مع قصة الطيور وإبراهيم أنه أحيا الموتى أمامه.

هذه خمس آيات وردت في سورة البقرة في بيان قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على إحياء الموتى في الدنيا، أما إحياء الموتى في الآخرة فلا أحد يشك في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادر على أن يبعث الأولين.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28]، إنما هي زجرةٌ فإذا هم قيام ينظرون، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 56].

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: 57]، كل هذه نعمٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على بني إسرائيل يذكرهم لعلهم يرجعون لعلهم يتذكرون، قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾، وذلك في التيه في سيناء لما جاوز البحر استقروا في سيناء، وأمرهم موسى بعد ذلك بالدخول إلى القرية كما سيأتي، لكنهم في ذلك لما وصلوا إلى هذا المكان طلبوا موسى يعني أن يأتي بشيء يظللهم عن الشمس، فسألوا الله فظلل الله عليهم الغمام، فبدأ الغمام يأتيهم إذا اشتدت الشمس أتاهم الغمام ينزل عليهم وهو سحابٌ، سحابٌ يظللهم.

ثم طلبوا الطعام والشراب، قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾، المن ينزل قيل **"إنه مثل العسل"**، طعام مثل العسل ينزل على الأشجار ويأكلون منه، حلو الطعام، والسلوى طائر صغير مثل السمان يأخذونه ويصيدون بهدوء بلا كلفة، ويأكلون من طعمه ويأكلون من لحمه، فأنعم الله عليهم بالطعام والظلال.

قال: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 57]، ولكنهم لم يعرفوا هذه النعمة ولم يشكروها، ولذلك قال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: 57]، يظلمون أنفسهم بالمعاصي والكفر والجحود وغير ذلك والاصرار على المعاندة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ [البقرة: 58].

- أمرهم الله أن يدخلوا القرية، ما هي؟

قيل **"هي بيت المقدس"**، أن يدخل هذه القرية ويأكل من حيث شاؤوا رغدًا، رغدًا يعني طعامًا هنيئًا واسعًا، ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾، لكنهم عصوا ولم يقبلوا، وقالوا لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولم يقبلوا وجبنوا وخافوا، قالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا﴾ [المائدة: 22]، فامتنعوا من ذلك.

ولما امتنعوا عاقبهم الله بالتيه، فبدأوا يتيهون في الأرض أربعين سنةً، أربعين سنةً يتيهون في الأرض لا يستطيعون، لا يدرون أين هم، حتى ذهب الجيل، أربعين سنةً، ثم بعد ذلك مات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهارون، وخلف موسى يوشع ابن النون فتنبي وأصبح نبيًا، وذهب بالقوم فدخلوا، دخلوا بيت المقدس، ومع ذلك دخلوها ولم يعرفوا قدر الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: 58]، أي متواضعين لله خاضعين لله، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [البقرة: 58]، أي حط عنا خطايانا، يعني اسأل الله العفو والمغفرة والتوبة، ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 58] منكم على إحسانهم إحسانًا.

فماذا صنعوا؟ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: 59]، قالوا: **"حطة شعيرة في حنطة، حبة شعير في حنطة"**، يستهزئون، يستهزئون بأقوالهم وأفعالهم، فبدأوا يستهزئون، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: 59]، لم يدخلوا الباب سجدًا، وإنما دخلوا على أقفائهم، لم يدخلوا متواضعين، كل ذلك استهزاء، ولم يقولوا حطة ويسألوا الله المغفرة، ودخلوا القرية مع يوشع ابن النون.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ 58 فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 58-59]، لما عصوا وتمردوا واستهزأوا وبدلوا كلام الله عاقبهم الله بأن أنزل، أنزل عليهم عذابًا من السماء.

قيل: **"هو الطاعون، وباء الطاعون"**، وقيل غيرهم الله أعلم، لكنه رجزٌ من السماء أصاب هؤلاء القوم بما كانوا، بما كانوا يفسقون.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: 60]، قومه طلبوا منه قالوا: ما نحتاج إلى الماء لما كانوا في التيه، فقالوا: اسأل لنا ربك، وادعُ ربك أن يسقينا من الماء، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة: 60]، هذا حجرٌ الله أعلم به، قيل **"إنه حجرٌ معينٌ كانوا يحملونه معهم ويضربونه وتتفجر منه العيون"**، وقيل **"أي حجر"**، والعلم عند الله.

قال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60]، على قدر عدد قبائل بني إسرائيل ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: 160]، قال: ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60]، كل قبيلة تشرب من عين، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: 60]، كلوا واشربوا واشكروا الله على هذه النعم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، ولكنهم لم يسمعوا ولم يقبلوا ولم يتقبلوا ذلك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ [البقرة: 61]، لما رأوا هذه النعم العظيمة ما شكروا الله، كفروا نعمة الله، ولذلك سألوا موسى ملوا من هذا الطعام، يأتيهم الطعام بلا كلفة ومن خيرة الأطعمة، ويأتيهم الشراب، ومع ذلك لوا من هذا الشيء وقالوا: ﴿يَا مُوسَى وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: 61]، لن نصبر على طعام واحد يعني هذا الجنس ملينا منه، ولا يقصدون طعامًا واحدًا وإنما الطعام الذي يأكلونه لكنه جنس الطعام ملوا منه.

قالوا: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: 61]، البقل هو الخضرة التي لا ساق لها كالجرجير وكالخس ونحوه، قال من بقلها وقثائها، قيل **"القثاء هو الخيار المعروف أو نوع من الخيار"**، وفومها، الفوم قيل **"هو الثوم"**، لغةً الثوم والفوم واحد، وقيل **"الفوم هو الحنطة المعروفة"**، وعدسها وبصلها.

قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61]، استنكر عليهم موسى كيف هذا أطيب تأخذون الذي هو أقل من البصل والعدس ونحوه وتتركون الطيب؟! تستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟!

فإن كان الأمر لا بد ﴿فَاهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: 61] أي اهبطوا مصرًا أي القرية بيت المقدس ففيها الخير اهبطوا مصرًا، وقيل **"اهبطوا مصرًا من الأمصار أي مصر من الأمصار أي مدينة من المدن"**، ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61]، ستجدون فيها، لكنهم لم يهبطوا مصرًا ولم يسمعوا وتمردوا وعصوا.

ولذلك عاقبهم الله بأن ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ لا تفارقهم، وضرب الشيء أن يكون من الرأس إلى أسفل كما قال الله سبحانه قال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ [النور: 31] يكون من أعلى إلى يغطي كاملًا، فهذه الذلة تغطي هذا، تغطي الواحد من بني إسرائيل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 61]، الذلة التي لا تفارقهم حتى الآن، والمسكنة في قلوبهم والخوف الشديد الرعب، وباءوا أي رجعوا بغضب من الله بسبب كفرهم وعنادهم وتمردهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 61]، آيات الله مشاهدة، أعظم هذه الآيات تشاهدون فرعون يغرق أمامكم وينجيكم الله منه، تصور أن البحر أمامك والعدو خلفك، أين تذهب؟!

إما أن تغرق وإما أن يستولي عليك، ومع ذلك ينجيك الله، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: 61] شدة عداوتهم حتى وصل الأمر إلى أن يقتلوا النبيين، وقتلوا يحيى وقتلوا زكريا، وحاولوا بقدر الإمكان أن يقتلوا عيسى ولم يستطيعوه، وما قتلوه وما صلبوه ولكنه شُبّه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، هل يمكن أن يقتل النبيون بحق؟ نقول لا بحق ولا بغير حق لا يمكن أن يقتل النبيون، لكن هؤلاء بشدة شناعتهم، قال: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: 61]، بما عصوا، ذلك يعني هذه العقوبة الذلة والمسكنة بسبب عصيانهم وبما كانوا، بما كانوا يعتدون على حرمات الله، لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله نستكمل ما توقفنا عنده في لقاء قادم.

(14)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم اللهِ، والحمد للهِ، وأصلي وأسلم على أشرفِ الأنبياءِ والمرسلين نبينا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ ومن اهتدى بهداه إلى يومِ الدينِ، أما بعدُ؛ أيها الإخوةُ سلامُ اللهِ عليكم ورحمتهُ وبركاتهُ وحياكم اللهُ في هذا اللقاءِ المباركِ، أسألُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما نقولُ وبما نسمعُ.

وقد توقف بنا الكلامُ في لقائنا الماضي عند قولِ المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60]. هذه من النعمِ التي أنعم اللهُ بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على بني إسرائيلَ، ويذكرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنهم لما كانوا في التيهِ في سيناءَ طلبوا من موسى أن يستسقي ربهُ بأن يخرجَ لهم أو ينزلَ عليهم الماءَ، فاستسقى موسى أي طلب من ربهِ السقيا بأن دعا ربهُ، وفي هذا دلالةٌ على أنهُ يعني يتوسلُ بدعاء الصالحِ بدعاء الرجلِ الصالحِ بأن يقولَ يقالُ للرجلِ الصالحِ ادعُ لنا ربك أو ادعُ لنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهم توسلوا وعلموا علم هؤلاء من بني إسرائيل أن موسى يستجيبُ اللهُ لهُ وأنه نبيٌّ وأنه رسولٌ وأنهُ أنهُ رجلٌ صالحٌ فاستسقوا بهِ، فاستسقى ربهُ فاستجابَ اللهُ لهُ فقالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: فقلنا اضرب بعصاك، ودائماً كلمة أو حرف الفاء في القرآنِ يدل على سرعةِ الشيءِ.

ولذلك لما استسقى قال الله أوحى الله إليهِ فقلنا نضرب بعصاك الحجر، ومما يدل على أنه وحيٌ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في سورةِ الأعرافِ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [الأعراف: 160]، فأوحى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن اضرب بعصاكَ أي يا موسى اضرب قلنا لهُ اضرب بعصاكَ الحجرَ.

- ما هو الحجرُ؟

قال بعضُ المفسرين: **"إنه حجرٌ من الحجارةِ"**. أي حجرٍ.

قال بعضهم: **"لا بل هو حجرٌ معروفٌ"**. ووصفوه بعدةِ صفاتٍ اللهُ أعلمُ بها وكانوا ينقلونهُ معهم ويضربونهُ، ولكن الذي يظهر واللهُ أعلمُ أنه حجرٌ من الحجارةِ وهذا أقوى في الدلالةِ وأقوى في الإعجازِ؛ لو كان حجراً معروفاً لقالَ بنو إسرائيلَ هذا هو الحجرُ الذي يخرجُ لنا الماءَ فنسبوا الماءَ إليهِ، لكن لما كان أي حجرٍ من الحجارةِ يضربهُ موسى فتنفجرُ منه اثنتا عشرة عيناً هذا أقوى في الإعجازِ والدلالةِ.

ولذلك اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60]، حتى الفاء تلاحظ دخولها على فانفجرت تدل على السرعةِ أي لما ضرب انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وفي سورةِ الأعرافِ قال: ﴿فَانبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: 160]، والانبجاسُ هو خروجُ الماءِ بقلةٍ والانفجارُ بقوةٍ، ولذلك سورةُ الأعرافِ مكيةٌ والبقرةُ مدنيةٌ فكان الخبرُ عن هذا الحجرِ أنه كان في أولِ الأمرِ انبجاسٌ يعني خروجٌ بقلةٍ ثم انفجر بقوةٍ.

وقوله: ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: 60] على عددِ قبائلِ بني إسرائيلَ في أنهم كانوا اثني عشرة أسباطاً أمماً، فكانت قبائلهم على هذا العددِ فجاء الحجرُ منفجراً منه 12 عيناً على عددِ قبائلِ بني إسرائيلَ.

قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 60] كل قبيلةٍ مشربهم حتى لا يكونَ هناك تنازعٌ حتى لا يقعَ التنازعُ بينهم، كلٌ قد علم كل أناسٍ مشربهم.

قال اللهُ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 60] كلوا أي من المنِ والسلوى الذي تقدم ذكرهُ ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: 57] واشربوا أي من الماءِ ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ

مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: 60] حذرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أن يعثوا في الأرضِ مفسدين وأن يفسدوا في الأرضِ؛ لأن الإنسانَ دائماً إذا كثرت عليه النعمةُ يبطرُ ويتكبرُ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ 6 أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: 6-7]، الإنسانُ أن يطغى إذا رأى النعمةَ وتوسعَ فإن هذه هذا التوسع قد يكون سبباً في العثوِ والفسادِ في الأرضِ.

لا تعثوا، والعثو أشدُ من الفسادِ، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: 60] أي لا تكثروا الإفسادَ في الأرضِ. قال اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة: 61]، إنهم ملوا من المنِ والسلوى يعني.

وهذه من قبائحِ وأخلاقِ بني إسرائيلَ السيئةِ، يعني كان الأولى أن يشكروا اللهَ على هذه النعمةِ يأتيكم المن ينزلُ عليكم المنُ والسلوى طيورٌ تأكلونها وهذا من أجلِ النعمِ، بدلاً من أن تشكروا ربَّ العالمين على هذه النعمةِ تطلبون إبدالها بما هو أقل منها.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ﴾ [البقرة: 61]، ولاحظ طريقة يعني العرضِ وطريقة ال يعني طلب بني إسرائيل من موسى ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾ كأنه تحدي وكأنه عدم قبول وكأنه إلزامٌ لموسى أن يدعو.

قالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ﴾ والصبرُ عدم التحملِ وحبسُ النفسِ فكأنهم يقولون خلاص لا نستطيع التحملَ على هذا الطعامِ، ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ كأنهم يلزمون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الطريقةِ وهذه من سوءِ أخلاقهم وقبائحهم وقلةِ عقولهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: 61]. لن نصبر على طعامٍ واحدٍ.

- ما هو الطعامُ الواحدُ؟

المنُ والسلوى.

- هل هو طعامٌ واحدٌ؟

نقول هو أكثر من طعامٍ لكنهم عبروا بذلك أرادوا جنسَ الطعامِ، وأنت تأتي إلى المائدةِ وعليها أنواعٌ من الطعامِ فتقولُ هذا طعامٌ وتقصدُ الجنسَ، فقالوا لن نصبر على طعامٍ واحدٍ أي جنس هذا الطعامِ، ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ولاحظ كيف أسلوبٌ قبيحٌ منهم وعدم الاحترام والتقدير.

قالوا ادع لنا ربك يا موسى كأنه هو ربه رب موسى فقط، قال: ﴿يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا﴾ البقلُ هي الخضرةُ هي الورقياتُ ما يسمى بالخسِ والجرجيرِ والبقدونسِ ونحوه، ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ هو نوعٌ من الخيارِ لكنه أكبرُ ومعروفٌ عند الفلاحين القثاءُ، ﴿وَفُومِهَا﴾ قالوا **"هو الثومُ"**.

قال بعضُ المفسرين: **"الثومُ والفومُ لغةٌ بالفاءِ وبالثاءِ فومها أو ثومها"**، ﴿وَعَدَسِهَا﴾ معروفٌ العدسُ، ﴿وَبَصَلِهَا﴾ العدسُ والبصلُ، وقيل الفومُ **"هو الحنطةُ"** الحنطةُ حبُ الحنطةِ وقد يكونُ هذا قد يكونُ هذا اللهُ أعلمُ.

قال لهم موسى معترضاً عليهم ومستنكراً عليهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ وهو البقلُ والقثاءُ والبصلُ والثومُ ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 61] الذي هو خيرٌ لكم وهو المنُ والسلوى، فإن كان لابد فـ ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61]. ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾.

- ما هي مصراً؟

قيل مصراً هي **"مصرٌ من الأمصارِ"** أي بلدةٌ من البلدانِ أي قريةٌ من القرى يدخلونها؛ لأنهم كانوا في التيهِ والتيهُ أرضٌ جرداءُ ولذلك طلبوا أرضاً يعني أرضاً واسعةً وفلاةً، فطلبوا منه

أن ينبتَ فقال ادخلوا انزلوا إلى أي مصرٍ من الأمصارِ، وقيل المراد بمصرٍ هنا هي **"بيت المقدسِ"** الذي بيت المقدس الذي طلب موسى منهم أن يدخلوه وأن يخرجوا الجبابرةَ منه فأبوا.

و ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: 24].

قال بعض المفسرين هي: **"مصر فرعون"**. قال ارجعوا إلى مصر لفرعون فستجدون ما كنتم قد تعودتم عليه لأنهم كانوا أهل زراعة وفلاحة، فقال ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: 61] والصحيح والله أعلم أنها مصر من الأمصار، ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61].

ولذلك نلاحظ أنه لما استسقى بنو إسرائيل موسى وطلبوا من موسى أن يستسقي ربه طلبوا من موسى أن يستسقي ربه أجابهم لأنه لو لم يجبهم لماتوا عطشاً، لكن هنا لما كان هذا السؤال سؤال تعنت وسؤال تكبر وعدم شكر لله لم يجبهم ولم يدع ربه أن يخرج لهم فقال ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: 61] ما سألتم مما تطلبونه تجدونه في لكنهم أبوا ولم يدخلوا ولم ينصروا رسولهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وامتنعوا من ذلك، فضربهم الله بالتيه قال عقوبة عليهم يتيهون في الأرض يضيعون في الأرض ويتيهون في ظلال هذه الأرض ولا يعرفون الطريق والخروج منها فبقوا في ذلك ولم يخرجوا.

وكانوا لا يشكرون بل يكفرون نعمة الله ويؤذون موسى كما قال موسى: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: 5]، فضرب الله عليهم الذلة والمسكنة قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: 61].

وضرب الشيء هو أن يعمه من أعلاه إلى أسفله كما تضرب الخيمة وكما يضرب الحجاب على المرأة من رأسها إلى أطراف قدميها ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: 31]، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ الذلة هي الصغار واحتقار الناس لهم، الذلة الصغار والمهانة وعدم المبالاة بهم، ولذلك نلاحظ اليهود منذ ضرب الله عليهم الذلة إلى عصر حاضر وهم يعيشون في هوان وفي صغار وفي ذلة، ضربت عليهم الذلة لا تفارقهم من رؤوسهم إلى أطراف قدميهم.

قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ والمسكنة هي الفقر، فلا تجد يهودياً على وجه الأرض إلا فقيراً ضعيفاً، قال: ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ ثم قال: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 61] أي رجعوا بغضب من الله بأن الله غضب عليهم ورجعوا إلى ربهم وقد غضب الله عليهم وهم الذين قال الله فيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المغضوب عليهم هم اليهود.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني بياناً لسبب ضرب الذلة والمسكنة عليهم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 61] تأتيهم الآيات والمعجزات ويكفرون بها، وزيادة على ذلك قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: 61] يقتلون النبيين بغير الحق يعني من شدة عداوتهم، ولاحظ أن كلمة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ الفعل المضارع يدل على الاستمرار و ﴿يَقْتُلُونَ﴾ يدل على أنها صفة لا تفارقهم مستمرة معهم ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

وفي سورة أخرى قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 21] فبغير الحق يعني الحق المعروف كالقصاص ونحوه يعني وبغير حق أي ليس بحق ولا بغير حق بأي وجه من الوجوه يقتلون النبيين.

- ثم يأتينا أمر آخر هل هناك قتل للأنبياء بحق وبغير حق؟

الجواب: لا، وإنما جيء بقوله ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بيان لشناعة قتلهم واعتدائهم على أنبياء الله. هناك سورة في أو هناك آية في سورة آل عمران قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ﴾ [آل عمران: 21].

- لو جاءك سائل وقال لك ما الفرق مرة يقول النبيين ومرة يقول الأنبياء؟

الجواب: **"الأنبياء جمع كثرة والنبيين جمع قلة"** وهذا يدل على أنهم يقتلون القلة والكثرة.

قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: 61] أي ذلك الذي هو ضرب الذلة والمسكنة والغضب عليهم ذلك بما عصوا أي أصبح العصيان صفة لازمة لهم لا تفارقهم ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يعتدون فعل مضارع، يعتدون على أولياء الله، يعتدون على شرع الله، يعتدون على أنبياء الله صفتهم الاعتداء ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

لما بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صفات هؤلاء اليهود وأحوالهم وعلاقتهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومع أنبياء الله أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبين أن هناك منهم من هو على الحق ومن هو ممن آمن بالله وعمل صالحاً لذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62]. هذا وعد من الله وبشارة لمن آمن وحقق الإيمان من هذه الطوائف؛ طائفة اليهود وهم الذين هادوا وهم بنو إسرائيل، والنصارى وهم أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وسموا نصارى لأنهم نصروا عيسى وقيل لأنهم ينتسبون إلى بلدة يقالها الناصرة، والذين هادوا هم اليهود هم اليهود قيل إنهم معنى هادوا يعني **"تابوا إلى الله"** وقيل إنهم **"ينتسبون إلى جدهم يهوذا أو يهودا وهو أحد أبناء يعقوب"** والله أعلم.

والصابئين قيل هي **"طائفة كانت تعبد الكواكب"**.

وقيل: **"طائفة كانت تعبد الملائكة"**.

قال بعضهم: **"هي طائفة من النصارى"**، وعموماً يعني في تحديد الصابئين الله أعلم بهم لكنهم يعتبرون طائفة من هذه الطوائف النصارى اليهود والنصارى والصابئين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ هذا شرط فيهم أن هذه الطوائف من حقق الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واليوم الآخر آمن إيماناً حقيقياً بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واليوم الآخر وعمل صالحاً مع إيمانه عمل الصالحة.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم أجورهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبلونه عند الموت ونحوه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم على ما تركوه خلفهم.

وهذه الآية وعد من الله لمن آمنوا حقق الإيمان وعمل الصالح من هذه الطوائف من المؤمنين أولاً قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم اليهود ثم النصارى ثم الصابئين كل هؤلاء، ولكن لنعلم لنعمل حتى نفهم هذه الآية لأن بعضهم يتمسك بهذه الآية ويظن أن اليهود الآن والنصارى والصابئين أنهم على حق، فنقول هذا الوعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبل رسالة محمد ﷺ أما بعد رسالة محمد لا ينفعهم شيء من ذلك لابد أن يتبعوا دين الإسلام وهو دين محمد ﷺ خاتم النبيين.

ولذلك النبي ﷺ قال: **«لَوْ كَانَ مُوسَىٰ حَيًّا لَمَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي»**. ولما ينزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان يحكم بشريعة محمد ﷺ فالدين عند الله المقبول هو الإسلام هو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19].

وهذه هذا الوعد لمن تمسك قبل الإسلام وقبل الإسلام فهذه هذا وعد من الله وبيان لحكم حتى يشمل اليهود وغيرهم أن من آمن من هذه الطوائف وعمل صالحاً فإن الله قد وعده بالوعد الحسن.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عوداً إلى الحديث عن بني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة: 63] عاد مرة أخرى للتذكير بما أنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم وبما بما فعلوه من هذه الأفاعيل السيئة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ هذه حادثة الطور كما مر معنا أن موسى لما رجع إلى قومه وقد عبدوا العجل وانتهى أمر العجل وقضى عليه، اختار قومه سبعين رجلاً أخذ من قومه سبعين رجلاً اختار قومه سبعين رجلاً، فلما أخذ من قومه سبعين رجلاً ذهب بهم إلى الطور ليعتذروا عما فعله قوم من عبادة العجل.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ فأخذ الله منهم الميثاق ﴿ورَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ واذ نتقنا الجبل فوقهم ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171] رفع الله حتى يقبلوا حتى يقبلوا شريعته ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ ما آتيناكم من شريعة موسى بقوة ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 63] فأذعنوا وقبلوا هذا.

فلما قبلوا رجعوا إلى ما كانوا عليه، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: 64] من بعد ما رأيتم الآيات ومن بعد ما أخذنا الميثاق منكم ثم توليتم بعد ذلك ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: 64] لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو فضل وذو رحمة وإلا لخسروا وانتهى أمرهم في لحظة لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تفضل عليهم ومنَّ عليهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ [البقرة: 65] هذا خطاب للمعاصرين للنبي ﷺ، اليهود كانوا في المدينة خاطبهم القرآن قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ أي طائفة منكم في السبت وهم **"أهل إيليا"** مدينة إيليا على البحر الأحمر وعلى قناة على البحر الأحمر وعلى خليج العقبة قريبة من قريبة من بلاد الأردن، هذه المدينة مدينة صغيرة على البحر حاضرة البحر كان أهلها من اليهود وكان يعيشون على هذا البحر ويعيشون على صيد الأسماك.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الأعراف: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: 163]، فكانوا قد أسرفوا على أنفسهم ووقعوا في كثير من الذنوب والمعاصي واعتدوا فابتلاهم الله وامتحنهم بأن حرم عليهم الصيد يوم السبت لا يصيدون، وأما سائر الأيام فإنهم يباح لهم أن يصطادوا.

فكان من ابتلاء الله لهم أنه إذا جاء يوم السبت امتلأت الشواطئ من الأسماك والحيتان وإذا ذهب يوم السبت وجاء الأحد إلى الجمعة لا إلى السبت الآخر لا يجدون ولا سمكة واحدة وتذهب وتغور في أعماق البحر فلا يستطيعون الصيد، فلما يعني سئموا من هذا الأمر قال بعضهم نضع حفراً ونضع شباكاً ونصطاد يوم نضعه يوم جمعة ثم تأتي الأسماك يوم السبت فتقع في هذه الشباك فنأخذها الأحد، فتحايلوا على شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتحايلوا على ما نهاهم الله عنه واعتدوا على حرمات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وظنوا أن ذلك جائز فوقعوا في الحرام.

فانقسم أهل القرية إلى قسمين:

- القسم الأول: قسمٌ امتنعوا وأنكروا.
- القسم الثاني: قسمٌ وقعوا في الحرام وقعوا في الاعتداء، فلما استمروا على ذلك هجرهم المنكرون لهم ووضعوا سوراً يعني سوراً حاجزاً بينهم وبين ما بينهم وبين هؤلاء، وفي يوم من الأيام قاموا فإذا القرية ليس لها صوت وليس هناك أحد يسمعون، فلما دخلوا عليهم فإذا هم قد مسخوا قردة وخنازير مسخوا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: 65]، وقال في آية المائدة: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: 60] فقلبوا وجعلهم الله فقلبوا قردة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ [البقرة: 66] عقوبة وعبرة لمن يعتبر ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من أهلها وممن حضرها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ ممن جاء بعدهم ممن جاء بعد هذه الحادثة إلى يوم القيامة ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 66] لأنهم هم المنتفعون بهذه المواعظ.

قال أهل التفسير: **"إن أصحاب السبت وهم الذين مسخهم الله قردة وخنازير لم يبقوا ولم يتوالدوا، ولم يستمروا بل بقوا ثلاثة أيام ثم ماتوا عن آخرهم ولم يبق منهم أحد ولم يتناسلوا"**.

هذه قصة وعبرة قصة قصها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأخبرنا بما وقع من أصحاب السبت، وهذا يدل على أن حرمات الله خطيرة وأنه لا يجوز الإنسان أن يتعدى على حدود الله وعلى حرمات الله.

- كيف لما تعدوا واعتدوا على ما حرم الله عليهم كيف فعل الله بهم؟

انتقم منهم وجعل منهم القردة والخنازير، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعفو عنا وأن يرحمنا، لعلنا نقف أيها الإخوة عند هذا القدر وإن شاء الله في لقائنا القادم نستكمل ما توقفنا عنده بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(15)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

فحياكم الله جميعاً في هذا اللقاء المبارك، وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، هذا الدرس درس التفسير وهو درس الأربعاء، وهذا اليوم هو الموافق للخامس من شهر رجب المحرَّم من عام 1442، نجتمع في هذا المقام المبارك لنتدارس آياتٍ من كتاب الله، وبالتحديد من سورة البقرة.

وقد وقف بنا الكلام في لقائنا الماضي عند قول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67]، وهذه الآية السابعة والستون من هذه السورة، هذه الآية أو هذه الآيات تتحدث عن قصةٍ من قصص بني إسرائيل، وهذه القصة قصةٌ واقعيةٌ حصلت لبني إسرائيل بعدما تجاوزوا البحر وأقاموا في سيناء في التيه، حصل ما حصل من هذه القصة، وقد ذكر كثيرٌ من المفسرين رواياتٍ كثيرةً قد تكون منقولةً من الروايات الإسرائيلية وتتحدث عن سبب هذه القصة.

والقرآن الكريم لا يركز على الأسماء ولا على الأشخاص ولا على الأماكن ولا نحو ذلك، وإنما يعمم بإيراد القصص لتكون عبرةً وعظةً وتذكيراً ودروساً لمن يريد الاستفادة والعظة والعبرة.

وهذه القصة فيها عبرةٌ عظيمةٌ؛ أولاً أن هذه السورة سميت بسورة البقرة لهذه القصة العجيبة، وهي قصةٌ تدل على جهالة بني إسرائيل وعلى حماقتهم وعلى بلادة أفكارهم.

وهذه أيضاً قصةٌ تشهد على بني إسرائيل أنهم كانوا متعنتين وكانوا لا يقبلون شرائع الله ولا أحكامه، ولا يسمعون لما يأتيهم من أوامر ومن نواهٍ، فهذه قصةٌ واقعيةٌ حادثةٌ يعني ليس لها علاقةٌ بأحكامٍ شرعيةٍ، ومع ذلك تلاحظ فيها التعنت والتجاهل والاعتراضات الكثيرة.

هذه القصة فيها تقديمٌ وتأخيرٌ كما ذكر كثيرٌ من المفسرين، وتقديمها عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67]، وتأخيرها عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: 72]، لو تلاحظ أن الآيات السابقة التي تخاطب بني إسرائيل كلها بهذا الأسلوب: واذ قلتم لن نصبر، واذ قلتم لن نؤمن لك، واذ قلنا ادخل، وهكذا، واذ قال موسى، تجد تلاحظ أنها كلها تتحدث عن مخاطبة بني إسرائيل فيما فعل أسلافهم.

لكن هنا جاء تقديمٌ وتأخيرٌ، ذكر بعض المفسرين العلة والنكتة والسبب في هذا التقديم والتأخير: **"قال حتى يقدم لك بيان موقف بني إسرائيل من تعنتهم وعدم قبولهم لأحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"**.

فإذا كانت هذه قصةٌ من القصص ويعني بعيدةً عن الأوامر والنواهي ومع ذلك لم يتقبلوا في أول وهلةٍ، وإنما تعنتوا وعاندوا واستكبروا وترددوا ولم يقبلوا وبدأوا يعارضون ويناقشون، فهذا يدل على يعني حماقة هؤلاء الأقوام وعدم تقبلهم.

حتى إنه ذكر بعض المفسرين في ربط هذه القصة في بني إسرائيل: **"أن ذكر البقرة كأنها إشارةٌ إلى أنهم كانوا قد عبدوا العجل قبل ذلك"**. فكيف بكم مع هذه البلادة وهذه الحماقة تعبدون عجلاً يعني، وقد وصف أيضاً هو بالبلادة ووصف بقلة الفهم ومع ذلك تعبدونه، وأنتم تأتون على هذه البقرة وتذبحونها وتأكلون لحمها وتستعملونها في الحراثة والسقاية.

فكيف بكم تقومون بعبادة عجلٍ هذا أصله وهذا وهذه مصالح وهذه وهذا أصله وهذه مصالحكم له، فكان في هذا إشارةٌ إلى ما ذكرنا مما يحصل من بني إسرائيل من مواقف سيئةٍ مع نبيهم، نبدأ بالقصة، نبدأ بهذه الآيات قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: 67]، وإذ هذا ظرفٌ ولا بد أن يتعلق بفعلٍ.

ولذلك كثيرٌ من المفسرين يقول التقدير: **"واذكر يا محمد" "واذكر يا محمد إذ قال موسى"** وهو نبي الله الذي أرسله إلى بني إسرائيل، إذ قال لقومه وهم بنو إسرائيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67]، ولا بد أن نعرف ما السبب الذي جعلهم جعل موسى يقول لهم إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً.

مثل ما ذكرنا سابقاً الآية فيها تقديمٌ وفيها تأخيرٌ، ولذلك: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: 72]، إذاً هناك إذاً هناك نفسٌ قتلت في بني إسرائيل وهناك أمورٌ وقعت ونزاعٌ حصل.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿فَادَّارَأْتُمْ﴾ [البقرة: 72] أي **"فدافعتم كلٌ يدفع هذه الجريمة إلى الآخر"**.

فذكر كثيرٌ من المفسرين: **"أنه وقع قتلٌ بشخصٍ برجلٍ من بني إسرائيل فتنازع قبيلته مع آخرين متهمين بالقتل، فصار بينهم هذا النزاع وهذا التدافع وهذا حتى وصل بهم القتال فيما بينهم"**.

فقال بعض عقلائهم: **"كيف تتقاتلون وبينكم نبي الله موسى اذهبوا إليه واذكروا له ما جرى ما جرى لكم"**، فذهبوا إلى موسى فقالوا له **"إنه حصل أن رجلاً قتل ولا يعرف من هو قاتله وحصل نزاعٌ ومخاتنةٌ بين طائفتين فاحكم بيننا فاحكم بيننا يا موسى"**، فقال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67]، وقوله بقرةً هنا نكرةٌ في سياق الإثبات فتدل على الإطلاق، أي بقرةٍ من الأبقار تذبح تجزئ، ولكنهم لم يتقبلوا وتعنتوا واعترضوا فقالوا حتى في الأمر قالوا: ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: 67].

لاحظ أولاً موقفهم، إذا كان موسى وهو نبيٌّ من أنبياء الله قال: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: 67]، مو أنا اللي قلتها الله اللي قال على الله على أمركم بقرة، قال ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: 67]، لاحظ في أول الأمر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الله عَزَّ وَجَلَّ أو أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لهم ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67].

فكان الواجب أن يسلموا الأمر وأن يستجيبوا مباشرةً وألا يترددوا، فقالوا فقال فقالوا هم ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: 67]، هذا ردهم وهذا موقفهم من نبيهم، كيف يقولون لرجلٍ يوحى إليه وهو من أعقلهم يعني ومن أفضلهم فيما فيهم فكيف يقول له مثل هذا الكلام ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: 67]؟

قال ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: 67]، أي **"أن الجاهلين هم الذين يتخذون غيرهم هزواً واستهزاءً وسخرية، فالذي يسخر من الناس ويستهزئ بهم هو الجاهل"**.

قال بعض المفسرين: **"أن معنى قوله أن أكون من الجاهلين أي لا أجهل عليكم كما جهلتم علي، فأنتم جهلتم علي بهذا الكلام وبهذا الخطاب فأنا لا أقابل خطاب الجهل بخطاب الجهل"**، ثم إنهم بعد ذلك قالوا لم يتقبلوا قالوا: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: 68] يعني ما هي ما هذه البقرة حددها، فقال ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: 68] يعني وسطٌ بين ذلك، لا فارضةٌ مسنةٌ ولا بكرٌ صغيرةٌ، وإنما هي متوسطةٌ في السن، فافعلوا.

- يسألون عن عمرها هذا سؤال؟

نبيكم يأمركم أن ان الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: 67]، فتقولون ما عمرها وما سنها؟ يدل على أيضاً بلادة عقولهم وجهالتهم وحماقتهم، قال إنه يقول إنها لا ان قال ثم لاحظ أن حتى في قلة يعني ضعف أخلاقهم وقلة أخلاقهم يعني يخاطبون موسى فيقولون ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [البقرة: 68]، فكأن الله هو رب موسى فقط.

فهذا فيه قلة يعني قلة الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولاً ومع نبي الله موسى ثانياً، قالوا قال هنا قال ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: 68]، فكأنه يؤكد عليهم ألا يلحوا بالسؤال يقول افعلوا ما تؤمرون ولا حاجة إلى أن تسألوا وتكثروا الأسئلة، قال ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة: 69] وهذا السؤال أقل وأضعف من السؤال الأول، كيف تسألون عن اللون؟

اللون لا يقدم ولا يؤخر ولا يرفع ولا يخفض، فكيف تسألون؟ فقال ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا﴾ [البقرة: 69] يعني شديدٌ لونها شديدة الصفرة ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة: 69] أي تعجب من ينظر إليها لجمالها وحسنها وبهائها، فقال بعد ذلك ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: 70] فبدأوا يلحون في الأسئلة أكثر وأكثر، فقالوا ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة: 70] ثم بدأوا يذكرون عللاً حتى يعني أعذاراً وعللاً لهم قالوا ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: 70] البقر متشابهٌ.

ثم ذكروا قالوا ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 70] للوصول إليها، وكأنهم يشيرون إلى أن هذا هو السؤال الأخير وبعده سيهتدون إلى ذبحها، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ [البقرة: 71] غير مذللةٍ غير مخدومةٍ وإنما هي مرفهةٌ ومحفوظةٌ عن الخدمة وعن الإذلال.

قال: ﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: 71] ليست من الأبقار التي تحرث الأرض وتعمل على حراثة الأرض والزراعة ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ [البقرة: 71] أي لا ساقية يسقى عليها الماء فتسقي الحرث، وإنما هي وإنما هي معززةٌ ومكرمةٌ ليست مذللةً.

قال: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة: 71] يعني سالمةٌ من العيوب ليس فيها عيوبٌ ولا شية فيها أي ليس فيها لونٌ آخر يخالف لون الصفرة، فلما وصفها لهم بهذه الأوصاف وقد قالوا قبل ذلك ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 70].

كما قال ابن عباس: **"لو لم يقولوا إن شاء الله لم يهتدوا لم يهتدوا إليها"**، قالوا قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: 71]، وهذه أيضاً من سفاهتهم وحماقة عقولهم، كيف تقولون لنبيٍّ يوحى إليه الآن جئت بالحق وقبل ذلك لم يأت بالحق؟

بل قد جاءكم بالحق قبل هذه القصة، فكيف تقولون هذا الكلام؟ فهذا يدل على حماقة عقولهم، قال ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: 71]، ما كادوا يفعلون ذبحها ولكنهم ذبحوها لأنهم عرفوا أنهم قد وصلوا إلى الأمر وأنه لا مناصة ولا مخرج من هذا الأمر، فلذلك فعلوا بعد هذه الأمور وهذه المراحل التي قدموها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: 72]، هذا هو التقديم في القصة، أي أن أنه حصل قتلٌ بينكم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ [البقرة: 72] وهي وإنما جاء بصيغة الجمع.

قال بعض المفسرين: **"أن القاتل هو رجلٌ واحدٌ ولكنه لما كان معه قومه ضد الطائفة الأخرى نسب إليهم القتل، فمن وافق القاتل فهو بمنزلة القاتل"**.

قال بعضهم: **"أن الذي قتله أكثر من شخصٍ"**.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ﴾ [البقرة: 72] بصيغة الجمع ﴿نَفْسًا﴾ [البقرة: 72] أي رجلاً واحداً ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: 72] أي تدافعتم، كل شخصٍ يدفع كل شخصٍ يدفع الجريمة على الآخر فيقول **"أنت القاتل"** وهذا يقول **"أنتم القاتل أنتم الذين قتلتم"**.

فبدأ يحصل كل يدفع جريمة القتل إلى الآخر فحصل ما حصل من التنازع الشديد الذي وصل إلى أن رفعوا السيف في وجوه الآخرين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: 72]، قال عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 72]، ادارتم فيها أي في هذه النفس تدافعتم من قتلها، والله مخرجٌ أي مخرج ما كنتم تكتمونه أيها الكاتمون، لأنه لا بد أن هناك من كتم القتل لا بد والله سيخرجه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: 73]، اضربوه أي الميت وهذه أي الميت الرجل ببعضها أي ببعض البقرة، قيل يعني بعضهم حدد هذا البعض، والصحيح عدم التحديد، بعضٌ من أعضائها ودون تحديد هل هو يعني من كتفها أو من رجلها أو من لسانها أو نحو ذلك، كل هذه أقوالٌ لا اعتبار لها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة: 73]، فأتوا بعضوٍ من أعضائها وضربوا هذا الميت وهو قد مات وألقي على الأرض، فلما ضربوه أحياه الله فقالوا له **"من قتلك يا فلان؟"** فقال **"قتلني فلان"** فأخبر بقاتله ثم مات، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ [البقرة: 73] أي مثل ما أحيا هذا الرجل ﴿يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 73]، يحيي الموتى يوم القيامة ويبعث الناس ليجازيهم.

قال: ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ [البقرة: 73] أيها الحاضرون المشاهدون لهذه القضية ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [البقرة: 73]، يريكم آياته وتبصرونها آياته، وهذه من آياته القضية هذه آيةٌ من آيات الله، ويريهم الله آياتٍ عظيمةً غير هذه الآية.

قال: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 73]، لعلكم تعقلون وترجعون وتعرفون ما أمركم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو ما نهاكم عنه، وتعقلون ما شرع الله لكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 73]، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان حقيقة موقف بني إسرائيل من هذه القضية ومن إحياء الموتى ومن هذه العبرة والعظة العجيبة.

قال الله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: 74]، بعدما رأيتم ما رأيتم زادت قلوبكم قسوةً من بعد ذلك، قال من بعد ذلك أي من بعد ما رأيتم هذه الآية، قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: 74]، وأو هنا ليست للإضراب كما ذكر بعض المفسرين، والصحيح أنها للتنويع؛ أي بعضكم أصبحت أصبح قلبه كالحجارة، وبعضكم أصبح قلبه ما هو أشد قسوةً من الحجارة.

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فضائل هذه الحجارة وما تميزت به بأنها هي أفضل من قلوب هؤلاء، لما ذكر أن: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: 74] أي أن هذه الحجارة تتفجر منها الأنهار وجبال تخرج منها الأنهار، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة: 74] أي تتشقق على الأرض فتخرج منها العيون والينابيع، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 74] خوفاً وخشيةً، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن قال ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: 21]، بل وحجرٌ يخشع لله.

ذكر بعض المفسرين: **"أن هبوط بعض الصخور وبعض الجبال إنما تهبط من خشية الله"**.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 74] أي الله ليس بغافلٍ عما يعمله بنو إسرائيل من أعمالٍ أو من نوايا أو من أفعالٍ أو من تعاملٍ مع نبي الله أو مع شرعٍ، ليس الله بغافلٍ عما يعملون، بل سيجازيهم بأعمالهم، فإذا كان الله ليس غافلاً عما يعمله هؤلاء وغيرهم فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رقيبٌ مطلعٌ حاضرٌ سيجازي عباده بعدما يبعثهم يجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخيرٌ شراً فشرٌ، هذه هي القصة وهذه هي الآيات التي بين أيدينا.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بها وأن نعتبر بها وأن يفقهنا في دينه، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(16)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المباركِ، وهو لقاء الأربعاء، وهذا اليوم هو اليوم الثاني عشر من شهر رجب المحرم من عام 1442، نجتمع لدرسنا الأسبوعي المتعلق بتفسير القرآن الكريم، وقد توقف بنا الحديث في لقائنا الماضي عند الآية 76 من سورة البقرة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75].

لو نلاحظ أن الآيات ماضية التي كشفت عن قبائح اليهود وسوء أخلاقهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولاً، ثم مع رسوله مع رسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع الآيات التي يشاهدونها، الآيات الدالة على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما في قصة كما في قصة إحياء الموتى في قتيل بني إسرائيل لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **"كذلك قال"** ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 73]، ومع ذلك قلوبهم قاسية كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: 74]. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطبًا المؤمنين في هذه الآيات مخاطبًا المؤمنين ومبينًا لهم أنه لا يطمعوا في إيمان هؤلاء، لا يرجى منهم الإيمان.

وقوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: 75]، هذا استفهام، وهو استفهام بمعنى النفي؛ أي لا تطمعوا في إيمانهم، وإنكار في نفس الوقت، ينكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على المؤمنين أن يطمعوا في إيمان هؤلاء، لا طمع في إيمانهم ولا فائدة فيه، ولو حاول المؤمنون أن يؤمن هؤلاء فإنهم لا يؤمنوا أبدًا؛ وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين الأسباب وبين الأحوال، فالأسباب قد مضت في علاقتهم وسوء أخلاقهم وقبائحهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومع شرعه ومع رسوله.

⬅الطائفة الأولي: ثم هنا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحوال هؤلاء وأنهم طوائف، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75].

هذه الطائفة الأولى من طوائف بني إسرائيل وهم العلماء منهم والأحبار، هذا موقفهم من كتاب الله ومن التوراة؛ يسمعون كلام الله ثم يحرفونه بعد ما عقلوه، والحال أنهم يعلمون أن ذلك لا يجوز، وأن ذلك محرم، وأن هذا تحريف وقول على الله بلا قول على الله وتقول على الله بلا علم.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **"قد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه"** أي يغيرون ويبدلون في أحكام الله وفي أخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي ذكرها وأنزلها في التوراة، يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، ومن بعد ما فهموا هذه الأحكام وهذه الأخبار؛ يغيرونها لشهواتهم وأهوائهم، هؤلاء هم أحبار بني إسرائيل وعلماء بني إسرائيل، وهؤلاء هم الطائفة الأولى.

⬅الطائفة الثانية: قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 76]، وهؤلاء هم منافقو أهل الكتاب، هؤلاء هم المنافقون وهم الطائفة الثانية.

الطائفة الأولى هم أحبار أهل الكتاب وعلمائهم، والطائفة الثانية هم منافقو أهل الكتاب، المنافقون منهم إذا لقوا الذين آمنوا أظهروا الإيمان قولاً بألسنتهم، وليس في ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وإذا خلا بعضهم إلى بعض فلم يكن عندهم أحد من المؤمنين، ماذا سيقولون؟ قال: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 76] أتظهرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم ما مثلهم فيكون ذلك حجة عليكم؟ أو ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 76] أي بما جاء في التوراة وبما أخبر الله في التوراة؛ الإيمان بمحمد ﷺ وإقامة الحجة عليكم حتى إذا جاء يوم القيامة حاجوكم بهذا الكلام؛ أتحدثونهم وتخبرونهم؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 76] أي يحدث بعضهم بعضًا يقولون: كيف تقولون هذا لمحمد ولأصحابه، تحدثونهم بما عندكم، أفلا تعقلون؟

أفلا يكون لكم عقل فتتركون هذا الكلام حتى لا تكون عليكم حجة يوم القيامة فيحتجون يحتجون يحتج المؤمنون عليكم.

قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 76]. ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الطائفة الثالثة من اليهود ومن بني إسرائيل، وقبل ذكر الطائفة الثالثة قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ردًا على هؤلاء ردًا على الطائفة الثانية، الطائفة الثانية وهم منافقون، رد الله عليهم قال: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: 77].

أولا يعلم هؤلاء المنافقون من اليهود أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم ما يسرونه ويخفونه وما يعلنونه؟ كيف غاب عنهم ذلك؟ إنما غاب عنهم بسبب جهلهم وبسبب حقدهم وحسدهم على المسلمين.

⬅الطائفة الثالثة: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الطائفة الثالثة: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: 78]. أي من أهل الكتاب طائفة أميون، يعني عوام ليس عندهم علم، ليسوا كالطائفة الأولى أهل الكتاب علماء أهل الكتاب، وليسوا كالطائفة الثانية وهم المنافقون، إنما هؤلاء عوام أميون ليس عندهم علم.

﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: 78] أي لا يعرفون من التوراة وليس لهم حظ في التوراة إلا التلاوة دون الفقه ودون الفهم، لا يتدبرون ولا يفهمون ولا يعملون بما جاء في التوراة، وإنما مجرد أماني وتلاوة، والأماني هي التلاوة كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: 52]؛ أي إذا تلى إذا تلى كلام الله ألقى الشيطان في تلاوته.

وهنا قال: **"لا يعلمون الكتاب إلا أماني"**، هذا قول كثير من المفسرين، وذهب بعض المفسرين أن المراد هنا بالأماني هي التمني، التمني فقط دون العمل، وهم يقرأون التوراة ويتمنون أنهم يكونون كذا وكذا وكذا، وأن يكون لهم من الحظ كذا وكذا، دون أن يعملوا، وإنما مجرد تمنٍ فقط دون عمل.

قال الله سبح فهذه هي الطائفة الثالثة، فهذا هل يطمع بها هل يطمع المؤمنون في إيمان هؤلاء؟

هؤلاء الذين منهم علماء لا هم علماء يحرفون كلام الله، ومنهم منافقون، ومنهم أميون عوام لا يفهمون ولا يدركون، هل هؤلاء يطمع في إيمانهم؟ فلذلك الله قال لا تطمع في إيمان هؤلاء.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك بين لنا هؤلاء الذين يحرفون كلام الله من بعد ما عقله، ويبين الغرض من ذلك، ويتوعد من يفعل ذلك، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ

بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79]. توعد الله المحرفين وهم الطائفة الأولى الذين يحرفون الكلم من بعد ما عقلوه وهم يعلمون.

قال: **"فويل للذين يحرفون كتاب الله ويحرفون ويغيرون في أحكامه"**، الذين يقولون ويغيرون في أحكام الله توعدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 79] يكذبون على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقولون هذا كلام الله وهذا حكم الله، يغيرون ويبدلون ويحرفون الكلم عن مواضعه.

- ما الغرض من ذلك؟

قال: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: 79] والدنيا كلها ثمن قليل، فيأخذون الدنيا مقابل أن يضيعوا الآخرة.

ولذلك قال: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: 79] يعني يأخذ الرشاوي ويأخذ أموال الناس بالباطل، ويكذب ويغير في أحكام الله وفي شرع الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 79] من التحريف الباطل، وويل لهم مما يكسبونه من الكلام الكذب، ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79] من الأموال والويل.

- ما هو الويل؟

الويل: **"وعيد شديد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقيل عذاب أليم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"**.

﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 79] ثم قال: ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79] فجمعوا بين جمعوا بين سيئتين:

- الأمر الأول: أنهم يكتبون ويحرفون ويتجرؤون على كلام الله وعلى كتابه.
- الأمر الثاني: أنهم يكسبون من وراء ذلك كسبًا محرمًا وباطلاً ورشاوي وأموالاً باطلة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا إخبارًا عن عقائدهم الفاسدة وعن أحوالهم وأقوالهم الفاسدة، فقال: ﴿وَقَالُوا﴾ أي اليهود، قالوا ماذا؟ ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80].

هذا من التقول على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من أن من تزكيتهم لأنفسهم، وقالوا: نحن أهل النجاة ونحن أبناء الله وأحباؤه، وأن الله لا يعذبنا إلا أيامًا معدودة، ثم نفوز بثواب الآخرة.

ولذلك قال: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]. لو نلاحظ أيها الإخوة أن الله قال هنا: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80] عنهم أنهم قالوا، وفي سورة أخرى في آل عمران قال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: 24].

- ما الفرق بين معدودة ومعدودات؟

الجواب: **"معدودة هذا يسميه أهل العلم جمع قلة يعني قليل"**، معدودة أي جمع قلة، وجمع القلة من العشرة ونحوها، وجمع الكثرة، ولذلك قالوا معدودة قليل ومعدودات كثير.

- لما كيف نجمع بينهما؟

الجواب: طائفة من اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أيامًا محدودة، قالوا: سبعة أيام على عدد قالوا على عدد أيام الدنيا، أيام الدنيا عندهم هي 700 سبع أيام الدنيا عندهم 700 700 700000، فقالوا: كل 1000 يوم عند الله فهي سبعة أيام عند الله، فسيعذبنا الله سبعة أيام ثم نفوز بجنات النعيم؛ هذه الطائفة من اليهود.

وطائفة أخرى قالوا أيامًا معدودات، قالوا: يعذبنا الله 40 يومًا على قدر عبادة العجل؛ لأنهم عبدوا العجل 40 يومًا؛ لأن الله وعد موسى 40 ليلة فعبدوا فيها العجل، فقالوا يعذبنا الله 40 يومًا.

فهؤلاء كذبوا على الله وهؤلاء كلهم كذبوا على الله، لا سبعة أيام ولا 40. ولذلك قال الله ردًا عليهم: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ [البقرة: 80] هل عندكم عهد عند الله أنه لا يعذبهم إلا أيامًا معدودة؟ ما هو العهد الذي عندكم؟ هل آمنتم بالله وبرسله وأطعتم الله حتى يفي الله بوعده؟

الله يفي بوعده لمن آمن وصدق واتبع الرسل، أما أنتم تكذبون على الله. ولذلك قال: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 80]؛ أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون.

وهذا القول على الله القول الكذب وهو أشد وأشنع أشنع الذنوب والمعاصي، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون، وهم يقولون على الله ما لا تعلمون، فلم يؤخذ عليهم العهد، ولم يعطهم الله العهد حتى لا يخلف عهده، بل الحقيقة أنهم يقولون على الله ما لا يعلمون.

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحكم في الآخرة لمن ستكون النار ولمن ستكون الجنة، ومن سيخسر في الآخرة ويكون مصيره إلى النار، ومن سيفوز بالآخرة فيكون مصيره إلى الجنة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 81]. أي ليس كما تدعون هذه الدعاوى الكاذبة، بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون؛ هذا حكم الله أن من كسب سيئة من هؤلاء اليهود أو غيرهم، كل من كسب سيئة من هؤلاء أو غيرهم وأحاطت به خطيئته، أحاطت به خطيئته ولم أحاطت به خطيئته ولم تفارقه.

قال بعض أهل العلم: **"إحاطة الخطيئة دليل على الكفر والشرك"**.

فمن كفر وأشرك بالله ولم تفارقه خطاياه

- ما هي النتيجة؟

﴿فأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 81] هم أصحاب النار هم فيها خالدون، وهذه هي مصيرهم في الآخرة، أما النجاة والسلامة لمن قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 82]. آمنوا وصدقوا بما أنزل الله واتبعوا ما أمروا بالإيمان به من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وعملوا الصالحات.

عملوا الصالحات التي أمرهم الله، وعمل الصالح وعمل الأعمال الصالحة لابد أن تكون قائمة على شرطين:

⬅ الشرط الأول: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

⬅ الشرط الثاني: اتباع سنة محمد ﷺ، فمن حصل له هذا وعمل الصالحات وفاز لو عمل الصالحات بهذين الشرطين؛ فهو الفائز وهو من أصحاب الجنة الذين هم فيها خالدون.

ولذلك بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك أخذ الميثاق على بني إسرائيل وعلى غيره من الأمم السابقة، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ [البقرة: 83].

أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل، ما هو الميثاق الذي أخذ على حتى يقوموا به ولا يقولوا على الله الكذب ويقولون لن تمسنا النار إلا أيام معدودات، هذا هو الميثاق الذي أخذ عليهم، فمن وفى بهذا الميثاق وتمسك به ووفى بهذا الميثاق؛ فهو الفائز وهو الذي وعده الله بالفوز.

ولذلك قال: **"وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل"** أخذ الله عليهم الميثاق، أخذ عليهم الميثاق أن يقوموا بشرائعه وأن يتمسكوا بما أمروا به، فقال: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة: 83].

هذا هو الميثاق الحقيقي؛ ألا يعبدوا إلا الله، أن يؤخذ عليهم الميثاق، ميثاق قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة: 83]. أول بنود هذا الميثاق أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، أن يعبدوا الله ويفردوه بالعبادة ويتوجهوا إليه، ولا يشركوا في أعمالهم شيئًا من ذلك.

هذا هو أول بنود الميثاق أن يكونوا على هذا على هذه الحال، أن يكونوا على هذه الحال، أن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئًا، اعبدوا الله لا يشركوا به شيئًا؛ هذا أول أمر، وإذا حصل هذا الأمر جاء بعده ما أمر الله به من العبادات، وأول أمر به جميع الخلق وأمر به جميع الأنبياء هو عبادة الله وحده لا شريك له، وحده لا شريك له، ولذلك كل نبي يقول: اعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83]؛ أي أحسنوا بالوالدين إحسانًا، وهذا الإحسان يعم كل إحسان قولي وفعلي؛ الإحسان أن تحسن إلى والديك بالكلام الطيب وبالأفعال الطيبة، وضده الإساءة ضده الإساءة.

موقف الإنسان من والديه ثلاثة مواقف ثلاثة مواقف:

- الموقف الأول: إما أن يكون محسنًا لوالديه بقوله وفعله.
- الموقف الثاني: إما أن يكون يسيء لوالديه بقوله وفعله.
- الموقف الثالث: إما ألا يوجد منه إحسان ولا إساءة؛ فالأول هو المطلوب وهو الواجب وهو الذي يثاب عليه إذا أحسن والديه بالقول والفعل.

والثاني الإساءة إلى الوالدين، وهو المحرم الذي نهى الله عنه وتوعد أصحابه وتوعد أهله، وهم الذين يعقون والديهم، والثالث الذي لا يحسن ولا يسيء، هذا قد وقع في الحرام لأنه قصر فيما أمر الله به، وهو أخف من الثاني، والواجب أن يكون الإنسان محسنًا لوالديه محسنًا لولده.

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83]. ثم ذكر بعد ذلك من يكون لهم الإحسان قال: ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة: 83]؛ أي أحسنوا لأهل القرابة من الأعمام والأخوال ومن العمات والخالات ومن الإخوة، ومن كان قريبًا لك أن تحسن إليه بأي شيء.

أن تحسن إليه بقولك وفعلك، تحسن لهؤلاء بالقول والفعل، وهذا دليل على أن الله يأمر بصلة الرحم وصلة الأقارب وأن يحسن إليهم ولو من بعيد.

قال بعد ذلك: ﴿وَالْيَتَامَى﴾ [البقرة: 83]؛ أي أحسنوا لليتامى، واليتامى جمع يتيم، واليتيم هو من فقد أباه قبل البلوغ، فهذا يحسن إليه ويعطى من الكلام الطيب الحسن والفعل الحسن، ويغتنم فرصته فرصة يتيمي بأن يضاعف الله له الأجر.

قال: ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: 83] بعد ذلك، وهم الفقراء أن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن يقف معهم وأن يساعدهم في كل ما يحتاجون إليه، هؤلاء ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحسن إليهم، إلى الوالدين قدمهم ثم الأقارب ثم اليتامى ثم المساكين، وكل على قدر على قدر حاجته.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعد ذلك: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83]؛ كلمة عامة عظيمة القول الحسن، كل كلمة طيبة أن تقولها للناس عمومًا المسلم والكافر.

كل كلمة طيبة وكل ما فيه من بشاشة وقول حسن، إن كان مؤمنًا وجب عليك أن تعامله بمثل ذلك القول الطيب، وإن كان كافرًا فإنك تكسب أخلاقك معه حتى تكون سببًا في دخوله في الإسلام، فكل كلمة طيبة يحتاجها أخوك المسلم تعطيه هذه الكلام الطيب والبشاشة والخلق الحسن والتعامل الحسن والبر والإحسان للناس، قولوا للناس حسنًا.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكد على عبادتين عظيمتين، وهما إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وكل هذه الأمور وجهها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأخذ الميثاق على بني إسرائيل وهي أمور قررها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في شرائعه كلها، قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 83] يعني حافظوا على الصلاة وأدوها على الوجه الأكمل، ولاحظ أنه قال: **"أقيموا"** ولم يقل: **"صلوا"**؛ لأن إقامة الصلاة أن يأتي بها المصلي على الوجه الأكمل من الخشوع والركوع والسجود والأذكار ونحوها.

قال: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 83]، ويدخل في الصلاة جميع أنواع الصلوات من الفرائض والنوافل.

قال: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 83] أي أدوا الزكاة لمستحقيها سواء كانت الزكاة الفرض أو الزكوات النفل، ولاحظ أن الله أكد على تلك على هاتين العبادتين؛ لأن إقام الصلاة علاقة العبد بربه، إقامة الصلاة تجعل الإنسان يرتبط بربه، وهي تتضمن الإخلاص للمعبود وارتباط العبد بربه، والزكاة تتضمن الإحسان إلى من هو حولك من المؤمنين إلى إخوانك المسلمين حتى تقوى الصلة معهم.

قال: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 83]. ثم قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ [البقرة: 83] أيها اليهود الذي أخذنا عليكم الميثاق، توليتم ولم تقبلوا هذا الميثاق، ﴿تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ [البقرة: 83]، وتوليتم وأنتم معرضون، يعني لم تتقبلوا وتركتم هذا الميثاق وأنتم حالكم معرضون لا تريدون قبوله، إلا قليلاً من منكم قبلوا ذلك، فإعراضكم إعراض مع يعني تولي مع إعراض وهو أشد، وهذا كله خسارة عليهم وخذلان.

لو أخذوا بهذه المواثيق وبهذا الميثاق وبهذه الشرائع وأصول الدين لكان خيرًا لهم، لكنهم لا يريدون ذلك، فبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما طلب منهم وبين ما حذرهم منه، هذا هو الذي أمرهم به، لأنهم يتقولون على الله.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، ولعل نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله لنا لقاء نستكمل فيه ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(17)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، بسم الله، والحمد لله، وأصلِّ وأسلِّم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة، لقاؤنا هذا اليوم الأربعاء، الموافق العاشر من شهر رجب، من عام 1442، نجتمع في هذا اليوم لنتناول آياتٍ من كتاب الله، نقرؤها ونتدارسها فيما بيننا، الآيات من سورة البقرة، وتبدأ الآيات من الآية الـ84، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: 84].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر في هذه الآيات، وهو يخاطب اليهود، بأنه أخذ الميثاق عليهم، ولو تلاحظ أيها المستمع في الآيات السابقة التي مضت، أن الله أخذ الميثاق من بني إسرائيل قبل ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: 83].،

هذا ميثاقٌ عامٌّ لبني إسرائيل، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخذ الميثاق عليهم، وهذا ميثاقٌ خاصٌّ، وهو أنه أخذ الله الميثاق على وهو يخاطب أولئك المعاصرين للنبي ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: 84].

أخذ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هؤلاء المعاصرين للنبي ﷺ، أن لا يقتل بعضهم بعضًا، ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم، وأنه إذا وقع بعضهم أسارى في الحرب عليهم أن يفدوا هؤلاء الأسارى، فهؤلاء اليهود لم يمتثلوا الأمر الأول ولا الأمر الثاني، وإنما امتثلوا الأمر الثالث.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: 85]، لماذا لا تمتنعون من سفك الدماء؟ ولا تمتنعون من إخراج بعضكم من بعض، أو إخراج بعضكم من ديارهم؟ وتأخذون بأنهم إذا وقعوا أسارى تفادوهم؟

هذا الكلام يتضح لما نعرف في كتب التاريخ ما الذي حدث لليهود المعاصرين للنبي ﷺ، أولاً أن المدينة اجتمع فيها اليهود، وكانوا ثلاث طوائف: يهود بني قريظة، ويهود بني قينقاع، ويهود بني النظير، ولما نزلوا المدينة كان فيها أهل المدينة وهم الأوس والخزرج.

فتحالفت قريظة مع الأوس، وتحالفت بنو النظير وبنو قينقاع مع الخزرج، ولما تحالفوا وحصل بين الأوس والخزرج قتال، وكلما حصل قتال انتصر هؤلاء لحلفائهم وانتصر هؤلاء لحلفائهم، ووقعت حروبٌ بينهم، فكان يقتل اليهودي من بني قريظة اليهودي الآخر من بني النظير أو من بني قينقاع أو العكس.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أخذ الله عليكم الميثاق أيها اليهود ألا تسفكوا دماءكم، وأن يقتل بعضكم بعضًا، وأن تخرجوهم أو تخرجوا بعضكم من ديارهم، فكانوا يخرجونهم من ديارهم ويقتلون، وكانوا يقتلون من كان حليفًا مما هو ضدهم، وإذا انتهت الحرب ووقع أسارى بين الطرفين فإنهم يقومون بفدية هؤلاء الأسارى.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة: 84] أيها اليهود، ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة: 84] أي لا يقتل بعضكم بعضًا بغير حق، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة: 84] أي تخرجون إخوانكم، وقوله ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 84] المراد به إخوانكم؛ لأنهم لا يخرجون أنفسهم هم، وإنما يخرجون إخوانهم.

وهذا كثيرٌ في القرآن لما قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29]، وقال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11]، وقال: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: 12]، كل ذلك مخرجٌ على أن المؤمنين كالنفس واحدة، فمن أخرج أخاه المسلم، أو لمز أخاه المسلم، أو قتل أخاه المسلم، فكأنما قتل نفسه.

ولذلك قال: ﴿لَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة: 84]، فهم أخرجوا إخوانهم من ديارهم، قال: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ [البقرة: 84] بهذا الميثاق، ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة: 84] أن هذا الميثاق قد تقرر عندكم في التوراة، وقد علمتم حقيقته، ثم أنتم هؤلاء بعدما علمتم أن الله نهاكم وأخذ عليكم ميثاق ألا يقتل بعضكم بعضًا، وأن لا يخرج بعضكم بعضًا، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتنقضون الميثاق وتخالفون أمر الله.

تقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقًا منكم من ديارهم، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، تظاهرون أصلها تتظاهرون، أي تتعاونون مع غيركم عليهم، وكانوا يتعاونون مع غيرهم، يتعاونون مع الأوس أو مع الخزرج، من الكفار الذين كانوا في المدينة قبل الإسلام.

قال: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة: 85]، أي تتعاونون عليهم بالإثم والعدوان، قال: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾ [البقرة: 85]، إذا وقعوا إخوانكم أسارى دفعتم الفدية لفك أسرهم، قال: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: 85]، أي إخراجهم، والقتل أشد وأشنع؛ لأن القتل محرمٌ في جميع الشرائع.

ولذلك قال: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ [البقرة: 85]، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني إنكارًا عليهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: 85]، كيف يحصل منكم وأنتم أهل الكتاب؟ وأنتم أهل الكتاب وأنتم أهل العلم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟

ثم بين جزاء ذلك قال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: 85]، أي من يفعل ذلك بأن ينقض الميثاق، ولا يؤمن بما أمر الله، ولا يلتزم ما أمر الله، بأن يوقع القتل أو الإخراج إخوانه من ديارهم، أو يحصل منهم ما حصل، إلا جزاؤه أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: **"جزاؤه من جزاء من يفعل ذلك إلا خزيٌ في الحياة الدنيا، والخزي هو العار والفضيحة"**، بأن الله يلصق به العار ويفضحه أمام الخلق، ففضحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهم أهل كتاب وأهل علم، ويحصل منهم ما يحصل، فتذمر الناس بأفعالهم وعيروهم على أفعالهم، فكان ذلك خزيًا لهم في الحياة الدنيا، ثم بين الله عقوبتهم في الآخرة.

قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 85]؛ لأنهم كفروا بآيات الله، لأن الله قال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: 85]، فكفروا بآيات الله، وكفروا بأخذ عليهم الميثاق، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 85].

ليس الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بغافل عما يعمله هؤلاء من الأعمال السيئة، بل إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحصى ذلك وسيجازيهم على أعمالهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: 86]، لأنهم أخذوا الحياة الدنيا مقابل الآخرة، ورضوا بالحياة الدنيا وكفروا بآيات الله.

ولذلك لم باعوا دينهم وباعوا آخرتهم، بأن يأخذوا حظ هذه الدنيا ونصيب هذه الدنيا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: 86]، فالعذاب سيكون عليهم وبالاً، ولن يخفف عنهم، ولا يجدون من ينصرهم وينجيهم من هذا العذاب.

هذه بيان لطبائع أو إلى لون من ألوان قبائح اليهود ومواقفهم السيئة، من مما أمرهم الله به من أخذ الميثاق، ومما أنزل عليهم في كتابهم من أوامر ونواهي، ومع ذلك لم يلتزموا، بل كفروا وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، فهذه عقوبتهم وهذا جزاؤهم لما كفروا بآيات الله ولم يلتزموا بذلك.

بعد ذلك ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما أنعم عليهم، وتجد الآيات تجد الآيات ما بين تذكير اليهود، تذكيرهم بما كان عليه آباؤهم وأسلافهم وأجدادهم، أو تذكيرهم بما ما جاءهم به نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو ذكر قبائحهم ومواقفهم السيئة، ما بين هذا وهذا.

فلذلك جاءت الآية هنا تذكير لهم بما أنعم الله عليهم من نعمة الرسالة، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [البقرة: 87]، فمن فبين الله ما منَّ به عليهم بأن آتى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الكتاب وهو التوراة، أنزل التوراة وفيها هدىً ونورٌ وموعظةٌ، قال الله: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ [البقرة: 87].

أي من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على بني إسرائيل، أن تابع عليهم بالرسل والرسالات، فبعث فيهم فبعث فيهم أنبياء، قال: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: 87]، خصه بالذكر لأنه من أولي العزم، ولأنه خاتم رسل بني إسرائيل، لأن الله ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، ولأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خصه بالآيات والبينات وأنزل عليه الإنجيل.

ولذلك قال: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: 87]، والمراد بالبينات هي الحجج هي الحجج والأدلة الدالة على صدق رسالته، فأرسله الله إلى بني إسرائيل كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية أخرى قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ [الصف: 6]، فبين لهم أنه رسولٌ إليهم فكفروا به.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: 87]، إنه آتاهم إنه آتاهم البينات، وأتى عيسى بن مريم البينات، ومنها الكتاب الذي أنزله عليه الكتاب وهو الإنجيل، وأعطاه من الآيات كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وأعطاهم من علوم الغيب أنه يخبر بما يأكل الناس وبما يدخرون في بيوتهم وغيره من الآيات العظيمة.

قال: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ [البقرة: 87] أي قويناه وشددناه، ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 87]، وروح القدس هنا الله أعلم على عند كثير من المفسرين أن **"المراد بالروح القدس هو جبريل"**، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: 193] على قلبك، فالروح الأمين وروح القدس، وقال أيضًا في موضع آخر: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: 102].

فروح القدس جبريل، أيد الله عيسى بن مريم بجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله ردًا عليهم واستنكارًا علي على هؤلاء اليهود، قال: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: 87]، بما لا تهواه أنفسكم وبما تشتهيه أنفسكم، لأنكم أصحاب هوىً وأصحاب شهوات، فكلما جاءكم رسولٌ يخالف أهواءكم ويخالف شهواتكم استكبرتم.

فصفتهم التكبر والاستكبار على الأنبياء، تقبلوا شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك من تكبرهم وتعنتهم وأيضًا اتباعهم أهواءهم وشهواتهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ [البقرة: 87] أي فريقًا من الأنبياء والرسل الذين أرسل إليكم فريقًا كذبتم، ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87].

ولاحظ أنه جاء بالفعل المضارع في قوله ﴿تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87]، أي صفتكم دائمًا القتل للأنبياء، أو التكذيب والقتل، قتلٌ مرتبٌ على التكذيب، لأنهم كذبوا الرسل ثم أيضًا اعتدوا عليهم

بالقتل، وقد قتلوا عددًا من أنبياء بني إسرائيل كيحيى وزكريا وغيرهم، ولذلك قال: ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87].

وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا، ولا يزال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر قبائحهم وأفعالهم الشنيعة، فيقول: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: 88]، وهذا الذي ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موقف هؤلاء اليهود المعاصرين للنبي ﷺ، وتلاحظ أن الآيات تدور بين ذكر من عاصر النبي ﷺ، وذكر من كان قبل ذلك من أسلافهم.

فالذين قتلوا الأنبياء واستكبروا وكذبوا هم أسلافهم، ولذلك هم على طريقتهم، ثم خاطبهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خاطب المعاصرين فقال أو أخبر عن حالهم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عن حالهم فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: 88]،

- ما معنى قولهم ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾؟

الجواب: أي أنهم أن قلوبهم مغلفةٌ، عليها غلافٌ وعليها أغطيةٌ لا تتقبل لا تتقبل هذا الأمر.

لا تتقبل ما يخاطبهم به النبي ﷺ، كلما خطب خاطبهم النبي ﷺ وبلغهم رسالة ربه، وذكرهم بما وجب عليهم، أو بما فرض الله عليه في التوراة، قالوا: لا نقبل منك، لا نسمع منك، ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: 88]، قلوبنا غلف، قلوبنا مغطاةٌ لا تتقبل منك.

وقال بعض أهل التفسير إن معنى ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ يعني بعضهم: **"إن معنى قلوبنا غلف أي مغلفة مغطاة لا يدخلها شيء من كلامك"**.

بعضهم قال: **"قلوبنا غلف أي غلاف ووعاء قد ملئ بالعلم"**، فنحن عندنا علمٌ لا حاجة لنا بعلمك، واعتذروا بأنهم لا يقبلون من محمد لأن عندهم علمٌ، واستكبروا على محمد ﷺ.

فالمعنيان صحيحان أن قلوبهم غلفٌ أي مغطاةٌ لا تقبل منك، أو هي مليئةٌ بما ادعوه من علمٍ فنحن لا نحتاج إلى علمك يا محمد، فلما كان هذا كذبٌ منهم واستكبارٌ، رد الله عليهم فقال: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 88].

و **"بل"** هنا للإضراب، الانتقال من معنى إلى معنى، يعني لا كما تدعون أن قلوبكم أن قلوب أن قلوبكم غلفٌ، لا، هذه دعوى باطلةٌ وكاذبةٌ، وهذا افتراءٌ من عندكم، بل الحق أن الله لعنهم، فلما لعنهم وطردهم عن رحمته لم يستطيعوا أن يتقبلوا شيئًا من ذلك، ولعنهم الله بأي لماذا؟

قال: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: 88] أي بسبب كفرهم، لما كفروا بآيات الله ولم يتقبلوا لعنهم الله.

﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 88]، وقليلاً هنا تحتمل أنه معناه **"أن قليلاً منهم من يؤمن بمحمد كعبد الله بن سلام"**، وكانوا قلةً جدًّا، ويحتمل أن يكون قليلاً أي إيمانًا قليلاً، فيكون المعنى ﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 88] أي ما يؤمنون إلا إيمانًا بك قليلاً، يعني لا يصدقون بما دعوتهم يا محمد إلا إيمانًا قليلاً لا يؤثر لا يؤثر فيهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا في بيان قبائحهم وبيان مواقفهم السيئة قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: 89]، هذا الكتاب هو القرآن، لما وصلهم خبر محمد ﷺ ونبوته وجاءهم القرآن وسمعوا القرآن الكريم وعلموا أن هذا القرآن هو الحق، وأنه مصدقٌ لما معهم إلى التوراة.

لما جاءهم من عند الله وعلموا أنه وحيٌ من عند الله، و ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: 89]، لأنه صدق أحكام التوراة ولأنه صدق بما أخبرت التوراة به من صفات محمد ﷺ وأتباعه، قال: ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: 89].

أي اليهود لما نزلوا المدينة، كانوا يقولون للأوس والخزرج لما كانوا كفارًا، كانت اليهود تقول لهم: سيبعث منا نبيٌّ وننتصر عليكم، و **"يستفتحون من الفتح وهو القضاء والحكم"**، القضاء والحكم: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: 19]، أي القضاء والحكم، معنى يستفتحون على الذين كفروا قال سيتم القضاء بيننا وبينكم، وسيتم الحكم بيننا وبينكم، وسننتصر عليكم ونحكم.

وكانوا يخبرون الأوس والخزرج بأنه سيتم لهم النصر، وسيبعث نبيٌّ منهم وهو نبي الساعة، وإذا جاء النبي سينتصرون على كفار المدينة وسيحكمون يحكمونهم، ولذلك قال: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [البقرة: 89]، أي جاءهم محمد وجاءهم نبي الساعة ماذا كان موقفهم؟

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ [البقرة: 89]، أي عرفوا محمدًا ﷺ وعرفوا أنه هو النبي، ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: 89]، كفروا، أين كلامكم السابق لما كنتم تقولون إننا سيبعث سننصره وننتصر عليكم؟ كان موقفهم الكفر ولذلك قال ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: 89].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 89]، لعنة الله وطرده وإبعاده لهؤلاء على الكافرين، وتأمل أن الله حكم عليهم بالكفر، حكم عليهم بالكفر لما كفروا برسالة النبي ﷺ حكم عليه فقال: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 89].

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: 90]، أي بئس هذا العمل الذي عملوه أن اشتروا أنفسهم، قال أهل التفسير **"اشتروا هنا معنى باعوا"**، أي باعوا أنفسهم بالكفر وأخذوا الكفر مكان الإيمان، فكان الواجب أن يقدموا أنفسهم بالإيمان وأن يتبعوا النبي ﷺ، لكنهم عصوا وباعوا أنفسهم وكفروا وباعوا دينهم وكفروا، وأخذوا الكفر مكانه.

أي يكفروا بما أنزل الله أي القرآن، وكفروا بمحمد وكفروا بالقرآن، قال: ﴿بَغْيًا﴾ [البقرة: 90]، أي حسدًا وحقدًا وكراهية، قال: ﴿بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: 90]، فكرهوا ذلك، قالوا: كنا ننتظر أن يبعث الله نبيًّا منا من سلالة إسحاق، فبعث الله نبي بعث الله نبيًّا من سلالة إسماعيل، ثم كفروا به ولم يقبلوا ذلك.

قال: ﴿بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: 90].

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: 90]، أي باء هؤلاء، أي رجع هؤلاء الذين كفروا برسالة النبي ﷺ ولم يؤمنوا وتكبروا واستكبروا، ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: 90].

أي اجتمع عليهم غضبٌ على غضب، غضب الله عليهم بكفرهم برسالة نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكفروا بالعهود والمواثيق، وكفروا بما أمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في التوراة، فكفروا بذلك وكفروا برسالة محمد ﷺ، فاجتمع الغضب على الغضب.

فباءوا ورجعوا إلى الله يوم القيامة بأن غضب الله عليهم وجعل غضبًا على غضبٍ عليهم، وللكافرين، ولاحظ أنه سماهم مرة أخرى وحكم عليهم بالكفر، قال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: 90].

وقوله ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: 90] ليشمل الكفر ليشمل اليهود وغيره، كل من كفر برسالة محمد النتيجة ما هي؟

- قال: ﴿وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، ولو سألك السائل قال: لماذا ختمت الآية بقوله ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: 90] ولم يقل عذاب أليم أو عظيم؟

الجواب: لمناسبة سياق الآيات، فهم تكبروا واستكبروا واستهانوا بشرع الله واستهانوا بنبي الله، فكان الجزاء من جنس العمل، **"فمن أهان أُهين"**.

لعلنا نقف أيها الإخوة عند هذا، لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل إن شاء الله ما توقفنا عنده بإذن الله، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(18)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم هو يوم الأربعاء، الموافق السادس والعشرين من شهر رجب، من عام اثنين وأربعين بعد المئة الرابعة والألف من هجرة المصطفى ﷺ.

نجتمع لنستكمل ما توقفنا عنده من تفسير آيات سورة البقرة، والآية التي بين أيدينا هي الآية الواحدة والتسعون من سورة البقرة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 91].

هذا الخطاب للمعاصرين للنبي ﷺ، وهم اليهود الذين كانوا على عهد النبي ﷺ؛ إذا قيل لهم آمنوا بالقرآن، آمنوا بما أنزل الله وهو القرآن المنزل على محمد ﷺ، قالوا نؤمن بما أنزل علينا؛ يعنون بذلك التوراة، أي يؤمنون بالتوراة ويكتفون بالإيمان بالتوراة، ويكفرون بما وراءه، أي بغير ذلك، يكفرون بما سوى التوراة، يقولون نؤمن بالذي أنزل علينا وهي التوراة.

ويكفرون بما وراءه، أي بما سوى التوراة، كل ما أنزل الله من كتب لا يؤمنون بها، إلا أنهم يؤمنون بالتوراة فقط، قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ردًا عليهم: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 91] أي الذي كفروا بما وراءه من الكتب المنزلة، وفي مقدمتها القرآن الكريم، هو الحق أي ما أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الكتب، سواء التوراة أو القرآن أو أي كتاب أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نبي من أنبيائه هو الحق، وما سواه هو الباطل؛ فكيف يكفرون بالحق؟

- كيف يكفرون بالحق الذي نزله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

هو الحق، وقوله الحق، وكلامه الحق، وكتابه الحق، فكيف يكفرونه؟ فرد الله عليهم قال هذا هو الحق، القرآن الكريم هو الحق، وما أنزله من كتب هو الحق.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: 91] أي هذا القرآن مصدقًا لما معهم من التوراة؛ أي أن القرآن الكريم يصدق ما أخبرت به التوراة، بما جاء في التوراة من أحكام، وبما جاء من عقائد، وبما جاء من أخبار عن محمد ﷺ، وعن نبوته وعن رسالته وعن أوصافه ﷺ؛ فمصدقًا لما معهم أي هذا القرآن يصدق ما معهم، قال الله مصدقا لما معهم؛ هذه حجتهم، حجة اليهود أنهم يقولون نكتفي بالتوراة ونؤمن بها.

قال الله ردًا عليهم، ولاحظ أن الله يرد عليهم ويبطل دعواهم، هذه دعوة كاذبة؛ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى زيادة على هذه الردود: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 91]. إن كنتم تقولون نؤمن بالتوراة، فهل التوراة تأمركم بقتل الأنبياء؟ لماذا تقتلون الأنبياء؟ التوراة تنهاكم عن قتل الأنبياء، التوراة تنهى عن قتل كل نفس بغير حق، فكيف بالأنبياء؟ فأين دعوة الإيمان بالتوراة إن كنتم مؤمنين بالتوراة؟ فإن التوراة تنهاكم عن قتل الأنبياء، فأنتم تناقضون أنفسكم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى زاد عليهم في إبطال هذه الدعوة أنهم يقولون لا نؤمن إلا بالتوراة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: 92] أي جاءكم موسى بالحجج والأدلة الدامغة الواضحة، التي تدل على صدق ما جاءكم به، وتدل على صدق ما جاء به محمد ﷺ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: 92] والحجج والأدلة الواضحة، وأنتم مع ذلك تكفرون؛ تكفرون بموسى وتكفرون بالله وتجعلون له آلهة أخرى وتعبدون العجل، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: 92].

اتخذتم العجل من بعد ذلك وأنتم ظالمون، أي أنكم جاءكم موسى بالحق والتوحيد والإيمان والإخلاص لله، ثم إنكم بعد ذلك ماذا اتخذتم؟ اتخذتم العجل إلهًا؛ فحذف المفعول الثاني لأنه لا يستحق أن يذكر، كيف يكون العجل إلهًا؟ ولذلك حذفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولم يذكره لأنه لا يستحق أن يذكر، ولذلك قال: ﴿اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: 92] والتقدير اتخذتم العجل إلهًا مع الله.

فصرتم تعبدون العجل كما تعبدون الله، ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ [البقرة: 92] أي من بعد موسى لما ذهب إلى ربه، لما ذهب إلى ميقات ربه؛ لما ذهب اتخذتم العجل وعبدتم العجل، لما زين لكم السامري عبادة العجل، ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: 92] والحال أنكم ظالمون أنفسكم، أنكم ظالموا أنفسكم بعبادة العجل.

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مواقف لهم تدل على أنهم لم يؤمنوا بالتوراة ولم يؤمنوا بموسى؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: 93] وهذا لأسلافهم وأجدادهم، أن الله أخذ عليهم الميثاق، وهم السبعون الذين اصطفاهم واختارهم موسى، وذهب بهم إلى الطور ليعتذروا عما عبد أتباع موسى وبنو إسرائيل الذين عبدوا العجل؛ ذهب هؤلاء السبعون ليعتذروا عما فعل أصحابهم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة: 93] عند الطور، أخذنا الميثاق على أن تؤمنوا وعلى أن تقبلوا شريعة الله وتقبلوا أحكامه وما كلفكم به.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: 93] يعني ألزموا وقصروا على أن يؤمنوا بقوة، رفع الله عليهم الطور، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171].

فرفع الطور فوقهم حتى يؤمنوا بقوة فآمنوا، وقد قالوا سمعنا؛ ثم بعد ذلك لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم عندما رفع الطور فوقهم، قال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: 93] خذوه بقوة، تمسكوا بما أمرناكم، بما جاء في التوراة من أوامر ومن ميثاق، واسمعوا ما قلنا لكم؛ قالوا سمعنا بقوة، ثم بعد ذلك قالوا عصينا، فعصوا ولم يلتزموا ما أمرهم الله عند الطور، قالوا عصينا.

﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: 93] أي أشرب في قلوبهم حب العجل، أي محبة العجل؛ محبة العجل دخلت في قلوبهم، ولا يمكن أن يكون العجل هو الذي دخل، وإنما محبة العجل والميل إلى عبادته دخلت في قلوبهم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَأُشْرِبُوا﴾ [البقرة: 93] كما تشرب الأرض الماء، وكما تشرب العروق الماء، تبتل العروق بالماء؛ فقلوبهم أشربت ودخلها كما يدخل الماء إلى القلب، دخل حب العجل في قلوبهم فأصبحت قلوبهم تحب العجل حبًا شديدًا.

قال: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: 93]، هذا كله بسبب معاصيهم؛ لأن المعصية تكون سببًا للمعصية الأخرى، والمعصية تجر المعصية، ولذلك أشرب في قلوبهم العجل بأي شيء؟ قال: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: 93]؛ لأنهم كفروا بالآيات العظيمة، ولذلك جازاهم الله وأوقعهم في مثل هذه الأمور.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 93]. قل يا محمد لهؤلاء: بئس ما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين.

إيمانهم لما قالوا نؤمن بما أنزل علينا، قال الله: بئس ما يأمركم به إيمانكم هذا؛ إيمانكم الذي يأمركم به في التوراة، هذا إيمانكم الذين تدعون أنكم تؤمنون بالتوراة، التوراة لا تأمركم بالكفر بالكتب ولا بالقرآن، التوراة لا تأمركم باتخاذ العجل، التوراة لا تأمركم بنقض المواثيق والعهود، التوراة لا تأمركم أن تقولوا سمعنا وعصينا، التوراة لا تأمركم بمحبة عبادة العجل وعدم الإيمان بما أمركم الله؛ كل ذلك لا تأمركم به.

ولذلك قال: ﴿بِئْسَمَا﴾ [البقرة: 93]، بئس فعل ماضٍ جامد يدل على الذم، كقوله ساء وبئس، وضده نعم؛ قال: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ﴾ [البقرة: 93] أي بئس الإيمان الذي يأمركم، بئس إيمانكم الذي يأمركم به إن كنتم مؤمنين، أين إيمانكم لما تقولون نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقًا لما معهم؟

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر بالإيمان بالكتب كلها، ونهى عن التفريق بين الكتب والرسل، ولا يجوز للإنسان أن يؤمن ويفرق بين الرسل والكتب، بل يؤمن بالرسل كلهم، ويؤمن بما أنزل الله على الإطلاق.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان التفريق وأثره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا 150 أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: 150-151].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك لما قال: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 93]، قال الله بعدها: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 94]. هذا رد على هؤلاء اليهود الذين يدعون أن الآخرة لهم وحدهم، وأن الجنة لا يدخلها إلا من كان هودًا أو نصارى؛ هذه كلها دعاوى عارية من الدليل، ودعاوى باطلة ومردودة.

ولذلك رد الله عليهم لما قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، وقالوا ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: 111]، وقالوا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18]؛ كل هذه دعاوى رد الله عليهم، قال: قل يا محمد، إن كانت لكم أيها اليهود الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس، لا يدخلها إلا أنتم ولا يدخل الجنة إلا أنتم من دون الناس، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، وهذه جاءت على وجه المباهلة، فإن النبي ﷺ باهلهم، أو طلب منهم المباهلة؛ طلب أن يباهلوه على هذا.

قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 94] في دعواكم أن الدار الآخرة لكم خالصة، وأن الجنة لكم، فلماذا لا تتمنوا الموت حتى تذهبوا إلى الجنة؟ فأمرهم النبي أن يتمنوا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 94].

ولذلك النبي ﷺ أمرهم بالمباهلة، فجمع اليهود وقال: يا يهود، إن كنتم صادقين فيما تقولون أن الدار الآخرة هي لكم من دون الناس فتمنوا الموت؛ ولم يتقدم واحد منهم أمام النبي ﷺ أن يقول أمامه إني أتمنى الموت، أو يدعو على نفسه بالموت، بل رجعوا كلهم ولم يؤمنوا، كما أن النبي ﷺ باهل النصارى ولم يؤمنوا بالنبي ﷺ.

فاليهود امتنعوا لأنهم يعلمون حقيقة أنهم إذا ماتوا سيلاقون عند الله ما لا يرضيهم، ولذلك امتنعوا من الإيمان؛ قال: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 94]. وأخبر الله أنهم لن يستطيعوا ذلك، ولذلك قال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 95]؛ والسبب بما قدمت

أيديهم من الذنوب والمعاصي والإسراف على أنفسهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 95]؛ سماهم الظالمين لأنهم ظلموا أنفسهم وقصروا في حق الله، ولذلك قال لن يتمنوه أبدًا بما قدمت أيديهم.

ثم حكى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شدة حرصهم على الدنيا، شدة حرص اليهود على الدنيا؛ كيف من كانت حاله هذه، الشديد الحرص على الدنيا، ثم يتمنى الآخرة؟ لا يمكن، لا تجتمع الدنيا مع الآخرة، ولذلك لما أبطل دعواهم أن الدار الآخرة لهم.

قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: 96]؛ لتجدن هؤلاء اليهود هم أحرص الناس على هذه الدنيا، ولذلك قال: ﴿عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: 96]؛ ولاحظ أن الحياة هنا جاءت نكرة، أي حياة، وإن كان فيها ذل لهم، يتمنون الحياة على أي وجه، وإن كانت هذه الحياة فيها ذل لهم، لا يهمهم ذلك، أهم شيء يعيش في هذه الدنيا.

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة: 96]؛ أي تجدهم أحرص الناس حتى من الذين أشركوا، والذين أشركوا لا يؤمنون بالآخرة، يقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا؛ فالمشركون لا يؤمنون بالآخرة، ولذلك المشركون لا تستغرب منهم أن يكونوا شديدي الحرص على الدنيا لأنهم لا يؤمنون إلا بالدنيا، لكن اليهود فوقهم في الحرص، في شدة الحرص، ولذلك قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ [البقرة: 96].

وأحرص أيضًا من الذين أشركوا.

قال الله في حالهم: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: 96]، أي يود أحد هؤلاء اليهود لو يمد في عمره ويعيش في هذه الدنيا ألف سنة؛ ولكن هذا العمر وهذه المدة وهذا الطول لا يزحزحه من العذاب، لا يدفعه عن العذاب الذي توعده الله به.

ولذلك قال: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 96].

وختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 96]، وهذا أسلوب تهديد وتخويف لهم، أن الله مطلع على أعمالهم وعلى نياتهم وعلى ما يدعونه من أكاذيب.

يحكي لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا موقفًا من مواقف اليهود السيئة في هذه الآيات قليلة العدد، ولكنها تجمع مواقف سيئة وقبائح هؤلاء اليهود؛ ومن مواقفهم وقبائحهم وأنت تتعجب وأنت تقرأ هذه الآيات

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 97]. العجيب من اليهود أنهم يعادون جبريل؛ ماذا صنع لهم؟ لماذا يعادون جبريل؟ وما الفرق؟ جبريل ملك وهو مأمور يأمره الله وهو ينفذ أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قالوا إن جبريل لما جاءوا إلى النبي ﷺ قالوا: ما الذي يأتيك من الملائكة؟

قال: جبريل؛ قالوا: هذا عدونا، وإنما نريد ميكائيل لأنه ينزل بالقطر وينزل بالمطر، أما جبريل فإنه ينزل بالعذاب على الأمم لا نحبه، بل هو عدو لنا.

جبريل إن نزل بالعذاب أو نزل بالوحي أو نزل بالقرآن أو نزل بالكتب أو نزل بالروح، فجبريل ملك من الملائكة، وجبريل يأمره الله سبحانه وهو ينفذ أوامر الله؛ فإن عداوتكم لجبريل عداوة لله، وعداوة لسائر الملائكة، وعداوة لمن أنزل عليه القرآن، وهذا أمر باطل لا يقبل منهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 97]، أي هؤلاء اليهود إن كانوا أعداء لجبريل فإن جبريل نزل هذا القرآن على قلبك، والذي نزله على قلبك ونزل به الروح الأمين بإذن الله، ولم ينزله من تلقاء نفسه، وإنما أمره الله بإذن الله؛ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: 97].

أي هذا القرآن مصدقًا للكتب السابقة ومنها التوراة، وزيادة على ذلك هذا القرآن ﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 97]، هدى يهتدي به المهتدون من اليهود وغيرهم لمن أراد الهداية، وبشرى للمؤمنين يبشر المؤمنين الذين يؤمنون بهذا الكتاب بالبشارات الطيبة.

فهذا القرآن وجبريل ينزل به، فلماذا تعادونه أيها اليهود؟ ولذلك حكم الله عليهم بالكفر، وحكم عليهم بأن عداوتهم لجبريل عداوة لسائر الملائكة، بل هي عداوة لله؛ ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 98].

يعني من كان عدوًا لجبريل فقد عادى الله، ومن كان عدوًا لله وملائكته كلهم وفي مقدمتهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وميكال أو ميكائيل لغتان في اسمه كما يقال جبريل وجبرائيل وميكال وميكائيل وخص جبريل وخص ميكائيل لأنهم يريدونه، فيقول لا فرق؛ فإذا كفرتم بهذا لأن الذي يكفر بواحد قد كفر بالجميع.

ولذلك قال: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 98]. قال الله ردًا عليهم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 98]، ولم يقل عدو لليهود؛ لماذا؟

لأنه وصفهم بوصف الكفر، فالذي يعادي هؤلاء أو يعادي ملكًا من الملائكة فقد عادى الله وعادى ملائكته وعادى رسله، ولذلك سماهم كفارًا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة: 99]؛ ولقد أنزلنا إليك يا محمد آيات بينات يدركها هؤلاء اليهود ويعرفونها وتفضحهم وتبين قبائحهم وتكشف عما كانوا يخفونه، وما يكفر بها هذه الآيات إلا الفاسقون، وهؤلاء الذين كفروا بها من اليهود هم الفاسقون.

ولذلك لاحظ أنه عطف بعد ذلك قال: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 100]. أي اليهود كلما عاهدوا عهدًا، عاهدوا الله أو عاهدوا رسله أو عاهدوا المؤمنين عهودًا نبذه فريق منهم؛ إذ لا ينقضون عهودهم جميعًا لأن بعضهم قد وفى بما عاهد، لذلك قال: ﴿نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: 100].

وهذا من احترازات القرآن العجيبة أنه لا يعمم؛ لأنه قد يوجد منهم من عاهد والتزم هذا العهد، قال: ﴿فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ [البقرة: 100] ولم يقل جميعهم، بل أكثرهم لا يؤمنون بالمعاهدات ولا يؤمنون بما يجب الإيمان به.

هذه الآيات إلى الآية مئة، كلها تبين وتفضح مواقف هؤلاء اليهود الكذبة، وتفضح أيضًا قبائحهم السيئة ومواقفهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومع رسله ومع ملائكته ومع كتبه.

- ما الذي بقي لليهود أن يؤمنوا به؟

حتى التوراة لم يؤمنوا بها، الذين يدعون أنهم يؤمنون بالتوراة ويقولون نؤمن بما أنزل علينا وهم يكذبون؛ التوراة لا تأمرهم بالإيمان ببعض الكتب والكفر ببعضها، لا تأمرهم أن يعادوا أولياء الله ولا يعادوا ملائكته، لا تأمرهم بقتل الأنبياء، ولا تأمرهم بنقض العهود، ولا تأمرهم باتخاذ العجل إلهًا؛ كل هذه نقضها الله سبحانه ورد عليهم بهذه الردود كلها التي تدل على بطلان دعواهم الكاذبة.

نقف عند هذا القدر، وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، وإلى لقاء آخر بإذن الله؛ أسأل الله أن ينفعنا ويبارك لنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(19)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

حيّاكُم الله في هذا اللقاء المبارك مع تفسير القرآن العظيم، وهذا اليوم هو يوم الأربعاء، وهو الموافق للرابع من شهر شعبان من عام 1442هـ، نجتمع لنتدارس آيات من كتاب الله، وتوقف بنا الكلام في تفسير سورة البقرة عند الآية 101، وهي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 101].

هذه الآية وما قبلها من آيات وما بعدها كلها تتحدث عن مواقف اليهود، سواء كانت هذه المواقف مواقف مع رب العالمين، أو مواقف مع نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو مواقف مع نبينا محمد ﷺ، وتلاحظ أنه هنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾، وقبلها في آيات قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 89].

وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فهم موقفهم السابق لما جاءهم كتاب من عند الله كفروا به، وهنا موقفٌ أيضًا أسوأ من الأول، قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ وهو محمدٌ ﷺ، لما جاءهم وهاجر إلى المدينة ورآه اليهود رأي العين، وعرفوه بأوصافه.

﴿لَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾، الرسول ﷺ وكتابه القرآن يصدق التوراة، ويصدق الكتب المنزلة كلها، يصدقها ويؤيدها ولا يخالفها، وهم أيضًا في كتابهم في التوراة يعرفون صدق محمدٍ ﷺ وصدق رسالته.

- لما جاءهم رسولٌ من عند الله مصدقٌ لما معهم، ماذا كان موقف اليهود في المدينة لما رأوا النبي ﷺ وعرفوه بأوصافه؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

- ولاحظ هذه المواقف السيئة الخبيثة القبيحة من اليهود، ما هي هذه المواقف؟

⬅ الموقف الأول: أنهم نبذ فريق منهم؛ فريق من الذين أوتوا الكتاب، يعني لما عرفوا الحق وعرفوا رسالة النبي ﷺ كان موقفهم أنهم **"النبذ فريق منهم"**، والنبذُ هو طرح الشيء بلا مبالاةٍ، فهم نبذوا وطرحوا، قال: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، ولاحظ أن كلمة ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ يدل على أن الله تفضل عليهم بنعمة العلم والمعرفة والتعلم، فهم أهل علمٍ، ثم هم هذا موقفهم أنهم ينبذون كتاب الله، وليس أي كتابٍ، وإنما هو كتاب الله.

"والمراد بكتاب الله هنا التوراة عند جمهور المفسرين، أن المراد بكتابٍ هنا كتاب الله المراد به التوراة"، يعني أن اليهود لما جاءهم الرسول ﷺ كان موقفهم السيء أنهم طرحوا التوراة وراء ظهورهم، ولاحظ كلمة ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ تدل على أنه طرحٌ لا التفات إليه، ولا يرجع إليه، ولا ينظرون فيه.

ولذلك قال: ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾، ولاحظ زيادةً على ذلك أن الله قال فيهم: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي كأنهم جهلةٌ، كأنهم نزلهم منزلة الجهلة الذين لا يعلمون، يقول: كيف يمنُّ عليهم بالعلم، ويمنُّ

عليهم بالرسالات، ويمنُّ عليهم برسالة موسى وبالكتاب وبالتوراة، ثم هم ينزلون أنفسهم منزلة الجهلة الذين لا يعلمون؟ فهذا معنى هذه الآية.

قال: ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة: 102]، لاحظ وهذه قاعدةٌ، هذه قاعدةٌ في الحياة، وقاعدةٌ في قضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحكمته وتقديره؛ أن كل شخصٍ يترك ما ينفعه وهو يستطيع ويمكنه أن ينتفع به، فإنه يعاقب ويبتلى بالاشتغال بما يضره، هؤلاء اليهود تركوا ما ينفعهم فيما جاءهم في التوراة وبما جاءهم عن رسول الله محمدٍ ﷺ والإيمان به، فلما تركوا ذلك وهم يستطيعون ويمكنهم الانتفاع ويمكنهم الإيمان، عوقبوا وابتلوا بالاشتغال بما يضرهم.

ولذلك لما أعرضوا ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، ولم يعملوا به؛ ابتلاهم الله بالسحر وعبادة الشياطين: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾، فاتبعوا عبادة الشياطين وابتلوا بعبادة الشياطين، ولذلك كل شخصٍ.

وهذه قاعدة؛ أن كل إنسانٍ يترك ما ينفعه وهو يمكنه أن ينتفع به ثم يشتغل بشيءٍ آخر إلا يبتلى، فمن ترك محبة الله والخوف من الله ابتلي بمحبة غيره والخوف من غيره، ومن ترك طاعة الله ابتلي بطاعة الشيطان، ومن ترك الإنفاق في سبيل الله ابتلي بإهدار ماله فيما لا ينفعه، وهذه قاعدةٌ.

ولذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، النتيجة أنهم ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾؛ أي ما تخترعه الشياطين وتفتريه على ملك سليمان، وسليمان بريءٌ، وملكه بريءٌ، ملكه منةٌ من الله ونعمةٌ، وسليمان من أشرف خلق الله، بل هو كما قال الله سبحانه: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 30].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعله من المصطفين الأخيار، لا يعرف السحر ولا طريق السحر، وظن هؤلاء الشياطين وغيرهم أن سليمان ما حصل عليه من هذا الملك العظيم وتسخير الجن والإنس والطير والريح إلا باستعماله للسحر، وظنوا أن سليمان يتعاطى السحر، فهذا ظنٌ باطلٌ وزعمٌ باطلٌ.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نزه سليمان من هذا العمل، قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾، ما كفر سليمان، سليمان من أجمل الطائعين العابدين لله، ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، فما كفر سليمان كما تزعمه الشياطين ويزعمه اليهود، لم يكفر سليمان، وفي هذا دلالةٌ على أن السحر كفرٌ؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾؛ أي ما استعمل السحر وما عمل بالسحر، لأن من يعمل بالسحر ويستعمل السحر فهو كافرٌ، ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾؛ لأنهم يستعملون السحر ويعلمون الناس السحر.

ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾، فالشياطين هي التي تعلم السحر وهي التي تتعامل بالسحر، وكذلك ما أشار الله إليه في هذه الآية بأن من هذين الملكين الذين امتحنهم الله، قال: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾؛ أي من السحر ما تفتعله الشياطين وتفعله وتعمل به الشياطين.

ومن السحر أيضًا ما أنزل على الملكين ببابل، وهي من أرض العراق، هاروت وماروت، هذان اسمان للملكين، قال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ﴾؛ أي هذان الملكان ما يعلمان من أحدٍ حتى ينصحانه ويحذرانه.

حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ نحن فتنةٌ ابتلينا وأنتم ابتليتم بنا، ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾، فلا تكفر يا من يتعامل بالسحر ويا من يأتي إلى هذين الملكين، قال: ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾، إن السحر كفرٌ، قال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ

مِنْهُمَا﴾؛ أي من هذين الملكين، ما يفرقون به، ﴿مِنْهُمَا﴾ يرجع إلى الملكين وإلى الشياطين، إلى هذا الجنس وهذا الجنس، يتعلمون هؤلاء اليهود يتعلمون من الشياطين، ويتعلمون من هذين الملكين، ومن أعمال ومن آثار السحر أنهم يفرقون بين المرء وزوجه.

وإنما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا الأمر وهو التفريق بين الزوجين؛ لأن محبة الزوجين من أعظم الأمور، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر ذلك في قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21].

فالزوجان في الغالب أنهما متحابان، فأشد ما يعمله السحر أن يفرق بين المرء وزوجه، وفي هذا دلالةٌ حتى ننتبه، فيه دلالةٌ على أن السحر حقيقةٌ، وأنه يؤثر حقيقةً، لا كما يقال إنه تخيلٌ، قد يكون تخيلاً لكن الحقيقة هو حقيقةٌ، هو أثره حقيقيٌ.

فلاحظ أن الله قال: ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، وأن السحر ضررٌ لا نفع فيه، لأنهم قال: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وأيضًا فيه دلالةٌ في هذه الآية على أن ضرر السحر وفعل السحر وما يفعله هؤلاء كلهم تحت قدر الله وقضائه، لأنه قال: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، والإذن هو الإذن القدري القضائي لا الشرعي، لأن الله لم يشرع ولم يأذن بالسحر، لأن الإذن في حق الله نوعان:

- النوع الأول: إذنٌ قدريٌ قضائيٌ، وهو ما يقدره الله في هذا الكون من خيرٍ أو شرٍ.
- النوع الثاني: إذنٌ شرعيٌ، وهو ما يأمر الله به في شرعه.

قال: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، ومما يدل على الإذن الشرعي ما مر معنا في الآيات السابقة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 97]؛ أي بأمره وشرعه، بأمره وشرعه.

فقوله هنا في حق الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾؛ أي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلهم فتنةً للناس، وابتلاهم بهذه البلية امتحانًا للناس، مع أن لاحظ الفرق بين الشياطين وبين الملكين؛ الملكان ينصحان، إذا جاءهم أحدٌ ينصحانه بأن هذا سحرٌ ويحذران من ضرره: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

أما الشياطين فإنهم لا ينصحون، الشياطين لا تنصح أبدًا ولا تحذر، وإنما تقحم من يأتي بهذا السحر وبهذا الكفر وهذا الشرك، ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾، وهذا فيه دلالةٌ على أن السحر ضررٌ محضٌ لا خير فيه، تعلمه يضرهم ولا ينفعهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾؛ رجعت الآيات إلى الذين يتبعون ما تتلو الشياطين وهم اليهود، ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي اليهود، ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي لمن رغب في السحر وعمل به، رغبة المشتري كأنهم اشتروه دفعوا أموالاً عليه، ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾؛ ماله حظٌ في الآخرة، قد خسر آخرته، وليس له في الآخرة حظٌ إلا النار، ليس له فوزٌ في الآخرة إلا أن يصيره إلى النار، ماله في الآخرة من خلاقٍ.

ولاحظ أن كلمة ﴿خَلَاقٍ﴾ نكرةٌ في سياق النفي؛ ليس له حظٌ ولا نصيبٌ ولا فوزٌ ولا نجاةٌ ولا سعادةٌ في الآخرة من أي وجهٍ من الوجوه، بل له النار وموعده النار، قال: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾؛ أي اليهود، بئس ما قدموا هذا لأنفسهم، وبئس ما اقتحموا هذا الأمر، وبئس ما رغبوا في هذا التعامل، ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ علمًا ينفعهم لما فعلوا هذا الفعل، ولما أقدموا على هذا الفعل.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 103]؛ لو أن هؤلاء اليهود آمنوا بمحمدٍ وآمنوا بالتوراة وصدقوا بما جاءهم عن الله، واتقوا الله وابتعدوا عن المعاصي وعن الكفر والطغيان، وأذعنوا لربهم.

لو أنهم آمنوا واتقوا لجاءهم الأجر، المثوبة الأجر من عند الله خيرٌ لهم، مثوبتهم في الدنيا ومثوبتهم في الآخرة، لحصل لهم الخير في الدنيا ولحصل لهم الخير في الآخرة لو كانوا يعلمون علمًا ينفعهم لآمنوا واتقوا، وفي هذا توجيهٌ لهم وتحذيرٌ وتذكيرٌ لهم أن يعودوا إلى ربهم، وأن يتقوا الله وأن يؤمنوا بما أمرهم الله بالإيمان به لكنهم أعرضوا عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104]؛ لو نلاحظ أن الآيات بدأت تتوجه توجهًا آخر، حيث إن ما قبل هذه الآية كله مخاطبة اليهود، إما مخاطبةً صريحًا، وإما ذكر قبائح اليهود فيما سبق، ذكر قبائح اليهود الذين هم أجداد المعاصرين كلها في هذه الآيات.

وفي هذا المجال الآن بدأت الآيات تتوجه إلى مخاطبة المؤمنين، والتحذير من سلوك طريق اليهود والكافرين، والتحذير من أوصاف ومن أعمال ومن أخلاق هؤلاء الطوائف.

ولذلك هذا النداء أول نداءٍ ينادى به المؤمنون في سورة البقرة، هناك نداءٌ سابقٌ نداءٌ عامٌ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، لكن مر نداء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مرتين قبل هذا، لكن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا أول نداءٍ ينادي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده المؤمنين بهذا النداء، وكأن الآيات بدأت تتوجه لمخاطبة المؤمنين في التحذير من سلوك طريق اليهود والمشركين، ولذلك بدأت الآيات تقرن بين اليهود والمشركين في أعمالهم وبدأت تحذر من أخلاقهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾، كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ و﴿انظُرْنَا﴾ معناها واحدٌ، المعنى واحدٌ، لكن لما كانت كلمة ﴿رَاعِنَا﴾ تحتمل معنيين؛ معنىً سليمًا مقبولاً ومعنىً سيئًا خبيثًا، منع الله من القول أو النداء بهذا الأسلوب: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾؛ لأن ﴿رَاعِنَا﴾ من الرعاية وهي بمعنى انظرنا وارقبنا واسمع لنا، وتأتي بمعنى الرعونة وهي الحماقة.

ولذلك اليهود ينادون النبي ﷺ ويخاطبونه بقولهم: **"راعنا يا محمد"**، يقصدون ويضحكون لأنهم يقصدون الرعونة وهي الحماقة، يعني أنت أحمق يا محمد تسمع لكل شخص.

ولذلك منع الله، وهذا يدل على أن بعض الألفاظ يمنع من استعمالها وإن كانت في الأصل جائزةً، وهذا يسمى **"باب سد الذرائع"**، سد الذرائع وسد المفاسد، فإذا كانت العبارات تؤدي إلى مفسدةٍ وإن كانت مباحةً فإنه يمنع دفعًا للمفسدة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾؛ أي استعمل كلمة انظرنا يا محمد واسمع لنا واستمع لنا وارقبنا وأمهلنا، هذه كلها بمعنىً واحدٍ.

ولذلك قال الله بعدها: ﴿انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾؛ واسمعوا أيها المؤمنون قولوا انظرنا واسمعوا، اسمعوا لما توعظون به، واسمعوا لما يقال لكم.

- ولذلك المؤمنون ماذا كان موقفهم؟

قالوا: سمعنا وأطعنا، وأما اليهود ومن شاكلهم فإنهم يقولون: سمعنا وعصينا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لماذا ختم الله هذه الآية بقوله ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؟ أي أن الكافرين الذين لا يسمعون لله ولا يطيعون ويخالفون أوامره كاليهود والمشركين، قد توعدهم الله بالعذاب الأليم، وفي هذا تحذيرٌ للمؤمنين أن يسلكوا مسالكهم حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه.

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شدة عداوة الكافرين من اليهود والمشركين، وحكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على اليهود بأنهم كفارٌ، وأهل الكتاب كلهم من اليهود والنصارى حكم عليهم بالكفر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: 105]؛ يعني ما يتمنى ولا يحب هؤلاء الكفار من المشركين ومن أهل الكتاب أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يمنَّ عليكم وينعم عليكم بأن ينزل عليكم من خيرٍ من الآيات والشرائع التي لا يريدونها، لذلك ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ما يريدون ولا يتمنون أن ينزل عليكم أي خيرٍ.

ولذلك ﴿خَيْرٍ﴾ هنا جاءت نكرةً في سياق النفي؛ يعني ما يتمنون أن ينزل عليكم أي خيرٍ من أي وجهٍ من الوجوه، قال: ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فرد الله عليهم ردًا يبكتهم بما كانوا يتمنونه في قلوبهم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾، وقد اختص أمة محمدٍ برحمته فأنزل عليها أحسن الشرائع وأحسن الكتب واصطفاها وجعلها خير أمةٍ أخرجت للناس، فيختص برحمته من يشاء، وذلك لماذا؟

لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾؛ الذي فضله واسعٌ وخيره وفيرٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لعلنا نقف عند هذا القدر ففيه الكفاية، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(20)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء، وهذا اليوم هو يوم الأربعاء، الموافق الحادي عشر من شهر شعبان، من عام ألف وأربعمائة واثنين وأربعين.

والآيات التي بين أيدينا هي آيات من سورة البقرة، وهي الآية السادسة بعد المئة، وهي قول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106]. لو نلاحظ سياق الآيات من بداية سورة البقرة؛ وهي في الحديث عن اليهود ومواقف بني إسرائيل، وكشف شيء من فضائحهم وقبائحهم، ولا تزال الآيات مستمرة على هذا المنوال، ثم بدأت تتوجه إلى مخاطبة المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا﴾ [البقرة: 104]؛ تخاطب المؤمنين.

- وقد يسأل سائل ويقول: أما الحديث عن النسخ، أول شيء ما هو النسخ؟ وما مناسبة الكلام عن النسخ؟

الجواب: إذا كنت يعني تبين لك أن الآيات تتحدث عن اليهود، سواء مخاطبة اليهود مباشرة، أو تحذير المؤمنين من سلوك طريق اليهود، أو التحذير من مواقف اليهود السيئة؛ فسيتضح لك أن قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ [البقرة: 106]، أن هذا رد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمعتقد يعتقده اليهود، وهو أن اليهود لا يؤمنون بالنسخ، ولا يعترفون بالنسخ، ويزعمون أنه لا يجوز على الله أن ينسخ.

وكل ذلك يعني هم يريدون الوصول إلى إثبات رسالة موسى، وأنها باقية، وأن ما سواها من الشرائع الأخرى لا يعترف به؛ حتى تبقى رسالة موسى، وأنهم يؤمنون بما أنزل عليهم ويكفرون بما وراءه؛ فرد الله عليهم بأن النسخ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينسخ ويغير الأحكام، وأنه لا ينسخ إلا لحكمة، وكان هذه الآية أيضاً فيها لفتة أخرى؛ وهي التمهيد والتوطئة لما سيأتي من نسخ الشرائع، ونسخ بعض أيضاً الأحكام في شريعة نبينا محمد ﷺ.

وكما سيأتي بيان أيضاً موقف اليهود لما نسخ الله التوجه من بيت المقدس إلى التوجه إلى المسجد الحرام، وأن قبلة المسلمين أصبحت هي الكعبة، ولذلك أخبر الله عن سفاهة اليهود وسفاهة المنافقين في قوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: 142]؛ فدل ذلك على أن هذه الآيات مرتبطة باليهود من عدة أوجه:

- الأمر الأول: الرد على إنكارهم النسخ، وأن النسخ ثابت،
- الأمر الثاني: الرد على اعتراضهم لما اعترضوا على التوجه إلى المسجد الحرام وترك التوجه للمسجد الأقصى؛ فهي كأنها تمهيد، وكأنها فيها تحمل دلالات في مضمونها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: 106]؛ وتلاحظ أن النسخ ثابت، الله أخبر به، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 101]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39]؛ كل هذا يدل على أن النسخ أمر مشروع، والله لا ينسخ إلا لحكمة.

ومعنى النسخ: أن تنزل آية أو ينزل حكم شرعي لمدة معينة، ثم يرفعه الله بحكم آخر ينزل مكانه، هذا هو النسخ، والنسخ أصلاً متحقق في الشرائع كلها؛ يعني حتى في العهود الماضية وفي

الأمم الماضية النسخ موجود، ينسخ الله شريعة مكان شريعة، وحكماً مكان حكم، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عن يعقوب وهو إسرائيل أخبر أنه كان عنده شيئاً مباحاً ثم حرمه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: 93]؛ وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

فهذا موجود في شريعة اليهود أصلاً، اليهود لو أنكروا النسخ فهو موجود في شريعتهم، ويعلمون أن النسخ عندهم وفيه وفي أحكامهم الكثير من الأمثلة تدل على ثبوت النسخ في شريعتهم، ولكن المجال لا يتسع إلى ذكر الحديث والإطالة في النسخ، سواء عندنا أو عند اليهود؛ فالنسخ هو نقل الحكم، أو نقل أن ينقل الله سبحانه عباده من حكم إلى حكم، وهذا موجود كثير.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شرع للنبي ﷺ أن يتوجه في صلاته إلى بيت المقدس، وصلى النبي ﷺ عشر سنوات في مكة وأصحابه يصلون، كلهم يصلون إلى جهة بيت المقدس، ولما هاجر مكث ستة عشر أو سبعة عشر شهراً؛ يعني سنة ونصف أو زيادة وهو يصلي إلى بيت المقدس، ثم أمر بالتوجه إلى أن يصلي إلى المسجد الحرام؛ فهذا موجود جائز، وكذلك في أحكام كثيرة في الشريعة، لا نريد الإطالة في ذكر أمثلة هذا النسخ.

فالمقصود أن النسخ حكم شرعي والله أخبر به في هذه الآية، قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: 106]؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينسخ الأحكام ويغيرها، وهنا **«مَا»** شرطية، أداة شرط؛ يعني ما ينسخ وما يغير الله من حكم أو من آية يغيرها وينقلها ويزيلها، **«أَوْ نُنْسِهَا»** يعني ينسها من قلوب العباد؛ لأن النسخ على نوعين: النسخ هو نسخ الحكم وبقاء اللفظ، أو نسخ اللفظ والحكم جميعاً.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحياناً يغير الحكم؛ بمعنى أنه ينزل حكماً ثم ينزل حكماً آخر والآية موجودة، الآية موجودة والآية الثانية موجودة لكن الحكم زال، فيبقى تبقى الآية؛ فهذا معنى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: 106] أي ننسخ حكمها، ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ [البقرة: 106] بمعنى أنها تزول، يزول الحكم ويزول اللفظ، فلا يبقى في القرآن لفظ؛ بمعنى أنه يرتفع كله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل آيات ثم نسخت وارتفعت من القلوب وليس لها أثر حتى الآن.

قال: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ [البقرة: 106]؛ فالله سبحانه من حكمته أنه إذا غير حكماً يأتي بحكم هو خير مما نسخه وخير من الماضي، أو مثله؛ مثل تحويل القبلة، بدل ما تتوجه إلى بيت المقدس تتوجه إلى المسجد الحرام؛ فهذا حكم مساوٍ، أو قد يكون خيراً منه في الفضل والأجر ونحو ذلك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رداً على هؤلاء الذين يزعمون أنه لا نسخ وأن الله لا ينسخ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106]؛ يغير الأحكام، فكيف أنت ترد على الله وتقدح في حكمه وفي تغيير الأحكام؟ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له القدرة المطلقة، فهو على كل شيء قدير، لا أحد يعترض على ما يقدره وعلى ما يأمر به وعلى ما ينهى عنه وعلى ما يغيره؛ فالله على كل شيء قدير.

ثم قال الله بعدها: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 107]؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يملك له الملك المطلق، له القدرة أولاً ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106] القدرة المطلقة، وله الملك المطلق؛ فكيف أنت تقدح فيه لما يغير وينسخ ويبدل؟

فإذا قدحت في تغييره الأحكام أو تبديله، فإنت لم تقدر الله حق قدره؛ فالله على كل شيء قدير، والله له ملك السماوات والأرض، وأنت أيها المعترض أنت جزء من هذا الملك، جزء صغير في هذا الملك؛ فكيف لا تسلم الأمر لله؟.

قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 107]؛ ليس أحد يتولى أمركم ويشرع لكم الشرائع المناسبة غير الله، لا أحد يستطيع أن يتولى أمركم وينزل عليكم الشرائع والأحكام المناسبة إلا الله سبحانه فهو وليكم؛ ولذلك قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [البقرة: 107] يتولى أمركم ويشرع ما يناسبكم، وليس لكم أيضاً نصير ينصركم من دون الله؛ فالله هو الذي يتولى ما فيه مصلحة وما فيه منفعة لكم، وينصركم في دفع ما يضركم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- فهل بقي بعد هذا شيء حتى تعترض على حكم الله وعلى ما يقرره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويأمر به؟

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك تنبيهاً للمسلمين وتحذيراً لهم من سلوك اليهود، والآيات لا تزال تنبه وتذكر المؤمنين أن لا يسلكوا طريق هؤلاء اليهود؛ ولذلك اسمع وتأمل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: 108]؛ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: هل تريدون أن تسألوا محمداً ﷺ تسألوه أسئلة التعنت؟

أيها اليهود وأيها المؤمنون؛ هل تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئلت اليهود موسى ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153]؟ ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153]؛ فهذه أسئلة التعنت، الأسئلة التي فيها المشقة وفيها التعنت وفيها عدم القبول والاعتراض على الله.

أما الأسئلة التي يسأل الإنسان عن دينه ويسأل عما ينفعه؛ فإن الله أمر به وجاء في القرآن كثير من الآيات التي فيها السؤال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: 1]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: 219]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة: 220]؛ كل ذلك موجود في القرآن الكريم، وكله جائز.

لكن سؤال التعنت هو الذي حذر الله منه، قال: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: 108].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 108].

- ماذا نستفيد من هذه الآية؟

نستفيد منها أن من سلك هذا المسلك كما سلك اليهود واعترضوا على الله وسألوا نبيهم أسئلة التعنت، أن هذا قد يصل بالعبد إلى الكفر، ويتبدل الكفر بالإيمان، ويخرج من دائرة الإيمان إلى الوقوع في الكفر؛ لأن الله قال: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ﴾ [البقرة: 108] ولم يرض بما حكم الله وبما قدر وبما شرع؛ فقد ضل سواء السبيل، أي ترك الطريق السوي والطريق المستقيم إلى الطرق الملتوية أو طرق الشياطين، ولم يسلك طريق النجاة.

ولاحظ ما تزال الآيات في تذكير المؤمنين والتحذير من مسالك اليهود وأخلاقهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109]؛ يتمنى هؤلاء أو كثير من أهل الكتاب من اليهود والنصارى يتمنى كثير منهم أن يردوكم أيها المؤمنون لما دخلتم في الإسلام وتحليتم بالإسلام.

وكنتم مع النبي ﷺ وفي نصرته وتأييده وقبلتم ما أنزل الله عليكم؛ يود هؤلاء لو يردونكم بعد إيمانكم، بعد ما اعتنقتم الإيمان وذقتم حلاوة الإيمان، يتمنى هؤلاء أن ترجعوا إلى الكفر، وتخرجوا من دينكم.

لماذا؟ قال: ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: 109]؛ لأنهم لما رأوا أنكم ذقتم حلاوة الإيمان وهم حرموا من ذلك، يتمنون أن تكونوا أنتم وإياهم سواء في الكفر والضلال، ﴿حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ لماذا؟ قال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 109]؛ بعد ما ظهر لهم الحق وظهر أمر الله أمامهم يتمنون أن لا تبقوا في هذا الدين.

قال الله للمؤمنين توجيهاً لهم في تعاملهم مع هؤلاء، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ [البقرة: 109]؛ أيها المؤمنون اصفحوا وتجاوزوا واصبروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: 109].

- ما هو بأمره؟

قال أهل التفسير: **"المراد بذلك هو مشروعية الجهاد؛ فإذا جاء الجهاد انتهى العفو والصفح إلا في حالات محدودة"**، فالكفار والمشركون الأمر هو جهادهم وقتالهم حتى يدخلوا في الإسلام، وأما اليهود والنصارى وأهل الكتاب فإنهم يجاهدون حتى يدفعوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام.

قال الله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 109] فيما يشرعه وفيما يقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله على كل شيء قدير، فهنا في مشروعية الجهاد، وأن أول الأمر كان العفو والصفح والتجاوز لضعف المؤمنين، فلما قويت شوكتهم شرع الله وأذن بالجهاد لقتالهم، وإذا ضعف الإسلام ظهر الأمر بالعفو والصفح وهكذا، ولا نقول إن هنا نسخاً بين الآيات.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توجيه للمؤمنين بعدما أمرهم بالجهاد ليشفي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنفس المؤمنين فيقاتلوا وتحصل لهم رتبة الجهاد في سبيل الله، ورتبة الشهادة في سبيل الله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك آمراً بالاشتغال بالطاعات قبل مشروعية الجهاد، ومن أجل الطاعات أن يقيموا الصلاة وأن يؤتوا الزكاة وأن يتصدقوا وأن ينفقوا في سبيل الله؛ لأن النفقة والصدقة هي من أعظم ما يدل على صدق الإيمان، وما يدل على ما يطلبه الإنسان من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويرجوه عند الله.

ولذلك أمر بإيقام الصلاة وأمر بإيتاء الزكاة؛ لأنهما الفريضتان الظاهرتان المهمتان اللتان كل الفرائض تعود إليهما؛ فإقام الصلاة لأنها ربط العبد بربه، وإيتاء الزكاة لأنها تربط المجتمع بعضه ببعض، فيتصدق ويعطي ويساعد إخوانه المسلمين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 110]؛ من هذه الأعمال من خير في أي وجه من وجوه الخير مطلقاً؛ لأنها نكرة في سياق الشرط، قال ما تقدموا لأنفسكم من أي خير قل أو كثر تجدوه عند الله، ولا تجدوه هكذا، تجدوه مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 110]؛ ولاحظ أن الآية ختمت بهذه الجملة تأكيداً على مراقبة الله لعباده، وعلى أن العبد يقدم أعماله ويعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مطلع عليه ومحصٍ ما يقدمه، فلا يضيع شيء عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومثل ما ذكرنا الآيات لا تزال تتحدث عن مواقف هؤلاء اليهود والنصارى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: 111]؛ هذه بيان لمعتقد هؤلاء اليهود والنصارى، وأن هذا الاعتقاد وهذا الرأي وهذا الحكم منهم حكم باطل واعتقاد فاسد.

قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى؛ يعني الجنة لا تكون إلا لهم فقط، وأما غيرهم فلا يدخل الجنة؛ ولذلك هذا قول، هذه دعوى، دعوى لا دليل عليها مجردة، وأماني مجردة، ولذلك الله رد عليهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ حكماً عليها: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة: 111]؛ هذه أمانيهم التي يتمنونها فقط وليست لها حقائق، ثم قال الله سبحانه رداً عليهم: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة: 111]؛ أعطونا الدليل على أن الجنة خاصة بكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111] في دعواكم، فاعطونا الدليل، وإلا ممكن أن يأتي شخص آخر ويقول: الجنة أيضاً خاصة بفلان وفلان، والجنة خاصة بقبيلة كذا وكذا، والجنة خاصة بكذا وكذا.

وكل يدعي إذا فتح المجال، وإن لم يكن عندكم الدليل وإلا قولكم مردود عليكم؛ ولذلك الله أبطله، قال بلى، وبين لمن تكون الجنة، قال: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 112]؛ يعني تجرد بالتوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأخلص لله عَزَّ وَجَلَّ عمله، قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: 112] تابع ما شرعه الله، لا يبتدع في دين الله، ولا يتقول على الله أو يعمل أعمالاً لم يرتضها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ وأخلص وجهه لله وبادر بالعمل الصالح، تجرد بالتوحيد لربه وأحسن عمله مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فهذا الذي له الجنة، ولذلك قال: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [البقرة: 112]؛ أي أجره في الآخرة عند ربه، وهو الفوز بالجنة، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 112]؛ لا يخافون على ما سيقدمون عليه وما سيلاقوه، الخوف في المستقبل، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112] على ما فاتهم مما مضى؛ فلا يحزنون على أعمالهم، ولا يحزنون على ما تركوه، ولا يخافون على ما يستقبلونه.

هذه ثمرة من أسلم وجهه لله وهو محسن، لا أن يقال يهودي، ولا أن يقال نصراني، ولا أن يقال عربي، ولا أن يقال من أي جنس، وإنما من اتصف بهذه الصفة فهو الذي له الجنة، أما دعواكم فدعواكم باطلة.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً موقفاً آخراً من مواقف اليهود، قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: 113]؛ هذا يدل على أنهم ليسوا على شيء، وعلى أن معتقداتهم باطلة، وعلى أن ظنونهم وأمانيهم كلها مردودة عليهم.

ولذلك كل يخالف الآخر وكل يضلل الآخر، كل فرقة تقول: أنتم على ضلال، ولذلك قالت اليهود ليست النصارى على شيء، ليسوا على صواب وليسوا على حق، والنصارى تقول: أنتم أيها اليهود لستم على حق ولا على صواب، ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: 113] يتلونه تلاوة الأماني، يقرأون الكتاب فقط ولا يعرفون معانيه ولا دلالاته، يتلون الكتاب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة: 113].

- من هم الذين لا يعلمون؟

هم جهال العرب، مشركو العرب لا يعلمون، قال الذين لا يعلمون مثل قولهم؛ يقولون هؤلاء ليسوا على شيء وهؤلاء ليسوا على شيء، وكل يضلل الآخر.

قال الله: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: 113]؛ كل هؤلاء الطوائف يحكم الله ويقضي بينهم ويفصل بينهم، قال: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: 113].

فهذا الاختلاف الواقع بينهم يحكم الله به بعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما يقضيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ [البقرة: 114].

لعلنا نقف عند هذا القدر؛ لأن هذه الآية أيضاً لها علاقة بما بعدها ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: 115] وما يأتي بعدها من آيات، فلعلنا نقف عند هذا القدر.

وإن شاء الله نستكمل ما توقفنا عنده في اللقاء القادم بإذن الله، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(21)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في درسنا؛ درس الأربعاء في تفسير القرآن العظيم، وهذا اليوم؛ يوم الأربعاء، هو اليوم الخامس من شعبان من عام ١٤٤٢هـ، وهذا الدرس واللقاء والمجلس هو المجلس السادس عشر من مجالس تفسير القرآن العظيم.

والآيات التي بين أيدينا تبدأ من الآية الرابعة عشرة بعد المئة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: 114].

لو نلاحظ أيها عندما تريد أن تفهم الآيات فهمًا دقيقًا، وتتدبر هذه الآيات، وتصل إلى درجة - إدراك معاني هذه الآيات إدراكًا دقيقًا؛ فإنك تنظر في الآيات السابقة، والآيات السابقة كما هو واضح من قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة: 106]، وموقف اليهود من النسخ، ثم ذكر بعض الأمور المتعلقة باليهود والنصارى في الآيات السابقة.

بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في الآيات السابقة شيئًا عن المشركين، ذكر هنا أيضًا شيئًا من مواقف هؤلاء من اليهود والنصارى والمشركين، وأن من مواقفهم أنهم يمنعون مساجد الله ويمنعون أهل المساجد من إقامة ذكر الله وإقامة الصلاة وشتى أنواع الطاعات في هذه المساجد.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر، وخبره الصادق، بأنه لا أحد أظلم وأشد جرمًا من مثل هؤلاء الذين يمنعون المساجد، وليس فقط يمنعون المساجد ويمنعون أهل المساجد من إقامة شرع الله وإقامة ذكر الله والصلاة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة: 114]، وقوله: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ هذا شامل لكل ما يدخل في ذكر اسم الله؛ من الصلاة، ومن الذكر، ومن التهليل والتكبير، ومن قراءة القرآن، ومن عقد حلقات القرآن الكريم، ومن عقد دروس العلم والتعلم والتعليم في هذه المساجد، فلا أحد أشد ظلمًا، ولا أحد أشد جرمًا ممن يمنع مواطن الذكر وبيوت الله، يمنعها من إقامة ذكر الله.

وكما ذكرنا أن هذه الآية مرتبطة بما قبلها من اليهود والنصارى والمشركين؛ فإن المشركين صدوا رسول الله ﷺ عام الحديبية، والنصارى خربوا بيت المقدس، واليهود منعوا المسلمين من الصلاة في بيت المقدس، وكذلك النصارى في زمن ما، وأصحاب الفيل أيضًا كان لهم أيضًا في ذلك سعي في تخريب بيت الله، وهو المسجد الحرام والكعبة؛ فكل ذلك داخل في هذه الآية.

وكل من سعى، وكل من منع مساجد الله وسعى في إفسادها وخرابها ومنع، ويشمل الفساد المعنوي، ويشمل الفساد الحسي؛ فمن أفسد فيها معنًى أو حسًّا.

والإفساد المعنوي هو منع الناس من الخير، الإفساد المعنوي إظهار البدع في المساجد، ومن الإفساد الحسي هدم المساجد وإغلاقها وتخريبها ومنع الناس من الصلاة فيها والذكر فيها؛ كل ذلك داخل في قوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: 114].

ولاحظ أن كلمة **"سعى"** تدل على أن هؤلاء يبذلون جهدهم، ويبذلون وسعهم في إفساد هذه المساجد، ولا يألون جهدًا في منع أهلها من الإقامة، من إقامة ذكر الله فيها، وهم يسعون سعيًا حثيثًا في مثل هذا الأمر.

وهذه الآية كما ذكر أهل التفسير لها مفهوم، لها مفهوم مخالفة، وهو أن لا أحد أحسن، ولا أحد، ولا أحد أحب عند الله ممن يقيم المساجد، وممن يفتح المساجد، وممن يعين على عمارتها حسًّا ومعنًى.

وعمارة المساجد معنًى أن يقام فيها شرع الله من الصلاة والذكر وعقد الحلق والتذكير؛ كل ذلك يعتبر من عمارة المساجد، وعمارتها الحسية تشييدها وبناؤها على وجه الأرض في كل مكان.

فهذه الآية لها مفهوم، ومفهومه أنه لا أحسن عند الله، ولا أعظم أجرًا عند الله ممن يفتح المساجد، ويشرع المساجد، ويشجع على نشرها، ويسعى في إقامتها بأي وجه من الوجوه.

توعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاء، لما حكم عليهم بأنهم لا أحد أظلم منهم، توعدهم بالعديد بالوعيد الشديد، فقال: ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ [البقرة: 114]؛ ألقى الله الرعب في قلوبهم فهم في خوف، ولو دخلوها فإنهم لا يدخلوها وهم مطمئنون، وإنما يدخلونها وقد استولى عليهم الخوف والرعب.

ولذلك قال: ﴿مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ وهذا خبر من الله وهو أصدق القائلين، بأنه لا يمكن أن يدخل هؤلاء إلا وقد استولى عليهم الخوف والرعب والذعر. ثم حكم عليهم بحكم في الدنيا والآخرة، قال: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [البقرة: 114]، والخزي هو الفضيحة والعار؛ الفضيحة والعار بأن الله سبحانه يفضحهم ويكشف عوارهم ويعرفهم كل من رآهم. قال: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وذلة وهوان وصغار، وأما في الآخرة فقد أعد الله لهم العذاب العظيم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115]. وأنا أكرر وأقول من باب التدبر والتأمل أنك تتأمل الآيات وتجد الترابط بينها والتماسك بينها والتناسب بينها؛ فكأن هذه الآية تفتح المجال، لو قيل إن المساجد منع الناس فيها، أو في أماكن ما لم يستطع المسلمون إقامة شرع الله في هذه المساجد وقد منعوا من دخولها؛ فكأن الآية التي بعدها تقول: المشرق والمغرب لله، فابحثوا عن أرض كما قال الله سبحانه قال: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: 56].

فإذا منعت في مكان ما، فإن هناك مكانًا تستطيع أن تقيم شرع الله فيه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له المشرق وله المغرب، ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ والمشرق والمغرب يشمل الأرض كلها.

فإذا أعطاك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو أخبرك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأقصى الشيء وأدنى الشيء؛ فإن هذا يشمل كل الجهات، كل الجهات، فلله المشرق وله المغرب وله ما بينهما، وله الشمال وله الجنوب؛ كل ذلك في حكم الله، داخل في حكمه.

- لكن قد يسأل سائل فيقول: لماذا خص الله المشرق والمغرب؟

الجواب: لأنه محل الآيات العظيمة في غروب الشمس وطلوعها، وهي آيات عظيمة تدل على عظمة الخالق، وأن هذا كله تحت ملك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالجهات كلها لله. ولذلك قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ والجهات كلها لله، ثم قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ أي أينما تولوا وجوهكم من الجهات، فإن أينما تولوا وجوهكم وكانت هذه التولية بأمر من الله، فولوا وجوهكم.

فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمركم باستقبال بيت المقدس، وأمر المسلمين باستقبال بيت المقدس، وصلى النبي ﷺ ثلاثة عشر سنة في مكة وهو يستقبل بيت المقدس، ثم ستة عشر شهرًا في المدينة

وهو يستقبل بيت المقدس، ثم أمر بالتحول إلى المسجد الحرام وإلى الكعبة فصلى إليها، فأينما تولوا بأمر من ربكم فتوجهوا إلى هذه الجهة.

وأيضًا في هذه الآية، كما ذكر أهل التفسير، فيها دلالة على أن الإنسان إذا صلى واختلفت عليه القبلة، فإن صلاته صحيحة إذا اجتهد في مكان الاجتهاد، كأن يكون في صحراء وليس عنده علامات تدله على ذلك، واجتهد وصلى خلاف القبلة؛ فإن صلاته صحيحة، وكذلك من يكون مأسورًا في مكان ما، أو مصلوبًا، أو مريضًا لا يستطيع التوجه؛ فإنه يصلي على قدر حاله.

وأيضًا استنبط أهل التفسير من هذه الآية أنه إن المصلي إذا كان في سفر، وكان على راحلته وأراد أن يصلي صلاة النافلة، فإن له أن يصلي أينما توجهت به راحلته؛ لكن لابد أن يكون في سفر، وأن يكون في صلاة نافلة، وأن يكون على الراحلة، فإن كان قد نزل في مكان ما فلا بد أن يتوجه جهة القبلة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115]، أي ثَمَّ هناك وجه الله، يعني أينما توجهت في صلاتك أو في دعائك حتى الدعاء يدخل في ذلك والصلاة والذكر أينما توجهت فإن هناك وجه الله، وجهة الله هناك.

وفي هذه الآية دلالة أن لله وجهًا كما أثبته أهل العلم؛ أن لله وجهًا حقيقيًّا لا تشبهه وجوه المخلوقين، وله وجه يليق بجلاله من غير تمثيل، كما أن لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصفات العلى وله الصفات الذاتية والصفات الفعلية اللائقة به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115]، واسع الفضل والعطاء، واسع الصفات، عليم بأحوال الناس، وعليم بنياتهم، وعليم بأعمالهم وبصلواتهم ودعائهم وذكرهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن سعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن وسع؛ لأن الواسع والعليم بأحوال الناس هو الذي يوسع عليهم في أحكامهم وفي أحوالهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فله الحمد وله الشكر.

تنتقل الآيات بعد ذلك إلى أيضًا بيان موقف من مواقف هؤلاء الذين افتروا على الله الكذب، وهؤلاء الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، والذين تقولوا على الله من اليهود والنصارى والمشركين.

فذكر موقفًا من مواقفهم وأنهم اجتمعوا على هذه الفرية وعلى هذا القول العظيم، القول العظيم الذي قالوه في حق الله على وجه التنقص، فقالوا: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: 116].

فقالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقالت المشركون: الملائكة بنات الله، فهؤلاء كلهم وصفوا الله بما لا يليق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلذلك أساءوا في هذا الوصف إساءة عظيمة، وظلموا أنفسهم بوصفهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه اتخذ ولدًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك الله رد عليهم وأبطل فريتهم فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة: 116]. يعني تنزه سبحانه وتقدس أن يكون له الولد، أن يكون له ولد، ثم أثبت بطلان هذه المقالة بالأدلة العقلية لما قال سبحانه: فهو سبحانه له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وهو الغني من جميع الوجوه، فكيف يكون له ولد؟

الذي يكون له ولد هو الناقص، الذي يكون له ولد هو الفقير، الذي يكون له ولد هو المحتاج، أما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله الغنى المطلق، وله القدرة؛ لا يمكن أن يكون محتاجًا للولد حتى يكون له ولد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك أبطل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مقولتهم بالأدلة الواضحة، فقال: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 116]. **"بل"** هذه للإضراب، أي لما نزه نفسه عن هذه المقولة وهذه الفرية العظيمة انتقل إلى الرد عليها فقال: ﴿بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فإذا كان له ما في السماوات والأرض والخلق كلهم جميعهم تحت ملكه وعبيد له يتصرف فيهم؛ فكيف يكون له ولد؟

ولذلك قال: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. ثم أثبت أيضًا دليلًا آخر فقال: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: 116]. ومعنى قانتون أي مسخرون مذللون لطاعته، كلهم مفتقرون لربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فكيف يكون له الولد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾.

والقنوت يأتي في القرآن بمعنى الطاعة المطلقة والافتقار إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكلهم قانتون أي مطيعون لربهم، ويأتي القنوت أيضًا بمعنى الطاعة الخاصة وهي العبادة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الأحزاب: 31]، وقال في مريم: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: 12].

فالخضوع المطلق يسمى قنوتًا وهو يصدر من المؤمن والكافر، الخضوع المطلق والإذعان هو القنوت المطلق، والقنوت الخاص هو طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي تكون من المؤمنين.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: 116]؛ هذا الرد الثاني. ثم الرد الثالث قال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117]. الذي خلق السماوات والأرض ليس محتاجًا للولد حتى نقول إنه اتخذ ولدًا.

ولاحظ أن كلمة **"بديع"** وكلمة **"فاطر"** وكلمة **"خالق"** تأتي في القرآن؛ مرة يقول خالق السماوات والأرض، أو يقول خلق السماوات والأرض، ومرة يقول فاطر السماوات والأرض، ومرة يقول بديع.

والخلق هو الإنشاء من العدم، والفطر هو خلق الشيء بصورة لم يسبق لها، ومعنى البديع (الإبداع) هو خلقها في أحسن صورة وأجمل وأبهى صورة، وهذا كله تمثل في خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو المنشئ الأول الخالق الأول.

الخالق الذي فطر السماوات وأوجدها من العدم، وفطر الخلق وأوجده من العدم، وأوجده على أحسن صورة، وهذا معنى بديع السماوات، ولذلك الذي أبدع السماوات والأرض بهذه الصورة الجميلة الحسنة وزينها بهذه الزينة لا يمكن أن يكون له ولد، هذا الرد الثالث.

أما الرد الرابع قال: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]. فلا يستعصي عليه أي أمر من الأمور، ولا يمتنع عليه شيء حتى يقال له إنه اتخذ ولدًا واحتاج إلى الولد، فالذي يقول للشيء **"كن فيكون"** ليس بحاجة.

فلاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أبطل هذه المقولة وهذه الفرية التي قالوها من غير دليل ونزه نفسه في أول الأمر ثم أبطل هذه الشبهة وهذه الفرية بالأدلة العقلية المشاهدة، التي ترى من خلقه السماوات وملكه للسماوات وإبداعه، وأن الخلق كله مقرون بوحدانيته وأنه يقول للشيء **"كن فيكون"** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما ذكر هذه الفرية أيضًا أعقبها بفرية أخرى وبتقول على الله واحتجاج، وأيضًا طلب الآيات على وجه التعنت، وكل ذلك صادر إما من اليهود وإما من أهل الكتاب وإما من المشركين.

فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 118]؛ وأول وصف من أوصافهم أنهم جهلة لا يعلمون، ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ كما كلم بعض رسله، كلم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

وهذه الآية تأتيهم على ما يريدون، وإلا فقد جاءتهم الآيات الكثيرة وأنزل الله لهم الآيات وأتاهم بالآيات والحجج والأدلة الواضحة، ولكنهم لا يريدون ذلك على وجه الاسترشاد، وإنما يريدونه على وجه التعنت، ولذلك قال: ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾.

قال الله ردًّا عليهم: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: 118] [11، 12]. وكما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في موضع آخر: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ [الذاريات: 53]؛ كذلك قال الذين لا يعلمون، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم في مثل هذا الاحتجاج ومثل هذا التعنت.

قال الله ردًّا عليهم: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 118]، قد بينها الله لا لقوم لا يعلمون وليس لقوم يجهلون، وإنما لقوم يوقنون، واليقين هو أعلى درجات العلم. فهؤلاء أهل العلم قد اتضحت عندهم الآيات وعرفوا عظمة الله وقدرته.

ثم أثبت الله لهم أنه قد جاءهم بالآيات الواضحات التي ليست على وجه التعنت فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: 119]. يا محمد لهؤلاء من المشركين وأهل الكتاب، أرسلناك بالحق، والذي جاءهم الحق من عند الله وهو القرآن، والمرسل هو محمد ﷺ الذي اتصف بأحسن الصفات.

أرسله على وجه البشارة والنذارة، وهو بشير لمن أطاعه، نذير لمن عصاه، قال: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: 119]. هؤلاء الذين لا يريدون الوصول إلى الحق هم الذين ألقوا أنفسهم في الجحيم، فلا تسأل يا محمد عنهم، وإنما عليك أن تبلغ رسالة ربك، تبلغهم هذه الرسالة؛ إن آمنوا فخير لهم وإن عصوا فضرره عليهم.

وفي قراءة أخرى قال: (وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ) يعني لا تسأل أنت عن هؤلاء أصحاب الجحيم، لا تسأل عنهم إنما دعهم وشأنهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120]؛ هذا التصريح بعد ذكر مثالبهم وبعد ذكر شيء من قبائحهم، جاء التصريح بشدة عداوتهم للإسلام والمسلمين.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ أي حتى تتبع دينهم الذي هم عليه، ودينهم باطل؛ لأنه مبني على الهوى والشهوات.

ولذلك قال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ [البقرة: 120]؛ فدل على أنهم أصحاب هوى، إنهم أصحاب هوى.

قال: لن يرضوا عنك هؤلاء اليهود ولا النصارى يرضون عنك حتى تترك دينك وتقبل عليهم حتى تتبع منهم. رد عليهم فبين الله بالرد عليهم فقال: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 120]. ليس ما أنتم عليه، وإنما الهدى هو هدى الله، وهذا الذي أرسلتُ به وجئتكم به هو هدى الله، وأنتم تعرفون أن هذا القرآن وأن رسالتي هي الهدى وهي الحق كما أخبركم رسلكم بذلك.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطبًا نبيه محمدًا، وإن كان الخطاب له فهو له ولأمته، قال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120]؛ تحذيرًا من اتباع أهواء هؤلاء [13، 14]. ولاحظ أنه لم يقل **"ولا اتبعت ملتهم أو دينهم"**، قال **"أهواءهم"**؛ فدل على أنهم هم أهل هوى وأهل شهوات، لا دين، ولا يريدون الحق.

قال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. إذا اتبعت أهواءهم فإن الله قد تخلى عنك، فليس لك ولي غير الله ولا نصير ينصرك، لا يتولى أمرك أحد ولا أحد ينصرك إن نزل بك العذاب؛ وهذا كله تهديد وتخويف من اتباع أهواء مثل هؤلاء من اليهود والنصارى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ختام هذه الآيات، ونحن نختم أيضًا هذا اللقاء بما تبقى، نلاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر قبائح هؤلاء اليهود والنصارى وذكر مثالبهم، استثنى منهم من هو

على الحق فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: 121]. أي التوراة والإنجيل، يتلونه حق تلاوته، ومعنى يتلونه أي يتبعون أحكامه ويعملون بأحكامه، ويقرأونه قراءة عمل قراءة تأمل وتدبر وعمل، هذا معنى يتلونه حق تلاوته.

قال الله مخبرًا عن حالهم: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي يؤمنون بما أُنزل إليهم ويؤمنون بما أُنزل على غيرهم. قال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 121]. وهذا بيان لمن لم يكن على هذا المنهج من اليهود والنصارى وكفروا بما أُنزل عليهم؛ فإنهم قد خسروا، خسروا أنفسهم وخسروا دنياهم ودينهم وآخرتهم.

ثم نادى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ختام هذه الآيات، نادى بني إسرائيل كما ناداهم في أول الآيات فقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 122].

وهذه مرت معنا في الآيات الأولى، نادى بني إسرائيل وهم اليهود، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

قال: يا بني إسرائيل يا من تنتسبون لهذا النبي الشريف، هذا النبي الحبيب وهذا النبي الكريم، يا من تنتسبون إليه اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم؛ فقد أنعمت عليكم بنعم عظيمة، ومن أجل هذه النعم أن أرسلت إليكم الرسل.

﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ ومن نعمه أنه فضلهم على العالمين، والمراد بالعالمين عالم زمانهم.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: 123]. تهديد لهم، تذكير بنعمة الله ثم تهديد لهم وتخويف من ذلك اليوم العظيم الذي سيقفون فيه أمام الله، وأن كل نفس لا تجزي عن نفس، ولا تدفع ولا تنجي، لا أحد يدفع عن الآخر ولا أحد يخلص الآخر أبدًا من هذا العذاب إذا نزل به.

وإنما خوطب هؤلاء اليهود والنصارى بهذه العبارة أو اليهود خاصة لأنهم هم قتلة الأنبياء وأنهم سيقفون أمام الله وسيجازيهم في ذلك اليوم الجزاء الذي يستحقونه.

قال: ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

ولاحظ عندما تقرأ هذه الآية وترجع إلى الآيات السابقة، تجد هناك تقديمًا وتأخيرًا في الآيات.

هنا قال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ قال هناك: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: 48].

- قد يسأل سائل يقول: ما الفرق والسر في تقديم هذا دون هذا؟

الجواب: الآية من باب التدرج في التخويف والوعيد الشديد، من باب التدرج، فالآيات الأولى التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ لأن الشفاعة أقل من العدل.

- ما هو العدل؟

هو الفدية، أن يفدي نفسه للتخلص من العذاب، والشفاعة أن يبحث عمن يشفع عنه، والبحث عن الشفاعة أهون من أن يدفع ما يملك.

ولذلك بدأت بالتدرج في أول الآيات قال: ﴿لَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾؛ لما جاء هنا جاء بما هو أعظم فقال: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أبدًا ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾؛ فإذا لم يقبل منها العدل لم تنفع الشفاعة ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. والعدل هنا هو الفداء والتخلص، أن يفدي نفسه من

العذاب بأي شيء يملكه، ولو يستطيع أن يفدي نفسه بملء الأرض ذهبًا لفعل ذلك، لكنه لا ينفع معه ذلك.

لعلنا نقف عند هذا القدر أيها الإخوة، وجزاكم الله خيرًا على إنصاتكم ومتابعتكم، ونلقاكم إن شاء الله على خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(22)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأُصلِّي وأُسلِّم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك واللقاء المتجدد؛ وهو لقاء الأربعاء، درس التفسير كل أربعاء بعد المغرب، نبدأ بهذا الدرس المبارك، وهذا اليوم هو يوم الأربعاء الموافق الرابع عشر من شهر شوال من عام ١٤٢٢هـ، نبدأ بعد انقطاع إجازة العيد، نبدأ على بركة الله، وقد توقف بنا الكلام في آخر اللقاء عند الآية ١٢٤ من سورة البقرة، والآن نستأنف ما توقفنا عنده ونستكمل ما توقفنا عنده.

الآية ١٢٤ من سورة البقرة هي قول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: 124]، إلى آخر الآيات.

دائماً إذا جاءت **"إذ"** أو **"إذا"** فإنها لابد أن تكون متعلقة بفعل؛ لأن **"إذ"** ظرف زمان، أو **"إذا"**.

- لو قيل لك ما الفرق بين "إذ" و"إذا"؟

قلنا **"إذ"** للماضي و**"إذا"** للمستقبل؛ تقول أحضر عندك إذا جاء المساء، هذا للمستقبل، وتقول حضرت عندك إذ جاءك الضيف، فـ **"إذ"** للماضي و**"إذا"** للمستقبل، وهي ظرف لابد أن تكون متعلقة بفعل.

الفعل يُقدَّر بما يتناسب، فهنا نقول: واذكر يا محمد، واذكر أيها المخاطب، واذكر أيها القارئ، حتى نجعل الآية عامة لكل من نُزِّل عليه القرآن وهو محمد ﷺ، وكل من قرأ أو استمع أو تأمَّل في هذه الآيات.

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ [البقرة: 124]، هذا خبرٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا أحد يعلم عن هذا الخبر إلا بعد نزول هذه الآيات، خبر يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن خليله إبراهيم ورسوله ونبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي اتفق الجميع على إمامته وجلالته وقدره؛ بأنه هو أبو الأنبياء وبأنه خليل الله، وهو إمام الحنفاء صلوات الله وسلامه على نبينا محمد وعليه.

فيخبر الله عن خليله الذي جميع الطوائف من اليهود والنصارى حتى المشركين في مكة يدَّعون النسبة إليه، أخبر الله عنه في هذه الآية، ماذا أخبر عنه؟ بأن الله ابتلاه، ومعنى الابتلاء هو الامتحان والاختبار، وقد يُبتلى الإنسان بالخير وقد يُبتلى بالشر، الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فقد يُبتلى الإنسان بالشر أو بالمصيبة، وقد يُبتلى بالطاعة، قد يُبتلى بهذا وقد يُبتلى بهذا، فالابتلاء عموماً قد يقع من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذا الإنسان.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ابتلى إبراهيم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: 124]، الذي ابتلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ابتلاه وامتحنه بكلمات.

- ما هذه الكلمات؟

هذه الكلمات وقع المفسرون فيها على خلاف وأقوال كثيرة، والصحيح من هذه الأقوال ما رجَّحه إمام المفسرين الطبري: **"بأنها أوامر ونواهي عامة، ولا دليل على تحديد شيء معين"**، ولذلك أفضل ما يقال إذا قيل لك: ما هذه الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن؟

تقول: هي أوامر ونواهيه، لكن تحديدها بشيء معين لا دليل عليه، ولذلك أولى الأقوال ما رجحه الطبري **"بأنها أوامر ونواهي عامة من غير تحديد شيء معين"**.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ابتلى أنبياءه وابتلى أصفياءه بأوامر ونواهي وحققوا ذلك وامتثلوا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ابتلى إبراهيم ليرفع مكانته وليزيد من قدره، والابتلاء رفع للدرجات وتزكية للأعمال، وأيضاً يخلصه مما قد يلمُّ به من معصية أو نحو ذلك أو تقصير، وكان إبراهيم من أجلِّ الأنبياء في هذا المقام وهو سارع إلى ربه وامتثل أمره.

- ما الدليل على ذلك؟

نقول إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ ماذا قال بعده؟ قال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، فجاء بالفاء الدالة على سرعة الامتثال، ولاحظ كلمة ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ يعني أنه أتى بهن على وجه الكمال والوفاء؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: 37]، أتى بها على أكمل وجه رضاً لربه، وهذه طريقة الأنبياء، ولذلك الله أثنى على موسى لما استعجل أمر ربه ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: 84]، فامتثال أوامر الله والمسارعة والمسابقة إلى رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا من أفضل الأمور التي ينبغي للمسلم أن يحققها.

قد يأتي شخص ويقول لك: طيب لماذا قدَّم المفعول به وهو إبراهيم؟ لماذا لم تأتِ الآية هكذا: وإذ ابتلى الله إبراهيم؟

هذا هو الأصل، لماذا قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾؟

قال بعض المفسرين: **"تقديم اسم إبراهيم أيضاً لرفع مكانته وقدره"**، وليأتي الفاعل متعلقاً بضمير يعود إلى إبراهيم، ولذلك جاء ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾، فالرب مضاف إلى إبراهيم، كل هذا تشريف لإبراهيم وتقدير له. ثم لما أتم هذه الكلمات وأخذ بها وحققها.

- ما النتيجة؟

قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وهذا من شكره لعبده؛ كما أن العبد يشكر ربه ويقوم بما فرض الله عليه، فإن الله يشكر أيضاً، ولا يزال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شكوراً، يشكر لعباده ومن أسمائه الشكور.

قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، هذه من ثمرة تحقيق أوامر الله واجتناب نواهيه، كانت النتيجة في الدنيا: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، فهذه منقبة عظيمة، وستأتي مناقب كثيرة في هذه الآيات لإبراهيم، ومن هذه المناقب أنه جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدوةً وأسوةً للناس يقتدون به في هديه، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر نبيه محمد ﷺ أن يهتدي بهدى إبراهيم.

قال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: 123]، وجاء أيضاً في خطاب أمة محمد أن يتبعوا ملة إبراهيم، قال: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: 95]، وأثنى الله على إبراهيم قال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: 78]، وغيرها.

ومعنى ﴿إِمَامًا﴾ أي يقتدون بك ويهتدون بهديك ويمشون من ورائك إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وهذا من الثناء العظيم لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقول السعدي في تفسيره وكلام جميل جداً: **"أفضل درجة تنافس فيها المتنافسون، وأعلى مقام شمَّر إليه العاملون، وأكمل حالة حصل لها أولو العزم المرسلين وأتباعهم"**؛ هو هذا الأمر، مثل أن يكون قدوة، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل من دعوات المؤمنين أنه قال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74]، أي إماماً وداعياً يُقتدى به ويُسار خلفه.

لما حصل هذا الأمر لإبراهيم واغتبط بهذا الأمر العظيم، استغل الفرصة، فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، وهذه طريقة الأنبياء، ولذلك موسى لما أوحى الله إليه بالنبوة ماذا قال؟ قال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي 29 هَارُونَ أَخِي﴾ [طه: 29- 30]، فنصح لأخيه، وهنا إبراهيم نصح لذريته فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، ولاحظ أنه لم يقل **"وذريتي"**، وإنما قال ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ وفرق بين قوله **"وذريتي"** يعني جميعهم، ولما قال ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعض ذريتي، وإبراهيم تأدب في هذا الدعاء، لم يقل اجعل ذريتي كلهم أئمة، وإنما قال اجعل منهم أئمة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، وهذا فيه أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استجاب دعاءه لكن بطريقة المفهوم ليس تصريحاً، لما قال ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي هذا العهد وهذه المنقبة وهذا الفضل لا يكون للظالمين، دلَّ على أنه يحصل لغير الظالمين.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: 113]، فجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكذا في آية أخرى قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: 27]، فجعل الله في ذريته، ومن أعظم ما جعل في ذريته هو محمد ﷺ الذي هو من ذرية إبراهيم.

﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أي هذه الإمامة وهذا الفضل لا تكون لمن ظلم نفسه وقصَّر في حقها، وإنما تكون لمن أحسن؛ لأن هذا مقام لابد أن يتوفر فيه أمران: الصبر واليقين، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]، فهذا لا يناله الظالمون، فدل مفهوم هذا أن غير الظالمين قد نالهم العهد ونالهم هذا الفضل العظيم.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك ما تفضل الله به على نبيه إبراهيم من هذه المزايا الدالة على شرفه وعلى تخليد ذكره عبر السنين والقرون، فذكر هذا البيت الدال الذي فيه آثار إبراهيم، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: 125].

ولاحظ هذه كما مر معنا؛ **"إذ"** تتعلق بفعل، أي واذكر يا محمد واذكر أيها المخاطب حينما جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً، والبيت غلب وصفه للكعبة وهو بيت الله إذا جاء في القرآن؛ المراد به المسجد الحرام أو الكعبة. لما ذكر ما تميز به إبراهيم ذكر آثار هذه الأمور فذكر البيت، قال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾.

- ما معنى ﴿مَثَابَةً﴾؟

فسر أهل العلم كلمة مثابة بتفسيرين:

⬅التفسير الأول: أن معنى مثابة أي مرجعاً، ثاب يثوب ثوباً أي رجع، أي يرجع الناس إليه لأن القلوب تتعلق بهذا البيت، فما أن تتركه أو تغادره إلا القلوب تحنُّ إليه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في دعاء إبراهيم: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]، أفئدة ولم يقل أجساداً، أي قلوب تعود، تحنُّ على هذا البيت، ولذلك قال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ يعودون إليه كلما خرجوا منه.

وبعض المفسرين يقول إن معنى ﴿مَثَابَةً﴾ أي ثواباً وهو الأجر؛ لأن هناك في البيت تُحطُّ الذنوب وتُرفع الدرجات لكثرة الأعمال الصالحة ولعظم الأجور فيه، لا في الطواف ولا في الصلاة ولا في الدعاء، وكلاهما صحيح، ولا مانع أن نقول هذا المعنى وأن الآية تحتمل المعنيين، وهذا ما يسميه أهل العلم **"باختلاف التنوع في التفسير"**.

﴿وَأَمْنًا﴾ أي أن هذا البيت أمن ومن دخله كان آمناً، وكل من دخل هذا البيت فإنه آمن حتى الطيور وحتى الأشجار، فلا يُعضد شجره ولا يُطرد صيده منه، ولا أحد يتعرض لأحد، حتى في

الجاهلية كان الرجل يلقى قاتل أبيه في الحرم فلا يستطيع أن يتعرض له بسوء، فجعل الله هذه الدار أمناً.

ثم ذكر ما يدل على مقام إبراهيم وثناء الله عليه قال: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125]، فأمر هذه الأمة أن تتخذ مقام إبراهيم مصلى.

- ما هو مقام إبراهيم؟

هو الحجر الذي كان يقوم إبراهيم عليه لبناء البيت، فلما انتهى من بناء البيت جعله على جدار الكعبة، واستمر على هذه الحال، وجاء الإسلام وبُعث محمد ﷺ والمقام ملصق بجدار الكعبة، حتى جاء عهد عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، فلما رأى الناس قد تزاحموا على الصلاة خلفه وتضايق الطائفون، دفعه عمر أو أزاحه وأبعده قليلاً، وهذا هو مكانه الآن الذي وضعه عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه.

فاستمر على هذه الحال إلى عهدنا الحاضر، وهذا المقام معروف، والنبي ﷺ لما طاف بالبيت سبعاً توجه إلى مقام إبراهيم وقرأ هذه الآية ثم صلى خلف المقام، فمن السنة أن يصلي الطائف خلف المقام إذا طاف سبعاً، ولو أبعد إن تيسر له ذلك، وإن لم يتيسر صلى في أي مكان ركعتي الطواف.

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، هذا القول هو قول جمهور المفسرين، وهناك رأي آخر أن المراد بمقام إبراهيم هو مقاماته في المسجد الحرام، أي الأماكن التي يُصلى بها، وذهب آخرون في قول ثالث أن المراد بمقام إبراهيم هو الأماكن التي قام بها إبراهيم في نسكه وحجه، وهي يدخل فيها المسجد الحرام والصفا والمروة والمقام في مزدلفة وفي عرفات وفي منى، والامر واسع.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: 125]، معنى ﴿عَهِدْنَا﴾ أي أمرنا، لكن هذا الأمر أمر تأكيد، أو أوصينا أو قضينا، كل هذه العبارات تدل على تأكيد الشيء.

وإسماعيل أمه هاجر، وهذا الأمر لهما ولمن جاء بعدهما من أتباعهما أن يطهر البيت، والتطهير مراد به هنا هو تنقيته وتطهيره من الطهارة الحسية والطهاري المعنوية؛ الحسية من القاذورات والأوساخ، والمعنوية من الشرك والكفر والمعاصي، ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أضاف البيت إليه: ﴿بَيْتِيَ﴾، هذه الإضافة كما قال أهل التفسير **"إضافة تشريف"**، فالبيت بيت الله.

﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ هم الذين يطوفون حول البيت للعبادة، ولا يجوز الطواف إلا في هذه البقعة من بقاع الأرض، ولذلك قدم الله صفة الطواف قبل هذه الصفات كلها لأنها هي التي تكون عند هذا البيت.

﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ وهم الذين عكفوا أنفسهم والتزموا بالقيام في هذا البيت للعبادة والطاعة، ويقابل العاكف الباد وهو الذي بعيد عن هذا، فأهل مكة وأهل الحرم لهم شرف ولهم مكانة.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ وهم أهل الصلاة الذين ما بين راكع وساجد، ولاحظ أنه لم يعطف، لم يقل **"والركع والسجود"**، وإنما قال ﴿الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ لأن الركوع والسجود كله في الصلاة لا ينفصل بعضه عن بعض، فجعله كأنه واحد.

ثم قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 126]، واذكر إذ قال إبراهيم، لما بنى البيت ورفع قواعده، واختلف المفسرون والتاريخ في من هو أول من بنى البيت، ولا يهمنا هذا كثيراً

لأن القرآن لم يصرح بذلك؛ فبعضهم قال إن أول من قام ببناء البيت هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه كان وادياً غير ذي زرع، فجاء إبراهيم وبناه هو وإسماعيل، وهذا هو المشهور.

وهناك رأي آخر أن الذي بنى البيت هم الملائكة قبل إبراهيم من أول ما نزل آدم، وكان آدم ومن جاء بعده يطوفون حول البيت، لكن الأقرب أن إبراهيم لما أتى بهاجر وابنها إسماعيل نزل في وادٍ غير ذي زرع ولم يكن هناك أي أثر للبيت ثم أُقيم البيت.

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، نلاحظ أنه هنا في هذه السورة قال ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ وفي سورة إبراهيم قال ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: 35].

- ما الفرق بينهما؟

قال بعض أهل التفسير: **"الفرق بينهما أن هنا لم يكن البيت قد وُجد ولم يُبنَ، ثم لما جاء في سورة إبراهيم قد بُني البيت"**، ولذلك التنكير والتعريف بينهما فرق؛ فالتعريف يدل على وجود هذا الشيء، والتنكير على أنه غير موجود، فدعا إبراهيم بأن يكون هذا البلد آمناً، ولذلك حرَّم إبراهيم مكة كما حرم محمد ﷺ المدينة، فأصبحت حراماً إلى يوم القيامة.

ثم دعا بدعوة أخرى قال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 126]، وأعظم ما يكون الإنسان أن يكون آمناً وعنده قوته.

كما قال ﷺ: **«مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»**، وأخوف ما يكون الإنسان أن يكون في خوف وجوع

ولذلك الله سبحانه قال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 4]. فدعا إبراهيم أن يكون آمناً وعنده رزقه، ثم خصَّص إبراهيم تأدباً مع الله المؤمنين، ورزق الله يعم المؤمنين وغير المؤمنين، ولذلك رد الله فقال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أيضاً أرزقه من الثمرات، لكن الكافر غير المؤمن؛ المؤمن يتمتع بهذا الرزق وله رزق الآخرة وهو أعظم، ولكن الكافر يتمتع بهذه الدنيا وليس له حظ من الآخرة.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 126]، ومعنى ﴿أَضْطَرُّهُ﴾ أي ألجئه بقوة؛ لأن الكافر لا يريد الدخول إلى النار ولكنه يُلزم بها، ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي بئس المرجع والمآب، الحديث يطول وشيق، وبودنا أن الوقت أوسع من هذا لكن لا نريد الإطالة عليكم.

فلعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم في الأسبوع القادم نستكمل ما توقفنا عنده، فنقف عند الآية ١٢٧، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(23)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ أما بعد:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ لقاء الأربعاء.

وهذا اليوم هو اليوم الحادي عشر من شهر شوال من عام ١٤٤٢هـ. نجتمع في هذا المقام المبارك؛ لنتدارس آياتٍ من كتاب الله، وحيث توقف بنا الكلام في تفسير سورة البقرة عند الآية مائة وسبعة وعشرين؛ وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

وهذه الآية يبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها الشروع في بناء البيت، وهو بيت الله وهو الكعبة، وكيفية الشروع فيها؛ ويذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما جرى من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وابنه إسماعيل.

ونلاحظ أن الآية التي قبلها وهي قول إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: 126]، كما ذكرنا سابقاً أن **"أهل التفسير وأيضاً أهل التاريخ اختلفوا في بناء البيت؛ هل أول من بنى البيت هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أو أنه كان قبل ذلك قد بُني وبنته الملائكة، ثم جاء إبراهيم وأقام قواعده وأسسه؟"**.

خلافٌ بين أهل العلم. فمنهم من يرى أن **"البيت كان موجوداً قبل إبراهيم، وإنما إبراهيم رفع قواعده وبناه بهذا البناء"**. ومنهم من يرى أن **"أول من بنى البيت هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ"**، وهو ظاهر الآيات القرآنية؛ لأن الله قال في سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: 26]، وبوأنا؛ أي: هيأنا المكان له حتى يقوم بعمارته.

وأيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: 37]؛ فلم يكن هناك كما ذكر أهل التاريخ أيضاً أن هاجر لما تركها إبراهيم ومعها ابنها إسماعيل، لم يكن هناك أحدٌ في هذه البقعة، ولا يوجد لا ماءٌ ولا طعامٌ؛ هذا ما يذكره أهل التاريخ، والعلم عند الله.

ولا يترتب على هذه المسألة كبير فائدة؛ إذا قلنا إن الذي بنى البيت هو الملائكة أو إبراهيم، لكن ظاهر الآيات أنها تدل على أن الذي بنى البيت هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولذلك هنا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 126]، ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: 127]، ولا يلزم أن لما يرفع القواعد أن البناء كان موجوداً؛ لأنك قد تبني القواعد وتؤسسها، ثم ترفع البيت عليها.

والمراد بالقواعد هنا هي أسس البيت التي يقوم عليها البيت، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾، وقلنا كما تقدم أكثر من مرة أن قوله ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ﴾؛ إن (إذ) هذه ظرف زمان لابد أن تكون متعلقة بفعل، ويقدر له ما يتناسب معه.

والذي يتناسب هنا: **"واذكر يا محمد، واذكر أيها المخاطب إذ يرفع"**؛ أي وقت رفع إبراهيم، حينما رفع إبراهيم القواعد؛ هذا معناه، والقواعد هي أسس البيت، فوضعها إبراهيم وأسس عليها البيت، وأقام عليها جدران البيت إلى أن تم بناؤه.

قال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: 127]، وإسماعيل هو ابنه من هاجر، الذي جاء به هو وأمه ووضعه في مكة، ونشأ في كنف أمه وأبيه في تلك البقعة المباركة وهي مكة المكرمة، فعاش هناك، وإبراهيم تركه وهو صغيرٌ رضيعٌ، ثم عاد إليه وقد

كبر، ثم قصته في بناء البيت، ثم قصته في ذبحه لما أراد ذبح ابنه في القصة المعروفة: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: 102].

وقد أثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على إبراهيم في آياتٍ كثيرةٍ، وأثنى على إسماعيل أنه كان صادق الوعد، وأنه كان رسولاً نبياً، وأنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة.

قال هنا: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: 127]؛ يساعده في بناء البيت ويعاون أباه في بناء البيت. ولاحظ أن الله قال: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127]؛ وهم يبنون البيت ويعملون على بناء هذا البيت، لم يغفلوا عن الدعاء والتضرع إلى الله.

وهذا الدعاء حالٌ بين الخوف والرجاء؛ يدعون ربهم خوفاً ورجاءً أن يتقبل الله منهم هذا العمل، وأن يتقبل منهم سائر أعمالهم، وأن يتقبل منهم دعاءهم، ويخافون ألا يتقبل الله منهم، فهم بين الخوف والرجاء يدعون ربهم: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

ولذلك قال بعدها: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: 128]؛ ومعنى هذا أنهم يدعون لأنفسهم أولاً ولذرياتهم، وهذا الذي ينبغي للمسلم؛ أن يدعو لنفسه أولاً، ثم يدعو لإخوانه.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: 10]. فينبغي للإنسان أن يحرص على الدعاء لنفسه ثم الدعاء لغيره.

دعوا لأنفسهم بأن يكونا مسلمين؛ أي منقادين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والإسلام هو الانقياد، والحقيقة هو خضوع القلب وخضوع الجوارح، وانقياد القلب وانقياد الجوارح لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ بأن يكون قلبه متعلقاً بربه، وتكون أعماله كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويكون حياته كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162].

هذه حقيقة الإسلام، وهذه حقيقة الخضوع والانقياد؛ قال: ﴿وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: 128]، لا لغيرك، وهذا يدل على أنهم يسألون الله أن يكون إسلامهم وإيمانهم وعملهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا لغيره.

قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: 128]؛ يدعون لهم ولذريتهم أن يكونوا على هذه المنزلة من الإسلام والإيمان، قال بعدها أيضاً ومن دعائهم: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: 128]؛ يعني علمنا يا رب العالمين كيف نتعبد لك، كأنهم يريدون أن يروا هذه العبادات أمامهم، وهذا أبلغ في التطبيق وأبلغ في الاستيعاب أن ترى هذا الشيء أمامك.

- ما المراد بالمناسك هنا؟

اختلف **"أهل التفسير في المراد بالمناسك هنا؛ هل المراد بها مناسك الحج وأعمال الحج؟"**، وهذا يدل عليه سياق الآيات ومقامها؛ أنها تتحدث عن أعمال الحج والبيت والقواعد.

وهناك من يقول إن **"المراد بالمناسك هنا هي الدين كله، هي العبادات كلها من الحج والصوم والصلاة والزكاة وغيرها؛ تدخل في هذا"**؛ لأن أصل كلمة النسك معناها التعبد.

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: أرنا عباداتنا التي نتعبد بها لك. فبعض العلماء يرى هذا، وبعضهم يرى هذا؛ فمن رأى الأول قال: **"لأن السياق في الحج"**، ومن رأى الثاني قال: **"إن الأصل العموم"**، فيدخل في ذلك الحج وغيره، وتحتمل الآية هذا وهذا.

قال: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128]. عجيب! سؤال الله عَزَّ وَجَلَّ أن يتوب عليهم وهم يقدمون هذه الأعمال الجليلة العظيمة وهذه الأدعية المباركة؛ ومع ذلك يقولون: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾.

- ما السبب؟

قال كثيرٌ من المفسرين: **"إن مثل هذه الأعمال والمناسك لابد أن يعتريها شيءٌ من النقص والتقصير، فتحتاج إلى من يرقع هذا النقص ويسده"**.

وأقوى ما يسد مثل هذه الأشياء هي الاستغفار والتوبة؛ ولذلك المصلي إذا صلى أول ما يبدأ بالاستغفار، والحاج إذا انتهى من أعمال الحج يدعو بالاستغفار؛ ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ [البقرة: 198]، وفي آيات الحج سألوا الله أن يغفر لهم وأن يتوب عليهم.

فالإنسان إذا دخل مثل هذه الأعمال البدنية أعمال الجوارح لا شك أن يعتريها كثيرٌ من النقص، وخاصةً إذا كان الإنسان يختلط بغيره مثل أعمال الحج التي يقابل فيها الحجاج.

ولذلك نلاحظ أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وإسماعيل توجها بهذا الدعاء فقالا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128]. ولاحظ أن الإنسان يأتي بأسماء الله الحسنى في الدعاء بما يتناسب مع دعائه؛ ولذلك قال: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، وقبلها قال: ﴿تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127].

فالذي يتقبل هو من يسمع دعاءك ومن يعلم حالك؛ هذا هو الذي يتناسب مع سماع الدعاء وتقبله، والذي يتناسب مع التوبة أن يقول: (يا تواب يا رحيم تب علينا)، وهكذا في سائر الأدعية.

لما دعا إبراهيم بهذه الدعوات التي تتناسب مع حاله وأعماله في وقته، دعا بدعاءٍ للمستقبل؛ قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]. ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾؛ أي في هذه الذرية التي قال عنها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾.

قال ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾؛ أي ابعث فيهم نبياً ورسولاً ترسله إليهم ليكون ذلك أرفع لدرجاتهم، ويهتدون بهديه وينقادون له، ويعرفون أعمالهم وعباداتهم على الحقيقة. قال: هذا الرسول ما صفاته؟ ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾؛ يتلو عليهم الآيات القرآنية بحيث يبعث فيهم وينزل عليه الكتاب الذي يقرؤه عليهم لفظاً ومعنى.

قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 129]؛ أي يعلمهم زيادةً على التلاوة، أنه يتلو القرآن ويبلغهم ما أُنزل إليه وأنه أيضاً يعلمهم؛ لأن القرآن علمٌ وعملٌ، بمعنى أنه يقرؤه ويتعلم ما فيه من العلم ويطبق ذلك في حياته؛ هذه الحكمة من نزول القرآن والكتب المنزلة.

- ما المراد بالحكمة؟

قال بعض أهل التفسير: **"الحكمة هي السنة"**؛ لأن النبي ﷺ والمراد هنا هو محمد ﷺ الذي بُعث في مكة، الحكمة هي السنة.

☜ كما قال ﷺ: **«أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ القُرآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»**؛ فالسنة وحيٌ بالمعنى، والقرآن وحيٌ باللفظ والمعنى.

قال بعض أهل التفسير: **"إن المراد بالحكمة هي أسرار الشريعة"**؛ فهم وإدراك هذه الأوامر والنواهي، وكلا المعنيين لا يتعارضان والآية تحتمل هذا وهذا.

قال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 129]؛ يزكيهم بهذه الأعمال الصالحة، فتزكو أنفسهم وتتطهر ويبتعدوا عن الذنوب والمعاصي؛ لأن الزكاة هي رفعةٌ وطهارةٌ.

قال في ختامها: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129]؛ العزيز معناها: ذو العزة والقوة والجبروت والقهر الذي لا يمتنع على قوته شيءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والحكيم هو الذي يضع هذه القوة والعزة في مكانها؛ فهو عزيزٌ حكيمٌ. فلو قلت عزيزٌ لكان يبطش، وقد يبطش فيما لا حكمة فيه؛ لكن لما يقال عزيزٌ حكيمٌ، تقترن العزة بالحكمة؛ فإن عزته

تكون على حكمةٍ، وأنه يضع الأمور مواضعها، ولاحظ أيها المستمع أن قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ في هذه الآية جاء قوله ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ هي الأخيرة.

لكن في المواضع الثانية كما في سورة البقرة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 151]؛ قدَّم التزكية.

وفي سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: 164].

وجاء أيضاً في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: 2]؛ فقدم التزكية في الآيات الثلاث وأخرها هنا، لماذا؟

قال بعض أهل التفسير: **"إن الحكمة أن هذا الدعاء جاء على لسان إبراهيم، والتزكية لا يملكها إلا الله"**؛ فلذلك أخرها وقدم ما يكون ظاهراً؛ فتلاوة القرآن أمرٌ ظاهرٌ، وتعليم الكتاب والسنة أمرٌ ظاهرٌ، لكن التزكية لا يملكها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلذلك جاءت على لسان إبراهيم متأخرةً، أما في الآيات الثلاث الأخر لأنها جاءت من عند الله مباشرةً: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا﴾، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾؛ فاختلف السياق واختلف التقديم والتأخير، والعلم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال هنا: ﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا﴾.

☜كما قال النبي ﷺ: **«أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ»**؛ فاستجاب الله لإبراهيم هذه الدعوة، فبعث في ذريته هذا الرسول الكريم ﷺ.

بعث محمداً على فترةٍ من الرسل فكان خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي هو رحمةٌ رحم الله بها سائر الخلق، وكانت دعوته دعوةً عامةً للثقلين، ولما عظَّم الله عَزَّ وَجَلَّ إبراهيم وذكر مآثره ومناقبه هو وإسماعيل وما منَّ الله عليه به، ذكر أيضاً ما يزيد في صفاته فقال: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130].

معنى ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ﴾؛ أي لا أحد يرغب عن ملة إبراهيم ويعرض عنها إلا من هو سفيهٌ؛ أما الرشيد العاقل الذي يعرف مكانة إبراهيم لا يرغب عن ملته.

والمراد بملة إبراهيم هو دينه؛ دين الحنيفية ودين الإسلام والتوحيد. فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: لا أحد يرغب لأن (مَنْ) هنا للنفي أي لا أحد يعرض عنها إلا من هو جاهلٌ، إلا من هو سفيهٌ لا يعرف مقام إبراهيم ولا يعرف دعوته.

كما قال بعض المفسرين: **"مفهوم هذه الآية أنه لا أرشد ولا أكمل عقلاً ممن يتبع ملة إبراهيم"**؛ ليس هناك أحدٌ أعقل ولا أكمل ممن رغب في ملة إبراهيم وتمسك بها وانقاد لهذا الدين وأخذ به، كما أثنى الله سبحانه قال: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: 78].

فأثنى الله على ملة إبراهيم، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مرشداً النبي محمد ﷺ: ﴿فَاتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، وقال لأمته: ﴿وَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ فأثنى الله عليه بهذا الثناء العظيم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، ثم أثنى عليه زيادةً فقال: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة: 130]؛ أي اخترناه في الدنيا ليكون خليله ونبيه ورسوله، ووفقناه للأعمال الصالحة، واصطفاؤه في الدنيا لأن يعرف الطريق إلى ربه وأن يستقيم على ما أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فهذا هو الاصطفاء الحقيقي.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مقابلة اصطفائه في الدنيا: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: 130]؛ أي في أعلى الدرجات، ويبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الملة التي أخبر عنها فقال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 131].

هذه هي ملة إبراهيم: ﴿أَسْلِمْ﴾؛ قال إبراهيم امتثالاً لربه وانقياداً له: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ لما أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أي انقدت لك يا رب العالمين.

وهذا يدل على الإخلاص؛ التوحيد والإخلاص والمحبة والإنابة لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكان التوحيد وهذه الملة وصفاً لإبراهيم ملازماً له في حياته، حتى تبرأ من كل من يخالف هذه العقيدة؛ كما قال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ 26 إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: 26-27]. فقال هنا: ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 131].

ولما انقاد وأسلم لربه لم يقف عند هذا الحد، وإنما أوصى ذريته؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: 132]؛ وصى بها؛ أي بهذه العقيدة وصفة الانقياد والاستسلام لله.

وصى إبراهيم ذريته من بعده؛ هذه أجل الوصية وأعظم وصية، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: 28]؛ وتوارثت الأجيال من ذريته هذه الكلمة وهذه العقيدة الطيبة حتى وصلت إلى يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 132]؛ اختار الله لكم هذا الدين رحمةً بكم وإحساناً منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقوموا وتمسكوا وخذوا بشرائعه واستمروا حتى يأتيكم الموت وأنتم على هذه العقيدة.

فمن حافظ على شيءٍ وتمسك به في حياته وعاش عليه فإنه يموت عليه، ومن مات على شيءٍ بُعث عليه، فلذلك ينبغي للإنسان أن يلازم طاعة ربه حتى الموت: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أي لا يأتي الموت إلا وأنتم على هذه العقيدة لم تغيروا ولم تبدلوا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ [البقرة: 133]؛ هذا الخطاب يرجعنا إلى اليهود الذين يزعمون أنهم على ملة إبراهيم.

قال الله لهم: هل كنتم أنتم شهداء وحاضرين لما حضر يعقوب الموت وأوصى بنيه بهذه الوصية؟ هل كنتم حاضرين وأنتم تسمعون يعقوب يقول: كونوا على دين اليهودية؟ هل حضرتم هذا الشيء؟ ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾؛ وهذا الاستفهام استفهامٌ إنكاريٌ؛ فهم لم يحضروا.

قال: ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة: 133]. لماذا خصَّ يعقوب؟ لأن يعقوب كان على ملة إبراهيم، ولأنه هو الذي يسمى إسرائيل وهم يدعون النسبة إليه فيقولون (نحن بنو إسرائيل)؛ فهذا هو إسرائيل، بما أوصى؟ قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾؛ استفهام تقريرٍ كأنه يريد أن يقرروا له العقيدة.

قالوا جواباً على سؤاله: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133]. ومع أن إسماعيل عم ليعقوب إلا أنهم جعلوه في منزلة الأب؛ لأن **"العم بمنزلة الأب"**؛ ولذلك قال: ﴿آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾؛ هذه العقيدة الصحيحة السليمة، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ فلا نشرك به شيئاً ولا نعدل به أحداً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: 134]؛ أي هذه هي الأمة التي مضت، أمة إبراهيم وبنيه قد مضت وسلفت. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ما قدمت من أعمال ستجازى به، ﴿وَلَكُمْ﴾ أنتم أيها المخاطبون وممن يسمع هذا الخطاب ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾؛ ولا أحد يؤخذ بذنب أحد، ولا ينفع أحد إلا الإيمان والتقوى، فاشتغلوا بطاعة الله وبتوحيده، فكلٌ سيجازى بما عمل؛ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 134]؛ أي لا أحد يسأل عن عمل غيره، وإنما هو مطلوبٌ بأن يقدم لنفسه.

لعلنا نقف عند هذا القدر حتى لا نطيل عليكم، وإن شاء الله نستكمل في اللقاء القادم بإذن الله ما توقفنا عنده وهي الآية الخامسة والثلاثين بعد المائة من هذه السورة، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(24)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء التفسير ليوم الأربعاء، وهذا اليوم هو اليوم الثامن والعشرون من شهر شوال من عام ألف وأربعمائة واثنين وأربعين، نجتمع لنتناول بعض هذه الآيات أو شيئًا من هذه الآيات؛ لنبين معانيها ودلالاتها وما فيها من حِكَمٍ وأحكامٍ، الآيات التي بين أيدينا هي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: 135].

وهذه الآية هي الآية الخامسة بعد المئة من سورة البقرة، ونلاحظ يعني عندما نريد أن نبين هذه الآيات، يعني لابد أن يعني تنظر لما قبل هذه الآيات وما بعدها حتى يتضح لك المعنى، ويتضح لك السياق، ويتضح لك يعني دلالة هذه الآية إذا قرأت الآيات التي قبلها، وهي بيان ما كان عليه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الحنيفية السمحة، والدين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والعقيدة الصحيحة، ما كان عليه إبراهيم وما أوصى به إبراهيم بنيه، وكذلك يعقوب، وهو حفيد إبراهيم، يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ما وصى به أيضًا بنيه أن ألا يموتوا إلا على الإسلام، وعلى العقيدة الصحيحة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بين هذا موقف من إبراهيم ومن يعقوب، ناقش أولئك اليهود الذين يدعون أن إبراهيم كان على دين اليهودية، أو النصارى الذين يدعون أن إبراهيم على دين النصرانية، أو غيرهم، فقال اليهود: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133].

فناقشهم بهذا، ولا شك أنهم لم يكونوا موجودين ولم يكونوا حاضرين في وصية يعقوب لبنيه أن ألا تموتن إلا على الإسلام، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: 135].

قالوا هؤلاء هم اليهود والنصارى، اليهود والنصارى يقولون، يخاطبون المسلمين ويخاطبون العرب بأن يقولوا كونوا على عقيدة اليهودية، أو على عقيدة النصرانية تهتدوا، وحصروا الهداية في هذين الدينين، وادعى كل من اليهود والنصارى أن الهداية هي الدخول في دينهم، أن الهداية هي الدخول في دينهم.

ويفهم من ذلك أن ما سوى دين اليهودية والنصرانية دينٌ لا يصلح، وأهله على ضلالٍ، وهذا الذي يفهم حتى لأنهم قالوا إذا كنتم يهودًا أو نصارى فقد اهتديتم، فدل على أن من لم يكن على ذلك فهو في ضلالٍ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني أو خاطب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محمدًا ﷺ المبلغ عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وكل من يصلح له الخطاب: قل لهؤلاء، قل لهؤلاء الذين يدعون ويزعمون زعمًا كاذبًا: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: 135]. قل بل، و**"بل"** هنا للإضراب، والإضراب معناه الانتقال من معنى إلى معنى، وإبطال المعنى السابق وإثبات المعنى اللاحق.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: قل بل، أي بل هذه الدعوة الباطلة التي تدعونها لا تصلح، بل الحق اتباع ملة إبراهيم، اتباع ملة إبراهيم، ولذلك قوله تعالى ملة إبراهيم على النصب، أي اتبعوا أو أي نعم اتبعوا ملة إبراهيم، اتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا وما ملة حنيفًا وما كان من المشركين.

ملة إبراهيم يعني دين إبراهيم الذي اختاره الله لإبراهيم، وحنيفًا معناه هو المقبل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده لا شريك له، المعرض عن كل دينٍ من الأديان الذي أعرض عن كل دينٍ من الأديان، هذا معناه، والحنيفية هي دين إبراهيم؛ لأنه أقبل على ربه وأعرض عن عما سواه من الأديان، وأصل الحنيفية من الحنف، والحنف هو الميل، فالذي يميل عن كل باطلٍ ويقبل على الحق يسمى حنيفًا، يترك الشرك وأنواع الشرك وما يتعلق بالشرك ويقبل على التوحيد، هذا هو الحنيفي.

قال: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: 135]. رد على هؤلاء الطوائف كلها، طائفة اليهودية والنصرانية والمشركين، كل يدعي أنه يتبع ملة إبراهيم، وأن إبراهيم على دينه، فنفى الله عنهم، قال لم يكن إبراهيم يهوديًا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيات أخرى قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67]. فبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا وأبطل هذه الدعاوى كلها من اليهودية والنصرانية والمشركين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ما قرر حقيقة ما كان عليه إبراهيم وهو الحق وهو الدين الحق، بعد ذلك انتقل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى بيان ما يجب عليه أو ما يجب على المسلمين أن يتمسكوا به، وأن يعلنوه أمام الناس، وأن يظهروا هذا دين الحقيقي الدين الصحيح، أن يظهروا ويبينوا حقيقة هذا الدين.

- ما حقيقة هذا الدين؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية السادسة والثلاثين بعد المئة: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

هذه الآية جاءت السنة بأنها تقرأ في ركعتي الفجر في سنة الفجر، تقرأ هذه الآية في الركعة الأولى وهي إعلان بالتوحيد والإيمان والدين الصحيح، وتقرأ في الركعة الثانية الآية الواردة في سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

هذه الآية تقرأ في الركعة الثانية هذه السنة، وأيضًا ورد في السنة أن يقرأ في الركعة الأولى في سنة الفجر **«قُل يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ»** وفي الركعة الثانية **«قُل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»**، فالمسلم تارة يفعل هذا وتارة يفعل هذا.

قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ هذا أمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للأمة المسلمة أتباع محمد ﷺ الذين أنزل عليهم هذا القرآن أن يعلنوا، أن يعلنوا صراحة عن حقيقة هذا الإيمان وهذه الأصول وهذا الإسلام، فقال: ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾، قولوا للناس وقولوا لليهودية أو لأهل اليهود والنصارى والمشركين وجميع الطوائف: قولوا آمنا بالله، وهذا هو الصدع بالحق وبيان والدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في بيان أصل هذا الدين: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾. والإيمان هو التصديق والإقرار؛ التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح، هذا هو الإيمان.

فقال الله سبحانه: ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾، ولاحظ أن هذه الآية جمعت بين الإيمان والإسلام، في أولها قال: ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾، وفي آخرها قال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، والإيمان والإسلام؛ الإيمان يتعلق بالباطن والاسلام يتعلق بالأعمال الظاهرة من الجوارح.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾؛ إقرار بأنهم آمنوا وصدقوا واتبعوا دين الله، قال: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، أي آمنا بالله وحده بأنه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخالق والرازق، هو الله المستحق لأن يفرد بالعبادة، وأن لا يشرك معه أحد فيما هو من خصائص الله.

قال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، وهذا كما هو معلوم عند الجميع أنه ركن من أركان الإيمان؛ الإيمان بالله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، وهذا يدخل فيه الإيمان بالقرآن والإيمان بالنبي والإيمان بالسنة، لأن ما أنزل إلينا، أي ما أنزل إلينا هو القرآن الكريم كلام الله المنزل على محمد ﷺ، وهو القرآن المعروف: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، والسنة تدخل في ذلك لأن الله قال: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: 113]، أي السنة.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، وهذا يقتضي الإيمان بالرسول ﷺ؛ لأنه هو الذي أنزل عليه القرآن وأنزلت عليه السنة، فالذي يؤمن بما أنزل وهو القرآن يؤمن بما أنزل عليه وهو محمد ﷺ.

قال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي ما أنزل إلى الأنبياء السابقين، فالمؤمن يؤمن بالقرآن ويؤمن بالكتب المنزلة السابقة، ويؤمن بالنبي ﷺ ويؤمن بالأنبياء السابقين.

قال: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، والذي أنزل إلى إبراهيم هي الصحف التي أوتيت إبراهيم، ويشمل هذا الكتب المنزلة ويشمل الوحي؛ لأنه أنزل إلى إبراهيم وأوحي إلى إبراهيم.

قال: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾، وإسماعيل ابن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إسماعيل الذي وصفه الله بأنه صادق الوعد، قال: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾، وهو ابن إبراهيم من زوجته سارة. ﴿وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، وهو ابن إسحاق حفيد إبراهيم، يعقوب، قال: ﴿وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾.

والأسباط هم أولاد يعقوب، ولا يقصد بأن أولاد يعقوب أوحي إليهم، فإن الذي أوحي إليه من أولاد يعقوب هو يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، أما بقية إخوته فهم رجال صالحون كما حرر هذا وحققه شيخ الإسلام **"ابن تيمية"**، وقال: **"إنهم لم يكونوا أنبياء"**، ولذلك قوله الأسباط هم ذرية أبناء يعقوب، الأسباط هم الأمم كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: 168]، يعني أسباطًا، والأسباط هم الأنبياء الذين من هؤلاء الأمم كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال: ﴿وَجَعَلَ فِيكُم أَنبِيَاءَ﴾، وهذا المراد بالأسباط أنهم أنبياء بني إسرائيل، يعني بعد يعقوب انتشر في أبناء يعقوب وذرية يعقوب انتشر الأنبياء وكثر الأنبياء في بني إسرائيل، هذا المراد بكلمة الأسباط.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾، فخص موسى وخص عيسى؛ لأنهم من أولي العزم، وموسى خص لأنه خص بكتاب وهو التوراة، وعيسى خص بكتاب وهو الإنجيل، ثم قال: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾، عطف العموم على الخصوص، لما خصص هؤلاء لشرفهم ومكانتهم بعد ذلك قال: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وهذا يدل على أن الأنبياء كُثُرٌ، وأنهم أوحي إليهم وأنهم أنزلت إليهم كتب لا يعلمها إلا الله.

قال: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ دليل على أنهم أنه يوحى إليهم، دليل على أنه يوحى إليهم، ولم يكونوا يختلقون هذا الشيء ويفترونه على الله، وإنما أوتوا من ربهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه العقيدة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، هذه عقيدة المسلم، لا كما يعتقده اليهود وغيرهم أنهم يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون ببعض، ويؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ويفرقون بينهما، عقيدة المسلم أنه يؤمن بهؤلاء إيمانًا لا تفريق فيه.

قال: ﴿وَنَحْنُ لَهُ﴾ أي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿مُسْلِمُونَ﴾، أي منقادون لله، أي مسلمون طائعون منقادون قانتون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذه الآية آية حقيقة جامعة لأصول الدين وأصول الشرائع والإيمان والإسلام، فهي حقيقة أن تعرف معانيها وأن يعرف المسلم دلالاتها وما دلت عليه من هذه العقائد ومن هذه الأصول أصول الشريعة، ولذلك يستحب قراءتها في ركعتي الفجر.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾، أي إن آمن هؤلاء، إن آمن هؤلاء، فإن آمن هؤلاء الذين يدعون أنهم على أن اليهودية هي التي ينبغي أن يهتدوا بها، وأن يهتدي الناس بها، أو النصرانية، ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾، خاطبهم الله ووجه إليهم خطاب قال: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ بهذه العقيدة التي ذكرناها ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾، هذا هو الهداية، أما قولهم إنهم على هداية أو هؤلاء على هداية فهذه دعاوى باطلة لا تصح.

ولذلك قال هنا فقال: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ﴾ هذه العقيدة الصحيحة ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ مثل ما اهتديتم، ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا ولم يقبلوا

- ما هم النتيجة؟

أنهم في شقاق، ومعنى الشقاق أنهم مشاقون لا يريدون الحق، ومعادون لا يريدون أن يتبعوا الحق، بل هم في طريق وأنتم في طريق، لأن الشقاق مأخوذ من الشق، والشق أن يكون كل شخص في طريقٍ، كل شخصٍ كل شخصٍ يتخذ له طريقًا غير طريق صاحبه، هذا معنى الشقاق.

قال فهم في شقاق، ثم توعدهم الله بهذا الوعيد الشديد دفاعًا عن نبيه وعن أتباع نبيه قال: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي سيرد كيدهم ويكفيك شرهم؛ لأنه هو السميع لأقوالكم وأقوالهم، العليم بأحوالكم وأحوالهم، فسيرد كيدهم، وقد رد الله كيد اليهود في طوائفهم الثلاث في المدينة ونصر نبيه محمدًا عليهم، فكفى الله نبيه شرهم: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

لما بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه العقيدة الصحيحة وأصول الإيمان ذكر بعد ذلك أن هذا هو الدين الذي ينبغي أن يستبغ به المسلم، وأن يكون على هذه العقيدة وأن لا يخرج عنها، ولذلك قال: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ ومعناها الزموا وتمسكوا، الزموا صبغة الله، والمراد بصبغة الله هنا هو دينه، هو صبغة الله، المراد بصبغة الله أي دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومعناه أن المسلم ينبغي أن يصطبغ بهذا الدين كما يصطبغ الثوب، وكما يصطبغ الحائط، الحائط يدهن بالدهان ويصبغ بالصبغ حتى لا حتى يتغير بكامله يتغير بلون آخر، فكذلك المؤمن يصطبغ بهذا الدين حتى يكون هذا الدين في جميع أحواله، في حركاته وسكناته ونومه وقيامه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162].

فلا حركة ولا سكون ولا عمل إلا لله، فكأنه كأنها أصبح كالصبغ التام عليه هذا الدين في جميع حركاته طوعًا واختيارًا ومحبة وحياة كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا معنى صبغة الله، أي تمسكوا بدين الله وقوتكم، ولتكن حركاتكم وسكناتكم ولتكن أعمالكم كلها لله. قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾، أي لا أحد، **"مَنْ"** هنا استفهام بمعنى النفي، أي لا أحد أحسن من الله صبغة، أي دينًا، ليس هناك دين أحسن من أن تدين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتنقاد لله، تنقاد لشجر وحجر وتنقاد لأموات لا ينفعون أنفسهم أو تنقاد للذي يسمع ويعلم حالك ويرد سؤالك ويجيبك ويرزقك ويتولى أمرك، ما في أحسن أن يكون أن يكون عبدًا لله، أن تكون عبدًا لله، هذا شرفٌ للإنسان أن يكون عبدًا لله.

ولذلك قال لما بين الصبغة ختم بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾، أي لا نعبد إلا هو، ولاحظ أن عابدون صيغة اسم فاعل، أي تدل على الثبات والاستقرار، أي عابدون ثابتون على هذا الدين مستقرون لا نتغير أبدًا، هذا معنى الصبغة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطبًا محمدًا ﷺ وأتباعه ردًا على هؤلاء اليهود والنصارى وأتباعهم: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: 139]. تناقشوننا في الله وتخاصمونا في الله وهو الذي شرع لكم هذا الدين وهو الذي أمركم بالانقياد إلى دينه، فهو ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وخالقنا وربكم، ليس بيننا وبينكم فرق في عبادته كلنا نتوجه إلى الله، ولنا أعمالنا هذه التي نعملها لنا وأثرها علينا ونتيجتها لنا وثمرتها علينا، ولكم أعمالكم أنتم الذي تعملونها من أعمال تجازون به.

وأما نحن له مخلصون لا نشرك به شيئًا، أما اليهودية فتشرك بالله، وأما النصرانية فتعبد الله على جهل وتشرك به، وكذلك المشركون، أما المسلمون فهم له مخلصون: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾.

ثم ناقشهم نقاشًا آخر إقامة عليهم إقامة الحجة عليهم قال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: 140]. عاد مرة لأصحاب هذه العقيدة الصحيحة التي وصى بها إبراهيم وصى بها يعقوب أن يبقوا على الإسلام، قال إن أم تقولون إن إبراهيم استفهام إنكاري، أتقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودًا أو نصارى؟ يعني أتقولون هذا الكلام؟ من أين أتيتم بهذا الكلام؟ هل عندكم علم بهذا؟ هل عندكم علم بهذا بنيتم عليه هذه العقيدة؟

لذلك قال: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾، يعني هل أنتم أعلم بعقيدة هؤلاء أم الذي يعلم عقيدتهم ويعلم ما هم عليه من الدين الصحيح إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ ولا شك أن الجواب ما لم يأتِ؛ لأنه معروف الله أعلم منهم بلا شك، الله أعلم من هؤلاء بدين هؤلاء الأنبياء الصالحين: ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾.

ثم رد عليهم بيانًا لإبطال عقيدته وأنهم قد ظلموا أنفسهم بهذا الكلام قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 140]، أي هؤلاء اليوم عندهم علم، والنصارى عندهم علم بعقيدة هؤلاء، ولكنهم يريدون أن يكتموا هذه الشهادة، ويكتموا العقيدة الصحيحة، ويكتموا الإيمان الصحيح.

ولذلك قال الله لا أحد أظلم وليس هناك ما هو من هو أظلم ممن يكتم شهادة عنده من الله وعنده تلك الشهادة، والله ليس غافلًا عما يعمل هؤلاء، وهذا سوء تهديد وتخويف لهم أن الله يتوعدهم.

ختم الله هذا الخطاب وهذا النقاش مع هؤلاء بهذه الآية التي مرت معنا: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 141].

أعادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكررها تأكيدًا وقطعًا لتعلق المخلوق لتعلق أي شخص بمخلوق، يعني هؤلاء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء والأصفياء الذين كانوا على هذه المكانة والمنزلة أعمالهم، وأنتم لكم أعمالكم، ولا ينفعكم انتسابكم إليهم فلا يقدم ولا يؤخر.

المطلوب أو الشيء الذي يعول عليه هو أن تتصف بما اتصفوا به لا أنك تنتسب إلى هؤلاء، وإنما أن تتصل بما اتصفوا به وأن تتمسك بما تمسكوا به هذا هو الذي ينفع، العمل الذي كانوا يعملونه اعمل به، والعقيدة والإيمان الذي كانوا عليه كن مثلهم في هذا.

ولذلك قال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الأعمال ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ولا يسألون هم عما أعمالكم، وإنما كل إنسان عليه بخاصة نفسه.

هذه ختمت هذا النقاش الذي دار مع هؤلاء وبيان ما كانوا عليه بهذه الآية، وبعد وبهذا ينتهي الجزء الأول من القرآن، ينتهي الجزء الأول من القرآن، وإن شاء الله في اللقاء القادم نبدأ بالجزء الثاني من قوله تعالى: ﴿۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: 142]، إن شاء الله بإذن الله، أسأل الله التوفيق والسداد وأن يعيننا وإياكم ويوفقنا وإياكم ما يحب ويرضى، والله أعلم.

(25)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدّين، أمّا بعد:

أيّها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمة وبركاته، حيّاكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اللقاء هو لقاء الأربعاء في تفسير القرآن العظيم، وهذا اليوم هو اليوم السادس من شهر ذي القعدة من عام ألف وأربعمائة واثنين وأربعين.

نبدأ على بركة الله وحيث توقف بنا الكلام في سورة البقرة عند الآية الآن بعد المائة وهي بداية الجزء الثاني، وهي قول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: 142].

إذا تأمّلنا هذه الآيات وجدنا أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه الآية في الحقيقة هي تتحدث عن تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، تحويل القبلة حدثٌ عظيمٌ، حدث بعد هجرة النّبيّ ﷺ بسنةٍ ونصفٍ تقريبًا، في شهر رجب من السنة الثانية بدأ تحويل القبلة، أو في هذه السنة حدث هذا الحدث العظيم، وهو حدثٌ في الحقيقة عظيمٌ لأنّه يتعلق بأهمّ ما يخصّ المسلم وهو الصلاة، حيث إنّ الناس قبل هذا الحدث كانوا يصلّون جهة بيت المقدس.

ثمّ تحولوا بعد ذلك إلى المسجد الحرام، لو نقرأ هذه الآية وما بعدها ثمّ نرجع قليلًا في الآيات السابقة نجد أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمّا أراد تحويل القبلة مهد لذلك بعدّة آياتٍ تمهد لهذا الحدث العظيم، أوّل هذه الآيات قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 115].

وفي هذه الآية دلالةٌ على أنّ جميع الجهات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، المشرق والمغرب وغيره من الجهات كلّها لله، والمشارق والمغارب كلّها لله والجهات كلّها لله، ففي هذه الآية كان فيه إشارةٌ إلى أنّ تحويل القبلة إذا حدث لا يعدّ أمرًا مستغربًا ولا أمرًا عجبًا.

الآيات الثانية قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: 106]، هذه الآية تتحدث عن النسخ، وتحويل القبلة هو النسخ، حيث كان الناس يصلّون جهة المسجد الأقصى ثمّ نسخ هذا الأمر وهذا الحكم إلى التوجه للمسجد الحرام، فتقديم آيات النسخ وأنّ الذي ينسخ هو الله وأنّ الذي يملك النسخ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كأنّه تمهيدٌ لحصول هذا الأمر.

الآية الثالثة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120]، الذين اعترضوا على تحويل القبلة هم اليهود والنصارى والمشركون أيضًا والمنافقون، ولكن الأكثر هم اليهود، وهم يريدون أن يبقى النّبيّ ﷺ متوجهًا إلى المسجد الأقصى ولا يغيّر قبلته.

حتّى اعترضوا عليه وقالوا: **"ما بال هذا النّبيّ يخالف من سبقه من الأنبياء؟ فكلّهم يتوجهون إلى المسجد الأقصى وهذا يخالفهم"**، وحصل ما حصل.

هذه الآيات التي بين أيدينا وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ اشتملت على عدّة أمورٍ:

⬅ الأمر الأول: هو معجزة القرآن الكريم، والمعجزة في هذه الآية أنّ الله أخبر بأمرٍ سيحصل وسيقع، أخبر به قبل وقوعه، وهذا من علوم الغيب التي يخبر الله بها في كتابه أنّها ستقع

فتقع، فقوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ هذه الآية سبقت هذا الحدث، وأنّه إذا حدث هذا الحدث وحوّلت القبلة فإنّه سيكون هناك سفهاء يتكلّمون ويعترضون.

⬅الأمر الثاني: أنّ الآيات اشتملت على تطمينٍ وتسليةٍ لقلوب المؤمنين بأنّ هذا الأمر هو من الله، وأنّ من ثبت على ذلك هو هدايةٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإنّ الله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيمٍ، ثمّ أيضًا اشتملت على بعض الاعتراضات من هؤلاء والجواب على هذه الاعتراضات.

- متى كان النّبيّ ﷺ يصلّي إلى المسجد الأقصى؟

ذكر بعض أهل العلم: **"أنّ النّبيّ ﷺ لمّا أوحي إليه وفرضت عليه الصلاة كان يصلّي إلى المسجد الأقصى لأنّ الأنبياء السابقين كانوا يصلّون إلى المسجد الأقصى"**.

فكان في مكّة يصلّي إلى المسجد الأقصى وكان يضع الكعبة بينه وبين قبلته المسجد الأقصى، فكان يصلّي بين الركنين اليماني والحجر الأسود، ثمّ لمّا هاجر إلى المدينة استمرّ على ذلك الأمر لمدّة سنةٍ ونصفٍ تقريبًا.

وهناك رأيٌ آخر أنّ النّبيّ ﷺ لمّا كان في مكّة كان يصلّي جهة الكعبة، ثمّ إنّه لمّا هاجر أمر بالوحي أن يصلّي إلى المسجد الأقصى، وكلّ ذلك ترغيبًا لليهود لمّا جاء في المدينة، واستمرّ النّبيّ ﷺ هذه المدّة وهو يصلّي إلى جهة المسجد الأقصى.

بعضهم يرجّح الرأي الثاني وهو أنّ النّبيّ ﷺ كان في مكّة يصلّي جهة الكعبة، ووجدت رواياتٌ كثيرةٌ أنّه كان يصلّي عند مقام إبراهيم، وهذا رجّحه بعض أهل العلم، وأيّد هذا الرأي أنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 144]، فكان النّبيّ ﷺ يريد أن يرجع إلى قبلته التي كان عليها في مكّة، وكان يتأمّل في السماء ويرفع بصره للسماء لعلّ الأمر أن يعود إلى ما كان عليه.

قال الله في بدايتها: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ والسين للمستقبل، فيخبر الله أنّه سيقع هذا الأمر وأنّ هناك من الناس هم سفهاء وأنّهم سيقولون هذه المقولة، أي سيعترض من يعترض من الناس وهم السفهاء منهم، ولم يحدد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هم السفهاء.

- هل هم اليهود أو المنافقون؟

جاء بهذا الوصف ليشمل كلّ من اعترض على حكم الله ولم يقبل هذا الأمر، ولذلك جاءت كلمة السفهاء، والسفيه ضدّ الرشيد، والسفه من خفة العقل، والرشيد هو الذي يكون في تصرفاته هادئًا رزينًا.

وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلّ من اعترض على تحويل القبلة من اليهود والنصارى وغيرهم بأنّهم سفهاء لا يعرفون مصالح أنفسهم ولا يعرفون حكمة الله في ذلك، فحكم الله عليهم بهذا الحكم، قال: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ ماذا يقولون؟

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 142]، لماذا تركوا قبلتهم السابقة ولماذا انصرفوا عنها إلى قبلةٍ جديدةٍ وهي المسجد الحرام؟

اليهود كانوا يستقبلون بيت المقدس، والنصارى كانوا يستقبلون جهة المشرق، فكلّ منهم لم يقبل هذا الأمر أن يتوجه النّبيّ ﷺ ويترك هذا ولا يستقبل لا هذا ولا هذا، ولذلك اعترضوا عليه فقالوا: **"لماذا انصرف عن هذه القبلة التي كان يصلّي هو وأصحابه عليها هذه المدّة التي مضت ثمّ يغيّر ويترك قبلة الأنبياء السابقين؟"**

ردّ الله على اعتراضهم بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: 142]، قل يا محمد ردًّا عليهم: الذي يملك الأرض كلّها والجهات كلّها هو الله، فإذا أمرنا أن نتجه إلى أيّ جهةٍ كان فهو أمرٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينبغي أن يتلقى بالقبول والتسليم كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: 51]، وهذا من أقوى الردود عليهم أنّ المشرق والمغرب لله.

وعلى المسلم العاقل الرشيد أن يتقبل، ولذلك رتب عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنّ من قبل هذا الأمر وأذعن إليه واستجاب لله النتيجة أنّ الله يزيده هدايةً إلى هدايته، ولذلك قال الله بعدها: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 142].

والله إذا وجّه أو أمر بشيءٍ فإنّ فيه مصلحةً عظيمةً وهي هداية من أراد الله هدايته، قال الله بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، هذا ثناءٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه الأمّة لما قبلت هذا الأمر وأذعنت لله.

أثنى الله عليها ورفع مقامها فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، الكاف للتشبيه وذلك اسم إشارةٍ يعود لشيءٍ سابقٍ وهو تحويل القبلة، كأنّ الآية تقول لك: مثلما أنّ الله هو الذي يملك المشرق والمغرب ويهدي من يستحق الهداية، كذلك أيضًا جعلنا هذه الأمّة أمّةً وسطًا، أي جعلناهم أمّة محمدٍ وهي خير الأمم، ورسولها خير الرسل وكتابها خير الكتب، ومعنى **"وسط"** هنا أي عدولًا خيارًا، أهل عدالةٍ وأهل خيارٍ وحكمٍ مقبولٍ وشهادتكم مقبولةٌ.

ومما يدلّ على أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي عدولًا خيارًا ما جاء بعدها في قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، فالعدل الخير هو الذي تقبل شهادته كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: 2].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اختار هذه الأمّة وجعلها وسطًا بين الأمم جميعًا، وجاء في تفسير قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أنّ هذه الأمّة تشهد للأنبياء يوم القيامة إذا سأل الله الأمم: هل بلغوا؟ فأنكروا، جاءت هذه الأمّة لتشهد.

فهذه الأمّة تشهد لنوحٍ وتشهد لعيسى وتشهد لموسى وتشهد لصالحٍ كلّهم يشهدون على أنّهم قد بلّغوا الرسالة، ومما يشهد لهذه الأمّة رسول الله ﷺ ولذلك قال بعدها: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، أي يزكيكم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثمّ تعود الآية مرّةً أخرى إلى الجهة فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: 143]، أي قبلة المسجد الأقصى السابقة، حتّى يعلم الله عَزَّ وَجَلَّ من يتبع الرسول.

- ولو جاءك السائل وقال لك: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم قبل الخلق هذا الخلق كلّه وعلمه سابقٌ فكيف يقول ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾؟

الجواب: إنّ هذا المراد به أي ليظهر علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيرتب على هذا الشيء الجزاء والثواب والعقاب، فيثيبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على اتباعه وقبوله، أو يجازى بما يستحقّ من ينقلب على عقبيه ويردّ هذا الشيء.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ [البقرة: 143].

أي تحويل القبلة أمرٌ عظيمٌ وحدثٌ عظيمٌ وقد يزعزع بعض ضعفاء الإيمان كما زعزع المنافقين وغيرهم، فقال الله هي كبيرةٌ لكنّها لا تكون كبيرةً على الذين هدى الله، هؤلاء يتقبلون هذا الأمر ويذعنون إليه ويقولون سمعنا وأطعنا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ

﴿إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143]، لأنّكم قبلتم هذا الأمر وسلمتموه لله، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يضيع أجر من أحسن عملًا وتقبل هذا الأمر.

قال بعض المفسّرين إنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ نزلت فيمن مات قبل تحويل القبلة، فقال بعض من اعترض من السفهاء: ما حال من مات وقد صلّى إلى المسجد الأقصى؟ فما حاله؟

قال الله ردًّا عليهم: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ وفي هذا دلالةٌ على أنّ الإيمان يطلق على العمل وأنّ الأعمال داخلةٌ في الإيمان، قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 143]، الرأفة هي شدّة الرحمة، والرؤوف أشدّ من الرّحيم.

جمع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين هذين الاسمين مخاطبًا هذه الأمّة بأنّ الله رحم هذه الأمّة وجعلها تتوجه إلى المسجد الحرام وجعلها من خير الأمم، وثبتها وهداها لقبول هذا الأمر، كلّ ذلك رأفةٌ من الله ورحمةٌ بهذه الأمّة.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: 144]، كان النّبيّ ﷺ يتطلّع إلى أن تتغيّر هذه القبلة وإلى أن يتوجه إلى قبلة أبيه إبراهيم وهي المسجد الحرام، فكان كثير التردد وكان ينظر إلى السماء.

ويتأمّل وينتظر لعلّه أن ينزل الوحي باستقبال الكعبة، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي قد رأينا تقلب وجهك في السماء، والمراد بالوجه هو بصره ﷺ أنّه يرفع بصره للسماء، وإنّما قال الوجه اهتمامًا وزيادةً في هذا الأمر، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: 144]، أي نوجهك أنت ومن معك من المؤمنين إلى قبلةٍ تحبها أنت وترضاها وهي الكعبة، وهذا فيه تشريفٌ للرسول ﷺ وتكريمٌ.

بأنّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستجيب له ويسارع في رضاه ﷺ فصرح هنا بقوله: ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ أي ترضاها يا محمد وترضاها أمّتك، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تصريحًا بعد ذلك: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144]، أي توجه أنت ومعك في صلاتك إلى المسجد الحرام، وهذا دليلٌ على أنّ استقبال القبلة شرطٌ من شروط الصلاة وأنّها لا تصحّ بدونها، وفيه دلالةٌ على أنّ من التفت يمينًا أو شمالًا أو انحرف فإنّ صلاته لا تصحّ.

استقبال جهة الكعبة على قسمين:

- القسم الأول: استقبال عينٍ.
- القسم الثاني: استقبال توجهٍ، فاستقبال العين لا بدّ أن يستقبلها بعين الكعبة إذا كان أمام الكعبة، أمّا إذا كان خارجًا وبعيدًا عن الكعبة فيكفي أن يتوجه إلى شطرها وإلى جهتها، قال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ثمّ لمّا خاطب رسوله خاطب الأمّة فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 144]، أي في البرّ أو البحر أو في أيّ جهةٍ من جهات الأرض.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 144]، أي أهل الكتاب يعلمون أنّ تحويل القبلة حقٌّ من الله لأنّه مذكورٌ في كتبهم ومذكورٌ عندهم، ويعلمون ذلك.

وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ فالمؤمنون تكون هذه الآية لهم وعدٌ من الله أنّ الله لا يغفل عن أعمالهم، وهؤلاء أيضًا المخالفون لا يغفل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن أعمالهم فيجازيهم بما يستحقون، ففي الآية وعدٌ ووعيدٌ.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى مخاطبة هؤلاء المعترضين وخاصّة أهل الكتاب لأنّ الله قال: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ [البقرة: 145]، ولكن الوقت يضيق بنا فلعلّنا نقف عند

هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا وإيّاكم لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

(26)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم هو يوم الأربعاء الموافق الثالث عشر من شهر ذي القعدة من عام ١٤٤٢هـ، نجتمع حول القرآن الكريم، وهذا الدرس المعتاد في كل أسبوع بعد مغرب الأربعاء.

والآيات التي توقفنا عندها في لقائنا الماضي وهي آيات تحويل القبلة، وهو حدث عظيم حصل للنبي ﷺ وأصحابه، وبين الله موقف من عارض هذا الحدث ووصفهم بأنهم هم السفهاء، ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 142]، وأخبر بما سيقولون قبل وقوعه تطمينًا لنبينا ﷺ وتسلية له، وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كيف يرد ﷺ على هؤلاء السفهاء، كيف يرد على اعتراضاتهم.

وبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات السابقة أن النبي ﷺ كان يتحرى تحويل القبلة إلى الكعبة المشرفة، وأنه ينتظر ذلك بأن يؤمر بالتوجه إلى المسجد الحرام في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 144].

لا تزال الآيات وهي توجه للنبي ﷺ، ونلاحظ أن قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 144] تكررت ثلاث مرات؛ تأكيدًا على أن الله يأمر أمر وجوب إلى أن يتوجه النبي ﷺ وأتباع النبي ﷺ إلى قيام الساعة، وهم أهل القبلة يتوجهون إلى المسجد الحرام.

قال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144] وهذا كله في الصلاة، وبعضهم ذكر أن ذلك أيضًا يكون في الصلاة ويكون عند الذبح عند ذبح النسيكة أسو ذبح الأضحية فإنه يوجهها إلى القبلة، وكذلك عند دفن الميت وعند الاحتضار هناك مواضع ذكرها بعض أهل العلم، ولكن المتحتم والمتوجه هو أن الصلاة.

حتى ذكر بعضهم الدعاء أنه يستقبل القبلة عند الدعاء في مواضع ذكرها أهل العلم، ولكن المتوجب علينا والواجب علينا والذي يعد شرطًا في الصلاة وأن الصلاة لا تصح إلا به هو التوجه إلى المسجد الحرام، ولذلك كرره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات ثلاث مرات وكل موضع يتناسب مع ما يذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالموضع الأول لما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 144] رتب عليه موقف أهل الكتاب فقال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 144].

يعني أنت تتوجه وتؤمر بالتوجه في صلاتك بدلًا من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام والمؤمنون تبع لك في ذلك، وأهل الكتاب في كتابهم وفي علمهم يعلمون علم اليقين أن هذا هو الحق، وأن نبي الساعة محمدًا ﷺ سيتوجه إلى المسجد الحرام في صلاته وفي عبادته، وهم يعلمون ذلك وما الله بغافل عما يعملونه ويخططونه ضد الإسلام.

وتأتينا المواضع الأخرى التي كرر الله فيها في مواضعها، قال الله بعد ذلك: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 145].

وهذا الأسلوب حتى يكون النبي ﷺ على يقين بأن هؤلاء الذين اعترضوا وعاندوا لن يقبلوا، وأيضًا فيه أن النبي ﷺ لا يبالي بهم ولا ينتظر منهم أن يقبلوا ما يأمرهم به، فهم معاندون ومشاكسون ولا يريدون الحق.

ولذلك قال: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾ [البقرة: 145] واللام في قوله **"ولئن"** هذه يسميها أهل العربية **"اللام الموطئة للقسم"** يعني أن هناك قسمًا محذوفًا والتقدير والله لئن، والله لئن أتيت الذين أوتوا الكتاب اليهود والنصارى والمؤكد هنا هم اليهود الذين في المدينة.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ [البقرة: 145] وبكل حجة وجمعت لهم كل شيء ما تبعوا قبلتك، لا يمكن أن يتبعوا قبلتك؛ لماذا؟ لا يريدون الحق، هم يعرفون وقد قرأوا في كتبهم أن هذا هو الحق ولكنهم لا يريدون اتباع سيد المرسلين.

والله أخبر أيضًا قبل ذلك في آيات يعني توطئة وإرهاصًا في قوله: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120] فلا ينتظر الرسول ﷺ منهم أي قبول لاتباعه ﷺ.

قال الله بعد ذلك: ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ [البقرة: 145] ونلاحظ أن الجملة جملة اسمية: **"وما أنت"** جملة اسمية منفية بـ **"ما"**، ﴿وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ [البقرة: 145].

- ماذا تفيد الجملة الاسمية؟

تفيد الثبوت والاستقرار؛ يعني لا يمكن لك يا محمد أن يأتي يوم من الأيام وتؤمر باتباع قبلة هؤلاء لا يمكن، وما أنت مطلقًا بتابع قبلتهم. ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: 145] أي اليهود والنصارى وفرقهم بتابع قبلة بعض، لن يرضى بعضهم عن بعض وكل لا يريد الآخر لأنهم كلهم يتبعون الأهواء، يتبعون أهواءهم ولم يكن لهم دين صحيح.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ [البقرة: 145] ونلاحظ أن **"لئن"** جاءت مرة ثانية مرة أخرى وهي **"اللام الموطئة للقسم"**، والله لئن اتبعت أهواءهم، وسمى ما يريدونه أهواء ولم يقل دينهم؛ لأن الدين عندهم باطل، ليس عندهم دين انتهى دينهم بدعوة النبي ﷺ وبعثته.

قال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ [البقرة: 145] ولأنهم لا يريدون الصلاح أو الإصلاح وإنما يريدون الإفساد؛ ولذلك سمى ما يطالبون به أهواء، قال: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 145] يعني جاءك الوحي وجاءك الحق ثم اتبعت أهواءهم.

- ما النتيجة؟

قال: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 145].

ونلاحظ كلمة **"إذن"**، **"إذًا"** هنا جيء بها حتى ينضبط الكلام؛ لأنه لو قال **"إنك لمن الظالمين"** لآذن ذلك أنه من الظالمين دائمًا، لكن لما قال ﴿إِنَّكَ إِذًا﴾ [البقرة: 145] يعني إذًا في هذه الحال، في هذا الوقت وفي هذه الحال إن اتبعتهم واتبعت أهواءهم فالحال أنك دخلت في جملة الظالمين.

وإن كان هذا الخطاب ننتبه، وإن كان هذا الخطاب موجهًا للرسول ﷺ فالمراد غيره، وحاشاه ﷺ أن يتبع أهواءهم ولا في لحظة، وإنما يخاطب النبي ﷺ تأكيدًا للأمر وبيان خطورته وإن كان المراد أمته.

وهذا لابد أن نعرف هذا عند علماء الأصول أن خطابات النبي ﷺ قد تكون خطابات للرسول خاصة في القرآن كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67]، وقد تكون خطابات للرسول ولأمته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: 78].

وقد يكون الخطاب موجهًا للرسول والمراد أمته كقوله تعالى هنا: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ [البقرة: 145] والرسول حاشاه أن يتبع أهواءهم، ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: 94] يستحيل أن يشك الرسول ﷺ في الوحي؛ فهذا معنى هذا المراد به تأكيد خطورة هذا الأمر وشناعته أن يقع من الرسول أو يقع من المؤمنين أن يتبعوا أهواء هؤلاء، ولو فرضًا حصل ذلك كان المتبع واقعًا في جملة الظالمين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك في بيان حقيقة هؤلاء أهل الكتاب: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146] وهم اليهود والنصارى آتاهم الله العلم وأنزل عليهم الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل.

قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ [البقرة: 146] يعرفون النبي ﷺ ويعرفون دعوته ويعرفون الكتاب الذي أنزل إليه، ويعرفون أنه سيؤمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بعدما كان يتوجه للمسجد الأقصى، كل ذلك عندهم به علم، ويعرفون حقيقة الرسول وأوصافه وأخلاقه، كل ذلك لا يخفى عليهم كما يعرفون أبناءهم لا يخفى عليهم، فمعرفتهم بمحمد معرفة لا يشك فيها أحد منهم.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 146] وليس الجميع، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ [البقرة: 146] يخفون الحق، يخفون دعوة الرسول ويخفون أوصافه، ويخفون ما جاء في القرآن مما هو متقرر عندهم في التوراة، ويخفون تحويل القبلة، كل ذلك يكتمون الحق، والحال أنهم يعلمون ذلك الشيء، يعلمون أنهم يعرفونه وأنهم يكتمون الحق.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ردًا عليهم: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: 147]. الحق الذي يكتمونه والذي أمرت به والذي أظهره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لك هو الحق من ربك، وفي هذا دعوة للرسول ﷺ أن يكون في جانب القوة وأن يظهر قوته أمامهم، وأن ما جاءه هو الحق لا مرية فيه، وأن ما هم عليه هو الباطل.

وإذا كان الحق قد جاء من الله، ولاحظ أنه قال: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة: 147] لأنه قد أوحي إليه، فهذا الحق من الله ليس من أحد من المخلوقين وإنما هو قد جاء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: 147] يعني لا يريبك شك ولا ريبة، لا تكن من الممترين، وهذا مثل ما ذكرنا، وإن كان هذا الكلام موجهًا للرسول فإن المراد غيره؛ لأن الرسول ﷺ لا يمكن أن يكون من الشاكين لا يمكن أبدًا.

قال الله سبحانه بعد ذلك: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 148]. كل دين وكل أصحاب دين وكل أصحاب شرائع سابقة من الأمم الماضية من اليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب الأديان، كل له دين وكل له ملة وكل له وجهة يتوجه إليها في عبادته.

وهذا رد أيضًا من الردود على تحويل القبلة أنه أمر غير مستنكر؛ يعني إذا كان النصارى يصلون إلى المشرق واليهود يصلون إلى بيت المقدس وغيرهم يصلي إلى كذا أو كذا والمسلمون

يصلون إلى المسجد الحرام ما الإشكال؟ ما في إشكال، ما في شيء يحتاج إلى صعوبة، كل دين وكل ملة تتوجه.

- أين هي العبرة؟

العبرة في المسابقة إلى الخيرات والمبادرة إلى فعل الطاعات والاستجابة إلى أوامر الله والانقياد والاستسلام لله، هذه هي العبرة؛ ولذلك قال بعدها ﴿فَاسْتَبِقُوا﴾ وجاء بالفاء الدالة على السرعة، قال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: 148].

والاستباق والمسابقة والمسارعة تدل على سرعة الاستجابة، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: 148] يعني بادروا بفعل الخيرات. ولهذا استنبط بعض أهل العلم من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: 148] أنه يستحب للإنسان أن يتعجل في تحقيق ما يأمره الله.

كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: 84] فإن رضا الله في المسابقة والتعجل، ولذلك استحب بعض أهل العلم الصلاة في أول وقتها عند دخول وقتها إلا أن يكون هناك أسباب أخرى، وقضاء الصيام وقضاء إخراج الزكاة والحج المبادرة للحج، كل هذه ينبغي للإنسان أن يبادر وأن يسارع وألا يتردد أو يتأخر لغير عذر.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أيها المتوجهون لكل قبلة المطلوب منكم المسابقة للخيرات فإنكم ستعودون إلى ربكم. قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 148] يعني أينما كنتم وفي أي أرض عشتم ومتم فإن مرجعكم إلى الله، وأنكم ستعودون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يعجزه أن يحشر الناس في لحظة قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 148] لا يعجزه، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 53] بمجرد الصيحة الواحدة كلهم قد اجتمعوا؛ فلا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يجمعهم في صعيد واحد ويحاسبهم في صعيد واحد في لحظة وهو سريع الحساب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تأكيد التوجه إلى المسجد الحرام: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 149].

قال: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ في سفر أو في غير سفر، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ جهة المسجد الحرام، ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة: 149]. هذه المرة الثانية أمر الله سبحانه وكرر عليه مرة أخرى أنه متى خرج فإنه يتوجه إلى المسجد الحرام في عبادته وفي صلاته.

قال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة: 149] أي هذا التوجيه حق من ربك، وعلى المسلمين أن يتقبلوا، وعلى هؤلاء من اليهود والنصارى وأهل الكتاب والمعترضين أن يتيقنوا أن هذا هو الحق، وإذا كان هو الحق ولابد أن يظهره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا الحق الذي أمرت به، وهذا يدل على أو يفهم منه أن الله أراد من نبيه أن يظهر لهم الحق وأن يبين لهم حقيقة هذا الأمر أنه الحق من ربك. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 149] الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غير غافل ولا ساهٍ عما يعمله الطرفان من المؤمنين وغيرهم ما يغفل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيجازي المحسن بإحسانه ويجازي المسيء على إساءته؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يغفل عن ذلك، مطلع على جميع أحوال النبي ﷺ وأحوال أتباعه المؤمنين وأحوال من خالفهم، كل ذلك مطلع عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غير غافل عنهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الموضع الثالث، وهذا التكرار الثالث: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 150].

- قد يأتي سائل ويقول: يكفي مرة؟

الجواب: لا، المرة الأولى رتب عليه موقف أهل الكتاب أنهم يعلمون أنه الحق، والموضع الثاني رتب عليه خطاب الرسول بأنه هذا هو الحق ولابد أن يظهر، وهنا لما قال ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 150] قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: 150].

يقول لابد أن يظهر وأن لا يكون للناس عليكم أي حجة يحتجون بها عليكم إذا بينتم لهم ذلك وعرفوا ذلك الحق.

قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي فاستقبالكم هذه القبلة قامت الحجة عليها، قامت الحجة على إظهارها وقامت الحجة على من خالفكم من أهل الكتاب والمشركين وانقطعت بهم الحجج، ليس عندهم دليل.

قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ حتى لا يبقى لهم حجة يحتجون بها عليكم.

ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: 150] أي لكن الذين ظلموا فإنهم يحتجون بحجج واهية، لكن الناس قد ظهر لهم الأمر فلا حجة لهم، يعني ليس لهم حجة قاطعة أو حجة صحيحة بل مجرد شبهات.

ولذلك قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ الذين ظلموا هم الذين يأتون بالشبهات وهم الذين يثيرون البلبلة ويثيرون الجدال بغير حق ولا يريدون الحق، وإنما يريدون أن يثيروا الفتن بين المسلمين، هؤلاء هم.

- ماذا قال للمؤمنين؟

قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: 150] لا تخشوا هؤلاء لأن حججهم باطلة وليس عندهم أصلاً حجج، وما احتجوا به كلها باطلة لا يلتفت إليها؛ فلا تلتفتوا إليهم ولا تخافوهم، ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ أنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يعني الذي يخشى في الحقيقة هو الله، والذي ينبغي أن تظهر خشيته من المؤمنين هو خشية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فاخشوا الله ولا تخشوا الناس، ولا تترددوا في إظهار الحق بل خافوا الله الذي أمركم بذلك وامتثلوا أمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تحويل هذه القبلة والتوجه للمسجد الحرام: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 150]. أي هذه من نعم الله أن جعلكم تستقلون بقبلة خاصة بكم أيها المسلمون ولا تكونوا تبعًا لغيركم، فهذه من أجل النعم التي بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه قد أتم عليهم نعمته، أكمل لهم الدين وأتم عليهم النعمة، ومن أعظم النعم هو نعمة الإسلام ونعمة الصلاة ونعمة العزة للإسلام والمسلمين.

قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يعني أتم النعمة عليكم أيها المؤمنون وتعرفون الهداية، لأن من أجل النعم وأعظمها أن يهتدي المهتدون إلى شرع الله وأن يتمسك المتمسكون بأوامر الله ويمتثل أمره، فهذه من أعظم النعم التي تحتاج منا أن نشكر الله أن جعلنا في عز في الإسلام ولم نكن تبعًا لليهود ولا للنصارى، وإنما هم تبع لنا.

ولذلك قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ هذه من أعظم النعم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق وتتبعون الحق.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151].

يقول: كما أرسلنا إليكم هذا الرسول وبعثناه فيكم وكنتم في ضلال وفي جهل ولا تعرفون الطريق إلى الله، ثم أرسل إليكم هذا الرسول الذي يعلمكم العلم؛ فمثل هذه الهداية قد هداكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى قبول تحويل القبلة واتباعها والثبات عليها، هذا معنى **"كما"** التي هي للتشبيه.

فأرسل الله لنا خير رسله حبيبنا محمد ﷺ قال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ وهو محمد ﷺ، ﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ تعرفونه ويعرفكم ويتكلم بلغتكم، ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ أي القرآن، يقرؤه ويعلمهم أحكامه، ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾.

ونلاحظ أنه لم يقل **"يقرأ عليكم"** لأن هناك فرقًا كبيرًا بين **"يتلو"** و **"يقرأ"**؛ فالذي يقرأ بلسانه، والذي يتلو يقرأ القرآن بلسانه ويبين ما فيه من أحكام ويتبع ما جاءه، والرسول يتبع والمؤمنون يتبعون، **"يتلو"** من **"التلو"** وهو الاتباع.

قال: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ وهي القرآن، ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ الرسول ﷺ والشريعة تزكيكم، والله يزكيكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويطهركم من الذنوب والمعاصي، ويطهر أيضًا أخلاقكم بالتربية إلى أحسن الأخلاق، ويطهركم من الشرك والبدع والمعاصي بالطاعة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي القرآن والسنة أو القرآن وأسرار الشريعة، يعلمكم الله أحكامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم قال عطفًا على هذه الأمور المذكورة: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ أي لم تكونوا تعلمونه قبل بعثة الرسول ﷺ، يعلمكم العلوم التي لا حد لها، والقرآن قد جمع الله فيه علم الأولين والآخرين، وجمع فيه علم الدنيا والدين، وجمع فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علم الدنيا والآخرة، فيعلمنا في هذا القرآن ما لم يخطر ببالنا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]. أي أكثروا من ذكري، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر أن يذكر وأن يكثر من ذكره، وذكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القلب، وذكره في اللسان بالتهليل والتحميد والتسبيح، والقلب بالاعتراف بنعمه، وباللسان بالتحميد والتسبيح والتهليل، وذكره بالجوارح بالعمل بطاعته والبعد عن معاصيه.

﴿فَاذْكُرُونِي﴾ وأظهروا عبادتي، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ يعني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجازي بالأحسن؛ فإذا ذكرناه وعبدناه حق العبادة فإنه يجازينا أحسن الجزاء.

☜وفي الحديث: **«مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»** فلا بد من إظهار ذكر الله بالطاعات.

قال: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152] اشكروا نعمة الله على ما أنعم عليكم بهذا الدين وهذه الرسالة وببعثة محمد ورسالة محمد لكم ﷺ الذي هو أشفق وأرحم الخلق بكم، واحمدوه على أن يسر لكم قبول هذا الدين، واشكروه على أن جعلكم تتوجهون إلى خير الجهات وهي المسجد الحرام؛ فهذا كله يحتاج منا أن نشكر الله ولا نكفره، نشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه النعم ولا نجحد أو نكفر أو نقصر في شكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والله يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]. أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا وإياكم من الذاكرين له ومن الشاكرين لنعمه، وأن يجعلنا وإياكم موفقين لكل خير، لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء الذي بعده نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(27)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، ولقاؤنا أيها الإخوة بعد مغربي يوم الأربعاء في كل أسبوع نجتمع في هذا المقام ونتناول آيات من القرآن الكريم نقرؤها ونتدبرها ونقف عند معانيها ودلالاتها وأحكامها.

في لقائنا الماضي كانت الآيات تتحدث عن تحويل القبلة وهو حدث عظيم حدث للمسلمين، بعدما هاجر النبي ﷺ كان يصلي إلى المسجد الأقصى، ثم بعدما مضى ما يقرب من سنة ونصف من الزمن أو من فترته في المدينة أمر بالصلاة والتوجه إلى المسجد إلى المسجد الحرام فتحولت القبلة، حتى جاء في بعض الأحاديث أنها كانت في صلاة الفجر وأن النبي ﷺ صلى الفجر إلى جهة المسجد الحرام.

وانطلق بعض الصحابة إلى بعض أحياء المدينة مثل قباء وديار بني سلمة وأخبروا أنها قد تحولت القبلة، وحتى في بعض المساجد أن الناس كانوا يصلون الظهر يصلون الفجر أو يصلون العصر فجاء الخبر قال الصحابي: **«أُقْسِمُ بِاللهِ إِنِّي صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَصَلَّى جِهَةَ مَكَّةَ إِلَى الْكَعْبَةِ»**، فانحرفوا وهم في صلاتهم انحرفوا وهم في صلاتهم قبل أن يقضوا صلاتهم فتوجهوا.

من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، هذا الحدث العظيم جاء حوله كلام من أعداء الإسلام كاليهود والمنافقين والمشركين وأحدثوا بلبلة حول المسلمين؛ كيف يتوجه جهة المسجد الأقصى وهي من قبلة الأنبياء السابقين ثم يترك وهو يقول إنني أقتدي بالأنبياء السابقين إلى آخر ذلك؟

فأخبر الله بالخبر في تحويل القبلة بأن هؤلاء سيحدثون مثل هذا الكلام وصفهم بأنهم سفهاء ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 142].

- لماذا تغيرت القبلة عندهم ماذا غيروها التي كانوا عليها؟

فقال الله رداً عليهم: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 142]، هذا الحدث يحتاج منا ويحتاج من المسلمين إلى تحمل وإلى ثبات وإلى صبر، ولذلك في آخر الحديث عن تحويل القبلة جاء الأمر الصريح للمسلمين والمؤمنين أن يستعينوا بالله وأن يستعينوا بالصبر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية الثالثة والخمسين بعد المئة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153]، فيه إرشاد من الله على أن مثل هذه الأمور وهذه البلايا، وقد تحدث بلايا أعظم من هذه، إنها تحتاج للمسلم أن يستعين.

- ومعنى الاستعانة طلب العون على هذا الأمر، كيف تتخلص من هذه المحنة؟

قال بالصبر وهو حبس النفس والتحمل، ويستعين أيضاً بالصلاة، يستعين على قضاء حوائجه المتعلقة سواء كانت بالدنيا أو بالآخرة، وإن كانت قضايا ليست ذات أهمية فإنها أحياناً تحتاج إلى صبر وتحتاج إلى مثل هذه الأمور حتى يصبر وحتى تنقلب المحن تنقلب إلى منح، ولذلك أمر الله أن يستعين بالصبر ويستعين بالصلاة.

- كيف يستعين بالصلاة؟

يستعين بالصلاة أنه إذا حصل مثل هذه الأمور والمصائب أنه يفزع إلى الصلاة.

فإن النبي ﷺ: **«كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ»**، وابن عباس رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه لما أخبر بوفاة أخيه قام وصلى، فالإنسان إذا حزبه أمره اشتد عليه أمر وانغلقت الأمور أمامه فعليه أن يتوضأ ويصلي فتنفرد الأمور بإذن الله؛ لأن الله قال هنا: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 153]، ولاحظ إذاً لما تقرأ هذه الآية وتقرأ آية قبلها كان الله يخاطب بها اليهود يقول: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: 45].

- لماذا قال هناك وإنها لكبيرة هنا لم يقل؟

لأن اليهود أضعف من المؤمنين، المؤمنين أقوى إيماناً فإذا قيل لهم.

﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّلَاةِ﴾ استعانوا بالصلاة ولأن عندهم الهمة العالية أقوى من همم هؤلاء اليهود، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 153]، فمما يساعد المسلم على يعني حل مثل هذه الأمور الصعبة ومثل تفريج هذه الكرب أنه يستعين بالصبر ويتحمل.

وإذا جاءه خبر أو جاءته صدمة أو نحو ذلك فإن عليه أن يتصبر، ومن يتصبر يصبره الله، ويستعين بالصلاة يفزع إلى الصلاة ويصلي، يصلي صلاة يعلم أنه يقف بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خاشعاً متذللاً منكسراً، يستحضر صلاته ويخشع فيها ويسأل الله فيها أن يفرج عنه، تجد أثر ذلك تجد أثر ذلك.

ولاحظ أن الله قال في آخر الآية لما قال: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153]، فمعية عظيمة هذه المعية، معية خاصة معية التأييد ومعية الإعانة ومعية الهداية لك؛ أن الله يعينك ويؤيدك ويهديك إذا استعنت بالصبر والصلاة، وليس معنى أنك تستعين بالصبر والصلاة أن هذا يتعارض مع أنك تستعين بالله؛ لأن الصبر أمر الله به والصلاة أمر الله بها.

فكل هذه الأمور متعلقة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فاستعانتك بالصبر استعانتك بالصلاة استعانة لله في أصلها، قال الله بعدها: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 154].

لما أمر الله بالصبر أعظم المواقف العصيبة التي تحتاج فعلاً إلى صبر وتحتاج إلى أن يقف المسلم موقف الصابرين ويستعين بالله ويستعين بالصلاة مثل فقد يعني مثل الجهاد في سبيل الله والقتل في سبيل الله والاستشهاد في سبيل الله، هذه كلها تحتاج إلى شيء من الصبر حتى يقف المسلم مجاهداً في سبيل الله، أو على الأقل إذا جاءه خبر استشهاد أو نحو ذلك أنه يكون متصبراً صابراً محتسباً.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾ [البقرة: 154].

لماذا يقول لا تقولوا إنهم أموات؟

الذي يستشهد في سبيل الله ما يقال إنه ميت قال لا بل: ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ 169 فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ 170 يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 169-171]، فأرواح الشهداء.

كما جاء في الحديث قال: **«فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ مِنَ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا»** وتأكل في الجنة وتأكل من ثمارها في الجنة، وهذا يدل على أن هؤلاء كما أخبر الله كما

قال هنا قال: ﴿لَا تَقُولُوا أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 154] بأنهم أحياء لا تشعرون؛ لأن هذا أمر غيبي لا تستحضرونه أنتم أمامكم.

لما ذكر هذا الأمر العظيم الذي يحتاج إلى صبر ذكر أيضاً ألواناً من المصائب التي تلم بالناس ولا قد لا يسلم منها أحد، هذه المصائب قد يعني يندر من يسلم منها وهي تمر كل إنسان ولكن المؤمن يسلم الأمر لله ويصبر ويحتسب الأجر، بخلاف غيره ممن يتسخط ويعترض.

ولذلك قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [البقرة: 155]، و"اللام" هنا للقسم أي والله لنبلونكم يعني نمتحنكم امتحانات وهذا كل إنسان خطاب لكل إنسان سيمتحنه الله قال: ﴿نَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: 155]، يعني قد يصاب الإنسان بخوف.

- ولاحظ أن الله ماذا يقول؟

يقول بشيء قليل لو أصابه الخوف كله لهلك لو أصابه الجوع كله لهلك، لكن الله قال بشيء قليل يمتحن بشيء يعني خوف قليل؛ إما أن يخاف من عدو أو يخاف من سبع أو يخاف من مرض أو نحوه، فقد يصاب بمثل هذه الأشياء.

- فإذا أصيب بشيء من الخوف ماذا سيكون موقفه؟

الصبر ولذلك قال: ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة: 155]، قد يصاب بشيء من الجوع بسبب فقر أو عدم تحصل شيء من الطعام أو نحوه، قال: ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ﴾ [البقرة: 155] بحيث إن الأموال تنقص عنده تقل عنده أو ترتفع الأسعار أو نحو ذلك، ﴿وَنَقْصٍ أَيْضًا مِنَ الْأَنْفُسِ﴾ [البقرة: 155] إما بهلاك بعض الأنفس كفقد الأحباب أو بإصابة الأمراض هذه مصيبة، ﴿وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: 155] بأن تقل الثمرات وإذا قلت ارتفعت أسعارها.

- كل ذلك ابتلاء من الله يصاب به الإنسان، فماذا منهج المؤمن وما الذي أرشد الله له في هذا؟

قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 155]. بشر الصابرين يبشرهم بعظم الأجور عنده: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]. بشر الصابرين أنهم إذا أصيبوا مثل هذه الأمور أن يحتسبوا الأجر وأن يصبروا وأن يحبسوا أنفسهم، قال: ﴿بَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ في أي حال؟

قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ [البقرة: 156]، أي مصيبة عظمت أو قلت خفيفة أو عظيمة إذا أصابت مصيبة ما موقفه ما الطريق والمنهج الذي يسلكه المسلم ويربي نفسه ويربي من تحته هو ما أرشد الله إليه قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: 156].

- هذه الكلمة ما معناها التي يرددها كثير من الناس؟

يعني **"إنا لله"** يعني أنت ملك لله تتصرف فيك كيف يشاء سبحانه، و**"إليه راجعون"** أنك سترجع إلى الله مهما عشت في هذه الحياة رجوعك إلى الله، فأنت ملك لله والله يقدر عليك ما يشاء ولا يقدر إلا بحكمة وسترجع إليه، فإذا قلت مثل هذه الكلمة هذه الكلمة ما نتيجتها لما تصاب بمثل هذه المصيبة؟ واعلم أن قولك إنا لله وإنا إليه راجعون في كل مصيبة في كل مصيبة وإن كانت المصير من المصائب التي لا يلتفت إليها.

☜فإن النبي ﷺ انقطع قد شسع نعله فقال: **«إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»**، ومرة كان عند عائشة فانطفأ السراج فلما انطفأ السراج قال: **«إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»**، فقالت عائشة تقول هذا يعني كأنها تستقل هذه المصيبة فقال: **«مَا يُصَابُ الْمُؤْمِنُ بِمُصِيبَةٍ فَيَقُولُ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ إِلَّا أَجَرَّهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ وَخَلَفَ اللهُ عَلَيْهِ خَيْرًا مِنْهَا»**، فالإنسان دائماً حتى إذا حصل أي موقف فإنه يحاول أن يردد هذه الكلمة إنا لله وإنا إليه راجعون.

- ما أثر هذا التعليم وهذا الأدب وهذا الخلق وهذا الذي الإرشاد الذي أرشد الله له ما أثره؟

قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ [البقرة: 157]، أي من يسلك هذا المسلك يصبر ويسلم الأمر لله ويرضى ويقول إنا لله وإنا راجعون، ما النتيجة؟ ولا ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ﴾ [البقرة: 157]، صلوات من ربهم ليست صلوات واحدة صلوات من ربهم.

ما هي الصلاة من الله؟ كيف يصلي الله كيف يصلي عليك؟ كيف إذا قلت عند المصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون وصبرت واحتسبت الأجر ورضيت يصلي الله عليك كيف؟

"قالوا صلوات الله هو ثناؤه عليك في الملأ الأعلى بأن يثني عليك ويمدحك في الملأ الأعلى عند الملائكة"، هذا معنى صلاة الله على العبد قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 157].

﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بمعنى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينزل عليك الرحمة عند المصيبة فتنفرج الكربة فتسهل عليك الأمور وتكون هذه المحنة منحة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأجر لك، لو لم تحصل هذه لفقدت هذا الأجر لكنك صبرت وأُجرت على هذا الشيء، ولذلك تلاحظ من يسخط ويعترض هو فقد هذا الشيء وفقد الأجر، لكنك أنت فقدت هذا الشيء لكن لم تفقد أجره ففرق كبير بينك وبين غيرك.

فلذلك قال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 157]، الذين هداهم الله فاهتدوا بسلوك هذا المنهج وتأدبوا بآداب الله واستهدوا بهديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أرشدهم لهذا الشيء.

ولذلك يقول بعض أهل العلم: **"قوله إنا لله وإنا إليه راجعون خصائص هذه الأمة ومما أعطى الله هذه الأمة"**، ولذلك يقولون إن يعقوب لم يقلها لأنه لم يعطاها وإنما لما أصيب بمصيبة قال لما قال: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18].

قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18]. أما هذه الأمة فأعطيت هذه الجملة العظيمة في معانيها وفي آثارها، فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا وأن يهدينا وأن يجعلنا وإياكم ممن يقرأ القرآن يتدبر معانيه ويوفق له والله أعلم، نلتقي إن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله ونستكمل ما توقفنا عنده من هذه الآيات والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه جزاك الله.

(28)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام؛ سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ لقاء الأربعاء مع تفسير القرآن العظيم، نجتمع في هذا المقام المبارك في بيت من بيوت الله، وهذا الاجتماع تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة، والله جل جلاله يذكر من يحضر هذه المجالس في الملأ، في الملأ الأعلى عنده بالذكر الحسن، وهو مجلس مبارك.

☜ وعلى ذكر هذه المجالس المباركة؛ أن النبي ﷺ قال مرة لأصحابه: **«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْعَقِيقِ أَوْ إِلَى بُطْحَانَ»**، مكان قريب من المدينة **«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى الْعَقِيقِ أَوْ إِلَى بُطْحَانَ وَيَحْصُلَ عَلَى نَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ»** يعني سمينتين طيبتين.

قالوا: يا رسول الله؛ لا يعجز أحد منا أن يذهب ويحصل على اثنتين. قال: **«يَذْهَبُ إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتَعَلَّمُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ مِنْ أَرْبَعٍ»** وهكذا، فمثل هذه المجالس المباركة تجد الإنسان عندما يحضر مثل هذه المجالس وينفض المجلس؛ تجد الراحة النفسية والطمأنينة لسماعه لكلام الله جل جلاله.

هذا كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أشرف الكلام على الإطلاق، لا نطيل؛ الآيات التي بين أيدينا هي آيات من سورة البقرة، وهي الآية الثامنة والخمسون بعد المئة من هذه السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158].

لو نقرأ هذه الآية، وقبل أن تقرأها؛ ترجع قليلاً إلى الآيات السابقة؛ تجد أن الآيات التي مضت كانت تتحدث عن المسجد الحرام، وأن الله جعل المسجد الحرام قبلة المسلمين في كل مكان، وعظم هذا المسجد وشرفه، فلما شرفه وعظمه بهذا التعظيم؛ ذكر ما هو من الأعمال المتعلقة بمن يأتي إلى هذا البيت حاجاً أو معتمراً.

ومن الأعمال التي يعملها؛ الطواف أو السعي بين الصفا والمروة. والله أخبر في هذه الآية أن الصفا والمروة من شعائر الله، وقال في موضع آخر: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32]. فتعظيمك لشعائر الله قد يغيب عن كثير من الناس؛ يذهب إلى الصفا ويصعد الصفا وينزل المروة ويرجع، ما يستشعر أن هذا تعظيم، تعظيم لشعائر الله، وأن هذا أمر أمرك الله به، ولا يتم الحج أو العمرة إلا بأن تأتي لهذا المكان وتسعى بين الصفا والمروة.

- ما هو الصفا وما هي المروة؟

الجواب: الصفا هو الجبل المعروف للخارج من البيت متجهاً إلى السعي، أول ما يقابله الصفا؛ وهو جبل أملس، سمي صفاً لصفائه وملاسته.

ثم إذا نزلت منه فإنك تتوجه إلى المروة. المروة أيضاً جبل وهو أصغر، سمي مروة من **"المرو"**، والمرو حجارة صغيرة؛ قيل هي الحجارة البيضاء أو الحجارة السوداء، وهو معروف لا يحتاج إلى تعريف.

إذا بدأت؛ تبدأ بالصفا كما بدأ الله، والنبي ﷺ لما رقى الصفا قال: **"نبدأ بما بدأ الله به"**؛ ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 158]. فنبدأ بالصفا إلى أن تصل المروة، هذا يعد شوطاً واحداً، ثم تستمر إلى سبعة أشواط.

الصفا والمروة من شعائر الله وهي عبادة، لكنها ليست عبادة مستقلة؛ يعني الآن لو تذهب إلى مكة وإلى الكعبة تطوف أي وقت، هذه عبادة مستقلة تتقرب بها إلى الله.

لكن ما تذهب إلى الصفا تقول أنا أريد أن أسعى؛ إلا إذا كانت مرتبطة بحج أو عمرة؛ مثل الوقوف بعرفة أو المبيت بمزدلفة أو رمي الجمار- هذه ما تذهب إليها في أي وقت ولا يسن لك، بل بدعة لو تذهب إلى أن ترمي في غير الحج أو غير حاج؛ حتى لو أنت غير حاج في أيام الحج والناس يرمون ما ترمي لأنك أنت غير متلبس بالحج، فهي شعيرة متعلقة بعبادة.

فمن فعل ذلك فقد ابتدع في دين الله لو ذهب ووقف في عرفة أو مزدلفة أو طاف بين الصفا والمروة من غير أن يكون حاجاً أو معتمراً؛ نقول هذه كلها لا تجوز، بدعة.

هي مرتبطة بعبادة معينة، ولذلك قال: ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ﴾ [البقرة: 158]، أما من لم يحج ولا يعتمر فلا. يقول: **"من شعائر الله"**، فمن حج البيت جاء البيت حاجاً أو معتمراً ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: 158]؛ لا حرج عليه أن يطوف بين الصفا والمروة.

- لماذا لا حرج؟ لماذا لم يكن واجباً؟

هو ركن؛ الطواف أو السعي، السعي ركن من أركان الحج، لو لم يحج الإنسان ثم لا يطوف بين الصفا والمروة أو لا يسعى بينهما لم يتم الحج، وكذلك العمرة لو طاف وحلق تقول لا بد أن تسعى.

- لماذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ [البقرة: 158] يعني لا حرج؟

الجواب: هذا لابد أن القرآن الكريم والآيات القرآنية لابد أن نرجع فيها إلى أهل العلم، ونرجع فيها إلى كتب التفاسير، تجد هذه الآية لها سبب نزول، وسبب النزول يكشف لك لماذا قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ [البقرة: 158].

الصفا والمروة كان عليها أصنام لقريش، ولما أسلم من أسلم وجاء النبي ﷺ في عمرة القضاء يطوف، جاء للعمرة طاف بالبيت ثم الصحابة لما رأوا هذه الأصنام على الصفا والمروة تحرجوا أن يطوفوا أو يسعوا بين الصفا والمروة وعليها أصنام.

وخاصة أن الصفا والمروة خارج البيت بعيداً؛ فهم يخرجون من المسجد الحرام ويتوجهون إلى الصفا والمروة، فظنوا أن هذه فيها حرج عليهم أن يطوفوا بين الصفا والمروة وفيها أصنام.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هي من شعائر الله، فأقيموا شعيرة الله، ولا حرج أن تطوف ولو كان عليها هذه الأصنام، فقال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: 158]؛ أن يطوف بين الصفا والمروة. ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158].

- ما معنى "من تطوع خيراً"؟

التطوع هو مأخوذ من الطاعة؛ أي من تزود في طاعاته خيراً فإن الله شاكر عليم، وهذه الكلمة ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [البقرة: 158] عامة؛ يدخل فيها التطوع في الحج والتطوع في العمرة والتطوع في الصلوات والعبادات؛ جميع العبادات، كل من تطوع خيراً فإن الله يجازيه أكثر وأكثر.

وكلمة ﴿خَيْرًا﴾ [البقرة: 158] أي أن من تطوع وليس بتطوع خيراً؛ كأن يتطوع بأعمال غير مشروعة كالبدع وغيرها؛ فإن الله لا يقبل منه، لابد أن يكون تطوعك تطوعاً على ما شرع الله؛ في عباداتك، في صلاتك، في أعمالك، في صدقتك، في جميع أنواع العبادات والطاعات، ولذلك الله أتى بهذه الجملة ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [البقرة: 158].

وأيضاً هي مرتبطة بالحج والعمرة؛ لأن الحج أعمال كثيرة والعمرة أعمال كثيرة، وفيها شيء يتعلق بالقلب كالخشوع، وفيها شيء يتعلق باللسان كالذكر كالتلبية والتهليل والتكبير والتسبيح، وفيها شيء يتعلق بالبدن كطواف وسعي ووقوف.

فلذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذه كلها عبادات: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158]. ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158]؛ **"شاكر"** و**"عليم"**، لم يأت بأي اسم من أسماء الله فيه العزيز الحكيم الرحيم الرؤوف، لكن كلمة **"شاكر"** هي المناسبة، لماذا؟

لأنك أنت إذا قدمت أعمالاً صالحة فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجازيك بأكثر وأكثر، فهذا معنى الشاكر.

- من هو الشاكر؟

الذي أنت إذا صنعت إليه معروفاً يرد لك بأكثر وأكثر، فتقول هذا يشكر المعروف، فهذا معناه، فكلمة **"شاكر"** وهي اسم من أسماء الله العزيز سبحانه، هذا الاسم الشاكر لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا أنت فعلت ولو شيئاً قليلاً من الأعمال التي ترضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإن الله يجازيك عليها أكثر وأكثر.

☜وتعرفون الحديث المعروف عن النبي ﷺ، أن النبي قال: **«وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»**. يعني الله يعطيك أكثر، فأنت إذا فعلت شيئاً قليلاً فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطي على القليل الكثير؛ فهذا معنى ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158].

ولاحظ أن كلمة اسم **"عليم"** هذا أيضاً أن الله عليم بذات الصدور، وعليم بالنيات، وعليم بما يفعله الناس؛ عليم، فإنك أنت إذا صدقت النية، صدقت نيتك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعملت هذا العمل لله؛ فإن الله يعلم بما في نفسك ويجازيك بما هو خير، فهذا معناه.

يعني ليس معناه شاكر؛ لو قال شاكر قد يعطي الشيء من غير علم، فلما قال ﴿شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158] عرفنا أن الله يجازي عن علم سابق سبحانه.

لاحظ بعد هذه الآيات ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: 159]. دائماً حتى نتدبر الآيات ونفهمها لازم تشوف الآيات موضوعاتها والآيات التي قبلها والآيات التي بعدها؛ هذه تعينك على فهم الآيات.

يعني لو جاءك واحد قال لك مثلاً قصة عاد ونبيهم هود جاءت بعد مثلاً قصة نوح وبعدها قصة صالح؛ نقول هذا ترتيب زمني لأن نوح أول ثم هود ثم صالح، إذاً القرآن يراعي هذه الأشياء.

هنا يأتيك واحد يقول لك طيب؛ الله يتكلم عن الصفا والمروة وهذه العبادة والحج والعمرة ثم يأتي يقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا﴾ [البقرة: 159].

- ما علاقة هذا بكتمان العلم وكذا؟

الجواب: ارجع للآيات، الآيات التي في تحويل القبلة، هذا التحويل؛ تحويل القبلة، وأن النبي ﷺ سيتوجه من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، هذا الكلام وهذا الحدث ذكره الله في التوراة.

ذكره الله في التوراة، واليهود وعلماء اليهود يعلمون هذا، يعلمونه كما يعرفون أبناءهم بل يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكنهم أخفوا هذا الخبر وأخفوا هذا العلم ولم يظهروه حسداً وبغياً منهم.

فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يذكر هذه الأمة وعلماء هذه الأمة ألا يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء؛ هؤلاء الأحبار اليهود وقعوا في هذا، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: احذروا يا أمة محمد أن الذي يكتم ما أنزل الله من البينات أي من الحجج والأدلة الواضحة والهدى والعلم يكتم العلم من بعد ما بيناه للناس، بينه الله في القرآن وبينه في شريعة في سنة الرسول ﷺ، يكتمه عن الناس ويكتم العلم.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 159]؛ يعني يطردهم طرداً من رحمته، لا طرد بعده، هذا اللعن هو الطرد عن رحمة الله والإبعاد عنه، وزيادة على ذلك: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: 159].

- من هم اللاعنون؟

اللاعنون؛ الملائكة تلعنهم، والجن يلعنهم، والإنس يلعنهم، والطير يلعنهم، والوحوش تلعنهم، وكل المخلوقات تلعن، إذاً يدل على عظم العلم، وأنه ينبغي للإنسان أن يبلغ وأن لا يكتم، فإن كتم أو وقع في مثل هذا أو حرف أو غير أو بدل كما يفعل اليهود ستحل عليه هذه اللعنة.

لكن الله من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فتح باب التوبة لهؤلاء وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 160]. فمن تاب الله عليه، والتوبة تجب ما قبلها.

قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [البقرة: 160] وزيادة على ذلك ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ [البقرة: 160]؛ ليس فقط تابوا وأقلعوا عن الذنب، لا، يصلح عمله مع الله. قال: ﴿تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ [البقرة: 160] ما كتموه.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 160]؛ خصهم الله بتوبة عظيمة.

قال: ﴿أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 160].

والله يتوب على من تاب ولو كان أعظم من كتمان العلم؛ لو أشرك بالله وفعل أكبر وأكبر ثم رجع إلى ربه فإن الله يفرح بتوبة العبد، ولاحظ لما ذكر الله سبحانه على كتمان العلم ونتيجة هذا الكتمان؛ ذكر من يستمر على كتمان العلم ويكفر بالله ولا يعود، فإن مات هذا فموتته سيئة ونتيجته سيئة. اسمع الآية حتى نختم هذا المجلس.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: 161]؛ انظر التصريح، أشد من الأول لأنه مات على الكفر.

قال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [البقرة: 161]؛ الطرد والإبعاد، لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ كلهم يلعنون.

- من يلعنون؟

من يكفر ويموت على كفره.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة: 162] أي في هذه اللعنة وفي النار، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: 162]؛ أبداً، حتى التخفيف، لو طلبوا أن يخفف **"ادعوا**

ربكم يخفف عنا من العذاب" لا يخفف، بل العذاب بأشد أنواع العذاب، ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: 162] أي يمهلون أو يعطون فرصة أبداً، إذا مات على هذا ولم يتب.

وفي هذا يعني تذكير لهم حتى يعودوا إلى الله؛ يعني هذا الوعيد الشديد لماذا؟ عليهم لعنة الله والملائكة والناس وكل هذا العذاب حتى يعود إلى الله ويرجع إلى الله حتى يتوب، يفتح له، لا يموت على هذا، فإن مات الكافر على كفره فهو على خطر عظيم.

وقفنا مع هذه الآيات وتأملناها وتدبرناها، يعني تقريباً أربع آيات جميلة وحسنة وطيبة من كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، استفدنا من هذه، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكتب لنا الأجر، وأن يوفقنا لطاعته، ويجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، ويجعلنا ممن يقرأ القرآن ويتدبر معانيه، والله أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(29)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيُّها الإخوة سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. حيّاكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ لقاء الأربعاء مع تفسير القرآن العظيم، الآيات التي بين أيدينا هي آيات من سورة البقرة، وهي الآية الثالثة والستون بعد المئة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163].

أيُّها الإخوة القرآن حقٌّ علينا وله حقٌّ عظيم بأن نعتني به تلاوةً، لما تسمع كلمة تلاوة تظن أن التلاوة هي القراءة؛ لا، التلاوة هي القراءة مع الفهم والتدبر والتعقل للآيات، يعني فرق بين أنك تقرأ وتتلو؛ تلاوة غير القراءة، القراءة تقرأ كلامًا أمامك قراءة؛ يعني تقرأ هذه الحروف والكلمات، التلاوة لا؛ التلاوة زيادة عن القراءة بمعنى أنك تقرأ بفهم وإدراك وتعقل.

القرآن لابد أن نقرأه نفهم معانيه لا نقرأ فقط دون أن نفهم.

يقول أبو عبد الرحمن السلمي وهو من كبار التابعين: **"حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن من صحابة النبي ﷺ كعثمان وعلي وأبي وزيد بن ثابت من كبار الصحابة يعني هؤلاء هم قراء الصحابة يقول كانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يفهموا ما فيها قال فتعلمنا العلم والعمل والقران جميعًا"**.

كلها يفهمها، أما أنك يعني ما يمكن تتجاوز عشر آيات وتنتقل للعشر التي بعدها وأنت ما تدري أيش معناها؛ هذا خطأ، هذا تقصير منك، لابد أن تفهم الآيات، ولذلك هذا الدرس المبارك في هذا المسجد المبارك نقف مع هذه الآيات ونتأملها ونفهم معانيها، وأنت لما تفهم هذه المعاني لما تمر عليك مرة أخرى سيكون عندك فهم أكبر من أنك لو لم تفسر أمامك ولم تعرف معانيه.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]. هذه الآية في موضعها إذا قرأناها وتأملناها في موضعها لما تقرأ الآيات التي قبلها، وهذا يعني يعينك على التدبر والتأمل؛ أنك تنظر في الآيات التي قبلها وتنظر في الآيات اللي بعدها تجد أن الآيات مترابطة متماسكة؛ يعني ما تأتي آية هكذا تدخل؛ لا، تنظر في ما قبله مع هذا يعينك على تدبر القرآن.

انظر الآيات التي قبلها الله يحدثنا ويبين لنا ويوضح لنا أن عاقبة الذين يكتمون العلم، وهم اليهود الذين يعرفون صفات النبي ﷺ ويعرفون القرآن ويعرفون رسالته وكتموها وأخفوها.

- ما عاقبتهم؟

قال الله لهم هنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: 159]. هذه مرت معنا الآية، ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 160]، وهذا من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن فتح لهم باب التوبة.

بعدها قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: 161].

لماذا هذه العقوبة الشديدة عليهم؛ لعنة الله والملائكة؟

جميع ملائكة السماوات ما في موضع أربعة أصابع إلا وفي ملك ساجد أو قائم؛ يعني ملائكة أعدادهم كثيرة كلهم يلعنون هذا الكافر، والناس أجمعين يلعنون من الذي يموت ويموت على الكفر، قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: 162]؛ يمهلون يعطون فرصة.

- هذه العقوبة شديدة؛ من الذي أنزل بهم العقوبة هذه؟ من الذي تواعدهم بهذا الشيء؟

هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الله عَزَّ وَجَلَّ..

ماذا يقول؟ ﴿وَإِلَهُكُمْ﴾ [البقرة: 163]، أي أيُّها الخلق وأيُّها الناس إلهكم.

- ما معنى إلهكم؟ أي معبودكم، ما الذي تعبدونه؟ ما الذي يجب أن تعبدون؟

قال: ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: 163].

إلى الآن لم نعرف حتى الآن يعني إلهنا أي معبودنا واحد ما في شريك له، لا يمكن أن تعبد لا شجر ولا حجر أو تعبد مخلوق؛ ما ينفعك ولا يضرك.

عرفنا أن الله أن هذه الآية تقول ﴿وَإِلَهُكُمْ﴾ [البقرة: 163] أي معبودكم ﴿إِلَـهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: 163]، ثم بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك من هو؟

قال: ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]. واتضحت الآية الآن، اتضحت عرفنا من هو الإله، إذا الذي توعد هؤلاء بالعقوبات الشديدة هو الذي يأمرنا بعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يأمرنا بعبادته ليغفر لنا ذنوبنا، يأمرنا بعبادته لنعرف أن الله خلقنا للعبادة، يأمرنا بعبادته لأن الله وعد من يعبده بالفوز بجنات النعيم، وعده بالسعادة في الدنيا والسعادة في الآخرة.

إلهكم معبودكم خالقكم الذي أمركم بالعبادة هو واحد إله واحد، ولاحظ أنه كررها مرة أخرى قال ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: 163] لا شريك له، إله واحد في الخلق وفي العبادة وفي الرزق، والله هو الخالق لا خالق إلا الله، لا رازق إلا الله، لا معبود بحق إلا الله، المعبودات كثيرة لكن لا معبود بحق إلا الله، ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163].

وشف مجيء اسم الرحمن الرحيم هذه لها دلالة، لها دلالة يعني أنه هو أرحم الخلق سبحانه هو أرحم، هو أرحم الراحمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رحيم بخلقه، من رحمته أنه خلقهم، من رحمته أنه هداهم، من رحمته أنه رزقهم، ومن رحمته أن أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب، ومن رحمته أنه جازى من يطيعه بالجزاء الحسن هذه من رحمته، ولذلك خص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذين الاسمين لتناسبهم مع العبادة؛ إلهكم إله واحد ذو الرحمة العظيمة الواسعة يرحمكم بهدايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتوفيقه وتيسير الأمور لكم.

إذا عرفت هذه الآية فهمناها فهمًا جيدًا قد يأتيك شخص يعترض عليك يقول لك إلهكم إله واحد أنا لن أؤمن بالإله الذي أنتم تقولون ما أين الإله؟ وينه؟ ما أؤمن به؛ هو ملحد لا يؤمن بوجود إله، فنأتي إليه بالأدلة، نأتي إليه بالأدلة.

النبي ﷺ لما جاء إلى مكة إلى كفار قريش هم يعبدون أصنام يقول لهم اعبدوا الذي خلقكم الذي في السماء إله واحد؛ ما آمنوا ولم يصدقوا لكن أتاهم بالأدلة الدالة على أنه لا إله إلا هو، يأتيك شخص يقول لك أعطنا الأدلة على أن الإله الذي أنت تقول أنه إله واحد وهو الذي يعبد عطنا الأدلة عليه؛ نقول الأدلة ملأت السماوات والأرض.

لا ترفع رأسك إلا تجد دليل يدل على وحدانيتك، ولا تخفض رأسك على الأرض إلا تجد دليل في الأرض يدل على وحدانية الله، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

إذا نظرنا في عالم الحيوانات، إن نظرنا في عالم السماوات وما فيها من الكواكب والنجوم والشمس، إذا نظرنا في الأرض وما فيها من أشجار وأنهار وجبال؛ كلها تدل على هذا، تدل على أن وراء هذا مدبّر متصرف خالق، لا يمكن مستحيل أن يكون هذا كل الخلق يدبر نفسه بطبيعته، ما يمكن لابد أن يكون هناك وراء ومن يدبره، من الذي يأتي بالشتاء ويأتي بالصيف؟ من الذي يأتي بالليل والنهار؟ هذه كلها تدل على أن وراء هذا الكون مدبّر وخالق سبحانه.

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163] أتى لك بالأدلة ثمانية أدلة، وهي كثيرة لكن الذي ذكرها الله هي أشهر ولا كثيرة.

الإمام الرازي رَحِمَهُ اللهُ من أئمة التفسير كان يعني إذا جلس في مجلسه للتدريس امتلأت حلقته، وإذا مشى يمشي معه أعداد هائلة، دخل قرية من القرى من قرى نيسابور فلما دخلها وإذا يمشي ومعه أعداد هائلة خرجت امرأة عجوز وسنه كبيرة فتحت الباب قالت: من هذا؟

قالوا: هذا الإمام الرازي عنده 1000 دليل يدل على وحدانية الله.

قالت: ماذا؟ قالت: نحن في غنى عن ألف دليل يذكره، ما أخفض طرفي إلا أجد دليل على وجود الله ولا أرفع طرفي إلا أجد دليل على وجود الله، نحن لسنا محتاجين إلى ألف دليل؛ يعني كيف؟

يعني تقول هذه حتى قال الرازي لما جاء عند وقت الموت: **"ليتني أموت على عقيدة عجائز نيسابور"**؛ يعني العقيدة الصحيحة. وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، أنت تطلع بس لأي مكان تجد آيات الكون، آيات الله في الكون واضحة.

اسمع يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 164]. هذه خلق السماوات كافية؛ ما الذي خلق السماء؟ ما الذي رفعها بغير عمد؟ ما الذي جعلها سبع طبقات وكل ما بين طبقة وطبقة مسيرة 500 سنة؟ وكل طبقة من السماوات فيها خلق فيها عالم، من الذي زيّن السماء الدنيا بزينة الكواكب والشمس والقمر؟ هل هي جاءت هكذا بطبيعتها؟ مستحيل.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 164] أيضًا الأرض سبع أراضين وفيها من الأشياء العجيبة والآيات العظيمة في الأرض.

ثم قال بعدها: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة: 164]. الليل والنهار، اختلاف الليل والنهار، مرة يأتي الليل مرة يأتي النهار، إذا ذهب الليل جاء النهار، إذا جاء الليل ذهب النهار، ما يمكن أن يأتون في وقت واحد ما يجتمعون أبدًا؛ ذهب الليل جاء النهار.

وأيضًا الليل يطول والنهار يقصر والعكس النهار يطول والليل يقصر؛ إذًا اختلاف الليل والنهار آية عظيمة، كيف تأتي هذه الظلمة الشديدة بعد هذا النور الساطع؟ هذه كلها اختلاف في الليل، والليل مرة يكون بارد مرة يكون حار، النهار يكون بارد مرة يكون حار؛ من الذي دبر هذا الشيء؟ من الذي يأتي به هو من نفسه؟ ما يمكن.

قال: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ [البقرة: 164]. هذه الفلك هي السفن، السفن التي تنطلق في البحار على ثقلها وما تحمله من بضائع وغيرها تنطلق وتقطع المسافات الطويلة على هذه المحيطات.

- من الذي يحملها؟

يحملها على هذا البحر الماء قد تغرق تدخل، ولو أراد الله أن يغرقها وأن يهلكها أراد الله أن يهلكها أهلكها، من الذي يحملها ويسيرها في البر؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: 22].

الذي يسيركم من هو الذي يسيركم؟ هو الله، هذه آية من آيات الله، اخرج إلى البحار وإلى المحيطات وانظر إلى هذه الآيات العظيمة في السفن التي تقطع هذه المسافات وتنقل هذه البضائع آية من آيات الله.

- من الذي علم الإنسان هذه صنع السفينة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

قال: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: 164]. تجد الإحياء تمر على أرض قاحلة مغبرة شهباء، ثم ينزل الله عليها الماء فتهتز وتربو وتتحرك ثم تنبت الزروع المختلفة أو تنبت هذه الزهور اختلفت الألوان تتعجب من كثرة ألوانها ورائحتها الطيبة، من الذي أخرجها بهذا الشكل إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

قال وانزل من السماء ما الذي جاء بالماء من السماء وأنزله إلا الله سبحانه؟ قال: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: 164]؛ ميتًا فأحياها بعد موتها.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دائمًا يذكر في القرآن يضرب لنا مثلًا في إحياء الأرض بعد موتها في إحياء الناس أن يحييهم بعد موتهم. قال: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ [البقرة: 164] أي في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: 164]. ليس من دابة لا؛ من كل دابة، انظر إلى هذه الدواب التي بثها الله ونشرها في هذا الأرض.

- من الذي نشرها وأوجدها؟

عالم الإنس، الدواب يدخل فيها الإنس بني آدم يدب على الأرض، والحيوانات المختلفة المتوحشة والأليفة والطيور المختلفة بأشكالها وألوانها والحشرات والزواحف؛ من الذي نشرها على وجه الأرض باختلافها؟ وكل قد هداه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَزَّ وَجَلَّ، دلّه على خلقته وعلى طريقته؛ ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: 50].

الطائر قد هداه الله لعمله، وكل هداه الله لعالمه؛ عالم الحشرات، وعالم النمل، وعالم النحل؛ هذه لو تدخل فيها في علمها لوجدت آيات عظيمة تدل على أن وراء ذلك خالق مدبّر إله واحد.

قال: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ﴾ [البقرة: 164]. من الذي يصرف الرياح؟ من الذي يأتي بهذه الرياح يجعلها هبوب قوية سريعة أو بطيئة أو ساكنة الهواء ساكن؟ من الذي أسكن الريح؟ ومن الذي حرّك الريح؟ ريح شمالية ريح جنوبية؛ من الذي يحركها؟

أحيانًا الريح تكون رحمة أحيانًا الريح تكون عذاب، كل ذلك بتصريف المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يملك أحد أن يحرك الريح أو يسكن الريح لا يمكن إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. قال بعد ذلك: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 164].

هذا السحاب على سعته وعلى ثقله يحمل الماء الثقيل جدًا إذا نزل امتلأت الأودية؛ من الذي سخره وجعله يسير ويتنقل من مكان إلى مكان؟ وإذا أراد الله أن ينزل على هذه القرية نزل، وإذا أراد أن يستمر استمر؛ من الذي يدبره؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله لما ذكر لك هذه الآيات آيات قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 164].

- ماذا قال بعدها؟

قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 164].

أما الذين لا يعقلون ما يخاطبهم الله لأنهم ليس لهم عقول حتى يخاطبهم، لكن هذه من الذي يفهمها أو يدركها؟ من له عقل، الذي له عقل هو الذي ولذلك خاطبهم بهذا الخطاب.

واستمع أيضًا وانظر إلى ما قال الله بعده لما بين أن هذه آيات خاصة للذين عندهم عقول هم أولو الألباب والعقول الذين يفهمون، ذكر لك الذين نقصت عقولهم ولذلك ذكر من يعبد من دون الله.

كيف هذه الآيات كلها تدل على أن الله إله واحد ثم تذهب تعبد لك شجر وحجر؛ أين عقلك؟ هذا دليل على أنه لا عقل له، لا عقل له. ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 165].

كيف هذا الإله إله واحد ثم تترك الإله الحق الواحد وتذهب وتعبد أندادًا أصنامًا تجعلها بمنزلة الله وتسجد لها وتخضع لها وتطوف حولها وتدعوها وتستغيث بها وهي لا تسمع ولا تبصر ولا تدري ماذا تقول لها. قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: 165].

هؤلاء الذين يعبدون الأصنام ويعبدون هذه الأشياء المخلوقة يحبونها محبة عظيمة كمحبتهم لله، أو يحبون هذه الآلهة كما يحب المؤمنون ربهم، والذين آمنوا هؤلاء يحبون هذه لأنهم يعبدونها من دون الله ويخضعون لها فهم يحبونها يقدمون لها القرابين ويعطونها من أوقاتهم فيعبدونها ويطوفون حولها ويحبونها محبة عظيمة، لكن المؤمنين يحبون الله أشد ولذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

الذين آمنوا محبتهم أشد، أنت تسجد لله تحب الله، أنت تعبد الله تحب الله، أنت تدعو ربك فتحب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، المؤمن محبته طاعة لله وتقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

- لكن الذين عبدوا من دون الله ما النتيجة؟ الذين جعلوا لله أندادًا ما النتيجة؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: 165].

الذين ظلموا وعبدوا هذه الأصنام والآلهة النتيجة يوم القيامة ما هذا تهديد لهم وتخويف لهم، يوم القيامة إذا رأوا العذاب يعني عذاب الله شيء آخر شيء هائل عظيم، قال إذا رأوا عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة علموا ماذا؟ أن القوة لله جميعًا، القوة كلها لله جميعًا، وأن الله شديد العذاب.

أنت إذا رأيت الآن آية من آيات الله في الكون آية من آيات الله عرفت أن القوة لله وأنك ضعيف وأن الخلق كلهم ضعفاء أمام قوة الله وأن الله شديد العذاب.

وأن هؤلاء الذين يعبدون من دون الله، إذا جاء يوم القيامة يتبرأ بعضهم من بعض ويلعن بعضهم بعضًا، يتبرأون وكل يتخلى عن الثاني، ومن الذي يتبرأ أشد؟ المتبوعين؛ الرؤساء السادة الكبار الذين قادوا فالضعفاء ماذا قالوا؟

﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا 67 رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: 67-68]. هذا الله يقول هنا ماذا يقول؟ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: 166].

- الأسباب يعني العلاقات تقطعت، أين اللي كانوا يقدرونهم يعطونهم الأماكن المنازل ويحبونهم؟ أين هذه؟

تقطعت خلاص انتهت، يوم القيامة ما في محبة ولا خلة ولا شيء، ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]. فهؤلاء خلاص يتبرأ بعضهم من بعض والاتباع الكبار والسادة يتبرأون ممن تبعهم. ثم تنقلب الآية قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا

تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ [البقرة: 167]. أي الصغار هؤلاء الاتباع قالوا لو أن لنا كرة لو رجعنا إلى الدنيا ماذا سنصنع بكم؟

قال لو أن لنا كرة فنتبدأ منهم كما تبرأوا منا، لكن ما في فائدة، خلاص انتهى الأمر، لو نرجعكم للدنيا تتبرأون؟ لماذا لا تتبرأون الآن في الدنيا وتتركونهم ولا تطيعون هؤلاء الذين يضلونكم؟

قال نتبدأ كما تبرأوا منا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: 167]. أعمالهم يوم القيامة تأتيهم يتحسرون إذا رأوا أعمالهم السيئة إذا رأوا أعمالهم الخبيثة السيئة تحسروا، قال أعمالهم حسرات عليهم، وما هم بخارجين من النار، كلهم لن يخرجوا من النار الاتباع والمتبوعين والتابعين كلهم إلى نار جهنم.

وهذه الآية التي ذكرناها ذكرها الله في مواضع كثيرة في القرآن، ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [غافر: 47] تجدها بينهم، حتى أن الشيطان يتبرأ منهم، الشيطان الذي أضلهم وهو سبب كل ضلالة إذا جاءوا يوم القيامة، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22].

وهذا الشيطان الذي يضل كل إنسان هذه نتيجته يوم القيامة، هذا موقفه، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، قرأنا هذه الآيات الجميلة الحسنة وتأملناها وتدبرناها وفهمنا ما فيها، نسأل الله أن ينفعنا بها وأن يبارك لنا وإياكم جميعًا، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، جزاك الله.

(30)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم المبارك يوم الأربعاء مع درس التفسير في كل أسبوع، وهذا اليوم هو اليوم الخامس عشر من شهر ذي الحجة من عام 1442هـ، نجتمع في هذا المقام وفي هذا المسجد المبارك لنتلو آياتٍ من كتاب الله ونبين معانيها ودلالاتها ونتدبر هذه الآيات.

الآيات التي بين أيدينا هي الآية الثامنة والستون بعد المئة من سورة البقرة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: 168]، هذه الآية يعني مرَّ قبلها آياتٌ كثيرةٌ بينا معانيها ولا زلنا نسير في هذه السورة العظيمة، لو نلاحظ هذا النداء ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هو النداء الثاني في السورة، النداء الأول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21].

وهنا قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، فالرابط بين الآيتين أن الله خاطب الناس جميعًا، فخاطبهم في أول الأمر أن يعبدوه وبين لهم أنه هو الذي خلقهم.

وهنا يبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه هو الذي تكفل برزقهم، فهو الذي خلقهم لعبادته وتكفل بأرزاقهم، فهو خلقهم ورزقهم، ولاحظ أن هناك لما ذكر وأمر بعبادته وحده لا شريك له وأنه خلق الخلق وخلق الذين من قبلهم قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]، أي لا تعبدوا مع الله إلهًا آخر ولا تجعلوا آلهةً أخرى من الأصنام تخضعون لها وتدعونها من دون الله.

ولاحظ أنه هنا في هذه الآية التي بين أيدينا وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، ارجع قليلًا قبلها بآياتٍ تجد أن الله أيضًا يحذر من اتخاذ الأنداد من دون الله، قال: ﴿وَمِنَ النَّاسُ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: 165].

فرابط الآيات أن الله هو الذي خلق الخلق كلهم، وهو الذي رزقهم وتكفل بأرزاقهم، وهو الذي أمرهم بأن يعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحذر من طاعة الشيطان في اتخاذ الأنداد والمعبودات من دون الله.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أمرٌ بالإباحة أي كلوا مباحًا لكم كل ما في الأرض، ولكن لا بد أن يتوفر فيه شرطان؛ يعني ليس كل ما في الأرض يجوز أكله، بل الأصل فيه الجواز إذا كان حلالًا طيبًا.

- ما معنى حلال وما معنى طيب؟

الجواب: معنى قوله **"حلالًا"** أي ليس بحرام؛ يعني لم يصل إليك بطريق الحرام وإن كان في ذاته مباحًا، مثل السمك؛ السمك مباح والدجاج مباح والغنم مباح، لكن لو جاءك بطريق الحرام، لو أتاك عن طريق الحرام كالسرقة والغصب والغش والخداع والغرر ونحو ذلك نقول هذا حرام، أو مثلًا ذُبح على طريقٍ أو كان ميتةً فنقول هذا حرام، والله يقول: ﴿كُلُوا حَلَالًا﴾ لم يقل كلوا حرامًا، هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني قال: ﴿طَيِّبًا﴾، وطيبًا يخرج الخبيث، فالطيب يقابله الخبيث، فالمستخبثات المستقذرات لا يجوز أكلها كالسم الذي يقتل الإنسان، وكالحشرات الضارة والحيوانات الضارة

كالخنزير ونحوه، هذه كلها خبيثة لا يجوز أكلها، فهي غير داخلة في الحلال الطيب الذي أباحه الله.

●ولو سألك سائلٌ وقال لك: إذا كان الأمر واضحًا حلالًا طيبًا، فلماذا تجد من الناس من يبحث عن الحرام ويأكل المحرمات ويأكل الخبائث؟

الجواب: السبب هو الشيطان، الشيطان زين لهم أعمالهم فجعل الحرام حلالًا وجعل الخبيث طيبًا في نظرهم، فالشيطان هو الذي زين لهم، ولذلك الله لما أباح لنا الحلال الطيب ماذا قال؟

قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: 168]، فالذي يدعو إلى أكل الحرام هو الشيطان.

●لماذا لا نتبعه؟

هو عدوٌ لنا، لماذا؟ قال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: 169]، لا يأمر بالحلال الطيب أبدًا ولا يأمر بالخير، إنما يأمر بالسوء بالكلام السيء والأعمال السيئة الخبيثة ويزين للإنسان المحرمات، ويأمر بالفحشاء وهو ما فحشه عظم من الذنوب والمعاصي والقول الفاحش والفعل الفاحش، كل هذه يولاها الشيطان ويزينها لهذا الإنسان.

وأكبر من ذلك وأعظم قال: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 169]، الشيطان يأتي لهذا الإنسان ويقول قل إن الله أمرك بكذا وإن الله هو الذي أوصاك بكذا، فيتقولون على الله فيقولون هذا حلال وهذا حرام وهذا هو الصحيح وهذا هو الذي في شرع الله، فيتكلمون ويتقولون على الله بالحلال والحرام وهذا أخطر.

"القول على الله بغير علم من أشد الذنوب والمعاصي ومن أكبر الكبائر أن تقول على الله بغير علم"، فإذا سُئلت عن شيء فقل الله أعلم إذا لم تدرِ ولم تعرف حكمه فكل الأمر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا تقول على الله ما لا تعلم، احذر أن تقول على الله ما لا تعلم، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]، فاحفظ لسانك أن تقول على الله ما لا تعلم، واعلم أن الذي يأمرك بهذا هو الشيطان.

الكفار هم الذين يسمعون من الشيطان، وهم الذين يتبعون الشيطان ولا يريدون الوصول إلى الحق، وإذا قلت لهم هذا حلال وهذا حرام لم يتقبلوا منه، وإذا قلت لهم اتبعوا ما أنزل الله وأطيعوا الله واتبعوا شرعه لم يتقبلوا منك، اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ أي الكفار المعاندين المستكبرين، إذا قيل لهم ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾؛ اتبعوا ما جاءكم عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وما أنزله الله في كتابه وعلى رسوله وتقبلوا، ماذا يقولون؟ ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: 170]، يقولون نحن نتبع، يعني لا نطيع ولا نسمع ولا نتبع ما أنزل الله بل نتبع ما ألفينا؛ أي ما وجدنا عليه آباءنا.

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170]، يقول إذا قيل لهم قالوا لا بل نقلد الآباء ولا نخرج عن طاعة الآباء، لو كان الآباء لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون؟ لو كان الآباء ما عندهم شرع الله ولا يعرفون الطريق إلى الله هل نتبعهم؟ هذا تقليدٌ أعمى لا يجوز، هذا التقليد المحرم، تطيع الآباء؛ نطيع الآباء متى نطيع الآباء؟

إذا كانوا على جادة، إذا كانوا على علم، إذا كانوا على معرفة، إذا كان لهم عقولٌ يدركون بها شرع الله ويعملون بشرع الله نطيعهم، أما إذا كانوا على كفر وعلى ضلال وعلى عدم استقامة على طريق الله فاتباعهم ضلال.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا ينعى هؤلاء الكفار أنهم إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله يقولون لا نتبع بل نتبع آباءنا وهذا من الغلط الكبير، ولذلك الله شبه هؤلاء الكفار بأي شيء؟

ضرب هذا المثل العظيم، اسمع هذا المثل العظيم ماذا قال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾ [البقرة: 171]، يمثل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يضرب الأمثال في القرآن لتتضح الصور وليقيم الحجة على عباده وليتفكر الناس، ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]، وليعقل الناس وليتعلموا، ولذلك قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43].

فالله يضرب الأمثال، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: 58]، فالقرآن مليءٌ بالأمثال حتى تتضح لك الصورة، ولذلك هنا يمثل الله حال الكفار بحال ذلك الذي ينعق، أو بحال البهائم، البهائم من الإبل أو الغنم الراعي ينعق لها يناديها بصوت ينعق كنعيق الغراب، فهذا النعيق لا تدركه هذه البهائم، لا تدري ماذا يقول ولكنها تأتي أو تذهب، فهو ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً مجرد أنه دعاء ونداء لكن لا تفقه، فهؤلاء الكفار يناديهم الرسول ويدعوهم ولا يفقهون ولا يسمعون كالبهائم.

فالله ينزل حال الكفار حال هؤلاء البهائم التي لا تدرك شيئًا ولا تعرف شيئًا، فيقول: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً﴾.

- ما الفرق بين الدعاء والنداء؟

الجواب: **"الدعاء للقريب والنداء للبعيد"**، فصاحب الغنم والراعي ينادي الأغنام من بعيد، يناديها وينعق لها ويدعوها، ويدعو الأغنام القريبة بصوت فيه نعيق وهي تفهم هذا الصوت لكن لا تدرك ما هو، وهؤلاء الكفار يسمعون القرآن ويسمعون الدعوة لكن لا يفقهون ولا يستجيبون، ولذلك قال الله في حق هؤلاء إنهم كصم.

هناك قولٌ آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لأنك أنت الآن لا بد أن تتدبر هذا المثل، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يمثل حال الكفار بأي شيء؟ قال حال الكفار بحال الذي ينعق أي بحال الراعي، هل هذا المثل تصوير أو تمثيل الكفار بالبهائم أو بالراعي؟

هناك قولان للمفسرين، بعضهم قال: **"ومثل الذين كفروا كمثل البهائم التي ينعق لها صاحبها"**، فمثل الله الكفار بالبهائم والبهيمة يناديها راعيها ويدعوها بهذا النعيق وهي لا تفهم ولا تدرك ولا تعرف ماذا يقال لها، وهؤلاء الكفار يناديهم الرسول ﷺ ويدعوهم إلى الإيمان بالله ولا يفقهون، هذا الرأي الأول.

الوجه الثاني قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق، أي هؤلاء الكفار حالهم كحال هذا الراعي وهو ينادي البهائم بهذا الصوت الذي لا ندري ماذا يقول، فهؤلاء يدعوهم الرسول ﷺ وهم يردون عليه بكلمات لا نفقهها، لا يفقه معناها، فهم كحال هذا الراعي الذي ينطق بهذه الأشياء التي لا تُفهم فهم ينطقون بأشياء لا تُفهم، هذا رأي وهذا رأي، ولكن الذي يظهر والله أعلم أن الرأي الأول أقرب؛ لماذا؟

لأن الله قال بعدها: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]، أي الكفار كالبهائم بل هم أضل، ولذلك هم صمٌّ عن الحق لا يسمعون، يسمعون الأشياء التي تناسبهم من المحرمات، يسمعون الأغاني يسمعون الأشياء المحرمة، لكنهم في جانب الحق لا يسمعون.

قال: ﴿بُكْمٌ﴾ أي لا يتكلمون بالحق، يتكلمون بالباطل والزور والحرام، لكن إذا جاء الحق لا يتكلمون، قال: ﴿عُمْيٌ﴾ لا يبصرون الحق، بل يبصرون ما تشتهيه أنفسهم وتهواه أنفسهم، أما ما

يُطلب منهم ويُراد منهم في جانب الحق فهم عميٌ لا يبصرون، فهؤلاء الكفار لا يسمعون ولا يتكلمون ولا يبصرون؛ لأنهم لا يعقلون كالبهائم بل هم أضل من البهائم.

هذا معنى هذا المثل الذي ذكره الله لما بين حال هؤلاء الكفار، وذكر إباحة الله ما في الأرض حلالًا طيبًا لجميع الناس، نادى المؤمنين بخطاب يناسبهم فناداهم بأجمل الأوصاف، اسمع ماذا يناديك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يناديك بأجمل الأوصاف فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 172]، يا من آمن وصدق واتبع، لم يكن مثل هؤلاء الذين قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، بل هؤلاء استجابوا وآمنوا وصدقوا واتبعوا.

●يأمرهم الله بأي شيء؟

يقول: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172].

● قد يسأل سائل فيقول: ألا يُكتفى بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾؟ فلماذا أعاد الله الأمر بالأكل للمؤمنين؟

فنقول خصهم بالإباحة والذكر والأمر لكونهم أولياء الله، فخصهم بهذا الذكر تشريفًا لهم وتخصيصًا لهم بهذه الطيبات، ولذلك تغير الأسلوب، هناك قال ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ﴾ وهنا قال ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ﴾، وهناك قال ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حلالًا طيبًا﴾ وهنا يقول ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، فهذا رزق الله الذي رزقكم وهو الذي منَّ عليكم بهذا الرزق وأخرجه لكم.

ثم رتب عليه لأن هذا الخطاب للمؤمنين قال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 172]، فالمؤمن يأكل ويشكر، أما الكافر فيأكل ولا يشكر، ففرق بينهما، ولذلك الله يعلم ويؤدب ويوضح للمؤمنين كيف يتعاملون مع رزق الله ومع نعم الله، والله عَزَّ وَجَلَّ أخبر أنه قال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

☜والمسلم يعلم والنبي ﷺ قال: **«إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»**، فالمؤمن يأكل الأكلة فيحمد الله عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها.

فالمسلم والمؤمن الذي ناداه الله ويأكل من طيبات رزق الله ويشكر الله هذا تأديب وهذا تعليم وأدب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده المؤمنين، لاحظ أنه قال: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ ولم يقل واشكروا الله، لماذا؟

لأن قوله ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ أبلغ وأدق؛ لأن فيه نوعٌ من الإخلاص أي اشكروا لله لا لغيره فهو الذي أمر، ولذلك قال بعدها: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: 172]، وأنتم آمنتم به وتعبدونه فاشكروه على نعمه ولا تكونوا كالكفار وكالفسقة وكأهل المعاصي يأكلون من نعم الله ولا يشكرون الله عليها.

ثم لما بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خطاب المؤمنين بأن يأكلوا من الطيبات ويشكروه، بين ما حرم عليهم، ولم يذكر في خطاب الناس ما الذي حرم عليهم لأن الناس فيهم الكفار والكفار لم يستجيبوا لطاعة الله وعبادته حتى يؤمروا بالحلال والحرام، فلذلك هنا بين المحرم على المؤمنين قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 173]، و **"إنما"** أداة حصر أي المحرمات هذه الأربعة.

ما هي الميتة؟

هي التي ماتت حتف أنفها، ماتت بغير اختيارها، هذه ميتة؛ إذا وجدتها ساقطة على الأرض لا تتحرك هذه ميتة سواء كان طيرًا أو بهيمةً أو نحو ذلك، فهذه ميتة، وإنما الذي يباح هو الذي يُذكى؛ الذي يُذبح ويقال بسم الله ويُذكى فهذه لا تعد ميتة.

● هل يُستثنى من الميتة شيء يباح؟

الجواب: نعم، النبي ﷺ استثنى الجراد والسمك؛ فالجراد يؤكل هكذا والسمك يؤكل دون تذكية، فلا يحتاج أن يذكى.

ثم قال: ﴿وَالدَّمَ﴾ والدم هو الدم المسفوح كما فسر في آية أخرى ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: 145]، فالدم المسفوح هو الدم المحرم الذي يخرج عند التذكية، إذا ذكيت البهيمة طلع الدم وخرج بقوة واندفع، هذا هو الدم المحرم وهو نجس ومحرم لا يجوز أكله، وإذا أصاب البدن أو الثوب يجب غسله لأنه نجس، فهذا هو الدم المحرم.

●إذا كان هذا الدم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرمه فهل يستثنى منه شيء؟

الجواب: نعم، الكبد والطحال.

كما قال ﷺ: **«أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ، فَأَمَّا الْمَيْتَتَانِ: فَالْحُوتُ وَالْجَرَادُ، وَأَمَّا الدَّمَانِ: فَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ»**، فالكبد والطحال يجوز أكله وإن كان دمًا، وكذلك الدم الذي يكون في العروق ويكون بين اللحم، وإذا قطع اللحم ووضع في القدر يكون الدم على جوانب القدر أو يكون على رغوة القدر، نقول هذا كله جائز.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في المحرم الثالث: ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾، الخنزير كله محرم، والسبب في ذلك أنه خبيث مستقذر نجس لا يجوز، فكله محرم؛ جلده وعصبه وعظامه وشحمه كله محرم.

● قد يأتي سائل ويسأل فيقول: الله عَزَّ وَجَلَّ قال لحم الخنزير ما قال شحمه وما قال جلده وما قال أعضاؤه وإنما خص اللحم؟

الجواب: لأن الآية في سياق الأكل، ولا أحد يأكل الجلد أو الشحم وإنما يأكلون اللحم، فلذلك خص اللحم ولأن اللحم هو أشهر ما يستخدم وأشهر ما يُطلب من الخنزير.

قال بعدها في الرابع: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي ما ذُبح ورُفع الصوت عليه وذكر اسم غير الله عليه، كالذين يذبحون فيقولون باسم المسيح أو باسم الحسين أو باسم فلان أو باسم فلان، فهذه محرمة لا يجوز أكلها لأنها ذكر اسم غير الله عليها، والله ماذا يقول؟ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: 121].

قال: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ لاحظ أنه في آيات أخرى قال ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: 3]، وهنا قدم **"به"**، فلماذا؟ نقول قدم **"به"** الجار والمجرور لأن السياق هنا كله في الأكل والمباح والجائز والنهي عن المحرم ولذلك يُقدم، قال ﴿أُهِلَّ﴾ أي ما ذُبح ﴿بِهِ﴾ أي بهذه البهيمة لغير الله، لو قال هذا الذي يذكي المذكي: بسم الله وباسم المسيح، أو باسم الله وباسم فلان، قلنا هذه حرام ما دام أهلَّ به لغير الله أو شارك مع الله شيئًا آخر فنقول هي حرام.

●هذه المحرمات الأربع لا يجوز أكلها مطلقًا أو تجوز في حال؟

الجواب: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أفصح وبين لنا أنه قد يضطر المضطر لأكل هذه المحرمات، فإن اضطر فلا بأس أن يأكل بقدر الحاجة، ولذلك هنا قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ [البقرة: 173]؛ أي اضطر لأكل هذا الشيء لشدة الجوع، كأن يكون في صحراء ولم يجد ما يأكله إلا الميتة أو الدم أو لحم الخنزير أو هذا الذي ذبح لغير الله.

فنقول من اضطر ولكن بشرط أن يكون ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾، أي غير قاصد لهذا الحرام ومتعدٍ إلى هذا الحرام ومتجاوز الحد الذي يسمح له به، فهذا لا إثم عليه؛ فقوله ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي غير قاصد أمرًا محرمًا وهو يجد له مخرجًا في الحلال، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي متعدٍ بحيث إنه يباح له ما

يسد الرمق فيأكل، فيأتي إلى الميتة ويقطع أجزاءها ويأكل ويدخر ويشبع، نقول له كل على قدر ما يسد رمقك فقط، فأنت مضطر فسد الضرر هذا فقط، فمن فعل ذلك ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 173]، أي لا يؤاخذ على تعديه حدود الله وعلى أنه انتهك شيئًا حرمه الله من أكل المحرم، لا إثم عليه فإن الله تجاوز عنه؛ لماذا؟ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غفور يتجاوز عنهم، ورحيم بهم حيث أباح لهم هذه المحرمات لحال الضرورة.

لعلنا نكتفي بما ذكرناه من هذه الآيات المباركة وهذه الوقفات والتأملات في هذه الآيات، وإن شاء الله بإذن الله نستكمل ما بعدها من آيات في لقاء قادم بإذن الله، أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينفعنا جميعًا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداةً مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(31)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، يوم الأربعاء الموافق الثاني من شهر الله المحرم من عام ألف وأربع مئة وثلاث وأربعين.

توقف بنا الكلام في لقائنا الماضي عند هذه الآية، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة البقرة عند الآية الرابعة والسبعين بعد المئة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة: 174].

هذا وعيدٌ شديدٌ للذين يكتمون الحق، ويكتمون العلم، ويكتمون ما أنزل الله من الكتاب.

- ما معنى يكتمون؟

أي يخفون هذه العلوم، لا يبينونها للناس.

- من الذين اشتهر عنهم أنهم يكتمون العلم وهم يعلمون؟

هم اليهود، فاليهود أنزل الله عليهم التوراة، وأرسل إليهم رسلاً كثيرين، وكفروا بآيات الله وكتموا العلم، وبين الله لهم رسالة محمد ﷺ في التوراة وأوصاف النبي ﷺ، وأنهم يعرفونهم كما يعرفون أبناءهم، حتى بين الله لهم أوصاف أتباع محمد، أتباع محمد كما ذكره الله في آخر سورة الفتح: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ﴾ [الفتح: 29]. فهم يعرفونه.

لو تلاحظ الآيات التي قبلها كانت في الحلال والحرام: ﴿كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: 168]، ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]، و ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ﴾ [البقرة: 173].

فالذي يكتم الحلال ويكتم الحرام داخلٌ في هذا الوعيد الشديد، داخلٌ فيه ومتوعدٌ في هذا الوعيد الشديد، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً مثل ما ذكرنا اليهود الذين يكتمون الحق وهم يعرفونه، توعدهم الله بهذا الوعيد الشديد.

ما هو هذا الوعيد الشديد؟

قال إن الذين يكتمون، يخفون هذا العلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: 174].

قد يأتيك سائلٌ ويقول لك: هذه الآية مرت معنا قبل آيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 159]. فأعادها مرةً أخرى؟

الجواب: أعادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليكرر هذا الوعيد ويخوف ويتوعد أولئك الذين يكتمون الحق، وأعادها مرةً أخرى أيضاً لأن الله ذكر ما فيه من الحلال والحرام، فبين أن الذي يكتم هذا الحلال أو هذا الحرام داخلٌ في هذا الوعيد.

- ما هو هذا الوعيد؟

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: 174].

يعني يبيعون العلم ويبيعون الحق ويأخذون ثمناً قليلاً من أثمان الدنيا، من متاع الدنيا، من أموال الدنيا، من الرشاوي ونحوها، يشترون به ثمناً قليلاً.

ما النتيجة؟

قال: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة: 174]. هذا أشد وعيد، يأكلون في بطونهم ناراً، الذي يأكل الحرام ويكتم الحق يأكل في بطنه ناراً، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وعيد من يأكل أموال اليتامى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: 10]. جاء في بعض الأحاديث أن الذي يأكل مال اليتيم إذا جاء يوم القيامة فإن النار تدخل من فمه وتخرج من دبره.

هذه تدخل تأكل ما في بطنه، تأكل أمعاءه، فهؤلاء توعدهم الله بأشد الوعيد أنهم ما يأكلون من هذا المتاع الدنيوي إلا ما يأكلون في بطونهم من النار. ثم ماذا قال؟ وأشد من ذلك: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 174]؛ لا يكلمهم الله كلام تكريم.

أما أن لا يكلمهم الله فقد ورد في القرآن أنه يكلمهم يقول لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: 108].

فنقول: لا يكلمهم كلام تكريم يوم القيامة إذا جاء يوم القيامة، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 174]؛ أي لا يطهرهم من هذه الذنوب والمعاصي أو يثني عليهم. والنتيجة أيضاً: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 174]؛ مؤلمٌ شديدٌ.

ثم شدد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: 175]. لهؤلاء الذين يكتمون العلم ويخفون هذا الذي في الكتاب كاليهود، يشترون الضلالة بالهدى، يأخذون الضلالة ويتركون الهدى، ﴿وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ [البقرة: 175]؛ يشترون العذاب، يأخذون العذاب بدلاً من المغفرة.

فقال الله فيهم: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: 175]. ما أصبرهم وما أجلدهم على النار! يعني كيف سيصبرون؟ هذا أسلوب تعجب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتعجب من حالهم، كيف سيصبرون على النار؟ هل أحدٌ يستطيع أن يصبر على النار؟ ما يستطيع.

إذا كان أبو طالب عم النبي ﷺ يعني خفف عنه العذاب أنه يوضع في ضحضاح من نار أو تكون عليه نعلان من نار يغلي منها دماغه، وهو أخف أهل النار عذاباً، فكيف بهؤلاء؟ كيف سيصبرون؟ ما يستطيع، ما أصبرهم على النار.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذا الحكم الذي حكمه الله، حتى قد يقول بعض الناس: ما هذا الحكم؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: 176]؛ أي ذلك الحكم وهذا البيان الذي بينه الله حتى لا يكون للناس حجة، ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق.

أي هذا الكتاب الذي أنزله الله، سواء التوراة أو أي كتاب أنزله الله، إنما ينزله بالحق ليبين للناس الحق، ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: 176]. والذين اختلفوا في الكتاب من اليهود والنصارى هم الذين في شقاق بعيد، أي في محادة بعيدة وفي ضلال بعيد ومشاقة بعيدة، عن أي شيء؟ بعيدة عن الحق والصواب، هذا ما دلت عليه هذه الآية.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 177]. اليهود يقولون: كيف محمد يصلي إلى بيت المقدس، إلى المسجد الأقصى، ثم بعد فترة يغير يروح يصلي إلى مسجد الكعبة، إلى المسجد الحرام؟

والنصارى يصلون إلى المشرق، واليهود يصلون إلى بيت المقدس، فيقولون: كيف يعني لماذا الناس يتوجهون كذا وكذا؟ قال الله عَزَّ وَجَلَّ هذا ليس من البر، سواء صليت إلى هنا أو صليت إلى هنا، ليست العبرة بالتوجه والمكان، ولكن ما العبرة؟ قال البر.

- ما هو البر؟

البر هو الإحسان والخير الكثير والأعمال الصالحة.

قال: **"العمل الصالح والإحسان والخير الكثير"**. ليس البر بأن تولي وجهك جهة المشرق أو جهة بيت المقدس أو الكعبة، ليس هذا من البر، أكبر من هذا، وإن كان هذا عملاً صالحاً، لكن البر أعظم، لابد أن يكون نظرك أكبر.

ولذلك قال: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 177].

- ما هو البر؟

قال: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: 177]. البر بر من آمن بالله. **"العمل الصالح والإحسان والخير"** في حقيقة الإيمان وحقيقة الإسلام وحقيقة دعوة الله للناس ما هي؟

قال البر أن تؤمن بالله أولاً، قال: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: 177]؛ أن تؤمن بالله، تحقق الإيمان بالله وبأسمائه وبصفاته وبأفعاله الطيبة وآثاره الطيبة، هذا تعرف الله بوحدانيته وانفراده بالخلق والتدبير ومحبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا هو البر الحقيقي وهذا هو الإيمان.

ثم ماذا قال؟ ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 177]. أن تحقق الإيمان باليوم الآخر.

- ما هو اليوم الآخر؟ متى يبدأ؟

من مات قامت قيامته، اليوم الآخر يبدأ من أن تقبض روح الإنسان وينتقل من الدنيا ويدخل في عالم البرزخ والقبر إلى أن تقوم القيامة، وإلى أن يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

كل هذه المسافة وهذا اليوم الطويل وما يجري فيه، هذا لابد أن تحقق الإيمان به، ولذلك نقرأ كثيراً في القرآن إذا جاء ذكر يوم القيامة ماذا يقول الله فيه؟ يقول: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: 9]. يعني لا يمكن أن تشك فيه في جميع ما يجري فيه من أحوال كلها. [7، 8]

آمنا بالله واليوم الآخر، قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: 177]. تحقق الإيمان بالملائكة. الملائكة لم ترهم ولم يرهم أحد، لكن لابد أن تؤمن بهم بأن هناك خلقاً خلقهم الله وهم الملائكة. خلقهم من أي شيء؟ من طين ولا من نار؟ نقول خلقهم من نور. هل يأكلون ويشربون؟ هل ينامون؟ أقول لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا ينامون، وهم خلقهم الله للعبادة يعبدون الله.

- ما أعمالهم؟

أعمالهم كثيرة ولهم وظائف، ما من ملك إلا له عمل وله وظيفة، يعني هم رسل الله في هذا الكون كله يعملون بأعمال كلفهم الله بها: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6].

لابد أن نعرف حقيقة الملائكة. ثم قال بعد ذلك تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة، ﴿وَالْكِتَابِ﴾ [البقرة: 177]. والمقصود بالكتاب هنا هو الكتاب المنزل، الكتاب الذي نزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يعني جنس الكتب التي أنزلها الله.

- كم أنزل؟

أنزل كتباً كثيرة وذكر لنا في القرآن أربعة كتب: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، قال: ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 177]. النبيين الذين أرسلهم، الذين نبأهم الله وأوحى إليهم وأرسل منهم رسلاً، هؤلاء لابد أن نؤمن بهم، نؤمن بمن ذكرهم الله في كتابه ومن لم يذكروا، كما قال الله

سبحانه: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164]. والذي لم يقصصهم الله علينا أكثر وأكثر.

- كم رسول ذُكر في القرآن؟

ذكر خمسة وعشرون رسولاً ونبياً فقط، والبقية كثير جداً ولا بد أن نؤمن به ونؤمن به بما كلفهم الله، قال بعد ذلك إذا حققت الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، هذه خمسة أركان، وأضافت السنة ركن الإيمان بالقضاء والقدر أو الإيمان بالقدر خيره وشره. فهذا هو حقيقة الإيمان، **"حقيقة الإيمان والإيمان اعتقاد وعمل"**. بعد ذلك تأتيك الأعمال المرتبطة بالإيمان، ما هي أبرز هذه الأعمال التي أوصى الله بها وقال إنها من البر؟ حتى لابد أن نربط هذه الأشياء كلها بالبر.

لأن الله قال: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 177]، ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ﴾ [البقرة: 177]. هذا هو البر الذي أنت تبحث عنه وتريد أن تطبقه في حياتك، قال من أجل الأعمال قال: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: 177]. على شدة محبتك للمال تنفقه في سبيل الله، تنفق هذا المال.

☚ قال سئل النبي ﷺ: **«أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ؟»** أو **«أَحَبُّ؟»** قال: **«أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَأْمُلُ الْغِنَى وَتَخْشَى الْفَقْرَ»**. فهذه هي حقيقة الصدقة أن تتصدق.

قال: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ [البقرة: 177]؛ على شدة محبته يخرج المال هذا ويعطيه من؟ قال: ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ [البقرة: 177].

- لماذا ذوي القربى؟

قال المحتاجين من قرابتك هم أولى لأنها تصبح صدقة وصلة، فتبحث عن قرابتك إذا كانوا محتاجين هم أولى من البعيدين.

ثم قال: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة: 177]؛ الذين فقدوا من ياتي لهم بالرزق من آبائهم، فقدوا آباءهم. ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ [البقرة: 177]؛ الذين أسكنتهم الحاجة والضرورة إلى أن لم يجدوا شيئاً. ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 177]؛ المنقطع في سبيل الله.

قد ينقطع الإنسان يذهب إلى قرية أو إلى مدينة أو في طريق تتعطل سيارته أو يحتاج تذهب أو كل ما معه من مال أو من مستندات أو نحوها، ثم يضطر إلى أن يسأل الناس، فهؤلاء فهذا هو أحوج الناس.

قال: ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ [البقرة: 177]؛ الذين يسألون الناس من حاجتهم إما أصابته جائحة أو دين أو نحو ذلك، فيضطر أن يأتي إلى الشخص ويقول والله علي دين، علي كذا، علي مصيبة، حصل كذا وحصل حادث، فأنا أسألك أن تساعدني في كذا؛ فهؤلاء هم السائلين. قال: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: 177]؛ أي الذين يكون صاحب رقبة.

يعني عليه فك رقبة أو أسير أو مثلاً مملوك يعتق بالمكاتبة أو نحو ذلك، قال: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: 177]. هذه من أجل الأعمال الصالحة الصدقة. ثم قال بعدها: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 177]؛ أدى الصلاة على وجهها، والمراد بالصلاة هنا الفرائض والنوافل، أقامها بمعنى أتى بها بخشوع وأركانها وواجباتها وسننها.

قال: ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 177]؛ غير الصدقة، الزكاة هذه ركن لابد أن يخرجه من ماله إذا بلغ النصاب وجب عليه. قال: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: 177].

أي من صفات هؤلاء أصحاب البر أنهم يفون بالعهود، سواء العهود مع الله وأنت قد عاهدت الله على أن تدخل في شرعه وفي دينه وتطيع شرعه، أو معاهدة بينك وبين إخوانك المسلمين أو غيرهم، أي معاهدة تقع لابد أن تفي بهذه المعاهدة.

قال وأيضاً أشد من ذلك: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 177]. من البر الصبر، قد بعض الناس تصيبه مصائب، تصيبه أشياء وما يحتسب الصبر أنه من البر، من الإحسان، من العمل الصالح، يغيب عنه هذا، ولذلك قال من صفات أهل البر الصابرين في أي شيء؟

قال: ﴿فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة: 177]؛ في شدة الجوع والفقر والمرض تجدهم يصبرون ويتحملون ويحتسبون بصبرهم هذا الأجر عند الله، لا أنه يصبر عادة أو يصبر كما يصبر الناس، لا؛ صبره بر وصبره إحسان وصبره عمل صالح.

ولذلك قال: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: 177]؛ أي وقت الشدة والقتال تجدهم من الصابرين، ولذلك لاحظ ما قال **"والصابرون"**، قال: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 177]؛ أي امدحوا وأخص صفة الصبر فيكم.

ولذلك ختمها الله بهذه الصفة الجليلة العظيمة وقال بعدها: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

الذين طبقوا هذه الأشياء هم الذين صدقوا في إيمانهم، وصدقوا في التحلي بالبر والإحسان والعمل الصالح: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

هم الذين حصلت لهم تقوى الله وأصبحوا من المتقين الذين وعد الله المتقين بجنة عرضها السماوات والأرض، هم الذين أخذوا بصفة البر وجاؤوا بأجل أنواع وأوصاف أعمال البر، الأعمال القلبية أو أعمال الجوارح وأعمال الظاهر والأعمال الخفية طبقوها في حياتهم وتمسكوا بها.

هذه آية عظيمة: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ﴾ [البقرة: 177]، هذه آية عظيمة جداً نحتاجها في تطبيقنا في حياتنا بهذه الأوصاف العظيمة، أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يوفقنا وإياكم لطاعته، وأن يجعلنا وإياكم ممن يقرأ القرآن ويتفقه به ويعمل به، يعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه، والله أعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(32)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وهذا اللقاء المتجدد في مغرب كل أربعاء من كل أسبوع نجتمع في هذا المقام المبارك ونقرأ آيات من كتاب الله ونجتمع عليها ونتدبرها ونتأمل ما فيها من توجيهات ربانية وأحكام ينتفع بها المسلم في حياته وفي آخرته.

سورة البقرة بين أيدينا والآية الثامنة والسبعون بعد المئة سبع أيضاً تكلمنا عنها في لقاء الماضي في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]؛ هذه الآية مرت معنا بكاملها وبيناها وتلاحظ أن المجتمع المسلم لا يقوم ولا يستقر إلا بالأخذ بهذه الأمور التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهذه المبادئ الشرعية ما يتعلق بالإيمان وأصول الإيمان وأركانه وما يتعلق بأصول الشرائع من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغيره من الأعمال التي ذكرها الله، بهذه إذا أخذها المسلمون وتمسكوا بها استقرت لهم الحياة واستقرت لهم معيشتهم.

قد يعكر هذا الشيء ما يحصل من التشاجر بين المسلمين والتنازع، وهذا قد وقع ويقع كثيراً وهو ما قد يحصل من المنازعات التي تصل حد القتل وحد يعني الفوضى في المجتمعات.

- ما الذي يقضي على مثل هذا الشيء؟

هو إقامة شرع الله، ولذلك لو نقرأ في هذه الآيات ثم نقرأ الآية التي بعدها مباشرة ما هي؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178].

- قد يسأل سائل ما علاقة الحديث عن البر وأعمال البر والإحسان والخير ثم يأتي الكلام عن القصاص؟

الجواب: هذه تحتاج منا فعلاً نقف عندها ونتأملها، مثل ما ذكرنا أن المجتمع يقوم على هذه الأسس وهذه الأصول والشرائع ويستتب الأمن بها والعمل، فإذا جاء من يخل بهذا الأمن فإن جزاؤه ما ذكره الله في هذه الآيات لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178].

أنت دائماً إذا قرأت القرآن وجاءت آية مفتتحة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 178] فقف عندها.

يقول ابن مسعود: **"إِذَا قَرَأْتَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَأَرْعِ لَهَا سَمْعَكَ؛ فَإِمَّا خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ فَتَنْتَهِزُهُ، وَإِمَّا شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ فَتَتَجَنَّبُهُ"**.

هنا ماذا قال؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 178] يعني انتبه يا أيها المؤمن، اسمع؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178]. كتب يعني فرض وأوجب.

- لماذا قال كتب؟

قال لأن الكتابة أثبت في الشيء، أنت لما تتكلم كلام كثير ما يثبت، لما تكتبه الكتابة دليل على ثبات الشيء، ولذلك تقييد الأشياء في الورق ونحوها والسجلات حتى لو كتبت على الجدار على الجدار أو كتبت على حائط أو على سبورة، هذه المعلومة التي تكتبها تثبت، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول كتب عليكم أي ألزمتم وفرض عليكم وأوجب عليكم مثل ما كتب في هذه اللوح لا يذهب أبداً.

- ما هو الذي كتب علينا؟

سيأتينا أشياء كثيرة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 180]، كتب عليك أشياء كثيرة، هنا قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: 178].

- ما هو القصاص؟

القصاص في القتلى، القصاص أصل كلمة القصاص هي اقتصاص الشيء أخذه بمساواة، تقتص من فلان تأخذ الشيء بالمساواة، والقصاص هو تتبع الشيء بقدر ما كان، ولذلك هنا قال القصاص في القتلى فحدد الله لأن القصاص قد يكون في القتل وقد يكون في غيره.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: 45]، حتى من اعتدى ففقأ عين واحد تفقع عينه، كسر سنه تكسر سنه، وهكذا يعني القصاص في كل شيء، القصاص في كل شيء حتى في يعني ما هو أقل من ذلك.

قال هنا حدد لك قال القصاص في القتلى يعني من قتل واعتدى على نفس فإنه يقتل يقام عليه الحد، هذا معنى القصاص في القتلى، فيقتل بما فعل بما بمثل ما فعل إلا أن السنة جاءت أن القتل يكون بالسيف.

قال النبي: **«لَا قَوَدَ إِلَّا بِالسَّيفِ»**.

يقول القصاص في القتلى عرفنا أن القصاص هو أخذ الشيء بالمساواة كما كسرت سن هذا الشخص تكسر سنك الشيء مس قطعت أصبعه يقطع الإصبع، يعني فيه دقة في الجزاء وأخذ الشيء بدقة، نجازي كما جازى نفعل كما فعل ﴿فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194].

قال القصاص في القتلى ثم فصل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبين قال: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ [البقرة: 178]، الحر بالحر يعني الرجل الحر ليس مملوكاً يقتل بالحر؛ ثم قال: ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ [البقرة: 178] يعني مثل ما أن العبد إذا اعتدى العبد بالعبد يقتل العبد بالعبد، والأنثى قال: ﴿وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: 178].

- قد يأتي سائل هذه الآية فيها أحياناً قد تقرأها تشكل عليك؛ طيب الحر بالحر عرفنا الرجل الذكر بالذكر والرجل بالرجل، طيب والعبد بالعبد طيب والأنثى بالأنثى؛ طيب وإذا رجل قتل أنثى ما نقتله لأن الله يقول أنثى بالأنثى فهل نقتله؟

الجواب: نقتل الرجل بالأنثى.

- هل يقتل العبد إذا قتل حراً نقتله؟

الجواب: إذا نظرنا إلى آية أخرى ونظرنا إلى الأحاديث تبين لنا أكثر، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45]، النفس يدخل فيها الذكر والأنثى والصغير والكبير؛ إذاً هذه حتمت القضية عندنا إذا النفس بالنفس يدخل كل هؤلاء، كل هؤلاء

سواء ذكر أو أنثى أو عبد أو أي شيء، والحديث النبي ﷺ أيضاً كثيرة أن الأنثى أن الرجل إذا قتل امرأة فإنه يقتل به يقتل بها، هذا واضح.

لكن الإشكال في الآية هذه عشان نفهمها على وجهها الصحيح ونتدبرها ونعرف لماذا قال الله هنا ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ [البقرة: 178]؛ نقول أولاً هذا تفصيل لكلمة القصاص حتى نفهم كلمة القصاص، القصاص معناها القصاص معناها المساواة، الحر بالحر لأنها جاءت في جانب المساواة، جاءت العبد بالعبد لأنها جاءت في المساواة، والأنثى بالأنثى لأنها جاءت بالمساواة، واضح هذا عشان نفهم الآية.

أيضاً فيه وجه آخر أنه في الجاهلية في الجاهلية الحر بالحر ينظرون إليه إن كان هذا الحر شريفاً ما يقتلونه، كان أقل من ذلك وضيعاً يقتل؛ إذاً هم لا ينظرون الحرية ينظرون إلى من هو أعلى وأقل، كان رجل شريف له مكانة ما يقتلونه، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ شريف أو وضيع يقتل، فعرفنا الآن المقصود بالحر.

والعبد بالعبد قد يكون هذا العبد مملوكاً عند شخص له مكانة فيقولون لا ما دام هذا عبد فلان لا نقتله، فنقول الله يقول العبد والعبد سواء مهما كان، والأنثى قال الأنثى بالأنثى لأنهم نفس الكلام لأنهم لا ينظرون إلى الأنثى على أنها قتلت فيقولون لا تقتل الأنثى لأنها أنثى شريفة وأنثى وضيعة.

فنقتل الشريفة في الوضيع هذا نظرة من نظرة الجاهلية؛ فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يلغي هذه النظرة ويسقطها حتى تفهم هذه الآية، لأن بعض الناس يقول خلاص الحر بالحر والعبد بالعبد هذا الفقر، نقول لا الآية تحتاج منك إلى تأمل وتوضيح وترد إلى النصوص الأخرى أو الآيات الأخرى حتى تتضح.

في مسألة مهمة هي لو نلاحظ نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علينا في هذه الشريعة، ما الذي كان واجباً على اليهود؟ وما الذي كان واجباً في القصاص على النصارى؟

وحتى تعرف نعمة الله على هذه الشريعة في الديان اليهودية وفي الشريعة اليهودية ليس هناك إلا القصاص، إذا قتل شخص يقتل ما في دية ولا في تنازل ولا في عفو عندهم القصاص فقط، إذا قتل شخص شخصاً آخر يقام عليه حد القصاص ولا تنازل ولا في دية ولا في أي شيء.

والنصارى؟ قالوا في الديانة النصرانية ليس فيه قصاص أبداً إذا قتل يدفع، والآن قتل فلان يلزمه يدفع الدية، يدفع دية ويقتل مرة ثانية وثالثة ورابعة ويدفع دية، قد يكون عنده أموال طائلة فيبدأ يعيث في الأرض فساداً.

إذا جاءت الشريعة الإسلامية وسط وهذه من نعمة الله، وسط كيف؟

قال أولاً من قتل شخصاً قتلاً قتله واعتدى عليه نفسه وقتله فإنه يقام عليه حد القصاص إلا إذا عفى الولي ولي المقتول، قال أنا عفوت لا أريد القصاص يسقط، أو قال أنا أطالب أريد الدية خلاص يعطينا دية؛ وأنت إذاً جاءت الشريعة بالوسط لك أن تطالب بالقصاص وإن أردت أن تتنازل إلى الدية لك أن تتنازل الدية وإن أردت أن تعفو مطلقاً لك أن تعفو، فهذا جاء وسط بينهما.

ثم لابد أن نفهم أن القتل أنواعه ليس كل قتل تنزل عليه الآية هذه، لا القتل أنواع فيه قتل خطأ وفي قتل عمد وفيه قتل شبه عمد.

قتل الخطأ ما في قصاص أبداً، قتل الخطأ لا يقام عليه القصاص أبداً، شخص قتل أخاه المسلم خطأ لا يقام عليه الحد القصاص أبداً، وإنما يلزمه الدية والكفارة، الكفارة عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين، هذا بالنسبة لقتل خطأ.

- كيف قتل خطأ؟

افرض أنه أراد أن يصيد طائراً في شجرة فأطلق الآلة وضربت شخصاً مر شخص وسقط على الأرض ومات، هذا قتل خطأ هو ما يريد أن يقتل الرجل، أراد أن يقتل الطير أو أراد أن يضرب هدفاً تعلم الصيد أراد أن يضرب هدفاً فبدأ يضرب هذا الهدف وإذا فيه طفل أو رجل أو امرأة فأطلق عليها ومات أو ماتت، هذا يسمى قتل خطأ.

قتل العمد هو أن يكون معه آلة ويقصد بهذه الآلة قتل هذا الشخص، هذا يسمى عمد صريح، معه آلة سيف أو سكين أو آلة أو أي شيء يطلق عليه فيقتله، فهذا يسمى قتل العمد؛ هذا الذي فيه القصاص، إلا أن إذا تنازل الولي إلى الدية أو العفو.

يبقى عندنا قتل شبه العمد، شبه العمد أن تكون معه آلة أن يكون معه قصد يكون معه يريد القتل لكن ما معه آلة مثلاً، مثلاً يأتي شخص ما معه آلة ولكن أراد قتل هذا الشخص فألقاه على الأرض أو أسقطه على الأرض ثم مات، هذا نقول شبه عمد، أو تكون معه الآلة لكن لا يريد قصد قتل يريد بس أن يمزح معه وكذا فيضربه كذا أو بيده أو يخنقه ثم يموت هذا شبه عمد.

- ماذا فيه شبه العمد؟

نقول ليس فيه قصاص، شبه العمد ليست دية مغلظة.

قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 178]، يقول هذا القاتل قتل فوجب عليه القصاص فإن عفى جاءه العفو من أين؟ قال له من أخيه، من هو أخوه؟

أخوه هم أهل القتيل، انظر مع أنه مع أنه هذا قاتل وهذا مقتول سماهم إخوة دل على أن القتل لا يخرج عن الإسلام سماهم إخوة، قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: 178] يقول لو شيء قليل لو قال عفوت أو بعض الأولياء، مفرض هذا الرجل اعتدى على هذا الرجل، هذا الرجل المقتول له أولياء موجودة أبوه موجود وأمه موجودة وإخوته موجودة وأولاده موجودين، لو عفى واحد منهم افرض أنهم عشرة لو عفى واحد سقط القصاص، سقط ولذلك قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: 178] ولو قليل لو واحد منهم عفى خلاص سقط القصاص وانتقل إلى الدية.

قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 178]، اتباع بالمعروف يعني على أنك أنت صاحب الحق أنت الذي ولي القتيل هذا الرجل المقتول أنت وليه، الواجب عليك أن تتبع العفو والمسامحة والتنازل بالمعروف.

- كيف بالمعروف؟

يعني لا تؤذي هذا القاتل ولا تطالبه بشيء لا يمكن لا يجوز لأن الدية مقدرة في الشريعة في قدر معين لا تطالب بأضعاف هذه الدية بحيث أنك تضيق عليه، أنت تنازلت لله وتسامحت إلى الدية فخذ الدية المفروضة لا تزيد ولا تؤذيه ولا تضيق عليه ولا تمن عليه، هذا معنى كلمة اتباع بالمعروف.

ثم قال: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 178]، هذا القاتل؛ نحن تجاوزنا عنك تنازلنا عنك أيها القاتل من القصاص إلى الدية تنازلنا وقلنا أعطنا الدية.

- الواجب ماذا عليك؟

قال أداء إليه بإحسان يعني تؤدي بالإحسان، خلاص تأتي بالدية وتأتي افرض أنك اتفقت معهم على سنة سنتين ثلاث تؤديها ولا تماطل ولا تختفي أو تهرب أو تمانع أو نحو ذلك، هم تنازلوا عنك يعني لله فانت يجب عليك أن تحسن إليهم ولذلك قال: ﴿وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 178] أي إلى ولي القتيل بإحسان.

- قال الله في هذا ما هو؟

أي الانتقال من القصاص إلى الدية ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: 178] أيها الأمة أمة محمد الله أعطاكم هذه النعمة تخفيف من الله من ربكم بالتنازل من القصاص إلى الدية، قال: ﴿تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: 178] من الله ورحمة.

ثم قال: ﴿فَمَنِ اعتدى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: 178].

- من الذي يعتدي؟

أولياء القتيل؛ بعض الناس يقول خلاص نحن تنازلنا أعطنا الدية ثم إذا أخذوا الدية بدأ يلاحقونه بكل مكان حتى يريدون قتله، قال والله لا نتركه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 178]؛ كيف أنك تأخذ حكم الله ثم تعتدي؟ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم؛ أو القاتل قاتل لما تنازلوا عنه اعتدى عليهم وعلى غيرهم فهو متوعد بهذا الوعيد.

قال الله في نهاية الكلام عن القصاص حتى يبين لك الحكمة العظيمة، قد ياتي بعض الناس يقول يا أخي الشريعة الإسلامية هذه تدعو إلى القتل وإلى تدعو إلى يعني إنهاء الناس وقتلهم واعتداء على الأنفس، نقول لا؛ القصاص ليس هو تعدي على النفس القصاص حياة للنفوس حياة، ولذلك لاحظ ماذا قال الله قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: 179].

- كيف قصاص وحياة؟

لازم تتأمل هذه الآية؛ هذه الآية عجيبة يعني تأملها علماء بلاغة فوقفوا عندها وقفات عجيبة، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: 179]، الآن هذا القاتل لو لم يقام عليه حد القصاص ماذا سيصنع؟ سيستمر في قتله اليوم يقتل وغداً يقتل وبعد القتل ويستمر في قتله ويعيث في الأرض فساداً وينشر القتل ويحرض غيره على القتل فينتشر القتل في المجتمع.

لكن إذا جيء به أول ما قتل نفساً واحدة أحضر وأقيم عليه القصاص أولاً ينتهي هو هذا من القتل وغيره يرتدع؛ لا يمكن ان يعتدي إذا عرف أنه سيقام سيؤتى به ويقطع رأسه، خلاص يرتدع؛ فإذاً أصبح إذاً يصبح القصاص إقامته حياة للناس واستتباب للأمن وطمأنينة للناس، هذا معنى كلمة ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: 179].

ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نادى أولي الألباب ما قال يا أيها الناس يا عامة الناس، لا أصحاب العقول أصحاب الذين يعرفون أحكام الشريعة ويتدبرونها ويتأملونها، هذه لكم حياة؛ قال: ﴿يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179] تتقون الله في إقامة القصاص، لا تتركوا حد القصاص وعدم إقامة مشروعية القصاص والتهاون.

إذا تهاون الناس في إقامة القصاص انتشر الفساد في الأرض ويعني ولم يكن هناك أمن بل الناس في خوف وفي رعب ولا أحد يستطيع أن يأمل على نفسه ولا على ولا على أهله ولا على بيته، فلذلك قال الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179] الله عَزَّ وَجَلَّ في إقامة القصاص وتنشرون هذه الشريعة العظيمة التي فيها الخير وفيها استتباب الأمن وفيها إقامة العدل في حكم الله والمساواة.

نقف عند هذا القدر ونسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(33)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، أصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وهذا اليوم، يوم الأربعاء الموافق السادس عشر من شهر الله المحرم من عام ألف وأربعمائة واثنين وأربعين، نجتمع في هذا المقام المبارك الذي تحفه الملائكة بإذن الله وتغشاه الرحمة وتنزل السكينة ويذكر الله جل جلاله في الملأ الأعلى من يحضر مثل هذه المجالس المباركة.

الآيات التي بين أيدينا هي آيات تهم الجميع الحقيقة، وهي تتعلق بالوصية؛ الوصية يعني ما يوصي الإنسان في حياته لما بعد الموت، ما توصي به بعد موتك.

- ما الذي توصي به؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 180]، تلاحظ أن هذه الآية جاءت بعد ما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحكام القصاص: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾، قصاص موت، ولما جاء الحديث عن الموت ذكر الله المؤمنين بالوصية أن يوصوا بعد موتهم.

☜وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: **«إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ عِنْدَ مَوْتِكُمْ زِيَادَةً فِي أَعْمَالِكُمْ»**، زيادة في حسناتكم، والله يعني تصدق يعني شرع لنا ثلث المال بعد الموت يكون صدقةً لك وزيادةً في أجلك.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في قوله تعالى في الموتى، قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 12]، فآثارهم هي التي تكتب لك بعد الموت.

هذه الآية يقول الله فيها: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي **"فرض وأوجب الله وشرع الله لكم وأكد عليك"**، كتب عليكم قال: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾.

- كيف إذا حضر أحدكم الموت؟

يعني إذا بدأت علامات الموت وما يدل على قرب الأجل، مثل كبر السن أو المرض أو نحو ذلك، فينبغي للإنسان إذا شعر بمثل هذا الشيء أن يبادر بكتابة الوصية التي تنفعه بعد موته.

﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ هذا شرط؛ ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾.

- ما المراد بالخير؟

الخير هو المال الكثير، يقول إذا كان عندك مالٌ كثيرٌ فإنه ينبغي أن تحرص على أن توصي به، ولذلك قال: ﴿خَيْرًا﴾ سماه خير، وأنت تقول فلان عنده خير يعني مالٌ كثيرٌ. فإن كان المال قليلاً فلا تشرع الوصية، المال القليل يكون للورثة أولى.

- كيف توصي ناس بعيدين وأولادك أولى؟

فإذا كان المال قليلاً، فالأولى ألا يوصي، الأولى أن يجعل المال لذريته، هذا أولى هم أحوج من أن يكونوا عالةً على الناس الآخرين، ولذلك إذا كان عندك مالٌ زائدٌ أو الذرية قد كبروا وأصبحت عندهم بيوتٌ وأزواجٌ وعندهم أموالٌ وخيرٌ وأصبح المال عندك مالٌ، أصبح خيرٌ عندك كثيرٌ، فينبغي للإنسان أن يحرص أن يوصي بالثلث أو أقل من الثلث كالسدس أو الخمس أو أقل، فالثلث والثلث كثير، وما دون الثلث جائز.

فيوصي لوجوه الخير، مشاريع الخير التي لا تحد بحد، مشاريع الخير: طباعة الكتب، بناء المساجد، أي مشروع فيه خير توصي، تكتب الوصية وتوصي أن يكون ثلث ما ورائي من الأموال والتركة أن يصرف في وجوه الخير وتحدد أنت ما تريده، إذا أردت أن تحدد شيئاً معيناً تحدد، إذا لم ترد تفتح المجال. ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ قال الله عَزَّ وَجَلَّ لمن؟

قال: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾، انظر بدأ الله بمن هو أقرب الناس إليك، لكن لا مانع أن توصي للبعيدين.

كيف يوصي للوالدين؟

الجواب: الوالدان، الأم والأب، هم يرثون أصلاً يرثون، الأب له السدس، الأم لها السدس أو الثلث، والأب له السدس والباقي، يعني لهم مقدارٌ معينٌ، لكن قد يوجد في حالة من الحالات التي ذكرها الله نبه عليها من لا يرث من الوالدين لمانع من الموانع، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوصى الوالدين ألا ينسوا، أوصى الأولاد أو أوصى الذرية أو الولد أن ينسى والديه، أن يعطيهم حق وصية، ألا ينساهم لأن حق الوالدين عظيم.

قال: ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾؛ الأقرب فالأقرب، ما قال القريب، لا قال الأقرب، وما هو أقرب إليك أولى من الأبعد، فإذا كان الوالدان في غنى وسيأتيهم نصيبهم من الميراث والأقربين نصيبهم فتوصي بالأبعد، لكن ما دام أنه قريب، ما دام أنه قريباً من الأقربين أو قريب لك أو من الصلة فإنها تعتبر صدقةً وصلةً.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

- كيف بالمعروف؟

أي **"بما يوافق الشرع، بما يجوز شرعاً ويجوز عرفاً"**، يعني يجوز في أعراف الناس وعادات الناس المقبولة وأيضاً في شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يكون فيه وصية فيها أمرٌ محرمٌ، إذا أوصى في شيء محرم لا يجوز تنفيذ الوصية، إذا أوصى مثلاً يقول: ثلث مالي -أعزكم الله- لكلب أو ثلث مالي لشيء محرم فنقول هذا لا يجوز، هذه وصيةٌ محرمةٌ لأن الله قال: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾.

قال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾، خص الله المتقين لأنهم هم الذين يبادرون إلى الخير ويسارعون إلى الخير ولا يفرطون في مثل هذا الأمر، فالرجل التقي الصالح الذي يسارع إلى مرضاة الله يحرص على هذه الوصية.

قال الله سبحانه لما بين الله هذه الوصية وبين كيف تكون، قال بعدها: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 181]، بعد ما سمعه يعني الورثة يأتون إلى الوصية ويقرأونها ثم يأتي أو يحضرون عنده فيقول: تعالوا أنا أريد أن أكتب الوصية، فيحضرون عنده سواءً من الورثة أو من ذويه أو من أصحابه، ثم يشيرون إليه بكذا وكذا وكذا أو يقولون: لا غير في كذا.

أو إذا مات أخذوا الوصية وقرأوها ثم قالوا: لا، هذه لا يمكن أن ننفذها، هذا لو أراد الوالد يبني مسجد لبنى في حياته نحن لا نريد أن ننفذها، لو أراد أن يتصدق على أيتام صدق في حياته، ثم منعوا هذه الوصية.

ماذا قال الله؟

قال: ﴿فَمَن بَدَّلَهُ﴾ أي **"بدل هذا الإيصاء"** ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ سمعه وقرأه وتمعن قراءته، ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾، أما الأجر فسيجري للميت ولا يحرم الله الميت من هذا الأجر لو غيرها، فأجره قد وقع أما هؤلاء فعليهم الإثم.

يأتون الورثة أو بعضهم فيقولون: يا أخي نحن بحاجة ونريد أن نسدد كذا، علينا مديونية ونحن عندنا دين سيارة وعندنا دين كذا وعندنا كذا والوالد يريد أن يوصي الناس، لا حاجة للوصية، هات بس بلا وصية بلا ذا ونقسم الميراث فيغيرونها، أو يقولون لماذا الثلث؟

الثلث كثير، قد يكون خلف مثلاً خمسة عشر مليون، كم ثلثه؟ خمسة ملايين، لا خمسة ملايين كثير خلها ثلاثة ملايين، خلها مليون مليونين يكفي، فيغيرون؛ ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

هذا في حق الورثة، والموصي؟ الرجل الذي أوصى صاحب المال قد يوصي بشيء لا يجوز، فهل ننفذها ولا ماذا نقول؟ اسمع ماذا قال، قال: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 182]، هذا الموصي هو صاحب المال، من خاف من موصٍ جنفاً يعني **"ميلاً عن الحق"** أو إثماً يعني **"شيئاً محرماً"**، أوصى على شيء محرم، على آلات موسيقية على كذا على كذا، فأوصى على شيء محرم، أو جنف يعني مال في الوصية.

بمعنى قال: أوصي لفلان، أوصي لأحد أولادي، أوصي له بالوصية أما البقية لا أوصي لهم، نقول لا يجوز هذا فيه جور، فيه ظلم، تعطي واحداً والبقية ما تعطيهم فهذا فيها ظلم. فإذا أوصى أو مال في الوصية أو أعطى أحد بناته قال: البنات أوصيهم والأولاد والذكور ما أوصيهم، هذا فيها جنف وفيها ميل وفيها حيف، أو إثم إذا وجدوها.

فمن خاف من موصٍ لجؤوا إليه ووجدوه يوصي للبنات والأولاد أو يوصي لشيء محرم أو نحو ذلك يشيرون إليه وينصحونه، الواجب عليهم أن يقولوا: لا، لا توصي، هذا لا يجوز، أنت الآن تأثم على وصيتك ولا يجوز ولا تجوز ولا تنفذ.

فقال هنا: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾؛ تصلح تقول: لا، الوصية تكون بالطريقة كذا وكذا وكذا.

أو وجدوا الوصية بعد الموت فتحوها وجدوا وصية قد أوصى بشيء محرم فلا ينفذونها، ما يلحقهم الإثم ما ينفذونها، قال: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ على المصلح الذي يأتي يصلح، ما إثم عليه.

بعض الناس يقول: لا يا شيخ ما دخل في هذا، أوصى خلاص هو يتحملها خلاص مات هو يتحمل وصيته ما نريد أن نتدخل فيه، قل: لا، لابد من الإصلاح ولابد ألا تضر الميت الآن، الميت قد يكون والدك قد يكون قريب لك، لا يجوز أن تترك الوصية المحرمة ينبغي أن تعدل إلى ما هو مباح.

قال: ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفور لمن أصلح، وأيضاً غفور لمن عدلت له الوصية لأنه خلاص يرفع عنه الإثم فلا تنفذ بالحرام، هذه الآية تسمى آية الوصية، قرأناها تأملناها تدبرناها فهمناها، وهي جائزة وليست واجبة.

ينبغي للإنسان أن يكتب وصيته، يكتبها في حياته، أما إذا قرب الموت وحضر الموت عنده يكتب ما تنفذ الوصية في وقت حضور الأجل، لا تنفذ، وإنما تنفذ إذا كتبها في حياته وأشهد عليها، يكتب الوصية ويوقع عليها ويكتب التاريخ ويشهد عليها وثم بعد ذلك تنفذ.

وإن وثقت في جهة أولى، هذه الوصية التي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. هناك أمرٌ آخر قد يغيب عن كثير من الناس وهذا أمرٌ مهمٌ جداً نبه النبي ﷺ عليه قال: **«لا يَبِيتَنَّ أَحَدُكُمْ ثَلَاثَ لَيَالٍ إِلَّا وَوَصِيَّتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ»**.

هذه واجبةٌ في الديون، قد يكون أنت استدنت من شخص أخذت ديناً من المبالغ سجلها عندك لأنك لو مت وأنت ما بينت هذا الشيء لو ما يدرون، فينبغي أن أكتب هذه الأشياء، أو تكون ديونٌ

له عند فلان فما يدرون، عند فلان وعند فلان وهي وهو يدين فلان ويقرض فلان ويسلم فلان الذرية ما يدرون، فينبغي أن يسجل هذه الأشياء كلها.

يجب عليه ولا يبيت ويتركها قد ما يدري لأنه لأن الدين لما النبي ﷺ جيء برجل عليه دين، عليه دين، قال: **«صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»**، امتنع أن يصلي ﷺ، ولما قال فلان: أنا أكفله، سدد عنه دينه رآه النبي ﷺ قال: **«مَا فَعَلَتْ دَيْنُ فُلَانٍ؟»** قال: حتى الآن، ثم رآه مرة قال: ما فعلت؟

قال: سددت الدين، قال: **«الآنَ بَرَدَتْ جِلْدَتُهُ»**، بردت جلدته وهو مسلم صحابي. فينبغي أن يحرص الإنسان على مثل هذه الأمور التي ينبغي أن يكون في وعي منها ويسأل ويستشير كيف يوصي وكيف الطريقة وكذا، وهذا أولى، ولا يترك هذا الأمر، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح وأن يبارك لنا ولكم والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(34)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام والأخوات الفاضلات، نبدأ بدرسنا المعتاد الأسبوعي من كل أربعاء، وهذا اليوم هو اليوم الثالث والعشرون من شهر محرم من عام ألف وأربعمئة وثلاثة وأربعين، نكمل ما توقفنا عنده، ونحن لا نزال في آيات سورة البقرة، توقف بنا الكلام في اللقاء الماضي عند آيات الوصية، واليوم ننتقل إلى آيات الصيام؛ الآية الثالثة والثمانون بعد المئة من سورة البقرة آيات الصيام.

ونلاحظ أن يعني افتتاح آيات الصيام بقوله كتب عليكم، كما فتح الله القصاص بقوله كتب عليكم القصاص، والوصية بقوله كتب عليكم الوصية، وأيضا هنا قال كتب عليكم الصيام، ونادى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المؤمنين بصفة الإيمان بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]؛ والغرض من ذلك هو ليسترعي أسماع المؤمنين ويستجلب أسماعهم؛ لينظروا بهذا النداء وبوصفهم بالإيمان ماذا سيأمرهم به أو ينهاهم عنه.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتب عليكم الصيام، أي فرض وأوجبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكتبه، وتقدم معنى يعني التعبير بكلمة كتب عليكم.

- وأيضا كتب عليكم، ولماذا قال كتب عليكم؟

قلنا لأنه فرض مكتوب مقدر وواجب لا يتغير كالكتابة التي تكتب أنت؛ إذا كتبت كتابة فإنها تثبت، كان هذا الأمر ثابتا مستقرا كما تثبت الكتابة.

والصيام والصوم؛ والصيام هو الإمساك، الإمساك، وهو في لغة العرب **"الإمساك عن الشيء"**؛ يقول **"نهار صائم"** إذا كان لا يتحرك أو طويل، ويقال **"شمس صائمة"** إذا كانت في كبد السماء لا تتحرك، والإمساك عن الكلام صيام.

والمقصود بالصيام في هذه الآية كتب عليكم الصيام هو الصيام، هو **"الإمساك عن المفطرات في نهار رمضان"** كما هو معلوم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فرض علينا الصيام وقد يكون شاقًا صيامه على بعض الناس، فأراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يخفف هذه الفريضة على المسلمين فمهد لها بتمهيدات، فقال: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 183]؛ يعني لستم أنتم وحدكم المكلفين بهذا الأمر، لستم أنتم وحدكم المكلفين بهذا الأمر، بل إن الأمم السابقة كلفت بالصيام، كلفت بالصيام.

فالميدان ميدان تنافس؛ فإذا كانت الأمم السابقة كلفت وأمرت بالصيام فصامت، فأنتم أجدر وأحرى في بالمسابقة في هذا الميدان ومسابقتهم ومنافسة هؤلاء الأمم الماضية، فصوموا كما صاموا، بل صوموا خيرا مما صاموا.

ولذلك قال: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 183]؛ فتهون، تهون، يهون الأمر الذي قد يصعب على بعض الناس يهون الأمر إذا عرف أن غيره مكلف بهذا الأمر، وهذا من باب التهوين في الشيء والتدرج في الشيء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]؛ ولاحظ أن الصيام هنا لم يعرف حتى الآن لا في وقته ولا في مدة صيامه وأيامه ولا تحديد ذلك، وإنما قال

كتب عليكم الصيام ثم يأتي تفصيل ذلك، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من رحمته بين لنا الحكمة من الصيام فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183].

أي تخاف، أي **"التقوى هي الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"**، التقوى هي أن يلتزم المؤمن ما أمره الله به ويتجنب ما نهاه عنه، فالتزام طاعة الله بكل ما يعني بكل ما يفرض الله عليك أو يطلبه منك تلتزم ذلك الأمر وتبتعد عن كل ما ينهاك الله عنه.

فهذا هو حقيقة الصيام، هذا حقيقة التقوى، التزام ما أمر الله به والابتعاد عما نهى الله عنه، هذا هو حقيقة التقوى، ونلاحظ أن الله سبحانه قال لعلكم تتقون لماذا؟ لأن الصيام هو سبب قوي في جلب التقوى.

☜ ولذلك النبي ﷺ قال: **«الصِّيَامُ جُنَّةٌ، فَإِذَا كَانَ صَوْمُ يَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَفْسُقْ وَلَا يَسْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ»**.

والصيام الحقيقة، الصوم هو صوم جوارح؛ صوم النظر عن الحرام، صوم السمع عن الحرام، صوم اللسان عن الحرام وهكذا، هكذا هذا هو الصيام، حقيقة الصيام التزام أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولأن الصائم في الحقيقة إذا صام يعني إذا صام كان قريبا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكثير الطاعات، فهو يحافظ على الطاعات؛ على قراءة القرآن، وعلى الدعاء، وعلى الصلاة، وعلى سائر الأعمال الصالحة، ويبتعد يحفظ لسانه عن الحرام، ويحفظ جوارحه عن الحرام، وهذا معنى وحقيقة التقوى التي قال الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعلكم تتقون.

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مهونا هذه الفريضة بقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: 184]؛ يعني الصيام كله أياما معدودات وتنتهي، فلا تتصاعب أيها المسلم ويشق عليك هذا الأمر فإنه أياما معدودات وتنتهي، وهذه الأيام كلها خير في خير، أياما معدودات.

ثم هون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضا هذا الأمر الذي قد يعده البعض أنه أمر شاق، هونه أيضا زيادة على ما تقدم أن من كان مريضا، يعني معذورا بالمرض أو على سفر، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أباح له الفطر ولم يكلفه بالصيام ولم يكلفه بالصيام.

فلذلك قال فمن بالفاء، قال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ [البقرة: 184]؛ من كان منكم مريضا مرضا يمنعه من الصيام ويشق عليه أو على سفر بمعنى أنه سافر سفرا أبيحت له الرخص فيه فإنه يفطر، ولذلك قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 184]؛ ولم يقل فافطر؛ حذف فافطر لأنه لا يتناسب مع آيات الصيام أن يصرح بالفطر، فقال فعدة وهذا كافٍ أي فليصم عدة أخرى مكان هذه الأيام فعدة من أيام أخر.

وعلى الذين يطيقونه؛ وأيضا هذا من التخفيف، أي أن المريض والمسافر يفطر في أثناء مرضه وأثناء سفره ثم يقضي بعدما يزول عنه المرض أو يرجع إلى بلده فيستقر، ثم قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: 184]؛ هذه الكلمة اختلف المفسرون في معناها، فقال بعضهم **"وعلى الذين يطيقونه أو أي يقدرون على صيامه ويستطيعون صيامه من غير مشقة"**، فعلى الذين يطيقونه فدية، فمن يستطيع الصيام فله أن يفطر ويفدي، فله أن يفطر ويفدي.

فدية بمعنى أن يطعم عن كل يوم مسكينا بقدر نصف صاع، بقدر نصف صاع، وقال أصحاب هذا الرأي أن هذا الأمر كان في أول الإسلام وأن الله حث على الصيام قال: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: 184]؛ أي أراد التطوع والإكثار من الطاعات والصيام فهو خير له، ومن أفطر فعليه الفدية.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 184]؛ الصيام خير لكم من الإفطار والفدية، إذا إن كنتم تعلمون هذا الأمر فالصيام خير لكم، هذا على رأي المفسرين.

وهناك رأي آخر وهو أن معنى كلمة: ﴿عَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ [البقرة: 184] أن **"يشق عليهم ويصعب عليهم الصيام"**، وهذا يدخل فيه المريض الذي لا يرجى برؤه؛ المريض الذي معه مرض مزمن فهؤلاء يدخلون في هذه الآية، وكذلك الرجل الكبير المسن الذي يصعب عليه الصيام فيجد مشقة فهذا يعني يرخص له، ويدخل في ذلك أيضا الحامل؛ الحامل إذا كانت يصعب عليها الصيام فإنها تفطر وتطعم، وكذلك المرضع إذا كان الصيام يشق عليها وعلى وليدها فإنها تفطر وتطعم وتقضي.

قال وعلى الذين يطيقون أن يشق عليهم، فيدخل في الذين يشق عليهم المريض المزمن الذي لا يرجى برؤه، الرجل الكبير الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة التي لا تستطيع الصيام، يكلفها يعني كلفة شديدة، وكذلك وهذه الحامل والمرضع ونحوها؛ هؤلاء إذا كان يشق عليهم فإنهم يفطرون ولا يصومون ويطعمون عن كل يوم مسكينا نصف صاع كما فعل أنس رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه لما كبر سنه بدا يعني لا يستطيع الصيام فبدا يطعم يفطر ويطعم.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾ [البقرة: 184]؛ أي الصيام خير له والتطوع خير له، ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 184] لأن مشروعية الصيام فيها حكم عظيمة، فيها حكم عظيمة وفيها أيضا يعني دروس.

ويعني الصيام خير عظيم في كل ما تحويه حكم الصيام فإنه خير له، والصيام خير لمن سافر وكان لا يشق عليه السفر فالصوم خير له لأن فيه إبراء الذمة، وكذلك المريض إذا كان الصوم لا يشق عليه فإنه يصوم خير له ويقضي فريضة الله خير له من أن يقضيها في أيام أخر إذا كان إذا كان الصوم لا يشق على هؤلاء.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين بعد ذلك يعني وقت الصيام؛ نحن لا زلنا في الآيات أن الله كتب الصيام وأنه جعله أياما معدودات ثم رخص لمن رخص، ولم نعرف في أي وقت حتى جاء قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185]؛ فعرفنا أن الصيام هو في شهر رمضان، وشهر رمضان شهر من أشهر السنة القمرية، يكون بعد شعبان وقبل شوال، وهو معروف عند العرب رمضان، سمي رمضان قالوا **"لأنه سمي في وقت الشدة والحر"**، وقيل **"لأن رمضان يعني يحرق الذنوب والمعاصي"**.

قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185]؛ وصف الله هذا الشهر وميزه بأنه شهر أنزل الله فيه القرآن على محمد ﷺ، وأنزله في أشـ في خير لياليه وهي ليلة القدر، أنزل فيه القرآن أي بدأ نزول القرآن فيه، بدأ نزول القرآن فيه، ووصف الله هذا القرآن بأنه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185]؛ هذا القرآن هدى يهتدي به الناس، ويعني يهتدون به إلى صراط الله المستقيم.

قال: ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185]؛ أي الآيات القرآنية فيها بيان لهذا الهدى وللفرقان بين الحق والباطل، وهذا وصف للقرآن، وصف للقرآن أن القرآن هدى كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]؛ وقال ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185] أي هداية عامة، وهدى للمتقين هداية خاصة، قالوا وبينات من الهدى والفرقان؛ الفرقان اسم من أسماء القرآن لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل، فرق به فيه بين الحق والباطل وبين الهدى والضلالة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185]؛ أي يجب عليه من كان حاضرا قادرا مستطيعا مقيما فعليه أن يصوم، ويجب عليه أن يصوم وألا يفطر، وقد تمت فيه شروط الصيام، شروط الفرض.

الآيات الماضية وعلى الذين يطيقونه ذكرنا أن فيها قولين للعلماء؛ يطيقونه أن يستطيعون وكان هذا في أول الإسلام ثم نسخ بقوله شهر رمضان، والرأي الثاني أن يطيقونه أو يشق عليهم وعليه ليس هناك نسخ، ليس هناك نسخ وهذا هو الأرجح؛ لأن الأصل عدم النسخ ولأن القول بالنسخ عند التعارض وعدم استقامة الآيات.

فمادام أن الآيات ودلالاتها مستقيمة فلا حاجة إلى القول بالنسخ، فتكون الآية أو الآيات مجموعها أن الله فرض الصيام وكتب كما كتب على الذين على الأمم السابقة، وأنه أياما معدودات، ثم رفع الله الحرج عن المريض وعن المسافر، وأيضا الحرج عن كبير الكبير في السن أو المريض مرضا مزمنا أو نحو ذلك، فتكون الآيات بهذه الطريقة خير، يعني تكون خيرا وأفضل من أن يقال بالنسخ.

قال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185]، ثم أعاد مرة أخرى قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا﴾ [البقرة: 185]؛ ولاحظ أنه لم يقل فـ من الأول قال فمن لأنه مفرع على الحكم مرتب على الحكم، هنا لا، هنا أراد أن يعيد مرة أخرى مسألة المريض والمسافر قال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 185].

- لماذا أعادها؟

لأنه قد يفهم قد يفهم من هذه الآيات يعني أنه لما قال فمن شهد منكم الشهر فليصم أن قد يشهده المريض وقد يشهده المسافر وقد يشهده أهل الأعذار.

فأراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعيد لنا التخفيف ورفع الحرج عن المريض والمسافر، قال: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 185]؛ ولذلك قال بعدها ماذا؟ قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ [البقرة: 185]؛ قال حتى تكمل عدة شهر رمضان ثلاثين يوما أو برؤية شهر شوال، قال تكمل العدة، فإذا اكتملت العدة ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: 185]؛ كبروا الله على ما هداكم وأنعم عليكم بهذه النعمة العظيمة.

ولذلك يشرع التكبير عند غروب الشمس من ليلة العيد أن يكبر الناس حتى يصلوا صلاة العيد؛ الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر ولله الحمد؛ قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185]؛ نعمة الله على ما أولاكم من هذه الفريضة التي هي خير لكم وفيها من الأجور وفيها من الآثار والحكم الطيبة التي يحتاجها كل مسلم، بعد ذلك تأتي الآيات تتحدث عن الدعاء.

- قد يسأل سائل فيقول "لماذا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أدخل هذا الحديث عن الدعاء في آيات الصيام؟".

الجواب: لأن الصائم مرجو الإجابة؛ فإنه وقت الصيام ووقت الدعاء، وقت يعني عند الصيام عند الفطر، فالصائم له دعوة مستجابة عند فطره فحري بالاستجابة، ولذلك حث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الدعاء في ثناء آيات الصيام قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]؛ أي إذا سألك يا محمد عبادي عني هل أنا قريب أم بعيد فقل لهم إني قريب أسمع وأجيب.

قال إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون، كأن سائلا يعني سأل النبي ﷺ، كأن سائلا سأل النبي ﷺ **"أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟"**

فقال الله إني قريب، إني قريب والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قريب مطلع على السرائر والخفايا، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فيجيب دعوة الداعي إذا دعاه ولذلك قال أجيب دعوة الداع إذا دعان.

والدعاء كما ذكر أهل العلم **"ودعاء العبادة ودعاء المسألة"**؛ دعاء المسألة أن تسأل الله، ودعاء العبادة أن تتعبد بهذا الدعاء، والله قريب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قريب بعلمه من كل من كل خلقه، وهو مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، وقريب من داعٍ من يدعوه ويستجيب لهم، ولا يرد دعاءهم؛ فمن دعا بقلب حاضر دعاء مشروعا ولم يكن هناك مانع يمنع، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجيب دعوته، لكن إذا وجدت الموانع أو أسباب الرد فقد يكون هناك مانع فلا تحصل الاستجابة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة: 186] أي لطاعتي ويبادروا ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي﴾ [البقرة: 186] ويحقق الإيمان الحقيقي بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186] أي يحصل لهم الرشد، والرشد هو **"الهداية للإيمان والطاعة والاستقامة"**، والرشد ضد الغي، والرشد كمال العقل وفهم الإيمان وفهم الأعمال الصالحة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187]؛ كان في أول الإسلام في أول مشروعية الصيام أن الصائم إذا أذن المغرب وأفطر فإنه يأكل ويشرب ويباح له كل ما حرم عليه حتى يصلي العشاء أو ينام.

فإن نام أو صلى العشاء حرم عليه، حرم عليه ما أبيح حتى تغرب الشمس من الغد، وكان أحد الصحابة وهو قيس بن صرمة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه جاء كان يشتغل في النهار فجاء إلى زوجته بعدما غربت الشمس فقال **"هل عندك من طعام؟"**

فقالت **"لا ولكني أبحث"**، فذهبت ذهبت تبحث عن طعام فلما جاءت فإذا هو قد نام، فلما نام حرم عليه الأكل والشرب فنام، فلما جاء وسط النهار من الغد فسقط أغمي عليه وسقط على الأرض.

فلما علم النبي ﷺ بذلك نزلت هذه الآيات أن تبيح لهم ليلة الصيام الأكل والشرب ومباشرة النساء، فقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187]؛ أي مباشرة النساء، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: 187]؛ لأن الرجل يستر المرأة ولأن المرأة تستر الرجل فكأنها لباس. قال: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 187]؛ أي تحاول أن تخون نفسك وتخون ما أمرك الله به.

ولم يكن يقع منك خيانة، لو كان قد وقعت الخيانة لقال كنتم تخونون أنفسكم، لكن الذي يختان الذي يحاول الوقوع في الخيانة فقال كنتم تختانون أنفسكم، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة: 187]؛ فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن، تاب عليكم أي مراودة أنفسكم للوقوع في مباشرة النساء، فتاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعفا عنكم ورفع عنكم هذا الحرج وأباح لكم هذا الأمر، فالآن باشروهن؛ باشروا النساء ﴿وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: 187] من ابتغاء الولد والذرية وابتغاء الأجر والتحري ليلة القدر.

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يستغل هذه الأيام فيما ينفعه من الطاعات، ويستغل فيما ينفعه وأن أن يبعد عن المباحات وعن الشهوات إلى وقت آخر، وابتغوا ما كتب الله لكم، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [البقرة: 187] أي ليالي رمضان ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: 187]؛ أي طلوع الفجر، لأنه وقت طلوعه يكون كالخيط الأبيض الممتد من الخيط الأسود وهو ذهاب الليل من الفجر، أي وقت الفجر يعني في زمن الفجر عند طلوع الفجر.

ثم ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: 187]؛ أي إذا طلع إذا طلع الفجر عليك أن تمسك وتصوم إلى أن تغرب الشمس في كل يوم، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تنبيها لأمر آخر، لما أباح المباشرة قال باشروهن ليالي رمضان ولكن إذا كان الرجل معتكفا في مسجد من مساجد الله فإنه لا يجوز له، فإن المباشرة تبطل الاعتكاف، قال: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: 187]؛ أي دخلتم في الاعتكاف لملازمة الطاعة في المساجد.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: 187]؛ أي هذه المباشرة محرمة، تلك حدود الله التي حدها لكم فلا تقربوها، لا تقترب من حدود الله؛ نجد في آيات أخرى يقول ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229].

- ما الفرق؟

الجواب: **"حدود الله إذا جاء كلمة فلا تقربوها فهي في المنهيات، وإذا قال فلا تعتدوها ففيها فهي في الأوامر"**.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ختام آيات الصيام: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 187]؛ أي مثل هذا البيان، يبين الله آياته للناس، مثل هذا البيان الواضح الجميل في آيات الصيام وأحكام الصيام، يبين الله أيضا آياته في أحكام أخرى غير الصيام للناس لعلهم يتقون الله.

ولاحظ أنه بدأ آيات الصيام بالتقوى وختمها بالتقوى؛ لأن السر في الصيام هو تحصيل التقوى، نقف عند هذا القدر، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا ولكم، وأن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(35)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلِّي وأسلِّم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام؛ سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المتجدد؛ لقاء الأربعاء في تفسير القرآن العظيم.

هذا اليوم هو غرة صفر من عام ١٤٤٣هـ، نجتمع في هذا المقام المبارك لنتدارس آياتٍ من كتاب الله جل وعلا، ونستكمل ما توقفنا عنده في لقائنا الماضي؛ حيث توقف بنا الكلام عند الآية السابعة والثمانين بعد المئة من سورة البقرة، واليوم نواصل ونذكر الآية الثامنة والثمانين بعد المئة من سورة البقرة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 188].

أولاً هذه الآية والآية التي بعدها مباشرة وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: 189]، لو نلاحظ ونتأملها نجد أنها جاءت في موقعها المناسب؛ فالآيات التي قبلها كانت تتحدث عن الصيام، والصيام بلا شك أنه عندما تغرب الشمس يشرع الإفطار وتناول الطعام، وعند وقبل طلوع الفجر يشرع السحور وهو تناول وجبة السحور.

هذه يحتاج الإنسان فيها إلى طعام وإلى شراب وإلى أكل ليستعد لهذه العبادة الجليلة العظيمة، وبعد هذه الآية التي بين أيدينا ستأتي آيات تتحدث عن الجهاد في سبيل الله وقتال أعداء الله، والجهاد يقوم على المال؛ فالجهاد يكون بالمال وبالنفس، ويأتي بعد الجهاد الكلام عن الحج، والحج لابد أن يتوفر فيه الزاد والراحلة وهو مبني على المال.

إذاً الحديث عن المال جاء متعلقاً بما قبله وبما بعده، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: 188]؛ هذا يدل على تحريم أكل المال بالباطل، وأنه لا يجوز أن يأخذ الإنسان ماله أو مال غيره على وجوه الباطل.

لاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾؛ ومعروف أن المال قد يكون قد يستعمل أو يصرف في الأكل وقد يصرف في غيره، لكن الله ركز على الأكل لأنه قوام العيش للإنسان، ولأن أكثر ما يستعمل المال فيه هو الطعام والشراب، ولذلك عبّر فقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾.

والمقصود بأموالكم أي أموالكم أنتم حقيقةً وأموال إخوانكم المسلمين، فجعل مالك وجعل مال أخيك المسلم واحداً؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29]؛ أي لا تقتلوا أنفسكم حقيقةً ولا تقتلوا إخوانكم، وكذلك ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11]؛ أي لا تلمزوا أنفسكم ولا تلمزوا إخوانكم تستهزئوا بإخوانكم.

فأضاف المال إليهم لأن المؤمنين كالجسد الواحد، قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾؛ أي أموال غيركم وأموالكم أنتم حقيقةً وأموال غيركم، ولما قال ﴿بَيْنَكُمْ﴾ دل على أن المقصود مال غيرك؛ لا تأكل مالك، المال مال غيرك في التعامل بينك وبينه بالباطل أي بالوجوه المحرمة؛ كالسرقة، والغصب، وجحد العارية، أو بالمعاوضات المحرمة كالربا، والقمار، والغش، ونحو ذلك وغيرها من الوجوه التي يحصل الإنسان عليها بوجوه محرمة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نهى أن يتعامل الإنسان أو يتكسب المال الحرام، ودل ذلك بمفهومه أن الأصل في الأموال الحلال، وأن الأصل في البيع والشراء الحلال؛ هذا هو الأصل والإباحة.

قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾؛ فدل على أنه يجوز أكله، يجوز أكل المال ومال أخيه المسلم بالحق إذا رضيت نفسه، أو أهدى إليك، أو أعطاك، ونحو ذلك؛ هذا كله جائز.

قال: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾؛ هذه حالة خاصة من أكل أموال الناس بالباطل، قد يكون عن طريق الغصب، والغش، والكذب، والأيمان الكاذبة، وذلك عند الترافع إلى القضاء.

قال: ﴿لِتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾؛ يعني لتأتي وتجحد وتأخذ مال غيرك، مثل الذي يحصل في أخذ صكوك الآخرين وأخذ الأراضي، والمزارع، والبيوت ونحوها؛ يأتون إلى القاضي ويقول: هذا الصك وهذه الأرض باسمي، وهذا كذا، وعندي شهود، وعندي كذا؛ فيدلي بحجته إلى القاضي.

والقاضي يقضي بما يظهر له، وإذا قضى القاضي بما يظهر له فإن هذا لا يكون مبرراً لجواز الأكل بالباطل.

وقيل فيه وجه آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ أي تقدموا الرشوة للحكام حتى يحكموا لكم بالكذب.

قال: ﴿لِتَأْكُلُوا﴾؛ هذا بيان سبب الإدلاء، قال: ﴿تُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ لماذا؟ قال حتى تأكل فريقاً؛ أي تأكل مالاً أو جزءاً من أموال الناس بالباطل وبالإثم، فتأتي وتقدم حجتك حتى تأكل مال غيرك أو تأخذ جزءاً من مال غيرك بالإثم، وحكم الله عليه بالإثم لأن حجته باطلة واحتجاجه باطل.

وقد يأتي بالمحامي ويعطيه من المال، ويأتي إلى القاضي ويرشيه بالرشوة، وكل هذا يكون إثماً على فعله، قال: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي تعلمون أن هذا أمر محرم حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذاً هذه الآية جاءت متوسطة بين أحكام الصيام وأحكام الحج والقتال، وكل منها يحتاج الإنسان فيها إلى المال، فينبغي للإنسان أن ينزه نفسه، وأن يطهر ماله، وألا يأكل إلا مالاً حلالاً طيباً.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189]. هذا سؤال ورد من الصحابة، لأن الآيات التي فيها **"يسألونك"** في القرآن الكريم كثيرة وأوصلها بعضهم إلى خمس عشرة آية، وهي كلها جاءت بأسئلة وردت إلى النبي ﷺ فأجاب القرآن.

قيل إن الذين سألوا النبي ﷺ عن الأهلة قالوا: ما بال الهلال يبدو صغيراً ثم يكبر ثم يكبر فيصبح قمراً، ثم يكبر فيصبح بدراً، ثم يعود مرة أخرى فيصغر يصغر حتى يذهب؛ ما باله هكذا؟

فرد الله عليهم بجواب آخر، فقال: لا تسألوا عن ذات الأهلة ولماذا تظهر، وإنما اسألوا عن الحكمة من وجود الهلال في السماء، فرد الله عليهم ببيان الحكمة.

ولذلك قال: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾؛ يعني الأهلة خلقها الله بهذا الشكل، تهل في أول الشهر وتغيب في آخر الشهر؛ هذا لبيان مواقيت للناس، كيف يصوم الناس إلا بدخول الهلال؟ وكيف يخرج من الصيام إلا برؤية هلال شوال؟

ويعرفون العِدَد؛ عدد النساء، ويعرفون أوقات الزكاة؛ الزكاة تخرج إذا حال عليها الحول، وأوقات الكفارات، والإيجارات عموماً؛ إعطاء الأجير أجره أو التأجير وكري المنازل والبيوت ونحوها؛ هذه لابد أن تضبط بالأشهر والسنين.

وإذا لم يعرف الشهر لم تعرف السنة، فلذلك قال: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ يوقِّتون بها أحوالهم، وحاجاتهم، وكل ما يحتاجون إليه. قال: ﴿وَالْحَجِّ﴾؛ وخص الحج وإن كان داخلاً في مواقيت الناس؛

لأن الحج له مزية خاصة في الأشهر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: 197]؛ شوال وذي القعدة وذي الحجة، فلذلك خصه بالحج؛ خصه ونص عليه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر الحج؛ ذكر حالة تتعلق بالحج وهي من عادات الجاهلية، وهذه لا تعرف إلا بالرجوع إلى أحوال العرب؛ فإن الأنصار وغير الأنصار كان الواحد منهم إذا حج ثم عاد إلى بيته فلا يدخل مع الباب، وإنما يدخل من خلف البيت، قالوا: إننا خرجنا من هذا الباب وقد أذنبنا، فعدنا من الحج وقد طهرنا الله، فلا نعود مع الباب.

هذا اعتقاد منهم وظن أنهم؛ ولذلك قال الله: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾؛ يعني إذا حججت وخرجت من بيتك من بابه فارجع من بابه، ولا حاجة إلى أن تتسلق البيت أو تدخل من خلف الباب؛ هذا كله لم يكن يشرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي هذا دلالة أن كل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله فهي بدعة لا يجوز العمل بها، لأن الله أنكر على هؤلاء لما تعبدوا بعبادة لم يشرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. قال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾؛ أي البر بر من اتقى؛ أي الذي يتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو البر، والبر هو العمل الصالح؛ الأعمال الصالحة على وجه العموم، والبر العمل الصالح؛ العمل المقبول عند الله هو بر من اتقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا بر من ابتدع في دين الله شيئاً لم يشرعه.

قال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾؛ يعني يأتي الإنسان بيته من بابه، وليس هذا العمل الذي يأتيه من خلف عملاً مشروعاً.

استنبط بعض أهل العلم من هذه الآية ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ أن الإنسان يأتي الأمور من وجهها؛ فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ينبغي أن ينظر في حال المأمور ويأتيه من الطريق الأرفق به، وتتكون عنده سياسة في الدعوة إلى الله.

وكذلك كل الأمور التي يعيشها الإنسان يأتيها من الطريق السهل، ولا يأتيها من الطريق الوعر الذي يتعب نفسه فيه، وإنما يأتي إلى الطرق السهلة المفيدة النافعة؛ هذا استنباط من هذه الآية.

قال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ اتقوا الله في أعمالكم، وفي عباداتكم، وفيما يشرعه الله لكم، بأن تمتثلوا أمره وتجتنبوا نهيه، فإنكم إذا فعلتم ذلك.

● ما هي النتيجة؟

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي قد أفلحتم؛ لأن **"لعل"** للترجي في حق الله واقعة وواجبة، فقال الله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فإن التقوى سببٌ للفلاح؛ سببٌ للفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة، فمن اتقى الله فقد فاز وأفلح ونجح.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: 190]؛ يعني علاقة المال السابق الحديث عن المال؛ لأن القتال مبني على المال، والقتال قتال بالنفس وقتال بالمال، **«قَاتِلُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ»**.

● قد يأتي سائل ويسأل يقول: طيب ما علاقة الأهلة والمواقيت بالقتال؟

الجواب: لأن القتال فيه أشهر لا يجوز القتال فيها بل هو محرم، وهي أشهر الله الحرم الأربعة: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب؛ ثلاثة سَرْد وواحد فَرْد. هذه الأشهر لا يجوز القتال فيها، ولذلك تحدث الله عن القتال لما ذكر الأهلة.

قال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾؛ يعني الأقوياء الذين رفعوا السلاح عليكم قاتلوهم، أما الضعفاء كالمردة، والمزمنين، والعميان، والنساء، والأطفال، والمجانين؛ هؤلاء لا يقاتلون، والشيوخ الكبار لا يقاتلون، قاتلوا الذين يقاتلونكم الذين يقفون في وجوهكم، قاتلوهم ولا تعتدوا على هؤلاء الضعفاء.

ولا تعتدوا أيضاً بالتمثيل وقتل الحيوانات وقطع الأشجار إلا إذا كان لمصلحة راجحة بالنسبة للأشجار، أما قتل الحيوانات والتمثيل بالقتلى ونحو ذلك، فكل ذلك من التعدي الذي منعه الله وقال فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾؛ الذين يعتدون في القتال ويتجاوزون ما أمر الله به.

قال: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ﴾؛ أي الكفار الذين يقاتلونكم اقتلوهم.

● أين ومتى؟

قال: ﴿حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: 191]؛ أي في أي مكان وجدتموهم فاقتلوهم، و**"ثقفت الشيء"** غير **"وجدته"**؛ لأن ثقف الشيء هو أخذه بعد الجهد وبعد البحث والتقصي ثم تظفر به؛ هذا معنى ثقفت، ثقفت فلاناً أو ثقفت بفلان يعني وجدته بعد البحث والتقصي والاجتهاد وبذل الجهد.

ولذلك قال: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾؛ أي حيث وجدتموهم بعد البحث عنهم والترصد لهم.

قال: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ﴾ أي في أي مكان اقتلوهم، إلا كما سيأتي عند المسجد الحرام فلا يجوز، أو في الأشهر الحرم إلا إذا اعتدوا عليكم؛ إذا اعتدوا عليكم في المسجد الحرام قاتلوهم، أو اعتدوا عليكم في الأشهر الحرم على وجه الرد والدفاع فهذا جائز.

قال: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾؛ أي مثل ما أنهم أخرجوكم أخرجوهم من ديارهم وقاتلوهم، ولا تتركوهم يعتدون عليكم وأنتم تتركونهم.

قال: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾؛ أي الكفر والشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتعذيب المؤمنين وإيذاء المؤمنين أشد من القتل؛ لأن الفتنة في الدين قد تصرف الإنسان عن أن يموت على التوحيد وعلى العقيدة ولذلك قد يرتد؛ فالفتنة أشد.

وبقاء الفتنة على الأرض هذه تسبب صرف الناس عن طاعة الله وعن إظهار دينه، فلذلك لابد من مقاتلة هؤلاء حتى نُخمد هذه الفتنة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر القتال وأمر به على وجه الإطلاق؛ حدد فقال: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 191].

لا تقاتلوهم لأن المسجد الحرام يحرم القتال عنده حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم؛ كذلك جزاء الكافرين؛ لأن حرمة المسجد الحرام محرمة؛ حرمها إبراهيم ولم تُحل لأحد إلا للنبي ﷺ ساعة من نهار ثم عاد التحريم، فلا يجوز القتال عند المسجد الحرام أبداً، لا يجوز إلا من اعتدى علينا وقاتلنا فإننا نرد عليه بالقتال؛ كذلك جزاء الكافرين لأن من يقاتل هو كافر.

قال: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾؛ أي الكفار، ورفعوا عنكم القتال واستسلموا لكم وانقادوا لكم ودخلوا في دينكم؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 192].

أي قد غفر لهم كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38]، فإذا انتهوا عن ذلك غفر الله ما قد سلف وعفا عنهم.

ثم قال مرة أخرى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تأكيداً على القتال لما ذكر الحالة الخاصة وهي القتال عند المسجد الحرام؛ عاد مرة أخرى وقال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 193]. وبين الحكمة في هذه الآية.

● لو جاءك شخص قال لك: لماذا الله أعاد الحديث عن القتال وقد ذكره قبل ذلك؟

الجواب: ليرتب عليه بيان الحكمة من مشروعية القتال؛ لو جاءك شخص وقال لك: لماذا يشرع القتال في الإسلام؟ لماذا الإسلام يكون فيه قتال؟ ما الحكمة؟

فنقول قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾؛ حتى لا يكون كفر وشرك بالله، ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾؛ يعني هذه الحكمة من مشروعية القتال؛ أن يُقضى على الشرك والكفر وأن يظهر دين الله ليكون عزيزاً ظاهراً.

قال: ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ هؤلاء الكفار ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾؛ يعني إذا انتهوا عن قتالكم فلا تقاتلوهم ولا تعتدوا عليهم، فإن العدوان لا يكون إلا على من ظلم واستمر في كفره وشركه وطغيانه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194].

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القتال وأكد على الجهاد في سبيل الله ورفع راية الإسلام والقضاء على الشرك، بين أنه قد يكون هناك أشهر محرمة لا يجوز القتال فيها لأن الله حرمها ومنع القتال فيها؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾.

قال بعض المفسرين: **"إن أهل مكة لما منعوا النبي ﷺ من العمرة في ذي القعدة في سنة ست لما جاء في صلح الحديبية ومنعه المشركون، واتفقوا على أن يعود مرة أخرى في عمرة القضاء التي قاضى بها أهل مكة"**.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾؛ يعني بدل هذا الشهر وهو ذو القعدة، الشهر القادم أنكم تدخلون مكة؛ وهذه بشارة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه محمد بأن الله سيعوضه بالعمرة التي فاتته.

وقيل المعنى ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي من اعتدى عليكم في الشهر الحرام فاعتدوا عليه، ومن عظم الشهر الحرام فعظموه، أي البلد الحرام والشهر الحرام ينبغي أن يعظَّم وينبغي أن لا يُقاتل فيه، فمن قاتَل قُوتل، ومن هتك المسجد الحرام أو هتك البيت الحرام أو هتك الشهر الحرام فلا تتركوه فقاتلوه رداً على هتكه وعلى قتله.

ثم قال: ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾؛ أي ما كان دون القتال كمن جَرَح يُجرح، ومن قَطع يُقطع، ومن أخذ مالاً يؤخذ ماله وهكذا؛ فما دون النفس الحرمات قصاص.

ثم قال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني من اعتدى بالقتل، أو بالسلب سلب المال، أو القتل، أو الإيذاء؛ فإنه يعامل بمثل ما عامل، هذا عدل الله وهذا حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أن من اعتدى يُعتدى عليه بقدر ما اعتدى وبمثل ما اعتدى، ولا يجوز التجاوز.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ هذا تذكير لهم بأنه لا يجوز إذا اعتدى عليك أحد أن تأخذ حقك وزيادة على وجه التشفي، وأن تزيد على حدك تتجاوز الحدود التي أجازها الله لك بأن تقع في الحرام؛ هذا لا يجوز.

فيجب عليك أن تراقب الله لأن الله أمرك بالتقوى، والله معك لأنه ينصرك ويؤيدك؛ وهذه المعية كما ذكرها أهل العلم معية خاصة؛ معية الله مع عباده المتقين بالنصر، والعون، والتوفيق، والتأييد ونحو ذلك، فمن اعتدى عليه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

مثل ما ذكرنا سابقاً؛ الحج والجهاد في سبيل الله يحتاج إلى نفقة، فيؤكد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيقول: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]. أي في الجهاد وفي أي وجه من وجوه الخير؛ كلمة **"سبيل الله"** يدخل فيها الجهاد دخولاً أولياً، وأيضاً في كل طرق الخير من الصدقة على المساكين، وعلى القريب، والإنفاق، وبذل الخير، وصنائع المعروف، وغير ذلك من وجوه الإنفاق في سبيل الله.

ثم قال: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾؛ تحذير من أنه إذا لم تنفق في سبيل الله ولم تخرج للجهاد فإنك ستوقع نفسك للعدو، ستسلِّم نفسك للعدو.

فيجب عليك أن تبذل جهدك في مقاتلة العدو؛ لأن ترك الجهاد وعدم رد العدوان هذا إلقاء بالنفس إلى التهلكة؛ أنك تسلم نفسك للعدو فيجب أن تقف أمامه.

ويدخل في ذلك ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ على وجه العموم أن الإنسان لا يخاطر بنفسه؛ إما أن يسلك طريقاً مخوفاً فيه سباع وفيه حيّات أو فيه عدو أو فيه أمطار ونحو ذلك، كالذين يخاطرون بأنفسهم في الأودية أو نحو ذلك؛ كل ذلك من إلقاء بالنفس أو بالأيدي إلى التهلكة؛ كل ذلك لا يجوز.

وكذلك شرب المحرمات كالدخان والمسكرات ونحو ذلك؛ كل هذا داخل في أن يلقي بيديه إلى التهلكة؛ كل هذا لا يجوز، فالإنسان يحفظ نفسه من كل ما يؤدي إلى الهلاك؛ حتى المعاصي والإقامة عليها كل هذا داخل في أن يلقي بيديه أو يلقي بنفسه إلى الهلاك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾؛ أي أحسنوا بالنفقة في المال، وأحسنوا بالتعامل مع الناس، وأحسنوا إلى أنفسكم بكل ما تعنيه كلمة الإحسان، بأن يحسن إلى نفسه بكل ما يكون فيه نفع؛ فيحسن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويحسن بالعمل الصالح، ويحسن بقضاء الحوائج للناس وتفريج الكرب.

ويحسن بكل ما يدخله الإحسان، حتى إنه يحسن في عبادته؛ والإحسان **«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**. حتى العبادات يحسن؛ يحسن إلى الوالدين، يحسن إلى الجيران، يحسن إلى الأصدقاء، يحسن إلى الأبناء، يحسن إلى إخوانه المسلمين، يحسن في عباداته، يحسن في أخلاقه؛ فكلمة **"أحسن"** عامة يدخل فيها كل هذه الأمور.

بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد هذه الآية يذكر الله أحكام الحج في قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196]؛ وهذا الحديث يحتاج منا إلى وقفة غير هذه الوقفة، فلعلنا نقف عند هذا القدر وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

نسأل الله أن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(36)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدّين، أما بعد:

أيها الإخوة الحاضرون، وأيها الإخوة المستمعون، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الأربعاء من كل يوم أربعاء بعد المغرب، نبدأ بهذا الدرس المعتاد في تفسير القرآن العظيم، هذا اليوم هو اليوم الثامن من شهر صفر من عام ألف وأربعمائة وثلاث وأربعين.

الآيات التي بين أيدينا هي تقريبًا نبدأ من الآية السادسة والتسعين بعد المئة من سورة البقرة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196]. هذه الآية سبق الحديث في اللقاء الماضي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر أحكام الصيام، ثم أردفها بالتأكيد على أكل الحلال الطيب ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: 188] فنهى عن أكل الحرام وأكد على أكل الحلال لما يحتاجه الصائم.

ثم ذكر أحكام الجهاد والقتال في سبيل الله الذي يحتاج إلى مال ويحتاج إلى سفر، ثم أردف بعد ذلك ذكر أحكام الحج لأن الحج جهاد، ولأن الحج يحتاج إلى مال، ولأن الحج يحتاج إلى سفر، وهو قريب من الجهاد؛ لأن النبي ﷺ كان يخرج في سفره إما للجهاد وإما للحج أو العمرة.

فذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك أحكام الحج بعدما ذكر أحكام الصيام، والحج هو الركن الخامس، والصيام هو الركن الرابع. فلما ذكر أحكام الصيام ذكر أحكام الحج، فبدأ بقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196]. قيل إن هذه الآية نزلت في السنة الثالثة في سنة الحديبية، وإن الحج شرع وفرض في السنة الثالثة، وحج أبو بكر وحج علي في السنة التاسعة، وحج النبي ﷺ بالسنة العاشرة حجة الوداع.

الآية التي بين أيدينا قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196] لم يأتِ في الآية حُجُّوا واعتمروا، وإنما قال أتموا، وكلمة أتموا هي أبلغ وأقوى في الدلالة مثل لما يقال في الصلاة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 43] لم يقل صَلّوا، وإنما قال أقيموا الصلاة. لماذا؟ لأن الصلاة فيها ما هو فرض وفيها ما هو نفل، ولأن الصلاة لابد أن يقيم أحكامها وأركانها وواجباتها؛ فلذلك قال أقيموا.

كذلك الحج هنا لما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بمشروعية الحج وفرض الحج، والحج قد يكون فرضًا وقد يكون نفلًا، والعمرة أيضًا قد تكون واجبة وقد تكون نفلًا، قال وأتموا؛ يعني التزموا بأحكامها وشروطها، بأحكام الحج وشروطه، وأحكام العمرة وشروطها وواجباتها وسننها وفرائضها؛ التزموها وحافظوا عليها، هذا المقصود بـ **(وأتم)**.

وكذلك أيضًا يستفاد من هذا أن من شرع في الحج، وإن كان حجًا مستحبًا ونافلة، والعمرة كذلك، إذا شرع فيها وجب عليه إتمامها، ولو كانت في حق المعتمر أو الحاج نفلًا فيجب إتمامها.

وكذلك مثل ما ذكرنا أن كلمة ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196] المقصود منها هو إتقان العمل وإحسان العمل، والإتيان بكل ما يلزم من الفرائض والأركان والواجبات والسنن والمستحبات، هذا معنى ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196].

وكذلك يستفاد من هذه الجملة أنه ينبغي أن يكون الحاج يحج لله والمعتمر يعتمر لله لا لأمر آخر من أمور الدنيا، فهذا فيه إشارة إلى الإخلاص؛ قال لله لا لغيره، ففيه إشارة إلى الإخلاص، وأنه لا يجوز للإنسان أن يخرج من إحرامه حتى يتم حجه وعمرته.

فلما أكد هذا الأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فرع عليه مسألة وهي مسألة الإحصان والمنع؛ لأن الغالب من الحجاج والمعتمرين أنهم يقطعون مسافات بعيدة ويسافرون لأجل الحج والعمرة، فقد يعرض لهم عارض، ولذلك ذكر حكم هذا العارض فقال: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196] أي إذا مُنعتم، منعكم أي مانع.

ولذلك قال أحصرتم ولم يقل أحصركم شيء؛ لأن الإحصار يتنوع، وقد يمنع بسبب مرض أصابه فمنعه من إتمام الحج أو العمرة، أو مثلًا ضل الطريق، أو ذهبت نفقته، أو صده عدو، أو منعه أي مانع من الموانع، فإذا منعه أي مانع من الموانع فإنه في هذه الحال قال: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فما اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196].

أي إذا مُنعت فعليك أن تهدي، يجب عليك أن تهدي، أي يجب عليك هذه الفدية، يجب عليك أن تذبح هديًا، يعني يذبح لله حتى يخرج من إحرامه.

والهدي هو ما يجزئ في الأضحية؛ إما سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة، أو نحو ذلك مما يجزئ في الأضحية، فإذا ذبح له بعد ذلك أن يحلق ثم يتحلل من إحرامه، كما فعل النبي ﷺ، فإنه في صلح الحديبية نحر ثم حلق ثم تحلل ثم عاد ورجع وكتبت له العمرة؛ لأنه مُنع وأُحصر بغير اختياره.

أما الحج فقال بعضهم: **"إن كان الحج فرضًا فإنه يتحلل منه بهذه الطريقة ثم يحج من عامه القادم"**.

وبعضهم قال: **"إذا مُنع وأُحصر عن دخول عرفات ونحوها من المشاعر فإنه يقلبها عمرة ويؤديها عمرة فيذهب إلى الحرم ويؤديها عمرة"**.

وقال بعضهم: **"إن كانت من النوافل فإنه يكتب له أجر الحج ويعود وليس عليه شيء إذا كانت نفلًا، أما إن كانت فرضًا فإنه يتحلل ويعود ويحج من عامه القادم"** على خلاف بين الفقهاء في هذه المسألة.

فلما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر حكم الإحصار، وهذا الإحصار لابد أن ننبه عليه وهو أنه إذا لم يشترط على نفسه، فإن اشترط قال **«إن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني»** فلا هدي ولا شيء عليه بل يتحلل ويعود.

☜ لحديث ضباعة بنت الزبير أنها اشتكت قالت: **"إني أجد نفسي شاكية"**، يعني متعبة، فقال النبي ﷺ: **«حُجِّي وَاشْتَرِطِي، وَقُولِي: اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي»**.

فدل هذا الحديث على أنه إذا أحرم واشترط بهذا الشرط فإن أُحصر ومُنع بأي مانع من موانع فإنه يتحلل من إحرامه ويعود ولا شيء عليه؛ لا فدية، ولا ينحر، ولا عليه هدي ولا شيء.

لما تحدث سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن حكم الإحصار، وأنه إذا أُحصر فعليه الهدي وأن يحلق ويتحلل، ذكر أحكام الحلق قال: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: 196].

أي أيها المحرم، إذا دخلت في الإحرام وتلبست بالحج أو العمرة، فإنه لا يجوز لك أن تأخذ من شعرك شيئًا؛ لا من شعر رأسك ولا من شعر بدنك، لا يجوز وهذا من محظورات الإحرام التي منعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويقاس على ذلك أيضًا قص الأظافر لما فيه من الترفه، بجامع الترفه؛ فمحظورات الإحرام من قص الأظافر، وتغطية الرأس، ولبس المخيط، ولبس الخفين للرجال، والتطيب للرجال والنساء، ولبس القفازات للنساء، والنقاب للنساء، هذه كلها تعد من محظورات الإحرام.

إذا فعلها الإنسان جاهلًا أو ناسيًا فلا حرج عليه، وإن فعلها قاصدًا فعليه الكفارة؛ كفارة الأذى، فإن غطى رأسه قاصدًا فعليه كفارة الأذى، وإن لبس المخيط ونحوه فهذه تسمى فدية الأذى وتسمى محظورات الإحرام.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ [البقرة: 196] ذكر أشهر هذه المحظورات وهو حلق الرأس، قال: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة: 196] يعني يأتي وقت نحر الهدي وهو يوم العيد.

- فمن كان منكم مريضًا بسبب مرض، أو به أذى من رأسه، شيء يؤذيه في رأسه، فماذا يصنع؟

الجواب: احلق، اقصد الحلق ولا حرج عليك، احلق وعليك الكفارة.

- ما هي كفارة الأذى هنا؟

كفارة هذا الارتكاب المحظور قال: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: 196] يعني مُخيّر مَن يقع في هذه المحظورات المذكورة أنه يخير بين ثلاثة أشياء؛ إما أن يصوم، أو يتصدق، أو يذبح شاة. يصوم كم؟

يصوم ثلاثة أيام، فمن غطى رأسه قاصدًا أو لبس المخيط، أو تطيب أو مثلًا المرأة تنقبت أو لبست القفازين، فعليها هذه الفدية؛ أن تصوم ثلاثة أيام، أو تتصدق على ستة مساكين كما جاء في السنة، أو تذبح شاة وتوزعها على فقراء الحرم، فهذه تسمى فدية الأذى.

فمن وقع في محذور من محظورات الإحرام المذكورة فعليه هذه الفدية. قال: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ [البقرة: 196] أمنتم من الإحصار والمانع، إما بسبب أمطار غزيرة أو عدو أو مرض أو نحو ذلك مما ذكرناه. فإذا أمنتم ووصلتم إلى الحرم ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ [البقرة: 196] ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذا هو أحد أنساك الحج، وأنساك الحج ثلاثة؛ التمتع وهو أفضلها، والقران، والإفراد.

قال: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ [البقرة: 196] يعني أتى بالعمرة ثم تحلل منها وتمتع بالمحظورات الممنوعة منه، ثم أحرم بالحج؛ هذه صفة التمتع.

قال: ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196] أي أنه يجب عليه أن يهدي، والهدي مثل ما ذكرنا الهدي أن سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة مما يجزئ في الأضحية.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: 196] أيضًا ينبغي التنبه إلى أن المحصر إذا أُحصر مثل ما ذكرنا ولم يشترط فعليه أن يذبح الهدي ويحلق ويرجع، إذا لم يجد الهدي، إما لم يجد الهدي أو لم يجد قيمة الهدي فنقول عليه أن يصوم عشرة أيام.

وكذلك المتمتع إذا لم يجد الهدي فعليه أن يصوم عشرة أيام؛ ثلاثة في الحج تبدأ من أول الإحرام، وقال بعضهم إنها هي اليوم السابع والثامن والتاسع، وسبعة إذا رجع، أي إذا انتهى من الحج، ولو كان في مكة وانتهى من أعمال الحج فله أن يصوم، أو يصوم في الطريق، أو يصوم إذا رجع إلى بلده.

قال هذا الأمر كله في المتمتع الذي قدم من بلد بعيدة ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 196].

- ما ضابط حاضري المسجد الحرام؟

قال أهل العلم: **"ما كان دون المواقيت"**.

قال بعضهم: **"ما كان دون مسافة القصر"**، وعلى خلاف في ذلك، ولعل الأرجح-الله أعلم أنه ما كان دون المواقيت فهذا يعتمر ليس عليه هدي.

وما كان من وراء المواقيت فإن عليه الهدي إذا كان متمتعًا، ويلحق بذلك القارن.

- ما السبب في ذلك؟ لماذا يكون عليه الهدي؟

الجواب: لأن الله مَنَّ عليه في سفره بنسكين؛ نسك العمرة ونسك الحج وتمتع بينهما، فلزمه الهدي، وكذلك القارن لأنه قارن بين العمرة والحج، ويفهم من ذلك مفهوم المخالفة أن من لم يكن متمتعًا ولا قارنًا بل كان مفردًا فليس عليه هدي، هذا معنى هذه الآية.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ختامها: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: 196]؛ اتقوا الله فيما تأتون وما تذرون، راقبوا الله في أعمالكم في الحج والعمرة.

وأكد على قضية التقوى في الحج في مواضع متعددة؛ لأن الحج قائم على تقوى الله ومراقبته في جميع الأعمال، ولأن الحجة عمل بدني وعمل يتعلق باللسان والذكر وبالبدن في الأعمال ويتعلق بالقلب، وأعماله كثيرة.

ولأن الإنسان يختلط بالناس ويتنقل من مكان إلى مكان، فأكد الله على قضية التقوى، ولأنه يحتاج الإنسان إلى مال وإلى طعام وإلى سكنى وإلى مكان يبيت فيه، فأكد الله على قضية التقوى وشدد فيها تشديدًا عظيمًا حتى قال: ﴿أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: 196] أي لمن يخالف أوامره ولمن يرتكب محظوراته.

على المسلم وعلى المؤمن الحاج أو المعتمر أن يراقب الله في حجه وفي عمرته من أول ما يتلبس بها إلى أن يخرج منها، يراقب الله ويتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى يكون حجه قد قبله الله، ويكون حجه سببًا في رجوعه كيوم ولدته أمه، وكذلك العمرة تكون كفارة للعمرة الأخرى.

هذا معنى قضية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: 196]. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: 197] أي أن الحج معروف ومعلوم عند العرب، ومعلوم منذ وقت إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: 197].

قال أهل العلم: **"إن أشهر الحج هي شوال، وذو القعدة، وأيضًا عشر ذي الحجة"**، فهذه هي أشهر الحج التي يخرج فيها الحج ويحج الناس فيها. فمن اعتمر فيها ثم حج من تلك السنة يعتبر متمتعًا، أو من حج فيها بأن دخل في الحج من أول شوال أو ذي القعدة فإن حجه قد وقع في وقته.

قال: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ [البقرة: 197].

ما معنى فرض فيهن الحج؟

الجواب: لأن الأشهر المذكورة هذه لا يقع الحج إلا فيها، ولابد أن يكون قد فرضه وألزم نفسه في هذه الأشهر المعروفة.

- ما هي النتيجة؟

قال إذا لزمت الحج ودخلت وتلبست بالحج وتلبست بالعمرة.

- ما هو الحكم؟

قال: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: 197] أي أنه يتجنب هذه الأمور الثلاثة الخطيرة التي تتنافى مع التقوى، وتخالف التقوى.

فالرفث هو الحديث عن النساء، الحديث عن النساء يتعلق بهن وهذا لا يتناسب مع الحج؛ الحاج هو جرد نفسه لله وترك الدنيا وراءه، حتى ملابسه تركها وتجرد منها ولبس رداءه ولبس إزاره وأقبل على الله، فلا يتناسب أن يتحدث عن أمور الحج في مثل هذا المقام، ولا يجوز له أن يتحدث عن أمور النساء في هذا المقام.

قال: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ [البقرة: 197]. وكذلك مثل ما مر علينا في آيات الصيام أن المعتكف قال: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ﴾ [البقرة: 187]، ولما قال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة: 187] دل على أنه في نهار رمضان لا يجوز الحديث عنهن ولا يجوز مقارفة ومباشرة النساء.

قال هنا: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة: 197] أي المعاصي ومحظورات الإحرام، لا يجوز أن تقع من الحاج أو المعتمر؛ يجب عليه أن يتقي الله ولا يخالف أمر الله في ارتكاب المعاصي.

يجب عليه أن يبتعد عن حلق اللحى، وشرب الدخان، وتركه الصلوات، والجهر بالمعاصي ونحو ذلك من المعاصي التي تتعلق باللسان أو بالجوارح؛ كل ذلك يجب عليه أن يتقي الله وأن يبتعد عن كل ما يؤدي إلى الفسوق وإلى محظورات الإحرام.

وكذلك: ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ [البقرة: 197] لا يجادل ولا ينازع ولا يماري ولا يخاصم في أيام الحج؛ لأن الحج دائمًا تقع فيه المنازعات والمخاصمات في تنقلاته من عرفات إلى مزدلفة إلى منى إلى الحرم ونحو ذلك مع كثرة الزحام، فنهى الله عن هذا الأمر إلا إذا كان هذا الجدال جدالًا بالتي هي أحسن، ونافعًا وثمرته ظاهرة. قال: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: 197].

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 197] لما نهى عن هذه الأمور المحرمة، حثهم على أمور الخير قال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 197]، أي خير تفعله في خير يتعلق بالقول أو بالفعل أو بأي شيء من هذه الأمور، فإن الله يعلمه ويجازيك عليه.

فإذا كان يعلمه الله فإنه يكتب لك وتجازى عليه، ثم حث سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحج على تزود الخير قال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197]. والتزود هنا يشمل التزود من الزاد وهو المال والراحلة، ويشمل أيضًا زاد التقوى وهو الطاعة والإكثار من ذكر الله ومن الصلاة ومن الصدقة ومن أعمال البر كلها.

لأن الله قال: ﴿خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: 197]. وتقوى الله هي خير الزاد بأن تلتزم أوامره وتجتنب نواهيه. ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197] أي اتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا تتقوا غيره، واجعلوا عملكم لله. وخص أولي الألباب لأنهم هم أصحاب العقول النيرة، هم المنتفعون بالخطابات، أما غيرهم فلا ينتفع؛ فالجهلة الذين ليسوا من أولي الألباب لا ينفع معهم مثل هذا الأمر؛ ولذلك لا يتقون الله ويقعون في المحرمات ويخالفون.

وتجد بعضهم يذهب إلى الحج ويرجع وما استفاد شيئًا من ذلك، وحتى حجه قد لا يقبل منه، وكذلك العمرة، فهذا معنى ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197].

قال الله سبحانه بعد ذلك، لما ذكر أحكام الحج، ذكر شيئًا يتعلق بأحكام الحج لما كان الناس يأتون من مسافات بعيدة ويقضون أيامًا في مواسم الحج؛ ذكر الله حكمًا يتعلق بذلك وهو ما يتعلق بالتكسب في الحج وابتغاء فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في البيع والشراء؛ هل له أن يفعل ذلك وهو حاج؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198] أيها الحجاج، في البيع والشراء والتكسب إذا كان التكسب حلالًا مقصودًا به طلب الفضل من الله وطلب رضا الله، فلا جناح أن يقع منكم البيع والشراء والتكسب في مواسم الحج؛ لأن الحج يأخذ

وقتًا طويلًا وقد إنسان يحتاج إلى البيع ويحتاج إلى الشراء ويحتاج إلى التكسب ليتزود للحج، هذا لا مانع أباحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ [البقرة: 198] بدأ يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحكام الحج العملية؛ فقال إذا أفضتم من عرفات، وذكر عرفات لأنه ركن من أركان الحج. ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ [البقرة: 198] أي اندفعتم من عرفات، فدل على أنه لابد من الوقوف بعرفة، وأن الوقوف بعرفة كان معروفًا وهو ركن من أركان الحج.

فإذا دفع الحاج من عرفات توجه إلى مزدلفة، فلابد أن يكون قد وقف بعرفات، قال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198]، والمشعر الحرام هو مزدلفة وهو ليلة جمع، فيدخل الحاج بعد غروب الشمس متوجهًا إلى مزدلفة فيقف عند المشعر الحرام ويضع رحله ويصلي ويبيت تلك الليلة، فإذا أصبح دعا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وذكر الله حتى يسفر ثم يتوجه إلى منى.

قال: ﴿وَاذْكُرُوهُ﴾ [البقرة: 198] أي اذكر الله وأكثر من ذكره، وهذا هو المقصد من الحج وهو ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والإكثار من ذكره وإقامة ذكر الله.

قال: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: 198] أي هداكم إلى هذا الطريق، وهداكم إلى دينه وإلى مناسكه وإلى شرعه، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: 198] أي أنكم لم تحصلوا على هذا العمل وهذه الأعمال ولم توفقوا إلى الهداية في الحج والعمرة، ولم تكونوا تعرفون وتعملون هذه الأعمال إلا بعدما هداكم الله ومنَّ عليكم.

فاذكروه كما هداكم ومنَّ عليكم، فهي أعظم النعم؛ نعمة الهداية التي يجب على المسلم شكرها ومقابلتها بذكر المُنعم بالقلب واللسان. تذكر المنعم عليك وهو الله بالقلب واللسان.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: 199] أي أنه بعد الوقوف بالمشعر الحرام يتوجه الناس إلى منى.

قال بعض المفسرين: **"إن المقصود بالناس هنا هو منذ أن شرع إبراهيم هذه المناسك إلى وقتنا، فالناس كلهم يفيضون من هذا المكان ويقيمون هذه الشعيرة"**.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 199] أي أكثر من الاستغفار؛ فإن هذه مواطن الذكر ومواطن الاستغفار، فعلى الإنسان أن يكثر، ولأنه هنا قد انتهت أعمال الحج تقريبًا، ففي يوم الحج الأكبر وهو يوم العيد يؤدي الحجاج أكثر أعمال عليهم وتنتهي أعمال الحج تقريبًا إلا اليسير منها.

ولذلك إذا انتهت أعمال الحج فعليه أن يكثر من الاستغفار، لأن الاستغفار يرقع ما سقط منه وما وقع منه من خلل، يكمل هذه الشعيرة بكثرة الاستغفار، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصف نفسه وسمى نفسه الغفور ووصف نفسه بالمغفرة والرحمة.

قال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: 200] انتهت أعمال الحج وقضيتم المناسك ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 200] أي أكثر من ذكر الله، وهذا أمر عجيب أن الحج دائمًا مرتبط بكثرة الذكر.

فإذكاره كثيرة منذ أن يحرم وهو يلبي إلى أن يرجع وهو يكثر من ذكر الله. ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: 200] لأن من الناس، يعني كان أهل الجاهلية إذا جاءوا من الحج أكثروا من ذكر آبائهم ومجدوا آباءهم وذكروا بعض صفات آبائهم وبدأوا يمجدونهم ويعظمونهم ويقدسونهم؛ فقال الله ذكر الله أعظم من ذلك، ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مواقف الناس في الدعاء، لأن الحج مواطن دعاء وذكر.

قال: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة: 200] يطلب الدنيا، وهذا نقص في عقله.

- كيف يطلب الدنيا ويترك الآخرة؟

قال يطلب الدنيا فقط: ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: 200] أي ليس له نصيب في الآخرة إذا كان همّه الدنيا فقط. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201] وهذا هو الدعاء الذي ينبغي للإنسان أن يكثر منه، ولذلك شرعه النبي ﷺ في الطواف بين الركنين أن يكثر من هذا الدعاء.

والمقصود بقوله آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة؛ الحسنة في الدنيا قيل: **"الأعمال الصالحة والتوفيق للأعمال الصالحة"**، والحسنة في الآخرة هو **"الفوز بالدار الآخرة والفوز بجنات النعيم"**.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: 202].

- من هم هؤلاء؟

الذين دعوا؛ فمن دعا في الدنيا أعطاه الله نصيبه، وهذا دليل على أن الله يستجيب لمن طلب الدنيا ويستجيب لمن طلب الآخرة.

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: 202] إنه يحاسب عباده في لحظة، يحاسب عباده في ساعة، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

لعلنا نقف عند هذا القدر ونكتفي بما ذكرناه، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(37)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدّين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذه الليلة المباركة، لقاؤنا في تفسير القرآن العظيم، ولا زلنا في هذه السّورة العظيمة سورة البقرة، وتوقف بنا الكلام في لقائنا الماضي عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198].

هذه الآية ما نقرؤها تحتاج منا إلى تدبر وتأمل ووقفات، هذه الآية تتحدث عن أحكام الحج، وقبلها آيات ماضية عن أحكام الحج من حيث إتمام الحج والعمرة لله، وأحكام الهدي، وما يتعلق بذلك من مما يتعلق بمناسك الحج.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198].

- ما معنى هذا؟

نعم؛ أي أن الحاج إذا قدم إلى الحج وقصد الحج بيت الله، قد يكون هذا الحاج يأخذ منه وقت طويل في مكثه في مكة وفي مشاعر الحج ومناسك الحج، قد يكون قد أتى من أماكن بعيدة فيمضي أحياناً أشهر وأحياناً أيام طويله ويمكث مدةً، والحج كما هو معلوم يحتاج إلى زاد ويحتاج إلى مال.

هي العبادات يعني متصلة بعضها ببعض، ومناسك ومسافات تحتاج إلى نقل تنقلات في عرفات وفي منى والمزدلفة وفي الحج وفي الطواف؛ كل هذه الأمور تحتاج إلى أن يعني يتزود الإنسان ببعض الزاد.

فلذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من حكمته جل جلاله أن أباح للناس التزود والتكسب والبيع والشراء والتجارات في الحج، ليس هناك حرج.

- قد يتحرج بعض الناس يقول: "يعني الإنسان يأتي إلى الحج لقصد العبادة وتحقيق أمر الله وإقامة هذا الركن العظيم وهو ركن الحج، فكيف تأتي وتشتغل بالتجارة وأنت جئت بقصد الحج؟"

الجواب: لا بأس، الإنسان يتكسب ويبيع ويشتري، بل إن هناك أسواق كانت تقام، أسواق كانت تقام في منى وتقام في مشاعر عند العرب معروفة عندهم في يقيمون فيه الأسواق والبيع والشراء، فنقول في مثل هذا لا بأس.

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رخص لما قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة: 198]؛ يعني لا إثم عليك أن تبتغي وتبيع وتشتري في أيام الحج، لأن هناك من يأتي من أقطار الأرض يأتون بتجارات معهم ويأتون ببضائع معهم ويتكسبون، فلا بأس بهذا الأمر والله عَزَّ وَجَلَّ رفع الحرج في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198].

ولاحظ لما تقرأ هذه الآية: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾؛ لا ينبغي للإنسان أنه إذا باع واشترى وتكسب وحصل على خيرٍ عظيم ألا ينسب الفضل لنفسه، ولا ينسب الفضل بقوةٍ فيه أو في فكره أو في تفكيره أو نحو ذلك أو قدرةٍ هو استطاع بها، وإنما ينسب هذا الأمر أنه فضل من الله في كل شيء.

في كل شيء في حياتك تحصل عليه؛ نعمٌ تنزل عليك، اعلم أن هذه نعمٌ من الله، ليست قدرةً فيك ولا لا تقول **"هذا بعلم مني أو بقدرة مني"** أو نحو ذلك، وإنما ذلك فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يؤتيه من يشاء.

إذا أخذت العلاج لمرضٍ وصبرت به ثم شفيت؛ لا تظن أن الذي شفاك هو العلاج، الذي شفاك هو الله لكن العلاج سبب، ولذلك انظر لاحظ؛ إذا تكسبت مكاسب تجارات وحصلت على بيع وشراء ومكاسب وحصلت على أموال؛ لا تظن أن هذا بقدرةٍ منك وفكرٍ منك، إنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء، ولذلك لاحظ قال الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198]. فهذا فضل من الله.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ [البقرة: 198]؛ دخل في أحكام الحج. أول أحكام الحج وأعظمها هو الوقوف بعرفة، لا يبدأ الحج إلا بالوقوف بعرفة كركن من أركان الحج.

قد يكون قبله يوم التروية وهو سنة، أن يأتي الحاج إلى منى ويصلي فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء ويبيت فيها، هذا كله سنة لو تركه الحاج لا يؤثر في حجه، لكن الحج الحقيقة يبدأ بالوقوف بعرفة.

ولذلك بدأ الله به قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198].

- ما هو المشعر الحرام؟

المشعر الحرام هو مزدلفة، والمشعر الحرام جبل صغير في مزدلفة معروف أقيم عليه الآن المسجد؛ مسجد المزدلفة، إذا جئت إلى مزدلفة ووجدت هذا المسجد فهذا هو المشعر الحرام، ويسن للإنسان إذا دخل مزدلفة أن يذكر الله كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198].

تقديم عرفات لما قال: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ دل على أن عرفات تسبق مزدلفة، وأن الحاج يقف بعرفات إلى أن تغرب الشمس، فإذا غربت الشمس اندفع إلى مزدلفة، ومزدلفة قريبة من عرفات سميت مزدلفة لازدلافها وقربها من عرفات.

فإذا دخلها صلى المغرب والعشاء فيها، صلى المغرب والعشاء جمع تأخير، يجمع ويقصر العشاء، وإذا صلى وبعد ذلك يرتاح وينام تلك الليلة ويذكر الله ولا يزال يلبي الحاج.

ثم بعد ذلك إذا صلى الفجر في مزدلفة فإنه يذكر الله يسفر حتى يسفر جداً، ثم يدفع إلى منى.

هذه أحكام الحج ولا يلزم أن يقف في المشعر الحرام، بعض الناس يتعب نفسه حتى يقف في هذا المكان.

☜ النبي ﷺ لما وقف عند المشعر الحرام قال: **«وَقَفْتُ هَا هُنَا، وَجَمْعٌ كُلُّهَا مَوْقِفٌ»**؛ يعني مزدلفة كلها موقف، فيقف الإنسان داخل حدود مزدلفة.

قال هنا: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198]؛ كلمة المشعر الحرام تدل على أن مزدلفة داخل الحرم، وتدل على أن عرفات خارج الحرم. ولذلك المشركون وقريش كانوا لا يخرجون في الحج إلى عرفات ولا يقفون فيها.

يقولون: **"نحن أهل الحرم فنقف في المشعر الحرام"**، فيقفون في مزدلفة. ولذلك أنكر الله عليهم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: 198]؛ يعني اذكروا الله في هذا المشعر الحرام بالتكبير والتهليل والدعاء.

وأيضاً بالتلبية الإكثار من التلبية في هذا المقام. ولا ينشغل الإنسان بجمع الجمرات ونحوها أو يشتغل بأمور أخرى، وإنما يشتغل بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويتذكر نعمة الله يعني الهداية؛ هداه للإسلام وهداه لأن أقام هذه الشعيرة العظيمة شعيرة الحج ووفقه الله.

قال: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾؛ من قبل أن يأتيكم هذا الرسول وتأتيكم هذه الشريعة ﴿لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: 198].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: 199]؛ الإفاضة هي الدفع بقوة. وكلمة ﴿أَفِيضُوا﴾ تدل على أن الناس يندفعون جميعاً، فيندفعون من مزدلفة إلى منى دفعةً واحدةً.

ولكن النبي ﷺ يعني رخص للناس، رخص لكبار السن والنساء والصبيان أن يدفعوا من مزدلفة بعد منتصف الليل، إذا ذهب نصف الليل لهؤلاء المحتاجين أن يدفعوا تخفيفاً عليهم.

هنا قال: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة: 199]؛ هو الدفع من مزدلفة إلى منى هذا على رأي بعض المفسرين، وبعض المفسرين يرى أن الإفاضة هنا تعود إلى عرفات، يعني كأنه رد على قريش الذين يقولون **"لا نخرج إلى عرفات"**.

قال اخرجوا وأفيضوا من حيث أفاض الناس أي من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وما بعده ممن جاء يحج بعده أنهم يحجون في عرفات ويقفون في عرفات، وعلى الرأي الذي ذكرناه ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾؛ أن المراد به الدفع من مزدلفة إلى منى.

وهذا اليوم وهو يوم الحج الأكبر وهو يوم العيد يوم العاشر، الحج الأكبر هو أعمال الحج كلها تأتي في هذا اليوم، أول أعمال الحج أن تأتي إلى رمي جمرة العقبة بسبع حصيات، ثم بعد ذلك النحر كما فعل ﷺ نحر، ثم بعد ذلك الحلق، ثم بعد ذلك الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة.

إذاً أعمال الحج كلها ثم المبيت بمنى؛ كل أعمال الحج تأتي في يوم النحر الذي سماه الله يوم الحج الأكبر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 199].

- ماذا نفهم من هذه الجملة؟

نفهم منها أن أعمال الحج توشك على الانتهاء في يوم العيد، خلاص لم يبق من أعمال الحج إلا رمي الجمرات الثلاث والمبيت وطواف الوداع وهذه أمورها يعني يسيرة.

- فهذا يدل على أن أعمال الحج انقضت، والإنسان إذا أدى العبادة وانتهى منها ماذا يستحب له؟

يستحب له أن يكثر من الاستغفار. لماذا؟ لما وقع من خلل في عبادته، ولذلك المصلي في الفريضة إذا صلى وانتهى من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً، لماذا؟ لما وقع فيه من خلل في صلاته، فيرقع هذا النقص بكثرة الاستغفار.

ولذلك ينبغي للحاج إذا جاء يوم العيد ويوم الحج الأكبر وأدى هذه الأعمال الكثيرة أن يكثر من ذكر الله ويكثر من الاستغفار حتى يكون حجه قد وصل إلى التمام.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ﴾ [البقرة: 200]؛ إذا انتهت أعمال الحج ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ أي أعمال الحج ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ [البقرة: 200]؛ انظر دائماً أعمال الحج الله عَزَّ وَجَلَّ يركز فيها على كثرة الذكر، لأن مشروعية الحج هي لذكر الله إقامةً لذكر الله، إنما جعل الطواف في البيت والطواف بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة والمزدلفة لإقامة ذكر الله.

ولذلك ينبغي للحاج أن يكثر ويشتغل بالذكر، لا يشتغل بأمور لا تنفعه في أمور الدنيا هذه لا يشتغل فيها، كلها أيام قليلة فيشغلها بما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويتمم له حجاً.

فيكثر قال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ [البقرة: 200].

- لماذا قال ذكركم آباءكم؟

لأن أهل الجاهلية قبل الإسلام إذا انتهوا من أعمال الحج بدأوا يذكرون مآثر آبائهم، فيقول: **"أنا آبائي كانوا يصنعون كذا وكانوا يفعلون كذا وكانوا ينحرون كذا وكانوا يفعلون كذا"**.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: اذكروا الله خيراً من ذكركم لمآثر آبائكم، فقال: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: 200]. ثم ختم الله هذه الآيات بقوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ﴾ [البقرة: 200]؛ هذا في مشروعية الدعاء.

لاحظ أن من مواطن استجابة الدعاء مثل هذه المواطن، والوقوف بعرفة ومزدلفة كلها أماكن دعاء، ولذلك يشرع للواقف بعرفة أن يكثر من الدعاء، ويشرع للواقف بمزدلفة أن يكثر من الدعاء، ويشرع لمن عند رمي الجمرات أن يكثر من الدعاء، كلها مواطن استجابة دعاء.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ 200 وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 200-201].

إذاً قسم الناس قسمين؛ قسم يريد الدنيا وقسم يريد الآخرة أو يريد الدنيا والآخرة، فالذي يريد الدنيا قال الله فيه: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة: 200]؛ يعني حظوظ الدنيا، وحظوظ الدنيا تنتهي، لو حصل على أكبر ما يريده في هذه الدنيا قد يحصل عليه ولكنه لا ينفعه في الآخرة، فحظوظ الدنيا تنتهي وليست ستبقى أبداً لن تبقى.

ولذلك قال: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة: 200]؛ وهذا الذي يدعو هذا الدعاء نسي حظه من الآخرة، فينبغي أن ننتبه له لأن الكثير من الحجاج يأتون لمثل هذه المقاصد مقاصد الدنيا، فنبه الله على أنه لا ينبغي التركيز على مقاصد الدنيا.

ولذلك في الدعاء الآخر قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201]. وهذا من أجمل ومن أجمع الأدعية، والنبي ﷺ كان يكثر من هذا الدعاء، ولذلك يشرع للطائف الذي يطوف بالبيت كل ما طاف شوطاً ووصل بين الركنين؛ بين الركن اليماني والحجر الأسود أن يأتي بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201].

ويكرره، ولذلك الجميع منا في صلاته في الفرض وفي السنن يأتي بهذا الدعاء في التحيات لما يأتي يستعيذ من أربع: **«أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»**، ويقول بعدها: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201]. إذاً هو من أجمع الأدعية ومن أفضلها وأجملها.

وينبغي للإنسان أن يحرص عليه ولذلك ذكره الله في كتابه في أعمال الحج وفي نهاية أعمال الحج، أن يكثر من هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201].

- ما المراد بالحسنة في الدنيا؟

أن تقول الآن في صلاتك: **"ربنا آتنا في الدنيا حسنة"** ماذا تقصد بالحسنة؟

- ما هي أي حسنات؟

الحسنات يعني الأجور ولا ماذا؟ اختلف المفسرون في المقصد بالحسنة هنا؛ قيل خير الدنيا، وقيل مال الدنيا، وقيل الزوجة الصالحة، وقيل الذرية الصالحة، أقوال كثيرة؛ أفضلها وأنفعها أن تقصد بـ ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ هو العلم النافع والعمل الصالح في الدنيا، أن توفق للعلم النافع الذي ينفعك والعمل الصالح، هذا مقصودك إذا أنت دعوت بهذه الدعوة في صلاتك تذكر هذا الدعاء.

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أن تحصل على العلم النافع والعمل الصالح، وفي الآخرة الحسنة هو الفوز بالجنة والنجاة من النار، هذا الذي ينبغي أن يتذكر ولذلك قال: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201]. إنك إذا حصلت على الحسنة في الآخرة أن تسلم من النار.

- هل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستجيب للأول ويستجيب للثاني، ولا يستجيب للثاني ويترك الأول؟

الذي قال في الأول ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ فقط، هل يستجيب الله له؟ نقول نعم؛ الله ذكر أنه يستجيب للجميع، يعطي المؤمن والكافر في الدنيا ويعطي من يحب ومن لا يحب من أمور الدنيا، أما الآخرة فلا يعطيها إلا من يحب، الأعمال الصالحة والهداية والفوز بالآخرة هذه ما يعطيها الله إلا من يحب.

ولذلك لاحظ قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: 202]؛ يعني الله يستجيب لهم، هذا يعطيه من حظ الدنيا وهذا يعطيه من حظه ومن الفوز بالآخرة.

قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾؛ مما كسبوا وأرادوا وطلبوه، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: 202].

- لماذا قال سريع الحساب؟

قد تحتاج منا تأملاً لماذا قال والله سريع الحساب؟ لأنك أنت تنبهر وتتعجب من كثرة الداعين بالحج، إذا جئت عند الطواف وجدت الكل يدعو، وجئت عند الصفا والمروة وجدت الكل يدعو وكلٌ يرفع يديه، وجئت في عرفات وجدت هذه الأعداد الملايين تدعو ترفع يديها إلى السماء، عرفت أن الله سريع الحساب وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستجيب ولا تختلط عليه الأصوات أبداً ولا الأدعية، ولا أحد يميز هذا من هذا.

- كيف يستجيب لهم في لحظة؟

ابن عباس سُئل لما قال: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ في محاسبة الخلق يوم القيامة، قال: **"كيف يحاسبهم في لحظة؟"**

قال: **"كما رزقهم في لحظة يحاسبهم في لحظة"**. أمرٌ سهلٌ على الله عَزَّ وَجَلَّ ليس صعباً، الله عَزَّ وَجَلَّ يرزق العباد في لحظة ويحاسبهم في لحظة ويستجيب دعاءهم في لحظة، على اختلاف الأصوات وتفنن الحاجات فإن الله يجيب هذه الأدعية.

لعلنا نقف عند هذا القدر ولنا بقية إن شاء الله، لنا لقاء إن شاء الله بإذن الله، نسأل الله التوفيق والسداد، وأن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يأتينا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً ويقينا وإياكم عذاب النار، صلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(38)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بالهدى إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذه الليلة المباركة، هذا اليوم هو يوم الأربعاء الموافق للتاسع من شهر صفر من عام 1443، نجتمع في هذا المقام لنتدارس آياتٍ من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا المجلس الذي تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله من يحضر هذه المجالس في الملأ الأعلى عنده جل جلاله، الآيات التي نتناولها هذه الليلة هي آياتٌ من سورة البقرة، وقف بنا الكلام عند قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: 203]، هذه الأيام المعدودات، ذكر التفسير أنها هي أيام التشريق الثلاثة التي تأتي بعد يوم النحر، وهو اليوم العاشر من ذي الحجة.

وهي أيام التشريق، سميت بأيام التشريق لأن اللحوم، لحوم الهدي بالنسبة للحجاج ولحوم الأضاحي لغير الحجاج، تشرق وتقدد وتنشف وتيبس، فسميت تشريق من التشريق.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **"واذكر الله"**، أمرٌ بالذكر في هذه الأيام.

☜ كما قال ﷺ قال: **«أَيَّامُ التَّشْرِيقِ أَيَّامُ أَكْلٍ وَشُرْبٍ وَذِكْرٍ لِلَّهِ»** فيحرم صيامها، ويذكر فيها اسم الله كثيرًا، الحجاج يذكرون الله ويكبرون عند رمي الجمرات، وفي الطواف وفي السعي وغير ذلك، وغير الحجاج يشاركون الحجاج أيضًا في التكبير؛ التكبير المطلق والتكبير المقيد.

قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: 203].

- لماذا خص الله الذكر في هذه الأيام؟

لأنها أيامٌ عظيمةٌ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أيامٌ معظمةٌ، فإحياؤها بذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتعظيمها تعظيمٌ لله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: هذه الأيام هي آخر أيام الحج، لأن يوم النحر -يعني أغلب أعمال الحج- تنتهي فيه وتقضى فيه، فلم يبقَ إلا القليل. هذه الأيام، أيام التشريق، من الأعمال التي تكون فيها رمي الجمار الثلاث؛ رمي جمرة العقبة، الصغرى والوسطى والعقبة، والطواف لمن لم يطف، والسعي لمن لم يسعَ، والمبيت في منى.

وهي كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال أيام معدودات، ثلاثة أيام، قال: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 203]، يعني اقتصر على يومين فقط وخرج من تعجل خروجه من منى يعني من أعمال الحج، فلا حرج أن يتقدم ويتعجل ويخرج، لكن بشرط قبل أن تغرب الشمس، فإن غربت الشمس اليوم الثاني عشر لزمه المبيت لليل الثالث عشر، إلا أن يكون ذلك بغير اختياره كزحام السيارات ونحو ذلك.

﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ [البقرة: 203] أي بقي اليوم الثالث عشر، وهو آخر أيام الحج اليوم الثالث عشر، ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 203] في بقائه، بل يتأخر هو الأول، فإن النبي ﷺ لم يتعجل بل بقي الثالث عشر، السنة أن تبقى ولا تتعجل ليحصل لك فضلٌ عظيمٌ من الذكر ورمي الجمار وأعمال الحج.

قال: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [البقرة: 203].

- ما معنى لمن اتقى؟ لماذا قال لمن اتقى هنا؟

لو نلاحظ ونحن نتأمل ونتدبر آيات الحج نجد التركيز على قضية التقوى وعلى مسألة التقوى.

لاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 197]، وقال هنا: ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: 203]، فكلها مبنيةٌ على التقوى؛ لأن إقامة الحج، شعيرة الحج، وتعظيمها وما يجري فيها من الذكر والأعمال كلها مبنيةٌ على مراقبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والخوف من الله، وتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ فيما يقدمه الإنسان وفيما يحذر من مخالفات تقع في الحج، كل ذلك مرتبطٌ بتقوى الله.

ولذلك خص الله قال: من تعجل فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه، لمن يتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تعجله وفي تأخره وفي أعماله، وكل ما يتعلق بالحج. ثم أكد في الأمر الصريح قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 203]، اتقوا الله في أعمالكم، واتقوا الله في مراقبتكم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: 203]، يعني يجب على الحجاج وغير الحجاج أن يتقوا الله.

- ما هي التقوى؟

هو الخوف من الله، التقوى هي أن تبادر بما أمرك الله به وتبتعد عما نهاك الله عنه، هذه حقيقة التقوى، حقيقة التقوى التزام هذا الأمر.

قال: **"واعلم"**، أي ينبغي لك أن تعلم أنك ستحشر إلى الله.

- ما علاقة قولكم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: 203] بأعمال الحج؟

الجواب: لأن الحج هو حشرٌ حقيقةً، لما تجد الحجاج يجتمعون في عرصات عرفات، في مقام عرفات، وفي صعيد عرفات، كلهم يجتمعون في لباسٍ واحدٍ، وتركوا الدنيا وراءهم ولم يتعلقوا بالدنيا، وأقبلوا إلى الله متجردين، هذا حشر.

هذا يذكرك بالحشر الأكبر يوم القيامة، فتتذكر هذا الحشر، وكذلك عند رمي جمرات وعند الطواف، كل هذا يذكر بأن الله سيحشر الأولين والآخرين في مقامٍ واحدٍ.

لذلك قال: **"واعلموا أنكم إليه"**، تذكروا هذا الحشر، واعلموا أنكم إليه يعني تحشرون، ستحشرون يوم القيامة، سيحشر الله الأولين والآخرين في مقامٍ واحدٍ.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك أحوال الناس، لما ذكر سابقًا أحوال الناس في الدعاء، من الناس من يقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: 200]، وهذا حظه الدنيا فقط.

والآخر يقول: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201]، وهذا له حظ الدنيا والآخرة، ذكر أحوال الناس بالدنيا.

من الناس من يطلب الدنيا فقط ومن الناس من يريد الآخرة فذكره له، وهذا لما يذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى يلفت أنظار الناس لمن يعيش في الدنيا ولمن يعيش للآخرة.

ولذلك قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: 204]، أمور الدنيا فقط، الحياة الدنيا، يعجبك قوله؛ جمال وحسن كلامه، يغريك بكلامه المعسول وحسن عباراته وبلاغته في أمور الدنيا فقط، في أحكام الدنيا وفي أمور الدنيا، لا يتكلم عن الآخرة أبدًا ولا يتكلم عن الدين، وإنما حياته حياةٌ قصيرةٌ جدًا ومقصورةٌ على الدنيا.

يقول: يعجبك قوله في الحياة الدنيا، هذا في كلامه، ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ﴾ [البقرة: 204] تأكيدًا على كلامه، يشهد الله يقول: والله إني كذا وإني كذا، يشهد الله.

وهذه من صفات المنافقين؛ كثرة الحلف، كثرة الأيمان، ويشهد الله على ما في قلبه، يقول: والله إني أقول هذا وهذا كل هذا ما في قلبي، أقول لك على لساني.

ولا يحتاج الإنسان العاقل لا يحتاج أن يشهد فلان وفلان، يشهد الله إذا كان كلامه كلامًا حقيقيًا صحيحًا بعيدًا صادقًا في كلامه، قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: 204]، شديد الخصومة، إذا خاصمته شديد الخصومة، وهذه من صفات المنافقين **«إِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»**.

فمن كانت هذه حاله في لسانه وفي كلامه، أما في أفعاله فاستمع ماذا قال الله في أفعاله، قال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: 205].

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ [البقرة: 205]، إذا أعرض، سعى في الأرض، يسعى لأي شيء؟ إصلاح الأرض؟ نفع الناس؟ لطلب ما عند الله؟

لا، ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة: 205]، ليفسد في الأرض بعد إصلاحها، ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة: 205]، الحرث: الزرع، والنسل: البهائم والمواشي والضروع، فهو عمله الإفساد، ويفسد ما يحتاج الناس إليه من الحروث والزروع والثمار والبهائم.

وهو هذه طريقته، قد يفسدها مباشرةً وقد يكون هو سببٌ في فسادها، لأن ظهور المعاصي وكثرة الفساد في الأرض سببٌ في هلاك الحرث والنسل.

قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: 205]، ولا يحب المفسد، لا يحب الفساد في الأرض بل يحب الإصلاح سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويحب المصلحين ولا يحب المفسدين.

أما هذا الرجل، أو هذا الشخص، الذي لسانه بهذه الصورة وبهذا الشكل، وأفعاله الخبيثة بهذا الشكل، والفساد في الأرض، إذا نصح وذكر بآيات الله ماذا يقول؟

قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [البقرة: 206]، اتقِ الله وخف من الله، لا تفعل هذا الفساد في الأرض ولا تقول كذا وتقول ما ليس في قلبك، قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: 206]، يعني الأنفة والكبر، لا يقبل، بسبب إثمه وأفعاله السيئة تجده متكبرًا، لا يقبل ولا يذعن ولا ينقاد لنصح الناصحين أبدًا، فلا يتقبل، نفسه لا تتقبل.

- قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما مصيره وما نهايته مثل هؤلاء؟

قال: ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: 206]، ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ أي تكفيه جهنم التي هي تنتظره ليكون هو حطبًا لها، ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: 206]، لبئس المرجع والمهاد والفراش الذي ينتظره، حتى يمهد في جهنم فيكون من أهل النار.

هذا حال من يريد الدنيا ولا يريد الآخرة، ولا يريد أن يتقي الله، ولا يريد الإصلاح، أما الشخص الآخر الذي ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني النوع الثاني قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 207]، من الناس من يشري.

- ما معنى يشري الآن؟

يعني يبيع نفسه لله، يقدم نفسه لله بأي صورةٍ من الصور، يعني يبذل روحه ونفسه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقدمها لله.

قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 207]، يعني أكبر من كذا ما في، أن أعماله وأقواله وأفعاله ونفسه كلها يقدمها لله، مهجته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. يعني أشد من هذا ما في وصفٌ أعظم، أن الإنسان يبذل جهده ونفسه وحياته كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول يقدم نفسه ويبيع نفسه لله، ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 207]، يريد أن يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا أردت أن ترضي الله فماذا سيكون في المقابل؟ إن الله سيرضيك ويعطيك، يعطيك ما لا تتصور.

قال: ابتغاء مرضاة الله، والنتيجة: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: 207]، يعني أنت تقدم نفسك لله وتبيع نفسك لله وتشتري الآخرة وتطلب الآخرة ما عند الله، اعلم أن ما عند الله هو أعظم، وما يقدمه الله لك بمقابل هذا الشيء، فإن الله سبحانه شاكرٌ، يشكر من يبذل نفسه ويقدم نفسه، ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: 207]، الرأفة أشد من الرحمة، يعني يرحمهم ويرأف بهم ويجازيهم بأحسن جزاءٍ.

لما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا هذا الأمر نادى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: 208].

- ما هو السلم؟

السلم هو الإسلام، يعني الزموا الإسلام وحافظوا على شريعة الإسلام وعلى شرائع الإسلام.

- قد يأتيك شخصٌ يقول لك: كيف يأمر الله المؤمنين بأن يدخلوا في السلم وهم مسلمون؟

الجواب: معناه حافظوا عليه، والتزموا، واثبتوا عليه، ولا تغيروا ولا تبدلوا. تجد مع مرور هذه الفتن العظيمة يبدل الإنسان ويغير، والله يأمرك كما قال في موضعٍ آخر قال: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]، فتلتزم تعاليم الإسلام، تلتزم أوامر الله وما نهاك الله عنه، تتجنب هذا، هذا معناه. ولذلك ماذا قال؟

قال: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: 208]، لا يكون مثل المنافقين؛ يأخذ شيئًا مما تهواه نفسه يأخذه، وما لا تهواه نفسه لا يأخذ به، لا، يجب عليك أن تأخذ كل تعاليم الإسلام وكل ما أمرك الله كافّةً من غير تردد.

ولذلك حذر من التغيير في الدين والتغيير في هذا كله، سببه الشيطان، ولذلك قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: 208]. ولم يقل: **"تتبع الشيطان"**، قال: **"خطوات"**، لماذا؟

لأن الشيطان ما يأتيك مباشرةً، ما يأتي الإنسان مباشرةً، يزين له، ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النحل: 63]، فيبدأ يقول: هذا جميل، وهذا حسن، وهذا كذا، وهذا أمره سهل، وهذا كذا، فيأتيك خطوةً خطوةً الشيطان حتى يغويك.

أول ما يبدأ بك يجعلك تترك كثيرًا بعض الأعمال الصالحة، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كأعمالٍ مثلًا النوافل والمستحبات، شوي إلى أن تترك الواجبات، إلى أن يوقعك في المعاصي، إلى أن حتى لا ينتهي إلا وقد أوقعك في الشرك والكفر وجعلك من أهل النار، فهو يأتي بخطوات الشيطان.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ مبينًا لما نهانا قال: لا تتبعوا، لماذا؟ قال الشيطان عدو، قال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: 208]، وليس عدوًا فقط، لا، عدوٌ مبينٌ، واضح العداوة، ما يخفى على أحد، ما يخفى.

فالشيطان يأتيك يوسوس لك، يزين لك العمل، فتعوذ بالله، إذا رأيت من نفسك النفس ضعيفة والشيطان يزين لها هذه الأعمال فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: 36].

ونحذر من الشيطان، ولذلك لما قال الله: **"ادخلوا في السلم والتزموا أوامر الإسلام واحذروا طرق الشيطان"**، قال: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ [البقرة: 209]، فانتبه أن تزل وتقع قدمك في

معصيةٍ، وتقصر في شيءٍ أوجبه الله عليك، ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة: 209]، جاءتك الأدلة والأوامر والنواهي، أوضح الله لك هذا البيان الواضح، فإن زللت بعد هذا البيان.

قال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 209]، شديد الانتقام، ينتقم، عزيزٌ ذو عزةٍ وقوةٍ، وحكيمٌ في أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ولذلك نختم هذا اللقاء في هذه الآية التي قال الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: 210].

هؤلاء المفسدين الذي يعيث في الأرض فسادًا، والذي يهلك الحرث والنسل ويفسد في الأرض، يهدده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذين لا يريدون الدخول في الإسلام كافّةً يهددهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول: **"هل ينظرون"**، أي هل ينتظرون إلا أن يأتيهم الله، أن يأتيهم الله عَزَّ وَجَلَّ وذلك يوم القيامة، إذا جاء يوم القيامة، قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: 210]، إذا جاء يوم القيامة تتشقق السماء ونزل الملائكة تنزيلًا، يأتي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإتيانٍ يليق بجلاله وعظمته، ويجيء مجيءً يليق بجلاله العظيم من غير تكييفٍ، ونؤمن بذلك إيمانًا حقيقيًا.

أن من عقيدة أهل السنة والجماعة أن من صفات الله الفعلية أنه يأتي يوم القيامة للفصل والقضاء بين العباد، ولا نؤول ذلك أن نقول يأتي أمره أو تأتي ملائكته أو يأتي كذا، لا، وإنما الله يخاطبنا بلغة العرب فيقول: يأتيهم في ظلل.

والظلل جمع ظلة، قال: ﴿مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة: 210]، والغمام جمع غمامة، وهي السحاب الرقيق الأبيض الخفيف.

- قد يأتيك سائلٌ يقول لك: كيف ينزل الله في ظللٍ وغمامٍ وسحابٍ وأبيض؟

الجواب: الكيفية لا أحد يعلمها، الله أعلم، والله ما أمرت أن تبحث عن هذه الأشياء، أمرت أن تسلم وتؤمن بمثل هذه الأشياء.

ولذلك الإمام مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، لما جاء رجلٌ دخل عليه قال: إن الله استوى على العرش كيف استوى؟

قال الإمام مالك: **"الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، ولا أراك إلا مبتدعًا"**، فأمر بإخراجه.

فالواجب أن مثل هذه الأشياء أن نؤمن ونسلم وننقاد دون الدخول في تفاصيل أشياء لا يدركها العقل ولا يصل إليها العقل.

قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: 210]، الملائكة تنزل مع الله وتأتي، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22].

قال: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: 210]، انتهى الأمر، والآن وقت الحساب والجزاء، يحاسب الله عباده في لحظةٍ، سريع الحساب. سئل ابن عباس: كيف يحاسبهم في لحظة؟

فقال: **"كما أنه رزقهم في لحظةٍ يحاسبهم في لحظة"**، لا يعجزه شيءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: 210]، ترجع كل الأمور، تصير إلى الله وترجع إلى الله، والله هو الذي يقضي بين عباده بالحق، ويفصل بين عباده في يوم الفصل.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا، إذًا هذه الآيات التي قرأناها وتدبرناها وعشنا معها واستفدنا منها، فنسأل الله أن يبارك لنا في مثل هذه الدروس المباركة، وأن ينفعنا وإياكم بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(39)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا المجلس من مجالس الذكر ومجالس القرآن الكريم، نجلس في هذا المكان المبارك ونتكلم عن بعض الآيات التي نقرؤها ونبين معانيها ودلالات ما فيها.

الكثير يعني منا يقرأ القرآن ويلازم قراءة القرآن ولله الحمد، وهذه منة ونعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوفق لها أو يوفق الله لها من يشاء من عباده، لكن زيادة على ذلك القرآن ليس قراءة قرأت على الألسن فقط، وإنما قراءة وتدبر وفهم؛ لأن القرآن نزل للتدبر والعمل.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]. فأولو الألباب أصحاب العقول هم الذين يتذكرون ويفهمون ويتدبرون الآيات القرآنية، لو تقف مع آية ليلة كاملة وأنت تتدبر معانيها خير من أن تختم القرآن كاملاً، وهذا فرق كبير بأن تقرأ على فهم.

الآية التي بين أيدينا هي الآية 211 من سورة البقرة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: 211].

هذا خطاب لمحمد ﷺ ولمن يصلح له الخطاب، يعني للرسول ﷺ ولمن يقتدي بالرسول، إذاً ناسب أن يسأل بني إسرائيل، يقول: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ **"سل"** فعل أمر، تقول **"اسأل"** وتقول **"سل"** كلها صحيحة، ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ [الأعراف: 163]، ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: 40]، كلها صحيحة.

- من هم بنو إسرائيل؟

إسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، ويعقوب هو يسمى إسرائيل، لقب بإسرائيل، وكل بني إسرائيل يعودون إليه لأنه هو أبو الأنبياء؛ يوسف وإخوته، وهؤلاء الأبناء تفرع منهم سلالة بني إسرائيل كلهم يرجعون إليهم.

يقول: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني اليهود، يسأل النبي ﷺ من يسل؟ المعاصرين الذين جاء النبي ﷺ إليهم وهم في المدينة، يهود المدينة الذين كانوا استقروا في المدينة، يقول سلهم: ﴿كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾.

- هل أتاهم الله مباشرة؟

الجواب: لا، أتى أجدادهم وأسلافهم، فهو يذكرهم بنعمة الآباء، يقول: أنتم يا بني إسرائيل أنعم الله على آبائكم، أرسل إليه الرسل، أرسل إليهم الرسل وأنعم عليهم بالنعم العظيمة.

﴿كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ يعني أعطيناهم آيات كثيرة، **"كم"** هنا للتكثير، يعني أعطى الله بني إسرائيل كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: 16].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: 93]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في على لسان موسى: ﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 20].

يقول: ذكرهم بالنعم العظيمة، أعظم نعمة أنعم الله بها على بني إسرائيل أن أرسل إليهم أنبياء كثيرين وأنزل عليهم الكتب، فأصبحوا علماء أحبار، فيذكرهم بهذه النعمة، من أعظم النعم أن يعرفوا نعمة الله عليهم بالعلم، وهذا العلم والكتاب المنزل عليهم ذكر الله فيه صفات محمد ﷺ وأمرهم بالإيمان به، ولكنهم جحدوا وكفروا بمحمد.

﴿كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ آية واضحة من آيات الله ونعمة من نعم الله ودلالة من دلالات فضل الله عليهم، تفضل الله عليهم، نقرأ في القرآن الكريم ماذا يقول؟ ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 47].

فنعم الله عليهم كثيرة. قال الله وهنا هنا الذي يعني نستطيع أن نقف عندها نتأملها كثيراً الجملة التي جاءت بعدها، يعني هذه الجملة الأولى تتحدث عن بني إسرائيل؛ طيب الجملة التي في بعدها هي التي تحتاج منا أن نتدبرها حقيقة، يقول: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: 211].

هذه يخاطب بها جميع الناس كل الناس، سواء من بني إسرائيل ولا من أمة محمد ولا من أي جنس، أي واحد يبدل نعمة الله عليه، كيف يبدلها؟ الله يقول ماذا يقول في آيات أخرى؟ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ 28 جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [إبراهيم: 28-29].

تبديل النعمة أن تكفر بالنعمة ولا تشكر، إذا كنت في نعمة فارعها؛ فإن المعاصي تزيل النعم، فهذا الكلام حقيقة يحتاج منا إلى أن نقف عندها، تبدل نعمة الله نعمة الإيمان والطاعة بالمعصية، بالمعصية والمجاهرة أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن تجاهر وتعصي الله هذا أمر خطير، يبدل نعمة الله، يبدل الأمن بالخوف، يبدل رغد العيش بالجوع.

- كيف تبدلها؟ هل أنت الآن يأتيك خير ويأتيك أمن كيف تبدله؟

إذا عصيت الله وأنت تعرف أنك تعصي الله وتخالفه وتعرف أن الله أمرك بأوامر وكلفك بتكاليف، ثم تعصي الله عَزَّ وَجَلَّ فإن المعاصي ستقلب عليك هذه النعمة وستزيل هذه النعمة؛ فيزول الأمن ويحل محله الخوف، وتزول النعمة ورغد العيش ويحل محله الجوع والأمراض، وهذه كلام يحتاج منا نتأمل.

﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، إذا بدلت النعمة وأنت تعرف أنها نعمة ولم تشكر الله عَزَّ وَجَلَّ عليها الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا يقول؟

يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]. إذا شكرت زادك الله وإذا كفرت فإن الله شديد العقاب، كما قال هنا قالوا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ما في محاباة، تشكر نعمة الله يزيدك الله ويعطيك، تكفر نعمة الله يعاقبك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فآية تحتاج حقيقة منا نتأملها ونتدبرها ونعمل بها، ولذلك ذكر الله بعدها مباشرة، وهذا أيضاً من زيادة التأمل في كتاب الله، قال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: 212].

"كفروا" هذه أكبر صفة لهم الكفر بالله يجحدون حق الله عليهم. ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

- من الذي زين لهم؟

زين لهم الشيطان والله زين لهم أعمالهم لما كفروا، زين للناس حب الشهوات، وقال: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: 4].

قال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الحياة الدنيا حياة حقيرة دنيئة، ما تحتاج أن تعيش لأجلها، أن تعيش لما هو أكبر منها وهو حياتك الأبدية، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: 64]، يعني لهي الحياة الحقيقية، أما هذه ليست حياة حقيقية، هذه ممر تعيش فيها كم

سنة وتنتقل منها، وهي منغصة بالأمراض والجوع وغيره والخوف إلى آخره، لا تستقر حال فيها أبداً.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ الحياة الدنيا زينت للكفار لأنهم يعيشون لأجلها، لا يعيشون لغير ذلك، فلذلك زينت لهم واستحبوها وقدموها على الآخرة وعاشوا لأجلها، فزينت لهم وسخرت لهم، قال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾.

ومع هذا لما أعطاهم الله الدنيا بدأوا يسخرون من الذين آمنوا، قال: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 212]. انظر القرآن واضح الدلالة، لو تقرأ في موضع آخر يقول لك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ 29 وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: 29-30].

الله بعد ذلك قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: 34]. الآن هم يسخرون، قال انظر قال: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يستهزئون بالمؤمنين ويسخرون في كل وقت الكفار والمنافقون يسخرون من أهل الخير والصلاح والطاعة، قال: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

- ما هي النتيجة؟

انظر كيف يرد الله عليهم، أنتم تسخرون من الذين آمنوا.

- ما هي النتيجة؟

النتيجة انظر إلى الآخرة، قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: 212].

انظر ما قال **"والذين آمنوا"** هم يسخرون **"الذين آمنوا"** ما قال **"الذين آمنوا فوقهم"**، قال **"الذين اتقوا"**، إذاً التقوى هي الفاصل الحقيقة أن تكون تقياً.

إذا أردت أن تكون في أعلى عليين فالزم تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- ما معنى تقوى الله؟

تقوى الله أن تلزم طاعة الله وتبتعد عن معصية الله، هذه تقوى الله.

قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي في جنات النعيم، وفي هذا دلالة على أن الجنة فوق والنار في أسفل سافلين، فالذين اتقوا فوقهم أعلى فيوم القيامة، وهذا حقيقة الغبطة والفرح أن يكون المتقين أن يكون المتقون فوق الكفار، هذا الغبطة؛ أما الدنيا تسخر ويعطيك الله الدنيا كلها، الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، أما الدين والآخرة فلا يعطيها إلا من يحب من أوليائه، من أوليائه.

قال هنا ولذلك انظر لاحظ لما قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال بعدها: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: 212]. يعني هذا فضل الله، لا تظن أنه بعملك، سجودك وصلاتك صح هذه أعمال وأسباب، لكن فوق ذلك رحمة الله، **«لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ»** هذا كلام الرسول، لن يدخل ولكن برحمة الله، ولذلك هذا فضل الله.

قال: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

- إذا قرأت هذه الآية ماذا يكون موقفك؟

موقفك أن تسأل الله أن تسأل الله رحمته أن يرحمك الله وأن يرزقك الله يرزقك الفوز بالآخرة، يرزقك الغبطة بهذا الدين أن تلتزم طاعة الله حتى تكون من الأتقياء الذين وعدهم الله بأنه فوق الكفار يوم القيامة، فنتأمل ونستنبط مثل هذه الآيات ونقف معها.

يقول الله بعدها، وهذا هذه الآية التي بعدها، يعني انظر الآية الأولى التحذير من كفران النعمة: ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ تحذير من كفران النعمة؛ والآية التي بعدها فيها بيان منزلة المؤمنين الأتقياء يوم القيامة وأنه مهما سخر هؤلاء سخريتهم عليهم ليست عليك.

هذه الآية التي بعدها إذا تأملتها تجد أثر الاختلاف والتنازع، الاختلاف والتنازع لا خير فيه، الكلمة واجتماع الكلمة هو الذي فيه الخير، أما التنازع والاختلاف يضيع الناس؛ ولذلك انظر ماذا قال؟

يقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: 213]. يعني مجتمعين، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ كلهم مجتمعين على الطاعة والتوحيد وعلى الفطرة، ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾.

- لماذا بعث الله النبيين؟

لما اختلفوا.

- لذلك ابن عباس ماذا يقول؟

يقول: **"هذه الآية في قوله تعالى كان الناس أمة واحدة يقول منذ آدم إلى نوح عشرة قرون من آدم إلى نوح عشرة قرون عشرة قرون كلها كانت على التوحيد وعلى الفطرة وعلى الطاعة ولم يكن هناك شرك ولا كفر ثم ظهر الشرك والكفر في زمن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ"**.

فبعث الله نوحاً إليهم أن يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، يقول: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الطاعة وعلى الفطرة، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ لما بعث الله النبيين أول نبي بعثه الله هو نوح، هو أول نبي بعث إلى أهل الأرض نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم بعث بعده أنبياء، ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَمَا جَاءَتْهُ﴾ [النساء: 163]. فأولهم نوح بعثه الله، مكث في دعوته 950 سنة يدعوهم ولم يؤمن معهم إلا قلة، وصبر وسخروا منه وآذوه وهددوه ومع ذلك تحمل.

قال: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [البقرة: 213].

- ما وظيفة الأنبياء؟

قال: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ يبشرون من يطيعهم بالحياة بالفوز بالحياة الحقيقية، يبشرونهم بما وعدهم الله بالفوز وبرضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وينذرون من يخالفهم ويعصيهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

قال وزيادة على ذلك لما بعث الأنبياء بعث أنزل معهم الكتب، قال: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: 213]. المراد بالكتاب هنا جنس الكتاب يعني الكتب المنزلة، الله ينزل كتباً ينزل كتباً، من حقيقة إيمانك أن تؤمن بالرسل جميعاً تفصيل وإجمال وأن تؤمن بالكتب المنزلة، مثل ما تقول: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 285].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 4].

قال: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي جنس الكتاب ببيان الحق وإظهار الحق لأي شيء؟ قال: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ يحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، أي إذاً هناك اختلاف هناك اختلاف وهناك تنازع، هذا هو السبب لما كفروا وأشركوا صار في إيمان وكفر وصار في تنازع، قال: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ يقول الذين أوتوا الكتاب كاليهود والنصارى الله أنزل على اليهود كتباً كثيرة أنزل عليه أرسل إليهم رسلاً كثيرين وأنزل عليهم التوراة وأنزل على النصارى أنزل عليهم الإنجيل، قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ من بعد ما جاءتهم الدلائل والأدلة الواضحة والبينات تنازعوا واختلفوا في ذلك.

اختلفوا فيه من الحق بإذنه واختلفوا أيضاً اختلافاً شديداً لما جاءتهم رسالة محمد الذين أمروا هم باتباع رسالة محمد والإيمان به، لكنهم كفروا وعاندوا وردوا رسالته ولم يؤمنوا به.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 213]. أي بأمره وعلمه قال: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي هدى المؤمنين.

قال الله هنا قال: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هؤلاء الذين أوتوه لم يؤمنوا، جاءت البينات ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أي حسداً وعدواناً بينهم؛ أما الذين آمنوا فهداهم الله، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ هؤلاء اختلفوا ولكن المؤمنين ثبتهم الله وهداهم إلى الصراط المستقيم، قال: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

هذا فضل الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فإذاً يعني مثل ما هدى الله هذه الأمة؛ يعني النصارى اليهود والنصارى اختلفوا كثيراً وهدى الله هذه الأمة، اختلفوا في أفضل الأيام يوم الجمعة فاختلفوا فيه فعظم اليهود يوم السبت وعظم النصارى يوم الأحد، وهدى الله هذه الأمة للحق وهو يوم الجمعة الذي هو أفضل الأيام عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

القبلة اختلفوا فيها فهدى الله هذه الأمة إلى أن تتوجه إلى المسجد الحرام، هم اختلفوا ومنهم من يتوجه إلى كذا ويتوجه إلى كذا لكن أمة محمد هداها الله، هذا معنى ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، هذه نعمة الهداية ونعمة جمع الكلمة وعدم التنازع والشقاق والخلاف الذي لا خير فيه، فعلى الإنسان أن يستفيد من هذه الآية بأن يبحث عن جمع الكلمة وعدم الشقاق وعدم المحادة وألا يشاقق ولا لأن الاجتماع هي هداية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نختم هذا اللقاء بهذه الآية الأخيرة التي أيضاً فيها فائدة عظيمة وهي من الصبر والاحتساب والتحمل، وأن أن الإنسان إذا تذكر أن من قبله أصيب بما أصيب به من المصائب احتسب الأجر عند الله وصبر ولم يعاند، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

أي تظنون هل تظنون أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين من قبلكم الذين من الأمم التي قبلكم أصابها ما أصابها وصبرت، فإذاً عليكم أن تصبروا وأن تتحملوا.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي الأمم الماضية التي مضت من قبلكم ماذا أصابها؟ قال: ﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾، البأساء.

- ما هو الفقر؟

﴿مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾ الأمراض أصاب أصابهم الفقر والجوع والأمراض ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ جاءهم القلق والخوف ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ الرسول يعلم أن نصر الله قادم والمؤمنون يعلمون لكنهم استبطأوا هذا الأمر وأرادوا العجلة فيه، ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ قال الله رداً عليهم: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ إن الله سينصر سيفرج.

النبي ﷺ أصابه وأصابه وأصحابه أوذوا وعذبوا، والنبي ﷺ أوذي ومع ذلك صبروا حتى جاءهم النصر، فعلى الإنسان إذا أصابته مثل هذه المصائب وهذه البلايا عليه أن يقتدي ويتذكر من قبله ويصبر ويحتسب.

هذه الآيات آيات عظيمة وقفنا معها وتأملناها، فيها نفع وفيها فوائد عظيمة، أسأل الله أن يبارك لنا ولكم وأن يوفقنا وإياكم ويجعلنا جميعاً من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، جزاكم الله خيراً.

(40)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا الهدى والتقى يا ربَّ العالمين.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم المبارك، يوم الأربعاء الموافق الرابع عشر من شهر ربيع الأول من عام 1443.

نجتمع في هذا المقام المبارك، نتناول آيات من كتاب الله، هذه الآيات هي من سورة البقرة، وهي الآية الـ 215، وهي قول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ﴾ [البقرة: 215].

هذه الآية في النفقة، ومن أسلوبها يتضح لنا أن هناك من جاء يسأل النبي ﷺ؛ يسأله عن كيف ينفق؟ ما المال الذي ينفقه؟ ومن هم الذين ينفق عليهم؟

فجاء الجواب جوابًا سديدًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، في بيان مقدار النفقة وفي بيان من تصرف لهم النفقة.

- هل هذه الآية في الزكاة، ولا في النفقة أو في الصدقة؟

الجواب: ليست في الزكاة؛ لأن الزكاة محددة الأنصبة محددة، وأيضًا ليست في النفقة؛ لماذا؟ لأن فيها من هو بعيد كالمساكين وابن السبيل، إذًا هي في الصدقات، وتدخل بها النفقة.

يقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ [البقرة: 215]، الخطاب للرسول ﷺ، يسألونك ماذا ينفقون؟ ما الذي ينفقونه؟ وعلى من ينفقون؟

فجاء الجواب سديدًا في قولهم: ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 215]. أي شيء أنفقتوه من خير، ولاحظ كلمة **"من خير"**؛ هنا عامة تشمل القليل والكثير، يعني تنفق المال الكثير أو تنفق المال القليل، فهو يكون لك ذخرًا لك بالآخرة ويضاعف أضعافًا كثيرة.

﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 215]، كلمة **"خير"** هنا تدل على أن المال المنفق لابد أن يكون مالًا طيبًا حلالًا؛ ليس أي مال تنفقه، تنفق الحرام وأنت تريد وجه الله؛ **«إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»**.

فكلمة **"من خير"** نكرة في سياق الشرط تدل على العموم؛ بمعنى أنك تنفق النفقة قلت أو كثرت فهي محسوبة لك ومأجور عليها، ولذلك كثير من الناس قد يستقل النفقة القليلة، يعني وكيف أتصدق بمالي القليل؟

يعني لا، جاء في حديث النبي ﷺ قال: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَصَدَّقُ بِالتَّمْرَةِ فَيَتَقَبَّلُهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيُرَبِّيهَا عِنْدَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»**.

تمرة تكون مثل الجبل، لا تقول هذا شيء قليل أو كثير، ما أنفقت وهو مدخر لك، وأنت تتعامل مع من يقول لك: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: 245]، ليست محددة بحد.

فقوله هنا: ﴿مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 215] فبدأ بترتيب الآيات.

- من هو الذي أهم من ينفق عليه؟

قال: ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة: 215]. والداك إذا كانوا بحاجة وأنت موسر، كانت النفقة عليك واجبة؛ يجب عليك أن تقف ويجب عليك أن تتصدق، يجب عليك أن تنفق على والديك إذا كانوا محتاجين، يكون واجبًا ومن البر.

وإن لم تفعل ذلك فإن هذا من العقوق الذي لا يجوز؛ أن تقطع عنهم النفقة أو لا تساعدهم في النفقة هذا نوع من العقوق، فبدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأهم هؤلاء الأصناف الذين ذكرهم؛ ذكر خمسة أصناف، فقال أولًا الوالدين، وهم أهم الناس أهم الناس في النفقة عندك والداك.

ثم قال: ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: 215]، الأقرب فالأقرب، ما قال القريب، فرق بين الأقرب والقريب؛ يعني تبدأ بالأقرب فالأقرب، قد تكون العمة بحاجة، قد تكون الخالة بحاجة، قد يكون الجد بحاجة، قد يكون الأخ عنده ديون، وهؤلاء واجب عليك أن تقف وأن تكون نفقة لك نفقة لهم؛ لماذا؟ لأن نفقتك عليهم نفقة صدقة وصلة، فتجمع بين الأمرين.

قال: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة: 215]، اليتامى هم من لم يبلغ سن من لم يصل إلى سن البلوغ يسمى يتيم، وهؤلاء قد فقدوا آباءهم، فقدوا من يعولهم وهم بحاجة من يقف معهم بحاجة من يساعدهم، وهم في الغالب أن يكونوا فقراء.

قال: ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ [البقرة: 215]، والمساكين وهم الذين أسكنتهم الحاجة الشدة والفقر، أسكنهم حتى لا يستطيع الواحد منهم أن يتحرك من شدة الفقر، فهؤلاء ينبغي أن يوقف معهم، هم الفقراء؛ لأن المساكين إذا أطلقوا دخل فيهم الفقراء والفقراء إذا أطلقوا في القرآن دخل فيهم المساكين.

قال: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 215].

- من هو ابن السبيل؟

هو من يكون مسافرًا ثم تنقطع به السبل، يذهب ماله، تذهب مثلًا ناقته أو سيارته أو نحو ذلك، يتعطل بالطريق يذهب ماله تضيع نفقته، فيصبح ما ليس في يديه شيء؛ فهذا أشد الناس حاجة، يريد من يحتاج إلى من يساعده حتى يصل إلى بلده، فهذا هو ابن السبيل، ولذلك جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ابن السبيل أحد أصناف الزكاة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر لك هؤلاء الخمسة، هم مرتبين على الأحوج ورتبهم على الأقرب والأقرب، بعد ذلك قال جاءك بعبارة عامة، عامة تشمل كل هؤلاء وغيرهم فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 215].

نفقة أو كلمة طيبة أو أمر معروف أو نهي أو أي عمل من الأعمال الخيرية، قولًا أو فعلًا، يدخل في ذلك ما تفعل من خير؛ أي خير تفعله ولو كلمة طيبة، ولو بشاشة في وجهك، ولو السلام والمصافحة أو نحو ذلك، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 215].

وإذا كان الله به عليمًا فإنه يحصيه لك ويضبطه لك، ويكتبه عنده ويجازيك عليه أضعافًا، إذا كنت تتعامل مع رب العالمين، وتعلم أن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملًا، وتعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس عليك إلا فقط أن تعمل الأعمال الصالحة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد علمها وأحصاها وكتبها لك وسيجازيك بأحسن الجزاء، فلا عليك إلا أن تعمل، المجال مفتوح عندك.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النفقة وطريقة النفقة ومن هم أهل النفقة وكيف ينفق الإنسان، هناك ما هو أعظم في النفقة وما هو أحوج وهو الجهاد في سبيل الله الذي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيات أخرى: **"وفي سبيل الله"**.

المجاهدون هم أحوج الناس الذين يرفعون راية الإسلام وينشرون الخير هؤلاء هم، ولذلك جاءت الآيات بعدها في الحديث عن الجهاد في سبيل الله، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216].

أي فرض عليكم القتال هذا على وجه العموم، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: 216] وهو كره لكم.

- كيف يكرهون القتال وشيء كتبه الله شرعه لك تكره؟

الجواب: هذا الكره كره طبيعي، كره في نفس الإنسان؛ لا يكره الشرع ولا يكره أمر الله ولا يكره فرض الله.

وإنما طبيعته أنه يعرف أن القتال مواجهة للعدو، رفع السلاح فيه، وقد قد يحصل يعني إزهاق النفوس، وقد يحصل الأسر، وقد يحصل يعني أمور تكرهها النفس تكرهها النفس، فالكراهة هنا كراهة طبيعية ليست كراهة شرعية، وإلا المؤمن لا يكره ما رضى الله عليه.

قال: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216]، فبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هذا الأمر راجع إلى الله وينبغي التسليم له، ولذلك قال: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216]. قد يكون الأمر في ظاهره مكروهًا لك، ولكنه الله يعلم أنه خير لك وهو خير لك.

وقال: ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216]. الجهاد قد تكرهه النفس، القتال في سبيل الله مواجهة العدو قد تكرهه النفس لكنه خير؛ لأن في عزة للإسلام والمسلمين ونصر ونشر الخير.

ثم قال: ﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ [البقرة: 216] مثل ترك الجهاد والجلوس إلى الدعة، وعدم المجاهدة في سبيل الله، يقول هذه تحب يحبها الإنسان؛ يحب القعود عن الجهاد ويحب القعود في داره وفي بلده ولا يخرج للجهاد حتى لا يواجه العدو، هذه تحبه النفس، النفس تحبه لكن الله ماذا قال؟

﴿وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216]. شر لكم، قد يتسلط عليك الأعداء، وفيه الذلة والمهانة لك، والعدو قد يتسلط عليك وأعداء الإسلام يتحكمون فيك، هذا هو الشر.

قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216]. الله يعلم أن الجهاد خير والقتال خير وأنتم لا تعلمون؛ لأنه ليس لكم إلا ظاهر الأمور، والله يعلم ظاهرها ويعلم ما خفي منها.

لما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا الأمر وهذه الآية ينبغي أيضًا لنا أن نفهمها فهمًا دقيقًا، أن قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216] في جميع الأمور ليست في الجهاد والقتال لا، في جميع الأمور؛ قد تكره الشيء أنت ويكون خيرًا لك، قد تكره هذا الأمر وتصبر عليه وتكون العاقبة خيرًا لك، ولذلك في آيات أخرى قال: ﴿فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

فهذه قاعدة عامة بجميع الأمور التي قد يكون ظاهرها كراهة لك ولكنها في الحقيقة خير لك، وقد يكون الأمر فيه محبة لك في ظاهره، ويصرفه الله عنك لأنه شر عليك فتنصرف عنه.

لما تحدث سبحانه على الجهاد بين أن الجهاد ليس على إطلاق؛ لأن هناك أوقات وأزمان لا يجوز فيها القتال، لا يجوز فيها القتال.

- ما هي الأشهر الحرم التي حرم الله القتال فيها؟

هي أربعة أشهر: ذي القعدة وذي الحجة والمحرم، هذه ثلاثة أشهر متتالية، ورجب هذه لا يجوز القتال فيها.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: 217]. يعني يسألونك عن الشهر الحرام يعني يسألونك عن القتال فيه، لأنه قال بعدها ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: 217].

- يعني نسألك عن الشهر الحرام الذي نسألك عن القتال فيه هل يجوز؟

وهذا أيضًا دليل على أن هناك سائلًا أو أناسًا سألوا النبي ﷺ عن القتال في الشهر الحرام، وهذه الآية لها سبب نزول ولها قصة، وذلك أن النبي ﷺ بعث سرية وأمّر عليها عبد الله بن جحش صحابي مهاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه ومعه عدد، فأمرهم وانطلقوا وكتب لهم كتابًا قال: **«لَا تَفْتَحُوا هَذَا الْكِتَابَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَمْضِيَ عَلَيْكُمْ يَوْمَانِ»**.

فمضوا بعد يومين فتحوا، فإذا هو كتاب أنه قال: **«أَنَّكُمْ تَتَعَرَّضُونَ لِعِيرٍ لِقُرَيْشٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ تَتَعَرَّضُونَ لَهَا وَتَأْخُذُونَهَا»**. فانطلقوا مسرعين إلى هذا المكان، فلما وصلوا فإذا هي عير لقريش، فيها أربعة من مشركي مكة: عمرو بن الحضرمي وثلاثة معه، فتعرضوا له وقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا اثنين وفر الرابع، وأخذوا العير ورجعوا بها.

فلما رجعوا بها تبين أن ذلك اليوم يظنون أنه هو آخر يوم من جمادى، فتبين أنه من رجب، فندموا ندمًا شديدًا أنهم اعتدوا وقتلوا في الشهر الحرام.

وعلمت قريش بذلك فعيرتهم، قالوا: محمد وأصحابه ينتهكون الأشهر الحرم ويقتلون في الأشهر الحرم، ورجع النبي ﷺ وأخبروه بالخبر فنزلت هذه الآية، ماذا تقول؟

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ﴾ [البقرة: 217]. قال الله نعم القتال فيه كبير وعظيم لا يجوز، لكن يا أهل مكة يا كفار قريش، أنتم تنظرون إلى شخص أخطأ وظن أنه ليس من الشهر الحرام وقتل قتل عدوًا له، ولا تنظرون إلى أفعالكم الخبيثة السيئة ماذا قال الله فيها؟

قال: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 217]. يا أهل مكة صدكم عن سبيل الله، صدكم الناس وصدكم أنتم أنفسكم عن سبيل الله وعن شرع الله، ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ [البقرة: 217] والكفر بالله والكفر بشريعة الله ومحمد، ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 217] تصدون الناس عن المسجد الحرام، ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ [البقرة: 217] تخرجون أهله منه؛ محمد وأصحابه تخرجونهم منه، هذه أكبر وأعظم من أن شخصًا قتل آخر في يعني خطأ ولم يعلم بدخول الشهر الحرام، تعدونه من العيوب التي تعظمون وتكبرونها وأنتم تقعون فيما هو أعظم وأكبر من هذه الأمور العظيمة التي عظمها الله.

قال: ﴿أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ۗ﴾ [البقرة: 217]. كفركم وشرككم وردكم برسالة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإيذاءكم للمسلمين وتعذيبكم للمسلمين هذا أكبر من القتل الذي وقع من عبد الله بن جحش أو من أصحابه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين شدة عداوة المشركين وحقدهم على المسلمين في كل زمان، ولا تظن أنهم يرضون على المسلمين في أي وقت.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ۚ﴾ [البقرة: 217]، أي الكفار لا يزالون مستمرين على هذا الأمر حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، علق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنهم إن قدروا على ذلك، كل ذلك تشجيع للمسلمين، تشجيع أنهم لن يستطيعوا، ولكنكم كونوا على استعداد وعلى حزم أمام مثل هؤلاء كونوا عليهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في عقوبة من يترك دينه ويرجع عن دينه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217]. أي من دخل في الإيمان في الإسلام وأسلم ثم رجع إلى الكفر وقد عمل الأعمال الصالحة، فقد حبطت أعماله؛ لأن الردة تحبط العمل.

الردة والكفر بالله محبط للعمل، كل من وقع في شيء يجعله يخرج عن الإسلام من نواقض الإسلام فقد ارتد، وإذا ارتد حبط عمله إذا مات على ذلك.

أما إن ارتد ثم عاد إلى الإسلام، عاد إلى الإسلام فإن أعمالهم تعود إليه على الصحيح، قال: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217]. أي من ارتد فحكمه أنه من أهل النار، أولئك أصحاب النار هم فيها، حبطت أعمالهم وهم أهل النار الملازمون لها.

لما وقع في سرية النبي ﷺ وعبد الله بن جحش وأصحابه وقع في أنفسهم ما وقع من الحزن، أراد الله أن يزيل عنهم هذا الحزن وأن يرفع من مقدارهم وهم المجاهدون في سبيل الله وهم المهاجرون وهم المؤمنون بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لابد أن تطيب خواطرهم بمثل هذا الكلام.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ختام الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: 218].

وهم عبد الله بن جحش ومن معه، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 218] حققوا الإيمان، ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [البقرة: 218] أي هاجروا حققوا الهجرة خرجوا من وتركوا ديارهم وهاجروا مع النبي ﷺ نصرة لمحمد ونصرة لدين الله، ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 218] أيضًا قاتلوا الكفار وهم الذين انطلقوا في هذه السرية؛ ماذا ترى الله فيهم؟

قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 218]. أي يرجون ما عند الله من الرحمة، وقد غفر الله لهم وقد جازاهم أحسن الجزاء.

وفي قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: 218] بها وقفة وقف تأمل، أن الإنسان مهما عمل من الأعمال الصالحة فهو في رجاء، يرجون رحمة الله ويخافون عليه، لا أن يجزم أن يقول أن قُبلت أعمالي وأنا على خير وأنا من أحسن الناس عملًا، لا، وإنما يرجو ويطلب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القبول؛ لأن قد تعمل الأعمال الكثيرة ولا تقبل منك، فأنت تكون على رجاء لقبول عملك.

قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: 218].

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 218]. أي غفور لهم مما وقع منه من الزلل والخطأ، رحيم بهم حيث تجاوز عنهم وضاعف لهم الحسنات وجازاهم بهذا الجزاء العظيم.

نقف عند هذا القدر، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا ولكم، وأن يوفقنا وإياكم، وأن يفقهنا وإياكم في الدين، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(41)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، نعيش مع آيات القرآن الكريم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصف كتابه بأنه كتاب مبارك، ومعنى مبارك؛ أي كثير الخير وكثير النفع، وكلما يكون العبد والإنسان ملتصقاً بكتاب الله قارئاً له متدبراً له مكثراً لقراءته؛ فاعلم أن بركة القرآن ستناله، ستناله بركة القرآن.

وذكرنا في لقاءات ماضية أن مقصد القرآن الكريم أن تفهم هذه الآيات، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أنزل القرآن على نبينا محمد ﷺ قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، فالمقصد أن نفهم الآيات ونتدبرها؛ لأن هذا القرآن مليء بالمواعظ والتذكير والهدايات والإرشاد.

الآن الآيات التي معنا نتناولها بقراءة وتدبر وفهم وبيان معانيها، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219].

دائماً إذا قرأت القرآن وجاءت كلمة ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أو ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ﴾؛ فاعلم أن هناك سؤالاً ورد إلى النبي ﷺ، وأن الناس يسألون لبيان هذا الحكم، وماذا سيكون موقفهم من هذا الشيء.

الخمر معروفة وقد تأصلت في قلوب الناس في الجاهلية، لا يمكن أن يجلس أحد من أهل الجاهلية مجلساً إلا وتدار الخمر حوله، فهي من القضايا التي تمسك بها أهل الجاهلية.

ولذلك القرآن الكريم والشريعة ما جاءت على الفوضى؛ منع الخمر مباشرة، جاءتهم بالتدرج، والتدرج منهج من مناهج القرآن أن يأتي الشيء تدرجاً شيئاً فشيئاً.

لو تنظر إلى الآيات القرآنية في الخمر تجدها جاءت متدرجة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: 67]؛ انظر لما جاء عند الرزق قال: ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾، والسكر ما وصفه، تركه، شو يدل على أنه ليس بحسن بل هو خبيث، هذه أول آية جاءت، فالعاقل يعرف بمجرد أن يقرأ هذه الآية يعرف أن الخمر سكر غير طيب.

جاءت آية أخرى، هذه الآية التي معنا بدا الناس يسألون، قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219]، بدا الإنسان يوازن، هذا فيه الشيء هذا وفيه هذا الشيء، عندك فيه إثم كبير وفيه منافع، والإثم أكبر من المنافع، هل تأخذه أو تتركه؟ هذا تدرج.

ثم جاءت آية ثالثة، قال الله فيها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ [النساء: 43]؛ إذاً نهاهم عن قربان الصلاة، شوف ما نهاهم عن السكر، ما قال **"لا تسكروا"**، قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾؛ لأن ما جاء مباشرة، تدريج.

قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾؛ يعني إذا جاء وقت الصلاة لا تصلِّ وأنت سكران، كيف تصلِّ وأنت ما تعقل؟ لا تقرب الصلاة. بدأوا يفهمون، بدأوا يقللون من شربها، إذا جاء وقت الصلاة أو الصلاة قريبة ما يشرب، يشرب بعد العشاء ما يجي الفجر إلا قد صحا، يشرب بعد الفجر ما يجي الظهر إلا قد صحا، إذاً بدأت الأوقات عندهم يعني يقل فيها شربها.

حتى إن عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه كل ما نزلت آية من هذه الآيات يقول: **"اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً"**، يشعر أن هذه الآيات حتى الآن ما حكمت القضية.

جاءت آية أخيرة، آخر آية في آيات الخمر، هي أربع آيات، آخر آية حكمت القضية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90]، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ إلى أن قال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: 91]؛ فقال عمر: **"انتهينا انتهينا"**.

ولذلك بادر أهل المدينة صحابة النبي ﷺ المهاجرون والأنصار بإراقة كل أواني الخمر التي عندهم، وأقلعوا عنها مباشرة لما جاءت هذه الآية.

هذه الآية التي معنا جاءت متوسطة، قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾.

- ما هو الخمر؟

الخمر معروف عند العرب، يأخذونه من عصير العنب والتمر والزبيب والبسر والشعير، يخمرونه ثم يشربونه فيسكرهم، يذهب بعقولهم، ويظنون أن هذا فيه ارتياح وفيه يعني يعطيهم شيء من النشوة ونحو ذلك، وهم لا يدرون أنها تذهب بالعقول.

القرآن سماه خمراً وسماه مسكراً، وليست العبرة بالأسماء، العبرة بالحقائق؛ مهما سمي الآن بأي اسم العبرة بالحقيقة، فكل ما أسكر وخامر العقل وأسكر الإنسان؛ حكمه حكم الشرع فيه أنه حرام، وأنه من الكبائر ولا يجوز.

ولذلك الآن فيه مخدرات وفيه مسكرات بأشكال وألوان، فيه أشياء زراعية وفيه أشياء صناعية، فيه إبر وفيه شم، هذه داخلة في حكم الشرع في الخمر وانه من الكبائر، بل هو أم الكبائر و **"أم الخبائث"**.

يذهب بالعقل، يذهب بالدين، يذهب بالعرض، يذهب بالمال، كل الكليات الخمس يذهب بها، وهو **"أم الخبائث"**. فـ **«مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ»**، بعض الناس يقول: **"شيء قليل"**، نشرب شيء قليل، يقول: كله حرام، ما فيه قليل ولا كثير، كله حرام.

ومن شربها في الدنيا لم يشربها في الآخرة؛ لأن من نعيم الجنة قال: ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [محمد: 15]، وخمر الجنة غير خمر الدنيا ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: 47]، ما فيها غول.

يقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾، ثم قال: ﴿وَالْمَيْسِرِ﴾، ما هو الميسر؟ قال: هي كل المغالبات والمراهنات التي فيها إثم وفيها غرر وفيها صد عن ذكر الله وعن الصلاة، كل هذه المراهنات كلها محرمة، وخاصة إذا كان المال من الطرفين، المراهنة من المالين يدخل في ذلك الألعاب كلها؛ ألعاب الشطرنج وألعاب الورق وغيرها التي يلعبون على وجه المغالبات.

يقول: **"إذا فزت أعطيك صك البيت، إذا فزت أعطيك شيك بقيمة كذا وكذا، أعطيك سيارتي، أعطيك كذا"**؛ هذه هي الميسر المحرمة، هذه التي الله جعلها مع الأنصاب والأزلام والخمر، فلا تجوز.

لكن إذا كانت المسابقات مسابقات علمية ثقافية، وبشرط ألا يكون المال من الطرفين، بل يكون من طرف ثالث منهم، هذه ما فيها شيء، جعل المسابقات على الخيول وعلى الإبل يتسابقون، بس بشرط ألا يكون المال من الطرفين.

هذه كلها ما فيها شيء، جائزة، جاءت الشريعة بها تشجيعاً لهم على المسابقات الثقافية والعلمية والخيول، بس هذه كلها جائزة، بس بشرط ما يجي واحد يقول: **"إذا غلبتني أعطيك كذا، وإذا غلبتك أنا تعطيني كذا"**؛ هذه فيها غرر وفيها ظلم للآخرين.

يقول الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، الله حكم عليه بأي شيء؟ لأن فيها إثماً عظيماً لمن يتناولها ويشربها ويعدها ويقدمها ويبيعها، كل ذلك داخل في إثم الخمر وإثم الميسر.

قال: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، ما هي المنافع؟ قال: تجارات فيها، يتاجرون فيها ويدفعون مبالغ كثيرة، بعضهم إذا أراد أن يحصل على قليل من المسكر والخمر ارتفعت أموال قائمة، ففيها منافع دنيوية، قال: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾؛ إثام هذه الأشياء لما فيها من الضرر على المجتمع كله، مخدرات تضر الأسرة كلها والمجتمع، وإثمهما أكبر من نفعهما.

- لو جاءك سائل قال لك: في لقائنا الماضي كنا نتكلم عن قتل وجهاد في سبيل الله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216]، قاتل في سبيل الله، ثم جاءت الخمر، نقول ش العلاقة؟ لماذا ذكر الله الخمر؟

الجواب: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما شجع المسلمين على تقديم الأنفس في الجهاد في سبيل الله وينالون الشهادة عند الله، نبه إلى أن هناك من يقدم نفسه لأي شيء؟ في سبيل الخمر والإثم والحرام، فيقول: انظروا إلى هؤلاء وانظروا إلى الفرق بينهم.

انظر لما جاء الميسر اللي فيه مغالبات وفلوس وأموال طائلة تذهب، ذكر بعدها ماذا؟ ذكر بعدها النفقة، شف تدبر القرآن، يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 219]؛ تنفق في الميسر والمغالبات والشطرنج والورق والألعاب الأخرى؟ لا تنفق، هذا يضرك، هذا ما ينفعك، يذهب بمالك بغير فائدة وسيكون المال حسرة عليك، أين أنفقه؟

قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: 219]؛ حتى المال الذي تنفقه الله أراد منك الشيء اليسير، قال لك: ﴿قُلِ الْعَفْوَ﴾، ش العفو؟ قال: ما تيسر، ما تساهل، يعني الشيء السهل اليسير، ما هان كما يقولون، يقول: **"ما هان تبارك"**، الشيء الهين فيه بركة عظيمة.

فيقول هنا: ﴿مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾؛ أي الزائد عن حاجة البيت، الزائد عن نفقة الأولاد، تصدق، لكن لا تقطع نفسك من الصدقة ولو شيئاً يسيراً، لا تقطع نفسك من الصدقة.

لأنه في كل يوم ملك من السماء ينادي: **«اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»**، فلا تجعل نفسك مع هؤلاء، تجعل نفسك مع المنفقين حتى يخلف الله عليك.

قال: ﴿قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾؛ أي مثل هذا البيان الذي بين لك الآن بهذه الأحكام في حياتك، قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾، مثل ما بين لنا أحكام الخمر والميسر والنفقة وغيرها، يبين الله لنا في القرآن الكريم في مواضع أخرى آيات كثيرة في هذه الأحكام. لماذا يبين؟ قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ 219 فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: 219، 220]؛

فكر في الدنيا أنها سريعة الزوال، وأن الإنسان يذهب بلحظة، وأنه لا يبقى، ومهما عشت سترحل، ستذهب ولن تبقى، فتتفكر بسرعة زوال الدنيا، وتتفكر في الآخرة أنها هي دار مقامك، فازرع للآخرة، اجعل عملك للآخرة، واجعل سعيك للآخرة، واجعل نظرتك في حياتك نظرة بعيدة، نظرة فوق في سبع، فوق سبع سماوات، لا تنظر إلى الدنيا، الدنيا دنيئة والآخرة فوق كل ذلك كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: 4].

انظر ما يزال الكلام حتى في النفقة والمال وكذا، يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة: 220]. أشد آية نزلت في كتاب الله فيما يتعلق باليتامى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]، هذا وعيد شديد جداً.

ولذلك الصحابة رضي الله عنهم لما نزلت هذه الآية ماذا فعلوا؟

عزلوا كل اليتامى، كل واحد عنده يتيم عزله جعله في مكان بعيد، يعطيه طعامه وشرابه وملابسه، عزلوه مرة، ولا يأخذ ماله ولا يستطيع حتى المال ما يشتغل في ماله، فشق ذلك على كثير من الأسر.

يعني من الصعب جداً أن يبقى اليتيم في هذه الحالة، اليتيم بمن يرعاه؟ بمن يعطف عليه؟ بمن يحتويه؟ أن تضعه في مكان بعيد؟ فلذلك نزلت هذه الآية، اسمع يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: 220]؛ لا تبعدونهم عنكم، أصلحوا مالهم وأصلحوا أنفسهم وربوهم تربية حسنة، ﴿إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾.

﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾؛ هم لا تعزلوهم بعيد، إخوانكم، اختلطوا معهم واسكنوهم معكم، وأنفقوا عليهم، واحضروهم عند الطعام والشراب، وجالسوهم، واجعلوهم كأبنائكم وإخوانكم، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

المفسد الذي يأكل مال اليتيم ظلماً، هذا يعلمه الله، سيجازيه، ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾، يعلم المفسد من المصلح، نيتك إصلاح هذا اليتيم ومراعاته والعطف والحنان عليه واحتواؤه وتربيته وأن تكسب في تربيته، الله يعلم المفسد من المصلح.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾؛ لو أراد الله أن يشق عليكم لشَقَّ عليكم، ولكنه عكس الأمر، أنتم في البداية عزلتموهم وأبعدتموهم وهذا مشقة عليكم ومشقة عليهم أشد، ولكن الله من رحمته غيّر فجعلكم تخالطونهم في الطعام والشراب حتى في الأموال، تأخذ مال اليتيم وتنميه وتشتغل فيه في مصلحته.

ولذلك في آيات أخرى قال: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 6]، ما في مانع إنك تأخذ ماله وتنميه وتأخذ أجرتك على العمل، تأخذ منه.

قال هنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 220]؛ عزيز قوي لا غالب له في حكمه، حكيم في أحكامه يضع الأمور في مواضعها.

انظر لما تكلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن مخالطة اليتامى، قد يكون في مخالطتهم من هم بنات صغار يكبرن، فهل يمكن أتزوج بها ولا ما يجوز؟

- يجوز ولا ما يجوز؟
- عندي ابنة عم صغيرة يتيمة توفي أبوها أو توفي أبوها وأمها، وجئت أحضرتها عندي وربيتها وكفلتها، هل لي أن أتزوجها؟

الجواب: نعم ما فيه مانع، الله يقول: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾، وأقوى الخلطة الزواج، يتزوج لكن بشرط أن يقسط، تقسط وتقيم حقها، لا تهضم حقها.

ولذلك ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحكام الزواج في هذه الآية التي نأخذها وهي الآية الأخيرة في هذا المجلس، يقول: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: 221]؛ المشركة الوثنية التي تجعل مع الله إلهاً آخر، تعبد الشيطان، تعبد الأصنام، لا يجوز الزواج بها، ولا تمسكوا بعصم، ما يجوز تتزوجها، قال: ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾، إذا آمنت لك أن تتزوجها.

ولذلك النبي ﷺ قال: **«فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»**، ذات الدين هي التي أنت تأخذ الزوجة لماذا؟ لتربي أبناءك، يرزقك الله من الأبناء ينشؤون على الطاعة والدين ومعرفة الله، لا أنك تأخذ مشركة تربيهم على الكفر.

شف قال: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: 221]؛ أَمَةٌ مؤمنة مملوكة، حك مملوكة، أَمَةٌ مؤمنة، انظر الإيمان هو الذي يرفع من الزوجة، مؤمنة خير من مشركة ولو

أعجبتكم، ولو أعجبتك المشركة بجمالها ومالها لا تتزوجها، ولو وجدت أَمَةً لا تعجبك لا في جمالها ولا في مالها هي خير عند الله.

هي خير لماذا؟ لأن الميزان الإيمان والطاعة، هذه تطيع الله وتسجد وتعبد الله، وهذه تكفر بالله، تقدم هذه على هذه. ولذلك قال: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾، ثم أيضاً أمر آخر قال: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾؛ أنتم لا تزوجوا المشرك، إذا جاءك مشرك يخطب من المؤمنة لا تعطه المؤمنة حتى يؤمن ويدخل في الإسلام، فإذا آمن يزوجه.

قال: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾؛ لو كان مملوكاً، عبد مؤمن خير عند الله من المشرك ولو كان له الدنيا كلها، ولو كان أعلى الناس في النسب والحسب، ما يهم، قال: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾.

لماذا؟ قبل أن نعرف لماذا؛ يدخل في هذا كل من لا يعرف الله، كل من لا يعرف الله ولو كان يدعي أنه مسلم ولو ولد في بلاد المسلمين، ما يصلي، كيف تزوجه ما يصلي؟ ملحد كيف أزوجه؟ ضروري مشرك على أي دين.

فيه هنا مسألة استثناها العلماء؛ الكتابية اليهودية والنصرانية، ذكر الله في سورة أخرى قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: 5]، إنه جائز الزواج بها، يجوز أن تتزوج بها لأنها كتابية صاحبة كتاب، لكن في واقعنا الحاضر ما هي كتابية، الواقع الحاضر لو شفنا اليهودية والنصرانية ليست كتابية، تراها تجدها لا تعرف التوراة ولا الإنجيل، بل تجد من النصارى الآن الذين يقولون نحن مسيحيون تقول ربي عيسى، تقول ثالث ثلاثة، كيف هذه؟ مشركة، فينتبه لهذا الأمر.

- لماذا ما نزوج الكافر المشرك ولماذا ما نتزوج بالكافر؟

قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [البقرة: 221]، قد يتزوج الرجل المسلم بكافرة وتؤثر عليه حتى يكفر، يعني المرأة أحياناً تغلب الرجل بالأساليب فتؤثر عليه، لو لم تؤثر عليه ستؤثر على الأبناء، فهم يدعون إلى النار.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾؛ يدعوك إلى الجنة ويدعو أيضاً إلى أن يغفر لك خطأك وذنبك وذنوبك، انظر الفضل من الله، انظر مقارنة شيء كبير جداً.

قال: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أي بعلمه وإرادته، ليس الأمر لك أنت، الله هو الذي يدبر الأمر.

قال: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، شف كل ما نجي عند آيات يعطيك الله تنبيه يقول لك ويبين، ويبين آياته لمن؟ قال: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ حتى تتذكر تعرف الصح من الخطأ، النافع من الضار. الخمر تنفعك؟ لا ما تنفعك، الميسر ينفعك؟ لا ما ينفعك، كفالة الأيتام تنفعك؟ نعم تنفعك، النفقة في سبيله تنفعك؟

نعم تنفعك، الزواج من الكافرة؟ كل هذه أحكام يبينها الله لنا لأي شيء؟ قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ترجعون، الناس يتذكرون هذه المواعظ وهذه الأشياء.

عشنا مع هذه الآيات العظيمة الجليلة القديرة بلا شك، وهي آيات عظيمة جميلة جداً، والحمد لله الذي وفقنا للعيش معها وتدبرها وتفهمها، ومجلس مبارك من مجالس الذكر والخير، تحفه الملائكة تنزل عليه الرحمة تغشاه السكينة، تنزل عليه السكينة تغشاه الرحمة، فضل عظيم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نسأل الله أن يوفقنا لطاعته، والله أعلم.

(42)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذه الليلة الشريفة المباركة، نجلس في هذا المقام لنتناول آياتٍ من كتاب الله، نقرأها ونتدبرها ونتأملها في هذا الكتاب الذي هو القرآن العظيم، كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا تنقضي عجائبه.

وكلما قرأ الإنسان وتأمل وتفكر وعرف معاني هذه الآيات ازداد إيماناً ويقيناً وعلماً، معنا سورة البقرة، ووقفنا عند الآية الثانية بعد المئين، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

مرّ معنا أكثر من مرّة، أنها إذا افتتحت الآية بقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ [البقرة: 222]، اعلم أن هناك سؤالاً ورد إلى النبي ﷺ؛ أحد الصحابة أو أي شخص سأل النبي ﷺ عن مسألة، وهنا يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: 222].

إذاً في سؤالٍ عن حالة المرأة إذا جاءها الحيض، ماذا يكون موقف الزوج من زوجته؟

هذا هو المراد، وهذا السؤال الذي ورد من الصحابة، سببه أن المهاجرين لما جاءوا للمدينة، وكذلك من أسلم من أهل المدينة الأوس والخزرج، اختلطوا باليهود بالمدينة.

اليهود يعتقدون عندهم: **"أن المرأة إذا حاضت لا يجوز الجلوس معها، لا يكون الزوج والزوجة تحت سقفٍ واحدٍ، لابد من عزلها بالكلية، لا يؤاكلها ولا يشاربها ولا يجالسها ولا ينام معها، كل ذلك ما دامت في هذه المدة وفي هذه الفترة"**.

هذا كله ما أنزل الله به من سلطان، فردّ الله عليهم وبين لنا بياناً شافياً في هذا المعنى، وهذه مسألة تمس كثيراً من الأزواج، لابد أن يعرفوا أحكام الله في هذه المسألة.

ولكثيرٍ من الجهلة ما يعرفون أحكام الحيض وموقف الزوج مع زوجته في هذه الحال؛ هل يجالسها؟ هل يأكل معها؟ هل ينام معها أو ماذا يصنع؟ هذا ما بينه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولاحظ، أنه لم يقل الحيض، قال المحيض، فرقٌ بين الحيض والمحيض، لما يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: 222] يقصد بذلك المحيض المكان والزمان، ولا يقصد به المحيض الحيض إلا ما قد تتضمن.

أولئك قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: 222]، هذا المكان إذا جاءت الدورة الشهرية للمرأة، ونزل معها الدم الذي يقذفه الرحم، دمٌ لابد أن يخرج وإلا ستتأذى المرأة منه، فهذا الدم الذي يخرج في هذا الزمن هو أذى.

أذىً من ناحيتين؛ أذىً للزوجة وأذىً للزوج، الزوجة تتأذى من هذا بشدة، آلامها، الآلام والرائحة ونحو ذلك، كل ما يقع مع نزول الدم مع المرأة تجد حتى حالها تتغير ونفسيتها تتغير، فهو أذىً عليها.

وأذىً على الزوج لما يقترب من امرأته في هذه الحال، أذىً على الزوج إذا باشرها من ناحيةٍ صحيةٍ، ذكرها الأطباء ففيه خطورة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة: 222]، وكلمة أذىً تكفي، تكفي بأنك تتأذى من يضرك، هو ضررٌ عليك، فقال: هو أذىً.

يقول: هو أذىً، ثم بين بعد ذلك قال: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: 222]، أي في المكان المحرّم، اعتزل النساء لا تقرب المرأة وهي في هذه الحال، كيف لا تقربها؟ أي لا تباشرها في المكان الذي كنت تباشرها وهي طاهرة، لا تجوز مباشرته في هذه الحال لما تكون حائضاً، لما تكون في هذه الحال لا تجوز مباشرتها.

قال: ﴿فَاعْتَزِلُوا﴾ [البقرة: 222] والاعتزال البعد، البعد عنه، قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ [البقرة: 222] أي لا تحوم حوله، كما أنه لا يجوز مباشرتها في الفرج، كذلك لا يجوز الحول أو الحوم حوله.

ولذلك النبي ﷺ إذا حاضت إحدى نسائه يأمرها أن تتزر من السرة إلى الركبة، ثم يباشرها فيما سوى ذلك، هذا جائزٌ.

ولذلك قال: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: 222]، أيوه هذا الزمان، إذاً هو ليس اعتزالياً كلياً وأنه لا يقربها طوال العمر، لا، وإنما هو وقتٌ محددٌ يأخذ ستة أيامٍ أو سبعة أيامٍ، يزيد أو ينقص، هذه المدة المعتادة.

- فلا حتى يطهرن، ما معنى يطهرن؟

يعني حتى ينقطع الدم، إذا انقطع الدم ورأت الجفاف وذهب الدم في هذه الحالة، قال: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: 222]، ولم ينتهِ الأمر، لا، قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ [البقرة: 222]، تطهرن هنا غير يطهرن، يطهرن أي ينقطع الدم، تطهرن أي اغتسلن، تغتسل المرأة.

- متى يجوز للزوج أن يباشر زوجته كما كانت طاهراً؟

بشرطين:

⬅ الشرط الأول: أن ينقطع الدم كلياً.

⬅ الشرط الثاني: أن تغتسل وجوباً، لابد أن تغتسل لأنها في حال الحيض لا تصلي، فإذا طهرت وجب عليها أن تغتسل حتى تكون طاهراً لأداء الصلاة وقراءة القرآن والطواف ودخول المسجد وغيره.

قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 222]، يعني إذا طهرت واغتسلت فارجع إلى حالك السابقة، ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 222] من حيث أمرك الله بمباشرتها في المكان الذي أباحه لك، أما أن تتعدى إلى أماكن أخرى محرّمة فهذا لا يجوز، حيث أمرك الله.

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222]، يحب الله من عباده من يكثر التوبة والاستغفار، سواءً في هذه فيما يتعلق بهذه الحال أو غير هذه الحال.

كثرة التوبة والاستغفار، إذا وجدت العبد دائماً يكثر من الاستغفار والتوبة، فإن هذا العمل يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يحبه الله حتى لأن الإنسان لا يخلو من الوقوع في المعاصي، والتقصير في حق الله، وفيما فرض الله وفيما أمرك الله به.

يقع قصورٌ كثيرٌ، ويرقع هذا ويسدد هذا القصور هو كثرة الاستغفار، كثرة الاستغفار والتوبة، التوبة والرجوع إلى الله، ولذلك المصلي إذا صلى، أول ما بعد السلام يبدأ به الاستغفار ثلاثاً.

قال: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222] الذين لا يقعون في النجاسات والأذى والحيض، والآية عامة، آية محبة، إن محبة الله للمتطهر، متطهرٌ بأفعاله، بأقواله، بلسانه، طاهراً بملابسه، طاهراً، كل أحواله تكون دائماً، الله يحب الطهارة، يحب النظافة.

ينبغي للإنسان أن يكون طاهراً في بدنه، طاهراً في لبسه، طاهراً في لسانه، طاهراً في أخلاقه، كل هذه يحتسب الأجر عند الله حتى يدخل في هذه الآية، وحتى تحصل له محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن المرأة إذا تطهرت وانقطع الدم جاز لزوجها مباشرتها، بين الله سبحانه بعدها قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 223].

انظر كيف تعبير القرآن وجمال البلاغة القرآنية، سمى المرأة حرثاً، لماذا؟ لأنها مكان الزراعة، مكان النسل، مكان الأولاد، فكأنها حرثٌ.

انظر قال: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 223]، الحرث يسقى ثم ينبت فتأتي الذرية، شبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المرأة في الأرض التي تزرع، كأنها مكانٌ للزرع، قال: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 223]، ثم قال: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: 223].

كيف شئت فأتها ما دام أنه في المكان الذي أباحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وألا يقع في مكانٍ حرّمه الله، فيباشر المرأة بالمكان الذي أباحه الله كيف شاء.

قال: انظر ينبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هذا ليس فقط عملٌ من أعمال الدنيا هذه، لا، يعمل هذا الشيء وهو يحتسب الأجر، يحتسب الأجر، لما قال أحدٌ قالوا: **«وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»**.

قالوا: **"أيأتي أحدنا شهوته ويؤجر عليها؟"** قال: **«أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ، أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهِ وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ، كَانَ لَهُ أَجْرٌ»**. فالإنسان في عمله هذا احتسابٌ، ولذلك انظر نبّه الله على قضية الاحتساب حتى في المباشرة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 223]، قدّم شيئاً لنفسك ينفعك في الآخرة.

قدّم ماذا وأنا أباشر هذه الزوجة؟ قال: قدّم الاحتساب في أنك تعف نفسك عن الحرام، وتعف زوجتك عن الحرام، وتقدم لنفسك أنك تبتغي الذرية الصالحة، الذرية الطيبة الصالحة.

قال: ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 223]، ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 223]، اتقوا الله يعني راقبوا الله فيما تأتون وفيما تذرون، راقبوا الله فيما ينفعك وما يضرك في كل شيء، ينبغي للمسلم أن يراقب الله عَزَّ وَجَلَّ ويتقي الله في أعماله، ويتذكر ماذا؟ لماذا نتق الله ولماذا نقدم لأنفسنا؟

قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ [البقرة: 223]، أنك ستلقى الله عَزَّ وَجَلَّ وستلقى أعمالك أمامك، فاحتسب الأجر في كل مالٍ حتى في مباشرة الزوجة، احتسب الأجر احتسب الأجر في هذا، فإنك ستجد هذا في صحيفتك يوم القيامة.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾ [البقرة: 223]، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 223]، فبشرهم المؤمنين الذين يتقون الله عَزَّ وَجَلَّ، الذين يعلمون أنهم ملاقو الله وعندهم اليقين بلقاء ربهم وبالأجور التي سيحصلون على آثارها يوم القيامة. هؤلاء بشرهم لأنهم آمنوا وصدقوا واتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وراقبوه وقبلوا ما أتاهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 223] بما يسعدهم في الدنيا والآخرة، بشرهم بما يسرهم في الدنيا وبما يسرهم في الآخرة، يعني هذه الآيات كلها في علاقة الزوج مع زوجته، لأن الآيات التي قبل هذه تحدثنا عنها في اللقاء الماضي كانت تتحدث عن النكاح: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة: 221]، ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ [البقرة: 221]، كله تحدث، فلما تحدث سبحانه عن أحكام الزواج والنكاح بدأ يفصل في العشرة الزوجية.

- الآن ستأتينا آيةٌ عن اليمين والحلف، قد يسأل سائلٌ يقول: "ما علاقة اليمين والحلف؟"

الجواب: قد يقع اليمين من الزوج على زوجته فيمتنع من مباشرتها، وهذا ما يسميه أهل العلم بالإيلاء؛ أن يولي من امرأته.

قدّم الله عن أحكام اليمين، ثم تحدث عن إذا قال الزوج لزوجته، إذا قال الرجل لزوجته: **"والله لا أقربك، لا أقربك ولا أباشرك"**، فما حكم هذا؟ هل هذا جائزٌ؟ الآن يأتيك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 224].

أي لا تجعل الحلف بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مانعاً لك عن أي شيءٍ، قال: ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: 224]؛ تبروا يعني البر، أعمال البر والخير، والتقوى وتتقوا أي تفعل التقوى، وتصلحوا بين الناس، والإصلاح بين الناس إذا وقعت خصوماتٌ بينهم.

فيقول: لا تجعل الحلف، إذا حلفت على برٍ أو حلفت على فعل تقوى أو فعل برٍ أو إصلاحٍ بين الناس حلفت، فلا تجعل اليمين مانعةً من هذا الفعل، بل عليك أن تكفر وتأتي الذي هو خيرٌ.

☜ كما قال ﷺ: **«مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَلْيُكَفِّرْ عن يَمِينِهِ، وَلْيَأْتِ الذي هو خَيْرٌ»**. فلو قال أحدٌ مثلاً: **"والله لا أكلم فلاناً من الناس وهو مسلمٌ أخوك"**، فهذا حلفت على يمينٍ ألا تكلمه، ورأيت أن الكلام معه والسلام عليه خيرٌ عند الله، فإنك تكفر عن هذه اليمين.

قال: **"والله لا أزور فلان"**، لا تزر فلان أخوك المسلم؟

كفر عن يمينك وأتِ الذي هو خيرٌ، فإذا فعل الإنسان مثل هذا الشيء فعليه أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خيرٌ كما بينه النبي ﷺ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ [البقرة: 224] أي لأقوالكم، ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 224] بنياتكم في اليمين ونحوها، قد يكون هناك يمينٌ، نوعٌ من الأيمان ليس فيها كفارة، قد يجهلها كثيرٌ من الناس، مثل ماذا؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 225]. يمين اللغو تسمى هذه باللغو في أيمانكم، يعني إذا كان مجرد كلام تقول: **"لا والله، بلى والله"** وهكذا **"والله"**.

يعني هذه الكلمة دارجةٌ على كثيرٍ من الناس على لسانه يقول لك: **"لا والله ما حصل كذا، لا والله ما رأيت، لا والله كذا"**، هذه تسمى من لغو اليمين ما فيها كفارةٌ ولا شيء.

بعض الناس يظن أنها حلفٌ خلاص، لماذا؟ لأنها على اللسان من غير قصدٍ، من غير قصدٍ، أو حلف على شيءٍ ماضٍ يظنه في اعتقاده أنه حصل ثم يتبين أنه لم يحصل هذا الشيء.

فإذا حلف على شيء يمين ماضٍ فلا عليه، الأيمان والحلف فيها أحكامٌ كثيرةٌ لابد يعرفها الإنسان، ولذلك انظر الله ماذا قال؟ قال: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: 225] يعني كما في آيةٍ أخرى قال: ﴿بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: 89] يعني إذا كانت إذا هذا الشيء حصل من اعتقادٍ في قلبك أن كذا وكذا وكذا، فإن هذا تلزمه اليمين ويؤاخذ عليه الإنسان.

لو قال: **"والله لأدخلن هذه الدار"**، يجب عليك أن تدخلها وإلا عليك يمين، **"والله لا أسافر إلى هذه البلدة"** ثم سافر، لزمه اليمين لزمه الكفارة، هذه أحكام الكفارات معروفة.

قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 225]، غفورٌ لمن يقع منه مثل هذه الأيمان التي يظن أنها ليست يميناً وهي يمينٌ ثم يكفر، وحليمٌ لا يؤاخذ عباده ولا يعاجلهم بالعقوبة.

الآن تأتينا مسألة التي ذكرناها قبل قليل وهي مسألة الإيلاء، ما هو الإيلاء؟ **"أن يحلف الزوج ألا يقرب زوجته"**، فما حكمه؟ هل يجوز ولا ما يجوز؟

الجواب: ننظر فيه. إن قال: **"والله لا أقرب زوجتي"** وهو يحلف على وقتٍ مطلقٍ هكذا، فنقول: نقول لك أربعة أشهرٍ، لك أربعة أشهرٍ لا تتجاوزها، أربعة أشهرٍ لا تتجاوزها، فإذا تجاوزت هذه الأربعة أشهرٍ عليك أن ترجع إلى زوجتك وتباشرها أو تطلقها، أما تعلقها لا يجوز.

- لو قال مثلاً: "والله لا أقرب زوجتي شهراً أو شهرين أو ثلاثاً"؟

الجواب: هذا جائزٌ، لأن النبي ﷺ آل من زوجاته شهراً، فهذا جائزٌ إذا كان لحاجةٍ جائز. إذا جاوز، ولذلك انظر قال الله عَزَّ وَجَلَّ للذين يؤلون أي يحلفون من نسائهم، أن يحلف على أن لا يقرب امرأته، قال: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 226].

له أربعة أشهرٍ لا يزيد عليها، قال: ﴿فَإِن فَاءُوا﴾ [البقرة: 226] أي رجعوا إلى زوجاتهم، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 226] لأنه حلف شيئاً لا يجوز لأن زاد عن أربعة أشهرٍ فلا يجوز، فيغفر الله له ويتجاوز عنه إذا رجع، إذا رجع.

ثم قال: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 227]، أي وصلت أربعة أشهرٍ وقال: **"أنا لا أريد أن أعود إلى امرأتي ولا أريد أن أقربها"**، فنقول عليك أن تطلق، لا تجعل المرأة هكذا معلقةً، لا هي ذات زوجٍ ولا هي مطلقةٌ.

فقال: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 227]، سميعٌ لأقوالهم عليمٌ بنياتهم، فإذا عزم الطلاق فعليه أن يطلق والله -عَزَّ وَجَلَّ- يرزقها خيراً منه، خيراً منه.

هذه أحكامٌ تسمى أحكام الإيلاء والحلف على الزوجة، إذا حلف: **"والله لا أقرب زوجتي"**، فننظر نقول ماذا تقصد وكم المدة؟ قال هكذا، نقول لك أربعة أشهرٍ، أربعة أشهرٍ أعطاك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أربعة أشهرٍ، فإن زدت على الأربعة أشهرٍ لا يجوز، وقعت في الحرام. وعليك إما أن ترجع لزوجتك وإما أن تطلق، أما ما دون الأربعة أشهرٍ فإن هذا أمرٌ حده الله لك وأجازه لك.

هذا ما تتعلق أو تتحدث عنه الآيات مما يتعلق بالعلاقة الأسرية التي يوجهها القرآن للناس، ويعلمهم ما الذي يكونون عليه من علاقة الزوج مع امرأته لما يتزوج بهذه المرأة، من حيث يعني ما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أحوال الحيض وما الذي يجب فيه والعشرة والمباشرة ونحو ذلك.

والحلف عن عدم قربان المرأة ومباشرتها، كل هذه أشياء تخص تحت يحتاجها الناس ولا بد أن يتعلموها ويتفقهوا في الدين، أما أن لا يعرف أحكام الله ويقع في الحرام، الآن إذا كانت هذه مجرد فقط مباشرة أو الإيلاء أو نحو ذلك كثيرٌ من الناس يجهلها. فكيف بأحكام الطلاق؟

كثيرٌ من الناس يتكلم بالطلاق ويتحدث بالطلاق وهو لا يعرف حكمته، **"عليّ الطلاق أن تدخل عندي"**، **"عليّ الطلاق أن تفعل كذا"**، ويقع في الطلاق ويوقع الطلاق على زوجته وتطلق منه وتكون حراماً عليه وهو لا يدري عن أحكام الطلاق.

كثيرٌ من الناس، فلا بد على المسلم لا بد للمسلم أن يتفقه في دين الله، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(43)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، وصلى وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا المجلس المبارك؛ المجلس الذي تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نجتمع لنقرأ آيات من كتاب الله، نعطر أسماعنا بكلام رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نتدبر هذه الآيات وما فيها من توجيهات ربانية، والحقيقة، الآيات التي نتناولها آيات مهمة تتعلق بالأسرة؛ كل منا يحتاج إليها، وكل منا تمر به مثل هذه الآيات، ما يقرب من 20 آية يتحدث سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها عما يتعلق بالأسرة وببيت المسلم، والذي قد تمر به أحوال.

بدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالزواج، وشرط في الزواج أن تكون المرأة التي يريد أن يتزوج بها الرجل مسلمة تقية صالحة مؤمنة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: 221] في مالها وفي جمالها وفي حسبها وفي نسبها، ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يشترط في النكاح إلا أن تكون مؤمنة؛ **«فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ»**، وأن يعطيها مهرها الذي فرضه الله عليه.

لكن الطلاق؛ الطلاق من أصعب الأمور، الطلاق من الأشياء التي لا يحبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بل يبغضها؛ لأن الطلاق تفرقة، والتفرقة أمر لا يحبه الإنسان في طبيعته.

تفرقة، تشتت، ضياع الأسرة، ضياع الزوج والزوجه؛ هذا أمر لا يرفض فيه الشرع أبداً ولا يحب، ولذلك من أصعب الأمور الطلاق، والطلاق أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه سورة كاملة تتحدث عن أحكام الطلاق.

ومع الأسف؛ يعني نلاحظ ونسمع ظاهرة الطلاق وانتشاره والخلع بين الأسر، وهذه ظاهرة سيئة لا تليق بمجتمع مسلم أن تنتشر فيه مثل هذا الأمر، وكثير من الناس لا يعرف أحكام الطلاق؛ يطلق متى شاء، كيف شاء، لا، هذا شرع، حكم؛ لا يجوز لك أن تتعدى حدود الله.

وتلاحظ يعني في آيات الطلاق يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعيداً شديداً؛ قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 229]. لاحظ أنه قال: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: 1]؛ آيات كثيرة فيها وعيد شديد، الطلاق ليس كل إنسان يريد أن يطلق متى شاء، كيف شاء؛ الطلاق له أمور وله ضوابط وله أوقات محددة.

- هل يجوز أن تطلق المرأة وهي في زمن الحيض؟

لا يجوز، ويأثم الرجل إذا طلقها ويقع الطلاق عليه؛ هذا من الأمور المحرمة، أنت إذا طلقت الزوجة في هذه الحال أنت آثم وعاصٍ لله، ولا يجوز للإنسان أن يطلق إذا أراد.

حتى في العدد؛ فيجوز أن تطلق هكذا ثلاث طلقات، خمس طلقات، مئة طلقة؟ جاء رجل لابن عباس قال: **"طلقت زوجتي مئة طلقة"**.

قال: **"طلقت عليها طلقة واحدة و99 أخذت"**؛ يقول: **"اتخذت بها آيات الله هزواً"**، استهترت بآيات الله. 99 كيف تطلق؟ الطلاق مو لعب؛ الطلاق له حدود، له ضوابط، أراد

الإنسان أن يطلق وعزم على الطلاق، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ﴾؛ يعني عزم على الطلاق، يعني يطلق بالأمور التي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

متى يطلق؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: 1]؛ يعني مستقبلات العدة. طلقها وهي طاهر، وهذا الطهر لم تمسها فيه، لم تقربها فيه، أما أن تطلقها في طهر قد وقعت عليها؛ فهذا حرام ولا يجوز ويأثم عليه، هذا مخالف للسنة، هذا يسمى طلاق بدعي لا يجوز، فهناك ضوابط لا يعرفها كثير من الناس؛ على أدنى شيء وأتفه الأسباب **"أنتِ طالق"**.

حتى بعض وصل منهم الأمر؛ يعني يحدث شخصاً آخر يقول: **"تزورني وإلا علي الطلاق"**، **"تجلس عندي وإلا علي الطلاق"**؛ هذا استهزاء بالله، استهزاء بشرع الله.

والمرأة ليست ضحية متى شئت تطلق، حتى المراجعة ليست على كيفه يراجع متى شاء، هناك ضوابط في الرجعة وضوابط في الطلاق؛ فينبغي للمسلم أن يتعلم أحكام الشرع ويعرف أحكام الشريعة في الطلاق.

نقرأ الآيات ونتدبرها؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة: 228]. هذه المطلقة، حتى المرأة التي يقع عليها الطلاق أنواع؛ المرأة على أحوال كثيرة، من النساء من ذكر الله هنا؛ قال: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ ماذا؟ ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.

- ما هو القرء؟

القرء هو الحيض؛ يعني إذا كانت المرأة من ذوات الحيض تأتيها الدورة ويأتيها الحيض، فإنها إذا طلقها زوجها طلقة واحدة في طهر لم يمسها فيه وهو السنة فإنها يجب عليها أن تتربص وأن تنتظر كم؟ ثلاث حيضات.

طلقها في طهر؛ تحيض ثم تطهر، ثم تحيض الثانية ثم تطهر، ثم تحيض الثالثة؛ فإذا طهرت واغتسلت من الثالثة خرجت من العدة، ومعنى خرجت من العدة؛ لا يملكها خلاص، أصبحت عليه حرام لا يقربها، أجنبية، فهذا معنى قوله: ﴿أَنْ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾.

- إذا كانت ممن لا تحيض؛ صغيرة، أو كبيرة آيس؟

فمثل هذه الله حكم عليها بأنها ثلاثة أشهر؛ ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: 4]. آيسة يعني انقطع الحيض عنها، واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر.

قد تكون المرأة حامل في أول الأشهر أو في آخر الشهور؛ عدتها الوضع، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 4]. لو طلقها وهي في الشهر الأول؛ لابد أن تمكث كل المدة، لو تسعة أشهر أو زادت ما تخرج من العدة، وهي في ذمته وينفق عليها وزوجته.

وفي مسألة مهمة جداً تفوت كثير من الناس ما يعرفها؛ مسألة التي قال الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الطلاق: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: 1]. المرأة إذا طلق الزوج امرأته لا يجوز أن يخرجها من البيت، هي امرأته ما دامت في العدة هي امرأته يمكن أن يراجعها في أي وقت.

فلا يجوز أن يخرجها؛ لماذا؟ لأنه لو أخرجها ابتعدوا، وزادت الشحنة وزادت الفرقة، لكن الله سبحانه في حكمته قال: اجعلها في البيت؛ حتى إذا كانت تحت نظرك وعندك ترجع إليك وتدوم العشرة بينكم.

- ولا يجوز لها أن تخرج؛ تريد أن تخرج إلى بيت أهلها، أو إلى بيت أخيها، أو بيت أبوها؟

لا يجوز لها أن تخرج إلا بإذن؛ إن أذن لها تختلف، إن لم يأذن لها فتجلس في البيت: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾.

هذه مسائل مهمة تفوت كثيراً من الناس؛ المطلقة ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ يعني مدة هذه الحيض الثلاث وهي تبقى في البيت وزوجته وينفق عليها وتكشف له ويجوز أن يمسها؛ زوجته عليها طلقة أو طلقتين: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾. فإذا انتهت المدة واغتسلت من الحيضة الثالثة لا تجلس، تبادر تخرج؛ لأنها أصبحت أجنبية لا يجوز أن يمسها.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ﴾ أي المطلقات ﴿أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: 228]؛ يعني لا يجوز أن تكتم إن كانت حاملاً.

لو قالت: **"أنا خرجت من العدة وانتهت عدتي"**، وفي بطنها حمل ثم تزوجت برجل آخر؛ لا ندري هذا الحمل من الأول ولا من الثاني، تضيع الأنساب، لذلك قال الله، قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾.

قد يكون هذا الذي خلقه الله إذا لم يكن حملاً مثلاً ليست حاملاً قد يكون الحيض؛ تكتم الحيض، تقول: **"أنا ما حضت"** أو تقول: **"أنا حضت"** وهي ما حاضت؛ وتكتم هذا الشيء علشان تخرج من العدة وتذهب إلى أن تتزوج برجل آخر، أو تقول: **"ما بعد انتهت مدتي"** وتبدأ تأخذ نفقة وتجلس عند الزوج؛ وقد يقرب منها وهي حرام لأن انتهت عدتها منذ زمن وهي تقول: **"لا حتى الآن ما انتهت عدتي"**، فتجلس على حرام.

فهي أمور مهمة جداً؛ قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 228]. إذا كانت تؤمن بالله؛ بعظمة الله وبشرعه وحكمه، وتؤمن باليوم الآخر؛ أنها ستقف أمام الله، مثل ما يقف الجاني أمام المحكمة ستقف أمام الله ويحاسبها رب العالمين.

فإذا كانت هذه المرأة تفكر وتخاف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتخاف من هذا اليوم العظيم الذي ستقف فيه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: 6]، فإنها تتقي الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك يهدد الله عَزَّ وَجَلَّ هؤلاء؛ ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فلا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن.

ثم انتقلت الآية إلى حكم جديد وهو حكم الرجعة، والقرآن دائماً، والشرع والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يشجع ويحبذ الرجعة؛ حتى تلتقي البيوت وتستقيم الحال.

ولذلك قال في آيات أخرى يقول: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128]؛ الصلح خير إذا وقع التنازع، الصلح خير والاجتماع خير من الافتراق.

لذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ هنا: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أي الأزواج ﴿أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة: 228]؛ يعني له أن يراجعها، وهو أحق أن يقول لها: **"راجعتك"**، أو قال: **"راجعتك"** أو **"أنتِ زوجتي"** أو **"ابقِ في البيت لا تذهبي، فأنتِ أهل، أنتِ صاحبة البيت"**؛ يعني مثل هذه العبارات تدل على الرجعة. قال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ متى؟

﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: 228]؛ هذا الشرط. أما يرجعها وتزيد الشقاق والنزاع؟ ما حلينا شيء؛ ثم يطلق ويرجع يطلق، ما طلعنا شيء، فلا بد أن يقصد برجعته الإصلاح؛ يرجع **"أنا ندمت على ما فعلت، وأنتِ صاحبة البيت، وأنتِ أم كذا، وأنتِ أم فلان"**، ويرضيها بشيء ويجمع الشمل، ويبعد البغضاء ويبعد الأمور التي تفرق؛ وهكذا يكون قصده الإصلاح.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في العلاقة إذا أراد أن تعود البيوت والعلاقة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 228]. لها حق؛ هي زوجتك، لها حق أن تعطيها النفقة، تعطيها الكسوة، تعطيها حقها، ترضيها بما يكون مناسباً لها؛ لها حق في ذلك كله.

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ولها أيضاً أن ترى منك مثل ما أنت تريد أن ترى منها من الجمال والنظافة وحسن الخلق والكلام الطيب. أنت تتكلم عليها بألفاظ سيئة، وإذا تلفظت عليك بلفظة واحدة أقمت الدنيا ولم تقعدها؛ فمثل ما أن لها، مثل ما أن لك أنت حق عليها، فهي لها حق.

وبهذا إذا فهم الناس، إذا فهم صاحب الأسرة هذه المبادئ وفهمها وطبقها في حياته؛ استقامت الحياة، قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما تعارف الناس عليه وتعارف الشرع عليه؛ الأمور المطلوبة والأخلاق الطيبة الحسنة.

ولا تنسَ المرأة هذا الأمر الذي قال الله فيه: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228]. الدرجة يعني أن الرجل فوق المرأة بزمام الحكم وبزمام الطلاق وزمام تدبير البيت، وهو قوام البيت؛ ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: 34]. بمعنى أنه مثل الراعي مع رعيته؛ يراعي شؤونهم، ما يحتاجون إليه، يقيم أمر الله فيهم، يشجعهم على الخير.

هذا معناه؛ ليست القوامة تسلط الرجل وإيذاؤه للمرأة، لا ليس هذا. وليس معنى أن ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ أن يتسلط عليها ويؤذيها ويضربها؛ لا، ليس هذا منهج القرآن أبداً، وإنما يخدمها ويقدم لها ما تحتاج حتى تستقيم الحياة.

قال: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 228]. إذا كنت عندك، أعطاك الله القدرة، وجعل الطلاق بيدك وجعل النفقة بيدك وجعل الأمر بيدك؛ ليس معناته أنك تتسلط على المرأة، فإن فوقك من هو أعظم: الله عزيز سبحانه ذو عزة وقوة.

وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: 34] وهو علي كبير وعزيز حكيم؛ عزيز في قوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحكيم لما يشرع هذه الشرائع الحسنة الطيبة التي فيها مصالح للعباد.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان الطلاق: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: 229]؛ ليس الثلاث ما تملك خلاص؛ هذا يسمى الطلاق البائن، لو طلق امرأته ثلاث طلقات خلاص خرجت منه، لا يملكها أبداً ولا يمكن أن يرجع إليها أبداً، إلا إذا تتزوج برجل آخر يخطبها خطبة صحيحة وزواج صحيح، ثم يطلقها باختياره؛ انظر كيف الأمر.

فإذا حصل ذلك رجعت إليه، أما أن يطلق ثلاثاً فلا يملك أبداً، ولذلك الله صرح قال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾؛ انظر كلمة **"مرتان"** يدل على أن الطلاق يقع مرة ثم مرة، ما تأتي بطلقتين في موضع واحد، ما تقول: **"أنتِ طالق، طالق"**؛ هذا كله حرام، يطلق يقول: **"أنتِ طالق"** هذه طلقة واحدة؛ بعد زمن طلقها ثانية وقعت الثانية أيضاً، يراجعها بالأولى، يراجعها بالثانية، الثالثة لا يراجعها.

قال: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: 229].

- إذا وقع الطلاق على المرأة فما الحكم؟

قال: ﴿إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ يعني راجعها بالمعروف كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾.

أمسكها إمساك بمعروف أو ﴿تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾؛ اتركها حتى تنتهي عدتها وتذهب. تسريح بإحسان؛ بل أحسن إليها، انظر كيف القرآن يقول؛ إذا طلقتها وأنت لا تريدها ولا ترغب فيها،

فاتركها حتى تنتهي عدتها وطلقها بإحسان، أحسن إليها ما دامت عندك في البيت وهي في العدة، وإذا انتهت عدتها أيضاً أحسن إليها بمتعة، بهدايا، بنحو ذلك؛ كشيء يطيب خاطرها.

قال: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾. هل يجوز للرجل إذا أراد أن يطلق امرأته -أو هي أرادت الطلاق أو الفسخ أو الخلع- هل يجوز له يقول: **"أعطيني المهر، أنا دفعت عليك مبلغ كذا وكذا، واستلفت وتدينت وأعطيني المبلغ اللي دفعته"**؟

- هل يجوز له أن يأخذ؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [البقرة: 229].

وقال في آية أخرى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا 20 وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 20-21]. تأتي أعطيني؟ هي مسألة بيع وشراء؟ ما جاز لك تأخذ فلوسك، لا؛ هذا زواج عقد شرعي.

فلذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ أي شيء؛ ولا ريال واحد، ولا قليل ولا كثير؛ لا يجوز أن تأخذ أي شيء منها. حتى الهدايا التي أهديت إليها ما تملكها أنت وليست لك؛ لا تأخذ منها شيئاً إلا في حال: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 229].،

إذا وقع التنازع بين الزوجين والصراع المستمر، وخشية ألا تقيم شرع الله فيه ما تطيع، يأمرها بأوامر وهو أيضاً خشي ألا يطيع الله فيها، واشتد النزاع؛ هذه الحال وأرادت الخروج هي والفسخ والخلع منه.

قالت: **"أنا لا أريد، أنا أخاف الله في جلستي معك، لا أريد أن أجلس معك وأكرهك"**، في شرع الله **"أكرهك في الله"**؛ فلها أن تدفع وله أن يأخذ. ولذلك قال هنا، قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: 229]. هي تفتدي نفسها، ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾؛ لا جناح أن تعطي.

☜امرأة جاءت للنبي ﷺ قالت: **"إني أكرهه"**. قال: **«أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟»** قالت: **"نعم، أرد عليه"**.

قال: **«خُذِ الْحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»**. فطلقها. هذا يسمى الحكم الشرعي؛ يسمى الخلع أو يسمى فسخ النكاح، فلها أن تخرج.

لكن أن تأتي تقول: **"والله أنا ما جاز لي الجلسة معك، ولا ارتحت لك، وكذا وكذا"** بدون أسباب قوية؟ بس في زميلات شجعوها؛ قالوا: **"اطلعي عنه واخرجي عنه، زوج والد لا تجلسي معه"**، فجاءت قالت له: **"طلقني"**؛ هذا لا يجوز.

النبي ﷺ يقول: **«أَيُّمَا امْرَأَةٍ سَأَلَتْ زَوْجَهَا طَلَاقًا فِي غَيْرِ مَا بَأْسٍ، فَحَرَامٌ عَلَيْهَا رَائِحَةُ الْجَنَّةِ»**. المسألة تأتي لزوجك طلقني؟ لماذا طلقني؟ والله ما جاز لي. ما السبب؟ بس ما ارتحت. في حكم شرعي؟ في مانع؟ شيء تكرهينه في نفسه، في شرعه، في خلقه، في دينه؟ قالت: **"لا والله ما بس كذا"**؛ نقول: ما يجوز الخلع.

ولذلك نلاحظ الآن ظاهرة الفسخ والخلع في المحاكم ظاهرة واضحة جداً، فيجلسون مع بعض النساء: **"اطلعي بس واخرجي وأعطيه حقه وخلاص، يذهب"**، أطفال وأولاد يروحون فيها ضحية لماذا؟،

فشدد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذا الأمر ولاحظ ماذا قال؛ قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾. ما هي؟ الزواج، الطلاق، الرجعة، الفسخ؛ هذه أحكام الله. ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ

فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 229]. هم الظالمون؛ الذي يقع في هذا الشيء وقد وقع في الظلم وعرض نفسه للعذاب.

نختم هذا المجلس المبارك في هذه الآية التي قال فيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا طَلَّقَهَا﴾ [البقرة: 230] الطلقة الثالثة؛ يعني الاثنتين مرتان انتهت. قال لو طلقها ثالثة مع الأيام، مضت سنة سنتين ثلاث، قال: **"أنتِ طالق"** أين الطلقة؟ هذه الثالثة.

قال الثالثة؛ ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة: 230]. هذه يسمى طلاق بائن بينونة كبرى؛ ما يملك ولا تجلس عنده، ولا فيه رجعة خلاص تخرج، وليس لها نفقة ولا كسوة ولا سكن ولا شيء.

قال: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾؛ يعني تتزوج، انظر كيف هذا تأديب من الله؛ يؤدب الزوج لأنه يلعب بكتاب الله، حتى يأتي رجل آخر يتزوجها ويطأها ويكون في مكانه على فراشه؛ هذه أشد ما يكسر هذا الرجل حتى يعرف حكم الله وشرع الله أنه ظالم يلعب بحدود الله.

قال: ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾؛ يعني تتزوج برجل ويتم الزواج الصحيح ويجامعها، ثم يطلقها طلاقاً باختياره، ما يلزم.

أما إذا راح جاب له واحد قال: **"تعال، والله أنا مطلق زوجتي ثلاثة؛ تزوجها، اجلس معها ليلتين ثم طلقها"**؛ هذا ملعون على لسان الرسول ﷺ. يقول: **«لَعَنَ اللَّهُ الْمُحَلِّلَ وَالْمُحَلَّلَ لَهُ»**. هذا يحلل للزواج.

☜جاء في حديث آخر قال: **«الْمُحَلِّلُ هُوَ التَّيْسُ الْمُسْتَعَارُ»**. لا يجوز.

فقال: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي الزوج الثاني الجديد ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ [البقرة: 230]؛ الأول مع زوجته.

﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ متى؟ ليس على الإطلاق؛ خلاص طلقها يروح يخطبها بس؟ لا؛ ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 230]. إذا علم أنه سيقيم حدود الله، وتنتظم الحياة حياة طيبة، فله أن يتزوجها ويعقد عليها عقد جديد في خطبة ومهر جديد وموافقة وإلا فلا؛ ويعلم أنه سيقيم حدود الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 230]. حتى تتعلم شرع الله؛ تعرف أن الطلاق أصعب الأمور، ليس على كيفك تطلق متى شئت.

هذه أمور شرعية ينظر الإنسان يتفقه في دينه. نسمع قصص كثيرة؛ رجل خرج مع زوجته إلى مكان، إلى جلسة أو استراحة أو ذلك، فجلس وياها فقالت: **"والله جلستك ما هي مناسبة"** أو **"طلعتك غير مناسبة"**.

قال: **"أنا الحين أطلعك وأذهب بك، تقولي غير مناسبة؟ أنتِ طالق"**؛ خلاص راح، انتهت الأمور بس بأتفه الأسباب.

أو يقول: **"ارجعي الساعة الفلانية من بيت أهلك، إذا ما رجعتي فأنتِ طالق"**؛ لك الساعة؟ ازدحام الطريق، ظروف البيت كذا؟ خلاص **"أنا قلت لك الساعة تجين في البيت"**، أنتِ طالق؛ يعني على أتفه الأسباب يوقعون الطلاق ويلعبون بشرع الله.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا، وأن يوفقنا، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح. الله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(44)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي تفسير القرآن العظيم، نأخذ آياتٍ من كتاب الله نقرأها ونتدبرها ونتأمل ما فيها.

الحقيقة الآيات التي معنا في لقائنا الماضي ونستكمل الحديث عنها أيضًا في هذا اللقاء هي من أهم الآيات التي يحتاجها كل مسلمٍ، هي تتعلق بالأسرة المسلمة، تتعلق بالبيت، وتحدث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن مسائل الطلاق، بعدما تحدث عن مسائل الزواج تحدث عن مسائل الطلاق.

الطلاق هو **«أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلَى اللَّهِ»**، الطلاق لا يصل إليه الإنسان إلا بعدما تُسد أمامه جميع الطرق يلجأ إلى الطلاق، الطلاق ليس يلجأ إليه إلا من يعني عرف وتأمل وجزم بأن الحياة لا يمكن أن تسير؛ ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل هناك علاجاتٍ كثيرةً قبل أن يصل الإنسان إلى الطلاق، فيه هناك يعني حلول كثيرة قبل أن تصل إلى مسألة الطلاق.

الطلاق فرقة والفرقة لا يحبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله يحب الاجتماع والتفرط، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]، فالفرقة لا يحبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الآيات التي تحدثنا عنها في لقاء الماضي كانت تتحدث عن الطلاق والمطلقات وعن الخلع وعن عدد الطلاق.

- كم يطلق الرجل؟

ليس الطلاق بيدك على ما تختاره أنت، لا، الطلاق الذي شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يطلق الرجل امرأته في طهرٍ لم يمسها فيه، هذا هو الطلاق الذي شرعه الله، إذا طلقتها في حيضٍ أو طلقتها في طهرٍ مسيتها فيه هذا الطلاق الذي لا يجوز ولا يشرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم الطلاق الذي شرعه الله أن يطلق الرجل مرةً وله فرصة ثانية مرتين، وليس له أن يطلق ثلاث مراتٍ، فإذا طلق ثلاثًا دفعةً واحدةً فإنه يأثم على هذا.

فمسائل الطلاق مهمة نحتاجها كلنا جميعًا، بعدما ذكر الله هذه مسائل الطلاق ذكر لنا عدة مسائل مهمة ما يترتب على الطلاق، أنت الآن أو هذا الرجل طلق قال: **"علي الطلاق"** أو قال: **"أنت طالق"**، ما الذي ترتب عليه؟ ما هي الأمور التي تترتب على الطلاق الآن يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا مفصلةً.

- من الأمور التي تترتب على الطلاق الرجعة، وكيف يراجع؟ وهل يراجع متى شاء؟ وما الغرض من الرجعة؟ هل هناك شرط في الرجعة؟

الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: 228]، شرط الصلاح، ستريد الصلاح بينك وبين زوجك، ونهى عن الإضرار أن يراجعها بقصد الإضرار، هذه مسألة. المسألة الثانية تترتب عليها قد يكون هناك أولاد، من يقوم بشؤون الأولاد؟ في من يتحملهم؟ مسائل الرضاع، من يرضع؟ من الذي يتحمل؟ هل تلزم المرأة بالرضاع؟ هل يبحث عن امرأةٍ ترضع؟ هذه مسائل مهمة. هل يجوز خطبة المعتدة؟

افرض هذه المرأة مطلقة، وما زالت في عدة الطلاق، هل يجوز الرجل أن يذهب ويخطبها من أهلها؟ هذه مسائل نحتاج إليها، إذا كان الطلاق رجعي وهي في العدة فهي زوجة ولا يجوز، إذا كانت مطلقةً طلاقًا بائنًا أو خلعًا أو متوفى عنها زوجها هذه مسائل مهمة.

المهر هذا الذي دفعه الرجل هل يجوز أن يأخذه؟ وهل له أن يأخذ نصفه في مسائل مهمة نحتاجها، إذا كان لم يدخل بها فله النصف، إذا كان قد خالعته هي فيأخذه كاملًا، إذا هو طلقها باختياره فليس له أن يأخذ شيئًا منه، ما له شيء من هذا.

هناك مسائل أيضًا مهمة أيضًا المتعة، ما المتعة؟ كيف يمتع رجل زوجته؟ هل إذا طلقها يمتعها؟ حتى إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أشار إلى مسألةٍ مهمةٍ وهي قال: ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: 237]، حتى الكلام الطيب لا تنساه، الكلمة الطيبة حتى لو طلقتها وصار بينك وبينها مشاكل ومنازعات ومخاصمات في المحاكم، استر عليها وهي تستر عليك واذكرها بخيرٍ وهي تذكرك بخيرٍ؛ ولذلك الله ماذا قال؟

قال في آخر شيء قال: ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: 237]، لا تنسوا الفضل بينكم، هذه آيات نحتاجها حقيقةً مهمة جدًا [4، 5].

انظر يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة: 231]، إذا طلقت حصل الطلاق ووقف، إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن.

- كيف بلغن أجلهن؟

هي الآن في عدة الطلاق تتربص لعدة الطلاق، إذا طلقها الرجل وطلق طلقةً أو طلقتين طلاق رجعي فيجب عليها أن تبقى في بيت الزوجية، ويجب عليه أن ينفق عليها ويكسوها، هذا الواجب عليه في شرع الله في حكم الله، أما واقع الناس نحن ما نتحدث عنه، الناس يضيعون شرعهم ويضيعون أحكام الله ويرتكبون آثامًا ومعاصي ومخالفات، هذا موضوع آخر.

نحن نتحدث عن شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. تبقى في بيت الزوجية ولا يجوز لها أن تخرج ولا يجوز للزوج أن يخرجها ويقول اخرجي من البيت، لا يجوز، تبقى حتى تنتهي العدة إلا إذا كانت مطلقةً طلاقًا بائنًا ثلاث طلقاتٍ فهي لا تبقى، تذهب ليس فيه رجعة ولا يملك الرجعة فهي تذهب في هذه الحالة.

قال حتى إذا توفي عنها زوجها يجب أن تبقى في بيت الزوجية وينفق عليها وتكسى وتسكن في بيت الزوجية مدة أربعة أشهرٍ وعشرٍ، لا يجوز، يقول هنا: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة: 231].

- ما بلغن أجلهن هنا؟

يعني شارفت على الانتهاء، لم يبقَ إلا أيام قليلة يوم، يومين، ثلاثة أيامٍ وتخرج من العدة، الآن يبقى دور الزوج ماذا يصنع؟ قال: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: 231]، يعني راجعها وأمسكها بمعروفٍ، انظر ما قالك أمسكها فقط راجعها، لا، قال راجعها بشرط بمعروفٍ أي بما يكون ليس فيه غلظة عليها بما ينفعها وينفع.

والإصلاح بقصد الإصلاح كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة: 228].

قال: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: 231]، الإمساك وإعادة المرأة إلى بيت الزوجية وإلى زوجها، يرجعها بقصد الإصلاح للبيت لا بقصد أن يضرها، لأن فيه أناس يرجع الزوجة لقصد الإضرار فيها حتى تفتدي.

فيرجعها يقول: **"لا أنا لن أطلق حتى تعطيني المهر"** ويضيق عليها، فهذا إمساك بغير معروفٍ. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: 231].

إذا صار في تنازع بين الزوجين ومشاكل فالأولى أو يعني هذا شرع الله إنه يبعث حكم من جهة الزوج وحكم من جهة الزوجة، ولا بد أن يكون حاكمًا عارفًا في أحوال الزوجة وأحوال الشرع ثم يحكم، أما إذا واحد جاهل ما يعرف فيزيد الطين.

هذا من ضمن العلاج، إي نعم هذا من ضمن العلاجات كثيرة والوعظ كثير آيات كثيرة إي نعم، قال: ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: 231] خلاص اتركها خلاص ما بقي إلا يومين، ثلاثة، أربعة اتركها وسرحها بمعروفٍ، كلام وكلمة طيبة وهدية متعة يعني خل ذكرك حسن عندها. سرحوهن بمعروفٍ، ثم قال سبحانه قال: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: 231]، تعتدي على المرأة وتعتدي على شرع الله، نهاك قال لك لا تمسكها ضرارًا تضر بها، لا أنا سأراجعك وأطلقك مرةً ثانيةً وأراجعك حتى تفتدي وحتى تدفعي لي المهر وحتى أضيق عليك بهذا الأسلوب.

يعني هي عوان عندك أسيرة عندك، هي مثل المملوكة عندك، يعني أنت زوجتها بشرع الله وبحكم الله لا إنك تضرها وتعتدي عليها، الله قال سمى اعتداء قال: ﴿لِتَعْتَدُوا﴾ [البقرة: 231].

ومن يفعل ذلك اسمع ومن يفعل ذلك أي هذا الإضرار والإيذاء للزوج، يضيق عليها في البيت ويمنعها من الطعام والشراب ويغلق عليها أشياء كثيرة، ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 231] وأوقع نفسه في الظلم وعرض نفسه لعذاب الله.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: 231]، بعض الناس يستهتر ويستهزئ بالطلاق والنكاح ويلعب بشرع الله، **"طلقتك مئة طلقة"**، **"أنا طلقتك كلما دخلتي مع هذا الباب"**، **"أنا طلقتك كلما طلعت الشمس"**، تستهزئ بكتاب الله؟ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: 231]، واحذر أن تراجع بقصد الإضرار، واحذر أن تطلق بقصد الأذى، كل ذلك من اتخاذ آيات الله هزوًا، واتخاذ آيات الله هزوًا خطير قد يؤدي إلى كفرٍ، استهزاء بآيات الله نعم.

يقول هنا أحكام كثيرة في الطلاق مهمة يقول: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 231]، في أي شيء اذكر نعمة الله؟ نعمة الله إباحة الزواج، نعمة الله أن جعل القوامة في يدك والطلاق في يدك، نعمة الله أن شرع لك هذا الشرع وبين لك أحكامه، فخذ بما أنعم الله عليك واشكر نعمته.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 231] يعني نشكر نتذكر هذه النعمة ونشكر الله عليها، نشكر نعمة الله قال: ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: 231] يعني نذكر نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، ونخص منها ما أنزله الله علينا من الشرع القويم هذا الشرع الجميل الحسن، ﴿مَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: 231] القرآن ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: 231] السنة وأسرار الشريعة، قال: ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: 231] يذكركم الله، هذا الله نعم الواعظ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونعم الموعظة من الله يعظكم الله به، نعم ما يعظكم به يعظكم ويذكركم حتى تسلموا من العذاب ومن العقوبات.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 231] انظر كيف التشديد في مسائل الطلاق، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 231] اتقِ الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه المرأة، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 231]، اتقِ الله فإن الله مطلع عليكم، لا تلعب بأحكام الله ولا تستهزئ بآيات الله، واتقوا الله في كل ما تأتي وما تذر حتى في معاملتك مع الزوجة تتقي الله، حتى في عشرتك مع الزوجة تراقب الله وتتقي الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 231] لا يخفى عليه شيء، لا تظن أنك تخفي أشياء في نفسك الله يعلم السر وأخفى، كل شيء يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا

علمه أحصاه كتبه وأحصاه عليك وجازاك عليه، إن خيرًا وأحسنت المعاملة مع الزوجة فكسبت الأجر عند الله، وإن شرًا وتعاملت معها بأسوأ المعاملة فإن هذا الوزر سيسجل عليك وستجازى منه.

هذه المسألة الأولى التي معنا فيما يتعلق بما بأثر الطلاق هذا تجاه الزوجة، في أثر ثاني لو أن الرجل هذا طلق امرأته طلقةً واحدةً طلقةً وانتهت العدة عنده وذهبت إلى أهلها، هل يجوز له أن يخطبها ويتزوجها مرةً ثانيةً وهو طلاق رجعي ليس طلاق ثلاث؟

- طلاق ثلاث لازم واحد يتزوجها ويطأها ويطلقها باختياره هذه معروف مرت علينا الطلاق البائن، لكن نحن نتكلم عن الطلاق الرجعي إذا طلقها طلقةً أو طلقتين ثم ذهبت وانتهت المدة والعدة وبعد سنة، سنتين قال: "والله عندي أولاد عندي ولد منها وأرجع لها أحسن وهي ترجع لي"، فراح تقدم وخطب هذا هل يجوز؟

الجواب: يجوز، هل للولي أن يمنعه مثل أبوها أو أخوها؟ يقول: **"يا أخي زوجناك وأعطيناك البنت وأنت ما عرفت قدرها وطلقتها توكل على الله ما إحنا مزوجينك ثاني"**، يقول مثلاً: **"أنا عندي ولد وهذه بنتكم الآن راضية ولا عندها أي مانع اسألوها"**، قال: **"لا لا ما نست، ولا نستشيرها إحنا زوجناك أعطيناك البنت بس ما عرف قدرها ما في"**.

- هل يجوز له؟

القرآن يقول: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 232]، يعني لا تمنع الزوجة، ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: 232] أن ينكحن أزواجهن أي لا تمنعها أن تتزوج بزوجها السابق، لا تمنعها ليس للولي أن يمنعها إذا تراضوا بينهم بالمعروف.

يعني هو جاء واعترف قال: **"والله أنا أخطأت وأسأت المعاملة وفعلت كذا وفعلت كذا وأنا تبت إلى الله والآن أنا أرغب فيها وهي إن شاء الله أيضًا نفس الشيء"**، إذا تراضوا بينهم بالمعروف فلا تمنعها.

وهذه نزلت في رجلٍ من الصحابة وهو معقل بن يسارٍ رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، زوج أخته برجلٍ، هذا الرجل طلقها وبعد مدةٍ وانتهت العدة وانتهت مدة طويلة جاء يخطبها فمنعه، قال: **"أنا زوجتك أختي وطلقتها ليس لك سبيل عليها"** ومنع، فنزلت الآية.

فلما سمعها جاء إلى الرجل قال: **"قد زوجتك موليتي تعال الآن وخذها، زوجتك موليتي"** امتثالاً لأمر الله لأن الله ماذا قال؟ قال: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 232]، أي هذا الكلام وهذا التهديد وتخويف، أختك ما تمنعها من الزواج ولا موليتك ولا بنتك ما تمنعها هذا حق له، ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 232] ما بعد هذا التشديد والتخويف شيء أشد من هذا ما فيه.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة: 232] أي هذا الحكم والرضا به أتقى وأزكى عند الله وأعظم وأكثر أجورًا عند الله، ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة: 232] في قلوبكم عند الله، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 232]، أنتم لا تعلمون، الله الذي يعلم أن رجوعها هي لزوجها قد تحبه، قد تكون بينهم محبة ومودة، يكون بينهم طفل، طفلين خليها ترجع.

بقي عندنا مسألة الأخيرة نختم بها المجلس، إذا وجد أطفال هؤلاء الأطفال ما مصيرهم؟ وإذا كانوا صغارًا رضعًا من الذي يقوم بهذا الشيء؟ اسمع كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وما أجمل أن تسمع كلام الله، في أحد ما شاء الله لا إله إلا الله كلام جميل من أحسن الأمور.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: 233]. هذا عام، كبر ما قال الزوجة ولا قالت الأم، قال الوالدة يعني أنتِ ولدتِ هذا الولد أرضعيه، فكأنه خلاص تعلق الولد بأمه فأنتِ أمه أنتِ والدة، قال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ﴾ [البقرة: 233] شفت جاء بالفعل المضارع ما قال **"أرضعن"** فعل أمر، لا، قال هذا أمر أصلاً واقع متحتم، قضية منتهية متحتمة ما فيها نقاش.

الوالدة ترضع ما في نقولك أرضعي ولا ترضعي لك خيار، لا ما في خيار، الوالدة التي حملت بهذا الجنين وولدته هي التي ترضعه، ﴿يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: 233]، كم؟

قال حولين كاملين يعني سنتين، لماذا قال كاملين؟ قال لأنه لا بد من تمام لأنك لا بد أن تتم هذه المدة إلا إذا تراضوا بعدين تأتي المسألة، حولين كاملين لأن إذا قال حولين احتمال أن يكون كمل سنتين أو ما كمل، لو أقولك الآن أنت كم مكثت في مكة أو في المدينة؟

تقول مكثت شهر، يمكن 27، 26 يوم، لكن لو قلت مكثت شهرًا كاملاً انتهى الأمر انقطع، فهنا قال: ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: 233]. قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: 233]، لمن أراد أن يتم سنتين يتم، يريد أن ينقص سنة ونصف أو سنة وثمانية أشهرٍ أو نحوها فله الخيار، قال: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: 233].

وهذا حق الطفل على أمه.

- وحق الطفل على أبيه؟

قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 233]، انظر ما قال **"وعلى الوالد"** لماذا قال المولود له؟ لأن هذا الولد لك أنت، وهبه الله لك أنت، وينسب إليك ما ينسب إلى أمه وأنت المسؤول عنه؛ ولذلك قال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 233]. رزق من؟ قال على المولود له وهو الأب أن يرزق الأم الوالدة التي ترضع وكسوتها، سواء كانت في ذمته، إذا هي في ذمته يعطيها واجب عليه هذه تسمى نفقة واجبة.

- إذا هي مطلقة وليست في ذمته ماذا نقول؟

هذه الأجرة، الأم ما ترضع بلاش وأنت مطلقها وليست في ذمتك ولا في حبالك الآن، عطها كسوة وعطها نفقة وعطها أجرة هذا الشيء بالمعروف.

يعني هي لا تطلب شيء عالي ولا أنت تعطيها شيء قليل بما تعارف الناس عليه وحسب كل أسرةٍ وكل طبقةٍ؛ ولذلك قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 233]، لا يتكلف الزوج بشيءٍ لا يطيقه، والله أنا برضع المرأة تقول: **"أنا أرضعه ما عندي مانع بس تعطيني مبلغ كذا وكذا"** تضرب عليه مبلغ كبير، أو هو يعني يأتي يعطيها مبلغ قليل يضرها، الوسط قال: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 233].

ثم قال: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: 233]، لا تضرها بحيث إنك تأخذ الطفل منها بقوة تقول: **"أنتِ مطلقة ولا أنتِ أستاذة ولدي"** ويأخذ الولد ويروح يدور من يرضعه، تضر أم أمه تحتاج إليه لا تحرمها منه، أو تضرها بأن تقول: **"ألزمك الإرضاع ولا أعطيك شيء أو أعطيك مبلغ قليل"**، هذا مضارة.

وكذلك قال: ﴿لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: 233] أي الوالد لولده بحيث إن المرأة تأخذ مبلغ كبير منه أو تؤذيه أو تحرمه من رؤيته تقول: **"لا خلاص كل ما جاء يأخذ يشوف الولد قال ما نقدر نفتح لك الباب، توكل على الله"**، ما في ناس انظر الإذن لو مرة في الشهر ما في، هذه مضارة.

قال: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: 233].

- من هو الوارث؟

قال الذي يرث هذا الميت يقوم مقامه، لو كان الأب مات فرضنا أن الأب غير موجود المولود له هذا الأب غير موجود فإننا نأتي بمن يرث هذا الأب ونقول أنت نزلت منزلة الأب، مثل أخوه ولا ابن عمه أو عمه أو نحو ذلك ممن يرثون، نقول عليك النفقة وعليك الكسوة أنت مسؤول هذا أقرب الناس لك وأنت ترثه فكما أنك ترثه أنفق، ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة: 233].

قال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: 233]، يعني الوالد والمولود له الوالدان فصالاً يعني يفصلون الولد عن تراضٍ، يعني يفصلون عن الفطام، يقول والله: **"أنا أرضعه سنة ويكفي أنا ما بدافع فلوس وأنتِ ما ودي أكلف عليك، ترغبين في الزواج في غيري اذهبي"**، في سنة تراضٍ، ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: 233] أن يوقف الرضاع يفطمونه.

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ [البقرة: 233] يعني الأم أبت وامتنعت أو الرجل قال: **"أنا لا أريدها"**، فإذا اتفقوا على أن يأتوا بمرضع خارج تسمى الظئر، مرضعة، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 233]، بحيث إنك تأتي بمرضعةٍ أجنبيةٍ تقول: **"خذي الولد هذا أرضعيه ونتفق معك على مبلغٍ معينٍ"**، وسلم لها المبلغ فلا مانع.

قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 233] في هذه الأحكام وهذه الأمور التي تخص الزوجين والأولاد اتقوا الله ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 233]، إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصير بأعمالكم مطلع عليكم ويجازيكم، يجازي المحسن على إحسانه ويجازي المسيء على إساءته، ويجازي من يعامل زوجته بسوءٍ أو يعامل الطفل بسوءٍ، ويجازي من يعامل الزوجة والأم والطفل بإحسانٍ ونحو ذلك.

إذا طلقها الطلقة الأولى يراجعها وخطبها يلزم مهر؟ **"مهر؟ يلزم مهر؟"**، إذا طلقها الطلقة الأولى أو الثانية إن كانت في العدة فله أن يراجعها؛ لأنها زوجة، إن خرجت من العدة خلاص خرجت من العدة هذه يجوز له أن يعقد عليها مرة جديدة مرة أخرى يعقد عليها ويدفع لها المهر كأنها امرأة غريبة يعقد عليها المهر وتوافق عليه وجود الولي والشهود.

"نعم"، عقد جديد يعني ولكن الطلقة هذه ما تصفى عنه، **"الطلقة هذه باقية بذمته"**، إيه ما تذهب، فهذا هو طيب، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(45)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

أيها الإخوة، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا المجلس، مجلس الذكر ومجلس القرآن الكريم، نجلس هذه الدقائق المعدودة ونتناول فيها آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه الآيات هي من قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234]. هذه الآية أيها الإخوة تتحدث عن عدة المرأة إذا توفي عنها زوجها؛ كم تعتد؟ وإذا اعتدت وجلست في بيتها ماذا تصنع؟

هذه الآية توضح لنا، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما تحدث في الآيات الماضية عن أحكام الطلاق وعدة المرأة، وأنها تتربص إذا طلقت من زوجها سواء كان هذا الطلاق طلاقاً بائناً أو طلاقاً رجعياً، فإن المرأة تعتد وتجلس إما ثلاثة قروء، أو ثلاثة أشهر، أو حتى تضع، أو نحو ذلك مما تقدم الحديث عنه في لقائنا الماضي.

هذه الآية التي بين أيدينا هي تتحدث عن عدة المرأة إذا توفي عنها زوجها، وهو ما يسمى بالحداد؛ حداد المرأة كم تحد على زوجها؟ وكم تعتد وكم تتربص؟

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234]. أربعة أشهر وعشراً تبقى في بيت زوجها، لا يجوز إخراجها من بيت الزوج، ويجب عليها أن ينفق عليها وتبقى في بيت الزوجية حتى تنتهي هذه العدة، وهي أربعة أشهر وعشر. لاحظ عندما نتدبر الآيات ونتأملها.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾، ما قال يجلسن في البيت؛ لا، فرق بين تتربص وبين تجلس في البيت، التربص هو انتظار مدة تنتهي، والتربص معناه أن المرأة تجلس لشيء معين تلاحظ في بيتها حتى إذا انتهت المدة خرجت؛ يعني معنى التربص أنها تحد على زوجها.

وما معنى الحداد؟ الحداد أن تبقى في بيت الزوجية لا تخرج إلا لحاجة، كمراجعة مستشفى، أو عمل، أو وظيفة، أو مثلاً تكون طالبة تدرس، هذه الحاجات الضرورية تخرج فيها، وما سوى ذلك فلا تخرج.

لا تخرج زيارات واستراحات ونحو ذلك، تبقى في بيت الزوجية، وتبقى في بيت الزوجية ولا تتجمل بالثياب الجميلة، أو بالحلي، أو بما تتجمل به المرأة، كل ذلك تمنع منه، هذا معنى الحداد، تمنع.

النبي ﷺ جاءت امرأة فقالت: **«إِنَّ ابْنَتِي تُوُفِّيَ عَنْهَا زَوْجُهَا، وَإِنَّهَا تَشْتَكِي عَيْنَهَا، أَفَتَكْتَحِلُ؟ قَالَ: لَا»**. حتى الكحل ما تستعمله، معنى أنها في زمن التربص وزمن انتظار هذه المدة أنها تبقى محدة على زوجها؛ تعظيماً لحق الزوج، وقبل ذلك تعظيماً لحق الله الذي أمرها بذلك.

- قال الله عَزَّ وَجَلَّ: تتربص كم؟

قال: أربعة أشهر وعشراً.

- لماذا ليش أربعة أشهر وعشر؟ لماذا ما تكون ثلاثة ولا ستة؟

قال أهل التفسير: **"إن هذه المدة أربعة وعشرة هذه مائة وعشرون يوماً في أربعة أشهر، ثم عشرة أيام يصبح العدد مائة وثلاثين، قالوا إنها مائة وعشرون يوماً هنا يتحرك الجنين في بطنه وتعرف المرأة أنها حامل وتتيقن يقيناً أنها حامل من الزوج الأول"**.

فلو لم تكن لها هذه المدة، وقلنا خلاص توفي زوجك اخرجي وتزوجي، ما ندري هذا الحمل من أين؟ قد يكون من الأول قد يكون من الثاني، فتختلط الأنساب.

ولذلك الله سبحانه حد بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حد هذه المدة أربعة أشهر وعشرة أيام، العشرة أيام هذه زيادة التيقن، وإلا خلال أربعة أشهر يتضح فيها الحمل.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انتهت الأربعة أشهر عشر، ماذا تصنع؟ قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها الأولياء، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ يعني فيما تفعله المرأة في نفسها، تتجمل وتلبس، تخرج، تتعرض للخطاب، لو خطبها واحد ما في مانع، هذه خلاص انتهت المدة.

قال: ﴿فِيما فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

- لماذا قال بالمعروف؟

قال: **"بالمعروف الذي يتوافق مع الشرع، يعني أنها تلبس اللبس الذي أباحه الله، وأنها تتجمل بما أباح الله، ليس معناها أنها تلبس الملابس المحرمة والمتكشفة والعارية، وليس معناها أنها تخرج أمام الرجال المتكشفة وسافرة عن وجهها، كل ذلك ليس بالمعروف، كل ذلك بما هو محرم"**.

فهي إذا انتهت عدتها تخطب، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خاتمة الآية: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 234]؛ أي خبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما تعمله المرأة، وبما تظهره من الزينة أو عدمها، وبما تخبر عن حملها أو لا، كل ذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خبير بذلك الأمر.

في مسألة مهمة ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية التي بعدها مباشرة، وهي المرأة المعتدة سواء كانت معتدة في الطلاق البائن أو معتدة في عدة الوفاة.

عدة الوفاة هل يجوز أي إنسان أن يخطبها وهي ما زالت في عدة؟

دعنا من عدة المرأة التي طلقت طلاقاً رجعياً، هذه اللي طلقت طلاقاً رجعياً طلقها زوجها مرة أو مرتين، هذه ما دامها في العدة هي زوجة، ما أحد يجوز أن يخطبها بأي طريقة ولا يتعرض لها؛ لأنها ما زالت في ذمة وفي عصمة زوجها.

لكن نتحدث عن المرأة التي بانت من زوجها، طلقها طلاقاً بائناً بالثلاث، أو توفي عنها زوجها، هذه المسألة هل يجوز للإنسان أن يقوم ويذهب ويخطبها مباشرة، أو يخطبها عن طريق ولي أمرها أو لا يجوز؟

الله يقول: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ يقول التعريض جائز لكن لا تصرح، لا تأتي تقول أنا أريد البنت، أو أريد أن أتزوج بنتكم أو أختكم أو هذه المرأة، لا؛ هذا لا يجوز التصريح، وإنما تلميح وإشارات فقط.

إشارات مثل ما إذا جاءك فقير ودخل زارك في البيت قال لك والله أنا جاي أسلم عليك، الفقير جاي يسلم عليك يريد أن تساعده، هذه لمح، هذا تلميح، هذا تعريض.

فكذلك هنا، إذا عرض قال: والله أنا يعني عندي زوجتي ومتعبة، وأنها فيها أتعاب صحية أو نحو ذلك، أو يقول مثلاً: أنا يعني مضى عمري وأنا ما تزوجت؛ يعني لمح تلميحات بعيدة، هذا جائز.

يقول: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ يعني المعتدات، أما غير المعتدة هذا ما نتناقش فيه، يخطبها ما في مانع، نتكلم عن المعتدة.

قال: ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ يعني أخفيت في نفسك أنك تقصد أنها متى انتهت المدة سأذهب إلى هذا البيت وأخطب التي عندهم قد توفي عنها زوجها وأنا أعرفها، إذا انتهت المدة سأذهب، هذا أكننته في نفسك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ والله يعلم أنك في نفسك ستذكرها أو تلمح، ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ يعني لا تصرح، لا تصرح بالخطبة. لا تواعدها سراً يعني تأتي إليها وتخبرها مثلاً بالزواج، أو تقول أو ترسل لها رسالة، أو تحدث وليها أو نحو ذلك، تقول أنا قاصد البنت وقاصد هذه المرأة زوجها وتصرح، هذا لا يجوز.

قال الله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ لماذا قال سراً؟ لأنها قد تصل المعلومات إلى هذه المرأة فتتعجل، تقول خلاص انتهت مدتي، تقول والله هذا جاءني رزق وجاءني خاطب وأنا ما أرده، ما بيجي إلا شهر ونص، شهرين، أقول خلاص انتهت المدة، فتتعجل؛ فهذا الذي نهى الله عنه حتى لا تتعجل المدة.

قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ يعني تقول بالتلميح والتعريض الذي أباحه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم قال تأكيداً على: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ يعني لا تخطبها ولا تعقد عليها لا يجوز، ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ يعني حتى تنتهي مدة التربص، سواء في عدة المطلقة طلاقاً بائناً، أو في عدة المرأة التي توفي عنها زوجها، لا يجوز، ولا يجوز أن يعزم عقدة النكاح أو يخطبها أو يعقد عليها وهي في هذه الحال.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المخاطبون، ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ يعلم ما في نفسك من التصريح ومن النية ومن التلميح أو نحو ذلك، يعلم الله سبحانه، قال: ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ نحذره ليش؟

قال: ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ أن تخالفوا أمره. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ غفور لمن بدا منه هذا الشيء وهو لا يدري، وحليم لا يعجل العقوبة. نسمع كثير من الناس والله حتى كثير يخبروننا، امرأة تقول أنا ما زلت في العدة وواحد جاء وتقدم لي، نقول ما يدري هذا، وان كان يعلم فهو يجهل العلم هذا يجهل، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتجاوز عنه.

إذا طلق الرجل المرأة، عندنا الآن حالات في المرأة التي تطلق، الآيات الآن عادت إلى الطلاق، يقول لك إذا طلق الرجل هذه المرأة، يعني طلقها ولم يدخل بها، ولم يفرض لها المهر، ما أعطاها مهراً وما مسها، مجرد عقد النكاح تم، تمت الخطبة وتم عقد النكاح بينه، تم عقد النكاح اللي يسمى بالملكة، تمت الملكة ما دفع مهراً ولم يدخل بالمرأة ولم يمسها، ثم طلقها، ما حكمه؟ هل يلزمه شيء؟ ما الذي يلزمه وما الذي لا يلزمه؟

اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ يعني تخلوا بها، ﴿أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ المهر.

قال: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ يقول إذا طلقتها بعد العقد وأنت ما أعطيتها المهر ولم تمسها ولم تخل بها.

- ما هي النتيجة؟

قال: متعوهن، اعطها متعة.

- ما هي المتعة؟

تمتعها بأي شيء، بمبلغ شيك مثلاً، أو مثلاً بكسوة، أو بطقم من أطقم الذهب، أو أي شيء تعطيها شيئاً بعدما عقدت عليها، الآن أنت تم العقد وتمت الملكة، وهي الآن تنظر إلى الزواج وتنتظر الزواج، ثم بعد ذلك تطلقها ولا تعطيها شيئاً؟ تعطيها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ كل على حسب قدرته. الموسع الغني يعطي ما يقدر عليه، يعطي شيك ثلاثين أربعين ألفاً هذا غني خمسين ألفاً، أو فقير يعطي على قدر حاله؛ هذا هو الموسع قدره والمقتر قدره.

﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ تعطيها شيئاً أباحه الله، لا تعطي أشياء محرمة، لا تشتري هدية من أشياء محرمة، تعطيها شيئاً أباحه الله بالمعروف.

قال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ من الذين وصلوا لدرجة الإحسان والتعامل الطيب والرأفة والرحمة، هؤلاء وصلوا لهذه الدرجة، ليس مجرد خلاص أنا والله عقدت عليها وغيرت رأيي خلاص طلقتها بس مع السلامة، أين الإحسان وين الرحمة؟ هي في هذا الموقف تحتاج منك أنك تودعها بما يتناسب.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شرع هذا الأمر، وقال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين وصلوا إلى درجة الإحسان، ولذلك ستأتينا آية أخرى قال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ما قال حقاً على المحسنين، لازم نفرق بين المحسنين والمتقين، هذه لما كانت منه تبرع قال محسنين، وهناك لما كان عليه لابد منه قال متقين.

يقول هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ انظر الحالة هذه غير الأولى؛ خطبها وعقد عليها بس ما أعطاها مهراً زين ولا خلا بها ولا لم يمسها، فهذه يمتعها.

عقد عليها، خطبها وعقد عليها ودفع المهر زين وما مسها ولم يقترب منها، ثم طلقها.

- ما هي النتيجة؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ يعني مهر، قال: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾. تأخذ النصف، والنصف لها لا يجوز لك تأخذه كاملاً؛ النصف لها ونصفه لك، ولا يجوز هي تقول لا ما أعطيك شيء خلاص المهر وصل إلي ما لك شيء، النصف له ولك نصفه، لا؛ هذا لا يجوز.

هذا حكم الله، أنها تأخذ النصف وهو يأخذ النصف؛ لأنه عقد ودفع المهر لها، فلا يصلح أن يأخذ المهر كاملاً من بين يديها، لها النصف هذا حكم الله.

ولها قال: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ إذا عفت هي، قالت خلاص وطلقني وتم الطلاق ولم يتم الزواج، هذا مهرك خذ مهرك خلاص عفت، تقول أنا لا أريد منك أي شيء.

فيقول هنا: ﴿إِلَّا أَن يَعْفُونَ﴾ إلا أن تعفو المرأة، قال: ﴿أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ أي الزوج. الزوج بعد ممكن يقول: والله أنا أعطيتها شيئاً وهذا المهر ليس لي رغبة في أن آخذ منه ولا شيء خلاص المهر وصلها وهو حلال لها لا أريد منه شيء، فهذا يمكن يحصل من الزوج أو من الزوجة، أو يكون الذي بيده عقدة النكاح هو قد يكون وليها؛ متى؟ إذا كانت لا تدرك ولا تعرف، تقول تعال يا ولي تعفو أنت عنه، والولي يعفو عنه ويسقط ويأخذ المهر الزوج كاملاً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ العفو هو القريب للتقوى، إذا كنت تقياً تخاف الله وتراقب الله فعفوك عنه أولى، إذا سلمت المهر لها وعقدت عليها ثم طلقتها فكن أقرب للتقوى فاعفو عنها.

"جاء عن بعض السلف أنه أمهر امرأة وعقد عليها ولم يدخل بها فطلقها، لما طلقها قال: والله لا آخذ منها شيئاً، بل أنا أقرب منها إلى التقوى ولا آخذ منها شيئاً؛ فترك المهر عندها".

قال أنا أقرب، والعفو أقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله في ختام هذه الآية: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾. انظر لاحظ الآن عقد عليها ما دخل بها، يمكن ما رآها ولا جلس معها، وعقد عليها وطلقها، أو عقد عليها ودفع المهر وطلقها، ويقول الله ماذا يقول؟ ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

- كيف بمن عاش مع زوجته؟

بعض الرجال يعيش مع زوجته أربعين سنة خمسين سنة ثم يطلقها، وإذا طلقها نسي الفضل الذي بينك وبينها والعيش الذي عشت معها والأيام التي مضت، كل هذه تنساها ولا تذكرها؟

الله يقول: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾. وهذه الآية أحياناً أيها الإخوة يعني تجد الزوج ما زالت المرأة بعصمته ويتزوج عليها ثم ينسى الأولى، والله يقول: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ﴾، أين العشرة؟ وقد أنجبت لك أولاداً، قد يكون هؤلاء أولاداً صالحين ومنهم علماء وبنات وذرية، ثم كل هذه الأمور تنسفها نسفاً؟

الله يقول: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾. إذا كانت العشرة قائمة لا تنسها، إذا أنت تزوجت على غيرها وتركتها معلقة لا تنس الفضل، أحسن إليها؛ عاشت معك سنين طويلة.

وإذا طلقتها أنت وقد عشت معها سنين لا تنس الفضل، أكرمها ومتعها وخل علاقتك معها بالعلاقة الطيبة، وأحسن إليها واتق الله في حقها وسرحها سراحاً جميلاً، ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾.

وكيف إذا كانت في هذه الآيات في هذا السياق امرأة ما رآها الرجل ولا جلس معها، ومع ذلك يؤكد الله على أن لا ينسى، وانظر الخطاب لم يأت للزوجة حتى الطرفين، حتى الزوجة؛ الزوجة إذا تزوج عليها بدأت تسب وتشتم وتنسى فضل زوجها عليها، أو طلقها تنسى الفضل.

الخطاب هنا موجه للطرفين؛ أيها الزوج ويا أيتها الزوجة لا تنسين الفضل، ويا أيها الزوج لا تنس الفضل، ولذلك يقول الله: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 237]. الله مطلع على أحوالكم وعالم بأحوالكم، فأحسنوا وأكرموا زوجاتكم ولا تنسوا هذه، هذا الأمر فيه سبحان الله العظيم يعني النبي ﷺ هو قدوتنا وهو أسوتنا؛ عاش مع خديجة مدة من الزمن وتوفيت لم ينسها أبداً.

كان يأتي ويذبح الذبيحة ويوزعها على صديقات خديجة، يوزع على صديقات خديجة؛ هذا من الوفاء للزوجة. كيف يأتي شخص الآن زوجته توفيت أو مثلاً طلقت ويأتي لصاحباتها وصديقاتها ويكرمهم؟

أنا الآن ما نبي منك إكرام صديقاتها، أكرمها هي؛ أكرم التي عاشت معك سنين طويلة.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح وأن يتقبل منا ومنكم، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه.

(46)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا العلم والهدى والتقى يا رب العالمين.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعل هذا الاجتماع اجتماعًا مرحومًا، وأن يجعل تفرقنا من بعده تفرقًا معصومًا، ولا يجعل بيننا شقيًا ولا محرومًا، آمين.

أيها الإخوة، هذا مجلس من مجالس الخير ومجالس القرآن، والمجالس التي تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة.

☜النبي ﷺ يقول: **«مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»**، فإذا وجدت الرجل يقبل على الخير والعلم والتعلم، فاعلم أن الله قد أراد به خيرًا، وإذا وجدت الشخص يعرض عن ذلك فاعلم أن الله لم يرد به خيرًا. فعندنا مجموعة من الآيات ومر معناها في لقاءاتنا الماضية، نجلس هذا المجلس ونتدبر هذه الآيات ينفع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها، ورب مبلغ أوعى من سامع.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238]. لو نتأمل هذه الآية، يعني آيات قبلها كلها ما يقرب من عشرين آية، كلها تتحدث عن الأسرة؛ الزواج والطلاق والرضاعة والخطبة، وما يتعلق بذلك من أحكام المهر ونحوه، كل هذه تأتي مجموعة دفعة واحدة.

ثم يأتي بعد ذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238]، ثم تعود مرة أخرى الآيات إلى أحكام الأسرة من عدة المرأة المتوفى عنها زوجها وأحكام الطلاق وتمتيع المرأة المطلقة.

- قد يسأل سائل يقول: يعني ما الحكمة من مجيء هذه الآية وهي تأمر بالمحافظة على الصلاة بعد هذه الآيات التي تتحدث عن أحكام النكاح والطلاق وما يتعلق بذلك؟

الجواب: يعني لماذا جاءت هذه الآية خلال هذه الآيات؟ هذه تحتاج منا إلى أن نتأمل ونتفكر ونتدبر هذه الآية.

ذكر بعض أهل العلم: **"أن الحكمة في أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أتى بالأمر بالمحافظة على الصلاة بين آيات الطلاق والنكاح؛ أن غالب ما يحصل في قضايا النكاح وقضايا الطلاق أنها منازعات بين الزوجين ومخاصمات، وقد تترافع إلى المحاكم، وكل يحاول أن ينتقم من الآخر، وهذا الأمر لا يزيله أو يخفف منه إلا الرجوع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالصلاة"**.

الرجوع إلى الله والصلاة هي التي تفك مثل هذه الأزمات، ولذلك النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة؛ إذا اشتد عليه أمر يفزع إلى الصلاة.

فمثل هذه الأمور التي تحصل بين الزوجين من المشاقة والمحادة والنزاع والخصومات وقد يسب بعضهم الآخر، فمثل هذا الأمر، ولذلك لاحظ، انظر ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبلها؛ لما قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: 237]، كل ذلك يدعو إلى عدم الشقاق والمنازعة بين الزوجين، لا تنسوا الفضل.

- ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ماذا قال في الطلاق؟

قال إذا لم تبقَ، لا تريد هذه المرأة، تسريح بإحسان، تسرحها بالطريقة التي فيها الإحسان، أن تحسن إلى الزوجة إذا أردت أن تطلقها؛ طلقها وأحسن إليها، فهذا معناه.

ولذلك جاءت هذه الآية يعني تخفف وتزيل، ولأن كثير، كثير يعني سمعنا ورأينا أن كثيرًا ممن تحصل معهم مثل هذه المشادات، وهذا الضيق والنكد الذي يحصل معه قد تضيع عليه الصلاة، قد ينسى وقت الصلاة من شدة المشاقة والمنازعة، ما يدري هل دخل وقت الصلاة أو انتهى وقت الصلاة، لا يدري من شدة، ولذلك ذلك يعني أقوى علاج لمثل هذا، مثل هذه الخصومات وأقوى علاج مثل هذه، أن تفزع إلى الصلاة.

إذا حصل ما حصل من أبنائك ومن بناتك ومن زوجتك في البيت، افزع إلى الصلاة، فإن الصلاة هي التي تحل، أقوى علاج وأقوى حل لمثل هذه المنازعات التي تحصل في البيوت؛ أن الصلاة التي وجه الله في هذه، ووضع هذه الآية بين آيات الطلاق لهذه الحكمة.

ولذلك قال الله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ [البقرة: 238] ولم يقل صلوا، لم يقل صلوا وإنما قال حافظوا على الصلاة. هذا الوقت الذي تحصل فيه المنازعات قد يصلي إنسان وهو لا يدري ماذا قال في صلاته، فأمرك الله أن تحافظ، تحافظ على صلاة الجماعة، تحافظ على تأدية الصلاة على وجهها، ولذلك جاء الله بكلمة حافظوا، حافظوا ولم يقل صلوا أو أقيموا الصلاة وإنما قال حافظوا.

وغالب فعل هذا الفعل لما يقول **"حافظ"** فاعل هذا الفعل؛ **"خاصم وقاتل وحافظ"** دائما يكون من طرفين، فمن هو الطرف الثاني إذا كنت أنا أحافظ على الصلاة؟ قال لك الطرف الثاني هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- ما معناه؟

قال إنك أنت إذا حافظت على الصلاة فإن الله يحفظك؛ **«احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»**، فإذا حافظت على الصلاة فإنك ستجد ما يقابل ذلك؛ أن الله يحفظ لك نفسك، يحفظ لك دينك، يحفظ لك مالك، يحفظ لك أشياء تحتاجها.

فلذلك قال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ [البقرة: 238]؛ الصلوات الخمس ينبغي للإنسان أن يحافظ.

- كيف يحافظ عليها؟

دائما كلمة المحافظة هذه تدل على أن هناك أمر يحتاج إلى محافظة، أنت ما تحافظ على شيء تافه، وإنما تحافظ على شيء له قيمة عندك. فإذا كان للصلاة قيمة كبيرة عندك ينبغي عليك أن تحافظ عليها.

- كيف تحافظ على الصلاة؟

تحافظ على الصلاة بأن تؤديها في وقتها، لا يخرج الوقت وأنت لم تصلِّ، تحافظ على الصلاة بأن تؤديها كما أمرك الله بإقامة شروطها وأركانها وواجباتها وسننها، تحافظ على الصلاة بأن تخشع فيها، أن تتدبر فيها، هذا معنى المحافظة، أما أن تصلي هكذا أي صلاة هذا ما تسمى محافظة.

كيف يقول إن هذا الرجل يحافظ على ماله؟ كيف تحافظ إلا أنك تتعهده في كل وقت وتراقب هذا المال في كل وقت، فكيف تراقب الصلاة في كل وقت؟ كيف تتعهد الصلاة أن تؤديها على هذا الوجه؟ قال: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ ثم قال: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: 238].

- ما هي الصلاة الوسطى؟

هذه اختلف العلماء في تحديدها، والصحيح فيها باختصار هي صلاة العصر؛ للحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ يوم الخندق لما اشتد القتال بين المسلمين وبين الأحزاب قال: **«شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ»**، فالنبي ﷺ-حدد قال هي الصلاة الوسطى هي صلاة العصر.

وصلاة العصر من أشد الصلوات التي ينبغي على الإنسان أن يحافظ عليها، كثير ممن يصلون ويحضرون صلاة الجماعة تجد في صلاة العصر تثقل عليه، لماذا؟ لأن بعدها قيلولة أو نومة خفيفة، وأحيانا يأتي من العمل يقول أدخل البيت وألحق على الصلاة ثم تفوته الصلاة.

ولذلك النبي ﷺ قال: **«مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»**، أو **«فَقَدْ وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»** فمسألة صعبة، فلذلك خصها الله، خصها بالذكر من بين سائر الصلوات الخمس، لا الفجر ولا العشاء ولا المغرب ولا الظهر وإنما خص العصر لهذه الأهمية العظيمة.

قال: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ ثم قال: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238]، أي خاشعين ذليلين منكسرين بين يديه، ولا يعبث الإنسان في صلاته ولا يتكلم في صلاته، ولذلك لما نزلت.

قال أحد الصحابة: **"أمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام"**، يتكلمون قبل ذلك فمنعوا من ذلك، فهذا معنى: ﴿قُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238] خاشعين متذللين له. ومجيء صيغة الجمع هنا: ﴿قُومُوا﴾ جميعًا لله قانتين، فيه دلالة على أن الصلاة تكون صلاة جماعة.

انظر حتى أن من شدة حرص الشريعة على أن الإنسان لا يفوت الصلاة ولا تسقط الصلاة في أي حال من الأحوال، ما دام العقل موجودًا يجب أن يصلي، ولا يجوز له أن يؤخر الصلاة عن وقتها؛ ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: 103]. ينبغي أن يحرص على أن يؤدي الصلاة في وقتها إلا لمريد الجمع، أما من لم يجمع فإنه لا يجوز له أن يخرج وقت الصلاة وأنت لم تصلِّ، لا تقبل منك الصلاة إذا خرج وقتها، ولذلك تأكيد على محافظة الصلاة أن تؤدى في وقتها.

تصلي على أي حال، وإن لم تجد الوضوء صلي بتيمم، إذا لم تجد تيمم تصلي على أي حال، إذا لم تجد ما يستر عورتك تصلي، إذا لم تعرف القبلة تصلي، الصلاة لا تسقط بأي حال.

ولذلك حتى جاء في الشريعة أن الإنسان يصلي ولو أنه يومئ إيماء، يصلي ولو بإصبعه يشير، يصلي حتى قال بعضهم **"ولو بعينه"**، الصلاة لازم تؤدى، أما بعض الناس في تساهل في السيارة يقول نصلي قدام، نصلي قدام والوقت قد خرج، فهذا من التساهل وتضييع الصلاة ولم يحافظ عليها، صلي على أي حال.

ولذلك انظر حتى في الخوف، شدة الخوف من العدو في القتال، أو الخوف من السبع إذا كنت في منطقة أو في أرض فيها سباع وخفت، تصليها في وقتها، تصليها ولو أنت في سيارة تصليها.

الخوف من شدة الأمطار والرياح ونحوها لا بد أن تصلي، ولذلك ماذا قال حافظوا عليها و ﴿قُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ 238 فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: 238-239].

قال افرض أنك خفت، فـ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ خفنا من الله أطلق الأمر ولم يحدد شيئًا معينًا، قال ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ أي شيء؛ خفت من سبع، خفت من عدو، خفت من سيول وأمطار شديدة ورياح وخوف، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا﴾ أي صلوا رجالاً يعني راجلين على الأقدام وأنت تمشي على قدميك، وأنت تمشي بالسيارة لا بد أن تصلي، فكلمة ﴿رِجَالًا﴾ أي راجل يمشي على قدمه.

قال: ﴿فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة: 239] على الفرس، على الإبل، على السيارة، على الدابة، تصلي على أي حال حتى في الطائرة في السفينة، تصلي على أي حال، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ

رُكْبَانًا﴾ تصلي حتى لو تفقد أشياء كثيرة في الصلاة لا بد أن تأتي بالصلاة، ولو ذهب عنك السجود والركوع وذهب عنك شيء من القراءة ونحو ذلك أو الخشوع أو نحو ذلك، المراد منك أن تصليها والمطلوب منك أن تصليها.

ولذلك قال هنا: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ وذهب الخوف واستقررتم في المكان الذي تأمنون فيه، فتؤدون الصلاة على وجهها، قال: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 239]. اذكروا الله في أعظم ذكر لله إقامة الصلاة، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14]. أعظم شيء أنك إذا أمنت تؤدي الصلاة المطلوبة منك على الوجه الصحيح، تؤديها ولا يمنع أن تذكر الله في سائر الأذكار المطلقة.

قال: ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ وهذه نعمة عظيمة أن يمنَّ الله تعالى علينا بأن يعلمنا هذه الأحكام التي نحتاجها في حياتنا، هذا ديننا لا بد أن نتعلم، لا بد أن نتعلم: ﴿مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 239].

هذه الآية جاءت بين آيات الطلاق والخطبة والمسائل هذه المتعلقة بالأسرة والعشرة الزوجية، تأتي هذه لتؤكد أن الإنسان لا يضيع نفسه بمثل هذه القضايا ويضيع دينه.

تعود الآيات مرة أخرى إلى عدة المرأة إذا توفي عنها زوجها، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 240].

- قد يسأل سائل يقول: يعني قبل آيات جاءت عدة المرأة المتوفى عنها زوجها أنها أربعة أشهر وعشر، وهنا يقول حول كامل يعني سنة كاملة، كيف نجمع بين هذا وهذا؟

الجواب: قال بعض أهل العلم: **"إن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أمر المرأة أن تعتد سنة كاملة، ثم رفع هذا الحكم ونسخه بحكم جديد وهو أنها تعتد أربعة أشهر وعشر"**، هذا رأي.

وفيه رأي آخر وهو أفضل وأحسن يعني يجمع بين الآيتين وهو **"أن الأصل في المرأة أنها تعتد، وهذا واجب عليها أنها تعتد أربعة أشهر وعشر إذا توفي عنها زوجها، أن تبقى في بيت الزوجية أربعة أشهر وعشر، مائة وثلاثين يوم"**.

- ما هذا الحول؟

قال: **"ما زاد لها أن تبقى ولها أن تخرج"**، خاصة إذا أوصى الزوج أن تبقى زوجته في البيت لمدة سنة فينبغي أن تراعى هذه الوصية وأن تنفذ، فلذلك لاحظ الأسلوب اختلف؛ قال: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً﴾ [البقرة: 240] يعني الزوج يوصي، أو هذه الوصية من الله لأزواجهم يعني للنساء الأرامل.

قال: ﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ﴾ قال متعوهن في البيوت سنة كاملة؛ أربعة أشهر وعشر هذه واجب عليها، بعدها ما زاد، سبعة أشهر وعشرون يومًا هذه إن أرادت أن تأخذ بها فلها، هذه وصية من الزوج وإحسان من الزوج للمرأة، قال: ﴿مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ قال لا تخرجوهن من البيت، أبقوهم في البيت، أبقوهم على نفقتهم وسكناهم.

قال: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ يعني تركت هذه المدة الزائدة بعد أربعة أشهر وعشر، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ إذا خرجت ما في جناح ما في حرج ولا إثم، ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ﴾ يعني من التجمل والخطاب ولبس الزينة ونحوه والخروج من البيت، كل ذلك جائز ولكن ﴿مِن مَّعْرُوفٍ﴾ أي بما يوافق الشرع، لا أن ترتكب آثامًا بأن تخرج مثلاً سافرة أو تفعل أشياء تخالف شرع الله، لا يجوز.

قال: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-قوي غالب على أمره، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرع، فشرع لها وجوبًا أن تبقى لحق الزوج والتأكد من براءة الرحم أن ليس فيها حمل أربعة أشهر وعشر، وإن أوصى الزوج وقال أبقوها في بيتي لمدة سنة إكرامًا للزوجة فنأخذ بهذه الوصية.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 241]. يعني أي المطلقات إذا طلقت المرأة تمتع.

- هل المتاع واجب؟

تمتع نعطيها هدية، نعطيها طقم من الذهب مثلاً، نعطيها كسوة، نعطيها مالاً نقديًا أو نحو ذلك.

- هل هذا واجب ولا سنة؟

الجواب: مر معنا قبل آيات قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هناك: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 236]، وهنا قال: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 241].

- كيف نجمع؟

الجواب: **"إذا كانت هذه المرأة المطلقة لم يمسها الزوج وإنما عقد عليها ولم يدخل بها ولم يفرض لها مهرًا، فيجب عليه وجوبًا أن يمتعها بأي شيء تمتيعها؛ حتى تقر عينها وتسكن ويذهب عنها الحزن.**

إن كانت قد دخل بها وعنده أولاد منها أو قد أمهرها ونحو ذلك ثم طلقها، فالمستحب أنه إذا طلقها أن يسرح بالإحسان، ومن الإحسان أن يمتعها".

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 241]، فإن كانت من النوع الأول كان واجبًا، وإن كان من النوع الثاني كان مستحبًا بالمعروف، ولذلك قال: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الله في أزواجهم أنهم يعطونهم مثل هذا المتاع.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ختام الآية، آيات الطلاق انتهت الآن كل آيات الطلاق، وتلاحظ أن آيات الزواج يمكن آية واحدة فقط لأن الزواج عقد مجرد عقد؛ خطبة وعقد ما فيه يعني شيء، لكن الطلاق حل عقد الزوجية، هذا صعب، يترتب عليه أطفال ويترتب عليه مهر ويترتب عليه قضايا كثيرة، ولذلك فصل الله فيه.

قال هنا في ختام آيات الطلاق: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ [البقرة: 242]؛ الله عَزَّ وَجَلَّ مثل ما وضح لنا هذه الآيات يوضح لنا سائر الآيات التي نحتاجها في حياتنا وفي ديننا، قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ لماذا؟ قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 242]. تعقلون شرع الله وتفهمونه وتدركون وتتعلمون حكم الله.

لاحظ أن بعد هذه المسيرة الطويلة، عشرين آية كلها يعني تشد الأذهان في أحكام الطلاق والمهر والخطبة والزواج وغير ذلك، تأتي آيات يعني تغير المسار بذكر شيء من القصص القرآني الذي فيه عبرة وفيه عظة؛ لأن القصة القرآنية دائمًا لا تأتي هكذا عبثًا، وإنما تأتي لأهداف سامية، من أجل أهدافها أنها تأتي للعبرة والعظة والتفكر في آيات الله.

ولذلك تنتقل الآيات الآن إلى ذكر قصة مختصرة، يقول الله فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني ألم تر يا محمد لأنه هو المخاطب الأول، أو ألم تر أيها السامع، أي شخص يسمع مخاطب، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ [البقرة: 243] يعني أعداد هائلة.

- لماذا خرجوا من ديارهم؟

قال: ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ [البقرة: 243] خوفًا من الموت؛ إما من عدو وإما من مرض قد يكون وباء أصابهم أو عدو للجهاد، والذي أقرب أن يكون عدوًا لأنه خافوا من أن يواجهوا ويجاهدوا في سبيل الله ويقاتلوا العدو، ولذا حتى يعني كما يتضح لنا الآن بعد قليل.

قال: ﴿وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ [البقرة: 243]؛ أماتهم وهم أعداد كبيرة، لما أماتهم أحياهم، لماذا أحياهم؟ إما بدعوة نبي أو رجل صالح أو نحو ذلك، أو حكمة من الله أنه أحياهم ليقيم عليهم الحجة وتظهر آيته، آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم.

قال أماتهم جميعًا حتى انتهوا ثم أعاد لهم أرواحهم فأحياهم، قال: ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 243] في إحيائهم وإعادتهم فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونعمة حتى يستكملوا آجالهم.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 243]؛ فضل الله ولا يشكرون نعمة الله عليهم، ومن أعظم النعم أن الله مدَّ بعمرك، أن الله أعطاك الصحة والعافية وثبتك على الحق.

قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

انظر مما يدل على أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم قد يكون خوفًا من الجهاد في سبيل الله، قال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 244]؛ قاتلوا لا تخافون من العدو، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 244]. إذا قاتلتم لوجه الله ولرفعة الإسلام فاعلم أن الله سميع لك وعليم بحالك وسينصرك: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ [الحج: 40].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما كان الجهاد في سبيل الله ومقاتلة العدو ونصرة الدين تحتاج إلى مجاهدين وقبل ذلك تحتاج إلى عُدة، إلى عتاد حتى تواجه العدو، كيف تواجه العدو وأنت ما معك عُدة؟

فأمر الله بالإنفاق في سبيل الله والإنفاق في الجهاد، ولذلك قال: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: 245].

- انظر سمى الصدقة قرضًا، لماذا؟

لأنك دائمًا القرض تعطيه الشخص يرد لك هذا القرض، القرض الحسن أنك تدفع هذا المال لشخص محتاج إليه، تقول هذه مائة ألف أنت تحتاجها وعندك مصاريف وعندك احتياجات، خذ هذا المال مائة ألف بعد سنة رده لي، هذا قرض حسن.

الله يقول: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ [البقرة: 245]، ليس بحاجة ولكن سمى الصدقة قرضًا لأن الله سيعيدها لك، سيعيدها لك أضعافًا مضاعفة، لا يعيدها لك كما كانت لا، يعيدها وهي قد ضاعفها أضعافًا.

ولذلك انظر قال: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: 245]، وشوف جاء بأسلوب الاستفهام.

- هل في أحد سيقرض الله قرضًا حسنًا؟

كلنا سنقرض الله قرضًا حسنًا.

قال: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: 245] وصفه بانه قرض حسن لأن عاقبته حسنة، ولذلك قال: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: 245].

☜انظر جاء في الحديث: **«مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ... فَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»**؛ شايف عدل التمرة،

تصدق بعدل، فإن الله يأخذ هذه الصدقة وهي تمرة فيربيها عنده كما يربي أحدكم فلوه صغير الخيل، يربيها عنده حتى تكون هذه التي مثل التمرة تكون مثل الجبل العظيم، مثل الجبل العظيم.

ولذلك قال: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة: 245]؛ هو الذي يعطيك المال ويقبض منك، وهو الذي يجعل هذا فقيرًا وهذا غنيًا، هو الله سبحانه ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245].

إذا كنت تتصدق بالمال وأنت تعلم أنك سترجع إلى الله، وأن أعظم ما تراه يوم القيامة هي صدقتك، ومالك هو الذي تقدمه، ومال غيرك الذي تؤخره، ما أنفقت فهو خير لك خير.

ولذلك تجد الحين كما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن أن الإنسان إذا حضره الموت ماذا يقول؟ ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: 10]؛ قدم الصدقة قبل الصلاح قبل كل شيء، فالصدقة خير للإنسان، كل ما يبادر في الإنفاق في سبيل الله ذلك.

ولو كان ولو ريالاً واحدًا تصدق، لا تحرم نفسك من الخير، تصدق فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيحفظ لك هذه الصدقة ويضاعفها لك أضعافًا كثيرة.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا في هذا الحديث بما سمعناه، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والحمد لله الذي جمعنا في هذا المقام وتدبرنا هذه الآيات ووفقنا إليها، والله أعلم، صلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(47)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا الهدى والتقى يا رب العالمين.

في هذا اليوم، يوم الأربعاء، الموافق الحادي عشر من شهر جمادى الأولى، من عام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف، نجتمع في هذا المقام المبارك؛ لنتدارس آياتٍ من كتاب الله، نقرؤها ونتدبرها ونتأمل ما فيها، وخير هذه خير المجالس مثل هذه المجالس التي يقول أو يقال لهم: **«قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ، قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ»**.

فهو مجلسٌ مباركٌ، نجتمع فيه ونتدارس بعض هذه الآيات، الآيات التي بين أيدينا من سورة البقرة، وهي الآية السادسة والأربعون بعد المائتين وما بعدها، وهذه الآية والتي بعدها هي تتحدث عن قصةٍ من قصص القرآن الكريم، قصةٍ من قصص القرآن الكريم.

واعلم أن القصص القرآني يختلف عن أي قصةٍ من قصص البشر، القصة القرآنية أولًا مصدرها من الله، فهي قصةٌ ربانيةٌ مصدرها من الله، لا يتطرق لها شيءٌ من الخيال أو الكذب أو الزيادة أو النقص، هي حقٌ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: 62].

فهي قصةٌ حقائق وأشياء واقعة، قصص البشر أكثرها يكون نسج من الخيال، يتصورون يتخيلون ويقصون قصصًا مثل هذا، لكن قصص قصة قرآنية قصة واقعية ثابتة، ويقصها الله بقصصٍ واضحةٍ وبدقائق، ويذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأهدافٍ ساميةٍ.

ليست كأي قصةٍ من قصص القرآن أي من قصص البشر، لا، القصة القرآنية تأتي لأهدافٍ ساميةٍ، الله يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قصة يوسف، وهي سورةٌ كاملةٌ، قصة يوسف، ماذا قال في آخرها؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]، انظر كيف الآداب، ليست هدف واحد ولا هدفين ولا ثلاث، القصة القرآنية تختلف.

الآن بين أيدينا قصة يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأهدافٍ ساميةٍ؛ عبرة وعظة وهدى تهتدي به ومواعظ بلا شك. يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه القصة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 246]، انظر أولًا استفتاح القصة بأي شيء؟ بالاستفهام ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، كأن استفهام تشويق، يعني ما سمعت هذه القصة؟ وما أحد ذكر لك هذه القصة؟

وما مرت عليك في حياتك؟ مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: 1].

- ما سمعت بحديث الغاشية؟

حتى كثير من القصص يقول لك: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: 9]، ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: 16]، هذا الاستفهام استفهام تشويق، حتى أنت تقبل تقول: لا ما سمعت أبدًا، ولم أذكر هذا الشيء، ولم يمر علي هذا الأسلوب، أسلوب يجذب الإنسان لما يسمع

هذا الكلام، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني أما سمعت ولم تر وما علمت وما مر عليك في حياتك مثل هذا الشيء؟ من هو؟ قال ما سمعت به: ﴿الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

- من هم الملأ بني إسرائيل؟ ليش ملأ؟ ما معنى ملأ؟

قال الملأ هم القوم الذين لهم الوجاهة ولهم المكانة.

لأن سموا ملأ لأنهم يملؤون الأعين ويملؤون الصدور بالنظر إليهم وفي حالهم، لذلك يسمى ملأ، قال لك ملأ ابن فلان وملأ بني فلان؛ لأنهم هم الذين لهم الوجاهة والمكانة. م

- اذا قال الملأ من بني إسرائيل؟

قال انظر هم ملأ وهم من أين؟

قال: من بني إسرائيل.

- متى كانوا؟

قال: ﴿مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، إذًا هم جاؤوا بعد موسى، قال: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ يعني حينما قالوا، **"إذ"** يعني وقت وزمن حينما قالوا لنبي لهم، من هو النبي الذي قالوا له؟ قالوا له ابعث لنا ملكًا.

- من هو النبي؟

في القرآن لم يذكر اسمه، وهذا ينبغي أن يعرف الإنسان هذا منهج قرآني، أن الأشياء التي لم يذكرها الله ولم تأتِ السنة بذكر اسمه فلا أنت تتعب نفسك وتبحث عنها.

عرفت أن اسمه كذا أو اسمك كذا أو اسمك كذا، ما يهمنا ولا وليس وراءه كبير فائدة حتى نعرف هذا الشيء، ولذلك الله ما حدث ما قال اسمه موسى أو هارون أو زيد أو عبيد، تركه؛ لأنه نبي من الأنبياء، وهذا ما يدل على أي شيء؟ حتى نفهم لماذا؟

هذا يدل على أن الله قد بعث في بني إسرائيل أنبياء كثيرين جدًا، وهذا أحد الأنبياء ما يحتاج الإنسان به، هو نبي من أنبياء بني إسرائيل.

قالوا: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا﴾، اجعل لنا ملكًا نقاتل، رئيسًا يعني، نكون تحت رايته في الجهاد، وهم يريدون القتال لأنهم صاف، قالوا عندنا ملكًا يقاتل في سبيل الله، ليش يقاتلون في سبيل الله؟

سيأتيك الآن قب بعد ذلك بعد يعني آيات أنهم أخرجوا من وأبنائهم، السبب الذي جعلهم يقاتلون لأنهم طردوا من بلدهم وأخرجوا من ديارهم، وقتل أبناؤهم وأوذوا في سبيل الله وشردوا، فلذلك رجعوا إلى نبيهم وقالوا: يا نبي الله ابعث الملك نقاتل، مثل ما أننا هزمنا وأوذينا نقاتل في سبيل الله.

هذا النبي عنده وحي ويأتيه الوحي، ويعرف من هم هؤلاء الذين يسألون، ويعرف قدرتهم على الجهاد أو لا، ولذلك هو جس منهم أنهم لا يستطيعون الجهاد ولا يقدرون عليه لضعفهم وخورهم وضعف إيمانهم، ولذلك قال: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ يعني هل عسيتم ﴿إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾، يعني يقول: أنا أظن أنكم إن كتب عليكم قتال لا تقاتلون.

أنا هذا الذي يظهر لي كذا هكذا، هذا معنى قوله: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾، الذي أظن والذي أتحراه منكم أنكم لا تقاتلون ولا تقفون أمام العدو.

- ماذا كان ردهم؟

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾، لا، ليش لا نقاتل؟ لماذا أنت تقول إنكم لا تقاتلون؟ سنقاتل لأننا أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، هذا انظر هنا وقفة لازم نتأمل، أنت تقاتل عشان أخرجت من ديارك وأبنائك ولا تقاتل في سبيل الله راية الإسلام حتى ينصرك الله؟ إذا كان هذا هدفك الديار والوطنية وهدفك النفس لن تنتصر، لابد أن يكون، ولذلك النبي فهم منه لو كان جهادهم بالله لو كان واحدًا نصره الله، لكن لما كانت النية هكذا اختلف الوضع.

قال: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ خلاص الآن هم سألوا نبيهم أن يجاهدوا، كتب على الكتاب، ولذلك النبي ﷺ كان ينهى أن يسأل الإنسان عن شيءٍ فيفرض عليه، لما جاء رجل قال: **"إن الله..."**.

قال النبي ﷺ: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الحَجَّ فَحُجُّوا»**، قال رجل: أفي كل سنة؟ أفي كل عام؟ تسأل عن هذا الشيء، يمكن يكتب على كل عام ثم لا يستطيع الناس، قال: **«لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ»**، أن تحجوا كل عام ما استطاع الناس يحجون كل عام، فالإنسان لا يسأل انظر سأله ففرض عليهم القتال، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، ثم قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 246].

- لماذا قال الظالمين؟

لأنهم هم الذين سألوا ولم يأخذوا بما فرض الله عليهم ولم يفعلوا ما أمرهم الله ويستجيبوا لله، تون كيف تقول أنا أريد أن أجاهد ولما كتب عليك الجهاد وفرض عليك الجهاد لم تقم بهذه الفريضة، بل تركتها، ولذلك سماهم الله ظالمين لأنهم ظلموا أنفسهم ولم يمتثلوا أمر الله.

وقال لهم نبيهم لما تولوا إلا قليل بقيلة هؤلاء، قال لهم حتى بعد يعني تفاصيل هذه القصة، قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة: 247]، يعني الآن أنتم تريدون ملك تقاتلون تحت رائده، هذا ملك، أنتم سألتم الجهاد تقاتلون فرض الله عليكم جهاد وأيضًا بعث الله لكم هذا الرجل الذي تقاتل تحت رايته.

لما نظروا طالوت قالوا: نعم طالوت؟ قال طالوت لا يصلح، ليش ما يصلح؟ ليس له نسب زين، ما له نسب ولا عنده مال ما عنده، نظرتكم هذه النظرة، الجهاد والقتال ما ينظر إلى النسب والج والإمارة، لا ينظر فيها إلى النسب ولا ينظر إلى المال، قال: ﴿قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: 247] نحن أهل نسب أحق الملك، ما عنده المال فقير، فقال ماذا رد عليهم؟

انظر الرد قوي، أولًا لازم تسلم هذا أمر الله، ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ خلاص هذا اختيار الله، الله يصطفي من يشاء، فإذا اصطفى الله شيء بحكمة والله حكمه فوق كل شيء، فأنت يجب عليك أن تتقبل.,

الله يصطفي ويختار، لما كان لهم الخيرة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله هو الذي اصطفاه لحكمة، فينبغي لك أن تستجيء وتذعن لأمر الله، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ هذا أمر الأول، والأمر الثاني ماذا قال؟ ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾، يعني تميز عليكم بالعلم، هو أعلم منكم، عنده علم وهذه تعتبر ميزة في الجهاد في سبيل الله، أن يكون صاحب علم يعرف يتصرف، علم شرعي وعلم في الواقع، إذا كان لا يعرف لا في الشرع ولا في الواقع لن يحسن قيادة الجيوش.

قال: ﴿وَالْجِسْمِ﴾، خاصة في العلم والجسم، فقوة الجسمية لها دور في الجهاد، لها دور القوة في الجسم وقوة في العلم، هذه أكبر مزايا المجاهد.

وفوق ذلك أن الله اصطفاه، قال: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 247] إذًا هذا لله والأمر لله يؤتي ملكه من يشاء، ينزع الملك ممن يشاء، يعطي من يشاء، الأمر بيد الله، ولا يتصرف الله بهذه الأشياء إلا لحكمة ظهرت أو خفيت، ينبغي لنا أن نسلم الأمر لله، ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247].

واسع عليم يعني واسع العطاء والخيرات وعليم بمن يستحق أن يكون ملكًا أو لا يستحق أن يكون ملكًا، ثم تمضي الآيات في بيان هذه المواقف، انظر المواقف، هؤلاء تضعف يعترضون على حكم الله، ولما كتب عليهم تولوا ما ننزل تدريجيًا.

قال: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ﴾ [البقرة: 248] يعني انظر الآن هم أعطاهم الكلام ثم أعطاهم ما يدل على ذلك بالأدلة الواضحة، أنتم الآن ما رضيتم بملكه وقلت يعني لم يؤت سعة من المال ولم يعني ونحن أحق بالملك، قلنا لكم هذا من الله، وإن فيه صفات الملوكية وهي البسطة في العلم والجسم، خذ أيضًا من الواقع آية تدل على أنه ملك، ما هي الآية؟

قال له نبيهم: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ [البقرة: 248]، تابوت هذا صندوق كان لبني إسرائيل علامة على الانتصارات، علامة على النصر، كانوا يجاهدون قبل أن يهزموا في هذه الهزيمة، وهذا النبي كانوا حتى من قبل كان يضعون هذا التابوت أمامهم.

فإذا رآه العدو فرق وانحزم وانتصر بإذن الله بسبب هذا الأمر الذي جعله الله آية جعله الله آية. قال هذا التابوت يأتيكم التابوت، إذًا كيف يأتيهم؟ هم فقدوه، لو كان معهم لانتصروا ولم يحتاجوا إلى أن يطلبوا ملكًا، لكنهم فقدوه في بعض الهزائم التي ح التي وقعت فيهم ففقدوه، فأتاه الله لهم به حتى يقيم عليهم الحجة وحتى يخبرهم بأن هذا الملك هو الذي يص الجهاد وهو الذي اختاره الله.

قال: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما هي السكينة؟ السكينة الطمأنينة طمأنينة وانشراح الصدر، إذا رأى المجاهدون أمامهم هذا التابوت اندفعوا للجهاد وقاتلوا، وعرفوا أن النصر معهم، هذا معنى السكينة اطمأنت وذهب عنهم الخوف والقلق.,

قال: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾، إذًا آل موسى وآل هارون قد مضت يعني مضى زمانهم وبقيت لهم آثار، أما عصا موسى أو شيء من ذلك، لم يذكر القرآن ما هي بقية، الله أعلم.

قال: ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾، هذا التابوت كانت الملائكة تحمله أمامهم فينتصرون به، فأتت به الملائكة وهي تحمله أمامهم، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾، هذه آية عظيمة الآن آية حسية أمامكم، تلاحظون تنظرون إلى التابوت والملائكة تحمله، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 248]، فهذه تكفيكم إذا كنت مصدق ومؤمن بأن الله قد بعث لك طالوت ملكًا، وهو رجل صالح وفي صفات العلم وصفات الجهاد والمجاهد والقيادة.

فإن كنتم مؤمنين فاقبلوا ما جاءكم، فبعد ذلك لما رأوا الآية الحسية رأوا أشياء ومضوا وانطلقوا مع طالوت، واستجابوا لهذا الأمر، ولكن فيهم ضعف فيهم ضعف، ولذلك قال فانطلق طالوت في الجنود بالجنود ومضى، فلما مضى قال: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ [البقرة: 249] يعني انفصل عن بلده وذهب منطلق مسافة بعيدة.

قال لهم طالوت وقف وقال لهم: أمامكم الآن نهر يجري، أنتم الآن محتاجين لهذا النهر لتشربوا منه، لكن الله سيبتليكم حتى يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من منكم من يصبر صبرًا قويًا، إن الله قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة: 249].

قال هذا النهر أمامكم الله يبتليكم، تشرب منه لا تخفوا منه شيء تشرب منه لا إلا غرفة واحدة في يدك، تأخذ غرفة حتى تخفف عنك العطش لأنهم كانوا في عطش.

قال لهم لا تشربوا من هذا شربًا، وإنما تأخذ غرفة واحدة فلا مانع من ذلك.

- ما هي النتيجة؟

شربوا ولم يصبروا ولم يقبلوا ما وجههم نبيهم إليه، فشربوا فلما شربوا من ذلك، قال: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾، الآن انظر أمامك ماء أمامك ماء ويقول لك لا تشرب من هذا الماء

لا تصبر، كيف ستصبر أمام العدو؟ إذا كنت أمام نهر ما تصبر فكيف ستصبر أمام الجهاد والعدو أمامك كيف تصبر؟ فهذا يدل على ضعفهم وخورهم، قال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

فلما جاوزه، هو أي طالوت والذين آمنوا معه، يعني حتى الفئة القليلة التي شربوا أو تجاوزوا، فلما تجاوزوا ما هي النتيجة؟ قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: 249]، ضعف وخور أمام العدو لما تجاوزوا النهر وقربوا ودنوا من العدو.

قالوا طاقة لا نستطيع مجاهدة هذا العدو أمامنا؛ لأنهم فيهم ضعف وعدم صبر، ما صبروا على النهر حتى يصبروا على العدو. قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله، ﴿يَظُنُّونَ﴾ يعني يوقنون، الظن هنا بمعنى اليقين، قال الذين يظنون أي عندهم اليقين على أي شيء؟ أنهم ملاقو الله ملاقو الله، جزموا على أنهم سيقتلون ويلاقوا رب العالمين، هذا الشهادة هذا النصر وهذه النية.,

انظر كيف ليس جهاد لأجل الأمر أخرجنا من ديارنا أخرجنا من أبنائنا، لا، يظنون أنهم سيلاقوا رب العالمين سيقتلون في سبيل الله ويستشهدون في سبيل الله. ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 249]، **"كم"** هذه للتكثير، كم من فئةٍ قليلةٍ غلبت فئةً كثيرةً بإذن الله، هذا هو الظن.

الظن الذي تظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الله ينصر ولو واحد مقابل أعداد كثيرة ينصرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 249].

انظر كيف كلام الأقوياء لا تعتمد على الكثرة ولا القلة ولا على العدة ولا الذي ينصرك هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كم قليلة غرقها نصرها الله.

وهذا يذكرنا بغزوة بدر، النبي ﷺ كان عدد عددهم ثلاثمائة وبضعة عشر مقابل ألف أو قريبة من الألف، ومعهم العدة والعتاد وهؤلاء ليس معهم، ومع ذلك نصرهم الله.

قال بعض المفسرين: **"إن الذين بقوا مع طالوت كان عددهم عدد أهل بدر ثلاثمائة وهم كانوا ألوف ثلاثمائة وبضعة"**.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 250]، هؤلاء الأقوياء وجنوده واجهوا تراء خلاص تراءى الجمعان وتلاقى العدو لاقى عدوًا، ولما برزوا لجالوت، جالوت هذا عدوهم وهو كافر وقد أخرجهم من ديارهم وأبنائهم.

فلما معه يعني الجيش العرم العدد الكثير جالوت، قالوا ماذا؟ قالوا ربنا، اسمع كيف الدعوات ثلاث دعوات عظيمة، قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾، يعني أنزل علينا الصبر حتى نتحمل مواجهة العدو، ربنا أفرغ علينا صبرًا، انظر كلمة **"أفرغ"** مثل ما تفرغ الإناء تكب الإناء كأن يقول أعطنا الصبر وأفرغ علينا حتى نملأنا، ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 250]، ثلاث دعوات كلها مناسبة الصبر والثبات أمام العدو لا أفر وأترك من معي، أثبت أمام العدو وانصرنا أنت لأن النصر من الله، ليس من أن تنصر الله ينصر وانصرني على القول الكافرين.

وهذا انظر دليل على أن الإنسان لو فعل ما فعل وجهز نفسه بالعدة والعتاد والجيش والإعداد لابد أن يلجأ إلى الله، يلجأ إلى الله في الدعاء، ولذلك النبي ﷺ ليلة بدر كان قد رفع يديه حتى سقط رداؤه حتى سقط رداؤه، وهو قد رفع يديه وهو يدعو ربه حتى نصره الله، فالدعاء هو سلاح هو السلاح الذي جاهد فيه.

- ما هي النتيجة؟

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قلة هزموا كثرة ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بأمره وإرادته، لما أراد الله هذا الشيء أراده وقع فهزموهم بإذن الله. ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: 251].

- من هو داوود؟

هو نبي الله ابنه سليمان، داوود هو الذي أعطاه الله الزبور.

داوود الذي ذكر الله أن الجبال تسبح معه والطير لا الذي أعطي ما أعطي للنبوة والرسالة وأعطي الحكمة وغيرها وذكره الله بصفات عظيمة جليلة، كان إذا قرأ الزبور تقف الطير في الجو تستمع، وأعطي من الأشياء.

قال النبي ﷺ: **«لَقَدْ أُوتِيَ هَذَا مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»**، يعني صوتًا جميلًا، كان أعطي صوت جميل، كان يقوم الليل ويصوم النهار، **«أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ»**، هذا داوود الآن في سن في سن مبكرة صغير، حتى الآن لم يعط النبوة، لكن الله أعطاه مقدمات النبوة، وكان مع جيش طالوت كان داوود معهم وكان في مقدمة الجيش.

وهو الذي ظهر إلى جالوت بنفسه وواجه جالوت وقتله بإذن الله. ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: 251]، وأعطاه النبوة فجمع الله له الملك والحكمة والنبوة، وأعطاه فصل الخطاب وأعطاه من النعم العظيمة.

انتصر هؤلاء القلة في مواجهة هذه الأعداد الهائلة من جالوت وجنوده، وقتلوا داوود وفر الجيش، وانتصر هؤلاء من بني إسرائيل، وكانوا بعد ذلك أعطوا القيادة لداوود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأصبح هو قائده أصبح هو قائدهم، وهو الذي أعطاه الله الملك والحكمة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ختام هذه القصة: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 251].

لولا أن الله يدفع بالخير الشر فانتشر الشر، ولكن الله سبحانه شرع الجهاد ليقمع أهل الزيغ والفساد، ويكسر شوكة هؤلاء الكفار حتى لا تكون لهم القوة والسيطرة على وجه الأرض، هذه الحكمة التي جعلها الله في دفع الناس في جهاد في سبيل الله حتى يطمع أهل الزيغ والفساد، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ فسدت الأرض بأي شيء بالمعاصي والكفر والطغيان والشرك، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في مشروعية الجهاد، وفي بعث الأنبياء، وإنزال الكتب وغير.

قال الله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: 252]، تلك يقول: هذه تسمعها هذه القصة هي آيات الله.,

هي أخبار الله، وهي قصص الله، ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾، نقص عليك قصصًا حقيقيًا، ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، هذا دليل على أنه مقصود مرسل من عند الله، أين أهل مكة أهل المدينة أو غيرهم يأتون بهذه القصة بحذافيرها وتفاصيلها الدقيقة إلا أنها وحي، ودليل على أن محمدًا ﷺ رسول من عند الله يوحى إليه.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا لطاعته، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يجعلنا وإياكم المتدبرين لكتاب الله العاملين فيه، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(48)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وارزقنا الهدى والتقى يا رب العالمين، أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك والمتجدد في تفسير القرآن العظيم، وفي هذه الليلة الشريفة نتناول آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونبين ما فيها، ونوضح ما فيها من دلالات وأحكام، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة البقرة وعند الآية الثالثة والخمسين بعد المائتين: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: 253].

"تلك الرسل" يقول أهل التفسير: **"إن كلمة تلك هذه إشارة إلى ما تقدم"**، كان هناك رسل ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من هم؟ قال مثل ذكر موسى، آدم رسول ونبي وموسى وعيسى وداوود وسليمان، كل هؤلاء ذكروا قبل هذه الآيات في سورة البقرة.

يقول: **"تلك الرسل المذكورون السابقون الذين ذكرناهم لكم فضلنا بعضهم على بعض"**، يعني أن الله فضل الرسل بعضهم على بعض كما فضل الملائكة بعضها على بعض، وكما فضل الناس بعضهم على بعض، فضل الرسل.

- كيف فضل بعضهم على بعض؟

يعني جعل بعضهم أعلى درجة من غيره.

فيقول منها التفضيل، من هذا التفضيل يقول: **"منهم من كلم الله"**، هذه مزية، مزية لبعض الأنبياء أن الله ميز بعضهم بأن كلمهم مباشرة وسمع كلامه.

- من هو الذي كلمه الله؟ كم نبي؟ واحد ولا اثنين ولا ثلاثة ولا خمسة؟ كم نبي؟

الجواب: المشهور عند الكثير أن الذي كلمه الله هو موسى، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: 143] [2، 3].

وأيضاً كلم الله آدم، آدم كلمه الله مباشرة لما خلقه كلمه، وكلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبينا محمد ﷺ، فهذه الميزة حصلت حتى لمحمد ﷺ.

- متى كلمه؟

ليلة الإسراء والمعراج لما عرج به إلى السماء كلمه وفرض عليه الصلوات الخمس، يقول: **"منهم من كلم الله"**، هذه ميزة تميز بها الرسل بأن الله كلمهم مباشرة، أما ما سواهم من الأنبياء والرسل كنوح وهود وصالح وغيرهم؛ فإن الله يكلمهم بواسطة الملك جبريل الموكل بالوحي.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: 253]، أنبياء بعضهم رفعهم درجات، مثل داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطاه الله الملك والنبوة، وسليمان أعطاه الله الملك والنبوة، وهكذا فضل رفع بعضهم درجات؛ لكن أعلاهم درجة وفوقهم جميعاً وفوق جميع بني آدم هو محمد ﷺ، هو سيد الأولين والآخرين وسيد ولد آدم ﷺ، أشرف بني آدم هو محمد ﷺ، ولذلك يقول: **"ورفع بعضهم درجات"** أي محمداً وأعلاهم درجة.

ثم قال: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: 253].

- ما هي البينات؟

قال: **"المعجزات الحسية"**، مثل قال يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، يخرج الموتى من قبورهم ويحييهم، ويخبر بما في بيوت الناس ما تدخرون في بيوتكم يخبرهم، يخبرهم بما الذي عندهم في خزائن بيوتهم بعلم من الله أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: **"عيسى بن مريم البينات وأيده"**، أيد عيسى بأي شيء؟ قال: **"أيده بروح القدس"**.

- ما هو روح القدس؟

صحيح أنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: 102]، يعني القرآن نزله جبريل.

فأيده بروح القدس جبريل روح القدس الروح المطهر، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أيد عيسى، يؤيده بأن يدافع عنه؛ لأن عيسى تسلط عليه الأعداء وكثر عليه أعداؤه من قومه ومن غيرهم، فجعل الله جبريل يدافع عنه دفاعاً؛ لأن عيسى لم يشرع له الجهاد مثل محمد.

ولذلك أيده وبنصرة جبريل له، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما ذكر هؤلاء الأنبياء وهؤلاء الرسل، قال الله عَزَّ وَجَلَّ، يعني هؤلاء الرسل الأنبياء ما دورهم؟ دورهم هداية الخلق، هداية البشرية، كل يدعو قومه إلى أن يهتدوا إلى ربهم وأن يسلكوا الطريق إلى النجاة.

قال الله بعدها: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم﴾ [البقرة: 253]، أي من بعد الرسل، إذا ذهب الرسل حصل اقتتال بين الخلق، قال: ﴿مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة: 253]، الرسل جاؤوهم بالبينات وبينوا لهم الحق؛ ولكنهم بعد ذلك اختلفوا، اختلف الناس، وهذا الاختلاف هو سبب التفرق وسبب القتل وسبب الضياع، الاختلاف وعكسه الاجتماع، إذا اجتمع الناس اجتمعت الأمة على الكلمة وتحت راية واحدة وتحت إمام واحد لم يحصل الشقاق ولا القتال.

ولذلك قال هنا: ﴿وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ [البقرة: 253].

- ما سبب ما أثر هذا الاختلاف؟

قال سببه الاقتتال، لما اختلفوا تقاتلوا فيما بينهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ﴾ [البقرة: 253]، أي كان متبعاً للرسل ومطيعاً لربه، ﴿وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: 253]، وعاند وخرج عن طاعة ربه، فلما حصل الإيمان والكفر وقع التنازع والشقاق والقتال، قال الله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقتتلوا﴾ [البقرة: 253]، لو أراد الله عدم الاقتتال ما اقتتلوا؛ ولكن الله أراد هذا الأمر لحكمة، حكمة سبحانه يعلمها، أن يقع الاقتتال والاختلاف والنزاع لأمر أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: 253]، لحكم عظيمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا هذا الأمر؛ ذكرنا باليوم الآخر، وما الذي ينفعك في اليوم الآخر، وما الذي ينجيك في اليوم الآخر، ينفعك وينجيك إيمانك بالله وعملك الصالح، ومن أجل الأعمال التي تنفع في اليوم الآخر هي الصدقة، الصدقة في سبيل الله، المؤمن يكون في ظل صدقته يوم القيامة.

ولذلك اسمع يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 254]، آمنوا وصدقوا واتبعوا الرسول، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا﴾ [البقرة: 254]، أنفقوا من أموالكم، ننفق ماذا؟

قال: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [البقرة: 254]، يعني هذا رزق من الله، يقول لك: **"أنا الذي رزقتك فانفق من رزق الله هذا"**، هذا مال الله، الله جعله عندك وديعة، إن أحسنت في هذا المال نفعك، وإن ضيعته فسيأخذه الورثة، هو مؤقت عندك وهو مال، يقول: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [البقرة:

254]، ولم يطلب منك كل مالك، قال **"من"** يعني شيء قليل مما عندك تصدق به، هذه الصدقة تنفعك.

☜ ولذلك جاء في الحديث **«إِنَّ الرَّجُلَ يَتَصَدَّقُ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ»** مقدار تمرة أو بتمرة فيأخذها رب العالمين بيده ويربيها عنده كما يربي أحدكم فلوه -يعني صغير الخيل- يربيها الله هذه التمرة أو عدل التمرة حتى تكون مثل الجبل، تكون أنت تصدقت بشيء يسير وهو عند الله عظيم، يقول: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [البقرة: 254]، أنفقوا ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ [البقرة: 254]، هذا اليوم هو يوم القيامة أو يوم خروجك من الدنيا وانتهاؤك منها بقبض روحك، هذا اليوم يقول أنفق من قبل أن يأتي يوم.

﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ [البقرة: 254]، هذا اليوم العظيم لا بيع فيه، تروح تشتري وتبيع ما فيه، ما في بيع ولا شراء، قال: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ﴾ [البقرة: 254]، والخُلة الصداقة، ما أحد صديق ينفع الآخر، ما فيه، لا أحد ينفع الآخر لا صديق ولا غيره ولا خلة، ولا القريب ينفع إلا من رحم الله، ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]، الذين الآن يتصادقون فيما بينهم في الدنيا إذا جاء يوم القيامة أصبح بعضهم لبعض عدواً إلا المتقين.

قال: ﴿وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: 254]، يعني ما في واسطة تذهب تبحث عن واحد يتوسط لك، ما فيه، يوم القيامة ما فيه إلا عملك الصالح، الشفاعات تسقط كلها إلا إذا رضي الله وأذن؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: 109]، فهذه تنفعه الشفاعة.

قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 254]، الكافر الذي كفر ولم يؤمن ولم يسمع كلام الله ولم ينفق ولم يطع الله قد ظلم نفسه، ظلم نفسه وقامت عليه الحجة يوم القيامة.

بعد هذا تأتينا أعظم آية في كتاب الله، أعظم آية في كتاب الله هذه الآية التي بين أيدينا، هذه الآية فيها فضائل كثيرة، أُلفت فيها مؤلفات وكُتب فيها العلماء كتابات، من فضائلها وهي آية الكرسي لا تخفى على أحد أن هذه الآية إذا أوى الإنسان إلى فراشه يقرؤها، لا ينسى قراءتها.

☜النبي ﷺ يقول: **«لَا يَزَالُ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ»**.

فينبغي للإنسان أن يحافظ عليها عند النوم، يحافظ عليها أيضاً عند دبر كل صلاة، كل ما تصلي فريضة بعدها تقرأ آية الكرسي.

☜ يقول النبي ﷺ: **«لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِهِ الْجَنَّةَ إِلَّا الْمَوْتُ»** إذا حافظ عليها وقرأها، ففيها فضائل، لماذا؟

- لماذا وصلت هذه إلى هذه الدرجة هذه الآية؟

وهي أعظم آية في كتاب الله؛ لما اشتملت عليه من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبيان عظمة الخالق جل وعلا في صفاته، في أسمائه، في أفعاله جل جلاله، واسمع وهي آية واحدة تأملها وتدبرها.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]، من أعظم أسماء الله، لا يسمى بها أي مخلوق يسمي نفسه بالله أبداً، هذا من أسماء الله الخاصة، هناك أسماء لله خاصة لا يمكن أن تطلق على المخلوق؛ مثل الله، الرب، الرحمن، الخالق، هذه لا يتصف بها أي مخلوق أبداً؛ لكن ممكن تقول العزيز.

العزيز ممكن أن يطلق على الله ويطلق على غيره عزيز، تقول: **"وقالت امرأة العزيز"**، العزيز ممكن الكريم يجوز، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: 49]، فالكريم بعض أسماء الله تطلق على المخلوق وتطلق على الخالق؛ لكن هناك أسماء خاصة.

الله لا يطلق إلا الرب، لو قلت كذا الرب وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول الله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: 255]، أي لا معبود بحق إلا هو، لا يجوز لمخلوق أن يصرف أي نوع من أنواع العبادة إلا لله، وهو المستحق أن يعبد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: 255]، لما بين أنه هو المعبود، وهو الله المألوه المحبوب المعبود؛ قال: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]، هذه أسماء الله الإله الحي القيوم، هذه كلها أسماء لله وفيها صفات عظيمة.

صفات أنه هو الحي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الحي الذي لا يموت، الإنسان حي لكنه يموت، والله حي لا يموت سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255].

- ما معنى القيوم؟

قال: **"القيوم هو القائم بأمره، القائم على خلقه، وهو قائم بأمره قائم على نفسه لا يحتاج لأحد سبحانه"**، غني قائم على نفسه وقائم على شؤون عباده، يدبر شؤون العباد ويخلق ويفعل كل شيء للعباد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمعنى هذا معنى الحي القيوم.

لما وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه حي لا يموت، وأنه قائم على خلقه وعلى نفسه؛ قال بعدها: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255]، السِّنة النعاس، النعاس ما يأتي، ولا النعاس ولا الغفلة، لا يغفل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ [هود: 123]، لا يغفل ولا يصيبه النعاس ولا النوم، المخلوق يصيبه النعاس والنوم ينام؛ لكن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى [9، 10].

قال: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: 255]، شف تأمل لما يقول **"لا تأخذه"** شو يدل عليه؟ يدل على أن النوم له قهر وسلطان، إذا نزل بك النوم مالك صد، مالك أي قدرة، مالك ضعيف أنت، إذا نزل النوم خلاص مالك أي ما تملك نفسك، لو أن الإنسان يقود السيارة وأصابه النوم خلاص يضيع، النوم ينزل، ولذلك انظر ماذا قال: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

لما بين عظمة نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه متصف بهذه الصفات العظيمة؛ ذكر سعة ملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- ما سعة ملك الله؟

قال: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 255]، السماوات كلها لله مُلك، وما فيها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتصرف فيها كيف يشاء، وله الأراضي كلها وما فيها كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 255].

قال إذا كان بهذه المكانة العظيمة جل جلاله؛ فهل يستطيع أحد أن يشفع أو يتقدم شفاعة عنده؟ لا يستطيع، يقول: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: 255]، يقول لا أحد يستطيع أن يشفع ويتوسط عند الله إلا بإذن الله، وهذا يدل على أن الشفاعة موجودة لكنها بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لما بين لنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عظمة صفاته وأسمائه وبين سعة ملكه؛ الآن يبين لك ماذا؟ يبين لك سعة علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

سعة علمه فيقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: 255]، أي المخلوقين، انظر كلمة **"يعلم"** فعل مضارع يدل على الاستمرار، ما يقال علم وانتهى، لا، يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كل وقت، يعلم ماذا؟ قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: 255].

- ما معنى ما بين أيديهم؟

أي المستقبل، أنت ما تعرف المستقبل، ما تعلم عن مستقبلك؛ لكن الله يعلم ماذا الذي ستفعله الآن أو ستفعله ولو بعد سنين، الله يعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنت لا تدري ماذا ستصنع غداً، ما تدري.

وما تدري ماذا سأفعل بعد شهر؛ لكن الله سبحانه يعلم، وليس لك أنت على الخلق كله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أي مخلوق على وجه الأرض الله يعلم ماذا سيفعله في المستقبل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: 255] أي الخلق، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: 255] أي مما مضى، أنت نسيت الماضي؛ الله ما ينسى أشياء مضت عليك سنين طويلة ما تتذكرها؛ لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سعة علمه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم.

الخضر لما ركب السفينة هو وموسى وقع عصفور على طرف السفينة وأخذ من الماء من البحر ثم طار، والخضر عنده علم واسع وموسى عنده علم؛ فقال الخضر لموسى: **"ما علمي وعلمك في علم الله إلا مثل ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر"**.

يعني علم الله هذا البحر كله، والعصفور يعني ما عندك شيء أنت من العلم، فيقول: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: 255]، الخلق كلهم ما يحيطون ولا بأي شيء من علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255]، إلا إذا أذن الله أعطاك علم تستطيع، أما ما أعطاك الله علم ما يمكن أبداً.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ لما بين سعة علمه؛ بين أيضاً سعة مخلوق من مخلوقات الله، ما تتصوره أنت بذهنك ما يمكن.

- ما هو هذا المخلوق من مخلوقات الله؟

قال: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: 255]، كلها الكرسي وسعها، يعني أعظم منها.

- ما هو الكرسي؟

قال أهل العلم: **"الكرسي موضع القدمين للجبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"**، لكن لا نعرف كيفيته، نحن نؤمن به، نؤمن به فالكرسي وسع الكرسي السماوات والأرض.

جاء في بعض الآثار قال: **"الكرسي بالنسبة السماوات والأرض بالنسبة للكرسي ما مقدارها؟ قال كأنها دراهم سبعة ألقيت في فلاة"**، السماوات كلها كأنها دراهم سبعة ألقيتها في أرض فلاة، هذا الكرسي، يعني الكرسي أعظم وأعظم من السماوات، ما الذي هو أعظم من الكرسي؟ قال العرش، قال كيف؟

قال: **"الكرسي بالنسبة للعرش كان حلقة ألقيت في فلاة، حلقة أو درهم أو ترس ألقي في فلاة"**، فعظمة الخلق عند الله سبحانه لا تتصورها أنت أبداً، لا تتصورها.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: 255]، لا يصعب على الله أن يحفظ السماوات والأرض، حافظ لها كلها ولا يغيب عنه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَلَا يَئُودُهُ﴾ [البقرة: 255]، ولا يكرثه ولا يثقله حفظهما، لماذا؟ قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: 255]، العلي فوق كل شيء، والعظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عظيم في كل شيء وعلي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علو الذات وعلو القهر وعلو الصفات وعلو المكانة جل جلاله، عظيم في كل شيء.

لما بين الله لنا عظمة هذه الآية، عرفنا الآن هذه الآية لماذا نقرؤها ولماذا هي أعظم آية في كتاب الله لهذا الأمر، لهذا لما اشتملت عليه من هذه الدلالات العظيمة، لما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه العظمة وهذا الدين؛ قال: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 256]، خلاص كيف إنسان يكره في الدين؟

واضح جداً ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256]، الحق ظهر والنور ظهر والهداية ظهرت من الضلال والظلمات، فكيف يكره الإنسان على ذلك؟

وهذا في أن الدين قد بلغ الغاية والعلو والظهور بحيث إنه لا يكره الإنسان عليه، يقبله مباشرة، ليس للإنسان دين غير هذا الدين؛ لكن هذا لا يمنع أن المصر والمعرض والكافر والمحارب أن يقاتل، إذا أصر أن يقاتل لأدلة أخرى، قال: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256]، هذا الدين الحقيقي.

- ما هو دينك؟

أن تكفر بالطاغوت، تكفر بكل ما يعبد من دون الله، لا تؤمن إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فمن كفر بالمعبودات من دون الله وبالطواغيت وبالإبليس وأعوانه وآمن بالله وحقق الإيمان.

- ما هي النتيجة؟

﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: 256].

- ما هي العروة؟

العرى معروفة، عروة الإبريق وعروة الإناء وعروة القدر، هذه عروة يتمسك بها الإنسان عروة الدلو، فكأنه يقول لك كأنك متمسك بشيء، لو انفلتت هذه العروة لسقطت، فأنت تتمسك بالدين، بعظمة هذا الدين كأنه عروة وثقى لا ينفلت ولا يسقط.

ولذلك قال: ﴿الْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: 256]، لا تنفصم ولا تنفك أبداً، ومن تمسك بالدين لا يسقط أبداً فهو في علو، قال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256]، لعباده يسمع ويعلم

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك ختم الله هذه الآيات بأن الله هو الذي يتولى عباده المؤمنين، وهذه ولاية خاصة لكل عبد أطاع ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولذلك يقول الله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 257].

وإذا كان الله ولي الذين آمنوا فإنه ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257]، ظلمات الجهل والضلال والكفر إلى نور الطاعة، وأما الذين تولتهم الشياطين فما النتيجة؟

قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: 257]، الذين كفروا وصدوا وأعرضوا عن طاعة الله ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: 257]، والشياطين والمعبودات من دون الله، أولياؤهم الطاغوت يجرونهم إلى نار جهنم.

ولذلك قال: ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 257]، أولئك الذين هم أولياؤهم الشيطان النتيجة طريقهم إلى النار.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجنبنا النار وما يقرب إليها من قول وعمل، وأن يقربنا إلى الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل، ونسأل الله للجميع ولكم أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(49)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا الهدى والتقى يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم المبارك، نجلس في هذا المجلس الذي تحفه الملائكة بإذن الله وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله من يحضر هذه المجالس الطيبة عنده في الملأ الأعلى بالذكر الحسن، نعيش مع هذه الآيات هذه الدقائق المعدودة، والآيات التي بين أيدينا هي أولها الآية الثامنة والخمسون بعد المئتين من سورة البقرة.

وهي قول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: 258]. لو نلاحظ عندما نقرأ هذه الآية في محاجة هذا الملك إبراهيم في ربه، ننظر إلى الآيات التي قبلها وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 257].

لما بين الله لنا وقرر لنا من هم أولياء الله ومن هم أولياء الشيطان، ذكر لك نموذجًا ممن تولاه الشيطان وهو هذا الملك الجبار، وممن تولاه الله وهو إبراهيم خليل عليه الصلاة والسلام، وعلى نبينا محمد الصلاة والسلام.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: 258]. هذا أسلوب استفهام وسؤال يقول لك الله: ألم تسمع ولم تر ولم تعلم بالذي حاج إبراهيم في ربه؟ من هو الذي حاج إبراهيم في ربه؟ الله.

ذكر أهل التفسير أن هذا يقال له النمرود؛ ملك بابل، وبابل في العراق.

- ما سبب سؤال هذا الملك لإبراهيم هذا السؤال ومحاجته لإبراهيم؟

لم يسأله إنما أراد المحاجة والمناقشة والمجادلة بالباطل.

ذكر بعض أهل العلم: **"أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أجمع قومه على إحراقه بالنار لما كسر الأصنام، أجمعوا على قالوا: ابنوا له بنيانًا فألقوه في الجحيم"**.

فلما اجتمعوا على إحراقه وألقوه في نار تتأجج، ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال لهذه النار: كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم، فأنجاه الله منها ورجع، ولما رجع وعاد إليه ورأوا، فعلم الملك بهذا الخبر، فقال: ائتوني بإبراهيم، فما جاءه قال: ما ربك الذي نجاك؟ فقال: ربي الذي يحيي ويميت.

قال: يحيي ويميت؟ قال: نعم. قال: أنا أحيي وأميت.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية: ﴿حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: 258].

يقول هذا الملك الذي حاج إبراهيم في ربه، في رب إبراهيم ولا رب الملك؟ نقول ربهما جميعًا.

﴿فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: 258] بسبب أن الله أعطاه الملك طغى وتكبر وتجبر ورأى نفسه؛ أتاه الله الملك.

إذ قال إبراهيم لما قال من ربك؟ قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258].

فهذا الملك أراد أن يموه على من حوله ويريد أن يظهر ربوبيته وقوته وجبروته وملكه، فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258].

- من قال لك إن ربك الذي يحيي ويميت؟

أنا أحيي وأميت، فأتى برجلين قد حكم عليهما بالقصاص، فقال: هؤلاء أو هذان الرجلان حكم عليهم بقصاص، هذا عفوت عنه أحييته، وهذا حكمت عليه بقصاص فأمت، أنا أحيي وأميت، حتى يري من حوله من جلسائه أنه استطاع أن يتغلب على إبراهيم.

- إبراهيم ماذا صنع؟

إبراهيم أقوى منه حجة كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: 83]. فإبراهيم أقوى منه حجة، لكن إبراهيم لما رآه يعني يريد أن يضحك على من حوله ويستهزئ ويسخر، أعرض عن هذا كله ولا يريد لو أراد أن يرد عليه استطاع؛ لكنه ترك هذا الدليل وأتى بدليل آخر ليفحمه ويبطل حجته.

فماذا قال؟ ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: 258]. ماذا سيصنع؟ هل سيصنع هذا؟ مستحيل أن يأتي هو بالشمس من المغرب، لا هو ولا جلساؤه أن يحركوا في الشمس ولا حركة واحدة.

فقال الله: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: 258]. بطلت حجته وهلك ولم يستطع الرد؛ بهت الذي كفر ولم يستطع الرد على ذلك فبطلت حجته وتحير، تحير في إجابة ما استطاع أن يجيب.

قال الله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 258]. لا يهدي القوم الظالمين؛ لأن هذا ظالم.

- كيف ظالم؟

الجواب: ظالم؛ لأنه تجرأ على أن يأخذ صفة من صفات الله ويقول: أنا رب العالمين، أنا أحيي وأميت؛ فهذا من الظلم.

في وقفة جميلة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ يقول: **"لماذا اختار إبراهيم في محاجته لهذا الملك لـه"**، لماذا اختار هذين الأمرين اللي هو قال يحيي ويميت؟ يعني صفة الإحياء والإماتة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الحي وهو الذي يحيي ويميت.

- وأيضًا لماذا ذكر إبراهيم الشمس أن الله يأتي بها من المشرق؟ فلماذا اختار هذين الأمرين؟

قال: لأن كل المعبودات التي تعبد من دون الله، كل المعبودات التي تعبد من دون الله لا تخرج عن هذين الأمرين؛ إما أنهم يعبدون الشمس والكواكب والقمر كما في قصة سبأ ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾ [النمل: 24]، أو أنهم يعبدون أناسًا أمواتًا؛ أموات كانوا أحياء فماتوا فبدأوا يعبدونهم من دون الله.

فلذلك قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت، وهذا الميت الذي يعبد من دون الله لا يصلح للعبادة، فلما ما يعني مشى مع هذا الدليل انتقل للدليل الآخر؛ قال: الله يأتي بالشمس، انظر إلى الكوكب، الذين يعبدون الكواكب ما لهم شيء في ذلك وليس لهم يعني قدرة ولا تدبير في الكون. الذي يأتي بالشمس من المشرق هو الله؛ فأت بها من المغرب، فلذلك بهت وتحير في الإجابة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259]. انظر الدليل الأول في إثبات ربوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه هو الذي يحيي ويميت، وأنه هو الذي يملك الكون كله وهو الذي يدبر الكون.

- من الذي يدبر حركة الشمس والقمر والنجوم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

ففي هذا إثبات توحيد الله؛ توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، أنه هو المستحق للعبادة، تأتي قصة أخرى معطوفة على القصة هذه.

- عما تتحدث هذه القصة؟

تتحدث بإثبات أن الله يحيي ويميت، نفس الشيء أن الله يحيي ويميت، ويذكر لك واقعة مشاهدة مذكورة في التاريخ؛ واقعة ذلك الرجل الذي مر على قرية. يقول: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: 259]. أيضًا مثال آخر؛ مر على قرية قيل هذه هي بيت المقدس والله أعلم. قال: ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259].

يقول إن هذا الرجل، قيل إنه عزير، وعزير هو أحد أنبياء بني إسرائيل، ويستحيل أن يكون عزير؛ لماذا؟ لأن النبي ما يمكن ما يمكن قدرة الله أن يحيي هذه بعد موتها مستحيل، إنما هذا رجل، رجل من الأمم السابقة والله أعلم.

يقول: مر على قرية وهي خاوية على عروشها؛ ساقطة البيوت ساقطة، والمزارع قد تهدمت والأشجار تساقطت ولا فيها أحد يتحرك، قد هجرها أهلها وتركوها خاوية.

قيل إن هذه القرية وهي بيت المقدس دخلها بخت نصر الملك الجبار وقتل أهلها ولم يبق منهم أحدًا، فبقيت خاوية على عروشها. فمر هذا الرجل وهو على حمار، قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: 259]. يقول: مستحيل أن تحيا، خلاص انتهت، تهدمت وتساقطت فلا يمكن أن تعاد مرة أخرى ويأتيها الناس ويحيونها، هذا شيء مستحيل وبعيد. فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: 259].

- ما هي النتيجة؟

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: 259]. مائة سنة وهو ميت، أماته الله مائة عام ثم بعثه، بعدما مرت مائة سنة عليه بعثه الله، قال له، قد يكون بواسطة ملك ما يكلمه الله مباشرة، وإنما قد يكون بواسطة ملك، قال: ﴿كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: 259].

- لماذا قال هذا الكلام؟ لماذا قال بعض يوم؟

قيل إنه لما مر على قرية كان في الضحى وقت الضحى، فأماته الله ثم بعثه في آخر النهار وقت العصر، وهو ما يدري هل هو أخذ يومًا كاملاً أو نصف يوم، فيقول يومًا أو بعض يوم.

قال له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ [البقرة: 259]. وليس يومًا ولا يومين بل مائة عام، ثم قال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: 259]. انظر قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فانظر إلى طعامك وشرابك معك طعام وشراب. قيل معه عنب، سلة فيها عنب، ومعه عصير، والعنب والعصير يفسد بعد أيام؛ ثلاثة أيام، أربعة أيام يفسد، كيف يجلس مائة سنة؟

قال: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: 259] أي لم يتغير أبدًا، كانه حتى الآن بعد مائة سنة لم يتغير، لو يوضع الآن في الحافظات والثلاجات مستحيل أن يبقى هذه المدة أبدًا إلا بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: 259] لم يتغير، ثم أعطاه آية لما أحياه.

قال: انظر إلى طعامك، هذا الطعام لك أنت وأنت مكثت مائة سنة، وهذا طعامك وشرابك لم يتغير، وخذ آية أعظم من هذا، خذ آية. قال: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ﴾ [البقرة: 259]. الحمار ماذا جرى له؟

الحمار مات مائة سنة وأصبحت عظامه رميمًا، متكسرة في الأرض، ابيضت وتمزقت وهو ينظر وين الحمار؟ ما ينظر إلا إلى عظام، قال: انظر إلى حمارك هذا الذي أمامك العظام، هذا حمارك.

﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 259]. تكون عبرة على مر السنين؛ لأنك ستذكر في الكتب ومنها القرآن الكريم الذي ذكره منذ نزوله إلى النبي ﷺ إلى قيام الساعة والناس يقرأون قصة هذا الرجل، ولذلك قال: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: 259].

أي عبرة يتفكرون الناس فيك، قال: ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ [البقرة: 259]. العظام التي أمامك، انظر إليها ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾ [البقرة: 259].

- كيف نجمعها ونجعلها يرتفع بعضها على بعض؟

فبدأت العظام تتجمع، يجتمع بعضها إلى بعض وتتركب أمامه، تتركب حتى قال الله ننشزها أن يركب بعضها على بعض حتى استقام هيكل الحمار بلا لحم.

هكذا وقف أمامه، قال: كيف ننشزها؟ ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: 259]. فكسى الله العظام لحمًا ثم كسى اللحم جلدًا، قال: ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: 259]. فقام الحمار وتحرك حتى قيل في بعض التفاسير إنه قام ونهض والتفت يمينًا وشمالاً.

كيف عظام رميمة بيضاء متكسرة أمامك تشاهدها؟

قال وانظر إليه، قال بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 259]. يقول لما تبين له الآيات التي أمامه؛ الطعام والشراب والحمار، تبين؟

قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 259]. ومنها أنه يحيي هذه القرية التي قال فيها: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: 259].

وفي قراءة قال: ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ [البقرة: 259].

قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 259] يعني خاطبه فقال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 259]. قصة عجيبة واقعية حصلت، رجل مر وشاهد هذا الشيء، وشاهد آية الله في إحياء الموتى أمامه؛ فكيف تشك بقدرة الله على إحياء الموتى؟

الذي أحيا هذا الحمار وأحيا هذا الرجل، والرجل هذا مائة سنة لم يتغير، لم يتغير حتى في شكله ولا في ملابسه؛ لأنه لما نظر إلى شكله ونظر إلى ملابسه قال يومًا ويومًا، ما تغير فيه الشيء أبدًا ولا في شعره ولا في أظفاره ولا في أي شيء؛ قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكيف الناس يمرون وهو على الأرض ساقط، وقد أعمى الله أبصار الناس حتى لا يمر أحد مع هذا الطريق وينظر؟ لو رأوه لوقفوا عنده ورأوا أنه قد مات وحفروا له حفرة، ومع ذلك الله صرف الناس كل مائة هذه المدة مائة سنة، والناس لم يروا ولم يعلموا بحاله حتى أحياه الله وجعله عبرة. يذكر لنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا قصة في قدرته، قصة ثانية في آية مشاهدة أمامك على قدرة الله على إحياء الموتى.

إذا سمعت هذه القصة خذ زيادة أيضًا، ولذلك قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 260]. ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ﴾ [البقرة: 260]. إبراهيم نبي وخليل الله؛ بلا شك أنه عنده الإيمان القوي بقدرة الله على إحياء الموتى، لكنه كما يقول أهل العلم يقول: علم، علم اليقين يعني وعين اليقين فرق بينهما.

لما تعلم علم اليقين وعين اليقين؛ لما ترى بعينك، لما يقال لك خبر إن فيه كذا وكذا وكذا، ليس أنت إذا كنت مشاهدًا لهذا الخبر، فرق كبير، الخبر اللي يأتيك يمكن تشك فيه أو لا تشك فيه، أو لا يستقر في ذهنك هذا الشيء مثل لما تراه بعينك أمامك. فإبراهيم أراد أن يصل إلى درجة عالية، الإيمان عنده الإيمان ولا يشك في قدرة الله، لكن أراد زيادة الإيمان، زيادة الإيمان إذا رأى بعينه زاد إيمانه؛ قال: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260].

فماذا قال الله له؟ قال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ [البقرة: 260]. أربعة طيور، ما نوع الطيور هذه؟ ما يكون أي نوع هو قال له طيور ولكن لا ندري، لم يفصح القرآن عن نوع هذه الطيور؛ هل هي حمام ولا أي نوع من أنواع الطيور؟ الله أعلم.

فقال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: 260]. ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: 260]؛ صرهن إليك أي ضمها إليك ثم قطعها، هذا معنى فصرهن إليك.

فأخذها وضمها إليه ثم قطعها قطعًا صغيرة، قال: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ [البقرة: 260]. أربعة جبال خل كل جبل تأخذ من هذا القطع وتضعها على هذه. لما قطع الطيور قال: خذ قطعها أربع أجزاء، كونها أربع أجزاء، كل جزء ضعه على جبل بعيد عن الآخر، جبال بعيدة، فإبراهيم أخذ ووضع الريش والجناح والرجلين والرأس ونحو ذلك في هذه الجهات ومختلطة.

قال: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ [البقرة: 260]. ثم نادها؛ ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ [البقرة: 260].

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: 260]. مسرعة؛ كيف تتجمع وتأتي وهي ميتة إلا بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ فاجتمع الجناح مع هذا ومع الرأس ومع الرجلين ومع هذا، واجتمعت كلها وكل يذهب إلى الآخر، حتى أقبلت كلها الأربعة تطير وتقع عند إبراهيم.

- من الذي أحياها؟

هو الله؛ قال: ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: 260]. مسرعة ليست ببطء، قال: واعلم يا إبراهيم، ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260]. واعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عزيز ذو قوة لا غالب لأمره؛ إذا أراد شيئًا يتم لابد أن يتم، كن فيكون، حكيم في صنعه وتدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بعد ذلك تأتي الآيات في النفقة في سبيل الله.

- قد يسأل سائل يقول: ما علاقة الحديث بالنفقة بعدما ذكر الله قصة إحياء الموتى؟

الجواب: إحياء الموتى تذكرنا باليوم الآخر؛ باليوم الآخر، والنفقة هي التي تنفع صاحبها في اليوم الآخر، ولذلك لما نرجع قليلاً يمكن صفحة نجد في آية تذكرنا، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 254].

فيذكرك الله بإحياء الموتى أن هناك موتًا، أن هناك يومًا سيبعث الخلق كلهم ويحييهم الله، ولا ينفع في هذا اليوم لا مال ولا بنون ولا أي شيء إلا عملك الصالح، ومن أعظم ما ينفعك يوم القيامة صدقتك التي تقدمها؛ مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت، الرصيد الذي يبقى عندك هذا مال وارثك ليس لك، لا تظن أن لك، الذي تقدمه هو الذي لك.

فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261]. مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله؛ لوجه الله وطاعة الله وللجهاد في عز الإسلام.

قال: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 261].

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: 261]. حبة واحدة في الأرض وضعتها، فأخرجت سبعة؛ سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، المجموع سبعمائة.

قال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261]. أنفقت ريالاً واحدًا؛ ريالاً واحدًا، أعطيت فقيرًا ريالاً واحدًا، هذا الريال أين يروح؟ هذا الريال يصبح كأنه سبع ريالات، وهذه السبعة ريالات تضربها في مائة فتصبح سبعمائة ريال. ولا تظن أنها تقف عند الريال يصير سبعمائة، لا الريال يكون أكثر وأكثر سبعمائة.

قال: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 261]. يضاعف لمن يشاء، والله واسع العطاء عليم بمن يستحق العطاء، لا تظن أنك إذا دفعت ريالاً واحدًا، من يقول؟

☚ النبي ﷺ يقول: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَصَدَّقُ بِالتَّمْرَةِ أَوْ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ وَاحِدَةٍ يَتَصَدَّقُ بِهَا، فَيَأْخُذُهَا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِيَدِهِ وَيُرَبِّيهَا عِنْدَهُ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ»**. يعني صغير الخيل؛ يربيها الله، هذه التي عدل التمرة يربيها حتى تصبح مثل الجبل؛ فلا تظن تبخل عن نفسك، ها! ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: 38].

فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ [البقرة: 262]. الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله يريدون إلا وجه الله؛ هذا الإخلاص في سبيل الله، ثم لا يتبعون، مش الشرط الثاني الأهم؟

أهم شيء في الصدقة هذه المسألة: ﴿لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ [البقرة: 262].

لا تمن على ما تصدقت عليه؛ ترى تصدقت، ترى أعطيتك، وترى أنا اللي فكيت أزمتك، وترى أنا الذي أخرجتك من السجن، وترى أنا الذي فعلت كذا، وترى أنا الذي جبت لك الأموال وجبت لك المواد الغذائية؛ لا تمن، لا تعطِ وتمن.

يقول: ﴿يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ [البقرة: 262]. أذى قولي أو فعلي؛ تؤذيه، تؤذيه بالكلام وتؤذيه بالفعل، فلا تؤذِ المتصدق عليه. إن تصدقت لله خلاص، وحاول إنك تتصدق بصدقة لا يعلمها الفقير ولا يعرفك أصلاً.

☚كما قال النبي ﷺ، قال سبعة يظلهم الله في ظله، ذكر منهم قال: **«وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»**. فقط يمينك؛ شمالك ما تدري عنك، فكيف الناس يدرون عنك؟ ضروري إنك تعلن وتقول أنا تصدقت وأنا فعلت؟ وتسيء إلى هذا الرجل، تقول ترى فلان أنا اللي أعطيته فلان أنا اللي سويت له كذا؟ ولا يريد منك هذا الأمر.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ [البقرة: 262].

- ما هي النتيجة؟

﴿لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 262]. عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس عند أي واحد، هذا مضمون لك؛ لهم أجرهم عند ربهم، وأيضًا من آثارها قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 262].

- ما الفرق بين خوف وحزن؟ ولا المعنى واحد؟

أكيد في فرق؛ لأن الله قال خوف وحزن، قال لا خوف عليهم فيما يستقبلونه يوم القيامة، ولا يحزنون على ما تركوا وراءهم من أولادهم وأموالهم تركوها، لا يحزنون عليهم. فهم لا يحزنون على الماضي، ولا يخافون على ما يستقبلونه أمام الله.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعيننا وإياكم على طاعته، وأن يوفقنا وإياكم لمرضاته، والله أعلم؛ وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(50)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصل وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، اللهم وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه تبع سنته إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الذي نجتمع فيه بين آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذه الآيات التي نجلس معها ونتأملها ونتدبر ما فيها.

آيات في الحقيقة تمس الواقع ويحتاج إليها كل مسلم، وكلنا بحاجة إلى أن نتدبر كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونتأمل ما يقوله الله في كتابه، فإن هذا الكتاب كنز عظيم وفيه من الدروس والعبر ما يفيده المسلم في حياته.

وقفنا عند الآية الثالثة والستين بعد المائتين من سورة البقرة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 263]. لو تلاحظ هذه الآية، حتى ما قبل هذه الآية آيات وما بعدها من آيات كلها تحث على الصدقة، تحث على الإنفاق في سبيل الله والتصدق لله جل جلاله.

- قد يسألك سائل يقول لك طيب: لماذا تحث هذه الآيات مجموعة كثيرة عن الصدقة؟

الجواب: أولًا لعدة أسباب:

- السبب الأول: أن الصدقة هي أعظم ما ينفع المسلم يوم القيامة.

النبي ﷺ يقول: **«المُؤْمِنُ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ يَومَ القِيَامَةِ»**. فأعظم ما ينفع المسلم يوم القيامة صدقته التي يقدمها الآن، ولو كان ريالًا واحدًا يقدم صدقة في حياته.

إن هذه الصدقة تنفعه يوم القيامة وتضاعفه أضعافًا كثيرة؛ وأول ما يتمنى الإنسان لو جاءه ملك الموت الآن، أول ما يتمنى يرجع للدنيا أن يتصدق كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: 10]، فبدأ بالصدقة أول شيء؛ لأنها هي التي تنفع الإنسان أمامه.

- السبب الثاني: من أسباب حث القرآن على الصدقة؛ لأن الصدقة هي التي تميز المؤمن عن غيره، فالمؤمن الصادق هو الذي يتصدق بماله ويقدم ماله ولا يشح بماله؛ وهذا يدل على حقيقة الإيمان، وأن إيمانه راسخ، وأن قلبه ممتلئ بالإيمان فلذلك يدفع.

- السبب الثالث: في حث القرآن كثيرًا على الصدقة؛ أن الصدقة هي التي تدعو المسلم إلى التكاتف؛ تكاتف المسلمين بعضهم بعضًا عن طريق الصدقة.

لولا أن الإنسان يبحث عن إخوانه المحتاجين، والقرآن يحث على ذلك والسنة والشريعة تحث على أن تتفقد إخوانك المحتاجين، لما وجدت بهذه الصدقة أثرًا إلا بهذا الباب؛ باب التفقد لإخوانك المحتاجين المعوزين.

تجد شخصًا عليه دين، تجد شخصًا محتاجًا عنده فقر عنده كذا عنده كذا، فتتفقد معه وهذا يدل على أن الإسلام يحث على التماسك والتكاتف والتعاون، تعاون المسلمين بينهم؛ ولهذا جاءت الآيات بكثرة على الحث على الصدقة.

ولاحظ قبل هذه الآية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضرب لنا مثلًا من يتصدق يقول الذي يتصدق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصدقة واحدة ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 261].

أصبح عندك سبعمائة؛ قال الله ليس سبعمائة، بل والله يضاعف ويضاعف ليس فقط سبعمائة بل أعداد وأنت تضع حبة واحدة، تضع ريالًا واحدًا يطلع سبعمائة ريال؟

لا، يطلع أعدادًا هائلة ما تتصورها. لذلك يحث القرآن، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حثنا على الصدقة وركز على أمر مهم جدًا وهو يفسد الصدقة؛ عليك أن تتصدق وتسارع إلى دخول باب الصدقة وتحث نفسك وتحث إخوانك وتحرص على باب الصدقة، ثم تجد من الناس من يفسد على نفسه هذا الطريق.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 262].

انظر كلمة ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يدل على أن الصدقة تنفعك في اليوم الآخر.

- ما هو الشرط الذي ذكره الله؟

قال لا يتبع ما أنفق منًا ولا أذى.

- ما معنى المن وما معنى الأذى؟ كيف يتبع الصدقة منًّا؟

تذهب إلى هذا الفقير وتجده محتاجًا إلى مال ويحتاج إلى من يساعده فيأتي ويعطيه الصدقة ثم يمن عليه يقول: ترى أنا أعطيتك. ثم إذا قابله قال: تذكر أنني ساعدتك يومًا من الأيام وأعطيتك.

يبدأ يذكر ويمن عليه، وإذا جاء في مجلس قال: فلان أنا أعطيتُه، ويبدأ يذكر ويفسد هذه الصدقة بالمن والأذى؛ الأذى أشد من المن، يمن ويؤذيه، يؤذيه بالكلام ويذكره في المجالس حتى يجعل هذا المتصدق عليه هذا الفقير يقول لولا أنه لَم يتصدق عليه لكان ذلك خيرًا.

لكان ذلك خيرًا من أن يؤذيني بالكلام بالتجريح؛ أحيانًا يأتي كلام يجرح هذا الفقير، فلا حاجة إلى أنك تتصدق ثم تجرح هذا المسكين المحتاج وهو قد ألمت به الدنيا وألمت به الظروف، ثم تجده يجرح بالكلام؛ وأنا أعطيتك وأنا ساعدتك ولولا أني أنا وقفت معك وأخرجتك من السجن ووقفت وسددت عنك الدين، كل هذا يفسد الصدقة.

ولذلك حذر الله من هذا الأمر حتى قال في الآية التي بعدها: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 263]. قول لو أن جاء لو أن هذا الفقير جاء يسألك مالًا ثم رددت عليه بكلام طيب، قول معروف، قلت: أغناك الله، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرفع عنك، نسأل الله أن يغنيك من فضله وأن يوسع عليك.

كلام طيب قول معروف ومغفرة؛ حتى لو آذاك وألح عليك وبدأ يلاحقك في الطرقات تتجاوز عنه وتغفر عنه، وكأنك لم تر منه أي شيء، هو خير من أن تعطيه وتتبع هذه الصدقة بالأذى وبالمن.

يقول الله ردك بالقول المعروف وتجاوزك عنه والصفح عنه أفضل من أن تتصدق وتؤذيه بهذه الصدقة؛ لا تتصدق عليه ولا تؤذيه، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾؛ غني عن صدقتك التي فيها المن والأذى، غني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يقبل منك لأنها ستبطل وترجع عليك.

وقال غني وحليم لا يعاجل بالعقوبة وأنت تؤذيه بالكلام، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يتعجل بل لا يستعجل على عباده بإنزال العقوبة أو إنزال العذاب. يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ انظر كلها تحث على أن الإنسان يلتزم الطريق الصحيح في الصدقة ويعرف كيف يتصدق.

إذا لم تعرف كيف تتصدق لا تتصدق؛ أولًا اعرف ما هو الطريق إلى الصدقة؟ فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينادي المؤمنين يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: 264]؛ إذًا فيه إبطال الصدقة، الصدقة باطلة ما تصح، مثلما أن الصلاة إذا أنت فعلت فيها شيئًا يبطلها تبطل، كذلك الصدقة إذا فعلت فيها شيئًا يفسدها فسدت.

يقول لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، أعاد مرة ثانية، كل هذا تأكيد على قضية المن؛ تعطيه صدقة أنت ماذا أعطيته؟ أنت تعطي لله لا تعطي لفلان ولا فلان، سددت عنه دينه وأخرجته من السجن لله، لا تجلس تذكر في المجالس أنني أخرجت فلانًا وأنني فعلت، أو إذا قابلته تقول أنا فعلت وأنا فعلت؛ كل هذا لا ينبغي ولا ينبغي ذكره.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ ثم شبه من يفعل هذا، انظر التشبيه كيف شبه من يفعل ذلك، قال فإن الذي يتصدق بالمن والأذى ماذا قال؟

﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ مثل المنافق الذي ينفق ماله حتى يقال إنه جواد إنه كريم، ينفق ماله لا لله وإنما ليقال إن فلانًا يتصدق وصاحب صدقة وصاحب عطاء وهو ما شاء الله كريم لا يرد سائلًا؛ هذا المنافق ينفق ماله رئاء الناس حتى أن الناس يثنون عليه ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

يقول هذا الذي يبطل صدقته مثل هذا، هل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتقبل من المنافق الذي ينفق رياء الناس؟ ما يتقبل منه، ما يقبل الله صدقة الذين يتصدقون وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

ولا يتصدق لله وإنما يتصدق لأجل أن يثني الناس عليه فيقولون فلان كريم؛ هذا والذي يمن بصدقته على الفقير كلهم سواء لا يقبل الله، لا تبطلوا صدقاتكم. ثم يمثل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال هذا المنافق بأي شيء من قوله ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾.

- ما هو الصفوان؟

"حجر أملس صخرة ملساء" عليها تراب وعليها غبار، إذا جاءها المطر ماذا نصنع بها؟ يزيل ما عليه من الغبار يزيل ما عليه، فكذلك الصدقة إذا جاءها ما يفسدها أحبطها جميعًا فلا يبقى لها أي أثر؛ إذا جئت يوم القيامة ما وجدت لصدقتك أي أثر.

فيقول: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ يعني مطر شديد قوي ﴿فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أملس نظيفًا لا غبار عليه ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: 264].

أي الذين ينفقون ما يقدرون على شيء مما كسبوا؛ أنفق وتصدق وما وجد شيئًا، وأين صدقتك التي تصدقت بها في الدنيا؟ ليس لها أثر في الآخرة؛ لماذا؟ لأنك لا تنفق لله وإنما تنفق رياء الناس، أو تنفق وتتبع صدقتك بالمن والأذى وتؤذي هذا المحتاج الفقير المعوز الذي دفعته الدنيا إلى أن يأتي إليك ويسألك، ثم تأتي أنت وتؤذيه بالكلام وتتصدق عليه؛ لا تتصدق، فإن صدقتك لا يقبلها الله منك في هذا إذا جاءت على هذا الطريق.

ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ الذين يتصدقون أو يعملون لا لأجل الله وإنما لأجل الدنيا ولأجل الناس، لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحذر من هذه الصدقة التي بهذا الطريق وأنها لا يقبلها الله وأنها مردودة عليه ولا تصح ولا يجد أثرها في الآخرة، حث على الصدقة الطيبة.

- ما هي الصدقة الطيبة التي نستطيع أن نسلكها؟

الله عَزَّ وَجَلَّ لما يحذرك عن طريق لا يصح يحذرك من هذا الطريق يذكر لك الطريق الذي تسلكه حتى تجد أثره الطيب؛

- ما هو الطريق الذي أريد أن أسلكه في الصدقة؟

قال: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ﴾.

- ما هو الشرط؟

﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 265]، لا يريد الدنيا ولا يريد السمعة ولا يريد الجاه ولا يريد المنصب ولا يريد الثناء من الناس، ابتغاء مرضاة الله يريد رضا الله سبحانه بهذه الصدقة.

ولذلك من شدة ابتغاء مرضاة الله أنه يتصدق ويخفي صدقته.

☜حتى جاء في الحديث قال: **«حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»**. يده الشمال التي قريبة منه ما تدري أنه أنفق؛ هذا الذي يسر ويخفي صدقته.

يخفي صدقته يذهب إلى بيوت الفقراء والمساكين ولا يخبر أحدًا حتى الذين في بيته، زوجته وأبناؤه ما يدرون عنه؛ هذا الذي يريد مرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا أنه أنا تصدقت وأنا فعلت وأنا كذا وأنا كذا، فهذا كله سبب لحبوط أجر الصدقة؛ فأخف صدقتك.

يقول: ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، يقول هذه الصدقة هي سبب إذا جعلها صدقة يريد بها وجه الله والدار الآخرة كانت من آثارها أنها تثبت قلبه على الإيمان وعلى اليقين وعلى الصلاح وعلى الاستقامة، ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يريدون بذلك أن تثبت أنفسهم؛ فالصدقة سبب في الثبات على الحق، والصدقة دليل على أنك راسخ في الإيمان.

ولذلك يقول هؤلاء الذين ينفقون في هذا المجال وبهذه الطريقة يمثل الله حالهم بأي شيء؟ يقول ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾؛ جنة مراد بها **"بستان حديقة بستان"**. أين يكون هذا؟ قال بربوة.

- ما معنى ربوة؟

"المكان المرتفع".

- لماذا الله اختار المكان المرتفع؟

قال: **"إذا كانت المزرعة في مكان مرتفع يحبها النسيم ويحبها الهواء الطلق الطيب، والماء قريب منها وأرضها طيبة، يكون هذا أدعى لأن تكون مثمرة ثمرة طيبة"**.

ولذلك يقول: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ مطر شديد قريبة من المطر قريبة من السحاب ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: 265]، لم تؤت أكلها مرة بل زادت ضعفين؛ قال إذا جاءها الوابل والمطر الشديد آتت أكلها ضعفين.

إذا لم يأتها وابل؟ قال ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ يعني إذا لم يأت مطر شديد يأت المطر الخفيف الديم، يبدأ المطر يهطل عليها هطولًا خفيفًا فهي في خير في خير في خير وفي منفعة؛ قال فطل ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي مطلع على أعمالكم إن تصدقتم لله أو تصدقتم بأمور أخرى، والله مطلع وبصير بكم ومطلع على أحوالكم.

فلاحظ الفرق بين هذا وهذا؛ مثل صفوان حجر أملس عليه تراب نزل عليه المطر فأزال كل ما فيه، فكذلك صدقة نزل عليها أمر يخرجها عن طريقها بسبب أنه يريد السمعة ويريد أن يثني الناس عليه ذهبت كلها، لا يقبل الله منها شيئًا ولا يقبل منها مثقالًا.

وهذا الذي تصدق ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا لنفسه أصبحت صدقته كأنها في جنة بربوة تعطي ثمارها أضعافًا كثيرة، ولذلك يضرب الله مثلًا هنا وهذا المثل قد يقرؤه كثير من الناس ولا يدرك معناه، هذا مثل خطير جدًا؛ تجد بعض الناس من يعمل الأعمال الصالحة حياته كلها في طاعة وفي خير وفي صلاة وفي قراءة قرآن وفي دعاء وفي صدقات وفي مجالات الخير والصيام، كل مجالات الخير تجده يسارع فيها، ثم في آخر حياته يفسد عمله الذي عمله في دنياه؛ في آخر حياته يفسده بأي شيء؟

يعمل عملًا يحبط عمله كله، أو قد يقع في شيء يجعل الله عَزَّ وَجَلَّ يرد عليه عمله، وهذا أمر خطير نسأل الله الثبات والزيادة والاستقرار.

يقول: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ يعني أيحب أحدكم ﴿أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾.

- هل تتمنى أن يكون لك بستان مليء بالنخيل والأعناب؟

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ هذه الجنة فيها الأنهار والمياه تتدفق فيها؛ قال ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ مليئة بالثمرات، يعني هذا معناه الأعمال الصالحة التي أنت تعملها في الدنيا الآن كأن أعمالك جنة مليئة بالبساتين والنخيل والأعناب وتعطي ثمارها وأنت تعمل في الدنيا تعمل.

قال: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾، وأصبح ضعيفًا لأنه امتد به العمر وأصبحت نفسه، يعني أصبح ضعيفًا أصابه الكبر وله ذرية ضعفاء محتاجون، ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ هذا الذي يحبط العمل، قال جاء على هذا البستان وأزال ما فيها، قال ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ﴾ [البقرة: 266].

- ما هو الإعصار؟

هو **"الريح الشديدة التي فيها نار"**، تأتي ريح صر شديدة فتحرق هذه المزرعة؛ قال ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾. في هذا المثال أن الإنسان يعمل في الدنيا، ثم في آخر حياته يقع في شيء يفسد عليه كل ما عمل، فليحذر الإنسان من هذا المزلق الخطير جدًا.

ولذلك لا تزال الآيات تحثنا على الصدقة بما فيها خير، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في آيات أخرى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: 245].

- هل الله بحاجة إلى قرض؟

لا، القرض هذا يعود إليك أنت؛ قال ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾. يقول هنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: 267].

إذا أردت أن تتصدق تصدق من طيبات ما كسبت، مالك الطيب تصدق؛ قال ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾، يقول من الأموال الحلال الطيبة أنفق منها، وأيضًا أنفق من الطيبات ومما أخرجنا لكم من الأرض أي من الحبوب والثمار، تخرج من الحبوب والثمار من المزارع إذا كانت لك مزارع أو لك بستان تخرج منه صدقة تتصدق بها، أو كان عندك مال وافر فإنك تتصدق من طيبات ما كسبتم.

الكسب الطيب الحلال؛ **«إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»**، لا تنفق الخبيث ولا تنفق السيئ، تجد بعض الناس إذا أراد أن يتصدق يبحث عن أقل شيء أقل شيء؛ إذا أراد أن يتصدق بطعام مثلًا من الأرز ونحوه يبحث عن أقل الأسعار.

إذا أراد أن يتصدق من بهيمة الأنعام يبحث عن أقل الأسعار حتى في الأضحية يبحث عن أقل سعر يتصدق؛ **«إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»**.

وفي قصة ابني آدم قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]، يتقبل إذا كانت صدقتك عن تقوى.

ولذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]؛ ما تأتي على رديء التمر تقول أعطي فلانًا وأعطي فلانًا وتصدق عليه وتأخذ الطيب لك وتعطي الرديء للفقراء؛ لا، أعطهم من الطيب لا تعطهم من أعلى شيء، إذا لم تستطع على الأقل مما تأكله أنت مما تأكله في بيتك تعطيهم، أما تبحث عن الملابس التي قد تمزقت واستهلكت وتأخذها وتعطيها الفقراء وهي قد لا تصلح للبس، فهذا لا يليق بالمسلم أبدًا لا يليق.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا يقول: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ أي لا تقصدوا الخبيث من الصدقة؛ لا تأخذ الشيء الرديء ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾.

تبحث عن عندك أغنام تبحث عن الرديء الضعيف وتأخذه تقول هذا نتصدق به، والطيب تقول لا هذا خله عندنا، هذا لا يصلح.

ولذلك يقول: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾، تغمض عينيك وتأخذه من غير قصد أو لا تريده أو تأخذه بكراهية؛ تأتي على أنواع الرز الأرض الطيبة والمتوسطة والتي أقل وتأخذ الذي أقل وسعره قليل وتعطيه الفقير.

هل تأخذه لبيتك؟ لا تأخذه إلا أن تغمض فيه وتأخذه من غير قصد.

قال: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المتصدقون بهذه الطريقة تأخذ الرديء وتعطيه الفقير، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: 267]؛ غني عن صدقتك وحميد في عطائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطيك الخير.

- من الذي أعطاك المال؟

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول في آية أخرى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33]؛ أتاكم هذا مال فتأتي، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال هنا ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾. ما الذي يجعل الإنسان يتصدق بالرديء ويترك الطيب؟ ما الذي يجعل الإنسان ينفق ماله رئاء الناس؟ ما الذي يجعل الإنسان يتصدق ويؤذي المتصدق عليه بالكلام الجارح؟ مَن هو؟

هذا كله من طرق الشيطان كله من طرق الشيطان، ولذلك انظر نبه قال ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾.

يقول لك لا تتصدق بالطيب ولا تتصدق بالمال الكثير وكذا، بكرة تصير فقيرًا ومحتاجًا وكذا وكذا، يبدأ يعدك الفقر؛ لا تتصدق إلا بالقليل، الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء.

قال أهل التفسير: **"يأمركم بالفحشاء في هذا الموضع أي بشدة البخل"**، يقول لك لا لا لا تتصدق، يأمرك بالبخل. ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾.

- لماذا قال مغفرة؟

قال: **"لأن الصدقة سبب لمحو الذنوب الصدقة تزيل الذنوب وتمحو الذنوب"**. قال مغفرة وفضل أي أجور الصدقة عظيمة، فأنت إذا تصدقت لله وسلكت هذا المسلك الذي حثك الله عليه ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا لنفسك فاعلم أنها سبب لمغفرة الذنوب وأيضًا لمضاعفة الأجور عند الله.

لأن الله قال: ﴿يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي واسع العطاء كريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطي ما لا حد له، ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268] بمن يستحق الأجر ممن صدقت نيته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأخفى صدقته؛ لا تعلن أمام الناس أنني فعلت كذا وأنني أعطيت كذا، وإذا قابلته في يوم من الأيام قلت تذكر لما أعطيتك كذا وكذا وتمن بصدقتك؛ هذا كله لا يليق بالمسلم.

لعلنا نأخذ عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل آيات الإنفاق والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(51)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا العلم النافع والعمل الصالح يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وهذا اللقاء المتجدد مع تفسير سورة البقرة، وقف بنا الكلام في لقاء الماضي عند الآية الثامنة بعد المئين من سورة البقرة، وهي كلها آيات تتحدث عن الإنفاق في سبيل الله.

والآيات تتحدث عن الإنفاق في سبيل الله، ولا تزال تتكلم عن الإنفاق والتعامل والمعاملات، وهذه خاتمة السورة ختمت بالدعوة إلى الإنفاق في سبيل الخير، والتحذير من المعاملات الربوية التي محق الله بركتها، ثم بيان الطرق التي يستطيع الإنسان أن يحصل على المال ويحصل على ما يستعين به من الوجوه المباحة وهو ما يسمى بالمداينة المشروعة.

ثم ختمت السورة بالخاتمة التي ختمت بها وهي خواتيم سورة البقرة بموقف المؤمنين من هذه الشريعة والإيمان بهذه الرسالة ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 285]، ثم طائفة من أدعية المؤمنين التي قال الله فيها: قد فعلت، قد فعلت، إلى آخر السورة.

بقي عندنا مجموعة من الآيات التي نحاول في المجالس القريبة أن نختم بها هذه السورة العظيمة الجليلة، عندنا اليوم الآية التاسعة بعد المئين وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 269].

نحتاج إلى وقفة حقيقة مع هذه الآية؛ أولاً: علاقة هذه الآية بما قبلها وبما بعدها؛ لو نلاحظ لما ننظر في المصحف نجد الآية التي قبلها يأمر الله بالإنفاق فيقول: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 267]. ونلاحظ أن بعدها قال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: 270]؛ إذاً هي جاءت متوسطة بين آيات الإنفاق.

- ما الحكمة وما السر في مجيئها؟

الجواب: أولاً: لابد أن نعرف معنى الحكمة؛ ما هي الحكمة حتى نعرف لماذا جاءت متوسطة بين آيات الإنفاق؟

"الحكمة يعني كثير من العلماء على أنها تعني العلم النافع والعمل الصالح"، وأصل الحكمة إتقان العمل؛ تقول: عمل محكم؛ فمعناها متقن، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصف كتابه بأنه محكم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: 1] أي أتقنت، وقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: 1]، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: 12]. والحكمة هي العلم النافع والعمل الصالح، وهي إتقان الأمور وضبطها قولاً أو فعلاً.

وبعضهم يقول: **"هي الإصابة، إصابة الحق في القول أو الفعل"**؛ إذا أصاب الإنسان الحق في قوله أو فعله قيل: هذا رجل حكيم، وهذه امرأة حكيمة؛ التي تحسن التصرف وتصيب الشيء في قولها وفي فعلها.

وكذلك الرجل يصيب القول في فعله، يصيب الأمر في قوله أو فعله يقال: هذا حكيم.

وبعضهم قيل: **"إن المراد بالحكمة هي أسرار الشريعة"**.

وقيل: **"الحكمة السنة"**.

وقيل: **"معرفة الأحكام الشرعية"**. كل ذلك هذه المعاني تدور في فلك واحد، وتعطينا معنىً قريباً عليه أكثر أهل التفسير أن **"الحكمة هي إصابة الرأي وإتقان العمل"**، ويتضمن ذلك العلم النافع والعمل الصالح؛ لأن إصابة الرأي وإتقان العمل كله يكون في حسن العلم وحسن العمل، فيقال: هذا رجل حكيم إذا كان قد فتح الله عليه بالعلم والعمل.

ولذلك قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَى الْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: 269]، وهذا يدل على أنه ليس هذا الأمر ليس باجتهاد، وإنما هي هبة من الله يعطيها من يشاء.

ولذلك قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَى الْحِكْمَةَ﴾ أي من يعطى الحكمة ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]. فقوله: ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ يدل على أن من لم يؤت الحكمة فقد خسر خيراً كثيراً.

والحكمة درجات، ومن يعطى الحكمة على أيضاً طبقات؛ فمنهم من يعطى الحكمة على أعلى درجاتها، ومنهم من يعطى من أوسط الحكمة أو أقل؛ فالناس على طبقات وعلى درجات مختلفة وكل يعطيه الله على ما يناسبه.

قال هنا: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: 269] أي ما يتذكر؛ أصلها يتذكر، فأدغمت التاء بالذال ثم شددت الذال فقيل ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾؛ يعني ما ينتفع بهذه الحكمة وبهذا الكلام وبهذا الخير إلا أولو الألباب، أصحاب العقول المستنيرة، العقول التي استهدت واستنارت بنور الله وهدايته؛ هؤلاء هم الذين يتذكرون وينتفعون بما يتذكرون به.

إذا عرفنا الحكمة في ظل ما ذكرناه من هذه المعاني وهذه الوجوه التفسيرية، إذاً ما علاقة الإنفاق والحكمة؟

فنقول: الإنفاق، إنفاق المال، والمال عصب الحياة، والمال يعني الإنسان كما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحب المال حباً، وحريص على جمعه وحريص، ولو أعطي وادياً من مال لابتغى الثاني والثالث.

والإنسان جبل على محبة المال، ولذلك إنفاقه في سبيل الله وإخراج هذا المال بنفس طيبة لا يفعل ذلك إلا من وفق للإنفاق في سبيل الله، ولذلك جاءت الآيات بأشد الحرص على الإنفاق في سبيل الله، ولا ينفق إلا من أوتي الحكمة وعرف العلم، يعني أعطي العلم النافع والعمل الصالح وعرفه وأصبح من أولي الألباب؛ فذلك الذي يوفق للإنفاق في سبيل الله للإنفاق في سبيل الله.

ومن لم يفعل ومن لم يحصل له هذا الأمر تجده من أبخل البخلاء على ماله، لا ينفق شيئاً من ماله، الآيات التي مرت معنا.

- ولو نلاحظ نتدبر الآيات التي مرت معنا قبل ذلك، هي آيات تتعلق بالإنفاق على أي وجه؟

الجواب: جاء الحث على النفقة في أول الآيات وأن من أنفق حبة أصبحت الحبة سبعة، أنبتت سبع سنابل والسنبلة فيها مئات، إلى أن قال يضاعف من يشاء؛ وهذا كله حث على النفقة، ثم حذر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مما يفسد ويبطل النفقة من المن والأذى، أو الإنفاق رئاء الناس، يريد المدح ويريد أن يراءي في عمله.

وثم حثت السورة على الإنفاق الطيب في سبيل الله، يعني ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم. ثم حذرت من أن الشيطان يحث على البخل وعلى المنع، ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: 268]، ويمنعكم من الإنفاق في سبيل الله كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: 268] والبخل، ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: 268] أي يعدكم الله المغفرة لذنوبكم إذا أنتم أنفقتم؛ لأن النفقة سبب لمحو الذنوب، وكذلك فضلاً أي أن النفقة

تكون مضاعفة أو يعوض الله من ينفق في سبيل الله الخير الواسع، فمن أعطى في سبيل الله فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفتح له أبواب الخير الكثيرة.

فهذا معنى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾ تعود الآيات بعد ذلك إلى الحث على النفقة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: 270]. أي ما أنفقت في سبيل الله من مال أو غير ذلك من وجوه الصدقات، قلت أو كثرت وأنت تريد بذلك وجه الله ومرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلمه. يعلم نفقة قلت أو كثرت، وإذا كان الله يعلمها ومطلع عليها فإنه سيتقبلها منك ويثيبك ويجازيك عليها.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾؛ ولاحظ أن كلمة **"نفقة"** نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم؛ أي نفقة قلت أو كثرت. ثم قال: ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾؛ النفقة مستحبة والنذر إلزام الإنسان نفسه ويوجب الإنسان على نفسه، والنذر ابتداءً مكروه لا يبتدي الإنسان بالنذر.

☚ كما قال ﷺ: **«إِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْبَخِيلِ»**. لا ينبغي للإنسان أن ينذر، لكن إذا نذر يجب عليه أن يوفي بنذره إن كان نذره أمراً مشروعاً، إن كان نذره جائزاً.

ولذلك مدح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذين يوفون بالنذر؛ قال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: 7]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيات أخرى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: 29]. فحث الله عليه وأيضاً رتب عليه الوعد الطيب ومدح أصحابه إذا نذر.

☚ والنبي ﷺ قال: **«مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ»**.

والنذر غالباً يكون له أسباب؛ كأن يكون إنسان مثلاً فقد شيئاً فقال: إن حصلت عليه لأفعلن كذا وكذا، لأنفقن في سبيل الله من المال قدره كذا وكذا، أو إن شفى الله مريضي، أو إن عوفيت من كذا وكذا، أو إن رزقني الله ذرية طيبة لأفعلن كذا وكذا؛ يعني يلزم نفسه على وجه الخير.

فالله عَزَّ وَجَلَّ هنا يقول: ما أنفقت من نفقة أو نذرت من نذر ثم وفيت بهذا النذر فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلمه ويجازيك على إيفائك لهذا النذر؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾. ثم قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [البقرة: 270].

- ما علاقة الظلم في النفقة والنذر؟

هذا يذكرنا أو قد يقال والله أعلم أن قوله ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ هو كأنه توجيه لمن لا ينفق أو يبخل على نفسه أو لا يفي بنذره، فإنه قد ظلم نفسه في هذا العمل، وليس له نصير يمنعه من العذاب إذا جاء يوم القيامة.

تمنى أنه قدم ماله في سبيل الله وأنه أنفق هذا المال وأنه وفى بما نذر ونحو ذلك، فمن لم يفعل فقد أوقع نفسه في الظلم.

ولذلك قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ إذا رأى هؤلاء الظالمون والمقصرون ما يثيب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوم القيامة من الأجور لأهل النفقة المنفقين في سبيل الله الذين أدوا ما أوجب الله عليهم من النفقة أو أدوا ما شرعه الله لهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك، وهذه الآية التي بعدها هي في الحقيقة تتحدث عن أمر مهم جداً وهو هل المنفق يظهر نفقته ويعلن عنها أو يخفيها؟ هذه مسألة أشارت الآية إليها وأوضحت الكلام حولها؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 271].

لاحظ أن هنا الآية اختلفت في السياق؛ الآيات السابقة ماذا فيها؟ الآيات السابقة كان الكلام فيها: النفقة، هنا قال الصدقات.

- ما الفرق؟

الجواب: والله أعلم لعل المراد هنا هي الصدقات المستحبة، أما الزكوات المفروضة والنفقات المفروضة فالأصل فيها الإظهار؛ فالزكاة الأصل فيها الإظهار حتى لا يتهم صاحبها بأنه يمنع الزكاة أو لا يخرج زكاة ماله، ولأن المال غالباً يكون مالاً ظاهراً في الغالب مثل المزارع والحبوب والثمار ومثل بهيمة الأنعام ونحو ذلك.

لذلك قال الصدقات، والصدقات هنا المراد بها التصدق المستحب، الصدقة المستحبة، ولذلك قال: ﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ أي تظهروا ما تتصدقون به في وجوه الخير؛ إن أظهرتم ﴿فَنِعِمَّا﴾ ما تصدقتم به. ﴿فَنِعِمَّا﴾ أصلها نعم ما، فأدغمت الميم بالميم فقيل ﴿فَنِعِمَّا﴾؛ أي فنعم ما تتصدقون به، فنعم الصدقة هي، وهذا أسلوب مدح.

يقول: إن أظهرت الصدقة فهو أمر طيب وحسن، ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ أي تسروها بحيث لا يعلم أحد عنها ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾؛ انظر قال ﴿الْفُقَرَاءَ﴾ أظهر كلمة الفقراء، فإنه يقول: التمس الفقراء وابحث عنهم الذين تكون الصدقة تقع في مكانها.

قال: ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ أي لا يعلم بها أحد ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 271]؛ فهو أفضل لكم من العلانية، لأنه أبعد عن الرياء ولأنه أقرب إلى الإخلاص.

لكن هذا يختلف باختلاف الأحوال؛ فنقول الأصل ما ذكره الله من المدح هو الإخفاء؛ ولذلك جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله قال: **«وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ»**. هذا دليل على الإخلاص.

فنقول الأصل الإخفاء، لكن إذا كان هناك داعٍ إلى الإظهار مثل ما ذكرنا الزكاة الواجبة، أو حث الناس ليقتدوا به لأنه إذا أظهرها اقتدى الناس به، وأيضاً دفع التهمة لأن قد يتهم بأنه بخيل أو أنه لا ينفق؛ فهذا إن كان يقتدى به أو يدفع التهمة فهذا يكون إبداؤها في هذا المجال يكون أفضل.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أثر هذه الصدقات وأن من أثر هذه الصدقات أنها سبب لتكفير السيئات ومحو الذنوب؛ ولذلك قال: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: 271].

و **"من"** هنا بيانية وليست تبعيضية؛ ابتدائية أي أن يكفر عنكم جميع سيئاتكم، ومعروف أن الصدقة تكفر السيئات إلا الكبائر، فالكبائر لابد من التوبة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خاتمتها: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 271]؛ أي والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخفى عليه شيء من أحوالكم وسيجازيكم بأعمالكم، وإن كانت النفقة قليلة جداً فإن الله خبير بها ولن تضيع في علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لن تضيع كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن لقمان: ﴿إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: 16].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 272] إلى آخر الآيات.

- أيضاً هذه فيها إشكال، قد يسأل سائل يقول: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ من؟

الجواب: لما كانت الصدقة تحث الناس على الصدقة وقد يكون من الناس من يبخل أو يمتنع عن الإنفاق في سبيل الله أو الصدقة فإنه ليس على الإنسان هدايته، ولا يلزم الناس بأن يدفعوا أموالهم في سبيل الله؛ فهي حث وتذكير لهم وليس لا على الرسول ولا على غير الرسول أن يهدي الناس، وإنما يدلهم ويحثهم ويبلغهم هذا من وجه.

أو يقال والله أعلم أنها لما كانت النفقة قد تقع على غير المسلمين، وهذا قيل في سبب نزولها؛ أن لما تصدق على كافر أو على الكفار كان الرسول ﷺ كره ذلك، فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾. فالكافر يتصدق عليه إذا كان ليس عدواً للمسلمين ولا حربياً للمسلمين وإنما على دينه أو على كفره، فإنه لا مانع كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالنسبة لمن ليس على دينك قال: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [الممتحنة: 8]. ولذلك لما سألت أسماء بنت أبي بكر النبي ﷺ أن تصل أمها وهي كافرة وأن تتصدق عليها، فقال النبي ﷺ: **«صِلِي أُمَّكِ»**.

فكان من كره الصدقة على الكفار قال الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾؛ قد تكون الصدقة والنفقة عليهم سبباً لهدايتهم، والله هو الذي يملك الهداية؛ الله هو الذي يملك الهداية، هداية التوفيق والإلهام، أما هداية الإرشاد فكل يستطيع عليها، هداية الإرشاد والحث ونحو ذلك والدلالة.

قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 272].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾؛ ومن "خير" هنا، أيضاً هذه نكرة في سياق الشرط فتعم أي وجه من وجوج الخير، وهذا يدخل فيه أي شيء ينفقه الإنسان، أي شيء قل أو كثر. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: 272]؛ أي يعود عليكم نفعه، أي نفعه يكون عليكم.

﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 272]؛ يقول لا تكون النفقة إلا لوجه الله، يعني خالصة وطلباً لمرضاة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكأن هذه الآية تحث على أن تكون النفقة خالصة لوجه الله؛ قال: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾. ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ تأكيد مرة أخرى، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي تعطون أجره وزيادة، ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 272]. وفي قوله تعالى ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أي لا تنفقون إلا طلباً لمرضاة الله وإخلاصاً لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والوجه هنا دائماً إذا جاء مضافاً إلى الله **"وجه الله"**، فإن المراد به هو صفة؛ المراد به هو وجه الله الحقيقي وهو صفة ذاتية ثابتة حقيقية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ما يليق به، ويجب علينا إثباتها على الوجه اللائق، ولا يجوز تحريفها أو تعطيلها.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا تنقصون من أعمالكم بل تضاعف لكم أعمالكم أضعافاً مضاعفة.

نختم اللقاء في هذه الآية في نهاية هذا اللقاء؛ هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾. يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾ [البقرة: 273]؛ هذه الآية كأنها تتحدث عن المنفق عليهم.

- من هم الذين ينفق عليهم؟

قال الذين ينفق عليهم هم ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا، فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ أولاً؛ أنت يا أيها الذي تريد الإنفاق في سبيل الله وتريد النفقة في سبيل الله احرص كل الحرص على أن تضع النفقة في مكانها، ومكانها أول أمر هو الفقير لأن الله ابتدأ به في الزكاة المفروضة ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ [التوبة: 60]. فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾، ثم وصف الله هنا الفقراء من هم؟ قال: اجعل صدقتك للفقير.

- من هو الفقير؟

قال: ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا﴾ أي حبسوا في سبيل الله؛ **"في سبيل الله"** هنا قد يراد به الجهاد في سبيل الله، أو يراد به أيضاً ما يمنعه من الضرب في الأرض لأسباب تكون لله كطالب العلم مثلاً، أو قد يكون هناك من يمنعه مانع شرعي.

فالذين أحصروا ومنعوا بمانع شرعي لا يستطيعون ضرباً في الأرض، أي لا يستطيعون التكسب لأسباب أو عوائق شرعية أو عوائق في الخلقة ونحوها؛ كأن يكون كفيف البصر أو أعرج أو نحو ذلك أو لا يستطيع التكسب أو ضعفاً في عقله أو نحو ذلك.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ في البيع والشراء والتكسب، ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273].

- من هو الجاهل؟

الجاهل الذي لا يعرفهم، ليس الجاهل ضد العالم، وإنما الذي يجهل حالهم؛ يعني هذا هنا جهل خاص وهو الذي يجهل حال هؤلاء الفقراء، يظن أنهم أغنياء؛ كيف يظن أنهم أغنياء؟ لأنهم أظهروا أنفسهم بأن ألبسوا لباس الغنى والتعفف، من شدة التعفف لا يسألون الناس.

﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273]، وإنما يتعففون في بيوتهم، ولا يقفون في الشوارع، ولا يلاحقون الناس في بيوتهم ويطرقون عليهم أبوابهم، وإنما تجد في بيته صابراً محتسباً؛ فهؤلاء هم. لهؤلاء الذين يظن أنهم أغنياء يقول: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: 273] إذا جلست معهم وتحدثت معهم وراقبتهم وتابعتهم ظهرت لك سيماهم وعلامات الفقر فيهم.

قال: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ ليس كمن يقف في الطرقات ويلح على الناس.

قال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 273]؛ فهؤلاء هم أحوج الناس وهم أولى من يعطى الصدقة، أولى من يعطى الصدقة هؤلاء المتعففون الذين لا يلحون بالسؤال على الناس، تجد عليه من الديون ما الله به عليم، وتجد عليه من القروض، وتجد عليه من الإيجارات والفواتير وغير ذلك والنفقات، وهو صابر محتسب لا يلح على الناس؛ هذا الذي تجد أن الصدقة تقع في موقعها وهي أفضل عند الله وأعظم أجراً. فعلى المسلم ينبغي له أن يحرص كل الحرص على أن تكون هذه النفقة في هذا المجال.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ [البقرة: 274]، وهذا حث وبيان ثمرة النفقة وأثرها الطيب؛ قال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ وهذا يدل على أن هذه صفتهم دائماً، لأنه جاء بفعل المضارع الذي يفيد التجدد والاستمرار؛ ينفقون دائماً. ينفقون ماذا؟

قال: ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ ولم يقل بعض أموالهم؛ ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ دليل على أنهم يحرصون كل الحرص على أن تكون حالهم دائماً في النفقة.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البقرة: 274] وهذا يدل أيضاً على شغفهم وحبهم للنفقة ليلاً أو نهاراً، وقدم الليل لأنه سر؛ لأن النفقة فيه سر وهي أولى.

والنهار قال: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة: 274]؛ قدم السر أيضاً وعلانية، سواءً على وجه الإسرار أو على وجه العلانية.

قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾؛ وجاء بـ**"الفاء"** كأنهم اشترطوا على أنفسهم وأنه كأن الأمر أصبح شرطاً عليهم مع أنه لم يأت الشرط هنا.

قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 274]؛ **"الأجر هنا يعني هم يقولون: المفرد إذا أضيف إلى معرفة دل على العموم"**؛ ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ على وجه العموم، يعني أجر عظيم جداً.

قال: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾؛ وقول ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ هذا أيضاً دليل على مكانة النفقة وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجازي عليها، قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فقد استقر الأجر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم.

ثم قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 274]؛ إذا جاء يوم القيامة فإن النفقة تنفعهم، فلا يحزن ولا يخاف فيما يستقبله ولا يحزن على ما مضى، فلا يحزن على ما تركه من حظوظ الدنيا ومما تركه بعد موته، ولا يخاف فيما يستقبله بعد موته من أمور الآخرة.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعيننا وأن يوفقنا للإنفاق في سبيل الله على الوجه الذي يرضيه، وأن يكون ابتغاء وجه الله وأن يكون خالصاً لله.

هذه هي آيات النفقة، بعدها تنتقل الآيات إلى آيات الربا أو التحذير من التعامل بالربا الذي هو مقابل البيع؛ البيع أحله الله والربا حرمه الله. إن شاء الله نلتقي في اللقاء القادم بإذن الله حول استكمال ما تبقى من هذه السورة. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(52)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين. اللهم صلِّ على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا العلم النافع يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، في هذا المجلس المبارك الطيب نجتمع حول آيات من كتاب الله جل جلاله؛ نقرؤها ونتدبرها ونتأمل ما فيها، والحقيقة أن هذه الآيات التي بين أيدينا آيات يحتاجها الإنسان في حياته، وفيها يعني من المواعظ الربانية، وفيها أيضاً من التهديد والتخويف لمن يتساهل في مثل هذه الأمور.

الآيات التي بين أيدينا هي تسمى عند العلماء بـ **"آيات الربا"**، وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آيات الربا بعدما ذكر آيات الإنفاق في سبيل الله والحث على الصدقة وبيان أجور الصدقات وما أعد الله للمتصدقين عنده.

لما ذكر هذه النفقات والصدقات وأثرها الطيب على أهلها في الدنيا وفي الآخرة؛ ذكر بعد ذلك آيات الربا في التهديد والتخويف مما مَن يتعاملون بالربا، الربا حرَّمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو يدل على جشع وطمع المرابي الذي يستغل الضعفاء، يستغل المحتاجين الذي قد يحتاج إلى مالٍ ويحتاج إلى مَن يقف معه ويقرضه، فهم يستغلون هؤلاء الضعفاء فيقرضونهم الأموال على وجهٍ محرمٍ.

- ما هو هذا الوجه المحرم؟

أنهم يأخذون يعني مقابل هذا الإقراض أضعافاً مضاعفةً من ماله، فيأتي هذا الضعيف المسكين المحتاج إلى أصحاب الأموال الطائلة فيطلب منه أن يقرضه مالاً.

فيقول: أنا أقرضك كم تريد؟ مئة ألف، أقرضك مئة ألف وأساعدك عليها، ولكن تعيدها لي بعد سنةٍ بمئة وعشرين ألفاً أو مئة وثلاثين، وإن لم تستطع؛ قد تضيق بها الدنيا، نعطيك سنةً ثانيةً وثالثةً ورابعةً، وكل ما يمد في الأجل يزيد في هذه المكاسب المحرمة.

فيقول: بعد سنةٍ بعد سنتين تدفع لنا مئة وأربعين ألفاً، بعد ثلاث سنوات مئة وستين، وهكذا كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: 130]. فحرم الله وهذا يدل على استغلال هؤلاء الضعفاء المساكين، يعني الأولى أن تقف معهم وتساعدهم وتقرضهم القرض الحسن أن تستغل مثل هؤلاء المحتاجين، يستغلونهم بأموالهم يضاعفون عليهم هذه الأشياء.

آكلة الربا وهؤلاء الذين عندهم جشع وعندهم طمع ويأكلون أموال الناس بهذه الطريقة المحرمة التي حرمها الله؛ وصف الله في أول آيات الربا وصف بهذه الصفة التي يعني تقشعر منها الجلود.

وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: 275]. هذا أول خبر فيه الوعيد الشديد للذين يأكلون الربا بهذه الطريقة المحرمة.

- ما حالهم في الآخرة؟

قال: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ﴾ [البقرة: 275]؛ أي في يوم القيامة إذا جاء يوم البعث وبعث الناس من قبورهم وقام الناس لرب العالمين.

أصحاب الربا آكلة الربا يقومون كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس؛ أي الجنون، كما الذي يتخبطه الشيطان مَسٌّ، ترى الآن بعض الناس فيه مس فيه جنون.

- كيف يتخبطه الشيطان وكيف يفعل به؟

تجده إذا قام يتساقط يميناً وشمالاً ولا يستطيع أن يقوم يعني قياماً مستقيماً، فهؤلاء إذا جاء يوم القيامة بُعِثوا على هذه حالٍ. لماذا؟ لماذا يبعثون على هذه الحال؟

لأنهم في الدنيا هذه صفتهم لشدة طمعهم وحبهم للدنيا للأموال لأكل أموال الناس بهذه الطريقة البشعة؛ تجده يتخبط في حياته حتى في نومه وحتى في قيامه وحتى في مكتبه، تجده يتخبط مثل ما يتخبطه الشيطان من المس.

ولذلك في الدنيا وسيأتيهم أشد في الآخرة، ولاحظ أن الله يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]؛ لم يقل يتعاطوا، يقول يأكلون الربا، يأكلون الربا لماذا؟ لشدة حج شدة المحبة كأنه يأكله في بطنه كأنه يأكله، وإن كان يتعامل فيه معاملات لكنه كأنه يأكله في بطنه؛ ولأن أكثر طريقة التعامل سواء في البيع أو الشراء أو الربا أنه لأنه وسيلة إلى الأكل.

قال: ﴿يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ﴾ [البقرة: 275] يوم القيامة ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: 275]. لماذا قال الله ذلك؟ أي هذه العقوبة.

لهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]؛ انظر كيف تخبط عقولهم حتى في كلامهم فيه تخبط. البيع ما فيه نقاش أنه مباح.

- لماذا تقولون البيع مثل الربا؟ نحن نتناقش في الربا هل هو جائز أو محرم؟

تأتون بالبيع قالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]؛ يعني في كلام العقلاء أن يقول **"ذلك بأنهم قالوا إنما الربا مثل البيع"** يعني الربا مباح والبيع مباح، لكنهم عكسوا، هم عكسوا فقالوا: ﴿إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275] حتى يقلبوا على الناس هذه المفاهيم.

رد الله عليهم بأقوى الردود فقال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]. البيع أحله الله وأباحه لحاجة الناس إليه، لا يمكن أن يحرم البيع المعاملات الشراء البيع والشراء والمعاملات، تذهب إلى المحل التجاري وتشتري حاجاتك هذا كله أمر مباح، فالأصل في البيع هو الحل.

الله قال: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: 275]، والربا محرم في شريعة الله، محرم في جميع الشرائع ليس في شريعة محمد حتى عند اليهود في شرائعهم محرم. قال هنا قال: ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]، ثم لما بين الله عقوبته في الآخرة وأخبر عن حله وعن حرمة الربا قال: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: 275]؛ جاءه موعظة وجاءه هذا الوعيد وجاءه هذا الخبر وهذا الإرشاد من الله وبيان حكمه أنه محرم، وعلم بتحريمه فانتهى.

انتهى لما علم بأن الربا محرم انتهى من التعامل، مثل هؤلاء الآن من يتعامل بالربا الآن إذا جاءه خبر بأن الربا محرمة قد لا يكون قد بعضهم لا يعلم عن الحكم الشرعي، لكن إذا جاءه أو هو يعلم ثم تاب؛ تاب من تعامله مع الربا وأقلع ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: 275]؛ ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: 275] التعاملات الماضية عفا الله عنها، التعاملات الماضية التي مضت قبل توبته أو قبل وصول الخبر والموعظة إليه بأنه محرم؛ فلا حرج عليه فيما مضى سنةً سنتين ثلاثاً كان يتعامل بها في السابق هذا لا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: 275] في استقامته ونيته واعتداله وسلوكه الطريق الصحيح أمره إلى الله. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ [البقرة: 275] بعدما علم هذا الحكم وعلم بأن الربا محرم ثم عاد واستمر استمر في تعامله بالربا فما النتيجة؟

قال: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 275].

- هل تجد أشد من هذا الوعيد لآكلة الربا؟

كيف أنت مسلم ومن أبناء المسلمين وتتعاطى بالربا ويأتيك الخبر ثم تعود وتتعاطى مرةً أخرى بالربا وتستمر عليه وتعلم أن الله يقول: ﴿وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 275]. كيف تستقر حالك وأنت موعود بهذا وأنت متوعد بهذا الوعيد الشديد؟ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 275].

أي أنك من أصحاب النار، إن الله حكم عليك وهذا يدل على عظم عقوبة الربا وشدته عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه أمر محرم وأنه كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن الله توعد أصحاب الربا بالنار بالدخول في النار.

هذا ما يتعلق بأصحاب الربا، لكن هذا الربا الذي يتعامل به يظنون أنهم يتكسبون من وراءه وأنهم سيحصلون على أموال طائلة. إذا أردت أن تتكسب المال حقيقة تريد أن المال يعني يزيد عندك وينميه الله لك؛ ينميه ويزيده بالصدقة، **«مَا نَقَصَ مَالٌ مِن صَدَقَةٍ»**. الصدقة هي التي تزيد المال، والربا هو الذي يذهب المال ويذهب بركته.

اسمع ماذا يقول الله في حق هذه الأموال التي يجمعونها ويركضون وراءها ويظنون أن الأرصدة تزيد، ما تزيد هي تنقص وأنت لا تدري، اسمع ماذا يقول الله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: 276]؛ ويمحقه أي لا يبقي له أثراً، يمحقه بأي وجهٍ من الوجوه، قد يعني أول شيء بركة المال تذهب بركة المال تذهب ليس فيه بركة أبداً.

الأمر الثاني قد تجده عنده أرصدة ثم بعد أيام يضطر إلى سحب هذه الأرصدة، إما في دخول مساهمات ويخسر فيها، أو حوادث تقع له، أو احتياجات، أو كذا يضطر إلى أن تذهب لأنها ليس فيها بركة ليس فيها ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: 276]، ويكفيها في هذا المال الذي أمامك فيه ربا، أن الله قال فيه يمحقه الله ولا يبقي له أثراً ويزول.

قال لما قال ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: 276] قابله بأي شيء؟ قال: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: 276]؛ أن يزيد في الصدقات، الصدقة أنت لما تتصدق أين تذهب هذه الصدقة؟ تذهب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيربيها الله عَزَّ وَجَلَّ كما يربي أحدنا.

كما قال ﷺ: **«كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُم فَلُوَّهُ»**؛ أي مُهره وصغيره، الصغير من الخيل يربيه حتى يكبر، والله يربي هذه الصدقة وإن كانت عِدلة تمرةٍ مقدار تمرةٍ حتى يربيها عنده حتى تصبح مثل الجبل العظيم، هذا أعظم شيء.

قال: ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: 276] قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276]. انظر كفار لأنه أنكر كفر بحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ الله يقول يحرم الله عَزَّ وَجَلَّ يحرم الربا ويقول يمحق بركة الربا، وأنت تتعامل هذا دل على اعتراضك وعدم إيمانك.

كفار أثيم صاحب إثمٍ عظيمٍ لأنه غير مبالٍ، بعد ذلك ترشد الآيات إلى الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والعمل الصالح الذي يبقى لصاحبه يوم القيامة؛ لا ربا ولا أموال ولا تعاملات في دنيوية قد تذهب كلها، الذي يبقى لكم هو العمل الصالح وتعاملك مع رب العالمين؛ ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 277] وهذا خبر من الله.

الذين آمنوا صدقوا وآمنوا ودخلوا في الإيمان ودخل الإيمان في قلوبهم قال: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: 277]؛ لأنه لا يكفي الإيمان في القلب تقول: أنا مؤمن بلسانك وقلبك، لابد أن تؤمن لأن الإيمان نطق باللسان قول باللسان وإقرار بالقلب وعمل بالجوارح؛ ولذلك يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: 277].

لابد من الأعمال الصالحات، تقول أنا مؤمن وأنت لا تصلي، تقول أنا مؤمن وأنت لا تزكي أموالك، تقول أنا مؤمن وأنت لا تحج، كل هذا لا يتحقق الإيمان، إيمان تصديق بالقلب وعمل بالجوارح.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: 277] ومن أعظم الأعمال الصالحة قال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 277].

ما هي النتيجة؟

قال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 277]؛ يعني هذا أعظم شيء وأعظم ثمرة أن تؤمن في الدنيا وتعمل الصالحات وتقيم الصلاة على الوجه الصحيح كما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتؤتي الزكاة التي فرضها الله عليك. النتيجة ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 277] ويكفي أن الأجر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه مكانة عظيمة.

قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 277] أي يوم القيامة لا يخافون، ولا عند الموت لا يخافون مما يستقبلونه بعدما يخرج من الدنيا، لا خوف عليه لا يخاف فيما يستقبله من أمور الآخرة في القبر أو ما بعد القبر.

قال: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 277]؛ أي لا يحزن على ما فات مما تركه في الدنيا من زوجة وذرية وأموال لا يحزن عليهم، هذه أعظم نتيجة وأعظم بشارة لهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نادى المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 278]؛ لما وذكر صفات المؤمنين وبشر بهذه البشارات قال اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا، عاد إلى التحذير من الربا قال اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ فيما تأتون وفيما تذرون، اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ في طاعته واجتناب النواهي والمحرمات ومنها الربا.

قال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 278]. اتركوا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين لا تتعاملون أي ربا جديد اتركوه، والربا الماضي إن كان معكم تعاملات مع أناس في الربا فلا تأخذوه بعد الخبر، بعدما تعلم أن الربا وصلك وصلتك الموعظة بأن الربا محرم قف عند هذا الحد وأي معاملة عندك لا تستلمها لا تأخذ شيئاً فيه ربا، اطرح الربا وخذ مالك السليم.

ولذلك قال: ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 278]؛ إن كنتم قد آمنتم إيماناً حقيقياً وصدقتم وأطعتم الله فاتركوا الربا.

قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: 279].

- إذا لم تتركوا الربا ما النتيجة؟

انظر التهديد الشديد والتخويف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعظم هذه التعاملات التي لأنها على طبقة عليا من الناس يستغلون مَن.

كان تحتهم من الضعفاء يستغلونهم، وهذا لا يجوز شرعاً لأن استغلال هؤلاء المساكين المحتاجين قد يحتاج لمالٍ يتزوج أو يشتري داراً أو يشتري أثاثاً أو سيارةً يتنقل بها فيضطر إلى أن يذهب إلى هؤلاء فيستغلونه؛ ولذلك قال الله سبحانه قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: 279] مَن هم؟

أهل الربا، ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: 279] وتتركوا الربا فالنتيجة ما هي؟

قال: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ﴾ [البقرة: 279]؛ أي فاعلموا بحربٍ، حربٍ شديدٍ انظر **"حرب"** نكرة يعني جاءت للتهديد والتخويف، ﴿بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: 279]. كيف تواجه تحارب الله؟ هل تستطيع أن ترد حرب الله إذا أنزل الله بك العقوبة وأنزل بك هذه الحرب؟

هل أنت بقدرتك وسلاحك وقوتك أنت يحارب رب العالمين؟ ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: 279]، ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ [البقرة: 279] تبتم وأقلعتم وقفتم عند هذا الحد وتبت وقلت: ما عندي من الربا أنا أتركه الآن ولا آخذ شيئاً ولا مقدار مثقال ذرةٍ من الربا؛ إن تبتم وأقلعتم من التعامل مع الربا.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة: 279]؛ ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ﴾ [البقرة: 279] خذوا رؤوس الأموال لكم رؤوس أصول الأموال وما زاد من الربا اتركوه لأهله ردوه لأهله، لو تعاملت مع شخص على أن تسلفه وتقرضه هذا المال مئة ألف على أن يعيدها لك بعد سنة مئة وعشرين، فإذا علمت هذا الخبر تقول: أنا ليس لي إلا المئة وما زاد.

خذه لك هذا ليس لي، هذا معنى ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 279]. ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 279] أي لا تظلمون أحداً بأخذ ماله ولا تُظلمون أنتم لأن هذا رأس مالك لا تُظلم ولم نعتدِ عليك.

وأقرض الناس قرضاً حسناً، أين القروض الحسنة؟ جاءك شخص وأنت عندك مال وقال لك: أنا أريد منك قرضاً حسناً، أعطني خمسين ألفاً وبعد ست شهور أعيده لك خمسين ألفاً، إذا كان عندك قدرة وعندك سعة من المال وتعرف أن الرجل أنه ثقة وتضبط نفسك بالأمور التي تستطيع أن تطالبه وتريد أن توسع عليه لله فلا مانع.

هذا هو المطلوب في الشرع أن التضامن والتكافل بين المسلمين، لا استغلال أن تستغل مثل هؤلاء، ولذلك إذا وقع الإنسان إذا وقع الإنسان في سَلَفَة مع أحد وأنت ساعدته ووقفت معه وهذا الشخص الذي أعطيته هذه السلفة وأعطيته هذا القرض على أن يعيد لك؛ افرض أنه بعد سنة قال: أنا سأعيدها لك بعد سنة، مرت السنة والرجل ما عنده شيء ما استطاع أصبح معسراً ما عنده شيء، ما موقفك منه؟ ما الذي يجب عليك أن تقف أمامه؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: 280]. أي تعسرت الأمور عنده وضاقت به الأرض ومرت عليه الأيام بسرعة ولم يستطع أن يجمع لك مالك، ما الذي يجب عليك أنت؟ قال: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ﴾ [البقرة: 280].

﴿إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: 280]؛ وسِّع عليه، أعطه فرصة مادام أنك أعطيته من البداية وأعطيته قرضاً ووسعت عليه فاصبر عليه فاصبر هذا الواجب، الله يقول: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: 280] يعني أنظره وأمهله مدةً إلى أن تتيسر الأمور ويعيد لك.

﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ [البقرة: 280] يعني أنك تتسامح عنه تقول: هذه الخمسين اللي أعطيتك إياها وأنت قد ضاقت بك وليس معك شيء ولا تستطيع أنا أتنازل ولا أريدها وأسقط عنك هذا الدين ولا أطالبك به؛ هذا متى يحصل؟

هذا أعظم عند الله أو تسقط شيئاً منه تقول: خلاص أنا بيني أعطيتك خمسين أعطِ نصفها ونصفها الثاني أنا أسقطه عنك. قال: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 280]. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 280] هذا خير لك لأنك أنت تعاملت معه من البداية وأعطيته

لوجه الله هذا المال وتصدقت، هذا تعامل طاهر وتعامل نظيف ليس فيه تعامل فيه جشع وفيه حب للمال واستغلاق استغلال أصحاب الربا لهؤلاء الضعفاء.

هذا هو المطلوب على الإنسان أنه يساعد إخوانه المسلمين بقدر الحاجة، قد يكون عندك أموال طائلة فقم وساعدهم بما تستطيع وقف مع إخوانك المحتاجين الذين يحتاجون إلى مثل هذا المال. يختم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آيات الربا بآيةٍ عظيمةٍ حقيقة نحتاجها وهي آخر آيةٍ في كتاب الله.

انظر آخر آيةٍ نزلت في القرآن الكريم كله؛ هذه الآية التي أمامنا هي آخر العهد بالعرش.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281]. هذا خطاب للمؤمنين كلهم، أصحاب الربا وغير أصحاب الربا والمؤمنين وغيرهم على اختلاف طبقاتهم اتقوا الله.

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة: 281] يذكرهم الله بيوم يوم القيامة، اليوم الذي سيقف فيه جميع الخلق يوم يقوم الناس لرب العالمين.

يقول: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: 281] تذكروا هذا اليوم العظيم يوماً عظيماً ترجعون فيه إلى الله، جميع الخلق سيرجعون إلى الله، ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: 281]؛ كل نفس تعطى ما كسبت من الأعمال إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ستجد عملك أنت في الخير أو في الشر ستجد صحيفتك قد امتلأت وستنظر فيها.

قال: ﴿تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281]؛ لا ظلم اليوم، تُوفى أعمالهم ولا يظلمون لا ينقص من أعمالهم شيء بل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يضاعف لأهل الخير من الحسنات أضعافاً مضاعفة، وأما أهل الشر وأهل السيئات فيعطيهم حقهم عدلاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا في هذه الآيات العظيمة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(53)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، اللهم صلِّ وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة، لقاؤنا في مثل هذه الليلة المباركة، ليلة الأربعاء ليلة الخميس، يوم الأربعاء هذا اليوم الأربعاء المتمم من شهر جمادى الآخرة من عام 1443، في درسنا المعتاد الأسبوعي وفي سورة البقرة.

اليوم سنتناول آية من آيات الله وهي أطول آية في كتاب الله، أطول آية في كتاب الله سميها أهل العلم بآية الدين، وهي الآية الثانية بعد المائتين من سورة البقرة، وهي الوجه الذي قبل الأخير.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: 282]، هذه تسمى آية الدين.

- قد يسأل شخص ويقول لماذا ذكر الله آية الدين؟

الجواب: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبل هذه الآيات تحدث وبين حرمة التعامل بالربا، وبين عقوبة أهل الربا الذين يأكلون الربا ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: 275]، أي من الجنون.

يبعثون يوم القيامة كالمجانين مثل الذي يتخبطه الشيطان من المس، وبين عقوبتها قال: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: 279] إن لم تتوبوا، وحرم الربا لأن الربا استغلال هؤلاء الضعفاء المساكين لما يأتون إلى التجار الأغنياء يريد منه قرض يريد منه مال ينتفع به، فإنهم يستغلونهم فيأخذون عليهم أموال طائلة بلا حق.

فيقول أعطيك مئة ألف بعد سنة تعطيني مئة وخمسين، وإذا لم تأتِ بها بعد سنة أعطيك سنة أخرى وتعطيني مئتين، وإذا لم تأتِ أعطيك مدة ويطيل في الأجل ويضرب في الأموال، واستغلال هؤلاء الضعفاء المساكين الذين يحتاجون لهذا المال.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما حرم هذا وأغلق هذا الباب، فتح لنا باب المداينة، المداينة مباحة وشرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- ما هي المداينة؟

المداينة على نوعين: إما أن تأتي لشخص تطلب منه مال قرض مئة ألف وتحدد الأجل ما بعد سنة سنتين وتعيدها إليه قرض حسن، هذا يسمى قرض حسن. يأتي إلى صاحب مال عنده مال فيطلب منه مال، فيعطيه مال ويرده على قدره لا يزيد ولا ينقص، دفعتك مئة ألف ترد لي مئة ألف، هذا قرض حسن أباحه الله وسماه مداينة، وقد تكون المداينة النوع الثاني هو مال بعين.

- ما هي العين؟

شيء تشتريه، فتأتي إلى صاحب المزرعة وعنده ثمار وعنده تمور، فتقول أنا أريد التمر الذي عندك هذه السنة القادمة أو السنة القادمة، بأعطيك قيمة هذا الشيء مقدر، فتدفع له المال في المجلس بثمن مقبوض على أن يعطيك بعد سنة مثلاً. أو تأتي لصاحب تجارة مثلاً، صاحب تجارة صاحب مثلاً الأرز أو غيره، تأتي إليه فتقول أريد نوع معين، أوصاف كذا وكذا وكذا، ونعطيك الآن المبلغ يأتي لي بعد سنة، أو أصحاب ملابس أو أصحاب أحذية أو غير ذلك من الأشياء التي

يستعملونها الذين عندهم أموال وهذه الأعيان غير موجودة فيأخذونها ويشترون بها، هذه تسمى بيع السلم.

يسمى بيع السلم، السلف، السلف أو السلم أن تدفع الثمن بالمجلس مقبوضًا، ويعطيك المثمن وهي البضاعة بعد زمن بقدر معين وبأوصاف معينة وبشروط معينة.

ننظر في الآية هذه، الله ينادي المؤمنين يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 282]، هذه الآية لما تسمعها أنت في كتاب الله في أي موضع في القرآن يقول لك يا أيها الذين آمنوا.

يقول ابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: **"إِذَا سَمِعْتَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يُؤْمَرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يُنْهَى عَنْهُ"**. دائمًا أي آية في القرآن يا أيها الذين آمنوا قف عندها؛ إما خير تؤمر به أو شر تنهى عنه.

فالله هنا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: 282]، يعني حصل بينكم مداينة، يعني سلف أو قرض دفع، تأتي إلى شخص تقول أعطني أنا محتاج لزواج، محتاج إلى أشتري سيارة، محتاج إلى أشتري دارًا، أشتري كذا وليس عندي سيولة ما عندي مال، فتأتي إلى صاحب مال تاجر ويعطيك مال، هذه المداينة بشرط، ما هي الشروط التي ذكرها الله؟

أهم شرط في تحديد الأجل حتى لا تضيع حقوق الناس قال: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [البقرة: 282]، خلاص بعد سنة من تاريخ اليوم نحن في شهر جمادى الآخرة، السنة القادمة في جمادى الآخرة في أول يوم لشهر جمادى الآخرة أنا أسلم لك هذا المبلغ، لابد من ضبط التاريخ والأجل المسمى كما قال الله.

قال: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: 282]، لابد من الكتابة، لا تبني على الذاكرة، أنا والله أخذت منك وخلاص ما عليك، أنا حافظ هذا الأمر وأذكره ولن أنساه، هذه الذاكرة ما تمشي في شرع الله، شرع الله لابد من الكتابة لابد من التقييد.

قال: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: 282]، لابد، لو جيك شخص يقول لك أنا والله ما أعرف أكتب ما أعرف، ما تعلمت الكتابة ولا قراءة، الله ماذا يقول؟ قال: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: 282]، ما تعرف تحضر كاتب.

لابد من كتابة، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، انظر كلمة العدل، لابد حتى ما تضيع الحقوق تكون واضحة، والعدل استلفت مئة ألف اكتب مئة ألف لا تكتب تسعين ولا خمسة وتسعين ولا أقل ولا أكثر، بالعدل.

وقد لا تكون أموالاً نقدية، قد تكون أموال كان يأخذ منه مثلاً من الأغنام ألف رأس، يأخذ مثلاً من البضاعة مقداره كذا وكذا وكذا، من أكياس الرز مثلاً خمس مئة كيس، فلا بد من ضبطها ونوعها، أخذت منك مقدار كذا وكذا وكذا بنوعه وضبطه، وبعد سنة أنا أسلم لك.

يقول: ﴿فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ﴾ [البقرة: 282]، لا يجوز للكاتب يقول لا أنا مالي دخل فيكم ولا لي أي علاقة، لابد أن يكتب.

ولو أخذ أجرة، يمكن يقول أنا والله أنا متخصص بالكتابة تعطيني حقي وأكتب لك، ما في مانع يأخذ قيمة أجرته على الكتابة، لكن لا يقول أنا ما أكتب ولا بأجرة ولا شيء يمتنع، هذا لا يجوز شرعًا لأن هذا من التعاون على البر والتقوى، وإذا امتنع لا يكون داخلاً في التعاون مع إخوانه المسلمين.

قال: ﴿أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ [البقرة: 282]، هو صاحب الدين، هذا الذي جاء يأخذ فلوس هو صاحب الحق الذي عليه الحق، فيقول أخذت منه دراهم قيمتها كذا وكذا في تاريخ كذا وكذا في مجلس كذا وكذا، يكتب يمل عليه الحق.

﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: 282]، هذا الذي يملي ليتق الله ربه وليقل الحق ولا يخفي شيء، لأن الكتابة منسوبة إليه هو الذي أمر بالكتابة هو اللي يقول اكتب ولا لا تكتب، لابد أن تقول الحق لهذا الكاتب.

فتقول أخذت منه كذا وكذا من الأغنام، من الإبل، من مثلاً البضاعة، من كذا، يكتبها بدقة ويكتب كل شيء، قال: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: 282] يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابته، لا يبخس الناس يأخذ من شخص أموال، أنت الآن أصبحت فوق هذا الشخص، هذا وقف معك وساعدك وأعطاك، والآن هو بعد فترة بيصير هو يبحث عنك؛ سدد لي أعطني حقي، وأنت صرت فوقه، فاكتب واتق الله عَزَّ وَجَلَّ أن ترد له حقه.

قال: ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: 282]، لا تنقص من هذا الحق شيئًا، ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ﴾ [البقرة: 282]، قد يكون سفيه أو ضعيف أو رجل كبير بالسن أو امرأة كبيرة أو لا يدرك هذه الأشياء لنقص في عقله، وهو يريد أن يتدين حتى يتزوج حتى يشتري حتى كذا يفعل، أو يتاجر بهذا المال وهو فيه نقص.

قال إذا كان الذي عليه الحق سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يمل، ما يعرف يعبر كلمات ما يدري ما يعرف يمل، ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: 282]، يأتي بقريب له؛ أخوه الأكبر، عمه، خاله، قريب يحسن يفهم يقول هذا يريد أن يأخذ منكم مال يستلف منكم مال ويرد عليكم، وهو يريد أن يقصد به كذا وكذا، واكتبوه أنا أعبر عنه هو ما يعرف أنا أعبر عنه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: 282]، انظر الآن عندنا عدة شروط: أول شيء أن يكون الأجل أن يكون الدين إلى أجل مسمى لازم نعرف تاريخ حلول الأجل، هذا واحد، ثانيًا لابد أن يكتب لابد أن يحرر ويكتب، ثالثًا لابد أن تأتي بشهود.

- لماذا نأتي بشهود؟ في كتابة تكفي؟

قال لعل الكتابة يدخلها رش، يمكن يجي واحد يقول يجيب لك ورقة يقول لك أنا كاتب كذا وهذا ورقتي، هذه ورقة ما تثبت في المحاكم، أيش اللي يدري الحاكم أو القاضي أن هذه الورقة كتبها فلان أو فلان؟ لكن الشهود بينة قوية، يقول نعم أنا أشهد أن فلان كتب هذه الورقة وأنا قرأتها ووقعت عليها، وهذه شهادتي وهذا توقيعي فيثبت، يثبت الكتابة بالشهادة.

قال: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة: 282]، شف من رجالكم المسلمين، لا تستشهد كافر، مسلم. قال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ [البقرة: 282]، ما عندنا رجلين؟ قال يجوز أن تشهد رجل وامرأتان بدل الرجل الآخر، قال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: 282].

قد يكون هذا بين أسرة واحدة، بين أسرة، ياتي هذا أخ ويطلب من أخيه، ما في شهود، في واحد من الإخوان والبنات اثنتين، نقول نعم اشهدوه، يشهدون رجلين أو رجل وامرأتان ممن، انظر الشرط هذا، ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: 282].

لابد أن يكون الشاهد رجل عاقل صاحب دين عدل، يفهم ويدري بشهادة الحق، لا يكذب بشهادته، يجي أي شاهد يشهد يكذب بالشهادة هذه ما تمشي، لابد أن يكون ممن ترضون من الشهداء، قد يكون فاسق، قد يكون لا يصلي فشهادته غير مقبولة.

- لماذا قال الله رجل وامرأتان ما قال رجل وامرأة واحدة؟

بين لنا عَزَّ وَجَلَّ السبب في ذلك قال: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: 282].

المرأة مشغولة في بيتها وأطفالها وزوجها ما هي يعني مثلاً رجل يدرك هذه الأشياء تغفل أحيانًا، فلو جبنا واحدة وتشهد مع هذا بعد سنة تذكري؟ قالت والله ما أذكر ما أذكر اللي حصل أمس عشان أذكر قبل سنة، فنقول اثنتين عشان واحدة تذكر الأخرى تقول نعم أنا أذكر تذكرين؟

فتذكرها كما قال الله قال: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: 282]، هذا في الشهادة. قال: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: 282]، إذا جاؤوا قال تعال اشهد الآن بيني وبين هذا كتاب تعال اشهد، ما يجوز يقول لا أنا مالي دخل، أنا لا تدخلنا في المشاكل نحن يعني ما لنا علاقة فيه، لا ما يجوز حرام اشهد، تشهد على شيء واضح مثل الشمس ما في مانع.

قال لك اشهد، ولا يأبى، انظر كلام الله ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: 282]، إذا دعيت إلى شيء لا تأبَ ولا تمتنع، ولا يجوز لك أن تمتنع، إذا أنت رفضت وإذا رفض وهذا رفض من يشهد؟ لابد من إقامة الشهادة، هذا حق إقامة الحق لابد منه.

قال: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ [البقرة: 282]، لا تسأم لا تمل، بعض الناس يقول ما يسوى يا شيخ هذه بيني وبينه أربعة آلاف، شيء شاريه بألفين ما يسوى يكتب، ما هو جاحدك ولا شيء يروح بس، يقول لا اكتب، هذه ذمة لو مات هذه ذمة، لو ريال واحد في ذمته سيحاسب عليه ما يجوز، لا تسأم أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله، ولو كان شيئًا يسيرًا.

لو أخذ منك مثلاً جهاز قيمته مئة ريال اكتب له خذ مني جهاز قيمته كذا، أنت وراك ورثة وأمامك حساب حقوق الناس لا تضيعها، أخذت حق العطفية.

فهذا يقول لك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ [البقرة: 282] تكتبه إلى الأجل الذي تسلم فيه، لماذا حتى الصغير والكبير؟ قال نعم حتى الصغير والكبير لو غترة قيمة غترة سجل كل شيء سجله، هذه ذمة لابد من إبرائها.

لماذا؟ قال: ﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: 282]، الكتابة والشهادة أقسط عند الله أعدل في حكم الله، وأقوم الشهادة حتى تقوم الشهادة واضحة، وأدنى ألا ترتابوا لا يشك يقع الشك.

والله أنا ما أدري يا أخي نسيت إني أخذت منك، أنت أخذت مني في تاريخ كذا وجيت لمي عند البيت وأخذت طلبت مني وأعطيتك، والله يا أخي ناسي تعرف مع هالأمور والأيام والدنيا والله نسيت، لا، أقم الشهادة واكتب حتى أدنى ألا ترتابوا.

قال الله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: 282]، إذا كانت تجارة حاضرة خذ وعطني، تدخل بقالة محل تجاري تشتري ويعطيك تجارة حاضرة، هذه تجارة حاضرة يقول تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها.

جيت وجاب بضاعة يحرج عليها أو يبيعها وقال هذه كم قيمتها؟ قال قيمتها ألف ريال، قال شريت هذه بألف خذ ألف عطنا البضاعة، هل يشترط نكتب ما نكتب؟ قال لا يلزم هنا.

قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: 282]، لكن لو كتبوها ما في مانع، سجل عطني فاتورة أنا اشتريت منك هذه، هذا الجهاز، هذه السلعة، أعطني فاتورة أحفظها حقي وتحفظ حقك، ما في مانع أن يكتب لكن لا يلزم، لو صار بدون فاتورة قال لك لا ما يحتاج فاتورة عطني بسبعة وخذ فلوسك وراح مشي، يقول هذا جائز.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: 282]، مطلقًا في جميع المبايعات تشهد عليها، هذه المبايعات التي حاضرة هذا سنة الشهادة، والمبايعات اللي فيها ديون هذا واجب عليك أن تشهد.

وأشهد إذا تبايعت وخاصة في المبايعات الكبيرة الأولى الإشهاد، إذا كنت تشك في فلان أو فلان كذا، خاصة في المبايعات في العقارات مثلاً، في السيارات في الأشياء لها أثمان غالية الأولى أن تشهد عليها، الأولى أن تشهد عليها، وإذا قامت الفواتير والكتابات مقام الإشهاد يكفي، معك فاتورة مثبتة يكفي في ذلك.

قال: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: 282]، ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: 282]، يعني الكاتب لا تضره إذا كتب لك وتعاون معك مساعدك لا تضره لأن بعضهم أو الشهيد بعضهم يشغل الكاتب، يقول تعال عندي دين ويأتي بأوقات غير مناسبة، ياتي وقت الظهر وقت بعد العشاء تحرج تضره، تعال له في أوقات مناسبة لا تضره.

أحيانًا يقول لك أنا عندي كتابة في المحل الفلاني تعالي في المحل الفلاني هو جاي هو بيخدمك، فيقول لا تضار، لا يضار الكاتب ولا الشهيد، الشهيد أحيانًا يقول لك والله أنا الفلاني يطلبني فلوح وأنا ما قدرت هذا أنا ما سدد لي تعال اشهد معنا، ويجي في أوقات غير مناسبة، ويلزمه الحضور في المحاكم وهو لا يريد هذه الأشياء، فلا تضره، هو ساعدك وقف معك في الكتابة وهذا وقف معك في الشهادة ينبغي أن تراعي أن ترد المعروف لا يكون فيه ضرر عليه أبدًا.

﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: 282]، يعني تضر الكاتب وأن تضر الشهيد قال: ﴿وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: 282]، يعني خروج عن الطاعة، هذه ليست طاعة وليست وليس من المعروف وليس من الإحسان، هذا من الفسق.

قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: 282] اتقوا الله في أي شيء، في كل معاملاتكم مع الناس وتعاملك مع الكاتب والشهيد والذي دينك والذي أن تستدين منه ويساعدك اتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كل أحوالكم. ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282] مثل ما علمكم هذه الأحكام، هذه الأحكام ما كنا نعرفها الله علمنا.

قال: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 282] هذه الأحكام ويعلمكم غيرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لماذا قال؟ لأن ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282]، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. طيب يحكي لنا الله حالة من المداينة قد تقع متى؟ قد تقع في السفر في السفر، لو كان الإنسان مسافرًا وأراد أن يتدين ولا عنده شهود ولا عنده كتابة ماذا يصنع؟

قال ما عندك شيء ما عندك شيء تدفع شيء اسمه رهن، خلاص عطني مئتي ريال أنا الآن في سفر ولا معي فلوس عطني سلفة مئتي ريال، قال طيب كيف ما معك كاتب ولا شهيد؟ قال خذ الساعة حطها عندك، خذ الجوال حطه عندك، خذ كذا خذ ذهب حطه عندك إلين أرد لك مبلغك، هذا تسمى يسمى رهن.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: 283]، سلم الرهن له قل هذا رهن هذا صك البيت هذا كذا هذا كذا استلم عندك حتى أرد لك المبلغ ترد لي رهني.

بعضهم أحيانًا يكون معه إبل معه إبل فيقول خذ هذه الإبل وأعطني مبلغ وإذا رديت لك المبلغ رد لي الإبل أغنام وهكذا، هذه تسمى يسمى رهن رهان مقبوضة.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة: 283]، يمكن بعضهم يقول لا لا ما يحتاج تعطيني رهان ولا ساعة ولا جوال ولا شيء أنا واثق فيك والله سبحانه هو الشهيد بيننا

وبينك، هذا مبلغ ثلاث مئة ريال وخمس مئة ريال يعني مش نفسك في السفر وإذا جينا أعطني إياها.

﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ﴾ [البقرة: 283]، أعطاك المبلغ تؤدي الأمانة وتعيدها، ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: 283] الذي اؤتمن، لابد أن يتقي الله ربه ويراقبه.

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [البقرة: 283] عاد مرة أخرى للشهيد، بعض الناس يقول لك لا لا ما أشهد أنت ما شهدت قال لا لا ما أذكر، لا تكتم الشهادة أقيم الشهادة ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: 283].

قد أثم قلبه وهذا أخطر شيء الإثم يروح للقلب ما يروح للجوارح شيء قلبك يأثم على أنك تكتم شيء داخلي لا يجوز، ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 283]، في سفركم في حضركم في أي مكان في غرفة في مكتب في الطريق في السيارة كل ذلك يقع الله بما تعملون عليم سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

آية عظيمة، **"الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي"** رَحِمَهُ اللهُ عليه استنبط منها خمسين فائدة من هذه الآية، خمسين حكم شرعي طلع من هذه الفائدة واستنبط منها، فالإنسان يقرأ القرآن ويتدبر، وهذا من توجيه الله ومن رحمته أن فتح لنا هذه المداينات، الناس ما تكون عندهم سيولة ما يكون عندهم مبالغ، قد يحتاج إلى الاحتياجات الضرورية فلا يجد شيئًا من ذلك، فتح الله له باب حتى أن الله لما أغلق باب الربا فتح لنا باب خير الحمد لله.

أسأل الله أن يفقهنا في كتابه وأن يعلمنا ما نحتاج إليه، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

يجوز أربع نساء بدل شاهدين؟ وشاهدين أربع نساء يجوز؟ لا، لازم رجل وش؟ الرجل وامرأتان، الرجل وامرأتان ما يجوز؟

لا ما يجوز، لا إلا في أشياء خاصة في النساء في الحمل والرضاع والأشياء الداخلية أما المعاملات إذا لم يجدوا النساء، يقول كذا ما تجد حريم نساء وما في إلا شاهد واحد؟ شاهد مع يمينه مع اليمين تمشي هذه.

(54)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين.

أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حيَّاكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يزيدنا وإياكم علمًا وعملاً.

أيها الإخوة في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، وهذا اليوم هو غرة رجب من عام ألف وأربعمائة وثلاثة وأربعين، نجتمع في هذا المقام المبارك وعندنا أواخر أو خواتيم سورة البقرة، وهذا حقيقةً من نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتوفيقه أن بدأنا من أول القرآن سورة الفاتحة وسورة البقرة، واليوم نختم هذه السورة العظيمة، وليس كثيرًا أننا يعني نأخذ هذا الوقت الطويل أكثر من سنة مع هذه السورة، فإن ابن عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه مكث في سورة البقرة يتدبرها ويتأملها ثمان سنوات، ثمان سنوات، فليس كثير على كتاب الله أن نجلس هذا المجلس وهذا الوقت المبارك.

خواتيم سورة البقرة وهي في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: 284]. عندما تقرأ هذه الآية وأنت في خواتيم هذه السورة، وهذه السورة سورة عظيمة حقيقةً يعني امتلأت فيما يتعلق بتقرير أو تقريرات العقيدة الصحيحة التي يتعبد الإنسان بها رب العالمين، ويتعلق بما فيها من أحكام.

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ قال: **"سورة البقرة فيها ألف أمر وألف نهي وألف حلال وألف حرام"**.

نتدبر هذه الأحكام التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة، وما فيها من قصص، قصَّ الله علينا فيها قصصًا عظيمة.

في خاتمتها يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 284]؛ يعني كل ما في السماوات وكل ما في الأرض هو ملكٌ لله، هو ملكٌ لله تحت حكمه وتحت تصرفه، لا يخرج عن ملكه وعن تصرفه مثقال ذرة.

وهذا الخلق ومنهم المؤمنون والكفار وسائر العقائد أو سائر الملل والنحل كلها تحت حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. له ما في السماوات وما في الأرض، ثم رتب على ذلك لما بين سعة ملك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه يملك السماوات كلها وما فيهن ويملك الأراضي كلها وما فيهن، قال: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: 284].

هذا يدل على أي شيء؟ يعني لما ذكر لنا سعة ملكه ذكر لنا سعة علمه، وأنه لا يخفى عليه شيئًا في الأرض ولا في السماء، لا تظن أن يغيب عن الله مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، يسمع دبيب النمل النملة، ويرى النملة السوداء على صفاة سوداء في ظلمة الليل، لا يخفى عليه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال: ﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ [البقرة: 284] أيها الناس، تبدوا يعني تظهروا، ﴿إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة: 284]. الأمر عند الله سيان، تخفي أو تبدي، هذا في جانب الإنسان المخلوق تبدي له أو تخفي قد يظهر قد لا يظهر، أما في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تبدِ ما في نفسك أو تخفيه أو تخفيه والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم، ولذلك قال: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: 284].

- يحاسبكم به الله، هذه الآية قد يكون فيها إشكال عند بعض الناس يقول: الله عَزَّ وَجَلَّ يحاسبنا بما في أنفسنا؟

الجواب: الذي في النفس على نوعين، الذي في نفس الإنسان قد تكون خواطر وحديث نفس، هذا ما يحاسب عليه الإنسان، يحدث الإنسان نفسه وهو يمشي بالطريق وهو جالس في بيته يحدث نفسه بأمور.

كما قال ﷺ: **«عُفِيَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا»**. هذا الحديث الذي هو حديث النفس، هذا وقوع، يعني لو أن الإنسان يحدث نفسه أنه سيفعل ويفعل من المعاصي لا يؤاخذ أبدًا حتى يعزم على الشيء أو يفعله. ولذلك هنا قال أهل العلم قال: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ [البقرة: 284]، الذي يبدي الإنسان هذا معروف، يزاول هذا الشيء ويفعله.

لكن الذي يخفيه في نفسه ويدور في نفسه، هذا مثل ما ذكرنا ينقسم قسمين: شيء يدور في النفس في خلد الإنسان هذا لا يحاسب عليه الإنسان ولا يؤثر في نفسه، لكن الذي يدور في نفسك وتعزم على فعله، وتعقد النية على فعله، هذا الذي يحاسب.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في اليمين قال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: 225].

تكسب القلب له كسب، فإذا نوى الإنسان، وهذا نعطيك مثال، يعني لو أن إنسانًا نوى في سفرٍ هذا أن يؤدي العمرة كما شرعه الله كما أمره الله، فخرج من بيته ناويًا أداء العمرة وجمع نفسه، ثم عرض له عارض، عرض له عارض ومنعه، إما مرض أو شيء اعترض عليه ومنعه من إكمال أداء العمرة ورجع إلى بلده، فهذا يكتب له أجر العمرة لأنه عزم في قلبه، شايف؟

لأنه عزم في قلبه، فيكتب له على عزيمته. لكن لو كان جاء إنسان يحدث نفسه فيما بينه وبين نفسه يقول سأسافر وسأذهب إلى العمرة وهو يحدث نفسه هذا ما في عزيمة، مجرد كلام، هذا لا يؤاخذ به الإنسان لا في معصية ولا في طاعة، هذا لا يؤاخذ فيه.

ولذلك هنا فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: 284]، قد يحاسبك لكن ما يجازيك.

أنت أحيانًا تأتيك فاتورة محاسب عليك حسابات كثيرة لكن ما تحاسب، ما دفعت شيء، ما تجوزيت قد يعفى عنك، قد يعفى، يقال عليك فاتورة مقدارها كذا وكذا وكذا، هذا حسابية لكن هل جوزيت؟ هل دفعت؟

لا، يقول خلاص ما نحتاج أنك تدفع هذه الفاتورة، فهذا فرق بين المحاسبة والمجازاة.

ولذلك الله قال هنا ما تبدي في نفسك أو تخفيه يحاسبك الله به لكن هل يجازيك؟ قال الآن يأتيك قال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 284] ممن وقعت منه ذنوب يغفرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو حاسبك عليها، لكن حتى الآن تأتي المجازاة قال: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 284] من يشاء من عباده يغفر له ويتجاوز عنه، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 284]؛ لماذا؟ قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 284].

فملك السماوات وما فيهن والأرض وعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومجازاته لعباده، وفي مغفرة أو عذاب كل ذلك تحت قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

إلى هذا تبقى عندنا الآيتان من آخر سورة البقرة هي تسمى خواتيم سورة البقرة، هذه الآيتان أو هاتان الآيتان هي التي ورد فيها فضل قراءة هاتين الآيتين كل ليلة؛ **«مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»**. يعني أنت إذا غربت الشمس أو قارب غروب الشمس أو أقبل الليل أو دخل الليل فعليك أن تقرأ هاتين الآيتين، ما هما؟ آمن الرسول إلى آخر السورة هذه تسمى خواتيم سورة البقرة.

قال النبي ﷺ: **«مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»**. كفتاه من أي شيء؟ قال كفتاه من كل شر، خلاص أنت في عصمة الله وفي حفظه لن يضرك شيء، أو بعضهم قال كفتاه عن قيام الليل وهذا فضل عظيم أنك كأنك ضمنت الليل كله، فهذا فيه فضل عظيم في هاتين الآيتين.

حتى إنه جاء حديث عن النبي ﷺ: أنَّ ملكًا نزل من السماء فقال النبي ﷺ: **«أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ»**. ففيها فضل عظيم ينبغي للإنسان أن يحافظ عليها كل ليلة يقرأها ما تأخذ منك وقت، اقرأ هاتين الآيتين لا تنس أن تقرأهما.

- ما هما هاتان الآيتان؟

قال الله فيهما: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: 285]، هذا خبر من الله أخبرنا بأن الرسول قد حقق الإيمان. ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 285] الذين اتبعوا الرسول وسلكوا طريقه أيضًا آمنوا، قال: ﴿كُلٌّ آمَنَ﴾ [البقرة: 285].

قال: ﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285]. وهذه هي أركان الإيمان التي تحقق الإيمان في القلب أن تؤمن بهذه الأمور، تؤمن بأي شيء؟ وكلها تلاحظ أنها أشياء غيبية، هذا الذي يميز المؤمن عن غيره أنه يؤمن بأشياء غيبية.

ولذلك قال: ﴿بِاللَّهِ﴾ [البقرة: 285] وهم لم يروا رب العالمين ومع ذلك آمنوا، آمنوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما وجدوا من أدلة دلائل وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وآثاره، أو ﴿بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة: 285] الذين لم يروهم آمنوا بهم، والكتب المنزلة ليست كتابًا واحدًا ليس قرآنًا، هناك التوراة هناك الإنجيل هناك الزبور هناك كتب كثيرة أنزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285] الرسل كثير الرسل.

ولذلك في سورة البقرة في أولها: ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: 4]، فهم يؤمنون بالكتب وبالرسل وهذا حقيقة المؤمن.

ولذلك قال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285] لا كما تفعل اليهود تفرّق، تؤمن ببعض الكتب وتكفر ببعض وتؤمن ببعض الرسل وتكفر ببعض، لا يفرقون بين أحد من رسله، هذه صفات هذه الأمة.

- لماذا ذكرها الله؟

لما ذكر لنا سورة البقرة كاملة وما فيها من شرائع هذه الأمة وميز الله هذه الأمة بأن استجابت لله، ختَم ببعض مواقف المؤمنين وصفات المؤمنين أنهم آمنوا وحققوا الإيمان.

ولذلك انظر ماذا قال: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: 285]. اليهود ماذا يقولون؟ يقولون سمعنا وعصينا، وهؤلاء المؤمنون شرفهم الله شرف هذه الأمة بأنها قالت: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: 285].

وزيادة على ذلك لما استجابوا لربهم سألوا الله أعظم الأمور، ما هي؟ قال: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ [البقرة: 285]، اغفر غفرانك اغفر لنا ذنوبنا.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما خاطب اليهود وقال لهم قولوا حطة، احطط عنا سيئاتنا احطط عنا خطايانا، استهزءوا قالوا حبة في شعيرة أو حبة في شعرة حنطة حبة حنطة يستهزءون، يعني هذا تحريف الكلم، يقول لك احطط عنا خطايانا اسألوا الله أن يغفر لكم خطاياكم يستهزءون يقولون حنطة يستهزءون.

والمؤمنون يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]. يدعون الله أن يغفر لهم ذنوبهم ويتذكرون عودتهم إلى ربهم أن يعودوا إلى الله وقد غفرت ذنوبهم وقُبلت منهم طاعاتهم.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية الأخيرة قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، هذا وعد من الله وخبر من الله لهذه الأمة خاصة. انظر الأمم السابقة وخاصة اليهود فيهم من الآصار وفيهم من الأغلال وفيهم من التشديد أمور كثيرة أمور كثيرة، يعني تصوَّر أن توبة اليهود أن يقتل نفسه، توبته أن يقتل نفسه.

إذا وقعت النجاسة على شيء يقص هذا الشيء، لو وقعت النجاسة على الثوب ما يغسله يقص هذا الشيء. فتخفيف من الله لهذه الأمة أن الله رفع عنها قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، أنت ما تكلَّف إلا بالأمور الخفيفة، لا يظن أن الله يكلفك بشيء يشق عليك.

ولذلك إذا جاءت المشقة جاء اليسر معها؛ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5]. فلا يمكن أن هذه من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]؛ لها ما كسبت أي في الطاعات، يقول كسبت طاعة، وعليها ما اكتسبت أي في السيئات. انظر فرق بين كسبت واكتسبت، لماذا قال؟

لأن السيئات تحتاج إلى عمل تحتاج إلى بحث تحتاج إلى يعني إنسان يجتهد فيها، أما الطاعات متيسرة الأمور، الله يسوق لك الطاعات وأنت لا تشعر، يسوق لك قيام، يسوق لك صيام النهار، يهيئ لك قراءة القرآن، يهيئ لك حضور صلاة الجماعة والتبكير للصلاة، كل هذا تهيئة من الله وفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يسهل على الناس هذه الأمور، ولذلك قال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286].

ثم ذكر لنا موقف هؤلاء الذين هم صفوة الخلق جميعًا، انظر الأمم الماضية كلهم خيرهم وصفوتهم هي أمة محمد وأتباع محمد ﷺ، ولذلك انظر دعواتهم في آخر هذه السورة يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286].

يطلبون من الله أن لا يعاقبهم وأن لا يؤاخذهم بما قصَّروا وبما حصل منهم من خطأ أو نسيان، ماذا قال الله في الحديث القدسي؟

قال: «**قَدْ فَعَلْتُ**». يعني أنني لا أؤاخذكم، ولذلك الإنسان إذا أخطأ أو إذا نسي أو أخطأ في شيء لا يؤاخذ، لو فرضنا أن هذا الإنسان نسي وارتكب محظورًا أو محرمًا نسيانًا أو خطأً لا يؤاخذ عليه، لا يؤاخذ عليه في كثير من أحكام الشريعة لا يؤاخذ عليه.

قال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286] أي كاليهود وغيرهم حُملوا أشياء كثيرة فيها صعوبة عليهم في الدين، هذه الأمة يسألون الله ألا يحملهم من الآصار ومن الأغلال ومن التشديد عليهم، ولذلك ماذا قال الله؟

قال: «**قَدْ فَعَلْتُ**». رفع الله عنهم، ثم من دعائهم أيضًا قال: ﴿رَبَّنَا﴾ [البقرة: 286]، وتلاحظ كلمة ربنا هذا يدل على افتقارهم إلى الله وأن الله هو ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو الذي رباهم وهو الذي خلقهم وهو الذي رزقهم والذي تولى أمرهم، وهم يظهرون فقرهم أمام الله. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: 286] يعني لا تحملنا شيئًا يشق علينا، وهذا مثل الأول يشق علينا في الطاعات يشق علينا في الأمور.

ولذلك هذه قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78] ما في حرج في دين الله سبحانه، تخفيف ولله الحمد، من أعظم التخفيفات إذا سافرت بدل ما تصلي أربع ركعات تصلي ركعتين، إذا سافرت بدل ما تصلي كل صلاة في وقتها تجمع، وهكذا في أشياء كثيرة؛ المريض المسافر أشياء كثيرة خفف الله في هذه الأمة ولا يحملهم ما لا طاقة لهم به.

ولذلك قالوا: ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ [البقرة: 286] أي تجاوز وامح عنا السيئات، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ [البقرة: 286] زيادة ما وقع منا، ﴿وَارحَمْنَا﴾ [البقرة: 286] برحمتك التي وسعت كل شيء. ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ [البقرة: 286] أنت خالقنا وأنت مولانا وأنت الذي تتولى أمرنا وتنصرنا وناصرنا في كل موقف من المواقف ﴿فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

فانصرنا من أشد المواقف انصرنا على القوم الكافرين الذين يحاربون المؤمنين ويحاربون الله ورسوله وشرعه، انصرنا عليهم حتى تتهيأ لهم الطاعة ويتهيأ لهم ما يستطيعون أن يعبدوا ربهم فيه.

هذه خواتيم طيبة في هذه السورة عظيمة جدًا تحتاج منا أن نتأملها، كثير منا يحفظها ويكررها كل يوم، وكثير منا يسمعها من الأئمة يقرأونها، لكن من يتأملها؟ من يتفكر فيها؟ هنا عندنا نحتاج إلى هذا الشيء، ولذلك الله يأمر بذلك في القرآن بالتدبر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: 82].

ما قال أفلا يقرأون؛ كل يقرأ، ما قال أفلا يتلون القرآن؛ كل يتلو القرآن، لكن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ [النساء: 82]؛ هنا تقف، تقف أن ما أنزل القرآن عليك وعلى فلان والقرآن بين يديك عشان تقرأ هكذا، هذا لا تقف وتتأمل هذا الذي ينبغي أن يفعله الإنسان.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يختم لنا وإياكم بخير، وأن يوفقنا وإياكم لطاعته، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، والله أعلم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(55)
(آل عمران 1-6)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلّي وأسلّم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا ربّ العالمين.

أيها الإخوة الكرام في هذا المجلس المبارك، الذي نتحلّق فيه على كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقد أخبرنا النبي ﷺ أن من اجتمع في مثل هذا المقام حول كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: **«مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»**.

وجاء في حديثٍ آخَرَ أن النبي ﷺ قال: **«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَغْدُوَ إِلَى بُطْحَانَ أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ وَهُوَ مَكَانٌ قَرِيبٌ فِي الْمَدِينَةِ فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ؟ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كُلُّنَا نُحِبُّ ذَلِكَ، قَالَ: أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»**.

ففي هذه الأحاديث فضائل مثل هذه المجالس الطيبة، التي تعطّر بكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويقال فيها **"قوموا مغفورًا لكم قد بدّلت سيئاتكم حسناتٍ"**. في مجالسنا المباركة في هذا المسجد وفي لقاءاتنا الماضية ولله الحمد أنهينا سورة الفاتحة وسورة البقرة كاملةً، واليوم نبدأ بسورة آل عمران.

نحن نقرأ الآيات وكلٌّ يقرأ القرآن، لكن المطلوب من الجميع هو التدبّر لكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: 29].

- ما قال ليقرؤوا القرآن، فكلٌّ يقرأه، لكن مَن الذي يتدبّر ويتفهّم؟

ولذلك قال أحد التابعين وهو "أبو عبد الرحمن السلمي": **"أخبرنا الذين يقرئوننا القرآن من صحابة النبي ﷺ أنهم كانوا لا يتجاوزون خمس آياتٍ أو عشر آياتٍ حتى يتعلموا ما فيهن"**.

فالمقصود من القرآن أن تتدبّر وأن تفهم ماذا يخاطبك الله.

ينبغي أن نفهم ماذا يقول الله وماذا يريد منّا، لمّا تمرّ على آيةٍ فيها أمرٌ يأمرك الله أو ينهاك عن شيءٍ قف عندها وتأمّل، انظر الآن لسورة البقرة وسورة آل عمران، لو نرجع إلى سورة الفاتحة نجد أن سورة البقرة وسورة آل عمران مذكورتان في سورة الفاتحة بلفظٍ موجزٍ جدًّا.

- أين ذُكِرَ في سورة الفاتحة؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ 6 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 6-7]. لو تقرأ سورة البقرة ومرّت معنا تجد أن ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود، والله بيّن مواقف اليهود من الله ومن شرعه ومن نبيهم ومن نبينا محمد ومن هذه الأمة، هذا في ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

- طيب و ﴿الضَّالِّينَ﴾؟

قال: ﴿الضَّالِّينَ﴾ هم النصارى، وإذا ذُكِروا فاقرأ سورة آل عمران وتجد الحديث عنهم وكيف تكون مواقفهم، كلّ سورة آل عمران نصفها الأول كلّه يتحدث عن النصارى، وكيف جعلوا عيسى إلهًا، أو أنهم جعلوا عيسى ابنًا لله والله أب، فردّ الله عليهم قائلًا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]. فكيف تجعلونه إلهًا؟ وردّ الله عليهم حتى السورة لو تقرأها من أولها.

النصف الأول كلّه في مخاطبة النصارى، في إبطال حججهم وعقائدهم وشبهاتهم، أما النصف الثاني من السورة إذا قرأته تجده يتحدث عن غزوة أحد، وكيف كانت مواقف الصحابة من المهاجرين والأنصار، وكيف وقفوا إلى آخر اللحظات والسهام تضرب رسول الله ﷺ وكيف وقفوا معه ﷺ ورضي الله عنهم.

نتدبّر هاتين السورتين؛ سورة البقرة وسورة آل عمران، فقد جمع النبي ﷺ بينهما فقال: **«اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا»**.

تحاجّ عنك إذا قرأتها، قال: **«يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ»**. هذه فضائل نغفل عنها كثيرًا، لا نطيل حتى ندخل في السورة.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال بعد ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، والبسملة هذه آيةٌ منفصلةٌ جيء بها لافتتاح السور فقط، ولذلك لا يوضع لها رقم، قال بعدها: ﴿الم﴾ [آل عمران: 1]. البقرة افتُتِحَت بـ ﴿الم﴾ وآل عمران افتُتِحَت بـ ﴿الم﴾ وفي أيضًا سورٌ أربع هي العنكبوت والروم ولقمان والسجدة ﴿الم﴾. هذه تُسمّى الحروف المقطعة.

وهناك تسع وعشرون سورةً في القرآن كلّها مفتتحةٌ بالحروف المقطعة مثل: ﴿حم﴾، ﴿ن﴾، ﴿ص﴾.

- ما الفائدة منها؟

الجواب: هذه الحروف حروفٌ هجائيةٌ، مثلما تكتب أنت اسمك بالحروف الهجائية، فهذا قرآنٌ مكتوبٌ بالحروف الهجائية ونزل بالحروف الهجائية

- لماذا قال ﴿الم﴾ وما معناها؟

أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يثبت للعرب أن هذا القرآن قرآنٌ عربيٌّ، بلسانٍ عربيٍّ تفهمونه، غير غامضٍ عليكم ولا فيه صعوبةٌ، فواضحٌ جدًّا.

- لماذا لا تتدبّرون القرآن؟

فكأنها رسالةٌ للعرب: اقرؤوا القرآن وتدبّروه، حروفٌ تعرفونها أنتم، فلماذا أنتم تنكرون القرآن وتردّونه؟ فإن كنتم لا تقبلون القرآن وتقولون إن محمدًا هو الذي أتى به وافتراه، فأتوا بسورةٍ/ تحداهم الله قال: فأتوا بمثله، ثم تنزل معهم وقال: فأتوا بعشر سورٍ وما استطاعوا، ثم قال: فأتوا ولو بسورةٍ؛ وهي أقصر سورة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ وما استطاعوا/ فإذا ما استطعتم فاقرؤوا القرآن وتدبّروا واعملوا به، ولا تردّون القرآن.

- لو تقرأ في سورة البقرة لمّا قال: فأتوا بسورةٍ من مثله، ماذا قال بعدها؟

قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24]. فانظر للتهديد: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾؛ أي حتى في المستقبل لن تفعلوا، فالمستحيل فاتقوا النار، فالمسألة ليست مسألة لعبٍ وإنما مسألة جدٍّ.

هذه معنى ﴿الم﴾، قال بعدها: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 2]. هذا الاسم لا يُطلق إلا على ربّ العالمين، معناه الله ومعناه الإله، والإله معناه المعبود المحبوب، الذي يحبّه كلّ من يعرف ربّ العالمين ويعرف عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو مأخوذٌ من المألوه؛ يعني المحبوب المعبود.

فاسم **"الله"** هذا من أسماء الله الخاصة التي لا تُطلق إلا على الله، و**"الرحمن"** لا يُطلق إلا على الله، و**"الربّ"** هو الله. وهناك أسماءٌ خاصةٌ بالله، وهناك أسماءٌ يجوز أن تطلقها على البشر مثل **"عزيز"**؛ فالعزيز هو الله ويقول: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ وقال ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾.

فأسماءٌ يجوز إطلاقها على الله وعلى البشر، لكن **"الله"** خاصٌّ بالله، ولذلك أوضح لك ما هو فقال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ يعني لا معبود بحقٍّ إلا هو.

وهذه الكلمة لو تقف عندها تجدها رسالةً للنصارى الذين يقولون **"عيسى إله"**، فالله يردّ عليهم يقول: لا إله إلا الله، فلا يوجد شيءٌ اسمه إلهٌ غير الله، ولا أحد يستحقّ العبادة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ثم قال لك بعدها اسمين من أسماء الله التي تدلّ على أنه هو الإله الحقّ الذي لا يجوز لأي مخلوقٍ أن يُعبد إلا الله، قال لك: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

حتى قال بعض المفسّرين إن **"الحي القيوم"** هو اسم الله الأعظم الذي إذا سُئِلَ به أجاب.

وقد ورد في ثلاث سورٍ: في آية الكرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وفي أول آل عمران حتى يثبت للنصارى، وفي طه ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾. وانظر كيف جاءت ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ لتدلّ على خضوع الخلق كلّه أمام الحي القيوم، ولذلك فالحياة الأبدية لا تكون إلا لله، فأنت حيٌّ لكن تموت، وأي مخلوقٍ حيٌّ لكن نهايته ينتهي ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، لكن الحيّ حياةً دائمةً مستمرةً لا تنقطع هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك جمع بين هذين الاسمين؛ لأنه هو الحيّ على الإطلاق وهو القيوم.

- ما معنى "القيوم"؟

كثيرٌ من الناس يقرأ **"القيوم"** بس ما يدري ما معناها، **"القيوم"** معناه القائم بنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، المستغني عن خلقه، لا يحتاج لأحدٍ، فعيسى يحتاج إلى الطعام والشراب، ويحتاج إلى النوم، ويحتاج إلى من ينصره، ويحتاج إلى الأرض، لكن الله لا يحتاج.

حتى كلمة **"الحي القيوم"** هذه تردّ على النصارى الذين جعلوا عيسى إلهًا؛ فـ **"القيوم"** هو القائم بنفسه، لا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه أبدًا، غنيٌّ بنفسه، غنيٌّ سبحانه عن خلقه.

ثم المعنى الثاني للقيوم هو القائم على كلّ نفسٍ بما تحتاجه، أنا وأنت والثاني نحتاج إلى ربّ العالمين، ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكلٌّ محتاجٌ، ولولا رحمة الله عليك لما عشت، فهو القائم ولذلك قال في آيةٍ أخرى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

فكلمة **"القيوم"** لنفهمها فهمًا جيدًا هي القائم بنفسه لا يحتاج لأحدٍ غنيٌّ، وقائمٌ على خلقه وهم محتاجون إليه، هم فقراءٌ وهو غنيٌّ ليس بفقيرٍ وليس محتاجًا لأحدٍ.

فكلمة **"الحي القيوم"** عظيمةٌ، ولذلك قال بعض أهل التفسير: **"الحي القيوم ينبثق من هذه الجملة جميع أسماء الله"**؛ يعني يلزم من **"الحي القيوم"** أن يكون قديرًا، فكيف يكون حيًّا قيومًا ولا يقدر؟ ويلزم **"الحي القيوم"** أن يكون عالمًا بخلقه سميعًا بصيرًا، فانظر كيف تجمع لك هذه الجملة الأسماء الأخرى، وهذا من دلالة الالتزام أو دلالة التضمّن.

إذا عرفت أن الله هو الإله الذي لا يستحقّ العبادة إلا هو وحده، وأنه هو الحيّ الحياة الأبدية التي لا تنقطع والقيوم، فمن فضائل الله ورحمته أن من أعظم ما يقوم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على خلقه أن أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب حتى يعرفوا طريق النجاة.

فلو تركهم بلا رسلٍ ولا كتبٍ ما عرفوا الطريق إلى الله، وللَعِبَ عليهم الشيطان وضحك عليهم وأضلّهم جميعًا، لكن من رحمة الله أن أرسل الرسل وأنزل الكتب، ولذلك قال بعدها: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: 3]، فمن رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولطفه بعباده أن هذا الكتاب كنزٌ عظيمٌ، والله كنزٌ عظيمٌ، وهو الرحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولهدى ورحمة. ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ يعني ما أنزله بالعبث ولا بالباطل، ولا لشيءٍ نجلس نأخذ المصاحف ونضعها في الأدراج.

يقول بعض السلف: **"من مرّ عليه أربعون يومًا ولم يختم القرآن فقد هجر القرآن"**.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾ يا محمد؛ لأن الكتاب لا بدّ فيه رسولٌ ينزل عليه، وهو القرآن، نزله ﴿بِالْحَقِّ﴾ لا بالباطل، ولازم تفهم كلمة الحقّ حتى تعمل بالقرآن.

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: 3]، يعني هذا القرآن يصدّق الكتب السابقة كلّها، فكلّ الكتب التي أنزلها الله قبل هي مجموعةٌ في القرآن.

يقول الإمام "الحسن البصري" إمام التابعين: **"أنزل الله مائة وأربعة عشر كتابًا، جمع هذه الكتب في أربعة: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، وجمع هذه الأربعة في القرآن، وجمع ما في القرآن في المفصّل، وجمع ما في المفصّل في الفاتحة، وجمع ما في الفاتحة في إياك نعبد وإياك نستعين"**. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ وهذا كله ردٌّ على اليهود والنصارى.

يقول إن الذي نزل القرآن وأنتم لا تؤمنون به هو الذي نزل التوراة على موسى وهو الذي نزل الإنجيل على عيسى، ومحمد وأمة محمد كلّها مذكورةٌ في التوراة والإنجيل بأوصافهم، فالذي نزل هذا ونزل هذا هو الحي القيوم سبحانه.

قال: ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل إنزال القرآن، ولو جاءك واحدٌ سألك: لمّا جاء عند القرآن قال ﴿نَزَّلَ﴾ ولمّا جاء عند التوراة والإنجيل قال ﴿أَنزَلَ﴾ فهل في فرق بين أنزل ونزل؟

الجواب: نعم في فرق.

- ما الفرق؟

قال: ﴿نَزَّلَ﴾ معناها التنزيل المجزأ المفرّق، لأن القرآن ما نزل جملةً واحدةً، نزل في ثلاثٍ وعشرين سنةً، أما التوراة والإنجيل فنزلت جملةً واحدةً، ولذلك قال ﴿أَنزَلَ﴾ لأنها أُنزلت جملةً

واحدةً ما نزلت في سنين، نزلت مرةً واحدةً. ﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ يستهدون بالقرآن ليعرفوا طريقهم إلى الجنة، ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ ولم يقل هدى لأمة محمد ولا لفلان، فالناس كلّهم؛ العرب والعجم والأحمر والأسود، وهذا يدلّ على أن دعوة محمد دعوةٌ عالميةٌ.

- ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: 4]، فما هو "الفرقان"؟

عرفنا التوراة والإنجيل والقرآن، فـ **"الفرقان"** وصفٌ للكتب كلّها؛ لأن الله لمّا أنزل التوراة وأنزل الإنجيل وأنزل القرآن، أنزله ليفرق بين الحقّ والباطل، والهدى والضلال، وأهل المعاصي وأهل التقوى.

يفرّق بين هذا وهذا، فالقرآن يعرّفك، ولذلك تقرأ في القرآن يأتيك بآياتٍ عن أهل الطاعة ثم بعدها أهل المعصية، ويأتيك عن عاقبة المتقين وعاقبة الكافرين، وهذا معناه ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾.

ثم لمّا تقوم الحجة على الخلق وينزل القرآن عليهم ويبيّن لهم كلّ شيءٍ، لا تظنّ أن هذا جاء عبثًا، فوراءه عقوباتٌ شديدةٌ، إذا أنت لم تلتزم فأمامك شيءٌ عظيمٌ، اسمع ماذا يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران: 4]، فالمسألة ليس فيها استهزاءٌ ولا سخريةٌ، فالله سبحانه ذو عزةٍ وذو منعةٍ وذو قوةٍ، وينتقم ممن يخالف الرسل أو يخالف الكتب ولا يؤمن بها.

فلا تظنّ أن هؤلاء الذين أعرضوا عن القرآن وأعرضوا عن الرسل وعاشوا حياة بهائم أنهم يفلتون من الله، فهذا هو وعيدهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾.

قال بعدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: 5]، حتى يبيّن لك عظمة الخالق، فمهما أخفيت أنت في نفسك الله لا يخفى عليه شيءٌ، ومهما أخفيت عن الناس فسعة علم الله لا يخفى عليه شيءٌ.

- على ماذا يرتّب هذا؟

يقول لك إن عيسى يخفى عليه، فعيسى لا يدري عن أمس ولا عن المستقبل ولا عن الذي حوله، ولكن الله لا يخفى عليه شيء، حتى تعرف تقارن بين من يعبد عيسى أو يعبد الله.

قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 6]، وهذه أيضًا لمّا نقول عيسى، نقف ونتساءل: من الذي صوّر عيسى في رحم أمّه مريم؟ ومن الذي صوّر عيسى؟ الله؛ هو الذي يصوركم أنتم وفلان وفلان إلى يوم القيامة، فكلّ مخلوقٍ في بطن أمه من يصوّره وكيف يصوّره الله؟

يشكّله كيف يشاء في الأرحام؛ أسود، أبيض، أحمر، طويل، قصير، ذكي، غبي، مسلم، كافر، كلّ هذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يختصّ بهذا الشيء، هو الذي يصوّر هذا الإنسان ويكمّل صورته ويغيّر صورته، هو الذي يتصرف بهذا الشيء وليس لأي مخلوقٍ.

ثم رجع مرةً أخرى وقال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6]؛ لتعرف عظمة الله، وتعرف أن الذين يُعبدون من دون الله ليس لهم أيّ قدرةٍ وليس لهم أيّ صفةٍ من صفات الله.

وختم الآية بأنه هو العزيز الحكيم، ذو العزة والمنعة، والحكيم في خلقه، فما يخلق في بطون أمهاتكم يخلقه بحكمةٍ وبقدرةٍ وعزةٍ، ولا يخلق هكذا عبثًا، ولما ينزل الكتاب ينزله بحكمةٍ، ولما يخلق الخلق لا يخلقه عبثًا.

لا نطيل، ونقف عند هذا القدر، والحديث شيّقٌ حقيقةً ومهمٌّ، ونعيش مع القرآن الكريم، ولكن لا نريد الإطالة عليكم، ولعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(56)
(آل عمران 7-13)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء المرسلين نبينا محمدٍ ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، واتبع سنته إلى يوم الدين؛ اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيمُ. أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المباركِ، وفي هذا المجلس مباركٍ؛ وأذكر نفسي وأذكركم بقول النبي ﷺ: **«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»**؛ فهذا مجلسٌ نتعلم فيه كلام الله قراءةً وتدبرًا وتفسيرًا وعملًا.

في لقائنا الماضي بدأنا في سورة آل عمران، وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه هو الله الذي لا إله إلا هو؛ المنفرد بالخلق والتدبير والتصرف، والمنفرد بالعبادة، وأنه لا تجوز أو لا يجوز صرف أي نوعٍ من أنواع العبادة إلا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وأخبر من فضله ومنته على خلقه أنه نزل الكتاب على نبيه محمدٍ ﷺ، وأنزل قبل ذلك التوراة والإنجيل.

التوراة التي أنزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والإنجيل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بعد ذلك بدأت الآيات تفصل في هذا القرآن الذي بين أيدينا، ولذلك في الآية السابعة قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: 7].

هو الله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل عليك الكتاب؛ هو القرآن، حقيقته: كلام الله، تكلم الله به فسمعه جبريل، فنزل به على محمدٍ ﷺ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ 193 عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 193-194].

فهذا هو حقيقة القرآن؛ أنه كلام الله، تكلم الله به فسمعه جبريل، فنزل به على محمدٍ ﷺ، اسمع هذا القرآن وادخل في تفاصيله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: 7]؛ أي هو الله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل القرآن الكريم عليك يا محمدُ، أنزله قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7].

- ما معنى محكماتٌ؟ وما معنى متشابهاتٌ؟

أولًا: تقرأ في القرآن الكريم تجد أن الله يصف القرآن كله بأنه محكمٌ؛ يقول: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ [هود: 1].

- ما معنى محكمٌ؟

المحكم هو البيّن الدلالة الواضح، لا إشكال فيه ولا غموض فيه؛ تقرأ الآية وتفهمها، لما تقرأ الآية وتفهمها؛ هذا آيةٌ تسمى آياتٌ محكمةٌ، واضحة الدلالة لا غموض فيها ولا إشكال فيها؛ فذكر الله أن القرآن كله محكمٌ، وذكر أيضًا أنه متشابهٌ: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: 23]؛ أي يشبه بعضه بعضًا في القوة والبلاغة والدلالات ونحو ذلك، وهنا يذكر أن القرآن منه آياتٌ محكماتٌ ومنه آياتٌ متشابهاتٌ، المحكمات هي الواضحات الدلالة.

قال: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: 7].

- ما معنى أمُّ الكتاب؟

أي أصول الشريعة؛ العقيدة والتوحيد وأصول الشريعة في الصلاة والصيام والزكاة؛ هذه واضحة الدلالة لا إشكال؛ كلٌّ يقرأ: ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 43] ويفهمها، كلٌّ يقرأ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 43] ويفهم كيف يقيم الصلاة؛ هذه واضحة الدلالة.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7]. انظر لما قدم لك المحكمات؛ دل على أن القرآن أكثره محكمٌ واضحٌ هو المقدم، ﴿وَأُخَرُ﴾ [آل عمران: 7]؛ قليلةٌ متشابهاتٌ.

- كيف متشابهاتٌ؟

يعني غير واضحة الدلالة، قد تشكل على كثيرٍ من الناس؛ يقرأ هذه ويجد فيها إشكالٌ غير واضحٍ.

- ما معنى هذه الآية؟

إذا كان بعض الصحابة توقف في بعض الآيات ما عرفوها؛ يقول عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه لما قال: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: 31]؛ يقول: **"قد عرفنا الفاكهة، فما الأبُّ؟"** ثم تركه عمر لم يجب عليه.

وابن عباسٍ يقول مرةً: **"لم أعلم معنى فاطر حتى اختصم إليَّ أعرابيان في بئرٍ، قال أحدهما: أنا فطرتها؛ يعني أنا الذي أوجدتها وحبرتها"**؛ فعرف أن فاطر هو إنشاء الشيء من العدم.

- فهذه أحيانًا كلماتٌ في القرآن تحتاج منا إلى تدبرٍ؛ قد يأتيك شخصٌ ويقول لك طيب ليش ما يكون القرآن كله محكمٌ بيّنٌ وخلاص؟

الجواب: لا، الله وضع في كذا ووضع في كذا حتى يحفز النفوس وحتى يحرك الأذهان، ويجعل الناس يتباحثون ويبحثون ويسألون عن دينهم ويسألون عن شرعهم ويسألون عن هذه الآيات؛ لا أن تأخذ شيئًا جاهزًا هكذا.

يقول: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7]. هذه المتشابهات جعلها الله فتنةً لبعض الناس الذين في قلوبهم مرضٌ يتبعون ما تشابه منه؛ فتنةٌ لمن يبحث عن الضلال ولمن يبحث عن الفتن يجدها؛ ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: 7]؛ في قلوبهم مرضٌ ها وميلٌ عن الحق ولا يريدون الحق؛ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 7]. يتبعون، يبحثون عن المتشابهات ويأتون بها ويجلسون يثيرونها أمام الناس؛ ليش الله يقول كذا؟

وليش الله يقول كذا؟ وما معنى كذا؟ ويبدأ يثيرونها حتى يثيرون الفتن أمام الناس؛ هؤلاء في قلوبهم مرضٌ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 7]؛ ما الغرض؟ قال: ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: 7] بين الناس، ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: 7] على ما يريدون هم؛ يريدون شيء معين يؤولون ما يريدون، هذا هو المقصد؛ ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: 7].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: 7]؛ يعني ما يعلم تأويله حقائق أموره، يقول لك مثلاً دخل رجلٌ في مسجد رسول الله ﷺ، والإمام مالكٌ إمام دار الهجرة في حلقته؛ فقال للإمام مالكٍ: قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، إن الله استوى على العرش؛ كيف استوى؟

هذه الشبهة؛ كيف استوى؟ الله أخبرك أنه استوى؛ ما قال لك كيف استوى، أعطاك أنه استوى، تعرف الاستواء؛ قال الإمام مالكٌ: **"الاستواء معلومٌ"**؛ يعني واضح الدلالة، ما تعرف استوى؟ استوى على.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول في الناس يقول في المراكب وفي على الناقة: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: 13]؛ يعني تستقر عليها، الاستواء: استقرارٌ: **"الاستواء معلومٌ، والكيف مجهولٌ، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ، ولا أراك إلا مبتدعًا"**؛ فأخرجوه، هذا يتبع متشابهٍ؛ ليش كذا؟

يأتيك على الصفات يقول لك: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]؛ كيف يده؟ الله أخبرك أن يديه مبسوطتان؛ كيف هذا؟ لا تدخل فيه، الأشياء الغيبية لا تدخل فيها؛ تدخلك في مثل هذه المتشابهات وتوقعك في هذا الشيء حتى تكون مع الذين في قلوبهم زيغٌ.

ولذلك الله قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ [آل عمران: 7] حقائق أموره ﴿إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 7]؛ أو وما يعلم تفسيره إلا الله والراسخون أيضًا بالعلم يعلمون تأويله.

قال: والراسخون في العلم أيضًا يقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: 7]. انظر كيف الراسخين في العلم؛ ما قال العلماء ولا قال المتعلمين، لا جابت أعلى درجةٍ فيهم، فقال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 7]؛ يعني الذين رسخت أقدامهم في العلم؛ ماذا يقولون؟

انظر كيف يقولون لما يأتون عند المتشابه ماذا يقولون؟ قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: 7]. الله يعلمنا سواءٌ كنا من الراسخين في العلم أو أقل أو من المتعلمين؛ أنك لو شفت مثل هذا الشيء ماذا تقول؟ آمنا به.

يأتيك واحدٌ يقول لك الجنة، الجنة والنار أين النار وين الجنة؟ والجنة فيها أخبر الله فيها أعنابٌ وفيها رمانٌ وفيها نخلٌ الأعناب؛ نقول ماذا نقول بهذا الجواب؟ آمنا به. ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا﴾ [آل عمران: 7] به وصدقنا؛ كيفيةٌ لا نعلمها.

يأتيك واحدٌ يعني يثيرون شبهاتٍ كثيرةً، يأتيك واحدٌ يقول لك طيب الآن تقول إن، إن القبر فيه عذابٌ؛ يعذب أهل القبور بذنوبهم؛ لو نفتح الآن القبر ما نجد فيه عذابٌ ولا فيه نارٌ ولا فيه شيءٌ؛ نجده في كفنه؛ كيف تقول يعذب؟ أو تقول ينعم وأنه يمد له في مد بصره؛ كيف تقول إن نفتح القبر ما نجد؟

نقول: آمنا بالله وصدقنا ما قاله الرسولُ؛ أما الكيف هذا ما ندخل فيه. الله أعلم كيف ينعم؛ الله قادرٌ على أن ينعم وعلى صورةٍ نحن لا نعلم؛ الله يقول الشيء: كن فيكون؛ تكون عندك حقائق تعرف تنطلق منها.

ولذلك انظر يعلمنا الله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: 7]؛ هذا المنهج الصحيح. ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7]؛ كل هذا المحكم والمتشابه من الله، والقرآن كله من الله؛ ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7].

قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]؛ أصحاب العقول النيرة الذين يعرفون الطريق إلى الله، والذين يعرفون كيف يتعاملون مع هذه الأشياء؛ هذه صفاتهم، الله يعطيك الصفات التي ينبغي أن تسلكها، ويحذرك من هؤلاء الذين في قلوبهم زيغٌ؛ فيتبعون ما تشابه منه؛ ما عندهم منهجٌ ولا عندهم دليلٌ ولا شيءٌ، بس يتبعون المتشابه ويثيرونه أمام الناس.

أما الراسخون عندهم منهج الإيمان بالله والتصديق و ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: 7]؛ وهم أهل أولو الألباب الذي مدحهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وزيادة على ذلك يقولون حتى يعني مع هذا يخشى الإنسان لو قال إني عالمٌ متعلمٌ يخاف على نفسه: **"يا مقلب القلوب والأبصار"**.

ولذلك انظر قال بعدها: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8]؛ يعني ثبتنا عند هذه المحن وعند هذه الشبهات، ينبغي الإنسان أن يسأل الله الثبات إذا سمع مثل هذه الشبهات التي تثار في المجالس وتثار في الندوات واللقاءات؛ ليش الله يقول كذا؟ وليش الله يفعل كذا؟ اللهم ثبتنا؛ نسأل الله الثبات، ولذلك سورة آل عمران كلها تدور على الثبات؛ ثباتٌ، كيف يثبت الإنسانُ.

الآن ستأتيك آياتٌ كثيرةٌ في عيسى؛ يأتيك شبهةٌ يقول لك عيسى يعني، يعني هل يدخل في عقلك أن امرأةً تحمل من غير رجلٍ؟ كيف حملت مريم من غير رجلٍ؟ يبدأ يدخل عليك شبهاتٌ

وساوسٌ؛ كيف تحمل؟ كيف حملت هذا الرجل؟ نأتي به نقول تعال اسمع كلام الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: 59].

آدم أعجب؛ إذا أنت تعجب من واحدٍ ولد من امرأةٍ له أمٌّ، ليش ما تتعجب من آدم؟ لا أمٌّ ولا أبٌ؛ خلقه الله، فالذي خلق آدم خلق عيسى، وخلاص وقضى وانتهى الأمر؛ ولا تدخل نفسك؛ لأنهم يثيرون عليك؛ وهذا النصارى الآن هم يقفون عند هذا، يقولون: إذاً عيسى هو ابن الله، أو هو الله، هو الإله؛ لأنه يخلق، الله يخبر أن عيسى يخلق، يخلق من الطين كهيئة الطير؛ إذاً هو الله.

فيأتونك بهذه الشبهات؛ هذه السورة تقررك المنهج كيف تتعامل، نتعامل معه بأي شيءٍ؟ آمنا بالله، كلٌّ من عند ربنا، وما يتذكر إلا أولو الألباب. وزيادةً ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ﴾ [آل عمران: 8]؛ اللهم ثبتنا؛ الرسول كان أكثر دعائه: **«يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»**.

هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: 8]؛ انظر في الدعاء وجمال الدعاء، يسألون الله الثبات والزيادة في الرحمة، في العلم والعمل والثبات على الحق؛ ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [آل عمران: 8] تثبتنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

انظر كيف يتوسلون إلى ربهم بالدعاء؛ يقولون ربنا خالقنا أنت، وأنت مربينا وأنت رازقنا، ثم في الختام يقولون ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8]؛ الذي تهب ما تشاء من الخير والعلم، وتهبه من القرآن والتعلم والثبات؛ هذا هو.

ثم شف الراسخون في العلم ماذا يتذكرون أمامهم لما يرون هذه الشبهات، ويرون هذا الزيغ، وإنسان في، على عقيدة التوحيد ومولودٌ بين المسلمين ثم ينحرف ويلحد ويزيغ قلبه؛ ماذا يقولون؟ يتذكرون اليوم الآخر الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين؛ هذا الذي، هذا الذي تخشاه حقيقةً هو اليوم الآخر.

ولذلك يقول: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: 9]؛ لتذكرون هذه من أولو الألباب والراسخون في العلم دائماً في أذهارهم وعلى وأمام أعينهم هذا اليوم الآخر؛ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 9]؛ يعني وعده واقعٌ حقيقةً لا نشك فيه.

ولذلك دائماً الله يصف اليوم الآخر بأي شيءٍ؟ ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: 9]، ﴿لاَّ رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: 9]. لما ذاكر لك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاء الراسخين في العلم؛ ذكر لك من كفر بالله، أشد من الكفر بالله والكفر بالتوحيد والكفر بالشرع والكفر بالإيمان بالرسول.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 10] يوم القيامة؛ في الدنيا يمكن تغنيهم تنفعهم؛ الذين كفروا تنفعهم أموالهم وأولادهم في الدنيا، لكن في الآخرة ما تنفعهم، ولذلك لما ذكر اليوم الآخر جامع الناس ليوم لا ريب فيه؛ ذكر حال الكفار يوم القيامة ماذا سيكون حالهم ومآلهم؟

قال: ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 10]؛ لن تنفعهم أموالهم التي يدعون أن عندهم أموالٌ وأولادهم من الله شيئاً؛ لن تنفعهم.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: 10]؛ هم حطب نار جهنم، وقود النار.

يقول: ليس هذا شيءٌ جديدٌ على الكفار، في أممٍ ماضيةٍ نفس الطريقة، ولذلك يقول: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [آل عمران: 11]؛ يعني مثل طريقة ومثل منهج فرعون؛ هؤلاء الكفار الذين كفروا بآيات الله وكفروا برسوله نفس المنهج؛ ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [آل عمران: 11]، الأمم الماضية ما هي التي ماذا فعلوا؟

قال: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [آل عمران: 11]. انظر لما كذبوا قال: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [آل عمران: 11]، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [آل عمران: 11]؛ ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 11]؛ يعني عاقبهم، الأخذ هنا: العقوبة؛ فكلٌّ أخذنا بذنبه، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: 11]؛ لمن كفر وكذب بآيات الله. هذه هي النتيجة، هذه النتيجة.

يقول في ختام المجلس هذا يعطينا الله خبر ماذا جرى لنبينا محمدٍ وأصحابه؛ وهم قلةٌ في العدد والعتاد، وواجهوا من واجهوا كثرةٌ في العدد والعدة وهم أهل مكة، وهذا وقع في غزوة بدرٍ.

انظر كيف ينصر الله من ينصره ويؤيد من يؤيد دينه؛ انظر يعطيك الله يقول: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [آل عمران: 13]؛ أيها الناس ومن يكفر بذلك، ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ [آل عمران: 13] علامةٌ عظيمةٌ جداً في فئتين التقتا؛ فئتين، جماعتين التقتا في بدرٍ: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 13] وهم محمدٌ وأصحابه وهم قلةٌ، ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: 13] وهم كفار قريش؛ ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ [آل عمران: 13].

يعني محمد وأصحابه يرون الكفار أضعاف مرتين؛ يعني هؤلاء ثلاثمئةٍ وقليلٌ وهؤلاء تسعمئةٍ وزيادةٌ. أو يكون المعنى: يرونهم أي الكفار؛ لأن الله أكثر عدد المؤمنين أمام الكفار حتى يرعبهم، كأنهم يرون الكفار، الكفار يرون المؤمنين عددٌ كبيرٌ؛ فهذا يدخل في قلوبهم الرعب ويقلل عدد الكفار حتى يعزم، يجعل المؤمنين يعزمون عليهم.

انظر يقول: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 13]؛ فأيد محمداً فانتصر عليهم وقتل منهم سبعون وأسر سبعون والبقية فروا.

قال: ﴿يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [آل عمران: 13]؛ لعظةٌ واعتبارٌ ﴿لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 13]. وليس كل الناس يعتبر؛ الذين يعتبرون هم أصحاب العقول الذين يفكرون في عقولهم وينتفعون بما يسمعون.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم نواصل ما توقفنا عنده؛ نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا، وجزاكم الله خير على حضوركم وإصغائكم.

(57)
(آل عمران 14-20)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين؛ اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

حياكم الله في هذا اللقاء في هذا اليوم، وهو اليوم الثاني من شهر رجب من عام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف؛ السورة التي بين أيدينا نتناولها بالبيان والتوضيح والتفسير هي سورة آل عمران، ووقفنا عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران: 14]؛ مثل ما ذكرنا في لقاءاتنا الماضية أن يعني تعرضت لفتن فتن عظيمة، التحذير من الفتن، هذه الفتن التي حذر الله منها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تعود في أصولها إلى فتنتين؛ الفتنة الأولى فتنة الشبهات، وهذه أخطر شيء، الشبهات التي قد تزل بالإنسان قدمه، فيخرج من الإسلام بسبب هذه الشبهات.

وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: 7]؛ هذه الشبهات هي أخطر، في فتنة أخرى أيضًا من الفتن العظيمة التي حذر القرآن منها فتنة الشهوات، فتنة الشهوات.

وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السورة أعظم الشهوات في الدنيا، فقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14].

انظر ستة أمور هي أصول الشهوات:

الأمر الأول: النساء.

الأمر الثاني: البنين.

الأمر الثالث: القناطير المقنطرة من الذهب والفضة يعني المال.

الأمر الرابع: الخيل المسومة.

الأمر الخامس: الأنعام.

الأمر السادس: الحرث. ستة أمور، قال الله: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 14]، هذا ما يتمتع به الإنسان في الدنيا يذهب ويتركه، أو هي تذهب وتتركه، ما تستقر، لا هي ولا هو يستقر؛ ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول الآية ماذا قال؟

قال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 14]، إذًا هي زينت في قلوب الناس، يعني زينها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قلوب الناس حتى مالت النفوس إليها ورغبت فيها وفي الميل لها؛ ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 14]، وكلمة الناس يدخل فيها جميع بني آدم؛ حب الشهوات، يحب يعني الشهوات، يعني الشيء الفطري الذي تميل إليه النفس وتشتهيه وترغب فيه؛ قال أولًا أعظمها النساء.

﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران: 14]، المرأة فطرة الإنسان الميل إليها؛ ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما خلق آدم وبقي في الجنة وحده، بقي يعني مستوحشًا، فخلق الله له، خلق الله منه من ضلعه خلق له حواء ليأنس بها، ليأنس.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، قال قد يفتن الإنسان، يفتتن الإنسان في النساء وفي المرأة، فهي من أعظم الشهوات: ﴿وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران: 14]، البنين؛ لأن ﴿الْمَالُ

﴿وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46]، فهي من الزينة التي يفتخر بها الإنسان؛ لما يذكر له الأبناء ونحو ذلك يكون ذلك فخرًا له، يفتخر بهم.

قال: ﴿وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾ [آل عمران: 14]، القناطير جمع قنطار، والقنطار هو المال الكثير الذي لا حد له؛ يقول: القناطير المقنطرة يعني الأموال الكثيرة من أي شيء؟

قال: ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: 14]؛ لأن هذه الذهب والفضة هي أساس الأموال، أساس الأموال التي قام مقامها ما يسمى الآن بالأوراق النقدية هي الأموال، والمال عصب الحياة، لا يستطيع الإنسان أن يعيش بلا مال، المال هو الذي يرفع الإنسان.

وإن كان نقول الدين والطاعة هي ترفع الإنسان، لكن باعتبار نظر الناس الذي لا مال له لا يلتفت إليه، والذي عنده مال وذا يلتفت إليه في طبيعة الإنسان: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: 14]، أي من زينة الدنيا التي تلفت الأنظار زينة الخيل بجمالها.

ولذلك سميت الخيل خيلًا لخيلائها؛ لأنها تختال بنفسها وتفتن الإنسان، يفتن في كثير من الناس قد فتنوا بالخيول ونحوها: ﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ [آل عمران: 14].

- ما معنى المسومة؟

قال: المسومة هي التي ترعى، ترعى هي السائمة، فإذا كانت ترعى في الصحراء وترعى في البراري تكون أطيب من التي تكون في الأحواش؛ وقيل إن المسومة هي التي فيها علامات الوسم، علامات الوسم يعني في جبهتها وفي أقدامها محجلة، محجلة تسمى مسومة.

قال: ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ [آل عمران: 14]، والأنعام يدخل في ذلك بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم، كل هذه من زينة الدنيا؛ ﴿وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: 14]، الحرث المزارع التي لا حد لها، الزروع والأشجار والنباتات والنخيل ونحو ذلك؛ الآن يأتيك يعني ليش الله يذكر هذه الأشياء؟

- قد يأتيك الآن سائل: طيب نحن نعرف هذه الأشياء، النساء والبنين كل هذه معروفة، طيب وبعدين؟ الآن يعطيك النتيجة؛ قال النتيجة ما هي؟

الجواب: قال: ذلك المذكور لك هذه الأصناف الستة: ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 14]، ذلك متاع الحياة، هذا الذي يتمتع به الإنسان في الحياة وحياة قصيرة، كم سنة ودنيا دنيئة تنتهي بلحظة، ليست مستقرة في نعيمها، لو أجاك يوم نعيم سيأتيك يوم آخر ليس فيه نعيم، فحالك غير مستقرة ولا تدري كم تعيش في هذه الحياة.

فذلك متاع الحياة، هذه لو أعطاك الله كل هذه الأشياء من النساء والبنين والأموال والخيل والحرث وبهيمة الأنعام كلها حصلت لك بزينتها وجمالها، لن تستطيع أن تستقر في هذه الحياة مهما كان؛ ولذلك قال: ذلك المذكور متاع، يتمتع به الإنسان؛ انظر سماه متاعًا لأنك تتمتع فيه وقتًا قصيرًا وتتركه؛ ﴿ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14].

الله عنده؛ انظر لما يقول عنده هذه مكانة عالية تكون فوق عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله عنده ماذا؟ حتى ترجو أن تطلب الذي عند الله، هذا ما هذا يأتيك أو ما يأتيك، إذا كان مكتوبًا لك سيأتيك أو لا يأتيك، عيش الفقير والغني واحد، كلهم يعيشون في الدنيا، لكن النتيجة هنا ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14].

يعني حسن الرجوع إليه، حسن المرجع إليه؛ كيف سترجع إليه؟ هل أنت سترجع إلى الله برجوع حسن ويختم لك بحسن، ولا ترجع بخاتمة سيئة؟ هنا هذه النقطة التي نحتاج إليها؛ ولذلك انظر قال بعدها لما ذكر هذه الأشياء وقارن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين هذه الدنيا ومتاعها، لو عندك أرصدة الدنيا كلها، لو يعني قارن الله بين هذه الدنيا هذه كلها، لو جمعت لك الدنيا كلها بحذافيرها

وأعطيت أعطيت مفاتيح الدنيا كلها والله يقول لك عندي حسن المآب، تركت هذا كله وأخذت عند الله.

ولذلك انظر قال بعدها: ﴿قُلْ﴾ [آل عمران: 15]، قل لهم يا محمد، وأنت أيها المخاطب اسمع؛ ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ﴾ [آل عمران: 15]، أخبركم؛ ﴿بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ [آل عمران: 15]، كل هذه الدنيا لو أعطيك مفاتيح الدنيا كلها أخبرك بشيء أفضل منها، ألا أخبرك بما هو خير من هذا حتى تعرف أن هذه فتنة؟

يفتن في ماله، يفتن في ولده، يفتن في المرأة، يفتن في الخيل، يفتن في الأنعام، يفتن بالمزارع والاستراحات وغيرها، هذه فتنة؛ أنا أعطيك خبرًا، أعطيك شيئًا أحسن منها وأفضل؛ ﴿أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ [آل عمران: 15].

- ما هو الذي خير من ذلك؟

وانظر لاحظ اشترط الله شرطًا واحدًا قال: ﴿أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [آل عمران: 15]، مو بكل الناس، لا، للذين اتقوا عند ربهم، وليست أي تقوى، لا، تقوى مرضية عند الله؛ ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: 15] خير من الدنيا كلها إن كنت من الأتقياء الصالحين الذين تعرف قيمة التقوى عندك.

تعرف طاعة الله وتقدم طاعة الله على كل شيء من الدنيا، ولا تفتنك الدنيا عن الآخرة؛ ذلكم للذين اتقوا عند ربهم ما هي؟ قال: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: 15]، هذا حسن المآب، هذا حسن المرجع، أن يختم لك بخير وتقابل رب العالمين بهذا الوعد العظيم؛ ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: 15].

انظر لك الجنات والبساتين التي فيها ما لا عين رأت، انظر لا تنظر للدنيا هذه اللي فيها ستة يعني أشياء زينها الله لك وزينت لك، وقد لا تكون جميلة من المرأة والولد، قد لا يكون قد ترزق بأولاد وكلهم لا ينفعونك، فليس العبرة في كثرة الأولاد أو كثرة النساء أو كثرة الأموال، هذه الأمور كلها تمضي وتنتهي.

لكن الآخرة ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: 15]، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ تتمنى الخير تجده، تتمنى بهيمة الأنعام تجدها، كل ما تتمناه في الجنة يأتيك مقابل الدنيا هذه: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: 15].

وزيادة على ذلك قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: 15]، يعني لا يبغون عنها حولًا، لا يريد الخروج منها، ولا يريد، وما هم منها بخارجين؛ يعني إقامة أبدية، هذا يجعلك تطمئن أكثر، الدنيا ما فيها إقامة أبدية، الدنيا كلها عدد سنين وتنتهي: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ 112 قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون: 112- 113].

الدنيا ماشية، لكن هذا يقول لك لا: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [آل عمران: 15]؛ وزيادة على ذلك لما ذكر وقدم لك ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [آل عمران: 14]، وقدم المرأة زينة الدنيا ذكر في الآخرة، قال: ﴿وَأَزْوَاجٌ﴾ [آل عمران: 15].

- ما صفاتهم؟

قال: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: 15]، أزواج من الحور العين ومن نساء الدنيا أزواج مطهرة من الأقذار، ومطهرة من كل ما يكون فيه نقص، كل ما يكون في نقص في الدنيا تجد المرأة فيها نقص في الدنيا، تأتيك المرأة في الآخرة على غير ذلك: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ [آل عمران: 15].

وفوق ذلك أكبر وأكبر، قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 15]، ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 15] أن يرضى الله عنك، أن يعطيك حتى ترضى ويرضى الله عنك، هذا أعظم من هذا النعيم كله أن يرضى الله عنك؛ هل يعني رجل عاقل وشخص عاقل تعطيه هذه المقارنة بين هذا وهذا ماذا يختار؟

- هل يختار الدنيا وزينتها بهذه الأمتعة التي تمر سريعًا، ولا يختار الآخرة؟

ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 15]، يعني عالم بأحوال العباد، من يستحق أن ينال هذا النعيم ومن لا يستحق؛ ولذلك ربط الله هذا النعيم بأي شيء؟

قال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [آل عمران: 15]، فهل أنت منهم؟ ولاحظ أن سيأتيك الآن من هم الذين اتقوا؟ من هم الذين وعدهم الله بهذا النعيم؟ وأنت اعرض نفسك على هذه الآيات؛ انظر قال: ﴿بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 15].

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾ [آل عمران: 16]، هؤلاء هم الذين وعدهم الله بالتقوى والفوز بهذا النعيم، وعدهم الله هذه صفاتهم.

- ما صفاتهم؟

قال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 16]؛ هذا أول وصف من صفاتهم.

- ما هو وصفهم؟

قال إنهم إذا أرادوا أن يدعوا ربهم يتوسلوا إلى الله بأي شيء؟ يتوسلوا إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى: يا ربنا يا خالقنا يا رازقنا، أنت الذي أوجدتنا وخلقتنا وأنعمت علينا بالنعم، هذا أول دعاء، انظر دعاء التوسل بأسماء الله الحسنى أعظم في القبول عند الله.

ولذلك قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ [آل عمران: 16]، ثم الدعاء التوسل بأعمالهم الصالحة، انظر كيف قدموا أعمالهم الصالحة، قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ [آل عمران: 16]، آمنا وأنت ربنا ونحن آمنا بك وبما أنزلت وبما أرسلت.

- ما هي النتيجة؟

انظر قال: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: 16]، إذا غفرت لك ذنوبك ومحيت عنك ذنوبك خلاص تجردت من الذنوب كلها، أصبح لا ذنب معك، أصبحت كأنك ولدت الآن ما عليك ذنوب، فأفضل أن تغفر لك ذنوبك: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: 16] في هذه الدنيا، وخلصنا من هذه الذنوب التي تلطخنا بها.

قالوا: ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 16]؛ لأنهم لما عرفوا هذا النعيم ما الذي يستطيع أن نقول يعني كيف يستطيعون الوصول إلى هذا النعيم؟ متى؟ إذا جاوزوا هذه النار ووقاهم الله عذاب النار، سلموا من النار وصلوا إلى جنات النعيم.

ولذلك أعظم دعوة منهم أن تغفر ذنوبهم أولًا ويمحصوا من الذنوب، والأمر الثاني أن يقيهم الله عذاب النار؛ انظر خذ عاد من الصفات التي، وأنا أقول يعني جميعًا نعرض أنفسنا على هذه الآيات، هل نحن معهم؟ هل نحن منهم؟ ولذلك يقول، انظر قال صفاتهم قال: ﴿الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 17].

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: 17]، الصابرين على أي شيء؟ الصابرين، الصبر انظر قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]؛ الصبر من الدين بمنزلة الرأس من الجسد، إذا قطع الرأس ما في جسد، فالصبر أعظم شيء.

ولذلك ورد أكثر من سبعين آية في الصبر؛ الصبر على أن تصبر على أقدار الله المؤلمة إذا قدر الله عليك تصبر على ذلك، وتصبر على طاعة الله لا تجاهد نفسك، تجاهد نفسك في التبكير للمسجد، تجاهدك في الطاعة، تجاهد نفسك في قيام الليل، تجاهد نفسك في الصيام، مسألة صبر، والصبر عن المعاصي أن تصرف نفسك عن هذه المعاصي التي تشغلك عن طاعة الله.

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: 17]، الصادقين مع الله، صدقوا مع الله أنهم يلتزموا طاعته، صدقوا مع الله ومع رسوله؛ ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ [آل عمران: 17].

- ما هو القنوت؟

قال **"القنوت هو لزوم الطاعة"**، القنوت لزوم الطاعة؛ انظر أعظم شيء أن تداوم على طاعة الله ولو كانت المداومة قليلة، المداومة أعظم شيء؛ تداوم على قيام الليل ولو ركعتين، تداوم على التبكير للمسجد؛ بعض الناس إذا أخذ فترة من الزمن وهو يبكر يمل بده يتراجع، داوم على ألا يسبقك أحد في المسجد.

حاول أن تدخل المسجد مبكرًا حاول؛ يعني القنوت الطاعة، المسارعة في الطاعة، واللزوم ومداومة الطاعة؛ قال بعدها: ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ [آل عمران: 17]، الذين يتصدقون، أرخص ما يجد في نفسه المال أن يدفعه، ما يبخل على نفسه، ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ [محمد: 38].

فمالك ما قدمت؛ لقي أحد السلف اسمه يعني ميمون بن مهران، أحد السلف لقي رجلًا معه درهم في يده أو دينار، قال: **"ما هذا؟"** قال: **"درهم"** قال: **"لمن؟"** قال: **"لي"** قال: **"لك؟ قال لك إذا تصدقت فيه"**؛ إذا تصدقت به هو لك، الآن معك ما هو لك سيأخذه غيرك، مالك ما قدمت.

قال هنا: ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ [آل عمران: 17]، انظر كلمة المنفقين معنى أنهم دائمًا على هذه الصفة لا ينقطعون عن النفقة، ومع هذا انظر كل هذه الأعمال الصالحة، الصبر والصدق، وقبل ذلك تقوى الله والصدق والقنوت والإنفاق في سبيل الله والإنفاق في طاعة الله؛ مع هذا كله يقول: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 17]، كثرة الاستغفار متى؟

وقت السحر؛ انظر حتى قال "الحسن"، الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ قال: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 17]، قال **"جلسوا يصلون الليل كله"** أو قال **"قاموا الليل كله حتى إذا جاء وقت السحر جلسوا للاستغفار"**، يصلون الليل كله حتى إذا جاء وقت السحر جلسوا للاستغفار، مستغفرين بالأسحار؛ ليش خص وقت الأسحار؟

- ما هو وقت السحر؟

وقت السحر قبيل الفجر، قبيل الفجر هذا وقت السحر يعني وقت استغفار؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ ينزل في الثلث الأخير من الليل ويقول: **«هَل مِن سَائِلٍ؟ وَهَل مِن مُستَغفِرٍ فَأَغفِرَ لَهُ؟»**؛ فهذا وقت الاستغفار، هذا وقت الاستغفار.

يقول الله بعدها قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]، هذا الذي وعدك هذا الوعد من هو؟ هذا الذي وعد بهذه الوعود وذكر هذه الصفات، ونحن نقول ونكرر: هل أنت من هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات؟ هذا أمر؛ ثم الذي وعدك هذا الوعد من هو؟

قال هو الله الذي شهد وأخبر عن نفسه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]، أي لا معبود بحق إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لا إله إلا الله تدخلك الجنة، مفتاح الجنة لا إله إلا الله تجعلك تحمي نفسك؛ ولذلك قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: 18]، والملائكة تشهد أيضًا على وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- من هم الثالث؟

قال: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 18]، انظر خص من الناس، قول العلماء الذين هم ورثة الأنبياء لعلمهم بحق الله وعظمة الله وتوحيده وعبادته، وهذا ولذلك خص العلماء؛ قالوا أولو ولم يستشهد سائر الناس كلهم، لأنما خص منهم العلماء: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: 18]، وهذا فيه دلالة على فضيلة أهل العلم لأن الله جعلهم، جعل شهادتهم بشهادته هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وشهادة ملائكته المقربين: ﴿وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قائم بالعدل في حكمه بين عباده.

قال: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]، كررها للتأكيد أنه لا معبود بحق إلا هو؛ ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، قال هذا هو الدين، توحيد الله وعبادته وتقوى الله، هذا هذه العروة الوثقى، هذا هو الدين؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19].

الدين عند الله هذا هو التوحيد الإسلام؛ وأما الكفار وأما أهل الكتاب ماذا قال الله عنهم؟ قال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: 19] من اليهود والنصارى ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [آل عمران: 19]، جاءهم الرسول ﷺ بالقرآن، لماذا اختلفوا؟

قال: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: 19]، حسدًا لأنهم حسدوا العرب وحسدوا الرسول ﷺ، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 54].

قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ﴾ [آل عمران: 19]، لأنهم إذا لم يؤمنوا من أهل الكتاب ولم يتبعوا ما جاء به محمد ﷺ قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19]؛ هؤلاء الذين كفروا بالتوحيد وكفروا بدين محمد، من يكفر به بآيات الله فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سريع الحساب، يعني أنه يحاسب عباده ويجزيهم في لحظة.

قال: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ [آل عمران: 20] هؤلاء وجادلوك أي أهل الكتاب، وخاصة النصارى لأن السورة هذه كما ذكرنا في آيات تجدها الآن كلها في النصارى لأن سورة البقرة ناقشت وجادلت اليهود وهذه السورة في النصارى.

ولذلك قال: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ [آل عمران: 20] في التوحيد والطاعة والإسلام، ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 20] أنا لله أسلمت وجهي، وانقدت لله واستسلمت لله؛ ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: 20]، كل من تبع محمدًا فهو سيسير عليه في الاستسلام لله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: 20].

أولًا اليهود والنصارى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ [آل عمران: 20] العرب الذين على الكفر، ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: 20] يعني ادخلوا في الإسلام، هذا هو الإسلام وهذا هو التوحيد الذي قال الله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: 18]؛ ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [آل عمران: 20]، اهتدوا إلى طاعة الله، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: 20]، عليك البلاغ يا محمد؛ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 20] ويجزيهم، كل يجزيه على عمله؛ فلعلنا نقف عند هذا القدر.

والآيات مثل ما ذكرنا ستخاطب الآن بعد ذلك النصارى الذين يعني ادعوا الألوهية في عيسى، قالوا عيسى هو الله أو قالوا هو ابن الله، ستناقشهم الآيات حتى تبين حقيقة هذه الدعوة دعوة التوحيد؛ نسأل الله أن يبارك لنا وأن يوفقنا وإياكم وأن يعيننا، وجزاكم الله خيرًا على حضوركم وإنصاتكم، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه.

(58)
(آل عمران 21-29)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ أيها الإخوة الكرام سلام الله سلام الله عليكم ورحمته وبركاته السلام.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، هذا اليوم يوافق التاسع من شهر رجب من عام ألف وأربعمائة وثلاثة وأربعين؛ نجتمع في هذا المقام وفي هذا المسجد المبارك على آيات من كتاب الله نقرؤها ونتدبرها ونتأمل ما فيها من أحكام وبيان ومواعظ وتوجيهات ربانية.

الآية التي بين أيدينا هي الآية الحادية والعشرون من سورة آل عمران، الذين يريدون أن يتابعوا معنا على المصحف سورة آل عمران الآية واحد وعشرين، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21].

هذه الآية قد تمر على كثير منا، لكن تحتاج حقيقةً أن نقف عندها؛ هذا أولاً، يعني لما تقرأ هذه الآية فيها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكشف لنا حقيقة هؤلاء اليهود وشدة مواقفهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولاً، ومع شرعه ومع أنبيائه ومع أوليائه.

يعني اليهود يعيثون في الأرض فساداً ولا يقبلون حتى من أنبيائهم، حتى من موسى ما يقبلون، آذوا موسى وآذوا الأنبياء وهم قتلة الأنبياء، ولذلك انظر يبين الله يكشف لك حقائق هؤلاء اليهود، ثم يبين لك أيضاً يعني مآل هؤلاء ونتيجة ما فعلوه، ما هي النتيجة وماذا يعني فعل الله بهم.

انظر يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 21]، ولما تقرأ مثل هذه الآية يقول لك يكفرون بآيات الله، ما قال كفروا وانتهوا، لا؛ ما يزالون على مر السنين في كل وقت يكفرون بآيات الله.

- ما المراد بآيات الله هنا؟

لازم نعرف معنى هذا الكلام، آيات الله هنا آيات الله الشرعية التي أنزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أنبيائه منذ موسى وما جاء بعده من الأنبياء، وهم كثير؛ بعث الله في اليهود أنبياء عدد أعداد هائلة.

ولذلك جاء في بعض الآثار عن النبي ﷺ: **«أَنَّ اليَهُودَ قَتَلُوا مِائَةً وَثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ نَبِيًّا»**.

ومن أشهر من قتلوا زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ ويحيى، وحاولوا قتل عيسى ابن مريم ولكن الله نجاه ورفعه إليه، وحاولوا قتل نبينا محمد ﷺ في المدينة أكثر من مرة.

يحاولون قتل الرسول ﷺ، ومن الوقائع التي حصلت في المدينة أن النبي ﷺ جاء إلى اليهود وقد عاهدهم على ألا يؤذوه ولا يتعرض لهم، فجاءهم يوماً يطلب منهم قيمة دية لشخص قتل خطأً، فقالوا: أبشر يا أبا القاسم نعطيك الآن.

فجلس الرسول ﷺ هو وأصحابه تحت الجدار، فدخلوا البيت فقال أحدهم: هذه فرصة نلقي عليه حجراً من أعلى السطح ونهلكه، فجاءه الوحي قبل أن فقام النبي ﷺ وأصحابه فجاؤوا إليه فقالوا: يا أبا القاسم نعطيك الدية؟ قال: **«لَا»**.

وعرف أنهم نقضوا العهد وقاتلهم وأخرجهم، فاليهود هم أعداء الله قبل أن يكونوا أعداء المسلمين.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ [آل عمران: 21]، ما قال نبي أو نبيين أو ثلاثة، النبيين أعداد هائلة، ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 21].

- قد يأتيك سائل يقول طيب هل يمكن أنهم يقتلون النبيين بحق؟

الجواب: ما في لا بحق ولا بغير حق، لكن الله يذكر أنه بغير حق لشناعة ما يفعلون.

مثل ما أن شخص يقتل شخص آخر لو قتله بحق كالقصاص مثلاً أو الردة أو نحو ذلك لقلنا هذا قتل بحق، لكن يأتي ويقتل شخص بغير حق؛ حتى لو كان طير ما تقتل الطير وأنت لست بحاجة إليه، ما تقتله إلا إذا كنت محتاج إلى الصيد ومحتاج إلى أكله، فكيف بالإنسان تقتله بغير حق؟

فشوف قال هنا بغير حق، في سورة البقرة مر معنا قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: 61]، وهنا قال: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 21]؛ في فرق، الحق وحق هذه عبارات لازم نقف عندها ونتأملها.

يقول بغير الحق المعروف عندهم والمعروف الشرائع، القتل الحق مثل قتل القصاص أو نحوه، وهنا قال بغير حق يعني لا بوجه ولا بغير وجه، كله لا ليس لهم وجه في ذلك.

قال زيادة على ذلك لم يقفوا عند قتل الأنبياء قال: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 21]، يأمرون بالخير، يأمرون بالمعروف، ينهون عن المنكر، يقتلونهم؛ لماذا؟

لأن هؤلاء هم ورثة الأنبياء. **"العلماء والدعاة والمصلحون هم ورثة الأنبياء"** فهم يقتلون الأنبياء ويقتلون كل من يتبع الأنبياء، انظر كيف شدة العداوة ما تقف عند حد معين، شدة عداوتهم لا يريدون الخير بأي وجه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]؛ هؤلاء الذين يصنعون هذه الأفاعيل السيئة الخبيثة قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21].

بشرهم ليست بشارة هذه، هذه ليست بشارة، البشارة بالخير هذا ليست بشارة، لكن الله يأتي بمثل هذه العبارات استهزاء وسخرية بهم، كأنها بشارة وهي ليست بشارة لهم.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21]، عذاب أليم في الدنيا والآخرة، وانظر من هذا الأول أول عقوبة لهم أن الله قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: 21].

العقبة الثانية قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: 22]؛ أي عمل عمله هؤلاء اليهود أو من يسلك طريقتهم في قتل الأنبياء -ما نقول فقط اليهود حتى من يسلك مسلكهم- حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، أي عمل عملوه يريدون بذلك الأجر حبطت أعمالهم.

- قد يأتيك شخص يقول لك كيف هم يريدون الأجر؟

الجواب: هم ما يريدون الأجر. نقول حتى لو عملوا أعمالاً صالحة مثل إكرام الضيف مثل العطف على المساكين مثل ما يسمونه الآن الإنسانية لبعضهم، كل هذه لا تنفعهم لا تنفعهم؛ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 22].

ينصر ينصرونهم يوم القيامة لا يجدون أحد يقف معهم ولا ينصرهم يوم القيامة، إذا تولتهم ملائكة العذاب وسحبتهم إلى نار جهنم، هؤلاء انظر بشرهم بعذاب أليم، وأن أعمالهم قد حبطت في الدنيا الآخرة، وما لهم من ناصرين يوم القيامة ينصرهم.

هذا موقف من مواقف اليهود موقف سيء وخبيث عنهم كيف يتعاملون مع الأنبياء ومع شرع الله. وخذ موقف آخر يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: 23]؛ هم اليهود والنصارى هم أهل الكتاب المراد به التوراة والإنجيل.

يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [آل عمران: 23]؛ يعني ألم هنا استفهام تعجب، ألا تتعجب من الذين أوتوا نصيباً من الكتاب؟ عندهم علم وعندهم كتاب لكن لم ينتفعوا به.

يقول: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 23]؛ شفت ترى كثير من الناس يقرؤون القرآن ولا يعرفون معانيه، وهذه حسرة وندامة أنك تجد ناس من المسلمين ومن أهل القرآن ويقرؤون القرآن ولا يعرفون معانيه، كثير من الناس.

انظر كم صلى معنا من صف وكم عددهم، لا يستطيع الواحد منهم أن يجلس عشر دقائق أو ربع ساعة أو عشرين دقيقة يستمع للخير وتحفه الملائكة تنزل عليه الرحمة، إلا من كان له عذر قد يكون بعضهم عنده أعذار، لكن يعني احبس نفسك على الخير.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول لنبيه: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: 28]؛ اجلس ما يضرك، الوقت يمضي عليك، كم راح من عمرك وكم بقي من عمرك ولا تدري، فانتهز الفرص؛ مثل هذه الفرص تحفك الملائكة تنزل عليك الرحمة تغشاك السكينة يذكرك الله في الملأ الأعلى.

انظر يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: 23]، هؤلاء عرفنا أنهم أهل الكتاب اليهود والنصارى.

قال: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 23]، ما هو كتاب الله هذا الذي يدعون إليه؟ قال إنهم دعوا إلى التوراة، هذه كيف نعرف أن الكتاب هنا هو التوراة؟ قال لأن هذه الآية لها سبب نزول.

- ما هو سبب النزول؟

قال: ﴿يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: 23]. هذه لها سبب نزول لها قصة، وذلك أن اليهود وقع منهم ما وقع في بعضهم أن رجلاً زنى بامرأة، وقع على امرأة، فقال بعضهم: نتحاكم إلى محمد لعل يخفف علينا لأن شريعة محمد أخف؛ الله رفع عنا الآصار والأغلال التي كانت عندهم.

فقالوا نذهب إلى محمد، فلما جاؤوا إلى الرسول ﷺ قال: **«مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ؟»** ما الذي تجدونه في التوراة عندكم؟

قالوا: نجد أنهم تسود وجوههم في الفحم ويحملون على حمار -أعزكم الله- منكسين ويدار بهم في الطرقات ويقولون هذا فعل كذا وكذا. قال: **«ائْتُونِي بِالتَّوْرَاةِ»**؛ يقول ﷺ جيبوا التوراة نشوف؛ **«ائْتُونِي بِالتَّوْرَاةِ»**. فأتوا بها قال: اقرؤوا علي؛ الرسول ما يعرف يقرأ أمي، قال: اقرؤوا علي. فقرأ بعضهم ثم وضع إصبعه على آية الزنا آية الجلد.

فقال بعضهم من أسلم مثل عبد الله بن سلام وغيره قال: ارفع يدك. فلما رفع يده قرأها فإذا فيها النفس اللي هي عندنا في حكم الزنا بأن يجلد مائة جلدة، وإن كان متزوجاً يرجم حتى الموت.

فجيء بهم لأنهم ترافعوا إلى الرسول ﷺ، فاحضرهم النبي ﷺ فرجمهم حتى ماتوا.

قال ابن عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: **«وَإِنِّي لَأَرَى الرَّجُلَ يُحَاوِلُ أَنْ يَحْمِيَ المَرْأَةَ عَنِ الحِجَارَةِ يَجْعَلُ الحِجَارَةَ تَضْرِبُ فِيهِ»**، فضربوا في الحجارة حتى ماتوا.

هذه القصة يعني تبين لنا هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [آل عمران: 23] إلى التوراة ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون، ما يقبلون ما يقبلون حكم الله.

- لماذا ما يقبلون؟

لا في هذه القصة وهذه القضية ولا في غيرها، قال ليش؟ قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 24].

يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، إن عذبنا الله بذنوبنا فإنه يعذبنا أيام معدودة ثم ندخل الجنة، حتى في آية أخرى قال: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: 111] بس، أما غيرهم ما يدخلون الجنة، يعني الجنة لهم.

وهنا يقول: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: 24]. في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، وهنا قال: ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: 24].

- كم الأيام التي هم في ذهنهم معدودة؟

قال بعضهم: **"هي سبعة أيام لأن الدنيا هم يظنون هذا الظن ظن يعني باطل غير صحيح"**. هم يظنون اليهود يظنون أن مدة الدنيا كلها إلى قيامة إلى يوم القيامة سبعة أيام، سبعة أيام في علم الله يعني سبعة آلاف سنة.

قالوا فقط سبعة أيام يعذبنا الله على مقدار الدنيا، أنت من يخبرك أن الدنيا من أعلمك أن الدنيا سبعة؟ الدنيا علم عند الله لا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله، وبعض اليهود يقولون ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: 24] أربعين يوم فقط.

- لماذا أربعين يوم؟

قالوا مدة عبادة العجل، نحن عبدنا العجل أربعين يوم، ميقات موسى لما ذهب إلى أربعين ليلة، أربعين ليلة عبدوا العجل فيها قالوا لن يعذبنا الله إلا مقدار عبادة العجل أياماً معدودات.

قال: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 24]، هذا الافتراء والكذب هو الذي غرهم في دينهم وخلاهم يتركون دينهم ويكذبون على الله.

قال الله متوعداً لهم حتى لأنهم يفترون على الله الكذب قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: 25]؛ كيف حالهم؟ ما الذي سيصيبهم يوم القيامة وما الذي يرى حالهم يوم القيامة إذا جمعهم الله ليوم لا ريب فيه؟

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 25]. ليس فقط اليهود، كل النفوس توفى أعمالها، ما من نفس إلا تعطى عملها، تعطى صحيفتها يقرؤها ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ [الإسراء: 14]، توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.

لا يظلمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا في مثقال ذرة، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40]. ويأتي من لدنه ما يظلم مثقال ولا مثقال ذرة، ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: 47].

إذا عرفت هذا، إذاً الأمر لمن؟ الأمر لله ليس لليهود ولا لأي شخص يحدد المواقيت ويحدد متى يعذب وكم مقداره، هذا علمه عند رب العالمين.

ولذلك انظر الآية التي بعدها التي تبين لك أن الذي انفرد بذلك كله هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يعلم وهو الذي يقدر وهو الذي يملك الملك وهو الذي يهب لمن يشاء وينزع ممن يشاء ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء، هذه كلها من أفعال الله الخاصة ليس لأي بشر يتصرف فيها.

ولذلك اقرأ الآية ماذا قال بعدها، قال: قل يا محمد واسمع أنت أيها المخاطب وقل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ [آل عمران: 26]، ادعُ اللهم؛ هذا أسلوب دعاء، أنت قلت ترفع يديك اللهم اغفر لي اللهم ارحمني، هذا أسلوب دعاء.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: 26]؛ مالك الملك هو الله، يملك وتحته الملوك كلهم، ملوك الدنيا كلهم تحت ملكه وهو مالك الملك كله.

قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ ما أحد يستطيع أن يأخذ الملك في الدنيا إلا إذا أراد الله، ما يمكن ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26].

انظر كلمة تنزع بقوة، يعني هو ما يريد أن يتخلى عن ملكه مهما كان لا يريد، لا فرعون ولا غير فرعون من ملوك الدنيا أن يتخلى عن ملكه، لكن الله ينزعه بشدة والنزع معناه أخذ الشيء بقوة، وتنزع الملك، انظر لما جاء في إعطاء الملك قال: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26]، لكن لما نأخذ الملك منك ﴿تَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26].

﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ من تشاء، والله يعز من يعز أهل الطاعة، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، تعز من تشاء بطاعتك.

فالذي الذي يعني عرف طاعة الله وعرف الطريق إلى الله هذا الذي هو العزيز، والذي أعزه الله وأكرمه بالطاعة ووفقه للطاعة. ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: 26] من أهل المعاصي والكفر ولو أعطوا الدنيا كلها يعيشون ذلين يعيشون ذليل لأن الله أذلهم.

أذل مهما أعطوا من القصور والمراكب وكل الدنيا جاءتهم بحذافيرها، يعيش في ذلة لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين قال: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: 26]، انظر ما قال بيدك الشر، **"الشر ليس إلى الله"**، الخير بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطي من يشاء ويهب لمن يشاء، هذه من خصائص الله ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26].

بما يعني تؤتي ملك تنزع الملك تعز تذل، هذه خصائص الله؛ لأنه على كل شيء قدير. وخذ خذ من أفعال الله الخاصة التي لا يملكها أي مخلوق قال: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [آل عمران: 27].

- كيف تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل؟

تدخل الليل في النهار والنهار في الليل.

- هل يمكن أن تجد بينهما مفاصل؟

ما في فاصلة، أنت في النهار والشمس ساطعة ونهار في وضحه ثم بعد ساعات تجد الليل جاء في مكانه واسودت الدنيا ولا ترى ولا يدك في بعض الأيام إذا لم يوجد فيها قمر.

- من الذي حل أدخل هذا مكان هذا؟

ولما يقول تولج يعني تدخل، هذا إيش يدل عليه؟ يدل على أن الليل يأتي شيئاً فشيئاً، ما يأتي هكذا فجأة ينحى النهار ثم يأتي الليل، لا؛ يندرج تدريجي.

ثم في مسألة أخرى مهمة وهو زيادة الليل ونقص النهار أو نقص النهار وزيادة الليل، من يملك هذا؟ إذا كان يؤذن الآن الساعة ستة إلا دقيقتين وبعد شهر يؤذن سبع أو سبع إلا ربع أو ستة ونص، من الذي رفعه؟ والله.

ما أحد يملك يستطيع أن يؤقت هذا الشيء، الفجر يؤذن الساعة خمس وربع بعد شهرين يؤذن الساعة ثلاث وثلاثين أربع، من الذي حدد هذا الشيء؟ ومن الذي يجعله يتحرك بهذه الحركة الدقيقة كل يوم دقيقة أو أقل؟ إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وخذ أيضاً من خصائصه قال: ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [آل عمران: 27]؛ كيف يخرج الحي من الميت؟ قال نعم، الميت النطفة ميتة يحييها الله يجعل فيها حياة، البيضة ميتة يخلق الله فيها فرخاً يتحرك.

من الذي خلق في هذا البيت بيضة جماد جامدة ما تتحرك فيخرج منها حتى يخرج هذا الفرخ من هذه البيضة؟ والذي أخرجه ويخرج بتوقيت معين لا يتقدم ولا يتأخر إذا أراد الله خروجه خرج. قال ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [آل عمران: 27]، ويخرج أحياناً حتى انظر الحياة واسعة معناها يخرج المؤمن من الكافر، تجد هذا كافر يخرج الله من ظهره رجل مؤمن، والعكس ﴿تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: 27].

هذا الإنسان حي تخرج منه نطفة ميتة، نطفة ميتة، تخرج الميت من الحي، ومثل ما ذكرنا قد يخرج الله من صلب هذا الرجل الصالح ولد كافر فهذا ضالاً ملحداً.

قال: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 27]؛ ترزق من تشاء، ماذا يقصد بالرزق هنا؟ طعام والشراب؟ لا؛ كل شيء، حتى الطاعة رزق من الله، يهبك الله طاعة توفيق من الله هذا رزق. إذا وفق العبد للعمل الصالح هذا توفيق من الله رزق من الله، ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 27].

إذا عرفت هذه الأشياء العظيمة وأن الله هو الذي اختص بها ولا يملكها أحد، هل يجوز للمسلم أن يتولى غير الله؟ أن يجعل ولاية لغير الله؟ نعوذ بالله.

الذي له الولاية المطلقة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196]. وحتى الكفار قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ﴾ [يونس: 30]، مولاهم؛ إذاً الولاية لله.

وليس للإنسان أن يتولى مخلوقاً ضعيفاً وخاصة إذا كان كافراً، كيف تتولى كافر ويتولاك كافر تحت حكم كافر؟ اسمع الآيات.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 28]؛ لا تجعل لا تجعل أيها المؤمن الكافر ولياً من دون المؤمنين، تفضي إليه أسرار المؤمنين وتجعله هو الذي يحكمك يتصرف فيك، هذا لا يجوز.

اجعل ولايتك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: 28]، يقول خلاص خرج عندي الإسلام.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول في آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51].

وقال في آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1]. وهنا يقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: 28]؛ قد خرج عن ولاية الله إلا في حالة واحدة حتى نفهم، ﴿إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: 28]؛ يعني تخاف منهم.

يؤذونك فأنت تظهر أمامهم هذا الشيء، يعني حتى تحفظ نفسك وتحفظ دمك وتحفظ مالك وتحفظ دم المسلمين، تجامل معهم مجاملة يعني حتى لا يعني تظهر أمامهم العداوة فيبطش بك، فأنت تداريهم خشية منهم خشية منهم، فهذا ﴿أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: 28] لا يمنع من ذلك لضعفك أمامهم.

قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: 28] أن تتولوا الكفار وتخرجوا عن ولاية الله، يحذركم الله نفسه بالعقوبة التي تنزل عليكم، ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28].

قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا﴾ [آل عمران: 29]؛ يعني بعض الناس قد يخفي عن الله، تخفي عن الله تخفي عن الناس المخلوقين، قال: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ﴾ [آل عمران: 29]؛ ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 29]. سواء أنت أخفيت في نفسك أو أظهرته، عند الله سواء، عند البشر ممكن تخفي ما يدري عنك أحد لكن في حق الله لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، وإن كان مثقال حبة ما تغيب عليه، يقول ﴿أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 29].

ويعلم ما في السماوات السبع كلها، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 29]. يعلم كل شيء ولا يعجزه شيء، قادر على ألا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

نقف عند هذا القدر في هذه الآيات العظيمة التي حقيقة قرأناها وتأملناها وتدبرناها، الآية الحادية والعشرون إلى تسع وعشرين، تسع آيات تأملناها فيها بركة عظيمة، نسأل الله أن ينفعنا بها وأن يبارك لنا ويجعلها في موازين حسناتنا، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه.

(59)
(آل عمران 30-32)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمة وبركاته بركاته.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم الذي يوافق الخامس الذي يوافق السادس من شهر شعبان من عام 1443، نجتمع في هذا المقام المبارك وفي هذا المسجد المبارك وبين بين أيدينا آيات من كتاب الله، وهذه الآيات من سورة آل عمران وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: 30].

لو تريد أن تفهم تدبر هذه الآية وتستوعب معانيها وهذا ذكره يعني كثير من أهل العلم **"أنك إذا أردت أن تفهم الآية اقرأ ما قبلها واقرأ ما بعدها يتضح لك المعنى وينكشف لك المعنى أكثر بكثير جدًا"**؛ اقرأ الآية التي قبلها قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 29].

تخفي ما في صدرك أو تظهره يعلمه الله، وخذ أيضًا من سعة علم الله قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 29]، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 29] لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فإذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ موصوفًا بسعة العلم وسع وعظمة القدرة فإنه قادر على أن يجمع الناس ويجازيهم بأعمالهم، قادر على أن يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ويحاسبهم وهو سريع الحساب.

قال ابن عباس لما سئل ابن عبا عباس كيف يحاسبهم في سرعة: **"كما رزقهم في لحظة يحاسبهم في لحظة"**.

انظر الآن يأتيك الحساب، هذا الحساب سيقف عند كل إنسان يقول ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [آل عمران: 30] كل نفس، والمراد بالنفس هنا الآن هي كل نفس كافر أو مؤمن، بدأ بالمؤمن لماذا بشارةً للمؤمنين وحثًا على الطاعة؟

قال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: 30] عملت من خير، أما الشر نبدأ بالخير الذي ينفع الإنسان يوم القيامة، ﴿مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [آل عمران: 30]؛ انظر كلمة خير هنا يقول أهل اللغة **"هذه خير نكرة وفي سياق النفي فهي تفيد العموم"**.

يدخل فيها الصغير والكبير، أي خير ولو ابتسامة ولو أي شيء يستحقره الإنسان من الخير يجده، مثل ما قال الله سبحانه قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7].

﴿مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: 30] أمامها يحضره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمامه، يجد خيره أمامه يجد أعماله الصالحة أمامه، وهذا لماذا قال محضرًا؟

لماذا قال محضرًا؟ ما السبب؟

قال: "هذه بشارةٌ أنت يسرك الشيء الطيب أن يكون أمامك تفرح **تسعد"**، ولذلك المؤمن الصالح إذا أع كتابه بيمينه يقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 19] ما يقول أنا أقرأه يقول أنتم اقرأوا من شدة الفرح.

فما عملت من خير محضرًا، هذا الجانب الأول أهل السعادة أهل السعادة أهل الخير والصلاح، خذ الجانب الآخر قال: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: 30] أي سوء صغير أو كبير، ما قال محضرًا لأن ها ما تريد لأن العمل السيء يأتي صاحبه في القبر فيقول صاحب القبر: **«مَنْ أَنْتَ مَنْ أَنْتَ؟ وَجْهُكَ الْخَبِيثُ وَرَائِحَتُكَ الْمُنْتِنَةُ، مَنْ أَنْتَ؟»**

فيقول: **«أَنَا عَمَلُكَ السَّيِّئُ»**، فيأتيه في قبره ويأتيه يوم القيامة بهذا الشكل، يقول: ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ﴾ [آل عمران: 30] أي بين العمل السيء ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30]؛ مثل ما قال في آية: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزخرف: 38] ما يريد أن ينظر في عمله السيء، ما يريد أن يراه لأنه يعرف ماذا سيأتيه في هذا اليوم، ﴿أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30].

- ماذا نستفيد لما نسمع مثل هذا الكلام؟

أهل الصلاح والسعادة تؤتى أعمالهم وحسناتهم أمامهم محضرةً بشارةً لهم تتلقاهم الملائكة، وأهل الشقاوة على العكس.

- ماذا نستفيد؟

قال اسمع ماذا نستفيد قال انظر عشان تعرف أن الآيات بعضها يبين بعض قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: 30] يعني يحذركم الله هذا اليوم، والله ماذا؟ ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 30]، من رأفته ورحمته أن ذكرك بهذا الشيء قال كن من أهل الخير والصلاح ولا تكن من أهل الأشقياء؛ فإخبار الله بهذه الآية فيه مصلحةٌ وفيه رحمةٌ من الله علينا، لو لم يخبرنا ما درينا ولا علمنا ما الذي س سنقابله يوم القيامة، هل ستأتينا الأعمال الصالحة محضرةً أمامنا ولا ماذا سيكون؟

ثم لما ذكر الله قبل هذه الآيات قال: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ [آل عمران: 28] لا تتخذ المؤمن لا يتخذ الكافر وليًا، طيب ماذا أتخذ وليًا؟ فسمع ماذا يقول قال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: 31] هذه يسميها العلماء **"آية الامتحان"**؛ كل يدعي أنه يحب الله وكل يدعي أنه يقول أنا أحب الله وأنا أحب الرسول، لكن ما علامة محبة الله وما علامة محبة الرسول ﷺ؟

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: 31] إذا كنت تحب الله عَزَّ وَجَلَّ حقيقةً فاتبع سنة النبي ﷺ، اتبعها وأطعه ولا تعصيه، تجد بعض الناس يدعي أنه يحب الله ويحب الرسول وهو يخالف أوامر الرسول، فهذه دعوى باطلةٌ لا تقبل منه، فاتبعوني.

- وإذا اتبعنا الرسول ماذا يحدث لنا؟

قال إذا اتبعت ما أنت تحب الله الذي يحبك وهذا أكبر هذه أعظم قال: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] فالحقيقة هي محبة الله لك لا أنت تحب الله، كل دعي أنه يحب الله حتى الكفار، لكن الحقيقة إذا أحبك الله هنا يبدأ ووضع لك القبول عند الناس وأحبك الناس، هذه محبة الله علامة قبول العمل لك، ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] وزيادة على ذلك: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31] لماذا قال؟ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

يحببكم الله وتكون تكونون في ولاية الله وفي حفظه ويغفر لكم ذنوبكم وما سلف منكم من تقصير لأن الله غفور رحيم، ثم بين لك اتبعوني وش ما معنى اتبعوني؟

- اتبعوني يحببكم الله ما معنى اتبعوني؟

قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: 32] هذه هذا الاتباع، الاتباع أن تطيع الله فيما أمرك وتطيع الرسول، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [آل عمران: 32] مجرد دعوى يقول أنا أحب الرسول ومجرد دعوى ولا جيت له إذا جيت عنده قلت أطع الله ورسول وتولى وأعرض ولم يمتثل، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 32] انظر سماهم كافرين قال لا يحبهم ويبغضهم الله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما يحب أولياءه.

لا نطيل، هذه قبسات وتأملات في هذه الآيات البينات الواضحات الدالات على هذا الخير العظيم، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا وأن يوفقنا لطاعته والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(60)
(آل عمران 33-37)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين. لا إله إلا الله، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، آمين.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الأربعاء الموافق للثالث عشر من شهر شعبان من عام ٤٣ و٤٠٠ و١٠٠٠ من الهجرة، نجتمع في هذا المقام المبارك وبين أيدينا كتاب الله جل جلاله، هذا الكتاب العظيم عظيم القدر وعظيم النفع.

والآيات التي بين أيدينا من سورة آل عمران، وهي الآية الثالثة والثلاثون من سورة آل عمران، الذين يتابعون معنا المصحف هي الآية ٣٣ من سورة آل عمران، قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 33].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصطفي من الملائكة ويصطفي من الناس ما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يصطفي إلا بعلم وبقدرة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عن علم وحكمة وقدرة. والاصطفاء هو الاجتباء والاختيار، يختار، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: 68].

اصطفى من؟ قال: اصطفى آدم؛ كيف اصطفاه؟

اصطفاه أنه خلقه بيده، وأنه جعله نبيًّا رسولًا، وأنه أسجد ملائكته كلهم أجمعين له، وأنه علمه الأسماء كلها، فهذا اصطفاء الله سبحانه لآدم، قال: اصطفى آدم ونوحًا؛ اصطفاه بالرسالة، نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أول رسول، أول رسول للبشر نوح، ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163]، فهو أول رسول إلى البشر بعد آدم.

الناس كانوا على التوحيد وعلى العقيدة السليمة وعلى عبادة الله، ولم يظهر الشرك إلا في قوم نوح لما عظموا الصالحين فظهر فيهم الشرك، فبعث الله إليهم نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

اصطفاه نوح بأخلاقه وبعلمه وبرسالته وبنبوته، وجعله هو أبًا، جعله هو أبا البشر، أبو البشر الثاني هو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الله جعل ذريته هم الباقين، وأما ما قبله كلهم هلكوا بالطوفان، فهو يعتبر الأب الثاني بعد آدم للبشرية.

قال: وآل إبراهيم؛ انظر لما جاء إبراهيم ما قال إبراهيم، قال: آل إبراهيم، لأن إبراهيم هو أبو الأنبياء وذريته أنبياء، أبناؤه أنبياء، إسحاق نبي، وإسماعيل نبي.

إسماعيل هو أبو العرب، وإسحاق أبو العجم، وإسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنه يعقوب نبي، ويعقوب ابنه يوسف نبي، وجعل في ذريته الأنبياء موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى، وكل هؤلاء يرجعون إلى إبراهيم.

والله اصطفاه، ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: 130]، فاختاره الله سبحانه واصطفاه بأن جعله خليلًا.

الاصطفاء كثير، لكن لاحظ أنه قال آل إبراهيم.

- ما معنى آل؟

قال: آل أصلها أهل، لما تقول آل فلان يعني أهل فلان، وهم ذو الأقارب والأشراف والذين ينتمون إليه، ولو كانوا على غير حق، تقول: آل فرعون، لو كانوا على غير حق، الأشراف والمقربين إليه يقال آل.

- قال: وآل عمران؛ عمران هذا من هو؟

آدم عرفناه أنه نبي رسول، ونوح نبي رسول، وإبراهيم نبي ورسول، لكن عمران لا نبي ولا رسول، ويأتي في صفوف هؤلاء المصطفين، عجيب! ليش هذا الشيء الذي وصل إليه هذا الرجل؟

لا نبي ولا رسول ولا أي شيء، ولم يوحَ إليه بشيء، لكن العمل الصالح والصدق، الصدق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والعمل الصالح وارتباط العبد بربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرفعه إلى أعلى عليين، يجعله مع هؤلاء وإن لم يكن نبيًّا.

ولذلك جعل في ذريته عيسى بن مريم في ذرية عمران، وسمى سورة كاملة في القرآن تتلى إلى يوم القيامة باسم هذا الرجل، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لا نبي ولا رسول ولكن فضل الله واسع، وفي هذا ينبغي للإنسان أن يقف عند هذه الكلمة ويتأمل أنك إن تسأل الله من فضله لا تقف، لا تقول أنا كذا وكذا، لا، اسأل الله من فضله، فضل الله واسع يعطي من يشاء بغير حساب ويرزق من يشاء.

قال: وآل عمران اصطفاهم على من؟ قال: على العالمين؛ العالمين جميعًا؟ لا، خطأ أن تقول على العالمين من أول آدم إلى آخر الخلق، لا؛ لأن محمدًا ﷺ خير من هؤلاء كلهم، محمد فوق هؤلاء كلهم.

إذًا على العالمين: عالم زمانهم فقط، على عالم وقتهم، ليسوا على الإطلاق، وإلا محمد خير من هؤلاء كلهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 34]، يعني كلهم يرجعون إلى آدم، ذرية متسلسلة، نوح من أين أتى؟

من آدم، وإبراهيم من ذرية نوح، وعمران من ذرية إبراهيم، وهكذا ذرية. **"ومعنى ذرية من الذر أي بثهم في الأرض، ذراهم في الأرض، نشرهم، فهم ذرية بعضها من بعض"**.

كل واحد يأتي عقب الآخر جعلهم خلائف، ذرية بعضها من بعض في أي شيء؟ من أي وجه؟ أنهم يتناسلون في القرابة والصلة، نعم، وأمر آخر أكبر من هذا، الرابط بينهم الإيمان والصلاح، العمل الصالح، ذرية بعضها من بعض لأن الله اصطفاهم بالإيمان والطاعة.

قال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 34]، سميع لمن يقرأ هذه الآيات ويتحدث عنها، يسمع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحديث عن هؤلاء، وعليم بحال هؤلاء وحال من يتحدث عنهم.

ثم تأتيك الآية في هذا الرجل الأخير وهو عمران، هذا عمران له شأن عظيم، وزوجته لها شأن عظيم، وبنت عمران وهي مريم لها شأن عظيم، وابنها عيسى، هؤلاء السورة سميت آل عمران لهؤلاء، والحديث بأصله كله يدور على عيسى.

السورة كلها تدور على عيسى وتناقش أهل الكتاب وخاصة النصارى في حقيقة عيسى، ما هم يجعلون عيسى إلهًا، وهو ربنا، وبعضهم يجعل عيسى ابن الله، وهم رفعوه وغلوا فيه، فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يظهر لهم حقيقة عيسى.

- ما شبهتهم؟

قالوا عيسى ما له أب، كيف جاء بدون أب؟ والله قال، يعني تعجبون من عيسى بدون أب؟ آدم لا أب ولا أم، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، إذا أردتم أن تتعجبوا وتتفكروا في عيسى ما له أب، تفكروا في آدم، آدم وحواء لا أب ولا أم، فكيف تتعجبون من هذا؟

فالهدف من هذا كله هو الوصول إلى عيسى وحقيقة عيسى، لكن الآيات تتدرج معنا: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35].

ذكر بعض المفسرين: **"أن عمران لا يولد لها، وامرأة عمران عاقر لا يولد لها، وفي يوم من الأيام رأت طيرًا يطعم صغيره فاشتاقت إلى الولد، فاشتاقت نفسها إلى الولد فدعت ربها فاستجاب الله لها"**.

فحملت، فلما رأت الحمل في بطنها دعت الله، انظر التعلق بالله وبالدعاء لا ينقطع، تأتيك دعواتها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: 35]، تقول بطني فيه حمل والآن هذا الحمل أنا أنذره لك، يعني أجعله لك لا أتدخل فيه، هو خالص لله محرر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

"محررًا أي أنه لله ويخدم فيما يكون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي تقصد المسجد الأقصى أن يكون خادمًا في المسجد الأقصى ولا يخدم غير هذا المسجد".

حتى هي لا يخدمها هي، لا تريده، تريده لله، قدمته لله، فلذلك قال: ﴿مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ [آل عمران: 35]؛ يا رب انظر كيف الدعاء، تدعو ربها تقول: يا رب تقبل مني هذا الشيء الذي قدمته لك، اقبله مني، ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35].

انظر كيف تتوسل بالله بأسمائه الحسنى وصفاته، يا سميع يا عليم اقبل مني، كيف يرده الله وهي تتوسل بهذا الشيء وتنكسر بين يدي الله وتجعل أعز ما تملك وتتمناه في حياتها أن ترزق به تقدمه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

فلما وضعتها، انظر وضعتها جاء ضمير مؤنث، إذًا هي أنثى، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36]، أنا أريدها محررة للمسجد الأقصى تخدم، والأنثى ما تصلح، ما تصلح تخدم في المسجد تختلط بالرجال وتتكشف ويعتريها ما يعتريها من الحيض، لا يناسب المسجد، وأيضًا يخاف عليها ما تناسب هذا المكان.

ولذلك قالت: ﴿وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36]. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: 36]، انظر تقول تخبر الله، طيب هل هي تخبر الله عَزَّ وَجَلَّ والله يعلم؟ هي الآن مثل ما يقال تعتذر أمام الله تقول أنا نذرت لك يا رب محررًا وأصبح أنثى، ماذا أصنع فيه؟

قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ هو الذي جعله أنثى، هو الذي يصوركم في الأرحام، هو الذي جعله، والله أعلم بما وضعت.

وفي قراءة قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ﴾ أنا، تقول هي: الله أعلم، تقرر بما وضعت. ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36]، الذكر له مجال والأنثى لها مجال، فأن آتي بالأنثى وأضعها في مجال الرجل هذا لا يصلح أبدًا في جميع الحياة.

تأتي بالمرأة وتعطيها وظيفة الرجل وأعمال الرجل هذا لا يتناسب، كل له تناسب، الله اختص المرأة بشيء واختص الرجل بشيء، فتأتي بهذه البنت وتضعها في المسجد تعمل وتخدم، لا تتناسب مع الرجال أبدًا، المساجد أقيمت للرجال، فلذلك تقول: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 36]، كلمة مريم هذه عندهم ما معناها؟

"العابدة"، العابدة، تفاءلت بالاسم، وهذا ينبغي للإنسان عندما يختار الأسماء لأبنائه وبناته أن يختار الاسم الطيب الذي فيه تفاؤل، كلمة طيبة.

قال: ﴿سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾، وفي هذا دلالة على أنه يجوز للأم أن تسمي، ويجوز أن يسمي الرجل أو الأب أو الأم، ويسمي في وقت الوضع في اليوم الذي ولدت فيه، كل هذا جائز.

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 36]، **"أعيذها يعني تقول أجيرها بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أجيرها حتى لا يتسلط عليها الشيطان، أطلب من الله العوذ واللجوء إلى الله بأن يحفظها من أن يتسلط الشيطان عليها"**.

ولذلك جاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: **«كُلُّ مَوْلُودٍ يَنْخَسُهُ الشَّيْطَانُ فَيَصْرُخُ إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا»**. حماه الله لأنها قالت: ﴿أُعِيذُهَا﴾ هي وذريتها، فحماه الله، حمى مريم وحمى ابنها عيسى، وإلا كل مولود الآن يولد ينخسه الشيطان فيصرخ.

قال الله بعد ذلك: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: 37]، سمع دعاءها وعرف حقيقة الدعاء واللجوء إلى الله والانكسار بين يديه فاستجاب لها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتقبلها ربها، ولم يتقبلها هكذا فقط، لا، تقبلها بقبول حسن طيب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وتولى أمرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي تولى أمرها، ولذلك قال: ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، جعلها تنشأ نشأة صالحة حسنة منذ نعومة أظفارها منذ صغرها، نشأة طيبة حسنة. ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

- كيف كفلها زكريا؟

لما ولدتها جاءت أمها بها إلى من كانوا يقومون من العلماء والربانيين في المسجد الأقصى وقالت: هذه محررة للمسجد وأنا حررتها لا أريدها، وعلى نذري فتكفلوا أيكم يكفلها.

فتنازعوا بينهم أيهم يكفل مريم، ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44]، فتنازعوا بينهم فقال زكريا: عندي هذه خالتها زوجتي، لأنها زوجه زكريا خالتها، فقالوا: لا إلا أن نستهم، فألقوا أقلامهم فوفق الله زكريا.

كما قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، اختار الله زكريا لقربها ولأنه نبي، رجل صالح ونبي ورسول، وكيف يعني تتصور أن البنت هذه الصغيرة يربيها شخص يعني على أعظم الأخلاق؟ واختاره الله وجعله نبيًّا رسولًا سيكون لها شأن أعظم، ولذلك هذا من توفيق الله بدعوة أمها.

قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، وبعد ذلك بدأ زكريا هو الذي يقوم بشأنها ويتابعها واختار لها المكان المناسب في المسجد وهو ما يسمى بـ**"المحراب"**. المحراب هو مكان مرتفع مثل الغرفة تكون في المسجد، إما في مقدمته أو في مؤخرته، المحراب يصعد إليه بسلم لا يدخله أحد.

فأخذها وبدأ يتابعها حتى كبرت، لما كبرت بدأت تتعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذا المحراب، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: 37]. تعجب زكريا، يأتي يجد عندها فاكهة، من أين لك هذه؟ أنا الذي أحرسك ولا أحد يستطيع أن يصعد إليك إلا أنا، من أين جاك هذا؟

ما أحد يستطيع أن يصل إلى هذا المكان إلا أنا، من أين؟ فإجابته بإجابة واضحة قالت: انظر وهو أدب هذا من عند الله، ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 37]، يعني أتاني من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أتى به جبريل أو غيره ووضع عندها، هو من عند الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37]، انظر كيف الأدب والخلق مع الله، حتى مع الله ما تقول هذا رزق من الله وخلاص، هذه نعمة من الله، لا، قالت: لا هو من عند الله،

إن الله يرزق، انظر كيف تعليل وبيان؛ لأن هذا رزق من الله والله يرزق من يشاء ليس رزقي فقط لي أنا، يرزق من يشاء بلا حساب بغير حساب.

فهذه كرامة، يسميها أهل العلم **"كرامة"**، كرامة الأولياء، مريم ولية من أولياء الله وصالحة من الصالحات وصديقة من الصديقات، وليست نبية، ولا رسوله، وإنما هي بسبب دعاء أمها وسبب اختيار الله لها قبل ذلك واصطفاؤه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصلاحها وإنبات الله لها النبات الحسن أوصلها إلى هذا الأمر.

هنالك دعا زكريا، نقف عند هذا القدر حتى نرى ماذا قال زكريا لما رأى هذه العجائب عند مريم وهذه الأخلاق وهذا الرزق، جعله يدعو مع أنه رجل كبير طعن في السن وامرأته عاقر، قد بلغ كبرًا من عتيه وامرأتي عاقر، ومع ذلك لم ييأس، دعا ربه فرزق بنبي ورسول، فلا نيأس من الدعاء.

نقف عند هذا القدر، وللحديث بقية، والله أعلم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(61)
(آل عمران 38-44)
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرفِ الأنبياءِ والمرسلين؛ نبينا محمدٍ، وعلى آلهِ وصحبهِ ومن اهتدى بهداهُ إلى يومِ الدينِ، أيها الإخوةُ الكرام، حياكم الله في هذهِ، في هذهِ الأمسيةِ، وفي هذا اللقاءِ المباركِ، ونحن نجتمعُ على كتابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأذكرُ نفسي وأذكركم بقولِ المصطفى ﷺ أنهُ قالَ لأصحابهِ: **«إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا»**، قالوا: وما رياضُ الجنةِ؟ قالَ: **«حِلَقُ الذِّكْرِ»**. مثل هذا المجلسِ المباركِ نتناولُ فيه شيئًا من القرآنِ الكريمِ نتدبرهُ ونتأملهُ، ينفعُ به القاصي والداني.

الآياتُ التي بين أيدينا هي الآية الثامنة والثلاثين من سورةِ آل عمران، في قصةِ، قصةِ مريم، وقصةِ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن زكريا ذكرَ اللهُ أنهُ هو الذي كفلَ مريمَ بتوجيهٍ من اللهِ وتدبيرٍ من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حيث اختارَ لمريمَ أن يكفلها نبيٌ من أنبياءِ اللهِ تتربى على يديهِ.

يقولُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: 38]. هنالك؛ هذا اسمُ إشارةٍ، تقولُ: هنا للقريبِ، وهنالك للبعيدِ؛ لأن اللامَ للبعدِ، مثل هذا وذلك، ذلك الكتاب وهذا الكتاب.

هنالك، يقولُ؛ يعني لما رأى زكريا ما رأى من الآياتِ العجيبةِ في مريمَ، كلما دخلَ زكريا عليها المحرابَ وجدَ عندها رزقًا؛ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37].

هذا الشيءُ لفتَ زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وزكريا قد طعنَ في السنِ وكبرَ، وبلغَ من الكبرِ عتيًا، وامرأتهُ عاقرٌ، ولما رأى هذهِ الآياتِ العجيبةِ في مريمَ لم يمنعهُ ذلك أن يدعو مع هذا العجزِ في كبرِ سنهِ وامرأتهُ عاقرٌ، ولم ييأس من فضلِ، سألَ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قالَ: هنالك؛ لما رأى هذهِ الآياتِ العجيبةِ دعا زكريا ربهُ.

- دعا بأي شيءٍ ولأي شيءٍ دعاهُ؟

قالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: 38]. في هذا الأسلوبِ وهذا الدعاءِ نستفيدُ ونحن مقبلون على رمضانَ، ورمضانُ هو شهرُ الدعاءِ، شهرُ استجابةٍ، يدعو الإنسانُ عند فطرهِ، يدعو في أوقاتِ الإجابةِ؛ فحريٌ بالإنسانِ أن يتعلمَ آدابَ الدعاءِ، وآدابُ الدعاءِ نأخذها من سيرِ الصالحين وسيرِ الأنبياءِ.

- انظر كيف يدعو زكريا؟

يتوسلُ باسمِ الربِ، يقولُ: ربي؛ أنت ربي وأنت خالقي، وأنت الذي أوجد، وأوجدتني ورزقتني، يا ربِ هب لي من لدنك ذريةً طيبةً.

وشوف كلمة هب لي؛ الهبةُ من اللهِ والرزقُ من اللهِ، الهبةُ من اللهِ فيسألُ اللهَ أن يهبهُ؛ لأن الإنسانَ ما يستطيعُ أن يأتي بالولدِ بالنفسِ إلا برزقٍ من اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلذلك قالَ: هب لي من لدنك؛ من عندك سبحانك يا رب العالمين، ذريةً، ولم يقل ذريةً؛ لأن قد تكونُ ذريةً شقيةً وتكونُ وبالًا على الشخصِ.

فلما قالَ: ذريةً طيبةً؛ دل على أنهُ يسألُ الذريةَ الصالحةَ، لا تسأل الذريةَ وفقط؛ اللهم ارزقني ولدًا، اللهم ارزقني ذريةً؛ لا، قيد حتى ترزقَ بهذا، بهذهِ الصفاتِ الطيبةِ: ذريةً طيبةً.

- ثم لاحظ بعدها ماذا قالَ؟

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾، إنك سبحانك سميعُ الدعاءِ، تسمعُ الدعاءَ، وهذا من الأدبِ، من الأدبِ أن تتوسلَ إلى اللهِ بأسمائهِ الحسنى وصفاتهِ العلى، هذا من حسنِ الأدبِ.

وأنت والله لو تتبعنا وقرأنا القرآنَ من أولهِ إلى آخرهِ، وتتبعنا كيفيةَ دعاءِ الأنبياءِ الصالحين، من أولِ القرآنِ حتى آدمُ كيف دعاهُ وحواءُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23].

انظر كيفيةَ دعائهم، وأدعيةٌ كثيرةٌ؛ دعاءُ موسى، ودعاءُ نوحٍ، ودعاءُ هودٍ، وأكثرُ أدعيةِ الأنبياءِ ينبغي لنا أن نتأدبَ بأدعيتهم، وأن نلتمسَ من صيغِ الدعاءِ الَّتي هم استجابَ اللهُ لهم. أنت اقرأ في سورةِ الأنبياءِ كم نبيٌ ذكرَ اللهُ في سورةِ الأنبياءِ؟

ذكرَ ستةَ عشرَ نبيًا، كلهم يدعون اللهَ ويقولُ اللهُ بعدها فاستجابَ كلها، فيدلُ على حسنِ الأدبِ مع اللهِ في الدعاءِ وعدمِ التعدي في الدعاءِ.

ولذلك قالَ، ناظر، لاحظ لما دعا بهذا الدعاءِ جاءت الإجابةُ مباشرةً، حتى في سورةِ الأنبياءِ لما قالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89]، قالَ اللهُ فاستجبنا لهُ، والفاءُ هذهِ عند أهلِ اللغةِ يقولون: تدلُ على السرعةِ، السرعةِ والاستجابةِ الفوريةِ، فاستجبنا لهُ.

وهنا قالَ لما دعا: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: 39]، جاءت الفاءُ؛ فنادتهُ الملائكةُ، يعني مباشرةً لما دعا وتضرعَ إلى اللهِ الذريةَ الصالحةَ جاءت الإجابةُ بواسطةِ الملائكةِ.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ قالَ بعضُ أهلِ التفسيرِ: **"الذي ناداهُ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ-"**.

وبعضهم قالَ: **"الذي نادى، ناداهُ جمعٌ من الملائكةِ"**. جمعٌ من الملائكةِ تنادي واحد، رجل؛ هذا تشريفٌ لهُ وتكريمٌ من اللهِ.

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ حتى لو ناداهُ جبريلُ وحدهُ هذا تشريفٌ لهُ. ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ نادتهُ أين؟ كانَ نائمًا ولا في السوقِ ولا جالسًا؟

وين؟ قالَ: لا، ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: 39]. هو في عبادةٍ وشغلهُ الشاغلُ الصلاةُ، ووقتهُ كلهُ في الصلاةِ، قائمٌ يصلي في المحرابِ.

والمحرابُ مثل ما مر معنا، هذهِ محاريبُ تكونُ في المساجدِ مرتفعةً، يستقلُ بها الإنسانُ مثل ما تكونُ غرفٌ أو الخلاوي التي توضعُ في المساجدِ؛ بحيث إنهُ يستقلُ بنفسهِ ويتعبدُ اللهَ فيها.

فكانَ لهُ محرابًا، كانَ لهُ محرابٌ يجلسُ فيه ويتعبدُ اللهَ ويصلي، حتى في قصةِ داودَ: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: 21]، كثيرٌ يجلسون في مثلِ هذهِ المحاريبِ.

قالَ: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾، قائمٌ يصلي يتعبدُ اللهَ، تناديهِ الملائكةُ وتبشرهُ وتنقلُ بشارةَ اللهِ لهُ، حتى البشارةُ من اللهِ لهُ مباشرةً: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾، يبشرهُ بسؤالهِ الذريةَ الطيبةَ.

جاءت المباشرةُ، جاءت البشارةُ مباشرةً لهُ، ولاحظ كيف يبشرهُ اللهُ؟ يبشرهُ بهذا الولدِ الصالحِ بعدةِ صفاتٍ، خمسِ صفاتٍ، ما قالَ: إن اللهَ يبشرك بولدٍ، أو يبشرك بذريةٍ طيبةٍ، أو يبشرك؛ لا، أعطاهُ صفاتٍ طيبةً مجموعةً؛ لأنهُ صدقَ مع اللهِ ودعا، ولم ينقطع الرجاءُ مع أنهُ طعن، طعنَ في السنِ وامرأتهُ عاقرٌ لا تلدُ في شبابها.

- كيف تلدُ وهي قد كبرت؟

قالَ بعضُ المفسرين: **"إن زكريا بلغَ المئة، وامرأتهُ بلغت التسعين"**، ومع ذلك لم ييأس.

- انظر البشارةُ كيف؟

﴿بِيَحْيَىٰ﴾؛ الذي قالَ اللهُ فيهِ: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7]. اختارَ اللهُ لهُ هذا الاسمَ **"يحيى"**؛ ليحيى في طاعةِ اللهِ.

قالَ: ﴿بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا﴾؛ هذهِ الصفةُ الأولى، ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾.

- ما هي الكلمةُ من اللهِ؟

كلمةٌ من اللهِ يعني عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، هو كلمةُ اللهِ، فجاءَ يحيى قبلَ عيسى، جاءَ يحيى لأن ما زالت مريمُ في صغرِ السنِ فجاءَ يحيى قبلَ عيسى، ويحيى وعيسى القرابةُ بينهم أبناءُ الخالةِ؛ لأن زكريا زوجتهُ خالةُ مريمَ.

فأولًا بشرَ بأن هناك من سيولدُ من مريمَ وهو عيسى بنُ مريمَ: ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ هذهِ الصفةُ الأولى، تصديقٌ والإخبارُ بشيءٍ غيبيٍ.

ثم قالَ: ﴿وَسَيِّدًا﴾؛ السيدُ لهُ مكانةٌ في، في مجتمعهِ ومن حولهِ وفي، وفي قبيلتهِ، سيدًا لهُ مكانًا، لهُ منزلةٌ عاليةٌ؛ يعني الوجيهَ كما قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيةِ التي تأتي: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: 45].

الصفةُ الثانيةُ والصفةُ الثالثةُ قالَ: ﴿وَحَصُورًا﴾؛ حصورًا يعني منوعًا، يعني يمتنعُ، يمتنعُ من أي شيءٍ؟

بعضُ المفسرين يقولُ: **"لا يأتي النساءَ"**، وهذهِ الصفةُ ليست صفةً طيبةً؛ لأن الأنبياءَ والمرسلين يتزوجون ويأتون النساءَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: 38]. فكلمةُ بعضِ المفسرين أنهُ حصورًا لا يأتي النساءَ قد يكونُ عيبًا، واللهُ يختارُ ويصطفي من، من البشرِ من يكونُ فيه كمالُ البشرِ، ما، ما يأخذُ شخصًا فيه عيبٌ.

ولذلك التوجيهُ الصحيحُ في كلمةِ حصورًا: **"أنهُ منوعًا من الأخلاقِ السيئةِ، من الأفعالِ السيئةِ، من الفواحشُ في الكلامِ وفي الأفعالِ"**. اختارَ اللهُ أن يكونَ على أحسنِ الأخلاقِ، هذا هو المعنى الصحيحُ.

قالَ: والصفةُ الرابعةُ ﴿وَنَبِيًّا﴾؛ بشرتهُ الملائكةُ، بشرت زكريا بأنهُ سيولدُ لهُ نبيٌ، سيدٌ لهُ نبيٌ.

والصفةُ الخامسةُ قالَ: ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي أنهُ من عبادِ اللهِ الصالحين الذين صلحت أخلاقهم وصلحت أعمالهم.

انظر كيف تأتي البشارةُ بدعوةٍ من اللهِ سبحانهُ، لا تيأس أيها الأخُ الفاضلُ، لا تيأس أن تتضرعَ إلى اللهِ وتدعو اللهَ سبحانهُ، دائمًا في دعائكَ تضرع إلى اللهِ وادعُ واصدق في دعائكَ، وليكن عندك يقينٌ بأن اللهَ يسمعُ، لأنهُ يقولُ هنا: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

يسمعُ ويجيبُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يجيبُ، ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ [النمل: 62]؛ فهذهِ كلماتٌ جميلةٌ، فلما سمعَ، لما سمعَ زكريا كلامَ الملائكةِ بهذهِ البشارةِ العظيمةِ من اللهِ ماذا قالَ؟ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [آل عمران: 40].

انظر ما توجهَ للملائكةِ، الملائكةُ ما تملكُ شيئًا، الذي يملكُ هو اللهُ، ولذلك توجهَ قالَ: ربي؛ حتى مريمُ يأتينا أنها قالت ربي، تتوجهُ قالت ربي أنى يكونُ لي ولدٌ، وهنا قالَ ربي، قالَ ربي أنى يكونُ لي غلامٌ؛ وغلامٌ الشا، يعني اليافعُ الشابُ أو الفتى. ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾.

- هذهِ بعضُ الناسِ يفهمها فهمًا خاطئًا، يقولُ: **"كيف زكريا يدعو ثم يقولُ كيف يجيني ولد؟"**

الجواب: هذا خطأٌ، هذا تفسيرٌ غلطٌ وفهمٌ خاطئٌ.

- ما هو الفهمُ الصحيحُ؟

هو سؤالهُ هنا يقولُ؛ يعني مثل ما تقولُ: **"ما الآليةُ في هذا الحملِ؟ كيف طريقةُ الحملِ؟ يعني هل أتزوجُ امرأةً أخرى؟ أو أنك سبحانك تصلحُ، تصلحُ زوجتي؟"** كما قالَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: 90].

قالَ بعضُ المفسرين: **"أصلحنا الرحمَ للحملِ"**، أو ماذا؟ كيف هو؟ يعني يستفسرُ، لا اعتراضَ وإنما استفسارٌ بطريقةِ الذريةِ. ولا هو، وهو لهُ عنده اليقينُ والإيمانُ بأن اللهَ قد بشرهُ وانتهى الأمرُ، ما يشكُ في البشر هذهِ ولا يشرك بالذريةِ، هو يسألُ عن طريقةِ الحملِ ومجيءِ هذا الورثِ كيف يكونُ.

﴿كَيْفَ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾. يا ربِ هل هي ستكونُ خارقةً للعادةِ ومعجزةً ولا ماذا؟ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾؛ ما تدخل الآن في قضيةِ **"كيف"**؛ لأن هذا أمرٌ خارقٌ للعادةِ يتولاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يتولى اللهُ يجعلُ هذهِ المرأةَ التي هي عاقرٌ في نفسها وقد بلغت من الكبرِ هذا السنَ، يجعلُ اللهُ لها الحملَ بقدرتهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فهذا أمرٌ لا نشكُ فيهِ، لا يشكُ فيهِ إنسانٌ.

قالَ: كذلك؛ مثل هذا الذي فعلتهُ في كذا وكذا وكذا، وأنت خلقتكَ من قبلُ كما قالَ في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 9]. ما كنت شيئًا وخلقتكَ؛ فأخلقُ أيضًا هذا، هذهِ الذريةَ. ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾؛ يفعلُ ما يشاءُ في طريقةِ الحملِ بأي طريقةٍ.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ [آل عمران: 41]؛ حتى أعرفَ أن زوجتي قد حملت، أنا أريدُ؛ يعني كأن النفسَ اشتاقت مرةً، اشتاقت لأن ترى هذا، لأن يرى هذا الحملَ؛ لأنهُ يعني تصور الرجلُ بلغَ قاربَ المئة وليسَ عندهُ ذريةٌ أبدًا، ثم يبشرُ بذريةٍ تشتاقُ نفسهُ بشدةٍ.

ولذلك قالَ: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾؛ حتى أعرفَ أن الزوجةَ قد حملت. ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾. إذا انعقدَ اللسانُ ولم تستطع النطقَ فاعلم أن زوجتكَ حاملٌ.

- متى بدأهُ؟

يترقبُ إلى أن انعقدَ لسانهُ.

بدأ ما يستطيعُ كلامًا إلا في شاعٍ حالةٍ واحدةٍ؛ ما هي؟ ذكرُ اللهِ، إذا جاءَ ذكرُ اللهِ انطلقَ اللسانُ، إذا جاءَ الكلامُ مع أهلِ الدنيا لا يستطيعُ الكلامَ إلا بالإشارةِ ثلاثةَ أيامٍ.

وفي آيةِ مريمَ قالَ: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: 10]؛ يعني أنت سويٌ، يعني ليسَ فيكَ عيبٌ، ليس عيبٌ إنكَ ما تنطقُ أخرسُ؛ لا، لكن هذهِ آيةٌ تنتهي لها وقتٌ معدٌ؛ ثلاثةُ أيامٍ وتنتهي.

لذلك قالَ: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾؛ بالإشارةِ باليدِ أو بالعينِ أو بالرأسِ أو نحو ذلك. قالَ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾؛ يعني لسانكَ ينطلقُ بالذكرِ، التسبيحِ والتهليلِ والتكبيرِ، هذا ينطلقُ، ولم يقل لهُ: **"إن لسانكَ ينطلقُ بالذكرِ"**؛ قالَ: لا: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾؛ اشتغل بالذكرِ، ولم تشتغل بالذكرِ فقط قالَ كثيرًا.

ولم يأتِ كلمةُ كثير في القرآنِ في شيءٍ إلا في الذكرِ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة: 10]؛ لا لا، إذا جاءَ الذكرُ جاءت كلمةُ كثيرةً.

قالَ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: 41].

يعني أكثر من التسبيحِ في هذين الوقتين؛ العشيُ نهايةُ النهارِ بعد العصرِ، العشيُ والإبكارُ أولُ النهارِ في الصباحِ، يعني أورادُ الصباحِ وأورادُ المساءِ حافظ عليها؛ لأن أورادَ الصباحِ تحفظكَ طيلةَ النهارِ، وأورادَ المساءِ تحفظكَ طيلةَ الليلِ، فالزم هذهِ الأورادَ، الزمها، لا تفرط فيها أبدًا مهما حصلَ لكَ من الأعمالِ والأشغالِ، هذا الشيءُ لا يفرطُ فيهِ، حاول إنكَ تلتزمُ الأذكارَ دائمًا.

لا تفرط فيها؛ أذكارُ المساءِ، أذكارُ الصباحِ، لو انشغلت حاول تقضيها وأنت تمشي، وأنت في أي مكانٍ، لكن لا تهملها.

ولذلك ذكرَ عن بعضِ السلفِ: **"أنهُ نسي مرةً الذكرَ فلدغتهُ عقربٌ"**؛ الإنسانُ أحيانًا يصابُ بأشياءَ بسببِ إهمالهِ لهذا الذكرِ، فيحرصُ الإنسانُ على هذهِ الأذكارِ، وأذكارُ الصلواتِ يحرصُ عليها.

ولذلك قالَ هنا: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾. العشيُ والإبكارُ: ثم تعودُ الآياتُ مرةً أخرى إلى ما جاءَ السياقُ في قصةِ مريمَ وعيسى.

قالَ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ لما نادت الملائكةُ زكريا، أيضًا نادت مريمَ، كلُ هذا تشريفٌ لهم: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾؛ اختاركِ اصطفاكِ واختاركِ، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾؛ طهركِ بأي شيءٍ؟ طهرها بالأخلاقِ الحسنةِ، الكلامِ الطيبِ، وأبعدها عن الفواحشِ، ﴿وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 42].

انظر، اصطفاءٌ الأولُ أن اللهَ اختارها من بينِ النساءِ، اختارها بأن تكونَ بهذهِ المكانةِ، والاصطفاءُ الثاني اصطفاءٌ على نساءِ العالمين.

قالَ بعضُ المفسرين: **"على نساءِ العالمين إلى يومِ القيامةِ"**.

ولذلك قالَ النبيُ ﷺ: **«كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَخَدِيجَةُ زَوْجَةُ النَّبِيِّ ﷺ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ النَّبِيِّ ﷺ»** أربعُ نساءٍ.

قالَ: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾. ﴿يَا مَرْيَمُ﴾؛ هذا نداءٌ من الملائكةِ تنادي مريمَ، انظر التشريفَ، امرأةٌ تناديها ملائكةٌ: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: 43]. اقنتي؛ القنوتُ هو كثرةُ الطاعةِ والعبادةِ وطولُ القيامِ، وأفضلُ العبادةِ وأفضلُ الصلاةِ طولُ القيامِ؛ أن تطيلَ القيامَ في الصلاةِ.

قالَ بعضُ المفسرين: **"إن مريمَ كانت تقومُ قيامًا طويلًا حتى إن الدمَ يسيرُ من قدميها"**، لما قالت الملائكةُ لها: ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي﴾؛ أكثري من السجودِ والركوعِ مع الراكعين، أي من جملةِ الذين يصلون، ولا يقصدُ بذلك الجماعةُ؛ ما يقصدُ، المرأةُ ما تصلي مع، لم تؤمر بصلاةِ الجماعةِ، وإنما المرادُ هنا أنها تكونُ من جملةِ المكثرين من الطاعاتِ والصلواتِ.

قالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توجيهًا لنبينا محمدٍ ولنا حتى يكونَ عندنا اليقينُ بأن هذا القرآنَ منزلٌ من عندِ اللهِ، هذا الذي جاءَ من أخبارِ هذهِ الأممِ هو من عندِ اللهِ.

ولذلك يقولُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ هذا اللي تسمع الآن قصةَ مريمَ وأمِ مريمَ وقصةَ زكريا ويحيى، يقولُ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: 44]. هذهِ أخبارٌ غيبيةٌ ما يعرفها المكة، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يا محمدُ بالوحي.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾؛ ما كنت عندهم ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾. لما تخاصموا، لما ولدت امرأةُ عمران ولدت مريمَ لفتها بقماشٍ وأتت بها إلى الربانيين الذين كانوا في المسجدِ الأقصى، فقالت: **"دونكم هذهِ النذيرةُ، أنا نذرتها لكم، تولوها، هذهِ محررةٌ للمسجدِ"**.

فاجتمعوا عليها وتنازعوا، فقالَ زكريا: **"أنا قريبٌ لها، خالتها تحتي، خلوها، دعوها عندي"**. فقالوا: **"لا، إلا أن نقترعَ قرعةً"**. فألقوا أقلامهم؛ قيل: **"الأقلامُ هي الأقلامُ الحقيقيةُ يكتبون بها التوراةَ"**.

- وقيل: "أسهمٌ". ألقوها أين؟

قالوا: ألقوها في نهرٍ عندهم، فسقطت كلها في النهرِ إلا قلمُ زكريا ارتفعَ، فقالوا: **"إذًا هي عندَ زكريا"**. وهذا تسخيرٌ من اللهِ أن تكونَ تحتَ من يكونُ قريبًا لها ونبيٌّ، تتشرفُ بتربيةِ هذا النبيِ لها.

ولذلك قالَ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44]. ما كنت عندهم لما تخاصموا، ولم تعلم يا محمدُ بهذا الخبرِ ولا قومك يعلمون، ولا أحدٌ إلا بوحيٍ من اللهِ بتفاصيلهِ الدقيقةِ.

نسألُ اللهَ أن يرزقنا وإياكم العلمَ النافعَ والعملَ الصالحَ، وأن يبارك لنا ولكم، ويجعلَ القرآنَ ربيعَ قلوبنا وجلاءَ أحزاننا، واللهُ أعلمُ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبينا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين.

(65)
(آل عمران 45-51)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا المجلس المبارك حول آيات من سورة آل عمران.

الآية التي بين أيدينا هي الآية الخامسة والأربعون من سورة آل عمران، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: 45].

هذه السورة، سورة آل عمران، انقسمت إلى قسمين؛ لمن يتأمل السورة ويقرأها يجد أنها تدور حول كشف الشبهات، هناك شبهات تمسك بها من تمسك، فجاءت السورة لتزيل هذه الشبهات، ما هي الشبهات؟

القسم الأول من أول السورة إلى نصفها، إلى تقريبًا الآية مئة وعشرين، كلها في الغالب تتحدث عن عيسى بن مريم. عيسى بن مريم مَن هو؟ وما موقف النصارى منه؟ النصارى يقولون عيسى هو الله.

يدّعون الألوهية في عيسى؛ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17].

ومنهم مَن يدّعي أن عيسى بن مريم هو ابن الله؛ ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30].

فلما كانت هذه العقيدة الخطيرة، عقيدة الكفر والإشراك بالله التي مآل صاحبها إلى النار، بيّنها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبيّن حقيقة عيسى مَن هو عيسى؟ والقسم الثاني من السورة يتحدث عن غزوة أحد، وما لقي المسلمون في هذه الغزوة، وما أثاره المنافقون من الشبهات التي أثاروها، السورة تكشف كل هذا.

- لكن مَن يحصل له هذا؟

لمن يتأمل القرآن ويقرأه قراءة طيبة متأنية يجد هذا الشيء.

ولذلك ابن مسعود يقول في القرآن: **"لا تهذُّوه هَذَّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل التمر الرديء ينثر نثرًا قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدكم آخر السورة"**.

قفوا عنده، تأملوا، فهذا الكتاب يحتاج منا أن نتأمل هذه الآية التي بين أيدينا، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الملائكة خاطبت مريم ابنة عمران الطاهرة النقية، خاطبتها الملائكة وكلمتها الملائكة، وهذا شرفٌ لها.

الله عَزَّ وَجَلَّ قال قبل ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 42]. ثم يأتي هنا ويقول: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 45].

- إذًا عيسى بن مريم مِنه، ما حقيقته؟

هذه حقائق لازم نعرفها، حقائق ملتبسة على أتباع عيسى، الذين يدعون أنهم أتباع لعيسى النصارى، ملتبسة عليهم، لو ذهبت إلى النصارى لوجدت هذه العقيدة عندهم كيف مختبطة وكيف ملتبسة عليهم؛ منهم مَن يقول إن عيسى هو الله، ومنهم مَن يقول ابن الله، ومنهم مَن يقول إن عيسى ثالث ثلاثة، كل هذه العقائد أبطلها القرآن بأوضح شيء، فهنا يبين لك حقيقة عيسى؛ مَن عيسى؟ هو ابن مريم.

يأتيك أحد من قساوسة النصارى، ليس أي نصراني، لا، من قساوسة النصارى، ويقول لك: كيف تلد مريم من غير زوج؟ هل يدخل هذا العقل؟ كيف تحمل وتلد وهي لم تتزوج؟

ولذلك هي استنكرت، هي قالت: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: 47].

وفي آية أخرى قال: ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: 20]؛ ما كنت زانية ولا بغيًا، ولم يمسسني بشر ولم أتزوج. هذه هي الشبهة، لكن الله كشفها لنا وبيّنها لما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]. آدم لا أم ولا أب؛ إذًا تستنكرون على عيسى وتنكرون عليه؟ عندكم آدم أعظم، لا أم ولا أب، فكيف ينكرون هذا الشيء؟

إذًا نتأمل حقيقة عيسى في القرآن الكريم؛ ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ [آل عمران: 45]. هذه بشارة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهذه المرأة الصالحة، يبشركِ بأي شيء؟

قال: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 45]. يعني كلمة.

- ما معنى هذا الكلام؟

يعني أن الله قال: كن، فكان هذا، هذه الكلمة فقط. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]. هذا هو، لما يقول للشيء: كن، لا يعجزه شيء، هذا في منظور البشر وفي عقول البشر كيف تحمل؟ هذا صح، أما في حق الله ما تقول كيف تحمل؟ الله يستطيع أن يلد من حجر.

- أخرج ناقة صالح من أين أخرجها؟

من صخرة، حجر، صخرة أخرج منها ناقة تمشي، ناقة عشراء، حامل في العاشر، ومع ذلك ما تستطيع أن تقول هذا كيف؟ هذا كيف في حق البشر، أما في حق الله لا، ما يعجزه شيء.

الذي خلق السماوات السبع ورفعها بغير عمد، وخلق الأراضين السبع، وخلق الناس؛ هذا ما تقول فيه خلق الناس كلهم؟ خلق كل الخلق، خلقهم الله، كيف تقول واحد كيف يخلق الله واحد شخص؟ هذا ما يدخل العقل، هذا في منظور البشر ممكن يمشي، في جانب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يمكن. ولذلك قال: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: 45]، وهي: كن فيكون.

اسمه المسيح عيسى بن مريم؛ انظر أعطاك اللقب والاسم، المسيح مَن هو؟ عيسى.

- لِمَ سُمي المسيح؟

قال لأنه يسيح في الأرض، يمشي للدعوة إلى الله، يعني هذه إشارة إلى أنه نبي مرسل يسيح في الأرض، وقيل المسيح لأنه يمسح على المصاب الذي به عاهة فيكشف الله عنه؛ ﴿وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ [آل عمران: 49].

- مَن هو الأكمه؟

الذي وُلد أعمى، ما أصابه العمى بعد ذلك بسبب الجدري ونحوه، لا، وُلد أعمى، فيمسح على وجهه فيبصر؛ ﴿وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 49]. أعطاه الله آيات عظيمة.

قال المسيح، عرفنا المسيح، عيسى بن مريم، لماذا قال ابن مريم؟ لأن ليس له أب، فنسبه إلى أمه.

قال: ﴿وَجِيهًا﴾ [آل عمران: 45]. هذه بشارة عظيمة، وجيهًا ما معناها؟ أي له وجاهة في المجتمع، له مكانة، له منزلة، رسول نبي، يكفي هذا، في الدنيا وجيهًا، وفي الآخرة أيضًا وجيهًا، له منزلة رفعه الله، الآن لو قال لك أحد من النصارى: أين عيسى؟ النصارى ماذا يعتقدون؟

يعتقدون في عيسى أنه مصلوب وأنه مقتول؛ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157]. هذه حقيقة عيسى.

عيسى رفعه الله؛ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55] كما سيأتينا، رفعه الله إلى السماء، والآن هو في السماء، وسينزل في آخر الزمان، هذه عقائد لازم نفهمها، ينزل في آخر الزمان ويحكم بشريعة محمد، وهو الذي يقتل الدجال، هذه حقائق عقدية لازم نتعرف عليها، كثير من الناس ما يعرفونها، تتلبس عليهم الأمور.

قال: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: 45] عند الله، له مكانة عند الله وله قربة عند الله، كثير منا نقرأ هذه الآيات تمر علينا ما ندري، نمر عليها سريعًا، ويأتيك رمضان ويجد من يتلو القرآن بسرعة متى يخلص ومتى يختم القرآن، ولا يقف عند عجائبه.

لازم نفهم الكلام هذا، أنت لو تأتيك رسالة الآن على الجوال تجلس تقرأها أربعين مرة عشان تفهمها، وهي رسالة من بشر ويمكن رسالة ما تنفعك، ومع ذلك تكرر القراءة، وهذا كلام الله أولى من أي رسالة، لازم تقرأ وتفهم، مطلوب منك القراءة والفهم.

يقول: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ 45 وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: 45-46]. انظر كيف القرآن يتكلم؛ عيسى من معجزاته أنه يكلم الناس في المهد، يعني ولدته أمه ولفته بخرقة وجاءت تمر، أوقفها اليهود: مَن هذا؟ ما الذي معك؟ ما كان أبوك امرأة سوء، ما كانت أمك بغيًا، من أين جئتِ بهذا الولد؟ أشارت إليه، ما تكلمت.

﴿قَالَتْ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: 26]. أشارت إليه، قالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: 29]. فرد عليهم، تكلموا ونحن نؤمن بأنه تكلم، قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: 30].

أول كلمة الاعتراف بأنه عبد الله، وهم يقولون هو الله، انظر كيف! قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا 30 وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: 30-31]. وهنا يقال: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ [آل عمران: 46] في أول حياته، ﴿وَكَهْلًا﴾ [آل عمران: 46] معروف الكهولة، كهلًا يعني بلغ جاوز الثلاثين، أصبح في سن الكهولة.

- كيف يكلم الناس كهلًا؟

هذا فيه دليل على أنه ينزل في آخر الزمان وأنه لم يمت، ينزل في آخر الزمان ويحكم، يحكم بشريعة النبي ﷺ، ﴿وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 46].

انظر كيف! كلها بشارات لمريم؛ يأتيك ولد كل هذه بشارات: اسمه المسيح عيسى بن مريم، وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس، ومن الصالحين.

انظر آخر صفة: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 46]. كيف من الصالحين؟ قال صلح في نفسه وأصلح الناس، دعوة إلى الله، صلح في نفسه وأصلح الناس. قالت، انظر الرد، لما جاءت الملائكة وأخبرتها بهذا الخبر، هذا خبر مذهل؛ كيف يأتيني ولد بهذه الصفات؟ من أين يأتيني أنا ما تزوجت؟ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ [آل عمران: 47]. انظر ما قالت ما ردت على الملائكة، قالت: ربي، لأنها تعرف هذا خطاب من أين جاءها، بشارة من الله.

ولذلك قالت: ربي، ما قالت يا أيها الملك أو يا ملائكة من أين يأتيني هذا؟ لا، توجهت إلى الله لأنها عرفت أن هذا كله صادر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قالت: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: 47]. لم أتزوج ولم يمسسني بشر، لا في زواج مشروع ولا في حرام، لم يمسسني بشر. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 47].

- كيف يخلق ما يشاء؟

انظر الرد القوي، يقول مثلما أنه يخلق عيسى في بطنك يخلق ما يشاء، ليس فقط يعني لا تظن أن هذا بس فقط معجزة أنه خلق عيسى، لا، يخلق عيسى ويخلق غيره، يخلق ما يشاء.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 47]. هذه كلمة الله، كلمة الله يقول للشيء: كن فيكون، ثم بدأت الآيات تسترسل في حقيقة عيسى ودوره ووظيفته وعمله، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ [آل عمران: 48]. هذه منّة الله عليه، تعليم، ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: 48].

- ما هو الكتاب؟

التوراة التي أُنزلت على موسى الذي قبله، علمه التوراة والحكمة أسرار الشريعة وما فيها من الحكم، قال: ﴿وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: 48]. يعلمه التوراة أيضًا على الكتاب، لأن قد يكون الكتاب الأول الكتابة، طريقة الكتابة؛ يعلمه الكتابة يعلمه الكتاب أي كيف يكتب، ويعلمه التوراة أيضًا والإنجيل، الإنجيل أُنزل عليه؛ التوراة على موسى والإنجيل على عيسى، والإنجيل يعلمه الكتابة والحكمة والتوراة والإنجيل.

ثم قال بعدما يعلم هذه الأشياء: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [آل عمران: 49]. هو رسول إلى بني إسرائيل، بنو إسرائيل جاءهم عيسى بعدما جاءهم موسى، وبين موسى وعيسى أنبياء كثيرون.

قال: ولكن عيسى هو خاتمة، عيسى هو خاتم بني إسرائيل، وبعده لم يرسل إليهم، وإنما بعده جاء محمد هو خاتم الرسل. قال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 49]. بني إسرائيل جاءهم عيسى وجاءهم بالبينات، جاءهم بالمعجزات، خذ المعجزات هذه، معجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية تشاهدها بعينك حسية؛ عيسى وموسى مثلًا العصا، فلق البحر مثلًا اليد، هذه حسية.

وكذلك عيسى بن مريم أعطاه الله معجزات حسية، لكن محمد ما الذي أعطاه؟ أعطاه حسية وأعطاه معنوية، القرآن أعظم معجزة له، أعظم معجزة باقية إلى قيام الساعة، وله معجزات أخرى ﷺ، له معجزات كثيرة جدًا.

قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [آل عمران: 49]. أول آية، قال: إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير؛ يأتي بطين، تراب يضع عليه ماء ويأخذ هذا الطين ويصوره ويشكله على شكل طير؛ رأس وجناحان، طين، ثم يطير، يطير في قدرة مَن؟ بقدرة الله، ليست بقدرة عيسى، لكن الله أعطى عيسى هذا الشيء.

قال هنا: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 49]. مثل الطير فينفخ فيه، ينفخ فيه عيسى، فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ليس بإذن عيسى، بإذن الله ينفخ فيه فيطير طيرًا بإذن الله.

ثم بعد ذلك يسقط وينتهي، هذه الدورة فقط معجزة ما يبقى يتناسل. قال: ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران: 49]. يعني أشفيه، أشفه؛ الأكمه بحيث يزول عنه العمى، والأبرص بحيث يزول عنه هذا الداء الذي على جلده.

قال: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 49]. يأتي على ناس ماتوا من سنين إلى قبورهم ويحييهم ويخرجون من قبورهم، في سورة المائدة قال: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: 110].

قيل إنه أخرج أناسًا، قال شخص له: أي جدي مات هنا أخرجه، فأخرجه وقام حيًّا. ما الذي أحياه وأخرجه من قبره إلا بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ قال: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 49].

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: 49]. كل هذا راه من خصائص الله لكن الله أعطاه معجزات. يخبرهم بما يأكلون؛ الذي يأكله يخبره، يقول عيسى: أنت أكلت كذا، وأنت أكلت كذا، وأنت كذا، وهو ما رأى، يخبر بشيء غيبي، ولا وبما تدخرون في بيوتكم، حتى ما في بيوتهم يخبرهم.

قال: في بيتك كذا، وفي بيتك كذا من الأرزاق، تدخرون في بيوتكم، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 49]. على أني رسول من الله، على أن هذه المعجزات أعطاني الله إياها.

- مَن هم؟

بنو إسرائيل.

قال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [آل عمران: 50]. التوراة بين يدي، أنا أصدق بما فيها وأخبركم بما فيها، وزيادة على ذلك أحل: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50]. يقول التوراة فيها محرمات، أنا جئت أخفف، أرفع عنكم بعض هذه المحرمات، فأنا نعمة عليكم ورحمة عليكم.

ومع ذلك ما شكروا الله، حاولوا قتله وما استطاعوا وما شكروا الله. قال: ﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: 50]. هذه الآيات من ربكم، ما قال من عندي، ما قال هذه من عندي، وإنما قال هي آيات من ربك أعطاني الله إياها لتؤمنوا، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

اتقوا الله أول شيء خافوا الله عَزَّ وَجَلَّ وأطيعوني أنا الذي جئتكم بهذه الرسالة، ثم اعترف في الأخير بأن العبودية لله، ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: 51]. هذه دعوة من دعوة عيسى في آخر الكلام، وفي أوله لما كان في المهد قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: 30]. هذه حقيقة عيسى.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: 51]. هذا الذي إذا حققتموه وتمسكتم به هو الصراط المستقيم المنجي من الهلاك والعذاب.

ولكن النصارى لم يستقيموا على هذا ولا اليهود، وحرّفوا وحاولوا قتل عيسى، ولا يزالون الآن يعتقدون هذه العقائد الفاسدة الباطلة؛ بأن عيسى هو الله، أو هو ابن الله، أو هو ثالث ثلاثة، اعتقدوا اعتقادات فاسدة، وبعضهم يقولون إنه صُلب، ويعتقدون في هذا الصليب اعتقادات باطلة.

كل أولئك سيحشرهم الله وسيحاسبهم على ما فعلوا، نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(66)
(آل عمران 52-63)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين يوم الدين؛ اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، هذا الدرس الذي نجلسه في هذا المجلس المبارك هو درسنا يوم الأربعاء بعد المغرب، ولكن لمناسبة هذا الشهر الكريم جعلناه بعد صلاة العصر في كل أربعاء، ولا زلنا نسير في هذه المسيرة القرآنية والآيات القرآنية التي بين أيدينا، والحقيقة يعني الإنسان يعطي من نفسه لقراءة القرآن في هذا الشهر المبارك ولتدبر القرآن الكريم وفهم معانيه.

النبي ﷺ قام ليلة كاملة مع آية واحدة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]، أخذ يرددها ﷺ حتى أصبح الصبح؛ ليست العبرة بكثرة القراءة، وإنما العبرة بالوقوف عند الآيات والتأثر بها والتأثر بها.

الآيات التي بين أيدينا نأخذها آية آية ونتدبرها ونتأمل ما فيها؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية من سورة آل عمران الذين يتابعون معنا هي الآية الثانية والخمسون من سورة آل عمران يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 52].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكى لنا حقيقة عيسى؛ يعني عيسى نبي من أنبياء الله، العجيب أن رسل الله الذين مضوا قبل محمد ﷺ لم يحصل فيهم مثل ما حصل مع عيسى؛ عيسى وقع فيه إشكال كثير وشبهات كثيرة من النصارى، مع أنه نبي لهم وهم الذين أحدثوا هذه الإشكالات وهذه الشبهات حتى ادعوا فيه ما ادعوا فيه؛ فادعوا أنه هو الله، ادعوا أنه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17].

وادعوا أن عيسى هو ابن الله: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، وادعوا أنه ثالث ثلاثة؛ يعني الإله ثلاثة: عيسى، ومريم، والله، وادعوا دعوات كثيرة في عيسى.

وحقيقة عيسى بينها القرآن الكريم لنا أي أوضح بيان، أوضح بيان هو عبد الله ورسوله؛ باختصار هو عبد الله ورسوله، ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني في أول ما تحدث عيسى وهو في المهد ماذا قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: 30]، هذه حقيقة عيسى.

وفي آخر الوقت أيضًا ماذا قال في الآيات التي معنا لما دعا بني إسرائيل؛ دعاهم وبعث إليهم وبين حقيقة دعوته قال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: 50].

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: 51]؛ هذه حقيقة عيسى أنه عبد من عباد الله ورسول من رسل الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ هذا الذي أدعوكم إليه، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ هذا الصراط الذي ينجيكم من النار، هذا الصراط الذي يدلكم إلى الجنة.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾.

- ما معنى أحس؟

قال أهل العلم: **"الإحساس هو العلم الحقيقي؛ لأنك تعلم بحواسك الخمس"**، لما أحس عيسى؛ يعني تيقن يقينًا من كفرهم، أنهم كفروا بعيسى وكفروا برسالة عيسى وحاولوا قتل عيسى؛ وإذًا ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾.

- من سينصرني في دعوتي إلى الله؟

هو الآن بين بني إسرائيل كفروا بعيسى وحاولوا إيذاءه وقتله، كما فعل أهل مكة مع محمد ﷺ؛ حاولوا قتله وإيذاءه وإخراجه، فقال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، ولذلك الله بعث لمحمد ﷺ الأنصار ينصرونه فنصروه، وهؤلاء الحواريون، ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

- من هم الحواريون؟

هم الذين اتبعوا عيسى وأطاعوه واستجابوا له.

- ماذا سموا الحواريين؟ هذه الكلمة ما معناها؟

الحواريون جمع حواري، **"والحواري هو الصفي الخالص المتبع اتباعًا من غير تردد يسمى حواري"**.

ولذلك الزبير بن العوام النبي ﷺ قال: **«لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ»**؛ يعني الذي أخلص معي إخلاصًا دقيقًا واتبعني اتباعًا دقيقًا.

فالحواريون وأصل الحور هو البياض، ولذلك نساء الجنة يقال لهن حور، والحور جمع حوراء وهي شديدة البياض، فهذا معنى الحواري الذي خلص حتى أصبح قلبه أبيض في اتباعه لعيسى؛ هذا معنى كلمة الحواريين الذين اتبعوا عيسى ونصروه ووقفوا معه.

قال الحواريون: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ هذه حقيقة الحواريين، آمنا بالله واشهد بأننا أسلمنا لله. ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 53]، دعوا ربهم وهذه تحتاج منا وقفة أيضًا؛ دعوا ربهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، هذه حقيقة الحواريين أنهم آمنوا بما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ.

أنزل الإنجيل على عيسى وأنزل التوراة على موسى، وأنزل الكتب السابقة كثيرة، أنزله قالوا: آمنا بما أنزلت يا الله واتبعنا الرسول عيسى بن مريم، فاكتبنا مع الشاهدين يوم القيامة؛ الذين يشهدون بالرسالة ويشهدون لعيسى بأنه بلغ رسالة ربه، وهذه فيها التوسل بالدعاء إلى الله.

أنت إذا أردت أن تدعو إلى الله تتوسل بأسماء الله الحسنى، تقول: يا رب، يا عزيز، يا غفور، هذا يسمى توسل؛ لأنه سبب في قبول الدعوة، وأحيانًا الإنسان يتوسل بالعمل الصالح، هنا توسلوا بالعمل الصالح، قالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

تعرفون قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار وانطبقت عليهم الصخرة، فقال أحدهم: **«ادْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ»**، كل واحد يدعو بصالح عمله، فإن صالح العمل سبب في قبول الدعوة؛ فقال أحدهم: **"إني لي والدين"**، وقال الآخر: **"إن لي ابنة عم"**، وقال الآخر...

وهكذا، فانفرجت الصخرة؛ فهذا يدل على أن الإنسان يدعو بصالح الأعمال، يدعو بصالح الأعمال: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾. قال الله في عيسى وفي الذين كفروا بعيسى قال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 54]؛ دائمًا أعداء الإسلام وأعداء الأنبياء والرسل يحاولون أن يمكروا بالرسل مهما استطاعوا أن يمكروا يمكر به كما حاولوا المكر بمحمد ﷺ.

- فهؤلاء كفار بني إسرائيل مكروا بعيسى؛ كيف مكروا بعيسى؟

أحاطوا بمنزله وكان عنده الحواريون، أحاطوا بمنزله ليقتلوه، ولو تقرأ في سورة النساء يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: 157].

قال الله ماذا؟ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157]؛ إذًا هم مكروا والله مكروا، مكروا على أساس أن يمكروا بعيسى ويقتلوه، فلما أحاطوا بهم قال عيسى: **"من منكم يلقى عليه الشبه فيقتل في سبيل الله؟"**

فألقى الشبه على أحدهم، ولكن ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾، فألقى الشبه على واحد منهم؛ فدخلوا ورأوا فإذا هو هذا عيسى، فنظروا فإذا هو عيسى فقتلوه وظنوا أنهم قتلوه ولكنهم لم يقتلوه.

وحتى الآن الصليب يقولون نحن قتلناه وصلبناه، ويعظمون الصليب لأنهم يدعون أنهم قتلوا عيسى، وهذه حقيقة باطلة ليست حقيقة أصلًا، هذه دعوى باطلة؛ الحقيقة ما ذكرها القرآن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ماذا قال؟

قال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾؛ مكر الله بهم وخيب ظنهم وحمى وحفظ نبيه ورسوله عيسى، في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، والمكر هو الخديعة وهو **"احتيال الشيء من غير ما تشعر**

به"؛ فحاولوا وخططوا إلى أن يحتالوا وأن يمكروا بعيسى ولكن الله فوقهم؛ الله يدبر وهم يدبرون وتدبير الله فوق تدبيرهم ولم يستطيعوا وهم والله فوقهم، فقال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

ثم قال الله موحيًا إلى عيسى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: 55]؛ هذه حقائق لا بد نفهمها، قال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ لما أحاطوا به أوحى الله إلى عيسى قال: يا عيسى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾.

- ما معنى متوفيك؟ يعني الوفاة هي الموت؟

عيسى ما مات، عيسى مرفوع إلى السماء حي، كيف نقول متوفيك والله رفعه إلى السماء ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157]، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 158]؟ فحقيقة عيسى مرفوع إلى السماء، وجاء في أحاديث عن النبي ﷺ متواترة أنه ينزل آخر الزمان ويقتل الدجال ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويحكم بشريعة محمد ويحكم بالعدل؛ هذا ينزل آخر الزمان وهو من علامات الساعة الكبرى: نزول عيسى في آخر الزمان، فهو في السماء مرفوع وسينزل.

وقوله هنا: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ لا بد أن يعرف ما الوفاة؟ الوفاة هنا معناها النوم؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: 60]، يتوفاكم بالليل يعني ينيمكم، وأنت تقول إذا أصبحت: **«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»**؛ إذًا النوم موت صغرى، فهنا معنى متوفيك معناها: **"أي سأنيمك نومة ثم أرفعك إلى السماء"**.

فعيسى قال فيه: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ورافعه إلى السماء إلى السماء، وفي هذا إثبات العلو لله، وأنه مستوٍ على عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أن يمسوك بسوء، ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أتباع عيسى وهم الحواريون فوق الذين كفروا مهما علا الكفر فالحق فوقه، الحق فوقهم مهما علا؛ لذلك قال: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحق وبالحجة وبالبرهان وبالسيف؛ أهل الحق فوق أهل الباطل.

قال: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: 55]؛ سيحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين الخلق بين الخلق وبين هؤلاء الذين اختلفوا في عيسى، قال: يحكم بينهم فيما كان فيما كنتم فيه تختلفون.

ثم بين حكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العدل في الخلق جميعًا في الخلق جميعًا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ كفروا بالله وبرسله وبشريعته.

- ما مصيرهم؟

قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 56].

- قد يأتيك شخص يقول لك: كفروا ما رأينا فيهم عذابًا في الدنيا؟

الجواب: يعذبهم الله وأنت لا تشعر، ولو جاءهم العذاب النفسي لكفى؛ لو جاءهم العذاب النفسي الانتحار هذا لكفى، ما يعيشون عيشة المؤمن أبدًا؛ فيعذبهم الله عذابًا أليمًا عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين، لا يستطيع أحد ينصرهم إلا بنصر وبإذن من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ حققوا الإيمان وعملوا الصالحات، آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [آل عمران: 57]؛ انظر حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطيهم أجورهم كاملة ويزيدهم من فضله والحسنة بعشر أمثالها، ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ هذا حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حكم الله في الخلق جميعًا المؤمن والكافر.

قال الله بعد ذلك: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ [آل عمران: 58]؛ ذلك ما هو؟ حقيقة عيسى التي تسمعها الآن، هذا الخبر يتلوه الله يخبر به محمدًا ﷺ وأتباع محمد إلى قيام الساعة، ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ﴾ التي تسمعها، ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ وهو القرآن الكريم.

ثم يبين الله لك حقيقة عيسى فيقول: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]؛ هؤلاء يدعون أنه ابن الله وهؤلاء يدعون أنه هو الله أو ثالث ثلاثة، هذه دعاوى كلها باطلة.

- ما حقيقته؟

حقيقته ما أخبر القرآن به: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ شأنه وحاله مثل آدم خلقه من تراب؛ آدم خلقه من تراب فقال له كن فكان، وعيسى كلمة الله قال له كن فكان خلقه في رحم في رحم أمه مريم، خلقه من غير أب؛ فلماذا تتعجبون من عيسى أن ليس له أب؟

إذا أردتم أن تتعجبوا تعجبوا من آدم ليس له لا أب ولا أم؛ هذا اللي يريد أن يتعجب من آدم، أو يتعجب من حواء ليس لها أب ولا أم؛ فكيف تتعجب في عيسى؟ هذا أمر، والأمر الثاني: إذا أردت أن تدعي الألوهية في عيسى لماذا لا تدعي الألوهية في آدم؟ آدم ما له لا أب ولا أم.

فهذه حقيقة عيسى قال: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: 60]؛ قال الله الحق من ربك يا محمد، هذا الحق في عيسى هو من ربك فاستمع إلى ما جاءك في خبره، أما أقوال هؤلاء النصارى ودعاواهم كلها باطلة، ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين في حقيقة عيسى؛ لا يشككونك فيها ولا يلبسون عليك، وإنما هذه هي حقيقة عيسى هذه حقيقة عيسى.

ثم أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنهم إن عاندوا ولم يستجيبوا لك وهذه الآية في وفد نصارى نجران في عهد النبي ﷺ جاءوا يحاجون الرسول في عيسى ويدعون أنه هو الإله فدعاهم الرسول ﷺ إلى المباهلة.

- ما هي المباهلة؟

هي أن يدعو الإنسان على نفسه بالهلاك واللعن هذه تسمى المباهلة. الرسول ﷺ باهل اليهود باهل اليهود قال: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: 6]، ولم يتمنوه.

قال ابن عباس: **"لو أن يهوديًا واحدًا تمنى الموت لشرق بريقه ومات"**؛ فلم يتمنوا الموت، والنصارى باهلهم الرسول ﷺ بهذه الآية، هذه تسمى آية المباهلة: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61].

اللهم اجعل لعنة الله على الكاذب منا، فماذا صنع الرسول ﷺ؟ أتى بعلي وفاطمة والحسن والحسين وخرج إلى نصارى نجران وقال: **"نبتهل نحن وإياكم نبتهل وندعو على أينا الكاذب أن يهلكه الله في مكانه"**؛ فلم يوافقوه وتراجعوا.

وقال بعضهم لبعض: **"أنتم تعرفون محمدًا تعرفون حقيقة محمد فلا تباهلوه وارجعوا إلى دياركم وأعطوه الجزية"**؛ فرجعوا، ولو باهلوه لهلكوا في مكانهم.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ في خاتمة هذه القصة: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 62]؛ هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله، لا عيسى ولا غيره، ما من إله إلا الله، الإله الحق هو الله، وإن الله لهو العزيز له العزيز الحكيم؛ العزيز ذو العزة والقوة، والحكيم ذو الحكمة الذي يضع الأمور في مواضعها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: 63]؛ فإن تولوا ولم يقبلوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ على ما هم فيه من فساد وحقيقة عقيدتهم الباطلة، عليم بهم وسيجازيهم على أعمالهم؛ نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يتقبل منا وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وإلى لقاء قادم بإذن الله، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(64)
(آل عمران 64-71)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصلِّ وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أيها الإخوة الكرام، درسنا المعتاد الذي نعقده كل أربعاء بعد صلاة المغرب، وبمناسبة شهر رمضان أصبح الدرس بعد صلاة العصر مباشرة، وهو السورة التي بين أيدينا سورة آل عمران.

ولا زلنا نسير في آيات هذه السورة العظيمة، والحقيقة كما ذكرنا سورة آل عمران ركزت على عقيدة التوحيد ومناقشة ومحاجة أهل الكتاب، وخاصة النصارى في عقيدة عيسى ابن مريم.

والمؤمن مطالب المسلم أن يشهد أن لا إله إلا الله، هذه عقيدته، ويشهد أن محمدًا رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه؛ كلمته كلمة الله (كن فيكون)، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منها، هذه عقيدة المسلم وعقيدة كل من يخلص العبادة لله على جميع الطوائف.

ولذلك لو تأملت أنت وأنت تقرأ سورة الفاتحة يوميًا أكثر من مرة تكررها كثيرًا، ماذا يقول الله فيها؟ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، وتقول فيها ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ 6 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 6 - 7]، غير المغضوب عليهم وهم اليهود، وعلى الضالين وهم النصارى؛ أنت تتبرأ من كل الطوائف وخاصة اليهود والنصارى.

النبي ﷺ سُئل قال: **«أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»**. **«مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»**. عقيدة الإيمان بعيسى بأنه عبد الله ورسوله هي عقيدة المسلم، وهي التي يجب على النصارى الذين يدعون أنهم أتباع لعيسى يجب أن يعتقدوا هذا المعتقد، أما اعتقاد أن عيسى هو ابن الله تعالى الله عما يقولون أو عيسى هو الله أو ثالث ثلاثة فكل ذلك كفر وشرك.

ولذلك عيسى نفسه يقول لما قال الله حكى قالت وقالت النصارى حكى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 72].

- ماذا قال عيسى؟

قال لما قال إن الله وقال المسيح: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: 72]؛ هذه عقيدة عيسى: تشرك بالله أن تجعل عيسى هو الله أو ابن الله هذا الكفر والشرك.

ولذلك النصارى الذين يدعون الآن أنهم المسيحيون وأنهم على العقيدة المسيحية هذا كله كفر في كفر، وسيلقى الله عَزَّ وَجَلَّ بهذه العقيدة وستكون مأواهم النار.

النبي ﷺ يقول: **«مَا مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»**. فالذين يدعون أنهم على اليهودية والنصرانية الآن واستمروا عليها وماتوا عليها موعدهم النار، والأمر خطير جدًّا.

ولذلك سورة البقرة تناقش اليهود في عقيدتهم، وسورة آل عمران تناقش النصارى في عقيدتهم، والله بيَّن لنا أحسن بيان في عقيدة عيسى لما قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 72]، هذه العقيدة الصحيحة.

ولذلك انظر الآن الآيات التي معنا سنتحدث عنها هي الآية الـ 64 من سورة آل عمران تتحدث عن بيان العقيدة الصحيحة وهي إخلاص العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه الآية وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64]، وأنتم على ما أنتم عليه.

هذه الآية النبي ﷺ كان يرسلها يكتبها في رسائله إلى جميع الطوائف، وأرسلها إلى هرقل ملك الروم لتقرأ عليه لتقوم الحجة عليه. هذه الآية حتى نفهمها جيدًا النبي ﷺ كان يقرأها في ركعتي الفجر يعني في سنة الفجر ماذا تقرأ من السنة إذا جئت تصلي ركعتي سنة الفجر؟

- ما السنة التي يستحب لك أن تقرأ فيها؟

بعد الفاتحة تقرأ في الآية الأولى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: 1] وفي الركعة الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]؛ إخلاص العبادة لله في أول الصباح قبل أن تصلي صلاة الفجر تخلص العبادة لله.

وورد عنه ﷺ أنه كان يقرأ في الركعة الأولى في سنة الفجر يقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: 136] إلى آخر الآية، هذه الآية واردة في سورة البقرة في الرد على اليهود هي الآية 136.

وفي الركعة الثانية يقرأ هذه الآية، هذه سنة قد يجهلها كثير من الناس: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: 64]، هذه الآية 64 في سورة آل عمران يقرأها ﷺ في الركعة الثانية من السنة سنة الفجر، فالأولى في اليهود والثانية في النصارى لإخلاص العبادة لله والتجرد لله وعدم موافقة هؤلاء على عقائدهم ولا هؤلاء.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه: قل يا محمد ويدخل في ذلك كل مخاطب، يا أهل الكتاب اليهود والنصارى تعالوا، كأنهم في مكان سقطوا فيه هاوية يقول تعالوا إلى العلو، من العلو تعالوا ارتفعوا بالتوحيد إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، كلمة نستوي نحن وإياكم عليها هي عقيدة التوحيد وإخلاص العبادة لله.

- ما هي؟

قال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [آل عمران: 64]، لا عيسى ولا مريم ولا أي معبود ولا أي مخلوق ولا حجر ولا شجر، ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 64]، ولا شيء تشرك بالله؛ لو أشركت ولو شيء ولو قربت ذبحت ذبابًا لغير الله أشركت، لا تشرك بالله شيئًا.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 64]، اليهود والنصارى يعظمون رؤساءهم ويعظمون علماءهم وأحبارهم، فإذا قال لهم أحبارهم افعلوا كذا وإن كان كفرًا بالله أطاعوه أطاعهم.

ولذلك عدي بن أبي حاتم لما جاء الرسول قال: ما أشركنا يا رسول الله، قال: **«أَلَيْسَ تُحَلِّلُونَ مَا أَحَلُّوا وَتُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمُوا؟ قَالَ: بَلَى: تِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»**.

ولذلك الله يقول هنا قال: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 64]، لا تجعل المخلوق ربًّا لك ربك الله هو الذي خلقك، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ هؤلاء ولم يقبلوا هذه الدعوة ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

اشهدوا بأنا مسلمون، هذا هو التوحيد وهذا الإسلام لله، إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأنبياء وهو خليل الله، ولذلك يتنازع كل من هذه الطوائف؛ اليهود يقولون إبراهيم يهودي، والنصارى يقولون إبراهيم نصراني، والمشركون يدعون أن إبراهيم على عقيدتهم، كل هؤلاء رد الله عليهم

وأبطل عقيدتهم، إبراهيم على عقيدة التوحيد يعبد الله ولا يشرك به شيئًا، على عقيدة الحنيفية حنيفًا لله.

ولذلك اقرأ ماذا قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: 65]، لماذا تقولون إن إبراهيم يهودي أو نصراني؟

والتوراة ما أنزلت إلا بعد والإنجيل ما أنزل إلا بعد، ولذلك يقول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 65]، وين عقولهم؟

موسى جاي بعد إبراهيم، وعيسى بعد إبراهيم، والتوراة أنزلت بعد ما مات إبراهيم بسنين طويلة، تدعون أن إبراهيم يهودي أو نصراني؟ هذا كله كذب في كذب.

ولذلك يقول الله: ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: 66]، يقول عندكم التوراة وعندكم علم وتحاجون في أشياء واضحة، ولماذا تحاجون ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: 66]؟ لماذا تحاجون في إبراهيم وتقول يهودي أو نصراني وتصنفونه في عقيدته؟ وهذا كله كلام غير مقبول، قال: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 66]؛ الله هو الذي يعلم التاريخ ويعلم متى أُرسل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومتى جاءت اليهودية والنصرانية.

ولذلك انظر الجواب جاء قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: 67]، ولكن هذه حقيقة إبراهيم: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: 67]، متجردًا لله، حنيفًا يعني مائل عن جميع الأديان كلها ومقبل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذا هو إبراهيم، ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67]، ما كان من المشركين مشركي مكة إذا يدعون أنهم كفار مكة أنهم على عقيدة إبراهيم.

إبراهيم يتبرأ من الكفر وعبادة الأصنام ولا يهود ولا نصارى، وإنما إبراهيم على عقيدة الحنيفية السمحة عقيدة التوحيد وعبادة الله، وهؤلاء يدعون أنهم أتباع لإبراهيم كل هذا كلام فارغ كلام مردود عليهم ولا يقبله، ورد الله عليهم وأبطل حجتهم في ذلك.

- من هم أتباع إبراهيم؟

ليست النصرانية ولا اليهودية ولا المشركين، من هم أتباع إبراهيم؟ اسمع ماذا يقول الله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: 68]؛ هم الذين تبعوه في عهده وأسلموا على عقيدته.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الممتحنة: 4]، يعني هم الذين اتبعوا في عهده هم الذين أولى بإبراهيم.

عرفنا الذين اتبعوا، قال: ﴿وَهَٰذَا النَّبِيُّ﴾ [آل عمران: 68] وهو محمد ﷺ؛ محمد أمره الله بأي شيء؟ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل: 123]، والله أمرنا نحن جميعًا قال: ﴿وَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، فهذا هم الذين هم أولى الناس ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 68]؛ أي أتباع محمد من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، هم أولى الناس بإبراهيم، أنت وفلان وفلان أتباع محمد هم أولى الناس باتباعه باتباع عقيدة إبراهيم.

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 68] المؤمنين الذين آمنوا بإبراهيم وحقيقة إبراهيم، أما يهودية ونصرانية فكل ذلك غير صحيح كل ذلك غير صحيح.

ولذلك يذكر الله عقيدة التوحيد في عيسى وفي إبراهيم وفي محمد ﷺ، وأهل الكتاب كل غرضهم من ذلك وهدفهم حتى الآن ما يسمون بالمسيحية أو ما يسمون بالتنصير والتبشير كل ذلك دعوة إلى الكفر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإبطال الإسلام.

ولذلك اسمع قال: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ تتمنى ماذا؟ ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ [آل عمران: 69]، أنتم أهل التوحيد لو يضلونكم، ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ أولًا ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: 69]؛ هم على ضلال ويريدون أنتم أن تكونوا على ضلال.

ولذلك الله ذكر في سورة البقرة قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120]؛ ما كفاهم أنهم على عقيدة باطلة، يريدون للمسلمين أن يكونوا معهم في عقيدتهم الباطلة.

والله يخاطبهم ويناديهم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: 70]، لمَ تكفرون بآيات الله؟ آيات الله أمامكم ومحمد أمامكم والقرآن، لماذا تكفرون بآيات الله ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [آل عمران: 70] حقيقته؟ تعرفونه؛ يعرفون محمدًا ﷺ كما يعرفون أبناءهم. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [آل عمران: 71].

- لماذا تخلطون الحق بالباطل؟

الحق واضح والباطل واضح، لماذا تخلط هذا بهذا؟ هم يريدون خلط هذا بهذا ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ وأنتم تعرفون، ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 71].

حقيقة موضوع مثل هذه الموضوعات التي تغيب عن كثير من الناس في عقائد مهمة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنعم علينا بعقيدة الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ وعبادته، هذه نعمة عظيمة ينبغي أن نشكر الله عليها، وأن نعرف عقائد هؤلاء العقائد الباطنة الكفرية الضلالية، ينبغي أن يتعلمها المسلم وأن نربي أبناءنا على عقيدة التوحيد وطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ.

وأن عيسى هذه عقيدة المسلم عبد الله ورسوله، وأن كلمته ألقاها هذه تلقى الله بها ألقاها إلى مريم وروح منه؛ هذا هو قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 72].

نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا ويجعلنا وإياكم هداة مهتدين، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه.

(65)
(آل عمران 72-83)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي، وأسلم على أشرف الأنبياء، والمرسلين؛ نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا المجلس الطيب من مجالس الذكر، الذي تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة.

أيها الإخوة؛ درسنا المعتاد في كل أسبوع من بعد صلاة المغرب من كل يوم أربعاء مع تفسير القرآن العظيم؛ وقف بنا الكلام في لقائنا الماضي عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: 72].

لما تقرأ هذه الآية، وتقرأ أيضًا ما قبلها من الآيات؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحذر هذه الأمة من أعدائها، وأشد عداوة للمؤمنين؛ اليهود والذين أشركوا، وأهل الكتاب لا يزالون في كل زمان، وفي كل مكان يحاولون طمس هذا الدين؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: 8].

ولكن الله يأبى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا أن يتمه مهما كان، ولو تكالب عليه الأعداء في زمان من الأزمنة؛ إلا يظهر ولو مع الزمن لابد أن يبقى هذا الدين، والله حافظ دينه.

في هذه الآيات التي نقرؤها بيان شدة عداوة هؤلاء اليهود والنصارى للمسلمين، ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: 72]، طائفة يعني أناس من أهل الكتاب، ومجموعة من أهل الكتاب. قالت طائفة منهم هذا من خبثهم وعداوتهم وكيدهم للإسلام والمسلمين؛ قالت طائفة منهم قالت: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: 72]، يعني آمنوا بالإسلام وادخلوا فيه، وآمنوا بالقرآن، وآمنوا بمحمد وجه النهار؛ يعني أول النهار.

لماذا قالوا آمنوا به وجه النهار؛ أول النهار، واكفروا آخره وارجعوا؟ لماذا قال لعلهم يرجعون؟ أي المسلمون، وخاصة حديثي العهد بالإسلام الذين دخلوا الإسلام؛ هم ينظرون إلى اليهود والنصارى على أنهم عندهم علم وعندهم كتاب؛ فإذا نظروا إليهم ورأوا أنهم دخلوا في الإسلام ثم رجعوا.

قالوا: **"هذا يدل على أنهم ما اقتنعوا فيه ولم يرضوا به، وهذا يدل أيضًا على أن محمدًا ﷺ كاذب في دعوته، وأنه يريد الرئاسة، ويريد كذا وكذا"**؛ فهم يريدون تشكيك المسلمين في دعوة محمد ﷺ.

هذا من خبثهم، والله يكشف لهم خبائثهم التي يدسونها؛ يقول بعضهم لبعض: ﴿وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: 72].

ومن خبائثهم أيضًا قالوا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: 73]؛ أي إلا لمن كان على دين اليهودية أو النصرانية، أما دين محمد؛ دين الإسلام، فلا تتبعوا، لا تؤمنوا به، رد

الله عليهم قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 73]؛ لا دينكم، ولا أي دين، الهداية هداية الله.

﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 73]؛ يعني أن الهداية بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يختص بهدايته من يشاء، ويهدي من يشاء؛ أما إنكم تشوهون صورة الإسلام بإيمانكم في أول النهار وكفركم؛ هذا ردة منكم وتلاعب ونفاق منكم، ولن يضر المسلمين هذا الشيء.

ولذلك ما ارتد من المسلمين أحد دخل في هذا الدين بسبب مقالة هؤلاء، أو نظر إلى مقالتهم؛ مقالة باطلة تافهة لا يلتفت إليها؛ فالهدى هدى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 73]؛ يقولون لا تؤمنوا إلا لمن تبع ديننا؛ لأنكم أنتم أوتيتم ما لم يؤت أحدًا، فهم يحسدونكم على دينكم؛ ولذلك إذا قرأت الآية في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 73].

هذا رد من الله عليهم، وبعدها لا يزال الحديث من حججهم الباطلة؛ يقول بعدها كأن هذه جملة معترضة: ﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 73]؛ يقولون لا تؤمنوا، لا تتبعونهم، اجلسوا على دينكم؛ لأنكم إذا اتبعتموهم كانت حجة عليكم يوم القيامة، يحاجوكم عند ربكم.

﴿أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ [آل عمران: 73]؛ أنتم أهل الاختصاص، وأنتم أهل الدين، وأنتم أهل الشريعة، وما سواكم لا قيمة له؛ فيقول: ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 73].

رد الله عليهم أيضًا قال: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 73]؛ لا تظنوا أن فقط الدين هو دينكم أيها اليهود والنصارى، أو أنكم أعطيتم ما لم يعط أحد من الناس؛ إن الفضل بيد الله، والله يتفضل على عباده كما تفضل على نبيه محمد ﷺ، وعلى هذه الأمة.

فهذه الأمة هي خير الأمم، ونبيها خير الأنبياء؛ ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 73]؛ يعني واسع العطاء والخير، وعليم بمن يستحق من ينال هذا العطاء ومن لا يناله، وإلا فضل الله واسع، لكن لا يعطيه من لا يستحقه؛ والله سبحانه يعطي من يشاء بعلم، بعلم من يستحق ذلك؛ ولذلك لاحظ دائمًا إذا جاء اسم الواسع لله يأتي معه اسم العليم؛ أي واسع، ويوسع، ويتفضل، ولكن بعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال الله بعدها: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: 74]؛ وقد اختص هذه الأمة برحمته، ردًا على اليهود الذين يدعون أن الهداية بيدهم، وأن العلم علمهم، وأن الكتاب والشريعة شريعتهم فقط؛ هذا كله كذب.

ولذلك رد الله قال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [آل عمران: 74]؛ أي أن الله واسع الفضل والعطاء، كثير، عظيم عطاؤه، وهو الذي يختص، والذي يتولى هذا الأمر هو الله؛ لا اليهود، ولا النصارى، ولا أي طائفة من طوائف العالم تستطيع أن تدبر الكون، أو تستطيع أن تصنع مثل هذا الشيء إلا لله عَزَّ وَجَلَّ، هو الذي اختص بذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال أهل الكتاب، وأنهم ليسوا على طريقة واحدة؛ تجد منهم من عنده الوفاء، وعنده احترام الآخرين، وتجد من عنده الخيانة؛ ولذلك يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى يقيم العدل في الحكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهؤلاء اليهود والنصارى.

قال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: 75]؛ يعني لو تستأمنه على مبلغ كبير جدًا، وتضعه عنده، تقول: **"هذا أمانة عندك"**؛ تجد منهم من يؤدي الأمانة، ويخاف الله، ويرد الأمانة إلى أهلها وإن كان المال كثيرًا؛ والقنطار هو المال الكثير، يؤده إليك.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: 75]؛ يعني طائفة أخرى من إن تأمنه بالمال القليل لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائمًا، حتى تطالبه وتلاحقه، وتديم المتابعة له؛ مثل هذه الحال ممكن أن يؤدي لك، إذا حكم الله حكم العدل؛ فيهم من يؤدي الأمانة ويخاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومنهم من لا يبالي بذلك إلا ما دمت عليه قائمًا.

لماذا لا يؤدي؟ لماذا الذين لا يؤدون الأمانة ولو كان شيئًا قليلًا كالدينار ما يؤدون؟ لماذا ما حجتهم؟ لماذا هم لا يأبهون بالعرب، بالمسلمين العرب؟ لا يأبهون بهم ولا يلقون لهم أهمية.

اسمع ماذا يقول الله؛ قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75]، يقصد العرب؛ يقولون: **"ما علينا حرج، ولا علينا إثم إذا أخذنا أموال المسلمين والعرب"**؛ هذه عندهم، هم يعتقدون ذلك.

يقولون: **"نحن أولياء الله، ونحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أقرب الناس إلى الله، ونحن أهل العلم والكتاب، والعرب لا يلتفت إليهم، هم تحت حكمنا، نأخذ أموالهم"**؛ ولذلك إذا أعطوا أمانة من المال، ولو شيئًا قليلًا كالدينار، أخذه بعضهم بحجة أنهم فوق الأميين، وأن أخذ هذه الأموال لا بأس ولا حرج فيه، ولا إثم فيه.

إذا أخذ يقول؛ انظر: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: 75]؛ أي ليس علينا إثم، ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75]؛ يكذبون على الله، يقولون: **"هذا الذي أمرنا الله؛ أن نأخذ أموالكم، نصادر أموالكم؛ لأن هذا موجود عندنا في التوراة"**، ويكذبون على الله.

قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 75]. رد الله عليهم قال ماذا؟ قال: ﴿بَلَىٰ ۚ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 76]؛ بلى عليكم إثم.

ولذلك انظر بعض الناس يقرؤها قراءة خاطئة؛ يقول ﴿بَلَىٰ ۚ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾ [آل عمران: 76]؛ لا، ما له علاقة هذا؛ **"بلى"** هذا رد، جواب؛ بلى عليه سبيل، لأنهم قالوا ماذا؟ ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: 75].

قال: بلى عليكم إثم، وعليكم سبيل؛ ويقولون على الله الكذب، يكذبون على الله، بلى إن قولهم هذا كذب، وإن عليهم الإثم إذا أخذوا أموال الناس بغير حق؛ ولذلك جاءت الجملة الجديدة هذه شرطية: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 76]؛ يعني أعطيته أمانة فأوفى بها وردها إليك، من أوفى بعهده واتقى الله؛ فإن الله يحب المتقين.

أما تأخذ أموال الناس وتصادرها، وتقول: **"هذا ليس علينا إثم في حقوق الناس"**؛ هذا ليس صحيحًا، ولا يقبل ذلك، اقرأ الآية التي بعدها فيها الوعيد الشديد لمن يأخذ أموال الناس كذبًا، وزورًا، وأيمانًا كاذبة.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 77]، وهذا وعيد شديد.

يشترون بعهد الله؛ لما يأتي إليك ويقول لك: **"هذه أمانة، ضعها عندك، احفظها عندك"**، ثم تأخذها وتجحدها؛ هذا قد ماذا فعل؟ قد اشترى بعهد الله وبإيمانه؛ لأنه قد يؤتمن على هذه الأمانة، ويقال له: **"أعطنا الأمانة"**، فيقول: **"ما أعطيتني أمانة أصلًا، وليس عندي لك مال، وليس لك عندي مال"**؛ فيقول: **"تحلف؟"**.

قال: **"أحلف؛ أي مال؟ إنك ما أعطيتني شيئًا"**. فيشترون، ويأخذون أموال الناس بعهود يجحدونها، وبأحلاف وأيمان يكذبون بها، وهذه وإن كانت في اليهود والنصارى؛ هي عامة في

كل إنسان، أي شخص حتى من المسلمين تعطيه مالًا، تؤمنه على شيء، ثم يخون الأمانة ويحلف أيمانًا.

أحيانًا عند القضاء، لما ترفع قضيته عند القاضي يقول: **"والله ما أعطاني ولا ريالًا، ولا استلمت منه شيئًا"**، **"تحلف؟"**، قال: **"أحلف أيمانًا"**؛ وهو يكذب، يحلف أيمانًا ويشتري بعهد الله؛ أين العهد؟

عهد الأمانة؛ قال: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77]؛ حتى يأخذ هذا المال القليل.

- ما النتيجة؟

النتيجة وعيد شديد ترجف له القلوب حقيقة؛ مثل هذا الأمر الذي يتساهل فيه كثير من الناس، يأخذون أموال الناس بالباطل؛ أسلاف وحقوق عندهم، وأحيانًا ليست كثيرة؛ يعني مع الأسف أنها أشياء تافهة.

يأتي بعامل يشتغل عنده؛ إما عامل في السباكة، أو الكهرباء أو نحوها، أو الدهان وغير ذلك؛ يأتي بعامل يتفق معه على مائتي ريال، ثلاثمائة ريال، خمسمائة ريال أن يعمل عنده.

ثم إذا انتهى قال: **"ما عملت عندي، وليس لك حق عندي"**، أو يقول: **"أنا أعطيتك خلاص"**، ويجحد عمله وحقه؛ فجحد حقوق الناس، أكل أموال الناس.

النبي ﷺ حذر؛ قال: **«إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ»**.

- كيف تأخذ حق أخيك المسلم بغير وجه حق؟

ولذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77].

ونسمع قضايا في المحاكم ترفع، وحتى لو كانت أشياء تافهة؛ جحود أموال الناس، وأخذ أموال العمال المساكين، وهذا يدخل في هذا الوعيد الشديد، أنت لما تقرأ هذا الوعيد الشديد يكفيك؛ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77].

- ما النتيجة؟

حتى لو راح في الدنيا، وهذا المسكين العامل جاء يطالب بحقه ولم يستطع أن يرفع قضية عليك، ومشى وذهب؛ لك موعد معه عند الله، سيقف أمام الله، وعند الله تجتمع الخصوم.

فسيأتي يوم القيامة، انظر ماذا قال الله فيه؛ قال: ﴿أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77]؛ ليس لهم حق في الآخرة، هذا أول وعيد شديد، وأول عقوبة؛ لا خلاق لهم في الآخرة، لا حظ لهم في الآخرة، حرموا منها بسبب هذا الشيء.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 77]؛ لا يكلمهم الله كلام تكريم، قد يكلمهم كلام عقوبة كقوله: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: 108]، أو يقول: **"أين شركائي؟"**؛ لكن هنا كلام التكريم، لا يكلمهم الله؛ فيحرمون من كلام الله.

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: 77] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ نظر رحمة، ما ينظر إليهم، بل وعيدهم أشد؛ فلا ينظر ولا يلتفت إليهم متى؟ يوم القيامة.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: 77] على أعمالهم؛ أعمالهم ما نفعتهم، ما يزكيهم على أعمالهم.

والنتيجة الأخيرة: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 77]. هذا لمن اقتطع مالًا حرامًا، أخذ أرضًا له، أو أخذ سلعة له، أو أخذ حقًا لإخوانه؛ ويدخل في ذلك كما ذكرنا اليهود والنصارى الذين يأكلون أموال المسلمين بغير حق، ويحتجون بأن الله قد أذن لهم في كتابهم؛ كل ذلك كذب وزور.

انظر كم وعيد! يقول: ﴿لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 77]؛ خمسة أمور، والله الواحدة منها تكفي في عقوبة من يتعدى على أموال المسلمين.

يقول ﷺ: **«مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ؛ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»**، قال رجل: **"ولو كان عود أراك (مسواك)؟"**؛ قال: **«وَلَوْ كَانَ عُودًا مِّنْ أَرَاكٍ»**. كيف تأخذ مالًا، وتجحد، وتمشي، ولا تبالي؟

تعود الآيات إلى هؤلاء اليهود والنصارى؛ يقول: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ [آل عمران: 78]، والله عَزَّ وَجَلَّ ما يعمم؛ وهذا من حكمه العدل، ما يعمم، ما يقول كلهم؛ لأن بعضهم ماشٍ على الطريق الصحيح.

ولذلك يقول: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ﴾ [آل عمران: 78]؛ يعني يحرفونه بألسنتهم، يغيرون ويحرفون بألسنتهم، تحريف باللسان. ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: 78]؛ تظن أنه من الكتاب، يقرأ عليك ويحرف ويبدل، وهذه طريقتهم.

هم يحرفون الكلم عن مواضعه كما ذكر الله؛ ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 78]؛ هذه طريقتهم، طريقة بعضهم وليس الجميع، إن منهم أهل التحريف الذين يحرفون القول على الله ويكذبون.

ويقولون: **"إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يؤثمنا، ولا يعاقبنا في حقوق الناس"**؛ هذا كلام غير صحيح، ويحرفون يأتونك بالتوراة تقول اقرأ؛ وهم يحرفون التوراة، ويغيرون، ويلوون ألسنتهم لتظنوا أن هذا من الله وليس من الله.

ادعت اليهود والنصارى؛ وخاصة نصارى نجران الذين جاؤوا للنبي ﷺ في السنة التاسعة في عام الوفود، جاءت الوفود إلى الرسول ﷺ في المدينة، وكان من ضمن هذه الوفود وفد نصارى نجران؛ جاؤوا للرسول ﷺ وقالوا: **"إن عيسى الذي أنت تقول إنه عبد الله ورسوله؛ يامرنا أن نعبده، وأن نكون عبادًا لعيسى، وعيسى هو ربنا"**.

ورد الله عليهم كما ذكرنا في آيات كثيرة؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 79].

مستحيل ما كان لبشر؛ مثل عيسى، ومثل موسى، والله يختار أنبياء أصفياء، يؤدبهم بالآداب الحسنة، ثم يأتي يفترون على الله؛ هذا شيء مستحيل؛ ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كونوا عِبَادًا لي مِن دونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 79].

- هل يمكن؟

هذا كلام غير صحيح، هم يدعون النصارى يقولون إن عيسى يأمرنا أن نعبده؛ رد الله عليهم قال ما يمكن، مستحيل؛ ما يمكن لعبد يختاره الله للنبوة، ويصطفيه للرسالة؛ يأتي إلى الناس يقول: **"اعبدوني من دون الله"**، هذا لا عيسى ولا غيره؛ عيسى ماذا قال؟ قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 72].

ولذلك قال: ﴿وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79].

- من هو الرباني؟

الرباني الذي وصل في علمه إلى أعلى درجات العلم والرسوخ في العلم؛ حتى بدأ يربي الناس على العلم، هذا يسمى ربانيًا. ﴿رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: 79]؛ تعلمون الناس الكتاب، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79]؛ الدراسة التي أوصلتكم إلى هذه المنزلة، فالأنبياء تحتهم الربانيون؛ فالأنبياء أعلى درجة يوحى إليهم، والربانيون هم أتباع الأنبياء الذين تربوا على أيدي الأنبياء.

فما يمكن أن يقول الأنبياء: **"كونوا عبادًا لي"**، أو **"نحن اعبدونا"**؛ لا ما يمكن، وإنما يقولون: **"كونوا ربانيين"**، علموا الناس مثلما نعلم نحن، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر هنا؛ قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: 81]؛ هذا الله أخذ الميثاق، فكيف يأتي عيسى ويقول اعبدوني من دون الله؟ أخذ الميثاق على الأنبياء كلهم؛ من أولهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى آخرهم محمد ﷺ.

أخذ الميثاق على الأنبياء؛ ﴿لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ﴾ [آل عمران: 81] أنزلت عليكم، ﴿وَحِكْمَةٍ﴾ علمتكم الحكمة، وجاءكم رسول مصدق وهو محمد ﷺ: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: 81]. فإذا كانت هذه وصية الله للأنبياء؛ فكيف بأتباع الأنبياء كاليهود والنصارى؟ ثم: ﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: 81]؛ أيها الأنبياء، ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ [آل عمران: 81]؛ في أي شيء؟ قالوا أقررنا أن نؤمن بنبيك ونتبعه.

﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81]؛ فهذه وصية الله للأنبياء باتباع محمد ﷺ على دينه؛ ولذلك ماذا نفهم من هذه الآية؟

نفهم أن وصية الله للأنبياء باتباع محمد هي وصية الله لأتباع الأنبياء والخلق كلهم؛ بالدخول في دين محمد واتباع محمد. ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 82]؛ فدين الله هو دين الإسلام، الدخول في الإسلام من اليهود والنصارى؛ أما بقاؤهم على دينهم ودعواهم أنهم يبقون على دينهم؛ هذا كلام لا يقبله الشرع ولا يقبله الله.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 83]؛ هذا دين الله هو دين الإسلام.

- هل يريدون غير هذا الإسلام؟

وقد انقاد الخلق كله طوعًا وكرهًا، حتى الكافر منقاد لدين الله، مقر بأن الله هو الواحد الأحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ طوعًا وكرهًا وإليه يرجع الخلق كله، لا نشك في دين الإسلام في حقيقته؛ وأنه دعوة عالمية يجب على الخلق كلهم الدخول في هذا الدين واتباعه، لأنه قد خضع لله جميع المخلوقات واتبعوه طوعًا (طاعة) وكرهًا.

وجميع الخلق سيرجعون إلى الله، ويبعثهم الله ويجازيهم على أعمالهم. نقف عند هذا القدر؛ نسأل الله أن ينفع بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

(66)
(آل عمران 84-92)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، درسنا في هذه الليلة وفي هذا اليوم، يوم الأربعاء الموافق للسابع عشر من شهر شوال من عام 43، درسنا في تفسير القرآن العظيم، وفي سورة آل عمران، الحقيقة، يعني مثل هذه الدروس المباركة، خاصة تتعلق بالقرآن الكريم وتدبر القرآن الكريم.

كثير منا يقرأ القرآن، تمر عليه آيات يحتاج إلى بيان توضيح، فضلاً عن أن هذا مجلس مبارك، يجلس فيه الإنسان، ويتدبر ويتأمل وتحفه الملائكة، إلى ما فيه من فضائل عظيمة.

لو أنك تجلس مجلسًا مثل هذا في آية واحدة فقط، آية، يعني القرآن أكثر من 6000 آية، لو جلست مع آية واحدة تتأملها وتدبرها، خير من الدنيا وخير مما طلعت عليه الشمس.

فنجلس نتدبر ونقرأ ونستفيد، والقرآن هذا يخاطب الله به، يخاطبني ويخاطبك ويخاطب كل مسلم، ونحن بحاجة إلى توجيهات الله، وهو أرحم الراحمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وألطف وأرأف يعني بعباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فينبغي أن إذا مرت مثل هذه الآيات، والله يخاطبنا، أن نقف عندها ونتأملها.

عندنا من الآيات التي يعني وقفنا عندها الآية 84 من سورة آل عمران، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84].

هذه عقيدة المسلم، عقيدة المسلم في الإيمان بالله، والإيمان بالرسل، والإيمان بالكتب المنزلة، الله يخاطب نبيه محمدًا ويقول: قل يا محمد، يخاطب محمدًا، ومحمد يخاطب من؟ نحن نعرف هذه السورة وجلسنا معها جلسات ماضية، أنها تبين خطورة أعداء الإسلام من اليهود والنصارى المنحرفين في عقائدهم، منحرفين في عقائدهم.

ونحن جميعًا والمسلمون يتفقون على أن الدين عند الله، كما سيأتي الآن وكما مر معنا، الإسلام.

الله قال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 83]، وقال بعدها كما سيأتينا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]. لا دين يهودية، ولا دين نصرانية، ولا أي دين من الأديان إلا دين محمد ﷺ. هذه يعني أمور ينبغي للمسلم أن يتعلمها تتعلق بالعقيدة.

قل يا محمد لهؤلاء: نحن آمنا بالله، أن تؤمن بالله، تؤمن بوحدانيته، بألوهيته، بربوبيته، أنه لا إله إلا هو، لا رب سواه، تؤمن بأسمائه الحسنى وصفاته العلى وتصف الله بها، وأنت تدعو: يا رب يا غفور يا رحيم، وتؤمن بوجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبقدرته وإحاطته وعلمه بكل شيء، هذا معنى الإيمان بالله.

ثم قال: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران: 84]، ما الذي أنزل علينا؟ القرآن الكريم، نؤمن بحقيقة القرآن.

- لو شاء سألك واحد قال لك: ما هذا القرآن؟ ما حقيقته؟

الجواب: هو كلام رب العالمين، تكلم الله به فسمعه جبريل، فلما سمعه جبريل نزل به على محمد، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ 193 عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: 193-194]. فهذه حقائق ينبغي أن نتعلمها، ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ القرآن الكريم.

ثم قال: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: 84]، ما الذي أنزل على إبراهيم؟ ما هو الزبور ولا التوراة ولا الإنجيل، الذي أنزل على إبراهيم هي صحف إبراهيم التي ذكرها الله في سورة الأعلى: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: 19]. صحف إنا ما نعرفها ولا شفناها ولا اطلعنا، لكن نؤمن بها، نؤمن بها.

﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [آل عمران: 84].

- من هو إسماعيل؟

إسماعيل ابن إبراهيم وأمه هاجر، وإسحاق ابن إبراهيم وأمه سارة، ويعقوب، كثير من حتى من الشباب الذين تجدهم في المتوسط والثانوي وفي الجامعة، ونحن سألنا طلابًا في الجامعة: من هو إسحاق؟ والله ما يعرف، ما يعرف من هو إسحاق، من هو يعقوب؟ ما يعرف، يعقوب هذا حفيد لإبراهيم، يعني يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم.

قال: ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: 84]، طيب من هم الأسباط؟ كثير من الناس ما يعرف هذه الحقائق، ينبغي لك أن تؤمن بها، هذه عقيدة المسلم، الإيمان بالرسل عقيدة المسلم. أنت أركان الإيمان ستة، منها الإيمان بالرسل، الإيمان بالرسل أن تؤمن بهؤلاء.

- من هم الأسباط؟

هم هؤلاء ذرية يعقوب.

- كم أبناء يعقوب؟

12، يوسف لما قال: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]، وهو الثاني عشر، 12، اثنا عشر أسباط، هؤلاء وجد فيهم أنبياء يجب أن نؤمن بأن فيهم أنبياء، هذا معناه.

أما إخوة يوسف ليسوا أنبياء، يوسف هو الذي أوحى الله إليه وكلفه بالرسالة فقط من أبناء يعقوب، 12، يوسف الذي اختاره الله أن يكون نبيًا رسولاً، وأما البقية ليسوا أنبياء، رجال صالحين نعم، أبناء يعقوب نبي نعم.

قال: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ [آل عمران: 84].

- ما الذي أوتي؟

أعطاه لموسى الله، لو سألنا واحد والله ما بعضهم ما يشئ، الذي أنزله الله على موسى التوراة، التوراة والصحف؛ لأن الله قال: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: 19]. قال: ﴿وَعِيسَىٰ﴾ [آل عمران: 84] الإنجيل.

﴿وَالنَّبِيُّونَ﴾ [آل عمران: 84]، انظر قال: ﴿وَالنَّبِيُّونَ﴾ عشان تعرف كثرة الأنبياء، ليس فقط الذين عدَّهم الله عليك، بل هناك أنبياء كثيرون.

سأل أبو ذر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه النبي ﷺ قال: كم عدد الأنبياء؟ قال: **«مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا»** أنبياء.

قال: ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران: 84]. طيب، ما عقيدتك أنت في هؤلاء الأنبياء؟ لو سألك واحد قال: ما عقيدتك أنت، يعني ما موقفك من هؤلاء الأنبياء؟ هذه العقيدة الله ماذا يقول؟ قال: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [آل عمران: 84]، نؤمن بهم جميعًا.

اليهود يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض على ما تشتهي أنفسهم، عقيدة المسلم الإيمان بالرسل لأنهم رسل الله والله اصطفاهم واختارهم، فالكفر برسول كفر بجميع الرسل، فأنت تؤمن به، هذه عقيدة حقيقة لابد أن نعرف، ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾.

- ما هي النتيجة؟

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84]، يعني منقادون لله، وكلمة مسلمون حقيقة ينبغي أن تقف عندها، أنت مسلم معناه أنك منقاد لأمر الله، أمرك بالصلاة تصلي، أمرك بالزكاة تزكي، أمرك بالصيام، كل ما أمرك الله به تنقاد، هذا معنى الإسلام؛ هو الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة.

ولذلك انظر لما بيَّن لك العقيدة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ماذا قال بعدها؟ قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]. ما في إلا الإسلام، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، لما أوحى الله لمحمد وبعثه وأنزل عليه هذا القرآن، ما في عقيدة أخرى، ولا في إسلام آخر، ولا في أي شريعة، كل الشرائع باطلة إلا شريعة محمد؛ لأنه بُعث للثقلين الجن والإنس، بُعث للعالمين، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ في الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين.

انظر كلام مجمل، نتيجة: مسلم أبشر بالخير في الدنيا والآخرة، غير مسلم خسارة في الدنيا وخسارة عظيمة في الآخرة. وشوف لما يبيَّن لك الله حقيقة الإسلام، يبيَّن لك خطورة الخروج عن الإسلام.

في من يؤمن ويرجع عن دينه، وفي من يدخل بالإسلام ثم أحيانًا، حتى من أبناء المسلمين حقيقة، حتى من أبناء المسلمين من يتلفظ بالكفر والشرك ويرتد وهو لا يدري، لا يدري.

لو جاءك شخص قال لك: يا أخي حجاب المرأة وتغطية وجهها، قال: لا يا شيخ، هذه عادات ما أنزل الله بها من سلطان، هذا كفر. الله يأمرك بالحجاب، ويأمر المرأة بالحجاب، تقول: عادات تقاليد ما أنزل الله فيها من سلطان، وتكفر أحيانًا، الإنسان يتلفظ بالكلمة وهو لا يدري وتخرجه من الإسلام.

اسمع ماذا يقول: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 86]. هذا استفهام يعني بمعنى النفي، يقول لا يمكن ولا يمكن.

- كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم؟

دخلوا في الإيمان وعرفوا الإيمان ثم كفروا، كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات، والنتيجة: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ لأنهم ظلموا أنفسهم، دخلت في الإيمان ثم خرجت هذه مشكلة.

- ولذلك ماذا قال الله في عقوبتهم؟

قال: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [آل عمران: 87]. انظر شدة العقوبة في الردة، والناس يدرون، أحيانًا يتلفظ تجده يجلس مع المسلمين ويعيش مع إخوانه وهو ملحد وكافر ولا يدري، وهذه مشكلة.

- انظر النتيجة ماذا قال؟

قال: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، جميع الملائكة تلعنه والناس أجمعين، هذه عاقبة الردة والكفر والخروج عن الإسلام، تعرف الحق ثم تتركه وتكفر بالله، وتكفر برسلك، وتكفر بما أُنزل، ثم تأتي تتحدى وتلحد وتحاد الله عَزَّ وَجَلَّ، وتحاد رسوله، هذه النتيجة: عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [آل عمران: 88]. حقيقة يعني نحتاج إحنا حقيقة نحتاج أن نعيش مع القرآن، هذه انظر كيف الكلام كيف يمر عليك مثل هذه الآيات لا تحرك فيك شيئًا.

انظر، ومن رحمة الله هؤلاء يعني يعطيهم الله الفرصة، يعني مثل ما هذا ارتد فكفر وكذا، يفتح الله له فرصة الرحمة والمغفرة، ارجع إلى الله ويتوب الله عليك، ولذلك انظر اقرأ ماذا قال؟

قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 89]. تتوب وتصلح عملك مع الله، فالنتيجة ماذا قال؟ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

إذا ارتد أو كفر أو لم يدخل الإسلام، ثم رجع إلى الله وأقبل إلى الله وتاب، فإن الله يقبل توبة. متى؟ مادام في الحياة، مادام الفرصة معه، أما إذا جاء نزل به الموت أو مات، ما يقبل الله منه.

ولذلك اسمع حتى تفهم الآيات بعضها ركب على بعضها، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: 90]. يعني ارتدوا وكفروا وازدادوا كفرًا لن تقبل توبتهم، لن تقبل توبتهم إن ماتوا، أو لن يوفقوا للتوبة، لن يوفقوا للتوبة، ما يتوب، أو أن هؤلاء يعني من الصعب أن يعود؛ لأنه كفر وزاد، نادر أن تجده يرجع إلا من رحم الله. هذا جنس من الناس، وخذ من يموت على الكفر.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 91].

كفروا وماتوا وهم كفار، فلن يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا. لو جاء بملء الأرض، انظر الأرض على سعتها الآن، مساحات واسعة، لو ملأ الأرض هذه كلها ذهبًا وقال: يا رب هذا ذهب كله ذهب، أريد أن أقدمه عشان أتخلص من النار.

- ما هي النتيجة؟

قال: لن يُقبل، لن قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾، وهذا مستحيل، مستحيل، تعليق على المحال، ما يمكن أن يأتي ولا بمثقال من ذهب يوم القيامة، من وين؟ طالع من قبره ما عليه ثياب، من وين يجيب؟ فكيف بيأتي بملء الأرض؟ هذا شيء تعليقًا لأن لو افتدى به.

قال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾، ينصرهم ويخلصهم من هذا العذاب، متى؟ إذا كفر وهو يعرف الحق وارتد، أو كان كافرًا ومات على كفره ولم يدخل في الإسلام.

شوفوا الآن كم قارات تحمل أعدادًا هائلة من الناس على الكفر، في قارات أوروبا وأمريكا وغيرها على الكفر، كم المسلمين؟ هؤلاء، هذا توعدهم الله بهذا الشيء، ادخل في الإسلام تسلم، ما في إسلام النتيجة هذه.

ولما تحدث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، انظر من رحمة الله وتوجيه للمؤمنين، لما خاطبنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبين لنا عقوبة الكافر أنه إذا مات لن يُقبل منه أبدًا يقدم أموالاً ما تُقبل منه، أنت في الدنيا الآن، إيش موقفك من الأموال؟ اسمع ماذا يقول الله: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92].

هذا في حث للمسلمين في الدنيا الآن، أنت المال بيدك، وحث لك، إذا جاءك الموت المال ليس لك، إذا انتقلت من هذه الدنيا المال للورثة.

يمكن لو يجي واحد يقول للورثة: أبوكم مات تصدقوا عنه، قال حتى قال بعد، قال: لو أراد أن يتصدق كان هو تصدق، يريد أن يتصدق عنه؟ لا حتى ما يتصدقون عنه، يعني يحثون عليه التراب ولا يتصدقون له.

فالفرصة معك الآن، والبر أعلى درجات، أعلى الدرجات، لن تصل إلى درجة البر حتى تنفق مما تحب، أما تنفق عندك ملابس متمزقة وأحذية - متمزقة وأشياء، وأثاث متمزق، والله نعطيه الفقراء، كيف يأخذ البر؟ هل هذه أصل البر اللي ما تريده أنت ولا تستطيع أن تلبسه تعطيه الفقراء؟ إذا أردت الصدقة الحقيقية، تصدق بالطيب، **«إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»**، تصدق بالطيب.

انظر هذه الآية عشان نختم المجلس، هذه الآية لها سبب نزول، وهو أبو طلحة الصحابي الجليل. أبو طلحة عنده مزرعة أمام المسجد النبوي، كان النبي ﷺ يذهب -بيروحاء اسمها- كان يذهب النبي ﷺ ويشرب من مائها، كان ماؤها عذبًا، فيشرب من ماء ويتوضأ منها. لما نزلت هذه الآية ماذا فعل؟

قال: يا رسول الله والله لا أملك إلا هذه المزرعة، وهي صدقة لله، صدقة لله، فقال النبي ﷺ: **«رَبِحَ البَيعُ»**، **«اجْعَلْهَا فِي الْأَقْرَبِينَ»**. دخل على أم طلحة وهي جالسة في المزرعة فقال: يا أم طلحة اخرجي بعنا المزرعة، قالت: كيف بعتها؟

قال: بعناها على رب العالمين، تصدقنا بها لله. خرج هو وزوجته من البيت من المزرعة وتركوها لله، هذا الذي يقول، هذا الذي يريد أن يصل إلى البر، ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

انظر قال لك: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ يعني الشيء اللي تحبه أنت أنفقه، طيب لو أحد أنفق ولو قليلة ولو لم يحبها؟ نقول يؤجر عليها، لو أنك تصدقت بشيء قليل أو شيء ما تحبه وتصدقت؛ لأن لا يضيع الله صدقتك.

ولذلك انظر قال: ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، أي شيء، ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾، وإذا كان الله به عليمًا فسيجازيك عليه ولو أي صدقة، لو عندك تمر متوسط أو أقل من متوسط وتصدقت به، لا تظن أن الله لا يؤجرك عليه، يعطيك أجرًا عليه، لكن التمر الطيب أفضل عند الله، حتى نعرف درجات الصدقات.

لو تصدقت بملابس نظيفة لكن ليست على مستوى عالٍ، نقول تؤجر عليها؛ لأن الفقير يناسبه هذا الشيء فتؤجر عليه، على قدر ويأتيك الأجر على قدر صدقتك، على قدر تمر طيب رز طيب.

ولذلك تجد بعض الناس في صدقة الفطر يروح يدور أقل سعر في الرز يشتريه، **«إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»**. ولذلك الله ماذا يقول؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27]، فينبغي أن يحرص الإنسان، لكن لو اشترى هذا الأرز سعره أقل شيء في السوق وتصدق به، نقول يؤجر عليه، لكن أجره أقل ممن يتصدق بالطيب.

أسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا وبما قلنا ويجعلنا وإياكم هداة مهتدين، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(67)
(آل عمران 93-101)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم، أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا المجلس، في هذا المسجد، مجلسنا مع القرآن الكريم، نقرأ آيات منه ونتدبر ونتأمل توجيهات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو ما يبينه لنا في هذه الآيات الكريمات.

السورة التي بين أيدينا هي سورة آل عمران، والآية هي الثالثة والتسعون من سورة آل عمران، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ [آل عمران: 93].

هذه الآية قد يقرأها الكثير ولا يستوعب معناها، ولا يدري ماذا، عما تتحدث؟ وماذا أراد الله بهذه الآية لما أنزلها؟ وأنت تقرأ هذه الآية والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في آخرها: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 93]؛ إذًا المسألة مسألة دعوى ومحاجة ونقاش مع أهل الكتاب.

وهذه الآية مع اليهود؛ اليهود يدعون دعاوى ويكذبون على الله ويكذبون على الرسل، وهم قتلة الأنبياء قتلة الصالحين، لا يريدون الحق ولا يتبعونه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقام عليهم الحجج في هذه السورة سورة آل عمران، وكذلك سورة البقرة.

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾ [آل عمران: 93].

- من هو إسرائيل؟

هذا إسرائيل هذا هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، يعقوب وهو أبو الأسباط، وهو سلالة اليهود كلها ترجع إليه، ولذلك يقال لهم بنو إسرائيل.

وإسرائيل في هذا معناها بالعربية **"عبد الله"**، **"إسرائيل يعني عبد الله"**، وهؤلاء ينتسبون ويدعون أنهم ينتسبون إلى يعقوب، ويعقوب بريء من أفعالهم السيئة وأكاذيبهم على الله.

هم لما جاءوا إلى الرسول ﷺ في المدينة قالوا: **"يا محمد، تأكل لحم الإبل؟"** قال: **"نعم"**. قالوا: **"إن أباك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قد حرمه على نفسه، كيف تأكله وأنت تدعي أنك تتبع ملة إبراهيم؟"** فقال: **"إن إبراهيم ما حرمه، ولا من كان قبل إبراهيم حرمه؛ إنما حرمه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم هذا الذي يقال له إسرائيل"**.

فكشف القرآن عن أكاذيبهم فقال: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [آل عمران: 93]. طعام، جميع الأطعمة كانت مباحة لبني إسرائيل وقبل بني إسرائيل، ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: 93].

- لماذا حرم على نفسه؟

"قالوا إنه أصيب بعرق النسا فقال: إن شفيت لأحرمن على نفسي أكل الجزر وشرب أبوالها" فلما شفي حرم على نفسه.

والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: 93]؛ يعني ما حرمه الله، هو حرمه على نفسه الأكل، لكن اليهود حتى الآن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرم عليهم أكل الإبل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: 146]؛ الإبل يدخل في ذلك فلا يأكلونه.

وسبب ذلك: ﴿جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: 146]؛ ظلمهم حرم الله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: 160]. فهم لما بغوا وظلموا حرم الله عليهم.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال لنبيه إذا حاجوك أو ادعوا عليك دعاوى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 93]؛ التوراة تفصل بيننا، أنتم تدعون أن هذا مذكور في التوراة، أعطونا التوراة، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 93]. أن الإبل محرمة على إبراهيم ومن قبل إبراهيم، فأتوا بالتوراة نقرأ التوراة ونشوف، ولذلك ما استطاعوا أن يأتوا بالتوراة، ما استطاعوا، ﴿فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 93].

- لماذا لا تأتون بالتوراة؟

إذًا كلامكم كله كذب في كذب، ولذلك اسمع الآية التي بعدها؛ حتى إذا قرأت القرآن تفهم أن مشكلتنا أن نقرأ القرآن ولا نفهم ماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: 94]. يا بني إسرائيل لا تكذبون على الله؛ ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: 94].

هم الظالمون، هم الذين ظلموا أنفسهم لما افتروا على الله الكذب، وقالوا إن إبراهيم فعل وحرم وفعل، وإن شريعته محرمة وأنت تدعي أنك تتبع شريعته وتخالفه؛ فقال الله عَزَّ وَجَلَّ هذا كذب في كذب: ﴿فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: 94].

ثم قال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 95]؛ قل صدق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله أصدق القائلين، وقوله حق وقوله صدق، أما دعاوى اليهود الكاذبة لا تقبل، الله هو الذي يخبر بالقرآن بالصدق، لما قال: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: 93] هذا هو الصدق، وإبراهيم بريء؛ إنما حرم إسرائيل أما إبراهيم فليس له علاقة.

تدعون هذه الدعاوى؛ ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 95]. إبراهيم هو الذي أمر بالتوحيد وعبادة الله وإفراد الطاعة له، عما تدعون أنه حرم وحلل؛ هذه كلها دعاوى كاذبة.

ولذلك قال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 95]؛ فلا تشركوا ولا تكفروا ولا تكذبوا على الله. ملة إبراهيم حنيفة هي الملة، العقيدة الصحيحة السليمة التي أمر الله، أمر محمداً؛ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 123].

واقرأ الآية اللي بعدها حتى تلاحظ الترابط القرآني، نفس الكلام؛ اليهود يدعون يقولون: **"يا محمد.."** هم يعني يحاولون أن يتمسكوا بأي شيء ضد الإسلام وضد محمد ليشوهوا صورة محمد ﷺ في المدينة وصورة الإسلام أمام الناس، هم يريدون هذا الشيء.

ولذلك شف قضية البيت، الكعبة، جاءوا للرسول ﷺ قالوا: **"يا محمد، أنت تدعي أنك على طريقة الأنبياء السابقين، وأنهم قدوة لك وتخالفهم"**. قال: **"خالفت في أي شيء؟"**

قالوا: **"تصلي إلى المسجد الحرام وتترك قبلة الأنبياء السابقين مهبط الوحي، والأرض المباركة التي هي مبعث الأنبياء، وكل الأنبياء السابقين يتوجهون إلى المسجد الأقصى وأنت تخالفهم، وهذا البيت المسجد الأقصى هو أول بيت وضعه الله وهو أعظم بيت"**. فرد الله عليه هذه دعاوى كاذبة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 96].

أما المسجد الأقصى؛ سئل النبي ﷺ: **«أَيُّ الْمَسَاجِدِ أَقْدَمُ؟»** قال: **«الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ»** الكعبة، مسجد الكعبة قيل: **«ثُمَّ أَيٌّ؟»** قال: **«الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى»** قيل: **«كَمْ بَيْنَهُمَا؟»** قال: **«أَرْبَعُونَ سَنَةً»**. أربعون سنة؛ المسجد الأقصى قيل إن الذي بناه هو يعقوب بناه بعد بناء إبراهيم بأربعين سنة.

والأفضل على الإطلاق المسجد الحرام؛ من صلى فيه صلاة واحدة عن مئة ألف صلاة، وفي المسجد النبوي عن ألف صلاة، وفي المسجد الأقصى عن خمس مئة؛ فكيف تقولون هذا يساوي هذا؟ ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: 96].

- من الذي وضع البيت؟ أول من بنى البيت من هو؟

قيل **"الملائكة"**، وقيل **"آدم"**، وقيل **"إبراهيم"**، وأكثر أقوال أهل العلم على أن إبراهيم؛ إبراهيم هو الذي بنى البيت لأنه أسكن ذريته بواد غير ذي زرع ما في بيت، ثم بنى البيت هو بنيت.

والله عَزَّ وَجَلَّ يقول في سورة أخرى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: 26]؛ هيأنا له مكان البيت فأقامه وبناه. قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: 96].

"بكة" اسم من أسماء مكة، وقيل **"بكة هي البيت ومكة هي الحرم كله"**، سمى مكة؛ وأما المسجد فيسمى بكة، وبعضهم يقول لا، مكة لها عدة أسماء: البلد الأمين، وتسمى بمكة وبكة وأسماء كثيرة.

- لكن لماذا سميت بكة بالباء؟

قالوا: **"لقلة مائها فيبكون الماء بكا"**.

وقيل: **"لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرم أن يعتدى على بيته فمكة تبك أو بكة تبك رقاب الجبابرة، من اعتدى عليه بكت رقبته "**كما يعني انتقم الله من أصحاب الفيل لما أرادوا هدم بيته.

قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: 96]؛ هذا البيت المسجد الحرام مسجد الكعبة مبارك.

- ما وجه البركة فيه؟

أولاً: تحط فيه الذنوب؛ إذا جاء الإنسان معتمراً حاجاً قادماً لهذا البيت يطوف به، سبب لمسح الذنوب وحط الذنوب.

سبب لمضاعفة الأجور؛ صلاة فيه عن مئة ألف، لو تجلس في أي منطقة من غير حرم عمرك كله ما تصل مئة ألف صلاة، صلاة واحدة مئة ألف صلاة، وكذلك الطواف لا يكون إلا في البيت، وأعمال كثيرة؛ الحج العمرة لا تكون إلا عند هذا البيت، فبركته عظيمة.

﴿مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: 96] حتى في مائه زمزم مبارك، أشياء كثيرة بركة الوقت، بركة الخير، بركة الفواكه فيه، الخيرات، الأطعمة، كل شيء فيه بركة.

قال: ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 96]؛ يهتدون به طريقهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في عباداتهم وهدايتهم، حتى في صلاتك الآن تصلي إلى المسجد الحرام تهتدي الطريق إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو هدى للعالمين؛ ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 96].

قال الله في تعظيمه حتى رداً على اليهود الذين يقولون المسجد الأقصى، رده الله عليهم بدأ يعظم بيته فقال: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ [آل عمران: 97]؛ آيات دلائل على عظمة هذا البيت، وعلى نعمة الله في هذا البيت، وعلى شريعته وعلى مكانة هذا البيت.

- ما هي الآيات البينات؟

قال منها: ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: 97]؛ مقام إبراهيم الذي قال الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125]. وهو معجزة عظيمة؛ لما بدأ يرتفع البناء بدأ إبراهيم يصعد على هذا الحجر الذي لا زال موجوداً الآن والله أبقاه كان يصعد عليه يتم البناء مقام إبراهيم، وأثر قدميه موجودة؛ مقام إبراهيم.

وكان ملتصقاً بجدار الكعبة الشرقي ما بين، بعد عنه قليلاً من باب الكعبة، ثم لما جاء في عهد عمر كثر الناس أزاحه إلى مكانه الموجود الآن؛ إلى مكانه هذا مقام إبراهيم، وقال: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: 97]. ولاحظ حتى إبراهيم له شرفه ومكانته؛ يعظمه الله بأن جعل مقامه مكاناً مقام إبراهيم.

قال: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: 97]؛ هذا من آيات الله البينة؛ ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: 97]. أنت لو دخلت وعندك من الهم والغم ها الشيء العظيم، ووصلت إلى هذا

المكان وجلست أمام الكعبة، زالت عنك كل شيء، وشعرت بالأمان، شعرت بانشراح الصدر والطمأنينة.

وكذلك من دخل فيه حتى قيل إن **"الرجل في الجاهلية يرى قاتل أبيه عند الكعبة فلا يتعدى عليه حتى يخرج"** هذا من التأمين، من الأمان.

وقال بعضهم: **"﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ هذا أسلوب خبري مراد به الأمر؛ يعني أمنوه لا تعتدوا عليه، من دخل هذا البيت فأمنوه"**.

﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: 97]. ثم من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن فرض الحج على جميع الناس أن يحجوا هذا البيت، كل ذلك من آيات الله تعظيم لهذا البيت.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97]؛ يعني قصد البيت لأداء فريضة الحج. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ [آل عمران: 97]؛ هذا الأسلوب أقوى من أن يقول **"حجوا"**. لما يقول لك **"حجوا البيت"** هذا أقوى، لما يقول **"أنت الآن لو تقول لله.."**.

لو تقول لفلان من الناس لفلان مثلاً **"لفلان دين يجب أن أؤديه، علي لفلان دراهم دين يجب أن أؤديه"** هذا أقوى من أي أسلوب؛ لأنه كأنك أنت الآن تلزم نفسك بأن هناك دراهم أو دين عليك في ذمتك لفلان لابد أن تعطيه حتى تبرأ ذمتك.

فكذلك الحج؛ لا تبرأ ذمة أي إنسان قادر أن يترك الحج، ولذلك قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97]. ثم خفف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته قال: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]. فالمستطيع هو الذي يقدر على الحج، عنده الزاد والراحلة.

كما قال أهل العلم: **"الزاد والراحلة"**. إذا كنت تقدر على الحج لا تعذر بتركه، كثير الآن تسمع من الشباب وغير الشباب، بعضهم وصل إلى أربعين ولم يحج فريضة الحج؛ كل يوم **"السنة القادمة إن شاء الله"**، **"يخف الحج السنة القادمة يحصل.."** ما تدري، أيش الذي يحصل؟ قد يأتي يوم ما تستطيع تحج أبداً؛ إما لمرض يحبسك أو سبب أو مانع أو أمور ما تملكها أنت.

فما دام الفرصة معك والمال بين يديك، يلزمك أن تبادر، والحج على الفور ليس على التساهل والتكاسل: **"والله السنة ما ناسبنا السنة القادمة"**. تجد الحين بعض البيوت فيها بنات وصلوا خمسين سنة ما حجوا، وفيها أولاد شباب ما حجوا، وليس عندهم عذر: **"والله قد يمرض علي.."**.

بل شدد الله في هذا الأمر قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]. من قدر أن يصل إلى الكعبة ويصل إلى المسجد الحرام ومعه المال يستطيع ويحج.

قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [آل عمران: 97]؛ شف كلمة ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [آل عمران: 97] مقام **"ومن لم يحج"**.

قال أهل العلم: **"كلمة ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ كأنه لم يقبل الحج"**.

قال: **"من لم يحج فإن الله غني عن العالمين"**؛ ليس غني عنه فقط، غني عن العالمين جميعاً، الله غني عن أي شخص، ولكنه من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن فرض لهم، والحج من المصالح التي لا تعد ولا تحصى، مصالح عظيمة؛ يعني **«مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»**.

لو لم يأت إلا هذا؛ **«الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»**. فهذه فضائل عظيمة يتساهل فيها كثير الناس، ويسوفون ويسوفون ويسوفون: **"ولا أستطيع ولا أستطيع"**، وتجدهم يسافرون

إلى الخارج ما يتركون بقعة من بقاع العالم الخارجي ويدفعون المبالغ الطائلة ولا يهمهم ذلك، وإذا جاء الحج قال: **"والله حر، زحمة، كذا كذا"**.

وبدأ يأتيك بالأعذار، ويذهب إلى مناطق أشد حراً وزحاماً ومضايقات ويقع في المعاصي والذنوب، وهذه تأتيك، حج يأتيك يمسح عنك الذنوب، يزيل عنك الذنوب ويقربك إلى الله، ولو مت في الحج بعثت ملبياً؛ فضائل عظيمة تتركها وتعتذر هذه الاعتذارات.

شف لما كانت هذه الآيات تحاج اليهود مثل ما ذكرنا ودعاويهم الكاذبة، يناديهم الله برحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويحاجهم فيقول: يا محمد، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: 98]. يا أهل الكتاب؛ يا أيها اليهود والنصارى، ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 98].

- لآيات الله؛ لماذا تكفرون بآيات الله؟

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 98]. الله مطلع عليكم، وعارف لماذا أنتم تكفرون؛ عندكم التوراة، تعرفون محمداً، تعرفون، لماذا تكذبون على الله؟ ولماذا تكفرون بآيات الله؟

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 99]. يا أهل الكتاب؛ لم تصدون عن سبيل الله؟ تصدون الناس عن طاعة الله، لماذا تصدون عن سبيل الله من آمن؟ أنتم تصدون بأنفسكم وتصدون غيركم، لماذا تصدون من آمن ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران: 99]؟

لا تريدون الطريق السليمة الطريق الصحيحة، لا تريدون إلا العوج ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [آل عمران: 99] وأنتم شهداء تشهدون على أنفسكم ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 99].

هذه حقيقة اليهود هذه؛ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120]. ولذلك يقول الله في ختام هذا المجلس، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 100]؛ يخاطبني ويخاطبك جميعاً ويخاطب المؤمنين ويناديهم بصفة الإيمان، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا﴾ [آل عمران: 100] مجرد فريق منهم بس، طائفة منهم، ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: 100].

- ما هي النتيجة؟

﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 100]. يعني يحرصون على أن يخرجونكم من دائرة الإسلام؛ ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 100].

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: 101]؛ يعني يتعجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كيف تكفر وأنت تتلى عليك الآيات القرآنية؟ تسمع من هذا الشيء وتتركه وتذهب توالي الكفار وتطيعهم وتخرج عن طاعة الله وعن طاعة رسوله وتطيع اليهود والنصارى.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: 101]. الرسول بين أظهركم في زمان النزول، والآن سنته بينكم قائمة عليكم حجة، ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: 101]. ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 101]؛ ولن يطع هؤلاء الذين يصدونكم ويردونكم عن دينكم، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 101] وبدينه وبشرعه، ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101]. قد هدي ووفق إلى الثبات على طريق الاستقامة وعلى طريق شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نسأل الله أن يثبتنا وإياكم على الحق، وأن يرينا وإياكم الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، والباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(68)
(آل عمران 102-109)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه، واتبع سنته إلى يوم الدين، أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء، لقاء الأربعاء في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرآن العظيم، نتدارسه ونتأمل آياته وتوجيهات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

السورة التي بين أيدينا نقرأ آياتها ونتأملها هي سورة آل عمران، ووقفنا عند الآية الثانية بعد المئة من هذه السورة، وكما ذكرنا في لقاءاتنا الماضية؛ أن هذه السورة فيها بيان مواقف أهل الكتاب، وشدة عداوتهم للإسلام والمسلمين، وعدم قبولهم للحق.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما يذكر لنا في هذه السورة وفي غيرها عداوة اليهود والنصارى للمسلمين؛ يحذر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحذر من هؤلاء الأعداء، ويحذر المسلمين أن يقتدوا بهم، أو أن يتأثروا بهم.

لا تزال الآيات في تحذير المؤمنين في اتخاذ هؤلاء اليهود والنصارى أولياء، أو مجاراتهم، أو الاقتداء بهم، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما ذكر ما ذكر في حق هؤلاء الكتاب؛ يوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخطاب للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

هذه السورة كما ذكرنا في لقاءات هي مبنية على الثبات على الحق.

- كيف تثبت على الحق؟

اليهود والنصارى أعطاهم الله الكتاب، وأرسل إليهم رسلًا؛ ما برسل واحد، رسل كثيرين، وأنزل عليهم الكتب، ومن عليهم بأن جعلهم ملوكًا، وأنعم عليهم بالنعم العظيمة، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 40].

ولكنهم لم يقبلوا الحق، وتركوا الحق وراء ظهورهم، واتبعوا أهواءهم، ولذلك الله ينبه هذه الأمة أن تثبت على الحق؛ الحق جاء، القرآن جاءها، والرسول جاءها، وأخرجها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهداية والطاعة.

فعليكم أن تتمسكوا، وأن تثبتوا على الحق، ولذلك تامل هذه الآيات؛ من أقوى وسائل الثبات على الحق حتى الممات تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: 102].

ما معنى اتقوا الله حق تقاته؟

قال ابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: **"تقوى الله حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر"**. هذا تفسير الصحابي الجليل رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه وأفهم بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منا، وذكر عن بعض السلف أنه سئل عن ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ قال: **"أمسك عليك هذا"**؛ هذه تقوى الله حق تقاته، لسانك هو الذي يوردك المهالك.

هل يكب الناس على وجوههم إلا حصائد؛ إذا جاءوا في المجالس فلان في كذا وكذا وكذا وكذا، وبدأوا يقعون. ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾؛ خوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

حتى قال بعضهم: **"تقوى الله هي الخوف من الله، الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل"**. هذه تقوى الله حق تقاته، والله يأمرنا وأنت تقرأ هذه الآية وتمر عليك ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ لازم تقوى الله.

يعني التزم ما أمرك الله به، حافظ على ما أمرك الله به؛ لا يجدك الله في مكان لا يرضى الله عنك فيه، أو يفقدك الله في مكان يريدك الله أن تكون فيه، تتخلف عن الصلوات، تقع في المحرمات؛ هذا ما حقق تقوى الله.

ولذلك انظر من أقوى أسباب الثبات كما ذكرنا التزام تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى الممات، ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا، قال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]؛ يعني لازم تقوى الله حتى يختم لك بخير.

يقول بعض السلف، وقد جاء في بعض الأحاديث: **«مَن لَازَمَ شَيئًا مَاتَ عَلَيهِ، وَمَن مَاتَ عَلَيهِ بُعِثَ عَلَيهِ، وَمَن بُعِثَ عَلَيهِ جُوزِيَ عَلَيهِ»**. أنت لازمت طاعة الله في الدنيا؛ تموت على طاعة الله.

من لازم شيئًا مات عليه، ومن مات عليه على طاعة الله؛ بعث على طاعة الله، ويحشر مع أولياء الله، وتكون النتيجة خير له، هذا معنى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]؛ أن تتمسك بشرع الله وتقوى الله حتى الممات، وتسأل الله الثبات.

كم وكم من عبدوا الله سنين طويلة ثم ختلهم، ختم لهم بسوء، فاسأل الله الثبات.

النبي ﷺ كان أشد وأكثر دعائه: **«يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ وَالأَبصَارِ ثَبِّت قَلبِي عَلَى طَاعَتِكَ»**.

ولذلك انظر من أقوى أسباب الثبات قوله تعالى بعدها وأنت تقرأ وتتأمل وتتدبر القرآن، يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103].

أقوى أسباب الثبات اعتصامك بحبل الله، يعني بشرع الله، تمسكك بطاعة الله، في آخر الزمان القابض على دينك كالقابض على الجمر، تتمسك بطاعة الله. ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؛ أشد أسباب ضياع الأمة التفرق.

- من ضيع اليهود والنصارى إلا التفرق؟

لا تختلفوا كاختلاف اليهود والنصارى؛ الاختلاف والتفرق هو ضيعهم، كل ما تكون الأمة مجتمعة يكون أقوى لها، وتكون كالجسد الواحد؛ إذا اشتكى عضو واحد منه تداعى سائر الجسد مع هذا العضو، يتأثر بهذا العضو، فاعتصام بحبل الله والتمسك بحبل الله وشرعه جميعًا وعدم التفرق؛ هذا أشد وأعظم.

ثم تذكر، قال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾؛ تذكر نعمة الله علينا، نعمة الله عظيمة، أقوم وأعظم نعم الله علينا هذه الشريعة وهذا القرآن الذي بين أيدينا؛ أن الله حفظ لنا شرعنا، وحفظ لنا عقيدتنا، وحفظ لنا هذا القرآن الكريم الذي بين أيدينا. ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

قال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: 103]. هذه وإن كان قد خوطب بها في أول الإسلام الصحابة وغيرهم أنهم كانوا في جاهلية وفي قتل؛ ﴿كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ في بعثة محمد ﷺ التي هي أقوى أسباب تأليف القلوب.

قال: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103]؛ ولا نزال حتى الآن الأمة إخوان، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10] يجتمعون على كتاب الله وعلى دين الله.

قال: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا﴾؛ يعني على طرف وحافة، ﴿عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: 103]. أنقذنا برسالة محمد ﷺ وبهذا القرآن الذي بين أيدينا،

أنقذكم كذلك مثل هذا البيان، هذا البيان الواضح، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾؛ أي سائر الآيات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103].

إذا سمعت من هذا اهتديت وزادك هداية، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17]. ومن أقوى أسباب الثبات والاعتصام بهذا الدين الأمر بالخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ هي عماد الدين وهي صمام الأمان.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]. ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾؛

قال بعض المفسرين: **"لتكن منكم أمة يعني توجد منكم طائفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ يعني ناس مخصصين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"**.

بعض المفسرين يقول: لا؛ إن **"من"** هنا بيانية، يعني ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ يعني لتكونوا أنتم كلكم، كلكم لا يعذر أحد، أمة يدعون إلى الخير، كلنا، ولذلك هذا القول وهذا القول كلها صح، كلها صحيحة؛ يوجد طائفة متخصصة مؤهلة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو أيضاً لا يعذر أحد برؤية المنكر والسكوت عليه.

النبي ﷺ يقول: **«مَن رَأَى مِنكُم مُنكَرًا»**؛ ما قال طائفة أو شخص، قال: **«مَن رَأَى مِنكُم مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِن لَم يَستَطِع فَبِلِسَانِهِ، فَإِن لَم يَستَطِع فَبِقَلبِهِ»**.

المهم أنه يكون عندك شعور بأن هذا عمل لا يجوز السكوت عليه، أو يجب الأمر به على قدر استطاعتك، ولذلك الأمر بالمعروف والنهي يعم الأمة، يعم الأمة كل على قدر حسد، على قدر طاقته؛ في بيتك، مع أبنائك، مع جيرانك، مع ما ترى من منكر على قدرك. المنكر درجات ودرجات التغيير باليد أو باللسان؛ قد تكون من أهل الاختصاص.

نعم، ما تستطيع أن تغير بيدك في أشياء ما تستطيعها؛ فالأمران كلاهما واجب. ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾؛ انظر الفعل المضارع ﴿يَأْمُرُونَ﴾ و ﴿يَنْهَوْنَ﴾ يدل على الاستمرار.

أنهم دائماً على هذه الحالة، صفة دائمة معك؛ ما تقول والله اليوم أمرت وبكرة ما آمر، أنا بلغت وانتهيت، لا؛ هذه صفة مستمرة معك ما دام هذه الروح في جسدك.

فأنت مسلم يجب عليك، وتلاحظ حتى هذه ارتباط ارتباطها بما قبلها؛ اتقوا الله، أين تقوى الله؟ تكونوا مسلمين، اعتصموا بحبل الله، اعتصامنا بحبل الله وتقوى الله هي أن نتعاضد جميعاً على ترك المنكرات وفعل الخيرات، وكل على قدر حاجته، وكل بحسب قدرته.

والنتيجة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]؛ أما إذا تساهل الناس، تركوا هذا الأمر وتساهلوا فيه، فات عليهم قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

ثم لاحظ ماذا قال الله بعده: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾؛ اليهود والنصارى لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، وتفرقوا في دينهم وأصبحوا أشتاتاً وضائعين، ينبه الله ويحذرنا أن نسلك مسلكهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: 105]. جاءتهم الرسل، جاءهم موسى وجاءهم عيسى.

وجاءهم أنبياء وأنزلت عليهم كتب، ومع ذلك يحذر الله أن نسلك مسلكهم؛ قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 105]. احذروا، واثبتوا على الحق، وتمسكوا بدين الله، واتقوا الله، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، ولا تختلفوا وتسلكوا طريق اليهود والنصارى الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

- متى هذا العذاب العظيم؟

قال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106]؛ في هذا اليوم تظهر النتائج، الدنيا عمل، دار عمل؛ الدنيا دار عمل، والآخرة تظهر فيها النتائج، تظهر فيها تبيض الوجوه، يبعث الإنسان وقد ابيض وجهه، ويبعث آخر وقد اسود وجهه؛ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ [القيامة: 22] فيها البهجة والسرور، و ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: 24].

ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ 38 ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: 38-39]. وعلى المقابل وجوه؛ اسودت الوجوه، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ 40 تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: 40-41]. فيوم تبيض؛ ينقسم الناس في هذا اليوم قسمين؛ وجوه يومئذ ناضرة، ووجوه تكون يومئذ بأسرة تظن أن يفعل بها فاقرة.

في هذا اليوم تأتي النتائج؛ تتطاير الصحف، ويؤتى بالموازين، وتوزن الأعمال، وكل يرى مصيره ونهايته. ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [آل عمران: 106]. يقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

- كيف يأتيكم الإيمان وتغيرون هذا الثبات؟

﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ أنت الآن معك الإيمان، ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: 106]. وهذا يدل على عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحكم بعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يظلم ربك أحداً.

- وأما الذين ابيضت وجوههم، أهل السعادة، ماذا قال الله فيهم؟

قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 107].

- ما هي رحمة الله؟

الجنة.

- لماذا ما قال الجنة؟ لماذا قال رحمة الله؟

لأنك أنت بأعمالك، وبيض وجهك، وكل عملك هذا؛ ما دخلت الجنة بعملك، وإنما برحمة الله. وفيه أيضاً إشارة إلى أن هؤلاء الذين يدعون إلى الإسلام والثبات أن هذه رحمة الله أمامهم.

كما قال الله سبحانه قال: **"رحمتي"** يعني الجنة **"أرحم بك من أشاء"**؛ فالجنة هي رحمة الله، فمن رحمة الله يوم القيامة فاز بجنات النعيم؛ قال: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. قال الله بعدها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 108]؛ هذه الآيات تسمعونها أنتم وتتعظون بها، وتتفكرون بها وتنتفعون بها، هي آيات الله. ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد؛ وهذا يدل على أن القرآن هو كلام الله المنزل. ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾؛ الذي يتلوها من؟ الذي تكلم بالقرآن من هو؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سمعه جبريل من الله فأنزله.

أنزله إلى محمد ﷺ؛ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 108]. من اسود وجهه هو الذي ظلم نفسه، وهو الذي تنكب الصراط، وهو الذي خرج، وهو الذي تفرق، وهو الذي خالف؛ فهذه عقوبته.

والله لا يريد ظلماً للعباد، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [آل عمران: 109]. حتى تعلم عظمة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن له ما في السماوات كلها وما في الأرض ملكاً وتدبيراً سبحانه وتصرفاً، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾. كل الأمور تصير إلى الله وترجع، والخلق يرجعون إلى الله فيجازيهم بأعمالهم.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، إلى لقاء آخر إن شاء الله نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه.

(69)
(آل عمران 110-117)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أيها الإخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا المجلس مجلس القرآن الكريم، وحلقة القرآن الكريم وتفسيره في درسنا المعتاد الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كل أسبوع من يوم الأربعاء.

لا زلنا في سورة آل عمران نقرأ فيها ونتدبر معانيها، الآية التي بين أيدينا هي الآية رقم عشرة بعد المائة من سورة آل عمران، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

في الآيات الماضية أو في اللقاء الماضي في آيات مضت معنا بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة بعض الأوامر التي وجهها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]، و ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]، ثم قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 104]، ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 105].

لما ذكر هذه الأوامر وجهها للمؤمنين بين أنهم متى ما تمسكوا، متى ما تمسكوا بهذه الأوامر فإنهم خير الأمم؛ فخيرية أو أفضلية الأمة وخير هذه الأمة على سائر الأمم كلها، وتفضيل الله لها وجعلها هي خير الأمم كلها متى؟ إذا أخذت بهذه المقومات وهذه الأسباب، ما هي؟ قال: أنتم خير الأمم وخير أمة أخرجت للناس.

- ما هي أسباب الخيرية؟ ولماذا جعلكم الله خير أمة للناس؟

قال: لأنكم تمسكتم بهذه الأوامر ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]؛ فعماد الأمة وخيرية الأمة وفضل الأمة وبقاء هذا الفضل لها وبقاء هذه الخيرية لها متى؟ إذا تمسكت بهذه الأوامر؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي قال بعض أهل العلم هو **"الركن السادس من أركان الإسلام"**. تأمر بالمعروف بقدر استطاعتك، بقدر استطاعتك.

ولذلك النبي ﷺ قال: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**، ما تستطيع بلسانك ما تستطيع ولو بقلبك يتمعر وجهك وقلبك ينكر المنكر هذا يكفي، لأن درجات المنكر فخيرية.

- لكن المصيبة متى؟

إنك ترى المنكر منكرًا ولا تغيره ولا بقلبك، ولا تنكر ولا بقلبك ولا يتمعر وجهك ولا تستنكر هذا الشيء في نفسك؛ تجد بعض الناس يمر على بعض المنكرات فلا تؤثر في نفسه، لا تؤثر في نفسه أن هذا منكر وأمر خطير، ولذلك الله سبحانه فضل هذه الأمة بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

وشوف لاحظ جعل الله الإيمان هو الأخير قال: تأمرون بالمعروف تنهون عن المنكر تؤمنون بالله، معنى الإيمان هو الأصل ولكن لما كان الخيرية هذه لا تظهر للأمة وتقوى وتفضل هذه الأمة على غيرها إذا تمسكت بهذا المبدأ؛ مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال ولذلك نقرأ في القرآن أن بني إسرائيل لعنهم الله ولعنوا على لسان داوود وعيسى ابن مريم، لماذا؟ قالوا: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 79]؛ تدري الشخص يجلس مع صاحبه وصاحبه يقع في المنكرات ولا يتمعر وجه ولا يتغير، ما كانوا يتناهون عن منكر فعلوه، ولذلك لعنهم الله.

قال هنا لما ذكر الله سبحانه: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: 110]، عادت الآيات للحديث عن أهل الكتاب، وهنا يأتي أسلوب ترقيق وأسلوب لطافة؛ الله عَزَّ وَجَلَّ يأتي بهذا الأسلوب ويقول لو آمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم، يعني لو دخلوا في الإسلام ودخلوا في الإيمان وتركوا عنهم ما هم عليه من العداوة على للإسلام وأهله لكان خيرًا لهم.

ثم ذكر قال من هم المؤمنون فيهم من آمن، مثل عبد الله بن سلام رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه كان يهوديًا فدخل في الإسلام وأصبح من الصحابة الأجلاء، بل بشره النبي ﷺ بالجنة، وهو كان من أحبار اليهود، قال لو قال هنا: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 110] وهم قلة، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110] المعاندون الكافرون الخارجون عن طاعة الله.

ثم بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هؤلاء اليهود لن يضروا الأمة الإسلامية مهما فعلوا، وأنت تلاحظ الآن يعني في بقعة من بقاع الأرض صغيرة ما استطاعوا أن يسيطروا عليها اليهود منذ سنين طويلة ما استطاعوا أن يسيطروا، فكيف سيسيطرون على المسلمين؟

ولذلك اقرأ ماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: 111] يعني باللسان، باللسان لن يضركم إلا أذى، ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [آل عمران: 111] يعني يفرون بالقتال، ما يواجهون القتال ولا يواجهون أبدًا اليهود، لا مستحيل ولا في زمن من الأزمان ولا في عصر من العصور واجهوا مواجهة المؤمنين بالقتال أبدًا.

ولذلك النبي ﷺ لما جاء المدينة وكان فيها قبائل اليهود أخرجهم وأجلاهم وقاتلهم ولم يستطيعوا أن يواجهوا ولم يستطيعوا أن يقاتلوا، فما عندهم قوة ولا عندهم، الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا جعل؟

الذلة لا تفارقهم، ولذلك اسمع ماذا قال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ [آل عمران: 112] أينما ثقفوا يعني في أي مكان وفي أي زمان، يهودي في أي مكان وفي أي زمان الذلة لا تفارقه.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ مثل ما تضرب الخيمة ضرب الخير يعني الذلة الآن أحاطت به فهو ذليل في حياته كلها يعيش ذليل ما يستطيع، وهذا كله بسبب ذنوبه وبسبب كفره بآيات الله كما سيأتي، قال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 112] يعني بعهد، إذا تعاهدوا مع المسلمين، بذمة من الله، ﴿أَوْ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 112].

بمعنى أنهم عاهدوا المسلمين بعهود وأوفوا بعهودهم، أو بحبل من الناس بمعنى أن هناك قوة تجعل لهم فرصة أنهم يسيطرون، قوة خارجية؛ هذه يمكن يكونون تحت مظلة بعض الدول بعض الدول ممكن، أما هم يأخذون يستقلون بدولة ما يستطيعون.

قال: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: 112] الفقر، الفقر لا يفارقهم أبدًا، والله لو يمسكون تجارات العالم كلها بأيديهم الفقر لا يفارقهم لأن الله قال ضربت عليهم المسكنة؛ فتجد الآن أكثر اليهود يعيشون فقراء أذلاء لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضربها عليه، ضربها فلا تفارقه.

لماذا؟ قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 112] هذا هو السبب أنهم يكفرون بآيات الله، ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 112] عندهم جرائم عظيمة اليهود

جرائم قتلت الأنبياء وهم الذين يكفرون بآيات الله ويحاربون الله، قبائحهم ذكرها الله في القرآن كثيرة حاربوا الله قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64].

وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: 181]، وحاربوا الرسل وحاولوا قتل النبي ﷺ محمد في المدينة أكثر من مرة، يحاولون يقتلوه، وقتلوا أنبياء قبل ذلك.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 112]. يقول هم يكفرون ويقتلون الأنبياء لأنهم أهل معاصي وأهل اعتداء، أهل معاصي وأهل اعتداء يعتدون على الناس، أنت تسمع هذا الكلام تسمع هذه هذا أخبار الله عَزَّ وَجَلَّ، خبره بأن اليهود في هذه الحالة السيئة.

- هل تظن أن هذا كله على اليهود؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو أحكم الحاكمين وحكمه العدل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن الإنصاف أن يعطي الله كل ذي حق حقه.

ولذلك أنت اقرأ الآية التي بعدها ماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ؟ قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: 113] يعني لا تظن أن اليهود كلهم سواء أو أهل الكتاب سواء ليسوا سواء، لماذا؟

قال: منهم من دخل في الإسلام، منهم لا تظن أن هذا الحكم كله عليهم يعني ضربت عليهم الذلة ضربت عليهم المسكنة تظن أن هذا عام عليهم، لا لا في ناس استثناهم الله وهذا حكم الله العدل أن يحكم بحكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك من الإنصاف والحكم العدل أن يعمم الله هذا الشيء.

ولذلك قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران: 113] ليسوا كلهم على درجة واحدة، من أهل الكتاب أمة طائفة موجودة طائفة من أهل الكتاب أمة قائمة بأي شيء؟

يعني مستقيمة قائمة بشرع الله متمسكة بدين الله الإسلام، ما هي صفاتهم؟ قال: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113]. يقول هم أهل قيام وهذه أعظم صفة يتصفون بها أنهم أهل طاعة وأهل قيام صلاة الليل صلاة التهجد.

قال: يتلون آيات الله آناء الليل آناء الليل يعني ساعات الليل وهم يسجدون يعني يصلون، لأن السجود والركوع يطلق على الصلاة، هذا من إطلاق الجزء وإرادة الكل؛ هذا رجل يركع يعني يصلي يسجد يعني يصلي.

ولذلك النبي ﷺ لما جاءه الرجل قال يا رسول الله ادعو الله أن أكون رفيقك في الجنة قال: **«أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»**، يعني الصلاة النوافل تكثر النوافل، فقوله هنا وهم يسجدون يعني يصلون كثير، هذه أفعالهم قيام الليل ثم قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [آل عمران: 114].

هذه عقيدتهم دخلوا في الإسلام وآمنوا بالله ولم يكفروا بالله وعرفوا عظمة الله واليوم الآخر آمنوا به، قال انظر أيضًا من صفاتهم قال: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 114] هذه من صفات هؤلاء الذي استثناهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران: 114] يسارعون في الخيرات، هؤلاء الطائفة من اليهود ما يتركون وجه من وجوه الخير إلا يسارعون فيه، وهذه صفة يعني يتميزوا بها وأثنى الله عليهم يعني نحن بحاجة أن نتصف بهذه الصفات بحاجة.

يقول: يسارعون في الخيرات انظر لاحظ ما قال يسارعون إلى الخيرات يعني يذهبون إلى الخيرات يسارعون فيها، قال: يسارعون في الخيرات فرق بين في الخيرات وإلى الخيرات، يعني هم في وسط الخيرات ويسارعون فيها، يعني في وسط الإسلام ووسط يعني أعمال الإسلام الخيرية هم يسارعون فيها.

قال: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 114]، هذا ثناء من الله عَزَّ وَجَلَّ، ثناء على هذه الطائفة، وهذا حكم الله وإنصافه وعدله في هؤلاء، أن من اليهود طائفة أثنى الله عليهم ومدحهم، لماذا مدحهم؟

لأنهم اتصفوا بهذه الصفات، هذه صفات قد تقل في بعض المسلمين الآن قد لا تجدها في بعض المسلمين، من تجد منه أنه يقوم آناء الليل يعني آناء يعني ساعات الليل، تقوم ساعات الليل أنت أو تنام ساعات الليل؟

يعني أشياء كثيرة يؤمنون بالله واليوم الآخر، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، يسارعون في الخيرات، هذا ثناء الله عَزَّ وَجَلَّ على هؤلاء حتى نعرف عظمة الإسلام ونعرف كيف الإسلام يحكم بالعدل حتى مع أعدائه، اليهود أعداء الإسلام ومع ذلك يحكم الله فيهم بالعدل.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: 115] يعني لا يجحدونه، بل يجازون عليه أحسن الجزاء، ولذلك الله أتى ب بهذه الجملة الشرطية حتى يعمم قال: وما يفعلوا من خير، أي خير يفعلونه، يسارعون في الخيرات لكن ما يفعل من أي خير صغير أو كبير إلا لن يضيع الله أجرهم لن يكفروه، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 115] وصفهم بالصالحين وصفهم بالمتقين.

في هذه الآية نجد أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعني ينتهي الحديث في هذه الآية عن أهل الكتاب التي بدأت السورة سورة آل عمران من أولها وهي تتحدث عن أهل الكتاب واليهود والنصارى إلى هذه الآية ينتهي الحديث عنهم، بين الله عَزَّ وَجَلَّ قبائحهم وشرهم ومواقفهم السيئة مع الله مع أنبيائه مع هذه الأمة، ثم استثنى منهم هذه الطائفة التي اتصفت بهذه الصفات الطيبة.

ثم تنتقل الآيات إلى بيان هؤلاء الكفار أعداء الإسلام في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 116] الكفار يدعون أن عندهم أموال وعندهم أولاد ها؟

قالوا نحن أكثر أموالًا وأولادًا، قال الله لا تنفعكم أموالكم ولا أولادكم بل تضر، لن تغني عنكم لن تنفعكم ولن تستفيدوا منها لماذا؟ قال: ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 116].

يعني إذا كانوا في العقيدة فاسدة العقيدة فاسدة وليس عندهم إيمان، كفار يكفرون بالله وباليوم الآخر ما تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ولا ولن ينفعهم ذلك، ويوم القيامة هم من أهل النار الخالدين فيها، وإذا كانوا ينفقون في سبيل الله؟

الكفار أحيانًا عندهم أعمال خيرية حتى الآن يسمونها بالإنسانية، يعني العطف على الفقراء والمساكين على الأرامل الوقوف مع المحتاجين، يعني يصنعون بعض الأمور الطيبة من الإحسان والبر، هل هذه تنفعهم؟

هل تنفعهم هذه وهم عقيدتهم فاسدة؟ لن يقبل منهم ولن يقبل الله منهم ما دام أن ليس عندهم الإيمان الحقيقي لن ينفعهم ذلك.

ولذلك انظر ماذا يضرب الله مثل بأموالهم ونفقاتهم التي يدعون أنهم ينفقونها على اليتامى وعلى الأرامل وعلى المساكين، ماذا قال الله فيهم؟

يقول: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: 117] الريح الشديدة العاصفة الشديدة فيها صر يعني فيها برد شديدة البرد، والصر هو البرد ومنه الصوت صوت البرد الريح الباردة الشديدة الباردة تسمع لها صرير تسمع لها صرير عند الأبواب وعند

النوافذ تسمع إذا كانت الريح شديدة البرد باردة تسمع لها أصوات، هذا الصوت صوت الريح الباردة.

قال: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [آل عمران: 117]، تقول مثل الريحة الشديدة الباردة إذا مرت على مزرعة وعلى حرف قوم وهؤلاء القوم انظر لاحظ انظر كيف القرآن يقيد بعباراته عبارات سليمة يقول قوم ظلموا أنفسهم، يعني ما أصابت أناس ما ظلموا أنفسهم؟

لا، الله يسلط الريح الباردة التي تدمر الزروع على أناس ظلموا أنفسهم وقعوا في مظالم ولذلك انظر قال: أصابت حرث قوم يعني مزرعة أو بستان قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته دمرته تدميرًا، ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 117].

وهؤلاء الكفار إذا جاء يوم القيامة أعمالهم تذروها الرياح، اشتدت به الريح أعمالهم أصابت حرث قوم ما يستفيدون، ما يستفيدون من أعمالهم فجعلناها هباءً منثورًا، هذا هذه الآيات التي أوضح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها ما أوضح وبيناها ووقفنا معها والحمد لله على هذه النعمة العظيمة.

الحقيقة مثل هذه المجالس الطيبة أيها الإخوة أنت تجلس في هذا المسجد تسمع وتستمع مثل هذه الآيات وتفسيرها وبيانها كم تأخذ من وقتك؟ عشر دقائق ربع ساعة.

الآن تحفكم الملائكة الآن تغشاكم الرحمة من الله تنزل عليك الرحمة تنزل عليك السكينة وتشعر أنت بانشراح الصدر والطمأنينة في مثل هذه المجالس الطيبة، لو تخرج إلى أي مكان في الأرض ما تشعر بطمأنينة مثل ما تشعر مع كلام الله عَزَّ وَجَلَّ وبيانه.

فنعمة عظيمة أن تجد مثل هذه المجالس الطيبة تستمع للخير وتستفيد وما تأخذ منك وقت كلها ربع ساعة عشر دقائق، كم يضيع من الأوقات تصلي العشاء وتجلس إلى الساعة بالليل اثنتين كل هذا قد يذهب عليك سدىً ما تستفيد منه وأحيانًا يذهب عليك النهار في النوم ما تستفيد.

مثل هذه المجالس الطيبة كل أربعاء بعد صلاة المغرب نجلس مثل هذا المجلس الطيب، تحضر الملائكة الآن معنا تحفنا الملائكة يذكرنا الله في الملأ الأعلى، يعني لو تذكر أنت الآن عند أكبر مسؤول في الدولة كان لك شرف الآن وهو أكبر مسؤول في الدولة، فكيف يذكرك الله في الملأ عند الملائكة؟ هذا شرف عظيم.

نسأل الله أن يعيننا على الطاعة وأن يوفقنا إن شاء الله، لنا لقاء الأسبوع القادم وفي كل أسبوع بعد صلاة المغرب بإذن الله نستكمل هذه الآيات العظيمة، جزاكم الله خير على حضوركم وإنصاتكم وأسأل الله أن يتقبل منا ومنكم، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(70)
(آل عمران 118-129)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، في درسنا المعتاد مغرب الأربعاء، درس التفسير والقرآن الكريم، والسورة التي بين أيدينا هي سورة آل عمران.

وقفنا في لقائنا الماضي عند الآية الثامنة عشرة بعد المائة من سورة آل عمران وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118].

هذه الآية إذا وقفنا معها وتأملناها وتدبرناها، وجدناها تتحدث عن أن الله ينهى المؤمنين أن يتخذوا بطانةً؛ يعني يتخذوا أناسًا يظهرون لهم أسرار المسلمين، وهذه البطانة في الغالب أنها من أعداء الإسلام من المنافقين، من اليهود، من كل أجناس أعداء الإسلام.

عدوك لا تظهر له كل شيء، هذا المقصود، عدوك ما تظهر له أسرارك، سواءً هذا على مستوى الدول بحيث ينهى أن تظهر أسرار المسلمين لأعداء الإسلام، أو على مستوى الأفراد حتى الأشخاص، أنت تعرف عدوك.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: 1].

- لماذا ينهانا الله عن هذا الأمر؟

لأن هؤلاء أعداءٌ يتربصون بكم مثلما ذكرنا، والسورة من يقرأ سورة آل عمران، السورة في أولها ومر معنا هذا كلها تتحدث عن أهل الكتاب وعداوة أهل الكتاب للمسلمين وعداوة أهل الكتاب حتى لرسلهم قتلة الأنبياء اليهود.

انتقلت السورة بعد منتصفها إلى الحديث عن غزوة أحد، غزوة أحد هي الغزوة الثانية التي غزاها النبي ﷺ ضد أعدائه من مشركي أهل مكة، نعرف أن غزوة بدر في السنة الثانية وقعت بين المسلمين والمشركين في بدر ونصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المسلمين فيها، ولما قُتل ما قتل من مشركي مكة سبعون قُتلوا من أشراف أهل مكة وأُسر سبعون لم يتركوا هذا هكذا يمضي.

ولذلك بدأوا يجمعون حتى أرادوا الخروج إلى النبي ﷺ بقتاله فجمعوا ثلاثة آلاف مقاتل، وهم في بدر كم كانوا؟ كانوا يقربون من الألف، فجاءوا بثلاثة آلاف مقاتل لمقارعة النبي ﷺ، فلما علم النبي ﷺ بذلك ماذا صنع؟

خرج إليهم في أحد وتجهز لهم، خرج بألف، هؤلاء الألف من المسلمين كان فيهم منافقون، عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين ومعه المنافقون، المنافقون يعني ينتهزون الفرص مثل هذه الفرصة، الرسول بحاجة إلى أن يدافع عن الإسلام والمسلمين فهم لما رأوا النبي ﷺ قد خرج خرجوا معه للقتال إظهارًا منهم أنهم مع المسلمين.

فلما وصلوا المعركة رجعوا عبد الله بن أبي بن سلول ومعهم ثلاثمائة منافق؛ يعني ثلث الجيش رجع، هذا يهز ويعني يؤثر على صفوف المسلمين، فلذلك الله بدأ قبل الدخول في الغزوة ببيان خطورة هؤلاء المنافقين؛ ينتهزون الفرصة كل ما وجدوا أن المسلمين في ضعف خرجوا وبدأوا يتكلمون بأفواههم، وإذا وجد المسلم في قوة سكتوا وكبتوا أنفسهم.

اسمع الآيات، الله عَزَّ وَجَلَّ خاطبنا في هذه الآية قبل أن يدخل على غزوة أحد، لأن الآن من هذه الآية إلى آخر السورة كله الحديث عما جرى في غزوة أحد، دروسٌ وعبرٌ نستفيد منها ويستفيد المسلمون في حياتهم من هذه القصص.

القصة القرآنية تختلف عن أي قصة، القصة القرآنية لما يأتي بها يقصها الله عَزَّ وَجَلَّ لا يقصها هكذا للتسلية، لا، يقصها لنا بما فيها من العبر والعظات والتذكير والدروس المستفادة، حتى يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ فيها، انظر أول آية يخاطب الله المؤمنين بالنداء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 118]، ثم ينهاهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: 118]، لا تتخذوا من أعدائكم أناسًا تسرون وتظهرون لهم خفاياكم وأسراركم، هذا معنى الآية: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾.

البطانة هي الشيء الذي يكون خفيًا، البطانة تقول هذه بطانة الثوب؛ يعني داخل الثوب الشيء البطانة، فيقول لا تبطنوا لهم؛ يعني لا تظهروا لهم أشياء تخصكم في الأشياء التي تخصكم في بطائنكم في أسراركم في خفاياكم.

مو كل شيء تظهره للناس، كل شيء لا تظهره للناس، وخاصةً عدوك تنتبه من عدوك، ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ من غيركم، ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران: 118]؛ لا يقصرون في إفسادكم، هذا معنى لا يألونكم خبالًا؛ يألو يعني يقصر، يقول ما يقصرون في إفسادكم، يريدون إفسادكم بكل طريقة، هذه أول صفاتهم.

يقول: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ [آل عمران: 118]، يتمنون هم هذه، ودوا معناها يتمنون ما عنتم؛ يتمنون لكم المشقة وتعسير الأمور في كل من كل وجه، هذه صفاتهم.

أول شيء ما يقصر أن يفسد في كل مكان، اليهودي المنافق من أي جنس سواء المنافق الذي في صفوف المسلمين أو من أعدائهم منافقون يهود أو غيرهم، هو يمشي بالفساد في الأرض يمشي بالفساد ويتمنى للمؤمنين المشقة ويتمنى التعسير عليهم في أمورهم.

واسمع أيضًا زيادةً قال: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [آل عمران: 118]، البغض ظهر من أفواههم على فلتات ألسنتهم وعلى تظهر في وجوههم آثارها على الوجه وعلى اللسان مهما كان أخفى تخرج من لسانه، يخرج شيءٌ للسان، ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: 118]؛ يعني الذي أعطاك شيءٌ قليل ظهر عليك شيءٌ قليل لكن الداخلي أشد وأعظم، وما تخفي صدورهم أكبر.

قال الله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [آل عمران: 118]؛ وضحنا لكم هذا التوضيح، تبي أكثر من هذا؟ ما في أكثر من هذا، هذا خلاص ما عاد في أكثر من هذا البيان، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118]. إذا لكم عقول تدركون فيها خلاص تعرف عدوك، عدوك هذا يتربص بك في كل وقت، إذًا ينبغي لك أن تنتبه تحذر هذا العدو؛ لأنه يريد أن يوقعك في أي فرصة تضع له يسقطك في أي شيء، فهذا عدوك.

اسمع زيادةً يقول: ﴿هَا أَنتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 119].

ها أنتم أيها المسلمون أولاء تحبونهم؛ يعني بعضكم يحبهم ويظهر له مودةً ويظن أنه يحسن إليه ويقربه، تحبونهم ولا يحبونكم، وتؤمنون أنتم بالكتاب كله؛ يعني الكتب كلها تؤمنون بها وهم لا يؤمنون، ما يؤمنون بالكتاب، وإذا لقوكم قالوا آمنا، إذا قابلوكم قالوا نحن معكم ونحن ننصركم وستقاتلون نحن معكم في الصفوف وهكذا.

كل موقف يأتون متقدمين أنهم معكم، وإذا لقوكم قالوا آمنا يصلون في المساجد، يصلون ويتصدقون بأموالهم ويجاهدون، ها منافقون لكن يظهرون أمام الناس.

قال وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا؛ يعني خلا بعضهم مع بعض عضوا عليكم الأنامل من الحقد، هذا معناه حقد، شدة الحقد يعضون عليكم الأنامل أطراف الأصابع يعضون عليكم من شدة العداوة؛ يعني لا يحبون، عضوا عليكم الأنامل من شدة الغيظ والبغض لكم والكراهية.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: قل لهم، قل لهم موتوا بغيظكم، هذا دعاءٌ عليهم؛ يعني عساكم تهلكون وتموتون بغيظكم، ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 119]، الله يعلم بما في صدوركم.

هذه يعني هل يا إخوان الحقيقة لما تسمع مثل هذه الآيات تقرأها وتمر عليك في التفاسير هل يعني يخطر ببالك أن هذا مهما قدم لك من الحسنات والخدمات أنه يحبك؟ ما يحبك، يعني انظر كيف التوضيح.

وخذ زيادةً يقول: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120].

إن تمسسكم حسنةٌ؛ يعني مثلًا نصرٌ في الحرب أو خيلٌ أو خصبٌ أو كثرة مال أو أي وجه من وجوه الحسنات تسؤهم؛ يعني يجدون في أنفسهم أنها لا يريدون لكم الخير أبدًا، إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم، وإن تصبكم سيئةٌ هزيمةٌ في حرب أو قحطٌ أو جدبٌ أو فقرٌ أو مرضٌ أو نحو ذلك، إن تصبكم سيئةٌ يفرحوا بها، هؤلاء أعداءٌ ولا أولياء؟ يفرحوا بها.

- قال الله حتى نعرف كيف العلاج مع هؤلاء، كيف تعالجهم؟

قال العلاج انظر العلاج كلمتين بس، كل هالكلام الطويل هذا كله يبين لك خطورتهم أوصافهم السيئة الخبيثة، كيف ترد عليهم؟ كلمتين بس، كل هذا يذهب، ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 120].

الصبر هو العلاج مع هؤلاء، هؤلاء يأتون معك في كل مكان يجاهدون يخرجون مع الرسول في الغزوات، كل غزوة يخرجون، في غزوة تبوك ستمائة كيلو من المدينة إلى تبوك وشدة الحرب ومع ذلك يخرجون في كل شيء.

لكن الله عَزَّ وَجَلَّ عالجهم قال: إن تصبروا عليه، اصبر، إن تصبروا وتتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ، تقوى الله هي العلاج، تقوى الله يعني أنك تعمل بما يأمرك الله جل وعلا وتحافظ على طاعة الله وتصبر أمام عدوك.

قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 120]، لا يضركم كيدهم شيئًا لأن كيدهم ضعيف، كيد الشيطان ضعيف، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120]. خلاص أنت معك علاج سلاح الصبر وسلاح التقوى، خلاص الله بما يعملون محيط، الله يحبط أعمالهم لأنك أنت معك الله عَزَّ وَجَلَّ وهم معهم الشيطان، وأنت إذا كان الله معك والله بما يعملون محيط لن يستطيعوا أن يصلوا إليك، والله بما يعملون محيط.

خلاص عرفنا عدونا وعرفنا هذا العدو وعرفنا العلاج معه، الآن تنتقل الآيات دخلك الآن الآيات في غزوة أحد عشان تعرف الدروس منها، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 121].

إذ غدوت؛ يعني خرجت، الأصل في الغدوة أول النهار، لكن الرسول ما خرج في أول النهار لما خرج غزوة أحد تحت جبل أحد، هذه الغزوة والمدينة بعيدة، المدينة هم خرجوا تركوا

المدينة، مشوا المدينة في زمن الرسول كانت حول المسجد النبوي، فخرجوا يمشون على الأقدام إلى أن وصلوا هذا المكان أحد جبل أحد.

إذ غدوت، خرج الرسول ﷺ بعد صلاة الجمعة، بعد صلاة الجمعة خرج هو وأصحابه كم؟ ألف مقاتل إلى هذا المكان حتى يختاروا المكان المناسب، فجعل جعلوا جبل أحد في ظهورهم والعدو في وجوههم حتى يكون الجبل يحميهم من الخلف، فرتب النبي ﷺ رتب الصفوف وركز القادة أمامًا وخلفًا وعرف كل واحد مكانه، هذا كله لأن المشركين قد وصلوا ولكن الحرب متى؟

السبت في الصباح، فجهزه. ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يعني خرجت من بيتك، ﴿تُبَوِّئُ﴾ يعني تهيئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع لأقوالكم عالم بأحوالكم عليم بأحوالكم.

قال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 122]. هذه الطائفتان طائفتان من المسلمين، لكن لما وصل النبي هذا المكان ومعه ألف مجاهد من الصحابة رجع عبد الله بن أبي بن سلول، مش حجته؟

يقول يا محمد لا نخرج لهم، نجلس في بيوتنا وإذا جاءونا قاتلناهم. قال النبي ﷺ: إني استشرت الصحابة ورأوا أن نخرج نقاتلهم وخرجنا رأي على رأي الصحابة، فقال نعود ونجلس في بيوتنا، فلما وصل النبي رجع وهو لا يريد أصلًا الجهاد، حتى لو قال النبي نجلس في بيوتنا ما خرجوا للجهاد، فرجع معه ثلث الجيش ثلث الجيش أكثر من ثلاثمائة شخص.

هناك طائفتان كما ذكر القرآن هم بنو حارثة وبنو سلمة، بنو سلمة وبنو حارثة، بنو حارثة كانوا مع المسلمين ولكن لما رأوا الجيش ثلثه رجع خافوا، دخلهم الخوف والذعر من العدو؛ يعني شافوا أن الجيش رجع كثير من الفرار، أرادوا أن يرجعوا أرادوا فقط إرادةً ولكن الله ثبتهم.

ولذلك اسمع قال: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ﴾ يعني من المسلمين مو منافقين، ﴿أَن تَفْشَلَا﴾ يعني تجبنا وتخافا، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 122]. لا تخاف لو الرسول ﷺ خرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر أمام ألف وانتصر عليهم لماذا؟ لأنه توكل على الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون/ ثم ذكرهم الله بأنهم نصرهم في بدر فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123].

أذلةٌ؛ يعني قلةٌ لا في العدد ولا في العدة، ما معكم سلاح ولا عدد يواجه هذا العدو، والله هو الذي نصركم، ما نصركم ببدر إلا الله، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123]. اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ واشكروا حتى ينصركم في الغزوات القادمة.

يقول: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: 124]. متى؟ في بدر، الآن كل الحديث عن بدر، يذكرهم الله بهذه النعمة يذكرهم بهذه النعمة، إذ تقول للمؤمنين: ألن يكفيكم الله أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين.

- أنا أسألكم الآن، غزوة بدر كانوا بهذا العدد ثلاثمائة وبضعة عشر وانتصروا، الله أمدكم بالملائكة، كم عدد الملائكة الذين قاتلوا مع الرسول في غزوة بدر؟ كم؟

الجواب: هم ألف مقاتل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9]. ألفٌ، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ تطلبون من الله فاستجاب.

فاستجاب؛ يعني أعطى ألف، هنا يقول ثلاثة آلاف، يقول هذا وعدٌ، وهذاك تحقق، الآن عرفنا أن غزوة بدر قاتل مع الرسول من الملائكة، كانوا الملائكة على صور الرجال عليهم عمائم ومعهم خيول، وبدأوا يقطعون رقاب المشركين يجزونهم جزًا.

فهنا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: 124]، ينزل عليكم ثلاثة آلاف.

قال: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125]. بلى الله قادر على أن ينزل ثم قال بلى ثم قال إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم، يقول أنتم إذا صبرتم، انظر التقوى والصبر، الحاجة الثانية أن تصبروا أنتم وتتقوا ويأتوكم من فورهم، هذا هم المشركون.

يقول إذا جاءوكم لأن المشركين في غزوة بدر كانوا ألفًا وكانوا يرسلون أناسًا يمدونهم بالعدد يقول أتوا أمدونا بأكثر، فما جاءهم أحد من أهل مكة إلا الألف.

قال: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125]؛ يعني عليهم علامات معروفة، الملائكة عليهم العمائم وعليهم لباس الصحابة والخيول، فيعرفهم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لكن هذا ما تحقق، لماذا؟ لأنه وعدٌ من الله، وعدهم بثلاثة آلاف، ثم زادهم وعدهم بخمسة، لكن الذي تحقق هو ألف.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 126].

وما جعله؛ أي هذا الوعد إلا بشرى لكم، هذه بشارةٌ لكم أنتم في الوقت الآن أمام العدو ويبشركم الله بهذه الأعداد، مو عاد إنه يعطيكم إذا احتجتم، ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 126]. في غزوة بدر وحصل هذا النصر؟ حصل؟ حصل.

قال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران: 127]. ليقطع طرفًا من الذين كفروا؛ جزءًا منهم حتى أضعفهم، قُتل منهم سبعون، ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ كبتهم وأضعفهم، خلاص أصبحوا في كآبةٍ وحزنٍ، لما قُتل منهم هذا العدو رجعوا إلى مكة تصحبهم الكآبة والحزن إلى أن وصلوا مكة قد فقدوا أعدادًا كثيرةً من كبار المشركين.

قال: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران: 127]. رجعوا خائبين.

ومع هذا لما رجعوا خائبين والرسول ﷺ في غزوة أحد لما رجع أبو سفيان وصفوان بن أمية وجاء بعض كبار المشركين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص لما جاءوا وقُتل وحصل منهم ما حصل وقُتلوا المسلمين، وقتلوا عم النبي ﷺ حمزة وشجوا رأس الرسول ﷺ حتى سال الدم على وجهه وكسروا رباعيته.

دعا عليهم قال: اللهم أهلك فلانًا وأهلك فلانًا وأهلك فلانًا. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: لا لا تدعُ عليهم، ما تدري قد يغير الله الحال، وكل هؤلاء أسلموا كلهم أسلموا، خالد بن الوليد قائد من قواد المسلمين أو من قادة المسلمين، وعمرو بن العاص، وصفوان، وعكرمة، وأبو سفيان، كلهم أدخلهم في الإسلام.

- لماذا؟

لأن الله يقول هنا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: 128]. ليس لك من الأمر شيءٌ لا تدعُ عليهم، ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾. يقولون عذبهم ظالمون، وإن تاب عليهم ممكن يتوب عليهم، وتاب الله عليهم كلهم ودخلوا في الإسلام وصاروا نصرةً للإسلام.

وهذا يدل على أن الإنسان لا يتعجل بالدعاء، كان الإنسان عجولًا، لا تتعجل، فلا حتى إذا على يعني لو على من أخطأ في طريق في مكان لا تدعُ، أولادك يسيئون إليك لا تدعُ عليهم، زوجتك تسيء عليك لا تدعو عليها، استعمال الدعاء هذا لا تستعمله، الدعاء لا تستعمله إلا في

أضيق النطاق، فشوف عدو يأتون إلى الرسول ويقتلون عمه ويصيبونه ويصبون أعداءه ويقول الله لا تدعُ عليهم، ما تدري.

إلا إذا كان هذا الشخص عدوًا للإسلام وحاقدًا في كل وقت ويقتل من المسلمين ادعُ عليه، لأن شره شر هذا في هذه الحال ندعو عليه؛ يعني الدعاء سلاحٌ لكن ليس معناه أننا نتعجل بالدعاء إذا تحققنا من عدونا، ندعو على كل من آذى كل من آذى الإسلام والمسلمين يُدعى عليه أن الله يزيح عن الإسلام يزيح هذا العدو وهذا الشر عن الإسلام والمسلمين.

يقول: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 129].

سالشيء هذا كله لله، هو الذي يتصرف فيه، والكل ملكٌ لله، السماوات ملكٌ لله والأرض وما فيها ملكٌ لله، والله عَزَّ وَجَلَّ هو بحكمته يغفر لمن يشاء أو يعذب بحكمته، ولكن رحمته فوق ذلك.

ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: 129].

نقف عند هذا القدر، ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، الله ولينا، أسأل الله التوفيق والسداد، وصلى الله وسلم على محمد.

(71)
(آل عمران 130-136)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حيَّاكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم هو اليوم الحادي عشر من شهر ذي الحجة من عام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، اجتماعنا في هذا المكان، وفي هذا المسجد المبارك مع تفسير القرآن العظيم، وهو درسنا الأسبوعي كل أربعاء بعد صلاة المغرب.

نواصل ما توقفنا عنده من الآيات التي نقرؤها ونفسرها ونبيّن ما فيها، وقفنا عند الآية رقم ثلاثين بعد المئة من سورة آل عمران، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 130].

هذه الآية وما بعدها كلها أوامر وتوجيهات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي تأتي تتخلل قصة أُحُد في سورة آل عمران؛ فالآيات التي قبلها وسمعناها واتضح لنا ما فيها كلها تتحدث عن غزوة أُحُد وما جرى للمسلمين في هذه الغزوة.

تأتي آيات في ثنايا هذه القصة، قصة غزوة أُحُد، أوامر عظيمة ونواهٍ؛ ما الغرض منها؟ وما الفائدة منها؟ ولماذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر هذه الأشياء مع أنه لا يزال الحديث يتحدث عن قصة من قصص القرآن الكريم، وهي قصة غزوة أُحُد؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر في هذه الغزوة بيَّن أنه يأمر المؤمنين وينادِيهم؛ ينادِيهم وأنت والثاني والثالث يسمع هذا النداء، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينادي يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 130]، وأنت ممن يتصف بهذه الصفة؛ يجب عليك أن تقف عند هذه الآية وتستمع لماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ.

لما ينادي يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 130]؛ قف عندها.

كما قال ابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: **"إذا سمعت يا أيها الذين آمنوا؛ فقف عندها، فإما خيرٌ تُؤمر به، أو شرٌّ تُنهى عنه"**؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 130].

- ما هو الربا؟ وكيف يأكله الإنسان أضعافًا مضاعفة؟ ما معنى هذا الكلام؟

الربا هو أخذ الزيادة في المعاملة؛ المعاملات عندنا معاملات بيع وشراء أحيانًا، وأحيانًا المعاملات التي تسمى بالمداينات.

أحيانًا الإنسان يحتاج إلى دَين، يحتاج إلى قرض، فيذهب إلى بعض التجار ويطلب منه مالَ قرضٍ لحاجته، إما لزواج أو لتأثيث بيت أو نحو ذلك؛ فيأتون هؤلاء التجار يستغلون هؤلاء الضعفاء فيقول: **"أنا أعطيك قرضًا مبلغًا ماليًّا، لكن تعيده لي بزيادة؛ أعطيك مئة ألف، وبعد سنة تعطيني مئة وعشرين ألفًا"**، فيتفقون على هذا الربا.

وهذا الربا كما ذكر أهل العلم على نوعين؛ يُسمى ربا الفضل وربا النسيئة؛ ربا الفضل في الحال مثلًا تأتي شخصًا في أشياء يجري فيها الربا مثل البُرِّ بالبُرِّ، الشعير بالشعير، الذهب بالذهب، الفضة بالفضة.

يأتي إلى صاحب ذهب، محل ذهب، يقول: **"خلاص أعطني هذا الخاتم وأعطيك خاتمين بدل هذا الخاتم، هذه الخاتمين اللي عندي قديمة وهذا جديد"**، أعطني هذا، هذا ربا لا يجوز؛

لأنه ذهب بذهب مع زيادة وهذا لا يجوز، لابد من التساوي، لابد من التقابض، هذه يسميها أهل العلم ربا الفضل.

وفي ربا يسمونه ربا النسيئة؛ النسيئة هو المؤجل، هو الذي ذكرناه المؤجل؛ يأتي له صاحبه سيارة مثلًا أو غير سيارة، يأتي لصاحب مال يقول: **"أعطني"**، أو البنوك أحيانًا يأتي إليها ويقول: **"أنا أريد أن أقترض منكم مبلغًا من المال"**، كم تريد؟ **"أريد مثلًا مئة ألف"**، قال: **"نعطيك مئة ألف، خلال ثلاث سنوات تردها لنا مئة وعشرين ألفًا، مئة وثلاثين ألفًا"**؛ هذا لا يجوز.

ليش؟ يستغلك! هذا الذي نهى الله عنه: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾ [آل عمران: 130].

- كيف أضعافًا مضاعفة؟

إذا حلَّ الدَّين، يعني هو الآن أخذ منهم مئة ألف وذهب بعد سنة، المفترض أنه يدفع لهم مئة وعشرين ألفًا أو مئة وثلاثين ألفًا حسب اتفاقيتهم، إذا حلَّ يقول: **"أنا ما عندي الآن مبلغ، ما أستطيع أسدد لكم"**.

قالوا: **"خلاص، ما عندك مشكلة، نعطيك سنة ثانية، ونزيد عليك؛ بدل ما تدفع لنا مئة وعشرين، نعطيك سنة وتدفعها مئة وأربعين"**؛ تجي السنة الثانية يقول: **"والله أنا حتى الآن ما استطعت أسدد لكم، عندي ظروف ما أستطيع أن أدفع لكم مبلغًا"**.

قالوا: **"نعطيك فرصة، نعطيك مدة، نعطيك ثلاث سنوات وتدفعها مئة وستين، نعطيك أربعًا مئة وثمانين، نعطيك خمس سنوات تدفع المئة مئتين"**.

ويمشون بهذه المدة، ويضربون بالآجال والمبالغ والزيادات؛ هذا هو الذي قال الله فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: 130]؛ يستغلون أصحاب التجارات، أصحاب الأغنياء، أصحاب الأموال الطائلة، يستغلون الضعفاء.

يجي واحد عليه ديون، عليه احتياجات ضرورية؛ زواج، تأثيث بيت، شراء سيارة، يضطرون لهذا؛ **"نعطيك سيارة"**، كم تشتري سيارة؟ تشتري سيارة بمئة ألف، نحن نعطيك هكذا، نعطيك مئة ألف تسددها لنا مئة وعشرين، مئة وأربعين، مئة وثمانين، وهكذا؛ هذا لا يجوز نهى الله عنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران: 130].

- ما الحل؟

الحلُّ القرض الذي أباحه الله، المداينات التي أباحها الله؛ تذهب إلى شخص يقرضك قرضًا، كم تريد؟ قال: **"أريد مئة ألف"**، قال: **"خلاص أنا أعطيك مئة، أوسع عليك، تدفعها لي بعد سنة مئة ألف"**؛ هذا الذي أجازه الله وأباحه، ومن بعد سنة ما استطاع أن يسدد لك، ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: 280]؛ توسع عليه وتعطيه مدته، خلاص بعد ستة شهور بعد سنة أعطني إياها وتوسع عليه.

بالعكس، أحيانًا تجد بعض المحسنين التجار الأغنياء الذين يحسنون في تعاملهم مع هؤلاء المحتاجين يقول: **"أنا أعطيك مئة ألف وبعد سنة ردها لي، وإذا ما استطعت ترد السنة الثانية والثالثة، وإذا ما استطعت أعطنا اللي عندك والباقي نتسامح ونتنازل عنه"**.

هذا الذي أباحه الله، وهذا هو القرض المباح المشروع في الإسلام؛ المداينات والقروض المباحة، أما استغلال الضعفاء والمساكين وأخذ أموالهم بهذه الطريقة؛ فهذا هو الذي نهى الله عنه، ولذلك شف قال: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: 130]، خافوا الله! خافوا الله بهؤلاء الضعفاء والمساكين.

واتقوا الله، تأتيك امرأة عندها أيتام، عندها مشاكل أسرية تريد أن تساعدها في المال، تستغلها! **"أعطيك مال وتردينه لي بعد سنة بكذا وكذا وكذا"**، اتقوا الله. قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 130].

إذا لم تتق في المال وفي هذه الأُسَر الضعيفة، إذا لم تتق الله عَزَّ وَجَلَّ وتخاف الله؛ فأنْتَ ستخسر الدنيا والآخرة، لا تظن أن المال يزيد عندك، ما فيه بركة؛ ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: 276]، يظن أنه يأخذ أموالًا من هؤلاء ويتعامل مع أكثر من عشرين شخصًا يتعامل معهم ويظن أن هذا سيزيد في رصيده، وهو لا يدري أن الله يمحق بركة هذا الشيء.

ولذلك قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 130]؛ إذا أردت الفلاح والفوز بالدنيا والآخرة؛ اتق الله وخف من الله أن تتعامل بالربا.

ولاحظ أيضًا زيادة بعدها يقول: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 131]؛ أنت الآن على خطر، هؤلاء أصحاب الربا على خطر عظيم؛ يحشرهم الله مع الكفار في نار جهنم، وهم السبب استغلال أموال استغلال الضعفاء والمساكين بهذه الطريقة، بأكل الربا الذي حرَّمه الله.

الله عَزَّ وَجَلَّ حرَّمهم في جميع الشرائع، يستغلون هؤلاء ويأخذون أموالهم؛ لأنه عارف أنه مضطر؛ مضطر للزواج، مضطر إلى أن يشتري بيتًا، مضطر إلى أن يشتري سيارة، فيضطر، ياتي إليك ويقول: **"أنا ما فيه حل إلا أني أستلف منك"**، قال: **"خلاص نعطيك، نأخذ عليك زيادة خفيفة وش هي عشرين ألفًا"** وهكذا، ويستغلونهم، فهذا الذي نهى الله عنه.

- قد يسأل سائل الآن يقول: "يعني الآن أنت تقول إن هذه الآيات في قصة أُحُد وفي الغزوة، إيش علاقة الربا في الغزوة؟"

الجواب: الجهاد قائم على المال، الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا يقول؟ قال: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 41]، الجهاد قائم على المال، فإذا كان الجهاد قائمًا على مالٍ محرم؛ كيف ينتصر أصحابه؟ ما ينتصرون! فهل نهى الله عَزَّ وَجَلَّ نهى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يقوم الجهاد على مالٍ محرم فلا نصرة لهم ولا كرامة لهم؟ أن الله يكرمهم بالنصر وهم قد أقاموا الجهاد على محرّم وعلى شيء لا يجوز؛ هذا يعني من وجه أن الجهاد لا يجوز على شيء محرَّم.

الأمر الثاني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر في الجهاد بتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن أعظم تقوى الله البعد عن المحرمات وأشد المحرمات هذه التي يذكرها الله سبحانه، ومن تقوى الله لأن فيك الآن آيات كلها تتحدث عن التقوى.

ومن تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو امتثال أوامر الله؛ يعني شف غزوة أُحُد، يعني كلنا نعرف أن المسلمين في الغزوة انتصروا انتصارًا قويًّا وفرَّ المشركون ولم يبق منهم أحد وتركوا أموالهم، وهذه أصبحت غنائم، وبعد لحظة انقلبت المعركة من انتصار المسلمين إلى هزيمتهم بلحظة، كيف؟ ما السبب؟ هو معصية! معصية وقعت من بعض الصحابة عكست القضية كلها وأصبحت غزوة أُحُد هزيمة للمسلمين وقتل فيها من قتل من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

السبب هو المعصية؛ فالله يحذر من المعاصي ويأمر بتقواه، ولذلك يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ 130 وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 130-131].

- وشوف كلمة ﴿أُعِدَّتْ﴾؛ ماذا نستفيد منها؟

نستفيد على أن النار موجودة الآن، النار مخلوقة موجودة، كما سيأتيك الآن ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ الجنة والنار موجودة. الرسول ﷺ لما أُسري به دخل الجنة ورآها، ورأى النار؛ النار

موجودة والجنة موجودة، والدليل أن الله قال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ﴾، معنى ﴿أُعِدَّتْ﴾ يعني هُيِّئت موجودة الآن.

انظر يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: 132]؛ إذا أردتم رحمة الله ونصرته وعزته؛ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، كل هذه أوامر ونواهٍ كلها تشجع المسلمين على أن الله ينصرهم إذا التزموا أوامر الله وتمسكوا بدينه وبشرعه.

انظر بعدها تأتيك أوامر عظيمة جدًّا، قال بعدها: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: 133]؛ في القضية إنك تعبد الله، القضية إنك تصلي والقضية إنك تتشرف بعبادة الله، لا!

القضية أكبر من ذلك وهي المسارعة؛ حيث إن نفسك تدفعك إلى المسارعة، لا يؤذن المؤذن إلا وأنت في المسجد، هذه المسارعة.

المسارعة لا يأتي طريق إلى الصدقة إلا وأنت تساهم فيه، لا يأتي يوم من أيام الصيام المشروعة إلا أن تكون صائمًا فيه؛ يمر عليك الاثنين، يمر عليك الخميس، يمر عليك أيام البيض؛ هكذا وهذا معنى المسارعة، المسارعة أن تكون من المتقدمين في الطاعات، من المسابقين في الطاعات.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في موضع آخر: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: 21]، وقال هنا: ﴿وَسَارِعُوا﴾. وفي آية أخرى قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26]، ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: 61]؛ هذا الشغل الدار هنا دار عمل، الدار هنا دار عمل وفق لدار العمل، تغتنم فُرَصًا، هذه الفرص التي تمر عليك لا تفوتها، هذا معنى المسارعة.

قال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: 133]؛ أنت لما تقرأ هذه الآية يجب عليك أن تتأمل تقف معها؛ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول سارع إلى أي شيء؟

قال: ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾، ثم قال: ﴿وَجَنَّةٍ﴾؛ قد قدَّم المغفرة على الجنة، يعني الجنة أعظم ولا المغفرة؟ قال لا، هذا يسميه أهل العلم: **"التخلية قبل التحلية"**؛ ينبغي أن تتخلى أولًا عن الذنوب، تغسل هذه الذنوب عنك حتى تنقي نفسك كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، ثم تتحلى بدخولك للجنة؛ لا تدخل الجنة وأنت معك ذنوب، هذا معناه.

- فتطهر نفسك؛ كيف أطهر نفسي؟

المغفرة، قال تتعرض لأسباب المغفرة.

- ما هي مكفرات الذنوب؟

مكفرات الذنوب كثيرة.

يقول ﷺ: **«الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ وَالْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُمَا»**؛ فأنت تبحث عن هذه الأشياء التي تكفر، يقول كثرة الخطا إلى المساجد تكفر الذنوب، وهكذا أشياء كثيرة أبواب تكفير الذنوب كثيرة جدًّا.

الصيام: **«مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ بَاعَدَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»**، وهكذا تجد الإنسان يبحث عن مكفرات الذنوب حتى يطهر نفسه وينقيها.

﴿مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ثم يصل إلى الجنة، وهذه الجنة لا يمكن أن تتصورها أبدًا؛ ﴿عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

- كيف بطولها؟

يقول ابن عباس: **"عرضها السماوات والأرض يعني لو جيء بالسماوات السبع ومدَّت مد الأديم مثل الثوب، وجيء بالأراضي السبع ومُدَّت هذا المد العظيم؛ هذا عرض الجنة فكيف بطولها؟ الطول أعظم معروف الطول أعظم من العرض"**.

﴿جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]؛ انظر كلمة ﴿أُعِدَّتْ﴾ تدل على وجود الجنة، أعدت لمن؟ للناس؟ ولا للمؤمنين؟ لا قال فوق ذلك كله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾.

المتقين اللي مر معنا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ هذا طيب كيف متقين؟ قال اتقوا الله يعني خافوا، راقبوا، تابع؛ لا يجدك الله في مكان تعصيه، لا يجدك الله في مكان أمرك أن تكون فيه وأنت غير موجود.

صلاة الفجر تركتها ليش؟ الله أمرك أن تحفظ صلاة الفجر ولا يجدك فيها، لا يجدك الله في شيء؛ هذه كلها خَلل بالتقوى، ما تدخل مع هؤلاء، تحرم نفسك تحرم نفسك الدخول مع هؤلاء.

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ 133 الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: 133-134]؛ هذه صفات المتقين، هذه من أجَلِّ صفات المتقين، أعظم صفات المتقين أنهم ينفقون أموالهم في سبيل الله، ما يعرفون طريقًا للبخل والإمساك.

يأتيهم كل مشاريع الخير تجده يسارع فيه؛ ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: 134]. انظر كلمة ﴿يُنفِقُونَ﴾ هذه يقول أهل اللغة يقولون هذا فعل مضارع، وفعل المضارع يفيد الاستمرار، يعني ينفقون بالليل والنهار؛ ما يقول أنفقوا وانتهوا أو سينفقون، لا قال ما يزال مستمر ينفقون.

- كيف ينفقون؟

قال: ﴿يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾؛ في السعة والضيق، معهم أموال ينفقون، ليس معهم أموال ينفقون؛ يعني في الشدة وعدم توفر المال تجده ينفق ولو قليلًا، المهم أنه ينفق ولو ريالًا؛ إذا وسع الله عليه أنفق الأموال الكثيرة؛ فصفة الإنفاق لا تنفك عنه، دائم في جميع الحال.

واسمع الحديث هذا العظيم يقول في حديث النبي ﷺ: **«مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ فِيهِ النَّاسُ إِلَّا وَيَنْزِلُ مَلَكَانِ مِنَ السَّمَاءِ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»**.

فأنت أحد الأمرين؛ إن أنفقتَ دعا لك هذا الملك بالخلف أن الله يخلف عليك خيرًا منه، وإن لم تنفق وأمسكتَ دعا عليك هذا الملك بأن يتلف الله مالك؛ فالإنسان يحرص على استغلال النفقة كل ما يجد طريقًا إلى النفقة ولو قليل، وجدت مساهمة خيرية ادفع بها ولو قليل، وجدت كذا ساعد ولو علبة ماء ما تكلفك ولا نصف ريال، تصدق بعلبة ماء فصدق بكذا.

افتح مجال الصدقة عندك خله مفتوح حتى تدخل في هذه الآية: ﴿يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾، هذه صفته. الصفة الثانية قال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: 134]، يكظم يعني يحبس غيظه، يعني الغضب؛ يعني إذا جاء موقف يغضبه سواء من بيته، من زوجته، من أولاده، من شخص في الشارع، من جاهل، موقف في السيارة كذا؛ يمسك نفسه.

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ يمسك نفسه؛ أنت عاقل وهذا جاهل، لا تنزل نفسك للجاهل، امسك نفسك، الكاظم الغيظ الذي يكظم نفسه، يكظم غضبه بحيث لا يندفع، **«لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»**.

قال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 134]؛ يخطئون عليه ويسامحه ويعفو عنه، تجاوز عنه؛ يا إخوان حقيقة هذه صفات يعني تقل في كثير من الناس. ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ قال لا أرد عليه ولا أتركه، ولا **"ليش تهيننـي"**، **"ليش يتكلم علي"**؛ لا لا لا، هذا يدل على سفاهتك وعلى قلة العقل.

بالعكس ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ ينبغي أن تعفو، تتسامح مع الناس ولو أخطؤوا عليك، ولو ظلموك، ولو أخذوا مالك: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134]. انظر كلمة ﴿يُحِبُّ﴾ هذه تجعلك تقف عند الآية، أنت من المحسنين الله يحبك، ما أنت من المحسنين ما.

الإحسان ما هو؟ الإحسان باب واسع، باب واسع؛ الإحسان يعني فعل الخيرات الكثيرة؛ تحسن إلى امرأة محتاجة، تحسن إلى طفل، تحسن إلى رجل كبير بالسن لو تبتسم تقبل رأسه هذا من الإحسان، تحسن إلى الفقراء إلى المساكين، تحسن إلى المحتاجين، تحسن إلى أشخاص وفدوا إلى هذه البلاد وهم بحاجة لمن يوجههم.

الإحسان باب واسع، حتى الإحسان يدخل في الطاعات؛ أنت كيف تصلي؟ ينبغي عليك أن تحسن صلاتك مع الله، كيف تتعامل مع وهكذا الإحسان مع الناس والإحسان مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كل هذا داخل في الإحسان.

هنا قصة أيها الإخوة عجيبة ذكرها كثير من أهل العلم، وهي قصة وقعت لزين العابدين الحسين بن علي، زين العابدين من التابعين؛ عنده جارية، هذه الجارية كانت تصب له الماء وهو يتوضأ، ومعها إبريق قد رفعت الإبريق وتصب الماء وهو يتوضأ، فجأة سقط الإبريق من يدها على أنف زين العابدين فسال الدم؛ فالتفت إليها هي الآن مسكينة يعني في موقف محرج؛ ماذا تقول له؟ كيف ترد عليه؟

فنظر إليها فقالت: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، فقال: **"قد كظمت غيظي"**، فسكتت؛ قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾، قال: **"قد عفوت عنك"**؛ قالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال: **"اذهبي أنت حرة"**.

انظر كيف طبق الآية تطبيقًا عظيمًا جميلًا؛ من يستطيع واحد يسقط الإناء على أنفك ويسيل الدم وتقول له كذا؟ فكيف انظر كيف يتعاملون؟ كيف يطبقون القرآن؟ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عشان نأخذ النتيجة النهائية كلها الصفات.

قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ [آل عمران: 135]؛ كبيرة من الكبائر أو صغيرة، فعلوا فاحشة فعله عظيمة من قول أو فعل، وقعوا في فاحشة، ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: 135] بالمعاصي؛ انظر ظلموا أنفسهم يدخل فيها جميع المعاصي، كل معصية تدخل فيها ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

- ماذا يفعلون؟

قال: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 135].

تذكروا أن الله يعاقب وينتقم ممن يعصيه، وذكروه وتذكروا الله بألسنتهم فقالوا: **"لا إله إلا الله"**، ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]؛ أهم شيء إنك ما تستمر في المعصية، قد تقع؛ كل بني آدم خطاء، كُلُّ يخطئ، تقع في المعصية تخطئ؛ لكن تبقى في معصيتك هذا هو الأشياء؛ تجد بعض الناس يزاول بعض المعاصي ويستمر عليها، تستمر ولو كانت صغيرة لا تستمر عليها، لا تستمر على المحرمات.

النظر إلى الصور المحرمة لو نظرت إليها مرة ثم تبت تاب الله عليك؛ لكن تستمر تنظر، تستمع إلى محرمات تستمع، لو استمعت إليها مرة ورجعت تاب الله عليك، لكن تستمر على المعصية هذه المشكلة.

ولذلك انظر الآية قال: ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]؛ وبعد ذلك ابتعدوا عنه، وقعوا أحيانًا يقع الإنسان بغير اختياره لكن يقلع عن هذا.

- ما هي النتيجة؟

لما عرفنا هذه الصفات، البعد عن أي شيء عن التعامل بالربا؛ تجد بعض الناس أحيانًا يقول: **"أنا والله مضطر، رحت البنك وأعطاني مبلغ كذا وكذا وأعطاني عرضًا وقال لي كذا وتدفع كذا، أنا والله ش أسوي مضطر عندي زواج عندي أثاث عندي كذا"**؛ تقول: **"لا، ما أنت مضطر للحرام، أنت ما تظل في الحرام"**؛ ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا 2 وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3].

تعامل بالربا حرام، خلاص حرام، هذه حدود الله؛ ما تقول لي **"مضطر أنا إيش أسوي مالي حل"**؛ لا. فشوف قال: ﴿لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾؛ ووصف المتقين: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ 134 وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾[آل عمران: 134 - 135]؛ يعني أنهم دائمًا يبادرون إلى التوبة من المعاصي.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ المذكورين هؤلاء ﴿جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ﴾؛ انظر مع أنه في الأول ماذا قال؟ ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾؛ يعني أعطاهم الخير في الأول والنتيجة والبشارة في الأول، وفي الأخير قال: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [آل عمران: 136]؛ جزاؤهم أن الله يغفر لهم إذا فعلوا هذه الأشياء؛ أول شيء أن الله يزيل عنهم جميع الذنوب والمعاصي، يطهرك، تبقى طاهرًا نقيًّا من الذنوب والمعاصي.

ثم الثانية قال: ﴿وَجَنَّاتٌ﴾؛ يجعلك الله من أهل الجنات، جنات ماذا؟ قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ لا يخرجون منها، مقيمين فيها ما يخرجون منها.

وهذه جنات ليست جنة ولا جنتين ولا ثلاث جنات، لا حدَّ لها، ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: 136]. نعم أجر العاملين الذين يعملون مثل هذه الأشياء؛ فهذا أثنى الله عليهم فقال: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾، الذين يعملون هذه الأشياء، مَنْ يتمسك بهذه الصفات الطيبة ويأخذ بها ويعمل بها.

الله يثني عليه فيقول: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾؛ هذا الأجر الذي يغفر الله ذنوبهم ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار بسبب أعمالهم الصالحة، يأخذون بهذا الشيء ولهم هذا النصيب العظيم.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم وألا يحرمنا هذا الفضل العظيم؛ لنا لقاء إن شاء الله آخر نستكمل فيه هذه الآيات، ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(72)
(آل عمران 137)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، الآية التي بين أيدينا هي الآية السابعة بعد المئة من سورة آل عمران، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137].

هذه الآية هي جاءت في الحديث عن غزوة أحد، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد إذا ما حصل في غزوة أحد من انتصار المسلمين في أول الأمر، ثم في نهاية الأمر هو انهزامهم، إما انهزامهم أمام المشركين.

وحصل ما حصل من المعصية التي أدت إلى قلب المعركة من النصر إلى الهزيمة، وحصل ما حصل من قتل عدد من المسلمين، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعزي عباده المؤمنين ويسليهم ويخبرهم بأن هذه سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ سنة الله في خلقه وفي رسله وفي أوليائه وفي أعدائه.

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ [آل عمران: 137]، فانظروا في سنن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وما مضى، في قوله ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ [آل عمران: 137] يعني **"مضت"**. أي مضى قبلكم يعني أجيال وأمم امتحنوا وابتلي المؤمنين، ابتلي المؤمنين بقتال الكفار وتسلط الكفار على المؤمنين، فلم يزالوا في مداولة بين المؤمنين والكفار والحرب سجال، حتى جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العاقبة لعباده وأوليائه المتقين.

والنصر أيضًا لعباده وأوليائه المتقين، وآخر الأمر هو أن الكفار في هزيمة وأن الله دحرهم وأذلهم وأخزى وأخزاهم ونصر عباده كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51].

فهذه سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك أخبر الله يقول **"قد"** جاء بحرف التحقيق المؤكد ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ [آل عمران: 137]، ومضت من قبلكم يا محمد ويا أصحاب محمد ﴿سُنَنٌ﴾ [آل عمران: 137] أي طرائق؛ طريقة الله وسنة الله وعادته في الأمم الماضية.

﴿سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 137]؛ سيروا وامشوا، سيروا وانظروا وتأملوا وتفكروا بقلوبكم وبعقولكم، ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137].

النهاية لأوليائه المتقين، فما حصل لكم في أحد وما حصل لكم في بدر من النصر تعزيز ودحر الكفار، ثم ما حصل لكم أيضًا في أحد من النصر أيضًا والتأييد في أول الأمر، ثم لما جرى ما جرى من بعض الصحابة انقلبت، انقلب النصر هزيمة وحصل ما حصل، فهذه سنة الله سنة الله.

وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثيرٌ فما وهنوا كما سيأتي: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: 146]. فعليكم ألا تهنوا أمام العدو، ولا تضعفوا، ولا تستكينوا أمام العدو، بل كونوا أولياء، كونوا أقوياء، كونوا أقوياء أمام العدو.

ولذلك يقول: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137]، نهاية الأمر أنهم وقع بهم وما وقع من العقوبات، وكان النصر لأولياء الله.

هذه هي الآية السابعة من سورة آل عمران مما يبين الله فيها سنته في الأمم الماضية، ويسلي ويعزي أولياءه الصالحين من الصحابة الذين وقع لهم ما وقع في غزوة أحد، للحديث بقية إن شاء الله في لقاء قادم، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم.

(73)
(آل عمران 137- 148)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حيّاكم الله في هذا المجلس المبارك من مجالس القرآن الكريم في هذا اليوم، وهو اليوم الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة من عام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

الآيات التي بين أيدينا هي آيات من سورة آل عمران، سورة آل عمران كما ذكرنا في لقاءاتنا الماضية هي في نصفها الثاني من الآية مائة وعشرين تتحدث عن غزوة أحد، وهي الغزوة الثانية من غزوات النبي ﷺ. وأنت تقرأ في سورة آل عمران عن هذه الغزوة وما وقع فيها، القرآن لا يتحدث عن الغزوة كتاريخ؛ ما الذي جرى؟ وما الذي حصل؟ ومن الذي انتصر؟ ومن الذي هزم؟ وكيف كان؟ ومتى وقع؟ وأي يوم؟ هذه كلها لا يتحدث عنها، لماذا؟ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ، القرآن كتاب موعظة وتذكير ودروس وعبر؛ ولذلك إذا قرأت أنت في سورة آل عمران قصة أحد ما تلاحظ أن الله يشرحها لك شرحًا، وإنما يعطيك الدروس والفوائد والمواعظ والعبر منها.

الآية التي بين أيدينا لمن يتابع معنا على المصحف هي الآية مائة وثمانية وثلاثون، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 138].

الحقيقة يعني اللي يجلس يتدبر القرآن ويتأمل ويسمع كلام الله مثل هذه المجالس، والله يا إخوان آيات نقرؤها كثير وتمر علينا كثير، لكن إذا وقفت معها وتأملتها كما أمرك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي قال لك وقال لغيرك: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: 82]، والله تجد أشياء عجيبة.

يعني هذا الكلام الآن الذي يقوله الله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 138]، يعني القرآن أو المواعظ التي مرت معنا أو الأوامر والنواهي اللي مرت معنا قبل الآيات يقول لك هذا بيان للناس، طيب بيان يعني كلام يبينه الله للناس كلهم.

ثم قال: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 138]. فرق لما جاء في البيان قال هذا بيان للناس كلهم، كل الناس يسمعونه ويتضح لهم الأمر ويظهر لهم، لما جاء عند المتقين المنتفعين الذين ينتفعون بالقرآن ماذا قال؟

قال وهدى وموعظة، فالذي يهتدي بالقرآن هم المتقون، أما الناس لا، الناس قال بيان، لما جاء في المتقين قال هدى وموعظة؛ يعني القرآن هداية، كتاب هداية للمتقين وموعظة، يتعظون ويستفيدون ويأخذون الدروس للمتقين، خص المتقين ما خص الناس كلهم، غير المتقين ما يستفيدون منه، ليس لهم هداية ولا موعظة.

انظر يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139].

- ما معنى هذا الكلام؟

يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أجرى ما أجراه في غزوة أحد، وأن هذه الغزوة وقعت للمسلمين وانتصر المسلمون في أول الأمر انتصروا، حتى قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران: 152]، يعني تجزونهم جزًّا وأهلكهم جميعًا.

ثم بعد ذلك حصل ما حصل من المسلمين من أن وقع معصية واحدة من بعض المسلمين، هذه المعصية تسببت في قلب انتصار المسلمين في هذه المعركة إلى هزيمتهم وقتل عدد منهم.

لما حصل ما حصل من هذه المعصية وحصل ما حصل مما ترتب عليها من هزيمة المسلمين وانتصار الكفار عليهم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطيك الدروس والعبر في هذه المعركة، أن العزة للإسلام والمسلمين ولو انتصر الكفار، العزة للإسلام والمسلمين ولذلك انظر ماذا قال؟

قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ [آل عمران: 139] لا تضعفوا، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: 139].

- لو سألنا أحد قلنا ما الفرق بين تهن وتحزن هل هي بمعنى واحد ولا فيه فرق؟

الجواب: ولا تهنوا بأبدانكم ولا تحزنوا بقلوبكم، يعني لتكون أبدانكم قوية وقلوبكم أقوى. ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: 139]، ثم قال: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: 139] جملة اسمية تفيد الثبات، يعني العلو لكم والمكانة لكم أنتم الأعلون لا هم، وإن انتصروا عليكم أنتم الأعلون.

انظر أنت يمكن تمر عليك هذه الآية تقرأها ما تفرّق بين ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون، تمر عليها مرور الكرام ما تتدبرها هذا التدبر العظيم، كيف تعيش مع القرآن؟ كيف تقف على خزائن هذا القرآن على كنوز هذا القرآن؟

انظر قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139]، شرط جملة شرطية، يعني إن كنت مؤمنًا فلا يجوز لك أن تضعف أمام العدو، إن كنت مؤمنًا فلا تهن ولا تحزن، بل تكون معنوياتك قوية وبدنك قوي وسلاحك قوي أمام العدو؛ لأن العدو ضعيف مهما كان ضعيف، لأن من هو ولي الشيطان؟ وأنت من هو وليك؟

وليك الله، فلذلك قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139] لا تهنوا ولا تحزنوا. هذا درس يستفيد منه الصحابة في هذه الغزوة ويستفيد كل مؤمن على مر السنين، أن العزة للإسلام والمسلمين، وإذا حصل خذلان في الإسلام أو خذلان في المسلمين، قل هو من عند أنفسكم، أما العزة من الله ما يمكن أن يتخلى الله عنك إلا أنت إذا كنت السبب.

انظر قال: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: 140]، ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ﴾ [آل عمران: 140] أيها المسلمون في غزوة أحد قرح.

- ما معنى قرح؟

القرح **"أن القرح هو الجرح لا ما يكفي"**، انظر القرآن كيف يعبر هذا ترى من إعجاز القرآن، القرح يشمل الجرح في الجسد في البدن ويشمل الجرح في القلب وهو الحزن.

يقول إذا مسكم قرح أنتم يعني جروح في أبدانكم وقتل من قتل من الصحابة وجرح من جرح، ومسكم الحزن الشديد عليهم، شايف يشمل الأمرين، ومسكم الحزن الشديد على أصحابكم الذين قتلوا، ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: 140]، يعني هؤلاء الكفار الذين قاتلوكم كفار مكة مسهم القرح قبلكم في غزوة بدر.

قتل منهم سبعون وأسر سبعون، وهؤلاء وقتل من كبارهم أبو جهل وأمية بن خلف وأخذ من أعداد كبار قريش قتلوا وألقوا في قليب بدر، ورجعوا خسرانين قد خسروا الأشخاص والأبدان والأموال، فالله عَزَّ وَجَلَّ يقول أنتم جاءكم في غزوة أحد أصبتم وجاءكم ما جاءكم، هم جاءهم قبلكم فلا تحزنوا، ليش تحزن؟ يعني هم أصابهم ما أصاب وهم يألمون كما تألمون، وأنتم ترجون من الله ما لا يرجون.

أنتم تألمون وترجون من الله الأجر والغنيمة والشهادة والفوز بالجنة، وهم يألمون وليس لهم هذا كله، انظر الفرق.

﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]، يقول مرة ومرة يعني إذا انتصرتم أنتم مرة هم ينتصرون مرة وهكذا هذه الحياة كذا، لا تظن أن الحياة دائما كلها انتصارات للمسلمين لا، قد يصيبهم ما يصيبهم، ليش يصيبهم ما يصيبهم؟

ليش ما تكون انتصار دائمًا؟ قال لا حتى يتميز المؤمن الصادق من غيره، كما سيأتينا الآن دروس وعبر، يقول: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: 140]، يقول حصل ما حصل في هذه الغزوة من هزيمة المسلمين ليش؟

قال ليعلم الله المؤمن الصادق من المنافق، المنافق يجزع ويتسخط ويرجع عن دينه ويرتد والمؤمن يصبر ويتحمل، هكذا يميز الله، لو ما فيه هزيمة وما فيه مثل هذه الأمور ما عرفنا، كان يدخل في المؤمنين من المنافقين يدعون أنهم مؤمنين أو من ضعفاء الإيمان.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 140]، أي ليظهر علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويرتب عليه الأجر، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 140]، هذه فائدة، والفائدة الثانية ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: 140]؛ لأن الشهادة منزلة عظيمة عند الله ما أحد يستطيع يصل إليها، ما يصل إليها ولذلك الله يختار من عباده من ينال هذه الشهادة.

ولذلك قتل في غزوة أحد من قتل الله أراد لهم الرفعة والمكانة، قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: 140]، هذه الآية حقيقة عجيبة، كلمة ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: 140].

بعض أهل العلم قال: **"إنها نزلت على لسان امرأة من الصحابة"**، كيف؟ يقول لما انتهت المعركة وبدأ الناس يرجعون من غزوة أحد إلى المدينة على الإبل ونحوه، وكانوا قد حملوا الإبل بعض الذين قد جرحوا من المسلمين، فخرجت امرأة تسأل عن ابنين لها قالت فلان وفلان، فقال بعضهم قد قتلوا في المعركة وهي تستقبل الذين رجعوا فقالت قتلوا؟

قالوا نعم، قالت ليتخذ منكم شهداء، فنزلت الآية على لسانها قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: 140]. يعني هي فرحت ما جزعت وتسخطت لا، فرحت أن ابنيها أصبحوا شهداء في سبيل الله، قال: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 140]، هؤلاء ظلموكم وقتلوكم وأخرجوكم من دياركم وجاؤوا يحاربونكم في بلدكم، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 140].

بمعنى أنه لا ينصرهم أبدًا ولو انتصروا ستكون الدائرة عليهم، انظر خذ من الفوائد من هذه الغزوة، طيب لماذا حصل ما حصل؟ قال أيضًا: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 141]، تمحيص حتى يظهر الصادق بإيمانه من الضعيف الإيمان، تمحيص هذا إذا أصيب الإنسان بمثل هذه المصائب في هذه الغزوات وغيرها هذا تمحيص له، ومحو للذنوب ومحو حتى لا يبقى عليه ذنب، ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 141].

ثم قال: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 141].

- ما معنى محق؟

محقه إزالته بالكلية لا يبقى له أي أثر غسل مرة، قال: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 141]، يعني الكفار هذول سينتهون فأبشروا أيها المسلمون ولو حصل ما حصل في غزوة أحد، النتيجة أن الله سيمحق الكافرين لا يبقي لهم أي أثر أبدًا.

وخذ من الدروس والعبر مثل ما ذكرنا، يعني القرآن ما يقص علينا غزوة أحد متى وقعت تاريخ كم كيف كان عدد المسلمين ما الذي انتصر وأين مكانهم هذا تاريخ ما يتذكر هو يعطيك عبرة دروس.

انظر اقرأ هذه عبرة هذه يقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 142]، يقول تظن أنك تدخل الجنة هكذا؟ يعني تدخل الجنة دون أن يصيبك أي شيء؟ هذا مستحيل، يقول لا لا يمكن، طيب ليش؟

قال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ [آل عمران: 142] يعني تظنون أن تدخلوا الجنة، ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 142] يعني لا الله عَزَّ وَجَلَّ لابد أن يعلم الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين، جاهدوا في سبيل الله حتى يكافئهم على جهادهم، ويعلم الصابرين الذين تحملوا.

وهذه كأنها رسالة لأصحاب النبي ﷺ جاهدوا واصبروا والله يعلم، وعلمه هذا أظهره ليرتب عليه الأجور لكم، ولا تظنون أنكم تدخلون الجنة هكذا الجنة أبوابها مفتوحة لأي شخص.

الجنة كما قال بعضهم يقول **"من أراد الراحة في الجنة فليترك الراحة في الدنيا من أراد النعيم في الجنة فليترك النعيم في الدنيا"**، أما تريد النعيم في الدنيا وتريد النعيم في الجنة ما يمكن.

ولذلك قال ثم أمر آخر يذكرهم الله لما وقعت غزوة بدر فات كثير من الصحابة المشاركة في غزوة بدر، ما شارك إلا ثلاثمائة واحد والبقية كانوا في المدينة ما يدرون؛ لأن الرسول ما خرج للغزو خرج لينال العير فوقعت الغزوة.

فلما رجعوا انتصروا قال بعض الصحابة من الأنصار والله نتمنى أن نلقى العدو مثل ما لقيتموه ونقاتله، وكانوا يتمنون أن تقع معركة حتى يجاهدوا فيها، فلما وقعت هذه المعركة حصل ما حصل، ولذلك الله ماذا يقول: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: 143].

الآن أمامكم تشوف الصحابي يقتل ويسقط أمامك، تشوف الموت أمامك، أنتم تتمنون الموت تقولون نريد غزوة نغزو، والآن كأن النفوس ضعفت لماذا تضعف النفوس؟ لماذا تهنوا؟ لماذا تحزنوا؟ وما يعني ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: 143].

- فيه سؤال هنا الرسول ﷺ في الحديث يقول: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ» يعني ما يجوز أتمنى الموت والآية هنا يقول تتمنون الموت. كيف نقول هذه؟

الجواب: هذا يتمنى الشهادة، غير أن ضرًّا نزل بك مرض تقول ليتني أموت وأرتاح من هذا المرض لا هذا لا يجوز، أما نيل الشهادة هذا شيء آخر.

لما أشيع في الغزوة أن النبي ﷺ قتل، أشيع من المشركين أنهم قتلوا النبي ﷺ لأن ضربوه فشجوا رأسه كسروا رباعيته، فقال منهم من المشركين قتلنا محمدًا قتلنا محمدًا، فسمع الصحابة ذلك فحصل ارتجاج في صفوف المسلمين وأشيع وبدؤوا وضعفت النفوس.

قالوا حتى قال بعض الصحابة قال ما دام أن محمدًا قتل فلماذا نقاتل نحن وهو رجع؟ الله أعطاهم درس أن محمدًا لو عاش ما عاش سيموت، محمد بشر من بني آدم لو عاش ما عاش مصيره إلى الموت، ولذلك قال يعني محمد جاءكم بالرسالة وبلغتكم الرسالة مصيره إلى الموت، فإذا مات ماذا ستكونون؟ استمروا على هذه الدعوة.

ولذلك يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144] هل هذا يمكن؟ لو مات على فراشه أو قتل في المعركة مجاهدًا تنقلبون على أعقابكم ترجعون عن دينكم؟ هل هذا يليق؟ ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144] قال: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

الذين يشكرون الله ويحمدون الله ويتمسكون بدينه على هذه الرسالة والدعوة سيجازيهم على شكرهم، ثم بين لهم يعني سنة الله في الخلق كله ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 145] ما فيه أحد يموت إلا بإذن الله أبدًا على مر السنين ما كان لنفس، ولا تظن الذين قتلوا في أحد أن السبب هو المشركين قتلوهم لا هذه آجالهم، لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ما يمكن.

ولذلك قال هنا: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: 145] يمكن أن يستأخر ولا يستقدم ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34] ولا لحظة، إذا نزل الأجل والله ما يمكن تملك شيء، ومادام أن الله أعطاك عمرًا ما أحد يستطيع أن يقطع عليك عمرك ولذلك قال ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: 145].

ولكن النتيجة إذا عرفت هذه السنة سنة الله في الآجال والموت ما الذي ينبغي لك؟ قال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 145].

يقول من الناس من يريد الدنيا والغنائم والمكاسب الدنيوية هذا نعطيه حظه في الدنيا، والذي يريد الآخرة وهو أعلى وأعظم نعطيه حقه في الآخرة ونجازيه على شكره؛ لأنه شكر الله وحمد الله فنعطيه أكثر وأكثر.

انظر حتى تفهم الدروس والعبر يعني يقول: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: 146] طيب هذه الآية وما بعدها فيها أيضًا تعزية للمسلمين، يقول: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: 146] يقول يا أيها الصحابة يا من قُتل في أحد أو قُتل منهم من قُتل في أحد، فيه أنبياء قبلكم قُتل منهم من أصحابه ومن أتباعه أتباعهم عدد كثير وما وهنوا ليش أنتم تضعفون؟

ولذلك قال: ﴿وَكَأَيِّنْ﴾ [آل عمران: 146] يعني كثير من النبي قاتل معه ربيون يعني أصحاب معه ربيون تربوا عليه وأخذوا منه كثير والنتيجة: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 146] يعني أصابهم مصائب بس ما ضعفوا ﴿وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146] ليش؟ لأنهم صبروا والله يحب الصابرين.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: 147] انظر يعني فيه رابط في كلمة ﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: 147].

- ما السبب الذي جعل المسلمين ينهزمون في أحد؟

المعصية الذنب، وهؤلاء من دعائهم يقولون ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، ليش يدعون بهذا الدعاء؟ لأن الذنوب هي سبب المعاصي الذنوب هي سبب الهزائم.

وهم يطلبون من الله أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم حتى ينتصروا، ما يمكن أن تنتصر وأنت ذنوبك قد وصلت ما وصلت، أولًا تخلّ عن الذنوب وينصرك الله، الهزائم اللي تقع في المسلمين على مر السنين أسبابها المعاصي؛ لذلك من دعائهم ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 147] دعاء منهم.

انظر مع أنهم فعلوا الأسباب إلا أن هناك أسباب معنوية أقوى، يدعون الله دعاءً أن يثبتهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: 148] أعطاهم الله ثواب الدنيا ما هو ثواب الدنيا؟

النصر والغنيمة، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: 148] الفوز بالدار الآخرة، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 148] لأنهم أحسنوا أعمالهم وأحسنوا في قلوبهم وفي دعائهم،

وعرفوا ما عند الله من الأجر العظيم فصبروا واستعانوا بالله وبدعائهم فيسر الله لهم أمورهم فجعلهم على أعلى عليين.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، ولنا لقاء إن شاء الله في درس آخر، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(74)
(آل عمران 149- 154)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، مثل هذا المجلس المبارك نجلس نتدبر القرآن الكريم ونتفقه فيما جاء في هذا القرآن العظيم؛ مجلسًا مباركًا تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزَّل عليه السكينة، وهي كلها يعني دقائق معدودة نعيش مع القرآن الكريم في آياته في سورة آل عمران.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 149]. لو تأملنا أيها الإخوة هذه الآية وذكرنا فيما مضى أنك إذا سمعت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ارعَ لها سمعك؛ تأمل ماذا يأمرك الله، إما خيرٌ يأمرك به أو شرٌ يحذرك منه، انظر هذه الآية، قف معها، طبقها.

﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾، إن تطيعوا الذين كفروا؛ طاعة الكفار.

- إن تطيع الذين كفروا النتيجة ما هي؟

﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ أي على كفركم وعلى ما كنتم عليه، يردوكم فتنقلبوا خاسرين؛ يعني احذروا أن تطيعوا الذين كفروا، طاعة الكفار معصيةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ حذر المؤمنين قال: ﴿إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

فإن النتيجة أنهم يردوكم؛ لأنهم لا يريدون منكم أن تكونوا على الهدى والطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما يريدون أن تكونوا معهم، تكونوا أنتم وهم سواءً في الكفر، يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين، النتيجة أنكم تخسرون الدنيا وتخسرون الآخرة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 150]، يعني أطيعوا الله ولا تطيعوا الكافرين؛ أطيعوا الله ولا تطيعوا الكافرين، الله هو مولاكم وهو الذي يتولاكم وينصركم عليه، وهو خير الناصرين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالولاية هي للمؤمن، ولاية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليست ولاية الكفار؛ إذا تولى الكفار للمؤمنين ردوهم على أعقابهم فخسروا دنياهم وخسروا آخرتهم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المولى وهو الناصر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولذلك قال خير الناصرين.

الحديث في هذه السورة حديثٌ عن غزوة أحد وما جرى فيها، والآيات لا تزال تتحدث عن الواقعة هذه التي وقعت على المسلمين في غزوة أحد.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 151]. هذه بشارةٌ للمؤمنين لما وقع ما وقع في غزوة أحد من معصيةٍ واحدة قلبت النصر هزيمةً، وإن انتصر المسلمون في أول المعركة ثم انقلبت هزيمةً بانتصار الكفار عليهم.

لما حصل ما حصل من انتصارهم وقتل المسلمين، قُتلوا سبعين من المؤمنين، لما انتهت المعركة قال أبو سفيان ومن معه: **"سنرجع الآن ونحصدهم حصدًا ولا نبقي منهم أحد، ونستأصلهم جميعًا"**.

فلما أرادوا الرجوع إلى المدينة مرةً أخرى، قذف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قلوب الذين كفروا الرعب؛ فخاف أبو سفيان ومن معه فقالوا: **"قتلنا ما قتلنا منهم وسنرجع إلى مكة"**. فرجعوا إلى مكة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، الرعب والخوف والذعر في قلوبهم؛ لماذا؟ قال: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ بسبب شركهم بالله وكفرهم بالله.

﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ قتلاهم، وهم إذا بقوا على كفرهم مأواهم النار، ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾؛ مأواهم النار مرجعهم إلى النار وبئس مثوى الظالمين؛ بئس هذا المقام مقام هؤلاء لأنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك ومقاتلة المسلمين.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [آل عمران: 152]، صدق المؤمنين، ووعده بالنصر؛ لأنه سينصر الرسول ﷺ وينصر أصحابه وينصر المؤمنين في كل زمان. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 51]. على مدى السنين.

يقول: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾، هذا الحديث عن أول المعركة، بداية المعركة لما جاء المشركون معهم ثلاثة آلاف مقاتل وعدتهم أقوى، والمؤمنون ألف مقاتل في معركة أحد، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نصر المؤمنين ونصر رسوله عليه؛ فقتلوهم شر قتلة.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾، تجزونهم جزًا حتى فروا هاربين، ولوا الأدبار وتركوا عدتهم وعتادهم فأصبحت غنائم للمسلمين وفروا هاربين إلى مكة. يقول: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ بقضاء الله وقدره وإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقتلوا عددًا منهم واستمر النصر مع المؤمنين إلى أي ساعة؟

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. النبي ﷺ كان يرتب المعركة، وهناك جبلٌ سمي جبل الرماة يحمي ظهور المؤمنين ألا يأتيهم العدو من الخلف؛ فجاء النبي ﷺ ووضع فيه خمسين من الصحابة على هذا الجبل وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير فقال: **«لَا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَكُمُ الْخَبَرُ»**.

إن أُذن لكم في النزول وابقوا في مكانكم، لما انتهت المعركة بدأ الناس يأخذون الغنائم، قال هؤلاء: انتهت المعركة والغنائم تذهب عنا، سننزل، فقال لهم عبد الله بن جبير: الرسول ﷺ أوصانا ألا نتحرك من هذا المكان حتى يأتينا الخبر من عنده، فلا تتحركوا.

فقالوا: انتهت الحرب، لماذا لا نتحرك؟ فنزلوا ولم يبقَ مع عبد الله بن جبير إلا عددٌ قليل، فلما رآهم المشركون، أخذوا ولفوا عليهم من الخلف وصعدوا جبل هذا الصغير وقتلوا عبد الله بن جبير ومن معه، وبدأوا يضربون في المسلمين حتى قُتل منهم عددٌ كبير، وحتى شُيع أن النبي ﷺ قُتل وضُرب رأسه، شُج رأسه وكسرت رباعيته.

- ما هو السبب؟

معصيةٌ واحدة قلبت النصر هزيمةً.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 152].

اختلفتم تنازعتم ونزل بكم الجبن والخوف وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون الغنائم، عصيتم الرسول لما رأيتم الغنائم ما تحبون. ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

يقول ابن مسعود: **"والله ما علمت أحدٌ من أصحابنا يريد الدنيا إلا لما قال الله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾"**.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾، صرفكم أن تقاتلوهم، أن تقفوا في وجوههم؛ يعني أنزل الله أصبح في قلوبهم الرعب من المشركين، ما استطاعوا أن يقاتلوا المشركين، صرف الله عنهم القوة والقتال ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ يمتحنكم بسبب هذه المعصية.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾، هذه بشارةٌ لهم أنهم حصل منهم ما حصل من هذا التقصير وهذا الخطأ، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عفا عنهم، الله عَزَّ وَجَلَّ عفا عنهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فضله على المؤمنين فضلٌ واسع فتفضل عليهم وعفا عنهم.

ثم يصور القرآن لنا موقف المؤمنين بعدما انقلب النصر هزيمةً وشوف يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ [آل عمران: 153].

يقول: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تصعدون.

قال أهل التفسير: **"إن الصحابة لما حصل ما حصل من ضرب المشركين فيهم بدأوا يصعدون الجبل فارين بأنفسهم، كل واحد يفر بنفسه، وبعضهم يصعد ينزل إلى الوادي يفر بنفسه"**.

تفرقوا، فراح هؤلاء من هنا وهؤلاء من هنا وترك الرسول ليس معه إلا العدد القليل، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ لا تلتفتون على أحد، والرسول يناديهم: **«عِبَادَ اللهِ، إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ»**. ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ في مؤخرتكم ولا تلتفتون إليه.

﴿فَأَثَابَكُمْ﴾؛ معنى ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ هذه كلمة يعني جزاكم، وقد يكون الثواب يعني جزاءً في الخير وقد يكون في الشر؛ لأن الله يقول في سورة المطففين: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: 36]، يعني هل جوزوا على أعمالهم؟ الكفار يجازون على أعمالهم، وهنا يقول: ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ أي أنزل بكم أي عقوبةٍ لكم، ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾؛ غمين، لماذا قال؟

- ما هو الغم الأول والثاني؟

قال: **"الغم الأول هو انهزامهم وقتل المشركين فيهم قتلاً شديداً، والغم الثاني المصيبة التي أصيبوا بها بتفرقهم وظنهم أن الرسول قد قُتل وإشاعة أن المسلمين قد انهزموا ولم يبقَ لهم قائمة"**.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾؛ يقول هذه العقوبة التي أنزلها الله بكم وهذا الغم الذي نزل بكم حتى لا تحزنوا على ما فاتكم، لا تحزنوا على هذا النصر الذي جاءكم في الأول ما فاتكم، ولا ما أصابكم من قتل المشركين.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي خبيرٌ بأعمالكم وبما في قلوبكم، فلا تحزن لأن الله قد قدر هذا الأمر؛ فلا تحزن على ما فاتك مما مضى ولا ما أصابك من هذه المصيبة التي نزلت بالمؤمنين، هذه المصيبة التي نزلت بالمؤمنين.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: 154]؛ أي بعدما أصابكم الغم وهذا الحزن الله عَزَّ وَجَلَّ برحمته أزال عنهم هذا الغم وهذا الحزن بأن أنزل عليهم الأمنة وهو الطمأنينة والسكينة وانشراح الصدر، ثم أنزل عليهم نعاسًا وهو شيءٌ من النوم، بداية النوم.

لماذا؟ لأن النعاس يعني بفضلٍ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذهب الضعف ويذهب الخوف، فإذا نام الإنسان وأخذ ولو نومةً خفيفةً ذهب عنه، ولذلك أحد الصحابة يقول: **"كنا في أحد، يقول: والله أصابني نعاسٌ حتى إن السيف ليسقط من يدي وآخذه ويسقط من يدي وآخذه"** بسبب هذا النعاس.

ثم هذا النعاس الذي أصابهم تعويضًا لهم بنشاطٍ قوي أمام العدو، قال: ﴿أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾، وهذا النعاس وهذا الأمن والسكينة ليس لجميع المقاتلين، وإنما للمؤمنين الذين أخلصوا إيمانهم وصدقوا مع الله؛ ولذلك يقول: ﴿يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ وطائفةٌ أخرى لم يغشاها هذا، لماذا؟

قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ وهم المنافقون وضعفاء الإيمان، كانت تهمهم أنفسهم فقط.

قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، يظنون أن الله لن ينصر رسوله ولن ينصر أولياءه ولن ينصر هذا الدين؛ هذا ظنهم ظن الجاهلية.

يقولون: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾؟ يقول: **"أنحن يا رسول الله"**، ويقول المؤمنين يقول: **"نحن أعطيناكم الأمر في البداية قلنا لكم لا تخرجوا لمعركة أحد، اجلسوا في بيوتكم"**، هذا رأي المنافقين، والرسول لم يسمع من هؤلاء المنافقين.

يقول: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾؟ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾؛ الأمر لله هو الذي يقدره، أنتم ما تملكون شيئًا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، هؤلاء المنافقون وضعفاء الإيمان ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ من عدم فرحهم بانتصار المسلمين بل يفرحون بانتصارات الكفار عليهم.

يقولون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، هذا تصريحٌ منهم ببيان نيتهم وحقدهم على الإسلام؛ يقول: **"لو جلسنا في بيوتنا ما خرجنا ما حصل هذا، لكن محمد هو الذي أخرجنا"**، وهذا يظنون بالرسول ويظنون بالمؤمنين ويظنون بالله ظن الجاهلية.

﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾، قال الله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾؛ يقول: لو أنتم في بيوتكم ما حمتكم بيوتكم لأن الله قد كتب عليكم الموت، فلا بد أن تخرجوا إلى أماكن ومراقد الموت ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

- ولكن الله فعل ما فعل وقدر ما قدر؛ لماذا؟

قال: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ يا أيها المنافقون، حتى يظهر ما في قلوبكم من ضعف الإيمان وحبكم للكفر، ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ حتى يظهر الصادق من كاذب، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو العليم بما يدور في هذه الصدور وبما تخفيه صدورهم، عليمٌ به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فكيف يظهرون ما لا يبدون لك كل هذا، أو يخفون ما لا يبدون لك كل هذا يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا ما يحكيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا فيما جرى للمؤمنين في هذه المعركة في معركة أحد وما حصل فيها، نتأمل أن معصيةً واحدةً قلبت النصر هزيمةً، بسبب معصيةٍ واحدة كل هذا، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوجه المؤمنين ويعظهم أن يأخذوا بأوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأن يبتعدوا عن معصية الله وعن معصية رسوله؛ فالمعاصي لها شؤمٌ عظيمٌ لها شؤمٌ عظيمٌ، فكيف بمعصيةٍ تقلب معركةً فيها الرسول ﷺ وفيها أجلاء الصحابة إلى هذا الأمر.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم نواصل ما يحكيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويذكره لنا في هذه السورة العظيمة سورة آل عمران، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(75)
(آل عمران 154- 160)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، اللقاء المتجدد في كل مغربٍ.

نجلس هذا المجلس العطر المبارك، مجلس من مجالس الذكر والقرآن الكريم الذي تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة من رب العالمين، ويذكر الله هؤلاء الحاضرين جميعًا الذين يستمعون للذكر، يذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الملأ الأعلى بأحسن أسمائه.

وهذا فضل عظيم حقيقة وغنيمة أن يجلس الإنسان ويقضي قليلًا جدًا من وقته في مثل هذا المجلس المبارك؛ عشر دقائق، ربع ساعة، إلى عشرين دقيقة يجلسها للقرآن الكريم، يسمع كلام الله وما يوجهه الله له ويعظه ويذكره؛ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: 9]، ويسمع هذه الآيات وما فيها من تفسير وبيان وإيضاح.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة آل عمران في سياق قصة أُحد وما جرى فيها، وذكرنا في لقاءات ماضية أن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ يذكر لك معركة أُحد وما الذي جرى فيها، وكم عددهم، ومن الذي انتصر، ومن الذي قُتل، القرآن لا يتعرض لهذه الأشياء؛ وإنما القرآن موعظة ودروس وعبر تؤخذ من هذه القصص، يسوقها الله على وجه التذكير وأخذ الدروس والعظة.

جرى في هذه الغزوة ما جرى من انتصار؛ من نصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نصر الله نبيه محمدًا ﷺ وأصحابه في هذه الغزوة نصرًا مؤزرًا، وفر هؤلاء المشركون ولم يبقَ منهم أحد، وتركوا عتادهم وغنائمهم وتركوا مالهم؛ ثم إنه لما وقع ما وقع من معصية واحدة من بعض الصحابة؛ معصية واحدة قلبت النصر هزيمة، وحصل ما حصل في صفوف المسلمين من القتل والخوف والرعب الذي أصابهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: 154]، لما حصل ما حصل من الخوف والرعب وتشتت المسلمين، وبدأ من فريق منهم يصعدون الجبل، ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ [آل عمران: 153]، ومنهم من يذهب إلى صعيد الأرض؛ تصعدون في تحت الأرض أو ذهابًا في وادي الأرض.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني بعد ما أصابهم من الغم قال: ثم أنزل عليكم ماذا أنزل عليهم؟ أنزل عليهم من بعد الغم، لما ذكر الله سبحانه قال: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: 153]؛ و﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ هنا يعني جازاكم؛ لأن الثواب بمعنى المجازاة، سواء في جانب الخير أو في جانب الشر، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: 36]؛ يعني جوزوا، فهنا يقول ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ أي جازاكم غمًا بغم.

الغم هو الحزن؛ الحزن بفوات النصر، الحزن بما أصاب المسلمين من قتل، وما أصاب النبي ﷺ؛ غمًا بغم وجراح.

قال: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران: 153]؛ يقول هذا الذي قدره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى درس لكم، فلا تحزنوا على ما فاتكم من النصر السابق، ولا ما أصابكم من الهزيمة، ﴿وَاللَّهُ

خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 153]؛ يعني ما قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا التقدير إلا عن علم وخبرة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال بعد ما حصل هذا الشيء: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: 154]؛ أمنة يعني أمنًا وطمأنينة وانشراح صدر، ونعاسًا أصابهم شيء من النوم؛ لأن مجيء النوم لا يأتي إلا للمطمئن، الخائف ما ينام، المطمئن المستقر نفسه يصيبه النوم، والنوم يعطي نشاطًا وحيوية؛ ولذلك قال أمنة نعاسًا.

وليس لجميع الجيش، قال: ﴿يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ [آل عمران: 154] وهم المؤمنون حقًا، الذين وقفوا وصمدوا ونصروا الإسلام ونصروا النبي ﷺ، أصابهم ما أصاب؛ وطائفة أخرى هم المنافقون وضعفاء الإيمان.

قال: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: 154] ينظرون لأنفسهم، ولذلك فروا؛ لم يبقوا، فروا، همتهم أنفسهم، ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: 154].

- ما هو الظن الذي ظنه؟

قالوا: هُزم محمد وهُزم أصحاب محمد، ولن يبقى لهم قوة ولا يبقى لهذا الدين شيء؛ سيذهب محمد ودينه، هذا الظن، وأن الكفار انتصروا عليه ولن يبقى له قوة؛ قال ظن الجاهلية.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: 154]؛ يقولون ما أعطانا محمد شيئًا يعني من المشورة، نحن أعطيناه رأينا ولم يأخذ برأينا.

نحن قلنا وهذا المنافقون ما يريدون أن يواجهوا العدو لما استشارهم النبي ﷺ قالوا: نبقى في بيوتنا وإذا جاءونا قاتلناهم؛ هذه طريقة الجبناء.

النبي ﷺ قال: نخرج؛ والصحابة قالوا: نخرج في وجه العدو، فلذلك هم يقولون: ﴿هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: 154]؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154]، التقدير والأمر والاختيار راجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ [آل عمران: 154]؛ يخفون من الكفر والحقد على الإسلام ما لا يبدون لك، ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: 154]؛ لو أن محمدًا أطاعنا وبقينا في بيوتنا ما قُتلنا هاهنا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: 154]؛ والله لو كنت في بيتك وجاءك الموت سيأتيك في أي مكان، ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ [آل عمران: 154]، يبتلي الله ما في صدور المؤمنين من الصادق في إيمانه ومن الكاذب في إيمانه؛ هذا ابتلاء صدور المؤمنين جميعًا.

ثم قال بعدها: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: 154]؛ هذا التمحيص خاص بالخلص، خاص بأهل الطاعة. الأول لما قال ﴿يَبْتَلِيَ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أن يبين الصادق من الكاذب والمنافق من المؤمن.

أما الثانية قال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ أي ما في قلوبكم؛ أن يزيل ويذهب ما في قلوب المؤمنين الصادقين مما علق فيه سواء من الذنوب أو المعاصي أو غيرها، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالم بما يجري في هذه الصدور.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ انظر هذه الآية عجيبة حقيقة تحتاج منا إلى تأمل وإلى شكر وإلى معرفة رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعباده، اسمع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران: 155]؛ في غزوة أُحد فر من فر لما انقلب النصر هزيمة وتشتت الجيش، فر من فر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إن الذين تولوا منكم وفروا وهربوا يوم التقى الجمعان ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [آل عمران: 155]؛ يعني هذا من الشيطان، هو الذي صرخ الشيطان وقال قتل محمد وهُزم المسلمون ففروا، استزلهم الشيطان.

- بأي سبب استزلهم؟ ليه؟ ليش الشيطان جاء واستزلهم؟

قال: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: 155] بسبب ذنب واحد في ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ لاحظ يقول كسبوا ما قال كسب واحد؛ ليش؟ لأن المعصية لها شؤم والمعصية إذا وقعت من واحد عم العقاب للجميع.

قال انظر حتى الرسول أصيب بما أصيب بسبب معصية واحد أو اثنين أو عشرة؛ قال ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 155]. هذه رحمة الله، حصل منكم ما حصل، وفر منكم ما فر وترك النبي ﷺ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد عفا عنكم وتجاوز عنكم ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155]؛ يغفر الذنوب وحليم لا يعاجل بالعقوبة.

لا تزال الآيات في توجيه المسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 156] اسمع أيها المؤمن، والله يخاطبك ويناديك بأشرف أوصافك الإيمان؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: 156]. يقول لا تتشبهوا بالكفار بأي وجه من وجوه التشبه، ليس فقط في هذا الشيء؛ لا، عمومًا لا تكونوا كالذين كفروا.

ومن التشبه أيضًا قد كفروا: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ [آل عمران: 156]؛ إخوانهم أي من جنس إخوان النسب أو إخوان دينهم أو من على شاكلتهم، ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 156].

ما معنى ضربوا في الأرض؟

أي سافروا، ذهبوا، انتقلوا من مكان إلى مكان، ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ [آل عمران: 156] أي غزاة؛ لأن الكفار أحيانًا يخرجون للغزو، الغزو والسطو على الآخرين، قال ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا﴾ [آل عمران: 156]؛ يقولون بعضهم لبعض لو كانوا عندنا ما ذهبوا ولا ضربوا في الأرض ولا ذهبوا إلى الغزو، ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: 156].

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ للمؤمنين: لا تتشبهوا في الكفار؛ الكفار إذا واحد منهم ذهب في سفر أو في غزوة ثم قُتل، قال بعضهم لبعض: لو ما ذهب ما قُتل، لما ذهب قُتل.

وهذا يعني عدم الإيمان بالقضاء والقدر؛ الله عَزَّ وَجَلَّ قد قضى وقدر أن يموت؛ يعني لا بد أن يخرج إلى هذا المكان حتى يأتي وقته ويأتي موته في هذا المكان، ﴿لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: 156].

وهذه ترى يا إخوان حقيقة تجد بعض ضعفاء المسلمين الآن تجدها عنده؛ يقول لك والله لو ما سافروا هؤلاء ما حصل لهم ما حصل، سافروا وحصل عليهم حادث ومات منهم من مات وجُرح منهم من جُرح؛ لو ما راحوا للسفر. كما حصل هذا، كيف لو ما راحوا للسفر؟

الواجب أن تقول: **«قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»**؛ والغيرة في مختار الله، ما تدري وش الخير هنا أو هنا؛ وليس اعتراضًا لك وتقول ما قاله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: 51].

ولذلك هنا الله يوجه يقول ما ماتوا وما قتلوا ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 156]؛ أي حسرة أي حزنًا في قلوبهم ما يستفيدون، لكن لو آمن بالقضاء والقدر وسلم لكسب

أجرًا ولما حصل هذا الشيء، لكن هؤلاء لا سلموا واعترضوا وفاتهم الأجر ونزلت عليهم المصيبة والحزن، ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [آل عمران: 156].

هو الذي يحيي وهو الذي يميت، ولا تحيي أحدًا من الناس ولو أخذت هذا الشخص وأدخلته في بيتك، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: 78]؛ فالله هو الذي يحيي ويميت ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [آل عمران: 156].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمران: 157]؛ انظر اللام هنا يسميها أهل العلم **"لام القسم"**؛ يعني والله، والله إن قُتلت في سبيل الله. وهذه انظر عشان نفهم القرآن هذه الآية في المؤمنين والآية اللي بعدها بالمؤمنين وغيره، انظر وتدبر واسمع؛ ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: 157].

مجاهدين أو متم حتى في بيوتكم، لمغفرة للمؤمنين، لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون في دنياهم، كل الدنيا ما تقوم عند الله وليس لها أي قيمة، القيمة في مغفرة الله ورحمته، خير مما يجمعون.

اسمع الآية اللي بعدها قال: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران: 158]؛ يعني والله ولئن متم يعني الموت أصابكم أو قتلتم في أي حال، ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ سواء كنتم مؤمنين أو كفارًا؛ لا إلى الله ستحشرون، إلى الله.

ولكن بعد هذا، هذه المسيرة العجيبة والتوجيهات القرآنية تعود الآيات للتأكيد على مكانة النبي ﷺ ومنزلته الذي أُعطي أحسن أخلاق، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. **"فبما رحمة من الله"** أنزل عليك رحمة وساق إليك هذا الخلق العجيب، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159].

أصبحت معهم لينًا؛ لينًا في خلقك، في تعاملك، في كلامك، ﴿لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]. لو كنت فظًا سيئ الخلق غليظ القلب لانفضوا من حولك لم يبقَ واحد معه، هم التفوا حول النبي ﷺ.

التفوا حول النبي؛ أنس بن النضر أحد الصحابة كان يعني وأبو دجانة وغيره ممن وقفوا على النبي ﷺ في غزوة أُحد؛ أنس بن النضر يعني لما سقط على الأرض واستشهد عدوا فيه أكثر من سبعين سهمًا في ظهره، ولم يُعرف ومُثل فيه حتى جاءت أخته وعرفته بشيء من بنانه.

وقوف صامت مع ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]. يقول ﴿لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولكنك أنت كنت طيب الخلق معهم، فلذلك التفوا حولك؛ ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 159] مما وقع منهم من فرار أو تقصير، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159].

فمغفرة النبي أو دعاء النبي لهم بالمغفرة ليس كدعاء أي شخص، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]؛ عظم شأنهم أمامهم، قل ما رأيكم في كذا وما رأيكم في كذا.

والنبي ﷺ أيضًا شاورهم؛ شاورهم في بدر، وشاورهم في أُحد، وشاورهم في الأحزاب، وشاورهم في صلح الحديبية؛ ما في معركة إلا وشاورهم فيها، ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159]؛ والنبي شاور وعزم وتوكل على الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]. التوكل معناه تفويض الأمر إلى الله؛ لا إلى أحد من البشر، ولا إلى شيء، ولا إلى سبب من الأسباب، الأسباب تأتي؛ توكل وتفويض الأمر إلى الله عبادة.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران: 160]؛ إذا نصرك الله عَزَّ وَجَلَّ وجعلت هناك أسباب النصر وتوكلت على الله، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أحد من البشر لا يمكن أن يقوم

بأن يغلبكم؛ ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: 160]، وأن يخذلكم الله ويترككم لأنفسكم أو لأحد من الخلق، فمن ذا الذي ينصركم؟ ما في أحد ينصركم من بعده أبدًا.

ثم أعاد مرة أخرى قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 160]؛ أقوى أسباب النصر للإسلام والمسلمين التوكل على الله والاعتماد على الله في كل شيء، حتى في جميع أحوالك في حياتك، في جميع أحوالك وفي جميع مشاريعك في الحياة الدنيا؛ اجعل التوكل هو الذي يكون مؤيدًا لك، وهو الذي يعينك على تنفيذ ما تريد، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

نقف عند هذا القدر؛ للحديث بقية إن شاء الله نستكمل فيها هذه الآيات العظيمة الجليلة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(76)
(آل عمران 161- 175)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الأربعاء في درس يتعلق بالقرآن الكريم وبكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لا زلنا نتناول الآيات الواردة في سورة آل عمران، وقف بنا الكلام في لقائنا الماضي عند الآية الحادية والستين بعد المائة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 161].

كثير من الناس يقرأ القرآن ولا يفهم المعاني، ما يدرك المعاني، مجرد أنه يقرأ كلاماً أمامه، هذا ليس مقصوداً، مقصود من قراءتك للقرآن أن تقرأ بفهم وإدراك واستيعاب للمعاني ثم العمل، كيف تقرأ القرآن وأنت ما تفهم معانيه؟ هذه الآية تمر على كثير من الناس ما يدري كيف ما كان نبي أن يغل.

- ما معنى يغل؟

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، هذه كثير من الناس هذه الآية وغيرها يقرأونها ولا يدركون معانيها، فالواجب على المسلم، أن يتعلم القرآن قراءة ومعاني.

الرسول ﷺ يقول: **«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»**، كيف تكون من الذين يتعلمون القرآن ويعلمون وأنت ما تعرف المعاني؟ هذه الآية أولاً لها سبب نزول، سبب النزول يعطيك المعنى، تعرف ليش نزلت هذه الآية، يكشف لك سبب النزول المعنى، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾.

أولاً معنى الغلول:

قال أهل التفسير: **"الغلول هو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها من غير إذن"**.

وبعضهم عمم قال: **"الغلول الأخذ من كل شيء من غير علم من غير إذن"**. فيدخل في هذا كل شيء، يدخل فيه يسمى غلولاً، لو أخذت أنت من مثلاً من عملك في وظيفتك من غير إذن من المدير المباشر أو غيره، أخذت أشياء من المحتويات والأشياء الموجودة في أو الأثاث أو نحو هذا يسمى غلولاً، لا يجوز، لا يجوز التعدي على الممتلكات بغير إذن أصحابها.

الغلول قال أهل التفسير في هذه الآية: **"هو أخذ من الغنيمة أي شيء قبل قسمتها"**.

- ما سبب نزول هذه الآية؟

قالوا: إن الرسول صلى الله عليه قال إن في غزوة بدر، غزوة بدر فقدت قطيفة حمراء، فقال بعضهم لعل رسول الله أخذها، يمكن أخذها الرسول يعني احتاج إليها وأخذها، ما يمكن هذا، ما يجوز، ما يمكن الرسول ﷺ على شرفه ومكانته ما يمكن أن يأخذ شيئاً إلا بإذن.

ولذلك حتى بعضهم قال إن سبب نزولها في غزوة أحد، الذين جعلهم النبي ﷺ على جبل الرماة، خمسين من الصحابة على جبل الرماة، لما رأوا أن المشركين فروا هاربين وبقي الغنائم يأخذونها المسلمون، قالوا نأخذ مثل ما يأخذون، ما في شيء تأخذه إلا بإذن الإمام ولا بد من قسمة الغنائم.

هذه الآية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينزه نبيه محمداً ﷺ أن يقع في مثل هذا الأمر، هذه كبيرة من كبائر الذنوب ما يقع فيها أي شخص من الناس حتى يقع فيها الرسول ﷺ، يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾، يعني يأخذ من الغنيمة بغير علم، ﴿وَمَن يَغْلُلْ﴾.

انظر الوعيد الشديد يعني من يغلل، يعني من يأخذ من غير علم ومن غير إذن، ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، يعني يأتي بالذي أخذه.

في حديث عن النبي ﷺ أن رجلاً غل شملة، قطعة قماش تلبس، فقال النبي ﷺ: **«إِنَّهُ لَيُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِهَذِهِ الشَّمْلَةِ»**، يعذب في قبره، والآية تنص على أنه إذا جاء يوم القيامة هؤلاء الذين يأخذون هذه الغلول يأتون بها على ظهورهم يوم القيامة، كبرت أو صغرت سيأتون بها.

حتى جاء في بعض الأحاديث أنه: **«يُؤْتَى بِالرَّجُلِ الَّذِي يَغُلُّ، يَغُلُّ الإِبِلَ، الإِبِلَ لَهُ رُغَاءٌ يَأْخُذُهُ يَحْمِلُهُ عَلَى ظَهْرِهِ وَالخَيْلَ وَنَحْوَ ذَلِكَ»**، فالغلول من كبائر الذنوب ولا يجوز لا لنبي ولا لغير نبي أن يغل، ومن غل يأتي يوم القيامة بما غل على ظهره، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 161].

انظر الآية عشان نتدبرها، يعني ما قال ومن يغلل يأتي بما غل يوم القيامة ثم يوفى عمله أو يجازى، لا، جاءت بعبارة عامة تدخل فيها يدخل فيها الناس كلهم، الكفار والمؤمنون، قال: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾، حتى يعمم لك أن الجزاء بالعدل من الله للجميع، للجميع، ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر وهم لا يظلمون، لأنهم في ميزان أعدل العادلين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا الميزان يؤتى بمثاقيل الذر توضع في هذا الجزاء، لا تستهين بمعصية تقول صغيرة، ولا تستقل حسنة تقول هذه قليلة، لا، اسعى في هذه الدنيا بجمع الحسنات وتجنب السيئات لأن عندك ميزان دقيق، مثاقيل الذر.

قال: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 162]، الذي يتبع رضا الله ويسعد برضا الله ويصلح نفسه لرضا رب العالمين كمن يرجع إلى الله بسخط من الله؟

ما يمكن هذا، ما في مساواة، هذا حكم الله وعدله، وكأن هذه الآية تشير إلى ما وقع في غزوة أحد، الذين اتبعوا رضوان الله ورضوا بما كتبه الله أعطاهم الله رضاه، والذين باؤوا بسخط من الله جازاهم، قال رجعوا بسخط من الله ومأواهم جهنم وبئس المصير.

الفريقان جميعاً؛ أهل الخير يرجعون إلى رضوان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويرضى الله عنهم على أعمالهم، وأهل الشر يرجعون إلى الله ويجازيهم على سخطهم على، يجازيهم بسخطه عليهم.

ولذلك أوضحت الآية التي بعدها أن الناس على درجات يوم القيامة، الناس إذا جاء يوم القيامة ستجد الناس على تفاوت في الدرجات، درجات لا يعلم عددها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال هنا: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 163]، ما قال هم على درجات، قال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ﴾، كأنه كل واحد له درجة، كل واحد خصه الله بدرجة، ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾.

ويدخل في ذلك أهل الخير وأهل الشر، أهل الشر دركات على تحت، انظر إذا كان ينزل على تحت يسمى دركات، إذا يطلع فوق يسمى درجات، الدرج على أعلى، ولذلك الله يقول في المنافقين: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: 145] يعني تحت، الدركات.

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، كل أعمالك الله مطلع عليها بصير، تصلي، تصوم، تذكر الله، تتصدق، تفعل الخير، تحسن إلى الناس، تتكلم الطيب، تصمت عن الشر، لا تتكلم في الشر، هذا كله الله بصير بما يعملون.

انظر لما وقع في ما وقع من بعض الصحابة أنهم قالوا إن الرسول غل قطيفة، إن قد يكون الرسول أخذها وكذا، أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يثبت للصحابة ولغيرهم منزلة الرسول ومكانة الرسول، حتى نعرف الآيات كيف تأتي: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ

أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: 164].

هذه منة ونعمة وفضل من الله على من؟ قال من الله على المؤمنين، بأي شيء؟ قال: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾، من هو؟ محمد ﷺ، هذه منة، ﴿رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، يعرفونه من جنسهم، يعرفونه كما يعرفون أنفسهم.

وهذا الرسول الذي منَّ الله به على المؤمنين ما صفاته؟ هل هو يغل الغنائم؟ لا، صفاته أنه: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، الآيات القرآنية، ويبين لهم الآيات الكونية، ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، يطهرهم من الذنوب والمعاصي ويبعدهم عن هذه الأشياء يقربهم إلى الله.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، جهال ما يعرفون، ما يعرفون الكتاب ولا الحكمة ولا يعرفون الشرائع، فجاءهم الرسول وعلمهم كيف يصلون وكيف يطيعون الله وكيف يعبدون الله، يعلمهم الكتاب والحكمة، يعلمهم السنة، ويعلمهم القرآن، ويعلمهم أسرار الشريعة، ﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، كانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله بهذا الرسول ﷺ، ومن الله عليهم بهذه الرسالة، فهذه مكانة الرسول وهذا مقام الرسول ﷺ.

انظر الآيات تعود تذكرك مرة أخرى بما جرى في أحد، لأن السورة كلها في الغالب تتحدث عن غزوة أحد، يقول لك: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 165]. يذكرهم الرسول، أي يذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما وقع.

- غزوة أحد ما هي نتيجتها؟

انتصار المسلمين في أول الأمر، انتصارهم ودحور أهل الشرك وفرارهم، ثم انعكست لما وقعت المعصية، انقلبت النصر هزيمة فهزم المسلمون وقتل منهم سبعون من الصحابة، وجرح من جرح، وحزن من حزن بسبب معصية الله، ماذا يقول؟ يبين لهم السبب، هذا اللي وقع، أنتم ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾.

انظر يقول: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي في أحد، ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ أي في بدر، شلون أصبتم مثليها في بدر؟

انتصر المسلمون وقتلوا سبعين من الكفار وألقوهم في قليب بدر وأسروا سبعين، أسروهم وكادوا يقتلونهم ولكن الرسول ﷺ منَّ عليهم بالفداء وفك أسرهم، سبعين وسبعين مائة وأربعون.

الله يقول: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ في أحد سبعون منكم قتلوا، ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾، قلتم أنَّى هذا؟ كيف هذا حصل؟ لا تقول كيف حصل هذا، قال: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، أنتم السبب وإلا نصر الله مستمر معكم، لكن إذا حصل خلل تغيرت الأمور، ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

والله لو كان شخصاً واحداً لينصره الله، لو كان الرسول ليس معه أحد لينصره الله، فكيف يكون معه؟ والله على كل شيء قدير، الموازين عند الله لا تتغير عندكم أنتم السبب.

يقول انظر: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 166]، وما أصابكم يوم التقى الجمعان في أحد فبإذن الله، ما أصابكم إلا بإذن الله وعلمه وتقديره وقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم فائدة ثانية قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يعني ليظهر علم الله من هم المؤمنون الصادقون؟

في هذه الغزوة من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقفوا مع الرسول ﷺ، ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ 166 وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ [آل عمران: 166-167].

لأن فيهم نفاقاً، فيهم المنافقون، عبد الله بن أبي بن سلول والذين معه، المنافقون خرجوا مع الرسول فما، فما استفاد الرسول منهم، قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: 167].

قاتلوا معنا في المعركة، أو على الأقل ادفعوا العدو عنا، واحفظوا ذرياتنا وأولادنا في المدينة، أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، هذا مو قتال، أيش القتال هذا؟ عدو جاءنا يحاصرنا في المدينة ولا نقاتله؟ ما هو القتال يا أيها المنافقون؟ قالوا: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في الرد عليهم: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: 167].

هؤلاء المنافقون هم أقرب للكفر من الإيمان، يقولون بأفواههم مجرد كلام ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتمون، بما يكتمون والله أعلم، ولذلك الله أظهر لرسوله هؤلاء المنافقين فعلمهم الرسول، عرفهم واحداً واحداً، وأخبر حذيفة بن اليمان بالمنافقين، قال: يا حذيفة هذا منافق وهذا منافق، وعدهم عليه واحداً واحداً، حتى أصبح حذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ.

يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه: **"إذا جيء بجنازة يقول انظروا إلى حذيفة، إن صلى حذيفة عليها فهو مؤمن، إذا ما صلى عرفت أنها منافق"**، فقال: والله أعلم بما يكتمون. ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾ [آل عمران: 168]. هؤلاء المنافقون اسمع صفاتهم، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا، هم جلسوا عن القتال وقالوا لإخوانهم، من جنسهم، لو أطاعونا ما قتلوا، يحتمل الإخوان

أنهم يريدون بذلك إخوانهم من جنسهم، أو يراد بهم إخوانهم أي في جملة المسلمين. قال: لو أطاعونا، كيف أطاعوكم في أي شيء؟

قال: لو أطاعوا أننا قلنا لهم لا تخرجوا للغزو، اجلسوا في المدينة في بيوتكم، إذا جاؤوكم قاتلوا، والرسول ﷺ خرج بالجيش ولا يمكن أن يرجع.

قال: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 168]، قل لهم يا محمد فادرءوا عن أنفسكم الموت، ادفعوا الموت عن أنفسكم إن كنتم صادقين.

أنتم تقولون لو أطاعوا ما قتلوا، تظن أن المعركة هي السبب في القتل؟ هذه آجال مقدرة عند الله، ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، ما تستطيعون.

ثم جاءتك البشارة العظمى من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهؤلاء الذين استشهدوا في، في أحد، سبعون من الصحابة قتلوا في أحد واستشهدوا، جاءتهم البشارة من السماء، بشارة لهم ولكل شهيد إلى قيام الساعة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ اسمع: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169].

لا تظن، لا تحسبن الذين قتلوا الآن في معركة أحد أمواتاً، ما ماتوا، بل أحياء عند ربهم يرزقون، أحياء عند الله، يقال للشهيد: ما تتمنى؟ إذا قتل قال: أتمنى أن أعود مرة أخرى فأقتل في سبيل الله، لما يرى من النعيم عند الله.

جاء في حديث النبي ﷺ: **«أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ فِي أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَسْرَحُ فِي الجَنَّةِ وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ تَحْتَ العَرْشِ»**، هذا فضل عظيم يعني يغفر له في أول قطرة ويشفع بسبب من أهله وجبت عليهم النار، فضائل عظيمة، قال: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، غير الشهداء أموات في قبورهم، الشهداء أحياء.

وفي هذه الآية إثبات نعيم القبر، وعذاب، نعيم القبر لأهل الخير والصلاح، وعذاب لأهل الشر، أنت تظن الآن أن القبر ما فيه نعيم؟ **"القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار"**، آل فرعون الآن ماذا يصنع الآن؟ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: 46] كل يوم.

يقول انظر يقول: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ 169 فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: 169-170]، وحالهم ماذا؟

قال فرحين بما آتاهم الله من فضله، أعطاهم الله من الخير عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، يبشرون غيرهم.

ولذلك رأى الصحابة كثير من الصحابة، رأى الصحابة بعض الذين قتلوا فقال: ما، ما حالك الآن؟ قال: أنا في نعيم، أنا في كذا وأنا في كذا، قال: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، لا يخافون على ما يقدمون عليه ولا يحزنون على ما فاتهم، ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ 170 يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 170-171]. يستبشرون بأي شيء؟

- ما هي البشارة؟

يستبشرون بنعمة من الله وفضل، نعم عظيمة من الله وفضل، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين، هؤلاء لا يضيع أجر الله عَزَّ وَجَلَّ بل يضاعف لهم الأجر.

- لمّ، من هم هؤلاء؟ من هم الذين لا يضيع الله أجرهم؟

قال: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 172]، الذين استجابوا لله والرسول، هذه بعد ما حصل ما حصل في غزوة أحد ورجع الكفار وقتلوا ما قتلوا من المسلمين، وادعى الكفار أنهم قتلوهم وأنهم سيعودون مرة أخرى ويستأصلونهم جميعاً.

نادى أبو سفيان قال: **"والله لنرجعن، نرجع إليك يا محمد أنت ومن معك ونستأصلكم جميعاً"**، وأعطاهم موعداً قال: موعدكم في مكان كذا وكذا، الرسول ماذا صنع؟

قال: نخرج له مادام أعطانا موعداً نخرج له. فخرج هو وأصحابه الذين قاتلوا معه في أحد، خرجوا إلى مكان يقال له حمراء الأسد ليقابل أبا سفيان ومن معه، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان ومن معه ففروا هاربين إلى مكة ونصر رسوله، وكتبت لهم غزوة ونصر الله رسوله.

قال هنا انظر: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ 172 الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 172-173]، الجروح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم.

الذين قال لهم الناس، جاء من أخبر الرسول ﷺ أن الناس، أي أبو سفيان ومن معه، قد جمعوا لكم جيشاً عظيماً فاخشوهم، خافوهم، قالوا ما نخاف وخرجوا، وخرجوا لملاقاتهم، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، كافينا الله وهو نعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل.

- ما هي النتيجة؟

﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: 174]، الرسول وأصحابه رجعوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم، ما أصابهم سوء بل حصل لهم أنهم اتبعوا ما يرضي رب العالمين والله أعطاهم الخير العظيم لأن الله ذو الفضل العظيم سبحانه.

وأما الخوف والرعب فهو من الشيطان، لو جاء شخص قال لك ترى فلان سيفعل كذا وكذا ما تخاف، ما تخاف إلا من الله، لا تخاف من فلان فلان، هذا الشيطان، ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175].

أما أنت لست من أولياء الشيطان، أنت من أولياء الرحمن، فلا تخافوهم وخافوني أي خافوا الله عَزَّ وَجَلَّ إن كنتم مؤمنين، كنت مؤمناً فإنك تخاف من الله، لا تخاف من البشر، البشر ما يقدمون ولا يغفرون، الخوف من الله لأن الخوف عبادة، ومن كان مؤمناً حق الإيمان فلا يخاف إلا من رب العالمين.

إلى هنا نقف عند هذه الآية إن شاء الله لنا اللقاء نستكمل فيها هذه الآيات العظيمة الجليلة، وفيها من الأسرار والمعاني التي لا يمل الإنسان منها، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه.

(77)
(آل عمران 176- 185)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، لا إله إلا الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام في مجلسنا المتكرر من كل أسبوع في مثل هذا اليوم يوم الأربعاء، نجلس هذا المجلس المبارك الذي تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، وهو مجلس حث النبي ﷺ عليه، وقال فيه ﷺ: **«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»**.

ونحن نتناول في هذا المجلس المبارك آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونبين ما فيها من معانٍ ودلالات وأحكام، الآيات التي معنا، نمشي على القرآن الكريم، هي من سورة آل عمران، ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 176].

هذه الآية عندما تقرأها وتعيد النظر فيها هي تتضمن عدة أمور مهمة؛ أولاً: أنها جاءت في سياق غزوة أحد، وما حصل للمسلمين من نصر في أول الأمر ثم هزيمة في آخر الأمر، وفرح المشركون بذلك وبهذا النصر، وبدأوا يهددون المسلمين، وأنهم سيعودون ويستأصلون المسلمين كلهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: لا يحزنك يا محمد، وأنت أيها القارئ، وأنت أيها المخاطب، لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر. وهذا أيضاً فيه دلالة على أن النبي ﷺ كان يحزن أشد الحزن، ويأسى على كفر الكافرين؛ لشدة حرصه ﷺ على أمته أن يدخلوا في الإسلام، وأن ينقذوا أنفسهم من النار.

لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر، هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6]. النبي ﷺ يتابع حتى في بيوته، **"باخع نفسك"** يعني مهلك نفسك تتابعهم على آثارهم، فلا يحزنك، لا تحزن عليهم هؤلاء الذين يسارعون في الكفر.

- ولاحظ حتى نتدبر أكثر، الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا قال في الكفار؟

قال **"يسارعون"**، ما قال يكفرون أو يعملون الكفر أو يعملون الأعمال السيئة، لا؛ قال يسارعون، يعني ما يتركون مجالاً فيه كفر ومحادة لله ومحاربة لله إلا ويسارعونه، وينفقون النفقات فيه، كل ذلك في مشار الكفر، وهذا وبال، مسألة مسارعة.

- يسارعون في الكفر ماذا قال الله فيهم؟

قال: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 176]. لا يضرون الله، ولا يضرون دينه، ولا يضرون رسوله، ولا يضرون أولياء الله، الضرر عليهم هم، إنهم لن يضروا الله شيئاً.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: 176]. وهذه أشد العقوبات، أشد العقوبات؛ الدنيا تذهب بخيرها وشرها، لكن النتيجة في الآخرة هؤلاء يعني أشد العقوبة التي عاقبهم الله بها أنهم لا يجعل لهم حظاً في الآخرة، يحرمون فوز الآخرة وحظ الآخرة، هذا يحرمونه، ليس لهم حظ فيه، والنتيجة قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 176].

انظر الآن هذه الآية يقول الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 176]. تأتيك آية بعدها مباشرة يقول **"عذاب أليم"**، تأتيك آية بعدها مباشرة يقول **"عذاب مهين"**، لما يقول عظيم ثم يقول أليم ثم يقول مهين، **"مهين"** هذه ما جاءت عبثاً، هذه لها دلالات بس تحتاج منا ماذا؟ تحتاج منا نقف معها نتأملها نتدبرها.

لما كانوا يسارعون في الكفر لا يتركون باباً من أبواب الكفر إلا ويدخلونه، ولا يجدون مجالاً من مجالات الكفر إلا ويأتون به قال الله لهم عذاب عظيم؛ لشدة عداوتهم وحقدهم على الإسلام، وشدة كفرهم أمام الله، عاقبهم الله بأشد شيء، قال ليس لهم حظ في الآخرة، والنتيجة أن لهم العذاب العظيم.

انظر الآية التي تليها هي نفسها، يعني ما تزال آيات؛ أولاً: يعني أنت لما تسمع مثل هذا الكلام، أن هؤلاء الذين يسارعون في الكفر في الدنيا، وأنهم ما يتركون مجالاً من مجالات الكفر، وأن النتيجة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخذلهم في الدنيا أولاً قبل الآخرة، والآخرة أشد عذاباً، تطمئن النفس، ترتاح النفس، ولا يحزن الواحد إذا رأى مثل هذا يتفاءل أن مصير هؤلاء في النهاية إلى الوباء والخسارة.

مهما ارتفعت أصواتهم الله عَزَّ وَجَلَّ فوقهم، فهذه يعني بشارة للمسلمين، انظر الآية اللي بعدها يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 177].

انظر كيف صفات الكفار يشتري الكفر بالإيمان، يعني الإيمان أمامك يأخذ إيمانه وطاعته وهداه ويدفعها مقابل أن يشتري الكفر مكان الإيمان، وهذه أشد العداوة وأشد الفساد في الأرض. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 177].

ما ضروا في الأول حتى يضرون في الأخير، كفرهم عليهم، وإيمانهم لا يزيد في علم الله ولا في ملكه، والله لو اجتمعت جمع الأرض، أهل الأرض كلهم، على إيمان، أقوى إيمان، إيمان الأنبياء وإيمان الملائكة، ما زاد في ملك الله شيئاً، ولو كفروا كلهم ما نقص في ملك الله ولا في علمه شيئاً، فهذا كله عليهم.

اشترى الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً، والنتيجة لهم عذاب أليم؛ لأنهم لما اشتروا واستبدلوا الإيمان والطاعة بالكفر، عاقبهم الله بالعذاب الأليم المؤلم الشديد.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178]. والله اللي يسمع مثل هذه الآيات ويقف معها في وعيد شديد، يعني ترجف منه القلوب، كيف يعيش الواحد في الكفر والضلال ويسمع بهذا؟

لا يظن هذا الكافر، لا يحسب ولا يظن هؤلاء الكفار: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ [آل عمران: 178]. نوسع عليهم ونعطيهم، نعطيهم المال، نمكن لهم في الأرض، نعطيهم الملك، نعطيهم الصحة والعافية والأولاد وكل شيء، يقول: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 178].

لا تظن هذا خيراً لهم، هذا مو خير لهم، قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]. يعني الصحة والعافية وطول العمر للكافر ليست في مصلحته، لو مات في نصف عمره أحسن، خير له من أن يعيش هذه المدة ويزيد إثماً وعقوبة، كل ما ازداد الإثم ازدادت العقوبة.

يقول: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178]. وإذا ازداد الإثم ما النتيجة؟ قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178].

لماذا قال **"مهين"**؟ ما قال أليم ولا عظيم، ليش

؟ لأنهم أهانوا شرع الله، وأهانوا كل ما يريده الله منهم باستعمال هذه الآلات التي أعطاهم الله؛ أعطاك آلة السمع تسمع، أعطاك آلة البصر تبصر، أعطاك آلة الكلام الإنسان تتكلم، أعطاك الصحة والعافية، أعطاك المال، لا أن تهين شرع الله، لا أن تهين أولياء الله، لا أن تتسلط على أعداء الله، ولذلك عاقبهم الله بالعذاب المهين، ما عرفوا نعمة الله، أصبحت هذه النعمة عليهم نقمة، ولهم عذاب مهين.

كل هذه الآيات كلها تسير في بيان ما جرى للمسلمين في غزوة أحد، أن هؤلاء الكفار وإن حصل لهم ما حصل، فلتطمئن النفس بأن عقوبتهم سيئة.

انظر ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179].

هذا ما جرى في غزوة أحد، كشفت هذه الغزوة عن أمور كثيرة ودروس وعبر، يعني قبل هذه الغزوة يعني المسلمون مختلطون بضعفاء الإيمان ومختلطون بالمنافقين ولا أحد يميز أحداً.

لما جاءت الغزوة هذه كشفت، كشفت عن أهل النفاق، كشفت عن أهل ضعفاء الإيمان، كشفت عمن هو قوي الإيمان من المؤمنين، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقفوا في صف النبي ﷺ ودافعوا عنه.

هذه الآية يقول: ما كان الله ليذر المؤمنين، ما كان الله يترككم على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث أهل النفاق وضعفاء الإيمان من الطيب أهل الإيمان الصادقين، وما كان الله ليطلعكم على الغيب، ما تدرون أنتم، ما تعرف أن جاهد معك وبجانبك منافق ما تدري، ما كان الله يطلعكم على الغيب.

لكن أطلع رسوله بأسماء المنافقين، قال ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء، يختار ويصطفي من الرسل ممن يوحي إليهم ويخبرهم بمثل هذه الأخبار.

الرسول ﷺ أخبره الله عَزَّ وَجَلَّ بأسماء المنافقين كلها واحداً واحداً، والرسول ﷺ أخبر حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْه بأسمائه، وأصبح حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْه وهو صاحب سر رسول الله ﷺ فيعرف المنافق من هذا أم هذا؟ هذا من قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولكن الله يجتبي ويختار من رسله من يشاء.

- ما هي النتيجة؟

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 179]. انظر مقابل لهم عذاب عظيم ومهين وأليم، تؤمن وتتبع وتتقي الله عَزَّ وَجَلَّ وتراقب الله بالسر والعلن، النتيجة: فلكم أجر عظيم، تعود الآيات لأهل الكفر والنفاق وأهل والمحادين والمشاقين، أنهم حتى المال، المال الذي عندهم يبخلون به في وجوه الخير، وينفقونه في وجوه الشر.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: 180].

لا يظن من يبخل بالمال بأن ينفقه في سبيل الله، يبخل بالمال بأن لا يخرج حق الله فيه من الزكاة، الحين نسمع، نسمع كثيراً ممن تجب عليهم الزكاة ولا ينفقونها في سبيل ولا يخرجونها، لا يحسب الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم.

هذا المال الذي تبخل به، لا تظن أن الأرصدة إذا زالت عندك في البنك وأنت ما تخرج حق الله فيها أن خير لك، بل هو شر، شر، قال: بل هو، قال: بل هو شر لهم.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 180].

هذا المال الذي يبخل به ولا يخرج حق الله فيه يمثل له يوم القيامة بشجاع أقرع، ثعبان أقرع، يعني امتلأ رأسه من السم، له زبيبتان، يأتي إلى صاحب المال هذا ويطوقه ويأخذ بشدقيه ويقول: أنا مالك، أنا كنزك، كيف يخلص نفسه؟

قال حتى إنه ليلاحق صاحب المال بين الناس في عرصات يوم القيامة حتى يقبض عليه، فيقول هنا ولاحظ الآية نتأملها كثيراً: المال من وين جاء؟ أنت جئت إلى الدنيا ما معك ولا ريال واحد، المال هذا من وين جاء؟ الله ماذا يقول: ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: 180]. الله الذي أعطاك المال، والنتيجة الله الذي يأخذ منك المال.

لأن الله قال في آخر الآية: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 180]. الله يرث الأرض ومن عليها، هذا المال الذي عندك هو جاءك من الله أعطاك إياه الله عَزَّ وَجَلَّ عشان تنفقه وعشان تعرف حق الله، والنتيجة أنه سيعود إلى الله، فما يعني أنت مستخلف فيه.

ما فائدتك، إذا لم تعرف قيمة المعلوم، ولذلك انظر قال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 180]. يعني الواحد والله حقيقة إذا سمع مثل هذه الآية يقول لو ما عندي ما كان خيراً إذا لم يعرف حق الله في المال.

أما المال الذي يعرف الإنسان حق الله فيه فخير المال، **«نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»** الذي يعرف يتصرف بالمال، هذا الذي يعرف حق الله فيه وينفق في سبيل الله، هذا لا ضرر عليه، قال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: 180].

الله بما تعملون خبير، إن أنفقت خيراً فالله جازيك عليه، وإن أنفقت شراً فالله يجازيك على شرك، وإن بخلت به وأمسكت فالله مطلع عليك وخبير، والله بما تعملون، والله لو تنفق ريالاً واحداً أو أقل من ريال الله لا يضيعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل يضاعف ويضاعف لك الأجر فيه.

انظر الآية هذه لما نتلها بالمال والبخل ونحوه، انظر موقف اليهود عليهم لعنة الله كيف موقفهم مع رب العالمين، اسمع الآن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ

وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: 181].

هؤلاء اليهود يعني اليهود يتهم الله، يتهمون الله بالفقر، يقول الله فقير ليش الله فقير؟ لأن الله لما أنزل: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: 245]. قالوا يقرض الله فقير ما عنده شيء يريد منا أن نعطيه، مساكين ما يدرون ما يعرفون حق الله وعظمة الله له ملاء السماوات والأرض، تقول الله فقير؟

وهذا ليست يعني فقط من أخلاق اليهود السيئة، بل لهم أقوال وأفعال سيئة يقول: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: 64]. قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: 181].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: 181]. هذا أشد الوعيد، سنكتب ما قالوا، حتى الكلام اللي يتكلم فيه سيكتب عليهم ويحاسبون عليه، وهذا فيه دلالة على أن الإنسان محاسب على كل كلمة تخرج منه ولم يقصد، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء، يقول هم قالوا وفعلوا أفعالاً سيئة؛ قولهم على الله وقتلهم أنبياء الله بغير حق.

وإذا جاء يوم القيامة يقول الله لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: 181]. يدخلهم نار جهنم والسبب ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: 182]. بما قدمت يداك من الأقوال السيئة والأفعال السيئة، والله لا يظلم أحداً، وأن الله ليس بظلام للعبيد.

وهؤلاء اليهود ليس فقط قولهم مع الله، حتى مع الرسل يكفرون بمحمد، ماذا يقولون؟ ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ [آل عمران: 183]. انظر الدعاوى الباطلة، عهد ماذا عهد إليكم؟

قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، قل لهم يا محمد: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: 183]. جاءتكم رسل كثير عندكم، ما صنعت الرسل من قبل بالبينات؟ جاءتكم بالحجج الواحدة والأدلة وبالذي قلتم وهو أنهم يأتون بالقربان الذي تأكله النار، والنتيجة ماذا فعلتم؟

قتلتموهم، فلما قتلتموهم إن كنتم صادقين، إذا كنتم في دعواكم أنكم لا تتبعون محمداً إلا يأتِ بقربان تأكله النار وتريدون قتله، حاولوا قتل الرسول ﷺ في أكثر من مرة، هذا يدل على أنهم غير صادقين.

قال: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: 184].

يا محمد إن كذبوك ولم يقبلوا رسالتك فقد كذب رسل من قبلك، ليس الأمر جديداً عليك، بل كذبت رسل من قبلك جاؤوا بالبينات والحجج الواضحة والأدلة والزبر والكتب والكتاب المنير الساطع البين، ومع ذلك لم يقبلوا.

في ختام هذا المجلس المبارك نختم بهذه الآية في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

كل نفس ذائقة الموت، لن يعني لا يمكن لنفس إلا تذوق، كل نفس حية لابد أن يصيبها الموت، سواء يعني من أشرف الخلق وهو محمد -ﷺ-، لما قالوا إن محمداً قُتل في أحد، ها، قال كل نفس ذائقة الموت، ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144]. كل نفس ذائقة الموت، محمد أو غيره ستموت، كل نفس ذائقة الموت، النتيجة ليست في الموت، الموت سيأتي،

أعطاك الله العمر أو أتاك الموت الآن أو بعد سنين، النتيجة ليست هنا، النتيجة بعد الموت ما هي النتيجة؟

قال: ﴿وَإِنَّمَا تُوفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 185]. إذا مات الإنسان قامت قيامته، عذاب البرزخ ونعيم البرزخ في قبره من القيام فيه نعيم وفيه عذاب، كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة.

ولاحظ كلمة **"توفون"** فيه دلالة على أن الله لا يظلم ولا يهضم، بل يزيد ويعطي أكثر وأكثر، يوفون أجوركم وجزائكم يوم القيامة، ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: 185]. وادع وابعد وأبعد عن النار، وسلم من الدخول في النار، من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، ولا فوز فوق ذلك من دخول الجنة والرضا والرضوان من الله عنه ورؤية رب العالمين.

فوق ذلك كله، ألذ ما يجده الإنسان في الجنة أن يتلذذ برؤية رب العالمين، والفوز بجنات النعيم، لا فوق لا شيء، شيء فوق ذلك فقد فاز. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185].

الكفار يلعبون ويضحكون ويستهزئون ويحاربون، والنتيجة في الأخير ما وما الحياة الدنيا إلا متاع يتمتع به الإنسان زمناً، لو أسأل واحداً الآن بلغ الـ 50 والـ 60 سنة، وأقول له: يعني هذا العمر اللي مضى عندك طويل ولا قصير؟ قال والله كأنه لحظة مر عليه، فمتاع حال ولا ومتاع الغرور يغتر الإنسان به، تغره الدنيا ومتاعها وزخرفها وتزول بسرعة وهو يزول عنه.

فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعيننا على طاعته، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يرزقنا وإياكم تقواه ومراقبة الله في السر والعلن، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

هذه آيات مرت معنا مررنا عليها وتأملناها وتدبرناها، تحفنا بإذن الله الملائكة، تغشانا الرحمة، ولله الحمد والمنة، نسأل الله ألا يحرمنا هذا الأجر، إلى لقاء قادم بإذن الله نستكمل فيه هذه السورة العظيمة الجليلة بإذن الله، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(78)
(آل عمران 186- 189)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وبين أيدينا هذه الآيات المتبقية من سورة آل عمران، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 186]، وهي الآية مثل ما مر معنا يعني في لقاءات عظيمة وفي لقاءات سابقة، أن سورة آل عمران تحدث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها عن غزوة أحد وما جرى للمسلمين من مصائب.

فهنا يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه كما جرى لكم في أحد من المصائب العظيمة فهيئوا أنفسكم لما سيصيبكم أيضًا من المصائب العظيمة من أعدائكم، وأنكم ستبلون وتختبرن في أموالكم وفي أنفسكم، في نقص الأموال وذهابها وتعرضها للآفات، ونقص الأنفس وذهابها وهلاكها وتعرضها للجراح، أن هذا لم يحصل في أحد فقط سيحصل.

وفي هذا كله هذا، حتى نفهم الآية جيدًا ونتدبرها، هذا كله توطئة للنفس وتهوين للنفس أنها حتى إذا أصابها ما أصابها، فإن يكون عندها يعني المعرفة، ويكون عندها الإلمام بما سيجري لها في مثل هذه المواقف.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ [آل عمران: 186]؛ اللام **"يقول أهل العلم إنها لام أو اللام الموطئة للقسم، وأن القسم محذوف وتقديره والله"**، يقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه يبتلى المسلمون ابتلاءات عظيمة لأن لذلك شد.

جاء بالنون المشددة قال: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ [آل عمران: 186]؛ أي ستصابون بمصائب عظيمة، وتختبرون اختبارات عظيمة وابتلاءات عظيمة في الأموال والأنفس، وفي هذا مثل ما ذكرنا توطئة للنفس أنها ستقابل مثل هذه الأمور، فينبغي أن تعالج أو يكون لها موقف حازم أمام هذه الأمور والعقبات التي يواجهها المسلمون في حياتهم في حياتهم.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 186]؛ مثل ما ذكرنا البلاء في المال والبلاء في النفس، قال بعدها: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾ [آل عمران: 186]؛ أي ستسمعون وستواجهون من مشركي أهل الكتاب أو من كفار أهل الكتاب اليهود والنصارى الأذى الكثير، وكذلك من مشركي العرب أنهم سيؤذونكم في دينكم ويستهزئون بكم ويحقدون عليكم.

فيعني يسبونكم ويسبون دينكم، كل هذا حتى يكون كيف تواجه مثل هذا الأمر، سواء كان من اليهود أو من النصارى أو من أهل الكتاب، أو من يعني من الكتاب أو من المشركين، كيف ستواجهون مثل هذه الأمور وهذه العقبات؟ العلاج ذكره القرآن، ذكر القرآن بعد ذلك فقال: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186]، تصبر على هذه الشدائد والمصائب، وتقابلوها بضبط النفس وقوة التحمل.

وتتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما يأمركم به وينهاكم عنه، فبهذا تنال رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتنجو من كيد هؤلاء الأعداء، وتستسلموا أو تسلم الأمر لله، وترضوا بما كتبه الله، فإن مثل فإن

مثل هذه الأمور تعالج بالصبر والتحمل وتقوى الله ومراقبة الله في السر والعلن، تهون هذه المصائب كلها تهون هذه المصائب كلها، بل تزول ولا يبقى أثر مقابل الصبر والتقوى.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90].

وقال في آيات أخرى أيضًا: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: 120]؛ العلاج الصبر والتقوى، علاج ذلك الصبر والتقوى، ولذلك ختم الله حتى سورة آل عمران في آخر آياتها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

الصبر والتقوى هي العلاج لمثل هذه الأمور التي يواجهها المسلمون، وبهذا إذا عالجتها بالصبر والتقوى وهونت النفس في عند الابتلاء في المال والنفس، فإن هذا يعني يكون سببًا في أن الله يكتب لك الأجر العظيم، وأنه لا ينقص من أجرك في صبرك في صبرك وتقواك، وأن الله يعوضك خيرًا مما ذهب خيرًا مما ذهب.

اليهود والنصارى وأهل الكتاب هم أعداء الإسلام مع المشركين، والسورة تقرر ذلك في مواضع كثيرة، في مواقف هؤلاء الأعداء، وهنا يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا مواقفهم وأنهم كانوا قد أُخِذ عليهم الميثاق والعهد الموثق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أن يبينوا الحق ولا يكتموه، ولكنهم مع الأسف كتموا الحق ونبذوه وراءهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: 187]؛ أخذ الله الميثاق على أن يبينوا الناس، تبين لهم العلم والكتاب وما أنزل الله عليكم وما استأمنكم عليه لتبينوا الناس ولا تكتمونه؛ أي لا تكتمون هذا العلم وهذا الميثاق، ولا تكتمون هذا العلم وهذا الكتاب.

وأخذ الله عليهم الميثاق والعهد الموثق، ومع ذلك نبذوه وراءهم، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187]؛ نبذوا هذا العهد ونبذوا هذا العلم، واشتروا بهذا العلم والحق ثمنًا قليلًا بما يأخذونه من أسافلهم من الرشا من الرشاوي ونحوها، يأخذونها مقابل كتمان العلم ومقابل الفتيا بما يتناسب مع هؤلاء، فيكتمون الحق ولا يبينونه، ولذلك كتموا صفات النبي ﷺ، وكتموا أنهم أمروا باتباعه، كل ذلك وكتموا على من تحتهم حتى يشتروا بذلك الثمن القليل.

يأخذون عرض هذا عرض هذا الأدنى، ويأخذون عرض الدنيا، ومقابل أن الله توعدهم بالعذاب الأليم يوم القيامة، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187]؛ بئس هذا العمل وبئس هذا التصرف منهم أنهم فعلوا هذه الأفاعيل السيئة ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: 188].

هذه أيضًا يحكيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أخلاق أهل الكتاب السيئة، ويعددها لنا تحذيرًا من أن نسلك مسلكهم، فهم أُخذ عليهم ميثاق أن يبين أن يبينوه للناس ولا يكتمونه، لكن مع الأسف كتموا ولم يبينوا؛ فاحذروا أيها المسلمون أن تسلكوا مسلكهم في كتمان العلم.

ثم هنا رذيلة أخرى سيئة من سيئاتهم وخلق سيء من أخلاقهم أنهم يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فهم يفرحون بما قدموه من كتمان العلم وأخذهم الدنيا واستبدالهم بالدين، وكتمان صفات النبي ودعوته ودينه.

يعني يفرحون بما أتوا من العلم وأنهم كتموا هذا العلم، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا؛ بأن يمدحون أمام الناس وبأنهم وهم لم يفعلوا هذه الأشياء، هذا كله من الأخلاق السيئة الرذيلة، يعني يكتمون ويفعلون الشر أمام المسلمين ويحاولوا أن يستروا ما يفعلون من هذه الأفاعيل السيئة، ويطلبون من الناس المدح على ما فعلوا، يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 188]؛ أي بما بنجاة وسلامة من العذاب بل سيحيط بهم العذاب، ولذلك قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على أفعالهم السيئة وعلى ما اجترحوه من هذه السيئات ولهم عذاب أليم. **"وهذه الآية كما قال ابن عباس وغيره إنها في اليهود أنهم سألهم النبي عليه وسلم فكتموا وفرحوا بأنهم حمدوا، وأن وأنه أثني عليهم وفرحوا بذلك"**.

فتوعدهم الله بهذا الوعيد الشديد.

قال بعض أهل التفسير: **"يفهم من هذه الآية أن من أحب أن يُحمد على فعله الصحيح فإنه لا بأس، لأن الذم هنا بمن يفعل بمن يُحمد على ما لم يفعل"**؛ فالذي يُحمد على شيء لم يفعله هو المذموم، أما أن تفعل أشياء فتحب أن تُحمد وبشرط ألا يكون ذلك سببًا للغرور وسببًا للفتنة وسببًا للوقوع في الرياء، فإن ذلك جائز بأن يحمدك الناس ويثنون عليك.

لكن بقدر ألا يكون ذلك سببًا في ألا يكون ذلك يعني ألا يكون ذلك سببًا في الوقوع في الرياء أو الاغترار بالعمل أو العجب أو نحو ذلك، أما إذا سلم من هذه الأمور فإنه لا مانع من أن يفرح بمثل هذا الأمر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 189]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المالك وهو القادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي العالم بأحوال الناس، والعالم بأحوال خلقه، المالك للناس والمالك لخلقه جميعًا، وله ملك السماوات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير، فيجازي المسيء على أفعاله السيئة، ويعفو عمن يشاء، ويجازي المحسن على إحسانه ويضاعف له الأجر والمثوبة، كل ذلك في حكم الله وفي تقديره وفي قضائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لعل نقف عند هذه الآية، ويبقى عندنا خاتمة آل عمران في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 190]، يأتي الحديث عنها إن شاء الله في اللقاء القادم، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(79)
(آل عمران 190)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك ومع هذا المجلس المتعلق بالقرآن الكريم؛ نجلس هذه الدقائق المعدودة نقرأ آيات من كتاب الله ونتدبر هذه الآيات، لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا جميعا بها.

خاتمة سورة آل عمران وهي الآيات العشر الأخيرة من سورة آل عمران؛ أيها الإخوة لو نتأمل كثيرا في خواتيم السور، مثل ما أن فواتح السور فيها إعجاز وفيها كما يقول أهل العلم **"براعة الاستهلال"**.

فواتح السور تعطيك المفتاح للسورة، إذا أردت أن تدخل على السورة تأمل هذه الفواتح كأنها مفتاح للسورة؛ اسمها فاتحة، فاتحة السورة، فاتحة السورة. خاتمة السورة تأملها تجدها خلاصة ما جاء في هذه السورة، نتيجة ما ذكره الله في هذه السورة.

كل سورة لها فاتحة ولها خاتمة وأنت تقرأ تدبر؛ سورة البقرة ختمها بصفات المؤمنين المتقين ودعائهم بأحسن الأدعية، ولما جاء في سورة آل عمران نفس الشيء؛ ختم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه السورة بصفات هؤلاء الأبرار المتقين ودعائهم، وليس فقط هذه السورة.

وهذه السورة تأمل كثير من سور القرآن لو تختم بآية أو جزء من آية تجدها خاتمة لكل ما ورد في هذه السورة؛ سورة الفرقان ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صفات عباد الرحمن، وذكر دعاء كل خاتمة السورة في صفات عباد الرحمن ودعاء.

الآيات التي عندنا الآن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يثبت الأنظار في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190]. أولا هذه الآية نزلت عن النبي ﷺ قبيل صلاة الفجر؛ النبي ﷺ كان عند عائشة في ليلتها فقام من الليل وعمد إلى قربة وتوضأ ثم صلى.

ولما صلى ما شاء الليل وأذن بلال على طريقة بلال يأتي للنبي ﷺ بعد الأذان بزمن ثم يستأذنه في إقامة الصلاة، فلما دخل على النبي ﷺ فإذا هو يبكي وقد ابتلت لحيته بالبكاء؛ فقال: يا رسول الله ما يبكيك؟ قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: **«أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ آيَاتٌ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَدَبَّرْهَا»**.

ثم قرأ الآيات ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190]. فتقرأ بتدبر وتأمل؛ نأخذها آية آية.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190]؛ للناس جميعا؟ لا، ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190]؛ أصحاب العقول الذين يفكرون بالعقول ويتأملون هذه الآيات تنفع.

أما سائر الناس كالبهائم ينظرون إلى الكون وإلى الشمس والقمر والسحاب والجبال والأشجار والأرض ولا يتفكرون؛ هؤلاء لا يستحقون أن يخاطبون بمثل هذا أو يذكرون، لذلك خصص الله أصحاب العقول الذين يفكرون.

ولذلك جاء عن بعض السلف أنه قال: **"والله إني لأخرج من بيتي لأتدبر في مخلوقات الله ثم أرجع"**.

يخرج من بيته لينظر في الكون، ينظر في القمر والشمس والسحاب والنجوم والجبال والأشجار وفي مخلوقات الله، وفي الحيوانات وفي الحشرات؛ تأمل، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لذلك لفت الله أنظر في خلق السماوات والأرض؛ خلق الله سبع سماوات طباقا، ما بين كل سماء وسماء كما بين السماء والأرض مسيرة ٥٠٠ سنة، بغير عمد مرفوعة، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

- ما يعني ما تلتفت لهذا الشيء؟

تفكر في الشمس هذه العظيمة؛ قالوا إن الشمس هي بمقاس الأرض بـ ١٦ ضعفا الشمس أكبر من الأرض بـ ١٦ ضعفا.

تأمل في هذه الشمس وكيف إذا دنت وقربت وأحرقت العالم، وإذا بعدت وجدوا من البرودة؛ هذه آيات عظيمة، كل يوم تخرج الشمس من المشرق تذهب إلى المغرب وتستأذن ربها تسجد تحت العرش؛ كل هذه لفتات نحتاج أن نقف عندها ونتأمل في الكواكب السيارة والثابتة، في القمر في وظائف هذه الشيء في أنها مسخرة.

سخر الله لنا جميعا ما في السماوات وما في الأرض؛ كل هذه آيات في الأرض، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: 20]. واختلاف الليل والنهار وأنت تلاحظ مثل هذه الأيام كيف يزيد الليل كيف ينقص النهار.

اختلاف الليل ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [فاطر: 13]؛ هذه آيات تحتاج منا نقف عندها ولذلك الله ما قال لآيات للناس، قال ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 190].

- من هم أولو الألباب؟

اسمع ماذا يقول الله حتى نقرأ ونتدبر؛ قال أولو الألباب هم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191]. ليسوا غافلين؛ يمر عليك يوم كامل ما ذكرت الله؟ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم.

انظر الفعل **"يذكرون"** هذا فعل مضارع يدل على الاستمرار ما ينقطعون أبدا، دائما ألسنتهم رطبة بذكر الله، الذين يذكرون الله في جميع أحوالهم، ما قالك يذكرون الله في المسجد وإذا خرجوا انتهاء؟ لا، يذكر الله قياما وهم قائمون، وقعودا وهم جالسون في المجالس؛ مجالس ما تمر عليهم مجالس سواليف وكلام بلا فائدة، مجالس تحيا بذكر الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم مضطجعين.

حتى استنبط بعض العلماء من هذه الآية الصلاة؛ إنها ذكر، الصلاة هي ذكر الله وهي أعظم ذكر لله، إنه يصلي الإنسان قائما فإن لم يستطع فقاعدا فإن لم يستطع فعلى جنب.

انظر ألسنتهم رطبة بذكر الله، ينهجون بذكر الله قياما وقعودا وعلى جميع الأحوال، ثم قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 191]؛ يتفكرون في كل وقت، ما يتفكرون وقت دون وقت لا؛ في كل وقت يتفكرون في خلق السماوات والأرض.

هذا الخلق العظيم ما خلقه الله عبثا، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: 16]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: 27].

يقول هنا يتفكرون في خلق السماوات والأرض؛ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ [آل عمران: 191]؛ ما خلقه الله عبثا ولا سدى، خلق السماوات تظنها عبثا جئت كذا والأرض عبثا؟

لا، خلقها الله بشيء أعظم وأعظم ينبغي لنا أن نعرف ما هو؛ إن الله خلق هذا الشيء لإقامة عدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحكمته في خلق الناس ومجازاتهم، ومجازاة الناس بالخير أو الشر. فمن عمل خيرا جازاه الله بالخير ووعده بالجنة، ومن عمل شرا جازاه الله بالسوء ووعده النار؛ ولذلك انظر لاحظ هم يقولون ماذا يقولون؟ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران: 191].

ننزهك ونعظمك أن تخلق هذا الشيء باطلا، والله لو إنسان يصنع له شيء مصنوع، يصنع شيء ما فيه فائدة؛ الناس يمقتونه؛ كيف تصنع شيء ما فيه فائدة؟ شو الفائدة تخلق عبث؟

ولكن لو صنع شيء فيه مصلحة كبيرة للأمة فتفكروا فيه وأثنوا عليه. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما خلق هذا العبث؛ أي شيء في مخلوقات الله ما خلق عبثا، ولا حشرة ولا حيوان ولا مثقال ذرة تدور في الكون هذا لم يخلق الله عبثا، وإنما خلقه ومن وراءه حكم عظيمة، ولذلك هنا يقول: ﴿سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191].

النتيجة قال: ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191]؛ إذا فيه جنة تجزى يجزى أهلها إذا عملوا الأعمال المرضية لله لهم، وفيه نار لمن غفل عن آيات الله وأنكرها وكفر بآيات الله. ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191]، انظر ما هي النار تظن النار أمرها سهل؟

اقرأ ما بعدها؛ القرآن سهل حقيقة والله ميسر وسهل، تقرأ الآية تجيب الجواب بعدها تقرأ الآية الجواب بعدها بس من يتفكر؟ انظر ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: 191]، قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: 192].

شد من الخزي أن يدخل النار الذل والمهانة أن يكون من أهل النار وأن يكون حطبا لجهنم، قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: 192]؛ إذا اللي يدخل النار من هو؟ الذين يدخلون النار بسبب ظلمهم، الظالمون بسبب ظلمهم؛ ولذلك قال ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: 192].

أما الذي بعيد عن الظلم فإنه يسلم من هذا، والظالمين ليس لهم أحد ينصرهم إذا أدخلوا نار جهنم، فكل هذه تمهيد لصفات الألباب وصفات الأبرار؛ ليش يمهدون؟ يمهدون لأن يدعوا وهذا يسميه أهل العلم يسميه **"التوسل"**.

التوسل بالأعمال الصالحة، التوسل بتعظيم الله، أنت إذا جئت أن تدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا أردت أن تدعو الله دعاء تتمنى فيه الاستجابة لله سبحانه أن يستجيب الله لك، تقدم مقدمات بالثناء على الله تبدأ بالحمد: اللهم لك الحمد اللهم لك الشكر؛ تبدأ بالحمد والثناء على الله ثم تبدأ تتوسل، إن كان لك أعمال صالحة تقدمها تقدم أعمالك الصالحة.

ولذلك الثلاثة الذين أطبقت عليهم الصخرة ولم يستطيعوا ومستحيل أن يخرجوا؛ أطبقت عليهم الصخرة وما استطاعوا أن يخرجوا، قال بعضهم: **"ادعوا الله بصالح أعمالكم فإن الله يستجيب لكم"**.

وكل دعا من الثلاثة لصالح عمله؛ دعا الأول فانفرجت لكن ما يستطيع الخروج، دعا الثاني فانفرجت ولا يستطيع، دعا الثالث فانفرجت وخرجت. من الذي أزاحها وهم لا يستطيعون إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم دعاء دعائهم بالتوسل بالأعمال الصالحة؛ ولذلك انظر الآن كل هذا توسل؛ انظر ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: 193].

- من هو المنادي؟

هو النبي ﷺ، هو القرآن؛ كلهم ينادون، ينادون للإيمان أن آمنوا بربكم، والنتيجة ﴿فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: 193]؛ آمنوا وصدقوا قال ﴿فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: 193].

لما قدموا هذه المقدمة، هذا التوسل: اللهم إنا سمعنا مناديا ينادي للإيمان فآمنا، اللهم ربنا، بعد ذلك يدعون يسألون الله؛ لا أن يرفع على طول مباشرة ارفع يديك: اللهم اغفر لي اللهم ارحمني؛ هذا دعاء طيب ما أحد يعترض عليك، لكن لما يقدم المقدمات وتوسل يكون أحرى للإجابة.

ولذلك قال هنا لما قالوا آمنا قالوا: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 193]. انظر بدأوا بأعظم شيء وهو محو الذنوب؛ الإنسان ما يحجبه عن قربه إلى الله إلا الذنوب، ما يحجبه عن قبول دعائه إلا الذنوب.

ما يحجب الإنسان من قبول أعماله الصالحة؛ الذي يحول هو الذنوب. تحرم أشياء عظيمة يا إخوان حقيقة؛ تحرم من قيام الليل، تحرم من لذة الدعاء، تحرم من لذة قراءة القرآن، تحرم من الذكر؛ ليش تشوف الناس الآن يدخلون ويذهبون يروحون يجون ما يذكرون الله؟ هذا حرمان، ما سببه؟

الذنوب، فأعظم ما تدعو به أنت تقول اغفر لي، اللهم اغفر لي ذنوبي، هنا سؤال، هم يقولون ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: 193].

- ما الفرق بين الذنوب والسيئات؟

إذا جاءت السيئات في القرآن مع الذنوب يكون كل واحد لها معنى، إذا انفردت الثاني تدخل معه، الآن مجتمع؛ يقول ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: 193]، إذا الذنوب هي كبائر الذنوب؛ كبائر المعاصي الكبائر، والسيئات الصغائر.

- كيف عرفنا؟

قال لأن السيئات الصغائر تكفر بالأعمال الصالحة؛ تكفر، ولذلك قال ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: 193] لأن السيئات تمحوها الحسنات الصغائر، أما الكبائر لا؛ الكبائر مغفرة الله بالتوبة والإقلاع، فإذا تبت من كبيرة من كبائر الذنوب؛ هذه كبيرة ما تروح عنك أبدا ما تزول عنك إلا بالتوبة الصادقة وبطلب المغفرة من الله.

ما دام ما تبت ولا طلبت المغفرة من الله فهي باقية، هذه كبائر ما تروح الكبائر.

النبي ﷺ يقول: **«الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ، وَالصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ»**. أما الكبائر ما تروح إلا بالتوبة؛ ولذلك هم قدموها هنا قالوا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: 193] أول شيء ثم ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ [آل عمران: 193].

فإذا ذابت الذنوب الكبائر والصغائر وأصبحنا قد نقينا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وليس علينا خطيئة، بعد ذلك ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 193].

- من هم الأبرار؟

جمع **"بَر"**؛ هم الذين وصلوا إلى أعلى الدرجات والأعمال الصالحة؛ فيقول اجعلنا من جملة هؤلاء. وشوف أدعيتهم أدعية جميلة حسنة؛ أول ما بدأوا بذنوب النفس لأن لها شؤم في الحياة مصائب.

قال انظر من شؤمها: حرمان الخير، حرمان المطر، حرمان الرزق، أشياء، ارتفاع الأسعار؛ أشياء كثيرة سببها الذنوب والمعاصي، قال بعدها: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 194].

يدعون الله عَزَّ وَجَلَّ، كلهم يبدأون بكلمة **"ربنا"**؛ نعم، يعترفون بأن الله هو الرب الخالق الرازق الذي أوجدك وخلقك ورزقك هو ربك، فيتوسلون بهذا الاسم العظيم ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: 194].

- ما الذي وعدهم الله على الرسل؟

من أطاع الرسول وأطاع الله أدخلهم الجنة، ومن عصى الرسول وعصى الله أدخلهم النار؛ هذا الذي وعده الله. وعد الله من اتبع الأنبياء، اتبع شرع الله أن الله يعده الوعد الحسن. ﴿وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: 194]؛ لا تذلنا ولا تهيننا يوم القيامة بل أكرمنا يوم القيامة.

ليش؟ يوم القيامة أحوج ما يكون الإنسان إلى الكرم والإكرام يوم القيامة. ولذلك يدعون بهذا الدعاء ثم قالوا: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 194]؛ أي ميعاد؟ ما وعدتنا على رسلك لا تخلفه، فنحن نثق في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه لا يخلف الميعاد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- ما هي النتيجة؟

سأل الله المغفرة، مغفرة الذنوب، تكفير السيئات، وأن يعطيهم ما وعدهم على رسله من الفوز بالجنة وأن يدخلوا مع الأبرار ويتوفاهم مع الأبرار وألا يخزيهم، هذه الأدعية العظيمة قال الله عَزَّ وَجَلَّ لما دعوا لهذه الأدعية انظر انكسار والتذلل والتوسل.

- ما هي النتيجة؟

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: 195].

وشوف كلمة ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ [آل عمران: 195] ما قال **"فأجاب"**؛ ليش؟ لأن العلماء يقولون: **"الزيادة في المبنى زيادة في المعنى"**. ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ [آل عمران: 195] يعني مباشرة؛ لأن السين تبدي السرعة، يعني استجاب الله لهم بسرعة دون تأخر.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: 195]؛ لما قالوا ربنا قال ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: 195]. ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ ۖ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195]. أعطاك جواب مو قال فاستجاب الله لهم دعاءهم؛ لا، أعطاك ثواب عام أكبر.

الله ذو الكرم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكريم ما يعطيك شيء قليل أو يعطيك على قدر ما قلت؛ لا، يعطيك وزيادة، انظر قال ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: 195] أبدا ولا مثقال ذرة.

لا أضيع عمل عامل؛ أي عامل، أي إنسان منذ خلق الله آدم إلى آخر الخلق، لا يضيع عمل عامل منكم أيها المؤمنون من ذكر أو أنثى؛ سواء كان هذا رجلا أو امرأة، أو ذكرا أو امرأة؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يضيع عمله.

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195]؛ أنتم سواء كلكم تكتب لكم أرزاقكم وتضاعف لكم أجوركم لا يضيع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا ينقص من ذلك شيئا.

قال كلكم لا يضيع؛ كلمة **"لا يضيع"** هذه أشد. أنا لو أعطيك الآن شيء وأقول يا أخي هذا المال كذا وكذا، تقول **"اجعله عندي فإني لا أضيعه، أمانة عندي"**، هذا خلاص تطمئن نفسي.

فأنت الآن تعمل أعمال صالحة؛ تصلي، تقرأ القرآن، تذكر الله، تصوم، وأنت مطمئن؛ ليش كيف مطمئن؟ لأن الله يقول: ﴿أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: 195]؛ لا يضيع، لو أنفقت ريالا واحدا ونسيت هذا الريال الله ما ينسى، الله يضاعف لك. ثم بدأ صفات هؤلاء وغيرهم تحريضا لمثل هذه الصفات التي ينبغي للمسلم أن يصل إلى هذه الدرجة العظيمة وهؤلاء هم وصلوا إلى أعلى شيء؛ هم الأبرار.

- من هم؟

قال: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: 195].

ترك الأوطان صعب، ترك الأموال؛ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ تركوا ديارهم وأوطانهم وأهاليهم وأموالهم لله رضا، خرجوا يطلبون رضى الله سبحانه، تركوا كل شيء ما معهم شيء، ذهبوا إلى الحبشة ما معهم شيء ما يملكون شيئا، ذهبوا إلى المدينة ما معهم شيء؛ تركوا كل شيء.

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [آل عمران: 195]؛ أول صفة الهجرة في سبيل الله، ترك كل ما يحب الإنسان لأجل رضا الله، وزيادة عن ذلك ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [آل عمران: 195]؛ أخرجوهم الأعداء من ديارهم وصبروا ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ [آل عمران: 195].

انظر كيف الهجرة وإخراج من البلد وإيذاء في سبيل الله؛ كل هذا وقع للمهاجرين، قال ﴿وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ [آل عمران: 195] أعداءهم وقتلوا، هذه الآية إذا تأملتها وأنا سبحان الله قلت السورة خلاصة الآية هذه الخاتمة خلاصة السورة ذكر الله فيها مواقف الصحابة وما جراهم في أحد؛ مواقف عظيمة.

وذكر لنا قصة أحد كلها كاملا، يذكرك هنا يقول لك هؤلاء الذين جاهدوا في غزوة أحد وفي بدر هم المهاجرين أكثر، وهم الذين خرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي، وهم الذين قاتلوا وقتلوا وقتل منهم سبعون. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [آل عمران: 195]؛ تكفير السيئات، ليش ما قال **"لأغفر لهم ذنوبهم"**؟ ليش قال ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [آل عمران: 195]؟

- لماذا ما لم يذكر الكبائر؟

الجواب: أن مثل هؤلاء الذين وصلوا هذه الدرجة من الهجرة والإيذاء والقتال والقتل، توقع عندهم كبائر؟ ما عندهم كبائر؛ هذا وصل إلى أعلى درجة، ولذلك توجد عندهم سيئات وقليلة جدا ومع ذلك الله يمحوها عنهم.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [آل عمران: 195]؛ انظر اللام هذه **"لأكفرن"** هذه يسميها أهل العلم **"لام القسم"**، اللام موطئة للقسم؛ يعني القسم تقديره: والله، هذا قسم من الله.

يقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 195].

انظر ما قال **"ثواب أعمالهم"** مع أن أعمالهم عظيمة جدا الهجرة والجهاد؛ قال لا ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 195]؛ يعني هذا هو فضل الله، لو عملوا ما عملوا هذا فضل الله ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: 195].

الثواب الحسن عند الله، تريده؟ اعمل، كن في جملة وفي زمرة هؤلاء، وكن في صف هؤلاء إذا أردت أن تصل إلى هذه الدرجة، انظر لما ذكر لك خاتمة هذه وكأنها إشارة للمؤمنين الصالحين صحابة النبي ﷺ، ذكر لك الذين في مقابلة من هم الذين جاؤوا يقاتلون؛ الذين جاؤوا يقاتلون الصحابة من كفار قريش.

قال فيهم: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ﴾ [آل عمران: 196]. لا يغرنك شيء، تقلب الذين كفروا في البلاد لو انتصروا وأعطاهم الله ما أعطاهم من زخرف الدنيا ومن المال والبنين؛ كل شيء أعطاهم جمع لهم الدنيا كلها لا تغتر.

لا تغتر بتقلبهم في البلاد وانتقالهم كأنه بطمأنينة وأمن وأمان؛ لا يغرنك ذا، ليش؟ لأن هذا ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 197]. ما قالك متاع، قال ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: 197]؛ يعني كلها زمن وقت، يا إما أنه يموت ويترك هذا المتاع الذي يتمتع به وأعطي الدنيا كلها، أو هي تذهب عنه ويعيش فقيرا معدما؛ فكلها أيام، ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: 197].

مقابلة هؤلاء أنهم فازوا بالجنات وبحسن الثواب، هؤلاء ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: 197] ثم النتيجة ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [آل عمران: 197]؛ هذه المصيبة.

يتمتعون متاع قليل أيام معدودة ثم النتيجة أن مأواهم جهنم، أنهم يلقون في نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ولا يخرج منها وما هم منها لخالدين؛ ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 197].

هذا المكان الذي يمهد فيه وهذا المكان الذي يستقر فيه بئس المهاد، ثم عاد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مرة أخرى تأكيدا بشكل عام؛ يعني هو لما أثنى على أهل الهجرة والمقاتلين في سبيل الله والمجاهدين عاد مرة أخرى ليعمم لك الثواب للجميع.

يمكن أنت ما يحصل لك الهجرة، تقول والله ما في هجرة الآن كيف أهاجر؟ ما يحصل لك جهاد، والله ما في جهاد؛ إذا كان جاهد قال لا، نعطيك أيضا ثواب لمن قال لكن استدراك.

﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خالدين فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 198]. كلهم جميعا؛ المهاجرين والمقاتلين في سبيل الله ومن دونهم حتى من كان دونهم لكنه من الأتقياء من أهل التقوى فحافظ على التقوى. ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 198].

"النزل" هو ما يعد للضيف من الكرامة؛ يقول الله قد أعددت لعبادي الصالحين هذا النزل، يأتون إليه ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 198]. ليس من عند أحد، ليس من المخلوق؛ أنت لو يكرمك واحد الآن من أكبر مسؤولي البلد، يستضيفك في قصر له؛ كان فرحت فرحا شديدا.

فكيف برب العالمين يقول لك ﴿نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 198]؟ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: 198]. ما ينتظرك عند رب العالمين في جنات النعيم هو خير للأبرار المتقين؛ أما الناس عامة فلا، السورة إذا رجعنا إليها من أولها هي ٢٠٠ آية؛ إذا رجعت من أولها وجدت تتحدث عن أهل الكتاب وعن المؤمنين وعن الكافرين وعن المنافقين.

والله عاد مرة أخرى من باب العدل وبيان حكمة الله وعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خاتمة السورة، أن أهل الكتاب لما ذمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ذمهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: 187].

لما ذمهم خص منهم طائفة؛ قال في ناس من أهل الكتاب لا يدخلون في هذا، من هم؟ قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 199].

هذه مسلمة؛ ﴿لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 199]، يؤمنون بالله ويؤمنون بالقرآن وبمحمد ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 199]؛ لأنهم إذا آمنوا بالقرآن آمنوا بمن أنزل عليه وهو محمد. ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: 199] من الكتب كالتوراة والإنجيل، وهم حالهم خاشعين لله متذللين منكسرين لله خاشعين خائفين مشفقين.

لا يشترون انظر مو مثل هؤلاء اللي **"واشتروا به ثمنا قليلا"** قال لا هؤلاء غير؛ ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 199].

- ما هي النتيجة؟

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 199]. هذه بشرى؛ بشرى لمن آمن من أهل الكتاب ومن غيره، بشرى أن لهم أجر عند ربهم إن الله سريع الحساب.

السورة مثل ما ذكرنا لكم حديث عن الغزوات وعن الصبر على الطاعات والصبر على الجهاد والصبر أمام العدو والصبر عند المصائب؛ ما أصيب المؤمنون في أحد والجراح صبروا، ووعدهم الله قال وأمرهم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

اصبر على ما يصيبكم من المصائب، واصبروا على أقدار الله، واصبروا عن معاصي الله، واصبروا على الطاعات؛ اصبر تحمل. ﴿وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: 200].

- ما الفرق بين اصبر وصابر؟

"اصبر أنت، وصابر يعني شجع غيرك على المصابرة"؛ يعني أنت اصبر بنفسك على الطاعات وعلى المعاصي، وأيضا حث غيرك وتواصوا بالصبر. ﴿وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: 200]؛ المرابطة هي القيام في الثغور أمام العدو، الوقوف في الثغور؛ يعني الذين يجلسون على الحدود في حراسة المسلمين، ويدخل في المرابطة هنا المرابطة على الطاعات.

قال النبي ﷺ: **«فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»**.

لما ذكر ﷺ أعمالا جليلة ومنها انتظار الصلاة إلى الصلاة؛ مثل هذه الجلسة الآن صلاة المغرب وتنتظر صلاة العشاء؛ انتظار الصلاة في الصلاة قال: **«فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»**.

فهذا يدخل في قوله: ﴿وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: 200]. ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: 200]؛ اتقوا الله، التقوى هي أشد هي زمام كل الأعمال، هي زمام الخير كله؛ كل الخير تقوى الله، حقق التقوى، الزم تقوى الله. والنتيجة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]؛ إذا لم تحصل لك هذا الأمر فلن يحصل لك الفلاح، إذا علق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الفلاح بهذه الأعمال: الصبر والمصابرة والمرابطة، النتيجة تفلح.

تفلح في الدنيا في الخير الذي يعطيك الله في الدنيا عاجلا، وتفلح في الآخرة بالفوز في الدار الآخرة.

أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يتغمده الله بواسع رحمته، وأن يجعله من المفلحين الفائزين الأبرار الأتقياء.

وخاتمة هذه السورة سورة آل عمران خاتمة عظيمة جليلة جدا تحتاج منا إلى أن نتدبرها، لا نقرأها بدون تدبر؛ نتدبر ونقرأ، إن شاء الله لنا لقاء في إن شاء الله في الأسبوع القادم، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ النِّسَاءِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(80)
(النساء 1 - 4)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلّي وأسلّم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا ربّ العالمين.

بسم الله، والحمد لله، نصلي ونسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛ اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين .

أيها الإخوة الكرام، مجلسنا الطاهر مع القرآن الكريم في مثل هذا اليوم الأربعاء من كل أسبوع، نجلس هذه المجالس الطاهرة المباركة مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ نقرأ آيات القرآن، ونقف مع معانيها ودلالاتها وتوجيهات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومواعظه.

السورة التي بين أيدينا هي سورة النساء، بعدما قرأنا سورة البقرة وفسرنا آياتها وانتهينا منها، ثم آل عمران، هذه هي السورة الرابعة بعد الفاتحة والبقرة وآل عمران.

☜النبي ﷺ قال في البقرة وآل عمران: **«اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَومَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِن طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عن أَصْحَابِهِمَا»**؛ هذا فضل القرآن، سورتين فقط؛ سورة البقرة وآل عمران تحاج عنك يوم القيامة، فضل عظيم.

قرآن يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، ينفعك في الدنيا وينفعك في الآخرة؛ سعادتك في القرآن، ورزقك وهدايتك وتوفيقك، إذا أردت التوفيق والهداية والسعادة والرزق الحسن الطيب، وسعة انشراح الصدر؛ عليك بالقرآن الكريم، لازمه، يقول: **«يَأْتِي يَومَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصحَابِهِ»**، ما يأتي لأي ناس، أصحابه هم الذين يلازمونه .

سورة النساء سورة عظيمة، هي أطول، هي بعد البقرة الطول في السور المدنية، يعني ثاني سورة في الطول بعد البقرة، السورة هذه أنت لما تتأمل وتتدبر القرآن؛ سورة البقرة الحديث فيها عن بيان مواقف اليهود، مواقفهم مع الله، مع شريعته، مع أنبيائه، وتحذير المؤمنين أن يسلكوا مسلك هؤلاء اليهود.

ثم آل عمران جاء الحديث عنها في بيان مواقف النصارى مع الله، النصارى مع الله؛ قالوا عيسى ابن الله، قالوا الله هو عيسى؛ فمواقفهم مع الله ومع شريعته ومع أنبيائه، ويأتي التحذير من طريقتهم.

لما حذرك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من طريق اليهود والنصارى الذين ذكرهم الله في سورة الفاتحة، وأنت تقرؤها في كل صلاة، في كل ركعة، تقول: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 7]. هذه السورة، سورة النساء، ياتي تفاصيل أحكام شريعة هذه الأمة، كلنا نحتاج إلى توجيهات وأحكام هذه السورة، تشرح لك الآن ما يحتاجه المسلم في حياته، كأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: احذروا طريق اليهود الذين هلكوا وغضب الله عليهم، واحذروا طريق النصارى الذين ضلوا، وهذه شريعتكم؛ فتمسكوا بها .

ولذلك سورة النساء فيها شرائع عظيمة، سورة النساء تحدث الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أولها عن أصل الإنسان؛ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، آدم ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ

مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1] حواء؛ الله ذكرك في أصلك الأول وأبوك آدم وأمك حواء، ثم تتفرع من هذا الأصل الذرية؛ ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]، ذرية انتشرت في الأرض من هذا الأصل.

ويذكر أن بينك وبين علاقات رحم، وعلاقات جوار، وعلاقات كثيرة؛ ولذلك السورة بدأت بالعلاقات في الأسرة أولاً، في الأسرة: الزوج والزوجة، كيف تكون علاقتهم؟ كيف يكون زواجهم؟ كيف يكون نكاحهم؟ كيف يكون أولادهم؟ كيف تكون التربية؟

علاقات الأسرة بين الرجل وزوجته وأبنائه، ثم تتسع الدائرة؛ علاقة الأسرة مع الأقارب، ثم علاقة الأسرة مع الجيران، كلها تتحدث عنها السورة، ثم علاقة الأسرة مع المسلمين عامة، ثم علاقة أيضاً المسلم مع إخوانه المسلمين، علاقته مع غير المسلمين؛ كيف يتعامل مع اليهود والنصارى والمنافقين والمشركين والكفار؟

كل هذا التفصيل أنت تقرأ سورة النساء بتمعن ستجد هذا كله موجوداً فيها، موجوداً في هذه السورة، السورة تركز على هذه العلاقات، وبيان موقف العرب؛ كيف يتعاملون مع أبنائهم؟ كيف يتعاملون مع زوجاتهم؟

ويأتي القرآن ويرفع من شأن المرأة، ويحمي هؤلاء الضعفاء المساكين، سواء كانوا أيتاماً أو رجالاً ضعفاء أو نساء أو نحو ذلك؛ يحميهم الله ويرفع شأنهم، ويدافع عنهم ويطهر حقوقهم.

نبدأ مستعينين بالله في هذا اليوم، وهو اليوم الحادي عشر من شهر صفر، من عام أربعة وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة، بهذه السورة العظيمة، ستأخذ منا وقتاً طويلاً، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول قبلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: 200]، اجلسوا واتقوا الله، النتيجة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200].

تحتاج إلى صبر ومثابرة ورباط، كل هذا يحصل بإذن الله، ولا يفوتك أنك إذا جلست أنت هذا المجلس أن أجرك عند الله، أن أجرك مضاعف عند الله؛ مجلس يقال لك: **«قُومُوا مَغْفُورًا لَكُم قَد بُدِّلَت سَيِّئَاتُكُم حَسَنَاتٍ»**.

- أين تحصله؟

والله لو تدفع مبالغ على أن يحصل لك هذا الأمر ما تجده، فهذا فضل عظيم، انظر نقرأ الآيات شيئاً فشيئاً ونتدبر، انظر الله عَزَّ وَجَلَّ يقول في هذه السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء: 1]، ما قال: يا أيها الذين آمنوا، ولا قال: يا أيها الذين كفروا، ولا قال: يا أهل الكتاب؛ قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء: 1]؛ ليش؟ لأن الكلام هنا موجه لبني آدم جميعاً، كلهم، على أجناس واختلاف.

ولذلك أنا ذكرت لك وهذا سيتكرر معي أن السورة علاقات بني آدم بعضهم مع بعض من شتى الأجناس. يقول لك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: 1]؛ يعني يا بني آدم، أيها الإنسان، أنت من بني آدم؛ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: 1].

- كيف نتقي الله؟

يقول: خافوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، راقبوه، اعملوا بما أمركم الله به، وانتهوا عما نهاكم الله عنه؛ لا يجدك الله في مكان نهاك الله عنه، ولا يفقدك الله عَزَّ وَجَلَّ في مكان أمرك أن تكون فيه. صلاة الفجر يُفقد فيها ليش مثلاً؟ يعني كمثال وأشياء كثيرة.

الله يقول: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: 1]، ولاحظ ما قال اتقوا الله، قال: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: 1]؛ ليش؟ يذكرك بالنعمة في خلقك، من الذي خلقك؟ والذي رزقك هو ربك، الذي رباكم.

- من تتقون؟

الذي رباكم؛ يعني ما فيه منة أصلاً عليك أنك تخاف الله وتتقيه؛ لأنه هو الذي أوجدك، وهو الذي خلقك، وهو الذي أنعم عليك بالصحة والعافية والرزق والمال، يعني أشياء لو بلحظة تُصاب بشيء لدفعت كل ما تملك في الدنيا علشان تسلم من هذا الذي أصبت به، فيذكركم الله بهذه النعمة: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: 1] الذي رباكم، وخلقكم وأوجدكم، وأنعم عليكم بالنعم وحفظكم؛ هذا ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: 1، 6].

- ولذلك انظر بعدها ماذا قال، من هو ربنا؟

قال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]؛ كل إنسان مخلوق خلقنا من أي شيء؟ قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، يعني أصلكم يرجع إلى نفس واحدة وهو آدم الذي خلقه الله من تراب، ثم جعل فيه الذرية؛ ولذلك ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1] .

زوج آدم زوجته حواء، حواء زوج آدم خلقها الله من آدم.

- كيف خلقها؟

خلقها من ضلع أعوج، الضلع الأيسر الأسفل الأعوج. آدم لما خلقه الله بدأ وحيداً في الجنة، وحيداً لا يستطيع أن يجالس أحداً ولا يؤنسه أحد، والإنسان مدني بطبيعته، ما يمكن أن يعيش وحده، ما يمكن، لا بد أن يخالط الناس، لا بد أن يبحث؛ ولذلك جعل الله له الزوجة ليكون بينها وبينه مودة ورحمة وعطف وحنان.

لا يمكن أن يعيش وحده، فلذلك الله لما خلق آدم وحده بدأ يتقلب في الجنة وحده، ففي مرة من المرات كان نائماً، فلما استيقظ وإذا عنده هذه المرأة؛ قال: من أنت؟ قالت: أنا زوجتك حواء؛ خلقها الله من ضلع أعوج.

☜ كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ المَرأَةَ خُلِقَت مِن ضِلَعٍ»**؛ أحد الأضلاع الأسفل الأيسر، ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1]، واستأنس بها، استأنس بها وارتاح؛ تحادثه ويحادثها، تجالسه ويجالسها، وتأكل معه ويأكل معها؛ ولذلك قال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: 1].

ثم قال: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ [النساء: 1]؛ من آدم وحواء، ﴿وَبَثَّ﴾ [النساء: 1] يعني نشر، نشر وفرق؛ ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]. يعني رجال ذرية آدم فيهم الرجال الكثير والنساء.

- لو سألنا أيهم أكثر الرجال ولا النساء؟

الجواب: النساء أكثر من الرجال.

الله يقول: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]، ما قال نساء كثيرة، قال بعضهم: **"لكثرتهن لا يحتاج أن يوصفوا"**؛ يعني هم كثير أكثر من الرجال، أكثر من الرجال.

قال بعضهم فيه لفتة جميلة: **"أن المرأة الأصل فيها الاختفاء والتستر"**؛ ولذلك لم يذكر وصفها بالكثرة لأن الأصل فيها الجلوس في البيت والقرار والاختفاء، وعدم الظهور أمام الرجال .

قال: ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]، ثم قال مرة أخرى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 1].

انظر الأول يقول: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: 1]، والثاني يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 1]؛ ليجمع بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، يعني أنت تتقي ربك الذي خلقك، وتتقي الله الذي أمرك بعبادته؛ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 1].

ثم قال: ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: 1]؛ يقول اتقوا الله، وذلك خطاب عامة الخلق؛ ﴿الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ [النساء: 1]، كيف تساءلون به؟ يسأل بعضكم بعضاً بالله؛ يقول: أسألك بالله أن تعطيني كذا، أسألك بالله ألا تظلمني، أسألك بالله أن تعطيني حقي؛ ﴿تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: 1].

يقول: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: 1]، اتقوا الأرحام أن تقطعوها، شايف؟ هذا فيه حث على قوة الصلة بينك وبين الأقارب، لا تقطع الرحم .

☜لما خلق الله الخلق هذه الرحم تعلقت بالعرش، تعلقت بعرش الرحمن فقالت: **«هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ»**؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ لها: **«أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟»**؛ ولذلك الله لعن الذين يقطعون الأرحام: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ 22 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: 22-23] .

ففي وعيد شديد في قطيعة الرحم، وفي صلة الرحم أثر طيب: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»**؛ يوسع لك في رزقك، وينسأ يؤخر لك في أجلك، يمد لك في أجلك.

نسمع الآن أمور والله ما تتصور، في شخص قاطع عمه سنين طويلة، قاطع خاله، قاطع خالته، قاطع جدته، قاطع جده؛ إحنا نسمع قصص أشياء ما تتصور، قاطع في أبيه، ما يتصل على والده، ما يقابل والده، ما يزور والده؛ تجده في بلد وهذا في بلد، ما يأتي إليه، ولا والدته، ولا يسأل عنها تمر الأشهر.

فالله عَزَّ وَجَلَّ حث هنا قال: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: 1]؛ اتقوا الأرحام أن تقطعوها، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1]؛ أي حافظاً لأعمالكم، مراقباً، محاسباً.

خاتمة الآية عجيبة؛ انظر يحثك على التقوى من أولها وآخرها، ويذكرك بخلقك الأول، ويذكرك بأنك تسأل الله وتدعو الله عَزَّ وَجَلَّ، وتقسم بالله وتحلف بالله، ويحثك على هذا ويقول: كل هذه الأعمال الله رقيب عليك، حافظ أعمالك، وسيحاسبك وهو يجازيك عليه .

انظر تبدأ السورة تدخل في تفاصيلها، لما بدأ الله عَزَّ وَجَلَّ، هذه يسميها علماء البلاغة **"براعة الاستهلال"**؛ يعني شلون براعة الاستهلال؟ يعني السورة تستهل بأبرع وأبلغ أسلوب، يذكرك كأن هذه فاتحة، مفتاح الآن.

مثل ما ذكرنا في لقائنا الماضي، قلنا خاتمة آل عمران كانت موجزاً ملخصاً، والآن الفاتحة هذه كأنها مفتاح، كأنها ملخص هذا الموجز، وإليك البيان الآن.

الآية الثانية يقول: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 2]؛

- ما علاقة اليتامى؟

اليتامى أقارب أحياناً؛ ابن أخيك يتيم، ابن عمك يتيم، ابن أختك يتيم، اليتامى لهم علاقة فيك، والله حث على العلاقة والرحم، لكن نبه على أمر خطير جداً وهو أموال اليتامى؛ احذر أن تتعرض لأموال اليتامى. يقول: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 2].

اليتيم من فقد أباه وهو صغير لم يبلغ الحلم، قد يموت والده ويترك وراءه مالاً كثيراً، فيأتي العم أو الخال أو الأخ الكبير أو نحو ذلك، ويأخذ ماله، هذا صغير ما يدري؛ قد يكون حمل، قد يكون سنة سنتين عمره، فيأتي هذا ويأخذ ماله.

لأن في الجاهلية يأخذ المال ولا يبالي، ويوجد من هم الآن في الإسلام من يأخذ مال اليتامى ولا يبالي، ولا يبالي؛ يقول: أنا أولى منه وهو صغير ولا يدري، وأنا أحق به، أنا كنت أنا أخوه أنا عمه؛ ويبدأ يبرر لنفسه ويأخذ. يقول: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 2] .

- هل اليتيم يعطى ماله وهو صغير؟

لو أعطيته ماله وهو صغير، يفرض عمره عشر سنوات، اثني عشر سنة، والمال - مليون مليونين، أعطيه ماله؟ يضيع، يهدرها، ما يعرف يحسن؛ لا امرأة، لا بنت، ولا ولد، ولا ذكر، لا بنت ولا ابن ما يحسنون.

والله يقول في بعدها تأتي الآية، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6]؛ ادفع المال إذا عقل، فهم، والله يقول: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: 5]؛ هذا سفيه.

- إذاً كيف معنى الآية ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 2]؟

قال أهل العلم: **"يعني ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ يعني احفظوها له"**، احفظوها له؛ اشتغل فيها، نميها، دخلها في أسهم، دخلها في شركات، دخلها في شيء يحفظها له حتى إذا كبر يجد ماله، لا تضيع.

هذا معناه ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾؛ يعني احفظوها لهم، كأنها عنده، كأن اليتيم ماله محفوظ عندك أنت؛ أمانة، هذا اليتيم أمانة عندي، اليتيم نفسه أمانة وماله أمانة. والله يقول: احفظ اليتيم وربه تربية حسنة كأنه أحد أبنائك واحفظ ماله حتى إذا كبر أعطيه .

أو يراد بالمعنى ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾؛ يعني آتوها إذا كبروا، إذا بلغوا أعطوهم، الله لا يبقى عندك؛ خلاص كبر وعقل ويفهم يتصرف، عط ماله، أعطوه حقه.

- ليش قال يتامى وهم قد بلغوا؟

الجواب: كأنه إشارة إلى أنه بمجرد بلوغه يعني بمجرد يعني مجاوزته فترة اليتم- أعطِ مباشرة؛ لا تقول: والله ما أدري، أخشى أنه ما يعرف، أو أخشى كذا؛ لا، خلاص هو رجل يحسن التصرف مباشرة، لا يبقى المال عندك، المال ماله؛ ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 2، 11].

ثم قال: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء: 2]؛ كيف تتبدل الخبيث بالطيب؟ يقول لك: لا تأخذ الحرام في الحلال.

يعني أحياناً أموال اليتامى لو قلنا من بهيمة الأنعام؛ من الإبل أو البقر أو الغنم؛ يأخذ الإبل الضعيفة اللي عنده ويعطيها اليتيم، ويأخذ الطيب اللي عند اليتيم له، ومثل الغنم ياتي الطيب من الغنم ويضع عنده، يقول: هذا لي، والضعيف اللي عنده له، يعطيه اليتيم؛ هذا لا يجوز، هذا حرام، هذا ظلم.

الله يقول: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾ [النساء: 2]. الخبيث الرديء عندك تعطيه اليتيم، والأموال أو الأشياء تعطيها اليتيم؛ افرض عنده قطعة أرض مثلاً، وأنت مجاور، فيجي ويأخذ قطعة الأرض اللي عند اليتيم لأنها أفضل، وقطعة الأرض اللي عنده هو لأنها أردأ يعطيها اليتيم، يقول: هذه كلها قطعة واحدة، الأراضي ما فيه فرق، ما فيه فرق؛ ويأخذ الطيب ويدفع ويترك الخبيث .

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ﴾ الذي عندكم ﴿بِالطَّيِّبِ﴾ اللي عند اليتيم، لا تتبدل الحلال بالحرام، الخبيث بالطيب؛ أعطه حقه، ولا تتعرض له لأنهم كانوا يفعلون ذلك، يفعلون. قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: 2]؛ لا تخلط، تخلط مالك بماله ثم ما تميز.

أما إذا ميزت هذا شيء ثاني؛ يأتي مثلاً أسلاف لوالده، وديون يعطونه إياه، يقولون: هذا حق اليتيم، فيأخذها ويضعها في حسابه ويخلطها، ولا يحسب ولا يسجل؛ ليش تخلط مال اليتيم بمالك؟ ما تميز؟ أحياناً غنم مثلاً يخلطها مع بعض في أحواش ولا يميزها؛ لا، حق اليتيم بعيد، لا تخلط، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: 2].

انظر يقول: ﴿لَا تَأْكُلُوا﴾؛ لأن أكثر استعمال الأشياء هذه طريقها الأكل، وإلا لو لم يأكله ممنوع، ممنوع أن تأخذه بأي طريقة، قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: 2]؛ أي هذا العمل في عدم المحافظة على أموال اليتامى.

واستبدال الطيب بالخبيث وضم أمواله وخلطها وتضييعها، هذا إثمه عظيم عند الله، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا﴾ أي ذنباً عظيماً، ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي ذنباً عظيماً، تب تأتينا آية أشد من هذه الآية، آية يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10] .

هذا ليش التشديد في الأمر هذا؟ لأن اليتيم ما أحد، ليس له أحد يدافع عنه، ما أحد يدعي عنه؛ يمكن شخص توفي وعنده ستة أيتام، بنات وأبناء، ويأتي بعيد ويأخذ الأموال ويتركهم ضعفاء ويضيعهم، حصل، يحصل هذا كثيراً، يحصل في الجاهلية ويحصل الآن، قضايا كثيرة مثل هذا الأمر؛ فشدد الله لأن ما في أحد يدافع عنهم، مساكين صغار، إذا لم يدافع القرآن عنهم ضاعت أموالهم .

ولذلك انظر حتى قضية عندنا هنا قضية مهمة؛ حتى الزواج، هل يجوز أن يتزوج باليتيمة؟ افرض هي ابنة عمه، عمه توفي وهذه البنت ابنة عمه صغيرة، أخذها ورباها عنده، لما كبرت بلغت عشرين سنة قال: أتزوجها، هذه بنت عمي أتزوجها، أنا أولى من غيري، أنا ربيتها في بيتي، وتربت عندي وأنا أريد أن أتزوجها.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: نعم، يجوز لك تتزوجها، لكن أعطها حقها، يقول بعضهم: ما يعطيها مهر، ما يعطيها حقوقها في الزواج؛ يعني لو أراد أن يتزوج امرأة بعيدة كان أعطاها كل ما تحتاج، وكل ما تفرض عليه يعطيه، تشترط عليه يعطيه؛ طيب وهذه؟ لا، يبغى ياتي إلى اليتيمة التي تربت عنده يتزوجها ولا يعطيها مهراً أو ما يعطيها حقها؛ فنبه الله على هذا الأمر.

قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: 3]؛ إذا أردت تتزوج وما تقسط فيها ابتعد، إن خفت ابتعد.

- ماذا أصنع؟

قال: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: 3]؛ ابحث عن غيرك، ما طاب.

- ما الطيب من النساء؟

ذات الخلق الطيب والطاعة والاستقامة، خذها، **«فاظفَر بِذَاتِ الدِّينِ»**، ابحث عنه، النساء كثير لا تضيق على نفسك تأخذ اليتيمة وتظلمها؛ لا، ابتعد وتزوج ما طاب لك من النساء ﴿مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: 3]؛ المجال مفتوح لك تتزوج، تعدد؛ اثنتين، ثلاث، أربع .

لكن بشرط كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: العدل بين النساء، العدل فيما تستطيع؛ في القسمة، في المهر، في العدل في المبيت، العدل في النفقة، العدل في الكسوة، العدل في فيما تقدر عليه.

قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 3]؛ أنت لا تريد أن تعدد، لا تريد أن تتزوج اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً، اترك التعدد؛ ﴿خِفْتُمْ﴾ إذا ما تقدر تعدل تخاف؛ لأن من تزوج اثنتين ثم مال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل؛ يعني ما أنتم ضروري أنك تتزوج وتعدد وأنت ما تعرف ما تعرف إيش التعدد، إيش يعني شروط التعدد؟ إيش موجبات التعدد؟ إيش الأشياء التي تتعلق به؟ اتركها، خذ واحدة.

ولذلك قال: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3]؛ خلك على واحدة، ﴿فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3] أسلم لك وأسلم لدينك وحتى لا تقع في ظلم النساء، ﴿فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: 3]؛ من ملك اليمين، هذا شيء آخر، تملك يمين تشتريها كما كان في السابق، ملك اليمين هذا شيء آخر، ليست زوجة، ملك يمين مملوكة عندك ليست زوجة.

قال: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء: 3]؛ يقول لك إذا أخذت واحدة هذا أقرب ﴿أَلَّا تَعُولُوا﴾ أي لا تظلموا ولا تجوروا، ثم ركز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على قضية مهر المرأة، مهر المرأة؛ لا بد من أي رجل يريد أن يتزوج المهر واجب لا يسقط، ما يحل تسقط أمور أخرى إلا المهر.

ولذلك الله يقول: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: 4]. الصدق والصداق: المهر، المهر والصداق؛ قال: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: 4]؛ أي ﴿نِحْلَةً﴾ يعني عطية من الله، منك؛ الله هو الذي أمر، والله هو الذي جعله لها، هذا نحلة نحلها الله لها، ليس منة منك؛ إذا تريد أن تتزوج لا بد.

قال ﴿نِحْلَةً﴾ أعطوهم صدقات صداقة، لكن ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: 4]؛ يعني المرأة طابت نفسها أن تعطيك من المهر، قالت -قلت والله أنت أمهرتني أربعين ألف، خمسين ألف، ستين ألف- وبعد الزواج عندي المال، تقول المهر عندي أو جزء خذ، إذا أردت تستأجر أو أردت تشتري سيارة أو كذا أنا بنفس الطريقة خذها.

- هل يجوز للرجل أن يأخذ مهر امرأته؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ إذا طابت نفسها جائز: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: 4]. هذه الإباحة أعلى درجات، أعلى درجة الإباحة أن تأخذه تتهنى به، و﴿مَّرِيئًا﴾ سائغاً لا تجد فيه أي أثر وهو طيب، يعني وصل إلى درجة الطيب إلى أعلى؛ بس بشرط أن تطيب نفسها.

هذا في مهرها؛ طيب لو كان في مالها؟ عندها مثلاً مال، عندها راتب، عندها كذا؛ هل يجوز للزوج أن يأخذه؟ لا يجوز أن يأخذه إلا بطيب نفس، إن رضيت؛ قالت خذ مالي، خذ من مالي خذ كذا، هذا جائز ومباح والله قال ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا﴾ [النساء: 4].

إذا لم ترض، تسمع بعض نسمع قضايا، رجل تزوج امرأة مدرسة موظفة، يأخذ مرتبها بالقوة، يقول المرأة: **"تحولين على حسابك"**، ما يجوز لك حرام، إلا إذا أذنت وطابت نفسها.

السورة لا تزال الحديث عن مثل هذه القضايا، حقيقة قضايا مهمة اجتماعية نحتاجها كلنا جميعاً، لا تزال تتحدث لكن لا نريد الإطالة.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم نواصل ما في هذه السورة من كنوز وتوجيهات عظيمة، نسأل الله أن يبارك لنا ويوفقنا وإياكم لطاعته، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(81)
(النساء 5 - 10)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حيّاكم الله في هذا اللقاء، وفي هذا المجلس المبارك مع القرآن الكريم؛ نقرأ آيات من كتاب الله ونبيّن ما فيها من معانٍ ودلالات وتذكرة وموعظة لمن أراد.

السورة التي بين أيدينا هي سورة النساء، سميت بهذا الاسم لكثرة الأحكام المتعلقة بالنساء فيها، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر أحكامًا كثيرة تتعلق بالمرأة في هذه السورة، وابتدأها بأحكام بعض الذين يحتاجون لرعاية كاليتامى والنساء؛ فذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حقوق اليتامى أنه يجب على أولياء اليتامى أن يحفظوا أموالهم ويؤدوها إلى اليتامى عند بلوغهم، عندما يبلغون ويرشدون ويعرفون التصرف يعطون أموالهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: 2]، وقال في النساء: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: 4]، فأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالحفاظ على حقوق اليتامى وعلى حقوق النساء.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: 5]؛ قد يكون اليتيم حتى لو بلغ عشرين سنة، ثلاثين سنة، أربعين سنة قد يكون سفيهًا، قد يكون لا يحسن التصرف ولا يعرف قيمة المال؛ **"المال عصب الحياة"**، والمال سلاح المؤمن، ما معك مال ما معك سلاح.

فالمال ينبغي للإنسان أن يحافظ عليه، وخاصة أن الإنسان مسؤول عن ماله؛ من أين اكتسبه وفيما أنفقه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى راعى حقوق هذه الأموال وبين أحكامها في كتابه؛ اليتيم إذا كان سفيهًا لا يعطى ماله، يعطى مال يضيعه؟ لا يعطى.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: 6]؛ اختبروهم، فإذا علمتم منهم حسن التصرف ومعرفة قيمة المال أعطوهم المال، إذا لم يعرف ما يعطى المال يحفظ له.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾ [النساء: 5]؛ ما قال اليتيم، ولا قال المرأة، ولا قال رجل، ولا حدد هذا الشخص، ننظر فيه هل هو سفيه ولا غير سفيه؟

- ما هو السفيه؟

"السفيه أصلًا كلمة السفه هذه في لغة العرب مأخوذة؛ السفه أصلها الخفة؛ خفة الشيء"، تقول: **"تسفهت الريح"**؛ يعني خفيفة، فإذا كان الإنسان عقله خفيفًا ليس ثقيلًا سمي سفيهًا؛ السفيه الذي لا يحسن التصرف، لا يعرف قيمة المال، قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: 5].

إذا قلنا إن هذه الآية في اليتامى زين؟ فالمال هذا مال اليتيم ليس مال الإنسان، ليس مال الولي، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: 5].

بعض المفسرين يقول: **"المراد بالسفهاء هنا هم اليتامى، لا تعطونهم أموالهم ما داموا سفهاء"**؛ الله يقول ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾؟ قال: أضاف الله الأموال للأولياء، كأنه مالك، يقول: هذا مال اليتيم

كأنه مالك أنت؛ احفظه عندك ونمِّ به واشتغل فيه وهو محفوظ لليتيم، لكنه لما كان هذا الولي هو الذي يراعي اليتيم أضاف الله المال إليه.

قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: 5]؛ **"قيامًا يعني ما تتقومون به وتعيشون به، ما يستطيع الإنسان أن يعيش بدون مال، المال عصب الحياة"**.

قال: ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ [النساء: 5]؛ شايف السفهاء هؤلاء؟ ارزقوهم فيها، الرزق وما يحتاجون إليه في حياتهم، واكسوهم ما يحتاجون من لباس، وارزقوهم فيها.

ولاحظ انظر عبارة القرآن عجيبة، قال: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [النساء: 5]، ما قال ارزقوهم منها، ليش؟ ليش قال فيها؟

قال: **"اتجروا فيها وحركوها"**، هذا المال لو فرضنا إنه مليون ريال لهذا اليتيم أو هؤلاء الأيتام لسنين طويلة، لو أخذنا ننفق عليهم؛ إيجارات إيجار السكن، وننفق عليهم مصاريف البيت، والكسوة، وما يحتاجون إليه؛ هذا المليون سينزل بعد عشر سنوات، خمسة عشر سنة يمكن يطلع خمسمئة ألف.

فلذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من حكمته قال: ﴿ارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ ما قال منها؛ لو أخذت منه انتهى، لكن لما يقول ﴿ارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ يعني خذوا المال هذا واتجروا فيه واشتغلوا فيه حتى ينمو ويزيد، وخذوا من الأرباح.

﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: 5]، انظر كيف الأدب؛ يعني هذا السفيه عندك لو أنت عطيته المال ضيعه، والله ضيعه بلحظة، سواء كان هذا شابًا سفيهًا أو امرأة، **"السفيه سفيه يبقى سفيه لو كان رجل لو كان بلغ الخمسين"**.

أعطيتها المال ضيع بلحظة بأشياء تافهة؛ ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر الأولياء بأن يحفظوا هذا المال لهذا اليتيم ولهذا السفيه، ثم يردوه عليه ويقول له، يقول: نعم نعطيك مصروف شهري، كم تبي مصروف شهري؟ نعطيك مثلًا ألف ريال، ألفين، هذا مصروفك الشهري، كسوتك، ملابسك، نحن مستعدين نعطيك اللي تريد التي تحتاج إليها.

وتعطيه من الكلام تقول: هذا مالك لو أعطيتك إياه يمكن يجوّك بعض الإخوة أو بعض الزملاء أو كذا ويأخذون المال عليك يضيعونه، نحفظ لك مالك حتى لا يضيع، ننميه لك ندخله في تجارات، في أسهم، في كذا حتى لا يضيع عليك.

ولذلك الله قال: ﴿وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء: 5] يرضيهم؛ لأن بعض السفهاء إذا أخذت أنت ماله تريد حفظه له وتنميته يمكن ينتقم منك، يقول: **"هذا أخذ مالي ولا أعطاني شيء"**، فأحيانًا ينتقم منك بأي طريقة؛ فلذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال أعطوهم الكلام الطيب، وأتوهم من الأبواب الطيبة التي تطمئن قلوبهم .

هذا نقول إذا كان هؤلاء السفهاء أيتام، قد ما يكونون أيتام؛ مثلًا أبناؤك، أبناؤك هؤلاء قد يكونون سفهاء يطلبون منك مال، لا تعطيه المال كله؛ لأنه لا يحسن التصرف، سفيه ولا يحسن التصرف ولا يدري أين يضع هذا المال.

فالمال مالك، وتعطيهم على قدر احتياجاتهم وتعطيهم الكلام الطيب، تقول: هذا المال هو عندي ومحفوظ وأعطيكم في أوقات تحتاجون إليها، وهكذا سواء قلنا السفهاء الأيتام أو السفهاء هم الأولاد أولاد الشخص أو زوجته أو نحو ذلك، لكن سياق الآيات كأنه يميل إلى أنهم الأيتام؛ لأن ما قبل وما بعدها كلها تتحدث عن أحكام اليتامى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: 6].

انظر لما تقرأ الآية الأولى والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 2]؛ أنت مفهومك أنك تعطيه مال على طول بمجرد إنه تجاوز حد اليتم بأن بلغ؛ خلاص أعطيه مال، يمكن يجيك يقول لك: خلاص أنا رجل وبالغ وعمري خمسة عشر سنة وأنا أريد مالي، وضعه في حسابي في البنك، أنت مالك دخل فيني أنا أتصرف، لا؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ماذا قال في اليتيم؟ قال: ﴿وَابْتَلُوا﴾ [النساء: 6]؛ اختبروا اليتامى ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: 6].

يقول: **"إذا بدأ قريب من سن النكاح؛ يعني عمره ثلاثة عشر سنة، أربعة عشر سنة؛ جربه، اختبره، عطه مصروفه الشهري انظر"**؛ واسأله، يقول لك مثلًا ممكن تعطيه الصباح خمسمئة ريال، جاء في الليل وين الخمسمئة؟ قال: والله راحت.

وين راحت؟ والله أفطرت أنا وزملائي وتغديت ورحنا ودخلنا كافيهات وكذا وراحت الخمسمئة ريال في يوم واحد؛ إي هذا سفيه ما يحسن تصرف.

لكن إذا ابتليته اختبرته وجربته، قلت: هذه خمسمئة ريال، جاء فيها آخر النهار وين الخمسمئة؟ قال: والله الخمسمئة صرفت منها مئة ريال والباقي معي؛ عرفت إنه يحسن التصرف، هنا يبتلي اليتامى وتستمر وأنت تجربه في دفع المال إليه تشوف النتائج، هو عاقل ولا سفيه، هو يحسن التصرف ولا لا يحسن.

لأن المال أحيانًا يضره الشباب يضرهم؛ يعني أحيانًا يأخذ هذا المال يتصرف فيه تصرفات قد تكون سببًا في ضياعه في مخدرات وبلاوي ومشاكل وعلاقات سيئة ولا يدري؛ فما يصلح ما يكون المال في يده.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ [النساء: 6]؛ يعني سن الزواج والنكاح، خمسة عشر سنة أو قريبة منها، يقول: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: 6]؛ يعني أحسست وشعرت بأن عنده رشد وعقل وحسن تصرف ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6]؛ خلاص الآن يعرف يتصرف أعط ماله، هذا ماله لا يبقى عندك، ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء: 6].

لأن بعض الأولياء يبدأ يفرح بأن هذا ما زال صغيرًا، ويأخذ المال ويشتغل فيه ويتاجر فيه في عقارات وغيره ويكسب ويأخذها له، يقول: **"أنا اللي اشتغل ومال اليتيم هذا مليون هو مليون تعرضت له أما المكاسب آخذ"**؛ لا ليست لك المكاسب، المال وما يدخله لليتيم؛ فيجلس يفسر لنفسه ويؤول لنفسه.

ولذلك بعضهم يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾ [النساء: 6] أي أموال اليتامى ﴿إِسْرَافًا﴾ [النساء: 6] يعني مسرفين فيها مضيعينها، ﴿وَبِدَارًا﴾ [النساء: 6] مستعجلين سريعين في أخذها ﴿أَن يَكْبَرُوا﴾ [النساء: 6]؛ يقول: **"قبل أن يكبر هذا اليتيم تأخذون أموالهم"**، تأخذون قبل أن يكبر هؤلاء اليتامى.

هذا خطاب لأولياء اليتامى، الولي والناظر الذي يقوم على اليتامى؛ الله يحذره دائمًا، انظر في هذه الأشياء لأن كثيرًا ممن يقوم على اليتامى قد يكون عمه أو خاله أو أخوه الكبير أو نحو ذلك، يأخذ الأموال ولا يبالي؛ هذا مسكين ضعيف صغير لا يدري.

ولذلك حذر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: لكن هذا الناظر والولي هل يجوز له أن يأخذ؟ يجوز له أن يأخذ مقابل مثلًا اشتغاله بالمال وحركته بالمال وبيعه والتجارة، هل يجوز له أن يأخذ شيئًا من المال بأنه يقوم بخدمة هؤلاء اليتامى أو لا يجوز؟

قال الله: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 6]؛ هذا غني وعنده مال ومغنيه الله وقائم على هؤلاء اليتامى؛ الأولى أن لا يأخذ شيئًا، ليستعف يطلب العفاف منهم ولا يريد شيئًا، ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف.

افرض أن هؤلاء اليتامى عندهم مزرعة أو عندهم قطيع من الأغنام والإبل، هذا الولي يقوم برعاية هذه الأغنام وهذه الإبل، أو يقوم بالمزرعة، أو يقوم بمحلات تجارية لهم ويتابع المحلات ويدور عليها؛ نقول: خذ أجرتك إن كنت فقيرًا خذ، وإن كنت غنيًا الأولى أن لا تأخذ شيئًا منه.

انظر قال: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 6]؛ بالقدر الذي يكفيه يأخذ حقه إذا كان فقيرًا.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا بلغوا النكاح وأنستم من رشدهم؛ انظر شرطين: أن يبلغ النكاح، وأن تشعر بأنه رشيد يحسن التصرف؛ قال: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: 6]؛ قول هذا لابد أن تشهد؛ لأنه قد يقوم عليك بدعوى، يقيم عليك دعوى.

قد يطالبك بأشياء؛ لكن إذا أشهدت الشهادة البينة حجة لك، حجة وبيان أنك سلمت له المال، ولا يستطيع أن يقوم عليك بدعوى، أو تكون محل تهمة، أو أحد يتهمك بشيء؛ أنا عندي بينة وعندي شهود أنني سلمت المبلغ له في تاريخ كذا وكذا وهذا يشهد وهذا يشهد.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: 6]؛ حسيبًا؛ شهيدًا، مراقبًا، مطلعًا، عالمًا بحالكم، محاسب كل إنسان؛ يعني كأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في هذه الكلمة ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: 6].

أنت أيها الولي أعطه ماله كاملًا، لا تعطيه أشياء وتترك أشياء تظن إنه ما يدري؛ لأن طفل صغير يمكن مات أبوه وعمره يمكن شهرين أو سنة ما يدري، فأنت عندك أموال ما يدري عنها فتعطيها تقول هذا مالك والباقي قد يتركها؛ فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ سيحاسب على الصغير والكبير فاعطِ كاملًا.

هذه أحكام اليتامى، والآيات هي تتحدث عن أموال اليتامى خاصة، وتتحدث عن أموال النساء **"المهور"** مهر المرأة؛ بعض الناس يماطل في المهر، بعض الناس يضغط على المرأة حتى يأخذ مهرها ما يجوز.

وأيضًا من أحكام المال ما يسمى بحكم الميراث؛ **"الجاهلية لا يورثون البنت ولا المرأة، البنات ولا المرأة ما يورثونهم"**، يقول: **"البنت لا تركب الخيل ولا ترفع سلاح ولا ترمي بالرمح ولا تدافع عن نفسها ولا تكتسب ولا شيء؛ كيف نعطيها من الميراث؟ ما نعطيها"**.

ولذلك لما في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إحدى الغزوات توفي أحد الصحابة وعنده ابنتان وزوجة، فجاءوا أبناء عمه وأخذوا المال كله، فقالوا: **"مات ما قالتين وأنا؟ قال: ما لك شيء ما نورث النساء ما ترفع السيف ولا تركب الخيل كيف نعطيها؟"** فذهبت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واشتكت إليه، قالت: **"هاتان البنتان أبوهما قتل معك في أحد، وإن أبناء عمه أخذوا المال كله"**؛ فسكت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن على طريقة جاهلية، فأنزل الله أحكام المواريث.

ستأتينا أحكام المواريث كلها التي قسمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما وكل هذا الأمر لا للنبي ولا لأي أحد؛ الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي قسم المواريث. يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 7]؛ هذا ميراث، رد على أهل الجاهلية؛ مثل ما إن الرجال لهم حق في

الميراث، النساء لهم حق في الميراث سواء؛ قال: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 7] قليل أو كثير أعطيهم نصيبًا مفروضًا؛ حقًا واجبًا.

وهذه آية مجملة، يأتيك بعدين التفاصيل: البنت كم تأخذ، والابن كم يأخذ، والأم كم تأخذ، والجدة كم تأخذ؛ هذه أحكام تفاصيلها، الأخوات كم يأخذون؛ هذه تأتينا بعدين.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: 8]؛ هذه قسمة المواريث، انظر حتى القرآن والشريعة تراعي الفقراء والمحتاجين في كل الأحوال .

إذا حضر قسمة؛ أحيانًا يموت هذا الرجل ثم إذا توفي جاءوا الورثة وتقاسموا ماله، إذا حضر هذا المال؛ من قال إذا حضر القسمة أولو القربى ما يرثون، ويتامى محتاجين ضعفاء، والمساكين يأتون عند القسمة؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾ [النساء: 8]؛ أعطوهم شيء يسير.

هذا كان في السابق قديمًا، تعرف قرى صغيرة وكل يدري، فإذا توفي جاء هؤلاء الفقراء العجزة وكبار السن والمساكين والأيتام جلسوا عند الباب يمكن يعطونهم شيء؛ فيعطونهم إما أقمشة أو مثلًا أرزاق أو حبوب أو نحو ذلك، أو يعطونهم مال قليل أو من الأغنام أو نحو ذلك.

يعطونهم حتى يكسر ما في نفوسهم؛ لأن اليتيم إذا جلس عند الباب، والكبير الفقير جلس عند الباب، تكسر ما في نفسه بأن تعطيه شيئًا يسيرًا؛ والله عَزَّ وَجَلَّ راعى هؤلاء قال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: 8]؛ أعطوه أعطوهم شيئًا ولو يسير بدون تقدير، وقولوا لهم قولًا معروفًا؛ قل: **"هذا ما تيسر، وأسأل الله أن يرزقك من فضله، وعليك بالدعاء لهذا الميت"**، وهذا الذي تيسر خذ هذا واذهب؛ كلام طيب .

في الآية هذه اللي أمامنا الأخيرة قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: 9]؛ يقول إذا أحيانًا جاء الشخص يحضره الموت علامات الموت مرض ونحو ذلك تشعر أن هذا الرجل كبير في السن وعلامات الموت تدور حوله.

فيأتون أقارب له وزملاء له ويجلسون عنده فيقولون: **"أوصِ لنفسك، اضع لنفسك أوقافًا صدقة جارية"**، ويبدون يقولون له حتى لا يبقي شيئًا للورثة فيصبح الورثة عالة، فهم يجون يقولون: **"نحن نشهد سجل اكتب كذا، بناء مسجد بكذا، وصايا"** إلى أن ينفد المال ولا يبقى شيء.

فالله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: 9]؛ يقول: **"أنتم جالسين عند الميت توصون بهذه الوصايا؛ لو واحد منكم أنتم الجالسين ترك ذرية ضعفاء ومات، هل يرضى أن يبقوا ضعفاء؟"** مثل ما إنك لا ترضى، غيرك ما يرضى؛ فأنتم أوصوه بالخير وبمراعاة اليتامى.

هذا أمر، والأمر الثاني يحتمل أن قوله ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ﴾ هؤلاء الأولياء؛ أولياء اليتامى، يقول: اتقوا الله في هؤلاء اليتامى واحفظوا مالهم ولا تضيعونه ما دام إنكم أولياء عليهم؛ لو إنك أنت الميت وعندك أيتام وجاء واحد وتصرف فيهم تصرف لا يليق هل ترضى؟ ما ترضى.

إذًا ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: 9] في أموال اليتامى أو في أموالهم.

والوعيد الشديد في اليتامى؛ التي لما نزلت هذه الآية ماذا فعل الصحابة؟ الصحابة عندهم أيتام، ماذا صنعوا بهم؟ عزلوهم؛ وضعوا لهم مكان خاص، وطعام خاص، وشراب خاص، ومكان نوم خاص خلاص يعني خافوا.

لما جاءت هذه الآية انعزلوا وتركوا اليتيم، والله لا يريد هذا الأمر، ولكن هذا الذي أتى الله به التهديد الشديد؛ لأن هناك أناس لا يبالون ولا يخافون الله في أموال اليتامى، بنت صغيرة يتيمة يأخذون مالها، يمكن يأخذ النصف أو أكثر ولا يبالي، أو لا يعطيها إلا شيئًا قليلًا؛ كثير وقائع حتى الآن في زماننا وقائع تسمع قضايا كثيرة يتامى لا يدرون ويأخذون أموالهم، إذا كان يأخذ مال الزوجة ويأخذ مال ناس آخرين ليسوا أيتام، فاليتيم مسكين لا يدري.

الله عَزَّ وَجَلَّ توعدهم بالوعيد الشديد، اسمع هذا الوعيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]؛ نار جهنم، انظر وصفها الله بالسعير تتسعر عليهم [13، 14].

جاء في حديث وحتى في تفسير السلف قال: **"يخرج من قبره والنار تشتعل في بطنه أصحاب أكلة أموال اليتامى؛ الذي يأكل مال اليتيم يخرج من قبره يوم القيامة والدخان يخرج من فمه وأمعائه وتشتعل نارًا بسبب أكله أموال اليتامى ظلمًا."**

فينبغي الحذر من حقوق الناس؛ **"حقوق الناس حقوق الآدميين سواء كانوا أيتامًا أو غير أيتام ينبغي الحذر، ينبغي الاحتياط والبعد عن حقوق الناس"**، إذا جاء يوم القيامة يقتص منك وأنت ما معك مال، ما معك إلا حسنات وسيئات؛ فيؤخذ من حسناتك حتى لا يبقى معك شيء؛ فنحذر أشد الحذر من هذا الوعيد الشديد وغيره، ونتفقه ونتعلم كتاب الله وندرسه.

نقف عند هذا القدر ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا؛ والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(82)
(النساء 11)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الأربعاء في تفسير القرآن العظيم، ومجلسنا هذا المبارك مع القرآن الكريم والسورة التي بين أيدينا هي سورة النساء.

وهذه السورة، مثل ما ذكرنا في لقاءات ماضية، هي تركز على الحديث عن المستضعفين بشكل عام، وعن النساء وما يتعلق بأحكام النساء. ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أولها حقوق اليتامى وما يجب على الأولياء الذين يتولون اليتامى؛ ما الذي يجب عليهم؟ ما الذي لهم؟ ما الذي عليهم؟

وفسر الله في ذلك وفي الأموال، وفي أموال النساء وحقوقهن ومهور النساء، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: 5]. في حال الصحة والعافية والمال بين يديك هذا أمانة، المال أمانة في يد الولي إن كان وليًا على اليتامى، وأمانة في يد الأب لأولاده ينفق عليهم، يكسوهم، يعطيهم ما يحتاجون إليه؛ فإن مات الأب فما مصير هذا المال؟ وكيف يكون؟ وما مآله؟

في الجاهلية كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصبيان، يقولون: **"لا يرث، لا نعطي المال إلا من يأخذ السيف ويركب الخيل ويدافع عنا، أما المرأة والصبي لا يعطون"**.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حكمه الحكيم: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: 7]؛ حكمة الله في قسمته بين الرجال والنساء هذا في المال.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك بدأ يفصل في أحكام المواريث؛ الميراث الذي يتركه الرجل أو الميت سواء كان رجلًا أو امرأة، إذا ترك هذا المال أين يذهب؟ من الذي يقوم بقسمته؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تولى قسمة هذا الميراث، لم يولِه لا لنبي ولا لولي ولا لأي شخص من الناس، وإنما هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي تولى القسمة بقسمة دقيقة حكيمة من حكيم عليم.

فقسم الناس إلى أقسام:

⬅ القسم الأول: أولاد الميت كيف يرثون؟ إن كانوا بنات، إن كانوا أولاد، الأولاد إذا قلنا الأولاد يدخل فيه البنات ويدخل فيه الذكور والأنثى؛ إذا قلت هذا ولد، إذا قلت هذا ولدي الولد يدخل فيه البنت والابن، وإذا قلت ابن يصير ذكر، وإذا قلت بنت يصير أنثى، فإذا قلت ولد، يشمل الذكر والأنثى.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أول ما بدأ في القسمة بدأ بالأولاد، بالفروع الأولاد لماذا؟ لأنهم هم أحق الناس بميراث أبويهم، أحق الناس بالميراث الأولاد وهم المستضعفون، هم الذين ما يدرون أين يذهبون، ما يدرون يتكففون الناس أين يذهبون؟

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تولى في قسمة أول ما بدأ بالأولاد، ثم لما انتهى في قسمة الأولاد انتقل إلى قسمة الآباء لأن الآباء قد يكون أيضًا في حاجة؛ الأب والأم والجد والجدة بحاجة إلى المال،

ثم بعد ذلك بين الله ما للزوج إذا ماتت زوجته، وما الزوجة كيف يكون ميراثها إذا مات عنها زوجها؛ هذه كلها قسمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم ذكر الإخوة وما يتعلق بذلك .

العجيب الميراث ويسمى باب الفرائض في الفقه؛ فرائض الفروض والمواريث على سعتها وتعدد الناس واختلافهم؛ هذا أب وهذا ابن، أبناء وبنات وأبناء بنت وأبناء بنات، وفروع كثيرة وآباء كثيرة وإخوة متعددين، إخوة أشقاء، إخوة لأب، إخوة لأم، كيف يرثون؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جمعهم كلهم، كلهم في ثلاث آيات، كل المواريث جمعها الله في ثلاث آيات. لو تقرأ هذه الآيات الثلاث ستفهم كل المواريث، المواريث من أصعب أبواب الفقه، يعني **«أَوَّلُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ عِلْمِكُمْ عِلْمُ الْمَوَارِيثِ»** كما في حديث، فالمواريث صعبة بس تحتاج منك تركيز.

انظر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني من لطفه ورحمته وحكمته كيف يخاطبنا، اسمع قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11]؛ لما تسمع أنت كلمة يوصيكم الله هذا عهد من الله ووصية، يعني الأمر يحتاج إلى اهتمام، يحتاج إلى عناية.

لما يقول الله يوصيك الله بهذه هذه وصية من الله حتى في الموارد يقول ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 11]؛ وصية من الله يعني أن احتاج الأمر إلى أن يأخذ عناية يأخذ اهتمام .

كيف ولذلك قال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: 11]؛ إذا مات الإنسان وترك أولاده ذكورًا وإناثًا كيف يتقاسمون المال؟ قال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11].

الآن أحيانًا يموت الرجل وعنده أبناء وعنده بنات وليس هناك غيرهم.

- كيف نقسم المال؟

نقسم للذكر مثل حظ الأنثيين؛ إذا أعطينا البنت سهمًا نعطي الابن سهمين، هذا معناه.

يأتيك عاد اللي هي المواريث والتركات التي تركها الميت خلفه هذه تجمع وتقسم بهذه الطريقة، فإذا كان الميت له أولاد ذكورًا وإناثًا بهذه الطريقة، لو فرضنا أنهم ذكور كلهم ما في بنات نعطي كل واحد سهمًا خلاص، كل واحد برأسه، تعال برأسك نعطيك سهم سهم سهم سهم؛ افرض أنهم أربعة، أربعة أبناء نقسم المال على أربعة كل واحد يأخذ الربع وينتهي الأمر، هذا ما لا إشكال فيه.

الآن إذا كانوا بنات، إذا توفي الرجل هذا وليس عنده أبناء ما في أبناء كلهم بنات، هذه التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال، انظر قال: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ [النساء: 11].

- يعني مات واحد وترك بنتًا واحدة نقول: هذه البنت لها النصف، والنصف الثاني وين يروح؟

الجواب: نبحث عن أقرب وارث يأخذه، أقرب وارث؛ قد يكون له أخت الميت، وقد يكون له إخوة، وقد يكون له أعمام، قد يكون له آباء، هذا موضوع آخر.

لكن هي البنت الآن موجودة عنده ما عندها إلا بنت واحدة نقول: يا بنت تعالي خذي النصف وهذا حقك لأن الله قال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ [النساء: 11].

- إن كانت أكثر من واحدة؛ اثنتين، ثلاث، أربع، افرض عشر بنات؟

الجواب: لكم جميعًا الثلثان، الثلثين، ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء: 11].

- قد يأتيك شخص يقول لك: الله يقول ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: 11] ما قال اثنتين!

الجواب: الله عَزَّ وَجَلَّ قال لو قال اثنتين لفهمنا أن اثنتين بس، لما كان ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: 11] دخل كل البنات هذه يعني بلاغة القرآن لما قال ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ [النساء: 11] عرفنا الاثنتين يدخلون، لأنه قال ﴿وَاحِدَةً﴾ [النساء: 11]؛ إذا واحدة طلعت في النصف إذًا يبقى الثانية وين تروح؟ نقول هي الثانية فما فوق.

انظر تعبير القرآن لما قال فوق اثنين، لو قال القرآن مثلًا إن كانت واحدة فإن لها النصف وإن كانت اثنتين فلهما الثلثان، طيب والثلاث والأربع وين راحوا؟ قال لا، أتاك بعبارة يدخل فيها الجميع قال: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ [النساء: 11].

نأتي بالمال والميراث ونقول للبنات: أنتم كم؟ قالوا: احنا والله سبع بنات، نقول: تعالوا السبع لكم الثلثان، الثلثين، والثلث يبقى نبحث عن من يرث، أنتم الله أعطاكم الثلثين تقسموه بينكم كل واحدة تأخذ سهمها، كل واحدة تأخذ سهمها.

هؤلاء هم الأبناء انتهوا، هم الأولاد كلهم، الأبناء والبنات وإن نزلوا، وإن نزلوا، وإن كانوا أبناء أبناء أبناء أبناء؛ القريب يحجب البعيد، كل من قرب حجب من تحته، يعني لو فيه أبناء الصلب يسمون أبناء مباشرة، تحتهم أبناء أبناء؛ يعني هذا الرجل وعنده أبناء، وهذا الأبناء عندهم أبناء وعندهم أبناء، يعني وهو جد مثلًا؛ أبناء الأبناء لا يدخلون ما دام موجودين الأبناء، إذا عُدِموا طبقة دخلوا من تحتهم في مكانهم.

هذا يعني يسمونه الدرجات، ويسمونه من قرب يحجب من بعُد من بعُد من بعُد، وفي تفاصيل يعني في أبناء البنات وأبناء وأبناء الأبناء ونحوهم هذه فيها تفاصيل في كتب الفقه، انتهى.

ثم قال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ [النساء: 11] يعني الآن انتقل إلى الأصول، إلى الآباء؛ قال هذا الميت إن كان عنده آباء مثلًا، هذا الرجل توفي وعنده أب وعنده أم كيف يرثون؟ كيف يرثون؟ قال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: 11].

- الأب يأخذ السدس والأم تأخذ السدس متى؟

قال: إذا كان عنده أبناء، إذا كان قال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: 11]، أي الميت إن كان له ولد يعني عنده أولاد يرثون نعطي الأب والأم السدس.

- إذا ما عنده أولاد؟

الآن يأتيك، قال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: 11]، انظر القرآن واضح جدًا نقرأه ونفهمه، قال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ [النساء: 11]. ما في أبناء عنده، توفي هذا الشاب، حصل قدر الله عليه وفاة وتوفي عند أمه وأبوه، ما عندها أبناء ما تزوج ولا عنده زوجة، نقول للأم: لكِ الثلث، المال ثلث المال لكِ الأم، طيب والباقي؟ قال: الباقي للأب، لأن الأب يأخذ ما تبقى .

يعني إذا كانت الأم تأخذ الثلث فإحنا عرفنا قاعدة للذكر مثل حظ الأنثيين، فإذا هي أخذت الثلث الأم، الثلثين للأب، هذه قاعدة القرآن قاعدة المواريث. يقول: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ [النساء: 11]، يعني الميت هذا الميت ما له أولاد ما عنده أولاد، شاب توفي ما عنده أولاد، إن كان له إخوة فوجود الإخوة يحولون الأم إلى السدس لأنهم يرثون أو لا يرثون المهم إخوة، فإن لها السدس.

قال: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ [النساء: 11]. هذا ميراث الآباء، الآباء والأمهات أوجزه الله بجملتين فقط، يقول لك هؤلاء الآباء إذا توفي ابنهم توفي الابن أو البنت كيف يرثون؟

قال: نعطي كل واحد منهم السدس إن كان المتوفى هذا له أبناء، إذا لم يوجد له أبناء نعطي الأم الثلث والثلثين للأب، إن كان له إخوة توفي وعنده إخوة أو أخوات فنعطيها السدس لأن الإخوة والأخوات قد يدخلون الميراث فينقصون الأم يجعلون الأم تنزل من الثلث إلى السدس.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا التقسيم، تقسيم الميراث متى يحصل؟ قال: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: 11]. يقول: لا تقسمون الميراث مباشرة، أول شيء نفذ الديون نستخرجها والوصايا. الميت قد يوصي، قد يوصي بالسدس، يوصي بالربع، يوصي بالثلث، إذا كتب وصيته قال: **"أوصي بثلث مالي من بعد موتي أن يصرف في كذا وكذا وكذا"**.

لابد أن ترتب أمورك، خاصة إذا بلغت سنًا ترتب أمورك، تكتب كل شيء؛ إذا عليك ديون، عليك ديون عند أناس تسجلها عندك أوراق لا تضيعها، أو لك ديون عند أناس؛ لك ديون أنت سلفت أناس مبالغ مالية تسجلها حتى تعرف ما الذي لك وما الذي عليك.

هذه ديون تنفذ قبل قسمة الميراث، قبل أن نعطي أي واحد من الورثة ريالًا واحدًا نقول: اصبر، الديون تسدد حقوق الناس. أحيانًا حقوق لله عليه؛ عليه مثلًا دية، عليه مثلًا كفارات، هذه حقوق الله لابد أن نخرجها، فحقوق الله الديون وحقوق الآدميين نبدأ نعطي الناس ديونهم نستخرجها .

ثم الوصية بعد الدين، الوصية تبرع من الميت؛ بعدما يعطي الديون ديون واجبة ننتقل إلى الوصية. نقول تعالوا أيها الورثة أبوكم أوصى بوصية نفذوا الوصية. كم الميراث؟

قال: والله الميراث ثلاثة ملايين، نقول لحظة، هو يقول ثلث مالي، إذًا مليون هذا وصية طلعه برا، نستخرجه برا ونبدأ بما تبقى نقسم عليه، لكن أنت لاحظ في القرآن ماذا يقول: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: 11]، قدم الوصية مع أن الدين أهم، ليش؟ قال: لأن الوصية قدمت لأن كثيرًا من الورثة إذا مات الميت ما ينفذ الوصية، يتساهلون.

يقول: **"وصية بعدين مو ضرورية نشوف خلينا الآن نخلص أمورنا"**، فيبدؤون يشتغلون بهذه الأمور ويتركون الوصية، فالله أكد عليها قال أولًا وصية مع أنها في الواقع الوصية بعد الدين.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: 11].

- ما تدري الذي ينفعك آباؤك ولا أبناؤك؟

أنت ما تدري ولذلك الذي تولى القسمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما تركها لأحد، لو القسمة لك أنت كان تقول: **"والله أعطي أبنائي أكثر من آبائي، أو أعطي الآباء أكثر يا أخي أمي وأبوي أحوج أعطيهم أكثر"**، أو يقول لك: **"والله أولادي كثيرين ومحتاجين ويحتاجون نفقات ويحتاجون زواج أعطيهم أكثر"**.

قال الله: لا لا، أنت ما تدري الآباء والأبناء أيهم أنفع لك أنت، ولذلك الله هو الذي تولى الأمر فقسم القسمة من عند حكيم عليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فيقول: ﴿لَا تَدْرُونَ﴾ [النساء: 11] الآباء أو الأبناء، الآباء أو الأبناء ما تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا.

ثم قال: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 11]، أي هذه القسمة فرض فرضها الله، يعني ليس باختيارك؛ والله أنا بعطي البنت الثلث ولا أعطيها النصف، أيش رأيكم نتفق على نعطيها ثلث ولا ثلثين؟ لا ليس باختيارك، هذه فريضة فرضها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

قال خلاص هذا حقه كذا، وهذا حقه كذا، وهذا حقه ما نغير ولا نبدل. ولو اتفق الورثة ما نغير، لو اتفق الورثة قالوا: **"نعطي الأم النصف"**، نقول: لا، أعطوها السدس، وإذا تريدون أن تزيدونها هذا باتفاق منكم، لكن تعطونها ما أعطاها الله لا تخرج عن ما فرضه الله.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 11]؛ أي عليمًا بأحوال الناس وبما ينفعهم وبما يضرهم، ولذلك قسم هذه القسمة العجيبة، قال: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 11]؛ عليم بأحوال الناس، وعليم بأموالهم وبفرائضهم وما يحتاجون إليه، وحكيم في تدبيره في شرعه، لا يفرض هذا الفرض إلا بحكمة، ولا يعطي هذا إلا بحكمة.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى بقية المواريث من هو؟ قال: بقي الزوج، وبقيت الزوجة، وبقي بعض الإخوة كيف يرثون؟

هذه يأتي الكلام عنها، لا نريد الإطالة وإن الحديث حقيقة شيق ومهم، وكثير من الناس ما يعرفون أحكام المواريث، ما يعرفونها؛ تجده يصل سن الستين وفوق الستين ما يدري كم لأبنائه، ولا يدري كم لبناته، ولا يدري ما يعرفون.

وتجد الرجل يعني صاحب البيت يفاجأ بوفاة، ويتوفى هذا الرجل في البيت أو هذه الأم وعندها ميراث، ثم يأتون الأبناء ما يعرفون.

ومن الأخطاء الفادحة المنتشرة الآن والتي لا ينبغي أن تنتشر وأن تظهر ترك الميراث سنوات طويلة؛ ترك الميراث سنوات طويلة، توفي عنده عقارات، عنده شيء، يؤجر شيء، قد تؤجر، اقسموا الميراث، قالوا: **"لا لا تقسمونه، هذا فيه ريع وفيه إيجارات نوزعها على الورثة"**، نقول: لا، الله سبحانه أحكم الحاكمين أقسم الميراث وأعطِ كل ذي حق واتركه.

إذا أنت تركت قلت: **"نقسم بعدين"**، وبعد سنوات، لذلك تسمع تشوف نسمع أسر بعض الأسر الرجل توفى له أكثر من عشر سنوات وما زال الميراث لم يقسم، وهذه يترتب عليها قضايا ومرافعات، المحاكم؛ وين حقي؟ والبنت تقول وين حقي؟ وكل واحد يقول وين حقي؟

فاقسم بقسمة الله بمجرد الوفاة وانتهى، رَحِمَهُ اللهُ عليه، نفذوا ما أراده الميت وادعوا له بالرحمة، وبعد ذلك هذا الميراث الذي انتقل إليكم اقسموه بقسمة الله وعجلوا فيه.

أما التأخير تضييع الوقت وهذه أراضٍ نريد ننتظر أن ترتفع أسعارها وهذا كذا وهذا كذا، في ناس محتاجين من الأبناء والبنات قد تقول البنت: **"والله أنا بحاجة أعطوني حقي"**، فتظلم الناس ويدعون عليك بطريقة بهذه الطريقة، هذه طريقة خاطئة مع الأسف أنها انتشرت في كثير من البيوت.

نسمع بعضهم والله الآن إلى ثلاثين سنة الرجل متوفي ثلاثين سنة وخمس وثلاثين سنة وأكثر ولا زالت عقارات موجودة وكذا وأصبحت يعني مشاكل ومنازعات بين الورثة، كل واحد يقول أنا أعطيني حقي ويشتكي الابن أو يشتكي الوارث أخوه، وهذه والأخت تطالب بحقها من أخيها وترفع قضايا، وهذا من الأخطاء التي ينبغي التنبه لها.

وحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قسمة الميراث حكمة عظيمة. أسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا وبما قلنا وينفعنا جميعًا، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(83)
(النساء 12 - 14)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، أصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

اللهم نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في لقائنا في مثل هذا اليوم في مغرب الأربعاء، في لقاء القرآن الكريم وتفسير القرآن الكريم.

هذا اليوم هو اليوم التاسع من شهر ربيع الأول من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة. السورة التي بين أيدينا وتناولنا شيئاً منها هي سورة النساء؛ حقيقة سورة النساء كما ذكرنا في لقاءاتنا الماضية هي حديث عن النساء وعن حقوق المرأة، وعن حقوق الضعفاء أيضاً كاليتامى والولدان ونحو ذلك.

بدأت بحقوق اليتامى وما أوجب الله تجاه اليتامى وفصلت في ذلك، ثم تحدثت لما تحدثت عن أموال اليتامى تحدثت عن الأموال التي يتركها الأموات وهي ما تسمى بالتركات أو بالمواريث أو بالفرائض في علم الفرائض.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تولى قسمة الفرائض، لم يكِل ذلك الأمر لا إلى نبي ولا إلى أحد من خلقه، وإنما تولى قسمتها بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولذلك تلاحظ في آيات الفرائض يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 11]، عليماً بأحوال الناس.

والذي يصلح لهم، وحكيماً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قسمة هذه المواريث. المواريث وعلم الميراث وعلم الفرائض هذا علم يحتاج الناس له جميعاً؛ إذا توفي هذا الرجل أو توفيت هذه المرأة، المال الذي يتركه هذا الإنسان كيف يقسَّم؟ كيف يأخذه الورثة؟

هذا ما فصله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. والعجيب أن علم الفرائض جمعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ثلاث آيات في جميع القرآن؛ ما تجد أي آية تتحدث عن الفرائض إلا هذه الآيات الثلاثة، جمع الله فيها جميع الفرائض في سورة النساء: الآية الحادية عشرة، والثانية عشرة، وآخر آية من السورة ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: 176]؛ هذه كل الفرائض مع السنة التي جاءت بتفصيل ما جاء في القرآن.

ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات الثلاث أولاً الفرائض المتعلقة بالفروع، وهم الأولاد ذكوراً كانوا وإناثاً؛ إذا مات الرجل ترك أولاده ذكوراً كانوا أو إناثاً كيف يقسم المال؟ قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11].

إذا كانوا كلهم ذكوراً؟ إذا كانوا كلهم إناثاً؟ إن كان ذكراً واحداً؟ إذا كانت أنثى واحدة كم تأخذ؟ كم نصيبها؟ قال الأنثى لها النصف، والنصف الثاني من يأخذه؟ يعني تحتاج إلى تفاصيل وإلى بيانات ذكرها الله سبحانه وأجملها وفصل فيها أشياء تفصيلاً دقيقاً. هؤلاء الأهل.

لو فرضنا أن هذا الميت ما عنده أولاد مباشرة يسمون أولاد الصلب مباشرة الطبقة الأولى، عنده أولاد الأولاد كيف يرثون؟ وهل أولاد البنات يرثون أو لا يرثون؟ فهذه تفاصيل ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبينها في الآية الأولى مع ذكر ماذا يسمون بالأصول وهم الآباء.

الآباء والأجداد كيف يرث الأب إذا مات الميت عن أبيه؟ ترك أباه أو ترك أمه كيف ترث الأم؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فصل في ذلك وبين أن الأم تأخذ الثلث تارة وتأخذ السدس تارة؛ هذه تفاصيل كلها تكلمنا عنها تحدثنا عنها.

الآن ننتقل للآية التي بعدها وهي الآية الثانية عشرة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: 12].

الآن عندنا العلاقات التي في المواريث هي على قسمين:

العلاقة الأولي: علاقة النسب أو الرحم، وهم الأبناء والآباء والإخوة يسمون الحواشي المحيطين، الإخوة هذه تسمى علاقة النسب.

العلاقة الثانية: علاقة المصاهرة وهي الزوج والزوجة؛ إذا مات عن زوجته كم تأخذ؟ وهو إذا ماتت زوجته عنه كم يأخذ؟ هذه ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: 12] أي الأزواج، هذه قسمة عادلة قسمة حكيمة، إذا ماتت المرأة عن زوجها فإن له النصف إذا لم يكن للميتة هذه المرأة ولد.

لم يكن لها ولد، لم يكن لها فرع وارث؛ لكن ليس لها أولاد ولا أولاد أولاد ولا أولاد أولاد ما فيه، فإن الزوج يأخذ النصف كما نص القرآن على ذلك قال ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ [النساء: 12].

ولا يلزم هذا الولد أن يكون للزوج؛ قد يكون ولد من زوج قبل ذلك، المهم أنها عندها أولاد سواء من هذا الزوج أو من زوج سابق، مادام أن عندها أولاد فإن الزوج ليس له إلا الربع.

- لو كانوا هؤلاء عندها أولاد لكن ماتوا؟ يعني سابقاً كان عندها أولاد لكنهم ماتوا، هل نعطي الزوج النصف ولا نقول مادام عندها أولاد وقد ولدت أولاد سابقين ليس له النصف؟

الجواب: لا نحن نحكم حكمنا على وقت الوفاة، على وقت حصول هذا الميراث؛ فننظر أولادها ماتوا خلاص في حكم العدم، فنحكم بوجودهم لأنهم لهم تأثير في الميراث لهم شيء منه؟ فنقول هذا الزوج يأخذ النصف إذا لم يوجد فرع وارث حي.

قال ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ﴾ [النساء: 12] أيها الأزواج؛ يأخذ الزوج ربع الميراث من زوجته إذا كان عندها أولاد منه أو من غيره، قال ﴿مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: 12]؛ يعني هذا الميراث لا يقسم في حكم الله إلا بعد تنفيذ أمرين مهمين.

الأمر الأول الديون حقوق الله، قد يكون الدين دين لله؛ حقوق في ذمة هذا الميت، وحقوق الآدميين كالديون ونحوه والأسلاف والقروض، والوصايا.

فلابد من تنفيذ الديون والوصايا والديون مقدمة على الوصايا؛ يعني لو فرضنا أن هذا الميت ما عنده إلا مال قليل لا يكفي إلا سداد هذه الديون، تسقط الوصية ويسقط الميراث ما في ميراث خلاص ولا في وصية. لكن العجيب أن القرآن قدم الوصية في الآيات كلها قدم وصية، قال ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: 12] يعني النساء المرأة الزوجة يوصين بها أو دين؛ يعني الوصية في الآية مقدمة والدين بعدها، مع أن الواقع والحكم الشرعي الدين مقدم.

نقول الحكمة لأن الوصية ليس وراءها من يتابع؛ فإذا مات الميت من ينفذ وصيته؟ ما في إلا الورثة الذين يرثون، إن كان فيهم خير نفذوها وإن لم يكن فيهم خير لم ينفذوها؛ ولذلك قدمها الله حتى لا يتساهل في تنفيذها، وإلا الأصل الديون مقدمة لا تبرأ ذمة الميت إلا بعدما يقضى عنه دينه.

والديون خطيرة، تجد بعض الناس يتساهل فيها؛ يروح يغير السيارة عنده سيارة صالحة للاستعمال يستدين ويغير السيارة، ويغير أثاث ويغير أشياء كثيرة ويضع هذه كلها ديون على ظهره، ثم يقدر الله عليه وفاته وهذه الديون من يفكها منه؟

إذا لم يكن هناك أولاد صالحين محسنين سيقع في أشياء. وحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أُتي برجل كان عليه دين ديناران فقط فقال النبي سأل عنه النبي، قالوا عليه ديناران، فقال النبي **«صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ»**.

فجاء أبو قتادة فقال: يا رسول الله عليَّ أن أسددها. فقال: إذاً نصلي، فصلى. فلما رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبا قتادة بعد أيام قال: **«يَا أَبَا قَتَادَةَ مَا صَنَعَ الدِّينَارَانِ؟ مَا صَنَعَ الدِّينَارَانِ؟»**.

فلما رآه مرة أخرى قال: يا رسول الله قد قضيتُ الدين، فقال: **«الآنَ بَرَدَتْ جِلْدَتُهُ فِي قَبْرِهِ»**، وهو صحابي جليل. فكثير من الناس يتساهل ويضع على ظهره ديون لا حاجة لها؛ غير السيارة غير الأثاث غير كذا، وأنت غني.

الإنسان لا ينام ليلة واحدة وعلى ظهره دين لأحد من البشر؛ البشر ما يتساهلون ما يتسامحون، حقوق الآدميين مبنية على ما يتنازل، تظن أن هذا الرجل إذا جاء يوم القيامة سيتسامح؟ ولا مثقال ذرة يسمح لك، حقوق الله مبنية على المسامحة؛ لو كان حقاً لله الله يعفو عنه، الإنسان ما يعفو لا تظن أن هؤلاء يعفون عنك ولا مقدار مثقال ذرة، فينتبه لهذه النقطة المهمة.

طيب قال ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ [النساء: 12] أي النساء.

يعني إذا مات الرجل عن زوجته وليس عنده ذرية، ما عنده ذرية لا من الزوجة ولا من غيرها، فإن نصيب الزوجة الربع؛ ﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ﴾ [النساء: 12].

- لو فرضنا أن هذا الرجل عنده زوجة ثانية أو ثالثة عنده أربع زوجات، كل واحدة نعطيها ثمن؟ ولا نقول يشتركن جميعاً في الثمن؟

الجواب: لا ليس لهن إلا الثمن، واحدة أو أربع ليس لهن إلا الثمن. قال ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: 12]؛ انظر كيف تأكيد توصون بها أيها الأزواج ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: 12] فقدم الوصية كما ذكرنا أو دين.

هذا حكم الأزواج؛ الزوجة مع زوجها كيف ترث؟ والزوج كيف يرث من زوجته إذا ماتت؟ هذا حكم الأزواج وقلنا العلاقة المصاهرة، الآن تنتقل الآيات بعدما ذكرت لنا الفروع والأصول الآن نأتي لما يسمى بالحواشي وهم الذين يحيطون بالميت من الإخوة.

الإخوة والأخوات على ثلاثة أقسام:

- القسم الأول: إخوة أشقاء من أم وأب، إخوة أشقاء وأخوات شقيقات.
- القسم الثاني: إخوة من أب وأخوات من أب.
- القسم الثالث: إخوة من أم وأخوات من أم؛ ثلاث أقسام، وهذه الأقسام الثلاثة ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ذكر الإخوة لأم كيف الإخوة لأم؟ يعني هو أخوك لكن أباه غير، يعني هو أخوك من أمك وأبوه رجل آخر.

هذا أنت لو توفي هذا الرجل وعنده أخ من أمه جاء من جهة أمه، هذا نسميهم أولاد الأم في الفرائض؛ يسمون أولاد الأم أو الإخوة لأم.

الإخوة الأشقاء والإخوة لأب ذكرهم الله في آخر السورة، إذاً ليس لنا حديث معهم الآن لأنهم في آخر السورة، عندنا الآن الإخوة قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ﴾ [النساء: 12]؛ رجل يعني مات الرجل وترثه كلالة، أو هو يورث على طريقة الكلالة.

- ما المراد بالكلالة؟

يقول عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: **"لا زلت أسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الكلالة عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري وقال: يَا عُمَرُ تَكْفِيكَ آيَةُ الصَّيْفِ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ النِّسَاءِ"**.

عمر يريد أن يصل إلى معنى الكلالة، ما هي الكلالة؟ أبو بكر الصديق رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه قال في الكلالة **"هي من لا والد له ولا ولد"**؛ يعني مات شخص وأبواه قد ماتوا وليس له ذرية، ما تزوج وليس له لا ذرية ليس له فروع ولا أصول؛ هذا أيش نسميه؟ نسميه كلالة. هذه الكلالة الآن سواء ذكراً أو أنثى، سواء بنت حرمة امرأة أو رجل مثل ما ذكر الله قال ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ﴾ [النساء: 12]. هذا إن كان عنده زوجة مثلاً هذا الرجل مات عنده زوجة.

نعطي الزوجة حقها كم نعطيها؟ نعطي الزوجة الربع ليش؟ ما عنده فرع وارث، خذي الربع توكلي على الله، الكلالة كيف يأخذ الكلالة؟ هم الإخوة كيف يرثون؟

اسمع ماذا قال الله قال ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: 12]؛ يعني مات هذا الرجل وله أخت من أمه نقول الأخت هذه واحدة تعالي خذي السدس، هذا السدس الله يقول السدس خذي السدس، له أخ من أمه نقول تعال أيها الأخ من الأم، هذا أخوك مات وأنت أخوه من أمه خذ السدس.

وهذا إذا كان واحداً، فإن كانوا أكثر من ذلك؟ ليسوا.. يعني اثنين كانوا اثنين فأكثر؟ قال ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ [النساء: 12]؛ شركاء في الثلث، يعني إذا كانوا اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة كلهم يأتون ويأخذون الثلث.

متى يرثون؟ هذه لها ضوابط لها شروط؛ يرثون متى؟ أو هو يرث الواحد منه متى يرث؟ إذا لم يكن للميت فروع وارثة ما فيه أولاد له، ما عنده أولاد، وليس له أب ذكر؛ أما الأم لا ما تأثر، يعني لو مات هذا الرجل عشان نعرف القسمة، مات هذا الرجل عنده زوجة وعنده أمه وعنده إخوة لأم؛ نقول للزوجة ميراثك الربع ما في أولاد، نقول للأم ميراثك مثل ما تقدم السدس لوجود هؤلاء الإخوة.

لكن لو كان أخاً واحداً نقول للأم خذي الثلث، ونقول لهذا الأخ خذ السدس؛ وإن كانوا أكثر نعطيهم الثلث والأم نعطيها السدس عكس.

قال هنا ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ [النساء: 12]؛ انظر كلمة شركاء ماذا نستفيد منها؟ أنهم سواسية ليس الذكر كالأنثى، شفت جميع الذكور والإناث في باب الفرائض الذكر يأخذ أكثر من الأنثى؛ ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11]، إلا هؤلاء الإخوة للأم فهم سواسية؛ يأخذون الثلث ويقسمون ويقسَّم عليهم بالسواسية على رؤوسهم، ثلاثة يقسم ثلاثة أربعة يقسم أربعة وهكذا؛ هذا حكم الله ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ [النساء: 12].

- يأتينا الآن سائل ويسأل يقول: ليش أنت جعلت هذه الآية في الإخوة لأم؟ أيش الدليل؟ أنت قلت الآن اللي في آخر السورة إنهم الأشقاء والإخوة لأب، هذه الإخوة لأم كيف عرفنا؟

الجواب: هناك قراءة سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه قرأ ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ من أم؛ هكذا جاء تفسيرها وقراءتها عند الصحابة، قراءة من الصحابة وتفسير الصحابة أنه بهذا الحكم أنه من أم.

قال الله بعدها ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء: 12]، يُوصَى انظر لاحظ ما قال يُوصِي في الأول قال يُوصِي هنا قال يُوصَى بها؛ لأنه ماذا قال؟ ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ﴾ نائب

فاعل، رجل يورث قال يوصى؛ لأنه ما قال يرث حتى يقال يوصي، وما يتحدث عن رجل معين قال رجل يورث كلالة إذاً يوصى، ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: 12].

- قيَّد الدين كيف دين غير مضار؟

يعني هذه الوصية أولاً لابد أن تكون وصية لا تضر الورثة؛ بعض الناس يوصي بنصف ماله، هذه لا تنفذ الوصية ولا تجوز.

☜النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ»**؛ ولذلك أحب أو استحب أهل العلم أن تكون الوصية أقل من الثلث، الربع أو السدس أو الخمس، لا تكون كثيرة؛ **«إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»**. تعطي البعيد وتترك القريب، فكذلك أيضاً الديون؛ يعني ﴿غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء: 12] أي لا تضر به أصحاب الديون تعطيهم حقوقهم. قال ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 12].

- ما هي؟

هذه التي بينها الله لكم في الفرائض، وهذه القسمة العظيمة البينة الجليلة، هذه وصية من الله لكم أيها الناس فخذوا بوصيته. ودائماً الوصايا والوصية هي العهود المؤكدة، العهد المؤكد الذي فيه مصلحة للجميع؛ أنا لا أوصيك إلا بشيء ينفعك، فالله يوصينا بأشياء تنفعنا.

ولذلك قال ﴿وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 12] أي أوصيناكم وصية من الله، والله عليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. عليم حليم؛ انظر عليم بما يصلح العباد، وحليم بأنه لا يعاقب من يتلاعب في المواريث ويتلاعب في الوصايا ويتلاعب في الديون؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حليم لا يعاجله بالعقوبة.،

قال الله ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [النساء: 13] أي ما ذكرتُ لكم من قسمة الفرائض هي حدود الله، ثم رتب عليها ماذا قال؟ ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: 13].

يقول هذه أحكام الفرائض وهذه قسمة الله في الأموات، فمن أخذ بها وأطاع الله ورسوله في ذلك، وأطاع الله في هذه الحدود وغيرها يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم؛ وعد من الله لمن أخذ بحدود الله وتمسك بشرائعه.

- ومن خالف وعصى؟

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ ناراً خالِداً فِيها وَلَهُ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: 14]؛ يخرج عن طاعة الله وعن حدوده وفرائضه التي فرضها يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين.

- ليش قال مهين؟ ليش ما قال أليم ولا عظيم؟

قال لأنه لما أهان شرع الله واستهان به وتساهل به وعارضه، أهانه بالعذاب أهانه الله بالعذاب.

الحقيقة آيات الفرائض مع أن الله أجملها تحتاج إلى دراسة، تحتاج إلى بسط، تحتاج إلى كلام طويل؛ وكلنا محتاج نحتاج إلى هذا الأمر. هذا من وجه، ومن وجه آخر أنك تجد كثيراً من الناس يتساهلون في قسمة المواريث.،

تجد هذا الشخص يموت وتمضي عليه سنين طويلة، بعضهم سمعت والله سمعت عند بعضهم وصل إلى أربعين سنة ما قُسمت؛ ومات الورثة، مات منهم أشخاص، فلماذا يعني يضيع حقوق الناس، وتجد الوكيل الذي يتوكل على هذا يقول: **"أنا أرى المصلحة هي أن تبقى وفي هذه العقارات تبقى وهذه تبقى"**، ويضيع حقوق الورثة.

أعطِ كل ذي حق حقه واقسم قسمة الله واخلص الأمر لهم، ونفذ ما أمر الله لك بهذا واترك عنك المصالح الدنيوية على حساب أناس لهم حقوق؛ قد لا يسامحونك وقد لا يعفون عنك.

فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يفقهنا في دينه، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح إلى لقاء قادم بإذن الله، أسأل الله أن يبارك لنا ولكم وينفعنا وينفعكم جميعاً؛ والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(84)
(النساء 15 - 21)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين، أيها الإخوة أيها الإخوة الفضلاء، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حيَّاكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو اليوم السادس عشر من شهر ربيع الأول من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، مجلسنا المعتاد مع القرآن الكريم.

نقرأ آيات من كتاب الله، ونتأملها ونتدبرها، ونفهم ما فيها من توجيهات؛ إما ترغيب في عمل صالح، أو ترهيب من عمل سيء، كل ذلك فيه مصلحة وتوجيه ومواعظ من القرآن الكريم، كلام رب العالمين.

الحقيقة أن تلاحظ أن كثيرًا من الناس ممن وفقه الله لقراءة القرآن وفتح الله عليه في تلاوة كتاب الله وختم القرآن؛ تجد من الناس من يختم كل ثلاثة أيام أو خمسة أيام أو سبعة أو يزيد على ذلك مما أن يوفق لحب القرآن ومصاحبة القرآن، لكن الذي ينبغي للإنسان أيضًا فوق ذلك كله أن يفهم ما يقرأ، وأن يتدبر ما يقرأ.

ولذلك تلاحظ في القرآن الكريم الله يأمر بالتدبر في آيات كثير، ما تجد في القرآن يقول لك يعني يأمرك بالقراءة تصريحًا هكذا إلا بالتدبر، لماذا؟ لأن الصحابة أول شيء أنهم يقرأون القرآن، ثانيًا أنهم يفهمون عربٌ خلصٌ يفهمون، لكن الكلام على التدبر والعمل.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]، يعني هل انغلقت القلوب ما تفهم الكلام؟

انغلقت، فإذا مررت على آية ثم لا تتدبرها ولا تفهمها، فقف عند هذه الآية، يعني إما أن تتدبر وإلا في قلبك شيء من غلق، فالإنسان يتدبر، يتأمل، يفهم القرآن الكريم.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، يعني أنزلنا القرآن لتبين محمد لهم هذا القرآن، توضح لهم، وهم يتفكرون فيه، أما قراءة هكذا سريعة؛ متى تنتهي السورة ومتى تنتهي الختمة؟ هذا ليس منهجًا صحيحًا.

الآيات التي نريد أن نقرأها ونتدبرها هذا اليوم، في آيات ماضية الأسبوع الماضي واللي قبله كانت آيات تتحدث عن المواريث، وعن قسمة المواريث، وأن الله هو الذي تولى القسمة قال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 7]، ثم بين الفرائض؛ الربع والنصف والسدس والثلثين، كلها بينها.

نفس بني آدم، في بعض الناس نفسٌ ضعيفة، لما يأتيه المال ما يحسن التصرف فيه، وأحيانًا قد يطغى بهذا المال، قد يسرف بهذا المال، قد يرتكب المحرمات، يرتكب السيئات، ولذلك أنت لما تقرأ هذه الآيات التي تتحدث عن الوصايا ثم بعدها تأتي آية اسمع ماذا يقول الله فيها: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: 15]، ثم يقول بعدها: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا﴾ [النساء: 16].

- الحديث عن الفاحشة، فاحشة الزنا، أيش علاقتها بالمواريث والمال؟

الجواب: مثل ما ذكرنا النفس ضعيفة، أحيانًا في بعض ضعفاء النفوس لما يحصل على مال كبير تطغى نفسه، يسرف، يبعد عن الطريق المستقيم، ويقع في المحرمات.

ومن هذه المحرمات التي يحذر الله منها، وهي التي يعني تسيء إلى نفس الإنسان وإلى عرضه وإلى أسرته وإلى قبيلته؛ فاحشة الزنا التي حرمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سائر الشرائع، ما في شريعة من الشرائع إلا والزنا محرم فيها، وهو من كبائر الذنوب، قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32].

هنا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ﴾ [النساء: 15]، يعني النساء يأتين الفاحشة من نسائكم.

- ما حكم الشرع إذا وقعت هذه المرأة في الفاحشة وزين لها الشيطان عملها ووقعت في هذه الفاحشة؟

قال: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: 15]، يعني اطلبوا أربع شهداء. طيب سائر يعني كثير من الأمور شاهدين فقط من أمور الشريعة، يعني ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: 2] في كثير من القضايا إلا الزنا أربعة، إلا الزنا أربعة؛ ليش؟

لأن الله يريد الستر، الستر على الأسر، ما في أربعة ما تقيم الحد، في أربعة يصرحون ويشهدون شاهد عيان أنه رأى هذه المرأة تفعل كذا وكذا أو هذا الرجل يفعل كذا وكذا، وإلا ادرؤوا الحدود بالشبهات وأبعدوا عنها ولا تتكلم، ولذلك يأتي ثلاثة شهود أو شاهدان ويرفعون **"نحن نشهد أن فلان فلان"** يقام عليهم الحد حد القذف، ما معك أربعة ما في أربعة ما يقام.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا قال: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 15]، فإن شهدوا شهادة صريحة، الحكم: فامسكوهن في البيوت، أمسكوا المرأة في البيت لا تخرج حتى يتوفاهن الموت، حتى تموت، أو يجعل الله لها سبيلاً.

- ما هو السبيل؟

الآن يأتيك السبيل يتضح لك، ثم قال: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 16]، واللذان اثنان الرجل والمرأة يأتيانها منكم فآذوهما، الإيذاء بالسب والشتم والضرب بالنعال وبالسوط وبنحو ذلك أي شيء، فإن تاب وأصلح فإعرض عنه، إذا تاب هذا الرجل وأقلع وأصلح الواجب عليك أن تعرض عنه خلاص، تاب الله عليه إن الله كان توابًا رحيمًا.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول هنا: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 15]، ما هو السبيل؟ أنت لما تقرأ هذه الآية كثير من الناس يقرأها يمكن نادر من يقف يقول شلون حكم الله في المرأة الزانية أو الرجل الزاني؟

- ما هو حكم الله هنا؟

يقول: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ [النساء: 15]، احبسوهن في البيت، تحبس المرأة حتى تموت، ثم قال بعدها: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 15].

- ما هو السبيل؟

لما نرجع إلى تفسير الآية عند أهل العلم وتفسير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والذي هو فوق كل تفسير.

☜النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَد جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً، الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ، وَالبِكْرُ بِالبِكْرِ جَلدُ مِائَةٍ»**. إذا قوله تعالى هنا: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 15]، السبيل هو الذي بينه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يبين لك أن القرآن لا يؤخذ هكذا وحده؛ تأخذ القرآن والسنة توضحه.

☜فالسنة جاءت في حديث عبادة بن الصامت **«خُذُوا عَنِّي، قَد جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً»**.

- ما هو السبيل؟

☜ قال: **«الثَّيِّبُ بِالثَّيِّبِ»**؛ الرجل الثيب يعني المرأة المتزوجة أو الرجل المتزوج، يعني سبق له الزواج وأنعم الله عليه بالنكاح، فإذا وقع في فاحشة الزنا يرجم حتى الموت، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجم الرجل الذي جاءه يقول **"إنني زنيت"** ورجم المرأة رجم، فهذا حكم الله.

إذا لم تكن سبق عليه لها الزواج أو هذا الشاب لم يسبق له الزواج فحكم الله كما قال في سورة النور: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2]، مائة جلدة.

هذا أول الأمر كانت تحبس، والرجل والمرأة أحيانًا تؤذى يعني فآذوهما يعني بالضرب والتعيير والشتم ونحو ذلك، ثم الله جعل لها الطريق سبيلاً، جعل لهذا الحكم سبيلاً؛ فالمرآه خلاص ما عاد تحبس يعني إما الرجم أو الجلد، وكذلك أيضًا الرجل إما الرجم أو الجلد.

إن تاب قبل أن يصل تصل قضيته إلى القاضي والحاكم؛ إذا تاب الله عليه، يعني قد يقع في الزنا ولا أحد يدري عنه ويستر الله عليه فيكون مستور الحال ويتوب، ما يقام عليه الحد خلاص. إن وجد شاهد أو هو بنفسه جاء وأقر، مثل ما أقر الرجل عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقرت المرأة فجاءت للرسول قالت **"يا رسول الله طهرني، طهرني من الزنا قد وقعت في الزنا"** هذا يقام عليه الحد، إذا أقر الإقرار أو الشهادة، أما إذا في ما في شهود ولا إقرار فما ستر الله عليه فليستر نفسه.

طيب الآن يقول التوبة، انظر التوبة يقبلها الله من كل شيء، كل عمل يعمله الإنسان في معصية الله يقبل توبته بس بشروط، بشروط، ولذلك انظر قال: ﴿فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: 16]، يتوب عليه ويرحمه، بس متى؟

إذا تاب وأصلح.

التوبة لها شروط:

☚الشرط الأول: العزم على أن لا يعود في هذه المعصية.

☚الشرط الثاني: الإقلاع عن هذه المعصية؛ أنت يعني تقع في معصية أول شرط عندك أن تبعد عن هذه المعصية، أن تقلع عنها، وأن تبتعد عنها، وأن تعزم عزيمة صادقة أنك ما تعود لهذه المعصية.

☚الشرط الثالث: أشد الندم، البكاء والتحسر والانكسار بين يدي الله أنك فعلت هذا، مو مجرد بس تراي تبت تراي تايب بتوبة، توبة تشعر بحرارة هذا الذنب ثم تتوب منه، فإذا حصلت هذه الشروط الثلاثة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقبل التوبة، وتأتيك أيضًا أمور أخرى.

يقول: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 17]، يعني التوبة تكون لهم من الله للذين يعملون السوء بجهالة، ما يعصي الله إلا جاهل، العالِم ما يعصي الله الذي يعرف أن هذه معصية ما يقرب ما يقترب منها، ما يقع في معصية الله إلا إذا وجدت شخص يعصي الله اعرف أنه جاهل، ما يعرف، ما يعرف عظمة الله ولا يعرف أن هذه معصية.

- كيف يقدم على شيء؟

يشرب محرم، يلبس محرم، يتكلم المحرم، يفعل محرم، يذهب إلى المحرمات، هذا جاهل، لأن الله يقول: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾ [النساء: 17]، جاهل فالله عَزَّ وَجَلَّ يقول هنا الذي يعمل السوء بجهالة ويقع في المعصية الله يتوب عليه.

- التوبة متى؟

قال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء: 17]، يعني بمجرد وقوعه في المعصية يتوب، ما يسوف **"والله إن شاء الله بكرة أتوب"**، **"إذا جاء رمضان كفارة"**، **"إذا جاء رمضان تبت"**، **"إذا جاء الحج إن شاء الله يتيسر لي حج وحج وأتوب"** ويبدأ يسوف بالتوبة يقول كل اليوم غدًا أتوب غدًا أتوب، ولا يدري إلا قد نزل به الموت، ما تدري أنت الآن الموت يحدث كل لحظة، والإنسان يخرج من بيت لا يدري هل يرجع أو لا يرجع.

فلا يدري إنسان، توبة من قريب، بمجرد وقوعك في المعصية تتوب وتقلع، انظر قال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 17]، الذي يتوب من قريب يتوب الله عليه، وكان الله عليمًا بحاله حين تاب عليه، وحكيمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبل توبته.

انظر يقول: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 18].

انظر لما بين لك التوبة المقبولة، الآن يعطيك التوبة غير المقبولة، يقول لك وليست التوبة ليست التوبة للذين يعملون السيئات، حتى إذا حضر انظر ما قال لك يعمل سيئة واحدة اثنتين لا، يعملون السيئات يعني مشرف على نفسه بالمعاصي، يقول هذا ليست له توبة، ليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن.

إذا عاين الموت، وصل الغرغرة بلغت الروح الحلقوم وبلغت التراقي قال **"أنا الآن تبت"**، مثل فرعون لما رأى الموت أمامه والغرق، قال **"آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل"**، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: 91]، لا ما في ما تقبل توبتك الآن.

فإذا إنسان بدأ يعاين الموت بدا يرى علامات الموت قال **"تبت الآن"** ما تقبل، أنت ما تدري الموت يبدأ ينزل بك ينزل بك ينزل بك، تشعر بحرارة الموت، تشعر بقشعريرة الموت، تبدأ الروح تتحرك عندك تخرج، آه الآن أتوب؟ ما تقبل التوبة ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: 18]، ولا الذين يموتون وهم كفار، يموت على كفره أو على معصيته هذا ما يتوب الله عليه.

- الكفار ما يتوب الله عنهم، أما غير الكفار المعاصي لو إنسان مثلاً يشرب الخمر ومات من الخمر أو أخذ مخدرات ومات، هل نقول له في النار؟

الجواب: في النار، نقول أمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء تاب عليه، والله أعلم، لا نحكم لأحد في جنة أو نار من أهل من أهل القبلة من المسلمين، الله يتولى أمره تحت مشيئة الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 48].

فشوف لاحظ الله قال الذين يموتون الكفار ما تقبل توبتهم: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 18].

هذا واضح يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الآن أخبرنا عن حكم من يقع في جريمة الزنا، وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبينها لنا الرسول، وفتح باب التوبة لأهل الزنا والفواحش وغيرهم يعني الذنب عظمة أو قل التوبة بابها مفتوح، لكن انتبه لا تتوب وقت حين يأتيك الموت فهذا لا تقبل توبته.

يحكي لنا بعد ذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما تحدث عن النساء، يحكي حالة واقعية من عمل أهل الجاهلية، أهل الجاهلية عندهم أعمال سيئة جدًا حتى في من هو أقرب الناس إليه؛ يعني زوجة الأب، زوجة الأب يعني بمقام الأم هي خالتك بمقام الأم، يعني احترامها وتقديرها بر البر والإحسان إليها هو بر للوالد لأن هي زوجة والدك ينبغي احترامها وتقديرها، أهل الجاهلية على العكس، اسمع ماذا يقول الله.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء: 19].

- كيف يرثون النساء كرهًا؟

في الجاهلية إذا مات الأب وعنده زوجة يأتوا الأولاد، لأن هذه زوجة أبيهم ليست أمهم، يأتون الأولاد هذول الورثة ويأخذونها، ماذا يصنعون بها؟

إما أن يتزوج واحد منهم، أو يزوجونها من يشاءونهم ويأخذون المهر، أو يحبسونها ويقولوا لها **"لا تتزوجين ولا تخرجين حتى تعطينا الفدية أو المهر الذي أعطاك إياه الذي أعطاك والدنا"**.

يضيقون عليهم بسلعة هي تباع تشترى، أنت تجي تأخذها بقوة تتزوجها أو تقول **"أنا ما أزوجها إلا فلان"** وآخذ المهر كأنها سلعة تباع، فنهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾ [النساء: 19]. انظر ما قال لك يعني أتاك في أقوى أساليب التحريم، قال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ [النساء: 19].

ثم لما حكى عن زوجة الأب أيضًا حكى عن زوجة الرجل، هذا زوجتك مثلاً يقول: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: 19]. يعني الزوجة قد بعض الناس يتزوج امرأة ثم إذا تزوجها كرهها ولم يرغب فيها، ماذا يصنع بها؟

ما يطلقها بإحسان تسريح بإحسان، لا يعضلها؛ يعني يعضلها يعني يمنعها، يجعلها معلقة لا ذات زوج ولا مطلقة معلقة، فيمنعها ويقول **"تريدين أن أطلقك؟ أعطيني المهر اللي أعطيتك إياه وإلا ما في ولا أنفق عليك ولا أي شيء ولا لست مسؤولاً عنك"**.

فيجعلها مسكينة هكذا معلقة لا كذا ولا كذا، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [النساء: 19] أي النساء زوجتك ﴿لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ [النساء: 19]. يقول كيف تأخذ مهرها وأنت قد استحللت وأخذت الميثاق الغليظ من الله ثم تأتي تضيق عليها حتى تعطيك المهر؟ بأي حق؟ ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: 19]، إذا جاءت بشيء مثل هذا الأمر العظيم هذا تستطيع أن تقول والله هذه وقعت في كذا وكذا وكذا وأنا أريد أطالب بحقي فهذا ممكن.

ثم وجهك الله التوجيه السليم قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19]، المرأة عاشرها بالمعروف، أعطها حقها لا تظلمها وأحسن إليها، هي مثل الأسيرة عندك أحسن إليها وعاشرها، وهي أم أولادك ينبغي احترامها وتقديرها، عاشرها بالمعروف.

يقول ابن عباس رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه يقول: **"والله إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي"** يتجمل، تجد بعض الناس رائحته كريهة وملابسه كريهة ها وحالته كريهة وكلامه السيء، وجلوسه في مجلسه مع زوجته سيء سب وشتم وسب لوالديها ولأهلها، وهي لا تسبه ولا تتكلم في عرضه ولا تتحدث عنه وتأتي بأحسن الملابس وأحسن الروائح، وين عشرة بالمعروف؟

انظر كلمة عظيمة من بلاغة القرآن الكريم أعطاك كل علاقتك مع زوجتك بكلمتين: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19]، بس، إذا حصل هذا الشيء مكسب عظيم لكن من يطبق هذه الكلمة؟ كلمة قصيرة ما يطبقها ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19]، تجده يسيء إليها، إن أرادت أن تذهب إلى السوق منعها، وإن أرادت تذهب إلى أهلها منعها، وإن أسى إليها يعني تضييق عليها فكلمة وعاشروهن بالمعروف.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ، طيب قد يكون الشخص يقول **"والله أنا أكره الزوجة أكره وأنا ما أحبها الحقيقة"** وكذا وكذا، يعني يذكر لك أشياء يقدح فيها، ماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ؟ ما قال إذا كنت تكرهها طلقها، انظر حتى لو أنك تكرهها الله ما يقول لك طلقها، الطلاق يبغضه الله.

اسمع ماذا يقول قال: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19]. ما تدري أنت كارهتها اصبر يمكن يبدل الله الكراهية محبة، وهذا واقع كثير من الناس، من تزوج وكرهها في أول الأمر ثم بعد ذلك تغيرت الأمور صار يحبها محبة عظمة، ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

قد ترزق منها أولاد صالحين يصبحون علماء دعاة إلى الله ينفعون دينهم وينفعون مجتمعهم ما تدري، لا لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا، فإذا كرهتها اصبر عليها، ما قال لك طلقها، قال اصبر والله يبدل الحال حال.

انظر يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا هذه من عادات الجاهلية، انظر من عادات الجاهلية في المرأة، كل الحديث عن المرأة من عادات السورة سورة النساء، يقول: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 20].

تريد أن تأخذ امرأة ثانية وعندك زوجة، إذا تريد أن تطلق زوجتك الأولى تأخذ زوجة ثانية ما في مانع، لكن اسمع إن أردتم استبدال زوج مكان زوج ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: 20] يعني أعطيت الأولى مهرًا والقنطار المال الكثير، أعطيتهن ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: 20].

تجد بعض الناس يتزوج هذه المرأة يجلس معها زمن ثم يرغب أن يتزوج امرأة أخرى، فيأتي للمرأة الأولى يقول **"والله أنا أعطيتك مهر ودفعت عليك كذا وكذا وكذا وفعلت كذا وكذا وكذا، أنا أريد المهر اللي عندك أنا لا أريد أطلقك بس أعطيني المهر اللي أعطيتك إياه أبي أريد أتزوج امرأة ثانية"**، كيف تأخذه؟ بأي حق تأخذه؟ هذا مهر لها، هذا مهر ليس لك.

انظر قال: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: 20]، ولا قليل ولا ريال واحد، ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ [النساء: 20]، ثم قال يعني انظر أسلوب القرآن توبيخ وتقريع: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 20].

كيف تأخذ هذا؟

بهتان وإثم ما يجوز، ولا تأخذ شيئًا منه كيف تأخذ بهتانًا وإثمًا؟ هذا إثم عظيم، ثم قال لك: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 21].

التعجب من حالهم؛ كيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض؟ وقع بينكم بينك وبين زوجتك أشياء كبيرة، فكيف تجي تأخذها؟ أفضيت إليها ووصلت إلى ما لم يصل إليه أي شخص من الناس، وجامعتها ووقعتها ثم تأتي تقول **"أعطيني مالي أعطيني مهري"**؟ بأي حق؟

انظر ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: 21] وأخذن أي النساء منكم ميثاقًا غليظًا. الميثاق الغليظ الذي أخذ عليك عند عقد النكاح أن تخاف الله فيها، وأن تتق الله فيها، وأن تعطيها حقها، وأن تستر عليها، وأن تعطيها ما أوجب الله عليك، هذا الميثاق الغليظ ما تضيعه وهكذا.

فهذه تأتي آيات كثيرة كلها تتحدث عن النساء وأحكام النساء، وبيان حال المرأة في الجاهلية كيف كانت تعذب وكيف كانت تضطهد، وكان ليس لها قيمة كالمتاع، كيف الإسلام رفع شأنها ورفع مقامها وأعطاها حقوقها؟ هذا يأتي الحديث إن شاء الله استكمالاً لما ذكرناه في لقاء قادم والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(85)
(النساء 22 - 24)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الحمد لله صل وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين أما بعد:

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في مجلس من مجالس الذكر والقرآن الكريم، مجلس التدبر والتأمل في آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والسورة التي تناولناها في لقاءاتنا الماضية ونستكمل الحديث عنها هي سورة النساء، وهي تتحدث عن أحكام تتعلق بالمرأة خاصة وبالضعفاء، ومن تكلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبين أحكامهم في هذه الآيات.

الآيات التي معنا تتحدث عما يتعلق بمن يحل الزواج بهن ومن لا يحل؛ الأصل أن الإنسان يتزوج من شاء من النساء إذا كانت فيها صفات المرأة التي حث الشرع عليها، **«تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ»**.

☜وذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»**. وإلا تنكح لجمالها ولحسبها ولنسبها ولمالها ولدينها **«فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ»**، فالإنسان يبحث عن الجمال عن الحسب والنسب عن المال عن المكانة عن الأخلاق، كل ذلك مطلوب والمرء هو الأصل في الإنسان أن يتزوج ما شاء بنات المسلمين التي عرفن بالخلق الحسن والخُلُق الحسن.

لكن هناك أمور أو هناك من النساء من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه لا يجوز النكاح بهن، لا يجوز التزوج بهن وهن محصورات؛ وهذا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورحمته أن جعل الأصل في الزواج والنكاح الحِل يتزوج بالصفات المذكورة.

وأن هناك من النساء من يحرم الزواج بهن، وهن سبع من النساء سبع العلاقة بينك وبينهن النسب والرحم، وسبع العلاقة بينك وبينهن المصاهرة، وهناك أيضاً محرمات لأسباب أخرى.

ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه المحرمات بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أول ما ذكر قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 22]. الأب إذا تزوج امرأة ثم مات عنها أو طلقها، فليس لأحد من أبنائه أن يتزوجها مهما كان، هذا يسمى تحريم المؤبد؛ لا يجوز للرجل أن يتزوج بزوجه أبيه ولو بمجرد العقد.

كيف بمجرد العقد؟

يعني لو أن الأب ذهب إلى هذه الأسرة وخطب منهم وعقد مجرد عقد، ما دخل عليها ولا رآها ولا شاف بس مجرد عقد، ثم بدا له أن يطلقها فطلقها وهو لم يرها بس مجرد عقد؛ نقول حرمت، حرمت على أبنائه، لا يجوز لأحد الأبناء أن يتزوج بزوجه أبيه لأن زوجه الأب بمنزلة الأم، زوجه أبيك بمنزلة الأم فكيف تتزوج؟

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صرح بالنهي قال: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: 22]، في الجاهلية أو ما مضى فالله عَزَّ وَجَلَّ يعفو عنه.

- لماذا قال هذا الفعل فاحشة؟

من الفواحش كالزنا، ﴿وَمَقْتًا﴾ أي يمقته الله ويبغضه لأنه تعدي على حدود الله، ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ساء هذا الزواج سبيلاً طريقاً محرماً؛ لا يجوز، لا يجوز هذا واضح.

- ما العلاقة نسب ولا مصاهرة؟

مصاهرة، ليست نسب، هذه المرأة ليس بينك وبينها نسب، قد تكون من بلد بعيدة لكن بينها وبين أبيك مصاهرة، وأبوك صار صهراً لهم وهم أصهاره، فالسبب هذا الأول مصاهرة.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مجموعة من المحرمات فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ [النساء: 23]. وهذا حتى بالعقل ليس في الشرع، حتى مع العقل كيف يتزوج الرجل بأمه؟ ما يمكن أن تقبله الفطرة؛ تمنع العقل يمنع والشرع يمنع كل ذلك.

- ما هي العلاقة؟

علاقة النسب، أمك التي ولدتك كيف تأتي وتتزوجها وتصبح فراشاً لك؟ هذا لا يمكن أن يقوله العقل.

- هل المراد بالأم هذا من هي الأم هذه؟

الجواب: الأم وإن علت، أمك مباشرة أو أمك أو أم أبيك، المهم وأنت ما دام أنها تسمى أماً فهي لا يجوز النكاح بها أبداً، ثم قال لما ذكر الأصل ذكر الفرع قال: ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ لا يجوز أن يتزوج الرجل ببنته مهما كانت، مهما كانت بنته وبنت بنته أو بنت بنته أو بنت ابنه مهما كانت لا يجوز يتزوج بها.

وهذا ما كان يفعله المجوس يتزوجون ببناتهم وبأخواتهم؛ جاء الإسلام وحرم هذا لأن هذا لا يمكن لا في العقل ولا في الفطرة أن يأتي الشخص يتزوج ببنته، بنتك هذه هي من صلبك كيف تتزوج بها فلا يقبل.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ وهذه مثل ما ذكرنا العلاقة النسب، قال بعدها: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ اختك لا يجوز أن يتزوج الرجل بأخته، كيف تتزوج بأختك؟ لا شرعاً ولا عقلاً ولا فطرة.

والأخت المراد بها هنا سواء أختك الشقيقة من أمك وأبيك، أو أختك لأب من أبيك، أو أختك لأم، كل ذلك لا يجوز لا يجوز.

قال أيضاً: ﴿وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ العمة الشقيقة أو عمة لأب أو عمتك أو عمة عمتك أو عمة أبيك أو عمة أمك، ما دام تسمى عمة فلا يجوز النكاح.

قال: ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ أيضاً الخالة أو خالة أبيك أو خالة أمك، خالتك من يعني شقيقة أو من أب أو من أم، كل ذلك داخل في التحريم والعلاقة فيما تقدم كله علاقة النسب.

قال: ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾ بنات الأخ أنت عمهم، كيف يتزوج العم بنت أخيه؟ لا يمكن، بنت أخيه نزلت وإن نزلت كل ذلك لا يجوز.

وكذلك: ﴿وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ وأنت خالها، بنت أختك وأنت خالها؛ هذه كلها تعتبر من المحرمات تحريماً مؤبداً، لا يمكن في أي حالة من الأحوال أنه يجوز الزواج بهؤلاء والعلاقة علاقة مثل ما ذكرنا النسب .

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: 23]. هذه علاقة الرضاع؛ المرأة إذا أرضعت هذا الطفل الرضعات المشبعة، خمس رضعات في الحولين، يعني في السنتين الأولى، وخمس رضعات مشبعات، أصبح هذا الابن ابناً لها وهي محرمة عليه، فكأنها بمنزلة الأم.

قال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ وكذلك قال: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾ أي إذا أنت رضعت من هذه المرأة، إذا كان عندها بنات، هؤلاء البنات كلهم يصبحون أخوات لك تدخل عليهم أخوات لك ولا يجوز التزوج بشرط أن يكون هذا الرضاع رضاعاً شرعياً، يعني خمس رضعات مشبعات في الحولين.

فإذا أرضعت هذه المرأة أصبح هذا الابن قد دخل على هذه المرأة أصبح كأنه ابناً لها، فكل من هو له علاقة بهذه المرأة هذا قريب لها يصبح كأنه قريب، فبنات هذه المرأة وأبناؤها إخوة لهذا الذي دخل عليه إخوة.

وزوج هذه المرأة التي أرضعت شو يصير؟ يصير أب من الرضاع، يصير أبوه من الرضاع، وكذلك الأمهات وإن علو، والأخوات أخت المرضعة هذه المرأة التي أرضعت هذا الطفل أختها شو تصير؟ تصير خالة تصير خالة، وهكذا انتشرت الرضاع انتشر، دخل هذا في رضاع هذه المرأة فأصبح من جملة هذه المرأة .

أخت الزوج بالرضاعة؟ الزوج زوج المرضع؟ أيوه، اللي لكم علاقة، أخت الزوج؟ أي تحل، هذه أخت الزوج هذه أخت الأب قصدك؟ أي الأب أخت عم، هذا الأب هذا الأب زوجته

أرضعت هذا الطفل، هذا الطفل يقول لهذا الأب أنت أبي من الرضاع، وأخته أخت الزوج تصير عمته من الرضاع، وهكذا انتشرت خلاص انتشر دخل خلاص دخل معهم .

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ﴾، ليش الله عَزَّ وَجَلَّ في الآية ذكر الأم والأخت بس؟ والباقي طيب؟ ما قالوا عماتكم من الرضاعة وخالاتكم من الرضاعة؟

ما قال بس الأم والأخت، قال لأن الأم هي التي باشرت هي التي باشرت الرضاع فهي أم واضح، والأخت لأنها هي أقرب واحد لأنها ترضع مع أمها فخص الأم والأخت.

☜وهذا الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبين لنا تعميم الرضاع لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ»**، فالذي يحرم من النسب يحرم من الرضاع، الخالات والعمات كلهم يدخلون.

قال بعد ذلك: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ يعني هذا الرجل عنده زوجة، زين؟ هذه الزوجة لها أم، لأن الآن يسمونها خالة أو عمة، هذه الأم محرمة عليك، محرمة بمجرد العقد؛ يعني هذا الرجل ذهب وتزوج بهذه البنت وعقد عليها ولم يدخلها ولم يراها، عقد عليها، أمها تحرم عليك بمجرد العقد.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ يعني أمهات زوجاتكم، هذه مجرد العقد تحرم خلاص، لو أن الرجل عقد عليه ولم يدخل بها ولم يراها ثم طلقها الأم محرمة الأم تحرم.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ العلاقة ما هي؟ نقول علاقة المصاهرة، المصاهرة ما بينك وبينها نسب، أم أجنبية يمكن في بلد بعيدة لكن بمجرد أنك عقدت على بنتها هي حرمت خلاص، أصبحت خالة لك أو عمة حسب الأعراف المتبعة.

قال: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ [النساء: 23]. الربيبة هي بنت الزوجة، يعني أنت رحت تزوجت بهذه المرأة وهذه المرأة عندها بنات أو بنت واحدة، هذه البنت اللي عندها لما تزوجتها أنت وأخذت أمها البنت تتبع أمها، جاءت وجلست معك في البيت؛ هذه نسميها ربيبة، يقول ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ يعني كأنها تربت في حجرك لأن أمها عندك وهي عاشت مع أمها.

هذه تحرم ولا ما تحرم؟

قال: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾، ليست من بنتك لا هي بنت المرأة هذه أبوها قد طلق أمها أو مات عنها، يقول ﴿فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ شايف؟ قالت دخلتم بهن ما هو مجرد عقد، لا، لو عقد على أمها هذه لا، تختلف هذه لو عقد على أمها ثم طلق الأم نقول بمجرد العقد يجوز أن تأخذ البنت تتزوج البنت .

لكن الله عَزَّ وَجَلَّ ما قال العقد قال: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ يعني خلوت بأمها وأصبحت زوجتك خلاص؛ إذا خلا بالأم زين خلاص يعني يعتبر أنه دخل بأمها تحرم البنت تحرم البنت، ما دام لم يدخل بأمها فهي مباحة.

هذه الله عَزَّ وَجَلَّ بين هذا قال اشترط شرط قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾، إذاً من لم تدخل بأمها يجوز لك أن تأخذها، يعني أخذت هذه المرأة تزوجتها ثم عقدت عليها ولم تدخل بها ولم تخل بها ثم بدا لك أن تطلقها وتأخذ بنتها، نقول خذ بنتها يجوز ما دام مجرد عقد أما الدخول فلا، لأن الله اشترط .

قال الله عَزَّ وَجَلَّ وشوفوا العلاقة هنا ما هي؟ علاقة المصاهرة، مصاهرة ليس بينك وبينها نسب.

قال بعدها: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: 23].

- حليلة الابن يعني زوجة ابنك، أنت عندك ابن تزوج زين؟ هذا الابن لما تزوج طلق زوجته، هل يجوز لك أن تروح وتخطب زوجة ابنك؟

الجواب: لا يجوز.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾ حليلة الابن ليه قال حليلة؟ لأنه تحل معه في كل مكان أو لأنها حلال له مباحة يطأها فهي حليلته، فكيف الابن تصبح حليلة ثم تأتي أنت وتأخذ تأخذ زوجة ابنك؟ هذا مما حرمه الله.

انظر لاحظ قال: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ يخرج ماذا؟ الذين من أصلابكم يخرج التبني، أما حليلة الابن من الرضاع تحرم مثل ما ذكرنا تحرم؛ يعني لو أنك مثلاً أنت أن مثلاً زوجتك أرضعت هذا الطفل الصغير، أصبح ابن لك من الرضع وكبر وتزوج ثم طلق زوجته نقول لا يجوز لك تأخذها لأن هذا الابن ابنك من الرضاع.

أما قوله هنا ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ هذا يخرج التبني، لأنه كان في الجاهلية يتبنى هذا الشخص هذا طفل صغير قد توفى مثلاً أبوه أو أمه أو نحو ذلك، فيأتونه يأخذونه أو مثلاً لقيط يأخذونه ويربونه عندهم في البيت يتبنونه فيكبر ويظن أن هذا أمه وهذا أبوه فينسب إليهم، مثل زيد بن حارثة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه كان يسمى زيد بن محمد، فكان النبي تبناه ثم جاء الإسلام قال: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: 5] فحرم التبني.

فهنا قال ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ أيضاً من المحرمات، قال: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 23]. لا تتزوج بهذه المرأة وتأخذ أختها معها، لا يجوز أن تجمع بين الأختين سواء شقيقة أو أخت لأب أو لأم أو أخت من الرضاع، كل ذلك لا يجوز؛ ما يجوز أن تجمع بين المرأة وأختها ما يجوز.

إذا طلقت هذه المرأة خذ أختها ما دام أنها في ذمتك فلا تأخذ أختها، لكن لو طلقتها وأردت أن تأخذ أختها هذا جائز؛ لكن جمع كجمع أن تجمع بين الأختين، ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ في الجاهلية، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ممن وقع منه الزواج مثلاً بزوجة أبيه أو جمع بين الأختين أو زوجه ابنه أو شيء من هالمحرمات هذه التي مرت فرحيم وقد تجاوز عنه .

أيضاً من المحرمات من المحرمات ما جاء في السنة، ما جاء في السنة أن يجمع الرجل بينه بين المرأة وعمتها شايف؟ أو المرأة وخالتها؛ يعني ما يجوز لك أنت تأخذ هذه المرأة ثم إذا خطبتها وتزوجتها تذهب وتخطب خالتها أو عمتها، هذا جاءت السنة بالمنع.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا أيضاً زيادة على ما تقدم فيه أيضاً امرأة لا يجوز الزواج بها وليس بينك وبينها لا نسب ولا مصاهرة، ما هي؟

قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: 24]. انظر ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ما معنى المحصنات من النساء؟ يعني المرأة المتزوجة، هل يجوز لك تخطبها وهي في ذمة رجل؟ كيف تخطبها؟

يذهب إلى هذه المرأة يقول أنا أريد أن أخطبك وهي في ذمة زوج هي تحت زوج، فنقول لا يجوز؛ هذه المحصنات من النساء يعني المتزوجات بالرجال، لا يجوز للرجل أن يذهب إليها ويتزوجها إلا حالة واحدة ذكرها الله قال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

- يعني مثلاً وقع في السبي في الحرب، مثلاً حرب بين المسلمين والكفار ثم دخل المسلمون وسبوا من النساء، هذه النساء تحت أزواج، هل يقول مثلاً أنا آخذها؟

الجواب: نعم؛ هذه مملوكة أصبحت في أيدي المؤمنين أصبحت مملوكة فهذه يجوز لك لكن لابد أن تستبرأ بحيضة حتى نتأكد من أنها ليست حامل من الأول كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وقعة أوطاس في حنين في هوازن.

لما وقع لما يعني انتصر المسلمون على أهل هوازن بدأوا يأخذون من السبائع من الأطفال والنساء، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال أمر أحد الصحابة أن ينادي أنه لا يجوز أن يطأ مملوكة إلا بعد استبرائها بحيضة حتى يتأكد من أنها ليست بحامل.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 24] يعني أن الله هذا قد كتبه عليكم، كتبه وفرضه عليكم ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي كتب الله هذا الكتاب عليكم، هذا هو.

ثم قال بعدها ماذا؟ ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ﴾ هذا المحرمات فقط، هذه الدائرة ما وراءها أحل لكم تزوج ما شئت من النساء، ما شئت مثل ما ذكرنا في أول الكلام، ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ يعني لابد من دفع المهر، المهر لا يسقط بأي حال لابد من دفع المهر.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: 4] فلا بد، قال وراء ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ وتقصد بزواجك ماذا؟ ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ تطلب العفة أن تعف نفسك وتعف هذه المرأة، هذا هو؛ هذا هو الغرض من الزواج أو هذا من أغراض الزواج.

قال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ لا تقصدون بذلك الحرام، إذا دفعت المال لابد أن يكون عقداً صحيحاً لا يكون عقداً محرماً، لا يجوز أن يأتي يقول أنا أدفع لك مال وتمكنيني من نفسك؛ هذا الزنا هذا الذي لا يجوز، ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ هذا السفاح هو المحرم.

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: 24]. يقول أنت تزوجت هذه المرأة لتستمتع بها فوجب عليك أن تعطيها أجرها وهو المهر، وهو المهر أن تعطيها أجرها وهو المهر قال ﴿فَرِيضَةً﴾؛ فريضة بعضهم يعني وقف مع هذه الآية وقال إن هذا هو يدل على زواج المتعة.

وهذا كما هو عند الرافضة زواج المتعة، أن يأتي الرجل لهذه المرأة يقول أعقد عليك شهر واحد وأعطيك 5000 أو 10000 لمدة شهر وبعدها أطلقك، لا يعطيها نفقة ولا سكنى ولا كسوة ولا شيء بس مجرد أنه مجرد الشهوة؛ وهذا لا يجوز النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حرم نكاح المتعة وجعله محرماً ولا يجوز.

فهذه الآية الصحيح فيها أنها في الزواج الصحيح، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ في الزواج الصحيح العقد الصحيح ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾، فريضة يعني يفرض الله عليك أن تعطيها مهرها أن تعطيها مهرها .

قال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ [النساء: 24].

- ما معنى هذا الكلام ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾؟

يعني ما في جناح أن لو أعطيتها مهر مثلاً 40,000 مثلاً أو أكثر أو أقل، ثم بعد الزواج قلت والله أنا علي ديون وعلي تكاليف وعلي إيجار وعلي كذا، هل تسمحين تعطيني من المهر مثلاً 10000 أسدد؟ تتنازلين وكذا فإذا تراضوا جائز.

﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: 4]، فهنا قال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ ما في جناح ما في حرج ﴿فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾، أما أنك تزيدها أو هي تعطيك هذا جائز.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عليماً بأحوالكم وحكيم فيما يفرضه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه الأشياء التي يفرضها الله وبينها لنا ويوضحها بحكمة من الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما ويبين لك السبب

والعلة ليش يقول ليش هذا حرام وهذا حلال؟ يذكر الله لك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو عليم بأحوال الناس وما ينفعهم وما يصلحهم وما يضرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذه آيات يعني حقيقة يعني أخذناها تأملناها نظرنا فيها توقفنا عليها تدبرنا هذه الآيات؛ هذا خير عظيم لك ولكل لكل مستمع ولكل من يسمع مثل هذا الكلام ينتفع، ينفع الله به وهو خير له في دينه ودنياه .

أسأل الله أن يبارك لنا وأن يوفقنا وإياكم لطاعته، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم وصلى وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

(86)
(النساء 25 - 31)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الأمسية المباركة، وفي هذا المجلس المبارك مع القرآن الكريم، ومع مجلس من مجالس الذكر تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، ويذكر الله أهله في الملأ الأعلى .

هذا فضل عظيم، هي كلها دقائق معدودة نجلس مع القرآن الكريم نتدبر هذه الآيات التي يقرؤها الكثير وتمر عليه؛ فقراءتك لها غير أنك تقرأها بتدبر وتمعن وفهم.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في لقاءاتنا الماضية أن الأصل في الزواج من النساء هو الإباحة، وأن الإنسان يتزوج ما شاء من النساء؛ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر المحرمات من النساء قال بعدها ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: 24]، يعني كأنه يقول المحرمات معدودة: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة؛ بعدها غير المحرم تزوج ما شئت بضوابطه المعروفة.

ذكر الله لنا المحرمات قال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ﴾ [النساء: 23]؛ هذه محرمات ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أربعة عشر نوعاً من النساء لا يجوز لك أن تتزوج بواحدة منهن، وما سواها خذ من النساء وتزوج ما شئت.

الأم أو البنت أو الأخت أو العمة أو الخالة، أو تجمع بين أختين في زواج واحد، أو زوجة ابنتك، أو زوجة ابنك؛ حليلة الابن، أو أم الزوجة، أو بنت الزوجة إذا دخل بها، أو زوجة أبيك؛ زوجة الأب، هذه كلها ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وذكر أيضاً من ذلك النساء المتزوجات التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهن: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: 24]؛ فالمرأة التي هي في عصمة زوج لا يجوز لك أن تتزوج بها ولا تخطبها ما دامت في عصمة زوجها، أما إذا طلقها فهذا أمر آخر.

ولما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا وأباح لنا الزواج قال: ﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم﴾ [النساء: 24]؛ يعني أن تدفع المهر، وهو شرط لصحة النكاح؛ لابد من دفع المهر.

ولا يجوز أن الرجل يقول هذه بنتي أنا أهبها لك؛ لأن الهبة خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الهبة خاصة بالنبي؛ أما يأتي شخص ويقول والله أنا أعطيك بنتي أو أعطيك أختي، فهذا لابد له من المهر، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: 4]، وقال هنا: ﴿فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: 24].

وفي حالة ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي إذا لم يستطع الإنسان أن يتزوج بالحرة؛ فالحرة تحتاج إلى دفع مال وإلى مهر وصداق، فإذا لم يستطع هذا الرجل أن يتزوج فماذا يصنع؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أباح له قال إذا لم تستطع فهناك طريق آخر، ما هو؟ قال أن تتزوج من الإماء المملوكات .

الإماء المملوكة إذا كان الشخص يملكها فهي مملوكة، فسيدها يملكها ويملك منفعتها وخدمتها ووطأها، كل شيء يملكها؛ لكن لو أراد شخص أن يتزوج بها فله أن يتزوج بها بإذن السيد.

يقول السيد: **"أنا آذن لك أن تتزوجها"**، سواء تزوجت بمملوك أو تزوجت بحر، وهذا الحر لا يجوز له أن يتزوج بهذه المملوكة إلا بضوابط .

- قد يأتي سائل يقول: "طيب أين المملوكات الآن؟ أينهم عشان نقول نتزوج مملوكة؟ أنت الآن تتكلم عن شيء غير موجود".

الجواب: القرآن نزل في زمن المملوكات فيه موجودات، وقد تغيب هذه المملوكات في فترة من الزمن وقد ترجع؛ لأن القرآن هذا كتاب إلى قيام الساعة.

لا يمكن أن تقول والله السنة هذه غير موجودة والسنة القادمة تأتي؛ لا، هو لا يخاطبك أنت، ولا يخاطب عام ألف وأربعمائة وأربعين أو خمسة وأربعين؛ بل هو يخاطب زمناً طويلاً إلى قيام الساعة.

قد يأتي زمان وتنتشر الإماء، وهو من علامات قيام الساعة؛ أن تلد الأمة ربتها لكثرة السراري وكثرة الإماء، ما تدري ماذا يجري في أزمان قادمة .فالحكم الشرعي وحكم الله حكم عام؛ قد لا يصلح لهذا الزمن ويصلح لزمن قادم، وقد لا يصلح لهذا البلد ويصلح لبلد آخر، فهذا حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

الشاهد من الكلام أن حكم الله هو الحث والحض على الزواج؛ لأن الزواج هو سبب الإحصان وسبب حفظ الأسر وحفظ المجتمعات من الوقوع في الفواحش.

لأن الإنسان إذا لم يجد له طريقاً للزواج فسيسلك طريقاً آخر، وهو طريق السفاح والزنا والحرام؛ فالله أباح له الطريق بالزواج المباح .ما تستطيع أيها الحر أن تتزوج بحرة، الله أباح لك ما هو أقل؛ لأن الأمة يكفيها الشيء اليسير، فتعقد زواجاً مع هذه الأمة حتى يغنيك الله وتأخذ حرة .

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر لنا هذه المحرمات وقال ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: 24]، ماذا قال؟ ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: 25]؛ أي لما لا يقدر وليس عنده مال كثير، من لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات يعني الحرائر المؤمنات، فماذا يصنع؟

قال: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: 25]؛ لابد أن تكون الأمة مؤمنة، أما كافرة فلا؛ ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم﴾ [النساء: 25]، يعني الفتيات المؤمنات شرط أن تكون الفتاة مملوكة ولكن فيما يظهر لك يكفي، والله أعلم بإيمانكم؛ ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [النساء: 25]، هي من جنسك وهي من بني آدم .لا تستهجن هذا الأمر وتستنكر هذا الأمر وتقول أتزوج أمة، ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [النساء: 25]؛ هي من آدم وأنت من آدم لا فرق، فبعضكم من بعض.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ [النساء: 25]؛ فالسيد لابد أن نأخذ من إذنه لأنه هو يملكها وهو الذي يتصرف فيها، فلا يجوز أن تتزوج إلا بإذنه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: 25]؛ أعطها المهر.

- قد يأتيك شخص يقول لك: **"طيب السيد المملوك والعبد وما يملك لسيده، إذاً نعطي المهر للسيد؛ لأن السيد تنقصه المنفعة، ستذهب هي لزوجها في الليل ولا تبقى عنده"**.

الجواب: لا؛ ماذا يقول الله؟ يقول ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [النساء: 25]؛ هذا جهاز لها تتمتع به، أعطها أجرها.

فنقول لابد أن نستأذن السيد، فإن أذن لها أعطيناها المهر؛ قال: ﴿وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 25]، أي بما تعارف الناس عليه؛ ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ [النساء: 25].

يقول هؤلاء الإماء لابد أن تكون عفيفة، لا تبحث عن أمة ليست عفيفة تقع في الحرام؛ ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ﴾ [النساء: 25]، أما المسافحة فابتعد عنها لأنها ستفسد فراشك؛ محصنة عفيفة غير مسافحة ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: 25].

- ما الفرق بين المسافحة والتي تتخذ أخداناً؟

الجواب: المسافحة هي التي ترضى بالزنا في كل مكان، هذه نسميها مسافحة، وهي كانت موجودة في الجاهلية.

وأما التي تتخذ أخداناً، يعني تتخذ لها صديقاً فقط، علاقة مع شخص واحد؛ فهذا كله حرام، وكله من الزنا وكله من الفاحشة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: 33]؛ كله حرام، مسافحة أو غير مسافحة أو متخذة أخدان، كل ذلك حرام.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ﴾ [النساء: 25]؛ يعني أصبحت هذه الأمة طاهرة عفيفة، ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ [النساء: 25]، يعني لو فرضنا أنها محصنة وتزوجها هذا الرجل ودفع لها المهر، فإذا وقعت في الفاحشة قال: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: 25].

يقول إذا أتت بفاحشة بالزنا فإنه يقام عليها حد الزنا، كم حد زنا الحرة؟ الله يقول: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: 2]؛ طيب والأمة؟ قال على النصف، خمسون جلدة.

انظر ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: 25] .ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: 25]؛ يقول إذا خشي الإنسان أن يقع في الحرام وفي الزنا فليس له مخرج إلا أن يتزوج الأمة، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما أباح للحر أن يتزوج بالأمة إلا لأسباب: إذا لم يجد المهر **(الطول)**؛ ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾ [النساء: 25] .

وهذا السبب الأول، والسبب الثاني أن يخشى على نفسه الوقوع في الحرام؛ ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: 25] .أما إن كان لا يخشى على نفسه ويستطيع أن يستعفف وأن يصوم وأن ينشغل عن الزواج بأمور أخرى، فهذا لا يتزوج بالأمة؛ لأن الأمة غير مستقرة، لو سافر السيد بتسافر معه، ولو باعها تذهب لمكان آخر فهي غير مستقرة.

وبعد ذلك في أمر آخر قد يجهله كثير من الناس، أن الأمة إذا حملت من هذا الرجل الحر وولدت، فالولد هذا مملوك؛ هذا الولد الذي هو منك جاء من هذا الحر، هو يحكم عليه في الشريعة بأنه تبع لأمه، فالأمة مملوكة وهو مملوك وهو عبد، فهذا هو الإشكال.

ولذلك الله قال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: 25]، أي خشي الوقوع في الزنا، ثم قال بعدها: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: 25]؛ تصبر عن زواج الإماء خير لكم، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: 25] .تصبر وتتحمل ويفرج الله لك إلى أن تتزوج بحرة، هذا نسميه حكم نكاح الحر للأمة.

أما عبد مع أمة أو عبد مع مملوكة فهذا ليس له علاقة، أو حر مع حرة فهذا ليس له علاقة، لكن أن يتزوج الحر بالأمة فالله لم يبحه إلا بشروط، وفي الأخير قال لك اترك هذا الشيء أولى لك: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: 25].

بعدما يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه المحرمات من النكاح وأباح لنا ما سوى ذلك: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: 24]، ثم أباح لنا أيضاً حتى الزواج بالإماء، ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: 26] .يقول يريد الله بهذه الآيات وهذه الأحكام أن يبين لك شرعك، ويبين لك ما تتعبد الله به، وما تسير عليه؛ تسير على طريق السعادة وطريق النجاة والسلامة .

﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: 26].

- من هم الذين من قبلنا؟

سنن المرسلين والصالحين؛ ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

هذا طريق السلامة، هذا الذي تقول أنت في الصلاة كل يوم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ 6 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 6-7]؛ هؤلاء هم، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: 26] .﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 26]، لأنه قد يقع إخلال إما في زواج الإماء أو في تقصير أو في خطأ من هذا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ يريد أن يتوب عليكم ليشرع لكم الشريعة التي كلها خير وصلاح وتوبة من الله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليم بأحوالكم وحكيم بما ينفعكم لما يشرع لك شرعاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو حكيم؛ ويقول الله بعدها: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 27].

هذه الآيات الله أراد أن يتوب عليكم؛ لأنه فيه مخالفات كثيرة كانت في أول الإسلام، تجد الرجل يدخل في الإسلام متزوجاً أختين أو عنده في ذمته عشر؛ دخل أحد الصحابة في الإسلام فقال: **"يا رسول الله، إن تحتي عشر نساء"**، قال: **«أَمْسِكْ أَرْبَعاً وَطَلِّقْ سَائِرَهُنَّ.»**

ففيه أشياء قد يقع فيها الناس أو من يتزوج بزوجه أبيه أو نحو ذلك، قال الله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 27]؛ في هذا الشرع يريد الله أن يقربكم ويتوب ويطهركم من الذنوب والمخالفات، ولكن انظر في المقابل ماذا قال؟ قال: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 27].

أهل الزنا والفواحش من المنافقين والمستهترين بشرع الله، يريدون من المسلمين أن يميلوا عن شرعهم، وليس ميلاً فقط خفيفاً بل ميلاً عظيماً؛ لا يريدون لك الخير أبداً حتى في النكاح والزواج والعلاقات الأسرية، لا يهنؤون بعيش حتى يصدوك عن ذلك؛ هؤلاء أهل الشهوات وأهل الفساد في الأرض وأهل المنكرات، لا يريد لك الخير.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]؛ خفف الله عنا بهذه الأحكام، تجد أسهل من هذه الأحكام في أي شرع؛ تخفيف ليس فوقه تخفيف.

﴿وخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]، ضعيف البنية وضعيف العقل وضعيف التصرف، لولا أن الله رحمه بهذا الشرع لضاع؛ والإنسان ضعيف أمام النساء، ضعيف لا يملك نفسه.

ولذلك الله سبحانه حفظه من هؤلاء النساء وأعطاه الطريق، وأعطاه أن يسلك سبيل النجاة وأن يحفظ نفسه من الوقوع في الفواحش، وإلا فهو ضعيف النفس لا يملك شيئاً .أحياناً يحتاج الإنسان إلى مال عند الزواج، والمال لابد أن يكون مالاً حلالاً مباحاً؛ أما المال المحرم، فكيف تتزوج بمال محرم وتأتي بزوجه بمال محرم وذرية؟ هذا شيء يبنى عليه أشياء كبيرة، فكيف تتزوج؟ حتى حياتك كلها حاول أن تبتعد عن الحرام والمعاملات المحرمة.

☜النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«كُلُّ جَسَدٍ نَبَتَ مِنْ حَرَامٍ أَوْ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ** .»فالإنسان يبحث عن الحلال مهما كان، ويسأل في المعاملات الربوية وفي المعاملات البنكية وفي المعاملات في الأسهم؛ الإنسان يبحث عن لقمة العيش الحلال ولا يقع في الحرام.

ولذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: 29]؛ أموالكم وأموال غيركم لا تأكلوها بالطرق المحرمة كالسرقة والغصب والربا وغيرها، لا تأكلوها بالباطل.

قال: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: 29]؛ أي إلا أن تكون هذه التجارة والأموال تأتيكم عن طرق التجارة المباحة التي تكون بالتراضي في البيع والشراء، فهذا أباحه الله لكم، ثم لما حرم الله علينا الأموال.

وقال: **"إن أموالكم ودماءكم حرام عليكم"**، حرم أيضاً قتل النفس؛ قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29].

قال أهل التفسير: **"لا تقتلوا أنفسكم أي لا يقتل بعضكم بعضاً"**، وأيضاً لا تقتل نفسك؛ وهذا يحتمل أنك تقتل غيرك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: 11].

فاللمز هو الاستهزاء بالآخرين، والإنسان لا يلمز نفسه بل يلمز أخاه؛ فلماذا قال نفسه؟ قال لأن المسلمين كالجسد الواحد، فإذا لمزت أخاك فكأنك تلمز نفسك، وإذا قتلت أخاك فكأنك قتلت نفسك .﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29]، لا تقتل أخاك المسلم ولا تقتل نفسك أيضاً بآلة قاتلة أو بشيء محرم كالتعامل المحرم والأموال المحرمة والأكل المحرم .لماذا؟

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]؛ فالله يرحمكم، فلا تتعاملوا بالحرام ولا تقتلوا أنفسكم ولا تعرضوا أنفسكم للهلاك، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾ [النساء: 30]، أي معتدياً على نفسه أو على أخيه المسلم.

- ما النتيجة؟

قال: ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا﴾ [النساء: 30]؛ هذا وعيد شديد لمن يقتل نفسه أو يقتل أخاه المسلم أو يأكل الحرام .﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: 30]؛ والإنسان لابد أن يبتعد، فهذا يعطيك الله عَزَّ وَجَلَّ فيه مثالاً في كبائر الذنوب؛ وأعظمها قتل النفس، ومن كبائر الذنوب أكل أموال الناس بالحرام .لكن الإنسان قد يقع في بعض المعاصي والسيئات فيعفو الله عنه، لكن الأخطر أن تقع في كبيرة وتستمر عليها.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: 31]؛ عقوق الوالدين من كبائر الذنوب، وقتل النفس من كبائر الذنوب، وأكل أموال الحرام والتعامل بالربا كلها من كبائر الذنوب، فإذا اجتنبتها وحاولت أن تبتعد عنها وتبت منها، الله عَزَّ وَجَلَّ يكافئك بأي شيء؟

قال: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: 31]، أي صغائر الذنوب يكفرها الله إذا اجتنبت الكبائر . ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: 31]، وهذا وعد من الله عظيم أن يمحو عنك السيئات إذا ابتعدت عن الكبائر، ويدخلك مدخلاً كريماً وهو الفوز بجنات النعيم.

هذا وعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا وإياكم ممن يدخل المدخل الكريم، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، إن شاء الله لنا لقاء نستكمل فيه هذه الآيات الكريمات، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(87)
(النساء 32 - 33)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، يوم الأربعاء الموافق للخامس عشر من شهر ربيع الآخر من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، اجتماعنا حول القرآن الكريم قراءة وتفسيرًا وتدبرًا، لا زلنا في هذه السورة الجليلة العظيمة وهي سورة النساء.

وتوقف بنا الكلام عند الآية الثانية من هذه السورة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: 32].

هذا نهي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ينهى المؤمنين أن يتمنى الإنسان شيئًا ليس في قدرته وليس من خصوصياته؛ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 32]، قد يوجد عند شخص نعمة أنعم الله بها عليه، فلا تتمنى هذه النعمة أن تكون عندك ولا تكون عنده، هذا من الحسد.

تجد بعض الناس يجد مثلًا صاحبًا له أو جارًا له أنعم الله عليه بنعمة الصحة، بنعمة المال، بنعمة العلم، بنعمة الجاه بالمنصب، يبدأ ينظر فيه ويتمنى أن تكون هذه الأشياء التي عنده تكون عند هذا الشخص، هذا هو الحسد بعينه.

- لا يجوز الحسد، ما هو؟

هو تمني زوال النعمة التي عند الآخر فتكون عندك أو تذهب، لا يرتاح باله يشوف صاحبه أو جاره على هذه الحال لا يرتاح، يعني اسأل الله من فضله، الله يقول: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: 32]. الباب مفتوح أمامك اسأل الله فلا تتمنى.

أما إذا كنت تتمنى هذه النعمة التي عند هذا الشخص تتمنى أن تكون عندك وتبقى عنده، هذا لا شك أنه جائز.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْمَالَ فَهُوَ يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقْرَأُ بِهِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»**.

فكان يقول الإنسان والله ليتني أكون حافظًا لكتاب الله مثل هذا الرجل الذي يحفظ القرآن كاملًا، أنا ودي والله أكون مثله أحفظ القرآن كاملًا، نقول هذا جائز، تتمنى أن تكون من حفظة كتاب الله هذا أمر جائز.

ما نسميه هذا أنك تتمنى أشياء من خصوصيات هذا الشخص، أو أشياء موجودة عنده، تتمنى أن يكون عندك مال كثير حتى تنفق في سبيل الله، تقول ليتني مثل فلان عندي وأفعل مثل ما يفعل، والله هذا الرجل الثري من الرجال، الغني من الرجال عنده أموال كثيرة، لكنه ما شاء الله ينفق في سبيل الله، ويبني المساجد، ويفعل كذا ويفعل كذا ليتني مثله لو عندي مال فعلت كذا، نقول هذا جائز.

لكن تتمنى أن يكون هذا الشيء عندك ويذهب عنه، هذا الحسد. أو تتمنى أشياء لا يمكن حصولها، مثل يجي واحد يقول والله أنا أتمنى أن أكون نبي، كيف تكون نبي؟ تتمنى أن تكون نبي ما هي النبوة ما هي بيدك ولا بيد فلان، النبوة بيد الله سبحانه.

- أو تأتي المرأة ولذلك شو قال؟

قال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: 32]، بعض النساء تقول ليتني أكون ليتني رجلًا حتى أكون إمامًا في المسجد، حتى أكون كذا حتى أكون كذا، أنتِ تخالفين فطرة الله وتخالفين ما قدره الله بحكمته، لا تتمنين شيئًا ليس من خصوصياتك، وكذلك الرجل لا يتمنى أشياء ليست من خصوصياته.

هذا هو المقصد لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنت تقرأ هذه الآية: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 32]. المرأة فضل الله الرجل عليها في الميراث، وفي الإمامة، وفي الجمع والجماعات، وفي الجهاد، وفي أشياء كثيرة ما تتمناها المرأة، تقول لي أجاهد، ليتني أصلي أكون إمامًا أو أكون خطيبًا، ليتني كذا، ليتني أكون حاكمة على دولة كذا، هذه أشياء من خصوصيات الرجال فلا تتمنين.

وكذلك الرجال لا يتمنون أشياء ليست بإرادتهم أو بقدرتهم أو تخالف حكمة الله، كل هذه الأشياء ينبغي للإنسان أن يتأدب، يتأدب مع حكمة الله ومع قدر الله وإرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ وجه قال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ [النساء: 32] يعني الرجال لهم نصيب مما اكتسبوا وقدره الله لهم وكتبه الله لهم، هذا لهم نصيب في الميراث، لهم نصيب في أعمالهم ووظائفهم، لهم نصيب فيما أنعم الله عليهم بكمال العقل، بالنسبة للمرأة أقل عقل، بكمال الخبرة، المرأة أقل خبرة، فللرجال نصيب مما اكتسبوا ومما أنعم الله عليهم، وللنساء نصيب مما اكتسب الله أعطاها خصوصيات تخصها فهي من حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلها نصيب مما اكتسبت وحصل لها.

وثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعد ذلك لما بين كل له نصيب قال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: 32] الباب مفتوح أمامك، اسأل الله من فضله، إذا وجدت شيئًا خيرًا، نعمة، فلان عنده قصر، فلان عنده بيت، فلان عنده كذا، فلان له منصب له مرتبة عالية في وظيفته، له كذا، اسأل الله من فضله، المجال المفتوح لا تحسد فلانًا ولا تحسد فلانًا، فاسأل الله من فضله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: 32] عالم بأحوال النساء، وعالم بأحوال الرجال، وعالم بمقاصد الناس، وعالم بنياتهم، وعالم بما يسألون الله، فالله لا يخفى عليه الشيء في الأرض ولا في السماء سبحانه، فالمجال مفتوح أمامك.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: 33].

انظر لما تقرأ هذه الآية يمكن كثير من الناس ما يفهم معناها، لكن أنت تقف عند كلمة مما ترك، شلون ترك؟ قالت ترك يعني الميراث، يعني الوالدان الأب والأم أو الأقارب إذا توفوا فلهم من يرثهم، هذا معنى الآية، يرثه هناك من يرثهم، فإذا مات الأب أو الأم قد يكون عنده ذرية، أو آباء، أو أقارب يرثونه، أو قريب يرثه قريبه عم، ابن عم، ونحو ذلك.

قال: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾ [النساء: 33] كل من يموت وكل شخص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل له من يرثه، ولذلك هذه الآية تعود بنا إلى ما يتعلق بالميراث، بالميراث والتركات التي مرت معنا: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: 33]. فالوالدان الأب والأم، أو الأقارب من الإخوة أو الأعمام أو نحوهم إذا تركوا شيئًا، فإن وراءهم من يرثهم، هذا معنى الآية، فإن وراءهم من يرثهم.

- من هم الذين يرثون؟

تقدم الكلام كله عن الميراث، قال هنا بعدها: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: 33]، عقد اليمين يعني المعاقدات والمحالفات والاتفاقيات على، في شركات في بين شخص وشخص يكون هناك اتفاقيات.

هذه الاتفاقيات وهذه العقود، وهذه العقود والاتفاقيات التي يعني تبرم بين طرفين اثنين، أو بين شركة أو بين أفراد، هذه يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: 33]، يعني ما اتفقتم عليه لابد من الوفاء.

أنت أبرمت عقدًا مع فلان على أن تقوم شركة، أو تقوم مؤسسة تجارية وكذا، إذا اتفقت معهم يجب عليك أن تفي بهذه العقود التي وقعت عليها وهم يوفون بالعقود، هذا الذي يريده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: 33].

- لماذا قال اليمين؟

لأنهم دائمًا يعقدون باليمين، أو يكون الإبرام باليمين والاتفاقية باليمين والسلام باليمين فيتم هذا الأمر. ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ [النساء: 33] آتوهم نصيبهم، أعطوهم ما اتفقتم عليه من الحلف، ومن المؤازرة، ومن النصرة، لأنهم كانوا في الجاهلية يأتي الشخص ويقابل شخص ويقول: نتفق نحن وإياك على أي شيء؟

قال: دمي دمك، ومالي مالك، يعني لو أقتل أنت تدافع عني، أو لو أن شخصًا أراد قتلي تكون معي، ومالي مالك، ودمي، وارثني وأرثك، حتى في الجاهلية حتى في الميراث، لكن الإسلام ألغى الميراث وجعل المواريث لأهلها.

انظر قال: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: 33]، انظر كيف كلمة اسم الشهيد يأتي هنا، ليش؟ لأن هذه التي تبرم وتعقد على الطاولات الله مطلع عليها، وأنت

قد توقع على أشياء وهم قد يريدون أمورًا أخرى، أو تريد أمرًا آخر لا يجوز، الله مطلع وكلٌ يعلم الله نيته.

فإن كانت هذه الشركة قائمة على الصلاح وعلى الصدق والمصداقية ونفع هؤلاء الأشخاص فالله مطلع عليهم، وإن كانوا يريدون غير ذلك فالله مطلع عليهم.

فذلك من التدبر، تدبر القرآن أن تعرف أسماء الله الحسنى كيف تأتي في القرآن، انظر يقول: ﴿فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: 33] يعني مطلع وعالم بأحوالكم ما يخفى عليه الشيء. فأنت أحيانًا تبرم عقودًا بينك وبين شخص.

وتقول الله شهيد، تقول كذا الله شهيد بيني وبينك، ويمكن ما تكتب أوراق، ويمكن تقابل شخص وتقول له مثلًا بيني وبينك اتفاقية على أن نفعل كذا وكذا، ولكن ما بين أوراق، الله شهيد، الله مطلع علينا، والله انظر: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: 33].

وكان في السابق ما فيه أوراق وما فيه شهود أحيانًا، وحتى بعض الزواجات يشهد من يشهد، لكن الله يقولون في زواجهم والله شهيد على ما نقول، والله شهيد على ما نقول.

انظر الآية اللي قبلها عشان نعرف التدبر، الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا قال؟ ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: 32]، يعني عالم بالأحوال، ما قال كل شيء شهيدًا، انظر لأن هذه الإنسان يسأل الله، يمكن في خفية، في سجوده وده في مكانه، في ظلمة الليل، في كذا ما أحد يطلع عليه، ولذلك جاء قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: 32].

هذه الأشياء التي تعقد وتبرم بين أشخاص قال الله شهيد، انظر لما يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحكام النساء، وأحكام الزواج، وأحكام الرجال، ويذكر ما يسأله الرجال ويسأله النساء، يأتي بيان حكمة الله في خصوصيات الرجال وفي خصوصيات النساء.

كأن هذه الآية التي تأتينا الآن كأنها شرح وبيان لمعنى ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: 32] للرجال نصيب وللنساء نصيب. ما هو الذي للرجال وما هو للنساء؟ اسمع: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: 34].

انظر قوام يعني صيغة مبالغة من القيام، يعني الرجل يقوم على المرأة، يقوم على المرأة بأي شيء؟ بشؤونها بكل ما تحتاج إليه المرأة، هي مكفية المهر يأتيها، والسكن يأتيها، والنفقة تأتيها، والكسوة تأتيها، يخدمها الرجل بكل ما تحتاجه هي مخدومة، هي بمنزلة الملكة. فبعض الناس ولذلك ليش أقول الكلام هذا؟ بعض الناس يفهم أن الرجال قوامون على النساء يعني الرجال يتسلطون على النساء، وأن شخصية الرجل على المرأة استبداد وتسلط ودكتاتورية كما يقال، ليش هذا؟ هذا ليس مفهوم القرآن، ليس مفهوم القرآن.

مفهوم القرآن الرجال قوامون على النساء يعني مثل الراعي مع رعيته والملك مع من تحته، الملك يسهر لأجل رعيته، ويخدم رعيته، ويقدم ما تحتاج إليه الرعية، يخدمها الرجل، الرجال قائمون على حقوق النساء، ويخدمون النساء، ويقدمون لهم ما يحتاجون، ويراعون النساء، ويحفظون النساء.

لولا الرجل لضاعت المرأة لتسلط عليها من يتسلط عليها، وأخذ مالها، ليس عندها خبرة، ليس عندها فطنة، ليس عندها معرفة، قد يفوت أشياء كثيرة، ولذلك جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القوامة، والطلاق، والنكاح، والعصمة بيد الرجل؛ لأنه أخبر وأفهم وأدرك.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: 34]، لماذا؟

ذكر لك سببين:

⬅السبب الأول: هذا تفضيل الله ذلك فضل الله فلا يعترض على هذا الفضل؟

هذا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما فضل الله بحكمته، ليس تفضيلًا هكذا عشوائي، لا بحكمة بليغة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: 34]، هذا السبب الأول، هذا سبب يسمى موهبي من الله ما أحد يتدخل فيه.

⬅السبب الثاني: ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: 34] السبب هو الإنفاق، لأن الرجل هو الذي ينفق، هو الذي يدفع المهر، وهو الذي يأتي بالكسوة، وهو الذي يأتي بالطعام والشراب، وهو الذي يستأجر الدار، أو يستأجر السكن، والذي يقوم بما أنفق بما أنفقوا من أموالهم، فالرجال تميزوا بهذه المزايا، وأصبحوا قوامين على النساء؛ فضل من الله وبما أنفقوا من أموالهم وبما تعبوا في خدمة أزواجهم.

هذا الجانب الأول، طيب والنساء ما تميزوا به؟ ما هو الذي تميزت به النساء؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ، انظر أعطاها أحسن الصفات، المرأة، المرأة المتميزة هي التي تتصف بهذه الصفات قال، انظر ذكر الله لها ثلاث صفات فقط.

إذا تميزت بهذه الثلاث صفات أصبحت فوق كل امرأة، ما هي الصفات؟

قال: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: 34].

⬅الصفة الأولى: أول صفة أن تكون صالحة، صالحة في علاقتها مع ربها، وصالحة في نفسها، وصالحة مع زوجها ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ [النساء: 34] الصلاح، الصلاح ضد الفساد، لا تكون فاسدة في نفسها، ولا تكون فاسدة في علاقتها مع ربها، ولا علاقتها مع زوجها، أول صفة الصلاح، الصلاح هذه أول صفة.

⬅الصفة الثانية: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ﴾ [النساء: 34] القانت المطيع، المطيع الذي لا يعصي هذا يسمى قانت، دائمًا ملتزم طاعة الله، فهنا القانتة المرأة القانتة يعني المطيعة لربها.

ولذلك الله مدح مريم في بقوله: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: 12]. جعلها الله عَزَّ وَجَلَّ وهي امرأة مريم جعلها في زمرة الرجال القانتين صفها معهم لكونها مطيعة.

ذكر بعض المفسرين قال: **"لما خاطبت الملائكة مريم ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: 43]، قامت الليل حتى بدأ الدم يسيل من رجليها"**، هذا معنى الطاعة والقنوت، القنوت طول القيام طول القيام التزام طاعة الله، فالمرأة الصالحة القانتة التي لزمت طاعة ربها ولزمت طاعة زوجها.

☚ النبي ﷺ يقول: **«إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ فَرْضَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَصَنَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا ادْخُلِي مَعَ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ»**. انظر فصفات المرأة، انظر قال صالحة، قانتة، حافظة للغيب، تحفظ دينها، تحفظ زوجها، تحفظ ماله، إذا غاب عنها حفظته ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: 34] يعني بحفظ الله لها، لأن الله لما حفظها حفظت زوجها، أو لأن الله أمرها أن تحفظ فحفظت، هذه صفات المرأة الصالحة التي تكون في هذه المنزلة، هذه صفاتها.

إذا لم تكن بهذه الصفات؟ إذا لم تكن أخلت بهذه الصفات صفات وتركت هذه الصفات، قد تترك كلها، ماذا يصنع الرجل معها؟

انظر قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: 34]. انظر ما أعطاك صفة عامة، لا، قال قد توجد تخاف تظن، يعني قد يوجد فيها تتوقع هذا النشوز.

- ما هو النشوز؟

النشوز هو أن تترفع المرأة عما أوجب الله عليها تجاه زوجها، تترفع تمتنع تعاند هذا يسمى نشوز، يقول لها افعلي كذا تقول لا، يقول تعالي تقول لا، هذا يسمى نشوز.

هذه صالحة؟ هذه قانتة؟ هذه حافظة؟ هذه خرجت عن الطريق، لازم نعيدها عشان تمشي على الجادة، هذه نشزت الآن النشوز هو الترفع عن الطاعة، قال عالجوها، كيف نعالجها؟

نعطيها علاج، إن مشت في العلاج فبها ونعمت، إذا لم تمشِ في العلاج لها حل آخر، ولذلك الله أتى بالتدرج شيئًا فشيئًا قال: إذا خفت من ألم النشوز أول طريق لعلاجها الوعظ ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء: 34]، خوفها بالله وذكرها بالله وبعقوبة الله، وذكرها بأن الدنيا ماشية وأمامك حساب وأمامك عرض أمام الله وأمامك جنة ونار، أمامك وأمامك تخويفها بعقوبة الله وتهديدها ووعظها وتذكيرها بما أعد الله للطائعات، وبما أعد الله للعاصيات كل هذا تذكير.

إن نفع العلاج فبها ونعمة خلاص يقف عند هذا الحد، ما نفع العلاج معها واستمرت على ما هي عليه قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34]، اهجرها وقت النوم فقط، ليس في المجالس وليس عند الأولاد، لا تثير هذا الأمر، الهجر يكون في مكان خاص في مكان خاص هنا يكون الهجر.

أما تجد بعض الرجال إذا حصل من المرأة تقصير هجرها وأمر أولاده أن يهجروها، لا تكلمون أمكم لا تفعلون لا تطيعون، هذا ما يصلح، هذا أنت الآن تورث في الأبناء أشياء لا ينبغي لك أن تنشئهم على هذا الشيء.

إذا كنت في النهار معهم ما كان في البيت أي شيء، ولا يحصل من المرأة أي شيء، إذا جاء كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34] يبدأ الهجر عشان يؤثر.

قال: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ [النساء: 34] هذه مرحلة العلاج الثاني، نافع العلاج؟ ما نفع العلاج الأول نأخذ العلاج الثاني، ما نفع العلاج الثاني هجرتها وماضية فيما هي عليه من العناد والاستكبار والنشوز.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: 34] ضربًا غير مبرح، مجرد تخويف حتى قال بعض السلف: **"بالسواك"**، تهديد تخفيف لا أن يأخذ عصًا ويضرب، لا لا هذا لا يجوز، ولكنه من باب التهديد والتخفيف؛ لأنه هذا علاج تعالج فيه المرأة.

نفع مثل العلاجات اللي تستعملها أنت، نفعت معك العلاجات؟ ولا نسميها هذا علاج نفع معك العلاج، قول لا ترك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 34]. خلاص مشت الأمور الثلاثة ذي؛ وعظتها ثم هجرتها في المضجع ثم ضربتها تخويفًا تهديدًا، نفع هذا العلاج، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 34] خلاص لا تتسلط عليها، اتركها ولا تذكر شيئًا ماضيًا افتح صفحة جديدة خلاص، ما كأن شيء حصل في البيت، ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 34].

انظر لما أعطاك الله القرآن القدرة والقوة أيها الرجل، اعلم أن وراءك قوة الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك انظر حتى أنا دائمًا أقول الآيات اللي تختم بأسماء الله لازم تقف عنها تدبرها، ما تقرأ هكذا انظر قال: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: 34] أقوى منك، الله أقوى منك، فإذا تسلطت عليها فالله أقوى منك.

في قصة لأبي مسعود الصحابي الجليل أبي مسعود الأنصاري مر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا هو يضرب بعبده يضرب بعبده والعبد يبكي بكاءً شديدًا.

☜ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنْ كُنْتَ قَدْ قَوِيتَ عَلَيْهِ فَاللهُ أَقْوَى مِنْكَ»**. فذهب وتركه، فماذا صنع هذا الرجل لما سمع النبي يقول هذا الكلام؟ قال: أنت حر في سبيل الله، وأعتق

العبد كان يضربه فأعتقه لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنْ كُنْتَ قَوِيًّا عَلَى هَذَا ضَعِيف وَاللَّهُ أَقْوَى مِنْكَ»**.

فهنا انظر يقول: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 34] على النساء، لا تتسلط على المرأة إذا كانت ضعيفة واستجابت لك وبادرت، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: 34].

- لو فرضنا أن هذا العلاج ما نفع؟

وعظ، هجر، ضرب ما في حل، ما في حل المرأة مستمرة على ما هي عليه، ما الحل؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: 35].

انظر الآن خرجت الدائرة من البيت إلى خارج البيت؛ حاكم، ولا ولي، ولا مصلح، ولا عمدة الأسرة، أو نحو ذلك.

قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ [النساء: 35] أيها أنتم خارج الأسرة، ﴿شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: 35] يعني بين الزوجين، يعني معنى الشقاق بينهما يعني هي في جهة وهو في جهة ما يتلاءمون ما يمشون مع بعض.

- ما الحل؟

قال فابعثوا حكمًا من أهله وحكمًا من أهلها، يعني طرف من جهة الرجل الزوج وطرف من جهة الزوجة، رجلان حكمان عاقلان دينان عندهم العلم والمعرفة والخبرة في حل القضايا الأسرية، فيأتي هذا الرجل من جهة الرجل رجل حاكم، وهذا حاكم من جهة المرأة، ويحلون المشكلة.

في مشكلة بينكم؟ نحلها، ماذا تريد أنت وهي ما أيش تريد؟ أنت أيش تطالبين؟ الرجل ماذا قال لك حتى تعصينه؟ وهو ماذا ولماذا أنت تفعل كذا؟ لماذا أنت فيحلون المشكلة.

قال: ﴿إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: 35]، إذا أراد الحكمان إصلاحًا الله يوفق بينهما وبين الزوجين، إذا أرادوا إصلاحًا فيبعث حكمين فيحلون المشكلة، فإن أرادوا إصلاحًا بنية صادقة الله عَزَّ وَجَلَّ أعانهما ووفق بينهما ووفق بينهما.

وإن أرادوا غير ذلك؛ لأن أحيانًا يعني ينتصر الرجل لجهة الزوج، والمرأة هي من طرفها رجل وينتصر للمرأة فيقول المرأة ما فعلت وما فعلت ويبدأ يخفي أشياء، هذا ما يريد الإصلاح هذا يريد الشقاق، الله عَزَّ وَجَلَّ نبههم قال لابد أن يكون حكمين، لابد أن يكون حكمان يريدان الإصلاح، ما تريد الإصلاح ما ينفع ما في حل.

- قد يحاول حل المشكلة بين الزوجين لكن ما في حل، ماذا يصنع؟

الجواب: يفرقون، يفرقون بينهما إذا لم تصلح إذا لم يصلح الوئام، التقارب بين الزوجين وحل المشكلة الحل أن يفرقون بينهما، فيقول: أنت ما تصلح لها وهي ما تصلح لك، ما تمشون خلاص، أنت تذهب في طريقك وهي في طريقها، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوفق الزوج لزوجة صالحة، وأنتِ يوفقك الزوج الصالح، يفرق بينهم يفرقون؛ لأنهم مبعوثين هم حكمان لابد أن يقضيان لابد.

انظر لاحظ ختم الآية حتى نختم المجلس، انظر قال: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: 35]. انظر ختم الاسم كل شوي يجينا اسم من أسماء الله، عليم بحال الزوجين، عليم بحال الحكمين هم يقصدون الصلاح ولا الفساد، وعليم وخبير زيادة على ذلك، يعني عليم بما هو ظاهر، وخبير بما قد يخفى، قد يخفى عند المرأة أو عند الرجل أشياء أو عند الحكمين الله مطلع.

فأنت أيها الحكم الذي انبعثت للحل، وهذا انبعث للحل اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن الله عليم بأحوالكم خبير بكم، وأنتِ أيتها المرأة، وأنت أيها الرجل اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ فيما يجري بينكما فإن الله عليم خبير.

نقف عند هذا القدر وإن شاء الله لنا لقاء نستكمل فيه والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(88)
(النساء 36 - 42)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصل وسلم على أشرف الأنبياء المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، مع درسنا الأسبوعي كل أربعاء بعد صلاة المغرب مع القرآن الكريم تفسيرًا وتدبرًا وتأملًا.

لا زلنا في هذه السورة العظيمة الجليلة القدر، وهي سورة النساء؛ الآيات التي معنا هي الآية الـ 35، هذه الآية يسميها أهل العلم آية الوصايا العشر، التي أوصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده المؤمنين بها، والأخذ بها والعمل بها، اشتملت على عشر وصايا ينبغي للمسلم إذا قرأ الآية أن يقف مع هذه الوصايا العشر التي فيها خيرٌ له في دنياه ودينه وآخرته.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36]؛ هذه أول وصية، وصية الله للأولين والآخرين، وصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للخلق أجمعين، أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بعثه للرسل للناس: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، وقامت السماوات والأرض والخلق كله لتحقيق عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والله عَزَّ وَجَلَّ ما خلق الخلق إلا لعبادته، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، ما خلقهم عبثًا ولا ليفسقوا ولا ليأكلوا ويشربوا ويناموا كالبهائم، وإنما خلقوا لعبادة الله.

- ما هي العبادة؟

قال أهل العلم: **"العبادة اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال"**، العبادة اسمٌ جامعٌ، اسم يجمع **"اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال"**؛ أقوال باللسان والأفعال بالجوارح، هذه عبادةٌ، العبادة لا تكون عبادةً إلا إذا كانت قائمةً على شرطين: الإخلاص والمتابعة.

إذا كان العبد يعبد الله مخلصًا له الدين، ويتابع ما جاء عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- الإخلاص ما الذي ما الذي يخالفه؟

الرياء، أن يعبد لأجل الدنيا، لأجل غرضٍ من أغراض الدنيا، لأجل فلان لأجل فلان، هذه عبادةٌ باطلةٌ، والأمر الثاني المتابعة: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ.»**

لو جاء إنسانٌ يتعبد الله بغير ما شرع الله ولم يشرعه الرسول فعبادته مردودةٌ عليه، لا يقبل الله منه إلا ما كان لله وكان على ما شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كل هذه الأشياء قال الله سبحانه لما أمر بالعبادة وهي أول أمرٍ، أول أمرٍ في هذه الأوامر حتى في آيات أخرى قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]؛ لما أمر هنا قال اعبدوا الله قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36]، يعني يجب على المسلم أن يعبد الله ويحقق العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخلصًا متابعًا فيها ما شرعه الله، وأن يحذر أن يقع في شيءٍ من الشرك.

ولذلك لاحظ قال: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36]، ولو قليلًا؛ فالذين يطوفون على القبور أو يسألون الأموات ويدعون الأموات، والذين يستغيثون بالأموات ويسألونهم، أو يجعل أو يصرف شيئًا من خصائص الله، شيئًا مما أمر الله به لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يصرفه لأي مخلوق معبود من أي مخلوق عبد من دون الله، هذا هو الشرك.

الشرك شركٌ أكبر وشركٌ أصغر، الشرك الأكبر كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الشرك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: 72]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48]؛ لا يغفر إذا مات الإنسان على الشرك، لن يغفر الله إذا مات على الشرك، مصيره إلى نار جهنم لن يدخل الجنة، حرم الله عليه الجنة، الشرك خطيرٌ جدًا.

تجد بعض الناس يتساهل في بعض الأشياء، الأشياء التي تكون من خصائص الله فيصرفها إلى مخلوق، الدعاء مثل الدعاء، تدعو من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، وغيرها من أنواع الشرك الكثيرة التي لا نستطيع أن نحصرها في مثل هذا الوقت.

لكن الذي نريد أن نفهمه أن المسلم يجب عليه أن يحقق العبادة لله بشرطيها الإخلاص والمتابعة، وأن يحذر أي طريق يؤدي إلى الشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يصرف شيئًا من خصائص الله لشيءٍ من المخلوقين، هذا هو الشرك.

قال الله بعدها: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: 36]، يعني أحسنوا بالوالدين إحسانًا، الوالدين انظر دائمًا يأتي حقهما بعد حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]؛ انظر بعد حق الله حق الوالدين، لماذا؟

لأن الوالدين هم سبب وجودك على هذه الدنيا، هم سبب وجودك فحقهم عظيمٌ، وهم الذين تسببوا في تربيتك في وأنت صغير وربوك التربية الحسنة، فلهم الفضل بعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله حث وأمر وشدد شدد في عقوق الوالدين وحذر منه، حتى لو كان الوالد أو الوالدة مشرك أو مشركة يجب أن تحسن إليهما.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]؛ يعني لازمه، أحسن إليه، أعط حقه وإن كان وإن أمرك بالشرك لا تطيعه، أمرك بمعصية الله؛ **«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ»**، لكن هذا لا يمنع من الإحسان إلى الوالدين.

- الإحسان بأي شيء أي ما هي صور الإحسان؟

طاعة الوالدين، التلطف لهما، الكلام، برهما، الإحسان إليهما، يعني إدخال السرور عليهما، النفقة عليهما، الهدية لهما، صلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، برهما بعد موتهما، الإحسان إلى أصدقاء الوالدين والوالدة والوالد أو الوالدة، وغير ذلك من وجوه الإحسان التي أمر الله بهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23]؛ هذا أول أمر، هذه الوصية الثانية التي أوصى الله بها، الوصية الثانية الإحسان إلى الوالدين، ثم قال: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: 36]، أي أحسنوا إلى ذي القربى.

- من هم ذي القربى؟

هم قرابتك المحيطين بك، الأعمام، الأخوال، الإخوة، أبناء الإخوة، أبناء الأخوات، كل من أبناء العم، هؤلاء كلهم قرابةٌ يجب أن تحسن إليهم، تحسن إليهم بصلة الأرحام، بالتواصل معهم، بالوقوف معهم عند الحاجة، بالنفقة عليهم إن كانوا فقراء، إلى غير ذلك يكون هناك يعني إحسانٌ إليهما بأي صورةٍ من صور الإحسان، هذه الثالثة.

الرابعة قال بعدما قال وبذي القربى قال: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: 36]؛ اليتامى كل يتيمٍ فقد والده ولم يبلغ الحلم، هذا يسمى يتيمًا في الشرع، أي شخصٍ فقد والده ولم يبلغ سن التكليف هذا يسمى يتيمًا، فقد والده، فقد رعاية الأب، فقد إدخال السرور من الأب عليه، فقد النفقة الوالد عليه، هذا إذا فقده قد يكون ما يجد من ينفق عليه فيكون من الفقراء الأيتام.

☜النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حث على كفالة الأيتام قال: **«أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ»**، فجمع بين السبابة والوسطى، فاليتيم له حقٌ، وينبغي أن يحسن إليه، وينبغي أن يراعى، وينبغي أن يتلطف معه، وينبغي أن يعطى من الحقوق، وينبغي أن لا يعني يبعد عن المجتمع ويترك ويهمل.

بعدها قال أيضًا: ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ [النساء: 36]، يعني وأحسنوا أيضًا بالمساكين، المساكين منهم؟ جمع مسكين هو الفقير الذي أسكنته الحاجة حتى سقط على الأرض من شدة الجوع لا يجد، قد يكون عليه ديونٌ، قد يكون عليه متطلبات الحياة كثيرةٌ، قد يكون عليه التزاماتٌ كثيرةٌ.

قد لا يجد من يدفع عنه أجر البيت، قد ما يجد من يدفع عنه وتير، قد لا يجد نفقة البيت، قد لا يجد كسوةً طعامًا لأبنائه، هؤلاء المساكين حث الشرع والإسلام على الإحسان إليهما ومتابعتهما والوقوف معهما عند الحاجة.

قال بعدها: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ﴾ [النساء: 36]؛ حتى الجار يجب أن تحسن إليه، **«مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»**، يعني جارٌ يرث جاره من شدة وصية جبريل بأن للجار حقٌ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: 36].

جارك وقريب لك بالنسب له حقٌ، له حقان:

⬅الحق الأول: حق الجوار.

⬅الحق الثاني: حق الرحم، أو قد يكون جار ذي القربى أي قريب ملاصق لبيتك، قريب بيت بينك وبينه بيت أو بيتين، هذا يسمى الجار قريب، ينبغي الإحسان إليه، ينبغي أن لا يجد منك أذى ولا شرور، لا، بعض الناس تجد الجار جاره يتأذى منه؛ برفع الأصوات، بإيقاف السيارات أمامه، بإيذاء أبناءه ونحو ذلك، لا يتأذى الجار منك، أحسن إلى جارك وزره وتفقده إن كان محتاجًا تقف معه.

قال: ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ [النساء: 36]؛ حتى البعيد له حقٌ لو كان بعيد، الجار الجنب من كان جارًا لك ولكنه على مسافةٍ بعيدةٍ، قال بعض أهل العلم حده إلى 40 بيت، كل هؤلاء الجيران ينبغي أن تراعى حقوقهم وأن يحسن إليهم، وأن يتابعوا يتابعه إذا كانوا مقصرين في الصلاة، يتابعوا إذا كان عليهم حقوق وعليهم ديون، عليهم التزامات ونحوها، أن يقف المسلم مع أخيه المسلم مع جاره لا يؤذيه.

قال بعدها: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [النساء: 36].

قال أهل التفسير: **"الصاحب بالجنب الذي يصاحب الذي يصاحبك دائمًا"**، يصاحبك إما في سفرٍ أو في رفقةٍ أو في تجارةٍ أو في طلب علمٍ، ويدخل في ذلك الزوجة؛ لأنها تصاحب زوجها في جل الأوقات، فهنا لا الزوجة لها حقٌ، وصاحبك بالجنب المسافر له حقٌ أن تحسن إليه، الذي معك في الشركة أو معك في المؤسسة أو معك في العمل وهو دائمًا ينبغي أن يجد منك الإحسان والبر والتلطف بالكلام والمعاملة الحسنة، لا أن يجد منك معاملةً سيئةً، هذه يحث عليها الإسلام.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء: 36]؛ ابن السبيل هو الذي قد ينتقل من بلدةٍ إلى بلد من بلد إلى بلد أو يسافر ثم ينقطع به الطريق؛ إما أن تهلك راحلته، أو يذهب ماله، أو يسرق ماله، أو يتعرض له أحد ويأخذ ما معه فينقطع ما عنده شيء، يموت من الجوع، لا مأوى ولا طعام ولا شراب، هذا أحوج الناس.

فإذا دخل على شخصٍ ينبغي له أن يحسن إليه، وأن يعطى من الزكاة، وأن يوقف معه وأن يساعد حتى يصل بلده، قال: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: 36]؛ ملك اليمين المماليك، سواءً أن كانوا الأرقاء رجالًا أو نساءً، الرقيق أو الأمة، هؤلاء ينبغي أن تعرف حقوقهم وأن يحسن إليهم، لا أن يكلفوا بالأعمال الشاقة، لا أن يستصغروا ولا يلتفت إليهم أو يحتقروا، لا، ينبغي أن يحترمون هم مثلك من بني آدم.

لكن قدر الله عليهم أن يكونوا أرقاء أو نحو ذلك، فالإسلام يحثك على الإحسان إليهم والبر إليهم وتربيتهم ومعاملة معهم معاملةً حسنةً؛ لأنهم تحت أيديكم، ما ملكت أيمانكم تحت أيديكم.

ويدخل في هذا الأجير، يدخل في هذا السائق، يدخل في هذا العاملة في البيت الخادمة، ينبغي أن يحسن إليها، ينبغي أن تعامل معها الحسن، أن تعلم وأن تؤدب وأن ترى منك الكلام الطيب الحسن، لا الاتهامات والأذى والتكليف ما لا يطاق.

وكذلك السائق ينبغي أن يراعى، يعني جاء لظروفٍ ظروفٍ دعته أن يأتي لهذا البلد، ينبغي أن تراعى ظروفه، وينبغي أن يراعى في الكلام الطيب والحسن والأخلاق الطيبة، كل هذا يحث عليه الإسلام.

هذه عشرة أمور: اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وبالوالدين إحسانًا، بذي القربى إحسانًا، واليتامى والمساكين، والجار ذي القربى والجار الجنب، والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم.

قال الله بعدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36]؛ الاختيال التكبر، التكبر على الضعفاء والمساكين، والفخور الذي يفتخر بنفسه يقول أنا منصبي كذا وكذا، وأنا ابن

فلان كذا وكذا، وأنا عندي من المال كذا وكذا، فيبدأ يجلس يقول أنا ذو حسب وذو نسب وأنا فلان وأنا فلان يفتخر على الناس.

هنا سرٌ عجيبٌ، ليش الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في آخر الآية إن الله لا يحب من كان مختالًا، إذا تأملت الآية؛ عبادة الله تريد منك الخضوع لله وأن تسجد لله وأن تخضع لله وأن ترغم أنفك في التراب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تستصغر نفسك لله عَزَّ وَجَلَّ، الوالدين إحسانًا أن تتواضع لوالديك وأن تخفض لهما جناح الذل، الأقارب، المساكين، اليتامى؛ كلهم هؤلاء يحتاجون منك أن لا يجد منك خيلاءً وتكبر عليهم وافتخار عليهم، ولذلك انظر لاحظ أن الله ختم بهذا الأسلوب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد هذا، انظر لأن هذا التكبر دائمًا والاختيال والافتخار بنفسه على الضعفاء والمساكين سببه البخل، لا يريد أن ينفق عليه، لا يريد أن ينفق على والديه، لا يريد أن ينفق على اليتامى ولا المساكين غالبًا، ولذلك انظر بخيلٌ بنفسه ويمنع غيره أيضًا.

- انظر قال الله عَزَّ وَجَلَّ لا يحب من كان مختالًا فخورًا، من هم؟

قال: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: 37]؛ يبخلون بأنفسهم ما يخرج مال للفقراء والمساكين ولا يتصدق ولا يحسن ولا لوالديه ولا لأبنائه، يبخل وزيادة على ذلك يأمرون الناس بالبخل.

يعني ما يكفي أنه بخيل يحث الناس على البخل، هو سيئٌ وخلقه سيئٌ ويدعو الناس إلى الخلق السيئ، ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، من الذي أعطاك المال؟ ومن الذي أعطاك العقل والتفكير والرحمة لهؤلاء؟ تكتم ما آتاك الله من فضله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: 37]؛ هؤلاء هذه صفات الكافرين، صفات الذين أعد الله لهم العذاب المهين، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون، الله قد جحدوا نعمة الله وكفروا نعمة الله، فأعد الله له العذاب المهين لأنهم أهانوا الخلق، ولم يعترف بحق الوالد ولا حق المسكين والقريب والجار، فأهانه الله بالعذاب.

قال وأيضًا انظر؛ يبخل هذا يبخل ويأمر الناس بالبخل، آخر ماذا يصنع؟ ينفق لكن ليس لله، ما تنفع نفقته، قد ينفق على الفقراء وينفق على والديه وينفق على المساكين وينفق على هؤلاء لكن ليس لله، مثل ما ذكرنا العمل المقبول ما كان خالصًا لله على ما شرع الله.

انظر قال: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: 38].

- الذين ينفقون أموالهم على أي وجه؟

قال ينفقون أموالهم رئاء الناس لأجل يمدح، قال فلان صخي، فلان كريم، فلان جواد، تنفق علشان تمدح عند أمام الناس، والله فلان يعطي، فلان يتصدق، فلان ينفع، فلان كذا، وله مساهمات وله وقوف وله أيدي بيضاء على فلان وفلان.

إذا أردت هذا المدح من الناس والثناء من الناس فاعلم أن عملك عند الله مردود غير مقبول، هذا هو الرياء، أن ترائي أن يقال فلان كذا وفلان كذا، هؤلاء ينفقون لكن ما تنفع نفقتهم، فكان الإسلام يحذر من أي شيء أن يبخل بماله أو يصرف ماله لأجل الناس يثنون عليه، فلا تكن مثل هؤلاء ولا مثل هؤلاء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: 38]؛ لأن الذي ينفق رياءً ما يؤمن بالله، ما يقدم عمله لله، لو كان يؤمن بالله لجعل صدقته لله، جعل إحسانه لوالديه لأجل رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن ما يبالي.

ولذلك لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، لو كان يؤمن باليوم الآخر لقدم هذا الصدقة أو عرف أن تنفع يوم الآخرة؛ **«الْمُؤْمِنُ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**، ما تنفع إذا كانت صدقته لغير الله ما كان يؤمن بالله واليوم الآخر.

- قال الله؛ لو سألك سائل وقال لك ما الذي جعلهم ما الذي دفعهم أن يفعلوا هذه الأفعال؟ يبخل ويأمر الناس بالبخل وهذا ينفق لأجل الدنيا، ليش؟ ما الذي دفعهم إلى هذا الأمر؟ ما الذي جعلهم يفعلون هذه الأشياء؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: 38]؛ إذا الشيطان هو السبب، الشيطان سبب كل معصية وكل فساد في الأرض، فاحذر من الشيطان أن يكون لك قرين في مثل هذه الأمور، احذر إذا أراد أن يتصدق جاء الشيطان قال كيف تتصدق من يقول لك إن هذا فقير؟

ثم يبدأ يردك، كيف تتصدق وعندك أولاد أولادك أحوج، كيف تصدق أنت تمر فيك ظروف خل مالك عندك خل راتبك عندك، ويبدأ الشيطان.

ما يدري هذا المسكين أن الله أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»**، والصدقة قال: **«مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ»**؛ لو كان يفكر بهذا الشيء، يعني نعرف أشخاص ينزل الراتب ثلث أو ثلثين أو أكثر من النصف يتصدق به، ولم يسمع عنه أنه تدين أو حصل عليه ظرف من الظروف، حفظه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يظنون هؤلاء الذين يمسكون الأموال يظنون أنها الأموال ستحفظهم، الذي يحفظ هو الله، **«أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ»**.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: 38]؛ بئس القرين الذي يقارنك ويحثك على البخل ويحثك على أن تنفق مالك لغير الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهؤلاء البخلاء وهؤلاء الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ماذا قال الله لهم؟ قال: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: 39]؛ انظر أسلوب حث، ماذا عليك لو أنك آمنت وصدقت شو بيجيك؟ شو يصير؟ ماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا أنفقوا مما رزقهم الله، انظر أنفق من وين؟

من جيبك؟ لا، أنت تنفق مما رزقك الله، أنت جئت إلى هذه الدنيا ما معك شيء وتخرج ما معك شيء، أنفق هذا رزق الله، قال وأنفقوا مما وقال يعني شف مما يعني لو قليل وهذا رزق الله مما رزقهم الله، وكان الله بهم عليمًا، يعني تنفق ولو ريال واحد الله به عليم ويضاعفه لك أضعافًا مضاعفة، فما الذي ما الذي ماذا عليك لو أنفقت هذا ودفعته لله؟ ما الذي سيترتب على هذا إلا الخير لك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حفظ حقوق الناس، ويعني تنزيه الله من أن يقع للناس شيء من حقوقهم أو يضيع، اسمع: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40].

- ما هي الذرة؟

قال أهل التفسير: **"الذرة هي النملة الصغيرة"**، مثقال نملة صغيرة تحطها في الميزان.

وبعضهم يقول: **"الذرة هي الهباء المنثور الذي إذا فتحت الشباك في الشمس تجده يتطاير"**، هذه الذرات لو تأخذ مجموعة كثيرة تحطها في الميزان ما يتحرك الميزان، الله لا يظلم في حقوق، أنت ما يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة، هذا لا يظلم مثقال ذرة إذا كان لك عليك أو لك أو لا يذكر، لكن لو قدمت حسنةً واحدةً، حسنةٌ وإن تك حسنةً يضاعفها أضعاف كثيرة.

☜يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ... فَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»**، مقدار تمرة واحدة تصدقت بها لله، أعطيتها فقير، أعطيتها، فإن الله يأخذها بيده فيربيها عنده كما يربي أحدكم فلوه، يعني الخيل الصغير يربيها عنده، هذه التمرة الصغيرة يربيها حتى تكون مثل الجبل، تكون مثل الجبل، يعني تتصدق بتمور تمور تكون كالجبال.

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40]؛ يؤتي من عنده الأجور العظيمة، أنت تتعامل مع رب العالمين، مع الغني الكريم، ما تتعامل مع أي واحد.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ تحذيرًا من الموقف الذي سيقفه الناس كلهم، وأن هذه الحسنات ستظهر والسيئات يوم القيامة قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41]؛ تعجب، فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد؟ كل أمة يؤتى بشهيد، من هو الشهيد لكل أمة؟ رسولها الذي بعث إليها، نوح، هود، صالح، شعيب، غيرهم، كل هؤلاء كل أمة ياتي نبيها معها يشهد عليها هل فعلت أو لم تفعل.

فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك يا محمد على هؤلاء، أمة محمد كلها إلى قيام الساعة، شهيدًا عليهم؛ هل أدوا هل أدوا ما أمرتهم به وقاموا بما أوجب الله عليهم أو لا؟ جئت أنت شهيدًا عليهم.

وبعض المفسرين يقول: **"وجئنا بك يا محمد على هؤلاء الشهداء الأنبياء، تشهد على الأنبياء أنت وأمتك، تشهد للأنبياء وتشهد أنت للأنبياء على أممهم، وجئنا بك شهيدًا"**، قال الله ماذا بعدها؟

وجئنا بك على قال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41]؛ هذا اليوم الشديد العصيب الكرب، ماذا قال الله فيه؟

قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 42]؛ يومئذ يود الذين كفروا، كفروا الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ولا وينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر.

يود الذين كفروا يوم القيامة وعصوا الرسول، كفروا وأشركوا بالله وخالفوا الرسول وعصوه، لو تسوى بهم الأرض، ولا يكتمون الله حديثًا؛ يتمنون أن يكونوا ترابًا في الأرض، أو يدفنون في الأرض وتسوى بهم الأرض؛ لماذا؟ لما يرون ويشاهدون من الأهوال يوم القيامة، ولما يرون من العذاب الذي ينتظرهم في نار جهنم، ينتظرهم انتظارًا عظيمًا.

- قد يأتي سائل يقول: لا يكتمون الله حديث، وفي آية يكتمون فيها ما هي الآية؟

الجواب: يقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23]؛ يكتمون.

- كيف يكتمون؟

الجواب: يكتمون أحيانًا ثم يفضحون في يوم القيامة، لا يكتمون، إذا كتموا فضحوا، فضحوا بتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم، تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، تشهد عليهم جلودهم، تشهد عليهم الأرض؛ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: 4]، تشهد الأرض بأنك صليت عليها، تشهد لك، وتشهد على هذا بأنه فعل عليها معصية، شهود كثير يوم القيامة.

هذه ما ذكرت هذه الآية العظيمة الجليلة، أو هذه الآيات التي وقفنا معها وتأملناها في هذه الحقوق العشرة، وموقف المؤمن منها والأخذ بها، وأمر الله بها ومن خالفها ما هي نتيجته وما هي عقوبته، هذه الآيات العظيمة التي تحدثنا عنها.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفع بها، وأن يبارك لنا ولكم، وجزاكم الله خير على من صلاتكم وحضوركم، بارك الله فيكم، نلقاكم على خير إن شاء الله في الأسبوع القادم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(89)
(النساء 43)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛ أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وعليكم السلام.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء يوم الأربعاء بعد المغرب في كل أسبوع مع درسنا القرآن الكريم؛ نقرأ آيات من كتاب الله جل جلاله ونفسر ونبين ما يحتاج إلى بيان وإلى تفسير، هذا اليوم هو اليوم التاسع والعشرون من شهر ربيع الآخر من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

الآيات التي معنا من سورة النساء، الحقيقة هذه الآية يحتاجها كل مسلم، يحتاج منا أن نتأملها، وأن نقرأها قراءة واضحة، وأن نعمل بها، ونفهمها، ونعرف مراد الله منها، وهي تتضمن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذه الأمة؛ حيث شرع لها أحسن الشرائع، وخفف عليها في شرائعها تخفيفًا لم يحصل لأي أمة من الأمم، فنحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن شرع لنا أحسن الشرائع وخفف علينا في شريعتنا.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: 43].

دائمًا إذا جاءت في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء: 43] قف عندها؛ فإما خير يدلك الله عليه، وإلا شر يحذرك الله منه.

مثل ما قال ابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: **"إِذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا؛ فَمَا هُوَ إِلَّا خَيْرٌ يُؤْمَرُ بِهِ، أَوْ شَرٌّ يُنْهَى عَنْهُ"**، هذا خير الآن يقول: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: 43]، نحن نعرف جميعًا.

يعني أن السكر، شرب المسكرات، المخدرات، هذه كلها ذهاب بالعقل، يذهب بالعقل، يصبح الإنسان كالمجنون، وما فيه من أخطار عظيمة، كان في الجاهلية قبل يعني قبل الإسلام يتعاطون المخدرات والمسكرات ونحو ذلك؛ يظنون أن هذا فيه مصلحة وفيه منفعة لهم.

فلما جاء الإسلام وهم يعني متمسكون وهم متمسكون بهذه العادات من الصعب أن تقطع هكذا، فمن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن جاء بالتدريج شيئًا فشيئًا؛ لأنك لما تأتي لشخص متأصل في هذا الأمر ثم تنزعه بقوة ما يتقبل منك، لكن لما تأتيه وهذا دليل أيضًا، هذا في أسلوب الدعوة إلى الله كأن تأتي للشخص شيئًا فشيئًا حتى يقتنع؛ أما تنزع الشيء منه بالقوة ما يقبل منك ويعترض عليك.

ولذلك انظر في سورة البقرة يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الخمر، في الخمر والميسر يقول: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219]، بس ما قال حرام ولا حلال؛ بس بين لك أن فيه منافع دنيوية من المبالغ والتجارات، وفيه مضار على الإنسان.

ثم بدا التدريج شيئًا بشيئًا، فجاءت هذه الآية بعدها؛ الله حرم على المسلمين في أول أمر أن يقربوا الصلاة، قال: لا تقربوها، ما قال ما قال إن ما قال لك إن المسكر والخمر حرام، لا؛ قال بس لا تصلي وأنت متعاطي، انظر؛ حتى يفهم العاقل أنه ما يمكن يأتي لواحد المسجد وهو فاقد عقله، فلذلك جاء في هنا قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: 43]، أما في غير الصلاة فالأمر حتى الآن ما جاء التحريم.

في آية أخرى بعد هذه في سورة المائدة جاء التحريم خلاص؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90]، إلى أن قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: 91]؛ يعني انتهوا خلاص، ينتهي الأمر، ما عاد ما عاد يتحمل شيء خلاص، فجاء التحريم وانتهى الصحابة.

حتى قال عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: **"انتهينا انتهينا"**، خلاص فحرمت الخمر إلى قيام الساعة، لكن تحريمها بحكمة جاء بحكمة جليلة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما جاء دفعة واحدة، جاء تدريجي.

الآية هذه الآية قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: 43]؛ يعني قد تعاطيتم المسكر، تأتي للصلاة وأنت فاقد عقلك ما يمكن أن تستوعب، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ 1 الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 1-2]، فكيف تأتي للصلاة وأنت فاقد للخشوع؟

يعني هذا فاقد العقل مو بالخشوع، فنهاه الله سبحانه قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: 43] وأنت في هذه الحال، حتى إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما جاءتهم هذه الآية بدؤوا ما يشربون الخمر في أوقات الصلاة أو الأوقات القريبة من الصلاة؛ يشربونه في أوقات بعيدة، ثم بعد ذلك انتهوا وتركوها.

يقول: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: 43]؛ ما تدري ماذا تقول في صلاتك، ما يصلح، ولذلك استنبط بعض أهل العلم أن الذي يغلبه النوم لا يصلي، كيف تأتي للصلاة وأنت فيك نوم ما تدري ماذا تقول؟

فإذا غلبك النوم فلا تقرب الصلاة، وأنت تصلي لا تقرأ، لا تقرأ قراءة القرآن؛ أحيانًا تقرأ القرآن وأنت فيك نعاس وفيك نوم ثم ما تدري ماذا تقول، قد تلخبط في الآيات، كذلك الصلاة.

وفي هذا أيضًا لفتة جميلة حقيقة نفهمها جميعًا؛ أنه ينبغي المسلم إذا جاء إلى المسجد وجاء إلى أداء الصلاة أن يتجرد من الدنيا، لا يلتفت للدنيا، أنت أقبلت على الله ودخلت بيتًا من بيوت الله؛ ينبغي أن تتأدب في هذا البيت، وتحترم صاحب البيت وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتحترم أنه أضافك وأذن لك بالدخول، فينبغي أن تتأدب؛ لا تشتغل بالدنيا، لا تتحدث بأمور الدنيا، لا يشغلك هذا الجوال بهذه الأمور.

تجد بعض الناس ورأيتهم أنا في صلاته في السنة الجوال يتصل عليه يأخذه يضغط عليه، كأنه ما يصلي ولا في صلاة ولا فيها خشوع، وبعضهم يضيع وقته في أشياء في الصلاة وهو يكبر في الصلاة تجده ما فيه استحضار لعظمة الصلاة، استحضار لمكانة الصلاة.

ولذلك قال: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: 43]، وكذلك النائم الذي يغلبه النوم أو الساهي أو المشغول بالدنيا؛ تأتي للصلاة وأنت مشغول بالدنيا؟ فرغ نفسك، فرغ نفسك للصلاة واستحضر عظمة من تقابل، تقابل من؟

يقول: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: 43]؛ السكران يمنع من الصلاة ويمنع من دخول المساجد حتى لا يلوثها؛ لأنه ليس له عقل، وكذلك المجانين، البله

والمجانين والذي عنده نقص في عقله وكذا؛ يمنع من دخول المساجد حتى لا يلوثها، هذا بيت طاهر.

قال: ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ [النساء: 43]؛ الجنب لا يدخل المسجد، الجنب الذي أصابته جنابة، ويجب عليه أن يغتسل من الجنابة، لا يجوز له أن يبقى في المسجد، ولا يجوز له أن يدخل المسجد، يمنع من دخول المسجد.

قال: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ [النساء: 43]؛ كأن يدخل من هذا الباب ويخرج من هذا الباب، أو يكون مثلاً نائم في المسجد أصابته الجنابة يخرج ليغتسل، بعض الناس تقع أحيانًا في رمضان اعتكاف وكذا وينام تصيبه الجنابة؛ يخرج ليغتسل ثم يعود، أما أن يجلس في المسجد وهو عليه جنابة فقد دخل في هذا التحريم لا يجوز.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: 43]؛ لا بد من الاغتسال للجنب، وهذا يسميه أهل العلم الحدث الأكبر الذي يمنع صاحبه من الصلاة ومن دخول المسجد ومن قراءة القرآن وغيرها من الأحكام حتى تغتسلوا.

هذه أحكام الصلاة، وأحكام وأن ينبغي الإنسان أن يأتي إلى الصلاة وهو مستحضر حاضر القلب، مستحضر عظمة هذه الصلاة، وإن كان فيه هذا مثل هذا الحدث ألا يبقى في المسجد تعظيمًا وتطهيرًا للمسجد. ثم تأتي الآيات بعد ذلك تبين فضل هذه الأمة بالتخفيف عليها تخفيف الأحكام،

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ [النساء: 43]؛ إذا كان الإنسان مريضًا مرضًا يمنعه من استعمال الماء، لأن انظر قال: تغتسل، الآن دخلنا في الغسل والوضوء الآن؛ لا بد الإنسان إذا أراد أن يصلي إن كان عليه حدث أكبر أن يغتسل، وإن كان عليه حدث أصغر فيجب عليه أن يتوضأ، فلا يدخل في الصلاة إلا لمن توضأ أو لمن رفع هذا الحدث الأكبر أو الأصغر.

قال: لكن إن كان الشخص مريضًا ومرضه هذا يمنعه من استعمال الماء، من استعمال الماء؛ مرض يمنع، ليس مرضًا خفيفًا كوجع الضرس ووجع الرأس هذا ما يمنع الماء، لكن إذا كان هذا المرض إذا توضأ أصبح هذا الوضوء واستعمال الماء يزيد في مرضه أو يمنع من برئه فهذا نقول مريض يترك الماء.

قال: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [النساء: 43]؛ مسافرين، ودائمًا الإنسان في الغالب في الأسفار الماضية أن الأسفار ما فيها ماء، تنقطع ينقطع عنها الماء إلا ما كان معه قليلاً.

قال: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء: 43]؛ يعني انتقض وضوؤه، انتقض، انظر القرآن وأدب القرآن حتى في مثل هذه الأمور يستعمل الأدب؛ إنسان يقضي حاجته ما صرح الله بهذا الشيء، قال: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء: 43].

- ما هو الغائط؟

قال: الغائط أصله المكان المنخفض من الأرض يسمى غائط يغوط في الأرض ينخفض، فدائمًا كانوا في السابق إذا أراد أحدهم أن يقضي حاجته يذهب ليستتر في المكان المنخفض، وسموا الغائط، وإلا الغائط الآن في الاستعمال وقد هو خروج هذا الشيء من هذا الإنسان سواء كما يقال البول والغائط.

قال: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء: 43]؛ يعني انتقض وضوؤه، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: 43]؛ الملامسة المراد بها الجماع يعني، يعني مس امرأته أي جامعها، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: 43] الآن عندنا حدث أصغر وهو ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء:

43] بمعنى أنه نقض وضوءه؛ هذا يحتاج إلى وضوء، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: 43] يحتاج إلى اغتسال؛ أصبح عندنا حدث أكبر وحدث أصغر، عندنا وضوء وعندنا غسل.

قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [النساء: 43]؛ لم تجد ماءً يعني، وفي هذا -يعني- لم تجد ماءً بحث وهو في هذه الحال ودخل عليه وقت الصلاة ويريد أن يصلي وليس عنده ماء؛ إما بسبب مرضه أو بسبب سفره أو فقد الماء حتى في الحضر فقد الماء، ماذا يصنع؟

قال: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: 43]؛ هذا هو التخفيف في شريعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم تكن في شرائع الإسلام في شرائع الأديان السابقة أبدًا إلا في هذه الأمة؛ أن الله أباح لها التيمم.

- ما هو التيمم؟

قال: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 43]؛ التيمم استعمال التراب الطاهر المباح بدل الماء، متى يستعمله؟ إذا لم يجده، إذا بحث ولم يجده استعمله. تجد بعض الناس يطلعون إلى يطلعون إلى البر، ويطلعون إلى الصحراء، ويطلعون إلى أماكن ثم ينسون أن يكون معهم ماء، فيقول: خلاص الدين يسر تيمم، تيمم، ويستطيع أن يذهب إلى المحطة عشر دقائق ويأتي، ولو فقد غير الماء مثل الكبريت أو نحوه أو الملح لأخذ سيارته وذهب على طول؛ لكن الماء يقول: لا، تيمم الدين يسر، نقول: لا، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [النساء: 43]؛ هل أنت ما وجدت الماء؟

أنت واجد الماء، تروح المحطة وتأتي بالماء، فأحيانًا يتساهل بعض الناس في هذه التيمم؛ لا تنتقل إلى التيمم إلا إذا عدمت الماء، ما استطعت أن تصل إلى الماء، إذا عدم الماء عندك هذه الحالة تنتقل التيمم، أما إذا استطعت أن تذهب إلى الماء، فاستطعت أن تأتي بالماء أو تحضر معك أو أحيانًا أنت تستعد برحلتك تأخذ معك احتياطاتك بالماء حتى تتوضأ.

قال: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 43]؛ الصعيد وجه الأرض، التراب الطيب، انظر قال: الطيب، ما قال أي تراب؛ إذا كنت تعلم أن هذا التراب أماكن نجاسة يغلب على ظنك أنها أماكن تقيؤ أو أماكن مثلاً فيها نجاسة مثل معاطن الإبل، هذا ما يمكن أن تأخذ التراب وتتيمم منه، أو أماكن يغلب عليك أنها فيها ناس يقضون حاجاتهم هنا.

فهذا مثل هذه الأمور ما يسمى صعيدًا طيبًا، الصعيد الطيب هو الذي يغلب على ظنك أنه طاهر، وهذا لا يشدد الإنسان فيه؛ إذا نزل في أرض فلا أرض فضاء وجد ترابًا يتيمم، الأصل فيه الطهارة.

كيفية التيمم، كيف يتيمم؟ الوضوء معروف، لكن كيفية التيمم كيف يتيمم؟ قال التيمم، قال: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: 43]؛ امسحوا بوجوهكم بأيديكم، في آية أخرى في المائدة قال: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: 6]؛ أي منها هذا الصعيد بمعنى أنه يعلق باليد والوجه، ما يكون ما لا بد أن ينتقل إلى الوجه.

قال: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ [النساء: 43].

- ما هي طريقته إذا تيمم؟

إذا فقدت الماء تضرب الأرض بيديك، باطن اليدين على الأرض تضربها ثم تمسح وجهك كما قال الله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ﴾ [النساء: 43] أول شيء تمسح الوجه، ثم تضرب ضربة ثانية فتمسح اليد اليمنى على ظاهر اليسرى واليد اليسرى على ظاهر اليمنى؛ هذا هو التيمم بس.

"وبعض العلماء يقول يكفي ضربة واحدة؛ تضرب ضربة واحدة تمسح وجهك ويديك ظاهر اليد ظاهر الكف وليس يمسح هذا"، وأنا شاهدت بعض الناس جالس يمسح إلى المرافق قلت ليش؟ قال: عشان إحنا نتوضأ، يقول: عشان إحنا نتوضأ لهنا إذا نمسحها، لا؛ مو بالدين قياس على كيفك، دين فيه أدلة لازم تعرف أحكام الشريعة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في خاتمة الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: 43]؛ يعني يعفو ويغفر، شفت رحمة الله؛ عشان تعرف فضل الله علينا بهذه الآية، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عفو عنا تجاوز عنا؛ ما تستطيع استعمال الماء أحيانًا، أحيانًا يكون سبب عدم استعمالك الماء الجو البارد القارس ما عندك مسخنات ما عندك سخانات ما عندك تستطيع تسخن الماء ما تتوضأ بالماء البارد ولا تغتسل قد يضرك.

فتنتقل إلى التيمم كما فعل عمرو بن العاص أنه كان في سرية وأصبح جنبًا ولم يجد ماءً ساخنًا أو دافئًا فعدل إلى التيمم؛ فجاء يرحمك الله جاء إلى فتيمم فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأقره الرسول.

الإنسان إذا من شدة البرد أحيانًا ولم يجد ما يسخن به الماء يتيمم حتى لا يضر نفسه، الله عفو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعفو ويتجاوز، وغفور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغفر عما قد يقع فيه الإنسان من التقصير والإخلال في مثل هذه الأمور.

الحقيقة الآية تحتاج منا فيها أحكام كثيرة وفيها فوائد، واستفدنا منها ولله الحمد في هذا المجلس المبارك، وعرفنا بعض هذه الأحكام مما يتعلق بالصلاة ومما يتعلق بالوضوء والاغتسال.

- كل هذه قد يسألك سائل يقول لك مثلاً الوضوء معروف تغتسل كيف طريقته؟

الجواب: الاغتسال لا بد من تعميم الجسد، أن تدخل تحت الماء فيعمم الماء جسدك، أو تأخذ بإناء وتغرف وتغتسل اغتسالاً كاملاً، لا بد أن يكون كل جزء من جسم الإنسان يصيبه الماء حتى ترتفع الجنابة، لا بد؛ تجد بعض الناس يتساهل فتجد بعض أجزاء الجسم ما أصابها الماء ما ترتفع الجنابة، ولا بد من المضمضة والاستنشاق، وإن أردت السنة؛ **«السُّنَّةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عِنْدَ الِاغْتِسَالِ أَوَّلَ مَا يَبْدَأُ يَغْسِلُ فَرْجَهُ وَمَا أَصَابَهُ، ثُمَّ يَتَوَضَّأُ وُضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ يُفِيضُ المَاءَ عَلَى جَسَدِهِ»**، كأنه توضأ وضوء الصلاة ثم بعد ذلك يفيض الماء على جسده من رأسه إلى أطراف قدميه ثم يخرج؛ هذه هي السنة الواردة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن لو ما توضأت مجرد أنك دخلت تحت الدش واغتسلت وخرجت وتمضمضت لا بد الماء يدخل في الأنف والفم تمضمض والاستنشاق خلاص يكفي.

لو أنك كنت في مسبح، في مسبح صغير أو كبير، ودخلت وانغمست في المسبح وتمضمضت واستنشقت بنية رفع الحدث ونية رفع الجنابة يصح، يصح هذا الاغتسال يصح.

لعل نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل هذه الآيات؛ نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وما سمعنا، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(90)
(النساء 44- 50)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في لقائنا الأسبوعي بعد صلاة المغرب في تفسير القرآن العظيم، والبشارة التي أزفها إلى الحاضرين المستمعين، والذين يجلسون لمثل هذه الدروس المباركة أن ملكاً من الملائكة بعدما ينتهي الدرس يقول: **«قُومُوا مَغْفُورًا لَكُم قَد بُدِّلَت سَيِّئَاتُكُم حَسَنَاتٍ.»**

- متى يحصل مثل هذا الفضل؟

لو تبحث في الأرض كلها ما تجد مثل هذا الفضل في دقائق معدودة، فالإنسان ينتهز مثل هذه، الإنسان العاقل الحصيف الذي يعرف مثل هذه الدروس وهذه الأوقات المباركة ينتهز مثل هذه الفرص، كم مسجد من المساجد ما تجد فيه مثل هذه الدروس المباركة، فأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعيننا وأن يوفقنا جميعاً لما يحب ويرضى.

الآيات التي بين أيدينا هي تتحدث سورة النساء مثل ما مر معنا تتحدث عن أحكام كثيرة تتعلق بالأسرة المسلمة وتتعلق بأحوال الإنسان وعباداته، هذه واضحة والله عَزَّ وَجَلَّ بينها لنا.

لكن الآيات التي معنا الآن هي في الحقيقة مهمة جداً؛ وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحذر هذه الأمة، يحذر أن تسلك مسلك من كان قبلها من اليهود والنصارى.

تحذير هذا لوجهين:

⬅الوجه الأول: أن نحذر عداوتهم لأنهم أعداء.

⬅الوجه الثاني: أن نحذر أن تسلك مسلكهم فهم سلكوا مسلكاً ضيعهم وضيعوا دينهم وحرفوا وبدلوا وأغضبوا الله، فلا نسلك مسلكهم من هذا الوجه ولا من هذا الوجه، اسمع كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عشان تعرف حقيقة وخطورة مثل هؤلاء.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: 44]. انظر يقول لك ألم تر ولم تسمع وما جاء في ذهنك إلى الذين أوتوا نصيباً، انظر قال نصيباً ما قال أوتوا الكتاب ولا أعطوا إلا شيئاً قليلاً، أوتوا نصيباً من الكتاب؛ هم اليهود والنصارى أوتوا نصيباً من الكتاب التوراة والإنجيل.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم يشترون الضلالة؛ هم يشترون الضلالة يعني يبحثون عن الضلالة ليشروها ويدفعون عليها لها أموالاً، يتركون الهدى ويبحثون عن الضلال، تجد أخطر من هؤلاء، أخطر منهم قد يشترون الضلالة،

هل هم يشترون الضلالة فقط يعني يروحون إلى الضلالة ويبحثون عنها فقط؟

لا، اسمع بعدها قال: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: 44]؛ يعني هم ذهبوا إلى طريق الضلال ولم يكتفوا بذلك، بل يريدون منكم أيها المسلمون أن تسلكوا مسلكهم، فهم ضلوا ويريدون أنتم منكم أن تضلوا وتسلكوا مسلكهم.

انظر كيف يوضح الله لنا خطورة مثل هذا الأمر، انظر قول يريدون قال يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل، قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ

بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: 45]. والله أعلم بأعدائكم، قد يغتر منكم من يغتر ولا يدري ويظن أن هؤلاء أحباب، وأنهم يظهرون لكم المودة والمحبة، ولكن الله أعلم بأعدائكم فاحذروا.

قال وكفى بالله ولياً يعني ليكن وليك الله لا يكن وليك العدو، العدو ليس ولياً، ليكن وليك الله وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً، فالذي يتولى أمرك هو الله، والذي ينصرك هو الله ينصرك على هؤلاء الأعداء، فأنت تتمسك بدينك وتعلق بربك، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار .

اسمع بعد هذا يبين لك الله شدة عداوة من، اليهود أشد عداوة من النصارى، يقول: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 46].

- من الذين هادوا أي اليهود، طيب ش فيه؟

قال منهم من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه؛ يعني يبدلون أحكام الله ويغيرونها حسب شهواتهم، هذا الحكم ما جاز لهم يبدلون بحكم آخر ويغيرون ويبدلون في شرع الله، يحرفون الكلم عن مواضعه.

ويقولون إذا جاؤوا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعند المسلمين ماذا يقولون؟ قالوا يقولون سمعنا وعصينا؛ سمعنا قولك وعصينا أمرك، واسمع غير مسمع يعني اسمع شيئاً لا يرضيك أو هذا يكون معناه واسمع غير مسمع أي اسمع لا سمعت يعني دعاءً عليه يقول اللهم اجعلك لا تسمع، يعني تحتمل، واسمع غير مسمع أي أنك تسمع شيئاً لا يرضيك أو أن هذا دعاء عليه الله يجعلك ما تسمع، هذا معناه .

ثم قالوا وراعنا؛ انظر كلمة راعنا هذه هم يقصدون اليهود بها معنى خبيثاً سيئاً، لأن كلمة راعنا لما أقول لك راعني في هذا الشيء هذا واضح يعني سليمة، هم ما يقصدون هذا المعنى، لأن المعنى وراعنا المعنى الصحيح السليم يعني انظرنا واسمع منا، هم ما يقصدون هذا، هم يقصدون راعنا من الرعونة والحماقة والغباوة، يقول راعنا يقول أنت يا محمد غبي وأحمق وأرعن ولا تفهم، هذا مقصدهم.

ولذلك في سورة البقرة مر معنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104]. شايف قال لا تقولوا؛ ليش؟ لأن هذه الكلمة محتملة، محتملة لمعنى صحيح ومحتملة لمعنى غير صحيح والله يحذرك من هذا.

راعنا قال انظر حتى تعرف أن كلمة راعنا يريدون بها الخبث قال: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ [النساء: 46]؛ يعني يلوون ألسنتهم بالكلام يغيرونه يأتونك بالمعنى السيء، وطعناً في الدين يعني يلسون ألسنتهم بالكلام ويطعنون في دينكم.

انظر قال الله عَزَّ وَجَلَّ، يعني انظر من رحمة الله لهم وتوجيههم وتذكيرهم وتحذيرهم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء: 46]؛ ما قالوا سمعنا وعصينا، لو قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا بدل راعنا، شايف، وانظرنا لكان خيراً لهم، لكان هذا خيراً لهم في دينهم ودنياهم خيراً لهم وأقوم، وأقوم استقامة عند الله وإقامة الكلام الطيب العدل.

- ولكن لما قالوا هذا الكلام ماذا قال الله فيهم؟

قال: ﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: 46]؛ لعنهم الله، انظر كيف لعنهم الله بكفرهم، يعني هذا الكلام كفر، كل أفعالهم هذه كفر، تحريف الكلم عن مواضعه ويظلون ويريدون الضلالة

ويغيرون أحكام الله ويعاملون المسلمين بمثل هذا التعامل، هذا قال لعنهم الله؛ أي طردوا عن رحمته بكفرهم بسبب كفرهم.

﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 46]؛ القليل منهم المؤمنون والكثير لا يؤمنون .تأتيك آية أشد من هذه آية أعظم أشد هذه في حق اليهود، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ وهو ينادي اليهود: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: 47].

يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا، هذا تحذير منه وتهديد، آمنوا بما نزلنا أي القرآن شريعة محمد، آمنوا وهذا يخاطب الله من اليهود المعاصرين، آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم أي هذا القرآن يصدق التوراة والإنجيل ما يخالفها.

قال آمنوا، آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها؛ كيف يطمس الوجوه فيردها على أدبارها؟

قال أهل التفسير: **"بمعنى طمس الوجه بأن الله يذهب ما فيه من الأعين العيون والأنف والفم يصبح طبقة واحدة قطعة واحدة"**.

شايف ثم يردها على الخلف؛ كيف يبصر كيف يأكل كيف يشرب كيف يشم كيف يسمع؟ قطعة واحدة، هذا تهديد يقول إذا لم تؤمنوا أيها اليهود بالقرآن وبالشريعة سنطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم نطردهم كما لعن أصحاب السبت.

- من هم أصحاب السبت؟

أصحاب السبت هؤلاء حرم الله عليهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم وتمردهم على شرع الله ابتلاهم الله بالصيد؛ بالصيد حرم الله عليهم الصيد يوم السبت بس، قال الصيد يوم السبت حرام أما باقي الأسبوع صيدوا، فكانوا إذا جاء الأحد إليه حتى الجمعة يبحثون عن الأسماك ما يجدونها تذهب إلى قاع البحار، وإذا جاء السبت خرجت على الشواطئ حتى إنها تصل إلى منازلهم، ابتلاء.

فهم ينظرون إليه يوم السبت ما يستطيعون، فبدأوا يفكرون انظر التحايل على شرع الله؛ قالوا ماذا نصنع؟ قالوا نضع الشباك يوم الجمعة زين، أو نضع حفراً حتى تسقط فيها، أو شباكاً يوم الجمعة، فإذا جاء السبت ما نصيدها خل نتركها في الشباك حتى ما نقع ما نقول إنا صدنا في الشبك في يوم السبت.

فإذا جاء الأحد نجي نجدها في الشباك نأخذها فنصير صدنا الأحد، هذا تحايل، تحايل على شرع الله تلاعب، والله ما يعني الله يعلم وكل عاقل يعرف أن هذا.

ولذلك هم انقسموا أصحاب القرية أصحاب السبت قسموا إلى ثلاث أقسام:

- القسم الأول: قسم تحايل وبدأ يأكل ما حرم الله عليه ويصيد.
- القسم الثاني: قسم وعظوهم وهددوهم وخوفوهم ونصحوهم وقالوا هذا حرام.
- القسم الثالث: قسم سكتوا واعتزلوا عنهم.

فلما رأوا هؤلاء أصحاب السبت يأكلون السمك وقد هددهم الله وخوفهم وهم خوفوهم لما قالوا إذاً نعتزلهم؛ نضع بيننا وبينهم سوراً، نضع جدار سور بيننا وبينهم، فوضعوا سوراً وتركوهم قالوا أنتم يعني تخالفون أمر الله وتنتهكون حرمة الله لا نجالسكم، فوضعوا سوراً ومضت الأيام وفي يوم من الأيام جاء الصباح ما سمعوا لأهل القرية صوتاً، فقالوا نفتح الباب ونشوف فلما دخلوا فإذا هم قردة وخنازير، مسخوا قردة وخنازير.

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 163].

ذكرها الله قصتهم في سورة الأعراف.

قال هنا: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: 47]؛ لابد أن يقع.

فهذه الآية سمعها أحد اليهود في زمن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه وهو كعب الأحبار كان في الشام فسمعها، فلما سمع هذه الآية أسلم مباشرة، أسلم قال لا يصيبني أن يطمس الله وجهي أو يلعنني كما لعن أصحاب السبت.

قال الله بعدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]. انظر لما يأتي الإنسان يقرأ مثل هذه الآية إن الله لا يغفر يقول إيش علاقتها الآن الكلام كله عن اليهود وعن مواقفهم السيئة إيش علاقة أن الله لا يشرك؟

هذا ترى إخوان الحقيقة يجعلك تتدبر القرآن تفهم، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء هذه فيه رسالة لهم شايف، ولكل واحد يقع في المعاصي ولو كانت كبيرة.

يعني انظر المعاصي هذه يلعنهم الله يحرفون الكلم ويستهزئون ويكفرون بآيات الله ومع ذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ إذا لم تكن مشركاً فالله يغفر ذنوبك، شايف يعني احذر أن تقع في الشرك بس، إن الله لا يغفر أن يشرك به، من مات على الشرك فمصيره إلى نار جهنم.

﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: 72]. إذا مات، إذا تاب المشرك قبل الموت تاب الله عليه، أي مشرك، كفار مكة كلهم كانوا

مشركين يعبدون أصناماً لما تابوا تاب الله عليهم، كل من كان ولو على أكبر معصية الشرك أو غيرها إذا تاب الله عليه، إذا مات هنا الكلام إذا مات وهو مشرك إلى نار جهنم.

إذا مات أو تاب أو مات وهو عنده ذنوب ومعاصي حتى مثل هذه الأشياء التي وقع فيها وقع فيها هؤلاء اليهود قال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء يعني أصحاب المعاصي إن تابوا في الدنيا تاب الله عليهم، إن ماتوا ومعهم معاصي معهم ذنوب كبار ومعاصي هم تحت مشيئة الله إن شاء غفر لهم وإن شاء عذبهم.

وإذا عذبهم في النار فلابد أن يخرجوا من النار ما يبقون فيها، أهل التوحيد في النار لا يخلدون أبداً لابد أن يخرجوا من النار لكن يعذبون بقدر معاصيهم أو يعفو الله عنهم.

قال انظر قال ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً يعني جاء بشيء عظيم لا يمكن أن يقبله أي إنسان، كيف تشرك بالله كيف تعبد صنماً والله خلقك؟ كيف تعبد شيئاً لا ينفع ولا يضر ولا ينفع نفسه؟ هذا افتراء على الله عظيم.

انظر يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هؤلاء اليهود، اليهود يعني كل هذه المصائب اللي يقعون فيها ومع ذلك ما يعترفون يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه، لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى.

انظر كيف التزكية، قال الله عَزَّ وَجَلَّ حتى يرد عليهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 49]. ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم، يزكون أنفسهم بأنهم يقول نحن أبناء الله وأحباؤه، نحن لن يدخل الجنة إلا نحن، إلا إن دخلنا النار لن يعذبنا إلا أياماً معدودة ثم يخرجنا، هذه كلها ادعاءات وكذب على الله.

ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم، قال الله بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً، الله هو الذي يزكي ويطهر من يشاء ويقبل ممن يشاء ولا يظلم أي إنسان أي مخلوق لا يظلمه الله ولو مثقال الفتيل، تعرفون إيش الفتيل؟ الفتيل هو الخيط الأبيض الذي يأتي على ظهر النواة، شفت نواة التمرة الخيط الأبيض هذا ما هو بشيء، أحياناً تسمع في القرآن يقول لك: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124].

- ما هو النقير؟

قال هي الحفرة الصغيرة في النواة حفرة صغيرة، يعني هذه أشياء تافهة ما أحد ينتبه الله ما يظلمك، في آية ثانية قال: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13].

- ما هو القطمير؟

قال هي الغشاء اللفافة اللي تجي تكون على النواة غشاء أبيض خفيف هذا يسمى القطمير، يقول الله ما يظلمهم ولا هذه الأشياء التافهة يقول ولا يظلمون فتيلاً.

﴿انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: 50]. انظر كيف يفترون على الله الكذب يقول نحن أبناء الله وأحباؤه، يكذبون على الله ويقول لا يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، الجنة بأيديكم؟

انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً يقول هذا كلام الافتراء يكفي أنه إثم على صاحبه وإثم مبين.

- هل يجوز للإنسان يجوز له أن يزكي نفسه ولا ما يجوز؟

الجواب: إذا كان هذا الشيء فيه وله حاجة أن يذكره ما فيها شيء، مثلاً أن يكون الرجل كريماً يقول أنا كريم تفضل عندي وأنا أكرمك وأفعل، أو يكون غنياً يقول أنا عندي مال تريد أخدمك تريد شيئاً، هذه ما فيها شيء جائز أنك تذكر هذه تزكي نفسك بهذه الأشياء ما فيها شيء.

لكن لما تزكي نفسك بأشياء ما هي فيك وتكذب على الناس تقول أنا كريم وأنت أبخل الناس هذا الذي لا يجوز، أو يزكي نفسه بالأعمال الصالحة يقول أنا أصلي وأنا أقوم الليل وأنا أقرأ وأنت ما حد سألك عن الأشياء هذه، هذه بينك وبين الله أخلص العمل لله لا تذكرها للناس.

اعمل لله واجعل عملك لله خالصاً حتى يقبل عند الله أما تقول إني أفعل وأفعل هذا رياء، فهذا معنى التزكية.

فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يطهر قلوبنا، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وإياكم أن نحرص على مثل هذه المجالس المباركة حتى يقال **«قُومُوا مَغْفُورًا لَكُم قَد بُدِّلَت سَيِّئَاتُكُم حَسَنَاتٍ»**. والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(91)
(النساء 51 - 59)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك مع القرآن الكريم وتفسير القرآن العظيم وهذه المجالس المباركة التي نجلسها في كل مغرب أربعاء من كل أسبوع، والسورة التي نتناولها هي سورة النساء والآيات هي الآية الحادية والخمسون من هذه السورة، هذا اليوم هو يوم الأربعاء الموافق للسابع والعشرين من شهر جمادى الأولى من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النساء: 51] مثل ما أمرَّ معنا في لقائنا الماضي ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [النساء: 44]، هم يشترون الضلالة بدل الهدى يبيعون الهدى ويأخذون الضلالة، ولم يكتفوا بذلك بل يريدون منكم أيها المسلمون أن تضلوا السبيل.

لاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا يذكر هنا مرة ثانية ومرة أخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النساء: 51]، أهل الكتاب وخاصة اليهود، أعطاهم الله شيئًا من العلم ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ شيء من العلم قليلٌ.

قال هؤلاء الذين الله أنعم عليهم بالعلم وأعطوا الكتاب والعلم والتعلم مع هذه النعمة العظيمة لم يشكروا الله على هذه النعمة بل يؤمنون بأي شيء؟ قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 51]، يؤمنون ويصدقون ويتبعون ويتحاكمون إلى الطواغيت.

- الجبت والطاغوت: ما المراد بالجبت وما المراد بالطاغوت؟

كل ما عُبد من دون الله وعُظم من دون الله وتحاكم الناس إليه وعظموه وتحاكموا إليه وهو داخل في معنى الجبت والطاغوت، فالطاغوت من الطغيان، والجبت حتى الذين يتحاكمون إلى الكهنة والعرافين ويتحاكمون إلى مَن يدعي الغيب أو من هؤلاء الطواغيت الذين يذهبون إليهم مثل هؤلاء اليهود.

اليهود يتحاكمون إلى هؤلاء ويتركون حكم الله، يتركون ما أنزل الله عليهم في التوراة والإنجيل وما أنزل في هذا القرآن الكريم، قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 51]، ولم يكتفوا بأنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت ويؤمنون بهذه الطواغيت ويتركون حكم الله.

قال: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: 51]، يذهبون إلى الكفار ويقول للذين كفروا هؤلاء أهدى وأفضل وأقوم من المؤمنين، طيب متى قالوا ذلك؟ لما وقعت بدر ونصر الله نبيه محمدًا وأصحابه.

وأظهر الحق في غزوة بدر، لم اليهود ما حسن لهم ذلك ولم يستقِ ولم تطمئن قلوبهم لمثل هذا الأمر، فذهبوا إلى مكة إلى صناديد الشرك والكفر أبو سفيان ومَن معه، فلما جاؤوا إليهم يحرضونهم على محمد وأصحابه فيقول قتلوا منكم فاذهبوا وقاتلوهم لا تتركونهم، قتلوا صناديد الكفر منكم وكباركم وأنتم تتركونهم.

فجاء مشركو مكة كفار مكة فجاؤوا إلى هؤلاء اليهود فقالوا لهم: أينا أفضل محمد أو نحن؟ أيما أينا أفضل نحن أم محمد؟ يعني سب آلهتنا وترك دين آبائه وأجداده وفرق بيننا وفعل ونحن أهل السقاية ونحن أهل الحج وأهل ونحن الذين نقوم بخدمة أهل الحرم فأينا أفضل؟ قالوا: أنتم أفضل، انظر الكلام يقول: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: 51].

- انظر يتحاكمون إلى الطواغيت ويُفضلون الكفار على المؤمنين. ماذا قال الله فيهم؟

قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: 52]، الله بسبب هذا هذه الأفعال السيئة لعنهم الله وطردهم من رحمته، قال: ﴿وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: 52]، إذا لعنه الله طرده لن يجد مَن ينصره إذا واجه عذاب الله يوم القيامة ما يجد مَن ينصره.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في ذكر صفات هؤلاء اليهود قال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 53]، يعني بل ألهم نصيب وحظ من الملك؟ لو كان لهم شيء من الملك ماذا سيصنعون؟ قال: ﴿فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 53]، لو كان لهم ملك هؤلاء اليهود يملكون الأرض ما يعطون أحدًا ولا مقدار النقير، وهي النقرة التي تكون في ظهر النواة، مقدار النقرة هذه ما يعطون أحد، يدل على أي شيء؟ هذا يدل على شدة بخل هؤلاء اليهود.

اليهود حتى في عصر الحاضر الآن عندهم شدة بخل ومحبة للمال ومحبة للدنيا، لو يعمر أحدهم ألف سنة ما يشبع من الدنيا ولا يشبع من العيش في الدنيا، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ [البقرة: 96]، على أي حياة ولو كانت حياة خسيسة، أحرص الناس على حياة هؤلاء اليهود حب الدنيا وحب المال.

قال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 53]، قال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: 54]، قال بل أيحسدون الناس انظر الصفة الثانية وش هي؟

صفة الحسد، الأولى صفة البخل، الشح والبخل فيهم شيء واهر، وأيضًا الحسد .قال يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، يحسدون محمدًا وأصحابه، يحسدون محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الرسالة والنبوة وعلى أصحابه على الإيمان ومحبتهم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحسدونهم على ذلك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تحسدونهم على الرسالة والنبوة: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 54]، يعني ليش لماذا لا تنظرون في آل إبراهيم؟ هم أجدادكم أجداد اليهود بنو إسرائيل، إسرائيل هو يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم، آل إبراهيم ذرية إبراهيم أعطاهم الله النبوة والرسالة والكتاب والحكمة بل أعطاهم الملك العظيم، فداود ملك الأرض وسليمان ملك الأرض.

فتحسدون محمدًا وهو لم يملك الأرض وإنما اجتمع معه أصحابه ونصره الله ومكن له في الأرض تحسدونه على هذا ولا تنظرون في مَن سلف من الأنبياء السابقين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حق اليهود هؤلاء قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 55]، ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ﴾ آمن بمحمد وهم قلة كعبد الله بن سلام وما شابه هؤلاء، آمنوا وصدقوا واتبعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ وهم الأكثر، أكثر اليهود.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ متوعدًا لهم: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 55]، جهنم تكفيهم أنها تتسعر عليهم تتلظى عليهم، ثم بين سبب الضلال وسبب السعير والجنة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56]، كاليهود كفروا بمحمد ولم يؤمنوا به وكل كافر، إن الذين كفروا بآياتنا بآيات الله المنزلة وبالله وبرسله ﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي ندخلهم نارًا.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾، يعني كلما هذه تفيد التكرار، يعني هم سيصلون سعيرًا ويتوقدون في النار والنار تأكلهم من فوقه ومن تحت أرجلهم، وكلما نضجت هذه الجلود التي عليهم بدلها الله بهذه بتغيير صفاتها بجلود تتغير صفاتها والجلود باقية.

قال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 56]، عزيزًا قويًا في حكمه وفي جزائه، حكيمًا في هؤلاء لما جازاهم بهذا الجزاء بهذا الجزاء.

لما ذكر وعيده الشديد وعقوبته على هؤلاء الذين كفروا بآيات الله، ذكر ما أعده الله للمتقين فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: 57]، الذين آمنوا صدقوا برسالات الله وآمنوا بالله ورسله والذين آمنوا وعملوا الصالحات أعقبوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة وحافظوا عليها.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وعد من الله أن يدخلهم جناته التي تجري من تحتها الأنهار على كمال النعيم، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لتطمئن قلوبهم أنهم يخلدون فيها لا يبغون عنها حولًا ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ .قال: ومن النعيم لهم فيها ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، مطهرة من الأخلاق السيئة ومطهرة من الأرجاس والأنجاس، وهؤلاء الأزواج أزواجهم في الدنيا وأزواجهم من الحور العين.

قال: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: 57]، إلى تمام الدخول في الجنة ندخلهم ظلًا ظليلًا أي هم في جنات النعيم في ظل في ظل ممتد لا ينقطع ظل ظليل.

اليهود الله أمنهم على الأمانات العظيمة وأنزل عليهم الكتب وأرسل إليهم الرسل فخانوا، خانوا الأمانة لما يذهبوا إلى كفار مكة وهم يعرفون أنهم أعداء الله فيقولون أنتم خير من محمد، هذه خيانة الأمانة.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا يؤكد على قضية الأمانة، والأمانة هنا عامة يدخل فيها كل الأمانات؛ الأمانة بينك وبين الله استأمنك على شرعه، هل تقيم شرعه كما أمرك؟ هل تقيم الصلاة كما أمرك؟ هل تؤدي الزكاة؟

قد لا يطلع عليك أحد في زكاتك ولا يعرف عنك، الوضوء ما يطلع عليك أحد، الغسل ما أحد يطلع عليك، فالله استأمنك على وضوئك وعلى صلاتك وعلى طهارتك وعلى الزكاة وعلى أعمالك كلها وعلى أخلاقك وأقوالك وكل ما يدور في نفسك، هذه من الأمانات بينك وبين الله.

والأمانات بينك وبين الناس يستأمنونك كثيرٌ، بينك وبين أصحابك وبينك وبين إخوانك، الأمانات قد يستأمنك أو يعطيك أمانات تحفظها عندك أو غيرها من الأسرار، الله يأمرك أن تؤدي الأمانة قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]، وهذه الآية ذكر أهل التفسير أنها نزلت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في جوف الكعبة.

في جوف الكعبة في فتح مكة، لما فتح مكة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودانت له قريش، أراد أن يدخل البيت لما فيه من الأصنام أن يخرجها ويكسرها، وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة من بني شيبة.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَا عُثْمَانُ أَعْطِنِي المِفتَاحَ»**. فقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه: أعطه المفتاح، وأراد أن ينزعه منه بقوة، وقال العباس عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله أعطني المفتاح واجعل لي سدانة البيت وخدمة البيت مع السقاية؛ لأن السقاية كانت عند بني العباس.

فدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصلى في جوف الكعبة، ولم يدخل معه من كبار الصحابة أحدٌ، إنما أدخل معه بلال الحبشي وأدخل معه أسامة مملوك معتق، أدخلهم، انظر كبار أبو بكر وعمر وعثمان وكل كبار الصحابة ما دخلوا معه، وإنما أدخل هذين الرجلين وأغلق الباب وصلى فيه ركعتين، والصلاة في الكعبة سنة، والآن مَن أراد أن يصلي في الكعبة يصلي في الحجر؛ لأن الحجر من الكعبة فمن صلى في الحجر فكأنما صلى في الكعبة.

☜ فالشاهد من القصة لما دخل يصلي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزل عليه جبريل قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 58]، فخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: **«أَينَ عُثْمَانُ بنُ طَلحَةَ؟»** فقال: نعم يا رسول الله، قال: **«خُذِ المِفتَاحَ، خُذُوا المِفتَاحَ خَالِدَةً تَالِدَةً فِيكُم وَفِي ذُرِّيَّتِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، لَا يَنزِعُهَا مِنكُم إِلَّا ظَالِم»** وبقي مفتاح الكعبة حتى الآن في بني شيبة لا ينزعه منهم إلا ظالم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58] .وإذا حكمتم بين الناس، أن تقضوا بين الناس أن تحكموا بالعدل، سواء كنت حاكمًا بين الناس أو حاكمًا بين أولادك أو حاكمًا عند عمالك أو موظفيك أن تحكم بالعدل وتقيم العدل.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ نعم ما عظكم به من المواعظ، هذه المواعظ تسمعها من أداء الأمانة والحكم بما أنزل الله، هذه مواعظ يعظكم الله بها، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ يسمع ويبصر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا تخفى عليه خافية.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59] .

لا تكونوا كاليهود وإنما أطيعوا الله واسمعوا ما يأمركم الله به وأطيعوا الرسول واسمعوا ما يأمركم به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأولي الأمر منكم وهم الأمراء والحكام والعلماء إذا أمروا بطاعة الله، أُمروا في غير معصية الله يجب على المسلم السمع والطاعة، السمع والطاعة.

- قال فإن تنازعتم واختلفتم في أي شيء من الأشياء فما الحكم؟

قال إذا تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول، إلى الكتاب والسنة إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، إذا كنت تؤمن بالله واليوم الآخر ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59].

انظر قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ لما جاء عند أولي الأمر منكم قال ما قال وأطيعوا، قال: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ليش؟ لأن طاعة ولي الأمر سواء كان حاكمًا أو عالمًا داخلة في طاعة الله ورسوله، فلا طاعة في معصية الله **«لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»**، فإن أمروا بمعصية فلا طاعة لهم، وإن أمروا بطاعة وبما شرع الله فيجب على المسلم السمع والطاعة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: 59] أي التحاكم في وعند التنازع والرد إلى الكتاب والسنة هذا خير وأفضل وأحسن تأويلًا، أحسن مرجعًا يرجع إليه الإنسان في حياته وفي حكمه أن يرجع إلى حكم الله وحكم الرسول.

- لماذا يذكر الله هذه الأشياء؟

التحاكم إليه ردًا على اليهود الذين يتحاكمون إلى الطواغيت وردًا على المنافقين الذين يتحاكمون أيضًا إلى الطواغيت وإلى الكهنة كما سيأتينا في إن شاء الله اللقاء القادم في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: 60] .

لهذه الآية وما بعدها يأتي إن شاء الله الحديث عنها في اللقاء القادم والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه.

(92)
(النساء 60 - 70)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، صلِّ وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا المجلس الطاهر المبارك، مجلس القرآن الكريم وتفسيره، هذا اليوم هو اليوم الرابع من الشهر السادس من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا في هذه الليلة الشريفة المباركة مع تفسير سورة النساء، والآية التي معنا هي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: 60]. هذه الآية تتحدث عن النفاق والمنافقين، وصفات المنافقين، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بعث نبينا وحبيبنا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه بالرحمة، وإنقاذ الناس من الهلاك والموت على الكفر والمصير إلى نار جهنم.

بعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فآمن من آمن، وكفر من كفر، الكفار كفرهم واضح وعداوتهم واضحة، اليهود والنصارى بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عداوتهم في القرآن الكريم، وبيَّن حقدهم على الإسلام والمسلمين، وحسدهم على الإسلام والمسلمين.

هناك طائفة لا أحد يعرفها، خفية، تدخل في صفوف المسلمين، ولا أحد يظهر لهم؛ هذا هو العدو؛ العدو الخفي الذي يأتي ويصلي ويزكي ويخرج للجهاد ويذكر الله، ما تدري هل هو مسلم ولا كافر؛ هؤلاء هم المنافقون؛ الداخل كفر والخارج والظاهر أمام الناس الإيمان.

أنزل الله فيهم سورة كاملة ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ [المنافقون: 1]، سورة كاملة، وهنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحذرنا من النفاق وأهل النفاق، وأنت تقرأ هذه الآية تعرف صفات المنافقين؛ آيات كثيرة في القرآن الكريم في سورة التوبة، في سورة البقرة، في سورة النساء، في سورة المائدة.

تمشي على سور القرآن الكريم تجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكشف لنا عوار هؤلاء المنافقين؛ عوارهم هؤلاء يخفون عليه، يعني يخرجون مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجهاد في سبيل الله، ويدعون أنهم يجاهدون وينفقون ويتصدقون ويصلون ولا أحد يعرفهم.

فلذلك الله عَزَّ وَجَلَّ حذر منهم ونبه منهم، قال هنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: 60]؛ شيف يزعمون؟ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد وأنت أيها المخاطب تسمع، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني تعجب من هؤلاء؛ تعجب من هؤلاء كيف يدعون ويزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل إليه؛ هذه صفاتهم.

زعم ودعوة باطلة وكذب؛ الزعم غالبًا يستعمل في الكذب، مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: 7]؛ يعني يدعون دعوة، وهؤلاء يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك يا محمد وما أنزل من قبلك.

يعني ليس فقط أنهم يدعون أنهم آمنوا بالقرآن، لا؛ يقول: نحن نؤمن بك يا محمد وبما أنزل إليك، ونؤمن بالرسل كلهم، وهم كذبة؛ كذبة هم، هم الذين يكفرون بالرسل.

قال: ﴿آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 60]؛ إذا جاءت عندهم محاكمات ومنازعات وخصومات يأتون للقرآن ولا للسنة؟ ولا يأتون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ يتحاكمون إلى الطاغوت.

هذه الآية سبب نزول، وهو أن يهوديًّا تخاصم مع منافق، فقال اليهودي وهو يعرف، عنده كتاب وعنده علم قال: نذهب إلى محمد يقضي بيننا.

قال المنافق: **"نذهب إلى رجل من اليهود اسمه كعب بن الأشرف -هذا رأس اليهود"**.

وفي رواية قال: **"نذهب إلى كاهن في جهينة، كاهن يحكم"**.

الله عَزَّ وَجَلَّ سماهم، قال: طاغوت؛ قال: ﴿يَتَحَاكَمُونَ إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 60]. فقال: نحكم إلى محمد. فذهبوا إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقاضى بينهم، فرضي اليهودي والمنافق لم يرضَ.

وهم في الطريق قابله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه وإذا هم يتنازعون، فقال: ما بالكم؟ قال هذا اليهودي: إننا تحاكمنا إلى محمد ولم يرضَ هذا اليهودي، وأنه يقول نتحاكم إلى فلان وفلان، فقال عمر: انتظروا قليلًا؛ فدخل بيته وأخذ سيفًا، فجاء إلى المنافق وضرب رأسه حتى سقط على الأرض؛ هذا الذي لا يريد الحكم بما أنزل الله.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: 60]؛ أمرهم الله أن يكفروا بهذا الطاغوت، ولكنهم لا يأبون إلا أن يتحاكموا للطاغوت.

قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 60]؛ يعني هذا كله من عمل الشيطان؛ الشيطان هو سبب كل فتنة وكل ضلالة، يريد الشيطان أن يضلهم ضلالًا، وليس ضلالًا بعيدًا.

- هذه صفاتهم؛ ما هي صفات المنافقين؟

دعوة أنهم يؤمنون بما أنزل إلى الرسول وما أنزل إلى الرسل السابق؛ هذه دعوة باطلة ودعوة يعني مجردة ليس لها حقيقة، الصفة الثانية من صفاتهم أنهم يتحاكمون إلى الطواغيت، لا يتحاكمون إلى شرع الله ولا إلى حكم الله.

خذ من صفاته: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ [النساء: 61]؛ تعالوا إلى ما أنزل الله من أحكامه وإلى الرسول الذي يقضي بيننا وبينكم، ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء: 61].

تعالوا إلى حكم الله، تعالوا إلى القرآن، تعالوا إلى السنة؛ رأيت المنافقين يصدون عنك صدودًا؛ لا يقبلون، يعرضون إعراضًا شديدًا ولا يتقبلون ذلك؛ هذه من صفاتهم، أنهم لا يقون حكم الله ولا حكم الرسول.

قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ [النساء: 62]؛ تعجب، تعجب ثاني آخر؛ إذا أصابتهم مصيبة، إذا نزلت بهم مصيبة، إما قحط وإما جوع وإما فقر وإما مرض؛ فإذا أصابتهم مصيبة ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [النساء: 62]؛ بسبب ذنوبهم؛ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ [النساء: 62]؛ يقول: يأتون إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحلفون، وهذه من صفاتهم الحلف الكاذب؛ من صفات المنافقين كثرة الحلف الكاذب.

قال: يحلفون بالله ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء: 62]؛ يقول: والله ما نريد إلا الإحسان والتوفيق.

- الإحسان في أي شيء؟ التوفيق في أي شيء؟

يقول: نحن نريد في التحاكم لما نروح لما واحد يعني كاهن أو طاغية أو طاغوت أو كذا نتحاكم إليه؛ إحنا نريد أن نحسن، نريد أن نصلح بين الطرفين، ما نريد إلا الإحسان والتوفيق، نحن نريد أن نوفق بين هؤلاء المتخاصمين؛ وهم هذه دعوة كلها كذب وحالفهم كله كذب.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ حتى تعرف أنه كذب تفهم؛ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [النساء: 63]؛ من النفاق والكذب والدجل؛ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء: 63]؛ أعرض عنهم، لا تشغل نفسك ولا تبالِ بهم، أعرض عنهم؛ ومع إعراضك عنهم ﴿وَعِظْهُمْ﴾ [النساء: 63]؛ يعني وجه لهم والتوجيهات والوعظ والإرشاد والتوجيه لهم؛ ﴿عِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: 63]؛ قل لهم في خاصة أنفسهم إذا انفردت بهم، قل لهم قولًا بليغًا يصل إلى قلوبهم، أثر عليهم؛ لأن القول البليغ هو الذي يأثر في القلب؛ يعني احرص على أن تبلغهم القول الكلام المؤثر.

إذًا موقف الرسول منهم ثلاث أشياء: أن يعرض عنهم يعني لا يبالي بهم، لا يهتم بهم ويستمر في وعظهم ويحاول أن يوصل هذه التوجيه والإرشاد إلى قلوبهم حتى يتأثروا. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: 64]؛ يعني لا تبالِ بكفر المنافقين ومعاصيهم، الرسول إذا أرسلناه ما يمكن أن يرسل الله رسولًا إلا ليطاع، ولكنه بأمر الله وإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومشيئته.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ توجيه لهؤلاء المنافقين يعني حتى مع نفاقهم وكفرهم وعنادهم وشدة حقدهم وعداوتهم على الإسلام كاليهود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفتح لهم باب التوبة من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ انظر، قال عَزَّ وَجَلَّ، قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: 64]؛ بالتحاكم والكفر وإخفاء الكفر في بطون في باطن في باطنهم وإظهار الإيمان.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ [النساء: 64]؛ يا محمد يا رسول الله، ﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 64]؛ استغفروا الله عن ذنوبهم وعن ظلمهم.

﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ [النساء: 64]؛ لأن استغفار الرسول له مكانة عظيمة عند الله، ولذلك هم يأتون إلى الرسول يقول: يا رسول الله استغفر لنا.

- لو أنهم جاءوا واستغفروا الله واستغفر لهم الرسول.
- ما هي النتيجة؟

﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 64]. تجد من رحمة الله سبحانه فوق كل شيء، يفتح لهم باب التوبة وهم منافقون، وهم معرضون ولا يقبلون، ومع ذلك يفتح لهم باب؛ ﴿لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع هذه الرحمة وفتح باب التوبة- يبين أيضًا أنهم ما يمكن أن يتنازلوا؛ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: 65]؛ يقول: والله؛ انظر هذا قسم من الله، يقول: ﴿فَلَا﴾؛ يعني ليس الأمر لأن هذه اللام متعلقة بما قبلها، يقول: ليس الأمر كما ترى أننا نفتح لهم باب ونناديهم لعلهم، يبسط الله يده بالتوبة والرحمة لعلهم يعودون، ولكن يقسم الله عَزَّ وَجَلَّ قسم بنفسه، يقول: ﴿وَرَبِّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ والله لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم.

يقول: والله لا يؤمنون أبدًا، ولا يمكن يؤمنون إلا في حالة واحدة؛ أنهم إذا شجر بينهم يعني حصل بينهم خصومة إذا شجر بينهم وحصل بينهم مشاجرة ومخاصمة ها؟ يحكموك؛ لا يحكموك.

قال: ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: 65]؛ إذا جاءوا وحكموك هذا هو الإيمان، أما الإيمان وهم يتحاكمون إلى طواغيت ليس إيمانًا. الإيمان أن يأتوك يا محمد ويجعلونك حكمًا بينهم؛ ﴿يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ﴾ [النساء: 65].

يقول: ما يجدون؛ هذا الأمر الثاني، أنهم لا يدخلهم شيء من الحرج والشك في قضائك، بل يؤمنون في قضائك، ويعلمون أن قضاء الرسول هو خير القضاء؛ قال: ﴿لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]؛ أي يسارع في هذا وينقاد انقيادًا تامًّا. إذا حققوا هذه الأشياء الثلاثة هذا يصبح هو الإيمان الصادق.

الله أقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ لا يمكن أن يؤمنوا إلا إذا جاءوا عند الخصومات وحكموك يا محمد، ورضوا بحكمك، ولم يجدوا في أنفسهم حرجًا من هذا الحكم، وينقاد انقيادًا تامًّا؛ هذا هو هذا هو الصحيح. حتى يعني هذا ينبغي للإنسان؛ ما نقول فقط المنافقين.

حتى مع بعض المسلمين ضعفاء المسلمين؛ تجده إذا جاء قضى قاضٍ بحكمه بكتاب الله والسنة تجد في نفسه شيء من هذا؛ فلا ينبغي أن يجد في نفسه مثل هذا الشيء، ينبغي أن يسلم لله وينقاد لحكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن حكم الله وحكم رسوله هو فوق كل حكم.

وشوف الآن قال الله بعدها: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: 66]؛ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: يعني ما شدد عليهم ولا كلفهم بتكاليف عظيمة، فتح لهم باب التوبة فقط، لكن لو كلفهم بتكاليف عظيمة ما استطاعوا عليها. اسمع من هذه التكاليف، يقول والله قال والله قال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: 66].

لو كتب الله عليهم أنهم لا يتوبون إلا أن يقتلوا أنفسهم، كما فعل الله عَزَّ وَجَلَّ باليهود؛ اليهود الذين عبدوا العجل توبتهم أن يقتلوا أنفسهم: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 54]؛ توبتهم أن يقتل كل واحد الثاني، هذه التوبة.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [النساء: 66]؛ اتركوا دياركم واخرجوا، غادروا دياركم؛ ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 66]؛ ما فعلوه إلا قليل منهم، ما قال لك ما فعلوه أبدًا؛ لأن قد يوجد منهم؛ ﴿مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ [النساء: 66].

اللي مرت معنا الوعظ من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ وأخذوا بإرشاد الرسول وإرشاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإرشاد الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ لكان النتيجة ما هي؟

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [النساء: 66]؛ خيرًا لهم في دينهم ودنياهم، ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: 66]؛ حتى يثبتوا على الإسلام حقيقة، ﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 67] ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 68]. أربع أشياء يقول لو أنهم أخذوا بس، بوعظ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ هؤلاء منافقون وأشد عداوة الإسلام والمسلمين، ويظاهرون أعداء الإسلام ويتربصون بالمسلمين، ومع ذلك يفتح الله لهم باب التوبة.

يفتح لهم يقول: ولاء ويكتب لهم الأجور العظيمة، يقول: لو أنهم فعلوا ما يعظون به كان ذلك خير لهم في دينهم ودنياهم، وكان أشد تثبيتًا لهم حتى يثبتوا على الحق؛ هذا سبب في ثباتهم، أسباب الثبات هو الأخذ بالمواعظ وتطبيقه في الحياة، هذه من أسباب الثبات ثبات الإنسان.

قال: ﴿وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ... أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 67]؛ مأجور فقط؟ أجر عظيم؛ وزيادة على ذلك قال: ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 68]. لو هداهم الله للصراط المستقيم وثبتهم

وأعطاهم الأجر العظيم، وكان ذلك خير لهم في دينهم ودنياهم؛ كل هذه يرشدهم الله لعلهم يعودون ويرجعون إلى رشدهم ويتركون ما هم فيه من الضلال.

يختم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الآيات ببشارة عظيمة لكل طائع يطيع الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله؛ لكل من هو حريص على طاعة الله والتمسك بدين الله وإقامة شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يبشره الله بهذه البشارة العظيمة.

اسمع هذه البشارة، هذه بشارة لي ولك ولكل إنسان: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [النساء: 69]؛ من يطع الله والرسول يستجيب لله حتى هذه رسالة لهم للمنافقين ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: 69].

إذا أطعت الله وأطعت الرسول واستقمت على طاعة الله وبادرت بالاستجابة لله والحرص على فرائض الله التي أوجبها الله عليك، النتيجة ما هي؟ ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: 69]. أنت في زمرة هؤلاء الركض؛ إذا جاء يوم القيامة وخرج الناس من قبورهم كلٌّ يتمنى أن يكون في زمرة هؤلاء، زمرة هؤلاء الركض.

قال: من هم؟ قال: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ من هم الذين أنعم الله عليهم؟ قال: ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء: 69]؛ أن تكون في صحبة الأنبياء، ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الذين أوحى الله إليهم وهم أعلى درجة الخلق.

ثم قال: ﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: 69]؛ أنهم تحت الأنبياء، وهم كل من صدق بلسانه وجوارحه؛ الصديق الذي يصدق ما جاء عن الله وعن رسوله، يصدقه بلسانه وبأعماله بجوارحه.

﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾ قال: ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ [النساء: 69]؛ الذين قدموا أرواحهم في سبيل الله. قال: ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: 69]؛ الذين صلحت أقوالهم وأخلاقهم وصلحت أعمالهم وعلاقاتهم مع غيرهم؛ هؤلاء الصالحين.

أربعة: النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين؛ أنت في زمرتهم؛ متى؟ ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾. قال: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]؛ هؤلاء تجد أحسن رفقة منهم، كن في رفقة هؤلاء، ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي تسمعه الآن هذه الصحبة الصالحة الطيبة؛ ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 70]؛ هذا فضل من الله، هذا فضل من الله، هذا فضل من الله؛ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: 70]؛ أي عالمًا بحالك وحالي وحال كل إنسان، وعالمًا بنيات كل إنسان؛ كل نية عالمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذا صدقت مع الله وصدقت نيتك مع الله وعملك الصالح، قدمت الخير لنفسك، فاعلم أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعطيك أعظم وأعظم ويجعلك في صحبة هؤلاء، ويجعلك صحبة هؤلاء.

جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يا رسول الله، ادعُ الله أن أكون لي أن أكون رفيقًا لك في الجنة، أكون رفيق لك يا رسول الله في الجنة. ماذا قال له الرسول؟ قال ادعي لك؟ ما قال: أدعو لك؛ قال: **«أَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ.»**

كثرة السجود؛ أقرب ما يكون الإنسان إلى ربه وهو ساجد؛ وأنت ساجد أكثر من الدعاء، قَمِنٌ أن يستجاب لك، قريب أن يستجاب لك.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداةً مهتدين، موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(93)
(النساء 71- 81)
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء، درسنا درس الأربعاء مع تفسير القرآن العظيم، نجلس هذا المجلس المبارك الذي تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة، تنزل عليه السكينة، ويذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحاضرين في الملأ في الملأ الأعلى عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذا اليوم هو اليوم الحادي عشر من شهر جمادى الآخرة من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

الآيات التي نتناولها قراءةً وتفسيرًا وبيانًا وتدبرًا هي من سورة النساء وهي الآية رقم واحد وسبعين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: 71].

لو تلاحظ حتى نتدبر الآية ونفهم معانيها حقيقةً ويظهر لنا المعنى جليًّا؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في آيات ماضية في لقاءات ماضية الحديث عن أهل الكتاب وبيان عداوتهم للإسلام والمسلمين، اليهود والنصارى.

ثم وبيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا عداوة المنافقين الذين يتحاكمون إلى الطاغوت ويكفرون بالله ويظهرون أنهم من المؤمنين وفي باطنهم الكفر والحقد على الإسلام والمسلمين، مثل هؤلاء ما يصلح معهم إلا الجهاد ومجاهدتهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

متى يتحقق للمسلم طاعة الله؟

تحقيقها وإقامة شرع الله وعدوك يتربص بك في كل وقت، ولذلك شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الجهاد مع هؤلاء؛ ولذلك الآية اللي عندنا قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: 71].

النفير هو النفير في الجهاد في سبيل النفير للجهاد في سبيل الله، ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ أي كونوا متيقظين، على يقظة وعلى حذر بإعداد العدة بإعداد العدة ومراقبة العدو في كل وقت وعدم الغفلة عنه؛ لذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حدد أو ركز على قضية أخذ الحيطة وأخذ الحذر، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في آية أخرى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا قال: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: 71]، الثبات يعني تنفر سرية مجموعة، يقول الجهاد أحياناً يعني الجهاد يكون ببعث السرايا، انفروا ثبات يعني جمع ثبة، والثبة هي الجماعة، يعني على الإمام أن يبعث جماعات وسرايا، أو ينفرون جميعًا إذا لزم الأمر النفير جميعًا، هذا معناه؛ فكونوا حذرين من عدوكم متيقظين من العدو بأخذ الحيطة، فانفروا سرايا ومجموعات أو انفروا جميعًا.

الآن هذا الأمر بالجهاد والأمر بالكلام أو الحديث عن الجهاد والنفير في سبيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيبين لك الآن هنا موقف المنافقين في الجهاد وماذا كان وماذا كانوا يفعلون ماذا كانوا يصنعون؟

انظر قال بعدها: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 72] .يقول منكم إما منافقون أو ضعفاء إيمان، يبطئ يعني يثقل نفسه لا يريد الخروج للجهاد لا، وزيادة على ذلك يثقل غيره، يعني هو لا يخرج للجهاد ويبطئ نفسه ويمنع غيره من الجهاد، يثقل الناس الآخرين يقول: لا الوقت ليس وقت جهاد، والعدو متربص بكم، والعدو أقوى منكم، وهكذا؛ هذا من هذا المنافق وضعيف الإيمان، أما قوي الإيمان يعتصم بالله.

قال انظر قال: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ [النساء: 72] يعني حصل انهزام للمسلمين في غزوة، ماذا يقول هذا المنافق وهذا ضعيف الإيمان؟

يقول: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 72] .يقول أنا ما حضرت معهم هذه نعمة من الله، يظن أن هذه نعمة إنه ما حضر الجهاد، الذي قُتِل في سبيل الله استشهد حصل على الشهادة العظيمة، وأنت خسرت لا حصلت هذا ولا هذا وتقول أنعم الله عليّ! يقول: ﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ [النساء: 72] وهزيمة، قال: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 72].

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النساء: 73] يعني نصر وهزيمة للعدو وحصول غنائم، ماذا يقول؟ قال: ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 73].

يقول كأن لم يكن بينكم وده يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً، هذا يدل على نية المنافق؛ المنافق إن حصل هزيمة على المسلمين قال: الحمد لله إني ما حصل ما حضرت المعركة، وإن حصل نصر وهزيمة ونصر وغنائم قال: يا ليتني معهم يا ليتني معهم فأفوز فوزاً عظيماً؛ هذا يدل على فساد النية، وأنه لا يجاهد لأجل إعلاء كلمة الله وإنما يريد مصلحة له فقط، يبحث عن مصلحته.

فلما بيّن الله موقف هؤلاء المنافقين ليش يبين الله هذا الموقف؟

حتى نعرف حقيقة النفاق والمنافقين ونحذر منهم، ولذلك انظر ماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 74].

أما الذي يقاتل علشان غنيمة وعلى شان مصالح دنيوية هذا لم يقاتل في سبيل الله، قال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ [النساء: 74] يعني يبيعون، يشرون معناها يبيعون، يبيعون ماذا؟

قال يبيع الدنيا كلها بزخارفها وأموالها، يخرج عنها مرةً يتركها، قال يبيعون الدنيا ويشترون الآخرة، يطلب الآخرة مقابل الدنيا لأنه يعرف هذا الذي جاهل في سبيل الله جهاداً لإعلاء كلمة الله ونصرة الدين يعرف أن ما عند الله خير من الدنيا؛ ولذلك قال: ﴿يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [النساء: 74].

قال: ﴿وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ﴾ [النساء: 74] شهيداً، ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ [النساء: 74] فينتصر في المعركة، ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 74] فوق النصر وحصول الغنائم الله وعده بالأجر العظيم، أو قُتل في سبيل الله فاستشهد فقد أعد الله له الأجر العظيم.

ثم خاطبهم الله على أسلوب الإنكار قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: 75] ما المانع؟ ما الذي يمنعك أن تقاتل في سبيل الله وهناك إخوان لك مستضعفون مؤذون في سبيل الله معذبين لماذا لا تنتصر لهم؟

ولذلك هذه الآية نزلت في من؟

أُناس كانوا في مكة كانوا في مكة مستضعفين رجال ونساء وولدان كانوا في مكة قد منعهم المشركون من الهجرة وضيقوا عليهم، لا هم الذي جعلهم يتعبدون الله بالحرم ولا هم الذي جعلهم يهاجرون ويتركون مكة فحبسوهم، فهؤلاء قال الله عَزَّ وَجَلَّ قاتلوا في سبيل الله لنصرة هؤلاء المستضعفين.

قال: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: 75]، يقول ابن عباس: **"كنت أنا وأمي من المستضعفين"**؛ يعني ما نقدر نخرج أنا صغير وأمي ما تستطيع الهجرة، قال: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 75].

هم يدعون ربهم في مكة يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها.

ما هي القرية؟

مكة، ما وصفها الله بالظلم ليش؟ تشريفاً لمكة، مكة معظمة عند الله؛ ولذلك قال: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: 75] يعني الذين ظلم أهلها وإلا هي ليست ظالمة.

ولذا في غير في غير مكة الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ ظَالِمَةٍ﴾ [الأنبياء: 11] ووصف الظلم وصفها بالظلم، لكن مكة لها مقام عظيم عند الله قال: ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ [النساء: 75].

قال كانوا يدعون يقولون: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [النساء: 75] يتولى أمرنا، ﴿وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: 75] ينصرنا نحن المستضعفون؛ فلما دعوا بهذه الدعوات جاءهم الفرج، فسلط الله نبيه على أهل مكة ففتحها، فتح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان وليًّا لهم وكان نصيراً لهم.

يقارن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقارن بين من يجاهد في سبيل الله ومن يجاهد لأجل الدنيا أو لأجل الشياطين كالمنافقين والكفار، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76].

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله نصرةً لدين الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، هؤلاء الكفار ما عندهم نية صالحة أما نيتهم هي فقط لغرض دنيوي أو في سبيل يعني محاربة هذا الدين؛ ولذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: 76] في سبيل الشيطان ليس لهم طريق إلا عداوة الإسلام والمسلمين.

قال: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ [النساء: 76] هؤلاء أولياء الشيطان قاتلوهم، قال لماذا؟ قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 76] .هؤلاء ضعفاء أمام الحق، جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثم يذكر لنا عَزَّ وَجَلَّ موقفاً آخر إما يكون موقفاً أيضاً من ضعفاء يعني ضعيف الإيمان أو المنافق مثل ما ذكر لنا الذين يبطئون؛ ذكر لنا حالةً أخرى وهي إنه قبل أن يشرع الله الجهاد كان في ناس يتمنون يقول ليتنا نقاتل، لما شرع الله الجهاد وأمرهم بالجهاد تثاقلوا ليس عندهم نية قوية.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77].

قيل لهم الجهاد حتى الآن ما فرضه الله عَزَّ وَجَلَّ ولا أذن به لأنكم ضعفاء ما عندكم قوة ولا عندكم سلاح، فقال الآن كفوا أيديكم وعليكم بإقامة الصلاة، أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقيموا شرع الله، إذا جاء وقت الجهاد فرضه الله عليكم قوموا بالجهاد.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ [النساء: 77] لما كتب عن القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله؛ انظر وين أنتم أمس تقولون نريد أن نقاتل ولما كتب القتال عليكم القتال إذا فريق من وليس جميعاً وإنما طائفة منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية.

يخافون في الجهاد من العدو أكثر مما يخافون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأشد خشية من الله عَزَّ وَجَلَّ، ويعترضون على فرضية الجهاد يقولون: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: 77].

يقول ليش الآن خلنا بعد مدة يأتي جهاد، يظنون أن الجهاد إنه يقطع آجالهم وأنه يمنعهم من الحياة، قال: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [النساء: 77]، قال الله رداً عليهم: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: 77].

قل لهم متاع الدنيا قليل بالنسبة للآخرة، الآخرة خير من الدنيا لمن اتقى وليس لكل إنسان لمن اتقى، ولا تظلمون فتيلاً في حسناتكم، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**».

متاع الدنيا قليل بالنسبة للآخرة، لا تكون نظرتكم نظرة الدنيا، الدنيا زائلة كم تعيش فيها كم تعيش من السنين؟ ثم تذهب وتتركها وال أو يدها أو هي تتركك ما تبقى لها ولا تبقى لك؛ فحياة منغصة في الدنيا مقابل الآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً.

ثم قال لهم تخافون من الموت في الجهاد وتخافون من لقاء العدو، لو كنت في بيتك يأتيك الموت أينما تكون: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: 78].

الموت أينما تكون في أي مكان الموت يأتيك يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة في قصور وحصون وعليها حراسة ومرتفعة ولا يستطيع أحد يدخلها ولا يتجاوزها؛ الموت يتجاوز هذه الحصون والجنود ويدخل ويأخذ روح هذا الشخص ولا أحد يستطيع أن يرده ولو كنت في بروج مشيدة ما أحد يرد الموت.

ثم بين حالهم في الدنيا ومواقفهم القضاء والقدر قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّن عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 78].

إذا جاءتهم هؤلاء حسنة قالوا هذه من عند الله، إذا جاءهم صحة وعافية ومال وخصب وربيع وخير قالوا هذا من عند الله، طيب كلام زين؛ قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [النساء: 78] مرض أو فقر أو مصائب في أولادهم في بيوتهم في أموالهم ماذا يقولون؟ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ﴾ [النساء: 78] يا محمد، أنت جئتنا وجئت الشؤم معك، هذا قاله المنافقون لما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة بدأوا كل ما أصابتهم مصيبة قالوا هذا بسبب محمد وأصحابه جاؤوا إلينا وأجابوا المصائب معهم.

قال الله رداً عليهم: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: 78] لا من محمد ولا من أي إنسان، الحسنات والمصائب كلها من عند الله، ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: 78] . أنتم ما تفهمون عندكم يعني عدم فقه وعدم معرفة بالقضاء والقدر، هذا كله من عند الله، الإنسان يصيبه خير من الله يصيبه شر من الله.

ليس الإنسان أو ليس لشخص يكون سبب في شخص آخر إلا بقضاء الله وقدره؛ ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فصل لهم هذا الخير والشر والحسنات والسيئات تفصيلاً دقيقاً قال: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 79].

- كيف قبل قليل يقول كل شيء كل من عند الله؟

الجواب: القضاء والقدر من عند الله، ولكن الخير فضل من الله والشر والمصائب أنت السبب، أنت السبب، وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم، أنت يعني تجد الإنسان هو سبب نفسه فيصاب بالمصائب ويقدر هذا كله قضاء الله وقدره لكن الإنسان أحياناً يكون هو السبب في ذلك.

ولذلك قال: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: 79]، ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: 79] أي أرسلناك يا محمد رحمة ورسالتك رحمة للناس، ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 79] على أنك رسول وأنك مبعوث رحمة للعالمين، لا كما يقول هؤلاء أنك جئت وأصبحت شؤماً علينا؛ هذا الكلام كله لا يتقبل منهم.

ولذلك هؤلاء المنافقون يعني في كل فرصة وكل زمن يتربص هؤلاء على ضد الإسلام والمسلمين، ولذلك يقولون يدعونهم دعوة يقول: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 81].

يقولون نحن نطيعك يا رسول الله وأمرنا طاعة لك طاعة، فإذا برزوا من عندك خرجوا وذهبوا إذا جاؤوا عند الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هؤلاء المنافقون قالوا نحن معك ونطيعك في الجهاد وفي كل شيء، وإذا برزوا ذهبوا أي طائفة منهم غير الذي تقول، يبيتون تبييتاً في الليل كلاماً غير ما كان له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنهم يظهرون الإيمان ويبطنون الفكر.

قال: ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: 81] كل شيء يكتبه الله عَزَّ وَجَلَّ ويحصي عليهم ويجازيهم عليه؛ يظنون أن الله غافل يظنون أن الله غافل عما يعملون، هذا أو يظنون أن الله لا يعلم هذا، هذا لا يمكن والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محيط بهم عالم يكتب ما يبيتون ويحصي ويجازيهم على أعمالهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حقهم: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 81] اتركهم وتوكل على الله فإنك قد فوضت أمرك إلى الله والله الذي تولى أمرك، توكل على الله وكفى بالله وكيلاً، يكفي الله سبحانه أنك تتوكل عليه والله يكفيك شأنه ويكفيك ما يبيتونه ويكفيك ما يحقدون على الإسلام والمسلمين ويتربصون بكم فعلي أن تتوكل على الله وتفوض أمرك إلى الله.

لعل نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل هذه الآيات التي عشنا معها حقيقةً وتدبرناها وتأملناها، فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بها أن ينفعنا بها وأن يبارك لنا في هذا في هذا القرآن العظيم، إلى لقاء قادم والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(94)
(النساء 82- 87)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الأخوة الكرام، درسنا في هذه الليلة معنا مجموعة من الآيات، الحقيقة هي آيات مهمة يحرص عليها كل مسلم عاقل، ويتفكر فيها ويتأمل فيها ويعمل بما تدل عليه هذه الآيات، والقرآن الكريم كلام الله أنزله الله ليتلى بالألسن ويقرأ؛ فإن الذي يقرأ حرفًا واحدًا من كتاب الله له بالحرف الواحد عشر حسنات.

فنزل القرآن للتلاوة، ونزل أيضًا للفهم والتدبر، ونزل أيضًا للعمل، ليس مجرد قراءة أو فهم، لا، تقرأ وتفهم وتطبق في حياتك، هذه الآيات التي معنا الآن كلها ينبغي أن نراعي فيها هذه الأمور؛ فهمها، قراءتها قراءة صحيحة، فهمها وتطبيقها في حياتنا.

السورة التي معنا سورة النساء، هذه الآية هي الآية رقم ٨٢ من السورة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

هذه الآية لما تقرأها أنت وما قبلها من آيات، هذا توجيه من الله لهؤلاء المنافقين الذين تكلم الله عنهم قبل ذلك في آيات سابقة، تحدثنا عن أحوال المنافقين.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحث هؤلاء المنافقين على تدبر القرآن؛ لأن تدبر القرآن يردهم إلى الإسلام ويردهم إلى معرفة حقيقة هذا الإسلام، وهذه الآية ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ وإن كانت في سياق أهل النفاق، إلا أنها الجميع مخاطبين بها، الجميع مخاطب بها، كل إنسان مخاطب بهذا.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينكر على هؤلاء ويتعجب منهم؛ كيف ما تتدبر القرآن؟ كيف تقرأ القرآن وأنت ما تتدبر القرآن؟

- ما هو التدبر؟

عندنا من يقرأ القرآن، وعندنا مرحلة ثانية تفسير القرآن يعني لبيان معانيه، ثم يأتيك التدبر، التدبر هو مرحلة بعد فهم الآية، يعني لا تظن أن التدبر هو فهم الآيات، لا، التدبر فوق الفهم.

يعني أنت تفهم الآية ثم تتدبر ما فيها من دلالات وما يذكر الله فيها من معاني، قد تكون خافية تحتاج منك إلى تأمل، تحتاج منك إلى إعادة نظر، ليس مجرد قراءة وتفسير.

أنا أعطيك مثالًا من الواقع؛ لو تجيك رسالة الآن على جوالك، أول أمر تقرأها قراءة، ثم إذا قرأتها تنظر فيها لتفهمها؛ هذا الفهم هو التفسير، فهمته تفسير .لكن يأتيك تدبر وش هو؟

يقول لك لماذا أرسلها لك؟ ما الغرض من هذا الإرسال؟ ش يقصد فيها؟ هذا نسميه تدبر، إذًا التدبر مرحلة بعد الفهم. القرآن أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لتدبر آياته، ولذلك تلاحظ هذه الآية ومع أربع آيات في القرآن كلها تأمر بالتدبر.

هذه الآية وفي آية أخرى قال الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]. يعني كثير الخيرات، لا تنقضي خيراته، أصحاب العقول هم اللي يتذكرون، أما الغافلون ما يتذكرون ولا يفهمون.

في آية أخرى أشد منها، أشد من هذه وأشد من الذي قرأناها، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24] .يعني إذا لم تتدبر القرآن تنغلق قلوبك،

ما عاد تدري ما عاد تفهم، فهذا وعيد شديد إنك إذا ما تتدبر القرآن قد تعرض نفسك إلى أن يغلق على قلبك مع تفهم، وتحرم من لذة التدبر.

التدبر هذا إنسان يتلذذ به، يتلذذ بالقرآن الكريم ما يشبع منه، ما شبع منه العلماء ولا عامة الناس، لا تنقضي عجائبه، كلام الله هذا تردده وتقرأه ألف مرة ما تمل، لو أعطيك مجلة أو صحيفة تقرأها وأعطيك إياها بعد يومين تقرأها تقول ما أستطيع أقرأها هذه، مليت منها قرأتها خلاص، ما عاد لي نفسي أقرأها .القرآن غير؛ تقرأ وتختم وتعيد وتتجدد، تتجدد الآيات أمامك فتدبر القرآن.

في آية رابعة قال الله فيها: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: 68] .القول يعني القرآن، ليش ما يتدبرون؟ كل هذا الله يحث ويأمر عباده بأن يتدبروا القرآن.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ بتدبر، يعني جلس ليلة كاملة حتى الصبح يردد آية واحدة؛ هذا التدبر، تدبر ما ليست قضية إنك تختم، لا، تقف وتتأمل هذه الآيات.

انظر يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82] .لكن لما كان من عند الله ما في اختلاف أبدًا، ولو اشتبه عليك تقول الله يقول في هذه الآية كذا ومرة يقول كذا، كيف نقول؟

هذا اشتباه من عندك أنت، أما القرآن ما في اشتباه، ولذلك العلماء حلوا كل ما فيه مما يظهر أمام بعض الناس أن فيه مثلًا تناقض أو اختلاف؛ لا، القرآن ما في تناقض ولا اختلاف أبدًا، إلا قد يظهر لك في بعضها في مفهومك أنت، أما القرآن لا، في حقيقته ما في تناقض أبدًا.

الله يقول لو كان من عند غير الله لوجد فيه اختلافًا كثيرًا، وتناقض وعدم تطابق الآيات؛ لا، القرآن ما تجد فيه ولا حرف واحد تقول هذا زائد ولا هذا ناقص ولا هذا يحتاج إلى ولا كلمة نبدلها بكلمة، لا، هذا كله لا تجده في القرآن، القرآن جاء على أكمل الوجوه، قال ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

إذًا المطلوب في هذه الآية هو مطلوب منا جميعًا؛ إن الإنسان يعطي شيئًا من نفسه، قليل من الوقت لقراءة القرآن، يعطي قليل لفهم الآيات لتدبرها تأملها .ولو على الأقل يكون معك تفسير مختصر تقرأه تفهم هذه الآيات، إذا ما تعرف اسأل أهل العلم، اسأل أهل الذكر يفيدونك في هذا الشيء.

احضر مجالس الخير مجالس الذكر، فيها خير عظيم فيها مكاسب عظيمة، وخاصة إذا كانت من دروس القرآن الكريم، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها ش عشان تعرف إن هذه الآية أول من خطب فيها المنافقين، قال بعدها: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: 83].

وهذه وإن كون قلنا فيها في المنافقين، في الحقيقة حتى نحن جميعًا مخاطبين بهذا، والآن أوضح لك كيف الناس كيف يتعاملون مع هذه الآية، كيف يتعاملون معها.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾؛ بمجرد يأتيك خبر على طول تذيعه، هذا غلط، هذا منهج خاطئ الله حذر منه، يا الذين آمنوا ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: 6]، تبين لا تستعجل، هذا الواقع في الواقع عندنا الآن مع التقنية الجديدة، أي رسالة تجيك على طول ترسلها؛ لا تستعجل في أي خبر يأتيك، أخبار أو فائدة أو مسألة علمية أو كذا، هذا خطأ إنك تستعجل، لا تستعجل.

لست مسؤولًا ولست مكلفًا إنك ترسلها للملايين الذين تأتيهم هذه الرسالة، وتلاحظ أحيانًا تأتيك رسائل فيها أحاديث موضوعة مكذوبة على الرسول، وخاصة في بعض المواسم مثل رمضان والحج وهذه يرسلون رسائل فيها كذب على الرسول.، يقول قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وهو حديث مكذوب، ثم يأتي هذا المسكين ويأخذ الرسالة ويرسلها ويقول أرسل تؤجر عليها، لا تحرم نفسك الخير قد يجدها غيرك ويتاثر بها؛ لا تستعجل.

إذا جاءك خبر، رسالة، حديث، آية، تفسير آية؛ الحين يفسرون الخطأ يفسرون الآية على، وأنا تأتيني رسائل كثيرة يفسر آية بالغلط خطأ ويرسلها ويقول هذا معنى الآية ويرسلون مقاطع وأشياء، لا تستعجل فيها.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ﴾ شفت توجيه القرآن، ﴿إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ﴾ يعني فيه أمن فيه سرور فيه خير للمسلمين زين أخبار، ﴿أَوِ الْخَوْفِ﴾ أحيانًا فيه خوف للمسلمين خاصة في الحروب ونحوها، يبدون ينقلون هذه الإشاعات ويرسلون هذه الإشاعات يرسلونها على جوالات بإسراع شيء .

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ ما يتثبتون، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83].

لو ردوه إلى الرسول في زمانه في وقته، أو قال وأولي الأمر منهم يعني العلماء والعقلاء وأهل الحل والعقد والمسؤولين؛ ردوه إلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، يقول لعرفوا يتصرفون فيه.

أما أنت تتصرف لا تستعجل ولا تذيع ولا تنشر ولا تشيع إشاعات فيها إرجاف للمسلمين وفيها تخويف المسلمين، كل هذا ينبغي التثبت، وهذه من صفات المنافقين.

المنافقون يفرحون بمثل هذه الإشاعات، يأتون يشيعون بين المسلمين أما انهزام أو انتشار مرض أو فعل كذا أو حوادث أو نحو ذلك، هذا لست مسؤول عنه أنت.

احفظ نفسك واحفظ لسانك واحفظ جوارحك أن تقع في مثل هذه الأمور، السلامة لا يعدلها شيء، إذا جاءتك رسالة من الرسائل أو خبر أو كذا ما أنت مكلف إنك ترسل وتشيع هذه الأشياء، تثبت حتى يظهر الأمر، يمكن يظهر الأمر خلافه وأنت ما تدري.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83] .

أي لولا فضل الله عليكم ورحمته أيها المسلمون في توجيه القرآن لكم وتوجيه الله لكم لاتبعتم الشيطان إلا قليلًا.

الناس يتبعون ولا يدرون إن هذا من طرق الشيطان وخطوات الشيطان وتزيين الشيطان لهم، الشيطان زين لهم أعمالهم .يحذر الإنسان أحيان في غيبة أحيان في نميمة أحيان في أشياء محرمة أحيان في صور نسائية يرسلها، امرأة كاشفة عارية يرسل، ما أنت مسؤول ما أنت مكلف بهذه الأشياء، هذا من طرق الشيطان.

تعود الآيات إلى ما ذكرناها في اللقاء الماضي عن الجهاد والقتال وموقف المنافقين، قال الله عَزَّ وَجَلَّ مخاطبًا نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: 84] .هذه الآية أنت الآن تسمع تقرأها يمكن تفهمها إن خطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لا، هذا خطاب لك أنت.

كيف خطاب لي أنا؟ الرسول الله يقول ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، نقول أنت مسؤول عن نفسك، أي إنسان كل واحد مسؤول عن نفسه.

أدب نفسك، علم نفسك، ربي نفسك، روض نفسك على الطاعات؛ هذه معناها، ينبغي للإنسان أن يكون مسؤول عن نفسه أولًا ثم مسؤول عن غيره، لا يبدأ بغيره ويناصح الناس وهو مقصر، هذا غلط.

ابدأ بنفسك، روض نفسك على الطاعات، احرص عليها .يجد بعضهم يحث الناس على قراءة القرآن وهو لا يقرأ، يحث الناس على الصيام ولا يصوم؛ ابدأ بنفسك أولًا ثم ما في مانع إنك تنصح غيرك.

ولذلك انظر قال: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾؛ أنت اشتغل بنفسك ورب نفسك، طيب بعدين قال: ﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 84] .حرضهم على الجهاد، أولًا أنت بنفسك، ونحن نقول أيضًا كل إنسان ابدأ بنفسك في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ وتربية نفسك على الطاعة، ثم بعد ذلك ما في مانع إنك تحرض بل المهم ما نقول ما في مانع، بل يجب عليك إنك تحث الناس على الخير تشجعهم على الخير.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: 84] .عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا أي قوة الذين كفروا يردها الله يردها.

- ما معنى عسى؟

عسى في حق الناس ترجي، ترجي تقول عسى الله عسى فلان يحضر، عسى فلان يأتي، عسى فلان يرجع من السفر، هذا ترجي، لكن في حق الله ليس ترجي، عسى في حق الله واجبة؛ يعني الله يكف بأس الذين كفروا .لماذا؟ قال: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ [النساء: 84]، أي أشد قوة وأشد تنكيلًا أي أشد عقوبة.

انظر الآن عرفنا تدبر القرآن معناه، عرفنا إن الإنسان إذا جت أخبار مثل هذه الأشياء أن يتثبت، خذ أيضًا فائدة كبيرة عظيمة في الشفاعة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا ۖ وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ [النساء: 85] .يعني يكون له أجر فيها لأنها شفاعة حسنة.

ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها، يعني يكون له إثم وعقوبة عليها.

ما معنى هذا الكلام؟

الشفاعة هي الوساطة، تتوسط لشخص، أحيانًا أنت تحتسب أجر في الشفاعة، شفاعة في ناس مظلومين، في ناس فقراء، في ناس محتاجين، في ناس عليهم ديون، في ناس مهددين بالسجن؛ تشفع لهم، تشفع لهم بمساعدتهم تتوسط لهم.

قد يكون هذه امرأة مسكينة عندها أطفال عندها كذا ومحتاجة من يشفع لها عند فلان، يشفع لها عند فلان؛ فتأتي أنت بنفسك وتشفع لها، هذه شفاعة حسنة ما فيها ضرر على الآخرين وفيها مصلحة ومنفعة لمثل هؤلاء الفقراء المحتاجين.

☜ ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا** .»فيشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها، يصير له مكس، يعني أنت إذا فرجت ما تدري؛ يعني أنت ممكن تأتيك امرأة أو رجل كبير بالسن يقول لك والله أنا عندي كذا وكذا وأريد أن تشفع لي عند فلان، أنت تعرف فلان وأنا ما يعرفني نروح أنا وإياك لفلان؛ تذهب أنت بس ما تدري ما وراء هذا العمل من أجر عظيم، يقول: ﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾.

أنت تفرج كربة يفرج الله عنك كربة يوم القيامة، تنفس كربة عن مسكين محتاج ينفس الله عنك كربة من كربات يوم القيامة، فلا يغيب عنا هذه المعاني العظيمة.

والعكس؛ تجد بعض الناس يشفع شفاعة سيئة، يجد شخص ظالم ويشفع له ويساعده ويقف معه، فهذا من الشفاعة المحرمة السيئة يكن له كفل أي يكون له إثم عليه.

وكان الله على كل شيء مقيتًا، أي محاسبًا قادرًا على جزاء هؤلاء وهؤلاء، لا يغيب عنه حتى إنك قرأت كلمة: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ إن الله يجازي وإن الله قادر على أن ينفع هذا وينفع هذا ويعطي هذا ويمنع هذا، تحتسب الأجر في الشفاعة.

نختم المجلس أيضًا بأدب من آداب القرآن وآداب الشريعة ما هو؟

قال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: 86] .التحية أحيانًا تكون بالكلام، أحيانًا تكون بانبساط الوجه بالبشاشة، فإذا حياك شخص حيه بأحسن منه أو على الأقل ترد التحية.، وأفضل التحيات السلام الذي سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال **«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ.»**

هذه وإن حيا بزيادة حياك الله وبياك أهلاً وسهلاً من العبارات المقبولة، فهذا شيء طيب، لكن تجد بعض الناس يترك السلام ويأتي بعبارات أخرى، يقابل فلان في طريق يقول حياك الله يا فلان، يا هلا يا أبو فلان؛ طيب وين السلام؟ السلام أفضل.

فلا يغيب عنا مثل هذه الأشياء، السلام فيه أجر؛ قال إذا قال **«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ»** كتبت له عشر حسنات، **«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ»** عشرين حسنة، **«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ»** ثلاثين حسنة.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾؛ ايش تفهم هذه الجملة هذه؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ يعني الله حسيب يعني يحاسب ويجازي . أحيانًا تجد بعض الناس يعني البشاشه؛ **«تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ.»**

تبسمك بشاشتك وتبسمك وسلامك وطلاقة وجهك وتحيتك وتقديرك له؛ احتسب الأجر فإن الله يقول ﴿كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ يحاسب يجازيك على هذا العمل العظيم .فإذًا متى يجازيك؟ متى تجد هذا أثر هذا الذي تتمنى فيه حسنة؟ متى؟ قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87].، هذا يوم القيامة؛ الشفيع له أجر، الذي يحيي الناس الكلام الطيب، الذي يبش وجوه الناس؛ هذه ترى حسنات، هذه أعمال خفيفة ما تشعر بها أنت تغيب عنك.

الله إذا جمع الناس يوم القيامة يجازي بهذا على هذه الأعمال التي تغيب عن كثير من الناس، فالله لا إله إلا هو، لا معبود بحق إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أقسم عَزَّ وَجَلَّ هنا قال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾؛ يعني ما خلقكم عبثًا، ما خلق الناس عبثًا، خلقهم للعمل في الدنيا والجزاء في الآخرة، هذا هو؛ خلق الناس للعمل في الدنيا يعملون لعبادته وطاعته ثم جزاء يوم القيامة.

قال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾، أي لا أحد أصدق من الله في حديثه وكلامه، تجد أصدق من هذا الكلام؟ ما في أصدق من الله.

انظر كيف قرأنا هذه الآيات، تدبرناها، تأملنا هذه الآيات العظيمة التي فيها فوائد وفيها تأملات وفيها تدبرات، فيها توجيهات قرآنية نحتاجها في حياتنا كلها، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا وأن يجعلنا وإياكم هداة موفقين لكل خير.

والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله.

(95)
(النساء 88- 93)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

حياكم الله في هذا المجلس الطاهر المباركِ من مجالس الذكر التي تحفها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، ويذكر الله أهل هذا المجلس في الملأ الأعلى عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نجلس هذه الدقائق المباركةَ مع آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نقرؤها ونتدارسها.

☜ ونتذكر قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل: **«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»**، وقال: **«أَفْضَلُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»**؛ فتتعلم وتعلم غيرك. هذا اليوم هو اليوم الخامس من الشهر السادس من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

الآيات التي معنا من سورة النساء وهي الآية الثامنة والثمانون، هذه الآية وما بعدها الحقيقة تحتاج منا كلنا جميعاً أن نقرأها ونفهم معناها؛ كثير ممن لو قلنا له اقرأ هذه الآية ومعناها سيكون المعنى عنده غير واضح ويحتاج إلى بيان وتفسير.

هذه الآيات تتحدث عن أحوال المنافقين، احنا ذكرنا في هذه السورة؛ سورة النساء، التي هي تتعلق بأحكام المسلمين وخاصة أحكام النساء، بين الله في أولها كل ما يحتاج الناس إليه من أحكام احتاج المسلمين إليه، ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هناك أعداء للإسلام والمسلمين من اليهود والنصارى والكافرين والمنافقين، وركز على قضية النفاق والمنافقين لأنهم في داخل في صفوف المسلمين ما أحد يعرفهم.

فلا بد أن يكشف الله عوارهم ويبين حقائقهم؛ لأنهم يدعون في ظاهرهم أنهم مع المسلمين، وأنهم يصلون، وأنهم يجاهدون ويتصدقون، وفي نفس الوقت مع الكفار في الباطن، وهؤلاء أخطر على الإسلام وهم في كل زمان، لا تظن أن هؤلاء الذين نقرأ الآيات عنهم هم في زمان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانتهوا؛ لا، في كل زمان تجد النفاق يظهر.

- متى يظهر؟

إذا ضعف الإسلام ظهروا، إذا قوي الإسلام ضعفوا وسكتوا، انظر الآيات الآن يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 88]. أما عن هذا الكلام أولاً.

يقول أهل العلم: **"أن الفاء هذه مرتبطة بما قبلها"**.

- كيف مرتبطة؟

لما تحدث الله عن المنافقين وبين أحوالهم وحقائقهم، هناك طائفة من المنافقين ما اتضح نفاقهم ولم يتبين، فلذلك تردد بعض الصحابة فيهم؛ هل هم منافقون ولا من المسلمين؟ فترددوا، فكشف الله عنهم قال لا يمكن تترددون فيهم، ليش أنتم؟ يقول فما لكم في المنافقين؟ ليش أنتم في المنافقين فئتين؛ فئة تقول مسلمين وفئة تقول كفار؟

لا، هم كفار وهم أبعد الناس عن الإسلام، فكشف الله عوارهم قال: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾. **"اركسهم يعني أسقطهم على رؤوسهم"** يعني ردهم إلى الكفر.

ردهم إلى الكفر بسبب كسبهم؛ بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، فهم أركسهم الله يعني ردهم إلى الكفر، يقول ليش أنتم مترددون في هؤلاء؟ هؤلاء كفار.

- من هم هؤلاء؟

نرجع إلى سبب النزول.

ذكر أهل التفسير: **"في سبب النزول أن هؤلاء كانوا في مكة"**، كانوا في مكة وكانوا يظهرون أنهم مسلمون إذا رأوا المسلمين، وإذا لم يجدوا المسلمين تواصلوا مع الكفار؛ كفار مكة، فخرجوا مرة من مكة فقال بعض الصحابة هؤلاء مسلمون يقولون يعني يشهدون أن لا إله إلا الله وأن رسول الله.

فقال بعضهم لا، بل هم يوالون الكفار، فاختلفوا فيهم فكشف الله قال هؤلاء كفار، الله أركسهم بما كسبوا، عشان نفهم كلمة أركسهم بما كسبوا اقرأ ما بعدها، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾؛ هؤلاء أضلهم الله بسبب ذنوبهم وأصبحوا كفاراً ضلالاً، كيف تريدون أن تهدوا من أضل الله حتى تقولون إنهم من المؤمنين؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 88]؛ إذا أضل الله أحداً لا تستطيع أن تهديه مهما كان، ولو كان أقرب الناس إليك، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً، وهذا يدل على أنهم في ضلال وفي كفر وليسوا يعني من المسلمين بصلة.

قال انظر حتى يكشف الله عوارهم قال ودوا؛ هم يتمنون: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: 89].

يقول هم داخلهم يتمنون منكم أن تكونوا مثلهم كفاراً، إذاً هم كفار، إذاً هم كفار خلاص، الله كشف هذا الأمر قال: ﴿كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ في الكفر، ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ لا توالوهم، لا توالوا هؤلاء أبداً، لا تجعلوهم أولياء معكم هؤلاء كفار، ولا يمكن أن نتقبل متى؟

قال: ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فإذا خرجوا من ديار الكفر وهاجروا في سبيل الله اتضح لنا أنهم حقيقة على الإيمان، فإذا يعني هاجروا للمدينة وتركوا كفرهم عرفنا أنهم حققوا الإيمان، ﴿حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ ولم يهاجروا ولم يقبلوا منكم هذا، ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾؛ هؤلاء كفار أصبحوا في منزلة الكفار يقتلون حيث وجدوا، ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 89].

- ليش يؤكد الله على لا تتخذوا أولياء لا تتخذوا أولياء؟

لأن بعض المسلمين قد يكون لهم قرابة مع هؤلاء، لهم قرابة أو يظهر لهم أنهم معهم ويقول نحن مؤمنون ويظهرون الإيمان، أكد الله على أنهم كفار لا ولاية، لو كانوا أقرب الناس إليك؛ الكافر كافر والمنافق منافق، ليس بينك وبينه أي ولاية ولا محبة.

ثم استثنى الله أناساً منهم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ [النساء: 90].

كيف إلا؟ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق.

يقول إذا كان هؤلاء الذين حكم الله عليهم أنهم يقتلون وأنهم كفار وأنهم لا يتخذهم المؤمنون أولياء، هؤلاء إذا كان منهم من بينه وبين قوم يعني عهد، وأنتم معاهدون هؤلاء القوم، فلا تتعرضون لهم بسوء، وهذا يدل على الوفاء بالعهود، وأن الإسلام يأمر بالوفاء بالعهود ولو كان كافراً.

ما دام بينك وبينه عهد لا تنقض العهد، فهؤلاء قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ﴾ إذا كان لهم صلة وعلاقة بقوم بينكم وبينهم ميثاق فهؤلاء لا تضرونهم بسوء.

قال: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ يقول أو هؤلاء الطائفة منهم جاءوكم حصرت صدورهم يعني ضاقت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، يقول هم لا يريدون أن يقاتلوكم ولا يريدون أن يقاتلوا مع قومهم، فهم محايدون ما يريدون هؤلاء ولا هؤلاء، فهؤلاء ماذا قال؟

هؤلاء لا تتعرضون لهم بسوء لأنهم ما ابتدروكم بالقتال ولم يتعرضوا لكم، يقول حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾.

ولكن الله سبحانه برحمته صرف كيدهم عنكم، فلا تتعرضوهم بسوء ما دام أنهم ضاقت صدورهم لا يريدون قتالكم ولا يريدون قتال قومهم فاعرضوا عنهم، ولو أراد الله أن يسلطهم عليكم لسلطهم عليكم.

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كف شرهم عنكم؛ ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: 90]. يقول إذا اعتزلوكم ما أرادوا قتالكم وقالوا نحن نسالمكم، ألقوا السلم إليكم نسالمكم ولا نقاتلكم، فهؤلاء ما جعل الله لكم عليهم سبيلاً تقاتلوهم ما دام أنهم لا يريدون قتالكم.

- ما الذين يقاتلون؟

كأن هؤلاء استثناهم الله قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ [النساء: 91]؛ هذه أيضاً طائفة، كل هذه الطوائف كانت حول المدينة وكان حولهم شبهات ما يدرون حتى أوضح القرآن حقائقهم وأزال هذه الشبهات.

يقول ستجدون آخرين يعني طوائف أخرى أو قبائل، يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم؛ يعني إذا جاءوا عندكم طلبوا الأمان منكم قالوا لا نريد أن نقاتلكم ونحن معكم ونحن في صفكم، وإذا ذهبوا إلى قومهم قالوا نحن معكم؛ يعني يأتون هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه.

قال: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ كلما ردوا إلى القتال أو إلى الحرب أو إلى البعد عن الفتنة أركسوا فيها يعني ردوا فيها وأرجعوا فيها، قال هؤلاء مثل المنافقين إذا ذهبوا إلى قومهم قالوا نحن معكم.

إذا جاءوا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة قالوا نحن معكم، فهم يمشون بوجهين، قال هؤلاء إذا لم يعتزلوكم قال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ﴾؛ قال هؤلاء إذا لم يعتزلوكم مثل الطائفة الأولى، ولم يلقوا إليكم السلم لم يستسلموا مثل الأولى ويكفوا أيديهم.

- ما الحكم؟

قال: ﴿فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي مكان وجدتموهم اقتلوهم لأن هؤلاء يأتون بوجهين.

قال: ﴿وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: 91]؛ يعني قوة ظاهرة وهم في خوف وضعف، انظر لما يتحدث الله عن قتال هؤلاء المنافقين قد يأتيك شخص يقول لك هؤلاء يظهرون الإيمان وأن عندهم إيمان، نقول يظهر لك الإيمان على لسانه لكن داخله كشفه الله، أوضح لك صفاتهم، وبين الله لكم ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: 30]. معروف المنافق معروف صفاته.

- قد يلتبس الأمر بأن يقتل المؤمن شخصاً يظن أنه منافق ويتبين أنه مؤمن، فما حكم الشرع فيه؟

هذا ما يسمى بقتل الخطأ، لذلك الله تكلم وتحدث وأخبرنا عن حكم القتل لو أن شخصاً قتل أخاه المسلم خطأً فما حكم الشرع فيه؟

ذكر الله قال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾ [النساء: 92]. يقول ما يمكن ولا يقع من مؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأً، ممكن، لكن يعتدي عليه عمداً.

عمداً هذا ليس من صفات المؤمنين وليس من شمائل المؤمن وشيم المسلمين أن يقتل أخاه المسلم عمداً، يأخذ آلة حادة ويقتله؛ هذا لا يجوز، ولذلك بين الله عقوبة قتل العمد فبدأ بالخطأ قال

قد يحصل خطأ؛ يعني يريد أن يقتل مثلاً طائراً أو حيواناً فيطلق هذه الآلة الحادة فتنطلق وتضرب شخصاً لا يريد قتله، هذا يسمى قتل خطأ، ما حكمه؟

قال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: 92]. انظر حق الله أول شيء تحرير رقبة مؤمنة؛ يعني يعتق مملوكاً ذكراً كان أو أنثى مملوكاً مؤمناً.

- قد لا يجد إعتاق رقبة؟

يأتيك الآن قال أول شيء عتق رقبة، قال: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾؛ يعني يلزمه أن يسلم دية قيمة هذا القتيل إلى أهل القتيل؛ الورثة يسلمها لهم، فيلزمه القاتل خطأً يلزمه أمران: عتق رقبة، والدية؛ المبلغ الذي يسلمه إلى أهل القتيل، ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ يعني يعفوا؛ إذا عفوا سقطت الدية، قال والله احنا لا نريد شيئاً نحن عفونا لوجه الله فهذه: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾.

﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ يقول لو كان هذا المؤمن بين صفوف الكفار أو هو مع الكفار ولكنه مؤمن، قال هذا إذا كان قتل وهو مؤمن مع الكفار قال هذا يجب تحرير رقبة مؤمنة فقط دون الدية.

ما نعطيه دية؟ قال لأن أهله كفار، والمؤمن لا يرث الكافر والكافر لا يرث المؤمن، ولأنهم يتقوون بها علينا فلا نعطيهم، قال طيب الحالة الثالثة: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾؛ يعني بيننا وبين قوم كفار لكن بيننا وبينهم عهد ومواثيق وصلح ونحو ذلك.

قال إذا كان بينكم وبينهم ميثاق: ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ مثل المؤمن، كأنه قتل مؤمناً؛ لأن إقامة المعاهد والذمي مقام المؤمن، قال: ﴿فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.

انظر قدم الدية الأول، قدم التحرير حق الله هنا، لا ليش؟ لأن هؤلاء المعاهدون القوم بينك وبينهم ميثاق وعهد كفار هؤلاء، فيتساهل بعضهم في تسليم الدية يتساهل فيها، يقول هؤلاء كفار ليس من الضروري أعطيهم، نقول لا، الله قدم قال أعطهم أول شيء ثم حرر الرقبة المؤمنة.

- إذا ما وجد رقبة مؤمنة؟

مثل الآن واقع الحال الآن لو يبحث عن يعتق مملوكاً ما يجد، وين تحصل مملوكاً؟ وهذا يدل على أن القرآن صالح لكل زمان ومكان، يأتيك زمان ما فيه، لو ما يذكر الله البديل كان الناس يقولون ماذا نصنع؟ ما عندنا مماليك نعتقهم، قال: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ [النساء: 92]. إذا قتل خطأً ولم يجد دية، لم يجد يعني يحرر مملوكاً، تحرير رقبة، نقول صم شهرين متتابعين.

لا تفصل بينهما بيوم واحد أن تفطر فيه، فلو أفطر يوماً واحداً يعيد من جديد، إلا إذا كان الإفطار لسبب مثل أيام العيد، أيام التشريق، أو المرأة جاءها عذر شرعي هذا مشروع، أما غير ذلك ما يفصل بينها ولا يفطر يوماً واحداً، لو أفطر أعاد لأن الله يقول شهرين متتابعين.

قال الله: ﴿تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ﴾؛ أي هذا الأمر وهذا الذي فعله الله أو أمركم الله به هذا توبة من الله لأنك أنت اعتديت على نفس مؤمنة فهذه توبة من الله، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 92].

نختم المجلس بقتل العمد، لو جاء شخص وقتل شخصاً آخر عمداً بمعنى أنه أخذ آلة حادة وقتله متعمداً، أو ضربه بأي شيء متعمداً قتله.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93]. انظر كيف حرمة المؤمن يحميها الله بهذا الشيء، انظر كيف يتوعده الله بهذا الوعد، من يقتل مؤمناً متعمداً قال جزاؤه جهنم أولاً.

يعني مصيره إلى النار، وخالداً فيها ثانياً، والثالث غضب الله عليه، الرابع لعنه الله أي طرده عن رحمته، وأعد له عذاباً عظيماً. كل هذا في الحفاظ على نفوس المسلمين أن يعتدي عليها شخص متعمداً، كيف يقتل وتسمع.

الآن يعني أنفس أبرياء تقتل ويتهاون بقتل مسلم، قتل المؤمن ليس عند الله أمره هيناً حتى تتساهل فيه، هذه الآية وعيد شديد بلا شك، لكن لو جاءك واحد وقال لك طيب كيف يعني جزاؤه جهنم خالداً فيها والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48].

- والمؤمن هذا كيف يخلد في نار جهنم وهو مؤمن؟

والله عَزَّ وَجَلَّ يخرج من النار أهل التوحيد، نقول هذا يعني **"إذا حمله العلماء على أنه من يستحل القتل"**، تجد بعضهم يستحل يقول هذا حلال قتله، فمن يستحل القتل موعود بهذا، أو أن هذا جزاؤه جهنم أن يدخل النار يخلد فيها زمناً معيناً ثم يخرج ويدخل الجنة على قدر معصيته؛ لأن هذه كبيرة من كبائر الذنوب، كبيرة، وكل مؤمن عنده إيمان في قلبه وتوحيد لا يخلد في نار جهنم أبداً ما يخلد مهما فعل ما دام عنده توحيد، يعذب على مقدار معصيته لكن لا يخلد في نار جهنم خالداً أبداً فيها أبداً لا يخلد.

فإن الله سيخرجه، فجزاؤه جهنم يعني على قدر معصيته وقد يغفر الله له لأن الله قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]. ونحن نعرف قصة ذلك الرجل من بني إسرائيل قتل تسعة وتسعين نفساً، ثم جاء إلى راهب ما عنده علم، عابد، قال إني قتلت تسعة وتسعين نفساً هل لي توبة؟ قال تسعة وتسعين؟

إيه، قال مالك توبة، فكمل به المائة، ثم ذهب ثم مر على عالم عنده علم فقال أنا قتلت مائة نفس هل لي توبة؟ قال ومن يحول بينك وبين التوبة؟ تب إلى الله ويتوب الله عليك.

فتاب، قال أنصحك أن تخرج من هذه القرية؛ هذه قرية شر، اذهب إلى قرية أخرى خير لك. فخرج منها وفي الطريق جاءه الموت فاختصمت به ملائكة الرحمة وملائكة العذاب؛ ملائكة العذاب يقولون قتل مائة نفس، وملائكة الرحمة تقول تاب ومن تاب الله عليه، فانتهوا إلى أنه تأخذه ملائكة الرحمة.

فدل ذلك على أن قتل النفس التائب منها يتوب الله عليه، يتوب الله عليه. كل الذنوب والمعاصي التي دون الشرك تحت مشيئة الله؛ يغفر الله لمن تاب، ومن لم يتب ومات يعذبه الله بمشيئته على قدر معصيته ثم يخرجه من النار.

أسأل الله العافية لنا ولكم، وأن يجنبنا مثل هذه الأمور، وأن يرزقنا وإياكم العمل الصالح والعلم النافع، إلى لقاء قادم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(96)
(النساء 94 - 101)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأُصلي وأُسَلِّم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أمَّا بعد:

أيُّها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحيَّاكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم؛ يوم الأربعاء الموافق للثالث من شهر رجب من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا المعتاد في مثل هذه الأمسية؛ أمسية الأربعاء مع القرآن الكريم، نجلس هذا المجلس المبارك في هذه الدقائق المعدودة؛ نتفقه في دين الله ونتعلم كتاب الله.

الحقيقة قبل أن ندخل في تفسير هذه الآيات، والجميع يعني صلَّى معنا وحضر هذه الصلاة المباركة، وسمع ما سمع؛ هذه المنبهات وهذه الجوالات التي على الموسيقى يتأذى منها المصلون، وأيضًا تتأذى منها الملائكة.

أنت جئت لتطلب الأجر عند الله، وجئت لتحتسب حسناتك عند الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لا جئت أن تؤذي وترتكب الإثم بهذا العمل والتساهل وعدم المبالاة بالمصلين، عدم المبالاة بأشرف بقعة بيت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أنت جاءٍ زائر بيت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يجب عليك أن تعظم هذه البقعة، تحترم بيت الله، تحترم المصلين، تحترم أنهم يؤدون عبادة عظيمة جليلة؛ الملائكة تحضرها، ثم تأتي بهذه الموسيقى المحرمة في بيت من بيوت الله لا تبالي ولا تهتم بها .

فكثير من الناس يعني عنده الشعور بعدم المبالاة بإمام الناس، أمام المصلين، بيت الله؛ كل هذا لا يهتم، حتى تجد في ملاحظات أخرى غير الجوال، تجده يأتي بأي لباس، بأي رائحة، بأي عدم استعداد، عدم اهتمام بالصلاة؛ أمرها عظيم، حقها عظيم، ينبغي الاهتمام بها، ينبغي إعطاؤها حقها .

الآيات التي معنا، قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 94].

الحقيقة هذه الآية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخاطب المؤمنين، كل المؤمنين في كل وقت، ولا تظن أنَّ هذه الآية خاصة في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو في من وقع ممن وقعت منه هذه القصة.

- هذه الآية لها سبب نزول، ما سبب نزولها؟

هو أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعث سرية للجهاد، فنزلوا على قوم فقاتلوهم، وكان هناك في طرف القوم رجل معه قطيع من الغنم، فلما رآه الصحابة أقبلوا عليه، هو عرف أنهم جاؤوا لقتاله، فرفع يده وقال: السلام عليكم، أو قال: أنا مسلم، أو عبارة مثل هذه؛ أنَّه خاف من السيف وخاف من القتل وخاف على نفسه، فقتله أحد الصحابة .

☜فلما قتله وهو قد قال هذه الكلمة، ندم أشد الندم، فجاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: **«أَقَتَلْتَهُ؟ مَاذَا تَفْعَلُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَ يَوْمُ القِيَامَةِ؟»**.فقال: يا رسول الله، إنما قالها خوفًا من السيف، قال: **«أَشَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟ مَاذَا تَقُولُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِذَا جَاءَ يَوْمُ القِيَامَةِ؟»**.

☜ وبدأ أن يردد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«مَاذَا تَقُولُ بِلَا إِلَـهَ إِلَّا اللهُ؟** .«أولاً انظر هذا الرجل ما دخل في الإسلام ولم يركع ولم يصلِّ، ولكن انظر أثر هذه الكلمة؛ كلمة السلام عليكم، كلمة أنا مسلم، كلمة لا إله إلا الله، تحمي روح المسلم وتحمي ماله.

انظر كيف عظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنزل فيه آية تتلى إلى يوم القيامة، تعظيمًا لهذه الكلمة العظيمة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: 94] يعني إذا سافرتم للجهاد في سبيل الله .

ضربتم؛ هو السفر، السفر سواء في سبيل الله للجهاد، أو للحج، أو لأي سفر من الأسفار؛ تجارة وغيرها.

- ليش سُمي السفر ضرب في الأرض؟

قال: لأنَّ المسافر يضرب برجليه الأرض، فقال: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: 94] لما قال في سبيل الله، عرفنا أنَّه الجهاد، قال: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: 94] تثبت وتبين ولا تستعجل.

ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا، كيف تقول لست مؤمنًا وهو يقول لك السلام؟ كيف تقول لست مؤمنًا وهو يقول: أشهد أن لا إله إلا الله؟

قال: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: 94] لما كان معه من الغنم حرصتم على هذا الشيء، تبتغون عرض الحياة الدنيا، فعند الله مغانم كثيرة، فتثبتوا ولا تتعجلوا، قال: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: 94] كنتم مثلهم لم تدخلوا في الإسلام، فدخلتم في الإسلام؛ لم تكونوا على مثلهم، كنتم على خوف وأعطاكم الله الأمن.

قال: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 94] كنتم أول مثلهم فمنَّ الله عليكم، فتذكروا نعمة الله عليكم، قال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: 94] وتثبتوا، انظر مرتين ﴿فَتَبَيَّنُوا فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: 94]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 94] عالمًا بأحوالكم وبنياتكم فلا تتعجلوا.

هذه الآية وإن كان يعني ظاهر الآية هذه في الجهاد في سبيل الله، وفي هذا الرجل الذي قال لا إله إلا الله ثم قُتِل، هذه الآية ينبغي أن نستفيد منها في حياتنا؛ أنَّ الإنسان إذا رأى شيئًا ألا يتعجل في الحكم، لا يتعجل في الحكم بأي أمر من الأمور .

ولا يظن بإخوانه المسلمين الظن السيء، ولا يعتقد مثل هذه الاعتقادات، قال: ﴿فَتَبَيَّنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: 94]. إذا جاءك أمر من الأمور، أو رأيت أو سمعت أو شاهدت شيء، فتثبت من الأمر؛ لا تتحدث ولا تخبر ولا تنقل ولا تحكم أنت بنفسك على شيء حتى تتثبت .

ولذلك قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: 94] لا تستعجل بالحكم على الشيء، ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النساء: 94].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 94] ينبغي للمسلم أن يذكر دائمًا نعمة الله عليه؛ نعمة الهداية ونعمة التقوى ونعمة الصلاح، نعمة الأمن نعمة الخير، نعمة الصحة والعافية.

﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: 94] فيتذكر لما كان فقيرًا فأغناه الله، عائلاً فأغناه الله، لما كان في خوف فآمنه الله؛ تذكر وينظر إلى غيره، ينظر إلى غيره، فإن كان غيره فيما كان هو فيه فليحمد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وليشكر الله.

فمنَّ الله عليكم منَّ الله عليكم بنعم كثيرة فتبينوا ولا تتعجلوا، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات التي بعدها في الجهاد، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: 95].

انظر لما عاتب الله في الآيات الماضية، عاتب من حصل منه هذا الأمر واستعجل في الحكم وقتل هذا الرجل وهو قد دخل في الإسلام، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد أن يرفع من معنويات المجاهدين؛ يعني لو حصل ما حصل من هذا الأمر الذي وقع منه والخطأ، فلا يعني هذا أنَّ أهل الجهاد يعني يكون من يعني ينقص من قيمتهم .

وهذا يدخل فيه المجاهدون وغير المجاهدين؛ يعني كل واحد معلمًا كان أو آمرًا بالمعروف أو ناهيًا عن المنكر، أو يعمل في أي مجال من المجالات، إذا كان مجتهدًا في أعماله ثم حصل منه نقص، لا ننسى مكانته واجتهاده وقيمته، لا ينسى هذا.

ولذلك انظر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر ما حصل وأنَّبهم وعاتبهم على هذا الأمر، رفع من معنوياتهم، وأيضًا رفع من قيمة هذه العبادة العظيمة وهي الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: 95] لا تظن أنَّ الذين قعدوا عن الجهاد مثل الذين خرجوا وتركوا أموالهم وأهليهم ولاقوا ما أو يلاقون ما يلاقون من الشدة والعناء والتعب والخوف والقتل وتعريض أنفسهم وأرواحهم للقتال.

- هل يستوي هؤلاء مع هؤلاء؟

لا يستوون، والمراد بالقاعدين هنا الذين قعدوا عن الجهاد؛ يعني لما كان الجهاد الإمام يحث عليه فخرج طائفة للجهاد وطائفة جلست، أمَّا إذا كان الإمام يأمر بالنفير، فلا يجوز القعود؛ يجب عليهم كلهم أن يخرجوا.

لكن لما يكون هناك ثغر من ثغور الإسلام أو هناك فتوح للإسلام، فالذين يخرجون لا يستوون مع الذين يجلسون؛ لأنَّ هناك لابد أن يكون هناك من يجلس وهناك من يخرج، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استثنى، من؟

قال: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: 95] من هم؟ قال: مثل الأعمى والأعرج والمريض مرض مزمن؛ هؤلاء سبحان الله رفع عنهم الحرج، رفع عنهم الحرج.

هناك تنبيه للشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره قال: **"لكن ينبغي أن يُتنبَّه أنَّ هؤلاء أولي الضرر إذا كان معهم الضرر يمنعهم الجهاد وكانت نيتهم صادقة أنَّه لو لم يكن معه ضرر لخرجوا؛ هؤلاء يُكتب لهم أجر المجاهدين ."**

لكن تجد بعض الناس مع الضرر هذا يفرح أنَّ عنده ضرر فيجلس، فلا يتساوى هذا بهذا؛ تجد بعض الناس مثلاً يقول: الحمد لله أني لا أبصر عشان ما أجاهد، هل يستوي هذا مثل اللي يقول: ليتني أبصر عشان أجاهد؟ فيختلف هذا عن هذا.

فالذي مثلاً عنده مرض مزمن أو مثلاً مانع من موانع الخروج إلى الجهاد وهو يتحسر ويتمنى أنَّ الله يشفيه حتى يخرج للجهاد، هذا الذي يكون بمنزلة المجاهد.

أمَّا الذي يفرح يقول: الحمد لله أني مريض حتى ما أخرج، ما يستوي هذا، لا يستوي هذا من هذا؛ فلذلك قال: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: 95].

وهذه لها سبب نزول؛ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزلت عليه هذه الآية، كان عنده عبد الله الرجل الأعمى، كان عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله إنني رجل ضرير لا أبصر.

.هو الذي نزلت فيه سورة عبس ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ 1 أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: 1-2]، فقال: يا رسول الله إني لا أبصر ضرير؛ فأنزل الله هذه الآية، أنزل الله هذا الجزء من الآية قال: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: 95] .والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالس في مكانه حتى كان يقول لزيد بن ثابت: **«اكْتُبْ»**، فكتبها، فلما كتبها في الأول بدون ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: 95] والرجل عنده، فقال: يا رسول الله إني لا أبصر إني ضرير؛ فنزلت الآية فقال: **«اكْتُبْهَا يَا زَيْدُ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾.»**

﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: 95] انظر قدم المال على النفس، لماذا؟ لأنَّ المال يتيسر من المجاهد وغيره، حتى من النساء وحتى من الشيوخ، أمَّا النفس لا تتيسر إلا لمن عنده القدرة، عنده القدرة، وفي حث على الجهاد **«مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فَقَدْ غَزَا .»**

قال هنا: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾ [النساء: 95]، أنت تدرك ما هذه الدرجة؟

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ وَالدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلمُجَاهِدِينَ»**.

أعد الله للمجاهدين؛ فهذا فضل الجهاد، قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: 95] لماذا جاء بهذه الجملة؟ قالوا: هذه احتراز، هذه من احترازات القرآن.

قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: 95] يعني أنت أيُّها القاعد وإن لم تخرج فاتك أجر فاتك أجر الجهاد، لكن لا يعني هذا أنَّك ينقص أجرك أو لا يكون لك عند الله وعد؛ لأنَّ هنا ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: 95] الجنة، فهؤلاء وعدهم الله بالجنة وهؤلاء وعدهم الله بالجنة، لكن لا يستوي هذا مع هذا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 95].

طيب هذا كيف أجر الأول درجة ثم قال أجرًا عظيمًا؟ نقول الدرجة الأولى هذا التفضيل مجمل ثم فصل الله قال: أجرًا عظيمًا.

- قال ما هو الأجر العظيم؟

قال: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾ [النساء: 96] ليست درجة واحدة، درجات منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومغفرة له، تغفر ذنوبه عند أول قطرة من دمه، ورحمة من الله سبحانه وتعمهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 96] .انظر ختم الآية بالمغفرة والرحمة؛ لأنَّه قال مغفرة ورحمة، فقال غفورًا رحيمًا.

الجهاد والهجرة كلاهما متطالبان؛ هؤلاء يخرجون لملاقاة العدو ومحاربة العدو، جهاد في سبيل الله وقتال العدو، وهؤلاء الذين يهاجرون يتركون ديار الكفر لديار يستطيعون أن يقيموا فيها دين الله، ولذلك الذي يبقى بين الكفار ولا يستطيع أن يظهر دينه ولا يقيم دينه ولا يقيم شرعه، هؤلاء ذمهم الله وتوعدهم بالنار.

اسمع يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 97] .﴿تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النساء: 97] يعني توفتهم الملائكة؛ قد يكون هذا فعل ماضي توفتهم الملائكة، أو يكون فعل مضارع إنَّ الذين تتوفاهم فحذفت التاء تتوفاهم الملائكة.

- الملائكة ما المقصود بها هنا؟

هي الملائكة التي تنزل عند قبض الروح؛ الذي يقبض الروح ويباشرها ملك الموت، والملائكة معه معهم أكفان، فما من نفس في الجهاد أو في غير الجهاد، ما من نفس تموت إلا تأتي ملائكة، إمَّا ملائكة رحمة أو ملائكة عذاب .

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: 97] حالهم أنهم قد ظلموا أنفسهم، ظلموا أنفسهم أنهم أقاموا بين ظهراني الكفار ولم يستطيعوا أن يقيموا شرع الله.

قال: ﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾ [النساء: 97] تسألهم الملائكة فيم كنتم؟ قالوا: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: 97] هم يدعون أنهم ضعفاء ما يستطيعون الهجرة، لكن هذه دعوة لم يقبلها الله منهم.

قالوا: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: 97] قالت الملائكة لهم، قالوا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: 97].

- لماذا لا تخرجون من ديار الكفر إلى ديار الإسلام؟

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: 97] .

شفت كيف؟ أعوذ بالله، يعني مسلمين وداخلين في الإسلام ويتوعدهم الله بجهنم؛ لماذا؟ لأنهم بقوا بين ظهراني الكفار.

☜ يقول حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَقَامَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْكُفَّارِ فَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِنْهُ**».فلا يجوز الإقامة في ديار الكفر، ديار الكفر لا تسمع أذان ولا تستطيع أن تقيم شرعك إلا

في حالات؛ إذا كان مثلاً لطلب العلم، للتجارة، للدراسة، وتهيأت لك الأمور، وكان هناك مراكز إسلامية تستطيع أن تقيم شرعك، فهذا لا بأس به.

أمَّا أن يأتي ويقيم بين ظهراني الكفار وهو لا يستطيع أن يؤدي شرعه ويُمنع من ذلك، فهذا فيه وعيد شديد مثل هذه الآية ومثل حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ النبي تبرأ، قال: «**أَنَا بَرِيءٌ**.»

وهذه الآية واضحة قال: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 97] .فالذي يقيم كما في هذه الآية ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: 97] يعني أنَّ الكفار استذلونا ولم نستطع، هؤلاء لم يعذرهم الله إلا ما قاله الله قال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 98].

فإذا كان الرجل رجلاً كبيرًا، أو امرأة، أو من الولدان من الأطفال، وهو لا يعرف الطريق ولا يستطيع أن يخرج، فهذا معذور عند الله، ولذلك قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ [النساء: 98] ما عندهم شيء من الحيلة يتحيلون فيخرجون، أو يحتالون فيخرجون ويفرون بدينهم، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 98] ما يعرفون الطريق، قد يضل ويأتيه ويموت، فهؤلاء عذرهم الله.

- ماذا قال فيهم؟

قال: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: 99]، وعسى من الله واجبة ومن البشر للترجي والتمني، لكنها من الله واجب؛ يعني أنَّ الله قد عفى عنهم، ولذلك أكد الله قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: 99] يعفو ويغفر.

انظر حتى يعني حتى تعرف أنَّ الهجرة يعني أمرها عظيم وشأنها عظيم، أن يخرج من بلاد الكفر، هذه الآية التي تأتينا الآن لها سبب نزول: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: 100].

يقول: من يهاجر في هذا حث على الهجرة، من يهاجر في سبيل الله فإنَّه سيجد في الأرض مراغمًا يعني أماكن واسعة واستطاعة أن يقيم وأن يخرج نفسه ويخرج دينه ويقهر هؤلاء الكفار؛ لأنَّ كلمة مراغمًا أصلها من الرغام وهو التراب، ولذلك يقول: رغم أنف فلان؛ يعني لصق أنفه بالتراب، فأصل مراغمًا من التراب.

فيقول يجد في الأرض مراغمًا يعني سعة في الأرض، وكذلك يرغم هؤلاء الكفار، وسعة في الأرض .طيب قال: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾ [النساء: 100] انظر هذا الذي خرج وهاجر في سبيل الله وجد خيرًا وأقام دين الله وحقق رضا الله.

لكن من لم يستطع وحاول الخروج ثم لم يستطع الهجرة، هل يُكتب له مثل المجاهد؟ هل يُكتب له؟ اسمع قال: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: 100] .هذه قاعدة معنا بكل شيء؛ خرجت من بيتك للمسجد ولم تدخل المسجد، حصل لك حالة، جاك مانع، زين، أصبت بمرض؛ يُكتب لك أجر خروجك من بيتك إلى المسجد.

خرجت إلى العمرة، إلى الحج، وجاءك مانع يمنعك من الوصول لأداء العمرة أو الحج؛ يُكتب أجرك على نيتك فيُكتب له، ولذلك انظر هذا الرجل، هذا الرجل كان في مكة لما سمع هذا الوعيد الشديد، لأنَّ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عند ﴿الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: 97].

لما قالوا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: 97] .لما سمع هذا الوعيد الشديد ماذا صنع؟

قال لأبنائه: اركبوني على راحلتي سأهاجر إلى المدينة، فقالوا: ما تستطيع أنت رجل كبير قد عذرك الله، الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ﴾ [النساء: 98] .قال: أنا قال اركبوني على دابتي، فاركبوها، فخرج من مكة، فلما تجاوز حدود الحرم وهو ما يُسمى الآن بالتنعيم عند مسجد عائشة، سقط من راحلته ومات.

فأنزل الله فيه هذه الآية قال: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: 100] .فهذا وقع أجره على الله؛ يعني تم أجره على الله، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 100].

انظر لما كان السفر للجهاد وكذلك الهجرة وعموم السفر، حتى السفر للسياحة، السفر يعني التنزه والتنقل من بلد إلى بلد، أو السفر للعمرة أو السفر للحج، سائر الأسفار المباحة التي أباحها الله جعل فيها بعض الأحكام.

منها اسمع قال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: 101] .يقول: ممَّا أباحه الله وممَّا شرعه الله للمجاهدين أو للمسافرين عمومًا أن يقصروا من الصلاة، أن يقصروا من الصلاة.

- ما معنى قصر الصلاة؟

هو قصر أركانها أو نعم أركان أو ركعاتها، قال: يعني جعل الصلاة الرباعية ركعتين، فتقصر صلاة الظهر والعصر والعشاء وتجمع أيضًا .أمَّا المغرب فإنَّها لا تقصر؛ لأنَّها وتر النهار، وأمَّا الفجر فلأنَّها ركعة لأنَّها ركعتان فلا تقصر.

قال: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: 101].

- كيف إن خفتم الذين يفتنوا؟

معنى هذا أنَّ القصر لا يكون إلا عند الخوف، هذا ظاهر الآية، ظاهر الآية أنَّ الله اشترط قال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: 101] .فلا جناح عليكم أن تقصروا من الصلاة، لكن هذه لما جاء أحد الصحابة إلى عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه وقال: كيف يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ﴾ [النساء: 101]؟ إنَّ هذه يعني كأنها أشكلت عليه.

☜فقال يعني يقول: إني أتعجب منها، قال: إنني عجبت، يقول عمر: **«عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ**.»الشاهد من الكلام أنَّ قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ [النساء: 101].

هذا لما كانت أسفار أو غالب أسفار الصحابة فيها خوف وفيها جهاد وفيها هجرة قال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ [النساء: 101].

- هل يقصر مع الأمن؟

الجواب: نعم؛ يقصر مع الأمن؛ لأنَّ هذا خرج مخرج الغالب، الغالب كانت أسفارهم فيها خوف، لكن مع الأمن له أن يقصر.

تحدث العلماء متى يقصر وكم المسافة وكم يوم يقصر؟

هذه مسألة فيها خلاف طويل عند الفقهاء، والذي يترجح الله أعلم أنَّ كل من خرج من بيته مسافرًا وقد أخذ أهبة السفر وجاوز البنيان؛ جاوز البنيان يعني خرج من بلده وتجاوز بلده ولم يعني تجاوز البنيان وخرج في الصحراء، أخذ أحكام السفر حتى يرجع، له أحكام السفر حتى يرجع.

إن كان لا يعلم متى سيرجع، يقول والله أنا سافرت الآن من الرياض إلى مكة لكن ما أدري متى أرجع، نقول لك أحكام السفر، لك أحكام السفر حتى ترجع.

- ما هي أحكام السفر؟

القصر والجمع عند الحاجة إذا جد به السير، الإفطار للصائم، المسح على الخفين ثلاثة أيام؛ هذه كلها من أحكام السفر.

- إذا كان لا يدري متى سيرجع، أمَّا إذا قال والله أنا سأذهب إلى مكة وأجلس فيها عشرة أيام أو سبعة أيام أو شهر؟

الجواب: لا، هذا كما أفتى فيه أكثر أو بعض المعاصرين أنَّه إذا كان سيتجاوز أربعة أيام فله حكم المقيم، وإن كان أقل من أربعة أيام؛ كثلاثة أيام ونحوها فله حكم المسافر، هذا يعني أرجح.

- ولكن لو أنَّ إنسان قال والله أنا ما آخذ هذا الرأي ولكنني سمعت أو أفتاني شخص بأنَّ المسافر له أن يأخذ أحكام السفر حتى يرجع ولو طالت المدة ولو كان سيقيم عشرة أيام وأكثر؟

الجواب: ما دام عندك فتوى وسألت عنها فخذ بهذه الفتوى.

لكن إن أردت الاحتياط فتاخذ بلك ثلاثة أيام، أربعة أيام؛ فما دون الأربعة أيام لك أحكام السفر وما فوقها فليس لك أحكام السفر، تجد بعض الناس يسافر مثلاً في رمضان شهر كامل في مكة، ثم يقصر الصلاة ويترك السنن الرواتب وأحيانًا يجمع الصلاة؛ أنت جئت للعبادة وجئت تؤدي عبادة، حافظ عليها وحافظ على سننها .

قال: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: 101].

يبين الله خطورة وعداوة هؤلاء الكفار؛ لأنهم ينتهزون الفرص، فعليكم أن تأخذوا حذركم وتكونوا على تيقظ وحذر .

لعل نقف عند هذه الآية، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا ولكم وأن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(97)
(النساء 102- 104)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، نصلي ونسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الأربعاء الموافق العاشر من شهر رجب من عام أربعٍ وأربعين وأربعمئةٍ من الهجرة، درسنا المعتاد في مثل هذه الأمسية المباركة مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ القرآن العظيم.

نجلس هذا المجلس المبارك المحفوف بالملائكة، الذي تنزل عليه السكينة وتغشاه الرحمة، نجلس هذا المجلس المبارك لنقرأ آياته من كتاب الله ونتدبر ونفهم هذه الآيات بما فيها من توجيهاتٍ وتذكيرٍ ومواعظ.

وحقيقة القرآن الكريم حقه عظيم علينا، والواجب على كل إنسانٍ أن يعطي نفسه ويعطي هذا القرآن شيئًا من الوقت، لا أن تمضي عليه الأيام ولا يعطي القرآن حقه؛ فالقرآن نزل للتدبر، ونزل للعمل، ونزل لفهمه، ونزل لقراءته وتلاوته .

☜فحق علينا أن نعتني بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو لم يأتك إلا قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل القرآن أنه قال: **«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»**، تتعلم تلاوته تتعلم معانيه.

☜في روايةٍ قال: **«أَفْضَلُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ.»**

الآيات التي بين أيدينا في الحقيقة آيات مهمة، وعندما نقرأها مثلاً ستجد عظم هذه الآيات، الآيات التي تتحدث معنا في هذا المجلس المبارك هي آيات تتعلق بنوعٍ من أنواع الصلوات قد يخفى على كثيرٍ من الناس، نوع من أنواع الصلوات، صلوات كثيرة.

الصلوات الخمس المعروفة، وأنواع الصلوات كصلاة العيدين وصلاة الجمعة، تعرف كثير من الناس يعني صلاة الجنائز، لكن هذه صلاة التي بين أيدينا كثير من الناس ما يعرفها، هذا من وجهٍ.

والوجه الثاني أن هذه الصلاة التي سنتحدث عنها مما يدل على عظم حق الصلاة في الإسلام، وأن الصلاة هي عمود الدين، وأن العهد الذي بيننا بين المسلمين والكفار الصلاة؛ فمن أدى هذه الصلاة كان من المسلمين ومن تركها فقد كفر، قد يتركها إنسان وهو يعترف بها، وهذا يعني نسمع كثير ممن لا يصلي أبدًا، قد يتركه وإذا ناقشته قال أنا أعترف أن الصلاة فريضة لكن لا يصلي.

هذا حكم عليه أهل العلم إذا ترك الصلاة ومضت أيام وهو لا يصلي حكم عليه أهل العلم بالكفر وخارج مع الإسلام ومرتد، وإذا مات لا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين ولا يورث ماله، وإذا كان في وقته الحالي قبل الموت قبل الموت وهو لا يصلي زوجته لا تحل له لأنه كافر وهي مؤمنة، فأحكام كثيرة تدل على عظم هذه الصلاة عمود الدين، إذا ذهبت الصلاة ذهب الدين كله.

أول ما يحاسب الإنسان يوم القيامة على الصلاة، إن صلحت الصلاة صلحت أعماله كلها، وإن فسدت صلاته أو رُدت عليه رُدت أعماله كله عليه؛ فالصلاة شأنها عظيم وأمرها عظيم .

كذلك أيضًا نعرف أيضًا أن الصلاة جعل الله لها أوقات محددة، إن الصلاة كما سيأتينا ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ

كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: 103]، يعني وقت زمن وحديد محدد، لا يجوز للإنسان أن يؤخره عن وقته.

الصلاة أيها الإخوة لا تسقط بأي حالٍ من الأحوال إلا إذا فقد الإنسان عقله، ما دام العقل معه ما تسقط أبدًا، ولو حصلت لك من الظروف أي ظروف، لو لم تجد الماء تيمم، لو لم تجد الماء ولا التيمم تصلي، حتى لو لم تجد التيمم تصلي، لو لم تعرف القبلة تصلي، لو لم تعرف الوقت تصلي وتقدر له وقت وتصلي، الصلاة لا تترك أبدًا ولا تسقط بأي حالٍ، لا تسقط بأي حالٍ إلا لمن فقد عقله، فقد عقله هذا خلاص غير مكلف.

أما المكلف تجد بعض الناس يتهاون، يأتي من العمل مرهقًا متعبًا وينام عن صلاة العصر، ينام عن المغرب، ينام عن العشاء، ونعرف أشخاصًا كثيرين ما يستيقظ إلا الساعة ثمانية بالليل أو تسعة، ينام عن ثلاث صلوات، والفجر ينام عنه، فكيف تقول هذا مسلم؟

فلا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها إلا لمريد الجمع؛ يعني واحد سافر وأراد أن يجمع، أو في ظرفٍ من الظروف كشدة المطر أو نحوه، أو مريض وأراد أن يجمع، هذا ممكن يؤخرها جمع تأخير، هذا جائز، أما أن يؤخر الصلاة عن وقتها هذا انظر الآن الآيات التي بين أيدينا.

- نرجع لها، هي صلاة آيات تتعلق بنوعٍ من أنواع الصلوات، ما هي؟

نسميها أهل العلم صلاة الخوف.

- صلاة الخوف متى تحصل؟

إذا حصل الخوف كقتال الجهاد في سبيل الله، أو عدو، أو أمطار شديدة، أو ريح، أو سبع تخشى أنت في طريقٍ أو في صحراء وتخشى أن يعتدي عليك لصوص، أو يعتدي عليك سبع أو نحو ذلك، هذه الصلاة مشروعة .صلاة الخوف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكرها، ولاحظ وركز معي أن الله لما ذكر صلاة الخوف أمر المسلمين أن يصلوا جماعة، هذا إيش دليل عليه؟

العدو أمامهم ويطلق عليهم النار ويريد أن ينتهز أي فرصة حتى يعني كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿يَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: 102] ويهلك وينتهزون الفرصة ليهزموكم، ومع ذلك الله يقول صلوا في وقتها وصلوا جماعة، انظر هذا يدل على أهمية صلاة الجماعة، حتى صلاة الجماعة ما تسقط ولا في صلاة الخوف.

وصلاة الخوف ما تسقط إذا جاء دخل وقتها يصلون، يصلون المسلمون حتى على الثغور والحدود يصلون والعدو أمامهم ما يتركونها، إيش دل عليه؟ دل على أهمية الصلاة.

نقرأ ونشوف حتى نفهم ما هي صلاة الخوف، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: 102]، لما ذكر الله قصر الصلاة، انظر الآية اللي قبلها لما ذكر الله سبحانه قال: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: 101].

وعرفنا أن القصر يجوز في الخوف الآن كلها؛ لأن السنة وردت بجواز قصر الصلاة، وقصر الصلاة أن تقصر الرباعية ركعتين الظهر والعصر والعشاء، أما المغرب ما تحصل.

ووجدت ناسًا يصلون المغرب ركعتين، لما سألته قال إحنا مسافرين، مسافر ما تقصر المغرب، المغرب ثلاث ركعات هي وتر النهار لا تقصرها .

انظر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾ [النساء: 102] هذا خطاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكل إمام، ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: 102] يعني صفة صلاة الخوف انظر، إما أن يكون العدو بين المسلمين وبين القبلة، يعني هم يصلون العدو أمامهم شايف، هذه صفة، أو يكون العدو في جهة ثانية.

فماذا يصنع الإمام إذا أراد أن يصلي؟ دخل وقت الصلاة ماذا يصنع؟

قال: **"إذا كان العدو بينهم وبين القبلة فإن الإمام يقسمهم قسمين صفين، الصف الأول يصلون مع الإمام، والصف الثاني يقفون لحراسة، يحرسون لأن العدو أمامهم في القبلة فيقفون يحرسون صفوفًا."**

"والصف الأول يصلون مع الإمام فإذا صلى الصف الأول الركعة الأولى، لأنها ركعتين هي، إذا صلى الركعة الأولى زين، يرجعون الصف الأول ويقفون، ويدخل الصف الثاني ويصلون مع الإمام الركعة الثانية".

فيصبح الإمام صلى بالصف الأول ركعة وبالصف الثاني ركعة، فيأتي الصف اللي دخل في الأول جاء من الثاني الأول يصلون الركعة ثم الإمام الآن سيسلم، لأن الصلاة ركعتين، وهم يقومون ويأتون يكملون صلاتهم الركعة الثانية ثم يسلمون، وهؤلاء يواقفون ثم يتمون صلاتهم هؤلاء بعدما ينتهون، لأن هذا سيأتي مكانه.

هذا إذا كان العدو في جهة القبلة، إذا كان العدو في غير جهة القبلة وأرادوا أن يصلوا الجماعة معه **"يقسمه الإمام قسمين، قسم يصلي بهم وقسم يبقون حراسة للعدو في الجهة الثانية يبقون يعني يقسمون قسمين الجيش، قسم يصلي وقسم يحرس، فإذا صلى بهم وانتهوا يذهبون يحرسون ويأتون الذين كانوا يحرسون فيصلون مع الإمام، والإمام يصلي بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة"**، هذه صفات صلاة الخوف واضحة جدًا.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ [النساء: 102] يعني جزء من الجيش، ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: 102] لابد أن يحمل السلاح معه وهو يصلي، لا يترك السلاح في الأرض أو يترك خلفه يبغته العدو ويأخذه ويقتله، فلا بد أن يكون معه حتى إذا أقبل العدو يقطع صلاته ويقاتله.

قال: ﴿وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ [النساء: 102] شايف يعني صلوا الركعة الآن، ﴿وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ [النساء: 102] الركعة الثانية، قال: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: 102] انظر التأكيد على أخذ السلاح، لا تتهاون في العدو وخذ حذرك انتبه وكن متيقظًا من العدو وسلاحك بيدك خذ سلاحك.

- قال الله عَزَّ وَجَلَّ لماذا التأكيد على أخذ السلاح ولماذا التأكيد على الحذر؟

قال: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: 102]، انظر سبب نزول هذه الآية هي في إحدى الغزوات، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكان قال له عسفان، بين مكة والمدينة موجودة الآن عسفان، لما وصل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عسفان وفي سرية من قريش جاءت بقيادة خالد بن الوليد فدخل وقت الظهر فصلوا قبل أن تأتي هذه.

قبل أن تأتي صلاة الخوف صلوا صلاة غير صلاة الخوف صلوا جميعًا كلهم لأنهم لم يأتيهم حكم صلاة الخوف، فصف بهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصلوا جميعًا.

فقال المشركون: لو ملنا عليهم ميلةً واحدةً وهم يصلون لقضينا عليهم، فقال أحد المشركين: إن لهم صلاةً أخرى، يعني يقصد العصر هي أحب إليهم من الدنيا، انظر كيف المشركين يعرفون أهمية صلاة العصر، وعندنا الناس ينامون عن صلاة العصر.

يقول المشرك المشركون يقول إنها ستأتي لهم صلاة هي أهم وأعظم عندهم من هذه الصلاة يعنون العصر، مشرك يعرف قيمة صلاة العصر.

☜ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ»** يعني فقد أهله وماله، **«مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»** يعني العصر والفجر.

يقول هنا انظر، قال: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: 102]، قال أحد المشركين عندهم صلاة العصر يصلونها لننتهز فرصة نقضي عليهم، فنزل جبريل بهذه الآيات؛ صلاة الخوف، فلما جاءت صلاة العصر قسمهم النبي قسمين، قسم يحرس وقسم يصلي، فلما رأى المشركون هكذا قالوا: لا حيلة بمحمدٍ وأصحابه.

قال: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: 102]. قال الله عَزَّ وَجَلَّ لما أكد على حمل السلاح قد يتركه الإنسان بسببٍ من الأسباب مثل المطر شدة المطر أو مثل المرض يتعبه، قال ما في مانع، كيف؟

قال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 102] انظر التأكيد انتبه وخذوا حذركم.

﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: 102] يعني وانتم تأخذون حذركم وتحترزون من الكفار فإن الكفار الله قد أذلهم وأخزاهم وأعد لهم عذابًا مهينًا، ولن يستطيعوا ولن ينتصروا عليكم، ولكن مع هذا لا تتهاون، لا تتهاون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: 103].

- ما معنى إذا قضيتم الصلاة؟

يعني إذا صليتم صليتموها تامة أو في سفرٍ أو في خوفٍ المهم أنك أديت الصلاة، إذا أديت الصلاة ما المطلوب منك؟ قال أن تأتي بالأذكار، تأتي بأذكار الصلاة.

العجيب يعني جهاد وعدو وخوف ويأمرهم بالصلاة والذكر، لا تستعجل، وعندنا أناس في المسجد ما عندهم أشغال ولا عندهم خوف ولا جهاد ولا قتال ولا شيء، ومن يوم يسلم الإمام على طول مع الباب، ليش تستعجل؟

ترى الذكر هذا ما يخدمك ثلاث دقائق، لما تأتي بهذه الأذكار هذه أذكار ترقع صلاتك أنت، صلاتك فيها نقص، أنت تصلي زين وصلاتك فيها نقص لأنك تسهو في صلاتكم وتغفل والهواجيس تأخذك في كل وادي، من منا يصلي بخشوعٍ إلا نادر؟ تجد من الناس من يخل بصلاته، يخل بصلاته، فهذه الأذكار تنفعك.

ولذلك أنت إذا صليت ماذا تقول؟ استغفر الله استغفر الله، تستغفر الله من أي شيء وأنت مصلٍ؟ تستغفر الله من تقصيرك في الصلاة، تأتي بالأذكار وهذه الأذكار تنفعك، تأتي بالأذكار تأتي بـ الرواتب لا تستعجل، الدنيا لن تلحق لها شيء، ستذهب أنت من الدنيا ولم تنهِ أشغالك، فلماذا إذا سلم الإمام مباشرةً على طول الباب؟ لماذا الاستعجال؟

اجلس، أنت صليت مع الإمام صلاتك مع الإمام ما تأخذ منك عشر دقائق والأذكار دقيقتين أو ثلاث، اجلس واستغل وقتك، تذهب وين تروح؟ عندك أوقات طويلة، فشوف حتى في الجهاد يقول: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: 103].

قد يأتيك سائل يقول لك طيب ليش قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم؟

الجواب: لأن الجهاد يحتاج منك أخذ الحذر والتحرز، فتعرف إذا صلوا اللي جالس واللي قائم واللي قاعد فهم على حذر واللي يذهب إلى جهة العدو والذي يأخذ سلاحه والذي يفعل كذا، فهم يتحركون، فقيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم كل هذا يأتون بالأذكار.

ونحن نقول أيضًا هنا الذي يصلي مع الإمام يذكر الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبه ما في مانع أنك إذا صليت مع الإمام تذكر الله وأنت جالس في مكانك وأنت قائم وأنت على جنب، وقعود وقيام وعلى جنب كل ذلك جائز كل ذلك مشروع لك.

- ما هو الخلل؟

إذا سلم الإمام قمت ولم تذكر وخرجت من المسجد ولم تذكر، ويأتيك الشيطان يقول اخرج واذكر الله في السيارة أو وأنت في الطريق، لن تذكره، وإن ذكرته مرة مرات ما تذكره، هذه من أساليب الشيطان، الشيطان له أساليب له خطوات له طرق، يأتيك يقول لك امشي وتصلي وتسلم قدام وتصلي راتبة العشاء في البيت، تدخل البيت ما تصليها، دائمًا الأعمال الصالحة أدِها في وقتها، إذا أجلتها راحت، لا تتساهم أدِها في وقتها إذا أجلت راحت.

انظر يقول: ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ﴾ [النساء: 103] يعني ذهب الخوف ذهب العدو استقريتم ماذا تسمع؟ قال: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: 103] طيب ما أصلي؟ طيب قال لا، لأن صلاة الخوف فيها نقص فيها خلل الآن، صلاة الخوف ذهبت مع الخوف الآن لست حالة خوف، إذا صليها قال: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [النساء: 103].

- انظر كلمة ﴿أَقِيمُوا﴾ ماذا نستفيد منها؟

أنك تصلي صلاةً تامة فيها خشوع فيها محافظة على الركوع ومحافظة على الأركان والواجبات والسنن، هذا معنى أقم الصلاة، دائمًا القرآن يقول أقيموا ما يقول صلوا لأن أنت لو تجي في المسجد الآن تجد اللي يصلون كثير اللي يصلون صفين ثلاثة لكن من الذي يقيم الصلاة؟ قلة نوادر، هذا معنى ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني حافظوا عليه خشوعها وأركانها لأن الخشوع هو لب الصلاة هو روحها، إذا ذهب الخشوع خلاص الصلاة ما فيها فائدة.

ثم قال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: 103] شايف، هذا يدل على أن الصلاة مؤقتة بوقت لا يجوز لأي إنسانٍ أن يؤخرها عن وقته إلا مثل ما ذكرنا لمن أراد الجمع، أما يأتي شخص يقول والله أصلي بعدين أصلي إذا مشيت في السيارة تصلي كذا ثم يترك الصلاة ثم يخرج وقتها ما تقبل منك.

لو دخل عليك وقت المغرب وتركت الصلاة إلى أذان العشاء ودخل وقت العشاء صلاتها ما تقبل منك، ما تقبل منك إلا العذر كالنائم أو الذي نسيها، أما الذي يعرف وقت الصلاة يتركها والذي يعرف السوق يقف في أي مكان ويصليها.

قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ [النساء: 104] انظر قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ يعني لا تضعفوا، عدو أمامك خلك شجاع أمام العدو، قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء: 104] يعني لا تضعفوا في مجاهدة العدو، ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: 104] حتى الله عَزَّ وَجَلَّ يشجع على جهاد، قال إذا كنت أنت تألم تجيك جراح وخوف وألم وتعب في جهاد فهم أيضًا يجيهم التعب والألم والخوف أيضًا، فإذا كنتم تألمون فإنهم يألمون كما تألمون، فأنتم سواء.

لكن في فرق بين المسلمين والكفار، أي شيء؟ قال: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: 104]، أنتم تطلبون الجنة وهم ليس لهم جنة، أنتم تطلبون الأجر عند الله وهم لا يطلبون الأجر، ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 104] عليمًا بأحوالكم، وعليمًا بالبشر، وحكيمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما يشرع، تجد أحسن من هذه الشريعة تسهيلها وتيسيرها شريعة الإسلام؟

لولا فرضية الصلاة ما اجتمعنا في هذا المكان، لولا فرضية الصلاة ما أقيمت المساجد، فإقامة المساجد وبناؤها واجتماع الناس في المساجد وصلاة الجماعة ألفت القلوب وجمعت

القلوب، لو لم تكن هناك صلاة، وأنتم شفتم ولاحظتم في فترة الحجر كيف الناس عايشين في بيوتهم ما في صلاة جماعة ما تشوف أحد، كيف يعيشون الناس؟

فنعمة الإسلام أن أعطانا الله هذه الشريعة الطيبة الحسنة الغراء في هذه الشريعة الطيبة، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا لشكر الله عَزَّ وَجَلَّ لها، نقف عند هذه الآية وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(98)
(النساء 105 - 113)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا المجلس الذي تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة، تنزل عليه السكينة ويذكر الله حاضرينه في الملأ الأعلى.

درسنا في هذه الآيات المباركة في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي قال الله فيه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: 29]، إذًا هو كتابٌ مباركٌ، ومعنى مباركٌ كثير الخير والمنافع لمن أخذ به وتمسك به.

قال: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: 29]، ما قال ليقرأ القرآن، لا، ليدبروا آياته، وتدبر الآيات معناه أنك تقرأ وتفهم وتعرف ماذا تقرأ، الآيات التي بين أيدينا هي آياتٌ من سورة النساء، الآية رقم مئة وخمسة، تجد كثيرًا من الناس يقرؤها ولا يصل إلى معناها الدقيق، المعنى أحيانًا لا يتضح لك إلا بعد ما تعرف أسباب النزول.

يعني القرآن الكريم أحيانًا ينزل، يسمى نزولٌ ابتدائيٌ، ينزل هكذا دون أسباب، تنزل سورة سورتين ثلاث آيات هكذا تشريعات وأحكام وقصص بدون سبب، وأحيانًا يكون هناك سببٌ داعٍ تنزل الآية لهذا السبب، مثلًا قصة المرأة المجادلة تعرفونها: ﴿تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: 1]، هذه لها سبب نزول.

كثيرٌ في أسباب النزول تجد لها أسباب نزول، مثل حادثة الإفك التي وقعت لعائشة، إذا قرأت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ [النور: 11]، بعض الناس إذا ما عرف سبب النزول ما يعرف المعنى، لكن أنت لما تعرف سبب النزول تعرف المعنى.

ولذلك شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: **"إذا عُلم السبب عُلم المسبب"**. الآن الآيات التي عندنا هذه، لو نقرأها كاملة يعني يمكن تقريبًا حوالي عشر آيات أو اثنا عشر آية، ما تستطيع أن تستوعب معناها إلا إذا عرفت سبب النزول، ما تعرف سبب النزول ما تصل إليها.

انظر، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطبًا نبيه محمدًا يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105]، إذًا فيه خائنين وفيه مخاصمة.

- من هم الخائنون هؤلاء؟

الخائنين والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105]، لا تخاصم عنهم، إذًا هم خائنين خونة ما يخاصم عنهم .إذًا الرسول كان أراد أن يخاصم عنهم فالقرآن نهاه، قال: لا، لا تخاصم عن هؤلاء، وزيادة على ذلك اسمع الآية اللي بعدها يقول: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 106]؛ لأنك هممت أن تخاصم عنهم، واستغفر الله إن الله كان غفورًا رحيمًا.

ثم قال: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: 107]، انظر، لا تخاصم ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، يخونون أنفسهم، يخونون دينهم ويخونون أنفسهم.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: 107]، إذًا في شيء حاصل، ش الحاصل؟ إيش القضية؟

لازم نعرفها، يعني أنت تجي تقرأ هذه السورة، كلنا نقرأ هذه السورة، الكثير الذين يعني يقرأون القرآن دائمًا وملازمين لقراءة القرآن يقرأون هذه السورة، يمكن يمر على هذه السورة ما يدري إيش معناها، ما يدري إيش خصيمًا، خائنين، ويختانون أنفسهم، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله.

يعني يختفون عن الناس ولا يختفون عن الله، ما اطلع عليهم، ولذلك قال والله: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: 108]، يعني يختفون عن الناس ولا يختفون عن الله، ما اطلع عليهم، ولذلك قال: ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول.

إذًا فيه جماعة، فيه قصة، حادثة، ما هي الحادثة؟ ذكر أهل التفسير أن عيرًا جاءت قادمة من الشام فيها طعام وفيها أرزاق، فاشترى طعامًا رجلٌ من الأنصار اسمه رفاعة بن زيد، فلما اشترى هذا الطعام ذهب به إلى بيته، كان أهل المدينة بحاجة ماسة ما عندهم طعام وهو اشترى هذا الطعام.

لما اشترى هذا الطعام وأدخله في بيته علم بعض أهل المدينة وهم يقال لهم جماعة الأبيرق، عائلة أو أسرة يقال لهم الأبيرق، فيهم واحد اسمه طعمة، طعمة بن أبيرق، هذا الرجل طعمة كان منافقًا.

ولذلك ارتد وخرج عن الإسلام، كان منافقًا، فلما رأى هذا الرجل رفاعة بن زيد معه طعام تبعه فإذا هو ادخره في بيته، جاء في ليل وسرق الطعام، أخذ الطعام وأيضًا معه درع، فأخذ الدرع والطعام، فلما سرق أخذه ذهب به إلى بيته، بيت الأبيرق.

فلما أخذه إلى بيته علم هذا رفاعة، وبدأ يسأل ابن أخو ابن أخيه اسمه قتادة بن النعمان، قال: أنا أتتبع لك، فلما علم أنه عند طعمة وعند أبيرق لأنهم أوقدوا نارًا، فاستغرب الناس كيف أوقد نارًا من وين جاهم هذا؟ فعلموا أن في شيء.

فلما علمه هو ومن معه أخذوا الطعام هذا وأودعوه عند رجل يهودي اسمه زيد بن السميد، فقالوا: هذا الطعام ضعه عندك، عشان يتخلصون. جاء قتادة بن نعمان ومعه صاحب الطعام رفاعة فدخلوا عليهم، قال: الطعام أنتم أخذتموه، قالوا: ما عندنا شيء، أنتم تتهموننا؟

ما عندنا شيء، ادخل انظر ما في شيء .فقالوا: لا عندكم، إحنا جتنا أخبار أن الطعام عندكم، فماذا صنع أهل هذا طعمة السارق حقيقةً؟ ذهبوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: إن رفاعة ومعه قتادة يتهموننا بأننا نسرق ونحن لا نسرق ونحن كذا وكذا ونحن نصلي معك يا رسول الله ونخاف الله وهم يتهموننا بالسرقة.

اليهودي كان يعني عارف قضية أو فهم، فلما جاء هذا يركض بالطعام قال: وضعه عندك وداعة، وديعة هو استشهد الناس، قال: تعالوا اشهدوا ترى هذا الطعام أتى به فلان وحطه عندي وديعة أمانة عشان ما أتهم فيه، فلما علم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم جاؤوا يشتكون وقالوا: إن هذا اتهمنا، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَا رِفَاعَةُ كَيْفَ تَتَّهِمُهُمْ؟ مَا عِنْدَهُمْ شَيْءٌ»** وأنت يا قتادة كيف تتهمهم؟

فبدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ همه يجادل هؤلاء؛ لأنهم هم، النبي ظهر له أنهم صادقون في كلامهم، فكشف القرآن هذا الأمر حتى انظر في آخر الآيات قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾

[النساء: 113]، يا محمد، طائفة منهم أي أن يظلوك وما يظلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء لأن الوحي معك، وما يضرونك من شيء وما يظلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء.

فهذه القصة، فجاؤوا إلى هذا الرجل اليهودي زيد بن سميد قالوا: الطعام عندك؟ قال: نعم، قال: من وين لك؟ قال: أتى به طعمة وأودعه عندي وعندي شهود، فانكشف أمره فعرفوا أن طعمة هو السارق، فلما علم هرب؛ لأنه سيقام عليه قطع يد، ففر هاربًا من المدينة وهو أصلًا منافق فارتد وخرج عن الإسلام وذهب.

فقيل قال بعض أهل التفسير: إنه لما فعل هذه الفعلة الشنيعة واتهم الأبرياء وارتد عن الإسلام دخل حائطًا فيه نخل، فلما دخل هذا الحائط سقط عليه جدار ومات على كفره وخاتمة سيئة. فنعتبر بهذه القصة ونفهم هذه الآيات.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105]، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنا أنزلنا إليك يا محمد الكتاب، أنزلنا إليك القرآن، طيب لماذا؟ قال: أنزلناه بالحق، يعني ما في لبس ولا في باطل ولا في شيء، واضح الدلالة بالحق، وبالحق أنزلناه وبحق نزل.

قال: لتحكم بين الناس بما أراك الله، يعني بما دلك الله عليه، طيب هذا الرسول يوحى إليه، طيب وغيره ما يأتي وحي القضاة والحكام كيف يقضون؟

قال: يقضون بالكتاب والسنة: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59] في الكتاب والسنة، بما أراك الله في الكتاب والسنة.

ثم قال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: 105] هؤلاء خونة سرقوا فلا تخاصم عنهم، تحذير النبي ما خاصم لكنه هم أن يخاصم، فجاءه الوحي وكشف أمره.

وهذا يدل على أن المنافقين ينتهزون أي فرصة وحتى وصلوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووصلوا إلى بيت النبوة، وصلوا إلى اتهام عائشة، يعني منافقون ما تركوا شيء، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 106] استغفر الله إن الله كان غفورًا رحيمًا لما قد هممت.

ويستغفر كل إنسان يستغفر، حتى قال بعض أهل العلم: إن هذه الآية أو الاستغفار لكل من قضى في قضية سواء كان قاضيًا أو حاكمًا أو من هو دون، حتى أنت لو قضيت في قضية بينك وبين أولادك أو كذا، قال: كل من قضى قضية ينبغي له أن يستغفر، أن يستغفر لأن الله قال هنا: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 106].

ثم هذا فيه مصلحة كبيرة، يعني الله يأمرك بالاستغفار ويقول لك إني غفور فما المانع؟ حتى لو لم تقض في قضية تكثر من الاستغفار، واستغفر الله إن الله كان غفورًا رحيمًا، ثم قال: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: 107]، بدأت القصة تدخل، قال: ولا تجادل عمن؟ قال: لا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم، لا تدافع عنهم وتجادل عنهم، هؤلاء خونة يختانون أنفسهم.

انظر كلمة **"يختانون"** غير **"يخونون"**؛ لأن أهل اللغة يقولون: **"الزيادة في المبنى زيادة في المعنى"**، يعني يختانون أشد، يطلبون الخيانة بقوة، يحاولون بشدة، يختانون أنفسهم.

انظر، ولم يقل يخت، لم يقل يخونون، ما قال يخونون الناس، قال يختانون أنفسهم، كيف يختان نفسه؟ قال: لأن الخيانة ترجع عليه، الخيانة تضره ما تضر غيره .أنت إذا خنت في قضية تخون نفسك ما تخون الناس، الناس ما تخونهم، لو خونتهم في الظاهر ما تخونهم عند الله، فيعني يعني هو يخون نفسه، ولذلك قال: قال يختانون أنفسهم، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا

أَثِيمًا﴾ [النساء: 107] لأن الخيانة محرمة وضدها الأمانة والله أمر ورسوله بأداء الأمانة وحذر من الخيانة في الأمانات والخيانة لا تجوز.

قال: ﴿خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: 107] فهو خائن وأثيم؛ لأنه قاصد الخيانة وينوي الخيانة، ثم يحكي الله عنه يحكي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن حال هؤلاء فيقول: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: 108].

انظر ضعف عقوله شلون يستخفون من الناس، يعني يختفون، يدخلون بيوتهم ويسرقون ويخفون الشيء ويخفون كذا ويأتون بالليل، يعني تختفي عن الناس؟ الله اطلع عليك.

يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله، يعني كيف ما يستخفون؟ كيف يعني كيف أن تختفي عن الناس والله مطلع عليك؟ ولا يستخفون من الله وهو معهم، يعني هو الله معهم في كل مكان: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: 7] فالله معك في كل مكان مطلع عليك، لا يخفى عليك شيء، مطلع عليك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فالله معهم.

قال: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: 108] تبييت في الليل، تبييت يعني أمر يقضى بليل، يدبرون أمرهم بالليل لأن الليل فيه خفاء، فهم يجتمعون بالليل فيدبرون ما يفعلونه في النهار، يدبرون شيئًا بالليل لينفذونه في النهار.

قال: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: 108] دل على أن تبييتهم تبييت سيء وخبيث ولذلك قال يبيتون ما لا يرضى من القول .قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: 108] كيف يعملون هذه الأشياء؟ وهذا كله فيه تحذير وتخويف وإنذار لهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى معهم، وأن الله لا يرضى بفعله، وأن الله محيط بهم، كيف تفعلون هذه الأشياء؟ يعني كيف تتجرأ على شيء والله عليك؟

وهذه كلها رسالة لمن؟ لكل من يريد أن يفعل شيئًا محرمًا في خفاء، إذا خلوت إذا خلوت بنفسك ليس عندك أحد فاعلم أن الله معك، واعلم أن الله رقيب واعلم أن الله مطلع على كل ما تفعله، فكيف تفعل أشياء إذا رآك الناس استحييت والله ما تستحي منه؟ فهذه كلها رسالة لكل إنسان، إذا خلا بنفسه ارتكب معاصيه، وإذا رأى الناس يعني قصرت نفسه عن المعاصي، لا ليش؟

قال: لأن الناس ينظرون إلي، طيب والله ما ينظر إليك؟ هذا دل على قلة عقلك وقصر نظرك، قال يقول والله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: 108].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: 109].

يعني قد يكون الرسول معها أحد، ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا، يعني فرض على سبيل الفرض هو ما جادل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بدل لكن نقول على سبيل الفرض لو أنه جادل، افرض أنك جادلت أنت عن خونة، لو جادلت عنهم وأنت تعلم أنهم خونة لو جادلت عنهم في الحياة الدنيا.

وهذا أيضًا رسالة لكل محامٍ يحامي عن أهل الفساد أو يحامي عن الظلمة، قد يكون شخص ظالم ويضع له محامي وهذا المحامي قد يعلم أنه ظالم كيف تجادل عنه؟

تجادل عنه عشان تقتطع مال امرئ حرام. ﴿هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء: 109] فرضنا أنك جادلت عنه في الحياة الدنيا وحاميت عنه ودافعت عنه، طيب ويوم القيامة؟

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: 109] بعض الناس يقرأها خطأ يقول فمن، فمن يجادل الله أنا سمعت كذا واحد فمن

يجادل الله هذا غلط هذه قراءة خطأ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة سؤال من يجادل عنهم يوم القيامة؟.

إذا جادلت عنه في الدنيا أمام القاضي، القاضي قد لا يعلم، قد يخفى عليه شيء، تأتي أنت ببينات فيها كذب وتمشيها على القاضي، لكن ما تمشي عند الله، ولذلك قال: فمن يجادل إذا وقفت أمام الله من يجادل الله عنهم يوم القيامة؟ ستأتي أنت أيها المجادل في الدنيا تجادل عنهم؟

﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: 109] يوم القيامة في أحد يتوكل أمرهم؟ أنت توكلت الآن أصبحت وكيل عنهم ومحامي في الدنيا ومشيت أمورهم، لكن في الآخرة ستكون وكيلًا عنه ومحامي؟ ما في أحد يتوكل على أحد ولا أحد ينفعه: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: 33] ما أحد يقف أو يتوكل أمر آخر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما بين هذه القصة لنا وخطورة هذه الأمور تنبيهًا لنا قال، يعني من باب التوبة ومن باب يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي هو أرحم الراحمين وأرأف بعباده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال يعني يعرض لهم التوبة، انظر وهذا طعمة بن أبيرق ما تاب، لو تاب الله عليه، لو اعتذر قبل الله عذره لكنه زاد على سرقته ونفاقه أنه ارتد وكفر ورجع ومات على كفره.

ولذلك هذه رسالة لكل من وقع في معصية أو في ذنب أو نحو ذلك أن باب التوبة مفتوح، والله أرحم الراحمين، والله أشد فرحًا أشد فرحًا بتوبة عبده يفرح .قال الله عَزَّ وَجَلَّ انظر اسمع قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 110] أي سوء، معصية، أي معصية، أو يظلم نفسه، شو الفرق؟

السوء تعمل سوء بحيث إنه يكون هذا متعدي على الآخرين، أما سرقة أو اعتداء في أعراض الناس أو كذا، من يعمل سوءًا أو يظلم نفسه هو نفسه بحيث إنه يقصر في نفسه أو يظلم نفسه يقع في معصية خاصة بنفسه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 110] يتوب ويستغفر الله، أين من لا يظلم نفسه؟ أين من لا يعمل سوءًا؟ أين من لا يقع في الذنب؟ كلنا.

قال: من يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا، انظر كيف سعة رحمة الله ومغفرته، يعني تغيب عنا هذه المعاني العظيمة، يجد الله غفورًا رحيمًا ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يكثر من الاستغفار في مجلسه.

قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 111] إذا كسب الإنسان إثمًا وهذا يدل على أنه أوقع نفسه، هو يكسب إثمًا أوقع نفسه، من يكسب إثمًا أي معصية فإنما يكسبه على نفسه يعني ضرر المعصية عليه هو، وكان الله عليمًا حكيمًا يعني الله عالم بحاله وحكيم فيما يجازيه إذا جازاه، فمن يكسب إثم هذا الضرر عليه هو.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: 112] الخطيئة من غير من غير قصد والإثم بقصد، فإذا وقع في خطيئة أو إثمًا ثم يرمي به بريئًا، مثل ما فعل هذا طعمة راح يتهم هذا اليهودي زيد بن السمي، راح يتهمه بانه وضع عنده عشان يكون يتهم بأنه هو السارق.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [النساء: 112] يعني يقذف به بريئًا، مثل هذا الرجل بريء لا يدري ش القصة، فقد احتمل بهتانًا وإثمًا مبينًا، احتمل يعني حمل معه البهتان، الأمر العظيم الشديد الذي يبهت صاحبه حتى يتحمله لا يدري ماذا يقول فهو أشد من الإثم، قال بهتانًا وإثمًا مبينًا يعني إثم واضح.

إذا أنت أخذت هذه المعصية أو هذا الخطأ ثم رميت به بريء وقلت هذا هو الذي فعله وهو لم يفعله، هذا أشد، يعني لو قلت إني أنا اللي فعلته وأخطأت واعتذرت خير من تأخذها وتبرئ نفسك وتضع التهمة في الجانب الآخر الذي هو بريء من لا يدري، هذا أشد عند الله.

ثم تعود الآيات للرسول تحذيرًا وتنبيهًا لهؤلاء، قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ۚ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113].

يا محمد، لولا فضل الله عليك سعة فضله ورحمته التي عمت كل شيء لهمت طائفة منهم، يعني طائفة من هؤلاء الذين سرق فيهم طعمة، لهمت طائفة منهم أن يضلوك يوقعوك في المجادلة المحرمة والمخاصمة عنهم أن يضلوك .

وفي الحقيقة هم ما وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء لأن معك الوحي، لكن هم يحاولون إيقاعك في هذه الجريمة وهذه التهمة .قال الله عَزَّ وَجَلَّ بيانًا إنهم لا يستطيعون أن يصلوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113].

أي القرآن والسنة أو القرآن والشريعة وأسرارها، قال: وعلمك بالوحي ما لم تكن تعلم، أنت لولا أن الله أوحى إليه ما درى، الرسول لا يعلم، لا يعلم أن هؤلاء خونة وكذبة لكن الله أخبره.

قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113] سبحانه، فضل الله على رسوله فضل عظيم، وعلى غير رسوله من الناس فضل الله عظيم لا يحيط به حد.

هذه الآيات العظيمة العجيبة التي ساقها الله لنا في بيان أولًا خطورة النفاق والمنافقين حتى أرادوا أن يوقعوا الرسول في هذه الجريمة، وفيها الدروس وعبر في اتهام الآخرين والوقوع في أعراض الناس أو اتهام الآخرين بالسرقات أو كذا، أو تبييت الأمور المحرمة أو أفعال أو الاستخفاء عن الله أو وقوع في المعاصي، كل هذه فيها دروس وعبر وفيها فتح باب خير للناس لمن تاب واستغفر فإن الله يتوب عليه.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا إلى لقاء قادم بإذن الله نستكمل فيه هذه الدروس المباركة، ونسأل الله أن يوفقنا لطاعته والله أعلم، صلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(99)
(النساء 114- 122)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، أيها الأخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا المجلس المبارك، مجلس القرآن الكريم؛ مجلس مبارك بلا شك، ومن يستمع فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبارك له في سمعه، ويبارك له في بصره، ويبارك له في قلبه؛ فهذا خير عظيم.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في كتابه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: 29]؛ وبركة القرآن عظيمة، بركة القرآن في الإنسان نفسه في دينه يزداد إيمانًا، ويرتفع إيمانه وقربه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومحبته للقرآن، وبركته في بيته، وفي ماله، وفي ذريته؛ بركة عظيمة.

كل من تمسك بهذا القرآن وازداد تمسكًا وحبًا لهذا القرآن، وتعلقًا به وتلاوة وتدبرًا وتفكرًا في آياته؛ كان ذلك أقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كل ما تقرب من كلام الله تقرب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتكون من المقربين عند الله عَزَّ وَجَلَّ ومن أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ فهذا فضل عظيم.

آيات أمامنا نقرأها ثم نفسرها ونبين معانيها ونتدبرها تستفيد منها في حياتك، هذا القرآن هو حياتك كله توجيهات عظيمة يوجه الله لك ومواعظ وتذكير، يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ الغافل، ويوجه الذي يطلب التوجيه ويطلب الرغبة في هذا القرآن العظيم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة النساء عند الآية الرابعة عشرة بعد المائة، يقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 114].

هذه الآية لما تقرأها أنت، وأنت حضرت معنا الدرس الماضي، أن الذين كانوا قد وقع منه من صاحبهم السرقة في القصة الماضية، أن أحدهم سرق هذا الدقيق أو الطعام وسرق الدرع، ثم وضعه عند رجل بريء واته، وبدأ وذهب إلى قومه ليستنصر بهم.

وذهبوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليشفع عندهم ويجادل عنهم، هم بلا شك أنهم كانوا يبيتون ها، إذ يبيتون من القول، وكانوا أيضًا يتناجون فيما بينهم ويتحدثون فيما بينهم؛ فأخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن النجوى هذه ما فيها خير.

- ما معنى النجوى؟

هو أن يتحدث شخص مع شخص سرًا، أو كلامًا خفيًا؛ أنت أحيانًا تجلس في مجلس أو في أو في المسجد أو في أي مكان، يكون بجنبك واحد تتحدث أنت بكلام خفي؛ هذا الكلام الذي يدور بينك وبينه هذه هي النجوى.

الله يقول لا خير في كثير من النجوم ليش؛ لأن غالب هذه المناجيات والكلام إما كلام لا فائدة فيه ما في فائدة، أو كلام أحيانًا في محرمات إما غيبة أو نميمة أو فلان فيه كذا أو فلان كذا، أو كلام أحيانًا أكثر كلام الناس في المجالس حتى في المجالس، أو حتى في المناقلات بين اثنين أو بين ثلاثة، تجد أحيانًا ثلاثة أشخاص أربعة أشخاص مجتمعين فيما بينهم يتحدثون بكلام خفي؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول ما في خير الكلام هذا لماذا؟

لأنه غالب في الغالب إما أنه كلام لغو ساقط ما في فايدة، قيل وقال، أو وقوع في المحرمات أحيانًا؛ طيب الله استثنى قال لا خير في كثير من اجمع ما في خير إلا من أمر بصدقة.

إذا كان كلامك فيه خير في صدقة تأمر تحث على صدقة؛ وهذه الصدقة لا يجب زم أن تكون صدقة بالمال قد تكون صدقة بالكلام؛ يعني الصدقة يعني تكون بالقول الكلمة الطيبة الصدقة بالكلام بالفعل بالحث على الشيء هذه كلها صدقات، ويدخل فيها الصدقة بالمال؛ فيقول إلا من أمر انظر ما قال إلا من تصدق ما يلزم أنك تتصدق أنت يمكن ما تستطيع أن تتصدق؛ قد تأمر الناس بالخير **"فالدال على الخير كفاعله"**، تفتح للناس باب خير يحصل لك هذا الأمر.

إلا من أمر بصدقة أو معروف؛ المعروف ضد المنكر تأمر الناس بالخير لا تأمرهم بالشر، تنهاهم عن الشر وتأمرهم بالخير هذا معنى المعروف؛ تدلهم على أبواب الخير الكثيرة، أو إصلاح بين الناس بين متنازعين بين متخاصمين تقوم بالإصلاح.

وأحيانًا تدفع مبالغ على أن صلح بين هذا وهذا؛ فدفعك المال للإصلاح بين الناس سواء بالمال أو بغير المال، قد تجمع بين اثنين متخاصمين إصلاح بين الناس؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا هو الخير هذه المناجاة والكلام والأسرار إذا كان في هذه الأشياء الثلاثة: الصدقة، المعروف، الإصلاح بين الناس.

وبعدين انظر في نقطة مهمة يعني يذكرك الله بها، وما هي أحيانًا أنت تفعل هذه الأشياء وما تحتسب الأجر فيها؛ يعني تقول من باب يعني حبي لفلان، ومن باب أنه قريبًا لي، ومن باب الإنسانية أحيانًا يقولونها ومن باب كذا.

فيقول أنا ودي يعني أحث الناس على الخير أو أصلح بينهم أو كذا؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا انتبه في أمر لا يعني لا يفوتك ما هو؟ قال من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله؛ يعني أنك تحتسب الأجر في فعلك هذه الأشياء؛ هذه الأشياء أحيانًا ما يتلتفت إليها الناس.

يعني أنت تسلم على فلان تحتسب الأجر في سلامه كم تحسن إذا قلت السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ثلاثين حسنة؛ فاحتساب الأجر هذا يعني أعظم عند الله قد يفوت الإنسان أشياء كثيرة يعني يصلح بين متخاصمين يجد اثنين تخاصمون في الشارع فيصلح بينهم ويمشي.

فرق بين أنك تصلح وتمشي، وفرق بين أنك تحتسب الأجر أنك تقوم بإصلاح بين اثنين طلبًا لمرضاة الله؛ شايف طلبًا لمرضاة الله، صدقة أو قول كلام طيب تقول لأولادك تقول لزوجتك تقول لأصدقائك لجيرانك كلام طيب في مجالسكم.

أحيانًا تجلس في مجلس في بيتك أو مجلس في عند شخص تتكلم بكلام الطيب أنت تتكلم وأنت تبتغي مرات الله؛ فرق كبير، ولذلك الله نبهك قال إذا فعلت هذه الأشياء ينبغي أن تفعلها ابتغاء وطلب مرضاة الله لا أن تفعلها عادةً.

أحيانًا الإنسان يفعل أشياء عادةً، أحيانًا حتى بعض العبادات انقلبت عندنا عادات، يذهب إلى المسجد ويدخل عادات، يذهب إلى العمرة عادات، يفعل كذا عادات يعني غلبت العادات على العبادات؛ فاحتسابك وتذكر نفسك بأنك تبتغي ذلك مرضاة الله يقلب لك العادة عبادة ليست العبادة عبادة لا.

العادة عبادة؛ الطعام والشراب والنوم ومجالسة الأهل ومؤانسة الأولاد هذه أحيانًا يفعلها الإنسان هكذا عادت أن تفعلها الغاء مرضاة الله تنقلب عبادة تحتسب الأجر عند الله؛ فشوف كيف توجيهات القرآن العظيمة فيها مثل هذه الأمور التي تمر علينا مرور الكرام ما نشعر بها.

لما يذكر الله لك هذا الأمر يحثك عليه يحذرك من أمر خطير، وهو مخالفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومخالفة ما جاء عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الرسول هو الذي يحثك على الخير وهو الذي يدل على الخير، وما جاءك من خير ما جاءك من خير إلا الرسول هو الذي دلك عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ففضله على الأمة فضل عظيم.

ولذلك الله ع يحذر من مخالفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ انظر قال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

ومن يشاقق الرسول يعني يحاده ويخالفه، من بعد ما تبين له الهدى؛ يعني أحيانًا تجد بعض الناس يأتي يقول لك الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لك الحديث هذا يقول لك لا لا الحديث هذا له معنى آخر؛ طيب ليش تقول له معنى آخر عندك دليل عندك علم.

فتجد بعض الناس أحيانًا يتضح له الهدى ويتضح له الدليل وتأتيه السنة ويتركها ويشاقق الرسول ويجاد من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين؛ حتى طريق المؤمنين لا يريده ولا يريد الجماعة، ويفترق ويخالف إجماع المسلمين.

قال ويتبع غير سبيل المؤمنين، قال الله عَزَّ وَجَلَّ نوله ما تولى؛ يعني نتركه على ما هو عليه نوله ما تولى في الدنيا بحيث إنه يتولاه من يتولى الشياطين، فيتركه الله يترك ولايته فيتولاه ها شرور الخلق يتولونه من الشياطين شياطين الإنس، وله ما تولى.

وفي الآخرة نصله جهنم وساءت مصيرًا؛ وفي الآخرة مصيره إلى جهنم يصلاها يعني يدخلها ويقاسي حرها وبئس هذا المصير والمرجع له.

وأعظم شيء في مشاقة الرسول **الشرك بالله**؛ الشرك بالله والشرك لا حد له، الشرك أنواع كثيرة؛ قد يقع الإنسان يعني من أنواع الشرك الرياء، يتصدق عشان يقال والله غني والله كريم فلان كريم وجواد، يصلي حتى يقال والله فلان يصلي، يصوم حتى يقول والله فلان صاحب طاعة ويصوم؛ هذه أنواع شرك كثيرة.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حذر من الشرك في كتابه في آيات كثيرة، يقول هنا انظر: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فقد ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116].

إن الله لا يغفر أن يشرك به يعني من مات على الشرك ما يغفر الله له؛ لكن في الدنيا لو كان مشركًا ثم تاب الله عليه في الدنيا، ما دام مع عنده المهلة وتاب فإن الله يتوب عليه؛ لكن إذا مات على الشرك والكفر فلا يغفر الله له ومأواه جهنم.

قال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ لو أن هذا الإنسان وقع في بعض المعاصي كبائر أو صغائر، فهو تحت مشيئة الله؛ إن تاب الله عليه، إن مات على كفره على إن مات على معاصيه وذنوبه فهو تحت مشيئة الله؛ إن شاء عذبه على معصيته وإن شاء تاب الله عليه؛ ولذلك قال ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قد يغفر قد لا يغفر لمن يشاء.

ثم حذر قال ومن يشرك بالله من يشرك بالله فقد ضل ضلالًا بعيدًا، في آية قبل هذه مرت معنا: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]؛ هذه في حق اليهود لأنهم أهل افتراء وكذب، وهذه في حق الكفار المشركين أنهم ظلوا ضلالًا بعيدًا؛ ليس عندهم علم ولا هدى ظلوا ضلالًا بعيدًا .وهؤلاء المشركون قال الله فيهم: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: 117].

يقول هؤلاء المشركون يدعون الأصنام؛ الأصنام مسمينها هم أسماء مؤنثة اللات العزة منات هذه أسماء مؤنثة؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ يقول تدعون إناث تدعون إناث، إن يدعون وهم لا يريدون الإناث إن يدعون من دونه إلا إناثًا؛ وفي الحقيقة هم ما يدعون اللات، اللات صنم ما يرد عليهم ولا يسمع ولا يبصر؛ كل الأصنام هذه ما تسمع ولا ظن منحوتة هذه ما تسمع؛ ولكن في الحقيقة هو هم يدعون الشيطان.

ولذلك انظر اسمع قال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا﴾ [النساء: 117]؛ هذا هو إبليس، إبليس هو الذي دل وجرهم على عبادة الأصنام، وكل مصيبة وكل معصية وكل شرك سببه الشيطان؛ ولذلك هنا قال إلا شيطانًا مريدًا، ما معنى مريدًا؟ يعني تمرد من كل خير ما في خير أبدًا ما في خير فشيطان مريد وهو إبليس.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ هذا إبليس: ﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 118] .لعنه الله طرده من رحمته وأخرجه من جنه؛ قال: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الأعراف: 18]، وأخرجه من جنته ولعنه وطرده عن رحمته؛ فلما طرده قال لن أترك آدم ذريته: ﴿لَّآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17].

ولذلك تلاحظ الآن أكثر من على الأرض كفار؛ كله من إبليس، قال لعنه الله، وإبليس ماذا قال انظر من كلماته وتهديده؛ قال: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: 118]؛ هذا قسم من إبليس يقول والله لأتخذن من عبادك، يعني من عبادك هو يخاطب رب العالمين، يقول لأتخذن من عبادك نصيبًا مفروضًا؛ يعني عبادك هؤلاء من بني آدم سيكون نصيب منهم كثير يتبعونني يعني وأجعلهم يعبدونني.

قال لأتخذن من عبادك نصيبًا مفروضًا يعني نصيبًا مقدرًا، ثم قال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 119].

والله لأضلنهم عن الهدى ولأمنينهم أعطيهم الأماني التي كلها غرور وكذب، أماني يقول لكم كذا ولكم كذا ولكم كذا وسأفعل لكم كذا؛ وهذا واقع الآن الواقع تجد الحين الشيطان وإن لم تشاهده ولا تسمعه إذا جاء إلى أوليائه من أهل الكفر والمعاصي والفسقة يدلهم على الشر ويحثهم على الشر ويأزهم أز.

قال هنا ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام، وهذا حصل مع المشركين مشركي العرب؛ كيف يبتكون آذان الأنعام؟

يأتون إلى الأنعام ويحرمونها على أنفسهم يعني أنواع؛ يعني السائبة والوصيلة والحام، هذه أنواع من الأنعام من الإبل والبقرة والغنم؛ يأتون عليها إذا وصلت سن معين أو حالة معينة يحرمونها على أنفسهم لا يشربون ألبانها ولا يأكلونه ولا يمنعونها من المراعي.

هذه من عادات الجاهلية الشيطان هو الذي أمرهم بذلك؛ ولذلك قال فليبتكن يعني يقطعون ماذا آذان الأنعام ليش يقطعونها علشان يعرفها الناس أن هذه البهيمة قطعت أذنها لا أحد يتعرض لها؛ هم كذا يعتقدون أن لا أحد يتعرض لها لأنها أصبحت قد حمت نفسها؛ وهذه عندهم عادات كلها من الشيطان والشيطان صرح هنا قال يبتكن آذان أنعام.

وخذ من أوامر الشيطان علشان تكون على حذر من الشيطان؛ قال ولآمرنهم فليغيرن خلق الله؛ خلق الله يعني الذي فطر الله عَزَّ وَجَلَّ الإنسان عليه ومنعه من التعرض له هذا خلق الله؛ خلق الله من يعني مما جاء في الحديث من تحريم هذه الأشياء مثل نمص الحاجب؛ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لعن النبي قال لعن الله النامسة والمتنمسة أو النامصات والمتنمصات التي تحلق الحواجب؛ هذا تغيير لخلق الله هذا من الشيطان.

والآن تسمع أحيانًا ترى بعض النساء يفعلن هذا الشيء أو الرجال، كله داخل في طاعة الشيطان؛ طاعة الشيطان يأمرهم تغيير خلق الله.

☜جاء في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه: «**لَعَنَ اللَّهُ النَّامِصَاتِ وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ** .«الوشم في اليد حفر الأيدي حفر الوجه، والوشر الأسنان يغيرون تفليج الأسنان تبعيدها؛ هذه كلها التغييرات من الشيطان والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عنها؛ وهذا من طاعة الشيطان لأنه أمر قال لأغير لأمرنهم فليغيرن خلق الله.

إلا في حالة واحدة إذا كان الإنسان يعني أراد عملية تجميل وكان عنده تشويه في الخلقة وأراد أن يجمل نفسه بهذه الأشياء؛ هذا لا يدخل في تغيير خلق الله؛ تغيير خلق الله الذين يأتون يعني يفعلون في أجسامهم وفي وجوههم وفي أيديهم أشياء الله خلقهم على أحسن خلقة فيأتون يغيرون هذه الخلقة طاعة للشيطان؛ طاعة للشيطان وهي من كبائر الذنوب من كبائر الذنوب يحذر الإنسان من الوقوع فيها فلا يغير خلق الله.

قال بعض أهل العلم: **"تغيير خلق الله أي تغيير الدين بالبدع يدخل فيه."**

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 119] .من يطيع الشيطان انظر تحذير من هذه الأشياء التي يتساهل فيها كثير من الناس، قد يتساهلون في النمص والتغيير والفلج والوشر ونحوه؛ يتساهلون فيها ويظنون أن هذه ليست من الذنوب الكبيرة.

الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 119].

- الذي يجعل الشيطان له ولي من دون الله النتيجة ما هي؟

يخسر الدنيا والآخرة، ولو أخذ الدنيا ولو أعطاه الله الدنيا قد خسر الدنيا والآخرة؛ لم يفلح لا في الدنيا ولا في الآخرة لماذا؟ لأن هذه كلها من طاعة الشيطان، والشيطان كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ هنا قال: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: 120] .مواعيد كاذبة وأماني كاذبة، والشيطان إذا جاء يوم القيامة ماذا يقول؟

إذا جاء يوم القيامة وأدخل أهل النار أهل الجنة جنة؛ وقف الشيطان على أهل النار وقال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: 22].

فهنا هو الآن في الدنيا يعدهم ويمنيهم يقول لكم كذا ولكم كذا ويعطيهم المواعيد الكاذبة؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: 120]؛ كله كذب في كذب وغرور وأماني كاذبة لا حقيقة لها .حتى انظر يعني ليست مجرد يعني أماني ووعود كاذبة وخسارة لا، اسمع قال أولئك الذين يطيعون الشيطان ويخالفون أمر الله قال: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: 121].

أولئك مأواهم يوم القيامة إلى النار؛ لا تظن أنت أن هذه كبيرة ووهذه معصية؛ المعصية تجر إلى معصية أخرى حتى تتراكم عليك حتى تتراكم عليك وأنت لا تشعر؛ لكن من وقع في معصية ثم تاب الله عليه؛ لكن إذا وقع في معصية ثم استمر في معاصي تراكمت عليه تراكم عليه الله وليس معه حسنات، ويظن أن معه أعمال ولا تنفعه أحيانًا بعض السيئات تحبط الأعمال الصالحة وتذهب الأعمال الصالحة.

قال: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: 121]؛ أي لا يجدون من جهنم مفر ومهرب لابد أن يقعوا فيها.

لما ذكر الله لك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مصير هؤلاء والتهديد والتخويف والوعيد الشديد؛ يقابل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهل الخير بما وعدهم الطائعين الذين أقبلوا على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسمعوا وأطاعوا وقالوا سمعنا وأطعنا؛ ماذا قال الله فيهم؟ قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122].

سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا؛ وعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعد حق من الله عَزَّ وَجَلَّ، إن الله عَزَّ وَجَلَّ وعد المؤمنين الذين آمنوا إيمانًا يقينيًا صادقًا وعملوا الأعمال الصالحة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني وعدهم بهذا الوعد الكريم أنه يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ويفوزون بهذا الفوز العظيم.

وليس أحد أصدق من كلام الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ولذلك قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]؛ ليس فيه قول أصدق من قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله؛ في اللقاء القادم نستكمل هذه الآيات التي هي حقيقةً نور وهدى لقلوبنا ولأسماعنا؛ نسأل الله أن يعيننا على طاعته، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يثبتنا على الحق حتى نلقاه؛ والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(100)
(النساء 123- 128)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، أصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا المجلس مجلس القرآن الكريم، نقرأ هذه الآيات ونتدبرها ونتأملها، هذه الآيات التي سنتعرض لها بإذن الله جل جلاله هي في الحقيقة تتحدث عن الأعمال الصالحة وكيفية قبول هذه الأعمال الصالحة والأعمال السيئة وأثر هذه الأعمال السيئة على الإنسان.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [النساء: 123].

- ما معنى هذا الكلام؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخاطب المؤمنين حتى يدخل في جميع الناس ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ﴾ [النساء: 123] هكذا، يعني الأماني تملي الشيء مجرد يعني تملي في نفسك الأماني الذي الإنسان يتمناها في نفسه، يقول مثلاً: أتمنى أن أكون كذا وأن أكون كذا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: الأعمال الصالحة وطلب أثر هذه الأعمال الصالحة من الفوز في الدنيا والفوز في الآخرة ليس بالتمني ولا بالتحلي، **"الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي، ما وقر في القلب وصدقته الجوارح"**؛ فالإيمان تصديقٌ بالقلب وإيمانٌ وعملٌ بالجوارح.

أما يتمنى يقول: والله أتمنى أن أكون من أهل الجنة، طيب لماذا لا تعمل؟ أتمنى أن أكون من أهل الصلاح والخير وأهل التقوى، وأنت لا لم تعمل ولم تعرف ما هي طريقة أهل الصلاح والخير والتقوى.

وهكذا في سائر أشياء كثيرة، يتمنى أن يكون من حفظة كتاب الله وهو لم يحفظ ولا يريد أن يحفظ، هذه التمني الأماني هذه لا اعتبار لها في شريعة، في شريعة الإسلام، ولا اعتبار لها في، في علم، في عن، عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- ولذلك ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

قال هنا: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ﴾ [النساء: 123] تتمنون، وحتى أماني أهل الكتاب، أماني الكتاب ماذا يقولون أهل الكتاب؟ يقولون: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، إذا عرفت هذا الكلام طيب ما هو الكلام الحقيقي الذي يعني ليس بس مجرد أماني؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 123]، إذا عمل الإنسان سيئةً أو ذنباً يجازى به؛ إن كان كافراً كان كافراً ومات على الكفر فمصيره إلى نار جهنم.

وإن كان مؤمناً وعمل سيئاً، إن تاب تاب الله عليه، إذا تاب تاب الله عليه أو قد يعفو الله عنه يتجاوز عنه أو يجازيه في الدنيا أو يجازيه في الآخرة، كيف يجازيه في الدنيا؟

يعني قد يصاب بالبلايا والمحن، يصاب ببعض الأمراض، هذه كلها تكفير سيئات، **«مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِن هَمٍّ وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ»**، فهذا معنى ﴿يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: 123].

قد يعفو الله، لكن إذا جُزي في الدنيا المؤمن الصالح إذا لم يتب من السيئة فهذا حكم الله، حكم الله أنه قد يصيبه ما يصيبه من المصائب في الدنيا كلها تكفير، همٌّ وغمٌّ وبلايا، وقد يصاب

الإنسان بفقرٍ، قد يصاب بمصيبةٍ بحادثٍ بنحو ذلك، هذه كلها حتى الشوكة يشاكها المؤمن يكفر الله بها عن سيئاته.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 123]، يعني ما يجد له من يتولى أمره ولا ينصره إلا الله، وهذا فيه حثٌّ على الرجوع إلى الله لمن وقع في السيئات أن يعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويرجع، لأن وليه لأن وليه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونصيره هو الله، أما الكافر ليس له لا وليٌّ ولا نصيرٌ، هذا في السيئات.

والطاعات والصالحات ماذا نقول فيها؟

اسمع ماذا يقول الله قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء: 124] يعني الأعمال الصالحة كالصلاة والزكاة والصيام سائر الأعمال الصالحة، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ [النساء: 124] وهذا يشمل جميع الناس يشمل يعني الذكر والأنثى الرجال والنساء.

﴿مَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: 124]، أي شخص ذكر كان أو أنثى وهو مؤمنٌ، لابد من شرط الإيمان، شايف؟ يعملون الصالحات كثير، يعملون الصالحات، لكن الإيمان هو الذي يحتاج إليه الإنسان في قبول العمل، الله ما يقبل عمل الإنسان لو كثرت أعماله وأصبحت مثل الجبال والإيمان عنده لم يستقر في قلبه لا يقبل منه.

ولذلك قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النساء: 124]، لابد من الإيمان القلبي والعمل بالجوارح، العمل حتى يأتيك الآن حقيقة العمل القلبي أو حقيقة الإيمان، يقول لك: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124].

انظر وعد الله وكرمه أن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن التي جما هي قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: 124] يدخلون، الوعد من الله والله لا يخلف وعداً، ثم زيادةً على ذلك قال: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124].

- ما هو النقير؟

هي النقرة في نواة التمرة، شفت التمرة هذه؟ نواة التمرة فيها نقرةٌ صغيرةٌ، يقول لك يعني من باب الشيء التافه الحقير، يقول حتى الشيء التافه الحقير ما يظلم فيها الإنسان، الله ما يظلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما ينقص من عملك ولا يزيد على سيئاتك، يعطيك حقك كاملاً، بل يضاعف لك الحسنات ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124].

إذا أردت أن تعرف حقيقة الإيمان والطاعة اسمع ماذا يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ [النساء: 125]، هذا الدين هذا الإيمان، طيب أحسن ديناً ممن؟ قال: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [النساء: 125].

يعني انقاد لله ببدنه ووجهه وأقبل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو محسنٌ، أن يعمل الأعمال الحسنة الطيبة من الأقوال الطيبة والأفعال يبادر وهو محسنٌ، وزيادةً على ذلك قال: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: 125]، ما هي ملة إبراهيم؟ إبراهيم الخليل هو إمام الحنفاء وملته الحنيفية التوحيد الخالص لله، فيقول يتبع، انظر وهذا فيه ثناءٌ على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الله يثني عليه يقول ﴿وَاتَّبَعَ﴾ [النساء: 125].

يقول هذا الذي أحسن ديناً، وهو الذي يسلم وجهه لله ويقبل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بوجهه وبدنه وأعماله ويحسن عمله ويتبع ملة إبراهيم، هذه العقيدة وهذا الإيمان، اتباع ملة إبراهيم حنيفاً.

- ما معنى حنيفاً؟

الحنيف هو المائل الذي يميل عن كل العبادات ويقبل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما تتحقق له الحنيفية حتى يقبل كله ببدنه وقلبه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مثل ما فعل إبراهيم إمام الحنفاء،

إبراهيم أمة، قال الله عنه **"أمة"** مع أنه وحده، عاش وحده وقومه كفروا حتى أبوه لم يؤمن به والله سماه قال **"أمة"** يعني كأنه أمةٌ وحده، لأنه أقام التوحيد وحقق التوحيد.

قال: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125]، لما حقق إبراهيم التوحيد وجرد الطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحقق الحنيفية وأقبل على الله ماذا كان جزاؤه؟

قال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125]، خليلاً يعني الخلة هي أعلى درجات المحبة، الله يحب المحسنين يحب المتقين يحب الصابرين يحب عباده المؤمنين محبةً عامةً كل الناس، لكن الخلة لا الخلة لم تحصل إلا لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقط، الخلة هي أعلى درجات المحبة، أعلى درجات المحبة، ولذلك أثنى الله عليه.

والله عَزَّ وَجَلَّ أثنى على إبراهيم في القرآن أن أمرنا نحن جميعاً بأي شيء؟

قال: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: 95]، وأمر محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النساء: 125] وهذا كله ثناءٌ على إبراهيم لأنه عرف حقيقة التوحيد والإيمان.

قد يخطر ببال أحد الناس ويقول: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غني ولا يحتاج أن يتخذ فلاناً خليلاً ولا يتخذ كذا، الله غني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كيف يقول اتخذ الله إبراهيم خليلاً؟ رد الله عليه قال هذا تفضلٌ من الله ومنةٌ ونعمةٌ أن يتخذ من عباده خليلاً وإلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غني.

ولذلك انظر اقرأ الآية اللي بعدها قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: 126]، يقول: لله ما في السماوات وما كل ما في السماوات وما في الأرض ملكٌ لله، فلم يحتج إبراهيم ولا غيره، ملك ما في السماوات وما في الأرض فهو مالك السماوات والأرض وما فيهن، وعالم ومحيط بها، لا يخرج شيءٌ عن علمه أبداً، وهو بكل شيء ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ [النساء: 126].

لما قرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هذه العقيدة الصحيحة والإيمان وثمرة الإيمان وهو يدخلون الجنة وثمرة السيئات والمعاصي وأنه يجازى بها، تعود الآيات إلى أحكام النساء، لأن السورة هي سورة النساء.

فتعود الآية لأحكام أو ذكر شيءٍ من أحكام النساء التي ذكرت في أول السورة، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء: 127].

- من هم؟

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يسألون.

- من يسألون؟

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يستفتونه يعني يطلبون منه الفتيا يعني الحكم الشرعي، يستفتون في النساء، طيب ليش يستفتون النساء وليش ما يستفتون في الرجال؟ قال لأن النساء لما جاء الإسلام أعاد إليهن حقوقهن التي هُضمت في الجاهلية، النساء في الجاهلية ليس لهم أي اعتبار لا يعطون مالاً ولا يعترف بهم ولا شيء، فجاء الإسلام وبدأ يرفع من شأن المرأة.

فلما رفع الإسلام من شأن المرأة بدأ الصحابة يسألون عن أحكام عن أحكام المرأة، قال الله هنا: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: 127]، انظر ركز على قضية يتامى النساء، يعني المرأة اليتيمة.

المرأة اليتيمة هذه أشد الناس هضماً لحقوقها في الجاهلية، يعني لا يعتبرونها أي شيء لأن ليس لها ولي وليس لها أب، فلا يعتبرون شيء، ولذلك الله سبحانه رفع شيئاً قال: ﴿فِي يَتَامَى

النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء: 127]، يقول يتلى عليكم، وين يتلى علينا به؟ قال في أول سورة النساء.

﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: 2]، وفي أول سورة النساء قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ﴾ [النساء: 3]، هذه الآية ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي النِّسَاءِ﴾ .كانوا يأتون إلى اليتيمة سواءً وليها أو قريبها ويريد أن يتزوجها، إن كانت جميلةً تزوجها ولم يعطها مهرها كاملاً يبخسها في المهر، وإن كانت غير جميلةٍ ماذا يصنع بها؟

يحبسها عنده ما يزوجها، لأن عندها ميراثٌ عندها هي يتيمةٌ عندها ميراثٌ، فيستفيد من هذا الميراث ولا يزوجها، جاء أحدٌ يخطبها يمنعه حتى ما تذهب ويذهب ميراثها.

فذكر الله حكماً قال اتقوا الله في اليتيمة هذه، ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ [النساء: 127] من الميراث، ما تعطون حقها ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ [النساء: 127] يعني ترغب أن ترغب في زواجها أو ترغب عن زواجها لا تريد أن تتزوجها.

ثم لما ذكر النساء ذكر أيضاً المستضعفين الولدان الصغار، الصبيان، الصبي الصغير كان في الجاهلية ما يورثونه، يقول الذي يرث الذي يرث من هو؟ قال الرجل الذي يرفع السيف ويقاتل ويحمي، هذا نعطيه الميراث، أما المرأة ما ترفع السيف ولا تقاتل، وكذلك الصبي فلا نعطيه الميراث، هذا حكمٌ جاهلي حكمٌ جاهلي، فجاء الإسلام وألغى هذا الشيء.

قال: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: 127]، جاء لك بحكمٍ عام يعني ليست فقط الزواج من اليتيمة، لا حتى اليتامى كلهم يجب أن تقوم لهم بالقسط، ثم عمم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته وفضله قال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: 127]، في اليتامى أو في غيره، أي خيرٍ تفعله لا تحتقر الخير، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: 127].

وإذا كان الله به عليمٌ يجازيك عليه، أي خيرٍ من الخير، صدقةٌ أو كلمةٌ طيبةٌ أو معروفٌ أو إلى آخره، لا تحتقر هذه الأعمال التي ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي أعمالٌ عظيمةٌ.

ثم ختمها لك بأن هذه الأشياء يعني وإن احتقرها كثيرٌ من الناس ف يعني الخير العظيم والله عمم لك وقال لك ما تفعل من أي خيرٍ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إن الله عَزَّ وَجَلَّ يثيبك عليه ويجازيك عليه عندما تكون متى؟

إذا جاء يوم القيامة واحْتَجْتَ أنت إلى الحسنة الصغيرة، الحسنة الواحدة تحتاج إليها في ذلك الوقت، تعرف قيمة يعني قيمة هذه الحسنات، ولذلك الله يقول في حق الكافر ماذا؟

يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: 24] يعني حياة الآخرة ليست حياة الدنيا، يقول حياة الآخرة التي هي حياةٌ حقيقيةٌ، يقول يا ليتني قدمت من الأعمال.

لما ذكر الله أحكام اليتامى والزواج يذكر لنا أيضاً ما قد يقع في العلاقات الزوجية العِشرة الزوجية، قد تكون عِشرةً طيبةً قد يصيبها ما يصيبها وهذه الحياة هذه الحياة، ما يمكن أن تستقيم، ما استقامت لخير البشر تستقيم لك أنت؟

فالبيوت مستورةٌ تجد فيها من المشاكل والقضايا قد تقع بين الزوجين، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعالجها لنا يعطينا علاجها، ما تسلم البيوت من أي شيء مثل هذه الأمور، فإذا وقع مثل هذه الأمور القرآن يعطيك المنهج في علاجها، يقول لك: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ [النساء: 128]، وإن امرأةٌ يعني زوجةٌ خافت من بعلها يعني زوجها نشوزاً، النشوز هو الترفع عن أداء الواجب.

انظر في أول السورة مر معنا نشوز المرأة: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 34]، هذا هذه المرأة إذا نشزت ترفعت عن حق الزوج عن حق الزوج ولم تقم بحقه هذا علاج.

إذا الزوج حصل منه نشوز ترفع عن حق المرأة بحيث إنه يعني لم يعطها حقها أو بخسها شيء من حقوقها كالمبيت ومثل السكن ومثل النفقة أو نحوها، إذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ إذا المرأة خافت يعني توقعت وبدأت يظهر علامات هذه الأمور النشوز أو الإعراض.

شو الفرق بين النشوز والإعراض؟ النشوز هو التقصير في حقوقها، والإعراض إنه لا يقبل بوجهه عليها ولا يبتسم بوجهها ولا يعني يجلس معها جلسةً يعني فيها بشاشةٌ وفيها قبولٌ، يعرض عنه ما يجلس ولا يقابلها ولا يبتسم فيه، فإذا وجدت المرأة من زوجها مثل هذا الأمر فما الحكم؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء: 128]، طريق هو الصلح، ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء: 128] يقول أصلح الزوج يصلحون بينهم، انظر لما قال إن يدخل شخصٌ ثالثٌ يصلح بينهم، لا يقول حاولوا أن تصلحوا بينكم أنتم، لأن البيوت الستر فيها أولى من كشفها.

حصل بين الزوج وزوجه حاول الزوج وزوجه أن يصلح أن يصلح، قال: ﴿أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ [النساء: 128] يصلحون بينهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128]، الصلح خيرٌ من النزاع والمشاقة والملاحاة، كل هذه ما تنفع الصلح خيرٌ، لكن طبيعة الإنسان طبيعة الرجل طبيعة المرأة دائماً كل واحد يشح بنفسه، لما تأتي للرجل تقول له: يا أخي تنازل للمرأة عطها كذا، قال: لا هي مقصرةٌ كيف أعطيها؟

تأتي المرأة تقول لها: أنتِ يعني تنازلي معلش، قالت: لا كيف أتنازل وهو عنده كذا وعنده كذا ولا يعطينا، كل واحد يشح ما يتنازل.

ولذلك انظر اسمع عط الله قال: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: 128]، ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: 128] كل نفسٍ من هذه النفوس تحضر الشح أمامها ما تتنازل، لكن الله حث على أمرٍ أعمق، قال: لا تجعل الشح والبخل سبباً في استمرار النزاع بين الزوجين، ولكن على الزوج أن يحسن وعليها هي أن تتفاضى.

قال: ﴿وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ [النساء: 128]، تحسن المعاملة مع الزوج مع الزوجة، وتحسن الكلام الطيب بالقول والفعل، وتتقِ الله عَزَّ وَجَلَّ فيهن، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 128].

يعني إذا علم الله منك هذا الأمر الإحسان والتقوى والصلاح والإصلاح، فإن علم ذلك فإن الله يوفق بين الزوجين يوفق بين الزوجين، طيب الآيات طويلةٌ ولا نريد أن نطيل فيها لعلنا نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نواصل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(101)
(النساء 129 - 134)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في مجلسنا الأسبوعي بعد مغرب الأربعاء من كل أسبوع.

نجلس هذا المجلس المبارك مع القرآن الكريم وتفسير القرآن العظيم، والوقوف عند آياته تأملًا وتفكرًا وتدبرًا وعملًا؛ فالقرآن الكريم أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حجةً على الخلق، **«الْقُرآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيكَ.»**

والقرآن شفيعٌ يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، ولم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شفيعًا للناس، إنما قال لأصحابه؛ يعني الذين هم يلازمون القرآن تلاوةً وقراءةً وتدبرًا، فعلى المسلم العاقل أن يعطي القرآن حقه من التلاوة والتمسك به وبآدابه وأخلاقه، والعمل بما تقتضيه آياته.

لا زلنا نقرأ في هذه السورة العظيمة الجليلة وهي سورة النساء، ونفسر هذه الآيات العظيمة.

وقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: 129]؛ لما تقرأ هذه الآية والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في آية أخرى: ﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3].

يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أباح للرجال أن يتزوجوا من النساء ما طاب لهم من النساء؛ يعني الطيب المرأة الطيبة الصالحة من النساء ﴿مَثْنَى﴾ أي اثنتين، ﴿وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ أربعة؛ إن شئت أن تتزوج باثنتين أو ثلاثٍ أو أربع فحلال.

﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بين النساء في التعدد ﴿فَوَاحِدَةً﴾؛ يعني أن تبقى مع واحدة إذا كنت تخاف على نفسك الوقوع في الجور والميل والظلم في العدل بين النساء؛ فاقتصر على واحدة وأبق مع واحدة.

وهنا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 129]، وهناك يقول: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 3]؛ يعني هناك ممكن العدل وهنا يقول غير ممكن.

- فكيف نجمع بين هذا وهذا؟

الجواب: العدل المذكور هنا غير العدل المذكور هناك؛ المذكور هناك العدل في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: 3] هو العدل في الذي يستطيعه الإنسان؛ الذي يمكن العدل فيه مثلًا في النفقة، العدل في القسم في المبيت، العدل في السكن وفيما يقدر عليه الإنسان.

فكل ما يستطيع الإنسان أن يعدل فيه أو يستطيع أن يأتي بالعدل فعليه أن يأتي به، وإن لم يأتِ به فإنه يأثم.

أما هنا فقال: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 129]؛ طيب ما هو العدل الذي لا أستطيعه؟ قال: **"العدل الذي ليس باختيارك كالحب المحبة."**

☜النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«اللَّهُمَّ هَذَا قَسمِي فِيمَا أَملِكُ، فَلَا تَلمنِي فِيمَا لَا تَملِكُ»**؛ يعني أنه لما يقسم بين زوجاته قال هذا قسمي فيما أملك؛ فلا تلمني فيما لا أملك مثل المحبة والميل النفسي.

أنت الآن تجلس في مجلس؛ تدخل في مجلس فيه رجال تجد نفسك تميل لبعضهم ونفسك تعدل عن بعضهم، هذا شيء فطره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يعني تميل النفس وقد لا تميل.

فالنساء كذلك، قد يكون إنسان عنده زوجتان أو عنده ثلاث أو أربع، فتميل نفسه لإحدى هذه الزوجات ميلًا بغير اختيار كالمحبة والمودة ونحو ذلك؛ فهذه خارجة عن الإرادة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رفع هذا الشيء عنه فقال: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: 129]؛ ما تستطيع أن تعدل.

- ما الحكم؟ ماذا نصنع؟

قال: إذا كنت لا تستطيع أن تعدل بين النساء ولو حرصت كل الحرص ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ [النساء: 129]؛ يعني لا تظهر محبتك بينهن بحيث أنك تميل لهذه أشد المحبة وتظهر محبتك لها أمام البقية؛ فهذا هو المقصود ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: 129]. يعني تتركون التي لا تحبها مثل المرأة مثل الشخص المعلق؛ هي زوجة أعطيتها حقها؟ ولا هي التي تركتها وطلقتها؟ فتذرها كالمعلقة؛ لا زوجة ولا مطلقة.

ثم أرشد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ووجه قال: ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 129]؛ يعني تصلح حالك وتصلح بيتك وتصلح زوجتك وأولادك وتصلح كل ما تستطيع أن تصلحه وتتقي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتخاف الله وتأتي بما أمرك الله به وتبتعد عما نهاك الله عنه.

فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غفور؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 129]، يعني يتجاوز عما يحصل منك؛ قد يحصل منك تقصير في حياتك وبين زوجاتك وبين أولادك، فإن الله سبحانه إذا رأى منك الإصلاح والتقوى والخوف والمراقبة فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غفور يتجاوز، ورحيم يرحم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية التي بعدها: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ [النساء: 130]؛ هما الزوجان. ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾.

- متى يتفرقون؟

الجواب: الأصل في الزواج أن الرجل مع زوجته الاستدامة والاستقامة والبقاء بين الزوجين، هذا هو الأصل؛ والرجل إنما تزوج ليبقي زوجته عنده وتستقر الحال ويكون في حال مستقرة، هذا هو الأصل.

لكن قد تأتي أمور بغير اختيار الإنسان، لا من الزوج ولا من الزوجة؛ قد تأتي أمور وخصومات ومنازعات بين الزوجين وعدم تلاؤم.

- ما الحل؟

الآن نسمع نحن نسمع كثيرًا من قضايا كثيرة؛ قضايا أسرية بين الزوجين وبين الأزواج، وقد يكون بعضهم مضى عليه مدة من الزمن وعنده أولاد، وتقع هذه الخصومات بين الزوجين وقد تستفحل هذه الخصومات وتشتد.

- ما المنهج الصحيح لمثل هذه الخصومات؟ ما هو الحل؟

يقول لك فيه الآن مراكز حل المشاكل الأسرية وكذا وكذا، نقول أول حل هو كتاب الله وسنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا هو الحل الصحيح، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59]. الحل هو كتاب الله والقرآن وأهل العلم الذين يفهمون القرآن والسنة، ثم بعد ذلك تنتقل إلى المراكز التي تفيدك؛ ما في تعارض.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما كان قد يقع الخطأ أو الزلل أو النفرة من الزوجة، فإن الله أعطانا الحلول كيف يتعامل الرجل مع زوجته الناشز؛ التي تترفع عما أوجب الله عليها وتعصي زوجها.

- ما الحل؟

أعطانا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحل فقال: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: 34]. الوعظ والتذكير والتخويف؛ فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حال إذا لم يصل الحل في مثل هذا الأمر: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: 35]؛ حكمًا من طرف الزوج وحكمًا من طرف الزوجة يحكمان ويحلان ويجمعان.

- إذا كان هذا في جانب الزوجة؛ فإذا كان النشوز والإعراض من الزوج؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128]. قال: التصالح دائمًا، والتنازل والتسامح، وكل واحد يتنازل عما يكون له فتستقيم الحال، وتأتي المودة والمحبة ويزول؛ تزول الشحناء والمنازعات.

قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: 128]؛ الصلح خير من المنازعات ومن النزاع. الله هنا قال: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ [النساء: 130]؛ يعني ما نفع العلاج ولا نفع الصلح ولا نفع أي حل بين الزوجين، أصبحت النفرة بين الزوجين قائمة، وما استطاع الزوج أن يحل مشكلته والزوجة ما استطاعت أن تحل مشكلتها.

- ماذا يصنعون؟ هل يستمرون على النزاع والبيت يصبح نارًا مشتعلة؟

هذا ما يمكن؛ الزوج إذا أراد أن يدخل بيته ليرتاح يجد أمامه نارًا مشتعلة، والزوجة هكذا. إذا ما الحل إذا عالجوا وحاولوا وما استطاعوا؟ الله يقول ماذا يقول؟ ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: 130]. يعني الحل هو طلب الفرقة؛ لأن الفرقة قد تكون خيرًا، الفرقة قد تكون خيرًا للطرفين.

ولذلك اسمع يقول: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾؛ الله يغني الزوج بزوجةٍ صالحة تعينه على طاعة الله ويرزق منها أولادًا صالحين، ما تدري أيش الخيرة فيه.

وكذلك المرأة إذا خرجت من زوجها وطلبت الخلع والفسخ وذهبت، يغنيها الله بزوجٍ آخر صالح يعينها على طاعة الله؛ فإذا ما استقامت الحال يتفرقا ﴿وَيُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 130]. أي ذو عطاءٍ كثيرٍ عظيم يعطي ويمنح ويهب من يشاء ولكن حكيم.

ولذلك اسمع قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾؛ يغني ويتفضل ويوسع على عباده لكن بحكمةٍ سبحانه تعالى. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليبين لنا سعة عطائه وخيره وغناه ومنته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الأمر بيد الله وأن الخلق كلهم تحت تصرفه وتدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: 131]؛ يعني كل ما في السماوات ملكٌ لله تحت ملكه وتصرفه وتدبيره، وما في السماوات وما في الأرض أيضًا.

ثم أراد سبحانه أن يرسل رسالةً للزوجين؛ للزوجين ولكل بيت، كل بيت وكل إنسان أصلًا محتاج لهذا الشيء؛ هذه رسالة يوجهها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للخلق جميعًا، وخاصةً الزوجين الذين قد حصل بينهما النزاع أو الفرقة؛ قد يكون الرجل قد فارق زوجته والزوجة فارقت زوجها.

تذكر هذه الآية؛ وهذه الآية حقيقةً إنها وصية الله عَزَّ وَجَلَّ للأولين والآخرين، وصية الله.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131]. والوصية هي العهد المؤكد؛ يعني ما يوصيك أحد على أي شيءٍ تافه، إنما يوصيك على شيءٍ مهم.

ولذلك يقول هنا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ الذين أوتوا الكتاب الذين أنزلت عليهم الكتب السابقة كاليهود والنصارى وغيرهم ممن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعث فيهم أنبياء وأرسل وأنزل إليهم كتبًا، يقول: وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ أيضًا أنتم وصيناكم بأي شيء؟ قال: ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

يعني حل المشاكل تقوى الله؛ زمام الإنسان في حياته هو تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني لا تستغرب أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأمر نبيه في أول سورة الأحزاب؛ يأمر نبيه بالتقوى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أَنَا أَتْقَاكُمْ وَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ**». ومع ذلك يأمره الله بالتقوى؛ انظر يقول: ﴿وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131]. اتقوا الله.

- كيف نتقي الله؟

نخاف الله عَزَّ وَجَلَّ فيما نأتي ونذر، تقوى الله أن تحافظ على ما أمرك الله به؛ كل ما أمرك الله به من الفرائض والواجبات والسنن تحافظ عليها فتكون من الأتقياء، وتبتعد عن كل ما حرم الله عليك من المحرمات والكبائر والصغائر والمنهيات تبتعد عنها.

فإذا حافظت على الله واجتنبت النواهي أصبحت من الأتقياء، ولذلك حققت قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131]. قال: ﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ يعني هذه أعظم حل من مشاكل الزوجية، تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ هي أعظم الحلول.

ولذلك أنت إذا قرأت في سورة الطلاق، والطلاق سورة الطلاق اسمها الطلاق، سورة الطلاق يعني الطلاق الذي يقع بين الزوجين أو النزاعات تقع قبل الطلاق.

- ما الحل؟

تجد سورة الطلاق تؤكد على قضية التقوى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا 3 وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3]، ثم يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا4 وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: 4-5].

إذًا يتق الله، يدل على أن الحل الحقيقي للنزاعات والمشاكل الزوجية هو رجوع الزوج والزوجة إلى تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا رجعوا إلى تقوى الله وخافوا الله وابتعدوا عن المعاصي رجعت أمورهم من أحسن الأحوال؛ وأكثر المشاكل الزوجية بسبب المعاصي، تجد الرجل يرتكب معاصي عظيمة ومحرمات أو المرأة، فتجد هذه أسبابها هي المعاصي وحلها تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ قال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ [النساء: 131] ولم تتقوا الله ولا تخافوه؛ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: 131]. يعني الله غني عنكم؛ إذا كفرتم يذهبكم ويأتي بآخرين يطيعونه، فالعمر فالملك لله وأنت تحت تصرفه، فإذا كفر الإنسان فالله ملك السماوات والأرض، وكان الله غنيًا عن عباده وغنيًا عن عباداته .

يعني الله لا يزيد في ملكه شيء إذا عبده الإنسان أو كفر، وإذا كفر لا ينقص من ملكه شيء؛ والله غني حميد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويؤكد الله عَزَّ وَجَلَّ على قضية سعة ملكه وأن الناس كلهم عبيد في حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 132].

وهذه أيضًا رسالة للزوجين المتنازعين ولكل إنسان محتاج إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ أنت تتوكل على الله في جميع شؤونك، لو لم تتوكل على الله ضاعت أمورك، ما استطعت أن تتصرف؛ حتى الصلاة ما تستطيع أن تقيم الصلاة ولا ركعتين إلا بعد أن يعينك الله عليهم.

فتتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ والزوجان اللذان يقع منهما النزاع والخصومة عليهما أن يتوكلا على الله ويفوضا أمرهما إلى الله، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 132] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يكفي أن الله؛ أنك تفوض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتتوكل عليه في جميع شؤونك وإلا ما استطعت أن تعيش في هذه الحياة. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بين لك سعة ملكه، وأن من يكفر يخرج عن طاعة الله؛ أن الله لا، أن ذلك لا يضر الله.

اسمع الآية قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: 133]. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾؛ يعني يبعدكم ويهلككم ولا يبقى منكم أحد.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ غيركم؛ ينشئ آخرين غيركم، إذا أنتم ما عرفتم حق الله في الطاعة والاستقامة وتمردتم على شرعه يذهبكم الله بأي طريقة؛ إما بإهلاك عدو أو بمصيبة أو بنزول عذاب، يهلككم جميعًا؛ أي يذهبكم ويأتي بآخرين غيركم يعرفون حق الله ويطيعونه .

﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾؛ لا يعجزه شيء، لا يعجزه كما أنه خلق وبث في هذه الأرض من كل دابة وبث من بني آدم، أو من آدم وزوجها رجالًا ونساءً كثيرًا وبثهم على هذه الأرض؛ قادر على أن يجمعهم في لحظة.

﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28]؛ ما يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال: ﴿وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: 133].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 134]. من كان يريد ثواب الدنيا؛ تريد ثواب الدنيا؟ من كان شفت يعني نظرة القاصرة؛ تجري بعض الناس نظرته قاصرة ينظر إلى الدنيا، الدنيا حقيرة، الله سماها دنيا دنيئة حقيرة؛ ما تزن عند الله جناح بعوضة .

البعوضة هذه الصغيرة جناحها الدنيا كلها ما تزن عند الله جناح؛ يعني الجناح أقوى منه وأكثر. تجد بعض الناس نظرة قاصمة ينظر إلى الدنيا؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ تعمل للدنيا، تصلي للدنيا، وتشتغل للدنيا وتعمل للدنيا فقط ولا للآخرة؛ قال: من كان يريد ثواب الدنيا ونظرته قاصرة ويريد حرث الدنيا فالله له الدنيا والآخرة.

قال: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾؛ يعني ليكن عملك خالصًا لله حتى يحصل لك ثواب الدنيا وثواب الآخرة.

- ما هو ثواب الدنيا وما هو ثواب الآخرة؟

ثواب الدنيا الحالة الطيبة المستقرة؛ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]؛ هذا ثواب، ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27].

أعطاه الله الثناء؛ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ثناء الله عَزَّ وَجَلَّ على إبراهيم إلى الآن وهو يذكر بالثناء، أعطاه الله ثواب الدنيا قبل الآخرة، فمن كان يريد ثواب الدنيا فالله عنده ثواب الدنيا والآخرة؛ فعليك أن تفقه وتفهم وتطلب ثواب الآخرة وتأتيك الدنيا راغبة، تأتيك الدنيا راغمة لكن ليكن نظر.

تكون نظرتك عالية وبعيدة أن تطلب ما عند الله، ما عند الله خير من الدنيا ومن الدنيا وما فيها. فتريد ثواب الدنيا فالله عنده ثواب الدنيا والآخرة؛ ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 134]. انظر سميعًا بصيرًا؛ يعني يسمع من يريد ثواب الدنيا ويسمع من يريد ثواب الآخرة، وبصير يرى من عباده من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة فيثيب هذا على قدره ويثيب هذا على قدره .

فعليك أن تكون نظرتك وطلبك للآخرة وتسعى للآخرة وتبذل جهدك ومالك ونفسك وروحك كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يعطيك الله الدنيا ويعطيك الآخرة. أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا ولكم في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يبلغنا وإياكم هذا الشهر الكريم ونحن في أحسن حال.

نسأل الله أن يعيننا على صيامه وعلى قيامه إيمانًا واحتسابًا، وأن يوفقنا لقيام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا، ونسأل الله أن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(102)
(النساء 135- 141)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلِّي وأسلِّم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

هذا اليوم هو يوم الأربعاء الموافق للثلاثين من شهر شعبان من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، مجلسنا المباركُ مع القرآن الكريم وتفسيره، والآيات التي بين أيدينا هي من سورة النساء، من الآية الخامسة والثلاثين بعد المائة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135].

دائمًا نسمع يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يناديا في كتابه **"يا أيها الذين آمنوا"**، **"ابنُ المسعودِ"** رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه فهم هذه الجملة وفهم هذا النداء فقال: **"إذا سمعت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في كتابه يا أيها الذين آمنوا فارع لها سمعك؛ يعني أنصت لها، فارع لها سمعك؛ إما خيرٌ تؤمر به، وإما شرٌّ تحذر منه."**

هذه الآية أمامنا وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء: 135] فيها أمرٌ، والأمر كله خيرٌ؛ لا يأمرك الله في كتابه إلا بالخير، ولا ينهاك إلا عن الشر.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: 135]؛ قوام صيغة مبالغة؛ يعني كثير القيام، يعني لا يتخلف أو لا يتردد أو لا يمتنع، يقوم بالقسط؛ أي يقوم بالعدل.

يعني إذا أراد أن يقضي أو يحكم؛ يحكم بالعدل ويقضي بالعدل، وشهداء لله يؤدون الشهادة لوجه الله لوجه الله؛ فيقوم بالقصد بينه وبين نفسه، بينه وبين الله في أعماله وطاعته، يقوم بالقسط بينه وبين الناس في الخصومات وفي الأحكام وفي القضايا وفي العطايا، حتى مع زوجته أو زوجاته، حتى مع أبنائه، حتى مع والديه، حتى مع أقاربه؛ يكون دائمًا قريبًا من القسط والعدل، بعيدًا عن الجور والظلم.

هذا معنى الآية؛ أنك تحافظ وتلتزم أن تكون قائمًا بالقسط قائمًا بالقسط. الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر عن نفسه قال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: 18]، فهذا معناه؛ شهداء لله ولو على أنفسكم، لو كانت الشهادة عليك اشهد لله، أظهر الشهادة لله، أو على الآباء والأمهات الوالدين أقرب الناس إليك، لا بد أن تقيم الشهادة وأن تقصد لآبائك وأمهاتك.

قال: ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135]؛ أو الأقارب، كل من قرب ودنى هو أولى كالإخوة كالأعمام والعمات والأخوال والخالات ونحوهم والإخوة الأقارب.

قال مهما كان يعني مهما كان يعني المشهود عليه، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ [النساء: 135].

- من هو الذي غني أو فقير؟

المشهود عليه، مهما كان المشهود عليه سواء كان غنيًّا أو فقيرًا، قريبًا من الوالدين من غير الوالدين؛ أقم الشهادة وأقم العدل، هذا مقصود؛ قد يكون القريب غنيًّا أو الشخص عمومًا حتى

لو حتى لو لم يكن قريبًا حتى لو لم يكن قريبًا؛ إن كان المشهود عليه غنيًّا قد يشهد له لا يشهد عليه؛ لأنه غنيٌّ ولأنه قد يدفع مالًا، أو فقيرًا فتأخذك العاطفة التي ليست في مكانها فتعطف عليه فلا تشهد عليه، كل هذا ينبغي الحذر.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حذر قال لو كان غنيًّا فأقم الشهادة، لو كان فقيرًا فأقم الشهادة؛ لماذا؟ لأن الله هو أولى بهم بهما، أولى بالفقير وأولى بالغني، والله أعلم بما فيه مصلحتهما، فلا يحملك الهوى والشهوة والتعصب على ترك العدل أو تحريف الشهادة أو تغييرها أو تبديلها أو عدم يعني إدلاء الشهادة، لا تدلِ بها ولا تأتِ بالشهادة، فانتبه.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء: 135]؛ لا تتبع الهوى الشهوات، تتبع شهواتك وهواك يحملك التعصب على ألا تعدلوا على ألا تعدل اعدلوا ﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا﴾ [النساء: 135].

- ﴿تَلْوُوا﴾ ما معنى تلو؟

أي تميل، لي اللسان أن يلوي لسانه بالشهادة، ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ تعرض عن إقامته وإظهارها وأدائها، بعض الناس إذا طلبت منه الشهادة قال: **"والله أنا مالي دخل، أنا غير مسؤول"**؛ لا، أنت مسؤول وأنت لك دخل في إقامة في إظهار الحق وإبطال الباطل، العدل قامت به السماوات والأرض.

فتأتي تقول أنا والله أنا مالي علاقة؛ يعني ترك أداء الشهادة أو كتمان الشهادة أو عدم الإدلاء بها كل هذا لا يجوز، حذر الله: ﴿وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135].

فإذا كان الله بما نعمل وبأعمالنا خبيرًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإنه يجازي؛ يجازي المحسن على إحسانه، والخائف يجازيه، والمؤدي والمحافظ، ويجازي مسيء الكاتم على كتمانه أو المحرف أو المغير، فكان قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135] تحذيرٌ من التساهل ومن عدم المبالاة في إقامة العدل أو الشهادة، الآية حقيقة آية مهمة جدًّا نحتاج إليها في واقعنا الحاضر وواقعنا المعاصر أن نقوم بهذه الشهادة على وجهها.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [النساء: 136]؛ ارعِ لها سمعك، هذا نداء لك، نداء يناديك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فاقبل واستمع، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: 136].

- كيف هنا سؤال حقيقة؛ كيف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول يا أيها الذين آمنوا آمنوا؟

أنت مؤمنٌ كيف يقول لك الله آمن وأنت مؤمن؟ هل تأتي للمسلم تقول له أسلم وهو مسلم؟ يقول لك أنا مسلم كيف تقول لي أسلم؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا يقول يا أيها الذين آمنوا آمنوا؛ فهذا مثل هذا النداء وهذا الأمر معناه أنك حافظ؛ حافظ على هوية الإيمان، حافظ على ما أمرك ما أمرك الله به بالإيمان بالله ورسوله، حافظ والتزم واسأل الله الثبات واثبت عليه وزد وازدد منه.

هذا معناه مثل قولك الآن في الصلاة تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]، أنت في صراط في الصراط المستقيم وأنت مهتدٍ تصلي وتزكي وتحافظ على أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كيف تقول اهدنا الصراط المستقيم؟ نقول اهدنا أي ثبتنا وزدنا. فهنا يا أيها الذين آمنوا آمنوا أي اثبتوا على الإيمان وازدادوا، مثل ما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1].

- هل النبي لم يتق الله حتى يؤمر بالتقوى؟

يقول لا ازداد تقوى يزداد تقوى، كذلك هنا يزداد إيمانًا بالله ورسوله؛ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته وعباداته وأفعاله، وبرسوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي أرسله الله رحمة للعالمين، بأنه أدى الأمانة وأنه أقام الدعوة وأنه بلغ رسالة ربه.

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ [النساء: 136] وهو القرآن العظيم، ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [النساء: 136] وهي الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل، ثم حذر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حذر من عكس ومما يخالف ذلك تحذيرًا عظيمًا.

ولذلك قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136]؛ يجحد وحدانيته وألوهيته وربوبيته وأفعاله، ويكفر بالملائكة ولا يؤمن بها ولا

يؤمن بوظائفها وأعمالها، ولا يؤمن بالكتب السابقة ولا باليوم الآخر الذي يوم الجزاء والحساب يوم البعث وإخراج الناس من قبورهم ومجازاتهم على أعمالهم ثم جنة أو نار، لا يؤمن بذلك.

- ما هي النتيجة؟

﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136]؛ هذا مقابل هذا، هؤلاء آمنوا وصدقوا واتبعوا، وهؤلاء كفروا وضلوا، والنتيجة النتيجة قد ضلوا ضلالًا بعيدًا أي خرجوا عن طريق الهداية والاستقامة والطاعة إلى أبعد الطرق، قال ضلالًا بعيدًا.

لما يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المؤمنين وأوصافهم أو وأوصافهم، ويذكر الكافرين وأوصافهم؛ يذكر أناسًا بين هؤلاء وهؤلاء وهم المنافقون، المنافقون يذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليحذر المؤمنين منهم ومن أوصافهم وألا يقع المسلمون في شيء من صفاتهم.

اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: 137]؛ هؤلاء المنافقون رأوا النور ودخلوا في الإيمان ثم نكسوا على رؤوسهم ورجعوا، آمنوا وصدقوا ودخلوا في الإيمان ورأوا بشاشة الإيمان وذاقوا طعم الإيمان ثم كفروا ورجعوا إلى كفرهم، ثم رجعوا مرة أخرى إلى الإيمان ثم عادوا إلى الكفر مرة أخرى ثم أصروا على الكفر؛ لأنهم ازدادوا كفرًا وأصروا عليه على كفرهم واستمروا عليه.

- ما هي النتيجة؟

لا يغفر الله لهم أبدًا ولا يهديهم طريق النجاة والسلامة، لا يغفر الله لهم.

- قد يسألك سائل ويقول لك: **"وجدنا من آمن ثم كفر ثم آمن ثم كفر ثم تاب توبة نصوحًا فقبل الله توبته"؟**

الجواب: نعم، لكن هذا متى؟ إذا صدق وتاب وندم، لكن الغالب أن من يدخل في الإيمان ثم يخرج ثم يدخل ثم يخرج يدل على استهزائه سخريته وعدم مبالاته، ولذلك يزيده الله كفرًا إلى كفرهم ولا يقبل منهم ولا يهديهم ولا يدلهم على الخير ولا يدلهم على التوبة النصوح؛ لأنهم استهزؤوا وسخروا.

ومثل هذا نحذر كل الحذر من ممن يتوب ثم يعود ثم يتوب ثم يعود ثم يتوب ثم يعود؛ تجد بعض الناس يتعاطى بعض المحرمات ويمارس بعض الأشياء المحرمة فيقول: **"خلاص أنا تبت وأقلعت وابتعدت عنها"**، ثم بعد فترة تجده يتعاطى مرة أخرى ويعود.

مثل الذين يتعاطون المسكرات والمخدرات أو شرب الدخان أو نحوه، تجده يوم يتوب ويترك هذا الشيء ثم يعود ثم يتوب ثم يعود. نقول هذا استهزاءٌ ولا مبالاةٌ وسخريةٌ يجب الحذر منه، يجب أن تكون التوبة توبة ندم وتوبة نصوحة خالصة لله.

أما مثل هذا يدل على استهزائه وسخريته وعدم مبالاة، لو كان يخاف الله حق مخافته لما عاد إلى المعصية مرة أخرى، ولو كان قد ندم أشد الندم وبكى أشد البكاء على معصيته لما عاد؛ فيحذر يحذر الإنسان مثل هذه الصفات التي حذر الله منها.

ولذلك انظر مما يدل على أن الآية في المنافقين؛ اسمع ما بعدها قال: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 138]. دائمًا البشارة في الخير مش في الشر، تقول: **"أبشرك بكذا"**، لا تقول: **"أبشرك بالنار، أبشرك بالعقوبة"**، لا.

تقول: **"أبشرك بأنك كذا وكذا، أبشرك بأن لك كذا وكذا"**؛ فكيف الله يقول للمنافقين ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾؟ نقول هذا لما هم سخروا واستهزؤوا وتهكموا من شرع الله ودخلوا فيه وخرجوا؛ الله خاطبهم أو الله عاملهم بما كانوا يستهزئون به.

فاستهزأ بهم فقال ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾ وليست بشارةً، ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾. وبعضهم يقول إن البشارة تطلق على الخير والشر، لكن تطلق على الشر مقيدة؛ بشر المنافقين بأن لهم عذابًا أليمًا عذابًا موجعًا أليمًا شديدًا بسبب نفاقهم.

واسمع من صفاتهم أنهم يطلبون العزة عند الكفار، هل الكفار عندهم عزة؟ العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، لما قال المنافقون: **"لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"**، قال الله العزة لرسوله لله ورسوله والمؤمنين، أنتم ليست لكم عزة، فهم يبحثون عن العزة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 139]؛ يوالون الكفار ويحبونهم ويودونهم ويفشون لهم أسرار المسلمين ويتخذونهم أعوانًا لهم، يتخذون الكافرين أولياء وأعوانًا لهم ويتركون المؤمنين من دون المؤمنين، يتركون المؤمنين.

- ما هي النتيجة؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 139]؛ العزة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، النصرة والمنعة والقوة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما هؤلاء ليس لهم عزة ولا نصرة ولا قوة، ليس لهم هم أذلاء هم أذلاء، كيف تأتي إلى الذليل وتأخذ منه العزة؟ ما عنده عزة، العزة لله جميعًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم يحذر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من صفات هؤلاء المنافقين أنهم يسخرون ويستهزئون بكتاب الله ويكفرون بآيات الله، ويحذر الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمنين أن يجالسوهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: 140].

- نزل علينا ماذا نزل؟

قال أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره، لا تجلس مع من يستهزئ ولو كان من المؤمنين، ولو لم يكن من أهل النفاق.

تجد بعض المجالس الآن بعضها فيها نوع من الاستهزاء؛ استهزاء بالله، استهزاء برسوله، استهزاء بدينه، استهزاء بشرعه، استهزاء ببعض معالم الإسلام، استهزاء بأولياء الله بأهل الخير والصلاح؛ كيف تجلس مع هؤلاء؟

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ [النساء: 140]؛ كتاب ما هي ما هو الذي نزل الله علينا في الكتاب؟ قول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68].

هذه الآية في سورة الأنعام ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾، وهنا يقول نزل عليكم في الكتاب؛ فإذا رأيت الذين يستهزئون فلا يجوز القعود معهم، يجب أن تغادر وأن تبادر الخروج من هذا المكان إلا إن استطعت أن تؤثر بإنكار المنكر وتغييره فاجلس، وإلا لا تجلس حتى يخوض في حديث غيره.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: 140]؛ أي المستهزئ والجالس والراضي كالفاعل، ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾. ونحذر أيها الإخوة نحذر بعض المجالس، أو أحيانًا تستمع أو تشاهد في بعض القنوات، أو تستمع أو مثلًا تجلس في مجالس فيها نوع من الاستهزاء بالله وبرسوله وبآياته؛ يجب الحذر منه حتى لا تكون معهم حتى لا تكون معهم.

ولذلك المنافقون في غزوة تبوك لما استهزؤوا بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه قالوا: **"ما رأينا أرغب بطونًا ولا أجبن عند اللقاء ولا أكذب ألسنة"**؛ ما رأينا مثل هؤلاء ها

يصفون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، نزل فيهم نزل فيهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ 65 لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: 65-66].

وهنا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: 140]، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140]، بل المنافقون الدرك الأسفل وكلهم إلى نار جهنم كلهم؛ فالإنسان يحذر كل الحذر كل الحذر.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاء المنافقون من صفاتهم أنهم: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ [النساء: 141]؛ أي ينتظرون ما يحل بكم أيها المسلمون من الفتن والحروب والمصائب والقحط والجذب وانتصار الأعداء ونحو ذلك، ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [النساء: 141]؛ نحن معكم نحن خرجنا معكم للجهاد، نحن معكم نصلي ونصوم ونحن معكم نتصدر، كيف ما تعطونا من هذا الفتح؟ ما تعطونا من الغنائم؟ نحن معكم.

﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ [النساء: 141]؛ أي قدر الله لهم أن يكونوا أن يكون النصر مثلًا حليفهم والدائرة لهم، إن كان هذا الأمر لهم نصيب ها قالوا للكفار: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 141]؛ ألم نكن معكم ونساعدكم ونقف معكم ونحيط على العدو بكم على العدو لكم وندافع عنكم ونمنعكم من المؤمنين ونقف معكم ونساعدكم للمؤمنين؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى انظر ولاحظ أنه قال: ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ [النساء: 141]؛ أي قدر؛ يعني مو بنصر ليس نصرًا ليس لهم نصرهم وهم لا يستحقون النصر، وإنما لهم قدرٌ قليلٌ من مثلًا الغنيمة أو النصر أو نحو ذلك.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [النساء: 141]؛ أي بين المنافقين والمؤمنين والكفار، يحكم بينهم يوم القيامة، ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 141]؛ لم يجعل هذه سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يجعل الغلبة حتى لو أعطاهم الله أعطاهم الله نصيبًا في وقت من الأوقات وأصبحت الدائرة لهم؛ يعني الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: 140]، وقد ينصر هؤلاء وقد ينصر هؤلاء، أو قد يكون النصر لهؤلاء أو هؤلاء.

لو فرضنا وسلمنا أن المنافقين أن الكافرين أن الكافرين كان لهم الغلبة على المسلمين؛ فإن هذه الغلبة لا تستقي لا تستمر ولا تبقى ولا تبقى ولا تظهر مدة، وإنما هي شيءٌ قليلٌ لأن الله لم يجعل للكافرين على المؤمن سبيلًا، لا يجعل لهم سلطة على المسلمين بل العاقبة للمتقين والنصرة لعباده المتقين.

☜ والله عَزَّ وَجَلَّ يعني ناصرٌ دينه ومعلٍ كلمته مهما كان مهما كان، **«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، أَوْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ»**؛ فالكفار لم يجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم قوة وسلطة ويعني تمكن على المسلمين.

وإن حصل هذا فقد يحصل في أوقات محدودة وفي أزمنة يعني قليلة وفي يعني وفي حالات نادرة جدًّا، والأصل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يجعل للكفار في سنته التي سنها أن يجعل الكفار على المؤمنين غلبة وقوة وسبيل وتسلط؛ هذه سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(103)
(النساء 142 - 152)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء؛ هذا اللقاء لقاء أسبوعي بعد صلاة المغرب من كل يوم أربعاء، نجتمع في هذا المقام المبارك في درس يتعلق بالقرآن الكريم وتفسيره؛ نأخذ آيات من القرآن الكريم ونبين ما فيها من معاني ودلالات وأحكام.

ولا شك أن مثل هذه المجالس المباركة فيها نفع عظيم؛ نفع للإنسان، وفيها أجور عظيمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإن مثل هذه المجالس المباركة تحفها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، ويذكر الله الحاضرين مع أنهم يجلسون دقائق معدودة يذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالذكر الحسن في الملأ الأعلى عند الملائكة المقربين.

فهذا فضل عظيم وشرف عظيم لمن يحضر مثل هذه المجالس التي لا تستغرق إلا دقائق معدودة. وكم من الأوقات التي تضيع، يعني ساعات أحيانا تضيع في أشياء قد تكون على الإنسان وبالًا، قد تكون سيئات على الإنسان وهو لا يشعر؛ فكيف بمثل هذه المجالس التي فيها الأجور العظيمة، وتدبر القرآن والتأمل فيه؟

☜والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»**؛ يعني خيركم.

☜وفي رواية: **«أَحْسَنُكُمْ وَأَفْضَلُكُمْ»**؛ يعني أفضل الناس وأحسن الناس وخير الناس الذي يجلس في مثل هذه المجالس المباركة، يستمع آيات ويفهم معانيها.

والله أمرنا بتلاوة القرآن وأمرنا بالتدبر والتفهم والتعقل، تقرأ في القرآن الكريم كثيرا ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾، وهكذا. طيب، الآيات التي بين أيدينا من سورة النساء، لمن يتابع معنا في المصحف من سورة النساء، وهي الآية الثانية بعد المائة؛ هذه الآية تتحدث عن طائفة من طوائف الناس.

وهذه الطائفة هي **أخطر طائفة على الإسلام والمسلمين** منذ ظهر الإسلام إلى وقتنا الحاضر إلى قيام الساعة؛ أخطر طائفة على المسلمين من طوائف هذه الطوائف كلها، هذه الطائفة أشد من الشرك وأهل الشرك.

- ما هي هذه الطائفة؟

جرثومة تدخل في المجتمع المسلم وتفسده، وهي سيئة في عقيدتها وسيئة في أعمالها، ولا تريد إلا الفساد، إلا الفساد. والقرآن نبه في آيات كثيرة على خطورة هذه الطائفة، هذه الطائفة لها وجهين، لها وجهان؛ تظهر أمام الناس بوجه، وتظهر في أماكن أخرى بوجه، تظهر شيء وتخفي شيء؛ هذه **طائفة المنافقين**.

النفاق هو أن يظهر نفسه أنه مع المسلمين، وأنه ينتصر للمسلمين، وأنه في صف المسلمين، وإذا خلا مع الكفار مع شياطينه أظهر لهم الكفر والعداوة للمسلمين.

وهذا وقع في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ المنافقون الذين كانوا في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا يصلون ويتصدقون ويجاهدون يخرجون للجهاد يقدمون رقابهم عند العدو، ومع ذلك منافقون.

يحذر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من خطورة هؤلاء المنافقين؛ اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عشان تعرف صفات هؤلاء المنافقين الله يذكرهم بصفاتهم حتى نعرفهم وحتى نحذر من هذه الصفات يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ [النساء: 142]. انظر، ما يخادعون، يعني وصل الأمر إلى أنهم يخادعون الله.

- ما معنى المخادعة؟

المخادعة هي **التحايل والمكر**؛ يمكرون ويتحايلون على الله. تحايل على الله؟ وهو يعلم السر وأخفى! الله لا يخفى عليه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى تخادع الله! ولذلك الله رد عليهم في سورة البقرة، قال: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: 9]؛ ما يخدعون إلا أنفسهم، ما يدرون.

وهنا قال، انظر، قال: إن المنافقين يخادعون الله؛ كيف يخادعون الله؟ يخادعونه في شرعه، في دينه، في أنبيائه، في أوليائه، في المؤمنين، يخادعون؛ يحاولون في أي فرصة أنهم يتحايلون على الإسلام، يتحايلون على المسلمين؛ هذا معنى المخادعة.

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ ولاحظ لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ﴾، هذا الفعل **"يخادعون"** كما قال أهل اللغة يقول فعل مضارع؛ يعني **يفيد الاستمرار**؛ يعني أنهم ما ينقطعون، ما يتوقفون عند حد معين، في كل وقت، كل ما تتحين لهم فرصة يخادعون الله.

لكن انظر الجواب بعدها عشان تعرف أن خداعهم يعود عليهم، و﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: 43]؛ انظر، قال: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: 142].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خادعهم، أي مبطل كيدهم؛ هم يحاولون في أي فرصة أنهم يتحايلون على الإسلام والمسلمين، في أي فرصة، لكن تحايلهم هذا وخداعهم يبوء بالفشل ويرجع عليهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: 43].

ولذلك انظر جملة، حتى قال أهل اللغة، جملة ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ تدل على **الثبوت والاستقرار**؛ يعني أن الله خادعهم، لو فعلوا ما فعلوا، ولو اجتمع أهل الأرض معهم، الله خادعهم ومبطل كيدهم، هذه صفاتهم؛ هذه أشد صفة في صفاتهم. وخذ من صفاتهم، قال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء: 142].

ليش؟ لأنهم لا يرغبون أصلا في أجر الصلاة؛ هم يصلون يعني تسترا وتقية ومخافة أن يقال: ها، هذا ما يصلي هناك؛ ولذلك هم يتسترون على أنفسهم حتى لا يقعوا؛ يأتون إلى الصلاة كسالى لأنه ليس لهم رغبة.

☜ولذلك النبي ﷺ يقول: **«أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ»**؛ ثقيلة عليهم، وهم يغيبون عنها. ليش؟ لأنها في ظلمة، ونعرف قديما ما كان في أنوار؛ يأتون إلى الصلاة في ظلمة فيختفون ويغيبون ولا أحد يدري عنهم. فشف من صفاتهم أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى.

انظر عبارة جميلة، يقول: ﴿وَإِذَا قَامُوا﴾؛ يعني أنهم **لا يقومون أصلا**، لكن متى ما قاموا، لأنهم يخافون من المسلمين فيصلون؛ لكن إذا ما فيه خوف منهم ما يصلون. ولما قال، وما قال **"وهم في صلاتهم"** أو **"يصلون"**، لا؛ قال: ﴿وَإِذَا قَامُوا﴾؛ يعني متى ما قاموا فصفتهم أنهم يقومون كسالى؛ يعني ليس لهم رغبة، تكاسلا.

وفي هذا الحذر؛ الحذر من أن يأتي الإنسان إلى الصلاة بغير رغبة، تجد بعض الناس، يعني يأتي للصلاة متأخرا، إما في أطراف الصفوف أو في آخر الصلاة، وبمجرد أن ينتهي من صلاته، قبل أن يذكر الأذكار، تجده قد خرج من المسجد؛ كأن الصلاة عبء ثقيل عليه!

الصلاة هي لذة المؤمن؛ الصلاة كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ»**؛ نرتاح بالصلاة، المؤمن الذي يعرف قيمة الصلاة ويعرف منزلة الصلاة، يأتي إليها مبكرا،

يتوضأ لها، يستعد، يأتي بحضور قلب، يترك الدنيا خلفه؛ هذا أما يأتي بثقل، هذا يحذر أن يكون مثل هذه الصفات.

قال: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: 142]؛ يعني ما عندهم رغبة، ما جاؤوا للصلاة أصلا، ولا جاؤوا لرضا الله، ولا يقصدون الأجر؛ وإنما يراءون الناس حتى يقال فلان يصلي فقط، أما يريدون الأجر؟ لا، يراءون الناس.

فالرياء إظهار العمل أمام الناس، ولا يريد الأجر؛ هذا محبط، **الرياء شرك**؛ يقوم الرجل يصلي لأجل أن ينظر إليه، هذا لا يقبل عمله، إذا صلى لأجل الناس، تصدق لأجل الناس، تكلم أو أمر بمعروف أو نهى لأجل الناس يقولون ما شاء الله فلان، هذا ما له أجر؛ هذا الرياء أحبط عمله، فيحذر أيضا من الرياء.

قال: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 142]؛ لأن ما عندهم رغبة أصلا، هم جايين هكذا فقط شكل، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: 4]؛ ما فيهم شيء، فلذلك لا يصلون لله، ولا يعملون لله، ولا يذكرون الله إلا قليلا. متى؟

إذا رأوا الناس يذكرون الله، ذكروا الله معهم فقط، ولذلك انظر قال الله في حقهم: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [النساء: 143]؛ مذبذبين يعني مترددين، ما يدرون يروحون؛ إذا وجدوا قوة للإسلام قالوا نحن معكم، إذا وجدوا قوة لأهل الكفر قالوا نحن معكم؛ فهم يمشون على ما يشتهون وعلى القوة التي موجودة أمامهم.

فإذا ضعف الإسلام ظهروا يتكلمون، وإذا قوي الإسلام اسكتوا؛ فلذلك قال: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النساء: 143]؛ لا هم مع المؤمنين ولا هم مع غير المؤمنين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: 143]. هؤلاء أضلهم الله، فلذلك حياتهم ضائعة وأخلاقهم ضائعة، وليس لهم مقصد؛ ما يدرون يروحون، ما لهم مقصد ما لهم هدف إلا الفساد، إلا الفساد في الأرض؛ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

ويوالون الكفار، يحبون الكفار، يقدمونهم على المؤمنين؛ ولذلك انظر، قال الله بعدها تحذير للمؤمنين، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 144]. لا تكونون مثل هؤلاء المنافقين يتخذون الكافرين أولياء؛ يعني يحبونهم، ويقدمون لهم ما يريد الكفار، ويظهرون أسرار المسلمين لهم، ويناصرونهم ويعينونهم على فسادهم.

يحذر الله يقول: انتبه أيها المؤمن وأيها المؤمنون أن تتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ تترك المؤمن ولا تتخذه وليا وتتخذ الكافر وليا! قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: 144]. تريد أن تجعل لله عليك حجة يوم القيامة فيعذبك ويجازيك على فعلك هذا؟ إذا عرفنا هؤلاء المنافقين وصفاتهم.

- ما جزاؤهم في الآخرة؟

الله يخبر عن جزائهم في الآخرة؛ جزاؤهم أشد من جزاء الكفار، الكفار والمشركين في نار جهنم، أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ، أخبر أنهم في نار جهنم؛ لكن أهل النفاق أشد منهم، ليسوا في نار جهنم، في الدرك الأسفل من النار، انظر، قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: 145].

ليس في النار، تحت كل من يعذب؛ لأن النار دركات والجنة درجات؛ كل ما ترتفع درجة كل ما تنزل درجة، فالمنافقين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توعدهم بأنهم يكونون تحت كل من يعذب في نار جهنم، تحت في أسفل نار جهنم، في أسفل سافلين.

قال: ﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145]. ما أحد يستطيع أن ينصرهم من دون الله، ما يستطيعون، لن تجد لهم نصيرا، إذا كان هؤلاء المنافقون صفاتهم هذه صفاتهم في الدنيا، وتوعدهم الله بالوعيد الشديد هذا؛ فهل فتح لهم باب التوبة؟

- هل يمكن أن يأتي منافق ويقول: والله مادام هذا الأمر خطير جدا وأنا سأتوب؟

الجواب: فتح الله لهم باب التوبة ولكن شدد عليهم.

الكافر والمشرك إذا تاب، تاب الله عليهم بدون شروط؛ إذا تاب وأقلع ورجع إلى الله رجعة صحيحة، تاب الله عليه، المنافق اشترط الله له شروطا كثيرة؛ ليش؟ لأنه يندر أن يأتي منافق يقول أنا أتوب، لأنه يظهر أمام الناس الإيمان فيقول أنا معكم؛ فلا يتوب إلا نادر منهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النساء: 146]؛ تابوا يعني رجعوا إلى الله وتركوا عنهم النفاق، هذا الشرط الأول. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾؛ أصلحوا ماذا؟ أصلحوا ما أفسدوه، هم أفسدوا في المجتمع، هم سوسة نخرة؛ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾، هذا الشرط الثاني.

﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾؛ ما اعتصموا بالكفار وشياطين الإنس والجن، لا؛ اعتصموا بربهم، رجعوا لربهم. ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: 146]؛ لأنهم يراءون ما أخلصوا عملهم لله، فأخلصوا دينهم لله. انظر كم؟ تابوا، أصلحوا، اعتصموا بالله، أخلصوا دينهم؛ أربعة شروط.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 146]. ما قال **"فهم مؤمنون"**، لا؛ **"في جملة المؤمنين"**، يعني يدخلون مع المؤمنين، ثم قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 146]؛ يعني هم مع المؤمنين، ولكن الأجر للمؤمنين إذا ثبتوا معهم؛ ما قال سيؤتيهم، مع أن الكافر إذا تاب فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقبل منه ويجازيه، و﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: 70].

لكن هؤلاء اشترط فيهم أربعة شروط، وفي النتيجة قال: هم في جملة المؤمنين والاجر للمؤمنين إذا ثبتوا معهم، إذا ثبتوا؛ ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، أجرا عظيما.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى نعرف، غني عن حسنات المحسنين، الله غني عن أي من الصالحات؛ الله غني عنه، يعني ما يحتاج الله منك أن تعمل أعمال حق صالح، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: 46]؛ يعني لا ينفع الله، يعني طاعة الطائعين، أنت تطيع الله ما ينفعه الله، الله ما ينتفع بطاعتك، غني عنك، والله لا يضره معصية العاصي؛ لو كفر كل من على الأرض ما نقص من غنى الله شيء.

فما يعني، إن عذب بعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن جازى بكرمه؛ فهو يجازي المؤمنين جزاء من عنده بكرمه، ويعذب العاصين المذنبين عدلا منه، هم يستحقون العذاب.

ولذلك انظر الآية، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: 147]. الإنسان لما يشكر، يشكر الله على نعمته ويؤمن؛ يعني يشكر يعني يعمل الصالحات؛ شكر النعم أن تقوم يعني الله عَزَّ وَجَلَّ أنعم عليك بنعم عظيمة، شكر هذه النعم أن تستعملها في طاعة الله، شكر هذه النعم أن ترد شكرها بالطاعة، بأن ترضي الله بطاعتك.

﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾، وصدقتم واتبعتم شرع الله؛ ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾؟ ما يعذبكم الله؛ غني عن عذابكم، لم يخلقوا النار إلا لأهل النار، لأهل النار هم الذين يعني جنوا على أنفسهم.

يقول: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 147].

"شاكرا" يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجازي على العمل القليل بالأجور العظيمة؛ هذا معنى الشاكر.

الشاكر صفة من صفات الله واسم من أسماء الله؛ الشاكر الذي أنت إذا رأى الله منك أعمال ولو قليلة، يجازيك عليها الأكثر والأكثر؛ هذا معنى الشاكر، تقدم شيء قليل لكن بصدق نية صالحة ونية صادقة، فإن الله يجازي؛ ولذلك ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160].

إلى 700 ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ فالله فضله واسع وعطاؤه كريم، أنت تتعامل مع رب العالمين الذي له الدنيا والآخرة؛ ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

هنا قضية مهمة حقيقة تهم الجميع، وهي إذا أساء إليك إنسان وأخطأ عليك إنسان؛ أي واحد من الناس أخطأ عليك ب باللسان بالكلام أو بالفعل، قد يخطئ عليك بفعله أو بلسانه.

إذا أخطأ عليك إنسان من الناس، هل يجوز أن تعلن أمام الناس أن فلان أخطأ علي وأن فلان فعل فيني؟ هل يجوز لك أن تسبه؟ هل يجوز لك أن تدعو عليه؟

لو أن جارا، زين، أخطأ على جاره، أخطأ بأي خطأ من الأخطاء؛ هل يجوز لهذا الجار الذي أخطأ عليه جاره أن يسبه وأن يذكره أمام الناس وأن يشهر به وأن يدعو عليه ويتحسب عليه؟

أو أي واحد من الناس سبك وشتمك، أخطأ عليك بأي شيء؛ بسيارة في تقاطع، في طريق، في كذا، في سوق؛ هل يجوز لك أن تدعو عليه؟ هل يجوز تقول حسبي الله عليك، الله لا يوفقك، الله لا كذا؟ هل يجوز ولا ما يجوز؟ هذا هو الكلام هنا؛ نقول يجوز، المظلوم يجوز له أن ينتصر ممن ظلمه بأي طريقة، يجوز له أن ينتصر؛ ولكن **العفو والمسامحة أولى** .

انظر يقول: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: 148]. الجهر بالسوء يعني أن ترفع صوتك أمام الناس بالكلام السيء، هذا لا يحبه الله؛ لا يحبه الشتم والسب واللعن والرفع الأصوات، هذا لا يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا في حالة واحدة: ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾.

واحد ظلمه شخص، له أن يرفع صوته، له أن يرد عليه، له أن يسبه، له أن يدعو عليه؛ ﴿إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 148]. يسمع الأصوات سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا تخفى عليه الأصوات، وعليم بأحوال الناس وبما يخفونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

من أخطأ عليه إنسان يجوز له أن يسبه، يجوز له أن يدعو عليه، يجوز له أن يشهر به، يجوز له أن يرفع قضيته عليه؛ لكن العفو والمسامحة أولى؛ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 40]. ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني لا يخفى عليه شيء سبحانه، يعلم الأسرار ويعلم الذي يظهر والذي يخفى.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ [النساء: 149]. شايف؟ ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا﴾ تظهر الخير أو تخفيه؛ يعني كيف؟ لو أن إنسان أخطأ عليك وسبك وشتمك واعتدى عليك بيده أو بلسانه، لو رديت عليه بالرد الطيب هذا أولى؛ يعني تقول: سامحك الله، أخطأت علي، سامحك الله، عفى الله عنك، أنا قد سامحتك، أنا عفوت عنك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يردك إلى الحق؛ من هالكلام الطيب.

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾، هذا خير؛ أو تسكت، سبك تسكت ما ترد عليه، تمشي ما كأنه سبك، أخطأ عليك، مد يده عليك، ولا كأنه، تمشي ما ترد عليه، لا بكلام طيب ولا بكلام رديء؛ كل هذا جائز. قال: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾، والعفو أولى مثل ما ذكرنا، العفو أولى.

لو تعفو عن سوء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: 149]. الله عفو، يعفو؛ فأنت تعفو مثل ما أن الله يعفو أنت تعفو، والله يعفو عند المقدرة وأنت تعفو عند المقدرة وتتسامح، وتتسامح لمثل هؤلاء.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: 150]. انظر، هذه حالة الآن نختم بها المجلس، هذه الحالة حتى لا نطيل؛ حال هؤلاء، يعني لما ذكر الله حال المنافقين ذكر لنا حال من حال اليهود والنصارى.

اليهود والنصارى يؤمنون بأنبيائهم ويكفرون بمحمد؛ فيحذر الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: 150]. يكفرون بالله ورسله لا يؤمنون، وزيادة على ذلك يفرقون بين الله ورسله، فيؤمنون ببعض؛ ويقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: 150]. يريدون أن يجعلوا هذا لهم دين، لهم سبيل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يظنون أن هذا ينفعهم.

قالوا: نحن نؤمن بموسى، نؤمن بعيسى، نكفر بمحمد؛ يظنون أن هذا ينفعهم، قال الله في فيهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: 151]. يعني هم الكافرون حقيقة؛ هذا هو الكفر، ثم توعدهم، قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: 151]. مثل ما أنهم أهانوا الله وأهانوا رسله ولم يؤمنوا بهم؛ أهانهم الله بالعذاب.

خذ العكس: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: 152]. هم المؤمنون؛ آمنوا بالله وحققوا الإيمان بالله وبرسله، ولم يفرقوا، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم في سورة البقرة: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285]. لم يفرقوا بين أحد منهم.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء: 152]. أي سيجازيهم أحسن الجزاء، ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: 152].

- ليش قال غفورا رحيما مع أنه فيه أجور؟

الجواب: غفور لتقصير شيء قد يقصرون بشيء من هذا، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتجاوز؛ قد يقعون في ذنوب، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يؤتيهم الأجور العظيمة ويتجاوز عن شيء مما قد يقع منهم من تقصير.

هذه دقائق جلسناها وانتفعنا بها مع كتاب الله، مع كلام الله؛ والذي هو خير وأشرف كلام على الإطلاق، جلسنا هذا المجلس المبارك واستفدنا، وعرفنا خطورة هذا، خطورة النفاق والمنافقين وعقوبتهم؛ نحذر طريقهم، نحذر صفاتهم، نحذر أن نتصف بصفاتهم، نعرف فضل الله علينا؛ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلنا من المؤمنين، جعلنا من أهل القرآن، جعلنا من أهل الصلاة، لا نقوم للصلاة كسالى كالمنافقين، لا نرائي؛ كل هذه فضائل عظيمة استفدنا منها.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا.

(104)
(النساء 153 - 162)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلّي وأسلّم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبيّنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه، واتبع سنته، واقتفى أثره إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أسأل الله جل جلاله أن يجعل هذا الاجتماع اجتماعاً مرحوماً، وأن يرزقنا وإياكم فيه العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا.

هذا اليوم هو يوم الأربعاء الموافق للعشرين من شهر شوال من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، في درسنا المعتاد مع تفسير القرآن العظيم، نجلس هذه الدقائق المعدودة نقرأ آيات من كتاب الله، نتعلم ما فيها، ونتدبرها، ونستفيد من هذه الدقائق.

الآيات التي بين أيدينا من سورة النساء، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [النساء: 153]. أنت لما تقرأ هذه الآية وتريد أن تستفيد من هذا الكلام وهذه الآية العظيمة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر قبلها ما يدل على معناها؛ فإنك إذا قرأت ما قبلها اتضح لك المعنى، وهذا ما يسمى عند **"أهل العلم"** بـ **"سياق الآيات"**.

أحياناً الآية تتضح لك إذا قرأت ما قبلها أو قرأت ما بعدها، يتضح لك المقام ويتضح لك المعنى، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في الآيات التي قبلها موقف أهل الكتاب اليهود والنصارى من الرسل؛ فذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنهم يفرقون بين الله ورسله، ويؤمنون ببعض ويكفرون ببعض.

ولما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة وكان فيها اليهود، وهم يعرفونه معرفة تامة؛ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم بصفاته، لما جاءهم في المدينة أنكروه وكفروا به ولم يؤمنوا به، وهذا من عنادهم وتعنتهم.

﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [النساء: 153]، يقولون: يا محمد لم تأتِ بما أتى به موسى وعيسى؛ إن الله أنزل عليك كتاباً وأنت لم تأتِ بكتاب، إنما تأتي بآيات وسور مفرقة، القرآن نزل عليك مفرقاً لم ينزل كاملاً، لو أنت مثل موسى وعيسى نزل عليك كاملاً لآمنا.

يعني كان الآن العلة والسبب في عدم إيمانهم هو نزول القرآن كاملاً أو عدم نزوله، وهذا من التعنت، ولو نزل كاملاً أو لم ينزل لم يؤمنوا؛ لأنه ليس مقصدهم هو الوصول إلى الحق واتباع الحق، وإنما مقصدهم هو رد والكفر برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- ولذلك كيف رد الله عليهم لما قالوا هذا الكلام؟

اسمع ماذا رد الله عليهم، قال: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: 153]. إذاً هم سألوك أن تنزل كتاباً كاملاً من السماء، فهم موقفهم أيضاً مع نبيهم وهو نبي لهم موقف سيء.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك قبائحهم؛ قبائح اليهود الذين عاصروا النبي وقبائح أسلافهم أجدادهم، اسمع يقول: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: 153].

سألوا موسى أن يريهم الله جهرة، فلما سألوا قالوا: أرنا الله جهرة، أخذتهم الصاعقة فماتوا عن آخرهم. وهؤلاء هم السبعون الذين اختارهم موسى لميقات ربه؛ فلما وصلوا الميقات قالوا: لن نؤمن بك ولن نتبعك حتى ترينا الله جهرة، فماتوا عن آخرهم ثم بعثهم الله وأحياهم.

قال: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: 153]؛ بسبب ظلمهم وتجرؤهم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [النساء: 153]. اتخذوا العجل إلهاً؛ أي معبوداً من دون الله.

وهذا ليس للترتيب الزمني ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا﴾؛ لأن الذين سألوا موسى أن يروا الله جهرة، هذا في بعد ما عبدوا العجل، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر قبائحهم، يذكرها ترتيباً غير زمني، وإنما لما فيها من القبائح؛ فأشدها سؤالهم أن يروا الله جهرة، ولذلك عاقبهم الله مباشرة بأن أخذتهم الصاعقة فماتوا ماتوا، جاءهم صوت من السماء حتى قطع حتى ماتوا، قطع قلوبهم فماتوا، ثم بعد ذلك أحياهم الله.

قال: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [النساء: 153]. اتخذوا العجل من حليهم؛ صنعوا من الحلي عجلاً جسداً له خوار، واتخذوه إلهاً، وقالوا: هذا إلهنا وإله موسى، ولكن موسى تاه وبدأ يذهب يبحث عنه وسيرجع وسيعبده من دون الله.

فلما جاء موسى وألقى الألواح، أخذ العجل وأحرقه ونسفه في البحر، في اليم، قال: ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: 153]. الذين عبدوا العجل عاقبهم الله بأن يقتل بعضهم بعضاً توبةً؛ توبة مَن يعبد العجل أن يقتل بعضهم بعضاً، ثم رفع الله عنهم بالتوبة.

قال: ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: 153]؛ أي أن من نعم الله عليهم أن آتى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موسى البينات وأنزل عليه التوراة هدى وموعظة لهم.

قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: 154].

- لماذا رفع الطور؟

أخذ الطور وهو جبل عظيم رفعه الله عليهم وجعله فوقهم، إن لم يؤمنوا وإن لم يتبعوا سيسقط عليهم، وهذا بينه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 171]. فلما رفضوا رفع الله عليهم الجبل، إن لم يؤمنوا سقط عليهم؛ فآمنوا بقوة، آمنوا كراهية.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء: 154] أن يأخذوا بالميثاق، ولكنهم ينقضون المواثيق، وقال: ﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: 154]. باب القرية.

- ما هي القرية؟

لم يحددها القرآن.

ذكر بعض المفسرين: **"أنها بيت المقدس"**.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم: ادخلوا القرية ادخلوا القرية، وأمر موسى أن يدخل بهم فقالوا ماذا؟ قالوا: إن فيها قوماً جبارين، وإنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، إلى أن قالوا: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون.

انظر كيف القبح والجراءة منهم، ومواقفهم مع الله ومع رسوله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قلنا لهم: ادخلوا الباب سجداً؛ يعني متواضعين. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ [النساء: 154]. كل هذه الآيات التي أو هذه الأشياء تأتينا، فصلها الله في القرآن، وضحها لنا في القرآن في قوله في آيات أخرى في قصة **"أصحاب السبت"**.

- ما هي قصة أصحاب السبت؟

هي من قوم موسى كانوا يعيشون على البحر؛ ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: 163].

كانوا يقعون في معاصي كثيرة، فابتلاهم الله بأن حرم عليهم الصيد يوم السبت، وأما باقي الأيام فيصيدون، ومن الابتلاء أن السمك والحوت لا يخرج إلا يوم السبت، وإذا جاءت بقية الأيام يذهب في قعر البحر ولا يجدون ولا واحدة، وإذا جاء السبت خرجت حتى تصل تدخل إلى بيوتهم.

فقالوا: ماذا نصنع؟ فتحايلوا على شرع الله وعلى حكم الله وعلى تحريمه؛ فقالوا: نضع الشباك يوم الجمعة، ويوم الأحد نأخذها ونحن لم نصِد يوم السبت، وهذا تحايل على حكم الله وشرعه.

فوضع الشباك، وبدأت تأتي وتسقط بهذه الشباك، وإذا جاء الأحد أخذها، فعاقبهم الله قال لهم: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: 65]؛ فقلبوا قردة وخنازير، ولم يمكثوا أياماً حتى ماتوا.

قال: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: 154]. أخذ الله منهم المواثيق الغليظة، ولكنهم لا يفون بالمواثيق أبداً؛ فقال الله فيهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [النساء: 155].

انظر الآن يعدد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لك قبائح هؤلاء اليهود حتى ماذا نستفيد؟ حتى نحذر من صفاتهم وأعمالهم السيئة، وحتى نحذر منهم لأنهم هم أعداء.

قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾؛ أي بسبب نقضهم المواثيق، هذا أولاً، ثانياً قال: ﴿وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النساء: 155]، كل ما تأتيهم آية من آيات الله يكفرون به.

وخذ أشد من ذلك: ﴿وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: 155]. قتلوا من الأنبياء أعداداً منهم زكريا ويحيى، وحاولوا قتل عيسى ابن مريم ولم يستطيعوا، وحاولوا قتل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يستطيعوا؛ فهم قتلة الأنبياء بغير حق، زيادة في الشناعة لأنه لا يمكن أن يقتل النبي بحق، أو بغير حق.

وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: 155]. إذا جاءنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبلغهم هذه الرسالة ويعظهم ويذكرهم بالميثاق الذي أخذ عليهم أن يؤمنوا بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: قلوبنا غلف، مغلفة ما تسمع منك ولا تقبل منك، قلوبنا غلف.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: 155]. في آية أخرى: بل لعنهم الله بكفرهم، لما قالوا قلوبنا غلف لعنهم الله وطردهم، وقال هنا: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾؛ يعني قلوبهم مغلفة مطبوع عليها بسبب كفرهم.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]. الذنوب والمعاصي والكفر هذه أثرها سيء حتى يطبع على قلب الإنسان فلا يفقه ولا يسمع، قال: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 155]؛ يؤمن منهم إلا عدد قليل، أو لا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً.

قال: خذ من قبائحهم، ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 156]. يكفرون بالآيات الكثيرة، وجراءه على ذلك أنهم اتهموا مريم الطاهرة التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران: 42]، وقال الله فيها: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [التحريم: 12]، وطهرها وأثنى عليها؛ يتهمونها بالزنا والفاحشة.

قال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾، البهتان أشد الكذب؛ لأنه يبهت صاحبه، وقال: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: 157]. هذه دعوى لم يسلم لهم القرآن ولم يقرهم على ذلك. يقولون: قتلنا عيسى.

عيسى لم يقتل، عيسى موجود؛ عيسى رفعه الله إلى السماء وهو موجود، وسينزل في آخر الزمان، ما قتله اليهود ولم يستطيعوا أن يقتلوه، ولذلك اسمع قال: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾، استهزاءً رسول الله، وين رسول الله قتلناه؟ يستهزئون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ [النساء: 157]. ما استطاعوا ولم يستطيعوا أن يقتلوا عيسى ولم يصلبوه.

- كيف يقولون هم قتلوه؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157].

- كيف شبه لهم؟

قالوا لما جاءت اليهود وأرادوا قتل عيسى وخططوا لقتله، وكان عيسى قد جلس مع أصحابه الحواريين، فلما علم عيسى قال لبعض أصحابه: من يلقى عليه شبهي وسيرفعني الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا دخلوا رأوا سيظنون أن هذا عيسى فيقتلوه.

فقال بعضهم: نعم أنا؛ لأنه قال مَن يلقي وله الجنة، فقال: نعم، وفي رواية أنه قال: إن لما خططوا أرسلوا واحداً منهم يتقدمهم لينظر ويتأكد من وجود عيسى، فألقى الله على هذا الرجل الشبه على أنه عيسى؛ فلما عاد إليهم وإذا الوجه وجه عيسى فقتلوه، قتلوه وصلبوه فقالوا: هذا عيسى، ثم ترددوا، ترددوا قالوا: الوجه وجه عيسى والجسد ليس بجسد عيسى، فترددوا.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ [النساء: 157]. اشتبه عليهم الأمر، شبه لهم، وإن الذين اختلفوا في قتله لفي شك منه لم يجزموا، وإنما دعواهم لفي شك منه. ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا 157 بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 157-158].

ما عندهم علم في قتله حقيقة إلا اتباع الظن، رفعه الله وحماه الله وحفظه من شرهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 158]؛ قوياً لا أحد يتجرأ عليه، عزيزاً لا يذل أحد من أوليائه، حكيماً فيما يدبر وفيما يصنع.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في حق أهل الكتاب لأن الآيات التي بعدها بعد آيات سيأتينا الحديث عن النصارى، هذه الحديث الآن عن اليهود، سيأتي الحديث عن موقف النصارى من عيسى قال: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: 159].

يعني إذا حضره الموت؛ أي واحد من اليهود والنصارى إذا حضره الموت يؤمن بحقيقة عيسى، وأنه ولده الله بكلمته، خلقه الله بكلمته، وأنه رسول من الله، وأنه لم يمت ولم يقتل.

قال: ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾؛ بحقيقة عيسى قبل موته، أو يقال في معنى آخر للمفسرين: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾؛ أي قبل موت عيسى؛ لأن عيسى سينزل في آخر الزمان وهو من علامات الساعة الكبرى، ويقتل الدجال ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويكسر الصليب ويقيم العدل في الأرض، ثم بعد ذلك يموت عيسى كما يموت غيره، وأهل الكتاب في آخر الزمان إذا رأوه يؤمنون به.

قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: 159]؛ أي يوم القيامة يكون عيسى على هؤلاء شهيداً عليهم، يشهد عليهم بما بكفرهم أو إيمانهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في اليهود خاصة: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [النساء: 160]. أي بسبب ظلمهم، وهذا كله نستفيد منه أن الذنوب والمعاصي والظلم والكفر هي سبب لكل شؤم ولكل بلاء.

قال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: 160]. حرم الله عليهم اللحوم، بعض اللحوم كلحوم الإبل وكل ذي ظفر كالبقر ونحوه، وحرم عليهم بعض الشحوم.

قال: ﴿حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: 160]. هذا السبب أنهم يصدون عن سبيل الله كثيراً؛ يصدون بأنفسهم ويصدون غيرهم.

قال: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: 161]. الربا محرم في جميع الشرائع؛ لأنه ظلم للمستضعفين واستغلال لهؤلاء الفقراء. قال: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: 161]؛ يأخذون الرشاوي ويأخذون أموال الناس بالباطل، قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: 161]. الذين كفروا منهم أعد الله ماذا أعتدنا لهم؟ عذاباً أليماً عذاباً أليماً.

لكن مع هذه القبائح وهذه الأشياء العظيمة التي يذكرها الله عن هؤلاء اليهود وأهل الكتاب، إلا لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحكمه وعدله لا يعمم الحكم للجميع؛ ولذلك اقرأ الآية اللي بعدها قال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 162].

يوجد منهم علماء راسخون: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: 162] منهم، لأنه يوجد طوائف منهم مؤمنة. ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد وهو القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: 162] وهي الكتب السابقة. ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: 162].

قال: أخص منهم الذين يحافظون على الصلاة يقيمون الصلاة؛ لأن منهم مَن يقيم الصلاة. ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 162].

هؤلاء الذين الله سبحانه استثناهم ووصفهم بهذه الصفات العظيمة، ووعدهم بهذا الوعد الكريم أن الله سيأتيهم الأجر العظيم، نقف عند هذا القدر، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(105)
(النساء 163- 170)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، صلِّ وسلِّم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يوفقنا لطاعته.

مجلسنا المبارك في هذا اليوم السابع من شوال من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة، مجلسنا مع آيات من كتاب الله نقرأها ونتأملها ونتدبرها؛ هذه الآيات هي من سورة النساء، ونحن نقرأ من كل أسبوع ما تيسر من القرآن الكريم، نمشي على هذه السور العظيمة.

الآية التي بين أيدينا هي الآية الثالثة والستون بعد المئة من سورة النساء، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163]، هذه الآية لما تقرأها هي خبر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه أوحى إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه رسول وأنه نبي كما أوحى إلى الأنبياء السابقين.

- لماذا يقول هذا؟ لماذا يخبر الله بهذا الخبر؟

لأن قبل هذه الآيات فضح الله اليهود وكشف عوارهم في أفعالهم القبيحة؛ أنهم ينقضون العهود، وأنهم يقتلون الأنبياء، وأنهم يكفرون بالله، وإلى آخر ما ذكر الله عنهم لما فضحهم الله.

قالوا: يا محمد أنت لست رسولاً، لست رسولاً ولست نبيًّا، وإنما أنت تفتري على الله الكذب وأنت تدعي أنك رسول؛ فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يثبت لنبيه محمد الرسالة وأنه يوحى إليه، ولذلك قال: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [النساء: 163]. يا محمد، أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده.

- ما هو الوحي؟ ما معنى أوحينا؟

الوحي هو **"الصوت الخفي السريع"**، إذا سمعت صوتًا خفيًّا سريعًا هذا نسميه الوحي؛ والوحي هو وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى أنبيائه، ووحي الله إلى أنبيائه يختلف يعني على أنواع؛ قد يكون الوحي مباشرة من الله مباشرة، يعني النبي يسمع من الله مباشرة يسمع كلام الله.

مثل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو كليم الله لأن الله قال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]، ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه وسمع كلامه. وأحيانًا يكون الوحي بواسطة، بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ الله يتكلم بالكلام بالوحي فيسمعه جبريل فينزل به إلى نبي من أنبيائه كما في القرآن: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ 193 عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 193-194].

نزل به الروح الأمين جبريل على قلبك، فالذي ينزل ويأتي بالوحي وبالقرآن هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، يأتي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصور مختلفة؛ جاءه في غار حراء أو لأول مرة.

ثم بدأ ينزل عليه، أحيانًا الوحي يكون بالرؤيا في المنام يراها النبي تكون وحيًا، مثل ما رأى إبراهيم أنه يذبح ابنه إسماعيل: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: 102] رآه ثلاث ليالٍ متتالية أنه يذبحه، فقال لابنه يستشيره: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: 102]، ما دام هذا أمر من الله افعل ما تُؤمر؛ فهذا وحي من الله.

وأحيانًا الوحي يكون مجرد إلهام فقط إلهام يلهم الله هذا الشخص، وهذا في غير الأنبياء مثل ما أوحى الله إلى أم موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ [القصص: 7]، أوحى الله إليها فـ **"أوحاها"** ليست نبية وإنما ألهمها إلهامًا؛ حتى يعني لو تتبعت ووسعت وجدت أن وحي الله أحيانًا يوحي إلى غير الأنبياء، إلى غير الرسل.

يوحي أحيانًا إلى غير بني آدم مثل أوحى إلى النحل: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: 68]، وأوحى الله وأوحى إلى الأرض: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: 5]، وأوحى إلى السماء: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12]؛ هذا الوحي يعني هو وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلامه، قد يكون كلامًا مسموعًا، قد يكون كلامًا خفيًّا، قد يكون بواسطة جبريل وهكذا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [النساء: 163] يا محمد ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163]، انظر لما قال: ﴿وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163].

دلَّ على أن نوح هو أول رسول إلى الأرض، أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض هو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه بين نوح وآدم عشر قرون، ثم ظهر الشرك والكفر والمعاصي فأرسل الله نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وأوحى إليه بالرسالة، فهو أول نبي قال وهو أول رسول إذ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163].

ثم بدأ يذكر الله بعض الأنبياء الذين خصهم بالاسم فقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [النساء: 163] إبراهيم هو أبو الأنبياء لأن ذريته كلهم أنبياء، وإبراهيم هو خليل الله وإمام الحنفاء؛ قال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [النساء: 163] إسماعيل ابن إبراهيم من هاجر، من هاجر إسماعيل، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ [النساء: 163].

ابن إبراهيم وأمه سارة؛ قال: ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ [النساء: 163] يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم جده إبراهيم، كلهم أنبياء ورسل؛ قال: ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ [النساء: 163].

من هم الأسباط؟

الأسباط هم من ذرية يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعقوب هذا يلقب بـ **"إسرائيل"**: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: 93]؛ إسرائيل هذا هو يعقوب، ولذلك يقال في بني إسرائيل ذريته يقال بنو إسرائيل، لأن هو الذي تفرعت منه بنو إسرائيل، لأنه ولد له اثنا عشر يوسف وإخوته فتفرعوا، تفرعوا القبائل هم الأسباط؛ الأسباط هم من ذرية يعقوب المقصود بالأسباط الأنبياء الذين بعثوا، الذين بعثوا في قبائل بني إسرائيل.

و﴿عِيسَى﴾ [النساء: 163] عيسى هو آخر أنبياء بني إسرائيل، عيسى بن مريم خلقه الله بكلمة كما سيأتي، ليس له أب وإنما قال له كن فيكون آية من آيات الله؛ قال: ﴿وَعِيسَى وَأَيُّوبَ﴾ [النساء: 163] وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل ذكر الله قصته في القرآن وبين أنه قد صبر على البلاء الذي أصابه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44]، و﴿يُونُسَ﴾ [النساء: 163].

هو يونس ابن متى أرسله إلى قرية نينوى في العراق، وهو الذي خرج مغاضبًا على قومه قبل أن يؤذن له؛ يعني الأنبياء لا يخرجون ولا يتصرفون إلا بالوحي، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قال له أبو بكر: متى تهاجر يا رسول الله إلى المدينة؟

لما رأى المضايقة الشديدة، قال: **«لَم يَأتِنِي الوَحيُ بِالهِجرَةِ»**، إذا جاءني الوحي بالهجرة هاجرت. ولذلك يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ خرج من قريته مغاضبًا لقومه أنهم لم يؤمنوا ولم يستجيبوا له ولم يأذن الله له؛ فلما ركب السفينة وساهم فكان من المدحضين، لما بدأت الأمواج تتلاطم على السفينة وخشي أهل السفينة أن تموج بهم الأمواج فيهلكوا جميعًا.

قالوا: واحد منا يلقي بنفسه، فوضعوا قرعة هذه القرعة وقعت على يونس أكثر من مرة فألقى بنفسه في الماء فالتقمه الحوت وذهب به في قاع البحر في ظلمات؛ ظلمة البطن بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل والسحاب.

فأصبح في ظلمات شديدة، فلما علم أنه في هذا شعر بأنه قد أخطأ فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]، فأنجاه الله فأنجاه الله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: 87] أي نضيق عليه ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ 87 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 87-88].

قال: ﴿وَهَارُونَ﴾ [النساء: 163] هارون أخو موسى أرسله الله إلى بني إسرائيل مع موسى، ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ [النساء: 163] ابن داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطاه الله الملك والنبوة، جمع الله له بين الملك والنبوة؛ قال: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: 163] داوود أبو سليمان، داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا أعطاه الله أو منَّ الله عليه بكثرة العبادة في قيام الليل وصيام النهار، وكان حاكمًا قاضيًا يحكم بين الناس.

☜ قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه قال: **«خَيرُ الصِّيَامِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَومًا وَيُفطِرُ يَومًا، وَخَيرُ القِيَامِ قِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَقُومُ نِصفَ اللَّيلِ ثُمَّ يَنَامُ ثُلُثَهُ ثُمَّ يَقُومُ ثُلُثَهُ»**. فهذا داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ ذكر الله قصته في القرآن في مواضع.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: 163]، الزبور كتاب مثل القرآن أُنزل على داوود، والتوراة على موسى والإنجيل على عيسى والقرآن على محمد، فكان يقرأ هذا الزبور فتقف الطيور عنده.

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: 19] وإذا سبح سبَّح، سبحت الجبال معه تردد: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾ [سبأ: 10] تردد معه؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164] يا محمد ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164] يعني اللي قصينا عليك قليل.

- كم رسول في القرآن؟

ذُكر خمسة وعشرون نبيًّا.

- كم الذين بُعثوا؟

الأنبياء الذين بعثهم الله كما في حديث أبي ذر عددهم مئة وأربعة وعشرون ألفًا، مئة وأربعة وعشرون ألف نبي.

- كم رسول؟

جاء في الحديث أنهم ثلاثمائة وزيادة، ثلاثمائة رسول، ما ذُكر منهم في القرآن إلا خمسة وعشرون فقط؛ قال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164].

يعني الكثير ما قصصنا ما يعلمهم إلا الله، يعني الذين جاء خبرهم في القرآن عرفناهم هود صالح شعيب لوط عرفناهم، لكن غيرهم أسماء ما نعرفهم ولا تدري ما الذي جرى معهم مع أقوامهم وأين كانوا يسكنون، هذا كله ما ذكره الله: ﴿لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164].

قال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164] خصَّ الله موسى بأنه كليم الله، خصه بكونه كليمًا كلمه مباشرة: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: 52]؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء: 165].

يعني وظيفة الرسول أنه يبشر من يطيعه بالجنة يبشره بالجنة، ومنذرين من يعصيه بالنار، هذه وظيفة الرسل، جاؤوا ليبشروا من يطيعهم بالجنة وينذروا من يعصيهم بالنار، كل هذا رد على اليهود الذين يقولون: يا محمد لست رسولاً.

- كيف الرد؟ كيف قال؟

أنتم ما تدرون أي نعم محمد رسول مثل ما أن الأنبياء هؤلاء كلهم رسل؛ قال: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [النساء: 165] طيب لماذا؟ قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165] يقولون ما أرسلت إلينا رسولاً، ما جاءنا من بشير ولا نذير، إذا جاء يوم القيامة جاء الناس يقول: يا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً نتبعه، ما جاءنا رسول، ما جاءنا من بشير ولا نذير.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: أرسلنا لكم رسلاً ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165] عزيزًا بقوته غالب أمره على كل شيء ببعث الرسل بإقامة الحجة، وحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ببعث الرسل من يختار ومن يرسل ومن ينزل عليه كتاب بحكمته.

انظر كيف يرد الله حتى على اليهود الذين ينكرون رسالة النبي قال: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: 166] الله يشهد، في أعظم شهادة من الله؟ ما في أعظم شهادة، شهادة الله؛ ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء: 166] يعني الله يشهد بالوحي وأنه أنزل إليك القرآن، ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: 166].

أي أنزل هذا من الله بعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الله أنزله بسابق علمه لأن الله يعلم أنه سينزل، وأنزله محتويًا على علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، القرآن من علم الله وما فيه من العلوم هي جزء من علم الله ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: 166] كلهم نعم تشهد.

تشهد على أنك رسول؛ إذًا إن نكر اليهود الملائكة يشهدون، ثم قال: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 166]، شهادة الله فوق كل شيء تكفي ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 166].

لو لم يشهد إلا الله على صدقك، على صدقك يا محمد لكفى؛ ومع ذلك الملائكة كلهم على كثرة أعدادهم يشهدون برسالتك يا محمد. ثم هدد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاء الكفار من اليهود

وغيرهم بتهديد عظيم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 167].

كفروا يعني جحدوا وحدانية الله ورسالته وما أخبر الله به يكفرون بذلك ﴿كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: 167] صدوا يعني أعرضوا عن دين الله ولم يدخلوا في الإسلام وصدوا غيرهم أيضًا زيادة، يعني يمنعون أنفسهم ويمنعون غيرهم عن سبيل الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 167] يعني وقعوا في الضلال البعيد، حكم عليهم بأنهم في ضلال ليسوا في هدى ومنهم اليهود؛ ثم أكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مرة أخرى قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: 168] يعني جحدوا رسالة الله وجحدوا ألوهيته وأخباره، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ [النساء: 168] يعني كفروا وزيادة على الكفر ظلم، ظلموا أنفسهم ظلموا غيرهم ظلموا.

قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: 168] هؤلاء الذين كفروا وظلموا لم يغفر الله لهم أبدًا متى؟ إذا ماتوا، إذا ماتوا على الكفر لا يغفر الله.

أما إذا تاب في حياته فيتوب الله عليه، من تاب تاب الله عليه، ومن كفر وظلم واستمر حتى مات لا تقبل توبته؛ قال انظر قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [النساء: 168] أبدًا ما دام مات على الكفر ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا﴾ [النساء: 168] ما يهديهم طريق إلا طريق واحد ما هو؟

قال: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [النساء: 169].

إذا بعثهم الله لا يدلهم على أي طريق ينجون منه إلا طريق النار، يسلكونه حتى يهلكوا في النار، قال: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: 169]؛ كفروا وظلموا مصيرهم إلى جهنم خالدين فيها أبدًا وكان ذلك على الله يسيرًا، لا تظن أنه صعب أن الله يحشر هؤلاء جميعًا كلهم إلى جهنم: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: 22].

يحشرهم جميعًا لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء: 170] انظر حتى يزيد في إثبات رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النساء: 170] أخاطب الناس جميعًا، الناس المؤمن منهم والكافر.

قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: 170]، محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ﴾ [النساء: 170] ما جاءكم بالكذب كما يقول اليهود أنه كذاب وأنه يفتري على الله ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: 170] ما جاءكم من الشياطين ولا من أحد من المخلوقين لا جاءكم من ربكم الحق، ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ [النساء: 170].

إذا آمنتم وأطعتم الرسول ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ [النساء: 170] السلامة والنجاة لكم خيرًا لكم، ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ [النساء: 170] تكفروا برسالة الرسول تكفروا بالله والله هو الذي أرسل إليكم.

- ما هي النتيجة؟

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النساء: 170] يعني الله غني عنكم، الله له ما في السماوات وما في الأرض الله ليس بحاجة لعبادتكم، لو عبده كل من على الأرض ما زاد في ملكه شيء، ولو كفر به كل من على الأرض ما نقص من ملكه شيء؛ إنما هي كما قال **"إنما هي أعمالكم أوفّيها لكم"**، فما يضر الله عَزَّ وَجَلَّ الله ملك السماوات الله له يملك الدنيا كلها ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 170].

﴿عَلِيمًا﴾ [النساء: 170] أي ذا علم واسع لا يحد علمه بشيء، و﴿حَكِيمًا﴾ [النساء: 170] في صنعه وتدبيره أنه يرسل الرسل وينزل الكتب ويقيم الحجة على الخلق، كل ذلك من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

آيات عظيمة حقيقة تأملناها قرأناها تفكرنا فيها فهمناها؛ عرفنا رحمة الله بالخلق أنه لم يتركهم هملاً يعيشون كالبهائم، بل أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

ودلهم على طريق النجاة والسلامة وحذرهم من طريق الهلاك والنار، كل هذا إلا من أبى إلا من أبى ولا يريد السلامة لا يريد النجاة ولا يريد إلا النار فهذا قد أبى ومنع نفسه من الخير؛ هذا له طريق جهنم وأقام الله عليه الحجة.

ونعرف سعة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدرته كيف بعث هؤلاء الرسل الأعداد الكبيرة الهائلة لا نتصورهم، منهم من قصَّ الله علينا ومنهم من لم يقصص الله علينا؛ كل هذا فهمناه وتدبرناه إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل هذه السورة العظيمة وما فيها من آيات نتدبرها ونتأملها.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(106)
(النساء 171- آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

في هذه الجلسة المباركة مع القرآن الكريم معنا آيات هي من آخر سورة النساء، وفي هذا اليوم الرابع من شهر ذي القعدة من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة نختم سورة النساء، وهي السورة الرابعة من القرآن الكريم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: 171]. أهل الكتاب هم اليهود والنصارى، إذا قيل في القرآن الكريم **"أهل الكتاب"** فالمقصود بهم اليهود والنصارى.

مر معنا قبل هذه الآيات الحديث عن اليهود، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين مواقفهم السيئة وقبائحهم مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومع رسولهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع عيسى وغيره من الأنبياء؛ فهم قتلة الأنبياء، وهم أصحاب الأخلاق السيئة، وهم الذين ينقضون العهود. لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مواقف هؤلاء اليهود أتبعهم بمواقف النصارى؛ النصارى غلوا في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول هنا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: 171].

- كيف غلوا في دينهم؟

غلوا في عيسى حيث رفعوا مقام عيسى إلى مقام الربوبية والألوهية، فقال بعض النصارى: **"عيسى هو ربنا"**، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، ادعوا في عيسى أنه الرب؛ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]، فادعوا أن المسيح هو الله.

وبعض النصارى يقول: إن المسيح أو عيسى هو ابن الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، فادعوا أنه ابن الله.

وفي طائفة أيضاً ادعت أن الإله ثلاثة: عيسى ومريم والله، ورد الله عليهم وأكذبهم قال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: 73]، فحكم عليهم بالكفر، فهذه طوائف النصارى كلها غلو ورفع لمقام عيسى عن مقامه الذي وضعه الله فيه.

- عيسى ماذا يقول؟

قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: 30]. وعيسى كما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو عبد الله ورسوله، قال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: 171].

لا تكذبوا على الله، قولوا الحق في الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم قال يعني ما هو الحق الذي يجب عليهم أن يقولوه لله؟ أن يعترفوا بألوهية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه هو الإله الواحد الأحد، وأنه هو الرب خالق كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. أما عيسى فليس إلهاً وليس هو خالق كل شيء.

ولذلك انظر قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [النساء: 171]. هذا مقامه؛ هو رسول الله، أرسله الله إلى بني إسرائيل، وهو خاتم رسل بني إسرائيل، هو آخر رسول إلى بني إسرائيل.

عيسى ابن مريم رسول الله، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: 171].
كلمة من كلمة الله، يعني عيسى كلمة الله، كيف كلمة الله؟ أي أن الله قال في عيسى: **"كن"** فكان، لأنه لم يخلق كما يخلق غيره، لم يخلق من أب.
البشرية من بني آدم كلهم يخلقون من أم وأب، عيسى خلقه الله بكلمته، قال له **"كن"** فكان من غير أب، وهذه معجزة وشرف لعيسى أن الله شرفه بهذه المعجزة العظيمة؛ معجزة لإقامة الحجة على اليهود والنصارى، ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: 171].

- ما هو الذي دعاهم إلى الغلو؟

قالوا: إن عيسى ليس له أب إذاً هو الإله، وادعوا فيه ما ادعوا فيه، فرد الله عليهم قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59].

إذاً عيسى **"كن فيكون"** وآدم **"كن فيكون"**؛ آدم خلقه الله من غير أم ولا أب خلقه من تراب ثم قال له كن فكان، وكذلك عيسى خلقه الله من غير أب وقال له كن فكان، إذاً عيسى ابن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها؛ أي أن الله ألقى كلمته أن يقول له كن فكان ألقاها إلى مريم.

﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: 171]؛ روح من الأرواح، كل إنسان مخلوق من جسد وروح، وإذا خلق الله هذا الإنسان في بطن أمه أول ما يخلقه نطفة ثم علقة ثم مضغة، ثم المضغة هذه تتحول إلى وهي لحم وعظام- ثم يكسو الله العظام لحماً ثم ينشئه خلقاً آخر، فيأتي إليه الملك فينفخ فيه.

وعيسى نفخ الملك فيه روحاً مثل سائر الأرواح، وإضافتها إلى الله إضافة تشريف، الأرواح تضاف وغيرها إلى الله عَزَّ وَجَلَّ مثل ما يقال **"بيت الله"** و**"ناقة الله"**؛ تشريف، وكلمة الله، قال: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: 171]؛ أي روح من الأرواح.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: إذا عرفتم حقيقة عيسى ونحن كلنا في عقيدة المسلم أن يعتقد في عيسى ماذا؟ أنه رسول الله، وأن الله خلقه، وأنه كلمة الله، أن الله قال **"كن"** فكان، وأنه روح من الأرواح.

هذا هو الذي يجب علينا أن نعتقده كمسلمين في عيسى ابن مريم، وأنه رسول ونبي من أنبياء الله، قال هنا: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [النساء: 171]؛ لليهود والنصارى وسائر الخلق الواجب عليهم أن يؤمنوا بالله ورسله جميع الرسل لا نفرق بين أحد من الرسل كما هي عقيدة المسلم أن يؤمن بالله وبجميع الرسل.

قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: 171]. لا تقولوا ثلاثة، انتهوا، لا ترفعوا مقام عيسى عن مقامه الذي جعله الله له، لا تقولوا ثلاثة مثل ما ذكرنا، يقولون يدعون هذه طائفة من النصارى أن الإله ثلاثة: عيسى ومريم والرب كما يعتقدون اعتقاداً باطلاً. **"ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خيراً لكم"**؛ انتهوا من هذه العقيدة الباطلة فانتهائكم خير لكم .

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: 171]؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، المعبود بحق من هو؟ الله الذي يعبده المسلمون، والذي تعبده الخلائق كلها حتى الجمادات، حتى الجمادات الجبال والسماء والأرض كلها دانت لله؛ ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: 116].

هذه العقيدة: **"إنما الله إله واحد"**، ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: 171]؛ سبحانه تنزيهاً له أن يكون له ولد، رد على النصارى الطائفة التي تقول إن عيسى ولد الله ابن الله.

قال: ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: 171]. من الذي يكون له ولد؟ المخلوق، الإنسان الضعيف المحتاج هو الذي يقول، زكريا دعا ربه: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38].

الذي يحتاج إلى الولد هو الضعيف المسكين الفقير الإنسان؛ لأنه كلما كبر ضعف فاحتاج إلى الذرية تعينه، أما الله فلا يضعف ولا يحتاج، الله هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القوي العزيز، هو الغني الحميد لا يحتاج إلى ولد .

﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: 171].

- لماذا لا يكون له ولد؟

قال: لأن له ما في السماوات وما في الأرض؛ السماوات كلها وما فيها لله، والأراضين كلها وما فيها لله، فلا يحتاج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكون له ولد.

قال: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 171]. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تفوض الأمور كلها لله عَزَّ وَجَلَّ، وأنت تفوض أمرك لله عَزَّ وَجَلَّ وتتوكل على ربك، لا تتوكل على نفسك لا كما في الدعاء: **«اللَّهُمَّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي، وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ طَرْفَةَ عَيْنٍ»**.

طرفة عين؛ لو وكلك الله إلى نفسك أو إلى أحد من المخلوقين طرفة عين لهلكت، وأنت تتوكل على رب العالمين وتفوض أمرك إلى الله فهو نعم المولى وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نعم الوكيل.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لنا هنا أن عيسى لو جئنا بعيسى وأوقفناه وقلنا له **"أنت من؟"** قال: **"أنا عبد الله ورسوله"**، ولا يتكبر عن عبادة الله بل يتشرف شرفاً أن يكون عبداً لله، ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ [النساء: 172].

"لن يستنكف" يعني لن يتكبر عيسى، عيسى ما يتكبر أن يكون عبداً لله. ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: 172]؛ حتى الملائكة عباد الله، بل عباد مكرمون، الملائكة عباد الله يعبدونه ليلاً ونهاراً يسبحون الله الليل والنهار.

يقول: **"لن يستنكف ولن يتكبر ولن يأنف المسيح أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة حتى الملائكة المقربون لن يستنكفوا ولن يتكبروا"**.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 172]. من يتكبر عن عبادته كما يصنعه المشركون والكافرون، **"ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر"**.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 172]. سيحشر الله عَزَّ وَجَلَّ جميع الخلق المستنكف والمتكبر والعابد لله.

قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: 173]. هؤلاء لا يتكبرون بل هم يؤمنون بالله ويعملون الصالحات. **"فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات"** قال الله عَزَّ وَجَلَّ **"فيوفيهم أجورهم"**؛ يعطيهم أجورهم كاملة بل يزيدهم من ذلك، ولذلك قال: **"ويزيدهم من فضله"** يعني يعطيهم أجورهم الذين آمنوا.

وهذا خبر من الله لجميع الخلق، لجميع بني آدم أو جميع الجن، الإنس والجن. **"فأما الذين آمنوا"** حققوا الإيمان وصدقوا بما جاءهم عن الله، واتبعوا ذلك بالأعمال الصالحة، والله عَزَّ وَجَلَّ أكرم الأكرمين يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 173].

حتى لو كان من الملائكة، حتى لو كان عيسى الذي يستنكف ويتكبر عن طاعة الله ولا يذعن لربه النتيجة يعذبهم عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً يتولى أمرهم ولا نصيراً ينصرهم فيدفع عنهم العذاب .

يخاطب الله الناس جميعاً فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: 174]. جاءتكم حجة، جاءتكم الأدلة الواضحة على هذه الدعوة وعلى هذه الشريعة وعلى الحق وبيان التوحيد.

"يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً".

- ما هو النور المبين؟

هو القرآن الكريم، هو القرآن العظيم، هذا القرآن الذي تقرأه وتتدبره، وأنزله الله فحفظه؛ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

هذا نور في قلبك، نور في بيتك، نور في ذريتك، نور في زوجتك، فعلينا أن نعرف عظمة هذا القرآن الذي الله عَزَّ وَجَلَّ يعظمه والله عَزَّ وَجَلَّ يشرفه ويصفه بمثل هذه الأوصاف فيقول: **"أنزلنا إليكم أيها الناس هذا القرآن العظيم هو نور، نور واضح نور مبين."**

قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: 175]. تمسكوا بالله وبدينه.

ما هي النتيجة؟

"فسيدخلهم في رحمة منه وفضل"؛ الذين آمنوا بالله واعتصموا بشرعه فسيدخلهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في رحمة منه وفضل، ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً يثبتهم حتى يلقونه.

تسمع مثل هذه الفضائل؛ فضائل عظيمة، رحمات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووعود كريمة من الله لكل مسلم عرف الطريق لله، كل مسلم عرف لماذا خلقه الله، عرف طريق العبادة إلى ربه وفقه الله ويسر له أمره أن يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ على هذه النعمة، أن يحمد الله على التوفيق والهداية، ويحمد الله على هذه الرحمة؛ الرحمة التي جاءت من رب العالمين والفضل من الله أن الله يعدك بهذه الوعود الكريمة .

هذه الوعود الكريمة تختم السورة بما افتتحت فيه؛ مر معنا أول ما قرأنا هذه السورة لما افتتحت السورة كانت افتتحت ببعض الأحكام، ومن هذه الأحكام أحكام المواريث.

أحكام المواريث هو حكم ما يتركه الميت مات؛ إذا مات الإنسان وترك شيئاً وراءه فما حكم هذا الميراث كيف يقسم؟ هذا مر معنا كله في التفاصيل في الأبناء والبنات والآباء -الآباء والأمهات- والإخوة هذه كلها مرت معنا، لكن هناك عندنا حكم أحكام المواريث سأل الصحابة عنه لأنه قد أشكل عليهم.

فكانت هذه الآية يعني جاءت تكمل لنا بعض الأحكام. الأحكام لما نزلت في المواريث بقي بعضها أو سأل الصحابة عن بعضها، فيه بعض الإشكال مثل إذا مات إنسان وليس له ذرية ما عنده أولاد، وقد توفي آباؤه أمه وأبوه قد توفوا، يعني ليس له من يرثه لا من الأولاد من أسفل ولا من الآباء.

- من الذي يرث؟

قالوا: هذا يسمى عند علماء الفرائض بالكلالة؛ يسمى بالكلالة .

الكلالة هو الذي يموت ليس له أولاد ذرية وليس له آباء، إذاً من الذي يرث؟ يرثه إخوته إذا كان له إخوة، هؤلاء هذه تسمى بالكلالة. اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: 176]؛ أي الصحابة يسألونك على وجه الفتيا، **"قل الله يفتيكم في الكلالة"**.

- ما هي الكلالة؟

إذا مات ميت ليس له ذرية ما تزوج أو قد ماتوا وليس عنده ذرية أبداً ولا أولاد، وقد أيضاً ليس له آباء قد ماتوا.

قال: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ [النساء: 176]. **"إن امرؤ هلك"** يعني مات ليس له ولد وله أخت، لو فرضنا أن له أختاً واحدة فما الحكم الشرعي؟

قال: **"فلها نصف ما ترك"**. إذا مات ميت ما عنده أولاد ولا آباء وعنده أخت واحدة؛ هذه الأخت هي أخت شقيقة من أم وأب، أو قد تكون أختاً من أب.

- والأخت من أم؟

الأخت من أم ذكرها الله في أول السورة أنها إذا كانت واحدة تأخذ السدس، وإذا كانت أكثر من واحدة يشتركون في الثلث، هذه مرت معنا. هنا لا؛ أخت شقيقة أو أخت من أب، هذه إذا مات أخوها وليس له ذرية ولا آباء فإنها تأخذ نصف الميراث.

- والنصف الثاني أين يذهب؟

قال: يذهب عن أي عصبة قريبة تأخذه أو يعود إليها. طيب قال: **"فلها نصف ما ترك"**. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء: 176]؛ وهو أيضاً يرثها لو ماتت كلالة مالها أولاد ولا لها آباء هو يأتي يأخذ يرثها. كيف؟

قال: **"وهو يرثها"**، ما قال نصف ولا ربع، قال **"وهو يرثها"** يعني يأخذ كل ما وراءها إذا ماتت الأخت الشقيقة والأخت لأب ولها أخ واحد، إذا كان لها أخ واحد فإنه يأخذ جميع ماله. إذاً تأخذ النصف وهو يأخذ المال كله؛ قال: **"وهو يرثها إن لم يكن لها ولد"**.

قال: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: 176]. فإن كانت الشقيقة التي ذكرناها قبل قليل تأخذ النصف لو كان اثنتين فما فوق -يعني اثنتين ثلاث أربع خمس شقيقات أو من أب- فما حكم الشرع؟ قال: **"فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان"** يأخذون الثلثين ويبقى الثلث مثل ما ذكرنا.

- لو فرضنا أن هذا الذي مات ليس له أولاد "كلالة" ليس له أولاد ولا آباء وعنده إخوة ليست أختاً واحدة؛ لو كانت أختاً واحدة أعطيناها النصف، لو كانت اثنتين فما فوق؟

الجواب: الثلثين.

لو فرضنا أنهم ذكور وإناث إخوة وأخوات، مات هذا الرجل وعنده إخوة مثلاً خمسة إخوة وست أخوات أو أقل أو أكثر فما حكم الشرع؟

الجواب: يقسم المال بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين؛ نأتي إلى الإخوة والأخوات ونشوف كم عددهم، فرضنا أن الإخوة ثلاثة ذكور والأخوات ثلاث إناث.

- كم سهم؟

الجواب: كل ذكر له سهمين إذاً من ثلاثة ستة، والأخوات ثلاث ستة وثلاثة تسعة، إذاً على تسعة أسهم يشتركون فيها للذكر سهمين وللأنثى سهم واحد.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 176] .

هل تستطيع أن تسمع أو يأتيك خبر مثل هذا الخبر الموجز الجميل الحسن في قسمة المواريث؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي تولى، ما وكل لا إلى نبي ولا إلى عالم ولا إلى أي إنسان وإنما تولى الله عَزَّ وَجَلَّ قسمة المواريث سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو أرحم الراحمين.

ولم يجعل هناك أحد يتدخل في قسمة المواريث، فهي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحمة بخلقه؛ لأن المواريث مال والمال عصب الحياة، والناس يتنازعون ويصل الأمر إلى الاقتتال بينهم في الأموال.

مات شخص يحصل أحياناً بين الذرية والأولاد من المشاكل والقضايا والاقتتال بينهم، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته هو الذي تولى هذا الأمر، هو الذي تولى فقسمه.

اسمع ماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في آخر السورة، يقول: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء: 176]. يبين الله لكم يوضح لنا ماذا؟ **"يبين الله لكم أن تضلوا"**؛ شفت كيف؟ يعني حتى لا يضل الناس في المواريث. لو قيل لشخص أي شخص لو كان أكبر عالم على وجه الأرض تقول تعال اقسم المواريث بين هذا البيت ما استطاع، لضل وأضل.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: **"يبين الله لكم أن تضلوا"** حتى لا تضلوا؛ الله يبين لنا المواريث حتى لا نضل، وبين لنا سائر الأحكام حتى لا نضل.

"والله بكل شيء عليم"؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، عالم بأحوال الناس وبمصالحهم، وعالم بما يناسبهم من الشريعة، فهو عليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما ينفع الناس ولذلك يشرع لهم ما يناسبهم .

إلى هنا تنتهي السورة كاملة، والحمد لله على نعمته الذي تتم، **"الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات"**، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا.

إن شاء الله في لقائنا القادم نبدأ بسورة المائدة وهي سورة تأتي بعد سورة النساء، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وما سمعنا.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الْمَائِدَةِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(107)
(المائدة 1 - 2)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلّي وأسلّم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه،

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا المجلس المبارك مع القرآن الكريم قراءة وتدبرًا وتعلمًا وتفسيرًا لهذه الآيات العظيمة الكريمة، ومجلسنا في هذا اليوم الأربعاء الموافق للحادي عشر من الشهر الحادي عشر من عام 1444 من الهجرة.

نستهل هذا اليوم بسورة عظيمة جليلة جديدة بعدما أنهينا السورة التي فسرناها وقرأناها في لقاءات ماضية وأخذت معنا مدة طويلة وهي (سورة النساء) واليوم معنا (سورة المائدة).

"سورة المائدة" من السور المدنية، ولما نقول: **"السور المدنية"** يعني أنها نزلت بعد الهجرة، بعد هجرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، لما استقر في المدينة بدأت الآيات والسور تنزل عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيان أحكام الأمة، وما تحتاج إليه الأمة، بتوجيهات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم.

ولذلك هذه السورة **"سورة المائدة"** هي من أواخر ما نزل من القرآن، حتى قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **"إن سورة المائدة هي من آخر ما نزل من القرآن وليس فيها نسخ، فأحلوا ما أحل الله فيها، وحرموا ما حرم الله فيها"**.

✍ هذه السورة تسمى بـــ "سورة المائدة" هذا الاسم من أين أتى؟

🗐 جاء من وجهين:

الوجه الأول: **"ذكر المائدة التي أنزلها الله على بني إسرائيل في آخر السورة"** لما طلب الحواريون من عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ينزل عليهم مائدة من السماء، فُسميت **"المائدة"**.

الوجه الثاني: **"أن هذه السورة اختصت بذكر ما يتعلق بالمائدة من الأطعمة والأشربة"** حتى أنك تقرأ في أول السورة يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: 1]؛ إذًا هي تتحدث عن الطعام والشراب وما يحتاج إليه الإنسان في حياته، وما الذي أحله الله؟ وما الذي حرمه؟

وتلاحظ أن هذه السورة ستأتي بعدها **"سورة الأنعام"** التي المشركون حرموا فيها أشياء من بهيمة الأنعام ما أنزل الله بها من سلطان، ولم يأمرهم الله، وافتروا على الله الكذب، وقالوا: هذا حلال، وهذا حرام، فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُبيّن لهم في هذه السورة ما الذي أحله الله في مصلحة العباد؟ وما الذي حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مصلحة العباد؟

أنت لما تقرأ هذه السورة؛ هذه السورة من السور الطوال، السور الطوال سبع، ولذلك بعض أهل العلم يُفسر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87]، يفسرها بالسبع الطوال، ما هي السبع الطوال؟ هي: **"البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف"** هذه ست، أما السابعة اختلفوا فيها هل هي **"التوبة"** أو **"الأنفال مع التوبة"** أو **"يونس"**؟ على خلاف.

فهي من السور الطوال؛ تحتاج منك قراءة، وتأمل، وتحتاج منك وقت وأن تقرأها، فيها أحكام كثيرة، فيها علاقات بين المسلمين وغيرهم، فنحتاج إلى تأملات كثيرة فيها.

لكن نختصر الكلام هذا كما ذكر أهل العلم الذين يتحدثون عن بلاغة القرآن في بلاغة العرب، حتى الخطيب في الجمعة إذا كان خطيبًا مفوهًا فاهمًا أحيانًا بمجرد إلقائه الخطبة أنت تفهم ماذا يتكلم عنه؟ بمجرد إلقائه للخطبة ووقفته تعرف ماذا سيتحدث عنه؟

ولذلك قصائد العرب المتميزة بمجرد أن يستهلها بالبيت الأول والثاني أنت تعرف، هذا يسميه علماء البلاغة بـــ **"براعة الاستهلال"** يعني كيف تستهل كلامك؟ أنت لما تقرأ الآية الأولى فقط في **"سورة المائدة"** تشعر بأن السورة تتحدث عن شيء معين.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]، إذًا السورة فيها عقود، فيها عقود كثيرة، ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: 1]، إذًا فيها حلال وفيها حرام؛ لأنه قال: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 1]، الذي يُتلى علينا الحرام إذا حرمه الله، ﴿وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: 1]، أي زمن الإحرام أو في المكان المُحرم وهي مكة، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1].

أنت لما تقرأ هذه الآية خلاص تعرف عن ماذا تتحدث السورة؟ بمجرد قراءتك لهذه الآية تعرف السورة كلها، كم آية السورة؟ مائة وعشرين آية كلها تدور حول هذا، وهذا من بلاغة القرآن الكريم أنه يعطيك الآية الأولى ما الذي تتحدث عنه؟ حتى ليست السورة هذه؛ بل أي سورة من سور القرآن يسمي العلماء افتتاحيتها بـــ **"براعة الاستهلال"** كيف استهل الله هذه السورة؟

والقرآن مثلما هو معلوم عند الجميع نزل بلغة العرب، وببلاغة العرب وتحداهم، قال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: 23]، وقال تعالى: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ [هود: 13].

إذًا القرآن وصل إلى أعلى درجات البلاغة والفصاحة عند العرب، فهو على أعلى الدرجات، هذه السورة مثلما ذكرناها حديثها عن **"العقود"**.

✍ ما هي "العقود"؟

المراد بالعقود في الآية هنا: **"ما بينك وبين الله من معاهدات وعقود"**، ما الذي بيننا وبين الله في العقود؟ العقود التي يجب عليك أنت كمسلم دخلت في الإسلام وأصبحت في حوزة الإسلام، والإسلام يحفظك، حفظ لك دمك، وحفظ لك مالك، وحفظ لك عرضك، وحفظ لك أعمالك ويجازيك عليها، هذا الإسلام.

أنت لما دخلت الإسلام وحصل لك هذه المزايا الله أمرك بالوفاء، بما يتطلب منك الإسلام.

✍ ما الذي يتطلب منك الإسلام؟

يتطلب منك: **"أن تمتثل ما أمرك الله به"** امتثالًا تامًا، وأنت تجتنب ما نهاك الله عنه، وأن تُحل ما أحله الله، وتُحرم ما حرمه الله، كلّ مقتضيات الإسلام يجب عليك أن تفي بها.

إذًا كلمة ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1] أول عقد وأعظم أعقد وأهم عقد: **"ما يكون بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"** كيف تصلي؟ هل صلاتك فيها خلل كثير؟ فيها نقص؟ كيف تتوضأ؟ هل وضوؤك فيه خلل؟ فيه نقص؟ هل تتم الوضوء؟ هل تسبغ الوضوء؟ صيامك، حجك، أعمالك، سائر الأعمال، علاقتك مع والديك، علاقتك مع أبنائك، علاقتك مع جيرانك، يعني كلّ ما يتطلبه منك الإسلام يجب عليك أن تفي بهذا العقد الذي بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والله عَزَّ وَجَلَّ أخذ الميثاق منا جميعًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172]، أُخذ الميثاق على الجميع وهم في عالم الذر، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1].

وكلمة **"العقود"** أيضًا هي: **"العقود التي بينك وبين الناس"**، بينك وبين الخلق عقود، بين الزوج مع زوجته عقود يجب الوفاء بها، الابن مع والده، الوالد مع أبنائه كيف يُربيهم؟ هذه عقود بينك وبينهم، وعقود بينك وبين الجيران، وعقود في معاهدات ومعاقدات عامة في بيع وفي شراء وفي أشياء أخرى، في شركات، في مؤسسات، كلّ هذه العقود يجب الوفاء بها، وإتمامها، وعدم الإخلال بها، وعدم نقضها، كلّ هذا داخل في كلمة، ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1].

هذه الكلمة التي مثلما ذكرت لك ستدخل في السورة كلها ومعك هذه الكلمة، أي سطر وأي آية تأخذ معك كلمة ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1].

سوف يأتينا أشياء كثيرة حلال وحرام، وواجبات، حتى آية الوضوء موجودة في هذه السورة، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، هذا عقد بينك وبين الله يجب أن تفي به ما تُخل به، وهكذا تمشي على هذه السورة.

ولذلك ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهمه الدقيق وهو صحابي جليل يقول: **"إذا سمعت الله يقول في القرآن: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 6]، قف عندها وتأملها، فيها لك شيء، إما أمر يأمرك الله به، مصلحة لك، أو نهي ينهاك الله عنه لأنه يضرك"**.

وهنا أمر ، يقول تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]، لو لم يأمرنا الله بالوفاء بالعقود ما عرفنا العقود، ولا عرفنا أن الله يأمرنا، مجرد أن يصلي الإنسان، ولذلك انظر إلى الجهل الذي عند بعض الناس جهل ما يعرف يتوضأ، ولا يعرف يفي بعقد الوضوء، ولا يعرف يقيم الصلاة، ولا يعرف أحكام كثيرة من أحكام الشريعة حتى أحكام الحج، أحكام العمرة ما يعرفها؛ لأنه ما عرفة كلمة ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1].

إذًا كلمة ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: 1]، ثم قال بعدها: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: 1]، هذا رد على الكفار، المشركون يحللون ويحرمون من تلقاء أنفسهم، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: 1].

✍ بهيمة الأنعام ما هي؟

هي: **"الإبل، البقر، الغنم"** حتى أنك تُدخل فيها البهائم التي يجوز أكلها، مثل **"الصيود"** يعني **"الغزال، الأرنب، الظباء"** ونحوها هذه داخلة؛ لأن الله قال: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ﴾ [المائدة: 1]، فدل على أن حتى الصيود تسمى بهيمة، ويجوز أكلها، و**"الحمام الأهلي"** و**"الحمام البري"** كله داخل هنا.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: 1]، ثم قال: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 1]، يعني جميع بهيمة الأنعام هذه مباحة، ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 1]، أي من الأشياء التي حرمها الله كما سيأتينا في الآية الثالثة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: 3]، إلى آخره.

ثم استثناء ثاني؛ قال: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: 1]، يقول: إلا المُحرمات التي نذكرها لكم هذه لا تأكلها، أو تُكون محرم فلا يجوز لك أن تصيد، أنت أحرمت من الميقات مثلاً ميقات ذي الحليفة وهو أبعد ميقات عن مكة، يعني بينه وبينها أكثر من أربعمائة كيلو هذا قد يمر الإنسان بصيود في ناس يصيدون، مثل صيد **"الحمام"** صيد **"الضب"** صيد **"الجرابيع"** كلّ الصيود هذه لا يجوز، ما دام أنك مُحرم فلا تتعرض لها.

يقول تعالى: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: 1]، أحيانًا كلمة **"حُرُم"** هنا إما مُحرم لابس الإحرام دخلت في حجة أو عمرة، أو تكون في داخل الحرم محيط الحرم، يعني **"منى"**،

"مُزدلفة" أحيانًا مكة كلها حرم، هل يجوز الصيد فيها؟ لا يجوز، صيد الطيور أو صيد الحيوان لا يجوز الصيد في داخل الحرم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1]، هذه الخاتمة؛ خاتمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1]، تحتاج منا أن نقف عندها ونتأملها، كيف الله يحكم ما يُريد؟

بعض الناس يفهم: **"إن الله يتحكم بالشيء"** يعني الذي يريده هو يحكمه، لا، هذا فهم خاطئ، إذا ظننت هذا الظن بالله عَزَّ وَجَلَّ هذا غلط، ما يصلح أن تُفسر الآية على هذا الوجه أنك تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1]، يعني الذي يُريده تحكمًا هكذا، لا، الله ما يحكم هكذا، الله كلّ أحكامه متعلقة بالحكمة، ما يأمر إلا لحكمة، ولا ينهي إلا لحكمة، ولا يأمر إلا بمصلحة لك، يأمرك بشيء فهو مصلحة لك، وإذا نهاك عن شيء فهو في مصلحتك.

ما هو فقط مجرد الأوامر والنواهي؛ بل كلّ ما يتعلق بحالك أنت الله يُريد لك الخير؛ حتى في جميع الأقدار، أنت أحيانًا تُريد أن تُسافر مثلاً وتعزم على السفر، وتجهز كلّ ما يتعلق بالسفر، والله لا يريد لك السفر فيصرفك عنه، بأي طريق، بأي سبب، بأي طريقة يصرفك الله عن السفر.

صرف الله لك عن السفر هذا خير لك، أنت ما تدري، أنت تتأمل أنك تسافر وتحقق أشياء في السفر، وقد تحزن ويضيق صدرك على أنك ما سافرت وراحت عليك هذه السفرة، والله صرفك لأن هذا الأمر خير.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1]، يحكم بحكمة، والله يقضي بحكمة، ما يقضي هكذا عبثًا، بعض الناس يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: 1]، يعني هكذا عبثًا، لا، هذا غلط، تفسيرك خاطئ، وظنك بالله خطأ، يحكم ما يريد بحكمته التي لا يصل إليها أي مخلوق، حكمة بالغة، حكمة عظيمة.

فإذا أمر بأمر فهو في مصلحتك، وفيه خير، وإذا نهى عَزَّ وَجَلَّ عن شيء ففيه خير، انظر إلى الآية التي بعدها حتى تعرف أن الأوامر والنواهي من الله كلها خير، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: 2]، هذا أمر، اختار لك كلمة **"البر"** و**"التقوى"** ثم قال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2]، إذًا يحكم الله بأي شيء؟ يحكم ما يريد، لكن على أي أساس؟ على أساس حكمة عظيمة، يحكم ما يريد بما يريده الله في مصلحة الخلق، وليست الأحكام الشرعية فقط؛ بل حتى الأشياء القدرية، حتى إذا صرف الله مطر عن بلدة قد يكون خير، إذا ساق الله المطر خير.

الأقدار كلها بحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والأوامر والنواهي كلها داخلة في حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الآية التي بعدها يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [المائدة: 2]، لما أباح جاء التحريم، كلٌّ في مصلحتك، هذه عقود، الله يعقد بينه وبينك أن الله يحرم عليك أشياء، ما هي؟ قال: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [المائدة: 2]، ما هي شعائر الله؟ هي كلّ ما عظمه الله، أنت لما تروح إلى الحرم وتلبس إحرامك هذه شعيرة، إحرامك هذه شعيرة من شعائر الله، دخلت الآن بعشيرة من شعائر الله لا تحل شعائر الله، لا تُخل بإحرامك، **"تتطيب، تقص شعر، تغطي رأسك"** هذه شعيرة يجب احترامها.

مقام إبراهيم شعيرة، والكعبة شعيرة، والصفا جبل الصفا شعيرة، والمروة شعيرة، إذا ذهبت إلى عرفات شعيرة، مزدلفة شعيرة، هذه شعائر الله.

بهيمة الأنام التي أنت تسوقها من بلدك كما كانوا يسوقون البهائم من بلدهم بهيمة الأنعام التي أنت تسوقها هذه شعيرة كما يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه شعيرة من شعائر الله.

قال هنا: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [المائدة: 2]، حتى شعائر الله العبادات تدخل فيها، العبادات وأشياء كثيرة تدخل فيها.

قال: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [المائدة: 2]، ثم قال: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: 2]، الشهر الحرام من شعائر الله، ما هو الشهر الحرام؟ نقول: هذا الشهر الحرام أربعة أشهر جنس" **ذي القعدة**" التي نعيشها الآن، **"ذي الحجة"**، **"محرم"**، **"رجب"** الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: لا تحلوا هذه الأشهر الحُرم.

كيف يحلها الإنسان؟ ينتهكها بالمعاصي، لا يبالي بها، أنت الآن في شهر محرم في شهر ذي القعدة يجب أن تحترم هذا الشهر، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: 36]، قال: **"دين"**، ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: 36]، بعض الناس شهر **"ذي القعد، وشوال"** وأشهر أخرى كلها عنده سواء، ولا يبالي بارتكاب العاصي، لا يا أخي أنت في شهر الله الحرام اقصر نفسك، فالله عَزَّ وَجَلَّ سماه **"الشهر الحرام"**، قال: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: 2].

ثم قال: ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ [المائدة: 2]، الهدي من شعائر الله مثلما ذكرنا، الهدي ما هو؟ **"الهدي"** هذا جمع مفرده" **هدية**"، يُجمع على **"هدي وهدايا"**، الهدايا والهدي هي ما يأتي به الإنسان معه من بهيمة الأنعام يريد به النسك التي تُذبح في الحرم، سواء أتيت بها معك من بلدك أو اشتريتها من الطريق أو اشتريتها في مكة، هذا يسمى هدي، مثل الأضاحي، قال: ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ [المائدة: 2]؛ لأن الذي يأتي إلى مكة سواء للعمرة أو للحج يأتي بالهدي يسوق الهدي.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاء في صلح الحديبية جاء للعمرة في ذي القعدة، كان معه هدي، الكثير من الناس الآن أخلوا بهذه السنة، سنة ماذا؟ سنة الهدي في العمرة، بعض الناس يروح يأخذ عمرة ويرجع وما ذبح شيء، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى بهديه وذبح، ونحر الإبل عند صلح الحديبية على حدود الحرم، فهناك شعيرة بعض الناس يتساهل فيها، الهدي للحاج والمعتمرة، الحاج إذا كان قارنًا أو متمتعًا أم المفرد ليس عليه هدي.

قال تعالى: ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ [المائدة: 2]، يعني لا تحلوا الهدي لا تتعرضوا له بأي سوء، تجد بعض ضعفاء النفوس يعتدي على الهدي ويسرقه، أو يذبحه، أو يغتصبه، وتجد أحيانًا إيذاء، ما يُسقى ماء، ما يُطعم الطعام، يُحمل عليه أثقال، هذا كله إخلال بالهدي.

قال تعالى: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ [المائدة: 2]، الهدي هذا كان الأول العرب يحجون يأتون إلى العمرة، ويأتون معهم بالهدي، فيتعرض ناس ويأخذون منها، فيأتون يقلدونها يضعون في أعناقها قلائد تُربط، إذا أحد رآها عرف أنها هدي ما يتعرض لها ويتركها.

هذه القلائد يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: **"عظموها"** حتى تجد بعضهم ينزع القلادة هذه علشان يعتدي على الهدي، فالقلائد من قطع اللحاء، أو قطع الأحذية الصغيرة يضعونها، أو أي شيء، قلادة، ربط حبل، هذا يُعرف أنه مُحرم وأنه لله، وموجه لبيت الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: 2]، حتى الناس الذين يقصدون البيت الحرام حتى في وقت الإشراك قبل الإسلام إذا رأوا القافلة متوجهة إلى بيت الله الحرام ما يتعرضوا لهم، هؤلاء جاءوا لله، قاصدين بيت الله، ضيوف الرحمن، ما يتعرضون لهم بسوء.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَلَا آمِّينَ﴾ [المائدة: 2]، يعني قاصدين البيت الحرام، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [المائدة: 2]، يعني تجارات، ﴿وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: 2]، يعني يريدون الرضا من الله بالأعمال، يطوفون ويسعون، ويعملون الأعمال التي يرجون منها الثواب عند الله، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: **"هؤلاء لا تتعرضوا لهم"** إذا جاءوا وقد خرجوا من ديارهم في الطريق ما أحد يتعرض لهم،

وإذا دخلوا مكة ما أحد يتعرض لهم، ولا يؤذون، ولا يصيبهم أي شيء يؤذيهم؛ بل كان في الجاهلية وحتى في الإسلام يحترمون الحجاج والعمار ويقضون حاجاتهم، حتى أدركنا قبل خمسين سنة وأكثر كانوا يكرمونهم إكرامًا عظيمًا، أهل مكة يكرمون الحجاج بالأطعمة، والأشربة، وسقاية زمزم، والرفادة حتى في الجاهلية.

يقول: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: 2]، ثم قال بعدها: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: 2]، إذا تحللت من إحرامك أو خرجت خارج الحرم الصيد لك مباح، صد ما تشاء من الصيود المباحة.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [المائدة: 2]، هذه ذكر بعض أهل التفسير أنها نزلت في صلح الحديبية، المشركون صدوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع أن سائر العرب يدخلون مكة ما أحد يمنعهم، لما جاء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منعوه.

كلّ العرب تدخل مكة ما تمنعها قريش، لما جاء محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه إحرامه ومعه أصحابه قالوا: والله لا يدخل، ومنعوه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 2]، يقول: هم منعوكم لكن لا تعتدوا عليهم، لا تعتدوا بأي طريق فيه عداوة.

قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، أي لا يكسبنكم، ولا يدفعنكم ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾، يعني بغض قوم، لما صدوكم وأنتم أبغضتموهم لا يكون هذا البغض يترتب عليه عداوة أو أحيانًا يصل إلى الإيذاء، إلا إذا مثلما فعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلن الحرب أمامهم، بايع الصحابة بيعة الرضوان، بايعهم على قتال المشركين، إذا وصلهم الحرب وأنهم يقاتلون هذا شيء آخر، لكن خداع وخيانة لا.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: 2].

هذه كلمة جامعة، قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ [المائدة: 2]، ما قال: **"افعلوا البر التقوى"**، ولكن كلمة أكبر من قال: ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ [المائدة: 2]، يعني أنتم مع بعض، يعني كونوا مجتمع متعاون، وتعاونوا على أي شيء؟ قال: ﴿عَلَى الْبِرِّ﴾ [المائدة: 2]، طيب ما هو البر؟ هو: **"اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه"** أعمال يحتك الله عليها داخلة في البر.

والتقوى قال: **"كلّ شيء يحذرك الله منه داخل في التقوى"** يعني كأنها جمعت بين الأوامر والنواهي، يقول: افعل الخيرات واترك الشرور، ﴿وَتَعَاوَنُوا﴾ [المائدة: 2]، وليس فقط أنت تفعل بنفسك لا، افعل مع أخوانك ويكون بينك وبينهم معاونة، وتعارض، وتكاتف، وتضامن المسلمين بعضهم ببعض على خير على البر والتقوى والتحذير من الشر.

ثم صرح قال: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 2]، الإثم الذنوب والمعاصي، الإثم الذي يخصك أنت، والعدوان تعتدي على غيرك، فيقول: **"لا ترتكب المعاصي التي تكون معك أنت خاصة ولا مع الاعتداء على أخوانك الآخرين"**.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: 2]، خافوه، خافوا الله عَزَّ وَجَلَّ واتقوه فيما يأمركم وينهاكم عنه، وفيما يحل لكم ويحرم عليكم، خذ ما أحل الله، وابتعد عما حرم الله، وامتثل أمر الله اجتنب النواهي.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: 2]، شديد العقاب لمن يعصيه، شديد العقاب لمن يرتكب المحرمات، أما الذين يطيعون الله ولا يعصونه ولا يرتكبوا المحرمات؛ فإن الله في حقهم غفور رحيم، يرحمهم أشد من رحمة الوالدة مع أبناءها، رحمة الله فوق كلّ شيء، أما من يعصي الله عَزَّ

وَجَلَّ وهو يعرف هذه الأوامر والنواهي ثم ينتهك حرمات الله ويعصي، وينتهك المحرمات الله عَزَّ وَجَلَّ شديد العقاب.

نقف عنده القدر، والحقيقة المجلس مجلس مبارك فيه خير عظيم تحفه الملائكة بإذن الله، وتغشاه الرحمة، ولكن لا نريد الإطالة عليكم، نقف عنده القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(108)
(المائدة 3)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد؛ ...

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي مجلسنا مجلس القرآن الكريم، نقرأ آيات من كتاب الله، نتأملها نتدبرها، نتفقه في دين الله، ننتفع بهذا ونؤجر على مجلسنا.

لازلنا في بدايات هذه السورة الكريمة **"سورة المائدة"**، ومثلما ذكرنا في اللقاء الماضي أن **"المائدة"** هي **"مائدة المطعومات والمشروبات"**، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بفضله وبرحمته وعنايته بخلقه لم يتركهم هملاً، بل بيّن لهم ما يحتاجون إليه في حياتهم، حتى في المطاعم والمشارب.

ما الذي أباح الله لك أن تأكله؟ وما الذي منعك من أن تأكله؟ وكلّ ذلك يدور في فلك الحكمة العظيمة، الحكمة الإلهية البالغة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يأمر إلا بحكمة، ولا ينهى إلا لحكمة، فإذا أباح الله لك شيئًا؛ فإنه في مصلحتك، وإذا حرم عليك شيء فإنه في مصلحتك.

السورة تدور حول: **"الحلال والحرام، والأوامر والنواهي وغير ذلك"**.

الآية التي بين أيدينا وهي الآية الثالثة من **"سورة المائدة"** يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3]، لو ترجع قليلاً إلى الآية الأولى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: 1]، التي هي: **"الإبل، والبقر، والغنم"** ونحوها، قال: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 1].

يقول: هذه مباحة بهيمة الأنعام إلا التي ستتلى عليكم، طيب ما هي التي ستتلى علينا؟ الآن يأتيك التي تتلى عليكم حتى تعرف ما الذي أباحه الله لك؟ وما الذي حرمه عليك؟

ولنعلم أيضًا جميعًا أن الأصل في المآكل والمشارب الحلال، كلّ المآكل المشارب الأصل فيها أنها مباحة، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]، يعني خلقه لكم فهو مباح، إلا ما دل الدليل عليه، فالأصل الإباحة.

لو جاء واحد وقال: **"هذا حرام لا تأكله"** قل: **"أعطني الدليل فالأصل الإباحة"** فلا يمكن أي إنسان مخلوق أن يحلل أو يحرم إلا بالدليل، أما أن يقول بلسانه هذا حلال وهذا حرام هذا افتراء على الله، وقول على الله بغير علم.

ولذلك ما يستطيع أي مخلوق يقول: هذا حرام أو هذا حلال إلا بالدليل الشرعي من الكتاب والسنة، نستمع الآن إلى ما هي المحرمات التي حرمها الله؟

المحرمات قليلة، إذًا الأصل أن الأشياء هذه كلها مباحة، المحرمات محصورة.

يقول تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3]، لما تسمع **"حُرمت"** من الذي يُحرم؟ نقول: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كيف عرفت؟ نقول: الله ذكر في آية أخرى قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ﴾ [البقرة: 173]، يعني الله حرم عليكم.

هنا يقول: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3]، ما هي الميتة؟ الميتة هي التي تؤكل ولكنها ماتت حتف أنفها، ماتت بغير تذكية، يعني زهقت روحها خرجت روحها ميتة، سواء من الغنم، أو من

الإبل، أو من البقر، أو من الصيود أو غير ذلك، كلّ ما خرجت روحه بغير تذكية نقول: هذه ميتة.

✍ طيب هذه الميتة الآية هل هي محرمة دائمًا؟

✍ كلّ الميتة محرمة؟

نقول: لا، في ميتة مباحة، ما هي التي تكون ميتة ويجوز لنا أكلها؟ نقول: **"السمك والجراد"**، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«أحلت لكم ميتتان السمك والجراد»**، يعني لو وجدت السمك على شاطئ البحر ميت لك أن تأكله؛ لأنه لا يُذكى، الجراد لك أن تأكله لأنه لا يُذكى، فهذا معنى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3]، إلا ما استثني، مثل **"السمك والجراد"**.

✍ هذه الميتة التي حرمها الله مثل الغنم هل هي محرمة جميعًا أم فيها أجزاء مباحة؟

نقول: فيها أجزاء مباحة، ما هي؟ الجلد، جلد الميتة إذا دُبغ يجوز استعماله، شعرها، ظفرها، كلّ هذا منفصل يجوز أخذه، أما اللحم والشحم وسائر أجزائها هذا لا يجوز؛ لأنها محرمة، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3].

ثم قال بعدها: ﴿وَالدَّمُ﴾ [المائدة: 3]، الدم مُحرم، كيف مُحرم؟ نقول: الدم جاء تفسيره في آية أخرى، ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: 145]، ما هو الدم المسفوح؟ هو الذي يخرج عند التذكية، إذا جئت تذكي ووضعت السكين على حلق البهيمة وذكيتها يخرج دم قوي، هذا الدم المسفوح مُحرم، ونجس، لو أصاب البدن أو الثياب يجب غسله هذا نجس.

طيب إذا عرفت أن الدم هنا هو الدم المسفوح أيضًا يدخل في ذلك الدم الذي يُفصد من البهيمة وهي حية، كانوا يأتون على الإبل ويفصدون من عرقها ويشربونه، نقول: هذا حرام، **"كلّ ما أُبين من حي فهو حرام"**.

✍ طيب هل الدم هذا كله محرم أم فيه شيء مباح؟

نقول: فيه مباح، **"الكبد، والطحال"** هي أصلها دم ومع ذلك مباحة، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«أحلت لنا ميتتان ودمان، الميتتان السمك والجراد، والدمان الكبد والطحال»**، فالطحال دم جامد، والكبد دم جامد، وهذا يجوز لأن الشريعة استثنته.

قال بعدها: ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: 3]، لحم الخنزير نجس كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: 145]، لحم الخنزير نجس، وحتى نفهم جميعًا أن الله لما حرم هذه الأشياء حرمها لحكمة، وحرمها لمصلحة الخلق؛ لأن هذه فيها أضرار؛ لأن التذكية تخرج أضرار البهيمة، لما تُذكى تخرج أضرارها، وما فيها، وكذلك الميتة ضارة، الدم ضار، ولحم الخنزير ضار ولذلك حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

✍ لو جاء شخص وقال: الله يقول لحم الخنزير طيب والشحم والعظام والعروق والأعصاب هل تجوز؟

نقول: كلّ الخنزير محرم، كله محرم، حتى شعره وكلّ شيء، طيب الله يقول: لحمه ما قال غيره؟ نقول: لأن الآية تتكلم عن المأكولات، الشعر ما يؤكل، المأكولات محرمة؛ ولأن الذين يأخذون الخنزير غالبًا يأخذون لحمه ويأكلونه.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: 3]، يعني الأصل في الإهلال رفع الصوت عند التذكية، إذا جاء يذكي البهيمة يذكيها برفع صوته **"بسم الله، والله أكبر، اللهم هذا منك ولك، اللهم تقبله مني"** هذا عند الأضحية مثلاً أو في غير الأضحية يُذكي يقول: **"بسم الله والله أكبر"**.

كانوا في الجاهلية يهلون بأصنامهم فيقولون: **"بسم الله بسم العزى"** وتجد النصارى يهلون بأي شيء يذبحون؟ يقولون: **"بسم المسيح"** النصارى من العرب أو غير العرب يقولون: **"بسم المسيح"**.

المهم أن أي بهيمة لما يُذكر اسم غير الله عليها تكون محرمة، ولو ذكر اسم الله وذكر غيره معه فقال: **"بسم الله والمسيح"** حرمت.

فالمقصود: أن الذبح لا يكون إلا لله وهو عبادة، نوع من العبادة، ولا يكون إلا لله، ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: 2]، فالذبح عبادة ولا يكون إلا لله، فمن ذبح وذكر اسم غير الله على البهيمة حرم أكلها ولا يجوز الانتفاع بها.

قال تعالى: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ [المائدة: 3]، ما هي المنخنقة؟ التي انخنقت بأي شيء، تجد في البهائم يضعون حبل في عنقها فتنخنق أو تدخل رأسها في شيء فتنخنق، فإذا انخنقت وماتت بالخنق هذه

لا يجوز أكلها، لكن لو جئت إليها وهي قد انخنقت أدخلت رأسها في شيء ورأيت أنها انخنقت لكن ما زالت الأنفاس فيها وكما قال أهل العلم: **"عينها تطرف تتحرك والنفس لا يزال فيها"** يذكيها مباشرة، تذكيرها وتصير مباحة، لكن لو جئت وأصبحت ميتة من الخنق خلاص هذه تعتبر ميتة.

قال تعالى: ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ [المائدة: 3]، الموقوذة من الوقذ وهو الضرب، تُضرب بشيء فتموت، إما بلوح خشب و بحجر أو بلك أو نحو ذلك، أو يؤخذ مثلاً طائر ويُضرب بالجدار ثم يموت، المهم أنها موقوذة مضروبة بأي شيء، أو أحيانًا تأتي السيارة وتصدمها بقوة فتسقط على الأرض وتموت، نقول: هذه موقوذة ماتت بالضرب، أي حتى لو كان يضربها مثلاً بعصى ثم سقطت وماتت، لأنه قد يضربها على وجهها أو على مكان فيه مقتل ثم تسقط وتموت، سواء الطيور أو الحيوانات أو بهيمة الأنعام ونحوها، إذا ضُربت بشيء تسمى موقوذة لا يجوز أكلها، إلا إذا وجدت فيها حياة تذكيها.

قال تعالى: ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ [المائدة: 3]، المتردية التي تتردى من أعلى، مثل أن تسقط من السقط، أو من جدار، أو من مكان عالي، أو تسقط من السيارة، أحيانًا يحملونها في سيارات عالية، فتسقط من السيارة فتتردى وتسقط على الأرض وتموت، هذه نسميها متردية، فهذه إذا ماتت أصبحت ميتة محرمة، إلا إذا أدركت فيها حياة فلك أن تذكيها.

قال تعالى: ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ [المائدة: 3]، يعني المنطوحة يعني نطحتها أختها، أحيانًا تتناطح الأغنام بعضها مع بعض، فإذا نطحتها سقطت ميتة، أو يأتي حيوان كبير مثل الثور أو الجمل فينطح صغير فيموت، فإذا نُطح هذا المنطوح ومات أصبح ميتة لا يجوز أكله، إلا إذا وجدت فيه حياة فلك أن تذكيه.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ [المائدة: 3]، السبع هو الحيوان المفترس، مثل الذئب، والنمر، والأسد، ونحوه، إذا اعتدى على حيوان مأكول مثل بهمية الأنعام، الذئب يدخل على غنم ثم يعتدي عليها أكل السبع جزء منها، فجئت أنت ووجدت فيها حياة تذكيها، وإذا ما وجدت فيها حياة مثلاً قطع شيئًا منها ثم جئت ووجدتها ميتة، أحيانًا الذئب يفترسها فيشق أمعاءها بطنها ثم تسقط على الأرض فتموت، هذا أكلها السبع.

✍ طب والبقية نأكلها؟

نقول: لا، ما تؤكل، إلا إذا افترسها بقوة وهرب ووجدت فيها حياة لكنها لا تعيش، فتذكيها وتأكلها.

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: 3]، إلا الذي ذكيتموه يعني ذبحتموه أدركتموه فهذا جائز.

ثم قال بعدها: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: 3]، وهذه من أعمال الجاهلية، كانوا يأتون بحجارة عند الأصنام، وهذه الحجارة يذبحون عندها، يعظمون الأصنام عند هذه التجارة، كانت نصب، النصب هذه حجارة فيذبحون عندها.

✍ يذبحون لأي شيء؟

قال: يذبحون لأصنامهم، إذًا هم يعظمون غير الله، فما ذُبح لأي مخلوق تعظيمًا له حتى لو كان إنسان ما ذُبح لأي مخلوق يذبح لهذا الإنسان المخلوق سواء كان رجلاً أو امرأة أو أي شيء، تذبح لأجل هذا الشخص هذا لا يجوز.

قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ﴾ [المائدة: 3]، تستقسموا يعني تتقاسموا، قسمة، طيب ما هي الأزلام؟ الأزلام هي أقداح، أسهم توضع في جراب كبير، هذا الجراب يضعون فيه ثلاثة أسهم، واحد من الأسهم مكتوب عليه **"افعل"** والثاني **"لا تفعل"** والثالث مكتوب عليه **"غُفُل"** يعني أعد،

فيأتي الواحد منهم إذا أراد أن يفعل شيء يريد مثلاً أن يتزوج، يريد أن يسافر، يريد أن يدخل في مشروع، يفعل أي شيء، يذهب إلى هذه الأزلام ويحركها بقوة ثم يدخل يده ويسحب واحد.

إذا خرج مكتوب **"افعل"** مضى خلاص سافر أو تزوج أو كذا.

إذا خرج **"لا تفعل"** خلاص يترك ما يسافر أو ما يتزوج أو ما يدخل في هذه التجارة أو ونحو ذلك.

إذا خرج الثالث المكتوب عليه **"غُفُل"** يعيد مرة ثانية حتى يخرج **"افعل"** أو **"لا تفعل"**.

تتعجب ماذا عند هذه الأشياء؟! لا تعلم الغيب؛ بل قد تمنعك من شيء قد يكون خير لك، ولذلك الإسلام جاء ببديل، ما هو البديل؟ صلاة الاستخارة، تريد أن تسافر وأنت متردد صل ركعتين ثم تدعو بدعاء الاستخارة، تريد أن تتزوج ولا تدري أن هذا البيت خير لك أن تقدم عليه أو تذهب إلى بيت آخر متردد صلي صلاة الاستخارة.

تريد أن تدخل في مشروع تجاري وأنت ما تدري متردد نقول: صل صلاة الاستخارة، تريد أن تشتري أرضًا، تشتري دارًا، تشتري سيارة ومتردد صل صلاة الاستخارة، صلاة الاستخارة معناها أنك تطلب من الله الخير في هذا أو هذا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم بك، وهو الذي يدلك على الخير، فإذا انشرح صدرك لهذا الذي الشيء فامضي فيه، إذا لم ينشرك صدرك اتركه، هذا معنى الاستخارة، فالله أبدلنا بصلاة الاستخارة.

أما هذه الأزلام فهي رجس من الشيطان، هذا من عمل الشيطان، كما قال تعالى: ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: 90].

قد يسألك سائل يقول:

الاستقسام بالأزلام ما هي علاقته ببهيمة الأنعام بالمنخنقة والموقوذة والميتة والدم؟

نقول: كان في الجاهلية الأصل في الاستقسام أنهم يأتون على جزور الإبل، يأتون على الجزور ثم يقسمونه أقسام مختلفة، مثلاً ربع ثم ثمن ثم ما هو أقل، ثم ما قد يكون قطعة صغيرة، وهم قد اشتركوا فيه، ثم يأتون يقولون: تعالى يا فلان أدخل يديك وأخرج، ثم إذا أخرج مكتوب عليه مثلاً النصف، يأخذ النصف، تأخذ النصف وأنت ما دفعت إلا شيء قليل؟!

وآخر يأخذ قطعة صغيرة فصار في تفاوت، صار في ظلم لبعضهم، وأخذ مال الآخر، وذلك أصله في الجزور، ولذلك ذكره الله هنا في المحرمات.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: 3]، أكل المحرمات والتعامل بالأزلام كله فسق، معنى فسق يعني خروج عن طاعة الله، لا يجوز التعامل به.

ثم بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نعمته على هذه الأمة منذ أنزل القرآن عليها وبعث فيها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبين نعمته، قال: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: 3]، متى؟ لما أظهر الله الإسلام، وهذه الآية نزلت متى؟ نزلت في حجة الوداع، في آخر عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لما أنزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الآية في حجة الوداع قد كمل الدين، وقد فُتحت مكة ودان العرب لدين الإسلام أو لمحمد، قال: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: 3]، يئسوا أنكم لا تتمسكون؛ بل أنتم الآن أصبحتم متمسكين بالدين، فهم يئسوا أنكم تتركون دينكم، ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ [المائدة: 3]، القوة لكم، ﴿وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: 3]، واخشوني أنا، خلي الخشية لله، وليست للمخلوق، لا تخشاهم.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]، وهذه التي نزلت في حجة الوداع، قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]، أكمل الله لنا الدين خلاص ما في نقص، أكمل الله لنا الدين حتى فُتحت مكة وبدأ الناس يحجون.

قبل أن تفتح مكة أو قبل أن يحج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحج المشركون فمنعوا، لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، فمُنعوا، فقال الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: 3]، فأصبح المسلمون يحجون.

قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: 3]، أعظم نعمة نعمة الدين والإسلام، ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، فرضي الله لنا هذا الدين، ورضينا به، فهذه من أعظم النعم، ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

ولذلك جاء يهودي إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: **"يا أمير المؤمنين إن آية في كتاب الله عندكم لو نزلت علينا نحن معاشر اليهود لجعلنا ذلك عيدًا، قال: ما هي؟ قال: هذه الآية، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]."**.

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"والله إني أعلم متى نزلت؟ نزلت ورسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على راحلته واقف بعرفة"** وعرفة بلا شك من أعظم الأيام، نزلت عليه عشية عرفة، يعني هذا من أعظم من أن تتخذوا عيدًا.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ [المائدة: 3]، الآن يعيدك إلى المحرمات، يقول: هذه المحرمات الأصل أنك لا تأكلها، لكن في حالة قد تضطر أن تأكل ميتة، أو تأكل منخنقة أو موقوذة، قد تضطر إلى ذلك متى؟

قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ [المائدة: 3]، في شدة مجاعة، ما وجد شيء يأكله، واضطر إلى أن يأكل مخمصة، ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: 3]، لا يقصد بذلك الإثم، يعني لا يريد أن يأكل كثير أو ينقل معه، تجد بعض الناس إذا عرف أن الله أباح له الميتة يأكل ويتزوج ويأخذ معه، نقول: لا تأخذ إلا بمقدار ما يسد الرمق، حتى ما تشبع أصلاً، ما تأكل حتى تشبع لا؛ بل تأكل حتى تذهب عنك شدة الجوع.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 3]، من فعل ذلك مضطرًا في مخمصة في شدة جوع؛ فإن الله غفور رحيم.

لما يقول: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 3]، يدل على أنه حرام، لكن الله تجاوز عنك لأنك مضطر، بقية الآيات تأتي كلها في المحرمات وفي الحلال وفي الحرام، وكلها الحقيقة يحتاجها الكثير من الناس.

أحيانًا تأتيك بعض اللحوم من خارج المملكة وأنت لا تدري ولم تر هي ذُكيت أم لم تُذك؟ هل ذبحت بالطريقة الإسلامية أو لم تُذبح فماذا تصنع؟ هل تأكل أو لا تأكل؟ مثل هذه الأشياء هذه من المشبهات الغامضة، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات فقد استبرئ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»**.

فأنت إذا اشتبه عليك الأمر، ولم يتضح اتركه، أما إذا لم يشتبه عليك الأمر أو ظهرت معالم أنه مباح وعرفت أنهم يذكونها ويذبحونها فهذا الأصل فيه الجواز، والأصل فيه الحل، ولا تتعب نفسك بالبحث الأصل حلال، إلا إذا جاءك خبر أو أحد أخبرك بشيء فإنك تتجنبه.

وعندنا أيضًا قضية أخرى وهي: **"ما يذبحه أهل الكتاب اليهود والنصارى"** الله أباح قال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: 5]، فما يذبحه اليهود والنصارى على دينهم نقول: الأصل فيه الحلال ويجوز أكله، لكن لو تبين لك أنهم لا يذبحون، يعني نسمع أحيانًا يقولون: الصعق الكهربائي، أو يُغرق بماء، أو مثلاً ما يسمى بالنطيحة، يعني رمى عليه حجر أو كذا، إذا تبين أنهم ميتة لا يجوز أكله، اتضح لك أنه ميتة لا يجوز أكله.

أما إذا لم يتضح لك فالأصل في طعام اليهود والنصارى أنه جائز، يعني ليس لك علاقة بدينهم وإنما لك علاقة بأنه جاء من جهة تدين بدين النصرانية أو دين اليهودية، سيأتي الكلام عن هذه إن شاء الله مفصلاً أكثر. نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وما سمعنا.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(109)
(المائدة 4 - 5)
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء وسيد الأولين والآخرين نبينا وحبيبنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين، وبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمارنا.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هذا اليوم هو يوم الأربعاء الموافق للخامس والعشرين من شهر ذي القعدة من عام 1444 للهجرة.

في درسنا المبارك مع القرآن الكريم كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نجلس هذا المجلس نتدارس ونتأمل آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه الأوقات أو هذا الوقت الذي تعيشه مع القرآن الكريم قراءة، تدبرًا، تأملاً، تفسيرًا، وبيانًا، والله يخاطبك بهذه الآيات وأنت تستمع لخطابات الله الحقيقة هذا من أجلّ وأعظم الأوقات التي تقضيها في حياتك كلها.

وستعلم هذا حقيقة أن أجل الأوقات التي تمضي في حياتك أن تكون مع القرآن الكريم، ومع كلام الله خير الكلام.

السورة التي معنا **"سورة المائدة"**، ومثلما ذكرنا **"المائدة عليها المطاعم والمشارب"**، ما الذي يجوز من المطاعم ومن المشارب؟ وما الذي يحرم؟ ما الذي يجوز من المآكل؟ وما الذي يحرم؟

هذا يحتاجه الإنسان في حياته، إذا أراد أن يأكل ماذا يأكل؟ والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«أيما جسد نبت من سحت أو من حرام فالنار أولى به»**، فماذا تأكل؟ وماذا تشرب؟

مر معنا في اللقاء الماضي المحرمات، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: 3]، إلى آخر المحرمات، إذا عرفت هذه المحرمات ما سواها مباح، كلّ الأشياء التي على الأرض من المآكل والمشارب كلها مباحة، أي مشروب ما دل الدليل على تحريمه فهو مباح، وأي مأكول من الأشجار والثمار من الحيوان كله مباح إلا ما دل الدليل على تحريمه.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا المحرمات قال بعدها: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة: 4]، من السائل؟ هم الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، سؤالهم يدل على أي شيء؟ يدل على حرصهم، وعلى شريعتهم وعلى أحكام الله وحرصهم على ما يرضي الله، وما الذي ينبغي لهم أن يفعلوه؟

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾، الصحابة أو بعض الصحابة جاءوا سألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة: 4]، لما سمعوا المحرمات؛ قالوا: ما الذي يُباح لنا؟ ماذا أُحل لنا؟ ماذا رد القرآن عليهم؟

قال: ﴿قُلْ﴾ [المائدة: 4]، قل يا محمد، وهذا يدل على أن الذي نزل القرآن هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن محمد لم يأت بالقرآن من عنده وإنما هو وحي، قال له: قل لهم، أجبهم، ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: 4].

هذا جواب مُجمل يدخل فيه كلّ الطيبات، طيب ما هي الطيبات؟ **"الطيبات ما استلذ وطاب وعُرف في أعراف الناس أنه من الطيب، من العقول السليمة، والشرع دل على أنه طيب فهو من الطيبات"** وهذه قاعدة تنطلق منها، أي شيء طيب كله، إذا كان تستلذه وتطيبه وهو حلال لم

يكن بطريق محرم كالسرقة ونحوه طريق مباح أخذته اشتريته أُهدي إليك وهو من الطيبات فكله من الطيبات.

✍ لما تسمع مثل هذا الكلام ماذا يدل عليه؟

يدل على: **"أن الخبائث مُحرمة، على أنواع وصورها وأشكالها"**، ويدخل في ذلك شرب الدخان، لو سألنا أي إنسان يتعاطى الدخان أو غيره وتسأله تقول: هل هو طيب أم خبيث؟ لقال: لا والله ما هو بطيب.

هل أنت عندما تتناول هذا المشروب الدخان تقول: بسم الله؟ يقول: لا والله، هل إذا انتهيت منه تقول: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا؟ ما تقول هذا؛ بل تضعه تحت قدميك، هذا يدل على أنه خبيث، فضلاً عن أن ندخل في تفاصيل أضراره الصحية والبدنية إلى آخره.

فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: 4]، يدل على أن كلّ خبيث محرم، ويدخل في ذلك الحشرات الخبيثة، والدواب، والثعابين، إلى آخره، التي تجد من الناس أو طوائف من الناس يأكلونها، فهي من المحرمات؛ لأنها خبائث، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصف نبيه في سورة أخرى قال: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: 157]، ما قال: **"مكروه"** ولا شيء، وإنما قال: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: 157]، أي خبيث حرام.

ثم قال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ [المائدة: 4]، الذين سألوا الصحابة هم رجلان **"عدي بن حاتم الطائي"** و**"زيد بن المهلهل"** يُسمى **"زيد الخير"** هؤلاء هم أهل صيود، يذهبون إلى الصحراء ويصيدون، يصيدون بالكلام والصقور والطيور وغيرها.

فلما سمعوا ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ [المائدة: 3]، يعي المضروبة بالوقذ بالحجر، هذه محرمات، قالوا: طيب والصيود نأكلها ولا ما نأكلها؟

جاء الجواب: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ [المائدة: 4]، لابد أن تكون هذه الجوارح التي هي الكلاب والفهود والطيور الصقور والبازي هذه لابد أن تكون معلمة؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾ [المائدة: 4]، يعني ليس كلّ كلب يصيد لك تأكله لا، لابد أن يكون معلمًا.

✍ طيب كيف نعرف أنه معلم؟

قال: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: 4]، يعني الكلاب، ومن هو من جنس الكلام مما يصيد، والطيور الصقور إذا كانت معلمة يجوز أكل صيدها، كيف تعرف أنها معلمة؟ مُدربة.

✍ كيف نعرف أنها معلمة؟

أنها إذا أُرسلت تسترسل، إذا أطلقتها على صيد تروح تأتي بالصيد، سواء كلب أومن الصقور، إذا رأيت طير في السماء ثم أطلقت الصقر وذهب إليه فهذا مُعلم، وإذا زجرته ينزجر، يعني إذا دعوته إليك ما يذهب وإنما يرجع، فإذا كان معلمًا بهذه الطريقة ولا يأكل من الصيد.

بعض الكلام غير المعلمة تذهب وتصيد وتأكل الصيد، تطلقها أنت تأتي بالصيد كالأرنب ونحوه وتأكله، هذا غير مُعلم؛ بل يصيده ويـأتي به إليك، ويضعه بين يديك، هذا يُسمى مُعلم، خلاص دربته أنت وعلمته.

قال تعالى: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: 4]، الله هو الذي علمك، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 5]، لابد أن يكون معلمًا، وفيه فضيلة العلم حتى مع الكلاب، شوف الجهل في الكلاب ما يبيح لك الأكل، إذا كان الكلب جاهلاً فكيف بالإنسان إذا كان جاهلاً؟ هذا ذم لمن يكون جاهلاً في معرفة دينه ومعرفة أحكامه، أحكام الله، ففيه فضل، فضل الله الكلب المُعلم لأنه تعلم، على الكلب الغير مُعلم.

ثم هناك شرط مهم قد يغفل عنه في الصيد: إذا أطلقت الصيد سواء كلبًا أو من الصقور لابد أن تسمي عليه، ولذلك قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 4]، إذا أطلقته تقول: **"بسم الله"** وتطلقه، فيأتي بالصيد لك.

إذا أتى بالصيد لك وهو حي لابد أن تذكيه، ما تتركه حي حتى يموت لا، إذا أتى بالصيد أمامك تأخذ الصيد سواء طائر، أو من صيود البر كالغزال، والأرانب إذا أتى به وهو حي ما زالت الحياة فيه تذكيه.

إذا أتى به وهو قد مات هذا يُعتبر مباح، بشرط أن يجرحه يسيل الدم منه، لو جاء به وهو ميت غير مجروح ما تأكله، لأنه قد يكون مثلاً ضربه بيده أو برجله أو هو سقط على جبل مثل الطائر أحيانًا إذا لحقه صقر يضرب بجبل ويسقط في الأرض، أو مثلاً الأرنب أو الغزال ضرب شيء ما تدري؛ لأنه قد يكون مات من غير الصيد، لكن الكلب لابد أن يجرحه، والصقر إذا أطلقته وصاد الطير إذا صاد الطير يجلس في الأرض ويجرحه ثم يأتي به إليك مجروح قد سال الدم منه، هذا يُعتبر مُعلم.

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: 4]، اتقوا الله فيما تأتون وفيما تذرون، اتقوا الله في الحلال والحرام، ليس الحلال والحرام بيدك أنت، الذي يحلل ويُحرم هو الله.

في هنا نقطة مهمة وهي: **"الكلاب"** الكلاب لا يجوز اقتناؤها، لا يجوز أن تأخذ كلب وتضعه عندك إلا أن يكون كلب صيد، أو كلب حراسة، مثل أن يحرس لك الغنم في الصحراء والمخيمات، أو كلب حرث، وما سواه لا يجوز.

وما نشاهده الآن في البيوت ويضعون في السيارات وفي الطرقات ويمشون به؛ هذا لا يجوز، **"من اقتنى كلبًا غير هذه الأشياء نقص من حسناته كلّ يوم قيراط مثل جبل أحد"** كم عندك من حسنات علشان توزعها على كلب؟!!

هؤلاء الذين يضعون كلاب في البيوت عند الأبواب، وفي السيارات، وفي الطرقات هؤلاء ما الغرض من ذلك؟ ما في غرض إلا الافتخار أمام الناس أنا معي كلب وكذا، أو ضياع الوقت، أو دفع الأموال، تجد بعضهم يشتري له أطعمة خاصة، ويشتري له أدوات تنظيف خاصة، ويضع له مكان خاص، وينفق عليه الأموال ولا يستفيد منه؛ بل يأخذ منه حسنات، هذا كلّ يوم يأخذ منه حسنات دون فائدة، أما إن كان كلب صيد تذهب به الصحراء وتصيد هذا جائز.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: 4]، لما تقف عند كلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: 4]، لماذا قاله الله في هذا الموضع ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: 4]..؟ أنت تقرأها وأنت تمر على هذه الآية ما تدري، ما تقف عندها، لكن نحن نحتاج إلى وقفة لماذا؟

لو تذهب إلى أحد أصحاب الصيود في البراري اسألهم كيف يمضي الوقت عليهم؟ كيف تمر الأيام عليهم؟ تمر الأيام عليهم كالبرق سريع، الملاحقة في الصيد أحيانًا نصف يوم وهو يلاحق في صيد، ويذهب عليه الوقت، ووقت ثمين، وقتك تستغله في طاعة الله، تستغله في كذا وكذا، ما تضيعه في الصيود والبراري، ما خُلقت للصيد والبراري، ولذلك يذكرهم الله ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: 4].

إن الله سيحاسبكم على أوقاتكم، وسيحاسبكم على ما تقضونه وتمضونه في مثل هذه الأشياء، فراجع نفسك واتق الله، ولا يُلهيك الصيد.

من أشد طرق اللهو الصيد، هذا معروف عند الكثير، تجده يقطع مسافات أو كيلوات ليلحق صيدًا، ما يدري هل يدركه أو لا يدركه؟

✍طيب هل هذه هي طرق الصيد وأدوات الصيد ولا في غيرها؟

نقول: في غيرها، غير الكلاب وغير الطيور في، ما هي؟ قال: أدوات الصيد، البنادق، الساكتون والبنادق هذه أدوات صيد تصيد بها، إذا رأيت الصيد طائر فوق شجرة، وأخذت معك هذه الآلة البندقية وقلت: بسم الله وأطلقت وصدته هذا جائز، جائز الصيد؛ لأن هذه أداة جارحة، والأداة الجارحة يجوز الصيد بها؛ لأنه إذا ضربته يسيل الدم منه، فهذا جائز.

✍ إذا كانت الأداة غير جارحة لا يجوز، مثل ماذا؟

أحيانًا السهم يدخل ويجرح، وفي أحيانًا سهام ما تجرح تضرب وهو يطيح، أو أنت تأخذ معك حجر وتضربه، أو تأخذ معك عصا وتضرب الطير، يأتون إلى طيور الحمام ويضربها بالعصا وتسقط وتموت، نقول: ما جرحته؟ هذا وقيذ، موقوذة هذه ما يجوز أكلها.

أو ما يسمونه الآن بعض الشباب الصغار الصبيان يصمونه **"النباطة"** فيها حجر، فيأخذ هذه ويلقيها على هذا الطائر ثم يسقط في الأرض، هذا لا يجوز أكله، أفتى العلماء بأنه لا يجوز؛ لأنه غير أداة صيد، هذه ما هي أداة صيد، أدوات الصيد معروفة، ومثلها مثلما ذكرنا أدوات الصيد الحديثة بالبنادق ونحوها هذه جائزة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ﴾ [المائدة: 5]، يقصد باليوم نزول الآية، يقول: هذه الآية نزلت الآن اسمعوا، ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: 5]، أعاد مرة ثانية.

✍ طيب لماذا أعادها وهو ذكرها أول شيء؟

✍ ما الفائدة من الإعادة؟

قال: يعيدها ليرتب عليها ما بعدها.

قال: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: 5]، ثم ما هي الطيبات؟ علشان تعرفها أكثر قال: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: 5]، طعامهم ما هو؟ ليس النباتات والأشجار والفواكه والخضروات والحبوب لا، ما يُقصد هذا، هذا طعام من أهل الكتاب ومن غيرهم جائز، ولو كان مشرك جائز، المراد هنا بالطعام الذبائح، ذبيحة الإبل، البقر، الغنم، ونحوه.

يقول: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: 5]، لأنهم أهل كتاب؛ ولأنهم يذكون، لكن إذا كان هذا الكتابي اليهودي والنصراني لا يُذكي لا تجوز ذبيحته، كيف؟ مثلما يضعون الآن الصعق الكهربائي، أو الماء الحار، أو بالوقذ يضربون حيوانات مثل الأبقار يضربونها بآيات ثم تسقط ميتة ما ذكوها، ثم يدخلونها المصانع، هذا وقيذ محرم لا يجوز، مهما كان يهودي أو نصراني أو مسلم، حتى لو كان مسلم، حتى لو كان في بلاد المسلمين ويستعمل هذه الأشياء الصعق الكهربائي والضرب ونحوه هذا ما يجوز.

يأتون إلى الدجاج ويصعقونها بالصعق الكهربائي أو الضرب أو بالماء الحار أو نحوه، هذه ليست تذكية، المباح أن يُذكى، لابد من التذكية، وإلا تعتبر ميتة ما يجوز أكلها، ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ﴾، أيضًا أنتم ﴿حِلٌّ لَهُمْ﴾ [المائدة: 5]، يعني لو أرادوا أن يشتروا منكم ذبائح تبيعونهم ما تمنعونهم، حلٌّ لكم.

ثم لما ذكر الطيبات من المآكل والمشارب ذكر الطيبات من المناكح، الزواج، قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [المائدة: 5]، يقول: يجوز لك أن تأخذ الطيبة تتزوجها، المحصنة العفيفة الحرة، المؤمنة، يجوز أن تتزوج ما شئت من النساء ولا تتجاوز أربع، تتزوج ما شئت.

ثم قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: 5]، مثلما ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ لنا أنه يجوز أكل ذبائح أهل الكتاب أيضًا يجوز أن نتزوج بنساء أهل الكتاب، قال: لابد أن تكون محصنة حرة عفيفة، أما أن تكون فاجرة أو مملوكة فهذا لا يجوز، لابد أن تكون حرة عفيفة من أهل الكتاب.

بشرط ماذا؟ قال: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: 5]، لابد أن تدفع المهر، المهر لا يسقط بأي حال، ولذلك لما جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: زوجني هذه المرأة؟ لما سأله قال: ما عندي شيء، قال مهرها؟ قال: ما عندي شيء، قال: **«التمس ولو خاتم من حديد»**، قال: ما عندي ولا خاتم من حديد، قال: **«هل عندك شيء من القرآن؟»**، قال: نعم أحفظ سورة كذا، سورة

كذا، قال: زوجتك بما معك من القرآن، حفظها وهذا مهرها، لابد من المهر، ولذلك قال: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: 5].

يبقى عندنا مسألة: **"زواج المسلم من الكتابية اليهودية والنصرانية"** القرآن أباح، ولا يستطيع إنسان يأتي يقول: مُحرم، لكن كرهه الصحابة ومن جاء بعدهم لماذا؟ لأن بنات المسلمين أولى، بنات جنسك المسلمات أولى أن تأخذ من غيرهن.

الأمر الثاني: **"أن يكون لها تأثير عليك في عقيدتك"** الزوج قد يتأثر بها، أو الأبناء تربيهم على عقائد فاسدة ولا تربيهم على التوحيد والصلاح، ففيها مفاسد كثيرة، فلما رآ العلماء أن فيها مفاسد كثيرة قالوا: تركها أولى، ولم يأت أحد ويقول: حرام، لكن تركها أولى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هذه شروط المرأة أن تكون **"حرة، عفيفة، مُحصنة، ويُدفع لها أجرها مهرها"**.

طيب والرجل؟

قال: **"أنتم الرجال لابد أن يكون الرجل محصنًا"**، قال: ﴿مُحْصِنِينَ﴾ [المائدة: 5]، الرجل عفيف، الرجل لابد أن يكون عفيفًا ما يكون فاجرًا، ما يكون زانيًا؛ بل يكون رجلاً صالحًا سليمًا عفيفًا.

قال: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ [المائدة: 5]، لا تقصدون بالزواج المسافحة وهو الزنا جهارًا، ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: 5]، وهو الزنا خفية يجعل له صديقة، كلّ هذا باطل ومحرم، عقد الزواج الصحيح هو الذي أباحه الله، هذه أحكام الإسلام فيما يخص الإنسان في حياته، ويلتمسه في حياته وفي أيامه، ولابد، أكل، شراب، طعام، زواج، هذه يعني تختلط بالإنسان.

ولذلك قال بعدها: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ [المائدة: 5]، لأن هذه من الإيمان، ومن الطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ [المائدة: 5]، النتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: 5]، إذا مت وقد كفر بالإيمان وارتد حبطت أعماله الصالحة كلها ذهبت.

إذا لم يمت وعاد إلى الإسلام عادت له أعماله، قال: ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 5]، قد خسر دينه ودنياه، وخسر آخرته، وأصبح من الهالكين في الآخرة، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، دقائق مضينا ما أخذت منا وقت طويل واستفدنا فوائد كثيرة مهمة، تعرف ما الذي يجوز لك من الأكل، والشرب، والصيود، والزواج، وطعام أهل الكتاب، كلّ هذا يحتاجه الإنسان، نسأل الله أن ينفعنا، نلقكم إن شاء الله على خير في لقاء قادم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(110)
(المائدة 6 - 7)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا المجلس مجلس القرآن الكريم، نتذاكر ونتدبر آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والسورة التي بين أيدينا وقد جلسنا معها مجالس في لقاءات ماضية هي **"سورة المائدة"**.

والآيات التي بين أيدينا أو هذه الآية هي الآية السادسة من السورة، والحقيقة هذه الآية تهم الجميع، ويحتاجها الجميع، وكلٌّ يُطبقها في اليوم أكثر من مرة.

ولذلك لابد من كلّ إنسان أن يُراجع هذه الآية، ويراجع كلام أهل التفسير في معناها، وفي أحكامها؛ لأنها مشتملة على أحكام تهم الجميع، أحكام تتعلق بالصلاة، الصلاة يؤديها الإنسان يوميًا.

وهذه الصلاة لها مفتاح، مفتاحها الطهارة، والحقيقة أن الطهارة والصلاة أيضًا نجد من يُخل في كيفية الطهارة، ويجعل بعض أحكام الطهارة، ويجعل بعض أحكام الصلاة، وليس عجبًا أن تُراجع أحكام الطهارة كيف تتطهر؟ كيف تتوضأ؟ تُراجع أحكام الصلاة كيف تصلي؟

كثير نلاحظهم يقعون في أخطاء كثيرة في الوضوء، وقد تكون هذه الأخطاء تُخلّ بالضوء؛ بحيث أن الوضوء لا يصح.

وأيضًا إذا لم يصح الوضوء لم تصح الصلاة؛ لأن الصلاة مرتبة على الوضوء، إذا كان الإنسان لم يحسن أو لا يحسن كيف يتوضأ ثم جاء ليصل؛ فإن صلاته باطلة، يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا صلاة إلا بوضوء»**، يعني لا صلاة مقبولة صحيحة إلا بالوضوء، إذا لم يكن متوضئًا ما صحت الصلاة.

هذه الآية التي بين أيدينا وهي تتعلق بثلاثة أحكام مهمة:

الحكم الأول: **"الوضوء"** كيف يتوضأ الإنسان؟

الحكم الثاني: **"الغسل"** كيف يغتسل؟ ومتى يغتسل؟

الحكم الثالث: **"إذا عدم الماء"** إذا أراد أن يتوضأ أو يغتسل وليس عنده ماء أو قد يكون عنده ماء لكن لا يستطيع استعمال الماء لسبب من الأسباب؛ فإنه ينتقل إلى التيمم، التيمم حكم شرعي من أحكام الشريعة ذكره الله في كتابه، بعض الناس ما يعرف كيف يتيمم؟ ولا يُحسن التيمم، أنت لما تقرأ هذه الآية حتى تفهمها فهمًا جيدًا ارجع إلى الآيات التي قبلها، الآيات التي قبلها نحن تكلمنا عنها، هي تتكلم عن الطيبات من الأطعمة لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ [المائدة: 1]، وقال: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: 5]، هذا كله في الأطعمة، يعني ما يتعلق بالبطن شهوة البطن.

ثم تكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخر شيء عن **"النكاح"** قال: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: 5]، يعني الزواج.

إذًا الله عَزَّ وَجَلَّ منّ عليك بأي شيء؟ منّ عليك بالطعام الحلال لشهوة البطن، ومنّ عليك بالزواج الحلال لشهوة الفرج، هذا لك أنت.

طيب الله ما الذي يكون له؟

ما الواجب عليك في حقّ الله؟

نقول: **"الواجب أن تعبده"** كيف تعبده أعظم عبادة ظاهرة هي الصلاة، ولذلك الله ذكر أول أمور العبادة الصلاة، والصلاة لا تصح إلا بالوضوء، ولذلك تقرأ الآية يقول الله فيها: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا﴾ [المائدة: 6].

إذًا الموضوع موضوع الصلاة هي الأساس، والوضوء يتقدم الصلاة، يعني يحتاج الإنسان قبل أن يصلي أن يتوضأ، ولابد أن يعرف كيف يتوضأ؟ إذا لم يعرف كيف يتوضأ مثلما ذكرنا الصلاة غير صحيحة.

أنت لما تقرأ هذه الآية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول فيها: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 6]، يناديك بصفة، ما هي هذه الصفة؟ صفة الإيمان، يذكرك بأن معك إيمان، أنت في قلبك إيمان، والإيمان دليل على الاستجابة لله، لماذا أنت وصفت بأنك مؤمن؟ الإيمان ما معناه؟ هو التصديق، بمعنى أنك صدقت ما جاءك عن الله وعن رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيناديك الله بأشرف الأوصاف فيقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 6]، يا أيها المؤمن اسمع، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 6].

طيب لو تأخذ الآية بظاهرها ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 6]، معناها أنك لا تتوضأ إلا إذا أردت أن تقوم إلى الصلاة تكبر، نقول: لا، الوضوء يسبق الصلاة، قد يسبقه بساعة، قد يسبقه بدقائق، طيب كيف يقول: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 6]..؟

المقصود: إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاستعدوا للصلاة بالوضوء.

قد يسأل سائل يقول:

هل يجوز لك أن تتوضأ قبل دخول الوقت؟

الآن العشاء ما دخل وقتها هل يجوز لك أن تتوضأ الآن لتستعد لصلاة العشاء؟

نقول: **"نعم"** لذلك لابد أن نقدر هنا ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ﴾ [المائدة: 6]، أي إذا أردتم القيام، والمراد بالقيام ما هو؟ الاستعداد والتهيؤ للصلاة، إذا أردت أن تستعد وتتهيأ للصلاة وأردت التوجه للصلاة؛ فإنك تتوضأ.

كلّ كلمة هنا فيها فائدة وفيها حكم شرعي، إذا قلت: المعنى إذا أردتم القيام إلى الصلاة هذا يتضمن ماذا؟ يتضمن النية، طيب هل يجوز للإنسان أن يتلفظ بالنية؟ إذا جاء عند الوضوء يقول: اللهم يا رب إنني أريد أن أتوضأ لأؤدي الصلاة التي أنت فرضتها علي، هذا التلفظ بالنية هل يصح؟ نقول: هذا بدعة لا يجوز، التلفظ بالنية لا يجوز بدعة، والذي يتلفظ بالنية تجدهم هؤلاء الجهلة ما عندهم علم، لماذا؟ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته ومن جاء بعده من السلف ومن علماء الإسلام ما في أحد منهم قال مثل هذا الكلام، إذا أراد أن يتوضأ قال: اللهم إني أريد أن أتوضأ لأؤدي صلاة فرضتها علي.

أو إذا أراد أن يدخل مسجد وأراد أن يكبر تكبيرة الإحرام للصلاة يقول: اللهم يا رب إنني أريد أن أصلي صلاة المغرب ثلاث ركعات اللهم تقبلها مني، هذا كله من البدع لا يجوز.

✍ طيب كيف النية؟

نقول: **"النية محلها القلب"** لما تقرأ أنت تقول: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 6]، يعني إذا أردت القيام إلى الصلاة هذه نيتك، إذا أردت أن تقوم إلى الصلاة تذهب لتتوضأ لو جاءك شخص وسألك وقال: أين أنت ذاهب؟ قلت: أنا رايح أتوضأ، لماذا تتوضأ؟ قال: أتوضأ علشان أصلي، هذه النية ما يحتاج أنك تتلفظ بها، تتلفظ بها بدعة إلا ما ورد الشرع به عند التلفظ مثل عند الأضحية أو عند الشروع أو الدخول في النسك، لبيك اللهم عمرة، أو تقول: لبيك اللهم عمرة متمتعًا بها إلى الحج، هذا ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيرها لم يرد لا تأت به.

في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 6]، المراد بـ **"قمتم"** يعني تهيأتم واستعددتم، وليس المراد **"قمتم"** يعني وقفتم في الصلاة في الصف، لا، وإنما التهيؤ للصلاة.

✍ طيب كملة "الصلاة" هذه تشمل ماذا؟

✍ هل هي الفرائض الخمس التي تؤديها يوميًا ولا الفرائض وغيره؟

نقول: **"كلّ صلاة"** صلاة الجنائز نعم، صلاة الكسوف، صلاة العيدين، السنن، الرواتب، صلاة الليل، صلاة الضحى، يدخل في ذلك كلّ ما يسمى بصلاة لابد أن يتوضأ الإنسان بها، ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 6]، أي صلاة.

✍ أول فرض ما هو؟

قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، غسل الوجه أول شيء؟ نقول: **"نعم غسل الوجه"** لماذا؟ قال: لأنه فرض، طيب غسل الكفين؟ نقول: غسل الكفين ورد في السنة، وهو سنة، لو تركت غسل الكفين يعني جئت على طول مباشرة وأخذت الماء وغسلت وجهك صح الوضوء، لكن غسل الكفين هذا سنة، ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان إذا أراد أن يتوضأ يغسل كفيه ثلاث، ثم يغسل وجهه.

الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، ما حدد، ما قال: **"فاغسلوا وجوهكم ثلاث مرات أو خمس أو سبع"** ما قال شيء، وإنما قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، نفهم من هذا ماذا؟ نفهم أن غسل الوجه الواجب مرة، وأدنى الكمال ثلاثة، ولا يجوز أن تزيد عن الثلاثة، لك أن تتوضأ مرة، تغسل وجهك مرة هذا الواجب، هذا الفرض، وإن غسلته مرتين هذا سنة، وإن غسلته ثلاثًا هذه السنة الثابتة المتواترة.

✍ طيب لو جاء شخص وقال: أنا أريد أن أغسلها أربع مرات أغسل وجهي؟

نقول: هذا بدعة، وحرام وتنطع ولا يجوز، وجاء النهي عنه.

قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، طيب ما هو الوجه؟ كيف نحدده؟ هنا يبدأ الخطأ من بعض الناس، هذا فرض أيها الأخوة، غسل الوجه فرض من فروض الوضوء، لو أخل الإنسان بغسل الوجه بطل الوضوء.

✍ ما هو الوجه؟

نقول: **"من منابت الشعر الناصية إلى نهاية الذقن، ومن الأذن إلى الأذن عرضًا"** يعني الطول من منابت شعر الرأس إلى نهاية الذقن هذا طولًا، وعرضًا من الأذن إلى الأذن.

تجد بعض الناس ما ينتبه لهذا الشيء ولا يراعيه يغسل وجهه، تجد أطراف الوجه التي قريبة من الأذن ما أصابها الماء، هذا لم يكتمل غسل وجهه.

وبعضهم يغسل الوجه ويكون عليه على رأسه مثلاً عمامة أو طاقية أو نحو ذلك، ثم يغسل ولا يرفع هذا الشيء الذي عليه، لا يرفعه، فيخل خاصة في أوقات الشتاء بعض الناس يلبس الملابس فيصعب عليه إيصال الماء، لابد أن تخلع الذي على رأسك أو تبعده وتغسل الوجه غسلاً كاملاً.

✍ طيب إذا كان الوجه فيه شعير كثير كثيف ولحية كثيفة ماذا نصنع؟

نقول: الخليلة الكثيفة تخلل بالماء، تخلل بأصابعك ويكفي، اللحية الخفيفة لابد من إيصال الماء إلى البشرة، غسل الماء إلى البشرة بقوة حتى تدخل الماء بحيث يصل إلى البشرة، أما إن كان اللحية كثيفة يكفي فيها تخليل الأصابع هذا كافي، هذا الوجه.

✍ أليس الأنف والفم من الوجه؟

نقول: **"نعم وما ذكر في القرآن"** لأن الله لما قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، يدخل فيه الأنف والفم، والأنف يسمى الاستنشاق، والفهم المضمضة، وورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه تمضمض ثلاثًا ثم استنشق، يستنشق الماء ثم يستنثره، يعني يسحب الماء ثم يدفعه بقوة، هذا الاستنشاق.

الاستنشاق هو: **"أن تأخذ الماء تسحبه ثم تدفعه"**.

أولًا تبدأ بالمضمضة، ثم بالاستنشاق ثم تغسل وجهك، لو جاء إنسان وقدم الاستنشاق على المضمضة نقول: يصح الوضوء، ما في مانع، لكن الأصل أو الأكمل أن تتمضمض ثلاث مرات ثم تنشق تدخل الماء في الأنف ثلاث مرات، ثم تغسل وجهك ثلاث مرات، وبهذا يتم غسل الوجه.

قال: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، لما جاء عند الأيدي، الأيدي أقسام، في يد تسمى بالكف وهي **"من أطراف الأصابع إلى الكوع"** وتتمة اليد ما يسمى بالذراع أو الساعد إلى المرافق، ثم العضد، هذه أقسام اليد، الله قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، ما حدد، جاءت السنة وبينت لنا أن غسل اليدين إلى،، القرآن بينها قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6].

✍ طيب هل المرافق داخلة أو غير داخلة؟

نقول: **"داخلة"** لأن المرافق جزء من اليد، وما كان بعد إلى وهو جزء من قبله يدخل فيه، قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6].

تجد بعض الناس يخطئ إذا جاء عند غسل اليدين يغسل ما بعد الكف يغسله إلى المرافق، تقول: لماذا ما غسلت الكف؟ يقول: أنا غسلتها أول شيء ثلاث مرات لماذا أغسلها مرة ثانية؟ نقول: خطأ، وضوؤك خطأ، إذا أردت أن تغسل اليد تغسلها من أطراف الأصابع إلى المرافق، تدخل المرافق، لابد من إدخال المرافق هذا هو.

كم نغسلها؟ نقول: **"الواجب مرة"** والثنتين جاءت في السنة، والثلاث هي الكمال، والأربع لا يجوز، لا يجوز أن تغسلها أربعًا، الآن عندنا الفرض الثاني.

الفرض الأول: **"غسل الوجه"**.
والفرض الثاني: **"غسل اليدين إلى المرافق"**.
الفرض الثالث: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: 6]، لما جاء إلى الرأس قال: **"المسح"** لماذا لم يقل: **"غسله"**؟ نقول: لأن في صعوبة مع الرجل ومع المرأة، قد يكون الرجل كثيف الشعر، أو المرأة كثيفة الشعر، فغسله في كلّ صلاة خمس مرات أو أكثر هذا أول شيء يكلف الماء، وثاني شيء يُتعب الإنسان، كثرة الماء على رأسه يحتاج إلى تنشيف، فيصعب على الرجل والمرأة، ولهذا خفف الله عَزَّ وَجَلَّ فقال: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: 6].
كيفية المسح الصحيح الواردة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"أنه يبل يديه بالماء ثم يأخذ يديه ويبدأ من الناصية إلى آخر الرأس، ثم يعيدها مرة ثانية، ويدخل السبابتين في الأذنين والإبهامين من فوق الأذنين"** هذا هو المسح الصحيح، فالأذنان من الرأس؛ لابد أن يدخل السبابتين في الأذنين، والإبهامين من فوق الأذنين، يبدأ بمقدمة الرأس ثم يعيده مرة ثانية.
✍ طيب ما استرسل من الشعر؟
بعض الرجال قد يكون شعره طويل أو امرأة شعرها طويل، ما استرسل مسحه سنة وليس بواجب، ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: 6].
قال تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: 6]، يعني واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين هذا الفرض الرابع، غسل الرجلين من أطراف الأصابع إلى الكعبين وتدخل الكعبين في الغسل، هذا هو.
✍ ما هما الكعبان؟
الكعبان هما: **"العظمان الناتئان من الجنب"** عظم ظاهر من الجنب هذا والجنب هذا، أما العظم الذي في الخلف هذا ما يسمى كعب، هذا يسمى العرقوب ما له دخل، يُغسل؟ نعم يُغسل، ويسمى عقب أحيانًا يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ويلٌ للأعقاب من النار»**.
النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى أحد الذين توضئوا في زمنه ولم يغسل العرقوب الخلفي العقب، أو تركب مكان لم يصبه الماء؛ فقال: **«ويلٌ»**، وعيد شديد في النار، **«ويلٌ للأعقاب من النار»**، كيف يتوضأ ويُقال له: **"ويلٌ للأعقاب من النار"**؟! لأن المسألة صعبة جدًا ومهمة.
طيب غسل الرجلين مرة واحدة، ويجوز مرتين والأكمل ثلاثًا، لا يزيد على الثلاثة مثلما مر معنا، ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: 6]، هذه فرائض الوضوء الأربعة.
🗐 لابد أن يتوضأ الإنسان بهذا الوضوء ويُراعي أمرين:
الأمر الأول: **"الترتيب"** لو غسل يديه ثم غسل وجهه، غسل اليدين إلى المرافق ثم غسل الوجه أو مسح الرأس ثم غسل الوجه نقول: **"لا يصح"** لابد أن ترتب كما رتب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بدأ بالوجه، ثم اليدين، ثم الرأس، ثم الرجلين، فترتيب هذا الترتيب، ولا يجوز أن تُقدم هذا على هذا.
لكن اليدين لو غسل الشمال ثم غسل اليمين نقول: يصح الوضوء؛ لأن الله قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، ولم يُحدد، فلو قدم هذا على هذا صح، لكن السنة أن تبدأ باليمين ثم بالشمال، هذا الترتيب.
الأمر الثاني: **"الموالاة"** الموالاة معناها أن لا تفصل عضو عن عضو، وهذا واقع ويخل بالصلاة، تجد بعض الناس يأتي يبدأ بالوضوء يغسل كفيه، ثم يغسل وجهه وإذا بالجوال فيه مكالمة، فيغسل الوجه والجوال يرن عنده، فيأتي ويأخذ الجوال ويرد، ويجلس يكلم ويكلم ويكلم ثم يرجع يغسل يديه ورجليه ويقول توضأت، هذا فاصل طويل، قد يكون الفاصل ربع ساعة أو عشر دقائق، لا تفصل، أعضاء الوضوء لا يُفصل بينها بزمن طويل.

الزمن اليسير معفو عنه، يعني مجرد أن تفتح باب أو تغلق باب أو تسكر شيء، هذا ما فيه شيء، لكن الفاصل الطويل هو الذي يحتاج منك أن تعيد الوضوء.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا﴾ [المائدة: 6]، هذه أحكام الغسل، الآن عرفنا أحكام الوضوء، ومن أحكام الوضوء البسملة، التسمية، أن تقول: **"بسم الله"** عند الوضوء، لابد من النية، والنية معروفة، وأن تسمي عند الوضوء تقول: **"بسم الله"** ثم تتوضأ.

إذا كانت المغاسل داخل الحمام أو دور المياه لا تسمي إلا بقلبك، إذا كانت المغاسل خارج دوريات المياه خارج الحمامات فهذا يجوز التسمية، يجوز السلام، إذا جنبك شخص يتوضأ تقول: **"السلام عليكم"** هذا جائز؛ لأنها ليست حمامات داخلية، الحمامات التي هي قضاء الحاجة هذه لا ترد السلام، ولا تُسلم، حتى بالجوال، تجد بعضهم يرد السلام بالجوال، هذا غلط، ولا تسمي برفع الصوت وإنما بقلبك.

من السنة إذا انتهيت من الوضوء: **"أن تدعو بالدعاء المشروع"** أن تتوجه إلى القبلة وتقول: **"أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين"** أو تدعو بأي دعاء وارد، هذا ما السنة، لا يفوتك هذا الشيء، هذه أحكام الوضوء.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: 6]، هذه تسمى أحكام الغسل، ما معنى جنبًا؟ أي أصابته الجنابة، متى تصيبه الجنابة؟ أسباب الجنابة **"الاحتلام"**، أو **"خروج المني وهو يقظة"**، أو الحكم الثالث هو **"إذا مس الختان الختان"** يعني جماع المرأة.

الجماع وإن لم ينزل، أو أنزل يقظة خرج المني منه وهو في اليقظة، أو خرج المني منه وهو نائم محتلم، فإذا حصل خروج المني بأي طريقة أو حصل جماع مع زوجته فهذا يسمى الآن جنبًا، سواء رجلاً كان أو امرأة، إذا كان جنبًا ما الحكم الشرعي؟ نقول: لا يجوز له أن يصلي، ولا يجوز له أن يمس المصحف، ولا يجوز له أن يقرأ القرآن حتى يغتسل.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: 6]، يعني اغتسلوا غسلاً كاملاً، كيف يغتسل؟ السنة جاءت ببيان الغسل.

عندنا غسل مجزئ وغسل كامل:

الغسل المجزئ: **"أن تدخل تحت الدش أو تنغمس في البركة أو في المسبح"** لكن بنية وتتمضمض وتستنشق وتدخل تحت الماء، إذا غمرك الماء تخرج خلاص بنية رفع الحدث الأصغر والأكبر خلاص تعتبر أنت الآن جاهز للصلاة، هذا نسميه الغسل المجزئ.

الغسل الكامل: الذي ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث ميمونة وغيره أنه أولًا **"يغسل فرجه، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة، ثم يُريق الماء على رأسه، يبدأ بجنبه الأيمن إلى جنبه الأيسر يغسله غسلاً جيدًا يمين وشمال، ثم يغسل رجليه ويخرج"** هذا نسميه الغسل الكامل، ولابد وهذا من الأخطاء التي يقع فيها الكثير من الناس أنه لا يتحقق من وصول الماء إلى جسده.

أحيانًا أنت عندك مثلاً الإبط أو الأماكن الخفية مثل ما تحت الركبة أو نحوه، أما بين الأصابع اليدين والرجلين، قد لا يصل إليها الماء، لابد في الغسل أن يعم الماء جميع جسدك حتى شعرك لابد أن يدخله الماء، ولذلك أمرت المرأة أن تنقض شعرها، إذا كانت قد ربطت الشعر تنقضه حتى يدخل الماء إلى أصول الشعر، ولابد من دخلوه إلى الإذنين، تغسل أذنك، وبهذا يكون الإنسان قد رفع الجنابة بالاغتسال، يُسمى الحدث الأكبر، أما الحدث الأصغر فله الوضوء، يجب في الوضوء، ما هو الحدث الأصغر؟ خروج البول، خروج الغائط، النوم، أسباب كثيرة، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: 6].

الآن عرفنا الحكم الثاني وهو: **"الاغتسال"**.

الحكم الثالث: **"التيمم"**.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ [المائدة: 6]، إذا كان الإنسان مريض، هذا المرض يمنعه من استعمال الماء، وليس كلّ مرض، قد يكون مرض مغص في بطنه هذا ما له دخل، أو وجع في ضرسه ما له علاقة، أو في رأس، لا، إذا كان المرض يمنع استعمال الماء كالجروح مثلاً، أو نصحك الطبيب ألا تستعمل الماء.

قال تعالى: ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [المائدة: 6]، لأن السفر مظنة فقد الماء، تقد كثير من المسافرين قديمًا ما يجدون الماء في الصحراء، أما الآن لا، الآن يستطيع أن يحمل الماء في رحله، يستطع أن يقف عند المحطات يتوضأ، فلابد أن يحتاط، يحتاط للصلاة، والسفر مظنة فقد الماء، ولذلك الله يذكره.

قال تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [المائدة: 6]، هذا السبب ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [المائدة: 6]، هذا من أسباب الوضوء، من أسباب الوضوء ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [المائدة: 6]، خروج الريح، خروج البول، خروج الغائط، هذه كلها نسميها نواقض الوضوء، وأسباب وجوب الوضوء.

✍ ما هو الغائط؟

نقول: الغائط هو: **"المكان المنخفض"** لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكني، قال: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [المائدة: 6]، يعني المكان المنخفض؛ لأنهم كانوا يقضون حاجتهم في الأماكن المنخفضة، لا يقضون حاجتهم في الأماكن المرتفعة، وإنما يختفون، ولذلك سماه ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [المائدة: 6].

قال تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: 6]، شوف الأول ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ [المائدة: 6]، هذا ناقض للوضوء، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: 6]، المراد به الجماع، وهذا ناقض لأي شيء؟ هذا موجب للغسل.

فإذا مس الرجل امرأته يعني جامعها، الله عَزَّ وَجَلَّ يكني ما يصرح، تجد آيات كثيرة ما فيها تصريح بالجماع أبدًا في القرآن، يقول: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: 3]، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ [البقرة: 187]، ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: 187].

تجد آيات كثيرة ما فيها تصريح بالجماع، ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ [الأعراف: 189]، ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 21].

انظر إلى عبارات القرآن سليمة، بعيدة عن الأشياء المستقبحة، ما يذكر **"جامع الرجل امرأته"** ما يذكرها أبدًا، ولذلك هنا قال: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة: 6]، الملامسة المراد بها الجماع، إذا وقع الرجل على امرأته وجب عليه الغسل، سواء أنزل أم لم ينزل.

قال تعالى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [المائدة: 6]، عدمت الماء ما عندك ماء انقطع الماء عنك، أو الماء عندك لكن ما تقدر أن تستعمله، هذا يُسمى مانع حكمًا، مانع حقيقي ومانع حكمي.

المانع الحكمي: **"أن يمنعه شيء من استعمال الماء لمرض ونحوه ما يستطيع"**، أو الماء عنده لكن ما يستطيع أن يصل إليه، قد يكون محبوس والماء أمامه، أو أنه في الطريق ما عنده ماء، فاقد للماء حقيقة، فهذا الحال ينتقل إلى التيمم.

ولذلك قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [المائدة: 6]، ما معنى لم تجد؟ تجد بعض الناس جالس في الصحراء أو جالس في البر والمحطة ليست بعيدة عنه، يمكن عشرة دقائق أو ربع ساعة، ويقول: ما عندنا مياه تيمموا، الله يقول: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [المائدة: 6].

نقول: أنت واجد للماء، تقدر تشغل سيارتك وتروح تتوضأ وتأتي، ولذلك لو فقدوا شيئًا يسيرًا كالملح والكبريت على طول شغل السيارة وراح جاء بها، أما الماء قال: الحمد لله الدين يسر تيمموا، نضرب الأرض ونتيمم.

نقول: أنت واجد للماء، لا يجوز لك أن تتحول إلى التيمم وأنت قادر على أن تصل إلى الماء، وهذا من الأخطاء التي يقع فيها الكثير من الناس، إذا تيممت وأنت تستطيع أن تستعمل الماء صلاتك باطلة.

قال تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 6]، الصعيد هو وجه الأرض، طيب لابد أن تكون الأرض طاهرة، الأصل فيها الطهارة، لكن إذا أحسست أن فيها نجاسة كمواضع الكلاب ونحوها فهذا تنتبه، ومعاطن الإبل هذه تنتبه لا تضرب في الأرض، إلا أرض تشعر أنها أرض طاهرة، صعيدًا طيبًا.

قال تعالى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: 6]، هذه صفة التيمم، كما جاءت في السنة **"تضرب بيديك بباطن اليدين الأرض حتى يعلق التراب بيديك، ثم تمسح وجهك كاملاً، ثم تمسح يديك"** ضربة واحدة تكفي، وبعض الفقهاء يقولون: **"ضربتين"** لكن الصحيح ضربة واحدة.

تبدأ تأخذ اليمنى على اليسرى، باطن اليمنى على ظاهر الكف اليسرى، وباطن اليسرى على ظاهر الكف اليمنى، هذه هي صفة التيمم، قال: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: 6]، بدأ بالوجه، **"منه"** يعني من الغبار، لابد أن يعلق، أما إذا لم يعلق ما يسمى ترابًا.

تجد بعض الناس يضرب على حجر أملس، الحجر الأملس ما يكون مثل الأرض، أو يضرب على طاولة، أو على فرشة، إذا الطاولة فيها غبار أو الفرشة فيها غبار أو الحجر الأملس فيه غبار تجد أثره في يدك هذا يصح.

انظر إلى التيسر، إذا لم تجد ماء تيمم، هذا تيسير من الله عَزَّ وَجَلَّ؛ قال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: 6]، ما يريد الله أن يجعلك عليكم من حرج ولا إثم ولا تكف ولا صعوبة؛ بل الأمر يسير، ولكن يريد ماذا؟ ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 6].

التيمم خاص بهذه الأمة، الأمم الماضية ما عندهم تيمم ولا شُرع لهم، شُرع من خصائص هذه الأمة، يعني من فضائل هذه الأمة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»**، هذه فضائل ونعمة.

قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6]، أنت لما تتوضأ وتصلي وتجد سهولة بالماء، تيسير الماء عندك، دورة المياه قريبة والماء قريب تشكر الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ﴾ [المائدة: 7]، هذه نعمة من الله عَزَّ وَجَلَّ وميثاق عليك، أنت ما تتوضأ وتصلي إلا أن الله أخذ عليك الميثاق أن تؤدي هذه الشعيرة على وجهها الصحيح، ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ [المائدة: 7]، واثقتم الله به، ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: 7]، أن دخلت في الإسلام وقلت: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: 7]، ثم لا تحقق هذه الكلمة **"سمعنا وأطعنا"**!!.

قال تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: 7]، اتقوا الله في الوضوء، اتقوا الله في الصلاة، اتقوا الله في التيمم، اتقوا الله في الاغتسال، اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ فإن الله عليم بذات الصدور، الله مطلع عليك، لو ما غسلت غسلاً جيدًا في الاغتسال الله مطلع عليك.

لو ما توضأت الناس ما يدرون عنك، لكن الله مطلع عليك، الصلاة لابد أن تراقب الله فيها والله مطلع عليك، فنراعي هذه الأشياء.

الحقيقة هذه التي مرت معنا مسائل مهمة جدًا نحتاج إليها حقيقة في حياتنا، وأن نتدبرها، وأن نعيد النظر دائمًا فيها، والله كبار سن قد رأيناهم ما يعرفون كيف يتوضئون ويخلون بالوضوء، صلاتهم باطلة، والصغار يُعلمون وهكذا، والبيت والمرأة تُعلم والبنات يعلمون كيفية الوضوء، كيفية الصلاة، لا نجهلها.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(111)
(المائدة 8 - 11)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الأربعاء الموافق لليوم الأول من الشهر الأول من عام 1445 للهجرة.

مجلسنا المعتاد في هذه الليلة المباركة، وفي كلّ أسبوع مثل هذه الليلة بعد صلاة المغرب، نجلس هذا المجلس المبارك مع تفسير آيات من كتاب الله، نقرأها ونتدبرها ونتأملها، ولازلنا في هذه السورة العظيمة الجليلة وهي **"سورة المائدة"**.

تكلمنا في لقاءنا الماضي عن آية الوضوء والغسل والتيمم، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخرها أن هذه الشريعة السمحة، وما فرضه الله علينا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مما يتعلق بالصلاة والوضوء أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسر الأمر في ذلك، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في آخر الآيات: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 6].

يعني أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منا الطهارة، والإسلام يدعو إلى الطهارة والنظافة والنزاهة، وأيضًا ليتم النعمة علينا، نعمة ماذا؟ نعمة العبادة، التعبد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6]، لعلكم تشركون هذه النعمة التي أنعم الله بها عليكم بإرسال خير الرسل إليكم، وأيضًا فرض علينا خير هذه الشريعة التي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 7]، يقول: تذكروا هذه النعمة التي أنعم الله عليكم؛ بإرسال خير الرسل وإنزال أفضل الكتب وشرع خير الشرائع لكم، شريعة نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أفضل الشرائع، رسولنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خير الرسل؛ بل هو خير البشر على الإطلاق، والإسلام من خير الأديان، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].

يقول: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 7]، اذكروا هذه النعمة تذكروها، طيب كيف نتذكر هذه النعمة؟ نتذكرها بالمحافظة على شريعة الله، أن نؤديها كما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ [المائدة: 7]، إذًا بيننا وبين الله ميثاق، ما هو الميثاق الذي بيننا وبين الله؟ أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، وأن نمتثل ما أمرنا الله به، ونجتنب ما نهى الله عنه، هذا هو الميثاق الذي بينك وبين الله، بأن يوفي الله لك ما وعدك بدخول الجنة، والفوز بها، والنجاة من النار، هذا هو الميثاق الذي يكون بين المسلم وبين ربه.

فمن أدى ما فرض الله عليه فقد أدى الميثاق الذي بينه وبين الله، وأيضًا فإن الله يوفيه ما وعده من الوعد الكريم عنده.

قال تعالى: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: 7]، يعني المسلم لما يدخل في الإسلام كما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

لا كما تقول اليهود والنصارى: **"سمعنا وعصينا"** بل المسلم يقول: سمعنا ما قلت يا الله، وسمعنا ما فرضته علينا وأوجبته علينا في كتابك وفي سنة رسولك، وأطعنا واستجبنا ولا نتردد في ذلك.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [المائدة: 7]، اتقوا الله وحافظوا على تقواه؛ فإن الله مطلع عليكم، مطلع على ما في الصدور.

فنفهم من هذه الآيات:

أولًا: **"نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذه الشريعة التي شرعها الله لنا، وفضلنا على سائر الأمم"**، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].

وأيضًا من فوائد هذه الآية: **"أن نحافظ على ما أمرنا الله به، وأن نتجنب ما نهانا الله عنه"** بالمحافظة على طاعة الله والثبات على الحقّ حتى نلقاه؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعدنا بالوعد الكريم.

يؤكد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على قضية المحافظة على الطاعات، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 8]، كيف يكون المسلم قوام لله؟ يعني أنت تقرأ هذه الآية ماذا تفهم منها؟ الله يخاطبك بهذا الكلام، وأنت تقرأ هذه الآية كأنك تخاطب الله والله يخاطبك.

فمن الصعب أن تمر على هذه الآية وأنت لا تدري ماذا يقول الله فيها؟ يجب أن تقف عندها وتفهم معناها.

يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ﴾ [المائدة: 8]، القوام شديد القيام، يعني متمسك بقوة، هذا معناه، القوام من القيام يعني أنك تقوم بما أمرك الله به، تقوم بأداء الصلاة بأوقاتها والمحافظة عليها في صلاة الجماعة، تقوم بأداء الزكاة، تقوم بفريضة الصيام، تقوم بفريضة الحج، تقوم بما أمرك الله به من بر الوالدين، من الأعمال التي فرضها الله عليك، أو شرعها لك، هذا معنى القوام، القوام الذي يحافظ على شرائع الله التي شرعها الله له وأمره بها.

قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ [المائدة: 8]، يعني اجعلوا أعمالكم خالصة لله، لا لأجل فلان، ولا لأجل فلان، هذا رياء وسمعة، الله يحثك على أن تكون قائمًا بأعماله التي فرضها عليه، وقائمًا بفرائضه بوجهه لا لأجل أمر أو لأجل فلان أو أجل فلان، أو لأي غرض من أغراض الدنيا، وإنما يكون العمل خالصًا لوجه الله.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5]، هذا هو الذي أُمرت به وأُمرنا به.

قال تعالى: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 8]، يعي تكون شهادتك بالعدل، الشهادة إذا أُمرت بها، أو إذا طُلبت منك الشهادة أن تشهد بالعدل، ولذلك يقول: ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 8].

هذه الآية مثلها معنا في سورة النساء، لكنها فيها تقديم وفيها تأخير حتى نفهم جيدًا، هناك يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: 135]، وهنا يقول: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 8].

✍ طيب في تقديم وفي تأخير كيف نفهم هذا؟

لابد أن يكون هناك سر في هذا التقديم وهذا التأخير، وإلا تقرأ وأنت لا تفهم صعب، نقول: لما كانت **"سورة النساء"** تُركز على العدل، القيام بالعدل بين الزوجات، وبين الأولاد، والعدل في حكم الله، يعني هي تركز على قضية العدل، قُدم العدل، ولذلك قال: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: 135]، يعني قوموا بالقسط قيامًا تامًا، لكن هنا لما كانت **"سورة المائدة"** تركز على العبادة والطاعة قال: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 8].

فأخر القسط وقدم العبادة لله؛ لأن السورة تكون أقرب في العبادات من أن تكون في العدل، **"سورة النساء"** في العدل، لو قرأت هذه الآية، أنت تقول مثلاً: مرت علي هذه الآية، ومرت علي هذه الآية، كيف أجمع بينهما، كيف أوجه هذه؟ وكيف أوجه هذه؟ هذا هو التوجيه الذي ذكره أهل العلم، وبهذا يزول؛ لأنه أحيانًا يأتيك إما الشيطان أحيانًا أو يأتيك من هو ضعيف الإيمان في قلبه مرض فيقول: هذا تناقض، كيف الله يأمرنا يقول: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء: 135]، ومرة يقول: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 8].

✍ يعني هل نقوم لله ولا نقوم للقسط؟

نقول: ما في تناقض، هذه تسير في طريقها، وهذه تيسر في طريقها، وإذا أنت لم تفهم الآيات بهذه الطريقة هذا قصور منك أنت، هذا تقصير منك أنت، أما الآيات ما فيها تناقض.

✍ ولذلك بعض الناس يقرأ آية، ثم يقرأ في سورة أخرى آية فيقول: كيف أجمع بين هذا وهذا؟ هذا كذا ولا هذا كذا؟

نقول: هذه نظرتك القاصرة، أما القرآن الله ماذا يقول فيه؟ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ [النساء: 82]، أول شيء أمرك الله بالتدبر، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: 82]، ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]، لكن لما كان من عند الله فما في اختلاف أبدًا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 8]، يعني قوموا بالشهادة بالعدل، ثم قال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة: 8].

يقول: لا يحملك ولا يدفعك بغض قوم؛ لأن بعض الناس إذا مثلاً غضب على قوم أو أبغض قوم لا يقوم بالعدل، حتى لو كان من أحد أبناءك، غضبت عليه وعاملته معاملة سيئة لابد أن تقيم العدل فيه، العدل بينك وبين الله ليس بينك وبين الشخص، العدل الذي أمرك به هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، العدل قامت به السماوات والأرض، لا تنظر إلى الشخص ذاته، وإنما أنت تُحاكم نفسك بينك وبين الله.

✍ ولذلك الله ماذا يقول؟

يقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾، يعني لا يحملنكم ويكسبنكم ويدفعك ﴿شَنَآنُ قَوْمٍ﴾، يعني بغض قوم، يعني لو بينك وبين قوم بُغض وعداوة وحقد ونحو ذلك لابد أن تقيم العدل، حتى لو جاءك عامل يعمل عندك في البيت ثم حصل بينك وبين سوء تفاهم أقم العدل فيه، وخف الله فيه، عامل، سائق المنزل، عاملة منزل، تعاملك في مكتب، من تحتك وأنت مدير فوقه أو كذا، أو تتعامل مع شخص بأي طريقة في تجارة في نحو ذلك أقم العدل، لا تنظر إلى الشخص نفسه، ولو أساء إليك، ولو فعل فيك ما فعل، ولو خانك، ممكن أنت تحاكمه على فعله، وتحاسبه على فعله، لكن إقامة العدل مطلوبة، ولذلك قال: لا يدفعنك ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ﴾، بغض قوم ﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾، قال: ﴿اعْدِلُوا﴾، أكد، قال: لا يدفعك هذا على عدم العدل، يعني تظلم؟ لا تظلم، الظلم مُحرم وحرمه الله على نفسه فلا تظلم.

تعامل معك شخص بسوء فأنت لا تظلمه في حقه، وإنما أعدل فيه ثم أحاسبه على ما فعل، وذلك قال: ﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا﴾ [المائدة: 8]، أكد عليك، طيب لماذا نعدل؟ قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ﴾ [المائدة: 8]، أي العدل، ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: 8].

أقرب لتقواك بينك وبين الله، أقرب إلى التقوى أن تعدل في حكمك مع زوجتك، مع أبنائك، وبناتك، مع جيرانك، مع من تحتك في العمل، مع كذا، مع كذا، تعاملك في التجارات، تعاملك في أي طريق إقامة العدل مطلوبة، والله أمر وأكد عليها.

قال: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: 8]، ثم أكد عليك قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]، انظر كيف ختم الآية؟ ختم جميل، لما يقول: اتقوا الله واعدلوا، تعاملوا مع الناس؛ فإن الله خبير، ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

يعني لو أخفيت أنت ما أخفيت وأردت أن تعامله معاملة سيئة أو تنتقم من هذا الشخص الله خبير بعملك، مطلع على ما في سرك، لو أردت أن تسيء المعاملة معه أو أن لا تعدل أو تظلمه؛ فإن الله مطلع.

حتى لو كانت زوجتك تعاملت معك معاملة سيئة وأساءت إليك أقم العدل فيها، ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

لما نسمع مثل هذا الكلام ويؤكد الله علينا، شوف يربط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا الأمر بنتائج أنت ما تتصورها، يعني أنت ممكن تتعامل مع زوجتك، مع أولادك، مع الناس تعامل بالعدل، لكن أنت تذكر ما هو أكبر من ذلك، وما هو أعظم، ما هو الأكبر من ذلك وما هو الأعظم؟ ما أعده الله لك في الدار الآخرة.

الدنيا تنتهي، كم تعيش فيها وتنتهي؟ ما أعده الله لك حتى أمور قد لا يلتفت إليها الكثير من الناس، قد يقول: أمور تافهة، أتعامل معه في ورشة سيارة، أو في شراء أغراض من محل، أو كذا، يمكن أنت ما تلتفت إلى هذا الذي يسمى العدل والقسط في التعامل، قد لا تقف عنده أو لا تلتف إليه، أو قد يفوت عند الكثير من الناس، ولكن الله يذكرك بشيء أكبر من هذا وهو ما أعده الله بعد هذه الدنيا.

ولذلك يقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: 9]، يعني قاموا بالقسط، وقاموا بالعدل، وأدوا ما أمرهم الله حقّ الأداء، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ﴾، أولًا ﴿مَغْفِرَةٌ﴾، ثم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 9].

قد يسألك سائل:

قدم المغفرة ثم قال: الأجر العظيم، لماذا؟

نقول: أولا لـ **"يمح عنك سيئاتك"** لأن السيئات هذه سيئة اسمها سيئة تسيء إليك أنت، هذه سيئات هذه ذنوب تسيء إليك، أولًا لـ **"يزيل عنك هذه الذنوب، وينقيك من هذه الذنوب، ويطهرك"** ثم بعد ذلك **"يجزيك الجزاء الأوفى"**.

وأنت لو تجد الآن شيء ثمين، قطعة ذهب ثمينة، في مكان لا يليق بها، مكان وسخ لا يليق بها، أول ما تبدأ في هذه القطعة الثمينة تنظفها، تزيل عنها كلّ ما فيها، ثم تنقلها إلى مكان مناسب، لو تأخذها بما هي فيها وتضعها في مكان فهذا المكان ما يناسبها، أن تأتيها بكل ما فيها وتضعها في مكانها لا لا.

أولًا: **"تزيل عنها كلّ ما فيها"** ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعدنا بأي شيء؟ الذي صدقنا معه وامتثلنا أوامره، وقمنا بالعدل، وقدم بفرائض الله، أولًا الذنوب التي هي الآن محيط بنا الذنوب

التي نحن منغمسون فيها هذه الذنوب أولًا يزيل عنها يطهرنا من الذنوب كلها، وينقينا منها كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، فإذا تنظفنا من هذه الذنوب جاء الأجر.

ولذلك الجنة ما يدخلها أحد وفي قلبه مثقال ذرة من معاصي أو ذنوب، أولًا تُنزع عنك، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43]، تُنزع عنك ثم بعد ذلك تأتي هذه الأمور التي تأتي بعد ذلك.

ولذلك لما وعدك الله بهذا الوعد الكريم حذرك مما توعد به الذين لم يمتثلوا أوامر الله، ولذلك قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: 10]، وجحدوا، ولم يمتثلوا أوامر الله، وكذبوا زيادة على ذلك بآيات الله، قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: 10]، حكم عليهم بالنار، هذه نتائج الآخرة، أما الدنيا ماشية.

يُذكرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما ذكر نبيه بهذه النعم، يزيد على ذلك نعمة عظيمة يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 11]، ما هي النعمة هذه؟ عندما تقرأ هذه النعمة يقول: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 11].

✍ لابد أن تعرف ما هي هذه النعمة؟

قال: ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [المائدة: 11]، هم يعني عزم قوم وحاولوا أن يبسطوا أيديهم إليكم، يعني يتسلطوا عليكم، فالنتيجة ماذا؟ قال: ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: 11]، تأكيد على التقوى، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: 11].

أنت لما تقرأ هذه مستحيل أن تفهم معناها فهمًا جيدًا أبدًا، ما يمكن أن تفهمه، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾ [المائدة: 11]، من هم القوم؟ ما الذي هموا به؟ يبسطوا أيديهم بأي شيء؟ ما هي هذه الأشياء؟ هذه تقرأها ما تستطيع أن تدرك معناها إلا بعد ماذا؟ إلى أن ترجع إلى كتب التفسير، وتفهم شيء اسمه **"أسباب النزول"**.

✍ الآية لها سبب نزول، طيب ما هو سبب نزولها؟

ذكر بعض أهل التفسير: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة من الغزوات،، قد خرج إلى غزوة من هذه الغزوات إما يعني ذاهب إلى هذه الغزوة، أو قافلاً وراجعًا منها، فأراد أن يستريح من شدة الشمس، فنزلوا في وادي فيه شجر، فكلٌ أخذ ظل هذه الشجرة وجلس تحتها.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلس تحت ظل إحدى هذه الشجرات وعلق سيفه عليها، ونام، فجاء أعرابي وأخذ سيف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسله وقال: **"يا محمد من منعك مني؟"** قال: **«الله»**، فسقط السف من يده، فأخذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السيف وقال: **«من يمنعك مني؟»**، قال: **"لا أحد"** قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: 11].

إذًا فهمنا هذه الآية الآن، فهمناها بهذه القصة، هذا وجه ذكره بعض أهل التفسير، وفي وجه آخر أيضًا هو أقرب من هذا حتى نفهم، قد تكون الآية نزلت لأكثر من سبب حتى ما نقول في تعارض.

السبب الثاني: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاء إلى المدينة عاهد اليهود معاهدات بينهما، على أنهم يقفون معه، وعلى هو ساعدهم أو هم يساعدوه، ففي يوم من الأيام احتاج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى سلفة مال دية قتيل، فقال: نذهب إلى اليهود لأن بيني وبينهم عهد فنأخذ منهم لأنهم عندهم مال، نأخذ منهم سلفة مال ونردها عليهم.

فخرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعض أصحابه، فجاءوا إلى بعض كبار اليهود، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم: **"إنني أحتاج إلى سلفة مال وقرض منكم علشان نسدد هذه الدية، دية قتيلين"** فقالوا: **"أبشر يا أبا القاسم نعطيك، وقالوا: اجلس هنا"**.

فجلس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه بعض الصحابة، فدخلوا هذه الدار وقالوا: هذه فرصة أن محمد جاء عندنا، نأخذ حجر كبير من السطح ونرميه عليه وننتهي منه.

عزموا على هذا الأمر وخططوا وهم في داخل البيت على أن يأخذوا حجرًا كبيرًا ويلقوه من السطح على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي لا يدري.

فجاءه الوحي وأخبره بالخبر، فقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وأصحابه مسرعين، ورجعوا إلى المدينة، وعلم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوحي أن اليهود قد نقضوا العهد، كيف بيني وبينكم عهد وتخانون وتريدون قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

فجهز النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جيش لإخراجهم وإجلائهم، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ذلك: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾، وهم اليهود ﴿أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾، أي بإلقاء هذا الحجر ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾، بالوحي، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، تذكروا نعمة الله، واتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ فيما يأمركم وينهاكم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: 11].

مع فعل الأسباب لا تنسى التوكل وهو تفويض أمرك إلى الله، والاعتماد عليه، يعني الإنسان يفعل الأسباب في كلّ ما يحتاج إليه في حياته يفعل الأسباب، لكن لا ينسى شيئًا اسمه التوكل، التوكل على الله نوع من العبادة، يجب ألا يغيب عنا.

تجد بعض الناس يفعل الأسباب ويعتمد على الأسباب، يُقدم على عمل، على وظيفة، يريد أن يشتري شيئًا، يُريد أن يفعل شيء، تجده يعتمد على الأسباب أكثر من اعتماده على شيء اسمه توكل.

نحن نقول: اجمع بين الأمرين، اعتمد على الأسباب وافعل الأسباب، لكن لا تنسى شيء اسمه **"أتوكل على الله، وأفوض أمري إلى الله، وأن الله يتولى أمري"** هذه قد تغيب عن بعض الناس،

ولا يكون العكس أنك تتوكل فتترك الأسباب، تقول: أنا خلاص متوكل على الله أنا ما أنظر إلى الأسباب.

نقول: لا، أنت اعتمد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن التوكل عبادة والله أمرك به، وافعل الأسباب، واجمع بين الأمرين، والله يتولى أمرك، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾، أي يعتمد، يعتمد الإنسان على ربه بتفويض أمره بفعل أو بجلب الخيرات ودفع الأضرار، يعني ما يدفع عنك الأضرار إلا الله، ولا يُسلم لك من الحوادث والأضرار إلا الله، ولا يجلب لك الخير إلا الله، فاعتمد عليه، مع فعل الأسباب، ما تقول: والله أنا ما أفعل الأسباب وأعتمد لا؛ بل تجمع بين الأمرين.

الشاهد من هذا الكلام كله: أن الله يذكرنا بنعم كثيرة، نعمة العبادة، نعمة الطاعة، نعمة بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يذكرك بنعمة أن الله يدافع عن المؤمنين.

انظر كيف دافع عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ السيف معلق ويأخذه أعرابي يريد أن يقتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقول: **"من يمنعك مني؟"** فيقول: **«يمنعني الله»**، هذا توكل، هذا التوكل، وهذا تفويض الأمر إلى الله.

أو أنه يأتي وهؤلاء اليهود الخونة يريدون قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والله عَزَّ وَجَلَّ يحمي نبيه ويحمي أصحابه، أنت لما تتذكر هذه الآيات تقرأها وتتذكرها، اعلم أنك إذا حافظت على أوامر الله والتزمت شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحافظت على الصلاة، الصلاة سبب للحفظ، أنت إذا صليت الفجر في جماعة أنت في ذمة الله، وإذا صليت العشاء في جماعة أنت في ذمة الله.

فالإنسان إذا حافظ على هذه الأوامر كف الله عنه شر كثير من الشرور، يصرف الله عنك الأشرار، ويجلب لك الخير؛ بحيث أنك تفعل الأسباب وتتوكل على الله.

الحقيقة: دروس وعبر في هذه الآيات العجيبة التي مرت معنا التي يقرأها الكثير والكثير من الناس، وتمر عليها مرور الكرام، ما يقف عندها، كلّ آية كلّ كلمة تحتاج منا إلى أن نتأمل، تحتاج منا إلى أن نطبقها في حياتنا، نتذكر هذه الآيات، نتذكر هذه النعمة، ونحافظ على أوامر الله.

العدل قضية مهمة الحقيقة في حياة المسلم يجب أن يظهر العدل أمامك دائمًا ولا أن يغيب عنك، وأن تحظر الظلم الذي حرم الله الظلم على نفسه، وغير هذه الآيات فيها دروس وعبر.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا، وأن يباركنا في هذه الجلسة المباركة، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين يقرؤون القرآن ويتدبرونه ويفهمون هذه الآيات، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، لقاؤنا إن شاء الله في الأسبوع القادم نستكمل هذه الآيات.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(112)
(المائدة 12 - 16)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

هذا اليوم هو اليوم الثامن من شهر الله المحرم، من عام 1445 للهجرة، درسنا مع تفسير القرآن العظيم في مثل كلّ أسبوع من هذا اليوم الأربعاء بعد صلاة المغرب، نجلس هذا المجلس المبارك الذي إن شاء الله تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، يذكر الله الحاضرين في هذا المجلس في الملأ الأعلى عنده بالذكر الحسن، الله لا يحرمنا هذا الفضل العظيم.

الآيات التي نتناولها ونتأملها ونتفكر فيها ونستخرج ما فيها من توجيهات ربانية نستفيد منها، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في هذه السورة العظيمة الجليلة وهي **"سورة المائدة"** وهي أواخر ما نزل من القرآن الكريم، في الآية الثانية عشر من السورة يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: 12].

هذه الآية تأتي في موقعها المبارك المناسب، كيف؟ لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول السورة الحديث أو ما يتعلق بالمؤمنين من الأطعمة والأشربة المباحة والمحرمة في الأكل والشرب والنكاح ثم أمرهم بالأوامر الشرعية التي فرضها عليهم، ومن أجلها الصلاة، ويسبق الصلاة كيفية الوضوء والغسل والتيمم، ذكر الله أن هذا ميثاق بين المؤمنين وبين ربهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما ذلك هذه الأشياء: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 7]، هذه النعم العظيمة بإرسال الرسول، وشرع هذه الشريعة السمحة الواضحة، قال: ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ [المائدة: 7]، هذا خطاب لنا للمسلمين، ﴿وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [المائدة: 7]، وأنت في سورة البقرة في آخرها تقول: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285].

فالمؤمن يتميز بأنه يسمع ويطيع، لما ذكر الله حال المؤمن واستجابته لربه ذكر حال اليهود والنصارى أهل الكتاب، ماذا كان حالهم؟ الله أخذ عليهم الميثاق، ولكنهم لم يفوا بالميثاق.

✍ طيب لماذا يذكر الله حالهم؟

🗐 لسببين:

السبب الأول: أن تعرف أن هؤلاء الله أخذ منهم الميثاق فنقضوا المواثيق كلها، فاحذر أيها المؤمن أن تكون مثل هؤلاء؛ لأن الله عاقبهم في الدنيا قبل الآخرة.

السبب الثاني: احذر أن هؤلاء هم أعداء ذلك، لا تظن أنهم أخوة لك أو يحبون لك ما يحبون لأنفسهم لا، فهم أعداء، ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120]، والله سماهم كفار، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البينة: 6]، سماهم كفار.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: 12]، هذه **"اللام"** يسميها أهل اللغة **"لام"** القسم، يعني التقدير: **"والله"** يُقسم الله، والله لقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل.

قال: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: 12].

✍ بعثهم إلى أي مكان؟

✍ ومن هم الاثني عشر نقيبًا؟

✍ ما معنى نقيب؟

نقول: بعث الله اثني عشر نقيبًا اختارهم الله من بني إسرائيل، اختارهم على لسان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، اختار اثني عشر نقيبًا هؤلاء هم أفضل رجال بني إسرائيل، فاختار الله منهم اثني عشر نقيبًا.

✍ لماذا حدد اثني عشر نقيبًا؟

لأن قبائل بني إسرائيل كانت اثني عشر أو اثنتي عشرة قبيلة، ولذلك في ضرب الحجر انفجرت منه اثنتا عشرة، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: 160]، فهم اثنى عشرة قبيلة على عدد من؟ على عدد أولاد يعقوب، هم كلهم تناسلوا من ذرية يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

عرفنا الآن السبب في تحديد العدد اثني عشر، النقيب هو الأمير أو الذي ينقب عن قوم ويتابعهم ويقوم بالمسئولية عنهم، هذا يسمى النقيب؛ لأنه مثل المشرف عليهم، ومثل الأمير عليهم، فاختار الله منهم اثني عشر نقيبًا يذهبون إلى أي مكان؟ يذهبون إلى الأرض المقدسة بيت المقدس حتى يفتحوه الذي كان فيه الجبارون، الذين قال بنو إسرائيل عنهم: ﴿يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: 22].

فبعثهم الله لكنهم لم يدخلوا خافوا ورجعوا، ولم يأخذوا بهذا الميثاق ولم يقيموا ميثاق الله.

قال: ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ [المائدة: 12]، انظر كيف يؤيدهم الله تأييد عظيم؟! المعية الخاصة من الله بالنصرة والتأييد، يقول لهم: اذهبوا وإني معكم، لكن بشرط ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: 12]، خمسة شروط إذا قمتم بها وأنا معكم سينصركم الله، ويمكن لكم في الأرض، ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾، هذا واضح ﴿وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾، المفروضة، ﴿وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾، لأن بني إسرائيل يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض.

فقال: إذا آمنتم برسلي جميعًا، ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾، يعني نصرتموهم، وكأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقصد في هذا من؟ يقصد محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه يخاطب المعاصرين، ويخاطب الأسلاف يقصد بهم أن ينصروا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهؤلاء أيضًا ينصروا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: 12]، يعني مُطلق الصدقات أن تتصدقوا في سبيل الله.

✍ النتيجة ما هي إذا فعلتم ذلك؟

أولًا: سينصرهم الله ويكون معهم ويؤيدهم ويمكن لهم في الأرض.

ثانيًا: قال: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [المائدة: 12]، ذنبوكم كلها تُمحى عنكم، ويعفو الله عنكم كلّ ما سلف، وإذا عفا الله عنكم، وكفر عنكم سيئاتكم ومحا عنكم سيئاتكم النتيجة ما هي؟

قال: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: 12]، انظر إلى الفضل، وأوامر ليست في صعوبة، تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتؤمن بالرسل، وتنصرهم، وتتصدق في سبيل الله، ما فيها صعوبة، ومع ذلك ما هي النتيجة؟ ما هي الثمرة؟ قال: ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: 12].

ثم قال: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 12]، من يكفر بعد هذا البيان الواضح ولا يؤمن النتيجة ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 12]، هذا تاه واضع ولم يسلك طريق النجاة.

الآن تأتيك النتيجة، النتيجة هذا العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل والميثاق العظيم بهذه الأوامر اليسيرة السهلة ما هي النتيجة؟

قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [المائدة: 13]، معنى هذا أنهم نقضوا المواثيق، لم يعترفوا بميثاق بينهم وبين ربهم، هم ينقضون المواثيق مع البشر وليس فقط مع الله، ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: 100]، ما يفون بالعهود مع البشر حتى يفوا بالعهود مع الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ [المائدة: 13]، بمعنى أنهم نقضوا الميثاق، اثنا عشر رجل من خيارهم ومع ذلك ما وفوا بهذه المعاهدات.

قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة: 13]، هذا الكلام موجه إلى بني إسرائيل، ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة: 13]، وهم اليهود، قال: ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة: 13]، يعني طردناهم عن رحمة الله، طردهم الله عن رحمة الله.

قال: ﴿لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: 13]، القلب القاسي ما يتقبل الحقّ خلاص، لا يخشع لله أبدًا، ولا يتقبل شيء من الله، خلاص يقسوا قلبه مثل الحجر أو أشد قسوة ما يتقبل.

وهذه أشد عقوبة، القلب أحيانًا تأتيه أمراض كثيرة منها الرين، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المطففين: 14]، ومنها الطبع والختم والقسوة، خلاص ما عاد يتقبل، قال في معاقبتهم: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة: 13]، ولما يجعل الله قلوبهم قاسية ماذا يصنعون؟ قال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 13]، يعني يغيرون في التوراة ويحرفون ويبدلون، ويغيرون في أحكام الله، ولا يعترفون بها.

قال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: 13]، ذكرهم الله بهذا الكتاب، وذكرهم بما فيه الخير لهم في الدنيا، والخير لهم في الآخرة، ولكنهم نسوه، يعني تركوه، تركوا هذا ولم يأخذوا به، ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: 13].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ مخاطبًا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومخاطبًا الأمة: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 13]، يعني خونة، لا تزال يعني باستمرار أن ترى منهم من يخونك دائمًا ولا يفي بالعهد بينكم؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاء إلى المدينة عاهدهم، ولم يفوا بالعهد.

قال: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 13]، النتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: 13]، تجاوز عنهم، ولا تحاسبهم، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: 13].

لو سألك سائل وأنت تقرأ القرآن وعربي تتكلم باللغة العربية وتفهم العربية، جاء واحد وسألك قال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: 13]، ما هو الفرق بين **"فاعف"** و**"اصفح"** أليست هي واحدة، لماذا قال الله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: 13]..؟

نقول: العفو شيء، والصفح شيء، الصفح فوق العفو، تعفو عنهم يعني تتجاوز عنهم، تصفح يعني ما تذكر أي شيء عنهم خلاص، ما تذكر الأشياء التي بينك وبينهم، يعني تعفو عنهم تتجاوز عنهم، تسامحهم، ولا تذكر دائمًا بينك وبينهم تقول: فعلتم كذا، وفعلتم كذا.

أحيانًا القريب منك مثلاً أولادك أو إخوانك أو جارك أو قريب أو صديق أخطأ عليك تعفو عنه، هل تصفح؟ الصفح فوق العفو يعني ممكن تعفو عنه وتتجاوز عنه، لكن الصفح ما هو؟ تعفو وتصفح بمعنى أنك لا تذكر هذه المثلبة عنه، هذا الشيء الذي حصل منه لا تذكره خلاص، عفوت

واصفح، ولذلك الله ماذا يقول؟ يقول: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: 85]، الذي ليس فيه ذكر سيء له.

لما قال: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة: 13]، هذه الصفات صفات من؟ قال: صفات المحسنين، ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 13]، يعني هؤلاء لا خير فيهم وينقضون العهود، ويفعلون الأفعال السيئة، ومع ذلك الله ماذا يقول؟ يقول: تجاوز عنهم، واصفح عنهم، ولا تحاسبهم؛ حتى تكون محسنًا إليهم، هم يسيئون إليك، ولكن أنت أحسن إليهم، وأشد ما تعاقب من يسيء إليك أن تحسن إليه، شخص يسيء إليك يسبك ويشتمك ثم ترد عليه بأحسن شيء هذا أشد عقوبة له، أشد عقوبة أن تحسن إلى من يسيء إليك.

الآن عرفنا حال هؤلاء اليهود الذين ينقضون العهود، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخذ عليهم الميثاق، ووعدهم الوعد الحسن يكفر سيئاتهم ويدخلهم جنات النعيم، ومع ذلك نقضوا العهود، لما نقضوا العهود ماذا صنع الله بهم؟

عاقبهم أشد العقوبات، جعل قلوبهم قاسية، ولعنهم، وطردهم، انظروا الآن مشتتين في الأرض، ولعنهم وطردهم عن رحمته إلى آخره.

إذا عرفت أن هذه هي حال اليهود فتعرف على حال النصارى، من هم النصارى؟ وهل حالهم مثل اليهود ولا ما تعرف حالهم؟ اسمع ماذا يقول الله تعالى؟

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ [المائدة: 14]، أيضًا أخذ الله عليهم الميثاق مثلما أخذ على اليهود، ومثلما أخذ علينا.

قال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: 14]، طيب لماذا قالوا: إنا نصارى؟ لماذا ما قال: ومن النصارى، مثلما قال: بني إسرائيل أو قالت اليهود؟

قال هنا: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: 14]، ما قال النصارى، لماذا؟

لأنهم هم ادعوا أنهم أتباع لعيسى وأنهم ينصرون عيسى، ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 52]، والحواريون هؤلاء هم خيرتهم، لكن بقية الأتباع الذين يدعون أنهم نصارى لم ينصروا عيسى بن مريم.

ولذلك ادعوا، قال الله فيهم: ﴿قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ [المائدة: 14]، لما أخذ الله الميثاق ما هو الميثاق هذا؟ هو إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار بالله، والإيمان بالرسل، ماذا صنعوا؟ أخذ الله ميثاقهم، والنتيجة ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: 14]، لماذا؟ لأنهم نقضوا العهود.

نقضوا العهد وتركوا حظًا مما ذُكروا به، وهم أخف حتى نفهم هم أخف من اليهود، اليهود أشد عداوة، النصارى أقرب للمؤمنين مودة، ولذلك عقوبتهم أخف، قال: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: 14]، يعني لما تركوا العمل بما فرض الله عليهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في العقوبة عليهم: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: 14]، جعل العداوة بينهم.

✍ما معنى أغرينا؟

من الغراء، تعرف الغراء اللاصق مثله، ألصق الله بهم العداوة، لصقت بهم العداوة ما تفارقهم، قال: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: 14]، هم أخف من اليهود، لكنهم أعداء للمسلمين، قال: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ﴾ [المائدة: 14]، يعني جعلنا العداوة مستمرة معهم والبغضاء فيما بينهم إلى يوم القيامة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 14]، اليهود والنصارى، وأشد ما عملوه أنهم حرفوا كلام الله، وغيروا وبدلوا في أحكام الله، وأنهم كتموا رسالة النبي وصفات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يتبعوه مع أنهم أمروا في التوراة والإنجيل أن يتبعوا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتبعوا دينه، لكنهم كفروا بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 14]، ثم نادى الله اليهود والنصارى وقال: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: 15]، يذكرهم بالكتاب بالتوراة والإنجيل، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ [المائدة: 15]، محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: 15].

الرسول جاء يبين، القرآن فضحهم، كشف عوارهم، ما ترك فيهم شيء، هم يخفون ويخفون ويخفون والله بيّن لهم كلّ ما أخفوه في هذا الكتاب.

قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: 15]، يسامح ويتجاوز عن كثير، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: 15]، انتبهوا أيها اليهود والنصارى قد جاءكم ماذا؟ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: 15]، وهو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 15]، وهو القرآن العظيم، أنت أيها المسلم، وأنت من أبناء المسلمين لما تسمع مثل هذا الكلام هل هذا الكلام يؤثر فيك؟ أنك تعرف أن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءنا وهو نور، محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نور لنا، وجاءنا كتاب وهذا الكتاب كتاب مبين.

يقول: هذا القرآن التي أنت تقرأه ممن وفق لقراءته، وختم القرآن، ودائم التعلق بالقرآن هذا توفيق من الله، وتجد من المسلمين من هو هاجر للقرآن ولا يقرأه، ولا في الأسبوع ولا مرة، ولا في الشهر مرة، فهذا حرمان، إذا لم تكن متعلقًا بالقرآن تتعلق بأي شيء في الدنيا، ما الذي ينفعك في الدنيا؟!!

ما ينفعك إلا ما يجعلك تقترب إلى الله من الصلاة وقراءة القرآن، القرآن هو كتاب مبين، ما هو هذا القرآن الذي نقرأه وما صفاته؟

قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: 16]، إذا أنت تمسكت بالقرآن واعتنيت بالقرآن تلاوة وتدبرًا وعملاً النتيجة ماذا؟ يهديك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سبل السلام، طريق النجاة، النجاة في الدنيا والنجاة في الآخرة، أنت يا صاحب القرآن ينجيك الله من بلايا الدنيا، وفتن الدنيا، وينجيك في الآخرة.

القرآن معك في الدنيا سيكون معك في القبر، سيكون معك يوم القيامة لما تُبعث، وسيكون معك في الجنة، حتى الجنة ليس معك شيء من الدنيا إلا القرآن «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتقي ورتل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها، ستة ألاف آية، ستة ألاف وأكثر وأنت تصعد إلى منازل عالية.

قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ﴾ [المائدة: 16]، هذا القرآن من أي شيء؟ ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ﴾ [المائدة: 16]، بإذن الله، ﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾ [المائدة: 16]، أي القرآن

أو الله، ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 16]، انظر إلى ثمرات القرآن، فكيف نعيش بعيد عن القرآن ونسمع مثل هذا الكلام؟!!

قال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، سبل النجاة في الدنيا والآخرة، ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾، من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الطاعة والاستقامة ﴿بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 16]، صراط النجاة والسلامة، كلّ هذا في القرآن الكريم.

إذًا الواجب علينا: **"أن نتمسك بالقرآن"** نتمسك به تلاوة، وتدبرًا، وعملاً، ويكون حبنا كله في القرآن، ووقتنا كله نجعله للقرآن لا يغيب عنك، الجوال معك أربعة وعشرين ساعة تفتحه في كلّ وقت، تدخل على كلّ ما تستطيع أن تدخل عليه، القرآن موجود في الجوال افتحه، وإذا وجدت فرصة أن تقرأ القرآن لا تترك قراءة القرآن في كلّ مكان، تجد الوقت يضيع عليك في أشياء كثيرة، اجعل القرآن نصب عينيك.

نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(113)
(المائدة 17 - 26)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعله لقاءً مباركًا نافعًا وأن يرزقنا وإياكم الإخلاص في القول والعمل.

هذا اليوم هو يوم الأربعاء الموافق للخامس عشر من شهر الله المحرم، من عام 1445 للهجرة، درسنا في مثل هذه الليلة من كلّ أسبوع مع تفسير القرآن العظيم.

السورة التي بين أيدينا هي **"سورة المائدة"** وتكلمنا عنها في لقاءات ماضية ونواصل الآيات القرآنية التي فيها البيان والشفاء، وفيها العلم النافع، وفيها التوجيهات الربانية التي يستفيد منها المسلم.

هذه الآيات التي نتحدث عنها الآن، وأيضًا تحدثنا عنها في لقاءنا الماضي حول أهل الكتاب، من هم أهل الكتاب؟ وما سيرهم؟ وما حالهم؟ وما عقيدتهم؟ وما موقفهم من دعوة الإسلام؟ وما هو موقفهم من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هذا الذي ينبغي للمسلم أن يتعرف عليه وأن يتعلمه، لا أن يتعلم علومًا قد تكون ليس فيها منفعة في دينه ولا في دنياه، هذا الذي ينبغي له، هذا ميراث محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا الميراث الذي ينبغي للإنسان.

الأنبياء لم يورثوا لا درهمًا ولا دينارًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر، ومن حُرم هذا العلم حُرم الخير كله.

نتعلم وننظر في مواقف هؤلاء، هؤلاء أهل الكتاب هم اليهود والنصارى بيّن الله لنا حقائقهم، وذكر لنا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخذ الميثاق على اليهود، فنقضوا المواثيق كلها، فعاقبهم الله بعقوبات، قال: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 13].

هؤلاء هم اليهود، والنصارى قال الله عَزَّ وَجَلَّ: **"أخذنا منهم الميثاق فنقضوه، ونسوا حظًا مما ذُكروا به"** قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: 14].

"أغرينا" يعني ألصقنا بهم، لا تنفك عنهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ تهديدًا لهم: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 14].

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته ولطفه مع أنهم فعلوا هذه الأفاعيل الشنيعة إلا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يناديهم ويقول: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ [المائدة: 15]، يعني محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: 15]، عندهم الكتاب التوراة والإنجيل حرفوها وبدلوها وأخفوا ما فيها مما أخفوه، يخفون كثير.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **"هذا النبي الكريم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعفو عن كثير مما حصل منكم، وهذا النبي هو نور"** قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: 15]، ومعه ماذا؟ ﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 15]، واضح الدلالة، ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: 16]، أجمل من هذا الكلام وأوضح ما تجد.

بعد هذا البيان كله يبين الله لك عقائد هؤلاء، ومواقفهم السيئة، وقبائحهم مع من؟ مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أولًا: **"بدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ببيان عقيدة النصارى ثم اليهود"** مع أن اليهود أسبق من النصارى، لماذا؟ لأن عقيدة النصارى عقيدة شنيعة لا يقبلها أي عقل، يعني أشد من اليهود.

✍ ما هي عقيدة النصارى؟

والله الحقيقة يا أخوان لو نسأل أبناءنا في المتوسط والثانوي تقول له: ما هي عقيدة النصراني؟ قال: ما أدري، ما يعرف عقيدة النصارى، وهو يقرأ القرآن.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]، هذه هي عقيدة النصارى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُقسم لنا قسمًا، يقول: ﴿لَقَدْ﴾ [المائدة: 17]، **"اللام" "لام"** القسم، يعني والله لقد كفر، حكم عليهم بالكفر.

يأتينا واحد يقول: والله النصارى على دينهم، واليهود على دينهم، ونحن على ديننا، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: 6].

نقول: كيف تقول هذا الكلام؟! أنت تخالف الكتاب والسنة، الله حكم عليهم بالكفر وأنت تقول: لهم دين، ما لهم دين، دينهم محرف مُغير، هل هذا دين الذي يقول: إن الله هو المسيح؟ هل هذا دين شرعه الله؟ كيف تقول: لهم دين؟!!

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ﴾ [المائدة: 17]، حكم عليهم بالكفر، لابد يا أخواني الحقيقة أن نعرف هذه المعلومات، هذه معلومات القرآن معلومات الوحي، لابد أن نتعرف عليها، ونعرفها أبناءنا، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17].

🗐 أنا أسألكم الآن سؤال:

✍ المسيح هو عيسى بن مريم، طيب النصارى الذين قالوا هذه الكلمة ومن جاء بعدهم إلى الآن في أواسط أوروبا وفي غيرها يعتقدون هذه العقيدة، هل هم يقولون: المسيح هو الله؟ أم يقولون: الله هو المسيح؟

هم الآن يقولون: المسيح عيسى بن مريم هو الله نعبده، هم يعبدونه، هم يعتقدون أن المسيح هو الله، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر وقال: لا، قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ [المائدة: 17].

جعلوا الله هو المسيح؛ لأنهم لما رأوا عيسى بن مريم ليس له أب، خلقه الله بلا أب، واستغربوا ذلك، وقالوا: كيف يخلقه الله بلا أب، إذًا من هو أبوه؟ ثم بدؤوا يفكرون إلى أن قالوا: الله هو الذي حل في عيسى، هذا يسمونه **"الحلولية"** أو **"اتحد اللاهوت مع الناسوت وأصبح إلهًا واحدًا"** إذًا عيسى هو الإله.

أنتم تستغربون أن عيسى ليس به أب طيب وآدم أين أبوه وأين أمه؟ ما له أب ولا أم، لماذا لم تقولوا هو الله؟! الله عَزَّ وَجَلَّ ضرب لهم المثال؛ قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59].

قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]، فرد الله عليهم ردًا قويًا، قال: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: 17]، يعني من يمنع ومن يستطيع أن يرد هذا الشيء الذي يريده الله، ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ﴾ [المائدة: 17].

تقولون: الله هو المسيح، طيب لو أراد الله أن يهلك المسيح في أحد يستطيع أن يمنع هذا القضاء وهذه العقوبة وهذا الهلاك؟ ما أحد يستطيع، قال: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 17].

الله لو أراد أن يهلك عيسى ابن مريم ويهلك أمه ويهلك كلّ من على الأرض ما أحد يستطيع أن يمنعه؛ لأن القدرة لله عَزَّ وَجَلَّ، والملك لله، والإرادة والتصرف لله وحده لا شريك له، وهذا كله تحت ملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة: 17]، السماوات كلها لله، ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [المائدة: 17]، هذه الأجواء ما بين السماء والأرض كلها لله، كيف تعتقد هذه العقيدة؟! هل هذا معتقد يصح أن يقوله عاقل؟!!

عيسى بن مريم مخلوق ضعيف، لما خلقه الله ووضعته أمه ماذا قال؟ قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: 30]، ما قال إني إله، وأنتم تقولون إله؟!!

قد يسأل سائل:

طيب هم يعتقدون هذه العقيدة في عيسى، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾ [المائدة: 17]، طيب أمه ما لها علاقة؟

نقول: لأنهم عندهم عقيدة أخرى **"عقيدة التثليث"** يعتقدون أيضًا أن **"مريم إله"** ويعتقدون أن **"عيسى إله"** ويقولون: **"الإله ثلاثة: الرب، والابن، ومريم"** أو يقولون: **"الرب، والابن، وجبريل"** يعتقدون اعتقادات باطلة، أو يقولون: **"روح القدس"** يعني جبريل.

كلّ هذه عقائد خرافية وباطلة ولا تصح، والله تعالى رد عليهم، قال: ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 17]، إن أراد أن يهلكهم يهلكهم.

قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة: 17]، السماوات كلها ومن فيها من الملائكة في حكم الله، والأرض ومن فيها كلهم في حكم الله، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [المائدة: 17].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [المائدة: 17]، هذا رد عليهم، لأنهم اعتقدوا في عيسى قال: **"الله يخلق ما يشاء"** يخلق عيسى بلا أب، ويستطيع أن يخلق إنسان بلا أم ولا أب كما خلق آدم، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 17].

لو عرفتم قدرة الله، وملكه وتصرفه في الكون ما قلتم: **"إن عيسى هو الله"** عيسى مخلوق، ويموت، ويأكل، ويشرب، ويمرض، يتعرض إلى العاهات، ما هو معصوم من هذه الأشياء، كيف تدعون أنه هو الذي يملك السماوات والأرض، وهو الذي يُعبد من دون الله؟!!

هذا موقف الآن من مواقف النصارى في كفرهم بالله، وخذ من المواقف، اليهود والنصارى يدعون أنهم ماذا؟ أنهم أقرب الناس إلى الله، وأن الله لن يعذبهم، ما حجتهم؟

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18]، هذه المقالة الشنيعة كيف أنتم أبناء الله؟ يعني اليهود قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18].

هم لا يقصدون أبناء بالنسب، ما يقولون بالنسب، نحن أبناء الله يعني بيننا وبين الله ولادة ونسب لا؛ وإنما يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18]، يعني نحن أقرب الناس إلى الله، كأننا بمنزلة الأبناء؛ فإن الله يحبنا، والله اختارنا جعلنا الشعب المختار، ولن يعذبنا، والنصارى نفس الشيء، قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18]، نحن أقرب إلى الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: قل لهم يا محمد لهؤلاء الذين يدعون هذه المحبة الباطلة الغير صحيحة، ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: 18]، لماذا يعذبكم بذنوبكم؟! لو أنتم أبناء الله وأحباؤه؛ فإن الحبيب لا يُعذب حبيبه، كيف يُعذب حبيبه؟! فلماذا يعذبكم بذنوبكم؟ وأنتم تقرون تقولون: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: 80]، أنتم تقرون بالعذاب، فلو كنتم أبناء الله وأحباءه ما عذبكم.

ثم قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ [المائدة: 18]، لا أبناءه ولا أحباءه، أنتم بشر ممن خلق، ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 18]، ممن تاب منكم وعاد إلى الله، ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 18]، ممن أصر على هذه العقيدة الباطلة، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [المائدة: 18].

الملك لله، إن أراد أن يعذب عذب، وإن أراد أن يعفو عفا، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: 18]، المرجع إلى الله، ورجوع الخلق كلهم إلى الله.

بعدها بيان هذه العقيدة الباطلة، الله عَزَّ وَجَلَّ برحمته وعفوه وكرمه يُنادي مرة ثانية، ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ [المائدة: 19]، محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 19]، يبين لكم ماذا؟ يبين لكم العقيدة الصحيحة، يبين لكم ما أنتم عليه من هذه الخرافات، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة: 19].

"على فترة" يعني على انقطاع، يُقال: **"فتر الشيء انقطع"**، **"على فترة"** يعني على انقطاع، يعني ما بين عيسى إلى محمد ليس هناك رسول، آخر رسل بني إسرائيل هو عيسى بن مريم، بينه وبين محمد خمسمائة وستين سنة، يعني حوالي ستمائة سنة تقريبًا.

هذه المدة ليس فيها بعثة، ولم يأتهم رسول، إلا محمد هو خاتم الأنبياء وسيدهم سيد الأنبياء والمرسلين.

قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا﴾ [المائدة: 19]، حتى لا تقولوا يوم القيامة، ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: 19]، إذا جاء يوم القيامة قالوا: يا ربنا ما جاءنا نذير، ما جاءنا رسول، ما جاءنا بشير.

يقول: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ﴾ [المائدة: 19]، يبشركم بالخير إن أطعتم، ﴿وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: 19]، يحذركم، ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: 19]، جاءكم محمد بشيرًا لمن أطاعه بالجنة، ونذيرًا لمن عصاه بالنار.

قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 19]، يعني قدير على كلّ شيء أن يُرسل الرسل، وأن يغفر لمن أراد أن يغفر له إذا تاب، ويُعذب من أراد أن يُعذبه إذا لم يتب.

انظر كيف لطف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورحمته بعباده ويناديهم؟! وهم ماذا يقولون؟ يقولون: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ [المائدة: 18]، ومع ذلك يتلطف لهم بأحسن العبارات.

نختم المجلس بهذه القصة العجيبة التي يسوقها الله في بيان أيضًا موقف اليهود، أنت عرفت الآن موقف النصارى، اليهود مواقفهم سيئة، يقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: 181]، يقولون: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64].

وهنا لما دعاهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لدخول بيت المقدس، قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24].

محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر في غزوة بدر، وهو قلة ثلاثمائة وبضعة عشر، مقابل ما يقارب الألف أمام المشركين، لما استشار الصحابة قال المقداد بن عمرو: **"يا رسول الله والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، والله لا نقول كما قالت اليهود: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]، ولكننا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون"** انظر إلى موقف هؤلاء وموقف هؤلاء.

اليهود خونة، جبناء، أخوف الناس على وجه الأرض اليهود، انظر ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ [المائدة: 20]، يعني اذكر لهم قصة موسى، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 20].

نعم الله عليهم كثيرة، أعظم النعم أنه نجاهم من فرعون وبطشه، وأعظم النعم أنه جاوز بهم البحر وأغرق فرعون أمامهم، نعم عظيمة، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 20].

✍ ومن النعم ماذا؟

قال: ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاء﴾ [المائدة: 20]، بنو إسرائيل فيهم أنبياء كثير، **"يعقوب، ويوسف"** ومن جاء بعدهم أنبياء، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: 20]، قبل إغراق فرعون كانوا تحت حكم فرعون، ما يملكون أنفسهم، قد تسلط عليهم فرعون وملأه، ليس لهم أي تصرف، والآن أصبحوا ملوك، كلّ واحد يملك نفسه، ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: 20].

وجعلكم تملكون البيوت، وتملكون المراكب، وتركبون، وتأكلون، وعندكم الأموال، جعلكم ملوكًا.

قال: ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 20]، هذا كلام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقول: أعطاكم الله أشياء عظيمة ما أعطاها أحد من العالمين، أشياء عظيمة.

ثم لما ذكرهم بهذه النعم العظيمة، قال: ﴿يَاقَوْمِ﴾ [المائدة: 21]، يناديهم بأحسن أسلوب ويذكرهم، يقول: أنا منكم، وأنتم مني، ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: 21].

هذه أرض الشام، قيل: هي فلسطين، وقيل: بيت المقدس، وقيل غير ذلك، ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 21]، مكتوبة لكم، يعني الله أعطاكم إياه، فقط أدخلوها، قد كتبها لكم، ما قال: **"كتبها عليكم"** لو قال: **"كتبها عليكم"** يعني مفروضة عليكم لابد أن تدخلوا، ولكنها هبة من الله، ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 21].

قال: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 21]، يقول: إذا لم تدخلوا وترجعون إلى الوراء ستخسرون الدنيا والآخرة؛ لأنكم عصيتم الله، وعصيتم رسوله، ولم تبادروا بتحقيق هذا الأمر، ثم ناداهم: ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 21].

القصة باختصار: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أنجى موسى ومن معه، وغرق فرعون ونزلوا في التيه أمرهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أو أمر الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأخذ منهم مثلما مر معنا اثني عشر نقيبًا، يعني أفضل رجال بني إسرائيل اثنا عشر، وقال: اذهبوا إلى بيت المقدس وأعطونا أخبار هذا البيت ما هو الذي فيه؟ ما الذي فيه هذه المدينة؟ فذهبوا فلما ودخلوها وإذا فيها رجال أقوياء، ومليئة بالناس، وفيها خيارات وفواكه، فرجعوا خائفين.

قالوا: يا موسى فيها أُناس أقوياء ما نستطيع أن ندخلها، فيهم اثنين رجلان صالحان، قالوا: ندخل والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينصرنا عليهم ولو كانوا أقوياء، أمام الحقّ يضعفون.

فلما نقلوا هذه الأخبار إلى بني إسرائيل، قال موسى لبني إسرائيل: **"نذهب إلى الجهاد وندخل القرية"** قالوا: لا، ما نستطيع أن ندخل، فيها أقوياء، ونحن ضعفاء، وما عندنا قوة، وخافوا، دخلهم الجبن والخوف والهلع، حتى بدؤوا يبكون.

فقال: **"أمرنا الله أن ندخل ادخلوا معي"** فامتنعوا، قالوا: ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: 22]، وهم الكنعانيون، ﴿وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: 22]، مستحيل أن ندخلها وهم موجودين، إذا خرجوا منها دخلنا، أخرجوهم طيب.

قال: ﴿فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: 22]، ما يريدون المواجهة، ولا القتال، ولا الجهاد، يعني خونة وجبناء وضعفاء ولا عندهم قدرة؛ لأن الإيمان ضعيف عندهم.

قال: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ [المائدة: 23]، يخافون الله، رجلان من أفضل بني إسرائيل، ومن النقباء، ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: 23]، أنعم الله عليهم بالإيمان والقوة، والجهاد،

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ [المائدة: 23]، ادخلوا باب القرية، ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ [المائدة: 23]؛ لأن الله معكم وأنتم دخلتم بالإيمان، فادخلوه ستغلبونهم.

قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة: 23]، انظر السبب هو التوكل على الله، تفويض الأمر إلى الله؛ لأن الله هو الذي ينصر، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23].

قال: ﴿قَالُوا يَامُوسَى﴾ [المائدة: 24]، انظروا إلى الضعف، الآن العبارة هذه أقوى من الأولى، ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: 24]، انظروا إلى قلة الحياء والكلام القبيح، ولا احترام، حتى في ندائهم ما ينادون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقولون: **"يا نبي الله"**، **"يا رسول الله"** ولكن **"يا موسى"**، وما يقولون: **"ربنا الله"** لا، وإنما قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: 24]، كأنه ربه هو فقط.

قال: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]، اختاروا العقود عن الجهاد، ولا يريدون العزة ولا النصر، وإنما يريدون القعود عن الجهاد، ويريدون النعمة ويريدون الخير!!

لما ألح عليهم موسى وحاول فيهم قدر إمكانه وما استطاع، وهم الجبناء الخائفين امتنعوا ماذا قال؟ قال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ [المائدة: 25]، أنا ما أملكهم، أنا رسول أبلغ رسالة ربي وما أملكهم، ما أملك إلا نفسي وأخي.

قال: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: 25]، يعني افصل بيننا وبين القوم الفاسقين، هم خلاص ما يتقبلون، وهم قومٌ فاسقين، حكم عليهم بالفسق.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 26]، ما هي؟ **"بيت المقدس"** هذه البلدة محرمة عليهم لا يدخلونها أبدًا، لو جاءوا بكل شيء ما يدخلون خلاص، منعهم الله، ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 26]، مع أن الله كتبها لهم لكنهم امتنعوا.

ثم قال: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: 26]، يتيهون في الأرض يعني يضيعون في الأرض ما يدرون أين يذهبون؟ كلما أرادوا أن يخرجوا من هذا التيه الأرض التي هم فيها ما استطاعوا، ما استطاعوا إلى الرجوع إلى مصر، ولا يدخلون الشام، وإنما يتيهون في هذه الأرض عقوبة عليهم، أو إنها محرمة عليهم أربعين سنة ما يدخلونها، بعد الأربعين يدخلونها، ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: 26].

ثم قال: ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ [المائدة: 26]، أي لا تحزن، ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: 26]، هؤلاء قوم فاسقون.

✍ طيب هل فتح "بيت المقدس" الأرض المقدسة ولا ما فُتحت؟

نقول: بعد أربعين سنة مات هؤلاء، أكثرهم أغلبهم مات، وحتى مات موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومات هارون، ودفنوا في التيه، ومات أكثر هؤلاء الذين عصوا الله وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: 24].

وجاء أبناؤهم الجيل الثاني، هذان الرجلان الذين أنعم الله عليهما اللذين قالا: **"ادخلوا الأرض المقدسة"** أحدهم **"يوشع بن نون"** فتى موسى، نبأه الله جعله نبي، فقاد الجيش وأخذ هؤلاء الشباب ودخل بهم بيت المقدس، وفتحوا بيت المقدس ونصرهم الله، نصرهم الله لما قوي إيمانهم، وصدقوا بهذا الخبر، ودخلوها ونصرهم الله.

هذه قصة عجيبة ذكرها الله لنا، فيها حكم، وفيها دروس وعبر، أقل ما فيها أو باختصار مواقف هؤلاء اليهود، موقفهم مع نبيهم وهو يأمرهم بالجهاد، وموقفهم مع الله يقولون: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: 24]، وكيف العقوبة أن الله حكم عليهم بالفسق وحكم عليهم بهذا الأمر؟ قال:

﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ 25 قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: 25، 26].

نقف عند هذا القدر، جزآكم الله خير على حضوركم وإنصاتكم، بارك الله فيكم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(114)
(المائدة 27 - 32)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله, وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين, نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين, اللهم علمنا ما ينفعنا, وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته, حياكم الله في هذا اللقاء المبارك, وهذا اليوم يوم الأربعاء الموافق للتاسع والعشرين من شهر الله المحرم, ومن عام 1445 من الهجرة.

درسنا المعتاد في تفسير القرآن العظيم, السورة هي **"سورة المائدة"**, وقف بنا الكلام عند الآية السابعة والعشرين, هذه الآية السابعة والعشرين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر لنا قصة واقعية وقعت في الزمان الأول, والمراد بالزمان الأول أي في عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أبو البشر.

والقصة باختصار هي تهدف إلى أمرين:

الأمر الأول: **"عاقبة الحسد"** الحسد خُلق سيء, وعاقبته سيئة, ومرتعه وخيم.

الأمر الثاني: **"جريمة القتل"** وأن جريمة القتل جريمة شنيعة, ويبغضها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى, وحرمها الله, قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم»**, فالتعرض إلى الدماء والقتل هذه جريمة شديدة.

وأول ما يُقضى بين العباد يوم القيامة في الدماء, وقتل نفس محرمة من أعظم الكبائر, وهذه الجريمة التي وقعت وقعت لابني آدم.

وقد يسأل سائل فيقول:

✍ لماذا قص الله علينا هذه القصة؟

فنقول: لما تقرأ هذه الآيات, وتقرأ الآيات التي قبلها تجدها تتحدث عن بني إسرائيل اليهود, وأيضًا حسد اليهود للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, حسدوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الرسالة, وأرادوا قتله, يعني وقع لهم هذان الأمران اللذان حرمهما الله؛ حيث أرادوا قتله, يعني هموا بقتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحسدوه, ولم يؤمنوا به.

فأورد الله لهم هذه القصة, لهم ولغيرهم, أن عاقبة الحسد وسوء القتل جريمة عظيمة حرمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول الآيات: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 27], على من؟ على بني إسرائيل اليهود, وعلى غيرهم أيضًا, على سائر الناس.

✍ يتلوا عليهم ماذا؟

قال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ [المائدة: 27], كلمة **"اتل عليهم"** التلاوة هي: **"قراءة الشيء مع التدبر والتأمل"** يعني هناك فرق بين القراءة والتلاوة, القراءة أي شيء تقرأه تسمى قراءة, لكن لما تقرأه بتمعن وتدبر وتفكر ونظر وإعادة نظر وتقلب هذا الكلام هذا يسمى **"تلاوة"**.

وأيضًا التلاوة تتضمن العمل, يعني لما تقرأ تعمل, فالله لما يقول: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 27], يعني أخبرهم بأن يتدبروا ويفهموا ويعملوا بما في هذه القصة من تحذيرات, ومن توجيهات.

✍ قال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ [المائدة: 27], النبأ والخبر هل هناك فرق بينهما أم الخبر والنبأ واحد؟

القرآن أحيانًا يأتيك يقول: **"خبر"** ومرة يأتي **"نبأ"**, نقول: في فرق بينهما, الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما يأتي بكلمة النبأ في موضع والخبر في موضع؛ لابد أن يكون هناك فرق بينهما, النبأ غالبًا في الأمور العظيمة المهمة, الأنباء في الأمور المهمة, قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: 4], وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ 1 عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: 1، 2].

فالأنباء والنبأ دائمًا في الأخبار المهمة, وهنا خبر مهم جدًا, لو قال الله عَزَّ وَجَلَّ: **"واتل عليهم خبر ابن آدم"** خبر غير نبأ, الخبر ما تلقي له أهمية مثل النبأ؛ لأن الخبر يدخله الصدق والكذب, النبأ غالبًا في الصدق, ولذلك النبي سمي نبيًا؛ لأنه ينبئ عن أخبار صادقة.

قال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾ [المائدة: 27], ابني آدم المراد بابنيه من الصلب, يعني أبناء آدم مباشرة, وهذه القصة وقعت في عهد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أبو البشر, وذكر أهل التفسير أن ابني آدم أحدهما اسمه **"قابيل"**, والآخر **"هابيل"**.

قال: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: 27], بالحق الصدق, الحقّ الواقع لا مرية فيه ولاشك, يعني أنت لما تسمع القصة هذه لا يطرأ عليك شك فيها, ولا يأتي إليك أي شيء يجعلك تشك في هذا الأمر, يعني هذا خبر صدق وحقّ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿إِذْ قَرَّبَا﴾ [المائدة: 27], يعني **"إذ"** معناها هذا يسميه أهل العلم **"ظرف زماني"** يعني وقت أو حين, حين قربا ﴿قُرْبَانًا﴾ [المائدة: 27], القربان من القربة, يتقرب بها الإنسان إلى الله عَزَّ وَجَلَّ, تتقرب بالصلاة, تتقرب بالزكاة, تتقرب الصدقة, تتقرب بالذبيحة النسك, هذه نسميها قرابين قُربان.

ابني آدم قربا قربان, ﴿فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ [المائدة: 27], هذه الآية جاءت مجملة لا نستطيع أن نميز أو نعرف شيء من وراء هذا الكلام, فهذا مجمل, لكن المفسرين ذكروا قصة حول هذا والله أعلم بصحتها, ولكن أكثر المفسرين عليها.

القصة هي: أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت زوجته حواء تحمل بتوأم ذكر وأنثى, كلّ بطن فيها ذكر وأنثى توأم, فإذا ولدت توأم وكبر هذا الذكر لا يتزوج أخته التي حملت معه في بطنها, وإنما يتزوج توأمة الآخر؛ لأنه ما في هناك يستطيع أن يتزوج إلا بهذه الطريقة.

أولاد آدم عندما يريد أن يزوج أحدهما الآخر ما يزوج الذكر من الأنثى التي حملت معه, وإنما التي قبله أو التي بعده, هذه شريعة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فلما أراد أن يزوج هابيل أخت قابيل, وقابيل أخت هابيل هذه التي ذكرها المفسرون, وقابيل أخته أجمل, وهابيل أخته أقل في الجمال, فلما جاء يتزوج هابيل أخت قابيل وهي جميلة رفض قابيل قال: لا, أنا أريد أختي, قال له آدم: كيف تتزوج أختك في حمل واحد هذا مخالف للشريعة؟!

قال: لا أريد إلا أن أتزوج بهذه حسدًا منه لأخيه, وإلا المفترض أن يتنازل لأخيه, وتمشي الأمور, لكنه قال: لا, أنا لا أتنازل إلا أن آخذ هذه فرفض, فاشتد رفضه وحسده على أخيه وبدأ يهدده بالقتل, قال: إن لم أتزوجها سأقتلك.

فقال له آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذًا نحل هذا الإشكال كلّ واحد منكم يقدم قربان, يقدم صدقة لله, وكانت الصدقة في ذلك الزمان حتى إلى زمن موسى تأتي نار تأكلها, فإذا أكلتها النار التي تنزل من السماء معناه أن الصدقة قد قُبلت عند الله.

فكان هابيل صاحب أغنام, وقابيل صاحب زرع, وهابيل قدم أحسن ما يجد من أغنام, أحسن ما يجد من أغنامه قدمه إلى الله صدقة, وهابيل قدم أسوأ ما يجد من الزرع, أتى بحزمة زرع قليلة ورديئة ووضعها.

فنزلت نار من السماء وأكلت قُربان هابيل وهو من الغنم, فأخذته وتركت الزرع, فغضب قابيل وقال: كيف أنا لا تُقبل صدقتي, وأنت تُقبل صدقتك؟

قال: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: 27], كيف تقتلني أنت قدمت شيء رديء وأنا قدمت شيء ثمين؟ قال: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: 27], رده عليه قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

هذه الكلمة يجب أن نتوقف عندها ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27], سبب القبول هو تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ, تقوى الله والتزام أمر الله عَزَّ وَجَلَّ والبعد عما يُغضب الله؛ بحيث يكون الإنسان تقيًا ملازم لتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى, الله يتقبل منه, فيتقبل منه الصلاة, ويتقبل منه الدعاء, وهو بحاجة إلى قبول الدعاء, يتقبل منه الصدقة, ويتقبل منه الحج, ويتقبل منه أعماله كلها التي يتقدم بها إلى الله, الله يتقبل من المتقين.

فتقوى الله هي سبب القبول, ومخالفة تقوى الله والتقصير في حقّ الله سبب لعدم القبول, الكثير من الناس يُصلي ولا تُقبل صلاته, يحج ولا يُقبل منه حج, يتصدق ولا تقبل منه صدقته, يدعو ولا يُستجاب له؛ لأن مأكله حرام, مطعمه حرام, مشربه حرام, معاملاته محرمة, يرتكب محرمات, يرتكب كبائر, ويقول: لماذا لا يقبل الله مني؟! قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

انظر هذا نيته لما قدم أسوأ وأردئ شيء عنده, وهذا نيته لما قدم أغلى وأنفس شيء عنده؛ فتقبل الله, لأن هذا يختلف عنه, النية محلها القلب, والنية سبب للقبول, قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

فلما بدأ يهدده رد عليه, قال: أما قبول القربان هذا لا أملكه, ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27], هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: قال: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ [المائدة: 28], إذا أردت أن تمد يدك على أن تريد قتلي وإزهاق روحي ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 28], أنا ما أبسط يدي إليك, لا أريد أن أبسطها لك, يقول: ما أقابل القتل بالقتل, أنا ما أقابل القتل بالقتل؛ لأني لو قتلتك سأقع في جريمة القتل, وهذه جريمة وهذه جريمة, فأنا أكف نفسي عن أن أقع في هذه الجريمة.

قال: ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ [المائدة: 28], هذا فعل مضارع, رد عليه قال: ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ [المائدة: 28], هذه جملة اسمية, الجملة الاسمية آكد وأقوى, يعني ما يمكن, ومستحيل أن يقع مني أن أقتل أخًا لي, مستحيل لا يجوز لي, ولذلك امتنع بقوة, امتناع هابيل أقوى, ولذلك جاء بالجملة الاسمية, ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 28].

علل السبب, والسبب ما هو؟ أنه يخاف الله, يخاف عقوبة الله به, جريمة القتل جريمة شنعاء يجد صاحبها عقوبتها وأثرها في الدنيا قبل الآخرة.

ثم قال: إن كنت عزمت على قتلي, وأنا عزمت على ألا أقتلك؛ فأنا أريد أن تبوء بإثمي وإثمك, إذا كنت عزمته؛ فأنا أصرف أمري عن قتالك أو عن مقاتلك ولا أرد القتال بالقتل, ولكن ﴿أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ﴾ [المائدة: 29], أي ترجع ﴿بِإِثْمِي﴾ [المائدة: 29]؛ لأني لو قتلتك سأتحمل الإثم أنا, فأنا أريدك أنت تتحمل, وهذا كله من باب التخويف له, يخوفه, قال: ﴿أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ﴾ [المائدة: 29], أي ترجع, ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: 29], أي بذنبي وذنبك, ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [المائدة: 29].

لأنك تحملت وزرين:

أولًا: **"قتلي بغير حقّ وبغير ذنب"**.

ثانيًا: **"تحتمل أني لو تركتني لقتلتك فأنا صرفت عن القتل"** فلذلك قال: ﴿أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [المائدة: 29].

وهذا يدل على أن جريمة القتل جريمة عظيمة تؤدي بصاحبها إلى دخول النار, أن تكون من أصحاب النار, ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 29].

القتل ظلم, وجريمة, وسبب لدخول النار, فخوفه بالله, وقال: إني أخاف الله, إني لا أريد أن أبسط يدي إليك, وأنا سأكف يدي عنك, وذكره وخوفه وقال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27], ونصحه, وبيّن له العقوبة, قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: 29].

وبيّن العقوبة فقال: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [المائدة: 29], وأن هذا ظلم, ولكنه لم يتقبل من ذلك شيئًا.

قال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: 30], طوعت أي سهلت له نفسه, وزينت له نفسه قتل أخيه, ﴿فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة: 30].

قال بعض أهل التفسير: إنه جاءه على غيرة وعلى غفلة واغتاله وقتله, زين له الشيطان قتل أخيه فقتله, فلما قتله أصبح ماذا؟ ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 30], خسر أخاه, تقتل أخاك المسلم وأخاك من النسب؟!!

قال: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 30], كيف أصبح من الخاسرين؟ لأنه لما قتله كان أول قتيل, أول جريمة تقع.

ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماذا قال؟

قال: **«ما من قتيل يُقتل ظلمًا إلا على ابن آدم الأول كفل من دمه»**, يعني يتحمل ابن آدم الأول نصيب من القتل, أي واحد يقتل على وجه الأرض إلى قيام الساعة يتقل ظلمًا ابن آدم الأول له كفل يعني له نصيب من هذا الذنب, له حقّ ونصيب من هذا الذنب, عقوبة القتل ليست سهلة.

قال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 30], كيف أصبح من الخاسرين؟ لأنه لما قتله ما يدري أين يضعه؟ لا في حفر قبر ولا في شيء, ما يدري, ما يعرف, أول قتيل ماذا يصنع به؟

قال بعض أهل التفسير: بدأ يحمله معه, يحمله على ظهره, أينما ذهب؛ ذهب معه, حتى بدأت تخرج رائحته, وامتدت المدة معه, قيل: أسبوع, وقيل: أشهر, وقيل: مدة طويلة, الله أعلم بذلك, لكنه بدأ كلّ ما نزل في مكان أنزل أخاه, خسر خسارة عظيمة, ولا يدري ماذا يفعل بهذا؟ إن تركه للسباع تأكله والطيور ولا ماذا يصنع به؟

ففي وقت من الأوقات وهو جالس متحير خاسر قد ضاقت به الأرض وهو ينظر إلى أخيه وهو لا يتحرك ميت إذ بعث الله غرابين, فتقاتل الغرابين أمامه, فقتل أحدهما الآخر, فلما قتل أحدهما الآخر سقط الآخر على الأرض, فقام القاتل من الغراب وبدأ يحفر في الأرض, ثم أتى بهذا الغراب الآخر الميت وألقاه في هذه الحفرة ودفنه.

فلما نظر إليه قابيل كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: 31], السوءة هي العورة؛ لأن الميت إذا مات أصبح عورة, لا يجوز كشف شيء منه, إلا للحاجة للتغسيل ونحوه.

قال: ﴿كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: 31], وجريمة هذا القتل, فلما نظر إلى الغراب قال: ﴿يَاوَيْلَتَا﴾ [المائدة: 31], هذه عبارة عن الندم الشديد, ﴿يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ [المائدة: 31].

يقول: عجزت تحيرت في أمري ولم أستطيع أصير ولا مثل هذا الغراب هذا الحيوان الصغير الطائر؟! قال: ﴿فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ [المائدة: 31], مثلما وارى هو سوءة هذا الغراب, أواري يعني أغطي وأدفن سوءة أخي, قال: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: 31].

يعني خسر نفسه, وخسر أخاه, وندم أشد الندم, ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: 31], ولن ينفع الندم.

هذه قصة ابني آدم, ساقها الله مثلما ذكرنا لعدة أسباب, وتوجيهات, وفوائد, أهمها: **"الحسد خُلق سيء وعاقبته وخيمة"** والحسد هو الذي أخرج إبليس من الجنة لما حسد آدم, والحسد هو الذي جعل قابيل يقتل أخاه هابيل, وجريمة القتل جريمة عظيمة.

ولذلك الله عقب على هذه القصة فقال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ [المائدة: 32], يعني بسبب ذلك, ولهذا الأمر, ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: 32], يعني كتبنا على بني إسرائيل وغيرهم, لكن بني إسرائيل؛ لأنهم هم الذين في سياق الآيات, **"كتبنا"** أي فرضنا على بني إسرائيل ماذا؟ قال: ﴿أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [المائدة: 32], يعني ليست قصاص, ليست مقابل قصاص, يعني قتل نفسًا بغير حقّ, بغير نفس.

أو بغير سبب الفساد في الأرض, كالزاني المحصن, الزاني المحصن يُقتل يُرجم, والمرتد يُرجم, أو نحو ذلك, قال: **"بغير قصاص ولا سبب كالفساد في الأرض كالمحاربين"**.

قال: ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32], هذا ليبين الله لك جريمة القتل وأثرها السيئ أن من يقتل نفس واحدة كأنه قتل الناس جميعًا, كيف قتل الناس جميعًا؟ لأنه أزهق روحًا واحدة؛ فإذا أزهق روح سيزهق أرواح أخرى كثيرة هذا أمر.

الأمر الثاني: أنه أزهق روحًا قد يكون فيها ذرية كثيرة, فأنت قتلته قطعت ذريته, فكأنما قتل الناس جميعًا.

قال: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: 32], لم يتعرض لها بالقتل, ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32]؛ لأنك تركته, وتركت غيره, وأيضًا تركت ذريته لأنه سيتناسل منه ذرية عظيمة, ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].

قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾ [المائدة: 32], أي بني إسرائيل, ﴿رُسُلُنَا﴾ [المائدة: 32], أرسلنا إليهم رسل كثيرة ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة: 32], الدلائل والحجج الواضحة, ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا﴾ [المائدة: 32], هذا ذم من الله لهم, ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: 32].

كثير من بني إسرائيل مسرفون في الأرض, مسرفون في أي شيء؟ في المعاصي, يسرفون في المعاصي والمخالفات وارتكاب المحرمات, وارتكاب الجرائم, فهم قتلة الأنبياء, وأرادوا قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من مرة, فهذه الآيات وهذه القصة العجيبة التي ساقها الله لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها دروس وفيه العبر.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا, وبما سمعنا.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(115)
(المائدة 33 - 40)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، مع مجلس القرآن الكريم، هذا المجلس يُعقد من كلّ أسبوع يوم الأربعاء بعد صلاة المغرب، وهذا اليوم هو اليوم السابع من شهر صفر من عام 1445 من الهجرة.

مجلسنا مع القرآن الكريم ومع آيات من **"سورة المائدة"**، والآية التي بين أيدينا هي رقمها ثلاثة وثلاثين، هذه الآية تتحدث عن جزاء المفسدين في الأرض، المحاربين لله ولرسوله، الذين يفسدون بقتل الأبرياء وأخذ أموالهم، وترويع الآمنين، ما جزاءهم؟

في لقاءنا الماضي كان الحديث عن قتل ابني آدم، أو قتل أحدهما للآخر، وبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عقوبة القتل، وأن القتل جريمة عظيمة.

يذكر هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عقوبة الذين يثيرون القتل، ويحاربون الله ورسوله، وهذه الآية تسمى عند أهل العلم بـــ **"آية المحاربة"** أو **"آية الحرابة"** لأنهم يحاربون الله ورسوله، ويحاربون المؤمنين، يروعون الآمنين، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: 33].

هذا حكم الله في هؤلاء، أنت لما تقرأ هذه الآية، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ﴾ [المائدة: 33]، يأتي بحرف **"إنما"**، **"إنما"** يقول أهل اللغة: **"حرف حصر، يفيد الحصر"** يعني جزاءهم هذا هو جزاءهم، لا يجزون بغيره، ولا يُتنازل معهم، ولا يُتعاطف معهم، ولا تأخذنا بهم رأفة، وإنما هذا جزاء الله فيهم، وهذا حكم الله فيهم.

✍ قال: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: 33]، كيف يحاربون الله ورسوله؟ في أحد يحارب الله؟ كيف يحاربون الله ورسوله؟

نقول: نعم، يحاربون الله بإيذاء الله عَزَّ وَجَلَّ بشتمه، وسبه، ووصفه بأوصاف لا تليق، ومحاربة شرعه، محاربة دينه، محاربة رسوله، محاربة أوليائه من المؤمنين، كلّ ذلك داخل، كلّ هذا من محاربة الله ورسوله، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ ما قال: **"الذين يحاربون المؤمنين"** أو **"يحاربون الآمنين في بيوتهم"** لا، وإنما قال: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: 33]، يعني أن هذا الجرم وهذا العمل لم يكن بين هؤلاء والمؤمنين فقط؛ بل هم يحاربون الله، يعني جريمتهم هذه جريمة عظيمة جدًا وشنيعة؛ أن الذي يعمل مثل هذه الأعمال أو يفسد في الأرض هذا لابد أن يفكر في نفسه أنه يحارب الله جَلَّ جَلَالُهُ ويحارب رسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ليس القضية أنك تروع المؤمنين أو تأخذ أموالهم أو تقتلهم، القضية أكبر من هذا ، فلابد أن نتدبر القرآن ونفهم المعاني لما يقول الله: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 33]، يعني ليست المحاربة فقط مع المؤمنين، أو ترويع المؤمنين لا، أنت الآن تعتدي على شرع الله، تعتدي على حدود الله، تعتدي على كلّ ما يغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويسخطه، القضية أكبر وأكبر.

ولاحظ أنه لما قال: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: 33]، قد يأتيك شخص يقول: ممكن يحاربون بالكلام، ما روع أحد ولا شيء، نقول: لا، أكمل الآية يتضح لك المعنى، يقول: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 33]، وانظر إلى كلمة ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: 33]، ما قال: **"يفسدون في الأرض"** لو كان يفسدون في الأرض الأمر قد يكون أقل، لكن هؤلاء يسعون، السعي هو المشي بسرعة، يعني لا يتوقفون، ولا يترددون؛ بل يسارعون ويسعون في الأرض فسادًا، أي يفسدون شرع الله، يحاربون شرع الله، هذا الفساد.

الفساد كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 56]، إصلاحها بأي شيء؟ إصلاحها بالطاعات والعمل الصالح، ونشر الخير، ثم يأتي هؤلاء ويفسدونها بالمعاصي ونشر الفساد في الأرض، ولذلك قال: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: 33].

✍ ما جزاءهم؟

قال: جزاؤهم ، ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ [المائدة: 33]، كلمة **"يُقتلوا"** غير **"يَقْتُلوا"** أو **"يُقْتَلوا"** لا، تقتيل فيه مبالغة؛ بحيث أنك لا تتنازل، بحيث أنك لا تتنازل معهم وتتعاطف معهم.

✍ من هم هؤلاء؟

هؤلاء كما ذكر أهل العلم: فئات باغية، مجموعات، هؤلاء قطاع طريق، ولا يلزم أن يكونوا في الطرقات في الصحاري والباري؛ بل قد يكونوا في المدن، يمكن أن يدخلوا على البيوت ويروعون الآمنين، ويسرقون أموالهم، ويقتلونهم، هؤلاء المحاربين.

فهم قطاع طريق، يقطعون الطريق على الآمنين، سواء في السفر أو في الحضر، فهؤلاء إذا اجتمعوا يكون لهم صولة، يكون لهم جولة، يكون لهم قوة، يكون معهم سلاح، فيتربصون بالآمنين، ويقفون في وجوههم قطاع طريق.

فيأخذون أموالهم، أحيانًا يقتلونهم إذا دافعوا عن أنفسهم، يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ويروعون الآمنين، فهؤلاء حكم الله عليهم بأن يقتلوا.

قال: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ [المائدة: 33]، والتصليب معروف، يُصلب على خشبة، أو يُصلب على جدار أو نحو ذلك كما سيأتي، أو ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: 33].

هذا الحكم الآن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: **"أو"** فبعض العلماء يقول: للحاكم أو للوالي إذا قُبض على هؤلاء له الخيار، إما أن يُقتلون، أو يُقتلون ويصلبون، أو تُطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض، يعني هذا يراجع إلى الحاكم أو الإمام أو الأمير هو الذي يقضي بذلك.

وبعض أهل العلم يقول: لا، هذا الجزاء على حسب جرائمهم، فإن قتلوا وأخذوا الأموال يُقتلون ويصلبون، لكن إذا قتلوا ولم يأخذوا أموالًا يُقتلون، وإذا لم يقتلوا وإنما أخذوا الأموال فقط وهذا الغالب عليهم؛ فهؤلاء تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، يعني تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

وإن روعوا المسلمين ولم يقتلوا ولم يأخذوا أموال وإنما مجرد تخويف وترويع؛ فهؤلاء ينفوا من الأرض، كيف ينفوا من الأرض؟ قال: يُبعدون من بلد إلى بلد بعيدة، هذا كان في السابق.

وبعض أهل العلم يقول: لا، نفيه من الأرض أن يُسجن، أن يُدخل في سجن ويُحكم عليه بالسجن مدة زمنية.

إذًا الذي يظهر من أقوال أهل العلم: أن قطاع الطريق كلّ حكم في هذه الآية يناسب ما يفعله، إن قتل وأخذ الأموال سلب الأموال وروع، هذا يُقتل ويُصلب، والصلب أن يُقتل ويشُهر بقتله، لا

يُقتل خفية لا؛ يُلعن عنه، وكما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ﴾ [المائدة: 33]، يعني عار، ويُكشف أمرهم، ويُعلن عنهم في وسائل الإعلام حتى يعرفوا بأسمائهم وجرائمهم.

قال: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ [المائدة: 33]، بمعنى أنه يُصلب إما على خشبة، أو على جدار، أو نحو ذلك، اختلفوا في كم يُصلب؟ بعضهم قال: ثلاثة أيام، وبعضهم قال: أكثر، وبعضهم أقل، المهم أنه يُعلم ويُشهر في حقّ هؤلاء.

قال: ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ [المائدة: 33]، إذا أخذوا المال ولم يقتلوا؛ لأنه أحيانًا يأخذون الأموال والذهب ونحوه، ولا يقتلون، فهؤلاء جزاءهم أن تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

قال: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: 33]، والنفي مثلما ذكرنا أكثر أهل العلم على أنه يُسجن ويُبعد؛ لأنه مفسد في الأرض، متى يُنفى؟ مثلما ذكرنا، إذا لم يقتلوا، ولم يأخذوا أموالًا، وإنما روعوهم فقط؛ فهؤلاء يحكم عليهم القاضي بالسجن لمدة معينة.

قال: ﴿ذَلِكَ﴾ [المائدة: 33]، أي الحكم الذي حكم الله به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو أحكم الحاكمين، ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ﴾ [المائدة: 33]، أي عار وفضيحة ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: 33].

وهذا يدل على أنه ينبغي أن يُشهر بهم، وألا يُكتم عليهم؛ لأن الله قال: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ [المائدة: 33]، أي في حياتهم الدنيا أنهم يخزون ويُفضحون، ويُبين حالهم.

وأما في الآخرة: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 33]، عذاب عظيم في الآخرة أعده الله لهم، لماذا؟ لأنهم مفسدين في الأرض، فيجازيهم لله الجزاء الأول في الدنيا، العقوبة، والعقوبة الآخرة تنتظرهم.

استثنى الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 34]، يعني إذا هو فعل هذه الأفعال، وقتل مثلاً وسلب، وأخذ الأموال وكذا، وبعد زمن تاب، قال: أنا والله فعلت هذه الأفعال يعني جهالة مني وسفاهة، والآن أتوب، ما أحد قبض علي ولا يدرون من أنا، والآن تبت إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

إذا تاب قبل أن يُقبض عليه قبل أن تقبض عليه الدولة، قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 34].

هذا ذنب وهذه كبيرة التي يفعلها، إذا كان الشرك وهو أكبر وأعظم من الكبيرة إذا تاب الإنسان منه تاب الله عليه، إذا دخل إلى الإسلام وهو مشرك وكافر ويعبد صنم وتاب تاب الله عليه، والتوبة تجب ما قبلها.

فهذا نقول: إذا فعل هذه الجرائم وتاب بينه وبين الله ورجع؛ فإن الله يتوب عليه، لكن إذا قُبض عليه، ثم قال: تبت، نقول: لا، يُقام عليك الحد، والتوبة بينك وبين الله هذا أمر آخر، لكن إقامة الحد لابد، إذا قُبض عليه أن يُقام عليه الحد.

هنا مسألة مهمة:

الآن إذا هو مثلاً قتل أعداد وأخذ أموال كثيرين وتاب قبل أن يُقبض عليه، ما قُبض عليه، تاب بينه وبين الله، رجع وندم وتاب هل حقوق العباد تسقط؟

نحن قلنا: حقّ الله سقط، يعني تاب تاب الله عليه، لكن حقوق العباد أموالهم، وقتل الأنفس البريئة، نقول: ما يسقط، حقوق العبادة مبنية على المشاحة، حقوق الله مبنية على المسامحة، يعني الذي بينك وبين الله، الإنسان إذا ترك مثلاً الصلاة، ترك الزكاة، ترك الصيام، ترك أشياء هذه بينه وبين الله، الله عَزَّ وَجَلَّ يعفو عنه.

لكن حقوق الناس؛ الناس ما يعفون، ما يعفون عنك، سيأتيك يوم القيامة ويأخذ حقه منك، ولن يتنازل، ويقتص منك يوم القيامة، فمن قتل يُحاسب يوم القيامة، ومن سلب أموال الناس وأخذها غصب أو سرقة كذلك لن يسقط حقّ العباد، وهذا فيه تخويف على من يعتدي على حقوق الناس، حتى في أعراضهم الذي يتكلم في أعراض الناس ويغتاب الناس ويمشي بالنميمة.

حقوق الناس صعبة جدًا، الناس ما يتنازلون عن حقوقهم، حتى يوم القيامة الأب مع أبنائه، والزوج مع زوجته، كلٌّ يفر من الآخر، وكلٌّ يقول: حقي حقي، ولا يتنازل، فكيف بحقوق الناس الذين لهم مثل هذه الأشياء؟!!

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: 35]، بعدما ذكر آية الحرابة وعقوبة هؤلاء يعني كأنه يُرشدهم أن يعودوا إلى الله، فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: 35]، خافوه، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 35]، يعني الذين آمنوا ودخلوا في الإسلام وآمنوا، ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35]، يعني خافوا من الله ومن عقوباته في الدنيا والآخرة ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35]، يعني توسلوا إلى الله بالأعمال الصالحة، تقربوا إلى الله بالدعاء والعمل الصالح، والزكاة، والصلاة، وغيرها من الأعمال الصالحة، كلّ هذه وسائل تقربك إلى الله، وكثرة الطاعات، كثرة الصلوات، كثرة قراءة القرآن، كثرة حضور المساجد مبكرًا، ملازمة صلاة الجماعة، هذه تعتبر من الوسائل، وسيلة تقربك إلى الله وتجعلك من أولياء الله، وتجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتولى أمرك.

ولذلك قال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ [المائدة: 35]، هؤلاء معهم قوة، المحاربين معهم سلاح، طيب لماذا لا تستخدمونه في سبيل الله وتستخدمونه في سبيل الشيطان والطاغوت؟!!

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ [المائدة: 35]، اجعلوا هذه القوة للجهاد في سبيل الله، محاربة أعداء الله، لا محاربة الآمنين المؤمنين الذين يصلون ويذكرون الله.

قال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 35]، سبب الفلاح ما هو؟ تقوى الله، الأعمال الصالحة، مجاهدة النفس، مجاهدة أعداء الله، هذه من أقوى أسباب الفلاح، ولذلك إذا جاء يوم القيامة عرفت قيمة هذه الأشياء، تقوى الله، الأعمال الصالحة، مجاهدة النفس، النفس أمارة بالسوء، الإنسان لابد أن يجاهد نفسه، إذا جاء يوم القيامة تتذكر هذا الشيء.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: 36]،ولم يتقوا الله، ولم يبتغوا إليه الوسيلة، وإنما كفروا؛ قال: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 36]، لو أنهم يريدون أن يفتدوا من العذاب يوم القيامة، يريدوا أن يتخلصوا، لأن العذاب أمامهم والنار أمامهم، فيريد أن يخلص نفسه.

يقول: لو أراد أن يتخلص أن يسلم من العذاب، قال: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 36]، هل يمكن؟ مستحيل هذا، لو أنهم يملكون الأرض كلها، لو أن ملئ الأرض ذهبًا.

قال: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ﴾ [المائدة: 36]، وأمثال وأمثال الأرض يريدون أن يقدموه حتى يتخلصوا من العذاب ما يُتقبل منهم، لأن هذا الزمان وهذا الوقت الآن وقت الحساب، وليس وقت مجازاة وفداء، ما في فدية، أن تقدم فدية ما في، الدنيا فيها، أما الآخرة لا.

قال: ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 36]، أصلاً مستحيل على أن يأتي بمثل هذا الشيء، يوم القيامة ما يملك شيء، ليس بيده شيء.

قال: ﴿لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ 36 يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ﴾ [المائدة:36- 37]، إذا دخلوها يتمنون أن يخرجوا من النار، ولكن الله قال: ﴿وَمَا هُمْ

بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: 37]، يستحيل أن يخرجوا منها، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة: 37]، لأن الكافر مأواه ومقره نار جهنم لا يخرج منها أبدًا، ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: 74].

لما ذكر الله أحكام الحرابة أن منهم من يقتل، ومنهم من يسرق الأموال يسلبها ويأخذها بقوة، ذكر الله حكم السارق، قال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: 38]، يعني من يسرق من الرجال والنساء إذا كان مكلفًا، مكلفًا ليس صغيرًا أو مجنونًا، الآية هنا يقول: ﴿وَالسَّارِقِ﴾ [المائدة: 38]، في الزنا قال: ﴿الزَّانِيَةُ﴾ [النور: 2]، وهنا بدأ بالرجل، لماذا؟ لأن السرقة في الرجال أكثر، قد تسرق المرأة، لكن السرقة في الرجال أكثر، وفي الزنا هناك قال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [النور: 2]، قدم الزانية؛ لأن هي سبب الزنا، فلو تسترت وحفظت نفسها ما ظهر الزنا، انظر إلى حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في التقديم والتأخير.

قال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: 38]، هذا حكم الله فيهم أن تُقطع اليد اليمنى إذا سرق، ولكن أهل العلم ذكروا شروط السرقة، ليس كلّ سرقة لا.

شروط السرقة: **"أن السرقة من حرز"** يعني من شيء محفوظ، مثل جيب الإنسان، البوك في جيبه، هذا حرز، أو السيارة مغلقة هذا حرز، أو البيت مغلق هذا حرز، أما أن يترك السيارة عليها مفاتيح هذه ما هي بحرز، لو سرقها ما تقطع يده، لو أنه وضع البوك على طاولة أو في مكان وتركه هذا ليس بحرز، لابد أن يكون المال محروزًا في حرز، ولابد أن يكون هذه السرقة أو مقدار السرقة نصاب.

نصاب السرقة قالوا: **"ربع دينار في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو ثلاثة دراهم، أو ربع دينار"** قدرها أهل العلم الآن قالوا: **"إذا بلغ ما يقرب من مائة وأربعين ريال أو مائة وخمسين ريال فما فوق تُقطع يده"** إذا سرق مثل هذا المال وقرر القاضي والحاكم بإقراره أو بالشهود أنه سرق مالًا مقدراه هذا المبلغ فما فوق؛ فإنه يُحكم عليه.

قالوا: **"وأن يكون المال محترمًا"** أي ما يكون مال حرام، مثل آلات اللهو، لو سرقها ما تقطع يده، أو سرق كلبًا، أو سرق قطة، هذه غير محترمة، فلا تُقطع يده إلا في المال المحترم.

وبعدين **"لابد أن يأخذه على خفية"** لو أخذه بالغصب ما تُقطع، الغصب غير، لو جاء إليه وأخذ المفاتيح منه بقوة أو أخذ المال بقوة هذا نسميه غصب ما نسميه سرقة، السرقة أن يأخذه بخفية ويكون المُحال محروز محفوظ ويأخذه يخفية، هذا مثل الذين يكسرون السيارات أو يكسرون المحلات التجارية ويأخذون الأموال، هؤلاء يأخذونها بخفية يتخفون ويختفون، وأيضًا يأخذونها من حرز، فهؤلاء يُقام عليهم حد السرقة، تُقطع يده.

من أين تُقطع يده؟ قالوا: **"من الكوع"** يعني الكف فقط، هذا هو الكوع، تقطع يده من الكف، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا﴾ [المائدة: 38].

يقول: هذا جزاء الله سبب كسبهم، لأنهم هم الذين اعتدوا وظلموا، ﴿نَكَالًا﴾ [المائدة: 38]، أي عقوبة، ﴿مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: 38]، أعز وحكم فقطع.

ولذلك هنا وقفة: أحد العرب اسمه **"الأصمعي"** من رواه العربية كان يقرأ هذه الآية، وجنبه أعرابي ما يعرف القرآن، ولكنه أعرابي عنده لغة عربية فصحة، فقرأ هذه الآية فقال: **"نكالًا من الله والله غفورٌ رحيم"** قال الأعرابي: **"كيف غفور رحيم؟ أعد"** قال: **"غفورٌ رحيم"** قال: **"هذا ليس كلام الله"**، فرجع الأصمعي إلى المصحف فقال: ﴿نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: 38]، قال الأعرابي: **"نعم، عز يعني قوي، وحكم فقطع، ولو غفر ما قطع"** انظر كيف ختم الآيات؟!!

قال الله في السارق مثلما ذكر في الحرابة الذين تابوا، قال: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ [المائدة: 39]، من بعد ظلمه في السرقة، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ [المائدة: 39]، أصلح عمله مع الله عَزَّ وَجَلَّ، يعني تاب

وأصلح عمله، عمل صالحًا، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 39]، هذا متى؟ قبل أن يُقدر عليه، قبل أن يُقبض، إذا قُبض عليه؛ يُقام عليه حد القطع.

لكن إذا تاب، قد يكون سرق في سفاهة، في وقت مراهقة سرق أموال، وسرق سيارات، وسرق كذا ثم تاب، قال: فمن تاب فإن الله يتوب عليه، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 39].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة: 40]، ملك السموات والأرض كلها لله، ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 40]، لما يقضي على هؤلاء أهل الحرابة يقطع أيديهم، ويصلبوا، ويقطعوا، هذا حكم الله، لماذا؟ قال: لأن الله له ملك السماوات والأرض، ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 40]، بحدوده وجزائه، ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 40]، إذا أراد أن يغفر يغفر لمن تاب، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 40].

نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(116)
(المائدة 41 - 44)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في تفسير القرآن العظيم نجلس هذا المجلس المبارك الذي إن شاء الله تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل السكنية على الحاضرين، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر الحاضرين في الملأ الأعلى عنده، نجلس دقائق معدودة، الأعمال لا تنتهي، الأشغال لا تنتهي، والموت يأتي، والإنسان يحرص على أن يغتنم مثل هذه الفرص المباركة.

عندنا الآية رقم واحد وأربعين من **"سورة المائدة"**، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: 41]، نحن نقرأ الآيات هذه نبين معانيها، ونتأمل أسرار هذه الآيات، القرآن نزل بلغة العرب، ونحن عرب نتأمل أسرار هذه الآيات.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41]، ينادي نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الأنبياء كلهم كلّ الأنبياء يناديهم الله بأسماء، **"يا نوح"**، **"يا عيسى"**، **"يا موسى"** إلا **"محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"** تكريمًا وتشريفًا لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما ينادي محمد باسمه، يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: 64]، ولا يقول: **"يا محمد"**، حتى محمد ذُكر في القرآن أربع مرات ما في نداء، وإنما من باب إخبار عن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: 144]، مثل هذه الآيات.

جميع الأنبياء حتى خليل الله إبراهيم يقول تعالى: ﴿يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [هود: 76]، أما محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41]، ﴿يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: 1]، ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: 1]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: 64]، حتى إن الرسول ما ذُكر في النداء إلا مرتين، فيما يتعلق بالرسالة.

أما قوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: 64]، فيما يتعلق بالأحكام الشرعية، أما تبليغ الرسالة يأتي ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41]، هذا من التأمل والتفكر في الآيات.

طيب هذا نسميه نداء، ينادي الله عَزَّ وَجَلَّ، الله جَلَّ جَلَالُهُ ينادي الرسول لأي شيء؟ ما ينادي إلا لأمر مهم، إذًا ينبغي لنا أن نتأمل هذا الأمر المهم الذي ينادي الله لأجله، يمكن نستفيد منه، ولاشك أننا سنستفيد بإذن الله.

قال: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: 41]، إذًا القضية فيها حزن، وفيها تأسي، وغضب شديد؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يشتد غضبًا، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحزن، كأن يتأسى على من؟ على كفار وليسوا مسلمين.

يعني لو يأتي الآن عندنا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويشوف أحوال المسلمين الآن ماذا سيصنع؟ إذا كان هو يحزن على الكفار، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿لَا يَحْزُنْكَ﴾ [المائدة: 41]، لا تحزن؛ لأنه ما ينفع معهم الحزن.

✍ لا يحزنك الذين من هم؟

قال: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: 41]، ما هم كفار فقط؛ بل مسارعة مسابقة في الكفر، يعني يبذلون جهدهم في الكفر، والجحود، والعناد، والإعراض عن ذكر الله وعن طاعة الله وعن شرعه، يسارعون والرسول يحزن عليهم، وهم يسارعون ضده وهو يحزن عليهم، لماذا يحزن عليهم؟ يحزن عليهم أنه يدعوهم إلى الإسلام والانقياد إلى طاعة الله وهم يرفضون.

وانظر حتى تتأمل القرآن وتتدبر يقول: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: 41]، **"في"** لأن الكفر نازل، الكفر في الدنو ما هو في العلو، أما في الطاعات يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ [آل عمران: 133]، فوف في العلو، أما هؤلاء فهم ينغمسون في الكفر، الكفر ساقط، تأمل عبارة القرآن قال: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: 41].

✍ طيب من هم الذين يسارعون في الكفر والرسول يحزن عليهم؟

قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: 41]، يعني المنافقون، المنافق هو الذي يؤمن بلسانه، يقول: أنا مؤمن بلساني، لكن تطبيق ما في تطبيق، قلبه يجحد وينكر، قلبه مليء بالفساد والحقد على الإسلام والمسلمين، هذا المنافق.

منافق ويحقد على الإسلام والمسلمين ويدبر كلّ ما يستطيع أن يدبره ضد الإسلام، ومع ذلك الذي هو رحمة للعالمين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشفق عليه ويحزن عليه أنه لا يؤمن، ولو كان غير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي بُعث رحمة للعالمين كان مثل هؤلاء لا يحزن عليهم، مثل هؤلاء متى ما يجد فرصة أن يقضي عليهم، ولكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحزن عليهم إنه يريد أن ينقذهم من النار.

قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: 41]، النفاق، وأيضًا خذ طائفة أخرى، قال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: 41]، اليهود، اليهود والمنافقون هم أشد أعداء الإسلام، اليهود من الخارج، والمنافقون من الداخل، المنافقون في صفوف المسلمين، داخلين في المسلمين، واليهود والمشركون خارج.

✍ طيب لماذا ما ذكر المشركين هنا؟

✍ لماذا قال اليهود والمنافقون؟

الجواب: المشركين واضحين، خلاص عدوك واضح، لكن المنافق خفي ما أحد يدري عنه، هو يصلي مع المسلمين، ويزكي، ويخرج يجاهد، مع أحد يدري عنه، لكن الله يكشفه، واليهودي يدعي أنه على دين نبيه موسى، وأن عنده علم، وعنده التوراة، ويحقد على الإسلام، ولذلك كشف الله أمرهم.

قال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: 41]، ما يسمع إلا الكذب، ما يريد أن يسمع خير، لا قرآن، ولا ذكر، ولا طاعة، إنما يريد أن يستمع للكذب، الغيبة، النميمة، السب، الشتم، اللعن، هذا يسمع له، في قوله: ﴿سَمَّاعُونَ﴾ [المائدة: 41]، صيغة مبالغة، يعني كثير السمع.

ثم قال: ﴿سَمَّاعُونَ﴾ [المائدة: 41]، أي اليهود والمنافقون، ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة: 41]، يعني يا محمد قوم آخرين من كبار اليهود، ومن وجهاء اليهود، ومن عظماء اليهود لا يأتون إلى مجالس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يأتون ناس أقل منهم فيسمعون من النبي ثم ينقلون هذا الكلام.

قال: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [المائدة: 41]، يعني ينقلون الكلام لهؤلاء الكبراء، ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ﴾ [المائدة: 41]، هؤلاء القوم الآخرين هم كبرائهم، علماء وأحبار اليهود.

✍ ما صفاتهم حتى لا نغتر بهم؟

قال: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 41]، يعني هم في التوراة يغيرون ويبدلون أحكام الله، وأحكام شريعة الله عَزَّ وَجَلَّ، يغيرون ويبدلون ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 41]، أي من بعد استقرارها، وثبوتها بالتوراة يبدلونها، وهذا فيه تحذير للمسلمين أن يغيروا أحكام الله.

كأنه يقول: **"لا تكونوا كاليهود الذين يغيرون أحكام الله"**.

قال: ﴿يَقُولُونَ﴾ [المائدة: 41]، هؤلاء اليهود، ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: 41]، يقولوا: أي حكم اذهبوا إلى محمد، فإذا حكم لكم حكم يناسبكم خذوه، ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: 41].

إذا أعطاكم حكم ما يناسب احذروا أن تأخذوه، هذه وصايا من؟ هذه وصية كبار اليهود لمن دونهم، يقولون: إذا ذهبتم إلى محمد اسألوا عن بعض الأحكام، إذا حكم لكم بحكم سهل خذوه، إذا حكم بحكم لا يناسب اتركوه احذروه.

✍ ما هذه القصة؟

هذا كلام الآن لابد في مضمونه شيء: مضمونه أن يهوديين رجل وامرأة زنا أحدهما بالآخر، فلما أرادوا أن يحكموا عليهم قال أحد اليهود: اذهبوا إلى محمد، محمد شريعته سمحة سهلة، ونحن عندنا شريعتنا في التوراة صعبة، اذهبوا إلى محمد يمكن يحكم لكم، إن ناسبكم خذوه، وإن لم يناسبكم اتركوه.

فجاءوا إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: إن هذا زنا بهذه، فما حكمك يا محمد احكم لنا؟ هم يظنون أنهم يضحكون على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما حكم التوراة في مثل هؤلاء؟»**، هم محرفين التوراة ومغيرنها، قالوا: **"حكمهم في التوراة أن وجوههم تسود تُفحم، ويجلدون جلد ويُضعون على دابة على الحمار مقلوبين، واحد جهة كذا وواحد جهة كذا، ويُدار بهم بين الناس، ويُقال: هذا فعل، وهذا فعل، يشهر بهم"**.

قالوا: هذا حكم الله تسود وجههم ويجلدون، وهم محصنين متزوجين، حكم الله فيهم الرجم حتى الموت، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«حكمهم الرجم»**، قالوا: لا، لأن في التوراة كذا، قال: **«فائتوني بالتوراة»**، فأتوا بالتوراة فإذا فيها الرجم.

قال: **«ائتوني بالتوراة»**، فجاءوا بالتوراة، فلما وصلوا إلى هذه الآية قفزوها وقرؤوا الآية التي بعدها التي هي **"أنهم يحممون وأنهم يجلدون"**.

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«هذا حكم الله؟»**، قال عبد الله بن سلام: **"يا رسول الله حكمهم الرجم"** ثم رفع يده، قال: ارفع يدك، فرفع يده عن الآية فقرأها عبد الله بن سلام، قال: **"حكمهم الرجم يا رسول الله"**.

قال: **«هذا حكم الله في شريعتهم وفي شريعتنا إذًا يرجمون»**، فجُمعوا وأُتي بهم ورجموا، يقول عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"والله إني لأنظر إلى الرجل الزاني وهو يُحاول أن يمنع الحجر عن المرأة حتى لا يصيبها فرجموا"** هذه قصة اليهود في هذه الآية علشان نفهمها.

قال: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾، الحكم ﴿فَخُذُوهُ﴾ [المائدة: 41]، إن جاز لكم الحكم فخذوه، ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: 41]، إذا ما ناسبكم اتركوه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ [المائدة: 41]، مصيبته وفتنته وضلاله، ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: 41]، هؤلاء اليهود أراد الله أن يضلهم بسبب ذنوبهم ومعاصيهم، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5].

قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ [المائدة: 41]، أي اليهود، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: 41]، ما أراد الله أن يطهر قلوبهم؛ لأن قلوبهم غير مستعدة، هم يقولون: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: 88]، يستهزئون، يقولون: مغلفة ما تقبل كلامك يا محمد، فالله عَزَّ وَجَلَّ عاقبهم، قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: 41]، قلوبهم نجسة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [المائدة: 41]، عار وفضيحة، ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: 41]، إذا استمروا ولم يتوبوا، ولكن الرسول يحزن عليهم حتى يعودوا، وهم لا يريدون أن يعودوا.

✍ واسمع ماذا يقول ا لله عَزَّ وَجَلَّ من صفاتهم؟

قال: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: 42]، صيغة مبالغة، كثيروا السمع للكذب، ما يسمعون إلا الكذب، ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: 42].

يأتي واحد يقول:

مرت معنا قوله: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: 42]، لماذا أعادها مرة ثانية؟

نقول: حتى يؤكد عليك أنهم لا يسمعون إلا الشر، ولا يريدون أن يسمعوا إلا الشر.

قال: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: 42]، السحت الحرام، من الرشاوي والربا والمحرمات، ما يأكلون إلا الحرام، ولذلك قال: ﴿أَكَّالُونَ﴾ [المائدة: 42]، يعني كثيروا الأكل، لا يأكلون إلا الحرام.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أيما جسد نبت من سحت فالنار أولى به»**.

قال: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ [المائدة: 42]، جاءوك يا محمد، تأكيد للقصة الماضية، فإن جاءوك يا محمد ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: 42]، إن أردت أن تحكم احكم، أو تعرض عنهم الأمر لك.

قال: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا﴾ [المائدة: 42]، إذا امتنعت عن حكما ما يضرونك، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: 42]، أي بما أنزل الله، وبالعدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: 42]، يحب العادلين في الحكم، الله يحب من يعدل في حكمه.

ثم الله عَزَّ وَجَلَّ يتعجب من حال هؤلاء اليهود، يقول: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ﴾ [المائدة: 43]، عجبًا لهم، ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ﴾ [المائدة: 43]، كيف يأتون إليك وعندهم التوراة؟ عندهم التوراة الكتاب الذي نُزل على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ [المائدة: 43]، لا يحتاجون أن يأتون إليك فهم علماء، يدعون أنهم علماء، وأحبار، وربانيون، ثم يأتون إليك؟!!

قال: ﴿وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 43]، يعرفون الأحكام التي عندهم في التوراة، ويعرفون أحكامك يا محمد،ويعرفون صفاتك يا محمد في التوراة، لكن يتولون ويعرضون من بعد ذلك، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 43].

ليسوا بمؤمنين، لو كانوا مؤمنين لتحاكموا إلى التوراة التي عندهم، أو تحاكموا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن لا يريدون لا هذا ولا هذا.

ثم الله عَزَّ وَجَلَّ أثنى ومدح التوراة التي أنزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل أن تُحرف وتُغير، قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا﴾ [المائدة: 44]، الله الذي أنزلها وليس أحد، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ﴾ [المائدة: 44]، كما أنزل القرآن، والزبور، والإنجيل أنزل التوراة.

قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44]، حتى يُبين لهم أن التوراة جدير وحقيقة أن يعتني اليهود بها، ولكنهم حرفوا وبدلوا وغيروا.

قال: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44]، يهتدون بها، يهتدون إلى حياتهم، وإلى شريعتهم، وإلى طاعتهم إلى الله، ونور يستضيئون به من الضلال.

قال: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: 44]، هو يذكرهم، الله عَزَّ وَجَلَّ يذكر اليهود الذي كانوا في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يدعون أنهم علماء وأحبار، يقول: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ [المائدة: 44]، الذين قبلكم.

كم من نبي أُرسل بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

الجواب: **"داود، وسليمان، وأيوب، وعيسى"** أنبياء كثير كانوا يحكمون بالتوراة.

قال: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: 44]، ما معنى أسلموا؟ انقادوا لطاعة الله، ما حرفوا مثلكم وغيروا، ويبحثون عن الذي تشتهي أنفسهم لا، الله يمدح هؤلاء النبيين السابقين،

يقول: النبيون الذين نحن أوحينا إليهم وأرسلناهم كانوا يحكمون بها، يحكمون بالتوراة، وأسلموا وانقادوا إلى ربهم لا يغيرون.

✍ يحكمون لمن؟

قال: ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: 44]، يحكمون لليهود، الأنبياء السابقين كانوا يحكمون لليهود، ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ﴾ [المائدة: 44]، من هم الربانيون؟ هم العلماء الذين يربون من تحتهم تربية علمية حسنة، يربونهم على العلم والتعلم، هؤلاء هم الربانيون، الربانيون تحت الأنبياء.

قال: ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: 44]، الأحبار علماء اليهود، جمع **"حبر"** العلماء، النبيون والربانيون والأحبار كلهم يحكمون بالتوراة حكمًا عدلًا، وأنتم ما تحكمون.

قال: ﴿بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 44]، الله أودعهم التوراة، وأمرهم أن يحفظوها ويعملوا بها، ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: 44]، هم يشهدون على التوراة أنها منزلة من عند الله.

قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: 44]، لا تخشوا الناس في الحكم، احكموا بما أنزل الله، اخشوني أنا خافوني.

🗐 لو جاءك واحد وسأل:

✍ الخوف والخشية في فرق ولا كلها واحد؟

نقول: في فرق، الخشية: **"خوف مع علم"**، يعني يخافون عن علم، والخوف: **"حتى البهيمة تخاف وما عندها علم"**، حتى البهائم تخاف، لكن ما يقال للبهيمة: أنها تخشى، البهيمة ما يقال لها أنها تخشى.

الخشية مع علم، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]، العلماء هم الذين يخشون، إذًا في فرق بين الخشية والخوف.

قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ [المائدة: 44]، لا تخافونهم وأنتم عندكم علم، وخافوني أنا، أنتم عندكم علم، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: 44]، مثل ما يصنع هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: 42]، يشترون بآيات الله ثمنًا قليلاً، يحكمون مقابل الرشوة، ويبيعون دين الله بعرض من الدنيا.

قال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: 44]، ثمن قليل ويضيع حكم الله، ضيع شريعة الله علشان مقابل، أنت عالم وحبر من أحبار اليهود، وعندك علم وتحفظ التوراة، تضيعها بثمن قليل؟!!

قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، الذي لا يحكم بما أنزل الله بمعنى أنه يقول: حكم غير الله أحسن من حكم الله، هذا كافر، الذي يقول: حكم الله لا ينفع الآن نريد أن نأتي بحكم جديد هذا كافر.

فالذي يستحل ويُقدم حكم غير الله على حكم الله ويبعد حكم الله، هذا حكم الله عليه، قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44].

لكن لو حكم بغير ما أنزل الله، لكنه يقر يقول: حكم الله فوق كلّ شيء، حكم الله نرضى به في كلّ شيء، لكنه لا يُطبق حكم الله، فلا يحكم عليه بالكفر الذي هو الخروج عن الإسلام، وإنما يعتبر ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب.

فهذه الآيات الحقيقة آيات عظيمة جلسنا معها هذه الجلسة المباركة، تدبرناها، وفهمناها، وعرفنا عداوة المنافقين، وشدة عداوتهم للإسلام، واليهود أشد وأشد.

وعرفنا حرص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشفقته على الناس كلهم حتى الكفار والمنافقين واليهود، وحرصه أنه يحزن عليهم، وتأملنا هذه الآيات وأخذنا ما فيها من دروس، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وللحديث بقية إن شاء الله.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(117)
(المائدة 45 - 50)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الأربعاء الموافق للحادي والعشرين من شهر صفر من عام 1445 للهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعيننا وإياكم على تدبر هذا الكتاب العظيم، وفهم معانيه ودلالاته.

والحقيقة مثل هذه المجالس المباركة التي تُعقد في تفسير القرآن العظيم وتدبر القرآن، المسلم إذا جلس هذا المجلس؛ فإن الله يبارك له في مجلسه، مجلس محفوف بالملائكة بإذن الله، والرحمة والسكينة، والبركة العظيمة.

والإيمان إيمان العبد يزداد وينقص، أي إنسان إيمانه يزداد وينقص، يزداد بالطاعات، ومثل حضور هذه المجالس تزيد في إيمان العبد، وينقص بالمعاصي، فالإنسان يحرص كلّ الحرص أن يرتفع إيمانه ويزداد.

السورة التي بين أيدينا هي **"سورة المائدة"**، والآيات هي الآية الخامسة والأربعون من **"سورة المائدة"**، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45].

✍ لما تسمع مثل هذا الكلام "وكتبنا" ما معنى كتب؟

نقول: **"كتبنا، وكتب"** معناها فرض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مثلما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: 178]، فمعنى الكتب **"الفرض والإيجاب"** بمعنى أن الله أوجب وفرض هذا الشيء.

✍ لماذا قيل: كتب؟

قال: لأن الشيء المفروض لما يُكتب يثبت أكثر، كأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتبه فأثبته يعني إثباتًا لا يتغير إلا إذا أراد الله أن يتغير.

قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 45]، من هم؟ هم اليهود، لماذا؟ لأن الله ذكر قبل هذه الآية ذكر الحديث عن اليهود، وكتاب اليهود وهو التوراة، لما قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44]، وتكلم عن اليهود الذين أُنزل عليهم التوراة، وعلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 45]، أي فرضنا عليهم، ما الذي فرضه الله عليهم؟ قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ [المائدة: 45]، أي في التوراة.

✍ ما الذي فرضه الله؟

قال: **"الحدود"** الحدود الشرعية التي حدها الله وفرضها عليهم، مثل ماذا؟ قال: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45]، ما معنى أن النفس بالنفس؟ أي أن من قتل نفسًا يُقتل، والمراد بالقتل هنا هو قتل العمد، أما القتل الخطأ لا.

إذا إنسان قتل شخص آخر خطئًا هذا لا يُقتل، هذا فيه كفارة، وفيه دية، فيه كفارة أن يعتق رقبة أو يصوم شهرين متتابعين.

وعليه أيضًا أن يدفع الدية لأهل القتيل، لأهل الميت، هذا يسمى قتل الخطأ، القتل الخطأ **"أن يخلو القتل من العمد"** يعني من الآلة لتي تكون معه، والقصد ألا يقصد الميت، فلو مثلاً ضربه بشيء ليس معه آلة، مثل أن يضربه بيده أو نحو ذلك، ثم يسقط ميتًا هذا خطأ، والقتل الخطأ كثير.

ولكن المراد هنا العمد، من قتل نفسًا بغير حقّ عمدًا فإنه يُقتل، هذا القصاص، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178].

إذا فقأ عين شخص تُفقأ عينه، هذا حكم الله، وهذا يدل على ماذا؟ يدل على أن الله يحكم بالعدل، وأنه ينتقم ممن يتعد حدود الله، هذا الجاني تعدى حدود اله، فالله عَزَّ وَجَلَّ يجازيه ويحاسبه، وكذلك يدل على أي شيء؟ يدل على أن الله ينتصر إلى المظلوم، يحاسب هذا الظالم لينتصر للمظلوم.

هذا الذي فقأت عينه ظُلم، فينتقم الله له بأن تُفقأ عين الظالم أو الجاني، فهذا حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أول شيء: حدود الله لا يجوز التعدي عليها، وهذا يدل على أن الله يحكم بالعدل، وأن أحكامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلها عادلة، وأن الله أرحم الرحمين يقف مع هذا المجني عليه الذي اعتدي عليه، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الجبار القوي ينتقم ممن يتعد حدود الله.

قال: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ﴾ [المائدة: 45]، إذا جدع أنفه يجدع الأنف، ﴿وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ﴾ [المائدة: 45]، إذا قطعت الأذن تُقطع أذن الجاني، إذا قطع الأذن تُقطع أذنه، ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ [المائدة: 45]، إذا كسرت السن تُكسر سنه، إذا قلع سن تُقلع سن، ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: 45].

لغة العرب لغة عجيبة وواسعة، يقول: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: 45]، القتل، طيب والعين؟ قال: العين يُقال **"فيها فقأ عينه"**، والرأس يُقال فيها: **"شُج رأسه"** والأنف يُقال: **"جدع أنفيه"** انظر كيف اللغة العربية؟! والأذن يُقال: **"قطعت أذنه"** والسن يُقال: **"كسرت سنه"** طيب والبطن؟ يُقال: **"بقر بطنه"** يعني شق بطنه، وهكذا، هذه اللغة.

هذه أحكام الله أن من قتل نفسًا عمدًا يُقتل، من فقأ عين شخص عمدًا؛ لكن لو مثلاً أراد أن يجرب سلاح وانطلقت الرصاصة ففقأت عين شخص وهو لا يريد قتله، نقول: ما تفقأ عليه،

وعليه الدية، الأشياء التي تكون من اثنين فما فوق على حسب التقسيم يكون فيها النصف مثل **"العين"**.

"العين" نصف، و**"اليد"** نصف، و**"الرجل"** نصف، وهكذا، والأنف يعني في أشياء تكون الدية كاملة، في أشياء الدية تكون على النصف، وفي أشياء تكون على الأقل، على ما ذُكر عند أهل العلم.

قال: ﴿وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ﴾ [المائدة: 45]، إذا قطع أنف شخص متعمدًا يُقطع أنفه، يُجدع أنفسه، وأحيانًا يكون شخص يمثل يعتدي على شخص يمثل به، فيقطع أذنه متعمدًا فتقطع أذنه، وهكذا.

قال: ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾ [المائدة: 45]، في حديث الربيع بنت معوذ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنه كُسرنها فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بكسر سن من كسر سنها، يعني تعمد، كان هناك جارية من المؤمنين في المدينة، عليها أوضاح من فضة، يعني حلي عليها، فجاء يهودي ووضع الجارية بين حجرين ورد رأسها، ثم أخذ الحلي وذهب، فأتي به.

لما أُتي به وبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه وضع رأسها بين حجرين ورده قال: **«يؤتى باليهودي ويوضع رأسه بين حجرين ويُرد حتى يموت»**، لأنه قتل عمدًا.

هناك بعض الأشياء يعني ما نستطيع أن نأخذ بالقصاص؛ لأنه قد يؤدي إلى ما يمسى بسراية الجناية، مثلاً لو شق بطنه ما يُشق بطنه؛ لأن شق البطن يؤدي إلى الموت، فإذا كان يترتب عليه أكبر ما نفعل به مثلما فعل بهذا، وإذا كان لا يترتب مثل **"كسر السن"** و**"قطع الأذن"** هذه نفعل به مثلما فعل.

قال: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: 45]، جرح بحرج، كيف الجروح قصاص؟ لو شخ رأسه بما يسمى بالفلقة، هذه الشجة قد تكون عميقة، وقد تكون خفيفة، فيُفعل مثلما فعل، هذا معنى ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: 45]، قطع إصبعه أو شق يده أو فعل كذا جرح يده، يفعل به ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: 45]، وهذا الذي فعل هذا عمدًا، أما الخطأ لا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: 45]، كيف تصدق به؟ يعني هذا الإنسان مثلاً كُسرت سنه عمدًا، جاء واحد وحصل مضاربة بينهم فكسر سنه عمدًا، فأُتي بالجاني فقيل: أنت كسرت سنه نكسر سنك، قال المجني عليه: أنا عفوت عنه، آخذ الدية أو أسامحه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ هنا: **"من تصدق عن هذه الجناية"** يعني أسقط الجناية به، انظر إلى كلمة **"تصدق"** يعني أنه تبرع من نفسه كأنها صدقة فيها أخر، ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: 45].

يقول: الذي يتصدق ويتسامح ويتغاضى عن الناس فالله يكفر عنه سيئاته، يكون له كفارة عنه، كفارة عن هذا المجني عليه، المجني عليه الذي مثلاً كُسرت سنه، أو جُني عليه، فإذا سامح الناس ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: 40]، ويكون هذا سبب أيضًا لتكفير سيئاته.

بعض المفسرين يقول: ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة: 45]، كفارة للجاني، إذا سامحه؛ فإن الله يكفر عن الجاني يعني لا يحاسب عليه، لا يحاسبه الله، مثلما أن هذا عفا فالله أولى بالعفو، هذا قول بعض المفسرين.

لكن الذي يظهر والله أعلم: أن من تصدق أي المجني عليه وسامح فهو كفارة له، حتى لو قتل نفسًا، لو فرضنا أن هذا الرجل قتل نفسًا عمدًا ثم جاء أولياء الميت وقالوا: نحن لا نريد القصاص، نحن نسامحه، أو نتنازل إلى الدية، أصبح هذا صدقة منهم، وعفو منهم، فهو كفارة لهم عن ذنوبهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45]، الظالم خرج عن طريق العدل، وخرج عن طريق الله وظلم نفسه، فالذي لا يحكم بهذه الأحكام بحيث أنه

لا يرضى بها ولا يقبلها، فقط ظلم نفسه، وقد يؤدي هذا إلى الخروج عن الإسلام، إذا قال مثلاً: أنا ما أعترف بهذه الأحكام، أو لا أقر بها، أو قال: الأحكام الوضعية أحسن من هذه، فاعترض على حكم الله، أو فضل حكمًا على حكم الله هذا كفر، لكن لو أقر بها ولكن لم يحكم، نقول: ظلم دون ظلم.

هذه الأحكام أيها الأخوة أين هي موجودة؟

موجودة في التوراة، الله يقول: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ [المائدة: 45]، في التوراة، ومع ذلك أقرها الإسلام عندنا، فشرع من قبلنا، الشرائع السابقة عند اليهود والنصارى وغيرهم هو شرع لنا إذا أقره الإسلام، إذا وافقه الإسلام.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ﴾ [المائدة: 46]، **"قفينا"** من القفا وهو الخلف، يعني أتبعنا هذا بهذا، كأن هذا يتبع هذا، وهذا يتبع هذا.

قال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ﴾ [المائدة: 46]، على آثار من؟ على آثار أهل التوراة، الأحبار، والأنبياء السابقين، والربانيين، الله قف على آثارهم يعني على ما تركوه خلفهم، ما تركوه من هذه الأحكام قف بعيسى بن مريم، يعني أتبع بعيسى بن مريم.

عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو آخر أنبياء بني إسرائيل، يعني ما بين موسى وعيسى أنبياء كثير، هو آخرهم، هو آخر أنبياء، وآخر رسل بني إسرائيل.

ولذلك الله ختم رسالة بني إسرائيل بعيسى بن مريم، وأنزل عليه الإنجيل، كتاب الإنجيل أُنزل على عيسى بن مريم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 46]، قف عليه يعني أتبعهم، أتبع على آثار هؤلاء ببعثة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعثه الله إلى بني إسرائيل.

قال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [المائدة: 46]، يعني يصدق الكتب السابقة، ويصدق التوراة، يعني عيسى يؤمن بالتوراة، ويعمل بها، ويصدق، إلا ما رفعه الله في شريعته.

قال: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ [المائدة: 46]، يُصدق بها، ويؤيدها، ويتفق على ما فيها.

قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: 46]، الإنجيل هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى بن مريم، لكن التوراة والإنجيل ليست موجودة الآن، الآن غير موجودة كلها محرفة وبدلت، والذين حرفوها هم بنو إسرائيل، بدلوا وحرفوا، والأناجيل الموجودة الآن هذه أناجيل كلها محرفة ما فيها صحيح، هذا أمر.

الأمر الثاني: أنها أصلاً ألغيت بالإسلام، لما جاء الإسلام، وجاءت شريعة نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسخت الشرائع كلها وأبطلتها، فلا احتجاج لهم أبدًا.

والله هنا يذكر التوراة ويثني عليها لما كانت في زمانهم، ويذكر الإنجيل ويثني عليه ويمدحه لما كان في زمانه.

ولذلك يقول: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 46]، فيه هدى يهتدون به، ونور يستنيرون بأحكامه وشرائعه، وهذا الإنجيل مصدق، مثلما أن عيسى مصدق لأحكام التوراة، كذلك الإنجيل مصدق لما بين يديه من التوراة، وزيادة على ذلك الإنجيل أيضًا فيه هدى، يهتدون به إذا تمسك به أهله.

أن الإنجيل أيضًا مشتمل على مواعظ ونصائح وتوجيهات لرب العالمين لبني إسرائيل ولمن أنزل عليهم الإنجيل.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: 47]، فيه شرائع وأحكام عليهم أن يطبقوا هذه الأحكام، وأن يحكموا بما أنزل الله فيه، ولا يحيد عنه.

قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47]، الذين خرجوا عن طاعة الله، وتركوا حكم الله، وعرفنا أن في الآية السابقة قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، ومرة قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45]، ومرة هنا قال: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

وهذه قد تنطبق على حتى الواحد منهم، إذا لم يحكم وأنكر الحكم كفر، أو يكون كفر دون كفر، ويُحكم عليه أيضًا بالظلم والفسق، أو يكون هذا كلّ من فعل بعض الأشياء ينطبق عليه هذه الأوصاف.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التوراة وأثنى عليها ومدحها، وبيّن ما فيها من النور والهدى، وذكر الإنجيل، ومدحه، وبيّن ما فيه من الهدى والنور، والمواعظ، ختم ذلك بكتاب القرآن الكريم الذي هو أفضلها وأعظمها.

كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرآن العظيم هو أفضل الكتب المنزلة، والمنزل عليه هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أفضل الرسل، وأمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي أفضل الأمم، أفضل من بني إسرائيل وأفضل من جميع الأمم، واسمع كيف يمدح الله عَزَّ وَجَلَّ كتابه القرآن الكريم المنزل على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ الذي ختم الله به جميع الرسالات، وليس لأي إنسان على وجه الأرض يهودي أو نصراني أو من أي جنس ليس له إلا أن يدخل في الإسلام ويتبع محمد.

وأي إنسان يموت غير متبع لشريعة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغير داخل في الإسلام، يموت على الكفر، أي اليهود والنصارى وغيرهم الذين لا يدخلون في الإسلام يموتون على الكفر.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 48]، الخطاب للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [المائدة: 48]، أي القرآن، أنزلناه بأي شيء؟ قال: ﴿بِالْحَقِّ﴾ [المائدة: 48]، متلبسًا بالحق، يعني ينزل وهو جاء بالحق، لينشر الحقّ ويبطل الباطل.

قال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: 48]، يعني القرآن يُصدق الكتب السابقة كلها، التوراة والإنجيل والزبور وغيرها، ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: 48]، أي من جنس الكتب السابقة.

قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 48]، أي هذا القرآن مهيمن على الكتب الماضية، كيف مهيمن على الكتب السابقة؟ أي رقيب عليها، ويؤيدها في بعض الأحكام، ويحكم عليها، وهي تحت حكمه، وهو الحافظ لها الرقيب عليها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ﴾ [المائدة: 48]، أي بين اليهود أو النصارى أو عامة الناس، ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: 48]، لا تحكم بغير ما أنزل الله، احكم بينهم بما أنزل الله في القرآن،

قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: 48]، أصحاب الأهواء احذرهم، لما يقول: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: 48]، دل على أنهم يتبعون الهوى والشهوات، لا يريدون الوصول إلى الحقّ، فليحذر من يحكم بما أنزل الله أن يأتي من له هوى فيؤثر عليه بمثل هذا الحكم.

قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ﴾ [المائدة: 48]، هذا القرآن والحكم والشريعة هي الحقّ.

ثم قال: ﴿لِكُلٍّ﴾ [المائدة: 48]، أي من الشرائع السابقة كاليهود والنصارى وغيرهم، ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48]، سنة، وسبيل، وطريقة، وشريعة يسلكها كلٌّ منهم، ما معنى هذا الكلام؟ يعني كلٌّ لهم سنة وسبيل، يعني طريق ومنهج وشريعة.

يعني اليهود لهم شريعة، والنصارى لهم شريعة، وأتباع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم شريعة، وغيرهم من شرائع الأنبياء السابقين، وشعيب، وموسى، وعيسى، وغيرهم، ونوح، وإبراهيم لهم شرائع، هذه الشرائع في الفروع مختلفة لكل زمان ومكان.

لكن كلّ الأنبياء اتفقوا على أي شيء؟ على الأصول، عبادة الله، توحيد الله، كلهم متفقون، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، اتفقوا عل الأصول وأما الفروع فهم كلٌّ يأتيه ما يناسبه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: 48]، لو شاء الله لجعل الناس كلهم أمة واحدة في الطاعة والعبادة، ولكن لم يجعلهم، لماذا؟ قال: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [المائدة: 48]، ليمتحن الناس، من يطيع يجازيه الجزاء الحسن، من يعصي يجازيه بما يستحق، هذا امتحان، ما يتركون الناس هكذا، ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: 2].

لابد أن يمتحن الإنسان في الطاعة فيطيع، وبالمعصية فيبتعد عنها، ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [المائدة: 48]؛ لأن هذه الدار الدنيا دار امتحان، قال: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [المائدة: 48].

ثم حث الله عَزَّ وَجَلَّ فقال: إذا كانت الدنيا ابتلاء وامتحان يطيع من يطيع ويعصي من يعصي، الواجب علينا ماذا؟ قال: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: 48]، المسابقة إلى الطاعات، المسابقة إلى الصف الأول، المسابقة إلى ختم القرآن، المسابقة إلى الصيام، المسابقة إلى الصدقات والطاعات، المسابقة إلى قيام الليل، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: 48]، في كلّ مشاريع الخير لا تتوانى؛ بل سابق في ذلك، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: 26].

قال: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [المائدة: 48]، سابق في الدنيا، واجعل الدنيا خزائن لك، حتى إذا جاء يوم القيامة ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: 48]، يحشر الله عَزَّ وَجَلَّ الأولين والآخرين ويحاسبهم، ويقضي بينهم، ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: 38]، فيقضي الله بين عباده.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: 49]، تأكيد على أن المسلم والحاكم وغيره أن يقضي ويحكم، ومن تولى أمر المسلمين أن يحكم بما أنزل الله، قال: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المائدة: 49]، احذر اتباع الهوى.

قال: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة: 49]، أي اليهود والنصارى أو غيرهم، ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: 49]، احذر أن يصدوك وأن يصرفوك عن طاعة الله، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [المائدة: 49]، ولم يقبلوا حكمك وحكم الله، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: 49].

أراد الله أن يجازيهم بسبب بعض الذنوب، ولو جازاهم ببعض ذنوبهم لهلكوا، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]، لو جازى الله حاسب الله العباد على ذنوبهم لن يسلم أحد، ولذلك قال هنا: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 49].

الكثير من الناس ما يقبلون حكم الله، يخرجون عن طاعته، يخرجون عن أحكامه، وعن طاعته، وعن شريعته، وعن أوامره، وعن فرائضه، لو ألقيت نظرة على عامة كلّ من يمشي على هذه الأرض لوجدت أن أكثرهم على غير طاعة، ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116]، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 49]

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: 50]، إنكار، كيف يبغون حكم الجاهلية؟ يريدون أن يتبعون أهواءهم ويحكمون بحكم الجاهلية؟!!

قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50]، هل تجد أحسن من الله حكم؟ هل تجد أحسن من الله حكمًا لكافة الناس؟ وخاصة الذين يوقنون ويتقنون أن حكم الله أفضل، وهو أعلى من كلّ حكم.

فما أحسن من حكم الله الذي حكم الله وبينه في كتابه وشرعه في شريعته، وخاصة مع شريعة نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشريعة السمحة.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.
والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(118)
(المائدة 51 - 56)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم يوم الأربعاء الموافق للثامن والعشرين من شهر صفر من عام 1445للهجرة، درسنا المعتاد في كلّ أسبوع بعد صلاة المغرب في تفسير القرآن العظيم.

السورة التي معنا هي **"سورة المائدة"**، أخذنا منها آيات في لقاءات ماضية، والآن بين أيدينا الآية الحادية والخمسون من السورة، قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: 51].

✍ لماذا ينهانا الله؟

✍ لماذا لا نتخذهم أولياء؟

لو ترجع إلى الآيات السابقة تعرف هذا الأمر، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في الآيات الماضية: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ﴾ [المائدة: 41]، يعني لا تحزن، ولا تأسى، ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: 41].

من هم؟ اليهود والنصارى، يسارعون في أي شيء؟ قال: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [المائدة: 41].

وقال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: 41]، أي اليهود، قال: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: 42]، وغير ذلك من الآيات التي مرت معنا أنهم يكفرون بالله، ويكفرون بشرع الله، ويعادون أنبيائه؛ بل يقتلون أنبياء الله، وحاولوا قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من مرة، فلذلك الله حذرنا من أن نتخذهم أولياء.

✍ ما معنى نتخذهم أولياء؟

يعني: لا ننتصر لهم، لا نتعاون معهم ضد المسلمين، لا نفشي لهم أسرار المسلمين، لا نحبهم، لا نفرح في عزهم وفي كرامتهم لا نفرح لهم، ولا نحبهم، محبتهم من الموالاة، فلا يجوز للمسلم، العاقل، المؤمن، الذي يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ أن يتخذ اليهود والنصارى أولياء في نصرتهم، في معونتهم، في مساعدتهم، في إفشاء أسرار المسلمين لهم، التعاون معهم، كلّ ذلك داخل في الموالاة.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 51]، يذكرنا بأي شيء؟ بصفة الإيمان التي معنا، الإيمان يدعوك إلى أي شيء؟ أن تحب من يحب الله، وأن تكره من يكرهه الله، البغض في الله، والمحبة في الله من أوثق عرى الإيمان.

إذا لم توجد عندك محبة في أن تحب من يحب الله، ولا يوجد عندك بغض بأن تبغض من يبغضه الله أين إيمانك؟! من أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: 51]، طيب لماذا؟ قال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: 51]، يعني اليهود بعضهم يوالون بعض، والنصارى بعضهم يوالي بعض، أما اليهود والنصارى قد يتوالون مع بعض يتحابون، وقد

يتباغضون، وقد يتعادون، وقد يتقاتلون، لكن كلّ طائفة كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ وأخبر عنهم، قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: 113].

ليس دائمًا يتصافون، أحيانًا يتعادون فيما بينهم، لكن معنى الآية ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: 51]، أي اليهود بعضهم يوالي بعض، يعني هم على ولاء بعضهم مع بعض، وكذلك النصارى.

طيب اسمع الوعيد الشديد، ما هي القضية أن الله ينهاك يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: 51]، فقط، اسمع ماذا يقول الله؟ يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: 51]، هذا تهديد تخويف، من يتولى هؤلاء اليهود والنصارى منكم أيها المسلمون فإنه منهم، خلاص خرج عن الإسلام، أصبح معهم في صفهم، وأصبح منهم على دينهم، وخرج من دين الإسلام؛ لأن موالاة اليهود والنصارى، وموالاة الكفار هو كفر، كفر وخروج عن الإسلام.

ولذلك يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51]، يعني أصبح معهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 51].

✍ لماذا قال: القوم الظالمين؟

✍ لماذا ما قال: القوم الكافرين؟

قال: لأن هذا الفعل ظلم، ظلم نفسه، وظلم دينه، وظلم ربه؛ بحيث أنه والى عدو الله، ووالى من يتربص بك في كلّ وقت، ويريد أن يقضي عليك، ولذلك هذا هو عين الظلم.

✍ الذي يوالي الكفار معهم، طيب من الذي يواليهم؟

✍ المؤمن العاقل صاحب الإيمان القوي ما يواليهم، طيب من الذي يواليهم؟

الذي يواليهم هو: المنافق؛ الذي يُظهر الإيمان أمام المسلمين، ويبطن الكفر، ويوالي أعداء الله.

يقول: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [المائدة: 52]، هؤلاء من هم؟ المنافقون، في قلوبهم مرض الشك، الشك في الإسلام، يقولون: يمكن الإسلام ينتصر، ويمكن ما ينتصر، يمكن محمد يذهب يموت، يمكن ينتهي أمره، يشكون في شرع الله عَزَّ وَجَلَّ وفي الإسلام وفي دين الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: 52]، ليس موالاة ومحبة لا؛ بل مسارعة، ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: 52]، يُسارع غير يُسرع، المسارعة أشد من السرعة هذا أمر.

الأمر الثاني: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: 52]، الأصل أنك تقول: **"تسارع إلى"** الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ﴾ [آل عمران: 133]، ولكن هؤلاء يسارعون فيهم، يعني يدخلون فيهم دخولًا يشملهم، يعني أصبحوا معهم.

طيب إذا كانوا يسارعون يعني ما يتوانون ولا يتأخرون في المسارعة والاستجابة لما يريده أعداء الإسلام من اليهود والنصارى.

قال: ﴿يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: 52]، يقولوا: نخاف أن يتسلط الأعداء على المسلمين ثم يقتلونهم، ثم أين نذهب نحن؟ انظروا إلى الظن السيئ الإسلام الذي أتى به وشرعه هو الله عَزَّ وَجَلَّ، والله عَزَّ وَجَلَّ وعد الإسلام والمسلمين ووعد أولياءه أن ينصرهم، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: 51]، لكن المنافق ما يؤمن بهذا الكلام، هو يقول: ممكن تكون قوة لأعداء الإسلام فيقضون على الإسلام، يقولوا: ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: 52].

رد الله عليهم؛ قال: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة: 52]، عسى هذه للترجي، يترجى الإنسان يقول: **"عسى فلان أن يحضر اليوم، عسى أن يأتي"** هذا في جانب البشر، أما في حقّ الله **"عسى"** ليست للترجي، الله ما يترجى.

فنقول: **"عسى"** هنا واجبة، يعني سيتحقق الأمر مهما كان، يقول: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة: 52]، أي بنصر الإسلام على أعدائه.

طيب إذا كنا نقول: إن عسى في حقّ البشر يعني ترجي، وفي حقّ الله ليست للترجي؛ بل واجبة، طيب لماذا أتى الله بها ما دام أنها واجبة؟ نقول: ليعلم عباده المؤمنين أن الأمور تحتاج إلى تأني، وتحتاج إلى رجاء، ودعاء، يعلمه كيف أن الأمر بيد الله، وأنه ينبغي للمسلمين أن يستغيثوا بالله، وأن يلجئوا إلى ربهم في نصرة الإسلام والمسلمين، ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ [المائدة: 52]، الفتح هو نصرة الإسلام.

قال: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: 52]، يعني الفتح قتال هؤلاء، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسلطه الله عليهم فيقاتلهم، يقاتل اليهود والنصارى، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ [المائدة: 52]، بغير قتال، ينزل عليهم مصائب من غير قتال، مثلما نزل في يهود بني النضير الله قذف في قلوبهم الرعب فخرجوا وتركوا ديارهم؛ بل يخربون بيوتهم بأيديهم.

قال: ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: 52]، يصبح من؟ المنافقون الذين يسرون في أنفسهم أن الإسلام يُقضى عليه وينتهي، وينصرون أعداء الإسلام، يقول: ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: 52]، يعني أسروا أنهم يقولون: نخشى أن تصيبنا دائرة، نخشى أن ينتهي الإسلام ويقضى عليه، فإذا نصر الله دينه أصبحوا نادمين على ما أسروا.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان حال هؤلاء المنافقين وموقف المؤمنين منهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 53]، المؤمنون يعرفون ويفهمون ويدركون ويميزون فيعرفون صفات المنافقين، فقال: فإذا ندم هؤلاء وعرفوا أن الإسلام له قوة، وأن الله ناصره، قال: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ [المائدة: 53].

يقول المؤمنين: هؤلاء المنافقون الذين يحلفون؛ لأن المنافق دائمًا كثرة الحلف عنده دائمًا يحلف، يقولون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: 1]، ويحلفون أيمان دائمًا، وحلفهم كله كذب في كذب، فمن صفات المنافقين كثرة الحلف.

قال: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة: 53]، ليس أي حلف لا؛ بل إقسام بقوة جهد أيمانهم، يقسمون أقسام عظيمة على أي شيء؟ قال: ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ [المائدة: 53]، ما يحتاج أن تقسم، أنت أيها المنافق ما يحتاج أنك تحلف وتقسم، خلاص أنت دخلت في الإسلام ومع المسلمين، تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ما يحتاج أنك تقسم، ما في أحد من المسلمين يقسم أنه مسلم، كلهم يقولون: نحن مسلمين بدون قسم.

لكن هذا لما كان في قلبه مرض، ومرتاب وخائف ما يدري يصدقونه الناس أو ما يصدقونه بدأ يأتي بهذه الأقسام ويحلف بأيمان عظيمة، ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ [المائدة: 53]، متى يقولون هذا؟ إذا رأوا عزة الإسلام، ونصرة الإسلام قالوا: نحن معكم، وإذا رأوا ضعف الإسلام ظاهروا أعداء الإسلام، هذه طريقة المنافقين في كلّ وقت، وإذا وجدوا ضعف في الإسلام ظاهروا أعداءه، ووالوا أعداء الإسلام، وإذا وجدوا قوة للإسلام قالوا: نحن معكم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [المائدة: 53]، يصلون، يجاهدون، يتصدقون، لكن أعمالهم هذه مردودة، حابطة، قال: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 53]، ما حصلوا لا دين ولا دنيا هذا المنافق.

إذا علمت هذا وأن هذا المنافق ليس أصلاً عنده إيمان، ويُخشى على المسلم الذي عنده إيمان أن يفعل مثل هذه الأفعال فيلحق بالكفار، وهذه يسميها أهل العلم **"الردة"** أن يرتد عن الإسلام إذا والى أعداء الإسلام، وفرح، يفرح لفرحهم، ويفرح لنصرتهم، ويفرح لضعف الإسلام هذه ردة.

ولهذا الله قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 54]، هذا تهديد وتخويف، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ﴾ [المائدة: 54]، يعني أنتم الآن إذا ارتد أحد منكم عن دينه وخرج عن الإسلام لا يضره الله شيء، الله غني عنك وعن كلّ الخلق، الله غني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما تنفعه طاعة الطائع، ولا تضره المعصية، غني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حميد، فإذا ارتد من يرتد فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأتي بقوم ينصرون الإسلام ويعزون الإسلام.

قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: 54]، يحبهم الله، ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]، قدم محبة الله، يعني ما في إشكال أنك تحب، كلٌّ يدعي محبة الله، يقول: أنا أحب الله، كلّ المسلمين يقولون: نحب الله، لكن العبرة بأي شيء؟ هل الله يحبك أم لا؟ متى يحبك الله؟ هذه هي، هل أنت من الذين يحبهم الله؟ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: يحب المتقين، يحب المحسنين، يحب الصابرين، هل الله يحبك؟ هل أنت معهم؟ هل أنت مع هؤلاء الذين قال الله فيهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]..؟!!

الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر قال في بيان أسباب المحبة هي طاعة الرسول، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31]، طاعة الرسول أعظم باب لدخول محبة الله، أو أن يحبك الله، الطاعات عمومًا، الفرائض تؤديها وكثرة الطاعات والنوافل.

يقول الحديث القدسي: **«لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»**.

✍ إذًا كيف يحبك الله؟

بطاعة الرسول، وطاعة الله، وملازمة تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، هذه من أقوى أسباب محبة الله لك، ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]، هذه أقوى صفة أن الله سيأتي بقوم يحبهم الله ويحبونه.

قال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 54]، يعني رحمة على المؤمنين، يتواضعون للمؤمنين، يحبون المؤمنين، وينصرون المسلمين، ويساعدونهم، ويقفون معهم، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54]، قوة وغلبة على الكافرين، ﴿يُجَاهِدُونَ﴾ [المائدة: 54]، هذه من صفات الذين يأتي الله بهم.

صفات الذين يأتي الله بهم قال: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 54]، ينصرون دين الإسلام ويجاهدون في سبيل الله، ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: 54]، ما يخافون من أحد يلومهم لماذا فعلت كذا؟ لا يلتفون لمن يلومهم بما يلومهم به، وإنما يجاهدون وينصرون الإسلام.

وهذا حتى تعرف أن هذه الأمور ليست فضل منك أنت، وليست قوة بك، وإنما ذلك فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني أن الله يحبك هذا فضل من الله، أنك توفق إلى الخير والصلاح والاستقامة وتثبت على الإسلام ولا تكن فيه صفة المنافقين هذا فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تجاهد في سبيل لا تخاف لومة لائم، هذا كله من الله عَزَّ وَجَلَّ، توفيق الله.

ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ﴾ [المائدة: 54]، المذكور، ﴿فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 54]، يؤتى من الله عَزَّ وَجَلَّ؟ يؤتي من يقبل عليه، من يجاهد في سبيله، يؤتي من يحب الخير، أنت إذا علم الله منك أنك تحب الخير، تحب الصلاة، تحب أن تحرص على الطاعات؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ يوفقك، ويفتح لك أبواب فضله، وإذا رأى منك التكاسل والتواني والضعف والإعراض وتسويف التوبة أعرض الله عنك، يُعرض الله عنك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمن أقبل على الله أقبل الله عليه.

قال: ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54]، خيره كثير وواسع، وعليم بمن يستحق العطاء.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: 55]، الولاية ليست لليهود ولا النصارى، لا توالي هؤلاء؛ بل توالي الله، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: 55]، الله هو الذي يتولاكم، وأنتم تتولون الله، تتولون شرعه.

قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 55]، الولي الذي ينبغي أن تتولاه ويتولاك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وليكم، ورسوله، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 55]، من هم الذين آمنوا؟ قال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [المائدة: 55]، يحافظون على الصلاة، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [المائدة: 55]، يحافظ على الصلاة بأوقاتها، وخشوعها، وواجباتها، وأركانها، ويصلي مع الجماعة، هؤلاء يقيمون الصلاة حقّ الإقامة، ويقيمون الزكاة لمستحقيها، ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: 55]، خاضعون لله، منيبون لله، يرجعون إلى الله في كلّ وقت.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في ثمرة هذا الشيء حتى تعرف ثمرته، قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 56]، إذا توليتهم وتولوك النتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: 56]، أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، هم الغالبون في كلّ وقت، وإن حصل ما حصل ودال عليهم ما دال من أعداء الإسلام، تجدون أحيانًا في بعض الأوقات يضعف الإسلام ويتسلط الأعداء، لكن تبقى العزة دائمًا للإسلام والمسلمين.

ما نقرأ مثل هذه الآيات الحقيقة، ونتأملها تأملاً جيدًا نعرف عظمة الإسلام، وعز الإسلام، وأن الله ينصر وأولياءه مهما كان، وما تسلط الأعداء أنت في ولاية الله، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصعد جبل ثور ليس معه إلا أبو بكر والأعداء قد أحاطوا بهم، ويقول: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40].

فإذا كان الله معك لا تحزن، واعلم أن الله ناصر الإسلام، مهما حصل من الأمور التي تنم بالإسلام، والضعف الذي يصيب الإسلام؛ فإن الله ناصر دينه، لكن أنت ماذا؟ أحسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أن الله سينصر دينه، سينصر دينه مهما كان، والله يتولى عباده الصالحين.

لعلنا نقف عند هذه الآيات وإن شاء الله نكمل في اللقاء القادم ما توقفنا عنده.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(119)
(المائدة 57 - 64)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا حي يا قيوم يا ذا الجلال الإكرام.

مثل هذه المجالس المباركة التي بإذن الله تحفها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة ويذكر الله من يحضر هذه المجالس بالذكر الحسن عنده جَلَّ جَلَالُهُ في الملأ الأعلى.

جاء حديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان جالسًا مع أصحابه، فقال لهم: **«أيعجز أحدكم أن يذهب إلى العقيق؟»**، العقيق مكان قريب خمس دقائق من المسجد النبوي في المدينة، **«يذهب إلى العقيق ويحصل على ناقة سمينة»**، ناقة طيبة، قالوا: **«يا رسول الله كلنا ما يعجز كلنا يذهب»**، يعني يروح ويأخذ هذه الناقة، فقال: **«يذهب أحدكم إلى المسجد يتعلم آية خير له من ناقة سمينة، وآيتين خيرٌ من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث، وأربع خير من أربع»**.

فهذا فضل عظيم، تجلس دقائق معدودة يحصل لك هذا الفضل العظيم، نحن نجلس هذا المجلس من كلّ أربعاء بعد صلاة المغرب، لا يأخذ منا المجلس إلا ربع ساعة أو عشرين دقيقة، نتدبر ونتأمل هذه الآيات الكريمات من كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، طهر سمعك بكلام الله، تستفيد وتتعلم كما أمرك الله، في الحديث قال: **«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»**، يعني خير الناس على وجه الأرض من هم؟ من تعلم القرآن وعلمه، تتعلم وتُعلم.

الآيات التي معنا في **"سورة المائدة"** هي الآية السابعة والخمسون من هذه السورة، ولا تزال الآيات في بيان أن الله حرم موالاة الكفار، وموالاة اليهود والنصارى، في هذه الآية التي بين أيدينا الآن حتى تسمعها سمعًا جيدًا لما نهاك الله عن موالاة الكفار ومناصرتهم وإعزازهم وإكرامهم ومحبتهم لماذا؟ الآن يعطيك السبب، يقول: لا تواليهم لأنهم كذا وكذا.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 57]، يناديك باسم الإيمان يقول: عندك إيمان، أنت في جوفك إيمان يمنعك من أن توالي الكفار، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: 57]، هزوًا يعني سخرية استهزاء، يعني يسخرون من دينكم، ويستهزئون، ويجعلون دينكم كاللعب يلعبون به، كلعب الأطفال، الطفل همه اللعب، وهم يجعلون دينكم مثل لعبة الطفل، ويستهزئون ويسخرون من دينكم.

✍ من هم هؤلاء الذين يسخرون من دين الله ويستهزئون؟

قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [المائدة: 57]، يعني اليهود والنصارى، ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ﴾ [المائدة: 57]، حتى الكفار يستهزئون بدين الله، قال: لا تتخذوهم أولياء، لا تناصروهم وتتخذوهم أولياء، تقربونهم عندكم، وتفشوا أسرار المسلمين لهم.

قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 57]، إن كنت مؤمنًا عندك إيمان، وعندك تقوى لا تتخذهم، لأن هذا يخالف التقوى، ويخالف الإيمان، إذا كان الإنسان عنده إيمان، وعنده خوف من الله وتقوى من الله؛ فإنه لا يوالي مثل هؤلاء.

✍ يستهزئون ويسخرون بديننا فقط؟

قال: لا، خذ زيادة، ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 58]، قال: **"حي على الصلاة، حي على الفلاح"** أذن المؤذن، ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: 58]، بدؤوا يضحكون.

كان في المدينة اليهود إذا نادى المؤذن للصلاة ما كان في إلا مسجد واحد في المدينة، مسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان الذي يؤذن بلال، فإذا صعد بلال المنارة وقام يؤذن بدؤوا يضحكون هؤلاء اليهود ويستهزئون، ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: 58].

حتى في قصة عجيبة، حتى إن يهودي لما سمع بلال يؤذن قال: اللهم أحرق الكاذب، يعني كأنه يتهم الإسلام بالكذب، ويتهم الأذان بالكذب، قال: اللهم أحرق الكاذب، وفي ليلة من الليالي كان عنده خادم هذا اليهودي، وهذا الخادم كان عنده نار، فطارت شرارة من هذه النار فأحرقت بيت اليهودي، فمات هو وأهله في بيته احتراقًا بالنار، كيف تقول: الله أحرق الكاذب؟ أنت الكاذب، فأحرقه الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: 58]، لماذا يستهزئون؟ بيّن لك السبب؛ وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 58]، لو عندهم عقول ما استهزؤوا بشرع الله، لو عندهم عقول وهم يعرفون نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يعرفون أبناءهم، هم يعرفونه، حتى قال عبد الله بن سلام وهو أحد اليهود الذين أسلموا، قالوا: كيف عرفت أنه رسول؟

قال: والله أعرفه بأوصافه أكثر ممن أعرف أحد أولادي، أعرفه بأوصافه في التوراة أكثر ممن أعرف أحد أولادي.

يعرفون الرسول، ويعرفون الإسلام، ويعرفون الشرع، ومع يستهزئون ويسخرون، قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 58].

✍ هل تظن أن اليهود هؤلاء والنصارى والكفار الذين يعادون الإسلام يعني عداوتهم للإسلام فقط يعني الدين والشرع والصلاة أم للمسلمين؟

عداواتهم أشد وأكبر، وسيأتيك الآن أن اليهود وصلت العداوة إلى حد أنهم من قبائحهم حتى الله ما سلم منهم، الله جَلَّ جَلَالُهُ ما سلم منهم، سيأتيك الآن حتى تعرف شدة عداوتهم لله، وقبائحهم، وعدم احترامهم، حتى أنبياءهم قتلوهم، قتلوا زكريا، قتلوا يحيى، وحاولوا قتل عيسى ولكن الله رفعه، وحاولوا قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمد، وسموه، وضعوا السم في طعامه، ما سلم منهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واسمع ماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ حتى تعرف هؤلاء الأعداء؟

يقول: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: 59]، مع قبائحهم يناديهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قل لهم يا محمد: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا﴾ [المائدة: 59]، يعني هل تعيبون علينا؟ لماذا تكرهوننا؟ لماذا تعيبون علينا وتنقمون منا؟ ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [المائدة: 59].

✍ نحن ما فعلنا شيء إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا القرآن؟!

✍ لماذا أنتم تكرهوننا وتعيبون ديننا وتستهزئون بديننا؟!

نحن آمنا بالله، وآمنا بالقرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: 59]، حتى التوراة أمنا بها، الكتاب الذي أنزل عليكم أيها اليهود نحن نؤمن به، نؤمن بما أنزل إلينا وما أنزل من قبل، ونؤمن بالتوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب كلها.

قال: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 59]، ليست العلة أنكم تعيبون ديننا لمجرد أننا مؤمنين لا؛ بل لأنكم فسقة، أنتم فاسقون، أنتم خارجون عن طاعة الله، ما تشكرون نعمة الله، ولا تعرفون قدر الله، ولا تطيعونه، ولا تتقون الله، فأنتم فاسقون.

هم قالوا: لما جاء محمد إلى المدينة جاء بالشر، وأذان، ويتهمون الرسول بالشر، ويتهمون المسلمين بالشر، ويتهمون المهاجرين بذلك، فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبين من هم الشر في الحقيقة؟

فقال: ﴿قُلْ﴾ [المائدة: 60]، دائمًا الخطاب للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يُبين لك أن القرآن ليس من عند محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوحى إليه، محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نذير، ينذر ويبين للناس ما أوحي إليهم.

قل لهم يا محمد: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ [المائدة: 60]، أي أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ [المائدة: 60]، أنتم تقولون: المسلمون شر، ودين الإسلام شر، والرسول شر، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: أنا أخبركم بمن هم الشر.

قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة: 60]، الحكم عن من؟ الحكم عند الله هو الذي يحكم، أما أنتم تقولون: شر، وهؤلاء يقولون: شر، هذا ما أحد يقبله، الذي يحكم هو الله.

ولذلك قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة: 60]، مثوبة عند الله يعني عقوبة شديدة؛ لأن الثواب أحيانًا يُطلق على الخير على الجزاء على الأجر، وأحيانًا يُطلق على الشر، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: 36]، يعني جزوا على أعمالهم، فالثواب أحيانًا جزاء.

قال: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة: 60]، في حكم الله، ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ [المائدة: 60]، اليهود لعنهم الله، ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: 60]، أيهم شر؟ الرسول وأصحابه في المدينة الذين نشروا الإسلام وأتوا بالخير والهداية، ولا اليهود الذين لعنهم الله، وطردهم عن رحمته وغضب عليهم أنزل عليهم غضبه وعقوبته ورجسه؟!

قال: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: 60]، طائفة من اليهود لما عصت الله وتحايلت على الله قلبها قردة وخنازير، قال: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: 65]، يعني من بني آدم، في قرية من القرى حاضرة البحر، وعصوا الله وتمردوا على الله شرعه وتحايلوا عليها، واصطادوا السمك في اليوم المحرم عليهم، ماذا صنع الله بهم؟ عقوبة شديدة لم تحصل في العالم كله مثل هذه العقوبة، جعلهم قردة تعاوي، قدرة لها أذناب، وخنازير.

كيف قردة وخنازير؟

قالوا: الشباب قردة، والشيوخ الكبار خنازير، جلسوا ثلاثة أيام أو قريبًا من ذلك ثم ماتوا، لكن جعلهم الله عبرة، فقال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: 60]، ما يعبدون الله؛ بل يعبدون الطاغوت، الطاغوت إبليس، وكلّ من يُعبد من دون الله وهو راضي طاغوت، فهم يعبدون المال، يعبدون من عنده مال، ويعبدون الشياطين، هؤلاء اليهود ما يعبدون الله.

قال: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ [المائدة: 60]، أما المؤمنون لا، المؤمنون خير مكان، أيًا ما حل المؤمن مكانه خير، وأينما حل هذا اليهودي مكانه شر، قال: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 60]، هم أهل ضلال يضلون عن طريق الاستقامة.

حتى تعاملهم مع الرسول قال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ [المائدة: 61]، إذا جاءوكم اليهود ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ [المائدة: 61]، هؤلاء طائفة من اليهود تدعي الإيمان، يهود ومنافقون، جمعوا بين أنهم يهود أو منافقون.

قال: ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ [المائدة: 61]، يظهرون الإيمان أمامكم كأنهم معهم، ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة: 61]، الكفر ما يفارقهم يدخلون بالكفر ويخرجون بالكفر، الكفر مسيطر عليهم، متلبسين بالكفر، إن دخلوا فهم كفار قلوبهم كافرة، إن دخلوا عندك جلسوا عندك، وإن خرجوا تركوك وهم كفار.

هم فقط بألسنتهم يقولون آمنا، وإلا في الحقيقة قلوبهم مليئة بالكفر، قال: ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: 61]، الله هو الذي يظهر علمه لرسوله

ويبين حقيقة هؤلاء اليهود وإلا هم قد يخفون أشياء كثيرة ويكتمون أشياء كثيرة، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم جَلَّ وَعَلَا بما يخفونه في صدورهم من حقد على الإسلام والمسلمين وحسد.

قال بعدها: ﴿وَتَرَى كَثِيرًا﴾ [المائدة: 62]، ليس قليل منهم لا تظن أنهم قلة لا، الكثير منهم ماذا؟ ﴿وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: 62]، مسارعة، يعني ما يتوانون ولا يتأخرون، بدل ما يسارعون في الخيرات، يسارعون في الإثم، في الذنوب والمعاصي، والعدوان، البغي والعداوة على الإسلام والمسلمين.

قال: ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: 62]، أكل الحرام، يأكلون الربا، ويأكلون الرشاوي، ويأخذون الحرام بأي طريق، ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: 62]، ما يأكلون الطيبات أبدًا، يبحثون عن الحرام.

قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 62]، يقول: هذه الأعمال بئس الأعمال التي كانوا يعملونها، كيف يعملون هذه الأعمال؟ يسارعون في الإثم والعدوان، وأكل الحرام، هل هذه الأعمال مقبولة؟! هذا بئس العمل.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتعجب وأنت تعجب، يقول: أين علمائهم؟ أين العلماء المعلمين عندهم؟ أهل العلم أين هم؟ قال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: 63]، المشكلة أن الربانيين والأحبار يأكلون الحرام، ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [التوبة: 34].

يقول: أين العلم؟ لماذا لا ينهون؟ قال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: 63].

✍ ما معنى الربانيون؟

الرباني هو: **"العالم العامل المربي"** إذا كان إنسان عنده علم أعطاه الله علم فتح عليهم العلم، ثم يعلم الناس ويربيهم هذا يسمى **"عالم رباني"**.

قال: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ [المائدة: 63]، يعني العلماء، ﴿عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ﴾ [المائدة: 63]، لماذا ما ينهوهم؟ أين علمائهم ينهوهم عن هذا الكلام عن قول الإثم والحرام، ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: 63]، كيف ما ينهونه؟

مع الأسف أن علماءهم والربانين والأحبار هم الذين يقولون الإثم، ويتقولون على الله، ويحرفون الكلم عن مواضعه ويأكلون الحرام.

قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 63]، الآية الأولى قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 62]، هؤلاء في عامة اليهود، وسفلة اليهود، فهم يعملون، أما العلماء يصنعون، لماذا؟ لأن العلماء جالسون يدبرون لهذه الأشياء ويخططون لها، ويحثون السفلة عليها، فعندهم صنع، ولذلك قال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: 63].

علشان تعرف أن عداوة اليهود ليست لك أنت ولا علشان أنت مسلم أو هويتك الإسلام لا، عداوتهم وصلت إلى من هو فوق سبع سماوات، اسمع ماذا يقول؟

يقول: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64]، يعني بخيل، كيف بخيل؟ فالله هو الواسع العليم، الله هو الكريم، الله الذي يعطي، الذي يده سحاء الليل والنهار، الذي إذا سأله الناس أعطاهم، كيف تقولوا: **"إن الله فقير"** أحد يستطيع أن يقول مثل هذا الكلام؟ هل أحد يتجرأ على الله ويقول: **"الله يده مغلولة"؟!!**

قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64]، يعني الله فقير هذا كلام ما يقبله العقل، اليهود وصل بهم الأمر إلى هذا.

✍ متى قالوا هذا الكلام؟

✍ لماذا قالوا مثل هذا الكلام؟

لما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: 245]، قالوا: الله يطلب القرض إذًا الله فقير، ولا يدرون أن القرض هذا هي صدقة لك أنت أصلاً، لو جاء شخص وطلب منك قرض وأعطيته أنت المستفيد، سواء في الدنيا أو في الآخرة؛ لأن فيه أجر، تفريج عن ناس محتاجين، شخص مضطر، محتاج، طلب منك مبلغ معين وأقرضته لله لك أجر عظيم تفريج كربة.

لما قال الله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: 245]، يعني من يتصدق لله، فالله عَزَّ وَجَلَّ يكافئ أكبر وأكبر، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: 245]، أنت تقدم صدقة لله والله عَزَّ وَجَلَّ يضاعف الأجور فيها.

✍ لما سمعوا هذا الكلام انظروا كيف وصل بهم الأمر إلى الاستهزاء والسخرية، قالوا: الله فقير، الله بخيل؟!!

قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64]، في آية أخرى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: 181]، انظروا الجراءة، يعني أنتم أغنياء الله فقير؟!! الله هو الذي خلقكم وهو الذي رزقكم، وهو الذي أغناكم، تقولون: نحن أغنياء والله فقير، وهنا تقولوا: الله بخيل ممسك لا ينفق ولا يُعطي؟!!

قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64]، قال الله ردًا عليهم دعاء عليهم، ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: 64]، يعني هم البخلاء، ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: 64].

ولذلك لا تجد يهوديًا على وجه الأرض الآن إلا وهو من أبخل الناس، أبخل الناس على وجه الأرض يحبون المال حبًا جمًا، يجمعون المال ولا ينفقونه أبدًا؛ لأن الله دعا عليهم، قال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: 64].

ثم رد عليهم وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]، يبسط يده بالليل، ويبسط يده بالنهار وتقولون: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64] ؟ ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]، رد عليهم بأقوى، قال: ليست يد واحدة بل يدين لله، الله له يدان ومبسوطتان، يدان حقيقتان، لا نشبهها بيد المخلوق، ولكن نقول: نثبت لله أن لله يدين حقيقتين تليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعظمته، ونقف عند هذا الحد.

✍ لو جاءك شخص وقال: كيف يد الله؟

تقول: الله أعلم، **"الكيف مجهول، والإيمان واجب"** عليك أن تؤمن كما أخبرك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بجميع صفات الله، الله أثبت أن له وجه، قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: 27]، وأثبت أن له يدين، وأثبت أن له سمع، وبصر يبصر، سميع بصير، لكن الكيف هذا شيء غائب عنك ما رأيته حتى تقول كيف؟ فيجب عليك الإيمان.

قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 64]، لما يقول: ﴿يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 64]، يعني يجعل نفقته في المكان المناسب، ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 64]، يعني يجعله في المكان المناسب لحكمة ما ينفق هكذا.

قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 64]، فضحتهم الآيات، فضحت اليهود، اليهود كانوا ساكتين عنها، فجاء القرآن فضحها؛ لأنهم عاندوا ولم يؤمنوا بالرسول، واستهزئوا بالقرآن، واستهزئوا بالنبي، واستهزئوا بالأذان، ففضحهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: 64]، يقول: **"يزيدهم طغيان"** يعني تكبرًا وإعراضًا وعدم قبول للحقّ، وكفر بك، لا يزيدهم إلا الكفر والبعد؛ لأن ما عندهم قلوب نظيفة، قلوبهم مليئة بالحقد والحسد والكبر، إذًا كلّ ما تنزل آيات من القرآن تزيدهم بعدًا وطغيانًا وكفرًا.

قال: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ [المائدة: 64]، اليهود حتى بعضهم مع بعض عداوة وبغضاء، يكره بعضهم بعضًا، ما في محبة ما في مودة أبدًا، الله ألقى بينهم العداوة، يعادي بعضهم بعضا، ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: 64]، إلى يوم القيامة والعداوة والبغضاء بينهم، ما يتفقون على شيء.

قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: 64]، يحاولون أن يشغلوا النيران في المسلمين، كيف يشعلون النيران؟ يعني يشعلون العداوة والحسد، وإشغال الحرب بين المسلمين، والقتال بين المسلمين، يريدون أن يفسدوا في صفوف المسلمين منذ عصر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذا الوقت فساد فساد.

قال: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: 64]، كلما أشعلوا فتنة وعداوة يطفئها الله، يخيب آمالهم.

قال: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: 64]، ما يسعون بالخير أبدًا، ما تجد وراءه خير لا خير دنيا ولا خير آخرة، ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64]، لا يحب المفسدين، و يحب اليهود الذين يسعون في الأرض فسادًا، وكلّ مفسد يكرهه الله ولا يحبه، يحب المصلحين في الأرض الذين يسعون في الخير.

هذه الآيات العجيبة تكشف لك قبائح هؤلاء اليهود، وشدة عداوتهم للإسلام والمسلمين، واستهزاءهم وسخريتهم، والله عَزَّ وَجَلَّ هو الولي جَلَّ وَعَلَا، ولي لكل مسلم، يتولى الله أمره، ويدافع عن المؤمنين، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: 38]، فهنا يكشف أسرار هؤلاء وخبايا هؤلاء اليهود، ويفضحهم أمام العالم كله؛ حتى تُعرف صفاتهم، وتُعرف خصالهم السيئة، نسأل الله أن يحفظنا وإياكم منهم ومن شرهم، وأن يحفظ بلاد الإسلام والمسلمين من شرهم، وإلى لقاء قادم إن شاء الله نستمتع بهذه الآيات الطيبات بإذن الله.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(120)
(المائدة 65 - 75)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام 1445 للهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي **"سورة المائدة"**، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإعانة والتوفيق والسداد، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

الآية التي بين أيدينا هي الآية الخامسة والستين، نقرأ هذه الآيات كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونبينه، ونتأمله، ونتدبر هذه الآيات كما أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].

✍ لماذا لا يتدبرون القرآن؟!

✍ هل القلوب أغلقت ما تفهم كلام الله؟!

وهذا تحذير من خطورة هذا الأمر، أنك تُعرض عن القرآن، أو لا تقرأ القرآن، أو لا تتدبر القرآن، قد يكون ذلك سببٌ في انغلاق القلب، وعدم التفقه في دين الله.

الآيات هي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: 65]، لما تقرأ هذه الآية وأنت قد قرأت ما قبلها في بيان قبائح اليهود، وجراءتهم على الله عَزَّ وَجَلَّ، وعلى كتاب الله التوراة، وعلى أنبياء الله، وعلى موسى، وقالوا في حقّ الله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64]، انظروا كيف الجراءة؟!!

وقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: 181]، وتجرؤوا على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واتهموه، وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24]، وجاءوا على التوراة وحرفوها، وبدلوها، انظر كيف رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولطفه وحلمه على العصاة من مثل هؤلاء، يناديهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعرض عليهم التوبة، يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [المائدة: 65]، هؤلاء الذين ذكرناهم لكم وقبائحهم السيئة، والله لو أن أهل الكتاب هؤلاء آمنوا بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآمنوا بالقرآن، واتقوا المعاصي وابتعدوا عنها، ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [المائدة: 65]، يعني محونا عنهم كلّ سيئاتهم، وبدلنا سيئاتهم حسنات.

قال: ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: 65]، انظروا إلى الوعد من الله، متى؟ إذا آمنوا واتقوا، النتيجة لهم فضل في الدنيا، وفضل في الآخرة، ما هو فضل الدنيا؟ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يزيل عنهم كلّ السيئات ويمحوها، وأما في الآخرة قال: ﴿وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [المائدة: 65].

انظروا إلى الفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع أن الخلق السيئ فيهم، وسوء الأدب مع الله، وسوء الأدب مع الرسل، وسوء الأدب مع نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع كلّ الأنبياء؟!! أخلاق سيئة، ومع ذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته ولطفه وحلمه يعاملهم بهذه المعاملة، ويفتح لهم باب الرحمة والتوبة.

ماذا يضرك لو أنك تبت إلى الله عَزَّ وَجَلَّ واتقيت الله؟ النتيجة أنك يعفو الله عن كلّ سيئاتك، ويدخلك جنات النعيم، هذا في الأعمال الصالحة.

أما في أمور الدنيا اسمع ماذا وعد الله مثل هؤلاء، قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ﴾ [المائدة: 66]، حقّ القيام، يعني عملوا بها، وأدوها كما أمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتوراة هي الكتاب المنزل على موسى، والإنجيل وهو الكتاب المنزل على عيسى.

قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [المائدة: 66]، حتى القرآن، القرآن هم مكلفون به؛ لأن شريعة محمد شريعة لجميع الأديان، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [المائدة: 66]، النتيجة في الدنيا ما هي؟

قال: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 66]، يعني عمتهم الخيرات، انظروا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطيهم الدنيا كلها إذا عملوا بشرعه، إذا حافظوا على ما أمرهم الله به فتح الله عليهم الدنيا والآخرة.

قال: ﴿لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [المائدة: 66]، أي نزل عليهم الخير من السماء بالأمطار والخيرات، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [المائدة: 66]، النبات أو خيرات الأرض كلها من تحت أرجلهم.

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال اليهود مع هذا العرض الكريم من أكرم الأكرمين، وأغنى الأغنياء يعطيهم هذا العرض الكريم، النتيجة ما هي؟

قال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: 66]، يعني من أهل الكتاب اليهود والنصارى أمة يعني جماعة قليلة جدًا هي التي أخذت بهذا العرض، والكثير منهم ﴿سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 66]، يعني استمروا على ما هم عليه ولم يقبلوا هذا العرض الكريم من أكرم الكريم إلا نادر.

الآن لما تسمع هذه القبائح واليهود يسمعونها، اليهود يسمعون أن الله فضحهم في القرآن، وأمر رسوله أن يبيّن لهم حقائقهم، حرفوا كلام الله، ووصفوا الله بالأوصاف القبيحة قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: 181]، انظروا إلى البجاحة، وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: 64]، يعني الله أبخل البخلاء، مثل هذه القبائح اليهود لن ترضى بهذا الشيء، تفضحهم، وتذكر مثالبهم، لن يقبلوا، فالرسول يعني مع مخالطته لليهود بالمدينة، وللنصارى أيضًا في الجزيرة قد يدخلهم شيء من الخوف منهم أنه قد يتطاولون عليه، قد يخشى منهم، فأنزل الله هذا الآية، حتى إن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أراد أن يبيت في بيته جعل أحد من الصحابة يحرسه خوفًا من أن يعتدي عليه هؤلاء اليهود؛ لأنهم قتلة الأنبياء.

فالله عَزَّ وَجَلَّ أخبر نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لن يضره أحد من هؤلاء، يعصمه الله ويحفظه، لن يستطيع أحد أن يصل إليه، مثل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، موسى دخل إلى فرعون، وقابل فرعون، ولم يستطع فرعون أن يقتله، وفرعون يدري أن موسى جاء ليأخذ ملكه، ومع ذلك ما استطاع؛ لأن الله منعه، وعصمه، ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: 81].

وهنا الرسول كان يضع حارسًا كلّ ليلة، في ليلة من الليالي كان يحرسه سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأخرج صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأسه من القبة وقال: **«يا سعد اذهب إلى بيتك؛ فإن الله قد عصمني»**، لأن الله أنزل هذه الآية، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 67]،لا تخاف من اليهود، ولا من النصارى، ولا من أي أحد، ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: 67]، اقرأ عليهم هذه الآيات وافضحهم لن يضروك.

قال: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: 67]، الذي أنزل إليك من ربك القرآن بلغه حقّ التبليغ، ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ [المائدة: 67]،هذا تهديد، ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: 67]، يعني ما أتيت بالبلاغ المبين.

السؤال هنا:

هل النبي بلغ أم لم يبلغ؟

نقول: بلغ البلاغ المبين، ولما جاء في حجة الوداع أخذ رأي الصحابة، **"هل بلغت الرسالة وأديت الأمانة؟ قالوا: نعم، نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة"** والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتهد في بلاغ رسالة ربه، لكن هذا من باب التهديد.

قال: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67]، لا اليهود ولا غيرهم، لا يستطيع أحد أن يقترب منك، الله عَزَّ وَجَلَّ يلقي الرعب في قلب من يستطيع أن يقترب منه.

أصحاب الكهف وهم ليسوا أنبياء هم رجال صالحين، ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الفاتحة: 18]، ألقى الله عَزَّ وَجَلَّ في قلوب كلّ من يستطيع أن يقترب من هذا الكهف يُلقي الله عليه الرعب حتى الحيوانات وحتى السباع، ثلاثمائة سنة ما أحد استطاع أن يصل إليهم، وهم ليسوا أنبياء فكيف بنبي الله؟! يعصمه الله.

في قصة أن أبا جهل في مكة اشترى إبلاً من رجل، فقال: اشتريت منك لكن المال ليس معي الآن، أعطيك إياه بعدين، فانتظر هذا الرجل ورجع إلى أبي جهل مرة ومرتين وثلاث، قال: اذهب ليس لك مال، قال الرجل: مالي؟ قال له: اذهب، وأصحابه كانوا جالسين يضحكون، فقالوا له الرجل: اذهب إلى هذا الرجل الذي يصلي عند الكعبة، يعني الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اذهب إليه يمكن يعطيك المال، فذهب هذا الرجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاء إليه فقال: **«ما عندك؟»**، قال: هذا الرجل يعني أبو جهل أخذ إبلي ولم يعطني مالي، قال: **«هيا نذهب إليه»**، وأبو جهل قد ذهب إلى بيته، فطرق الباب عليه، فقال: من بالباب؟ قال: **«محمد»**، فلما فتح قال: **«أعطي هذا ماله»**، قال: الآن أعطيه، فدخل وأتقى بالمال وأعطاه إياه.

فتعجب أصحاب أبي جهل، كيف أعطيت المال للرجل وأنت تقول: ليس له مال؟ قال: **"والله لما فتحت الباب فإذا محمد من ورائه جملٌ عظيم قد ثغر فاه سيأكلني"** ما استطاعوا أن يصلوا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أبو لهب وهو عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: 1]، فيها ماذا؟ فيها: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: 4]، جاءت زوجة أبي لهب أم جميل تبحث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي جالس عند الكعبة هو وأبو بكر، معها حجر كبير عظيم، تريد أن تضرب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما وصلت إليه ألقت الحجر في الأرض وقالت: أين محمد؟ أبو بكر يقول: **"والله سترميك بالحجر"** قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لن تستطيع أن تصل إلي»**، فألقت الحجر في الأرض ورجعت وهي تقول: أين محمد؟ أين محمد؟

خلاص الله عصمه ما يمكن لأي إنسان أن يقترب منه، الله قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: 67]، ثم قال بعدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 67]، لا يمكن أن يهديهم، يعني لا يمكن أن يصلوا ما يريدون الوصول إليه من إيذاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم اسمع الآيات تخاطب اليهود والنصارى مرة ثانية.

قال: ﴿قُلْ﴾ [المائدة: 68]، قل يا محمد، بلغ الرسالة، وقال يا محمد أيضًا: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ [المائدة: 68]، أنتم لستم على شيء، ما عندكم ولا شيء، أنتم ضيعتم دينكم، ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: 68]، إذا أقمتم التوراة والإنجيل حقّ القيام وعملتم بها نعم، أما الآن ﴿لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة: 68].

إذا أقمتم التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم، واتبعتم القرآن، واتبعتم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعبرون على شيء، أما الآن لستم على شيء.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: 68]، يعني استكبارًا وعنادًا وكفرا، وجحود، وعدم قبول، كلما تنزل عليك آيات تفضحهم تزيدهم إعراضًا وجحودًا وعنادًا وعدم تقبل، فلا تأس عليهم.

قال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 68]، لا تأسى ولا تحزن عليهم، ولا تهتم بهم؛ لأنهم لن يقبلوا بك، قال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 68]، حكم عليهم بأنهم كافرين، أهل الكتاب اليهود والنصارى وغيرهم إذا لم يؤمنوا برسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقيموا التوراة والإنجيل ويقيموا شرع الله حكمهم حكم الكفار، ولا يُأبه بهم، ولستم على شيء أبدًا، مع ذلك يحكم الله بالحكم العدل.

يعني لن تجد أعدل في الحكم من حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كيف يتعاملون بالمعاملة السيئة وكذا، ومع ذلك يبين الله حكمه فيهم، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 69]، الذين آمنوا أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، آمنوا بالله، ورسوله، والقرآن، وبكل ما يجب الإيمان به.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 69]، هذه الطائفة الأولى هي أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: 69]، اليهود، ﴿وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ [المائدة: 69]، النصارى معروفين أتباع عيسى ومن كانوا على اتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واليهود أتباع موسى، والذين آمنوا هم أتباع محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

✍ لكن الصابئون من هم؟

✍ هل نعرفهم؟

✍ هل نقرأ القرآن لا نفهم؟

هذه مشكلة أن تقرأ هذه الآية تمر عليها ثم يعني تحتاج أنت إلى أن تقف عندها، تمر عليها وتتركها هذه مشكلة.

الصابئون اختلف المفسرون في المراد بهم على أقوال كثيرة، منهم من قال: هم عباد الملائكة، ومنهم من قال: هم عبدة النجوم، ومنهم من قال: هم طائفة من اليهود، أو طائفة من النصارى أقوال كثير.

لكن أنت إذا تأملت هذه الآيات وركزت فيها تركيز دقيق تجد أن الصابئين أناس مؤمنين، مؤمنين ليسوا عبدة لا ملائكة ولا عبدة كواكب ولا نجوم ولا شيء، لماذا؟ لأن الله جعلهم مع هؤلاء.

فالصابئين الصحيح من أقوال أهل التفسير وأقوال أهل العلم: **"الصابئين أناس كانوا على الفطرة على التوحيد والفطرة لم يشركوا بالله شيئًا"** ولذلك ما تقرأ يقولك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [المائدة: 69].

يعني هم على الفطرة، وتمسكوا بدينهم، هذه الطوائف الأربعة تمسكوا بدينها، وآمنوا بالله واليوم الآخر، وعملوا الأعمال الصالحة، النتيجة ما هي؟ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 69]، لا خوف عليهم فيما يستقبلونه، لا عند الموت، ولا بعد البعث، لا خوف عليهم لا يخافون، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: 69]، على ما تركوه خلفهم.

انظروا إلى الفرق بين ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: 69]، لابد أن تعرف الفرق بينهما، ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، في المستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة: 69]، على ما مضى.

إذن إذا قرأت هذه الآية اعرف أن حتى في سورة البقرة أوضح من ذلك، في سورة البقرة ماذا يقول؟ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة: 62]، إذًا ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة: 62]، يدل على أن الصابئين طائفة مسلمة.

قال الله بعدها: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: 70]، عاد مرة أخرى على اليهود، ما هو الميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل؟ هو أن يقيموا التوراة، وأن يؤمنوا بالله، وأن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، ويقرضوا الله قرضًا حسنًا.

قال: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ [المائدة: 70]، يدل على أن الله أرسل إليهم كم؟ ليس رسول، ولا رسولين، ولا ثلاثة، بل أرسل إليهم رسل كثيرة، هؤلاء الطائفة من بني إسرائيل بعث الله فيهم رسلاً كثيرة.

قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ [المائدة: 70]، والنتيجة ما هي؟ قال: ﴿كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ﴾ [المائدة: 70]، يعني شهواتهم ورغباتهم وأنفسهم، كلما جاءهم رسول على غير شهوتهم، وعلى غير رغبتهم النتيجة ما هي؟ ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: 70].

✍ يعني مواقفهم مع الرسل ما هي؟

علشان تعرف حقيقة هؤلاء اليهود انظر إلى مواقفهم مع الرسل، كلما جاءهم رسول بما لا تشتهيه أنفسهم؛ لأنهم أهل أهواء وشهوات، وأهل دنيا، ورغبات، ما يريدون الحقّ، يريدون الباطل، فإذا جاءهم رسول يأمرهم بالحق ماذا يصنعون؟

قال: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: 70]، يعني ما بين تكذيب وقتل، مرة يكذبون الرسل، ومرة يقتلون، قتلوا زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقتلوا يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحاولوا قتل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى رفعه الله، وحاولوا قتل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عدة مرات، فهم قتلة الأنبياء، ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: 70].

ومع كلّ قبائحهم السيئة اسمع ماذا يقول؟ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [المائدة: 71]، يعني هم يظنون أن هذه ليست مصيبة أنك تقتل وتُكذب يظنون أن هذا أمر عادي، ما يظنون أنها مصيبة.

يقول: ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ [المائدة: 71]، يعني عموا بأبصارهم ما يريدون الحقّ، وصموا آذانهم ما يقبلون الحقّ، ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 71]، يعني مع هذا كله تاب الله عليهم لمن تاب منهم، الذي تاب منهم تاب الله عليه.

ثم عاد منهم أناس آخرون، قال: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 71]، يعني لا يقبلوا الحقّ ويُريدونه، ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 71]، الله مطلع وعالم بأحوالهم، ممن يريد التوبة الحقيقة وممن يتلاعب، وممن يريد الحقّ، وممن لا يريد الحقّ، فهذه حالهم، حالهم مع الأنبياء، حالهم مع شرع الله، حالهم مع الله عَزَّ وَجَلَّ.

✍ إذا عرفت حال اليهود فما حال النصارى؟

اسمع ما يقوله الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 72]، حال النصارى أشد وأعظم، يعني اليهود فعلاً تكلموا في حقّ الله، واتهموه، واتهموا شرعه، لكن لم يصل بهم الأمر إلى الشرك، هؤلاء عندهم شرك، هؤلاء يقولون: إن عيسى هو ربنا، وهذا أعظم فرية.

قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ [المائدة: 72] ،افتتح الله بالكفر، حكم عليهم بالكفر، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 72]، يعني يقولون: نحن لا نعبد إلا المسيح ابن مريم، عيس بن مريم هو إلهنا وهو ربنا.

قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ﴾ [المائدة: 72]، حتى يبين لك حقيقة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأن موقفهم أنه لم يرغب بهذا الكلام ولن يقبله؛ لأن الله قال في سورة أخرى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍ﴾ [المائدة: 116]، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 117]، هذا عيسى عَلَيْهِ السَّلَام.

وهنا اسمع قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 72]، أنا مربوب ومخلوق، أنا أعبد الله، وأنتم تعبدون الله، أما تأتون تقولون نعبد عيسى، هذا شرك وكفر.

قال: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 72]، ثم بين لهم خطورة هذا، فهذا شرك وكفر، وصاحبه مخلد في نار جهنم، لا يدخل الجنة أبدًا.

قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: 72]، هذا ظلم، وليس له أحد ينصره، ومأواه جهنم، ويُحرم من دخول الجنة، من؟ من يشرك بالله، ومن هؤلاء يعني طوائف النصارى الآن الموجودة على وجه الأرض الذين يعبدون عيسى هذا مصيرهم، هذا مصيرهم في القرآن الكريم، بحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس بحكم أي إنسان ولا أي مخلوق، حكم الله الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الملك العلام.

قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: 72]، كلّ من يشرك، الله يقول: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: 72]، كلّ من يشرك بالله، الذين يعبدون أو يدعون من دون الله، أو يذهبون إلى الأضرحة والقبور، ويسألونهم، ويدعونهم هذا شرك، شرك بالله، يعبدون الأصنام، ويعبدون الأوثان، كلّ هؤلاء حكمهم ماذا؟ قال: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: 72].

هذه طائفة من طوائف النصارى، النصارى طوائف كثيرة، اسمع الطائفة الثانية التي يذكرها لك، قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: 73]، وهذه الطائفة منتشرة الآن، الله طيب والثاني والثالث من هما؟ قالوا: **"الله، وعيسى، ومريم"**.

وبعضهم يقول: **"الله، وعيسى، وروح القدس جبريل"** ما هذا الكلام؟ هل تعبد ثلاثة؟ الله واحد.

قال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: 73]، ثم رد الله عليهم وقال: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ﴾ [المائدة: 73]، إله حقيقي ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: 73]، أما اثنين ثلاثة أربعة هذه ما هي بعبادة، هذا لعب، تعبد أربعة خمسة ستة!!

ولهذا لما جاء الأعرابي إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سأله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ماذا تعبد؟»**، قال: أعبد سبعة، قال: **«من هم»**، قال: ستة في الأرض وواحد في السماء، قال: **«اشتد بك الكرب وأصابتك المصائب من تدعو؟»**، قال: أدعو الذي في السماء، قال: **«والتي في الأرض؟»**، قال: ما تنفعني.

وهؤلاء يعبدون ثلاثة، ولكن الإله واحد كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: 73].

ثم قال: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا﴾ [المائدة: 73]، هذا عرض أيضًا، عرض عليهم، يقول: انتهوا، ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73]، سماهم كفار، فهذا شرك وكفر.

قال: إن لم ينتهوا عن هذه المقالة ويرجعوا إلى الله ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 73]، هذا وعد شديد، ثم عرض عليهم عرض آخر اسمع، قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ﴾ [المائدة: 74]، لماذا لا يتوبون إلى الله عن هذا الكلام وقولهم إن الله ثالث ثلاثة؟!

قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 74]، الله غفور رحيم، يعرض عليك التوبة وما تقبلها، لماذا ما تتوب إلى الله وتستغفر عن هذه الجريمة العظيمة، أن تجعل الله ثالث ثلاثة، هذا نسأل الله العافية جرم عظيم.

ثم بيّن لهم حقيقة عيس، وحقيقة مريم، الذين جعلوه إله، وجعلوه أمه إله، قال:نوضح لهم من هو عيسى، ومن هي مريم، حتى يجعلوهم مع الله إله.

✍ هل عيسى يملك السماوات والأرض؟

✍ وهل مريم تملك السماوات والأرض؟

ما يملكون شيء، الله هو الملك العلام سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هل عيسى يعلم الغيب؟ أو مريم تعلم الغيب؟ لا، ولذلك قال: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [المائدة: 75]، لماذا تجعلونه إله، ﴿إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [المائدة: 75]، هو رسول ومضت قبله رسل كثيرين، كيف أنتم استنكرتم؟!!

قال: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: 75]، يعني هو رسول وأمه صديقة، أمه ما وصلت إلى درجة النبوة حتى تجعلون منها إله، يعني ما صارت نبية حتى تكون إله، أمه صديقة من الصديقين الذين تحت درجة النبوة، يقول: هو رسول وأمه صديقة.

ثم قال: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: 75]، ما علاقة الطعام؟ هذا يدل على أنهم يحتاجون فقراء مساكين، يأكل الطعام يجوع، والله ما يأكل ولا يشرب، هم يأكلون، كيف تجعل إله يأكل الطعام؟ ويحتاج إلى إخراج الطعام، هذا دليل على ضعف، كيف تعبد إله وتسجد له وتدعوه وهو ضعيف مسكين، يجوع، ويبحث عن طعام؟!! هذا ما يمكن أن يكون إلهًا، هذا يسمى الرد العقلي، رد عقلاني رد عليهم.

قال: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ [المائدة: 75]، انظر كيف يوضح الله لهم الآيات، ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: 75]، لا يقبلوا الحقّ وينصرون عنه و يريدون قبوله.

الحديث الحقيقة ممتع، والذي يعيش مع القرآن ويتدبر آياته لا يشبع أبدًا، يجعل الدنيا خلفه ويعيش مع القرآن، مهما غلبت عليه الأعمال والأشغال، القرآن شيء والدنيا شيء، فلا يشبع الإنسان من التأمل والتدبر، والتفكر في هذه الآيات، القرآن بحر لا ساحل له، لا تنقضي عجائبه، تعيش مع عالم آخر.

أسأل الله أن يعننا وأن يوفقنا لما يحب ويرضى، وإن شاء الله لنا لقاءات نقرأ فيها هذه الآيات، ونستكمل هذه السور، ونسأل الله الإعانة والتوفيق والسداد.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(121)
(المائدة 76 - 86)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام مجلس من مجالس القرآن الكريم، تحفه الملائكة بإذن الله، وتغشاه الرحمة، ويذكر الله أهله في الملأ الأعلى، والحاضرين تنزل عليهم السكينة، وفضائل عظيمة، **«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»**.

هذا اليوم هو اليوم السادس العشرون من شهر ربيع الأول من عام 1445 من الهجرة، درسنا في تفسير القرآن الكريم، وفي **"سورة المائدة"** وقف بنا الكلام عند الآية السادسة والسبعين من هذه السورة.

فيما مضى الحديث عن اليهود والنصارى أهل الكتاب، وخاصة النصارى في آخر الكلام الذين جعلوا المسيح عيسى بن مريم إلهًا من دون الله، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ [المائدة: 72]، قالوا: الله هو المسيح، وعبدوا المسيح من دون الله، وعيسى بن مريم قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: 30].وقال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: 72].

وقالت طائفة من النصارى: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: 73]، **"الله، والابن، وروح القدس"** يعني عندهم الإله ثلاثة متعدد، لم يرضوا بإله واحد وإنما قالوا: ثلاثة، قالوا: **"الرب، والابن الذي هو عيسى"** يدعون أنه ابن الله، و**"روح القدس"** الذي هو جبريل.

أو يقولون: **"الله والابن عيسى، ومريم"** فيجعلون مريم إله، فرد الله عليهم وأكذبهم، وبين افتراءهم وكذبهم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذه الآية التي بين أيدينا ترد عليهم أيضًا ردًا واضحًا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿قُلْ﴾ [المائدة: 76]، قل يا محمد، قل أيها المخاطب، قل لهؤلاء الذين لا يعرفون حقّ الله وعظمته، قال لهم: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: 76]، كيف تعبدون من دون الله من لا يملك لك لا ضرًا ولا نفعًا؟! يعني لا يستطيع أن يصيبك بضرر، يعني هذا المخلوق الضعيف سواء عيسى أو مريم أو أي مخلوق ضعيف من الأولياء أو من الأصنام أو من الآلهة هل يستطيع أن يصيبك بمرض، أن يصيبك بمصيبة؟ هل يستطيع أن يميتك؟ ما يستطيع شيء، الذي يملك هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي يحيي، الذي يميت، الذي ينزل البلايا والمصائب هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يملك الدنيا كلها.

فلا يستطيعون، ﴿لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [المائدة: 76]، حتى النفع ما ينفع، إن أردت أن ينفعك في شيء في صحة، بعافية، بمال، بولد، بزوجة، بأي شيء من الأمور النافعة ما يملك شيء، فكيف تعبد شيئًا ما يملك ولا ينفع؟!!

فأبطل الله هذا الزعم الكاذب على الله بأن هؤلاء آلهة، كيف آلهة؟!! أين عقولكم؟!!

قال: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: 76]، يسمع كلامك إذا دعوت، ويعلم حالك ويجيب المضطر، ويرفع عنك السوء هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي خلقك، وهو الذي رزقك وهو الذي يحييك، وهو يميتك، وهو الذي ينفعك، وهو الذي يضرك، أما هذه ما تنفع ولا تضر.

ففي هذه الآية دليل على بطلان معتقده الفاسد، وجعلهم أن الآلهة ثلاثة أو المسيح ابن مريم هو الإله، أو المسيح ابن الله، كلّ هذا افتراء وكذب على الله؛ بل هذا غلو وتجاوز للحد.

اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول: ﴿قُلْ﴾ [المائدة: 77]، قل لهم مرة أخرى وناقشهم، ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة: 77]، هذا غلو، الله شرع لكم شرعًا وبيّن لكم أحكامه، وبيّن لكم شريعته، ودينه، وأرسل إليكم رسلاً، أرسل موسى إلى بني إسرائيل، وأرسل عيسى إلى بني إسرائيل، وبيّن لهم، وأنزل إليهم الكتب، فكيف يغلون ويصل الأمر بهم إلى أن يعبدون مخلوقًا؟!!

قال: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 77]، يعني غلوًا خارج عن الحقّ، حتى الغلو ما فيه حقّ أصلاً، لكن من باب المبالغة يقول: هذا الغلو كله مذموم، غلوٌ وليس على حقّ.

قال: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة: 77]، وهذا الخطاب علشان نفهم هو خطاب للمعاصرين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين كانوا في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخاطبهم الله، يقول لهم: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة: 77]، لا تعبدوا عيسى، ولا تقولوا: الله ثالث ثلاثة، وتفتروا على الله الكذب، هذا غلو.

ولا ترفعوا مقام عيسى عن كونه بعدًا، هو رسول، ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [المائدة: 75]، وهو القائل: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: 30]، وأنتم تقولون: ليس عبد الله، وإنما هو إله، هذا كذب وافتراء على الله.

قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ﴾ [المائدة: 77]، هذا دليل على أن هذه أهواء وليست حقائق، وليست شرائع، إنما هي أهواء وشهوات.

قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾ [المائدة: 77]، يقصد آباءهم وأجدادهم، ﴿قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ [المائدة: 77]، وأنتم تتبعوهم على ضلالتهم!!

قال: ﴿قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [المائدة: 77]، هم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم، ضلوا أعداد كثيرة، حتى الآن في زماننا الحاضر لو تنظر إلى النصارى أو ما يقال لهم: **"المسيحيين"** على وجه الأرض لوجدت ضلال الكثير منهم، على ضلال، يعبدون عيسى، ويعبدون مريم، هذا كله ضلال، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾، بأنفسهم ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: 77]، حتى ضلالهم ليس على،، ضلوا عن الطريق المستقيم، عن شرع الله الذي شرعه لهم.

فالآيات واضحة، الآيات بينة في أنهم يسلكون طريقًا خطيرًا جدًا، يؤدي بهم إلى نار جهم، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: 72].

فالأمر خطير جدًا؛ الله يأمركم بعبادته وحده لا شريك له، وأن تقولوا: **"لا إله إلا الله وحده شريك له"** ويرسل إليكم الرسل، وينزل عليكم الكتب، ثم تتركون ذلك كله وتسلكون طريق الهلاك؟!!

ولذلك حتى كفر النصارى واليهود حتى اليهود وقعوا في مصائب وقبائح، وقد بينه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما مضى من الآيات، والآن يوضح لك مواقف هؤلاء اليهود، وموقف أنبائهم من اليهود، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: 78]، شوف عبارات القرآن، عبارات سليمة، بعيدة عن أن يكون فيها أخطاء أو يكون فيها ظلم لأحد.

ما قال: **"لعن بني إسرائيل"** لأن بني إسرائيل فيهم من هو على خير، وفيهم من هو على شر، ولذلك قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [المائدة: 78]، على من؟ قال: ﴿عَلَى لِسَانِ

دَاوُودَ﴾ [المائدة: 78]، داود عَلَيْهِ السَّلَامُ هو نبي من أنبياء بني إسرائيل أنزل الله عليه الزبور، وذكر الله لعنة داود في الزبور أن الله يلعنهم، يعلن هؤلاء بني إسرائيل.

✍ واللعن ما هو؟

اللعن هو:**"الطرد من رحمة الله، والإبعاد من رحمة الله"** يعني وقع عليهم السخط والغضب، وأبعدوا عن رحمة الله، لماذا؟ قال: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ﴾ [المائدة: 78]، في الزبور، ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 78]، عيسى بن مريم في الإنجيل، الله أنزل عليه الكتاب المسمى بالإنجيل، وداود أنزل الله عليه الكتاب المسمى بالزبور، وكلٍّ من هذين الكتابين لُعن بني إسرائيل فيهما، يلعنهم داود، ويعلنهم عيسى كلما تلو هذا الكتاب.

يلعنون الذين كفروا من بني إسرائيل، لماذا؟ قال: ﴿ذَلِكَ﴾ [المائدة: 78]، أي هذا اللعن سببه ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ [المائدة: 78]، عصوا الله وتمردوا على شرعه، ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة: 78]، يعني عصيان واعتداء على الآخرين، اعتداء على شرع الله، وتبديل كتاب الله وتحريفه، وإيذاء أنبياء، وتعدٍ على حدود الله، وتعدٍ على حدود الشرع والخلق.

ثم بيّن قال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: 79]، هذه المصيبة العظمى، لا ينهى بعضهم بعضًا، يأتي الشخص ويجد آخر على معصية، ثم ينظر في معصيته، ثم تجده من الغد يجلس معه ويكون أكيله وشريبه، يأكل ويشرب معه ولا ينهاه.

✍ كيف لا يتمعر وجهك؟ ولا تنصحه؟ ولا تأمره بالمعروف ولا تنهاه عن المنكر؟

قال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: 79]، ولذلك قصة أصحاب السبت في البداية لما حرم الله عليهم الصيد يوم السبت ماذا صنعوا؟ احتالوا على شرع الله، هذه هي المعاصي والتعدي على حدود الله.

احتالوا على شرع الله، ماذا فعلوا؟ جاؤوا بشباك وحفروا حفر على الشواطئ، ووضعوا الشباك يوم الجمعة، قالوا: الجمعة نصيد، وما في سمك في الجمعة أصلاً، في كلّ الأسبوع تذهب الأسماك في أقصى البحر، فإذا جاء السبت خرجت على الشواطئ.

في السبت لا يجوز لهم أن يصطادوا، فهم ينظرون إليها ولا يستطيعوا أن يصيدوا ولا واحدة، فقال بعضهم: نضع الشباك يوم الجمعة، الجمعة مباح لنا أن نضع الشباك، فإذا جاء الأحد وجدنا فيها أسماك فأخذناها، أما السبت نحن نعظمه ونحترمه، ويظنوا أن ذلك يمشي على شرع الله؛ بل هذا احتيال على ذلك الله.

تحايل واحتيال لا يجوز، فبدؤوا يصيدون ويحرفون، يصيدون ويحفرون، على هذه الحال، بعضهم نهاهم، وبعضهم سكت، الذين نهوهم أنجاهم الله، والذين سكتوا الله أعلم بحالهم، لكن الكلام هنا أن بعضهم لا ينهي بعضًا.

قال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ [المائدة: 79]، يرى صاحبه على منكر ويسكت، ولا يجوز أن تسكت على منكر، وقد تجده من الغد يجالسه ويضاحكه ويمازحه وهو على معصية، على منكر عظيم، ويجالسه، ويمازحه، ويضاحكه في الكلام، أين الخوف من الله؟ وأين الإنكار؟

ولذلك قال: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 79]، بئس هذا العمل الذي كانوا يفعلونه أنهم يسكتون عن المنكرات، وأن يرتكبون المعاصي.

وزيادة على ذلك اسمع من صفاتهم وقبائحهم، قال: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 80]، انظر عبارة القرآن دقيقة، ما قال: **"جميعًا"** بعضهم ليس على ذلك، قال: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: 80]، يتولون الذين كفروا، يساعدونهم، ويتعاونون معهم، ويقفون معهم، ويحبونهم، وهم كفار.

قال: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [المائدة: 80]، يقول: هذا العمل بئس العمل الذي يقدمه لنفسه يوم القيامة أنه يتولى الذين كفروا، يتولى أعداء الله.

قال: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 80]، يقول: أن أنزل الله سخطه عليهم، وغضب عليهم، ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: 80]، لماذا؟ لهذه الجرائم السيئة التي يقعون فيها، الضلال، والاعتقاد الباطل، والمعاصي، والاعتداء، والوقوع في المنكرات، وعدم التناهي، ولا ينهي بعضهم عن بعض، ويتولون الذين كفروا، كلّ هذه جرائم عظيمة، فوعدهم الله بالسخط عليهم، والعذاب في جهنم، ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: 80].

ثم نصحهم الله الذي هو أرحم الراحمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع هذه الجرائم إلا أنه يعظهم، ويذكرهم، وينصحهم لعلهم يرجعون، قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: 81]، لو أنهم رجعوا وآمنوا بالله حقّ الإيمان، ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ﴾ [المائدة: 81]، الذي هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ﴾ [المائدة: 81]، وهو القرآن.

يقول: لو آمنوا بالله، وبالرسول، وبالقرآن، لو كانوا آمنوا بهؤلاء ﴿مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: 81]، ما اتخذوا الكفار أولياء يناصرونهم ويساعدونهم ضد المسلمين، ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 81].

كثير منهم على فسق، وعلى عصيان، هذه خاتمة الحديث عن اليهود والنصارى، والآن تأتيك النتيجة.

كلّ الآيات التي مرت معنا في فضحهم، وفي بيان فضائحهم، ومواقفهم السيئة، وعقائدهم الباطلة، الآن تأتيك النتيجة، موقف المسلمين منهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 82]، إن أشد الناس عداوة للمؤمنين من هم؟ قال: ﴿الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة: 82]، قدم اليهود على المشركين لشدة عداوتهم، لا يرضون بمسلم أبدًا.

قال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً﴾ [المائدة: 82]، يعني أقرب الناس محبة ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: 82]، النصارى أقرب بكثير من اليهود.

ولذلك تسمع كثيرًا ممن يدخل في الإسلام من النصارى أكثر وأكثر من اليهود، ما تسمع يهودي واحد أو اثنين دخلوا إلا نادرًا جدًا، ولكن النصارى أقرب مودة، وأقرب محبة، وقلوبهم لينة، فبمجرد الدعوة تجد من النساء والرجال يدخلون يوميًا في الإسلام، فهم أقرب.

ولذلك قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ﴾ [المائدة: 82]، قسيسين يعني علماء، القسيس الواحد، يُقال له: قسيس، ويقال له: قس، هؤلاء علماء النصارى، عندهم علم، عندهم معرفة، عندهم إدراك.

قال: ﴿وَرُهْبَانًا﴾ [المائدة: 82]، الرهبان جمع راهب، والراهب هو: **"العابد الذين يتعبدون في الصوامع"** ليس لهم حقد وحسد واعتداء؛ وإنما هم عباد، أصحاب عبادات، يجلسون في الصوامع يتعبدون الله.

والراهب من الرهبة، وهو الخوف، فعندهم خوف من الله، وهم في حالهم، في عبادتهم، ما بين عالم من العلماء وهم القساوسة، وما بين رهبان يتعبدون في صوامعهم.

قال: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: 82]، لا يستكبرون عن الحقّ، لما تدعوه يتقبل منك، لا يستكبرون.

هم على وجه العموم يتقبلون الحقّ، لكن هذه الآية في سياق من؟ في سياق من آمن منهم، علشان تعرف أن هذه الآية في الحديث عن من آمن من النصارى، من هم الذين آمنوا من النصارى ونزلت فيهم هذه الآية؟

هؤلاء نصارى كانوا في الحبشة، وأرسلهم النجاشي في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أرسل وفدًا يتحقق من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أنه أسلم ومات على الإسلام ولم ير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما هو في بلده كان ملكًا على الحبشة وأسلم، ومات على الإسلام.

حتى قيل: إن النجاشي لما مات قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن النجاشي قد مات، فقوموا وصلوا على صاحبكم»**، فقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصلى عليه صلاة الجنازة، وصلى المسلمون خلفه.

جاء في الحديث أن خلف المسلمين صفوف ملائكة، ملائكة تصلي على رجل واحد، ما رأى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنه أيد دعوته، وأسلم ودخل في الإسلام.

فهذا النجاشي أرسل وفدًا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النصارى إلى المدينة، فقابلهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشرح لهم الإسلام، ووضح لهم، فتقبلوه وأسلموا، هؤلاء هم الذين أنزل الله فيهم هذه الآيات.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة: 83]، لما قرأ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم آيات من القرآن الكريم بكوا بكاءً شديدًا، قالوا: هذا لا يخرج عن دين عيسى وعن الإنجيل، إنما هو والقرآن يخرج من مشكاة واحدة.

قال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة: 83]، الإفاضة الزيادة، يُقال: **"فاض الإناء إذا زاد"** يعني أعينهم لا تدمع فقط؛ بل زيادة على الدمع أنها تفيض.

قال: ﴿ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 83]، يقول: عرفوا الحقّ وخشعوا، وخافوا الله عَزَّ وَجَلَّ، ودمعت عيونهم؛ بل فاضت عيونهم مما عرفوا من الحقّ، هذا حالهم، حالهم لما سمعوا القرآن، لما سمعوا ما أنزل على الرسول بكوا بكاءً شديدًا.

✍ طيب ماذا قالوا؟

قال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ [المائدة: 83]، هذا الوفد آمن، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83]، يقولون: نحن آمنا بالرسول، وآمنا بالقرآن، وآمنا بك يا رب العالمين فاكتبنا مع الشاهدين، من هم الشاهدين؟ هم أمة محمد، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143].

فأمة محمد تشهد على الأمم كلها، وتشهد للرسل، وهؤلاء قالوا: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 83]، يعني اكتبنا مع أمة محمد حتى نشهد على الأمم.

ثم قالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 84]، ما المانع؟ ما الذي يدفعنا وما الذي يمنعنا حتى نؤمن؟ يقولوا: كيف نرى الحقّ ولا نؤمن؟!!

قال: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: 84]، مع أنهم آمنوا، وقالوا الحقّ، وسألوا الله ودعوا الله أن يكونوا مع الشاهدين، وقالوا: آمنا بالله، وبالرسل، وبما أنزل إليه، ومع ذلك يقولون: ﴿وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة: 84]، ما قالوا: **"نحن مع القوم الصالحين"** ولكن قالوا: ﴿وَنَطْمَعُ﴾ [المائدة: 84]، وهذا دليل على تواضعهم، على أنهم يطلبون من الله، ويرجون من الله هذا الأمر، ولم يدعوا أنهم آمنوا، وأنهم حققوا الإيمان، يقولوا: مع إيماننا إلا أننا نرجو الله عَزَّ وَجَلَّ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين.

✍ النتيجة ما هي لمثل هذا الكلام الطيب وهذه الأفعال الطيبة وهذه المواقف منهم؟

قال: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: 85]، تعرف أن شريعة الإسلام شريعة عظيمة، من يدخل فيها دخولًا حقيقيًا، ويؤمن إيمانًا حقيقيًا الله عَزَّ وَجَلَّ يعده بالمواعيد الحسنة الطيبة.

مع أنهم جاؤوا وهم حديث عهد حتى الآن، ومع ذلك الله أثابهم بالأجر العظيم، قال: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: 85]، بقولهم وفعلهم الطيب، ﴿بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ [المائدة: 85]، أثابهم الله يعني جازاهم الله بالفوز بجنات تجري من تحتها الأنهار، ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 85].

لما تسمع كلمة **"جزاء المحسنين"** هم جمعوا بين القول والفعل، يعني قالوا قولًا حقيقيًا بألسنتهم، وطبقوا ذلك حتى أصبحوا وصلوا إلى درجة الإحسان وهي أعلى درجات الدين.

فالدين درجات: **"الإسلام، ثم فوقه، الإيمان، ثم فوقه الإحسان"** الإحسان أعلى الدرجات، ولذلك حكم الله عليهم بالإحسان، قال: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 85]، هذا جزاء من آمن وصدق واتبع من النصارى.

أما من خالف وبقي على كفره وعناده قال الله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المائدة: 86]، أي جحدوا وحدانية الله وأشركوا معه غيره، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [المائدة: 86]، أي كذبوا بالآيات التي جاءتهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: 86]، يعني هؤلاء لهم نار جهنم، توعدهم الله بنار جهنم، هذا حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حكمه، وبيان حقيقة هذا الدين دين الإسلام، وبيان مواقف هؤلاء اليهود، اليهود جعلهم الله في شدة العداوة فوق المشركين، ثم أهل الشرك أعداء الإسلام، أما الذين هم أقرب مثلما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاء النصارى، وهذه الطائفة التي آمنت، وحققت الإيمان، ودخلت الإسلام وعدها الله بهذا الوعد الحسن.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوقفنا لطاعته، نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(122)
(المائدة 87 - 89)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا اليوم هو اليوم الثالث من شهر ربيع الآخر من عام 1445 للهجرة.

نجلس هذا المجلس المبارك مجلس القرآن، نقرأ آيات من القرآن الكريم، ونبيّن ما فيها، ونتدبر ما فيها من توجيهات، وتذكير ومواعظ، وهدًى ورحمة.

السورة التي بين أيدينا هي **"سورة المائدة"** والآيات هي الآية السابعة والثمانين من هذه السورة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 87].

هذا الخطاب الموجه للمؤمنين، كلّ من هو مؤمن يحمل في قلبه الإيمان يُخاطب بهذا الخطاب، ولذلك هذا يوجه إلى المؤمنين، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 87].

ولذلك ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحابي الجليل يقول: **"إذا سمعت الله يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 87]، أرعى لك سمعك، إما خير تؤمر به، أو شر تُحذر منه"**.

الآية هنا فيها نهي، نهي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله ينهاك عن شيء، فما هو هذا المنهي عنه؟ يقول: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 87]، إذًا في حرام وفي حلال، من الذي أحل ومن الذي حرم؟ يقول: ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾ [المائدة: 87]، يعني أنت أيها الإنسان لا تحرم شيء الله أباحه.

قد يأتيك شخص يقول:

طيب من هذا الذي يحرم شيء أباحه الله؟

نقول: موجود.

هذا التحريم يرجع إلى أمرين:

الأمر الأول: إما أن يحرم هذا الشيء هو معتقد بنفسه أنه حرام، فيفتي الناس بأن هذا حرام، هذا الذي قال الله فيه: ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾ [المائدة: 87]، لا تحرم على نفسك، ولا تحرم على الناس، تفتيهم بفتوى لا علم لك بها، فاحذر أن تحرم شيء أباحه الله، هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: قد يأتيك بعض الناس ويحرم على نفسه كأن يقول: **"حرام علي أن آكل هذا الطعام"** أو **"حرام علي أن أشرب هذا الطعام"** الآن هو ما يفتي للناس، لكنه يحرم على نفسه، هذا لا يجوز في شرع الله، الله عَزَّ وَجَلَّ خاطب نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: 1].

فالإنسان لا يفتي للناس أو يدعي أن هذا شيء محرم وهو ما عنده دليل، ولا يحرم على نفسه شيئًا من الطيبات التي أباحها الله، ولذلك الآية تقول: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ﴾ [المائدة: 87]، سماها طيبات، ﴿مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 87]، يعني طيب وحلال، هو طيب في نفسه، والله أحله وأباحه، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 87]، يعني لا تحرموا هذه الأشياء، لا تحرموها أنتم، لا تحرموها لأنها طيبة ومباحة.

الطيب ضده ماذا؟ الخبيث، الأشياء الخبيثة هذه حرمها الله، الأشياء الخبيثة كلها محرمة، قال الله تعالى في وصف نبيه محمد: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: 157].

فالطيبات هي الأشياء التي تستطيبها النفس، العقلاء يستطيبونها، والشرع أباحها، يعني الشرع حكم عليها بأنها طيبة؛ لأنه من الصعب أن تحدد ما هو الطيب يعني الأطعمة والأشربة وأشياء كثيرة طيبات، هذه لها ضابط، نضبطها بماذا؟ الطيبات ما تستطيبه النفوس الطيبة، العقلاء من الناس يحكمون عليه بأنه طيب، وليس كلّ النفوس.

والأمر الثاني: **"الشريعة"** الشريعة تحكم عليه بأنه من الطيبات، والحلال ما ضده؟ ضده الحرام، مثل السرقات، يأكل مال مسروق، أو مغصوب، أو مال عن طريق الربا هذا كله من الأشياء التي حرمها الله، والأشياء التي حرمها الله واضحة.

فالأصل في الطيبات والمآكل والمشارب أنها حلال، ما يأتيك واحد يقول: والله هذا الطعام حرام، أو هذا الطعام حلال، هذا الطعام حرام أو هذا الشراب حرام إلا بدليل، الأصل كلّ الأشياء أباحها الله، إذا كانت طيبة وحلال.

ثم قال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 87]؛ لأن هذا تعدي على شرع الله، تعدي على حدود الله، وكذلك كلمة ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 87]، أي لا تأخذوا أموال الناس بغير حقّ، تأكلونها وتشربونها بغير حقّ، لا يجوز التعدي على حدود الناس، وعلى حلال الناس، والتعدي على شرع الله، كلّ ذلك من التعدي، ولذلك قال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 87].

ثم بيّن لك لماذا؟ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: 87]، هذه الآية ترجع إلى كلّ ما تقدم، يعني الذي يعتدي على حقوق الناس ويأخذ أموالهم، أو يعتدي على حدود الله؛ بأن يحرم أو يحلل من تلقاء نفسه، هذا كله من التعدي، ولذلك الله لا يحب المعتدين؛ بل يبغضهم ويكرههم، ولا يريدهم.

ثم يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: 88]، لما قال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا﴾ [المائدة: 87]، هذا الأول نهي، نهاك عن أشياء بأن تحرم بلسانك تقول: هذا حلال وهذا

حرام، أو بفعلك، تقول: **"لا آكل هذا لأنه حرام علي"** أو **"أحرمه على نفسي"** تجد بعض الناس يقول: والله هذا الطعام أنا حرمته على نفسي ما آكله.

لا تقول: **"حرمت"** ولكن قل: **"لا أريده، لا آكله"** أما تحرم وتحلل هذا لا يجوز، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول هنا: ﴿وَكُلُوا﴾ [المائدة: 88]، هذا الأمر للإباحة، ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: 88]، كلوا من هذه الأشياء التي رزقكم الله وأخرجها لكم على الأرض من النباتات الطيبة والخضروات، والأشربة الطيبة، هذه الأصل فيها كلها الإباحة.

ما يستطيع أي إنسان يقول: هذا حرام إلا إذا وجد الدليل الذي يدل عليه، فهذا يقول: إنه حلال أو حرام.

قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: 88]، هذا يدل على أن هذا رزق من الله، رزق حلال ساقه الله لك فكلوا مما رزقكم الله، تأتي على وجه المنة أن الله يمن علينا، يقول: كلوا هذا رزق من الله، ثم وصف هذا الرزق بوصفين، قال: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 88]، لابد أن يكون حلالًا يعني أحله الله لك، ما يأتي عن طريق الحرام والغصب والسرقات والربا وغير ذلك من المحرمات، وطيبًا تتقبله النفوس الطيبة، والله عَزَّ وَجَلَّ جعله من الطيبات.

فكل ما كان من الأشياء المستخبثة المحرمة كالدخان خبيث مستخبث محرم، كأكل بعض الحيوانات الخبيثة، أو بعض الحشرات كالثعابين والعقارب ونحوها، هذه كلها خبائث، لا يجوز للإنسان أن يقول: والله هذا الأصل فيه الحلال، نقول: لا، الله قال لك: **"حلال وطيب"**، هل هذا طيب، فلابد أن يكون حلالًا طيبًا.

لما قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 88]، قال بعدها: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: 88]، اتق الله وخف من الله أن تتعد حدود الله، وأن تحرم شيئًا أباحه الله، لا يجوز، لا يجوز أن تحرم شيئًا إلا بدليل دل عليه القرآن أو السنة، اتقوا الله، وخافوه وراقبوه فيما تأتون وتذرون إن كنتم آمنتم بالله، فعليكم أن تتقوا الله في جميع أحوالكم، في المطاعم، والمشارب، والمناكح وكلّ شيء.

قد يأتي إنسان ويحرم على نفسه، يقول: والله حرام علي أن أشرب الشاي أو القهوة، أو حرام علي أن آكل مثلاً الدجاج، أو لحم كذا، أو كذا، إذا قال مثل هذا الكلام ما هو الحل؟ نفترض أنه قال مثل هذا الكلام، قال: والله لا يجوز أن آكل؟

نقول: المخرج عليه كفارة، كفارة يمين، الذي يحرم شيئًا على نفسه من المباحات عليه كفارة اليمين، سواء قال: حلال أو حرام، قال: والله لا آكل، بعض الناس يزور مثلاً واحد ثم يقول له: لا تحضر لي شيء، والله ما لي حاجة، والله لا آكل ولا أشرب، ثم يأتي بالطعام ثم يقول: أنا علي يمين.

نقول: لا تحلف، مثل هذه الأمور لا تتعجل فيها، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: 89]، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أتانا بالحل لمن يقع في اليمين، لو وقع إنسان وحرم على نفسه أو حلف ألا يأكل، حلف ألا يدخل، حلف ألا يزور، حلف ألا يسافر، ما المخرج منها؟ الله من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولطفه بعباده جعل لهم مخرج، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة: 89]، يعني عندنا الآن اليمين التي يقول فيها الإنسان مثلاً: والله، وتالله، وبالله، أقسم بالله، أحلف بالله، هذه اليمين، إذا حلف قد تكون اليمين هذه ما يسميها الله اللغو.

مثل ماذا لغو اليمين؟ لغو اليمين يعني ما عليه كفارة، ولا يضرك لو قلته، مثل ماذا لغو اليمين؟ نقول: مثل كلام الرجل أحيانًا في بيته ومع أهله، ومع أخوانه، ومع أصدقائه، كأن يقول: لا والله، لا والله ما شفت فلان، رأيت فلان؟ لا والله، لا والله أمس كذا.

هذه **"لا والله، بلى والله"** هذه يسميها أهل العلم لغو اليمين، لغو اليمين يعني ما عليها كفارة ولا يضره لفظها، وكثير من يستعملها يقول: والله أنا ليس رغبة، لا والله كذا، هذه الكلمة **"لا والله"** هذه من لغو اليمين، ما عليها كفارة، ما عليها أي شيء، لو فعلتها أو تكلمت بها ما عليك شيء.

أو أحيانًا وهذه تفوت كثير من الناس يقول: **"من حلف على شيء ظانًا أنه كذا ثم تبين خلافه"** هذا ما عليه كفارة، مثل لو سألك واحد الآن وقال: فلان رأيته؟ قال: نعم، قال له: يصلي معنا؟ قال: صلى معنا والله، ثم تبين أنه ما صلى، لكنه ظن أنه معنا، اعتقد أنه معنا وهو غير موجود معنا.

نقول: إذا حلف على شيء ظانًا أنه موجود أو كذا ثم تبين خلافه هذا ما عليه كفارة، ولا عليه أي شيء؛ لأنه حلف على شيء يعتقد بنفسه، يعتقد بنفسه أنه موجود، وتبين أنه غير موجود، هذا يسمونه من لغو اليمين، اللغو هو الكلام الصافي الذي ما عليه شيء، ما عليه كفارة ولا أي شيء.

يقول: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: 89]، يعني ليس عليكم حرج، ولا عقوبة، ولا مؤاخذة في لغو اليمين، ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: 89]، إذا عقدت اليمين على قلبك، أنك عاقدها وجازم بهذه اليمن، هذه هي اليمين التي تعتبر يمين منعقدة لابد من الوفاء بها، إذا ما تستطيع الوفاء بها عليك كفارة.

لو قلت: والله لا أسافر هذا الشهر كاملاً خلاص، تفي باليمين لا تسافر، قلت: لا والله الآن قررت أني أسافر، نقول: كفر عن يمينك ويسافر، هذا اليمين، فإذا حلفت على شيء ثم ظهر لك ما هو أحسن اترك اليمين وكفر عنه.

قلت: والله لا أزور فلانًا لأني قال في كذا وكذا، نقول: لا، هذه قطيعة رحم، لا تزوره إذا كان قريب لك لا، تقطع رحمك لا، نقول: زره وعليك كفارة، كفر، هذا معناه.

✍ الكفارة ما معناها؟

هي: **"الخروج من اليمين"** كيف تخرج منها؟ كفر واخرج منها.

يقول: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: 89]، إني حلفت يمينًا جازمًا، طيب إذا حلف الإنسان ثم أراد أن يخرج من هذه اليمين يخالفها، قال: والله لا أسلم على فلان، حلف يمين، نقول: لا، سلم عليه، فقام وسلم عليه، نقول: عليك كفارة يمين.

✍ ما هي الكفارة؟

قال: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: 89]، هؤلاء العشرة المساكين لابد أن يكونوا فقراء، لابد أن يكونوا مساكين فقراء ما هو أي واحد تعطيه، يجد أي واحد في الشارع يمشي يعطيه، كأنه يريد أن يتخلص منها، لا، هذه الله حكم عليها بأن تضعها في مكانها، عشرة مساكين تطعمهم.

✍ كيف تطعمهم؟

إما أن تغديهم أو تعشيهم، إذا لم تريد أن تغديهم ولا تعشيهم، تعطي كلّ واحد نصف صاع من قوت البلد، يعني مما يأكله الناس في البلد، مثل الآن في وقتنا الحاضر الأرز هو الذي يعتبر من قوت البلد، فتخرج نصف صاع، الصاع الآن كم يُقدر؟ بعضهم يقول: ثلاثة كيلو تقريبًا، تخرج كيلو ونصف لكل مسكين، عندك عشرة مساكين تحتاج إلى خمسة عشر كيلو، كلّ واحد تعطيه كيلو ونصف.

واستحب أهل العلم أن يكون مع هذا شيء من الإدام، يعني شيء من الدجاج أو اللحم أو الخضار أو نحو ذلك؛ لأن هذا هو الطعام.

ما أن تعطيه رز كذا فإن الله ماذا يقول؟

يقول: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: 89]، من أوسط يعني من أعدل وأحسن ما تطعمون أهليكم، يعني أنت إذا كنت تطعم أهلك رز نوعه كذا وكذا من الأنواع الفاخرة ما تروح وتشتري أقل نوع وتعطيه لفقير، هكذا أنت ما طبقت الآية، ما حققت ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: 89]، تبحث عن الرخيص والأقل سعر وتعطيه، هذا كأنك تريد أن تتخلص، **«إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»**، فينبغي مثلما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِنْ أَوْسَطِ﴾ [المائدة: 89]، يعني من أعدل وأكمل ﴿مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة: 89]، مما تطعمون أهليكم تعطيهم مثل هذا.

فتطعمهم هؤلاء المساكين حتى تخرج من هذه اليمين، إذا قال: لا والله أنا ما أريد أن أطعمهم، نقول: تكسوهم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ [المائدة: 89]، الكسوة لباس، ثوب تعطيه، ثوب امرأة أو رجل، عشرة أشخاص تعطي كلّ واحد ثوب يستر به عورته، فهذا الذي يُعطى، يُعطى من كسوة، أو إطعام غداء أو عشاء تعطيه وجبة، وينبغي أن يبحث الإنسان عن المستحقين من الفقراء والمساكين، لا أن يعطي أي إنسان.

قال: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: 89]، إعتاق رقبة مؤمنة، يعني مملوك، أمة، أو عبد مملوك يعتقه.

قد يأتي شخص ويقول:

والله الآن ما في لا أمة ولا في مملوك؟

نقول: اتركه، أطعم عشرة مساكين أو كسوتهم.

طيب هل يجوز له أن يصوم ثلاثة أيام؛ لأن الله قال هنا: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: 89] ؟

هل يجوز له أن يصوم؟

نقول: لا يصوم إلا إذا عجز عن الأشياء الثلاثة هذه، عجز عن إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، نقول: بعد ذلك تنتقل إلى أن تصوم ثلاثة أيام.

تسمع بعض العوام يقول: عليك يمين صم ثلاثة أيام، نقول: لا، هذا غلط، تصوم ثلاثة أيام متى؟ إذا ما عندك قدرة على الإطعام، أو الكسوة، أو إعتاق الرقبة، لذلك قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ [المائدة: 89]، من لم يجد ينتقل إلى صيام ثلاثة أيام.

هل يصومها متتابعة أم متفرقة؟

نقول: **"له الخيار"** إن صامها متتابعة، متتالية، إن صامها متفرقة، إن صام الاثنين والخميس، إن صامها الأيام البيض الأمر له بالخيار.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ﴾ [المائدة: 89]، أي هذا الذي ذكرناه لكم، ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: 89]، إذا حلفت وعقدت النية باليمين، حلفت يمينًا فعليك هذه الكفارة.

مسائل اليمين كثيرة، وكثير من يسأل عن مثل هذه الأيمان، يقول: والله أنا حلفت، ثم من بكرة حلفت على نفس الشيء قلت: والله لا أزور فلان، أو والله لا آكل هذا الشيء، ثم من بكرة قلت: والله لا آكله، ثم من بعده قلت: والله لا آكله، نقول: عليك كفارات؛ لأنها متفرقة هذه، لكن لو كان في مجلس واحد وقال: والله والله والله، نقول: كفارة واحدة؛ لأن هذا مكان واحد وشيء واحد، في مسائل كثيرة لكن تجدها موجودة في كتب الفقه، وتكلم عنها العلماء.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: 89]، تحفظ يمينك كيف؟ بأنك لا تكثر من اليمين، ما أنت ملزم كلما شفت شخص أو شفت شيء قلت: والله، والله، حاول أن لا تُكثر على لسانك كلمة والله، احفظ أيمانك هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني الذي قد يتساهل فيه الكثير من الناس: **"يحلف ويخالف يمينه ولا يكفر"** وهذا يُعاقب نفس العقوبة، وإذا لم تُعاقب في الدنيا، تُعاقب في الآخرة، فهذا تعدي حدود الله، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 87]، تجده يحلف أيمان، وتسأله يقول: والله علي أيمان كثيرة، والله ما أذكرها، لماذا هذا؟!!

احفظ يمينك ولا تتكلم، وإذا حلفت وأنت مضر وخالفت يمينك كفر مباشر، يجب عليك أن تبادر ما تترك هذه الأشياء.

قال: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 89]، يقول: مثل هذا البيان الواضح في الأطعمة الحلال والحرام والذي أباحه الله والطيبات، وأنه لا يجوز لإنسان أن يحرم على نفسه، ولو حرم على نفسه أو حلف ألا يأكل أو ألا يشرب فالمخرج هو كفارة اليمين، هذا بيان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 89]، حتى تشكروا الله على هذه النعمة العظيمة التي أنعم الله بها عليكم لاشك أنها نعمة من الله، وتوجيهات من الله، ومواعظ وتذكير لنا، نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعلنا من الشاكرين، وأن يوفقنا لطاعته.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(123)
(المائدة 90 - 93)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الأربعاء الموافق للعاشر من شهر ربيع الآخر من عام 1445 للهجرة، نجلس هذا المجلس المبارك مع تفسير القرآن العظيم، نقرأ آيات من كتاب الله ونتأملها ونتدبرها، ونحضر مثل هذا المجلس المبارك الذي بإذن الله تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله أهله في الملأ الأعلى عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الآية التي بين أيدينا هي الآية رقم تسعين من **"سورة المائدة"**، وهي نصٌ واضح في تحريم الخمر، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا في الآيات السابقة لما قال: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: 87]، يعني الطيبات التي أباحها الله من المطاعم والمشارب لا يجوز تحريمها إلا بالدليل، ومن يحرمها فقد اعتدى، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: 87].

ثم أكد ذلك قال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: 88]، يعني رزق الله **"حلال وطيب"** إذا كان ليس من طريق الحرام، وطيب ليس من الخبائث.

لما ذكر لنا الطيبات وأباح لنا الطيبات حدد لنا المحرمات، المحرمات قليلة، يعني الأصل في كلّ ما على الأرض أنه مباح للإنسان إلا ما دل الدليل على تحريمه، هذه قاعدة لابد أن نفهمها، إلا ما دل الدليل على تحريمه، فالمحرمات قليلة.

الآن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر لنا هذه المشروبات المحرمة، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90].

نحن مر معنا أكثر من مرة أنك إذا سمعت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 90]، فقف عندها وانتبه، هذا نداء من الله، يناديك، ويناديك لمصلحتك، إما خير يدلك عليه، أو شر يحذرك منه، وهنا هذه الأمور بينها الله لك أنها رجس من عمل الشيطان، ثم قال: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90]، فهذه الأشياء الأربعة أشياء محرمة وعظيمة، عظيمة التحريم عند الله.

قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ [المائدة: 90]، ولاحظ أتى بكلمة: **"إنما"**، **"إنما"** ما معناها؟ تفيد الحصر، يعني أن هذه الأمور رجس لا تخرج عن كونها رجس، والرجس هو: **"النجس الخبيث المستقذر"**، والنجاسة هنا قد تكون نجاسة حسية، وقد تكون نجاسة معنوية.

قال: ﴿الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ﴾ [المائدة: 90]، قد يقرأها بعض الناس ما يدرك معانيها، الخمر يعرفه الكثير من الناس لا يخفى عليهم، الخمر لو نتأمل حال العرب قبل الإسلام، وتمسكهم بشرب الخمر، ثم بداية الإسلام، وبداية الدعوة، يعني لم يأت الخمر مباشرة محرم كالشرك أو الزنا أو غيرها.

لما كانت العرب متمسكة بشربه ولا تجلس مجلسًا إلا ويُدار عليها الخمر؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيم ما حرمه مباشرة، حتى أخذ مراحل، يعني جاء في مكة آية واحدة قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: 67]، فوصف الرزق بكونه حسنًا، والسكر تركه، فالعاقل لما يقرأ هذه الآية يعرف أن السكر غير حسن فيتركه خبيث.

ثم استمر الأمر في مكة، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام فيها ثلاثة عشر سنة لم يأت التحريم في الخمر، لما انتقل إلى المدينة وهاجر واستقر في المدينة نفس الشيء لم ينزل تحريم الخمر مباشرة، جاء في سورة البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ [البقرة: 219]، يعني بدأ الناس يسألون عن الخمر، العاقل لا يشربه، فبدؤوا يسألون: ما هو حكم الخمر؟ قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219]، منافع تجارية، أرباح تجارية، ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219]، يعني الآن الله وضح لنا يعني قارن بين المصالح والمنافع والمضار، وقال: المضار كثيرة عظيمة، إثمها أكبر وأعظم، ثم بدأ الصحابة ينتبهون إلى هذا الأمر.

بعدين جاءت آية في سورة النساء تحرم الخمر لكن تحريم مؤقت، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: 43]، يعني لا تأتي إلى الصلاة وأنت قد شربت الخمر، فبدأ الصحابة ينتبهون، إذا جاء المغرب والعشاء الأوقات متقاربة ما يشربونها، يشربونها بعد العشاء، ما يأتي الفجر إلا وقد صحى، أو بعد الفجر ما يأتي الظهر إلا وقد صحى، فبدأ يخف عندهم.

ثم جاءت هذه الآية آية المائدة التي تبت وتقطع بالتحريم، مع عاد في خيار خلاص، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: 90].

✍ ما هي الخمر؟

الخمر كلٌّ يعرفها، الخمر يعرفها أهل العلم يقولون: **"الخمر كلّ ما غطى العقل وأذهب به"** أي وسيلة وأي شيء يسمى بأي مسميات الآن، تغير المسمى ما يهمنا، تغير الاسم ما يهم، العبرة بالمسمى، إذا كان هذا المشروب يذهب بالعقل، ويجعل صاحب هذا العقل الذي شرب كالمجنون يذهب بعقله هذا هو الخمر، ولذلك أهل العلم يفسرون الخمر يقولون: **"ما خامر العقل وغطاه"**.

إذا خامر العقل وغطاه من أي طريق وبأي وسيلة فهو خمر، فهو محرم، يُسمى مُسكر، ويُسمى سكر، وشراب السكارى، هذا كله داخل، وإن سموه بأي اسم فهو الخمر الذي حرمه الله، الذي ذكره الله في كتابه وجاءت السنة بتحريمه.

لعن الله في الخمر عشرة: **"شاربها، وصانعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها"** ذكر فيها عشرة كلهم داخلين في الخمر، ومن شربها في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن شربها في الدنيا وأدمن عليها على الخمر؛ فإنه يُسقى يوم القيامة من طينة الخبال، ما هي طينة الخبال؟ قال: **"عصارة أهل النار"** الصديد والدم يُسقى، فهذه عقوبته.

الآن في العصر الحديث الآن تطور هذا الأمر، ليس كالجاهلية وأول الإسلام يأتون على التمر، والبسر، والعنب ويخمرونه بالماء حتى يتخمر ثم يشربونه، يصنعون الخمر من ثمرات النخيل والأعناب كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الآن صار في نباتات وأعشاب، وحشيش، وصار في صناعات يصنعونها، حبوب، وإبر، وأشياء كثيرة، وشيء بالشم، كلّ هذه داخلة في حكم الخمر، ومن شربها في الدنيا حُرم في الآخرة، ولا يُسقى إلا من طينة الخبال.

وكلّ هذه تُذهب العقل، والعلة واضحة، **"وما أسكر كثيره فقليله حرام"** فكله محرم، وكبيرة من كبائر الذنوب؛ بل إن السنة سمت الخمر **"أم الخبائث"** لأن شاربها إذا تعاطاها فعل الأفعال التي لا يمكن أن يقبلها العقل، والقصص كثيرة، والكلام حولها كثير جدًا، وخطرها عظيم.

وليس هناك عاقل يعرف قيمة عقله ثم يتعاطى مثل هذا الشيء، يذهب بعقلك، ويذهب بدينك، ويذهب بمالك، ويذهب بعرضك، أشياء عظيمة الإنسان ما يستطيع أن يتكلم بمثل هذا الكلام؛ لأنه يطول الكلام معه، لكن الآيات توضح لنا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ [المائدة: 90]، عرفنا الخمر الآن وخطورتها، والتحذير منها، عرفنا الخمر والمخدرات كلها داخلة في هذا الحكم.

✍ طيب ما هو الميسر؟

الميسر هو: **"القمار"** يعني طريق التكسب بطريقة القمار، يعني معروف حتى في الجاهلية وفي الإسلام الميسر هو القمار، يعني اللعب والمراهنات والألعاب التي فيها تكسب وفيها غرر، وفيها إضرار على الآخرين.

يعني يلعبون النرد، والشطرنج، ولعبة الورق، الألعاب كثيرة يتراهنون عليها، يقول: إذا غلبتني أنا أعطيك مبلغ قدره كذا وكذا، وإذا غلبت تدفع لي كذا وكذا، هذا هو الميسر، هذا هو القمار، يتراهنون بالألعاب خاصة في الألعاب أو في غير الألعاب، يعني يتراهنون بها.

فهذه المراهنات هذه كلها داخلة في القمار والميسر، وحتى لو لم يكن هناك ألعاب، كأن يقول: أنا أراهنك على أن يكون غدًا كذا وكذا، هذا ادعاء علم الغيب، وتراهني على أي شيء، تراهني على مال، تدفع لي عشرة ألاف إذا ما حصل، قال: نعم أدفع لك، هذه كلها داخلة في الميسر.

ودائمًا القرآن يقرن بين الخمر والميسر، لماذا؟ لأنهم يجعلون على مائدة يلعبون الألعاب هذه وتُدار عليهم الخمر، ويلعبون الميسر، فكلها لهو، ولعب، وضياع أوقات، وهدر للأموال، وهدر للأنفس، أحيانًا يتقاتلون، وأحيانًا ينتهكون الأعراض، ويسهرون الليالي، كلها على هذه المحرمات، ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قرن مع الخمر والميسر الأنصاب.

✍ ما هي الأنصاب؟

الأنصاب هي: **"الأصنام والأوثان التي تُعبد من دون الله"** فجعل شارب الخمر كعابد وثن، الذي يشرب الخمر كالذي يعبد وثن.

وقيل: **"الأنصاب هي حجارة تُذبح عليها وتُقرب القرابين عليها للأصنام"**، يعني هي وسيلة للأصنام.

والأزلام هي: **"ادعاء علم الغيب"** هذه مرت معنا في أول السورة، ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: 3]، الاستقسام بالأزلام فسق، وهو ادعاء علم الغيب، كان إذا أراد الواحد منهم أن يسافر أو يتزوج أو يدخل في تجارة أو في أي مشروع ماذا يصنع؟ يأتي على شيء مثل الوعاء، مثل الكيس فيه أسهم، واحد مكتوب، افعل، وواحد مكتوب لا تفعل، والثالث يقول أعد، فيدخل يده هكذا، ويسحب واحد، يخرج واحد، إن كان افعل فعل، وإن كان لا تفعل لم يفعل، وإن خرج الذي ليس عليه شيء أعاد مرة ثانية.

طيب هذا الكيس وهذه الأسهم عندها شيء عندها علم، كيف تلجأ إلى أشياء جمادات لا تنفع ولا تضر وتدعي إن عندها علم؟ يعني إذا قال لك: افعل تفعل؟!!

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرمها لأنها من ادعاء علم الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، هذا تكهن، وأبدلنا الله بصلاة الاستخارة، إذا أردت أن تعزم على سفر، على زواج، على مشروع، على تجارة، على شيء استخر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، صلي ركعتين وتدعو دعاء الاستخارة، فيفتح الله لك هذا الأمر، أو يصرفك عنه، هذا خير من هذه الأشياء، هذه أربعة أمور سماها الله رجس، ونجاسة، وقذارة، وخُبث، لا يجوز التعامل معها، مُحرم، رجس وهو من عمل الشيطان، يعني الشيطان هو الذي يأمرك بهذا.

ثم قال: ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: 90]، ابتعدوا عنه، ابتعد عن هذه الأشياء كلها، إذا ابتعدتم أفلحتم، وإذا لم تبتعدوا لم يحصل لكم الفلاح، ﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 90].

هذه الآية كافية أن العاقل يبتعد عن هذا الشيء، ولكن الله برحمته يزيد تحذيرًا ومبين لك السبب؛ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: 91].

الشيطان يريد أن يوقع العداوة بين الذين يجلسون على الخمر والميسر، والنرد، والشطرنج، والأشياء هذه، ولعبة الورق، يلعبون لعبة الورق، يسهرون الليالي على لعبة الورق، فالفائز له مبلغ كذا وكذا.

وسمعنا من يقول: هذا مفتاح السيارة إذا فزت علي، وواحد يقول: هذا صك البيت إذا فزت علي، وهذا يقول: زوجتي لك إذا فزت علي، أطلقها وأعطيك إياها إذا فزت علي، ما هذا الكلام؟!!

قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: 91]، دائمًا تحصل عداوات، وبغضاء، إذا انتهت الجلسة تجد بينهم من العداوة والبغضاء والكراهية، وأحيانًا يصل إلى الصراع بينهم، والاقتتال بينهم، ﴿يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: 91]، هذا ما يريده الشيطان.

✍ ثم ماذا يريد الشيطان؟

قال: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 91]، ما يجعلك تشتغل في ذكر الله، وقراءة القرآن، وأحياء الليل بالصلاة، لا، حتى بعضهم تطلع الشمس وهولا يزال جالس على مائدة الخمر والميسر، تطلع الشمس وتطلع صلاة الفجر وهو لا يزال.

قال: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 91]، الصلاة التي هي عمود الدين، حتى الصلاة لا يصلونها.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: 91]، طريقة سؤال، يقول: هل أنتم منتهون؟ يعني يعطيك السؤال حتى تجيب عليه، ما الذي ستجيبه لما تسمع هذا الكلام كله، هل أنتهي منتهي؟ ولذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سمع هذه الآية قال: **"انتهينا انتهينا"** خلاص انتهى الأمر.

ويؤكد الله لك فيقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: 92]، هذا الكلام جاءكم من الله ومن رسوله، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: 92]، واحذروا أن تخالفوه، ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ [المائدة: 92]، ولم تقبلوا، واستمررت على أفعالكم السيئة، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: 92]، الرسول يُبلغ والحساب على الله، الجزاء عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

بعض الصحابة سأل قال: **"يا رسول الله الذين شربوا الخمر وماتوا والخمر في بطونهم"** يعني هم يسألون عن ناس ماتوا قبل تحريم الخمر، **"فما مآلهم؟"** خائفين على هؤلاء الذين ماتوا، حتى بعضهم شهداء قتلوا في سبيل الله.

فأنزل الله هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ [المائدة: 93]، ليس عليهم إثم ولا حرج، ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ [المائدة: 93]، يعني شربوا من الخمر، ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: 93]، اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ، اتقوا الله وخافوا منه، ﴿وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ [المائدة: 93]، اتقوا زيادة يعني استمروا على التقوى، ﴿وَآمَنُوا﴾ [المائدة: 93]، أيضًا وثبتوا على الإيمان، ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 93].

فمن مات قبل تحريمها ليس عليه شيء، وهذه رحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه لا يؤاخذهم قبل التحريم، إنهم ماتوا على التقوى، وعلى العمل الصالح، والإيمان، والإحسان، فهؤلاء ليس عليهم حرج.

وأيضًا هذه الآية يدخل فيها من شرب الخمر الآن في الدنيا ثم تاب وأصلح عمله؛ فإن الله لا يؤاخذه، فكل من كان يتعاطى الخمر أو المخدرات أو الحبوب أو نحوها ثم تاب؛ فإن الله يتوب عليه، لكن متى يتوب عليه الله إذا تاب؟

إذا تاب توبة نصوحًا وأقلع وابتعد عن هذه الأمور وأحسن عمله مع ربه، ولذلك قال: ﴿اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: 93]، يعني بدلوا سيئاتهم حسنات، ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ [المائدة: 93]، يعني عندك الإيمان والتقوى والإحسان، والعمل الصالح، أربعة أمور حافظوا عليها؛ فإن الله يعفو عنهم، والله يبدل سيئاتهم حسنات، ويقبل توبتهم والتائب من الذنب كمن لا ذنب له؛ فإن الله يتوب عليه، ويعفو عنه.

هذه الآيات العظيمة التي قرأناها الحقيقة فيها دروس وعبر، الله ينادي عباده المتقين، عباده المؤمنين يذكرهم، ويحذرهم مما يضرهم، ويرشدهم إلى ما هو خير لهم، فلعلنا إن شاء الله نعتبر بهذه الآيات العظيمة، ونستفيد منها، وتكون لنا عبرة وعظة، نسأل الله أن ينفعنا، وأن يوفقنا لطاعته.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(124)
(المائدة 94 - 96)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم السابع عشر من شهر ربيع الآخر من عام 1445 من الهجرة.

مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم قراءة وتفسيرًا وبيانًا وتدبرًا وعملاً، القرآن نزل للتلاوة بلا شك، فمن قرأ حرفًا من كتاب الله كان له بالحرف الواحد عشر حسنات، كم تقرأ من حرف تلاوةً وتفسيرًا حتى تفهم ما تقرأه؟!!

ثم أيضًا التدبر الذي هو الغرض والهدف من قراءة القرآن الكريم، غرضك وهدفك هو أن تتدبر كما أمرك الله، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29].

تتدبر الآيات ثم العمل، لما يناديك الله يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 104]، في أعمال تعملها وتطبيق ليس مجرد قراءة قرآن وبيان المعاني لا، تطبقها في حياتك، حتى تجعل القرآن هو منهجك في حياتك، كما كان صحابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طبقوا القرآن الكريم منهجًا في حياتهم، فعرفوا قيمة القرآن، فلابد أن نعرف نحن قيمة القرآن ومكانة القرآن، هذا كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلابد أن نتدبر.

عندنا السورة التي وقفنا عندنا في لقاءنا الماضي **"سورة المائدة"** الآيات التي بين أيدينا تتحدث عن الصيد، لما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثلما ذكرنا في هذه السورة يبين لنا ما أحله الله لنا وما حرمه، أحل الله لنا الطيبات وحرم علينا الخبائث سواء مأكولات أو مشروبات، الخبائث محرمة، والطيبات مباحة.

✍ الآن أمامنا آية تتحدث عن الصيد، الصيد هل هو مباح أم محرم؟

نقول: **"الصيد مباح"** الصيد الأصل فيه أن الإنسان يصيد مباح، لكن قد يكون محرمًا في حالات، مثل أن يكون في محيط المحرم، صيد الحرم محرم **"لا يتخلى خلاه، ولا ينفر صيده"** حتى تنفير الصيد ما يجوز، تنفره يعني تطرده حتى يخرج خارج الحرم ثم تصيده، الحرم منطقة محرمة، الصيد لا يجوز فيه محرم.

أو إنسان تلبس بعمرة أو حج، يعني دخل في العمرة ولبس الإحرام أو في الحج، ففي هذه الحالة يحرم عليه الصيد، الله عَزَّ وَجَلَّ حرم عليه الصيد، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ [المائدة: 94]،

✍ كيف يبلونا الله؟

يعني: **"يمتحننا"** من الذي يكون عنده إيمان ويردعه، ويوقفه عند حدود الله، ويتعد على حدود الله، ولا يمنك محارمه؟ ومن الذي يصبر، ومن الذي ينتهك المحارم؟

ولذلك هذا ابتلاء من الله، ليبلونكم حتى نعرف الصادق من الكاذب، ونعرف المؤمن حقًا من ضعيف الإيمان من المنافق، ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ﴾ [المائدة: 94]، وهذه **"اللام"** يسميها أهل لعلم **"لام"** القسم، يعني والله، هنا قسم محذوف تقديره **"والله ليمتحن الله إيمانكم من الصادق من الكاذب"**.

قال: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ [المائدة: 94]، و**"شيء"** هذه نكرة، يعني ولو قليل، ولو صيد من الصيود التي يعني لا يلتفت إليها، ولا يُأبه بها، ولو كان عصفور أو حمامة أو شيء ما ينتبه له، كلّ هذا داخل.

أيضًا من الامتحان حتى يكون الامتحان أشد ويظهر فيه المؤمن الصادق من غيره، قال: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة: 94]، يعني صيد قريب منك، بين يديك، تستطيع أن تصيده بيدك أو بالرمح أو بالآلة آلة الصيد، تطلق عليه آلة الصيد وتصيده.

فيمتحن الله هل أنت إذا لبست الإحرام وتلبست بالعمرة أو الحج ورأيت الصيد أمامك، قد تمتحن بصيود أمامك كثيرة فهل تصيد أو لا تصيد؟ الله منعك، قال: إذا كنت في عمرة أو في حج متلبس بالإحرام لا تصيد.

✍ الامتحان متى يكون؟

نقول: قد ما يكون عندك أحد، أنت في سيارتك ما عندك أحد، أنت في الصحراء أو في البر ما عندك أحد أبدًا، تستطيع أن تصيد والناس ما يدرون عنك، لكن هذا امتحان بينك وبين الله، الله يُراقبك، الله مُطلع عليك، فيظهر المؤمن الصادق من الكاذب.

قال: ﴿لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة: 94]، لماذا يبتلينا الله؟ قال: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: 94]، ممن لا يخافه، فرق بين الذي يخاف الله بالغيب، والذي لا يخاف الله ولا يبالي.

قال: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: 94]، ثم شدد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [المائدة: 94]، يعني بعد هذا الخبر، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 94]، تصيد طائر صغير قيمته ولا عشرة ريا ل لك عذاب أليم لماذا؟ لماذا التشديد؟ قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: 229]، هذه حدود الله، وهذه محارم الله، فانتهاك المحارم تعدي على حدود الله والله لا يرضى بها.

ثم هنا مسألة مهمة الحقيقة أنا أقول لكم نطبقها على الواقع معنا جميعًا: الآن الإنسان أحيانًا يخلو بنفسه، فإذا تذكر أن الله مطلع عليه يحذر أن ينتهك حرمة من حرمات الله، قد تخلو بنفسك في دورة المياه، قد تخلو بنفسك في البيت، قد تخلو بنفسك في السيارة، من هو الرقيب عليك؟ من الذي يراقبك؟ يمكن الناس ما يدرون عنك، لكن الله يطلع عليك.

وهنا مثلما ذكرت لكم يعني المسألة الحقيقة تهمنا جميعًا: هذه الأجهزة أجهزة الجوال هي التي تمحص المؤمن حقيقة الذي عنده إيمان من ضعيف الإيمان، تستطيع أن تدخل على مواقع إباحية وصور محرمة ما أحد يدري عنك، جالس سيارتك، ولا جالس في زاوية، أو في غرفة، أو مكان ما أو في الطريق وأنت تمشي تفتح ما تشاء، لكن من الذي يُراقبك؟ ومن الذي يقول الله فيه هنا: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 94] ؟

وأنت ما تدري أنك تدخل على محارم الله وتنتهكها في جوالك والله يقول: ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: 94]، ويمكن تقول: أنا دخلت مواقع، واطلعت، وشفت صور، ونساء، وكذا وكذا، وعورات، وما جاءني شيء، نقول: لك عذاب أليم، لكن ما تدري متى يأتيك؟ يمكن يأتيك في الدنيا، ويمكن يأتيك في الآخرة، ولو أصابك العذاب في الدنيا خير لك من الآخرة، فهذه حدود الله.

والله إذا توعد يعني قد يوقع العقوبة في الإنسان، عمومًا هذه الآية الحقيقة تمس الواقع، تمس كلّ الإنسان، وهذه التي ينبغي لكل مربي وكلّ من عنده أولاد يذكرهم بهذه الآية، يأتي لهم بهذه الآية.

يقول: أنت معك جوال ممكن تخلو في أي مكان، يمكن أنا ما أطلع عليك، يمكن فلان ما يطلع عليك، لكن من الذي يطلع عليك؟ هذا الذي أمرك ونهاك هو الذي يطلع عليك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يعلم حالك، ولذلك نربي في أبناءنا مراقبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، **"أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك"** هو يراك.

تربية الأبناء بهذه الطريقة أحسن من أن أقول: أعطني جوالك وأشوف ما فيه من الأشياء، يمكن يقول: ما أعطيك إياه، أو يحذفها، أو يصرفك بأي طريقة، لكن هذه طريقة تربية بحيث أنك تقول: هذا الأمر خطير، وعقوبته خطيرة، ولابد أن تعرف حدود الله ولا تتعداها.

الآن صيد قيمته ما تصل يمكن عشرة ريال الله يرتب عليه عذاب أليم وخطورة، والآن تأتيك الآية الأخرى أشد وأكبر، فهذه الآية الحقيقة مهمة جدًا لابد أن نعرف مثل هذه الآيات ونطبقها في حياتنا، ومثلما ذكرت لكم في البداية أن القرآن ليس تلاوة قراءة في المصحف لا، القرآن تطبيق

في حياتك، تعرف كيف تتعامل مع نفسك، تتعامل مع أبناءك، تتعامل مع جيرانك، تتعامل مع أخوانك؟ هنا يأتي القرآن.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 95]، لما قدم لك هذه المقدمة قال: **"قد يمتحنك الله"** وأنا أقول: الحقيقة أن أمة من الأمم انتهك مثل هذا الأمر، مثل الصيد، ماذا صنع الله بها؟ ماذا عذبها؟!!

أمة من الأمم من بني إسرائيل ﴿الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: 163]، يتعدون حدود الله، الله عَزَّ وَجَلَّ أباح لهم الصيد، وقال: **"لكم ستة أيام كلها كلوا من الصيد ما يمنعكم أحد"** لكن السبت امتحنهم الله وقال: **"لا تصيدوا يوم السبت"** السبت فقط، يوم السبت لا تصيدوا فيه، سائر الأيام صيدوا في الليل والنهار.

✍ وامتحن الله بأي شيء؟

امتحنهم: بأن الصيد السمك هذا ما يخرج من البحر يجلس في قاع البحر، يبحثون عن واحدة ما يجدونها من الأحد إلى الجمعة ما في، وإذا جاء السبت ظهرت الأسماك على الشواطئ؛ حتى إنها تصل إلى بيوتهم، فينظرون إليها ويقولون: **"هذه محرمة علينا هذا اليوم ما نستطيع أن نصيدها"**.

فجاءهم الشيطان بالتحايل على حدود الله، وقال لهم الشيطان: **"ضعوا الشباك يوم الجمعة"** الجمعة جائز الصيد فيها، ضعوا شباككم يوم الجمعة، وإذا جاءت الأسماك يوم السبت تسقط في الشباك ولا ترجع، وإذا جاء الأحد خذوا هذه الأسماك أنتم ما تعديتم، السبت ما صدتم فيه، وهذا التحايل، تلعب على شرع الله وتتحايل.

✍ ماذا صنع الله بهم؟

قلبهم **"قردة وخنازير"** عذبهم عذاب لم يُعذب به أمة من الأمم، لا قبلهم ولا بعدهم، ما في أمة عُذبت أن مستخت قردة وخنازير قبلهم ولا بعدهم، ما سووا شيء إلا أنهم تحايلوا على شرع الله، ما صنعوا شيء كبير إلا أنهم صادوا في هذا اليوم المحرم.وأنت لا تنظر إلى الصيد، وتنظر إلى العصفور، وتنظر إلى الطير؛ بل انظر إلى حدود الله ومحارمه التي لا تُرضي الله عنك، تعدي حدود الله هذا هو، ولا تقول: **"والله ما جاءتني عقوبة، ما جاءني شيء"** إن الله يمهل ولا يهمل.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ﴾ [المائدة: 95]، صرح الآن خلاص واضح، ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: 95]، متى تكون متلبس بالإحرام؟ هذا في حياتك قد يكون نادر جدًا، فإذا لبست الإحرام انتبه، ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: 95]، لا تقتله بيدك، ولا بآلة، ولا بالسيارة، ولا بغيرها، ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: 95]، ولا تصيدوه وأنتم حرم.

قال: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: 95]، أنت إذا صدت ووقعت في الصيد الخروج من هذا وهذا رحمة من الله أنه طلع لك مخرج، وإلا ممكن أن يصيبك بالعذاب، لكن رحمة من الله لهذه الأمة جعل لك مخرج تخرج منه.

✍طيب ما هو المخرج؟

قال: **"عليك كفارة"** إذا صدت وأنت محرم عليك كفارة، ما هي الكفارة؟ قال: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: 95]، مثله، طيب جاء وقد قتل أو صاد نعامة، نقول: **"النعامة تشبه البعير تشبه الجمل"** عليك جمل، صاد غزال **"الغزال تشبه الشاة عليك شاة"** وهكذا، صاد بقر الوحش نقول: **"عليك بقر"** من الذي حكم بهذا؟ حكم بهذا الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم، حكموا بمثل هذه الأشياء.

فأنت إذا رجعت إلى كتب الفقه تجد أن الصيود هذه الغالب أنها تُصاد أنهم حكموا عليها بمثلها من النعم، من النعم أي من الإبل والبقر والغنم.

✍طيب لو صاد حمامة؟

نقول: **"عليه شاة"**.

✍قيل: كيف شاة وحمامة ما في فرق ما في تشابه أصلاً؟

نقول: في من هو أعلم منك حكم عليها بالحمامة، الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم قالوا: **"في تشابه من حيث عب الماء شرب الماء"** الشاة إذا وقعت فمها في الماء تسحب الماء، والحمامة تعب الماء تعب عبًا، فقالوا: هذه تشبه هذه من هذه الناحية، ولذلك حكموا على من قتل حمامة طير من أي أنواع الطور فعليه شاة.

قال: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة: 95]، من الذي يحكم به؟ هل أنت تحكم؟ لا، قال: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: 95]، لابد أن يأتي اثنان يعرفون هذا الحكم، أما أنت تحكم؟ لا، وإذا لم يأت اثنان ما تعرف، تسأل أهل الذكر وأهل العلم فيحكمون لك.

قال: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: 95]، أنت الآن صدت، وعليك جزاء، مثلاً شاة، هذه الشاة لابد أن تذبحها في الحرم، وتوزعها على فقراء الحرام ولا تأكل منها شيئًا، ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: 95].

يقول: ﴿بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: 95]، يعني لابد أن يصل إلى الحرم، ويوزع على فقراء الحرم، هذه فدية، هذه كفارة لك، الله ما عاقبك بأشد من هذا كما عاقب الأمم الماضية، أعطاك كفارة مخرج.

قال: ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: 95]، إذا ما تريد أن تشتري شاة قدر قيمة الشاة وأخرج طعام من البر، من الأرز، مما يأكله الناس، أنت الآن هذه الشاة قيمتها كذا وكذا، وأنت لا تريد أن تشتري أو لم تجدها، نقول: خذ طعام، اشتر وجبات طعام للفقراء أو أرز أو نحو ذلك ﴿أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ﴾ [المائدة: 95]، ولابد أن يكونوا فقراء مساكين ما هو أي واحد تعطيه.

قال: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: 95]، مخير أنت إما أن تذبح شاة مثلاً، أو تطعم بقيمة الشاة أو تصوم.

✍قال: كيف أصوم؟

نقول: قدر الطعام كم؟ قال الله: الطعام الآن الذي يلزمني مثلاً ثلاثمائة كيلو، ثلاثمائة كيلو يعني كلّ فقير تعطيه نصف صاع، يعني كيلو ونصف، هذا الكيلو ونصف عن يوم صيام، يعني لو فرضنا الآن ثلاثمائة كيلو لزمتك تعطيها الفقراء، ووزعت على الفقراء أصبح عدد الفقراء كم؟ فرضنا أن عدد الفقراء مائة فقير، عليك مائة يوم، أو فرضنا الفقراء مثلاً ثلاثين فقير، يلزم ثلاثين يوم تصومها على عدد الفقراء.

قال: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: 95]، **"عدل"** يعني مقدار ذلك صيامًا.

✍لماذا الكفارة؟

✍ لماذا وضع الله كفارة لمن يصيد ويعتدي على محارم الله ومحظورات الإحرام؟

قال: **"هذه الكفارة ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ [المائدة: 95]"** ليذوق العقوبة، يذوق العقوبة حتى مرة ثانية ما يعتدي على حدود الله ويحذر.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من رحمته قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: 95]، يعني قبل الحكم هذا، من فعل قبل نزول الآية الله قد عفا الله، ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ [المائدة: 95].

قال: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ [المائدة: 95]، بعد معرفة الحكم الآن بعض الناس يقول: **"والله ما دريت ولا عندي علم أن المحرم يحرم عليه الصيد، والله ما عندي خبر"** نقول: الآن من عاد وعلم الحكم الشرعي وعاد ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: 95].

قد ينتقم الله منك ليس في الكفارة؛ لأنك أنت الآن عدت وأنت تعرف الحكم، يعني أنت قصدت انتهاك محارم الله، فنقول: ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ [المائدة: 95]، لا غالب له، عزيز ينفذ أوامره لا يمنعه أحد، ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة: 95]، ينتقم ممن يتعد على حدود الله.

فالآية عظيمة والحكم عظيم، ومن رب رحيم، رؤوف بعباده، ولكن كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ 49 وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: 49، 50]، الله يغفر ويرحم، ولكن لا يرضى أن يتعد الإنسان على حدود الله.

🗐 قد يسألك سائل:

✍ الآن عرفنا الصيد، الصيد في البراري ونحن نمشي، طيب الذين يمرون على البحار لو صاد سمك عليه كفارة؟

نقول: لا، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ [المائدة: 96]، حتى لو أنت محرم تمر على البحر وتصيد هذا جائز، صيد البحر كالأسماك ونحوها كلّ حيوانات البحر جائزة، ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: 96].

✍ لو سألك سائل وأنت تقرأ هذه الآية وتكررها كثيرًا، وتسمع الأئمة يقرؤونها في التراويح وغيره، وجاء واحد وقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ [المائدة: 96]، عرفنا الصيد، طيب ﴿وَطَعَامُهُ﴾ [المائدة: 96]، ما هو؟

✍ ما هو الفرق بين الصيد والطعام؟

نقول: صيد البحر وهو حي في البحر تصيده، تضع الشباك وتصيده، أما طعامه إذا مات ونقلته معك في السيارة، ووجدت واحد محرم هل يأكل معك؟ نقول: يأكل، لو أخذت معك مجموعة من الأسماك وأنت جاي مع البحر ومررت على البحر وصدت وأنت محرم، وضعت في السيارة معك هذه الأسماك، ومررت على الناس حملة كلهم حجاج محرمين، تعطيهم سمك ولا ما تعطيهم؟ نقول: يجوز، إذًا هذا هو الطعام.

يعني الأول صيد، والثاني الطعام الذي تأخذه معك، قال: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: 96]، يعني السائرين، السيارة يعني الذين يسيرون على الإبل أو على أي مركب من المراكب.

أعاد مرة ثانية لتنتبه؛ قال: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: 96]، مدة دوامك محرمًا، إذا تحللت من الإحرام صيد.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: 96]، تذكر أنك ستُحشر أمام الله يوم القيامة، وتُحاسب على عملك، فاتق الله في ذلك اليوم الذي تُجازي عليه، وتنتبه لهذا الأمر، ودائمًا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يربط بين الأوامر والنواهي باليوم الآخر.

الله يأمرك بالصلاة، بالزكاة، بالصوم، بهذه الأوامر وينهاك عن المحرمات، ويُذكرك باليوم الآخر أنك ستأتي أمام الله ويحاسبك على النقير والقطمير، يُحاسبك على أعمالك، فانتبه وتذكر هذا اليوم الذي تُحشر فيه أمام الله وتبتعد.

✍ولذلك لماذا دائمًا يأتي ذكر اليوم الآخر؟

نقول: **"لأن هذا هو الذي يجعلك تنضبط في الحياة"** إذا وجدت مثلاً فقير محتاج، أو شخص متعطل في الطريق تقف وتساعده، تقول: **"والله أساعده؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجازيني خير الجزاء يوم القيامة"**.

ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«من فرج عن أخيه المسلم كربة في الدنيا»**، ربط بالآخرة **«فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة»**، انظر كيف يربطك؟! أعمالك تروح إلى الآخرة.

ولذلك دائمًا القرآن يقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: 96]، يذكرك؛ لأن أعمالك هذه كلها أنت جالس تعملها علشان تواجه الله ومعك رصيد من الأعمال، تأتي إلى الصلاة، وتقرأ قرآن، تتصدق، تصوم، تعمل هذه الأعمال، ولو كانت أعمال حقيرة جدًا ما يُلتفت إليها.

ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«دخل رجل الجنة بسبب غصن وجده في الطريق يؤذي الناس فأزاحه عن الطريق فأدخله الله الجنة»**، ربطك بالجنة، غصن في الشارع أو حجر في الشارع يضيق على المسلمين تقف وتزيحه يدخلك الله الجنة، عمل يسير وأجره عظيم.

ولذلك القرآن يربطك بأشياء أكبر وأكبر، لا تقول: **"أنا فعلت الذي أمرني الله وابتعدت عن الذي نهاني الله"** لا، في أكبر وهو تذكر هذا اليوم العظيم الذي تحتاج حسنة من الحسنات، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(125)
(المائدة 97 - 103)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك مجلس القرآن الكريم، قراءةً، وبيانًا، وتوضيحًا، وتدبرًا، وفهمًا لما يريده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خطابه لنا.

هذا اليوم هو يوم الأربعاء الموافق للرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر من عام 1445 من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم في **"سورة المائدة"** والآيات التي نتحدث عنها إن شاء الله تبدأ من الآية السابعة والتسعين من هذه السورة، يقول الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه العزيز: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97].

✍ لما تقرأ هذه الآية ماذا تفهم منها؟

نقول: **"المطلوب من كلّ مسلم يقرأ القرآن الكريم يقرأ بفهم وتدبر وإدراك"** لا أن يقرأ هكذا ويمشي، هذا لا يستفيد، صح أنه يُؤجر على قراءته الحرف الواحد بعشر حسنات، لكن يفوته شيء عظيم من التدبر، والتأمل، والتفكر في القرآن الكريم والعمل به.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما تقرأ الآيات التي قبلها الله جَلَّ وَعَلَا حرم الصيد، وإن كان الأصل في الصيد الحلال، الأصل في الصيود الحلال، لكن حرمه الله في زمن مؤقت أو في مكان، الزمان إذا أحرمت بحج أو عمرة؛ فإن الصيد حرام عليك حتى تُحل من إحرامك، والزمان هذا الزمان، والمكان مكة، الحرم المحيط بحرم الله عَزَّ وَجَلَّ إذا كان فيه صيد لا يجوز أن تصيد فيه، ولا يجوز أن تنفر الصيد حتى يخرج عن الحرم ثم تصيده، هذا الكلام كله عرفناه.

لما عظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرماته عظم هذا المكان المحرم وهو الكعبة وما حولها، وهو المسجد الحرام والحرم كله، عندنا الكعبة هو بيت الله، ثم المسجد الحرام المحيط بجدرانه هذا نسميه **"المسجد الحرام"** ثم الحرم أوسع، وهو المحيط بالحرم الذي داخل الحرم وخارجه يسمى الحل، وهذا يعرف بعلامات ومسافته بعيدة، حتى أنك تدخل مكة كلها في الحرم، وتدخل منى، ومزدلفة، أماكن كثيرة، هذه نسميها **"الحرم"**.

الله خص لنا الكعبة، الكعبة هي البيت الذي بناه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه ابنه إسماعيل، هذا البيت الذي يطوف الناس حوله، ويتوجه الناس في كلّ يتوجهون ويصلون إلى قبلتهم الكعبة، هذه الكعبة التي شرفها الله، وعظمها، ورفع قدرها ذكر هنا قال: ﴿جَعَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: 97]، و**"جعل"** هنا معناها شرع، لأن **"جعل"** في اللغة العربية تأتي لمعاني كثيرة، بمعنى صير، بمعنى خلق، وهنا لم يصيرها ولم يخلقها، وإنما جعلها بمعنى شرع، شريعة، **"شرع الله الكعبة البيت الحرام"**.

✍ قال: "الكعبة" ثم قال: "البيت الحرام" ما الفرق بين الكعبة والبيت الحرام؟

نقول: **"هي نفسها"** هو قال: **"الكعبة"** ثم أوضح لك الكعبة ما هي؟ بيّنها لك، قال: **"هي البيت الحرام"** البيت الذي حرمه الله، حرم ماذا؟ حرم القتل عنده والصيد عنده، وحرم الإفساد،

والإلحاد، والكفر، ويجد الرجل في الجاهلية قاتل أبيه في الحرم فلا يتعرض له بسوء حتى يخرج، هذا معنى البيت الحرام الذي حرمه الله.

✍ الكعبة لماذا سميت "كعبة"؟

قالوا: **"سميت كعبة لأنها مكعبة الشكل"** أو **"لأنها بارزة ظاهرة"** والشيء البارز يسمى **"كاعب"** ومنه كعب القدم، لأنه عظم بازر وناتئ، والكعبة هذه كانت متميزة عند العرب، متميزة ببنائها؛ حتى إن أهل مكة قبل بعثة النبي بقرون كثيرة أو بسنين طويلة كانوا يبنون بيوتهم على خلاف الكعبة، ما يبنون على شكل الكعبة، حتى إذا جاء القادم من أماكن بعيدة يعرف أن هذه هي الكعبة فتتميز.

ذُكر أن **"قصي بن كلاب"** وهو جد النبي السابع أو الثامن أمر أهل مكة ألا يبنوا بيوتهم على طريقة الكعبة، وإنما يحاذون الكعبة يمينًا أو شمالًا، يعني يكون البيت متجه يا هنا يا هنا، ما يكون على جهة الكعبة؛ بحيث أن القادم الذي يريد أن يطوف بالبيت عمرة أو حجًا يعرف أن هذه هي الكعبة، ولا يبنون حولها، يجعلون حولها كله للحرم وللطائفين يجلسون فيه ويتعبدون فيه.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97]، معنى **"قيامًا للناس"** ما يقوم به مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ﴾ [الحج: 28]، ذكر الله البيت والمسجد والحج والعمرة منافع للناس، ومصالح للناس.

✍ كيف مصالح للناس؟

نقول: **"مصالح في دينيهم أول شيء"** أن الذاهب إلى مكة للعبادة والطواف يكتب الله أجره منذ أن يخرج من بيته، وأجره يجري له منذ أن يخرج من بيته، ونفقته مخلوفة، نفقته في طريقه إلى مكة، وفي سكناه عند مكة، كلّ هذه النفقة مخلوفة ومعوضة له خير، وكلّ خطواته مكتوبة به.

ثم إذا أحرم بالحج أو بالعمرة كُتب له أجر المحرم بالعمرة أو بالحج، ثم طوافه بالبيت جاء فيه أحاديث: **«من طاف بالبيت سبعًا»**، غير الحج والعمرة، يعني يأخذ سبع، **«من طاف بالبيت سبعًا فكأنما أعتق رقبة»**.

وجاء حديث آخر: **«من طاف بالبيت سبعًا فكل خطوة يخطوها تحط عنه سيئة وتكتب له درجة»**، ولذلك لو أبعدت عن محيط الكعبة الذي يسمى بـ **"الصحن"** وطفت بالأروقة قد تجد مشقة وتعب، ولكن خطواتك كم؟ خطواتك أكثر.

ولذلك تلاحظ الذين يأتون من أماكن بعيدة إلى مكة، ما يفرطون في الطواف، ولو كان بعيدًا، ولو كان مزدحمًا، تجد كبار السن بلغوا ما بلغوا من الأعمار وهم دائمًا في الطواف، لماذا؟ لأنهم يعرفون قدر وعظمة هذا البيت، وعظمة الأجور فيه.

ولذلك الله لما قال هنا: ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97]، أي ما تقوم به مصالحهم الدينية من هذه الأجور التي تُكتب لهم، وزيادة على ذلك محو السيئات عنهم، تُحط في هذه الأماكن الأوزار، وتُمسح الذنوب، وتُغفر السيئات عندك إذا جئت إلى هذا البيت، وتكتب لك الحسنات يعني إذا صليت صلاة واحدة في المسجد الحرام عن مائة ألف صلاة، كم تصلي إذا جئت؟!!

وبعض الناس تتعجب يأتي إلى الحرم ولا يصلي فيه، أو يصلي في الفندق، إذا جئت احرص على الصلاة، واحرص على الطواف، واحرص على العبادة، واحرص على الذكر، احرص على قراءة القرآن، هذا المكان فرصة لك، متى تأتي؟!!

فلا تضيع أوقاتك في أشياء أخرى كالمطاعم، وفي الأسواق، والجلوس أمام الشاشات، أو في الفندق، هذا كله ليس هذا وقته، فالإنسان يحرص.

قال: ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97]، ما به تقوم مصالحهم الدينية التي ذكرناها، ومصالح أيضًا دنيوية، من التجارات، والمكاسب، والخير الذي يحصل، حتى فقراء مكة يحصل لهم ما يحصل مما سيأتي الآن بيانه، مما يحصل لهم من الخيرات والصدقات، ولذلك قال: ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: 97].

ثم لما عظم البيت الحرام عظم الشهر الحرام، والمراد بالشهر الحرام هي الأشهر الأربعة المعروفة، **"ذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم، ورجب"**، **"ذي القعدة، وذي الحجة، ومحرم"** متتالية الثلاثة، و**"رجب"** منفرد، هذه أشهر الله المحرمة.

✍ ماذا تفهم منها أنت لما يُقال لك أشهر محرمة؟

نقول: **"محرمة يعني معظمة عند الله"** الأجور فيها مضاعفة، الأجور فيها تختلف عن الأجور في غيرها بعظمة هذا الشهر، وكذلك الذنوب والمعاصي ينبغي للإنسان أن يقصر في الأشهر الحرم، لا أن يجعل الأشهر الحرم كغيرها، ولذلك الله حرم القتال في الأشهر الحرم وجعله محرمًا، قال: ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: 97].

🗐 ولو جاءك سائل وقال:

✍ الشهر الحرام كيف قيامًا للناس؟

نقول: **"يقوم به مصالحهم الدينية والدنيوية"** لأن الإنسان لما يعرف الشهر الحرام وعظمته، ويقصر عن المعاصي، ويُقبل على الطاعات هذه مصلحة دينية، ومصالح دنيوية أن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون على السلب والنهب والقتل، وإذا جاءت الأشهر الحرم ما يسلبون ولا ينبهون ولا يقتلون، فصار في أمن ومصالح.

قال: ﴿وَالْهَدْيَ﴾ [المائدة: 97]، الهدي ما يُهدى إلى البيت من بهيمة الأنعام، الإبل، والبقر، والغنم، يهديها من؟ يهديها الحاج أو المعتمر، حتى المعتمر السنة أنك تهدي، لكن هذه سنة قليل من الناس من يفعلها، أو قد تكون معدومة.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حج في سنة الحديبية ساق معه الهدي وهي عمرة، فالهدي في العمرة مشروع، الهدي في الحج والعمرة ما يُهدى إلى البيت من بهيمة الأنعام.

✍ طيب كيف جعلها الله قيامًا للناس؟

نقول: **"تعظيمها"** تعظيمها أن هذه لا يعتدي عليها الناس، كانوا في الجاهلية إذا رأوا الهدي متوجه إلى المسجد الحرام، متوجه إلى بيت الله ما يتعرضوا له بسوء أبدًا، يعرفون أنه لله، فلا يتعرضون له، فهذا هدي، وهو قيام للناس فيه مصالحهم.

يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهدي وفي الأضحية: **«وإنها لتقع بمكان»**، يعني إذا ذبحت **«قبل أن تقع على الأرض»**، وقال: **«بكل شعرة بكل صوفة حسنة»**، كم شعرة؟ وكم صوفة؟ وكم يذبح؟ وكم يُقدم؟ ففيها مصالح دينية، ومصالح دنيوية مما يحتاجه الذين يأكلونها من الفقراء من أهل مكة، فقراء الحرم.

قال: ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ [المائدة: 97]، طيب ما هي القلائد؟ قال: **"هي الهدي المقلدة"** لأنهم كانوا إذا خافوا أن يعتدي عليها أحد قلدوها في أذانها، أو على رأسها، أو على الرقبة يضعون قلادة، يعرفها الناس أن هذه هدي للبيت، حتى إن الحجاج كانوا في الجاهلية إذا أرادوا أن يحجوا إلى البيت هم يقلدون أنفسهم يضعون قلادة، حتى إذا رآهم المعتدون ورأوا عليهم قلادة ما يعتدون عليهم، يعرفون أنهم حجاج، ولذلك القلائد تُعظم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ﴾ [المائدة: 97]، الذي يذكره الله لنا في هذه الآية، قال: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: 97]، حتى تعلم أن علم الله واسع، الله يعلم ما في

السماوات لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم ما في الأرض، وزيادة على ذلك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾، بغير استثناء ﴿عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 97]، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

✍ طيب ما الدرس الذي نستفيده لما نسمع قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 97] ؟

نستفيد: **"تعظيم الكعبة"** تعظيم البيت الحرام، تعظيم الهدي، تعظيم الشهر الحرام بالإقبال على طاعة الله لأن الله يعلم ما في أنفسنا، والإعراض عن معاصي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنا نعلم أن الله يعلم، الله يعلم ما في نفسك إذا كنت تريد الخير أو تريد الشر، ولذلك ختمه الله بهذا الكلام.

ثم بيّن أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بلغ الأمة هذا الأشياء وهذا القرآن حتى لا يحتج من يحتج ويقول: **"ما علمت"** فقال: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: 99]، الرسول وظيفته أن يبلغ، وقد بلغ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بلغ الأمة هذه الشريعة بكلها، ما ترك شيئًا إلا أبان لهم، حتى تركهم على المحجة البيضاء الواضحة ليلها كنهارها.

ولما جاء في حجة الوداع قال لأصحابه والحجاج كانوا مائة ألف، قال لهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"«هل بلغت؟»، قالوا: نعم بلغت الرسالة، وأديت الأمانة"** فشهدوها كلهم بأنه بلغ الرسالة.

قال: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: 99]، الذي تبديه أنت تظهره يعلمه الله، تخفيه يعلمه الله، ما يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء، حتى أنت في نفسك الله يعلم ما في نفسك، إن كان نيتك للحج خالصة لله كتب الله لك أجرك، وإن كانت نيتك غير ذلك الله يجازيك على نيتك، وهكذا في جميع الأعمال الله مطلع على أعمال العباد.

في الآية التي تليها حتى نعرف يعني هذه قاعدة شرعية مهمة مرت معنا في آيات كثيرة، الله ذكر لنا المحرمات في هذه السورة، وذكر لنا الأشياء الحلال، وميز بين الحلال والحرام.

تأتي هنا قاعدة شرعية مهمة جدًا حتى نعرف أن هذه القاعدة يجب علينا أن نطبقها في حياتنا كلها، كلّ إنسان منا يحتاج إلى هذه القاعدة، أنا وأنت وكلّ إنسان، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: 100].

ومر معنا أن الله لما يقول لنبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"قل"** ماذا يدل عليه؟ يدل على أن ما بعده أمر مهم، ينبغي لك أن تقف عنده، ما تأتي كلمة **"قل"** هكذا، لما يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: 1]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]، هذا يدل على أن ما بعد **"قل"** مهم جدًا فقف عنده.

يقول: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ [المائدة: 100]، الخبيث والطيب ما يستويان أبدًا، عند الله ما يستويان، إن استوى عند بعض الناس ما يستوي عند الله، ولا يستوي عند العقلاء من الناس أولوا الألباب.

✍ ما هو الخبيث وما هو الطيب؟

ينبغي علينا أن نفهم القاعدة: الخبيث شوف في الكل حتى الخبيث في الاعتقاد ما يستوي عند الله، الذي عقيدته سليمة صافية إيمانه صافي ليست كالذي عقيدته فاسدة وعنده من العقائد الفاسدة والبدع والمحرمات، هذا لا يستوي عند الله أبدًا، فنبغي لك أن تصفي قلبك، وتُقبل على قلبك بعقيدة صافية لله عَزَّ وَجَلَّ، فلا يستوي صاحب العقيدة السيئة والقلب الفاسد والقلب المريض والقلب الخاشع المخبت لربه، هذا في القلوب.

ثم أيضًا: **"الخبيث والطيب في الأقوال"** لا يستوي الكلام الخبيث والكلام الطيب، لو أن إنسان يتكلم بكلام خبيث في مجلس، وشخص تكلم بكلام طيب، كلّ الحاضرين ما يقبلون السيئ

ويقبلون الطيب، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»**، لا يقبل الخبيث.

فالخبيث الله لا يقبله ولا يحبه، ولا يحب أهله، حتى في الكلام كلامك ينبغي أن يكون كلامًا طيبًا لا خبيثًا، القلب واللسان وأيضًا زيادة على ذلك الأفعال، الأفعال الخبيثة والأفعال الطيبة، الأفعال الخبيثة لا يحبها الله.

كلّ فعل يفعله الإنسان فعلاً خبيثًا محرمًا الله يبغضه ولا يستوي عند الله، وكلّ كلام طيب أو فعل طيب يحبه الله؛ لأن الله طيب ولا يقبل إلا طيبًا ولا يحب إلا الطيبات هذه قاعدة، حتى في المطاعم، والمشارب، والمجالس، والملابس، وكلّ شيء في حياتك الطيب طيب والخبيث خبيث، خذ الطيب واترك الخبيث، هذه قاعدة في حياتك كلها، كلامك، مجلسك، حديثك، في كلّ شيء في حياتك.

وينبه الله على أمر مهم جدًا؛ يقول: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: 100]، أحيانًا يُعجبك، لماذا؟ لأن أهل الخبيث يزينون الخبيث، يظهرون بمظاهر جميلة وحسنة، فيغتر بعض الناس به، فيقول: **"حتى لو أعجبك شكله وجماله"** بعض الناس كتاباته كتابات جميلة وحسنة وهي خبيثة سيئة، تضرب الإسلام ضرب، تضرب أهل الخير، ويكتب كتابات بقلم وكلام معسول، قلم سيال، وهو خبيث، حتى في الأفعال في الأشياء الأخرى، في التعامل، في الأطعمة، في الأشربة يزينون هذه وهي كلها خبيثة، فلا تعجبك.

قال: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: 100]، حتى لو كثر على الأرض، لو كان أغلب ما على الأرض خبيث لا تغتر به، ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103].

فلا تغتر بالكثرة، ليست العبرة بالكثرة، العبرة بالطيب هل هذا طيب أم خبيث؟ ولذلك قال: **"ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتركه"**.

ثم نبهك على أمر وهو: **"مراقبة الله"**، قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: 100]، راقبوه في الطيب والرديء، راقبوا الله في كلّ شيء، راقبوا الله في كلّ ما تأتون وتذرون، ولاحظ أنه ما قال: **"فاتقوا الله يا أيها الناس"** أو **"يا أيها المؤمنون"** وإنما قال: ﴿يَاأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [المائدة: 100]، يعني أصحاب العقول، الذي عنده عقل يميز وعنده إيمان قوي هو الذي يتقي الله، وهو الذي يُؤمر.

قال: ﴿يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 100]، تعليق الفلاح على أنك تبتعد عن الحرام والخبيث، وتُقبل على الحلال والطيب، إذا طبقت هذا الأمر؛ فإن بإذن الله تُفلح، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: 100].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا﴾ [المائدة: 101]، كلّ هذه توجيهات مهمة الحقيقة في حياتنا، نحتاج إليها كلنا، ينبغي لنا أن نعيش مع القرآن، ونعرف هذه الأوامر والنواهي، هذه كلها في مصلحتنا، الله يُرشدنا إلى ما فيه مصلحتنا نحن.

يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101]، هذا نهي من الله عَزَّ وَجَلَّ، ينهى المؤمنين عن أي شيء؟ يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 101]، الخطاب للمؤمنين، ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101]، لا تسأل عن أشياء تضرك؛ لأنها لو ظهرت لك تسوءك، لا تسأل عن أشياء لا تنفعك، اسأل عما ينفعك، حتى في أمور الدنيا، حتى في أمور الشرع لا تسأل عن أشياء تضرك ابتعد عنها، الأشياء التي تهمك اسأل عنها، اسأل أهل الذكر وأهل العلم.

الأشياء التي لا تنفعك ابتعد عنها؛ لأنها تضرك، ولذلك لما جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **"أين أبي؟ قال: «أبوك في النار»"**، لماذا تسأل؟ خلاص لا تسأل، أحيانًا السؤال يضرك.

جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن الله فرض عليك الحج فحجوا، قام رجل فقال: أفي كلّ عام؟ قال: لو قلت وفرض عليكم ما استطعتم»**.

مستحيل يحجون الناس في كلّ سنة يحجون، ما يستطيعون، الأرض ما تأخذهم، فأحيانًا الإنسان يسأل أشياء ما لها حاجة.

ولذلك يقول بعض أهل العلم: **"البلاء موكل بالمنطق"** أحيانًا تتكلم بكلام يضرك، لا تتكلم إلا بخير.

يقول: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: 101]، إذا ظهرت لك أساءتك، ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: 101]، حينما ينزل القرآن على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وقته تظهر لك، فإذا ظهرت لك اتضحت، لا تسأل عنها حتى القرآن ويوضحها لك.

✍ طيب بعد وفاة النبي واكتمال القرآن ماذا نقول في هذه الآية ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: 101] ؟

نقول: **"وإن تسألوا حينما تعرف القرآن وتقرأه وتسأل أهل العلم يظهر لك الحقّ"** أحيانًا تأتيك آيات فيها لبس فيها غبش فيها عدم وضوح فيها إشكال، فأنت ما تفهما، اسأل أهل العلم يزول عنك هذا الشك، بعض الناس يأخذ الآية على ظاهرها ثم يبدأ يشك كيف كذا؟ وكيف كذا؟ يبدأ تأتيه أسئلة تشكل عليه، هذه تسوئك وأنت ما تدري، إذا حصل مثل هذا الأمر عليك أن تسأل أهل العلم حتى يزول عنك هذا الإشكال.

قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ [المائدة: 101]، سكت عنها، وعفا عنها، وتجاوز عنها، لا تقف عندها، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ [المائدة: 101]، عمن يحصل منه هذا الأمر، ﴿حَلِيمٌ﴾ [المائدة: 101]، سبحانه لا يعاجل بالعقوبة.

قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: 102].

✍ من هم الذين سألوها قبلنا وأصبحوا بها كافرين؟

أليس قوم ثمود سألوا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الناقة، قالوا: **"أخرج لنا من هذه الصخرة"** جاءوا على صخرة صماء، قالوا: **"يا صالح إن كنت رسولًا حقًّا تُريد أن نؤمن بك أخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة"** فدعا الله فخرجت، لما خرجت ما آمنوا، فأصبحت وبالًا عليهم، أهلكهم الله ودمرهم جميعًا بسبب كفرهم.

والقوم من نبي إسرائيل لما قالوا: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 246]، أرادوا أن يقاتلوا، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ [البقرة: 246]، طيب لماذا تسألون القتال ثم تتولوا؟!!

قال: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: 102]، فلا تسألوا عن أشياء قد تضركم، ولما كانت هذه الآيات تتحدث عن الحلال والحرام بيّن الله في آخرها ما كان يفعله المشركون من الافتراءات والكذب على الله، يكذبون ويفترون على الله الكذب، ويقولون: **"هذا حلال، وهذا حرام"**.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن أنه لم يشرع ما هي الأشياء؟ هذه الآية أنا أجزم أن الكثير من الناس يقرأها ولا يعرف معناها، وأنا لو أسأل الله يمكن ما أحد يستطيع أن يجيب عليها.

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: 103]، ما هي البحيرة؟ ما ندري، طيب قال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: 103].

يقول: ما شرع الله هذه الأشياء، هذه الأشياء ما شرعها، ما هي البحيرة؟ ما هي السائبة؟ قال: **"هذه تتعلق ببهيمة الأنعام"** بهيمة الأنعام عند العرب الإبل والبقر والغنم كان عندهم أشياء يحرمونها، ما يأكلونها، ولا يركبونها، ولا يشربون لبنها، ويجعلونها للآلة، يقولون: **"هذه للآلهة"**.

ويدعون أن الله هو الذي أمرهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: 103]، يكذبون على الله، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 103]، ما عندهم عقول، لو كان واحد منهم عنده عقل شوف ما قال: **"كلهم"**، ولكن قال: ﴿وَأَكْثَرُهُم﴾ [المائدة: 103]، لو واحد منهم عنده عقل لما قال هذا الكلام.

قال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: 103]، البحيرة ما هي؟ في أربعة الآن وفي غيرها ولكن هذه الأشهر.

البحيرة هي: **"الناقة أو بهيمة الأنعام إذا وصلت حد معين بحروا أذنها شقوا أذنها وقالوا: اتركوها للآلهة، لا أحد يركبها، ولا أحد يشرب لبنها، ولا يأكلها، ولا يذبحها لا يتعرض لها"**.

قالوا: **"إذا وردت خمسة أبطن خلاص هذه حرام لا نركبها ولا نأكلها هذه تترك"**.

وكذلك السائبة: **"تسيب في الطرقات ما أحد يتعرض لها، ولا يمنعها من أكل الحشيش، ولا من أكل أي شيء، ولا يركبونها و يشربون لبنها ولا يأكلونها"**.

السائبة قالوا: **"إذا ولدت عشرة أبطن قالوا: هذه سائبة، نسيبها للآلهة"**.

والوصيلة في بعض النوق أو غيرها إذا بكرت بأنثى، ثم بعدها أنثى، ثم بعدها أنثى؛ قالوا: **"هذه وصلت أختها"** كلّ واحدة تصل أختها فيتركونها للآلهة، يقولون: **"لا نأكلها، ولا نشرب من لبنها، ولا نتعرض لها"**.

والحام هذا هو الفحل الذكر: **"الذكر إذا طرق الناقة"** يعني إذا طرق عشر وولد منه عشر بطرقه يعني حملت منه عشر قالوا: **"هذا حام حمرهم، لا تتعرضون له، ولا تركبونه، ولا تذبحونه، ولا تأكلون لحمه"** هذه اعتقادات فاسدة باطلة كان المشركون يعتقدونها، فرد الله عليهم ، وأبطلها، وأكذبهم، ولم يشرعها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نقف عند هذا القدر، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(126)
(المائدة 105 - 108)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا اليوم هو اليوم الأول من الشهر الخامس من عام 1445 من الهجرة.

نجلس هذا المجلس المبارك مع تفسير القرآن العظيم، السورة التي بين أيدينا **"سورة المائدة"** والآيات هي الآية الرابعة بعد المائة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم﴾ [المائدة: 104]، أي الكفار، ﴿تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: 104].

لما بيّن الله وأبطل معتقدات هؤلاء الكفار في التحلل والتحريم في بهيمة الأنعام، لما قال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [المائدة: 103]، يعني اعتقاداتهم هذه كلها افتراء على الله وكذب، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: 103].

لما أبطل هذه المعتقدات التي عندهم بين أنهم إذا دعوا إلى الإسلام، وإلى التوحيد، وإلى العقيدة الصحيحة، وإلى التشريع الإسلامي قالوا: ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: 104]، يعني يكفينا ما نجد عليه آباءنا.

رد الله عليهم وقال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104]، يعني لو كان الآباء لا يعلمون الذي ولا يهتدون هل تقتدون بهم؟! هذا يسمى **"التقليد الأعمى"** تقليد على غير بينة، وعلى غير دليل، هذا **"تقليد أعمى"**.

ولذلك تجد أكثر الناس الذي يتعقدون اعتقاداتهم باطلة من البدع وغيرها إذا جئت تحاجه جئت تجادله بالدليل يقول: **"هذا وجدنا عليه الآباء"**.

احتجاجك **"إنا وجدنا عليه آباءنا"** أو **"وجدنا الناس على هذا"** هذا ليس دليل شرعي؛ لا يُقبل عند الله، الدليل الشرعي في الإسلام هو قول الله في القرآن، وقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السنة، فأنت تمشي على نور، وتسير بضياء ونور.

أما أن تقول: هكذا وجدنا، وهكذا وجدنا، الله عاب عليهم، ولم يسلم لهم هذا الأمر لما قالوا: ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: 104]، قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104]، هذا غير صحيح.

بعد هذه الآية تأتي توجيهات للمؤمنين، ومثلما ذكرنا في كم لقاء أنه تأتيك هذه الخطابات من الله عَزَّ وَجَلَّ يخاطبك أنت، ينبغي أن تقف عندها وتتأملها، إذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 105]، قف عندها، وهذه السورة **"سورة المائدة"** كثير جدًا ينادي الله المؤمنين بصفة الإيمان، ولما يناديك الله بصفة الإيمان ويحرك عندك هذا المعتقد الذي تعتقده وهو الإيمان بالله، والإيمان بالقرآن، والإيمان بالرسول، والإيمان باليوم الآخر، يذكرك بهذا الشيء أنك من جملة المؤمنين.

يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105].

✍ هذه الآية ما معناها؟

قد يفهمها بعض الناس فهمًا خاطئًا، هذه الآية لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة: 105]، يعني الزم نفسك، وهذب نفسك، وحرض نفسك على الطاعة، واجعل نفسك تشمر في الطاعات، وتحافظ على ما أمرك الله به، وتبتعد عما نهاك الله عنه؛ لأن كلمة ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة: 105]، معناها **"الزموا أنفسكم بالاستقامة في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"** يعني الله يأمرك بأن تلتزم طاعة الله، أن تقول: **"آمنت بالله"** ثم تستقيم على شرع الله.

✍ طيب ما معنى ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105].؟

يعني: **"لا يضركم أهل الضلال ولو كثروا على الأرض"** ولو أعجبك كثرة الخبيث، ولو انتشر الفساد على الأرض لا يضرك كثرة الفساد الذي يجب عليك أن تتمسك بدين الله وشرعه حتى تلقى ربك العالمين، هذا معنى الآية.

وبعض الناس يفهمها فهمًا خاطئًا؛ بحيث أنه يرى أنه يقول مثلاً: **"عليك نفسك وليس لك دخل بالآخرين"** يعني يعطل شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فيظن أن هذه الآية معناها أنك تلزم نفسك والآخرين ما لك علاقة بهم، ترى من يرتكب المنكرات وتسكت عنه، وتشوف الذي يقصر في الواجبات وتسكت عنه، نقول: لا، مما أمرك الله به في الاستقامة والطاعة أن تمتثل أمر الله، وتجتنب نهيه، ومن أمر الله أن تأمر بالمعروف.

والأمر بالمعروف لاشك أنه شعيرة من شعائر الإسلام، ولكنه على درجات، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«من رأى منكم منكرًا فليغره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»**.

فأنت إذا ما عندك قدرة لا بيدك ولا بلسانك أقل الأحوال أن يتمعر وجهك وأن تنكر بقلبك ولا ترضى بهذا الشيء، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذم اليهود، ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 79].

يرون المنكر ويسكتون عنه، ويرون الشخص الذي يرتكب المنكرات ويجالسونه، ويضاحكونه، ويمازحونه، وليس في قلبه مثقال ذرة على أن ينكر هذا الشيء، هذا هو الذي لا يرضى الله به.

ولذلك جاء في الحديث: **"إذا ظهر المنكر وانتشر وعمت المنكرات الناس، ثم لم يغيروا يوشك الله أن يعمهم بعذاب"**.

🗐 يأتي شخص يقول:

✍ هذه المنكرات لا نستطيع عليها؟

نقول: نحن ما نقول لك غيرها بدك، أنت ما عندك قدرة، وقد ما يكون عندك قدرة حتى باللسان، لكن بالقلب تنكر، القلب يعني شيء في نفسك، لا ترى المنكر وكأنه ليس بمنكر تنقلب عندك الموازين ترى المنكر وتظن أنه معروف .. هذا الذي ينبغي على كلّ مسلم ومسلمة أن يسلك هذا المسلك.

قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 105]، يذكرك بأنك سترجع إلى الله، وأن الله سيحاسبك على أعمالك وعلى تقصيرك أو على مبادرتك بالطاعات، كلّ هذا ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ [المائدة: 105]، ويخبركم بكل ما تعملونه، ثم يجازيكم على أعمالكم، هذا أمر إن شاء الله واضح.

لما يذكر الله باليوم الآخر علشان نربط الآيات بعضها ببعض، قال: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [المائدة: 105]، يعني بعد البعث، والجزاء، والحساب عند الله، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 105].

قال في الآية التي بعدها: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: 106].

✍ هذه الآية تتحدث عن أي شيء؟

تتحدث عن: **"الوصية"** الوصية أن يوصي الإنسان بعد موته، يوصي بالأمور التي عليه.

✍ ما حكم الوصية؟

✍ هل هي جائزة أم مستحبة أم واجبة؟

نقول: **"الوصية قد تكون واجبة وقد تكون مستحبة"**.

✍ متى تكون واجبة؟

إذا أنت عليك ديون لابد أن تكتب، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«لا يبيتن أحدكم فوق ثلاث»**، يعني ثلاثة أيام **«إلا ووصيته قد كتبها عند رأسك»**، يعني عليك ديون وحقوق لناس آخرين، أو قد تكون حقوق الله كالزكوات والصيام وغيره، إذا عليك حقوق للآخرين يجب أن تُكتب وتُسجل وتُدون عندك على أنها وصية، تكتبها عندك، ما تدري متى ينزل بك الموت؟

أو تكون الحقوق هذه لك أنت، تكون دينت أشخاص أو أعطيتهم مبالغ أو نحو ذلك، تسجل كلّ هذه الأشياء، هذه نسميها وصية واجبة ما يجوز التفريط فيها، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **"لا تتجاوز ثلاثة أيام إلا وقد كتبتها عند رأسك"**.

هناك وصية تبرع مستحبة، هذه أنت بالخيار تكتب ولا ما تكتب هذه مستحبة، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى للإنسان عند موته أن يوصي بثلث ماله، بربع ماله، بخمس ماله، بأي شيء يوصي في وجوه الخير في الأوقاف وغيرها، يوصي بوصية هذه مشروعة.

هنا في الآية التي بين أيدينا حتى نفهمها فهمًا جيدًا: هذه حالة من حالات الوصايا، وهي وصايا في السفر، هذه لها قصة، الآية لها قصة ولها سبب نزول، وذلك أن رجلاً من الصحابة من بني سهم خرج مع اثنين وكانوا هؤلاء الاثنين نصارى وليسوا مسلمين، تميم بن أوس الداري، وعدي بن بداء، خرجوا للتجارة، ولما خرجوا للتجارة هؤلاء الثلاثة السهمي هذا المؤمن نزل به الموت، شعر بالموت، وإذا معه مال يريد أن يتاجر به، فلما شعر بالموت وهم قد نزلوا بمكان قال لهم وهم غير مسلمين: أوصيكم بما معي من المال، والإبل وغيرها، أن تعيدوها لأولادي، ما في إلا أنتم، أنا أشهد الله على أنكم أنتم تقومون بهذه الوصية وتعيدوها إلى أولادي، قالوا: نعم.

فتوفي ولما توفي أخذوا ما وراءه من الأموال ورجعوا، فلما قلبوا هذه الأشياء فإذا فيها جام من فضة مخوص بذهب، يعني إناء من فضة ومخوص بذهب، فأخذوا هذا الإناء وأخفوه، ثم باعوه.

فلما باعوه أخذوا هذا المال وأعادوه إلى أهله، وقالوا: هذا فلان قد توفي وهذا الذي تركه، خذوا ماله، فقالوا: هذا ماله كله أم بقي شيء؟ قالوا: هذا كله.

فلما سألوهم ودققوا معهم شكوا فيهم، فذهبوا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا رسول الله إن فلان مات، وترك هذا، ولكن نحن ما اطمأننا في شيء ناقص فيه، فسألوهم عن هذا الجام الإناء، فقالوا: ما رأينا شيئًا، فلما سألهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال مثلما جاء في هذه الآية، لما شكوا فيهم قال: **«تحلفون أنكم ما وجدتم هذا الشيء ولا رأيتموه»**، فقالوا: **"نحلف"** فإذا حلفوا أنهم ما رأوا هذا الشيء، ثم إن أولياء الميت لا يزالون في شك منه؛ فإن اليمين تنقلب إلى أولياء الميت ويقال: **"إذا أنتم تشكون تحلفون وتطالبونهم بهذا الشيء"** فحلف أولياء الميت على أنهم يشكون في هؤلاء وأنهم قد كذبوا، وأنهم قد أخفوا شيئًا.

وبعد أيام وُجد هذا الإناء يُباع في مكة، فلما سألوا هذا الذي يبيع قالوا: من أين أتيت بهذا الإناء هذا الجام؟ قال: إني اشتريته من تميم بن أوس الداري وعدي، فظهر أنهم قد أخفوه وباعوه، فنزلت هذه الآية.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾ [المائدة: 106]، يعني وصية، الشهادة يعني التي تُقام على الوصية، إذا أوصى يشهد أُناس عليها، ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [المائدة: 106]، يعني إذا نزل به الموت ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ﴾ [المائدة: 106]، أن يشهد اثنان، هؤلاء الاثنان ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ [المائدة: 106]، يعني أصحاب عدل وثقة، ومقبولة شهادتهم، ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: 106]، يعني من المسلمين.

✍ طيب إذا لم يوجد من المسلمين مثل هذه الحالة، سافر وليس معه من المسلمين أحد، ما في إلا اثنين غير مسلمين؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [المائدة: 106]، يعني من غير المسلمين، إذًا الآية هنا تدل على أي شيء؟ تدل على أنه يجوز شهادة الكافر عند الضرورة، ﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: 106]، يعني سافرتم في الأرض، ﴿فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ [المائدة: 106]، يعني نزل بكم الموت، ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ [المائدة: 106]، تحبسون من؟ الشاهدين، ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 106]، صلاة ماذا؟ قال أهل التفسير: هي صلاة العصر؛ لأنها هي آكد الصلوات وأعظمها عند الله، الله يقول: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: 238]، الصلاة الوسطى صلاة العصر.

فهذه من الأماكن التي تعظم، إما عند الكعبة، أو بعد صلاة العصر، أو نحو ذلك.

فيؤتى بهم ويُحبسون بعد صلاة العصر، وتُطلب منهم اليمين؛ لأنا شككنا فيهم، يقول: ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ [المائدة: 106]، يعني يحلفان، ﴿إِنِ ارْتَبْتُمْ﴾ [المائدة: 106]، الذي شككتم فيهم، أما إذا لم تشك فيهم خلاص تأخذ المال هذا وتتركهم.

قال: إذا ارتبتم وشككم أنهم يحلفون ماذا؟ قال: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ [المائدة: 106]، يعني لا نشتري بهذه الشهادة وهذا المال ثمنًا يعني نأخذ به ثمنًا، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [المائدة: 106]، يعني ولو كان الميت قريبًا لنا، ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ [المائدة: 106].

هذه صفة الشهادة أو صفة القسم، يحلفون أنهم ما اشتروا بهذه اليمين ولا بهذا الشيء، ولا بهذه الشهادة ثمنًا ولم يكتموا شهادة الله، وإن كتمناها إننا إذًا لمن الآثمين، ﴿إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ [المائدة: 106].

هذا في جانب الشاهدين، إذا كان ورثة الميت لا زالوا شاكين، يقولوا: هؤلاء كفار وعادي يحلفون، لو تريد أن يحلفوا أيمان أكثر من هذا حلفوا، نقول: توجه اليمين إلى الورثة.

قال: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ [المائدة: 107]، يقول: فإن تبين أن هؤلاء الذين شهدوا وأتوا بما أوصى به الميت تبين وعُثر على أنهما استحقا إثمًا واتضح لهم الأمر، ﴿فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَيَانِ﴾ [المائدة: 107]، يقوم اثنين من الورثة ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 107]، ما اعتدينا عليهم ولم نظلمهم، وإنما شهادتنا أحق من شهادتهم؛ لأن شهادتهم مشكوك فيها، ونحن أولياء الميت نعرف ماله، فلا نشهد إلا على شيء ظاهر وبيّن، ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: 107]، إن اعتدينا في ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ [المائدة: 108]، يعني هذا الحكم، لماذا الله حكم بهذا الحكم؟ قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ [المائدة: 108]، ذلك أدنى وأقرب أن يأتوا الشهود ومن أوصاهم

الميت على وجهها، ولا يخفوا شيئًا، ولا يجوز لهم أن يخفوا شيئًا أو يكتموا شيئًا، أو يكذبوا في الشهادة.

قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ﴾ [المائدة: 108]، إذا جاء هذا الحكم الشرعي من الله يكون هذا أقرب أن يحرص هؤلاء على أن يؤدوا الشهادة كما كانت، ويؤدوا الوصية كما كانت على وجهها، أو يخافوا أنهم إذا حلفوا أن ترد أيمانهم ولا تُقبل منهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في خاتمة الآية: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: 108]، فيما يأمركم الله، وفيما ينهاكم، وفيما يشرع لكم، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة: 108]، سماع قبول، لا أن تقولوا: سمعنا وعصينا، اسمعوا وقولوا: **"سمعنا وأطعنا"**.

قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: 108]، الذين يخرجون عن شرع الله وعن طاعته، ولا يلتزمون حكم الله وشريعته.

هذه الآية قد لا يتصعبها الكثير من الناس، قد لا يفهمها، قد لا يستوعبها، لكن جئنا بطريق واضح إن شاء الله ومفهوم.

ومفهومها باختصار: أن الإنسان إذا سافر وشعر بالموت، أو كان في البلد وحس بالموت؛ فإنه يجب عليه أن يوصي، والذي ينبغي أصلاً أن تكون الوصية مكتوبة من قبل حتى يدري ما الذي يصيبه، لكن لو طرأ عليه في سفر وليس معه كتاب ولا شيء؛ فإنه يوصي بهذه الوصية أو يجعل من يشهد على وصيته، ومن يقوم بتوصيل هذه الوصية إلى أهل الميت.

والشهادة لابد منها حتى تظهر الأمور واضحة، ولا يكون هناك تنازع، فالشهادة مطلوبة، والله أمر، قال: ﴿اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: 106]، من المسلمين، إذا لم يوجد من المسلمين يشهد من غير المسلمين، يؤدوا هذه الشهادة على وجهها.

هذا ما يتعلق بهذه الآية من حكم الوصية، ومن يترك شيئًا وراءه، ومثلما ذكرنا الوصايا تختلف، لكن الإنسان العاقل المؤمن يكتب وصيته في قوته وفي نشاطه؛ لأنه متى ينزل الموت، خاصة في الأمور التي ذكرناها حقوق الناس، حقوق الآدميين، حقوق الله، يجب أن تُكتب ولا يفرط فيها.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(127)
(المائدة 109 - 110)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الخامس عشر من الشهر الخامس من عام 1445 من الهجرة.

مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم، وتفسير القرآن الكريم، السورة التي بين أيدينا **"سورة المائدة"** والآيات من الآية التاسعة بعد المائة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: 109].

✍ يوم يجمع الله الرسل متى؟

نقول: **"يوم القيامة"**.

✍ هل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجمع الرسل فقط ولا يجمع الأولين والآخرين والصغير الكبير والذكر والأنثى؟

نقول: **"الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجمع الخلق جميعًا"** ليس يجمع بني آدم فقط؛ بل يجمع الإنس، ويجمع الجن، ويجمع الحيوانات، ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: 5]، والطيور، والهوام؛ بل إن خزائن الأرض تُخرج، ويُؤتى بها، والذي لا يؤدي زكاة ماله تُصفح له صفائح من نار، تُخرج كنوزها.

✍ إذا عرفت هذا كيف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: 109] ؟ يجمع الرسل ولا يجمع الذين ذكرناهم الجميع؟

نقول: يجمع كلّ شيء، لكن هنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خص الرسل مع أنهم أقرب الناس إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، الرسل هم المصطفين عند الله، هم الذين اختارهم الله للرسالة، فإذا كان الله يجمعهم يجمعهم لأي شيء؟ يجمعهم للسؤال، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6]، حتى الرسل والأنبياء يوقفون ويُسألون أمام الله، فالمسألة أو الأمر عظيم جدًا، وهائل، يجمع الله الرسل حتى يبين لك أن من دون الرسل من باب أولى، أنه يجمع الله الخلق جميعًا، لكن الرسل يجمعهم ليسألهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: 109]، يعني أنتم كلفتم برسالات، فماذا أجابكم الأمم؟ ولذلك حتى الأمم تُكذب رسلها، إذا جاء يوم القيام جاءت أمة نوح قالت: يا ربنا نوح ما بلغنا الرسالة، نوح ما جاءنا بشيء، وينكرون أمام الله، وهود، وصالح، وشعيب، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: **"ماذا تقول يا نوح؟ يقول: بلغت رسالتك يا رب، ونصحت، وبينت لهم كلّ شيء، يقول الله: من يشهد لك؟ يقول: تشهد أمة محمد"**، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143].

فأمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشهد، أنا وأنت والثاني والثالث يشهد، كيف تشهد؟ لأنك تقرأ في القرآن أن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: 5]، سرًا وجهارًا، فأنت تشهد على كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالله هنا يقول: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: 109]، يقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 109]، كيف الأنبياء يقولون: ما لنا علم؟ عندهم علم لماذا يقولوا ما عندنا علم؟ هذا أيها الأخوة من حسن الأدب مع الله، الملائكة لما سألهم الله قال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ 31 قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 31، 32].

فهذا من الأدب.

وكذلك الصحابة عندهم هذا الأدب، لما يقول لهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"ماذا تقولون في كذا وكذا؟"** يقولوا: **"الله ورسوله أعلم"** هذا من الأدب.

وهنا لما سألهم الله قال: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [المائدة: 109]، أو أن المعنى أنهم يقولون: **"لا علم لنا بعدما قبضتنا"** بعدما متنا لا ندري، ما ندري ماذا صنعوا؟ أو أنهم يقولون: **"لا علم لنا من شدة الهول"** الإنسان إذا أصيب بهول عظيم خلاص ما عاد يدرك، ما يدري ماذا يقول؟ فهم من شدة الموقف يوم القيامة ما يستطيعون الإجابة، فيقولون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 109]، أنت تعلم السر وأخفى، أنت علام الغيوب، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 26].

قد يأتيك سائل يسألك يقول:

ذكر الرسل هنا لابد أن له سبب؟

نقول: نحن ذكرنا أن الله يجمع الأولين والآخرين، لكن لما يقول هنا أنه يجمع الرسل، هذا ليرتب عليه موقف مهم جدًا، هذا الموقف مر معنا في السورة كاملاً، وأنت تقرأ هذه السورة وحضرت دروس هذه السورة تمر عليك أو مرت علينا قصة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، عيسى موقف النصارى منه ماذا؟

طائفة من النصارى تقول: **"عيسى هو الله"** ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 17]، يقولون: **" الله هو المسيح"**.

وطائفة تقول: **"هو ابن الله"**، ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30].

وطائفة تقول: **"هو ثالث ثلاثة: الرب، والابن عيسى، وروح القدس"** فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لك حقيقة عيسى من؟ في خاتمة السورة يبين لك من هو عيسى بن مريم؟

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 110]، ولما يذكر الله أن عيسى هو ابن مريم هذا فيه رد على النصارى، كيف تقولون هو الله؟ أو تقولون: هو ابن الله؟ هو ابن مريم، أمه مريم، أمه صديقة.

قال: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 110]، وهذا الكلام متى يكون؟ يوم القيامة، إذا جمع الله الأولين والآخرين قال: ﴿يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 110]، وناداه من بين الخلق؛ حتى يُقرر لهؤلاء الذين يعبدونه أو يجعلونه إلهًا أو ابن الله يعرفون من هو عيسى؟

قال: ﴿يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: 110]، إذًا هو عبد أنعم الله عليه، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: 59].

قال: ﴿يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ [المائدة: 110]، إذًا هو مولود، والدة أمه، النعمة عليه وعلى ولدته، حتى يرد على الذين يقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: 73]، يقولون: **"الرب، والابن عيسى، ومريم"**.

يقول الله: **"مريم امرأة ليست إله ولا غيره"**.

قال: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: 110]، قويتك، أيدتك وقويتك بروح القدس، بجبريل يدافع عنه ويحميه، أو ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: 110]، الوحي، يؤيده الله بالوحي.

ثم يبدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر لك المعجزات التي منّ الله وأنعم بها على عيسى بن مريم، قال: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ [المائدة: 110]، بمجرد ولادته حملته أمه فأتت به قومها، قالوا: ﴿يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: 27]، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا 29 قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: 29، 30].

كيف يتكلم وليس له إلا ساعات أو أيام قليلة؟ قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: 30]، وأثبت لهم أنه عبد لله، وليس إله، ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا 30 وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: 30، 31]، إذًا أنا عبد أعبد الله.

قال: ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: 110]، كيف كهلاً؟ لأن الله رفع، لما أراد اليهود قتله رفعه إلى السماء، وعمره ثلاث وثلاثون سنة في شبابه، وسينزل في آخر الزمان، وهو من علامات الساعة الكبرى نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي يقتل الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويقيم شرع الله بدين محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويمكث في الأرض سبع سنين مقيمًا لشرع الله ثم يموت.

قوله تعالى: ﴿وَكَهْلًا﴾ [المائدة: 110]، هذا دليل على أنه ينزل في آخر الزمان، لأنه رُفع قبل الكهولة.

أيضًا من النعم والمعجزات؛ قال: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: 110]، علمه الله الكتاب، كيف يكتب؟ وكيف يقرأ الكتب السابقة؟ والحكمة كيف يدرك أسرار الشريعة؟ كيف يعرف حسن الرأي وتدبير الأمور؟ والتوراة المنزلة على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، علمه هذه الأشياء، وفيه دلالة على شرف العلم، مكانة العلم، فالإنسان يولد جاهلاً ولابد أن يتعلم لا يبقى جاهلاً في حياته، وإنما يتعلم ويرتفع بالعلم، ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، لا يبقى الإنسان لا يتعلم.

قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ﴾ [المائدة: 110]، هذه أيضًا معجزة عظيمة، يخلق هو؟ الله هو الذي خلق، ما يخلق إلا الله، لا خالق إلا الله، لكن الله منحه وأعطاه معجزة لبني إسرائيل، يأتي بطين ويصوره ويشكله على شكل طائر، ثم ينفخ فيه فيطير، فإذا طار وذهب سقط في الأرض وانتهى، هذه معجزة كيف تأتي بطين وتنفخ؟!!

قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: 110]، صورة الطير، ﴿بِإِذْنِي﴾ [المائدة: 110]، ما قال: **"أنت تتصرف من نفسك"** لا؛ بل بإذن الله؛ لأنه هو مُدبر ومأمور، ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: 110]، وليس بإرادتي.

ثم قال: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾ [المائدة: 110]، هذه الأمراض لا يستطيع عليها البشر أبدًا، إلا أن يشاء الله، ولكنه في وقته كانت من المعجزات، فكان يبرئ الأكمة، الأكمة من هو؟

هو: **"من ولد أعمى"** حتى قيل: **"إنه من ولد وليس له عينان"** خُلق هكذا، فيبرئه ويشفيه، والأبرص أيضًا.

قال: ﴿بِإِذْنِي﴾ [المائدة: 110]، هذه الأشياء ما تبرئها ولا تشفيها إلا بإذني الشافي هو الله.

قال: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ [المائدة: 110]، وهذه أكبر، يخلق، ويشفي، ويحيي الموتى يخرجهم من قبورهم، وقد أخرج عدد في زمانه؛ حتى قيل: إنه أخرج أحد أبناء نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، قيل: إنه

يافث أنه أخرجه من قبره، قال: **"هذا قبر يافث بن نوح"** ثم قال: **"اخرج"** فخرج من قبره، وقال: **"من أنت؟"** قال: **"أنا فلان"** ثم رجع ومات، فهذه معجزة عظيمة منحها الله عيسى بن مريم.

قال: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة: 110]، لما جاءهم بالبينات قالوا: **"هذا سحر مبين"** وقالوا: **"أنت ساحر"** وأرادوا قتله كما قتلوا أنبياء قبله، وقتلوا يحيى، وقتلوا زكريا، فهم قتلة الأنبياء، فأرادوا قتله، وكان قد اجتمع مع أصحابه فأرادوا قتله، وخططوا على تدبير قتله.

فأرسلوا أحدهم ليتأكد ويبين هل عيسى مع أصحابه أم لا؟ فذهب هذا فلما رأى ونظر فإذا عيسى معهم، فرجع وقد ألقى الله الشبه عليه، شبه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157].

ألقى الشبه على هذا فلما رجع ونظروا إليه قالوا: هذا عيسى فقتلوه، قتلوه ظنًا أنه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والله عَزَّ وَجَلَّ قد رفع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السماء، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: 55]، يعني منيمك، الوفاة هنا النوم.

قال: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ﴾ [المائدة: 110]، أي منعتم، وصددتهم عنك، ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة: 110]، هذه بينات، هذه معجزات، ما يستطيع أن يأتي بها أي واحد من البشر، يأتيهم بالبينات وبين لهم الحقّ، وزيادة على ذلك يُحل لهم ما حُرم عليهم في التوراة، ويخفف عليهم شريعتهم، وهم يريدون قتله!!

قال: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 110]، انظر إلى مواقفهم السيئة، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: 110].

لعلنا لا نطيل، نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم يكون الوقت أطول، وإن شاء الله نستكمل هذه السورة الجليلة العظيمة.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(128)
(المائدة 111 – آخر السورة)
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، درسنا المعتاد في كلّ مغرب من يوم الأربعاء في تفسير القرآن العظيم، نجلس هذا المجلس المبارك ونقرأ بعض هذه الآيات ونتدبرها ونبين معانيها ونستفيد منها كما أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أمرنا الله بتدبر القرآن الكريم وقراءته.

الآيات التي بين أيدينا هي من **"سورة المائدة"** وأواخر السورة التي ذكر الله فيها قصة عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو نبي رسول، وعبد من عباد الله، قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: 30]، وهو رسول، وهو من أولي العزم الخمسة.

وأولي العزم هم: **"نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى"** وفوقهم جميعًا **"محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"** أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، هؤلاء هم أولوا العزم.

عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو واحد من هؤلاء، ولا يجوز الغلو فيه، أو رفعه عن مقامه، ولكن النصارى غلو فيه؛ بل جعلوه هو الإله، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ [المائدة: 17].

وطائفة منهم جعلوه هو ابن الله، ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، لا هو الله، ولا هو ابن الله، ولا هو ثالث ثلاثة؛ بل هو عبد الله ورسول، كما قال هو بنفسه، قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: 30]، هذا هو فقط.

فساق الله قصته في آخر السورة؛ لأنه في وسط السورة وفي ثنايا هذه السورة بيّن عقيدة النصارى، ورد عليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأقام الحجة عليهم، وبيّن حقيقة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي الأخير تختم السورة بما جرى من حقيقة عيسى الحقيقة الواضحة.

فجاءت قصته على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: **"بيّن الله فيه نعمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عيسى وعلى أمه"** لما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ﴾ [المائدة: 110]، أنت وأمك أنعمت عليكما، هذا كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم ذكر من النعم الكثيرة والمعجزات التي ذكرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتكلمنا عنها في لقاءنا الماضي.

القسم الثاني في القصة هو: **"الحوار الذي جرى بين عيسى بن مريم والحواريين"** ماذا قالوا لعيسى؟ وما رد عليهم؟

ثم في القسم الثالث والأخير: **"الحوار الذي جرى بين عيسى وبين الله جَلَّ جَلَالُهُ"** قال تعالى: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾ [المائدة: 116]، هذا الحوار الذي جرى بين الله وبين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: 111]، الوحي هنا ليس وحي الأنبياء، لو كان وحي الأنبياء لأصبح الحواريون أنبياء، الوحي على أنواع، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوحى إلى أم موسى، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: 7]، وأوحى إلى النحل، فالوحي يختلف.

فالمقصود بالوحي هنا: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: 111]، المراد به الإلهام، ألهمهم، أو أنه أوحى إلى عيسى ليبلغهم هذه الرسالة، يعني أوحى بواسطة، لأن الوحي يكون بواسطة، ويكون بغير واسطة، فيكون هنا أنه أوحى إلى عيسى أن يبلغ الحواريين.

من هم الحواريين؟

الحواريين هم: **"أنصار عيسى"** نصروه وأيدوه، وآمنوا به، وصدقوه، ووقفوا معه ضد أعدائه، هؤلاء هم الحواريون، والحواريون الواحد منهم حواري.

سمي حواريًا من **"الحور"** وهو الصفاء؛ لأنهم أخلصوا علاقتهم بعيسى، ونصرتهم له، وإيمانهم الخالص لله، لذلك سموا **"الحواريين"**.

والحواري هو: **"الصفي الخالص"** ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لكل نبي حواري ، وحواري»**، من هذه الأمة **«الزبير بين العوام»**.

فالزبير اختص بأنه حواري النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني الذي أخلصه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واختاره، فهذا معنى الحواريين.

قال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: 111]، قال: **"رسولي"** ما قال: **"ابن، ولا إله"** ولا شيء، ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ [المائدة: 111]، آمنوا وصدقوا، ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: 111]، لاحظ علشان تتدبر القرآن، قال: ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: 111]، جمعوا بين الإيمان والإسلام.

ما الفرق بين الإيمان والإسلام؟

الإيمان في القلب، إقرار في القلب، وأيضًا في الأعمال، الإيمان **"إقرار، وقول، وعمل"**.

لكن الإسلام في الظاهر، في **"الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج"** هذه أركان الإسلام، فهم جمعوا بين الأمرين، آمنوا بقلوبهم، وحققوا ذلك بانقيادهم؛ لأنهم مسلمون منقادون أمر الله ورسوله.

ثم يحكي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا الموقف، الموقف الذي جرى بين الحواريين وبين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى﴾ [المائدة: 112]، سموه عيسى، ما قالوا: **"يا إله، أو يا ابن الإله"** قالوا: **"يا عيسى بن مريم"**.

قال: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: 112]، مائدة يعني فيها طعام من السماء، تنزل من الجنة، ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 112].

بعض الناس يقرأ هذه الآية ويفهمها فهمًا خاطئًا، يقول: كيف هؤلاء الحواريين وهم الذين يقولون: آمنا، ونحن مسلمون، ثم يقولوا: هل يستطيع ربك؟

الله ما يعجزه شيء، الذي خلق سبع سماوات طباقًا من غير عمد، وخلق الأرض، وخلق الخلق كله، هل يعجز أن ينزل مائدة من السماء؟ كيف يقولون هذا الكلام؟

نقول: هذا فهم خطأ، الذي يفهمها بهذا الفهم هذا فهم خطأ، طيب ما معناها؟ هذا من باب الأدب، افهم هذا الفهم الصحيح، هذا من باب الأدب، الحواريون يتأدبون مع الله، لما قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة: 112]، مثلما أنا أقول: **"هل تستطيع هذه الليلة أن تزورني؟ هل بالإمكان؟ هل في قدرتك؟"** هذا من باب الأدب.

لكن لما أقول: **"زرني"** كأني أفرض عليك شيء، وعندما أقول: **"هل بالإمكان؟ هل يناسبك؟ هل تستطع؟ هل بقدرتك؟ ما عندك شيء يمنعك؟"** هذا من باب الأدب.

ولذلك لابد أن نفهمها أنهم لما قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ﴾ [المائدة: 112]، يعني هل بالإمكان؟ وهذا من المناسب أن نقول هذا الكلام وأن الله ينزل؟ يعني هل هذا فيه حرج أو ما فيه حرج؟ هذا هو المقصود.

قد يأتي شخص ويقول:

عيسى يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 112] ؟

نقول: عيسى يقول: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: 112]، ليس من باب هل يستطيع؟ ولكن من باب لماذا تقترحون المائدة؟ ولذلك انظر إلى الجواب، جوابهم ما يتعرضون إلى كلمة الاستطاعة هم يعلمون أن الله يستطيع.

قال لهم: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 112]، إن كان عندكم إيمان اتقوا الله، ما له داعي تسألون آية تنزل، فردوا عليه وبينوا له، قالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ [المائدة: 113]، نحن بحاجة إلى الطعام، فقراء، وحتى يبينون قصدهم لما سألوا المائدة من السماء أعطاك القصد، لما قال لهم عيسى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: 112]، قالوا: نحن إن شاء الله نتق الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن قصدنا وغرضنا قالوا: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ [المائدة: 113]، لأنهم كانوا فقراء، ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [المائدة: 113]، لأن كما قال أهل العلم: **"ليس الخبر كالمعاينة"**.

إبراهيم ما في أعلى منه في التوحيد، هو إمام الحنفاء، حتى إن محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره الله أن يتبع ملة إبراهيم خليل الله، وإبراهيم ماذا يقول؟ يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260]؛ لأن **"ليس الخبر كالمعاينة"**.

لما يأتيك خبر تشك في صحته، في قبوله، ممكن صحيح، ممكن لا، لكن لما تراه بعينيك خلاص انتهى الأمر، فهم يريدون أن يروا هذا الشيء بعينهم، يرون المائدة تنزل من السماء، فيزدادوا إيمانًا.

قال: ﴿وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ [المائدة: 113]، يعني نعلم أنك صادق في دعوتك معنا، وأننا آمنا ويزداد إيماننا، ﴿وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: 113]، على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعلى نعمته وفضله، وعلى إجابته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه يجيب الداعي، فنكون عليها من الشاهدين.

لما سمع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الكلام منهم، وعرف نيتهم، وأن نيتهم صادقة وصحيحة، دعا ربه، ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: 114].

لما وافقهم عيسى بالدعاء دل على أن نيتهم سليمة، ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: 114]، وانظر عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ماذا يقول؟ ما قال: **"أنزل عليهم"**، وإنما قال: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا﴾ [المائدة: 114]، لأنه معهم.

قال: ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ [المائدة: 114]، يعني نفرح كفرح العيد، ونستبشر؛ لأنها نازلة من الجنة فضل عظيم، ونتذكرها كلّ سنة أنها نزل، وأن نشكر الله؛ لأنهم إذا تذكروها شكروا الله عليها.

قال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا﴾ [المائدة: 114]، الحاضرين الآن، ﴿وَآخِرِنَا﴾ [المائدة: 114]، الذي يأتي بعدنا يتذكر هذه النعمة، ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ [المائدة: 114]، يعني حجة ومعجزة من الله، حتى نعرف أنك صدقتنا في كلامك، ونتأكد زيادة، ونجعل هذه آية، ﴿وَآيَةً مِنْكَ﴾ [المائدة: 114]، يعني من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: 114]، انظروا إلى أسلوب الأدب في الدعاء، والتوسل إلى الله، ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: 114]، ما في أحد خير منك يا رب العالمين يرزق، أنت الرزاق واحد، فارزقنا وأنت خير الرازقين.

فأجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أوحى إلى عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإجابة، ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 115]، وهذا يدل على أن نيتهم صادقة وسلمية، وقصدهم الحاجة، ولذلك أجاب الله قال: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 115].

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خطورة الاقتراحات، أهل مكة قالوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إن كنت رسول من عند الله اقلب لنا جبل الصفا ذهبًا"** فالله أعرض عن هذا والنبي أعرض عن هذا، لأنه لو قلب هذا الصفا ذهبًا ثم كفروا لعُذبوا.

ولذلك قوم ثمود لما سألوا صالحًا الناقة ثم كفروا بها عذبهم الله، ولذلك حذرهم الله هنا؛ قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 115]، لكن من يكفر بها منكم ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 115]، فلا تقترحون هذا الشيء واشكروا الله، وآمنوا وصدقوا.

السؤال هنا:

✍ هل الله أنزلها أم لم ينزلها؟

المفسرون اختلفوا على فريقين:

بعض المفسرين يقول: نعم نزلت، وأكلوا منها، وجلست أيام ثم رفعت إلى السماء، وكان عليها من الطعام كذا وكذا، ذكروا أشياء كثيرة؛ لأن الله قال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: 115]، فإذا وعد الله بالإنزال نزلت.

وهناك طائفة من المفسرين قالوا: لا ما نزلت، لماذا؟ لأن الله لما هددهم وقال: ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 115]، قالوا: لا حاجة يا عيسى، لا حاجة لنا بها، فلم تنزل.

لكن كأن الرأي الأول أقرب لدلالة الآية، قال الله: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ [المائدة: 115]، وهم أبعد الناس عن الكفر؛ لأن الله أوحى إليهم واختارهم، وقد تكون نزلت، وأكثر أهل التفسير أنهم ذكروا أنها نزلت، وأن عليها من الطعام كذا وكذا، وأنها مكثت أيام والناس يأكلون منها، ثم رُفعت، والله أعلم بحقيقة الأمر.

يقول بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: 116]، هذا القسم الثالث من القصة، وهو الحوار الذي حرى بين الله وبين عيسى في حقيقة دعوة عيسى، هل عيسى دعا الناس إلى عبادته، وقال: **"أنا إلهكم، وأنا ربكم الأعلى"**؟ هل قال عيسى هذا الكلام؟ ما قال.

فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية أن يرد على النصارى الذين يقولون: **"إن عيسى إله، أو هو ابن الله"** فأراد أن يثبت لهم .

✍ماذا قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

✍وما الذي جرى؟

قال: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: 116]، يقول: أنت قلت للناس هذا الكلام؟ قلت: **"اجعلوني إله وأمي إله" ؟**

قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة: 116]، تنزيه، وتعظيم لله، لا يمكن مستحيل، ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: 116]، يقول: ما يمكن أن أقول بشيء ليس لي، ما يمكن ولا أتطرق له أبدًا، هذا الجواب الأول، انظر إلى حسن الأدب مع الله، ما يمكن أن أقول شيئًا ليس لي، ما لي فيه خصوصية، ولا لي فيه دخل، لا يمكن أن أتدخل بشيء ليس من حقوقي، ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: 116].

ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ﴾ [المائدة: 116]، لو أني فرضًا قلته ﴿فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: 116]، أنت تعلم، ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116]، أنت تعلم، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 116]، كلّ الأشياء الغائبة عنا تعلمها أنت سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يمكن أن أقول هذا الشيء، وأنت تعلم ما في نفسي، وتعلم ما يدور في نفسي وأنا لا أعلم ما في نفسك، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 116].

الآن عدة إجابات من عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأدب:

الإجابة الأولى: ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ [المائدة: 116].

الإجابة الثانية: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: 116].

الإجابة الثالثة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: 117]، أنا بلغت الرسالة، ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ [المائدة: 117].

✍طيب ما الذي أمرك الله به يا عيسى؟

قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي﴾ [المائدة: 117]، ربي أولًا أنا، ﴿وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 117]، وربكم أنتم.

أنا قلت لهم: اعبدوا الله، اعبدوه ووحدوه، ولا تشركوا به شيئًا، ولا تكفروا به، ولا بآياته، اعبدوا الله الذي هو ربي أنا، هو الذي رباني وخلقني، وأوجدني، وجعلني رسولًا إليكم، وربكم الذي خلقكم وأوجدكم، وأنعم عليكم بهذه الرسالة.

قال: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [المائدة: 117]، لما كنت موجود بينهم كنت عليهم شهيدًا فيما يقولونه، وفيما يفعلونه، ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: 117]، أنت الرقيب الشهيد المطلع العالم بأحوالهم، ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: 117]، ليس فقط على الحواريين أو على بني إسرائيل أو غيرهم، وإنما أنت على كلّ شيء شهيد.

✍وهنا كلمة قال: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: 117]، هل عيسى توفي أم وجود؟

نقول: ما توفي، لأن الله قال في سورة أخرى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: 157]، ثم قال: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: 158].

فعيسى رفعه الله إلى السماء وهو في السماء الثانية، عيسى في السماء ورفعه، ومن عقيدة المسلمين، كلنا نعتقد بأن عيسى بن مريم ينزل في آخر الزمان، وأنه علامة من علامات الساعة الكبرى نزول عيسى، وهو الذي يقتل الدجال، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويجتمع المسلمين عليه، ويؤمهم، ويحكم بشريعة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم يموت بعد ذلك.

فقوله هنا: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: 117]، الوفاة هنا معناها النوم، يعني الله ألقى عليه النوم ثم رفعه إلى السماء، هذا معناه، وكلنا إذا أصبحنا نقول: **"الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا"** فالنوم موته صغرى.

لو جاء واحد وقال:

✍ عيسى يقول: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: 117]، هل هو ميت؟

نقول: لا، ونرد عليه بالإجابة هذه.

ثم قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: **"هؤلاء عبيدك"** هؤلاء بني إسرائيل عبيدك، ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: 118]، إن أردت تعذيبهم فهم عبادك، مملوكون في ملكك وفي حكمك، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118].

يقول: إن عذبتهم فهم يستحقون العذاب، الله لا يُعذب إلا من يستحق،حتى نفهم كلمة، ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: 118]، بعض الناس يقول: الله يعذب من يشاء، لا، يعذب من يستحق، من يشاء نعم، لكن ممن يستحق التعذيب؛ لأنه لو عذب من لا يستحق هذا ظلم، والله منزه، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46].

فإن عذبهم؛ فإنهم يستحقون العذاب والجزاء، وإن غفر لهم، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المائدة: 118]، كلمة **"غفر"** دلت على أنهم عندهم ذنوب، وأنهم يستحقون العذاب، لكن الله تجاوز عنهم، ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118].

لما قال: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118]، يعني تغفر بعزة وقوة وحكمة، لا تغفر عن ضعف، بعض الناس يتجاوز ويتسامح مع الناس لأنه ضعيف، لكن الله لا، الله يتسامح مع قوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعد هذه الإجابة والحوار الذي دار بين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبين الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ﴾ [المائدة: 119]، يعني يوم القيامة؛ لأن كلّ الحوارات هذه يوم القيامة، ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: 119]، من صدق مع الله، وآمن، واتبع شرعه، ولم يراوغ في شرعه، ولم يتحايل، ولم يتلاعب في شرعه، وصدق وأقبل على الله بقلب صادق وإيمان صادق ولسان صادق فهذا الصدق ينفعه.

قال: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: 119]، صدق بالإيمان، والقول، والفعل، ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]، والنتيجة، ينفعهم هذا الصدق، فيثمر ماذا؟ أن الله يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

قال: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [المائدة: 119]، خالدين يعني مقيمين فيها لابثين فيها أبدًا، لا يُخرجون منها، في نعيم مقيم، وفوق ذلك فوق دخول الجنة ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: 119]، فالله قد رضي عنهم، أدخلهم الجنة لأنه رضي عنهم، وأنعم عليهم بهذه النعم فرضوا بما منحهم الله وأعطاهم من هذه النعم العظيمة.

قال الله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: 119]، هذا هو الفوز العظيم، الفوز بدخولك الجنة، ورضا الله أن يحل عليك رضوانه، وبرؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي هي فوق كلّ نعيم في الجنة، التي هي رؤية الله ألذ شيء في الجنة، هذا هو الفوز العظيم الذي ليس فوقه فوز.

قال الله في خاتمة الآيات: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة: 120]، قدرته وملكه واسع، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: 120]، فيه إشارة ولمحة إلى أن عيسى داخل في هذا الملك، يعني كأنه يقول: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: 120]، وعيسى أيضًا وأمه

فيه، حتى يعرف النصارى العقيدة الصحيحة أن عيسى مخلوق، وأن أمه مخلوقة، وأنهم في ملك الله تحت تدبيره.

قال: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: 120]، ولذلك خلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من غير أب، فهو على كلّ شيء قدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، خلق آدم من غير أم ولا أب، وخلق عيسى من غير أب، فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

بهذا ننتهي ولله الحمد والمنة والتوفيق والسداد من هذه السورة العظيمة التي عشنا معها مدة من الزمن، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلها حجة لنا جميعًا، وأن ينفعنا بها، وأن يبارك لنا في أوقاتنا، وفي أعمالنا، إن شاء الله لقاءنا القادم بإذن الله ننتقل إلى السورة التي تليها وهي **"سورة الأنعام"** بإذن الله.

نسأل الله التوفيق والسداد،، وبارك الله فيكم وجزآكم الله خيرًا.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الأنعام)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(129)
(الأنعام 1 - 3)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا المجلس مجلس القرآن الكريم، ودرسنا الأسبوعي في مثل هذا اليوم نجلس هذه الجلسة المباركة مع القرآن الكريم قراءة وتفسيرًا وتدبرًا وتأملاً في كتاب الله وفي آياته، هذا اليوم هو اليوم التاسع والعشرون من شهر جمادى الأولى من عام 1445 من الهجرة.

في لقاءنا الماضي أنهينا ولله الحمد بتوفيقه ومنه ونعمته تفسير **"سورة المائدة"**، واليوم نستهل بإذن الله السورة التي تليها وهي **"سورة الأنعام"**، **"سورة الأنعام"** تعد من طوال السور.

القرآن قسمه العلماء إلى أقسام:

القسم الأول: **"السور الطوال"** وهي السبع الطوال **"البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام"** إلى آخره.

القسم الثاني: **"المئين"** وهي الآيات التي أو السور التي تبلغ آياتها من المائة وما يقارب ذلك، تسمى بـــ **"المئين"**.

القسم الثالث: **"المثاني"** المثاني هي التي آياتها تقارب السبعين تزيد أو تقل، سميت مثاني لأنها تثنى يعني تُكرر كثيرًا.

القسم الرابع: **"المفصل"** المفصل يبدأ من سورة **"ق"** إلى الناس، أو من **"الحجرات إلى الناس"**، سمي بالفصل لكثرة الفصل بالبسملة هذه أقسام القرآن.

"الأنعام" تُعد من السور الطوال، **"الأنعام"** سورة مكية، يعني أنها نزلت بمكة، وهي السورة الوحيدة التي نزلت كاملة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآياتها مائة وستة وسبعين آية نزلت كاملة في ليلة واحدة.

ونزلت على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشيعها سبعون ألف ملك حتى امتلأت جبال مكة من الملائكة، تشييعًا لهذه السورة وتعظيمًا لشأنها.

لماذا يحصل هذا الشيء؟

لأن هذه السورة العظيمة الجليلة وأنت تقرأها وتدبر معانيها هي تقرر عقيدة التوحيد والإيمان بالله الذي يفصل بين المؤمن والكافر، والذي يفصل بين أهل النار وأهل الجنة، وعقيدة التوحيد التي خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخلق كله لأجلها، خلق السماوات والأرض، وخلق الناس ليعبدوه وحده لا شريك له، وخلق الجن والإنس ليعبدوه.

والتوحيد قامت السماوات والأرض والعدل على توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأرسل الرسل كلهم وهم يقولون لأقوامهم: **"اعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا"** كلهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59].

فقضية التوحيد قضية مهمة جدًا، ولا يقول الإنسان: أنا مسلم وأنا مولود بين المسلمين، لابد أن يعرف معنى التوحيد، ويعرف عقيدة التوحيد حتى لا يخدشها شيء مما لا يدري عنه، فالإنسان يحافظ على التوحيد وعلى أهمية التوحيد، فهي البطاقة التي تدخلك الجنة.

هذه السورة **"سورة الأنعام"** افتتحها الله بالحمد، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 1]، والسور التي افتتحها الله بالحمد في القرآن خمس سور، سورة الفاتحة، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، والأنعام، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، والكهف، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: 1]، وسورة سبأ، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: 1]، وفاطر، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: 1].

وأنت تقرأ القرآن تتأمل وتتعجب، أول سورة في القرآن **"الحمد"** ثم المنتصف الكهف **"الحمد"** ثم الربع الأول الأنعام **"الحمد"** ثم الربع الأخير **"سبأ"**، و**"فاطر"** كأن القرآن قُسم إلى أربعة أقسام كلها تتفتح بالحمد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: 2].

وتلاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفتتحها بأنه يخبرنا جميعًا يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: 2]، يعني ما ينتظر من فلان وفلان أن يحمده هو حمد نفسه قبل خلق السماوات والأرض وقبل خلق الناس، ولم يحتج إلى أحد يحمده، وإنما هو يعلمنا كيف نحمده.

لما يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: 2]، كأنه يقول: **"احمدوا الله"** هذه السورة يعني **"سورة الأنعام"** جاءت بعد أي سورة؟ بعد **"سورة المائدة"**، المائدة يوضع عليها الطعام، والأنعام طعام، فكأن هناك مناسبة لما تُذكر المائدة ويذكر عليها الأنعام، كأن في ترابط وتناسب بين السورتين.

هذه السورة **"سورة الأنعام"** على طولها إذا قرأتها وتأملتها وأنا أقول الحقيقة دائمًا أي إنسان يريد أن يقوي علاقته مع القرآن الكريم ويربط نفسه ويكون صاحبًا ومصاحبًا للقرآن؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»**، ما قال: **"شفيع للناس وللمؤمنين"** لا، بل لأصحابه الذين يلازمونه.

فأنت تلازم تضع لك ورد يومي لا تتنازل عنه مهما كانت الأعمال والأشغال، تجعل ورد يومي للقرآن تصاحب القرآن، فإذا صاحبته صاحبك في الدنيا، وصاحبك في القبر، وصاحبك في عرصات يوم القيامة، وصاحبك في جنات النعيم، ويقال لك في الجنة وأنت تدخل الجنة: **«اقرأ وارتقي ورتل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها»**.

حتى قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **"لا حد لقراءته حتى ينتهي"** يعني كم آية؟ ستة ألاف وزيادة وأنت تقرأ وترتفع.

فأنت لما تأخذ **"سورة الأنعام"** أنا أنصحك أنك تأخذها بهدوء وتقرأها تتمعن فيها تنظر فيها، لا تقرأها قراءة سريعة، القراءة السطحية هذه ما تستفيد منها أبدًا، لابد أن تقف وتتأمل كما أمرك الله، تدبروا آيات الله.

هذه السورة لما نقرأها ونرجع إليها مرتين ثلاث نجد أن السورة انقسمت قسمين:

القسم الأول: يتعلق بـــ **"التوحيد"** وتقرير التوحيد، والرد على أولئك المشركين المعاندين الذين يعبدون الحجارة والأشجار، ويعبدون ما لا ينفع ولا يضر، الله يخاصمهم ويجادلهم، ويحاجهم، ويقيم عليهم الحجة بأنه لا معبود بحق إلا الله، نصف السورة كله يعالج هذه القضية علاج التوحيد، حتى أنك لما تقرأ هذه السورة تجد أن الله ذكر فيها قصة واحدة، هذه القصة الواحدة ما هي؟ قصة إبراهيم مع قومه، في أي شيء؟ في تقرير التوحيد.

كأن هذه رسالة إلى أهل مكة وهم يقولون: **"إبراهيم هو الذي بيت ونحن ننتسب إلى إبراهيم"** هذا إبراهيم يحارب الشرك ويُقرر التوحيد وهو إمام الحنفاء، فقصته في هذه السورة يقول لأبيه آزر يعني يناقش أبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام: 74]، فهو يحارب حتى أبوه، حتى والده يناقشه في العقيدة والتوحيد.

النصف الأول: **"في تقرير التوحيد"**.

والنصف الثاني: **"أيضًا مناقشة المشركين فيما يدعونه من الحلال والحرام"**.

الأنعام ذكرت في السورة ست مرات، ولذلك سميت **"سورة الأنعام"**، وأتوا على الأنعام وبدؤوا يحللون ويحرمون من تلقاء أنفسهم ويفترون على الله الكذب، ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: 138]، ﴿هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: 139]، وبدؤوا يحللون ويرحمون من تلقاء أنفسهم.

فالسورة تناقشهم في قضية: **"التوحيد والتشريع"** الواحد الأحد هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا معبود بحق إلا هو.

القضية الثانية: **"أن الذي يشرع ويحلل ويحرم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"** أما تأتي أنت وتقول: هذا حلال وهذا حرام، هذا لا تملكه أنت، هذا حكم الله، فالسورة تقرر هاتين المسألتين المهتمين،**"التوحيد"** و**"أن المشرع والحاكم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"**.

نبدأ في هذه السورة بآياتها: **"الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتحها بالحمد"**.

لو سألك واحد وقال:

✍ أنت تقرأ "الحمد" كلّ يوم يمكن سبعة عشر مرة أو أكثر من سبعة عشر مرة، تقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2]، كم مرة؟

أنا أسألك سؤال:

✍ ما معنى "الحمد"؟

✍ لما تقول: "الحمد لله" ما معناه؟

من الصعب أن تأتي وتقرأ سورة الفاتحة وتقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 2 الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 2، 3]، وأنت ما تدري ماذا تقول؟ لابد أن تعرف ماذا تقول؟

الحمد هو: **"الثناء على الله بصفات الكمال"** يعني الحمد هو **"المدح"**، أنت تقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 1]، تمدحه وتثني عليه بصفات الكمال وتنزهه من صفات النقص هذا معناه، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 1]، توحد الله بهذه الكلمة.

لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 1]، معناه جميع المحامد وأنواع الحمد كلها لله لا لغيره؛ لأنه هو الذي يستحق الحمد، وهو الذي يستحق أن يُحمد في كلّ وقت، ولذلك ابتدأ الله بقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 1]، لا لغيره.

والآية هذه لما تكون خبر يخبرنا بها، فهي أمر وتعليم لنا، كأنه يقول: **"احمدوا الله على أن الله فعل كذا وكذا"**.

ثم تلاحظ أن هذه السورة قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 1]، طيب الحمد لله على أي شيء؟ قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1].

إذًا خلق السماوات والأرض نعمة؟

نقول: نعمة عظيمة، الذي خلق السماوات سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورفعها بغير عمد، وجعلها سبعًا طباقًا، وكلّ طبقة أعلى من الأخرى بينها مسافة خمسمائة سنة من غير عمد، هذا خلق عظيم يدل على أنه هو القوي، وهو الواحد، وهو الملك، وهو الذي ينبغي أن يُفرد بالطاعة والعبادة.

وخلق الأرض بهذه السور بجمالها وحسن بهائها وجبالها وأنهارها وأشجارها، وخلقها سبع كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 12].

فالأرض مخلوقة، سواء أنت اطلعت على هذه السبع، أو لم تطلع، أو وصل علمك إليها أو لم يصل، أنت تؤمن بالقرآن، أن تؤمن بأن الله يقول: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: 12]، فهذا لابد أن نؤمن به.

قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الأنعام: 1]، نحمده على خلقه السماوات والأرض التي تدل على نعمته، وعلى ملكه، وعلى تفضله على عباده، وإنشائه هذا الإنشاء البديع، كلّ هذا يدخل في نحمده عليه.

وقال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: 1].

كيف جعل الظلمات والنور؟

✍ طيب لماذا ما قال: "خلق الظلمات والنور" لماذا قال: "جعل"؟

في الأول قال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، لما جاء عند الظلمات والنور ما قال: **"خلق"**، وإنما قال**"جعل"** لابد أن نفهم؛ لأنه في فرق بينها، وإلا لو لم يكن هناك فرق لكان قال الله: **"خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور"**.

نقول: لما كانت الظلمات والنور منبثقة عن غيرها، يعني متخلق عن غيرها، يعني هي ليست منفصلة واحدها وإنما هي ناشئة عن غيرها، لو جاءك واحد وقال: النور في السماء من أين جاء؟ نقول: من الشمس ولا من القمر.

إذًا هو جاء من شيء آخر، فلما كان متكون من شيء آخر قال: **"جعل"** فـ **"جعل"** غير **"خلق"**، قال: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: 1].

طيب الظلمات مثل ماذا؟

قال: مثل **"الليل"**، الليل ظلمة، والبحر ظلمة، والبطن كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: 6]، ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، الظلمات معروفة، والنور مثل الشمس، ومثل القمر، ومثل هذه الإضاءة الموجودة أمامنا، كلها داخلة في النور.

ثم لا يغيب عنك أن هناك ظلمات ونور غير هذه الأشياء الحسية التي تشاهدها أنت، مثل: **" ظلمات الجهل، ظلمات الكفر، ظلمات الضلال، البدع، المعاصي"** هذه كلها ظلمات، ظلمات في الوجه وفي القلب، والنور **"نور الطاعة، نور الاستقامة، نور القرآن، نور الهداية"** هذا نور.

لو سألك واحد وقال:

الله قال: "الظلمات" وقال: "النور" طيب لماذا مجمع الظلمات وأفرد النور، لماذا ما قال الأنوار؟

نقول: لأن الظلمات كثيرة، ظلمة الجهل، وظلمة الضلال، والبدع، والكفر، والشرك، هذه ظلمات كثيرة، وأما الحقّ واحد، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1].

"ثم" هذا حرف عطف لكنه يفيد التراخي، يقول: الله خلق هذه الأشياء كلها وخلق غيرها في بديع خلقه، لكن مع الأسف أن الكفار يرون آيات الله في الكون ثم ينصرفون عنها ويعبدون غيره، وهذا مع الأسف.

كيف تعرف آيات الله أمامك وتعرف الخلق؟

لو سألت الكافر الملحد والمشرك قلت: من خلقك أنت؟ مثلما سأل الله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: 87]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25].

تعرفون أن الله هو الخالق، هو الذي خلقكم وخلق السماوات وخلق الخلق كله، كيف تعبدون غيره؟ تعبد حجر أو شجر ما يسمع ولا يعقل، أين عقلك؟! وتذهب إلى الأموال وتطوف حولهم وتقرب لهم القرابين وتدعوهم يا فلان يا فلان وهو ميت؟! وتترك الذي يسمعك، وتترك الذي يُبصرك، وتترك الذي يدعوك يقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 186]، تترك هذا الطريق وتذهب إلى هذه الطريق؟!!

قال: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنعام: 1]، كفروا بأي شيء؟ كفروا بربهم، وكفروا بآياته، ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]، يعدلون يعني يميلون عن طاعة ربهم إلى طاعة الشيطان وإلى الأصنام، ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]، يعني يميلون عن طاعة الله، أو معنى ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]، يعني يساوون من العدل وهو المساواة.

يساوون المعبودات هذه الأصنام بالله، كيف تساوي بالله؟! هذه أصنام تساوى بالله؟! الله يخلق وهم لا يخلقون، ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: 17]، ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: 11].

ما خلقوا ولا ذباب، ولو اجتمعوا له ما يخلقون، ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: 73]، ما لهم أي تصرف في الكون.

يقول بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بيّن لك خلق السماوات والأرض والظلمات والنور قال بعدها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [الأنعام: 2]، خلقكم أنتم، من الذي خلقك حتى تعبد غيره؟ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: 2].

لما قلت لك: السورة لما تقراها أنت تقرأها بتمعن، وتقرأها بتدبر؛ لأنها تزيدك إيمان، هذه تربيك، تربيك وترفع إيمانك، تزيد إيمان عند الله، هذه إيمانيات عظيمة، شوف هذه الآيات العظيمة في الكون تدل على أن الله هو الواحد.

يقول: ﴿هُوَ الَّذِي﴾ [الأنعام: 2]، يأتينا في السورة كثير **"هو"** ، ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ [الأنعام: 60]، يدل على أنه هو المنفرد بالملك.

قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [الأنعام: 2]، أيها البشر، خلقكم من أي شيء؟ قال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: 2].

طيب أنت مخلوق من طين ولا من ماء مهين؟

✍ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبرنا قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [المرسلات: 20]، فكيف يقول: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: 2] ؟

نقول: خلق أباكم، الخلق الأول أصلكم أبوكم آدم مخلوق من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، وهذا الخلق الأول، ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام: 2]، أي خلق أصلكم من طين.

لو جاء واحد وسألك وقال:

✍ أنا يا أخي أقرأ في القرآن، الله أخبر أن آدم مخلوق من تراب، وهنا يقول: طين، ومرة يقول: ﴿صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: 14]، ومرة يقول: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26]، ما فهمت هذا الشيء؟

نقول: خلقه من تراب، والتراب إذا وضع عليه الماء أصبح طينًا، يعني التراب تحول طين، ثم الطين إذا طُبخ أصبح حمأ مسنون اسود، فإذا تُرك ونشف أصبح صلصال كالفخار، هذه أحوال وأطوار مر بها آدم مثلما أنك مررت بأطوار **"نطفة، علقة، مضغة، عظام، ثم كسا الله عَزَّ وَجَلَّ العظام لحمًا"**، قال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

قال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ [الأنعام: 2]، أنتم خلقكم الله، وخلق أصلكم من طين، وخلقكم من ماء مهين، وكلّ واحد مخلوق له أجل، يعيش في هذه الدنيا لمدة معينة ثم يذهب، لابد.

قال: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ [الأنعام: 2]، أي أعمار محددة عند الله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أي مخلوق في بطن أمه إذا مضى عليه مائة وعشرين يوم أرسل الله إليه ملك وأخبره بكتب رزقه وأجله، وعمله، وشقي، أو سعيد، ففي بطن أمك قضى الله أجلك، ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ [الأنعام: 2].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: 2]، ما هو الأجل المسمى عنده؟ هو أجل الدنيا كلها، يعني أنتم لكم آجال وتذهبون، ويأتي بعدكم أناس لهم آجال ويذهبون، إلى أن تنتهي الدنيا، ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: 2]، هو نهاية الدنيا، وقيام الآخرة.

✍ لماذا قال: "عنده"؟

نقول: لأن هذا الأجل ما أحد يعرفه، قيام الساعة لا يعلمها إلا الله، متى الساعة؟ عند الله علمها، ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: 63].

ثم بعد هذا التقرير الواضح: **"أنك مخلوق، وقد قدر الله لك أجل"** يقول: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ [الأنعام: 2]، أيها المشركون ﴿تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 2]، تشكون، تشكون في أي شيء؟ هم ما شكوا في خلقهم، لو تسأل أي من المشركون تقول: من خلقك؟ لقال: الله.

يمترون بأي شيء؟

نقول: يشكّون بالبعث، والجزاء، والحساب والجنة والنار، ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: 49]، ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: 36]، ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: 3]، كانوا يكفرون باليوم الآخر، ولا يؤمنون به، ولا جنة ولا نار ولا أي شيء، ثم قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 2]، أي تشكون بالبعث والجزاء والجنة والنار.

كلّ هذه الآيات تقرر التوحيد، وتزيدك إيمانًا، وتعلقًا بربك، ومحبة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تعرف أن الله فضلك على خلق كثير، أنعم عليك بالإيمان والهداية، والطاعة والصحة والعافية، فهذا تجعلك تحب الله وتحب طاعته، وتُقبل على طاعته.

قال بعدها: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 3].

كيف الله في السماوات وفي الأرض هذه فيها إشكال؟

لو يسألك أي واحد:

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]، الله مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، فوق السماوات السبع، كيف يكون في السماوات ويكون في الأرض أيضًا؟

كيف نحل هذا؟

نقول: معنى ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 3]، هو الله أي هو المعبود في السماوات، الملائكة تعبد الله في السماوات وتخضع له، وتستجيب له راكعة ساجدة، وفي الأرض عباده الصالحون الأنبياء والصالحون يعبدون ربهم، فالله معبود في السماوات، ومعبود في الأرض، وهو مستوٍ على عرشه بائن من خلقه.

قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الأنعام: 3]، يعني معبود في السماوات، ومعبود في الأرض، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: 3]، يعني لا يخفى عليه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: 75].

قال: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ﴾ [الأنعام: 3]، كلمة **"يعلم"** فعل مضارع يدل على الاستمرار، يعني علمه لا يقف عند حد، وقال: ﴿سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: 3]، قدم السر لأن السر قد يخفى على كثير من الناس، لكن على الله لا يخفى، بل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم السر وأخفى من السر، يعني السر الذي في نفسك الآن تفكر فيه وتحدث نفسك هذا سر ما أحد يعلمه إلا أنت، لكن في شيء أخفى من السر، وهو الذي لم يخطر ببالك أن تفكر فيه الآن، يعني ما تدري ولم يخطر في بالك أشياء ستفكر فيها بعد حين، الله يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنك ستفكر فيها بعد حين، وستكون سرًا وجهرًا.

ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 3]، يعلم ما تكسبون من الأعمال، كسب في الدنيا والآخرة، حتى أعمالك الصالحة أو الأعمال السيئة الله يعلمها، وإذا علمها أحصاها وكتبها عنده في كتاب ثم يُخرج لك هذا الكتاب يوم القيامة، صحيفة تقرأ فيها كلّ أعمالك، ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49].

طيب لا نطيل، نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل هذه الآيات العظيمة الجليلة.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(130)
(الأنعام 4 - 16)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ اليوم السابع من الشهر السادس جمادى الآخرة من عام 1445من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم في مثل مغرب هذا اليوم من كلّ أسبوع نجتمع على كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قراءةً وتدبرًا وتعلمًا وتعليمًا.

ذكرنا في لقاءنا الماضي الحديث عن **"سورة الأنعام"** وهي من السور الطوال التي تتحدث عن تقرير العقيدة عقيدة التوحيد، وحقيقة موضوع العقيدة عقيدة التوحيد وإن كان لله الحمد قد منّ الله علينا، جميعًا معرفة بالتوحيد والحرص عليه، واجتناب الشرك، إلا أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم وأن يزداد علمًا، ويعرف فضل الله عليه، أن الله من عليه بالعقيدة الصحيحة.

فهذه السورة تقرر وتبين العقيدة عقيدة التوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتحذير مما يضاد ذلك مما يقدح في التوحيد.

وقفنا في لقاءنا الماضي عند الآية الرابعة من هذه السورة، وهو قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: 4].

من هم؟

هم: المشركون الكفار الذين لا يريدون ما يكون هداية لهم ونجاة لهم في الدنيا والآخرة، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن في الآيات السابقة أنه المستحق للعبادة، وأنه الرب الخالق المدبر والمتصرف في الكون، وأنه خالق السماوات والأرض، وجاعل الظلمات والنور، وأنه هو الذي خلق الإنسان وجعل له أجلاً، وهو المعبود في السماوات والأرض، ومع بيان هذا كله أن هؤلاء المشركين ما تأتيهم من آية من آيات ربهم أي آية من آيات ربهم تدل على وحدانيته وعلى رحمته وفضله وإحسانه على عبيده إلا كانوا عنها مُعرضين.

قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ﴾ [الأنعام: 4]، سواء كانت هذه الآية آيات من القرآن الكريم أو الآيات الحسية التي يشاهدونها أمامهم، يعني لا تتصور أن الآيات هي قرآن كريم فقط، الآيات الكونية يعني ما من شيء على هذه الأرض إلا آية تدل على وحدانيته، ولذلك يقول الشاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدل على أنه واحد

في كلّ شيء، أنت تنظر في نفسك آيات الله فيك، وآيات الله في الأرض، وآيات الله في السماء، فما تأتيهم من آية من آيات ربهم الذي خلقهم وأوجدهم ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: 4].

الأسلوب هذا يدل على أن عندهم إعراض شديد، ما يأتيهم أي آية من الآيات صغيرة أو كبيرة لا يلتفون عليها، ولا ينظرون فيها، لماذا؟ ما السبب؟ اقرأ الآية التي بعدها.

قال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: 5]، لما جاءهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالحق، وجاءهم بالرسالة والوحي، كان موقفهم أنهم كذبوا وردوا رسالته، واتهموه بأنه يفتري على الله،

وأنه يكذب على الله، وأنه ساحر، وأنه شاعر، وأن ما معه سحر، وبدؤوا يحذرون الناس، كلّ هذا تمسك بعاداتهم وما وجدوا عليه آباءهم، وإلا ينبغي لهم أن ينظروا ويتأملوا.

قال: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: 5]، الله يقول: حقّ وأنت تُكذب به؟! كذبوا بالحق لما جاءهم فهددهم الله وخوفهم، قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: 5].

لما استهزؤوا وسخروا من الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى وصل بهم الأمر أنهم بدؤوا يتحدون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يتحدونه يقولون: إن كنت صادقًا وأنك رسول من الله فأتنا بالعذاب الذي تهددنا به، حتى قال قائلهم: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32].

كذبوا بالحق ويستهزئون، فقال الله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِم﴾ [الأنعام: 5]، تهديد لهم وتخويف ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ [الأنعام: 5]، أخبار، ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: 5].

سيأتيهم هذا الاستهزاء وقد آتاهم، جاءهم، سُحبوا في قليب بدر، أتوا بخيلائهم وخرجوا من مكة، وقالوا: حتى تسمع بنا العرب، وننحر الجزور، ونقتل محمد وأصحابه، حتى وصلوا إلى هذا المكان، وكان هذا المكان هو حتفهم وهو نهايتهم، حتى قُطعت رقابهم وألقوا في قليب بدر، هذا استهزاءهم وسخريتهم، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: 5].

ثم بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى يخبرهم أن هذا التهديد والتخويف ليس مجرد تهديد وتخويف له حقائق، وإذا أردت أن تعرف حقائق هذا التهديد انظر إلى التاريخ الماضي، ولذلك قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: 6].

يقول: قرون ماضية أهلكناهم، ما رأوا، ولا سمعوا، ولا علموا، من الذي أهلك قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعون، من الذي أهلكهم؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [الأنعام: 6]، و**"كم"** هنا تفيد التكثير، يعني أمم كثيرة، الله قص علينا بعض القصص، يقول: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164]، يعني هناك أمم كثيرة هلكت بسبب كفرهم، وردهم رسالات ربهم.

هذه الرسالات رحمة عليهم، ونجاة لهم، وسلامة، ويحيون بها الحياة التي يريدونها، وهم لا يريدون ذلك، ويبقون على جهلهم، وكفرهم، وعنادهم، ورد الرسالات، والنتيجة قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [الأنعام: 6]، يعني قرون ماضية، وأمم ماضية، وأقوام ماضية.

قال: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ [الأنعام: 6]، يقول: أنتم يا أهل مكة، يا كفار قريش، الأمم الماضية الله مكن لهم في الأرض، جعل لهم ما يتمكنون به في الأرض أكثر منكم، من الأموال، والعدة، والعتاد، والأولاد، والصناعات التي لم توجد عندكم، ولذلك قال: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ [الأنعام: 6].

وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ [الأنعام: 6]، يعني أنعمنا عليهم بالنعم العظيمة، ورغد العيش، السماء تنزل عليهم مدرارًا يعني الأمطار تدر عليهم، سيول وأمطار قوية ينتفعون بها، ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ [الأنعام: 6].

وزيادة على ذلك يقول: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ [الأنعام: 6]، يعني أنعم الله عليهم، والنتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام: 6]، يعني ما أهلكم الله إلا بسب الذنوب والمعاصي، لما أعرضوا عن طاعة ربهم، وأسرفوا على أنفسهم بالذنوب والمعاصي هذه هي النتيجة أهلكهم الله.

قال: ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 6]، تأتي أمة فتكفر وتعاند وتستكبر، فيهلكها الله، ويأتي بأمة أخرى وهكذا، وإذا أردت أن تتيقن هذا الأمر انظر ما حولك الآن، انظر ما حولك

الآن من الدول التي كانت في رغد من العيش، والآن في شدة وفقر وتفرق وقتال وخوف، هذا مشاهد أمامنا ما نشك فيه، كانوا في رغد من العيش، وأمن، وصحة، وعافية، لكن لما حصل ما حصل من إعراضهم سلط الله عليهم، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 118].

هذه سنة الله في الخلق، من أقبل على الله، وأخذ بطاعة الله، وبأوامر الله عاش عيشة هنيئة، ومن أعرض عن ذلك الله فإن له معيشة ضنكًا، فهذا سنة الله في الأقوام والأمم وفي الأشخاص؛ حتى لو كان شخصًا واحدًا، فهذا تهديد كله لأهل مكة لما جاءتهم الرسالة كفار قريش، وعاندوا ولم يقبلوا ذلك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ [الأنعام: 7]، المشركون لما جاءهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوحي وقرأ عليها الآيات كفروا ولم يقبلوا واعترضوا عليه، وقالوا: يا محمد إذا أنت رسول حقًا من عند الله أنزلنا علينا كتاب من السماء، مثلما نزل على موسى وعلى عيسى، أنت ما أنزلت علينا كتاب، ما رأيناه، نريد كتاب نتصفح ونشوف الأوراق حتى نؤمن، يعني ما منعكم من الإيمان إلا الكتاب نأتي به إليكم؟!

ولذلك قال الله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ [الأنعام: 7]، كتاب أوراق، ﴿فَلَمَسُوهُ﴾ [الأنعام: 7]، حتى يتيقنوا وما يشكون، هم الآن يشكون بالوحي يقولوا لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أين أتين بهذا الكلام؟ ما رأوا كتابًا نزل من السماء.

قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ [الأنعام: 7]، لو نزلنا عليهم كتاب ورأوه ينزل من السماء، ثم لمسوه بأيديهم، النتيجة ما هي؟ قال: ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنعام: 7]، لأنهم كفار ما يؤمنون، ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: 7]، يعني حتى لو أعطيناهم الآيات أمامهم محسوسة سيردونها؛ لأنهم لا يريدون الحقّ.

ولذلك قوم ثمود وهم قوم صالح لما ردوا رسالة صالح، قال: ماذا تريدون حتى آيتكم بآية؟ فخرجوا معه إلى الصحراء ثم أتوا إلى صخرة عظيمة صماء وقالوا: يا صالح إن كنت رسول من عند الله أخرج من هذه الصخرة ناقة عشراء، حامل في العاشر إن صادقًا.

فصلى ودعا ربه فانشقت الصخرة أمامهم ورأوها، وخرجت منها الناقة، هل يشك أحد في قدرة الله؟ ما أحد يشك في قدرة الله، وهذه آية، فظلموا وكفروا ونزل بهم العذاب.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمد جاءه أهل مكة وقالوا: نحن لا نؤمن بك ولا برسالتك حتى تأتينا بشيء محسوس مثل هذا أن ينزل علينا كتب من السماء، ومرة قالوا: نريد آية، قال: ماذا تريدون؟ فخرجوا معه إلى الصحراء فقالوا: هذا القمر في السماء، يا محمد إن كنت رسول من عند الله اشقق لنا القمر شقين فلقتين، هنا شق وهنا شق.

فقال لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أدعوا الله وينشق»**، فدعاء فانشق، ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ 1 وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ﴾ [القمر: 1، 2].

فشق لهم، فقالوا: سحرنا محمد، نفس الطريقة، ونفس المنهج، ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ [الذاريات: 53]، كلهم عل هذا المنهج، قالوا: محمد سحرنا، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذا كنت سحرتكم اسألوا الذين في الأسفار الذين يأتونكم بعد أيام»**، بعد يومين ثلاثة بعد أسبوع بعد شهر اسألوهم، قالوا لهم: في ليلة كذا وكذا ماذا حصل؟

فجاء أناس من السفر فسألوهم رأيتم القمر ينشق؟ قالوا: نعم، رأيناه انشق شقتين، قطعتين، قالوا: محمد سحرنا وسحر حتى الذين في الأسفار.

فالمسألة عناد، وكفر، وطغيان، وتكبر عن الحقّ، يعني احتجاجات باطلة، قالوا: نزل علينا كتاب من السماء نلمسه، ولم يؤمنوا، حتى لو نزلنا لن يؤمنوا.

ثم تحدوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: 8]، أنزل علينا ملك من السماء، الملك عظيم، خلقته عظيمة، ما يمكن أن تتصوره، ولا يمكن أن تقبلوه، يعني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما رآه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على صورته التي خُلق عليه له ستمائة جناح قد سد الأفق، سد ما بين السماء والأرض، كيف تتصورون أن يأتيكم ملك يخاطبكم.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: 8]، لو أنزل عليه ملك، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ﴾ [الأنعام: 8]، يعني أنزلنا ملك من السماء وجاءهم وخاطبهم ثم كفروا انتهى الأمر قضي الأمر سيهلكون، مثلما حصل لقوم صالح وغيرهم.

قال: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: 8]، لا يُعطون فرصة يمهلون خلاص، لو نزل ملك بصورته ليس في صالحهم؛ لأنهم سيكفرون؛ لأن المسألة مسألة عناد، سيكفرون، والنتيجة سيهلكون، سيعذبهم الله جميعًا.

ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا﴾ [الأنعام: 9]، يعني لو أنزلنا ملك من السماء، ﴿لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: 9]، يعني جعلناه في صورة رجل حتى تتقبلوه، مثلما جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صورة رجل **«شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر»**، وجلس إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسأله، والصحابة لم يعلموا، فقال: **«أتدرون من السائل؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا جبريل»**.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: 9]، لجعلناه رجل ثم نفس الشيء، يختلط عليهم الأمر ما يدرون هل هو ملك ولا رجل؟ لأنه جاء في صورة رجل فهم لا يدرون ما هذا؟

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما هو معلوم أشف نبي على أمته، وكان رحيمًا بهم، وكان يوصل إليهم هذه الرسالة بكل طرق الاجتهاد، وكان يبذل جهده، ويحزن عليهم، يشق عليه أنه يراهم يعاندون ويصادمون الدعوة ويكفرون به، فالله عَزَّ وَجَلَّ يسليه حتى تطمئن نفسه.

قال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: 10]، إذا كانوا يا محمد استهزؤوا بك فلا تحزن فقد استهزئ برسل من قبلك، استهزؤوا أقوام برسلهم.

قال: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: 10]، **"حاق"** يعني أحاط، ونزل العذاب بالذين استهزؤوا، ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ [يونس: 48]، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ [الأنفال: 32]، فنزلت بهم العقوبات، كلّ من أعرض واستهزأ وسخر فهو معرض نفسه للعقوبة.

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بلطفه ورحمته يأمرهم يقول: إذا أنت تشكون في رسالة محمد ولا تؤمنون بها فسيروا في الأرض، سافروا في الأرض وانظروا الأقوام التي هلكت، أنتم تشكون في الأقوام سيروا.

قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: 11]، اذهبوا واخرجوا وسيروا في الأرض، إذا سرتم في الأرض، تمشون في الأرض في أسفاركم للتجارة أو لغير ذلك، وأنتم مسافرون لا يغيب عنكم وأنتم في سيركم أن تتفكروا، وتنظروا نظر تأمل، كيف كان عاقبة المكذبين؟

أنتم الآن يا أهل مكة اخرجوا إلى الشام ستمرون بأقوام مثل مدائن صالح، قوم ثمود في الطريق، وأيضًا قوم لوط، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ 137 وَبِاللَّيْلِ﴾ [الصافات: 137، 138]، تمرون على كلّ هذه الديار، فلماذا لا تعتبرون بأن الله أهلكهم؟!

قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: 11]، كيف كان عاقبة المكذبين؟!

ثم قال: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 12]، لاحظ كلمة **"قل"** توجيه للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبلغ هذه الرسالة حتى يعرفوا حقيقتها.

قال: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 12]، من الذي يملك السماوات والأرض؟ من الذي خلق السماوات والأرض فهو الذي يملكها ويتصرف فيها؟

قال: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 12]، فهو يسأل ويُجيب، يعني لا ينتظر منهم جواب، وهم عندهم الجواب ويعرفونه، لو تسأل أي واحد كافر لا يؤمن بالله، وتسأل تقول: السماوات والأرض هذه من يملكها؟ والمشركون سئلوا، ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ 86 سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: 86، 87]، وسيقولون: المالك لها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

طيب إذا كانت السماوات والأرض كلها لله، السماوات كلها لله، والأرض كلها لله إذًا أنتم في هذه الأرض عبيد لله، مملوكين، يتصرف فيكم كيف يشاء فلماذا لا تعبدونه؟ قال: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 12].

ثم قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 12]، يعني رحمته وسعت كلّ شيء، حتى الكافر الله يرحمه بأن يجعل له حياة، يرحمه بأن يرزقه من الأرزاق، تجد كافر، ومعاند، ومشرك، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغدق عليه بالنعم، هذه رحمة، رحمة الله وسعت كلّ شيء وسعت المشرك والكافر، ووسعت الحيوان، ووسعت الجن والإنس، الطير والملائكة، هذه رحمة الله، رحمة الله وسعت حتى الجمادات، فكتب على نفسه الرحمة، على نفسه أن يرحم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومع ذلك لا يريدون رحمة الله، ويعرضون عن رحمة الله.

قال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 12]، ثم أقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قسمًا عظيمًا، قال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ [الأنعام: 12]، أي والله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنعام: 12]، يعني لم تخلقوا عبثًا، وإنما خلقتكم لعبادته، وسيجازيكم على أعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

قال: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الأنعام: 12]، هذا اليوم يوم القيامة لا يشك فيه أي عاقل، سيجمع الله الأولين والآخرين، كما خلقهم أول مرة فإنه يجمعهم، ويجازي كلاً بعمله، هذا قسم من الله تأكيد على أن الخلق أو على أن الجن والإنس لم يخلقوا عبثًا، وإنما خلقوا لعبادة الله لا لعبادة الأصنام، ولا لعبادة الحجارة، ولا الأموات؛ وإنما لعبادة الحي الذي لا يموت، وأن الله سيجمعهم يوم القيامة ويجازيهم، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: 7].

ثم قال: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 12]، الذين خسروا أنفسهم في الدنيا وسيخسرونها في الآخرة حقّ الخسارة هم الذين لا يؤمنون، أما المؤمنون فإنهم لن يخسروا في الدنيا، ولن يخسروا أيضًا في الآخرة.

ثم لا تزال الآيات مثلما ذكرنا في تقرير العقيدة والتوحيد، وانفراد الله بالخلق والتدبير والتصرف، وأن له العبادة.

قال: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 13]، يعني إذا كانوا هو له ما في السماوات الأرض، أيضًا له ما سكن في الليل والنهار، يعني كلّ ما كان سكن واستقر هو في ملك الله، الحيوان يستقر، والطيور تستقر في أماكنها، في الليل والنهار تسكن، والحيتان، وحيوانات البحار، وحيوانات البر، والإنسان، والجن، والإنس، كلهم في حكم الله، وتحت تدبيره وتصرفه.

قال: ﴿وَلَهُ﴾، لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 13]، ما سكن وما تحرك، ولكنه خص ما سكن لأنه هو الأظهر في الدليل والأوضح في الدليل، أن كلّ من يستقر ويذهب إلى بيته وإلى قراره وإلى مستودعه، وإلى مكانه، الله يعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعلم استقراره جَلَّ جَلَالُهُ.

قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 13]، يسمع أصواتهم ولو استقروا في أماكنهم، ولو اختفوا تحت الأرض، وعليم بأحوالهم لا يغيب عنه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإذا كان هذا الأمر على هذا الوضوح، وأنه له ما في السماوات، وله كلّ شيء ،وله ما سكن، فالنتيجة ما هي؟ قال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: 14]، هل هناك وليًا ينصرك ويتولى أمرك غير الله؟ كيف أتخذ وليًا غير الله وهو فاطر السماوات والأرض؟ الذي أوجدها، وفطرها من العدم.

قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ [الأنعام: 14]، العباد يطعمهم، ويطعم الحيوانات، ويطعم الإنسان، ويطعم العباد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويسوق لهم الأرزاق.

قال: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: 14]، هو لا يحتاج، هو الغني، ليس بحاجة إلى طعام أو شراب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: 14]، أنا جئتكم بهذه الرسالة وأمرني الله أن أكون أول من أسلم فكونوا تبعًا لي.

قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 14]، الله أمرني بالإسلام، يعني الانقياد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وطاعته، وعدم الشرك به، ولذلك الطاعة والتوحيد وعبادة الله هي الأمن له في الدنيا، والأمن له في الآخرة؟

ولذلك قال: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأنعام: 15]، يعني يقول: أخاف يوم القيامة إذا بعثني الله وأنا قد عصيته أخاف من هذا اليوم العذاب الأليم الذي سيواجهني يوم القيامة، وكلّ هذا تذكير لهم، فهو يحدث عن نفسه، وهو يريد أن ينبههم على هذا الشيء.

ولذلك يقول: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 16]، العذاب، إذا صرف الله عنك العذاب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [الأنعام: 16]، يوم القيامة، ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ [الأنعام: 16]، أي رحمه الله، ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام: 16].

إذا صرف الله عنك عذاب النار يوم القيامة، ولذلك من دعاء المؤمنين، ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: 65]، أي ملازمًا ملازمة شديدة، فهم من ضمن دعائهم أن يصرف الله عنهم عذاب النار، فإذا صرف الله عنك عذاب النار سلمت ونجوت في الآخرة، يقول: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الأنعام: 16].

ذلك هو الفوز المبين، نسأل الله أن يرحمنا وأن يصرف عنا العذاب، وأن يرزقنا وإياكم الهدى والتقوى، نقف عند هذا القدر وإلى لقاء قادم.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(131)
(الأنعام 17 - 26)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، اليوم الرابع عشر من الشهر السادس من عام 1445 للهجرة.

مجلسنا المبارك الذي نحتسب على الله أن تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين في هذا المجلس المبارك عنده في الملأ الأعلى بالذكر الحسن، وهو مجلس من مجالس القرآن الكريم، وخيركم خيركم وأفضلكم من تعلم القرآن وعلمه.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، وفي **"سورة الأنعام"** التي جلسنا معها في لقاءات ماضية، ووقف بنا الكلام عند الآية الثامنة عشر من السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17].

هذه الآية لما تقرأها تزرع في نفسك وفي قلبك ماذا؟ اليقين بأن الشافي والرازق والمتصرف والمدبر للخلق كله هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيجعلك تتعلق بربك تعلقًا قويًا، ويزداد إيمانك وتصديقك برب العالمين؛ بأنه القادر على كلّ شيء.

قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: 17]، مرض، فقر، هم، غم، من الذي يزيل عنك؟ هل يزيله عنك أحد من المخلوقين؟ ما يستطيع، ولو كان أمهر الأطباء إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، الطب سبب؟ نعم، لكن الشافي في الحقيقة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: 17]، أي ضر كان قويًا أو ضعيفًا مهما كان الضر فلا كاشف له أبدًا إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه الآية مثلما ذكرنا تربي في نفسك أن الله هو الواحد في هذا الكون كله، هو الإله، هو الرب، هو الرازق، هو المتصرف في هذا الكون، هو المدبر لهذا الكون.

هذه الآية تجعلك تتوكل على الله حقّ توكله، إذا عرفت أن الذي يكشف الضر هو الله لن تتوكل على أحد من المخلوقين أبدًا، تتوكل وتفوض أمرك إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإنه هو النافع الضار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهو الذي يجب علينا أن نتوكل عليه؛ لأنه هو يجلب الخيرات لنا، ويصرف عنا الشر، يعني الكثير من الناس الآن يعيشون بعيدًا عن هذه الآية، وبعيدًا عن هذه الحقيقة؛ حتى من الشباب الصغار ينبغي أن يربوا هذا على الأمر، أن تتعلق قلوبهم برب العالمين، ونربي فيهم أن الشافي والنافع وأن الذي يكون معك في حياتك هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن احفظ الله يحفظك، تعلق بربك واقترب من الله، والله أسرع، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحديث القدسي: **«من أتاني يمشي أتيته هرولة»**، الله أسرع منك في مثل هذا الشيء، وفي قبول هذا الأمر.

قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ﴾ [الأنعام: 17]، فلا كاشف أبدًا ، لن يكشفه أحد أبدًا إلا هو، وهذه الآية تمسك بها من تمسك ووجد أثرها، أُناس أصيبوا بأمراض مستعصية، أمراض بحثوا وذهبوا يمينًا وشمالًا ودفعوا الأموال الطائلة ثم رجعوا وقالوا هذه الآية، قرؤوها على

أنفسهم، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ﴾ [الأنعام: 17]، فكشف الله عنهم، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: 62].

قال: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 17]، هذا ضر ومرض وفقر وهم وغم لا يزيله إلا الله، كذلك في المقابل، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17].

إذا أراد الله لك خيرًا من صحة، وعافية، ومال، وذرية، وزوجة، بيت، دار، أي شيء يهيئه الله لك ما أحد يستطيع أن يرده أبدًا، لا مانع لما أعطيت سبحانك، لا أحد يستطيع أن يرده، يعطيك الصحة ما أحد يستطيع أن يصيبك بمرض أبدًا إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقضائه وقدره، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17].

قال في أول الآية: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: 17].

لما نسألك ونقول: هذا الضر ما هو الذي يقابله؟

تقول: الضر والنفع، لكنه ما قال: **"نفع"** بل قال: ﴿بِخَيْرٍ﴾ [الأنعام: 17]؛ لأن الخير أعم، حتى في الأول لما يقولك: **"خير"** المفترض أن يقابل الخير الشر، ولكن الله ما قال: **"شر"** وإنما قال: ﴿بِضُرٍّ﴾ [الأنعام: 17]، يصيبك بضرر من الأضرار، ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17].

وفي سورة أخرى قال: ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: 107]، ما أحد يستطيع أن يرد فضل الله عَزَّ وَجَلَّ، هذا فضل من الله.

قال: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17]، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، تمسك بهذه الآية في حال الضراء والسراء، إن أصابك ضر تمسك بها أو تعلق بها فيزيل الله عنك الهم والغم والمرض والفقر وغيره.

وإن أنعم الله عليك بالخير فتمسك بها واعرف أنك أنت لست شيء، لولا فضل الله عليك، لولا أن الله تفضل عليك بالصحة، أنت من أين تأتي بالصحة، والمال، والولد، والذرية، وإزالة الهم عنك وانشراح الصدر، وطمأنينة القلب بالإيمان والطاعة، حتى ما يرزقك الله من الطاعات والاستقامة، وحضور المجالس، حضور هذه الدروس الطيبة، حضور صلاة الجماعة في المسجد؟! هذا كله خير من الله.

واعلم أن هذا كله فضل من الله، يقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]، كلّ خير تنزله علي أنا فقير إليك يا رب العالمين، أنا متعلق بك، مهما أعطيتني، لو أعطيتني الدنيا كلها أنا فقير إليك، أنا أفقر عبادك إليك.

قال بعدها: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 18]، حتى يبين لك أن مس الضر أو الخير بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا أحد يتدخل فيه؛ لأن الله هو القاهر، والقاهر معناها الغالب على كلّ شيء.

معنى قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 18]، أي الذي غلبهم، لا يستطيعوا أن يتصرفوا إلا بإذنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يدبروا أي أمر إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو القاهر.

قال: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 18]، وفي هذا إثبات الفوقية لله والعلو، علو المكان والمكانة، بأنه عالم فوق سمائه، مستوٍ على عرشه، بائنٌ من خلقه، وله المكانة الشريفة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 18]، لما يسمع هذا بعض الناس تجد بعض الناس يكون عنده قوة، عنده تسلط، قد يكون مثلاً مدير، أو رئيس أو كذا، يكون عنده تسلط عنده قوة، يكون قاهر من تحته.

لكن أنا أسأل سؤال الآن:

هل هذا قهره بحكمة ولا بغير حكمة؟

نقول: قد يكون بحكمة، وقد يكون بغير حكمة، لكن الله لا، ولذلك لما قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 18]، ماذا قال بعدها؟ قال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ [الأنعام: 18]، يعني قهره بحكمة وليس قهر تسلط، وإنما قهر بحكمة، حكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك الآية ختمت بقوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 18]، يعني ذو خبرة علم، يعلم دقائق الأشياء، لا يفوته شيء من هذه المعلومات، يعلمها علمًا يقينًا وفي نفس الوقت حكم في تدبيره، وفي قهره للمخلوقات.

ولذلك فرعون ماذا يقول؟

يقول: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127]، لكن هل قهر فرعون بحكمة؟ لا، ليس بحكمة، قهر فقط غلبة، وتعنت، وتسلط، وعلو، وفساد، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بيّن لك أن الذي يجلب لك الخير أو يصرف عنك الشر هو الله؛ لأنه قد قهر المخلوقات تحته، كلّ المخلوقات تحته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 18]، يعني أي واحد عنده قليل من العقل هل ينصرف عن طاعة الله وهو يسمع مثل هذا الكلام؟ كيف ينصرف عن طاعة الله ويعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك من الله شيئًا؟!

تتعجب من هؤلاء المشركين وهم يعبدون الأصنام ويسمعون مثل هذا الكلام، ولكن من انطمست قلوبهم ما تستطيع أن تهديهم.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول بعد ذلك: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 19]، قل يا محمد لهم، وخاطبهم، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ [الأنعام: 19]، الشهادة على أي شيء؟ على أن الله هو الواحد، الله هو الواحد في عبوديته، وإلهيته، وفي ربوبيته، وفي أفعاله، وفي تصرفه في الكون، وفي قهره، وفي إصابته بالخير والشر هو الله، ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ [الأنعام: 19]، أن أشهد أن الله هو الواحد.

ثم قال: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [الأنعام: 19]، يعني الله هو أكبر شهادة، والله هو الشهيد على دعوتي أن أدعوكم إلى توحيد الله وعبادته، ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 19].

ثم قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ [الأنعام: 19]، أن هذا القرآن ليس مني، وإنما أوحي إلي من الله، نزل به جبريل علي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله تكلم بهذا القرآن، هذا الكلام الذي نقرأه ونسمعه هذا كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ﴾ [الأنعام: 19]، والغرض من ذلك ما هو؟ قال: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: 19]، أحذركم من العذاب لا يصيبكم، إذا كنتم على ما أنتم عليه من الكفر، والشرك بالله، وعبادة الأصنام، أنذركم وأحذركم، وليست الدعوة لهم هم لأهل مكة، أو للجزيرة العربية، أو للعرب لا؛ بل دعوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عامة.

ولذلك قال: ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19]، أي من بلغه هذا الإنذار وهذا القرآن، وهذا يدل على أن دعوة نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوة عامة للثقلين، ودعوة للعرب ولغير العرب، ولليهود والنصارى، كلهم دعوتهم أو كلهم قد دعاهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجب عليهم أن يدخلوا في الإسلام، يجب عليهم أن يسلموا.

ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ [الأنعام: 19]، يقول: عجبًا كيف تشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟! هل مع الله آله آخر يعني خلق كخلق الله؟! ما في، ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: 11]، ما خلقوا ولو ذبابة، فكيف تجعلون هذا مساويًا لهذا؟ لا يمكن.

قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ﴾ [الأنعام: 19]، أنا أشهد أن الله واحد، وأنتم ماذا تشهدون؟ تشهدون أن مع الله آلهة أخرى، معبودات، أصنام، حجر، وشجر لا ينفع ولا يضر، كيف تشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟!

قال: ﴿قُلْ﴾، قل لهم ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: 19]، إنكم تشهدون أنتم أن مع الله آلهة أخرى أنا ما أشهد، أن أشهد بوحدانية، ولهذا ماذا قال بعدها؟

قال: ﴿قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام: 19]، المعبود بحق الذي ينبغي أن يُخضع له، ويُسجد له، ويُعبد هو الله وحده لا شريك له.

قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 19]، انظر إلى الحوار والنقاش مع هؤلاء وإقامة الحجة عليهم، أنا أشهد أن الله واحد، وهو يشهد برسالتي، ويشهد بالوحي، وأنتم ماذا؟ تشهدون أن مع الله آلهة أخرى؟ تشهدون أن اللات والعزى، وغيرها من الأصنام التي تعبدونها تقدسونها وتعظمونها هي مع الله تخلق؟ ما تخلق شيئًا، ولا تنفع ولا تضر، ولا ترفع عنك المرض، ولا تغنيك ولا تنفعك، ماذا تصنع لك حتى تشهد أن مع الله آلهة أخرى؟!

قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنعام: 19]، وأما أنا بريء أتبرئ مما تشركون مع الله، أتبرأ من هذا الشرك، حتى اليهود والنصارى يعرفون حقيقة التوحيد، كأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **"ليس أنا فقط الذي جئتكم بهذه الرسالة، اسألوا أهل العلم وأهل الذكر"**.

ولذلك قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ [الأنعام: 20]، يعرفون الله بوحدانيته، ويعرفون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأوصافه، لا يخفى عليهم شيء، ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: 20]، مثلما أنه يعرف ابنه فهو يعرف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومثلما أنه يعرف ابنه يعرف أن الله واحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن مع الأسف ، ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 20]، الذين لا يؤمنون هم الذين خسروا أنفسهم في الدنيا، وخسروا أنفسهم في الآخرة، ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15].

ولذلك بيّن لك الخسارة ما هي، وما سبب الخسارة لما قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: 21]، المشركون أوقعوا أنفسهم في هذين الأمرين، ولا أشد ظلمًا من ظلم المشركين المعاندين.

يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [الأنعام: 21]، أي لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21]، افترى على الله كذبًا بأن قال: إن مع الله آلهة أخرى، وبدأ يعبد هذه الأصنام.

قال: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: 21]، كذب بالقرآن وبالرسالة، فهم جمعوا بين الأمرين، يعبدون من دون الله، ويكذبون بالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 21]، هذا الظلم بعينه، ولا يُفلح الظالم، أينما أتى وأينما حل لا يفلح الظالمون.

ثم هددهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما يحصل لهم يوم القيامة، فيعرض لهم صورة من صور يوم القيامة، كيف سيكون موقفهم يوم القيامة؟ هؤلاء الذين انصرفوا عن عبادة الله ماذا سيكون موقفهم يوم القيامة؟ لا تظن أنه عبد آلهة وعبد أصنام وانتهى أمره لا، سيموت ويذهب ثم يوم القيامة يبعث الله، ويوقفه ويحاسبه.

قال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: 22]، نحشر المشركين جميعًا لا يترك أحدًا منهم، وسيحشر المشركين وغير المشركين كلٌّ سيحشر، لكنه يحشر المشركين في هذا السياق؛ لأنه سيوقفهم ويسألهم.

قال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: 22]، شوف خطورة الشرك، الشرك خطير جدًا، يعني إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يعني نبي ورسول ويوحى إليه؛ بل هو أبو الأنبياء؛ بل هو سيد وإمام الحنفاء يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾ [إبراهيم: 35]، يعني يخاف من الشرك ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35]، يخاف من الشرك فكيف من هو تحت إبراهيم؟!!

قال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: 22]، أين شركائكم الآن؟ أنتم تقولون: مع الله شركاء، أين الشركاء؟ أين الأصنام؟ أين شركائكم الذين كنتم تزعمون أنهم مع الله وتدعون وتكذبون على الله؟ أين شركائكم؟ ما يستطيعون.

وفي سورة أخرى قال: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ [الكهف: 52]، دعاء الشركاء، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف: 52].

وهنا قال: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: 23]، وامتحانهم هنا واختبارهم إلا أقروا بالتوحيد، لكن ما ينفع، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23]، أخفوا شركهم، لماذا تخفونه؟ إذا كنتم في الدنيا تدعون أنكم تتقربون إلى الله بهذه المعبودات لماذا تخفونها؟ دل على أنكم لستم على حقيقة.

قال: ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 23]، إذا رأوا أن الله يغفر الذنوب يوم القيامة ويستر العيوب تمنوا أن الله يغفر لهم ويستر عيوبهم فيخفون شركهم، يظنون أنه يخفى على الله، لا يخفى على الله.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿انْظُرْ﴾ [الأنعام: 24]، انظر وتأمل وتفكر كيف كذبوا على أنفسهم؟ ما كذبوا علينا، الله لا أحد يكذب عليه؟ الله مطلع وعالم وخبير، من كذب؛ كذب على نفسه.

قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 24]، ضل وتاه ولم يجدوا الذي كانوا يفترونه من الآلهة، أين آلهتكم التي تدافع عنكم وتدعون أنها تشفع لكم عند الله، وتدافع عنكم؟ لماذا تخلت عنكم؟ قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 24].

ومع الأسف أنك تسمع قصص هؤلاء المشركين في مكة، والقرآن يُتلى عليهم، والنبي يدعوهم بالليل والنهار، ومع ذلك يصرون على كفرهم وعنادهم.

اسمع أيضًا موقف من مواقفهم، يقول: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: 25]، ليس جميعًا لكن فيهم من يأتي إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلي عند الكعبة، فيأتون يستمعون إليه في ظلمة الليل حتى لا يدري بهم ولا يشعر بهم.

قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: 25]، لما كان استماعهم هذا ليس استماع حقيقة، لا يريدون الوصول إلى الحقّ، مجرد استماع فقط، أو أنهم يستمعون حتى يتمسكون بشيء يعني يتشبثون به ضد الدعوة، ليس قصدهم من هذا الاستماع الوصول إلى الحقّ، لو كان قصدهم الوصول إلى الحقّ ليسر الله الأمر لهم، ولكن استماعهم ليس بقصد الوصول إلى الحقّ.

ولذلك قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الأنعام: 25]، الأكنة جمع كنانة وهو الغطاء، يعني قد غُطيت قلوبهم، ما يستطيع أن يفقه، بدأ بالقلوب؛ لأن لما الإنسان يستمع هذا السمع مباشرة يتوجه إلى القلب، والقلب يتأثر.

لكن إذا كان السمع هذا مجرد سمع فقط لا يقصد به صاحبه أن يصل إلى الحقّ ما يصل إلى القلب، ولذلك الله وضع حجابًا على قلوبهم؛ لأن قصدهم سيء، فحرمهم الله بقصدهم السيئ.

قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: 25]، ما يفقهوا القرآن، يسمعوه لكن ما يفقهون، ليس سماع تدبر، وإنما مجرد سماع.

قال زيادة على ذلك: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: 25]، أي ثقل، يسمع لكن ما يستوعب، تجد بعض الناس الآن يسمع الخير ولا يتأثر، ما يستوعب؛ لأنه عنده حجب عنده موانع.

فهنا يقول: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: 25]، الآن عندك القلوب لا تفقه، والآذان فيها صمم، ما تسمع سماع تدبر، فما رأيك بالأعين؟ الأعين هل تبصر؟

قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾ [الأنعام: 25]، يعني يبصروا، ﴿كُلَّ آيَةٍ﴾ [الأنعام: 25]، ليست آية ولا آيتين، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: 25]، أي آية تأتيهم آية شرعية في القرآن أو آية كونية يشاهدونها أمامهم تدل على قدرة الله، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: 37].

ومن آياته إنزال المطر، آيات كثيرة ما تؤثر فيهم، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأنعام: 25]، ما يؤمنون بأن الذي أوجد هذه الآية هو الله، لا يؤمنون بهذا، يعني خلاص عندهم موانع، عندهم معاصي وهذه المعاصي حجبت، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المطففين: 14]، خلاص القلوب لما تكثر عليها المعاصي والذنوب تنطمس الأبصار والقلوب والسماع، تعظ ما تعظ، وتذكر ما تذكر لا يسمع، لا يدري ماذا تقول أصلاً؟ ما يفهم، ولا يشعر، فهؤلاء عاقبهم الله، لما كانت نياتهم خبيثة وسيئة عاقبهم الله، ما يفقهون، تعطلت عندهم هذه الآلات كلها.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾ [الأنعام: 25]، إذا جاءوك يجادلونك؛ لأنه ليس مجرد أنهم أعرضوا عن الحقّ لا؛ بل يجادلونك أيضًا فيه، انظروا إلى الجراءة، يعني لو كفروا وأعرضوا وانتهى الأمر، ولكن لا، كفروا ويجادلون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الحقّ.

قال: ﴿يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: 25]، يأتون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويستمعون القرآن، وإذا انتهى قالوا: هذه يا محمد أساطير الأولين، هذه أخبار الأولين تأتينا بها، قصص وترهات وأخبار وروايات كلها كذب في كذب، نحن لا نصدقك يا محمد، لما تقول: نوح، وصالح، وثمود، وكذا وكذا، هذه لا نصدقك، ولا يؤمنون بها.

الآن الآلات كلها تعطلت عندهم نسأل الله العفو والعافية، الآن السمع والقلب والبصر واللسان، انظر اللسان آخر شيء، قال: ﴿يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: 25]، يعني لسانهم كذب في كذب، والسمع، كلها تعطلت عندهم بسبب كفرهم وإعراضهم وبسبب المعاصي، انظر إلى شؤم المعاصي، وشؤم الذنوب، وشؤم الكفر، سببت لهم هذا الشيء.

وليس الأمر إلى هذا الحد ينتهي؛ بل هم بأنفسهم أعرضوا ويمنعون غيرهم، ولذلك اسمع ماذا قال؟ قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 26]، هم ينهون الناس عن الدخول في الإسلام، وهم في نفس الوقت ﴿وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: 26]، يعني يبتعدون عنهم، يعني هم لا يريدون الدخول في الإسلام، حرموا أنفسهم، وأرادوا أن يحرموا غيرهم.

يعني ما يكفيهم أنهم امتنعوا من دخول الإسلام وأعرضوا، لا، يصدون الناس عن الإسلام، فهم يتعبون أنفسهم، تظن أنه جالس هكذا؟ لا، يتعب نفسه في رد الناس عن الحقّ، كلما جاء غريب إلى مكة داخل إلى مكة يريد العمرة أو يريد التجارة أو يريد أي شيء وقفوا في وجهه، قالوا: انتبه عندنا كاهن، عندنا ساحر، عندنا مجنون، انتبه تتحدث معه، أتبعوا أنفسهم.

قال: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 26]، هم يهلكون أنفسهم، يظنون أنهم سيردون الإسلام، يطمسون الإسلام؟ لا، يهلكون أنفسهم، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف: 8]، لابد أن يُتم نوره، ويظهر أمره، ولذلك أظهر الله التوحيد والإسلام على هذه الأرض، قال: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 26]، ما يشعرون أنهم يهلكون أنفسهم ولا يدرون، يظنون أنهم على الحقّ، ويتهمون النبي بأنه كذاب، وأنه ساحر، وهم لا يشعرون بذلك.

هذه الآيات الحقيقة وإن كانت تتحدث عن واقع نزول القرآن فهي تتحدث أيضًا عن واقعنا، ينبغي أن نربي أبناءنا ، ونربي أنفسنا على مثل هذه الأمور، أمور التوحيد والعقيدة، والإيمان والصبر، والدعوة والاحتساب، كلّ هذه مطالبين بها.

نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(132)
(الأنعام 27 - 36)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الأربعاء الموافق للحادي والعشرين من شهر جمادى الثانية من عام 1445 من الهجرة.

درسنا أيها الأخوة في تفسير القرآن العظيم، نجتمع على كتاب الله، نقرأه ونبين معانيه ونتدبر آياته، السورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأنعام"**، وقف بنا الكلام عند الآية السابعة والعشرين من هذه السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27].

هذا موقف من مواقف الكفار يوم القيامة، عندما يحشرون يوم القيامة يصور لنا ماذا سيجري مع هؤلاء الكفار المعاندين الكافرين الذين لم يقبلوا رسالات ربهم، ولم يذعنوا لربهم، ولم يعبدوه، وإنما عبدوا الأشجار والحجارة ولم ينفعهم ذلك؟!

يذكرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويذكر لهم هذه الصور التي سيشاهدونها يوم القيامة على حقيقتها، تذكيرًا لهم لعلهم يرجعون، لعلهم يؤمنون، لعلهم يصدقون، لعلهم يعرفون حقيقة هذه الرسالة، وهذه الدعوة، وهذه الهداية.

يقول: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ [الأنعام: 27]، لو ترى أيها النبي يا محمد، وأيها المخاطب أنت وأنا والثاني والثالث، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا﴾ [الأنعام: 27]، من؟ الكفار، ﴿إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: 27]، يعني أوقفهم الله على شفير النار، وشاهدوا النار مشاهدة عين، وشاهدوا سعيرها ولهبها أمامهم، وخزنة النار على شفير النار، ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأنعام: 27]، ورأوا حقيقة النار التي وعدوا بها في الدنيا ماذا سيقولون؟

قال: ﴿فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: 27]، يتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا، نردكم إلى الدنيا لماذا؟ قال: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: 27]، يعني أنتم الآن في الدنيا تقولون: ما في نار، ولا في جنة، ولا في بعث، وأن الناس إذا ماتوا وتمزقوا في الأرض ذهبوا ولن يعودوا أبدًا، وتنكرون هذه الحقيقة حقيقة الإيمان باليوم الآخر، الذي هو أصل من أصول الإيمان، والآن اعترفتم بهذا تقولون: يا ربنا أرجعنا إلى الدنيا، كما قال في سورة أخرى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ 99 لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: 99، 100]، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ 10 وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: 10، 11]، ولن تعود أي نفس بعدما تخرج من هذه الدنيا.

هذه الدنيا هي الآن وقت الفرصة، وقت العبادة، ووقت الطاعة، ووقت التوبة، أما إذا انتهت الدنيا ورحل منها لا في توبة، ولا في طاعة ولا في أي فرصة له.

وهؤلاء الآن يتمنون العودة، وهذا تذكير لكل إنسان، سواء كان يعني من الكافرين الذين لا يعرفون حقيقة هذا اليوم، سواء حتى من المؤمنين الغافلين، تجد من المؤمنين من هو غافل عن

اليوم الآخر، ولم يستعد له، تجده يعمل لهذه الدنيا، ومشغول بهذه الدنيا، ولا يدري إلا وقد نزل به الموت.

فليتذكر من تذكر، ويتعظ من يتعظ إذا سمع مثل هذه الآيات، وأنت تشاهد هؤلاء الكفار إذا جاء يوم القيامة يتمنون العودة، وكلٌّ سيندم، سواء كان من الكافر أو من المؤمنين.

الكفار يندمون؛ لأنهم فوتوا الدنيا عليهم، وفوتوا آخرتهم، والمؤمن يندم لأنه يعني بعضهم ضاعت أوقاتهم فيما لا ينفع، فيندم على التقصير في حقّ الله.

ولذلك هؤلاء يقولون: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: 27]، أي إلى الدنيا، ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: 27]، لا نكذب خلاص نؤمن بآيات ربنا، ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27]، ندخل مع المؤمنين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ﴾ [الأنعام: 28]، **"بل"** للإضراب يعني أن هذا الكلام غير صحيح، يعني كلامهم هذا يتمنون أن يعودوا إلى الدنيا، ولا يكذبون بآيات الله، ويؤمنون، هذا مجرد كلام ليس له حقيقة، ولذلك قال: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: 28].

ما الذي كان يخفونه في الدنيا؟

يخفون بحقيقة اليوم، ويخفون أيضًا بحقيقة الرسل، ودعوة الرسل، يعني لو سألت أي واحد من الكفار سألته عن حقيقة الرسل وعن حقيقة ربهم لقال في نفسه: **"نعم، الرسول هو الرسول، والله هو الله، واليوم الآخر حقيقة"** لكنهم لا يريدون ذلك، يظهرون أمام الناس أنهم يكذبون؛ لأنهم يريدون الدنيا، ويرغبون في الدنيا، ولذلك يستكبرون عن طاعة الله.

ولذلك فرعون على استكباره وعلوه وعتوه وادعائه أنه هو الإله وأنه الرب لما جاء الموت قال: **"لا إله إلا الله"** ولم تنفعه كلمة لا إله إلا الله.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: 28]، يخفون حقيقة هذا الأمر، ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ [الأنعام: 28]، لو رددناهم إلى الدنيا ماذا سيفعلون؟

قال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: 28]، يعني الله عالم بحالهم، لو أن الله رد هؤلاء المجرمين إلى الدنيا وهم يقولون: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27]، لو ردهم لكذبوا بآيات الله ولم يكونوا مؤمنين.

قال: ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28]، من الاستكبار والكفر والشرك بالله، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبيّن ما كانوا يدعونه، وما كانوا يعتقدون في الدنيا.

ماذا كانوا يعتقدون؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: 29]، يقولون: نحن نعيش للدنيا فقط، ما في آخرة، ولا في بعث، من مات قد مات خلاص والآن نحن نعيش في الدنيا نأكل ونشرب ونتزوج وننام كالبهائم، لا عبادة، ولا طاعة.

قال: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: 29]، يقولون: ليس هناك بعث ولا جزاء ولا جنة؛ وإنما نعيش للدنيا.

يذكر الله لك أيضًا موقف آخر من مواقف الكفار يوم القيامة، وكأنك تشاهده الآن أمام عينيك، يقول: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 30].

الموقف الأول وقفوا على شفير جهنم، ورأوا سعيرها ولهبها أمامهم وقالوا: ﴿يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 27].

الآن وقفوا أمام الله ليحاسبهم، قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 30]، وقفوا أمام الله، ثم بدأ يحاسبهم، قال لهم: أليس هذا اليوم الذي أنتم تنكرونه في الدنيا أليس هذا بالحق؟ قال: ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 30]، هذا اليوم الذي بعثناكم وأحضرناكم الآن أمامنا أليس هذا بالحق؟

قال: ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: 30]، يقسمون بالله، ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [الأنعام: 30]، يعني الآن أنتم اعترفتم لكن في الدنيا ما اعترفتم، لو اعترفتم في الدنيا لكان ذلك خيرًا لكم، لكن في الآخرة ما ينفع.

قال: ﴿قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام: 30]، نعذبكم ونذيقكم العذاب بسبب ذنوبكم، وبسبب كفركم، يعني أنتم الذين قدمتم العذاب لكم أنتم، الله ما ظلمهم، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم، ولذلك قال بعدها: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 31].

أنا أقول: الحقيقة هذه الآيات موجهة للكفار والمشركين، وأيضًا هذه رسالة توجه إلى كلّ غافل منا، لكل غافل وكلّ مسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي والإعراض عن طاعة الله، كلّ مقصر منا يتذكر هذا الموقف العظيم.

كيف سيكون موقفك أنت إذا جئت يوم القيامة ورأيت الدرجات العلا ورأيت الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، ورأيت ورأيت؟ تمنت أن حياتك كلها في طاعة وفي عبادة،

وتمنيت أن كلّ وقت وأنت تستغفر الله، وكلّ وقتك وأنت تتصدق حتى تُقدم لنفسك شيء ينفعك يوم القيامة.

وتتمنى أن تجعل كلّ حياتك طاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن لا تقصر في حقّ الله، لا تفوتك صلاة الجماعة، لا تفوتك صلاة الفجر، أمور كثيرة تجدها عند الكثير من الناس قد قصروا فيها، وقد ضيعوا أوقاتهم فيما لا فائدة فيه.

عمره يذهب وحياته تذهب في غير فائدة، فسيندم، كم ستبلغ من العمر ثم بعد ذلك تذهب من هذه الدنيا؟! ما الذي قدمته، كلّ إنسان منا سيندم، وذلك هذه الآيات عندما نقرأها نعرف أنها تخاطبنا؛ لأننا نحن مقصرون في حقّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسنندم أشد الندم.

قال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 31]، الذين كذبوا باليوم الآخر ولم يعملوا له.

وأنا أقول: حتى نتدبر الآيات ونفهمها فهمًا جديدًا، ونعرف أن هذه الآيات تخاطبنا نحن، الآن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 31].

من الذي يكذب بلقاء الله؟

الذي يكذب بلقاء الله: هو الذي لا يؤمن، المشرك الكافر الذي لا يؤمن باليوم الآخر يُكذب بلقاء الله.

طيب والمؤمن؟

نقول: المؤمن معترف بلقاء الله، ولو سألته قلت له: يوم القيامة، والجزاء، والحساب، والجنة والنار، يقول: هذه أعرفها.

لكن النقطة المهمة هنا:

هل هو الآن يستحضر هذا اليوم ويستعد له أم غافل عنه؟

أنت اسأل نفسك الآن:

هل أنت مستعد لهذا اليوم؟

مثل الذي سيدخل قاعة الاختبار هل هو مستعد، ومنتبه، وعارف أنه يستطيع أن يتجاوز هذا الاختبار أم أنه غافل ولا يدري إلا أنه قد أُدخل قاعدة الاختبار وهو لا يدري؟

الكثير من الناس في غفلة في هذه الدنيا، مشغول بهذه الدنيا بزخارفها، وفنونها، وجمالها، وغافل عن الآخرة، ينبغي أن نوقظ أنفسنا، ونحرك قلوبنا للإقبال على طاعة الله، واستحضار هذا اليوم في أنفسنا، وفي بيوتنا ومع أولادنا، نذكرهم، لا أنهم لا يعرفون.

لو تسأل أحد الصغار يبلغ من العمر عشر سنوات أو قريبًا من ذلك تقول له: ما هو اليوم الآخر؟ وما الذي فيه؟ ما الذي يجري في اليوم الآخر؟ هل سيعرف ولا ما يعرف؟

تسأله تقول له: في ميزان؟ ما هي الصحف التي تتطاير؟ والذي يأخذ صحيفته بيمينه وبشماله؟ هل في حوض؟ هل في صراط؟ هل في جنة؟ هل في نار؟ نذكرهم، أصل من أصول الإيمان ينبغي أن ننتبه له ونذكر أنفسنا، ونذكر من تحتنا.

قال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 31]، يقول: خسروا وكذبوا، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 31]، جاءتهم الساعة قامت القيامة، أو جاءهم الموت؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«من مات فقد قامت قيامته»**.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 31]، فجأة ما يدري الواحد، يعيش في هذه الدنيا صحيحًا سليمًا، يذهب يمين وشمال، ويسافر ويأتي، ولا يدري إلا وقد نزل به الموت في لحظات، اليوم يصلي معك وغدًا يقال: والله فلان توفي، ما يدري الواحد عن حياته، حياته وموته بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

تأتي الساعة بغتة، ويأتي الموت بغتة، فإذا جاءت قال: ﴿قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ [الأنعام: 31]، قلت قبل قليل ماذا سيقول هؤلاء؟ قال: ﴿قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ [الأنعام: 31]، يتحسرون، ويندمون، ﴿يَاحَسْرَتَنَا﴾ [الأنعام: 31]، يعني يتحسر ويندم أشد الندامة، على أي شيء؟ قال: ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا﴾ [الأنعام: 31]، ضعينا أعمارنا، وضعينا أوقاتنا، ضعينا أموالنا، أين ضيعتها؟ أين ذهبت؟!!

قال: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: 31]، الأوزار يعني الذنوب، كلٌّ يخطئ، وكلٍّ عنده ذنوب، ولكن خير الخطائين التوابون الذين كثير يستغفرون ويتوبون، يستغفرون ويتوبون إلى الله.

أما أن يخطئ ويمشي ولا يستغفر تتراكم عليه الذنوب، فيحملها على ظهره، قال: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: 31]، هذه إما أن تكون كناية عن شدة الذنوب وعظمها، أو قد يحملها حقيقة؛ لأن هذه الأشياء المعنوية يوم القيامة تنقلب أجسام، تصبح أجسام، الأعمال توزن، كيف توزن الأعمال إلا أنها تنقلب كالأجسام؟! والذنوب ما تدري إلا وقد حملت على ظهرك ذنوب ثقيلة ما تستطيع حملها.

ولذلك قال: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: 31]، إذا عرفت هذه الدنيا، وعرفت حقيقة الآخرة وهذه تعطيك درس قوي في نفسك أن تستعد، أن تكون على يقظة وعلى استعداد لا على غفلة إعراض، تعرف وتزن الدنيا بالآخرة.

ما هي الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة؟ وما هي الآخرة بالنسبة للدنيا؟ ينبغي أن تعرف، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: 32]، الكثير من الناس اتخذ الدنيا لعب ولهو، اللعب مع من؟ اللعب مع الأطفال هم الذين يلعبون، واللهو مع الكبار يلهون ويغفلون، يلهون بأنفسهم، ويلهون بزوجاتهم وأولادهم، ويلهون بأموالهم، ويلهون بأعمالهم، في لهو، في غفلة، لاهي لا يفكر، لا يفكر في حياته، ولا يفكر في عمله، ولا يفكر في مماته، ولذلك يقول: الدنيا كلها لعب ولهو عند كثير من الناس.

نقول: ليس عند الجميع؛ بل في من الناس من أيقظه الله واستعد في كلّ لحظة للآخرة، وجعل الدنيا مطية للآخرة، يستعد حتى يجعل الدنيا مطية للآخرة، ويجعل الدنيا كلها عملاً له خزائن له حتى يجدها يوم القيامة، لكن الغالب في الناس اتخذوا الدنيا كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: 32].

ولذلك قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: 32]، ثم قارن بين الحياة الدنيا والآخرة، قال: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: 32]، الدار الآخرة خير من الدنيا، خير لمن؟ هل للناس كلهم؟ قال: ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 32]، للذين يتقون فقط، أصحاب التقوى، أهل التقوى.

هل أنت من أهل التقوى؟

هل أنت في صفوف المتقين وفي زمرة المتقين أم عندك تقصير فلم تصل إلى درجة التقوى؟

التقوى درجة عالية ليست لكل الناس، المؤمنين كثير، تجد مسلمين كثير في أقطار العالم كله، مسلم، مؤمن، لكن من هم الأتقياء؟ هنا النقطة، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 32].

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 32]، أين عقولكم؟ الدنيا خير لك أم الآخر؟ ينبغي أن تقدم الآخرة على الدنيا، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 32].

يذكر الله لنا بعد ذلك مواقف هؤلاء المعرضين الكفار، يعني الله عَزَّ وَجَلَّ يسلي نبيه من المواقف العصيبة التي تصيبه، تصيبه من قومه، إعراض، وشدة، وكفر، وطغيان واستهزاء، وسخرية به وبرسالته وبأصحابه، فيسله الله.

قال: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ [الأنعام: 33]، هم يقولون فيك: أنت مجنون، وأنت ساحر، وأنت كذا، وأنت كذا، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ﴾ [الأنعام: 33]، نعلم أنك تحزن حزنًا شديدًا على قومك وهم يكذبونك، ويستهزئون بك.

قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: 33]، في الحقيقة لا يكذبونك، وقد اعترف كثير من المشركين لما سئل عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لا نكذبه، نحن نعلم أنه رسول، لكن لا نستطيع أن يكون هو خيرًا منا، منعم الاستكبار، والتكبر، وعدم قبول الحقّ.

ولذلك قال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: 33]، الظالم الذي ظلم نفسه هو الذي يجحد آيات الله، وإلا في الحقيقة لا يكذبونك.

ثم يسليه تسلية أخرى أقوى من هذه، يقول: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: 34]، يعني ليس أنت أول من كُذبت، كلّ الرسل الذين من قبلك كُذبوا، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: 30].

قال هنا: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا﴾ [الأنعام: 34]، فاصبر كما صبروا، ﴿عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا﴾ [الأنعام: 34]، أشد من التكذيب الإيذاء، ﴿وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: 34]، لابد أن أنصرهم، فنصر الله لابد، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 51]، ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: 173].

فجند الله ورسله، ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: 21]، فرسل الله لابد أن يغلبوا، ولذلك وعدهم الله بالنصر، ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: 34].

ثم قال: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 34]، كلمة الله لا تتبدل ولا تتغير، هذه سنة الله، نصر أوليائه، ونصر المتقين، ونصر الرسل، ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34]، جاءك من أخبار الرسل السابقين، خبر نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، كلّ هؤلاء أوذوا، وصبروا ونصرهم الله، نصرهم على أقوامهم.

ثم يسليه أيضًا تسلية أقوى من السابقة؛ يقول: ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: 35]، يعني إذا وجدت من قومك أنهم يعرضون وعظم عليهم هذا الإعراض، شدة الكفر والإعراض وعدم قبول الحقّ، ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 35].

يقول: لو تريد أن تحفر سربًا ونفقًا في الأرض، أو تضع سلمًا تصعد فيه إلى السماء، ﴿أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: 35]، ثم تأتيهم بآية ما آمنوا، لن يؤمنوا، لماذا؟ لأن الله كتب عليهم الشقاوة، خلاص أصبحوا أشقياء.

وهذه من أقوى أسباب التسلية والصبر، إذا علم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هؤلاء لن يؤمنوا، هان الأمر أمامه، ولذلك قال: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ [الأنعام: 35]، الأمر بيد الله، والهداية بيد الله، لابد أن تعرف، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: 35].

لو أراد الله هدايتهم لجمعهم على الهدى، ولكن الله جعل منهم الأشقياء، ومنهم المهتدين، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125].

الجاهل الذي ما يعرف هذه الحقيقة،خلاص أنت عليك الدعوة، وعليك البلاغ المبين، أما إيمانهم فالله هو الذي يتولى أمر الإيمان وعدم الإيمان، الرسول عليه أن يهون على نفسه ولا يحزن والأمر بيد الله.

ولذلك قال بعدها: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]، أهل الهداية الذين يسمعون سمع قبول بأذانهم هم الذين يستجيبون، ولذلك ضعفاء مكة وفقراءها لما سمعوا الدعوة استجابوا للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]، الذين فتح الله آذانهم هم الذين يستجيبون.

قال: ﴿وَالْمَوْتَى﴾ [الأنعام: 36]، الكفار لا يستجيبون، فهم موتى، بمنزلة الميت، الميت هل يسمع منك إذا كلمته؟ أو إذا قلت له: انظر إلي هل ينظر؟ ما ينظر، ولا يعي، ولا يسمع، ميت خلاص ما يتحرك، جثة هامدة ما تتحرك.

قال: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]، هؤلاء خلاص في حكم الموتى، يبعثهم الله يوم القيامة إلى نار جهنم.

أو يراد بالموتى هنا الموت الحقيقي، يقول: هؤلاء ينتظرون الموت فإذا جاءهم الموت ذهبوا إلى قبورهم، ثم بعثهم الله، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: 36]، إلى ربهم يرجعون.

لعل نقف عند هذه الآية، إن شاء الله في لقاء قادم نستكمل ما توقفنا عنده، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(133)
(الأنعام 37 - 49)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا المجلس مجلس القرآن الكريم، نقرأ آيات من كتاب الله، ونتأملها ونتدبرها، وينفع الله بها بإذن الله جَلَّ جَلَالُهُ.

درسنا في تفسير **"سورة الأنعام"** وقف بنا الكلام عند الآية السابعة والثلاثين من هذه السورة، يقول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه العزيز: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 37].

هذه مقترحات الكفار المعاندين المستكبرين لا يرضون بما يأتي به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبما يختار الله، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له خيرة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في كتابه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: 68].

فالله يختار ما فيه مصلحة العباد، أما اختيار هؤلاء المعاندين الجهلة الفسقة هؤلاء لا يؤخذ بكلامهم، حتى إن اقتراحاتهم هذه ليس لها هدف، وليس لها غاية، إنما مجرد اعتراض وتكبر واستكبار ورد للحقّ فقط، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ 96 وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس: 96، 97].

ولذلك انظر إلى الجواب، قال: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: 37]، في آية أخرى قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: 51]، ما يكفيهم الكتاب القرآن، القرآن أعظم، ولكن هم يريدون آيات حسية مشاهدة، ولذلك يأتون بأشياء ما يترتب عليها فائدة كبيرة، ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: 90].

طيب وإذا فجرت من الأرض ينبوعًا هل تؤمنون؟ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء: 91]، ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: 93].

هذه أشياء الله قادر عليها، أن يضع لك بيت من زخرف، أو قصر، أو جنة من نخيل وأعناب، أو تفجر الأرض.

كلّ هذه أشياء أولًا: أنها ليس وراءها فائدة كبيرة.

ثانيًا: أنها تزول مع الأيام.

والقرآن فيه فوائد عظيمة ولن يزول، سيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فعجائبه لا تنتهي، وفوائده وهداياته لا تنقضي، وتتركون هذا الشيء وتأتون بأشياء، قالوا: لماذا موسى أعطاه الله آية العصا تنقلب حية، واليد تكون بيضاء، وصالح أعطاه الله الناقة آية حسية؟ نحن نريد منك يا محمد آية حسية، وإذا اقترحوا الآيات الحسية ثم كفروا بها نزل العذاب هذه سنة الله، ليس في مصلحتهم، ثمود لم اقترحوا الناقة تخرج من صخرة ثم كفروا بها نزل عليهم العذاب، ما استفادوا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: 37]، فقط آية؟! رد الله عليهم قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ﴾ [الأنعام: 37]، ما يعجزه شيء، ليس هذا في حقّ الله من الصعوبة، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 37].

لا يعلمون ماذا؟

لا يعلمون عاقبة هذا الأمر؛ لأنه لو جاءتهم الآية ثم كفروا بها ليس في مصلحتهم، سيعمهم العذاب، ولذلك قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 37]، لا يعلمون أثر هذا الشيء الذي يقترحونه.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لفت أنظارهم إلى أن الآيات موجودة، تقترحون آية؟ الآيات موجودة عندنا، أين الآيات الموجودة؟ قال: انظر فما ترفع رأسك إلى السماء إلا أن تجد آيات في الكون، الآيات الكونية أمامك مشاهدة، **"الشمس، القمر، السماء، الليل، النهار، السحاب"** تخفض بصرك إلى الأرض تجد آيات كونية.

آيات الأرض كثيرة جدًا، ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: 20]، آيات عظيمة، **"الجبال، والبحار، والأنهار، والحيوانات، والطيور، والدواب"** هذه كلها آيات عظيمة، لو تجلس مع آية واحدة من هذه الآيات لوجدت وراءها أشياء عظيمة.

ولذلك لفت الله عَزَّ وَجَلَّ نظرهم وقال: أنتم تقترحون آية واحدة يعني نفجر لكم من الأرض ينبوع، أو تكون جنة، أو نحو ذلك، ولكن انظروا إلى الآيات، ليست آية ولا آيتين ولا ثلاثة؛ بل ملايين الآيات.

طيب أين هي؟

قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: 38]، هذه انظروا فيها وتأملوا، الحيوانات الدواب التي تمشي على الأرض، دواب البحر، ودواب الأرض، والطيور التي تطير بين السماء والأرض انظروا فيها وتفكروا فيها هي مثلكم.

يقول: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: 38]، مثلكم، يأكلون، يشربون، ينامون، يتناسلون، يتكاثرون، يموتون، يحيون، كلهم مثلكم، فكروا فيهم، وانظروا فيهم، فهم أمم أمثالكم، ثم بيّن سعة علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدرته، قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38].

هذه العلوم كلها موجودة في كتاب، أي كتاب؟

قال بعض أهل التفسير: **"الكتاب المراد به هنا اللوح المحفوظ الذي أودع الله فيه كلّ علوم الدنيا والآخرة، وكلّ الأحداث موجودة فيه"**.

الله قدر في هذا الكتاب مقادير كلّ شيء وعلمها وكتبها كلها، وشاءها فهي موجودة، وبعض أهل التفسير يرى أن الكتاب هذا المراد به القرآن؛ لأنه يناقشهم في المعجزة، أنتم تريدون معجزة هذا الكتاب معجزة.

قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، يقول: هذا الكتاب الذي قال الله فيه في موضع آخر: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، من غير استثناء.

هذا القرآن الذي بين أيدينا فيه كنوز الدنيا والآخرة في كلّ شيء، ما يحتاجه في حياتك، وفي دينك، وفي آخرتك، موجود هنا، ما من أمر من أمور الدنيا التي يحتاجها الناس إلا في هذا الكتاب أودعه الله في كلّ شيء، في القرآن سواء قلنا: اللوح المحفوظ، أو القرآن الكريم؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ ما فرط وأحاط بكل شيء علمًا، وهو القادر على كلّ شيء.

وقد أظهر آياته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الكون، في الكون آيات عظيمة، حتى في نفسك أنت، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21].

فما هذا العناد أيها الكفار؟ لماذا العناد؟ لماذا الكفر؟ لماذا الاستكبار والآيات أمامكم مشاهدة، تستكبر وتعاند؟!!

قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، ثم لفت نظرهم إلى أمر أهم من هذا وهو أنهم سيحشرون يوم القيامة ويحشر الخلق جميعًا ويحاسبون، ليست القضية أننا نرسل إليكم رسول يدعوكم إلى التوحيد وإلى طاعة الله، وليست القضية أننا نزل عليكم الكتاب هذا وينتهي الأمر، لا؛ بل القضية أكبر من هذا بشيء عظيم، وهي أن كلّ إنسان سيموت ثم يُبعث يخرج من قبره ويحاسب ويجازى ويرى مصيره إما إلى الجنة أو إلى النار، القضية أكبر من هذا، الدنيا هذه ماشية، تعيش فيها ستين، سبعين، ثمانين، مائة سنة، ثم تنتهي، لكن الكلام في الآخرة الباقية، مثل نفسك أين ستكون؟ هل ستكون مع المتقين، أو ستكون من المجرمين، مع الأشقياء؟ هنا الكلام.

ولذلك قال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، العلوم كلها موجودة، لكن ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 38]، أي هذه الدواب، والطيور، والحيوانات، والإنسان، والجن سيُحشرون إلى ربهم، وإذا حشروا عند الله عَزَّ وَجَلَّ حاسبهم على أعمالهم، حتى الدواب والحيوانات والطيور تُحشر ويُقتص بينها، ويجازى كلاً بعمله، يُجازى كلاً بحقه، ثم تموت.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: 5]، ستحشر حتى الوحوش.

لو سألك سائل وقال:

الوحوش حشرت طيب والحيوانات الأليفة ما تُحشر؟

نقول: تحشر.

قال: طيب لماذا ما ذكرها؟

نقول: الوحوش لأنها وحوش ما يمكن أن تجتمع مع بعض، فالله أشار إلى هذا، قال: حتى التي لا تجتمع في الدنيا سنجمعها، أما الأليفة فهي تدخل معهم أصلاً، ستبعث وتُحشر من باب أولى، فالقضية أكبر.

ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**، شاة بهيمة من الأغنام، يؤتى بالتي لها قرون؛ لأنها نطحت التي ليس لها قرون، فيقال لها لهذه التي ليست لها قرون: خذي حقك منها، يُقضى بينهم، يُقتص، وهي حيوانات ليست مكلفة فكيف بهذا الإنسان المكلف والذي توعده الله بالنار ووعده بالجنة حين أطاع؟!

ولذلك انظر قال: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38]، ولكن الإشكال ليس في الحشر، وإنما ما يترتب على الحشر، قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام: 39]، كذبوا بآياتنا ولم يؤمنوا لا بالحشر، ولا بالرسول، ولا بالقرآن، ولم يؤمنوا حتى بربهم لم يؤمنوا به.

كذبوا بآيات الله كلها المشاهدة التي أماهم أو الغائبة، كذبوا بآيات الله، ثم قال: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ [الأنعام: 39]، لا يسمعون ، **"صم"** في منزلة الأصم لا يسمع، تعظه تذكره ما يسمع، كما قال قوم عاد: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: 136]، ما في فائدة.

قال: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ [الأنعام: 39]، ما يتكلم بالحق أبدًا، وإنما يتكلم بالباطل، حياته كلها كلامه بالباطل ونشر الباطل، ما يتكلم بالخير أبدًا.

قال: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: 39]، هم في ظلمات الجهل، وظلمات الكفر والعناد، وظلمات الضلالة، ما عندهم خير أبدًا، فهؤلاء في الدنيا إذا كانت حالهم هذه في الدنيا أصم لا يسمع الحقّ، وأبكم لا يتكلم بالحق، وهو في ظلمات الجهل والضلال فماذا ترجو منه يوم القيامة؟! ماذا سيجد نفسه هو يوم القيامة؟!

ولذلك قال: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 39]، هذه حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا أراد الله له الخير جعله على صراط مستقيم، وسلك مسلك النجاة، وسلم في هذه الدنيا، وسلم في الآخرة.

ومن يضلل الله عَزَّ وَجَلَّ بسبب ضلاله هو كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]، من كُتبت عليه الشقاوة ولا يريد لنفسه السعادة يضله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم تنتقل بنا الآيات إلى مواقف تثبت قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ، وحاجة الإنسان الضعيف إلى ربه، مهما كان، هؤلاء المشركون، هؤلاء المعاندون الذين لا يقبلون الحقّ ولا يُريدونه تجدهم في الأيام العصيبة الشديدة يلجئون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ويعرفون أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي خلقهم، وهو خالقهم وهو ربهم، ولكنهم يظهرون أمام الناس هذه الأمور، ولكنهم في الحقيقة في داخل قلوبهم يعرفون الحقّ، ولذلك الله يثبت لهم حقيقة ما في نفوسهم.

يأتيهم الله عَزَّ وَجَلَّ بالأمور التي هم يقرون بها ويعترفون بها، يقول: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 40]، قل لهم، ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: 40]، يعني أخبروني، أصلها رأيت من الرؤية، فكأنه ينظر ويرى، فيقول: أخبرني عما تراه أنت، ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: 40]، يعني أخبرني عن الذي تراه، والذي ترى حاله بماذا تحكم عليه.

قال: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: 40]، أخبروني ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 40]، أي نوع من أنواع العذاب من عذاب الله، تأتيكم عاصفة، يأتيكم خسف، يأتيكم أوبئة وأمراض، يأتيكم أي نوع من أنواع العذاب الذي ينزله الله عليكم.

قال: ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: 40]، ينزل بكم الموت وتنتهي الحياة، خلاص من نزل به الموت خلاص انتقل إلى يوم القيامة، **"من مات قامت قيامته"**.

قال: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: 40]، تدعون غيره؟ إذا رأيتم الأمور الصعبة جدًا العصيبة هذه التي أمامكم من تدعون؟ هل تدعون غير الله؟ مستحيل أن يردون عليك إلا أنهم يدعون الله، ولذلك هم إذا ركبوا الفلك ورأوا هذه العواصف الشديدة ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65].

قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: 40]، ثم رد عليهم قال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: 41]، قدم قال: **"إياه لا غيره"** تدعونه هو، ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: 41]، ليس مجرد تدعونه وانتهى لا؛ بل تدعونه ويستجيب لكم، متى؟ إن شاء، ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 41].

تنسون يعني تتركون، تتركون الآلهة، أين الآلة التي تدعونها من دون الله؟ لماذا لا تستجيب لكم؟ تعرفون أنها لا تستجيب، ولذلك تلجئون إلى الذي يستجيب لكم، للذي يكشف عنكم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 41].

قال: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: 62]، هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا غير، وهم يعرفون، عند الشدائد يعرفون ربهم، وفي الرخاء ينكرون ذلك.

قال: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 41]، ما هذه العقلية؟ أين عقولكم لا تكون هذه حالكم، تعرفون الله في الشدة وتنسونه في الرخاء؟! هذه حال ليس فيها عدل، وليس فيها حكم مقبول، ولذلك يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن حال الأمم الماضية، كانوا يفعلون مثل هذه الأشياء والنتيجة ما هي؟ أصابهم ما أصابهم، فاحذروا أيها المشركون المعاندون الذي أتاكم الرسول ونبهكم وذكركم احذروا أن تقعوا فيما وقع فيه هذه الأمم.

قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: 42]، أمم من قبلك يا محمد، أرسلنا إلى أمم كثيرة، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: 42]، أرسلنا إليهم رسلاً، ودعوهم إلى عبادة الله، ولكنهم كفروا، وعاندوا، النتيجة ما هي؟

قال: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [الأنعام: 42]، البأساء الشدة والفقر، وذهاب الأموال والأولاد، وانقطاع الأمطار، كلّ هذه أسباب هي من البأساء، والضراء الأمراض التي أصابتهم، نزلت بهم الأوبئة والأمراض.

أرسلنا إلى أمم من قبلك فعاندوا وكفروا والنتيجة الله عَزَّ وَجَلَّ أخذهم بالبأساء والضراء.

طيب لماذا يأخذهم بالبأساء والضراء؟ لماذا لا يهلكهم مرة واحدة ويميتهم؟ لماذا يأخذهم بالأمراض والأوبئة والفقر؟

قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: 42]، لعلهم يرجعون إذا رأوا هذه الأشياء، إذا إنسان أصيب بمثل هذه الأشياء تذكر ربه وعاد، فيقول: نحن نعطيهم فرصهم، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: 42]، يرجعون إلى ربهم، يتضرع يعني يدعو ربه ويلجأ إليه، ويعرف أن الذي يكشف البأساء ويزيل البأساء والضراء هو الله.

يقول: أخذناهم بالأمراض والأوبئة والفقر والشدة، والخوف والجوع، لماذا؟ قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: 42]، لعلهم يرجعون إلى ربهم، يعرفون أن الذي أعطاهم النعم وسلبها منهم وأعطاهم هذه الأشياء حتى يعرفون ربهم ويرجعون إليه، ولكن مع الأسف ماذا؟

يقول: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ [الأنعام: 43]، الشدة، ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: 43]، لكن ما تضرعوا، ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: 43]، قست قلوبهم ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأنعام: 43]، استسلموا للشيطان، وقلوبهم قاسية بسب الكفر والعناد والظلم، وعدم الإيمان، كلّ هذه أسباب لقسوة القلوب، أكل أموال الناس بالباطل قسوة للقلوب، الإعراض عن آيات الله قسوة للقلوب، قست قلوبهم والشيطان زادهم ذلك زين لهم أعمالهم، قال: هذه مجرد جوائح طبيعية، وكوارث طبيعية، حتى الكفار أصابهم ما أصابكم، هذه طبيعة هذه الأشياء، ليس لها علاقة بالدين، وليس لها علاقة بالتخويف، وليست من آيات الله.

كيف ليست من آيات الله؟!!

الله عَزَّ وَجَلَّ يخوف عباده بهذه الأشياء، ويرسل إليهم شيئًا يذكرهم، وتقول: هذا ليس من آيات الله؟! الله يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: 42]، ولكن مع الأسف لما جاءهم بأسنا ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: 43]، لكنهم لم يتضرعوا، ولم يحركوا ساكنًا، تأتيهم الأمراض ولا يدعو ربه، ولا يلجا، ولا يعترف بذنبه، ولا يُقر بأي شيء، ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 43].

النتيجة ما هي؟

الأمر لا ينتهي إلى هنا؛ قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأنعام: 44]، ذكروا بأي شيء؟ بهذه الآيات، الأمراض، والفقر، والجوع، والخوف، وهذه الأشياء ذكرك الله بها حتى ترجع إليه، الله يمتحنك ويبتليك بهذه الأشياء حتى تعرف ربك وترجع إليه، وهؤلاء لا، لم يعترفوا ولم يرجعوا إليه.

قال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأنعام: 44]، نسوها وتركوها ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 44]، وهذه أشد وأعظم، هذا استدراج، يعني يبقى على معصيته ويعاند والله ينعم عليه.

تأمل كلمة ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: 44]، هذا شيء عظيم، يعني ما ترك الله شيء من خيرات الدنيا إلا أعطاهم، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: 44]، كلّ ما يحتاجون جاءهم، تظن هذا خير لك وأنت مقيم على معصيته؟! لا تظن هذا خير؛ بل هذا استدراج.

قال: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام: 44]، أصبحت الدنيا بين أيديهم يتصرفون فيها كيف شاءوا، وظنوا أنهم قد أحاطوا بكل شيء علمًا.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا﴾ [الأنعام: 44]، فرح بطر واستكبار ﴿بِمَا أُوتُوا﴾ [الأنعام: 44]، النتيجة ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: 44]، وهم نائمون في فرشهم أو قائلون وقت القيلولة أو في لعب ولهو ولا يدرون إلا وقد نزل بهم العذاب وأحاط بهم العذاب، ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ 12 لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 12، 13].

قال: ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]، مبلس خلاص أيس صامت، لا يتكلم، عرف أنه خلاص أحيط به، ما عاد له أي مخرج ولا حيلة ساكت، معترف مقر، قد أحاط به العذاب، ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]، يعني لا يزال الظلم ينعم الله عليه بالنعم وهو يستدرجه الله بالنعم ثم لا يدري إلا وقد أخذه الله، إذا أخذه لن يفلته، يأخذه أخذ عزيز مقتدر فلن يفلته، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102].

فالإنسان ما يدري، قد يستدرجك الله وأنت على معصيته، ويعطيك النعم والخيرات والأرزاق تأتيك من كلّ مكان وأنت على معصيتك تحارب الله وتجاهره، هذه مصيبة، لا تعترف بالذنب ولا تقر به، ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾، فجأة ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44].

قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: 45]، قُطع يعني انتهى أمره، دابر يعني نهايته، إذا كانت النهاية انتهت، فالبداية منتهية من الأول، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: 45].

قال: ﴿ظَلَمُوا﴾ [الأنعام: 45]، ما قال: الذين كانوا غافلين أو لم نرسل إليهم رسلاً أو كذا لا، ظلموا أنفسهم.

والنتيجة ما هي؟

قال: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 45]، الإنسان يحمد الله على ماذا؟ يحمد الله إذا أنعم الله عليه، ويحمد الله على انتقامه من أعدائه الذين آذوه، حتى آذوا الحيوانات، وآذوا الطيور، وآذوا كلّ شيء، فالعاصي يؤذي، فهلاكه نعمة، ولذلك قال: ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 45]، الحمد لله رب العالمين على هلاك الطغاة، وعلى هلاك الظلمة.

ثم ينبههم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ [الأنعام: 46]، أخبروني، هذا أيضًا تذكير آخر، يعني بعد هذا التذكير الأول يأتيك آخر أشد.

قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ [الأنعام: 46]، إن أراد الله أن يأخذ سمعك ما عنت تسمع، وبصرك فلا تبصر، ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنعام: 46]، ما تفقه أبدًا، ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: 46]، أخبروني هل هناك أحد يستطيع أن يعيد لك بصرك أو سمعك أو يفتح قلبك؟ ما في غير الله.

قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام: 46]، يبين مرة كذا ومرة كذا، ﴿ثُمَّ هُمْ﴾ [الأنعام: 46]، النتيجة ما يقبلون، ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 46]، أي يُعرضون، ويبتعدون، ولا يتقبلون، ما يتقبلون قلوبهم قاسية كالحجر.

ثم يأتيهم أيضًا تنبيه ثالث ويناقشهم، قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: 47]، أخبروني، ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ [الأنعام: 47]، يعني غفلة، غفلة، بغتة، فجأة، أو جهرة أنتم تشاهدون أمامكم، الآيات تنزل بكم، والعقوبات تنزل بكم.

قال: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 47]، ما نهلك إلا القوم الظالمون، القوم الظالمون هم السبب في نزول العقوبات، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ [هود: 101].

ثم يبين لك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فضل إرسال الرسل، ونعمة إرسال الرسل، يعني المفترض أنكم تشركون الله، وتعرفون قدر هؤلاء الرسل الذين جاؤوكم، محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبعث في

مكة ماذا كان موقف مشركي مكة المعاندين إلا الإيذاء، الإيذاء ومحاولة قتله، ومحاولة إخراجه، وتعذيبه، وحبسه؟! هذا رسول يأتيكم وتفعلون معه هذه الأفاعيل؟!

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 48]، يعني وظيفتهم ما هي؟ قال: ﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الأنعام: 48]، مبشرين من يطيع، من يطيع يبشرونه بالجنة والخير والسعادة، ومنذرين من يعصي ويرد ويعاند، إنذار لهم.

ثم بين وفصل قال: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: 48]، من آمن برسول الله، وصدق بالله، واتبع شرعه، وأصلح عمله، النتيجة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: 48]، لا يخافون على ما يأتيهم مستقبلاً، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: 48]، على ما فاتهم وما تركوا خلفهم، هذا أمن تام، هذا أعظم أنواع الأمن أنه لا يخاف في المستقبل ولا في الماضي.

قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام: 49]، واستكبروا عنها ولم يقبلوها، ﴿يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: 49]، ينزل الله عليهم العذاب، ولاحظ يعطيك أوصاف لهم، هنا قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: 49]، وقبلها قال: ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 47]، وهكذا، هم الذين ظلموا أنفسهم، وهم الذين فسقوا.

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(134)
(الأنعام 50 - 58)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعله لقاءً مباركًا تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين عنده في الملأ الأعلى.

درسنا الأسبوعي مع تفسير القرآن العظيم، السورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأنعام"**، وقف بنا الكلام عند الآية رقم خمسين، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: 50].

هذه الآية وما بعدها، حتى الآيات التي مرت معنا في مناقشة المشركين في عقائدهم، وحججهم الباطلة، واعتراضاتهم، هم يعترضون ولا يقبلون الحقّ، يأتيهم الحقّ فيردونه، ولذلك اعترضوا باعتراضات ولم يقبلوا القرآن، واحتجوا بحجج، وسألوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأتيهم بآيات حسية، أن يجعل مكة مروجًا وأنهارًا، أن يزيل الجبال عن مكة، وأن يجعل كذا وأن يجعل كذا، فوجههم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 50]، قل لهؤلاء المعترضين: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 50]، ما أملك خزائن الله، خزائن الله عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عنده مفاتح الغيب؛ لأنه سيأتينا بعد قليلة آية ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59].

فخزائن الله بيد الله ليست بيد أحد من البشر، لا بيد نبي ولا بيد ملك، إلا بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، خزائنه ملأى، ويعطي وينفق، ويده سحاء الليل والنهار، لكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يملك هذا الشيء، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو بشر، يوحى إليه، وكُلف بالرسالة فيبلغها، هذا حده، أما أن يعترضون عليه فالله يوجههم بهذا التوجيه.

يقول: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [الأنعام: 50]، حتى الأمور الغيبية لا أعلمها، لا أعلم ماذا جرى في الأمم الماضية؟ ولا أعلم الأشياء المستقبلة، علم الغيب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما أنا فلا أعلم الغيب.

قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: 50]، حتى الملك ما أقول أنني ملك؛ لأن الملك له هيئة، وله خاصية، وله خلق خاص، وله صفة خاصة، فأنا كوني أقول: **"إني ملك"** فلست بملك، ولم أتصف بصفات الملائكة، وإنما أنا بشر.

ولذلك ماذا قال بعدها؟

لما رد عليهم بأنه لا يملك خزائن الأرض، ولا يعلم الغيب، فهذه من خصوصيات الله، وليس بملك إنما هو بشر، قال: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الأنعام: 50]، أنا أتبع ما يوحى إلي، يأتيني الوحي من السماء فأتبعه وأبلغه إياكم، ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: 108].

ولذلك قال بعدها: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: 50].

هل يستوي الأعمى مع البصير؟

لا يستوي، العاقل يحكم بأنه لا يستوي، فكذلك المهتدي والضال لا يستوون، فالمهتدي هداه الله وفتح الله عليه ووفقه لطاعة ربه، وصدق بما جاءه عن الله، وعمل الأعمال الصالحة التي ترضي الله، وهذا الضال أعرض عن ذكر الله، وكفر بالله، وجحد آياته، وشغل نفسه بما لا ينفعه؛ بل يضره، فهذا لا حيلة له في نفسه ولا في غيره، فهذا أعمى وهذا بصير.

ولذلك قال: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 50]، أين عقولكم؟ لماذا لا تتفكرون في هذا الأمر؟ أنا جئتكم هداية من الله ورحمة، وأرسلنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحمة لكم، فخذوا هذه الرحمة، وخذوا هذه الهداية ولا تعرضوا، ولكن لا يريدون ذلك.

ولذلك قال الله بعدها: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ [الأنعام: 51]، أي بهذا الوحي، وهذا القرآن، أنذر به الذين يستفيدون من النذارة، أما هؤلاء الذين أغلقوا أسماعهم وأبصارهم، وأغلقوا قلوبهم ما ينتفعون بذلك، تنذر أو لا تنذر لا يستفيدون ولا ينتفعون.

ولذلك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا﴾ [الأنعام: 51]، الذي يخاف الحشر، ويخاف اليوم الآخر، ويحسب لهذا اليوم ألف حساب هذا الذي ينتفع بالآيات، أما الذي لا عنده فكر، ولا تفكير، ولا عقل؛ فهذا لا ينتفع، لحدثته الليل والنهار لن ينتفع؛ لأنه أغلق على نفسه، الذي ينتفع الذي فتح باب الانتفاع وجاء مُقبلاً فينتفع بذلك.

ولذلك قال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ [الأنعام: 51]، أنذر بهذا القرآن، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: 51]، هؤلاء لا يبحثون عن أولياء ولا شفعاء غير الله، وليهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله هو الذي يقبل من شاء من الشفاعة، فهم يرجون رحمة الله، ويتقربون إلى الله، ويخافون ذلك اليوم، ويطلبون من الله أن يتولاهم، أن يتولاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 51]، إذا أنذرتهم انتفعوا بالنذارة، وأصبحت النذارة خيرًا لهم، وانتفعوا بها، واتقوا الله، ولذلك قال: لعلهم يتقون بهذه النذارة فيتقون العذاب، ويتقون ما يخافونه أمامهم.

خذ من حجج هؤلاء المشركين المعاندين المستكبرين، ولم يصل الأمر إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقط؛ بل وصل الأمر إلى أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعني هم الآن لم يعرفوا قدر الله عَزَّ وَجَلَّ، ولم يعرفوا وحدانيته، ولم يعرفوا قدر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورسالته، ووصل بهم الأمر حتى في أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما سلموا منهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: 52]، هذه الآية سبب نزولها أن أهل الشرك ورؤوس الشرك من أهل مكة جاءوا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومجيئهم هذا ليس مجيء حقيقي يعني أنهم يريدون الحقّ لا، وإنما مجرد اعتراضات.

فجاءوا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: **"يا محمد إذا تريد منا أن نؤمن بك، ونصدقك ونتبعك على دينك اطرد هؤلاء الفقراء، نحن لا نريد أن نجلس مع هؤلاء، هؤلاء فقراء، تريد أن يحتقرنا العرب وينظرون إلينا نظر ازدراء فيقولون: كيف تجالسوا هؤلاء الفقراء؟ أنتم أهل المكانة وأهل الشرف وتجعلون مع هؤلاء الضعفاء؟ اطردهم يا محمد ونجلس معك نؤمن بك"**.

فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لشفقته ورحمته هم أن يبعد هؤلاء حتى يقرب هؤلاء لعلهم يسلمون، إذا أسلموا سيسلم من وراءهم أعداد، فحاول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه الطريقة لكن

القرآن منعه، جاءه الوحي وقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ [الأنعام: 52]، لا تطرد هؤلاء؛ لأن هؤلاء المعترضين من المشركين ليسوا جادين في كلامهم، لو كانوا جادين لفعلنا ذلك، لكنها مجرد اعتراضات فقط.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: 52]، يدعون ربهم دعاء مسألة، ودعاء عبادة هذا الدعاء هنا دعاء مسألة ودعاء عبادة.

لو قيل: ما الفرق بينها؟

نقول: **"دعاء المسألة أن ترفع يديك وتدعو الله وحده لا شريك له"**، وتسأل الله، تسأل الله المغفرة، تسأل الله الجنة، تسأل الله العافية، هذا نسميه دعاء مسألة.

والدعاء الآخر دعاء العبادة: **"أن تعبد الله وحده لا شريك له في جميع أحوالك وأمورك"** تعبد الله وحده لا شريك له.

فقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: 52]، الغداة هي أول النهار، والعشي هو آخر النهار، وهم ما بين هذين الوقتين يشتغلون بالعبادة، يشتغلون بالعبادة وخاصة أول النهار الذي هو أول النهار وآخره، يعني وقت الصباح ووقت المساء، وهم يعملون ويشتغلون بطاعة الله.

ويريدون من؟

يريدون: **"وجه الله"** يعني أعمالهم خالصة لله، لا يريدون غيره، فهم مقبلون على ربهم، كيف تطرد هؤلاء الذين يريدون وجه الله، ويذكرون الله بالليل والنهار، ويتعبدون الله؟!

قال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 52]، أنت لست محاسب عليهم، وهم ليسوا محاسبين أيضًا عليك، كلٌّ له حسابه، ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ [الأنعام: 52]، إن طردتهم ما هي النتيجة؟ قال: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 52]، هذا ظلم، كيف تطرد هؤلاء الذين هم أولياء الله في الأرض، هم عباده في الأرض، هم الذين يقيمون شرع الله؟! تطردهم وتأتي بأناس مستكبرين لا تدري هل يقبلون أو لا يقبلون؟! لا.

وهذه فتنة لهؤلاء، الكفار يفتنون بالمؤمنين، والمؤمنين يفتنون بالكفار، هذا ابتلاء من الله، الكافر يبتلى لأنه لا يريد قبول مثل هؤلاء الفقراء، والفقراء يبتلون بتسلط هؤلاء عليهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: 53]، الإنسان أحيانًا يُفتن بالفقر والجوع، وأحيانًا يُفتن بالغنى، حتى الغني مبتلى، والفقير مبتلى، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ [الفجر: 15]، ابتلاه بالكرم والنعمة، وقال: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الفجر: 16]، ضيق عليه أصبح فقيرًا، هذا ابتلاء، فهذا يبتلى، وهذا يبتلى.

يقول: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ [الأنعام: 53]، مثلما فتناهم هنا، يقول: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: 53]، يسخرون ويستهزئون، يقولون: هؤلاء الفقراء مثل عمار، وخباب، وابن مسعود، وغيرهم من فقراء الصحابة الذين يجلسون عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلال وغيره.

يقولون: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الأنعام: 53]، أنعم الله عليهم بالإيمان، يستهزئون بهم ويسخرون، ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: 53].

رد الله عليهم وقال: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 53]، الله يعلم من الذي يشكر نعمته، هؤلاء عرفوا قدر الرسالة، وقدر النبوة، وقدر الشريعة، وعرفوا أن هذه الشريعة نجاة لهم في الدنيا، ونجاة لهم في الآخرة، فشكروا الله على هذه النعمة، وأقبلوا عليها بالطاعة، فالله أعلم بالشاكرين، أما هؤلاء مجرد استهزاء، وسخرية، وازدراء، وتكبر.

قال: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: 53]، لما تسمع مثل هذا الكلام الذي يحتقره هؤلاء المتكبرون، يحتقروا هؤلاء الضعفاء المساكين، انظر كيف رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولطفه بهم يبشرهم بهذه البشارات الطيبة؟!

لما يكون موقف هؤلاء المتكبرين من هؤلاء الضعفاء لا تظن أن الله يترك هؤلاء الضعفاء؛ بل يزيدهم قوة إيمان، قوة الإيمان خير من قوة المال والجاه، فيعطيهم من قوة الإيمان يثبتهم.

اسمع كيف يثبتهم الله؟ قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ﴾ [الأنعام: 54]، يا محمد إذا جاءك الذين يؤمنون بآيات الله، هؤلاء الفقراء المساكين، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 54]، قل: الله يسلم عليكم، وأنت تسلم عليهم.

قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، الله كتب لكم الرحمة، خير من هؤلاء الذين كتبت عليهم الشقاوة، هذه كلها بشارات لهم.

البشارة الأولى: **"السلام من الله"** لو سألناك وقلنا: ما معنى السلام؟ أنت الآن تروح تسلم على فلان، وتقابل فلان بالطريق تقول: السلام عليكم، هل تفهم معنى هذا الكلمة؟ السلام من السلامة، وإذا قلت: سلام الله عليك، يعني تدعو الله له أن يسلمه الله وأن يعافيه من كلّ شر، وأنت تظهر بكلامك لهذا الشخص لما تسلم عليه تظهر له أنك تدعو له بالسلامة، وأنك تقول له: لا يصيبك مني أي أذى، أن أسلم عليك يعني أقدم لك السلامة، أنك سليم لا يصيبك شيء، هذه حقيقة السلام.

ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«أفشوا السلام بينكم»**، ويقول: **«هل أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟»**، هذا السلام يقرب المودة والمحبة بين القلوب، لا تسلم على أحد، تسلم على فلان وتسلم على فلان يكون هناك تقارب بالقلوب والمحبة.

ولذلك أول بشارة لهؤلاء المساكين: يقول الله لهم﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 54]: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 54]، هذه أول بشارة تدخل قلوبهم فتطمئن، قلوبهم ترتاح.

البشارة الثانية: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54]، أنه يعمكم برحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

البشارة الثالثة: كلّ إنسان يقع في الخطأ، وليس العيب أن تخطئ، ولكن العيب أن تبقى على الخطأ، ولذلك البشارة الثالثة **"أن الله يغفر لهم خطأهم إذا وقعوا فيه"** وهذه بشارة عظيمة أن الله يزيل ويمحو عنهم خطاياهم.

ولذلك قال: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ [الأنعام: 54]، عمل معصية وقع فيها، ﴿عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الأنعام: 54]؛ لأن العاصي جاهل، لا يعصي الله من يعرف الله، أعرف الناس بالله، وأعلمهم بالله هم أبعد الناس عن المعاصي، لا يعصي الله إلا جاهل، ولذلك قال: ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ [الأنعام: 54].

قال: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ [الأنعام: 54]، أي وقع في معصية بجهالة، ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ [الأنعام: 54].

متى يتوب الله على الإنسان ويغفر له ذنبه؟

بشرطين:

الشرط الأول: **"أن يتوب من معصيته"**.

الشرط الثاني: **"أن يصلح عمله"**.

أما أن يقول: **"تبت إلى الله ويا رب اغفر لي"** وهو لم يحقق هذين الشرطين هذه ليست بتوبة، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الأنعام: 54]، هذا الشرط الأول، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [الأنعام: 54]، تاب من بعد هذه المعصية، بمعنى أقلع وعزم وندم.

الثاني: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ [الأنعام: 54]، أصلح عمله مع ربه، ليست التوبة من المعصية بأن تقول: تبت بلسانك، لابد من التوبة الحقيقة، والعمل الصالح.

قال: ﴿مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّه﴾ [الأنعام: 54]، هذه البشارة، ﴿غَفُور﴾ [الأنعام: 54]، لهم، يغفر ذنوبهم، ﴿رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 54]، رحيم بهم.

تجد مثل هذه البشارات، هؤلاء يقولون: **"اطردهم يا محمد"** والله عَزَّ وَجَلَّ يرفع من مقامهم؛ بل الكثير يعلم منا أن أول زمرة تدخل الجنة فقراء المهاجرين، فقراء المهاجرين هم أول زمرة تدخل الجنة قبل جميع الأمم، هؤلاء الذين وقفوا لنشر الدعوة، ووقفوا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصروه، وقدموا أرواحهم، وقدموا أموالهم، وديارهم، تركوا ديارهم، وتركوا أموالهم، وبعضهم عُذب في سبيل الله وأوذي كبلال وخباب، هؤلاء هم الذين يستحقون أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرفع شأنهم في القرآن الكريم، ويعدهم الوعد الحسن أنهم يكونوا من أهل الجنة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام: 55]، هل تجد مثل هذا التفصيل والبيان؟! هذا سمعت مثل هذا الكلام في غير كلام الله؟! ما تجد أبدًا، كذلك نفصل ونوضح ونبين الآيات ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 55]، حتى تضح طريق المجرمين، طريق المجرمين هي طريق الاستهزاء والسخرية، ورد الحقّ بالباطل، هذه طريقتهم، والله يبين حتى تضح سبيل وطرق المجرمين.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهؤلاء ردًا عليهم لأنهم مستكبرون؛ قال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 56]، أنا لا أعبد الذي تدعون، أنتم تدعون أصنامًا وتعبدونها، وأنا نهاني الله أن أعبد الذين تدعونه، أنا لا أعبد إلا الله.

قال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ [الأنعام: 56]، إذًا هم على هوى وشهوات، ليسوا على دين، ما عندهم دين، عندهم مجرد أهواء وشهوات.

قال: ﴿قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ﴾ [الأنعام: 56]، لو اتبعت شهواتكم وأهوائكم، ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 56].

يقول: أنا هداني ربي لعبادته، فلا أتبعكم على دينكم؛ لأنكم أنتم على دينكم هوى وشهوات فقط، مجرد هوى وشهوات، ولو اتبعتكم ما كنت من المهتدين.

ثم قال: قل لهم أيضًا حتى تبين لهم حقيقة الدين وحقيقة ما هم عليه، ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ [الأنعام: 57]، أنا على دين، شرع، بينة، وحي من الله، نور، هداية، ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: 57]، أنتم كذبتم بدين الله ووحيه، كذبتم به، ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: 57]، أنتم تستعجلون العذاب، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 48].

قال: ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: 57]، العذاب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 57]، الحكم لله الذي يقضي بيني وبينكم.

قال: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ﴾ [الأنعام: 57]، ويوضحه ويبينه، ويقضي بالحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: 57]، الذي يفصل بيني وبينكم.

تلاحظ أن هذا كأنه في نهاية الشقاق والنزاع معهم والجدال، خلاص ما عاد ينفع معهم أنني أقربهم وأنني أدعوهم، خلاص لن يتقبلوا؛ لأنهم قومٌ مستكبرون لا يريدون الحقّ.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: 58]، لو أن عندي العذاب الذي تستعجلون به، ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 58]، لأنزلت بكم العقوبة الآن، وقضي الأمر بيني وبينكم، وفُصل بيني وبينكم، فأهلكناكم بالعذاب، ووصلتم إلى نار جهنم.

قال: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 58]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يحكم بيني وبينكم، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 58]، أعلم بمن هو ظالم أنتم أم نحن؟ من هو الذي على الحقّ؟ ومن هو الذي على الضلال؟

من خلال هذه الآيات التي قرأناها وتأملناها وبينا معانيها تلاحظ أن الحقّ والباطل يتنازعان، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُظهر الحقّ ويبطل الباطل، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81].

مهما علا وارتفع صوت الباطل يخفض والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذل أهله، لو علو واستعلوا في الأرض لن يبقوا، فالحقّ هو الذي يبقى، ولو كان صاحب الحقّ واحد.

ولذلك تلاحظ من هذه الآيات والنقاش مع هؤلاء المشركين أن النتيجة **"ظهور الحقّ بطلان الباطل"**.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بهذه الآيات التي سمعناها وقرأناها وبيناها، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(135)
(الأنعام 59 - 69)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك لقاء الأربعاء بعد صلاة المغرب من كلّ أسبوع، نجلس هذا المجلس المبارك الذي بإذن الله تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين في هذا الدرس عنده في الملأ الأعلى، أسأل الله ألا يحرمنا هذا الفضل العظيم.

نجلس مجلسًا مباركًا تحضره الملائكة، ونقرأ آيات من كتاب الله نبيّن معانيها، وما فيها من دلالات وتوجيهات ربانية.

السورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأنعام"** وقف بنا الكلام في لقاءنا الماضي عند الآية التاسعة والخمسين من هذه السورة، وهذه الآية قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59].

لما تنظر إلى الآية التي قبلها وهي قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقومه المعاندين الكافرين الجاحدين، لما قال لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 58].

لو أن عندي ما تستعجلون به، هم كانوا يستعجلون العذاب، يقولون: متى هذا العذاب يا محمد؟ أنت تهددنا بالعذاب أين العذاب؟ فكانوا يستهزئون ويسخرون، قال: لو كان عندي أمر العذاب لقضي الأمر بيني وبينكم، يعني لأهلكتكم بالعذاب وانتهى أمركم.

قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 58]، الله أعلم بالظالمين، فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم بالظالمين فهم لا يعلمون حقيقة علم الله، لو كانوا يعلمون سعة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإحاطته بكل شيء ما كفروا به واستهزئوا وسخروا منه، ولذلك بيّن الله لهم سعة علمه، وهذه الآية آية عظيمة في بيان سعة علم الله الذي أحاط بكل شيء علمًا، وقد يكون الإنسان لا يتصور هذه المعاني العظيمة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنده مفاتح الغيب، لا يعلمها إلا هو.

ما هي مفاتح الغيب؟

نقول: فسرها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بآية أخرى، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34]، مفاتح الغيب خمسة لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، لا يعلمها إلا هو، اختص الله بها، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: 34].

هذه العلوم الخمسة هي مفاتح الغيب، لا يعلمها إلا هو، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34]، لا أحد يدري، ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: 63]، علم الساعة يعني متى تأتي القيامة؟

قال: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: 34]، الذي يأتي بالسحاب وينشئ السحاب هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده لا شريك له، وأما ما يذكر مما يُعرف الآن بما يسمى بـــ **"الاستمطار"** الاستمطار لا يمكن أن يقع إلا بعد خلق الله للسحاب ووجوده، وإنشاء السحاب، وهذا لا يتعارض أبدًا مع أن الله هو

الذي ينزل الغيث، الذي يخلق السحاب ويسوقه وينزله على بلدة أراد أن ينزلها عليه لا يستطيع أحد أبدًا إلا الله.

قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: 34]، حتى الأرحام الآن الاكتشافات العلمية الحديثة يعلمون ما في الأرحام من ذكر من أنثى، إذا كان توأم أو غير توأم، صحيح يعلمونها بالأجهزة، لكن متى يعلمونها؟ يعلمونها بعد الخلق.

لكن هل يستطيع أحد من الأطباء يأتي إلى امرأة لم تتزوج ويخبرها بأنها ستحمل بكذا وكذا؟! ما يعلم إلا الله.

أما إذا خلق الله الخلق في الرحم الملك يعلمه، الله يرسل إلى الملك، انكشف الأمر خلاص، لكن قبل ما يعلم ما في الأرحام إلا الله.

قال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ [لقمان: 34]، المستقبل لا يعلمه إلا الله، أنت وأنا وأي إنسان مخلوق ما يعرف ماذا سيكسب غدًا من خير أو شر، ما يدري.

قال: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: 34]، لا يدري الإنسان أين تقبض روحه، هذه كلها علوم خمسة لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: 59]، عنده فقط، ليست عند غيره، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: 59].

ما هي المفاتح؟

قال أهل التفسير: **"الفاتح جمع مفتح وهي الخزائن، خزائن العلوم كلها عند الله، وخزائن الدنيا والآخرة كلها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"**.

وبعض المفسرين يقول: **"المفاتح والمفاتيح واحد يعني المفتاح"**.

ثم قال بعد ذلك: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 59]، أي شيء في البر في هذه البراري في المدن والفيافي والصحاري الله يعلمها، أي حركة تتحرك على هذا الكون على هذه الأرض الله يعلمها، مهما كانت صغرت أو كبرت.

يرى دبيب النمل، ويسمع دبيب النمل، ويرى النملة السوداء على صفاة سوداء في ظلمة الليل، يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يخفى عليه شيء، يعلم ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإذا كانت النملة السوداء وعلى صفاة سوداء، وفي ظلمة الليل يعلمها ويرى مكانها ويعلم مستقرها ومستودعها فعلم الله واسع، ويعلم أيضًا ما في البحر، كلّ ما يكون في البحر من حركة يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في جميع البحار.

وخذ زيادة حتى تعرف أنك لن تستطيع أن تتصور هذا الشيء، يقول: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ﴾ [الأنعام: 59]، أي ورقة من أوراق الشجر في أي مكان على وجه الأرض أو في أي بلدة وفي أي صحراء أي ورقة تسقط الله يعلمها، ويعلم متى تسقط؟ وأين تسقط؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 59]، الحبوب التي تكون تحت الأرض، حبوب صغار مخفية تحت الأرض، ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾ [الأنعام: 59]، الأشياء الرطبة يعلمها، ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾ [الأنعام: 59]، الأشياء إما رطبة أو يابسة ومع ذلك يعلم الأشياء الرطبة ويعلم الأشياء اليابسة.

يقول: هذا كله مع أن الله يعلمه قد أودعه سبحانه في كتاب مبين وهو **"اللوح المحفوظ"** أي حركة في هذا الكون مقيدة ومكتوبة في اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير السماوات والأرض إلى قيام الساعة.

آية عظيمة تدل على أي شيء؟

تدل على: **"سعة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإحاطته بكل شيء"**، ولذلك ما قدروا الله حقّ قدره، لا المشركين ولا غير المشركين، ما قدروا الله حقّ قدره وقصروا في حقّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إذا عرفت سعة علم الله، أيضًا خذ من قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو العليم القدير، من قدرة الله يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: 60]، المراد بالوفاة هنا **"النوم"** الذي يتوفاك بالليل يقبض روحك ثم تنام تستقر على فراشك من هو؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: 60]، ما جرحتم يعني ما كسبتم بالنهار، كسبت من خير **"صلاة، ذكر، صيام، قراءة قرآن"** يعلمها الله، أو كسب آخر شر، كسب من أنواع الشرور، كسبها في الليل أو كسبها في النهار الله يعلمه، يتوفى الأنفس بالليل ويعلم ما جرحت هذه الأنفس بالنهار.

وإذا توفاهم بالليل يبعثهم بالنهار، إذا جاء وقت البعث وقت الاستيقاظ لا يرد إليك روحك إلا الله.

قال: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: 60]، يعيد لك روحك، الله يتوفى الأنفس، يأخذ هذه الروح ثم تسقط على فراشك لا تدري عن أي شيء، هو الذي يتوفاك سبحانه وحده، ثم يرد إليك روحك فتستيقظ وتقول بعد ذلك: **"الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا"** إذًا أنت مت موتى صغرى، الموت موتي صغرى، والموتى الكبرى خروج روحك من جسدك.

قال: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ [الأنعام: 60]، أي في هذه الحياة يعيدكم إلى أجسادكم، ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [الأنعام: 60]، حتى ينقضي أجلك، أنت أجلك مسمى يعني محدد عند الله، كم تعيش في هذه الحياة؟ كم ستقضي حياتك هنا في هذه الدنيا؟ الله يعطيك حتى يأتي وقت الأجل الذي هو وقت الرحيل، رحيلك من هذه الدنيا.

قال: ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [الأنعام: 60]، هو كلّ يوم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقبض روح أي إنسان في هذه الدنيا عند نومه ثم يعيدها له، يقبض ويعيد، يقبض ويعيد، على مدى الأيام إلى أن ينتهي أجله.

قال: ﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [الأنعام: 60]، وإذا قُضي الأجل المسمى وخرج هذا الإنسان من هذه الدنيا وذهب إلى الآخرة؛ قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام: 60]، ترجعون إلى الله جميعًا، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ﴾ [الأنعام: 60]، ينبئكم بأي شيء؟ قال: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 60]، وإذا نبأكم بما كنتم تعلمون فيجازيكم على أعمالكم، كلٌّ يُجازى على عمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

هذه الآية تدل على أي شيء؟

تدل على: **"سعة علم الله، وعلى قدرته"** هو المنفرد بقبض الأرواح سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قد يأتيك شخص يقول:

✍ طيب في آيات أخرى أو ستأتينا الآن آية يقول: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61]، الذي تتوفى الرسل أم الله كما قال هنا: ﴿يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [الأنعام: 60]، وفي آية ثالثة: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: 11] ؟

✍ فنحن الآن أمام ثلاثة أشياء: "الله يتوفى، والرسل تتوفى، وملك الموت يتوفى" كيف نوجه هذه الأشياء؟

نقول: حقيقة الذي يتوفى الأنفس هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المنفرد هو الذي يتوفى الأنفس، ولكنه يرسل الملك، ملك الموت الموكل بقبض الأرواح، ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: 11].

وملك الموت معه ملائكة، ملائكة رحمة، وملائكة عذاب، فإن كان من أهل الخير أخذت روحه ملائكة الرحمة بمجرد أن ملك الموت يقبض هذه الروح يقول: **"يا أيتها النفس اخرجي إلى مرضاة من ربك"** بمجرد خروجها من هذا الإنسان تأخذها ملائكة الرحمة، معها أكفان من الجنة، وحنوط من الجنة، وتأخذها وتطلع بها إلى السماء، وتفتح لها أبواب السماء.

وإن كان هذا الشخص من الأشقياء أخذته ملائكة العذاب، معهم أكفان من النار، وحنوط من النار، ثم إذا صعدوا بها إلى السماء أُغلقت أبواب السماء، ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: 40]، ثم تُعاد إليه، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 60].

وخذ أيضًا من بيان قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 61]، كلّ الخلق تحته، وهو القاهر فوقهم، وهم مقهورين، السماوات والأرض والجبال والأشجار والأنهار والإنسان والمخلوقات كلها في حكم الله لا تخرج عن حكمه، وقد قهرها بكل شيء، حتى الإنسان يقهره الله بالموت وبكل شيء، فهو تحت حكمه، وتحت سلطان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يخرج عن حكم الله، ولا يخرج عن سلطان الله، ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 61].

وقوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 61]، يدل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في العلو، مستوٍ على عرشه، بائن من خلق، فوق عباده.

قال: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61]، هو القاهر الحاكم عليكم، سلطانه فوقكم، وملكه فوقكم، ومع ذلك يرسل حفظة يحفظون أعمالكم، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ 10 كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ [الانفطار: 10، 11].

يرسل عليكم حفظة، ملائكة تحفظ أعمالكم، ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: 11]، لو تتصور يعني عالم الملائكة عالم آخر شيء عظيم، كلّ إنسان كم معه من ملك؟ كلّ إنسان كم تتصور معه من ملك؟ معه ثمانية ملائكة، كلّ إنسان معه ثمانية ملائكة، أربعة بالنهار، وأربعة بالليل.

اثنين يكتبون الحسنات، واحد يكتب الحسنات وواحد يكتب السيئات، وواحد أمامه وواحد خلفه، ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: 11]، أربعة بالنهار، وأربعة بالليل، **«بتعاقبون فيكم ملائكة»**.

قال: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: 61]، تبقى الحفظة معك والملائكة معك إلى متى؟ قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [الأنعام: 61]، خلاص تخلت الملائكة عنه، انتهى أمرها، إذا جاء أحدكم الموت خلاص الآن هو انتقل إلى عالم الآخرة، انتهى أمره، ما في ملائكة تكتب ولا شيء.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: 61]، جاء ملك الموت ومعه ملائكة أعوان، ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: 61]، لا يفرطون في هذه الروح، لا يضيعونها، يقبضونها ويحفظونها.

قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: 62]، أي الخلق جميعًا يرجعون إلى الله مولاهم، وخالقهم، ومتولي أمورهم، مولاهم الحقّ، وهذه الولاية ولاية عامة لجميع الخلق المؤمن والكافر، والتقي والفاجر، كلهم يردون إلى مولاهم يعني خالقهم ومدبر أمورهم.

هناك ولاية خاصة بالمؤمنين، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: 257]، هذه ولاية خاصة، ولاية النصرة والتأييد، والحفظ، هذه للمؤمنين.

قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام: 62]، أليس له الحكم؟ له الحكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: 62]، يعني إذا ردوا إلى الله، وجاء يوم القيامة الذي يحكم بينهم ويفصل بينهم هو الله، هو الله وحده لا شريك له، ويحكم بينهم ويقضي بينهم ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: 62].

سئل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كيف يقضي بين عباده في لحظة أسرع الحاسبين؟

قال: **"كما رزقهم في الدنيا في لحظة يقضي بينهم يوم القيامة في لحظة ما يعجزه شيء"** الأمر أيسر مما تتصوره أنت.

لما يبين لك الله في هذه الآيات العظيمة سعة علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسعة قدرته تعود الآيات تناقش هؤلاء الكفرة الفجرة، هؤلاء الذين لا يعرفون عظمة الله، ولا يعرفون قدر الله، يناقشهم بالأدلة التي تقنعهم أن الله هو الواحد، وتقنعهم أن الله هو القادر، وأن الله هو المستحق للعبادة، وأما عبادة الأصنام، وعبادة الأولياء والأموات هذه ما تنفع، ولذلك أتاهم بالأدلة المقنعة التي لا يمكن أن يخرجوا عنها.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 63]، قل يا محمد لهؤلاء المشركين، ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 63]، إذا ادلهمت ظلمات البر وبدأت السحب والأمطار والصواعق والرعود واشتدت الظلمة عليهم، من ينجيكم من ظلمات البر أو ظلمات البحر إذا ركبتم البحر وبدأت تتلاطم عليكم الأمواج والسحب والأمطار والعواصف؟ !

قال: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ﴾ [الأنعام: 63]، أنتم تدعونه، ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: 63]، سرًا وعلانية، وانكسارًا بين يدي الله، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65].

يقول: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا﴾ [الأنعام: 63]، تضرعون إليه، تنطرحون بين يديه يا رب يا رب، بصوت خفي أو عالي، قل: من ينجيكم منها؟! وتقولون أنتم: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا﴾ [الأنعام: 63]، يعني والله﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ﴾ [الأنعام: 63]، أي من هذا الكرب الشديد، وهذه الحال، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 63].

أنتم تقرون بذلك، أنتم إذا ركبتم في البحر، أو كنتم في ظلمات البحر واشتدت عليكم الأمور لن ينجيكم إلا الله.

ولذلك لما جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«"كم تعبد؟" قال: أعبد سبعة، قال: "سبعة أين؟" قال: واحد في السماء وستة في الأرض، قال: "وإذا اشتد بك الكرب وأصابتك الضراء تدعو من؟" قال: أدعو الذي في السماء، قال: "والذي في الأرض؟" قال: ما ينفعني»**، فهم الآن يعرفون الله.

قال: ﴿لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 63]، قال الله: قل لهم: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا﴾ [الأنعام: 64]، أي من هذه الشدة، ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: 64]، ليس فقط هذا الكرب؛ بل الله ينجيك من كلّ كرب يصيبك، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 64]، تشركون مع الله آلهة أخرى، تعبدون غير الله، تصرفون ما هو لله لغير الله.

وخذ أيضًا من أدلة القوة والعظمة والقدرة، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 65]، قل لهم: ﴿هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: 65]، أنتم تتحدونه حتى يقول المشركين: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ﴾ [الأنفال: 32]، الذي عندك يا محمد، إن كان هذا هو الحقّ فأمطر علينا، إن كان يا رب هذا هو الحقّ من عندك ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32]، يتحدونه.

الله يقول لهم: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: 65]، كالحجارة، والريح، والمطر، والعذاب الذي يأتيكم من فوق كما سلط الله على عاد وعلى ثمود، عاد سلط الله عليهم الريح تقلعهم من الأرض، ترفعهم إلى السماء ثم ترميهم، وثمود جاءتهم الصيحة القوية

فماتوا، وشعيب قوم شعيب أهل مدين، جاءهم عذاب يوم الظلة، جاءتهم سحابة فصبت عليهم العذاب.

قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: 65]، الخسف، أو الغرق كما أغرق قوم نوح، وأغرق فرعون، والخسف خسف بقارون.

قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام: 65]، يخلطكم شيعًا، يجعلكم فرق كثيرة شيعًا، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: 65]، أجعلكم فرق تتقاتلون وتتناحرون، فيقتل بعضكم بعضًا.

قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام: 65]، ونبينها ونوضحها، ما في أشد من هذا الوضوح، ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65]، لعلهم يعرفون حقّ الله عليهم، ويتعلمون، ويعرفون عظمة الله، ولكنهم جهلة.

هذه الآية قرأها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة، فقال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال: **«أعوذ بوجه الله، أو قال: أعوذ بوجهك يا رب»**، قال: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال: **«أعوذ بوجهك»**،، قال: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾[الأنعام: 65]، قال: **«هذه أهون وأيسر»**.

وفي حديث آخر أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قرأ هذه الآية أو نزلت عليه قال: **«اللهم لا تسلط على أمتي عذابًا من فوقها، فاستجاب الله له، ثم قال: اللهم لا تسلط على أمتي عذابًا من تحت أرجلها، فاستجاب الله له، ثم قال: اللهم لا تجعلهم شيعًا يقتل بعضهم بعضًا، فلم يستجب الله له»**، ولذلك لم تنزل عقوبة من السماء على أمة محمد ولا من تحت الأرض، وإنما يحصل ما بينهم من القتل.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: 66]، بعد هذا البيان، والتنويع، والتوضيح، مع الأسف أن قومك يكذبون بالقرآن.

قال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: 66]، أنا فقط أبلغكم رسالة ربي ولست عليكم بوكيل، الله هو الوكيل، وهو الحفيظ لأعمالكم، وهو الذي يجازيكم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في من يخوض ويتكلم في آيات الله ويستهزئ، وهذه الآية لو كانت في المشركين ولكنن قد تقع من بعض المسلمين، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ [الأنعام: 68].

يخوضون يعني يسخرون ويستهزئون بالآيات القرآنية وبأحكام الله، أحيانًا تجد في بعض المجالس يسخرون من آيات الله، أو من الرسول، أو من القرآن، أو من أحكامه، يزين لهم الشيطان فيسخرون، أو يسخرون من أهل الخير والصلاح.

قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: 68]، لا تجالسهم، ولا تستمع لهم، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68]، إذا تكلموا في حديث آخر لا يمنع، لكن يتكلمون أو يستهزئون بالقرآن، ويستهزئون بالشرع لا.

قال: ﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ﴾ [الأنعام: 68]، لو أنساك الشيطان وجلست معهم، ﴿فَلَا تَقْعُدْ﴾ [الأنعام: 68]، بعد أن تتذكر مباشرة غادر هذا المكان، ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 68].

هؤلاء سماهم ظالمين، ظلموا أنفسهم، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خرج إلى غزوة تبوك خرج معه بعض المنافقين، فبدؤوا يستهزئون ويسخرون يقولون: **«ما رأينا مثل هؤلاء»**، يعني محمد أصحابه، **«مثل قراؤنا هؤلاء أرغب بطونًا وأكذب ألسنة وأجبن عند اللقاء»**، يستهزئون بالرسول والصحابة، فسمع أحد الصحابة منهم فقال: **"والله لأخبرن رسول الله"**.

فنزلت الآية: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ 65 لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: 65، 66].

فيُخشى على كلّ من يستهزئ بشرع الله أو يجالس أن يكفر، ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: 66]، حتى في بعض المقاطع في الجوالات لا يجوز لك أن تستمع، إذا رأيت من يستهزئ ويسخر وتقول: أريد أن أشوف النهاية، لا، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [الأنعام: 68]، مباشرة احذف هذا الشيء وابتعد عنه.

ولذلك الله قال: الذين يتقون الله ويخافونه إذا جلسوا معهم وعرفوا أنهم يستهزئون ما عليهم من ذنب، الذنب على من يتكلم، ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 69]، أنت ما عليك ذنب ولا تحاسب على من يستهزئ، ﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى﴾ [الأنعام: 69]، ذكرهم، عليكم أن تذكرهم وتعظهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 69].

نقف عند هذا القدر، ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وما سمعنا، جزآكم الله خير على حضوركم وإنصاتكم، نسأل الله أن يوقفنا وإياكم لطاعته.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(136)
(الأنعام 70 - 82)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المتجدد، اللقاء الأسبوعي كلّ مغرب أربعاء نجتمع في هذا المقام المبارك مع القرآن الكريم، قراءة، وتفسيرًا، وتدبرًا وتأملاً لهذه الآيات الكريمات، وكلام رب العالمين هو خير وأعظم كلام على سائر الكلام.

"سورة الأنعام" والآيات التي بين أيدينا هي الآية رقم سبعين وما بعدها، يقول الله جَلَّ جَلَالُهُ في كتابه العظيم: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: 70].

هذه الآية التي فيها الأمر بترك الذين اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، لما ذكر الله في الآيات السابقات الذين يسخرون ويستهزئون ويخوضون في آيات الله، ويسخرون من الآيات والاستهزاء بالله ورسله في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: 68].

لما حذر وبين عقوبة الذين يخوضون في آيات الله وأن الله سيجمعهم مع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا، ذكر هنا أن هؤلاء في الحقيقة ليسوا مجرد استهزاء وسخرية، لا تظن أن هؤلاء يستهزئون بالله وبرسوله وبدينه لا؛ الأمر أعظم من وهو أنهم كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: 70].

وصل بهم الأمر لو كان عندهم تعظيم لشرع الله، وتعظيم لدين الله ما سخروا ولا استهزئوا، لكن لما جعلوا هذا الدين مجرد لهو ولعب **"اللهو ما يلهى به الإنسان، ما يلهو به الإنسان من الملاهي ونحوها"** و**"اللعب للأطفال"** اللهو للكبار؛ لأنهم يلهون ويغفلون عما خلقوا من أجله، واللعب لعب الأطفال، هم الذين يلعبون، أما الرجال العقلاء لا يتخذون الدين ولا غير الدين لهوًا ولعبًا، ما خلقوا هم للهو، ولا خلقوا للعب، وإنما خلقوا للجد وللعمل وللاستعداد.

ولذلك قال الله هنا: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ [الأنعام: 70]، اتركهم، ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: 70]، دينهم الذي أمرهم الله بالتمسك به، دينهم الذي تكون العاقبة لخيرًا لهم في الدنيا والآخرة تركوا ذلك، تركوه وجعلوه لعبًا ولهوًا.

لماذا اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا؟

قال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: 70]، لأنهم عاشوا للدنيا كالبهائم، يأكل ويشرب فقط، وينام ويستيقظ وهدفه قاصر على الدنيا، ليس له هدف أكبر، وإنما اغتر بالدنيا، وأشغلته الدنيا، ولذلك لا يبالي بشرع الله، ولا يبالي بأحكام الله، ولا بدين الله، ولا بالصلاة ولا غيرها.

قال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ [الأنعام: 70]، ذكر بهذا القرآن، إذا تركت هؤلاء الذين يسخرون ويستهزئون وتركوا دينهم، لا تقف عن الدعوة، استمر في دعوتك، وذكر بهذا القرآن، ذكر به من يتذكر.

قال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ [الأنعام: 70]، تبسل أي تحبس وترتهن بعلمها، إذا جاء يوم القيامة كلٌّ يحبس بعمله، وكلٌّ يرتهن بعمله إلا من اتقى، وإلا من رحم الله.

فيقول: هذا اليوم العظيم يوم القيامة، هذا اليوم ﴿تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: 70]، تُحبس بأعمالها، أعمالها ترهنها وتحبسها عن أي شيء؟ تحبسها عن دخول الجنة، فلا يكون لهم دخول إلى الجنة، تمنعهم أعمالهم السيئة، ذكر بهذا القرآن، ﴿أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: 70].

قال: ﴿لَيْسَ لَهَا﴾، أي هذه النفس ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 70]، يتولى أمرها وينصرها إذا جاء يوم القيامة، ليس لها ولي، ما في أولياء ينصرونها.

قال: ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: 70]، ولا شفيع يشفع عند الله إلا من أذن الله له، ما في شفيع ولا نصير خلاص، حتى لو أراد أن يفدي نفسه ويخلص نفسه من العذاب ما استطاع، ما يقدر، لماذا؟ لأن الله قال: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ﴾ [الأنعام: 70]، هذه النفس، ﴿كُلَّ عَدْلٍ﴾ [الأنعام: 70]، لو تأتي بكل فداء، لو تأتي بملء الأرض ذهبًا تُقدمه، أن تفدي نفسها من العذاب ما استطاعت.

قال: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ [الأنعام: 70]، ما يؤخذ منها لماذا؟ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ [الأنعام: 70]، حبستهم أعمالهم السيئة، أعمالهم السيئة الخبيثة في الدنيا حيث أنهم اتخذوا دين الله لهوًا ولعبًا، وغرتهم الدنيا وانشغلوا عن الآخرة، إذا جاءوا يوم القيامة، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 24]، واحبسوهم بسبب أعمالهم السيئة، تمنعهم أعمالهم وتحبسهم.

طيب إذا حبستهم أعمالهم عن دخول الجنة أين سيكون مصيرهم؟

قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الأنعام: 70]، يوم القيامة يحشرون عطشى، فيريدون أن يشربوا، فيسقون من الحميم الذي إذا اقترب من لوجه يشوي الوجوه، وإذا دخل في الجوف قطع أمعاءهم، وزيادة على ذلك ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ 19 يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: 19، 20].

قال: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: 70]، كفرهم واستهزاءهم واتخاذهم دينهم الله لهوًا ولعبًا، وسخريتهم وانشغالهم بالدنيا، وأعمالهم السيئة منعتهم من دخول الجنة، وأصبحوا قد حبستهم، أبسلوا بأعمالهم السيئة ومُنعوا من دخول الجنة، مصيرهم إلى النار، ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 70]، وألوان من العذاب المتنوع الذي ذكره الله في كتابه.

بعد هذا البيان الذي تقشعر منه الجلود لمصير هؤلاء المستهزئين الساخرين ماذا سيكون؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 71]، قل لهؤلاء، يعني قفهم عند الحقيقة وذكرهم، قل لهم: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ [الأنعام: 71]، كيف تعبدون أصنام؟! تعبدون آلهة من دون الله ما تنفع، ولا تضر إذا تركتها؟!

إذا تركتها ما تضرك، ما تضرك بسوء، وإذا عبدتها ما تنفعك؛ بل هي ستضرك في الآخرة.

قال: ﴿قُلْ أَنَدْعُو﴾ [الأنعام: 71]، انظر إلى الأسلوب القرآني وهو على سبيل النقاش والحوار، يقول: قل لهم حتى يعترفوا؛ لأنك إذا ناقشت الواحد بأسلوب الحوار قد يقتنع أكثر من أن تأمره أو تنهاه، تعالى نتناقش نحن وإياك في هذه المسألة، إما أن تقنعني أو أقنعك.

قال: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 71]، حاورهم، ﴿أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 71]، يعني نعبد من دون الله، ﴿مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: 71]، هل تريدوننا أن نعبد من دون الله ما لا ينفع ولا يضر؟!

قال: ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ [الأنعام: 71]، يعني نرجع إلى الوراء، والعقب ما هو؟ هو: **"مؤخرة القدم"**.

فكأنه يقول: ارجع على وراءك، ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأنعام: 71]، نحن على هداية ومنّ الله علينا بالهداية والاستقامة، وأنتم في ضلال وعبادة أصنام، هل تريدون أن نعبد ما تعبدونه أنه مما لا ينفع ولا يضر؟ هل تريدون ذلك؟!

يقول: هذا حاله حال الذي يعبد من دون الله وهو يرى الخير أمامه، ويرى أهل الطاعة يعبدون الله وعلى استقامة وهو في ضلال، هذا حاله حال ماذا؟ حاله ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ [الأنعام: 71]، تسلطت عليه الشياطين، ،أصبح في حوزة هذه الشياطين تتصرف فيه كيف تشاء.

قال: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ [الأنعام: 71]، فبدأ يتبع هوى الشياطين، خلاص صار في ملك هذه الشياطين تتصرف فيه كيف تشاء؟

يقول: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: 71]، ما يدري أين يذهب؟ وهذا حال كثير ممن يُعرض عن طاعة الله، ويبتعد عن منهج الله، تجده يعيش هذه الحياة حيران، يتحير، حتى يريد أن يُهلك نفسه وأن يموت ويرتاح من هذا القلق الذي يعيشه، فهذا تتسلط عليه الشياطين في الأرض حيران، حيران ولا يدري أين يذهب؟ ما يدري أين يذهب؟

يقول: ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ [الأنعام: 71]، له أصحاب قد هداهم الله، ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ [الأنعام: 71]، ولا يستطيع، لأنه مقيد بقيود الشياطين، وفي مصائد الشياطين، فهذه حال كلّ من أعرض، وكلّ من أعرض عن ذكر الله تسلطت عليه الشياطين، ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ [فصلت: 25]، تسلطت عليهم الشياطين.

والله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: 83]، تزعجهم، وتقلقهم، قلق لا ينام ولا يأكل ولا يشرب، الشياطين متسلطة عليهم؛ لأنه لما تخلى وابتعد عن ولاية الرحمن أصبحت تحت ولاية الشياطين، فهذا كله تحذير من الاستهزاء بكتاب الله، وبشرعه، وعقوبة المستهزئين، عقوبة الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا، عقوبة من أعرض عن ذكر الله ولم يقبل، فإن الشياطين يصبح هو في يديها تتصرف فيه كيف تشاء؟ فكل هذا من التحذير.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [الأنعام: 71]، تجد بعض الناس يبحث عن هداية، يريد أن يكون من المهتدين، لكن ما يدري، ما عرف الطريق، يدفع الأموال، ويسافر، ويبحث عن السعادة ، والطمأنينة، وانشراح الصدر، والهداية، وما عرف الطريق، الهدى هدى الله.

ولذلك الحقيقة أنا أذكر شخصًا يقول: أنا ما تركته مكان من أماكن الأرض فيه نزهة وفيه جمال الدنيا كلها في جميع قارات العالم، يقول: دخلتها كلها، وذرت كلّ الأماكن التي فيها ترفيه، والنزهة والجمال وكلّ شيء، والجمال الطبيعي، **"وما وجدت السعادة، والهداية وانشراح الصدر إلا في عبادة الله وفي طاعته، ما وجدت السعادة إلا أن يشرح الله صدرك للإسلام"**.

يقول: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [الأنعام: 71]، هداية الله هي الهداية، وما سواها ليست هداية.

طيب ما هي هداية الله حتى نعرفها؟

قال: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 71]، الهداية **"أن تُسلم قلبك لرب العالمين"** تنقاد إلى الله بقلبك وقالبك، بروحك وجسدك، تكون لله عَزَّ وَجَلَّ، تقدم نفسك، تسلم نفسك لله، لا تسلم نفسك للشياطين، ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 71]، رب العالمين هو الذي نُسلم له.

وأمرنا أيضًا بأي شيء؟

قال: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ [الأنعام: 72]، أمرنا بهذه الأمور التي فيها السعادة في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة، الهدى أن تستسلم لله وتنقاد، وتسلم لله، وتفتخر بأنك من المسلمين، وحقيقة الإسلام أن تقيم الصلاة على وجه صحيح، وأن تحافظ على صلاة الجماعة، وأن تؤدي هذه الصلاة بحضور قلب، وخشوع.

قال: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ﴾ [الأنعام: 72]، خافوا الله عَزَّ وَجَلَّ، اتقوا الله وخافوه، ابتعدوا عن المحرمات، وأقبلوا على الطاعات.

لماذا نُسلم؟

سمعنا قبل قليل الذين لهم شراب من حميم وعذاب أليم تذكر أنك ستُحشر وأن هذا رصيدك، وأن هذا الذي ينفعك، ينفعك أن تستسلم لله، وتنقاد وتحافظ على الصلاة، هذا الذي ينفعك، وتتق الله.

قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 72]، أنك ستحشر إلى الله، وسيكون موقفك أمام الله، فإن كان معك من الأعمال الصالحة والحسنات نفعك ذلك.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يخلق الخلق كله، ولم يخلق السماوات والأرض إلا لإقامة شرعه، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31]، هذه سنة الله وعدله.

ولذلك قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 73]، ما خلقها بالباطل، خلق السماوات وما فيهن، والأراضي وما فيهن، وما بينهما خلقها بالحق؛ ليقيم العدل ويقيم شرعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

خلقها لقيم العدل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويوم القيامة ليس ببعيد، وليس من الصعب، والكفار استبعدوا يوم القيامة، وقالوا: كيف يجمع الله الأولين والآخرين؟ وكيف يجمع من كان قد تمزق تحت الأرض؟ نقول: الأمر ليس بيدك؛ بل الأمر بيد الله.

قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ [الأنعام: 73]، يوم القيامة ماذا يقول؟ قال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: 73]، ما يعجزه شيء، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: 43].

قال: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: 73]، وليس بالباطل، ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: 73]، له الملك يوم القيامة، منفردًا بالملك، له ملك الدنيا والآخرة، ويملك السماوات والأرض.

قال: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: 73]، إذا نفخ في الصور وحشر الله الأولين والآخرين ما في ملوك، الدنيا فيها ملوك، لكن في الآخرة الناس سواء، الفقير والغني، والضعيف والقوي كلهم على درجة واحدة.

قال: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾ [الأنعام: 73]، الملك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، انقطعت الأملاك، ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16].

قال: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: 73]، خلقه للخلق وإماتتهم جميعًا، ثم إحياؤهم، ثم جمعهم في هذا الموقف العظيم، ثم محاسبتهم، ثم جزاءهم إما فوز بجنات النعيم أو خسارة في جهنم؛ هذا كله راجع إلى عالم الغيب والشهادة الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ [الأنعام: 73]، في تصرفه وتدبيره، ﴿الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 73]، وخبير بخلقه لا يخفى عليه شيء.

بعد هذا النقاش مع المشركين ومحاورتهم، وإقناعهم بالأدلة حتى يرجعوا إلى ربهم، وترجع لهم عقولهم، يسوق الله لنا قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإبراهيم هو أبو الأنبياء، وإبراهيم هو إمام الحنفاء في التوحيد.

اعلم أن إبراهيم وحده مع قومه كلهم كفار، أبوه يعبد الأصنام، وقومه يعبدون الأصنام، ومع ذلك وحده يعبد الله وحده لا شريك له، ولم يتنازل، ولم يسكت، ولم يقف؛ بل دعا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، الله يسوق لنا قصته في هذه السورة في بيان كيف حاج قومه؟ وكيف ناقشهم؟ وكيف أثبت لهم بالعقل أنه لا إله إلا الله؟

قال: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ [الأنعام: 74]، يعني واذكر يا محمد، واذكر أنت وأنا جميعًا نذكر ماذا؟ نذكر هذه القصة، نتذكرها ونتأملها، ونتدبرها.

قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: 74]، أبوه آزر كان يبيع الأصنام، يصنع الأصنام ويبيعها، وإبراهيم لما كان في صغره كان أبوه يقول لإبراهيم: خذ هذه الأصنام وبعها، فكان يأخذ هذه الأصنام ويقف في الطريق ويقول: **"من يشتري ما يضره ولا ينفعه"**يعني هو على فطرة الإسلام والتوحيد.

قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام: 74]، تعبد أصنام آلهة، تتخذها تعبدها آلهة؟

قال: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 74]، يقول: أنا أراك في ضلال مبين، هذا ضلال، كيف تعبد صنم من حجر أو من شجر أو من خشب لا يسمع ولا ينفع؟!

قد يأتيك شخص يقول: لماذا إبراهيم يناقش والده بهذه الطريقة، ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: 74] ؟

لماذا لا يأتيه بأسلوب آخر؟

نقول: أنت ما عرفت قصة إبراهيم ولا قرأتها، أنت تأخذ قصة واحدة وتترك بقية القصص، اذهب إلى قصة إبراهيم في سورة مريم، وشوف كيف أسلوب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في أول الأمر؟ قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [مريم: 42]، ﴿يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: 45]، حتى قال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: 47].

هل تجد مثل هذه الرأفة والرحمة؟

نقول: ما في، لكن هنا لما رأى منه الإصرار والإعراض حتى قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: 46]، جاء بهذا الأسلوب.

بعض الناس يقول:

ما هذا الأسلوب؟

نقول: أنت ما تعرف قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أولًا تعرف على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من هو؟ وتعرف على قصته، ثم تعالى احكم، أما أن تحكم من زاوية وأنت ما تدري ما هي القضية؟ لا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75]، يقول: أريناه التوحيد، وعرف ملك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السماوات والأرض، والآيات الظاهرة في السماوات والأرض الدالة على وحدانية الله.

لماذا يريه؟

قال: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75]، ليصل إلى درجة اليقين فوق العلم، فهو عنده علم، وعنده توحيد، لكن يريد أن يرتقي إلى درجة الموقنين.

قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: 76]، جن عليه يعني أظلم الليل، جاء الليل بظلمته الشديدة، رأى كوكبًا في السماء يعني ملفت النظر له بلمعان أو سطوع قوي، حتى قال بعض المفسرين: **"هو كوكب الزهرة"**.

رأى كوكبًا فقال لقومه: أنتم الآن تعبدون أصنام، أو بعضهم يعبد الكواكب تعالوا، هو يريد أن يناظرهم.

بعضهم قال: إن إبراهيم كان يبحث عن ربه، وأنه رأى الكوكب، ثم قال: هذا ما يصلح، ثم رأى القمر فقال: ما يصلح، ثم رأى الشمس فقال: هذا ما يصلح، هو ما عرف ربه.

نقول: هذا خطأ، إبراهيم ما يبحث عن ربه، إبراهيم فطره الله على الوحيد، وإنما جاء بهذا الأسلوب لينظر قومه، يعني يحاجهم ويجادلهم ويناقشهم.

لما جن عليه الليل رأى كوكبًا، فلما رأى الكوكب هذا قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: 76]، هو يعلم إبراهيم أنه ليس بربه، لكن يقول: نسلم لكم أن هذا ربي ونشوف.

قال: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام: 76]، يعني زال وذهب وغاب، ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: 76]، أنا لا أعبد وأحب شخص يغيب عني، الله لا يغيب، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يغيب عنا، ولا تأخذه سنة ولا نوم، وهذا غاب فما يصلح إله.

ثم ترقى معهم مرة أخرى قال: نشوف القمر، ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ [الأنعام: 77]، قد ظهر في السماء في بدايته، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: 77]، تنزلًا معهم.

يقول: سلمنا لكم أن هذا القمر أكبر من الكوكب هذا ربي، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام: 77]، ذهب وجاء النهار خلاص انتهى دور القمر، سلطان القمر انتهى، ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: 77].

هو الآن يلمح لهم، يقول: أين القمر؟ راح، كيف أعبد قمر يذهب؟ إذًا أنت لست على هداية، أنا في ضلال، ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ [الأنعام: 77]، الحقيقي، ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: 77]، لأصبح من أهل الضلال، وأنتم في ضلال كأنه يشير إليهم.

ثم بعد ذلك انتقل؛ فقال: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً﴾ [الأنعام: 78]، طالعة في أول النهار قد بزغت وظهرت، ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: 78]، تنزلًا معهم، هذه الشمس هذا ربي، ﴿هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ [الأنعام: 78]، غابت وقت الغروب وراحت وانتهت، ﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 78].

قال: أنتم تعبدون أصنام، وكواكب، وحجارة، ما تنفع ولا تضر، وتغيب وليس لها أي دور ولا تأثير، كيف أعبدها؟!! إذًا لا أعبدها.

هو بدأ معهم تدريجيًا تنزلًا والآن صرح، قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 78]، سواء أشركتم مع الله هذه الأصنام، أو هذه الكواكب والشمس والقمر، فأنا لا، ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 78].

قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 79]، يقول: الذي خلق السماوات والأرض وأوجدها أنا وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض، أسلمت وجهي لله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: ﴿حَنِيفًا﴾ [الأنعام: 79]، يعني أعبد الله ولا أعبد غيره، حنيفًا مائلاً عن كلّ هذه المعبودات أتركها، لا أصنام، ولا كوكب، ولا قمر، ولا شمس، ولا غيرها، ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79]، أنا على التوحيد أطيع الله عَزَّ وَجَلَّ، وأقبل على ربي.

قال: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ [الأنعام: 80]، حاجوه يناقشونه؛ لأنه يقولون: أين الله؟ وأين ربك؟ وأين كذا؟

قال: ﴿قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ [الأنعام: 80]، في الله الذي فطركم وخلقكم، ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: 80]، وأنتم لم تهتدوا، الله هداني إلى طاعته، وأنتم لم تهتدوا، ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾ [الأنعام: 80].

وكانوا يخوفونه بالأصنام، يقولون: يا إبراهيم إذا لم تنته عن سب أصنامنا فإنها ستنتقم منك، يخوفونه، ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: 80]، أنا ما أخاف من هذه الأصنام وغيرها، تشركون بالله وتخوفوني بها؟ أنا ما أخاف من هذه الأصنام.

قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: 80]، **"إلا أن يشاء"** يعني هل تخيف؟ نقول: ما تخيف أبدًا، لكن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يريد أن يتأدب مع الله، فيربط كلّ الأمور هذه بالمشيئة، بمشيئة الله، قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ [الأنعام: 80].

ثم قال: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: 80]، ربي أحاط بكل شيء علمًا، وهذا الأصنام لا علم عندها ولا تعرف، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 80]، تقارنون بين الذي خلق السماوات والأرض، والذي فطر السماوات والأرض، والذي وسع علمه كلّ شيء، بهذه الأصنام التي لا علم ولا خلق ولا شيء؟!

قال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ [الأنعام: 81]، أنتم الآن تشركون به ولا تخافون، كيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أنتم أشركتم بالله؟!!

كيف تقولون: يجب أن تخاف من هذه الآلهة؟! أنا ما أخاف منها؛ بل المفترض أنتم الذين تخافون، تخافون من الإله الواحد أن ينتقم منكم، ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: 81]، ما أمركم بعبادة هذه الأشياء، ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 81].

ما قال: أنا في أمن وأنتم لستم في أمن، وإنما قال: قارنوا شوفوا من في الأمن أنا أم أنتم؟ هل أنتم في أمن أنفسكم وقلوبكم مطمئنة أم أنتم في قلق؟ وهل أنا في أمن أم في قلق؟ أنا أفتخر بإيماني وطاعتي ومرتاح وفي أمن، ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 81].

ثم جاءت الآية التي تقرر أن عبادة الله والتوحيد؛ أن الذي يعبد الله ويعرف معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ وعبادته وتوحيده ويبتعد عن كلّ وسيلة من وسائل الشرك أنه في أمن وطمأنينة، قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنعام: 82]، حققوا الإيمان بالله، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82]، لم يخلطوا إيمانهم بشرك، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82]، لهم الأمن التام، لهم الطمأنينة وانشراح الصدر في الدنيا، ولهم الأمن في الآخرة، ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82].

قال: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82]، المراد بالظلم هنا هو الشرك كما فسره النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«الشرك»**.

قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: 82]، والأمن من لم يخلط إيمانه بشرك وكان على أعلى درجات الإيمان والطاعة له الأمن التام، وكلٌّ على حسب إيمانه، وحسب معاصيه، الأمن يوم القيامة على درجات مثل النور على درجات، ومثل المنازل على درجات، كلٌّ على ما قدم في حياته.

لعلنا نقف عند هذه الآية، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(137)
(الأنعام 82 - 90)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد؛ أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ اليوم السادس والعشرون من الشهر السابع من عام 1445 من الهجرة، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمارنا.

درسنا المعتاد الأسبوعي من بعد صلاة المغرب من كلّ أربعاء مع تفسير القرآن العظيم قراءة، وتفسيرًا، وبيانًا، وتدبرًا، وتأملاً.

وأغلى ما يملك الإنسان وقته، وخير ما يصرف وقته في قراءة القرآن الكريم، وتدبر القرآن الكريم، ينفع الله به، ويزيد في حسناته، ويزيد في إيمانه.

الآيات التي بين أيدينا من **"سورة الأنعام"** عند الآية رقم ثلاثة وثمانين، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: 83].

ذكر الله في هذه السورة قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإبراهيم هو إمام الحنفاء، وهو أبو الأنبياء، وشرفه الله بالنبوة والرسالة والدعوة إليه، وسورة الأنعام لما كانت تناقش المشركين في عقائدهم الفاسدة، وفي شركهم، ساق الله موقف إبراهيم في دعوته لأبيه ولقومه، وبيان العقيدة الصحيحة في محاجته، حاجهم وناقشهم وبين الحقّ في ذلك، حتى لم يجدوا حجة يقابلون بها إبراهيم، فلما لم يجدوا أي حجة عندهم وهم الجهلة ما عندهم علم، ولا يستطيعون أن يناقشوا نبيًا مرسلاً استعملوا القوة فقالوا: ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: 24].

وتم الأمر إلى أن يحرقوه بنار مؤججة، ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 97]، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل فيه آية عظيمة أن أنجاه من هذه النار، فقال الله لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69]، فمكث أيامًا في هذه النار ولم يمسه شيء، حتى خمدت ورجع إلى قومه واستمر في دعوته.

هذه الآية التي بين أيدينا يقول الله فيها: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: 83]، يعني الاحتجاج الذي احتج به إبراهيم على قومه، وناقشهم هو من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو من علم الله الذي آتاه إبراهيم، فالحجة هذه حجة الله، أعطاها إبراهيم ومكن إبراهيم منها ليقيم عليهم الحجة، وليقيم عليهم الدليل على إبطال ما هم عليه.

قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: 83]، لما يقول: ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: 83]، معناه أنه انتصر عليهم، انتصر عليهم وألقمهم الحجة، ولم يستطيعوا أن يردوا عليه.

ثم بيّن لك أن هذه الحجة والنقاش والمجادلة في مثل هؤلاء هذا من العلم والدرجات العلا عند الله.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: 83]، بمعنى أن الله رفع مقام إبراهيم، وكلّ داعية إلى الله يدعو إلى الله، ويقيم الحجج على أعداء الإسلام، وعلى المنكرين للبعث، المنكرين للإسلام يرفع الله مقام.

قال: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأنعام: 83]، ما قال: نرفع درجة إبراهيم، لو قال: نرفع درجة إبراهيم كنا قلنا: هذا والله خاص بإبراهيم، لكن لما يقول: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأنعام: 83]، من نشاء من عبادنا، دل على أن الأمر مفتوح لكل من يُريد إظهار الحقّ وإبطال الباطل.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 83]، لماذا يقول: **"إن ربك"** من هو المخاطب؟ نقول: المخاطب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمد؛ لأنه هو الذي أوحي إليه القرآن، الله ما قال: **"إن الله عليم حكيم عليم"** وإنما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 83].

كأنه يشير إلى أن هذا الذي يسمعه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسمعه أهل مكة أنه من عند الله، وأنه وحي، وأن محمد لا يتكلم من نفسه، لا يأتي بهذا الشيء من عنده، إنما هو يوحى إليه، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 4].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: حتى يسمع الكافر من أهل مكة إذا سمع هذا الكلام: **"إن ربك يا محمد حكيم عليم"** عرف أن هذا قرآن مُنزل من عند الله، وليس من عند محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس له تصرف.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 83]، الحكيم من يضع الأمور في مواضعها، الحكيم هو ذو الحكمة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو الحكمة البالغة، إذا قضى أمرًا أو شرع شرعًا؛ فإنه لا يقضي إلا بحكمة، ولا يشرع إلا بحكمة، وهو الحاكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كلّ شيء.

فالحكيم بمعنى الحاكم الذي يقضي ويحكم بحكمه العدل، والحكم الذي يضع الأمور مواضعها، وعليم، لما يشرع أو يتكلم أو يقضي أو يحكم سبحانه عليم، علمه سابق كلّ شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما يُبين الله لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قصة إبراهيم ومحاجته إلى قومه، وإقامة الحجة عليهم تأتي الآيات بعد ذلك في الثناء على إبراهيم، والتمجيد، ورفع المقام له، وتشريفه بين الأنبياء وبين الأمم، اسمع ماذا يقول؟

قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [الأنعام: 84]، يقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أقام إبراهيم الحجة وناقشهم ولم يقبلوا منه ماذا صنع؟ هجرهم، ترك بلادهم، وهاجر بلادهم وذهب إلى بلاد الشام، هو كان في العراق يدعو قومه ويدعو أباه في العراق، لما أبو وأصروا واستكبروا ولم يقبلوا منه قال: إذًا الهجرة وترك الشرك، وترك أهل الشرك، قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: 99].

فهاجر، فلما هاجر وقد كبر في السن ولم يرزق أولادًا رزقه الله، لما جاءته البشرى من الملائكة، جاءت الملائكة له وبشرته بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ [العنكبوت: 27]، إسحاق من زوجته سارة، وإسماعيل من زوجته هاجر.

طيب ويعقوب هذا ماذا يكون؟

نقول: هذا يعقوب ليس ابن إبراهيم، بعض الناس يظن أن الله لما قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [العنكبوت: 27]، يظن أن إسحاق ويعقوب أخوة، وأن يعقوب ابن إبراهيم، وهذا خطأ، هذا يعقوب هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، جده إبراهيم.

قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71]، فيعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهذا فيه بشارة لإبراهيم وهو قد طعن في السن حتى قال بعض أهل التفسير: **"أنه بلغ المائة من عمره"** فبشرته الملائكة لما بلغ المائة، تُبشره بأي شيء؟ تُبشره أن يولد له ولد اسمه إسحاق،

ويكبر هذا الولد ويتزوج ويولد له ولد اسمه يعقوب، هذا يدل على بشارة بالذرية، وبشارة بأنهم أنبياء، وبشارة بطول العمر له.

قال: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: 84]، من؟ إسحاق ويعقوب؛ لأن إسحاق نبي، ويعقوب نبي، ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: 84]، من قبل إبراهيم الله هدى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنّ عليه بالرسالة.

قد يأتيك شخص يقول: ما علاقة نوح بإبراهيم فهو الآن يذكر ذرية إبراهيم؟

نقول: نوح جد من أجداد إبراهيم، وإبراهيم من ذرية نوح، فالثناء على الأجداد والأسلاف ثناء على الذرية، ومدح الأجداد مدح للذرية، كأنه يقول: يا إبراهيم أنت من ذرية نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقول: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ [الأنعام: 84]، ذرية من؟ الآن هنا إشكال هل هو ذرية نوح لأنه آخر ما ذكر؟ أم ذرية إبراهيم لأن السياق في مدح إبراهيم؟

ذكر أهل التفسير منهم من قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ [الأنعام: 84]، أي من ذرية نوح؛ لأنه آخر ما ذكر، لأنه قال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: 84]، ثم قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ [الأنعام: 84]، فيكون الضمير يرجع إلى أقرب مذكور.

وبعضهم يقول: لا، الكلام كله في إبراهيم، فلا يزال الكلام في إبراهيم، وهذا هو الصحيح، الصحيح أن قوله:﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ [الأنعام: 84]، أي من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الكلام كله في مدح إبراهيم.

قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: 84]، من هو داود؟ هو نبي من أنبياء الله أرسله الله إلى بني إسرائيل، وأتاه الله النبوة والملك، ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ 17 إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ 18 وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 17 - 19]، وجاء ثناء الله أنه قتل جالوت، ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: 251].

وجاء في السنة: **"أن خير الصيام صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وخير القيام قيام داود كان ينام نصف الليل، ثم يقوم ثلثه، أو كان ينام ثلثه ويقوم نصفه"**.

قال: ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنعام: 84]، هذا سليمان بن داود، أيضًا أعطاه الله الملك والنبوة، ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: 17].

قال: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ [الأنعام: 84]، أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ابتلاه الله بالبلاء الشديد فصبر، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41]، ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ 83 فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: 83، 84].

وقد أعطاه الله الدنيا، وفتح عليه، ثم هلك كلّ ما وراءه حتى أبناءه، ثم أعاد الله له الملك.

قال: ﴿وَيُوسُفَ﴾ [الأنعام: 84]، يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ابتلي أيضًا كما ابتلي أيوب صبر، ابتلي ابتلاءات شديدة، ابتلي أن ألقاه أخوته في الجب، وابتلي أن أخذ وبيع في مصر كأنه مملوك، وصبر، وابتلي مع امرأة العزيز أشد البلاء، ثم ابتلي أن ألقي في السجن بغير سبب، هذه ابتلاءات مر بها يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم رفع شأنه وأعطاه الملك، ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 101].

قال: ﴿وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: 84]، لأنهم أهل إحسان وأعمال صالحة فجازاهم الله، جازى الإحسان بالإحسان، هؤلاء الأنبياء الذين ذكروا في هذه السورة ثمانية عشر نبيًا، ومجموع الذين ذكروا في القرآن كلهم الأنبياء الرسل الذين ذكرهم الله خمس

وعشرين نبيًا رسولًا، هذا الذي ذكر في القرآن، أما في غير القرآن هم كثير، الله يقول: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [الفاتحة: 164]، الذين لم نقصصهم كثير.

ولذلك سئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كم عدد الأنبياء؟ فقال: **«مائة وأربعة وعشرين ألف»**، فما ذكر في القرآن قليل جدًا.

تلاحظ أن هؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله لما قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأنعام: 84]، هؤلاء أعطاهم الله الدنيا، ملكهم الدنيا ووسع عليهم، وموسى وهارون أعطاهم الله الآيات العظيمة المعجزات الحسية.

الآن يأتيك أنبياء آخرين ضد هؤلاء، بالعكس، قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى﴾ [الأنعام: 85]، الأول ستة، قال: ﴿دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأنعام: 84]، ثم عطف عليهم قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾ [الأنعام: 85]، أربعة.

زكريا هو الذي كفل مريم، وطعن في السن ولم يرزق بذرية ودعا ربه، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ 38 فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران: 38، 39].

قال: ﴿وَعِيسَى﴾ [الأنعام: 85]، عيسى بن مريم هو من أولي العزم، وأنزل الله عليه الإنجيل، فهو آخر أنبياء بني إسرائيل.

قال: ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ [الأنعام: 85]، نبي من أنبياء بني إسرائيل، هؤلاء الأربعة ذوى الله عنهم الدنيا، وعاشوا فقراء، ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾ [الأنعام: 85]، وأثنى الله عليهم بأنهم من الصالحين، ﴿كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: 85]، أثنى على الأنبياء والصالحين.

طيب إذا قيل: هؤلاء أعطاهم الله الدنيا وأصبحوا ملوكًا، وهؤلاء فقراء عاشوا فقراء ماذا تفهم من هذا الكلام؟

تفهم: أن الملك بيد الله، وأن حتى لو كانوا أنبياء وأقرب الناس إليه ممكن يبتليهم بالملك ابتلاءً، ويمكن أن يبتليهم بالفقر، فالأمر بيد الله عَزَّ وَجَلَّ، والحكمة راجعة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، والدنيا هكذا بين فقر وغنى، كلٌّ يعيش فيها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ [الأنعام: 86]، أربعة، إسماعيل بن إبراهيم، إسماعيل هو أبو العرب، ومن ذرية إسماعيل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم الأنبياء والمرسلين وسيدهم، إسماعيل الذي أثنى الله عليه، ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا 54 وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 54، 55].

هذا إسماعيل أمه هاجر، وهو الذي ابتلي بالذبح، وصبر، قال: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: 102]، لما قال له أبوه إبراهيم: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾، رآه ثلاثة أيام، يرى أنه يذبحه، فجاء إليه وهو صغير شاب، بلغ معه السعي، قال: ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، ما دام أنت ترى أن الله يأمرك افعل ما تؤمر ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ 102 فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 102-103]، وذهب به جاء الفرج من الله، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: 106].

قال: ﴿وَالْيَسَعَ﴾ [الأنعام: 86]، اليسع نبي من أنبياء بني إسرائيل، اليسع لم يفسر الله في قصته، ولا إلياس، وإنما جاء هكذا مختصر.

قال: ﴿وَيُونُسَ﴾ [الأنعام: 86]، يونس بن متى، وهو صاحب النون، صاحب الحوت، أرسله الله إلى قومه داعيًا إليهم، داعيًا إلى التوحيد وإلى عبادة الله، فأبوا وكفروا ورد رسالته فغضب عليهم وخرج، ولم يؤذن له بالخروج.

فلما خرج وركب السفينة ألقى نفسه بالبحر لما خاف أهل السفينة من الغرق قالوا: لابد أن نضع قرعة، ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: 141]، وضعوا قرعة فخرجت القرعة عليه، وأعادوها مرتين ثلاثة أربعة وتأتي عليه، فلما رأى أنه هكذا ألقى بنفسه في البحر؛ فإذا الحوت قد التقمه، ونزل به في قاع البحر في بطن الحوت، فوجد نفسه في الظلمات، ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87].

هو نبي ويقول: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87]، فرج الله عنه وألقاه، لم يمسه بسوء هذا الحوت الكبير، وإنما ألقاه على الشاطئ فعاد إلى قومه.

أيها الأخوة الحقيقة الإنسان لما يسمع مثل قصص هؤلاء الأنبياء يونس ماذا قال الله؟ حتى تعرف أن الحسنات والأعمال الصالحة تنفعك، لا تظن أنك تتقدم إلى الصلاة مبكرًا وتحرص على السنن، وتحرص على ما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في زمان الرخاء؛ زمان الرخاء ينفع في الشدة، انظر إلى يونس في الشدة قال الله فيه: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ 143 لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: 143، 144]، لكنه عنده نصيب نفعه، فالأعمال الصالحة تنفعك.

قال: ﴿وَلُوطًا﴾ [الأنعام: 86]، هذا أرسله الله إلى قرى سبع، قرى لوط، أكبرها قرية سدوم، وهي قرى في بلاد الأردن أو في شرق الأردن، ولوط هذا عمه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأرسله الله وكانوا قد وقعوا في الفاحشة يأتون الرجال من دون النساء، فنصحهم وحذرهم، فكان ردهم ماذا؟ قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: 56].

فعذبهم الله بأشد عذاب، لم تُعذب به أي أمة من الأمم، جاءهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بريشة من جناحه ورفع ديارهم السبع إلى السموات، ثم قلبها عليهم، ثم أتبعهم بالحجارة التي أحرقتهم وأماتتهم، فكانت عقوبتهم شديدة؛ لأنهم قلبوا فطرة الله.

قال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 86]، لأنهم أنبياء فضلهم الله، لم ينته الأمر إلى هؤلاء الأنبياء؛ بل إن في آبائهم وذرياتهم أنبياء وصالحين، قال: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ [الأنعام: 87].

أنا أسألكم الآن: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أبوه مسلم ولا كافر؟ زوجته مسلمة ولا كافرة؟

الجواب: زوجته كافرة، ولكن أبوه مسلم، ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [نوح: 28]، أمه وأبوه، اقرأ سورة نوح يقول في آخرها: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ [نوح: 28].

قال: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ [الأنعام: 87]، يعقوب أبوه إسحاق نبي، إسحاق أبوه إبراهيم، يوسف أبوه يعقوب، أباء تجدهم أنبياء وتجدهم صالحين.

قال: ﴿وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الأنعام: 87]، يعني أبناءهم، إسماعيل بن إبراهيم، وهكذا.

قال: ﴿وَإِخْوَانِهِمْ﴾ [الأنعام: 87]، موسى وأخاه هارون وهكذا.

قال: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ [الأنعام: 87]، يعني اخترناهم، اخترناهم للنبوة والرسالة.

قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 87]، هداهم الله إلى الصراط المستقيم، صراط النجاة.

قال: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: 88]، ذلك المذكور في قصص الأنبياء هو هدى الله، ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 88]، يعني لا تظن أن الهداية مقتصرة على الأنبياء المذكورين، أو الأنبياء والرسل لا؛ بل باب الله واسع، وهدايته واسعة.

قال: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الأنعام: 88]، اسأل الله الهداية، ويجعلك في زمرة هؤلاء، وفي صف هؤلاء، أنت تقرأ في سورة الفاتحة كلّ يوم أكثر من عشرين مرة تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ 6 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 6، 7].

استحضر هذه الآية لما تقرأها، لا تقرأ هكذا؛ بل استحضرها واجعلها أمامك الآية، ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 7]، من هم؟ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69].

يعني قل أنت: اللهم اجعلني رفيقًا معهم، الباب مفتوح لا تضيق لى نفسك، ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]، قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ 87 ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: 87، 88].

ثم حذر من أمر خطير وقع فيه شرك، الآيات تنزل على أهل مكة وهم يشركون بالله، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: 88]، لو أشرك هؤلاء الأنبياء إبراهيم وذريته، ونوح، وكلهم لو أشركوا النتيجة ما هي؟ قال: ﴿لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88].

لو أشركوا كانوا أبعد الناس عن الجنة، الله عَزَّ وَجَلَّ قال في آية أخرى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65].

فالشرك مثلما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: 72]، فالشرك خطير.

قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، ثم عاد في الثناء عليهم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: 89]، العلم الكتاب، أنزلت عليهم كتب، ﴿وَالْحُكْمَ﴾ [الأنعام: 89]، القضاء والحكم والحكمة، ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: 89]، أعطاهم الله النبوة.

قال: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ [الأنعام: 89]، يكفر هؤلاء أهل مكة بهذه الرسالة برسالتك يا محمد وبدعوتك، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 89].

إذا أعرض أهل مكة ولم يقبلوا دعوته وهم أولى الناس هذا محمد ابنكم، وتربى بين أيديكم وتعرفونه، وتسمونه الصادق الأمين، لما جاءكم بالحق أعرضتم وكفرتم؟!

الله يأتي بناس يأخذون هذه الرسالة، ولذلك بعث الله الأنصار فآووه ونصروه وأيدوه، وشرفوا برسالته، ففتح الله عليهم، ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 89]

ثم أعاد الثناء عليهم؛ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، أولئك الأنبياء هم الذين هداهم الله، عرفوا الهدى، فأنت يا محمد اقتدي بهم، وهو أشرف الأنبياء والرسل وسيدهم ويأمره الله بأن يقتدي بصفاتهم التي شرفهم الله بها.

قال: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90]، ويقتدي كلٌّ منا، يقتدي بداود، وسليمان، ويونس، ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90].

ثم قل لهؤلاء المشركين المعاندين: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: 90]، أنا ما أطلب منكم أجر على دعوتي، أنا أدعوكم بالمجان، ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا﴾، أي هذا القرآن وهذه الدعوة ﴿ذِكْرَى﴾، ليست لأهل مكة فقط ولا العرب فقط؛ بل ذكرى للعالمين ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 90]، للجن والإنس، القرآن والدعوة دعوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تظن أنها خاصة بالجزيرة

العربية أو بأهل مكة أو بالعرب لا؛ بل هي دعوة عامة عالمية، وشوف كيف يدخل في الإسلام ممن يدخل من غير المسلمين ومن غير العرب؟!

قال: ﴿ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 90]، الجن يؤمنون، والإنس يؤمنون بهذه الرسالة العظيمة.

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(138)
(الأنعام 91 - 98)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا المجلس المبارك مع القرآن الكريم، هذا اليوم هو اليوم الرابع من الشهر الثامن من عام 1445 من الهجرة.

لازلنا في هذه السورة العظيمة الجليلة القدر وهي **"سورة الأنعام"** وقف بنا الكلام عند الآية الحادية والتسعين من هذه السورة، وهي قول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 91].

هذه المقولة من أين جاءت؟

ومن الذي قالها؟

وأنت تقرأ هذه الآيات والتي قبلها الله يناقش المشركين في عقائدهم، وبيان فساد ما هم عليه، يبيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا أنهم ما قدروا الله حقّ قدره، ما عرفوا عظمة الله، وقدرته، ومنته ونعمته على عباده، لما أنكروا ما أنزل الله، قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 91].

وإذا أنكروا الإنزال والرسالة أنكروا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنهم قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 91]، يعني ما في بشر رسول، ولا في كتاب.

طيب ما علاقة قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91]، بقوله: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 91]..؟

نقول: من تعظيمك لرب العالمين أن تعرف نعمته عليك، ونعمته على الخلق أنه لم يخلق الخلق ويتركهم عبثًا يعيشون كالبهائم، وإنما من فضله ورحمته وإحسانه أن خلق الخلق وأرسل إليهم الرسل، وأنزل إليهم الكتب التي فيها النور والهداية ومعرفة الطريق إلى الله، وإلى الصراط المستقيم.

من قائل هذه المقالة؟

اختلف أهل التفسير:

بعضهم يقول: **"إن المشركين هم الذين قالوا"** لأن الآيات تتحدث عن المشركين، وكلّ السورة عن المشركين، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة يناقش مشركي العرب أو مشركي مكة.

وهناك من يقول: **"القائلين هم أهل الكتاب اليهود خاصة"**.

أنت لما تقرأ الآية في رد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 91]، قال الله ردًا عليهم: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ [الأنعام: 91].

الكتاب الذي جاء به موسى هو التوراة، من أنزل التوراة على موسى؟

يا أهل مكة ويا أيها اليهود كلكم تعلمون أن التوراة وهي معلومة عندهم أن الله أنزلها على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كليم الله.

قال: ﴿أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى﴾ [الأنعام: 91]، التوراة فيها نور، ينير القلوب، وتستنير به أو يستنير به العباد، ﴿وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 91]، يهتدون به بهداياته، يعني ما أنزل الله الكتاب حتى يُقرأ أو يوضع في الأدراج أو نحو ذلك لا، أي كتاب حتى القرآن الكريم الله أنزله نور، قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: 174]، ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: 8].

فالقرآن نور ينبغي أن نستفيد ونستضيء بهذا النور في قلوبنا، في بيوتنا، مع أبناءنا، نحيي به أنفسنا، ونحيي به البيوت، بهذا النور العظيم، ينبغي أن نأخذ هذا النور الذي هو القرآن نأخذه ونضعه في بيوتنا؛ حتى نُشعر البيت وأهل البيت بعظمة هذا القرآن الكريم، لا أن تدخل وتخرج وأنت ليس لك أثر ولا أبناءك يقرؤون ولا أحد في البيت لا، أشعرهم بالقراءة، يكون لك مصحف في البيت، يكون لك صلاة في البيت تصليها من السنن، حتى تشعر من في البيت،، إذا تحفظ بعض السور تأتي ببعض الأبناء وتقول: تعالى أقرأ عليك، وهكذا، تحيي البيت بالقراءة؛ لأن القراءة نور وبركة على البيت.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في التوراة: ﴿نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 91]، ثم قال: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ [الأنعام: 91]، هنا هذا الذي جعل بعضهم يقول: إنهم اليهود، قال: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ﴾ [الأنعام: 91]، يعني تنسخونه على أوراق، وإذا نسختم تحذفون أشياء وتتركون أشياء، الذي يجوز لكم تأخذونه، والذي لا يجوز تتركونه.

قال: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: 91]، تظهرون شيء والشيء الكثير تحذفونه لأنه ما يناسبكم، أو تحرفونه.

قال: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ [الأنعام: 91]، الله علمكم ومنّ عليكم بالكتابة والقراءة، ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ [الأنعام: 91].

من الذي جاء بكتاب موسى سواء قلناه الخطاب لليهود لأنهم يجعلونه قراطيس، أو مشركي العرب لأنهم كانوا يأخذون من اليهود حتى يحتجوا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

مشركي العرب كانوا يذهبون إلى أحبار اليهود في المدينة ويقولون: أعطونا حتى نحاج محمد، فيقولون لهم مثلاً: اسألوا محمد ما أنزل الله على بشر من شيء، فيأتون يقولون وهم لا يدرون جهلة، فكل الخطاب هذا موجه إلى اليهود، ومشركي مكة.

قال الله ردًا عليهم: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 91]، الله الذي أنزل الكتاب، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91]، كلمة **"يلعبون"** دلت على أنهم غير جادين، وأنه مجرد استهزاء وسخرية، وعبث، وعدم قبول للحقّ، ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91]، ذرهم فيما يخوضون فيه.

الخوض الأصل فيه: **"خوض الماء"**، لكن هنا يخوضون في الكلام مثل الذي يخوض في الماء، ما في فائدة ما يخرج بشيء، فهم يخوضون فيما لا فائدة فيه بشيء، فقال: اتركهم هم يلعبون يضيعون الوقت بلا فائدة ويعبثون، حياتهم كلها عبث في عبث ولعب ولهو فاتركهم، ما عندهم جدية، ما عندهم حرص على أنفسهم.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر التوراة وأثنى عليها بأن فيها النور وفيها الهدى، لم يقف الحد إلى هنا لا، أشار إلى القرآن الذي هو أعظم من التوراة، أفضل كتاب على الإطلاق هذا القرآن، هذه المصاحف الموجودة عندنا هي أفضل كتاب على الإطلاق.

أفضل كتاب أنزله الله، وأفضل كتاب موجود على وجه الأرض، إذا أعرضت عنه ولم تعطه أهميته، ولم تعطه من وقتك فاعلم أنك محروم حرمان شديد، وإذا عرفت أنك مقبل على القرآن في كلّ وقت، فاعلم أن هذا فضل من الله عليك، يحتاج منك إلى الشكر حتى يزيدك الله.

يقول: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ [الأنعام: 92]، يعني القرآن، ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنعام: 92]، حتى يثبت لك أنه منزل، لما قالوا: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 91]، قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنعام: 92].

ثم بدأ يصف القرآن الكريم بأوصاف أعظم من التوراة، قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: 92]، كلمة **"مبارك"** يعني كثير الخير والبركة، كلّ ما تقرأ منه، وكلما تتصل بالقرآن اعلم أنك على خير وعلى بركة، يعني سورة واحدة في القرآن يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة»**، سورة البقرة.

ويقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة لا يقربه شيطان»**، هذا من بركة هذا الكتاب العظيم، إذا كانت سورة واحدة فيها هذا الأثر؛ فكيف بالقرآن كله؟! فكيف إذا كان القرآن في صدرك؟!

أنت تمشي بين الناس والقرآن في صدرك، تراجع وتقرأ في كلّ وقت، الآن أصبحت المصاحف في هذه الأجهزة أجهزة الجوال، تنتقل إلى مكان، أي مكان تفتح وتقرأ، وكلما تقرأ الحرف لك به عشرة حسنات، كم تقرأ في اليوم من حرف؟! عد من الحسنات التي لا حد لها.

قال: ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: 92]، يعني هو يصدق الكتب الماضية، يعني القرآن يتوافق مع التوراة مع الإنجيل، يرغب اليهود، اليهود إذا قالوا: عندنا التوراة، نقول: القرآن يصدق التوراة، القرآن يأتي مصدق للكتب الماضية كلها.

قال: ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: 92]، يعني مما مضى من الكتب، ثم بيّن وظيفة النبي الذي أنزل عليه حتى يثبت لأهل مكة أن الذي أنزل الكتاب هو الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنزله على من؟ على نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي اختاره للرسالة.

قال: ﴿وَلِتُنْذِرَ﴾ [الأنعام: 92]، لتنذر يا محمد، ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ [الأنعام: 92]، ما قال: **"لتبشر"** بل **"تنذر"** لأنهم على كفر وطغيان، وعلى رد للحقّ، ولا يريدونه، فيهددهم بأي شيء؟ يهددهم بالعذاب الأليم.

قال: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92]، ما هي أم القرى؟ هي مكة، لماذا سميت أم القرى؟ لأنها هي الأم في الأصل، فهي أصل الأرض كلها، وكلّ ما حولها من القرى تابعة لها، فأم القرى هي مكة، حتى قيل: **"دُحيت الأرض كلها من أرض مكة"** فأم القرى هي مكة.

وقد وقف بعض المعاصرين في بيان إعجاز القرآن الكريم قالوا: مركز العالم في الوسط هي مكة، لو تنظر على القرى الأرضية تجد أن الوسط هي مكة، هي مرتكز العالم، وما حولها انظر ماذا قال الله؟ قال: ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ [الأنعام: 92]، هي مكة، ثم قال: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: 92]، أي تنذر الذين من حولها، من هم من حولها؟ نقول: العالم كله، كلّ العالم محيطين بمكة.

نستنبط من هذا: **"أن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوته عالمية"** دعوة عالمية لكل أقطار الأرض، كلهم يجب عليهم أن يدخلوا في الإسلام، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 85].

قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الأنعام: 92]، الذين يؤمنون بالآخرة ويعرفون أنهم سيحشرون إلى الله هم المؤمنون، أما الكفار لا يؤمنون بالآخرة، وهذه كأنها رسالة لكفار مكة أنتم لا تؤمنون بالآخرة، تقولون: هذه الحياة حياتنا فقط، لكن الذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون بهذا القرآن.

وأنتم يا أهل مكة المشركون لما كنتم لا تؤمنون بالآخرة ما آمنتم بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفرتم به، لكن هؤلاء يؤمنون بالآخرة، و﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الأنعام: 92]، يؤمنون بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كرسول، ويؤمنون بالقرآن المنزل على محمد.

ثم قال: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: 92].

يأتيك سؤال:

ما علاقة هذا بالصلاة، هو قال: يؤمنوا باليوم، ويؤمنوا بالقرآن، فما علاقة الصلاة؟

نقول: **"أقوى ما يتميز به المسلم هو أن يكون من المصلين"** فإذا ترك الصلاة خرج عن الإسلام، **«العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»**.

فالصلاة هي الفاصل بين المؤمن والكافر، ولذلك لما تكلم عن يؤمنون بالآخرة، ويؤمنون بالقرآن، ويؤمنون بالرسول قال: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: 92]، ولم يقل: **"يؤمنون بالصلاة أو يصلون"** وإنما قال: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: 92]، فعل مضارع يفيد الاستمرار.

طيب كيف يحافظ على صلاته؟

يحافظ على وضوئه كيف يتوضأ؟ تجد الكثير من الناس يخل بالوضوء ما يعرف كيف يتوضأ؟ ويحافظ على صلاته بأنه يستحضر الصلاة إذا كبر، يحافظ على أركانها، عندك أربعة عشر ركنًا تحافظ على أركانها.

ومن أهم هذه الأركان: **"الطمأنينة"** تجد بعض الناس لا يطمئن، لا في ركوع، ولا في سجوده، حتى قراءته سريعة ما يطمئن، ما يصح أن تقرأ سريع، اقرأ وأنت تتأمل ماذا تقول؟ تفهم.

الإخلال بالطمأنينة أحيانًا من الشيطان يجعل الإنسان يخل بصلاته، فالذين حافظون على صلاتهم أركانها وواجباتها وسننها، خشوعها، وضوئها، طمأنينته في الصلاة، إذا سلم ما يقوم مباشرة ولكن يأتي بأذكارها، يأتي بالسنن، لا يكون يصلي على عجالة ويخرج كأنه منحشر في المسجد، كأن المسجد سجن له يريد أن يخرج، بينما المسجد طمأنينة وسكينة.

ولذلك تلاحظ الذين يأتون مبكرين قبل الأذان أو مع الأذان هم الذين يخرجون متأخرين، ما يستعجلوا، لأنه جاء بطمأنينة، جاء إلى الصلاة، جاء قاصد المسجد، هو جاء ضيف عند الله، البيت بيت الله، والله فتح لك أبوابه، وناداك بالنداء **"حي على الصلاة، حي على الفلاح"** يناديك ثم أنت مباشر مجرد أن يسلم الإمام وأنت تخرج كأنك في ضيق.

ولذلك الذين يأتون متأخرين في الصفوف الأخيرة بمجرد أن يسلم الإمام ما يأتي بالأذكار، كلّ هذا من الشيطان يضيع عليك، يعني الأذكار ما تأخذ منك ولا خمس دقائق فتضيع.

قال: ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: 92]، لما كان الكفار يفترون على الله الكذب، ويختلفون الأشياء ويقولون: هذا حلال، وهذا حرام، وينكرون القرآن، وينكرون الرسول، بيّن الله عقوبتهم، قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 93].

يقول: لا أحد أشد ظلمًا من الذي يفتري ويكذب على الله، يقول: هذا حلال، أو هذا حرام، أو هذا قال الله، وهذا ما قاله الله، هذا قد يقع حتى من بعض المسلمين، تجد بعضهم يقول: هذا حرام، طيب ما هو الدليل؟ لماذا قلت: هذا حرام؟ كأنك تقول: الله حرمه، أو يقول: هذا حلال ما فيه بأس.

لا تقل شيء ولا تفتري على الله الكذب،لا تقول شيء إلا عن علم، وإلا قل: **"الله أعلم"**، انظر أدب الصحابة إذا سألهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال لهم: **"ماذا تقولون في كذا وكذا؟"** قالوا: **"الله ورسوله أعلم"**.

مع أنه أحيانًا بعض الصحابة يدري، ولكن مع ذلك من حسن الأدب كانوا يقولون: **"الله ورسوله أعلم"**.

قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 93]، وأشد من ذلك، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: 93]، هم ينكرون رسالة محمد ويأتي من يقول: أنا أوحي إلي، يكذب مثل مسيلمة الكذاب،

والأسود العنزي، وغيرهم الذين ادعوا النبوة يقولون: الله أوحى إلينا، والله ما أوحى إليهم، محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو خاتم النبيين كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما بعده نبي.

قال: ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 93]، مثلما مسيلمة الكذاب ما أتاه عمرو بن العاص، قال: **"يا عمرو ماذا أنزل على نبيكم محمد؟"** قرأ عليه آيات، قال: **"أنا عندي آيات"** وبدأ يهذي هذيان لا يقبله أي إنسان عاقل، قال: **"أنزل علي مثلما أنزل على محمد"**.

فالله ماذا أعد لهؤلاء؟

عاقبهم أشد العقوبات، اسمع عقوباتهم، قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 93]، هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب، وغيرهم، كلّ الظلمة، ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ [الأنعام: 93]، في سكرات وشدة، وقت الاحتضار لا تظن أن الملك يأتي يقول: **"يا أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مرضاة الله"** لا؛ بل تُنزع أرواحهم بشدة، ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: 1]، تغرق بقوة تنزعها.

قال: ﴿فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ [الأنعام: 93]، في شدة الموت وغمراته، وسكراته، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ﴾ [الأنعام: 93]، باسطو أيديهم بالضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم، ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُم﴾ [الأنفال: 50].

قال: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: 93]، أخرج روحك، ما يستطيع من شدة الخوف والرعب؛ لأنه يعرف ماذا سيقبل عليه؟ الظالم والكافر يعرف أنه إذا وصل الموت يرى ما سيشاهده بعد الموت، وسيلاقيه بعد الموت.

قال: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: 93]، عذاب إهانة؛ لأنهم أهانوا شرع الله، وأهانوا عباد الله، وظلموا، فأهانهم الله.

قال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: 93]، تقولون: هذا حلال، وهذا حرام، وهذا بعثه الله، وهذا ما بعثه.

قال: ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93]، إذا جاءكم القرآن تستكبرون، وإذا أمرتم بالصلاة أو جاءتك أي آية من آيات الله استكبرت، فتنزع أرواحهم الملائكة بشدة، ويرون العذاب الشديد.

قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ [الأنعام: 94]، وفي هذا دليل على عذاب القبر ونعميه، وأنه هو أول منزلة من منازل الآخرة، ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [الأنعام: 94]، عراة ليس عليهم لباس، وحفاة ما معهم أحذية، وغرلًا يبعثون كما خلقوا.

يُنقل وهو قد كفن في أكفانه ما معه شيء، لا مال، ولا ولد ولا أي شيء، وإنما ما معه إلا العمل الصالح الذي في قلبه.

قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ [الأنعام: 94]، الذي أعطيناكم ومنحناكم من النعم والأرزاق والولد والزوجة والأموال والمساكن والمزارع، ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: 94]، أين هي؟ليست معكم.

قال: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾ [الأنعام: 94]، يقولون: معنا شفعاء يشفعون لنا يوم القيامة، ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء﴾ [الأنعام: 94]، تقولون: نشرك بالله ونعبد علشان تشفع لنا، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، أين شفعاؤكم؟ ما في شفعاء.

قال: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: 94]، تقطعت الصلة بينكم، وأيضًا تقطع يعني انفصلت العلاقات بقوة، ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: 94]، ضل عنكم كلّ ما كنتم تزعمون

أنها معكم، وكله كذب في كذب، هذه عقوبة من يفتري على الله ويكذب ويدعي دعاوى كاذبة هذه عقوبته.

بعد هذا البيان تعرف أن الإله الواحد الخالق الرب هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو المدبر، ومن رحمته أن أنزل الكتاب، ومن رحمته أن أرسل الرسل، ومن رحمته أن هدى بعض خلقه، كلّ هذه هدايات، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: 43].

فنعمه عظيمة، اسمع حتى يبين لك الله شيئًا من نعمه، يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: 95]، لما بيّن أن الشركاء لا ينفعون، ويضروهم في الآخرة، بيّن أن الله هو الواحد، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: 95]، نعرف الحب ما هو والنوى، الحبوب مثل **"الشعير، والأرز، والقمح"** ونحوه.

والنوى هي مثل نواة التمرة التي تكون في الثمرة، **"نواة الخوخ، التمرة، الزيتون"** هذه نواة، الذي يفلقها تحت الأرض إذا أدخلت الحبوب في الأرض وسقيت الحبوب والنوى، إذا ألقيت ظلمات الأرض، ودفنت ثم سقيت من الذي يفلقها، من الذي يشقها؛ لأن كلمة **"فالق"** معناها شاق، الذي يشق الحب والنوى.

الحب والنوى في المزارع، وفي البيوت، وفي البراري، والقفار والصحاري التي أنت ما تتدخل فيها الله ينبتها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: 95]، هو وحده، فإذا كان هو وحده منفرد فهو الذي يستحق العبادة.

ثم قال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: 95].

كيف يخرج الحي من الميت؟

يقولون: الميت مثل البيضة، البيضة ميتة فيخرج منها فرخًا حيًا، ومثل النطفة يخرج منها إنسان حي، وحيوان، وبهائم، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: 95].

ثم قال: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: 95]، الميت مثل البيضة تخرج من الحي تخرج من الدجاجة أو من الطائر، ومثل النطفة تخرج من الإنسان، تخرج من الإنسان وهي ميتة تخرج من الحي.

كلّ من يقرأ هذه الآيات يقف عنها قال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: 95]، **"يخرج"** فعل مضارع، ثم قال: ﴿وَمُخْرِجُ﴾ [الأنعام: 95]، غير، كيف؟ قال: هذا اسم، وهذا فعل، طيب لماذا اسم وافعل؟ هذا التدبر يا أخوان، التدبر القرآني.

يقول: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ [الأنعام: 95]،لأن هذا يدل على الاستمرار دائمًا، يخرج الحي دائمًا، ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: 95]، يدل على الثبوت والاستقرار.

الأول قال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: 95]، والثاني قال: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام: 95]، أيهما أكثر؟ قال: حركة الحي أكثر من حركة الميت؛ ولأن الحي في حياة، وفي استبشار بوجوده، الميت الناس لا يستبشرون بذهابه، فلذلك غاير بين الفعلين، غير بين الفعل والاسم.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 95]، الذي يفلق الحب والنوى، ويخرج الحي يحيي ويميت هو الله، ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام: 95]، كيف تصرفون إلى غيره وتعبدون غيره أيها المشركون؟!

ثم لما بيّن لك أنه هو فالق الحب والنوى، يعني شاق الحب والنوى، قال: أيضًا هو فالق الإصباح، كيف فالق الإصباح؟ يعني الليل إذا ادلهم واشتد بظلمته كيف يأتي النهار مع شدة الظلام، أنت يمكن ما ترى شدة الظلام وأنت بين الأنوار اخرج إلى الصحراء في ليلة ليس فيها قمر ولا هلال و شيء وانظر كيف شدة الظلام وأنت تنظر؟ تجد ظلام دامس، ثم ينشق الصبح بقوة ويخرج، هذه الآية من آيات الله عظيمة.

قال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: 96]، يعني يشق الليل بقوة حتى ينفجر الصبح ويأتي الفجر، هذه آية عظيمة، وأنت في الصحراء قد جلست في الليل ثم ما تجد إلا الصبح قد انشق وخرج الصبح وأتى بنوره وإصباحه.

قال: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: 96]، وجود النهار نعمة، وإذا كان وجود النهار نعمة فوجود الليل نعمة، قال: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: 96]، يسكن كلّ إنسان إلى مأواه، يرجع إلى بيته، والحيوانات تأوي إلى مأواها، سكن وراحة.

ثم قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [الأنعام: 96]، يعني جعل الشمس والقمر حسبانًا، الشمس تعرف بها الأيام، والقمر تعرف بها الشهور، جاء القمر ثم غاب انتهى وجاء شهر جديد، واليوم طلعت الشمس بدأ اليوم وغابت الشمس انتهى اليوم.

فمعرفة الأيام، ومعرفة الشهور هذه أيضًا من نعم الله علينا، نحسب بها حسابات كثيرة، حسابات دخول العبادات كرمضان والحج، والصلوات كيف تعرفها بالشمس؟ عبادات كثيرة متعلقة بالشمس والقمر، والزكوات، وحلول العدد عدد المرأة، الأجور، الرضاعة، وغيرها كثير أحكام مرتبطة بالشمس ومرتبطة بالقمر.

قال: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96]، العزيز الذي لا يغلبه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعليم بأحوال عباده.

قال بعدها: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ﴾ [الأنعام: 97]، لما تكلم عن الشمس والقمر بيّن لك النجوم، ما هي الفائدة من النجوم؟ قال: ﴿لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: 97]، إذا خرجت في البحر أو في البر الكثير من الناس يعرفون بعلم النجوم الطرق، قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: 16].

فمن مصالح النجوم وفوائدها: **"ليهتدوا بها الناس ويعرفون الطرقات في البر والبحر"**.

قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 97]، قد بينا لكم هذه الآيات العظيمة وهي آيات كونية، **"الشمس، والقمر، والنجوم"** ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 97]، أما الذين لا يعلمون ما يناقشهم الله، ولا يصلح لهم الخطاب، يصلح لمن يسمع الخطاب ويرد الجواب، وهم الذين يعلمون، كلّ يدل على أنه هو الواحد.

قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98]، وهو آدم، طيب إذا كان أنشأنا من نفس واحدة ما هي الحكمة؟ ما الآية فيها؟ خلقكم من نفس واحدة وأنتم مختلفون في طبائعكم، وفي ألوانكم، وفي أحوالكم، وفي ألسنتكم، كيف مرجعكم واحد وأبوكم واحد والألسنة مختلفة، والألوان مختلفة، والطبائع مختلفة، والأحوال مختلفة، واللغات مختلفة، والأديان مختلفة؟! هذه آية عظيمة.

قال: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: 98]، المستقر ما هو؟ المستقر على القول الصحيح هو **"دار القرار وهو يوم القيامة"** يقول: خلقتكم بهذه الدنيا تعيشون فترة ولكن المستقر هو في الآخرة إما جنات النعيم أو نار الجحيم، هذه هي مستقركم في الآخرة.

قال: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام: 98]، ما هو المستودع؟ قال: أنتم إما أحدكم مستودع في ظهر أبيه في الأصلاب، أو في الأرحام في بطون الأمهات، أو في الأرض تعيش، أو تحت الأرض في القبور، هذه مستودعات يعيش فيها الإنسان مراحل، في ظهر أبيه، في رحم أمه، على الأرض يعيش، تحت الأرض يبقى مدة، ثم يخرج إلى المستقر الأخير.

قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98]، ما قال: **"يعلمون"**، هذا أدق؛ لأن التفكر في أحوالك في الدنيا، وتعلم أين تستقر في الآخرة هل إلى الجنة أم النار؟ تختار من الآن، قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98]، يفقهون ويتأملون هذه الآيات.

أسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم ممن يتفقه، وممن يتعلم، ويبارك لنا في هذا المجلس المبارك، نلقاكم إن شاء الله على خير في لقاء قادم.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(139)
(الأنعام 99 - 108)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الخامس والعشرون من شهر شعبان من عام 1445 من الهجرة.

درسنا الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كلّ أسبوع في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأنعام"** وقف بنا الكلام في لقاءنا الماضي عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 99].

هذه الآية هي في سياق بيان عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقدرته، ووحدانيته، ونعمه على عباده، أنت إذا قرأت هذه الآية ينبغي أن تستحضر في ذهنك أن الله هو الواحد، وهو المدبر المتصرف في هذا الكون، وأن هذا الكون كله ملك لله، لا يخرج عن ملكه مثقال ذرة.

الأمر الثاني: أن يكون في ذهنك يعني بعد وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنه المتصرف في هذا الكون قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعظمته، فهو القادر العظيم الذي يُدبر ويقدر ولا يمتنع عليه شيء، لا يمتنع عليه شيء مهما عظم، كله في قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الأمر الثالث: أن تعرف أن هذا هو كله نعم أو منة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من نعم الله عَزَّ وَجَلَّ عليك ومنته عليك وعلى الخلق كلهم أن يرزق المؤمن والكافر سواء، وهذه من نعمه.

وأنت تدبر لولا أن الله منّ علينا بهذه النعم لهلك الخلق، من الذي أنزل من السماء ماءً؟ الحياة كلها تدور حول هذا الماء، إن انقطع الماء خلاص ما في حياة لا للإنسان ولا للحيوان ولا للنبات، فمدار الحياة على الماء، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنعام: 99]، هو وحده، ما يستطيع أي مخلق ولا أي إنسان، ولا أي شخص أن ينزل من السماء ماءً أو يخرج من الأرض ماءً إلا بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الله هو الموجود لهذا الشيء.

قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ [الأنعام: 99]، يعني ما في غيره هو المنفرد، الذي أنزل من السماء، والمراد بالسماء هنا السحاب، ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الأنعام: 99]، ماءً طهورًا، ماءً مباركًا.

ثم قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 99]، الآية لما تتأمل من حيث البلاغة القرآنية، هو يقول: ﴿وَهُوَ﴾ [الأنعام: 99]، هذا ضمير الغائب، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ﴾ [الأنعام: 99]، ثم قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ [الأنعام: 99].

الأصل **"وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرج"** هذا هو الأصل، لما غير وقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ [الأنعام: 99]، هذا يسمى عند علماء البلاغة بعلم الالتفات، والغرض من ذلك هو بيان منة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واختصاصه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي أخرج، لا يمكن أن يخرجه أي إنسان.

قد ينزل الماء على أرض ولا تُخرج من نباتها شيء أبدًا، ينزل الماء على هذه الأرض ولكن ما فيها نبات، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي أخرج.

قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ [الأنعام: 99]، أي بهذا الماء، ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 99]، من غير استثناء، أي نبات على وجه الأرض الذي أخرجه هو الله، وأخرجه بسبب ماذا؟ بسبب الماء، سواء هذا النبات في المدن والمزارع والحدائق أو في الصحاري والقفار، ما تنبت نبتة إلا بسبب الماء وبإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 99].

ثم قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ [الأنعام: 99]، يعني أول ما يخرج النبات من الحب؛ لأنه ما يخرج النبات من نفسه، لابد أن يكون هناك حبة، سواء غرسه من غرسه، وبذره من بذره من الناس، أو هو بقدرة الله في الصحاري.

فالنبات هذا الحبوب الصغيرة والنوى كذلك نوى التمر وغيره، تنشق كما مر معنا سابقًا، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: 95]، تنشق فيخرج منها هذا الخضر الغض الطري الذي يتدفق ماءً، هذا الخضر هو بداية النبات، ثم يخرج إلى الأرض ثم يستمر.

يقول: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ [الأنعام: 99]، أي أخضر، ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: 99]، هذه الخضرة التي تخرج والسنابل ترتفع تبنت هذه الحبوب، أو تكون فيها هذه الحبوب العظيمة، الآن نبهك على أهم ما يحتاج إليه الإنسان في الحياة وهو الحبوب، الحبوب التي يدخرها الإنسان ويصنع منها جميع مصنوعات الأكل، **"القمح، البر، الشعير، الذرة، الأرز،العدس"** هذه الحبوب تتميز بأي شيء؟ بأنها طعام الإنسان والبهيمة، وهي التي يدخرها الإنسان سنين طويلة، بدأ بها لأنها هي أهم شيء.

قال: ﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ [الأنعام: 99]، بعضه فوق بعض، لو تنظر إلى سنبلة البر أو الذرة أو الشعير أو غيرها تجدها حبوب متراكبة بعضها فوق بعض، من الذي ركبها بهذه الطريقة؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ [الأنعام: 99]، لما ذكر الطعام الأساس وهو **"البر، الشعير، الذرة، الأرز"** وهذه أساسيات عند الإنسان، قوت الإنسان يعيش عليه، أيضًا ذكر التمور، والتمور أيضًا مما يُدخر، ومما هو يكون أيضًا قوت للإنسان.

قال: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: 99]، القنوان جمع **"قنو"**، والقنو هو: **"العذق"**، يقول: النخل أيضًا تُخرج تُطلع هذه العذوق، الشماريخ، تطلع هذه العذوق، العذوق فيها التمور، والتمور أيضًا منضودة ومركبة.

قال: ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ [الأنعام: 99]، دانية يعني قريبة، يعني تستطيع أن تأخذها بيدك هذا الغالب، وفيه المنة أيضًا، وأحيانًا تكون طويلة النخلة لكن منها ما هو قصير تستطيع أن تأخذه يعني تتناوله بيدك.

قال: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الأنعام: 99]، أي نخرج منه جنات، أتى لك بأشياء أخرى غير الحبوب والتمر، قال: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الأنعام: 99]، والعنب يؤكل طازجًا ويدخر، فيتحول زبيبًا فيكون طعامً مدخرًا.

قال: ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ [الأنعام: 99]، وكذلك الزيتون يُدخر وفيه زيت الزيتون، ﴿وَالرُّمَّانَ﴾ [الأنعام: 99]، الرمان أيضًا من العجائب قد يأخذ مدة طويلة.

قال: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام: 99]، يعني يشبه بعضه بعض وقد لا يشبه، كيف مرة يشبه ومرة لا يشبه؟ إذا نظرت إلى في شكله يُشبه بعضه البعض، وأحيانًا يختلف في طعمه، أو بما في داخله، فالرمان يتشابه بعضه بعض، وإذا فتحت هذه الرمانة وجدتها تختلف عن الثانية، إما بطعمها، أو لونها أو بشكلها بحجمها.

وكذلك التمور، التمور مما لا يستطيع الإنسان أن يحصيه من كثرة أنواعه، وتجد فيه الاختلافات الكثيرة على درجات، فهذا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى الزيتون والأعناب، الأعناب يأتيك على ألوان، ويأتيك على أشكال، ويأتيك على طعوم مختلفة، كلّ هذا ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام: 99].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: 99]، انظروا نظر تأمل وتفكر، لا مجرد أنك تنظر في التمور والنخيل والأعناب مجرد نظر لا، النظر هذا ما يكفي، ولكن نظر تأمل، وتفكر، وتدبر، حتى هذا يجعلك تزداد إيمان، وتعرف أن الله هو الذي يدبر هذا الكون.

قال: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: 99]، وقت الثمر تجد الناس يلتفون إليه، عندما تخرج الثمار يعني وقت الثمار، مثلاً الآن وقت النخيل وطلوع النخيل، وبعض الثمار الزيتون والرمان وغيرها أول ما تبدو النخلة بطلعها تجد الناس يستبشرون بها، ويتسارعون إلى النظر إليها والتأمل فيها، ثم يتركونها، تأخذ أشهر ثم إذا استوت رجعوا إلى النظر فيها وبدؤوا يتأملونها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾، وقت الثمر، ﴿وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: 99]، أي وقت النضج، إذا نضج يلتفون الناس إليه مباشرة.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ﴾ [الأنعام: 99]، أي هذه الأشياء التي ذكرناها لكم ماذا؟ ﴿لَآيَاتٍ﴾ [الأنعام: 99]، ليست آية ولا آيتين بل آيات عظيمة، آيات يعني عبر ومواعظ لمن يتعظ ولمن يعتبر، لمن؟ ليس لجميع الناس، وإنما ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99]، الذي عنده إيمان هو الذي يتفكر في هذه الآيات، أما الذي ليس عنده إيمان تجده يخرج إلى الصحراء ويرى الأشجار، ويرى العجائب والأمطار والسحب ولا يتحرك شيء عنده، لكن المؤمن يقف ويتأمل ويتفكر ويزداد إيمانًا، ويعرف قدرة الله وعظمته، فهذا ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 99].

ولذلك ذكر بعد المؤمنين الكفار المشركين فقال: ﴿وَجَعَلُوا﴾ [الأنعام: 100]، لم يخاطبهم، تركهم، خاطبهم بصيغة الغائب، قال: **"وجعلوا هم"** لأنهم لا يستحقون الخطاب، ما قال: **"وجعلتم أنتم"**، ولكن قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: 100]، تركيب الآية **"وجعلوا الجن شركاء مع الله"** هذا الترتيب.

الجن من هم؟

قيل: **"الجن الذي رأسهم وأساسهم إبليس"** الجن خلقوا من نار، فتجد من المشركين من يتقرب ويخضع ويدعو الجن من دون الله، يتقرب إلى الجن.

وقيل: **"الجن هنا هم الملائكة لاجتناهم واختفائهم عن الناس"**.

فهؤلاء المشركون جعلوا شركاء مع الله يصرفون شيئًا من عبادات الله لهم، يقربون، ويدعون، وغيرها للملائكة، بعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم يعبد الجن، وبعضهم يعبد غير ذلك.

قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ﴾ [الأنعام: 100]، الله هو الذي خلقهم، خلقهم وخلق الجن وخلق الملائكة، ﴿وَخَرَقُوا لَهُ﴾ [الأنعام: 100]، أي المشركين، خرقوا يعني اختلقوا، يعني افتروا على الله، ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ [الأنعام: 100]، يعني ادعوا أو دعوا إلى الله أو قالوا: إن لله ابنًا مثلما تقول النصارى عيسى ابن الله، واليهود تقول: عزير ابن الله، والمشركون يقولون: الملائكة بنات الله، فجعلوا له بنين وبنات ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 100]، ما عندهم علم، إنما مجرد ظن، افتراء وكذب بغير علم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ [الأنعام: 100]، تنزيهًا لله أن يوصف بالولد، أو يكون عنده ولد أو بنت هذا كله لا يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله هو الغني، وهو الخالق، وهذا المنفرد،

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: 2]، يعني الخلق كلهم يصمدون إليه، والخلق كلهم محتاجون إليه.

وقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: 3]، الذي له ولد هو المخلوق الضعيف؛ لأن الإنسان كلما امتد به العمر يضعف ويضعف فيحتاج إلى الولد، أما الله غني، ولا تتعرض له الآفات حتى يضعف حتى يقال: له ولد، ولأن الولد من جنس الوالد، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يشابهه شيء، ولا يماثله شيء.

قال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ [الأنعام: 100]، تعظيمًا لله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون له شريك، أو أن يكون له ولد أو نحو ذلك، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: 100]، يصفون الله بهذه الأوصاف التي لا تليق.

قال: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 101]، مبدعها وخالقها على أحسن صورة، من الذي أوجدها من العدم؟ السماوات غير موجودة من الذي أوجدها ورفعها سبع سماوات؟ ومن الذي أوجد الأرض وبث فيها من كلّ دابة وجعل فيها الجبال والأودية والأنهار، والأشجار؟ هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بديع السماوات والأرض، أبدع الأرض، وأبدع السماوات، وتأتون تقولون: له ولد؟! هذا لا يليق.

قال: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: 101]، كيف يكون له ولد؟ مستحيل، الغني القادر المالك ما يحتاج إلى الولد، ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: 101]، تعالى عما يقولون، لما يتهمون الله بالتزاوج أو الولد كلّ ذلك تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91].

قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 101]، كيف تقول له ولد والله خلق كلّ شيء؟ هو الغني القوي العزيز، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 101]، يعني الخالق العليم، هو الخالق وهو القادر العليم، له القدرة وله العلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿ذَلِكُمُ﴾ [الأنعام: 102]، الذي نذكر لكم صفاته، وقدرته، وآياته في الكون التي أنت تمشي في الأرض تجد كلّ شيء يدل على وحدانيته.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [الأنعام: 102]، هذا الله الإله المعبود الذي تعبدونه وتخضعون له هو ربكم، هو الذي أوجدكم وخلقكم أنتم.

قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 102]، لا معبود بحق إلا هو، أما غيره فلا يستحق العبادة، ولو عُبد من دون الله لا يستحق العبادة، شياطين الإنس، شياطين الجن، الأصنام، الأوثان، وغيرها، هذه كلها مخلوقة ولا تستحق أن تكون إله.

قال: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 102]، كلّ شيء الله خالقه، خالق السماوات وما فيهن، وخالق الأراضين وما فيهن، وخالق الإنسان، وخالق الحيوان، خالق كلّ شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من غير استثناء.

قال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: 102]، إذا علمتم قدرته وربوبيته وخلقه وعلمه وقدرته ووحدانيته وأنه متصف بصفات الكمال إذًا الواجب عليكم أن تعبدوه، لماذا؟ لأنه على كلّ شيء وكيل، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102]، الله توكل على كلّ شيء على خلقه، أنت ما تتوكل على نفسك.

ما هو التوكل؟

أنت لما تقول: أنا متوكل على رب العالمين يعني **"تفوض أمرك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في جلب الخير ودفع الضر"** لا يأتي لك بالخير إلا الله، ولا يدفع عنك الشر إلا الله، لا يمكن أن تدفع عن

نفسك الشر مستحيل ما تستطيع، ولا يمكن أن تأتي لنفسك بالخير أبدًا إلا الله، ولذلك ينبغي لك أن تتوكل على رب العالمين؛ فهو الوكيل على كلّ شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: 103]، هذا في بيان عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولطفه، قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: 103].

الإدراك ما هو؟

الإدراك هو: **"الإحاطة بالشيء"** هل يستطيع مخلوق أن يحيط بالخالق؟ ما يمكن، لعظمته وقدرته وكبريائه مستحيل أن يحيط به مخلوق، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: 103]، حتى ببصرك ما تستطيع أن تحيط به، وإنما تنظر إليه نعم.

المؤمن يرى ربه يوم القيامة، أما في الدنيا ما أحد يستطيع أن يرى الله في الدنيا، ولا الأنبياء ولا الرسل ولا غيرهم، وإنما رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ 22 إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22، 23].

قال في الحديث: **«إنكم ترون ربكم»**، فمن نعيم الجنة؛ بل من أعظم نعيم الجنة الرؤية، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: 26]، أي الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]، رؤية رب العالمين، فالمؤمن يرى ربه يوم القيامة، والكافر ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15].

قال: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: 103].

إذا قيل لك: كيف لا تدركه الأبصار وأنت تقول: إنه يُرى؟

نقول: الإدراك أخص من الرؤية، أنت ترى الشيء لكن ما تدركه، ولذلك لما تراءى الجمعان موسى ومن معه وفرعون، هو يراهم وهم يرونه والبحر أمامهم والعدو خلفهم قد أقبل، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61].

لأنهم رأوه فقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61]، قال: لا، يروننا نعم يروننا، لكن يدركوننا؟ لا ما يدركوننا، قال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]، فما أدركوهم، هم رأوهم ولكن ما أدركوهم.

وأنت تقول: أنا أرى القمر في السماء، لكن ما تقدر أن تحيط به، وهو مخلوق صغير ولا تحيط به.

يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: 103]، هو يحيط بالأبصار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103]، اللطيف الذي وصل علمه الدقيق لأدق الأشياء، يعني لا يخفى عليه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويوصل رزقه لعباده من غير ما يشعرون، لطيف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لطيف بحيث أنه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

فهو لطيف بعباده يلطف بهم، وهو أيضًا لطيف يصل علمه إلى ما لا حد له، يقول: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103]، الذي علم كلّ شيء، وهو خبير به لا يخفى عليه شيء منه.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بيّن لنا هذه الآيات العظيمة، وانفراده، وقدرته، وملكه، حتى يقوى إيمانك، قال الله عَزَّ وَجَلَّ مخاطبًا الخلق، مخاطبًا الناس، قال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: 104]، هذه بصائر، وحجج، وأدلة واضحة، وبينات.

قال: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ [الأنعام: 104]، أنت الآن سمعت هذا، إن أبصرت وعرفت وتدبرت وتأملت وزاد إيمانك هذا يرجع إليك أنت، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ﴾ [الأنعام: 104]، تأتيه البصائر والأدلة والحجج ويُعرض عنها، ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام: 104]، يعني العمى على نفسه، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً.

فمن أعمى بصره عن آيات الله الكونية ولم ينظر إليها، ولم يتأمل بها فهو في الآخرة أبعد الناس.

قال: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: 104]، يقول: قل لهم: أنت لست عليكم بحفيظ، يعني النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس حفيظًا على الخلق كلهم، وإنما عليه البلاغ، يبلغ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ومثلما صرفنا هذه الآيات، ونوعنا الأدلة التي ترى بعينيك وبعقلك قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام: 105]، نبينها لهم ونوضحها بهذه الأدلة القوية حتى تقوم عليهم الحجة، حتى لا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: 19].

قال: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ [الأنعام: 105]، ولكنهم يعترضون وما يقبلون، يقولوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: 105]، نحن نصرف الآيات ولكن في النهاية وعاقبة الأمر أنهم ما يقبلون ذلك، ويعرضون عنه، والنتيجة يقولون: **"أنت قد درست وتعلمت يا محمد وتأتينا بهذه المعلومات التي أنت درستها"** والله عَزَّ وَجَلَّ إنما هو أوحى إلى نبيه هذه العلوم، ولم يكن محمدًا قد درس هذه الأمور.

قال: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 105]، أما الذين لا يعلمون ويجهلون هذه الأمور ما يستفيدون، ما يستفيدون من هذه الآيات.

ولذلك قال تأكيد على اعتراضهم أنهم قالوا: ﴿دَرَسْتَ﴾ [الأنعام: 105]، ولا يقبلون، أكد الله على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الأنعام: 106]، وكلّ إنسان يتبع ما جاء من الوحي.

قال: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 106]، ما جاءك هو الحقّ وهو التوحيد، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 106]، لا تلتفت إليهم، عندما يعترضون، ويستهزئون ويسخرون لا تقبل منهم وأعرض عنهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ وهو يبين قدرته عليهم، وأنه هو المالك لهم، قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: 107]، لو أراد الله أنهم ما يشركون ما أشركوا، ولو أراد الله منهم الإيمان لآمن جميع من الأرض.

قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الأنعام: 107]، أنت لست عليهم بحفيظ، إنما أنت رسول ومنذر، ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: 107]، يعني تحصي أعمالهم، وتراقبهم، وتحفظ لهم أعمالهم لا، وإنما أنت رسول إليهم والله عَزَّ وَجَلَّ قادر على أن يهديهم، أو يجعلهم على شركهم.

لما اشتد العداوة بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين المشركين وقد يقع هذا في كلّ زمان، يعني لو سألنا أي إنسان وقلنا: سب الآلهة، وسب معبودات المشركين هل هو جائز ولا ما يجوز أن أسب المشرك؟

نقول: الأصل هو جائز أنك تسب وأنك تبين بطلان هذه الآلهة، وهذا الشرك والكفر، هذا جائز، لكن الله نهى عن سب آلهة المشركين، لماذا؟ لأنهم يسبون الله، فإذا كانوا يسبون الله لا تسب، إذا كان هذا الأمر يترتب عليه أمر أسوأ فلا تسب، وهذا يسميه أهل العلم **"سد الذرائع"** ويقولون: **"الوسائل لها حكم المقاصد"** فالسب جائز، لكن لما كان يترتب عليه سب الله نقول: لا يجوز.

قال: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 108]، لا تسبونهم، ولا تسبون أصنامهم، لماذا؟ قال: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا﴾ [الأنعام: 108]، يعني عداوة، ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 108]، ما عندهم علم، يسبون الله ويشتمون الله، ويعلنون، فهذا إذا كان يترتب عليه فلا تسب.

قال: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 108]، هذا من الله عَزَّ وَجَلَّ، وكلّ أمة الشيطان زين لهم عملهم، والله قدر أن تُزين لهم أعمالهم، ويزينها الله لهم بسبب ذنوبهم، وإسرافهم، ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ [الأنعام: 108]، كلّ الخلق والأمم مرجعها إلى الله، ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 108].

لعلنا نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في لقاءنا القادم نستكمل ما توقفنا عنده، لقاءنا القادم أيها الأخوة إن شاء الله في رمضان بعد صلاة العصر، نظرًا لأن المغرب وقت إفطار، فيكون اللقاء إن شاء الله الأربعاء القادم بعد صلاة العصر مباشرة إن شاء الله، نسأل الله لنا ولكم التوفيق والسداد، وأن يبلغنا وإياكم الشهر الكريم، وأن يعيننا وإياكم على طاعته.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(140)
(الأنعام 109 - 117)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لقاؤنا هذا اليوم مع تفسير القرآن العظيم، وقبل الدخول في تفسير ما وقفنا عنده أيها الأخوة في هذه الأيام الناس يقبلون على قراءة القرآن الكريم.

والذي ينبغي لقارئ القرآن أن يتأمل ثلاثة أمور عن قراءته:

الأمر الأول: أن يعرف كيف يقرأ، وإن لم يكن يعرف كيف يقرأ يصحح قراءته وتلاوته، فالأمر الأول **"القراءة الصحيحة"**.

الأمر الثاني: **"أن يعقل ما يقرأ"** لا أن يقرأ وباله خارج القراءة، يقرأ بنظر وتأمل وتعقل.

الأمر الثالث: **"أن يكون لقراءته أثر عليه"** أثر على قلبه، يعني يتعظ بالقرآن ويعمل بالقرآن ويفهم لماذا يخاطبه الله؟ فهذه أمور ينبغي تأملها وفهمها.

– القراءة السليمة.

– وأن يعقل ما يقرأ.

– ويتعظ ويفهم ويكون للقراءة أثر عليه، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2].

في درسنا وقفنا عند الآية الثامنة بعد المائة من **"سورة الأنعام"** وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: 109].

هذا كلام المشركين الذين نزل عليهم القرآن وعاندوا وكفروا وجحدوا وحاربوا الدعوة، هذا موقفهم، هذا موقف من مواقفهم، موقف من مواقفهم أنهم أقسموا بالله، لماذا يقسمون، وجهد أيمانهم يعني شدة وقوة الإيمان أن يقسموا بالله، على أي شيء؟ على أنهم إذا جاءتهم آية ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ [الأنعام: 109]، يعني إذا جئتنا يا محمد بآية نؤمن بك.

القرآن نزل عليهم آيات كثيرة، قالوا: لا، القرآن ما نؤمن به، نؤمن بالآيات الحسية المشاهدة، مثلما قالوا في أول السورة: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: 8]، يريدون آيات حسية، يقولون: صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطاه الله آية حسية الناقة، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطاه الله آية حسية، وأنت ما عندك يا محمد، يعني ما منعكم إلا لأن تأتيكم آيات حسية؟!!

قد كذب بها الأولون وهم سيكذبون بها، فما الفائدة؟! لو كان عندهم قليل من عقل كانوا آمنوا بالقرآن؛ فالقرآن أعظم من الآيات الحسية، الآيات الحسية نزول ملك، أو جبل أصبح ذهبًا، أو جنة للنبي، أو نحو ذلك، هذه الآيات تأتي ثم تذهب، بمجرد أنك تراها خلاص تنتهي، لكن القرآن كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: 51]، هذا أفضل، ومع ذلك كله لما يخبر الله عنهم لا يؤمنون بها.

قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 109]، أما أنا كرسول ونبي ما أملك شيء، الذي يأتي بالآيات هو الله، ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ [الأنعام: 109]، أيها المسلمون، ﴿أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 109].

يقول: حتى لو جئناهم بآيات حسية لا يؤمنون، لماذا؟ لأنهم غرضهم العناد والكفر، لا غرضهم الوصول إلى الحقّ، ومع هذا العناد والكفر والإصرار على المعاصي والشرك والكفر تظن أن هذا يذهب؟ هذا يكون له أثر على القلوب، وأثر على الشخص نفسه، الذنوب والمعاصي شؤمها عظيم، اسمع ماذا عاقبهم الله لما عاندوا؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ [الأنعام: 110]، أي قلوبهم، ﴿وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 110]، كأنه لم ينزل عليهم القرآن، يأتيهم الآيات التي تهز القلوب ولا يؤمنون، لماذا؟ لأن الله حال بينهم وبين الإيمان بسبب ذنوبهم، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].

الذنوب تؤثر على القلوب، ولذلك عاقبهم الله، قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ﴾ [الأنعام: 110]، قلوبهم، ﴿وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ [الأنعام: 110]، نتركهم في كفرهم وطغيانهم وإسرافهم على أنفسهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110]، ولاحظ أنه قال: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: 110].

العمه **"عمى القلب"** بحيث أنه خلاص ما يعرف الحقّ من الباطل، ولا المعروف من المنكر، أصبح المعروف عنده منكرًا والمنكر عنده معروف، فهذه عقوبات.

وحتى يتضح لك أنه فقط مجرد عناد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الأنعام: 111]، كما يريدون، ﴿وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ [الأنعام: 111]، كما يريدون، يعني الملائكة كلهم ينزلون عليهم، أو الموتى يخرجون من قبورهم ويكلمونهم يقولون: **"محمد صادق"**.

قال: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ [الأنعام: 111]، كلّ ما يريدون هم ويدعونه ويطلبونه يُحشر أمامهم قبلاً، ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام: 111]، ما يؤمنون لأنهم لا يريدون الوصول إلى الحقّ، هذا باختصار، ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 111]، إلا إذا أراد الله أمر فالأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: 111].

الفعل المضارع **"يجهلون"** يدل على استمرارهم في جهلهم، وإعراضهم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: 111]، ولم يقل: **"جميعًا"** لماذا؟ لأن فيهم عقلاء، وفيهم من آمن، لكن الأكثرين يجهلون.

وهؤلاء هم أعداء للدعوة، وليس في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بل قبل النبي جعل الله في كلّ قرية أكابر مجرميها، وفي كلّ زمان يوجد أعداء، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ [الأنعام: 112]، كلّ نبي جعل الله له عدو يعاديه، ويقف في وجه الدعوة.

قال: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]، يقول: ليس هو فقط وحده لا، بل معه شياطين من الإنس، ومعه شياطين من الجن، هو بدأ بالإنس لأنهم هم الذين يقفون في الدعوة أشد، ولأن شيطان الإنس أقوى من شيطان الجن، شيطان الجن إذا تعوذت بالله خنس وهرب، لكن شيطان الإنس تتعوذ ولا ما تتعوذ فهو أمامك.

قال: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [الأنعام: 112].

ما المراد بالوحي هنا؟ كيف يوحي؟

نقول: يوسوس بعضهم إلى بعض، ويزين بعضهم إلى بعض، يعني شيطان الإنس وشيطان الجن كلٌّ يزين للآخر.

قال: ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]، يعني يزينون كلام زخرف القول، القول يزخرفونه يجملونه، يحسنون الكلام، ويجعلون الناس يغترون بهذا الكلام، حتى إذا سمعت من هؤلاء الشياطين تغتر بكلامهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: 112]، ولكن الله أراد هذا امتحانًا لهؤلاء ولهؤلاء، وهذه حكمة الله، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 112]، واتركهم ولن يصيبك أذى منهم، اتركهم وافتراءاتهم لن يضروك، وسيضمحل كلّ ما يخططونه أمامك، أما غير المسلم؛ فإنه يتأثر مثل هؤلاء، يتأثر بزخرف القول ويغتر بهم.

حتى نفهم القرآن ونتدبر قال الله بعدها: ﴿وَلِتَصْغَى﴾ [الأنعام: 113]، يقول: أنتم أيها المؤمنون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صرف عنكم شرهم، وحفظكم عنهم.

طيب من الذي يغتر بهم؟

قال: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الأنعام: 113]، الذين لا يؤمنون بالآخرة ليس عندهم إيمان هؤلاء لأنهم لا يريدون إلا الدنيا هؤلاء تصغى أفئدتهم إليه، تأمل كلمة **"تصغى"** صغو الأذن يعني يسارعون إلى سماع ما عندهم، ويتأثرون به.

ولم يقل: **"تصغى إليه الأذان"** لا، لأن الأذان قد لا تصغى، وقد لا تتأثر، لكن لما تصغى الأفئدة هذا أشد.

قال: ﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: 113]، لتصغى إليه وليرضوا بهذا الشيء، ويقترفوا ويكتسبوا ما هم مكتسبون منهم لأن لهم مصالح، فيكتسبوا ما يكتسبون، والنتيجة يجدونها بعد ذلك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان الحقّ من الباطل؛ لأنه بيّن لك الآن الباطل شياطين الإنس والجن، وماذا يصنعون؟ وما هي أقوالهم؟ قال الله عَزَّ وَجَلَّ في بيان الحقّ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: 114]، تريدون حكم غير الله؟ تريدون حكم شياطين؟

قال: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114]، كيف تتحاكموا إلى غير الله؟ وكيف ترضون بحكم غير الله والقرآن عندكم مفصل موضح تقرأ وتفهم وتعرف مراد الله، تعرف مراد الله من ذلك؟!

قال: ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114]، وأنتم إذا كنتم تجهلون القرآن ولا تعرفونه، ولا تريدون تعلم القرآن؛ فإن الذين أعطاهم العلم يعرفونه.

قال: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: 114]، من اليهود والنصارى، ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 114]، يعلمون ويعرفون أن هذا كلام الله، بمجرد أن ينظرون إلى القرآن أو يسمعونه يؤمنون به سواء أظهروا الإيمان أمام المسلمين، أو في أنفسهم، فيعرفون أن ذلك منزل من عند الله.

قال الله في بيان الحكم، وبيان الحقّ، وبيان القرآن: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115]، ظهرت وبانت وقويت كلمة الله وكلمت؛ لأن كلمات الله تامة وكاملة، ولا يصيبها النقص أو الخلل.

قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115]، صدقًا وعدلًا كيف؟ قال: صدقًا في أخباره، وعدلًا في أحكامه.

قال: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: 115]، لا مبدل لكلمات الله، أما قوانين البشر وكلمات البشر وأحكامهم فهي تتبدل في كلّ لحظة، كلام الله لا، وحكمه لا، والقرآن لا يتغير.

قال: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ [الأنعام: 115]، لجميع الأقوال، لمن يعترض على القرآن أو يأتي بغير القرآن، ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115]،عليم بأحوال البشر.

قال: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 116]، يقول: هذا كلام الله، وهذا حكمه، لكن لا تنظر إلى من على الأرض في أحكامهم، وما يظهرونه، ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ

عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116]، الحقّ وأهل الحقّ قد يكون قليل في زمن من الأزمان، فالحقّ يبقى هو الحقّ ولو كثر أعداؤه، ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 116]، وهذه سنة الله يضلوك عن سبيل الله.

قال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام: 116]، يتبعون الظنون والشكوك، والتخرص، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116]، أي يكذبون ويفترون على الله الكذب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان الحقّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 117]، الله أعلم بمن يضل عن سبيله، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 117].

فأهل الضلال الله أعلم بحالهم، والله يكشف أمورهم، وعالم بهم، وأهل الهداية الله أيضًا أعلم بهم، ويهديهم إلى سبيل الرشاد.

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(141)
(الأنعام 118 - 127)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لقاؤنا مع تفسير القرآن العظيم، ودرسنا في التفسير من **"سورة الأنعام"** وقف بنا الكلام عند الآية الثامنة عشرة بعد المائة، مائة وثمانية عشر، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 118].

"سورة الأنعام" كما مر معنا هي سورة مكية وتتحدث عن قضية العقيدة والتوحيد والإيمان بالله وحده لا شريك له، والكفر بكل ما يُعبد من دون الله، الكفر بالآلة التي تُعبد من دون الله، وسورة قررت هذه القضية من أولها إلى تقريبًا هذه الآية، لأن **"سورة الأنعام"** لمن يقرأها بتأمل وتدبر يجد أنها تتحدث عن تقرير التوحيد والإيمان بالله وحده لا شريك له وأن الله هو الواحد، الواحد في كلّ شيء، الواحد في العبادة لا يُعبد إلا هو، الواحد لأنه هو الخالق، المدبر، المالك، المتصرف في هذا الكون، القادر على كلّ شيء، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

إذا تقررت هذه القضية يأتي نصف السورة الثاني في قضية أن الله هو الحكم، هو المشرع، ليس أحد من البشر يشرع أو يحكم إلا بحكم الله.

وكذلك الكفار المشركون كانا يتخذون آلهة من دون الله ويعبدون الأصنام هذا في قضية التوحيد، وأما قضية الحلال والحرام كانوا يحللون ويحرمون من تلقاء أنفسهم، هذا حلال وهذا حرام.

فبيّن الله لهم الحلال من الحرام، وأن الأصل في جميع ما على الأرض هو الحلال، وأنه لا يجوز تحريم شيء إلا بما حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو حرمه رسوله، وما سوى ذلك لا يجوز.

ولذلك هم جاءوا على الأنعام **"الإبل، والبقر، والغنم"** وقالوا: هذه محرمة على أزواجنا، وهذه للرجال، وهذه للنساء، وهذه إذا كانت ميتة يشتركون فيها، وبدؤوا يحللون ويحرمون من تلقاء أنفسهم، فبدأت الآيات هذه تناقشهم وتبين لهم الحلال من الحرام.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 118]، إن كنتم أيها المخاطبون بآيات الله مؤمنين ومصدقين بما يأتيكم عن الله ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 118].

سيأتي بعد قليل أن مفهوم هذه الآية أنه لا يجوز أكل ما لم يذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام أو من الصيود، كلّ حي صيدًا كان أو بهيمة الأنعام لا يجوز أكله حتى يُذكر اسم الله عليه، فلو ذكر اسم غير الله عليه؛ فإنه محرم وميتة ولا يجوز أكله، ولذلك قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 118].

جاءت الأحاديث تبين طريقة التذكية كيف تكون؟ أن تكون بآلة حادة، وأن يقطع المريء والوديين، وأن يذكر اسم الله عليها، **"بسم الله والله أكبر"** هذه تعتبر الآن ذبيحة مباحة جائز أكلها، وما سوى ذلك فلا يجوز.

فلو ذكر اسم الله عليها واسم غير الله كأن يقول: **"بسم الله والمسيح"** أو **"بسم الله وفلان"** أو نحو ذلك؛ فإنها محرمة، ولو قال: أنا لا أذكر اسم الله ولا غيره أنا أذبح وفقط، نقول: محرمة؛

لأن الله يأمرك أن تقول: **"بسم الله"** فإذا ترك التسمية عمدًا حرمت ولا يجوز أكلها، فالله يأمر هنا يقول: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: 118].

ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 119]، استنكار هذا وتعجب، كيف لا تأكل مما ذكر اسم الله عليه؟!

قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: 119]، الله قد بين لك المحرمات، أين بينها؟ في آيات أخرى قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [النحل: 115]، إلى آخر الآيات التي حصر الله فيها المحرمات.

قال: ﴿إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: 119]، إلا المضطر لأكل الميتة أو نحو ذلك، هذا يأكل بقدر ما يسد الرمق.

قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: 119]، بدأ يحذر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من اتباع أصحاب الأهواء الذين ما عندهم دليل ولا شيء إنما يتبعون أهواءهم، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 119]، يأتيك ويفتي ويعطيك أقوال وكلام بغير علم.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 119]، فالذي يحكم على البهائم أو الذبائح من تلقاء نفسه بأهوائه هذا يعد من المعتدين على شرع الله، فلا يجوز؛ لأن هؤلاء يتبعون أهواءهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بيّن لك الحلال والحرام في هذا حذرك من كلّ إثم، ومن كلّ معصية، فقال: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: 120]، ما ظهر وما خفي، كلّ الآثام والذنوب والمعاصي احذر منها.

ثم بيّن لك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ﴾ [الأنعام: 120]، الذين يتعاطون المحرمات ويكسبون الإثم، ﴿سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: 120]، سيجازيهم الله على كسبهم الآثام.

ثم بيّن لك لما قال في الأول: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 118]، عاد مرة ثانية ونهى، في الأول أمر وهنا نهي، قال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 121]، إذا عرفت أن هذه البهيمة قد ذبحت على غير ذكر اسم الله فلا يجوز أكلها.

قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: 121]، خروج عن طاعة الله، ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: 121]، شياطين الجن المتمردة يوحون إلى أولياؤهم يوسوسون لهم، يزنون لهم أعمالهم، ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 121].

الأمر خطير فسق، وشرك، وكفر، وغير ذلك، هذه الآية لها سبب نزول وهي أن المشركين لما سمعوا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتلوا هذه الآيات، وأنه لا يجوز أكل أي بهيمة إلا بعد ذكر اسم الله عليها جاؤوا إلى النبي يجادلونه؛ لأن الشياطين توحي إليهم، فقالوا: يا محمد الآن تحرم علينا ما ذبحه الله، يعني الميتة ماتت لأن الله أماتها تحرم علينا ما ذبحه الله، وتحل أنت ما تذبحه أنت وأصحابك بيدك هذا عجيب كيف تخلي هذا حلال وهذا حرام؟

بيّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم قال: هذا لم يذكر اسم الله عليه، وهذا ذكر اسم الله عليه، والله أمرنا أن نأكل مما ذكر اسم الله عليه.

قال: ﴿لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: 121]، كيف نطيعهم ونصبح مشركين؟ قال: هذا شرك الطاعة، إذا أطعت إنسانًا في حلال أو حرام، أو في شيء من العبادات مخالفة لما أمر الله هذا يسمى شرك الطاعة فلا يجوز.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان الحقّ من الباطل وأن من منّ الله عليه بالهداية وهو على خير ونور، وهؤلاء يتخبطون في الظلمات يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: 122].

كيف ميتًا فأحييناه؟

قالوا: الموت هنا موت معنوي وليس حسي، كونه في الضلالة والكفر والشرك، فمن كان في ضلال وكفر وشرك ثم أحياه الله بأن قذف في قلبه الإيمان فأصبح من المؤمنين واهتدى بنور الهداية وأصبح يمشي بين الناس في نوره ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: 122]، كمن بقي في شركه وكفره وضلاله، ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: 122]، هذا لا يستوي مع هذا أبدًا، فما أعطاه الله من نوره وهداه بهدايته واستقام على طاعته لا يكون مثل من كان في ظلمات وكفره وطغيانه.

ولذلك قال: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 122]، مثلما ما أنهم يعلمون ويقولون هذا الكلام زيُن لهم سائر أعمالهم.

خذ زيادة حتى أن هؤلاء المشركين لهم رؤوس من شياطين الإنس وشياطين الجن، وشياطين الإنس مثلما ذكرنا أشد، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ [الأنعام: 123]، مثلما فعل هؤلاء، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: 123].

كلّ قرية فيها مجرمين؛ بل فيها فوق المجرمين أكابر، يعني رؤوس الشرك، ﴿أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: 123].

لماذا جعل الله فيها أكابر المجرمين؟

قال: ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ [الأنعام: 123]، يمكروا فيها أي يفسدوا فيها، ويظهروا الفساد في الأرض.

قال: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: 123]، لا يضرون المؤمنين، ولا يضرون الإسلام، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: 123]، ما يدري أنه يمكر وأن المكر يعود عليه.

قال: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ [الأنعام: 124]، هؤلاء المشركون، ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 124]، يعترضون، إذا جاءتهم آية تدل على أن الله أمرهم بالإيمان، اعترضوا وكفروا وقالوا: ما نؤمن حتى الله عَزَّ وَجَلَّ يعطينا مثلما أعطى الأنبياء والرسل، هذا فضل الله، تريد أن تكون مثل النبي مثل الرسل هذا ما يمكن، ﴿حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 124].

رد الله عليهم قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124]، الله يختار من البشر، ويختار من الناس من يصلح للرسالة، ليست أنت ولا فلان.

قال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 124]، هؤلاء المجرمون اعترضوا لتكبرهم وعدم قبولهم للحقّ، فالله عاقبهم بأن أذلهم، قال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 124]، يعني ذلة عند الله، ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: 124]، هم يمكرون ولا يقبلون الحقّ ويتكبرون، فعاقبهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالهوان والذلة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا في بيان أثر الطاعة والاستقامة وأثر الضلال فيقول: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الأنعام: 125]، تجد بعض الناس إذا أراد الله هدايته شرح صدره للإسلام، فأقبل على الإسلام وهو مرتاح منشرح الصدر.

قال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ [الأنعام: 125]، يعني يبقى في ضلاله، ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125]، لا يمكن أن يتقبل الخير، ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: 125]، مثل الذي يصعد إلى السماء إلى العلو، إذا صعد مبنى أو برج عالي أو صعد جبال شاهقة ليرى من ضيق التنفس الشيء العظيم هذا مثله، إذا دعوته إلى الإسلام، وبينت له محاسن الإسلام ضاق صدره بشدة وقوة بدا لا يستطيع أن يتنفس.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ عقوبة له: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125]، هؤلاء لا يستحقون الطاعة والاستقامة فيجعلهم في ضلالهم.

قال: ﴿وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: 126]، هذا الذي جاءك يا محمد من الحقّ والنور والقرآن هذا صراط ربك مستقيمًا واضح الاستقامة والدلالة.

قال: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 126]، التفصيل الذي تسمعه الآن في بيان الحلال والحرام، وبيان طريق الهداية والاستقامة والخير والحقّ، وبيان الضلال، هذا تفصيل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمن؟ ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 126]، يتذكرون فينتفعون بذلك، أما الذي لا يتذكر ما ينتفع، لا تفيده هذه الآيات، ولذلك ختم الله هذا الكلام بمصير ومآل هؤلاء الذين يذكرون.

طيب هؤلاء الذين يذكرون ما مآلهم؟ ما مصيرهم؟ ما جزاءهم عند الله؟

قال: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ [الأنعام: 127]، ودار السلام هي الجنة، لماذا سميت دار السلام؟ لأنها سالمة من كلّ آفة.

أو يقال: السلام هو الله، **"اللهم أنت السلام ومنك السلام"** السلام هو الله، فهذه داره، مثلما تقول: **"جنة الله"**.

قال: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: 127]، حتى كلمة **"عند ربهم"** تشريف عظيم أن تكون قريب من الله، ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ﴾ [الأنعام: 127]، لهم الجنة، وأيضًا لهم القرب عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وخذ أيضًا ثالثة: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ [الأنعام: 127]، في الدنيا والآخرة، يتولى أمرهم، ما أعظم أن يتولى الله أمرك؟!

قال: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 127]، بسبب عملهم الصالح وإقبالهم على ربهم.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألا يحرمنا هذا الفضل العظيم، وأن يوفقنا وإياكم لطاعته، ولتدبر كتابه وفهمه كما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(142)
(الأنعام 128 - 135)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الأربعاء الموافق للثامن من شهر شوال من عام 1445 من الهجرة.

مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم وهذا المجلس الذي بإذن الله تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الجالسين في هذا المجلس المبارك في الملأ الأعلى عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نجلس ونأخذ آيات من كتاب الله نقرأها، ونتأملها، ونبين معانيها، ونستفيد مما فيها من توجيهات وتذكير، وعظة وعبرة، السورة **"سورة الأنعام"** والآية هي الآية السابعة والعشرون بعد المائة، أو الثامنة والعشرون بعد المائة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: 128].

ما هو الحشر؟

الحشر هو: **"جمع الشيء في مكان واحد"** تحشر مثلاً من بهيمة الأنعام أو من الطيور كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ [ص: 19]، ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: 5].

الحشر هو: **"جمع الشيء أو الأشياء في مكان واحد"** ويوم القيامة من أسمائه **"يوم الحشر"** لأن الله يحشر فيه الخلق جميعًا في مكان واحد وهو مكان الحشر والحساب والجزاء في هذا اليوم.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ [الأنعام: 128]، أي واذكر يا نبي الله يا محمد وأنت أيها الإنسان تذكر ذلك اليوم، اذكر وتذكر يوم يحشرهم، من هم؟ الخلق، المكلفين، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيحشر، لا تظن أن الله يحشر الإنس والجن فقط؛ بل الوحوش حشرت والحيوانات تُحشر، والدواب تُحشر، وهوام الأرض تُحشر؛ بل زيادة على ذلك حتى الأموال والذهب والفضة يؤتى بها يوم القيامة، كلّ شيء يؤتى في عرصات يوم القيامة، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18].

قال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: 128]، ثم بعد ذلك يبدأ الحساب للمكلفين من الجن والإنس، أما غير المكلفين من الحيوانات والطيور وغيرها، هذه وإن حوسبت لا تُجازى، يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأتي بالشاة الجلحاء التي ليس لها قرون فيقتص لها من الشاة القرناء التي لها قرون، وقد نطحتها في الدنيا أو آذتها يؤتى بها يوم القيامة ويؤخذ حقها، لكن ليس هناك عذاب، ولا نعيم لهذا الحيوانات؛ لأنها غير مكلفة، ليس لها لا عذاب ولا نعيم، وإنما تُحشر للجزاء والفضل وبيان عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحكمه، ثم يقال لها: **"كوني ترابًا"** فتكون تراب.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا يحشر الخلق جميعًا، ثم ينادي المكلفين، من هم؟ المكلفون من الجن والإنس كلهم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبرنا قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، إلا لعبادته، فالجن خلقوا للعبادة، لا للكفر والضلال، والإنس خلقوا لعبادة الله لا للكفر والضلال والفساد.

قال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَامَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ [الأنعام: 128]، معنى يا معشر أي يا جماعة، أو يا فريق أو نحو ذلك، ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: 128].

كيف استكثروا من الإنس؟

سبب ضلال الإنس هم الجن، وأولهم إبليس، هو الذي أضل آدم وأغوى آدم، ثم هو أيضًا أقسم بالله قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82].

فسبب ضلال الخلق من بني آدم هم الشياطين، شياطين الجن أولًا قبل شياطين الإنس، فإبليس، وذريته، وأعوانه، كلهم سبب ضلال بني آدم.

الإنسان من بني آدم يولد على الفطرة، يولد على التوحيد، ثم يأتي الشيطان ليضله، فهنا قال: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ [الأنعام: 128]، والمراد بالجن هم الجن المردة الذين يضلون الناس، أما الجن المؤمنين ما يدخلون النار.

قال: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: 128]، استكثروا بأي شيء؟ في إضلال الإنس، أضلوا كثيرًا من الإنس، تجد كلّ الذين ضلوا في هذه الدنيا من بني آدم سبب ضلالهم هم شياطين الجن، شياطين الجن هم الذين أضلوهم، ولذلك قال: ﴿اسْتَكْثَرْتُمْ﴾ [الأنعام: 128]، يعي أضللتم عدد كثير، أكثرتم من إضلال الكثير، ﴿قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: 128].

طيب الآن نحن ننتظر ماذا؟

ننتظر جواب الجن، ماذا يقولون؟ ما عندهم جواب لأنهم فعلاً هم سبب الضلال، ولذلك ما أجابوا وسكتوا، يبقى عندنا جواب الإنس هل فعلاً استكثروا أم لا؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: 128]، ما قال: **"وقال الإنس"** لأن الإنس فيهم أهل صلاح واستقامة، ولم تضلهم الشياطين؛ لأن الله تولى أمرهم وحفظهم.

ولذلك قال: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [الأنعام: 128]، يعني أولياء الشياطين الذين تولتهم الشياطين فأصبحوا معهم أولياء.

قال: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: 128]، يقول: كلنا استمتعنا، كيف استمتع الشياطين والجن؟ قالوا: لأن الإنس بدؤوا يعبدونهم، ويقدمون لهم القرابين، ويخضعون لهم، ويطيعونهم فيما يأمرون، فتركوا طاعة الله، وبدؤوا يطيعون الشياطين، فاستمتع الشياطين بهذه الطاعة.

وطيب واستمتاع الإنس؟

قال: لأنهم وجدوا عندهم مصالح كثيرة، الشياطين تقدم لهم مصالح كثيرة فيستفيدون منها، يعينوهم على إضلال الخلق، ويقدمون لهم مساعدات كثيرة، ما يستطيع الإنس أن يحصل عليها إلا عن طريق الجن؟

ولذلك قال: ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: 128]، هذا كلام من؟ هذا كلام الإنس، الإنس الذين هم أولياء الشياطين، يعني أهل الضلال.

قال: ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: 128]، يقولوا لله عَزَّ وَجَلَّ: يا ربنا استمتع بعضنا ببعض في الدنيا، والآن بلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، وهو يوم القيامة، الآن وصلنا إلى يوم القيامة والأمر إليك، كأنهم يريدون بهذا الأسلوب الاستعطاف والرحمة من الله، ولكن ليس وقت رحمة ولا استعطاف.

قالوا: ﴿وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: 128]، ماذا قال الله ردًا عليهم؟ الرحمة والاستعطاف والتوبة وقبولها هذا في الدنيا، أما في الآخرة انتهى الأمر.

ولذلك قال: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الأنعام: 128]، النار هي مثواكم، هي داركم، وهي قراركم في الآخرة، ليس لكم غير هذه النار، أنتم الآن مصيركم إلى النار.

قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 128]، كيف **"إلا ما شاء الله"؟** قال: لأن الاستثناء هنا يدل على أي شيء؟ يدل على أن الأمر بمشيئة الله، لما يقول: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 128]، يدل على أن الأمر هو بتقدير الله ومشيئته، ليس بقدرة أحد، ولا بمشيئة أحد.

أو يُراد بذلك ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 128]، ممن سيخرجه الله من النار؛ لأن هناك من العصاة من أهل التوحيد وغيرهم سيخرجهم الله من النار.

أو يقال: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 128]، قبل دخلوهم النار في عرصات يوم القيامة وفي القبر ونحوه.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 128]، يعني لما يدخلهم النار ويقول: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ [الأنعام: 128]، هذا بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعلمه؛ لأنهم لا يستحقون إلا النار، فبعلمه السابق أن هؤلاء هم أهل النار، وبحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنهم يستحقون النار بعدله وحكمته.

ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 128]، لما شياطين الجن تتولى شياطين الإنس ومردة الإنس مع مرد الجن، وكلٌّ يتولى الآخر، والله هو الذي يتولى الصالحين من عباده، اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

يقول: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ [الأنعام: 129]، يعني مثلما ولينا شياطين الإنس والجن وأهل الضلال من الجن والذين أضلوهم من الإنس مثلما تولى هؤلاء بعضهم مع بعض يقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: 129].

كلّ ظالم الله يولي عليه ظالم، فإذا الظالم تمرد واشتد ظلمه على الخلق فاعلم أن هذا الظالم سيسلط الله عليه ظالم أشد منه؛ لأن الله يقول: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129]، بسبب كسبهم الظلم وكسبهم السيئات يسلط الله عليهم، وكما في الحديث قال: **«كما تكونوا يولى عليكم»**.

وتجد أحيانًا في بعض الأزمنة أو بعض الأمكنة أو بعض الدول أو بعض القبائل تجد يتولى عليهم ظلمة، ما سبب تولي الظالم على الرعية؟ يكون راعٍ ظالم يتولى على الرعية؟

بسبب الرعية، ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129]، إذا ظهر الفساد في الأرض، وبدأ الناس لا يبالون بأحكام الله ولا بشرائعه، وبدؤوا يفسدون في الأرض، سلط الله عليهم من يظلمهم، ويتسلط عليهم بأخذ حقوقهم، وهذه سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: 129].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأنعام: 130]، هذا نداء ثاني غير النداء الأول، ولابد أن يكون هناك اختلاف بين النداء الأول، النداء الأول عرفناه أن الجن استكثروا من الإنس، وتسلطوا عليهم وأضلوهم، وهنا لا، هنا نداء آخر يقيم الله الحجة على الجن وعلى الإنس جميعًا.

قال: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنعام: 130]، أنتم الآن لما وصلتم إلى هذه المرحلة في يوم القيامة وأصبحت النار أمامكم أنتم يا معشر الجن والإنس ما أرسلنا إليكم رسل؟ الله أرسل رسل كثيرة، وأرسلهم من الإنس ولم يرسل من الجن إلا منذرين، وإنما الرسل للجن والإنس جميعًا، ولذلك رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت للإنس والجن جميعًا.

قال: ﴿يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنعام: 130]، يقصون يعني يوضحون ويبينون لكم آياتي، وحججي، وأدلتي التي تدل على أنني أنا الواحد الذي يستحق العبادة، وأن المخلوقين لا يستحقون العبادة.

قال: ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: 130]، وهو يوم القيامة، ماذا كان جوابهم؟ أكيد إذا جاء يوم القيامة سيعترفون.

ولذلك قالوا: ﴿شَهِدْنَا﴾ [الأنعام: 130]، يعني أقررنا، واعترفنا، ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: 130]، ولكن ماذا؟ قال: ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: 130]، اعتروا بالدنيا، وزخارفها وزينتها وأموالها، غرتهم حتى انشغلوا، وألهتهم الدنيا عن الآخرة.

قال: ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 130]، لأنهم ركنوا إلى الدنيا وتركوا عبادة الله، ولم يستعدوا لليوم الآخر بأي استعداد، وإنما غلفوا عنه وكفروا باليوم الآخر، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: 130].

هذا الحكم من الله والإقرار منهم، وبيان إقامة الحجة عليهم تفيد ماذا؟

تفيد:**"أن الله لا يظلم الناس شيئًا"** وأن البشر أو الجن والإنس يعترفون بأنهم هم الذين أخطئوا، وهم الذين عرضوا أنفسهم للعذاب.

ولذلك اسمع ماذا يقول الله؟ قال: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: 131]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يهلك القرى في الدنيا، في الدنيا قبل الآخرة قبل عذاب الآخرة، في الدنيا الله ما يعذب أي قرية إلا بعدما يقيم الحجة عليها، يرسل إليها الرسل، وينزل إليها الكتاب، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، حتى ما يأتي إنسان يحتج يقول: يا رب ما جاءني رسول، يا رب ما علمت بهذا.

ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ [الأنعام: 131]، ما الله يريد أن يهلك أي قرية من القرى، ﴿بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 131]، ما يظلمهم الله، وإنما يهلكهم بعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: 131]، بل يرسل إليهم، ويقيم عليهم الحجة، ولكن الناس بلا شك أنهم يختلفون، لا في ضلالهم وإضلالهم، ولا في معاصيهم وفسادهم في الأرض، كلٌّ على حسب.

وكذلك أهل الطاعة كلٌّ على حسب، تجد من هو على أعلى درجات الطاعة، ومن هو أقل من ذلك، ولذلك اسمع ماذا يقول؟ يبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكمه وعدله في الخلق، كلٌّ يستحق ما قدم من عمل، أنت قدمت عمل تستحق الجزاء عليها، سواء كان هذا العمل من الأعمال السيئة أو من الأعمال الحسنة، كلٌّ يأخذ نصيبه، بعدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحكمه بالقسط والعدل.

قال: ﴿وَلِكُلٍّ﴾ [الأنعام: 132]، أي من الخلق الجن والإنس، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: 132]، حكم الله، أنت تعمل والله يجازيك على عملك، سيئة بسيئة، حسنة بعشر أمثالها، ويزيد ويضاعف أضعافًا كثيرة، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعافًا كثيرة.

ولذلك قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: 132]، وهذا حكم الله العدل، ما يمكن أن يكون هناك ظلم ولو بمقدار شعرة، وإنما حكم الله بالعدل.

قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: 132]، المؤمن لما يسمع مثل هذا الكلام ماذا يكون موقفه؟ موقفه أن يُكثر من الطاعات؛ لأن هذا كله رصيد لك تقدمه لنفسك، والله يجازيك عليه يوم القيامة، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾ [الأنعام: 132]، وهذه الدرجات متفاوتة، قد تكون الدرجات أعلى مما بين السماء والأرض، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾ [الأنعام: 132]، وكذلك أهل الفساد كلٌّ سيجازي.

قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 132]، بل إن الله يحصي أعمالهم وهو رقيب عليهم حفيظ لأعمالهم، لا تظن أن الله يغفل عن أي يعني يعلم خائنة الأعلم وما تخفي الصدور، خائنة الأعين يعني لو عينك خانت بنظرة لا تجوز الله يعلمها، وما تخفيه الصدور الله يعلمها، ما تبدي نفسك وما تخفيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلمه ويجازيك عليه.

وبناء على هذا: هذا مما يجعل الإنسان دائمًا بين الخوف والرجاء، تخاف من المعصية وأثرها السيئ عليك في الدنيا والآخرة، المعاصي لها شؤم، فيخاف الإنسان منها، يخاف من المعاصي، وكذلك الطاعات يفرح بها المؤمن ويسارع، وكلما وجد فرصة في مجال خير لا يتركه؛ لأنه يعلم أن الله يحصيه ويحفظه له ويقدمه له بأعلى الدرجات، فأنت لا تفرط في أي حسنة من الحسنات.

قال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ [الأنعام: 133]،يعني هذه الدرجات لكم أنتم أيها الخلق، وما يكافئكم الله ويجازيكم به يوم القيامة هذا لك أنت رصيد، أما الله فهو غني، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غني، لو اجتمع الخلق كلهم في صعيد واحد وكلٌّ سأل ربه، وأعطاهم الله مسألتهم كلهم ما نقص من ملك الله شيء، ما ينقص أبدًا.

قال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ [الأنعام: 133]، هو سبحانه الغني، ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: 133]، يبعث الرسل وينذر عباده ويحذرهم ويجازي، فهو ذو رحمة.

قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ [الأنعام: 133]، يعني الله غني عن عبادتكم، ولا تظن أن العبادة تنفع الله، وإنما تنفعك أنت، أما الله غني لا يتضرر من معصيتك، ولا ينتفع بطاعتك، ولذلك إن أراد أن يذهبك ويذهب الناس الذين على الأرض كلهم في لحظة أذهبهم في لحظة وأتقى بقوم آخرين، يعني ما يعجز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ [الأنعام: 133]، يقول: أنتم جئتم من آباؤكم، وأجدادكم، وأسلافكم، أنتم لستم موجودين قبل ذلك، والله هو الذي أوجدكم، كنتم صغارًا وقبل أن تكونوا صغارًا كنتم في العدم، فأوجدكم الله وخلقكم، وجعلكم تمشون على هذه الأرض تستخلفون من كان قبلكم، وسيأتي من يستخلفكم وستذهبون، فما الذي يعجز الله؟ ما يعجز الله شيء، إذًا أعمالكم لكم.

ولذلك يقرر مع هذه الأعمال والدرجات العالية إلا أن الله يؤكد على يوم القيامة، قال: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام: 134]، هذا اليوم الذي توعدون، وأن الله سيحشر الأولين والآخرين لابد أن يأتي.

قال: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: 134]، لو أراد الإنسان أن يعجز الله، أو يفلت من حكمه أو يفر من ملكه ما يستطيع، ما يمكن، أنت غير معجز الله، أنت في قبضة الله مهما كنت، ولو فررت، ولو جلست في قصور مشيدة، وحرس، أنت في حكم الله عَزَّ وَجَلَّ، الله إذا أراد قبض روحك قبضها، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: 134].

ولذلك لما كان الكفار مع هذا التهديد لم ينتفعوا ولم يتأثروا الله عَزَّ وَجَلَّ بدأ يسلي نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: اتركهم على ما هم عليه.

قال: ﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ [الأنعام: 135]، كونوا على ما أنتم عليه، وعلى طريقتكم، وعلى منهجكم، وعلى كفركم وضلالكم، كونوا عليه، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ [الأنعام: 135]، وأنا عامل في دعوتي، اعمل يا محمد على دعوتك، واتركهم.

قال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 135]، خوفهم وهددهم فسوف يعلمون ماذا؟ قال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ [الأنعام: 135]، دار الدنيا قبل دار الآخرة، من ستكون له عاقبة الدار؟ من الذي سينتصر هل هو أهل الحقّ أم أهل الباطل؟

لو ظهر الباطل وانتشر على الأرض؛ فإن الباطل لابد أن يزهق ويذهب وينتهي، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 135]، الظالمون لا يفلحون، مهما فعلوا من أفعال فأهل الظلم لابد أن ينتقم الله منهم، لا يفلحون أبدًا.

ولذلك حتى لو رجعت إلى تاريخ السيرة في هذه الآية، وطبقت هذه الآية على تاريخ السيرة، ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 135]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال لنبيه محمد ما لبث يعني سنين معدودة إلا وانتصر محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أهل مكة، وعلى أهل الظلم في مكة، وأبادهم جميعًا وأهلكهم، واستخلف مكانهم أهل الخير، وأهل الطاعة، ممن هم من صحابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أيام معدودة، ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 135]، تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه، ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ [الأنعام: 135]، كانت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاقبة الدار في الدنيا قبل الآخرة، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 135].

نقف عند هذا القدر ونكتفي به نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما سمعنا وبما قلنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(143)
(الأنعام 136 - 142)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا اليوم هو يوم الأربعاء الموافق للخامس عشر من شهر شوال من عام 1445 من الهجرة.

درسنا المعتاد من كلّ أسبوع في تفسير القرآن العظيم، نقرأ آيات من كتاب الله ونتأملها ونتدبرها ونفهم ما فيها.

السورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأنعام"** سميت بهذا الاسم لماذا؟ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر فيها أحكام الأنعام، والأنعام هي **"الإبل، والبقر، والغنم"** أحكامها من حيث الحلال والحرام، ولهذا سبب.

لماذا ذكر الله في هذه السورة أحكام الأنعام وسماها بـــ "سورة الأنعام"؟

لأن المشركين حرموا وحللوا من تلقاء أنفسهم، قالوا: هذا حلال، وهذا حرام، من غير مستند شرعي ولا حكم شرعي؛ بل زيادة على ذلك يفترون على الله الكذب ويقولون: إن الله هو الذي حلل وهو الذي حرم افتراءً على الله.

ولذلك "سورة الأنعام" لمن يقرأها بتدبر وتأمل يجد أن السورة انقسمت إلى قسمين:

القسم الأول: **"يتعلق بالتوحيد والعقيدة والإيمان"**، وأنه لا إله ولا معبود بحق إلا الله، وأن الآلهة التي يعبدها المشركون كلها آلهة باطلة، ولا يجوز أن يصرف الإنسان أي أمر من العبادات إلا لله، فلا يجوز أن يسجد إلا لله، ولا يطوف إلا لله، ولا يدعو إلا الله، وكلّ ما كان يفعله المشركون من تعظيم الآلهة من دون الله كلّ ذلك تكلمت عنه السورة وأبطلته، واستدلت بالأدلة الشرعية والأدلة العقلية على بطلانه.

القسم الثاني: **"يتعلق بالأحكام الشرعية وأن الحاكم هو الله"** وأن المشرع هو الله، وأن ليس هناك أحد يستطيع أن يقول: أنا أحكم وأشرع من نفسي؛ فإن الحكم حكم الله، ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام: 62]، لله الحكم، هو الحاكم.

وتكلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن بيان افتراءات المشركين في الأنعام مثلما ذكرنا، الذي يقول في بهيمة الأنعام والذبائح هذا حلال وهذا حرام ما يقوله من نفسه، إنما يقوله من دليل ومستند شرعي من الكتاب والسنة، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن افتراءات المشركين وكذبهم على الله عَزَّ وَجَلَّ في تحليل الأنعام أو تحريمها.

وهم وجدوا آباءهم على ذلك وقلدوا آباءهم، ولم يكن لهم مستند، لو سألت أحد منهم لماذا تقول: هذا حلال وهذا حرام؟ قال: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: 104].

فهم يسيرون على ما كان آباءهم من الافتراءات والكذب، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر شيئًا من هذه الافتراءات والكذب، وهذه التقاليد التي أخذوها عن أسلافهم.

بدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى

شُرَكَائِهِمْ﴾ [الأنعام: 136]، قال الله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136]، ساء وبئس ما يحكمون، كيف تحكمون بهذا الحكم؟!!

قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 136]، يعني هم صرفوا شيئًا، هم يتحدثون عن أي شيء؟ عن الحرث والأنعام، الحرث هي **"الزورع والمحاصيل الزراعية وما تثمره الزروع"** والزروع والنخيل يأتون على ثماره إذا قطفوها ويأخذون جزءًا منه، يقولون: هذا جزء لله، كيف لله؟ يُتصدق به على الفقراء والمساكين والضيوف ونحو ذلك، والمحتاجين.

وجزء آخر يجعلونه لسدنة الآلهة، لخدام الآلهة، فيقولون: هذا جزء يكون لخدمة الآلهة، الذين يخدمون الآلهة نعطيهم جزء منه، وهذا لله.

قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ [الأنعام: 136]، ذرأ يعني هو الذي أنتج لهم وخلق هم الثمار في النخيل، والزروع، وهو الذي أنتج لهم نتاج بهيمة الأنعام، فالذي خلقها لهم هو الله، فهم يأتون ويجعلون جزء منه لله ﴿مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: 136].

قال: ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: 136]، زعمهم يعني أنه كذب من عندهم والله ما أمرهم، ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: 136]، يعني للآلهة، لخدام الآلهة.

قال: ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: 136]، يحافظون عليه بدقة لا يمكن أن يذهب إلى الفقراء والمساكين وإنما يكون لسدنة وخدام الآلهة.

قال: ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ﴾ [الأنعام: 136]، الذي يجعلونه لله يعني للمساكين والفقراء والمحتاجين والأيتام ما يجعلونه يصل إلى الأيتام؛ وإنما يأخذونه ويعطونه للسدنة، كيف أنتم تقولون هذا لله ثم تأخذونه؟! قال: لا يصل إلى الله وإنما يصل إلى الآلهة، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: 136]، بئس ما يحكون.

أو قد يكون المعنى: أنهم إذا قسموا هذه الأقسام أو هذا التقسيم وجعلوا لله جزءًا وللآلهة جزءًا قال الله: الذي للآلهة باطل، والذي لله لأنهم لا يريدون به وجه الله باطل مردود عليهم، لا يصل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

هذه هي العادة وهذا هو العمل الذي كان يعملونه من الأعمال الباطلة التي يفترون على الله الكذب، ويقولون: الله أمرنا بها، فهذه من التقاليد التي ورثوها عن أجدادهم وآبائهم، وهي من الأعمال الباطلة، ومن الافتراءات والأكاذيب على الله عَزَّ وَجَلَّ فأبطلها الله عَزَّ وَجَلَّ، هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: خذ مثال آخر أو عادة أخرى من عادتهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ﴾ [الأنعام: 137]، مثلما زين الشيطان لهم هذا التقسيم أيضًا الشيطان زين لكثير من المشركين، ﴿لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 137]، ولم يكن لجميع المشركين، ما هو الذي زينه الشيطان لهم؟

قال: ﴿قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام: 137]، شركاؤهم هم الشياطين الذين يعبدونهم من دون الله، زينت الشياطين لهم قتل أولادهم.

هل العرب كلهم يقتلون أولادهم؟

الجواب: لا، ولذلك انظر إلى احتراز القرآن، قال: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ﴾ [الأنعام: 137]، وليس الجميع، الأول الجميع يعلمونه، والثاني قال: ﴿زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ﴾ [الأنعام: 137]، الشيطان زين لهم قتل أولادهم، يقتلون الذكور والإناث الصغار يئدونهم.

إذا ولد له مولود دفنه وهو حي أو قتله،لماذا؟

قالوا: **"أما بالنسبة للبنت فهي عار"**، هي عار وتلحق أهلها بالعار، وتكون سببًا في الحرب، ولا هي تأخذ السيف، وتركب الخيل وتدافع لا، هي ما تفعل هذا، فلهذا يأتون عليها ويئدونها وهي

حية، ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ 8 بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: 8، 9]، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ 58 يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ﴾ [النحل: 58، 59]، يختفي، ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ﴾ [النحل: 59]، يصبر عليه وهو على إهانة، ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: 59].

إذا بُشر أحدهم بالأنثى جاء أحدهم وأخذ هذه الأنثى وحفر لها حفرة ودفنها وهي حية، وأهل عليها التراب وتركها، يقول: أدفنها حية خير من أن تلحق بي العار، هذا بالنسبة للبنات.

أما بالنسبة للذكور الأولاد: وهم يقتلون أولادهم وليس الجميع مثلما ذكرنا؛ بل بعض قبائل العرب، تقتل الأولاد خشية أن يأكل معه، وخشية الفقر كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: 31]، يعني خشية الفقر.

فكانوا يفعلون هذه الأفعال التي لم يأمرهم الله بها، ويفعلونها وهي تخالف؛ وليست تخالف الشرع وتخالف حكم الله؛ بل تخالف العقل، يعني العاقل منهم كيف تقتل ابنك وتقتل بنتك؟ هذه من الأمور التي لا يقبلها العقل.

قال: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾ [الأنعام: 137]، أي ليهلكوهم، يعني يكونوا سبب في هلاكهم هم، الشياطين هم الذين يهلكون هؤلاء.

قال: ﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: 137]، يخلطوا عليهم دينهم، يقولون: هذا من دينكم، وهذا ليس من الدين، الله لم يأمرهم بقتل أولادهم، هذا من الدين.

قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: 137]، لو أراد الله ألا يقتلوا أولادهم ما فعلوا ذلك، لكن أراد الله ذلك امتحانًا لهم، وعقوبة عليهم.

قال: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 137]، دل على أن هذا افتراء وكذب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا الآن الأمر الثاني من افتراءات المشركين والكذب على الله.

الأمر الثالث: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ﴾ [الأنعام: 138]، الآن بدأت الآيات تتكلم عن الأنعام، ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ﴾ [الأنعام: 138]، أنعام معروفة بهيمة الأنعام، والحرث الزروع، ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: 138]، يحجر يعني ممنوع لأي إنسان يتعدى عليها أو يأخذها، يعني محرمة عليه.

قال:﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأنعام: 138]، لا نطعمها إلا نحن الذين نحدد من الذي يأكلها؟ ومن الذي لا يأكلها؟

قال: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ [الأنعام: 138]، أي بكذبهم على الله، فهم جاءوا على الأنعام والحرث وقالوا: ما ينتج الحرث الزروع، وما تنتج الأنعام هذه ليست مباحة لكل إنسان، فهي ممنوع ومحرمة ﴿إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ [الأنعام: 138]، نحن نقول: هذا يجوز، وهذا لا يجوز، وهذا كذب على الله.

قال: ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ [الأنعام: 138]، وأنعام أخرى حرمت ظهورها، لا يركبون عليها، أنعام كالإبل يحرمون يقولون، هذه الناقة، وهذه الإبل يحرم ركبوها، لماذا؟ لأن عندهم عادة من السائبة والحام، عندهم عادات يقولون: إذا أنتجت هذه الناقة مثلاً خمسة بطون ستة بطون سبعة حرمت، أصبحت سائبة لا أحد يتعرض لها، سائبة تمشي في الطرقات ما أحد يتعرض لها، ما يجوز أكلها، ولا حلبها، ولا ركوبها.

وكذلك الفحل من الإبل إذا وصل حد معين أنتج من ظهره عدد قالوا: هذا حمى ظهره، لا تركبوه، فحرموا، ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ [الأنعام: 138].

قال: ﴿وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: 138]، لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح، ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: 138]، كذب وافتراء عليه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متوعدًا لهم؛ لأن هذا افتراء وكذب: ﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 138]، سيجازيهم على افتراءاتهم أنهم يقولون: إن الله هو الذي حرم هذا وحلل هذا.

وخذ أيضًا من عاداتهم وتقاليدهم المحرم؛ قال: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ [الأنعام: 139]، يقصدون الأنعام المحرمة التي حرمت ظهروها، والسائبة، يقولون: إذا ولدت هذا ما حكمه؟ هل يأكلونه أم لا؟

قال: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا﴾ [الأنعام: 139]، يعني للرجال فقط، ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: 139]، محرم على النساء، من أين أتيتم بهذا الحكم؟ من الذي أعطاكم هذا الحكم؟ ولكن افتراء على الله.

يقول: إذا ولدت هذه السائبة أو الوصيلة أو ونحوها إذا ولدت فهي للذكور للرجال دون النساء، ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ [الأنعام: 139].

طيب وإذا ولدته ميتًا؟

قال: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: 139]، إذا ولدت ميت يأكلونها جميعًا، أصلاً الميت محرم فكيف تأكلونه؟!! انظروا افتراء وكذب على الله.

يقولون: إذا ولدت هذه الناقة يعني جنينًا ميتًا هذا يشترك فيه الرجال والنساء كلٌّ يأكلونه، أما إذا ولدت حيًا فهو للرجال فقط.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: 139]، هذا وعيد شديد لهم، يكذبون على الله ويفترون، ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 139]، ذو حكمة بالغة وذو علم وسيجازيهم على افتراءاتهم.

ثم توعد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من يقتل أولاده، وأخبر عن خسارتهم العظيمة خسروا الدنيا والآخرة، قال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 140]، سفاهة وطيش وقلة عقل، حتى العقل ما يقبله، ليس الشرع، العقل، كيف تأتي على ولدك وتقتله؟!!

قال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ﴾ [الأنعام: 140]، خسر الدنيا والآخرة، ﴿الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 140]، يعني من بهيمة الأنعام، قالوا: هذا حلال، وهذا حرام، حرموا ما رزقهم الله، ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: 140]، كذب وافتراء على الله.

قال: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: 140]، ضلوا بأحكامهم هذه الباطلة، وما كانوا مهتدين إلى طريق الصواب.

من الذي خلق هذا الخلق من الحرث والزروع والنخيل؟

ومن الذي خلق بهيمة الأنعام؟

هو: **"الله"** إذًا الذي يحلل ويحرم هو الله.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بين افتراءاتهم ورد عليهم وتوعدهم بالوعيد الشديد بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه هو الذي أنشأها، وهو الذي أباحها، قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام: 141].

المعروشات: **"التي توضع على العريش مثل العنب ونحوه"**.

وغير المعروشات: **"التي تقوم على ساق مثل النخيل والأشجار الأخرى التي تقوم على ساق"**.

قال: ﴿مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ﴾ [الأنعام: 141]، أنشأ النخل، هو الذي أنشأها، ﴿وَالزَّرْعَ﴾ [الأنعام: 141]، الزروع التي في الأرض كالحبوب والأرز والقمح، هذه التي خلقها الله.

قال: ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ [الأنعام: 141]، الأكل مختلف طعمه، تجد النخيل فيه أنواع عديدة من الأشكال والأنواع التي تختلف في طعمها، وكذلك الزروع الحبوب والأرز والقمح والشعير وغيره على درجات وأنواع وأشكال مختلفة الأكل.

قال: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ [الأنعام: 141]، هو الذي خلقه الله وأنشأه، ﴿مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [الأنعام: 141]، تجد شكله أحيانًا يتشابه في الظاهر والطعم يختلف، فمتشابه في الحجم وغير متشابه، متشابه في اللون وغير متشابه، هذا الذي جعله متشابهًا وغير ألوانه، وجعله ألوان، وجعله درجات، وجعله أشكال مختلف الطعوم من هو؟ هو الذي خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي خلقه وأنشأه.

قد يسألك سائل يقول:

طيب لماذا خص الزيتون والرمان؟

نقول: لكثرة منافعه؛ ولأنه المشتهر عندهم يعرفونه.

قال: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ [الأنعام: 141]، أباح الله لك كلّ الزروع هذه، والنخيل، والفواكه، ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ [الأنعام: 141]، أباحه لك ما حرم عليك شيء.

قال: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: 141]، إذا جاء وقت الحصاد أعطي الفقراء حقهم، خذ منه وتصدق، وأعطي الفقراء، ثم جاء بعد ذلك فريضة الزكاة التي فرضها الله عَزَّ وَجَلَّ، وفرضها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقسمة المعروفة.

قال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141]، فكلوا بلا إسراف، وتصدقوا بلا إسراف فكل هذا مباح، كلوا من الطيبات ولا تسرفوا، هذا بالنسبة لأي شيء؟ هذا بالنسبة للثمار، والزروع، والأشجار، والفواكه، ونحوها.

طيب والأنعام؟

قال: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام: 142]، يعني من الأنعام ما يحمل عليه، ويُركب عليه كالإبل، تحمل عليه الأثقال وتركب عليه، ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ [الأنعام: 142]، فرشًا هي صغار الإبل أو الأغنام ونحوها، تُفرش للذبح.

قال: ﴿حَمُولَةً﴾ [الأنعام: 142]، تحملون عليها، وتفرشونها للذبح تأكلونها، يعني الله أباح لك الركوب عليها لا كما كان المشركين يحرمون الركوب، وأباح أيضًا لك الأكل لا كما يفعل المشركون من تحريم الأكل.

قال: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 142]، هذا رزق الله كلوا لا تحرموا على أنفسكم، أنتم تحرمون وتفترون على الله، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنعام: 142]، الذي أمركم هو الشيطان، الله ما أمركم بأن هذا حلال وهذا حرام.

قال: ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: 142]، احذروا من أن يأمركم الشيطان بأن هذا حلال وهذا حرام، إذا أمرك الله وقال: هذا حلال، وهذا حرام، كالميتة المرحمة، والدم المسفوح ونحوه، هذا حرام حرمه الله لمصلحتك، أما الأصل؛ فإن جميع الزروع والثمار والفواكه أباحها الله للناس، وجميع بهيمة الأنعام **"الإبل، والبقر، والغنم"** كلها مباحة، إلا ما حرمه الدليل.

وبهذا عندما سمعنا هذه الآيات العظيمة الجليلة عرفنا مواقف المشركين، وكذبهم على الله، وافتراءهم على الله، ومواقفهم من بهيمة الأنعام من الزروع،حتى من أولادهم وقتلهم لأولادهم، كلّ هذا يفترون على الله الكذب، فأبطل الله كلّ دعواهم، وكلّ افتراءاتهم حتى نعرف شريعة الله، ونعرف أحكام الله بأن الله أباح لنا الفواكه والخضار، والزروع كلها أباحها لنا، تأكل ما تشاء، ومن بهيمة الأنعام تأكل ما تشاء وتركب ما تشاء، كلّ ذلك أباحه الله، وإنما الذي يكذب على الله ويفتري هم المشركون.

نقف عند هذا القدر وإن شاء الله نستكمل في اللقاء القادم ما توقفنا عنده.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(144)
(الأنعام 143 - 150)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو اليوم الثاني والعشرون من شهر شوال من عام 1445 من الهجرة.

مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم، السورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأنعام"** نأخذ آيات منها نتلوها ونبين معانيها، ونتدبر ما فيها من توجيهات ربانية، ونستفيد ونتعلم، الآية التي بين أيدينا هي الآية الثالثة والأربعون بعد المائة من **"سورة الأنعام"**، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 143].

هذه الآية وما بعدها هي في مناقشة المشركين، المشركون حرموا شيئًا من بهيمة الأنعام، وحرموا شيئًا من الزروع، وقالوا: هذا حرام، وهذا حرام، بأمور ورثوها عن آبائهم لا دليل لهم فيها، ولا نص، ولا وحي، ولا أي شيء، وإنما تبعوا ما كان عليه آباؤهم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منّ على عباده، وامتن عليهم، وأنعم عليهم بالزروع والثمار وبهيمة الأنعام، وبيّن أنها حلال، ولا يمكن أن تحرم إلا بالدليل، ولذلك بدأت الآيات تناقشهم بالدليل العقلي، والنقلي.

بهيمة الأنعام لا تخرج من أن تكون ثمانية أصناف، لا يمكن أن تكون تسعة، ولا يمكن أن تكون سبعة، فهي ثمانية، ما هي الثمانية؟ لما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الأنعام: 143]، والزوج بمعنى ما يُقابل شيء، الزوج ضد الفرد، والزوج ما يكون له مقابل، فالذكر من بهيمة الأنعام نسميه زوج، والأنثى زوج، لأنهم يتزاوجون، وكلّ شيء يتزاوج يسمى زوج.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الأنعام: 143]، بهيمة الأنعام **"الإبل، والبقر، والغنم"** الغنم بنوعيه الضأن والماعز، أصبحت عندنا أربعة، هذه الأربعة هذه ذكور إناث أصبحت ثمانية، هي ثمانية ما تزيد ولا تنقص.

قال: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 143]، يعني ذكر وأنثى، والضأن معروف الذي له صوف من الغنم هذا يسمى **"الضأن"**، الضأن ذكر وأنثى.

قال: ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 143]، الماعز معروف من الغنم ما له شعر، الماعز ذكر وأنثى، أصبح المجموع أربعة.

قال: ﴿قُلْ﴾، قل لهم وناقشهم ﴿آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: 143]، هل ذكر الضأن وذكر الماعز حرام، أما أنثى الضأن وأنثى الماعز حرام؟ أخبروني؟

قال: ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: 143]، أم ما تشتمل عليه الأرحام التي تحمل من الماعز أو من الضأن، إذا حملت وأصبح في بطنها جنين، هل هذا الجنين حرام؟ أنتم تحرمون الآن أيها المشركون، أعطوني خبر على ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين.

قال: ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: 143]، أعطوني علم، الآن عندكم محصورة، هل عندكم علم؟ ما عندهم علم، ولا عندهم دليل، وإنما يتعبون آباؤهم.

ثم ناقشهم في الإبل والبقر فقال: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 144]، ذكر وأنثى، ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: 144]، ذكر وأنثى، ثم قال: ﴿قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: 144]، هل الله حرم الذكور ولا الإناث؟

قال: ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: 144]، ما في بطون الأنثيين من الحمل، أعطوني الدليل، ما في دليل عندهم، لا عقلي ولا نقلي.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: 144]، أم كنتم حاضرين، ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ [الأنعام: 144]، أوحى إليكم، ووصاكم بوصية وقال: هذا حرام وهذا حلال، هل أنتم كنتم شاهدين وحاضرين إذا وصاكم الله بهذا؟ ما عندهم رد، بكبتهم القرآن وأقام عليهم الحجة، وألقمهم الحجر ولا دليل عندهم، جهلة يتبعون آباؤهم، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: 22].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متوعدًا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 144]، لا أحد أظلم ممن يكذب على الله ويقول: هذا حرمه الله، وهذا حلله الله، من تلقاء نفسه.

يقول: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [الأنعام: 144]، أي لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 144]، يقول: هذا حلال وهذا حرام ويضل الناس وما عنده علم.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 144]، لأن هذا ظلم، الله لا يهديهم ولا يدلهم على الخير إذا هم على ما هم عليه.

لما انتهت مناقشتهم وما في دليل ولا عندهم أي نقاش ولا رد، تبين أن كلّ ما هم عليه باطل، وافتراء وكذلك على الله، الآن يبين لك الله عَزَّ وَجَلَّ ما هو المحرم في بهيمة الأنعام؟

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 145]، أي قل يا محمد، كلمة ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 145]، تتكرر معنا؛ لأن القضية قضية نقاش ومحاورة، ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: 145]، ما أجد فيما أوحي إلي، أنا عندي وحي يأتيني من السماء.

قال: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام: 145]، ما أجد أي شيء محرم على طعام يطعم من بهيمة الأنعام، ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [الأنعام: 145]، إذا ماتت بهيمة الأنعام حتف أنفها، من غير ذكاة فهذه محرمة حرمها الله، والله قال في مواضع أخرى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ [البقرة: 173]، إلى آخره.

قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [الأنعام: 145]، إذا ماتت بهيمة الأنعام حتف أنفها من غير تذكية فهذه محرمة، حرمها الله لما فيها من الأضرار على الإنسان، واستثنى الشرع شيئين من الميتة **"السمك والجراد"** فهذا لا يُذكى، إذا وجدت سمكة ميتة فخذها، والجراد خذه، هذا لا يُذكى وهذا مستثنى من الميتة، أما بقية بهيمة الأنعام أو غير بهيمة الأنعام حتى الصيود، الصيد كالحمام وغيره إذا كان ميتة لا يؤكل، بهيمة الأنعام **"البقر، والإبل، والغنم"** إذا كان ميتة لا يجوز أكلها محرم.

قال: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: 145]، الدم المسفوح هو الدم الذي يخرج عند التذكية، عند التذكية عند قطع الحلقوم والودجين يندفع الدم بقوة، هذا نسميه **"الدم المسفوح"** هذا الدم المسفوح هو المحرم، وفي نفس الوقت هو نجس، لو أصاب بدنك أو أصاب ثيابك يجب غسله هذا نجس، وهو محرم لا يجوز أكله.

أما الدم الذي يكون في العروق في بهيمة الأنعام بعد الذبح، يكون في العروق ويكون بين اللحم والشحم هذا لا يضر، هذا لا يدخل في المحرم.

أيضًا الدم الذي أباحه الشرع مثل الكبد والطحال هذه دم، ومع ذلك أجازه الشرع استثناء.

فالدم محرم سواء الذي يخرج عند التذكية أو الذي قد يكن الإنسان يفصد عرق من بهمية الأنعام، كان أهل الجاهلية يأتون إلى الإبل ويفصد عرق منها ثم يشرب الدم، ثم يغلقه، هذا حرام لا يجوز.

قال: ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ﴾ [الأنعام: 145]، الخنزير محرم كله، لحمه وشحمه وجلده، كلّ ما فيه، وعظمه كله محرم لما فيه من الأضرار.

وإنما خص هنا اللحم لماذا؟

نقول: لأنه في سياق الأكل، ﴿عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ [الأنعام: 145]، ويدخل في ذلك جميع أجزاء الخنزير.

قال: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: 145]، أي الخنزير، أو الميتة والدم المسفوح الثلاثة كلها رجس، يعني أنه قذر، وضار، وإذا تناوله الإنسان يضره.

قال: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: 145]، إذا ذبحت الذبيحة من بهيمة الأنعام وأهل يعني ذُكر غير اسم الله عليه، ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: 145]، كأن يقول: بسم فلان، أو بسم اللات والعزى، أو بسم المسيح، أو بسم كذا، هذه محرمة، إذا ذكر عليها اسم غير الله عند الذبح كما يصنعه أهل الجاهلية فهذه محرمة.

إذًا المحرمات في الآية أربعة:

1. الميتة.
2. والدم المسفوح.
3. ولحم الخنزير.
4. والذي يُذبح ويُذكر عليه غير اسم الله، فهذه محرمة.

وما سواها فهو جائز، إلا ما دل الدليل من الأدلة الأخرى مثلما جاء في **"سورة المائدة"** لأن **"سورة المائدة"** نزلت متأخرة، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ [المائدة: 3].

وجاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه حرم لحوم الحمر الأهلية، وحرم كلّ ذي ناب من السباع، وكلّ ذو مخلب من الطير، هذه أمور جاءت بعد، لكن في نقاش المشركين هذه المحرمات.

قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [الأنعام: 145]، لو أن إنسان اضطر دفعته الضرورة، يعني خشي على نفسه أن يموت، وأراد أن يأكل من هذه الميتة، أو الدم المسفوح، أو لحم خنزير، أو ما أُهل لغير الله به، فإن الله قد أباح له بقدر الضرورة، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: 3].

لا بأس أن يأكل بقدر الحاجة مما يسد الرمق وهذا إذا خشي على نفسه الموت، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [الأنعام: 145]، يعني غير قاصد أكله، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ [الأنعام: 145]، غير متعدٍ، أو يأخذ شيئًا معه، أو يزيد عن الشبع، ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 145].

إذا اضطر الإنسان فإن الضرورة تبيح المحظور **"الضرورات تبيح المحظورات"** والمضطر له حكم خاص.

لما بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن بهيمة الأنعام مباحة كلها، والمحرم هو ما ذكره الله هنا في الآيات، جاء ذكر ما حرمه الله على اليهود، كأنه رد على المشركين الذين يقولون: هذا حرام وهذا حلال، يقول: الله ما حرم عليكم، الله حرم على اليهود نعم، اسمع ما حرم الله على اليهود.

قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ [الأنعام: 146]، اليهود، ﴿حَرَّمْنَا﴾ [الأنعام: 146]، الآن جاء النص، القرآن أخبرنا، ﴿حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: 146].

اليهود يقولون: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [آل عمران: 93]، فأكذبهم الله وقال: لا، نحن حرمنا عليكم أشياء بسبب ذنوبكم، وبسبب فسقكم، اسمع الذي حرمه الله عليهم.

قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: 146]، مثل الإبل ليس منفرد الأصابع في قدميه، له خف، فهذا محرم علينا، الإبل محرم علينا، ومثل البط، والوز ونحوه، والنعام، كلّ ما هو غير مفرج الأصابع يدخل في قوله: ﴿كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: 146]، فالله حرم عليهم هذا.

وأما البقر والغنم؛ فإن الله قال فيه: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ [الأنعام: 146]، حرم الشحوم الخالصة كالإلية ونحوها، هذه محرمة عليهم، محرمة في البقر والغنم على اليهود خاصة.

قال: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ [الأنعام: 146]، التي تحمل الظهور ويختلط باللحم كما قال هنا: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا﴾ [الأنعام: 146]، الشحوم التي تحمل على الظهور تكون على الظهور هذه أباحها الله لهم، ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ [الأنعام: 146]، وهي الأمعاء والمصارين، هذه إذا اختلط بها الشحم يجوز أكلها حتى لليهود.

قال: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: 146]، يعني الشحم إذا اختلط بعظم؛ فإن هذا مستثنى، أما الشحوم الخالصة والإبل، والذي ليس منفرد الأصابع، هذا كله محرم عليهم.

لماذا حرم على اليهود؟

قال: ﴿ذَلِكَ﴾ [الأنعام: 146]، أي التحريم، ﴿جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: 146]، أي بظلمهم، واعتدائهم، حرمنا عليهم لأنهم ظلموا واعتدوا، ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: 146]، فيما نخبرك يا محمد صادقون.

قال: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ [الأنعام: 147]، قالوا: هذا كذب، فماذا ترد عليهم؟ تقول: ﴿فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: 147]، يعني الله ذو رحمة؛ حيث حرم عليهم أشياء قليلة، ورحمته واسعة.

قال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: 147]، إذا أراد الله أن ينتقم فلا يُرد بأسه وعقوبته عن القوم المجرمين، الله قادر ولا يمنعه شيء أن ينزل العقوبات بكل من تمرد على شرعه وفسق.

واليهود لما حرم الله عليهم الشحوم تحايلوا على الله، جاءوا إلى الشحوم وأذابوها، لما أذابوها أصبحت دهون تسيل، فهذه الدهون بدؤوا يأخذونها ويبيعونها، تحايلوا على الله فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حديث جابر: **«لعنة الله على اليهود لما حرم الله عليهم الشحوم أذابوها وباعوها»**، فالتحايل على شرع الله ما يجوز.

المشركون لما ناقشهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التوحيد وعبادة الله احتجوا بالقدر، قالوا: **"هذا شيء قدره الله علينا"**.

قال: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148]، نحن ما نحرم من عندنا و نشرك إلا لأن الله أراده، شاءه الله، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148]، هذا احتجاج منهم بالقدر، والاحتجاج بالقدر في المصائب هذا جائز، لكن في الذنوب والمعاصي؛ يأتيك شخص لا يصلي ويقول: الله قدر علي أني ما أصلي، وهذا كلام غير مقبول وغير صحيح، كيف عرفت أن الله قدر عليك؟!!

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدر المقادير، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له مشيئة وله إرادة، إرادة شرعية، وإرادة كونية، الإرادة الشرعية الله يريد الشيء ويرضى عنه، أما الإرادة الكونية؛ فإنه يريده وقد يرضى عنه وقد لا يرضى عنه، ولا يحبه.

فاحتجاجهم ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: 148]، هذه إرادة كونية فما يقبل منه كلامه، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطى كلّ إنسان قدرته، وأعطاه مشيئة، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30]، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى 5 وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى 6 فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: 5 - 7].

فأنت إذا بحثت عن الخير يسر الله لك الخير، وإذا سلكت طريق الشر أيضًا الله عَزَّ وَجَلَّ تركك أنت وشأنك في طريق الشر، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: 10]، فاحتجاجهم بهذا هذا غير مقبول وذلك رد الله عليهم.

قال: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148]، قال الله مهددًا لهم: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: 148]، هذا كذب.

قال: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: 148]، الأمم الماضية فعلت مثل فعلكم، واشركت واحتجوا، قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: 148]، والله عَزَّ وَجَلَّ أنزل بهم العقوبات.

قال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: 148]، والنتيجة ما هي؟ قال: ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: 148]، يعني حتى نزلت بهم العقوبة.

قال: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام: 148]، عندكم علم بهذا الكلام، تقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: 148].؟ هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟

قال: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام: 148]، الظن والهوى فقط، والتخرص، ولذلك قال: ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148]، يعني تكذبون وتظنون الظنون السيئة وتقولون: إن الله أمرنا، والله لم يأمركم.

قال: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ﴾ [الأنعام: 149]، الحجة البالغة والمحجة والدليل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي أقام الشرع، وهو الذي أمر، أما أنتم تقولون: **"لو شاء الله"** أو تقولون: **"هذا حلال وهذا حرام"** هذا كله لا يقبله، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: 149].

قال: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 149]، لو أراد الله هدايتكم لهداكم أجمين، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاكم الاختيار، وأعطاكم القدرة، وأعطاكم العقل، وأعطاكم السمع والبصر، وتختار أنت طريق الخير وتسلكه، الله يهديك إذا سلكته ويعينك، أو تختار طريق الشر، وتسلك طريق الشيطان الشر، والله يتخلى عنه ويتركك على ما أنت عليه، ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 149].

قال: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ [الأنعام: 150]، أين شهداءكم؟ ﴿الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ [الأنعام: 150]، عندما تقولون: هذه البهيمة حرام، أين شهداءكم؟ أعطوني شهداءكم أن الله حرم هذا؟

قال: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ [الأنعام: 150]، على فرض أنهم شهدوا ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: 150]، لأن هذه شهادة كذب على الله فلا تكن معهم، ولا تشهد معهم.

قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الأنعام: 150]، هذا كذب، وأهواء، وآراء لا دليل عليها، هذه لا يقولها إلا الذين يكذبون بآيات الله والذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يصدقون بها، ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 150]، يعدلون عن طاعته، ويشركون معه غيره.

نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(145)
(الأنعام 148 - 153)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو اليوم التاسع والعشرون من شهر شوال من عام 1445 من الهجرة.

مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم، نأخذ آيات من كتاب الله نقرأها ونبين معانيها ونتدبرها، ونتأمل هذه التوجيهات، والوصايا التي يوصي بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده المؤمنين.

السورة التي بين أيدينا **"سورة الأنعام"** وقف بنا الكلام عند الآية الثامنة والأربعين بعد المائة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148].

الله هنا يخبر أنهم سيقولون، هل قالوا ولا سيقولون؟

نقول: هنا في هذه السورة الله يخبر أنهم سيقولون، ولكن إذا نظرنا في سورة أخرى وهي **"سورة النحل"** التي نزلت بعد **"الأنعام"** يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: 35].

فدل على أنهم قالوا ذلك، وأن الله أخبر حتى نفهم أخبر الله بهذا الخبر قبل أن يقع؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالم الغيب والشهادة، فأخبر أنهم سيقولون، وقالوا ذلك، وقولهم هذا هم يحتجون، يحتجون بأي شيء؟ بالقضاء والقدر، يقولون: **"لو شاء الله ما أشركنا، لكن الله أبراد أن نشرك فأشركنا"** هذه حجتهم.

يقولون: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتب علينا أن نشرك، قدر الله علينا وقضى علينا أن نشرك، لو الله أراد ألا نشرك ما أشركنا، لكن هذا قضاء الله وقدره، هل هذا الاحتجاج صحيح؟ هل هذا الاحتجاج مقبول؟ يأتي المشرك ويقول: الله قدر عليّ الشرك فأشركت، ويأتي العاصي ويقول: الله قدر علي أن أعصي فعصيت، ويحتجون بالقضاء والقدر على الشرك والمعاصي والذنوب.

هذا الاحتجاج باطل الله أبطله غير صحيح، وإن كان كلّ الأمور نعلم أنها بقضاء الله وقدره، ما في حركة تقع في هذا الكون إلا بقضاء الله وقدره، قضاء الله وقدره نافذي في كلّ شيء، لكن يأتي العاصي والمشرك ويقول: الله قدر علي، هذا الكلام غير مقبول.

هم يقولون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: 148]، حتى آباءنا ما أشركوا، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا﴾ [الأنعام: 148]، يعني هم حرموا الآن بهيمة الأنعام، حرموا بعضها، ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148].

قال الله ردًا عليهم: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: 148]، هذا كذب، قولهم مردود وكذب؛ لأنه مثلما قالوا قد قال الذين من قبلهم، الذين قبلهم من الأمم الماضية فعلوا ذلك، والله أكذبهم.

قال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: 148]، يعني حتى أذاقهم الله العقوبة؛ لأن من أشرك فإن الله يعاقبه العقوبة الشديدة، ويجازيه على شركه.

أو يأتي العاصي ويقول: لو أراد الله ما عصيته، لكن الله أراد أن أعصي فعصيت، قال الله: ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: 148]، فرد الله عليهم كلامهم؛ لأن كلامهم غير صحيح، وأن من يقول مثل هذا ويحتج بالقدر؛ فإنه قد عرض نفسه للعقوبة، وأن الله قد أكذبه.

ولذلك حتى نفهم أيها الأخوة لو أن هذا الذي يحتج بالقضاء والقدر على المعصية، يقول: الله قدر علي أني ما أصلي، وقدر علي أني ما أفعل كذا، ويحتج بالقضاء والقدر، لو جئناه من جانب آخر من جهة الدنيا فجاء شخص وأخذ ماله أو ضربه، وقال له: الله قدر عليه أن آخذ مالك، ما رضي، لم يرض أن تأخذ ماله وتقول: الله قدره، فتحتج عليه بالقضاء والقدر لا يرضى، لكن هو يحتج بالقضاء والقدر.

ولذلك في **"سورة الزمر"** لما قال الله في النفس: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: 57]، لكن ما هداني الله، قال الله ردًا عليه: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ [الزمر: 59]، جاءتك آيات ما هو صحيح هذا الكلام.

فالذين يحتجون بالقضاء والقدر يعصي الله ولا يصلي ولا يأتي المسجد ولا يفعل الخير، ويرتكب المعاصي ويقول: هذا شيء كتبه الله علي، قضاء وقدر.

نقول: أنت تحتج بالقضاء والقدر في مثل هذه الأمور، وإذا جاءك في الأمور التي لك فيها مصلحة ما ترضى بهذا الشيء.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: هل كلامكم أنه قضاء وقدر صحيح؟! بل أنتم تعتمدون على الكذب والخرص، يعني كلام غير مقبول، قال: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: 148]، عندكم علم أن هذا قدره الله؟ ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام: 148]، هل عندكم علم أن الله أمركم بالشرك أو رضي عنكم بالشرك والكفر فتخرجونا لنا؟ أخرجوا لنا العلم أين هو؟ ما عندهم علم.

ثم قال ردًا عليهم: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [الأنعام: 148]، أنتم تتبعون الظن فقط، ما عندكم إلا الظن والشكوك، ﴿وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: 148]، والخرص هو كذب، يكذبون على الله.

ثم أبان الله لهم الحقّ في ذلك وأن هذا الذي يجب أن يتبعوه ما هو؟ قال: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 149]، قل لهم: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: 149]، أما أنتم ما عندكم حجة، تكذبون على الله تشركون مع الله آلهة أخرى، وتحرمون شيئًا أباحه الله، وتقولون: الله أمرنا، أعطونا الحجة؟ ما عندهم، الحجة لله، الحجة البالغة التامة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يقيم الحجة عليكم ويأتي بالدليل.

قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ﴾ [الأنعام: 149]، إذا أنتم تعرفون المشيئة، لو شاء الله ﴿لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 149]، لو شاء الله لهدى الخلق أجمعين، ولكنه هدى من شاء، وضل من ضل بعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه لا يصلح للهداية.

فالناس منهم المهتدي، ومنهم الضال، ثم قال توجيهًا لنبيه حتى يناقشهم مناقشة قوية، قال: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 150]، قل لهؤلاء المشركين الذين يشركون والذين يحرمون بعض الأشياء، يحرمون في بهيمة الأنعام، ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ﴾ [الأنعام: 150]، أحضروا شهداءكم، أين شهداءكم الذين يشهدون؟ شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا؟ أنتم تقولون: حرمه الله، أين شهداءكم؟ ما عندكم حجة ولا حتى شهداء، أحضروا شهداءكم أين هم؟

لكن لما كان قد يحضرون بعض الناس ويشهدون كذبًا وزورًا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا﴾ [الأنعام: 150]، أتوا بناس يشهدون، ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: 150]، لأن شهادتهم شهادة زور وكذب، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ﴾ [الأنعام: 150]، سمى كلامهم هذا وتحريمهم وشركهم أهواء، لأنهم يتبعون الأهواء، ما يتبعون الدليل الصحيح.

قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام: 150]، يقول: هؤلاء يتبعون أهواءهم، ومن هم هؤلاء؟ هؤلاء أولًا كذبوا بآيات الله، جاءتهم الآيات وجاءهم الرسول فكذبوا بآيات الله.

قال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الأنعام: 150]، هذه من صفاتهم، لا يؤمنون بالآخرة ولا يعترفون بها ولا بجنة ولا بنار، وهم كفرة يكفرون باليوم الآخر، ويكذبون بآيات الله، وهم أيضًا ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 150]، يعني يشركون بربهم، يعدلون يعني يساوون الآلهة بالله، فيصرفون ما هو لله لآلهتهم، فيبعدون الآلهة كما يعبد المسلم ربه، فيشركون ويعبدون هذه الآلهة، فهم بربهم يعدلون، يعني يساوون الآلهة بالرب، ولاشك أنه لا مساواة بينهما.

أو تكون كلمة: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 150]، يعني أنهم ينصرفون عن طاعة ربهم، يعدلون وينصرفون عن طاعة ربهم إلى طاعة الشيطان.

بعد هذا الكلام الطويل والمناقشة مع هؤلاء المشركين، وإقامة الحجة عليهم بأنهم يكذبون على الله ويفترون، وأنهم يقولون: هذا حلال، وهذا حرام، ويشركون، تأتي الآيات التي هي وصايا من الله لهؤلاء المشركين ولغيرهم إلى قيام الساعة، وهذه الوصايا تسمى بـــ **"الوصايا العشر"** هذه الوصايا العشر حتى ذكر بعض المفسرين أن هذه **"الوصايا العشر"** قد أنزلت على موسى في التوراة، وجاء إقرارها في كتاب الله، هذه الوصايا العشر التي قال فيها ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"من أحب أن ينظر إلى وصية رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي عليها خاتمه فليقرأ هذه الآيات الثلاث من سورة الأنعام التي فيها الوصايا العشر التي أوصى الله"**.

فكأن هذه الوصايا للمشركين الذين يشركون بالله ويقترفون السيئات، ولكل من توجه له هذه الوصية، اسمع هذه الوصايا، وصايا في ثلاثة آيات عشر وصايا.

وهذه الوصايا جاء مثلها في سورة الإسراء، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]، وجا مثلها في سور النساء، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ [النساء: 36]، إلى آخرها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 151]، قل لهم يا محمد، ومثلما ذكرنا أكثر من مرة إذا جاءت كلمة ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 151]؛ فإن ما بعدها أمر مهم لابد أن تقف عنده؛ لأن الله لما يخاطب نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **"قل لهم"** هذا دليل على أن هناك وصية مهمة، فالوصايا من الله هي عهد مؤكد من الله يوصيك بها حتى تأخذ بها.

قال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ [الأنعام: 151]، يعني قل لهؤلاء المشركين تعالوا، كلمة **"تعالوا"** من العلو يعني ارتفعوا أنتم الآن في الحضيض، في الشرك، والكفر، والفواحش، ارتفعوا عنها إلى الأخلاق السامية.

قال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾ [الأنعام: 151]، تعالوا أقرأ عليكم المحرمات، أما أنتم تحرمون من عندكم هذا كلام غير مقبول، تعالوا اسمعوا ما حرم الله، الذي يحرم ويحلل هو الله، أما أنتم لا تملكون تحليل ولا تحريم، اسمعوا ما حرم الله عليكم وخذوا بهذه الوصايا حتى تنجوا وتسلموا إلى عذاب الله.

قال: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: 151]، هذه أول وصية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألا تشرك به شيئًا، وأنه يجب عليك أن تعبد الله وحده لا شريك له، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سئل أي الذنب أعظم، قال: **«أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»**.

كيف تشرك بالله بعبادة الله التي هي من خصائصه تجعلها وتصرفها لمخلوق؟! تصرفها إلى حجر وشجر، وتصرفها إلى ميت تدعو ميتًا وتقرب له القرابين وتذبح له؟!

أول وصية من هذه الوصايا: **"أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا"**.

الوصية الثانية: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: 151]، حقّ الوالدين بعد حقّ الله دائمًا، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: 36]، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23].

فحق الوالدين حقّ عظيم عظمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه، قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: 151]، أي وأحسنوا بالوالدين إحسانًا، وهذا يُفهم منه تحريم العقوق وأنه من أكبر الكبائر أن يعق الولد أبويه، هذا من أشد العقوبات أو من أشد الإجرام، أن الوالدين الذين هم سبب في وجودك وخروجك إلى هذه الأرض، وهم الذين أحسنوا إليك في أول حياتك وأنت صغير أن تكون النهاية أن تعقهما وأن تهجرهما، فيجب عليك أن تُحسن إليهما بكل وجوه الإحسان، بالكلام الطيب، بالنفقة، بالهدية، ببشاشة الوجه، إدخال السرور عليهم، عدم إخبارهم بما يتألمون منه، كلّ هذا من الإحسان إلى الوالدين الذي أوصى الله به، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: 151]، هذه الوصية الثانية.

والوصية الثالثة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ [الأنعام: 151]، إذا أحسنتم إلى الوالدين فيجب عليكم أيضًا أن تحسنوا إلى أولادكم بالتربية الحسنة.

قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: 151]، تقتلوا أولادكم لماذا؟ كيف تقتلوا أولادكم؟! كان بعض العرب في الجاهلية يقتلون أولادهم إما خشية العار إذا كن بنات، أو خشية الفقر، قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: 151]، أي من فقر، يعني خشية الفقر، خوف الفقر، لا تقتلهم بسبب الفقر، لماذا؟ لأن الذي يرزقك أنت أولًا هو الله، والذي يرزقك هو؛ هذا الله.

ولذلك قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ [الأنعام: 151]، بسبب الفقر، لماذا؟ قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ [الأنعام: 151]، نرزقكم أنت قبل أن نرزقهم، أنتم من رزقكم؟ ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: 151]، نرزقكم أنتم ونرزقكم هم.

وفي سورة الإسراء قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: 31]، خشية يعني خوف، خوف الإملاق، ثم قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: 31]، لما كان خوف الإملاق وليس حقيقة، قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: 31].

ولما كان هنا الإملاق حقيقيًا الفقر حقيقي لأنهم خافوا الفقر، قال: لا تخافوا، ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ [الأنعام: 151]، أنتم أولًا ﴿وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: 151]، هذه الآن الوصية الثالثة.

الوصية الأولى: **"ألا تشركوا بالله شيئًا"**.

الوصية الثانية: **"وبالوالدين إحسانًا"**.

الوصية الثالثة: **"لا تقتلوا أولادكم"**.

الوصية الرابعة: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: 151].

ما هي الفواحش؟

الفواحش: **"كلّ قول أو فعل لا يرضاه الله"** كما ما فحش من القول والفعل، الكلام الفاحش السيئ الخبيث الذي يحرمه الله كالسب والشتم والغيبة والنميمة وغيرها هذه من الفواحش، وقول الزور، والكلام البذيء، والأفعال السيئة كالزنا وغيرها من الأفعال التي حرمها الله، كلّ ذلك من الفواحش.

قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ [الأنعام: 151]، حتى هناك فواحش قد تكون ظاهرة، وقد تكون خفية، منعها الله، قال: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: 151]، كله محرم.

ولاحظ أنه يقول: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ [الأنعام: 151]، ما قال: **"لا تفعلوا"** لأن الفواحش هذه الإنسان إذا اقترب منها وقع فيها، ولذلك في الزنا ماذا قال؟ قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ [الإسراء: 32]، لأن الزنا

له مقدمات، يعني مقدمات ثم يقع فيه، وكذلك الفواحش لها مقدمات الشيطان يزينها، فابتعد عنها، ابتعد عن طرق الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

الوصية الخامسة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: 151].

النفس التي حرم الله ما هي؟

هي: **"النفس المعصومة المؤمنة المسلمة، لا يجوز التعدي عليها بقتلها إلا بالحق"** .

ما هو الحقّ؟

مثل: **"القصاص"** قتل النفس بالنفس، أو رجم الزاني الثيب، أو التارك لدينه المفارق للجماعة المرتد، فهذا يجوز قتله، ما سواه حرمه الله، حرم أن تعتدي على نفس فتقتلها، ولا يجوز أن تقتل نفسك كالذين ينتحرون، ولا يجوز أن تقتل نفسًا مؤمنة معصومة.

قال: ﴿ذَلِكُمْ﴾ [الأنعام: 151]، أي الخمس المذكورة هذه، ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151]، لماذا قال: ﴿وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151].؟ بعدها يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 152]، ثم بعدها يقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153].

الآن عندنا: **"تعقلون، تذكرون، تتقون"** لماذا قال هنا: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: 151].؟ لأن هذه الأفعال لا يفعلها عاقل، العاقل الذي عنده عقل لا يفعلها أبدًا، ولذلك قال: **"لعلهم يرجعون إلى عقولهم"** لأن هذا فعل السفهاء، هذا فعل لا يفعله العاقل، لذلك قال: **"هذه الأمور الخمسة الذي عنده عقل لا يفعلها"**.

ثم تنتقل الآيات إلى بقية الوصايا في التعامل، قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152]، مال اليتيم مال محرم، والاعتداء على مال اليتيم من كبائر الذنوب، فنهى الله عنه فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ [الأنعام: 152].

تأمل كلمة ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ [الأنعام: 152]، لأن الإنسان أحيانًا تزين له نفسه تقول: أنا أريد أن آخذ مال اليتيم وأصلحه وأفعل وأفعل، ويقترب ثم يقع فيه، فلذلك نهى الله قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: 152]، التي تكون في مصلحته، تأخذ ماله لتنميه وتحفظه هذا جائز، أما أن تأخذه تتكسب فيه، وتأخذ جزءًا منه وتقول: هذا لي، فهذا كله من الحرام.

قال: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ﴾ [الأنعام: 152]، أي اليتيم، ﴿أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: 152]، حتى يعقل، حتى يبلغ، حتى يصل سن التكليف، وأن يكون رشيدًا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: 6]، شرطين: **"يبلغ سن التكليف، ويكون رشيدًا يحسن التصرف لا سفيهًا"** ففي هذه الحال يُعطى ماله.

ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام: 152]، التعامل بالمال، يعني لا تبخس الناس حقوقهم، أعطوا الناس حقوقهم كاملة، ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام: 152]؛ فإن الله لا يرضى عن بخس أموال الناس، ولا أخذ ذرة من حقوق الناس، فحقوق الناس محرمة.

الآن الوصية السادسة والسابعة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: 152]، لماذا قال: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: 152].؟ لأن التحري في الكيل والميزان قد يكون صعب، فلذلك تجاوز الله عن ما قد يقع بغير اختيار العبد.

الوصية الثامنة: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: 152]، إذا تكلمت فقل الحقّ، وأنصف في كلامك في كلّ شيء، في تعاملك مع أولاده، مع جيرانك، في عملك، في القضاء بين الناس، في أي شيء.

قال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: 152]، لا تميل نفسك إلى القريب وتتكلم بالحرام، أو تتكلم بالجور والظلم لا؛ بل قل العدل مهما كان، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: 152].

الوصية التاسعة: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ [الأنعام: 152]، عهود الله كثيرة، عهد الله في الصلاة، في الزكاة، في الصيام، في الحج، في أعمال كثيرة بينك وبين الله عهد أن تؤديها على الوجه الأكمل، وعلى الوجه الصحيح.

قال: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 152]، الأول قال: **"تعلقون"** وهنا قال: **"تذكرون"** لأن هذه قد يسهو الإنسان ويغفل عنها، مال اليتيم، الوفاء بالكيل والميزان، الوفاء بالعهود، القول الحقّ، هذه قد يغفل الإنسان عنها فذكرهم، فقال: تذكر هذه.

الوصية العاشرة: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي﴾ [الأنعام: 153]، يخبر الله أن هذا هو صراطه المستقيم، ﴿مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 153]، كلّ ما تقدم من هذه الأشياء يجمعها أنها صراط الله المستقيم، ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 153]، فاتبعوا صراط الله المستقيم تنجو وتسلموا.

قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: 153]، السبل كثيرة، والطرق كثيرة، طرق الهلاك، طرق الشياطين، خطواته كثيرة جدًا.

قال: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: 153]، تأخذك عن سبيل الله، إذا اتبعت السبل وتهاونت بسلوكها تركت سلوك الصراط المستقيم.

قال: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام: 153]، هذه الوصية العاشرة، قال: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153].

كيف لعلكم تتقون والتي قبلها تذكرون؟

قال: إذا عقلت وتذكرت؛ فإنك تتق الله عَزَّ وَجَلَّ وتحصل لك التقوى باتباعك صراط الله المستقيم، تتبع صراط الله المستقيم.

لعلنا نقف بعد هذه الوصايا العشر المهمة التي سمعناها والتي وجهت إلى أهل مكة المشركين الذين يحرمون ما أحل الله، قال لهم الله: هذه المحرمات اسمعوا عشر، أما غيرها لا تكذبون على الله.

وهذه الوصايا ينبغي علينا أن نعتني بها وأن نهتم بها، لعلنا نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نواصل ما توقفنا عنده.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(146)
(الأنعام 154 - 158)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا المجلس الذي بإذن الله تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين في هذا المجلس بالملأ الأعلى عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالذكر الحسن، والذكر الشريف.

مجلس لو قضى الإنسان عمره كله في مثل هذه المجالس لم يكن هذا كثيرًا على تدبر القرآن وتفهمه، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«خيركم»**، وفي رواية: **«أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه»**، فهذا شرف عظيم أن تجلس في مثل هذه المجالس المباركة، تسمع كلام الله وبيان أهل لعلم لهذه الآيات القرآنية، وتوجيه أهل العلم لها، فتستفيد.

هذا اليوم هو اليوم السابع من شهر ذي القعدة من عام 1445 من الهجرة، تفسيرنا في **"سورة الأنعام"**، وقف بنا الكلام عند الآية الرابعة والخمسين بعد المائة من هذه السورة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 154].

هذه الآية قبلها آيات مرت معنا في اللقاء الماضي وهي الوصايا العشر التي أوصى الله بها المؤمنين أن يتمسكوا بها، في ثلاث آيات، وصايا أوصى الله بها وأوصى نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"هذه الوصايا العشر التي أوصى بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي عليها خاتمه"** يعني أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مات وهو يوصي بهذه الوصايا العشر التي مرت معنا وبيناها.

قال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى﴾ [الأنعام: 154]، **"ثم"** هذا حرف عطف يفيد التراخي، كلٌّ يعرفه.

هنا سؤال:

✍قال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: 154]، يعني آتينا موسى الكتاب بعدما آيتنا محمد ولا كيف؟

✍نحن نعرف أن محمد خاتم الأنبياء فكيف يقول: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [الأنعام: 154]، بعدما ذكر الحديث عن الوصايا؟

نقول: **"ثم"** هذه تكلم عنها أهل العلم وقالوا: **"إن الترتيب فيها ليس ترتيب زمني، وإنما ترتيب خبري"** فالله يخبر بما يتعلق بالوصايا ثم يخبر بما آتى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وموسى هو كليم الله، وهو رسول بني إسرائيل، أعطاه الله الكتاب، ما هو؟ التوراة، أنزل الله عليه التوراة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يمدح التوراة.

قال: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: 154]، يعني هذا الكتاب الذي أنزله الله التوراة هذا هو تمامًا على الذي أحسن، الذي أحسن مع ربه وعمل الأعمال الحسنة مع ربه هذا تمامًا عليه، يعني يتم له عمله.

قال: ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ [الأنعام: 154]، أي هذا الكتاب التوراة، ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 154]، يعني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أودع في التوراة تفاصيل كلّ شيء، ﴿وَهُدًى﴾ [الأنعام: 154]، أي التوراة أيضًا هدًى، ﴿وَرَحْمَةً﴾ [الأنعام: 154]، هدًى يهتدي بها المهتدون، ورحمة تكون عليهم.

قال: ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 154]، هؤلاء الذين هم بنو إسرائيل أنزل الله عليهم التوراة، هذا الكتاب هو تفصيل لكل شيء يحتاجون إليه في الحياة وهدًى ورحمة لهم، وإذا اهتدوا به وتراحموا به، وكان رحمة عليهم كان ذلك سببًا بإيمانهم باليوم الآخر والاستعداد لهذا اليوم، والعمل لهذا اليوم.

الله يمدح التوراة لماذا؟

الجواب: هذا رد على المشركين، المشركون قالوا: ما أنزل الله من كتاب، ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 91]، هذا أمر.

الأمر الثاني: كانوا يدعون أن محمدًا كان يفتري الكلام من عنده، وأنه يكذب على الله، وأن هذا ما يقوله كذب، فرد الله عليهم قال: إذا كنتم تدعون أن محمدًا ما أنزل عليه القرآن قد أنزلنا على من قبله، وهو التوراة التي أنزلناها على موسى، والإنجيل أنزلناه على عيسى.

لما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أثنى ومدح على التوراة مدح القرآن الذي هو بين أيدينا الآن، ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه؟ هذه الآيات التي بين أيدينا فيها مدح القرآن ليس فقط هذه الآيات؛ بل القرآن كله في آيات كثيرة يمدح الله كتابه، يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، وآيات كثيرة.

ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عندما يمدح كتابه هنا؟

يقول: ﴿وَهَذَا﴾ [الأنعام: 155]، أي القرآن، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنعام: 155]، فيه رد على المشركين الذين يقولون: محمد يفتري، يقول الله: لا، قد أنزلنا نحن، محمد لم يأت به من نفسه.

طيب وهذا الكتاب الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما هي صفاته؟

قال: ﴿مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: 155]، أي كثير الخيرات، يعني هذا القرآن الذي بين يديك خيره عظيم، لا تضعف نفسك في قراءته وتدبره والعمل به؛ فإن خيره عظيم.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول عن سورة واحدة وهي سورة البقرة: **«أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة»**، أي السحرة، **«البيت الذي يُقرأ فيه سورة البقرة لا يقربه شيطان»**، هذا من فضائل وخيرات وبركة القرآن.

قال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 155]، يا أيها المشركون المعاندون الكافرون اتبعوه، واتقوه، وأيضًا ليس خطاب للمشركين الذين كانوا في مكة ويكفرون بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا؛ بل هذا القرآن مستمر إلى أن تقوم الساعة، كلّ من يسمع هذا الكلام مخاطب به، حتى المؤمنين ينبغي لهم أن يتبعوه بدقة، ويعملوا به.

تجد كثير من المؤمنين ممن يتسمى بالإسلام والإيمان ولا يعمل بالقرآن ولا يقرأه؛ بل يهجره ولا يعمل به فهذا خطاب له، يقول: ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ [الأنعام: 155]، اتبعوا هذا القرآن، اتبعوا أوامره، وابتعدوا عن نواهيه، أحلوا حلاله، وحرموا حرامه، هذا معنى الاتباع،﴿وَاتَّقُوا﴾ [الأنعام: 155]، اتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخافوه.

قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155]، كلمة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155]، هذه قف عندها وتأملها، ما الفائدة منها؟ الفائدة منها أنك إذا اتبعت القرآن حقّ اتباعه وعملت به، واتقيت الله كان القرآن سببًا في رحمتك، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155]، يكون القرآن سببًا في رحمة من يتمسك به، أنت إذا تمسكت بالقرآن أثره عليك أن الله يرحمك بهذا القرآن، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155].

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطبًا هؤلاء الجهلة الكفار يقول: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: 156]، يقول: حتى لا تقولوا، يقول: نحن أنزلنا عليكم القرآن هذا وأبقيناه عندكم محفوظًا لا يتغير حتى لا يأتي يوم القيامة ثم تقولون: والله يا ربنا ما جاءنا كتاب.

طائفتي اليهود والنصارى عندهم كتب، أنزلت عليهم التوراة، وأنزلت عليهم الإنجيل، ونحن ما أنزلت علينا، قال: نحن أنزلنا عليكم حتى ما تقولوا هذا الكلام، حتى لا تحتجوا وتقوم عليكم الحجة.

قال: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ [الأنعام: 156]، يقولوا: نحن غافلون عن دراستهم، ما نعرف التوراة، ولا نعرف الإنجيل، ولا تعلمنا، قال: الله أنزل عليكم القرآن لتتعلموا؛ بل أول آية أنزلت ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: 1]، حتى تتعلموا، تعلموا القراءة.

قال: ﴿أَوْ تَقُولُوا﴾ [الأنعام: 157]، ثم احتجاج آخر، يقول: حتى لا تحتجوا، ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: 157]، حتى ما تقولوا: نحن ما أنزل علينا الكتاب، لو أنزل علينا الكتاب كنا أحسن منهم، أحسن من اليهود والنصارى، طيب جاءكم كتاب لماذا لا تكون أفضل منهم؟!!

قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ [الأنعام: 157]، جاءكم القرآن، ما قال: **"فقد جاءكم الكتاب أو القرآن"** وإنما قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ [الأنعام: 157]، يعني هذه حجة عظيمة عليكم، **«والقرآن حجة لك أو عليك»**، حجة لك إن عرفت قيمته، تمسكت به وقرأته وعملت به، كان حجة لك، يدافع عنك القرآن ويشفع لك يوم القيامة، القرآن يأتي شفيعًا يوم القيامة، أو حجة عليك إذا أهملته وهجرته.

قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ [الأنعام: 157]، وهو القرآن العظيم حجة عظيمة ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: 157]، ليس من محمد ولا من أحد؛ بل من ربكم، ﴿وَهُدًى﴾ [الأنعام: 157]، تهتدون بهذا القرآن، الذي يريد الهداية الحقيقة الهداية هنا في هذا الكتاب، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: 157]، رحمة عليك، ورحمة تتراحمون بهذا القرآن العظيم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متوعدًا من يُعرض عن القرآن: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: 157]، يُقرأ عليه القرآن فيكذب ولا يؤمن، يقول: لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: 157]، صدف عنها يعني أعرض عنها ولم يقبلها.

قال: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأنعام: 157]، هؤلاء توعدهم الله بالعذاب الشديد، يقول: سنجزي الذين يعرضون عن القرآن ولا يقبلون عليه، الآية الحقيقة آية تخيف، الذي يعرض عن القرآن ولا يعمل به يتوعده بالله بأي شيء؟

قال: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 157]، يعرضون، ﴿عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 157]، بما كانوا يعرضون.

يأتي أحد يقول: والله هذه الآية في الكفار؛ لأنهم ما آمنوا بالقرآن.

نقول: من قال لك أنها في الكفار، لماذا تخصصها بالكفار؟ كلّ من أعرض عن كتاب الله ولم يرفع به رأسًا، وتكبر ولم يقبله ولم يعمل به وخالفه داخل في هذه الآية، ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾، يعرضون، ﴿عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 157]، سواء العذاب أي العذاب السيئ بما كانوا يصدفون.

ثم يهدد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تهديدًا آخر، يهدد هؤلاء فيقول: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنعام: 158]، يعني ما ينظرون، **"هل"** بمعنى **"ما"** هذه نافية.

قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنعام: 158]، هؤلاء يبقون على كفرهم وعنادهم وشركهم وإعراضهم ولا ينتظرون إلا ماذا؟ أن تنزل بهم الملائكة، تنزل متى؟ لقبض أرواحهم، يعني ما ينتظرون إلا أن يموتوا على كفرهم، فإذا نزلت بهم الملائكة ورأوا ملائكة العذاب، يعني ملائكة العذاب تنزل على الكفار، وملائكة الرحمة تنزل على المؤمنين.

فإذا نزلت ملائكة العذاب على هؤلاء، ومعهم ملك الموت الذي يقول: **"اخرجي أيتها النفس الخبيثة"** إذا رأوا الملائكة ندموا أشد الندم، قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [السجدة: 12]، ما ينفع خلاص.

فإذا نزلت الملائكة لقبض أرواحهم لو آمن مع نفع الإيمان، فرعون لما رأى الموت أمامه قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90]، قال الله: ﴿آلْآنَ﴾ [يونس: 91]، الآن تؤمن؟! خلاص.

فإذا وصل الإنسان إلى المرحلة الاضطرارية الموت أمامه ثم قال: أتوب يا رب، ما تقبل منه، التوبة في وقت الرخاء.

قال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنعام: 158]، ملائكة الموت، ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158]، لفصل القضاء يوم القيامة، إتيانًا حقيقيًا يليق بجلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من غير تكييف، ومن غير تشبيه، فنحن نؤمن بأن الله يأتي للفصل كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأتي إتيانًا حقيقيًا يليق بجلاله وعظمته كما أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: 158]، ما هي بعض آيات ربك؟ قال أهل التفسير هي علامات أو أشراط الساعة، يعني هناك أشراط الساعة تأتي قبل القيامة قبلها تأتي عشر علامات، يسمونها **"علامات الساعة الكبرى"** هذه العشر إذا جاءت هي تدل على قرب يوم القيامة.

ما هي هذه الآيات العشر؟

ذكرها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث، وجاء ذكرها في القرآن، جاء ذكر نزول عيسى، ينزل عيسى في آخر الزمان، من الذي يقتل الدجال؟ هو عيسى، الذي يقتل الدجال هو عيسى بن مريم ينزل من السماء؛ لأن الله رفعه، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55]، عيسى رفعه الله إلى السماء، وهو في السماء، ثم ينزل في آخر الزمان، نزوله علامة من علامات الساعة الكبرى،

ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة النساء: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: 159]، يعني سينزل في آخر الزمان، هذا نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وذكر الله أيضًا من علامات الساعة يأجوج **"خروج يأجوج ومأجوج"** ذكرهم في سورة الكهف، وفي سورة الأنبياء، وذكر **"خروج الدابة"** خروج الدابة ذكره في سور النمل، ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: 82].

وكذلك **"الدخان"** ذكر الله الدخان في سورة الدخان، وذكر علامات من علامات الساعة في القرآن الكريم، وذكرت غيرها في الأحاديث.

طيب العلامة التي ذكرت هنا في هذه السورة ما هي؟

هي: **"طلوع الشمس من مغربها"** الشمس الآن تطلع من المشرق كلّ يوم، كلّ يوم تطلع من المشرق، إذا جاء النهار طلعت الشمس من المشرق، إذا جاء هذا اليوم الناس ينتظرون بالليل طلوع الشمس من المشرق يجدوها ما طلعت، وما يمضي وقت طويل ويصلون وهم في ظلمة وينتظرون وينتظرون إلا وقد ظهرت من المغرب، فإذا ظهرت من المغرب عرفوا أن هذه علامة من علامات الساعة الكبرى فآمن من آمن، وعمل صالح من يعمل، وتاب من يتوب، ولكن ما ينفع، لا إيمان للكافر، ولا توبة للعاصي، ولا الذي يريد أن يتزود يذهب إلى المسجد ويجلس يصلي ويقرأ ما ينفعه خلاص، ما عاد ينفع.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: 158]، التي هي **"طلوع الشمس من المغرب"**، ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ [الأنعام: 158]، النفس الكافرة لا ينفع إيمانها، أو منافقة ما ينفع إيمانها، ﴿لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: 158]، حتى الذي يريد أن يكسب إيمانًا إذا رأى الشمس ماذا يصنع؟ على طول يذهب ويتوضأ ويبدأ ويصلي ويقرأ ويقول: خلاص، الساعة قريبة، ولكن ما ينفعك هذا، خلاص انتهى؛ لأن هذا يسمى إيمان اضطراري؛ لأنه اضطر إلى الإيمان، الإيمان الاضطراري ما ينفع، الذي ينفع الإيمان الاختياري، اختيارك الآن، نقول: تعالى صلي في المسجد، تقول: لا أنا مشغول، أنا عندي تجارات، وعندي محلات، بعدين أصلي.

نقول: تعالى تصدق، تقول: لا يا أخي، عندنا احتياجات، وعندنا ضغوطات، وعندنا حقوق كثيرة، ما أقدر أن أخرج الزكاة الآن سأخرجها بعدها، ويمشي على هذه الدنيا، ويركض وراء هذه الدنيا ويلهث ولا يدري إلا وقد نزل به الموت، ثم يقول: الفلوس والزكاة وكذا وكذا، هذا ما عاد ينفع، هذا يسمى إيمان اضطراري، ما ينفع.

ما ينفع إذا نزل به الموت، أو جاء يوم القيامة، أو جاءت علامة من علامات الساعة الكبرى كخروج الدجال، أو مثل هذه الآية طلوع الشمس من مغربها خلاص ما عاد ينفع إيمان، أو الدابة خرجت التي تسم كلّ إنسان، تسمه في وجهه **"مؤمن أو كافر"**، يجلس الأخوة على الطعام كلّ واحد ينظر إلى الآخر مكتوب بين عينيه **"كافر"** وهذا مكتوب بين عينيه **"مؤمن"** خلاص ما عاد ينفع، فقال هنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: 158].

ثم قال: ﴿قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: 158]، قل لهؤلاء المعاندون انتظروا، أنتم تنتظرون الموت، وتنتظرون أننا ننهزم وأن الإسلام ينتهي، والإسلام لن ينتهي الإسلام بيد الله وليس بيدكم، ونحن ننتظر أن تنزل بكم العقوبة، ﴿قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: 158]، ما يحل بكم من الهزائم، أو من العقوبات التي تنزل بكم، أو الموت.

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل هذه السورة العظيمة وننتهي منها إن شاء الله، ونسأل الله أن يبارك لنا، ويوفقنا وإياكم لطاعته.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(147)
(الأنعام 159 – آخر السورة)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الرابع عشر من شهر ذي القعدة من عام 1445من الهجرة.

مجلسنا المبارك في هذه الليلة مع تفسير القرآن العظيم، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعل هذا المجلس مجلسًا مباركًا تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين في هذا المجلس بالذكر الحسن في الملأ الأعلى.

الآيات التي بين أيدينا من **"سورة الأنعام"** وهي خاتمة السورة، هي الآية التاسعة والخمسون بعد المائة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159].

هذه الآية لما تقرأها وتريد أن تفهم معناها وتستوعبها، وهذا أيضًا ذكرناه في عدة لقاءات أن القرآن آياته مترابطة متلاحمة، اقرأ الآيات التي قبلها والتي بعدها يتضح لك المعنى، وهذا ما يسميه أهل العلم بـــ **"السياق القرآني"** سياقات القرآن.

الآيات التي قبلها فيها التهديد الشديد في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنعام: 158]، يعني ما ينظر هؤلاء المعارضون المخالفون الذين لا يقبلون شرع الله إلا أن تأتيهم الملائكة وقت الاحتضار، وقت الموت، إذا نزل بهم الموت.

قال: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: 158]، أو يأتي ربك للفصل يوم القيامة والقضاء بين العباد، ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: 158]، وهذه ذكرناها أنها أشراط الساعة الكبرى، وأن هذه الآية فسرها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن هذه الآية التي ذكرها ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: 158]، هي طلوع الشمس من المغرب.

فإذا طلعت ماذا يحصل؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ [الأنعام: 158]، يعني لو كانت هذه النفس كافرة أو هذا الإنسان كافر ثم رأى الشمس طلعت من المغرب لا يُقبل منه الإيمان، إذا دخل في الإيمان وقال: أسلمت وآمنت، ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾ [الأنعام: 158].

أو أيضًا لا ينفع نفسًا أرادت أن تكتسب حسنات خلاص، ما عاد في حسنات تقبل، قال: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: 158]، لا ينفع، ما كان مؤمنًا يبقى على إيمانه، من كان كافرًا يبقى على كفره.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تهديدًا قال: ﴿قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: 158]، انتظروا ماذا يصنع الله بنا؟ وأنتم ونحن منتظرون ماذا يحل بكم؟

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الآية التي نحن بصدد الحديث عنها وبيانها، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: 159]، وهذا ما حصل بعد بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بزمن، ولا يزال الناس، ولا يزال حتى في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرقوا دينهم من اليهود والنصارى وغيرهم من الأديان، فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وكذلك ما جاء في هذه الأمة من تفريق الدين وجعله فرقًا.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 159]، وفي قراءة أخرى: **"إن الذين فارقوا دينهم"** وهم اليهود والنصارى أو غيرهم، حتى من المسلمين من فارقه دينه وارتد وخرج وألحد دخل في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: 159]، أي فرقًا، والإسلام دين واحد، وشريعة الله واحدة.

قال: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 159]، أي أنت بريء مما صنعوا وخرجوا عن دينك، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعين فرقة كلها في النهار إلا ما كنت عليها أنا وأصحابي»**.

فالذين خرجوا عن شريعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن دينه وعن سنته واقعون في هذا الوعيد الشديد، قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: 159]، فإذا كان أمرهم ومرجعهم وشأنهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومصيرهم إلى الله؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سينبئهم، ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159].

يخبرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويكشف لهم ما كانوا يعملونه، ثم بعد ذلك يجازيهم على أعمالهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159].

الفعل "يفعلون" يدل على أي شيء؟

يدل على: أنهم فعلوا أفعالًا لا يقبلها الله، وأنهم خرجوا عن دين الله وعن شريعته، ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بيّن أنه سينبئهم ويبعثهم يوم القيامة، ثم يجمعهم، ثم يخبرهم بأعمالهم، ثم يحاسبهم عليها، ثم يجازيهم، بيّن الجزاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أهل الصلاح والخير والاستقامة، وفي أهل الشر والضلال والشقاء؛ فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160].

إذا فعل الإنسان فعلة حسنة؛ فإن الله يجازيه بالحسنات عشر أمثالها، هذا الكثير من الناس يغفل عنه، تجده يعمل يتصدق، يتكلم بالكلام الطيب، يفعل الأفعال الحسنة، يصلي، أعماله حسنة ويغيب عنك أنك تعمل هذه الأشياء والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجازيك بعشر، هذا أقل ما يجازي الله، أقل ما يجازي بعشر.

وقد يجازي بأكثر بسبعمائة ضعف بأضعاف أضعاف، لا يعلم حدها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا أقل ما يكون للإنسان إذا فعل الأعمال الحسنة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجازي الحسنة بعشر أمثالها.

قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: 160]، وهذا عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجازي الذين يعملون السيئات على قدر معاصيهم، فلا يجزى إلا مثلها، بقدر ما عمل، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 160]، لا يُزاد على ما يستحقون، وهذا هو عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ففي جانب الخير والصلاح والاستقامة الله يضاعف، وهذا فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي جانب الضلال والشقاء يعطيه حقه، وهذا هو العدل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 160].

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن وأرشد وحث على التمسك بدين الإسلام الذي هو الشريعة، وهو الدين الحنيف، وهو الدين الذي فيه السعادة الاستقامة والراحة والطمأنينة والنجاة في الآخرة.

قال: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 161]، قل لهؤلاء لمشركين ولغيرهم، ﴿إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 161]، قل لهم وخاطبهم هؤلاء الذين يعاندونك ولا يقبلون شريعتك، بيّن لهم أن هذا الذي أتيتكم به وهو القرآن والشريعة والوحي هذا هداية من الله، ﴿إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي﴾ [الأنعام: 161]، ولم

يهدني أي إنسان، ولا أي مخلوق، وإنما هداية من رب العالمين، ﴿إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: 161]، هذا الصراط المستقيم هو شريعة الله، وهو وحيه، وهو القرآن.

ثم وصف هذا الصراط المستقيم فقال وبين حال هذا الصراط: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161]، هذا هو الدين القيم، الدين القيم ودين القيمة المستقيم الذي لا عوج فيه، ولا انحراف فيه، هذا هو الدين، وهنا أيضًا قراءة، هنا قال: ﴿هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161]، وفي قراءة: **"دينًا قيّمًا"** والمعنى واحد.

هذا الدين القيم هو، ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: 161]، ملة إبراهيم يعني دين إبراهيم، دين إبراهيم أبو الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو دين الحنيفية كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: 161].

حنيفًا أي أنه قد مال عن كلّ الأديان الضالة، واستقام على شريعة الله؛ لأن إبراهيم في زمانه لم يكن هناك أهل التوحيد، وأهل الطاعة، ولذلك هو انحرف عن كلّ دين من الأديان الباطلة، واستقام على ملة الله، والحنيف هو **"المائل عن سائر الأديان"**.

وهذا يتمثل في كلّ وقت، أن الإنسان يعرض عن كلّ بدعة وكلّ دين منحرف، ويقبل على دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 161]، بيان لمعنى الحنيفية أنها هي الإسلام والاستسلام لله، والبعد عن الشرك.

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا الدين، وما يتميز به الإنسان، ويما يفتخر به الإنسان، فقال: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 162]، أي قل لهم، لما تبين لهم أن الله هداك إلى الصراط المستقيم بيّن لهم هذا الصراط المستقيم وما يتميز به.

فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]، كلّ ما يتعلق بالإنسان في حياته وآخره لله، هو يعيش لله، لخالقه، لرازقه، للذي أوجده، للذي هداه، للذي منّ عليه، هذا هو، صلاتي لله، ليست لمخلوق، وليست لأحد؛ إنما أصلي لله، فعبادتي وصلاتي لله.

قال: ﴿وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: 162]، ذبيحتي وعباداتي كلها على أن النسك هنا إن فسرته بالنسيكة وهي الذبيحة فالذبح لا يكون إلا الله، ومن ذبح لغير الله فقد أشرك، وإن قلت: النسك هنا العبادات وسائر الطاعات؛ فهي داخلة من باب عطف العالم على الخاص.

قال: ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ﴾ [الأنعام: 162]، حياتي كلها كلّ حياتي أعيش وآكل وأشرب وأنام وأتزوج وأسافر وأقيم كلّ حياتي هذه لله، بمعنى أنك دائمًا في حياتك تصطحب النية، النية في الطعام، في الشراب، في الزواج، في كلّ حياتك، في نومك، في سفرك، في كلّ شيء، تستحضر أنك في عبادة، وأنك خاضع لله، وأنك تتمسك بشرع الله أينما ذهبت وأينما أتيت، حياتك كلها لله.

قال: ﴿وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام: 162]، ومماتك أن تموت على الإسلام وأن تبعث على الإسلام، كلّ حياتك ومماتك وعبادتك، ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]، لله الذي يستحق العبادة وهو رب العالمين، خالقهم، وموجدهم ورازقهم، ومالكهم، هو رب العالمين .

قال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: 163]، لا أشرك في عباداتي أحدًا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا كله تأكيد على قضية التوحيد والعبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: 163]، أُمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أول من أمر بذلك؛ لأنه هو الذي أتاه الوحي، وهو الذي اختاره الله أن يبلغ رسالته، قال: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 163].

ثم عرض بهؤلاء المشركين؛ فقال: ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 164]، قل لهم، ﴿قُلْ﴾ [الأنعام: 164]، في رب غير الله؟ في أحد يستحق أن يُعبد وأن يُخضع له، وأن تكون صلاتك له، ونسك له، وحياتك له، في أحد يستحق ذلك غير الله؟!

قال: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 164]، خالق كلّ شيء، الخالق، الرازق، المدبر، المتصرف في الكون المالك، في أحد يستطيع أن يتصف بهذه الصفات غير الله؟! قال: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 164].

ثم بيّن أثر الأعمال، أثر الأعمال الحسنة والسيئة؛ قال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: 164]، تكسب من أعمال الخير لها أو من شر عليها، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164].

الوازرة ما هي؟

هي: **"التي تحمل الذنوب"** يقول: ما في نفس تحمل الذنوب إلا تحمل ذنوب نفسها، ما تحمل ذنوب غيرها، ليست مسئولة عن غيرها.

فكل نفسٍ مسئولة عن نفسها، وعن أوزارها وعن أعمالها، ﴿وَلَا تَزِرُ﴾، لا تحمل حاملة من السيئات وزر أخرى، إلا في حالة واحدة وهي: **"أنه كان سببًا في ضلال"** ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13].

فالذي يكون سببًا في ضلال غيره يحمل وزره، والذي يكون سببًا في هداية غيره يحمل أجر، أو يكون له أجر، فالأصل أن الإنسان لا يحمل وزر غيره، ولا يحمله الله ولا يحاسبه على غيره إلا إذا كان سببًا في ضلال.

إذا كان ضله أو دله على ضلالة أو أرشده على ضلاله؛ فإنه يتحمل وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، الأمر خطير جدًا جدًا، لو دل إنسان على ضلالة لا يظن أنه يحمل وزر هذا الإنسان الذي دله فقط لا؛ بل إلى يوم القيامة.

إن ضله واسمرت هذه البدعة وهذه الضلالة أو هذا الذنب ستبقى إلى يوم القيامة أوزاره على هذا الشخص الذي دله، مسألة خطيرة جدًا، والعكس بالعكس الذي يدل الناس على الخير ويصنع لهم الخير، ويحثهم على الخير ويرشدهم فله أجر من يعمل إلى يوم القيامة.

كلّ من عمل بسنته الحسنة له أجر ذلك إلى يوم القيامة أضعاف مضاعفة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام: 164]، أنكم ترجعون إلى الله يوم القيامة، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: 164].

يقول: مرجعكم إلى الله، فيجازيكم ويفصل بينكم، ولاشك أن الخلاف يقع ولكن الذي يفصل بين العباد في الخلاف هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حال الناس في هذه الدنيا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165].

ما معنى خلائف الأرض؟

يحتمل: أن الله جعلكم خليفة في الأرض كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، يُقيم شرع الله، ويحكم بشرع الله، فأنتم خلائف الله في أرضه، تحكمونه بشريعته.

أو المعنى: ﴿خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 165]، أي أنه يخلف بعضكم بعضًا، بمعنى يأتي جيل ويذهب جيل، ويأتي قرن ويذهب قرن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تستمر هذه الحياة، كلما يأتي قوم أو جيل أو قرن يذهب ويأتي أناس.

قال: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: 165]، الله رفع الناس في أمور الدنيا، وفي أمور الدين، درجات، تجد في الدنيا من هو على مكانة عالية ووجاهة أمام الناس، ومن هو أقل، ومن هو أقل، ومن هو وضيع، هذه حكمة الله.

تجد بعض الناس على وظيفة مرموقة، ومن هو أقل، ومن ليس عنده وظيفة، وهذا غني، وهذا فقير، وهذا متعلم، وهذا جاهل، وهكذا.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رفع بعضهم فوق بعض درجات، درجات في أمور الدنيا، ودرجات أيضًا في أمور الدين، تجد بعضهم على استقامة، وعلى حرص، وبعضهم على ما هو أقل، وبعضهم على انحراف وضلال، وهكذا.

قال: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: 165]، والحكمة من ذلك، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الأنعام: 165]، يبلوا الفقير بالغني، والغني بالفقير، حتى الغني قد ابتلاه الله بالغنى هل يشكر أو لا يشكر؟ وهكذا، وهذا ابتلاه بالفقر هل يصبر أو لا يصبر؟ وهذا ابتلاه الله بالصحة والعافية، وهذا ابتلاه الله بالمرض، كلّ هذه ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: 165]، ليمتحنكم من الذي يشكر؟ ومن الذي يكفر؟

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165]، في بيان أن عندنا ميزان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ميزان عقوبة، وميزان جزاء حسن، فأمامك ميزان لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سريع العقاب ينتقم من أعدائه، وينزل عقوبات، ولا يرده شيء، ولا يمنعه شيء.

وفي الجانب الآخر غفور رحيم، ولكن رحمته أسرع من غضبه، ولذلك لما قال هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾، قابله ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165]، فأدخل **"اللام"**، تلام التأكيد أدخلها هنا ليؤكد لك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُحب من عباده التوبة والرجوع إليه، ويغفر لمن تاب، ويرحم عباده التائبين ويقبل توبتهم.

وهذه خاتمة الحقيقة مناسبة لهذه السورة التي عشنا معها زمانًا طويلاً، وهي سورة طويلة من طوال السور، السور الطوال السبع هذه منها **"سورة الأنعام"**، وهي في الحقيقة كما تأملنا آياتها في مدة أخذت منا وقتًا طويلاً هي مثلما ذكرنا تركز على **"تحقيق التوحيد والعبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومناقشة المشركين في عقائدهم، وفيما يحللونه ويحرمونه من بهيمة الأنعام"** كلّ هذه كشفت لنا السورة كيف قرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها هذه القضايا المهمة؟

ولا يفوتنا أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة كلها، نزلت في ليلة دفعة واحدة، وشيعها سبعون ألف من الملائكة، كلّ هذه لتبين أهمية العقيدة والتوحيد.

تأتي إن شاء الله بعدها سورة أيضًا من السبع الطوال، وهي **"سورة الأعراف"** إن شاء الله لقاؤنا اللقاء القادم مع **"سورة الأعراف"** نتعرف عليها وندخل في آياتها بإذن الله، نسأل الله التوفيق والسداد للجميع، بارك الله فيكم، وجزآكم الله خيرًا على حضوركم وإنصاتكم.

والله أعلم

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الْأَعْرَافِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(148)
(الأعراف 1 - 9)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك لقاء الأربعاء بعد صلاة المغرب من كلّ أسبوع، نجتمع في هذا المقام المبارك نقرأ آيات من كتاب الله ونتدارسها فيما بيننا، ومن جلس مجلسًا يُقرأ فيه كتاب الله، **«ما اجتمع قومٌ يقرؤون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده في الملأ الأعلى»**.

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»**.

هذا اليوم هو اليوم الحادي والعشرون من شهر ذي القعدة من عام 1445 من الهجرة، في هذا اليوم نبدأ بسورة جديدة بعدما انتهينا من **"سورة الأنعام"** والتي أخذت منا وقتًا طويلاً في قراءة آياتها وتفسيرها، وبيانها.

"سورة الأعراف" هي التي تأتي بعد **"سورة الأنعام"**، و **"سورة الأعراف"** تقع في الجزء الثامن من القرآن، **"سورة الأعراف"** سورة مكية نزلت بمكة، وهي من السبع الطوال.

✍ ما هي السبع الطوال؟

القرآن قسمه أهل العلم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: **"السبع الطوال"** وهي السور الأول يعني **"البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف"** إلى آخر السبع الطوال، وهذه تسمى **"السبع الطوال"**.

القسم الثاني: **"السور المئين"** يعني التي آياتها تقارب المائة تزيد أو تنقص.

القسم الثالث: **"السور المثاني"** التي تثنى كثيرًا التي تعاد، وهي السور التي آياتها سبعين آية أو ستين آية.

القسم الرابع: **"المفصل"** المفصل يبدأ من سورة **"ق"** أو **"الحجرات"** إلى آخر القرآن.

✍ لماذا سمي بالمفصل؟

الجواب: لكثرة الفصل بـــ **"بسم الله"** كثيرًا، هو قريبًا من خمس وستين سورة، قرأ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المفصل في ركعة، من **"ق"** إلى **"الناس"** هذه أقسام القرآن التي يسميها أهل العلم **"أقسام القرآن الأربعة"**، **"الأعراف"** من السور الطوال.

"سورة الأعراف" من فضائلها: **"أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأها في صلاة المغرب"** سورة الأعراف طويلة جدًا، قرأها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاة المغرب قسمها ركعتين، **"سورة الأعراف"** هي تعد ثاني سورة في الطول، يعني **"سورة البقرة"** أطول سورة، مائتين وستة وثمانين آية، تليها **"سورة الأعراف"** مائتين وستة، فهي ثاني أطول سورة في القرآن الكريم.

في حديث زيد بن ثابت **"أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى المغرب بسورة الأعراف وقرأها في ركعتين"**، قسمها قسمين، وهذه سنة، لكن قد لا يطيق الناس هذه القراءة، ولو أن إمامًا

أراد أن يصلي بالناس ويقرأ **"سورة الأعراف"** في المغرب لابد أن ينبه الجماعة على ذلك؛ لأن الناس قد يكون عندهم ارتباطات وهذه ستأخذ منهم إلى حدود صلاة العشاء.

جاء في حديث آخر: **"أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ بطولى الطولين في صلاة المغرب"** ما هي طولى الطولين؟ هي الأعراف هي طولى الطولين، طيب ما هي الطولين؟ قيل: **"الأعراف والأنعام"** وبعض أهل العلم يقولون: **"الأعراف والمائدة"**، هذا ما يتعلق بفضائل هذه السورة.

هذه السورة إذا قرأتها وتأملت آياتها بعدما عرفنا سورة الأنعام، **"سورة الأعراف"** كأنها تكملة لسورة الأنعام، سورة الأنعام جاء فيها تقرير توحيد الإلهية، وأن العبادة لا تكون إلا لله، وأن الله أقام الحجج وناقش المشركين في عقائدهم الباطلة، وأثبت عقيدة التوحيد، وأنه لا معبود بحق إلا الله.

وناقشهم أيضًا في التحليل والتحريم، كانوا يحرمون ويحللون من أنفسهم، فناقشهم القرآن وأقام الحجة عليهم، وأن الذي يُحلل ويُحرم هو الله وحده لا شريك له.

فالذي يستحق العبادة وحده لا شريك له هو الله، فلما بيّن لهم وأقام عليهم الحجة جاءت **"سورة الأعراف"** تهددهم إن استمروا على عنادهم وكفرهم، تهددهم، ولذلك **"سورة الأعراف"** هي تنبيه وتذكير لمن عاند أن ينزل به من العقوبات ما نزل بالأمم الماضية؛ لأن **"سورة الأعراف"** ذكرت لنا هلاك الأمم الماضية، قوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وشعيب، وفرعون، هذه ذكرتها السورة وفصلت فيها.

فكأن هذه رسالة للمعاندين احذروا ، إن استمررتم على كفركم وعنادكم ولم تقبلوا الحق، ولم تهتدوا بالقرآن سيصيبهم ما أصاب الأمم الباقية، يصيبكم الله بغرق كما أهلك قوم نوح، أو يصيبكم بريح عاصفة كما أهلك عاد، أو بصيحة كما أهلك ثمود، أو تُقلب الديار ويُرمى أهلها بالحجارة كما فعل بقوم لوط، الله لما أهلك قوم لوط ماذا قال؟ قال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 83].

وأهلك الله شعيبًا أنزل عليهم عذاب يوم الظلة، أصابهم العذاب وأخذتهم الرجفة، وأغرق الله فرعون، وخسف بقارون، كلّ هؤلاء لا يُأبه بهم، إذا عاندوا وأصروا على معاصيهم وكفرهم لا يبالي بهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يرضى الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده المعاصي، والكفر، والطغيان، والاستكبار، والعلو في الأرض، كلّ هذا لا يرضى الله به، ولذلك ينتقم من أعدائه، هذه السورة تهدد من يستمر على عناده.

وأنت تقرأ في سورة الأنعام في آخر الآيات يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في تعظيم كتابه ومدح القرآن الكريم: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: 155]، يعني كثير الخير والبركة، ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا﴾ [الأنعام: 155]، اتقوا الله خافوه، النتيجة قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155]، إذا اتبعتم القرآن واتقيتم الله حصلت لكم الرحمة، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155].

لما تقرأ هذه الآية ثم تقرأ في أول الأعراف يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفس الكلام: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 3]، أمر باتباع القرآن، ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: 3]، لا تطيعوا الشياطين وتتبعون الأهواء، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

الآن تقريبً السورة مثلما ذكرنا تحدثت عن إهلاك الأمم الماضية، وتبيّن لنا هذه السورة أن سببه هلاك الأمم الماضية هي المعاصي، والكفر، والطغيان، والاستكبار، والعناد.

طيب ما هو سبب العناد وسبب المعاصي؟

✍ ما هو السبب الرئيس فيها؟

✍ ما الذي جعلهم يعاندون ويستكبرون ويردون الحق؟

نقول: **"السبب الرئيسي هو الشيطان"** هو إبليس الذي ذكر الله في هذه السورة تفصيل قصة إبليس مع آدم، وأن إبليس توعد ذرية آدم، قال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ 16 ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 16، 17].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما هدد إبليس وخوف، وأيضًا حقق هذا الأمر، هو قال وتوعد وحقق أمره في بني آدم، الله لما أخرجه قال: ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، يعني من بني آدم، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 18].

فسبب الضلال والهلاك والطغيان هو إبليس، هو السبب الرئيس في كلّ هذا؛ لأنه هو الذي أخرج آدم وحواء من الجنة، وهو سبب في كلّ معصية، وفي كلّ جريمة، وفي كلّ ضلال، فالله لما يقص علينا قصة إبليس مع آدم لماذا؟ علشان نتسلى بها أم ماذا؟ ليحذرنا من الشيطان.

لو أن الإنسان جاء إلى بيت أبيه أو بيته وأخرج والده من البيت وطرده هل تطيعه؟ هل ترضى به؟ أو تصاحبه، أو تجلس معه، أو تسمع كلامه؟ هذا هو الذي أخرج أبوينا من الجنة، فهو عدو، والله بيّن لنا؛ قال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6].

والسورة قصت علينا قصة إبليس وآدم لنعتبر ولنحذر، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نادى فيها عدة نداءات **"يا بني آدم"** كلّ هذا تحذير من طاعة الشيطان، ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27].

هل تجد أفصح وأوضح من مثل هذا الكلام؟!

قال تعالى: ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27].

الله يحذرنا ثم يذكر لنا قصص الأمم الماضية، من قصة نوح إلى موسى، وكيف جرى لمن أرسل الله إليهم الأنبياء والرسل ليبينوا لهم طريق الهداية، ولكنهم عصوا، وأبوا وامتنعوا فأنزل الله بهم العقوبات.

لا نطيل في هذه المقدمة التي الآن أوضحت لنا هذه السورة، والحقيقة **"سورة الأعراف"** سميت بذلك لماذا؟ لأن الله ذكر فيه قصة أصحاب الأعراف.

ما هو الأعراف؟

الأعراف هو: **"سور عظيم لا يعلم قدره إلا الله"** سور بين الجنة والنار يوقف عليه أناس، أناس يقفون على هذا السور لا يدخلون الجنة، ولا يدخلون النار، يعني لهم حسنات ولهم سيئات، حسناتهم منعهم من دخول النار، وسيئاتهم منتهم من دخول الجنة، يعني تساوت السيئات والحسنات.

فهؤلاء يوقفون بين الجنة والنار حتى يقضي الله بين العباد، ثم بعد يقضي فيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويكون مصيرهم إلى الجنة، هؤلاء يسمون **"أهل الأعراف"** أهل الأعراف ستأتي قصتهم مفصلة في هذه السورة، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ﴾ [الأعراف: 48].

وقال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: 46]، يعني السور، قال: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ

يَطْمَعُون﴾ [الأعراف: 46]، ثم قال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 50]، كلّ هذا حديث عن أهل الأعراف، وأهل الجنة وأهل النار يوم القيامة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بداية السورة: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم المص﴾ [الأعراف: 1]، هذه حروف، يأتي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بعض السور يبدأ بها بحروف، وهذه الحروف متنوعة، أحيانًا يبدأ بحرف واحد مثل **"ن"**، **"ص"** وأحيانًا يأتي بحرفين، مثل ﴿حم﴾ [غافر: 1]، وأحيانًا ثلاثة ﴿الم﴾ [البقرة: 1]، وأحيانًا أربعة مثل هنا ﴿المص﴾ [الأعراف: 1]، وأحيانًا خمسة ﴿حم 1 عسق ﴾ [الشورى: 1، 2]، خمسة، وهذا أقصى ما ورد.

✍ طيب ما معنى هذه الحروف؟
✍ لماذا بعض السور مفتتحة بحروف؟
✍ ماذا نستفيد منها؟ ماذا تعني؟

نقول: هذه حروف من حروف الهيجاء، هذه الله يبين لك ويوضح لك أن هذا القرآن الذي أنت تقرأه وهذا قرآن عربي وحروفه عربية أنه مكون من هذه الحروف، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتحدى العرب لما قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: 23]، ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ [هود: 13].

وتحداهم أن يأتوا؛ لأنهم هم أهل العربية، وهم أهل البلاغة والفصاحة، فيقول: هذا القرآن بلسانكم أنتم، افهموه واتبعوه، وإذا عاندتم وتركتم القرآن ولم تقبلوه فهذا من جنس كلامكم، لماذا أنتم تقبلون القصائد والشعر والخطب ولا تقبلون القرآن؟ هذا من جنسه، هذا أفضل وأولى، هذا كلام الله.

فبيّن الله لهم أنه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: 2]، قرآن عربي واضح، فجيء بهذه الحروف للتحدي والإعجاز، والله تحداهم قال: هذا القرآن بين أيديكم آمنوا به وإلا أقل شيء ائتوا بمثله، لو تأتون بسورة واحدة، سورة واحدة تأتون ما تستطيعون، والله عَزَّ وَجَلَّ يعلم أنهم لن يستطيعوا أن يأتوا.

✍ لماذا لا يأتون بمثل هذا القرآن وهو كلام ربي؟

نقول: (هذا القرآن معجز) معجزة ببلاغته وفصاحته وبدلالاته وبأحكامه، ما تجد مثل هذا الكلام أبدًا، الله يمدح كتابه في مواقف كثيرة، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: 23]، هل تجد مثل هذا الكلام؟ قال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23].

القرآن الكريم كلام عظيم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يمدح كتابه لما قال: ﴿المص﴾ [الأعراف: 1]، ماذا قال بعدها؟ قال: ﴿كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 2]، يخاطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن القرآن أنزل على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كتاب أنزل إليك يا محمد ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: 2]، **"فلا يكن"** نهي، أن يكون في صدرك حرج منه.

✍ طيب لماذا لا يكون في صدرك حرج منه؟

✍ هل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حرج؟

نقول: النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزل عليه القرآن وبدأ بالدعوة إلى قومه، ويقرأ عليهم القرآن واجهوه بمواجهة ما كان يتوقعها أبدًا، هم كانوا يحبون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويعظمونه، ويقدرونه، ويسمونه الصادق الأمين، ويعرفون قدره، فلما نزل عليه القرآن وأوحي إليه وأصبح نبي ما فرحوا بذلك وتشرفوا برسالته لا؛ بل عاندوه واتهموه، قالوا: أنت مجنون، أنت ساحر، أنت كاهن، وأنت تفتري على الله الكذب، وأنت وأنت، فضاق صدقه.

وبدؤوا يحذرونه ويؤذونه ويؤذون أصحابه، فضاق صدره، فلما كان القرآن ينزل عليه وجد حرج من مواجهة قومه، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: 2]، حتى كلمة **"الحرج"** قد يُفهم منها أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في مرية أو في شك من الوحي؛ لأنهم بدؤوا يشككونه، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: لا يكن في صدرك مرية ولا حرج ولا ضيق منهم؛ لأنك ستواجه ولابد أن تصبر، ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: 2].

والقرآن إنما أُنزل عليك يا محمد، ﴿لِتُنْذِرَ بِهِ﴾ [الأعراف: 2]، يعني أنت رسالتك الآن هي إنذار لقومك؛ لأن قومك إذا بقوا واستمروا على ما هم عليه من الضلال؛ فإنهم سيكون مصيرهم إلى النار، أرسلناك أنت لتنقذهم، لتنقذهم من عذاب النار، وتنذرهم وتحذرهم من العذاب الذي يأتيهم في الدنيا قبل الآخرة، فرسالته إنذار.

ثم قال بعدها: ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 2]، كأن القرآن والرسالة هي تحذير لمن يعاند، وذكرى لمن يقبل، للمؤمنين الذين قبلوا التذكير والموعظة لهم، وهداية لهم، يهتدون بالقرآن يستفيدون منه، فهذا هو القرآن.

ولذلك القرآن كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيات أخرى، قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: 44]، ما يستفيدون، وقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 82]، ما يستفيدون من القرآن، ولذلك قال هنا: ﴿وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 2].

✍ طيب إذا عرفنا أنه ذكرى للمؤمنين ما هي النتيجة؟

قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: 3]، اتبعوا وتمسكوا به، تمسك بالقرآن واعرف عظمة القرآن، واعرف قيمة القرآن، ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 3]، من الله الذي خلقكم، ورزقكم، وأوجدوكم، ورعاكم، هو الذي أنزل عليكم القرآن رحمة، فاتبعوا ما أنزل إليهم من ربكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: 3].

احذر أن تتبع من دونه أولياء يتولون أمرك، كالشياطين، وأهل المعاصي، وأهل الكفر، إذا تولوك أهلكوك، تضيع، فيحذر الله يقول: اتبعوا هذا القرآن وتمسكوا به.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: **«ستكون فتن»**، قالوا: يا رسول الله ما الخرج؟ قال: **«كتاب الله هو حبل الله المتين عليكم به»**.

انظروا قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: 3]، ما هلك هالك إلا إذا ترك القرآن، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: 124].

قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3]، قليل من الناس من يتذكر تذكرًا قليلاً، أو زمنًا قليلاً ثم يعود، ما يتذكر، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103]، قلة.

ثم بدأت الآيات تهدد وتخوف؛ لأن السورة مبنية على التهديد والتخويف، قال: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأعراف: 4]، انظر إلى كلمة **"وكم"** هذه تفيد التكثير، أن قرى كثيرة، هذه **"كم"** يسميها أهل اللغة كم الخبرية التي تفيد الكثرة، ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ [الأعراف: 4]، يعني أهلكنا قرى كثيرة.

قال: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأعراف: 4]، الله أهلكها ودمرها، لماذا؟ أو كيف أهلكها؟ قال: أهلكناها بسبب المعاصي، لكن كيف أهلكها؟ قال: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ [الأعراف: 4].

وقت النوم والراحة في فرشهم ما يدرون، غافلون نائمون إلا وقد نزل بهم العذاب، مثلما نزل بقوم لوط، قوم لوط كانوا نائمين في فرشهم، فأخذ جبريل ديارهم ورفعها إلى السماء، وقلبها عليهم، حتى سمعت الملائكة في السماء صياح الديكة ونباح الكلاب، ثم قُلبت عليهم رأسًا على عقب.

قال: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ [الأعراف: 4]، دائمًا العقوبات تنزل في آخر الليل، وقت الهجعة، وقت النوم.

قال: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: 4]، قائلون من القيلولة، ليس قائلون من القول يتكلمون، بعض الناس يفهم **"قائلون"** يعني يقولون لا؛ وإنما **"قائلون"** من القيلولة، وقت الراحة، إذا اشتد النهار واشتدت الشمس كلٌّ يدخل في بيته يريد الراحة، والظل، والبعد عن الشمس والحرارة، فيدخلون بعد العناء والتعب من العمل في أول النهار يدخلون إلى الراحة في وقت الظهيرة، فلا يدري إلا ونزلت به العقوبة.

✍ قوم شعيب متى جاءتهم العقوبة؟

الجواب: وقت الظهير، وقت القيلولة، وهم في حرارة الشمس دخلوا في ظل السحابة؛ لأن الله أرسل عليهم سموم حرارة شديدة ريح قوية حارة، فما استطاعوا أن يجلسوا في بيوتهم، ولا يجلسوا في الطرقات، ثم أرسل الله عليهم سحابًا، هذه الصحابة فيها ظل براد، فاجتمعوا تحتها، فوجدوا البرودة فيها، فاجتمعوا جميعًا كلهم، فلما اجتمعوا صب الله عليهم العذاب صبًا.

قال: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: 4]، لما جاءه البأس وجاءتهم القوبة ماذا تتوقع من موقفهم؟ قال: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأعراف: 5]، يعني دعاءهم، ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: 5]، يعني العقوبة، ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: 5]، اعترفوا وندموا يريدون أن يُرفع عنهم العذاب، قالوا: نحن ظلمنا أنفسنا، يا ربنا ندمنا على ما فعلنا، لكن ما ينفع خلاص، لو ندم وتاب ما تقبل التوبة؛ لأن العذاب إذا نزل لن يُرفع.

ولذلك فرعون لما رأى الموت أمامه والغرض اعترف وتشهد، قال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90].

لكن ما نفع إيمانه؛ لأنه وقت الاحتضار ما تقبل التوبة، طيب هذا في عذاب الدنيا، فكيف سيكون عذاب الآخرة؟

قال: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 6]، يعني الذين جاءتهم الرسل يسألهم الله يوم القيامة، لما يحذرهم سألهم واحدًا واحدًا، ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 6].

✍ حتى الرسل يُسألون؟

الجواب: نعم الرسل يُسألون يقوم القيامة، يقول: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: 109]، فيسأل الله الذين أرسل إليهم، ويسأل المرسلين.

ثم قال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: 7]، **"نقصن"** يعني نعطيهم الأخبار كلّ ما حصل لك في الدنيا، كلّ إنسان يُخرج له كتاب ينظر فيه، يقرأه، هذا كتاب لك اقرأ كتابك، فيقص الله عليهم العلم.

قال: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: 7]، يعني ما غبنا عنكم ولا لحظة إلا وقد سجلنا عليكم كلّ أعمالكم، الأعمال الحسنة والسيئة، فكل هذا يجري يوم القيامة، وزيادة على الكتاب الذي يأخذه بيمينه أو بشماله، ويقرأ كتابه ويعترف يأتيه الميزان، توزن أعماله هذا كله يدل على دقة الحساب، وأن الله لا يظلم مثقال ذرة، حتى الموازين يؤتى بها، قال: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: 8]، العدل، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: 8]، بالأعمال الصالحة، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 8]، أفلحوا في الدنيا والآخرة، فازوا بالآخرة، فازوا بالجنة.

قال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: 9]، إذا جاءوا يوم القيامة وما معهم من السيئات خفت موازينهم، موازين الحسنات خفت، كفة الحسنات خفت، وكفة السيئات ما تنفعه، قال: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: 9]، بسبب أي شيء؟ لما كانوا بآياتنا يظلمون، جاءتهم الآيات، وجاءهم الرسول، وأنزل الله عليهم الشرع، وردوا ذلك كله وظلموا أنفسهم، هذه النتيجة، فأعمالك توزن يقوم القيامة، يؤتى بها وتوزن بالموازين؛ بل إن الإنسان يوزن، يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يؤتى بالرجل السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»**، يؤتى بها ويوضع على الميزان.

هذا يدل على: **"دقة الحساب يوم القيامة"**، وأن الله ما يضيع شيئًا لأحد ولا يظلم أحد حتى يقول: الناس: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49].

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(149)
(الأعراف 10 - 25)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الثامن والعشرون من شهر ذي القعدة من عام 1445من الهجرة.

مجلسنا المبارك مجلس مغرب الأربعاء من كلّ أسبوع، نجلس نتذاكر ونجتمع حول كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي هو أشرف كتاب وخير كلام، **«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرؤون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الملأ عنده»**، فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألا يحرمنا هذا الفضل العظيم.

السورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأعراف"** وقفنا عند الآية العاشرة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10].

هذه الآية إذا مرت عليك وأنت تقرأ القرآن ماذا تستفيد من هذه الآية؟ تحتاج منا أن نقف عندها، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف: 10].

هذا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونعمته ومنته على عباده أن مكن لهم في الأرض يعني هيأ لهم أسباب المعيشة، مكن لهم في الأرض، جعل الأرض لينة، هينة، مسخر لهم، يزرعون، ويبنون، ويمشون عليها، لا تستعصي، هذا كله تمكين من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتسخير، جعل لنا هذه الأرض مسكن لنا، نسكن فيها ونعيش فيها، هذه نعمة.

النعمة الثانية: **"نعمة العيش رغد العيش"** قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ [الأعراف: 10]، أسباب المعيشة موجودة فوق الأرض وتحت الأرض، الماء، والأنهار، والأمطار، والسيول، والآبار، والزروع، والثمار، والحدائق، والأشجار، والمعادن تحت الأرض، كلّ هذا مكن الله لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وجعل لنا فيها معايش.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10]، يعني الكثير من الناس في غفلة عن هذه النعمة، متى أنت تذكرت نعمة المسكن في بيتك؟ تدخل بيتك وتسكن آمنًا في سربك وفي بيتك لا تخشى ولا تخاف، آمنًا مطمئنًا عندك الرزق، عندك الخير، هذه تحتاج منا إلى شكر يوميًا، ومع ذلك الكثير من الناس في غفلة، الكثير من الناس لا يتذكر هذه النعم.

✍ ولذلك الله ماذا قال؟

قال: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 10]، يعني زمنًا قليلاً وقتًا قليلاً أو عدد قليل من الناس من يشكر، والكثير غافل، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية أخرى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

🗐 الناس ما بين اثنين:

1. إما غافل لاهي مشغول.
2. وإما كافر للنعمة أصلاً.

لو تقول له: اذكر نعمة الله عليك، قال: كلّ الناس في أمن، كلّ الناس عندهم مسكن، يعني يظن أن هذا المسكن وهذا الأمن الله جعله لجميع الناس، لا، ليس لجميع الناس؛ بل في ناس ما عندهم مساكن، وفي ناس في خوف ورعب، وفي ناس في جوع، تذكر نعمة الله عليك، فهذه الآية الحقيقة تحتاج منا إلى تأمل، إلى وقفة، نعرف نعمة الله علينا، ونشكر الله في الليل والنهار، في الصباح والمساء، كلما دخلت بيتك تذكر هذه النعمة، وأن الله هيأ لك ومكن لك، فتذكر هذه النعمة واشكر الله عليها، ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُم﴾ [إبراهيم: 7].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، خلقكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي أوجدنا على هذه الأرض، لولا أن الله خلقنا وأوجدنا لن يستطيع أحد أن يوجد نفسه، ولا يوجد غيره، الخالق الواحد القهار هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا خالق غيره، ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: 3]، ما في إلا الله، هو الذي خلقكم، وهذه نعمة أيضًا، نعمة عظيمة أن الله خلقك وأوجدك، وأوجدك على الفطرة، وعلى التوحيد، على الإيمان، هذه كلها من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يمن بها على عباده.

قال: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، صورنا في أحسن صورة، في أجمل صورة، انظروا إلى الحيوانات وانظروا إلى الصور الأخرى لتعرف نعمة الله عليك.

لنظر لغيرك من الناس الذين خلقوا في صور أخرى لتعرف أن الله أعطاك صورة جميلة، ولم يجعلك مشوهًا، خلق الله لك عينين، وغيرك ليس له عينان، خلق لك شفتين، خلق لك فم، يعني جملك بالصورة الحسنة، فهذه نعمة.

لو سألك واحد وقال:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، ما الفرق بينهما؟

نقول: الخلق معناه أن الله خلقك وأوجدك وأنت معدوم وغير موجود، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: 11]، أي جعلناك في أحسن صورة، يعني بعدما خلقك الله؛ لأن الإنسان يمر بمراحل، الله خلقه نطفة، ثم خلقه علقة، ثم خلقه مضغة، وفي حال المضغة وهي الأربعين الثالثة يبدأ يتشكل، هذا التشكل هو التصوير، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 6].

هذا التصوير تشكيل الأيدي، والأرجل، والرأس، والظهر، والبطن، هذا هو التصوير، التصوير يجعلك في صورة حسنة، أبيض، أسود، أحمر، هذا هو التصوير، ﴿خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: 11].

والخلق الأول من هو؟

هو: **"أبونا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ"** خلقه الله من تراب، ثم خلق ذريته من ماء مهين، ثم صور آدم، لما خلقه صوره في أحسن صورة، ثم جعل ذريته يصورهم في أجمل صورة.

قال: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: 11]، لما خلق الله آدم وصوره ونفخ فيه من روحه قبل أن يأمر الملائكة بالسجود، قبل أن يأمر الله ملائكته بالسجود لآدم امتحن الله الملائكة بالعلم، فعرض عليهم مسميات كثيرة، فقال: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: 31]، ما هذه الأشياء؟ ما أسماء هذه الأشياء؟ قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: 32]، وقفوا عند هذا الحد، وهذا الذي ينبغي للإنسان، إذا سئلت عن شيء لا تعلمه لا تقل: والله يمكن كذا، والله الذي يظهر كذا، الظاهر من المعنى كذا، لا، الله أعلم خير لك، تعلم أجب، ما تعلم قل: الله أعلم.

الملائكة مع أن عندهم علم ومعرفة قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: 32]، لأنهم لا يعلمون، ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد أن يختبرهم بهذه الأشياء، ويُبيّن فضل آدم بالعلم، فضله بالعلم، لما صوره في أحسن صورة، شكله أحسن شيء، شكله في أحسن صورة هذه صورة الظاهر، يبقى عندنا الصورة الباطنية صورة العلم، تجد من الناس الآن من شكله جميل، وملبسه جميل، ولكن ما عنده علم، ما عنده معرفة لدينه، ما يعرف يصلي، فهذا أعطاه الله الصورة الجميلة الظاهرة، أما الصورة الداخلية ما عنده شيء.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما صور آدم بالصورة الظاهرة زاده صورة باطنة وهي العلم، وهي أعظم من الصورة الظاهرة، قد يكون الشخص في مظهره وفي شكله وفي صورته ليس بذاك الجمال، ومع ذلك تجد عنده من العلم ما يحترمه الصغير والكبير، فهذا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ لما خلق آدم: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، كلّ المسميات، هذه كذا، وهذه كذا، حتى قال ابن عباس: (القصعة) القدر (والقصيعة) القدر الصغير والكبير، علمه كلّ شيء، ثم عرض على الملائكة؛ فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: 32]، ثم قال: ﴿يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: 33].

فلما فاق وحصل على هذه المرتبة العظيمة مرتبة العلم أمر الملائكة أن تسجد لآدم لشرف العلم، للمكانة العلمية، ليس من أجل صوره وخلقه لا؛ بل من أجل هذا العلم الذي حواه آدم، ولذلك فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، والعالم تستغفر له حتى الحيتان تستغفر له في جوف البحر، وحتى النمل في جحرها تستغفر للعالم.

فالعلم فضل عظيم، تتعلم شرف لك، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن قال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، قال ابن عباس: (ما بين الدرجة والدرجة ما بين السماء والأرض) فضل عظيم للعلم.

قال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: 11]، هذا السجود ماذا نسميه؟ نقول: سميه سجود تحية، وتكريم، لا سجود عبادة، سجود العبادة لا يكون إلا لله، هذا السجود سجود تحية وتكريم، وكان جائزًا في الشرائع السابقة حتى إن يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سجد له والداه أبواه وأخوته، خروا له سجدًا، سجود تحية وتكريم.

أما في شريعتنا لا يُسجد إلا لله، لا تحية، ولا تكريم، ولا عبادة، السجود لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا يجوز لأي إنسان أن يسجد لمخلوق، ولا يرتع ولا ينحين بظهره؛ تجد بعض الناس تلاحظ إذا جاء يسلم؛ يسلم وينحني بظهره، لا تنحني، الانحناء لا يكون إلا لله، والركوع لا يكون إلا لله، والسجود لا يكون إلا لله، سلم وأنت مستقيم.

قال: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [الأعراف: 11]، كلمة ﴿فَسَجَدُوا﴾ [الأعراف: 11]، تدل على المبادرة، لم يتأخروا؛ لأنهم يطيعون ربهم، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: 6]، إلا إبليس.

✍ إبليس هل هو من الملائكة أم ليس من الملائكة؟

نقول: إبليس مخلوق من نار، والملائكة خلقوا من نور، إبليس خلقه غير، وإبليس يتزوج وله ذرية، والملائكة تتزوج ولا تأكل، والجن يأكلون، ويعيشون في مساكن، ويتزوجون، وأما الملائكة فلا تتزوج، ولا تأكل، ولا تشرب، ولا تنام وهذا بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الأعراف: 11].

✍ إبليس ليس من الملائكة طيب كيف يقول: إلا إبليس؟

نقول: معهم في العبادة فقط، الله جعل مساكن السماوات أماكن لعبادة الملائكة، وإبليس معهم في العبادة فقط، ولكنه لم يسجد ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: 11]، ما سجد، امتنع، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ [البقرة: 34].

قال: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: 12]، لماذا لم تسجد؟ هنا قال: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: 12]، بعض المفسرين يقول: **"معناها ما منعك أن تسجد"**؛ لأن في سورة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75]، هنا قال: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: 12]، فبعضهم يقول: **"ألا"** زائدة، نقول: ليست زائدة، هذه متعلقة يعني لابد أن نعرف القرآن، ومكانته، ليس فيه شيء زائد أو ناقص، أو شيء يقلق.

فالقرآن سهل وواضح، هنا يقول: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: 12]، أي ما الشيء الذي منعك حتى حال بينك وبين السجود، هذا معناه، وهذا من أساليب العرب وأساليب القرآن، مرة يقول: ﴿أَنْ تَسْجُدَ﴾ [ص: 75]، ومرة يقول: ﴿أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: 12]، هذه لابد أن نفهمها.

✍ ما الشيء الذي منعك؟

✍ ما الذي حال بينك وبين السجود؟

قال: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: 12]، أنا أمرتك بالسجود وامتنعت، ما الذي منعك؟ الذي منعه ما هو؟ الكبر والحسد، أظهر ما في داخله.

قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: 12]، كيف خير منه؟ كيف عرفت أنك خير منه؟ قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: 12].

الذي يتكبر ويرى نفسه أنه خير من الناس، ويدعي أنه أحسن من الناس الله يهينه ويذله، ومن تواضع رفعه الله، لما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: 12]، تكبر.

✍ ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

قال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 13]، من الصاغرين الذليلين، أين التكبر؟ ما في تكبر في الجنة.

قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْه﴾ [الأعراف: 12]، طيب كيف عرفت أنك خير منه؟ بدأ يقيس، قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، والنار خير، نقول: النار ليست خير من الطين، من قال: إن النار خير من الطين، النار فيها الخفة والسفاهة والطيش والإحراق، هذه النار، والطين فيه الرزانة، والثقل، والمصلحة، والفوائد، الطين تزرع عليه، الطين تبني عليه، الطين فيه مصالح كثيرة، من قال إن النار خير؟! بل الطين خير من النار.

أول شيء: **"عصا ربه"**.

ثاني شيء: **"عاند، واستكبر، واحتج أيضًا"**.

قال: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، ثم قال: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 13]، أي من الجنة، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: 13]، هذا تكبر منك، ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 13].

اهبط واخرج وأنت ذليل، وصاغر، وحقير، ومُهان، ليس لك مكان في هذه الجنة، الجنة لا يسكنها مثل هؤلاء، ولذلك قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر»**، يعني ينبغي أن نحذر الكبر، لا نتكبر على من هو تحتنا، حتى لو كان محتاج وفقير لا تتكبر عل غيرك.

قال: **«لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر»**، فلنحذر التكبر، التكبر ليس من صفات المؤمنين، **«من تواضع لله رفعه»**.

فلما أهبطه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأخرجه ذليل عرف أن سبب إخراجه هو أنه لم يسجد لآدم، قال: هذا الذي لم أسجد له سأقف في وجهه وفي ذريته، فطلب من ربه قال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: 14].

هذه الأخبار ما حضرناها، ولا حضرها أي واحد من بني آدم كيف عرفناها؟ لولا الوحي ما أحد يدري ما الذي جرى في السماء بين آدم وإبليس وبين الله، هذا كله ما نعلمه نحن إلا بالوحي، وهذه منة من الله، ونعمة من الله يخبرنا بأخبار الوحي التي لا نعرفها، وهذا فيه دلالة على أن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءه الوحي من السماء، ولا يكون كما يقول الكفار افتراه وما افتراه هذا غير صحيح، وإلا هذه الأخبار الدقيقة ما نعلمها نحن.

قال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: 14]، أمهلني أخرني إلى يوم يبعثون، ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف: 15]، في آية أخرى قال: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: 38]، يعني إلى النفخة الأولى، فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى مات الخلق كلهم وإبليس معهم، ثم يبعث الله الخلق جميعًا ومعهم إبليس.

قال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ 14 قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ 15 قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 14 - 16].

هنا سؤال:

✍ هل الله أغواه؟

الله ما يغوي، إلا من سلك طريق الضلال، الله يضل من يريد الضلال، الذي لا يستجيب لله ولا يُقبل على الله هذا يضله الله يتركه؛ لأنه لما استغنى عن الله الله استغنى عنه، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67].

مثل هؤلاء الله يتركهم، فهنا الغواية الضلالة الهلاك، يقول: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: 16]، الله ما أغواك إلا لما أنت خرجت منك رائحة الكبر والمعصية، والإيباء أغواك الله لسبب أنت في نفسك.

ولذلك تسمع الله في الآيات القرآنية يقول: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: 93]، الله نعم يهدي من شاء، من يُقبل عليه يهديه، والذي يعرض عنه يتركه الله، ويجعله في ضلاله، ﴿طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186].

فقال هنا: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16]، **"صراط المستقيم"** يعني طريق الله عَزَّ وَجَلَّ، طريق الجنة، طريق السلامة، طريق النجاة، يقول: أنا سأجلس في هذا الطريق، أترصد لهم، ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: 16]، يعني دينك.

قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ﴾ [الأعراف: 17]، الآية فيها قسم، إبليس يُقسم يقول: **"والله لأقعدن لهم صراطك المستقيم"**.

قال: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أمامهم، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ [الأعراف: 17]، ما ترك شيء، الشيطان ما ترك شيء فيك، ولكنه مع شدته وقوته وحرصه على أن يضلك لن يستطيع أن يضل عباد الله المخلصين، عباد الله الطائعين لله، المتمسكين بشرعه، الذين يصبحون الصبح بالأوراد وصلاة الفجر، **«من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله»**، ويورد على نفسه الأوراد والأذكار، هذا لن يصيبه الشيطان.

الشيطان يذهب إلى الذين ينامون في فرشهم، ولا يصلون مع الجماعة، والذين لا يذكرون الله، ولا يعرفون أذكار الصباح ولا المساء، هؤلاء يصبحون مصيدة للشيطان يلعب بهم كيف يشاء.

أما عباد الله الصالحين الذين عرفوا الطريق إلى الله، ولذلك هو استثنى فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 40].

هو ما ترك شيء، قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17]، فعلاً أكثر الناس لا يشكرون، يكفرون نعمة الله.

قال الله في حقه: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ [الأعراف: 18]، من الذم، أي أنك حقير مذموم، ﴿مَدْحُورًا﴾ [الأعراف: 18]، من الدحر وهو الإبعاد، أنك مبعد عن رحمة الله، ومبعد عن الجنة.

ثم قال: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ﴾ [الأعراف: 18]، يعني والله كما أنك تقسم أنت على إضلالهم أنا أقسم على الوعيد الشديد، ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 18].

أنت دارك في الآخرة جهنم وكلّ من تبعك، ولذلك في آية أخرى قال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: 6].

فليحذر الإنسان، انظروا إلى الآيات القوية تحذرنا من الشيطان حتى نحذر، والشيطان أمره سهل ما هو صعب، إذا تعوذت بالله من الشيطان الرجيم هرب، مجرد أنك تقول: **"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"** يهرب، ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 18].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ﴾ [الأعراف: 19]، الله يخطب آدم يقول: **"اسكن واستقر في الجنة أنت وزوجك حواء"** لأنه لما أسجد له الملائكة بعد ذلك استقر آدم في الجنة وحده، لكنه وجد وحشة، والإنسان مدني بطبعه لا يمكن أن يعيش لوحده، يصعب العيش وحده، لا زوجة ولا أولاد ولا أناس ما يستطيع، لابد أن يعش مع الناس.

فآدم لما خلقه استوحش وحده، فخلق من ضلعه الأعوج الأسفل الأيسر خلق منه زوجة حواء، وكان نائمًا فاستيقظ، فلما استيقظ وجد عنده هذه المرأة.

قال: **"من أنت؟"** قالت: **"أنا زوجتك حواء"** فاستأنس بها، تتكلم، وتجلس معه، وتذهب معه، وتأتي معه.

قال: ﴿وَيَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ﴾ [الأعراف: 19]، دعوا الشيطان، خرج الشيطان، ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: 19]، الجنة لكما، ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: 19]، الجنة حلال لكما، ومباحة، كلّ من ثمراتها من أي مكان، ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: 19]، إلا شجرة واحدة.

✍ كم شجرة في الجنة؟

أعداد كثيرة، كلّ مما شئت، لكن هذه لا تقربها، لما قال: **"لا تأكل"** قال: **"لا تقرب"** لأنك إذا اقتربت منها وقعت فيها، والذي يحول حول الحمى يقع فيه.

قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 19]، وحذر قال: **"هذه الشجرة ما تقربوها"**.

✍ ما هي الشجرة هذه؟

كلام كثير للمفسرين، شجرة كذا، وشجرة كذا، هل هي شجرة الزيتون أم شجرة التين؟ هي شجرة وفقط، الله ما سماها؛ فأنت اتركها، ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 19].

قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 20]، بدأ يوسوس، الوسوسة **"تزيين الشيء"** والشيطان يدفع الإنسان ويزين له حتى يوقعه، يأتيك خطوة خطوة، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 20].

الشيطان ما قال لآدم وزوجته: **"كلا من الشجرة"** لو قال: **"كلا"** لقالوا: **"لا، ما نطيعك"**، وإنما قال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: 20]، جاء لهم من وراء، قال: الله نهاكم هذه الشجرة، هل تدرون لماذا نهاكم؟ قال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ [الأعراف: 20]، لو أكلتم تصبحون ملكين، يعني بمنزلة الملائكة، أو على الأقل ستكونوا من الخالدين في الجنة لا تموتون أبدًا، ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: 20].

✍ انظروا إلى الشيطان كيف جاءهم؟

قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 20].

✍ وغرضه ما هو؟

✍ لماذا أمرهم بالأكل؟

✍ لماذا الشيطان أمرهم بالأكل منها والله ينهاهم؟

أمرهم لأمرين:

أولًا: **"ليطيعوه"**.

ثانيًا: **"لفضحهما"** فضيحة عظيمة وهو إخراج العورة.

قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾ [الأعراف: 20]، أي يظهر، ﴿مَا وُورِيَ﴾ [الأعراف: 20]، ما أخفي ﴿عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: 20].

كان آدم في الجنة على سوأته شيء مثل الأظفار يمنع من أن تُرى عورته أو يرى عورة زوجته، فلما أكل من الشجرة، وليس أكل، الله قال في آية: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾ [الأعراف: 22]، مجرد ذوق، فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما، تساقط هذا الشيء وانكشفت السوءة، وكلٌّ يرى الآخر، فكل استحيا إلى الآخر.

قال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ 20 وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: 20، 21]، **"وقاسمهما"** يعني حلف يمين، قال آدم: **"والله ما كنت أظن أحدًا يُقسم ويحلف كذبًا إلا لما رأيت الشيطان"**.

قال: ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: 21]، حلف يمين، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ [الأعراف: 21]، أنا أنصحكم، انظروا ما فعل الشيطان.

قال: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: 22].

✍ كيف دلالهما بغرور؟

أي: أسقطهما من المكانة العالية، كانوا مطيعين لربهم، فوقعوا في المعصية فنزلوا، هذا معنى ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: 22]، من التدلي وهو النزول، تقول: **"أدلي هذا الشيء في البئر"** تسقط الدلو في البئر هذا التدلي.

فكانوا في منزلة عالية مطيعين لربهم، لم يعصوه أبدًا في الجنة، فلما عصوه معصية واحدة نزلوا، ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: 22].

قال: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: 22]، ماذا صنعوا؟ قال: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ [الأعراف: 22]، يعني جعلا يغطيانها بورق الجنة، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 22].

"الخصف" خصف النعل تضع واحدة فوق الثانية، أوراق الجنة بدؤوا يضعونها على عوراتهم.

قال: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: 22]، أما نهيتكم؟ قال: ﴿وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ﴾ [الأعراف: 22]، تحذير لهم من جهتين، قال: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: 22]، وحذرتكما من الشيطان، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 22].

فما كان من آدم وزوجه إلا الاعتراف بالذنب، والتوبة، والعودة إلى الله، أما إبليس لم يعترف، ولم يعود إلى الله.

قال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: 23]، نحن ظلمنا أنفسنا بهذه المعصية، ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، الإنسان نعم يظلم نفسه، لكن ليس معناه أنك تظلم وتستمر في ظلمك؛ بل تعود إلى رب العالمين، اعترفوا بالذنب، ثم رجعوا إلى ربهم، ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: 23]، **"تغفر لنا"** يعني تتجاوز عنا هذا الذنب، **"وترحمنا"** بقبول هذه التوبة، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 23]، نحسر كلّ حياتنا.

قال: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: 24]، معصية واحدة جعلت آدم وزجه يخرجون من نعيم الجنة إلى الأرض دار الشقاء، قال: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: 24].

✍ من الذين أسقطهم وأهبطهم وقال: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الأعراف: 24]..؟

نقول: **"الشيطان، وآدم وزوجه"**.

قال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأعراف: 24]، تستقرون فيها، تعيشون فيها، ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: 24]، تتمتعون إلى حين إلى أن يأتيكم الموت.

قال: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ [الأعراف: 25]، أنت وذريتك تعيشون زمنًا وأجلاً مسمى، ثم النهاية تموتون، ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ [الأعراف: 25]، تدفنون تحت الأرض، ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: 25]، منها تخرجون من بيوتكم إذا جاء وقت الإخراج وهو يوم القيامة.

نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله للحديث بقية.

وَاَللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(150)
(الأعراف 25 - 30)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أمـا بـعـد، أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، يوم الأربعاء الموافق للسابع والعشرين من شهر ذي الحجة من عام 1445 من الهجرة.

درسنا المعتاد من كلّ أسبوع بعد صلاة المغرب في تفسير القرآن العظيم، نجلس هذا المجلس المبارك، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعله مجلس من مجالس القرآن الكريم، وأن تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين في هذا المجلس المبارك يذكرهم الله في الملأ الأعلى بالذكر الحسن، أسأل الله ألا يفوتنا هذا الأجر العظيم.

نأخذ آيات من كتاب الله، نقرأها ونبين معانيها، ونتأملها، ونتفكر فيها، فيها توجيهات من رب العالمين، وفيها معاني مفيدة، وعلم ينفع الإنسان.

الآيات التي معناه هي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: 25]، ما هي الأرض؟ كيف ذُكرت؟ نقول: اقرأ الآيات التي قبلها ويتضح لك المعنى، لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لآدم ولزوجه بعدما وقع آدم وزوجه في المعصية وهي أنهما ذاقا من الشجرة التي نهى الله عن أكلها.

✍ بمجرد الذوق وارتكبوا المخالفة والمعصية، ما الذي ترتب على ذلك؟

ترتيب على ذلك: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال لهما: ﴿اهْبِطَا﴾ [طه: 123]، وقال في آية أخرى: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: 36]، يعني إبليس وآدم زوجه حواء.

قال: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 36]، يعني اهبطوا إلى الأرض، من السماء إلى الأرض، كانوا في الجنة في رغد من العيش وأمن، وطيب، فوقعت معصية واحدة فضيعت عليهم هذا النعيم كله، وهذا الرغد.

قال: ﴿اهْبِطُوا﴾ [الأعراف: 24]، الجنة ما فيها معاصي، ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 24]، اهبطوا إلى الأرض، ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأعراف: 24]، تستقرون فيها زمنًا، ﴿وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: 24]، إلى وقت تنتهي آجالكم عنده، ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأعراف: 24]، يعني استقرار في الأرض، ﴿وَمَتَاعٌ﴾ [الأعراف: 24]، تتمتعون فيه أيامًا، ثم ترحلون من هذه الدنيا.

كلّ إنسان يعيش ويستقر على هذا الأرض، ويعيش ويتمتع بنعيم هذه الأرض وبما فيها، ثم بعد ذلك يذهب، ينتهي، يرحل؛ لأن له زمن وله أجل محدد.

قال الله بعدها: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ [الأعراف: 25]، يعني هذه الأرض، فيها تحيون مدة من الزمن، تعيش فيها عمروًا، ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ [الأعراف: 25]، أي أنك تموت على هذه الأرض ثم تُدفن في هذه الأرض.

قال: ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: 25]، إذا جاء وقت الخروج خرج الناس جميعًا من قبورهم، إذا نفخ في الصور خرج الناس من قبورهم جميعًا، ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: 25].

فالحياة قصيرة، والأمد قصير، والعيش الحقيقي، والحياة الحقيقية التي قال الله ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: 64]، هي الحياة الأخرى التي يقول فيها الإنسان: ﴿يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: 24]،

لحياتي الأخرى، هذه هي الحياة الحقيقية أما الدنيا فهي ظل زائل، يعني ظل يأتيك ثم يزول، لن تبقى فيها، لو أعطيت الدنيا كلها، إما أن تذهب عنك الدنيا أو أنت تذهب عنها، فلن تعيش فيها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أنزل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبيّن له هذا الحكم وهذا القضاء، قال: ﴿يَابَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: 26]، خاطب ذرية آدم، قال: ﴿يَابَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: 26]، يعني أن الخطاب لي ولك ولفلان وفلان كلنا نسمع.

قال: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: 26].

✍ لماذا خص الله اللباس؟

✍ ما قال: أنزلنا عليكم طعامًا تأكلونه وتشربونه، أو أنزلنا عليكم أموال تستخدموها، وأنزلنا عليكم مساكن، لا؛ خص الملابس لماذا؟

قال: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: 26]، لو ترجع إلى الآيات التي قبلها الشيطان لما سعى في إيقاع آدم وزوجه في المعصية ما الغرض من ذلك؟ ما هو الهدف الذي كان يسعى إليه؟

قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ﴾ [الأعراف: 20]، يعني ما خفي، ﴿مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: 20]، يعني الشيطان يسعى إلى كشف العورات، لماذا؟ لأنه يريد نشر الفاحشة، وإشاعة الفاحشة في المجتمعان، وإذا أشيعت الفاحشة في المجتمعات فسد المجتمع كله، فهو هدفه وغايته الفاحشة.

ولذلك الله نبه قال: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: 26]، طيب لماذا أنزل الله علينا لباسًا؟ قال: ﴿يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: 26]، احذروا من الشيطان الذي يكشف العورات، استروا عوراتكم.

🗐 هنا سؤال:

✍ لما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: 26]، الله أنزل لباس يعني أنزل قماش من السماء ولا كيف؟

نقول: **"الله أنزل أسباب اللباس"**، ما هي أسبابه؟ إما نبات، يعني أشياء نباتية أو صناعية، هذه الألبسة، قطن نباتي، وغيرها قد يكون صناعي، فالله أنزل الأسباب بالمطر ونحوه، فنبت النبات، ووجدت الأشياء الأخرى بسبب أن الله جعل له سببًا وهو نزول المطر من السماء الذي أنبت النبات، فخرجت هناك المصنوعات والملابس ونحوها، ونعرف أن اللباس قديمًا إما من النباتات أو من الحيوان وهي الجلود ونحوها.

قال: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: 26]، الغرض منه والهدف؛ قال: ﴿يُوَارِي﴾ [الأعراف: 26]، أي يخفي، ﴿سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: 26]، هذا هو الأصل في اللباس أنه يستر العورة، والرجل عورته من السرة إلى الركبة، فمن أظهر ركبته، أو أظهر فخذيه، أو أظهر ما تحت السرة، تجد بعض الناس يلبس اللباس ويظهر ما تحت السرة، وبعضهم يلبس اللباس وإذا ركع أو سجد ظهر ما دون السرة، وهذا كله فيه خلل في ستر العورة، وخلل في الصلاة.

فالذي ينبغي للرجل أن يستر عورته التي ما بين السرة إلى الركبة، هذه نسميها عورة، هذه يجب عليك أن تسترها، يجب وجوبًا.

وأما المرأة فهي كلها عورة عند الرجال الأجانب، عند الرجال الأجانب يجب على المرأة أن تستتر عنهم، ولا يجوز لها أن تكشف وجهها، ولا تُظهر يديها، ولا رجليها، ولا غير ذلك، المرأة عورة كلها.

وإن كانت عند رجال محارم كأبيها وأخوتها والمحارم عمومًا الخال والعم وأبناءها ونحوه، فهذه تُظهر ما يظهر عادة في المجتمعات التي أصحاب حشمة وعقل ومعرفة لدين الله، مثلما يظهر عادة الوجه، واليدين، والساعدين، والشعر، وأطراف القدمين، هذه تظهر عادة.

لكن تأتي البنت في العشرين في الثماني عشر من عمرها وتظهر عند أخوتها متكشفة ظاهرة لصدرها ولأفخاذها هذه ليست مستترة ولم تعرف ستر العورة، فلا يجوز هذا أن تتكشف أو تلبس الشفاف أو نحوه، حتى لو كان الموجود والدها أو أخوتها أو أحد محارمها لا يجوز.

فينبغي للمرأة العاقلة والبنت العاقلة أن تحتشم، وأن تلبس الحياء والحشمة، هذا الحديث الآن الكلام عن العورة التي يجب على الإنسان أن يسترها.

هناك ألبسة أخرى زائدة، يتجمل بها الإنسان، هذه تكون مباحة أحيانًا، وأحيانًا تكون مستحبة، فالمباحة أن تلبس ما فوق السرة وتحت الركبة هذا لباس عادي، كالقميص ونحوه، تلبس على رأسك عمامة أو غطرة أو نحوه هذا كلها جائز، هذه أشياء مباحة، لكن قد تكون مستحبة متى؟ في صلاة العيد، في صلاة الجمعة، عموم الصلوات الفرائض يأتي المسجد كما سيأتينا بعد قليل في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31].

تجد بعض الناس لو عنده أتفه مناسبة، أبعد مناسبة تجده يتجمل ويغتسل، ويلبس أحسن الثياب، ويجلس أمام المرآة ثم يتطيب ويلبس أحسن الحذاء، لماذا سيذهب إلى شخص قد لا يكون بينه وبينه أي علاقة، ويذهب إليه بأحسن صورة، وإذا جاء إلى المسجد جاء بجلابية النوم، وبرائحة كريهة، ويلبس أرذل رداء، وروائح كريهة، ويؤذي الملائكة، ويؤذي المصلين، ويؤذي أخوانه المصلين، والله غني عنه وعن صلاته وعن رائحته الكريهة.

فينبغي للمسلم أن يعرف قيمة الصلاة، ويعرف أنه جاء يزور بيت الله، جاء يدل في بيت الله، أنت ما جئت إلى أي مكان؛ أنت جئت إلى بيت ملك الملوك، فينبغي لك أن تأخذ زينتك أمام الله عَزَّ وَجَلَّ، فأنت تقابل رب العالمين.

لو قلنا: ستقابل شخص له مكانة عالية، وله وجاهة في المجتمع أخذت أحسن الملابس، واستعددت بكل ما تستطيع، فكيف برب العالمين؟!!

فهنا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: 26]، ثم قال: ﴿وَرِيشًا﴾ [الأعراف: 26]، ما هو الريش؟ قالوا: الريش مثل ريش الطائر، الطائر ريشه زائد يتجمل به، فأنت لباسك الزائد ريش، جمال، فلما تلبس الغطرة الجميلة، وتلبس المشلح، وتلبس الأشياء الزيادة فوق ستر العورة هذه تسمى جمال، جمال وريش.

هذه الألبسة الآن ألبسة بعضها مباحة، وبعضها واجبة، وبعضها مستحبة، وهي متاع يتمتع به الإنسان، يعني يلبسه فترة من الزمان ثم يرميه ويأتي بشيء جديد، يعني يبلى وينتهي.

لكن هناك لباس لا يبلى، ولا ينتهي، وينبغي للإنسان أن يحافظ عليه أكثر من اللباس الخارجي وهو اللباس الداخلي، هناك لباس داخلي أشار الله إليه، ما هو؟ هو: **"لباس التقوى"**.

الله عَزَّ وَجَلَّ لما ذكر اللباس قال: انتبه، هناك لباس أفضل من هذا، ما هو؟ قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: 26]، خير من أي شيء؟ قال: خير من اللباس الأول، اللباس الأول لباس ظاهري، تلبس أي شيء، تلبس بمائة ريال أو أقل أو أكثر يمشي مع الناس؛ لكن اللباس الداخلي التقوى، لأنك تجد بعض الناس يلبس أفضل الملابس ويستعمل أنواع العطور ويتجمل، وتجد داخله فساد، القلب فاسد، فينبغي أولًا أن تلبس اللباس الداخلي صلاح لقلب، ولذلك قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: 26].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هذا اللباس الذي أمرنا الله به وبيّن الحكمة قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 26]، يعني ينبغي أن تتفكر في آيات الله، هذا اللباس الذي تلبسه أنت من أين جاء؟ وتتفكر أنه متاع يتمتع به الإنسان ثم يذهب ويتركه، وهناك لباس التقوى الذي لا ينفك عنك أبدًا، سيذهب معك في قبرك، ومعك بعد البعث، هذا لباس التقوى هذا الذي ينفع، ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 26]، ينبغي أن نتفكر في آيات الله.

قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 26]، لعل هذا يذكرهم بخلقتهم الأولى، جاؤوا إلى الدنيا وليس معهم لباس، أنت جئت إلى هذه الدنيا ليس معك لباس، جئت عاريًا، وستذهب بالكفن لباس قد يكون مُتبرع ب هلك، وأنت قد تكون أغنى الناس وتُعطى هذا الكفن، ثم إنك بعد ذلك ستخرج من

قبرك بدون لباس، تتفكر بهذا اللباس الذي ينفعك الآن في الدنيا، وأن لباس التقوى خير من ذلك كله.

قال الله بعدها: ﴿يَابَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: 27]، لما قال: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ [الأعراف: 26]، وهذا يحتاج منا إلى أن نشكر نعمة الله، نبهنا إلى أمر آخر؛ قال: ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ [الأعراف: 27]. يفتننكم أي يضلكم الشيطان، الشيطان يضل، ويفتن، ويغري.

قال: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، احذر أن يضلك الشيطان ويفتنك كما فتن أبويك آدم وحواء، أوقعهما في المعصية حتى أُخرجا من الجنة، ما الذي أخرجهما من الجنة؟ المعصية، من أين جاءت المعصية؟ من الشيطان.

قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، كيف؟ قال: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف: 27]، الشيطان لما أوقعهما قال: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ [الأعراف: 22].

كان آدم وحواء في الجنة عليهم لباس مثل الأظفار يستر العورة، فلما ذاقا الشجرة سقط هذا اللباس، فبدأ كلّ واحد ينظر إلى الثاني ويستحي، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 22].

بدأ كلّ واحد يأخذ من أوراق الجنة ويستر عورته حياءً، آدم استحى، وزوجه تستحي، قال: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف: 27]، مقال: الشيطان جعلك تخلع اللباس، أو جعلك تغير لباسك وتلبس لباس آخر لا؛ وإنما قال: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ [الأعراف: 27]، الشيطان ينزع بقوة وأنت ما تدري، ما تشعر أنه ينزعه بقوة وأنت لا تدري.

قال: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: 27]، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في تحذيرنا من الشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ﴾ [الأعراف: 27]، أي الشيطان، ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ [الأعراف: 27]، من هو قبيله؟ هم أعوانه وذريته، وجنوده، الشيطان له جنود، وأعوان، وذرية.

قال: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ [الأعراف: 27]، من الجن، الشيطان هو أبو الجن، مخلوق من نار،وذريته مخلوقة من نار، والشياطين كثيرون، قد بُثوا في الأرض، وفي البحر، وفي كلّ مكان.

والشيطان يضع عرشه على البحر، ويجلس، ثم يسأل جنوده ماذا فعلتم في بني آدم؟ قال: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: 27]، أنت ما ترى الشيطان، والشيطان يراك، بقدرة الله عَزَّ وَجَلَّ، يرونكم من حيث لا ترونهم، فاحذروهم.

قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27]، الذين لا يؤمنون تتسلط عليهم الشياطين، أما المؤمنون فكما قال الشيطان وقد اعترف بنفسه، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42]، وفي آية أخرى، قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 40]، أنا ما أستطيع أن أصل إليهم.

فالمؤمن الذي يورد على نفسه بالأوراد والأذكار صباحًا ومساءً، ويحافظ على الصلاة، ويذكر الله، ويستعيذ بالله من الشيطان، ويُكثر من الاستعاذة بالله من الشيطان، الشيطان ليس له سلطان عليه، لن يستطيع أن يصل إليه، وإنما الشيطان يصل إلى أهل الغفلة عن ذكر الله، والصادين عن الصلاة، الذين يعملون للدنيا لا للآخرة، الذين لا يعرفون صراط الله المستقيم هؤلاء يصبحون في شباك الشيطان، يتسلط الشيطان عليهم.

ومن ذلك: ما كان يفعله أهل الجاهلية، ماذا كانوا يفعلون؟ يفعلون الفواحش، وكانوا من شدة فعلهم للفواحش أنهم يتقربون بالفاحشة إلى الله، فكانوا يطوفون بالبيت عراة، كان الكفار مشركي مكة وغيرهم إذا أرادوا أن يطوفوا بالبيت تعروا، خلعوا ملابسهم، فكان الرجال يطوفون بالنهار،

والنساء يطوفون بالليل، فأخبر الله عنهم قال: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: 28].

يقولون: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: 28]، يعني أبناءنا وأجدادنا وجدناهم يطوفون هكذا ونحن نفعل مثلهم، يفعلون الفواحش ونحن نفعل مثلهم الفاحشة، ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: 28]، وهذا غير صحيح.

وجدتم آبائكم؟ نعم، الله أمركم؟ لا، ولذلك انظر إلى الرد القرآني؛ قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: 28]، لا تكذبون على الله، الله ما أمركم بهذا، وجدتم آباءكم؟ نعم، وجدتم آباءكم على ضلالة وصرتم على طريقهم هذا موجود وواقع، لكن أن تقولوا: أمر الله بهذا، ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: 28].

بل يأمر بالستر، ويأمر بالحياء، قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28]، تكذبون على الله.

ثم بيّن لهم ما الذي أمر الله به، قال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: 29]، أمر بالعدل، الحياء من العدل، والحشمة من العدل، والإيمان من العدل، والطاعة من العدل، أمر الله بالقسط.

ثم خص من العدل؛ قال: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 29]، **"أقيموا وجوهكم"** أي صلوا لله، وبادروا بأداء الصلاة،ت ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 29]، عند وقت كلّ صلاة، اسعوا إلى الصلاة، وانظروا المناسبة بين اللباس والصلاة، ينبغي أن الإنسان يتجمل، يتجمل لصلاته.

قال: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ﴾ [الأعراف: 29]، ادعوه دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: 29]، لا تدعو غيره، ولا تشركوا به شيئًا، ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: 29]، ثم ذكرهم بالموت والبعث، كما بدأكم وخلقكم تعودون بعد موتكم، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: 29].

قال: ﴿فَرِيقًا هَدَى﴾ [الأعراف: 30]، يعني الله هداه، لما عرف الطريق وسأل الله الهداية، وسلك طريق الهداية هداه الله، وفتح له الباب الخير، ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: 30]، بسبب ضلالهم وإعراضهم عن طاعة الله.

قال: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ﴾ [الأعراف: 30]، هذا السبب، الشيطان والشياطين هم أسباب الضلال، ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 30]، اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، يطيعونهم ولا يطيعون الله، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 30].

الكثير الآن من أهل الضلال يسلكون مسالك الضلال، ومسالك الغواية ويطيعون الشيطان، ويسحب أنه على أحسن حال، ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: 8]، يظن أنه على أحسن حال، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 30]، وهم في غاية الضلالة.

لعل نقف عند هذه الآية، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(151)
(الأعراف 31 - 37)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أما بعد، أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا المجلس أيها الأخوة الكرام بإذن الله وبحول الله أن مثل هذه المجالس المباركة التي يجلس فيها الإنسان دقائق معدودة من عمره، هذه المجالس نذكر فيها أنفسنا أولًا، ونذكر فيها إخواننا الحاضرين أن مثل هذه المجالس أولًا تحفها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، ويذكر الله جَلَّ جَلَالُهُ هؤلاء الحاضرين في هذا المسجد يذكرهم بأسمائهم في الملأ الأعلى، فمثل هذه المجالس يحرص الإنسان عليها، هي دقائق معدودة وتنتهي.

مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم، والسورة التي بين أيدينا **"سورة الأعراف"** وقد تحدثنا عن هذه السورة وأخذنا شيئًا من آياتها، ونستكمل ما توقفنا عنده، ودرسنا هذا كما هو معلوم عند الكثير هو درس أسبوعي من بعد صلاة المغرب من كلّ أربعاء، وهذا اليوم هو اليوم الثامن عشر من شهر الله المحرم من عام 1446 من الهجرة.

نقرأ هذه الآيات الكريمات كلام رب العالمين الذي هو أحسن الحديث، نقرأ هذه الآيات نتأملها، نبين معانيها، نتفكر فيها، فيها توجيهات ربانية، فيها ذكر، فيها خير.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31]، المخاطب هنا من هو؟ الله يقول: ﴿يَابَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف: 31]، يعني كلّ إنسان من ذرية آدم ممن دخل في هذا الإسلام، وعرف حقيقة الإسلام، والتزم شريعة الإسلام، من صلاة وزكاة وصوم وغيره، الله يناديه ويقول: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31]، يعني عند كلّ صلاة، سواء صليت في المسجد أو صليت في غير المسجد، أو في أي مكان ينبغي لك أن تأخذ زينتك.

هذه الآية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال قبلها: ﴿يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: 26]، يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منّ علينا بألا نكون مثل البهائم، البهائم ليس عليها لباس، الله منّ عليك بأن أنزل عليك لباس تتجمل به، وتلبسه، وتستر عورتك، لا كالحيوانات التي لا تستر عورتها، فهذه منة عظيمة.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرشدنا هنا يقول: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31]، مثلما ما أنك تتجمل وتتزين عند زيارتك لأحد من الناس؛ فزيارتك لرب العالمين في بيته أعظم وأكرم أن تكون على أحسن حال من الملبس النظيف المناسب لا أن تأتي بملابس النوم، والجلابيات، وبالبنطال، لا، ينبغي لك أن تحترم هذا المسجد، وتحترم الحاضرين؛ بأن تكون على أحسن هيئة، وأحسن لباس، وأنت تقابل ملك الملوك، تقابل رب العالمين، تكون على أحسن لباس، وأحسن هيئة، وبرائحة طيبة، لا رائحة كريهة؛ لأن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فلا تؤذي الحاضرين وتؤذي الملائكة معهم.

فينبغي الانتباه لمثل هذا الأمر، أنا أقول الحقيقة وأعيد وأكرر أكثر من مرة؛ لأنني ألاحظ أُناس إذا جاءت مناسبات أي مناسبة حتى لو كان اجتماع الحارة واجتماع الحي تجده يأتي إلى المسجد وأنا ألاحظهم في أحسن صورة، وأجمل صورة، وملبس نظيف، وباقي الصلوات يأتي

بجلابية، لماذا؟ فحق الله أعظم، مثلما أنك تتجمل، وتغتسل، وتتنظف وتلبس أحسن الثياب، وتتطيب بأحسن أنواع الطيب والعطور لزيارة واحدة من الناس؛ فالله أولى، والله يأمرك، يعني ما تقول: والله أنا لي الخيار ألبس ولا ما ألبس، فهذا أمر من الله، الله يقول: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31].

✍ هل أنت حققت هذا الأمر؟

✍ أنت قرأ هذه الآية هل طبقتها؟

هنا ينبغي لنا أن نراعي مثل هذا الأمر، لما أمرك الله باللباس وستر العورة، وستر العورة واجب في الصلاة؛ بل هو شرط، إذا أخل الإنسان بستر العورة في صلاته بطلت الصلاة.

قد يقول أحد من الناس:

✍ هل في أحد ما يستر عورته؟

نقول: في، أنا لاحظتهم، بعض الذين يلبسون البنطال إذا ركع أو سجد ظهرت عورته من الخلف، وبعضهم يلبس الملابس الشفافة، الثياب البيض الشفافة، ويلبس السراويل القصيرة، وتظهر عورته؛ لأن عورة الرجل من السرة إلى الركبة، فتجد بعضهم أفخاذه ظاهرة وهو يصلي من الخلف ومن الأمام، وهذا قد أخل بصلاته، قد لا تُقبل صلاته؛ لأن ستر العورة شرط في صحة الصلاة، فينتبه إلى مثل هذا الأمر.

لما منّ الله علينا باللباس، وأمرنا، أيضًا منّ علينا بالأكل والشرب وأمرنا به؛ فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: 31]، ثم بيّن لك قال: لا تسرف، لماذا؟ قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

هذه الآية ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [الأعراف: 31]، جاءت مع، ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ [الأعراف: 31]؛ لأنها من الأشياء المباحة، وقد يكون الأكل والشرب طاعة لله إذا احتسبت الأجر أنك تأكل وتشرب لتتقوى على العبادة.

يقول بعض أهل العلم: **"هذه الآية جمعت الطب كله"** شفت طب المستشفيات هذه الآية جمعت كلّ الطب، كيف؟ قال: **"كل باقتصاد، واشرب باقتصاد"** لا تترك الأكل والشرب فتصاب بالجوع وقد يؤثر على جسدك، ولا تأكل بكثرة فتصاب بالتخمة وتصاب بالأمراض، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: 31].

حتى قال بعض المفسرين: **"معنى كلمة: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: 31]، أي لا تسرف في أكلك؛ بحيث أنك تأكل بكثرة"** لا تسرف وكل بمقدار ما يسد حاجتك ولا تزيد، يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه»**، ما في وعاء يملؤه ابن آدم أي وعاء شر يعني عقوبته شر عليه من بطنه، يملأ بطنه من الأطعمة، ويظن أن هذا خير له، يأكل من هذا ويأكل من هذا ويأكل من هذا، وهذا يضرك ولا ينفعك.

✍ كلوا واشربوا بقدر ولا تسرفوا، لماذا؟

قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]، ما هو الإسراف؟ ماذا تعني كلمة الإسراف؟ وفي شيء اسمه تبذير وإسراف، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: 27]، قال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: 26].

✍ما الفرق بين الإسراف والتبذير؟

الإسراف: **"هو الكثرة في الأشياء المباحة"** يعني طعام ممكن تأكل لك أنت صحن فتروح تأتي بأربعة صحون أو خمسة وتضعها أمامك وتأكل صحن وتترك البقية، هذا إسراف، إذا كان سيضع إسراف.

أما إذا لم يكن سيضيع لا نسميه إسراف، لو أخذته وأعطيته المحتاجين، أو وضعته عندك في الثلاجة أو غيرها، هذا لو كان كثير ما يسمى إسراف، ما دام أنك ستستفيد من الطعام هذا، يعني أنت ممكن تأكل بثلاثين ريال، ولكنك جئت بأكل بمائة ريال، ثم هذا الأكل الذي أتيت به لم ترمه في الشارع، وإنما تصدقت به، هذا ما نسميه إسراف، هذا جائز، كلّ ما تحتاج والبقية اصرفه في وجوه الخير هذا لا يسمى إسراف.

الإسراف: **"هو الزيادة من غير ما تستفيد منه"** تشتري طعام ثم إذا أكلت قليل منه البقية ترميه أو تتركه في المطعم حتى يأخذونه ويرمونه هذا إسراف ، هذا لا يجوز، هذا محرم، فالله لا يحب المسرفين.

التبذير: **"هو استعمال هذه الأطعمة أو الدراهم أو الفلوس استعملها في الحرام"** يعني لو جاء واحد واشترى طعام بمائة ريال، قال: هذا الطعام أنا أتغدى أو أتعشى بمائة ريال، وجاء شخص آخر واشترى علبة الدخان بعشرة ريال، نقول: هذا الذي اشترى بعشرة ريال هذا مبذر، هذا مبذر لأنه دفع المال في شيء مُحرم، حتى لو كان ريال واحد.

إذا أنت صرفت هذا المال الحال في شيء مُحرم هذا نسميه **"تبذير"** نسميه **"مبذر"** والمبذرين أخوان الشياطين.

✍لما أباح الله لك لبس الزينة والأكل والشرب، ماذا قال بعدها؟

قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: 32]، بعض الناس يقول: هذا حلال، وهذا حرام، الله أباح لك الأكل والشرب واللباس كلّ هذه مباحة إلا ما حرمه الله.

الأكل فيه أشياء محرمة، مثل **"لحم الخنزير"** محرم، أشياء محرمة الله ذكرها لنا، **"الدم"** محرم، يعني في أشياء محرمة، والشرب كذلك لا تشرب الخمر فهو محرم، لا تشرب الدخان فهو محرم، الأصل في الأكل والشرب الحل، والزينة تلبس ما تشاء إلا ما منعك الشرع، كلبس الحرير للرجال هذا ممنوع، أو التشبه بالنساء.

قال: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 32]، هذه الأصل فيها الحلال، ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ [الأعراف: 32]، الله هو الذي أخرج الطعام، والشراب، واللباس، هو الذي أخرجه الله.

قال: ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32]، يعني الأطعمة الطيب كلها، الله قيد لك وقال: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ﴾ [الأعراف: 32]، ما قال: الخبائث، الخبائث لا تأكلها، العقارب والثعابين، والحشرات المؤذية هذه من الخبائث، كل من الطيبات من الرزق.

ثم بيّن لك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: هذه الأطعمة والملابس الموجودة الآن على وجه الأرض هذه لمن؟ قال: ﴿هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأعراف: 32]، هم الذين يستحقونها، والكفار تبع، الله لم يرض عنهم، ولكن جعلهم يأكلون ويشربون في الدنيا وهم تبع؛ لأن الأصل هي للمؤمنين.

قال: ﴿هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأعراف: 32]، متى؟ قال: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 32]، في الحياة الدنيا هي للذين آمنوا، والكفار يشاركونهم، يشاركونهم في الأكل والشرب، واللباس.

ثم قال: ﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: 32]، يوم القيامة الكفار، وأهل النار ليس لهم لباس كلباس المؤمنين، ولا طعام، ولا شراب، كطعام وشراب المؤمنين، وإنما يسقون حميمًا يقطع

أمعاءهم، ويأكلون الزقوم وغير ذلك، ويلبسون ماذا؟ قال: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ [الحج: 19]، وقال: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: 50]، السرابيل يعني اللباس.

فالطعام والشراب واللباس هذا في الآخرة للمؤمنين خالصة يوم القيامة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32]، جهال ما يعرفون، الله يخاطب من؟ يخاطب أُناس لهم عقول يعلمون، ويبين لهم الآيات أفضل بيان وأحسن بيان.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الزينة، واللباس، والطعام، والشراب، بيّن لك الأشياء المحرمة التي ينبغي لك أن تعرفها، الله ذكر لك خمسة أمور محرمة هي أهم الأشياء، يعني أعظم الأشياء المحرمة هي هذه الخمسة، ورتبها لك ترتيب عجيب، بدأ بالأخف وختم بالأعظم.

قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: 33]، كلّ ما فحش من القول والفعل، يعني السب، والشتم، واللعن، والغيبة، هذه فواحش، وفعل الفاحشة والزنا واللواط وغيره هذه كلها ظاهرة وباطنة، خفية أو غير خفية.

النظر إلى الحرام، النظر إلى العورات، النظر إلى الصور الإباحية عل الجوالات، هذه كلها من الفواحش، ينبغي للإنسان أن يبتعد عنها؛ لأن هذه تجرك إلى الحرام، فحرمها الله.

قال: ﴿وَالْإِثْمَ﴾ [الأعراف: 33]، الإثم أي المعاصي كلها، أنواع المعاصي، كلّ المعاصي والذنوب داخلة هنا.

قال: ﴿وَالْبَغْيَ﴾ [الأعراف: 33]، البغي أن يبغي على غيره، يعني التعدي على حقوق الآخرين، تتعدى على حقوق الآخرين، إما في أموالهم، أو في أعراضهم، تأخذ أمواله وتعتدي عليه، أو تعتدي على عرضه، تسبه وتشتمه وتغتابه، هذه كلها داخلة في البغي بغير الحق، يعني بغي ومحرم.

ثم قال بعضها: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [الأعراف: 33]، تُشرك بالله يعني تعبد مع الله إلهًا آخر، من أعظم الكبائر الشرك بالله، ثم قال في الأخير وهو أعظم من هذا كله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33]، يتكلم في حق الله وهو لا يعلم، يقول: هذا حلال، هذا حرام، هذا حرمه ربي، هذا حرمته الشريعة، هذا أباحه، لا تتكلم بغير علم، لا تتكلم إلا بعلم وإلا قل: الله أعلم، واترك عنك القول على الله بغير علم، أو تصف الله بأوصاف لا تعلمها، أو تقول على الله أي قول ما قاله الله، كلّ هذا داخل في قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخذ الزينة والأكل والشرب، وبيّن لك الأشياء المباحة، وبيّن لك الأشياء المحرمة لم يكلفك الله بهذه التكاليف ويتركك، كلفك وسيحاسبك، متى؟ في الدار الآخرة، يعني هذه الدار الدنيا هي دار عمل وتكليف، ودار الآخرة هي دار المحاسبة.

ولذلك قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ [الأعراف: 34]، كلّ أمة وكلّ إنسان له أجل ينتهي عنده ويذهب، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾، أي إنسان إذا جاء أجله لا يمكن أن يتأخر ولا لحظة، ولا دقيقة، ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ [الأعراف: 34]، أي لحظة، ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34].

لا يريد أن يتقدم أو يتأخر، لك أجل محدد خلاص، إذا جاء هذا الأجل تنتقل تذهب، لا أحد يستطيع أن يجعلك تجلس ولو لحظة، قال: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34].

إذًا خلاص ينتقل من هذه الدار، ولهذا أكل الله أن هذه التي سمعناها زينة وأكل وشرب، وأشياء مباحة، وأشياء محرمة، هذه لا نستطيع أن نتوصل إليها من عند أنفسنا أبدًا، كيف نصل إليها؟ عن طريق الوحي، عن طريق الرسل.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ ينادي: ﴿يَابَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: 35]، هؤلاء الرسل من الله، أرسلهم الله إليك بالوحي، وهم الذين أمروك بالأوامر وناهوك عن النواهي، ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأعراف: 35]، يعني يوضحون الآيات والحلال والحرام.

قال: ﴿فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ﴾ [الأعراف: 35]، اتقى الله وخافه، وأصلح العمل مع الله، وقوى علاقته مع ربه، وحافظ على أوامر الله، وابتعد عن النواهي، من اتق الله ما النتيجة؟ قال: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 35]، لا في الدنيا، ولا في القبر، ولا يوم القيامة، اعلم أنك إذا حافظت على تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأصلحت العمل مع الله، وكانت علاقتك مع ربك من أحسن شيء اعلم أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، مثلما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: 30].

والذين كذبوا وما استقاموا، ولم يتقوا الله ما هي النتيجة؟ قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: 36]، الآيات تأتيهم والرسل يأتونهم ويكذبون بآياتنا، وزيادة على ذلك؛ قال: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ [الأعراف: 36]، يعني كذبوا، وتكبروا عن شرع الله.

نقول: صلي، يقول: لماذا أصلي؟ الصلاة خلاص انتهى موضوعها ما عاد في صلاة، يتكبر على الصلاة، يتكبر على الصيام، يتكبر على الحج.

قال: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف: 36]، النتيجة؟ قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 36]، حكم الله عليهم أنهم أهل النار، وليسوا أهل النار أنهم يعذبون لا؛ بل أصحاب، ملازمين للنار لا يخرجون منها، ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ﴾ [البقرة: 167]، لماذا؟ استكبروا عن طاعة الله، كذبوا بالآيات، وأحيانًا يكذبون على الله.

قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأعراف: 37]، يعني ما في أحد أشد ظلم ممن يكذب على الله، تكذب على فلان، وتكذب على فلان، لكن تكذب على الله؟ لا، ما في أحد أشد ظلمًا ممن يفتري على الله الكذب.

قال: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف: 37]، أو يكذب بآيات الله، تأتيه الآيات ويكذب بها، ما نتيجة هؤلاء؟ ما مصيرهم؟ يقول: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: 37]، يعني يأتيهم حقهم في الدنيا، لماذا الله يقول: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: 37]..؟

بعض الناس يقول: في ناس ملحدين، وفي ناس يُكذبون بآيات الله، وفي نس يفترون على الله الكذب، وعايشين أحسن حياة.

قال الله: نعم نعطيهم الحياة الدنيا، ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ [الأعراف: 37]، ينالهم نصيبهم من الدنيا، يأخذون حقهم من الدنيا، لكن النتيجة في الأخير، في الآخرة.

قال: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: 37]، الذي كتب الله لهم في الدنيا ولو أعطاهم الله الدنيا كلها، وعاشوا في قصور، النتيجة في الأخير.

ولذلك قال: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى﴾ [الأعراف: 37]، يعني تمتد المدة حتى إذا جاءتهم رسلنا، نزل بهم الموت، هؤلاء الرسل من هم؟ هم الملائكة الذين يقبضون روح الميت، قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ [الأعراف: 37]، والرسل الذي يقبض روح الميت هذا هو ملك الموت، ومعه ملائكة تأخذ هذه الروح.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 37]، أين أوليائكم الذين تدعون من دون الله؟ أين أصنامكم؟!!

قال: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ [الأعراف: 37]، ما في، راحوا وتركونا، ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 37].

لعلنا نقف عند هذا القدر، إن شاء الله الآيات تتواصل وتبين لنا هذه الأشياء، والحقيقة مثل هذه المجالس نسمع مثل هذه الآيات، توجيه، ومواعظ، وتذكير، كلنا بحاجة، كلنا ولله بحاجة أن نسمع مثل هذه التوجيهات الربانية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لطفًا من الله بنا، هذا لطف من الله بنا أن نقرأ القرآن الكريم، ونسمع مثل هذه الآيات والتوجيهات ونستفيد منها، وتنفعنا في الدنيا، وتنفعنا في الآخرة.

نقف عند هذا القدر، إن شاء الله لقاءنا في الأسبوع القادم، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(152)
(الأعراف 38 - 51)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، هذا اليوم هو اليوم الخامس والعشرون من شهر الله المحرم من عام 1446 من الهجرة.

درسنا الأسبوعي بعد مغرب كلّ أربعاء مع تفسير القرآن العظيم، نجلس هذا المجلس المبارك، نتناول شيئًا من آيات الله الكريمات، ونسأل الله أن ينفعنا بها، وأن يبارك لنا، وأن يوفقنا للصواب.

الآيات التي معنا هي من **"سورة الأعراف"** وهي الآية الثامنة والثلاثون من السورة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ [الفاتحة: 38].

قال: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ [الفاتحة: 38]، هذا استكمالًا لما ذكرناه في لقاءنا الماضي عقوبة الذين يفترون على الله الكذب، والذين يستكبرون عن آيات الله، فالذين يفترون على الله الكذب، يكذبون على الله وعلى شرعه، وأيضًا يتكبرون عن طاعة الله، ويتكبرون عن شرع الله.

✍ ما هي النتيجة؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: 37]، أي مما كتبه الله لهم في الدنيا يعطيهم حقهم، وأنت لما تقرأ قول الله: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: 37]، يعني أنك لابد أن تتأنى إذا نظرت فيمن هو يستكبر عن طاعة الله، ويصد عن دين الله، ويحارب شرع الله، وهو في خير وفي نعمة وفي صحة وعافية، وعنده من الخير والمال، تقول: كيف هذا تأتيه الدنيا وهو يتكبر عن شرع الله، ويحارب الله؟!!

الله أخبر هنا قال: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ﴾ [الأعراف: 37]، حظهم في الدنيا يعطيهم الله، ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: 37]، مما كتب الله لهم في الدنيا.

✍ ثم ماذا النتيجة؟

قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ [الأعراف: 37]، أي الملائكة لتقبض أرواحهم، ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 37].

✍ أين شركائكم؟

✍ أين الذين يستكبرون عن طاعة الله؟

✍ أين الذين يحاربون الله؟

قال: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ [الأعراف: 37]، ضل عنهم وتاه عنهم كلّ ما كانوا يتوقعون أنه ينفعهم، يظنون أنه ينفعهم في الدنيا، حتى أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم من الله شيئًا.

قال: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: 37]، واعترفوا ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 37]، الآن يأتي حكم الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ [الأعراف: 38]، يعني لستم أنتم فقط تُعذبون؛ بل أمم ماضية قد مضت كُتبت عليهم الشقاوة مصيرها إلى النار، ادخلوا مع الأمم هذه التي دخلت، ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [الأعراف: 38]، أمم ماضية، ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: 38]، كلهم حطب لجهنم، ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: 38].

ثم إذا دخلوا النار الله يصور لك ويعطيك موقف هؤلاء الذين دخلوا في النار ماذا يجري بينهم؟ أن تعلم أن المؤمنين الذين فازوا بجنات النعيم، ودخلوا في جنات النعيم قلوبهم طيبة، وألسنتهم طيبة، تحييهم الملائكة، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: 46]، يحيي بعضهم بعضًا، ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: 26]، هذه حال المؤمنين، في الدنيا كلامهم طيب، وقلوبهم طيبة، وأعمالهم طيبة، وفي الآخرة ينالون ما هو أشد وأعظم مما كان في الدنيا، أما أهل النار فكما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: 25].

قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: 38]، شتم، وسب، ولعن، وتكفير، هذا ما يجري بينهم من الألسنة السيئة، قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: 38]، أختها يعني شبيهتها في الكفر والاستكبار.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 38]، **"اداركوا"** أصلها **"تداركوا"** والتدارك هو: **"أن يلحق بعضهم بعضًا ويجتمعون جميعًا"** يعني هذه أمة تدخل، وهذه أمة، وهذه أمة، وهكذا يتلاحق بعضهم في النار.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 38]، تأتي حوارات أخرى، الآن الحوار الأول، **"يلعن بعضهم بعضًا"**.

الثاني: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ﴾، المتأخرون ﴿لِأُولَاهُمْ﴾، السابقون، ﴿رَبَّنَا﴾، ينادون الله عَزَّ وَجَلَّ، هؤلاء المتأخرون ينادون ربهم، ﴿هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾[الأعراف: 38]، هؤلاء هم الذين أضلونا، يعني عندنا الآن أهل النار طبقتين، طبقة يسمون أهل الملأ والسادة والكبراء، الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا﴾ [الأحزاب: 67].

وهناك الضعفاء الذين يتبعونهم، الآن تأتي الحوارات بين الضعفاء والكبراء، فيقول الضعفاء: ربنا هؤلاء السادة والكبراء هم الذين أضلونا، هم كانوا سبب في ضلالنا، ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: 38]، يقولوا: ضاعف لهم العذاب؛ لأنهم كانوا سبب، لأنهم كفروا وضلوا وأضلوا غيرهم، ﴿فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: 38].

هم لهم ضعف العذاب؛ لأنهم كانوا قد ضلوا وأضلوا غيرهم، وأنتم لكم ضعف؛ لأنكم ضللتم، واتبعتموهم، وأطعتموهم فيما أمروكم، ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 38].

✍ هل تظن أن الكبراء السادة الأوائل هؤلاء يسكتون لما يقال عنهم: أعطهم ضعف العذاب؟

يأتون يردون؛ قالوا: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ﴾ [الأعراف: 39]، يعني الكبراء للضعفاء، ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [الأعراف: 39]، ما هو الفضل الذي أنتم تأخذونه علينا؟ ما لكم فضل علينا، إلا نحن وإياكم في نار جنهم.

قال: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 39]، أنتم كسبتم سيئات، وهؤلاء كسبوا سيئات، كلنا في العذاب.

وقف عند كلمة: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 39]، دل على أي شيء؟ أن كسب السيئات سبب إلى المصير إلى نار جهنم، وكسب الحسنات إلى الخير، فالإنسان في الدنيا يكسب، وكلّ يوم يكسب، ماذا يكسب؟ إن كسب خيرًا كان خيرًا، كسب سيئة كانت سيئة عليه.

✍ هل تظن أن أهل النار أو الفسقة أو المتكبرون والمستكبرون الذين يكذبون بآيات الله يدخلون الجنة؟

✍ هل سيكون يوم من الأيام ولو عذبوا في نار جهنم أنهم سيدخلون الجنة؟

الجواب: **"لن يدخلوها أبدًا"** مستحيل يدخلون الجنة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصور لنا كيف أنهم لا يمكن ولا في الخيال أنهم يدخلون الجنة، لا تتصور أبدًا.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: 40]، جاءتهم الآيات وكذبوا بها، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف: 40]، استكبار، ما هي النتيجة؟ قال: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: 40]، هذا أول شيء، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40].

إذا ولج الجمل، الجمل معروف حيوان كبير، إذا دخل الجمل في ثقب الإبرة، انظر التعليق على المستحيل، يعني شيء ما يمكن أن يتخيل، مستحيل أن يدخل الجنة.

أولًا أخبر قال: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: 40]، يعني أعمالهم لا تصعد إلى السماء، المؤمن أعماله تصعد إلى السماء، قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10]، فالمؤمن كلماته تُرفع إلى الله، العمل الصالح يرفعه، والكلم الطيب يصعد إلى الله، يفتح للمؤمن أعماله الصالح إذا صلى، أو زكى، أو تصدق، أو صام، أو عمل عملاً صالحًا، أعماله هذه كلّ يوم تصعد إلى السماء، وتفتح لها أبواب السماء، الكافر أعماله لا تفتح لها أبواب السماء.

الأمر الثاني: إذا مات الكافر، ومات المؤمن، المؤمن إذا مات ملائكة الموت يؤخذون روحه ويصعدون بها إلى السماء، فتفتح له أبواب السماء، من هذا؟ يقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه، وأما الكافر فإذا وصلت إلى السماء الدنيا رُدت بقوة ومُنعت من الدخول، لا تفتح لهم أبواب السماء، هؤلاء الكفار هذه عقوبتهم، لا أعمال تصعد، ولا الأرواح تصعد، ولن يدخلوا الجنة إلا إذا دخل الجمل العظيم الخلقة في ثقب الإبرة الصغيرة، إذا دخل ممكن يدخلون، ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: 40] .

قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 40]، ماذا نستفيد من هذه الكلمة، ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 40]..؟

أن كلّ مجرم يجازى بهذا الجزاء، يعني يحذر الإنسان من الجرائم، وأن يكسب جرائم حتى لا يكون مصيره من جملة هؤلاء.

تظن أن الأمر قد انتهى في عقوبتهم؟ خذ زيادة، إذا لم تفتح لهم أبواب السماء إلى أين يذهبون؟

قال: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: 41]، يقول: مصيرهم إلى جهنم، وجهنم سيكون العذاب من تحتهم ومن فوقهم، يقول: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: 41]، المهاد هو الفراش، فراشه ليس فراشًا وفيرًا من الحرير أو من القطن أو من نحو ذلك، فراش أهل النار من نار.

قال: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: 41]، يعني أغطية، الغطاء البطانية هذه من نار نسأل الله العافية، فهم من فوقهم نار، ومن تحتهم نار، يعني لن يخلصوا من عذاب جهنم.

قال: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 41]، كلّ ظالم يحذر أن يقع في الظلم، كلّ شخص إذا رأى ظلمًا يبتعد عنه، الظلم ظلمات خطيرة جدًا، هذه نتيجة الظلم، أنه إلى جهنم، لما يسمع المؤمن مثل هذا الكلام ترتعد فرائسه ويخاف ويرجف قلبه، كيف هؤلاء يُخلقون إلى النار، مصيرهم إلى النار؟ إذًا ينبغي لي أن أبتعد عن هذا الطريق ولا أسلكه، وأسلك طريق النجاة، طريق السلامة، ما هو طريق السلامة؟ هذا صراط الله المستقيم، ما نتيجته؟

قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأعراف: 42]، صدقوا بالله، وبرسوله، وبكتبه، آمنوا بكل ما يجب عليهم الإيمان به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الأعراف: 42]، لم يقول: أنا مؤمن ولا يصلي، تجد بعض الناس تقول له: يا أخي صلي، قال: الإيمان في القلب، أهم شيء صلاح القلب، ما مهم أن أصلي، أهم شيء قلب المؤمن.

طيب إبليس يقول: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: 14]، يعرف ربه، وفرعون يعرف ربه، لكن ما نفعهما، الإيمان الذي في القلب ما ينفع، الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الأعراف: 42].

أما أن يدعي أنه مؤمن، وأنه كذا، لا، هذا غير صحيح، الإيمان الصحيح الذي دخل في قلبك واستقر يدعوك إلى أن تعمل الصالحات، يدعوك إلى أن يجعلك تقوم الفجر وتذهب إلى المسجد وتصلي مع الجماعة، ما تنام عن صلاة الفجر، يدعوك إلى أنك إذا رأيت أشياء محرمة تصرف نظرك عنها، وتبتعد عنها، وإذا رأيت وجوه الخير تفرح بها، هذا الإيمان، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الأعراف: 42].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من رحمته ولطفه، شريعة الله سمحة، وسهله، ما فيها صعوبة، الذي يكلفك اتركه، أي شيء يصعب عليك ويكلفك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتسامح معك فيه، ويتنازل معك فيه، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأعراف: 42].

قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأعراف: 42]، على قدرتها، ثم ماذا قال؟ قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 42].

هؤلاء الذين آمنوا وحققوا الإيمان حقيقة بقلوبهم، وعملوا الصالحات، وبادروا بالأعمال الصالحة، الله وعدهم وعدًا كريمًا والله لا يخلف وعده، قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: 42]، مقيمون لا يخرجون عنها أبدًا.

ثم زيادة على هذا الفضل قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: 43]، النزع **"أخذ الشيء بقوة"** والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبل أن يدخلهم الجنة يمحصهم، يمحص عباده المؤمنين، فينزع ما في قلوبهم من الحقد والغل وأي شيء يقع في النفس والحسد يزيله، حتى تكون القلوب طاهرة، ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: 47]، قلوبهم طاهرة.

قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: 43]، ما قال: **"من تحتها"** في سور أخرى آيات أخرى قال: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ [البقرة: 25]، وهنا قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: 43]، تحتهم هم، هم الأنهار تجري من تحتهم، ما هي الأنهار؟

قال: ﴿أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ [محمد: 15].

✍ لما رأوا هذا النعيم العظيم ما هو موقفهم؟

حمدوا الله وشكروه على نعمه، وحمدهم وشكرهم يدل على أن أعمالهم ما أوصلتهم إلى هذا الأمر، ولكن فضل الله، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [الأعراف: 43].

يقول المسلم في الدنيا وفي الآخرة: لولا هداية الله ما جئت إلى المسجد، لولا فضل الله عليك، غيرك ما تفضل الله عليه، غيرك محروم، الله تفضل عليك وأنعم عليك، فيجب عليك أن تشكر الله.

قال: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ [الأعراف: 43]، ما نستطيع أن نهتدي، ما كنا نهتدي لولا أن هدانا الله، لولا أن هدانا الله ما اهتدينا، ولكن الله منّ علينا بهدايته وتوفيقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا يقوله المسلم في الدنيا، يقوله المسلم إذا دخل الجنة يقول: الحمد لله.

ثم بعد ذلك يقولون: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 43]، جاءت الرسل بالحق واتبعناها وأطعنا الرسول، وسمعنا ما أمر الرسول به.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم: ﴿وَنُودُوا﴾ [الأعراف: 43]، تناديهم الملائكة، ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43].

نحتاج أن نقف مع قوله: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ [الأعراف: 43]، الميراث ما هو؟ الميراث يأتيك بدون عتب، شخص يموت ويكون أنت لك نصيب في ميراثه، يأتيك هذا النصيب، لو كان ملايين يأتيك بدون تعب، بدون كلفة، الجنة جاءتهم كأنها ميراث، كأنهم ورثوا هذا الشيء، لأنه لو قارناه بالعمل ما يصل، لكنه ورثه بعمله الصالح، ورثه بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كأنه ميراث، وهذا رأي.

وبعض المفسرين يقول: لأن الكفار لهم منازل في الجنة، لما لم يطيعوا الله حرموا هذه المنازل فورثها المؤمنون، ورثها المؤمنون من الكفار؛ لأن الكافر إذا وضع في قبره تفتح له فتحة فرجة إلى الجنة، ويُقال: لو أنك أطعت الله هذا مقامك.

ثم تفتح له فتحة أخرى إلى النار ويقال: هذا مقامك ينتظرك إذا قامت القيامة، فكان له منزل تركه وذهب إلى النار، فيأتي المؤمن ويرث هذا الشيء.

قال هنا: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]، مع أنهم يقولون: هدانا الله، ولو لا فضل الله ما وصلنا، إلا أن أعمالهم سبب، وهذا يدل على أن الإنسان ما يقول: أنا أسأل الله الجنة، وهو لا يعمل، لا، لابد من الأعمال.

بعد ذكر مصير أهل النار وما جرى لهما ثم مصير أهل الجنة وما أكرمهم الله به، الآن تأتيك حوارات عجيبة، حوارات كأنك الآن تشاهدها أمامك، حوار أهل الجنة مع أهل النار، وحوار أهل الأعراف، أهل الأعراف مع أهل الجنة ومع أهل النار، ثم الحوار الأخير، حوار أهل النار مع أهل الجنة، أربع حوارات.

✍ أصحاب الجنة إذا دخلوا الجنة ينادون من؟

الجواب: ينادون أهل النار، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: 44]، كلٌّ ينادي من يعرفه، فلان أنا كنت أعرفه؛ لأنهم يطلعون على النار، ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 55]، الله يطلعهم على النار، فإذا رأوا فلان أو فلان يعرفونه بسيماهم فينادي، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: 44]، وجدنا الذي في الجنة وما وعدنا الله به، ﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: 44]، هل وجدتموه؟ فماذا يقولون أهل النار؟

يقولون: ﴿قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: 44]، قال: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾، قد يكون من الملائكة، ﴿بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 44]، أي أهل النار، لماذا؟ قال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 45]، يمنعون الناس، ويمنعون أنفسهم عن سبيل الله، ويبغون طريق الله وشرعه عوجًا، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: 45]، يكفرون بالآخرة، هذا مصير أهل النار.

يأتيك الآن حوارات أهل الأعراف، قال: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: 46]، بين الجنة والنار سور عظيم حجاب مرتفع، يسمى الأعراف، الأعراف جمع عرف، الشيء المرتفع يسمى عُرفًا، فالخيل له عرف، والديك له عرف، الأشياء المرتفعة، **"الأعراف سور عظيم بين الجنة والنار، يُحبس عليه أُناس".**

✍من هم الذين يُحبسون على الأعراف؟
✍من هم أهل الأعراف؟
أكثر أهل التفسير: **"أهل الأعراف هم أناس تساوت حسناتهم وسيئاتهم"** حسناتهم لم تدخلهم الجنة لكثيرة سيئاتهم، وسيئاتهم لم تدخلهم النار ولوجود لهم حسنات، فأصبحوا في مكان حجاب مكان وسط بين الجنة والنار، وهم ينظرون إلى الجنة، وينظرون إلى النار.
قال: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: 46]، يعرفون أهل الجنة بعلاماتهم، ما هي علامات أهل الجنة؟ هي: **"بيض الوجوه"** ويعرفون أهل النار من **"سود الوجوه"**.
قال: ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 46]، أول ما التفتوا إلى أي شيء؟ إلى أهل الجنة، رفعوا رؤوسهم فالجنة عالية فوق، ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: 46]، سلموا عليهم، ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 46]، يعني في رجاء أنهم يدخلون الجنة؛ لأن أصحاب الأعراف مصيرهم إلى الجنة، لكنهم يحبسون مدة من الزمن.
قال: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 46]، أما النار لا يريدون أن ينظروا إليها، إذا رأوا الناس يحطم بعضها بعضها تتلظى ما يريدون أن يلتفتوا إليها، لكن تُصرف أبصارهم بقوة.
قال: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ [الأعراف: 47]، من غير اختيار، ﴿تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 47]، يتعوذون من النار ومن أهلها، لا يريدون الدخول فيها.
ثم ينادي أصحاب الأعراف رجالًا من أهل النار، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: 48]، يعرفوهم بعلاماتهم، إما أشكالهم وأشباههم، أو سود الوجوه أو نحو ذلك.
قال: ﴿قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: 48]، أين فلوسك وأموالكم في الدنيا؟ أين جمعهم؟ هل نفعتكم؟ ما نفعتكم، يقول: ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: 48]، عن طاعة الله.
ثم التفت إلى ضعفاء الجنة، مثل ضعفاء المهاجرين، عمار، وخباب، وبلال، هؤلاء الضعفاء، يقولون لهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ [الأعراف: 49]، أنتم حلفتم يمين وأقسمتم ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: 49]، كنتم تقولون والله لا يدخلون الجنة هؤلاء الضعفاء، فيقال لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: 49].
نختم هذا المجلس النداء الأخير الرابع وهو نداء أهل النار نسأل الله العافية، قال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف: 50]، الإفاضة من أعلى، يعني الجنة فوق والنار تحت، ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ [الأعراف: 50]، أعطونا ماء، ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: 50]، من الخير الذي عندكم.
يرد عليهم أهل الجنة فيقولون: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 50]، أنتم كفار والله حرم عليكم الماء، ونعيم الجنة، لماذا؟ قال: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: 51]، دينك وشرعك تتخذه لهو ولعب وتتركه؟!!
قال: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 51]، انشغلوا بها ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ [الأعراف: 51]، يتركهم الله، النسيان هنا الترك، ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: 51].
هذا الختام الحقيقة، وهذه الآيات التي سمعناها في موقف أهل النار، ومصيرهم، وعذابهم، ثم أهل الجنة بما فازوا به وأكرمهم الله بفضله ورحمته وهدايته، ثم هذه المواقف الأربعة ونداءات أهل الجنة ينادون أهل النار، وأهل الأعراف ينادون أهل الجنة، وينادون أهل النار.

وأهل النار يطلبون من أهل الجنة الماء أو مما رزقهم الله، هذه حوارات تجعل المسلم يقف من هذه المواقف العجيبة، ويسارع إلى طاعة الله، ويسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل، ويستعيذ بالله من أهل النار، ومن عمل أهل النار، هؤلاء هم أهل الأعراف الذين عرفناهم، تساوت حسناتهم وسيئاتهم، ولكن مصيرهم إلى الجنة، يدخلوا الجنة بشفاعة، بشفاعة الملائكة، بشفاعة الأنبياء والشهداء والصالحين، كلٌّ يشفع؛ فإذا شُفع لهم دخلوا الجنة.

نسأل الله التوفيق والسداد، بارك الله فيكم وجزآكم الله عنا خيرًا، وإلى لقاء قادم.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(153)
(الأعراف 52 - 58)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا المجلس مجلس القرآن وهو درسنا الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كلّ أسبوع من يوم الأربعاء، نجلس هذا المجلس المبارك وهذا اليوم هو اليوم الثالث من شهر صفر من عام 1446 من الهجرة.

السورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأعراف"** نقرأ شيئًا من آياتها ثم نبين هذه الآيات ونوضحها بما يفتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علينا، ونستفيد من هذا المجلس من علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقفنا عند الآية الثانية والخمسين من السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 52].

قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ﴾ [الأعراف: 52]، من؟ لما ترجع إلى الآيات السابقة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عن أصحاب النار، وأنهم يقولون لأصحاب الجنة: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: 50]، فيخبر الله أن رد المؤمنين عليهم بأن قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 50]، أي حرم الماء، وحرم ما رزقهم الله من الرزق، حرمه على الكافرين، ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 50].

✍ من هم الكافرون؟

قال: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ [الأعراف: 51]، دين الله وشرع الله اتخذوه ماذا؟ قال: ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ [الأعراف: 51]، جعلوا الدين مجرد لهو يلهون به، ويلعبون كلعب الأطفال، ﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 51]، اغتروا بها واشتغلوا بها عن طاعة الله، وعن ما خلقوا لأجله.

قال: ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ﴾ [الأعراف: 51]، ننساهم يعني نتركهم، وليس النسيان هنا الذهول والغفلة، الله لا يذهل ولا يغفل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ﴾ [الأنعام: 132].

لكن هنا النسيان معناه الترك، يعني نتركهم ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: 51]، كما تركوا ونسوا وغفلوا عن لقاء يومهم هذا وهو يوم القيامة، وزيادة على ذلك ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: 51]، يجحدون بها يعني لا يصدقون بها، وينصرفون عنها، ولا يعملون بها.

قال الله فيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى يبين لك أن الله لا يظلم العباد، وأن الله يقيم الحجة، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

قال: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ﴾ [الأعراف: 52]، أي في الدنيا قبل الآخرة، ﴿بِكِتَابٍ﴾ [الأعراف: 52]، وهو القرآن العظيم هذا الذي هو حجة لك أو عليك، ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾ [الأعراف: 52]، يعني وضحنا هذا الكتاب، أن تقرأ هذا القرآن وتسمع هذه الآيات مفصلة وموضحة، لا غموض فيها.

قال: ﴿ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الأعراف: 52]، على علم الله السابق، بما يحصل للعبادة أو بما يحتاجون إليه، وهذا الكتاب القرآن من فضائله أنه هدى، قال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: 52]، هدًى يهتدي به المهتدون من الضلالة، ويهتدي به المهتدون بما يحتاجون إليه في هذه الدنيا، أنت لولا

القرآن، ولولا فضل الله، ولولا العلم لما اهتديت، لما اهتديت إلى أي شيء، لا هداية الدنيا ولا الآخرة، إلا فضل الله وعلمه وتعليمه لك.

قال: ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: 52]، القرآن رحمة، رحمة يتراحم العباد بها بهذا القرآن، وهو رحمة عليهم يرحمهم الله بهذا القرآن.

قال: ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ [الأعراف: 52]، لكن ليس لجميع الناس، القرآن ليس لجميع الناس هُدًى ورحمة، ولكن لمن؟ قال: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 52].

المؤمن الذي آمن وصدق واتبع ما أمره الله هذا القرآن يكون عليه رحمة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في موضع آخر: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: 44]، للذين آمنوا، وقال أيضًا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، للمؤمنين فقط.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مهددًا هؤلاء المعرضين الجاحدين: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: 53]، يقول: ما ينظرون في هذا القرآن لأنهم لم يصدقوا به، يقول: ما ينظرون ولا ينتظرون إلا حقيقة أمر هذا القرآن، بمعنى تظهر آياته، والتأويل هنا معناه حقيقة الأمر.

يقول: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: 53]، يعني ظهور أمره، وظهور آياته.

قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الأعراف: 53]، يعني سواء في آخر الدنيا من علامات الساعة أو يوم القيامة.

قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ [الأعراف: 53]، **"نسوه"** يعني نسو القرآن وغفلوا عنه ولم يعلموا به، ولم يلقوا له بالًا، هؤلاء الذين جحدوا القرآن وغفلوا عنه وهجروه.

قال: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 53]، هؤلاء يعترفون الآن ويقرون بأي شيء؟ يعني بالأمس كانوا غافلين عن القرآن، وكانوا جاحدين لآياته، الآن اعترفوا إذا جاءت الآيات وظهرت وجاء تأويل اعترفوا.

✍ يقولون ماذا؟

يقولون: ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 53]، طيب وبالأمس ماذا تقولون؟ تقولون: النبي ساحر، وكذاب، وشاعر، وكان، والآن ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 53]، ففي هذا الموقف اعتراف منهم وتحسر وندامة، لكن ما تنفع الندامة، ولا ينفع الاعتراف.

انظر يقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: 53]، هل في شفعاء، في وسطاء يتوسطون لنا، وشفعاء يشفعون لنا عند الله، لعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصرف عنا العذاب؟ ما في أحد يشفع لنا من الملائكة، أو من الأنبياء، أو من الصالحين؟

قال: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: 53]، ما في شفاعة، الكفار ليس لهم شفاعة، ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 48]، الشفاعة للمؤمنين، للعصاة المقصرين، هذه يكون لهم شفاعة، أما الكفار ليس لهم شفاعة، وهم يتمنون الآن، يقولون: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ﴾ [الأعراف: 53]، نرد إلى الدنيا، تردون لماذا؟ قالوا: ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: 53]، يعني نعمل صالحًا، لا يرجع ولا يمكن أن يرجع إلى الدنيا، ومستحيل أن يرجع إلى الدنيا، ولو سلمنا الله أرجعهم إلى الدنيا، هل سيعملون؟ ما يعملون، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: 28].

هذا خبر الله، أنه حتى لو رجعوا سيرجعون إلى معاصيهم، فالشفاعة ما تنفعهم، والعودة أمر مستحيل، لا يمكن، ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: 53].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ما في شفاعة، ولا عودة، النتيجة ما هي؟ ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: 53]، خسروا أنفسهم، وخسروا أهليهم، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: 53].

الأصنام، والآلهة، والغفلة، والدنيا، كلّ شيء ذهب عنهم، ليس أمامهم إلا النار، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأعراف: 53].

أنت لما تسمع مثل هذا الكلام وندامة وحسرة هؤلاء الكفار، وأنهم يتمنون الشفاعة، أو يتمنون العودة إلى الدنيا.

✍ عندما تقف عند هذه الآيات ما الذي تستفيد منها؟

تستفيد: **"أن تكون على يقظة وعلى حذر وأن تكون عاملاً مستعدًا لهذا اليوم"** لا أن تكون غافلاً مضيعًا لوقتك تستغل كلّ طاعة، وتستغل كلّ وقت ينفعك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تحرص على أوقاتك الثمينة ألا تضيع عليك، لا صباحًا، ولا ظهرًا، ولا مغرب، ولا عشاء، تشغل نفسك بطاعة الله، بقراءة القرآن، بالذكر، بالصلاة، بالأعمال الخيرية، تستغلها، هؤلاء يتمنون العودة.

وكلّ شخص في قبره الآن يتمنى أن يعود ليسبح تسبيحة واحدة، وأنت الله أعطاك فرصة الآن تستطيع أن تسبح في اليوم أكثر من خمسة ألاف تسبيحة، ليست واحدة، ولا اثنتين، لكن لا نغفل، نستفيد ونأخذ دروس وعبر من هذه الآيات.

لما بينها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن آلهتهم ومعبوداتهم هذه كلها ضلت وذهبت عنهم، الله يقرر أن المعبود بحق هو الله، قال بعدها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: 54]، ربكم يعني خالقكم، ورازقكم، ومالككم، والمتصرف فيكم، من هو؟ هو الله، الله هو المعبود بحق، الله هو المألوه المعبود بحق، يعني لابد أن تعرف توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، يعني تعرف أن الذي خلقك ورزقك والمالك والمتصرف فيك والذي يتصرف فيك في كلّ وقت هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي أمرك بالعبادة، ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف: 54].

ثم يبين لك مظاهر قدرته، ودلائل ربوبيته، وإلهيته، فيقول: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الأعراف: 54]، أوجدها من العدم، سبع سماوات طباقًا مرفوعة بغير عمد، من الذي خلقها وما فيها؟ الله.

قال: ﴿وَالْأَرْضَ﴾ [الأعراف: 54]، على سعتها وجبالها وأوديتها، وأنهارها، وما فيها من أشجار، الذي خلق السماوات والأرض هو الله.

✍ خلق السماوات والأرض في كم يوم؟

قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: 54]، كيف ستة أيام؟ أربعة للأرض، ويومين للسماء، خلق السماوات في يومين، ثم عاد إلى الأرض جَلَّ جَلَالُهُ وبث فيها أقواتها، وخيراتها، وخزائنها، أصبحت الأيام ستة.

خلق الله أولًا الأرض، ثم خلق السماوات، مع أن السماوات أعظم من الأرض، ومع ذلك خلق الأرض، خلق السماوات، ثم عاد إلى الأرض وبث فيها أقواتها، وأرزاقها، وكلّ ما يحتاج إليه الناس.

✍ ما هي هذه الأيام الستة؟

نقول: **"هذه الأيام في علم الله"** الأيام التي عندنا في الدنيا يبدأ اليوم من طلوع الشمس، أو من طلوع الفجر، وينتهي بغروب الشمس.

أو نقول: اليوم هو يوم وليلة، لكن في علم الله أو في الأيام عند الله تختلف ما في شمس، ولا في ليل، ولا في نهار.

✍ طيب كيف؟

نقول: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47]، اليوم عند الله غير أيام الدنيا، أيام مقدرة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلمها.

🗐 قد يسألك سائل يقول:

✍ الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يقول للشيء كن فيكون بلحظة، فلماذا يخلقها في ستة أيام؟

قال: ليعلم العباد التأني في الأمور، وأن الأمور لا تأتي بلحظة، أنت في بطن أمك تسعة أشهر، الله قادر أن يجعلك في لحظة يخرجك من بطن أمك، لكن الأمور تحتاج إلى ترتيب، تحتاج إلى تؤدة، تحتاج إلى تأني، هذا معناه، كي يعلم عباده.

لما خلق السماوات والأرض في ستة أيام؛ قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54]، العرش هو أعظم المخلوقات، انظر السماوات، ثم الكرسي، ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: 255]، السماوات والأرض هذه بالنسبة للكرسي كأنها سبع حلقات ألقيت في فلاة، في أرض واسعة.

✍ طيب والكرسي؟

قال: الكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ألقيت في فلاة، أو درهم تلقيه في أرض فلاة ما يساوي شيء، فالعرش أعظم المخلوقات، والله استوى على الأرض، لما تقرأ هذه الآية؛ فهذه الآية من آيات العقيدة، وينبغي للإنسان أن يعرف عقيدته.

✍ ما معنى استوى على العرش؟

نقول: الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ أجاب عن هذا السؤال، لما جاء رجل ودخل على الإمام مالك في المدينة في مسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال للإمام مالك: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، كيف استوى؟

قال: **"الاستواء معلوم"** في لغة العرب معروف الاستواء، استوى أي صعد واستقر، الاستواء معلوم، **"والكيف مجهول"** الكيف ما ندري، ما رأينه كيف استوى، **"والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"** فيجب عليك في هذه الآية أن تعرف بأن الله أخبرك بأنه استوى على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمة سلطانه، لا نعرف الكيف، الكيف مجهول، كلّ صفات الله كيفيتها مجهولة.

لما يقول: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: 1]، كيف يده؟ الله أعلم، نؤمن بأن له يد، لكن الكيفية كلّ هذه الأشياء الغيبية، حتى لو سألتك عن أشياء مخلوقة في الجنة من الفواكه والخضروات الكيفية ما تعرفها؛ لأنك ما رأيتها، أي شيء غائب عنك ما تخبر عن كيفيته؛ بل تقول: الله أعلم.

هنا تقول: **"أنا أؤمن بأن الله من صفاته أنه استوى على العرش استواءً يليق بجلالته وعظيم سلطانه"** وأقف عند هذا الحد، وأما الكيفيات هذه لا ندخل فيها، ولا نأول، نأول الآية أو نكيف، لا نأول ولا نكيف؛ بل نثبت ما أثبته الله.

بعدها قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: 54]، يُغشي يعني يغطي، بعدها قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: 54]، يلحقه، الليل يأتي على النهار ويغطيه بظلمته، ثم يمشي معه يلاحقه.

لو تتصور حتى نتكلم عن الواقع، مثلاً شرق الأرض الليل دخل عندهم قبل أربع ساعات أو خمسة، الآن دخل عندنا الليل، غرب الأرض حتى الآن في غرب إفريقيا ما زالوا في النهار، النهار يمشي والليل يلحقه، حتى ينتهي، وإذا انتهى جاء النهار لحق الليل، بدأ النهار يخرج من شرق الأرض ويلحق الليل، والليل يذهب، فحركة مستمرة، سريعة.

قال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: 54]، وهذا الليل والنهار هذه الحركة قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: 54]، مسرعًا، حثيثًا يعني يحثه بسرعة، هذا ما يتعلق بالليل والنهار.

ثم قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ [الأعراف: 54]، أي خلق الشمس، والقمر، والنجوم، وحالهم ماذا؟ قال: ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ [الأعراف: 54]، مطيعات، مذلالات لله لا تعصي، الشمس ما تعصي الله،

والقمر لا يعصي الله، والنجوم لا تعصي الله، مذللة وبحركة مستمرة دؤبة لا تنقطع أبدًا، بخلاف الإنسان الذي يعصي الله في كلّ وقت.

وهذه أجرام يعني جمادات ومع ذلك مسخرة وتنقاد ومذللة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفيها من العبر، وفيها من الفوائد والمصالح للعباد الشيء العظيم.

قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: 54]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تنبيهًا، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ [الأعراف: 54]، أليس له الخلق، هذا الخلق خلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ﴾ [الأعراف: 54]، ثم قال: ﴿وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]، الأمر يعني الشرع، يعني الذي خلق هذا الخلق هو الله، وهو الذي أمر العباد بطاعته، فلا تعصوه، ولا تشركوا به شيئًا، له الخلق وله الأمر.

قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]، تبارك يعني كثر خيره، وهذه الكلمة **"تبارك"** لابد أن ننتبه لها، لا تُطلق إلا على الله، لا يجوز أن تقول لفلان: **"أنت تباركت"**؛ بل الذي تبارك هو الله، تبارك، وتعالى، وتعاظم، لا تكون إلا لله.

تقول: **"أنت بركة علينا، فيك بركة"** هذا جائز، أنت رجل مبارك، لكن تقول: **"تبارك"** بهذه الصيغة هذه لا تُطلق إلا على الله.

قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54]، انظر **"الله"** و**"رب العالمين"** يجمع بين توحيدين علشان تعرف أن الله المألوه المعبود هو رب العالمين، فلا تعبد غيره.

من أجل العبادات وأعظمها: **"الدعاء"** الذي قال فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الدعاء هو العبادة»**، الدعاء من أجل العبادات؛ لأنه يظهر افتقارك إلى الله، وانكسارك بين يدي الله، من أجل العبادات؛ فتعرف أنك ضعيف وضئيل أمام الله، والله هو القوي العزيز ذو القدرة، وأنت ضعيف جدًا أمامه، فتسأل الله وتطلبه، وتنكسر بين يديه، وترفع يديك تسأله، فهذا يدل على التذلل لله عَزَّ وَجَلَّ، تذللك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالدعاء من أعظم العبادات.

بعدها قال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ [الأعراف: 55]، ادعوا ربكم ولا تدعوا غيره، قال: **"ربكم"** ربوبية، يعني ادعوه، يعني اعبدوا ربكم؛ لأن الدعاء هنا دعاء مسألة ودعاء عبادة، هذا الدعاء، دعاء مسألة يعني تسأل **"يا رب اغفر لي"** هذا دعاء مسألة، ودعاء العبادة أنك تتعبد الله.

قال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ [الأعراف: 55]، حال ماذا؟ قال: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، التضرع هو الانكسار والافتقار والتذلل بين يدي الله، هذا هو التضرع، تتضرع أي تنكسر وتتذلل لا تدعو وأنت ساهي، لا تدعو وأن ترى من نفسك أنك عندك كذا وكذا، لا؛ بل أنت أضعف الناس وأفقرهم، كن ضعيف أمام الله.

قال: ﴿تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف: 55]، ثم قال: ﴿وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، يعني لا ترفع صوتك في الدعاء، رفع الصوت في الدعاء هذا لا يجوز، من التعدي في الدعاء رفع الأصوات.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مدح عبده ونبيه زكريا أنه نادى ربه نداءً خفيًا، يعني من بجانبك لا يسمعك، هذا أقرب إلى الإخلاص، وأقرب إلى القبول، أما تجد بعض الناس إذا جاء يدعو يرفع الصوت، من بيمينه وشماله يسمعون ما يدعو به، وتلاحظ أحيانًا في الطواف يدعون بأصوات عالية، هذا من التعدي لا يجوز، وهذا أيضًا يدخله نوع من الرياء، خلي دعاءك بينك وبين رب العالمين، لا داعي أن ترفع الصوت.

وأمر آخر: رفع الأصوات في المساجد لا يجوز، منهي عنه، حتى السلام بصوت عالي ما يصلح، إذا أردت من بعيد السلام عليكم لا، ما له داعي، إذا وصلت سلم على من بجانبك، سلم بصوت منخفض، حتى لو كان يصلي أو كان يقرأ تسلم بصوت منخفض، أما رفع الصوت في

المساجد بالدعاء لا، إلا ما جاء الدليل فيه برفع الصوت بعد الصلاة، أذكار الصلاة نعم، **«أستغفر الله، أستغفر الله، اللهم أنت السلام»**، هذا ترفع صوتك فيه، مشروع.

أما قراءة القرآن أو الدعاء كلّ هذه من الاعتداء بالدعاء، وأيضًا إيذاء للمصلين، الذي يقرأ أو يصلي أو كذا يتأذى فلا داعي،قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، ثم قال بعدها؟ قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55]، لا يحبهم الله.

فأنت ترفع صوتك تعرض نفسك أن الله لا يحبك، فلا داعي لرفع الأصوات، أخلص لله، واخفض صوتك حتى من بجانك ما يدري ماذا تقول؟ لا في الركوع، ولا في السجود، وفي التحيات، ولا في غيرها، أخفض صوتك، ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أمر بالعبادة ومن أجلها الدعاء نهى عن الإفساد في الأرض، قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 56]، أشد الفساد في الأرض الفساد بالمعاصي، يعني الله أصلح الأرض بالطاعة، وأرسل الرسل، ثم يأتي من يفسد، ويصرف الناس عن طاعة الله، هذا أشد أنواع الفساد.

قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 56]، ثم عاد مرة أخرى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى الدعاء، قال:﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: 56]، لتكن صفة الدعاء عندكم ما بين الخوف والطمع، تخاف ألا يقبل الله دعاءك، تخاف أنك اعتديت في الدعاء، تخاف أنك أتيت بأدعية غير مشروعة، تخاف وتطمع في أن الله،، ماذا قال؟ قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، تطمع أن الله يستجيب دعاءك، وهذا هو الأصل أن الله يستجيب إلا إذا أنت حصل منك خلل، وإلا الله وعد، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].

قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56]، أحسن في دعائك، وأحسن في طاعتك، وأحسن إلى الخلق، أحسن إلى الناس بكلامك، وصدقتك، بأمرك بالمعروف والنهى عن المنكر، وأحسن عباداتك مع ربك، إذا أحسنت فإن رحمت الله قريب من المحسنين.

انظر القرآن يقول: رحمت الله قريب، في كلامك أنت المفترض أن تقول: رحمت الله قريبة، قال: لا، بل **"قريب"** لماذا؟ قال: في آيات أخرى مثلها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: 17]، وقال: ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: 63].

✍ كيف الساعة قريب؟

قال: أمر الساعة قريب؛ لأن المقصود أمرها ومجيئها، هنا لا يقصد الرحمة بذاتها، ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: 56]، أي أن الله قريب، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قريب من عباده من المحسنين، ورحمته قريبة أيضًا، أو نقول: إن **"قريب"** كما ذكرنا يجوز فيها التذكير والتأنيث، تقول: **"قريب"** و**"قريبة"** كلها صحيح، هذا كلها جائز، **"إن رحمت الله قريب"** أو **"قريبة"** هذا كله يصح، وإن قلت مثلاً: **"رحمت الله"**يعني استجابته، وقبوله، وعموم رحمته، وأمر رحمته قريب من المحسنين، هذا هو.

ثم إن الله ينبه على أمر مهم جدًا، وأن من رحماته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه يسوق الغيث إلى العباد بعدما قنطوا، والناس يحتاجون إلى الماء والماء حياة لهم، فيذكر الله أن هذا الغيث والمطر هو رحمة.

قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ﴾ [الأعراف: 57]، يعني الرياح تأتي قبل المطر، قبل السحاب، يرسلها الله مبشرات، مبشرات بنزول الغيث، ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: 57]، الرحمة هنا المطر، يقول: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا﴾ [الأعراف: 57]، الرياح هي التي تحمل السحاب،

السحاب مسخر بين السماء والأرض ما الذي يحمله؟ تحمله الريح مثلما تحمل الطائرات الريح، الريح قوية تحمل، مع أنها خفيفة لكن تحمل.

قال: ﴿أَقَلَّتْ﴾ [الأعراف: 57]، يعني حمل السحاب الثقال المليء بالماء.

قال: ﴿ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ [الأعراف: 57]، الله يسوقه إلى البلد الذي يحتاج أو يريد الله سقياه، ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾ [الأعراف: 57]، أنزلنا بهذا السحاب، ﴿ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ [الأعراف: 57]، أخرجنا بهذا الماء ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: 57]، هذا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينزل الماء فيستقر في الأرض آبار وينبت به الزرع، من كلّ الثمرات يُذكر الله بهذه الحركة العجيبة، وهي أرض جرداء قاحلة يابسة مخضرة تنبت تصحب خضراء وفيها الماء، من أحياها؟ الذي أحياها هو الذي يحيي الموتى.

قال: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 57]، لعلكم تذكرون هذا اليوم العظيم.

نختم بهذا التوجيه الرباني، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان أنواع الأرض، أنواع الأرض هذه موجودة في أنواع الناس، كلّ الناس مثل الأرض؛ لأن الناس مخلوقين من التراب من الأرض.

يقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ [الأعراف: 58]، إذا نزل عليه الماء، ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: 58]، يخرج بسرعة وسهولة، ﴿وَالَّذِي خَبُثَ﴾ [الأعراف: 58]، الأرض الخبيثة ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: 58]، لا يخرج نباتها إلا نكدًا، البلد الطيب إذا كانت الأرض طيبة، والهواء طيب، والماء طيب تنبت بسرعة بسهولة، ويرتاح أهلها، لكن إذا كانت الأرض خفيفة، والهواء خفيف، والماء خفيف، ما يخرج النبات إلا نكدًا، إلا بتعب ومشقة وعناء.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: مثل هذا الكلام الذي تسمعه في البلد الطيب والأرض كذلك الناس بعضهم من يوم أن يسمعوا القرآن ويسمعوا الهداية يتقبلها مثل الأرض، وينبت، يصبح قلبه صالحًا، الإيمان ينزرع في القلب، وبعض الناس لا يخرج إلا نكدًا، تحاول هدايته، تجد هدايته صعبة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: مثل هذا البيان وتصريف الآيات وتوضيحها، وبيانها نصرف سائر الآيات لمن؟ قال: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58].

الذين يشكرون نعمة الله، ويعرفونها، ويردون هذا الخير من العبادة والطاعة والدعاء، ومن هذا الخير من الأمطار والزروع، هذه لقوم يشركون نعمة الله، فيستعملونه في طاعته.

نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(154)
(الأعراف 59 - 72)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الأربعاء بعد صلاة المغرب من كلّ أسبوع، نجلس هذا المجلس المبارك وبين أيدينا كتاب الله جَلَّ جَلَالُهُ أفضل الكتب على الإطلاق، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: 29].

مبارك يعني كثير الخير والبركة، فمن أخذ به وتدبره وقرأه وتلاه ليلاً ونهارًا وجد أثر هذه التلاوة والتمسك به، من الخير والبركة العظيمة عليه، وعلى بيته، وعلى ذريته.

هذا اليوم هو اليوم السابع عشر من شهر صفر من عام 1446من الهجرة، بين أيدينا **"سورة الأعراف"**.

و **"سورة الأعراف"** كما تحدثنا عندها في لقاءات ماضية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتحها بالوعيد الشديد، والتهديد؛ لأنها جاءت بعد **"الأنعام"** التي قررت توحيد الإلهية وعبادة الله ونبذ الشرك.

هذه السورة جاءت بعدها للتخويف والتهديد؛ حتى أنك تقرأ في أولها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: 4].

قال: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ [الأعراف: 4]، **"كم"** هنا للتكثير، يعني قرى كثيرة لا يعلمها إلا الله، أبادها الله ليلاً أو نهارًا، يقول: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ [الأعراف: 4]، يعني بالليل وهم نائمون في فرشهم، ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: 4]، وقت القيلولة، ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ [الأعراف: 5]، أي دعائهم، ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: 5].

بعد هذا الإجمال الذي ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول السورة، بدأت السورة تفصل في قصص الأنبياء، والأمم التي جاءتهم أنبيائهم فكذبوهم وردوا رسالاتهم واستكبروا عن الحق، فأنزل الله بهم العقوبات.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما يذكر لنا مثل هذه القصص ليست للتسلية فقط؛ وإنما هي للعبرة، والعظة، وأخذ الدروس، هم وقعوا في هذا الشيء وردوا رسالات الله، وكفروا، ولم يقبلوا دعوة الرسل، وتمردوا على شرع الله، وكفروا بالله.

✍ ماذا أصابهم؟

أصابهم: الهلاك في الدنيا، والعقوبات التي تنتظرهم في الآخرة، فليحذر الإنسان العاقل من غضب الله، وانتقامه وسخطه، هذا هو المقصود من كلّ قصة من قصص القرآن.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة يوسف في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

هذه العبرة والفائدة، والغرض من سياق القصص القرآني، بين أيدينا الآن عدد من قصص الأمم التي أبادها الله، أولها قوم نوح، ثم عاد، ثم ثمود، ثم لوط، ثم شعيب، ثم فرعون، كلّ هذه الأمم أهلكها الله وأبادها، بسبب كفرانها نعمة الله، وجحدها عبادة الله.

أول الرسل على الإطلاق هو: **"نوح"** عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163]، فدل على أن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، وبينه وبين آدم عشرة قرون، كانوا كلهم على التوحيد، حتى ظهر الشرك في قوم نوح، وعبادة الأصنام، وعبادة الأحجار والأشجار التي لا تنفع ولا تضر، فلما عبدوها أرسل الله إليهم نوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة الأصنام، فأبوا واستكبروا وردوا رسالته وهددوه بالرجم والقتل، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40].

إلا قليل ممن آمن، فأغرقهم الله، أرسل عليهم الطوفان، وفتح الله أبواب السماء بماء منهمر، ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: 12]، وأهلك الله كلّ من لم يقبل دعوته، يسوق الله لنا قصته في هذه السورة بأسلوب جميل، شيق، لطيف.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 59].

في أكثر السور في هود وفي المؤمنون وغيرها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ [هود: 25]، وهنا قال: ﴿لَقَدْ﴾ [الأعراف: 59]، بدون واو، لماذا؟ لأنه ذكر قبل هذه القصة حديثًا مختصرًا عن موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولأنه هنا لم يذكر، أول قصة ذكر هنا في الأعراف هي قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولذلك ابتدأها مباشرة ولم يعطف، أما السور الأخرى فإنه جاء قبلها قصص فعطفت.

يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [الأعراف: 59]،، اللام هنا يسميها أهل التفسير لام موطئة للقسم، يعني التقدير **"والله لقد أرسلنا"** يعني الله يُقسم بنفسه على أنه أرسل.

يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: 59]، أرسله كرسول وداعة إلى قومه، فلما أرسله؛ أرسله بأي شيء؟ أرسله بالتوحيد وعبادة الله.

فقال نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لقومه: ﴿يَاقَوْمِ﴾ [الأعراف: 59]، وفي هذا ترقيق ولطف بالعبارة معهم وجذب لقلوبهم لما يقول: ﴿يَاقَوْمِ﴾ [الأعراف: 59]، أنا واحد منكم وأنتم قومي.

قال: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59]، ما في إله غيره يُعبد حتى تعبدون غيره، في إله خلق السماوات والأرض وخلقكم، ورزقكم، وملك الدنيا؟ ما في إله إلا الله، فاعبدوه وحده لا شريك له.

ثم خوفهم فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 59]، إن لم تؤمنوا، ولم تطيعوا، ولم تتقوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم.

القصة فيها تفاصيل كثيرة؛ بل إن الله أنزل سورة كاملة سمها سورة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن هنا جاءت في سياق اختصار، فأمرهم بعبادة الله وخوفهم من عقوبة المعصية والكفر والشرك، فماذا كان موقف قومه هل تقبلوا وفرحوا به وسعدوا بدعوته وانقادوا ونصروه؟ لا؛ بل ردوا دعوته.

قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ [الأعراف: 60]، لما يقول الله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ [الأعراف: 60]، من هم الملأ؟ هم الكبراء الرؤساء، سموا بالملأ لأن الأعين تمتلئ من رؤيتهم، فهم الذين لهم الكلمة، أهل المكانة.

قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: 60]، قبحهم الله، أهل الشرك والكفر ما يريدون الخير، يعني يأتيهم رسول يدعوهم إلى التوحيد يتهمونه بأنه في ضلال، وليس في ضلال فقط؛ بل ضلال مبين، يعني ظاهر الضلال، أنت في ضلال وضلالك ظاهر مع أحد يستطيع أن يقبل منك.

✍ فماذا كان رده؟

✍ هو رد عليهم بأقوى مما اتهموه، هذه تهمة باطلة ورد عليهم، ماذا قال؟

قال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ﴾ [الأعراف: 61]، حتى الأسلوب أسلوب ترقيق ولطف ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [الأعراف: 61]، هم يقولون: أنت في ضلال، وهو يقول: ليس بي ولا ضلالة واحدة، مثل لما أقول الآن: أعطني تمرًا، تقول: ما عندي ولا تمرة، يعني قطعًا إلى في شيء عندي أبدًا، فهم لما قالوا: أنت في ضلال، قال: ما عندي ولا ضلالة واحدة، ضلالة واحدة ما في؛ بل أنا على هداية من ربي وتقولون ضلال؟!!

قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾ [الأعراف: 61]، ثم استدرك وقال: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 61]، أنا رسول أرسلني الله، من الذي أرسلك؟ قال: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 61]، يعني الخلق كلهم والسماوات والأرض هي العالمين، لما تقول: عالم السماوات وعالم الأرض، وعالم البحار، عالم النبات، عالم الحيوان، عالم الإنسان، كلّ هؤلاء ربهم من؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأنا رسول ممن يملك السماوات والأرض ومن فيهن ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 61].

ثم بين له وظيفته، قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: 62]، أنا جئت رسول أنا أبلغكم هذه الرسالات، ثم أمر آخر مهم أيضًا، قال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 62]، فرق بين وأنصحكم، وأنصح لكم، لما تأتي اللام أنصح لك هذه أقوى في البلاغة، **"أنصح لك"** أقوى من **"أنصحك"**.

ولذلك هنا قال: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 62]، أنصلح لكم أنتم خاصة، أنا واحد منكم ومن قومكم، الله بلغني الرسالة فأبلغها، الله كلفني بالرسالة فأبلغها، وأنا ناصح، والناصح غالبًا يُشفق على من ينصحه، ويُحب من ينصحه، وهو محب ومشفق عليهم.

قال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 62]، لماذا؟ لأنه يأتيني الوحي من السماء، فالله يخبرني أخبار أنتم ما تدرون عنها ولا تعلمون.

ثم أنكر عليهم وتعجب منهم فقال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ [الأعراف: 63]، تتعجبون أن جاءكم ذكر بالوحي من السماء، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 63]، الله أوحى إلي بهذا الوحي تتعجبون.

✍ ما وجه العجب؟

✍ بينوا لي ما وجه العجب؟

قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: 63]، واحد منكم تعرفونه، تعرفون أخلاقه، وسيرته، وعاش بين أظهركم، تعرفونه، رجل منكم والغرض أن ينذركم يخوفكم العذاب ولأجل أن تتقوا الله وتخافوه، ولعلكم إذا اتقيتم الله وخفتم أن ترحموا، يرحمكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأنا جئت رحمة لكم، ورحمة بكم، فكيف يكون هذا موقفكم؟!!

✍ النتيجة ما هي؟

باختصار: **"كذبوه"** قالوا: لن نقبل منك أبدًا، فما كذبوه أمره الله بأن يصنع السفينة، سفينة عظيمة، فصنعها وأوحى الله إليه أن يحمل من كلّ زوجين اثنين، وأهله الذين آمنوا معه، ومن آمن معه من المؤمنين، ولم يؤمن معه إلا قليل حتى ذكر بعض أهل التفسير أنهم كانوا ثمانين شخص، هم الذين ركبوا في السفينة.

امرأته كافرة لم تؤمن، وأحد أبناءه مات كافرًا، فصبر، ودعا، وبقي، كما ذكر الله في سورة أخرى، دعاهم تسعمائة وخمسين، يدعوهم ليلاً ونهارًا، سرًا وجهارًا، فلم يقبلوا ذلك.

قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [الأعراف: 64]، التي صنعها وأوحى الله أن يصنعها، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: 64]، أغرق الله كلّ من كذب بآيات الله من قوم نوح، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64].

عمين من العمى، العمه بالهاء غير العمى، العمى عمى البصر، والعمه عمى البصيرة، عمى البصيرة أشد، يعني ما عندهم فقه ولا معرفة، و لا يعرفون مصلحتهم يعني أعماهم الشيطان حتى لا يبصروا الحق هذا معناه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: 64]. فلما أهلكهم الله وأغرقهم وأنجى من كان في السفينة ثم بقي الذين أنجاهم الله وتناسلوا أنشأ الله بعدهم قومًا آخرين، من هم؟ هم قوم عاد، قوم عاد كما ذكر الله أنه يسكنون الأحقاف، والأحقاف هي بلاد اليمن، جنوب الجزيرة العربية، ذكر الله قصتهم بعد قصة نوح؛ لأنهم جاءوا بعد نوح.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: 65]، أي أرسلنا إلى عاد وهم قوم عاد المعروفين، فأرسل الله إليهم أخاهم هود.

✍ كيف يكون أخوهم وهو مؤمن وهم كفار؟

نقول: **"أخاهم في النسب"** يعني من نسبهم ومن قبيلتهم، فدعاهم إلى التوحيد، ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 65]، كانوا يعبدون الأصنام والشرك، ظهر فيهم الشرك وعبادة الأصنام، فأرسل الله إليهم هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أحسنهم خلقًا وأدبًا وسمتًا، فدعاهم إلى التوحيد.

قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 65]، كلّ الأنبياء يدعون إلى التوحيد، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]؟

كلهم يقولون: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 65]، ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 65]، أفلا تتقون الله وتخافونه؟

قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأعراف: 66]، أول من يرد الملأ؛ لأن لهم الكلمة، ومن تحتهم أتباع لهم، ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأعراف: 66]، وصفهم الله بالكفر؛ لأنهم كفروا وردوا رسالته.

قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66]، انظروا كيف يحكمون على هود الذي اختاره الله نبيًا ورسوله ورباه التربية الحسنة، يقولون له ويحكمون عليه بأنه سفيه، يقولون: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66]، جملة مؤكدة **"إن"** و﴿لَنَرَاكَ﴾ [الأعراف: 66]، باللام، ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66]، يعني أنت منغمس في السفاهة، يعني السفاهة ما تخرج عنها أبدًا، السفاهة التفت حولك ما في لك ولا مثقال ذرة من العقل، ﴿لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66].

✍ هل هناك رسول اختاره الله سفيه؟!!

قال: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾ [الأعراف: 66]، أيضًا مؤكدة، ﴿لَنَظُنُّكَ﴾ [الأعراف: 66]، الظن هنا بمعنى اليقين، يعني نجزم يقينًا أنك من الكاذبين، ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: 66].

فرد عليهم هود، هود رجل عاقل ونبي اختاره الله واصطفاه، فرد عليهم بقوة وقال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: 67]، **"سفاهة "** هنا نكرة في سياق النفي تفيد العموم، ليس بي ولا وجه من وجوه السفاهة، أنا أعقلكم وتقولون سفيه؟!!

قال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي﴾ [الأعراف: 67]، استدراك، ﴿رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 67]، نفس المنهج، كلهم يسيرون على منهج واحد.

قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68]، جاء بجملة اسمية تفيد التأكيد، يعني أنا ناصح لا أفارق النصح لكم، النصح معي دائمًا، ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: 68].

ثم استنكر عليهم قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾ [الأعراف: 69]، يعني كيف تتعجبون أن جاءكم ذكر من الله وحي من ربكم الذي خلقكم على رجل منكم تعرفونه معرفة تامة، وتعرفون مدخله ومخرجه، ﴿رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: 69]، ليحذركم العذاب الذي

قد يصيبكم مثلما أصاب قوم نوح، ﴿وَاذْكُرُوا﴾ [الأعراف: 69]، ذكرهم، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ [الأعراف: 69]، الله جعلكم تخلفون أناسًا ذهبوا قبلكم، من هم الذين قبلهم؟ قوم نوح.

قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: 69]، قوم نوح أغرقهم الله وهم يعرفون التاريخ، يتناقلون التاريخ أن الله أغرقهم، وأغرقهم بالطوفان، ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: 69].

✍ ثم ذكرهم بنعمة الله عليهم، ما هي النعمة التي أنعم الله بها على قوم عاد؟

قال: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: 69]، يعني أجسامكم قوية، عقولكم قوية، فكيف تجحدون نعمة الله؟! أعطاكم الله قوة، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: 69].

قال: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 69]، اذكروا النعم واشكروه، ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 69]، تذكروا نعم الله عليكم، واشكروه لأن شكر النعم وتذكرها سبب للفلاح، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 69].

✍ شوف كيف البيان والدعوة بهذا الأسلوب الطيب، كيف كان موقفهم؟

قال الله عنهم: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: 70]، أنت نريد أن نعبد الله وحده، ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: 70]، وهم يعبدون الأصنام، انظروا كيف العقلية؟ قالوا: تريد أن نعبد الله وحده؟ هو خالقكم، وهو الذي أمركم بعبادته، هو الذي خلقكم للعبادة، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

قالوا: تريد أن نعبد الله ونترك ما كان يعبد آباؤنا؟ آباؤكم ماذا يعبدون؟ يعبدون حجر وشجر، كيف تعبدون ما يعبد آباؤكم؟!!

قال: ﴿فَأْتِنَا﴾ [الأعراف: 70]، يستفتحون الشر على أنفسهم، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: 70]، إن كنت صادق في قولك أنك رسول من عند الله، وأنه يوحى إليك، فاستفتحوا على أنفسهم شرًا.

قال: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: 70]، أنت تقول: يأتيكم العذاب، طيب ائتنا بهذا العذاب أين هو؟ قال: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: 70].

قال: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ [الأعراف: 71]، أنتم استفتحتم شر وسيقع عليكم، هذا الشر سيصيبكم، رجس، وعذاب، وغضب من الله، الله قد غضب عليكم بسبب موقفكم هذا السيئ.

ثم قال: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ﴾ [الأعراف: 71]، هذه أسماء أصنام، ما لها حقائق، ﴿أَتُجَادِلُونَنِي﴾ [الأعراف: 71]، أي تناقشونني ﴿فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ [الأعراف: 71]، أنتم وآباؤكم هذه أصنام حجارة، ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [الأعراف: 71]، ما في دليل أن الله أمركم أن تعبدوها.

ثم قال: ما دام أنكم استفتحتم على أنفسكم بالشر، ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: 71]، انتظروا العذاب الذي ينزل بكم، وأنا أنتظر أن الله ينجيني من هذا العذاب الذي يصيبكم، ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: 71].

✍ فماذا أصابهم؟

أرسل الله عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، ﴿أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ 41 مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: 41، 42]، وقال تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 7].

تساقطوا، تأتي الريح وتأخذ الرجل بجسمه القوي الطويل وترفعه إلى السماء ثم تلقيه على رأسه، فتساقطوا كأنهم أعجاز نخل خاوية.

الريح خفيفة، وهم يدعون أنهم أقوياء، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: 69]، فعاقبهم الله بأخف الأشياء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ [الأعراف: 72]، أي هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: 72]، آمن طائفة معه، ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [الأعراف: 72]، لولا رحمة الله ما سلم من هذه الريح، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: 72]، قطع الدابر استئصال بحيث لا يبقى منهم أحد يمشي على الأرض.

قال: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 72]، قطع الدابر سببه أنهم لم يكونوا مؤمنين برسولهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي جاءهم ودعاهم إلى التوحيد، فكفروا وردوا رسالته، فهذه نتيجة من يكفر هذه العقوبة.

بعد ذلك يأتي قوم ثمود الذين سكنوا شمال غرب الجزيرة، ثم تأتي قصص بعد ذلك يأتي الحديث عنها، نقف عند هاتين القصتين وما فيها من دروس وعبر وتحذير وتخويف، من يسمع ويقرأ مثل هذا الشيء يخاف من العقوبات ولا يأمن مكر الله بأي حال من الأحوال، فقد يصيبه عذاب، قد يصيبه مرض، قد يصيبه كذا، فلا يُعرض عن طاعة الله، ولا يتساهل في معاصي الله؛ بل يبتعد عها، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحفظنا وإياكم من كلّ سوء، وإن شاء الله لنا لقاء قادم.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(155)
(الأعراف 73 - 79)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في لقائكم المتجدد من كلّ أسبوع بعد صلاة المغرب من كلّ يوم أربعاء، نجتمع على كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرآن الكريم، نقرأ آيات ونتأملها، ونتدبرها، ونتفكر فيها، ونأخذ توجيهات ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا اليوم هو اليوم الرابع والعشرون من شهر صفر من عام 1446من الهجرة.

لازلنا في عرض قصص القرآن الكريم، وقصص الأنبياء الماضين، وذكرنا في لقاءنا الماضي قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، وأنه دعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، وأنهم رفضوا وعاندوا واستكبروا، فالنتيجة عندما قضى معهم تسعمائة وخمسين سنة في الدعوة، وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويصبر عليهم، وعلى أذاهم، النتيجة أنهم لما كفروا واستكبروا عذبهم الله بالطوفان؛ حيث أنزل عليهم من السماء ماءً، وجعل الأرض تنبع عيونًا فغرقوا جميعًا.

ثم بعد ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنشأ قومًا آخرين وهم قوم عاد، فكفروا وأشركوا بالله، فأرسل الله إليهم نبيه هودًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحسنهم أخلاقًا، وسمتًا وأدبًا، فدعاهم إلى التوحيد، وإلى عبادة الله وحده لا شريك له، ولكنهم أصروا على الكفر والعناد والاستكبار، وعدم قبول الدعوة، والنتيجة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عذبهم بالريح، أرسل الله عليهم ريحًا ما تذر شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم، قضت عليهم جميعًا فأهلكوا جميعًا.

ثم بعد ذلك أنشأ الله قومًا آخرين وهم ثمود، ثمود يسكنون في الشمال الغربي من الجزيرة العربية التي تسمى الآن ببلاد العلا، وهي معروفة مدائن صالح، هؤلاء القوم وهم عرب خُلص أرسل الله إليهم صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كفروا وأشركوا بالله، وعبدوا الأصنام، واستكبروا وأفسدوا في الأرض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته بعث إليهم نبيه صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فدعاهم إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده لا شريك له، وعدمه الإفساد في الأرض؛ بل أمرهم بالإصلاح، فأبوا واستكبروا وعاندوا؛ بل تحدوا وقالوا: إن كنت يا صالح رسول حقًا فأتنا بآية حتى تثبت لنا أنك رسول.

فقال: ماذا تريدون؟ فخرجوا معه إلى الصحراء، ثم جاؤوا إلى صخرة صماء عظيمة، وقالوا: يا صالح إن كنت رسول من عند الله أخرج من هذه الصخرة الصماء ناقة عُشراء يعني في الشهر العاشر حامل.

فصلى ركعتين ودعا ربه، حتى يثبت لهم أنه رسول، وحتى يقيم عليهم الحجة، فانشقت الصخرة وخرجت منها هذه الناقة العظيمة.

فقالوا: سحرنا صالح، صالح ساحر، سحرنا، هذا سحر، وكفروا وأبوا واستكبروا.

قال الله في قصتهم: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ﴾ [الأعراف: 73]، أي القبيلة المعروفة، ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: 73]، أخاهم بالنسب، لا بالإيمان، هو مؤمن وهم كفار، ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: 73]، انظروا ﴿يَاقَوْمِ﴾ [الأعراف: 73]، يناديهم ويتلطف لهم بالعبارة، ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾

[الأعراف: 73]، كيف تعبدون غيره؟! تعبدون أصنام يعني أحجار وأشجار وتتركون رب الأرباب؟!! تعبدون ما لا يسمع، ولا يبصر ولا يتكلم وتتركون رب العالمين الذي خلقكم، ورزقكم، وهداكم؟! أين عقولكم؟!!

فدعاهم إلى التوحيد، وقال لهم أيضًا: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 73]، جاءتكم بينة حجة على أني صادق في دعوتي، ما هي؟ قال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 73]، أضافها إلى الله إضافة تشريف؛ لأنها ناقة الله هو الذي خلقها وبعثها.

قال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [الأعراف: 73]، دليل وحجة وبرهان على أني رسول من عند الله فآمنوا.

ثم أمر آخر حذرهم قال: لا تتعرضوا لهذه الناقة، هذه ناقة الله، ذروها تأكل في أرض الله، الناقة ناقة الله، والأرض أرض الله، ذروها تأكل في أرض الله، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: 73]؛ لأنهم كانوا يهددون صالح ويقولون: والله لنعقر الناقة ونقتلها وننتهي منها لأنها آذتنا وضيقت علينا، لأن هناك بئر عظيمة كبيرة عندهم كان فيها ماء، فكانت الناقة في يوم لها شرب، ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: 155]، وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ [القمر: 28].

فتأتي في اليوم تشرب، ثم في اليوم الثاني لا تأتي، تجعل الماء لهم، فاستمرت على هذه الحال فتضايقوا منها، فحذرهم قال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 73]، وقال: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: 13].

هذه الناقة قدرها تأكل في أرض الله، لا تمسوها بسوء، لا تتعرضوا لها بسوء؛ فإن مسستوها بسوء، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 73]، يعني وضح لهم وبيّن لهم، قال: لا تتعرضوا لها، إن تعرضتم إلى الناقة بأي سوء سيصيبكم العذاب الأليم.

ثم ذكرهم قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: 74]، أين عاد؟ عاد أهلكهم الله بالريح وماتوا جميعًا، والله أنشأكم بعدهم، وجعلكم خلفاء تخلفون في الأرض.

قال: ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ [الأعراف: 74]، أسكنكم وهيأ لكم القدرة على أن تعمروا الأرض، ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: 74]، الأرض اللينة يبنون سهول، لأنهم هم يسكنون في وادي القرى في هذا المكان، وهذا الذي يسمى الحجر، كانوا يسكنون فيه، جزء منه جبلي، وجزء منه أرض لينة سهلة، فكانوا يبنون القصور والبيوت في هذه الأرض اللينة، ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: 74]، يحفرون في الجبال بيوتًا يسكنوها في الشتاء والبرد يدخلون فيها.

قال: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: 74]، والبيوت موجودة حتى الآن، منذ سنين طويلة وقرون عظيمة وهي موجودة، ما دامت الجبال موجودة فبيوتهم موجودة.

قال هنا: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾، اذكروا نعم الله، تذكروا نعمة الله الذي أنعم عليكم بالأمن والصحة والعافية والرزق، وسخر لكم، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 74]، لا تفسدوا في الأرض بالمعاصي، لا تعثوا في الأرض مفسدين تفسدون بالشرك.

✍ فلما دعاهم وكرر عليهم الدعوة ماذا كان موقفهم؟

قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [الأعراف: 75]، الذين يتكلمون هم الكبراء الرؤساء، ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [الأعراف: 75]، وصفهم الله بأنهم مستكبرون.

قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ [الأعراف: 75]، لم يتكلموا مع صالح، خلاص، تركوا صالح وذهبوا إلى الذين اتبعوا صالح آمنوا، الضعفاء المساكين هؤلاء الذين اتبعوا صالح، ذهبوا إلى هؤلاء الضعفاء.

قال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: 75]، ليس الضعفاء كلهم مؤمنين، ولكن لمن آمن منهم، يسألونهم، ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: 75].

يقولوا: أعطونا حقيقة الأمر، أنتم اتبعتم صالح هل تعلمون أنه مرسل من ربه؟ هم يسألون، طيب اذهبوا إلى صالح، صالح أخبركم أنه رسول، وأنتم تحديتموه وقلتم: أعطنا آية، وأعطاكم آية، ولا زلتم في شك من رسالته؟ ذهبوا إلى هؤلاء الضعفاء اتباع الأنبياء وقالوا: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: 75].

✍ ماذا قال الضعفاء؟

✍ هل قالوا: نعم؟

ما قالوا: نعم، تأملوا الجواب، الجواب كان قوي، ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 75]، نحن بما أرسل به صالح، رسالة صالح حق، ونحن بما أرسل به صالح مؤمنون، نحن مؤمنون ومصدقون برسالته، يعني كأنهم يقولون: نحن آمنا فالواجب عليكم أن تؤمنوا كما آمنا.

✍ فماذا كان موقف المستكبرين؟

قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: 76]، يقولوا: أنتم مؤمنون بصالح وبرسالته؟ نحن كافرون بصالح وبرسالته، وردوا الرسالة وكفروا بها.

ثم أمر آخر أعظم من ذلك حذرهم صالح قال: احذروا أن تتعرضوا لناقة الله، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 73].

قال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ [الأعراف: 77]، في سورة أخرى قال: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى﴾ [القمر: 29]، أخذ الآلة ﴿فَعَقَرَ﴾ [القمر: 29]، صاحبهم واحد، الذي يُقال كما جاء في بعض الآثار أن اسمه قدار بن سالف، ومعروف بأنه أحيمر ثمود الشقي.

فقام هذا الشقي وعقرها، طيب إذا كان الذي عرقها واحد، الله هنا يقول ماذا؟ يقول: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [هود: 65].

✍ يعني كلهم ولا واحد؟

نقول: لما كانوا كلهم متفقين على عقرها وأنهم هم الذين حرضوه اشتركوا كلهم في العقوبة، واشتركوا في الحكم أنهم كلهم عقروها.

قال: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: 77]، عاندوا كفروا عن أمر ربهم، وزيادة على ذلك كان موقفهم التحدي، انظروا كيف العتو والاستكبار يصل بصاحبه إلى هذا الحد؟!!

قال: ﴿وَقَالُوا يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: 77]، أعطنا الذي تعدنا به، أنت تقول: سيصيبكم عذاب أليم وما رأيناه، ﴿يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: 77]، إن كنت رسول من عند الله ومن جملة المرسلين أين الذي تقول: ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 73]، ما جاءنا العذاب.

قال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: 65]، بعد ثلاثة أيام ستنزل بكم العقوبة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: 78]، رجفت بهم الأرض، زلزلة قوية، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: 78].

في سورة أخرى قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: 73]، صاح بهم جبريل يعني اهتزت بهم الأرض بقوة، رجفت بهم، ثم صاح جبريل بهم، فأهلكهم، فماتوا جمعًا.

قال: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: 78]، يعني هامدين لا يتحركون، تقطعت قلوبهم وماتوا، ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [الأعراف: 79]، ذهب عنهم صالح ولم يبق معهم، ولم يحضر عذاب الله فيهم، تولى وخرج، أوحى الله إليه أن يخرج هو ومن معه من المؤمنين.

قال: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ﴾ [الأعراف: 79]، حتى بعد هذا كله يناديهم، ﴿يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ [الأعراف: 79]، أنا جئت وأعطيتكم الرسالة، وضحت لكم رسالة ربي، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 79]، نصحتكم، ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: 79]، ما تريدون النصح ولا تحبون الناصحين، فهذه نتيجة من أعرض واستكبر عن أمر ربه، وعتا عتوًا عظيمًا هذه نتيجة.

هذه القصة الحقيقة ينبغي لنا إذا قرأناها وسمعنا تفسيرها أن نأخذ العبرة والعظة منها؛ بأن المعاصي لها شؤم سيئ، وما الذي أهلكهم؟ استكبارهم، وعتوهم، ومعاصيهم، وإفسادهم في الأرض، وعدم طاعتهم لربهم.

فهذه آثار المعاصي والسيئات تدمر البلاد، والعباد، وطاعة الله كلها خير، كلها رحمة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ [الأعراف: 96].

فنأخذ الدروس والعبر من هذه القصة، نقف عند هذه القصة؛ لأن التي بعدها قصة وقد تأخذ منا وقتًا طويلاً، نكتفي بما ذكرناه وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(156)
(الأعراف 80 - 87)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك المتجدد من كلّ أسبوع بعد صلاة المغرب من كلّ أربعاء، نجتمع في هذا المقام المبارك، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألا يحرمنا أجر هذه الجلسة المباركة مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا اليوم هو اليوم الأول من شهر ربيع الأول من عام 1446من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأعراف"** ولا زلنا نقلب صفحات قصص القرآن الكريم التي ساقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للعبرة والعظة وأخذ الدروس، والحيطة وأيضًا البعد عن كلّ ما يغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من معاصي وذنوب وغير ذلك.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما يقص علينا هذه القصص قصة قوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وشعيب، وموسى مع فرعون، وغيرها من قصص القرآن الكريم إنما يسوقها لنعتبر، ونتعظ، ونحذر من سخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ذكرنا في لقاءنا الماضي عددًا، أو تحدثنا عن عدد من هذه القصص، ووقف بنا الكلام عند الآية رقم ثمانين من **"سورة الأعراف"** وهي تحكي لنا قصة قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوم لوط كما أخبر القرآن الكريم أتوا بأمر لم يُسبقوا إليه أبدًا، ولم تفعله البهائم ولا الطيور، حتى قال أحد حكماء وخلفاء بني أمية وهو الوليد: **"لولا أن الله ذكر قصة قوم لوط لم يخطر ببالي أن رجلاً يأتي رجلاً"** فهؤلاء أتوا بأمر لم يسبقوا إليه، يحكي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى قصتهم باختصار ولم يتوسع فيها.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 80].

قال: ﴿وَلُوطًا﴾ [الأعراف: 80]، أي واذكر لوطًا، أو وأرسلنا لوطًا إلى قومه ﴿إِذْ قَالَ﴾ [الأعراف: 80].

✍لوط من هو؟

لوط ابن أخ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو عم لوط، إبراهيم جاء بعد الأمم التي ذكرها الله، نوح، وهود، وهم قوم عاد، وصالح وهم قوم ثمود، ثم بعد ذلك جاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بين آدم ونوح عشرة قرون، وبين نوح أول رسول وإبراهيم عشرة قرون، إبراهيم بعثه الله إلى قومه وأبيه فدعاهم إلى التوحيد وعبادة الله، ولم يستجيبوا له حتى وصل الأمر إلى أن ألقوه في النار فنجاه الله منها، بعدها هاجر وترك بلده العراق وذهب إلى الشام، وكان معه لوط مؤمنًا، ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: 26].

وهاجر معه، فلما هاجر لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ مع إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعثه الله وأرسله إلى أهل سدوم، وسدوم قرية كبيرة يتبعها عدة قرى، وهم قوم لوط، كانوا يسكنون في بلاد الأردن، قريبًا من فلسطين، وأما إبراهيم فقد استقر في فلسطين، هو وزوجه، وبقي هناك.

أرسل الله لوطًا إلى قرية سدوم وما حولها من هذه القرى، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويحذرهم من الإفساد في الأرض، لأن الله أخبر في سورة العنكبوت قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: 29].

فكانوا أهل منكرات وأهل فساد في الأرض، حتى قال: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: 30].

ذكر الله هنا أعظم جريمة وقعت في الدنيا كلها، أعظم جريمة حصلت هي جريمة قوم لوط، قال لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 80].

أجملها قال: **"فاحشة"** لأنها أمر فاحش عظيم، لا يستطيع الإنسان أن يتحدث به إلا عند الضرورة، ولذلك قال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 80].

ما في أحد من العالمين فعلها أبدًا إلا أنتم، ثم بيّن لهم هذه الجريمة، قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف: 81]، يعني تأتون الرجال وتتركون النساء، وتتركون ما خلق لكم لربكم من أزوجاكم، وتأتون الرجال في أدبارهم لمجرد الشهوة، لا غير، فقط شهوة بهيمية، ولا بهيمية، حتى البهائم ما تفعلها.

قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف: 81]، تتركون الذي خلق الله لكم، وتقضون وطركم بما أباح الله لكم، يتركون ذلك ويذهبون إلى أمر لا تقبله العقول السليمة، ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [الأعراف: 81].

أقذر وأوسخ مكان يأتون إليه، ويتلذذون ويستمتعون فيه، هذا من انتكاس الفطرة، انتكست الفطرة عندهم، ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف: 81].

ثم قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: 81]، هذا العمل الذي تعملونه عمل سيئ، والحقيقة هو دليل على أنكم أسرفتم على أنفسكم بالذنوب والمعاصي، هذا هو السبب، أنكم قومٌ لا تبالون بالمحرمات وتنتهكون ما حرم الله عليكم، وتفعلون هذه الأمور التي لا ترضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

في آيات أخرى فسرت قليلاً في دعوته، وأنه دعاهم إلى ترك هذه الفاحشة، وإلى عبادة الله، ودائمًا هم أهل الكفر والضلال إذا نوقشوا بالكلام الطيب وجودلوا بالكلام الطيب ما عندهم حجة ولا عندهم نقاش، ما يستطيع أن يقابل الكلام بالكلام.

ولذلك ليس عندهم إلا استعمال القوة، مثلما قال فرعون، قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29]، ما في تفاهم، إلى في نقاش، يناقش الفكرة ويناقش الكلام؟ لا، ولذلك قوم لوط نفس المنهج.

✍ لما أخبرهم بهذا الخبر وأنكر عليهم ماذا قالوا؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [الأعراف: 82].

ما عندهم جواب، قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: 56]، أخرجوهم لا يبقون عندنا، هؤلاء ما يصلحون يجلسون معنا، أهل النزاهة والطاهرة وأهل العبادة والتقوى يخرجون من البلد التي هم أحق بها، ويبقى أهل الفساد، فعجبًا لهمم.

قال: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: 82]، هم يأتون بهذا الأسلوب على وجه الاستهزاء، والسخرية، يقولون: انظروا إليهم هؤلاء أناس يتطهرون، ويتنزهون عن هذا العمل، يظنون أنهم على الحق.

فلما لم يقبلوا وأصروا وبقوا على جرائمهم، لم يبق إلا أن تنزل بهم العقوبة، لأنهم وصلتهم الدعوة والنصح والوعظ، ولكنهم قومٌ لا يقبلون هذا الشيء.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَه﴾ [الأعراف: 83].

✍ طيب ما آمن أحد معه؟

ولا أحد من هذه القرى السبع اتبع لوطًا وآمن، كلّ على الكفر والفساد والجرائم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: 36]، بيت واحد، وهو بيت لوط وبناته، حتى زوجته ما آمنت، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾، يعني بناته ﴿إِلَّا امْرَأَتَه﴾ [الأعراف: 83]، امرأته على الكفر، وعلى الضلال، ﴿كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: 83]، يعني من الباقين مع الهالكين.

في آية أخرى أن الله أوحى إليه؛ قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: 81].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في العذاب الذي أصابهم: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ [الأعراف: 84]، إذا جاءت كلمة **"أمطر"** هذه تعني العذاب، ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء: 173]، هذا العذاب، ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ [الفرقان: 40]، هذا عذاب، إذا قيل: **"أمطر"**، أما **"مطر"** يعني المطر الماء، أو الخير، أو الغيث.

قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ [الأعراف: 84]، أمطر الله عليهم عذابًا، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 84].

في آية أخرى بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه عذبهم بعذابين، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82]، ثم أمطر الله عليهم، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [هود: 82]، وفي سورة أخرى: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: 33].

فأرسل الله إليهم جبريل كما ذكر أهل التاريخ، فرفع هذه الديار السابع كلها إلى عنان السماء، حتى سمعت الملائكة في السماء صياح الديكة ونباح الكلاب ثم قلبت، جعل الله عاليها سافلها، قلبت عليهم، ثم أتبعوا بالحجارة، مسومة، كلّ حجر باسم فلان، يضربه حتى يحترق، حتى لا يبقى منه شيء.

لاحظ العذاب من جنس العمل، هم قلبوا الفطرة، وذهبوا إلى إتيان الرجال وتركوا النساء، فقلب الله عليهم ديارهم، الجزاء من جنس العلم، قلبت عليهم ديارهم.

هم تلذذت أجسادهم بالحرام، فعذبهم الله بما يصيب أجسادهم كما يُفعل في الزاني يُجلد حتى يتعذب الجلد كما تلذذ، وهؤلاء تُرسل عليهم حجارة تحرقهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: 33]، سماهم مجرمين؛ لأنهم فعلوا أفعالًا جرائم، لا يرضى بها أي عاقل.

السبب في انتشار هذه الجريمة عندهم أنهم كانوا قطاع طريق، وكانوا على السبيل، على الطريق، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ [الحجر: 76].

فكانوا يجلسون، فإذا مرت قافلة أو مر أشخاص أخذوا ما معهم من الأموال ثم سلبوا حتى ثيابهم وجردوهم، يجردوهم من الثياب يجعلوهم يمشون عراة، ثم زين لهم الشيطان أنهم ينظرون إلى عوراتهم، ثم بدؤوا يفعلون بهم الفواحش، كلّ من مر سلبوا ما معه وفعلوا به الفاحشة، ثم انتشرت الفاحشة فيهم.

هذه هي قصة قوم لوط، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر في كتابه تنبيهًا على أن من يفعل هذه الجريمة ليس ببعيد من هذا العذاب، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خاتمة قصة لوط في سورة هود: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 83].

ولذلك حكم أهل العلم أن من فعل فعل قوم لوط أنه يُلقى من أعلى شاهق في البلد ويُتبع بالحجارة حتى يموت، هذا حكمه.

ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85].

✍مدين ما هي؟

نقول: **"هي البلدة التي يسكنها شعيب وقومه"** وهي في الشمال الغربي من الجزيرة، على حدود الشام، وتسمى الآن ببلاد **"البدع"** موجودة، هذه مدين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85]، أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبًا، فدعاهم مثلما دعا غيره من الأنبياء، ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 85].

كان عندهم شجرة عظيمة تسمى **"الأيكة"** كانوا يعظمونها ويعبدونها من دون الله، ويعبدون الأصنام وغير ذلك، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 85].

ثم قال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 85].

✍ما هي البينة؟

أولًا: لنعلم جميعًا أن الرسل كلهم مؤيدون بالحجج والأدلة والبينات، لا يمكن أن يأتي هكذا رسول ما معه شيء، لكن القرآن أحيانًا يذكر لنا هذه البينة مثلما ذكر مثلاً عصا موسى تنقب ثعبان ونحوه، مثل ناقة صالح، وأحيانًا لا يذكرها .

هنا هو يقول: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 85]، هو يثبت أن معه بينة، نقول: نعم معه بينة، لكن لا ندري، لم يذكر القرآن.

قال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 85]، كانوا على طريق الشام والجزيرة، وكانوا أهل تجارات، هم جاءوا بعد لوط مباشرة؛ لأن الله أخبر في سورة هود، قال: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89]، فهم جاؤوا بعد قوم لوط.

قال هنا: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: 85]، كانوا أهل تجارات، وبيع، وكانوا يبخسون الناس في تجارتهم في الكيل والميزان، ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: 85].

✍ما الفرق بين الكيل والميزان ولا المعنى واحد؟

نقول: **"الكيل الصاع"** و**"الميزان بالموازين"** فرق بين هذا وهذا، ليس كلّ ما يُكال يوزن، وليس كلّ ما يُوزن يكال.

قال: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: 85]، لا تنقصوا حقوق الناس، لا تأخذوا حقوق الناس، أشياءهم، هذا حرام لا يجوز، أوفوا الكيل وأعطوا الناس حقوقهم كاملة، ولا تنقصوها.

✍بأي حق تأخذ حقك كامل ولا تعطي الناس حقوقهم؟!!

ولذلك الله توعد من يفعل ذلك، قال: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ 1 الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ 2 وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 1 - 3].

قال هنا: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: 85]، لا تفسدوا في الأرض بالمعاصي، والذنوب، والله قد أصلحها بإرسال الرسل، فلا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها.

عندك شعيب جاء في بعض الأحاديث أنه يسمى بخطيب الأنبياء، لما أعطاه الله من الفصاحة والبلاغة ومحاجة قومه ومناقشته.

قال:

أولًا: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 85].

ثانيًا: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف: 85].

ثالثًا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85].

إن كنتم مؤمنين فلا تفعلوا هذه الأفعال، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 85].

أن تعبدوا الله، وأن توفوا الكيل والميزان، وأن تبقوا في إصلاح لا إفساد في الأرض، هذا خير لكم إن كنتم مؤمنين، ومصدقين بما أقول لكم، فتمسكوا بهذا.

ثم نهاهم أمر آخر؛ قال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: 86]، في كلّ صراط يعني في كلّ طريق، كانوا يخرجون في الطرقات خارج بلدتهم ويجلسون في الطرقات يتوعدون الناس، قطاع طريق، يتوعدون الناس يأخذون ما معهم، ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: 86].

يجلسون في الطرقات لعدة أمور:

الأمر الأول: أنهم يهددون الناس ويخوفونهم، ويأخذون أموالهم، قطاع طريق.

الأمر الثاني: أنهم كانوا يصدون الناس عن دعوة شعيب، مثلما كان أهل مكة يفعلون في صد الناس عن دعوة محمد، كلما جاء شخص يعتمر بمكة قالوا: انتبه عندنا ساحر، عندنا كاهن، عندنا كذا، هنا نفس الشيء، كانوا يصدون، يقولون: لا تسمع من شعيب ولا تطيعه، هذا رجل مجنون، هذا رجل فيه كذا.

أولًا: يتوعدون الناس ويأخذون أموالهم.

الثاني: يصدون عن سبيل الله من آمن به.

إذا جاء شخص يريد الإيمان صدوه، وكذلك من آمن بشعيب وآمن بدعوته حاولوا أن يمنعوه، ويهددوه.

قال: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: 86]، تبغون سبيل الله عوجًا، يعني شريعة الله ودعوة شعيب يريدون أن يشوهون سمعتهم، ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: 86]، يعني ما يريدون إظهارها على حقيقتها؛ بل يشوهونها، فيقولون: انتبه واحذر من شعيب، شعيب يفعل كذا وكذا، وأنه من المفسدين في الأرض ونحو ذلك.

ثم بعد هذه الأوامر والنواهي التي ذكرها، يذكرهم بأمر آخر وهو من نعم الله عليهم، مع أنهم في فساد، وإعراض، إلا وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينعم عليهم.

قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: 86]، أنتم كنتم قليلاً، قليل ماذا؟ كنتم قليل الأموال والأولاد، يعني الله كثركم بالأموال أعطاكم أموال وأصبحتم أهل تجارة، هذا وجه.

الوجه الثاني: أن الله أنعم عليكم بالذرية، رفع عنكم الفقر، ورفع عنكم الأمراض، حتى تكاثرت ذريتكم.

قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86]، انظروا الأمم الماضية، قوم نوح، قوم عاد، قوم صالح، قوم لوط، كلها مرت عليكم، تعرفون وتسمعون تاريخها.

قال: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86]، ما الذي جرى لهم؟ لم عصوا رسولهم وكفرا واستمروا على ما هم عليه نزل بهم العذاب، فلا ينزل بكم العذاب كما نزل بهم.

ثم قال لهم: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا﴾ [الأعراف: 87]، صدقوا واتبعوني، وهم المؤمنون، ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأعراف: 87]، اتبعوني، ﴿وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ [الأعراف: 87]، وهم الكفار والأكثرية، الأكثر أنهم لم يؤمنوا.

قال: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: 87].

كلمة "فاصبروا" تحتمل أمرين:

إما أن تكون اصبروا أيها المؤمنون الذين آمنوا يعني كأنها رسالة لمن تبعه من المؤمنين، قال: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: 87]، وسينصركم الله، كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

فيقول: اصبروا أيها المؤمنون، أو يكون للكفار، إذا كان بعضكم قد آمن بي واتبعني وبعضكم كافر اصبروا وانتظروا وتربصوا حتى يأتي أمر الله.

قال: ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: 87]، سيفصل الله بيننا وبينكم، إن استمررتم على ما أنتم عليه نزلت بكم العقوبات ونصرنا الله ونجانا منكم ومن أفعالكم.

القصة طويلة، وتحتاج وقت أطول، فلعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاَللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(157)
(الأعراف 88 - 95)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا المجلس مجلس القرآن من كلّ أسبوع، نجلس بعد صلاة المغرب من يوم الأربعاء، وهذا اليوم هو اليوم الثامن من الشهر الثالث من عام 1446من الهجرة.

لازلنا في **"سورة الأعراف"** نقلب صفحاتها ونتدبر آياتها، وتحدثنا في لقاءنا الماضي عن قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وشعيب كما جاء في بعض الأحاديث أنه خطيب الأنبياء لما أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من مراجعة قومه ومناقشتهم بالحجة والبرهان.

وشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ بعثه الله بعد قوم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأرسله إلى أهل مدين، وهم أصحاب الأيكة، و**"الأيكة شجرة عظيمة كانوا يعبدونها من دون الله، وكانوا يعبدون الأصنام"**.

وكانوا في طريق بين الشام والجزيرة، هم في أطراف الجزيرة على حدود الشام، وكانوا في ممر، وكانوا يقطعون السبيل على الناس ويؤذونهم، وكانوا أهل تجارات، بيع وشراء ومكاييل وموازين، وكانوا يبخسون الناس أشياءهم.

فأرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهم أرسل إليهم خيرهم خُلقًا، وأدبًا، وسمتًا، وهو شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ فدعاهم إلى التوحيد لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 85].

ودعاهم إلى حسن التعامل مع الناس، وعدم بخس الناس أشياءهم وحقوقهم، ونهاهم عن الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، يقول: صلحت الأرض بإرسال الرسل فلا تفسدوها بالمعاصي.

وأيضًا حذرهم من قطع الطريق، قال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: 86]، تتوعدون الناس وتؤذونهم وتأخذون أموالهم، وتصدون الناس عن سبيل الله، تصدون من آمن، تضيقون على المؤمنين الذين آمنوا بشعيب، يضيقون عليهم كما كان يفعل أهل مكة بالصحابة الذين أسلموا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة.

قال: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: 86]، يعني تضيقون على هؤلاء المسلمين، وتشوهون صورة الإسلام، تقولون: هذه الدعوة دعوة شعيب لا تصلح، ويشوهون صورتها.

ثم بعد ما ذكرهم بهذه الأشياء ونهاهم عن أشياء، وأمرهم بأشياء، ذكرهم بنعمة الله عليهم، فقال أنتم كنتم أعدادًا قليلة وأموالكم قليلة فكثركم الله بالنعمة، بالأولاد، والأموال.

ثم ذكرهم فقال: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 86]، قوم صالح، قوم هود، قوم نوح، قوم لوط أين ذهبوا؟ عاقبة المفسدين أهلكهم الله.

ثم بيّن لهم فقال: إذا كانت طائفة منكم آمنوا معي، والكثير لم يؤمنوا ننتظر حكم الله فينا، ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: 87].

✍ بعد هذا النقاش الطويل، والمناقشة، وإقامة الحجة عليهم، وبيان ما أمرهم به ونهاهم عنه، ماذا كان جوابهم؟

المفترض إذا جاءهم رسول من عند الله بوحي من السماء لهدايتهم وإنقاذهم من النار أن يرحبوا، وأن يستقبلوا، وأن يفرحوا بهذه الهدية، هذه النعمة المسداة يشكر الله عليها، أن الله أرسل لهم من ينبههم، ولكن مع الأسف طبيعة الخلق الكثير من الأمم على هذا المنهج.

قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [الأعراف: 88]، الملأ كبار القوم الذين لهم كلمة تُسمع كلمتهم، وأما من تحتهم فهم أتباع؛ لأنهم هم الذين لهم الكلمة، وهم السادة، وهم الكبراء في المجتمع.

قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [الأعراف: 88]، وصفهم الله بأنهم مستكبرون، ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: 88].

طيب أنا أناقشكم بالحجة والدليل ردوا علي بالحجة والدليل، يصير في نقاش إما أن تقنعوني وإما أن أقنعكم، لكن هؤلاء جهلة ومستكبرين، ويخافون على مناصبهم، فلذلك ما عندهم إلا أسلوب القوة، مثلما قال فرعون لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29]، أنا جئت بالدليل فأعطني دليل.

فهؤلاء مثلما قال قوم لوط، قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: 56]، كلهم على هذا المنهج، إما القتل أو الإخراج.

قال: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ﴾ [الأعراف: 88]، يعني بغير مبالاة، وبغير تقدير، واحترام، ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88]، ترجعون إلى دين الكفر، وعبادة الأصنام، وتكونوا معنا على ما نحن عليه، ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88].

✍ هنا هل يُفهم أن هذا الكلام أن شعيب كان على ملتهم؟

نقول: لا، الأنبياء عصمهم الله ، منذ ولادتهم عصمهم من الشرك والكفر والعصيان، لا يقعون في كبار الذنوب، ولا يقعون في الشرك، وإنما هؤلاء لما قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88]، يقصد من آمن معه؛ لأن شعيب واحد، والذين معه المؤمنون أعدد، فهم يقصدون من آمن.

يقولون: لنخرجنك أنت يا شعيب والذين معك، إلا أن يعودوا كلهم إلى الدين الذي كانوا عليه؛ لأنهم أسلموا معه، واتبعوه، ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88].

قال لهم شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: 88]، حتى هو يناقشهم بالأسلوب الطيب، لو كنا كارهين نعود، نعود لو كنا لا نريد هذا الشيء، هل نقبل هذا الشيء؟ لا نريد أن نعود إلى الكفر، هل تلزمونا بكراهة وقوة؟ هذا لا يمكن أن يُقبل.

قال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: 88]، نحن لا نرضى، مثلما أنكم أمرناكم بالدخول في الإسلام فكرهتم ذلك ولم تقبلوه، فنحن كذلك لا نريد الدخول في الشرك والكفر.

ثم قال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 89].

يقول: الله نجانا من الكفر والشرك وعبادة الأصنام التي مآلها إلى نار جهنم، مآل أهلها إلى نار جنهم في الآخرة، يعني نعود في ملتكم هذا افتراء على الله وكذب.

كيف أن الله عَزَّ وَجَلَّ يمن علينا بالتوحيد وطاعته وعبادته ثم نحن نترك هذا المنهج ونرجع إلى الكفر؟!! هذا افتراء كذب، كأننا نكذب على الله.

الله أرسل شعيب وآمن من آمن معه بعبادة الله وحده لا شريك له، ثم نترك هذا الدين الذي اصطفاه الله لنا، ونرجع إلى دينكم؟ هذا افتراء على الله، وكذب على الله، ما يمكن أن نرجع إليه بعد إذ نجانا الله وسلمنا منها.

قال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾ [الأعراف: 89]، يستحيل أن نرجع إلى الكفر، لما دخل الإيمان بشاشة القلوب، وذاق أصحابه طعم الإيمان ما يمكن أن يخرج من الدين ويرجع إلى الكفر، هذا مستحيل، فهو يكره الكفر أشد الكره، كما أنه يكره أن يلقى في النار.

قال: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: 89]، وهذا فيه أدب مع الله، هم يعلمون أن الله لا يريد أن يعيدهم إلى الكفر، لكن هم من باب الأدب قالوا: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: 89]، إذا أراد الله أمرًا خارج عن إرادتنا فهذا أمر إلى الله، وهذا من قوة التوكل على الله، وتفويض أمرهم أن الله هو القادر على كلّ شيء.

ولذلك قال بعدها: ﴿رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: 89]، الله أحاط بكل شيء علمًا، وعلم ما في نفوسكم، وعلم ما في نفوسنا من الإيمان وحب الإيمان والطاعة.

قال: ﴿رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: 89]، يعني فوضنا أمرنا إلى الله، لن يضرنا تهديدكم وإخراجكم، لن تستطيعوا أن تخرجونا، ولم يخرجوهم، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: 89]، فوضنا أمرنا، هذا موقف قوي من شعيب والذين آمنوا معه.

قالوا: لن يضرنا تهديدكم وتخويفكم، نحن توكلنا على الله، والذي يتوكل على الله كما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3]، الله هو كافيه من أي ضرر.

ومعنى التوكل: **"أن تعتمد على الله في جلب الخير ودفع الشر"** لا يجلب الخير لك إلا الله، ولا يصرف عنك الشر إلا الله، هذا التوكل.

ثم لما رأوا من شدة أسلوب قومه، وتهديدهم بالإخراج والإيذاء قالوا: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89].

افتح يعني احكم بيننا، دعاء شعيب به أن يفصل بينه وبين قومه،خلاص قومه لن يتقبلوا، وبدؤوا يهددون، فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا﴾ [الأعراف: 89]، يعني افصل بيننا، واقض بيننا، خلاص احكم بيننا وبينهم بالحق، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: 89]، خير الحاكمين.

ومع ذلك مع أنهم سمعوا مثل هذا الدعاء وتخويفهم وتهديهم استمروا في ضلالهم، خلاص القلوب منطمسة.

قال: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: 90]، أوصافهم أنهم كفروا، الملأ الذين كفروا من قوم شعيب ماذا قالوا؟ قالوا: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 90].

انظروا إلى الحكم، حكم جزاف من عندهم، يهددون الذين في القرية، وأيضًا يخبرون بهذا الخبر الذي ليس له وجه من الصحة، يقولوا: إن اتبعتم شعيب على ما يدعوكم إليه إذًا تصبحوا خاسرون.

✍ أين الخسارة؟!!

✍ أتبع نبي يوحى إليه، هو يدعوني إلى أن ينقذني من النار ويدخلني الجنة وأكون خاسر؟!!

✍ ما وجه الخسارة؟

قالوا: لأنكم إذا اتبعتموه ستكونوا فقراء، لأنه يقول لكم: **"أوفوا الكيل والميزان، ولا تبخسوا الناس، وأنكم تفعلوا كذا وكذا"** أنتم في خسارة، هذا ظاهر كلامهم، ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 90].

✍ فاستمروا على ضلالهم وكفرهم وطغيانهم، والنتيجة ما هي؟

لما دعا عليهم شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: 91].

في سورة أخرى: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: 94]، وفي سورة ثالثة قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: 189].

نقول: كلّ هذه الأشياء حصلت، رجفت بهم الأرض، وتزلزلت بهم الأرض، وأخذتهم الصيحة حتى ماتوا، وقبل ذلك أنهم كما ذكر أهل التفسير أصابهم حر شديد قوي، حتى الإنسان ما يستطيع أن يجلس في بيته.

ثم أرسل الله عليهم سحاب أظلت ما تحتها، من الظل عن الشمس، فذهبا تحتها فوجدوا هواء بارد، نسيم بارد، فاجتمعوا كلهم، كلّ القرية تحت هذه الظلة، وقالوا: هذا المكان المناسب نجلس تحته.

فجأة صب الله عليهم العذاب صبًا، ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: 189]، فأهلكهم الله بهذا العذاب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ناعيًا عليهم: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: 92]، كأنهم ما أقاموا في هذه القرية، أيام سريعة مرت عليهم، كأنهم ما أقاموا في هذا المكان، ولا مرت عليهم أيام كانت ترف عليهم.

قال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 92]، هم ماذا يقولون؟ يقولون: ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 90]، قال الله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ 92 فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [الأعراف: 92، 93]، خرج هو ومن آمن معه، تركوهم.

قال: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ [الأعراف: 93]، أبلغتكم رسالة رب التي أرسلني بها وأوحى بها إلي، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 93]، أشد النصح، وحذرتكم من مغبة هذا الإصرار على الكفر، ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 93]، كيف أحزن عليهم؟ ما أحزن عليهم، أنا أفرح بهلاك الظالمين، ﴿فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 93].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾ [الأعراف: 94]، أي قرية من القرى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء.

يقول: أرسلنا رسلاً إلى قرى، فكفروا بالرسل وردوهم مثلما فعل قوم نوح، وعاد، وثمود، ردوا رسالتهم، فالنتيجة ما هي؟

قال: ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [الأعراف: 94]، البأساء الفقر، أصابهم الفقر والجوع، والضراء أصابتهم الأمراض والأوبئة.

قال: ﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: 94]، لعلهم يرجعون إذا جاءتهم مثل هذه المصائب، فقر، ومصائب، وأمراض، لعلهم يعرفون نعمة الله فيرجعون ويتوبون إلى الله، لكن لم يتوبوا.

قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: 95]، أذهب الله عنهم الفقر، وأذهب الله عنهم الأمراض، وأعطاهم الصحة والمال، وأعاد لهم حياتهم الطيبة، قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا﴾ [الأعراف: 95]، صحوا، وجدوا الراحة، ووجدوا العافية، ووجدوا المال الكثير.

✍ ماذا قالوا لما جاءتهم العافية؟

هم جاءهم الضر، ثم بدل الله بعد الشدة والكرب الصحة والعافية، ماذا قالوا؟ قالوا:هذه طبيعة الدنيا، طبيعة الحياة، مرة فقر وشدة، ومرة غنى، ما يظنون أن هذه عقوبات وتهديدات، ما يظنوا أن الأول عقوبات، الأمراض والجوع عقوبات، وما يدرون أن الصحة والعافية استدراج، أحيانًا يستدرجهم الله من حيث لا يعلمون، فيقولون: هذه طبيعة الحياة، يعني مرة سراء ومرة ضراء.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 95]، لأنهم عاقبهم بالله بالعقوبات ولم يرتدعوا، ولم يرجعوا، أعطاهم الصحة والعافية لعلهم يشكروا فلم يشكروا، النتيجة، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف: 95]، لا يدرون إلا وقد نزلت بهم العقوبات.

لعل نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاَللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(158)
(الأعراف 96 - 122)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك المتجدد من كلّ أسبوع بعد صلاة المغرب من كلّ أربعاء، نجلس هذا المجلس المبارك مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونسأله أن يرزقنا وإياكم جميعًا العلم النافع والعمل الصالح، وأن ينفعنا بهذا القرآن الكريم، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن؛ الذين هم أهل الله وخاصته.

نقرأ آيات من كتاب الله ونبين معانيها بما يفتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علينا، السورة هي **"سورة الأعراف"**، والآية هي الآية السادسة والتسعون من السورة، وهذا اليوم هو اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول من عام 1446من الهجرة.

بعدما ساق الله لنا عددًا من قصص الأنبياء السابقين، قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، وقصة هود مع قومه عاد،وصالح مع قومه ثمود، ولوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وشعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، خمسة أنبياء ذكرهم الله أرسلهم إلى هذه الأمم الغابرة التي عصت وعتت عن أمر ربها، فنزلت بها العقوبات.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتعقب أو يُعقب على هذه القصص التي ساقها، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ [الأعراف: 96]، الذين ذُكروا وغيرهم، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: 96]، آمنوا يعني صدقوا بما جاءهم عن الله، صدقوا بالله، وبرسله، وبكتبه، وبأخباره، وبكل ما يذكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما يبلغه رسله، لو أنهم آمنوا واتقوا، اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ، واتقوا المعاصي، وابتعدوا عنها، ولم يتساهلوا فيها، آمنوا واتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

لو أن أهل القرى سواء من القرى الماضية، أو حتى وقتنا الحاضر وما بعدنا أهل القرى الناس آمنوا بربهم واتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ، وابتعدوا عن كلّ ما يسخط الله، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفتح عليهم بركات من السماء والأرض، البركات جمع بركة، والبركة هي: **"الخير الكثير المبارك"**.

فتح الله عليهم بركات من السماء بإنزال الأمطار والخير؛ بحيث أنه ينزل الخير من الله والأمطار، ومن الأرض بما فيها من الكنوز، وما فيها من الخيرات، والخضرة، والزروع، والأشجار، والفواكه، فتنتب الأرض، والسماء تمطر، ويصبح الناس في خير، وفي رغد من العيش، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

✍ لكن أهل القرى ماذا صنعوا؟

قال: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا﴾ [الأعراف: 96]، فلما كذبوا لم يؤمنوا ولم يتقوا؛ بل كذبوا وعاندوا، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96].

لا ظلم من الله، الله لا يظلم أحدًا، يأخذهم بسبب ذنوبهم، ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ [الأعراف: 96]، يعني عاقبناهم، الأخذ هنا العقوبة، أخذناهم يعني عاقبناهم بسبب ماذا؟ بسبب كسبهم، بما كسبت أيديهم، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: 30].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن لنا هنا الخبر من عنده أن الناس لو آمنوا وصدقوا جاءهم الخير، فتح الله عليهم كلّ البركات من السماء والأرض، وعاشوا في رغد من العيش، وكانت حالهم حالة

حسنة، لكن لما يكسبوا الذنوب، ويمارسوا الذنوب ويعصون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يأخذهم الله بسبب ذنوبهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مهددًا هؤلاء القرى الذين يبقون على معاصيهم ولا يبالون، يعني تجد بعض الناس يعصي الله ويستغفر ويتوب ويعود، لكن تجد من الناس من يعص الله ولا يبالي، ويقول: أنا ما عصيت، لا يبالي، ولا يخاف، فيهدده الله.

قال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: 97]، هل تأمن مكر الله؟ هل تأمن أن تنزل بك عقوبة وأنت لا تدري؟ تأمن عقوبة الله وأنت تصبح وتمسي على معاصيه؟ قال: ﴿يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: 97]، أي عقوبتنا، ﴿بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: 97]، نائمون في فُرشهم لا يدري إلا وقد نزلت، وأنت تسمع قصص الأولين، قوم لوط يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عذبهم في آخر الليل بسحر، حتى في عصرنا الحاضر تجد أحيانًا تُداهم المدن والقرى والناس في فرشهم نائمون لا يدرون، وهذا وقت الغفلة، ﴿يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: 97].

ثم قال: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ [الأعراف: 98]، هل يأمن أهل القرى، يأمنون مكر الله؟ يعني يكونوا في أمن، وهو يعصي ويقول: ما في عقوبة، الكثير من الناس يعصون ربهم ولا جاءهم شيء، ما في عقوبات، ما يدري أن المعاصي هي أسباب الدمار.

قال: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: 98]، يعني العقوبة، ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: 98]، وقت الضحوة، وقت الغفلة يجلسن في مجالسهم يضحكون ويلعبون، ويخوضون ويلهون، وما يدرون إلا وقد نزلت العقوبة، ما يدري إلا وقد داهمه العدو وهو في غفلة ولا يدري.

فلا يدري الإنسان، إما نائم، أو في غفلة إلا وقد أحاط الله به، الله محيط بالعباد، تنزل به العقوبة، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 99]، الله يمكر بمن يمكر به، إذا أنت تعرف الله، تعرف ربك ثم تعصيه ولا تبالي، ولا تستغفر، ولا تهتم بذلك، وتأمن مكره وتقول: ما في عقوبات، ما في شيء، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99].

الذي يأمن عقوبة الله، يعصي الله ويجلس على المعاصي، ويمارس المعاصي، ويقول: الله غفور رحيم، الله رحيم بعباده، ولا يبالي، ما هي النتيجة؟ قال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 99].

القوم الذين خسروا أنفسهم هم الذين،، أما الذين يعرفون عظمة الله، ويخافون من عقوبته، ويبتعدون عن معاصيه، ويكثرون من الاستغفار هؤلاء يسلمون من عقوباته.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطبًا من جاء بعد هؤلاء الذين أهلكهم الله من الأمم الماضية: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ [الأعراف: 100].

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ [الأعراف: 100]، يعني يتضح ويتبين ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ [الأعراف: 100] ، يعني أناس يأتون ويرثون من قبلهم، أمم تمضي وأجيال، هؤلاء يذهبون ويأتي مكانهم أناس، وهؤلاء يذهبون ويأتي مكانهم أناس.

الذين يأتون مكان من قبلهم يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أولم يهد لهم ويتبين لهم وهم يرثون من بعد أهلها ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: 100].

يقول: إذا استمروا على ذنوبهم يصيبهم ما أصاب الأمم الماضية، فما يتضح لهم ولا يتبين لهم أنهم يأتون مكانهم، أين هم؟ أنتم جئتم في مكانهم، وهم أين ذهبوا؟ هم أصابتهم العقوبات بسبب ذنوبهم وأنتم تمارسون الذنوب، وتعصون الله فيصيبكم ما أصابهم، فلينتبه الغافل.

قال: ﴿أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأعراف: 100]، يعني نعاقبهم على ذنوبهم، وأشد من ذلك قال: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100]، وهذا أشد، يعني لما تنزل العقوبة العامة ويهلكون جميعًا خلاص ينتهون، لكن لما يبقى والله يعاقبه هذا أشد، يعاقبه بأي شيء؟ بأن يطبع الله على قلبه فلا يفقه، خلاص طبع الله وختم على قلبه ما يميز بين الذي يضره والذي ينفعه.

فيطبع الله على قلبه وهذا أشد العقوبات، أشد العقوبات أن تدري أن الشخص قد طبع الله على قلبه وختم الله على قلبه ويمشي بين الناس ولا يبالي، ما يبالي بين ما يضره وما ينفعه، ما يهمه، هذا أشد طبع القلوب.

قال: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100]، يسمعون ماذا؟ تعظه ولا ما تعظه، تذكره ولا ما تذكره ما يسمع خلاص ختم الله، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].

خلاص أغلق على القلب وخُتم عليه، ما يدخله شيء، مستحيل أن يدخل، مثل العلبة إذا أُغلقت وختم عليها ما يدخلها شيء، ومثل الكأس أو الكوب إذا قلبته، هل تصب فيه ماء وهو مقلوب؟ ما يمكن أن يدخله شيء، فهذا هو، يُعاقبهم الله عقوبات أشد، ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: 100].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ [الأعراف: 101]، التي مضت وذكرناها لكم، ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [الأعراف: 101]، نقصها عليك يا محمد؛ لأن الخطاب له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولًا، ونقص عليك أنت أيها المخاطب وأنت تقرأ هذه السورة، الله يقص عليك أنت يا من تسمع.

قال: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ [الأعراف: 101]، أي من أخبارها، يعني هذه أخبار قليلة وليست كثيرة، ما فصل الله تفصيلاً طويلاً، ولم يذكر لك الأمم كلها؛ بل ذكر لك بعض الأمم، وذكر لك بعض القصص، قال: ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا﴾ [الأعراف: 101].

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ [الأعراف: 101]، كلٌّ جاءه رسول، نوح أرسله الله إلى قومه، مكث فيهما تسعمائة وخمسين عام وهو يدعوهم، كلّ الرسل قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الأعراف: 101]، بالحجج والأدلة الواضحة حيث لا يبقى حجة عليهم، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأعراف: 101]، ما يريدون الإيمان، رفضوا الإيمان.

قال: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: 101]، ما يريدون الإيمان، رفضوا الإيمان، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: 101]، هم لما جاءتهم الرسل كذبوا مباشرة وردوهم، فلما ردوهم طبع الله على قلوبهم وأبعدهم فما يؤمنوا، لأنهم ما تقبلوا الرسالة، وما تقبلوا ما جاء به الرسول، فحُجب بينهم.

قال: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: 101]، لما كذبوا من قبل حرموا الإيمان، وطُبع على قلوبهم؛ لأنه لما جاءهم الرسول ودعاهم وبيّن لهم الحجج والأدلة والبينات رفضوا واستكبروا، وردوا رسالته، خلاص لا يستطيعوا أن يؤمنوا، لماذا؟

قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 101]، واحذر أيها الأخ الفاضل، احذر واسمع أن الإنسان إذا جاءته الموعظة، وجاءه التحذير ثم هو لم يبالي هذا أخطر شيء، قد يطبع الله على قلبه فيطمس عليه ما عاد يتقبل، إذا جاءتك موعظة، جاءك تحذير، أحيانًا أيها الأخوة المواعظ ليس من الضروري أن يأتيك رسول يُرسل إليك، من أنت حتى يُرسل الله لك رسول؟!

أحيانًا تأتيك مواعظ عقوبات وابتلاءات فتعرف أن هذه العقوبات والابتلاءات من الله هي تحذير لك، يعني تأتيك إنذارات من الله وأنت لا تدري، تأتيك عقوبات وابتلاءات في الدنيا ومصائب هذه كلها رسل من الله، تحذير؛ فإذا أنت لا تبالي، تأتيك بمصيبة ولا تبالي، وتأتيك

مصيبة ولا تبالي وتمشي في معاصيك الله قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 101]، الجاحدين نعمة الله.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: 102]، هؤلاء الأمم التي أرسلنا إليهم ما وجدنا لأكثرهم من عهد، يعاهدون وينقضون، يعاهدون وينقضون، إذا أصابتهم مصائب يعاهدون وينقضون.

قال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: 102]، يقول: بل وجدنا الأكثر منهم على الفسق، والخروج عن طاعة الله، هؤلاء هم الأمم الماضية، ومضت سنين طويلة ومدة حتى بعث الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بعثه الله إلى ملك مصر فرعون الذي كان في مصر، بعث الله إليه موسى يدعوه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يترك الاستكبار في الأرض وادعاء الربوبية؛ لأنه كان يدعي الروبية، ويدعي الإلوهية، ويقول: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38].

فأمر الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: 19]، دعاه إلى التوحيد وطاعة الله، ولكنه استكبر، ودعاه أيضًا إلى أن يفك بني إسرائيل، أرسلهم معي، لا تعذبهم، أنت الآن تعذب أمة كاملة، فأبى أن يطلق بني إسرائيل، وأبى أن يُذعن ويعود إلى ربه، فذكر الله قصته.

وسورة الأعراف توسعت في قصة موسى وستأخذ معنا وقتًا طويلاً، أكثر من سبعين آية، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: 103]، أي من بعد هؤلاء الأمم التي ذكرت، بعث الله ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: 103]، بالآيات والحجج والأدلة، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف: 103]، ملأه يعني حاشيته التي يجالسونه ويأخذ رأيهم ويأخذون رأيه، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف: 103].

بعثه الله بالآيات، جاء ودخل على فرعون وقال: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 104]، فإذا فرعون ومن عنده يضحكون، أنت رسول؟!! يا موسى أنت بالأمس كنت عندنا وقتلت نفسًا وفررت، وربيناك وليد صغير، الآن تدعي أنك رسول؟ كيف رسول؟ قال: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 104].

قالوا: أعطنا آية، ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ 107 وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: 107 - 109]، قال: هذه آية، وهذه آية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف: 103]، ظلموا بها يعني جحدوها، ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 103]، فرعون ومن معه هم مفسدون في الأرض.

ثم بدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفصل لك القصة، قال: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَافِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 104]، أرسلني رب العالمين، رسول من ربك ورب العالمين جميعًا.

قال: ﴿حَقِيقٌ﴾ [الأعراف: 105]، يعني حقًا لا كذبًا، ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: 105]، يقول: جدير أن ما أقول على الله إلا الذي كلفني به وأوحى به إليّ.

قال: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 105]، جئتكم ببينة بالآيات من ربكم، تثبت أني رسول من ربكم، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 105]، أطلقهم، بني إسرائيل أنت تعذبهم، تقتل وتستحي النساء وتعذبهم وتستخدمهم وتهينهم، اتركهم معي.

قال فرعون: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا﴾ [الأعراف: 106]، إن كان عندك آية أو علامة على صحة كلامك ﴿فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: 106]، إن كنت صادقًا أي آية؛ حتى نعرف أنك صادق في كلامك.

قال: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ [الأعراف: 107]، شوف على طول جاءت الفاء، ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 107]، واضح أنه ثعبان ضخم وهو الذكر من الحيات.

في سورة أخرى قال: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: 20]، الحية هي أثنى الثعبان، وهنا قال: ثعبان ذكر، كيف مرة ذكر ومرة أنثى؟ نقول: لما كان عند جبل الطور وكان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريد أن يبين له الآية العظيمة ألقى عصاه فإذا حية صغيرة، قال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: 21]، لما جاء في مقابلة هذا العدو لابد أن يقابله بشيء عظيم، ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 107]، واضح وضخم جدًا حتى فرعون وكلّ من حوله فروا منه لما رأوه، وإذا هو يتحرك في الأرض يذهب ويأتي خرجوا جميعًا وفروا منه.

قال: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: 108]، أدخل يده في جيبه، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [النمل: 12]، لما أدخلها في جيبه في فتحة العنق ثم أخرجها أمام فرعون فإذا نورها يغطي نور الشمس، شعاع قوي، هذه آية عظيمة، ثم ترجع طبيعية، ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: 108].

قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: 109]، الملأ الحاشية أحيانًا يضلون من عنده، ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 109]، قالوا: هذا ساحر، وصاحب علم في السحر، ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الأعراف: 110]، هم أهل الضلال، ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: 110].

يُريد أن يخرجك يا فرعون ومن معك فماذا تأمرون؟ ماذا تشيرون علينا؟ قال: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: 111]، اتركه أعطه فرصة هو وأخاه، نعطيه أيامًا ثم نأتي به، ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: 111]، يعني أخره، ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف: 111]، أرسلوا في المدائن يعني المدن التي حول مصر حاشرين، يعني احشروا السحرة وأتوا بهم جميعًا، حتى وصل العدد إلى ثلاثمائة ساحر، فجاءوا بالسحرة كلهم.

قال: ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الأعراف: 111]، أرسل أناس وجنود يحشرون لك هؤلاء السحرة ويأتون لك بالسحرة، ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: 112].

قال: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: 113]، لما جاؤوا عرفوا أن فرعون محتاج إليهم، فانتهزوا الفرصة، ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: 113]، تعطينا أجر؟ قال: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: 114].

يقول: أعطيكم الأجر الذي يرضيكم وأقربكم عندي زلفى ومكانة، فلما اجتمعوا مع موسى، وموسى قد وقف أمامهم وليس معه إلا العصا قالوا: ﴿يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ﴾ [الأعراف: 115]، عصاك، ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: 115].

هم ماذا معهم؟ معهم حبال وعصي، جمعوا حبالًا وعصيًا واجتمعوا معه في وقت الضحى، وكلّ واحد معه حبل وعصى، وهذه الحبال والعصي جعلوها على شكل الثعابين، ووضعوا عليها الزئبق في الشمس الحارة بدأت تتحرك، وسحر يحركها.

قال: ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ 115 قَالَ أَلْقُوا﴾ [الأعراف: 115، 116]، وهذا من قوة الجزم، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]، قال: أنتم ألقوا، أنتم سحرة وأنا لست ساحرًا، أنا رسول من عند الله، والتي معي آيات من الله، فألقوا ما أنتم ملقون.

قال: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: 116]، هذه الحبال والعصي الناس يخيل إليهم إنها ثعابين، ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: 116]، أخافوهم، حتى فر عدد كبير منهم، ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: 116]، ليس أي سحر؛ بل جاؤوا بسحر عظيم، ولذلك أوجس في نفسه موسى خيفة، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى 67 قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: 67، 68].

قال الله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: 117]، فلما ألقى عصاه فإذا هي ثعبان عظيم، بدأ يأكل هذه الحبال والعصي، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 118]، الحق بقي، والثعبان بقي، وهذه كلها انتهت ما لها دور، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 118].

قال: ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 119]، غلبوا ورجعوا حقيرين صغيرين، ولكنهم منّ الله عليهم بالإيمان فآمنوا، ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: 120]، لما رأوا الآية أنها من عند الله، ولم يشكوا؛ لأنهم هم أهل سحر ويعرفون السحر، قالوا: هذا ليس بسحر، فآمنوا رب العالمين، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ 121 رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: 121، 122].

الآيات تطول علينا، لكن نقف عند هذا القدر، وإلا الحديث طويل والقصة طويلة، نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(159)
(الأعراف 123 - 137)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُك عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم الأربعاء الموافق للثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من عام 1446من الهجرة.

مجلسنا المبارك في هذا الجامع مع القرآن الكريم نجلس دقائق معدودة نقرأ فيها آيات من كتاب الله ونبين معانيها وما فيها من توجيهات ربانية، ومواعظ وتذكير.

و**"سورة الأعراف"** التي بين أيدينا، وقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون، ومع السحرة، وماذا جرى بينهم؟ هذه القصة تحدثنا عنها في لقاءنا الماضي لما دخل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهارون دخلوا إلى فرعون وأخبروه بالرسالة، وطلبوا منه الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يُرسل معهم بني إسرائيل، وأن يفكهم من الأذى والإيذاء، أبى وامتنع واستكبر وقال: إن هذا ساحر، ولابد أن نجمع له سحرة حتى نهزمه بالسحرة، ونبين أن سحره سحر لا يُقبل ولا نقبل منه هذا.

وأيضًا قال معه حاشيته وآل فرعون معه، قالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: 111]، يعني أعطه مهلة وقت، ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ﴾ [الأعراف: 111]، يعني في المدن، ﴿حَاشِرِينَ 111 يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ 112 وَجَاءَ السَّحَرَةُ﴾ [الأعراف: 111 - 113].

اجتمع سحرة مهرة وجاءوا إلى فرعون، قالوا: يا فرعون ألنا أجر إذا كنا نحن الغالبين؟ قال: نعم؛ لأنه محتاج إليهم، قال: نعم لكم أجر، وأيضًا ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: 114]، أي لكم مكانة، ونقربكم عندنا، ولأن موسى نصحهم ووعظهم، قال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: 61]، فترددوا أن يقبلوا أن يمتنعوا، ثم لما رأوا أن فرعون سيعطيهم ما يعطيهم، قالوا: ﴿يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: 115].

موسى واثق، موسى معه ربه، ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]، وموسى قد وثق؛ لأنه معه آية ومعجزة، ليس معه أي شيء؛ معه آية من الله عَزَّ وَجَلَّ، ومعجزة، وهؤلاء سحرة، فبثقته قال: ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ 43 فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ 44 فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: 43 - 45]، تقفل كلّ ما ألقوه، وتلقف كلّ ما كانوا يأفكون ويكذبون، من الإفك والكذب والسحر.

قال: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ 118 فَغُلِبُوا هُنَالِكَ﴾ [الأعراف: 118، 119]، أكثر من ثلاثمائة ساحر يجتمعون أمام موسى وهارون ويغلبهم، ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 119]، حقيرين، فانهزموا، فعرفوا أن هذه آية من آيات الله، ليست سحر، هم يعرفون السحر، هم مهرة في السحر، وعرفوا أن هذه آية وليست سحرًا؛ ولذلك عرفوا أن الحق مع وموسى، وأنهم على باطل، لذلك دخل الإيمان في قلوبهم وعرفوا أن هذا هو الحق.

قال: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الأعراف: 120]، وأعلنوا إيمانهم أمام فرعون وأمام الملأ، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ 121 رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: 121، 122].

وفرعون لكونه مستعليًا، ومستبدًا بحكمه، ومستعلٍ عليهم، ومفسدًا في الأرض يظن أنه هو الذي له الحكم، ليس أحد فوقه، قال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ [الأعراف: 123]، مستنكر عليهم كيف تفعلون هذا؟!

قال: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ [الأعراف: 123]، بموسى، ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: 123]، أنا ما أذنت لكم بالإيمان، انظر إلى الجبروت والتسلط والاستبداد قبل أن آذن لكم، من الذي أذن لكم؟ ثم حكم عليهم حكم حتى يموه على الناس ويضحك على الناس؛ حتى يثبت نفسه أمام هذه القضية، وأمام هذا الأمر.

فقال: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ [الأعراف: 123]، الذي فعلتموه أيها السحرة، ﴿لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف: 123]، هذا الذي فعلتموه مكر، تمكرون بنا أنتم، هذه اتفاقية بينكم وبين موسى؛ حتى تُخرجوا من المدينة أهلها.

قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: 123]، تريدون أن تخرجوا منها أهلها، هو يحرض الناس، ولذلك قال: ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: 123]، وهم ما يخرجون أهلها؛ بل هم يريدوا أن يظهروا الحق، وأن يظهروا الإيمان، فيريد أن يحرض الناس على موسى ومن معه.

قال: ﴿لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: 123]، ثم هددهم، فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 123]؟

✍ ماذا ستصنع بنا يا فرعون؟

قال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ [الأعراف: 124]، يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، ويقطع اليد اليسرى مع الرجل اليمنى يعني من خلاف، هذا الحكم هذا الفعل يُفعل بمن؟ يُفعل بالمفسدين في الأرض، المحاربين، ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾ [المائدة: 33].

هذا ليس لموسى وليس للسحرة الذين آمنوا، ولكن فرعون يقلب على الناس، ولذلك قال: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 124]، وفي آية أخرى قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: 71]، يعني يشهر بهم الناس؛ حتى الناس يُمسكوا ولا يدخلوا في دين موسى، فلذلك يهدد الناس هو الآن، ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: 124].

✍ ماذا كان موقف السحرة؟

لما دخل الإيمان بشاشة القلوب خلاص، ما عاد يهمه أي شخص، يقتل ما يقتل، يفعل ما يفعل، افعل ما تشاء، ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا 72 إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا﴾ [طه: 72، 73]، خلاص انتهى الأمر، ولذلك قالوا: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: 125]، يعني إنا إلى ربنا راجعون، قتلتنا أو متنا فنحن راجعون إلى الله، ماذا تصنع بنا؟ فافعل ما تشاء.

🗐 هنا سؤال ذكره بعض المفسرين يقول:

✍ هل فرعون نفذ ما يقول واستطاع أن يقتلهم جميعًا ولا مجرد تهديد؟

القرآن ما بيّن ذلك، وإنما ذكر وعيده وتهديده فقط في كلّ الآيات، فبعض العلماء قالوا: ما استطاع؛ لأن الله حماهم وحفظهم، ولكن مجرد تهديد فقط؛ لأنه كان يقول: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: 26].

موسى يبدل دينهم، وموسى يُظهر في الأرض الفساد، وأنت يا فرعون ماذا تصنع؟!! فرعون يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 4]، وقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: 31]، فرعون هو المفسد، لكن هو يقلب هذه أمام الناس، ويموه الناس بأنه هو الذي يُصلح وموسى هو الذي يفسد.

✍ فهل نفذ أو أن الله حفظهم وحماهم؟

بعض المفسرين يقولون: نعم، وأنه قاتل.

وبعضهم قالوا: ما استطاع؛ لأنه قال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ [غافر: 26]، ولم قتله.

فالله أعلم بذلك، حالهم لم ذكره القرآن، ولذلك ما نستطيع أن نقول: أنه نفذ وقتلهم وقطعهم، قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو أنه لم يستطيع ذلك لهيبته من الله وخوفه؛ لأن في نفسه يخاف من الله.

قال: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ 125 وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأعراف: 125، 126]، قالوا: ما عندك كلام، ما عندك حجة، ولا تعيب علينا شيء، ما هو العيب فينا؟ هل العيب أننا آمنا؟!!

قال: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأعراف: 126]، ما في سبب لنقمتك علينا إلا الإيمان فقط، وهل هذا عيب؟!! هذا ليس بعيب، ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ [الأعراف: 126].

ثم لما رأوا من شدة تهديده وتخويفه لجئوا إلى الله بالدعاء، وهذا الذي ينبغي للإنسان إذا ألم به أمر واشتد به الكرب أن يلجأ إلى الله ويدعو ربه، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: 62]، هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: 62]، هو الذي يكشف السوء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [الأعراف: 126]، القضية تحتاج إلى صبر، تهديد بالقتل والتقطيع، وليس عندنا إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نلجأ إلى الله وندعوه أن يفرغ علينا صبر.

تأملوا كلمة **"أفرغ"** إفراغ الإناء أي تأخذ كلّ ما فيه وتفرغه، وهم يريدون أن يفرغ الله عليهم صبرًا، ما قالوا: أعطنا صبرًا؛ ولكن أعطنا صبرًا نستطيع أن نتمسك بهذا الدين ونصبر على إلى يأتينا من أذى، ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [الأعراف: 126].

ثم قالوا وهو أمر في الحياة وهو حسن الخاتمة، قالوا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126]، نريد أن نموت على الإسلام، أما ما يُصنع بنا يصنع ما يصنع، هذه حياة قليلة مدتها قليلة، لكن الكلام نسأل الله أن يختم لنا بخير، ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: 126].

✍ طيب هل ترى يعني أن حاشية فرعون وقوم فرعون والذين حوله يسكتون للأمر؟

هم لا يريدون انتصار موسى ومن معه، هم يريدون أن يبقى فرعون في حكمه، لماذا؟ لأن لهم مصالح، لأنه إذا ذهب فرعون وسقطت دولة فرعون تذهب مصالحهم وهم يريدون الثبات.

قال: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: 127]، هذه الحاشية المفسدة، ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 127]، حتى هم معه، يحكمون على موسى ومن معه من المؤمنين أنهم يفسدون في الأرض، أتترك موسى وقومه يفسدون في الأرض؟

قال: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: 127]، يذرك أنت وما أنت عليه من عباداتك التي تعبدها، قيل: إنه كان يعبد العجل، وقيل: إنه كان يعبد إله، وقيل: إنه هو يدعي الإلوهية، ويأمرهم بعبادته، ولذلك تُقرأ هذه في قراءة أخرى: **"ويذرك وإلهك"** يعني أنت إله؛ لأنه قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38].

قالوا: سيتركك وآلهتك ولا يعبدك، وتترك موسى ومن معه أن يفسدوا في الأرض، انظروا إلى التحريض، فماذا كان موقف أو رد فرعون؟

قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: 127].

✍ طيب هو في الأول يقتل كيف الآن سيقتل؟

يعني: سنزيد في القتيل، ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: 127]، سنستمر ونزيد في قتل أبناءهم الذكور، وأما البنات ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: 127]، يعني نبقيهم، نستحي هنا معناها من الحياة، أي نبقيهم أحياء، لا نميتهم، هؤلاء نقتلهم، وهؤلاء نتركهم، طيب لماذا تتركهم؟ قال: نتركهم يخدموننا، البنات والنساء ما يقتلون عند فرعون.

✍ في قانون فرعون النساء ما يقتلون، لماذا؟

قال: من يقوم بخدمتنا؟ النساء هم الذين يعملون عندنا، أما الذكور ستقتلهم.

قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: 127]، انظروا إلى الجبروت والطغيان والإفساد في الأرض، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: 127]، سنقهرهم قهرًا، ونتسلط عليهم ونؤذيهم.

✍ فماذا كان موقف بني إسرائيل الذين آمنوا وغيرهم؟

✍ وماذا كان موقف موسى؟

قال موسى لقومه: لا يضركم، ما يهدد به ويتكلم به هذا لا يضركم، لماذا؟ قال: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ [الأعراف: 128]، استعينوا بالله أي أطلبوا العون من الله أن يعينك، الاستعانة طلب العون من الله أن يعينك على هذا الشيء، أنت ما تستطيع أن تفعله إلا بعون من الله.

قال: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: 128]، في مثل هذه المواقف الصعبة تحتاج إلى صبر، ثم قال: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ [الأعراف: 128]، ليست لفرعون، ولا مصر لفرعون ولا لغيره، ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ [الأعراف: 128]، والحياة دول، اليوم لفرعون، وغدًا يذهب فرعون وتكون الغلبة لكم.

قال: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]، ليست العاقبة للمفسدين في الأرض، والعاقبة للكفار؛ بل للمتقين، وستكون العاقبة لكم، فانتظروا واصبروا، واستعينوا بالله.

قال بنو إسرائيل لموسى: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: 129]، نحن آذانا فرعون، ليس هذا الأذى جديد علينا، آذانا قبل أن تأتي، قبل رسالتك وقبل بعثتك وهو يؤذي بني إسرائيل، ويقتلهم، ويستحي نساءهم، والآن زاد في ذلك.

قال: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ﴾ [الأعراف: 129]، دعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه، قال: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129]، يدعو على هلاك فرعون، وأن الله يستخلفهم مكان فرعون، ولكن لابد لهم أن يعملوا بما أمرهم الله ولا يفسدوا كما أفسد فرعون.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130]، بعدما انهزم فرعون وحاشيته والسحرة، وأعز الله؛ لأنه ذكر أهل التفسير وأهل التاريخ أنه لما انتصر موسى في قضية السحرة أسلم عدد كبير، حتى أسلم عدد من آل فرعون، عرفوا الحق، لذلك فرعون استمر ومن معه على إفسادهم وطغيانهم، على حربهم لموسى ومن معه، وإيذائهم لهم، فبدعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الله أرسل عليهم مثلما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: 130].

السنين أي القحط والجدب، دائمًا إذا جاءت كلمة السنة والسنين فتعني القحط والجدب، قال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: 130]، هذه من العقوبات التي نزلت بهم، ﴿بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: 130]، بدأت الثمرات تنقص عندهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 130]، لعلهم

يرجعون، إذا رأوا هذه الأشياء تأتيهم عقوبات من الله لعلهم يرجعون، لكن ليس لهم عقول، وإذا ما كان في إيمان ما يكون في تفكير، ولا في معرفة للحق.

✍ ولذلك ماذا حكموا؟

إذا رأوا القحط والجدب ما يعتذرون ويقولوا: هذه عقوبات، لا، قال: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: 131]، يقولوا: نحن أحق، هذه الحسنة لنا نحن لأننا نستحقها، إذا جاءتهم الحسنة جاءهم الخير والأمطار، وكثر عندهم الخير والزرع والحرث والنسل قالوا: هذه نحن نستحقها، هذه لنا، ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: 131].

قال: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [الأعراف: 131]، بمعنى القحط، والمرض، والجدب، والفقر، يقولون: هذا سبب موسى، ﴿يَطَّيَّرُوا﴾ [الأعراف: 131]، يعني يتشاءمون موسى، قالوا: هذا من موسى ومن معه، ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: 131].

قال الله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 131]، هذا الشؤم والمصائب هي من الله، ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: 79].

قال: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 131]، جهلة، لا يعلمون، جهال، ومن شدة تمسكهم وعنادهم وكفرهم وإصرارهم على الكفر يقولون: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ [الأعراف: 132]، أي آية تأتينا بها ﴿لِتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: 132]، ما زالوا يتهمون موسى بالسحر، ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 132].

يقولون: مهما تأتينا من آية، جئتنا بالعصا، وجئتنا باليد، وآيات كثيرة، تسع آيات، مهما تأتنا بآية لن نؤمن لك، ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 132]، فزادهم الله من العقوبات، خمس عقوبات متتالية غير السنين، وغير القحط.

قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: 133]، أرسل الله عليهم الطوفان، وهو أمطار شديدة أو سيول قوية، أو فيضانات، فامتلأت بيوتهم، وزروعهم، ومات الزروع وغرق منهم من غرق، أرسل عليهم الطوفان لعلهم يرجعون.

قال: ﴿وَالْجَرَادَ﴾ [الأعراف: 133]، ثم أرسل عليهم الجراد بدأت تأكل حروثهم، ما تُبقي شيء من الزروع، ﴿وَالْقُمَّلَ﴾ [الأعراف: 133]، ما هو القمل؟

قال بعضهم: هو صغار الجراد، وقال بعضهم: هي السوس تأكل ثمراتهم تأكل نخيلهم حتى يتساقط النخيل، والله أعلم.

قال: ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ [الأعراف: 133]، انتشرت عندهم الضفادع، وامتلأت القدور والمطابخ، والمجالس، وغرف النوم كلها ضفادع، لا تستطيع أن تنام، أو تجلس، أو تأكل، أو تشرب، امتلأت الدنيا ضفادع، عقوبات.

قال: ﴿وَالدَّمَ﴾ [الأعراف: 133]، بعضهم يقول: الرعاف، بدأ ينزل الرعاف من الأنف، ينزل رعاف شديد، وبعضهم يقول: أن الماء انقلب دم، إذا جاء الفرعوني القبطي يشرب الماء في الإناء انقلب الماء دمًا، كلما جاء يشرب ما يستطيع، إذا أراد أن يغسل تنقلب كلها دم، فتحسروا وتأذوا من هذه الأشياء، آيات هذه من الله عقوبات، ﴿آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: 133]، آيات مفصلات واضحات أنها عقوبات، ما كانت تأتيهم أولًا، فاستكبروا ولم يذعنوا لربهم، ولم يستجيبوا لموسى، ولم يؤمنوا، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: 133].

أصحاب جرائم، لم يرتدعوا، لما وقع عليهم الرجز والعذاب وقيل: إنه الطاعون، قالوا: ﴿يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ [الأعراف: 134]، لما اشتد عليهم البلاء التفتوا إلى موسى،

قالوا: ﴿يَامُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: 134]، خله يكشف عنها الرجز، ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 134].

يقول فرعون ومن معه: ارفع عنا هذا البلاء والطاعون والوباء الذي أصابنا ونؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، قال الله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ﴾ [الأعراف: 135]، أزال الله عنهم الرجز، هل استمروا على عهدهم؟ قال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: 135]، إلى وقت هم بالغوه بمعنى أنهم نكسوا ونقضوا العهد فانتقم الله منهم، خلاص بعد هذه الآيات كلها ما نفع معهم.

✍ النتيجة ما هي؟

قال: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [الأعراف: 136]، انتقم الله منهم فأغرقهم في اليم، لما أوحى الله إلى موسى أن اخرج ومن معك، هاجروا واخرجوا من مصر، علم فرعون بخروج موسى ومن معه، فجهز الجيوش ولحق به، لحق به حتى يصل إلى حتفه إلى موته، فلما وصل إلى البحر وجاوز الله ببني إسرائيل البحر أغرق الله فرعون.

قال: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [الأعراف: 136]، أي فرعون ومن معه، بسبب ماذا؟ قال: ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 136]، السبب تكذيبهم وغفلتهم عن آيات الله، آيات عقوبات تغفل عنها وتكذب بها؟!!

قال الله عَزَّ وَجَلَّ لما أغرق فرعون: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ﴾ [الأعراف: 137]، أي بني إسرائيل، ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ [الأعراف: 137]، يستضعفون ما بين مصر والشام، ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: 137]، هذه الأراضي، وهذه الأماكن، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: 137].

استجاب الله دعوة موسى، وأغرق فرعون وأهلكه، ومكن لبني إسرائيل، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: 137]، كلمة الحسنى وهي النصر ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: 137]، بسبب صبرهم، ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ [الأعراف: 137]، دمرهم الله وأهلكهم، كلّ ما كانوا يصنعون من العروش والزخارف والقصور أذهبها الله، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137]، وما كانوا يعرشون ويفعلون من هذه الأفعال.

نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل مثل هذه القصص الجميلة، القصص التي فيها مواعظ وفيها تذكير، نسأل الله أن ينفعنا بها.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(160)
(الأعراف 138 - 149)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم مغرب الأربعاء الموافق للتاسع والعشرين من شهر ربيع الأول من عامة 1446من الهجرة.

نجلس هذا المجلس المبارك ونسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وألا يحرمنا فضل هذا المجلس المبارك، السورة التي نتحدث عنها في لقاءات ماضية ولا زلنا فيها هي **"سورة الأعراف"** وقف بنا الكلام عن الآية الثامنة والثلاثين بعد المائة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ [الأعراف: 138].

✍متى جاوز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ببني إسرائيل البحر؟

الجواب: لما أوحى الله إلى موسى أن يسري بالمؤمنين ويخرج بهم ويهاجر من مصر لما وجد من أذى فرعون لقومه، وتعذيب فرعون لهم، أمره الله بالهجرة، فهاجر، فلما علم فرعون بخروج موسى بالليل، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: 52].

فلما علم فرعون بخروج بني إسرائيل من مصر نادى في المدائن أن يحشر معه جنود أعداد هائلة، وخرج هو بنفسه ليشرف على أن يُرجع موسى ومن معه، ويعيدهم إلى مصر.

فخرج بكبريائه وقوته وجبروته هو ومن معه، فلحقوا ببني إسرائيل، وبنو إسرائيل قد تقدموهم، فلما وصلوا إلى البحر شرقًا قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 61]، البحر أمامنا والعدو خلفنا قد قدموا، تراءى الجمعان أصبح كلّ واحد ينظر إلى الآخر، فقال موسى: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62].

فأوحى الله إلى موسى، ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء: 63]، فانفلق البحر، وقال الله في آية أخرى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: 77]، يابس، ليس فيه ماء، فضربه بعصاه فأصبح طرقًا متعددة، أصبح اثني عشر طريقًا على عدد بني إسرائيل، فضرب لهم البحر، ودخلوا في البحر وبدؤوا يمشون في البحر إلى أن قطعوه، فلما قطعوه فإذا فرعون على شاطئ البحر، فتردد في دخوله أو لا؟ فدخل هو ومن معه؛ لأنهم رأوا الناس يمشون فيمشون معهم.

فلما اكتمل عدد فرعون وجنوده في البحر أطبق عليهم البحر، ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: 78]، فجاوز الله ببني إسرائيل البحر.

✍من الذي جعلهم يدخلون في البحر ويخرجون بنجاة وسلامة؟

الجواب: ما في أحد يدخل البحر ويخرج بسلام إلا بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه معجزة، ضرب البحر بالعصا معجزة من معجزات الله لموسى، ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ [الأعراف: 138]، ما قال: **"وجاوز بني إسرائيل"** أو **"جاوز موسى بني إسرائيل"** لا؛ حتى يبين لهم النعمة، قال: **"نحن الذين جاوزنا بكم"** يعني نحن الذين جعلناكم تجوزون البحر وتقطعونه.

فلما خرجوا من البحر ما اطمأنت نفوسهم إلى أن فرعون قد غرق ومات، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 50]، وفي آية أخرى قال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: 92].

فأخرج الله فرعون على البحر، أخرجه على شاطئ البحر أو على سطح البحر، فرآه بنو إسرائيل عليه درع من ذهب، فعرفوا أن هذا هو فرعون قد مات، فهذه نعمة عظيمة، نعمة عظيمة أنعم الله بها على بني إسرائيل.

✍ ما الواجب عليهم؟

الجواب: **"الشكر وعبادة الله"** لكن مع الأسف الجهل والطغيان أحيانًا، وأمور أخرى تجعل الإنسان ما يعرف قدر النعمة.

لما جاوزا البحر فإذا قوم يعكفون على أصنام، هناك قوم جالسين يعبدون أصنام، فماذا كان من بني إسرائيل؟ الأصل من بني إسرائيل يعني هم عرفوا نعمة الله عليهم، وأنه أنجاهم من فرعون الذي يبطش بهم، عرفوا نعمة الله فالذي أنجاهم هو الله، فالواجب عليهم أن يعبدوا الله، والواجب عليهم أنهم إذا مروا على أُناس يعكفون على أصنام يعبدون أصنام أن ينكروا عليهم، وإن لم ينكروا أقل شيء أن قلوبهم تنكر، أو أنهم لا يقبلون هذا الشيء، لكن مع الأسف ﴿قَالُوا يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138].

هم عندهم أصنام، لماذا لا تجعل لنا صنم نعبده؟ كيف يا بني إسرائيل الله ينجيكم وتتركون عبادة الله وتذهبون تعبدون صنم لا يسمع ولا يتكلم ولا ينفع؟! أين عقولكم؟!!

ولهذا أنكر عليهم موسى لما قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138]، قال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: 138]، أنتم جهلة ما عندكم علم، كيف تفعلون هذا الفعل؟ ما يفعل هذا إلا جاهل.

ثم قال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ [الأعراف: 139]، الذين يعبدون الأصنام، ﴿مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: 139]، متبر يعني هالك وخاسر، ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 139]، هم خاسرون وأعمالهم خاسرة، هم في بطلان وعملهم في بطلان، الواجب عليكم أن تشكروا الله وتنكروا المنكر وتأمروا بالمعروف.

ثم قال لهم: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ [الأعراف: 140]، تريدون أطلب لكم غير الله إلهًا؟ أين عقولكم؟! تعبدون أصنامًا مخلوقة لا تنفع ولا تضر، وتتركون رب العالمين الذي أنجاكم من فرعون.

قال: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 140]، يا بني إسرائيل الله فضلكم على عالمي زمانكم، فكيف تنكرون هذه النعمة؟!!

ثم بدأ يذكر لهم النعم،قال: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: 141]، من الذي أنجاكم؟ الله، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ [الأعراف: 141]، اضطهاد، وسوم، وتعذيب، وإيذاء، ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ [الأعراف: 141]، يولونكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: 141]، العذاب السيئ.

قال: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: 141]، تصور أن جنود فرعون يأتون إلى بني إسرائيل في بيوتهم ويدخلون من غير استئذان ويتتبعون النساء الحوامل، فإذا وجدوا إحدى هذه الحوامل قد وضعت ينظرون إن كان ذكرًا يذبحونه أمامهم، وإن كانت أنثى تركوها، وهكذا، وينظرون متى ستضع ويتابعون، ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: 141].

قال: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: 141]، يعني يبقون النساء حيات ما يقتلونهم، هل هو رحمة بهم؟ لا؛ بل حتى يخدموهم، البنات والنساء خدم لآل فرعون، الأول كانوا يقتلونهم، فقيل: كيف تقتلهم؟ لن يبق لك خدم، قال: إذًا نترك النساء، النساء يخدموننا، والذكور نذبحهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: 141]، البلاء والمحنة والفتنة قد تكون في الخير، قد تكون في الشر، ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]، البلاء يكون بالخير والشر.

هنا يحتمل أن، ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾ [الأعراف: 141]، أن تعذيب فرعون لكم وتقتيله وإيذاءكم هذا امتحان من الله، ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: 141].

ويحتمل أن الله أنجاهم وسلمهم امتحان لهم، بلاء، هل يشكرون نعمة الله أولا يشكرون؟ فلما أنكر عليهم وجاوزوا هؤلاء الذين كانوا يعكفون وتركوهم ومشوا، واستقروا في التيه أخبر موسى وقد أخبرهم قبل ذلك أنه سيذهب إلى ربه لينزل عليه كتاب، هذا الكتاب هو التوراة، فيه موعظة، وفيه أحكام، وفيه هدايات لهم، مثل القرآن، فيه مواعظ، وفيه تذكير، وفيه هدايات.

فقال لهم: إنني سأذهب إلى ربي عند الطور وأمكث هناك أناجيه وأتعبد الله حتى يأذن لي بأن يكلمني وينزل علي التوراة، فكان الموعد مع بني إسرائيل أن موسى يذهب إلى جبل الطور هناك لمدة ثلاثين يومًا، فخرج لمدة ثلاثين يومًا وذهب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 142]، واعده عند الطور، فذهب يمكث هناك شهرًا كاملاً ثلاثين ليلة؛ حتى قيل: إن هذا الشهر هو شهر ذي القعدة، فمكث ثلاثين ليلة هناك يتعبد ربه ويناجيه إلى أن أذن له فكلمه وأنزل عليه التوراة.

قال: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 142]، ثم زاده الله عشرًا حتى يزيد في العبادة والطاعة والمناجاة، ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: 142]، فأصبحت أربعين، ولذلك في سور البقرة قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: 51]، فالثلاثين مع العشر أربعين.

قال: ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 142]، هذا الميقات الموعد الذي أعطاه الله تم، فلما تم أربعين ليلة نجاه الله وكلمه، لما أراد أن يذهب قال: إنني سأذهب إلى ربي ثلاثين ليلة، ولم يعلم أنه سيبقى أربعين، قال لأخيه هارون وهو رسول معه: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: 142]، يعني كن خليفة مكاني، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: 142]، أصلح لبني إسرائيل، أصلحهم ودلهم على الخير.

قال: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 142]، احذر أن تطيع المفسدين، المفسدين احذرهم، وأصلح في قومي.

لما ذهب موسى ثلاثين ليلة ثم أمره الله أن يزيد عشر ليالي، بنو إسرائيل انتظروا قالوا: راح ثلاثين يوم ولم يأت موسى، أين هو؟ فجاءهم السامري كما سيأتي السامري هذا منافق دخل في بني إسرائيل لينجو من فرعون وبطشه، فدخل معهم، فلما وصلوا كما سيأتي وصلوا إلى هذا المكان وانتظروا موسى ثلاثين ليلة، قال لهم: إن موسى ذهب إلى ربه فلم يجده، وتاه وضاع، فإنه سيعود، ثم صنع لهم عجلاً من حليهم من ذهب، أخذ من ذهبهم وصنع لهم العجل، وقالوا: هذا إلهكم وإله موسى، وموسى نسي وسيرجع ويعبده، هذا هو إلهه.

لما جاء موسى ومضى الثلاثين هذه أخبره الله أن قومه قد عبدوا العجل، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: 143]، لما انتهت مدة الميقات كلمه ربه، ونجاه، فلما سمع كلامه اشتاقت نفس موسى إلى رؤية ربه؛ لأن رؤية الله تتلذذ بها النفوس، مثلما تقول أنت في دعائك: **"اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك"**.

فاشتاقت نفس موسى إلى لقاء ربه، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143]، فالله أخبره أنه ما يستطيع، ما يمكن، الإنسان في الدنيا ضعيف، وفي الآخرة ممكن يعطيه الله قوة فينظر إلى ربه؛ لأن المؤمنين يوم القيامة ينظرون إلى ربهم، والرؤية ثابتة في القرآن والسنة، أخبر الله قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ 22 إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: 22، 23]، تنظر إلى ربها.

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر»**، فالرؤية ثابتة لكنها في الآخرة.

فاشتاق إليه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف: 143]، لن تستطيع أنت ضعيف الآن ما تستطيع أن تراني، ما يمكن للبشر في الدنيا أن يروا ربهم، قال: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ [الأعراف: 143]، جبل عنده عظيم شامخ وقوي وصلب، قال: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى﴾ [الأعراف: 143]، ظهر شيئًا قليلاً، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: 143]، لما ظهر شيء قليل اندك الجبل، ما استطاع الجبل أن يصمد أمام الرؤية، أصبح مندكًا حتى أنه ساغ في الأرض، يعني نزلت الأرض.

قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: 143]، موسى لما رأى الجبل ساغ في الأرض وذهب في الأرض سقط على الأرض مغشيًا عليه، أغمي عليه.

قال: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ [الأعراف: 143]، لما فاق من هذا الغشيان والصعق القوي والغم، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [الأعراف: 143]، تنزيهًا لك يا رب العالمين، كأنه يقول: هذا السؤال الذي حدث مني لم أكن أعلم، هذا بجهل مني، سبحانك يا رب تبت إليك.

ولذلك قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143]، تبت إليك من هذا السؤال الذي تجرأت به، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: 143]، أول المؤمنين بأنك لا تُرى في الدنيا، وتُرى في الآخرة، وأول المؤمنين بأنك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لك العظمة، ولك القدسية.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: 144]، اخترتك، وجعلتك كليمًا أكلمك ولا أكلم غيرك، مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلم آدم، وكلم نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الإسراء والمعراج، لكن موسى اختص بأنه كليم الله؛ لأن الله كلمه كثيرًا.

قال: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي﴾ [الأعراف: 144]، جعلتك رسول، ﴿وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾ [الأعراف: 144]، خذ الذي آتيتك، ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 144]، اشكر الله على هذه النعمة، وخذ الذي أعطيتك، ولا تتجاوز.

فأنزل الله عليه التوراة فأخذها، قال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ﴾ [الأعراف: 145]، أي ألواح التوراة، ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾ [الأعراف: 145]، مواعظ، ﴿وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 145]، بيان لكل شيء، كلّ ما يحتاج الناس في دينهم ودنياهم.

قال: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 145]، خذها بعزيمة وجد، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: 145]، يأخذونها لحسنها وجمالها، وما فيها من المواعظ والتذكير والمنافع، وهذا يدل على أن فيها الحسن والأحسن، وفيها الواجب والفرض والمستحب على درجات، فيأخذونها بقوة.

قال: ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: 145].

✍ ما هي دار الفاسقين؟

قيل: هي أرض مصر، أرض فرعون؛ لأنه خرج الآن من أرض فرعون وجنوده وآل فرعون، وقيل: دار الفاسقين هي الشام التي كان يسكنها العمالقة، فأخبر موسى أنه سيره هذه وهذه، ﴿سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: 145].

قال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: 146]، هذه الآيات والمواعظ والآيات التي في الآفاق وفي الأنفس، والآيات التي يقرؤونها هذه يصرفها الله عمن؟ عن كلّ متكبر، سواء مع القرآن هذا، أو مع ما عنده موسى، أي شخص يتكبر عن آيات الله فالله غني عنه.

قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ [الأعراف: 146]، كلما تأتيهم آية لايؤمنون بها، ولا يعتبرون بها، ولا ينتفعون بها، لماذا؟ سبب الكبر، ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ [الأعراف: 146]، طريق الخير والصلاح والرشاد ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146].

قال: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ [الأعراف: 146]، والضلال والهلاك ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 146].

قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: 146]، بسبب تكذيبهم، التكبر السبب الأول، والثاني التكذيب بآيات الله والغفلة عنها، وهذه رسالة إلى الجميع ألا نتكبر عن طاعة الله، ألا نكذب بآيات الله، ألا نغفل عن آيات الله.

قال: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ [الأعراف: 147]، الذين يكذبون بآيات الله ومعجزاته، ويكذبون بلقاء الآخرة يوم القيامة النتيجة ما هي؟ قال: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [الأعراف: 147]، إن كان عندهم أعمال صالحة لا يقبلها الله.

قال: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 147]، هذا جزاءهم، إلا ما كانوا يعملون.

✍ مثلما ذكرت لكم، لما ذهب موسى إلى ربه يناجيه ما هي النتيجة؟

النتيجة: **"صنع لهم السامري هذا العجل"**، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ [الأعراف: 148]، هذا الحلي الذي أخذوه من آل فرعون، قال لهم السامري: هذا حرام عليكم، ليس لكم، هذا لآل فرعون، قالوا: ماذا نصنع به؟ قال: ضعوه وأحرقوه بالنار، فلما وضعوه وألقوه بالنار أخذه وصنع منه هذا العجل.

قال: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾ [الأعراف: 148]، اتخذوه إلهًا وبدؤوا يطوفون حوله ويدعونه، ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ [الأعراف: 148]، عجل مصنوع من ذهب، ووضع له فتحة في فمه، وفي دبره، وبدأ الهواء يدخل من الفم ويخرج مع الدبر ويحدث صوت، أو العكس، ويحدث صوت كأنه صوت خوار، ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: 88]، وسيرجع.

قال الله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ [الأعراف: 148]، هذه صفة نقص ما يكلمهم، الله يتكلم، وهذا لا يتكلم، كيف تعبدون شخص لا يتكلم، أخرس لا يكلمهم، ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 148]، لا يدلهم على طريق السلامة، ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: 148]، لا يهديهم لما ينتفعون به.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: 148]، كيف كانوا ظالمين؟ لأنهم أنزلوا هذه العبادة والدعاء والطواف لصنم وتركوا عبادة الله، هذا هو عين الظلم، ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: 148].

قال: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: 149]، لما رجع إلى موسى، وأنكر عليهم بقوة، وألقى الألواح وأنكر عليهم، ندموا أشد الندم، ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: 149]، أي ندموا أشد الندم، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ [الأعراف: 149]، قالوا: هذا ضلال.

قال: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: 149]، إذا لم يرحمنا ربنا، ويتقبل منك توبتنا ويتوب علينا سنصبح من الخاسرين، فتاب الله عليهم لما رجعوا.

يأتي إن شاء الله الحديث في بقية هذه القصص المتتابعة؛ لأن الآن فرعون انتهى أمره وقصته انتهت، بدأت القصص تتحدث عن بني إسرائيل، ومواقفهم مع موسى ومع ربهم، مواقف كثيرة يأتي الحديث عنها إن شاء الله في لقاءات قادمة، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وما سمعنا.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(161)
(الأعراف 150 - 157)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تُوَفِّقَنَا لِكُلِّ خَيْرٍ، وَإِنْ تَجَنَّبْنَا كُلِّ شَيْءٍ وَإِنْ تَنْفَعُنَا بِمَا نَقُولُ، وَبِمَا نَسْمَع.

درسنا في هذا اليوم الأربعاء المواقف للسادس من الشهر الرابع من عام 1446من الهجرة، نجلس هذا المجلس المبارك، وهذا المجلس من كلّ أسبوع بعد المغرب يوم الأربعاء، مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نقرأ آيات، ونتفكر فيها ونتأملها وبين معانيها ودلالاتها، وما فيها من توجيهات وتدبرات، فنسأل الله أن يعيننا، وأن يوفقنا، وأن يُفتح علينا من بركاته.

السورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأعراف"** وما زلنا في قصة موسى مع بني إسرائيل، والمواقف التي سمعناها وسنسمع عن مواقف بني إسرائيل، ومواقفهم مواقف سيئة مع رب العالمين، ومع موسى، ومع سائر الخلق.

لما أنجى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موسى ومن معه من بني إسرائيل، أنجاهم من فرعون وجاوز بهم البحر، ونزلوا بهذا المكان، ذكر لهم موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن الله واعده أن ينزل عليه كتابًا فيه هدًى ورحمةً وموعظة لهم، وفيه ما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم.

وقال: **"إن الله وعدني ثلاثين ليلة"** أن أمكث عند جبل الطور أناجي ربي حتى يملكني، فذهب إلى الطور وبدأ يناجي ربه ثلاثين ليلة ثم زاده الله عشر ليالي، فأصبح الميعاد أربعين ليلة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 142].

وقد جعل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أو وكلّ موسى بني إسرائيل إلى أخيه هارون، وقال لأخيه هارون: ﴿اخْلُفْنِي﴾ [الأعراف: 142]، كن خليفتي بعدي في قوم، ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 142].

فلما مضت الثلاثين ليلة؛ لأن موسى قال لهم: **"ثلاثين ليلة"** فلما مضى الشهر ثلاثين ليلة واستبطئوا موسى، قالوا: أين ذهب؟ خرج عليهم السامري وهذا كان منافقًا، خرج عليهم السامري وقال: إنما موسى يبحث عن ربه ولم يجده، وأنا الآن أُريكم من هو ربه، فصنع لهم هذا العجل، صنع لهم عجلاً من ذهب، وقال: هذا ربكم ورب موسى، ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: 88]، موسى نسي ويبحث وسيرجع ويعبده، فغررهم بهذا الكلام فتبعوه.

✍ ماذا كان موقف هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

موقف هارون عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **"أنه لم يتركهم؛ بل أنكر عليهم، ونصحهم، ولم يرض بذلك"** ولكنهم لكثرتهم، وكثرة أعدادهم ما استطاع أن يردهم عن ذلك، وخشيةً أن يقول موسى: **"لماذا تفرق بين بني إسرائيل؟"** فتركهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [الأعراف: 150].

الله أخبر موسى قبل أن يرجع إليهم وهو في الطور أخبره بأن قومه عبدوا العجل، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة طه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى 83 قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي

وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى 84 قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ 85 فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه: 83 - 86].

وهنا قال: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي﴾ [الأعراف: 150]، يعني تركتكم وذهبت، وخلفتموني في مكاني أن تصلحوا وأن تعبدوا ربكم، ثم تتركوا عبادة الله الذي نجاكم، والذي أنعم عليكم بالنعم وتعبدون صنمًا إلهًا عجلاً؟!! كيف تفعلون هذا؟!!

فقال: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 150]، استعجلتم أمر ربكم؟ الله سينزل كتابًا فيه هدًى، ونور، ومواعظ لكم، وتوجيهات، تتركون عبادة الله وتبعدون عجلاً لا يتكلم، ولا ينفع ولا يضر؟!!

قال: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: 150]، قد أنزلت عليه ألواح التوراة، فمن شدة الغضب والغيرة لله عَزَّ وَجَلَّ أن يعبدوا صنمًا ويتركوا عبادة رب العالمين ألقى الألواح من شدة الغضب الذي اعتراه وأصابه.

قال: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ [الأعراف: 150]، هارون، ﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: 150]، وفي آية أخرى قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ [طه: 94]، فكان قد مسك إحدى يديه برأسه والثانية بلحيته، يعني غضبًا لله وغيرة أنه كيف يا هارون تتركهم؟!!

قال: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ﴾ [الأعراف: 150]، يعني يا ابن أمي، وهو يناديه يستعطفه، ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي﴾ [الأعراف: 150]، أنا واحد، ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ [الأعراف: 150]، لا تجعلني شماتة لهم يسخرون مني.

قال: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: 150]، لا تحكم علي مع القوم الظالمين، أنا أنكرت، ولم أسكت عن ذلك، فلما هدأ الغضب عنه وتبين أن هارون لم يقصر في ذلك، ولم يتركهم؛ بل أنكر عليهم، ولم يسكت عن ذلك، قال هنا: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف: 151]، رب اغفر لي تقصيري، واغفر لأخي هارون أيضًا تقصيره.

قال: ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ [الأعراف: 151]، يعني اجعلنا ممن رحمتهم وقبلت توبتهم، ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: 151].

ثم أنكر عليهم، قال: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَاسَامِرِيُّ 95 قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي 96 قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ [الفاتحة: 95 - 97].

فطرده ثم أخذ هذا العجل وأحرقه بالنار، ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: 97]، فأحرقه وبرده ثم ألقاه في اليم، ألقاه في البحر، وانتهى منه.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ [الأعراف: 152]، هذا كلام رب العالمين، حكم من الله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ [الأعراف: 152]، اتخذوه إلهًا يعبدونه ويشركون بالله.

قال: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ﴾ [الأعراف: 152]، لما هم أغضبوا الله بعبادتهم العجل تركهم عبادة رب العالمين، سينالهم غضب من الله جزاءً بما كانوا يعملون.

قال: ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 152]، لأن صاحب المعصية يُذله الله إلا أن يتوب.

قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: 152]، كلّ من يفتري على الله ويكذب ويعبد من دون الله آلهة أخرى، قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: 152]، يعني هذا الحكم ليس خاصًا في عباد العجل، وإنما كلّ من يعبد غير الله؛ فإن الله يجازيه هذا الجزاء.

أما من تاب وعاد إلى ربه وندم وأصلح؛ فإن الله يقول فيه: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: 153].

عملوا السيئات، وأخطئوا ووقعوا في المعاصي، ثم تابوا، وندموا، ورجعوا إلى ربهم، وآمنوا وحققوا الإيمان، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد فتح لهم باب التوبة، وعفا عنهم.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ [الأعراف: 153]، أي من بعد هذا التوبة النصوح، ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: 153].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف: 154]، يعني هدأت نفسه، وسكنت نفسه، واطمأنت، وذهب عنها الغضب أخذ الألواح، أخذ ألواح التوراة.

قال: ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ [الأعراف: 154]، أي مكتوبًا فيها؛ لأن النسخ هو الكتابة، ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ [الأعراف: 154]، أي فيما كتب فيها، ما هي؟ علام اشتملت هذه التوراة؟ قال: ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف: 154]، هدًى يهتدي بها المهتدون، ورحمة تعمهم.

✍ لكن لمن؟

✍ لجميع الناس، لبني إسرائيل كلهم؟

الجواب: لا، ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: 154]، الذين هم لربهم يرهبون يخافون عقوبات الله أن تنزل بهم، يخافون آثار وشؤم المعاصي هؤلاء يرجعون إلى ربهم، ويتوبون ويستغفرون، هؤلاء ستكون التوراة وكتب الله كلها هدًى لهم ورحمة عليهم.

بنو إسرائيل لما جاءهم موسى وأنكر عليهم وأخذ العجل وبرده وأحرقه بالنار ثم رماه أمرهم بالتوبة، ما هي توبتهم؟ أن يقتل بعضهم بعضًا بالسيف، كلّ واحد يقتل الآخر بالسيف، هذه توبتهم، فبدؤوا يضرب بعضهم بعضًا بالسيف، حتى قال بعض أهل التفسير أنه في يومًا واحد قُتل سبعون ألف منهم، ممن عبد العجل، ولم يكن الجميع عبدوه؛ بل عبده طائفة كثيرة منهم.

فتابوا وبعد ذلك دعا موسى ربه أن يرفع عنه السيف، فرفع عنهم السيف، فكانت توبتهم أن يتوبوا إلى الله، أن يُقروا ويتوبوا إلى الله توبة نصوحًا.

بعدما هدأت الأمور أخذ موسى من قومه سبعين من خيرة القوم، من أفضل رجال بني إسرائيل، قال: نأخذ سبعين منكم ونذهب بهم الطور ليعتذروا إلى ربهم مما حصل منكم من عبادة العجل، لعل الله أن يعفو عنكم جميعًا.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ [الأعراف: 155]، اختيار من قومه سبعين رجلاً من خيرة القوم، ومن أحسنهم، ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: 155]، أي ميقات الله، يعني لميقاتهم عند الطور، فذهب بهم إلى الميقات، فلما وصلوا هناك وكلم الله موسى، وأخبرهم أنه كلمه، لأنه ذهب إلى الطور وناجى ربه فكلمه الله، ثم عاد إليهم؛ فقال: إن الله كلمني وأنكم تبتم إليه وأن الله يقبل توبتكم.

قال: ﴿يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55]، لن نؤمن ولنصدق أن الله كلمك عند الطور حتى نراه، فلما قالوا هذه المقالة، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ [البقرة: 55]، فماتوا جميعًا، السبعين الذين هم من خيرة بني إسرائيل ماتوا، صعقوا صعق، أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، فحزن موسى حزنًا شديدًا.

قال: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: 155]، رجفت بهم الأرض، ثم جاءتهم صاعقة فماتوا جميعًا، ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ [الأعراف: 155]، أهلكتهم من قبل أن آتي هنا، أهلكتهم عند أهلهم هناك، وأهلكتني معهم، الآن ماذا سأقول لبني إسرائيل حينما أذهب، ماذا سيكون؟ يعني أنا سأكون في إحراج أمام قومي أن آتي وهم قد

ماتوا، فبدأ يبتهل وينادي ربه بشدة وقوة حتى أحياهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ 55 ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 55، 56].

قال هنا: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: 155]، الذين عبدوا العجل، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: 155]، هذه الفتنة التي وقعت بإرادتك سبحانك أنت الذي قدرتها، لو لم تقدرها ما وقعت، ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: 155]، ممن ضل وترك عبادتك وعبد العجل، ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: 155]، بمعنى أن تحفظه من أن يقع في هذه الفتنة.

ثم قال: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: 155]، أنت ولينا تتولانا، تتولى أمورنا، وتهدينا، فاغفر لنا ما وقع منا، وارحمنا برحمتك التي وسعت كلّ شيء، وأنت خير الغافرين ليس هناك من أعظم وأكبر منك مغفرة يا رب العالمين، فدعا بهذه الدعوات العظيمة.

ثم قال: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [الأعراف: 156]، اكتب لنا يا رب الخير في هذه الدنيا، الحسنة تعم خيري الدنيا والآخرة، اكتب لنا خير الدنيا والآخرة، اكتب لنا حسنة، مثلما يقول المسلم: **"ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار"** هنا في الدعاء قال: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [الأعراف: 156].

قال: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 156]، يعني تبنا إليك ورجعنا إليك، فابتهل بهذا الابتهال، ودعا بهذه الدعوات، فأحيا الله السبعين، وعاد موسى والسبعين معه قد تاب الله عليهم وعفا عنهم، ورجعوا إليهم.

قال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ [الأعراف: 156]، هذا عذابي أصيب به من أشاء ممن يستحق العذاب، ويستحق العقوبة، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، الفتنة من عندي، والعذاب من عندي، والرحمة من عندي، والتوبة من عندي، عذاب أصيب به من أشاء ممن يستحق العذاب، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 156]، رحمة الله وسعت كلّ شيء، وسعت السماوات والأرض، وسعت الحي والميت، ووسعت الجمادات، ووسعت الأحياء والأموات، وسعت كلّ شيء.

قال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ [الأعراف: 156]، عندنا الآن رحمة عامة يرحم الله بها الخلق؛ حتى الكفار لو لم يرحمهم ما عاشوا، ولو لم يرحمهم ما أكلوا ولا شربوا ولا استصحوا، لكن رحمة الله عامة للخلق جميعًا، وهناك رحمة خاصة للمؤمنين.

ولذلك قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا﴾ [الأعراف: 156]، أي الخاصة، ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156]، يعني الرحمة الخاصة يكتبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للذين يتقون الله ويخافونه، الذين يخافون الله ويتقونه يكتب لهم الله رحمة خاصة.

ثم قال: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: 156]، يعني يؤدون ما فرض الله عليهم من الزكاة، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 156]، الذين إذا رأوا آيات الله صدقوا بها، وآمنوا بها، سواء كانت الآيات الكونية التي في السماوات والأرض، أو الآيات التي نزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهؤلاء لهم رحمة خاصة كما رحم موسى ومن معه لما تابوا، ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 156].

ثم قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: 157]، يذكر بني إسرائيل؛ حتى المعاصرين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهم يعرفون محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ [الأعراف: 157]، ما قال: **"الذين يؤمنون به"** لا؛ بل يؤمنون ويتبعون، ويدخلون في دنيه،

يتبعون من؟ قال: ﴿الرَّسُولَ﴾ [الأعراف: 157]، محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: 157]، كم صفة؟ رسول من الله، ونبي نبأه الله، وأمي؛ لأنه لا يكتب ولا يقرأ، من العرب الأمية.

قال: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، هم يعرفونه، مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، مكتوب باسمه وبأوصافه، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

صفاته ما هي؟ قال: ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: 157]، يذكرهم بأن محمد وسائر الأنبياء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الأعراف: 157]، يعني يبيح لهم أكل الطيبات، والكلام الطيب، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: 157]، من المآكل والمشارب والكلام، كلّ خبيث محرم.

أيضًا من صفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسهولة شريعته قال: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ [الأعراف: 157]، الآصار الأثقال التكاليف الشديدة، يضعها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأغلال الشديدة التي كانت عليهم كانت عندهم، من الأغلال الشديدة أن توبة الإنسان أن يقتل نفسه، فرفعه الله هذا عنهم.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شريعته من السماحة العظيمة قال: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ [الأعراف: 157].

ثم قال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ [الأعراف: 157]، يعني من بني إسرائيل وغيرهم ممن آمنوا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتمسك بدينه، ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ [الأعراف: 157]، يعني وقفوا معه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: 157]، وأجلوه وعظموه، ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: 157]، وهو القرآن الكريم، سماه نورًا؛ لأنه يضيء للإنسان حياته، ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ [الأعراف: 157].

✍ من هم المفلحون؟

هم: الذين عرفوا دين محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعرفوا صفاته وتمسكوا به، من اليهود والنصارى والمسلمين، كلّ من عرف صفات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتمسك به وأخذ بشريعته هم المفلحون، وما سواهم هم الخاسرون.

نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(162)
(الأعراف 158 - 162)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا اليوم الأربعاء الموافق للثالث عشر من شهر الرابع من عام 1446من الهجرة.

مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم، وتفسيره، نجلس هذه الدقائق المعدودة ونستعين بالله على قراءة آيات من كتاب الله، وبيان معانيها وفيها توجيهات ربانية وخير عظيم، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»**.

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرؤون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيما عنده في الملأ الأعلى»**.

فضائل عظيمة في جلوسك دقائق معدودة، تحصل على هذا الفضل العظيم، وتتعلم وهذا لا يضرك، الذي يضرك أن تبقى جاهلا، أما التعلم فهو نفع لك في الدنيا، ونفع لك في الآخرة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر أن العلم له فضل عظيم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11].

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وفضل العالم على العابد»**، يعني الذي يتعبد الله بالليل والنهار، **«فضل العالم على العابد كفاضل القمر على سائر الكواكب»**، فالتعلم والعلم أمر مطلوب، الإنسان لا يبقى جاهلاً.

السورة التي بين أيدينا نأخذ شيئًا من آياتها هي **"سورة الأعراف"** وعندنا الآية الثامنة والخمسون بعد المائة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطبًا نبيه محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ﴾ [الأعراف: 158]، أي قل يا محمد، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158].

لما تقرأ هذه الآية وفيها خبر عن أن نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسول للناس جميعًا، وتقرأ التي قبلها تجد أن هناك ارتباط وثيق بينهما.

✍ ما هو وجه الارتباط؟

هو: أن الله لما أخبر بني إسرائيل اليهود أن الله أمرهم أن يتبعوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه قال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، لما أخبرهم قد يظن الظان أن محمد رسول لبني إسرائيل أو رسول للعرب أو بني إسرائيل فقط، فجاء الخبر أن رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسالة عالمية، للإنس والجن، لجميع المكلفين، ليست خاصة لا باليهود ولا النصارى، ولا العرب، وإنما هي عامة.

قال: ﴿قُلْ﴾ [الأعراف: 158]، أخبر الناس ونادهم، ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 158]، أرسلني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رسول من عند الله، ﴿إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158]، من دون استثناء.

✍ من هو الذي أرسل نبينا محمد؟

قال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 158]، الذي يملك السماوات والأرض ويتصرف فيها، ويدبر أمورها وهو الذي خلقها وملكها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا فيه دليل على إثبات الربوبية لله بأن الله هو الرب الخالق الرازق المالك المدبر والمتصرف في هذا الكون كله، لا تتحرك شعرة من الشعرات إلا بعلمه وبقدرته، إذا حققت هذا التوحيد بعده يجب عليك أن تحقق الذي بعده.

قال بعدها: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: 158]، لا معبود بحق إلا هو، المعبودات كثيرة، يعبدون الأصنام، ويعبدون الأولياء، ويعبدون الشياطين، ويعبدون الحجارة، ويعبدون الأشجار، لكن لا معبود بحق إلا الله، هو الذي أمرك بعبادته، وأنت تشرف أن تكون عبدًا لله، لا تكون عبدًا لمخلوق مثلك أو أقل منك، وإنما تشرف شرف لك أن تكون مذعنًا مطيعًا لربك الذي خلقك، والذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو.

وأيضًا من صفاته قال: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: 158]، في كلّ لحظة يحيي ويميت، فعل مضارع يدل على الاستمرار ما ينقطع، يحيي ويميت، هو الذي أحياكم وهو الذي يميتكم وينقلكم إلى دار القرار، إما في دار كرامته في جنات النعيم وهو الفوز العظيم، وإما أن يكون حطبًا لنار جهنم، فهو الذي يحيي ويميت.

لما قرر لك هذا التقرير بأنه هو الواحد، وهو المتصرف في هذا الكون، وهو الذي يُعبد ولا يُعبد غيره، وهو الذي يُدعى ولا يُدعى غيره، قال: ﴿فَآمِنُوا﴾ [الأعراف: 158]، ما لكم طريق آخر، فآمنوا حققوا الإيمان.

قال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الأعراف: 158]؛ لأن الله هو الذي أمركم بالإيمان به، والإيمان هو: **"التصديق بكل ما جاءك عن الله"** كلّ ما جاءك عنه من أسمائه وصفاته وأفعاله، وشريعته، والإيمان بالرسول أن تؤمن بالرسول، وتصدق برسالته، وتطيعه فيما أمر، وتنتهي عما زجر، وتعظم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلبك، وتحبه محبة عظيم، هذا هو تحقيق الإيمان، هذه حلاوة الإيمان، الإيمان بالله ورسوله.

من هو رسوله؟

قال: ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: 158]، يؤكد لك نفس الكلام السابق، النبي الذي نبأه الله وأرسله، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك أتى بأعظم كتاب، أعظم كتاب على وجه الأرض، أعظم الكتب كلها المنزلة هذا القرآن الكريم، نبي أمي لا يعرف القراءة والكتابة وجاء بهذه المعجزة العظيمة.

قال: ﴿وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: 158]، هو يؤمن أولًا قبل إيمانكم أنتم، ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ [الأعراف: 158]، يعني يؤمن بالله وحده لا شريك له، ويحقق التوحيد، ويؤمن بالكتب المنزلة، كلماته هي وحيه الذي أوحى به إلى أنبيائه، كلّ وحيه وأخباره وكلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النبي هو أول المؤمنين، هو أول من آمن.

ثم قال: ﴿وَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: 158]، اتبعوا النبي هذا؛ فإنكم إذا اتبعتموه، وأخذتم بسنته ولم تخالفوه النتيجة ما هي؟ قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]، تريد الهداية والصلاح، هدايتك في الدنيا، وهدايتك في الآخرة، واستقامتك في حياتك وسعادتك تمسك بسنة نبيك محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتبع شرعه، ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158].

نحن قرأنا في هذه السورة مواقف كثيرة عن بني إسرائيل، ومثالب ومعايب وسيئات عنهم، مرة يشركون بالله، ومرة يصفون الله بأوصاف سيئة، ومرة يعاندون نبيهم موسى، ومرة ومرة من الأفعال السيئة.

قد يفهم بعض الناس أن اليهود وبني إسرائيل الذين كانوا في زمان موسى كلهم على هذه الطريقة، كلهم سيئات وأفعال سيئة، قال الله: لا، ليسوا جميعًا، في طائفة منهم على الطاعة والاستقامة.

ولذلك في حديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما عُرضت عليه الأمم قال: **«رأيت سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، فقيل له: هذا موسى ومن معه»**، يعني موسى ومن آمن معه، سواد عظيم معناه أن أتباع موسى كثير.

فهذا من احترازات القرآن حتى لا تفهم أن اليهود كلهم على طريقة واحدة، قال: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾ [الأعراف: 159]، أمة يعني عدد كبير، ما هي هذه الأمة؟ قال: ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159].

انظر إلى حكم الله العادل، ما حكم عليهم جميعًا حكم واحد، قال: لا، وإن كان فيهم الكثير أفعاله سيئة، لكن في طائفة منهم ﴿أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 159]، يعني يهدون الناس ويدلونهم ويدعونهم إلى الحق، ﴿وَبِهِ﴾ [الأعراف: 159]، أي بالحق، ﴿يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]، يحكمون حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويهدون الناس إلى الصراط المستقيم؛ حتى تفهم أن القرآن حكمه العدل، وأنه يعطي كلّ ذي حق حقه، ما يعطي أحد دون أحد.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بني إسرائيل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلهم طوائف وأمم: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: 160].

الأسباط هم أولاد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعقوب له اثنا عشر ولد، فهؤلاء الأولاد أولاد يعقوب تفرعت منهم بني إسرائيل، كل واحد من أولاد يعقوب ظهرت طائفة منهم، يعني أمة، وانتشر بنو إسرائيل لما نزلوا إلى مصر، لما جاء يوسف وبيع في مصر، وعاش في مصر ثم أتى بأهله، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: 93]، وجاء أخوة يوسف وأبواه، جاءوا واستقروا في مصر، لما استقروا في مصر تناسلوا وكثروا فأصبحت أمة إسرائيل تعود إلى هؤلاء الأسباط الاثني عشر.

قال: ﴿أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: 160]، يعني أمة وأمة اثنا عشر أمة، ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: 160]، يعني أصبحوا أممًا.

قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ [الأعراف: 160]، هذا في ذكر نعمة الله عليهم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما نجاهم من بطش فرعون ونزلوا في التيه أنعم الله عليهم بنعم عظيمة.

قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ [الأعراف: 160]، أوحى الله إلى موسى بأي شيء؟ قال: ﴿إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ [الأعراف: 160]، لما نزلوا ما عنده ماء، يعني اشتد عليهم العطش، لا هناك مياه ولا شيء، فاستسقوا طلبوا من موسى أن يستسقي ربه بأن يغيثهم بالماء.

قال: ﴿إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ [الأعراف: 160]، فأوحى الله إلى موسى بأي شيء؟ قال: ﴿إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ [الأعراف: 160]، هذه العصا المعجزة التي تنقلب حية فيها فوائد ومصالح كثيرة.

قال: ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [الأعراف: 160]، ما هو الحجر هذا؟ قال بعض المفسرين: إنه حجر معين ضربه موسى معروف، أو يكون أي حجر، المهم أنه ضرب حجرًا، لما ضرب هذا الحجر قال: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: 160].

اثنتا عشرة عينًا كلها تجري على الأرض مياه، انبجست بهذه الصورة، لما تذهب إلى سورة البقرة يقول: ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ [البقرة: 60].

✍ طيب ما هو الفرق يعني "انفجرت" و"انبجست" واحد ولا في فرق؟

نقول: **"في فرق"** الانبجاس هو: **"بداية ظهور الماء"** و إذا اشتد الماء بقوة قال: **"انفجار"** بدأ ينفجر، لأن **"سورة الأعراف"** سابقة لـــ **"سورة البقرة"** لذلك أخبر الله بها الخبر الأول، ثم الخبر الثاني.

قال: ﴿فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الأعراف: 160].

✍ طيب لماذا اثنا عشرة عينًا؟

✍ لماذا ما تكون عين واحدة وتكفي تكون قوية ويشربوا منها؟

قيل: هذا من لطف الله بهم ورحمته؛ حتى لا يتزاحموا ويتقاتلوا، يعني هيأ الله لهم،، انظر قال: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف: 160]، كلّ أمة تأخذ من هذه العين وتشرب، وتروي من هذه العين حتى يكون هناك زحام ومقاتلة ويحصل ما يحصل لهم؛ بل هيأ الله لهم أحسن الأجواء.

قال: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف: 160]، وزيادة على النعم التي أنعم الله بها عليهم قال: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ [الأعراف: 160]، يأتيهم السحاب والغمام يظلل عليهم، ويصبحوا كأنهم في مكان بارد، وهواء لطيف جميل.

الشمس لو كانت عليهم مباشرة قد تحرقهم، وقد تؤذيهم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا جاءت الشمس أرسل عليهم هذا الغمام، فالغمام يغطيهم، ويصبحون في مكان من ألطف الأماكن، من أجملها، ومن أحسنها، هذه نعمة، نعمة الماء ونعمة الظلال.

بعدها قال: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [الأعراف: 160]، يعني الماء الشراب، ويأتيك الآن الطعام.

✍ ما هو المن وما هو السلوى؟

المن: **"ينزل كلّ صباح على الأشجار مثل العسل"** مثل العسل وإذا جلس مدةً أصبح مثل الصمغ يأكلونه عسل مثل الحلوى، يأكلونه كلّ صباح، ولا يبقى إلى اليوم الثاني، حتى من نعمة الله عليهم لا يبقى إلى اليوم الثاني يتعفن، إذا جاء اليوم الثاني أنزل الله عليهم شيء جديد طازج، فانظر نعمة الله عليهم.

والسلوى: **"طائر مثل السمان أصغر من الحمام وأكبر من العصفور"** هذه الطيور يبعثها الله عليهم يصيدونها بسهولة ويشوونها، فيأكلون اللحم، ويأكلون الحلى، ويشربون الماء، الظلال فوقهم، هل تجد أعظم من هذه النعمة؟!!

قال: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: 160]، الله أباح لهم، ما منعهم، ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: 160].

✍لكن هل شركوا ولا كفروا؟

قال: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 160]، دليل على أنهم ما شكروا نعمة الله، تجد أكثرهم لا يدفع مبالغ فلوس، ولا يتعب نفسه في السعي يذهب إلى بقالة أو يذهب إلى السوق ويروح يشتري لا، ينزل عليه وهو في مكانه **"منّ"** و**"سلوى"** والمياه قريبة، والظل، كلّ شيء من نعم الله عليكم، ثم تكفرون وتفسقون وتعصون الله وتعبدون العجل؟!! كيف تصنعون مثل هذه الأشياء؟!!

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: **"ما ظلمناهم، لكن هم ظلموا أنفسهم"** لما ملوا من هذا الطعام قالوا: **"منّ وسلوى"** ما نريدهم، ماذا تريدون؟ قالوا: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: 61]، يعني ما تريدون الحلوى، ولا اللحم الطازج، لحم الطيور، تريدون بصل وثوم، انظروا إلى العقلية عندهم.

قال: إذا أنتم تريدون هذا، ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: 61]، اهبطوا بلاد فلسطين قريبة منكم، والله أمركم، لما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: 21].

قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: 24]، نحن لا نريد، فيها قومًا جبارين ومستحيل أن ندخلها، فعصوا الله وعصوا رسوله.

هنا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: 161]، فيها الذي تريدون، تريدون هذه الأشياء ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: 161]، اسكنوا هذه القرية التي هي بيت المقدس، أو غيرها.

قال: ﴿اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ [الأعراف: 161]، الذي تريدونه تشاءونه موجود فيها، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [الأعراف: 161]، يعني قولوا يا رب احطط عنا خطايانا، يا رب اعف عنا، يا رب اغفر لنا ذنوبنا، هذا معنى **"حطة"** احطط عنا خطايانا، يعني تجاوز عنا وارفع عنها الذنوب واستر علينا، ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [الأعراف: 161]، ادعوا الله أن يغفر لكم ذنوبكم.

قال: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ [الأعراف: 161]، أي باب القرية، منتصرين، ﴿سُجَّدًا﴾ [الأعراف: 161]، يعني خاضعين، راكعين، متواضعين لله، تعرفون أن النصر من عند الله، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: 161].

مثلما دخل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبينا محمد، لما دخل مكة كيف دخل؟ مطئ طئ رأسه بشدة، متواضعًا لله، ما دخل مفتخرًا متكبرًا على أهل مكة، مع أن الله نصره، إلا أنه تواضع لله، فالله يقول لهؤلاء بني إسرائيل: ادعوا الله أن يغفر ذنبوكم، مجرد أن تدعوا الله تقولون: **"اللهم اغفر لي"**، ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: 161]، متواضعين.

✍إذا قلتم هذا النتيجة ما هي؟

قال: ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ [الأعراف: 161]، وعد من الله أن يمسح عندكم ذنوبكم، ﴿نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 161]، أي نزيدهم إيمانًا وطاعة، ونزيدهم أجورًا عظيمة.

✍ماذا كان موقفهم السيئ؟

✍ماذا كان ردهم؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: 162]، ليس جميعًا؛ بل الذين ظلموا منهم، ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: 162].

✍ما هو القول؟

لما قيل لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [الأعراف: 161]، يستهزئون ويسخرون، يقولون: **"حنطة، حنطة"**، **"حبة شعيرة حنطة"**، يقولون: **"حبة حنطة فيها شعرة"** أو **" فيها شعيرة"** يستهزئون، يقولون: هذه الشعرة أدخلها في حبة الحنطة، يستهزئون.

الله يقول لكم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ [الأعراف: 161]، يعني ادعوا الله أن يغفر لكم ذنبوكم، وتسهزئون وتستخرون، هذا تبديل القول، القول بدلوه، وأما أفعالهم السيئة لم يدخلوا سجدًا وإنما دخلوا على أستائهم وعلى أدبارهم.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ادخلوا راكعين وساجدين لله خاضعين، وهم دخلوا على أدباهم استهزاءً وسخرية.

ماذا صنع الله بهم؟

قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُم﴾ [الأعراف: 162]، النتيجة قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأعراف: 162]، أنزل الله عليهم عذاب من السماء، ويستحقونه﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 162]، بسبب ظلمهم الذي قال الله فيهم: ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 160]، فأنزل الله عليهم هذه العقوبة الشديدة، قيل: هو الطاعون وباء شديد فمات أعداد هائلة منهم بالآلاف، وقيل: عقوبة من السماء الله أعلم بها، المهم نزلت عليهم عقوبة من السماء.

الله لما ذكر لنا هذا الأمر يحذرنا حتى لا نسير على طريقتهم، يحذرنا ويبين لك أن المعاصي له شؤم، ولها آثار سيئة، لا تظن أن المعصية التي تعصي بها رب العالمين أنها تذهب، إن لم تتب وتستغفر كما أمرك الله، وتسأل الله أن يحط عنك هذه الخطيئة ويمسحها ستبقى مدى السنين وهي معك إلا أن يعفو الله عنك.

لا تظن أن هذه الذنوب إذا جاء يوم القيامة يعني نُشرت صحيفتك أمام الله ووجدت فيها من الذنوب والمعاصي الشيء الكثير إلا أن تتوب، وتستغفر، وتكثر من الأعمال الصالحة؛ بحيث أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 114].

فكل ما تكثر من حسنات وتستغفر وتتوب وتتصدق وتعمل الصالح؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،، وإلا كلّ الناس خطائين، ما في أحد يقول: أنا سالم من الأخطاء، كلٌّ يقع في الذنوب والمعاصي، ما في أحد معصوم إلا الأنبياء، أما الناس فليسوا معصومين.

فكلٍّ لكن خير الخطائين الذين يتوبون إلى الله، التوابين هم من فيهم الخير، يتوب إلى الله ويستغفر ويكثر.

والحمد لله نحمد الله عَزَّ وَجَلَّ أن شريعتنا فيها من السماحة ما ليس في أي شريعة من الشرائع، تستغفر فقط، لا تشيل هم أبدًا، تعمل الصالحات، تصلي، تقرأ، كلّ شيء متيسر لك، وكلّ شيء فيه سهولة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رفع عنا تكاليف صعبة، ما تجد ماء تيمم، ما تجد ما به تتيمم صلي ولو بدون تيمم، ما تستطيع الصوم الله رفع عنك الصيام، ما تستطيع أن تحج الحج ساقط عنك.

شريعة سمحة فيها من السهولة والسماحة ما ليس في غيرها، ومجرد أنك تتوب، يعني بنو إسرائيل توبتهم ماذا؟ أن يقتل بعضهم بعضًا بالسيف، هذه توبتهم، الذين عبدوا العجل تريدوا أن تتوبوا ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُم﴾ [البقرة: 54].

ونحن ولله الحمد مجرد أن ترفع يديك **"اللهم اغفر لي ذنبي، اللهم ارحمني، اللهم تب علي"** والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فاتح باب التوبة، يفرح بتوبة العبد، يفرح فرح بأن تتوب إذا تبت.

فنسأل الله أن يتوب علينا، وأن يعفو عنا، ونسمع مثل هذه القصص، وكيف جرى لهؤلاء لما عاندوا واستكبروا، وتكبروا على طاعة الله، ماذا صنع الله بهم؟ ستأتيك قصة بعد هذه إن شاء الله نعرض لها الأسبوع القادم أعظم وأشد من هذه القصة.

أعظم في بني إسرائيل، من هم؟ أصحاب السبت الذين انتهكوا حرمة الله فقلبهم الله قردة وخنازير، وهذه أشد، وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله في اللقاء القادم.

وَاَللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(163)
(الأعراف 163 - 170)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُك عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا.

مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم قراءة وتفسيرًا وتدبرًا وفهمًا، وأخذًا بتوجيهات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا اليوم هو اليوم الأربعاء الموافق للعشرين من شهر ربيع الآخر من عام 1446من الهجرة، في تفسير القرآن و**"سورة الأعراف"** التي أودع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها عددًا من قصص الأولين، من الأنبياء وغيرهم.

وهذه القصة التي بين أيدينا قصة الحقيقة مهمة جدًا وتمس الواقع، وهي تتعلق بـــ**"أثر الذنوب والمعاصي"** وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حد حدودًا، وحرم أشياء، فمن تعدى حدوده أو انتهك محارمه فليحذر من عقوبات خطيرة؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يرضى لعبده أن يتجاوز حدوده وأن يقع في محارمه؛ فإن الله يغضب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويغار على محارمه، حتى لو كان ممن كان من البشر.

هذه القصة التي ساقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في **"سورة الأعراف"** قصة عجيبة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ [الأعراف: 163].

وقبل أن ندخل في هذه القصة يجب علينا أن نعرف أن قصص القرآن تختلف عن أي قصة من قصص البشر، قصص البشر والروايات والقصص هذه تكون للتسلية، والترويح، قد يكون فيها من نسج الخيل الشيء الكثير، القصة القرآنية قصص حقيقية واقعية، الله ينقلها لنا ويذكرها مما وقع سابقًا، يعني هي واقع حقيقية، ويقصها الله لنا بالحق، كما قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: 13]، وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ ﴾ [آل عمران: 62].

فهي حق من الله ومصدرها من الله، وهي تحكي أشياء واقعية ليست خيال أو أحاديث أو أساطير لا؛ بل هي حق، حتى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر لنا القصة القرآنية ويبين العبرة والحكمة منها، يقول: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176].

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

فهذه القصة التي بين أيدينا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: 163]، القرآن ما يركز على الأسماء، اسم القرية ولا مكانها هذا ما يهمنا، ما يهمنا أن نأخذ العبرة والعظة من هذه القصة.

يقول: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ [الأعراف: 163]، أسأل من؟ اسأل قومك كفار مكة، أو اسأل اليهود الذين يقولون: نحن عندنا علم، اسألهم عن هذه القرية.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما يقول: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ [الأعراف: 163]، حتى يشحذ الهمم ويجعل الأذهان تقرب من هذه القصة وتفكر فيها، وإلا الله قصها علينا فقال: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: 163]، يعني على شاطئ البحر، حاضرة البحر يعني على حدود البحر.

قال: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: 163]، هذه طائفة أو قرية من قرى بني إسرائيل على البحر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بعث أنبياء بني إسرائيل، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل لهم يوم الجمعة

هو خير الأيام، يوم عبادة وطاعة، فتركوه اليهود، لم يبالوا بيوم الجمعة، وعظموا يوم السبت، ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا أرشد النصارى إلى تعظيم يوم الجمعة والعبادة فيه فتركوه، وعظموا الأحد.

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اختار هذه الأمة أمة محمد ليعظموا يوم الجمعة فعظموه وكانت هذه الأمة أمة محمد هي خير الأمم.

يوم الجمعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرشد هذه الأمة أمة محمد لتعظيم هذا اليوم يوم الجمعة فعظمته، ولا زالت ولله الحمد تعرف قدر هذا اليوم.

هذه القصة الآن قصة طائفة من بني إسرائيل، وقعوا في معاصي كثيرة، فابتلاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن حرم عليهم صيد السبت، قال: صيدوا في الأيام كلها أيام الأسبوع، لكن يوم السبت لا تصيدوا فيه يحرم عليكم، وهذا ابتلاء من الله؛ لأنه إذا جاء السبت يوم السبت امتلأت الشواطئ من الأسماك والحيات، حتى إنها تصل إلى بيوتهم، وإذا جاء الأحد إلى الجمعة لا يجدون ولا سمكة واحدة، كلها تذهب في قاع البحر، ما يجدون شيئًا ولا يصيدون ولا واحدة، فجلسوا على هذه المدة، إذا جاء السبت نظروا إلى هذه الأسماك أمامهم لكن لا يستطيعون صيدها؛ لأن الله حرمها عليهم.

بعد لك تحايلوا، انظروا إلى التحايل على شرع الله، وليس التحايل على بشر؛ بل على الله عَزَّ وَجَلَّ، فتحايلوا على شرع الله، ماذا صنعوا؟ حفروا حفرًا ووضعوا فيها شباك، يضعونها متى؟ يوم الجمعة، فإذا جاء السبت جاءت هذه الأسماك وسقطت في هذه الحفر ومسكتها الشباك، ولا يتعدون ولا يتعرضون لها.

إذا جاء الأحد أخذوها وقالوا: نحن ما صدنا يوم السبت، نحن وضعنا الشباك يوم الجمعة وهذا جائز، وأخذناها الأحد وهذا جائز، يظنون أن هذا الأمر يعني يجوز على الله، وهذا بلا شك أنه محرم، مُحرم التحايل على شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ [الأعراف: 163]، يعني يتعدون حدود الله ﴿فِي السَّبْتِ﴾ [الأعراف: 163]، في السبت الذي حرمه الله عليهم.

قال: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ [الأعراف: 163]، يعني تأتي الحيتان والأسماك يوم السبت، ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ [الأعراف: 163]، يعني كثيرة جدًا، تشرع وتنتشر الشواطئ، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ [الأعراف: 163]، يعني إذا ذهب السبت، ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: 163]، لماذا؟ قال: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 163]، بسبب فسقهم ومعاصيهم، ابتلاهم الله بسبب الذنوب والمعاصي، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 163].

ثم إنهم بعد ذلك مثلما ذكر الله اعتدوا في السبت وبدؤوا يصيدون، فانقسمت القرية هذه إلى أقسام، فمنهم من وافقهم وبدأ يأخذ معهم، ويقول: نحن نصيد يوم الأحد، ومنهم من أنكر، وقال: هذا حرام ولا يجوز، وهذا تعدي، أنتم وضعتم الشباك، والشباك سقطت في يوم السبت وهذا حرام، وأنكروا عليهم، وطائفة ما أنكرت، ولم تأخذ، ولم تعدِ في السبت.

قل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الطائفة التي سكتت وهي تُخاطب الطائفة التي تُنكر عليهم: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: 164]، يعني طائفة وجماعة، ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف: 164]، يعني هم يخاطبون الذين ينكرون عليهم، يقولون: لماذا تنكرون عليهم؟ هؤلاء الله سيعذبهم، إما يهلكهم ويموتون، أو يعذبهم عذابًا شديدًا، هؤلاء انتهكوا حرمة الله فما الفائدة من أن تعظوهم؟ لن يسمعوا منكم، لا تعظوهم.

فردوا عليهم أن سبب الوعظ هو أمران:

الأمر الأول: **"حتى يُعذرون عند الله"** يقولون: نحن نعذر عند الله أننا ما سكتنا عن المنكر، ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 164]، حتى يعذرنا الله، لا نسكت على المنكر.

الأمر الثاني: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 164]، ما تدرون يمكن يتقون الله ويخافون، أو يرجع بعضهم إذا وعظناهم أكثر من مرة قد يتعظ بعضهم ويرجع.

فأصبحت الآن القرية ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: وقعوا في الحرام، وانتهكوا حرمات الله.

الطائفة الثانية: أنكروا عليهم ولم يسكتوا.

الطائفة الثالثة: لم يقعوا في الحرام لكنهم ما وعظوهم ولم يرضوا.

فما هي النتيجة؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [الأعراف: 165]، يعني تركوا وتغافلوا عن الأشياء التي جاءتهم وذكرتهم، سواء من هؤلاء القوم أو غيرهم، ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف: 165]، الذين نهوا وأنكروا عليهم أنجاهم الله من العذاب، ﴿أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ [الأعراف: 165].

وأما الذين وقعوا وانتهكوا حرمات الله النتيجة ما هي؟

قال: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ [الأعراف: 165]، الذين ظلموا أخذهم الله بعذاب بئيس شديد قوي، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: 165]، ظلموا وفسقوا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأعراف: 166]، عتوا يعني قست قلوبهم واشتدت ولم يقبلوا، ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: 166].

مسخهم الله قردة وهذا أشد العقوبات، أنه إنسان يتكلم ويمشي ويتحدث ينقلب بلحظة قرد، هذه أشد العقوبات.

قال بعض أهل التفسير: إن الذين أنكروا عليهم جعلوا سور بينهم وبينهم ووضعوا باب، قالوا: لا نختلط معكم ولا نجلس معكم، أنكروا عليهم، ووضعوا سور في القرية، قالوا: نحن في جهة وأنتم في جهة، أنتم انتهكتم حرمات الله وعرضتم أنفسكم للعذاب، ووضعوا سور له باب، الباب هذا يدخلون ويخرجون عليهم، بسبب طلباتهم ونحو ذلك.

ففي يوم من الأيام أصبحوا في الصباح فإذا القرية ما فيها صوت، ففتحوا الباب لما فتحوا الباب فإذا القرية كلها قردة، فكان الرجل يذهب إلى بيت من أقاربه ويطرق الباب، فيخرج إليه قرد رجل، فيقول: أنت فلان بن فلان؟ قال: نعم، ويؤمئ برأسه، فقال: ما الذي صنع بك هكذا؟

قال بعض أهل التفسير: لما مسخوا قردة وخنازير ، حتى قيل خنازير؛ لأن الله قال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ [المائدة: 60].

فلما مسخوا بقوا ثلاثة أيام ثم ماتوا كلهم لم يبقوا ولم يتناسلوا، هذه قصة ساقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تحتاج منا إلى تأمل وتفكر، وأيضًا فيها موعظة لمن لا يبالي بالذنوب والمعاصي، تجد بعض الناس لا يبالي لا بالذنوب ولا بالمعاصي، ويرتكب من هذه الأشياء من المحرمات ولا يبالي، والله فوقه وعالم بحاله، والله قادر على أن ينتقم منه.

فليحذر الإنسان، وليكثر من الاستغفار، ويعود إلى ربه، لا أن يكون مثل هؤلاء الذين قست أمورهم وعتت عن أمر الله.

قد يسأل سائل يقول:

طيب الآن طائفة أنجاها الله وهم الذين أنكروا، وطائفة أهلكهم الله، بقيت الثالثة؟

نقول: الثالثة ما ذُكرت فيها القرآن، ولم يتكلم الله عنها، والذي يظهر أنه ما أصابها مثل ما أصاب هؤلاء؛ لأنه لو هلكت لأخبر الله عنها، لكنها نجت؛ لأنهم ما رضوا بذلك، وإن لم ينكروا عليهم لكنهم لم يرضوا بذلك.

قال الله بعد هذه القصة: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: 167]، من؟ هؤلاء اليهود، اليهود منهم هذه الطائفة، ومنهم من وقع في معاصي، ومنهم من ذاق الويل، وذاق العذاب، من كثرة معاصيهم وفسقهم قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ [الأعراف: 167]، يعني أعلم الله وأخبر ، ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: 167]، يعني سيهينهم ويذلهم، من يأتي يذلهم ويهينهم على مدى العمر.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ [الأعراف: 167]، ينتقم منهم، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: 167]، سريع العقاب لمن أصر واستمر على معاصيه، وغفور رحيم لمن عاد وتاب إلى الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ [الأعراف: 168]، أي اليهود بنو إسرائيل، ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: 168]، جعلهم مشتتين في الأرض، وأنت تلاحظ قبل قرن من الزمان أو أكثر كان ليس لهم دولة، مشتتين في كلّ مكان، في جميع بقاع الأرض.

قال: ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: 168]، ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحكمه العدل، ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ [الأعراف: 168]، فيهم الصالحون، قلة، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: 168]، والأكثر أهل فسق وأهل ظلم، ﴿مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ [الأعراف: 168].

قال: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: 168]، مرة يعطيهم حسنات وخير ونعم وعافية، ومرة يصيبهم بالسيئات من المصائب والأمراض والعقوبات وتسليط بعض الدول عليهم.

قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168]، يعرفون الله ويرجعون إلى ربهم، ومضت السنين على هذه الحال وهم مشتتون في الأرض.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: 169]، من بعد هؤلاء الصالحون والذين فيهم خير.

قال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: 169]، الخلف هي الطائفة السيئة، لما تقول: **"الخَلْف"** هذه مذمة، لما تقول: **"الخَلَف"** هذه طائفة حسنة طيبة، فرق بين **"الخَلْف"** و**"الخَلَف"**.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: 169]، يعني أخذوا التوراة، ورثوها وتعلموها لكن لم يعلموا بها ولم يطبقوها حرفوها.

قال: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ [الأعراف: 169]، يأخذون أموال الناس من الرشاوي، والحكم بغير ما أنزل الله، ويأخذون الأموال، ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169]، يعرفون أن هذا حرام، ولذلك قالوا: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169]، يستهزئون، لم يقولوا: تبنا ورجعنا إلى الله، وأقنعنا وتركنا هذه الأشياء، وعزمنا على ألا نعود لا، يأخذون ويقولون: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169].

قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ﴾ [الأعراف: 169]، مثل هذا العرض ما يبالون ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: 169]، كلّ شيء فيه حرام يأخذونه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: 169]، ما أُخذ عليهم الكتاب التوراة الميثاق أنهم يتعلمون العلم ويطبقونه ويعملون به ولا يحرفونه ويبدلونه؟!!

قال: ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [الأعراف: 169]، ولا يكذبوا على الله، ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: 169]، درسوا هذا الكتاب وتعلموه، وعرفوا الميثاق ولكنهم أعرضوا عنه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: 169]، خير من عرض الدنيا، وخير من أكل الحرام، خير لكن لمن؟ قال: ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 169]، خير للذين يتقون الله ويبتعدون عن الحرام، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: 169]، أين عقولكم؟!!

ثم أثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على طائفة منهم؛ قال: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ [الأعراف: 170]، يتمسكون بقوة بالكتاب ويعملون به، وأيضًا ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف: 170]، حافظوا على الصلاة.

قال: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: 170]؛ لأنهم أصلحوا وتمسكوا وعملوا بالكتاب، وأقاموا الصلاة، وهذا يدل على أن هناك طائفة من اليهود قلة متمسكين بالكتاب، ويقيمون الصلاة حق الإقامة، ويصلحون أعمالهم مع ربهم ومع الخلق، هؤلاء يوجد منهم، وهذا حكم الله العدل، لا يحكم عليهم جميعًا بحكم واحد، إنما يحكم لكلٍّ ما يستحق.

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(164)
(الأعراف 171 - 179)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، الحقيقة أيها الأخوة مثل هذه المجالس المباركة التي بإذن الله تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة ويذكر الله الحاضرين في الملأ الأعلى.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»**، تعلم العلم من أجل وأفضل العبادات، تصور أن مجلس مجالس العلم تحضره وتتعلم العلم الشرعي من الكتاب والسنة خير من قيام الليل، وخير من صيام النهار بلا شك؛ لأن الصيام والقيام هذا خاص لك ما يتعدى، تصوم، تقوم، تتعبد الله، لكن العلم تخرج نفسك من الجهل، وتنفع غيرك، **«رُبّ مبلغ أوعى من سامع»**.

يمكن تأخذ كلمة من هذه الكلمات تنقلها لغيرك والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«رُبّ مبلغ أوعى من سامع»**.

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«نضر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها فأداها لمن سمعها»**.

فكلنا نتعاون على العلم والتعلم، ونتشرف أن نكون من أهل العلم الذين يتعلمون كتاب الله وسنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا المجلس المبارك الذي نعقده ولله الحمد من كلّ أسبوع يوم الأربعاء بعد صلاة المغرب، ونقرأ آيات من القرآن الكريم نبيّن معانيها وما فيها من توجيهات ومواعظ، ونتعلم كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي هو كنز من الكنوز، يعني لا تتصور ما فيه من العلوم الشرعية، يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"تعلموا القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين"**.

عندنا **"سورة الأعراف"** والآية التي معنا هي الآية الحادية والسبعون بعد المائة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171].

✍ من هم؟

هؤلاء لما اختار موسى سبعين من خيرة قومه، لما موسى إلى ربه إلى ميقات الله، لما قال الله: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: 142].

✍ لما ذهب إلى الميقات ماذا صنع بني إسرائيل؟

صنعوا: أنهم عبدوا العجل، وأشركوا بالله، لما رجع موسى من الميقات غضبان أسفًا على قومه، **"كيف تعبدون وتشركون بالله الذي أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب؟!!"**.

لما رجع ثم أخذ هذا العجل ونسفه في البحر، وقضى عليه، وأعاد بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال:لابد أن أختار منكم سبعين رجلاً يذهبون معي إلى الطور ليعتذروا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: 155].

فلما ذهب بهم، ذهب موسى ليكلمه الله وينزل عليه التوراة، فكلمه وأنزل عليه التوراة، فكلمه؛ لأن إنزال التوراة كان سابقًا، فلما كلمه قال: هؤلاء السبعين هم الخيرة، هم أفضل ما في بني إسرائيل، لكن قالوا: ﴿يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: 55].

يعني لن نصدق بك، ولا نعتبرك نبي ولا شيء، لا نصدق بك أبدًا حتى نرى الله جهرة، ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: 55]، فأماتهم الله ثم بعثهم بعد موتهم، لما بعثهم قال لهم موسى: **"إن الله أعطاني هذه التكاليف وأنزل علي التوراة فخذوها"** فقالوا: **"لا، ولا نأخذها ولا نقبلها"**.

ولذلك أنت تقرأ في سورة البقرة في آخرها الله أثنى على هذه الأمة أمة الإسلام بأي شيء؟ قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: 285]، وبنو إسرائيل قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: 93].

هنا لما عصوا وقالوا: لن نقبل التوراة أبدًا، ولن نؤمن بك يا موسى حتى نرى الله جهرة، الله جَلَّ جَلَالُهُ قلع الجبل جبل الطور كاملاً، قال الله هنا: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ [الأعراف: 171]، نتقناه يعني قلعناه من جذوره ورفعناه، في آية أخرى قال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء: 154].

قال: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: 171]، ارتفع على معسكر السبعين هؤلاء الخيرة، ارتفع الجبل فوقهم، وقال الله لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: 171]، بعزم، وصدق، خذوا ما في التوراة من أحكام بعزم وصدق، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: 171]، لأن ذكر ما فيه مصلحة لكم، كتاب هداية ونور، ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 171].

فلما رأوا الجبل فوقهم وخافوا أن يسقط عليهم سجدوا لله، وكان الواحد منهم يسجد على جبينه الأيسر، ويرفع عينه اليمنى لينظر الجبل.

ولذلك اليهود حتى الآن إذا سجدوا يسجدون على الجبين الأيسر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما خافوا وصعقوا ورأوا الجبل فوقهم أذعنوا، وقبلوا، ولكنهم لم يعملوا بها.

هذه الآية التي سمعناها وبينا معانيها هذه آخر آية تتحدث عن بني إسرائيل، من أول السورة مرت يمكن حوالي سبعين آية كلها تتحدث عن أحوال بني إسرائيل ومواقفهم السيئة مع رب العالمين، ومع التوراة كتاب الله، ومع نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعني مواقف سيئة جدًا.

✍ والله يذكرها لنا لماذا؟

حتى لا نقف مع نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلما وقف هؤلاء، ولا نقف ضد شريعة الله؛ بل نتقبل شريعة الله، ونحب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونأخذ بسنته، هذا المقصود.

بعد هذا أن الله أخذ منهم الميثاق أن يأخذوا بالتوراة، ولكنهم نقضوا الميثاق ونقضوا العهود، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر الميثاق الأصلي الأساسي وهو ميثاق الخلق كلهم، جميع بني آدم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: 172].

✍ هذا يسمى الميثاق الأول الذي أخذه الله على جميع بني آدم، ما في مخلوق من بني آدم إلا أُخذ عليه ميثاق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما هو الميثاق هذا؟

أهل التفسير أكثرهم يقول: إن الميثاق هذا هو فطرة الله، جميعنا فطرنا على التوحيد وعلى عبادة الله، ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، على التوحيد وعلى عبادة الله، ولا يعرف الشرك، الشرك شيء طارئ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخذ الميثاق على بني آدم.

قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: 172]، بمعنى أنه أخذ عليهم الميثاق؛ لأنه فطرهم على التوحيد، وعلى عباد الله، وعلى نبذ الشرك، وأشهدهم على أنفسهم وأقروا، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: 172]، قالوا: بلى أنت ربنا، ﴿بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: 172]، شهدنا على ذلك.

هذا رأي، وهناك رأي آخر يقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن هذا الآن يسمى لسان الحال، هناك لسان المقال وهو أن الله مسح على ظهر آدم، وبث ذريته في الأرض، كلّ من ولد بث ذريته في الأرض كلهم، ثم خاطبهم مواجهة بلسان المقال، فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: 172]، فهذا رأي، وهذا رأي للمفسرين.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]، حتى لا تقولوا يوم القيامة: أنك يا رب ما فطرنا على التوحيد، ولا عرفنا التوحيد؛ بل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فطرهم على التوحيد، ونصب لهم الأدلة الدالة على أنه هو الواحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما في آية كونية في السماء والأرض إلا تدل على أن الله هو الواحد.

وفي كلّ شيء له آية تدل على أنه واحد

فأنت تنظر في هذا الكون تجد آيات الله مبثوثة في الكون، في السماوات والأرض، في الشمس والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، وكثير من المخلوقات أمامك تدل على أن الله هو الواحد، انظر في الفواكه والخضار وغيرها، تأمل فيها.

وفي كلّ شيء له آية تدل على أنه واحد

فهذه أدلة نصبها الله وفطر الناس على التوحيد، وجاء الشرك، **«جاءت الشياطين فاجتالتهم»**، فصرفتهم عن عبادة الله وحده لا شريك له.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]، الله فطركم على التوحيد فلا تغفلون عنه.

الأمر الثاني: قال: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: 173]، هذا خطاب للمشركين؛ حتى إلى تحتجوا عند الله تقولون: آباؤنا مشركين، ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [الأعراف: 173]، تبعناه، لا، لا تتبع آباءك على الخطأ والغلط، بل نتبع آباءنا على الصح.

ولذلك الله نقدهم قال: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 173]، تهلكنا بفعل آباءنا؟ قال الله: **"لا أقركم عل هذا، قد جاءكم الحق وفطرناكم على التوحيد والطاعة، ونصبنا لكم الأدلة، وأرسلنا لكم الرسل، فقامت الحجة"** أنزل الله الكتب وأرسل الرسل فقامت الحجة.

لما يأتي واحد يقول: **"أنا وجدت أبي على الشرك فأشركت"** هذا لا يُقره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثلما بيّن وفصل لنا هذه الآيات، قال: نفصل لكم هذه الآيات ونوضحها لكم، ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 174]، يرجعون إلى التوحيد، وإلى طاعة الله، وإلى شرع الله، لعلهم يرجعون إذا سمعوا مثل هذا الآيات يفتح الله لهم بابًا إلى الخير والهداية.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر لنا قصة عجيبة حصلت في الزمان الأول لكن من غير تحديد، لا نحتاج إلى أن نحدد الشخص من هو؟ ولا الزمان، ولا المكان؛ لأن الله أبهمه فنتركه، ونأخذ العبرة دائمًا، في القصص أنت خذ العبرة والفائدة.

قال هنا: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [الأعراف: 175]، أخبرهم خبر الرجل الذي أعطاه الله آيات، ما هي الآيات؟ أعطاه الله العلم، والمعرفة، وجعله من أوليائه.

قال: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 175]، لم يعرف ولم يشكر نعمة الله، وإنما خرج من آيات الله، هداه الله وأنعم عليه بهذه النعم لكنه لم يشكر، فلما لم يشكر نعمة الله عليه، ولم يعرف قدرة هذه النعمة سُلبت منه.

قال: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 175]، انسلخ منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وانسلخ منها كما ينسلخ جلد الشاة ينسلخ من الشاة نفسها، يعني خرج مرة بالكلية ما عاد للعلم عنده أي قيمة، ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 175]، وانظر إلى كلمة **"انسلخ"** تدل على أي شيء؟ تدل على أنه لم يخرج هكذا مباشرة، الشيطان يأتي الإنسان تدريجيًا، خطوة خطوة، فيقول له: افعل كذا، وافعل كذا، وافعل كذا، حتى لا يدري إلا وقد انسلخ وخرج عن الإسلام.

اليوم يقوله له: صل في البيت ما يحتاج أن تصلي في المسجد، ثم غدًا يقول: اجمع الصلوات، اجمعها مرة واحدة، الفجر والمغرب والعشاء في وقت واحد، ثم غدًا يقول: اجمعها في اليوم الثاني، وفي الثالث يقول: اتركتها، صلها بعدين، يأتيه الشيطان شيئًا فشيئًا.

كان يصلي في المسجد مع الجماعة ثم تفقده حتى تجد أنه ذهب، هذا تسلط الشيطان عليه، قال هنا: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 175]، خرج شيئًا فشيئًا، شيئًا فشيئًا تدريجي؛ لأن الله يقول: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [النور: 21]، خطوة خطوة يأتيك ما يأتيك هكذا مباشرة.

لو الشيطان يأتي الإنسان يقول له: أشرك بالله، ما أطاعه، لقال له: لماذا أشرك بالله؟ ولكن يأتيه تدريجي حتى يوقعه.

انظر قال هنا: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: 175]، لما انسلخ منها خرج من ولاية الله ومن حسنه الحصين في طاعة الله؛ لأن الطاعة الصلاة والعبادات والذكر هذا حصن لك، يحصنك من الشيطان، يحفظك.

✍ لما خرج من هذا الشيء من هذا الحصن الحصين ما هي النتيجة؟

قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 175]، الآن لو في غير القرآن كنا نقول: **"فانسلخ منها فاتبع الشيطان"** هو اتبع الشيطان، ولكن الله قال: لا؛ بل الشيطان هو الذي اتبعه، لماذا؟ لأن الشيطان انتهز فرصة وجده بالأمس من أحسن الناس تُقى وطاعة واستقامة وعلم، ثم خرج فلحقه الشيطان، مباشرة انتهز الفرصة، فأخذه، وبدأ يتصرف فيه كيف يشاء هذا معناه، ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: 175].

✍ فلما أتبعه الشيطان ما النتيجة؟

قال: ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: 175]، كان الأمس من الراشدين العقلاء، العالمين، الذين أنعم الله عليهم بالعلم والولاية والطاعة، فخرج فكان من الغاوين.

✍ ما هو السبب؟

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 176]، لو أراد الله أن يرتفع بالعلم يرتفع بهذه الآيات رفع الله، والله أعطاه من عليه، لكن هو الذي أوقع نفسه، الله ما منعه الله أعطاه في البداية.

قال: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 176]، ركن إلى الأرض ولم يرتفع، هو كان في أعلى عليين في العلم، فأصبح في أسفل سافلين، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: 176]، بدأ يتبع هواه، وهواه ونفسه تدل على طرق الشيطان.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حاله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: 176]، مثله الله بأخس وأسوأ الحيوانات، ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: 176]، الكلب ما هو؟ قال: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: 176].

✍ ما معنى تحمل عليه؟

✍ يعني تضع عليه بضائع؟

✍ الكلب يوضع على ظهره؟

ما يوضع على ظهره شيء، ولكن معنى تطرده، ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ [الأعراف: 176]، يعني تأخذ عصا وتطرده، يقول: إن طردته ولحقته يلهث، وإن تركته في مكانه ولم تتعرض يلهث.

✍ طيب ما هو وجع الشبه؟

✍ كلب يلهث وما يلهث ما علاقته بهذه الرجل الذي أعطاه الله العلم والإيمان والطاعة ثم انسلخ منها؟

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هذا مثله كمثل الكلب ما انتفع، الكلب يلهث بكل الحالات، هذا صار من الغاوين، عنده علم أو ما عنده علم ما استفاد، يعني أعطاه الله علم يرتفع به، لكنه نزل إلى أسفل سافلين فأصبح هو والجاهل سواء، مثل الكلب تتركه يلهث، تلحقه يلهث.

فهذا مثله علم تعطيه أو ما تعطيه علم، تسحب العلم منه أو تعطيه العلم، فهذا حاله غاوي ضال يتبعه الشيطان، فهذا معناه، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: 176].

قال: ﴿ذَلِكَ﴾ [الأعراف: 176]، أي هذا المثل، ﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: 176]، ما عرف نعمة الله، ولا عرف قدر الله، ولا عرف رحمة الله عليه أن جعله من أهل الخير والصلاح والعلم الطاعة، ما عرف هذا.

فلذلك قال: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ [الأعراف: 176]، لهم حتى يعتبروا ويستفيدوا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 176]، يتفكرون في هذه الآيات، وهذا المثال الذي ذكره الله، أو هذه القصة أو هذا الرجل الذي ذكره الله أعطاه الله العلم، وأعطاه الله الإيمان والطاعة، ثم لم يعرف قدرها، كلّ إنسان منا يخاف على نفسه، لماذا؟ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر دعاءه: **«يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على طاعتك وعلى دينك»**، ما تدري.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا»**، تحدث لك أمور في الدنيا، أمامك جبهات كثيرة، النفس الضعيفة تدل على الشر، الشيطان، الدنيا، أمور كثيرة جبهات أمامك لابد أن تأخذ احترازاتك منها كلها، وتسأل الله الثبات في سجودك وفي صلاتك في كلّ وقت تسأل الله الثبات، **"اللهم ثبتنا، اللهم يا مقلب القلوب"**.

هذا كيف أعطاه الله العلم، وأعطاه كذا، إلى آخره؟ ومع ذلك يعرف نعمة الله، فأخذ الله كله من هذا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 176]، ولكنه ما أراد ذلك، وأخلد إلى الأرض فتركه الله.

وكلّ من يخرج عن ولاية الله، وعن طاعته، وعن دينه تتولاه الشياطين، شياطين الإنس والجن، ويأخذون به ويرمونه بكل مكان ويعبثون به، فلا تكن مكان لعبث الشياطين احفظ نفسك.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا لما ذكر القصة: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: 177]، يقول: هذا لمثل مثل سيئ لمن؟ للذين كذبوا بآياتنا، ﴿وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 177]، الرجل كذب وظلم نفسه، وإلا الله ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 117].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لك أن الهداية بيد الله، وأنت اسأل الهداية واجتهد في طلب الهداية، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17]، وقال في آيات أخرى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، أما تعرض وتقول: لا، فهذا تبقى على ضلالة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ [الأعراف: 178]، الذي يهديه الله هو المهتدي حقيقة، إذا أردت الهداية الحقيقة هو من هداه الله للخير والصلاح والطاعة، والاستقامة، وقراءة القرآن والصلاة، هذه هداية من الله وليست منك، لكن أنت سبب تتسبب قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: 178].

إذا ضل أصبح من الخاسرين، فاحفظ نفسك واسأل الله الهداية، واطلب الهداية، وابحث عن أسبابها، أسباب الهداية كثيرة فابحث عنها، ولا تنظر إلى أهل الدنيا، لو تنظر إلى مستوى العالم كله لوجدت أن أكثرهم عل ضلال، أكثرهم خاسرون في الدنيا والآخرة، لا تحسبهم على خير، فالقلة والثلة المؤمنين قلة.

قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ [الأعراف: 179]، أي بثثنا ونشرنا كثير، ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: 179]، جعلناهم لجهنم، من هم؟ قال: ﴿كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: 179]، الجن والإنس الأكثر منهم إلى جهنم.

قال: ذرأناهم وجعلناهم خطبًا لجهنم، جعلناهم لنار جهنم، لماذا؟ لأن الله أعطاهم قلوب لكن لا يفقهون بها، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، أعطاهم كلّ شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكنهم لا يريدون الخير.

انظر في قوم نوح، نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ جلس معهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم آخر شيء ما آمن إلا قليل والبقية كفروا، حتى أغرقهم الله، عاد، ثمود، شعيب، كلّ هؤلاء انظر في حالهم، ما آمن إلا قليل، يأتي النبي ما معه أحد، تصور نبي يُرسل إلى قوم يأتي ليس معه ولا واحد مؤمن، ويأتي النبي وليس معه إلا الرجل أو الرجلين، فلا تنظر إلى الكثرة.

الله أخبرنا قال: ﴿كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، أعطاهم الله قلوب لكن لا يفقهون بها، ما يستعملونها فيما ينفعهم، ينفعهم في الدنيا، أما في الآخرة لا يلتفتون إلى ما ينفعهم في الآخرة.

قال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، كيف ما يبصرون؟ يصبرون، قال: ما يبصرون الحق ولا يريدونه، يبصرون ما يضرهم، يبصرون ما يدعو إلى شهواتهم فقط، أما الحق والطاعة ما يبصرونها.

قال: ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، أي لا يسمعون الخير، يسمعون الشر ولا يريدون الخير.

قال: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ [الأعراف: 179]، هؤلاء مثل الأنعم، ثم قال: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179]، لماذا؟ الأنعام تعرف ربها، الأنغام فطرت على التوحيد تعرف ربها، ما تُشرك الأنعام، ما تعبد الشياطين، الأنعام تعرف ربها، تأكل وتشرب وتنام.

ذكر ابن القيم: أن بعض البهائم إذا أصابها الضر أو رأت الموت أمامها ترفع رأسها إلى السماء؛ لأنها تعرف أن الله في السماء، وهؤلاء لا يعبدون الله.

قال: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179]، الغفلة سيطرة عليهم، خلاص ما يستعلمون هذه الآلات في طاعة الله، وما أكثرهم في كلّ زمان، لا تظن أنهم قلة، ولكن ما أكثرهم في كلّ زمان، أعطاه الله سمع وبصر، أعطاهم قلوب، ويستخدمونها في معصية الله وفي محاربة الله، ولا يستخدمونها في طاعة الله أبدًا، ولا يسجد لله سجدة واحدة، ولا يذكر الله بلسانه، ولا يسمع خير، ولا يُبصر خيرًا، يرى أمامه الآيات في السماوات والأرض ولا تُقدم عنده أي شيء ولا تُحرك فيه أي شيء.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني الآيات الحقيقة مهمة جدًا، وكلّ واحدة تفتح لك علم غزير، في القرآن كنز، الذي ما يعرف قيمة القرآن، الذي ما يعرف عظمة القرآن هذا ما يعرف العلم، هذا كنز عظيم، يأخذ نور الله سماه نور، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: 174].

لا نطيل، نقف عند هذا القدر، نقف عند هذه الآية، وإن شاءا لله لنا لتكملة هذه الآيات، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وما سمعنا.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(165)
(الأعراف 180 - 188)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أيها الأخوة الكرام درسنا الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كلّ أسبوع يوم الأربعاء، وهذا اليوم هو اليوم الثامن عشر من الشهر الخامس من عام 1446من الهجرة، السورة التي بين أيدينا نقف عندنا ونتأمل آياتها هي **"سورة الأعراف"**.

وقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180].

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات التي قبلها أن الله قد ذرأ لجهنم يعني بث لجهنم وخلق لجنهم كثير من الجن والإنس، خلقهم لجهنم؛ لأنهم لا يصلحون للهداية، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179]، ثم بيّن قال: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179]، بل هم أضل من الأنعام، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

لما حكم على هؤلاء أرشد الخلق جميعًا إلى أن يعبدوا الله، ويتوسلوا إليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: 180].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ [الأعراف: 180]، هذه يسميها أهل اللغة صيغة حصر، يعني الأسماء الحسنى لله التي كملت في حسنها ووصلت الغاية في الحسن هي أسماء الله، ولا يمكن أن تكون أسماء البشر تصل إلى ما وصلت إليه أسماء الله الحسنى، والحسنى مثلما ذكرنا التي بلغت الغاية في الحسن والجمال، والمعاني العظيمة.

وأسماء الله ليست أسماءً محضة لا دلالة فيها لا، هي أسماء تدل على أوصاف، ليست كأسماء البشر، أسماء البشر أسماء الناس قد يكون لها دلالات، وقد لا يكون لها دلالات، ممكن تسمي شخص باسم هو يكون على خلاف هذا الاسم، يعني قد يُسمى شخص هادي وهو ضال، لكن أسماء الله لما تقول: **"الهادي"** وهو من أسماء الله يعني أن هذا الاسم له صفة، وهي صفة الهداية، بمعنى أن الله من أسمائه الهادي، ومن صفاته الهداية، من صفات الله.

ويترتب على الصفات أثر، ما هو الأثر؟ أنه يهدي من يشاء، وهكذا، لما تأتي عند اسم الرحيم صفة الرحمة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا كانت له صفة الرحمة يرحم من يشاء، القدير صفة القدرة، وهكذا، يقدر على كلّ شيء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فأنت تتفقه في أسماء الله الحسنى، وتعلم أن هذه الأسماء لها دلالات، ولها صفات، وهذا الصفات لها أيضًا آثار.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: إذا علمت أيها الشخص وأيها الإنسان أيها المسلم إذا علمت أسماء الله الحسنى، وعرفتها، ما الواجب عليك؟ قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180].

تتوسل بأسماء الله الحسنى، تقول: **"يا غفور اغفر لي"**، **"يا رحيم ارحمني"**، **"يا وهاب هب لي من لدنك رحمة"**، **"هب لي من لدنك ذرية"** وهكذا تتوسل بأسماء الله الحسنى، **"يا عزيز، يا غفار، يا رحيم، يا قادر"** وهكذا.

قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180]، والدعاء هنا يشمل دعاء العبادة، ودعاء المسألة، دعاء العبادة أنك تتعبد بهذه الأسماء، ودعاء المسألة أنك تسأل الله بأسمائه الحسنى، تتوسل بأسماء الله الحسنى، ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180].

السؤال الآن:

هل أسماء الله الحسنى محصورة بعدد ولا كثيرة لا حصر لها؟

نقول: أسماء الله لا يمكن أن يحصرها أي إنسان، لا حصر لها، طيب حديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة»**.

قوله: **«من أحصاها»**، يعني من حفظها، وعلم معانيها، وتعبد الله بها، طبقها في حياته، كانت سببًا لدخول الجنة.

لكن هذا الحديث لا يدل على أنها محصورة بعدد معين، مثلما أقول: **"عندي لك تسعة وتسعين درهم"** هل أنا ما أملك إلا هذا الشيء؟ لا، عندي غيره، لكن أنا أقول: **"عندي لك تسعة وتسعين"** أو عندي مبلغ كذا وكذا، فليس معناه أن هذا يفيد الحصر.

ما هو الدليل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسماؤه غير محصورة؟

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«أسألك بكل اسم سميت به نفسك، أو علمت به أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»**، فقوله: **«استأثرت به في علم الغيب عندك»**، يدل على أن أسماء الله غير محصورة.

طيب إذا فهمنا هذا الشيء وندعو الله بأسماء الله الحسنى، قال الله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: 180]، اتركوه، ولا تسمعوا له، و تقتدوا بهم.

من هم الذين يلحدون؟

كيف يلحدون في أسمائه؟

أصل اللحد **"الميل"** إذا قلت: **"فلان ملحد"** يعني مائل عن الحق، مائل عن التوحيد، فالإلحاد الميل، يعني يميلون في أسمائه، يعني إما يسمون بها مخلوقات مثلما كان الكفار يسمون **"اللات والعزى"**، **"اللات"** من الإله، و**"العزى"** من العزيز، فكانوا يلحدون في أسماء الله الحسنى ويسمون بها آلهتهم.

أو يعطلونها عن معانيها، أو يحرفونها، كلّ هذا داخل في قوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: 180]، اتركوهم، ولكن الله سيجازيهم، فكل من ألحد في أسماء الله عطلها أو حرفها أو بدلها أو وصف بها من مخلوقاته؛ فإنه سيجزى الجزاء الذي يستحقه عند الله، ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180].

لما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن في الآية الأولى وهي آية عظيمة أن الله ذرأ وخلق للنار عددًا لا يعلم عددهم أو أعدادًا لا يعلمها إلا الله بيّن أن هناك من الخلق من هداهم الله، لا تظن أنهم كلهم، لكن هناك من هداهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ﴾ [الأعراف: 181]، يعني جماعة كثيرة، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِ﴾ [الأعراف: 181]، يعني موفقين للخير، يهدون بالحق يعني يدلون إلى طريق الجنة، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 181]، يحكمون ويقضون بالحق، ويحكمون بحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: 181]، يعني هداية الدلالة والإرشاد للناس، يدلونهم على الخير، ويهدون بالحق، وهم يهتدون أيضًا بالحق، هم بأنفسهم، ويهدون غيرهم أيضًا.

لا تيأس لما تسمع: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: 179]، لا؛ بل هناك من هداهم الله ووفقهم إلى الخير أمة عظيمة، والله عَزَّ وَجَلَّ قال قبلها في آيات في قصة موسى، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159].

فإذا كانت أمة موسى مع أنها كثيرة فيها أمة عادلة، فكذلك أيضًا الخلق أو أمة محمد فيها أمة مهتدية وعادلة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأعراف: 182]، في أمة هداها الله وحكمت بالحق، وفي ما يقابلها من أهل الشر وهم الذين كذبوا بآيات الله وكفروا بها، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عن عقوبتهم بأي شيء؟ عقوبة شديدة، قال: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182]، وهذه أشد من أن تنزل العقوبة عليهم مباشرة، وإنما يستدرج شيئًا فشيئًا، يعني يستدرج بالخيرات والنعم، هو يعصي ويكفر، ويحارب الله، والله يعطيه الصحة والعافية، ويعطيه الأمن، ويعطيه الرزق، يستدرج يستدرج، يعني يجعله يندرج في هذا الشيء، ويلهى ويغفل في هذا الشيء حتى لا يدري إلا وقد نزلت به العقوبة، **«إن الله ليملي للظالم إذا أخذه لم يفلته»**.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182]، لا يدرون إلا وقد نزلت، تجد الإنسان أو بعض الناس غافل، ومستمر في معصيته، ومحاربته لربه، ويبقى ينعم الله عليه حتى ما يجد إلا وقد نزلت به العقوبة، هذا معنى الاستدراج، ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182].

قال: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [الأعراف: 183]، الله يخبر أنه يملي لهم، يعطيهم الوقت، ويعطيهم العمر، ويعطيهم الصحة، والعافية، والمال، والزرق، والأولاد، ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: 183]، أكيد كيدًا وأنتقم انتقامًا شديدًا، متين قوي.

ثم لما بين من هداهم الله، وبين من كانوا يكذبون بآيات الله، وأن الله توعدهم بهذا الوعيد الشديد لفت الأنظار إلى مخلوقاته التي تدل على وحدانيته وفعله، يعني لا تغفل عن الآيات الكونية.

أنت ترفع رأسك إلى السماء تجد الآيات العظيمة الكونية الدالة على وحدانية الله، تنظر إلى الأرض تنظر آيات كونية لا حصر لها، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: 184]، أولم يتفكروا الكفار وخاصة أهل مكة؟

قال:﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: 184]، لماذا لا يتفكروا في محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هل هو مجنون؟ ما فيه جنون، هو أعقلهم، وأحسنهم أخلاقًا، وأحسنهم سمتًا، وعرفوه، ولذلك قال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ [الأعراف: 184]، لأنه صاحب لهم، صاحبهم أربعين سنة، وهو في مكة لم يخرج عنهم إلا قليلاً، في تجارة أو لم يخرج، وعرفوه معرفة تامة، وكانوا يسمونه: **"الصادق الأمين"**، ثم لما جاءهم بالتوحيد والإيمان، والطاعة، والوحي، والهداية، قالوا: هذا مجنون.

قال: ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ [الأعراف: 184]، أي ليس فيه جنون، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 184]، جاء للنذارة، هو جاءكم لينذركم عذابًا شديدًا، فاحذروا إن استمررتم على ما أنتم عليه من الكفر والشرك الوعيد الشديد، فهو جاء لإنقاذ البشرية، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [الأعراف: 184]، ونذارته واضحة بينة.

مثلما ذكرت لكم يعني مثلما أن الله لفت الأنظار إلى رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحقيقة محمد ما هو، لفت الأنظار إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض.

قال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ [الأعراف: 185]، نظر اعتبار وتأمل، ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 185]، انظر في ملكوت الله، ملكوت معناه ملك السماوات والأرض، والواو والتاء للمبالغة، مثلما تقول: **"جبروت، وملكوت"** هذه للمبالغة.

قال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 185]، السماوات كيف رفعها الله؟ سبع سماوات طباقًا مرفوعة بغير عمد، كيف رفعها الله وجعلها بعيدة؟ رفع سمكها، وكيف هذه الشمس، والقمر، والنجوم، وهذه الحركة الدقيقة، من الذي خلقها؟ من الذي سخر الشمس، والقمر، والنجوم، تتحرك بهذه، ولها وظائف ولها أعمال مسخرة؟!!

فانظر إلى ملكوت السماوات والأرض، وانظر إلى السحاب، وانظر في الأرض لما فيها من أرض وعجائب، يقول:

وفـــي كـــلّ شـــيء لـــه آيـــة تـــــدل علـــــى أنـــــه واحـــــد

في كلّ شيء، انظر في عجائب مخلوقات الله، في الدواب، والحيوان، وفي أنفسكم، وانظر أيضًا في مخلوقاته من النباتات المختلفة والزهور، والأشجار، والحدائق، والجبال،والتربة، واختلافها، والأمطار، الأودية، هذه كلها آيات عجيبة تدل على وحدانية الله، وأن المالك لهذا الكون كله والتصرف فيه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: 185]، ليس فقط السماوات والأرض؛ بل هناك أشياء غائبة عنك، أشياء أنت لم تصل إلى علمها، تحت الأرض أو تحت البحار أو فوق السماوات وأنت لا تدري.

قال: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: 185]، يقول: لا تدري، **"عسى"** للإشفاق خوفًا أن يكون أجلهم اقترب وهم لم يشعروا ولم يرجعوا إلى ربهم، ولم يرشدوا.

ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 185]، هل هناك حديث أكثر من القرآن الذي يبين هذه الآيات؟ قال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 185]، ماذا يريدون ليؤمنوا؟ نأتيهم بحديث غيره؟ ما في أعظم من القرآن، ومع ذلك أعرضوا عنه ولم يتفقهوا ولم يؤمنوا به.

ولكن النتيجة؟

قال: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: 186]، هذا الذي أضله الله بسبب ذنوبه ومعاصيه، وكتبت عليه الشقاوة لن تجد له من يهديه، لن تجد له وليًا مرشدًا.

قال: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: 186]، لو تأتيه بكل آية في السماوات والأرض ما آمن؛ لأنه قلبه ميت، قلبه قاسي لا يقبل الحق ولا يريده.

قال: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186]، طغيانهم أي استهزائهم، واستكبارهم، وإعراضهم، يعمهون أي يتخبطون، العمه غير العمى، العمى عمى البصر، والعمه عمى القلب، فالله طمس على قلوبهم، وطبع على قلوبهم، فهم يستمرون في أي شيء؟ قال: ﴿طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: 186]، حتى تأتيهم الساعة.

ولذلك لفت الله الأنظار إلى الساعة، قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: 187]، من الذي يسأل عن الساعة؟ الذي يسأل عن الساعة الذي لا يؤمن بها، المؤمن مصدق، ولا يسأل، أنت تعرف أن الساعة ستأتي هل تسأل عنها وأنت تعلم؟ المؤمن يعلم أن الساعة آتية لا ريب فيها فلا يسأل عنها، الذي يسأل عنها هو الذي يشك فيها، يعني الكافر هو الذي يسأل عنها، أما المؤمن خائف من الساعة، ومشفق ولا يسأل عنها.

قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ [الأعراف: 187]، أي الكفار، ﴿عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: 187]، ما هي الساعة؟ الساعة هي يوم القيامة، ساعة البعث، ولذلك عُرفت الساعة في القرآن أن المراد بالساعة هذه هي القيامة، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم: 12]، يعني يوم القيامة.

قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: 187]، يعني وقت مرساها وقت وقوعه، وسمي وقوعها مرسى والأصل المرسى هو الشيء الثقيل، ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: 32]، يعني ثبتها أثقلها، فهي لثقلها في السماوات والأرض، ثقل علمها، يعني ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 187]، فنزولها ومجيئها ثقيل جدًا، ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: 187].

إذا سألك الناس عنها يا محمد أو أي شخص، حتى جبريل لما سأل النبي قال: **«متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل»**.

قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: 187]، علمها عند الله لا نعلمها، أخفاها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: 15].

قال أهل التفسير: معنى ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: 15]، أي أكاد أخفيها حتى عن نفسي من شدة إخفائها، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل يعلم متى تكون الساعة.

قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: 187]، طيب لماذا؟ حتى يكون المسلم على استعداد دائم، مثل ليلة القدر ما تعرف متى ليلة القدر هل هي واحد وعشرين أم تسعة وعشرين؟ ولذلك تجتهد في العشر كلها، فكذلك الساعة إذا غيبت عنك تكون دائمًا على استعداد وعلى خوف ووجل، هذا معناه.

قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: 187]، لا يجليها يعني لا يكشف زمنها ووقتها إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يأتي بها.

قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 187]، ثقل علمها، وتحريها في السماوات والأرض، الملائكة ينتظرونها، ويخافون منها، والخلق ينتظرونها، والمؤمنون يخافون، والكفار لا يبالون، قال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 187].

قال: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 187]، بغتة يعني فجأه، ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 187]، لا تدري إلا وقد جاءت الساعة.

قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ [الأعراف: 187]، يا محمد، ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: 187]، كيف حفي؟ يعني حريص، ومنه الاحتفاء، الاحتفاء بالشيء يعني تحرص على إقامته والاهتمام به.

يقول: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: 187]، كأنك مهتم وحريص عليها، وأنت يا محمد لست من هذا الشيء حتى تحرص عليها أشد الحرص وتهتم؛ بل أنتم مؤمن ومصدق بها وتعلم أنها ستأتي.

قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: 187]، تسأل كثيرًا عنها، وأنت لا تسأل عنها.

قال: ﴿قُلْ﴾ [الأعراف: 187]، قل لهم مرة أخرى وأكد عليهم، ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: 187]، علمها عند الله، علمها عند الله، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 187]، لا يعلمون حقيقة الساعة، ولا يعلمون أنها قد أخفاها الله، ولا يعلمون ما يترتب عليها من الأمور العظام، والأهوال الشديدة، لو كانوا يعلمون لاستعدوا لها، ولم يُعرضوا عنها.

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يعلم الغيب حتى تسألونه عن الساعة، قال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188]، ما أملك لنفسي النفع الذي أريده لنفسي ما أملكه، والضر الذي أصرفه عني وأدفعه عني ما أملكه.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أنه نبي كريم على الله، ومع أنه رسول وخليل الله لا يملك لنفسه لا نفع ولا ضر، لو يصيبه الضر ما يدفعه عن نفسه، ولو يأتيه النفع لا يستطيع أن يحصل عليه

إلا بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو لا يملك، وإنما هو مخلوق إنسان، لا يملك لنفسه لا نفعًا ولا ضرًا.

قال: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: 188]، إلا إذا أراد الله له الخير، وأراد أن يملكه الخير أو يدفع عنه الشر.

قال: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: 188]، لو كان عندي علم من الغيب مثل علم الساعة وغيره لاستكثرت من الخير، من الطاعات والأعمال الصالحة، ومن خير الدنيا والآخرة، لكن ما أعلم، ما يأتيني إلا ما كتب الله لي.

قال: ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: 188]، لدفعت السوء عني، واستكثرت من الخير، لكني أنا لا أستطيع أن آخذ خيرًا ولا أستكثره، ولا أدفع شرًا إلا بما يشاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [الأعراف: 188]، أحذر من يعصيه، ﴿وَبَشِيرٌ﴾ [الأعراف: 188]، لمن يطيعه، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسالته نذارة لمن يعصيه تهديد وتخويف لهم، وبشارة لمن يطيعه ويبشره بجنات النعيم، وينذر الذين يخالفونه بنار جهنم، ولذلك قال: ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 188]، أما الكفار فلا ينتفعون لا بالنذارة ولا بالبشارة، الذي ينتفع هو المؤمن المصدق الذي يقرأ القرآن وينتفع به، هو الذي إذا سمع آيات التخويف والنذارة في القرآن انتفع بها، وخاف منها، وإذا سمع البشارات في الجنة سأل الله عَزَّ وَجَلَّ، هذا هو المؤمن الصادق.

نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(166)
(الأعراف 189 – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا المجلس مجلس القرآن الكريم، نجلس ونأخذ آيات من كتاب الله نتأملها ونتفكر فيها ونبين معانيها، في مجلس بإذن الله تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين عنده في الملأ الأعلى، أسأل الله ألا يحرمنا هذا الفضل العظيم في هذه الدقائق المعدودة.

هذا اليوم هو الأربعاء الموافق للخامس والعشرين من الشهر الخامس من عام 1446من الهجرة.

"سورة الأعراف" وقفنا عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189].

هذا الضمير لما يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيات كثيرة تمر علينا: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [الأعراف: 189]، وهكذا، يدل على أنه هو المنفرد بهذا الشيء، هو الذي خلق هذا الشيء وهو الذي انفرد به ولم يشاركه أحد من خلقه.

فالذي خلقنا هو الله، ولا يمكن أي شخص مخلوق أن ينكر هذا الشيء، حتى من أنكر وجود الله لا يستطيع، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35].

يعني ليسوا خلقوا من غير شيء؛ بل هم خلقوا من شيء، وليسوا هم الخالقين، إذا هم خلقوا من شيء إذًا هم مخلوقين، وليسوا هم خالقين إذًا هناك خالق، هناك خالق لا خالق إلا الله.

قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [الأعراف: 189]، من هم؟ الناس، هو يخاطب بني آدم، يقول: يا بني آدم الذي خلقكم وأوجدكم على هذه الأرض، وجعلكم خلائف في هذه الأرض يأتي جيل ويذهب جيل هو الذي خلقكم هو الله.

✍ خلقنا من أي شيء؟

قال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: 189]، ما هي؟ هي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعني كلّ الخلق جميعًا يعودون لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، في هذه الآية لما تتأمل وتتفكر فيها كيف بث الله هذه الذرية التي يصعب حصرها لكثرتها مليارات الأعداد، مليارات كثيرة مما مضى، ومما يعيش الآن، ومما سيأتي إلى قيام الساعة كلهم خلقوا من نفس واحدة؟!!

✍ يدل على أي شيء؟

يدل على: قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي بث هذه الذرية، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]، وهنا يقول: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف: 189].

ثم قال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: 189]، جعل وجعل بمعنى واحد، يعني أن الله لما خلق آدم وجعل ذريته في ظهره خلق من يحمل هذه الذرية، وهو أرحام الأمهات، والرحم الأول وهي حواء، رحم حواء.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما خلق آدم وجعله يسكن في الجنة كان يعيش وحده، والذي يعيش وحده يشعر بالوحشة لا يمكن أن يعيش هذه طبيعة الخلق، فخلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له من ضلعه الأعوج الأيسر الأسفل خلق منه حواء، كان آدم نائمًا فاستيقظ فإذا حواء عنده جالسة، فقال: **«من أنت؟ قالت: أنا حواء زوجتك»**، فاستأنس بها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، المرأة سكن واستقرار، مثلما أن البيت يستقر فيه الإنسان ويسكن فيه ويرتاح، فكذلك المرأة يسكن إليها، لا يعيش وحده، لابد أن يكون له امرأة يسكن إليها ويرتاح إليها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21].

فهنا قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: 189]، قال الله بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ﴾ [الأعراف: 189]، انظر إلى عبارة القرآن في جمال أسلوبها، لا يدخل في الأشياء التي تستقذرها النفوس الطيبة، وتستقبحها النفوس الطيبة، يعبر بعبارات فيها كنايات؛ لأن كلمة الجماع وما الجماع هذه النفوس الطيبة لا تستسيغها في المجالس المحترمة، تتكلم بهذا الكلام الساقط لا يليق، ولذلك القرآن لمكانه ومنزلته لا يُعبر بهذه العبارة، وإنما يُعبر بكنايات، وكما جاء عن ابن عباس قال: **"إن الله حيي كريم يستحي أن يتكلم بمثل هذا الشيء"**.

ولذلك تسمع في القرآن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: 187]، ويقول: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237]، وقال: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ﴾ [النساء: 43]، وقال: ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: 21]، وقال: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ [البقرة: 187].

كلّ هذه عبارات جميلة لا يدخل في التفاصيل، ولا يدخل في أسماء الكلمات القبيحة التي تستقبحها النفوس الطيبة، ولذلك هنا عبر قال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ [الأعراف: 189]، أي تجللها وأصبحت تحته، ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: 189]، يعني حملت منه بداية الحمل لا تشعر المرأة به، حمل خفيف، في الأيام الأولى حمل خفيف.

قال: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: 189]، بعض الناس ما يفهم كلمة ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: 189]، يحسب يعني مر من عندها، لا، مرت يعني استمرت.

قال: ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ [الأعراف: 189]، بداية الحمل خفيف، ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: 189]، يعني استمر معها الحمل، ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: 189]، يعني مرت الأيام معها، مع أن كلمة **"مرت"** هذه تأتي بمعنى المرور، جاءت في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس: 12]، لكن هنا لا، هنا ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ [الأعراف: 189]، يعني اسمرت به.

قال: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ [الأعراف: 189]، يعني ظهر بطنها وكبر حملها، وشعرت بالثقل، لما أثقلت ﴿دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189]، دعوا الله عَزَّ وَجَلَّ لأن يرزقهم الولد الصالح، وإذا رزقهم الولد الصالح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 189]، أي نشكر الله على هذه النعمة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: 190].

- من الذي أشرك بالله؟
- ومن الذي جعل الشرك مع الله وجعل عبادة غير الله مع الله؟
- هل هو آدم وحواء؟

الجواب: لا، لا يمكن، آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي يوحى إليه، ويستحيل، ولا حواء، هذا في ذريتهما، مع أن المفسرين اختلفوا في هذا، فبعضهم ذهب إلى أن هذا شرك وقع من آدم وحواء، ولكنه يسمى بشرك التسمية؛ لأن هناك رواية الحسن عن سمرة أن آدم أو أن حواء كان لا يولد لها، كلما حملت سقطت، لا يولد لها.

فجاءها الشيطان وقال: إذا أردت أن يبقى حملك سليمًا ويخرج معافى فسميه عبد الحارث، شرك تسمية، الحارث هذا من هو؟ هو الشيطان.

فقال: سميه هذا الاسم وسيخرج سليمًا، فسمته فخرج سليمًا، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ [الأعراف: 190]، شرك التسمية.

لكن هذه الرواية حكم عليها أكثر المفسرين ومنهم ابن كثير وأيضًا الشنقيطي أنها رواية ضعيفة، ولا يمكن أن يعتمد عليها في باب العقيدة، مستحيل، باب العقيدة يحتاج إلى روايات صحيحة، وهذه رواية ضعيفة.

ولذلك أبطلوا هذا القول، قالوا: لا يصح، ولا يمكن ولا يُبنى عليه، وأن هذه من الروايات الإسرائيلية التي دخلت على المفسرين، فيجب علينا أن نتجنبها.

✍ إذا رددنا هذا ماذا نحمل الآية عليه؟

قال: هذا في ذرية آدم، الذين جعلوا الشركاء هم ذرية آدم، وما أكثرهم، وما أكثرهم الذين أشركوا بالله، ذرية آدم.

ولذلك قال هنا: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ [الأعراف: 190]، من هم الذي آتاهما؟ اثنين، نقول: الزوج والزوجة، الأب والأم، يعني ما زلنا في الأب والأم من ذرية آدم، يعني انتقلنا من النوع الذي هو آدم وحواء إلى الجنس، هذا نسميه انتقال من النوع إلى جنس بني آدم وهو أكثر من النوع، وهم ذرية آدم.

وهذا يسميه علماء البلاغة: **"حسن التخلص"** يعني يتكلم عن شيء معين ثم يخرج إلى موضوع آخر، يسمى **"حسن التخلص"** لذلك بدايتها مع آدم ولكن آدم لم يشرك، ولا زوجته حواء.

ثم بعد ذلك ذكر الله حال الناس في ذرياتهم أنهم يشركون، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا﴾ [الأعراف: 190]، أي الزوج والزوجة، ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: 190]، وجاء بصيغة الجمع لأنه يقصد بني آدم، كيف تشركون بالله وهذا الذي خلقكم، وهو الذي خلق لكم الذرية ورزقكم؟ هل تشركون معه؟ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: 190].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على وجه التوبيخ والتقبيح: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: 191]، الذي يخلق هو الله، والذي يأتي بالذرية هو الله، وتشركون ما لا يخلق وهو مخلوق؟!!

هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله هي أصلاً مخلوقة، ولا تخلق شيئًا، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [لقمان: 11]، ما يخلقون ولو مثقال ذرة.

قال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: 191]، هذه الأصنام، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: 192]، يقول: هذه الأصنام ما تستطيع أن تنصركم بأي شيء، كيف تنصر وهي جمادات؟!!

قال: ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: 192]، أنتم أيها العابدون للأصنام أفضل من الأصنام، أنتم عندكم قدرة، وعندكم سمع وبصر، وتنصرون، لكن الأصنام هذه لا قدرة ولا سمع، ولا بصر، ولا تنصر، فكيف تعبدونها؟!! كلّ هذا توبيخ وتقريع لهم كيف يصرفون عبادات لله لمخلوقات أصنام لا تسمع ولا تُبصر؟!!

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ [الأعراف: 193]، أي هذه الأصنام، ﴿إِلَى الْهُدَى﴾ [الأعراف: 193]، تريدون أن تدلوهم على الهدى ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ [الأعراف: 193]؛ لأنها أصنام جمادات، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ [الأعراف: 193]، أدعوتموهم أنتم، ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: 193]، يعني الأمر سيان، يعني هذه الأصنام دعوتها تناديها ما تسمع، تصمت عندها كله واحد، الأمر سيان؛ لأنها محنطة، منحوتة، مصنوعة، ما فيها لا سمع ولا بصر ولا شيء.

ثم أكد في بطلان الشرك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: 194]، يعني مخلوقة مثلكم، ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ [الأعراف: 194]، لماذا لا تدعوهم؟ ادعوهم، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [الأعراف: 194]، هل سيستجيبون؟ لن يستجيبوا لهم.

قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: 194]، على أنها تستحق العبادة ادعوهم، أنتم تذهبون إليهم تدعونهم، وتطوفون حولهم، وتقدمون لهم القرابين، وهي لا تدري عنكم، ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: 194]، إن كنتم صادقين في دعواكم أنها تستجيب فادعوهم.

ثم زاد في بطلانها قال: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 195]، حتى لو صنعت لها أرجل ما تمشي، ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 195]، ما لهم أيدي تتحرك.

ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 195]، ما لها عين تبصر، حتى لو رسمت لها أعين ووضعت لها أعين هي ما تبصر، ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 195]، ما تسمع، لا تمشي، ولا تبطش بيدها، ولا تسمع، ولا تبصر، إذًا ما الفائدة منها؟!! أين عقولكم؟!!

تعبدون من هو أنقص منكم، أنتم لكم أرجل تمشون بها، وأيدي تبطشون بها، وأعين تبصرون، وأذان تسمعون، وهم يمشون، فأنتم أحسن منهم وأفضل، فكيف تعبدون من هو أنقص؟ أين عقولكم؟!!

ثم أمر نبيه أن يتحداهم؛ لأنهم كانوا يهددون الرسول بالأصنام، ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: 36]، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: 36].

قال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: 36]، يهددونه كما كان عاد يهددون نبيه هودًا، ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا﴾ [هود: 54]، يعني أصابك بعض آلهتنا، يظنون أن الآلهة تصيب، وكان أهل مكة يهددون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: سنرسل عليك الآلة تصيبك وتؤذيك، فالله قال: لن يصيبك، وتوكل على ربك ولن تنفع هذه ولا تصيب ولا تفعل أي شيء.

لذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ [الأعراف: 195]، ادعوا جميع الشركات وهذه المصنوعات والمعبودات، قل لهم: ادعوا شركائكم، ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ [الأعراف: 195]، أنتم وشركائكم، تحداهم، كيدوني أنتم وشركائكم، ما تستطيعون، ﴿فَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [الأعراف: 195]، يعني لا تمهلونني ولا تتركوني لحظة واحدة، أنا في وجهكم ولا تستطيعوا أن تأتوا إليّ، لماذا تحداهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لأنها هي باطلة ولا عندها قدرة، وهم ما عندهم قدرة في مواجهة الحق، ونبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليه الله الذي يجلب له الخير، ويدفع عنه الشر، فهو قد توكل على الله.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: 196]، وأنتم وأولياؤكم الشياطين، وأولياؤكم الأصنام، وأنا وليي الله، ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: 196]، وهو القرآن الذي بين أيدينا، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196]، الله يتولى الصالحين، الصالحين من عباده وليهم الله، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة: 257]، أوليائهم الشياطين فيتولى الصالحين.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الأعراف: 197]، الذين تدعون أنه أولياء لكم، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ [الأعراف: 197]، عاد مرة أخرى في إبطال هذه الآلهة المزعومة، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ [الأعراف: 197]، الله ينصر أولياءه، وينصر نبيه، ويدافع عن الذين آمنوا، وهذه الأصنام لا تدافع ولا تنصر.

قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: 197]، حتى أنفسهم ما ينصرون أنفسهم، لما خرج إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبدأ يكسر هذه الأصنام ما دافعت عن نفسها شيء، ما فيها حياة ما فيها روح، ﴿وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الأعراف: 197].

قال: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾ [الأعراف: 198]، لو تذهب إلى هذه الأصنام وتدعوهم إلى الهدى، تقول: هذا صراط الله المستقيم، وهذه الهداية، وهذا القرآن، ما يسمعون أصلاً، ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198]، تجدها أصنام هكذا موضوعة أمامك تنظر إليك؛ لأنها مصورة على شكل إنسان أو حيوان، أصنام كأنها تنظر بأعينها ولكن ما تبصر، ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198].

أو يحتمل أن العابدين المشركين إذا دعوتهم يا محمد أنت إلى الهدى وقلت: يا كفار مكة يا من يعبد الأصنام تعالوا أ دعوكم إلى الهدى تجدهم ينظرون إليك؛ ولكن عقولهم ما هي معك، عقولهم مغلقة، ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198]، ما يستفيدون من هذا، ينظرون إليك وهم لا يبصرون.

بعدما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبحهم على عبادتهم هذه الأصنام، وأبطلها من كلّ وجه، وبيّن أنها لا تنفع ولا تضر، وأنهم لو كان عندهم مسحة من عقل ما عبدوهم، الرجل الواحد العاقل كيف يعبد هذه الأصنام؟!!

وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خطابًا لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللأمة كلها، هذه الآية التي أقرأها عليكم الآن هذه أعظم آية في كتاب الله، سماها أهل العلم بآية الأخلاق، التعامل مع الناس من أصعب شيء، تتعامل مع حيوانات تتعامل مع أشياء أخرى، لكن التعامل مع الناس؛ الناس درجات مختلفة، ليسوا على درجة واحدة، فيحتاجون من الذي يتعامل معهم إلى أن يكون موصوف بصفات عظيمة.

✍ ما هي هذه الصفات؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

✍ كيف خذ العفو؟

أي: خذ ما سهل وتيسر، إذا جئت تتعامل مع بيتك، مع زوجتك، خذ ما تيسر، لا تصعب الأمور معهم، ترهقهم وترهق نفسك، تتعبهم وتتعب نفسك، خذ ما تيسر وتغاضى عن الكثير.

لا تقول: هذا لماذا؟ وهذا لماذا؟ وهذا كذا، هذا يرهقك أنت، ويتبعك، ويتعب من عندك، فخذ العفو مع بيتك، مع زوجتك، مع أولادك حتى يكونوا حولك، إذا أنت شنعت عليهم، وقلت: هذا كذا، وهذا كذا، فروا وتركوك، ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: 199]، تيسر، تسامح معهم، تساهل، وكذلك تعامل أيضًا مع كلّ شخص في عملك، في مكتبك، في تجاراتك، في كلّ شيء تيسر، خذ العفو وتسامح، هذا توجيه عظيم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه كيف نتعامل مع الناس؟ كيف نبرز هذا الخلق العظيم ونبرز محاسن الإسلام؟ قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: 199].

ثم قال: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: 199]، أؤمر بالخير والبر، لا تأمر بالشر، أؤمر الناس للخير، ودلهم على الخير، وحثهم أولادك، وحث بيتك، وحث جيرانك، وحث الناس على الخير، دلهم على الخير.

قد تجد من الناس من لو عاملته بأحسن شيء وأخذته بالعفو وتسامحت معه، وتعاملت معه، ودللته على الخير، قد تجد منه أخلاق شرسة، أخلاق سيئة، وهذا من بعض الناس، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، إذا أساء إليك اتركه ولا ترد عليه، أساء إليك في مكتب، في طريق، حتى في الشارع تجد بعضهم في قيادة السيارة يسيء إليك اتركه وخله، لو كان الحق لك اتركه، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

هذا جاهل، فالسفيه والجاهل لو ترد عليه أو تقابل السف بالسفه والجهل بالجهل قامت أمور لا تُحمد عُقباها، فأعرض عن الجاهلين، والآن هذا التعامل مع البشر، مع الناس.

✍ لكن كيف تتعامل مع الشياطين؟

✍ إذا جاؤوا يشغلوك كيف تتعامل معهم؟

الآن شياطين الإنس عرفنا كيف نتعامل معهم؟ قال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199].

✍ لكن شياطين الجن كيف نتعامل؟

شياطين الجن أسهل من شياطين الإنس، الأمر سهل، تعوذ بالله من الشيطان الرجيم منها، قال: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ﴾ [الأعراف: 200]، يعني يوسوس لك الشيطان، ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ [الأعراف: 200]، أي نزغ يأتيك من الشيطان الرد ما هو؟ قال: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: 200]، قل: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وينتهي.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ في أهل الطاعة والخير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [الأعراف: 201]، أهل الخير والصلاح والتقوى، ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأعراف: 201]، جاءهم شيء خفيف من وسوسة الشيطان، ماذا يصنعون؟ قال: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ [الأعراف: 201]، قالوا: لا إله إلا الله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]، الشيطان انتهى خلاص، أبصر الآن عرف طريق الحق.

لكن هؤلاء شياطين الإنس إذا جاءتهم شياطين الجن تسلطت عليهم، قال: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ [الأعراف: 202]، أي إخوان الشياطين يعني شياطي الإنس مع شياطين الجن ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ [الأعراف: 202]، أي شياطين الجن تمدهم بالمعاصي، معصية وراء معصية، وهكذا.

قال: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ [الأعراف: 202]، في الغي والضلال، ضلال بعد ضلال، ومعصية بعد معصية، ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 202]، تظن أن شياطين الجن تقصر؟ تقف عند حد معين؟ لا تقف، حتى تُهلك هؤلاء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ﴾ [الأعراف: 203]، هؤلاء المشركين يحاجون الرسول، يقولون: أين الآيات؟ ما أعطيتنا آية، ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: 203]، لماذا لا تأتي بها ما محمد؟ نطلب منك آيات ولا تأتي بها، قلنا: الصفات اجعله ذهبًا ولا فعلت شيء، وقلنا: اجعل مكة جنات وبساتين وأنها ولا فعلت، ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ [الأعراف: 203].

✍ قل لهم ماذا؟

قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ [الأعراف: 203]، أنا رسول، إذا جاءني الوحي أتبعه، وغيره ما عندي، أنا علي البلاغ المبين، وهذا القرآن الذي أمامكم خذ وتأمل فيه فإنه قرآن عظيم، القرآن هذا كتاب عظيم، قال الله فيه وهو يمدح كتابه: ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ [الأعراف: 203]، أي حجج وأدلة قوية تكفيكم، علم عظيم، ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى﴾ [الأعراف: 203]، هدًى يهتدي به أهل الضلال، ويزداد أهل الهدى هداية به، ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف: 203]، رحمة من الضلال لهم، يرحم بعضهم بعضًا، ويرحمون بهذا القرآن، لكن لمن؟ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203]، أما الكفار ما يستفيدون من القرآن، قال: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: 203].

ثم أيضًا مدح في كتابه حتى تعرف عظمة هذا الكتاب؛ قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: 204]، تأدبوا مع القرآن، إذا سمعت شخص يقرأ في إذاعة أو في غيرها، أو في جهات ينبغي لك أن تتأدب وتحترم القرآن، فاستمع له وأنصت.

✍ ما الفرق بين استمع وأنصت؟

نقول: استمع يعني ألقي سمعك، وأنصت يعني لا تتكلم، لا تتكلم والقرآن يُقرأ؛ ينبغي عليك أن تتأدب وتُمسك عن الكلام.

قال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: 204]، والنتيجة هي ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]، إذا فعلت هذا حصلت لك الرحمة، إذا لم تفعلها وبدأت تتكلم والقرآن يُقرأ وأنت تتحدث فاتتك هذه الرحمة العظيمة، وحتى في الصلاة إذا قرأ الإمام ينبغي أن تسكت ولا تتكلم، ولا تقرأ، ولا تشتغل بذكر، استمع لقراءة الإمام، إلا في الفاتحة، إذا انتهى الإمام من قراءة

الفاتحة؛ فإنك تقرأ الفاتحة في سكتات الإمام، ولو أن الإمام شرع في سورة بعدها أكمل الفاتحة، وغيرها لا تتكلم، استمع وأنصت وتأدب لكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، هذا في القرآن.

أما في ذكر الله في غير القرآن، قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: 205]، خاليًا بنفسك، أو مع الناس، ﴿تَضَرُّعًا﴾ [الأعراف: 205]، انكسارًا بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: 205]، خائفًا وجلاً متضرعًا منكسرًا مشفقًا خائفًا، ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الأعراف: 205].

لا تجهر بالذكر، تجد بعض الناس يذكر الله بصوت عالي، في صلاته، وفي مسجده، وفي طريقه، اذكر الله في المناسبات التي يُشرع فيها رفع الصوت نعم، مثل التكبيرات التي تكون في العشر من ذي الحجة، أو في التلبية أو في غيرها، عادي، أو بعد الصلاة مباشرة أذكار الصلاة ترفع صوتك.

أما في غيرها إذا كان عندك تشوش عليهم لا ترفع صوتك، إذا كان في ناس تشوش عليهم يصلون أو يقرؤون القرآن فأقصر صوتك، أما إذا ما في أحد؛ فإنك ترفع صوتك حتى في بيتك في طريقك لتطرد الشياطين.

قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الأعراف: 205]، أول النهار الغدو، والآصال آخره، مع أنك تستغرق كلّ الوقت هذا، لكن هذان الوقتان مهمان، وقت أول النهار وآخره، بداية النهار وبداية الليل، تحول هذا الكون ينبغي أن تذكر الله، وتعرف أن الذي يحول هذا الكون ويغيره هو الله، فتكثر من هذا، ولأن فيه مردة الشياطين إما يظهرون أو يغيبون، فتحذر من مردة الشياطين.

قال: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205]، الذين غفلوا عن طاعة الله؛ فإن ملائكة الله لا تغفل، ولذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: 206]، أي الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأعراف: 206]، كالكفار الذين يستكبرون ويعبدون الأصنام، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ [الأعراف: 206]، كلّ الوقت يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

قال: ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: 206]، يحققون هذه العبادات الملائكة، فاقتدوا بهم، ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: 206]، لا يسجدون للأصنام والمعبودات من دون الله؛ وإنما يسجدون لله، فالملائكة لا تستكبر عن عبادة الله، وتسبحه الليل والنهار، وتسجد له.

هذه الآية إذا قرأتها اسجد عندها، هذه من مواضع السجود، تسجد عندها إذا قرأتها، والسجود معروف مر معنا في أكثر من موضع، تسجد سجدة واحدة لا حاجة أنك حتى استقبال القبلة لو لم تستقبلها صح في السجود، تسجد وتقول: **"سبحان ربي الأعلى"** وتزيد، أو تأتي بالدعاء المذكور **"اللهم لك سجدت، وبك آمنت، وعليك توكلت، سجد وجهي لله الذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره"** إلى آخر الدعاء، كلّ ذلك جائز.

إذا لم يتيسر لك السجود في مكان غير مناسب لا تسجد، السجود سنة.

وبهذا ننتهي من هذه السورة العظيمة الجليلة وهي **"سورة الأعراف"** وإن شاء الله في لقاء قادم نأخذ سورة بعدها، والله الموفق والهادي إذا سواء السبيل، بارك الله فيكم، وجزآكم عنا خيرًا.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الْأَعْرَافِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(167)
(الأنفال 1 - 8)
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وصلى الله وسلم على نبينا محمد على آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا المجلس الذي بإذن الله تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة ويذكر الله الحاضرين في الملأ الأعلى عنده، نسأل الله أن لا يحرمنا هذا الفضل العظيم الذي قال فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قُولُوا قُومُوا مَغفُورًا لَكُم قَد بُدِّلَت سَيِّئَاتُكُم حَسَنَاتٍ». دقائق معدودة نجلس مع هذه الآيات الكريمة من كتاب الله جل جلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال في محكم التنزيل في سورة الأنفال؛ هذه السورة بعدما أنهينا بسورة الأعراف التي قبلها، والآن نبدأ في هذا اليوم، وهذا اليوم هو اليوم الثالث من الشهر السادس من عام 1446من الهجرة، نبدأ بهذه السورة الجليلة وهي سورة الأنفال.

وسورة الأنفال هي لها سبب نزول وهي تتحدث عن غزوة بدر أول غزوة في الإسلام، غزوة بدر الكبرى، وحتى سمّاه ابن عباس، سمى هذه السورة سمّاها **"سورة بدر"** أو **"سورة غزوة بدر"** أو **"سورة بدر"**؛ لأنها تتحدث عن غزوة بدر وما جرى فيها.

والسورة لم يتحدث الله عن أي غزوة من الغزوات، يعني تحدث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن غزوة أحد في سورة آل عمران، وغزوة حنين وتبوك في التوبة، وصلح الحديبية في الفتح، لكن ما يتحدث عن ما جرى في الغزوة لا؛ الذي جرى في الغزوة الصحابة يعرفونه ما يحتاج أنك تبين لهم، هو يذكر أشياء الناس يحتاجون إليها ويستفيدون منها، يعني دروس وعِبَر مما جرى في هذه الغسوة.

هذه الغزوة كيف نصر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عدد قليل 300 وبضع، مقابل ما يقرب من الآل000 معهم القوة ومعهم العتاد ومسلحين، وهؤلاء ما ليس معهم إلا أسلحة قليلة.

- كيف نصر هؤلاء؟

انتصروا على هؤلاء إلا كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 10]، هو الذي ينصر، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51].

هذه السورة سورة الأنفال سميت بهذا الاسم لأن الصحابة سألوا عن الأنفال.

- ما هي الأنفال؟

هي الغنائم التي يتركها العدو عندما ينهزم، أهل مكة كفار قريش لما رأوا الهزيمة والقتل فرّوا، قتل منهم سبعون من صناديدهم من رؤوسهم ومن كبرائهم، 70 شخص قتلوا وسبعون أُسروا والبقية فرّوا، تركوا ما وراءهم، هذا الذي تركوه هو ما يسمى بالغنائم أو يسمى بالأنفال.

هذه الغنائم والأنفال في الأنبياء السابقين لا يجوز أخذها، يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُحِلَّت لِيَ الغَنَائِمُ وَلَم تَحِلَّ لِنَبِيٍّ قَبلِي» فهي من مما اختص به نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واختصت به هذه الأمة.

أما قبل ذلك كانت تأتي نار من السماء فتحرق ما تركه العدو ولا أحد يأخذه، فأباح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الغنائم، الصحابة لما وجدوا هذه الغنائم من الإبل والخيل وما تركه العدو ماذا يصنعون به؟

ما يدرون ماذا يفعلون به، فبدأوا يعني يحصل بينهم نزاع، هذا يقول لي كذا وهذا يقول لي كذا وهذا يقول أنا معي كذا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وجههم بالتوجيهات التي ينبغي أن يعني أن يسلكوها وأن يسيروا عليها. وليس يهم، جاهد والمقاتل في سبيل الله هذه غنائم، هذا يهم ماذا يهمه؟

يعني هو جاء لهدفين أو لأحد هدفين: إما النصر أو الشهادة، إما النصر أو الشهادة، أما الغنيمة تأتي تبعًا، فهذه السورة تسمى بسورة الأنفال لأن الصحابة لما حصل بينهم هذا سألوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: 1].

عمّا تتحدث؟ مثل ما ذكرنا هي دروس وعِبَر، لو تقرأ هذه السورة تتعجب بما فيها من توجيهات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمؤمنين، توجيهات عظيمة ودروس وعِبَر، لا تتحدث عن ما جرى في المعركة من الذي فعل كذا ومن الذي فعل كذا لا، وإنما تعطيك دروس وعِبَر وفوائد، وأنت تقرأ هذه السورة في أوائلها حقيقة يعني دروس وعِبَر وفوائد يعني كل إنسان يحتاج إليها وكل مسلم يحتاج إليها.

السورة بشكل عام هي تتحدث عن أسباب النصر.

- ما هي أسباب النصر؟

يعني الإنسان دائما في المعارك والغزوات يبحث عن سبب النصر حتى يسلك هذا هذه الأسباب.

- ما هي أسباب النصر؟

الله ذكر أسباب النصر في هذه السورة وقسمها قسمين:

القسم الأول: أسباب معنوية.

القسم الثاني: أسباب حسية. الأسباب الحسية واضحة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]؛ هذه أسباب حسية. الأسباب المعنوية ذكر الله فيها مواضع كثيرة، قوة الإيمان، مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45]، وقال ﴿وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

توجيهات كلها في تقوية الإيمان، وكيف يقف المؤمن حتى لو كان العدو أمامه أكثر منه، كيف يقف وكيف ينتصر؟ إلا بقوة الإيمان والتوكل على الله، ولذلك السور ركزت على قضية الإيمان والتقوى والتوكل والذكر أمور كثيرة هي أسباب النصر.

السورة نزلت يعني بعدما رجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو في وقت الغزوة بعد انتهاء الغزوة سواء كان في بدر أو رجع بعد بدر، هذه هي السورة نزلت في ذلك الوقت يعني في السنة الثانية من الهجرة.

نبدأ على بركة الله، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: 1]؛ أين الجواب؟ لو تقرأ السورة هذه الصفحة كاملة والصفحة بعده ما تجد الجواب.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ وين؟ ماذا هم يقولون؟ كيف نقسم الأنفال؟ كيف نقسم الغنائم؟ ما في جواب، الله يقول: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 1]، يعني الله هو الذي يحكم بها، ما ليس الحكم أنتم، الحكم لله وللرسول.

لكن الجوابين شوف لما كانوا يسألون عن هذا، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صرف نظرهم عن الجواب، قال لا يهمكم هذا الشيء لا تهتموا به كثيرًا في أمور أكبر منها ركزوا عليها، ولذلك لم يأتِ الجواب، متى؟ أين جاء؟ أين جاء الجواب؟

جاء الجواب شوف صفحة يعني جاء الجواب في الآية رقم 41، يعني بعد 40 آية جاك الجواب، طيب ليش؟ قال أول أمور مهمة ينبغي أن يربي الإنسان نفسه عليها ويربي المؤمن نفسه عليها ثم بعد ذلك تأتي الغنائم، الغنائم لا تهم الإنسان، لا يهم المجاهد، لا يهم الغنائم.

ولذلك شوف في الآية 41 بعد 40 آية قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [الأنفال: 41]؛ جاءت القسمة الآن عرفنا [5، 6].

لكن هنا ما في جواب ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ يسألونك عن حكم هذه الأنفال وهذه الغنائم ماذا نصنع بها؟ قل لهم يا محمد، قل لهم الأنفال لله وللرسول، الذي يحكم بها هو الله ورسوله، أما أنتم ليس لكم دخل فيها وليس الحكم يرجع إليكم إنما الذي يقضي بها ويحكم بها هو الله.

- لكن بدأت التوجيهات للمؤمنين؛ ما هي التوجيهات التي نحن بحاجة لها؟

⬅الأمر الأول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الأنفال: 1]؛ أول شيء اتقوا الله، ومعنى التقوى الخوف من الله ومراقبته والبعد عن الحرام والإقبال على الطاعات، هذه تقوى الله؛ حقق التقوى أول، لا تهمك هذه الأشياء أولًا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اتقوا الله واحذروا معاصيه.

غزوة أحد انتصر المسلمون انتصارًا قويًا في أول معركة، لما وقعت المعصية انقلبت الموازين، انقلب النصر هزيمة بسبب معصية واحدة، فلذلك الله أول ما وجههم قال اتقوا الله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أولًا؛ هذا الأمر الأول، هذا هو السبب النصر، أقوى أسباب النصر تقوى الله، هذا أمسك واحد تقوى الله.

⬅الأمر الثاني: قال: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: 1]؛ لا تتشاجرون ويصير بينكم نزاع وشي ومشاجرة على شيء أشياء تافهة تركها العدو، لا؛ ﴿أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ لتكون قلوبكم صافية مجتمعة مؤتلفة، لأن النزاع والشجاء والخلاف هو سبب الهزيمة.

إذا اختلف المجاهدون فيما بينهم استغله العدو استغله؛ لأن هذا انشقاق وتفكك وضياع، فالله أمر أول شيء بتقوى الله ثم أمر الثاني أن ﴿أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ ذات بينكم يعني أصلحوا العلاقة بينكم، لا تكون هناك لا يكون هناك اختلاف في قلوبكم، فتكون قلوبكم واحدة ألّف بين كما ذكر الله قال ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾، ﴿أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾؛ هذا الأمر الثاني.

⬅الأمر الثالث: قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: 1]؛ طاعة الله هي سبب النصر، اجتماع الكلمة أصل بات بينكم هي أسباب النصر، طاعة الله هي أسباب النصر، ثم علق هذا كله بالإيمان يقول إن كنت مؤمن اتق الله، إن كنت مؤمن لا يقع خلاف، إن كنت مؤمن أطع الله ورسوله.

شوف قال ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]؛ شوف كم أمر: اتقوا الله، أصلحوا ذات بينكم، أطيعوا الله؛ ثلاثة أمور كلها أوامر مهمة تحقق لك النصر في حياتك، لا نقول النصر أمام العدو، أنت تنتصر على الشيطان الذي أمامك، تنتصر على نفسك، تنتصر على الهوا هواك ونفسك والشيطان، كل هذه مثبطات وتصرفك عن طاعة الله وتثبطك وتكسلك.

إذا اتقيت الله عَزَّ وَجَلَّ وأصلحت ما بينك وبين غيرك من الشقاق والخلاف وأطعت الله ورسوله اعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيعينك وينصرك، ينصرك على نفسك أولًا، وينصرك على عدوك، وينصرك على عدوك الشيطان وعدوك الكافر، وينصرك في كل مجالات الحياة.

هذه التوجيهات وهذه الأوامر الصريحة ينقلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى من هم المؤمنون الذين يستحقون النصر؟ من هم؟ من هم المؤمنون؟ أي واحد مؤمن يستحق النصر؟ ولا هناك صفات؟ هناك صفات.

- هل هذه الصفات نحن موجودة عندنا ولا عندنا خلل؟

إذا عندنا خلل ينبغي أن نعيد النظر ونشوف هذه الصفات، اسمع هذه الصفات يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: 2] حقًا المؤمن حقيقة، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ هم الذين أولًا، أول شيء أمسك واحد: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]؛ وجدت قلوبهم خافت.

إذا فذكر الله، الذكر ذكر الله أو جاء شيء يتعلق بالله من مخلوقاته وآياته أو القرآن ذكر القرآن أو قرأت الآيات عنده أو عظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكرت صفاته ذكرت أسماؤه، إذا ذكر الله بأي وجه من الذكر في تعظيم الله، المؤمن يخاف؛ لماذا يخاف؟ يخاف من ذنوبه، يخاف مما يواجه الله به إذا ذكر الله وجلت قلوبهم خافت.

شوف الخوف في القلوب وجلت قلوبهم؛ شوف هذه الآن ستأتيك الحين أعمال قلوب وأعمال جوارح، أول أعمال القلوب قال ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ خوف، الخوف من الله، يقولون **"من خاف سَلِمَ"**؛ الخوف من الله هو الذي يسلمك أمام الله، تسلم من كل شيء، الخوف من الله قال وجت قلوبهم.

ثانيًا قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2]؛ يعني بعض الناس تقرأ عليه الآيات ولا يتحرك قلبه ولا يسمع ولا يدري، هؤلاء لا، قلوبهم حية، إذا تليت عليهم آيات تزيدهم إيمان؛ مثل هذه الآيات الآن نسمعها الآن نسمعها، هذه تحرك في قلبك أشياء كثيرة تزيدك إيمان، لأن كل ما تتعلم الآيات وتفهم القرآن وتتدبره هذا يرفعك عند الله ويزيدك إيمانًا.

ليس كل ليس مثل الذي تقرأ عليه الآيات ولا يدري ماذا يقال، فرق بين الذي يتدبر ويفهم ويستوعب ويتأثر بالقرآن؛ ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

ثم قال الأمر الثالث: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]؛ شوف كم، أولًا: إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، إذا ذكرت آيات الله تزيدهم إمامًا، الثالث: على ربهم يتوكلون؛ يفوضون أمورهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

- الذي يأتي لك بالخير من هو؟

ليس المخلوق يأتي لك بالخير أبدًا، الذي يأتي بالخير هو الله، لو جاءك مخلوق أعطاك خير هو بأمر الله بتدبير الله، ما يأتيك من خير يعني أو شر الذي يصرف عنك الشر هو الله، إذن تتوكل على الله؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا قال: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

شوف دائما ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ فعل مضارع يفيد الاستمرار، يعني لا يتوكل مرة ومرتين لا، دائما التوكل على الله دائما.

وأنا أقول حقيقة دائما الآن فقدنا هذه الكلمة ما عاد نسمعها، يعني قبل سنوات يعني آباؤنا وأجدادنا كبار السن نسمعهم كلمة التوكل على ألسنتهم ما تسقط أبدًا، لو بيطلع للسيارة قال **"توكلنا على الله"**، لو يبي يدخل بيتك قال **"توكلنا على الله"**، لو يأخذ شيء يقول **"توكلنا على الله"**.

الآن ما عاد تسمع كلمة **"توكلنا على الله"**، يقول لك تمر علي؟ قال إيه أجيك الحين، ولا يقول ولا إن شاء الله ولا يقول توكلنا على الله، فوض أمرك إلى الله، اربط نفسك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يدبرك هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هو المالك، هو المتصرف، هو المدبر، هو الذي يجلبك الخير، هو الذي يصرف عنك الشر.

هذا حقيقة التوكل؛ قضية التوكل هذا إيمان قلبي، إيمان قلبي عمل قلبي، ينبغي أن نستحضر دائما على ألسنتنا نتوكل على الله في كل شيء، تريد أن تسافر بالطائرة أو بالسيارة توكل على الله، إذا أردت أن تفعل شيء توكل على الله؛ شوف قال ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

ثم قال هذه الآن هذه نسميها أعمال قلبية في القلب ما هي ثلاثة؛ شوف يقول لك: إذا ذكر الله وجلت قلوب، تليت عليهم آيات زالتهم إيمان، على ربهم توكل؛ هذه أعمال القلوب.

ثم ذكر لك أعمال الجوارح قال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [الأنفال: 3]؛ الذين يقيمون الصلاة، شوف دائما القرآن ما يقول لك **"الذين يصلون"**، ليش يقول يقيمون؟ الذين يصلون كثير، كم صلى معنا صفين ثلاثة أربعة صلوا كلهم، لكن من الذي أقام الصلاة؟

أقام الصلاة بشروطها وأركانها، الذي يعني أتى بخشوع لب الصلاة؛ الخشوع، خشع فيها، تدبر فيها، فهمها، عرف ماذا صلى الإمام كم ركعة، هذا هو الذي أقام الصلاة. أما الذي صلى وسلم ومشى ما يدري ماذا صلى، ما يدري هل الإمام صلى ثلاث أو أربع، ما يدري ماذا قرأ الإمام، لو تسأل تقول تعال الإمام قرأ بعد الفاتحة أي سورة؟

قال والله ما أدري يا أخي أنا كنت أهوجس، أين إقامة الصلاة؟ ما أقام الصلاة؛ شوف ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾ يعني يقيم الصلاة على وجهه.

ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: 3]؛ ينفقون أموالهم في الصدقات، دائما إذا سمع أي وباب من أبواب الصدقة سارع فيه، يقيمونهم ما رزقناهم ينفقون دائما؛ شوف عملين مهمات: أقام الصلاة لأنها بينك وبين الله، ومما رزقناهم ينفقون بينك وبين إخوانك المسلمين.

هناك إخوان مسلمين محتاجين لك، محتاجين يريدون منك المساعدة، فأنت ما بين ما بين إحسان بينك وبين الله في الصلاة وإحسان بينك وبين إخوانك المسلمين في الزكاة والصدقات ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.

شوف ما قال **"يزكون"**؛ زكاة بعض الناس يقول ما خلاص أنا أطلع الزكاة ويكفيك لا، قالك ينفق، يدخل فيها الزكاة والصدقة والنفقة الواجبة وكل شيء ينفقون.

- ما هو جزاء من حقق هذه الصفات الخمس؟

شوف لما ذكر لك الصفات التي ينبغي للمسلمين والمجاهدين وحتى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يتحلوا بهذه الصفات ويترك عنهم الكلام على الأنفال والغنائم، هذه اتركها خلها على جنب واشتغل بشيء أهم، هذه تربية شوف تربية لهم ولمن جاء بعدهم ولنا ولمن جاء بعدنا.

- هذه الصفات كلها بعد ذلك ماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ؟

قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: 4]، اللي حققوا هذه الأشياء هم المؤمنون، إذن اللي ما حققها ما كمل إيمان إيمانه؛ الذي يريد أن يكمل إيمانه: إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، إذا تريت عليهم الآيات زالتهم إيمان، على ربهم يتوكلون، يقيمون الصلاة، ومما رزقناهم شقولون؛ حقق الإيمان حقًا ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

فقط بس؟ قال لا خذ زيادة: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: 4] ليست درجة ولا درجتين ولا ثلاث درجات عالية.

يقول ابن العباس: **"ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض"**.

﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ ليس عند الناس ولا عند شخص آخر لا قرب من الله عند ربهم، وزيادة على ذلك قال ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ [الأنفال: 4] تغفر لهم ذنوبهم وكل يتمنى أن تغفر له ذنوبه حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ثم قال ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: 4] في جنات النعيم.

شوف كيف؛ درجات ومغفرة ورزق؛ متى؟ إذا حقق هذه الصفات الخمسة: ثلاثة في القلب واثنين في الجوارح.

إذا ضبطت هذه الأشياء عرفت قيمة إيمانك وقيمة كونك مسلمًا مؤمنًا تحقق هذا الشيء أو لا تحققه، بعد هذا بعد هذه الأمور التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورب حتى يربينا على هذه الأشياء، هذه الأشياء حتى نعرف قيمة الإيمان والطاعة ونحصل على هذا فضل العظيم.

يقول لك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدخل لك في الغزوة قال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: 5].

يقول مثل ما أنك شوف مثل ما أنه ينبغي أن يتحلوا بهذه الصفات وأن يكونوا على هذه الصفات فإن الله أيضًا قدر عليك أن تخرج من بيتك. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج لأي شيء؟

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سمع أن هناك قافلة عظيمة مليئة عير لقريش مليئة بالأموال والأرزاق قال نخرج لنصدها ونأخذها مثل ما كان مثل ما أخرجونا من ديارنا وأخذوا أموالنا، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع 300 وبضعة عشر لا يريدون إلا هذه العير، لا يريدون إلا هذه العير.

فلما سمع أو جاء الخبر لأبي سفيان الذي يقود هذه العير علم بذلك، أخبر أهل مكة مباشرة، أرسل إلى أهل مكة من يخبرهم بأن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيأخذ هذه العيل، فخرجوا جميعًا؛ ما من بيت من أهل مكة إلا وخرج، 900 وزيادة خرجوا كلهم منطلقين يصدون هذه العيل، أخرجهم الله من بيوتهم ليلقوا حتفهم في بدر.

فخرجوا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: 42]، ولكن الله هو الذي جمع بينهم.

فخرجوا فأرسل أبو سفيان لهم قال ترى العير سَلِمَت، نحن غيرنا الطريق أخذ سيف البحر وترك الطريق الذي يأتي معه وسلّم العير، فقال ترى العير سلمت ارجعوا.

فقال أبو جه والله لا نرجع، نضرب الخيام ونشرب الخمور وتسمع بين العرب ونأكل الجزور ونقتل محمد وأصحابه، هذه فرصة لن نرجع؛ أشار عليه من أشار من أصحابه فامتنع قال والله لا نرجع حتى نواجه محمدًا.

فحصل ما حصل، ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ بالحق أخرجه ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ [الأنفال: 5]، كارهون ماذا؟ هم ما خرجوا للحرب، لما قال الله لما أخبرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال إن الله أخبرني يا العير يا النفير، النفير هم قريش ولا العير يعني يا إما تواجه هؤلاء تواجهون هؤلاء، قالوا لا ما خرجنا قتال ما استعدينا، فكرهوا ذلك.

كرهوا القتال هم أخرجوه للعير قال ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: 6]؛ لأنهم لا يريدون مواجهة، عرفوا أن قريشًا عددهم كبير ومعهم سلاح يصعب مواجهته والحرب والموت الصعب، فقال هنا فريق كارهون ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الأنفال: 6]؛ كأنه خائفون خوف شديد من العدو.

لكن غاب عنهم أن الله سينصرهم، ولذلك هداهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن الله سينصرهم، حتى جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدأ يمشي على في الأرض في بدر ويقول هذا مصنع فلان وهذا مصنع فلان وهذا مصنع فلان، ويعد لهم مصارع القوم كلهم حتى عرفوا النصر فزال عنهم هذا الخوف وزال زالت عنهم هذه الكراه الكراهية.

ولذلك اسمع ماذا قال: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ [الأنفال: 7]؛ العير أو النيل، أنها لكم لابد يا لكم هذه نصر لكم يا تنصر تأخذون العير يا تنتصرون على هذا العدو، أنها لكم.

قال: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 7]؛ تريدون العيد ولا تريدون، ولكن الله قال تكون ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: 7]؛ يقطع دابر الكافر يقول لابد أن هؤلاء يقطع دابرهم ويقضى عليهم، هؤلاء أعداء لله ولرسوله وللمؤمنين، ويقضع دابر الكافرين ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: 8].

في هذه المعركة معركة حاسمة سماها الله هذا اليوم **"يوم الفرقان"**، فرّق الله بين الحق والواطن، عرفت العرب كلها من هو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه وخاف منهم من خاف، ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: 8]؛ لابد أن يحق الله الحق ويظهره ويبطل الباطل.

لا نطيل، قصة طويلة والكلام طويل نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم استكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(168)
(الأنفال 9 - 19)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، صلِّ وسلم على أشرف الأنبياء المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في درسنا الأسبوعي من كل أربعاء بعد صلاة المغرب، مجلس هذا المجلس المبارك مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرآن العظيم، نأخذ آيات من كتاب الله نقرؤها ونبين معانيها ونتدبرها، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بها، هذا اليوم هو اليوم العاشر من الشهر السادس من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

يقول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 9]. السورة كما ذكرنا هي حديث عن غزوة بدر الكبرى العظمى، وهي أول غزوة في الإسلام أظهر الله فيها الحق وأبطل فيها الباطل، وسمى هذا اليوم هو يوم الفرقان.

يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة يعني أمورًا أو أسبابًا هي تعد من أسباب النصر، يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوجه في هذه السورة توجيهات عظيمة ويعني يرشد العباد المسلمين إلى إرشادات عظيمة فيها مصالح، فيها مصالح وفيها توجيهات، ويذكر فيها أسباب النصر.

- ما هي أسباب النصر؟

كما ذكرنا هي أسباب حسية مثل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]. وفيها أسباب معنوية، أسباب معنوية مما يقوي عزيمة الإنسان المجاهد ويقوي إيمانه.

- كيف يواجه إذا حصن نفسه بهذه الأسباب الإيمانية؟

من هذه الأسباب الدعاء، النبي هنا الدعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر كان في عريشه ليلة بدر قد وقف يدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويستغيث بربه أن ينصره، أن ينصره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويقول يعني: أنجز لنا ما وعدتنا يا رب العالمين، أنجز لنا ما وعدتنا، وكان يدعو دعاءً يعني طويلًا قويًا حتى سقط رداؤه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاء أبو بكر وأخذ رداءه ووضعه عليه وقال: **"قد أنجز الله لك ما وعدك، يعني ارفق على نفسك"**.

والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كلهم قد دعوا ربهم بالنصر، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: 9]، تستغيثون يعني تطلبون منه الغوث والنصر والنجدة أن يساعدكم وأن يغيثكم وأن ينصركم، قال يقول: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ يعني اذكر هناك اذكر تلك الحالة حينما كنتم تستغيثون ربكم ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

شوف أتى بالفاء مباشرة يعني الإجابة جاءت مباشرة، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9]. شوف الآن يعني هم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته دعوا ربهم بالنصر فاستجاب الله لهم مباشرة، استجاب الله لهم، هل استجاب لهم أنه مدهم بالملائكة فقط؟ ولا هناك استجابات كثيرة الآن تسمع؟ ليست فقط النصر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مدهم بألف من الملائكة لا، ستأتيك أشياء كثيرة.

أولًا: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مدهم وزودهم بألف من الملائكة، يعني مَلَك واحد يكفيه، يعني جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أخذ قرى لوط سبعة ورفعها إلى السماء بريشة من جناحه حتى وصلت عالِ

السماء ثم قلبها بريشة، لا يعجز عن ثلة من قريش يصلون إلى ألف شخص أن يرفعهم إلى السماء ويقلبهم، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحكمته بين لك أنه مدهم، هذا فضل من الله بألف من الملائكة.

وقد جاءت الملائكة كما قال بعض الصحابة يقول: رايتهم قد جاءوا على خيول بُهُم راكبين عليهم عمائم، عمائم بيض في صورة رجال فقاتلوا مباشرة، قاتلوا حتى يقول أحد الصحابة يقول: أقابل الكافر والمشرك أقابله حتى أريد أن أقتله فإذا رأسه قد سقط، فإذا رأسه قد سقط يعني أن المَلَك قطع رأسه.

فقاتلت الملائكة، قال: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9]، مردفين يعني يتبع بعضهم بعضًا، ألف متتابعين لا ينقطعون يتبع بعضهم بعضًا، أو مردفين للمسلمين يعني يأتون يعني يحفظون ظهر المسلمين فيقاتلون معهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 10]، أي هذا المد من الملائكة إلا بشرى، إلا بشرى للبشرى للمؤمنين بشارة ولتطمئن به قلوبهم يعني هي بشارة وطمأنينة وسكينة تطمئن به قلوبهم، وما النصر إلا من عند الله، الذي نصرهم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إن الله عزيز ذو قوة وغلبة يغلبهم وحكيم في تدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا الجواب الأول في الاستغاثة، يعني هذه هذا الأمر الأول أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مدهم بألف من الملائكة، حتى وعدهم بثلاثة آلاف ووعدهم بخمسة آلاف يعني في قال: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125]، إن صبرتم واتقيتم وجاؤوكم بعدد كبير الله سيزيد الألف إلى ثلاثة أو وكذلك إلى خمسة، ولكنه لم يتحقق هذا الأمر فزودوا بألف من الملائكة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا من الأمور التي بشرهم بها وأغاثهم بها: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ [الأنفال: 11]، غشاهم النعاس أمنة منه. كيف غشاهم النعاس؟ أنت تعرف اللي في مواجهة العدو وفي خوف ورعب من العدو وقتال وساحة معركة أين يأتيه النوم؟

لا يمكن أن يأتيه النوم وهو في قلق شديد، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألقى النوم عليهم سكينة وطمأنينة فناموا وارتاحوا حتى يعني أولًا تسكن قلوبهم، والأمر الثاني أن يكون لهم ذلك نشاطًا وقوة في مواجهة العدو بعد هذا بعد هذا النعاس.

ولم يكن نومًا عميقًا وإنما نعاسًا أخذ منهم فترة أو وقتًا ثم عاد نشاطهم إليهم، يقول: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ [الأنفال: 11] يعني تأمينًا وأمنًا لهم وسكينة لهم، هذا الأمر الثاني.

- الأمر الأول: أنه مدهم بالملائكة.
- الأمر الثاني: أن ألقى النوم عليهم فارتاحوا واطمأنت قلوبهم ثم عاد إليهم نشاطهم.
- الأمر الثالث: قال: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال: 11]، جاءهم في تلك الليلة في تلك الليلة جاءتهم سحابة فأمطرتهم بالعدوة الدنيا القربى للمدينة، والكفار بالعدوة القصوى. اختيار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المكان، اختار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العدوة الدنيا لأن أرضها أقوى، فلما جاءها المطر صلبها بقوة، أما الكفار كانت أرضهم لينة سهلة فلما جاء المطر ازدادها سهولة فبدأت تنزل أقدامهم فيها وخيولهم.

فشوف كيف تخطيط النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولًا وكيف ترتيب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهذا الأمر أن أنزل هذا المطر، وفي هذا المطر مصالح عظيمة يعطي نشاطًا، حتى أن بعض الصحابة لما أصابه النعاس أصابه ما أصابه من الاحتلام فاحتاج إلى أن يرفع الجنابة فجاء المطر فرفع عنهم ذلك فأعاد لهم نشاطهم لأن المطر إذا كان مطرًا مباركًا طاهرًا فإنه يعطي قوة ونشاطًا.

قال شوف قال الأمر الثالث: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنفال: 11]. يقول هذا أيضًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أذهب عنكم أذهب عنكم بهذا المطر وأذهب الله سبحانه عنكم ريجس الشيطان أي وساوس الشيطان وتثبيط الشيطان؛ لأن الشيطان يثبطهم فيقول: كيف تواجهون هذا العدد؟

ما الذي ما الذي يعني يستطيع أن يواجه مثل هذا العدد الكبير من قوة قريش وعددها وعتادها وأنتم ليس معكم لا عدة ولا عدد؟ فمن الصعب مواجهتهم، فيأتي الشيطان يعني يثبطهم فأذهب الله رجس الشيطان وربط على قلوبهم أي أذهب عنهم القلق والرعب ربط وأنزل السكينة في قلوبهم.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11]، أذهب عنهم رجس الشيطان وربط على قلوبهم وثبت بهذا الماء والمطر ثبت به الأقدام كما ذكرنا أصبحت الأرض راسخة لهم.

شوف كم فضل في هذه الاستغاثة! أولًا مدهم بألف من الملائكة، ثم يعني أصابهم النعاس والنوم، ثم المطر، ثم أذهب عنهم رجس الشيطان، ربط على قلوبهم، ثبت بهذا المطر الأقدام، كل هذه فضائل لما استغاثوا ربهم ولجؤوا إليه، وهذا يدل على أن الإنسان لا يعتمد على نفسه ولا على قوته وإنما يتكل على رب العالمين فـ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 10].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12]. هذا زيادة أنه أمدهم وأوحى إلى الملائكة، يعني هو جل جلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمدهم من الملائكة وأوحى للملائكة ماذا يقولون ماذا يصنعون.

قال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾، أني معكم معية خاصة، معية خاصة بالنصرة والتأييد، ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني ثبتوهم وقووا عزائمهم، ثم قال: ﴿سأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألقى في قلوب هؤلاء الكفار الذين كانوا جاءوا لقتال المؤمنين ألقى الله في قلوبهم رعب، فأصبحوا في خوف ورعب والمؤمنون أذهب عنهم الخوف وآمنهم.

شوف كيف فضائل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى! قال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ يعني هذا دليل على أن على أن الملائكة قاتلت وباشرت القتال ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾، شوف كيف الأعناق يعني اقطع الرؤوس لأن العنق هو الوصلة بين الرأس على الجسد، فيقول لتكن السيوف فوق الأعناق ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾.

والبنان أطراف الأصابع أطراف الأيدي، لأنه إذا ضربت الأيدي سقطت السيوف ما استطاع أن يرفع السيف فأصبح قد انشلت يداه، فشوف كيف يعني طريقة القتال، وهذا توجيه للمؤمنين أيضًا لأن الله علم ووجه هؤلاء الملائكة بطريقة القتال ضرب فوق الأعناق والأيدي ﴿فَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾. يستفيد المسلمون من ذلك في قتالهم لأعدائهم.

- لماذا هذا يعني لماذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني أمر هؤلاء أمر الملائكة وأنزل هذه الأمور ووجه للملائكة بقتالهم؟ ما السبب؟

قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 13]. أي أمر الله القتال الذين كفروا قال سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ثم قال اضربوهم وقاتلوهم فوق الأعناق لأنهم ماذا؟ قال ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، شاقوا الله يعني حادُّوه وخالفوه ولم يستجيبوا له وعاندوه.

- فشاقوا يعني أصبحوا، ما أصل كلمة المشاقة؟

أن يكون الشخص في شق في طريق وهذا في طريق، هذا يشق طريق وهذا يشق طريق لا يمشون مع بطريق واحد، فالكفار عاندوا وكفروا ولم يقبلوا رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يؤمنوا بالقرآن، بل كذبوا بالحق لما جاءهم وكذبوا بالرسول وعاندوا فذال هذا جزاؤهم.

قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 13]، أتاك بجملة عامة، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب، أي شخص على وجه الأرض يشاق الله ويعانده ويخالفه ولا يقبل شرعه ويصادم شريعة الله فليعلم أن الله شديد العقاب ولا يقبل الله منه أن إلا أن إلا يقبل ولا يقبل الله منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يشاقه وأن يخالفه فإن الله شديد العقاب، وهذا وعيد شديد.

قال: ﴿ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: 14]، أي ذلكم الذي وقع في كفار قريش في غزوة أحد في غزوة بدر من الهزيمة ومن الأسر والقتل، قال ذلكم فذوقوه ذوقوا عذابكم وهذا جزاؤكم في الدنيا قبل الآخرة، وأن للكافرين عذاب النار في الآخرة.

يعني هذا الذي أصابكم عذاب دنيوي خفيف بالنسبة للآخرة ذوقوا عذابكم في الدنيا وأما الآخرة فهي تنتظركم وأن للكافرين عذاب النار عذاب النار. يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في توجيه المؤمنين أيضًا في مواجهة الأعداء، هذا توجيه عام بعد الاستغاثة بعدما استغاثوا ربهم وأمدهم وأبين لهم.

الآن يوجههم بالتوجيهات التي ذكرناها وهي أسباب النصر، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال: 15].

شوف هذا أول نداء في السورة ستأتيك نداءات كثيرة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يذكرهم بالإيمان أنتم عندكم إيمان والكفار لا إيمان عندهم ليس عندهم إيمان، فاذكروا هذا الإيمان تصديقكم الله برسوله. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾.

- كيف زحفًا؟

لكثرة الجيش، كفار كأنهم يزحفون في الأرض وهم وإن كانوا يسرعون، وأصل الزحف الذي يزحف على بطنه كالزواحف أو يزحف على مقعدته هذا يسمى يزحف هذا الأصل، لكن أنت لما تنظر الجيش من بعيد الجيوش التي تحارب كأنها تزحف في الأرض، فيقول إذا لقيتم يزحفون يمشون في الأرض مجتمعين فلا تولوهم الأدبار لا تتركونهم تولوهم أدباركم وترجعون مدبرين لا أقبلوا عليهم، لا تولوهم الأدبار لأن تولية الأدبار هذا فيه وعيد شديد وهو من كبائر الذنوب.

قال: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: 16]. أي واحد يولهم دبره ومن يولهم يومئذ وقت القتال ووقت زحف الجيوش دبره، فمن يوليهم دبره فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توعده بالوعيد الشديد إلا في حالة أو حالتين:

إذا كان متحرفًا لقتال يعني عنده يعني عنده يستعمل الحيلة والخديعة في الحرب بحيث إنه يفر كأنه منهزمًا ثم يعود يكر يفر ويكر إذا كان عنده عن يعني يتحرف في القتال ويحسن طريقة القتال بحيث إنه يذهب ويعود فهذا مستثنى؛ لأنه ما فر وولى الأدبار إذا إلا متحرك للقتال.

أو متحيزًا إلى فئة بحيث إنه يفر من هذا المكان من هذه الفئة يذهب إلى فئة أخرى أو يخرج من هذه الفئة يذهب إلى الفئة أخرى يعني لا يفر من قتاله وإنما يغير من مكانه، فإن كان هذا

يحترف أو يغير من مكانه هذا لا لا لا حرج فيه، لكن الذي يولهم دبره فقد باء بغضب من الله رجع بغضب رجع إلى الله بغضب والله قد غضب عليه ومأواه جهنم وبئس المصير.

شوف يقاتل في سبيل الله ويتوعده الله بهذا الوعيد الشديد: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

- قد يأتيك شخص يقول لك يقاتل في سبيل الله والله يقول له مأواه جهنم؟ كيف نقول؟

الجواب: ليست العبرة بالقتال العبرة بطاعة الله ورسوله، ولذلك سعيد بن مسيب رأى رجلًا دخل بعد صلاة العصر وقت العصر في مسجد رسول الله وسعيد بن مسيب جالس يدرس وجاء رجل دخل وجلس وبدأ يصلي بعد العصر يصلي فلما سلم ناداه قال: كيف تصلي وقت بعد صلاة العصر؟

قال الرجل: أتظن ان الله يعذبني بصلاتي بعد العصر؟ قال: **"لا يعذبك بصلاتك يعذبك بمخالفتك رسول الله"**، أنت خالفت، العذاب للمخالفة لا للعذاب.

هذا الآن الذي يجاهد في سبيل الله ثم يولي العدو دبره هذا خالف، هذا خالف وأيضًا خان إخوانه المسلمين، ولذلك توعده الله بهذا الوعيد الشديد: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وبئس المصير.

وقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لما ذكر السبع الموبقات المهلكات وهي من كبائر الذنوب قال من قال يعني: «**اِجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ... التَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ**»، التولي يوم الزحف من أكبر الكبائر.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 17]. يعني ظن بعض الصحابة لما رجعوا من بعد غزوة بعد غزوة بعد هذه غزوة بدر رجع بعضهم وظن أن أنهم قتلوهم وأنهم انتصروا عليهم، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم ما قتلتموهم أنتم بقوتكم ما قتلتم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾، الذي قتلهم هو الله.

حتى أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قرب الجيش الكفار إليه أخذ حفنة تراب من الأرض ثم رماها على الكفار وقال: «**شَاهَتِ الوُجُوهُ**»، فما من كافر إلا ودخلت في عينيه على وجهه، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

أنت لو رميت ما رميت يمكن ترمي واحد أو ما ترمي واحد، ما رميت إذا رميت ولكن الله رمى يعني الذي صوب هو الله، أنت نعم رميت لكن ما صوبت الذي صوبه هو الله، ما قتلتوهم أنتم واجهتموهم بس الذي قتلهم فعلاً وجعلهم يتساقطون هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أما قوتكم لا.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾، شوف البلاء قد يكون بلاء حسن وقد يكون بلاء سيء، قد يكون البلاء خير وشر ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ابتلاهم بالبلاء الحسن ليشكروا يعني ابتلاهم بالبلاء الحسن بمعنى أنه نصرهم على أعدائهم وأظهر دينه وأعلى كلمته وأعلى كلمته وأدخل النصر والسرور على الصحابة ليشكروا نعمة الله عليهم، هذا المقصود ليشكروا.

قال: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ يقول هذا النصر بلاء وهذا القتل ابتلاء لهم هل يشكرون أو لا؟ هل يشكرون أو لا يشكرون؟

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سميع لمن شكره وعرف نعمة الله عليه بحال من يشكر أو لا يشكر.

قال: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: 18]، ذلكم وأن الله موهن ومضعف كيد الكافرين في كل وقت، الله هو الذي يوهن ويضعف ليست قوة القوة المادية لا القوة المعنوية وهي ارتباط العبد بربه.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: 19]، يقول لهم يعني الكفار وعلى رأسهم أبو جهل لما جاء في هذه الغزوة قال هو يدعو ربه يعرف ربه قال: اللهم يقول كذا: **"اللهم إن محمدًا قطع الأرحام وفرق بين الناس اللهم أحنه"**، أحنه يعني عجل بالعقوبة عليه وفي جاء أيضًا قال: **"اللهم أحن الفريقين يعني الذي أحن يعني الظالم من الفريقين أحنه"** يعني عجل عليه بالعقوبة.

حتى أن أهل مكة الذين خرجوا لبدر خرجوا للقتال قبل خروجهم تعلقوا بأستار الكعبة ودعوا ربهم أن ينصرهم يعرفون ربهم، فلما جاء قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ في القتال ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾، جاءكم الفتح بنصر نبيه وبنصر المؤمنين ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ هذا إن تنتهوا عن كفركم وعنادكم وشرككم فهو خير لكم.

﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ أن إن رجعتم رجعنا ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾ يعني أن إن رجعتم للقتال فيرجع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مؤيدًا نبيه بالقتال وناصرًا نبيه، ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 19].

يقول كثرتكم وجماعاتكم وأسلحتكم ما تغني عنكم من الله شيئًا ولو كثرت، وأن الله مع المؤمنين، الله ناصر عباده المؤمنين، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ معية خاصة معية النصر والتأييد والحفظ هذه هي المعية الحقيقية أن الله معهم وناصرهم.

لعل نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده والله أعلم وصلى الله وسلم على نبي محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(169)
(الأنفال 20 - 29)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا ربَّ العالمين.

أيها الإخوة الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا المجلس المبارك مع القرآن الكريم؛ نجلس هذه الدقائق المعدودة، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألا يحرمنا فضل هذه المجالس، ويجعلنا وإياكم ممن تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين في الملأ الأعلى عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا اليوم هو اليوم السابع عشر من الشهر السادس من عام ستة وأربعين وأربعمئة وألف للهجرة، درسنا الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كل أسبوع في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي سورة الأنفال.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه العزيز: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 20]، لما تقرأ الآية التي قبلها ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 19]، وهذه المعية معية خاصة، معية النصرة والتأييد، بأن الله معك ينصرك ويؤيدك ويوفقك للخير.

ثم بدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك يأمر بالأوامر التي هي من تحقيق المعية، حتى تتحقق معية الله وتكون من أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، توفق لكل خير، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتولى أمرك ويصرفك، يصرف عنك كل شر ويجلب لك كل خير؛ حقق أوامره وسارع لطاعته.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: 20]، ابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه الصحابي الجليل أعطانا كلمة جميلة حسنة مع القرآن الكريم يقول: **"إذا سمعت الله يقول يا أيها الذين آمنوا قف عندها؛ إما خير يدلك الله عليه، ولا شر يحذرك منه"**.

خذ دائماً كل ما قرأت في أي موضع في القرآن يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا تتعداها، قف عندها، شوف ماذا فيها؛ إما خير يدلك الله عليه ويحثك عليه، أو شر يحذرك منه.

- هنا ماذا قال؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، هذا خير وفضل عظيم أن تكون ممن يطيع الله ورسوله، يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآن ستجد ستعرف ثمرة هذه الطاعة، يعني لما يقول الله لك أطع الله، يقول لك أطع الله ورسوله؛ فستجد ثمرة هذه الطاعة، وثمرة أنك لو ما حققتها.

شوف قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ يعني لا تولوا عن طاعته، أو لا تولوا عن رسوله، أو لا تولوا عن الله ورسوله، كلها صحيحة، لأن التولي سواء توليت عن طاعة الله ورسوله، أو توليت عن الرسول؛ لأن تولي معناها الإعراض وعدم القبول، يحذرك الله من أن تجد بعض الناس تأمره بأمر الله يأمره به، أو تذكره بأمر الله أو تذكره بأمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيعرض ولا يتقبل.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحدد يقول: ﴿لَا تَتَوَلَّوْا﴾، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ لا تعرض ولا تصد عن طاعة الله، ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ تسمع القرآن وتسمع الآيات وتسمع الحجج ثم تعرض، قد قامت الحجة عليك، الذي لم يسمع أهون، لكن تجد شخصاً يؤمر بالخير وينهى عن الشر ويسمع

الآيات القرآنية ويسمع الحجج ويسمع كل شيء وقامت عليه كل شيء، ثم يتولى وهو واسمع؛ هذا أشد.

- ولذلك شوف توعد الله هؤلاء ماذا قال؟

قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 21]، في ناس يقول: **"سمعنا"** بلسانه، وإذا جاء في التطبيق ما تجد فيه، يقول لك، تسأل عن الصلاة وعن فرضية الصلاة يقول: **"لا الصلاة واجبة وفرض علينا، وهي ركن من أركان الإسلام"** لكن ما يصلي.

وإذا جئت عند الزكاة يقول: **"لا واجبة، الله فرض علينا أن نخرج زكاة أموالنا"** لكن ما يخرجها، الله سبحانه يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ وشر هؤلاء المنافقون، المنافق يقول: **"سمعنا ونحن معكم"** وكل شيء، كل الأمور يستجيب لها لكن ما تجد أثراً، واليهود أشد في ذلك الذين يقولون: **"سمعنا وعصينا"**.

ولذلك شوف قال الله بعدها حتى يبين لك أثر الطاعة وأثر المعصية، يقول: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22].

- ما هي الدواب؟

كل ما دبَّ على الأرض؛ حيوان ومن بهيمة الأنعام أو من السباع أو طير يمشي على الأرض أو زواحف، كل هذه شرها هذا الكافر، هذا الكافر هو أشرُّ منها، لأنها هي عرفت لماذا خلقت وهي ماشية في طريقها وتعرف ربها ولم تعصه طرفة عين، وتذكر الله وتسبح الله، وهذا الكافر لا يذكر الله ولا يسبح الله ويعصي الله.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ على الإطلاق، شر الدواب هم عند الله يعني في حكمه وفي قضائه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾.

الصم الذي ما يسمع، هو يسمع ما يريد، يسمع الأشياء التي هو يريدها يرغبها يسمعها من الفجور والفساد هذا يسمعه، لكن إذا جاء الخير والقران والطاعة صم أصم لا يسمع، قال: ﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ لا يتكلم بالخير أبداً، يتكلم بالشر نعم، لكن الخير لا يتكلم به، صم بكم.

قال: ﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يعقلون يعني قلوبهم وأفئدتهم هواء، ما فيها خير، ما امتلأت بالطاعة؛ لماذا؟ لأنه إذا صم أذنه ولسانه أو كلامه أبكم ولا يتكلم بالخير ولا ينظر بالخير خلاص تعطل الفؤاد، القلب تعطل.

- القلب شو اللي يغذيه؟

يغذيه هذه الأشياء، يغذيه السمع، إذا سمع شيئاً يؤثر فيه، ولذلك يخشع القلب مع سمع القرآن، تخشع القلوب مع النظر التأمل، يخشع مع الكلام، تجد بعض الناس إذا قرأ القرآن أو سمع الأحاديث يبكي، يتأثر القلب، هؤلاء لا، ما فيه، صم بكم لا يعقلون.

ولا تظن أنهم يعني لو أنك حاولت فيهم هؤلاء خلاص ما فيهم محاولة، ما ينفع معهم، ولذلك شوف قال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: 23] لو فيهم خير مثقال ذرة لأسمعهم، جعلهم يسمعون الخير ويفقهون، لكن ما فيهم خير أبداً.

ولذلك قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: 23]، لو على فرض أن هؤلاء أسمعهم الله وأعطاهم سمع يسمعون الحق ويسمعون الخير لتولوا وهم معرضون، ما يريدون الخير أبداً؛ يعني لو جئتهم من جميع الجهات هؤلاء يعني خلقوا للنار بالعربي يعني كذا باختصار.

كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: 179]، هؤلاء لو جئتهم بكل آية، جئتهم بكل آية وأعطيتهم كل شيء، ما يسمع ولا يقبل ولا يريد الخير أبداً، لا

يريد الخير خلاص، هم يعني وطنوا أنفسهم على الشر فلا يقبلون الخير أبداً، يقول: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

- إذاً هذه الآية العظيمة، أو هذه الآيات التي سمعناها عظيمة، ما ثمرة الطاعة، ما ثمرة العصيان؟

الله يقول: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾، إذاً طاعة الله، طاعة الرسول ثمراتها كثيرة جداً، ومن أعظم ثمراتها أن الله معك، أن الله يحقق أوامرك، أن الله يحفظك، أن الله يتولى أمرك، لكن إذا خرج عن طاعة الله وعن رسوله تسلطت عليه الشياطين.

ولذلك شوف أثر العصيان وأثر التمرد وأثر التولي، خلاص لو كان عنده سمع وعنده بصر ما ينتفع به، ما ينتفع، الله أعطاه هذه الآلات لينتفع بها ما انتفع بها.

اسمع النداء الثاني حتى تشوف هذه النداءات العظيمة كلها نداءات للمؤمنين، يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24]، هذه أعظم، يعني أنت الآن مطلوب منك أن تطيع الله وتطيع الرسول، تطيع، لكن الاستجابة أعظم؛ ليش؟

لأنها مسارعة ومسابقة للخير، بعض الناس يطيع لكن بتردد وضعف، يطيع مرة ومرة ما يطيع، لكن هذه الآية لا، هذه الآية تحتم علينا المسارعة وعدم التردد، عدم التردد؛ يعني أحد الصحابة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه كان يصلي في المسجد.

والرسول دخل المسجد وهو يصلي فقال: «يَا فُلَانُ» وهو يصلي، الرجل يصلي، لما ما استجاب، لما صلَّى وانتهى من الصلاة قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَد نَادَيْتُكَ وَلَم تَستَجِب»، قال: **"إني كنت في صلاة"**، قال: «أَلَم تَسمَع قَوْلَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» [الأنفال: 24].

قال: **"إنني في صلاة"**، يعني المفترض تجيب مباشرة، فهنا لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخاطبنا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ويخاطبنا بصفة الإيمان التي تحرك في القلوب المسارعة، ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ يعني بادروا وسارعوا لله، استجيبوا لما يأمركم الله وما يأمركم الرسول، يعني أوامر الله أمامنا في القرآن وفي السنة، وأوامر الرسول أمامنا، استجيبوا لله وبادروا لطاعة الله، واستجيبوا للرسول وبادروا في تحقيق أوامر الله وأوامر رسوله.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لأن القرآن هو حياة قلوبنا، القرآن سماه الله روحاً: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52] الروح حياة، فإذاً إذا لم تستجب لله ولا إلى أوامره والسنة المكملة للقرآن المبينة، شوف قال: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لأن فيها حياتك، إذا ابتعدت عن القرآن، ابتعدت عن السنة، ابتعدت عن شرع الله خلاص مات القلب ما عاد فيه حياة، حياة القلوب بالكتاب والسنة بالقرآن بشرعه ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

واعلموا شوف هذا أخطر شيء، يعني إذا لم تطع الله ورسوله، ولم تستجب لله ولا لرسوله فاحذر أشد الحذر، ما هو؟

قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: 24]، يعني إذا تهاونت أنت وتساهلت في أوامر الله وأوامر الشرع، وعرفت أن هذا أمر وتركته وهذا نهي وارتكبته، ولم تستجب لأمر الله ولا لرسوله؛ اعلم أن الله سيعاقبك بعقوبة شديدة وهي أنه يحول بينك وبين الطاعة، هذه أشد العقوبات.

أشد العقوبات أن الله يحول بينك وبين الخير، يصرفك الله عن كل خير، كل ما أردت أن تفعل خيراً الله حال بينك وبينه خلاص ما عاد تستطيع أن تصل إليه، يقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ يمنعك من فعل الخيرات.

تجد بعض الناس الآن يعني يعرف أن صلاة الفجر فرض عليه وأنه يجب عليه أن يصليها جماعة في المسجد وينام، والله يقول: **"استجب لله وللرسول"** وينام ويتساهل ويقول: **"الله عفو غفور، الله عفو غفور، الله رحيم بعباده"**.

يعني أن الله يرحمنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعفو عنا، ولا يتمعر وجهه ولا يحزن على أنه ترك الصلاة ثم يعاقب بهذه العقوبة ولا يدري أن الله يحول بينه وبين قلبه، فلا تجده تفوته أشياء كثيرة، ويصرف الله عنه الخير ويفتح له أبواب الشر بسبب معاصيه وعدم استجابته وعدم مبالاته.

لو بكى على نفسه وعاد واستغفر وندم كان خيراً له، لكن تجد بعض الناس خلاص تبلد إحساسه مع كثرة المعاصي، فيقول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 24].

يقول في الدنيا يمنعك من الخير، وفي الآخرة ستحشر وستحاسب على أعمالك، ستحاسب على ما، تجد الآن كثيراً من الناس مصروفاً عن قراءة القرآن، مصروفاً عن الصدقة، مصروفاً عن ذكر الله، أغفل الله قلبه عن ذكره، أشياء كثيرة بسبب الذنوب والمعاصي، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]، تراكمت الذنوب واسود القلب، خلاص حال الله بينه وبين قلبه، حال الله بينه وبين هذه الطاعات، ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: 25]، وهذا أيضاً تهديد وتخويف، يقول: **"اتقوا وخافوا هذه الفتنة"**.

- ما هي الفتنة؟

قال أي فتنة، لكن هذه الفتنة خطيرة جداً وهي يقول: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ يقول لا تظن أنها تصيب الظالمين فقط، لا، العذاب إذا نزل عمَّ، شوف قال لا تظنها أنها تصيب الظالمين منكم خاصة، لا، تصيب الظالم وغير الظالم، متى؟

إذا الناس رأوا المنكر وتركوه ولم ينكروه ولا بقلوبهم هنا يأتي عذاب الله. ولذلك مثل ما ذكرنا سابقاً في قصة أصحاب السبت الذين أنكروا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: **"نجيناهم ثم ننجي الذين اتقوا"** آيات كثيرة ينجي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إنكار المنكر باليد ما تستطيع، باللسان ما تستطيع، بقلبك أقل شيء، ما تجلس مع أهل المنكر، أقل شيء يتمعر وجهك من أن تقبل هذا الشيء، أما تضحك وتجلس معه وتصابحه وتجالسه وكأنه لم يفعل شيئاً وتجلس مع أهل المنكر، لا: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: 140]، فالإنسان لا يجالس أهل الشر ولا يجالس الظلمة ولا يوافقهم؛ لأنه يخشى أن يعم الله بالعذاب.

قال: ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. لمن تساهل ولمن لا يبالي في أوامر الله ولا يخاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويتساهل في ارتكاب المعاصي والجلوس مع أهل المنكر، هذا على خطر عظيم.

يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه السورة التي عرفناها أنها سورة بدر، سورة النصر للمؤمنين، يذكر الله حال المؤمنين لما كانوا ضعفاء في مكة مستضعفين، قد تسلط عليهم من أعدائهم فيقول: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26].

اذكروا أيها الذين نزل عليهم القرآن في أول الأمر، يقول: **"اذكروا إذ أنتم قليل، عددكم قليل، ومستضعفون في الأرض، استضعاف الأعداء فوقكم، مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس، أن يتسلطوا عليكم ويأخذوكم في أي وقت"**.

﴿فَآوَاكُمْ﴾ آواكم أي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أذن بالهجرة فهاجروا مكة وخرجوا إلى المدينة فهيأ الله لهم المكان، ﴿آوَاكُمْ﴾ هيأ لكم البلد التي تستقرون فيها، ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أعطاكم الخير والأمن والطيبات ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ حتى تشكروا الله على هذه النعم.

وهذا التذكير ليس خاصاً بصدر هذه الأمة والصحابة، لا، كل من يعيش هذا الأمن واجب عليه أن يشكر، إذا أنت كنت ضعيفاً مستضعفاً، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنعم عليك فآواك، وجعل لك منزلاً تأوي إليه، وأيدك بنصره، ورزقك الصحة والعافية والمال والذرية والزوجة؛ ينبغي لك أن تشكر الله الليل والنهار على هذه النعمة، ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، شوف يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله، شوف كثرة هذه الأوامر كلها توجيهات لنا ورحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 27].

- كيف الإنسان يخون الله والرسول؟

الله أعطاك تكاليف وأعمالاً كلفك بها، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضاً أعطاك تكاليف، إذا أنت لم تقم بها هذه خيانة، هذه خيانة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

أنت الله حمَّلك أمانة الصلاة، أمانة مالك الذي عندك، أمانة زوجتك، أمانة أولادك، أمانة كل شيء في نفسك أمانة، سمعك أمانة، بصرك أمانة، لسانك أمانة، كل هذه استأمنك الله عليها أن تقوم بأدائها، يقول الله: **"لا تخونه، لا تخون الله والرسول"**.

فالذي لا يحقق أوامر الله خان الله، الذي يستعمل سمعه وبصره ولسانه في المحرمات ويستخدمها في هذه خيانة، الذي لا يربي أبناءه على الصلاة وعلى الخير وعلى الطاعة هذه خيانة، ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ هذه أداء الأمانة؛ لأن الخيانة من صفات المنافقين.

قال: ﴿لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾، إذا خنت الله أو خنت رسوله فيما أمرك وفيما نهاك عنه فأنت تخون أمانتك التي الله كلفك بها، كيف يجدك الله في المكان الذي منعك منه وحرمه عليك تجلس تمارس المعاصي والسيئات؟ هذه خيانة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله قد استأمنكم على هذه الأشياء.

ومن أعظم الأمانات المال الذي بين يديك وأولادك في البيت هذه من أعظم الأمانات، لذلك اسمع ماذا يقول بعدها قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: 28]، هذه أمانة، مالك أمانة ستحاسب عليه؛ من أين اكتسبت؟ وفيما أنفقت؟ من وين جاءك؟ من أي طريق؟ وين وديت المال هذا؟ أين صرفته؟ هذه أمانة، وهل أديت حق الله فيه من الزكاة؟ هذه كلها أمانة.

قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ﴾، الأولاد الذرية أمانة الله، يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل هؤلاء في أعناقنا، في ذمتنا وفي أعناقنا نقوم بتربيتهم كما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا لم نربهم على ما يرضي الله وربيناهم على الفساد وعلى الأخلاق السيئة هذه أمانة أنت مسؤول عنها.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ إن ربيت على الخير الحمد لله سلمت ووفقت، وإن تربوا على الشر وأنت المفرط فهي فتنة وامتحان في الخير والشر، فاحذر احذر أن تبتلى بفتنة الشر فيه.

وقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، أجر عظيم إذا عرفت قيمة المال وعرفت قيمة الولد وربيتهم على الحق، ربيت أبناءك على الحق؛ اعلم أن الله عنده أجر عظيم ولو جاءتك ما جاءك من المشقة والتعب والإيذاء، أحياناً يصل إليك منهم الأذى فاصبر وتحمل واعلم أن الله عنده أجر عظيم.

واعلم أنك إذا أنفقت أي نفقة تنفقها عليهم فإنها نفقة مخلوفة، وأن الله يعوضك خيراً، واعلم أن الله عنده أجر عظيم، ما قال لك عنده أجر وسكت، قال لا: ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يعلم عظمته إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية التي بعدها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29]، وكم نداءً يعني كثير ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ وهذه جامعة لكل خير؛ لأنها تدعو إلى التقوى، والتقوى جماع كل خير، كل ما تقدم شوف أطيعوا الله ورسوله، استجيبوا لله ولرسوله، لا تخونوا الله؛ هذه كلها يجمعها كل أوامر القرآن ونواهيه يجمعها كلمة التقوى.

- ما هي التقوى؟

التقوى مثل ما قال عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه لما جاء رجل قال: **"يا أمير المؤمنين ما هي التقوى؟"** سأله، قال: **"أنت هل نزلت مرة في أرض فلاة فيها شوك وفيها.."** قال: **"نعم"**، قال: **"ماذا تصنع؟"** قالوا: **"أشمر عن ثيابي وأحذر"**، قال: **"هذه التقوى"**، تشمر في الطاعات وتحذر المعاصي، هذه كلمة جامعة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ ما ثمرة التقوى؟ خذ ثمرة التقوى، قال: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾، فرقاناً يعني علماً تفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، تعرف طريق السلامة وتحذر طريق الشقاوة.

إذا اتقيت الله عَزَّ وَجَلَّ في كل ما يأمرك الله وينهاك، وراقبت الله عَزَّ وَجَلَّ وخفت من الله وحققت أوامره؛ اعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيعطيك هذه الثمرات، أعظمها أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطيك المعرفة والعلم في طريق الخير وطريق الشر، تميز بين هذا هدى وضلال، حق وباطل، ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾.

ثم من ثمرة التقوى قال: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ يكفر عنا سيئاتنا بسبب التقوى، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ شوف يكفر سيئات ويغفر، ماذا يغفر؟ الذنوب.

- شو الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ولا كلها واحد؟

الجواب: لا فيه فرق؛ تكفير السيئات في الصغائر، الصغائر دائماً يأتي فيها كلمة التكفير، وأما الكبائر لابد من التوبة حتى يغفر لك.

شوف فرق بين الذنوب، الذنوب كبائر وصغائر، الصغائر تسمى سيئات، والصغائر تكفر، تكفر بالأعمال الصالحة، إذا صليت الصلوات الخمس مكفرات ما بينهما، إذا صمت رمضان ما بينه مكفرات، الحج يكفر، الأعمال الصالحة، الصدقات، هذه كلها تكفر صغائر الذنوب.

- أما الكبائر ما فيه إلا مغفرة الله، ومتى غفر الله لك؟

إذا تبت توبة نصوحاً غفر الله لك، وإلا لا تذهب الكبائر، ما تذهب أبداً إلا بالتوبة، بالتوبة النصوح والعودة إلى الله والاستغفار والندم، هذه شوف قال: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ

ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يعني الله عَزَّ وَجَلَّ يعطيك الخير والأجر، والأجر العظيم عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عنده جل جلاله.

لعلنا نقف عند هذا القدر نكتفي به، حقيقة أوامر عظيمة وتوجيهات يجب علينا أن نفهمها ونطبقها في حياتنا، وألا تذهب هكذا سدى، نفهمها ونستفيد منها، نسأل الله أن يعيننا على ذكره وعلى شكره وعلى حسن عبادته، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(170)
(الأنفال 30 - 40)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلِّ وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا ربَّ العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا اللقاء الذي يعقد كلَّ أسبوع بعد صلاة المغرب من كلِّ أربعاء في درسنا في تفسير القرآن العظيم، وهذا اليوم هو اليوم الرابع من الشهر السادس من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا في سورة الأنفال وتفسيرها، وقف بنا الكلام عند الآية رقم ثلاثين من هذه السورة، وهي تتحدث عن فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونعمته على نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صاحب الدعوة وصاحب الرسالة، بعدما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فضله على المؤمنين عامة لما قال: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: 26].

هذه نعمةٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومنةٌ على المؤمنين؛ كانوا مستضعفين في مكة فقواهم الله ونصرهم وأيدهم ورزقهم من الطيبات، ثم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نعمته أيضاً على رسوله خاصة يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].

هم يخططون ويمكرون والله فوقهم يمكر بهم؛ ماذا كانوا يصنعون؟ اجتمع رؤوس الشرك في مكة في دار الندوة على ماذا يصنعون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبدأ كلٌّ يدلي بدلوه؛ فقال بعضهم: يحبس في بيته ويقيد، ندخل عليه في بيته ونقيده ونحبسه، وبعضهم قال: يقتل، وبعضهم قال: يخرج، يخرج من بلدنا حتى نرتاح.

فبدأوا يتداولون الرأي، فقال رأسهم وكبيرهم في الشرك أبو جهل، فقال: يقتل ولكن بطريقة، كيف الطريقة؟ قال: نأتي من كلِّ قبيلة برجل أو فتى ونعطيه السيف، وإذا جمعنا هؤلاء القبائل وأخذنا كلَّ واحد منهم رجلاً وأعطيناه سيفاً، إذا خرج النبي من بيته كلهم في دفعة واحدة يقتلونه فيضيع دمه بين القبائل، ثم ترضى قبيلته بالدية وينتهي أمره.

هذا تدبيرٌ من تدبير رأس الشرك أبو جهل، شوف كيف يمكرون! يمكرون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي جاء رحمةً لهم ينقذهم من النار ويريدون التخلص منه، فماذا جرى؟

لما خططوا ودخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيته جاءه الوحي بأنهم قد اجتمعوا لقتلك، ولكن الله قد أعمى أبصارهم؛ فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أوحى الله إليه بالهجرة، خرج وإذا هم كلهم مجتمعون عند البيت ولكن الله أعمى أبصارهم.

كلُّ ما أخذ سيفه بيده، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ حفنةً من التراب ووضعها فوق رؤوسهم وقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: 9]، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وذهب وهؤلاء ينتظرون، فجاء رجل منهم وقالوا خيبة!

قال: خيبةً لكم، قد خرج محمد وفرَّ من عندكم ووضع التراب على رؤوسكم، فبدأوا يأخذون وينظرون للتراب فأعمى الله أبصارهم. **"ويمكرون ويمكر الله"**.

- المكر ما معناه؟

هو التخطيط ووضع الحيل على هذا الشيء بحيث إنه لا يدري إلا وقد وقع، وقع في هذا الشيء، هذا المكر، ولكن الله يكيد ويمكر بهم ولذلك أوقعهم؛ هم أرادوا شيئاً وأراد الله شيئاً.

مثل ما صنع قوم صالح لما اجتمعوا على قتله؛ جاؤوا ووضعوا كميناً مجتمعين على قتل صالح تحت جبل، قالوا: صالح يأتي من هذا الطريق إذا مرَّ ألقينا عليه هذه الصخرة الكبيرة، وهم جالسون ينتظرون صالحاً، فألقى الله عليهم صخرةً من فوقهم فماتوا جميعاً، ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: 48].

فمكر الله بهم وقتلهم، وهذه عبرةٌ وعظةٌ ودرسٌ لكلِّ من يريد أن يمكر بأهل الخير والصلاح؛ أنَّ الله فوقه وأنَّ الله يمكر به، ولو أراد أن يخطط ضد أخٍ له في الإسلام أو نحو ذلك أو ضد المسلمين فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينصر أولياءه، ينصر أولياءه.

ثم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات موقف هؤلاء المعاندين؛ يعني مصرين على الشرك والعناد والكفر.

- فشوف ماذا يقولون؟

يقول: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ [الأنفال: 31]؛ آيات الله القرآن الكريم يقرأ عليهم، ماذا يقولون؟ ما يعتبرون ويتفكرون ويتأملون ويخشعون للقرآن، لا، يقولون: ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ [الأنفال: 31]؛ يقولون سمعنا مثل هذا، لو نشاء لقلنا مثل هذا، يقول: لو نريد قلنا مثل ما يقول محمد؛ طيب الله تحداكم أن تأتوا بسورةٍ واحدة ما استطعتم، تريدون أن تأتوا بمثل هذا القرآن؟

- الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ماذا يقول؟

يقول: ﴿لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]. لو كانوا متعاونين متكاتفين مستحيل، وتحداهم وقال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: 38]؛ وهؤلاء الجهلة يقولون: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 31].

- من هو القائل هذا؟

القائل هذا هو النضر بن الحارث، كان من رؤوس الشرك وقد أُسر في بدر، أسره المقداد بن عمرو فقتله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قتله النبي وهو من الأسارى لأنه كان يؤذي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان يستهزئ بالقرآن، فعاقبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن قُتل.

يقول هنا حتى يعني موقف آخر يتحدون، وقيل إنَّ الذي قال هذا الكلام أبو جهل. طيب، يقول هنا: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ﴾ [الأنفال: 32]؛ هم شوف يدعون ربهم يعرفون الله، يقولون: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32].

شوف يستفتحون على أنفسهم بالشر ويدعون بهذا الدعاء، يعني المفترض أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه، فافتح قلوبنا له؛ ما يقولون هذا الكلام، هذا كلام تحدٍّ؛ يتحدون الله ويتحدون رسوله وهم يعلمون أنَّ محمداً رسولٌ عند الله.

﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: 32]؛ كما أمطرتها على أصحاب الفيل، هم شاهدوا أو سمعوا أو جاءهم أخبار الحجارة التي رمى الله بها أصحاب الفيل، فيقولون: أمطر علينا الحجارة من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليمٍ.

- لما يدعون على أنفسهم الله قادرٌ على أن ينزل عليهم حجارةً أو يعذبهم، لكنه ما عذبهم، لماذا؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]؛ يا محمد أنت أمانٌ لهم، وما دام إنك موجود بين ظهرانيهم لا يأتيهم عذاب، ما دام موجود أنت أمانٌ لهم، ما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم.

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33].

- هل الكفار يستغفرون؟

ما يستغفرون.

- كيف الله يقول وهم يستغفرون؟

شوف أحياناً تقرأ أنت آيات في القرآن ما تفهم معناها، كيف يقول وهم يستغفرون؟ نقول فيهم مؤمنون أخفوا إيمانهم في مكة، مؤمنون رجال ونساء مثل ما ذكر الله في سورة أخرى قال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ﴾ [الفتح: 25].

ففي مؤمنين ومؤمنات في مكة ما يدرون عنهم الكفار أنهم مؤمنون، كثير منهم نساء والرجال أخفوا إيمانهم، منهم العباس؛ العباس عم النبي كان مؤمناً مخفياً إيمانه حتى خرج معهم إلى بدر وهو لا يريد، وأُسر في بدر وهو لا يريد الخروج حتى لا يقال لماذا لا تخرج.

فقال الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33]، وإذا خرجت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: 33]؛ أي فيهم من يستغفر.

ثم بيَّن لك قال لك يعني هذا السبب، هذا أمان وهذا أمان، لكن لو خرج المستضعفون من مكة وخرج النبي لجاء أصابهم ما أصاب الأمم الماضية. يقول: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الأنفال: 34]؛ يصدون الناس عن طاعة الله وعن التوحيد وعن المسجد الحرام. ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ [الأنفال: 34]، مو بأولياء ليسوا أولياء للمسجد الحرام، ليسوا هم أحق بالمسجد الحرام.

- من هم أولياؤه؟

قال: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: 34]، أما هؤلاء ما يستحقون أن يكونوا أولياء المسجد الحرام وهم يعبدون الأصنام ويشركون بالله ويحاربون رسوله، يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 34]؛ جهلةٌ ما يدرون.

ثم بيَّن لك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً أنَّ أعمالهم سيئة، لا صلاة ولا صدقة؛ الآن شوف الصلاة والصدقة؛ أما الصلاة قال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ﴾ [الأنفال: 35]، الصلاة يطوفون بالبيت.

- كيف يطوفون؟

يطوفون عراةً، يتجردون من ثيابهم؛ النساء بالليل والرجال بالنهار. ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: 35]؛ المكاء الصفير يصفرون بأفواههم، والتصدية التصفيق، هذا هو، هذه عبادة؟ هذه عبادةٌ تعبدون الله عند بيته الحرام بهذا الشكل؟ يصفرون ويصفقون، يصفرون ويصفقون ما يدرون جهلة.

قال الله: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [الأنفال: 35] يعني ستذوقون العذاب بهذا العمل السيء، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: 35]؛ تكفرون بالله وتكفرون برسوله وتعملون هذه الأعمال السيئة.

هذه الصلاة، أما النفقة يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 36]؛ الذين كفروا في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حاولوا أن يجمعوا الجموع للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقاتلوه في أحد دفعوا أموالاً كثيرةً حتى يأتوا بالأحباش

ويقاتلون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدفعون، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 36].

وهذا وإن كان في أهل مكة يشمل كلَّ من ينفق ماله ليصد عن سبيل الله، كل من ينفق ماله ليصد عن سبيل الله داخلٌ في هذه الآية. ﴿لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: 36]، قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ [الأنفال: 36]؛ ينفقونها.

- ما هي النتيجة؟

﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: 36]؛ يعني ينفقونها ويتحسرون ويندمون على نفقتهم في الدنيا والآخرة، ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: 36]؛ إذا أرادوا بهذا النصر يغلبون، يعني لا حصلوا ديناً ولا دنيا، يعني ذهبت أموالهم وغُلبوا. ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: 36] هذا في الدنيا، أما في الآخرة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36].

يقول في الدنيا يغلبون وتذهب أموالهم، وبعدين قال في الآخرة: ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36]، لماذا؟ قال: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: 37]؛ هؤلاء فيهم خبثٌ وغيرهم طيب، فيميز الله في يوم القيامة يميز بين أهل الحق وأهل الباطل.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: 37]؛ يجمعه فيركمه جميعاً يلقيه في جهنم جميعاً، قال: ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ [الأنفال: 37]؛ يجمعه جميعاً فيجعله في جهنم، قال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: 37].

أي أهل الخبث والذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله والذين هذه صلاتهم، أولئك هم الخاسرون، أولئك هم الخاسرون؛ وعيدٌ شديدٌ لكلِّ من يفعل مثل هذه الأفعال، في الصلاة مثل هذه الصلاة التي فيها لعبٌ واستهزاءٌ وسخرية، وإنفاقٌ في الصد عن دين الله، هذا جزاؤه.

ومع هذا هذه العقوبة، شوف ومع شدة عداوتهم للدعوة وشدة عداواتهم للرسول، الله يفتح لهم باب التوبة، يقول: تعالوا نتوب عليكم، اقبلوا.

شوف: ﴿قُل﴾ [الأنفال: 38] يا محمد للذين كفروا أعدائك قل لهم ماذا؟ ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا﴾ [الأنفال: 38] ويقفوا عن هذه العداوة، ﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: 38]؛ كل ما مضى يمسح عنهم يُغفر لهم، تمحى سيئاتهم بس توبوا إلى الله.

﴿إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا﴾ [الأنفال: 38] ويستمروا على عنادهم وكفرهم، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38]. سنة الأولين أنَّ الله سنَّ فيهم أنَّ الله من عادته أنَّ كلَّ من عادى الرسل أهلكه الله؛ قوم نوح وثمود وعاد وقوم فرعون أين راحوا؟ أهلكهم الله، ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: 38].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾ [الأنفال: 39]؛ هؤلاء الأعداء لا، إذا لم يتوبوا فتح الله لهم أولاً باب التوبة لعلهم يتوبون، لكن إذا استمروا- ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: 39] أي كفرٌ وشرك، ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: 39]؛ لا بد أن يظهر الله دينه على الدين كله.

﴿فَإِنِ انتَهَوْا﴾ [الأنفال: 39] وقفوا عن حدهم بعد القتال، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: 39]. ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ [الأنفال: 40] واستمروا، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الأنفال: 40]؛ مولاكم يعني يتولى أمركم، ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: 40] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه الآيات الكريمات التي سمعناها وبيَّنا معانيها؛ حقيقةً آياتٌ عظيمة تبين أولاً فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإرساله رسوله محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو لم يرسل رسوله لبقي الناس في ضلال وفي جهل، لكن نعمة الله إنه أرسله رحمةً للعالمين.

ففضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وانظر تأمل أيضاً شدة عداوة هؤلاء الجهلة في محاربتهم للدعوة وصد الناس عنها، وإنفاق أموالهم في الصد عن سبيل الله، ماذا ما هي النتيجة؟ تحارب الله؟ تحارب رسوله؟ تحارب من أنت؟

النتيجة أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توعدهم بهذا الوعيد الشديد؛ إنَّ أموالهم ستكون حسرةً عليهم، ولو يدفع مالاً أو ريالاً واحداً أو درهماً سيكون حسرةً عليه.

وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: 36]، ويفتح الله لهم باب التوبة ومع ذلك يصرون على كفرهم حتى قضى الله على الشرك وأهله. طيب، نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(171)
(الأنفال 41 - 54)
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، أصلّي وأسلّم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين. أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حيّاكم الله جميعًا في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعله لقاءً مباركًا نافعًا، درس في هذا اليوم الموافق لليوم الأول من الشهر السابع من عام ٤٦ من الهجرة مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قراءةً وتفسيرًا وتدبّرًا وتأملًا في هذه الآيات الكريمات؛ سورة الأنفال.

والأنفال هي الغنائم التي يأخذها المسلمون قهرًا من المشركين في الغزوات، هذه هي الغنائم التي تسمى الأنفال، سميت بالأنفال لأنها تنفّل؛ يعني تعطى المسلمين في الجهاد.

والأنفال والغنائم لم تكن مباحةً للأمم الماضية، كانت محرّمة؛ إذا غزا قوم قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم غنم منه غنائم يتركونها، تأتي نار من السماء فتأكلها.

☜والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «أُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي». لما تقرأ أول السورة والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول فيها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۖ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 1]، يعني الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ سألوا عن الغنائم أول معركة؛ معركة بدر، ولا يدرون ماذا يصنعون بها.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما أجابهم لأنهم تنازعوا فيما بينهم، فقال لا تتنازعوا لأمرٍ من أمور الدنيا، وأنتم أعلى وأكرم من هذا الشيء؛ ولذلك لم يجبهم الله سبحانه لما قال يسألونك عن الأنفال. قل الأنفال لله والرسول الذي يحكم بها الله ورسوله.

ثم قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: 1]؛ لا يقع بينكم نزاع واختلاف، ثم بعد ذلك لم يأتِ الجواب للغنائم هذه إلا بعد ٤٠ آية من السورة؛ لماذا؟ حتى لا يكون همّهم الغنائم وأمور الدنيا التي هي حطام الدنيا لا تبقى، وإنما ليكن همّهم أكبر.

ولذلك شوف في الآية بعد ٤٠ قال، واعلموا، هذا الجواب تواه ياتي: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال: 41]؛ يعني إذا غنمتم غنيمةً من العدو غنائم فخمّسوها.

خُمس هذا لله ولرسوله؛ يعني في مصالح المسلمين، في كل ما فيه نفع للمسلمين، هذا معنى لله ورسوله، ثم قال: ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾، والمراد بذي القربى هم قرابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بنو عبد مناف وبنو مطلب، هم هؤلاء؛ لماذا؟ لأنهم يمنعون من الزكاة، ما يأخذون الزكاة، آل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحرُم عليهم الزكاة، فعوّضهم الله بهذه الغنائم أن يكون لهم نصيب.

قال بعدها: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾، واليتيم من فقد والده وليس له من يعوله، فالله سبحانه شرع لهم هذا بشرط أن يكون اليتيم فقيرًا لم يرث من أبويه مثلًا أو من أبيه مالًا كثيرًا. ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ الفقراء، ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ الذي جاء إلى بلد وانقطع به الطريق ليس معه مال، أصبح صفر اليدين ليس معه شيء، فهذا يعطى، وابن السبيل هؤلاء خمسة، خُمس يخمّس لهم، هؤلاء يخمّس لهم.

وأما أربعة أخماس الغنيمة فهي تقسّم على المجاهدين؛ الراجل الذي ليس معه خيل ولا فرس ولا إبل، الراجل له سهم واحد، والذي معه فرس أو خيل راكب هذا له سهمان؛ سهم له وسهم لفرسه أو لخيله، هذا قسمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الغنائم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ [الأنفال: 41]، فهذه قسمة الله، قسمة الله، القسمة العادلة في هذه الغنائم، ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: 41].

يوم الفرقان هو يوم بدر، سمّاه الله الفرقان لأن الله فرّق بين الحق والباطل؛ أظهر دينه وأظهر نبيه وأبطل الشرك يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، هذا هو يوم الفرقان، يقول: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾.

- ما هو الذي أنزله الله على عبده يوم الفرقان؟

الجواب: هذه الآيات؛ الآيات التي أنزلها والنصر الذي أنزله والجنود الذين أنزلهم من السماء ١٠٠٠ مقاتل من الملائكة يقاتلون في صفوف المؤمنين، هذا الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾؛ جمع مشركي مكة والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، والله على كل شيء قدير في نصره في تأييده في قسمته الله على كل شيء قدير.

ثم بدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصف لنا هذا الموقف العظيم، وهو موقف بدر، قال: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ [الأنفال: 42].

- ما هي العدوة الدنيا وما هي العدوة القصوى؟

العدوة هي طرف الوادي المرتفع والطرف الآخر عدوة؛ هذه من هنا عدوة ومن هنا عدوة. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج من المدينة متوجّهًا إلى العير؛ عير قريش التي يقودها أبو سفيان، كانت مليئةً بالأرزاق والأموال، خرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأهل مكة لما سمعوا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه خرج جاؤوا يقابلونه حتى يردوه أن يعتدي على العير، وكل منهم لم يكن له ميعاد ولم يرتب شيء، إنما هذا جاء هؤلاء أتوا من هنا وهؤلاء، ووقفوا على طرف الوادي.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ يعني التي هي قريبة من المدينة، طرف الطرف الأقرب بالمدينة، ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ أي الأقصى البعيد عن مكة.

ثم قال: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾، الركب هو أبو سفيان وما من معه على العير أسفل منكم؛ يعني على طرف البحر لأن البحر أسفل على طرف، والعجيب أن قريشًا خرجت بما يقرب من ١٠٠٠ من كبار قريش ليقاتلوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاؤوا إلى حد الوادي ولم يعلموا أن محمد الطرف الثاني، حتى إنهم كانوا يرسلون السقاة الذين يسقون لهم الماء ولم يدرِ أحد عن الآخر.

ثم تقاربوا حتى رأى كل منهم الآخر، وهم جاؤوا يصد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاهب ليحصل على هذا العيل ولم يكن بينهم ميعاد على قتال.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ [الأنفال: 42]؛ يقول لو تواعدتم أنتم وإياهم، قلت تعال نأتي هنا ونحن نأتي هنا، لاختلفتم في الميعاد؛ اختلفتم حتى في المكان وحتى في الزمان، الله جمعكم في مكان وفي وقت واحد.

قال: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾.

- ما هو الأمر الذي أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

قال: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، وهم أهل الشرك؛ قُتل منهم سبعون من أشرافهم، ﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾. الله يريد أن يعني يهلك هؤلاء ويحيي بعضهم؛ لماذا؟ حتى يعتبروا وحتى يكون لهم فرصة في الدخول في الإسلام. ولذلك الذي لم يحصل له قتال أو لم يحصل له قتل في هذه المعركة هداه الله بعد ذلك ودخل في الإسلام مثل كبار المشركين؛ أبو سفيان وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وغيرهم من كبار المشركين دخلوا في الإسلام وأسلموا.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: 42].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه المعركة قتل منه ٧٠ من أشرافهم وأُسر منهم سبعون، أُسر منهم ٧٠ من أشرافهم.

قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 42]؛ سميع لأقوالكم وأقوالهم، عليم بأحوالكم وأحوالهم.
ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من رحمته أرى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام قبل المعركة، أراه ماذا؟ أراه عدد المشركين أنهم قليلين، أنهم قلة؛ لماذا؟ حتى يعزموا عليهم.
فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: 43]؛ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رآهم في المنام قليل، عدد قليل، أخبر الصحابة قال إنهم قليل ونحن سنعزم عليهم ونبيدهم، فنشط الصحابة لذلك وفرحوا.
قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾؛ لو أراكم على حقيقتهم عدد كبير لفشلتم، ضعفتم أمامهم وخفتم منهم، ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، بعضكم يقول نقدم بعضكم يقول لا لا نقدم لنهلك أنفسنا، تنازعتم في الأمر، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ هذا النزاع حتى لا يقع النزاع بينكم، ولكن الله سلّم ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعلم بما يدري في صدور العباد وفي قلوبهم.
ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ﴾ [الأنفال: 44]، يعني ليس في المنام وإنما في اليقظة؛ ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾، يعني الرؤية تحققت؛ النبي رأى أنهم قليل، وجاء في الواقع فعلًا رأوهم عدد قليل بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
﴿إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ﴾ أنتم ﴿فِي أَعْيُنِهِمْ﴾، حتى أنتم هم يروكم قليل؛ ليش؟ حتى يعزمهم ولا يفرون، لو رأوكم كثير لفروا، فهم رأوا الصحابة عدد قليل فعزموا عليهم، وهؤلاء رأوهم عدد قليل فعزموا عليهم.
شوف قال: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وهو وقوع هذه المعركة ونصر، وينصر الله من ينصر ويهزم من يهزم، يقضي الله أمر كان مفعولًا، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال: 44]؛ ترجع أمور العباد كلها، أمور العباد كلها وتدبيرها إلى الله سبحانه، هو الذي يدبر.
من الذي أخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بيته والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى هذا المكان؟ ومن الذي أتى بجحافل الشرك إلى هذا المكان؟ ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، وإلى الله ترجع الأمور.
ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوجه العباد عباده الصالحين المؤمنين توجيهات فيها أسباب النصر، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: 45]؛ إذا لقيتم جماعةً من أتوا لقتالكم فثبتوا، الثبات يزيدك في النصر، قال: ﴿فَاثْبُتُوا﴾ لا تفروا ولا تخافوا، القوة لكم والنصر لله، النصر من الله لكم، فاثبتوا ينصركم الله، فاثبتوا ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: 45]؛ أقوى أسباب النصر ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.
وشوف لاحظ قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ ما قال واذكروا الله سكت، قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ وأنت لو تقرأ في القرآن كلمة كثير هذه لم ترد إلا في الذكر كلها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 41]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة: 10].
اذكروا الله كثير، لا تذكره قليلًا؛ لأن ذكر الله والتكبير والتهليل والتسبيح هذا مما يعين على النصر ويساعد المجاهدين على نصرهم على أعدائهم، ولذلك شو قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: 45].
ثم ذكر أيضًا من أسباب من أسباب النصر قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: 46]؛ في معركة أحد انتصر المسلمون انتصار قوي، وقتلوا المشركين حتى فر المشركون ولم يبقَ لهم

باقية، ثم وقعت معصية واحدة، وهم الذين على جبل الرماة لما عصوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزلوا، انقلبت انقلب النصر هزيمة بسبب معصية واحدة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لا تعصِ، فطاعة الله سبب للنصر. ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾؛ التنازع التخالف الاختلاف بينكم لا تنازعوا لا تختلفوا، تكون كلمتكم واحدة مجتمعة.

- فإنكم إذا تنازعتم ماذا يحصل؟

قال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾ تنهزموا، النزاع سبب الهزيمة، ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾؛ قوتكم تذهب، ما يكون لكم قوة. ثم قال: ﴿وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46]؛ اصبروا على واصبروا على الجهاد، فإن الله مع الصابرين معيةً خاصة، معية النصر والتأييد، شوف كم أوامر أسباب للنصر: اثبتوا، اذكروا الله كثيرًا، أطيعوا الله ورسوله، لا تنازعوا، اصبروا؛ إن الله مع الصابرين.

ثم نبههم على أمر آخر قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا﴾ [الأنفال: 47]، وهم المشركون؛ لما وصل المشركون إلى وصلوا إلى هذا المكان وأخبر أبو سفيان المشركين قال العير سلمت والآن أنا متوجه إلى مكة ارجعوا خلاص.

قال أبو جهل: **"والله لا نرجع، والله لننحر الجزور ونشرب الخمور وتسمع بنا العرب ونقتل محمدًا وأصحابه"**، فأخذتهم الغرور، فقال قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا﴾؛ تكبرًا استكبارًا، ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾؛ يريدون أن يظهروا أمام الناس أنهم أقوياء، ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يصدون الناس عن سبيل الله ويصدون بأنفسهم عن سبيل الله، ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: 47]؛ الله عالم ومحيط بأعمالهم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: 48]. الشيطان جاءهم لما وصلوا هذا المكان؛ أبو جهل ومن معه من جحافل الشرك لما وصلوا هذا المكان جاءهم الشيطان في صورة سراقة بن مالك.

لما جاءهم في صورة سراقة بن مالك، وسراقة كان قبيلته قوية وتنصر، فلما جاءهم قال أنا معكم وقومي معكم فاقدموا على محمد، وهو الشيطان إبليس جاء في صورة سراقة بن مالك.

قال: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾؛ ما أحد ينتصر عليكم، الغلبة لكم أنتم، ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ أجيركم أنا وقبيلتي، لو أراد محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه أن يقدموا عليكم أنا معكم ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾؛ يعني أقبل بعضهم على بعض وبدأ يعني قربت الحرب تراءت الفئتان، ونزلت الملائكة ١٠٠٠ مقاتل من الملائكة، الشيطان رأى الملائكة، فلما رأى الملائكة فرَّ.

﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ رجع على عقبيه وقال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾؛ يتبرا الشيطان منهم، ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ لا دخل لي فيكم، ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾؛ رأى الملائكة خاف، ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾؛ يعني يخاف أن تنزل به عقوبة الآن، ولا هو يعرف أن الله سيعذبه في النار، لكن يخاف أن يعجل الله له العقوبة، ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 48].

هذا الشيطان إذا جاء وزين للإنسان المعصية تركه هو ومعصيته، كفر وتركه؛ ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: 16].

قال هنا فلما حصل ما حصل، التقى الجمع الجمعان ووقعت المعركة وقاتلت الملائكة على خيول بهم وعليهم العمائم الصفر والخضر والسود، وبدأوا يقاتلون حتى يقول أحد الصحابة، يقول: أقبل على الرجل يريد أن أقطع رأسه، فإذا رأسه يسقط على الأرض قد سقط، ضربته الملائكة قبل أن يضربه، فـ قاتلت الملائكة معهم.

قال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الأنفال: 49]؛ بعد هذه الغزوة وانتصار انتصار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة عليهم، جاء هؤلاء المنافقون ومن في قلوبهم مرض قالوا: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾؛ يقولون أنتم اغتررتم بدينكم.

قال شوف: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾؛ يقول اغتروا بدينهم يظنون أنهم سينتصرون دائمًا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: لا ما غرّه ولكن ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ هؤلاء توكلوا على الله فنصرهم الله، توكل على الله معناها أنك تفوض أمرك إلى الله في كل شيء؛ في أن يجلب لك الخير ويدفع عنك الشر، هذا معناه.

حتى أنت إذا خرجت من بيتك تقول توكلت على الله يدفع عنك الشر ويجلب لك الخير؛ شوف كم الحوادث في الشوارع، إذا خرج الرجل من البيت وقال: **«بِاسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ»**، قال قالت له الملائكة: **«كُفِيتَ وَوُقِيتَ»**، وتنحت عنه الشياطين، هذا فضل عظيم.

قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾؛ يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ۙ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: 50]؛ يقول هؤلاء الذين كفروا قتلوا في بدر وغيرهم ممن يموت لا تظن أنهم يموتون هكذا، وإنما إذا جاء الموت وحضر الموت جاءتهم الملائكة وبدأت تضرب فيهم، تضربهم ماذا؟

قال: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ بقوة، ﴿وَيَضْرِبُونَ أَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

حتى إن النفس ما تستطيع أن تخرج الروح ما تخرج من الكافر إلا بشق الأنفس، والروح لا تريد أن تخرج لأنها تعرف أن أمامها عذاب شديد، فالملائكة تضربهم حتى تخرج أرواحهم بقوة.

فيقول: ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ 50 ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ51﴾ [الأنفال: 50-51]؛ هذا الضرب والتعذيب بسبب ذنوبكم، بما قدمت أيديكم وكسبت أيديكم، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: 51]. الله ما ظلم أحدًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

ثم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الأنفال: 52]؛ يقول هذه طريقتهم شركهم مثل والعذاب الذي نزل بهم مثل ما نزل بفرعون؛ أغرقه الله لما عصى واستكبر أغرقه الله، والذين من قبل من الأمم الماضية عاد وثمود وغيرهم عذبهم الله؛ ماذا؟

﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ وردوا رسالة ربهم، ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: 52]. فليعتبر هؤلاء المشركون الذين ما قتلوا في بدر أن يسمعوا هذا الكلام فيرجعوا عن شركهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: 53]. الله لا يغير نعمة، إن نعمةً أنعمها على قوم، نعمة صحة وعافية وأمن وخير ومال ما يجيء الله ينزعها ويأخذها، لا بل يزيد الإنسان إذا شكر.

﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾. إذا غيروا وكفروا وجحدوا وبطروا واستكبروا وعصوا الله سلب الله منهم هذه النعمة، هذه سنة الله في كل الأمم، حتى في هذه الأمور كلها.

الذي يشكر نعمة الله يزيده الله، والذي يكفر نعمة الله يسلبها منه، قال: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: 53]. ثم يذكرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ۙ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال: 54]؛ يعني مثل طريقة آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم وردوا رسالات ربهم، فأهلكناهم بذنوبهم، بذنوبهم، وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين.

- يمكن يأتيك سائل يقول لك يعني مرتين يقول ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، يعني لماذا يخص آل فرعون؟

الجواب: لأن موسى وفرعون أقرب في التاريخ إلى عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى قريش، وهم يعرفون فرعون ويعرفون كيف هلك؛ ولذلك يذكرهم الله يقول فرعون والذين من قبلهم أيضًا، كلهم وقع لهم ما وقع.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(172)
(الأنفال 55 - 66)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، مجلس القرآن الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كل أسبوع؛ نجلس هذا المجلس المبارك نتأمل فيه كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونجتمع على مائدة القرآن الكريم التي هي من أشرف الموائد.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ». هذا فضل عظيم حقيقة لمن يجلس هذه المجالس وهذه الدقائق.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ». نأخذ آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نتأملها ونتدبرها ونتفكر فيها؛ ننتفع بإذن الله ينفعنا الله بها، هذا اليوم هو اليوم الثامن من الشهر السابع من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة؛ سورة الأنفال التي بين أيدينا وقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: 55].

مرت معنا آية مثلها في أول السورة يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22].

- كيف صم بكم لا يعقلون؟

يعني هو أصم يعني ما يسمع، هو يسمع لكن ما يسمع الحق ولا يريد القرآن ولا يريد الخير ولا شيء؛ هذا معناه صم، يسمع ما يريد، ما تشتهيه نفسه، لكن إذا جاء الحق وجاء الخير لا يسمع يصم أذنه؛ هذا هو شر الدواب عند الله، يعني شر الناس، شر المخلوقات عند الله، أبغض المخلوقات عند الله، وشر المخلوقات من يسمع الخير ويصم أذنه عنه.

الصم والبكم لا يتكلم بالخير أبدًا، إنما يتكلم بالشر لا يريد؛ فهذا شر الناس عند الله وشر المخلوقات، ليس شر الناس فقط؛ شر الدواب يعني شر من الحيوانات والطيور وكل ما يدب على الأرض؛ يقول: الصم البكم الذين لا يعقلون، حتى القلوب ما تفقه ولا تعقل، يعني جمع بين هذه الأشياء كلها.

هنا في الآية الثانية يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: 55].

الكفار الذين عرفوا الحق وأعرضوا عنه واستمروا في كفرهم؛ هم شر المخلوقات عند الله، شر المخلوقات عند الله هؤلاء الدواب، فالذي يصم أذنه عن الحق، ويصم الأذن عن الحق ولا يريد أن يتكلم بالخير؛ فهذا من شر الدواب، وكذلك الكفار.

الكفار هم كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

كثير ذرأهم الله لجهنم، لهم قلوب بس ما يفقهون، ولهم أعين بس ما يبصرون بها، ولهم آذان بس ما يسمعون بها، هؤلاء هم الكفار؛ أولئك كالأنعام بل هم أضل من الأنعام، الأنعام أحسن وأفضل عند الله، الأنعام ما تشرك بالله ولا تكفر، الأنعام تعرف ربها وتقر بوحدانيته، قد تسبح، تسبح لله، وما من شيء إلا يسبح إلا الكفار.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: 55]. خلاص الذين كفروا ليش يقول: فهم لا يؤمنون؟ عرفنا أنهم الكفار؛ قال: لا يؤمنون لأن قامت عليهم الحجة، ليسوا كفروا فقط ما يدرون عن شيء وجدوا آباءهم كفار وكفروا معهم؛ لا يؤمنون لأنهم عرفوا الحق وجاءهم الحق فهم بقوا على كفرهم واستمروا عليه، فهم لا يؤمنون أبدًا ولا يريدون الإيمان.

شوف قال: كفروا صفة، كفروا صفتهم كفار، ثم قال: لا يؤمنون؛ هذا فعل يعني لا يؤمنون ولا يريدون الإيمان، لا يريد أبدًا يؤمنون. ثم ذكر لك صفة ثالثة لهم قال: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: 56].

عاهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو جاء من جاء بعده ممن ولاه الأمر وعاهد مثل هؤلاء، عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة.

يعني كفار لا يؤمنون، كفار ولا يريدون الإيمان وينقضون العهود؛ تعاهدهم وينقضون عهودهم، هذا مثل اليهود؛ اليهود مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول ما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة عاهد هؤلاء قبائل.

قبائل اليهود كان فيه ثلاث قبائل: بني قريظة وبني قينقاع وبنو النضير؛ عاهدهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونقضوا العهود في كل مرة، ولا يريدون هم، نقضت العهود، أو كلما عاهدوا عهدًا؛ يعني دائمًا هذه طريقتهم.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: 56]. مو مرة ولا مرتين؛ في كل مرة، يعني ما لهم عهد ولا هم يتقون، ولا يتقون العهود ولا يتقون الله ولا يتقون أحدًا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في عقوبتهم: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنفال: 57].

- تثقفنهم في الحرب؛ ليش قال: تثقفنهم في الحرب؟

الجواب: لأنك أنت الآن بينك وبينهم معاهدة، لا تبتدئهم بالمعاهدة؛ المعاهدة بينك وبينهم أنك ما تتعرض لهم بسوء، لكن إذا هم نقضوا معناتها قامت الحرب بيني وبينهم، ففي هذه الحال إذا ثقفتهم في الحرب؛ تثقفنهم يعني تجدهم في الحرب، والثقف غير الوجود، ليش؟

لأن عبارة اللغة العربية أدق لما يقول: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ يعني تجدهم بين يديك؛ يعني الآن أعطاك الله القوة عليهم فتثقفنهم يعني تجدهم وقد تمكنت منهم.

ليس تجدهم يعني يمكن أنت تجدهم في الحرب بس ما لك إمكانية عليهم، ما لك قدرة عليهم؛ هذا وجود تجدهم تشوفهم أمامك، لكن تثقفهم يعني تسيطر عليهم تتمكن منهم؛ ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: 57].

- شرد بهم من غيرهم، كيف؟

نكل بهؤلاء حتى يعتبر غيرهم ويخاف، إذا أظهرت قوتك على هؤلاء الذين قبضت عليهم وثقفتهم في الحرب غيرهم يعتبر؛ مثل القصاص، القصاص لماذا شرعه الله؟ حتى غيره ما يعتدي.

إذا عرف أنه سيؤتى به ويقص ويقطع رأسه غيره ما يعتدي، السارق إذا عرف أن هذا السارق قطعت يده خلاص يكون هذا تنكيلًا بغيره؛ حتى نكالًا حتى يعتبر غيره، فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون؛ أي لعل هؤلاء الذين من خلفهم يذكرون ويعتبرون ويتعظون ويرجعون وترجع لهم عقولهم ويدخلون في الإسلام؛ هذا متى؟ إذا نقضوا العهد.

لكن إذا ظهرت أمارات نقض العهد؛ هم ما نقضوه لكن تبين ظهرت أمارات أنهم يريدون نقض العهد، وهم ما نقضوه لكن اللي يظهر منهم أنهم يريدون نقض العهد؛ فماذا نصنع معهم؟ قال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: 58].

- ظهر لك علامات وبوادر أنهم سيخونون؛ ماذا نصنع منهم؟

قال: فانبذ إليهم على سواء، اطرح إليهم عهدهم، قل خلاص العهد الذي بيني وبينكم لا قيام له.

ليس بيني وبينكم؛ على سواء يعني على وضوح، على علم أنك أنت تخبرهم وتكون أنت عالم وهم عالمون؛ بمعنى أنك إذا وجدت أمارات وخيانة منهم اطرح العهد الذي بينك وبينهم، قل أنا ليس بيني وبينكم عهد خلاص انتهى الموضوع؛ فانبذ إليهم على سواء لماذا؟ حتى تكون الأمور واضحة، أما تجي تعتدي عليهم؛ الله لا يحب الخائنين.

ولذلك شوف قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾؛ إذا وجدت علامات يمكن يحتجون عليك يقولون: لا والله هذه مجرد علامات لكن إحنا ما صنعنا شيء؛ لكن إذا قلت خلاص أنا رأيت منكم بعض العلامات وأمارات الخيانة ألا اطرح العهد الذي بيني وبينكم حتى تكون الأمور واضحة خلاص؛ فإن الله لا يحب الخائنين.

ثم هؤلاء الكفار يظنون أن لهم قوة، ما لهم قوة أمام أنت معك الله عَزَّ وَجَلَّ، المسلمون معهم الله عَزَّ وَجَلَّ-؛ إن الله مع الذين اتقوا، الله سبحانه مع المؤمنين، إن تنصروا الله ينصركم.

فأنت في جانب قوي والكفار جانب ضعيف، من اللي معهم؟ معهم الشيطان، كيد الشيطان ضعيف وأنت معك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ففرق بينك وبينهم، وهؤلاء الكفار يظنون أن لهم قوة، ما لهم قوة أمام الله قوتهم ضعيفة.

ولذلك اسمع الله يقول: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: 59].

يقول: لا يظن هؤلاء الكفار أنهم لهم قوة وأنهم سبقوا وأنهم يفلتون من علم الله من قدرة الله ويخرجون عن محيط الله، الله محيط بهم؛ لا يظن هؤلاء الكفار أنهم يخرجون عن علم الله وعن إحاطته وقدرته، إنهم لا يعجزون ما يعجزون الله، لا يعجزون الله هم في قبضة الله، في أي لحظة يستطيع الله أن يقبض عليهم ما يمنعه شيء؛ هذا معناه أنهم لا يعجزون.

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في هذه السورة، سورة الأنفال وهي سورة عظيمة، ذكر فيها أسباب النصر المعنوية والحسية.

معنوية مثل التوكل على الله والدعاء والذكر والتقوى وطاعة الله وطاعة الرسول واجتماع الكلمة؛ هذه كلها ذكرها الله سبحانه في السورة، كلها تقوي أسباب النصر المعنوية التي تكون في القلب.

هناك نحتاج إلى أسباب حسية مثل ما قال الله سبحانه قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

شوف الأسباب المعنوية أكثر، ليش؟ هي سبب تقوى الله هو السبب وذكر الله؛ إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا، وقال واصبروا؛ ذكر أسباب كثيرة اتقوا الله فتقوى الله وهذه كلها كثيرة ذكرها الله في هذه السورة، وأما أن نعد لهم العدة هذا السبب الحسي هذا واحد؛ قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾. عدوا لهم ما استطعت من قوة يعني لابد أن يكون المسلمون عندهم قوة حسية.

- أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ما هي القوة؟

قوة الجهاد، أدوات الجهاد آلات الحرب؛ مثل السيف والرمح، هذه الأدوات، لكن الآن تجددت؛ الآن في دبابات في طائرات في صواريخ، لابد أن يكون المسلمون على قوة أمام العدو، يكون عندهم هذه القوة؛ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

☜ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في الحديث الصحيح: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ». يعني القوة معناها الرمي؛ كيف ترمي العدو، ترميه بأي طريقة؟ ما حدد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ شوف هذه من إعجاز القرآن ما حدد لك، قال لك القوة كذا ولا كذا؛ لأنها تتجدد مع الزمان، توجد الآن آلات حربية اختلفت عن الآلات السابقة؛ فالمسلمون هم أحق بها وهم الذين ينبغي أن تكون عندهم هذه القوة.

شوف قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾، ولا يخفى علينا ماذا قوة؟ يعني اللي هو تخطيط الحرب هذه من قوة، ترتيب الحرب، الاستشارة أخذ الرأي؛ هذه كلها من أسباب انتصار المسلمين.

- يقول: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾؛ كيف رباط الخيل؟

يربطون الخيول على الحدود وعلى الثغور يراها العدو، إذا رأى الخيول يهاب، فكذلك إذا رأوا الطائرات رأوا الدبابات أمامهم، فهذه الأسطول العظيم أمامهم يخيف العدو؛ لذلك قال: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

هم أعداء لله قبل أن يكونوا أعداء لكم فهم أعداء، فأنتم تخيفونهم حتى تكسروا شوكتهم؛ قال: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: 60].

- كيف آخرين من دونهم؟

الجواب: هناك أعداء كثير أنتم ما تعلمونهم، قد يأتونكم في أي وقت، مع مرور الزمان يخرج أعداء، يخرج أعداء، وهذا أيضًا من أخبار القرآن، إعجاز عن أخبار غيبية ما ندري عنها؛ يقول يأتيكم أناس بعد ذلك في زمان يحاولون القضاء على الإسلام، يحاولون طمس الإسلام؛ فأنتم أعدوا في كل زمان وفي كل وقت لابد أن يكون المسلمون لهم القوة حتى يدحروا شياطين الإنس والجن.

قال: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾؛ نحن لا نعلمهم قد يظهر لك في وقت من زمن، في زمن في وقت ما تدري إلا هذا وقد ظهر عليك عدو من أعداء الإسلام، قال: لا تعلمونهم والله يعلمهم.

ثم لما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرنا بإعداد العدة؛ هذه إعداد العدة الطائرات والحربية والآلات الحربية والدبابات وغيرها والرشاشات وغيرها هذه تحتاج مبلغ مالي، تحتاج إلى دعم.

ولذلك شوف قال الله سبحانه قال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60]. أي شيء ولو قل في سبيل الله في نصرة الدين؛ يوفى إليكم يوم القيامة،

يعني يضاعف لكم حسنات عند الله يوم القيامة وأنتم لا تظلمون؛ في سبيل الله تنفق نفقة في سبيل الله تضاعف لك حسنات عند الله ولا ينقص، وأنتم لا تظلمون؛ لا ينقص من حسناتك بل تضاعف لك أضعافًا مضاعفة.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر أمرًا مهمًا جدًا قد يكون بعض الناس ما يلتفت إليه وهو إذا جاء إذا كان العدو رأى هذه الهيبة منك وأخفته بهذه الأمور؛ قد يطلب منك الصلح والسلم، فهل تسالمه وتصالحه ولا تقول لا ما نسالمه؟

الله يقول لا؛ إذا طلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خرج في صلح الحديبية يريد دخول مكة للعمرة منعته قريش ولا يدخل؛ جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبرهم أنه قد أحرم بالعمرة ويريد أن يطوف ويسعى فقط ولم يأتِ لحرب، منعته قالت والله لا يدخل.

فأصبحت بينهم مناوشات انتهت بصلح الحديبية؛ جاء المشركون وأرسلوا سهيل بن عمرو حتى يعقد الصلح بينه وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وافق عليه، وافق على الصلح لماذا؟ لأن في مصالح عظيمة.

الله يقول هنا: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: 61]. يعني طلبوا الصلح وطلبوا المسالمة فاجنح لها، إذا مالوا إلى هذا أنت معهم وافق اجنح لها، واعقد الصلح بينك وبينهم.

- لماذا؟

⬅الأمر الأول: لأنهم طلبوا الصلح اعترافًا بقوتك.

⬅الأمر الثاني: ترتيبات لأن إذا تحتاج أنت إلى ترتيب وإعادة الترتيبات حتى تكون لك قوة أخرى أقوى؛ كذلك عند السلم وعند المصالحة يأمن الناس وينتشر الإسلام.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما عقد صلحه مع كفار قريش في صلح الحديبية كم كان الذي خرج مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ألف وأربعمائة شخص، ثم بعد سنتين دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة بكم؟ عشرة آلاف؛ ألف وأربعمائة مقابل كم؟ عشرة آلاف، لماذا؟ لأن لما وقع الصلح ووقع الأمان دخل الناس في دين الله، دخلوا في دين الله وانتشر الإسلام؛ فهذا فيه مصلحة عظيمة.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ لكن انتبه من العدو لأن قد يصالحك ثم يخدعك انتبه، قال: فاجنح لها وتوكل على الله.

توكل على الله يعني اعتمد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لا تسالمهم وتغفل وتنام لا، هذا عدو توكل على الله وفوض أمرك إلى الله وكن على حذر ويقظة، توكل على الله فوض أمرك إلى الله؛ إنه هو السميع للأقوال العليم بالأحوال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيقي من يقي.

وإن يرد، وإن يريدوا أن يخدعوك؛ طلبوا منك السلم ثم أرادوا مخادعتك ماذا نقول؟ قال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 62]. أنت توكلت على الله يكفيك، فإن حسبك الله يعني كافيك الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره.

- من الذي نصر محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ضعيف في مكة ما معه قوة؟

هو الذي أيدك بنصره وأيدك بالمؤمنين؛ التفت المؤمنون عليه والتفوا حوله ونصروه، ما الذي نصره في بدر إلا الله عَزَّ وَجَلَّ أولًا؟ والأمر الثاني اجتماع الصحابة معه المهاجرين والأنصار.

قال: ﴿وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ نصرك أولًا أيدك بنصره نصر الله، والثاني بالمؤمنين جعلهم يجتمعون حولك ولا يختلفون عنك ولا يعارضونك بأي شيء؛ كلهم يقولون سمعنا وأطعنا ويستجيبون لك.

ولذلك شوف قال الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 63].

شوف كلمة فإن حسبك الله وتأتينا الحين بعد قليل مرة أخرى، وهي معناها أن الله هو كافيك من كل شيء؛ شوف قال هنا ألف بين قلوبهم قال لو أنفقت ما في الأرض جميعًا، لو دفعت ما في الأرض جميعًا تريد أن تؤلف بين قلوبهم ما تستطيع؛ يقول لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم، ما تألف ولا بين قلبين ولا بين اثنين، ما تستطيع إلا إذا أراد الله أن يؤلف القلوب.

﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ عزيز ذو قوة لا يمنعه مانع، حكيم في تدبيره وفيما يريده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فلذلك شوف قال: الله الذي ألف بينهم، كم اجتمع من الصحابة ارتفعت أعدادهم كثير وقلوبهم كقلب واحد، كقلب واحد ما في اختلاف بينهم؛ هذا معناه تأليف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

شوف الكلمة اللي ذكرت لك قبل قليل يقول لك الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64]. كافيك الله يكفيك ويردك، تعرفون قصة إبراهيم لما ألقي في النار ماذا قال لما ألقي؟ قال: حسبي الله ونعم الوكيل؛ حسبي الله ونعم الوكيل حتى قيل إن جبريل جاءه وقال: هل من حاجة يا إبراهيم؟

قال: منك لا ولكن من الله؛ شوف التوكل ما يريد أن يتكل على أحد من الخلق قال لا حسبي الله. والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالها أيضًا لما اجتمعت قريش وأرادوا أن يهددوه بالقتال مرة ثانية بعد أحد؛ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فصرف الله كيدهم.

ولذلك في كلمة يا إخوان ينبغي لنا كلنا أن نحافظ عليها في الصباح والمساء، كل صباح ومساء والكثير يعرفها أن تقول: «حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»؛ هذه الكلمة ترددها سبع مرات كل يوم يكفيك الله هم الدنيا والآخرة، يكفيك ما أهمك من أمور الدنيا والآخرة.

حسبي الله لا إله إلا الله وعليه توكلت؛ هذه دائمًا تكررها فيها فضل عظيم، فيها فضل عظيم، طيب يقول هنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: 64]. الله حسبك وكافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين حتى المؤمنين الله كافيهم، ومن اتبعك من المؤمنين.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يشجع المؤمنين ويشجع الناس على مجاهدة العدو، هذا عدو يتربص بك في كل وقت لابد أن يكون المسلمون على قوة؛ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: 65]. شجعهم على القتال في مواجهة عدوهم، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه تسمى آية المصابرة.

- كيف يصبر المسلمون أمام أعدائهم؟

يقول: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: 65]. يعني الواحد أمام عشرة، يجب على المسلمين أن يقف الواحد أمام عشرة؛ هذا كان في أول الأمر ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لطف بهم وخفف عنهم فقال ماذا؟

قال: هؤلاء لا يفقهون ما عندهم علم؛ ثم قال: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 66].

فرفع الحكم الأول واحد يقابل عشرة قد يكون صعبًا على المسلمين، فخفف الله قال لا الآن واحد يقابل اثنين؛ يقابل اثنين إذا جاءوا ثلاثة يفر، يفر إذا كانوا ألفًا يقابلون ثلاثة آلاف، إذا كان أكثر من ذلك لهم أن يفروا؛ هذا معناه يقول الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفًا.

فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، واحد أمام اثنين؛ وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين؛ هذه تسمى آية المصابرة، أولها نسخ بآخرها، واحد يقابل عشرة أصبح واحد يقابل اثنين.

الذي ذكرناه قبل قليل الذكر: **«حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ»**؛ تقولها كم؟ سبع مرات في الصباح وفي المساء؛ يكفيك الله هم الدنيا والآخرة، حافظ عليها واذكرها وأنت تستحضر معناها.

مو بتذكرها وترددها بلسانك وأنت ما تدري ماذا تقول؛ حسبي الله يعني كافيني، يكفيني الله كل من أراد لي شر أو أي شيء، حسبي الله لا إله إلا هو سبحانه عليه توكلت وفوضت أمري؛ استحضار هذه الكلمة بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الله يكفيك هم الدنيا والآخرة.

نقف عند هذا القدر نكتفي به إن شاء الله، لقاؤنا الأسبوع القادم، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل؛ وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ التَّوْبَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(174)
(التوبة 1 - 11)
بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ نجتمع حول القرآن الكريم في هذا اليوم الموافق للثام الموافق للتاسع من شهر رجب من عام ألف وأربعمائة وستة وأربعين من الهجرة؛ نجتمع في هذا الجامع المبارك ومعنا القرآن الكريم بين أيدينا، نأخذ آيات من كتاب الله نقرأها ونتأملها ونتفكر فيها؛ نسأل الله أن ينفعنا بها.

تُسمى بسورة التوبة، وتُسمى أيضًا بسورة براءة، وقد عدَّ أهل التفسير من أسمائها أربعة عشر اسمًا؛ تُسمى بالفاضحة؛ لأنها فضحت المنافقين، والمقشقشة، والمبعثرة، والبحوث، إلى آخر الأسماء التي ذكرها أهل التفسير، وهذا جائز؛ تجد بعض السور لها اسم واحد وبعضها لها اثنين وثلاثة وأربعة.

قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ في سورة الفاتحة: **"عدَّ لها خمسة وعشرين اسمًا سورة الفاتحة"**، فأسماء تتكرر، والأسماء إذا تكررت السورة تدل على عظم هذه السورة.

سورة براءة هي سورة مدنية، يعني أنها نزلت في المدينة بعد الانجل، بل هي من أواخر ما نزل بالمدينة، سورة براءة تتحدث عن غزوة تبوك، كما أن سورة الأنفال تتحدث عن أول غزوة في الإسلام وهي غزوة بدر؛ سورة التوبة تتحدث عن آخر غزوة في الإسلام وهي غزوة التبوك.

غزاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شهر رجب في السنة التاسعة، سورة التوبة إذا قرأتها وتأملت فيها تجدها هي تركز -لأنها نزلت في آخر العهد النبوي- على يعني حفظ المجتمع المسلم من الأعداء، هي تتحدث عن العدو الخارجي.

- من هو العدو الخارجي؟

الكفار المشركون النصارى اليهود، هؤلاء أعداء الإسلام كلهم يتحزبون على الإسلام، والعدو الداخلي المنافقون، النفاق والمنافقين أعداء داخليين؛ فالسورة تنظف المجتمع المسلم من عداوة خارجية أو عداوة داخلية.

كل السورة من أولها تتحدث عن هؤلاء، والعجيب أن هذه السورة وأنت تقرأها وتتأملها وهي طويلة، يعني حوالي مئة وثلاثون آية أو مئة وتسعة وعشرون آية على خلاف، ما تركت جنسًا من أجناس إلا وذكرتهم.

ذكرت المشركين والمعاهدين واليهود والنصارى والمنافقين وضعفاء الإسلام وأصحاب الأعذار، وذكرت الأعراب وأهل الحاضرة، ما تركت أي جنس من الأجناس إلا وتكلمت عنه وأعطت أحكامه، أهل الزكاة الفقراء المساكين، كل أجناس تجدها في هذه السورة.

السورة تركز على الجهاد؛ مجاهدة الكفار، مجاهدة المنافقين؛ لأن الجهاد باللسان والسنان، اللسان للمنافقين والسنان يعني السيف لأعداء الإسلام، أعداء الإسلام للمشركين وغيرهم، تتحدث عن هذه الأحكام.

سورة مليئة بأحكام كثيرة، أحكام يعني سورة الأنفال تحدثت عن المجاهدين والجهاد والقتال في سبيل الله، وجاءت هذه تكمل الأحكام المتعلقة بالقتال، سورة الأنفال تتحدث عن الغنائم، جاءت هذه السورة تتحدث عن الصدقات والزكوات وغيرها.

لا نطيل في هذه المقدمة، سورة براءة هي السورة الوحيدة في القرآن التي لم تذكر فيها البسملة، كل سورة تقرأها أنت في القرآن تبتدئها بالبسملة من الفاتحة إلى الناس كلها إلا هذه السورة، لماذا؟

- يعني ما تسأل أنت أحيانًا ما تسأل نفسك وأنت تقرأ تقول: عجيب هذه السورة ما فيها بسملة ليش؟ لماذا؟

للعلماء في ذلك عدة أقوال؛ أشهرها أن سورة براءة نزلت بالسيف والقتال والحرب ونقض العهود مع الكفار والمشركين، ومن عادة العرب أنهم إذا أعلنوا الحرب وأعلنوا السيف ورفعوا السيوف والقتال ما يقولون بسم الله الرحمن الرحيم في خطاباتهم، لما يرسل خطابًا إلى عدوه ما يقول؛ لأن بسم الله الرحمن الرحيم رحمة وهو لا يريد فيهم الرحمة، يريد فيهم القتال ورفع السيف، فلا يتناسب هذه طريقة العرب، فالقرآن نزل على طريقتهم.

وبعضهم يقول لأن سورة براءة والأنفال مختلف فيها؛ هل هي سورة واحدة ولا سورتين؟ مختلف في ذلك، بعضهم يقول إنها سورة واحدة ولذلك الصحابة لما كتبوا المصاحف توقفوا فيها فقالوا: **"لا ندري هل هي واحدة أو اثنتين"**.

والصحيح أنها اثنتان، وبعض العلماء يقول إن براءة كانت سورة طويلة جدًا تعادل سورة البقرة ولا يزال فيها النسخ ينسخ فيها حتى نسخ كثير منها كان من ضمنها البسملة، وهناك أقوال كثيرة رجح بعضهم أن الله لم ينزلها، يقول خلاص احنا ما لنا حاجة ندخل في تفاصيل، الله لم ينزلها ببسملة خلاص نقف عند هذا الحد، والله أعلم بذلك.

الله أنزل كل سورة معها بسملة إلا هذه السورة، والله يقضي ما يشاء ويحكم ما يريد، طيب السورة افتتحت بهذه العبارة ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 1]، براءة يعني من التبرؤ وترك الشيء والتفصي منه وعدم العلاقة به.

تقول: **"أنا بريء منك"** خلاص ليس لي بيني وبينك أي علاقة، قطع العلاقة قطع كل شيء هذا معناه، الله يقول ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 1]، هذه الآية أول سورة إلى أربعين آية هذه نزلت دفعة واحدة.

نزلت متى؟ نزلت في السنة التاسعة في شهر ذي الحجة في يوم النحر، فلما نزلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حملها علي بن أبي طالب؛ لأن أبا بكر حج بالناس في السنة التاسعة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعلي بن أبي طالب: **«الحَق بِأَبِي بَكْرٍ بِهَذِهِ الآيَاتِ الأَرْبَعِينِ وَاقْرَأْهَا عَلَى النَّاسِ»**.

اقرأها على الناس يوم النحر في مشاعر في منى في مشاعر الحج اقرأها على الناس حتى يعلموا، لأن هناك معاهدات بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين المشركين، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إليهم بأن هذه المعاهدات انتهت.

أي معاهدات أي يعني أي مشرك أو أي قوم أو قبيلة مشركين ما بينه وبين النبي بينه وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معاهدة يعطيهم أربعة أشهر، مدة أربعة أشهر هذه يمنحها الله لهم يفكرون ويتأملون في الإسلام، يدخلون فيه أو يحاربون، بعد أربعة أشهر يعطيه تسمى أشهر المهلة.

والذين لهم عهود دون أربعة أشهر نفس الشيء يعطون هذه المدة يقول خلاص بعدها تنتهي، أما الذي له عهد وهو مقيم على عهده ولم ينقض عهده هذا لا بد أن نلتزم العهد معه حتى تنتهي المدة.

يقول هنا ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 1]، يعني الذين عهودهم دون أربعة أشهر، قال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 2].

سيحوا في الأرض يعني اذهبوا وتنقلوا ولم يتعرض لكم أحد ولن يقاتلكم أحد، هذه مهلة لكم فكروا في أنفسكم فكروا في الإسلام تدخلون في الإسلام خير لكم، بعد أربعة أشهر يبدأ القتال، ولذلك قال ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: 2].

هذه الآية لما نقول إنها أعلن بها علي رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه اليوم العاشر من ذي الحجة عام تسعة، يعني أمامهم أربعة أشهر، يعني عشرة ذي الحجة إلى عشرة محرم إلى عشرة صفر إلى عشرة ربيع الأول عشرة ربيع الثاني، خلاص انتهت المدة أربعة أشهر هذه، خلاص بعدها يحاربون.

قال: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة: 2]، لا تظنون أنكم تفرون يمين وشمال وتختفون، انتم غير معجزين الله، لا تعجزون الله، الله لن تفلت من حكمه ولا من قبضته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 2] مذلهم ومخزيهم ولن ينتصروا ولن يفلحوا، ثم قال انظر هذا هذه الآية الصريحة قال: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 3].

أذان يعني إعلام من الله ورسوله إلى الناس يعني الحجاج ومن هم وراء الحجاج، يوم الحج الأكبر ما هو الحج الأكبر؟ هو يوم النحر يوم العاشر من ذي الحجة.

مثل ما ذكرنا لكم السنة التاسعة قال إلى الناس يوم الحج الأكبر ما هو الأذان والإعلام؟ قال ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: 3]، الله يتبرا منهم ومن عهودهم ولا علاقة بيننا وبينهم، هذه المدة أربعة أشهر بعدها القتال.

قال ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: 3]، أيضًا بريء من المشركين، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: 3]، في هذه المدة الأربعة أشهر أعطيناكم منحة أربعة أشهر مهلة، إن تبتم فيها فهو خير لكم، دخلتم في الإسلام خير لكم.

﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ [التوبة: 3]، إن توليتم وأعرضتم واستمريتم على كفركم فاعلموا انكم غير معجز الله، ما تستطيع ان تعجز الله تفلت تفر تختفي ما في غير معجز الله، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 3].

غالبًا البشارة في الخير ما تكون في الشر لكن هذا من باب التهكم والاستهزاء بهم لأنهم لا يستحقون من يبشرهم، قال بشرهم بعذاب أليم في الآخرة يعني في الدنيا غير معجزين الله يقبضهم بأي لحظة وفي الآخرة بشرهم بعذاب أليم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى في مراعاة ل يعني حد الله ومراعاة للمواثيق والعهود قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4]، الذين بينكم بينهم عهد طويل دون أربعة أشهر هذه لا بد أن تلتزم بالعهد.

بشرط قال ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ يعني لم ينقضوا العهود ولم يخالفوا هذا العهد لم ينقصوا شيئًا من هذا العهد ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ يعاون عليكم طوائف أخرى.

هؤلاء الواجب فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، المدة التي بينهم سنة سنتين ثلاث إلى مدتهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4] الذين يوفون بالعهود ولا ينقضونها ويلتزمون ما أمرهم الله به.

- عرفنا الآن هذه المدة أربعة أشهر إذا انتهت ماذا نصنع بهم؟

قالوا: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ [التوبة: 5]، سماها حرم انظر وهي ليست الأشهر الحرم المعروفة، تعرفون أنتم أن السنة فيها أربعة أشهر حرم ذي القعدة وذي الحجة ومحرم ورجب، هذه ليس لها علاقة في الموضوع.

هذه الحرم التي أمامنا في هذه الآيات هي أشهر المهلة التي أعطاهم الله إياها، تبدأ من العاشر يوم النحر السنة التاسعة، هذه الأشهر سماها حرم لأن الله منع المسلمين أن يقاتلوا أحدًا في هذه المدة، أعطاهم مهلة ومنعهم فرصة أن يفكروا في الإسلام.

فانت أحيانًا تقرأ هذه الآية يظن بعضهم ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ﴾ [التوبة: 5] قال: الأشهر الحرم هي التي حرمها الله الأربعة؟ لا لا، هي غير لا بد أن تفهم، فإذا انسلخ يعني خرجت انتهت الأشهر ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: 5]، خلاص انتهت المدة أربعة أشهر مئة وعشرون يومًا، مئة وعشرون يومًا يفكر فيها ما ناسب أن يدخل في الإسلام وأصر على كفره وعناده.

- ما هي النتيجة؟

خلاص بعد أربعة أشهر ابدأ حرب قتال، انظر قال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: 5]، في أي مكان إلا أن يكون في الحرم، إذا كان في حدود الحرم داخل حدود الحرم لا يجوز قتال، لا تقاتلهم عند المسجد الحرام، أما في سائر الأرض فاقتلوهم حيث وجدتم في أي مكان حيث وجدتموهم، إلا في الأشهر الحرم اللي ذكرناها لا يجوز القتال بها.

الشهر الحرام لا يجوز، قال ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾ [التوبة: 5]، خذوهم يعني أسرًا اقبضوا عليهم، ﴿وَاحْصُرُوهُمْ﴾ ضيقوا عليهم في كل مكان، ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ ترقبوهم في كل مكان، أرسلوا سرايا يترقبونهم في كل مكان لا تبقون لهم أي أثر، اقضوا عليهم.

هذا شرك وكفر وعناد وحرب على الله هم يحاربون الله ورسوله ويحاربون الدين، فهذا حكم الله فيهم ﴿وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: 5]، ثم أعطاهم فرصة أيضًا أخرى غير الأولى فقال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 5]،.

انظر رحمة الإسلام، يعاندون ويصرون على كفرهم يفتح لهم باب الرحمة، يقول إن تابوا إذا تابوا ورجعوا ودخلوا في الإسلام، بشرط أن يحافظوا على هاتين الشعيرتين التي هي أهم شعائر الإسلام مع المحافظة على غيره، ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أصبحوا معكم، ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾.

حتى استنبط بعض أهل العلم أن المسلم الذي لا يقيم الصلاة والمسلم الذي لا يأتي الزكاة ليس بمسلم خارج عن الإسلام؛ لأن هاتين الشعيرتين هي أهم الدين أهم الدين، العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر، فإذا وجدت الشخص يصلي ويؤدي الزكاة فهو مسلم، لا يصلي ولا يؤدي الزكاة ليس بمسلم.

﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: 5]، اتركوهم لا تقتلوهم ولا تتعرضوا لهم بسوء ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 5]، ثم أيضًا فرصة أخرى أو حالة أخرى لو جاء مشرك ودخل في جوار مسلم قال: أنا أدخل في جوارك حتى لا يحد أحد يقتلني.

أجره أدخله في جوارك وأدخله في بيتك واحفظ له كرامته وقدره واحترمه حتى يدخل في هذا، كل من دخل في بلاد المسلمين مستأمنًا أو يدخل في بعقد مع المسلمين ولو كان كافرًا لا يجوز التعرض له لا يجوز، هو دخل بعهد وأمان هذا مستأمن لا يجوز أن تتعرض له بسوء أبدًا.

انظر قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6]، أي شخص من المشركين استجارك يعني دخل في جوارك طلب أن يدخل في جوارك فاجره حتى يسمع كلام الله.

ليس تدخله في جوارك يعني تضعه في البيت وتحط عنده طعام وشراب هو ليس حيوان تضعه في البيت، وتعلمه تعليم الإسلام حتى يدخل في الإسلام، هذه فرصة وهذه أيضًا رسالة لكل من يأتي بعامل أو سائق أو موظف أو عاملة أو خادمة غير مسلمة.

لا يأتي بها أن تعمل وتذهب تجلس عنده خمس سنوات ست ما تأثرت في الإسلام، الواجب مثل ما قال ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6] علمه تعلم الإسلام، انتهت الفرصة في هذا لا يدري هو ما يعرف ليه اسمع ماذا يقول الله قال ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: 6].

ثم رده إلى مكانه، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6]، ما يدرون لو يعلمون أنه إذا مات يذهب إلى النار ما أكل ولا شرب ولا عاش لكن لا يعلم جاهل، فهذا الجاهل دخل في بلاد المسلمين وهو على دين الكفر يجب أن نعلمه.

ما نقول والله هو على دين مسيحية ونتركه، أو نقول هو بوذي ونتركه، أو نقول هذا على دين آخر نتركه، لا نعلمه تعليم الإسلام ونرشده ونستغل الفرصة ونبين له محاسن الإسلام حتى نرغبه في الإسلام فيدخل سواء رجل أو امرأة، ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 6]، المساكين لا يعلمون جهلة، ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى في العهود يقول الله عَزَّ وَجَلَّ هؤلاء ما لهم عهود أصلًا كفار، لكن الله يراعي العهود مع ذلك.

انظر قال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 7]، ما في أنهم المشركين عهد كيف يكون المشركين عهد أبدًا.

إلا الذين شكل عهد عند الله وعند رسوله ما في عهود خلاص انتهت العهود بعد الأربعة أشهر ما في عهود، إلا إذا كانت العهود طويلة نلتزمها، قال ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [التوبة: 7]، النبي عاهد أهل مكة قريش وعاهد قبائل أخرى، قريش نقضت فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نقضت قريش العهد دخل مكة وفتحها البقية ما نقضوا والله يقول التزموه.

قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۖ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 7]، شف التقوى وأثرها الإنسان، إن الله يحبك إذا اتقيت الله ولزمت التقوى الله يحبك، يقول كيف يعني كيف يكون بيني وبينهم عهد وهم ماذا قال؟

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: 8]، يعني تكون لهم صولة وقوة يظهر عليكم لا يرقبوا فيكم إلًا ولا ذمة، لا يراع فيكم لا عهد ولا قرابة، الإل القرابة، ولا ذمة أي عهد.

يعني لا تظن الكافر أنه يتسامح معك أبدًا، إذا وجد فرصة ما يرحمك لو كنت قريبًا له ولو كنت بينك وبينه ذمة وعهد هو لا يراعي، يقول ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 8]، مجرد كلام بألسنتهم يرضونكم بالكلام الطيب أفواه وتأبى قلوبه القلوب ما ترضى.

تأبى قلوبه لأنه يكره الكراهية الشديدة، وتأبى قلوبه وأكثرهم فاسقون خارجون عن طاعة الله، لماذا؟ لأنهم ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 9].

أخذوا دين الله والاسلام تركوه وأقبلوا على الدنيا التي هي ثمن قليل عرض سريع يذهب، فصدوا عن سبيل الله، صدوا بأنفسهم وصدوا غيرهم عن سبيل الله، إنهم ساء ما كانوا يعملون، ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: 10].

لا يراعون في مؤمن مرة أخرى حتى يأكد لك، إلا قرابة ولا ذمة ولا عهد، وأولئك هم المعتدون هم الذين يعتدون عليهم، كيف انظر ماذا فعلوا بصحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل الهجرة ماذا صنعوا بهم؟ عذبوهم تعذيبًا أليمًا وأخذوا أموالهم وديارهم وأخرجوه.

قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 11]، انظر مع هذا كله وشدة عداوتهم الله يفتح لهم باب، فإن تابوا مرة ثانية وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة، ماذا في الأول قال: ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾؟

هنا قال: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ أشد، يعني أصبحوا إخوانًا لكم لأن ماذا عرف الحق وأقام الصلاة وأتى الزكاة فإخوانكم في الدين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونفصل الآيات لقوم يعلمون.

نفصل الآيات هذه الآيات تجد أحسن تفصيل من هذه الآيات، تجد أحسن لو تقرأ كتب الدنيا كلها ما تجد مثل هذه الصفحة بس هذه الصفحة وجه واحد، ما تجد في أي كتاب مثل هذا الكلام؛ كلام رب العالمين يفصل ويوضح ويبين أحسن بيان.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع الصالح، يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين يقرأون القرآن ويتدبرونه ويفهمونه، والله وفق الهادي سواء السبيل، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(175)
(التوبة 12 - 22)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ نجتمع حول القرآن الكريم في هذا اليوم الموافق للثام الموافق للتاسع من شهر رجب من عام ألف وأربعمائة وستة وأربعين من الهجرة؛ نجتمع في هذا الجامع المبارك ومعنا القرآن الكريم بين أيدينا، نأخذ آيات من كتاب الله نقرأها ونتأملها ونتفكر فيها؛ نسأل الله أن ينفعنا بها.

سورة التوبة؛ وقفنا عند الآية الثانية عشرة من السورة، قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ [التوبة: 12].

في الآيات التي قبلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر أنهم إن تابوا هؤلاء المشركون، إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة؛ قال: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: 11]، يعني إذا تابوا ودخلوا في الإسلام وأقاموا شعائر الإسلام التي أهمها الصلاة والزكاة فهم إخوانكم في الدين، لهم ما لكم وعليهم ما عليهم.

لكن إذا خالفوا ذلك، مثل ما ذكر الله قال: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم﴾؛ نكثوا يعني نقضوا الأيمان التي بينكم وبينهم، والعهود والمواثيق ولم يبالوا بها، وبينكم وبينهم معاهدات ونكثوها ونقضوها.

- ما الحكم؟

قال: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ الذي بينكم وبينهم، ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ يعني خانوا العهود، وسبوا الدين وشتموه وطعنوا فيه واحتقروا الدين؛ فهؤلاء قال الله فيهم ماذا؟

﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾؛ رؤوس الكفر.

- لماذا خص الرؤوس؟

أئمة الكفر يقاتلون جميعًا؛ نقول إذا قُتِل هؤلاء الرؤوس ما دونهم وما تحتهم من باب أولى؛ كما أنهم إذا آمنوا هؤلاء الرؤوس الذين تؤلف قلوبهم، إذا آمن رؤوس الكفر ورؤوس القبائل من تحتهم تبعٌ لهم؛ ولذلك قال: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾؛ لا أيمان ما في معاهدات، ما دام أنهم ينقضون العهود ولا يبالون بها لا أيمان لهم؛ لا معاهدة لهم ولا عهود لهم لأنهم هم السبب في نقض العهود ونكثها.

قال: ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾؛ لعلهم إذا علموا منكم أنكم تقاتلونهم يقفون عند الحد؛ لأنهم إذا لم تقاتلوهم ولم توقفوهم عند حدهم، استمروا في إيذائكم ومقاتلتكم والطعن في دينكم.

نلاحظ أنَّ؛ انظر حتى نتأمل أن:

⬅الأمر الأول: نكث العهود ونقض العهود وعدم المبالاة بالعهود، هذه من صفات الكفار ومن صفات المنافقين؛ فالمؤمن العاقل لا ينكث العهود أبدًا ويلتزم المعاهدة بينه وبين الله أو بينه وبين الخلق.

⬅الأمر الثاني: قال: ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾؛ هذه من صفات الكفار يطعنون في الدين، ويسبون الدين ويسبون الله ويسبون رسوله؛ فمن سب الله أو سب رسوله أو سب الشرع، ولو كان من أبناء المسلمين، فإن دمه قد حل؛ فإنه ليس معصوم الدم بمعنى أنه كفر بهذا الشيء.

سب الله كفر، سب الرسول، سب الدين، كل هذا كفر؛ ولذلك المنافقون كما سيأتينا بعد آيات لما استهزأوا، استهزاؤهم ليس سبًا؛ استهزاء وسخرية، سخروا من الدين، واستهزأوا بالرسول واستهزأوا بالصحابة كفروا.

قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: 66]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: 65]؛ فطعن في الدين والسب والشتم لشرع الله ولدينه هذا مخرجٌ من الإسلام.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حظًا ودفعًا للمؤمنين، ودفعًا لقلوبهم للجهاد في سبيل الله؛ قال على سبيل الحظ: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾؛ لماذا لا تقاتلون هؤلاء؟ من هم؟ قال هؤلاء الكفار، ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾؛ نقضوا العهود.

⬅الأمر الثالث: قال: ﴿وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾؛ هذا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهموا بقتله في مكة وباخراجه من مكة، ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ هم الذين بدأوا، بدأوا بإيذائكم وقتالكم.

- فلماذا لا تقاتلوهم وهم الذين بدأوا؟

قال: ﴿وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾؛ تخافونهم؟ لا.

قال: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 13]؛ إن كنتم مؤمنين حقيقة فالخشية لله لا لهؤلاء؛ لا تخشونهم، فإنكم إذا عزمتم عليهم وأظهرتم قوتكم عليهم فإنهم يخافون.

أعداء الله معهم الشيطان، والشيطان يخاف ويتركهم، قال: **"إني أخاف الله رب العالمين"**؛ فهو يخاف الله، وهؤلاء أولياء الشيطان يخافون؛ فإذا وجدوا منكم قوة وصرامة فإنهم يخافون.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لما انظر قال في الأول قال: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ﴾ على سبيل الحث والحظ ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾، ثم قال بعدها يعني بالأمر الصريح قال: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾؛ حتى يحثهم حثًا قويًا، ويرتب عليه أمورًا أخرى؛ قال: ﴿قَاتِلُوهُمْ﴾ ورفع السيوف في وجوه أعدائكم؛ هؤلاء أعداء هموا بإخراج الرسول وبدؤوكم أول مرة؛ قال: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾.

- كيف يعذبهم الله بأيديكم؟

بالقتل والأسر؛ تصبحون يصبحون هم في أيديكم، والله هو الذي عذبهم لست أنتم بقوتكم؛ أنتم بق قوتكم قد لا تكون دائمًا معكم، لكن معكم الإيمان ومعكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولذلك قال: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾؛ أنتم تعملون أسباب والله هو الذي وهو الذي ينصركم.

قال: ﴿يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ﴾؛ يخزهم يعني يذلهم ويفضحهم، ﴿وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني إذا عذبهم بأيديكم نصركم عليهم، ثم قال: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 14].

- كيف يشفي صدور قومٍ مؤمنين؟

يعني إذا المؤمنون رأوا أعداءهم ما بين قتلى وأسرى، هذا يزيل ما في صدور المؤمنين من الهم والغم والحزن؛ لأن المؤمنين رأوا منهم يعني أشياء عظيمة من أعدائهم، من الإيذاء والقتل والتعذيب؛ فإذا رأوهم أمامهم يقتلون ويعذبون، وأن الله قد نصر أولياءه المؤمنين عليهم، هذا يشفي صدور المؤمنين ويذهب ما فيها من الحزن والهم والغم.

ثم قال: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ الكفار في قلوبهم حنق وفي قلوبهم غيظ وقلوبهم مليئة بالغضب عليكم؛ فإذا رأوا منكم القوة ما بين القتل والأسر ذهب هذا الغيظ وتلاشى عنه، وأصبحوا بين أيديكم أسارى.

قال: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾؛ هذا كله إذا قاتلتموهم؛ لأن الجملة هذه جملة شرطية مقدرة؛ يعني قاتلوهم، إن تقاتلوهم يعذبهم الله ويخزيهم وينصركم ويشفي صدور قومٍ مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم.

انتهى الأمر، ثم قال بعدها ويتوب الله؛ على الاستئناف: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 15]؛ يعني يفتح الله التوبة لهم مع أنهم أصبحوا في أيديكم أسرى، ومن وراءهم أيضًا؛ إذا أرادوا أن يقاتلوكم لن يستطيعوا أن يقاتلوكم لأنكم نصركم الله عليهم.

الله يفتح لهم باب التوبة لعلهم يتوبون؛ لأن التوبة خير من أن يموتوا على الكفر والشرك ويصبحوا من أهل النار؛ فالله يفتح لهم يفتح لهم باب التوبة. يقول: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾؛ ليس يتوب عليهم جميعًا لا، على من يريد الله أن يتوب عليه ممن تاب ورجع وعاد؛ فالله يفتح له باب التوبة.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ عليم بكم وبأحوالكم وعليم بهم، يقبل من يتوب منهم ويعذب من يشاء منهم؛ كل هذا بعلمه السابق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحكمته.

قال: ﴿حَكِيمٌ﴾؛ حكيم يضع الأمور ويدبرها ويضعها في مواضعها؛ فيتوب على من يشاء ممن يستحق التوبة، ويعذب من يستحق العذاب؛ كل ذلك بعلمه وحكمته، ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يعني لما أمر المؤمنين بالجهاد والقتال في مثل هذه الآيات، هذه الآيات هي تمحيص للمسلمين؛ من يقوم بالجهاد ومن لا يقوم بالجهاد.

تمحيص المسلمين ولذلك قال الله في مواضع؛ قال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 141]. وهنا يقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا﴾؛ أتظنون أنكم تتركون من غير تمييز ما بين الصادق والكاذب، والعازم والضعيف؟ لا بد أن الله يميز بين المسلمين، والمسلمون على درجات. فقال: تظنون أنكم تتركون هكذا بدون تمييز؟

لا بد أن تمتحنوا؛ قال: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾ [التوبة: 16]؛ يقول لا تظنوا أنكم تتركوا حتى يعلم الله؛ يعني ولما يعلم أي سيعلم الله.

- كيف الله ما يعلم؟

يعني انظر هذه الآية بعض الناس يقرأها ما يـ ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ يعني الله ما يعلم ثم يعلم؟ لا، الله ما يسبق بجهل أبدًا؛ الله عالم وعلمه أزلي ولا يمكن أن يقول إن الله ما يعلم.

- هذه الآية كيف ما معناها؟

الجواب: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾؛ أي يظهر علمه ويبين علمه للناس، يكشف العلم للناس فقط، وإلا هو عالم سابق علمه. ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ﴾ حتى يظهر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علمه للمجاهدين حقًا، وهؤلاء الذين جاهدوا قال إنهم أيضًا لم يبالوا بأعداء المسلمين ولم يوالوهم.

قال: لم يتخذوا أعداء الإسلام؛ لم يتخذوا من دون الله، ما اتخذوا إلا الله هو وليهم؛ الله وليه ورسوله وليه والمؤمنون أولياؤهم؛ أما أعداء الإسلام لم يتخذوهم.

هذا في قضية أو في معنى الولاء والبراء؛ أنهم يوالون أولياء الله ويتبرأون من أعداء الله؛ هذه هذا هذه أوثق عرى الإيمان، قال: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾.

- ما معنى كلمة وليجة؟

هذه الشيء إما أنك تقرأها ولا تفهمها وتمشي وهذا هذا خطأ منك؛ وإما أن تفهمها تقف عندها، وإذا لم تفهمها ارجع إلى كتب التفسير وافهمها؛ كلام الله، أما أنك تقرأ على جهل هذه مشكلة.

انظر: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾؛ الوليجة من الولوج وهو الدخول، يعني لم يتخذوا بطانة، لم يتخذوا أولياء من دون الله مثل ما ذكرت سابقًا.

لم يتخذوا أولياء؛ يعني المؤمنون حقًا هم الذين جاهدوا وتولوا الله ورسوله والمؤمنين ولم يتخذوا أولياء من دون الله يظهرون لهم أسرار المؤمنين كما يفعله المنافقون. ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾؛ أي لم يتخذوا بطانة.

وكما قال سبحانه قال: ﴿لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: 118]؛ هذا معناه لا تتخذ بطانة، لا تتخذ وليجة، لا تتخذ أولياء غير المؤمنين تتخذ أولياء من الكفار تفضي إليهم أسرار المسلمين؛ هذه خيانة.

قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ﴾؛ انظر ختم الآية جميل؛ يعني أنت لو اتخذت بطانة بدون ما يدري أحد ولا يعلم، وتتعاون مع الكفار ولا أحد يدري عنك من المؤمنين في صفوف المسلمين الله يعلم؛ ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 16]؛ من اتخاذ البطانة أو غيره، الله والله خبير بما تعملون.

قد يحتج الكفار لما بدأ المسلمون يقاتلونهم؛ يحتج الكفار يقولون خاصة أهل مكة، مكة يدعون أنهم هم أهل الحرم وهم أهل السقاية وهم أهل العمارة وهم أهل يعني سدنة البيت وخدمة البيت وحجابه الكعبة؛ يدعون هذا كله.

يقولون نحن محمد ما غ صنع، حمل ما صنع، محمد ما صنع شيء؛ هم يقولون كذا؛ نحن الذين قمنا بخدمة بيت الله، نحن أولياء الله ونحن الذين نخدم الحجاج، ومحمد فرق الناس وفرق الجماعات؛ يدعون هذا كلام، فرد الله عليهم؛ انظر قال لما قالوا نحن عمار المساجد، قال: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾؛ مشرك تعمر؟ لا ما يمكن.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: 17]؛ هم يشهدون ويعترفون بأنهم كفار يعبدون الأصنام، ويدعون أنهم يعمرون المسجد؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ ليس لهم حق أصلًا أن يعمروا مساجد الله لأنهم كفار شاهدون على أنفسهم بكفر.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى ما يدعوا؛ يقول عمارتهم للمساجد وسقايتهم الحجاج وخدمة الحجاج وغيرها من الأعمال التي يدعونها وقرى الضيوف وغيرها؛ يقول هذه كلها ما تنفعهم.

قال: ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾؛ حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة؛ أعمالهم غير مقبولة، لماذا؟ لأن شرط قبول العمل الإيمان والإيمان غير موجود.

فما يقبل عملهم؛ ﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾؛ يوم القيامة هم أهل النار لأنهم أولًا من أهل الشرك والكفر وعبادة الأصنام ويدعون هذه الدعاوى الباطلة.

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هم أولى ببناية المسجد الحرام من؟ قال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ﴾؛ انظر صيغة حصر، الذين يعمرون الله هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات، غيرهم ما يعمل المسجد.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: 18]؛ حقق الإيمان هذا شرط قبول العمل؛ من آمن بالله واليوم الآخر، انظر خص الإيمان بالله واليوم الآخر، في إيمان بالرسول وفي إيمان بالكتب في إيمان بالرسل كثير؛ يعني أركان الإيمان ستة ذكر اثنين، لماذا؟

قال لأن الإيمان بالله يدخل في جميع الأركان جميعها؛ واليوم الآخر لأنه يحثك على العمل، فأنت مؤمن بربك وبشرعه وبدينه وبرسوله، ومؤمن بلقاء الله عَزَّ وَجَلَّ فتعمل لله لأنك تعرف أنك ستقابل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأعمالك؛ فلذلك قال: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾. ثم ذكر أساس الدين؛ الإيمان الآن في القلب؛ الإيمان دائمًا في القلب والاسلام في الجوارح.

ولذلك انظر قال: ﴿مَنْ آمَنَ﴾؛ حقق الإيمان في القلب، ثم قال بعدها: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [التوبة: 18]؛ هذه أعمال ظاهرة، أقام الصلاة لأن أساس الدين المحافظة على الصلاة؛ الصلاة هي أساس الدين، من تركها خرج من الدين، وآتى الزكاة حافظ على الصلاة وعلى الزكاة التي هي أعظم شعائر الإسلام، أعظمها.

ثم قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾؛ لم يخش إلا الله يعني راقب الله وخاطب وعمل وعاملًا لله؛ يعني يراقب الله فيما يأتي ويذر. يعرف أن هذا حرام فيبتعد عنه، يعرف أن هذا واجب فيبادر بالعمل به؛ هذا معنى يخشى الله يعني يخاف الله ويراقبه ويعلم أن الله مطلع عليه؛ أما الناس ما الناس لا يلتفت إليه؛ لم يخش إلا الله حقًا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: 18]؛ انظر يعني آمنوا بالله واليوم الآخر، أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ولم يخش إلا الله؛ انظر أمور عظيمة ومع ذلك يقول: ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ﴾.

﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾؛ أولًا نعرف أن **"عسى"** هي للترجي، هي للترجي؛ تقول **"عسى المسافر أن يحضر"**، ترجى تترجى أن يحضر، لكن في حق الله ليست رجاءً؛ الله ما يترجى فنقول **"عسى"** في حق الله واجبة.

- لماذا أتى بها هنا؟

حتى يعني يبين لك أن مع هذه الأشياء أن هذا العمل هذا الإنسان الذي آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله، هذا يرجو ما عند الله.

يعني هو في خوف وجل أن يقبل منه، يخاف ماذا سيقابل يوم القيامة؛ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: 47]. ﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾؛ يقول رجاءً هم في أنفسهم يرجون أن يكونوا مهتدين لا يجزمون بهذا الشيء، الإنسان يعمل وهو يخاف ما يدري هل يقبل منه أو لا يقبل منه فيقول: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعود إلى هؤلاء الكفار الذين يحتجون بأعمالهم فيقول لهم: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: 19]؛ أنتم تقارنون بين هذا وهذا؟ تقومون بسقاية الحجاج كما كان العباس الذي تولى سقاية الحجاج وعمارة المسجد.

- كيف يعمرون المسجد؟

يعمرون هذا الطواف بالصلاة كما يفعلون هم؛ وما كان صلاتهم عند البيت إلا بكاء وتصدية، ويعمرون بتنظيفها وتهيئتها للحجاج؛ كل هذا يعملونها لكن هذه أعمال باطلة لأنها مبنية على كفر.

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 19].

- هل هذا مع هذا يستوي؟

ما يمكن، ولذلك قال لا يستوي؛ كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستو لا هذا لا يمكن أن يستوي مع هذا؛ لا يستوون عند الله.

والله لا يهدي القوم الظالمين؛ هؤلاء قوم ظالم هؤلاء قوم ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله، وظلموا أنفسهم باعتدائهم على رسوله، وظلموا أنفسهم باعتدائهم على المؤمنين وارتكابهم كثير من المعاصي؛ الله لا يهدي القوم الظالمين.

لكن انظر لما يبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقارن بين أهل الطاعة وأهل الكفر، يعطيك صفات المتقين حقًا الذين وعدهم الله بالوعد الكريم؛ اسمع يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ هذا أول صفة من صفاتهم؛ الإيمان، حققوا الإيمان بالله وهو التصديق بكل ما جاء عن الله.

﴿وَهَاجَرُوا﴾ تركوا ديارهم لله عَزَّ وَجَلَّ، انظر تركوا ديارهم مثل ما فعل فقراء المهاجرين؛ فقراء المهاجرين تركوا ديارهم وتركوا أموالهم لله، هجرة لله، هاجروا لبلاد الحبشة؛ قطعوا الفيافي والمسافات البعيدة وليس معهم لا مال ولا زاد، ومع ذلك تركوا بيوتهم وتركوا أموالهم لله.

هاجروا الهجرتين ثم هاجروا إلى المدينة؛ قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ تركوا ديارهم؛ يعني تصور نفسك الآن يطلب منك أن تهاجر من بلدك؛ تترك بيتك تترك أسرتك تترك أولادك لله؛ من يحقق هذا؟

قال: ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ قاتلوا ونصروا رسوله؛ لما جاء في بدر واستشارهم النبي وقالوا قال: **"لو خضت عباب هذا البحر لخضناه معك لن نرجع"**، فجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم.

هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات؛ الإيمان، الهجرة كلها مناقب عظيمة، الجهاد في سبيل الله؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 20]؛ هم أعظم درجة عند الله درجاتهم عالية عند الله، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾؛ في الدنيا والآخرة الفوز لهم؛ ثم قال انظر تأتيك الثمار العظيمة الثمرات.

قال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ﴾ [التوبة: 21]؛ ثلاث أشياء مقابل ثلاث أشياء؛ قال: آمنوا، هاجروا، جاهدوا؛ رحمة ورضوان وجنات.

انظر قال آمنوا؛ الإيمان رحمة، طيب هاجروا؛ قال رضوان من الله لما هاجروا تركوا ديارهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم قال جاهدوا في سبيل الله؛ قال جنات لأن المجاهد في سبيل الله في جنات نعيم.

﴿وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾؛ لهم النعيم الذي لا ينقطع ومقيمين فيه؛ لا ينتقلون ولا يبغون عنها حولًا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: 22]. الله عنده أجر عظيم، فوق ذلك فوق ذلك عنده أجر عظيم، لكن لمن يحقق هذه الصفات.

- قد يأتيك بعض الناس الآن يقول لك: كيف الجهاد الآن وكيف الهجرة وكيف كذا؟

الجواب: الإنسان قد يبلغ مبالغ يبلغ هذه الدرجات بنيته.

☜يبلغ هذه الدرجات بنيته؛ أنت إذا سألت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **«مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»**. فالإنسان يعني أولًا يتذكر إخوانه الذين سبقوه بالإيمان أنهم جاهدوا وخرجوا ويدعو لهم بالمغفرة؛ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: 10].

تدعو لهؤلاء بالرضوان والمغفرة والرحمة، ثم أنك تتصف بصفاتهم تسأل الله أن يجمعك في زمرتهم؛ هؤلاء سبقون بالإيمان وتنوي أنت في قلبك أن تكون من أهل الإيمان، ممن يخشى الله، ممن يقيم الصلاة، كل هذه أنت تقرأ القرآن وتدعو الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعلك من هؤلاء، ولو لم يحصل لك كل هذه الأشياء؛ لأن فيها ثمرات عظيمة مثل ما سمعنا.

أعظم درجة عند الله، بشارات عظمى؛ رحمة، رضوان، جنات؛ لماذا نحرم أنفسنا من هذا الخير العظيم؟ نسأل الله يجعلنا منهم وأن يتغمدنا بهذا الفضل العظيم برحمة منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله في لقاء قادم استكمل ما توقفنا عنده؛ والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(176)
(التوبة 23 - 28)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، بسم الله، والحمد لله، صلِّ وسلم على أشرف الأنبياء المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اجتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين، أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله أن يجعله لقاءً مباركًا نافعًا، ونجعله مما تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحاضرين في الملأ الأعلى، نسأل الله أن يحرمنا هذا الفضل العظيم.

هذا اليوم هو اليوم السادس من الشهر الثامن من عام ستة وأربعين وأربعة مائة وألف للهجرة، مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم، وهذا الدرس الذي يعقد كل أسبوع بعد صلاة المغرب من يوم الأربعاء.

السورة التي بين أيدينا، وقد تناولنا شيئًا من آياتها، هي سورة التوبة، وتسمى أيضًا بسورة براءة؛ وقفنا عند الآية الثالثة والعشرين، قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: 23]، هذه الآية في الولاء والبراء، من توالي؟ توالي من والى الله، ومن تعادي؟

تعادي من عادى الله، أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، تحب من يحبه الله، وتبغض من يبغضه الله، ولو كان أقرب الأقربين، مثل ما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الآباء والإخوان؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نداء للمؤمنين، تذكير بصفة الإيمان التي تحملها أنت، معك إيمان تعتز به وتفتخر به، ويميزك الله عن غيرك ممن ليس عنده إيمان.

فيناديك بأجل وأحسن الصفات، الصفات التي أنت تتلبس بها، صفة الإيمان، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم ينهاك تحذيرًا شديدًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ متى؟

﴿إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾، إذا لم يستحبوا الكفر على الإيمان، بل استحبوا الإيمان على الكفر، فلا شك أنهم أولياء، ونحبهم محبة عظيمة في قلوبهم وهم أقارب وصلة، آباؤكم وأبناؤكم؛ لكن إذا هم قدموا الكفر على الإيمان، وكفروا بالله وبرسوله وباليوم الآخر، ولم يعترفوا بشريعة الله، هؤلاء هم أشد الناس، هم أعداء، وعداوتهم باقية.

يعني الذي، هذا دين شرع عظيم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدم من هو أبعد، من هو في أقصى الأرض، على من هو أقرب الناس إليك، الأب والأخ، إذا كان كافرًا، وأقصى من في الأرض مؤمنًا، تحب من هو في أقصى الأرض ولو لم تره، تحبه محبة عظيمة إذا كان على الإيمان والطاعة.

وهذا لو كان أقرب الناس كالوالد والأخ لا تحبه، لأنه استحب وأحب وقدم الكفر على الإيمان، بل إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توعد أيضًا في آخر الآية الوعيد الشديد.

قال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ أيها المؤمنون تتولون هؤلاء الكفار، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالم، الذي يتولى الكافر ويقدمه ويفضي إليه أسرار المسلمين ويقدمه على المسلمين فأولئك هم الظالمون.

حكم الله عليهم بأنهم هم الظالمون، لاحظ الآية قال فيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ﴾، ولا شك أن الأب مكانه وله منزلة وله قربة، يعني قريب من الابن، هذا أبوك أقرب الناس إليك، ومع ذلك يقول لا تتخذوا؛ ثم ذكر الإخوان، قال: ﴿آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾.

وين الأبناء؟ ما ذكرهم الله، لماذا؟ لأن الأبناء في الغالب أنهم مع الآباء، إذا كان الأب مؤمنًا فالابن معه، إذا كان كافرًا فالابن معه، يعني الابن هو تبع لأبيه، ولذلك لم يذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لأنه قد يوجد من هو ابن كافر وأبوه مؤمن، قد يوجد، لكن الكثير لا يحصل هذا.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال الآباء والإخوان، وليس معنى الآباء والإخوان أن بقية الناس كالأعمام والعمات والأخوال والخالات لا، إنما هذا لأن صلتهم قوية جدًا، يعني أخوك أو أبوك، وما سواهم من باب أولى. وهنا وقفة.

قد يظن بعض الناس أن الكافر هو الذي يكفر بالله ولا يؤمن ولا يعترف بشريعة الإسلام وهذا لابد أن نعاديه، لا، قد يدخل في هذا من لا يصلي من المسلمين، فإن **"العلماء حكموا على من ترك الصلاة بالكلية فهو كافر"**.

فإذا كان هذا من أبناء المسلمين، ويدين في ظاهره أنه من المسلمين، ولكنه لا يصلي ولا يعترف بشريعة الإسلام، هذا لا يواحد في الله، ويبغض في الله.

بعد هذا تأتي الآية التي هي أشد من الآيات التي قبلها، كل هذا في كراهية الشرك والمشركين وكراهية الكفر والكافرين؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: قل يا أيها الرسول، وأنت أيها المخاطب قل: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

أعاد مرة ثانية، قال: انظر هذه المرة أكثر، هذه المرة ذكر ثمانية أصناف، ثمانية أصناف ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية، إذا قدمها الإنسان على محبة الله ورسوله فهذا له الوعيد الشديد، اسمع، يقول: ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ يعني قبائلكم وأقاربكم.

﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ يعني كسبتموها، أصبحت عندكم أموال وأرصدة وتجارة، ﴿تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي خسارتها وذهابها، ﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾ تحبونها، مساكن تحبونها؛ إذا كانت هذه الأمور الثمانية، ثمانية أشياء، إذا كانت أحب إليكم من الله ورسوله، وأحب إليكم من الجهاد في سبيل الله.

﴿فَتَرَبَّصُوا﴾، تربصوا هذا وعيد شديد، يعني انتظروا العقوبة تنزل بكم، ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثم حكم عليهم بأي شيء؟

قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، حكم عليهم بالفسق، هذه الآية العظيمة تميز أو تبين لنا أن المحبة لا تكون إلا في الله، المحبة تكون في الله ولله، وأن إذا تعارضت هذه الأمور، هذه الأمور تعارضت بين محبة الله، بين محبة الله وبين محبة النفس لها، ما نقدم؟ نقدم محبة الله.

☜ولذلك عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه ماذا قال لما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: **«وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي وَوَالِدِي وَمِنْ مَالِي وَمِنْ كَذَا إِلَّا مِنْ نَفْسِي»**، قال: **«لَا يَا عُمَرُ لَا»**، ثم أعاد عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه قال: **«إِنَّكَ أَحَبُّ مِنْ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا حَتَّى مِنْ نَفْسِي»**، قال: **«الْآنَ يَا عُمَرُ»**.

يعني محبة الله ومحبة الرسول مقدمة على كل شيء، كل الشهوات والمحبة، ما أحب الأب أو الابن أو الزوجة أو العشيرة أو المال أو السكن أو غيرها مما ذكره الله، أو التجارات، ما أحبها

محبة تفوق محبة الله ورسوله، وإذا تعارضت هذه المحبة وهذه المحبة، لا ألتفت إلى هذه الأشياء وأقدم محبة الله.

- هذه المحبة ماذا نسميها؟

نسميها محبة الطاعة والتقرب إلى الله، أما المحبة الطبيعية، هذه كل يحب، ما في أحد منا إلا يحب، يحب أباه، يحب ابنه، يحب زوجته، يحب المال، يحب التجارة، هذه كلها ما أحد يعترض عليها أنك تحبها، هذه محبة طبيعية يحبها كل إنسان.

لكن المحبة التي هي قربة إلى الله، تقرب إلى الله، عمل؛ لأن المحبة نوع من أنواع العبادة، تعبد الله، وكانت هذه المحبة أيضًا تتعارض مع هذه الأمور، فالمؤمن العاقل يقدم محبة الله ومحبة رسوله والجهاد في سبيل الله على هذه المحبات.

فإن قدمتها أنت وجعلت هذه المحبة هي، أو جعلت هذه الأمور هي أحب من الله، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ وعيد شديد، ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ يعني انتظروا حتى يأتي الله بأمره، وهذا وعيد شديد في العقوبة التي تنزل بمن يقدم هذه المحبة على محبة الله ومحبة رسوله.

﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثم حكم عليهم بالفسق والخروج عن طاعة الله، قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، ما داموا فاسقين، فإن تابوا وعادوا هداهم الله.

بعد هذا، يعني بعد امتحان الناس في هذه المحبة، من تقدم محبة الله محبة رسول الله، يبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فضله على المؤمنين، ويذكر شيئًا من فضائله فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: 25].

مواطن كثيرة نصر الله المؤمنين، في بدر، ونصرهم في أحد في أول الأمر، لكن لما عصوا انقلبت، انقلب النصر إلى هزيمة، ونصرهم في مواطن كثيرة، قال ونصرهم على اليهود في، على بني النضير وغيرهم.

قال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي ونصركم الله أيضًا يوم حنين، ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾؛ يوم حنين هذه، غزوة حنين متى وقعت؟ هذه وقعت بعد فتح مكة في السنة الثامنة، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج لفتح مكة ومعه عشرة آلاف من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ففتحوا مكة في رمضان في السنة الثامنة.

ثم لما سمعت هوازن، قبائل هوازن وما حولها، بأن مكة خضعت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خافوا واستعدوا لحرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما علم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إليهم، خرج إليهم في شوال، وهم هذه غزوة هوازن، في السنة الثامنة في شوال.

فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان معه عشرة آلاف قد جاء بهم للمدينة وانضم إليه من أهل مكة ألفان، أصبح العدد اثني عشر، أصبح العدد اثني عشر ألفًا من المجاهدين المقاتلين من صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليقابلوا قبائل هوازن في منطقة ووادي حنين.

وادي حنين هذا وادي بين مكة والطائف، وصل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذا الوادي ليقابل هؤلاء، ليقاتل هوازن، وكانوا كم؟ كانوا أربعة آلاف، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه اثنا عشر، أيهم أكثر؟

هؤلاء أكثر، فقالوا فُأعجبوا بأنفسهم، أعجبوا قالوا: **«لَنْ نُغْلَبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ»**، ما قالوا الله ينصرنا، غفلوا عن هذا الشيء، قال لن نغلب، افتخروا بعددهم وعدتهم، انظر قال: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ في العدة وفي العدد، أعجبتم بها واغتررتم بها.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾، ما نفعتكم عنكم شيئًا، ما نفعتكم عنكم شيئًا، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، الأرض واسعة، وضاقت عليكم، لا تدرون لأين تذهبون، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، تركتم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه وتركتم العدو يقاتل وفررتم مدبرين، جعلتم العدو خلفكم فارين.

- كيف حصل هذا؟

لما علمت هوازن بقدوم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه، وضعت كمينًا في، قريب من بين الجبل والوادي وضعت كمينًا، وكان ذلك الوقت وقت بداية الصباح، يعني بداية إسفرار الصباح ظهور الصباح، فوضعوا كمينًا عظيمًا.

فلما أقبل الصحابة معهم وهم قد أعجبوا بالكثرة، خرجوا عليهم بهذا الكمين، بالسهام، بقوة ضرب السهام والنبال، فتفاجؤوا ففروا، ولم يبق إلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه ما يقرب من ثمانين رجلًا أو قيل مئة رجل، ما بين أبي بكر وعمر وكبار الصحابة، وأما الباقي فروا، وكان العباس مع النبي، عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

☜فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يَا عَبَّاسُ»** وكان صوته جهوريًا فقال: **«يَا عَبَّاسُ نَادِ، قُلْ يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ»**، يذكرهم بالمعاهدة، يذكرهم بالبيعة، بيعة الرضوان في، في صلح الحديبية يقول: **«يَا أَصْحَابَ الشَّجَرَةِ»**، فالتفوا جميعًا كلهم.

وأقبلوا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل الله ملائكة؛ انظر قال: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، الأرض واسعة رحبة وضاقت عليكم، لأن جاءكم أمر لم تتوقعوه، ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين الذين صمدوا ووقفوا معه، ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 26]، أنزل السكينة.

- ما هي السكينة؟

السكينة ثبات وطمأنينة ووقوف أمام العدو وعدم الفرار، أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين فثبتوا، وأنزل جنودًا لم تروها، وهو الملائكة.

- هل نزلت الملائكة؟

الجواب: نعم، في غزوة بدر نزلت، نزل من الملائكة ألف وقاتلوا، حتى رآهم بعض الصحابة على صور رجال، وفي غزوة أحد في أول الأمر نزلت ملائكة ولم تقاتل، ما قاتلت، ثم لما حصلت المعصية ما بقي أحد منهم، وفي غزوة هوازن هذه أو حنين، نزلت ملائكة لكنها تخيف العدو ولم تقاتل، ما باشرت.

في غزوة الأحزاب وليس غزوة، غزوة بدر والأحزاب، غزوة بدر نزلت ملائكة وقاتلت، وأما غزوة أحد فلم تنزل، وغزوة الأحزاب نزلت الملائكة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: 9].

في الأحزاب نزلت ملائكة ولم تقاتل، وفي حنين نزلت ملائكة ولم تقاتل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي من أعدائكم من هوازن وحنين، ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾؛ يعني هُزموا هزيمة عظيمة حتى فر الفر الكثير منهم، وتركوا نساءهم وصبيانهم وأموالهم.

ثم بعد ذلك أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسبى منهم سبايا عظيمة من النساء والصبيان، وأخذ الأموال من البهائم؛ فلما رجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة ووصل الجعرانة، رجع كثير من هؤلاء من هوازن وتابوا.

وخيرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«تُرِيدُونَ أَمْوَالَكُمْ أَوْ تُرِيدُونَ السَّبَايَا مِنَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ»**، قالوا: **«لَا، نُرِيدُ السَّبَايَا»**، فأخذوهم؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 27]، تاب الله على عدد كبير منهم فتابوا، والله غفور رحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يتوب على من تاب، من رجع تاب الله عليه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: 28]، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فتح مكة طهرها من الشرك، فأصبحت دار إسلام، وانتهى الشرك وقضي عليه، لما جاءت السنة التاسعة حج أبو بكر بالناس ولحقه علي رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه في هذه السنة، حج في السنة التاسعة، فنزلت هذه الآية فنزلت هذه الآية.

ونادى علي رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه ونادى أبو بكر: **«أَلَا يَحُجُّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَأَنْ لَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ»**، فمنعوا من الحج بعد السنة التاسعة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، نَجَس ولا نَجِس؟ في فرق ولا كله واحد؟ قل لا، في فرق، الله يقول نَجَس ما قال نَجِس.

- ما الفرق؟

النَّجِس هذه نجاسة طارئة، والنَّجَس نجاسة أصلية، والنَّجِس غالبًا في الأشياء الحسية، تقول هذه السجادة نَجِسة وهذا الثوب نَجِس، ما تقول نَجَس، هذا الثوب نَجِس، لأن النجاسة الطارئة تغسلها وتذهب فتقول نَجِس.

أما النَّجَس المشرك، نجاسته معنوية، نجاسته ليست طارئة، أصلية حتى يسلم، وليست نجاسته حسية إذا مسسته بيدك أنك تنجس يدك، لا، هو ما ينجس ولا الأواني اللي عندهم ولا الأشياء عندهم نجسة كلها طاهرة، لكن نجاسته نجاسة معنوية، نجاسة في القلب ونجاسة أصلية.

فلذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾، ثم لما حكم عليهم بالنجاسة، النجاسة المعنوية التي تكون في القلب والشرك والأعمال، قال: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ فرع عليه قال: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا

الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عامِهِمْ هَٰذَا﴾، العام التاسع، لأن العام العاشر حج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجة الوداع، فهذه السنة التاسعة قضي على الشرك ولا يحج مشرك.

قال: ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ بعد عامهم هذا.

- ما المقصود بالمسجد الحرام؟ هل هو المسجد نفسه ولا مكة الحرم كله؟

الجواب: قيل هذا وقيل هذا، والذي يظهر أنهم لا يقربوا المسجد الحرام، أي لا يدخلوا مكة، يمنعون من دخول مكة، وفي هذا دلالة على أن الله سمى الحرم مسجد الحرام، فمن صلى في الحرم في بمساجد مكة، فكأنه صلى في المسجد الحرام، الحكم واحد.

فلذلك سماه الله المسجد الحرام، سماه المسجد الحرام. فالشاهد من الكلام؛ طيب عندنا مسألة مهمة، وهي هل الكافر عرفنا أنه يمنع من دخول مكة ودخول المسجد الحرام، فهل يمنع من دخول المساجد؟

بقية المساجد، كمسجد رسول الله أو مساجد أي مكان في بقاع الأرض؟ كافر يدخل مسجد؟ نقول لا يدخل المسجد لأنه نجس، ولأن حكمه حكم هذه الآية حكم المسجد، لا يدخله لأنه لا يحترمه ولا يقدره، إلا إذا في مصلحة مهمة، نعم، يجوز له دخوله؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربط ثمامة ابن أثال وهو مشرك في المسجد، لماذا ربطه؟

حتى يعرفه بالإسلام فيسلم، ولذلك أسلم لما رأى الناس يتوضؤون ويصلون ويذكرون الله ويقرؤون القرآن دخل الإيمان في قلبه فأسلم، فإذا كان هناك مصلحة نقول جائز، أما الأصل ما حتى في الأشياء الأعمال الفنية في المسجد لا يقربها كافر، في غيره من المسلمين.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

- ما معنى خفتم عيلة؟

يعني فقرًا، إيش علاقة الفقر في منع الكفار من دخول المسجد الحرام ومن الحج؟ لأن مكة ملتقى العالم كله في ذلك الزمان، كل القبائل تأتي في الحج وتكون هناك تجارات وأسواق، فإذا مُنعوا المشركين ما في تجارات وأسواق، قالوا نخاف يأتينا الفقر، كيف التجارات؟

قال الله: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ﴾، وعدهم بالغنى، قال إذا خفتم فقرًا وعيلة فسوف يغنيكم الله من فضله، يعطيكم الله من فضله، يمنع، يعطيكم يعوضكم بأشياء كثيرة، ولذلك فتح الله عليهم بالخيرات لما أصبحت مكة دار إسلام؛ قال: ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ﴾.

- كيف إن شاء؟

يعني الله يغني ما يحتاج يقول إن شاء، ليعوّد المسلمين على المشيئة، كل شيء بأمر بالمشيئة، لأن هذا تعويد المسلمين أن لا يقول شيئًا إلا يعلق ذلك الأمر بالمشيئة إن شاء.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحكيم؛ عليم باحتياجكم للمال وخوفكم من الفقر، وعليم كيف يغني، وحكيم في تدبيره وكونه يغنيكم بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(177)
(التوبة 29 - 36)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، صلِّ وسلِّم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين، أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاؤكم الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كل أسبوع، من كل يوم أربعاء، وأسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع؛ هذا اليوم هو اليوم الثالث عشر من الشهر الثامن من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة، درسنا في تفسير القرآن العظيم، السورة التي بين أيدينا هي سورة التوبة.

وقف بنا الكلام في لقائنا الماضي عند الآية الثامنة والعشرين، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه العزيز: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: 29].

الآيات التي قبلها حتى يعني يرتبط المعنى بعضه ببعض، ترتبط الآيات بعضها ببعض، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر المؤمنين بأن يخبروا المشركين أنه لا حج للمشركين بعد العام الذي نزلت فيه هذه الآية، وهي وهو عام العام التاسع من الهجرة.

نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: 28]؛ لا يحج مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، فمنعوا من الحج، كانت كان الحج في ذلك الوقت فيه أسواق وتجارات كبيرة، أسواق قبل الحج بأشهر وتجارات كبيرة، فخشي المسلمون أنهم إذا منعوا المشركين من الحج أن تذهب هذه التجارات ويضطروا إلى الفقر والعيلة.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: 28]، وفقرًا، إن خفتم عيلة وفقرًا، ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾، يغنيهم الله عَزَّ وَجَلَّ من فضله.

فعوضهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن أمرهم بقتال أهل الكتاب، أهل الكتاب لا دين بعد الإسلام ولا قبل الإسلام لا دين بعد الإسلام بعد ظهور الإسلام، لا يقبل أي دين، يعني معنى ذلك أن **"الدين عند الله هو الإسلام"**.

فلا يهودية ولا نصرانية معتبرة؛ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هؤلاء اليهود والنصارى قاتلوهم، لماذا؟ قال لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، أما كونهم لا يؤمنون بالله كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: اليهود تقول عزير ابن الله، وهذا كفر وشرك، والنصارى تقول المسيح ابن الله.

فلا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر لاتبعوا شريعة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم لا يؤمنون، وإن كانوا يؤمنون باليوم الآخر بالجملة، فإن في تفاصيله أمورًا كثيرة لا يؤمنون بها ولا يعترفون بها.

قال أيضًا: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، لأنهم يحلون أشياء حرمها الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فهم مثلًا يأكلون الربا، والله قد حرمه في جميع الشرائع، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ [النساء: 161].

قال: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾، الذي هو شريعة نبينا محمد خاتم الشرائع وخاتم الأنبياء، لا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب؛ قال لا يؤمنون، قال قاتلوهم حتى يعطوا الجزية، فإذا أعطوا الجزية لا تقاتلوهم.

- ما هي الجزية؟

هي **"مال يقدره الإمام، مبلغ يدفعه كل نصراني أو يهودي"**، بحيث إنه يبقى على دينه، يدفع هذا المال: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾؛ صاغرون يعني عن ذلة وصغار وإهانة، ويأتون بها ولا يرسلونها أو يبعثون بها مع أحد، وإنما يأتون بها عن يد ويسلمها كما فعل اليهود والنصارى وأهل الكتاب في زمن عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، أمرهم بدفع الجزية حتى لا يقاتلوا، حتى لا يقاتلوا، فإن لم يدفعوا جزية يعني يجب على المسلمين أن يقاتلوهم.

ثم يبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك السبب في كونهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30].

- من هو عزير؟

عزير هذا عالم من علماء اليهود، حبر من أحبار اليهود، لما سلط الله على اليهود من تسلط عليهم بقتلهم كبختنصر وغيره، دخلوا على اليهود في بيت المقدس وقتلوا منهم أعدادًا كثيرة وحرقوا التوراة ولم يبق منها أي نسخة.

فتحيروا، قالوا ذهبت ذهب علينا الكتاب، فبحثوا فإذا عزير يحفظها كاملة، فجاء جاء إليهم وأملى عليهم هذه أملى عليهم التوراة كاملة، فلما أملاها عليهم قالوا هذا ابن الله، هذا عظموه فقالوا هذا ابن الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾، وإن لم تكن اليهود جميعًا لكن طائفة منهم قالت ذلك والكثير منهم وافقوهم، قال: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾؛ وهي أيضًا طائفة لأن النصارى طوائف.

منهم من يقول **"المسيح هو الله"**، ومنهم من يقول **"هو ثالث ثلاثة"**، ومنهم من يقول **"هو ابن الله"**؛ فهم ينسبون ذلك يقولون هو ابن الله، لماذا؟

- قال لأنه ولد من غير أب، إذًا من هو أبوه؟

قالوا ابن الله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، مجرد كلام لا دليل عليه ولا حجة، أعطونا الحجة على أن عزير بن الله، أعطونا الحجة على أن المسيح ابن الله، ما عندهم ذلك، مجرد كلام بالأفواه يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

انظر قال: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾؛ يضاهئون يعني يشابهون، المضاهاة المشابهة، قال يشابهون قول الذين كفروا من قبل، الذين كفروا مشركوا العرب.

- ماذا قالوا حتى إنهم يشابهونهم؟

مشركوا العرب يقولون **"الملائكة بنات الله"**، يقولون الملائكة بنات الله؛ فهؤلاء أيضًا قالوا هذا هذه المقالة بأن قالوا المسيح أو عزير ابن الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متوعدًا الوعيد الشديد لهم: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾؛ قاتلهم الله هذا وعيد شديد لهم ولعن لهم وطرد وذم لهم، قاتلهم الله كما يقال فلان تقول فلان قاتلك الله، لماذا تفعل كذا؟

قاتلك الله يعني سب وشتم له، قال: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾، كيف يصرفون عن الحق وهم يعلمون وقد أنزلت عليهم الكتب وعندهم علماء، ثم يتركوا الحق ويقولون ذلك الباطل، أنى يؤفكون.

ثم زيادة على ذلك من شركهم أيضًا، اسمع من شركهم قال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31]؛ أحبارهم أي علماءهم، ورهبانهم أي عبادهم، أربابًا جعلوهم أرباب، أرباب جمع رب، يعني اتخذوا العالم ربًا له أرباب من دون الله.

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أيضًا اتخذوه ربًا.

- كيف اتخذوا أحبارهم ورهبانهم وأحبارهم أربابًا من دون الله؟

قال لأنهم أطاعوهم فيما يأمرون، وفيما أطاعوهم فيما يحلون مما حرمه الله، أو يحرمون ما أحله الله.

في قصة عدي بن حاتم رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه لما جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقرأ النبي عليه هذه الآية، قال: يا رسول الله ما اتخذناهم أربابًا.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: **«أَلَيْسَ هُمْ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ؟»** قال: بلى؛ قال: **«أَلَيْسَ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟»** قال: بلى؛ قال: **«تِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»**؛ هذه عبادته الشرك، هذا شرك، سمى شرك الطاعة يعبدونه من دون الله.

قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾، هم ما أمروا اليهود ولا النصارى إلا بعبادة رب العالمين إلهًا واحدًا، ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، سبحانه المنفرد بالخلق والملك والتصرف والتدبير والألوهية والعبادة، سبحانه عما يشركون تنزيهًا لله عن شركهم هذا.

وليس الحد ينتهي عند أنهم يشركون بالله ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ويقولون هذه المقالات الشنيعة، لا، زيادة على ذلك هم يحاربون شرع الله عَزَّ وَجَلَّ ويحاربون دين الإسلام.

اسمع ماذا يقول، قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [التوبة: 32]؛ يريدون أن يطفئوا دين الإسلام، نور الله هو الإسلام وهو دين محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سماه الله نورًا لأنه ينير القلوب وينير من الجهل والضلالة.

قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، يريد أن يطفئ بأفواههم بس لكن لا يستطيع، أحد يستطيع أن يطفئ نور الشمس بفيه؟ ما يستطيع، الإسلام مثل نور الشمس؛ قال: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾، لابد أن يتم نوره فلا يبقى بيت مدر ولا حجر إلا دخله الإسلام، ودخل الإسلام كلها يعني كل دار وكل بيت.

قالوا: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، لو كرهوا ما كرهوا وأبغضوا الإسلام، فالإسلام ظاهر والإسلام قائم مهما كان. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 33].

ليس فلان ولا فلان، الذي أرسل محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الله عَزَّ وَجَلَّ، أرسله بأي شيء؟ قال أرسله بالهدى ودين الحق؛ الهدى هو **"العلم النافع"**، ودين الحق هو **"العمل الصالح"**.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرسل لنا محمدًا بالعلم والهدى، قدم العلم على الهدى؛ لماذا قدم العلم على العمل الصالح؟ لأن لا يمكن إنسان أن يعمل الأعمال الصالحة وهو جاهل، لو عملها سيقع في جهل.

أولًا العلم التعلم، التعلم فضل وشرف الإنسان أن يتعلم ولا يبقى جاهلًا، تتعبد الله على جهل؟ تعبد الله على علم، العلم سماه الله هدى يهتدي به المهتدون، نور، ودين الحق الدين العمل، حتى تعمل على حق ليكون عندك علم.

قال: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، على جميع الأديان الماضية، خلاص الأديان الماضية ذهبت وانتهت، ولو كره المشركون ورفضوا ذلك، فالله لابد أن يظهر دينه.

تلاحظ أن هذه الآيات تتحدث عن اليهود والنصارى، بعدما ذكر الله في الآيات السابقة إلى الآية الثامنة والعشرين، من أول السورة ثمانية وعشرين آية، كلها تتحدث عن المشركين، هنا انتقلت الآيات إلى الحديث أو بيان أحكام اليهود والنصارى.

خذ من اسمع من أحكامهم، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 34]؛ عرفنا الأحبار جمع حبر وهم علماء اليهود.

والرهبان جمع راهب وهم عباد النصارى؛ يقول إن كثيرًا ما قال كل جميعهم، لأنه قد يوجد منهم من هو صالح، لكن الكثير منهم ماذا قال؟ ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ بالرشاوي، والحكم بغير ما أنزل الله، وأخذ الأموال بأي وجه من هذه الوجوه.

قال يأكلون أموال الناس بالباطل لا بالحق، لأنهم يحكمون بغير ما أنزل الله ويفتون بفتاوى لا توافق شرع الله؛ وزيادة على ذلك قال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، يمنعون الناس عن شرع الله وعن دين عن سبيل الله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا حكم هذا فعل من فعل اليهود والنصارى، يأخذون أموال الناس بالباطل ويأكلونها بالباطل عن طريق الرشاوي وعن طريق الفتاوى المحرمة وغير ذلك.

ثم وهذا وعيد، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي إنسان يكنز الذهب والفضة، يهودي أو نصراني أو مسلم، حتى من المسلمين من لا يخرج الزكاة.

قال والذين يكنزون يجمعون الذهب والفضة والأموال ولا ينفقونها في سبيل الله، لا يخرجون ما أوجبه الله فيها من الزكاة لا يخرجونها؛ النتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

هؤلاء اليهود والنصارى، الأحبار والرهبان، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، والذين يكنزون الأموال الذهب ولا ينفقونها، قال الله فيهم: فبشرهم بعذاب أليم.

- ما هو العذاب الأليم يوم القيامة؟

قال: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: 35]؛ تؤتى بهذه الأموال التي أخذها اليهود والنصارى، أو علماؤهم ورهبانهم أخذوها وأكلوها.

والذين يكنزون الأموال ويجعلونها في الأرصدة ولا يخرجون زكاتها ولا يتصدقون ولا ينفقون منها؛ هؤلاء إذا جاء يوم القيامة أتي بها، صفحت لهم صفائح من نار، وأتي بهذه هذه أموال وأحمي عليها في نار جهنم.

ما قال لك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توضع في نار جهنم، لا، تحمى عليها، توقد عليها النار أشد، يوم يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، ويقال لهم أيضًا هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون.

☜يقول في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يُحْمَى عَلَيْهَا فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»**؛ كلما بردت أحمي عليها، تصفح عليهم.

وجاء في حديث وعيد شديد أيضًا في الذي لا يخرج زكاة ماله، أن هذا المال يمثل له ثعبان أقرع من شدة السم في رأسه، له زبيبتان، يأتي إلى صاحب المال ويلتف حوله، ثم يأخذ بشدقيه بجنبيه، شدقيه يعني بأطراف فمه ويضع السم في فمه ويقول: **«أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ»**.

هذا الذي يسمع مثل هذا الكلام ثم هو لا يخرج زكاة ماله، كيف يعيش؟ كيف يعيش وهو لا يؤدي زكاة ماله، وهي ركن من أركان الإسلام، ركن؟ يقول فذوقوا ما كنتم تكنزون.

- ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لك أن الزكاة ما هي؟

اثنين ونصف بالمائة، الزكاة نصف العشر، نصف في العشر قليل جدًا، ومتى تخرجها؟ في السنة مرة.

اسمعوا، الله يقول: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: 36]؛ هذا عند الله بحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشهور اثنا عشر شهرًا.

هذه الشهور هي الشهور القمرية الهلالية التي فيها رمضان يعرف الناس الصيام، والتي فيها الحج يعرف الناس ماذا كيف يحجون، والتي فيها الأشهر الأربعة الحرم؛ أما غيرها من الأشهر الأخرى ما نعرف رمضان ولا الحج ولا الأشهر الحرم ما نعرف، ولا نعرف الصيام البيض ولا نعرف شيئًا.

- هذه اللي عند الله في حكمه، متى؟

يوم خلق السماوات والأرض، يوم خلق السماوات والأرض تبدأ بالمحرم وتنتهي بذي الحجة، هذه هي عدة هذه هي الأشهر؛ قال في كتاب الله في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، هذه قدرها الله وكتبها عنده يوم خلق السماوات والأرض.

- قال منها أربعة حرم، ما هي؟

ذو القعدة وذي الحجة والمحرم ورجب، أربعة أربع حرم، باقي حرمتها إلى قيام الساعة؛ لا يجوز القتال فيها ولا يجوز الظلم فيها ولا التعدي فيها، بل تعظم وتحرم كما عظمها الله؛ منها أربعة حرم.

قال: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 36]؛ هذا دين الله، الأشهر وأشهر الحرم شهور السنة هذا دين الله، قال ذلك الدين القيم.

ثم قال ولا تظلموا فيهن لا في السنة ولا في الأشهر الحرم، لا تظلموا فيهن أنفسكم، وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة؛ هم يقاتلونكم فلا تتركوهم قاتلوهم كما يقاتلونكم كافة، واعلموا أن الله مع المتقين؛ اتقوا الله وراقبوه واعلموا أن الله ناصركم ومؤيدكم.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم استكمل ما توقفنا عنده، والله وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(178)
(التوبة 37 - 45)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، اللهم إني نسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملًا متقبلًا.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المتجدد؛ لقاء الأربعاء بعد صلاة المغرب من كل أسبوع، هذا اليوم هو اليوم الأربعاء، الموافق للـ 20 من شهر شعبان من عام 1446 للهجرة.

أسأل الله أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يبلغنا وإياكم الشهر الكريم المبارك ونحن في صحة وعافية، وأن يعيننا وإياكم على صيامه وقيامه إيمانًا واحتسابًا، وأن يوفقنا وإياكم جميعًا إلى قيام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا.

تفسير القرآن العظيم، السورة بين أيدينا هي سورة التوبة، نأخذ آيات منها نقرأها ونتدبرها ونتأمل ما فيها، ونسأل الله أن ينفعنا بها.

يقول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه العزيز: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 37].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر بعض جنايات هؤلاء المجرمين المشركين، يعني ما كفاهم أنهم أشركوا بالله، وصدوا عن سبيل الله والمسلمين، وفعلوا ما فعلوا، إلا أنهم تعدوا على حدود الله وحرماته. ل

ما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات السابقة، ودائمًا ربط الآيات بعضها ببعض يعين على التدبر والفهم، ويعينك على سرعة فهم الآيات، لما تقرأ الآيات تجد الآيات بعضها مرتب على بعض، انظر الآيات التي قبلها الله تحدث عن عدة الشهور.

قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة: 36]، ثم ذكر الأشهر الحرم، ثم ذكر هذا الأمر الذي كان يفعله المشركون. ما هو؟ كثير من الناس لو تأتي لتقول: إنما النسيء.

- ما هو النسيء؟

يقول لك: ما أدري، ما يعرف النسيء. لماذا؟ آيات في القرآن يعني لا بد أن تتعلم، تتعلم وتفهم معانيها.

النسيء أصله معناه في اللغة **"التأخير"**، يعني نسا بالشيء أخره، **"النسيء التأخير"**. ما القصة؟ المشركون يعتمدون في أرزاقهم وأكلهم وشربهم على النهب والسلب والسرقة والقتل، هذه حياتهم، يعني حياة إجرام، يقتل ويسلب وينهب.

فإذا جاءت عندهم الأشهر الحرم وهم يعرفونها ويعظمونها أربعة أشهر، يعني أربعة أشهر يقف عن القتال يستصعب هذا الأمر، يمكن ينتظر شهر، لكن أربعة، ثلاثة أشهر متتالية؛ شهر ذي القعدة وذي الحجة والمحرم، ثلاثة متتالية هذه تطيل عليه.

- فماذا صنعوا؟

زين لهم الشيطان، قال: هذه ثلاث أشهر لا بد من واحد منها نقدم أو نؤخر، يعني ذي القعدة مثلا نقدمه إلى شوال ونستحل القعدة، ونخلي المحرم شوال، هذه السنة شوال، أو يأتون على مثلا

محرم فيقولون: يعني انتظرنا ذي القعدة وانتظرنا ذي الحجة ثم يأتينا محرم، محرم نجعله صفر ونقدم صفر على محرم.

فيكون إذا نهبنا وسرقنا وانتهكنا هذا الشهر، هذا شهر صفر احنا ما اعتدينا، يعني تحايل، قضية تحايل، فكانوا يفعلون ذلك حتى ضاعت السنة، ضاعت ما ندري وين صفر من المحرم، ضاعت السنة.

☜ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يحج إلا في آخر حياته في السنة العاشرة حتى قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ»**؛ لأنه مضيعة، فرجع كهيئته فحج، لأنه لو حج ما يدري هل حج في ذي القعدة أو حج في المحرم، فضيعوا السنة بطريقتهم هذه.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [التوبة: 37]؛ يعني هم في كفر وزادوا على كفرهم كفرًا.

قال: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: 37]، يعني يضل به يعني بأسباب كفرهم وضلالهم يضلون، الذي يضل هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بلا شك، يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

لكن لا بد أن نعرف كيف يضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكيف يشاء، يعني لما إنسان يستمر في ضلاله وطغيانه ومعاصيه، الله يتركه للشياطين يعني تأخذ به، فيترك فيضل، يضله الله على ضلاله، لكن لو تاب ورجع فإن الله يفتح له باب التوبة.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 53]، يفتح باب التوبة، لكن يستمر على ضلاله وعناده وكفره الله ولي، الله غني عنه.

وقوله هنا: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: 37]؛ يعني بسبب كفرهم يضلون ويتركون، مع أن هناك قراءة أخرى **"يَضِلُّ به"**؛ يعني هم يَضِلُّون به، يعني هم سبب الضلال.

﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم بين لك حقيقة هذا النسيء وش هو، ما هو؟ قال: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا﴾ [التوبة: 37]؛ أي شهر؟ الأشهر الحرم، يحلونه عامًا؛ يعني يأتون على محرم ويجعلونه صفر، فيحلونه فيجعلونه حلالًا ليس محرمًا عامًا، العام الثاني يرجع كما كان.

قال: ﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ [التوبة: 37]؛ يعني مرة حلال ومرة حرام حسب ما يريدون.

قال: ﴿لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: 37]؛ يواطئوا يعني يوافقوا. يقول: إذا جيت لما قلت يا أخي هذا شهر حرام، المحرم شهر حرام، قال: أنا ما انتهكت حرمة الله، الأشهر الأربعة حرام حرمتها، ما هذا ذي القعدة وذي الحجة حرام، ثم قدمنا صفر، صفر أصلًا ليس بالحرام، والمحرم الذي وضع في صفر قال: ما زال حرام، ورجب حرام.

قال يوافق يواطئ عدة ما حرم الله، ﴿فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: 37]، يحل الشهر المحرم مثلًا كم على سبيل المثال.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ﴾ [التوبة: 37]، شياطينهم من الجن والإنس زينت لهم أعمالهم، زينت لهم أعمالهم.

قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 37]، ما داموا على كفرهم وضلالهم وبعدهم عن الله لا يهديهم، أما إذا تاب ورجع فإن الله يهديه.

ولذلك يعني تجد بعض الناس هذه تشكل عليه هذه الآية، يقول لك: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ونجد الكفار هداهم الله، يعني مثل أبو سفيان، صفوان بن أمية، وعكرمة، وكثير من المشركين، يعني وصل بهم الحد إلى قتال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع ذلك كفار وهداهم الله.

نقول: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ من استمر على وبقي على ضلاله، أما من تاب تاب الله عليه.

إلى هذه الآية 37 من أول السورة، حتى نفهم يعني السورة بشكل عام، من أول السورة وهي تتحدث عن المشركين، ثم دخل الحديث عن اليهود والنصارى، الآن تنتقل الآيات الحديث عن المنافقين وهو المقصود في السورة.

حتى سميت سورة هذه سميت **"الفاضحة"**، و**"المقشقشة"**، و**"البحوث"** وغيرها، يعني فضحت المشركين وفضحت المنافقين. من هذه الآية إلى تقريبًا قبيل آخر السورة كله حديث عن النفاق والمنافقين، وغزوة تبوك التي كشفت عوار هؤلاء المنافقين وفضحتهم.

انظر قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38].

انظر الآيات في بدايتها أسلوب إنكار، كيف أيها المسلمون ما ترفعون عزة الإسلام بالجهاد؟ فالجهاد هو ذروة سنام الإسلام، فلماذا أنتم تتثاقلون على الجهاد؟ تريدون الدنيا ولا تريدون الآخرة؟

فبداية الآية قوية فيها إنكار، مع أن المسلمين المهاجرين وصفوة اتباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكل من اتبعهم للمؤمنين ما كانوا يتقاعسون على الجهاد ولا كانوا يترددون، ولكن هذه الآية مثل ما يقال **"إياكِ أعني واسمعي يا جارة"**؛ يعني هي خطاب المسلمين الإيمان الحقيقي، ولكن يراد من دخل فيهم من المنافقين.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ﴾ إنكار، لماذا؟ ما السبب؟ ما الذي دعاكم لهذا الشيء؟ ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اخرجوا للجهاد، واخرجوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما دعاكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: 38]؛ انظر كلمة **"اثَّاقلتم"** ثقيلة، تفيد أنهم متثاقلين عن الجهاد. **"اثَّاقلتم"** أصلها **"تثاقلتم"**.

أخذت التاء وأدغمت مع الثاء فأصبحت الثاء مشددة فاحتجنا إلى ألف أو إلى همزة وصل **"اثَّاقل"**، يعني تثاقلت، تثاقل يعني الكسل والتقاعس عن الجهاد، الضعف عن الجهاد، عدم المسارعة على الجهاد، عدم النفير.

﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ ثم قال على وجه الإنكار: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تريدون الدنيا؟ ترضون بالدنيا بالحياة الدنيا؟ انظر حتى سماها **"الدنيا"**؛ دنيئة، ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ بدلًا من الآخرة، ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38]؛ متاع ويزول، وعرض ويزول ويذهب مقابل الآخرة ما في مقارنة، يعني ما في مقارنة أبدًا، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل.

☜في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الدنيا كلها متاعها وزينتها بالنسبة للآخرة: **«مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»** وضعت إصبعك في البحر ثم ماذا خرجت؟

هذه الدنيا مقابل الآخرة، الآخرة البحر كله، فما في مقارنة، لكن نحن ما نتصور الآخرة على حقيقتها، لو تصورناها على حقيقتها كان الدنيا لا تساوي عندنا أي شيء.

يقول: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ تفضلون الدنيا على الآخرة؟

متاع الحياة الدنيا قليل بالنسبة للآخرة، فأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وانفروا في سبيل الله.

ثم يأتيك أسلوب أقوى من الأول، يقول: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [التوبة: 39]؛ تهديد، يعذبكم، شلون مؤمنين مصدقين ومتبعين ومع ذلك يأتيهم مثل هذا؟

لأن الجهاد أمره ليس بالسهل، قال: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عذاب الدنيا، عذابًا أليمًا يسلط عليكم أنواع العذاب في الدنيا، ثم بعد ذلك ماذا؟ ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: 39]؛ يذهب بكم ويأتي بأناس خير منكم، وهذه سنة الله، ذهب أناس الله أذهب أناسًا وأتى بناس مكانهم.

هذه سنة الله، ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ [التوبة: 39]؛ ما تضرون الله شيئًا إذا عصيتموه، وإذا لم تخرجوا للجهاد، وإذا لم تنفروا لا تضروه شيئًا، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا مانع يمنعه.

ثم أتاك ما هو أقوى فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: 40]؛ إذا أنتم لم تنصروا رسولكم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا تظنون أن الله لا ينصره، سينصره ولو كان وحده، ينصره بجنوده من الملائكة. ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ فقد نصره الله، متى؟

يقول لك نصره الله، انظر هذه ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ ليست جوابًا لـ **"إن"** في **"إلا تنصروه"**، لا، هذه ليست جوابًا. التقدير: إلا تنصروه فإن الله ينصره، فقد نصره.

شايف، ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ لأنك لو قلت: إلا تنصروه فقد نصره، ما يستقيم، يعني هو يقول لك إلا تنصروه الآن ثم يقول لك نصره أيام الهجرة أو يوم الهجرة. التقدير: إلا تنصروه فإن الله ناصره، ثم قال لك أتك بالمثال؛ ﴿فَقَدْ﴾ الذي نصره الله متى؟

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التوبة: 40]؛ أخرجه الذين كفروا لما ضيقوا عليه، وخططوا على قتله، وعلم بالوحي أنه قد اجتمعوا على قتله، فأمره الله بالهجرة، فذهب إلى دار أبي بكر الصديق وأخبره بالهجرة فخرجوا في تلك الليلة.

انظر قال: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ﴾ [التوبة: 40] فقط هو وأبو بكر وأمام المشركون كلهم نفروا، المشركون كلهم من بيوتهم للقبض عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾، قال هنا: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ في غار ثور جنوب مكة، معروف جبل ثور، صعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واختفى فيه ثلاثة أيام والمشركون يبحثون عنه. ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ [التوبة: 40] من هو؟ أبو بكر، وفي هذا منقبة عظيمة لأبي بكر، وشهادة من الله أنه صاحب، وأنه صاحب، وأنه وقف.

☜حتى قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أبي بكر: **«لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَرَجَحَ بِهِمْ»**. فهذه منقبة عظيمة، في ذكره لم يذكر أحد من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على سبيل المنقبة والذكر الحسن مثل أبي بكر، أما زيد ذكر اسمه ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: 37] ليست على سبيل المدح والمنقبة، وإنما ذكرت فقط.

يقول انظر هنا، قال: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: 40]. لماذا لا تحزن؟ المشركون حتى الجبل وصلوا وصعدوا الجبل، يقول أبو بكر الصديق: **«والله لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا»**.

وعسر الأمر إلى هذا الحد، يعني لو نظر لأبصرهم، ولو أبصرهم لقتلهم فحزن، يقول الصديق رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه يقول: **"كان حزني لرسول الله لا لنفسي"**، أنا أقتل لكن لا يقتل رسول الله.

قال: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ يقول هما، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ يقول لصاحبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول لأبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ﴾ يعني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما حزن لأنه يعلم أن الله معه، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]. هذه معية خاصة، معية النصرة والتأييد ودفع الكفار وإعماء أبصارهم عن الوصول إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: 40]؛ يحتمل أنه أنزلها على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا المتبادر، ويحتمل أنه أنزلها على أبي بكر. ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ وهذا أن يقال على النبي أولًا، لماذا؟ لأنه قال بعدها: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: 40].

فالسكينة نزلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي الطمأنينة وذهاب الخوف والحزن حتى استقر باله ولم يقلق، هذه السكينة.

﴿سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: 40]؛ معناه أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل جنودًا وهم الملائكة. ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هناك حالات نزلت أنزل الله فيها جنود فقاتلوا مثل غزوة بدر، قاتل فيها الملائكة، قاتلت على خيول بلق، قاتلوا المشركين عليهم عمائم.

وبعض الغزوات نزلوا ولم يقاتلوا وإنما للتهييب والتخويف مثل حنين والخندق وغيرها، هنا أنزل جنودًا كما قال ملائكة، ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أنتم ما ترون لكن موجودين هم.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ [التوبة: 40]؛ ليس لهم أي قيمة، جعلها سافلة لا قيمة لها، ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: 40]. انظر عبارة القرآن جمال، ما قال **"وجعل كلمة الله"**، ليش؟ هو قال ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ﴾ لكن لما جاء عند كلمة الله ما قال **"وجعلها"**، لماذا؟ لأنها عالية أصلًا، عالية ما يحتاج إنك ترفعها.

- ولذلك كيف قال؟

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ﴾ ثم أتى بالضمير ضمير فصل للتأكيد وقال ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ لا غير، حصر، هي العليا.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40]؛ عزيز غالب على أمره، لا يمكن أن يؤذى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصاحبه أبدًا بل حماه، والله عزيز حكيم في تدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. يعني انظر سياق القصة هذه، قصة الهجرة والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخروجه، كل هذا يأتي في سياق الحديث عن الجهاد والنفير في الجهاد. يقول: أنت إذا لم تخرج للجهاد فالله ناصره كما نصره في هجرته.

ثم تعود الآيات: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 41]. انفروا في سبيل الله يعني انفروا خفافًا وثقالًا.

- كيف خفافًا وثقالًا؟

يعني معك سلاح ولا ما معك سلاح اخرج، شباب ولا كهول اخرجوا، عندك أولاد في البيت يمنعونك ولا ما عندك أولاد اخرج، معك مال ولا ما معك مال، على أي حال ما فيها ما لك عذر واخرج خفافًا، ما ترك لهم فرصة حتى يعتذرون.

انفروا خفيفين أو ثقيلين يعني، وانفروا أيضًا إذا كان الجهاد خفيف عليكم انفروا، ثقيل عليكم انفروا، في أي حالة.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ قدم المال لأن المال سهل حتى المعذور يقدم المال، المال هو الذي يعين على الجهاد، ﴿بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ النفير والخروج والجهاد بالمال والنفس خير لكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، إن كنتم تعلمون حقيقة هذا خير لكم، أما إن كنتم لا تعلمون فهذا أمر آخر.

إلى هذه الآية في أسلوب قوي في التهديد والوعيد الشديد في الخروج للجهاد والنفير في الجهاد، ثم بعد ذلك تدخل الآيات في مواقف المنافقين.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 42].

لو كان عرضًا تقريبًا يعني عرض من أعراض الدنيا، ومتاع قريب زين، وسفرًا قاصدًا ما في تعب قاصد يعني ما في مشقة عليهم لهؤلاء المنافقين لاتبعوك مباشرة، ولكن بعدت عليهم الشقة.

غزوة تبوك بعيدة عليهم 600 كيلو من المدينة لما تبوك تقريبًا شرق، وحر وما معهم زاد وصعب الطريق، فجلسوا وتركوا الجهاد.

انظر قال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ صعبت عليهم الشقة لأن اللي ما عنده إيمان ما يدفعه.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ﴾ انظر هذا خبر من الله لنبيه قبل أن تنزل الآية، ما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أنهم سيحلفون، لكن لما كشف القرآن عنهم بين قال: سيحلفون بالله إذا رجعت من الجهاد وهم الذين جلسوا ولم يخرجوا، مباشرة سيأتون يعتذرون، وجاء المعذرون يعتذرون عليك.

قال: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ يعني هم سيحلفون ما بعد حلفوا، سيحلفون إذا رجعت سيحلفون بالله، هذه صفات المنافقين كثرة الحلف الكاذب، سيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا، لكن لا نستطيع لو استطعنا لخرجنا معكم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ كيف يهلكونها؟

⬅الأمر الأول: تركوا الجهاد.

⬅الأمر الثاني: أنهم يحلفون كذب، يعني جمع سيئة على سيئة، ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لا في اعتذاراتهم ولا في حالفهم.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من رأفته ورحمته يريد منهم أنهم يعني يرجعون إليه ويقبلون عليه وهو يعلم أنهم منافقون، ويفتح لهم باب التوبة فعفى عنهم وقبل توبتهم وقبل اعتذاراتهم، فجاء القرآن بأسلوب لفظ جميل حسن، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على وجه العتاب، العتاب اللطيف، قال: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: 43].

انظر قدم قبل أن يأتي بالسبب ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ﴾، لما أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين، في صادقين وفي كاذبين فأنت أذنت لهم، فلما أذنت لهم عفى الله عنك.

انظر أسلوب القرآن مثل ما تقول أنت: **"رحمك الله يا فلان لماذا تفعل كذا؟"** ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾.

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قاعدة تميز المنافق، تبين تميز المؤمن من المنافق: ﴿لَّا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 44].

المؤمن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر حقيقة ما يستأذنك، ما يستأذن أن يجاهد، يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم، لماذا؟ لأن عندهم إيمان ويعرفون عظمة هذا الأمر ويسارعون ولا يترددون، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ شهادة من الله أنهم من أهل التقوى وأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر فلا يترددون في الخروج معك، هؤلاء واضح وهم جل الصحابة.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 45]. المنافقون ما عندهم إيمان بالله واليوم الآخر، يظهر الإيمان أمام الناس وقلوبهم فاسدة.

قال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ ويعتذرون إليك ولا يريدون أن يخرجوا ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ شككت قلوبهم، مشككين في الوحي وفي الشرع وفي رسول الله وفي الإيمان وفي الطاعة وفي الجنة وفي النار، ما عندهم إيمان.

﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾، يترددون لا يدرون أين يذهبون، مذبذبين ما يدرون، مرة يأتون مع المؤمنين ومرة يأتون مع الكفار، يترددون.

لاحظ في ختام هذا المجلس يقول: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ليش ركز على الإيمان بالله واليوم الآخر؟ لأن حقيقة الإيمان الإيمان بالله ويتبعه كل أركان الإيمان، آمنت بالله تبعه، واليوم الآخر لأنك تعرف ثمرة الجهاد وثمرة الطاعة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بفهم ما عندهم أصلًا إيمان بالجنة والنار ولا عندهم إيمان حقيقي بالله، فلذلك فاتهم هذا الشيء.

نقف عند هذا القدر وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، نسأل الله أن يوفقنا لطاعته، بارك الله فيكم وجزاكم عنا خيرًا على حسن إصغائكم وحضوركم، نلقاكم على خير والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه.

(179)
(التوبة 46 - 59)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ هذا اللقاء الذي يعقد كل أسبوع بعد صلاة المغرب من يوم الأربعاء في تفسير كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرآن العظيم. نجلس هذا المجلس المبارك، ونستمع لآيات من كتاب الله، نبين معانيها ودلالاتها، ونسأل الله أن يعيننا، وأن يوفقنا، وأن يهدينا إلى صراطه المستقيم.

هذا اليوم هو اليوم السابع من شهر شعبان من عام 1446 للهجرة، السورة التي بين أيدينا هي سورة التوبة، والآية الـ 46 يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها في الحديث عن النفاق والمنافقين، والتحذير من أهل النفاق، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: 46].

أهل النفاق والمنافقون نواياهم سيئة، ومقاصدهم سيئة؛ لا يريدون الحق، ولا يريدون إظهار الحق، ولذلك لما يتحدث الله عنهم وعن أحوالهم في الجهاد في سبيل الله، هم لا يجاهدون لإعلاء كلمة الله، ونصرة الإسلام والمسلمين، ونصرة دين الإسلام، لا، وإنما إذا خرجوا إلى الجهاد - والأكثر أنهم يعتذرون- لكن إذا خرجوا للجهاد لا يخرجون إلا للفساد والإفساد، وتفريق صفوف المسلمين.

ولذلك من أقوى الشواهد على ذلك في غزوة أحد، لما خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان معه من المجاهدين الصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- في مقابلة المشركين الذين خرجوا من مكة لقتال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعهم ثلاثة آلاف.

لما وصل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخرج إليهم بأحد، رجع رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ومعه ثلاثمائة شخص؛ يعني ثلث الجيش رجع، هم يثبطون ويفرقون بين المسلمين ولا يريدون إظهار الحق.

- انظر ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

يقول: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ [التوبة: 46]؛ يعني الجهاد، لأعدوا له عدة واستعدوا لهم عدة؛ يعني في أنفسهم، يعني يهيئون أنفسهم للجهاد، ويعدون أيضًا العدة من السلاح ونحوه، لكنهم لا يفعلون لا هذا ولا هذا، لأعدوا له عدة ولكن ما أعدوا له عدة، فلذلك لم يخرجوا للجهاد، وإنما قدموا أعذارًا واهية لا حقيقة لها.

يقول: ما السبب الذي جعلهم لم يخرجوا وقدموا هذه الأعذار؟ قال لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كره انبعاثهم، قال: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: 46]؛ يعني كره الله خروجهم مع المسلمين.

- لماذا لا يريد الله أن يخرج هؤلاء المنافقون مع المسلمين؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾؛ أقعدهم وجلسهم ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: 46].

لا يريد الله لهم، الله منعهم الخروج بسبب ذنوبهم خذلهم ومنعهم، وهذه الآية ينبغي أن نقف عندها يعني وإن كانت في حق المنافقين، فالمسلم يحذر ويخاف من الذنوب والمعاصي.

الذنوب والمعاصي مكبلة تكبل الإنسان عن الطاعة، عن تلاوة كتاب الله وعن تدبره، عن الخشوع في الصلاة، عن قيام الليل، عن صيام النوافل، أعمال كثيرة عن الصدقة، هذه كلها تفوت على الإنسان ويحرم بسبب الذنوب والمعاصي وبسبب النوايا السيئة.

يعني الله كره انبعاثهم لماذا؟ لأن نواياهم سيئة، وأعمالهم سيئة، وذنوبهم كثيرة، فثبطهم فجلسهم وجعلهم لا يخرجون للجهاد ويحرمون من أجر الجهاد ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: 46].

ثم يبين لك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى السبب في ذلك؛ لماذا يخرجون؟ ولماذا ثبطهم الله ومنعهم للخروج؟ قال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: 47].

- ما هو الخبال؟

الفساد، الفساد؛ يقول ما زادوكم إلا خبالًا؛ يعني لو خرجوا معكم ما زادوكم إلا فسادًا، ما فيهم خير يعني إلا الإفساد والإفساد بين صفوف المسلمين.

يقول: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ [التوبة: 47]؛ أوضعوا يعني أسرعوا خلالكم؛ يعني بين صفوف المسلمين، ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: 47]؛ يريدون أن يحرضوا الفتن ويختلقوا الفتن بين المسلمين، ويجعلوا الصفوف تتفرق، يعني المسلمون خرجوا في غزوة أحد كانت كلمتهم واحدة، ما معهم أحد من المنافقين.

في غزوة بدر؛ في غزوة بدر هي أول غزوة في الإسلام ما كان في نفاق، فخرجوا كلهم على كلمة واحدة لم يكن هناك أي فرقة بينهم، صفوفهم واحدة. لما جاء أهل النفاق أفسدوا بينهم في أحد.

في الخندق، في غزوة الأحزاب؛ في أي غزوة من غزوات المسلمين أو المنافقين يدخلون فيهم إلا ويفسدون، والآيات تقرؤونها كثير في آيات النفاق وفي آيات الجهاد، تبين أن هؤلاء المنافقين لم يخرجوا لله ولا طاعة لله.

وإنما كما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا﴾ [التوبة: 47]؛ يعني أسرعوا ﴿خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: 47].

ومع الأسف تجد من يسمع من ضعفاء المسلمين، يقول لك: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 47]؛ تجد من ضعفاء المسلمين من يستمع حتى الآن، تجد من يستمع ويتقبل من أقوال المنافقين ومن أقوال أعداء الإسلام، فيكم سماعون لهم؛ من يسمع منهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47].

الله عليم بالظالم ويميز الظالم عن غيره. يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حق هؤلاء المنافقين، يقول: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: 48]؛ ليس فقط في هذه الغزوة أو في هذه الغزوة؛ غزوة تبوك، يقول ليست هذه فتنة جديدة عندهم، ابتغوا الفتنة والفساد من قبل هذه الغزوة، من قبل هذا الوقت.

﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ [التوبة: 48]؛ قبل أن تخرج للجهاد وقلبوا لك الأمور، قالوا؛ بدأوا يتحدثون عن المسلمين، ويتحدثون عن أعداء الإسلام والمسلمين، وبدأوا يقولون الدائرة على المسلمين والمسلمين سينهزمون؛ بدأوا يثيرون هذه الفتن.

﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 48]، ونصر الله دينه ونصر نبيه وأخزى هؤلاء الأعداء، ظهر لهم الأمر على حقيقته ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: 48]؛ لا يريدون إظهار الحق لا يريدونه.

ثم يحكي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا أيضًا من أفعال بعض هؤلاء المنافقين، وهذه التي يحكيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي لأحد المنافقين، يقال له الجد بن قيس، رجل من المنافقين.

يقول: لما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعلن الخروج إلى غزوة تبوك، جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: **"أنت تعرفني يا محمد وأهل المدينة يعرفونني أني لا أصبر، وأني أحب النساء، ولو خرجت معك إلى الروم في غزوة تبوك لمقابلة الروم أنا لا أصبر عن بنات بني الأصفر؛ يعني بنات الروم، لا أتحمل، فأذن لي يا رسول الله"**.

فأذن له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بناء على كذا، فأنزل الله في هذه الآية تدل على أنه ليس صادقًا، وإنما كان قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي﴾ [التوبة: 49].

لا تفتني في بنات بني الأصفر جمال فيهن ولا أتحمل ولا أصبر، وأنا عشيرتي تعرف عني أني لا أتحمل، قال: ائذن لي يا محمد في القعود ولا أخرج معك إلى قتال بني الأصفر، قال: ائذن لي ولا تفتني.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: 49]؛ هو يقول لا تفتني في أي شيء، لا تفتني في النساء، يقول سقط في فتنة ما هي أعظم من النساء، وهي معصية الله ومعصية رسوله وعدم الخروج للجهاد، قال: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 49].

يقول: هو فر من شيء خفيف ووقع فيما هو أعظم وأشد، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين.

ثم يبين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا مواقف لهم سيئة، فيقول: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ﴾ [التوبة: 50]؛ يا محمد وأنت وأصحابك، إن تصبك حسنة من النصر والعزة والتمكين والمال والصحة والعافية والإيمان والطاعة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ [التوبة: 50]؛ ما يريدون ذلك لك أبدًا، لا يريدون هذا، هذه صفات المنافقين؛ لا يريد الخير لإخوانه المسلمين.

إذا أصابتك حسنة تسؤهم، يتضايقون ولا يتحملون ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ [التوبة: 50]؛ أما هزيمة في غزوة أو مصيبة في جسدك أو مصيبة في الدين أو أي مصيبة تصيبك، يقولوا: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: 50].

يقول: هذا الذي نريده، وقد أخذنا أمرنا من قبل، وهذا الذي نقصده؛ لأننا كنا لا نريد النصر لهم، وظهر ما في نفوسهم، وظهر ما كانوا يكتمونه في قلوبهم، يقولون: قد أخذنا أمرنا من قبل ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: 50].

يقول نحن الآن طلبنا منه الاعتذار وعدم الخروج للجهاد وعدم المشاركة؛ لأننا نريد هذا الشيء وتحقق لنا، وهم فرحون؛ يفرحون في شيء يسير ولا يدرون ما الذي يترتب عليه.

رد الله عليهم قال: قل لهم هذه مصيبة أو حسنة تصيبنا، أو مصيبة؛ كل هذا بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبأمر الله. لا أنتم ولا نحن ولا أحد يملك هذا الشيء، الذي يملك في تقدير المقادير كلها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الذي يصيب الإنسان بالخير هو الله، والذي يصيب الإنسان بالشر هو الله، كل هذا بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: 51].

انظر عبارة من أحسن العبارات: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾؛ الذي كتبه الله وقدره هو الذي يأتينا، ﴿هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51].

الواجب عليك عند أن تصيبك مصيبة أو تأتيك حسنة عليك أن تفوض أمرك إلى الله، تفوض أمرك إلى الله في جلب الخير ودفع الشر، لا يأتيك بالخير إلا الله، ولا يصرف عنك الشر إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يملك ذلك.

ولذلك الله يعلمنا ويؤدبنا بالآداب الحسنة، ويعلمنا بالأمور الطيبة الحسنة، والأخلاق حسن الكلام والرد في مثل هذه العبارة، إنسان أصابته مصيبة أو جاءه خير، يعلم أن ذلك كله بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبتقديره، وعليه أن يتوكل على الله في جلب الخير ودفع الشر.

لا تتوكل على نفسك ولا على أحد من الخلق، الخلق ما ينفعونك ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يرده الله ما نفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يرده الله لم يستطيعوا أن يضروك، فكن متوكلاً على رب العالمين.

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قل لهم: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ [التوبة: 52]؛ يعني تنتظرون بنا ﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: 52]؛ أي النصر أو الشهادة. أنتم تنتظرون وتنظرون إذا خرجنا للجهاد سواء خرجتم أو لم تخرجوا، تنظرون في أمرنا إحدى الحسنيين؛ إما أن ننتصر على العدو وهذا هو المطلوب، وإما أن ننال الشهادة وهذا أيضًا أمر أعظم؛ الشهادة أعظم.

- وأنتم ماذا تتربصون؟

قال: ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ﴾ [التوبة: 52]؛ ننتظر فيكم تنزل بكم عقوبة من السماء، أن يصيبكم الله بعذاب عنده ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: 52]؛ بأن نوقع بكم العقوبة ونوقع فيكم العذاب بأيدينا بالقتل والأسر، ﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: 52].

أنتم انتظروا ونحن ننتظر وننظر النتيجة ما هي النتيجة، ثم هم يعني مع هذا يخرجون للجهاد ويصلون مع المسلمين وينفقون أموالهم، لكن كل هذا تقية وخوف؛ خوف من أن يكشف الله أستارهم، وأن تنكشف أمورهم، لأنهم يريدون أن تحقن دماؤهم وتحفظ أموالهم، وإلا لا ينفقون لوجه الله ولا يصلون لوجه الله.

ولذلك اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 53]؛ يعني تنفقون طائعين أو كارهين، لن يتقبل منكم لماذا؟

قلوبكم فاسقة وأحوالكم فاسقة وأعمالكم سيئة ولا إيمان ولا طاعة، كيف يتقبل الله منكم؟ الله يتقبل كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

القبول من أهل الطاعة وأهل التقوى، أما مثل هؤلاء قلوبهم فاسدة، ولذلك الله بين كشف أسرارهم وكشف عوارهم، قال: ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾؛ الأمر سيان، لماذا؟ قال لا يتقبل الله منكم لأنكم قوم كنتم قومًا فاسقين.

ثم بين سبحانه أعظم وأعظم فقال: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ﴾ [التوبة: 54]. قلوب فاسدة كافرة؛ كفروا بالله وبرسوله، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ﴾ [التوبة: 54]، هذا إذا جاؤوا للصلاة ﴿إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: 54]؛ يعني ما في دافع قوي يدفعهم للصلاة في طلب الأجر عند الله والثواب، لا، وإنما تقية أمام الناس أنهم يصلون.

قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة: 54]. ينفقون لكن بكراهية، يصلون لكن لا تقبل منهم صلاتهم؛ يصلون ويأتون كسالى.

وفي هذا وقفة أيضًا لنا؛ أن المسلم العاقل الذي يعرف قدر الصلاة، ويعرف منزلة الصلاة وعظم الصلاة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنها صلة بين العبد وربه، أنه لا يأتي الصلاة وهو في كسل، بل يأتي وهو نشيط، وهو مقبل على الطاعة، ويتقدم ذلك الوضوء والاستعداد النفسي للصلاة.

يعني يتقدم للصلاة ويستعد، لا أنه يأتي ويمر مرور الكرام للمسجد ويصلي على عجالة، ويدخل في أطراف الصفوف أو متأخرًا، أو قد فات شيء من الصلاة فيصلي على عجالة بكسل وثقل.

ثم تجده أول من يخرج من المسجد، حتى أذكار الصلاة لا يأتي بها. وأذكار الصلاة هذه فيها فضل عظيم، فيها فضل عظيم؛ يعني ما تأخذ منك ولا خمس دقائق تجلس تذكر الله في مكانك، بعض الناس بمجرد الإمام يسلم على طول يخرج.

- لماذا الخروج السريع؟

سبح واذكر الله وأتِ بالأذكار، ثم صلِ إذا كانت في نافلة أو في راتبة بعدية، ثم اخرج بهدوء، قد يكون بعض الإنسان، بعض الناس عنده ظروف، فهذا الذي عنده ظرف أحيانًا هذا معذور، معذور وتجده أيضًا هو يذكر الله وهو يمشي ويذكر الله وهو في الطريق، هذا حالة خاصة.

لكن تجد كثير من الناس بمجرد الإمام يسلم يهبون خروجًا لوين؟ إلى؛ يعني هذا المكان بيت الله أعظم مكان في الدنيا كلها، تخرج من أعظم مكان إلى أماكن أخرى فلا تستعجل، لا تتعجل.

هذا والله يا إخوان حقيقة كله من الشيطان، إذا سلم الإنسان من الصلاة جاءه الشيطان وبدأ يذكره بأشغال وأعمال، ثم يهب مخرجًا يعني سريعًا، يخرج سريعًا.

لا، لا تطع الشيطان، وتعوذ بالله من الشيطان، وإذا جاءك مثل هذا الأمر اعلم أنه من الشيطان، فقل: **"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"**، واجلس واترك طاعة الشيطان وأطع الرحمن، ولا تكن تتصف بصفات المنافقين ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: 54].

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما يعني كانوا أهل أموال طائلة وعندهم أولاد، فتح الله عليهم حتى أعطاهم الصحة والعافية، هؤلاء المنافقون الله عَزَّ وَجَلَّ قال لا تعجبك، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هناك ذكر الله عنهم قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: 4]؛ أعطاهم الله.

يقول هنا: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ [التوبة: 55]؛ لا تغتر، لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إذا رأيتهم هذا، هذه الأموال والأولاد هذه عقوبة عليهم.

قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: 55].

- يمكن يأتيك سائل يقول لك: كيف الله يعذب المنافقين بأموالهم وأولادهم؟

الجواب: بأموالهم؛ بالهم والغم وجمع الفلوس وجمع الأموال، ولا يدري ولا يخرج ولا يتصدق، فهو في غم وهم حتى لو خسر خسارة يسيرة اهتم لذلك الأمر، وجاء وأصابه الحزن والغم والهم، فهو في الليل والنهار يفكر في هذا المال، فهذا الذي جعل؛ هذا عذاب من الله، عذاب.

والأولاد؛ يسلط الله عليه أولاده، يسلط عليهم أولاد فيؤذونه، فهذا هو قال يعذبهم الله بها، بالأمر؛ الأموال والأولاد، وتجد الآن من أبناء المسلمين أو من بعض المسلمين من يتعذب لأجل ماله وولده، فليحذر أن المال إنما جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسيلة وطاعة لك، لا يكون همك الأكبر المال.

يقول انظر قال: ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55]؛ يعني يموتون، تخرج أنفسهم وهم كافرون؛ يعني يبقون على هذه الحال حتى يموتوا ويخرجوا من هذه الدنيا وهم على هذه الحال. واسمع أيضًا من صفاتهم السيئة.

يقول: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ [التوبة: 56]؛ الحلف حلف من صفات المنافقين، لا؛ أحلف كاذبًا، ليست حلفًا فقط، حلفة كاذبة هذه من صفات المنافقين، قال: ويحلفون بالله، انظر فعل مضارع يقول لك ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾؛ يعني كثرة الحلف.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ [التوبة: 56]؛ يعني معكم هم، إنهم لمنكم؛ يقول نحن مؤمنون ونصلي ونتصدق، إنهم لمنكم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: 56]؛ ليسوا منكم ولكنهم قوم يفرقون، يفرقون يعني يخافون خوفًا ذريعًا، أي شيء يأتيهم يخاف، في خوف، في رعب، ليش؟ غير مستقر، يحسبون كل صيحة عليهم. يقول: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: 57]. ملجأ يعني حصن من الحصون، لو يجد وهو في قد خرج للجهاد مثلاً ورأى الأعداء قد تسلطوا على المسلمين يفرون.

فيقول: لو يجدون ملجأ؛ حصن من الحصون يدخل فيه، أو مغارات في الجبال كالغيران والكهوف، أو مدخلاً؛ السرب الذي تحت الأرض، ﴿لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾؛ يعني وهم يسرعون حتى يعني يحفظوا أنفسهم ويأمنوا من العدو، يجمحون.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا ومن صفاتهم قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: 58]؛ يعني يعيبك، يقول محمد لا يعرف، محمد لا يعرف العدل. هذا جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: **"يا محمد، إنك لم تعدل، اعدل في قسمتك"**، فغضب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إِذَا لَمْ أَعْدِلْ أَنَا، فَمَنْ يَعْدِلُ؟»**.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾؛ يقولون إنك ما تعدل، لماذا؟ لأنهم هم يريدون أن يأخذوا من الأموال. قال: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: 58].

يقول هم يريدونك أنك تقسم لهم من المال، فإذا أعطيت منهم، لو أعطيتهم شيئًا، أعطيتهم من المال من الصدقة؛ فرحوا ورضوا واطمأنوا، وإذا حرمتهم لأنهم لا يستحقون؛ إذا هم يسخطون.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: 59]؛ كافينا الله، هو الذي يرزقنا، هو الذي يؤتينا، سيؤتينا الله من فضله ورسوله يؤتينا أيضًا، لكان ذلك خيرًا لهم، لكنهم ما قالوا هذا الشيء، وإنما لمزوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعابوه واعترضوا على حكم الله وحكم رسوله.

لكن لو رضوا بما آتاهم الله ورسوله وقالوا: **"كافينا الله، هذا حكم الله نرضى به"**، ودعوا الله قالوا: **"يا رب إن الله يعطينا"**، وظنوا الظن الحسن بأن الله سيأتيهم من فضله ورسوله، وأنهم يرغبون فيما عند الله لكان ذلك خيرًا لهم.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(180)
(التوبة 60 - 63)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. الناس في هذا الشهر الكريم يقبلون على قراءة القرآن الكريم، ويختمون الخاتمات الكثيرة؛ حتى إن بعضهم ليختم القرآن كله في ثلاثة أيام، في كل يوم عشرة أجزاء، وتمر عليهم آيات كثيرة.

ولكن الذي ينبغي للمسلم إذا قرأ القرآن الكريم، فهو الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يمل الإنسان من قراءته، وهو كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: 115]؛ صدقًا في أخباره، وعدلًا في أحكامه.

ينبغي للمسلم إذا مر على شيء من هذه الآيات التي قد تخفى عليه معانيها ودلالاتها، ينبغي له أن يقف عندها، ويتأمل ويتفكر فيها، وينظر في كلام أهل العلم؛ كلام المفسرين فيها، لا أن تمر عليهم مرور الكرام وهو لا يدري ما معنى هذه الأشياء؛ حتى إن بعضهم يسألني عن بعض الآيات يستغرب، يقول مثلًا: **"وأما أحدكم فيسقي ربه خمرًا"**، كيف يسقي ربه؟

يقول: وشلون يسقي ربه؟ ما يدري أن كلمة الرب هنا معناها السيد، يعني يسقي سيده، يعني أو الملك أو نحو ذلك، فيظن أن الرب، لا بد أن نعرف معاني القرآن الكريم.

في درسنا في تفسير القرآن العظيم وسورة التوبة، وقف بنا الكلام عند الآية رقم 60، وهي ما تسمى عند أهل العلم بـ **"آية الزكاة"**، أصناف الزكاة؛ من هم أهل الزكاة؟

- من هم الذين يجب علينا إذا أردنا أن نخرج زكاة المال نعطيهم؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي تولى قسمة الزكاة، لم يجعل أحدًا من الناس يتولاها؛ ولا نبي، ولا ملك، ولا أحد، وإنما الذي قسمها بهذه الأصناف الثمانية هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلا بد أن نعرف من هم أهل الزكاة الذين يجب على المسلم إذا أراد أن يخرج زكاته أن يصرفها في يصرفها في مصارفها الصحيحة، لا أن يعطي أي إنسان يمر بالشارع يعطيه زكاة؛ لا، الزكاة فرض هي أحد أركان الإسلام الخمسة، ويجب عليه أن يخرجها، ولا يتهاون في تركها أو تأخيرها عن وقتها؛ إذا وجبت وحال الحول عليها وتم النصاب فيها، وجب عليه أن يخرجها مباشرة ولا يؤخرها.

يعطيها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿۞ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60]. هذه الآية أيضًا بعض الناس يفهمها خطأ.

- يقول: الصدقات هذه صدقة ولا زكاة؟

الجواب: لا، هذه زكاة.

- كيف يقول صدقات؟

الجواب: سميت الزكاة بالصدقة لأن من أسماء الزكاة الصدقة؛ لأنها تدل على صدق إيمان صاحبها، مما يدل على أن هذه مراد بها الزكاة لأن الله قال في آخر الآية **"فريضة من**

الله"، والصدقة ليست فريضة، ولأن الله خصها بأنواع ثمانية، والصدقة واسعة المجال؛ الصدقة تستطيع أن يعني تبني فيها مشاريع، تبني فيها مساجد، يعني الصدقة واسعة، أما الزكاة لا، محدودة بأشخاص معينين.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾؛ إنما هذه تفيد الحصر، يعني الصدقات في هذه الأشياء لا في غيرها، ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾؛ ولاحظ أن الله رتبها حسب الحاجة، أول من هم أولى بالصدقات بالزكاة هم الفقراء.

- من هم الفقراء؟

لأن الله قال **"للفقراء والمساكين"**، لا بد أن نعرفهم؛ الفرق بين الفقراء والمساكين: الفقراء الذي ليس عنده مال؛ معدوم المال، ما عنده شيء هذا الإنسان نسميه فقير، أو يكون عنده مال لكن لا يكفي نصف كفايته؛ لا يكفي، يعني لو فرضنا أن مصروفه الشهري على أسرته 4000 زين.

إذا كان راتبه 2000 فما دون، هذا فقير؛ لأنه ما عنده ولا نصف الكفاية، ما يغطي ولا نصف مصروفه الشهري، هذا اسمه الفقراء نسميه فقير.

- من هم المساكين؟

قالوا: لا، المساكين أعلى درجة، المسكين هو الذي عنده نصف الكفاية فأكثر، لكن ما يغطي، يعني لو فرضنا مثل المثال الأول، هذا الرجل عنده أسرة وراتبه 4000، لو فرضنا أن راتبه 3000 أو ثلاثة ونصف، هذا نسميه مسكين ونعطيه من الزكاة لأن الراتب لا يغطي، لكن لو كان مصروفه الشهري 4000 وراتبه 4000، هذا ما نعطيه من الزكاة ليس لا فقير ولا مسكين.

- النوع الأول: الفقراء.
- النوع الثاني: المساكين.
- النوع الثالث: العاملين عليها.

- من هم العاملون عليها؟

هم الجباة والسعاة الذين يأتون بالزكوات، يخرجون من البلد ويذهبون إلى المزارع والبساتين ورعاة الإبل والأغنام، ويجمعونها ويقسمونها ويذهبون إلى بيوت الفقراء ويتابعون، هؤلاء يعطون من الزكاة؛ متى؟

إذا لم يكن لهم مرتب من الدولة؛ إذا ما لهم رواتب، الله جعل لهم على مقابل أعمالهم هذه الشاقة أنهم لهم نصيب من الزكاة؛ يعطون من الزكاة.

- النوع الرابع: والمؤلفة قلوبهم.

- من هم المؤلفة قلوبهم؟

الذين تريد أن تؤلف قلبه من الأعداء أحيانًا، والكفار يعطون من الزكاة لأن يعني يكفوا شرهم أو ترغيبًا لهم في الإسلام؛ كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أسلم بعض أهل مكة في الفتح ما كان إسلامهم قويًا، فأعطاهم من الزكاة فدخل في الإسلام بقوة، فأحيانًا تأليف القلوب يعطون مثل هؤلاء، أو يكون شر فيعطون من المال حتى يكفوا شرهم على المسلمين.

هؤلاء تأمل في الآية؛ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ **"للفقراء"**، اللام للملك، يعني ملك الفقير، بعض الناس يجي إلى الفقير يقول له: **"شف أنا عندي زكاة بس ما أنا معطيك إياها، أنا بروح أسدد فيها إيجار ولا فواتير كهرب ولا كذا وكذا"**؛ لا، هذا أنت ما تملكه.

هذا المال للفقير هو يتصرف فيه، إلا إذا رأيت عند الفقير لا يحسن التصرف وقلت له: **"والله انظر أنا عندي زكاة وأنا ما ودي أعطيك إياها في يدك، أنا بسدد لك، تريد نعم ما تريد أعطيت غيرك"**، فيقول لك: **"نعم سدد لي"**، فهذا يجوز إذا استأذنت منه وأعطيته خبرًا، أما تتصرف فيها هذا لا يجوز.

انظر قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ يعني تمليك لهم، ﴿وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾؛ هؤلاء الأربعة تملك الزكاة لهم، تعطاهم بأيديهم.

⬅النوع الخامس: ﴿وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ هذه جاء بـ **"في"**، لازم نعرف الفرق بين **"للفقراء"** و **"وفي"**.

- لماذا قال وفي الرقاب؟

قال: لأن الرقاب ما تعطى ما يعطونهم بأيديهم، وإنما تسدد عنه.

- من هم الذين يقال أهل الرقاب؟

هم المماليك، المملوك العبد الذي يريد أن يعتق نفسه مكاتب نعطيه من الزكاة حتى يعتق نفسه، أو أن تريد أن تعتق مملوكًا تعطيه السيد من الزكاة وتعتقه يصبح حرًا، أو الأسارى؛ الأسير أحيانًا يكون أسيرًا في الحروب فيعطى فدية عشان نخلصه من الأسر، فهؤلاء يسمون الرقاب، هذا النوع الخامس.

⬅النوع السادس: والغارمين؛ يقول الغارم أحيانًا يكون الغارم لحظ غيره وأحيانًا لنفسه، لحظ غيره مثل أن تقع يعني مصيبة أو نزاع بين طائفتين وقبيلتين أو مشاكل بينهم، فيأتي شخص ويصلح بينهم، ويعطي من ماله كثيرًا حتى يصلح بينهم.

هذا يصبح غريمًا يصبح هذا يجوز أن تعطيه؛ لأنه دفع أموال غيره وأصلح بين طائفتين فنعطيه، هذا عليه أصبح عنده غرم عليه غرامة فنعطيه، أو الغارم لنفسه الذي ركبته الديون، تسلف واقترض وأخذ ديون من هنا من هنا فركبته الديون، فأصبح مطاردًا ومهددًا بالسجن تكون عليه غرامات.

فهذا يسدد عنه هذه الغرامات يعطى من الزكاة إذا كان ما يستطيعه؛ يعني قد يكون بعض الناس عنده غرامات كثيرة وعنده عنده أرصدة هذا ما يعطى، لكن إذا راتبه يا الله يا الله يا الله يغطي أسرته وعليه غرامات فهذا يعطى من الزكاة، لكن ينبغي التأكد منها هذا صاحب الغرامة.

بعض الناس يحمل نفسه ديونًا وهو ليس بحاجة؛ يستطيع أن يشتري سيارة بـ 50000 يروح يشتري سيارة بـ 200000 يقول: **"علي غرامة"**، يستطيع أن يؤثث بيته مثلًا بـ 50000 يروح يؤثث بيته بـ 300000 يقول: **"علي غرامات"**؛ لماذا أنت يعني تحد نفسك على هذه الأمور التي ترهقك بالغرامات وتجي تقول أنا علي غرامة أعطوني بالزكاة؟

فإذا كان فعلاً عليه غرامات مضطر؛ يعني شخص ما يستطيع أن يشتري سيارة وإذا وبحث من يمين يسار وراتبه ما يغطي عليه أن يشتري سيارة، فهذا في هذه الحال يعطى من الزكاة إذا اشترى سيارة وأصبح عليه دين يعطى من الزكاة.

⬅النوع السابع: ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ من هو الذي في سبيل الله؟ قال: المجاهد الذي يقاتل في سبيل الله، يخرجون للجهاد ويصلحون في الثغور وفي الحدود، هؤلاء يعطون للزكاة؛ متى؟

إذا لم يكن لهم رواتب من الدولة؛ قد يكون هناك عسكر ومجاهدون يقفون على حدود العدو، فهؤلاء يعطون الزكاة لأنهم فرغوا أنفسهم للجهاد، فيعطى من الزكاة إذا لم يكن له راتب.

قال بعده: ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾؛ ابن السبيل هو الذي مثلًا سافر ودخل في بلده ولم يكن معه أموال، ضاعت أمواله، ضاعت إبله، أو في الوقت الحاضر مثلًا ذهب البوك تبعه وذهبت بطاقاته وليس عنده شيء وأصبح معدومًا ما عنده ولا لا سكن ولا أكل ولا شيء.

فهذا يعطى من الزكاة حتى يتوصل حتى يصل إلى بلده، لكن إذا كان هناك طرق مثل الآن يستطيع أنه يذهب إلى البنك ويسحب، أو بواسطة شخص يحول عليه، أو بأي طريقة يصل إليها، فهذا لا يعطى زكاة، لكن إذا لم يجد له حيلة يعطى من الزكاة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾؛ يعني هذه الزكاة هي فريضة فرضها الله عَزَّ وَجَلَّ، فريضة فرضها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن تعطوها لهؤلاء الأصناف الثمانية، ولا يجوز إخراجها عن هؤلاء عن هؤلاء.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات التي بعدها: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾؛ هذه الآية متعلقة بالمنافقين، الآيات والسورة كلها تتحدث عن أهل النفاق وتفضحهم وتكشف سترهم، فيقول: ﴿وَمِنْهُمُ﴾ أي منهم أي من المنافقين ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾.

- كيف يؤذون النبي؟

يؤذونه بأي وجه وجوه الأذى؛ بالسب والشتم والقدح واللمز.

قال: ﴿يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ ومن أذاهم ماذا؟ قال: ومن أذاهم أنهم يقولون ويقولون ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾؛ كيف أذن؟ قال: يعني إنه يأذن لكل شيء ما يدري، يأتون يعتذرون إليه ويقولون: **"نحن في كذا وكذا"**، ويقول: **"نعم"** ويأذن.

قال: هو أذن يعني إنه يسمع كل شيء ما مجلس؛ يعني هم يسبون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالله رد عليه قال: نعم أذن لكن أذن أي شيء؟

﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾؛ ما يسمع إلا الخير ولا يأتيكم إلا بالخير، لا تقولوا أذن على إطلاقه، أذن خير لكم. ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يعني يصدق بما جاء عن الله، ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ما قال يؤمن بالمؤمنين، يؤمن للمؤمنين يعني يصدق للمؤمنين ويصدق بما جاءه عن الله، ويصدق للمؤمنين يعني يتقبل من المؤمنين، يعني يصدق ويقبل أعذار المؤمنين، أما المنافقين لا.

قال: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾؛ أيها المنافقون هو رحمة لمن للذين آمنوا منكم؛ لمن تاب وآمن ورجع عن نفاقه فهو رحمة عليه، ثم توعدهم بالوعيد الشديد قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 61]؛ الذين يؤذون رسول الله بأي وجه سواء في حياته أو بعد مماته، فالذين يسبون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد موته أو يؤذونه أو يقدحون في شريعته لهم عذاب أليم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من صفات المنافقين كثرة الحلف، يحلفون كثيرًا، والذي يحلف كثيرًا لم يثق في نفسه؛ لو كان واثقًا في نفسه ما أكثر الحلف، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في حتى في المؤمنين قال: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: 89]، لا تكثروا من الحلف.

المنافقون صفاتهم كثرة الحلف، اتخذوا أيمانهم جنة. يقول هنا قال هنا قال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾؛ يقول يأتون إليكم أيها المسلمون والمؤمنون يحلفون لكم كثيرًا لأنهم يكذبون فيحلفون ليرضوكم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾؛ لا يرضون الناس، يرضون الله أولًا، الله ورسوله هو أحق بالرضا.

انظر قال **"أن يرضوه"** ما قال **"يرضوهما"**؛ لأن رضا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تابع لرضى الله، قال الله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ أن يرضوا الله، وإذا أرضوا الله أرضوا رسوله ﴿إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 62]، إن كانوا مؤمنين.

ثم هددهم قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ يحاد يعني يشاق ويخالف ويبتعد عن طريق الشرع، يحاد الله ويحارب الله ورسوله ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾؛ وعيد شديد بأن له نار جهنم ﴿خَالِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 63]؛ الخزي الفضيحة والعار له في الدنيا والآخرة، الذي يحارب الله ولا يقبل شرعه وع توعده الله بنار جهنم ثم بالخزي العظيم.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله، لنا لقاء نستكمل فيه هذه الآيات، وإن شاء الله نبين ما فيها من معانٍ، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(181)
(التوبة 64 - 72)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلِّ وأسلِّم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ لقاء الأسبوع كل أربعاء بعد صلاة المغرب، نجتمع في هذا المقام المبارك وفي هذا الجامع المبارك على كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ نقرأ آياتٍ من كتاب الله ونتأملها ونبين معانيها ونتدبر ما فيها.

☜ولا ننسى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ يَقْرَءُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»** في الملأ الأعلى، فنسأل الله أن يحرمنا هذا الفضل العظيم.

عندنا قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي الآية الـ 64 من سورة التوبة؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 64]. هذه السورة التي بين أيدينا سورة التوبة، يسميها أهل التفسير وأهل العلم **"سورة الفاضحة"**؛ لأنها فضحت المنافقين.

ولذلك كما قال ابن عباس: **"فضح الله المنافقين في هذه السورة فما تركت شيئًا أخفوه إلا كشفه"**. فتجد فيها **"ومنهم" "ومنهم"** كثيرًا، فكان بعد هذه الآيات وبعد ما كشف الله عوارهم وأستارهم بدأوا يخافون عند نزول الآيات، وكانوا على خوف ووجل كلما جاءت آيات تنزل كانوا على خوف.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخبرًا عنهم: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 64].

- ما الذي في قلوبهم؟

هو الكفر والنفاق، والحقد على الإسلام والحسد على المسلمين؛ تنبئهم بما في قلوبهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ [التوبة: 64] أيها المنافقون، ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 64]؛ يستهزئون بأي شيء؟

- ما هو الاستهزاء؟

أنهم يظهرون الإيمان أمام المؤمنين وأمام الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، يظهرون الإيمان والصلاة والزكاة والصدقة والجهاد، ويستهزئون بذلك، ويخفون الكفر والنفاق والحقد على الإسلام؛ هذا هو الاستهزاء.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 64]؛ الذي في قلوبكم تحذرون وتخافون أن تكشف أموركم، الله مخرج ما تحذرون.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسوق لنا موقفًا من مواقف هؤلاء المنافقين يبين لك ما هو استهزاء؛ يعني إلى أي درجة وصلوا؟ في غزوة تبوك، وهي آخر غزوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي ذكرت في هذه السورة، لما خرج المنافقون مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانت المسافة بعيدة والحر شديد، ومع ذلك خرجوا؛ خرجوا لأنهم يظهرون أنهم مع المؤمنين ويخفون ما في قلوبهم.

فخرجوا وكان في الطريق، بعد في هذه المسافة البعيدة، بدأوا يستهزئون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقولون: محمد يخرج يقابل الروم الذين هم عرفوا بقوتهم وعدتهم وعتادهم، يريد أن يهلك نفسه ويهلك من معه.

ثم يزيدون على ذلك أنهم يستهزئون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبصحابته، فيقولون: **"ما رأينا أرغب بطونًا، ولا أجبن عند اللقاء، ولا أكذب ألسنة"**؛ يقصدون محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته، يقولون: **"ما رأينا مثل محمد أرغب بطونًا يحبون الأكل، وأجبن عند اللقاء، وأكذب ألسنة"**.

فبدأوا يضحكون ويستهزئون فكشف الله أمرهم، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: 65]؛ تخوضون وتلعبون بآيات الله وبآيات الله وبرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالله وآياته ورسوله؛ تستهزئون بالله وبآياته وبرسوله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ [التوبة: 66]. ولذلك لما سمعهم أحد الصحابة وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا الوحي قد سبق؛ فجاء بعض هؤلاء المنافقين يعتذرون حتى يستروا على أنفسهم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ كما قال الله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: 66].

خلاص ظهر كفركم الآن، أنتم أصلًا في أنفسكم أصلًا كنتم كافرين فظهر كفره، وإلا هم ما عندهم إيمان أصلًا، فكيف يقول الله هنا ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؟ بعد ما كنتم تدعون الإيمان تظهرونه كشف الله عوركم وأظهر كفركم.

قد كفرتم بعد إيمانكم؛ فـ.. يعني استهزائهم لله برسوله، استهزاؤهم بآيات الله أخرجهم من دائرة الإسلام، وحكم الله عليهم بالكفر، وهذا المنطلق أن كل من استهزأ بالله، أو استهزأ بآياته، أو استهزأ برسوله، أو استهزأ بالمؤمنين وبشعارات المؤمنين وبشيء من شعائر الإسلام.

مثلًا كالصلاة، أو الحج، أو الحجاب، أو غير ذلك، فقد عرض نفسه للكفر. لا استهزاء بدين الله، استهزاء بشرعه، استهزاء بالله برسوله؛ استهزاء كل هذا ولو كان مازحًا، ولو كان مازحًا؛ فإن هذا يعرضه للردة والخروج عن الإسلام وعن دائرة الإسلام.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: 66]. إذًا هؤلاء كانوا عددهم ليس بالكثير الذين كانوا يستهزئون، لكن فيهم واحد من المنافقين لما سمعهم أنكر عليهم، قال: **"لا، إلى هذا الحد لا أرى"**، مع أنه منافق قال: **"لا تستهزئون بالله وبصحابته وبالنبي"**، أنا لا.

فكأنه لم تقبله فطرته مع أنه منافق ولكنه لم يقبل ذلك. ولذلك لما لم يوافقهم جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واعتذر وتاب نفاقه وتاب من نفاقه، فقبل الله قبل الله توبة فقبل الله توبته، هذا الرجل فقط.

وأما البقية فحكم الله عليهم لأنهم استهزأوا ولم يتوبوا، وإنما جاءوا يعتذرون ليستروا على أنفسهم. وهذا الرجل اسمه **"مخشي ابن حمير"**؛ هكذا اسمه، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما تاب وعاد ودخل في الإسلام وترك النفاق.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إذًا هذا اسمك لا يليق"**، فغيَّر اسمه فغيَّره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولذلك يقول هو يعني عن اسمه يقول: **"قعد باسمي"**؛ يعني قعد باسمي يعني لم يخرجني من الإسلام، يعني جعلني أتوب وأرجع إلى الله.

يقول هنا: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: 66]؛ يعني ما بعد هذا شيء من الإجرام، أن تستهزئ بالله وبآياته وبرسوله، ما بعد هذا الإجرام.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هم المنافقون وما صفاتهم، ومن هم المؤمنون وما صفاتهم؛ فقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ [التوبة: 67]؛ ذكر الصنفين الذكور والإناث، قال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ [التوبة: 67]. انظر ما قال **"بعضهم أولياء بعض"**، المؤمنون قال **"بعضهم أولياء بعض"** لأن كلمتهم متحدة وقلوبهم كقلب واحد، هذا المؤمنون.

أما المنافقون مهما اجتمعوا فقلوبهم شتى ولم يتحدوا على أمر على أمر واحد، ولذلك قال: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾؛ يعني من جنس واحد، لكن قلوبهم لم تتحد.

ولذلك تعبير القرآن قال: ﴿بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾، ثم ذكر قال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: 67]؛ هذه أول صفة من صفات المنافقين، انظر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ركز على قضية الأمر بالمعروف والنهي هو الذي يميز المؤمن من غيره؛ المنافق لا يأمر بالمعروف ولا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، بل يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف؛ هذا المنافق.

والمؤمن على عكس؛ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا شك أنه هو صمام الأمان، وهو كما ذكر بعض أهل العلم قال: **"هو الركن السادس من أركان الإسلام الخمسة"**؛ يعني لو وضعنا ركنًا سادسًا سيكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو أساس الدين.

ولا يعذر أحد أصلًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يعذر فيه أحد.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»**؛ ما تستطيع بيدك بلسانك، ما تستطيع فبقلبك.

أما لا يتمعر وجه والقلب لا يتحرك في يعني رؤية من يقع في المنكرات أو من يترك الواجبات؛ فهذا هذا قد يكون داخلًا في صفات المنافقين، لكن المؤمن مهما كان ولو حصل ما حصل يكون في قلبه شيء وذلك أضعف الإيمان.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول هنا: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: 67].

- ما هو المنكر؟

كل ما أنكره الشرع والعرف والعقل من الأمور التي لا يرتضيها ترتضيها الفطرة ولا يرتضيها الشرع، هذا هو المنكر. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: 67]؛ المعروف كل ما أمر الله به، كل ما أمر به الشرع، كل ما تقبلته الفطر السليمة والعقول السليمة، هذا هو المعروف.

قال من صفاتهم: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]؛ يحبون المال ولا يريدون أن يتصدقوا، ولو تصدقوا بقليل، ولو تصدقوا يتصدقون وهم كارهون فيقبضون أيديهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في العقوبة: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]؛ نسوا الله أي تركوا حقوقه ولم يقيموا حق الله عليهم، فنسيهم الله؛ نسيهم يعني تركهم، لأن النسيان في حق الله الترك وعدم المبالاة، لا الذهول والغفلة؛ الله لا يذهل ولا يغفل ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: 64]، لكن هنا النسيان بمعنى الترك؛ نسيهم الله أي تركهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67]؛ جملة مؤكدة تعليلية على أن هؤلاء الموصوفون أن هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات هم الفاسقون الخارجون عن دين الله وعن طاعته.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين الوعيد الشديد في حقهم، فيقول: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: 68]؛ انظر جمعهم جميعًا؛ منافقين ومنافقات والكفار، بل بدأ بالنفاق قبل الكفار، وعدهم بأيش؟

قال ﴿نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: 68]؛ هذا في الآخرة، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ [التوبة: 68]؛ كافيتهم، ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: 68]؛ طردهم عن رحمته، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: 68] لا يفارقهم أبدًا ولا يخفف عنهم.

ثم بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هذا العذاب الذي يحل بهم والعقوبات تحل بهم كغيرهم من الأمم الماضية التي كفرت، فقال: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [التوبة: 69]؛ أيها المنافقون، هذا خطاب للمنافقين.

هذا تغيير الأسلوب يسمَّى بعلم الالتفات، قال: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أيها المنافقون، ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً﴾ [التوبة: 69]؛ ويا أيها الكفار كانوا أشد منكم قوة، ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ﴾ [التوبة: 69]؛ استمتعوا بحظهم الدنيوي، فاستمتعتم هم هؤلاء الأمم الماضية استمتعوا وأنتم استمتعتم مثلهم بخلاقكم.

﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: 69]؛ خضتم أنتم وتكلمتم بأمور ليست من ليست يعني فيها مصلحة لكم، بل فيها مفسدة عليكم وعلى الدين، خضتم كالذي خاضوا؛ أي كالذي خاضوه هم أو كخوضهم.

﴿أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [التوبة: 69]؛ أنتم وإياهم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة: 69]؛ الأمم التي حصل منها وهؤلاء. ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [التوبة: 70]؛ الآن يبين لك الأمم الماضية منهم، قال **"نبأ"** أخبار الأمم التي قبلهم.

- من هم؟

قال: ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ [التوبة: 70]، وهي أول أمة أرسل إليها رسولًا وهو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وعذبوا بالطوفان، ﴿وَعَادٍ﴾ [التوبة: 70] أرسل الله إليهم هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَثَمُودَ﴾ [التوبة: 70] أرسل الله إليهم صالحًا، ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ [التوبة: 70] أرسل الله إليهم شعيبًا، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ [التوبة: 70]؛ من هم؟ قوم لوط.

- لماذا سموا بالمؤتفكَات؟

لأن ديارهم قلبت عليهم، ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: 53]؛ أي الائتفاك انقلاب الشيء، فسماهم الله المؤتفكَات لأن ديارهم السبع القرى قلبت عليهم قلبت عليهم عقوبة عليهم.

قال: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [التوبة: 70]؛ جاءتهم رسلهم بالحجج الواضحة والأدلة بالبينات، ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: 70]. فهذه حال الأمم الكافرة، وهذه حال أهل النفاق.

- فخذ الآن حال أهل الطاعة والاستقامة والإيمان ماذا وصفهم الله؟

قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71]؛ قلوبهم متحدة، يتعاونون على الخير ويتعاطفون كالجسد الواحد.

قال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة: 71]؛ هذه أول صفة من صفاتهم أنهم يأمرون بالمعروف، إذا رأوا الإنسان قصَّر في واجب من واجبات الله يأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر إذا وقع في المحرمات.

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [التوبة: 71] حق القيام، ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [التوبة: 71] الواجبة عليهم، ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: 71] بكل ما أمرهم الله وأمر رسوله.

- ما النتيجة؟

انظر الأول قال في حق هؤلاء قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى **"وعدهم نار جهنم"**، وهنا ماذا قال؟ ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: 71]؛ شفت التعجيل حرف السين ﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ [التوبة: 71]؛ إذا وعد لا يخلف الميعاد، وإذا إذا وعد عباده فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطيهم ما وعدهم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ ذو قوة وغلبة، ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71] فيما يقضي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- ثم بين لك هذا الذي سيرحمهم الله ما هو؟

قال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: 72]؛ هذا فوزهم بالآخرة، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: 72]، وزيادة على ذلك ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ [التوبة: 72] من القصور والغرف والمساكن العظيمة طيبة ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: 72].

ومعنى عدن إقامة، يعني في جنات يقيمون فيها لا يبغون عنها حولًا، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: 72]؛ فوق هذا كله رضى الله عنهم، رضى الله، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ مما تقدم، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72]؛ ذلك هو الفوز العظيم.

انظر الآن هذه الآيات التي عشنا معها هذه الدقائق المحدودة، يعني انظر من الآية تقريبًا 64 إلى 72؛ تقريبًا ثمان آيات أو قريبًا من ذلك عشنا معها وتأملناها وتدبرنا ما فيها.

نسأل الله أن ينفعنا بها وأن يجعلها حجة لنا، وأن يجعلنا وإياكم أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته. آيات عظيمة تحذرنا من سلوك طريق أهل النفاق، وتأمرنا بسلوك طريق أهل النجاة والسلامة وهم المؤمنون.

نسأل الله أن يجعلنا في زمرة هؤلاء الذين وعدهم الله بهذا الوعد الكريم؛ جنات عدن ومساكن طيبة، أن لا يحرمنا هذا الفضل العظيم وأن يجعلنا في زمرة هؤلاء وأن يحشرنا فيهم.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله، الحديث بقية في لقاء قادم، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. جزاكم الله خير وبارك الله فيكم جميعًا.

(182)
(التوبة 73 - 80)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، أصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعله لقاءً مباركًا نافعًا. هذا اليوم هو اليوم الثامن عشر من شهر شوال من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، السورة التي بين أيدينا سورة التوبة، التي تحدثت بإسهاب عن المنافقين وشدة عداوتهم للإسلام والمسلمين، وما يخفونه في صدورهم، كشف الله أسرارهم وبين حقدهم وعداوتهم للإسلام والمسلمين.

بعدما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الوعيد الشديد لهؤلاء المنافقين الذين.. والكفار أيضًا معهم، لما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [التوبة: 68]، وعدهم بهذا أو توعدهم بهذا الوعيد الشديد، خاطب نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73].

خطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأمته، الخطابات التي تأتينا في القرآن يخاطب الله بها نبيه محمدًا قد تكون خاصة مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: 67].

هذا خاص بالرسول، وقد تكون خطابات للرسول ولأمته جميعًا مثل هنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ [التوبة: 73]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، وهكذا، هذه خطابات تدخل الأمة جميعًا في خطاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هنا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ [التوبة: 73]، المجاهدة بذل الوسع والطاقة في هؤلاء الكفار، ما الذي يبذله المسلم تجاه الكفار والمنافقين؟ مجاهدتهم بأي وسيلة؟

فالكفار يجاهدون بالسيف كما نص عليه أهل العلم، والمنافقون يجاهدون باللسان وبالقلب حتى تكشف أسرارهم ويبين عوارهم، ويعني المؤمنون يكونون على حذر، على حذر من هؤلاء المنافقين، وليس فقط مجاهدة بل قال: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 73].

اشتد عليهم لا تتهاون، لا تنفع معهم الرأفة والرحمة لأنهم أعداء؛ الكفار أعداء ظاهرون من الخارج والمنافقون أعداء في الداخل، في الداخل لا تدري هم في صفوف المسلمين ولا أحد يدري عنهم فعداوتهم أشد، ولذلك شدد الله عليهم.

هذه عقوبتهم في الدنيا، أما عقوبتهم في الآخرة قال: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: 73]، من مات على ما هو عليه، أما من تاب من الكفار والمنافقين وصلحت توبته وصلح عمله فهذا لا يتوعد بهذا الوعيد.

ثم تعود الآيات لبيان أيضًا مواقف أخرى، والسورة مثل ما ذكرنا مواقف طويلة كثيرة عن المنافقين، يقول: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ [التوبة: 74]، هذه صفة، كثرة الحلف من صفات المنافقين، كثرة الحلف دائمًا يحلفون، انظر فعل مضارع يفيد الكثرة والاستمرار: ﴿يَحْلِفُونَ﴾، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ [التوبة: 74].

ما قالوا كلمات كفر كلها، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: 74]. استهزءوا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسخروا بالمؤمنين واستهزءوا بالشريعة واستهزءوا بالقرآن وكفروا.

يقولون من كلماتهم التي كانوا يقولونها، يقول أحد المنافقين أو رأس من رؤوس المنافقين يقول **"إن كان محمد على حق وأنتم تزعمون عن الأنصار أن محمدًا على الحق فنحن أشر من الحمير"**.

وقال بعضهم **"لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز"**، يقصد هو يقصد المنافقين **"ليخرجن الأعز منها الأذل"**، يقصد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، أشد من هذا الكفر؟ هذه كلمات كفر، هذا أشد الكفر، قال: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: 74].

هم أصلًا ما أسلموا حتى يكفرون بعد الإسلام، لكن كفروا بعد ما كانوا يدعون أنهم من المسلمين ويظهرون الإسلام، الآن انكشف أمرهم.

قال: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: 74].

- ما هو الهم الذي حاولوا يعني ولكنهم لم يستطيعوا؟

هذه حصلت في ليلة العقبة، وذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رجع من غزوة تبوك حاول المنافقون كطريقتهم يعني في سوابقهم أن ينتهزوا أي فرصة لإيذاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان هناك عقبة عالية يريد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصعدها وهو على راحلته، فجاء.

وكان معه حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْه وكان معه عمار، فجاء عدد من المنافقين معهم رواحل وقد تلثموا فحاولوا مضايقة راحلة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يسقط النبي من الراحلة، فشوف قال: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ [التوبة: 74]، ولكن الله كشف أمرهم وتصدى لهم عمار وحذيفة ففروا خائبين.

فقال هنا: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا﴾ [التوبة: 74].

ما سبب ذلك الحقد والعداوة والانتقام؟

قال: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: 74]، ما عابوا على الرسول وعابوا على الصحابة قال: ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: 74]، هم كانوا فقراء فجاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنزلت البركة في المدينة فكثر خير المدينة وحصلت الغنائم للرسول وأصحابه، وكانوا يأخذون الغنائم لأنهم يخرجون مع الرسول، فما أغناهم قال: ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: 74].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى انظر بعد هذا الحقد والعداوة ومحاولة يعني اغتيال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحاولة إيذاء المسلمين والاستهزاء، انظر وين وصل الأمر، ومع ذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته يعرض عليهم التوبة فيقول: ﴿فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: 74].

يعني لعلهم يتوبون ويرجعون، ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: 74]، يتولاهم ولا نصير ينصرهم، لكن عرض الله عليهم التوبة لعلهم يتوبون، لكن إذا أصروا فما لهم إلا العذاب الأليم.

وخذ أيضًا من مواقف المنافقين التي يكشفها القرآن، قال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: 75]، منهم فقراء وبعضهم جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال **"يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالًا كثيرًا"**.

فقال **"أخشى عليك من المال أن يشغلك وأن يلهيك"**، قال **"مال قليل خير لك من مال كثير يشغلك"**، فقال **"ادع الله"**، وهنا المعاهدة مثل اليمين، مثل الحلف، يقول **"والله لأفعلن كذا"**.

فهنا معاهدة، عاهد الله ما عاهد البشر، عاهد الله مثل ما يفعل بعض الناس يقول **"والله إلا إن شفيت من هذا المرض أو شفى الله مريضي أو لئن أغناني الله لأفعلن كذا وكذا وكذا"**، يفعل هذا مثل النذر، يجب عليك أن.. أن تفي بهذا العهد الذي عاهدت الله عليه.

هذا قال: ﴿لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ﴾ [التوبة: 75]، أعطانا مال، ماذا ستصنع به؟ قال: ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [التوبة: 75]. فلما أعطاه الله مالًا كثيرًا ما تصدق ولم يكن من الصالحين.

ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في رجل -حتى لو اطلع منكم كثير على كتب التفسير- يقول إنها نزلت في رجل من الأنصار وأن اسمه ثعلبة بن حاطب، وأن النبي قال **"أريد أن تدعو لي"**، فدعا له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكثر ماله فخرج من المدينة هو وإبله وغنمه.

ثم زاد، ثم أبعد، ثم بدأ يصلي بعض الأوقات، ثم انقطع عن صلاة الصلوات الخمس، بدأ يصلي مع النبي الجمعة فقط، ثم انقطع، فسأل عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا إنه خرج خارج المدينة، فأرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض أصحابه يأخذ الصدقة فامتنع وقال **"هذه جزية أو أخت الجزية أو جزية"**، فامتنع.

هذا كثير من المفسرين يقول إنها نزلت في ثعلبة بن حاطب، وفي التحقيق أن هذا لا يصح، وليس ثعلبة بن حاطب؛ ثعلبة بن حاطب أنصاري وليس من المنافقين، والله يقول هنا ماذا؟

﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ [التوبة: 75]، منهم أي المنافقون، فهذه الآية في الحقيقة نزلت في المنافقين ولم تنزل في ثعلبة ولا غيره من الأنصار، فإنما نزلت في المنافقين لأن الله يقول: ﴿وَمِنْهُم﴾ [التوبة: 75].

- قد يسألك طيب يقول شخص يقول لك طيب إذا أنت تقول ما نزلت في ثعلبة، نزلت في من؟

الجواب: الآيات كلها كثيرة التي نزلت في المنافقين، الله عَزَّ وَجَلَّ لم يصرح بأسمائهم سترًا عليهم، وإنما بين أفعالهم القبيحة، فهذه مثل غيرها.

قال هنا: ﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: 76]؛ أمسكوا المال وتولوا، أعرضوا وهم معرضون، تولوا وتمسكوا بمالهم، وحالهم أنهم لن يعودوا وهم معرضون، لم يتقبلوا ولم يتصدقوا ولم يعرفوا حق الله في أموالهم.

- ما هي النتيجة؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: 77]. وهذه الآية تدل على أيضًا أن الذين عاهدوا من المنافقين لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعقب أفعالهم هذه -يعني تلى هذه الأفعال وهذه الأقوال الكاذبة النفاق- أعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه، إلى أن يموتوا، بما أخلفوا الله ما وعدوه؛ لأنهم أخلفوا وعد الله، وهم يقولون **"لنتصدقن ولنكونن من الصالحين"**، أخلفوا الله بما وعدوه وبما كانوا يكذبون.

ثم هم يعني يتعاملون مع من؟ يتعاملون مع بشر؟ يتعاملون مع رب العالمين، هو يقول: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ [التوبة: 75]، يرد عليه يقول: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [التوبة: 78].

الله بأسراره وبمناجاته، وأن الله علام الغيوب لا تخفى عليه خافية، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. سرهم؛ ما يسرون في أنفسهم، ونجواهم؛ ما يتناجون إذا كانوا اثنين أو ثلاثة أو أربعة هذه نسميها مناجاة، وهو الحديث الذي يدور بين اثنين أو ثلاثة هذه هي النجوى، أما السر يكون بينه وبين نفسه، قال الله يعلم سرهم وأن الله علام الغيوب.

ثم خذ أيضًا من أفعالهم قبلها، وكل هذه دروس لنا نستفيد منها؛ نعاهد الله نفي بالعهود وغيرها من الدروس التي نستفيدها من هذه، يعني مما يذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من صفاتهم القبيحة، ينبغي للمسلم العاقل أن يحذر أن يتصف بصفات المنافقين.

انظر من صفاتهم قال: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79]. يلمزون يعني يسخرون ويستهزءون.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد الخروج إلى غزوة تبوك احتاج إلى المال فحث الصحابة على الصدقة، فجاء من كبار الصحابة كعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْه الذي جهز جيش العسرة ومثل عبد الرحمن بن عوف وغيرهم فتصدقوا بأموال كثيرة، وبعض الصحابة تصدق بالمال القليل حسب قدرته، ماله قليل يتصدق بما يستطيع.

فكان المنافقون ينظرون لهم فيستهزءون، فإذا جاء الشخص معه مال كثير قالوا **"هذا يحب الرياء، لا يتصدق إلا قصده الرياء"**، وإذا جاء الضعيف بالمال القليل قالوا **"الله غني عن مالك، لا تأتي بهذا"**، وهم بس ينظرون ويتصدون للمسلمين.

قال الله: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ﴾ [التوبة: 79]؛ يعني الذين يتصدقون صدقات التطوع من المؤمنين في الصدقات، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: 79]؛ قليل، هذا جهد المقل، لا يجدون إلا جهدهم، ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: 79]، يسخرون من الغني ويتهمونه بالرياء، ويسخرون من الفقير ويقولون الله غني عن صدقتك.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ عقوبة لهم: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: 79]، يعني أنه عاملهم بما كانوا يعاملون المؤمنين وفضحهم وأخزاهم، ثم قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79]؛ يعني هذا في الدنيا أن الله يفضحهم ويخزيهم، وفي الآخرة عذاب أليم، وخذ أيضًا من العقوبة التي هي أشد وأشد.

قال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80]. سبعين مرة يعني من باب المبالغة، يعني لو استغفر ثمانين ما قبلت، لكن كلمة السبعين دائمًا تستعمل؛ السبعة والسبعين والسبعمائة استعملها العرب للمبالغة.

يقول لو مثل ما قال عمر يقول **«الْتَمِسْ لِأَخِيكَ سَبْعِينَ عُذْرًا»**، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: 32]، قد تكون أكثر، فالسبعين دائمًا تستعمل، يقول لو استغفرت سبعين مرة أو أكثر لن يغفر الله لهم أبدًا.

- لماذا قال ذلك أي عدم مغفرتهم؟

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 80]. كفروا، الكافر لا تنفعه المغفرة، الكافر إذا مات على كفره لا يدعى له بالمغفرة، حتى لو كان حيًا، حتى لو كان حيًا لا يدعى له بالمغفرة، يدعى له بالهداية نعم، أما تدعو تقول **"اللهم اغفر لفلان"** وهو كافر لا، ما يجوز استغفار.

﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ [التوبة: 114]، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: 113]. فلا يجوز الاستغفار للكافر سواء كان حيًا أو ميتًا، هذا لا يجوز استغفار.

وهنا الله منع نبيه محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يستغفر للمشركين أو للمنافقين، هنا يستغفر للمنافقين ويستغفر للمشركين، حتى أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خرج من المدينة مر بالأبواء وفيها قبر أمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، استأذن الله عَزَّ وَجَلَّ أن يزورها فأذن له، فاستأذن أن يدعو لها بالمغفرة فمنعه.

فالشاهد من الكلام أن الكفار أو من مات على الكفر لا يدعى له بالمغفرة مثل هنا، لكن لا يمنع المنافق سواء هؤلاء أو غيرهم إذا تابوا الله يتوب عليهم، الله يتوب عليهم، يعني كل من تاب تاب الله عليه، ولذلك الشرك وهو أعظم من النفاق الله يتوب على من أشرك ويغفر له إذا تاب، أما يستغفر له فلا يستغفر له.

لعلنا نقف عند هذا القدر نكتفي به، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، الله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(183)
(التوبة 81 - 89)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الأربعاء الموافق للخامس والعشرين من شهر شوال من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم قراءةً وتفسيرًا وبيانًا وتأملًا في آيات الله العظيمة.

سورة التوبة، ولا تزال الآيات في الحديث عن أهل النفاق المنافقين، في فضحهم وكشف سترهم، وبيان مثالبهم السيئة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 81].

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 81] في غزوة تبوك، لما خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رجب في غزوة تبوك في السنة السابعة، أو في السنة التاسعة خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في شدة الحر، وقد طاب الظلال وطابت الثمار، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخرج معه أصحابه المهاجرون والأنصار، وهؤلاء المنافقون وضعفاء الإيمان جلسوا، جلسوا.

فأخبر الله عنهم قال: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 81]، يعني خلاف رسول الله يعني خلف رسول الله، الرسول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج، وهم جلسوا خلفه في المدينة، أو خلاف رسول الله أي أنهم خالفوه وجلسوا في مكانه، بمعنى أنهم خالفوا طاعته ولم يخرجوا معه.

ولاحظ في عبارة القرآن لما يقول: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ [التوبة: 81]، يعني الواحد إذا وقع في معصية يفرح، هذا يدل على تبجحهم بالمعاصي ولا يبالون بذلك. الإنسان إذا وقع في معصية يستر على نفسه، يندم، أقل شيء يسكت عن ذلك، هؤلاء يعصون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يخرجون للجهاد ويفرحون بالجلوس.

انظر كيف: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 81]، هذا الأمر الأول أنهم يفرحون، وعقوبة من يقع في المعصية ويفرح أنه يقع ويشهر بنفسه تمام الناس ليست كعقوبة من يقع في المعصية ويستر على نفسه ولا يتكلم، فرق؛ هؤلاء يفرحون.

وشوف الأمر الآخر قال: ﴿وَكَرِهُوا﴾ [التوبة: 81]، يعني ما عندهم عذر ولا عندهم أيضًا يعني رضا بما حصل منهم أو مثلاً ندامة على ما حصل، لا؛ ﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا﴾ [التوبة: 81]، يعني القلوب ما زال فيها الكراهية للجهاد.

﴿وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 81]، يعني لا تزال الكراهة في قلوبهم مع فرحهم بجلوسهم ومقعدهم، وهم أيضًا قلوبهم قد امتلأت من كراهة الخروج والجهاد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وزيادة على ذلك أيضًا تأمل قال: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: 81]، يعني هم جلسوا ويحرضون غيرهم، يقولون لغيرهم **"لا تنفروا، تخرجون للجهاد حر؟ لا تنفروا في الحر"**؛ حر، الحر شديد، والمسافة بعيدة في تبوك، من المدينة لتبوك، والرمال، وليس مع كثير منهم، يمشي حفاة أو يمشي على أقدامه والطعام قليل.

الطعام قليل حتى ذكر، أو ذكر بعض الصحابة كعمر وغيره أن الواحد ليس معه إلا تمرة واحدة في يده، في يده، يمصها مصًا يقطع بها الطريق، حتى إنه قال بعضهم **"إن التمرة تكون بيني وبين صاحبي أمصها مرة ويمصها مرة حتى إذا بقيت النواة بدأت أمص النواة أتسلى بها"**، جوع وحر وعطش ومسافة بعيدة.

ومع ذلك استجابوا لله وللرسول، وهؤلاء يتبجحون ويفرحون ويضحكون، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم، قال لما قالوا: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [التوبة: 81]، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 81].

نار جهنم التي تنتظركم أشد حرًا، يعني حر الدنيا أو نار الدنيا هي جزء واحد من سبعين جزءًا من نار الآخرة، فنار جهنم أشد، ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 81]، لو عندهم شيء قليل من الفقه والمعرفة ما قالوا هذا الكلام، لكن هذا دليل على أنهم لا يفقهون ولا يعرفون شيئًا.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر بهذا الخبر فقال: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 82]، في الدنيا يفرحون ويضحكون قليلًا وليبكوا كثيرًا في نار جهنم، جزاءً بما كانوا يكسبون، عدل من الله، هذا عدل الله وحكمه فيه.

وقوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ [التوبة: 82]، هذا صيغة أمر، لكن المراد بها الخبر، يعني سيضحكون في الدنيا قليلًا وثم يبكون بكاءً شديدًا في الآخرة، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: 37]، يصطرخون فيها يعني يصرخون صراخًا شديدًا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: 83]، يعني عدت إلى المدينة ورجعت إلى المدينة، ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: 83]، ليسوا جميعًا لأن بعضهم قد يكون عنده عذر أو ندم أو تاب، ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ [التوبة: 83]، قالوا نخرج معك مرة أخرى.

﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾ [التوبة: 83]، أنتم لا تستحقون الخروج، لن تخرجوا، ولو خرجوا ما زادوكم إلا خبالًا، فسادًا وتحريضًا، ما في فائدة منهم، قال: ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: 83].

رضيتم بالقعود، فاجلسوا واقعدوا مع الخالفين، لن تصلحوا أنتم للجهاد، أنتم جلستم أول مرة فعاقبكم الله، انظر لاحظ؛ جلسوا أول مرة وتركوا الجهاد وهم عليه قادرون مستعدون وتركوه، حرمهم الله الخروج مرة أخرى، لن يخرجوا أبدًا، يعني حرموا، حرموا يعني ثواب الجهاد.

وهذه الآية ينبغي أن نقف عندها، وذلك أن الإنسان إذا هيأ الله له عبادة أو فرصة من الطاعات ثم هو تركها وغير، ولا يبالِ أو تساهل بها، فإن الله قد يحرمه أشياء أخرى.

إذا جاءت فرص في الطاعات؛ صيام، صلاة، صدقة، إحسان، أي معروف، أي عمل من البر، إذا جاءت انتهز هذه الفرصة، لا تضيعها، إذا تساهلت فيها أو لم تبالِ بها فقد تحرم أشياء أخرى وتندم عليها، مثل ما حرم الله هؤلاء لما طلب منهم الجهاد أول مرة وهم قادرون عليه وتركوه ولم يبالوا به.

حرمهم الله كل خروج مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فينبغي لنا أن نحرص على الطاعات، وإذا جاءتك فرصة انتهزها لا تضيعها؛ صدقة، إطعام طعام، أي يعني مجال من مجالات الخير جاءك فرصة، لا تقول والله بكرة أو بعد أو كذا أو كذا أو تعتذر بأعذار واهية، لا؛ استغلها، والله يفتح لك باب خير وأنت لا تدري، انظر: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُودُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: 83].

ثم أيضًا من العقوبات على هؤلاء المنافقين أنهم إذا ماتوا أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ أنه لا يجوز الدعاء لهم ولا يصلى عليهم، انظر قال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: 84].

هذه قصة وهي أن رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول لما مات في السنة التاسعة، جاء ابنه، ابن صحابي جليل من خيرة الصحابة، جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال **"إن أبي فعل ما فعل، الآن مات يا رسول الله، لعلك تلبسه أو نكفنه بقميصك، وتصلي عليه وتدعو له، لعل الله أن يقبل شفاعتك"**.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني لا يريد لابنه هذا في هذا الموقف العصيب وأن أباه قد مات إلا أن يرضيه بهذا الشيء، فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطاه القميص فكفن به، ثم لما جيء به أراد أن يصلي اعترض عليه عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه فقال **"يا رسول الله، تصلي على منافق؟ هذا رأس المنافقين فعل كذا وكذا وكذا، لا تصلِّ عليه"**، فقال **«دَعْنِي يَا عُمَرُ»**.

فقال **"لا تصلِّ يا رسول الله، هذا لا يصلى عليه"**، فنزلت هذه الآية تؤيد رأي عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، وهذه من موافقات القرآن لعمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: 84].

ولا يصلى على المنافق أو الملحد أو الكافر أو المرتد أو الذي لا يصلي أبدًا لأنه خلاص خرج عن الإسلام، كفر، هؤلاء لا يصلى عليهم أبدًا، قال: ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: 84]، يعني لا تقف على قبره تدعو له وتستغفر له، هذا لا يستحق ذلك لأن هذه الشفاعة ما تنفعهم. ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 84]، خارجون عن طاعة الله.

وفي هذه الآية دلالة على أن المؤمن يصلى عليه ويستغفر له، وينبغي للناس في المقابر إذا دفن الميت ألا يجتمعوا بعيدًا عن الميت للتعزية، وإنما يجب على ذوي الميت أن يقفوا على قبره وأن يدعوا للميت ويستغفر له، هذه السنة.

☜النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما دفن قال **«اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ، وَسَلُوا لَهُ بِالتَّثْبِيتِ، فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ»** [حديث نبوي]. هذا وقت الحاجة، هو يحتاج إلى هذا الشيء، فينبغي الدعاء والاستغفار له.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين أن هؤلاء المنافقين أعطاهم الله الدنيا، أعطاهم الأموال والأولاد، لكنها ما تنفعهم، تضرهم، اسمع ماذا يقول: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 85].

لماذا؟ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ [التوبة: 85]، هم وغم وعذاب وتسلط، تسلط الأولاد عليهم والأموال، يعني يجلس يفكر فيها ويحسب لها، فتأخذ وقته بالهم والغم وقد تذهب عليه فيتحسر أشد، قال: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: 85].

تخرج أرواحهم وهم كافرون، فهؤلاء أموالهم لا تعجبك فيها ولا أولادهم، أعطاهم الله الدنيا وحرمهم الآخرة، ثم خذ أيضًا من مواقف هؤلاء المنافقين التي يبينها الله ويحذر منها، قال: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: 86].

إذا أنزلت سورة يذكر فيها الجهاد: ﴿أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: 86]، ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: 86]، أصحاب الأموال الكثيرة يستأذنون النبي يخرجون، لا يريدون أن يسمعوا هذه الآيات واستأذنك ولا يجوز الخروج إلى الجهاد.

قال: ﴿اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: 86]، لا نريد الجهاد، جهاد حر وقتال وعدو وخوف، هذا لا نريده، نريد أن نجلس ونترك جهاد، ذرنا واتركنا مع القاعدين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87]، هم رضوا بهذا الشيء، يكونوا مع الخوالف.

- من هم الخوالف؟

النساء والصبيان، رضوا بأن يكونوا مع الذين لا جهاد عليهم، يجلسون مع النساء والصبيان، والرجال يخرجون للجهاد، قال: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: 87]، وزيادة على ذلك: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 87]، خلاص أغلق على قلوبهم، لا يفقهون ولا يفهمون فهم لا يفقهون مصلحتهم ولا يعرفون نصرة الإسلام والمسلمين، هذه مواقف من مواقف المنافقين.

أما المؤمنون اسمع ماذا قال الله فيهم، قال: ﴿لَٰكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: 88]، المهاجرين والأنصار الذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم.

انظر هذا خبر من الله أنهم أيدوا رسولاً ونصروه، جاهدوا بأموالهم وأنفسهم، ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ [التوبة: 88] في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التوبة: 88] في الدنيا والآخرة. وأما في الآخرة خذ تفاصيل: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 89].

انظر المنافقون فليضحكوا كثيرًا في نار جهنم، وهؤلاء أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها؛ مقيمين فيها دائمًا، ذلك الفوز العظيم، ذلك هو الفوز، ذلك الفوز العظيم الذي يتمناه كل إنسان، يفوز بهذا الفوز.

نسأل الله ألا يحرمنا هذا الفوز، وأن يحشرنا وإياكم جميعًا في زمرة هؤلاء الذين قال الله لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون.

أسأل الله أن يثبتنا على الحق، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، ويرزقنا وإياكم التفقه في الدين وتدبر هذا الكتاب العظيم الذي بين أيدينا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(184)
(التوبة 90 - 99)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ لقاء الأربعاء بعد صلاة المغرب من كل أسبوع، نجتمع على كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ القرآن العظيم، نقرأ آيات من كتاب الله، نتأملها ونبين معانيها.

سورة التوبة، وحديثها عن غزوة تبوك التي وقعت في السنة التاسعة في آخر عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجميع غزوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يوري ويخفي خروجه إذا أراد أن يغزو، إلا هذه الغزوة؛ فإنه أعلنها أمام الناس، أعلنها بأنه سيخرج لمواجهة الروم، مواجهة الروم في تبوك. فخرج هو وأصحابه، وكانت المسافة بعيدة والحر شديد، وقد طاب الظلال واستوت الثمار، فتخلف من تخلف ممن كان لهم أعذار، وممن ليس لهم أعذار.

فذكر الله أحوال المتخلفين فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 90].

المعذرون يعني أصحاب الأعذار، جاؤوا يعتذرون للنبي؛ متى جاؤوا؟ جاؤوا بعدما قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما قفل راجعًا من هذه الغزوة.

الذين تخلفوا عن هذه الغزوة جاؤوا يعتذرون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- ما سبب تخلفهم؟ لماذا تخلفوا؟

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ [التوبة: 90]. أصل الكلمة **"المعتذرون"**؛ فالتاء قُلبت ذالاً ثم أُدغمت الذال بالذال؛ هذه لغة العرب، فقال: ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ [التوبة: 90] يعني أصحاب الأعذار. ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ [التوبة: 90].

عندنا المعذرون أو الذين اعتذروا من أهل المدينة وهؤلاء أكثرهم من أهل النفاق، وكانوا أكثر من ثمانين منافقًا اعتذروا بأعذار سيبينها هنا، والأعراب المحيطين بالمدينة؛ أهل الأعراب أهل البادية، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ندبهم للجهاد والخروج معه، فلم يخرج كثير منهم، فذكر الله هنا أحوالهم أنهم جاؤوا يعتذرون، يعتذرون بأي شيء؟

يقولون: **"نخاف على أبنائنا"** أو **"نخاف على العيال وعلى الزوجات ونخاف على أموالنا من قبائل أخرى"**، فـ**"اعذرنا يا رسول الله؛ لا نستطيع أن نترك أولادنا ونخرج معك."**

فقال هنا؛ انظر قال: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 90]؛ يعني ليأذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقبل أعذارهم.

- هل أعذارهم صحيحة ولا أعذار غير صحيحة؟

اختلف أهل العلم في التفسير؛ فبعضهم يقول: هؤلاء المعذرون الأعراب كانت لهم أعذار صحيحة وعذرهم الله، وبعضهم يقول: لا؛ إنهم كذبة وليس لهم أعذار ولا عندهم عذر يمنعهم من الخروج.

وبعض أهل التفسير كأهل السعدي وغيره جمع بينهم، قال: **"هؤلاء المعذرون منهم من كان صادقًا؛ فقبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صدقه وأحال أمره، وأحال أيضًا يعني سرياهم أو سريتهم إلى الله، أو خفي يعني ما يخفى إلى الله؛ فحال أمره إلى الله وقبله، ومنهم من بيّن الله أنه كاذب"**.

ولذلك انظر بعدها ماذا قال: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: 90]؛ من قعد أصلًا يعني لا خرج إلى الجهاد ولا جاء يعتذر، وهؤلاء حكم الله عليهم قال: ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: 90]؛ حكم عليهم بأنهم كذبوا الله ورسوله، لم يصدقوا في إيمانهم، لو كان إيمانهم إيمانًا صادقًا لخرجوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقدموا أنفسهم نصرة للدين، لكنهم كذبوا الله ورسوله.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عقوبتهم قال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 90]؛ يصيبهم في الدنيا العذاب الأليم وفي الآخرة. ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك من هم أهل الأعذار الذين تقبل أعذارهم، فقال؛ انظر ذكر ثلاثة أنواع:

الضعيف كالضرير الذي لا يبصر أو ضعيف البدن لكبر سنه هؤلاء عذرهم الله، وكذلك المريض الذي لا يستوي على الراحلة عذره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكذلك الفقراء الذين لا يجدون راحلًا، يجدون ظهرًا يركبونه، ليس معهم لا سلاح ولا راحلة؛ فهؤلاء الله ذكرهم.

اسمع ماذا يقول الله؛ يقول: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 91].

ليس عليهم حرج، لا إثم عليهم إذا تركوا الجهاد، وبشرط ماذا؟ ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: 91]؛ لا أنه يقول والله أنا بريء أو مريض أو فقير والحمد لله من لا يجاهد الله دراه ويفرح بالجلوس، لا؛ ينصح لله ويشجع غيره للجهاد، ويتمنى أنه صحيح وأنه معافى حتى يخرج؛ تكون عنده نية، النية والعزيمة على أنه لو أن عنده قدرة لخرج.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: 91]؛ ما على هؤلاء وهم قد أحسنوا طاعتهم مع رب العالمين وأحسنوا مع خلقه الإحسان المطلوب؛ هؤلاء ما عليهم سبيل، ما عليهم حرج لو تركوا الجهاد بسبب هذا العذر.

ومن هذه الجملة: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: 91]، استنبط أهل العلم قاعدة من قواعد الشرع وهو أن **"كل محسن بذل إحسانه في فعل شيء ثم حصل منه تقصير أو خطأ لا يؤاخذ"**؛ يعني أنا لو مثلًا صنعت معروفًا لشخص، وأحسنت إليه وحصل مني تقصير أو خطأ؛ **"ما على المحسنين من سبيل"**، أنت بذلت جهدك وأحسنت ثم حصل منك نقص؛ إذا لم يفرط وحصل منه تقصير، **"ما على المحسنين من سبيل"**.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 91]؛ غفور رحيم لمن؟ لهؤلاء الضعفاء؛ انظر مع أنهم ضعفاء ومع أنهم مرضى وفقراء الله عفى عنهم؛ لأنه غفور رحيم. ثم تأتي حالة ثالثة من أحوال هؤلاء المعذورين؛ حالة عجيبة حتى سماها أهل التفسير سمي هؤلاء **"البكائين"**.

هؤلاء كانوا من أهل الصفة في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقراء ما يجد الواحد ما يستر عورته ولا يجد شيئًا يأكله، وجاؤوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: **"يا رسول الله، نريد أن نجاهد معك بس ما عندنا شيء، احملنا معك، ابحث عن ظهر نركبه."**

اسمع ماذا يقول: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: 92]. ما عندي رواحل ما أحملكم عليه؛ ماذا يصنعون؟ يفرحون بالجلوس؟

لا؛ ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [التوبة: 92]؛ بكاء، بكائين اشتد البكاء عليهم، يعني اشتد حزنهم أنهم ما وجدوا ما ينفقونه ولا يركبونه ولا يخرجون للجهاد والله قد عذرهم.

☜حتى جاء في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأصحابه وهم في غزوة تبوك: **«مَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، وَلَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»**. قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: **«نَعَمْ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؛ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»** .

انظر النية تبلغ ما لم يبلغه العمل أحيانًا؛ يكون إنسان عنده نية صادقة، عنده عزيمة ولا يستطيع العمل تبلغ به مبالغ، يعني لو جاءك شخص قال لك والله أتمنى أن أحج ولو استطعت لحججت، وأتمنى أن أكون في عرفة يوم عرفة؛ يتمنى وعنده عزيمة، هذا يكتب له أجر الحج.

كشخص آخر يقول: **"أنا ما عندي مبلغ ولا أستطيع وأنا ممنوع من الخروج"** وكذا ويفرح له؛ النية أحيانًا ترفع إنسان إلى أعلى عليين، انظر هؤلاء كيف مدحهم الله قال: ﴿تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: 92].

- هؤلاء ما عليهم سبيل ولا عليهم إثم، السبيل على من هو الإثم؟

قال: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 93].

هؤلاء الذين يستأذنون يأتون بأعذارهم وهم كذبة منافقون، ليسوا فقراء، يستأذنون يقولون لا نريد الخروج وهم عندهم أموال، هؤلاء هم المنافقون، رضوا أن يكونوا مع الخوالف؛ النساء والأطفال، رضوا أن يكونوا مع النساء والأطفال كأنهم لم يُفرض عليهم الجهاد.

انظر هذه الصفحة أنت تقرأها في المصحف، أولها في الأعلى قال: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87] أي المنافقون فهم لا يفقهون، وهنا في آخرها قال، في آخر الصفحة: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 93]؛ أيهما أشد؟

الأولى قال: ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87]، والثانية قال: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 93]؛ الأولى قال: ﴿طُبِعَ﴾ [التوبة: 87]، والثانية قال: ﴿طَبَعَ اللَّهُ﴾ [التوبة: 93]؛ فأيهما أشد؟ نقول الأخيرة أشد؛ لأنه لما نفى عنهم العلم (لا يعلمون) فمن باب أولى أنهم لا يفقهون، الأولى قال (لا يفقهون) قد يكون عندهم علم قليل.

وبعدين هذه صرح الله قال: ﴿طَبَعَ اللَّهُ﴾ [التوبة: 93]؛ هذه أشد عليهم، فهؤلاء المتخلفون من المنافقين وعندهم أموال وأغنياء واعتذروا.

- ما النتيجة؟

يا شيخ أثر المعصية على القلب قال: ﴿وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: 93].

هذه أشد العقوبات، أشد؛ عندهم أموال وعندهم أولاد يملكون كل شيء، لكن القلب فاسد فطبع الله على قلوبهم، انظر حتى يبين لك أعذارهم قال: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 94].

يعتذرون إليكم أيها المؤمنون ويا أيها النبي؛ انظر هذا خبر أن الله قبل ما يصلوا المدينة يقول سيعتذرون إليكم إذا وصلتم؛ يأتوا يعتذرون، وهذا من الإعجاز الغيبي، النبي حتى جاءه الخبر: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 94].

قل لا تعتذروا ما نقبل، ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ [التوبة: 94]، ولا نصدق أعذاركم، لماذا؟ ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: 94]؛ الله أوحى إلى نبيه بخبركم وعرفناكم وانكشفت سرائركم، ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: 94].

الله يرى عملكم ويجازيكم عليه، والرسول يكشف له عملكم، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة: 94]؛ الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، فإذا أخبركم بذلك جازاكم على أعمالكم.

ثم يخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا عنهم بصيغة المستقبل فيقول: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 95]. ليس مجرد الاعتذار الأول، اعتذروا، قال لا تقبلوا منهم أعذار، زيادة يحلفون، حتى لو حلفوا؛ لأن المنافق أصلاً اتخذوا أيمانهم جنة فهم يكذبون في أيمانهم.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 95]؛ يعني إذا رجعتم إليهم، ﴿لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: 95]؛ يعني حتى تقبلوا عذرهم وتسامحوهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فأعرضوا عنهم﴾ [التوبة: 95]؛ اتركوهم، اتركوهم هؤلاء حسابهم على الله.

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: 95]؛ قلوبهم فاسدة مريضة، ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 95]؛ جزاءً بكسبهم الأعمال السيئة مأواهم جهنم. يقول هؤلاء لا تحاسبوهم ولا تقبلوا منهم أعذار ولا تقبلوا منهم أي صدقة ولا شيء، لماذا؟

ولا تعاقبوهم حتى العقوبة لا تعاقبوهم؛ لأن الله سيجازيهم أشد العقوبة. ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين أيضًا قال: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 96]. هذه الأيمان لماذا؟ لترضوا عنهم وتقبلوا أعذارهم.

قال: ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ [التوبة: 96]؛ لو أنكم رضيتم عنهم فإن الله لا يرضاه، لا يرضى عن القوم الفاسقين، ما قال لا يرضى عنهم، وصفهم بصفة الفسق قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 96]؛ الذين خرجوا عن طاعة الله.

ثم تأتينا أيضًا أحوال، هذه الآن أحوال بعض الأعراب وأحوال المؤمنين الذين عندهم أعذار صحيحة مثل ما ذكرنا وأحوال المنافقين. ثم إن الأعراب الذين كانوا محيطين بالمدينة وهم أهل البادية، الله بيّن أحكامهم، قسّمهم إلى كم؟ إلى ثلاثة أقسام.

اسمع يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 97]. الأعراب الذين يسكنون في البادية أشد كفرًا ونفاقًا من أهل المدينة؛ أهل المدينة الذين في المدينة يعني أهل حاضرة وعندهم علم، هؤلاء أهل البادية عندهم جفاء وعندهم غلظة.

هم أشد كفرًا ونفاقًا من أهل المدينة، ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [التوبة: 97]؛ لماذا؟ عندهم جهل، ما تعلموا، بعيدين عن المدينة وعن الحاضر وعن العلم والتعلم؛ فهؤلاء فيهم الغلظة فيهم الكفر فيهم النفاق فيهم الجهل، قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 97] لما حكم عليهم.

لكن هنا وقفة يا إخوان حقيقةً ينبغي أن نفهمها جيدًا؛ تجد بعض الناس إذا قام الأعرابي أو بدوي وحصل بينه وبينه مثلًا نزاع وكذا قال **"الأعراب أشد كفرًا ونفاقًا"**، هذا لا يجوز؛ لأنه قد يكون هو من أهل الطاعة ويصلي، ما يجوز لك تقول له **"أنتم أهل الكفر والنفاق"**.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين قال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: 99]؛ ما حكم عليهم جميعًا، فصح أنه يغلب عليهم هذا الشيء لكن ما نعمم ولا نحكم على الشخص بأنه بهذه الصفة، انظر قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 97]؛ عالم بحالهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 97] بحكمه عليهم، ثم قال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 98].

هذه طائفة أخرى، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق، يعني إذا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره أن ينفق صدقات، يجعل صدقته ونفقته كأنها مغرم، كأنها يعني قد أُخِذت منه غرامة، كأنها مغرم عليه ويبدأ يطالب بها كأنها شيء عظيم عليه وثقل عظيم عليه كأنها مغرم.

﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ [التوبة: 98]؛ ينتظر بكم الدوائر يعني ما يصيبكم من الهزائم والفقر وما يصيبكم من القحط، يتمنى أن دائمًا تكون حالتكم سيئة، يتربص بكم الدوائر ينتظرون بكم الهزائم وتسلط الأعداء عليكم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ دعاءً عليهم: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [التوبة: 98]؛ يعني عليهم الهزيمة والحال السيئة، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 98]؛ سميع لأقوالهم عليم بأحوالهم.

ثم ذكر الله هذه الصفة الطيبة التي قد توجد في بعض الأعراب فقال ماذا؟ قال: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 99].

يصدق بالله ويؤمن ويتبع شرعه، ويؤمن بالله ويؤمن باليوم الآخر، ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 99]؛ يجعلها قربة عند الله، وصلوات الرسول كيف صلوات الرسول؟

يعني دعاء الرسول؛ يعني يقدم هذه الصدقة قربة عند الله وأيضًا دعاء أن يدعو له الرسول لأن دعوة الرسول دعوة مستجابة، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا جيء إليه بالصدقة كان يدعو لهم: **«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى فُلَانٍ»**؛ يعني يدعو لفلان.

فهم كانوا هؤلاء مصدقين مؤمنين بالله واليوم الآخر ويتصدقون ويجعلون صدقتهم قُربًا عند الله وصلوات الرسول. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: 99].

هذه الصدقة هي قربة لهم يعني أجر عظيم عند الله لهم، ثم وعدهم بالوعد الكريم؛ انظر وهم أعراب بما وعدهم؟ قال: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [التوبة: 99].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 99]؛ غفور لهم ورحيم لهم. إذًا الأعراب ليسوا على منهج واحد وليسوا على طريقة واحدة حتى نحكم عليهم ونقول الأعراب وشدة وكفر ونفاقًا؛ فيهم كذا وفيهم كذا، وفيهم أهل الصالحون الذين ينفقون في سبيل الله ويؤمنون بالله واليوم الآخر والله وعدهم بالوعد الكريم.

هذه الآيات التي تحدثنا عنها وجلسنا معها هذا المجلس المبارك، كلها يعني آيات عظيمة قرأناها وتدبرناها وتأملنا ما فيها، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألا يحرمنا هذا المجلس المبارك، وأن يكتب لنا الأجر في هذه الجلسة المباركة وفي غيرها، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(185)
(التوبة 100 - 106)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الأربعاء الموافق للسادس عشر من شهر ذي القعدة من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، درسنا المبارك مع القرآن الكريم قراءة وتفسيرًا وبيانًا، أسأل الله أن يرزقنا وأن يفتح علينا وأن يلهمنا رشدنا وأن يهدينا سواء السبيل.

أيها الإخوة، الآيات التي بين أيدينا هي من سورة التوبة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100].

هذه الآية جاءت بعد ما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصناف الناس في هذه السورة، وذكر أحوال المنافقين، ثم ذكر أحوال الأعراب وبين أنواع وأصناف الأعراب، ذكر أصناف المؤمنين حقًّا السابقين الذين سبقوا إلى الإسلام، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾، فوصفهم بالسبق، وهذا كله يعني مدح من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وثناء وتكريم من الله لهؤلاء السابقين، يقول: ﴿السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾.

المهاجرون هم الذين هاجروا الهجرتين؛ هاجروا من مكة، تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم نصرة لدين الله، فهاجروا إلى الحبشة ثم هاجروا إلى المدينة، كل ذلك في نصرة وإعزاز، نصرة لدين الله وإعزاز لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمدحهم الله وأثنى عليهم وقدمهم.

حتى إن كثيرًا من المفسرين في سورة الواقعة لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في المقربين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: 13].

قال كثير منهم: **"هم المهاجرون أو هم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"**، يعني هم صدر هذه الأمة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يمدحهم هنا فيقول: ﴿السَّابِقُونَ﴾ يعني سابقوا إلى الإسلام وضحوا بأنفسهم نصرة للإسلام والمسلمين، فقال: ﴿السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾؛ (مِن) بيانية يعني تبين لك من هم السابقون الأولون، قال صنف منهم من المهاجرين، والصنف الثاني هم الأنصار.

الأنصار أيضًا هم الذين نصروا الدين وبايعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البيعتين؛ البيعة الأولى بيعة العقبة وكانوا اثني عشر رجلًا، بايعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الإسلام وعلى نصرته وعلى حمايته إلى أن يبلغ رسالة ربه، ثم في العام الثاني جاءوا وكانوا سبعين رجلًا وامرأتين.

فبايعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا وأمروه أن يحموه وأن يخرجوا إليه وأن يهاجر هذه البلدة وهي مكة التي وجد فيها الضيق وعدم قدرته على تبليغ رسالة ربه.

فالأنصار أثنى الله عليهم هنا، وأثنى عليهم أيضًا في سورة الحشر لما قال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: 9]، فأثنى الله على صدر هذه الأمة من المهاجرين والأنصار، ثم أيضًا يعني شفع بهم غيرهم قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾.

يعني الذين أسلموا بعد ذلك، دخلوا في الإسلام في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعد فتح مكة وبعد زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اتبعوهم لكن تبعوهم على أي شيء؟

قال: ﴿اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ يعني تبعوا الصحابة المتقدمين من المهاجرين والأنصار وتبعوهم بإحسان، يعني هم تبعوهم على ما هم عليه، وأحسنوا مع ربهم في عباداته، وأحسنوا مع الخلق، وأحسنوا أيضًا مع علاقتهم بهؤلاء المتقدمين.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا في سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: 10]، فثنوا عليهم ودعوا لهم بهذه الدعوات الطيبة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الثناء عليهم: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يعني أن الله رضي عنهم، وهذه أكبر نعمة وأعظم نعمة أن يرضى الله عنك في الدنيا وفي الآخرة، رضى الله مكسب عظيم، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ وهم أيضًا ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ لما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأعطاهم ما يريدون حتى رضوا عنه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾، هذا في الدنيا ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ في الدنيا وفي الآخرة، ثم في الآخرة قال: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾، تجري تحتها؛ انظر كل الآيات في القرآن الكريم ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ إلا هذه الآية التي قرأها الجمهور ما عدا ابن كثير كلهم يقرأونها: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا﴾.

﴿تَجْرِي تَحْتَهَا﴾ وهذا كما ذكر بعض أهل التفسير أن قول الله ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا﴾ هذا أعظم من قولك ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾، لماذا؟ لأن هذا كأن الأنهار أصبحت كلها تحتهم وهم فوق الأنهار، هم ومساكنهم، هم ومساكنهم وقصورهم وأشجارهم ونعيمهم، والأنهار تجري.

- ما هي الأنهار؟

من ماء، من لبن، من خمر، من عسل، كلها تجري من دون أن تكون في أخاديد، يعني الأخاديد التي تجري فيها، لا، تجري على سطح الأرض، وقولهم انظر قالوا: **"تحتها هذا أعظم وابلغ مثل ما جاء في بعض السور من تحتهم أي تحت أصحاء تحت أهل الجنة هذا أعظم نعيم"**.

قال: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾، ثم قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ يعني مقيمين فيها أبدًا لا يبغون عنها حولًا ولا يريدون أن يزولوا عنها، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الثناء العظيم قال: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز فوقه، فوزهم برضا الله وبدخول الجنة وبرؤية رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي فوق كل شيء.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يواصل في بيان أصناف الناس فيقول: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ﴾، يا أهل المدينة اسمعوا، ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ﴾، يقول: الأعراب فيهم منافقون، ليسوا فقط أنهم أجدر وأقرب إلى الكفر وأنهم يجهلون أحكام الله، وفيهم أيضًا منافقون.

يقول: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضًا منافقون، يقول: كان الله يحذر، يقول يعني النفاق ظهر حتى حول المدينة من الأعراب وحتى داخل المدينة هناك منافقون، يعني منافقون يعني يظهرون الإيمان ويدعونه، وفي داخلهم الكفر والحقد على الإسلام والمسلمين.

يقول: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ يعني تمرسوا عليه وعرفوه معرفة تامة، ﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾ يعني يخرج ويدخل في النفاق بتمكن،

﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾؛ النبي ما يعلم الغيب، قد يأتيه الشخص ويدعي أنه مسلم ويصلي لا ندري عنه.

فقال: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ الله يعلمهم وأنت لا تعلم، مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كشف للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عددًا من المنافقين بأسمائهم، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر حذيفة ابن اليمان بأسماء بعض المنافقين قال: **"هذا منافق وهذا منافق وهذا منافق"**.

☜وفي مجلس من مجالس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يحضره المنافقون فكشفهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: **«قُمْ يَا فُلَانُ أَنْتَ مُنَافِقٌ، وَقُمْ يَا فُلَانُ»**، قم كشفهم وهم والناس لا يدرون عنهم، فالله يوحي لنبيه ببعض المنافقين وبعضهم لا يعلمهم.

قال: ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾؛ ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ يعني سنعذبهم عذابًا مضاعفًا، يعني مثل ما تقول ضعفين، أو يعذبهم مرتين في الدنيا وفي عذاب القبر قبل الآخرة، قال: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾، ذلك يكون في يوم القيامة.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يواصل أيضًا في أصناف الناس ومواقفهم من غزوة تبوك كما ذكرنا، قال: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾، هذا فيمن تخلف عن غزوة تبوك، قال: ﴿آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ يعني آخرون من المتخلفين ولكنهم اعترفوا، اعترفوا بذنوبهم يعني هم ما عندهم أعذار ولكنهم أقروا واعترفوا بذنوبهم.

- فماذا كان حالهم؟

قال: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾؛ عندهم سيئات وعندهم حسنات، ولكنهم ندموا واعترفوا بذنوبهم، وجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: ليس عندنا أي عذر يمنعنا من الخروج معك، وندموا ندمًا شديدًا.

وقالوا: **"كيف يخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الشمس والحر ونحن تحت الظلال وعند الماء البارد؟"**، فقالوا، حتى قال أحدهم وهو أبو لبابة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه قام وقال لمن معه وكانوا مجموعة، قال: **«لَنَرْبِطَنَّ أَنْفُسَنَا بِسَوَارِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ»**، فربطوا أنفسهم بالسواري وندموا ندمًا شديدًا، فقالوا: **"والله لا يحل رباطنا إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"**.

فلما قدم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تبوك ورآهم قد شدوا بالسواري، قال: **«مَا بَالُهُمْ؟»**، قالوا: هؤلاء لم يخرجوا معك وقد ندموا ندمًا شديدًا، فقال: **«وَاللَّهِ لَا أَحُلُّ رِبَاطَهُمْ حَتَّىٰ يُخْبِرَنَا اللَّهُ فِي حَالِهِمْ»**.

فنزلت هذه الآية: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 102]، و **"عسى"** من الله واقعة وواجبة، يعني قد تاب الله عليهم، ليست مثل الإنسان تقول عسى يعني للترجي، لا، وهي في حق الله ليست للترجي، الله ما يترجى، فعسى تفيد التأكيد، ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

ثم أكد ذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فلما نزلت هذه الآية قام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفكهم من رباطهم وتاب الله عليهم لأن الله قال: ﴿أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾، والله غفور رحيم.

ثم بعد ذلك جاءوا، أو جاء بعضهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا رسول الله، نريد أن نتصدق بأموالنا كفارة لما حصل منا من تخلفنا، فأنزل الله هذه الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103].

﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ عن الذنوب والمعاصي والأنجاس والأرداس التي حصلت منهم، قال: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ﴾؛ التزكية هي النماء والزيادة، ﴿تُزَكِّيهِمْ﴾ بأعمالهم يعني ترفع أعمالهم.

واعلم أيها الأخ الكريم واسمع، أنك إذا تصدقت بصدقة ولو بعدل تمرة، شفت التمرة هذه؟ بعدل تمرة، فإن الله يقبلها وتقع في يد الله قبل أن تقع في يد فقير، ويأخذها الله ويربيها حتى تكون مثل الجبل وهي تمرة واحدة، فكيف إذا تصدقت بتمور وتصدقت بأموال.

- كيف ستكون عند الله؟

فلا تحقرن من الصدقة ولو ريالًا واحدًا، ولو تمرة، ولو بشق تمرة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اسمع ماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ لما قال هنا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾.

قال: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾؛ ﴿صَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ يعني ادعُ لهم، فينبغي لمن يأخذ الصدقات أن يدعو لأصحابها فيقول: **"بارك الله لكم في أموالكم، الله يبارك لكم ويعوضكم خيرًا"**.

فهذا معنى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ يعني طمأنينة وراحة لهم، ترتاح القلوب بدعاء هذا الشخص أو بدعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في زمانه أو بدعاء من يأخذ الصدقات، قال: تكون سكنًا لهم ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم وسميع لما تقولون، و ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم وبصدقاتكم.

ثم انظر فتح الله باب الصدقة على الجميع وباب التوبة فقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: 104]؛ هذا في التوبة، الله يقبل التوبة عن عباده، لكن ما الذي يجب على العباد؟ أن يتوبوا، يتوبوا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

☜النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان، أو قال: **«إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْمَجْلِسِ مِائَةَ مَرَّةٍ»**، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المعصوم، فكيف بنا ونحن أهل الذنوب والمعاصي؟

قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾؛ الله يأخذها منك قبل أن تعطيها الفقير، أنت تعطيها الفقير هي تقع في يد الله قبل ذلك، ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾؛ تواب كثير التوبة ويقبل التوبة، ورحيم بعباده حيث فتح لهم باب التوبة.

واعلم أيضًا أن من أثر الصدقة أنها تطفئ الخطيئة، تزيل الخطايا، كل ما تكثر من الصدقات والتصدق ومساعدة المحتاجين، فاعلم أن هذا يبعد عنك أو يزيل عنك كثيرًا من الذنوب والمعاصي، تكون كفارة لك.

يقول هنا، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 105].

- من هم الذين قال الله: قل يا محمد لهم اعملوا؟

قيل: المتخلفين يتوبون ويعملون الأعمال الصالحة، وقيل: هؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم، أو قيل هي على عمومها؛ اعملوا أيها الناس، واعملوا أيها التائبون، واعملوا أيها النادمون، ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾، حتى المنافقون والمتخلفون يعملون والله مطلع على أعمالهم، ورسول الله أيضًا عنده علم بالوحي، والمؤمنون فيما ظهر لهم.

قال: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وفي هذا حث على الأعمال والمسارعة في الطاعات، واعلم أنك تعمل الأعمال الصالحة والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالم بها، وأنك سترد إلى الله فينبئك بأعمالك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا في أحوال هؤلاء: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 106]. هؤلاء من المتخلفين عن غزوة تبوك.

قال: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾، هؤلاء ما تخلفوا بأعذار، ولا جاءوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واعتذروا إليه، ولا قدموا أي شيء..

وإنما قال قائلهم: **"ليس عندي أي شيء ولا أستطيع أن آتي للرسول وأقول... يعني ماذا أقول لهم؟"**، فجلسوا وتركوا، قالوا: **"نتوب إلى الله ولعل الله أن يقبل توبتنا، نحن وقعنا في هذه**

المعصية الكبيرة وهي تخلفنا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن نرجو من الله أن يتوب علينا".

قال: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني مرجون يعني مؤخرون ليحكم الله بهم، تركهم الله لم يحكم بهم، فقال: ﴿مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ على ذنوبهم وتخلفهم ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾، والله إن عذبهم أو تاب عليهم فإنه عليم بهم وحكيم بما يقضي فيهم.

قال أهل التفسير: **"من هم هؤلاء؟ هم الذين سيأتي الحديث عنهم وهم الثلاثة الذين خلفوا"**، خلفهم الله أرجأهم هؤلاء الثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية.

هؤلاء تركهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى جاء الوحي بأن يهجرهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنون يهجرونهم ولا يكلمونهم، ثم جاء الوحي مرة أخرى بأن يعتزلوا نساءهم وضاقت بهم الأرض بما رحبت، ومكثوا خمسين ليلة، ثم جاءت توبتهم من الله بأن تاب عليهم.

هذا ما تحدثت عنه هذه الآيات العظيمة التي أمامنا؛ آيات بينت أحوال الناس في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: السابقون، والمنافقون، والمتخلفون، والمعتذرون، والنادمون، وكل في هذه الأحوال حكم الله بينهم بحكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. أسأل الله أن ينفعنا بهذه الآيات وأن يبارك لنا وأن يوفقنا لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(186)
(التوبة 107 - 116)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك مع القرآن الكريم قراءةً وبيانًا وتفسيرًا وتدبرًا، نسأل الله أن يعيننا وأن يوفقنا وأن يهدينا لما يحب ويرضى.

هذا اليوم هو اليوم الثالث والعشرون من شهر ذي القعدة من عام ألف وأربعمائة وستة وأربعين للهجرة، نجلس هذا المجلس المبارك ونقرأ آيات من كتاب الله نتأملها ونتفكر فيها، وينفع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها القريب والبعيد.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 107].

هذه الآية تتحدث عن واقعة وقعت في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيها كشف لشدة عداوة المنافقين، وأن غرضهم كما بينه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن هذه المواقف السيئة لهم التي يعني كشفها القرآن وبين عوارهم، أنهم بنوا مسجدًا سُمي بمسجد الضرار كما سماه الله مسجدًا ضرارًا، بنوا مسجدًا قريبًا من مسجد قباء، ومعروف أن مسجد قباء هو أول مسجد أُسس على التقوى بناه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لما قدم من مكة إلى المدينة مهاجرًا، بنى هذا المسجد وأقام فيه وصلى فيه وجعل فيه فضائل، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذهب كل سبت على قدميه ويصلي فيه، وجاء فيه فضائل.

هذا المسجد لما رآه المنافقون وقد اجتمع الناس حوله وهم أهل قباء، أرادوا أن يبنوا مسجدًا قريبًا منه للتفريق بين المسلمين، كما قال: ﴿ضِرَارًا﴾ يريدون الإضرار للمسلمين، ﴿وَكُفْرًا﴾ لأنهم لا يريدون الإيمان ولا الطاعة، ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا﴾ أي مرقبًا ليتجمع فيه من يتجمع فيه أهل الكفر والنفاق.

جاء لما بنوه وانتهوا من بنائه، جاءوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: يا رسول الله لعلك تأتي تصلي فيه يكون فيه بركة والناس يقبلون عليه ويصلون فيه، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الآن قد خرجنا إلى غزوة تبوك والوقت لا يكفي، لعلنا إذا عدنا نصلي فيه.

فلما عاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تبوك وقبل وصوله إلى المدينة بيوم، نزل عليه جبريل بهذه الآيات يبين حقدهم وعداوتهم وغرضهم؛ لأنهم قالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنا نريد أن نبني مسجدًا للضعفة والعجزة والليلة الشاتية قد يبعد يكون هذا المسجد الآخر بعيد عنهم، فبنينا هذا يخفف عنهم.

ولم يكن ذلك مقصدهم، وإنما المقصد هو ما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة: 107].

هذا هدفهم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول كشفًا لعوارهم، قال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ أي ومن هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا مسجدًا ﴿ضِرَارًا﴾ يعني ليس نفعًا، لا، ليس فيه نفع أبدًا، لا نفع فيه

أبدًا، وإنما الإضرار بالمسلمين، قال: ﴿وَكُفْرًا﴾ يعني لا يقصدون ببنائه وجه الله والدار الآخرة والإخلاص، وإنما أرادوا به الكفر والجحود والإعراض عن طاعة الله.

قال: ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فضلًا يريدون التفريق بين المؤمنين، ﴿وَإِرْصَادًا﴾ ومرقبًا لمن حارب الله ورسوله، وكان ممن حارب الله ورسوله رجل يقال له أبو عامر الراهب، هو الذي كان يحرضهم على بناء هذا البيت ليكون مرصدًا ليجمع فيه أهل الشر من الكفر وأهل النفاق.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ﴾ أي هؤلاء المنافقون، ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى﴾ ما نريد إلا الحسنى، ما نريد إلا الإحسان للناس في هذا المسجد، وهم يكذبون.

قال الله: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: 107]، لا يريدون الإحسان أبدًا. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: 108]، لا تصلِّ فيه أبدًا، ولا تقم فيه؛ القيام هو صلاة مثلما تقول قيام الليل وقيام رمضان.

هي الصلاة، فقال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي لا تصلِّ فيه أبدًا. ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بدأ يبين الفرق بين هذا المسجد الذي أُسس على الفساد والكفر والمسجد الذي أُسس على التقوى فيقول: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ يعني أول يوم جئت فيه إلى المدينة.

﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ هذا الذي تصلي فيه وتذهب إليه أحق. صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزلت عليه هذه الآية بدأ يصلي فيه ويذهب كل سبت، ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ بل جعل هذه سنة، فخلفاؤه ومن جاء بعده إلى الآن والناس يذهبون إلى قباء ليصلوا فيه، قدوةً وأسوةً بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: 108]. لما نزلت هذه الآية ذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسألهم قال: **«إِنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَيْكُمْ وَمَدَحَكُمْ بِالطَّهَارَةِ فَمَا هِيَ طَهَارَتُكُمْ؟»** والمقصود بالطهارة هنا الطهارة الحسية والمعنوية؛ قلوبهم طاهرة وعباداتهم طاهرة وأجسادهم طاهرة.

فقالوا: يا رسول الله، ما من أحد يقضي حاجته إلا ويتبع الحجارة الماء؛ لأنه أشد في النقاء، فقال: نعم، إن الله مدح قال: ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾. ثم قارن مرة أخرى فقال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: 109].

﴿عَلَى شَفَا﴾ يعني على طرف، والجُرُف من جَرَفَ، إن جَرَفَ من السيل في الوادي، انظر السيل أحيانًا يجرف أطراف الوادي، هذا الشفا الأعلى إذا جلست أو وضعت قدمك على هذا الشفا وتحته جُرُف، انهار وسقطت أنت بنفسك.

والله يشبه هؤلاء بفعلهم وبنايتهم كمن يكون على هذه الحال، ﴿عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾. لأن هذا الذي بناه لم يكن على تقوى وإنما على شفا جُرُف، فسينهار بأصحابه إلى نار جهنم إلا أن يتوب. قال: ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 109].

فعلوا هذا الشيء وقصدهم الظلم والتفريق والإيذاء للمسلمين. ومن خلال هذه قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 110].

- هذا البنيان، ماذا فعل به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

قام بهدمه، هُدِمَ حتى أزيل بالكلية وأصبح مكانه مكاناً للزبالات والكناسات ونحوه، بدأوا يضعون فيه جيف. وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا ذهب إلى قباء لا يمر، قد لا يريد يمر من بجانبه أبدًا، فهدم هذا المكان، وبعد هدمه ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً﴾ يعني شكاً وضيقاً وترددا وحزناً، ﴿رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾.

﴿إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ فيموتوا على الكفر أو يتوبوا إلى الله، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 110]، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالم بحالهم، حكيم فيما يدبر وفيما يحكم.

وبناءً على هذا استنبط العلماء أن **"من بنى مسجداً قريباً من مسجدٍ قبله يريد التفريق بالمسلمين فإنه يجب أن يهدم المسجد الذي بني"**، يجب أن يهدم وأن يزال ولا يبقى تفريقاً وإيذاءً وتشتيتاً للمسلمين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]. انظر، عادت الآيات إلى الجهاد والقتال، وفي هذا فضل الجهاد وفضل المجاهدين؛ لأن الله اشترى منهم أنفسهم وأموالهم مقابل الجنة.

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: 111].

يقول بعض أهل العلم المعاصرين: **"إن الله اشترى يعني الصدقة انتهت خلاص، ما فيه خيار تقول والله أشتري أبيع أفعل، لا، قال اشترى، انتهى الموضوع خلاص، الصدقة انتهت"**.

﴿اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ وانظر ولم يقل إن الله باع الجنة لهم، لو قال باعها يمكن أحد يجي يشتريها يمكن ما يشتريها، هي معروضة بسلعة، هذه بيعة يأتي أحد يشتريها يمكن ما يشتريها ويرجع بها، لكن ما قال باع لكم الجنة، قال لا، قال اشتراكم أنتم. وإذا اشترى أرغب للبائع، إذا جاء شخص واشترى سلعته بالكامل هذا يعني يفلحه أرغب.

ولذلك الله قال: ﴿اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾، هذه البضاعة هي الأنفس والأموال، والمادة التي تتبعها، القيمة الجنة، والغرض القتال في سبيل الله، ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾ تشجيعاً لهم على الجهاد، ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ تشجيعاً لهم على الشهادة.

قال هذا الذي ذكره الله: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾، هذا وعد من الله، قال: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾، وعد وحق لا مرية فيه.

- وهذا الوعد أين وقع؟

قال: ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾، الكتب المنزلة، في التوراة مذكور وفي الإنجيل وفي القرآن، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تأكيداً لهذه الصفقة: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾.

- هل في أحد أوفى؟

في أحد يوفي بالعهد أعظم من الله؟ ما فيه.

ثم قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ﴾، أنتم بعتم ونحن اشترينا، ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 111]. الفوز العظيم أن تبيع نفسك وتبيع روحك ومالك لله، وتجد السلعة تقدم السلعة وتجد الثمن عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- من هم الذين فعلوا هذا الشيء وقدموا أرواحهم ومهجهم في سبيل الله؟

ذكرهم الله وذكر فيهم ذكر لهم تسع صفات، اسمعها لتقل من هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات؟ إن لم تكن لك صفة الجهاد ولم تخرج للجهاد لتكن لك هذه الصفات، لا تحرم نفسك الخير.

- يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاء من هم؟

قال هم: ﴿التَّائِبُونَ﴾ كثير التوبة، دائماً يتوب ويرجع إلى الله ويستغفر. ﴿الْعَابِدُونَ﴾ كثير العبادة بأنواعها المختلفة من صلاة وصيام وحج وعمرة وغير ذلك من الأعمال الصالحة.

﴿الْعَابِدُونَ﴾ ﴿وَالْحَامِدُونَ﴾ يكثرون الحمد والشكر لله في كل وقت، كل ما تجددت عنده نعمة يحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى لو صلى يحمد الله أن الله أعانه على أداء هذه الفريضة، كل ما فعل ختم القرآن يحمد الله على أنه بقوة ووفقه، صام يوماً يحمد الله، كثير ﴿الْحَامِدُونَ﴾.

و ﴿السَّائِحُونَ﴾ والسياحة هي انطلاق في الأرض، يسيحون إما للجهاد وإما لطلب العلم وإما للعمرة وإما للحج، سفرياتهم كلها عبادة، يسيحون.

ولذلك بعض العلماء يقول: **"السائحون هم الصائمون"**.

- كيف الصائمون؟

قال: **"لأن الصائم بمنزلة المسافر لا يأكل ولا يشرب وكل يومه لله متعبد كله فكأنه مسافر"**. قال أيضاً من صفاتهم: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ كثير الركوع والسجود، دائماً يحب يصلي، كل ما وجد فرصة أنه يصلي يكثر النوافل.

قال: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ إذا رأى أحداً يقصر بالمعروف يذكره، جاء وقت دخل وقت الصلاة، افعل كذا، اذهب كذا، يذكره بالمعروف، يذكره بالخير، ﴿وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ إذا رأى منكراً نهاه.

نهاه وذكره بأن هذا حرام وأن هذا لا يجوز وأن هذا يغضب الله، فدائماً على لسانه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قدر حاله وعلى قدر استطاعته.

قال: ﴿وَالْحَافِظُونَ﴾ هذه الصفة التاسعة، ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾، يحافظون على حدود الله، له حدود حدوداً ووضع محارم لا يتجاوزونها، يحافظون على حدود الله؛ هذا حد السرقة، هذا حد القتل، هذا حد كذا، هذا حد كذا، حد الصلاة، حد الطاعات كلها حدود الله، لا يجوز التعدي على حدود الله.

- قال بعدها إذا كانوا بهذه الصفات ما النتيجة؟

قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112]، المتصفين في هذه الصفات التسع بشرهم بأي شيء؟ قال الكلام مفتوح، بشرهم ببشارات عظيمة لا حد لها، بشرهم ببشارات عظيمة. ولذلك دائماً في القرآن يقول بشر المؤمنين ويترك الأمر مفتوحاً لهم بشارات لا حد لها، ما قال بشرهم بالجنة أو بشرهم بالرضا أو لا، فتح المجال.

المنافقون ذكرهم الله في هذه السورة وذكر أهل الكفر والنفاق وبين وأهل الشرك. قد يوجد عند بعض الناس من هو قريب له؛ إما منافق، إما كافر، إما مشرك، إما ملحد، إما مرتد.

- هل يجوز له أن يدعو له بالمغفرة سواء كان حياً أو ميتاً أو لا يجوز؟

الجواب: الكافر لا يدعى له بالمغفرة، يدعى له بالهداية نعم، اللهم اهده، اللهم ائتِ به، اللهم رده إلى الإسلام.

هذا يجوز، لكن تقول اللهم اغفر له وهو كافر لا يجوز، لا حياً ولا ميتاً. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما مر بالأبواء وهو يعرف أن قبر أمه هنا، استأذن ربه أن يأذن له بزيارتها فأذن الله، ثم استأذنه أن يدعو لها بالمغفرة فلم يأذن له، وهي أم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: 113]. شيخ، يستغفروا يطلبوا المغفرة للمشركين.

قد يأتيك شخص يقول لك طيب هو إبراهيم قال سلام عليك سأستغفر لك؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: 114]. ﴿لَأَوَّاهٌ﴾ كثير الأوَّه والتوجع والتوبة والاستغفار والانكسار بين يدي الله، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يتعجل الأمور بل هو صاحب حلم وتؤدة وثقل فلا يستعجل لا يستعجل.

هنا مسألة استنبط منها أهل العلم وهي: **"إذا مات الإنسان وهو لا يصلي أبداً ما يصلي ما يركع لله ولا ركعة، وهو من أبناء المسلمين من بيت مسلم وأهله يصلون وأمه تصلي وأبوه**

وهو لا يصلي أحد، ومات وهو لا يصلي هذا لا يدعى له، هذا مات كافر لا يدعى له بالمغفرة لا يقال اللهم اغفر له".

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 115]، ما يضل أحد بعد إذ هداه، إذا هداك إذا هدى الله إنساناً فإنه لا يضله أبداً إلا إذا هو تسبب في الضلال.

قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، إذا بين لهم التقوى وهداهم ما يضل لهم أبداً إلا هم إذا تسببوا كالمنافقين؛ أعطاهم الله النور وأعطاهم الهداية ورجعوا ودخلوا في الظلمة وتركوا، فأضلهم الله وتركهم في ظلال ﴿مَا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. عالم بأحوال الناس وبقلوبهم وبما وبأسرارهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: 116]. يملك السماوات والأرض وما فيهن ويحيي ويميت، هذه دلالة على قدرة الله سبحانه وإحاطته بالكون.

قال: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، وليس لا تتولوا أحد المخلوقين ولا تستنصروا بأحد المخلوقين، والله هو النصير والله هو الولي وهو الذي بيده كل شيء، وهو الذي يحيي وهو الذي يميت وهو الذي يملك السماوات والأرض، فتوكلوا عليه حق التوكل وتعلقوا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا تتعلقوا بالبشر دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، التوكل على الله لا على البشر.

أسأل الله أن ينفعنا بهذه الآيات وأن يبارك لنا ولكم، وجزاكم عنا خيراً، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه.

(187)
(التوبة 117 - آخرها)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين. أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم.

هذا اليوم هو اليوم الأول من شهر ذي الحجة من عام ألف وأربعمائة وستة وأربعين للهجرة، نجلس هذا المجلس المبارك الذي بإذن الله تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين عنده في الملأ الأعلى.

سورة التوبة، ونحن في خاتمة هذه السورة التي سُميت بهذا الاسم لذكر لفظ التوبة فيها في مواضع كثيرة، والآية التي بين أيدينا التي قال الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: 117].

ثم قال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: 118]؛ في خواتمها ذكر التوبة، وفي أولها لما عرض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التوبة على المشركين قال: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: 5]، ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: 11].

الآيات التي بين أيدينا نقرأها ونتأملها، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: 117].

- كيف يتوب على النبي؟ هل النبي يذنب ويعصي حتى يتوب الله عليه؟

الجواب: الأصل أن الأنبياء معصومون من الوقوع في الذنوب والمعاصي، ومعصومون أيضًا مما يتعلق بتبليغ الرسالة؛ جميع الأنبياء في الذنوب التي هي كبائر الذنوب.

أما صغائر الذنوب فقد يقع أو تقع منهم الصغائر، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوجههم مباشرةً إلى التوبة والعودة. ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في هذه السورة، وأنت تتأمل كلمة لقد تاب الله على النبي، لما ذكر في ثنايا السورة لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 43].

فالعفو لا يكون إلا من خطأ، والأنبياء قد يقعون في الأخطاء، قد يقعون في مجانبة الصواب، ولكن الله بلطفه ورحمته وإحسانه يوجههم للصواب مباشرةً فلا يقعون، ولذلك تسمع في القرآن وتقرأ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2]، و ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [غافر: 55]؛ فقد يقع، لكنها مباشرةً يوجهون إلى الصواب.

ولذلك الله هنا قال: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [التوبة: 117]؛ هذا إذا حملناه على أنه قد حصل منهم ما حصل.

بعض المفسرين يقول: **"ذكر النبي هنا في هذا الموقع هو من باب التشريف؛ تشريف للمهاجرين والأنصار، أراد الله أن يشرف المهاجرين والأنصار فذكر في مقدمتهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأنه تاب الله عليه وتاب عليهم"**.

وهم الذين سابقوا إلى الخيرات وكل هذا تعظيم، وقد تكون التوبة من الذنب رفعةً؛ تكون رفعةً للإنسان وقربًا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله قد تاب على آدم ورفعه ثم اجتباه ورفع منزلته؛ ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [التوبة: 117].

وهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، تركوا ديارهم وأموالهم وأوطانهم وبيوتهم، كل ذلك نصرةً للإسلام والمسلمين، والأنصار الذين تبوأوا الدار والإيمان، وفرحوا بقدوم المهاجرين، وفتحوا لهم أبوابهم وأعطوهم أموالهم؛ فأثنى الله عليهم كما أثنى عليهم قبل ذلك.

قال: والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه؛ أي اتبعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يتخلفوا لما أمرهم بالخروج إلى الجهاد في غزوة تبوك، اتبعوه في ساعة العسرة؛ انظر غزوة تبوك من أشد الغزوات وأعظمها على الصحابة، المسافة بعيدة، والطريق شاق، والحر شديد، وليس معهم ما يكفيهم؛ لا من الزاد ولا من الراحلة ولا من الماء، والمدة طويلة مكثوا عشرين يومًا وسيواجهون عدوًا شديدًا.

- ومع ذلك يقول ساعة العسرة؛ ساعة سماها ساعة لماذا؟

لأن الدنيا كلها ساعة، فتخفيف وتهوين عليهم أن هذه المدة الطويلة والأيام الطويلة الشاقة يعني تراها ساعة واحدة ليست بالطويلة، ساعة العسرة. ولاحظ أن الله قال: ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: 117]، وليسوا جميعًا.

أجلاء الصحابة يفرحون بالجهاد ويسابقون إليه وهم في مقدمة المتسابقين إليه، لكن قد يقع من بعضهم ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لطف بهم، مجموعة قليلة كادت قلوبهم تزيغ وتميل إلى الدعة والسكون والجلوس في المدينة وعدم الخروج مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن الله لطف بهم وجعلهم يخرجون.

قال: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 117]؛ انظر قال في الأول لقد تاب، ثم قال في بعدها ثم تاب عليهم، ما الفرق؟ ليش قال تاب ثم تاب؟ نقول: تاب في الأولى وفقهم، وفي الثانية قبل توبتهم؛ ستأتيك مثل هذه. ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 117]؛ شديد الرأفة والرحمة بهم حيث تاب عليهم ومسح ذنوبهم وقبل توبتهم؛ متى يقبل الله توبة العبد ومتى يزيل عنه الذنوب؟ هذه الكل يتمناها.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كأن هذه الآيات التي بين أيدينا كأنها تمهيد لتوبة عظيمة وقعت لبعض الصحابة، وإلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تاب على النبي وتاب على المهاجرين والأنصار، لكن هناك حادثة وقعت وهم الثلاثة الذين خُلِّفوا.

الثلاثة الذين خُلِّفوا؛ الذين الكثير منهم جاء يعتذر إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سواء كانت بأعذار كاذبة والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين أنهم يكذبون كالمنافقين وبعض الأعراب، أو كانت عندهم أعذار حقيقية وقبلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لكن الثلاثة هؤلاء ليس عندهم أعذار، ولم يتقدموا ولم يذكروا أي شيء، وإنما سكتوا وقالوا: ليس لنا عذر ولكن الله هو الذي يقضي ويحكم بيننا.

فهؤلاء الثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية؛ هؤلاء الثلاثة صدقوا في توبتهم وقالوا: نحن تخلفنا عن غزوة تبوك ولم يكن لنا أي عذر في ذلك، فلذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تركهم، لم يقبل منهم شيء، ولم يحدثهم، تركهم قال: أكلوا أمركم إلى الله، والله هو الذي يقضي فيكم.

ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد تأديبهم؛ ما عندهم عذر وليس لهم سبب، فهجرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهجرهم الصحابة، ثم بعد ذلك أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زوجاتهم أن يخرجوا من بيوتهم ويهجروهم، فضاقت عليهم الأرض واشتد الأمر عليهم خمسين ليلة وهم في كرب شديد وضيق وعسر، ما يدرون أين يذهبون.

ضاقت بهم حتى يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: 118]؛ الأرض واسعة وضاقت عليهم، يظن أن الأرض كأنها ضاقت عليهم. ثم يقول: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: 118]؛ النفس ضاقت عليه، نفسه ضاقت عليه يريد أن تخرج نفسه من شدة الضيق الذي هو فيه.

قال: ﴿وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: 118]؛ هذه هي، هذا هو أهم شيء، ظنوا أي أيقنوا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، عرفوا أنه ليس لهم مناص ولا مهرب وليس لهم معاد ولا مرجع يرجعون إليه إلا إلى الله، لن يستطيعوا لو يأتيهم كل من على الأرض يريد أن يعينهم ويساعدهم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فتوجهوا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ قالوا: ليس لنا أحد على هذه الأرض إلا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يتقبل منا وهو الذي يتولى أمرنا، فاشتد بهم الأمر خمسين ليلة، حتى إذا جاء آخر الليل والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت أم سلمة نزلت عليه هذه الآية قبل الفجر؛ فخرج إلى الصحابة في مسجده وقرأ عليهم هذه الآيات.

فانطلقوا يبشرون هؤلاء الثلاثة الذين خُلِّفوا بهذه الآيات؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ [التوبة: 118]. هم خُلِّفوا ولا هم تخلفوا؟ نقول لا، خُلِّفوا؛ كيف خُلِّفوا؟

الرسول خلفهم، خلفهم وتركهم وذهب، أو خُلِّفوا أي تركوا في توبتهم لم تُعطَ توبتهم مباشرةً، وإنما مكثوا هذه المدة الطويلة، الثلاثة الذين خُلِّفوا، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه؛ ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118].

انظر، هو هم تابوا، قال بعدها: ثم تاب عليهم؛ أي قبل توبتهم، ثم تاب عليهم ليتوبوا؛ لتكون توبتهم مقبولة ليتوبوا إلى الله، إن الله هو التواب كثير التوبة الرحيم بهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى يبين لك أنهم صدقوا وغيرهم قد يكون كذبوا في أعذار، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]؛ يا أيها الذين آمنوا وصدقوا واتبعوا ما جاءهم عن الله وعن رسوله اتقوا الله وخافوه وكونوا مع الصادقين، مثل هؤلاء تنجوا، الصدق منجاة، وكونوا مع الصادقين.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين بعض الأحوال المتعلقة بهذه الغزوة فيقول: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: 120]. ما ينبغي لهم، كيف يخرج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجهاد وهم يجلسون في المدينة؟ ما كان لهم يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم، يقدمون أنفسهم عن نفسه.

قال ثم بين لك أجر ذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120].

الظمأ هو العطش، ولا نصب أي تعب في سفرهم، ولا مخمصة أي جوع شديد في سبيل الله، ولا يطؤون موطئًا أي مكانًا يدوسونه بأقدامهم وبمراكبهم يغيظ الكفار إذا دخلوه، ولا ينالون من عدو نيلًا من غنيمة أو نحو ذلك إلا كُتب لهم به عمل صالح.

كل هذا حتى يجوع يُكتب له أجر، يعطش يُكتب له أجر، كل خطواته مكتوب لها أجر؛ قال: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: 120]؛ سماهم محسنين، أحسنوا في عباداتهم وفي طاعتهم.

ثم زادك زيادة قال: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 121]؛ ولا ينفقون النفقة ولو كانت قليلة.

ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون واديًا من الأودية يدل على أن المسير طويل والمسافة بعيدة، ولا يقطعون واديًا كل الخطوات التي يخطونها قال: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: 121]؛ يجازيهم بأحسن ما كانوا يعملون.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا حال الجهاد وحال العلم والموازنة بينهما؛ هل تطلب العلم وتجلس في حلقات العلم وتتذكر العلم وتستفيد أو تخرج للجهاد؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: 122]؛ يقول ما هذا؟ هذا في الجهاد الذي ليس جهادًا فرض عين، ليس فرض عين، فمثل الذين يخرجون إلى الثغور والسرايا قال: ما كان المؤمنون ينفروا كافة.

ثم قال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122]؛ طائفة تذهب للجهاد، وتبقى طوائف أخرى؛ تبقى لأي شيء؟ تبقى للدعة والنوم والكسل؟ لا، ليتفقه في الدين ويتعلم، لا يكون جاهلًا لا يعرف أحكام الشريعة وأحكام الجهاد وأحكام الصلاة والعبادات يبقى جاهلًا، لا، ليتفقهوا في الدين.

ثم إذا تفقهوا وتعلموا أنذروا الذين خرجوا في السرايا، قال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ [التوبة: 122]؛ أي الذين خرجوا إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون، يكون عندهم علم وعندهم حذر وعندهم معرفة.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا يوجه توجيهًا آخر في القتال فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 123]؛ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار؛ ابدأ بالأهم فالأهم والأقرب فالأقرب يلونكم الكفار، وليجدوا فيكم غلظة؛ لابد أن تكون لكم قوة أمامهم، واعلموا أن الله مع المتقين؛ الله مع عباده المتقين الذين يتقونه في السر والعلن وفي جلوسهم وفي جهادهم في كل وقت، مع المتقين.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحكي حالًا في خاتمة السورة، حال المنافقين والمؤمنين عند نزول القرآن؛ ماذا سيفعل المؤمن عندما تنزل الآيات أو يسمع الآيات أو يقرأ الآيات؟ ماذا ستصنع بك الآيات؟ أنت لما تقرأ القرآن ماذا يصنع بك القرآن؟ لما تتعلم القرآن مثل هذه المجالس تفهم الآيات ماذا يصنع بك هذا الشيء؟ اسمع ماذا يقول.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: 124]؛ يعني السور التي تنزل تزيد العبد إيمانًا، والسور التي أنت تقرأها تزيدك إيمانًا، والسورة التي أنت تتعلم معانيها تزيدك إيمانًا، قال شيخ: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: 124].

فأما الذين آمنوا إيمانًا صادقًا قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: 124]؛ بالآيات ويفرحون، إذا قرأ قسطًا من القرآن أو جزءًا من القرآن فرح، إذا تعلم هذه الآيات التي نسمعها الآن فرح، يفرح ليستبشر لأنه تعلم وقرأ ويعلم أن وراء ذلك أجورًا عظيمة.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 125]؛ الذين في قلوبهم مرض كالمنافقين وضعفاء الإيمان فزادتهم رجسًا إلى رجسهم، ما يستفيدون؛ زادتهم رجسًا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون.

هذا في النفاق؛ في أهل النفاق، إذا أهل النفاق إذا نزلت الآيات تزيدهم بعدًا ونجاسةً وكفرًا إلى كفرهم ويموتون وهم على كفرهم إن لم يتوبوا.

وأما مرضى الذين عندهم نقص وضعف في إيمانهم فإنها إما أنها تفتح لهم باب التوبة فيتوبون إلى الله ويرجعون إليه، أو أنها على الأقل تضعف إيمانه؛ لأن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعات والآيات تزيده إيمانًا، وإذا لم يستفد ولم يتعلم ويعرض ينقص الإيمان، الإيمان ينقص بالمعصية ويزيد بالطاعات.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: 126]؛ أولا يرون هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم مرض أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين؟ تأتيهم علامات الفتنة إما من حرب أو من هم أو من غم أو من أمراض أو من جوع أو فقر أو مصائب تنزل بهم، ثم لا يتوبون.

لأن هذه كلها علامات تذكير لهم، لكنهم لا يتوبون ولا يتذكرون، لا ينتفعون بها، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 127].

هذه الآية في المنافقين، يقول إذا ما أُنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض. ينظر المنافق بعضهم إلى المنافقين، ينظر بعضهم إلى بعض: هل يراكم من أحد؟ يريدون أن يتسللوا الواد، يريد أن يفروا ما يريدون؛ لأنهم يعرفون أن الآيات هذه تهز قلوبهم وتكشف.

قال: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [التوبة: 127]؛ ثم انصرفوا، ينصرفون دون أن يستأذنوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: 127]؛ ينصرفون بأبدانهم والله يصرف قلوبهم عن الطاعات، وهذه أشد العقوبات والجزاء من جنس العمل.

قال: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 127]؛ لو كانوا يفقهون وعندهم علم لفرحوا بالآيات واستبشروا بها، لا أنهم ينصرفون ولا يريدون أن يتفقهوا في دين الله، رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي ذُكر في هذه السورة من أولها إلى آخرها هو رحمة على العالمين جميعًا، رحمة على البشر جميعًا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]. الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر شيئًا من صفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن أخلاقه وشمائله الطيبة فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أيها الناس اسمعوا.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128]. لقد جاءكم رسول من أنفسكم؛ من جنس تعرفونه، عزيز عليه ما هو العزيز عليه؟

قال: عزيز عليه ما عنتم؛ يقول الشيء الذي يشق عليكم يعز عليه، ولا يريد أي شيء يشق عليكم، يريد الرحمة بكم ويريد الرأفة بكم ويريد التسهيل عليكم. أي شيء يشق عليكم هو لا يريده، عزيز عليه، يشق عليه هو قبل أن يشق عليكم، عزيز عليه ما عنتم.

حريص عليكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ انظر كيف رحمة الرسول علينا، حريص علينا، ولذلك بين في أحاديث كثيرة أشياء كثيرة دلنا عليها لا نعرفها.

حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم؛ هذا هو الرسول، رؤوف بالمؤمنين ورحيم بهم حيث دلهم وفتح لهم أبواب الخير وحذرهم من أبواب الشر. فإن تولوا ولم يعرفوا قدر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يعرفوا مكانه، إذا لم يعرفوا هذا الشيء وتولوا؛ فـ ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: 129].

كافني، هو الذي يتولى أمري حسب، حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وفوضت أمري إليه في جلب الخير وترك الشر ودفع الشر، وهو رب العرش العظيم. العرش العظيم الذي استوى الله عليه هو أعظم المخلوقات، وكل ما مخلوق دونه؛ هذا العرش رب العرش العظيم.

وبهذا تنتهي هذه السورة العظيمة الجليلة؛ سورة التوبة أو سورة براءة، عشنا معها أيامًا ولله الحمد طويلة، ولكن قرأناها وبيناها معانيها وتدبرنا آياتها. أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلها حجةً لنا، وأن ينفع بها وينفعنا بها، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين يقرأونه ويتدبرونه ويتفكرون فيه.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ يُونُس)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(188)
(يونس 1 - 3)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصلِّ وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدِّين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الموافق للثاني والعشرين من شهر ذي الحجة من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

نجتمع في هذا المقام المبارك من كل أسبوع بعد صلاة المغرب من يوم الأربعاء على كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرآن العظيم؛ نقرأ شيئًا من آيات القرآن الكريم، ونبين ما فيها من معانٍ ودلالات، ونسأل الله أن يعيننا، وأن يوفقنا، وأن يسددنا جميعًا.

أيها الإخوة الكرام، السورة بين أيدينا هي سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويونس هو أحد الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله إلى أقوامهم لدعوته بالتوحيد وعبادة الله. سميت هذه السورة بسورة يونس؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر قصصًا في هذه السورة؛ قصة نوح مع قومه، وموسى مع فرعون، ويونس.

واختير اسم يونس لهذه السورة لأن قصة يونس عجيبة؛ الأمم الماضية كلها إذا كفرت وأعرضت وكذبت الرسل أنزل الله بها العقوبات، وحلت بها المثُلات وعقوبات الله تعم الصالحة والطالحة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر قصة يونس في هذه السورة؛ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منَّ عليهم بأن نجَّاه من العذاب الذي كان موجهًا له؛ يعني مثل ما ذكرنا جميع الأمم التي يوجه العذاب لها يحل بها العذاب إلا هذه النسخة أو قوم يونس لما صدقوا.

لأن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ لما دعاهم، وحرص على دعوته وتبليغه رسالة ربه، لم يقبلوا منه وكفروا به ولم يقبلوا، فغضب عليهم غضبًا شديدًا، وخرج منهم قبل أن يأذن الله له بالخروج.

ولذلك حصل له ما حصل؛ ابتلاع الحوت له، ثم إنجاؤه من الحوت وهو نبي مرسل، أنجى الله قومه ومنَّ الله على قومه، لماذا؟ لأنهم لما رأوا أن يونس قد خرج وتركهم وغضب عنهم غضبًا شديدًا عرفوا أن الحق معه، وكأن منهم عقلاء.

فاجتمعوا وقالوا: إن يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ قد غضب عليكم غضبًا شديدًا وتواعدكم بالعذاب، فاخرجوا مبتهلين إلى الله في الصحراء أنتم ونسائكم وأطفالكم ومواشيكم، اخرجوا إليه.

فخرجوا إلى الصحراء وابتهلوا إلى الله ودعوا له، فصرف الله عنهم العذاب؛ صرف الله عنهم العذاب، ولذلك الله سمى هذه السورة مثل ما ذكرنا بسورة يونس؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر فيها هذا الموقف العجيب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98].

فلذلك ذكر الله هذه القصة، وسميت هذه السورة باسم هذا النبي الكريم إكرامًا له وإكرامًا لقومه وتجد سورًا كثيرة في القرآن سميت بأسماء الأنبياء؛ بعدها بعد يونس سورة هود، سورة يوسف، إبراهيم، سورة محمد، وغيرهم من الأنبياء.

هذه السورة التي بين أيدينا هي من السور المكية، ولما نقول إنها من السور المكية يعني نزلت في الفترة المكية التي أقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو كفار قريش إلى التوحيد وعبادة الله فأبوا وكفروا واستمروا على كفرهم.

فتأتي هذه السور تعالج هذه القضايا؛ سورة يونس مكية يعني أنها تعالج قضايا العقيدة؛ الإيمان بالله وحده لا شريك له، المشركون لا يؤمنون بالله ويعبدون الأصنام، الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر؛ هذه قضية مهمة، والكفار ينكرون اليوم الآخر، ولا يؤمنون به، ولا يعترفون لا بجنة ولا بنار.

يقول: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: 16]، هذا مستحيل.

فجاء القرآن يقرر قضية الإيمان؛ لا يمكن أن الله سبحانه يخلق الخلق وفيهم المطيع وفيهم العاصي ويتركهم هكذا، ما يمكن هذا في العدل وفي حكم الله ما يمكن هذا.

ولذلك لابد أن يجمعهم ليوم الجمع ويحاسبهم ويجازيهم؛ المحسن يجازيه على إحسانه فيدخل الجنة، والمسيء يجازيه على إساءته فيدخل النار، هذا حكم الله العدل، لا يمكن يترك البشر هكذا ما يمكن.

فلذلك تقرر السورة قضية الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أنكره المشركون. أنت تقرأ في هذه السورة في ثاني آية قال: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: 2].

أنكروا رسالته واتهموه بالسحر، وهم يعرفون أن محمدًا ما يعرف السحر، لكن يريدون رد رسالته بأي طريقة، فتقرر السورة الإيمان بالرسل، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالله، والإيمان بالملائكة وغيره، والإيمان بالقضاء والقدر، والإيمان بحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالسورة تدور حول هذه المعاني التي ذكرناها وتقررها تقريرًا واضحًا حتى تقيم الحجة على البشر.

لهذه السورة يعني لو لم تكن إلا هذه السورة في إقامة الحجة على البشر بوحدانية الله والإيمان باليوم الآخر والرسل لكفت هذه السورة، افتتحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بثلاث أحرف: ﴿الر﴾ [يونس: 1].

هذه السورة والتي بعدها سورة هود ويوسف وغيرها سور، وإبراهيم والحجر، كلها ﴿الر﴾.

والسور هذه التي تفتتح بالحروف تسمى عند العلماء **"الحروف المقطعة"**.

- لماذا نقول مقطعة؟

لأنها تقرأ حرفًا حرفًا، وتقول: ألف، لام، راء، هكذا.

الحروف ما معناها؟ ولماذا افتتح الله بها؟ وكم سورة افتتحت في القرآن؟

تسع وعشرون سورة كلها مفتتحة بالحروف المقطعة؛ بعضها بحرف واحد مثل: ﴿ص﴾، و﴿ق﴾، و﴿ن﴾، وبعضها بحرفين مثل: ﴿حم﴾، وبعضها بثلاث: ﴿الم﴾، وبعضها بأربعة: ﴿المر﴾، وبعضها بخمسة وهي سورتان: مريم والشورى، وهكذا اختلاف العدد.

ثم أنت لما تقرأ هذه الحروف، ما الذي يأتي في ذهنك؟ ما معناها؟ كلكم تقرأون.

- ما معنى ﴿الر﴾؟ تعرف معناها ولا ما تعرف معناها؟

الجواب: ألف، ولام، وراء، وطاء، وسين، هذه حروف هجائية؛ هذه حروف هجائية حروف العرب، العرب كل عربي إلى زماننا هذا يتكلم بالحروف العربية فيقول: سين، وجيم، وطاء، كلها حروف عربية.

فهذه حروف تدل على أن القرآن نزل باللسان العربي المبين، كما أنكم تسمعون هذا القرآن؛ لما يتكلم الله في هذا القرآن ويخبر به بالإخبار هذه، هذا كلام عربي لابد أن نستوعب ونفهم.

وكان ﴿الر﴾ والحروف المقطعة هي رسالة للعرب الذين نزل القرآن عليهم.

- من هم العرب الذين نزل القرآن عليهم؟

هم عرب الجزيرة العربية، كفار قريش وما حولها من القبائل، هم أهل العربية وهم أهل اللغة وهم أهل البلاغة والفصاحة.

إذا سمعوا مثل هذا الكلام يستوعبونه، ولذلك كانوا يحفظون الأشعار ويحفظون الرسائل والخطب ويستوعبون معانيها، فيأتيهم القرآن حتى يفهموا؛ لأنهم وصلوا إلى درجة الفصاحة والبلاغة فلا بد أن يستوعبوا، فلذلك جاءهم القرآن بلغتهم؛ يتكلم القرآن بلغتهم، لابد أن تفهموها يا أيها العرب.

ثم ذكر قال: هذه لغتكم ﴿الر﴾، تعرفونها، لماذا تنكرون القرآن وتكذبون به؟ فحروف الهجاء عشان نفهمها باختصار هي حروف عربية، هي حروف هجائية لها هدف ومغزى وهو إعجاز العرب؛ نعجز العرب بأن هذا القرآن منزل من عند الله ولن تستطيعوا أن تأتوا بمثله، والواجب عليكم أن تؤمنوا به وتصدقوه، هذا خلاصة ما يقال في هذه الحروف الهجائية.

ولذلك تلاحظ دائمًا إذا جاءت الحروف الهجائية ﴿الم﴾ ماذا يأتي بعدها؟ يأتي ذكر القرآن؛ اقرأ في سورة البقرة: ﴿الم 1 ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: 1-2]. هنا يقول: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ [يونس: 1].

و﴿ص وَالْقُرْآنِ﴾ [ص: 1]. ﴿ق وَالْقُرْآنِ﴾ [ق: 1]. وهكذا. هذا معناه أنها حروف تدل على أن القرآن مكون من هذه الحروف.

انظر قال هنا: ﴿الر﴾، قال بعدها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: 1].

يقول: هذه السورة بين أيديكم سورة يونس هي من آيات القرآن الحكيم، هذا قرآن نزل عليكم. هذه جزء، هذه السورة هي جزء من القرآن الكريم؛ عندنا كم سورة؟ مائة وأربع عشرة سورة، هذه إحدى سور القرآن الكريم.

﴿تِلْكَ﴾ إشارة اسم إشارة مثل ما تقول **"هذه"**، لكن **"تلك"** تختلف عن **"هذه"** لأنها تفيد البعد؛ اللام للبعد ﴿تِلْكَ﴾.

- لماذا القرآن بين أيدينا قريب لماذا قال ﴿تِلْكَ﴾ للبعيد؟

الجواب: لشرفه وعلو منزلته؛ لشرفه ﴿تِلْكَ﴾. ثم قال: ﴿آيَاتُ﴾ يعني هذه السورة بين أيديكم هي آيات؛ آيات من القرآن الكريم، ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾؛ والكتاب هو القرآن، سُمي كتابًا لأنه مكتوب، وسُمي قرآنًا لأنه يقرأ.

قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، هذه السورة التي تسمعونها الآن وتقرأ عليكم سنأخذ زمنًا معها، هي آيات؛ السورة هي مجموعة من الآيات، وهذه السورة هي جزء من القرآن الكريم.

- قال ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، لماذا وصف الله الكتاب بانه حكيم؟

انظر سورة مثلًا يوسف قال: ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: 1]، وفي أخرى قال: ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: 2]. قال الكتاب مثلًا العظيم أو الكريم، هنا قال حكيم، لماذا؟

انظر دائمًا الإنسان لما يتدبر القرآن ويفهمه ويقرأ في كلام أهل العلم يجد أسرارًا لهذا القرآن الكريم؛ القرآن مليء بالأسرار، شفت اختيار وصف الكتاب بانه حكيم لأن هذه السورة فيها من الحكم الأشياء العظيمة، وفيها من الآيات والدلائل التي تدل على حكمة الله في خلقه وتدبيره.

هي تتكلم عن الخلق والتدبير والتصرف في هذا الكون، وجزاء المتقين وجزاء المجرمين؛ هي حِكَمُ حُكْمِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله هو الحاكم وكتابه هو الحاكم على كل شيء.

فكلمة ﴿الْحَكِيمِ﴾ هنا تقتضي أن القرآن ذو حكمة ومليء بالحكم، والسورة خاصة، وأن القرآن حَاكِمٌ؛ حاكم على جميع الكتب السابقة، وهو الحاكم للبشر لا يمكن أن يتحاكموا إلى غيره.

هذه السورة قال الله فيها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾، وفي سورة أخرى نفسها وهي سورة لقمان: ﴿الم 1 تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: 1-2]، لقمان واضح لأن لقمان أعطاه الله الحكمة فقال الله في أول السورة ﴿الْحَكِيمِ﴾ إشارة إلى أن القرآن ذو حكمة، وأن في هذه القصة قصة لقمان الحكيم.

لكن هنا مثل ما ذكرنا لكم؛ السر في ذلك مما تقتضيه هذه السورة وتشتمل عليه من الحكم والأسرار العظيمة التي فيها حُكْمُ الله على كل شيء، وفي خلق الله الذي خلقه بحُكْمٍ خَلَقَهُ بحكمة عظيمة، ولما يصف الله كتابه بانه حكيم يعني متقن رصين متقن، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، حَاكِمٌ على كل شيء.

لما مدح الله كتابه بانه الحكيم قال بعدها أو بين بعدها موقف المشركين المكذبين فقال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: 2].

- يقول ما وجه العجب؟ كيف يتعجبون؟

يقول: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ يعني يقصد الكفار؛ لأنهم لما جاءهم الرسول تعجبوا منه، ولما جاءهم الوحي تعجبوا، فقال: ما وجه التعجب؟ لماذا تتعجبون؟ تستغربون وتتعجبون من أن الله أوحى؟ يعني أكان الناس عجبًا أن أوحينا؟ يعني وحينا هذا له وجه من العجب؟

ما فيه، ليش لماذا أنتم تستنكرون على محمد أنه يأتيه الوحي من السماء؟ أنبياء قبله كثيرين يأتيهم الوحي من السماء.

- لماذا أنتم وتعرفون أن هناك أنبياء؟

هم يعرفون، لكن تعجبهم هنا هو قصدهم رد الرسالة والكفر بها؛ هذا هو. ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾؛ رجل هو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختاره الله للرسالة.

فقال: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ هذا الرجل هو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختاره الله وكلفه بالرسالة، وكان من التكليف ماذا؟ ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾. ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ يعني رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برسالة نذارة وتحذير وتخويف؛ ينذرهم من العذاب الأليم لأنهم على فساد وعلى كفر وعلى إعراض وعدم إيمان بالله.

فأراد الله أن يوقظهم من هذا الفساد والكفر يرجعهم إليه حتى يعرفوا لماذا خلقوا، فينذرهم قبل أن يحل بهم العذاب، والله سبحانه بحكمته وهذه من حكمته الإنذار، انظر السورة مليئة بالحكم سيتم علينا حِكَمٌ كثيرة من حكمته أنه لا يعذب هكذا، وإنما يرسل الرسل فإذا كفروا عذب؛ إذا أبوا.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]، ما يمكن، فلابد من الإنذار.

فلذلك أنذرهم وحذرهم وخوفهم؛ قال النبي لهم: إني لكم نذير مبين، وحذرهم قال: ﴿أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ عما هم عليه من الفساد والكفر، الجاهلية لا تخفى عليكم؛ قتل ونهب وسلب والقوي يأكل الضعيف، فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برسالة محمد أن يخرجهم من هذا الظلم وهذا العبث إلى أن يعرفوا لماذا خلقوا.

الإنذار للناس، ثم القرآن نذارة وبشارة؛ ولذلك قال بعدها: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ الذين آمنوا بالرسالة وصدقوا به وآمنوا بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة وأقبلوا عليه، كالذين سارعوا وسابقوا للإسلام؛ السابقين للإسلام كأبي بكر وغيره من الصحابة الذين سارعوا ولم يتأخروا.

قال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وصدقوا بالقرآن وصدقوا بالرسالة. ماذا يبشرهم؟ قال يبشرهم قال: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: 2].

- ما معنى قدم صدق عند ربهم؟

الله يبشرنا بأي شيء؟ قال: بشر الذين آمنوا؛ يبشركم بأن لكم قدم صدق.

- ماذا قدم الصدق عند ربكم؟

قال: يبشركم بأن آمنتم وعملتم الأعمال الصالحة، هذه الأعمال الصالحة وهذا الإيمان يتقدمكم في جنات النعيم؛ يعني يكون سابقًا لكم يكون هو الذي يدخلكم الجنة. يعني قدم صدق يعني هذا الذي يتقدمكم بصدق وبإيمان وطاعة؛ أنتم تقدمون أعمالكم.

أنت الآن صليت المغرب الآن، هذا يتقدمك أعمالك؛ أعمالك تسبقك، أعمالك تكون لك طريقًا ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: 8]. النور نور الأعمال، فهذه كلها كل ما تعمل من الأعمال الآن وما عملته بالأمس والأيام الماضية والسنوات الماضية، هذه لا تظن أنها تذهب؛ هذه يحصيها رب العالمين ويجعلها أمامك تنفعك يوم القيامة.

لما تُحشر يوم القيامة، ولما تمر على الصراط، ولما تدخل الجنة ودرجات الجنة، هذه كل الأعمال تنفعك حتى ترتفع في درجات الجنة بقدر أعمالك الصالحة.

فكل ما تكثر من الأعمال الصالحة هذه الأعمال تتقدمك وتنفعك أمامك إذا جاء يوم القيامة، فاعلم أنك ما تعمل من عمل، ولو كان عملًا حقيرًا لا يلتفت إليه، اعلم أن هذا ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: 7]؛ يجد ذلك أمامه.

فاعمل وتجده أمامك؛ هذا معنى الآية ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ اعمل وتجد أعمالك أمامك تنفعك نورًا لك في الدنيا والآخرة. ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ليس عند الناس ولا عند المخلوقين لا؛ هذه مكانة عظيمة عند الله عند ربه.

﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: 2].

- انظر تعجبوا واستغربوا وفي النهاية ماذا حكموا؟

بهذا الحكم الجائر الظلم، كيف تعرفون محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تربى بين أيديكم وكان أحسنكم أخلاقًا وكنتم تسمونه الصادق الأمين وتحبونه، فلما جاءكم بالحق قلتم هذا ساحر؟ ما وجه السحر؟ هو يعرف السحر أو تعلمه حتى تتهمونه؟ إلا هذه اتهامات باطلة لا وجه لها.

انظر قال: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾، الشيخ سماهم كفار قال الكافرون كفروا بالله وكفروا بالرسالات. ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي محمد ﴿لَسَاحِرٌ﴾ وسحره واضح ﴿مُّبِينٌ﴾. لما سمعوا القرآن يؤثر فيهم، وسمعوا أن محمدًا يؤمن به الناس ويصدقونه، قالوا: هذا السحر، ساحر مبين.

فرد الله عليهم؛ هذا لا يعني هذا عبث وغير صحيح، فبين الله لهم الحكمة من خلق الخلق كله؛ فأنتم لا تلتفتون إلى محمد وما جاء به، انظروا في أنفسكم وانظروا في هذا الكون، لم يخلقه الله عبثًا.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ ارجعوا إلى ربكم. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ [يونس: 3]. الرب هو الذي خلق الخلق ورباه، هو الرب؛ الرب الذي خلق الخلق وخلق الناس ورباهم بتربيته أرزاقًا وغير ذلك.

انظر التربية تربية الله للناس على نوعين: تربية للناس جميعًا المؤمنين والكفار؛ يربيهم بان خلقهم ورزقهم وجعل لهم السمع والأبصار ولهم القوة والعقول، هذه تربية عامة كافر ومؤمن.

- في تربية خاصة إنما تكون للمؤمنين فقط، ما هي؟

تربية الطاعة والإيمان، انظر أنت الذي رباك على الطاعة والإيمان هو الله الذي منَّ عليك أن تأتي إلى هذا المسجد وتصلي؛ هذه تربية من الله، لولا أن الله رباك على هذا الشيء ما جئت.

فتربية الطاعة والإيمان مِنة من الله عظيمة، أنت تشاهد مِنَّة الله أمامك؛ فهذه أعظم التربية أعظم أنواع التربية أن يربيك الله على الأخلاق الحسنة وعلى الطاعات والاستقامة؛ لا تتكلم إلا بالخير ولا تفعل إلا الخير. هذه التربية الحقيقية.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾؛ انظر لما ذكر توحيد الربوبية وأنه هو الرب هو الرب الواحد الذي خلق ورزق وهدى، هو الله، قال: ﴿رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ يعني الذي يستحق العبادة الله؛ يعني المألوه المعبود الذي يستحق العبادة من هو؟ ربنا الله. ماذا صنع؟ عشان نعرفه الآن يبين لك أفعاله قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: 3].

عشان يبين لك أعظم المخلوقات؛ أعظم المخلوقات بعد العرش والكرسي السماوات والأرض، خلق السماوات سبعًا طباقًا من بغير عمد قائمة مستقيمة لا تتغير؛ من الذي خلقها؟ هو الله. خلقها وخلق الأرض في ستة أيام. ما هي الأيام الستة؟ الأحد والاثنين إلى يوم الجمعة، هذه ستة أيام.

- كم خُلقت السماوات؟

الجواب: في يومين، والأرض في يومين.

- بقي يومان وين راحت؟

الجواب: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولًا ماذا خلق؛ السماوات ولا الأرض؟ أول ما خلق الأرض ثم استوى إلى السماء وخلقها سبع سماوات، خلق الأرض في يومين الأحد والاثنين، ثم استوى إلى السماء وخلقها في يومين الثلاثاء والأربعاء، ثم عاد إلى الأرض وبث فيها أقواتها وأرزاقها وخزائنها في يومين؛ بث فيها أقواتها في يومين فأصبح المجموع ستة أيام.

- قد يأتيك شخص ويقول لك طيب ليش ستة أيام؟

الجواب: الله يقول للشيء كن فيكون، ما يحتاج بلحظة يخلق كل شيء، ما يحتاج إلى أن تمكث هذه الأيام كلها في خلق السماوات والأرض.

فنقول الله سبحانه يخبرنا ليعلمنا أن الأمور تأتي شيئًا فشيئًا؛ ما يمكن أن أنت تعمر الدنيا بلحظة، ولا تعمر بلدًا بلحظة ولا بيتًا بلحظة؛ تحتاج الأمور إلى التأني، التأني وعدم التعجل.

الله يريد أن يبين لك وإلا ما يعجزه شيء يخلق هذه الأشياء بلحظة.

كيف قال؟ قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس: 3].

- ما معنى استوى على العرش؟

الجواب: معناه ولا كيفيته؟ قل لا، المعنى واضح؛ استوى استقر على العرش، العرش هو أكبر المخلوقات وأعظمها، خلقه الله خلقه عظيم، أما كيف استوى هذا ما نعلمه، والله أعلم نحن لا نعلم الكيفية.

ولذلك الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ كان في المدينة في مسجد رسول الله فدخل رجل قال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5].

- كيف استوى؟

قال: **"الاستواء معلوم، والكيف مجهول"** ما ندري **"والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة"**. لا تسأل عن كيفية؛ فنحن نؤمن ونصدق بأن الله استوى على عرشه استواءً يليق بجلاله وعظمته، أما الدخول وتجاوز هذه الأشياء لا لا العقل لا يصل إليها.

انظر قال بعدها: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: 3]؛ يعني خلق هذا الخلق كله ثم بين لك أن هذا الخلق كله بيده، فهو يدبر الأمور الشؤون؛ شؤون الخلق كلها في السماوات من عالم الملائكة وفي الأرض من عالم المخلوقات كلها، من الذي يدبرها؟ هو الله يدبرها كيف شاء؛ يدبرها يعني يتصرف فيها كيف شاء.

قال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: 3]؛ بين لك عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ قال ما أحد يستطيع أن يشفع عند الله شفاعة وواسطة إلا من بعد إذنه.

إذا أذن الله صحت الشفاعة، ما يمكن أحد ما تنفعهم شفاعة الشافعين إلا أن يأذن الله. قال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ﴾؛ انظر عاد مرة ثانية، ذلكم الذي بين لكم خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، وهو الذي يدبر الأمر، وهو العظيم الملك الذي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه. ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ شف الأول قال ﴿رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾، الأخير قال ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾؛ يعني اعبدوه هو.

- ولذلك انظر بعدها ماذا قال؟

ذلكم الله المألوه المعبود هو ربكم هو خالقكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾. ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ لا تعبدوا غيره؛ تعبدون الأصنام والأشجار، تعبدون الأموات، تعبد حجر وشجر وتترك رب العالمين؟

﴿فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: 3]. لماذا لا تتذكرون هذه الأشياء التي تدل على عظمة الخالق وأنه مستحق للعبادة؟

سورة عظيمة أيها الإخوة تحيي في قلوبنا الإيمان والتعلق برب العالمين، ونعرف عظمة الله وعظمة خلقه؛ كل هذا يزيدك إيمانًا. السورة عظيمة جدًا لكن الوقت يضيق بنا.

لعل نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما تنير هذه السورة قلوبنا بالإيمان والطاعة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(189)
(يونس 3 - 12)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصلِّ وسلم على أشرف الأنبياء المرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدِّين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الأربعاء بعد صلاة المغرب، وهذا اليوم يوافق التاسع عشر من شهر ذي الحجة من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

نجلس هذا المجلس المبارك، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعله مجلسًا مباركًا نافعًا، وأن يجعله مما تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة ويذكر الله الحاضرين في الملأ الأعلى عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لا شك أيها الإخوة، مثل هذه المجالس المباركة ينتفع بها الإنسان؛ يعني تسمع كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعظم كلام وأطهر كلام، وتسمع هذه الآيات ومعانيها وبيانها؛ هذه حقيقة فرصة عظيمة لمن يتأمل ويتدبر كتاب الله، سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وقف بنا الكلام عند الآية الرابعة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 4].

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ يعني أيها الخلق سترجعون إلى الله جميعًا؛ لما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية التي قبلها أن ربكم الله؛ يعني أن خالقكم ورازقكم ومالككم هو الله.

المعبود المستحق للعبادة هو الله؛ خلق الخلق ولم يخلقهم عبثًا؛ خلق الخلق لعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

فخلقهم لعبادته، وقدَّر عليهم أن يموتوا جميعًا ثم يبعثهم بعد موتهم ويجازيهم على أعمالهم؛ فمن عمل الحسنات وجدها ووجد خيرًا منها وكان مآله إلى جنات النعيم، ومن عمل السيئات وارتكب المحرمات وجد جزاءه عند الله وكان مآله إلى النار.

فالخلق الله لم يخلقه عبثًا؛ لم يخلق السماوات عبثًا، ولم يخلق الأرض عبثًا، ولم يخلق الخلق عبثًا؛ بل كلف وأمر وأرسل الرسل وأنزل الكتب، ولذلك أكد الله على قضية البعث والحشر والجزاء والجنة والنار؛ وهذه ما يسمى بالإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالبعث والجنة والنار، التي كان المشركون يستبعدونها وينكرونها ولا يؤمنون بها.

فجاء القرآن يقرر هذه القضية؛ أن تعرفها، كما أن الذي خلقك أول مرة قادر على أن يخلقك مرة أخرى، ولذلك قال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [يونس: 4] أي ترجعون إليه جميعًا من غير استثناء.

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ [يونس: 4]؛ أي وعد الله هذا الوعد، وعد من الله، وعد الله حقًّا؛ ليس بالباطل، حقًّا لابد منه، ثم بين لك الدليل العقلي الذي يخاطب به أهل العقول، فيقول: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: 4].

- من بدأ خلقك أنت؟

أنت قبل سنوات ماضية لم تكن موجودًا؛ ما الذي أنشأك وخلقك في بطن أمك ﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: 6]؟ حتى أخرجك إلى هذه الدنيا.

فالذي خلقك الخلق الأول قادر على أن يخلقك خلقًا آخر بلا شك، وهو ﴿الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27]. ولذلك انظر قال: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ [يونس: 4] الأول، ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: 4] مرة أخرى.

لماذا يعيده؟ خلاص انتهى ومات وأصبح ترابًا تحت الأرض، لماذا يبعث؟ قال: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ [يونس: 4]؛ شايف هذا السبب، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: 4].

الذين آمنوا قدموا إيمانهم واعترفوا بوجود الله وصدقوا بكل ما جاءهم عن الله واتبعوا ذلك بالأعمال الصالحة؛ قاموا الليل وصاموا النهار وتصدقوا بأموالهم وفعلوا الأفعال الحسنة.

- هل هذه تذهب سدىً في الدنيا؟

ما يمكن، قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: 4]؛ بالعدل، من غير أن ينقص من أعمالهم شيء ولا ينقص من حسناتهم شيء، بل يوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، ثم مقابل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [يونس: 4].

كفروا يعني جحدوا وأنكروا وحدانية الله ورسالاته وكل ما جاءهم عن الله كفروا به. ما النتيجة؟ قال: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يونس: 4]. كذا؛ شراب من حميم وعذاب أليم بدون سبب؟ قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 4]؛ بسبب كفرهم وجحودهم جزاهم الله، يعني لا ظلم لهم، ما في ظلم [3، 4].

لكن السؤال هنا، هو قال الذين كفروا لهم شراب من حميم، ثم قال وعذاب أليم، عذاب أليم عام من أنواع العذاب الذي يعذب الله به هؤلاء، لكن شراب من حميم.

- كيف شراب من حميم؟

الجواب: الحميم هو الحار الذي اشتد حره. ولا تتصور أن ماء الحميم هذا الذي في نار جهنم قد أُشعلت تحته أدوات كهربائية مثل الغلايات عندنا، أو أُشعل تحته غاز أو نحوه؛ لا، هذه النار التي عندنا أو الحرارة التي عندنا أو الكهرباء التي عندنا جزء من سبعين جزءًا؛ يعني ما تتصور أن هذا الشراب الحميم أُوقد عليه في نار جهنم حتى اشتد حره، قضية يعني ما تتصورها أنت.

وهنا سؤال آخر: ليش بدأ بالشراب؟ قال: ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: 4] ثم قال ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يونس: 4].

- لماذا ما قال لهم عذاب أليم وشراب؟

قال: لأنهم يخرجون من قبورهم عطاشًا ويسألون عن الماء؛ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا 85 وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا86﴾ [مريم: 85-86]؛ يعني عطاشًا، وهم يتلهفون للماء بشدة.

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: 15]، ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ 19 يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ20﴾ [الحج: 19-20]. فهذا الشراب الحميم لأنهم يتطلعون إليه فيقدم لهم هذا؛ إذا قدم إلى الوجه ماذا يصنع بالوجه؟ ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: 29]. فنسأل الله العافية، نسأل الله العافية من عذاب أهل النار.

انظر قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5]. الآن ترجع الآيات إلى ما ذكره قبل ذلك لما قال ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: 3].

- من الذي يدبر الأمر في السماوات والأرض؟

هو الله؛ بدأ يفصل لك بتدبير الأمر بأشياء كل الناس بحاجة لها، كل الناس يفتقرون إليها؛ ما هي؟ الشمس والقمر، الشمس والقمر فيها آيات عظيمة، فيها مصالح، فيها منافع. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ [يونس: 5] هو الله، ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5] هو الله.

- لماذا قال الشمس ضياء والقمر نور فرق بينهما؟

الجواب: الضياء غالبًا فيه حرارة، والشمس قال فيها ضياء لأن ضوءها شديد قوي وفيه حرارة.

أما القمر ما فيه لا نور قوي ولا حرارة ولذلك قال نورًا، والنور دائمًا يكون منعكسًا من أشياء أخرى؛ الآن تقول هذا النور سطوع النور في هذه الأرض من النار مثلًا؛ لو أشعلت نارًا في صحراء مظلمة تجد النار هذه تعطي نورًا آخر، تسطع بنور آخر؛ هذا النور هو الذي يكون في القمر.

- فالقمر فيه نور؛ لماذا طيب القمر ما يصير فيه ضياء؟

قال: لأن الليل سكن وراحة، ولو كان فيه ضياء ما استطاع الناس ينامون، لكن فيه نور قليل لمن أراد أن يحتاج؛ إذا أراد أن يحتاج قال نذهب إلى نور القمر، فيأتي إلى نور القمر للحاجة، وأما في غير ذلك فيكون في ظلمة ويرتاح.

لو دخلنا أيها الإخوة في الشمس وعظيم هذا الخلق؛ خلق الشمس وتصريفها وتدبيرها وتسخيرها، وكم حجمها بالنسبة للأرض، كم تكون مقدارها، وكم يكون بعدها عن الأرض؟ آيات عظيمة، لا تنتهي.

ويكفينا أنها مسخرة؛ يقول النبي ﷺ مرة لأبي ذر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: **«يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ إِذَا غَرَبَتْ؟»** قال الله ورسوله أعلم، قال: **«فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنَ لَهَا»** وقد لا يؤذن لها فتعود من حيث أتت؛ فهي مسخرة وتسجد.

والله يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ [الحج: 18]؛ كلها مسخرة وتسجد ولا تشرك بالله شيئًا.

انظر: ﴿جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: 5] ثم قال: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس: 5]. القمر منازل؛ ثمانية وعشرون منزلًا، كل يوم منزلة، ثمانية وعشرون. وإذا بقي على الشهر يوم أو يومين غاب واستسرَّ ولا تراه؛ أما منازله في السماء ثمانية وعشرون منزلة.

قال: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ [يونس: 5]. من الشمس والقمر قال: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: 5]. لا نعرف الأيام إلا بالشمس؛ إذا طلعت عرفنا أن اليوم بدأ، إذا غربت عرفنا أن هذا اليوم انتهى، نعرف الأيام بالشمس، والشهور بالقمر؛ يبدأ هلالًا ثم ينتهي. الشمس والقمر قال نعلم الأيام والشهور ونعرف أن الله جعل السنة اثني عشر شهرًا.

قال هنا: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: 5]. نعرف السنين ونعرف الحسابات؛ حسابات الأجور وحسابات العُدد وحسابات كثيرة؛ دخول رمضان ومجيء الحج وهكذا.

نعلم الشمس والقمر؛ الله ربط أحكامه الشرعية حتى في عدة المرأة وغيرها ربطها بالأشهر وبالسنين.

- متى يأتي الحج؟ متى يحج الناس؟ متى يقفون في عرفة؟

الأشهر الهجرية التي تبدأ بالمحرم وتنتهي في ذي الحجة، وكذلك رمضان، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر هذا الخلق؛ خلق الشمس والقمر، قال: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: 5]. ما خلقه بالباطل؛ تظن أن الشمس والقمر هكذا؟ لا، خلقها بالحق.

ثم قال: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [يونس: 5]؛ يوضحها ويبينها لنا، أحسن من هذا البيان ما في، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5]. أما الجهلة لا نخاطبهم؛ الجاهل الذي يرى الشمس ويوم ما يراها ولا يدري عنها ولا يتفكر فيها ولا يدري أنها آية من آيات الله هذا جاهل، لكن الله يخاطب من عنده علم ويتفكر في مخلوقات الله.

ثم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نتيجة الشمس والقمر فيقول: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [يونس: 6].

- كيف اختلافها؟

طول وقصر؛ الليل قصير في الصيف وطويل في الشتاء، من الذي جعله يطول ويقصر؟ هو الله.

قال ﴿اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [يونس: 6]، واختلاف الليل والنهار يخلق هذا مكان هذا؛ جعل الليل والنهار خِلفة؛ هذا يكون مكان هذا، حكمة وآية من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا تظن أن الليل إذا كان في الشتاء طويلًا هكذا عبثًا؛ لاحتياج الإنسان إليه.

والليل في الصيف قصير؛ لعدم احتياج الإنسان في الصيف إلى الليل مثل ما يحتاج إلى النهار. حكمة في خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [يونس: 6]. ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: 6]؛ يعني قال لك كل ما خلق الله في السماوات والأرض.

- الأرض ما الذي خُلق منها؟

الجبال، الأشجار، الأودية، الأنهار، المخلوقات، الحيوانات، الزواحف، الخشاش؛ كل هذه مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول: ﴿اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 6].

انظر الأول قال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5]؛ فإذا علموا وتعلموا اتقوا الله وخافوه وخافوا عقابه وتجنبوا معاصيه وأقبلوا على طاعاته؛ هذا معنى يتقون. آيات عظيمة تحث على العلم والتعلم والتقوى.

يأتيك مقابل الذين لا يبالون؛ لا يبالون أبدًا في آيات الله الكونية، ولا في آيات الله الشرعية، ولا يبالون في أحكام الله، ولا يعرفون لماذا خُلقوا، وإنما همهم وهدفهم عبادة الدنيا.

اسمع ماذا يقول الله؛ آية عجيبة أيها الإخوة، تأمل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: 7].

انظر ربطهم بالآخرة؛ ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ لا يتمنون لقاء الله، ولا يخافون لقاء الله؛ يعني لا يرجون لا تمني ولا خوف من اللقاء. ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يعني لا يعترفون باللقاء أبدًا.

﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: 7]؛ ما يريد إلا الدنيا، ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والدنيا دنيئة، ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس: 7]؛ يعني خلاص لا يريد إلا هذه، آمنت نفسه لهذه الدنيا، اطمأنت نفسه ولا يريد إلا هذه الدنيا اطمأن بها.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: 7]. انظر الأول آيات ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5] و ﴿يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 6]، وهؤلاء آيات أمامهم عظيمة؛ الشمس والقمر والليل والنهار، جبال أنهار بحار أشجار، ما يلتفت إليها ولا ينظرها، غافلون عن آيات الله.

تأتيهم الآيات والكوارث والأوبئة وهو لا يفكر فيها ولا يلتفت إليها؛ همه الدنيا بالليل والنهار، همه الدنيا يسعى للدنيا ويشتغل للدنيا ولا يرجو لقاء الله أبدًا، لو كان يسعى للدنيا وهو يرجو لقاء الله ويقدم لحياته ما أحد يعترض عليه، لكن لا يرجو لقاء الله ويشتغل للدنيا.

- ما النتيجة؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: 7].

- ما النتيجة؟

قال: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [يونس: 8]. حكم عليهم مباشرة دون تردد؛ ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ﴾ مرجعهم ﴿النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 8]. ما يظلمهم الله، بسبب كسبهم وأعمالهم السيئة، انظر لما ذكر النار وما آلهة من النار، ذكر أهل الخير والصلاح والطاعة، الذين ينظرون ويتأملون ويتفكرون ويتقون الله ويعملون الأعمال الصالحة.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [يونس: 9]. آمنوا بقلوبهم وصدقوا بكل ما جاءهم عن الله واتبعوا ذلك بالأعمال الصالحة؛ ما يقول أنا مؤمن وهو ما يعمل، يقول أنا مؤمن ولا يصلي، أنا مؤمن ولا يزكي، لا؛ ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [يونس: 9].

- ما النتيجة؟

انظر أثر الطاعة في الإنسان؛ قال: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: 9]. يهديهم في الدنيا والآخرة بسبب الإيمان، لا تظن أن الإيمان ليس له أثر عليك، أثره عليك عظيم.

يهديك الله لأحسن الأخلاق في الدنيا وأحسن الأعمال، ويرزقك من حيث لا تحتسب ويوفقك لكل خير؛ هذا في الدنيا غير الآخرة، الآخرة أعظم، قال: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: 9]؛ بسبب إيمانهم، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [يونس: 9].

انظر الآن يعني يدخلون الجنة، والجنة فيها أنهار، وهذه الأنهار تجري من تحت وين؟ هل هي من تحت القصور والمساكن؟ لا، ﴿مِنْ تَحْتِهِمُ﴾ هم، هم تحتهم الأنهار، انظر قال ﴿مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [يونس: 9]؛ يعني تحت أرجلهم الأنهار.

هذه الآية، وفي آية في سورة الأعراف وفي آية سورة الكهف، إذا جاء النعيم العظيم قال الله فيه ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ﴾ هم، تحتهم الأنهار؛ إذا لم يأتِ أو جاء نعيم آخر قال ﴿تَحْتَهَا﴾ أي الجنة. انظر قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: 9].

- النعيم ما معناه؟

جنات النعيم؛ يتنعم، يعني نعيم الجنة مما فيها من الطعام والشراب واللباس والمساكن والسرر، نعيم عظيم، وهم منعمون فيه، هم أهل نعيم ووجوههم ناعمة؛ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: 8]، فهم في نعيم وهم أهل النعيم.

فإذا دخلوا الجنة ماذا يصنعون في المآكل والمشارب وغيره؟ ماذا يصنعون؟ قال: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: 10]. يعني حديثهم وكلامهم تسبيح؛ إذا دخلوا الجنة، الجنة ما فيها تكليف، ما فيها تكليف.

- كيف يسبحون ويحمدون؟

الجواب: هذا ليس تكليفًا عليه أجر؛ يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس، مثل ما أنك الآن تتنفس من غير ما تدري، تتنفس في نومك وفي قيامك، هم يلهمون التسبيح كما تلهم أنت النفس. ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: 10]؛ تسبيح في التسبيح، التسبيح كله.

والتسبيح هو تنزيه الله عن صفات النقص ووصفه بصفات الكمال؛ هذا هو التسبيح. يسبحون الله مثل ما تسبح الملائكة بالليل والنهار، هم يسبحون ربك.

انظر قال: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: 10]. وأما تحيتهم إذا قابلوا أحدًا أو قابلتهم الملائكة، تحيتهم فيها سلام. يتزاورون فيما بينهم؛ يذهب إلى قصر فلان

ويذهب إلى مسكن فلان ويزور أمه ويزور أباه ويزور إخوته؛ يتزاورون فيهم ويسلم بعضهم على بعض.

قال: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 10].

تسبيح وحمد وسلام؛ انظر الكلمات الطيبة وين جت، تجدها في الدنيا مثل هذه الكلمات ما بين تعظيم لله وحمد وشكر لله وسلام. كلام طيب، والسلام معناه السلام من الآفات.

كل هذا ذكر بعض المفسرين أن هذا المذكور في هذه الآية، التسبيح والتحميد، عند أكلهم وشربهم في الجنة؛ فإذا تمنى الواحد منهم الطعام أو الشراب قال **"سبحان الله"** جاءه ما يتمنى، كذا جاءه ما يتمنى.

لو فرضنا أنه يتمنى مثلًا عسلًا أو خمرًا أو لبنًا في ذهنه، قال **"سبحان الله"** جاءه ما يريد؛ وإذا انتهى من هذا الطعام ماذا يقول؟ ﴿أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 10].

انظر هذه، هذا نعيم الجنة الذي أنت ما تتصوره الآن. تعود الآيات بعد ذلك إلى حال الكفار، وأن حالهم في الدنيا يعني يسعون للدنيا، وحتى في الشر والخير تجد أحوالًا عجيبة منهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ [يونس: 11]. أنا أجزم أن كثيرًا ممن يقرأ هذه الآية ما يعرف معناها؛ معناها الدقيق ما يعرف معناها. انظر اسمع: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ﴾ [يونس: 11]؛ يعني إنسان دعا على نفسه بالشر، قال يا رب إنك تميتني تريحني من هذا مما أنا فيه.

تجد المريض أو الفقير أو الذي عليه ديون أو إلى آخره يتمنى الموت أو شيئًا من ذلك؛ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: لو يعجل الله للناس الشر؛ يتمنون الشر، لو يعجل لهم الشر ﴿اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ [يونس: 11].

- كيف استعجالهم بالخير؟

يعني أن الله يعجل لهم الخير؛ أنت تدعو الله عَزَّ وَجَلَّ أن الله يرزقك فيرزقك الله، أن الله يعطيك، وهكذا؛ فأنت تسأل الله الخير يعطيك إياه. يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: لو أن الله يعطي الناس الشر مثل ما يعطيهم الخير لهلكوا، ماتوا.

قال: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: 11]؛ لهلكوا ماتوا، لكن الله سبحانه حليم.

تجد الرجل يدعو على نفسه، يدعو على ولده، يدعو على زوجته، يدعو على ماله، والله ما يجيب لحلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ قد يجيب وقد لا يجيب، لكنه لا يجيب لحلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يتعجل، تجده يدعو لنفسه بالخير والله يستجيب دعاءه يستجيب دعاءه.

قال: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: 11].

عاد الذين لا يرجون لقاء الله، الذين لا يعترفون بوجود الله، قال: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يقول الذين هذه حالهم؛ يدعون على أنفسهم بالشر ولا يدعون على أنفسهم بالخير ويشتغلون للدنيا ولا يرجون لقاء الله نتركهم.

- نتركهم وين؟

قال: ﴿فَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ [يونس: 11] واستكبارهم وغفلتهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: 11].

- كيف يعمهون؟

العمه غير العمى؛ العمى عمى البصر، لكن العمه عمى البصيرة عمى القلب، يعني يشوف الآيات ولا يعترف بها، وتأتيه النذر ولا توقظ في نفسه شيئًا؛ يعمهون غافلون خلاص القلب مات ما عاد يميز بين الحق ولا الباطل، لا يميز لا بين الحق ولا الباطل؛ ﴿يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: 11].

وهذه حال الإنسان؛ تجد بعضهم يعجل لنفسه الشر. ولذلك شف اسمع ماذا يقول الله حتى نختم هذا الكلام، يقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ [يونس: 12].

- انظر إذا جاء إنسان ضرر أو عاهة أو نحو ذلك ماذا يصنع مع ربه؟

قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ﴾ [يونس: 12]؛ على جنبه، مضطجعًا على جنبه، ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [يونس: 12]؛ في جميع الأحوال يدعو ربه ما يفك الدعاء أبدًا.

﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾، ثم يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في رحمة: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس: 12]. وأزال عنه هذا الضر؛ مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه يمر كأنه ما جاءه ما أصابه مر ضر ولا شيء.

- كيف يمر ما أصابه ضرر؟

يقول ما يرجع إلى ربه؛ ينسى، ينسى نعمة الله وينسى أن الله هو الذي كشف عنه هذا الضر.

أنت الذي كشف عنك الضر طلب منك أنك تعبده وأنك تستقيم على طاعته، لا؛ لا يبالي لا بعبادة ولا استقامة، شف قال لك: ﴿مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس: 12].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12]. يقول مثل هذا الفعل الذي فعله هذا؛ مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه. يقول هذا مسرف على نفسه في الذنوب والمعاصي وفي غفلة؛ ومثل ما زُيّن له عمله، مثل ما هذا زُيّن للمشركين ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12].

الآن نقف عند هذا القدر نكتفي به، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما وقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(190)
(يونس 13 - 25)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، صلِّ وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدِّين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، درسنا الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كل أربعاء، وهذا اليوم يوافق السابع من شهر المحرم من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح. نأخذ آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نقرأها ونتأملها ونتدبرها؛ هذه الآيات من سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية الثالثة عشرة من السورة: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۙ وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: 13].

هذه الآية فيها خبر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خبر يقين، وفيها تهديد وتخويف لكل من يعرض ولا يتمسك بشرع الله ويعترض على حكم الله ولا يقبل شرع الله، فيشين على نفسه بالذنوب والمعاصي ولا يبالي بعقوبة الله عليه؛ هذه رسالة له، تهديد له.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا يقسم يقول: والله لقد أهلكنا، ليس قومًا ولا قومين أو ثلاثة أقوام، ولا مدينة أو مدائن؛ أهلكنا القرون، يعني ليس لها حد، قرون كثيرة.

أهلكنا القرون، والقرون جمع قَرْن، والقَرْن **"قدره بعض أهل العلم بمئة سنة"**؛ يعني قرون وأجيال أهلكت أهلكها الله ولا يبالي بها. لماذا؟

انظر قال: ﴿أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [يونس: 13] أيها المخاطبون بهذا القرآن.

- لماذا أهلكهم؟

قال: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: 13]؛ لما ظلموا أنفسهم بالمعاصي والكفر والاستكبار وعدم قبول شرع الله، لما ظلموا أهلكهم الله. والله قد أقام عليهم الحجة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [يونس: 13]؛ يعني الله ما تركهم هكذا ثم عصوا ثم عذبهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقام الحجة عليهم، أرسل إليهم الرسل، فأرسل إليهم الرسل ولم يرسل الرسل هكذا؛ أرسل إليهم الرسل بالحجج والبينات والأدلة الدالة على وحدانية الله والنهي عن الشرك والكفر والمعاصي.

لكنهم كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [يونس: 13]؛ ما كانوا يريدون الإيمان ولا يرغبون في الإيمان، ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاك قاعدة لكل من يحصل منه هذا الأمر فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: 13].

مثل ما جازينا هذه القرون الكثيرة بالعذاب والعقوبات وهم قد عصوا وظلموا وأجرموا، نجزي كل مجرم إلى قيام الساعة؛ كذلك نجزي القوم المجرمين.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين يعني منته ونعمته على من أنزل الله عليهم القرآن فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ﴾ [يونس: 14]؛ أنتم أيها المخاطبون، ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم؛ خلائف جمع خليفة، يعني جعلناكم تخلفونهم وتكونون مكانهم.

هم أبادهم الله واهلكهم وانتهى أمرهم وقضي عليهم، ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنشأكم وأتى بكم مكانهم.

- لماذا أتى بكم مكانهم؟

اسمع ماذا يقول: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 14].

كيف تعملون؟ هل تعملون بطاعة الله فالله يمكن لكم في الأرض ويعطيكم الخيرات؟ وهل يعني تقتدون بمن هلك من المجرمين وتستمرون أو تسلكون مسلكهم في الظلم والكفر والعصيان يصيبكم ما أصابهم؟

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾؛ من عمل بطاعة الله وُفق للخير، ومن عمل بمعصية الله فلا يلومن إلا نفسه؛ هذا معنى الآية، ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسوق لنا آيات؛ هذه كلها في بيان مواقف من أنزل الله عليهم القرآن من أهل مكة من كفار قريش، انظر اسمع من هذه المواقف موقفهم من القرآن؛ هل تقبلوا القرآن وفرحوا به واستبشروا به وأخذوه بجد وتلوه وقرأوه؟ ولا أعرضوا عنه؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [يونس: 15]؛ تتلى على هؤلاء الذين أنزل عليهم القرآن من كفار قريش ومن أهل مكة، إذا تتلى عليهم آياتنا بينات واضحات؛ مثل هذا القرآن واضح.

قال الذين لا يرجون لقاءنا؛ لا يخافون الله ولا يخافون لقاء الله ولا يخافون النار ولا يرجون الجنة ولا يأملون بهذه الجنة ولا يعملون لها، قال إذا تتلى عليهم آياتنا ماذا يقولون؟ ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: 15].

يقول إذا قرئ القرآن، إذا قرأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن عليهم، يقولون: يا محمد ائتنا بقرآن غير هذا، ما نقبله منك، أو بدله على الأقل؛ يعني ائت، كأنهم ماذا لشدة إسرافهم على

أنفسهم بالذنوب والمعاصي والاستكبار التكبر في أنفسهم يقولون هذا القرآن لا نرتضيه ولا نقبله، ائتنا بقرآن غير هذا.

ومن نأتيكم بقرآن غير هذا؟ هل فيه أفضل من كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

ائت بقرآن غير هذا أو بدله؛ كيف نبدله؟ قال: بدل الكلمات التي فيه، الحلال والحرام والأحكام التي فيه غيرها وبدلها. فماذا قال؟ ماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ؟ ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس: 15].

يقول: قل يا محمد لهم، ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي؛ أقول أنا ما أستطيع أن أبدل شيئًا أنزله الله، كيف أبدله؟ أقول الحلال حرام والحرام حلال والأمر نهي والنهي أمر؟

ما أستطيع، ما أملك هذا لي. انظر لما قال لما قالوا بقرآن غير هذا أو بدله، الله قال له: قل ما أبدله، ما يمكن أن أبدله، ما قال ما يمكن أن آتيه، لماذا؟ لأن القرآن ما يمكن، ما يمكن للبشر أن يأتي بغير هذا، هذا كلام الله ما يمكن؛ يستحيل كلام الله قرآن، ما يمكن لأي بشر أن يأتي بمثله أو أحسن منه، لكن التبديل في قدرة البشر؛ أن يبدل الحلال بالحرام والأمر بالنهي وغير ذلك.

ولذلك انظر الرد ماذا قال: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ [يونس: 15]، ولم يقل: قل ما يكون لي أن آتي بقرآن؛ لأنه مستحيل، هذا لا يمكن، مستحيل.

فإذا كان النبي لا يبدل ولا يمكن له وليس له أن يبدل القرآن، فمن باب أولى أن يأتي بغير هذا القرآن. هذا يدل على شيء، يدل على كِبْر في قلوبهم وفي أنفسهم؛ يعني بدلًا ما يستبشر بهذا القرآن ويفرح بهذا القرآن ويغتنم بهذا القرآن، يتكبرون عنه ويقولون لا نرتضيه ولا نقبله بدله.

ثم يبين لهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا القرآن كلام الله وأنه منزل عليه وأنه جاءه بالوحي وليس من تلقاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولذلك انظر قال: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ [يونس: 16].

قل لو شاء الله، لو أراد الله ما تلوت عليكم، لو أراد الله أني لا أتلوه ما تلوت عليكم، ما قرأت عليكم، ولا أدراكم به؛ يعني ما تدرون عنه أنتم ولا تعرفون معانيه ولا تدرون ما أدراكم به.

ولذلك قل لهم: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16]. يقول: أنا مكثت فيكم أربعين سنة ما سمعتم مني ولا آية واحدة ولا حرفًا من القرآن، كيف جاءني هذا بهذه السرعة إلا بالوحي؟

أنا مكثت أربعين سنة تعرفوني معرفة تامة، عشت في مكة وعشت بين ظهرانيكم وعرفتموني؛ يقول لبثت فيكم عمرًا من قبله وأنتم تدرون أنني ما قرأت عليكم ولا حرفًا واحدًا، والآن جئتكم بهذا القرآن من الله وحي؛ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 16] هذا الكلام وتفهمون ما أقول لكم؟

ولكن هذا كله كذب وافتراء على الله وهم يعرفون ذلك، ولذلك وعدهم الله قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 17].

انظر هذه الآية تحمل أمرين: افترى على الله كذبًا هذا واحد، أو كذب بآياته هذا اثنين، هم شغل أولًا افترى على الله كذبًا، هذا يدل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أتى بالقرآن من عنده ولم يفتره؛ كذب بآياته، هم الذين كذبوا بآياته.

فلا أحد أظلم ممن يفتري على الله الكذب؛ لأنهم ادعوا أن محمدًا يفتري القرآن، قال: لا أحد أظلم، أشد ظلمًا ممن يفتري، ولا أحد أشد ظلمًا ممن يكذب بآيات الله.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 17]؛ يعني المجرم الذي يكذب بآيات الله أو يفتري على الله كذبًا هذا هو الإجرام، ما ليس بعد هذا الإجرام. هذا موقفهم من القرآن الكريم ردوه ولم يقبلوه لكبر في نفوسهم وعدم تقبل الحق.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر موقفًا آخر من مواقفهم وهو عبادتهم غير الله، يعبدون الأصنام ويعبدون من دون الله ما لا ينفع ولا يضر، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: 18].

- كيف ما لا يضرهم ولا ينفعهم؟

يعني ما لا يضرهم، يعني يعبدون أصنامًا لو تركوها ما تضروا، لو لم يعبدوها ما تضروا. هم يظنون أنها تضرهم، ما تضر، لو تركوها وعبدوا الله حق عبادته لن تضرهم هذه.

ثم قال: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾؛ لو عبدوها وخضعوا لها ما تنفعهم، لا تدفع عنهم شرًا ولا تجلب لهم خيرًا، يعبدونها وإذا قلت كيف تعبد صنم آلهة، تعبد حجر وشجر ما ينفعك؟ قال: لا هذه تشفع لنا عند الله؛ انظر حجته شيطانية، تشفع لها عند الله.

وتجد الآن ممن يذهب إلى أهل القبور الأموات، الأولياء، يدعون أنهم أولياء، فيأتون ويطوفون حول القبر ويقدمون القرابين ويدعونهم من دون الله.

- وإذا قلت لهم كيف تأتي لميت؟

قال هذا يشفع، هذا ولي، هذا يشفع. اسمع ماذا يقول قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: 18]. أموات غير أحياء ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

ماذا يقول؟ قل لله الشفاعة جميعًا، الشفاعة لله ليست لهؤلاء، ما يملكون الشفاعة؛ ثم إن الشفاعة لا تقبل عند الله إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولًا، لابد أن يأذن الله للشافع ويرضى عن المشفوع، شفاعة لله، لا يملكون الشفاعة، فيقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

قل لهم: أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض؟ أنتم تخبرون الله بشيء لا يعلمه الله؟ لا، الله ما يعلمه وأنتم تعلمونه حتى تقولوا هؤلاء شفعاؤنا؟ ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: 18].

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تعظيمًا له تنزيهًا له ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. يشركون ويفترون على الله الكذب؛ يعني زيادة على شركهم يدعون أنها تشفع لهم ويكذبون على الله ويقولون ويدعون أن الله لا يعلمه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحاط بكل شيء علمًا.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبر عن أن حال الناس أصلًا هو التوحيد؛ يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق الإنسان على الفطرة، الأصل في الإنسان التوحيد ليس الشرك.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق آدم على التوحيد، وأنزل آدم وأبناؤه كلهم على التوحيد، ومضت قرون وهم على التوحيد لم يحدث شرك؛ عشرة قرون مضت منذ نزول آدم إلى الأرض إلى أن جاء قوم نوح الذين أشركوا وأظهروا الشرك، فأرسل الله أول نبي وهو أول رسول وهو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 19]. أي على التوحيد والفطرة، فاختلفوا بعد ذلك فمنهم من بقي على التوحيد ومنهم من كفر وأشرك وعبد الآلهة وعبد الأصنام.

يقول ولولا كلمة سبقت من ربك؛ كلمة سبقت بتأجيل العقوبة وإمهالهم، لقضي بينهم وأهلك هؤلاء الذين أشركوا وكفروا؛ لأن الله لا يرضى لعباده الكفر.

قال ﴿لقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ قضى الله بينهم وحكم بينهم وأنجى عباده الصالحين أهل التوحيد وأهلك أهل الكفر والطغيان، ثم أيضًا يذكر الله لنا موقفًا من مواقف هؤلاء الكفار؛ كل السورة تناقش هذه المواقف السيئة من مواقف الكفار واعتراضاتهم وعدم قبولهم للحق، ولا ما المانع أنكم جاءكم رسول تعرفونه في خلقه وأدبه وسمته، وجاءكم بكلام تعرفون حقيقته وأنه من عند الله؟

- لماذا لا تؤمنون وتتركوا عنكم طاعة الشيطان؟

إلا أن الكبر الذي في نفوسهم وطاعة الشيطان هي التي منعتهم. اسمع ماذا يقولون، يعني تستمر الآيات في ذكر مواقفهم السيئة، ويقولون أي الكفار: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [يونس: 20].

يعني على محمد آية من ربه؛ انظر كيف العمل، قرآن كامل ينزل عليه يقول لولا أنزل عليه آية؟ كيف؟ قال: لا نريد آية حسية، القرآن ما يغنينا ولا نستفيد منها، نريد آية حسية.

- لماذا موسى يأتي بآية حسية، العصا واليد؟

العصا يلقيها في الأرض فتصبح ثعبانًا، واليد يدخلها في جيبه ثم يخرجها بيضاء؛ لماذا صالح يأتي بالناقة آية؟

محمد ما عنده آية؟ ولذلك قالوا: لم نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا، أو تكون لك جنة من نخيل وأعناب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرًا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كِسَفًا، أو تأتي بالله والملائكة قبيلًا؛ كل هذه حجج آيات حسية.

هذه تسمى آيات حسية ما تبقى، هذه افرض أن الله سبحانه جعل هناك ينبوعًا ونخيلًا وبساتين ثم تنتهي، القرآن باقٍ إلى قيام الساعة حجة قوية باقية إلى قيام الساعة؛ أيهم أفضل وأيهم أعظم؟ أين قلوبكم؟ أين عقولكم؟ فيقول: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: 20].

فقل إنما الغيب لله؛ الذي ينزل أو لا ينزل هو الله هو الله، إنما الغيب لله. ثم أمر آخر؛ صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أتى بالآية الحسية، الناقة، آمنوا؟ ما آمنوا، كفروا وعقروها وتحدوا وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.

فرعون لما جاءته الآية الحسية يلقي عصاه في الأرض فتنقلب ثعبانًا، آمن؟ كفر وقال نجمع لك السحر وهكذا، فما الفائدة؟ انظر قال: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾. انتظروا أنتم انتظروا ما الذي يكون، يعني مآلي أنا ونهايتي، وأنتم نحن ننتظر ماذا تكون نهايتكم.

فأصبحت نهاية هؤلاء المجرمين من أهل مكة أنهم أبادهم الله وأهلكهم، وأصبحت نهاية محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أظهر الله دينه وشرعه. اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حال الناس يقول: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: 21].

هذا يذكر حال الناس في الغالب، إلا المؤمن، إلا المؤمن الذي منّ الله عليه بالإيمان، أما غالب الناس حتى ضعفاء المؤمنين يقعون في هذا الشيء. إذا أذاق الله الناس رحمة؛ وش الرحمة؟ صحة، عافية، مال، غنى، ولد، أعطاه الله خيرًا من بعد ضراء؛ من بعد فقر، جوع، مرض.

يقول من بعد ضراء مستهم قال: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾؛ يعني إذا أعطاهم الله الصحة والعافية، مثل قوم فرعون أخذهم الله بالسنين وأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل، فقالوا

لموسى: ادعُ لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل، فلما كشف إذا هم ينكثون ويرجعون إلى عادتهم الخبيثة.

فهكذا إذا أعطاه الله رحمة من بعد الضراء قال: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ يمكرون بالآيات ولا يتقبلونها ويحاولون ردها بكل وجه. قل الله أسرع مكرًا، أقوى منكم ويمكر بكم مثل ما أنكم تمكرون بآياته وبرسوله الله يمكر بكم؛ ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: 21]؛ أي الملائكة يكتبون ما تمكرون، كل ما تفعلونه من المنكرات ومن المكر ومن التخطيط الله فوقهم وملائكته يكتبون ما يمكرون. ثم يذكر حالة أخرى أيضًا من أحوال الناس أما كفار أو ضعفاء.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: 22].

- من الذي ينقلكم في البر والبحر؟

على الإبل في البر، والبحر على السفن، وفي الجو على الطائرات، وفي البر على السيارات؛ من الذي يسيركم؟ من الذي ينقل الناس؟ الله هو الذي يسيركم في البر والبحر لأنه هو المالك لكم وبتقديره وبحكمته، وإلا لا يستطيع الإنسان أن يسير لا في البر ولا في البحر؛ هو الذي يسيره وحده في البر.

حتى إذا كنتم في الفلك ذكر حالة عجيبة وهي البحر؛ البحر يخيفهم أكثر.

يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: 22].

على البحر وجرين بهم؛ أي الفلك تجري بهم، والله يجري به يسير يسيرهم في البحر. وجرين بهم بريح طيبة؛ الأصل وجرينا بكم، لكن غير الأسلوب لأن هذا من أسلوب الالتفات البلاغي لأنهم لا يستحقون من يخاطب، وقال لأنه غير إلى ضمير الغائب قال: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾.

الريح الطيبة تجري السفينة بهدوء، وفرحوا بها، بعد ذلك ماذا؟ ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ عصفت بهم الرياح، وجاءهم الموج من كل مكان، ليس لهم حيلة الآن ماذا سيصنعون؟

وظنوا أي أيقنوا أنهم أحيط بهم؛ أحاطت المهالك بهم من كل جهة، الأمواج والرياح والعواصف، أحيط بهم. دعوا الله مخلصين له الدين؛ الآن راح، ذهب الشرك والكفر، تركوا أصنامهم وتوجهوا إلى الله، تركوا المعبودات التي في الأرض التي لا تنفعهم ولجأوا إلى معبودهم الذي في السماء.

دعوا الله مخلصين له الدين، لا وزيادة على ذلك يقسمون: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾؛ يعني من هذا الكرب الشديد لنكونن من الشاكرين، يعني نعبدك لا نعبد غيرك.

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 23].

فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض؛ يبغون من البغي فساد، إذا هم يشركون يكفرون، يبغون في الأرض بغير الحق بغير الحق. قال الله: يا أيها الناس، يعني يخاطب هؤلاء الذين أنقذهم الله من الموت، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم؛ فسادكم على أنفسكم يضركم.

متاع الحياة الدنيا؛ الدنيا متاع سريعة الزوال، زائل متاع الحياة الدنيا. ثم إلينا مرجعكم يوم القيامة فننبئكم بما كنتم تعملون؛ ننبئكم بأعمالكم ثم نجازيكم عليها، هذه الدنيا سريعة الزوال متاع.

اسمع ماذا يصفها الله يقول في الدنيا، تعجب كيف يصف الله الدنيا يقول: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24].

الماء نزل واستقر في الأرض وأنبت الزرع مباشرة، فاختلط الزرع بالنبات الرطب بالماء، واختلط النبات والزرع بالماء؛ ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾؛ يعني أظهر الزرع الذي يأكله الناس الزروع والحشيش وتأكله البهائم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ تزينت وتجملت وتحسنت وازينت، وظن أهلها جزموا وأيقنوا أهلها أنهم قادرون عليها؛ مثل هذه الحالة يظن أن الأرض يملكها ويتصرف فيها، يظنون أنهم قادرون عليها.

يقول إذا وصلت الأرض إلى هذا الحد من الزينة والجمال وظن سكانها أنهم يقدرون يتصرفون فيها أتاها أمرنا؛ بقدرة الله، ما يملكون شيئًا ما يملكون أي تصرف على هذه الأرض.

أتاها أمرنا ليلًا وهم في فرشهم أو نهارًا وهم في معاشهم وغفلتهم، فجعلناها حصيدًا؛ مثل ما يحصد الزرع، تذهب كلها قاعًا صفصفًا؛ ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ كأن لم تكن بالأمس.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: كذلك، مثل هذا البيان والتفصيل بتوصيف الدنيا؛ انظر وصف الله لك الدنيا كلها بزخارفها مثل الماء الذي ينزل من السماء وتنبت الأرض، بعد أيام يذهب هذا الزرع ويسود ويموت ويصبح هشيمًا تذروه الرياح.

قال: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: 24]. لقوم يتفكرون، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد هذا البيان العظيم يدعو عباده إلى دار السلام.

- ما هي دار السلام؟

الجنة؛ دار الله؛ السلام هو الله، أو هي الدار السالمة من كل آفة؛ دار السلام الجنة.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: 25]. يدعو الناس كلهم، انظر يدعو من يشاء، كل الناس إلى دار السلام، لكن يهدي من يشاء ممن يستحق الهداية إلى صراط مستقيم وهو شرع الله.

نسأل الله أن ينفعنا بهذه الآيات، وأن يبارك لنا، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(191)
(يونس 26 - 40)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلِّ وسلم على أشرف الأنبياء المرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدِّين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا المجلس، مجلس من مجالس القرآن في بيت من بيوت الله؛ أسأل الله ألَّا يحرمنا هذا الفضل العظيم، وأن يرزقنا وإياكم الإخلاص في القول والعمل.

هذا اليوم هو اليوم الرابع عشر من شهر الله المحرم من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة؛ تفسير القرآن العظيم وسورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقف بنا الكلام عند الآية السادسة والعشرين، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 26].

اقرأ هذه الآية، وكرر قراءتها، وتأملها؛ تجد فيها بشرى من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بشارة عظيمة لمن استقام على طاعة الله وأحسن عمله مع رب العالمين ومع خلقه؛ مع رب العالمين ومع الخلق.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾.

- ما معنى أحسنوا؟

"الإحسان إتقان العمل"؛ يعني أنك تعبد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإتقان وإحسان، تؤدي الصلاة كما أمر، الزكاة كما أمر، الصيام، الحج، سائر الأعمال التي بينك وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أن تحسن، أن تحسن.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]. فإحسانك إتقانك للعمل بحيث تأتي به على أكمل وجه، وإحسانك أيضًا مع الخلق؛ وهو حسن التعامل، حسن الأخلاق، الخدمة، القيام بحقوق من لهم عليك حق؛ الوالدين، حق الزوجة، حق الأولاد، حق الجيران، حق المسلم على المسلم.

هذه كلها تقوم بها؛ تقوم بها حتى تحصل على هذا الفضل العظيم، هذا فضل، فإحسانك مع الله أولًا ثم إحسانك مع الخلق؛ كيف تتعامل مع إخوانك المسلمين، سواء كانوا أقرباء أو بعيدين؟

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾؛ الله يخبر الذين أحسنوا، هل أنت من الذين أحسنوا؟ فكر وتأمل في هذه الآية، هل أنت منهم أو راجع حساباتك؟ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ انظر فضل الله، **"الحسنى وزيادة"**.

- ما هي الحسنى؟

الحسنى كما فسرها أهل التفسير: **"الحسنى هي غاية الإنسان، غايته في الآخرة ما هي؟ دخوله الجنة"**؛ هذه هي الحسنى، ولذلك فسر كثير من أهل العلم أن قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾؛ أي للذين عملوا الأعمال الصالحة بإحسان وإتقان أن الله وعدهم بالفوز بجنات النعيم، والحسنى هنا هي الجنة؛ أن تفوز بهذا المطلب الذي كلٌّ يسعى إليه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾؛ ما هي الزيادة التي إذا دخلت الجنة حصلت لك؟

جاء في تفسير الزيادة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وخذ هذه قاعدة: **"إذا فسر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آية من كتاب الله فلا يُعلى على تفسيره، تفسيره مقدم على كل شيء"**؛ لماذا؟ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعلم بكتاب الله؛ لأنه يوحى إليه.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم من أي شخص، فإذا فسر الآية خلاص يجب عليك أن تقبل تفسيرها، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسر الزيادة بالنظر إلى وجه الله جل جلاله يوم القيامة؛ في حديث صهيب في صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«الْحُسْنَى الْجَنَّةُ، وَالزِّيَادَةُ النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللهِ»**. أسأل الله ألَّا يحرمنا ذلك الفضل؛ **"أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم"**.

فأعظم نعيم في الجنة هو النظر إلى وجه الله الكريم؛ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ 22 إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ23﴾ [القيامة: 22-23]. فأعظم نعيم إذا دخل أهل الجنة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم: ماذا تريدون؟

فيقولون: يا رب بيضت وجوهنا وأدخلتنا الجنة فماذا نريد؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فلا يجدون أعظم نعيم من النظر إلى وجه الله الكريم، فالزيادة هنا هي النظر لوجهه الكريم؛ يرضى الله عنك وتنظر إليه؛ متى يحصل هذا الشيء؟

فقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾؛ هذه بشرى عظيمة لمن أتقن عمله؛ كيف يصلي، كيف يصوم، كيف يحج، كيف يعتمر، كيف يتعامل مع الخلق؟ أحسِن تجد أثر ذلك بإذن الله.

ثم خذ زيادة، تظن الأمر ينتهي؟ فضل الله واسع، قال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ يوم القيامة يصيب الناس ما يصيبهم من الأتعاب والإرهاق، وتسود وجوه وتبيض وجوه.

هؤلاء الله يحفظهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأنهم أولياء، فقال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾؛ لا يصيب وجوههم قتر. **"القتر: الغبرة والسواد والكآبة التي تصيب الوجه"**.

قال لا؛ عباد الله الذين أحسنوا ووفقوا للعمل الصالح، هذا يوم القيامة إذا خرجوا من قبورهم لا يصيبهم قتر ولا ذلة. **"القتر يكون على الجسد، على الظاهر، يصيب الوجه من الغبار من السواد من الكآبة؛ والذلة داخلية في القلب"**، شايف الفرق؟

القتر على الجسد والذلة في القلب؛ لا يصيبهم ذلة يعني أنهم يعزهم الله ويكرمهم، فهذا معناه يرفع قدرهم؛ فلا يصيبهم لا في داخل قلوبهم ولا على أجسادهم، يحفظهم الله.

- فإذا كان لا يصيبهم قتر ولا ذلة، إذاً ماذا تكون وجوههم؟

تبيض وجوههم؛ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ 38 ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ39﴾ [عبس: 38-39]. انظر، الوجوه مسفرة هذا في الظاهر، ضاحكة مستبشرة في الداخل؛ الضحك داخلي يظهر أثره؟ نعم يظهر أثره. فشوف كيف فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ثم قال ماذا؟

زادك أيضًا زيادة، قال: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 26]. مقيمون، منعمون، لا يخرجون منها؛ فالدنيا قد تخرج من بيتك، إما يأتيه مالك البيت ويخرجك، أو يكون البيت لك وتخرج يأتيك ملك الموت ويخرجك من بيتك، أو يصيبك ما يصيبك ويخرجك من بيتك؛ الجنة ما يأتيك هذا أبدًا.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ لا أحد يخرجك منها. كيف يخرجك من دار رب العالمين الذي أعطاك الله وملكك إياه؟ قصور وظلل وغرف ومساكن؛ ما هذا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما يذكر الله هذا الفضل العظيم ويرغب الناس فيه، يذكر في المقابل من باب التخويف والتحذير؛ فيقول في أهل السيئات وأهل المعاصي حتى يحذرهم ليرتدعوا ويرجعوا، قال: ﴿وَالَّذِينَ

كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [يونس: 27]. كسبوها هم، هم الذين بحثوا عن السيئات؛ تجد بعض الناس يبحث عن المعاصي، يبحث عن السيئات في كل مكان.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾؛ وشوف عدل الله، هناك فضل، في الأول فضل الله، هنا يأتي العدل، قال: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: 27]. سيئة مقابل سيئة؛ الحسنة يقابلها عشر إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، أما السيئة مقابل سيئة؛ عدل، حكم الله الذي حكم بعدل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كسبوا السيئات، ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾، وأما حالهم يوم القيامة قال: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [يونس: 27]. ترهقهم ذلة؛ طيب الآن الذلة قلنا إنها في القلب، ذلة داخل وجوههم؛ كيف هناك يقول ﴿لَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾، هنا ما قال وجوههم، الآن تأتيك الوجوه أشد، اسمع.

قال أول شيء الذلة والمهانة في قلوبهم؛ منكسرين ذليلين، هذا أول ما يخرجون من قبورهم، قال: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [يونس: 27]؛ ما أحد يعصمهم مما يريده الله بهم من العذاب، لا أحد يستطيع أن يرد عنهم شيئًا، ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

تأتيك الوجوه الآن، قال: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: 27]؛ شف الليل إذا اشتد سواده، سواد؛ يقول وجوههم كأنها قطعة من قطع الليل، من سواد الليل؛ يعني إذا ما تشوف، يعني علامات الوجه ما تشوفها، العيون والأنف ما تشوفها، أسود.

هذا الوصف أشد من لما يقول وجوههم فيها قتر؛ قتر غبار، غبار يصيب وقد يمسح الغبار ويذهب، لا؛ قال وجوههم أشد، ما تكون مسودة. يقول شف قال: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾؛ أغشيت يعني غطيت، ﴿قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾؛ قطع وليل ومظلم، ما في قمر ولا في شيء، مظلم شديد الظلمة.

ينتهي الأمر؟ ما ينتهي، قال: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: 27]. هم أصحاب النار، يعني توعدهم الله بهذا الوعيد الشديد؛ أنهم من أهل النار، وفوق ذلك خالدون فيها لا يخرجون منها، لا يخرجون منها.

هذه شف لما تقرأ هذه الآيات، وين قلوبنا؟ ميتة؟ كيف نسمع بهذه البشارات ثم لا نسارع وتضعف أنفسنا؟ كيف نسمع مثل هذه التخويف الشديد ولا ترتدع القلوب وتبكي؟

☜النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا قرأ ومر بآية فيها رحمة سال: **«اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ»**؛ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، اللهم اجعلنا منهم. إذا مر بآية عذاب: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾، قال ترهق وجوههم ذلة، قال أغشيت وجوههم قطعًا، قال: **«اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ»**؛ نعوذ بك من أهل النار ونعوذ بك من عمل أهل النار، نسأل الله أن يحمينا منه ويكفينا شره.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 28]. الآن دخل في عالم الآخرة؛ ماذا سيصنع الله بهؤلاء الآن؟ الكلام عن هؤلاء أهل النار.

يقول: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾؛ الحشر جميعًا لأهل النار وأهل الجنة ولأهل الخير وأهل الشر كلهم يحشرون يوم القيامة. ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ بدون استثناء. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ [يونس: 28].

الآن بدأ أهل الشرك والكفر وأهل النار، ثم نقول للذين أشركوا: ﴿مَكَانَكُمْ﴾؛ يعني الزموا مكانكم. يريدون أن، وين يروحون؟ يدخلون الجنة ولا وين يروحون؟ قال لا، انتظروا عندكم حساب شديد؛ الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم.

- من هم شركاؤه؟

الذين كانوا يعبدونهم، حتى الأصنام والحجارة تحضر أمامهم يوم القيامة حتى تقام تقوم عليهم الحجة، الأصنام والحجارة من شجر وحجر وغيرها؛ أصنام أمامهم أو معبودين حتى لو كانوا هؤلاء المعبودين من الملائكة ومن الأنبياء.

الذين يعبدون عيسى يأتي عيسى أمامه، والذين يعبدون الأولياء ويتقربون ياتون أمامه. انظر قال يحشرهم الله هم وشركاؤه قال: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: 28]. فزيلنا بينهم؛ يعني عزلناهم، جعلنا هؤلاء هنا وهؤلاء هنا، يعني لا ترجون ما ينفع خلاص، فزيلنا بينهم فصلنا بينهم.

ثم بدا الحوار، انظر؛ ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾، يعني الأصنام قد تتحدث يوم القيامة، الله قادر على كل شيء؛ إذا كان الجلود تتكلم، الجلد يتكلم، والله ويقول: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: 21].

فالأصنام يؤتى بها يوم القيامة، والشركاء والملائكة والأنبياء والأولياء؛ فيقول هؤلاء الذين عبدوهم من دون الله، المعبودين، قال شركاؤهم: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: 28]. يقول ما سمحنا، ما سمحنا لكم ولا أُذن لكم أن تعبدونا؛ عيسى لم يرضَ، والأنبياء والملائكة لم يرضوا أن يُعبدوا من دون الله، ما أحد يرضى حتى الحجارة ما ترضى.

﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، ثم يقولون: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: 29]. الله يشهد أننا لم نرضَ أن تعبدوننا من دون الله؛ تتركون عبادة الله وتعبدون حجارة؟ نحن لا نرضى.

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾؛ يعني لا ندري أنكم تعبدوننا، عيسى رُفع إلى السماء والنصارى يعبدون الآن، هو لا يرضى، حتى لو علم لا يرضى؛ ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾.

قال الله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: 30]. **"تبلو أي تمتحن"**، وفي قراءة **"تتلو أي تتبع"**؛ ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ ما قدمت من أعمال، تنظر في أعمالها وتمتحن وتختبر في أعمالها.

أنت الآن أمامك أعمال، صحيفة كاملة، كل أعمالك في كتاب تأخذه؛ هذا كتاب تحاسب عليه، تحاسب عليه مثل الفواتير الآن، تحاسب على كل نقطة وكل سطر تحاسب عليه.

حتى يقول الكفار: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49]. كل شيء مسجل، كل شيء مسجل؛ ﴿تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾، الذي يحاسبهم هو الله، الذي يجازيهم ويحاسبهم ويحكم بينهم هو الله.

﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [يونس: 30]؛ مولاهم الذي يتولى حسابهم هو الحق للباطل.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة والمعبودات التي لا تنفعهم؛ ظلت، ذهبت، تركت.

ترى إذا عرفنا عظم هذا الموقف الشديد يوم القيامة، وأن الناس كلهم يردون إلى الله، وأن الله هو الذي يجازيهم ويحاسبهم؛ من هو رب العالمين؟

من هو الله؟ من هو رب العالمين؟ تعرف عليه حتى تعرف عظمته، وتعرف أنك لا تعبد إلا إياه. اسمع، الله الآن يخاطب هؤلاء الذين لا يعرفون عظمة الله ولا يعبدونه، ويعبدون الأصنام والحجارة ويتركون رب العالمين.

اسمع من هو رب العالمين؛ يناقشهم الله ويقول لنبينا محمد: قل لهم، الذين يعبدون اللات والعزى ويعبدون الملائكة ويعبدون غيرهم، قل لهم: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس:

31]؟ أعطوني جواب؛ من يرزقكم من السماء والأرض؟ من الذي يأتي بالرزق؟ هل الأصنام تأتي بالرزق ولا أحد من المخلوقين؟ ما يرزقك؛ الذي يرزقك هو الله رب العالمين.

﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم قال: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾؟ من الذي يستطيع أن يأخذ سمعك ويأخذ بصرك؟ من الذي يملكه؟ من هو؟

ثم قال مرة ثالثة: ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾؟

- كيف يخرج الحي من الميت؟

الحي مثلاً النبات؛ حبة ميتة جماد، تنبت أخضر حي يتحرك. الحيوان النطفة ميتة ماء مهين، يخرج الله به حي إنسان يتحرك وهكذا؛ من الذي يخرج الحي من الميت؟ ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾؟ يخرج النطفة من الإنسان الحي، ويخرج الحبة والنواة من التمرة ومن الشجرة الحية.

- من الذي يخرج الميت من الحي؟

﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: 31] كله؟ في الكون هذا، السماوات والأرض، من الذي يتصرف في هذا الكون ويدبر الأمور كلها؟ من هو؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾؛ جزمًا، ما يمكن أن يقولوا غير الله، هم لو تأتي إلى المشرك تقول تعال: من الذي خلقك؟ من الذي رزقك؟ يقول لك الله.

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ قل أفلا تتقون الله؟ لماذا لا تعبدونه؟ لماذا لا تخافونه؟ لماذا تعبدون غيره؟ ثم يقول: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ [يونس: 32]. الله هو ربكم؛ أنتم اعترفتم أنه هو الله وأنه ربكم، ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

إذا عرفتم أن الله هو الحق، فما سواه ضلال في ضلال لا ينفع؛ ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؟ كيف تنصرفون عن طاعة الله وعن عبادته والسجود له والدعاء، وتدعون وتسجدون لغير الله؟ أين عقولكم؟

ثم يقول: ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ يعني إذا رأيت منهم العناد والاستمراء، لأن الرسول كان يناديهم ويجلس معهم ويناقشهم بهذه الأدلة ويستمرون ما يرجعون، فالله يخبر يقول: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 33]. حقت، وجبت كلمة ربك وهي العذاب.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ بسبب فسقهم وكفرهم وإعراضهم وعدم رجوعهم إلى الله، حقت الكلمة عليهم أنهم لا يؤمنون؛ ولو جئت من كل جهة ولو جئت بكل آية لا يؤمنون. ثم يزيد في النقاش، اسمع: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: 34].

- هل هذه الشركاء والمعبودات التي تعبدونها من دون الله تبدأ الخلق؟

تخلق خلقًا جديدًا وتعيده مرة ثانية؟ لا تبدأ ولا تعيد. ثم قال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: 34]؛ كيف تصرفون عن عبادة الله وأنتم تعرفون الذي يخلق الخلق هو الله، والذي يعيد مرة أخرى هو الله؟

ثم لا تزال الآيات في النقاش؛ قل لهم أيضًا: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ [يونس: 35]؟ هل الآلهة والأصنام تهدي إلى الحق؟ ما تهدي، هي ما هدت نفسها عشان تهديك أنت.

﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾؛ الله هو الذي يهدي للحق، ثم يقول: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾ [يونس: 35]؟ هل الذي يهدي للحق أحق أن يُتبع أم لا؟ ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّي﴾ هكذا تُقرأ؛ أصلها **"أمن لا يهتدي"**.

يقول لك الله هو الذي يهدي إلى الحق، فكيف تريد من هذا الصنم أو هذه الآلهة، تريد منها أن تهديك؟ هي ما اهتدت. انظر، ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّي﴾ أصلها **"أمن لا يهتدي"**، **"التاء قُلبت دالًا**

وأُدغمت الدال في الدال فأصبحت أمَّن لا يهِدِّي"؛ يعني هو لا يهتدي حتى يهدي غيره ﴿إِلَّا أَن يُهْدَىٰ﴾، إلا أن تأتيه هداية من الله، أما هو يهتدي؟ ما يهتدي أبدًا، ﴿إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

كيف تحكمون وتأتون بمعبودات وآلهة وتساوون بها مع رب العالمين؟ ش هذا الحكم؟ من وين أتيتم به؟ شخص لا يستطيع أن يهدي نفسه ولا يهدي غيره، والله هو الهادي، ومن أسمائه الهادي وهو الذي يهدي؛ كيف تساوون هذا بهذا؟ أين عقولكم؟

ولذلك الشيخ بين أن ما عندهم شيء، ما عندهم أدلة ولا عندهم عقول أصلاً، فقال لهم: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: 36]؛ ظنون وشكوك، ما في دليل صحيح، ما في شيء يستندون إليه. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾.

لا ينفع، تأتي بظن وتأتي بخبر يقين؟ بلا شك أن الظن ما يأتي عند الخبر اليقين؛ يأتيك خبر يقين ويأتيك واحد يشكك، الشك ما يأتي عند اليقين. قال: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كل أفعالهم الله عالم بها وسيجازيهم.

- ثم أين نأتي بالخبر اليقين؟ ما المصدر عندنا؟

نحن مسلمون، القرآن. ولذلك انظر قال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: 37]. هذا القرآن ما يمكن أن يفتريه محمد ولا غيره، هذا تنزيل من رب العالمين.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ يعني يصدق الكتب السابقة، التوراة والإنجيل والزبور وهو يصدقها ويخبر عنها بالأخبار الصادقة، وهي أيضًا أخبرت عن القرآن.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾؛ تفصيل الأحكام في هذا الكتاب الذي بين أيدينا، اسمع واقرأ، انظر العقيدة الصحيحة فيه، العقيدة السليمة التي تنجيك من عذاب النار.

﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 37]؛ لا نشك فيه أنه من رب العالمين، مصدره من الله؛ الذي جاء بهذا القرآن هو الله، الذي نزله هو الله، الذي أوحى به هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم رد عليهم، هم يدعون أن محمدًا افترى هذا القرآن؛ فيرد عليهم يقول: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [يونس: 38]. هم يقولون إن محمد افتراه، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾؛ قل فأتوا بسورة، أنتم تدعون محمد أتى بهذا القرآن كاملاً مائة وأربع عشرة سورة، أنتم لماذا لا تأتون بسورة واحدة؟ أقصر سورة، سورة الكوثر.

﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ الذين تستطيعون من دون الله ومن شركائكم فأتوا بهم وهاتوا سورة واحدة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾. ما يأتون، ويستحيل أن يأتوا بمثل هذا القرآن.

ولذلك قال بل في الحقيقة إنهم كذبوا بالقرآن، كذبوا به ولا يريدون قبوله؛ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: 39]؛ ما درسوه ولا تعلموه، ردوه مباشرة. ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يقول ينتظرون ياتي تأويله؛ انتظر لما يأتيك سياتيك تأويله. ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 39].

قل مثل ما كذبوا بك يا محمد وكذبوا بالقرآن، في أمم ماضية كذبت رسولها فأصابها ما أصابها، كذا كانت عاقبة الظالمين، ثم إن منهم مؤمنين؛ من منهم من آمن ومنهم من كفر، يعني المشركون كلهم لم يكونوا على الكفر، فيهم من آمن. فيقول الله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي بالقرآن، ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 40].

الآيات لا تزال الحقيقة آيات عظيمة تحتاج منا إلى تدبر، إلى تأمل، إلى فهم؛ حتى نقرأ ونفهم، لا أن نقرأ ونحن لا نفهم، هذه الآيات لا تزال في بيان وفي إيضاح القرآن وعظمته، لكن نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(192)
(يونس 41 - 56)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدِّين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الموافق للثامن من شهر الله المحرم من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، وهذا المجلس يعقد كل أسبوع من بعد صلاة المغرب كل أربعاء؛ نجلس هذا المجلس المبارك، ونقرأ آيات من كتاب الله جل جلاله، ونبين معانيها، ونتفكر فيها، ونتأمل ما فيها من توجيهات ربانية وعلوم شرعية.

فوقف بنا الكلام في سورة يونس عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: 44]. الآية الرابعة من سورة يونس يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: 44].

هذه الآية صريحة واضحة بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو العدل في حكمه، هو الحَكَم، ولا يظلم مثقال ذرة في عباده؛ لا ينقص من أعمالهم وحسناتهم شيئًا، ولا يزيد في سيئاتهم شيئًا.

انظر قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: 44]، شيئًا ولا مثقال ذرة، ولكن الناس أنفسهم هم الذين يظلمون أنفسهم، يظلمون أنفسهم؛ وإلا الله لا يظلم الناس شيئًا.

في هذا تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الظلم، وأن يحصل شيء ولا مثقال ذرة من الظلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل هو العدل في حكمه، هذه الآية لما تقرأها أنت تأمل فيها وتفكر، ثم انظر في الآيات التي قبلها؛ انظر الآيات التي قبلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عن هؤلاء المشركين بأن الله جعل لهم سمعًا وأبصارًا.

لكن لم ينتفعوا لا بسمعهم ولا بأبصارهم. هل يعني كونهم لم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم أن الله أخذ عنهم سمعهم وأبصارهم؟ ولا ما السبب؟ يعني الله أعطاهم، منَّ عليهم بالسمع والبصر والعقل؛ فماذا صنعوا بها؟ اسمع ماذا يقول: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 42].

يعني من هؤلاء المشركين من يستمعون للقرآن؛ يعني ما أعرضوا لا، جاؤوا واستمعوا، منهم من يستمعون إليك.

ثم قال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ [يونس: 42].

- لماذا هم يستمعون ثم يحكم الله عليهم بأنهم صم؟

لأن استماعهم ليس لغرض الانتفاع والاتعاظ، لا؛ استماعهم لأغراض أخرى دنيوية، أغراض أخرى؛ إما القدح في الإسلام أو نحوه، لو كان استماعهم يعني مقبل على القرآن ﴿أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] لانتفع بالقرآن، لكنه لم يأتِ للقرآن ينتفع.

قال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 42]؛ ما يعقل أصلًا ما يريد هو، ولا يريد أن يصل إلى أن يفهم القرآن.

ثم ذكر هذا في حالة السمع عندهم؛ إسماع بس ما استفادوا منها، مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18].

وهنا قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: 43].
يأتون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وينظرون إليه ويتأملون فيه ويعرفونه معرفة تامة؛ منهم من ينظر إليك، ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ [يونس: 43].

- كيف ينظرون والله يقول عمي؟

الجواب: لأن نظرهم ليس نظرًا فيه مصلحة في دينها، وإنما نظر يريدون أن يقدحوا في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولذلك قال انظر قال: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يونس: 43].
هم يبصرون، لكن ما يبصرون بصر انتفاع؛ ولذلك انظر بعدها ماذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: 44]. أعطاهم سمعًا؟ نعم. أعطاهم أبصارًا؟ نعم. أعطاهم قلوبًا يفقهون بها؟ نعم. ما ظُلموا؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: 44].
ظلموا أنفسهم بأي شيء؟ ما استعملوا هذه الآلات فيما ينفعهم. ثم أمر مهم جدًا، لا تظن أن هذه الآية خاصة بمشركي مكة أو خاصة في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ هذه الآية باقية إلى قيام الساعة، أنت الآن تشوف وترى وتبصر أناسًا الآن موجودين لهم أسماع، هل يسمعون الخير؟
فيه منهم من لا يسمع الخير ولا يريد سمع الخير؛ فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يريد الخير ولا يسمع الخير، هذا بمنزلة الأصمـ وهذه عقوبة من الله أصلًا؛ يعني لو تأملت أنه لما أعرض عن ذكر الله وعن سماع القرآن وعن سماع الخطب وعن سماع الخير.
لما أعرض عاقبه الله بأنه جعله أصم، أصمًا عن الخير كله؛ هذه عقوبة من الله. كذلك العمى، الأعمى الله أعطاه نظر يبصر، انظر الذي يريده من أمور الدنيا يبصر بصرًا قويًا حادًا، لكن إذا جاء في أمور الدِّين ما يبصر ولا يريدها ولا يريد أن يرى، لا؛ يعني لا يريد أن يرى الخير أبدًا في أي مجال من مجالات الخير.
لو سمع أن هناك أي مجال من مجالات الخير يعني يحزن ويغيظ كمدًا، لا يريد الخير ولا يريد أن ينظر إلى شيء يسر المسلمين؛ فلذلك هذا بمنزلة الأعمى؛ لأن الله سلب عنه الانتفاع بالنظر.
هو ينظر بس ما انتفع بنظره، نظره هذا عقوبة عليه؛ لماذا؟ لأنه ينظر للأشياء المحرمة ويستمع للأشياء المحرمة ولا ينظر للخير ولا يستمع للخير؛ هذه عقوبة.
فلا بد أن نفهم القرآن ونطبقه في حياتنا، ليس القرآن هو كتاب أنزل في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أربعة عشر قرنًا أو أكثر ونظن أنه انتهى أمره، لا؛ قرآن صالح لكل زمان ومكان، وهو يمشي معنا في حياتنا، لا يمكن أن نستغني عنه وآياته تتحدث ولا تقف عند حد.
اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الآن كل هذا في سياق ماذا؟ نحن لا بد أن نفهم هذه السورة، سورة يونس سورة مهمة جدًا في علاج قضايا العقيدة؛ عقيدة صلاح القلب.
أنت قلبك لا بد أن يكون متعلقًا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ تتفكر في الله وفي آياته وفي هذا الكون وفي شرعه وفي دينه، تعرف أنه لا دين فوق هذا الدِّين ولا شرع فوقه، وليس هناك أحسن من الله دينًا وليس هناك أحسن خَلْقًا من الله، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].
تتفكر في السماء، هذه كلها السورة هذه يعني تقيض عندك أمورًا مهمة في حياتك حتى تتقوى علاقتك برب العالمين.

أنت تقرأ أي سورة من سور القرآن تجد فيها توجيهات عظيمة، هذه السورة تختلف؛ هذه السورة تربي العقيدة الصحيحة، وتجعل العبد المسلم متعلقًا بربه.

انظر كيف تقرر العقيدة الصحيحة وتحارب العقائد الفاسدة؛ انظر الآن يأتيك الحديث عن اليوم الآخر، اليوم الآخر ركن من أركان العقيدة، ركن من أركان الإيمان، ما يمكن الإنسان يكون إيمانه كاملًا إلا إذا عرف وأقر باليوم الآخر.

اسمع ماذا يقول: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: 45]. يحشر الخلق كلهم، كل الناس يحشرون المؤمن والكافر، يوم يحشرهم.

- وإذا حشرهم ما النتيجة؟

قال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: 45]. يقول إذا جاء يوم القيامة حياتك هذه التي عشت فيها ستين، سبعين، إلى مئة سنة أو أقل، هذه كأنها ساعة واحدة؛ ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 46].

ساعة هنا ليست الساعة المعروفة عندنا ستين دقيقة، لا؛ ساعة يعني لحظة زمان يعني مقدار من الزمن القصير- يقول إذا حشر الناس خرجوا من قبورهم نسوا الدنيا كلها؛ الذي أعطاه الله الدنيا كلها بنعم عظيمة كأنه لم يتلذذ بنعمها، والذي عاش فقيرًا المصائب لا تفارقه كأن لم تأته أي مصيبة، لحظة انتهى في الدنيا كلها طويت صحيفته.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: 45]. ثم يقول: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: 45]؛ الناس إذا خرجوا من قبورهم يتعارفون بينهم، لكن هذا التعارف لا يبقى، لا يستمر؛ لأن عندنا آيات أخرى يعني بين الله فيها أنهم لا يتعارفون وأنهم كل يفر عن الآخر؛ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: 34].

وفي آيات أخرى قال: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: 101]. فكل مشغول بنفسه، ما أحد؛ لكن أول ما يخرجون يتعارفون، ثم إذا رأوا أهوال يوم القيامة وشدائد يوم القيامة ذهب كل ما بينهم وبين هذا التعارف.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾، ثم قال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: 45]. يقول الذين كذبوا بلقاء الله في الدنيا، كذبوا بيوم القيامة وبلقاء الله، ولم يعملوا لهذا اليوم ولم يستعدوا له، وكذبوا به وقالوا ما في بعث.

تجد الآن ممن يدعي الآن يقول ما في بعث ولا جنة ولا نار، كل هذا كلام مو صحيح. فالذين كذبوا بما أخبر الله بأن هناك جنة ونار وبعث وحساب، الذين كذبوا بلقاء الله هم الذين خسروا خسارةً عظيمةً؛ ليش؟

لأنهم فاتهم الفوز بجنات النعيم وصار وين مأواهم؟ إلى جهنم لن يخرجوا منها، وما هم منها بخارجين؛ كذا خسروا خسارةً عظيمةً، ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: 45].

في الدنيا ما كانوا يريدون الهداية ولا يريدون طريق الاستقامة، إنما يريدون التكذيب والعيش في الدنيا؛ رضوا بالحياة الدنيا، ثم جاءهم الموت، وإذا جاء يوم القيامة عرفوا أنهم قد خسروا خسارةً عظيمةً، خسارةً عظيمةً.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني هو يؤيد نبيه بالرسالات، ويؤيده بالقرآن، ويؤيده بما تسمع من هذه التوجيهات العظيمة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمحمد وهو يرى ما يرى من المشركين في عداوتهم للرسول وشدة يعني محاربتهم للدعوة ولا يريدون يعني أن ينتشر هذا الإسلام.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يهدئ ويسلي نبيه فيقول: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 46].

يقول نحن قادرون على أن نريك بعض الذي نعدهم؛ ما هو الذي يعدهم؟ يعدهم بالعقوبات التي تنزل بهم، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: قد نريك بعض الذي نعدهم؛ وقد أراه، متى أراه؟

أراه يوم بدر أن رؤوس الشرك تتساقط أمامه، ويرى هؤلاء الأعداء الذين كانوا يتربصون في مكة يراهم قتلى ويلقون في قليب بدر؛ فأراه الله سبحانه.

قال: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ [يونس: 46] من العذاب، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [يونس: 46] وهم ما زالوا باقين، فإن إلينا مرجعهم؛ سيرجعون إلينا يوم القيامة.

قال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: 46]؛ الله شهيد وعالم وحاضر ومطلع على كل ما يفعلونه فيحاسبهم ويجازيهم.

وهذه سنة الله في جميع الأمم، ليست في أمة محمد؛ اسمع يقول: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47].

لكل أمة من الأمم الماضية؛ أمة نوح وعاد وثمود وشعيب ولوط إلى آخره، لكل أمة رسول؛ يعني أن الله ما تركها ولا أهملها، كل أمة يرسل إليها رسوله حتى تقوم الحجة عليه. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾، فإذا جاء رسولهم وبعث فيهم وأنذرهم وحذرهم، ثم لم يؤمنوا، قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم﴾ [يونس: 47]؛ قضي بين المؤمنين الذين آمنوا برسولهم والكافرين الذين أبوا أن يؤمنوا، قضي بينهم.

قضى الله بينهم بإنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين، قال: ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: 47]؛ بعدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 47]. ما يظلمون؛ الله أرسل إليهم رسولًا ودعاهم للإسلام والتوحيد والعبادة فأبوا وكفروا، وآمن قلة معدودة والكثير كفروا وأبوا.

النتيجة الله يقضي بينهم بالقسط والعدل، فينجي عباده المؤمنين ويهلك هؤلاء الطغاة المفسدين، ثم يبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه مقالات هؤلاء المشركين: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 48]. يقول هؤلاء الكفار، يقول أنت يا محمد ومن معك تهددون أننا سيأتينا عذاب.

تقول سيأتيكم عذاب مثل ما أتى قوم نوح وقوم عاد وثمود، أنت سيأتي، متى هذا الوعد يا محمد؟ ما شفنا عذاب ولا شيء، وأنت تقول سيصيبكم ما أصاب الأمم الماضية؛ ما شفنا عذاب يا محمد.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: 48]. قل لهم ماذا؟ ما الجواب إذا جاؤوا إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا يا محمد ما رأينا لا عذاب ولا رأينا عقوبات، وأنت تهددنا كل يوم تقول سينزل بكم عقوبات؛ وين العقوبات؟ ماذا كان جواب الرسول له؟ ماذا سيقول؟ انظر قال: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: 49].

يقول: أنا ما أملك نفسي حتى أقول لكم العذاب متى يأتيكم، الذي العذاب بيد الله ليس بيدي؛ لا أملك أنا نفسي، ما أملك لا ضرًا ولا نفعًا.

انظر قدم الضر على النفع لأن في سياق العقوبات، العقوبة ضرر؛ قال: لا أملك لنفسي ضرًا لو أتتني عقوبة أنا ما أملك نفسي، لا ضرًا ولا أنفع نفسي إلا ما شاء الله، إلا ما يريده الله لي من خير.

ثم قال: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: 49]. لابد كل أمة لها أجل، وأنتم يا أهل مكة لكم أجل؛ لابد لكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون.

قال: لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا لحظة ولا يستقدمون؛ لو قالوا ربنا أخرنا لحظة نتوب نعود، ما فيه، ولا يستقدمون؛ لا يقدم عليهم، هذا وقت نزول الأجل في كل الأحوال، أي إنسان يمشي على هذه الأرض له أجل، متى ينزل هذا الأجل؟

إذا أراد الله أن ينزل نزل؛ هل يتقدم أو يتأخر؟ مستحيل لا يتقدم ولا يتأخر، ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مهددًا لهم بالعقوبات: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 50]. قل أرأيتم أخبروني، إن أتاكم عذاب؛ أنتم تقولون متى يأتي، أخبروني لو جاءكم العذاب بياتًا وأنتم نائمون في فرشكم؟

أنتم نائمون في الفرش وجاءكم العذاب. قل أخبروني إن أتاكم عذابه بياتًا أو نهارًا وأنتم في غفلة أو في معاشكم تبحثون يمينًا وشمالًا، إن جاءكم العذاب بالليل في فرشكم أو بالنهار، ماذا يستعجل منه المجرمون؟ أي شيء تستعجلون من هذا العذاب؟ ماذا يستعجل منه من العذاب أو من الله أن ينزل عليكم العقوبة؟ ماذا الذي ماذا تستعجل؟

عجبًا لكم أيها المجرمون، كيف تستعجلون العذاب؟ عجبًا لكم، ثم قال: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: 51]. يقول ثم عندما يقع العذاب، ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ﴾ [يونس: 51]؟

يقول إذا رأيتم العذاب نزل بكم، ورأيتم علامات العذاب قد أقبلت عليكم، آمنتم؟ ما ينفع الإيمان، خلاص ما ينفع الإيمان.

شف قال: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ۚ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: 51]. تقولون متى متى، والآن لما جاءكم العذاب قلتم آمنا آمنا؛ ما ينفع.

وهذا حتى نفهم فرعون؛ فرعون لما رأى الموت أمامه والغرق ماذا قال؟ قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90].

قال: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 91]. يا فرعون الآن، وقد يعني أولًا كذبت واستكبرت وعصيت، ما ينفع خلاص.

وهذا كل من ينزل به الموت وما يسمى بالغرغرة؛ إذا جاء وقت الغرغرة، يعني النفس أو الروح تخرج، تريد أن تخرج وصلت الحلقوم، بدأ يغرغر من الموت، جاء واعترف وقال أنا أتوب وأستغفر وأتصدق، ما ينفع.

التوبة وقت الغرغرة، وقت نزول الموت ما تنفع الإنسان. علامات الموت إذا رآها وحضر الموت ما ينفع. هؤلاء لما رأوا العذاب قالوا آمنا، لما رأوا العذاب قالوا آمنا؛ الله قال ماذا؟ قال: ﴿آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: 51]؛ ما ينفع خلاص العذاب الناس. ثم قيل للذين ظلموا؛ ظلموا أنفسهم بالذنوب والمعاصي والكفر: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 52].

إذاً يعاقبون في الدنيا، ثم يوم القيامة يقال لهم ذوقوا عذاب الخلد؛ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون؟ بكسبكم وذنوبكم هذا جزاؤكم، جزاء أعمالكم تقدمونها وتجازون عليها.

ثم هم لا يزال هؤلاء المشركين في عناد وكفر واستكبار وجدال بلا فائدة: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: 53].

ويستنبئونك؛ يعني يطلبون منك أن تخبرهم وتنبئهم، هم يستنبئونك أحق هو؟ ما هو أحق؟ هذا القرآن الذي أنت تقرأ علينا يا محمد صحيح؟ أو يقولون أحق هو البعث يوم القيامة؟ أو أحق هذا العذاب الذي تهددنا به؟

قل لهم ماذا؟ قل: ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ۖ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: 53]. ﴿إِي وَرَبِّي﴾؛ إي هذا جواب مثل ما تقول نعم، إي وربي، مثل ما تقول بلى وربي. إي وربي، أقسم بربك قال والله إنه لحق، وما أنتم بمعجزين؛ أنتم في قبضة الرحمن، متى ما أراد قبض أرواحكم أنتم لن تفروا ولن تفلتوا من حكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أنتم في محيط حكمه وعلمه لن تخرجوا عنه، فما الذي يمنعكم؟ ما الذي يمنعكم أن تعرفوا قيمة القرآن وتؤمنوا بالقرآن؟ ما الذي يمنعكم أن تؤمنوا بالبعث والجزاء والحساب؟ ولن تفلتوا عن حكم الله وأنتم تحت حكمه. ولذلك إذا جاء يوم القيامة ندموا أشد الندم، ولا ينفع، ما ينفعهم الندم.

ثم هم يريدون أن يتخلصوا من عذاب العذاب بأي صورة من صور التخلص، ما يستطيعون، حتى ولو أراد أن يفدي نفسه بكل ما في الأرض ما استطاع ولن يستطيع أصلًا ولن يقبل منه.

انظر قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ۗ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: 54]. ولو أن لكل نفس، لكل نفس ظلمت، ما في الأرض، كل ما في الأرض لها، لافتدت به؛ ما قُبل منها، ولن تستطيع أن تفتدي به.

- وإذا جاؤوا يوم القيامة أسروا الندامة؛ لماذا يسرون الندامة؟

سيندمون ندمًا شديدًا لكن لا يريدون إظهار الندامة أمام الناس استيحاءً وخجلًا. أسروا الندامة لما رأوا العذاب، عرفوا أنهم سينالهم هذا العذاب، وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون؛ وهم لا يظلمون، وهم مثل ما ذكرنا في حكم الله وفي قبضة الله وفي ملكه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 55]. السماوات والأرض وما فيها لله حكمًا وقضاءً وقدرًا وشرعًا؛ ألا إن وعد الله حق وهو يوم القيامة، ولكن أكثرهم لا يعلمون هذا الوعد، لو يعلمون استعدوا له.

هو يحيي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويميت؛ من الذي يحيي ويميت غير الله؟ ما في أحد؛ الذي يحيي ويميت هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإليه ترجعون أيها الخلق جميعًا، سترجعون إليه مهما كان. يحيي في كل لحظة، يحيي ويولد في كل لحظة أناس، ويميت سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كل لحظة، وفي النهاية سترجعون إليه.

لكن ينبغي أن نتعقل هذه الآيات، وأن نتفهم، وأن نتدبر هذه الآيات، وأن نعمل بها، وأن نستعد ونعلم أن هذه الآيات تخاطبنا كما أنها تخاطب مشركي مكة وتخاطب كل أناس على وجه الأرض في كل زمان ومكان.

أن نفهمها وأن يعني أن يتقوى إيماننا وتعلقنا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن نحب لقاء الله؛ **«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ»**. وأن نستعد لهذا اليوم، وأن نعمل له، وأن ترى هذه الآيات تتحدث عن هؤلاء المنحرفين الضالين المستكبرين؛ كيف ندموا، وكيف تحسروا، كيف أتاهم العذاب.

أسأل الله أن ينجينا من طرقاتهم ومن أوصافهم ومن أخلاقهم ومن أعمالهم، وأن يسلك بنا طريق النجاة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(193)
(يونس 57 - 70)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك المتجدد من كل أسبوع بعد صلاة المغرب من كل أربعاء، وهذا اليوم يوافق الخامس من الشهر من شهر صفر من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة.

نجلس مع هذا المجلس المبارك مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ نقرأ آيات من كتاب الله نتأملها ونتفكر فيها ونتدبرها، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا جميعًا بها، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57].

لما تقرأ هذه الآية والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بفضله ومنه ورحمته ولطفه ينادي الناس جميعًا؛ المؤمنين والكافرين كلهم يناديهم بأن يبشرهم بهذه البشارة العظيمة.

- ما هي هذه البشارة العظيمة؟

هي بشارة ليس فوقها أعظم من هذه البشارة، يناديهم فيقول: يا أيها الناس المؤمن والكافر، ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يقصد القرآن الكريم.

- هذا القرآن من أوصافه أنه موعظة، ما هي الموعظة؟

هي الوصية العظيمة والعهد من الله أن يوصيك ويذكرك ويعظك بمواعظ عظيمة، القرآن كله مواعظ، كله تذكير، فهذه موعظة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

تقرأ في آيات الترغيب في جنات النعيم والعمل الصالح فيذكرك ويشجعك، تقرأ في آيات التخويف من عذاب الله فترتدع وترجع، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان دائمًا يتخول أصحابه بالمواعظ.

☜يقول العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْه وهو من أحد الصُّفَّة من أحد أصحاب الصُّفَّة يقول: **«وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوْصِنَا»** فأوصاهم.

فالقرآن كله وصاياً، كله مواعظ، تذكير، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ليست موعظة من أي إنسان أي مخلوق؛ قد تأتيك موعظة من شخص ما تكون بهذه المكانة، هذه موعظة من وين جَت؟

من أين أتت؟ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي هو رباكم وخلقكم ورزقكم، وهو اللطيف بكم وهو الرحيم بكم، هذه موعظة من الله، من ربكم. ثم بين أيضًا صفة أخرى من صفات القرآن وهي صفة عظيمة وهي قال: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ القرآن شفاء.

ما هو الذي في الصدور؟ ما هي الأمراض التي تصيب القلوب؟ ما هي الأمراض التي تصيب القلوب؟ إما مرض شبهات وهذا خطير جدًا أو مرض شهوات.

الشبهات: أن يشك، يشك في وجود الله، يشك في شرع الله، يشك في رسالة النبي، يشك في القرآن، يشك بالبعث والجزاء والجنة والنار، يكون عنده شك يقول ما أدري فيه جنة فيه نار فيه بعث الله يخرج الناس من قبورهم بعدما ماتوا؟ هذا أيش يسمى؟

هذا مرض الشبهات، عنده شبهة عنده شبهات، ما عنده يقين بأن الله هو الخالق، هو البارئ، هو المصور، أن الله هو الذي يبعث ما في القبور، أن الله الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يقول للشيء كن فيكون، أن الله الذي أثبت لنا قدرته على إحياء الموتى في آيات مشاهدة أمامنا.

من الذي مر على قرية وقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: 259]؟

من الذي جعل أصحاب الكهف ينامون ثلاثمائة سنة وزيادة ثم يبعثهم ويقول قائلهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: 19]؟ من القادر على هذا الشيء؟ يأتي هذا مرض، مرض الشبهات.

والمرض الآخر مرض الشهوات؛ يحب الشهوة، يحب الهوى، يحب هذا مريض قلب، مريض قلب، ما صحا قلبه، ما استقام قلبه مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يحب الشهوات، يحب المنكرات، يحب المعاصي، المعاصي شهوات يحبها، يحب الحرام، يحب أكل الحرام.

فالقرآن شفاء لمرض الشهوات، لما تقرأ القرآن وتعرف حقائق الله وتعرف حقائق اليوم الآخر وتعرف حقائق القرآن يزيل عنك مرض الشبهات، القرآن يزيل عنك مرض الشهوات، مرض الشهوة حب المعاصي القرآن يعالج هذه الشهوات يعالج شفاء لما في الصدور.

ولا ننسى أيضًا أن القرآن أيضًا شفاء للأبدان ليس للصدور، للأبدان، نحن نعرف قصة أبي سعيد الخدري رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه خرج في سرية معه ومروا بحي من أحياء العرب فاستضافوهم، طلبوا منهم أن يضيفوهم ما أضافوا، فجلسوا في ناحية القوم في ناحية الحي ينتظرون لعلهم يعطونهم شيئًا يأكلونه، فلدغ سيد هذا الحي، لدغته عقرب أو حية، فبحثوا عن علاج ما وجدوا، قال أحدهم: اذهبوا إلى هؤلاء لعله عندهم علاج.

فأرسلوا جارية صغيرة قالت: إن سيد هذا الحي قد لُدغ، عندكم علاج؟

قال أبو سعيد الخدري: نعم عندنا علاج، فقام معه وذهب وقرأ عليه سورة الفاتحة، فكأنما نشط من عقال، قام ليس فيه شيء، هذا علاج الأبدان، كيف حية أو عقرب تلدغه ويسقط على الأرض لا يستطيع أن يقوم ثم تقرأ عليه الفاتحة فيقوم نشيطًا ليس فيه شيء؟

فالقرآن شفاء لما في الصدور وأيضا شفاء للأبدان، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، وقال أيضًا: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: 44].

- انظر قال بعدها ماذا؟

لما قال موعظة هذا يدخل فيه الكافر والمؤمن كلهم، القرآن موعظة لهم. لما يقول شفاء لما في الصدور أيضًا كذلك؛ هذا الرجل ليس مسلمًا وما أضاف المسلمين ومع ذلك شفاه الله بالقرآن بالفاتحة، فالقرآن قد يشفي، يشفي المؤمن وقد يشفي الكافر، لكن هدى ورحمة هذه لا، هدى ورحمة للمؤمنين.

- من الذي يهتدي بالقرآن؟

الكافر ما ينتفع بالقرآن، يكذب القرآن. ﴿هُدًى﴾ يهتدي به من ظلمات الكفر والضلال والطغيان والمعاصي إلى نور الطاعة والإيمان، هذا القرآن هداية ورحمة يرحم بها المؤمن، لا يرحم به الكافر، رحمة عليه في حصوله على الأجور العظيمة وعلى تأثره بالقرآن وانتفاعه بالقرآن، فشوف القرآن كيف لما جاء في الموعظة والشفاء قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

لما جاء في الهدى والرحمة قال: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: 44]. الشفاء قد ينتفع الكافر، قد ينتفع قد لا ينتفع، لكن المؤمن ينتفع بالقرآن.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر لهم هذا الفضل العظيم وهذه البشرى العظيمة قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]. قل لهم بفضل الله وبرحمته، هذا كله بفضل الله، يعني هذا القرآن بفضل الله، فضل من الله يتفضل به عليكم وبرحمته أن رحمكم وأنزل عليكم القرآن.

- هل نعرف قيمة القرآن لما نسمع مثل هذه الآيات؟

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يفرحوا بهذا القرآن ويسعد به سعادة ليس بعدها سعادة وفرحًا ليس بعده فرح، هذا الذي يفرح به الإنسان؛ ما يفرح بالترقيات ويفرح بحصول أموال ويفرح بمكاسب دنيوية، هذا متاع، هذا متاع الحياة الدنيا ثم يزول.

الفرح الحقيقي أن تفرح بالقرآن، ولذلك الله ذم قارون لما قال له قومه ماذا؟ ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76]؛ فرح البطر وفرح عدم الشكر هذا لا، أما أن يشكر الله ويفرح بالقرآن هذا هو الفرح المطلوب، ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، تجمع ثم تذهب وتذهب، هذا ظل زائل ما ينفع، فخير مما يجمعون.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بين لنا فضل هذا القرآن ونعمته علينا ورحمته بهذا القرآن علينا، عادت الآيات إلى مخاطبة هؤلاء المشركين الذين يحللون ويحرمون من تلقاء أنفسهم، لا دليل عندهم؛ الذي يحلل ويحرم من هو؟ الله في كتابه وفي سنة رسوله.

أما هؤلاء انظر قال يخاطبهم الله وينكر عليهم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: 59].

قل أرأيتم أخبروني، ما أنزل الله لكم من رزق؟ ما أنزل الله لكم من الرزق الأطعمة من حرث وزرع وحيوان، ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حرامًا؛ تقول هذا حرام لا نأكله، وهذا لا تأكله أزواجنا، وهذا لا يأكل كذا من بهيمة الأنعام ومن الزروع والحروث، فجعلت منه حرامًا وحلالًا.

- قل الله أذن لكم؟ الله الذي أذن لكم وأعطاكم قال لكم حللوا وحرموا؟

إذا كان الله أذن لكم أعطونا الدليل، ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ تكذبون على الله أن تقولون أن الله حرم، لأنهم ينسبون ذلك إلى الله.

ثم هددهم قال: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: 60].

ما يظن هؤلاء؟ وش ظنهم الذين يكذبون على الله إذا جاء يوم القيامة؟ وفي هذا تحذير وتخويف شديد لمن يقول على الله من غير علم؛ لا تقول هذا حلال وهذا حرام ولا تفتي بغير علم، ولا تقول هذا يجوز وهذا لا يجوز وأنت ما عندك علم وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون.

وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بأن جعل لكم الأنعام وجعل لكم الحروث وجعل لكم الحلال وأباح لكم، ثم تحرمون! هذا كذب على الله، والله ذو فضل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ نعمة الله يحمدونه على نعمه.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لنا أيضًا سعة علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سعة علم نتفكر في علم الله؛ من أسماء الله العليم ومن صفاته صفة العلم.

- ما هو علم الله؟ وما معنى العليم؟

اسمع ماذا يقول: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: 61].

وما تكون في شأن أيها الرسول وأيها المخاطب، ما تكون في شأن من الشؤون في أي حال من الأحوال، وما تتلو منه أي من هذا القرآن الذي سمعنا فضله وعظمته، ما تتلو من قرآن تقرأ حرفًا واحدًا من القرآن أو تجلس في حال من الأحوال تتفكر تتأمل تسبح تذكر الله، ما تقرأون ولا تعملون أيها الناس جميعًا من عمل من أي عمل من الأعمال إلا كنا عليكم شهودًا.

الله مطلع بصير عالم بكم. طيب وإذا كان علينا شهودًا ما النتيجة؟ يحاسبكم عليه ويجازيكم، قال: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ يعني هذه الأعمال تفيضون فيها يعني تختلطون فيها وتتحدثون فيها وتتكلمون فيها وتعملون فيها، ولذلك قال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ أي يغيب، ما يغيب عن ربك من مثقال ذرة.

- تأتي بالذرة، ما هي الذرة؟

قال ابن عباس: **"هي النملة الصغيرة"**.

وبعضهم قال: **"هي الذرات التي تكون في شعاع الشمس عند النافذة"**، انظر ذرات تتطاير، هذه الذرة مثقالها من ذرة في الأرض ولا في السماء ما تغيب عن الله يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

حتى الذرة لا تغيب عن الله، مثقال ذرة لا في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا حتى أصغر من الذرة لا تغيب، ولا أكبر من الذرة لا تغيب عن الله، لماذا؟ لأن كل ذلك في علمه وقد كتبه في اللوح المحفوظ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

أنت لما تسمع هذا الكلام ما الذي يربي فيك؟ ما الذي تستفيد منه في حياتك؟ أن تعلم أن الله معك، وأن الله ناصرك، وأن الله وليك، وأن الله متولي أمرك، أن تعلم أن الله مطلع عليك فتخجل وتستحي من الله أن تعمل سيئة أو تعمل منكرًا أو تعمل شيئًا لا يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فتراقب الله في أعمالك كلها لأن الله رقيب عليك مطلع عالم بحالك، فاستحِ من الله أن تعصي الله، كيف إذا جئت أمام الناس لا تعصي لأن الناس ينظرون إليك، وإذا خلوت في نفسك عصيت؟ والله مطلع عليك، الله مطلع عليك.

فإذا ربينا أنفسنا على سعة علم الله وأنه عالم بكل شيء، وأنه لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه الله مطلع وشهيد علينا وحاضر معنا في كل مكان؛ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7]، علمنا أن الله معنا بعلمه، هذا يؤدبنا حتى نرتقي بأنفسنا حتى إذا ارتقينا أصبحنا من أولياء الله.

- اسمع من هم أولياء الله؟

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62].

انظر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما أعطاك، قال لك من هم أولياء الله حتى الآن؟ هو بيجيك الآن من هم أولياء الله، بس ما أعطاك من هم، هو أعطاك ثمرة أولياء الله، أعطاك يشجع يعني حتى يرغبك لتكون وليًا من أولياء الله.

ماذا قال أول شيء؟ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ انظر كلمة ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تأملها؛ لا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا يحزنون فيما تركوه وراءهم، يعني شملت كل الأوقات، ما فيه لا تخاف على ما يأتيك، أنت تخاف الآن من المستقبل؟ لا تخاف، تحزن على الذي راح عليك؟ لا تحزن.

الآن عرفنا أنه في أمن، أولياء الله الآن هم في أشد الأمن، أعظم الأمن، أولئك لهم الأمن، أولئك لهم الأمن هنا، قالهم لا تتعب نفسك وتسمع كلام يعني أهل البدع والصوفية من هم أولياء الله؛ لهم صفات يعدونها إلى يعني إلى أعداد هائلة أن يكون كذا وكذا وكذا وكذا وكذا إلى آخره، لا لا بس صفتين ذكرها الله سبحانه، إذا أنت أخذت بالصفتين هذه فاعلم أنك إن شاء الله من أولياء الله.

- ما هي الصفتان؟

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 63]، بس باختصار، أما كلام أهل البدع والصوفية ويضع لك قائمة هذا كله كذب فيها كذب، وتجدهم هم أبعد الناس عن ولاية الله؛ يرتكبون الذنوب والمعاصي جهارًا ولا يبالي ويقول نحن أولياء الله!

أولياء الله الذين آمنوا واستقر الإيمان في قلوبهم، صدقوا بكل ما جاءهم عن الله، لا يشكون في الله ولا في وجوده ولا في كتابه ولا في شرعه ولا في وعوده، كل هذا إذا تحقق لك عند إيمانك بالله تحقق الإيمان بأركانه الستة، ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

انظر ﴿آمَنُوا﴾ فعل ماض يعني استقر الإيمان في قلوبهم، ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ فعل مضارع يعني دائمًا متقين لله، ما يقفون عند حد؛ يقول والله أنا أتقي الله في رمضان وأصوم وأحافظ على الصلاة ولا أتقِ الله بغيره، لا يتقون في كل لحظاتهم وفي كل حياتهم، هذه إذا فعل ذلك.

إذا فعل هذا، إذا حقق الإيمان والتقوى هذا هو ولي الله. ثم لما أعطاك يعني ثمرة الولاية أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أعطاك ثمرة أخرى عظيمة أكبر، وهي: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: 64].

- ما هي البشرى؟ ما هي بشرى ولي الله؟

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَم يَبقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا المُبَشِّرَاتُ»** قالوا: وما هي؟ قال: **«الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا المُؤمِنُ أَو تُرَى لَهُ»** هذه بشرى، والبشرى أيضًا حب الناس لك، يوضع لك القبول، الناس يحبونك، الناس إذا رأوك فرحوا بك، هذا أولياء الله، أولياء الله يفرح بهم الناس، يفرحون به.

هذه بشرى. البشرى أولياء الله يوفقون للخير؛ ما تفوت صلاة الفجر على طول السنين، ما تفوت صلاة الجماعة، ما تفوت السنن، ما تفوت كذا، هذه بشرى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوفقك لكل خير.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ تبشرهم الملائكة عند نزول الموت، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30]، تبشرهم عند الموت وفي قبورهم وعند خروجهم من قبورهم، ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ﴾ حتى يؤكد لك القضية لا تشك فيها أو لا تشك، ما فيه تبديل، كلمة الله ما يمكن أن يتغير كلام الله، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ذلك أي الأولياء، أن تكون من أولياء الله في الدنيا ويحصل لك هذا، هذه الثمرة العظيمة هذا هو الفوز العظيم، فوزك في الدنيا والآخرة، هذا هو الفوز العظيم.

والأشقياء، الأشقياء الذين يحاربون الدعوة ويحاربون الرسول ويؤذونه، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسلي رسوله ويدخل عليه الهدوء والسرور فيقول: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: 65].

لا يحزنك قولهم إنهم يقولون ساحر، كذاب، شاعر إلى آخره، يتهمونك بالاتهامات، لا يحزنك قولهم، لماذا؟ لأن العزة لك ولله، انظر قال: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ والله من عزته أنه يعطي أولياءه ويعطي رسوله والمؤمنين، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8]، وهو السميع للأقوال العليم.

وإذا سمعت أنت كلمة ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ماذا تستفيد منها؟ أن تعلم أن الله يسمع كلامك ويعلم حالك فلا تقول إلا خيرًا، لا تفعل إلا خيرًا.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لك سعة ملكه، لما بين سعة علمه يبين لك سعة ملكه، يقول: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: 66].

كل من في السماوات من بني آدم من السماوات من الملائكة والمخلوقات وفي الأرض من الجن والإنس كلهم في ملك الله وفي تدبيره كلهم، ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يقول هؤلاء الذين يتبعون من دون الله ما يتبعون شركاء، ما عندهم شركاء، كله كذب في كذب، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ مجرد ظنون وشكوك وخلص، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ويكذبون وليس عندهم لا شركاء ولا هم، لماذا؟ لأن الله هو الواحد، هو المالك، هو المتصرف في هذا الكون.

ولذلك اسمع ماذا يقول، قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: 67]. هو الذي خلق لنا الليل، جعل لكم الليل تسكنوا فيه وترتاحوا فيه وتطمئن فيه نفوسكم عن يعني بعد هذا التعب والعناء في النهار.

وجعل النهار مبصرًا، والنهار مبصرًا مشرقًا تذهب وتبتغي المعاش، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ هذه آيات عظيمة، الليل والنهار من آياته لمن؟ ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع تدبر وتفكر، أما هؤلاء الذين لا يسمعون سماع تدبر هؤلاء خارجون عن الخطاب.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 68]. يفترون على الله الكذب ويقولون إن لله ولدًا، من الذي قال اتخذ الله ولدًا؟

اليهود يقولون عزير بن الله، والنصارى يقولون المسيح، وبعض مشركي العرب يقولون الملائكة بنات الله، اتخذ الله ولدًا! ﴿سُبْحَانَهُ﴾ سبحانه جل جلاله أن يتخذ ولدًا، الذي يتخذ الولد هو الضعيف المسكين الفقير هذا الذي يتخذ، أما الله فلا.

ولذلك انظر قالوا: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ هو الغني ما يحتاج، يحتاج الذي يحتاج إلى الولد الفقير، هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض.

ثم قال: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا﴾ هل عندكم دليل وسلطان حجة تقولون أن لله ولدًا؟ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ تقولون على الله كذبًا وجهلًا. ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: 69].

الذي يكذب على الله ويفتري على الله الكذب وينسب إلى الله ما ليس له لا يفلح، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو جاءته الدنيا بحذافيرها، فإن الدنيا: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 70].

متاع قليل ثم إلينا مرجعهم سيحاسبون، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون، ويصفون الله بأنه اتخذ ولدًا ويشركون مع الله شركاء. لو رأيت أهل الذنوب والمعاصي والكفر كلهم في نعمة اعلم أن هذا متاع قليل، ثم يردون إلى الله فينالهم العذاب الشديد.

نقف عند هذا القدر ونكتفي بهذا، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله الموفق الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(194)
(يونس 71 - 92)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم يوافق اليوم الثاني عشر من شهر صفر، من عام ألف وأربعمائة وسبعة وأربعين من الهجرة، نجلس هذا المجلس المبارك وبين أيدينا كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرآن الكريم، أعظم كتاب وأفضل كلام، سورة يونس.

وبعد هذه المسيرة العظيمة في مناقشة هؤلاء المشركين في عقائدهم، والرد عليهم، وإبطال ما كانوا عليه، وإقامة الحجة عليهم؛ بعد هذا النقاش الطويل تنتقل الآيات إلى تسلية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما واجه من قومه من الصعوبة، والعناد، والكفر، بل وصل الأمر إلى الإيذاء؛ إيذاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإيذاء أصحابه.

وسورة يونس التي بين أيدينا، وبعدها سورة هود، وسورة يوسف، هذه نزلت متتالية، وكانت نزلت في أحلك الظروف وأشد الأمور، لما اشتد الكرب على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه؛ لما توفي عمه أبو طالب، وتوفيت زوجته خديجة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا، واشتد الأذى من قريش على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاءت هذه السور تسليةً.

ولذلك بعض أهل العلم يسمي سورة يونس **"الفرج بعد الشدة"**، ال تأتي هذه القصص القرآنية؛ قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، وقصة أيضاً موسى مع قومه، وقصة يونس؛ ثلاث قصص متتالية كلها فيها شدة وكرب.

الله عَزَّ وَجَلَّ قال عن نوح: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: 76]. وموسى سيأتيك الكلام عنه في هذه السورة أنه واجه شدةً وكرباً عظيماً في إيذاء فرعون له ولقومه، ويونس لا يخفى على الجميع ما أصابه من الكرب: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 87].

وتأتي هذه السور تسلي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتسلي أصحابه. اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول هذه القصص وهي قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أول رسول أرسل إلى الأرض؛ ماذا واجه؟

دعا قومه تسعمائة وخمسين سنة، الواحد منا ما يستطيع يدعو ولا ساعات ولا أيام وهو واحد وحده مقابل قومه أعداد كثيرة يواجههم بالدعوة تسعمائة وخمسين سنة.

وماذا بعد؟ يدعوهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، يأخذ الشخص بانفراده، ويأتي إلى الجماعات والمجالس ويدعوهم، وماذا قُبل منه؟ لم يؤمن معه إلا قليل، ما آمن معه إلا قليل؛ ولما اشتد الكرب دعا: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: 10]. ففتح الله أبواب السماء.

ونزلت المياه من السماء، ونبعت الأرض عيوناً؛ فالتقى الماء على أمر قد قُدر، فأمره بصنع السفينة قبل ذلك، وحمله على السفينة هو ومن آمن معه، ومن لم يؤمن هلك مع الهالكين؛ حتى ابنه، ابنه لم ينجُ، مات على الكفر، ومع ذلك الصبر الشديد من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا الكرب الشديد فرج الله عنه.

اسمع هذه الآيات التي بين أيدينا تساق لك كأنك لم تسمع قصة نوح أبداً في القرآن، مع أنها مكررة في القرآن، ومع ذلك اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: 71]؛ يعني يا محمد اتلُ على قومك، المؤمن منهم والكافر؛ المؤمن يعرف أن هناك فرجاً من الله، الكافر يعرف أن العقوبة قريبة.

قال: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: 71]. يقول عظم عليكم أني قائم بينكم، أني مقيم بينكم، يعني اشتد عليكم الأمر أني جالس بينكم؛ ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: 71].

أذكركم بآيات الله، عظم عليكم هذا الشيء لا تريدون، أنتم لا تريدون لأنهم أرادوا إخراج نوح وأيضاً أرادوا يعني إخراج نوح ومنعه من الدعوة، فقال: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: 71]، المسألة اشتدت عليكم فأنا متوكل على رب العالمين.

انظر كيف القوة والتوكل وهو واحد وقومه كثير، ومع ذلك تحداهم بقوة لأن معه الإيمان ويعلم أن الله معه، انظر قال: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: 71]، أنا فوضت أمري إلى الله، ومتوكل على رب العالمين توكلت. وأنتم ماذا تصنعون؟

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: 71]، يقول: أجمعوا أمركم، اتفقوا على أمركم على هلاكي، وادعوا شركاءكم الأصنام التي أنتم تقولون لا تنفعكم ادعوها؛ ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس: 71]، يقول لا تخفونه أظهروه، أنا أتحداكم فأظهروا أمركم أمام الناس وأعلنوه؛ ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ [يونس: 71] خافياً.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: 71]؛ اجتمعوا كلكم عليَّ واقضوا عليَّ وأهلكوني، ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: 71]، ولا طرفة عين لا تمهلوني. انظر التحدي لأنه ماذا يعلم؟ أن الله معه.

كما قال الرجل المؤمن آل فرعون قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: 44]. فوض أمره إلى الله خلاص؛ رجل واحد من قوم فرعون يتحدى فرعون وملأه، ومع ذلك ما استطاعوا أن يتعرضوه بسوء.

ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يتحدى يقول: ﴿اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: 71]. ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ [يونس: 72] وعجزتم عن ذلك ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 72].

يقول انظر ما أدعوكم وأنا بعيد؛ لا، أنا أول من يسلم، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 72] المنقادين إلى طاعة الله. ولكن مع هذا التحدي والدعوة والاستمرار في الدعوة والنصح إلا أن النتيجة ما هي؟ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ [يونس: 73]، فكذبوه ولم يقبلوا منه.

أمره الله أن يصنع الفلك، ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40]. فحملهم في الفلك.

قال الله سبحانه: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ [يونس: 73]، يخلفون هؤلاء المفسدين الكافرين الذين ذهبوا خلاص أُغرقوا وماتوا؛ أُغرقوا ثم أُحرقوا في النار، والله جعل نوحاً ومن معه خلائف يخلفونه في الأرض.

قال: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: 73]. تأمل وتفكر كيف كان عاقبة المنذَرين؛ أنذرهم وحذرهم ومع ذلك لم يقبلوا. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ

قَوْمِهِمْ﴾ [يونس: 74]، أي من بعد نوح رسلاً ليس رسولاً ولا اثنين، رسلاً إلى قومهم، ﴿فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ [يونس: 74].

يقول لما أنهم جاءهم الحق في بدايته وعرفوه ثم أنكروه وكفروا عاقبهم الله؛ انظر دائماً الإنسان لما تعرف الحق ثم تعرض عنه وأنت تدري أن هذا هو حق يعاقبك رب العالمين، ولذلك انظر ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ [يونس: 74].

- ما هي النتيجة؟

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: 74]؛ طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون. ومضت السنين ومضت القرون والأجيال والله يرسل رسلاً، ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78]، إلى أن جاءت قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: 75].

الحجج والأدلة الواضحة العصا واليد إلى غير ذلك؛ فرعون ومن معه استكبروا عن آيات الله ولم يقبلوها وكانوا قوماً مجرمين، أصحاب جرائم ومعاصي وكفر وفساد.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: 76]؛ جاءهم موسى بالحق من عندنا قالوا أن هذا سحر، يلقي العصا تصبح حية ويخرج يده تصبح بيضاء؛ هذا سحر عندنا سحرة، فقالوا سحر، انظر جاءهم الحق وهم يعرفون أنه حق فيريدون أن يلبسوا على الناس فقالوا هذا سحر مبين.

قال لهم موسى رداً عليهم بقوة: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: 77]. تقولون للحق هذا حق تعلمون أنه حق، تقولون سحر هذا؟ ولا يفلح الساحرون، الساحر لا يفلح، الذي يفلح من صاحب الحق، ولذلك أفلح موسى.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [يونس: 78]؛ أي فرعون ومن معه، أجئتنا يا موسى لتلفتنا عما وجدنا عليه آباؤنا؟ انظر الحجة الضعيفة، حجة يعني تافهة، يقولون يا موسى أنت جئت بالحق الذي معك علشان تصرفنا عما كان يعبد آباؤنا؛ آباؤكم ليس حجة وليس تقليداً باطلاً، ماذا يصنع آباؤكم؟ ماذا يعبدون؟ يعبدون أصناماً تعبدون معهم؟

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: 78]. ثم أيضاً موهوا أكثر وأكثر فقالوا وتكون لكم الكبرياء في الأرض؛ تريد يا موسى أنت وهارون أن تكون لكم الكبرياء في الأرض ولكم الحكم علينا؟ تذهبون بحكم فرعون وتكون لكم الكبرياء؟

- هل موسى يقصد هذا؟

موسى ليس هدفه هذا، موسى هدفه تربية الناس لطاعة رب العالمين، توجيه الناس أن يستقيموا على طاعة الله؛ لا يريد مالاً ولا يريد جاهاً ولا منصباً، ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 78]. فردوا رسالته بقوة، ولم ينتهِ الأمر إلى هذا الحد بل ماذا قال فرعون؟ ماذا صنع؟

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: 79]. أنا عندي موسى ساحر وأخوه الساحر، نريد أن نأتي بالسحرة فجمع السحرة، أرسل في المدائن حاشرين، جمع عدداً كبيراً قيل ثلاثمائة ساحر أو أكثر.

فلما جاء السحرة نصحهم موسى وهددهم وخوفهم بالله، لكنهم ترددوا وأرادوا الدنيا والمال؛ فقال لهم هنا موسى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس: 80].

انظر التحدي، تحدٍ أول قبل قليل تحدي نوح لقومه وهو واحد، وهنا موسى يتحدى السحرة كلهم أعداد كثيرة وهو واحد أو اثنين؛ ألقوا ما أنتم ملقون من غير مبالاة، ألقوا وين سحركم هاتوا سحركم ائتوني بالسحر، ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [يونس: 80].

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 81]؛ هذا سحر وتمويه على الناس، ما جئتم به السحر إن الله سيبطله الآن، سيبطله الله؛ ما قال أنا سأبطله، مَن أنت عشان تقول أنا سأبطل؟

الذي سيبطله هو الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 81]. ولذلك لما ألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف، تبلع ما صنعه هؤلاء من السحر؛ ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس: 82]. كلمات الحق يظهرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 82].

فرعون ومن معه لابد أن يظهر الله الحق؛ فماذا صنع؟ كيف ظهر الحق؟

أظهر الله الحق أنه لما رأوا السحرة هذه العصا وهي ثعبان عظيم تلقف ما صنعوا خروا سجداً، أُلقي السحرة ساجدين؛ قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، أظهر الله الحق يحق بكلماته ولو كره المجرمون.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: 83]. ذرية يعني شباب قلة ليسوا كثيرين، ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وحاشية فرعون.

لأن فرعون كل طاغية وكل مفسد يسمى فرعون، ورأسهم ملكهم فرعون ومن تحته من حاشيته يخافون منه خوفاً شديداً؛ ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: 83] يفتنهم عن دينه، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: 83]؛ انظر جمع بين صفتين العلو والاستكبار والإسراف على نفسه بالذنوب والمعاصي والكفر.

فكانوا على خوف شديد حتى إن بدأ قوم موسى يغلقون الأبواب على بيوتهم ما يستطيعون الخروج من الطرقات، بدأ يوجه قومه حتى يتمسكوا، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: 84].

وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا، فوضوا أمركم إلى الله؛ أنا فوضت أمري إلى الله ما استطاع يأتيني فرعون ولا من معه، واستطعت أن أنتصر على السحرة وهم أعداد كثيرة وآمنوا بعد ذلك فتوكلوا على الله.

انظر قوة التوكل لأن الأمر عصيب شديد، وأنا مثل ما ذكرت لكم السورة الفرج بعد الشدة، الأمر اشتد؛ قال فعليه توكلوا فوضوا أمركم إلى الله، لا تخافوا لا من فرعون ولا ملئه إن كنتم مسلمين، ومنقادين ومستسلمين لله، فوضوا أمركم لله؛ لن يصرف عنكم الشر إلا الله، ولن يدفع عنكم البلاء إلا الله، ولن يأتي لكم بالفرج إلا الله، فوضوا أمركم إلى الله إن كنتم مسلمين.

فماذا كان موقفهم؟ ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ 85 وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ86﴾ [يونس: 85-86]. فوضنا أمرنا إلى الله.

- كيف الاستجابة؟

ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين، لا تجعلنا فتنة يفتنوننا في ديننا ثم نكفر؛ الفتنة الكفر والشرك، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين قوم فرعون، ونجنا بالنجاة يسألون النجاة لأنهم في كرب شديد، ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: 86]؛ برحمتك ليس بعملنا ولا بأي شيء، نجنا برحمتك من القوم الكافرين.

- هل جاء الفرج؟ هل استجاب الله؟

نعم؛ استجاب الله له فقال الله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 87].

أوحينا إلى موسى وهارون، هارون نبي مثله، أوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتاً؛ يقول اجعلوا لكم بيوتاً تحميكم من فرعون وملئه، تبوآ هيئوا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة.

- كيف اجعلوا بيوتكم قبلة؟

يعني صلوا في رحالكم لا تخرجون، إن خرجتم من بيوتكم أصبحتم فتنة لفرعون؛ فرعون الآن يبطش ويقتل، وصل الأمر بهم إلى أن أغلقوا بيوتهم وأغلقوا أبوابهم وبدأوا يصلون في رحالهم، حتى الخروج للصلاة ما استطاعوا.

قال: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [يونس: 87]؛ لأن الصلاة بإذن الله ستكون لهم فرجاً من الله، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۖ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 87]. انظر اشتد الكرب ما في أشد من كذا، ما يستطيع الواحد يخرج من بيته مغلق، والله ماذا يقول؟

بشر المؤمنين؛ أنتم حافظوا على الصلاة وأقيموا الصلاة، انظر ما أمرهم بأي شيء، ما قال املأوا بيوتكم من الأموال والخزائن والمواد الغذائية أو نحو ذلك، لا هذه كلها أمرها يسير؛ أهم شيء إقام الصلاة، حققوا هذه الصلاة وأقيموها ويأتي الفرج من الله.

ولذلك قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 87].

بشرهم مع هالكرب الشديد هذا؟ قال نعم بشر المؤمنين، متى يأتي الفرج؟ الآن يأتيك لما دعا موسى وأخوه هارون على فرعون، متى دعاه؟ لما اشتد الكرب لم يجد هناك فرصة إلا أن يدعو مثل ما دعا نوح على قومه فأهلكهم الله.

وقال موسى هذا الدعاء، اسمع الدعاء: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88].

أعطيتهم زينة الدنيا كلها وأموالاً كثيرة في الحياة الدنيا، ربنا ليضلوا، يعني الأموال والزينة هذه أعطيتها إياهم وأعطيتهم الصحة والعافية؛ كان هدفهم غرضهم ليضلوا الناس عن شرعك ويمنعونه.

- ما هي النتيجة؟

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس: 88] حتى تذهب كلها ما يبقى لها أي قيمة، ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88]. واشدد على قلوبهم اجعل قلوبهم قاسية فلا يؤمنوا أبداً حتى يروا العذاب الأليم.

ولما رأوا العذاب وسقطوا في البحر، وبدأوا يرون الموت أمامهم، قال رأسهم وكبيرهم قال إذاً: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90]؛ لكنه لم ينفع، الآن يا فرعون تؤمن؟ فهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في دعاء موسى قال: ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 88].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: 89].

- من الذي يدعو؟

موسى، كيف يقول دعوتكما؟ موسى وهارون الذي يدعو، اسمع ماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ﴾ [يونس: 88]، يعني انظر الدعاء ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ﴾ [يونس: 88] الذي قال موسى، قال اطمس على أمواله واشدد على قلوبه.

الله قال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: 89] اثنين؛ لماذا؟ لأن هارون كان بجوار موسى وموسى يدعو الله وهارون يقول آمين آمين، فالذي يؤمِّن كالداعي لا فرق؛ ولذلك قال: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 89].

استقيموا على الشرع تمسكوا، ولا تتنازلون تتبعون طريق الذين لا يعلمون لا تتبعونه، فالنتيجة بمجرد دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونوح أو موسى وهارون عليهم، استجاب الله دعاءهم فأوحى الله إلى موسى أن يسري بعباده ليلاً فخرج بهم، فلما خرج بهم علم فرعون وجنوده بخروجهم فلحقوه.

فلما وصل البحر أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق، وكان كل فِرق كالطود العظيم، فجاوز الله مثل ما ذكر الله قال: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ [يونس: 90]. قطع بهم البحر ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: 90].

لما وصلوا ورأوا هذه الطرقات اليابسة قال فرعون ومن معه ندخل نلحق بهم؛ فلما دخلوا في البحر تلاطم البحر عليهم، قال هنا: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90].

بغياً ظلماً وعدواً اعتداءً؛ حتى إذا أدركه الغرق بدأت الأمواج فغشيه من اليم ما غشيه، حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين، يقوله أكبر طاغية على وجه الأرض الذي يقول: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38].

يقول الآن آمنت به، قال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90]. ما قال لا إله إلا الله، قال بالذلة أن يقول أنا أتبع بني إسرائيل وأنا من المسلمين.

قال الله: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: 91]. الآن الحين؟ ما ينفع الآن أنت في الموت الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، لا يقبل منك أبداً، ألم التوبة وقت الغرغرة لما يشاهد الإنسان الموت إذا حضره الموت قال تبت ما تقبل موته.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: 92]. الآن ننجيك ببدنك؛ لماذا يخرجه الله ببدنه؟ لأن بني إسرائيل لم يصدقوا أن فرعون غرق، ما صدقوا ولا يزالون يشكون أنه نجا، فأراد الله ربه أن يخرج فرعون أمامه؛ فأخرج الله فرعون على نجوة يعني على حجر كبير في البحر فرأوه أمامهم قد مات.

وكان عليه درع من ذهب، فرأوه أمامهم قد خلاص خرجت روحه؛ فاطمأنوا بني إسرائيل من شدة الرعب والخوف، الآن ننجيك ببدنك روحك خلاص خلت، ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: 92]؛ حتى يعتبر غيرك بك من كل طاغية إلى قيام الساعة.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: 92]. كثير من الناس غافلون يغفلون عن آيات الله، ما بعد هذه الآيات يعني عبرة مثل هذه العبرة العظيمة، وعظة وعظات وعبر، يعتبر بها من يعتبر؛ دروس وعبر من هذه القصص العجيبة الجميلة التي تتكرر علينا في القرآن ولا نمل من سماعها وما فيها من دروس وعبر.

نسأل الله أن ينفعنا بها وأن يبارك لنا والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(195)
(يونس 93 - آخرها)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وصلى الله وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك المتجدد من كل أسبوع بعد صلاة المغرب من كل أربعاء، وهذا اليوم هو اليوم السادس والعشرون من شهر صفر من عام سبعة وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة.

نجلس هذا المجلس المبارك ونقرأ آيات من كتاب الله نتأملها وينفع الله بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويكتب لنا الأجر على جلوسنا وحضورنا هذه المجالس المباركة، التي بإذن الله تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة وتنزل عليها السكينة ويذكر الله الحاضرين عنده في الملأ الأعلى.

الآيات من سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدما ساق الله لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما جرى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنجاه وقومه وجاوز بهما البحر، قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: 90]، فأغرقه الله، أغرق الله فرعون وجنوده في البحر بمرأى من موسى وقومه.

بعد ذلك يذكرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بما أنعم الله به على بني إسرائيل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: 93]، بوأنا يعني أنزلناهم وأسكناهم، بعدما أنجاهم من اضطهاد وتعذيب فرعون أسكنهم مساكن الملوك **"جعلكم ملوكًا"**.

- ما هي المساكن التي أسكنهم؟

الأمن، يعني يسكنون مساكن آمنين، أول كانوا خائفين من فرعون وبطشه، الآن استقروا وأمنوا وأصبحوا في أمان، والأرزاق تأتيهم من كل مكان؛ يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سخر لهم أو أنزل عليهم المن والسلوى، المن ينزل على الأشجار كالحلوى فيأكلون.

والسلوى طائر إذا أصبحوا الصبح وجدوا هذه الطيور قد امتلأت الأرض منها فيصيدون ويأكلون، ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنعم عليهم بالماء ففجر لهم اثنتي عشرة عينًا فكانوا في رغد من العيش، قال الله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس: 93]؛ يعني مبوأ كرامة وتكريم لهم كما وعدهم الله، قال: ﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [يونس: 93] الخير والطيبات رزقهم الله.

ثم قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس: 93]؛ يعني هم كانوا مجتمعين في زمن موسى لما جاءتهم التوراة اختلفوا فيها، أو جاءهم العلم بعد موسى اختلفوا وأصبحوا متناحرين متفرقين.

☜كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«اخْتَلَفَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ إِحْدَىٰ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»**.

وبعض أهل التفسير يقول: **"﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس: 93] يعني القرآن، لما بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اختلفوا فيه؛ هل هو محمد النبي المذكور في التوراة ولا غيره؟ فمنهم من آمن كعبد الله بن سلام ومنهم من كفر وأصبحوا مختلفين"**.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 93]؛ يعني هذا الاختلاف اختلاف شر ليس خير، الأمة كل ما تجتمع يكون خير لها، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]؛ فأمرنا بالاعتصام ونهانا عن التفرق، التفرق شر.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: 93]؛ فالله سيجمعهم ويحكم بينهم ويقضي فيما بينهم هم وغيرهم. ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخاطب الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه محمد فيقول: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: 94].

من الممترين يعني من الشاكين، هنا سؤال؛ هل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشك؟ هل هو يشك في الوحي ولا على يقين بأن الله أوحى إليه وأنه جعله نبيًا؟ هل يشك الرسول ولا لا؟

يقول هنا: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: 94]؛ نقول نحن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يشك أبدًا ولا يطرأ عليه الشك بأن الله أوحى إليه واختاره وجعله خير الرسل والأنبياء، هذا لا يشك فيه لكن أحيانًا خطابات القرآن توجه للرسول ولا يراد بها الرسول مباشرة، وإنما يراد بها غير الرسول.

ولذلك لو تقرأ في السورة نفسها في آخر السورة تجد، وسيأتينا بعد قليل، أن الشك مقصود به غير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65].

- هل الرسول يشرك؟

ما يمكن ويستحيل، فهذا من الخطابات التي كان الخطاب للرسول ويقول؛ أنتم أيها المشركون تشكون في رسالة محمد، فلو كان محمد على فرض أنه يشك ما يمكن أن يشك لأنه سيسأل أهل الكتاب، وأنتم أيها المشركون اسألوا أهل العلم يخبرونكم عن حقيقة دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن رسالته.

إذا كنتم تشكون في رسالته وتتهمونه بأنه كذاب اسألوا، وكان المشركون يذهبون إلى المدينة ويسألون اليهود عن حقيقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكانوا يخبرونهم بأنه رسول من عند الله وأنه مكتوب عندهم في التوراة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، انظر حتى يتضح لك أن الخطاب ليس للرسول، قال: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ 94 وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ96﴾ [يونس: 94-95]؛ الرسول ما يكذب بآيات الله، كل هذا هو خطاب يوجه للرسول والمقصود غيره مثل ما يقال **"إياك أعني واسمعي يا جارة"** هذا معناه.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ 96 وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ97﴾ [يونس: 96-97]؛ هذا في الفصل والبيان بأن هناك من المشركين من سيموت على الشرك لأنه كتب من أهل الشقاوة، ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ [يونس: 96] بأنه شقي وأنه من أهل النار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 96] أبدًا، ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس: 97] لو جئتهم كل الآيات ما يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، فإذا رأوا النار أمامهم آمنوا ولا ينفعهم ذلك.

نستفيد من هذا أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والداعية يهون على نفسه في دعوته؛ الرسول كان يحمل همًا عظيمًا في دعوته وكان يحزن على قومه أن لا يؤمنوا، فهون الله عليه قال في ناس لا يمكن كأبي جهل وأبي لهب وغيرهم، هؤلاء لا يمكن أن يؤمنوا هم كتبت عليهم الشقاوة.

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، هون على نفسك وإنما عليك البلاغ والدعوة فقط.

- سورة يونس سميت بهذا الاسم لماذا؟

لأن الله ذكر فيها قصة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وقومه، وهي قصة عجيبة اختلفت عن سائر الأمم الماضية كلها، قوم يونس هم ممن يسكن في العراق على ما ذكر أهل التاريخ.

أرسل الله إليهم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ فدعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وترك الشرك فأبوا وامتنعوا أن يطيعوه فغضب عليهم، فلما غضب عليهم هددهم بالعذاب قال سيصيبكم العذاب وإني سأخرج عنكم، ولم ينتظر الوحي أن يوحى إليه في الخروج لأن النبي لا بد أن يوحى إليه.

الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ [الشعراء: 52] أوحى الله، ونبينا محمد أوحى الله إليه أن يخرج من مكة، قبل أن يوحى إليه لا يخرج، فيونس من شدة غضبه على قومه وشدة عنادهم هم له خرج هكذا.

ولذلك لما خرج حصل ما حصل له أن التقمه الحوت وذهب في البحر وأخرجه الله بعد ذلك، الشاهد لما خرج خاف قوم يونس أن يصيبهم العذاب فندموا أشد الندم، فلما ندموا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يعذبهم مع أن الأمم الثانية عذبت كلها.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98]. يقول ما في قرية آمنت لما ترى العذاب ما ينفعها إيمانها إلا قوم يونس، لما آمنوا إيمانًا حقيقيًا قبل نزول العذاب.

قال ﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ﴾ [يونس: 98]؛ انظر ما قال العذاب، ما أصابهم حتى الآن، ما أتى لو أتى نزل بس إنه لم يأتِ، فقال كشفنا يعني أزلناه قبل أن يأتي، ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: 98]؛ أعطاهم الله آجالًا تمتعوا فيها إلى أن انتهت آجالهم.

فهذه قصة عجيبة، جميع الأمم الماضية كانت يصيبها العذاب إذا حل بهم العذاب أنزل الله بهم العقوبة، ولو ندموا أو آمنوا ما ينفعهم إلا هذه القصة العجيبة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: 99]؛ لأنه ذكر قبلها الذين حقت عليهم كلمة العذاب لا يؤمنون، فهون عليه قال الأمر بيد الله.

لو شاء الله لآمن كل من في الأرض كلهم يصبحون على دين الإسلام، لكن الله بحكمته جعل من الناس مؤمن وكافر، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: 2]؛ بحكمة الله جعل هؤلاء لأهل النار ويعملون بعمل أهل النار، وهؤلاء لأهل الجنة يعملون بعمل أهل الجنة، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

ما يمكن تلزمهم بقوة، وإنما عليك البلاغ، تبين لهم محاسن الإسلام وهذا الدين وتأمرهم بعبادة الله وتنهاهم عن الشرك، ما آمنوا أمرهم إلى الله.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: 100]؛ الأمر بيد الله وبحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: 100]؛ يقول هؤلاء الكفار الذين لا يعقلون، الله غني عن عبادتهم ومستغنٍ عنهم، ويجعل الرجس والكفر والفسق والفساد عليهم لأنهم لا يستحقون أن يكونوا من المؤمنين.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكرهم بالنظر في الكون وأن هذا الكون مليء بالآيات العجيبة، لكن من الذي ينتفع بها؟ أنت تخرج الآن وتنظر في هذا الكون في السماء والسحاب والشمس والقمر والنجوم وتنظر في الأرض والجبال والأنهار والدواب هذه آيات الله كونية تنظر فيها.

- هل الناس كلهم ينتفعون بها؟

لا، اسمع يقول: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: 101]؛ ما ينتفعون هؤلاء في غفلة، صم وعمي ما ينتفعون أبدًا، كل هذه

الآيات فيها تهويل للرسول في دعوته أن هؤلاء ما يصلحون للإسلام ما يصلحون إلا للكفر والنار.

يقول: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: 102]؛ يقول هؤلاء لا ينتظرون إلا ما أصاب الأمم الماضية من العقوبات التي نزلت بهم، ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: 102]؛ أنا أنتظر هلاككم وأنتم تنتظرون ما يصيبكم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 103]؛ بشارة للرسول والرسل والمؤمنين، ننجيهم إذا جاءت العقوبات الله عَزَّ وَجَلَّ ينجي عباده المؤمنين.

انظر قال: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ [يونس: 103] واجب أوجبه الله على نفسه، ننجي المؤمنين كل مؤمن ينجيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على قدر إيمانه، ينجى من كل مصيبة من كل ما يلم به من الهم والغم والمصائب، الله ينجيه؛ لماذا؟ لأن الله يدافع عن الذين آمنوا ويتولى عباده المؤمنين وينجيهم، هذه فوائد عظيمة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [يونس: 104]؛ قل يا محمد خاطب الناس ونادهم، انظر دائمًا إذا جاءت كلمة قل دليل على أن ما بعدها له أهمية عظيمة، يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ [يونس: 104]؛ هذه الآية مثل ما ذكرت لكم قبل قليل لما أقول لك ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: 94] والرسول غيره.

ولذلك انظر أكدها هنا قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ [يونس: 104] توحيد وطاعة الله وعبادته، إذا كنتم تشكون أنتم فأنا ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: 104] أنا ما أعبد الذين تعبدون من دون الله من الأصنام لأني أعرف أنها ضارة ولا تنفع.

﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمُ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [يونس: 104]؛ أنتم أحياء يتوفاكم ويبعثكم ويجازيكم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 104] المصدقين المتبعين لما جاء من الوحي، هذه الآية تفيد أن الذي يشك هو غير الرسول وغير المؤمنين، المؤمنون والرسول لا يشكون في دين الله ولا يشكون في طاعته، هؤلاء هم الذين يشكون.

ولذلك أكد الله الخطاب لرسوله قال: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [يونس: 105]؛ يعني اعبد الله وتوجه إليه بوجهك خالصًا لله حنيفًا غير مشرك متجهًا إلى ربك ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: 105] مما يشرك هؤلاء مع الله آلهة أخرى لا، اعبد ربك وحده ووحد الله.

ثم قال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: 106]؛ تحذير من الشرك، وهذه الآية مثل ما ذكرنا.

- هل هي خطاب للرسول؟

الجواب: لا؛ الرسول ما يدعو من دون الله ما لا ينفعه، غيره هم الذين يدعون من دون الله، فيحذر هذا التحذير؛ أن الذين يدعون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم لا ينفعهم ذلك.

يقول: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ [يونس: 106] أيها الإنسان ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 106]؛ إذا فعلت أن تعبد من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، لماذا أنت تعبد الذي ينفعك، الذي ينفعك هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول الله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: 107]؛ فقر مصيبة مرض أي ضرر يصيبك أنت من الذي يكشف عنك؟ فلا كاشف له إلا هو، لا يزيله إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا الذي يستحق العبادة، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: 107].

لو أرادك الله بخير، أراد لك صحة وعافية وغنى ومنصب ووظيفة وعمل وخير وذرية، ﴿فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: 107] ما أحد يستطيع أن يمنع الفضل هذا إذا أراد الله لك وكتبه لك وساقه إليك لا يمكن أي مخلوق أن يرده، هذا فضل الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [يونس: 107]؛ هذا الفضل يعطيه الله من يشاء من عباده ممن يستحق هذا الفضل، أما الذي لا يستحق الفضل لا يعطى ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: 107] غفور لعباده لمن تاب، كان فيه تذكير بأن الإنسان هو مقصر بحق الله والله يعطيه الخير، فعليه أن يرجع إلى ربه وأن يستغفر وأن يتوب حتى يرحمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: 108]؛ خاتمة السورة كلها، هذه سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ عشنا معها مدة من الزمن قلبنا صفحاتها وقرأنا آياتها ووجدنا فيها أشياء عجيبة.

الله يقول في خاتمتها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [يونس: 108]؛ هذه السورة وغيرها من الوحي والقرآن جاءكم الحق ليس بالباطل من ربكم ليس من الشياطين ولا من أحد، لا، من رب العالمين، ﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [يونس: 108].

الآن أمامك الحق أمامك الوحي أمامك الإسلام القرآن أمامك الصلاة، من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ينفع نفسه بالهداية، ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: 108] يضل على نفسه الضلال عليك، المعصية عليك الكفر عليك التخلف عن الصلاة عليك، أنت تبادر للصلاة تسارع للخيرات تتصدق تحب الخير هذا كله لك أنت ينفعك.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: 108]؛ يقول الرسول أنا لست موكلًا عليكم وإنما أبلغ رسالات ربي، ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: 109]؛ هذا دليل على أن النبي على الحق وعلى الرسالة الصحيحة.

اتبع الوحي الذي يوحى إليك واصبر على دعوتك لأنك ستواجه أمورًا صعبة، واصبر حتى يحكم الله بينك وبين قومك وهو خير الحاكمين.

هذه سورة يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ عشنا معها هذه الأيام الجليلة، تقلبنا في صفحاتها تأملنا آياتها، فيها تقرير التوحيد والإيمان والأدلة الدالة على أن الله له العبادة وله الإلهية.

وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادر على كل شيء وأنه الملك الذي يملك الدنيا والآخرة وأنه له كل ما في السماوات والأرض، وأن الله وعد وعدًا حقًا بنصر أوليائه ومحاربة أعدائه، وقررت السورة الإيمان باليوم الآخر وتقرير ذلك، كل هذه الآيات ذكرتها هذه السورة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر بعد هذه السورة، أو جاء بعد هذه السورة سورة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنبياء؛ يونس بعدها هود بعدها يوسف، كل هذه إن شاء الله نمر عليها بإذن الله نبين هذه الآيات ونوضحها ونسأل الله الإعانة والتوفيق، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ هُود)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(196)
(هود 1 - 8)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا اليوم الموافق للرابع من الشهر الثالث من عام 1447 من الهجرة، مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم، قراءةً، وتفسيرًا، وبيانًا، وتدبرًا.

وأسال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا وأن يعيننا وأن يسددنا وألا يحرمنا هذه المجالس المباركة التي تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين عنده في الملأ الأعلى.

"سورة هود" عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو نبي من أنبيا ء الله، أرسله الله إلى قوم عاد الذين يسكنون جنوب الجزيرة العربية، أرسله ليدعوهم إلى التوحيد وإلى عبادة الله، فكفروا وأبوا، فعذبهم الله لكفرهم وعنادهم، عذبهم الله بالريح، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 7].

هذه السورة **"سورة هود"** ورد فيها عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أبا بكر الصديق رأى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد ظهر فيه الشيب، فقال: **«يا نبي الله أرى الشيب قد ظهر فيك، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: شيبتني هود وأخواتها»**، يعني هذه السورة شيبت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أظهرت الشيب في رأسه وفي وجهه.

✍ لماذا هذه السورة خاصة؟!!

نحتاج أن نتأمل هذه السورة، وأن نتفكر فيها، ما السبب الذي جعلها تفعل هذا بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!!

ثم أمر آخر:

ما هي أخواتها؟

قال أهل التفسير وأهل العلم: أخواتها ما قبلها وما بعدها، قبلها **"سورة يونس"** وبعدها **"سورة يوسف"** هذه السور الثلاث نزلت متتالية، ونزلت في وقت عصيب شديد على المسلمين، تسلط الكفار والمشركون على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآذوه بعد وفاة عمه أبي طالب الذي كان يدافع عنه بقوة ويحميه، ووفاة من هي في الداخل تدفعه بقوة وتشجعه، وهي خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

لما ماتت خديجة وما أبو طالب تسلط المشركون على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أصحابه، فنزلت هذه السور تسلية له، فيها التفريج من الكُرب، فيها التسلية، فيها الثبات، وأنت تقرأ **"سورة هود"** تجد الآيات التي تثبت المسلم عند المحن، وعند الكروبات.

قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«هود وأخواتها»**، مثلما ذكرنا إما أخواتها التي قبلها وبعدها، وقال بعض أهل التفسير: **"أخواتها مثيلاتها في الشدة"** مثل ماذا؟ قالوا: **"مثل المرسلات، وعم، والواقعة ونحوها التي تهز القلوب"**.

مثلما ذكرنا هذه السورة نزلت في وقت شديد عصيب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحتاج إلى الثبات، لما تقرأ هذه السورة تجد فيها آية واحدة هي التي جعلت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشيب رأسه، لما أقول: نقرأ هذه السورة ونتأملها حتى نعرف ما الذي جعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشيب؟ هي آية واحدة، قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: 112].

هل تجد أكثر وأعظم استقامة من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟!!

ما في أحد أشد استقامة من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع ذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول له: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ [هود: 112]، هذه الآية هي التي جعلت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني هزته هزة عظيمة.

هذه السورة فيها الأمر بالصبر للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آيات كثيرة، ﴿فَاصْبِرْ﴾ [هود: 49].

وفيها ذكر قصص الأنبياء الذين صبروا على أقوامهم، ذكر الله فيها سبعة أنبياء **"نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى"** كلهم بُسطوا في هذه السورة، وذُكرت أحوالهم ومواقفهم الجبارة التي دلت على صبرهم واحتسابهم الأجر، وثباتهم أمام أعدائهم، وأشدهم صبرًا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي مكث تسعمائة وخمسين سنة وهو يدعو قومه صابرًا محتسبًا، حتى هددوه بالإخراج وبالرجم، واستهزؤوا منه وسخروا منه ومع ذلك صبر، زوجته كافرة، وابنه مات كافرًا، ومع ذلك صبر.

الله يذكر هذه القصص لأي سبب؟

ما الحكمة؟

اقرأ في هذه السورة في آخرها، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120]، الرسول يحتاج إلى تثبيت، والصحابة يحتاجون في هذا الوقت، فجاءت هذه القصص تثبتهم.

فعرف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه ماذا فعل نوح؟ وماذا فعل هود؟ وماذا فعل صالح؟ وماذا فعل كذا؟ وهم ابتلوا ابتلاءات شديدة وصبروا هذه يشجعهم على الصبر.

السورة مثلما ذكرنا سورة عظيمة تحتاج منا إلى أن نقرأها بتأمل، بتدبر، بتفكر، لا أن نمر عليها مرور الكرام، الذي يقرأ القرآن هكذا بسرعة ما يخرج بفائدة، ما يستفيد، هذه رسائل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موجهة لك أنت، وإذا ما تقرأها بعناية وتتأملها ما الفائدة؟!!

أنت تأتيك الآن الرسالة في جوالك، والمرسل ما تعرف أنت، وما تدري من هو؟ والرسالة تجلس تقرأها وتتأملها، وتعيد النظر فيها، وأنت لا تدري هذه الرسالة هل تنفك أم تضرك؟ وهذه رسائل الله نافعة لك، ومع ذلك تجد الكثير من الناس يقرأها قراءة سطحية ما يريد أن يستفيد، ولو تمر عليه الآية تقول: ما معناها؟ تجده يقول: والله ما أدري، طيب قف عندها وتأمل معناها، لا تقرأ هكذا، افهم المعاني.

الحقيقة قراءتنا تحتاج الإعادة، تحتاج إلى أن يعيد النظر في قراءتنا، الله أمرنا بالتدبر ونحن ما نقف، كيف نتدبر؟ كيف نتدبر والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في كتابه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: 29]، كثير الخير مبارك، ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: 29]، هل طبقنا هذا؟!!

مثل هذا الدرس المبارك، أسأل الله أن يجعله درسٌ مبارك، نقف مع هذه الآيات نتأملها ونخرج بفوائد كثيرة، القرآن علوم الدنيا والآخرة.

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"القرآن الكريم فيه علم الأولين والآخرين"** ثوروا القرآن حركوه، أثيروه حتى تجدوا ما فيه من العلوم العظيمة.

الآن نبدأ على بركة الله في هذه السورة في **"سورة هود"** بعدما انتهينا من **"سورة يونس"**، افتتاحيتها نفس افتتاحية **"سورة هود"** ويوسف وما بعدها، مفتتحة بـــ ﴿الر﴾ [هود: 1]، هذه حروف هجائية.

لو سألك واحد وقال:

أنت تقرأ في القرآن: ﴿الر﴾ [هود: 1]، ﴿الم﴾ [البقرة: 1]، ﴿طسم﴾ [الشعراء: 1]، ما معناها؟

كيف تجاوبه؟

ماذا سترد عليه؟

نقول باختصار: هذه الحروف هجائية، حروف العرب، العرب يتكلمون بلسانهم، ويكتبون، وينظمون الأشعار، يكتبون القصائد، والخطب، بهذا كلامهم، القرآن نزل نفس كلامهم، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: 195].

هذه الحروف هجائية، الغرض منها والهدف والمغزى منها **"إعجاز العرب"** كأنه يقول: **"القرآن هذا نزل بلسانكم لابد أن تفهموه، لا تعرضوا عنه، لا تتركوه، افهموا هذه الرسائل، هو بلسانكم ما لكم حجة تقولوا: ما نفهم"**.

مثلما أنك تقرأ القصيدة وتفرح بها، وتجد العرب يعلقون قصائد، معلقات على الكعبة، على أستار الكعبة، ويفرحون بها، ويرددونها، ويحفظون القصائد التي تتجاوز المئات من الأبيات، فالقرآن اقرؤوه هذا حجة عليكم، هذا معناه باختصار.

قال الله تعالى بعدها: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1]، هذه الآية التي قرأتها فيها عجائب، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ﴾ [هود: 1]، الله يعظم كتابه ويمدح، يقول: **"هذا كتاب عظيم"**.

طيب ما هو هذا الكتاب أعطنا أوصافه؟

قال: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: 1]، يعني أتقنت وضُبطت ما تجد فيها خلل أبدًا، ولا تناقض، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ما تجد، أعجز العرب كلهم، الفصحاء والبلغاء ما

استطاعوا، وقفوا متحيرين أمامه، ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: 1]، أحكمت، وبينت، وأتقنت، ما تجد فيها خلل.

بعدما أحكمت قال: ﴿ثُمَّ فُصِّلَت﴾ [هود: 1]، بُيّنت ووضحت، أنت تقرأ القرآن كله واضح، من أين؟ قال: ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1]، حكيم ترجع إلى أحكمت، وخبر ترجع إلى فصلت، انظر إلى هذا الترتيب الجميل، ما تجد هذا الكلام في أي كتاب، سطر واحد مستحيل أحد من البشر يكتب مثل هذا السطر.

✍ طيب إذا عرفنا هذا الكتاب والله يعظمه ويبجله ويثني عليه ويمدحه، ماذا قال بعدها؟

قال: هذا الكتاب الذي أنا أمدحه لكم فيه أهم أمر في الحياة كلها، أهم شيء في حياتك كل هو: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: 2]، هذا الكتاب يأمرك ألا تعبد إلا الله، لا تعبد غير الله، ولا تخضع لغير الله، ولا تسجد لغير الله، لا تركع لغير الله، ولا تدعو غير الله، الله فقط، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الفاتحة: 162، 163].

الذي أنت تقرأه في صلاتك تقر على ماذا؟ على ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: 5]، لا نعبد إلا أنت، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، لا نستعين بغيرك.

قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: 2]، ثم قال بعدها: ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: 2]، يعني هذا القرآن مُنزل على من؟ على محمد النذير البشر، ولذلك قال: ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ﴾ [هود: 2]، من الله يعني أنا ما جئت به من نفسي، ولا فعلت هذا الأشياء من نفسي؛ بل أنا رسول كلفني الله بالرسالة أقوم بها.

قال: ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: 2]، نذير أخوف من لا يُبالي ،ولا يُقدر، ولا يعبد الله، ولا يعرف عظمة الله، هذا النذير، وبشر لمن آمن وصدق وأقبل.

ثم قال بعدها لما قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: 2]، هم بلا شك أي إنسان مخلوق يقع في الذنوب والمعاصي، والمشركون أشد، والكفار أشد، ولذلك لما أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ماذا قال بعدها؟

قال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: 3]، أن يستغفروا ربهم، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: 2]، نأمركم بعبادة الله ولكن أنتم ما زلتم في معاصي كثيرة، ملطخين بالمعاصي والذنوب في الليل والنهار، أول أمر إذا أردت أن تطهر نفسك الاستغفار والتوبة، هي التي تزيل الذنوب والمعاصي، أكثر منها في كل وقت، في طريقك، في بيتك، في أي مكان، **"أستغفر الله وأتوب إليه"**، **"أستغفر الله وأتوب إليه"**.

طيب في سؤال هنا:

✍ ما الفرق بين استغفروا ثم توبوا إليه؟

✍ الفرق بين الاستغفار والتوبة هل هي بمعنى واحد؟ أم هذه لها معنى وهذه لها معنى؟

نقول: بلا شك أن الله أمر بأمرين: **"استغفروا ثم توبوا"** ما الفرق؟ نقول: الاستغفار للذنوب الماضي، أنت فعلت معصية ماذا تقول؟ تقول: **"أستغفر الله، أستغفر الله"** هذا لما مضى.

طيب ثم قال: ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: 3]، هذه للمستقبل، يعني أتوب أن أقع في هذه المعصية، أتوب أن أعود إليها، هذا معناها.

أنت إذا قرأت القرآن: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: 3]، اعلم أن هناك فرق بين هذا وهذا، استغفروا لما مضى من الذنوب **"أستغفر الله، أستغفر الله"** أنا أسرفت على نفسي بالذنوب والمعاصي في أيام ماضية **"أستغفر الله"** وأتوب إلى الله من أن أقع مرة أخرى، أتوب من الله أن أعود إلى هذه الذنوب.

لما أنت تكثر من الاستغفار والتوبة، **"أستغفر الله وأتوب إليه"** في الليل والنهار، وخاصة في أوراد الصباح والمساء، استغفر الله مائة مرة وأكثر، طيب ما الثمرة؟ ما الفائدة؟

قال تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود: 3]، يعني أجعلكم تعيشون حياة طيبة، وفي سورة أخرى ستأتينا، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا 10 يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا 11 وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: 10، 12]، هذا كله من ثمرة الاستغفار.

هنا قال: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود: 3]، يجعلك تعيش عيشة هنيئة، مطمئنة، طيبة، هذا معناه، خلاص الذي متعك هو الله، يمتعك بسمعك، ببصرك، بقوتك، يمتعك بالرزق الطيب، بالذرية الطيبة، بالزوجة الصالحة، يمتعك بحياتك، بالمال الصالح، هذا معناه، ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود: 3].

✍ المتاع ما هو؟

قال: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود: 3]، ما قال: متاع سيئًا، وإنما قال: متاعًا حسنًا، إلى متى يمعنا؟ قال: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [هود: 3]، إلى أن يأتي أجلك فتنتقل من هذه الدار دار الغرور إلى هدار القرار، دار السعادة الأبدية، لا تظن أن هنا السعادة، هذه سعادة مؤقتة، السعادة الأبدية في الآخرة، ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [هود: 3].

✍ ثم لا تنسى الآخرة، اعمل للآخرة، ماذا قال بعدها؟

قال: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: 3]، ما معنى هذه الآية؟ من هو ذو الفضل؟ هو الذي يعمل الأعمال الصالحة في الدنيا، الله يجازيه بأحسنها، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: 26]، هذه معناها.

قال: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: 3]، الذي يعمل الأعمال الصالحة، ويعرف ربه، ويعبد الله، ويقدم الأعمال الصالح، هذا معنى ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: 3]، يعطيك الله مقابل هذا الفضل الذي أنت تقدم، يعطيك الله فضل أعظم منه، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾ [يونس: 26]، هذه معناها.

📄 الآية هذه التي تأمر بالاستغفار والتوبة الله أعطاك فيها فضائل عظيمة:

أولًا: في الدنيا يمتعك متاعًا حسنًا.

ثانيًا: وفي الآخرة يعطيك الفضل العظيم الذي لا حد له.

أعطاك ثمرة الاستغفار والعبادة لله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: 2]، أعطاك ثمرتها في الدنيا بأن تجد السعادة، تجد السعادة في الدنيا والاستقرار، والطمأنينة، أم في الآخرة، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: 3]، يعطي أصحاب الفضل فضائل عظيمة.

✍ طيب لو أن هؤلاء الكفار وغيرهم سمعوا هذا الكلام ولم يقبلوه ما هي النتيجة؟

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [هود: 3]، إن أعرضتم ولم تقبلوا هذا الشيء فهذه هدايا من رب العالمين، وما تريدونها، ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: 3].

يقول: إذا أنتم ما تقبلون ما جاءكم من الله هذه الكتاب وما فيه من البشارات، ولم تقبلوا وكفرتم به وتوليتم؛ فإن أمامكم عذاب يوم كبير، عذاب كبير ما هو سهل.

✍ ثم ذكرهم متى هذا عذاب اليوم الكبير؟

قال: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هود: 4]، يعني أنكم ستحشرون جميعًا أمام الله، ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هود: 4]، وسيحشركم الله، ولا تستبعد قدرة الله على الحشر؛ لأن الله قال هنا: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [هود: 4]، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

مع هذا البيان حتى تعرف سبحان الله من يرد الله به خيرًا فالله عَزَّ وَجَلَّ يوفقه للخير، والذي لا يريد يضله الله ويتركه في ظلماته، انظر إلى جمال هذا الكلام وبيانه، قوته، وبلاغته، وفصاحته، اسمع ما هو موقف هؤلاء الكفار الذين كُتبت عليهم الشقاوة.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ [هود: 5]، **"ألا"** للتنبيه، إلا أنهم مع هذا كله ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هود: 5]، كيف يثنونها؟ يثني صدره يعني ينحني، يحدودب بظهره، لماذا؟ يقول: أنا أريد أن أختفي عن الله، يظن إذا احدودب ولملم رأسه على نفسه أن الله لا يراه، انظر إلى الجهل عندهم.

قال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هود: 5]، يعني يختفون عن الله، الله رد عليهم تختفون بهذه الطريقة؟ لو أنتم قد دخلت في فرشكم الله يراكم.

قال تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ [هود: 5]، وهم في الفرش يتغطون، ويتلحفون، الله مطل عليهم، فكيف وهم في الطرقات يحدودب الواحد منهم ويثني يصدره؟!!

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ [هود: 5]، ما يخفونه، ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود: 5]، ثم أكد زيادة؛ فقال: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: 5]، يعني بكل ما يدور بداخلهم، فكيف تختفي عن الله والله يعلم حالك؟!!

هناك من المفسرين من يقول: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هود: 5]، يعني أنهم إذا رأوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انحرفوا وأثنوا صدورهم حتى لا يراهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: 7]، يغطي وجهه وينحني حتى لا يراه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأخبر الله قال: إذا كنت تختفي عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالله يراك، ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود: 5].

انظر فهم عندهم جهل، لا يريدون أن يقبلوا الدعوة، وإذا قابلوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انحرفوا، وفروا، وأخفوا أنفسهم، والله مطلع عليهم، أو أنهم يظنون أن الله لا يعلم حالهم؛ بل الله يعلم حالهم في السر والجهر، علم الله واسع لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وقدرته أعظم وأعظم.

اسمع قدرة الله وعلمه؛ قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [هود: 6]، تدب على الأرض، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: 6]، دابة إنسان، حيوان أليف، متوحش، في البراري، في الصحاري، في البخار، من أنواع الحيوانات التي في البحار، الطيور، ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6].

الله خلقها وتكفل برزقها، صغرت أو كبرت، في أي مكان، في الجبال، في الأشجار، في الأودية، ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6].

قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: 6]، مستقرها في الدنيا، أين تذهب؟ أين تأوي إذا جاء الليل؟ يعني أي حيوان يمشي على الأرض أين يذهب إذا جاء الليل؟ أين يستقر فيه؟ وأين ينام فيه؟

قال: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: 6]، مستودعها نهايتها، مستودعها القبر، أو الموت، في الفيافي والبحار وغيرها، الله يعلم أين نهايتها؟ ويعلم استقرارها اليومي كلها.

وقد تكفل برزقها، كم تحتاج من الرزق؟ الله تكفل برزقها، إنسان، حيوان، مؤمن، كافر، انظر إلى عظمة الخالق، الله يبين قدرته وسعة علمه.

قال: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: 6]، هذا كله في اللوح المحفوظ، وكله في علم الله لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، طائر في السماء أو حشرة في الأرض الله يعلم أين تستقر؟ أين رزقها؟

لما بيّن لك عظمته زادك أيضًا؛ فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [هود: 7]، من الأحد إلى الجمعة ستة أيام.

قال تعالى: ﴿كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: 7]، قبل خلق السماوات والأرض كان عرشه على الماء، بحر عظيم ماء، كيفية الماء، كيفية العرش، هذه كلها غائبة عنها ما ندخل فيها، لكن نؤمن بما أخبرنا الله في كتابه أنه كان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض بعد ذلك، ثم استوى على العرش، ﴿كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: 7].

✍ طيب خلق السماوات والأرض لماذا؟

✍ وخلق الناس لماذا؟

مثلما ذكر: **"للعبادة"** ولذلك قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7]، أصوبه وأخلصه لله، أصوبه وأخلصه، أن يكون خالصًا لله، وصوابًا ومتبعًا لسنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا معنى ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7]، أن يكون خالصًا لله، وصوابًا متبعًا، أما تأتي بشيء من عندك لا تتبع أو ترائي لا، لابد أن يكون خالصًا لله، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7].

ثم قال: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ﴾ [هود: 7]، لهؤلاء الكفار، ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [هود: 7]، في يوم قيامة، ﴿مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: 7]، ما يقبلون، يقولون: سحر، كيف نبعث ونحن سنموت وسنذهب في الأرض وصبح أشلاء وترابًا ثم نبعث؟!! هذا سحر، هذا كلام غير مقبول.

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هود: 8]، هؤلاء الذين نهددهم بالعذاب لو أخرناه إلى أمة معدودة يعني زمن معدود، ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ [هود: 8]، لماذا لا يأتي العذاب؟، أين العذاب؟ انظر إلى التحدي؛ حتى يقول قائلهم: ﴿إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: 32].

يقولون: لماذا ما يأتي العذاب؟ ما الذي يحبسه؟ قال تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود: 8]، لا أحد يستطيع أن يصرفه، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [هود: 8]، أحاط بهمه العذاب الذي كانوا به يستهزئون.

لعل نقف عند هذا القدر، إن شاء الله اللقاء القادم نستكمل فيه هذه الآيات، الحقيقة آيات عظيمة، تحتاج منا إلى تأمل، إلى تفكر، علم غزير، كلنا بحاجة، أسأل الله أن ينفعنا بهذه الآيات وأن يبارك لنا.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(197)
(هود 9 - 24)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا المجلس الذي بإذن الله تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين عنده في الملأ الأعلى.

درسنا في تفسير القرآن العظيم و**"سورة هود"** عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ 9 وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: 9، 10].

هذه الآية إذا قرأتها وتأملتها وجدت أن الله يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال الإنسان في الخير والشر، وفي الضراء وفي السراء، ما هي حال الإنسان طبيعته إلا من رحم الله إلا من استثناه الله؟ فهذا خارج عن هذا الشيء.

لكن طبيعة الإنسان الله يحكي ويذكر لنا طبيعة هذا الإنسان، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ﴾ [هود: 9]، هنا عند أهل التفسير؛ يقول: هنا قسم محذوف تقديره **"والله لئن أذنا الإنسان منا رحمة"** تأمل **"أذقنا"** معناها أعطيناه شيء يسير قليل، مثل ذوق الطعام.

قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: 9]، ما هي الرحمة؟ هي **"صحة، وعافية، ورغد من العيش، ومال، وولد، وزوجة"** يعني من جميع أنواع النعم، أعطيناه أي نعمة من النعم هذه.

قال: ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ [هود: 9]، أخذناها منه، أصبح بعد الصحة مريض، بعد الأمن خوف، بعد المال والغنى والخير أصبح فقيرًا، فقد أولاده، فقد زوجته، نزع الله منه هذا الشيء يمتحنه يشوف هل يصبر أما ماذا يقول؟

قال: ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: 9]، ييأس أن تعود إليه مرة ثانية، يقول: خلاص، أنا أصابني مرض لن ترجع لي الصحة، ذهب مالي وأصبحت فقير لن أصبح غنيًا أبدًا، ييأس من رحمة الله، لا تيأس.

يقول: ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: 9] ، يكفر نعمة الله التي كانت عنده، هذه حال طبيعة الإنسان، وخاصة الكافر الذي لم يتعلم، ولم يتأدب بشريعة الله، وبآداب الله، ولذلك سيستثني الله بعد قليل المؤمنين أنهم لم يدخلوا في هذا الشيء.

والآن حالة أخرى غير الحالة الأولى؛ قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ [هود: 10]، يعني والله لئن أذنا هذا الإنسان ﴿نَعْمَاءَ﴾ [هود: 10]، يعني صحة وعافية، مال كثير غنى، ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ﴾ [هود: 10]، بعدما كان مريضًا أعطيناه صحة، ماذا سيكون موقفهم؟ هو كان مريض يئن، ويعاني، ويشتكي، ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كشف عنه الضر وعافاها.

أو كان فقير يسأل الناس ثم أغناه الله، أعطاه نعمة بعد ضراء، ﴿بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ [هود: 10]، يعني حاجته مسته بقوة، قال: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ [هود: 10]، خلاص ما عاد يأتيني مرض أبدًا، أنا دائمًا صحيح، أو يقول: أنا غني، ما في فقر أبدًا، لن يصيبني فقر.

قال: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: 10]، يقول: ذهب السيئات عني، ما يشكر الله، وفرح فخور يفرح فحر كبر وبطر، ويفخر على غيره، يقول: أنا عندي خير، وعندي كذا، يفرح ويفخر على الناس، هذه حال الكافر في الخير وفي الشر، إذا أعطاه الله نعمة ثم أخذها منه ما هو موقفه؟ قال: ﴿لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: 9].

أو مثلاً الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاه نعمة بعد الضراء يقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ [هود: 10]، خلاص لن يصيبني مرض، ولن يصيبني أي شيء، ويفرح ويفخر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: 11]، هؤلاء ما يقولون هذا الشيء، الذين صبروا في حال الضراء، إذا أصابه مرض، إذا أصابه فقر يصبر؛ لأنه يعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيفرج عنه، فيصبر، ويعمل الصالحات، ويستقيم على طاعة الله، إذا أصابته الضراء صبر، إذا جاءه الخير من الله وأنعم الله عليه بالمال وأنعم الله عليه بالصحة يستعملها في طاعة الله، ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: 11].

قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ [هود: 11]، تغفر لهم ذنوبهم، لماذا؟ لأنهم صبروا، فالصبر عند المصائب كفارة يُغفر بها الذنوب، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: 11]، لماذا؟ لأنه شكر الله في النعماء وعمل الصالحات، انظر إلى ترتيب الآيات، مغفرة عند الصبر، أجبر كبير عند الشرك، المؤمن يشكر، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء»**، يعني خير **«شكر فكان خيرًا له، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن»**، أما المؤمن لا يصبر ولا يشكر.

ثم الآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسلي نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في موقف هؤلاء الكافر المعاندين المستكبرين، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ [هود: 12]، يقول: يا محمد لعلك تريد أن تترك ما يوحى إليك من الوحي، أو بعض ما يوحى إليك.

قال: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ [هود: 12]، يضيق صدرك من قومك أنهم يستهزئون ويسخرون، ويؤذونك، فمثلك يا محمد وأنت رسول ونبي شرفك بالله بالرسالة والوحي لا تترك هذا الشيء، ولا يمكن أن تتركه، ويستحيل، ولا يضيق صدرك؛ بل يتسع صدرك لمثل هذا وأكثر وأكثر.

ولذلك من أقوالهم يعني في ردهم وعدم قبولهم رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يقولون: ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ [هود: 12]، انظروا إلى النظرة القاصرة نظرة الدنيا، يقولون: محمد هذا فقير كيف نتبعه؟ ما عنده كنز، لو عنده كنز لاتبعناه.

قال: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ [هود: 12]، لماذا الله ما أرسل معه ملك؟ ينظرون هذه النظرة القاصرة، الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه كنز، لو كنتم تعلمون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه كنز، هذا الكنز بقي إلى قيام الساعة، هذا الذي بين أيدينا هو الكنز، هم يريدون كنز مال؛ ولكن هذا هو الكنز.

قال: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ﴾ [هود: 12]، يريدون أن يكون معه ذهب وفضة، أو يكون معه ملك.

قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: 12]، قل: أنت نذير، أنا جئتكم أنذركم وأخوفكم من النار، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: 12]، هو الذي يتولى الأمور، هو الذي يفصل بيننا، هو الذي يقضي، هو شي يعطي ويمنع، الأمر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

تظن أن هؤلاء المشركين وقعوا عند هذا الحد، يعني يريدون معجزات كبيرة؛ حتى جاؤوا إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: اقلب لنا هذا الصفا الجبل ذهبًا حتى نؤمن بك، وهذا من باب التعجيز، وحتى لو قلب ذهبًا لن يؤمنوا.

ومن احتجاجاتهم الباطلة، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [هود: 13]، بل إنهم أيضًا يقولون: إن محمد افترى القرآن، يعني أنه أتى بالقرآن وقال: هذا من الله، يفتري على الله الكذب.

✍ هل يمكن أن هذا القرآن يكتبه محمد؟

طيب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمي لا يكتب، ولا يقرأ، ليس له صلة بالعلماء، فكيف؟ قالوا: محمد افتراه.

رد عليهم الله عَزَّ وَجَلَّ؛ قال: إذا كان محمد على كلامكم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد افترى القرآن من عنده فأت﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ [هود: 13]، هو أتى بقرآن كامل مائة وأربع عشرة سورة، أنتم أعطونا عشر سور، ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود: 13]، على زعمكم أنه مفتريه أنتم افتروا مثله وأتوا بعشر سور، ولن يستطيعوا أن يأتوا، وانظر هذا التحدي الثالث في القرآن وفي رباع، أربع آيات أو خمس آيات فيها التحدي يتحداهم الله، ومع ذلك عجزوا، تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88]، لا يمكن أن يأتون بمثله.

ثم تنزل معهم فقال: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ [هود: 13]، وما استطاعوا، عشر سور مناسبة، لأن **"سورة هود"** رقم كم؟ أحد عشر، يعني ما قبل هود هذه الآيات السور أعطونا مثلها، من الفاتحة إلى يونس، ما يستطيعون.

ثم تنزل معهم فقال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: 38]، في سورة يونس قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: 38]، فقط سورة واحدة، وما استطاعوا.

ثم تنزل معهم في في سورة البقرة فقال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: 23]، ولو مشابهة، ولو قليلة، ومع ذلك عجزوا، لماذا؟ لأن هذا كلام الله، وهم كلامهم كلام بشر، كله يعتريه النقص والخلل، وكلام الله لا يعتريه النقص، لا تمل وأنت تقرأ القرآن، لا تمل منه أبدًا، ولا تنقضي عجائبه.

العلماء وقفوا أمامه متحيرين والعرب، القرآن عظيم، ما يخلَق مع كثرة الرد، تقرأ السورة ثم بعد ساعات لو تسمع لقارئ يقرأ سورة نفس التي قرأتها أنت تتعجب منها وتقول: هذه ما قرأتها، فالقرآن شيء آخر، ما يتصور هذا أحد، والمشركون يعرفون قيمة القرآن، لكن يريدون العناد، وعدم القبول.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ [هود: 13]، يعني أعطونا عشر سورة، ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [هود: 13]، هاتوا من استطعتم من الناس، من دون الله، من الجن والإنس يساعدوكم عليه، ما استطعتم، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: 13].

قال: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [هود: 14]، هؤلاء الذين تدعوهم، ﴿فَاعْلَمُوا﴾ [هود: 14]، أيها الكفار، ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: 14]، الذي أنزله الله بعلمه السابق، ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: 14]، توحيد، أنزل الله هذا الكتاب لإقامة التوحيد وعبادة الله.

قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: 14]، هل تريدون أن تدخلوا في الإسلام أم تبقون على كفركم؟ أو يكون المعنى فإن لم يستجيبوا لكم أيها المؤمنون، فاعلموا أيها المؤمنين علم يقين أن ما أنزل بعلم الله، ﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [هود: 14]، هل أنتم ثابتون على هذا الدين؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر لنا أيضًا حال الكفار، ويدخل في ذلك حتى بعض المسلمين، هذه مقارنة بين الدنيا والآخرة، ناس في هذه الدنيا يسعون للدنيا، ولا يريدون إلا هذه الدنيا، وناس في هذه الدنيا يسعون للآخرة، ونظرهم وتطلعاتهم إلى الآخرة.

همهم هو العمل الصالح، وأن يختم لهم بخير، وأن يرضى الله عنهم، وأنا همهم الدنيا، لا عمل صالح، ولا رضا، ولا شيء، اسمع هذه الآية تحكي حال هؤلاء.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [هود: 15]، الذي يريد الناس، ﴿وَزِينَتَهَا﴾ [هود: 15]، وزخارفها وأموالها وما فيها، ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: 15]، نعطيهم ما كتب الله لهم إذا أراد الله؛ لأن الله قال في آية أخرى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: 18].

قال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [هود: 15]، ثم قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: 15]، لا ينقصون، يعطيهم الله حقهم، هؤلاء الذين يريدون الدنيا الله يعطيهم الدنيا؛ لأن الدنيا ليس لها قيمة عند الله، فيعطيهم الدنيا، ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: 15].

ثم قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ [هود: 16]، هؤلاء الذين يريدون الدنيا، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: 16]، ليس لهم إلا الناس، ليس لهم مصير آخر إلا النار.

قال: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ [هود: 16]، أي في هذه الدنيا من صنائع وأعمال هذه كلها حبطت، ﴿وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: 16]، يظنون أنه صحيح ومقبول، وهذا باطل عند الله.

✍ هذه الآية تتحدث عن من؟

عن الكفار الذين يريدون الدنيا ولا يريدون الآخرة، الذي لا يريد الآخرة كفار، الذي لا يكفر في الآخرة كفار، فهذه تحكي حال الكفار.

✍ هل يدخل فيها بعض المسلمين؟

نقول: نعم، الذي يعمل من أجل الدنيا بأعماله الصالحة هذا لن يقبل الله عمله، هؤلاء أهل الرياء، الذي يصلي علشان يقال: إنه يصلي، يقرأ علشان يُقال: قارئ، ويتصدق علشان يقول: غني، وجواد، وكريم.

ويجاهد علشان يُقال: ما شاء الله شجاع وقوي، هؤلاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عنهم قال: **«أول ما تسعر بهم الناس ثلاثة، قرأ القرآن ليقال قارئ، جاهد ليقال شجاع، أنفق أمواله ليقال كريم سخي»**، هؤلاء تسعر بهم الناس، فهؤلاء لا يقبل الله منهم عمل، **«من أشرك معي غيري تركته وشركه»**.

فالعمل للدنيا، يسعى للدنيا، ولا يريد الآخرة هذا عمله باطل مردود عند الله.

ثم قال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ [هود: 17]، أنت مسلم على بينة، على حجة واضحة، يقول: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [هود: 17]، محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن تبعه إلى قيام الساعة المؤمنون، هم على بينة، يقول: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾ [هود: 17].

✍من هو الشاهد هذا الذي يتلوه؟

الشاهد إما النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشهد لهم، أو جبريل الذي أنزل القرآن يشهد لهذه البينة وهي القرآن يشهد له، أو فطرته السليمة تشهد له أنه على الحق.

قال: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ [هود: 17]، أي من قبل هذا القرآن الذي هو بينة، ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى﴾ [هود: 17]، التوراة، ﴿إِمَامًا﴾ [هود: 17]، يأتمون به.

قال: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ﴾ [هود: 17]، أولئك الذين على بينة، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [هود: 17]، أي بالقرآن والإسلام، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ [هود: 17]، الذين تفرقوا وتحزبوا، ﴿فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ [هود: 17]، لا تكن شاك في القرآن، وشاك في الإنسان، لا تكن في مرية منه.

قال: ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: 17]، لا يؤمنون بهذا القرآن، ولا يؤمنون بالرسالة، ويكفرون بها.

ولذلك الله يُعظم هؤلاء الذين يكفرون ويكذبون على الله، يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [هود: 18]، يقول: ما في أجد أشد ظلمًا من الذي يكذب على الله، هم يقولون: محمد افتراه، هذا الكلام غير صحيح، ما في أحد أشد ظلمًا ممن يفتري على الله كذبًا.

✍ما جزاء هؤلاء؟

قال: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: 18]، يوم القيامة يعرضون على النار وعلى ربهم، ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ﴾ [هود: 18]، من هم الأشهاد؟ الأشهاد هم الملائكة، والأنبياء، والصالحين، يشهدون.

يقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ [هود: 18]، اللعنة، والطرد، والإبعاد، ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 18].

✍من هم هؤلاء الظالمون؟

قال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [هود: 19]، يصدون بأنفسهم، ويعرضون، ويصدون غيرهم، يمنعون غيرهم عن سبيل الله، عن شرعه، ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ [هود: 19]، أي سبيل الله وشرعه، ﴿عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [هود: 19]، بالآخرة يكفرون، فالنتيجة ماذا؟

قال: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ﴾ [هود: 20]، لن يفلتوا من الله، ولا يفوتوا عليه؛ بل هم في قبضته، وفي ملكه، وفي سلطانه.

قال: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [هود: 20]، ليس لهم أولياء ينصرونهم، أو يدفعون عنهم الشر، هؤلاء الذين ضلوا بأنفسهم، وضلوا غيرهم، وكفروا ما هي النتيجة؟

قال: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ﴾ [هود: 20]، والسبب ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ [هود: 20]، ما يريدون أن يسمعوا الخير، ولا يسمعوا القرآن، ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: 20]، ما يريدون أن يبصروا الخير، ويبصروا آيات الله، لا يريدون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: 21]، ذهبت عليهم أنفسهم، وخسروا أموالهم، وخسروا أولادهم.

قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [هود: 21]، ضلت عنهم آلتهم وأولياؤهم، خلاص فروا عنهم وتركوهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ [هود: 22]، أي حقًا، ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: 22].

هذه الخسارة ليس فوقها خسارة، خسروا الدنيا، وخسروا الآخرة، لما تسمع هذا الآيات التي فيها الوعيد الشديد للذين يكذبون على الله، ويفترون، ويكفرون بآيات الله، هذه كلها تخويف

ووعيد، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من رحمته يذكر مقابل هذا التخويف والوعيد الترغيب، والتشجيع للمؤمنين، فيذكر حال المؤمنين، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [هود: 23]، وصدقوا، بكل ما جاءهم عن الله، وأتبعوا ذلك بالأعمال الصالحة، وحافظوا عليها رضًا لربهم.

قال: ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: 23]، ليس مثل هؤلاء المستكبرين، لا؛ بل أخبتوا إلى ربهم، وتواضعوا، وذلوا أنفسهم لله، ولطاعته، وسجدوا لله وخضعوا لله.

قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود: 23]، انظروا إلى الفرق، الذي آمن، وعمل الصالحات، وتواضع لله، وأقبل على طاعته، وأرضى ربه، النتيجة أصحاب الجنة، وهؤلاء عاندوا وكفروا واستكبروا النتيجة ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود: 23].

ولذلك الله ميز بين هؤلاء وبين هؤلاء، مثل الفريقين، فرق بينهم، هؤلاء مثل الأعمى والبصير، الأعمى الكافر لا يبصر، والبصير مؤمن يبصر الطريق، والأصم كافر ما يسمع، ما يريد أن يسمع الخير، والسميع مؤمن، فذلك قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود: 23]، هذا الكفار، ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ [هود: 24]، المؤمن، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ [هود: 24]، هل يستويان في الدنيا والآخرة؟ يستحيل أن يستويان.

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: 24]، لماذا لا تتذكرون آيها الغافلون، وتميزيون بين أهل الحق، وهم أولياء الله، وبين أولياء الشيطان، فرق ببين هذا وهذا.

هذه الرايات وقفنا معها، وتأملناها، وقرأنها، وبينا ما فيها، نسأل الله أن يجعلها حجة لنا، وأن ينفعنا بها، وأن يبارك لنا ولك، بارك الله فيكم، وجزآكم عنا خيرًا، ألقاكم على خير إن شاء الله في اللقاء القادم.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(198)
(هود 25 - 40)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الأسبوع بعد صلاة المغرب من كل أربعاء، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول، وبما نسمع.

هذا اليوم يوافق الثامن عشر من شهر ربيع الأول من عام 1447من الهجرة، درسنا في تفسير القرآن العظيم، و**"سورة هود"** عَلَيْهِ السَّلَامُ .

بعدما ذكر الله الآيات السابقة كلها في تقرير التوحيد، والإيمان، وشيء من أوصاف الإنسان، مواقف المعاندين المستكبرين، وموقف المؤمنين، تسوق لنا السورة قصصًا من الأنبياء السابقين، سبعة أنبياء يذكرهم الله في هذه السورة، يبين مواقفهم الصادمة القوية أمام أقوامهم، ويُبيّن موقف أقوامهم منهم، كلها قصص تُساق لنا للعبرة والعظة، قصص القرآن تختلف عن أي قصة من قصص البشر.

✍ قصص القرآن:

أولًا: هي **"كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"** قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: 62].

الأمر الثاني: أن الله يسوقها للتفكر والعبرة والعظة والدروس العلمية، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]، قصة قرآنية فيها هذه الفوائد، **"عبرة، عظة، رحمة"** أشياء عظيمة.

الآن أمامنا أعظم قصة وردت في هذه السورة، وأخذت مساحة واسعة في السورة، وهي قصة أول نبي أرسل إلى أهل الأرض، وهو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو من أولي العزم، أثنى الله عليه، وذكره باسمه فيما يقرب من خمسين موضع في القرآن، وأثنى عليه، قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3].

وذكر موقفه أنه أرسله الله إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة في الدعوة إلا خمسين عائمًا، صابرًا محتسبًا، وقد أوذي، وهدد بالإخراج والرجم، ومع ذلك صبر على قومه حتى لما رأى منهم العناد والكفر، قال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: 10]، فنصره الله وأهلك قومه الذين بقوا على كفرهم وعنادهم.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل سورة كاملة في قصة نوح، سماها **"قصة نوح"** اقرأ هذه السورة وتأملها تجد فيها من العبر والعظات والصبر والجلد من نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كيف دعا ليلاً ونهارً، سرًا وعلانية، ما ترك شيئًا، يأتيهم في مجتمعاتهم، وفي بيوتهم، وفي طرقهم، ومع ذلك لم يؤمن معه إلا قليل، نستمع لهذه القصة العجيبة العظيمة التي يسوقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنافي هذه السورة، وفيها من العبر، وفيها من الدروس وهي تتضمن معاني عظيمة نحتاج إليها في التدبر والتأمل، وحياتنا العلمية.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [هود: 25]، **"ولقد"** هذه الواو ماذا نسميها؟ نقول: هذه واو القسم، أين القسم؟ مقدر يعني **"والله"** الله يقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه أرسل

نوح، لماذا يُقسم؟ لأنه يخاطب أناسًا كفار معاندين من أهل مكة لا يؤمنون، فجاء التأكيد **"والله لقد أرسلنا"** والمتكلم هو الله هو الذي أرسل نوح، ليس أرسله أحد من الناس؛ إنما الذي أرسله هو الله.

قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [هود: 25]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أنزل آدم وانتشرت ذريته كانوا على التوحيد، لم يكن هناك شرك أبدًا، ومضت عشرة قرون كلهم على التوحيد، فلما جاء قوم نوح كان عندهم رجال صالحين كانوا يعظمونهم، ويقدرونهم، ويحبونهم، فلما ماتوا بدؤوا يزورونهم في قبورهم، ويكثرون الزيارة عليهم، فجاءهم الشيطان وقال: **"بدل ما تزورونهم صوروهم وضعوهم في مجالسهم، وإذا نظرتم إلى صورهم تذكرتموهم ودعوتم لهم"** هذه الصور تشاهدونها وتدعون لهم، واكتبوا عليها أسماءهم **"ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرًا"**.

فصوروهم وبقوا على هذه الحال إلى نظروا إليهم تذكروهم وبدؤوا يثنون عليهم في المجالس ويدعون لهم، مضى جيل، ثم جيل، ثم جيل، فجاء الشيطان وقال: **"هؤلاء الرجال الصالحين كانوا آباؤهم يعبدونهم ويسجدون لهم، ويدعونهم من دون الله"** فظهر فيهم الشرك، ولما انتشر الشرك فيهم، وهو أول شرك وقع على وجه الأرض، أرسل الله إليهم نوحًا يدعوهم إلى عبادة الله.

قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: 25]، يقول: دعوتي أنني نذير من الله، الله أرسلني لأنذركم، ونذير مبين واضح النذارة، ينذرهم من أي شيء؟ ينذرهم من خطورة الأمر الذي هم فيه، كيف تعبد صنمًا من حجر وشجر وتترك رب العالمين لا تعبده الذي خلقك ورقك؟!!

فخوفهم قال: إن استمررت على ما أنتم عليه فما أمامكم إلا النار، فحذرهم من العذاب الدنيوي، والعذاب الأخروي، ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: 25].

ثم صرح قال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ [هود: 26]، يعني أرسلني الله لأنذركم، وأرسلني ألا تعبدوا إلا الله، لا تعبدوا غيره من الشرك والأوثان والحجارة والأشجار هذه ما نفع، فلا تعبدوا إلا الله.

قال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: 26]، اعبدوا الله وحده، ثم خوفهم أيضًا قال: أخاف عليكم إن استمررت على ما أنتم عليه من الكفر ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: 26]، يعني سيأتيكم يوم من الأيام فيه عذاب أليم عليكم، فحذرهم من العذاب الأليم حتى لا تكون لهم حجة أنهم يقولون: ما جاءنا رسول كيف يعذبنا الله ونحن لا ندري؟

✍ فماذا تتوقع من قومه هل استبشروا به، وفرحوا به، وهلوا به، ورحبوا، وتقبلوا مه، وفرحوا؟

الجواب: لا، الموقف صعب، ما كان يتوقع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن قومه يقولون له هكذا، وهو يأتيهم باللطافة، يقول: ﴿يَاقَوْمِ﴾ [هود: 28]، يناديهم بالكلام الطيب.

قال: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [هود: 27]، الملأ هم الكبار، السادة، الذين لهم الكلمة في المجتمع، سموا ملأ لأن نظرتهم وكلامهم يملأ النفوس والعيون.

قال: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [هود: 27]، يعني كفروا برسالة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يقبلوها، ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: 27]، يعني أنت بشر مثلنا كيف تريد أن نطيعك؟ تريد أن تتفضل علينا؟ ما نطيعك، طيب ماذا تريدون؟ تريدون ملائكة؟ ولذلك في آية أخرى قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: 24]، يعني يريدون ملائكة، والملائكة ما يمكن أن يقابلونكم وتتقبلون منهم، المناسب أن يأتيك بشر مثلك هو الذي يوجهك.

لذلك لما جاء جبريل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء يسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، جاءه في صورة رجل، رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، جلس إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنسد ركبتيه إلى ركبتيه، وتكلم وقال: **«يا محمد أخبرني»**، هذا المناسب، لو جاء في صورة ملك لفزع الناس منه.

تفكروا في هذه الحجة الباطلة قالوا: **"أنت بشر مثلنا"**، ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: 27]، هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]، أول شيء أنك بشر فما نطيعك، الأمر الثاني من الذي اتبعك؟ الأراذل الفقراء، والذين لا يُأبه بهم، ولا يلتفت إليهم، الأكابر من قومنا ما اتبعوك، وهؤلاء ما يدرون، ضعفاء، ولا عندهم فكر ولا شيء، ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27].

وفي آية أخرى قال: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: 111]، السقطة من الناس الذين لا يُلتفت إليهم.

قال: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: 27]، يقولوا: ما فكروا، ولا تمعنوا، ولا نظروا في الأمر، مجرد سمعوك، ولحقوك، واتبعوك، دون أن يكون عندهم روية وتفكير، ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: 27]، هذا الوجه الثاني.

الأمر الثالث: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود: 27]، أنتم ما لكم فضل علينا، يعني ما هي مزيتك يا نوح أنت ومن معك حتى نتبعك؟ نحن كبار، ولنا المزية، وأصحاب الأموال، والجاه، وتريد أن نتعبك، ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود: 27].

ثم قالوا بعد ذلك: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ﴾، ونعتقد اعتقادًا جازمًا أنكم ﴿كَاذِبِينَ﴾ [هود: 27]، تكذبون على الله، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: 27].

انظروا إلى موقف الملأ، فقد ردوا رسالة نوح وهو الصادق الأمين، ولم يقبلوها أنه بشر، وأن الذين اتبعوه هم الضعفاء والأراذل، وما لهم فضل عليهم، وأنهم كارهون.

✍ فماذا كان موقفه؟

✍ هل تركهم على كلامهم واستسلم لهم؟

لم يستسلم؛ فهو نبي ومؤيد بالوحي، ومعه حجة قوية، قال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ﴾ [هود: 28]، نادهم بأسلوب طيب، قال: ﴿يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ [هود: 28]، أخبروني إذا كنت أنا على بينة حقيقية على حجة قوية، ﴿عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود: 28]، بينة من ربي ولست مني، ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ [هود: 28]، وهي الرسالة، والوحي الذي جاءني من الله أوحى الله إلي، ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: 28].

وفي قراءة: **"فعَمِيت عليكم"** ما هي؟ هذه الحجة وهذا الدليل الواضح أصبح يعني انعمى عليكم، ما هو السبب الذي جعله عُمي عليهم؟ ذنوبهم ومعاصيهم وكفرهم كانت سببًا في ضلالهم وإعراضهم.

وهذه الآية أو هذه الجملة قف عندها، وتعرف أثر الذنوب والمعاصي، قال: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: 28]، انعمى عليهم الطريق ولم يعرفوا الحجة الواضحة؛ بسبب بالذنوب والمعاصي، قلوبهم خلاص انغلقت، ولا يبصرون الحق، ولا يسمعون الحق بسبب ذنوبهم، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].

قال: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: 28]، هل تريدون نلزمكومها بقوة؟ ما نلزمكم بقوة، لازم تأخذوها بقبول، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: 28]، وأنتم لا تريدونها، هذه الكلمة هي أوسع كلمة، وأكثر حروف في القرآن، ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: 28]، ومثلها ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: 22].

قال: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: 28]، يعني نلزمكم بالقوة وأنتم ما تريدون؟ ما يمكن، هذا أماكم الحق اتبعوه إن أردتم ذلك.

لما قالوا: أنتم ما لكم فضل وكذا، بيّن لهم قال: ﴿وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ [هود: 29]، أنا ما أريد منكم مال، أنا دعوتي لله، أنا أقوم بالدعوة ليل ونهار أريد الأجر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: 29]، أجري من الله، ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [هود: 29]، لأنه لما ألح عليهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قالوا: **"إذا أردت أن نؤمن معك ونتبعك اطرد هؤلاء الضعفاء ما نريد أن نجلس معهم"** مثلما قال أشراف مكة، وزعماء مكة من المشركين، قالوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"اطرد هؤلاء الفقراء ونؤمن بك"** يريدون **"بلال، وخباب، وعمار"** قالوا: هؤلاء الضعفاء ما يمكن أن نجلس معهم، مماليك وضعفاء ونجلس معهم لا، وهؤلاء نفس الطريقة، فالكفر ملة واحدة.

قال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [هود: 29]، أنا لا أطردهم، ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [هود: 29]، هم سيلقون ربهم ويجازيهم على إيمانهم.

قال: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: 29]، أنتم قوم فيكم جهالة، كيف تريدون أن أطرد هؤلاء؟ وتتهمونني بكذا وكذا؟ أنتم قومٌ تجهلون.

قال: ﴿وَيَاقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ [هود: 30]، لو فرضنا وسلمنا لكم أننا طردناهم، طردنا هؤلاء المؤمنين علشان تؤمنوا أنتم أيها السادة الكبار، من ينظرني من الله إن أنزل بي عقوبة إن طردتهم؟!!

قال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: 30]، ما تتذكرون هذا الشيء، وترون أنه أمر خطير؟!!

الجدال مستمر معهم، ويناقشهم ويقيم عليهم الحجة، يقول: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ [هود: 31]، يقول: أنا ما أملك شيء من الدنيا وما فيها، خزائن الأرض لا أملكها، لا أملك خزائن السماوات والأرض، ما عندي شيء، هذه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ [هود: 31]، علم الغيب عند الله، أنا يوحى إلي، ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود: 31]، أنا لا أريد أن أصل إلى أن أكون ملك عندكم، أو أني ملك أنزل من السماء، كل هذه لا أقولها؛ وإنما أنا بشر يوحى إلي.

قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود: 31]، تحتقرونهم، ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: 31]، هؤلاء الضعفاء تزدرونهم وتحتقرونهم وتقولون: هؤلاء لن ينالوا شيئًا عند الله، ﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: 31].

قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [هود: 31]، الله هو الذي يعلم أحوالهم، وأنفسهم، ويجازيهم على أعمالهم.

قال: ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 31]، إذا طردتهم أو ازدريتهم، أو احتقرتهم، ﴿إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 31]، أو ادعيت أني ملك، أو ادعيت علم الغيب، هذا كله تعدي وظلم لا أقول ذلك.

بعد هذا الجدال الطويل، والنقاش معهم، والمدة الطويلة، سئموا منه وملوا، فقالوا: ﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا﴾ [هود: 32]، جدالًا طويلًا، ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [هود: 32]، ما عندهم حجة، ما استطاعوا أن يحاجوه الحاجة تقابل الحجة ما عندهم حجج ولا شيء، ضعفا، مثل فرعون، فرعون يملك مصر كلها وعنده القوة، جاءه موسى وما استطاع أن يرد عليه، قال:

﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29]، ما عنده حجة، **"الضرب، القتل"** هذه طريقتهم، أما محاجة ما يستطيعوا.

أما أهل الحق فالأنبياء عندهم حجج قوية، إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حاج بقوة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: 83]، خلاص الحجة معه.

هنا لما جادلهم وأقام عليهم الحجة، قالوا: خلاص يا نوح، ﴿قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [هود: 32]، أنت تقول: سيأتيكم يوم تعذبون فيه، أي يوم هذا؟ ائتنا به، انظروا إلى التحدي: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: 32]، لكنك لست صادقًا، أين اليوم الذي تقول: سينزل بكم العذاب؟ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: 32]، انظروا كيف وصل الأمر بهم؟!!

فرد عليهم بهدوء؛ قال: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [هود: 33]، أنا ما أملك شيء، ما آتيكم بالعذاب ولا أدرى ما يأتيكم، ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ [هود: 33]، إذا أراد، ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: 33]، لن تفلتوا منه أبدًا.

قال: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ [هود: 34]، لو نصحتكم واستمررت معكم ما ينفعكم نصحي، ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: 34]، إذا أدرت أن أنصح لكم وأنتم لا تريدون ولا تتقبلون النصح ما ينفعكم، تأتي شخص ما يتقبل منك ولا يريد أن يتقبل وتنصحه، ما في فائدة.

قال: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: 34]، ويضلكم، ويصدكم عن قبول الدعوة؛ فهذا بسبب ذنوبكم ومعاصيكم، الله يريد أن يغويهم لا هكذا؛ وإنما بسبب الذنوب والمعاصي، هي السبب، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5].

قال: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: 34]، هو ربكم ومالكم والمتصرف فيكم، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: 34]، يوم القيامة، لابد أن ترجعوا إليه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: 34]، **"أم"** بمعنى **"بل"**، بل يقولون افتراه، يعني نوح افترى على الله الكذب، هذا يقوله قومه.

قال: ﴿قُلْ﴾ [هود: 35]، قل لهم يا نوح، ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ [هود: 35]، العقوبة علي، ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: 35]، وأنا بريء من ذنبوكم، هذا رأي بعض المفسرين.

وبعضهم يقول: هذا الكلام وقفة وفاصل خاطب الله أو بيّن الله موقف قريش، لما قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ [هود: 35]، أن أهل مكة يقولون: إن محمد افتراه، قل لهم يا محمد: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: 35].

ثم بعد هذا الأمر والجدال الطويل مع قومه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأطال لمدة تسعمائة وخمسين سنة، الله أوحى إليه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ﴾ [هود: 36].

خلاص ما في أحد سيؤمن، عرفنا الذين آمن، والبقية لن يؤمنوا أبدًا، ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ﴾ [هود: 36]، كم آمن؟ قلة، قيل: ثمانين رجل الذين آمنوا، والبقية كلهم على الكفر والعناد.

قال: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [هود: 36]، ولا تحزن، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: 36]، لا تحزن على أفعالهم السيئة، اتركهم، وأوحى الله عَزَّ وَجَلَّ أيضًا إليه أن يصنع سفينة عظيمة كبيرة الحجم، هذه السفينة ستكون عبرة هذه السفينة، ستكون نجاة له، سفينة النجاة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [هود: 37]، أي السفينة العظيمة، ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: 37]، بأعيننا يعني بمرأى منا، ومتابعة منا، واطلاع من الله عليه، ووحينا بالوحي الذي يأتيك، فبدأ يجمع الأخشاب والحطب، والحبال، والمسامير، وبدأ يصنع سفينة عظيمة أدوار، وكان قومه يمرون عليه، ويتعجبون منه.

قال: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: 37]، لا تناقشني في هؤلاء، هؤلاء الذين ظلموا ﴿إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: 37]، سيأتيهم طوفان عظيم يغرقهم جميعًا ولن ينجوا إلا من كان في هذه السفينة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هود: 38]، انظر إلى العبارة القرآنية، كأنك تشاهدها أمامك، هل هو يصنع الآن؟ بل هو صنع انتهى.

قال: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ [هود: 38]، والعجب أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه، ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: 38]، كلما جاء مجموعة من الناس مروا قالوا: يا نوح أنت مجنون تصنع سفينة في البر، أمس تدعونا إلى التوحيد والآن تصنع سفينة، هل ذهب عقلك؟ بدؤوا يسخرون منه، ويستهزئون به.

فرد عليهم قال: ﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ [هود: 38]، الآن، ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ﴾ [هود: 38]، لما نركب السفينة وأنتم تغرقون أمامنا نسخر منكم ونفرح بهلاككم.

قال: ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: 38]، مثلما تسخرون منا نسخر منكم.

قال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: 39]، تهديد، ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود: 39]، ويذله، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: 39]، يحل عليه العذاب، ينزل عليه العذاب المقيم الذي لا ينفك عنه.

قال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾، ثم قال: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: 39]، ما الفرق؟ قال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ﴾، هذا عذاب، ثم قال بعدها ﴿يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: 39]، هذا الثاني، ما الفرق بينهما؟

نقول: الأول عذاب الدنيا وهو الغرق، والثاني عذاب الآخرة، متى ينالهم عذاب الآخرة؟ إذا ماتوا، إذا ماتوا في قبورهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: 25].

أغرقوا ثم أُحرقوا بالنار، إذا نزل بهم عذاب الدنيا وانتهى عذاب الدنيا نُقلوا إلى عذاب الآخرة، قال: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود: 39]، هذا عذاب الآخرة، مقيم لا ينقطع عنهم.

الآن بدأ يصنع وانتهى الأمر وهو يجادلهم وهم يجادلونه؛ قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: 40]، الآن دخلنا في نزول العذاب، الآن حالة خطرة جدًا، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: 40]، ما هو التنور الذي يفور؟

الله أعطى نوحًا علامة، لأنه تأتي أمطار، فقال: إذا جاءك مطر ورأيت التنور الذي يكون تحت الأرض يُخبز فيه، ودائمًا فيه نار، إذا رأيته يفور بالماء اعلم أن هذا عذاب؛ لأن الله سيجعل الأرض تنبع عيون، والسماء تنزل بالأمطار.

قال: إذا رأيت التنور فهذه علامة ينبغ ماء، تأتي إلى التنور تجده يخرج ماءً اعلم أن الأرض تغيرت.

قال: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: 40]، احمل في السفينة من كلٍّ زوجين، من سائر الحيوانات، الحيوانات الأليفة كبهيمة الأنعام الإبل والبقر والغنم، وحيوانات متوحشة،

وطيور، وزواحف، وهوام، وحشرات، يحمل من كلٍّ زوجين، يملأ السفينة، يحمل منها حتى امتلأت السفينة، يأخذ زوجين ذكر وأنثى، حتى امتلأت، تصوروا شيء عظيم من كلٍّ زوجين.

ثم قال: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود: 40]، أيضًا احملهم، من هم أهله؟ المؤمنون، ولذلك زوجته كافرة ماتت، وابنه الذي قال: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: 43]، مات على الكفر.

قال: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود: 40]، أي المؤمنون الذين آمنوا معك، قال: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: 40]، الذين كُتبت عليه الشقاوة كزوجته وابنه، ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ [هود: 40]، احمله أيضًا معك من المؤمنين، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40]، أما البقية لم يؤمنوا.

قال: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: 41]، ركبوا في السفينة، ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: 42].

يأتي الحديث إن شاء الله عن بقية هذه القصة العظيمة العجيبة التي فيها من العبر والدروس، وفيها من التخويف، وفيها من الحقائق أن الله إذا وعد لا يُخلف، وأن الله يُرسل رسله رحمة بالبشر، ولكن الكثير لا يتقبل، ولا يريد الخير، دروس وعبر نستفيد من هذه القصة.

نقف عند هذه الآية، وإن شاء الله في اللقاء القادم، نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(199)
(هود 41 - 49)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في لقاءكم الأسبوعي في هذا المجلس المبارك بعد صلاة المغرب من كلّ أسبوع، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، هذا اليوم الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول من عام 1447من الهجرة، وتفسير **"سورة هود"** عَلَيْهِ السَّلَامُ ونحن في قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أول الأنبياء.

أول رسول ونبي أرسل إلى أهل الأرض هو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعدما أنزل الله وأهبط آدم أبو البشر إلى الأرض وانتشرت ذريته، وكانوا على التوحيد والإيمان بالله، ثم ظهر الشرك في قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فأرسل الله رسوله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59]، فدعاهم واستمرت دعوته مدة طويلة لا يتصورها أي إنسان تسعمائة وخمسين سنة، قرون من الزمن وهو يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله، فأبوا إلا الكفر، وقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ [نوح: 23]، استمروا على كفرهم، ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40].

"سورة هود" تحكي لنا قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أول نبي، وأول قصة في هذه السورة، تحكي لنا هذه القصة وتطرقنا لها في لقاءنا الماضي، ووصل بنا الكلام عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾ [هود: 41].

لما صنع السفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وكانت سفينة عظيمة، حمل فيها من الحيوانات من كلّ زوجين اثنين ذكر وأنثى، من سائر الحيوانات والطيور، والهوام، والحشرات، كلها، حتى ذكر بعض أهل التفسير أنها كانت سفينة عظيمة على طبقات، فحمل معه المؤمنين الذين آمنوا، وحمل معه من آمن من أبنائه، وأبناءه ثلاثة **"حام، وسام، ويافث"**.

هؤلاء الثلاثة هم الذين ركبوا معه في السفينة، ومعهم زوجاتهم وأولادهم، وهؤلاء الثلاثة هم الذين بقوا بعد هلاك ذلك الوقت في الطوفان هم الذين نجوا، أما الرابع كما سيأتينا وهو اسمه **"كنعان"** هذا أبى أن يركب، وقال: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: 43]، فكان من المغرقين، ومات على كفره.

أما الثلاثة فكانوا مؤمنين، وانتشروا في العالم كله، كلّ العالم يعودون إلى هؤلاء الثلاثة، **"سام"** أبو العرب والروم واليهود، هؤلاء يرجعون إلى **"سام"** وأما **"حام"** فهو أبو الأحباش والسمر، و**"يافث"** هو أبو يأجوج ومأجوج ومن حولهم في تلك الديار، هؤلاء الثلاثة تناسل العالم كله من هؤلاء.

ركبوا في السفينة، لما صنع السفينة أخبره الله أن علامة العذاب الذي سيصيبهم وهو المطر والطوفان الذي سيغرقهم؛ قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: 40]، وهو العذاب الطوفان، ﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: 40]، وعرفنا أن التنور هو المكان الذي يُخبز فيه، التنور معروف يكون تحت الأرض، يُحفر وتوقف فيه النار ثم يُخبز فيه.

عادة التنور ما يخرج منه ماء؛ لأنه مكان للنار، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: علامة أن هذا المطر عذاب هو إذا بدأ ينبع التنور ويفور ماءً اعلم أن هذا هو العذاب.

فلما فار التنور قال الله عَزَّ وَجَلَّ لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: 40]، وأهلك يعني الذين آمنوا، وليس أهلك جميعًا، زوجته كافرة كما أخبر الله في سورة التحريم، ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحريم: 10]، فهي كفارة.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود: 40]، يعني أهلك الذين آمنوا معك، أما الذين لم يؤمنوا فليسوا أهلك، ليس هذا نسب أهل الإيمان.

قال: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: 40]، يعني من كتبت عليه الشقاوة وهلك مع الهالكين، كزوجته وابنه.

قال: ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ [هود: 40]، أي واحمل أيضًا فيها من آمن معك، الذين آمنوا معه، قال: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40]، ذكر بعض أهل التفسير أنهم ثمانون رجلاً وامرأة، وأما البقية فكلهم بقوا على كفرهم وعنادهم.

قال نوح للذين معه، لما حمل فيها ما حمل وبدأ الناس يركبون الرجال والنساء؛ قال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾ [هود: 41]، تبركًا بـــ بسم الله، واستعانة بـــ بسم الله.

قال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾ [هود: 41]، ومن هنا استنبط بعض أهل العلم أنك إذا ركبت الدابة، السيارة، الطائرة، القطار، السفينة، إذا ركبتها أن تقول: بسم الله، هذه سنة قررها القرآن، ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾ [هود: 41]، يعني أستعين بسم الله، وأتبرك بـــ بسم الله، بركة في الاسم.

قال: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: 41]، فيها عدة قراءات هذه **"مَجْرَاها"**، **"مَجْرِاها"** بالإمالة، **"مُجراها"**، **"مُرساها"**.

قال: ﴿مَجْرَاهَا﴾ [هود: 41]، يعني عندما تنطلق تجري، تقول: بسم الله، يعني بركة الله عليها وهي تجري، فالأمواج عظيمة، من يحميها من الغرق إلا الله؟!!

ولذلك سيتضح لك قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: 42]، كالجبال الشاهقة، فمن يحميها؟ وهي تنخر هذه المياه.

هكذا تنطق: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾، ثم قال: ﴿وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: 41]، أي عندما ترسوا وتقف، فيقول: هي تجري ببركة الله، وترسوا وتقف ببركة الله.

قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: 41]، هذه رحمة من الله، وفي سورة أخرى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: 28]، نجاة من أهل الظلم، والشرك، والكفر، فهذه نعمة من الله أن ينجيك الله منهم، ويسلمك منهم.

هنا قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود: 41]، حيث رحمنا، وغفر لنا، ونجانا من القوم الظالمين، وسلمنا من الهلاك، وسلمنا من الغرق، هذه نعمة عظيمة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو يصور لنا حال السفينة كأنك تنظر إليها الآن أمامك، وهذه الأمواج تتلاطم، قال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي﴾ [هود: 42]، أي السفينة، ﴿بِهِمْ فِي مَوْجٍ﴾ [هود: 42]، الأمواج معروفة، يعني أمواج الأمطار أو أمواج المياه العظيمة تصبح كالجبال، كالظلل.

قال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: 42]، ثم نوح وهو في السفينة ويقودها والمؤمنين معه التفت فإذا بابنه كنعان، ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ [هود: 42]، قريب من السفينة، ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ [هود: 42]، يعني منعزل عن الناس، ﴿يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ [هود: 42]، ينادي ابنه بصيغة التلطف، فيقول: ﴿يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ [هود: 42]، اركب معنا في السفينة تنجو، ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ

الْكَافِرِينَ﴾ [هود: 42]، إذا لم تركب السفينة ستهلك مع الكافرين، هؤلاء كلهم كفار، والمؤمنون في السفينة اركب معهم، واركب مع أبيك، ومع أخوتك.

قال: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: 43]، ظن أنه سينجو، ﴿سَآوِي﴾ [هود: 43]، لم يطع أباه، ولم يسمع كلام أبيه، وإنما اعتصم بنفسه، وقال: ﴿سَآوِي﴾ [هود: 43]، وألجأ إلى جبل عظيم يعصمني من الماء.

قال له نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: 43]، اليوم ما في أحد يعصمك لا جبل ولا غيره من أمر الله، ما في أحد يعصمك، ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: 43]، إلا من رحمه الله وهو المعصوم، وأما غيره فلا، ليس هناك من يعصمه أبدًا إلا أن يركب في السفينة.

والحديث ما زال بينهما، ما يزال يحادثه ويرد عليه إلا وجاء موج عظيم، قال: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ [هود: 43]، حال بينهما موج عظيم، وانكسف على هذا الابن، وهذا الجبل، وغطى الابن، وغطى الجبل، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: 43].

ونوح ينظر إلى ابنه وقد غرق، وانطلقت السفينة ومشت، بعدما هل كلّ من كان من قوم نوح كفارًا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للأرض: ﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ [هود: 44]، اشربي الماء حتى تنشف الأرض، ﴿وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: 44]، يعني أمسكي خلاص، أمسكي عن المطر لا ينزل شيء، الأرض مسخرة بأمر الله، فإذا أمرها الله بلغت الماء، والسماء مسخرة تسمع ولا تعصي، فإذا قال: ﴿وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ [هود: 44]، أمسكت، فلما أمسكت، والأرض بلعت الماء، نشفت الأرض.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعبارة جميلة جدًا تعبر عن كلّ ما حصل من هذه الأمواج العظيمة التي كالجبال يعبر بعبارة جميلة فيقول: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ [هود: 44]، غيض يعني نقص، خلاص شربته الأرض وانتهى.

ولذلك انظر إلى هذه الآية فيها عدة جملة جميلة، ﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44]، هذه الجمل كتب فيها أحد الكتاب كتاب، كتاب كامل قال: **"البلاغة القرآنية في هذه الاية"** استخرج منها وجود بلاغية عجيبة تدل على إعجاز القرآن.

قال: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ [هود: 44]، نقص، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [هود: 44]، خلاص هلك الهالكون، ونجا الناجون، قضي الأمر، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: 44]، قيل: هو جبل، الله أعلم أين مكانه، أكثر المفسرين يقولون: إنه جبل في العراق قريب من بلدة الموصل، والله أعلم بذلك.

لكن ما يهمنا المكان أين؟ فما يترتب عليه شيء، المهم أنها استوت على الجودي، يعني أرض صلبة استوت عليها السفينة ورست عليها، ثم نزل ركابها.

قال: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44]، بُعدًا يعني هلاك، هلك الهالكون، لماذا؟ قال: لأنهم قوم ظالمون، ظلموا أنفسهم، وظلموا حق الله، فهذه هي النتيجة، ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44].

وبعدما رست السفينة ونزل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونزل الركاب واستقروا، وحمدوا الله عَزَّ وَجَلَّ أن أنجاهم وأهلك هؤلاء الطغاة، تذكر نوح ابنه كنعان، ما زال الأب في شفقة على ابنه، وهو يرى ابنه يهلك ويغرق أمامه.

فنادى ربه بنداء طيب سليم، ولم يصرح بالدعاء؛ وإنما لمح تلميحًا، قال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: 45]، هذا الابن مني، ومن أهلي، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: 45]،

هو أنك قلت: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [هود: 40]، قلت: ننجيك وأهلك، ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: 45].

ما صرح، وإنما قال: هذا ابني الذي هلك وغرق، هو من أهلي، وأنت وعدتني الوعد الحق، وأنت أحكم الحاكمين، تحكم فيه بما تشاء.

لكن الله وعده بأي شيء، وعده أن ينجي المؤمنين أهله المؤمنين، أما الكافرين فلا، ولذلك قال تعالى: ﴿قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: 46]، هذا ليس من أهلك، الذي من أهلك من ركب في السفينة، أما الذي أبى وعقك ليس من أهلك.

قال: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 46]، هذا الابن علمه غير صالح، فكيف ينجو؟ ما عنده رصيد ينجيه، ما عنده أعمال صالحة، ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 46]، وفي قراءة: **"إنه عَمِل غير صالح"** إن الابن عمل أعمالًا ليست صالحة.

قال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: 46]، بعض المفسرين قالوا: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: 46]، أي دعاءك، دعاءك يا نوح هذا غير صالح، ما يصلح أن تدعو به، كف تقول: نجي ابني وهو كافر؟ ما يمكن هذا، ما يُقبل في حكم الله.

قال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ﴾ [هود: 46]، لا تسألني يا نوح، ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: 46]، إذا لم تعلم حال ابنك لا تسألني، ﴿إِنِّي أَعِظُكَ﴾ [هود: 46]، أذكرك وأوجهك التوجيه السليم، ﴿أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: 46]، وأنت نبي من أولي العزم ورسول، لا تقول مثل هذا الكلام فتصبح من الجاهلين، الذي السؤال الذي أنت تسأله أن ابنك من أهلك، وأنك تريد نجاته من النار هذا لا يمكن؛ لأن النسب ما ينفع، والقرابة ما تنفع، والأب ما ينفع ابنه إذا كان كافرًا، والابن ما ينفع أباه إذا كان كافرًا.

أقوى رجل دافع عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووقف في وجه الكفار هو أبو طالب، ومع ذلك كان من أهل النار، ولم ينفعه استغفار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«والله سأستغفر لك ما لم أنه عن ذلك»**، واستمر يستغفر له وما نفعه الاستغفار، حتى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: 4]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114]، لما علم أنه من أهل النار وأنه كافر تبرأ منه.

ولذلك ينبغي للمسلم أن يتبرأ من الكافر ولو كان أقرب الناس إليه، ولذلك وجه الله عَزَّ وَجَلَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا التوجيه، قال: لا تسأل شيئًا ليس لك فيه علم، وأنا أعظك وأذكرك، ثم إذا فعلت ذلك تكون من الجاهلين.

فلما ذكره بهذه الأسلوب ووجه؛ قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ﴾ [هود: 47]، ألجأ إليك وأعتصم بك، ﴿أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: 47]، أعوذ بك أن أسألك سؤالًا وأنا لا أعلم هذا الشيء.

قال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ [هود: 47]، تغفر لي خطيئتي؛ لأنه اجتهد وأخطأ، ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾ [هود: 47]، إن لم تغفر لي هذا القول الذي قلته وترحمني ﴿أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: 47]، لأني فعلت هذا الشيء أخشى أن أكون من الخاسرين، فقبل الله، وغفر له، ورحمه.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿قِيلَ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾ [هود: 48]، يعني اهبط من هذه السفينة سالمًا لا يضرك شيء، أمان وسلام ﴿مِنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾ [هود: 48]، خير عظيم لك، بركات عليك أنت، وعلى من معك أيضًا.

قال: ﴿عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: 48]، أمم كثيرة هذه الأفراد الذين ركبوا معهم سيكون تحتهم أمم كثيرة، وتنتشر هذه الذرية، ﴿عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: 48]، سأصيبهم من السلامة والبركة الشيء العظيم.

قال: ﴿وَأُمَمٌ﴾ [هود: 48]، وأمم ستأتي، في أجيال أخرى قال الله فيهم: ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ [هود: 48]، لأن الذين في طبقة نوح، سلموا وركبوا السفينة كلهم مؤمنون، لكن سيأتي أجيال وأجيال يكون فيهم كفار.

قال: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ [هود: 48]، متاع الدنيا، ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: 48]، لكفرهم وضلالهم.

قال الله في خاتمة هذه القصة العجيبة العظيمة: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ [هود: 49]، يقول: تلك القصة هذه يا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يخاطب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: هذه القصة هذه من أنباء الغيب، أنباء الغيب يعني أخبار غائبة عنك يا محمد وعن قومك، ما تدري أنت عنها، جئناك بها مفصلة تفصيلاً دقيقًا.

قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: 49]، هذا يدل على أن القرآن وحي من الله، ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ [هود: 49]، لا أنت ولا قومك في مكة يعلمونها، ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: 49]، هل هم يعرفون هذه القصة بحذافيرها؟ ما يعلمونها، لكن هذا خبر من السماء أتاك يا محمد موعظة، وتوجيه، وأخبار، لتثبتك على الحق.

قال: ﴿فَاصْبِرْ﴾ [هود: 49]، اصبر كما صبر نوح، نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ صبر في تسعمائة وخمسين سنة في دعوته، يدعوهم ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا، اصبر أنت على قومك، اصبر عليهم ولو آذوك.

قال: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ﴾ [هود: 49]، النتيجة النهائية، ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، المتقين هم الذين سيتولاهم رب العالمين، كما تولى المؤمنين من قوم نوح، يتولى قومك المؤمنين منهم، ويهلك ما سوى أولئك.

هذه قصة عجيبة فيها الحقيقة دروس، وعبر، ومن الدروس **"أن الحق هو الحق لابد أن يظهر ولو كان أهله قلة"** ما آمن إلا قليل لكن الله أيدهم، ونصرهم، ومتعهم، ونجاهم، وأهل الباطل ولو كثروا وملئوا الأرض ليسوا على حق، وسيزول ما هم عليه، وسيمحق الله بركتهم، ولن يبقى لهم أي أثر.

نستفيد من هذه القصص الحق التي يقصها الله علينا دروس عظيمة، وفوائد ومواعظ، نستفيد منها فوائد في التربية أو التعليم والدعوة إلى الله.

أسأل الله أن ينفعنا بهذه القصة وأن يبارك لنا، نقف عند هذا القدر.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(200)
(هود 50 - 60)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

لقاؤنا الأربعاء بعد صلاة المغرب من كلّ أسبوع في تفسير القرآن العظيم، وبين أيدينا كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، و**"سورة هود"** عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقفنا بنا الكلام عند قصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد ذكر الله قصة هود وهم عاد بعد قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وعاد هي الأمة التي جاءت بعد هلاك قوم نوح، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: 69].

فدلت على أن عادًا جاءت بعد قوم نوح، وعاد هذه القبيلة العظيمة تسكن في أطراف الجزيرة العربية الجنوبية وهي ما تسمى بالأحقاف التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسمى بها سورة كاملة، ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: 21].

والأحقاف جمع حقف، والحقف **"المرتفع من الرمل"** كالتلال من الرمال، هذه تسمى أحقاف، وكانوا يسكنون في منطقة خصبة، والأشجار، والنخيل، والزروع والمياه يعني في نعمة عظيمة، فأشركوا بالله، بعد قوم نوح أشركوا بالله وكفروا به، وجعلوا له آلهة من دون الله يبعدونها.

فأرسل الله إليهم هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فدعاهم، وذكرهم بالله وبنعمه، ووعظهم وأمرهم بتوحيد الله وعبادته، فأبوا وكفروا واستكبروا، ولم يؤمنوا ولم يتبعوا رسولهم؛ بل كفروا به، وكفروا برسالته، وجحدوا آيات الله، عصوا رسولهم فالنتيجة أهلكهم الله.

أهلكهم الله عن آخرهم، أرسل عليهم ريحًا صرصرًا، وريحًا عاتية، ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: 20].

أهلكهم الله بالريح، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: 7]، هذه عاقبة الكفر والطغيان والاستكبار وعدم الاستجابة لله ولرسله.

ذكر الله قصة عاد في سورة الأعراف، وهنا في **"سورة هود"**، وذكرها أيضًا في سورة الشعراء، وسورة الأحقاف وغيرها.

قال الله هنا: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: 50]، أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودًا هذا التقدير، وعاد هي القبيلة العظيمة التي ورثت قوم نوح، وعاد هذا جد لهم ينسبون إليه، فيُقال: **"قبيلة عاد"** لأنه هو جدهم الذي اشتهر بهذا الاسم فأصبحت القبيلة تسمى باسمه **"عاد"** وتسمى هذه **"عاد الأولى"** لأن ثمود تسمى **"عاد الثانية"**.

فكانوا مثلما ذكرنا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: 50]، أي وأرسلنا إلى عادٍ أخاهم هودًا، أخاهم بالنسب لا بالإيمان، أخاهم؛ لأنه ينتسب إليهم، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [هود: 50]، فلما أرسله الله أرسله بأي شيء؟ بالتوحيد، الأمر بتوحيده وعبادته، وترك عبادة الأصنام.

فقال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [هود: 50]، أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له؛ لأن المستحق للعبادة، هو الذي خلقهم، وفطرهم، وهو الذي أنشأهم، وهو الذي رزقهم، وجعل لهم السمع والأبصار، وأنعم عليهم بكل نعمة، فهو الذي يستحق العبادة.

جعل لهم الأرض بساطًا، والسماء بناءً، ورزقهم من حيث لا يحتسبون، وأنزل لهم من السماء ماءً فأنبت به الأرض، فلهذا كله هو الذي يستحق العبادة.

قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: 50]، ليس هناك إله يستحق العبادة إلا هو، ولاحظ قال: ﴿مَا لَكُمْ﴾ [هود: 50]، **"ما"** نافية، ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ [هود: 50]، **"من"** دخلت للتأكيد، ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ [هود: 50]، أي ليس هناك معبود ﴿غَيْرُهُ﴾ [هود: 50]، أي إلا الله، فـ **"غيره"** جاءت مرفوعة؛ لأنها معطوفة أو بدل من إله، الأصل فيها **"ما لكم إلهٌ غيره"**.

وفي عبارة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال: ﴿يَاقَوْمِ﴾ [هود: 50]، فيها تلطف واستجلاب لقلوبهم، ورضا لنفوسهم؛ حتى يتقبلوا الدعوة، ﴿يَاقَوْمِ﴾ [هود: 50]، أنا منكم، وأنتم مني، ثم أمرهم بتوحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، الذي كما ذكرنا المستحق للعبادة، هو الذي خلقهم، ورزقهم، ويحيي، ويميت، والذي بيده ملكوت السماوات والأرض، هو الذي بيده النعم كلها.

قال: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: 50]، يعني في عبادتكم غير الله وشرككم بالله، وعبادة الأصنام التي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تنفع، ولا تضر، هذا بلا شك أنه افتراء، والافتراء **"الكذب المتعمد الذي لا شبهة فيه"** فهو واضح أنه كذب، وصاحبه متعمد الكذب، كيف تجعل مع الله إلهًا آخر؟!!

تعبد حجرًا، وشجرًا، وتعبد ميتًا تدعوه من دون الله، وهو لا يستحق العبادة، أليس هذا افتراء على الله؟ هذا هو الكذب، ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: 50].

ثم بيّن لهم أن دعوته هذه هو لا يريد منهم شيئًا، لا منصب، ولا جاه، ولا أجر، ولا مثال، ولا نكاح من نسائهم، ولا أي شيء من أمور الدنيا، دعوته هذه لا يريد إلا الأجر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حتى يبين لهم أن هدفه ومقصده هو الدعوة إلى الله، ونجاتهم من العذاب الشديد.

قال: ﴿يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود: 51]، أنا لا أطلب مالًا ولا أجرًا، أجري على الله، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: 51]، فطرني يعني خلقني على غير مثال سابق، خلقني خلقًا حسنًا.

وأصل كلمة الفطر ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ﴾ [الأنعام: 14]، ﴿فَطَرَنِي﴾ [هود: 51]، ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: 56]، إلى آخره.

الفطر هو: **"ابتداء الشيء وإنشاؤه وإيجاده"** وأصل كلمة الفطر الشق، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: 1]، وقال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: 1]، بداية الشق انفطار، كانت مستوية سليمة فانشقت، والإنسان كان غير موجود معدوم ففطر، وأوجد، وخُلق، هذا معنى الانفطار.

قال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: 51]، إي أوجدني وخلقني، أنا لا أريد أجرًا منكم، إنما أجري على الذي تكفل بكل شيء، والذي خلق كلّ شيء، ورزق كلّ شيء هو الذي يرزقني، وهو الذي يحييني، وأطلب الأجر منه والعطاء منه، أما أنتم فلا أسألكم عليه أجرًا.

وفي هذا الطلب لما بين لهم أو في هذه الجملة لما قال: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: 51]، أصله إزالة ما قد يكون في نفوسهم من أن هودًا يطلب مالًا، أو يطلب جاهًا، أو يطلب منصبًا، أو يطلب أمرًا من أمور الدنيا، ولذلك نزه نفسه من هذه الأمور.

قال: ﴿يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: 51]، ثم قال بعدها: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: 51]، الهمزة متعلقة بمحذوف، أي أجهلتم، وذهبت عقولكم؟ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: 51]، أجهلتم فلا تعقلون أن هذه دعوتي، ولا تعقلون أني ناصح لكم، ولا تعقلون أن الذي يرزق هو الله، وأن الأجر عند الله، فأرشدهم إلى أن تعود إليهم عقولهم فيفكروا في أنفسهم، ولا يتركوا عنهم الاستكبار، ويسمعوا من نبيهم دعوته.

ثم بعد ذلك دخل معهم في الدعوة، ونبههم على أمور مهمة، تنفعهم في دنياهم، وتنفعهم في آخرتهم، قال: ﴿وَيَاقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 52].

الأمر الأول: **"استغفروا ربكم"** طلب المغفرة.

الأمر الثانية: **"توبوا إليه"** طلب التوبة والعزم عليها.

ثم بيّن أثر الاستغفار والتوبة، ما أثرها حتى يرغبهم في هذا الأمر، ويبين لهم أنه ناصح لهم؟ قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: 52]، كانت حياتهم على الأمطار، على الزروع، وشربهم، وشرب بهائمهم، يسقون زروعهم حتى لا تموت، كلّ هذا على المطر، فذكرهم أنهم متى تابوا؛ فإن الله سيغدق عليهم من الأمطار والماء الذي يكون سببًا في غناهم، وكثرة أرزقاهم، ثم قال: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: 52].

هنا سؤال:

ما الفرق بين الاستغفار والتوبة؟

نقول: الاستغفار أصله طلب المغفرة، طلب المغفرة مما حصل، وفرط، ووقع منكم في الماضي، الاستغفار لما مضى من الذنوب والمعاصي والشرك والكفر، والتوبة هي لما يحصل الآن وفي المستقبل، توبوا إلى الله الآن وتوبوا إلى الله في المستقبل، توبوا إلى الله الآن حتى لا تقع منكم معاصي في المستقبل، معاصيكم الماضية استغفروا الله منها، اطلبوا من الله أن يغفرها، معاصيكم القادمة ادعوا الله وتوبوا إليه حتى لا تعودوا للوقوع فيها.

قال: ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾ [هود: 52]، هذا الماضي، ﴿ثُمَّ﴾ [هود: 52]، للترتيب، أي الإقلاع في المستقبل، والمداومة على التوبة، وعدم الرجوع إلى المعصية، طيب ما أثرها؟ قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: 52]، هذا جواب الأمر **"استغفروا"** إن تستغفروا يرسل السماء عليكم مدرارًا، والسماء هنا أي السحاب، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ [هود: 52]، أي يرسل المطر عليكم، ﴿مِدْرَارًا﴾ [هود: 52]، من الدر، وهو السيلان بقوة، والكثرة، يعني ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: 52]، أي ينزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليكم الغيث غيثًا غزيرًا كثيرًا، فتدر السماء عليكم بالمطر، وتنبت لكم الأرض بالزروع، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: 52].

قال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: 52]، لتشربوا، وتسقوا البهائم، والزروع وغيرها، ثم قال بعدها: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: 52]، أي من أثر هذه الطاعة، والتوبة، والاستغفار أن الله يعطيكم قوة، قوة في أي شيء؟ قوة في أبدانكم، وقوة في عقولكم، وقوة في أموالكم، يزيدكم قوة وشدة، وقوة في أيضًا الذرية، يزيدكم ذرية، ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: 52].

أنتم أعطاكم الله قوة، أنتم تقولون: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: 15]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يزيدكم قوة على قوتكم، بسبب كثرة الاستغفار والتوبة والعودة إلى الله، وترك الذنوب والمعاصي والشرك بالله وعبادة الأصنام.

انظر كيف هود عَلَيْهِ السَّلَامُ يلاطفهم بالكلام، ويبين أثر العبادة، والطاعة، والاستغفار، ماذا تصنع هذه الطاعة بهم؟

ثم حذرهم من أمر خطير جدًا، قال: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ [هود: 52]، لا تعرضوا عن الدعوة، وعن الاستغفار والتوبة، وحالكم ماذا؟ ﴿مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 52]، مصرين على هذه الجرائم، والذنوب، والمعاصي، والشرك، وإصراركم عليها، لا تتولوا وأنتم مصرين على كفركم، وعلى عنادكم، وهذا فيه تخويف لهم، ترغيب وترهيب، ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 52].

إلى هذا الحد هذه دعوة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ باختصار، وبهذا الوضوح وبهذه المعالم، فما الذي تتوقع من قومه؟ هل استجابوا مباشرة، وفرحوا بدعوته، وندموا على ما حصل منهم من الذنوب والمعاصي، واستغفروا وتابوا، وفرحوا بهذه الدعوة أم ماذا صنعوا؟

مع الأسف قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ قابلوا هذه الدعوة، وهذا الأسلوب الطيب الحسن اللطيف بأسلوب السخرية والتطاول والتهديد.

قال: ﴿قَالُوا يَاهُودُ﴾ [هود: 53]، انظروا كيف ينادوا نبيهم ورسوله بلا أي احترام ولا تقدير، ﴿قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: 53]، ما عندك بينة، وقد جاءهم ببينة واضحة، هم يقولون ذلك وهم يكذبون، ويعرفون أنه على الحق، لكن يريدون رد الدعوة، ويريدون أن يوهموا من تحتهم من العوام أن هودًا ما عنده بينة.

قالوا: ﴿قَالُوا يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: 53]، ما جئتنا ببينة تبين لنا الحق من الباطل، ما هذا الكلام يا هود؟ ما نقبل منك، ولا نرتضي كلامك أبدًا هذا، ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: 53].

ثم قالوا بعدها: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا﴾ [هود: 53]، نفي قوي، لن نترك آلهتنا لأجلك، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: 53]، يعني بسبب قولك الخالي من البينة والدليل، تريد أن نترك عبادة الأصنام، ونعبد الله وحده لا شريك له، هذا يستحيل، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ [هود: 53].

ثم أضافوا أمرًا ثالثًا، استخفافًا منهم، وظنوا أن هذا الأمر يعني قد يمشي على هود أو على بعض العامة، فقالوا: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: 54]، اعتراك يعني أصابك، أصابتك الآلهة بسوء، يعني بجنون، يعني الآن أنت أصبحت مجنونًا، والسبب هو أن الآلهة أصابتك بجنون، وليست الآلهة كلها، ولكن ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: 54].

لو اعتراك جميع الآلهة بسوء لهلكت، ولكنها أصابك شيء منها، فأصابك بسبب هذا الجنون، وهذا حتى نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له المشركون ذلك، ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: 36]، يخفونك بالآلهة، يا محمد ستصيبك الآلهة، ستفعل بك الآلهة، ويهددونه بالآلهة.

قال: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: 54]، ما نظن فيك إلا الجنون، هذا الذي تقوله دليل على أنك مجنون، وأن الآلهة أصابتك بهذا الجنون، كيف تقول مثل هذا الكلام؟ كيف تريد أن نترك ما يعبد آباءنا ونعبد ما تقول أنت؟ هذا لا يمكن أن نقبله.

فلما وقفوا هذا الموقف السيئ ولم يقبلوا وعاندوا، وشدوا في عنادهم، قابلهم بما هو أقوى منهم، وكان موقف هود عَلَيْهِ السَّلَامُ موقف القوي، المتوكل على ربه، الجبار، الذي لا يخاف منهم ولا من آلهتهم.

قال: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ [هود: 54]، أنا أشهد الله على ما أقول لكم، وعلى حالي، ﴿وَاشْهَدُوا﴾ [هود: 54]، أنتم اشهدوا أيضًا، أنا أشهد على ما أقول لكم الآن، وعلى حالي، واشهدوا أنتم الحاضرون وأنتم تستمعون ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: 54].

أنا بريء من عبادة هذه الأصنام، أنا أتبرأ من عبادتها، وأنها لا تنفع ولا تضر، ولا تصيب أحدًا بجنون ولا نحوه؛ بل هي باطلة، يحتقرها العقلاء، ﴿وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ 54 مِنْ دُونِهِ﴾ [هود: 54، 55]، يعني تشركون الآلهة من دون الله.

ثم تحداهم لما أشهدهم بهذا الأسلوب تحداهم، فقال: ﴿فَكِيدُونِي﴾ [هود: 55]، أنا واحد وأنتم كثير، وأقوياء، وتتحدون، ﴿فَكِيدُونِي﴾ [هود: 55]، الكيد هو **"المكر، والبطش، والاعتداء"** أين كيدكم؟-

قال: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود: 55]، لا تمهلوني ولا لحظة، لن تستطيعوا أن تصلوا إلي، وهذا قد حصل من نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما قال: ﴿قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ 195 إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:195-196].

وقاله نوح أيضًا قبل هود لما قال: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: 71]، لماذا يتحدى نوح، وهود، ومحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لأنهم على الحق، ويعلمون أن هؤلاء على الباطل، لن يستطيعوا أن يصلوا إليهم، لماذا؟ لأنهم توكلوا على رب العالمين ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

ولذلك قال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: 56]، فوضت أمري إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واعتمدت على ربي في كلّ شيء، هذا الذي يجلب لي الخير، ويدفع عني الشر، ولن تستطيعوا أن تصلوا إلي وأنا قد توكلت على ربي، ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: 56]، الإله المعبود بحق هو ربي وخالقي ورازقي، وربكم أيضًا وخالقكم ورازقكم، حتى يذكرهم أنه يجب عليهم أن يتوكلوا على رب العالمين.

ثم بيّن لهم ضعفهم أمام قوة الله، وأنه قوي بقوة الله؛ قال: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [هود: 56]، تدب على الأرض من إنسان أو حيوان أو طير، ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: 56]، أي أنها في قبضة الله، وأن الله هو المتصرف فيها، المدبر لأمرها، وهذا فيه دلالة على قوة الله وبطشه.

قال: ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: 56]، والناصية هي مقدمة الرأس، وإنما كان العرب تفعل ذلك تأخذ بناصية المجرم أو المعتدي للإهانة، والإذلال له، وأنه في قبضته، يسيره كيف يشاء، فتجد أحد يأخذون بناصية الدابة، أو يأخذون بناصية المملوك العبد عندهم، أو الذي فعل جريمة، أو فعل كذا، يأتون يأخذون بناصيته، وأحيانًا يجزون الناصية حتى يكون ذلك إذلال وإهانة له.

ولذلك قال: كلّ ناصية هي بيد الله، معنى ذلك أنهم في قبضة الله وفي حكمه، ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ [هود: 56]، في قضائه وفي حكمه ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56]، على طريق مستقيم، ومنهج سليم عدل، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56]، تهديد لهم، وبيان أن الله معه، وأن الله هو ناصره، كما نصر أولياءه.

أقوى بينة وأقوى دليل على أن هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ على الحق وأنه رسول من عند الله هذا الموقف، هذا الموقف الجبار أمام قوة جبارة، قالوا: ﴿أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: 15]، وعدد كبير أما رجل واحد، ويتحداهم في ساحة واحدة، ولم يستطيعوا أن يصلوا إليه.

ولذلك سميت هذه السورة بـــ **"سورة هود"**؛ لأن فيها هذا الموقف الجبار، الذي لم يُذكر من أي نبي من الأنبياء في هذه السورة.

ثم قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [هود: 57]، ولم تقبلوا هذه الدعوة بهذا الأسلوب اللطيف، ولم تقبلوا هذه الدعوة بهذا التهديد والتخويف والتحدي، ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [هود: 57]، خلاص أنا بلغتكم رسالة ربي، أبلغتكم ما أوصيت به إليه.

ثم هددهم فقال: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: 57]، أنه سيقضي عليكم ويهلككم ويأتي بقوم آخرين، يستخف بأن يأتي أناس يخلفونكم.

قال: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: 57]، أي أنتم لا تضرونه بمعاصيكم؛ بل هو الذي يضركم بالعقوبة، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: 57]، على

أعمالكم، وعلى أقوالكم، وعلى تدبيركم، وتخطيطكم، الله مطلع وعالم بكم، وسينتقم منكم، وسينجي أولياءه ورسوله هودًا ومن معه من المؤمنين، مهما كان الأمر.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: 58]، أي العقوبة والعذاب الذي أرسله الله عليهم، ماذا أرسل الله عليهم؟ لم يذكر هنا في هذه الآيات لكن ذكر في مواضع أخرى من القرآن أن عادًا أرسل الله عليهم ريحًا صرصرًا، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: 19]، وقال في آية أخرى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت: 16].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: 7]، وقال تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ 24 تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: 24، 25]، وقال في آية أخرى: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: 20].

ريح صرصر تأخذ الرجل وترفعه إلى السماء ثم تلقيه على رأسه، فأصبحوا قد تساقطوا على رؤوسهم وماتوا عن آخرهم، ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: 25].

قال هنا: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: 58]، أوحى الله إليه أن يخرج هو ومن معه من المؤمنين، ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: 58]، رحمهم الله فأنجاهم من هذا العذاب، الريح تتوجه إلى هؤلاء ولا تصيب هودًا والذين معه بشيء يضرهم.

فخرج هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وخرج من معه من المؤمنين، ونجاه الله برحمة منه، ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: 58]، شديد قوي.

قال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ [هود: 59]، **"تلك"** إشارة للبعيد، لبعدهم وحقارتهم، ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [هود: 59]، يعني كفروا بها وردوها، ولم يقبولها، ولم يقروا بها.

قال: ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: 59]، كم رسول؟ واحد وهو هود، كيف يقول: رسله؟ لأن المكذب برسول واحد قد كذب الرسل جميعًا، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: 59]، اتبعوا أمر كلّ جبار منهم، جبار، عنيد، مستكبر، لا يريد قبول الحق، يعني فيه غلظة، وفيه قوة، اتبعوا هؤلاء الكبار والملأ المستكبرين، ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: 59].

قال: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [هود: 60]، يعني بعدما أنزل الله بهم العقوبة والهلاك ومات عن آخرهم لحقتهم اللعنة والطرد من رحمة الله، وكذلك يوم القيامة، ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [هود: 60]، أيضًا يتبعون اللعنة.

ثم قال: ﴿أَلَا﴾، للتنبيه، انتبه واسمع ﴿إِنَّ عَادًا﴾ [هود: 60]، هذه القبيلة التي أرسل الله إليهم هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيه الذي ذكرهم وحذرهم، ورغبهم، ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: 60]، كفروا بآيات الله، وجحدوا وحدانيته.

قال: ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: 60]، ألا بُعدًا أي هلاكًا، وإبعادًا عن قبولهم أو رحمتهم، ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: 60]، تحديد أن عاد هم قوم هود، وهي عاد الأولى؛ لأن كما ذكرنا قبيلة ثمود تسمى **"عادًا الثانية"** هذه قصة عاد، وقصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، نبيهم الذي أرسله الله إليهم، فدعاهم وحاول هدايتهم، ولكنهم لم يقبلوه، ولم يذعنوا، ولم يستجيبوا لربهم، وتكبروا واستكبروا وعصوا، وجحدوا، فكانت هذه نتيجة العصيان، والاستكبار، والجحود.

يذكر الله هذه القصة، ويذكر قبلها قصة نوح، وبعدها قصة ثمود، وسائر القصص للعظة، والعبرة، والاتعاظ، حتى نعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يجعل للبشر حجة عليه، وأنه أرسل إليهم الرسل، وأقام عليهم الحجج، لكن من استجاب كان خيرًا له، ومن أبى واستكبر وهذا هو الأكثر كان ذلك أمر سوء عليه، وذلك عقوبة عليه بنزول العذاب عليه في الدنيا والآخرة.

فهم أهلكوا بهذا الهلاك في الدنيا، ويوم القيامة سيلقون أشد العذاب، نسأل الله العفو والعافية، وأن يرحمنا برحمته، وأن يجعلنا ممن يقرأ هذه الآيات ويعتبر بها، ويسأل الله أن يحفظه من كلّ سوء، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(201)
(هود 61 - 68)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك المتجدد من كلّ أسبوع بعد صلاة المغرب من مثل هذا اليوم الأربعاء، وهذا اليوم يوافق اليوم الثاني من الشهر الرابع، من عام 1447 من الهجرة.

درسنا في هذه الدقائق المعدودة في تفسير القرآن العظيم؛ نأخذ شيئًا من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نقرأها، ونبين معانيها، ونتدبر ما فيها من توجيهات، وتذكير، ومواعظ.

ولا يخفى على الجميع أن مثل هذه المجالس المباركة التي تحفها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، ويذكر الله الحاضرين في هذا المجلس المبارك عنده في الملأ الأعلى، وخيركم من تعلم القرآن وعلمه.

"سورة هود" عَلَيْهِ السَّلَامُ والقصص التي أوردها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها سبع قصص من قصص الأمم الماضية، ومر معنا قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، ثم قصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا مع قومه وهم عاد.

الآن بين أيدينا قصة ثمود، ونبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وثمود هم الذين استخلفهم الله بعد عاد، لما أهلك الله عادًا بالريح، ونجى المؤمنين، استخلف الله بعدهم قوم ثمود.

وعاد كما لا يخفى علينا هم الذين يسكنون بالأحقاف جنوب الجزيرة العربية، ثم جاءت قبيلة ثمود الذين يسكنون في الحجر، سمى الله سورة كاملة بسورة الحجر، هي ديارهم في وادي القرى، وهي ما بين الجزيرة والشام، وهي الآن معروفة، تُعرف بمدائن صالح، وبالعلا، في الشمال الغربي من الجزيرة العربية، ما زالت ديارهم أو ما زالت آثارهم قائمة.

وثمود هذه قبيلة عربية عاربة، من العرب العاربة يعني أصلية، ليست مستعربة، وثمود جدٌ لهم، ينسبون إليه، يقال: **"قبيلة ثمود"** وبعض المفسرين يقول: ثمود سميت لأن ديارهم كانت الماء فيها قليل، فإذا قل الماء قالوا: **"ثمد الماء"** يعني قبل، سميت ثمود لقلة مائها.

ثمود مثلما ذكرنا تسكن في هذه الديار، في أمن وأمان، وأعطاهم الله من القوة؛ حتى أنهم ينحتون الجبال بيوتًا، ويبنون من السهول قصورًا، وبين زروع، وعيون، وخير، ونعم عظيمة، لكنهم ماذا؟ عبدوا الأصنام، وأشركوا بالله، ولم يعبدوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولم يشكروا نعمة الله عليهم.

فأرسل الله إليهم صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ منهم، ويعرفونه، ويعرفهم، فأوحى الله إلى صالح واختاره نبيًا لهم، فدعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وترك الشرك، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في **"سورة هود"**: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [هود: 61]، أي وأرسلنا إلى ثمود أخاهم، أخاهم بالنسب وليس بالدين، فهو مؤمن وهم كفار، أخاهم بالنسب، أخاهم صالح، يعني هم وإياه يرجعون إلى نسب واحد.

✍ لما أرسله الله وأوحى إليه بأي شيء بدأ معهم؟

مثلما بدأ نوح، وهود، وغيره من الأنبياء، قال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: 61]، اعبدوا الله وحده، وأخلصوا العبادة له، واتقوه، ولا تشركوا به شيئًا، لا تعبدوا هذه الأصنام، ما تنفعكم، ولا تضركم، ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: 61].

✍ هل هناك إله غير الله يرزقكم، هو الذي أنشأكم، وهو الذي رزقكم، هو الذي أعطاكم الأمن، أعطاكم الخيرات، في إله غير الله؟

ما في، لا يوجد إله إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما الآلهة هذه التي تُعبد من دون الله لا ترزق، ولا تسمع، ولا تعي، ولا تنفع، ولا تضر، حتى أنت إذا تركتها لا تضرك، وإذا عبدتها لا تنفعك، فلا تنفع ولا تضر، ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: 61]،لا يوجد إله غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السموات ولا في الأرض.

ثم بدأ يذكرهم بآيات الله الدالة على وحدانيته، وبنعمه عليهم؛ قال: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [هود: 61]، يعني هو الذي خلقكم، أنشأكم النشأة الأولى، يعني هو الذي أوجدكم وخلقكم، من الذي خلقكم؟ في إله غير الله خلقكم؟ قال: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [هود: 61]، خلقكم من الأرض كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: 55].

فالخلق كلهم يعودون إلى آدم، وآدم خُلق من تراب من الأرض، فكلكم ترجعون إلى أنكم خلقتم من الأرض، ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ [هود: 61]، هو سبحانه لا إله غيره.

ثم قال: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: 61]، استعمركم في هذه الأرض أي جعلكم تعمرون هذه الأرض، تعمرونها بالبناء وبالزراعة، وبالمساكن، وغير ذلك، تعمروها، استعمركم يعني طلب منكم، أو أرشدكم، أو حثكم، أو دلكم على كيف تعمرونها؟ يعني جعل لكم السمع والأبصار والفهم والإدراك كيف تعمرون هذه الأرض؟ فأنشأكم منها، وجعلكم تسكنون فيها وتعمرونها.

فإذا كان الله هو الذي أنشأكم، وهو الذي أوجدكم وهو الذي من عليكم بهذه النعمة نعمة المساكن والزروع وغيرها فاستغفروه، ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: 61].

✍ هل هناك فرق بين الاستغفار والتوبة؟

نقول: في فرق، الاستغفار لما مضى من الذنوب السالفة التي مضت في عمرك الماضي، عندك ذنوب كثيرة استغفر الله منها حتى لا تبقى، حتى إذا استغفرت تزول عنك الذنوب الماضي، ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: 61]، في المستقبل؛ بحيث أنك خلاص تعزم على ألا تعود إلى المعاصي وتقلع عنها.

إذًا الاستغفار صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لقومه: استغفروا الله، اطلبوا من الله المغفرة مما سلف من الذنوب والمعاصي الماضية، ثم توبوا إليه بحيث أنكم لا ترجعون إلى المعاصي، وأشدها الشرك بالله وعبادة الأصنام.

ثم رغبهم بأسلوب جميل قال: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ [هود: 61]، لم يقل: **"ربكم"** من الأدب، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: 61]، استغفروه وتوبوا إليه وادعوه؛ فهو قريب، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: 61].

في الآية الأخرى بيّن الله لنا أقرب الأشياء لنا، أقرب أشياء لنا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]، هذا العرق الذي في النحر يرتبط بين الرأس والصدر، هذا العرق حبل الوريد، الله يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ [ق: 16]، يعني أن الله قريب من عباده، تدعو الله وهو قريب يسمعك ويجيبك.

قال: ﴿قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: 61]، ما عاد في حجة تقول: والله أنا أدعو أو ما أدعو، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ [هود: 61]، والقرب هذا قرب عام وقرب خاص، معنى هذا أن الله قريب من عباده جميعًا،

وقربه بعلمه لا بذاته، هو مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، الله في السماء لكن قريب بعلمه، بإحاطته، ببصره، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: 7]، قريب مع الخلق كلهم.

وهناك قرب آخر خاص، هذا القرب قرب لعباده الصالحين المتقين، فهو قريب من المؤمنين يستجيب دعوتهم، وينصرهم ويؤدهم ويحفظهم، من هم؟ أولياء الله الصالحين، قريب منهم، ومجيب إذا دعوه أجاب، يعني كما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"أنا ما أحمل هم الإجابة؛ بل أحمل هم الدعاء"** الإجابة منتهي منها ما في كلام الله يقول: ﴿مُجِيبٌ﴾ [هود: 61]، كيف تقول: يجيب أو لا يجيب؟!!

الله يقول: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، يعني لا تحمل هم هل الله يجيب أو لا يجيب؟ فهو يجيب، يطيب بأي طرقة، لكن الدعاء احرص على انتقاء واختيار الدعاء المناسب، وكيفية الدعاء، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: 61].

ثم أيضًا أمر آخر: أن نحذر من موانع الدعاء، عندك موانع تجعلها ما تذهب إلى السماء، هذه الموانع نبتعد عنها، ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: 61].

انظر إلى طريقة صالح ودعوته، يذكرهم بنعمة الله، ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: 61].

✍ فكيف كان جواب قومه؟

✍ هل فرحوا بدعوته، واستبشروا، وشكروه على دعوته وعلى نصحه وعلى موعظته؟

الجواب: العكس، ﴿قَالُوا يَاصَالِحُ﴾ [هود: 62]، انظروا كيف ينادونه، حتى ما قالوا: يا نبي الله، يا رسول الله، ﴿قَالُوا يَاصَالِحُ﴾ [هود: 62].

قال: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ [هود: 62]، كنا نؤمل فيك أن تكون كذا وكذا، والآن خاب رجاؤنا فيك، تقول: اعبدوا الله، والله خاب رجاءنا فيك، لا نرجو فيك خيرًا أبدًا بعد هذا الكلام، تريد أن نترك عبادة الأصنام، وعبادة آباءنا ونعبد الله، لا، كنا نرجو فيك ونؤمل فيك الخير، ونجد فيك علامات الخير، وآخر شيء تأتينا بهذا الكلام، هذا لا نقبله.

قال: ﴿اصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: 62]، أين عقلك يا صالح؟ انظروا كيف قلب الموازين، والانتكاس، والتكبر، والطغيان، ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: 62]، لما قالوا له هذا الكلام، قالوا أيضًا: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: 62].

نحن يا صالح نشك في دعوتك، أنت كذاب أشر، ما نقبل دعوتك، دعوتك كلها نشك فيها، لست رسول من عند الله، ولم يرسلك الله لا أي شيء، وإنما هذا الكلام لا نقبله أبدًا، ونشك في دعوتك.

قال: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: 62]، شك ومريب، هل الشك هو الريب أم يختلف؟ هم يشكون وزيادة على الشرك مضطربين، الريب الاضطراب عدم القبول، يعني عدم استقرار النفس، في ريب، في خوف.

يقولون: نحن يا صالح لا نقبل منك، ودعوتك نشك فيها وزيادة على شكنا في هذه الدعوة أننا في وجل وفي خوف من دعوتك، لا نقبلها أبدًا، هذا الكلام غير صحيح ولا نقبل منك ونرده، كما كان غيرهم من الأمم.

فصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يقبل هذا الكلام الذي يقولونه ويفترون عليه، فرد عليهم بقوة، وقال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ [هود: 63]، أنتم تقولون: في شك، أخبروني إن كنت على بينة،

أنا عندي دليل وعندي حجة قوية وأنتم تقولون: شك، ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: 63]، بالوحي، والرسالة، هذه رحمة علي أنا أولًا وعليكم أنتم رحمة.

قال: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: 63]، لو أخذت بكلامكم وتركت الدعوة، وسلمت لكم أنكم في شك وأنا معكم، وتركت الدعوة ولم أبلغ دعوة ربي فما النتيجة؟!!

قال: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: 63]، إذا تركت دعوة الله ولم أبلغ الوحي من ينصرني؟ هل تنصروني أنتم من الله؟

قال: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: 63]، أنتم تزيدونني خسارة وضلال وهلك إذا اتبعتكم على كلامكم هذا الذي لا يقبله عاقل، فرد عليهم بهذه القوة وهذا الرد القوي، قال: أنا على بينة، ثم بين البينة ما هي؟

قال: ﴿وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود: 64]، يا قوم أنتم الآن أنتم من طلبتموها وقلتم: أخرج لنا ناقة، لما اشتد عليهم في الدعوة واستمر، قالوا: يا صالح أكثرت الدعوة علينا ولم نصدقك، قال: ماذا تريدون؟ قالوا: نريد حجة منك حتى نقبل دعوتك، قال: ماذا تريدون؟

فخرجوا معه إلى الصحراء ووجدوا صخرة عظيمة صماء، وهذا من باب التعجيز، قالوا: يا صالح إذا كنت رسول، وتدعي أنك رسول ويوحى إليك، تريد أن نتبعك أخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة، وليست أي ناقة؛ بل ناقة عشراء حامل في الشهر العاشر، بقي شهرين تلد.

قال: كيف أطلع لكم ناقة من الصخرة؟ كيف هذا الكلام؟ قالوا: خلاص، لو تريد أن نتبعك أخرج لنا.

قام وصلى ركعتين ثم دعا ربه، لما دعا ربه انشقت الصخرة شقين وخرجت الناقة أمامهم، وهم ينظرون، فهل أوفوا بالعهد؟ لا، إنما انقلبوا عليه وقالوا: سحرنا صالح، هذا سحر مستمر من صالح، فهم لا يريدون الوصول إلى الحق؛ بل هم مستكبرين لا يريدون الحق.

قال: ﴿وَيَاقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ [هود: 64]، أنتم طلبتموها وأنا دعوت ربي، وأخرجها الله، ليست لي وليست لكم، هذه ناقة الله، ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: 13].

قال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً﴾ [هود: 64]، حجة عليكم، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ [هود: 64]، الأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، لا تتعرضوا لها بسوء، ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ [هود: 64]، لا تتعرضوا لها بأي سوء، فإن مسستموها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: 64]، ليس ببعيد، فلا تتعرضوا لها، وفي آية أخرى قال: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: 155]، وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ [القمر: 28].

فتأتي هي وتشرب من الآبار في يوم واليوم الثاني لا تأتي، يكون لمواشيهم، فتضايقوا منها وبدؤوا يطردونها، ثم أخيرًا اتفقوا على أن يعقروها، فقام أشاقها فعرقها، ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: 12]، فأرسلوا واحد وأعطوه مكافئة على أنه يعقر الناقة.

قال: ﴿فَتَعَاطَى﴾ [القمر: 29]، أي تعطى الآلة، ﴿فَعَقَرَ﴾ [القمر: 29]، فسقطت ميتة.

✍ هنا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [هود: 65]، وفي سورة القمر قال: ﴿فَعَقَرَ﴾ [القمر: 29]، يعني واحد، كيف؟

نقول: لما كانوا هم جميعًا قد اتفقوا على الجريمة، فحكم الله أنهم كلهم عقروها، لأنهم متفقون وموافقون له ويؤيدونه.

قال: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [هود: 65]، فلما عقروها وسقطت ميتة على الأرض علم صالح بذلك، فقال لهم: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: 65]، بعد ثلاثة أيام ينزل بكم العذاب، خلاص انتهى

الأمر، فخرج صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه من المؤمنين، وغادروا، وتركوا بلادهم، وخرجوا عنها؛ لأنه خلاص مهددة بالعذاب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: 65]، وعد من الله لا يمكن أن يخلفه، غير مكذوب، قال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: 66]، جاء أمرنا بأي شيء؟ أخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ صيحة واحدة قطعت قلوبهم، فماتوا فأصبحوا هامدين لا يتحركون سقطوا على الأرض، مثلما أنهم أسقطوا الناقة على الأرض قد ماتت فهم نقد سقطوا جميعًا.

قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: 66]، النجاة لأهل الطاعة والخير، ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: 66]، لولا رحمة الله ما نجوا من هذا العذاب، لكن الله منّ عليهم، كما أنجى نوحًا في السفينة برحمة منه، وأنجى أيضًا هودًا بأن خرج من بلادهم، أنجا صالح، الله ينجي عباده المؤمنين، ينجيهم من كلّ الكروبات والشدائد.

قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ [هود: 66]، هذا خزي وعار وذل لهم، أذلهم الله، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: 66]، إذا انتقم فهو قوي عزيز.

قال: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: 67]، صاح بهم جبريل، ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: 67]، لا يتحركون، جاثم يعني ساقط هامد لا يتحرك.

قال: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: 68]، كأنهم ما عاشوا فيها، كأنه ما مرت عليهم أيام سعدوا فيها وتمتعوا فيها، ﴿أَلَا﴾ [هود: 68]، يعني انتبه للتنبيه، ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ﴾ [هود: 68]، أي قبيلة ثمود التي تسكن في هذا المكان، ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: 68]، كفروا نعمته، ولم يعبدوه، وأشركوا به، ﴿أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود: 68]، أبعدها الله، وأهلكها؛ لأنها تستحق الهلاك بسبب هذه الذنوب والمعاصي.

هذه قصة ثمود مع نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ التي ذكرها الله في **"سورة هود"** في هذه الآيات التي مرت معنا، فيها دروس وعبر.

أول الدروس والعبر: **"أن سبب الهلاك الاستكبار والطغيان"** هو سبب هلاك الأمم، لا تتكبر، لا عن طاعة الله، ولا عن عباد الله، التكبر والاستكبار والطغيان هو سبب الهلاك.

وأن سبب النجاة هو التقوى والطاعة، لما صالح ومن آمنوا معه أطاعوا واتقوا وبلغوا رسالة ربهم، أنجاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إلى غير ذلك من الدروس والمواعظ والعبر التي تبين أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يهلك الطغاة مهما كانوا، ولو كثروا، لا يقيمون عند الله وزنًا، مهما كثروا، ومهما قويت حجتهم وقوتهم، هؤلاء معهم قوة ويحفرون الجبال، ويجعلون فيها بيوت، وهي إلى الآن قائمة، ومع ذلك لم يأبه الله بهم وأهلكهم بأمر يسير، صيحة واحدة قطعت قلوبهم.

فلنحذر الذنوب والمعاصي التي تدمر الأمم، وتهلك الأجيال.

نسأل الله أن يعفو عنا، هذه الآيات التي مرت معنا نسأل الله أن ينفعنا بها، وأن يبارك لنا، لنا لقاء آخر إن شاء الله نستكمل فيه الآيات القادمة.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(202)
(هود 69 - 82)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك المتجدد من كلّ أسبوع من بعد صلاة المغرب من كلّ أربعاء، هذا اليوم هو اليوم التاسع من الشهر الرابع من عام 1447 من الهجرة.

نجلس هذا المجلس المبارك مع هذه الدقائق المعدودة، نستفيد من هذا المجلس، ونسأل الله أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا، ومثل هذه المجالس مجالس عظيمة فيها خير عظيم، لا نحرم أنفسنا من هذه المجالس الطيبة.

بين أيدينا كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرآن الكريم و**"سورة هود"** عَلَيْهِ السَّلَامُ ولازلنا في عرض قصص الأمم الماضية، التي أرسل الله إليهم رسله، وأقام عليهم الحجة، ودعاهم إلى التوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له، ولكنهم أبوا، وامتنعوا، واستكبروا، وردوا رسالات ربهم، وكفروا برسالات ربهم، وتحدوه بالعذاب حتى أنزل بهم العقوبات.

- مر معنا قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، وأن الله أغرقهم بالطوفان.
- وقوم عاد مع نبيهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأهلكهم الله بالريح.
- وقوم ثمود مع نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهلكهم الله بالصيحة.
- وبعد ثمود أنشأ الله قومًا آخرين من هم؟

فيما يُذكر في كتب التاريخ، وفيما يذكر أيضًا من خلال الآيات القرآنية أن الله أنشأ بعدهم قوم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ دعا قومه، دعا أباه الذي كان يعبد الأصنام، دعاه إلى التوحيد، فأبوا وكفروا، وبقوا على كفرهم حتى اجتمعوا على أن يحرقوا إبراهيم بالنار، فأحرقوه وألقوه في النار، ولكن الله قال للنار: ﴿يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69].

فلم تمسه بسوء، وخرج منها لم يصبه شيء، فلما رأى منهم هذا العناد والكفر والاستمرار، تركهم وخرج، ولم يدع عليهم بالهلاك، وإنما خرج من بلاد العراق التي كان يقيم فيها في بابل، وأمره الله بالهجرة، فهاجر إلى بلاد فلسطين فاستقر بها هو وزوجته، ومعه لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، لوط ابن أخيه، وأما لوط فأرسله الله إلى قوم لوط، وهي قرية سدوم وما حولها من القرى، سبع قرى في بلاد الأردن، فذهب إلى دعوة هذه القرى.

وأما إبراهيم فقد استقر في فلسطين، لما استقر في فلسطين ومضت مدة هو وزوجه، وليس عنده ذرية، ولم يُرزق بذرية أبدًا؛ حتى امتد به العمر، وأصبح شيخا كبيرًا، وامرأته عجوز، ولم يرزقوا بالولد.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرسل الملائكة لإهلاك قوم لوط، ولكنهم أمروا أن يمروا بإبراهيم قبل أن يهلكوا قوم لوط، فمروا بإبراهيم فهذا ما قصه الله علينا اسمع.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ [هود: 69]، من هم الرسل؟ ذكر أهل التفسير أنهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وميكائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإسرافيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، الثلاثة، وقيل غير ذلك.

وجاءوا في صورة رجال ضيوف، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الذاريات: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: 24].

قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ [هود: 69]، بشروه بولد وهو إسحاق؛ لأنه لم يرزق بذرية أبدًا، فبشروه بإسحاق، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ [هود: 69]، لما دخلوا عليه وهو جالس في مكان الضيافة؛ لأن إبراهيم معروف بكرمه، فكان يفتح بابه ويجلس، فدخلوا عليه وسلموا، ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: 69].

✍ هم قالوا: **"سلامًا"** وهو قال: **"سلام"** هل في فرق؟

نقول: الأول **"سلامًا"** هذا منصوب من حيث الإعراب، أي سلموا سلامًا، وهو رد عليهم بأحسن؛ فقال: **"عليكم السلام"**، **"عليكم السلام"** أبلغ وأقوى، لماذا؟ لأنها جملة اسمية، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: 86]، الإنسان يحيي بأحسن.

فإذا سلم عليك إنسان ينبغي لك أن ترد عليه السلام بأحسن مما سلم، قال: السلام عليكم، تقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، حتى تكسب الأجر أكثر.

هنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿سَلَامٌ﴾ [هود: 69]، ثم قال: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: 69]، يعني بمجرد دخولهم وسلامهم وجلوسهم انطلق، في سورة الذاريات قال: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: 26]، **"فراغ"** يعني أسرع.

فانطلق فجاء ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: 69]، هذه السرعة كيف؟ قالوا: لأنه هو كلّ يوم يعد طعامًا للضيوف، هو هكذا كريم، ما يرد أحد، والناس يأتون إليه يمرون عليه يعرفون، فهو كان مجهز هذا الشيء، فلما جاءت الملائكة ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: 69]، العجل هو صغير البقر، وحنيذ، في سورة الذاريات قال: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: 26]، وهنا قال: ﴿حَنِيذٍ﴾ [هود: 69]، يعني هو سمين من حيث البدن، من حيث البدن سمين طيب، ومن حيث الطبخ حنيذ يعني محنوذ يعني مطبوخ على حجارة، فطبخ على حجارة وأتى به.

وفي سورة الذاريات قال: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: 27]، هذا الذي ينبغي عند إكرام الضيوف، أن تأتي بالطعام بين أيديهم، ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: 27]، لا أن تقول: قوموا، وادخلوا، وتفضلوا، هذه عادة تغيرت، الأصل مثلما ذكر، قال: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: 27].

قال: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: 27]، وهنا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ [هود: 70]، ما أكلوا، لماذا ما أكلوا؟ لأنهم ملائكة، والملائكة ما تأكل ولا تشرب، ولا تتزوج، ولا تنام، يسبحون الليل والنهار، يشتغلون بالطاعة، خُلقوا للطاعة.

الإنسان هنا الآن المؤمن إذا دخل الجنة ما ينام، ما في نوم في الجنة، ولا في تعب ولا إرهاق ولا شيء، فهؤلاء الملائكة هكذا خلقهم الله.

قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ [هود: 70]، خاف منهم، تعرف الضيف إذا جاء عندك وأكرمته وأكل ما يعتدي عليك، فإذا رأيته لا يأكل خفت منه أن يعتدي، لذلك خاف منهم.

قال: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: 70]، أنكرهم قال: كيف تفعلوا ذلك وأنا قد أكرمتكم؟

قال: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: 70]، خاف منهم، ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [هود: 70]، لما رأوه خائفًا قالوا: لا تخف، طمأنوه، نحن رسل، ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 70]، عرف أنهم ملائكة، جاؤوا بصورة رجال، ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 70]، نحن جئنا إلى قوم لوط لإهلا كهم، وأما أنت مررنا عليك مرور لنبشرك بهذه البشرى فقط، وإلا مرورنا متوجه إلى قوم لوط.

قال: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ [هود: 71]، امرأته سارة قائمة، قائمة تخدم الضيوف، أو قائمة من وراء الستر، أو قائمة في بيتها، المهم أنها قائمة وتسمع؛ لأن البيوت صغيرة ومتقاربة تسمع الكلام، فهي سمعت ﴿فَضَحِكَتْ﴾ [هود: 71]، ضحكت لماذا؟ لأن الملائكة بشرت بولد، فضحكت مسرورة.

أو أنها ضحكت لما علمت أنهم جاؤوا إلى أهلاك هؤلاء القوم الفساق المفسدين في الأرض، والمسلم يفرح بهلاك الطغاة، ويفرح بهلاك المفسدين في الأرض، ففرحت فضحكت، فلما ضحكت بشروها البشارة الحقيقة.

في الأول قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى﴾ [هود: 69]، ثم بشروها، ﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾ [هود: 71]، يعني هم كلموها مباشرة، في الأول كانوا يتحدثون مع إبراهيم، الآن خاطبوها.

قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾ [هود: 71]، بشرتها الملائكة، ﴿بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: 71]، ابن، يرزقون بإسحاق، وخذ زيادة، ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71]، يعني يعقوب ابن إسحاق، يعني حفيد لإبراهيم، وحفيد لزوجته، يعني عجبًا، امرأة كبيرة بلغت من العمر ما بلغت حتى قال بعضهم: إنها بلغت التسعين، وإبراهيم قارب المائة، ثم تأتي الملائكة تبشر بأن تحمل زوجته، ويرزق بطفل، ثم يكبر، يم يتزوج، ثم يرزق بطفل آخر حفيد، هذا شيء عجيب، وليس على الله شيء عجيب.

قال: ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَى﴾ [هود: 72]، تعجبت واستنكرت، وتفجعت لهذا الشيء، هذا غريب، يعني في النساء ما يمكن أن يحصل هذا الشيء، ﴿قَالَتْ يَاوَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: 72]، أنا الآن طعنت في السن، وأصبح ما عندي قدرة على الحمل، ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي﴾ [هود: 72]، يعني زوجي إبراهيم ﴿شَيْخًا﴾ [هود: 72]، يعني كبير في السن، ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: 72]، تعجبت المرأة ما يمكن.

في سورة الذاريات قال: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: 29]، في صيحة لما سمعت، ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات: 29]، لطمت وجهها من شدة التعجب كما تفعل النساء، ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: 29].

ثلاثة أشياء:

أولًا: أنها عقيم ما تحمل.

ثانيًا: أنها عجوز

ثالثًا: بعلها شيخ.

ثلاثة موانع، تعجبت والملائكة ردت عليها، ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: 73]، ما أحد يتعجب من أمر الله، أمر الله فوق كلّ شيء، يقول للشيء كن فيكون، ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: 73]، أنت في بيت نبوة، وتحت نبي، وخليل، فما يمكن أن تتعجبين وأنت ترين الآيات العظيمة، الآيات التي تنزل عليكم، ما تتعجبين، الذي يتعجب هو البعيد عن هذه الأشياء، أما بيت النبوة ما يتعجب.

قال: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: 73]، يعني أن رحمة الله نزلت عليكم في بيتكم وأنت بيت النبوة، وبركاته خيره الكثير ينزل عليكم، فلا تستغربين ولا تتعجبين من أن ترزقين ولد في هذه السن.

قال: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: 73]، الله حميد يعني محمود على أفعال، يُحمد ويُشكر على أفعاله، ومجيد أي خيره وافر كثير.

قال: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ﴾ [هود: 74]، خلاص اطمئن ذهب الخوف، وعرف الآن حقيقتهم، وعرف أنهم ملائكة، وجاءوا بالبشرى، ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾ [هود: 74]، واطمئن، بدأ يناقش، لماذا جئتم؟ قالوا: جئنا إلى قوم لوط، قال: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 74]، قالوا: نحن جئنا لإهلاك قوم لوط؛ لأنهم قوم فسقة وظلمة، ولم يقبلوا دعوة نبيهم، وقد دعا عليهم نبيهم، قال: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: 30]، فجاءت الملائكة تنصره.

قال: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: 74]، إبراهيم يجادل يقول: لعلكم تنتظرون، لعل كذا، ما يريد أن يهلكوا يرجوا منهم أن يتوبوا.

قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 75]، حليم عنده حلم، وعدم تعجل، وصبر، وعدم استعجال، صفة طيبة، يمدحه الله بها، يمدح إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 75].

أواه أي كثير التأوه، والتوجع، والبكاء، والانكسار بين يدي الله، كثير الدعاء، فهو صاحب ابتهال إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، كثير الدعاء، وهذه صفة أيضًا طيبة.

قال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 75]، منيب كثير الرجوع إلى الله، الذي ينيب يرجع إلى الله كثيرًا، كلما حصل بعد عن الله رجع واستغفر وتاب وأكثر من ذكر الله، فانظر إلى الصفات التي وصف الله بها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 75].

ثم قالت الملائكة: ﴿يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ [هود: 76]، لا تجادلنا، خلاص، الأمر تحتم من الله، لابد من هلاكهم في ساعة محددة، ما عاد في نقاش، ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: 76]، بهلاكهم، ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: 76]، ما أحد يستطيع أن يرده لا أنت ولا غيرك.

قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ [هود: 77]، الآن خلاص خرجوا من عند إبراهيم وتوجوها إلى لوط، ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ [هود: 77]، وصلوا إليه، وصلوا بأي صورة؟ هم كانوا عند إبراهيم في صورة رجال، لما ذهبوا إلى لوط ذهبوا بصورة شباب مُرد، في أجمل صورة الشباب، لماذا؟ لفتنة هؤلاء، لأنهم هم يبحثون عن الشباب، فهم أهل لواط، فأراد الله أن يمتحنهم أشد.

قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: 77]، ساءه، لوط ما يريد شباب يأتون عنده وهو مع قومٍ هكذا، وضاق صدره، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: 77]، الذرع يعني السعة، ضاقت الأرض بما رحبت، لما جاءوا ودخلوا عليه ضيوف ثلاثة أو أكثر، ما عاد يتحمل، القوم لو علموا سيدخلون عليه ويأخذون الضيوف منه، فضاق صدره.

قال: ﴿وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: 77]، شديد علي ماذا أصنع؟ أدخلهم وأغلق الباب عليهم، وقيل: إن امرأته الكافرة امرأة لوط ذهبت وأخبرت القوم، قالت: عند لوط ضيوف وشباب في أحسن صورة، فجاءوا إليه.

قال: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: 78]، يهرعون يعني مسرعين، ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: 78]، يعملون الفواحش فاحشة اللواط.

قال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [هود: 78]، يقصد بنات القوم، بنات القرية، لأن النبي بمنزلة الأب، يقول: هؤلاء البنات عندكم تزوجوا منهم، أما ضيفي قدروهم واحترموهم، ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: 78]، أطهر مما تفعلون.

ثم قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [هود: 78]، خافوا من الله، ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: 78]، لا تفضحوني عند الضيوف، عندي ضيوف، ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: 78]، عاقل منكم يدفعكم، ما في أحد منكم عاقل؟ ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: 78].

قال: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: 79]، ما نريد البنات، ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: 79]، نريد هؤلاء الضيوف.

قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: 80]، والله لو عندي قوة، ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: 80]، عندي قبيلة قوية تمنعني، أو رهط يمنعني، ما عندي إلا قوة الله، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«رحم الله لوط كان يأوي إلى ركن شديد»**، يعني إلى الله، وهو يريد أن يستعين بعد الله بهؤلاء القوم، أو أحد ينصره.

فلما اشتد الأمر عليه وحاولوا كسر الباب والدخول عليه، أخبرته الملائكة قالوا: ﴿قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: 81]، نحن رسل ما يستطيعوا أن يأتوا إلينا، ولن يصلوا إليك،

ولذلك خرج جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من الباب وطمس أعينهم، في سورة القمر قال: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: 37]، طمس أعينهم بدؤوا يتخبطون في الجدران ويتوعدون لوط، كلهم طمست أعينهم، وفروا هاربين.

قال: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: 81]، اخرج بليل، بقطع من الليل، بشدة من الليل، إذا انتصف الليل أو زاد اخرج بأهلك، ما معه إلا بناته المؤمنات، ما معه أحد، حتى زوجته كافرة.

قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ [هود: 81]، قالوا: اسري بأهلك إلا امرأتك لا تخرج معكم، ولا يلتفت منكم أحد، وإذا التفتم الأمر خطير، الديار ستقلب عليهم، وإذا التفتم قد يصيبكم ما يصيبهم، فاحذر، إلا امرأتك ستبقى معهم، في سورة أخرى قال: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: 83]، قال: ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: 81]، سيصيبها العذاب مثلما يصيبهم.

بعض المفسرين يقول: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: 81]، أي لا يلتفت برقبته، يعني لا يلتفت إلى الخلف.

وبعضهم يقول: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: 81]، أي لا يتخلف، لا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك تبقى، يعني محتمل هذا وهذا.

ثم قالت الملائكة: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: 81]، الصبح موعدهم، كما قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: 73].

قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ [هود: 81]، إذا جاء وقت الصباح سينزل بهم العذاب، انتظر فقط هذه الساعات المعدودة، ولذلك قالوا له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: 81]، لماذا أنت مستعجل؟ انتظر الصبح قريب، فاخرج أنت الآن واذهب، فخرج وسرى بأهله بالليل، وغادر وترك بلدهم، فماذا جرى لقوم لوط؟

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: 82]، أي العذاب، ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82]، قُلبت عليهم الديار، سبع قرى رفعها جبريل من الأرض إلى السماء حتى سمعت ملائكة السماء صياح الديكة، ونباح الكلاب، ثم قلبت عليهم رأسًا على عقب، قُلبت عليهم ديارهم، فانظر قوة الله وعذابه الشديد، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102].

قال: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82]، هل انتهى الأمر؟ لا، قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [هود: 82]، في سورة الذاريات قال: ﴿حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: 33]، طين مطبوخ، سجيل شديد الحرارة، إذا القي على الشخص أحرقه.

قال: ﴿مُسَوَّمَةً﴾ [هود: 83]، مُعلمة، كلّ واحد مكتوب عليها اسمه، معلمة، لو ذهب يمين، شمال، اختفى في أي مكان ينزل عليه الحجر.

قال: ﴿مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ [هود: 82]، متتابع، ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: 83]، أي هذه الحجارة مسومة معلمة عند الله، ما هي عند أي شخص.

بعدما أهلكهم الله بقلب الديار، وإتباعهم بالحجارة، وماتوا وانتهوا، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هذه العقوبة ليست خاصة بقوم لوط، لا تظن أنها خاصة بقوم لوط، كلّ من فعل فعلتهم عوقب، عوقب إما في الدنيا أو في الآخرة، سيصيبهم مثل ما أصابهم، اسمع ما يقول الله.

قال: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 83]، الذين يفعلون فعلهم، ﴿بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 83]، ليست بعيدة ممن يفعل أفعالهم.

هذه القصة سمعناها، وقصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ خليل الله، وكيف كان بهذه الصفات صفة الكرم، وصفة الحلم، وأنه أواه، وأنه منيب، وأن الله أكرمه بزيارة الملائكة إليه، وكيف أكرمهم، وبشروه أكرمه الله بالبشارة، بالذرية الطيبة، ولذلك سمي بـــ **"أبو الأنبياء"** هو أبو الأنبياء، أكثر الأنبياء يرجعون إلى إبراهيم، فرزقه، الله بالذرية الطيبة، وامرأة صالحة، وهي امرأته سارة، ورزق أيضًا بهاجر، وإسماعيل أبو العرب، وانظر إلى الآيات كيف تبين مآثر إبراهيم وما تميز به في هذا البيت العظيم، ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: 73].

ثم انظر ماذا جرى للوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصبره، وتحمله، وأيضًا ما أصاب قومه لما بقوا على كفرهم وعنادهم، واستكبارهم، وفعلهم هذه الفواحش التي لم يسبق بها أحد من العالمين، ما سبقهم أحد أن فعل هذه الفعلة أبدًا، حتى قال أحد أمراء بني أمية: **"والله لولا أن الله ذكر لنا قوم لوط ما أتصور أن رجل يعلو رجل أبدًا"** الحيوانات ما تفعله ولا الطيور، مستحيل أن تجد حيوان ذكر يعلو ذكر أبدًا، هذه فطرة ما يقبلونها، وهؤلاء يفعلون هذا الشذوذ الذي لا تقبله النفوس.

يقول: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: 78]، وأنتم تذهبون إلى النجاسات؟ أين عقولكم ما فيكم رجل عاقل؟!!

هذه القصة فيها عبرة، وفيها دروس، وفيها عظة، أسأل الله أن ينفعنا بها، وأن يبارك لنا، بارك الله فيكم وجزآكم الله خيرًا، نلقاكم على خير.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(203)
(هود 83 - 95)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، يوم الأربعاء الموافق للسادس عشر من شهر ربيع الآخر من عام 1447 من الهجرة.

نجلس هذا المجلس المبارك ونسأل الله أن يجعله مجلسًا مباركًا تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين في هذا المجلس عنده في الملأ الأعلى بالذكر الحسن.

نجلس هذه الدقائق المعدودة نسأل الله أن ينفعنا بها، نقرأ آيات من كتاب الله ونبينها ونتدبرها كما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: 82].

لا زلنا في **"سورة هود"** وفي قصص الأمم الماضية، وهذه القصة التي بين أيدينا هي القصة السادسة من قصص هذه السورة، وهي تتحدث عن قصة نبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- شعيب عربي من العرب العاربة، الأنبياء العرب هم:
- هود عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي أرسله الله إلى عاد في جنوب الجزيرة العربية.
- وصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسله الله إلى قوم ثمود في الشمال الغربي من الجزيرة العربية.
- وشعيب أيضًا في الشمال الغربي أرسله الله إلى أهل مدين.
- محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد الأولين والآخرين، وأشرف الأنبياء والمرسلين عربي أرسله الله إلى الناس كافة.

شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسله الله إلى مدين، وأحيانًا يذكر القرآن يقول: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: 85]، وأحيانًا يقول: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ 176 إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: 176، 177]، شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسل إلى أهل مدينة وهم أصحاب الأيكة،

✍ ما معنى الأيكة؟

هي: شجرة كانت بلادهم كثيرة الأشجار، وكان هناك شجرة عظيمة يعظمونها ويتبركون بها، ثم بدؤوا يعبدونها، فقال الله عنهم: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ [الشعراء: 176].

بعض المفسرين يقول: إن شعيبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسله الله إلى قبيلتين، متجاورتين، الأولى تسمى مدين، والثانية تسمى أصحاب الأيكة، ولكن الكثير على أنها هي بلدة واحدة.

✍ أين تقع مدين الآن؟

نحن عرفنا أن عاد في جنوب الجزيرة العربية، في بلاد الأحقاف معروفة، قريبة من حضر موت، وثمود في الشمال الغربي التي تسمى الآن ببلاد العلا، هي مدائن صالح.

وفوقها بقليل مدين، تسمى ببلاد البدع، على حدود المملكة مع الأردن، وهي موجودة الآن، وفيها آثار.

هذه البلدة كان أهلها كانوا على طريق الشام الآتي إلى الحجار؛ والذي يذهب من الحجاز على الشام يمرون بها، وهي معروفة، فكانوا يعيشون في رغد من العيش، وكانوا في أمن، وخير، وعافية، وتجارات عظيمة عندهم، ولكنهم عبدوا الأصنام، وعبدوا الأيكة، وأشركوا بالله.

فأرسل الله برحمته جَلَّ جَلَالُهُ رسولًا إليهم اسمه شعيب، وشعيب كان من أبلغ الأنبياء في المحاورة وفي المجادلة؛ حتى قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه: **«إنه خطيب الأنبياء»**، من حسن محاورته، وحسن مناقشته لقومه.

بُعث فيهم، فدعاهم إلى التوحيد، وإلى عبادة الله وأن يوفوا بالمكاييل والموازين التي تجارتهم، ولا يبخسوا الناس أشياءهم، ولكنهم لم يقبلوا دعوته، وردوا دعوته، وحاولوا أخراجه مرة، ومرة حاولوا قتله، قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾ [الأعراف: 88]، وهنا يقول: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91].

وكل هذا هو يدعوهم إلى أن ينقذهم الله من النار، ومع ذلك لم يستجيبوا، وأصروا على كفرهم وعنادهم.

الله حكى قصتهم في **"سورة الأعراف"**، وهنا في **"سورة هود"**، وأيضًا في **"سورة الشعراء"** وفي **"العنكبوت"** وفي غيرها من سور القرآن.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: 84]، مدين هذه هي اسم لجد لهم يسمى **"مدين"** فسميت هذه القرية أو هذه القبيلة **"مدين"** ومدين هذه هي التي ذهب إليها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: 23].

هذه مدين قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [هود: 84]، يعني أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيب، هو أخوهم بالنسب لا بالدين، هو مسلم مؤمن نبي، وهم كفار، فإذا سمعت **"أخاهم"** يعني بالنسب، لأنه ينتسب إليهم.

فلما أرسله الله ماذا قال؟ قال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: 84]، كلّ الأنبياء اتفقوا على أن يقولوا لأممهم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

كلهم متفقين على اعبدوا الله، يعني هو الذي يستحق العبادة، اعبدوه، وادعوه، ولا تشركوا به شيئًا، ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: 84].

قال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: 84]، لأنهم كانوا أهل تجارات، وكانوا ينقصون ويبخسون الناس، فقال: لا تنقصوا، لا يجوز، الذي يشتري منك تنقص الكيل والميزان.

✍ الكيل والميزان ما الفرق بينهما؟

نقول: الكيل هو الصاع الذي يكال فيه، غالبًا يكال فيه مثلاً الطحين، والقمح، والشعير، هذه تكال بالمكيال بالصاع، والوازين هو الميزان الذي له كفتان، توضع فيه الأشياء الأخرى.

قال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: 84]، لا تنقصوا الناس لا تبخسوهم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل سورة توعد فيها من ينقص المكاييل والموازين، فقال: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ 1 الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ 2 وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 1 - 3].

وهنا يقول: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: 84]، ثم ذكرهم قال: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود: 84]، أنتم بنعمة، صحة، وعافية، ومال، وأمن، تذكروا نعمة الله عليكم، ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود: 84].

وهنا يجب أن نقف عند هذه، الناس إذا كانوا بخير، وبأمن، وصحة، وعافية، ومال، ثم أسرفوا على أنفسهم بالذنوب والمعاصي كما فعل أهل مدين، سلط الله عليهم، وانتقم منهم، وأنزل بهم العقوبات وهم لا يشعرون، فإذا كنت في نعمة فارعها؛ فإن المعاصي تزيل النعم.

يقول: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود: 84]، أنتم بخير الآن، ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: 84]، محيط كيف؟ أنهم سيحيط بهم، ما يمكن أحد يستطيع أن يفر، يريد أن يخرج ما يستطيع، العذاب يحيط بك خلاص ما لك مفر، ولا مهرب، ولا اختفاء.

ذكرهم نعمة الله عليهم، وأنهم بخير، ثم خوفهم، قال: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: 84]، أخاف عليكم من العذاب إلى كفرتم واستمررتم.

ثم عاد مرة ثانية إلى المكاييل والموازين؛ فقال: ﴿وَيَاقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: 85]، الأول قال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ﴾ [هود: 84]، ثم الآن أمرهم؛ فقال: ﴿أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود: 85]، والعدل، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [هود: 85]، لا تبخسوهم حقوقهم، تبخسوا الناس حقوقهم تنقصونها.

قال: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: 85]، العثو أو العثي هو الإفساد.

نقول: لا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، أصلحوا ولا تفسدوا، ثم بعدما نهاهم ذكرهم أيضًا بأمر آخر، فقال: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 86]، بقية الله يعني ما يبقيه الله لكم من المال الحلال خير من أن يدخله حرام، إذا بخستم الناس أشيائهم وسرقتم من حقوقهم دخل الحرام على الحلال فأفسده.

فيقول: يكفيكم ما أحل الله لكم، ما تأخذون من الحرام، وهذا أيضًا يجب أن نقف عنده، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا أعطاك رزقك حلالًا فاحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واشكره على هذا الحلال، ولا تفسده بالحرام، المعاملات المحرمة أي معاملة محرمة ابتعد عنها، إذا دخل الحرام على الحلال أفسده، وذهبت بركته.

فهو يقول لهم: يكفيكم الحلال، ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 86]، ما أباحه الله لكم، وأحله لكم خيرٌ لكم من أن تأخذوا شيئًا قد حرم الله عليكم.

قال: ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 86]، مؤمنين مصدقين بدعوتي فاقبلوا هذا الكلام، ولكن قال: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: 86]، أنا ما أحفظ أموالكم، ولا أحفظ معاملاتكم، ما أحفظ أعمالكم، هذه يحفظها الله، أنا مجرد رسول أبلغكم رسالات ربي.

✍ فماذا تتوقع كيف يكون رد قومه؟ هل فرحوا بدعوته، واستبشروا، وأطاعوه وقالوا: سمعًا وطاعة، ولا ماذا كان موقفهم؟

موقفهم مثل موقف الأمم الماضية، والله ماذا يقول؟ يقول: ﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: 30]، عجبًا لبني آدم، الكثير من الناس بها قسوة في القلب، ما أدري ما هو السبب؟ يعني كثرة الذنوب والمعاصي تقسي القلب، خلاص تأتيك مثل هذه الأشياء، يأتيك نذير يحذرك يخوفك من العذاب، ولا يبالون، ولا يستجيبون، ولا شيء.

هم قالوا ردًا عليه: ﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: 87]، يستهزئون ويسخرون، يقولون: أنت الآن جالس تصلي، وتكثير من الصلاة؛ لأنه كان كثير الصلاة، كثير ما يصلي.

فقالوا: يا شعيب الآن أن تصلي كثيرًا، هذه صلاتك التي أنت تصليها هي تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا، يعني تريد أن نترك ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام، والآلهة، ونأتي نعبد إلهك وحدك، ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: 87]، تريد أن نترك أيضًا تصرفاتنا في أموالنا، نتصرف فيها كيف نشاء، هذه أموالنا.

يسخرون ويستهزئون، مثلما يقول بعض الناس، يقولون: عبادتك، وطاعتك، ودينك، وصلاتك، تفعل لك كذا؟ فيستهزئون ويسخرون.

قال: ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]، هذه أيضًا سخرية واستهزاء، يقولون: ما شاء الله عليك، حليم، ورشيد، وتقول هذا الكلام، وصلاتك تأمرك، يعني على الأقل إذا لم يقبلوا دعوته لا يستهزئون بنبيهم، الاستهزاء بنبيهم ستكون العقوبة أشد، قالوا: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]، يعني أنت الحليم صاحب الحلم، والأناة، والتؤدة، وعدم التعجل، رشيد بعقلك، يعني هم يقصدون أنك لا عندك حلم، ولا عندك رشد؛ بل أنت سفيه جاهل، مثلما قال قوم هود لهود، قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: 66]، فيستهزئون.

قال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ﴾ [هود: 88]، رد عليهم، ما تركهم، فهو يحاورهم، ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ [هود: 88]، أنتم تقولون: صلاتك، وتقولون: حليم رشيد، أرأيتم، أخبروني، ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ [هود: 88]، يعني أنا على وحي ورسالة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: 88]، أعطاني مالًا طيبًا حسنًا ليس فيه حرام ولا بخص لأموال الناس.

ثم قال: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: 88]، ما أريد أن أنهاكم عن شيء وأفعله، أنا لما أنهاكم عن شيء فأنا أنهي نفسي، وإذا أمرتكم بشيء الأول أبدأ بنفسي، فأنا ما أريد أن أخالفكم أبدًا، فأنا معكم.

قال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ [هود: 88]، دعوتي كلها وتذكيري لكم، قصدي الإصلاح، أريد أن أصلح لكم، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: 88]، أنا أحاول أن أصلح على قدر استطاعتي.

ثم قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: 88]، الموفق هو الله وأنا أدعوكم وأستمر في دعوتي وتوفيقي بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يوفق من يشاء من عباده.

قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود: 88]، فوضت أمري إلى الله، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]، أرجع إلى ربي دائمًا وأتوكل، وأفوض أمري إلى الله، وأعلم أن الله هو الذي يجلب لي الخير، ويأتيني بالخير ويصرف عني الشر.

عبارات نبي يوحي إليه، وهم يقولون: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: 87]، ويستهزئون، انظروا إلى كلامه، يقول: الله رزقني رزقًا حسنًا، وأنا لا أريد أن أخالفكم في كلّ ما أنهاكم عنه أو آمركم، وما قصدي إلا الإصلاح لكم والنصح لكم، وتوفيقي بيد الله، لا أملك شيئًا ألا أن يوفقني الله للدعوة، وأنا متوكل على رب العالمين وراجع إلى ربي في كلّ وقت.

ثم أيضًا ذكرهم قال: ﴿وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ [هود: 89]، يعني لا يحملنكم شقاقي يعني لما تخالفوني أنتم ولا توافقونني هذا لا يحملكم على المخالفة في هذا الأمر، فقد يصيبكم ما أصاب الأمم الماضية.

أنتم لا تخالفونني، ولا تكون مخالفتكم سببًا في نزول العقوبة عليكم، لا تخالفونني في دعوتي، فمخالفتكم ستكون سببًا في نزول العقوبة عليكم.

قال: ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ [هود: 89]، يذكرهم بالأمم الماضية، ﴿قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89].

ذكر أبع أمم ماضية، قوم نوح، وهود، وصالح، ثم قال: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: 89]، ليسوا بعيد في المسافة، وليسوا بعيد أيضًا في الزمن، لوط جاء بعده شعيب مباشرة.

يقول: أنتم تذكرون قوم لوط ماذا أصابهم؟ قلع الله ديارهم، ورفعها إلى السماء وقلبها، وأتبعهم الحجارة، وأنتم تعلمون، فلا يصيبكم ما أصابهم.

ثم أمرهم بالرجوع إلى الله، قال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: 90]، استغفروه عما مضى من الذنوب والمعاصي، وتوبوا على أن لا تعودوا إلى الشرك والكفر والمعاصي، ارجعوا

إلى ربكم، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ [هود: 90]، رحيم بمن يتوب، ﴿وَدُودٌ﴾ [هود: 90]، يحب التائبين، الودود الذي يحب التائبين، والتائبون يحبون ربهم؛ لأنهم يتوبون إليه، انظر إلى كلمة ودود لم ترد في القرآن إلا في هذا الموضع وفي سورة البروج.

قال: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ﴾ [هود: 90]، يرحم من يتوب إليه، ويقبل توبته، ﴿وَدُودٌ﴾ [هود: 90]، وودود يحب التائبين.

رجعوا مرة أخرى إلى عنادهم، وكفرهم، إسرافهم، قال: ﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ [هود: 91]، ما ندري ماذا تقول؟ ما نفقه، هم ما يفهمون لماذا؟ لأن قلوبهم منغلقة، لا يريدوا، لا يريد أن يسمع، ولا يريد أن يفقه.

قال: ﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ [هود: 91]، ثم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: 91]، أنت يا شعيب ضعيف عندنا، ما لك قيمة، ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ [هود: 91]، جماعتك ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: 91]، رجمناك بالحجارة وقتلناك، لكن من أجل جماعتك فما ودنا أن يكون مثل هذا الموقف، يعني جماعتك ورهطك معنا ولم يؤمنوا كلهم وكانوا معنا، فنحن تقديرًا لجماعتك ورهطك لا نريد أن نصيبك بسوء، مثلما كان أهل مكة يقولون للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لولا عمك أبو طالب لقتلناك لكن تقديرًا لعمك، وهؤلاء نفس الشيء.

قال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: 91]، ما لك عندنا قيمة أبدًا، لست عزيزًا علينا.

فرد عليهم، انظروا إلى قوة النقاش فهو نبي يوحى إليه، قال: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: 92]، أنتم الآن تقدرون وتعظمون جماعتي ولا تعظمون الله، الله أولى، ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: 92]، جعلتم الله وعبادته وراءكم لا تلتفتون إليها ولا تعبدونه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: 92].

في الأول يقول: ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: 90]، يذكرهم بالتوبة، الآن لما رأى هذا موقفهم أنهم يريدون قتله، الرجم هي أشنع القتلات يعني يقيدونه بالحبال ثم يرمونه بالحجارة حتى يموت، هذه أشنع قتلة.

فقال لهم: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: 92]، قد أحاط بكم، وينزل العذاب بكم، ﴿وَيَاقَوْمِ﴾ [هود: 93]، إذا كنتم أنت الآن مصرين على عنادكم وكفركم، ولا تريدا أن تقبلوا من نبيكم أبدًا ، ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ [هود: 93]، اجلسوا على ما أنتم عليه على كفركم، وعلى عنادكم، ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ [هود: 93]، أنتم اعملوا وأنا عامل، أنتم تعملون على كفركم وعنادكم ومحاربتكم للدعوة والصد عنها، وأنا أعمل أيضًا على دعوتي وأستمر.

قال: ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [هود: 93]، سوف بدون فاء في هذا الموضع؛ لأنها لم تكن جملة شرطية، أما في مواضع أخرى مثل سورة الأنعام، وسورة الزمر جاءت ﴿فَسَوْفَ﴾ [الزمر: 39]، لأنها شرطية.

قال: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود: 93]، تهديد لهم، ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود: 93]، يعني يفضحه ويذله، ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ [هود: 93]، أنا أو أنتم، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ [هود: 93]، هددهم، ﴿وَارْتَقِبُوا﴾ [هود: 93]، أيام قليلة، ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: 93]، أنا أرتقب هلالكم، وأنتم ارتقبوا ماذا يصيبني من النجاة؟ وماذا يصيبكم من العذاب؟

وانتهى الأمر، وانتهت دعوته ورسالاته خلاص، ترك، ما عاد ينفع معهم، حاول فيهم، ودعاهم، ورغبهم، وهددهم، وخوفهم،ولم يقبلوا منه أبدًا، فأوحى الله إليه أن يخرج هو ومن آمن معه، أوحى الله إلى شعيب أن يخرج من القرية هو من آمن معه، ويتركهم؛ لأنه سيصيبهم العذاب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: 94]، نجاه الله، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: 94]، لأنه في طائفة آمنت معه، ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: 94]، نجاهم برحمة وإلا كان أصابهم فالعذاب عام، لكن الله صرف العذاب عنهم برحمته.

قال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: 94]، صاح بهم جبريل فماتوا جميعًا، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: 94]، ميتين هامدين لا يتحركون.

هنا يقول: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: 94]، وفي سورة الأعراف قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: 78]، هزت بهم الأرض رجفة، زلزلة، في سورة الشعراء قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: 189]، كلّ هذا سلطه الله عليهم، ثلاثة أنواع من العذاب.

رجفت بهم الأرض، وصاح بهم جبريل، ونزل عذاب يوم الظلة، هذه سحابة فيها نهار، لما وصلت إليهم أنزل الله هذه النار عليهم فأهلكهم جميعًا، لم يبق منهم أحد.

قال الله هنا: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: 95]، كأنهم ما عاشوا، كأن ما مرت بهم أيام فيها رخاء، وفيها خير، وفيها نعم، ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: 95]، ولو لحظة.

قال: ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ [هود: 95]، أي هلاكًا ﴿لِمَدْيَنَ﴾ [هود: 95]، أهلكها الله، تستحق الهلاك، ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: 95]، كما أهلك الله ثمود التي قريبة منها أهلك الله هؤلاء، وهؤلاء كلهم لا يبالي الله بهم أبدًا، إذا عصوا رسله، وكفروا، وأشركوا، ولم يقبلوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يأبه بهم؛ بل ينزل بهم العذاب.

وسيأتيك قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ 102 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: 102، 103].

لكن الناس لا يبالون، ويعصون رب العالمين، ويقعون في الحرام، ولا يبالون، ولا يدرون إلا وقد نزلت بهم العقوبات، ولا تظن أنه ينزل عذاب عام، قد ينزل عذاب عام، وقد ينزل عذاب لنفس الشخص، ما تدري إلا وأصابه عقوبة، إما أن يذهب ماله، أو تذهب صحته، أو يقبض الله روحه وهو على معصية، فعقوبات الله متنوعة، نسأل الله أن يعفو عنا، وأن يحرمنا، وأن يتقبل منا.

هذه قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي من أنبياء الله، حكاه الله لنا في هذه الآيات، لنتعظ، ونعتبر، ونرى أن الله ينجي عباده المتقين الصالحين المؤمنين الذين يخافون الله، وأما الذين لا يبالون، ولا يخافون، ويرتكبون المعاصي؛ فإن الله لا يبالي بهم، ولا يلتفت إليهم، نسأل الله أن يحمينا وإياكم، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(204)
(هود 96 - 111)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم. هذا اليوم يوافق الثالث والعشرين من شهر، من شهر ربيع الآخر من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة. نجلس هذا المجلس المبارك وهذه الدقائق المعدودة؛ نسأل الله أن يتقبل منا هذا المجلس المبارك مع **(القرآن الكريم)** قراءةً، وتفسيراً، وبياناً، وكلها دقائق معدودة؛ نسأل الله أن يرفع لنا هذه الدقائق في موازين حسناتنا، وألا يحرمنا فضل هذه المجالس المباركة.

أيها الإخوة الكرام، لا زلنا في **(سورة هود)** عليه السلام، وعرض هذه القصص المباركة؛ قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم. السورة ذكرت سبعة قصص، أو سبع قصص؛ هذه القصص السبع ذكرها الله سبحانه وتعالى وبيّن أن هؤلاء الأقوام كانوا على فساد، وعلى شرك، وعلى كفر، وطغيان، واستكبار. وأرسل الله إليهم رسله المباركين بدعوتهم المباركة إلى التوحيد وعبادة الله؛ ولكن هؤلاء الأقوام أبوا إلا الكفر والعناد، ورد الدعوات، بل تطاولوا على أنبيائهم تارةً بالإخراج، وتارةً بالرجم، وتارةً بالإيذاء . والله سبحانه وتعالى هو أحكم الحاكمين؛ قضى فيهم بحكمه وعدله، فأهلك الطغاة المفسدين، وأنجى عباده المؤمنين.

القصة الأخيرة التي ساق الله سبحانه وتعالى في هذه السورة هي قصة موسى عليه السلام مع فرعون وماذا جرى لهم؛ هذه هي خاتمة القصص السبع.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: 96]

إذاً موسى عليه السلام رسول من عند الله، أرسله الله. هذا موسى، موسى بن عمران من بني إسرائيل، وتربى في بيت فرعون، ونشأ في بيته؛ ثم سبحانه وتعالى كلفه بالرسالة فأوحى إليه، وكلمه من جانب الطور الأيمن، وأوحى إليه وقال اذهب إلى فرعون إنه طغى.

قال الله سبحانه وتعالى هنا: ﴿وَلَقَدْ﴾؛ اللام هذه لام نسميها موطئة للقسم؛ أي التقدير: والله، الله يقسم يقول: والله لقد أرسلنا موسى. الذي أرسله هو الله، أرسله إلى فرعون وملئه بآياتنا. الله أعطاه الآيات: العصا، واليد، وغيرها من الآيات.

في سورة أخرى قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: 101]

قال هنا: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ يعني الحجة القوية الدامغة لهؤلاء. وموسى عليه السلام حاجّهم وجادلهم، ولم يستطيعوا أن يردوا عليه، حتى إن فرعون لما ما استطاع أن يرد عليه ماذا قال؟ قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: 29]؛ ما عنده حجة إلا استعمال القوة ما استطاع حتى السجن ما استطاع .

وقال في آية أخرى: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 26]

ما الذي منعك؟ أنت عندك جنود وتقتل وتذبح بني إسرائيل، لماذا لا تذبح هذا؟ واحد، هذا واحد ولم يستطع، لم يستطع؛ لماذا؟ لأن الله منعه من ذلك، ولا يستطيع.

قال هنا: ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ حجة قوية، إلى فرعون وملئه. فرعون هو، هو رأس الشرك والفساد في ذلك الوقت، وملؤه هم حاشيته وأتباعه الذين يحثونه على الشر والفساد. فأرسل الله موسى إليه، ودخل موسى في قصر فرعون ودعاه إلى التوحيد وعبادة الله، وأثبت له بالأدلة والآيات على أنه رسول؛ فلم يقبل الدعوة ولم يرضَ بذلك.

قال الله سبحانه وتعالى هنا: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: 97]

أي الملا اتبعوا أمر فرعون، ولكن أمره ليس برشيد؛ أمره أمر سفاهة وطيش واستكبار وعلو في الأرض، لم يكن أمره أمر رشد وعدل وثبات، ويعني إصلاح في، إصلاح في الأرض؛ لا، وإنما أمره أمر فساد. ولكن الملأ اتبعوه؛ ليش؟ اتبعوه لماذا؟ لأن لهم مصالح؛ مصالح من أموال، وجاه، ومناصب؛ فيتبعونه، يريدون هذه. فاتبع، فاتبعوا أمر فرعون. قال الله: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾؛ ليس بـ، يعني شيء فيه صلاح وفيه منفعة.

ثم قال سبحانه وتعالى مخبراً عما سيحصل لفرعون ومن معه يوم القيامة، فقال:

قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: 98]

﴿يَقْدُمُ﴾؛ يعني يتقدمهم، يعني هو أمامهم وهم، وهم خلفه، مثل ما لما دخل في البحر كان في مقدمتهم وهم اتبعوه، تبعوه في البحر. فلما دخلوا في البحر وتوسطوا فيه تلاطمت الأمواج عليهم، فغشيهم من اليم ما غشيهم. والآن، وهذا يخبر الله عن، عن حاله يوم القيامة؛ قال: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾. أوردهم النار؛ يعني أدخلهم النار، أوردهم معنى الورود هنا الدخول، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71]

يعني داخلها. قال: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾. بئس الدخول الذي سيدخلونه، يدخلون نار جهنم؛ ماذا سيواجهون من العذاب الحليم، العذاب الأليم؟ فقال: ﴿بِئْسَ الْوِرْدُ﴾؛ أي بئس هذا، هذا الدخول وهذا الورد، ﴿بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ﴾؛ اتبعوا في هذه، أي في هذه الدنيا؛ من هم؟ فرعون وملؤه، اتبعوا في هذه الدنيا لعنة، وهم من المقبوحين. واللعنة هي الطرد والإبعاد عن رحمة الله. فاتبعوا لعنة إلى يوم القيامة. قال: اتبعوا في الدنيا وفي الآخرة، قال: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ﴾؛ أي في الدنيا لعنة، ويوم القيامة أيضاً تتبعهم اللعنات في نار جهنم؛ يلعن بعضهم بعضاً، وتلعنهم الملائكة ويلعنهم اللاعنون .

قال تعالى: ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: 99]

ما معنى الرفد؟ يعني المعونة والمساعدة. يقول لك: أهل الرفادة في الحرم، أهل الرفادة يعني أهل المساعدة والمعونة والاحتفاء بالشيء والمعاونات ونحو ذلك. والله هنا يخبر يقول: هؤلاء القوم، فرعون وملؤه، بئس الرفد المرفود؛ بئس من يعين بعضهم على بعض، يعينهم على أي شيء؟ يتعاونون على أي شيء؟ على الكفر والفساد ومصيرهم إلى نار جهنم، فـ ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

بعد هذه القصة، قصة موسى وهي القصة السابعة في هذه السورة، تنتهي القصص، فيقول الله سبحانه بعد ذلك؛ تأتي التعليقات على هذه القصص التي مرت، والتعقيبات القرآنية على هذه القصص، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: 100]

وذلك الذي سمعتموه في القصص من قوم نوح إلى موسى؛ ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ﴾؛ أي هذه الأخبار التي سمعتموها هي أخبار القرى نقصه عليك. لا أحد يقصها إلا الله، الذي أخبر بهذه الأخبار الدقيقة؛ الأخبار الدقيقة، الصحيحة، السليمة، التي كلها حقائق، هذه الذي أخبر بها هو الله سبحانه وتعالى. لم يأتِ بها محمد من نفسه، ولم يتعلمها من أحد البشر؛ إنما هي وحي من الله سبحانه وتعالى. ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ﴾؛ أخبار الأمم الماضية ﴿نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾؛ الذي يقصه هو الله.

ولذلك شفت الآن بعد هذه السور تأتي **(سورة يوسف)**، والله يقول فيها ماذا؟

قال فيها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3]

إذاً من الذي يتكلم، من الذي يأتي بهذه الأخبار؟ هو الله. طيب، إذا علمنا أن هذه أخبار جاءت من الله يجب علينا الإيمان والتصديق بها. فقال: نقص عليك هذه الأنباء والأخبار والقرى التي يقصها الله علينا، قال: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾. ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾ ومنها ﴿حَصِيدٌ﴾؛ كيف قائم وحصيد؟ يقول: آثارها قائمة موجودة، مثل قوم ثمود؛ مدائن صالح موجودة، انظر اذهب وشوف بعينك؛ ﴿مِنْهَا قَائِمٌ﴾. ومنها ﴿حَصِيدٌ﴾؛ حُصِدَ بالعذاب مثل الأقوام الآخرين، قوم نوح وغيرهم، لم يبقَ لهم أي أثر؛ انتهى، حصيد، ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾؛ يعني محصود.

ثم يعقب سبحانه وتعالى يقول: هذه الأخبار التي ذكرناها لكم ما ظلمناهم، يقول: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: 101]

ما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم. الله سبحانه وتعالى ما يظلم أحداً، وما ربك بظلام؛ بعد أن خلقهم، ورزقهم، وأعطاهم السمع والأبصار، وأعطاهم النعم كلها، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل إليهم الكتب، ودعاهم إلى التوحيد وعبادة الله ومعصية الشيطان، لكن لم يقبلوا ذلك؛ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾. هم الذين ظلموا أنفسهم، وهم الذين يعني تسببوا في نزول العذاب؛ هم لم يقبلوا دعوة أنبيائهم ولكن ظلموا أنفسهم.

قال: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾؛ ما أغنت عنهم، ما نفعتهم آلهتهم. هل الآلهة التي كانوا يدعون من دون الله، آلهتهم التي يدعون من دون الله، ما أغنت عنهم من شيء لما جاء ربك، لما جاءهم العذاب؛ يعني لما أُغرق قوم نوح هل الآلهة نفعتهم نصرتهم وأُغرقت معهم، أو غيرهم من الأقوام الثانية؟ كلهم يدعون، ولا ما يدعون؟ هذه آلهة أصنام، أصنام مصنوعة من حجر أو من شجر ما فيها فائدة؛ ما أغنت عنهم آلهتهم. قال: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾، ونزلت العقوبات بهم. ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾؛ أي هذه الآلهة ما زادتهم إلا هلاك ودمار، ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾؛ ما زادتهم إلا غير التباب، والهلاك، والدمار، والخسارة، ما نفعتهم.

ثم سبحانه وتعالى أيضاً يتعقب ويحذر تحذيراً شديداً من الذنوب والمعاصي، وأنه لا هوادة عند الله أبداً، يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102]

هذه الآية قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على الصحابة، قال:

«إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»

ثم قرأ الآية: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾. إذا أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد. كذلك، مثل ما حصل لهؤلاء الأقوام؛ أخذ ربك إذا أخذ قرى، أي قرية من القرى، إذا أخذ قرى وهي ظالمة، وبقيت على ظلمها، إن أخذه أليم شديد. ولا تظن أن الأخذ الأليم الشديد أو العقوبة تنزل يعني تبيد الجميع؛ لا، قد تنزل عقوبات متنوعة، وأنت تشاهد الآن ما حولك من الدول المحيطة بك كيف الله سبحانه وتعالى عاقبهم بعقوبات شديدة؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ

شَدِيدٌ﴾. الخوف، والجوع، والفقر، والحروب؛ كلها بسبب ماذا؟ وهي ظالمة؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: 103]

إن في ذلك، أي في هذه القصص والمواعظ والتذكير، لآية؛ آية وعبرة يقف عندها العاقل، يقف عندها؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ . الذي يخاف عذاب الآخرة يستعد له، ويتجنب المعاصي، ويقبل على الطاعات؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾.

قال الله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي على ذلك الذي سيكون في الآخرة. ما هي الآخرة؟ قال: هذا هو اليوم الذي سيجمع الله فيه الأولين والآخرين؛ قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾. هذا اليوم سيجمع الله فيه الخلق جميعاً، لا يترك منهم أحداً، حتى الحيوانات، والطيور، والزواحف، والحشرات، والحيوانات المتوحشة؛ ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: 5]، والإنسان، كل مخلوق سيجمع في هذا، في هذا المكان؛ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾. سيشهده الأولون والآخرون، سيشهده الله عز وجل، وينزل سبحانه وتعالى، يأتي ربك للقضاء والفصل، وكذلك تنزل الملائكة؛ فهو مشهود، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ ويجمع الله فيه الناس ويشهدونه جميعاً.

قال: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: 104]

يعني لا تستعجل على هذا اليوم سيعود، سيأتي، سيأتي، لكن لم يأتِ وقته؛ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾. وهذا الأجل معدود ليس بالطويل، أجل معدود.

ثم قال سبحانه وتعالى في هذا اليوم العظيم، قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: 105]

إذا جاء هذا اليوم، هذا شديد عظيم، و﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: 111]؛ فيبعث الله الأولين، لا أحد، ما يتكلم إلا بإذنه؛ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، إلا بإذن الله، إذا أذن الله؛ ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: 38]، ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

ثم قال: في هذا اليوم الناس ينقسمون قسمين، لا ثالث؛ الإخوان قسمين، فريق في الجنة وفريق في السعير، قال هنا: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ﴾؛ أهل شقاوة وأهل النار، ﴿وَسَعِيدٌ﴾؛ أهل السعادة وأهل الجنة. طيب، ثم ماذا قال؟

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: 106]

الذي هو شقي في الدنيا شقي في الآخرة؛ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾. ما هو الزفير وما هو الشهيق؟ الزفير دفع النفس إلى الخارج، تزفر يعني تدفع نفسك إلى الخارج؛ والشهيق سحب الهواء إلى الرئتين. هذا ولذلك يقال، يقال إن الحمار أعزكم الله له زفير وشهيق إذا نهق؛ إذا، إذا الحمار عندما ينهق هكذا زفير وشهيق، يزفر يدفع الهواء بقوة على الخارج ويسحب الهواء . طيب، والنار؟ قال: النار لها زفير وشهيق؛ إذا زفرت النار زفرة واحدة أحرقت ما أمامها وأهلكت ما أمامه. فالنار تزفر بحرارتها الشديدة، وتسحب أيضاً بحرارة شديدة؛ وهذا الذي يقوله الله سبحانه وتعالى، يعني شوف في **(سورة الملك)** قال: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك: 7]

فالنار شديدة لا تتصورها أنت الآن، فالله يخبر وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾؛ هذا كله تخويف العباد، تصوير لهم بشيء ما يتصورونه من شدة العذاب.

ثم قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: 107]

من أهل النار الذين دخلوا النار سيخلدون فيها، باقون فيها على الأمد لا يمكن، لا، لن يخرجوا؛ ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِخَارِجِينَ﴾ [المائدة: 37]. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾؛ كيف ما دامت السماوات والأرض؟ هذا من باب التعليق على الأشياء التي لا يمكن أن تحصل، لا يمكن، مثل ما أقول لك أنا، يعني تدل على، تدل على الاستمرار وطول الأمد، مثل ما أقول لك، مثل ما نقول: "اللهم صل على نبينا محمد ما تعاقب الليل والنهار"؛ يعني تفيد ماذا؟ تفيد، تفيد الاستمرار، تفيد الاستمرار، ما تعاقب الليل والنهار. "اللهم صل على محمد ما غردت الأطواق"؛ يعني شيء طويل لا ينتهي . وقوله هنا: ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ تفيد ماذا؟ تفيد الاستمرار أنهم في نار جهنم خالدين فيها مدة لا تنتهي، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾؛ هذه إما قبل دخولهم، يعني ما فيها أحد خالية، أو أن الله يخرج العصاة الذين شاء الله أن يخرجهم، يخرجهم؛ من هم العصاة؟ من أهل التوحيد؛ فإن، فإن أهل التوحيد لا يخلدون فيها، أهل الكبائر والعصاة من، من أمة محمد أو غيرها إذا كانوا من أهل التوحيد في النار لا يخلدون، فيخرجون، يأخذون حقهم من العذاب ثم يخرجون. ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾؛ إذاً ما شاء ربك إما قبل دخولهم إلى النار، أو أنها بعد ذلك يخرج أهل التوحيد منها لا يبقى أحد في نار جهنم.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾؛ ﴿فَعَّالٌ﴾ صيغة مبالغة تفيد أن الله يفعل هذه الأشياء ولا يرده أحد، ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ بحكمته؛ بحكمته يفعل، وينتقم، ويقضي بحكمه.

هذه حال ماذا؟ حال الأشقياء. أما حال السعداء فماذا قال الله عنهم؟

قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: 108]

يعني أهل السعادة في الدنيا والآخرة؛ يعني السعادة أن الله منّ عليهم بالطاعة، أصبحوا أولياء، أهل الخير والصلاح، وأهل الصلاة، والصيام، وقراءة القرآن؛ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ . باقون في الجنة لا يخرجون منها؛ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً، ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾؛ يعني تفيد الاستمرار، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ مثل ما ذكرنا، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ على طريقة الاستمرار، أو على قبل دخولهم الجنة لأنها ليس فيها أحد. قال: ذلك الذي يحصل لأهل السعادة ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾؛ وهذا العطاء في جنات النعيم غير مجذوذ، غير منقطع؛ عطاؤهم في النعيم وبقاؤهم في الجنة وما فيها من الطعام، والشراب، ولذة الحياة الأبدية، هذا عطاء لا ينقطع أبداً.

فهذا مصير الخلق يوم القيامة؛ الله ذكر لنا مصير الأشقياء الدنيا بالعذاب الأليم الذي نزل بهؤلاء الأقوام، ثم ذكر لنا مصير الخلق يوم القيامة ما بين أهل السعادة وأهل الشقاوة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود: 109]

يقول يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمد، يقول: لا تكن في مرية، لا تكن في شك وامتراء ومجادلة معهم تبعث فيك الشك مما يعبد هؤلاء؛ هؤلاء يعبدون أصناماً لا تشك في عبادتهم بأنها

عبادة باطلة. ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾. وهذا الخطاب وإن كان مخاطباً به النبي صلى الله عليه وسلم فالمراد به غيره؛ هذه مثل الخطابات هذه مثل قول: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]

النبي ما يشرك؛ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾، النبي لا يشرك أبداً ولا يطرأ عليه الشك، لكن هذا يراد به غيره . قال: ﴿إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾. ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾؛ يعني نعطيهم حقهم في الدنيا، يأخذون حقهم في الدنيا؛ حتى لو أُعطوا من الدنيا، أُعطوا الدنيا كلها يأخذون حقهم، ما كتب الله لهم من نعيم الدنيا يأخذونه؛ كفار يأخذون حقهم ثم يذهبون إلى الآخرة. ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾؛ أو أن المراد بالنصيب هنا أنهم يجزون يوم القيامة بالعدل، أن الله يقضي بينهم في نار جهنم بالعدل؛ يوفيهم أعمالهم ويجزيهم على أعمالهم من غير نقص ولا زيادة، ولا زيادة.

طيب، قال بعدها سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: 110]

هذا الكلام الآن يخبر الله عن أن الله سبحانه وتعالى أنزل التوراة على موسى واختلفوا فيها؛ هم بنو إسرائيل اختلفوا في التوراة واختلفوا في رسالة موسى، فمنهم من آمن ومنهم من كفر اختلافاً كثيراً. والله سبحانه وتعالى يبين في هذه الآيات أن أمة محمد وإن اختلفت ووقع فيها الخلاف فليست العبرة بالخلاف، وإنما العبرة باتباع الحق؛ هذا المقصود. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾. كلمة وهي تأخير العذاب إلى يوم القيامة؛ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾. لأنزل الله بهم العقوبة وقضى بينهم، ولكن الله في حكمته وفي حلمه أخر العذاب؛ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾. وإن هؤلاء يشكون في دعوة موسى، أو أن المشركين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يشكون في دعوة محمد ويشكون أيضاً في رسالة موسى.

ثم قال:﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: 111]

كل الخلق الله يوفيهم أعمالهم، يجازيهم على أعمالهم؛ كل يوفينهم ربك أعمالهم. ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ هذه آيات فيها تخويف، فيها وعيد. كل الخلق سيوفيهم الله أعمالهم من خير أو شر؛ فالذي يفعل الشر يحذر، والذي يفعل الخير يكثر ويبادر ويسارع حتى يوفيه الله أعماله؛ أي جزاء أعماله الخير الكثير، وترفع درجاته في جنات النعيم. والله عز وجل بما يعمل الخلق خبير، بأعمالهم خبير.

طيب، لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله؛ في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده،

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(205)
(هود 112 - آخرها)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الأربعاء، الموافق للثلاثين من شهر ربيع الآخر من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة.

مجلسنا المبارك مع **(القرآن الكريم)**؛ نجلس ونأخذ آيات من كتاب الله نقرأها ونبين معانيها وما فيها من تدبرات وتوجيهات، نسأل الله أن يعيننا، وأن يوفقنا، وأن يسددنا. **(سورة هود)** وهذه الآيات هي خاتمة السورة التي عشنا معها هذه المدة التي مضت؛ وخاتمتها خاتمة جميلة حسنة في توجيهات الله وتذكير لعباده المؤمنين.

اسمع -أيها الأخ الفاضل- هذه الآيات التي فيها مخاطبة الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد وللمؤمنين، وكلها فيها تذكير للمسلمين بما ينفعهم في دينهم وفي دنياهم. يقول الله سبحانه وتعالى في الآية رقم اثني عشر بعد المائة، يقول مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم، الذي هو أخشى الناس لله سبحانه وتعالى واتقاهم لله، يقول له: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: 112]

«استقم»؛ هذه الآية ذكر أهل العلم أن هذه الآية هي التي جعلت النبي صلى الله عليه وسلم يشيب من هذه السورة، لما قال له أبو بكر: "يا رسول الله، إني أراك قد شبت، أو ظهر الشيب فيك"، قال: **«شَيَّبَتْنِي هُودٌ»** يعني هذه السورة. قال أهل العلم: هذه الآية هي التي أثرت في النبي ﷺ لما قال الله له: **«فاستقم»**.

ما معنى الاستقامة؟ الاستقامة هي سلوك طريق النجاة، سلوك **(الصراط المستقيم)** والثبات عليه. ممكن كثير تجد من الناس من يسلك الطريق المستقيم ويصلي ويحافظ على واجبات الله، ويحافظ ويبتعد عن النواهي، لكن من الذي يستقيم ويثبت إلى أن يموت؟ تجد بعض الناس يأتي مندفعاً وبعد زمن يتغير؛ يبدأ يدخل عليه الشيطان من هنا ومن هنا، ويبدأ يعني تجد عنده من الخلل والنقص والتفريط في أشياء كثيرة؛ في البداية يأتي مندفعاً ثم يبدأ يفرط إلى أن يعني كما قال النبي ﷺ: **«لَا يَزَالُ أُنَاسٌ يَتَأَخَّرُونَ عَنِ الطَّاعَاتِ وَيَتَكَاسَلُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ فِي النَّارِ»**

فالإنسان متى يقال هذا مستقيم؟ إذا عرف طريق النجاة، وعرف طريق الاستقامة وطريق الصلاح وثبت عليه.

الله يقول سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: 30]

قالوا ربنا وحدوا الله وعرفوا حق الله عليهم، ثم استقاموا؛ يعني ثبتوا. ليست القضية قضية أنك تقول لا إله إلا الله، أو أنك تصلي وتارة لا تصلي؛ لا، الثبات هو المطلوب. ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم مع أن الله مخاطبه يقول فاستقم كما أمرت، ونبينا هو خير البشرية، إلا أنه يكثر من قوله:

«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»

«فاستقم»؛ كلمة عظيمة جداً، والله سبحانه وتعالى أمر نبيه أمراً صريحاً: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾؛ كما أمرك الله، يعني استقم على ما أمرك الله، لا تضيع أو تقدم شيئاً دون شيء، خذ ما أتاك الله وتمسك به. فـ **«استقم كما أمرت»** وليس لك فقط أنت، بل: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ من المؤمنين؛ كل من تاب إلى الله ورجع إلى ربه وعرف حق الله عليه أن يثبت على دينه، أن يثبت؛ ولذلك الثبات عزيز، ما يثبت إلا من هم قلة. فالإنسان يسأل الله يسأل الله أن يعينه، يسأل الله أن يوفقه للخير، ويسأل الله أن يثبته أن يثبته.

قال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ ثم قال: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾؛ شوف ما قال "ولا تطغَ" يا محمد مع أنه في الأول يقول "فاستقم" أنت؛ قال: فلا تطغوا. شوف، دائماً الأوامر توجه للنبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، والنواهي ما توجه للنبي صلى الله عليه وسلم، لأن النبي يكون أبعد الناس عن النواهي ما يقع فيها؛ معصوم صلى الله عليه وسلم.

ولذلك قال: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾؛ أنتم لا تطغوا، يعني لا تسرفوا، لا تقصروا بحق الله، لا تفسدوا في الأرض؛ الطغيان إسراف، إفساد في الأرض، تكبر عن طاعة الله؛ ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: 112]. إن استقمت والله بما تعملون بصير؛ الله عالم بحالك إن استقمت وثبتَّ فالله عالم بحالك ولن يضيع أجرك أبداً، وإن طغى الإنسان وضيع فالله بما يعمل بصير سيجازيه على عمله. فكلمة: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيها بشارة للمؤمنين أن يثبتوا، وفيها وعيد شديد لمن يطغى ويفسد ويضيع حق الله.

ثم قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: 113]

شوف، أوامر لا توجه للرسول، توجه للمؤمنين لأنهم هم الذين يحصل منهم هذا الشيء: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ يعني لا تميلوا معهم، وتتعاونوا معهم، وتفشوا أسرار المسلمين إليهم، هم أعداء، الذين ظلموا؛ كل ظالم، كل ظالم مقصر في حق الله مقصر، وإذا كان ظالماً كافراً مشركاً كان ذلك أشد. فكيف يركن المؤمن ويميل ويحب أعداء الله؟ لا تركنوا إلى الذين ظلموا.

لا تظن أن الركون أمر يسير؛ ماذا قال الله بعدها؟ قال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾. تمسكم النار؛ أعداء الإسلام لا نركن لهم، لا نحبهم، بل نعاديهم؛ لكن تعاملنا معهم إذا كان في مصلحة للمسلمين، مصلحة راجحة، فلا بأس أن نتعاون معهم أو يتعاونون معنا أو تكون هناك علاقات بيننا وبينهم فيما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين، فهذا لا يدخل في هذا؛ أما الركون، والميل، ومحبتهم، وتعظيمهم، هذا الذي نهى الله عنه: ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾؛ هذا وعيد شديد . ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ لن تجد من يتولى أمرك بعد الله، لأن الله سيتخلى عنك لأنك ركنت إلى غير الله، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾؛ إذا نزل بكم العذاب لن تجد من ينصرك.

ثم سبحانه وتعالى، شوف لما جاء الأمر رجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم؛ قال: **«وأقم الصلاة»**، **«وأقم»**؛ ما قال "وأقيموا" أقيموا الصلاة، لأن الرسول هو الذي يبادر إلى هذا الأمر: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود: 114]

الصلاة شأنها عظيم؛ تفريج الكربات في الصلاة، كان إذا حسبه أمر فزع إلى الصلاة. الصلاة نور، الصلاة برهان، الصلاة نجاة للمسلم نجاة. لكن متى تكون الصلاة نوراً وبرهاناً ونجاة؟ متى تنفع صاحبها؟ ما هي الصلاة التي تنفع صاحبها؟ كلنا نصلي؛ كم صلى معنا قبل قليل؟ صفين، ثلاثة، أربعة، وبعدين من الذي صلى؟ من الذي أقام الصلاة؟ أما الذين صلوا فكثير

كثير يصلون، بس من الذي أدى الصلاة على وجهها الأكمل؟ من الذي... شوف، الله ما يقول "وصلِّي" يقول "أقم الصلاة"؛ يعني أقمها بشروطها، بأركانها، بواجباتها، أقمها بخشوعها . استحضر الصلاة أمامك، لا تأتي إلى الصلاة وعقلك غائب، لا تأتي إلى الصلاة وقلبك خارج المسجد؛ تأتي بجسدك، تعال قلباً وقالباً واستحضر الصلاة.

متى إنسان يستطيع أن يستحضر الصلاة ولا يفوته شيء؟ متى؟ هناك أسباب؛ أقواها أن تتقدم إلى الصلاة مبكراً، لا تأتي إلى الصلاة متأخراً؛ إذا جئت للمسجد والامام يصلي، أو فاتك شيء، اعرف أن الصلاة خلاص اختلت عندك. تعال مبكراً قبل الإقامة، تعال متوضئاً ولو كنت على طهارة جدد وضوءك ينشطك الوضوء، تعال وأنت تعرف عظمة الصلاة تعال وأنت تعرف قدر الصلاة، تستحضر الصلاة عظمتها، تقف بين يدي الله سبحانه وتعالى وأنت تعرف معنى الصلاة؛ أن الصلاة صلة بينك وبين الله؛ يعني الآن أنت اتصلت بالله، خلاص ما لك علاقة في المخلوقين أبداً.

فإذا استحضرت هذه الأشياء، استحضرت قراءة الإمام، واستحضرت أنت ما تقول في ركوعك في سجودك، بإذن الله عودت نفسك على هذا الشيء، خلاص تبدأ تتعود أنك تعرف كيف تصلي. ولذلك تشوف بعض الناس إذا فاتته صلاة الجماعة وراح يصلي وحده أو صلى في بيته، قليل منهم من يقول: "والله صليت صلاة تامة"، تجده يقول: "والله ما أدري أنا صليت ثلاثاً ولا ثنتين"؛ أنا مضيع، ليش؟ لأنه يصلي بسرعة ولأنه لا يستحضر ولا يعظم الصلاة حق التعظيم .

الله سبحانه وتعالى يقول هنا: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾. ما هو طرف النهار؟ طرفه الأول صلاة الفجر، هذا أول النهار، هذا طرفه؛ وطرفه النهائي وقت المساء صلاة العصر وصلاة الظهر، بالعشي والإشراق بالغدو والآصال؛ يعني أول النهار هذا الفجر، آخر النهار صلاة العصر والظهر تجمع معها، هذا طرفي النهار. طيب، ثم قال بعدها: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾؛ يعني الزلف الشيء القريب، الزلفة القريبة بمجرد غيوب الشمس دخل الليل تبدأ الصلاة، ما هي صلاة المغرب ثم بعدها صلاة العشاء.

هذه شوف الآية هذه جمع الله فيها ماذا؟ الصلوات الخمس: طرفي النهار **(الفجر والعصر مع الظهر)**، وزلفاً من الليل **(المغرب والعشاء)**. وفي آيات غيرها مثل قوله تعالى:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78]

هذه الظهر مع العصر لدلوك الشمس، إلى غسق الليل المغرب والعشاء، ثم قال بعدها وقرآن الفجر أي صلاة الفجر؛ فهناك آيات يمكن خمس أو ست مواضع في القرآن تدل على الصلوات الخمس.

طيب، إذا نحن أخذنا بهذه الآية وقد طبقناها، أقم الصلاة وحافظنا على الصلوات الخمس وما يتبعها من سنن ورواتب وحافظنا على الصلاة، ما أثر الصلاة عليك؟ ماذا تجد من أثر الصلاة؟ ماذا قال الله؟ قال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ . الصلوات الخمس كفارة لما بينها؛ صليت المغرب الآن إلى العشاء، ما بين المغرب والعشاء كفارة، ما بين العشاء إلى الفجر كفارة، وهكذا الصلوات الخمس الله يكفر فيما بينها؛ لكن يكفر ماذا؟ الصغائر دون الكبائر، أما الكبائر لابد من التوبة، الإقلاع والعزم على ألا يعود، أما الصغائر التي لا يخلو إنسان منها، هذه ولله الحمد تكفرها الصلوات الخمس. حافظ على الصلوات الخمس بالليل والنهار وهي تكفر السيئات؛ ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾؛ أي هذا العمل ذكرى للذاكرين، وهذا التوجيه والمواعظ يتذكر بها من يتذكر وينتفع بها من ينتفع.

واعلم أن الصلاة قد تكون شاقة على كثير من الناس، لكن لكنها تحتاج ماذا؟ تحتاج إلى صبر؛ اصبر، تحتاج إلى أن تستعين بالصبر والصلاة. شوف قال بعدها:

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: 115]

شوف، أمر نبيه؛ واحد، **«واصبر»**، واصبر على أي شيء؟ على الصلاة وعلى الثبات والاستقامة على طاعة الله؛ لا تتزعزع، تتخلخل، تصلي اليوم وغداً تضعف نفسك؛ لا، اصبر حتى تلقى حتى تلقى ربك. اصبر، الدنيا سريعة وستزول بسرعة وتذهب أنت في يوم من الأيام، لكن تحتاج أنت الآن إلى الصبر على الطاعات؛ **«واصبر»**. ثم قال بعدها: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. المحسنين؛ ما قال أجر المؤمنين، المحسنين الذين أحسنوا أعمالهم وأتقنوها، هؤلاء لا يضيع الله أجرهم .

تدري أنك إذا خرجت من بيتك متوضئاً متطهراً، كل خطوة تخطوها إلى المسجد، الخطوتان إحداهما تحط خطيئة والأخرى تكتب لك حسنة؛ الله لا يضيع أجر المحسنين. تبتسم في وجه أخيك، تسلم على من تعرف ومن لا تعرف، تذكر الله وأنت تمشي في الطريق تسبح؛ تذكر أن الله لا يضيع أجر المحسنين. تحسن إلى الخلق، تحسن إلى الناس المحتاجين؛ إن الله لا يضيع أجر المحسنين؛ ذرة ما يضيعها.

ثم سبحانه وتعالى يذكر فيما مضى؛ نحن عشنا مع هذه السورة، ذكر الله لنا فيها سبع قرى أهلكها الله ودمرها بسبب ماذا؟ طغيانهم واستكبارهم وكفرهم وعنادهم، دمرها إلا قلة أنجاهم الله؛ من هم؟ أهل التقوى أهل الطاعة. شوف قال:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: 116]

القرون الماضية من قبلكم **«أولو بقية»**؛ يعني أناس بقوا وثبتوا على الحق، وهؤلاء أولو البقية عندهم عمل جليل قدره عظيم، ما هو؟ قال: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾. ومجرد أنهم يصلون ويطلعون ويتركون الناس على الفساد ويتركون أولادهم في البيوت ما يصلون الفجر ولا يأمرون زوجاتهم بالخير ولا بناتهم؛ يعني على نفسه فقط، لا، هذا لا يكون، لا ينبغي له أن يكون على نفسه بل يكون على نفسه وعلى غيره. إذا عندك قدرة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا تقصر بذلك.

شوف كيف قال: ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾؛ لم يسكتوا عن الفساد، ينهون على قدر استطاعتهم. لو تنهى ولو بقلبك، يتمعر وجهك؛ أما تضحك مع أهل الفساد وأين يتمعر؟ يعني الأمر بالمعروف، يقول ﷺ في الأمر بالمعروف: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**

أمرك بيدك، فإن لم تستطع فبلسانك، إن لم تستطع فبقلبك؛ أقل شيء أقل شيء أنك لا ترضى بهذا الشيء، لا ترضى ولا يعني ولا يعني تسكت عن مثل هذه الأمور؛ أقل شيء ولو بقلبك. قال: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾. شوف، أنجاهم الله لما كانوا ينهون؛ أنجاهم. أما يجلس مع أهل الفساد مثلاً، يجتمع في مجلس كله فساد ويسكت، أو يدخل على مكان ويجد فيه فساد ويسكت، هذا يعمه الله بالعذاب؛ واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصة، ما تصيبكم تصيب خاصة تصيب تعم.

فقال، شوف قال الذين ينهون عن الفساد قال: ﴿أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾؛ أنجاهم الله لما كانوا ينهون، أنجى. وأما أهل الظلم وأهل الفساد ماذا قال الله فيهم؟ قال: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾. الترف هو حب الدنيا، وانغماس فيها، والتعلق بها، والعيش في يعني غدق في رغد عيش، في

رغد وفي غدق وفي نعيم عظيم، هذا هو الترف؛ يعيش في ترف ولا يعرف حق الله عليه، لا يصلي ولا يصوم ولا يزكي ولا يفعل ولا يعرف معروفاً ولا شيئاً؛ هذا . ولذلك أهل الترف هم أهل هم الذين يبدأ بهم الله سبحانه وتعالى وهم الذين يعذبهم. شوف قال: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾؛ أصحاب جرائم، كانوا مجرمين.

ولذلك الله سبحانه وتعالى لا يعذب أي أمة إلا إذا هي ظلمت نفسها، إذا ظلمت حق عليها العذاب. شوف قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117]

وما كان ربك ليهلك القرى التي مرت معنا: قوم نوح، وقوم عاد، وثمود، وشعيب، ولوط، وفرعون؛ كم أمة؟ سبع. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾. لو كانوا مصلحين ما أهلكهم الله. شوف، ما قال "وأهلها صالحون"؛ الصالح على نفسه، قال "مصلح"؛ يعني هو صالح لنفسه وهو مصلح لغيره؛ يتفقد بيته، ويتفقد أولاده، ويتفقد جيرانه، مصلح؛ هذا قال: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، ما قال "وأهلها صالحون"؛ فرق بين هذا وهذا.

ثم هذا بحكمة الله سبحانه وتعالى أن يجعل للنار أهلاً فيعذبهم، ويجعل للجنة أهلاً فينعمهم؛ هذه حكمة الله أنه جعل الناس فريق في الجنة وفريق في السعير. فريق في الدنيا يعملون على الفساد ومصيرهم إلى النار، وفريق يعملون على الصلاح والإصلاح ومآلهم إلى الجنة؛ هذه حكمة الله.

شوف قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: 118-119]

ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، كلهم على الطاعة؛ الله قادر ما يمنعه شيء، يجعل الناس كلهم على الطاعة وكلهم مؤمنين. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾؛ لابد أن يكون خلاف اختلاف بين هؤلاء أهل شقاوة وهؤلاء أهل سعادة، هكذا؛ ولا يزالون مختلفين ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾. إلا من رحم ربك لا يقعون في الخلاف وإنما يعرفون طريقهم إلى الله؛ ولذلك خلقهم للاختلاف وخلقهم للرحمة؛ يعني لذلك خلقهم مختلفين، ولذلك خلقهم منهم من لا يختلف فكان في رحمة الله يعني مجتمعين طوائف وطاعات مختلفين؛ هذه حكمة الله سبحانه وتعالى.

ولكن الله قضى في علمه الغيب أن يكون للنار أهلاً؛ أناس للنار وأناس للجنة، ولذلك شوف قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. الجنة من هم؟ الجن، والناس هم الناس؛ الله جعل للنار ها أناس من بني آدم ومن الجن، فهذه حكمة الله سبحانه وتعالى.

طيب، الآن ما الحكمة؟ لما يقول لك شخص: "يقول لك الآن أنت تقرأ سورة فيها سبع قرى وفيها سبعة أنبياء وتأتينا بعدها سورة يوسف قصة طويلة كلها، كل السورة في قصة يوسف مع أبيه وإخوته، ما الفائدة من هذه القصص؟ ماذا نستفيد لما يذكر الله لنا قصصاً كثيرة؟ سورة البقرة مليئة بالقصص وسورة الأعراف وسور كثيرة، ما الفائدة؟" الفائدة، الجواب هذا موجود أمامك :

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: 120].

لماذا قال؟ **«ما نثبت به فؤادك»**؛ يثبت الله قلبك بهذه القصص. تعرف القلة التي أنجاهم الله، تعرف الكثرة ليست العبرة بالكثرة؛ ليست العبرة بالكثرة، أنت كما قال الله: **«فاستقم كما أمرت»**، اثبت على الحق حتى تموت. هذا قصص الأمم الماضية؛ نوح كم آمن معه؟ 950؛ يعني ألف إلا خمسين سنة وهو يدعو قومه ما آمن معه إلا قليل. والنبي قال: **«يَأْتِي النَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ»**

يعني نبي أرسل إلى قوم ما آمن معه ولا واحد منهم؛ فليست العبرة بالكثرة. ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ اثبت على الحق. ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ﴾؛ أي في هذه السورة ﴿الْحَقُّ﴾ ليس الباطل، ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ يتعظ بها من يتعظ، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ يتذكر بها من يتذكر. لكن لمن الذكرى والموعظة والحق؟ قال: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، أما غير المؤمنين ما يستفيدون.

وقل للذين لا يؤمنون، هؤلاء الذين لا يستفيدون، قل لهم ماذا: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: 121-122]

اعملوا على ما أنتم عليه، اعملوا على مكانتكم، اعملوا على فسادكم، اعملوا على كفركم وفسادكم وطغيانكم؛ اعملوا على مكانتكم **«انا عاملون»** أي على الطاعة والاستقامة والثبات عاملون . وانتظروا أنتم ما يحل بكم ونحن ننتظر ما يحل بكم أيضاً.

ثم قال سبحانه وتعالى في خاتمة هذه السورة العظيمة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: 123].

كل ما غاب في هذا الكون يعلمه الله سبحانه وتعالى، ويدبره ويتصرف فيه كما تصرف بهؤلاء الأمم وعاقبهم بعقوبات شديدة؛ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ كل الأمور تصل إلى الله وترجع، وهو الذي يقضي بين عباده يقضي بينهم؛ ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ﴾؛ اثبت واستقم واعبده، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

لن تستطيع أن تعبد الله إلا بعد ما تتوكل عليه، تفوض أمرك إلى الله؛ أما تقول "أنا أصلي" ما تستطيع، تقول "أنا أتصدق" ما تستطيع، إلا إذا وفقك الله؛ إذا توكلت على الله وفوضت أمرك إلى الله يسر الله لك أمرك، أما تأتي تقول "أنا عندي قدرة وعندي كذا" لو وكلت إلى اجتهادك وقدرتك ما سويت شيئاً ولا فعلت شيئاً إلا أن الله يسر لك الأمر. استعن بالله والله يعينك، واطلب من الله التوفيق والله يوفقك، وما توفيقي إلا بالله؛ اعبد ربك قال: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾؛ توكل عليه فوض أمرك إليه هو الله يحفظك من كل شر ويسر لك كل خير.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ لن يغفل الله عن أعمال العباد كلها، إن كانت خيراً أو شراً؛ لن يغفل الله عز وجل، إن كان خيراً يكتب لك كل ما تقول، خير يكتب لك حتى لو تسكت خير لك أن تتكلم في الشر؛ يقول: إن تمسك عن الشر خير لك، تمسك بس فقط لا تتكلم في الشر.

إذا جلست في مجلس ورأيتهم يخوضون في أمور الدنيا أو في غيبة، اسكت ولا تكلم، وإن تكلمت تكلم بخير. وما ربك بغافل؛ تذكر هذه الآية: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. لا تتكلم إلا بخير، واعلم أن الله محيط بالعباد وعالم بأحوالهم ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم، وكل شيء يكتب وتحاسب عليه، ويخرج لك هذا الكتاب وتنظر فيه كل أعمالك؛ فالإنسان يراقب ربه في كل ما يأتي ويذر ويعلم أن الله مطلع عليه.

هذه خاتمة السورة ختمناها ولله الحمد، ووفقنا لإتمامها توفيق من الله سبحانه وتعالى. إن شاء الله في لقائنا القادم ننتقل للسورة التي تليها وهي سورة يوسف، وما أجملها من سورة! ماذا يقول الله في سورة يوسف؟ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾؛ تعلم أن السورة الجاية هذه سورة يوسف من أحسن قصص القرآن، ستعيش معها أياماً جميلة. ونسأل الله أن يعيننا، وأن يوفقنا، وأن يسددنا.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ يُوسُف)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(206)
(يوسف 1 - 10)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك المتجدد من كل أسبوع بعد صلاة المغرب من يوم الأربعاء، وهذا اليوم يوافق اليوم السابع من الشهر الخامس من عام ١٤٤٧ للهجرة، نجلس هذا المجلس المبارك، ونسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

أيها الإخوة الكرام؛ القرآن الكريم هو كتاب عظيم، لم يقدر قدره أحد من البشر، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرنا في كتابه أن نتدبر القرآن الكريم، وليس المراد مجرد القراءة؛ القراءة كل يقرأ؛ تقرأ القرآن، وتقرأ الصحف، وتقرأ الروايات، وكل شيء.

لكن القرآن يتميز عن كل الكتب في أنك تقرأ بتدبر وتفكر كما أمرك الله، بل إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرنا بالتدبر وحذرنا من عدم التدبر؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]؛ فلماذا لا يتدبرون القرآن؟ ثم قال: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾؛ فالقلوب أقفلت، أغلقت، ما تسمع ولا تفهم ولا تعي، فلا بد أن تقرأ وتعلم.

السورة التي بين أيدينا كما ذكرنا في لقائنا الماضي هي سورة جديدة، وهي سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذه السورة يسميها بعض أهل العلم **"هذه السورة هي الفرج بعد الشدة"**؛ فالذي عنده كربات، وعنده هم وغم، يتدبر هذه السورة ويزيل الله عنه كل شيء.

هذه السورة سورة يوسف، وقبلها سورة هود التي بيناها في اللقاء الماضي، وقبلها سورة يونس، هذه السور الثلاثة المتتالية نزلت في وقت واحد، ونزلت في أشد الظروف في مكة.

- متى اشتدت الظروف؟

اشتد الكرب على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أصحابه، وبدأ التعذيب في أصحابه والنبي يرى أصحابه يعذبون أمامه، متى هذا حصل؟ وحتى أنهم تطاولوا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا حصل بعد وفاة عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو طالب، وبعد وفاة زوجته خديجة.

في الداخل زوجته خديجة كانت تشجعه على الدعوة وتحثه، وفي الخارج كان أبو طالب يدافع عنه بقوة ويحميه من أذى قريش، لما مات وهذا ماتت ضاقت به الأرض، فخرج إلى الطائف يستنصر بهم ولم ينصروه، بل أرسلوا سفهاءهم ليرموه بالحجارة، ورجع كئيبًا، ولا يستطيع أن يدخل مكة وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد الأولين والآخرين.

لم يدخل مكة إلا بجوار مشرك اسمه المطعم بن عدي، قال: **"ادخل يا محمد بجواري لن يمسك أحد"**، وضاقت به الأرض، فجاء الفرج إلى أن جاءه الفرج من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأسري به من ضيق الأرض إلى فسيح السماوات حتى وصل إلى الجنة، فجاءه الفرج.

ثم نزلت هذه السور، السور المتتالية؛ سورة يوسف الفرج بعد الشدة؛ اصبر، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في سورة هود: ﴿فَاصْبِرْ ۖ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]؛ يامر الله بالصبر، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في يوسف؛ يذكر أن يعقوب لما مسه الكرب الشديد.

فقد ابنه من أحب أبنائه وصغير، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18]؛ ما قال إلا صبر جميل، والله مستعان، أنا أستعين بالله وأصبر صبرًا جميلًا.

- ما هو الصبر الجميل؟

الذي ليس فيه تسخط، الصبر الجميل الذي ليس فيه شكوى للبشر، إنما: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: 86]؛ قالها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مرتين في هذه السورة؛ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لما فقد يوسف، ثم قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لما فقد الأخ الثاني، قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: 83]؛ ويوسف يقول ماذا في آخر المطاف؟

آخر القصة قال: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90].

يوسف صبر، صبر جاءته كربات شديدة، فسورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هي تفرج الكرب وتزيل الهموم والغموم لمن قرأها وتدبرها، الله أنزلها في وقت المسلمون في ذلك الوقت بحاجة إلى تفريج والصبر والتحمل وتفريج الهم والغم عنهم.

سورة يوسف لما تقرأها أنت تتأمل وتتدبر فيها، تجدها تتنقل بيوسف من أحوال عجيبة؛ في بيت العز بين أبويه وإخوته، أبوه يحبه محبة عظيمة ومعزز في بيته، ثم ينقل من هذا البيت إلى ضيق الجب، ويلقى فيه في ليلة مظلمة وحيدًا؛ ضيق، ثم يأتي الفرج؛ من ضيق الجب إلى قصر العزيز في مصر مكرمًا.

ويقول لزوجته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾ [يوسف: 21]؛ وأيضًا بعدها يأتيه محنة شديدة عظيمة، أشد المحن في عرضه، ويصبر ويتحمل ويقول: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: 33]؛ فينتقل من القصر إلى السجن؛ ضيق، وتظن أن الضيق استمر لا، بضع سنين ثم خرج إلى السعة؛ أصبح وزير، أصبح وزيرًا لمصر كلها، كل مصر ترجع إليه وكل خزائن مصر بيده.

فشف التنقلات، التنقلات يتنقل والله لطيف به لطيف، كما قال هو في آخر الآيات: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: 100]؛ فلطف الله به ونقله وتنقل في هذه الأحوال من حال إلى حال؛ عز وضيق وإهانة وسعة وتنقلات وفقر وغنى، وكونه مملوكًا أن يباع في سوق مصر ثم يصبح

وزيرًا في مصر، كل هذه التنقلات يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويبين لنا أن الحال لا تبقى؛ لا تظن أن الحال باقٍ.

لكل إنسان يتنقل الإنسان مرة بين شدة ومرة بين فرج ومرة بين فقر ومرة بين غنى ومرة بين سعة صدر ومرة ضيق الصدر وهكذا الأحوال، هذه الدنيا ما صفت لنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم تصفُ لأنبياء الله وهم الذين اختارهم الله وكرمهم بالنبوة ورسالاتهم، لا لم تصفُ لهم.

كيف عاش يعقوب إلا في قلق وفي محن عظيمة، ويوسف وغيرهم من الأنبياء، وأيوب يقول أيوب الذي يعني ذكر الله أن صبره لا يمكن أن يوصف بأي صبر، وغيره من الأنبياء أصابتهم الكربات فصبروا.

هذه السورة عظيمة نتأملها نتفكر فيها، نقرأها قراءة التدبر والتفكر، ونسأل الله أن يعيننا وأن يوفقنا. الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتح هذه السورة مثل ما افتتح التي قبلها والتي بعدها التي حولها.

- وهي تسمى سور **"الر"**، وهذه **"الر"** حروف من حروف الهجاء، ما معناها؟ حروف من حروف الهجاء، لكن الكلام لماذا الله أتى بها في بعض سور القرآن؟ ليس في كلها في بعضها ليش؟

الجواب: لإعجاز العرب بأن القرآن هذا قرآن عربي مكون من هذه الحروف التي يتكلم بها العرب، هم يتكلمون بهذه الحروف وينظمون أشعارهم وقصائدهم وخطبهم وكلامهم كله من هذا، فجاءهم القرآن حجة عليهم.

لابد أن تقرأوه وتتفكروا فيه وتعملوا به لأنه هذا من جنس ما تتكلمون به، ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: 28]، ولذلك هنا اسمع ماذا يقول؛ لما قال، قال: ﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: 1]؛ أي هذه الآيات التي بين أيديكم وسورة يوسف كاملة هي آيات القرآن الكريم هي آيات الكتاب المبين، والكتاب هو القرآن سمي كتابًا لأنه يكتب وسمي قرآنًا لأنه يقرأ.

قال: ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾؛ المبين يعني الواضح البين، المبين الواضح في أسلوبه في ألفاظه في معانيه كلها واضحة بينة، ومبين لهداياته ومبين للناس كل ما يحتاجون إليه تبيانًا لكل شيء.

ثم شف لما ذكر هذه الأشياء قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾؛ أي قرآن أنزله ماذا قال؟

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: 2]؛ قرآن عربي للعرب يفهمونه ويسمعون، ولغات العرب هي أفضل اللغات، لغة العرب هي لغة آدم نبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما خلقه الله خلقه وجعله وأسكنه جنته كان يتكلم بالعربية، ونزل إلى الأرض هو وذريته، أو نزل الأرض وجاءته ذريته وهو يتكلم بالعربية.

وأهل الجنة إذا دخلوا الجنة يتكلمون بالعربية، فلغة العرب هي أفضل اللغات، ولذلك اختار الله لنبيه محمد أن يكون عربيًا وأن ينزل عليه قرآنًا عربيًا، قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 2].

- لماذا نزل قرآنًا عربيًا؟

قال: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ أيها العرب تعقلون هذا الكلام ما هو لعلكم تقرأون؛ كل يقرأ، لا، لعلك تقرأ وتعقل وتفهم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وإن كنتم تعقلون وتفهمون تزدادون علمًا وفقهًا لهذه الآيات.

ثم بعد هذا تعظيم القرآن بعد ما عظمه الله بدأت الآيات تدخل في هذه القصة فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3].

"نحن" هذا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتكلم فيقول **"نحن"**؛ يا محمد نقص عليك، يعني هذا يدل على أن القصص القرآنية جاءت بوحي من الله والقرآن كله نزل من الله؛ ليس من محمد ولا من بشر ولا من أي إنسان ولا من ملك، إنما هو كلام الله، كلام الله.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ ولم يقل نقص عليك القصة أو القصص لا، ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾؛ وهذه السورة سورة يوسف وقصة يوسف هي من أحسن قصص القرآن الكريم من أفضل ومن أجمل قصص القرآن، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: 3]؛ بسبب أننا أوحينا إليك هذا القرآن.

إذا القرآن وحي، وحي من الله هو الذي أوحى به إلى جبريل فسمعه جبريل فنزل به على محمد؛ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ 193 عَلَىٰ قَلْبِكَ194﴾ [الشعراء: 193 - 194].

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: 3].

- كيف لمن الغافلين؟

يقول: أنت من قبل أن يوحى إليك ومن قبل أن ينزل عليك جبريل بقرآن كنت غافلاً عن هذه الدعوة، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن الله أوحى إليك فعلمت هذه الأشياء كنت غافلاً عنه.

ثم دخلت الآيات في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شف يعني اقرأ هذه الآيات وأعد قراءتها مرتين ثلاث، شف جمال الآيات القرآنية الله يبدأ بها بتعظيم الكتاب يقول آيات الكتاب المبين ويعظمه ويقول قرآنًا عربيًا، ثم يدخل على القصص فيقول نحن نقص عليك أحسن القصص القرآنية كلها، ثم يدخل إلى قصة يوسف تدريجيًا.

يقول: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ [يوسف: 4]؛ يعني واذكر يا محمد لقومك حتى يسمعوا قصة يوسف وحتى يتسلى بها المؤمنون يزول عنهم الهم والغم والشدة التي أصابتهم بهذه القصة الجميلة.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾؛ من هو أبوه؟

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، كلهم أنبياء سلسلة؛ يوسف نبي، يعقوب نبي، وإسحاق نبي، وإبراهيم أبو الأنبياء وهو خليل الله، ذرية كلها أنبياء.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]. يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ في سن غلام، يمكن في العاشرة في الثانية عشرة من عمره أو أقل أو أكثر أعلم، رأى في منامه هذه الرؤيا، ورؤيا الأنبياء حق لا بد أن تتحقق.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى رؤى وتحققت، رأى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [الفتح: 27] ودخل، ورؤيا الأنبياء حق. إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى أنه يذبح ابنه إسماعيل فحقق ذلك، فحقق أخذه ليذبح ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لطف به وأنزل: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 107]؛ فرؤى الأنبياء هذه من الوحي، من الوحي الحق لا بد أن يمتثلوا، وهي إرهاص للنبوة؛ يعني مقدمات وتمهيد للنبوة.

يوسف رأى هذه الرؤيا فجاء وقصها على أبيه، وهذا الذي ينبغي للإنسان؛ إذا رأى شيئًا حسنًا طيبًا لا يحدث به أي إنسان، أنت إذا رأيت رؤية طيبة حسنة لا تحدث بها أي إنسان، يحسدونك الناس عليها، إذا رأيت رؤية طيبة فلا تحدث بها إلا من تحب، إلا من تحب وترتاح له تعلم أنه يفرح لك يفرح، أما الناس قد يحسدونك عليها.

ولذلك إخوة يوسف وهم إخوة حسدوا؛ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ وهذا الذي ينبغي للإنسان أنه يخبر أقرب الناس، يوسف ما ذهب إلى فلان وفلان لا، رجع إلى أبيه أقرب الناس إليه ويعرف

أن أباه هو أشفق عليه من نفسه فقال؛ إذ قال يوسف لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ﴾؛ شف يا أبتِ أو يا أبي هذا من باب الأدب، أدب الوالد أدب الابن مع أبيه ما يقول يا فلان ولا يا أبو فلان لا، وإنما يأتي بهدف يا أبتِ يا أبتِ.

ثم قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ أي المنام رؤيا: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾؛ الكوكب كواكب التي في السماء النجوم، رأى أحد عشر أمامه يسجدون له، وبينهم الشمس والقمر؛ قال: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]؛ كل هذه.

فيعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ عنده علم؛ الله يقول عن يعقوب: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ﴾ [يوسف: 68] وهو نبي ويأتيه الوحي ففهم وأدرك أن هذا الابن يوسف سيكون نبيًا سيكون له شأن عظيم.

فلما عرف فسر هذه الرؤية هو عرف وفسرها؛ منهج هذه أحد عشر كوكبًا عرف أنه أبناؤه إخوة يوسف، هو رقم ١٢ وهم ١١، عرف أنها أنهم إخوة ويسجدون له تعظيمًا لشأنه له شأن عظيم، وزيادة على ذلك أمه وأبوه يسجدون له، هذا لا بد أن يكون له أثر عظيم.

فلذلك يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مباشرة قال: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ وهذا من اللطافة أن الأب ينادي ابنه بهذا الأسلوب أو بهذا اللقب ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ [يوسف: 5]؛ احذر انتبه؛ ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ ولا واحد منهم؛ تخبئ لا قريب ولا بعيد؛ ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ ما قال لا تقصصها على الناس، إخوتك لا يعلموا بهذا فالناس من باب أولى.

إخوتك لا يعلمون بذلك، هذا سر بيني وبينك، لا تخبر به أحد ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾؛ إذا أخبرتهم سيكيدوا لك يعني يحتالون عليك بأي مكر وبأي شيء يؤذيك وتتأذى لتحذر هذا الحذر.

ولذلك شف نهاه قال: ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ ثم بين له السبب، ما قال لا تقصص كذا يمكن يروح يخبر، قال: لا انتبه ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ إذا أنت قصصت على إخوتك سيكيدوا لك كيدًا عظيمًا انتبه.

ثم بين أيضًا سبب آخر فقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: 5]؛ يقول هذا سيدخل الشيطان بينك وبين إخوتك إذا علموا أنك بهذه المثابة بهذه المنزلة وأن النجوم أو الكواكب والشمس تسجد لك سيحسدوك على هذا الشيء ولن تستطيع أن وأن ترتاح أو تستقر نفسك وهم قد علموا بهذا.

لا تخبرهم كي يكيدوا لك كيدًا، والشيطان موجود الشيطان للإنسان عدو، عدو لا يريد لأي إنسان خيرًا أبدًا، لا يريد إلا الشر للناس، فاحذر من عداوة الشيطان فعداوته واضحة وبينة.

ثم لما نهاه عن هذه عن أن يقص هذه القصة أو هذه الرؤية على إخوته شدد عليه بدأ يبين له منزلته حتى ينتبه لنفسه ويعرف مقامه قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ﴾ [يوسف: 6]؛ يعني يختارك ويصطفيك، مثلما أنه أراد هذه الرؤية الله الذي أراك إياها، أن الله بعد هذه الرؤية قد اختارك ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 6]؛ لأنه عرف يوسف هذا التأويل، هو عرف لأن يوسف أعطاه الله تأويل الأحاديث أعطاه تعبير الرؤى، وهو عرفها لما جلس مع أبيه عرف أن ١١ كوكب هما إخوته.

فقال: يعلمك الله هذا التأويل وتأويل الأحاديث كلها ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾؛ لأن هذا الاجتباء والاصطفاء كونك تكون نبيًا ورسولاً هذه نعمة عظيمة يتم نعمته عليك، وليست عليك فقط هذه النعمة ستجد أثرها عليك وعلى آل يعقوب، ويتكلم يعقوب مع ابنه يقول هذه نعمة عليك وليست فقط عليك ستعم آل يعقوب؛ يعني هذه النعمة هذه ستكون أثرها عليّ أنا كيعقوب وعلى إخوتك أيضًا.

ولذلك الله شر، يعني شف بعد المسيرة الطويلة دخلوا مصر إخوته ودخل أبوه وأمه دخلوا مصر وسجدوا له وأسكنهم في القصور ورفع شأنهم ومقامهم وأصبح لهم الأثر، هذا هذه من نعمة

الله عليهم ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: 6]؛ أبوَيْك منهم؟

قال أبوَيْك من قبل ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾؛ إبراهيم خليل الله اصطفاه الله وجعله خليلاً له وجعله نبيًا رسولاً، وكذلك إسحاق نبي وأوحى الله إليه فاختارهم الله وأنت من ضمن هؤلاء، يعني كان يعقوب وهو نبي أوحى إليه أخبره بهذا بهذه الأمور كلها فقال: جد أبيك إبراهيم نبي رسول وهو خليل الله، وجدك أيضًا إسحاق نبي.

وأبوك يعقوب نبي، وأنت ستكون نبي، كل هذه الأشياء محيطة بك، هذه كلها فضائل ونعم عليك ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف: 6].

ثم قال شف كلام يعقوب كلام جميل كل هذه كلها يبينها لابنه الصغير الغلام حتى يستوعب هذه الأشياء وينتبه لنفسه ويحرص عليها قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: 6]؛ عليم بحالك وبحال من يختار، وحكيم أين يضع النبوة، فالله حكيم عليم حكيم لما اختارك وجعلك بهذه المنزلة.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما دار الحديث بين يعقوب بين يوسف ويعقوب وسببها هذه الرؤية، انتقلت الآيات بعد ذلك إلى الحديث بين يوسف ويعقوب وإخوة يوسف، اتسعت الدائرة في الأسرة فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ [يوسف: 7].

أي في شأنه وإخوته آيات للسائلين، أما الذين لا يسألون ولا يتعلمون وجاهلون هؤلاء خارج ما يدخلون في هذا، الذي يدخل في يتفكر ويتأمل هم الذين يسألون سؤال علم ويتفقهون ويتعلمون ويتدبرون القرآن، أما هؤلاء الذين لا يسألون ولا يتدبرون ولا يتعلمون ولا يقرأون القرآن هؤلاء خارج النطاق ما يتحدث معهم القرآن.

شف قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ﴾؛ عِبر وآيات عظيمة يتفكر فيها من يتفكر لكن من السائلين [13، 14].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ قَالُوا﴾ من هم إخوته؟

بدأت الآيات تتحدث عن هذه الأمور التي وقعت وهذه القصة التي حصلت ﴿إِذْ قَالُوا﴾ هؤلاء الآن الحديث بين إخوة يوسف فقط، يوسف خارج ويعقوب خارج، إنما يدور بين إخوة يوسف فقط لما رأوا هذه النجابة ورأوا محبة يعقوب الشديدة ليوسف ورأوا من يوسف الذكاء والفطنة والعلم؛ يعني بدأوا يفكرون في هذا الأمر.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ﴾؛ قال: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: 8]؛ يوسف وأخوه الأصغر بنيامين هؤلاء ليسوا إخوة أشقاء، ولذلك الذي يدل على أنهم ليسوا إخوة أشقاء أن يوسف لما جاؤوا إليه يطلبون الميرة والطعام قال: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: 59]؛ فدل على أنه أخ من أب ليس أخ شقيق، **"ائتوني بأخ لكم من أبي"** يعني أخو يوسف الشقيق.

شف قال: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ﴾؛ اللام ابتدائية يعني لَيُوسُفُ للتأكيد ﴿وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾؛ أبونا يحب يوسف وأخوه أشد منا أحبه، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أن أكبر منه وأكثر أكثر إحنا عشرة وهم اثنين ويحبهم أشد منا ﴿أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾.

ثم قالوا: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ يعني جماعة، والعصبة من الثلاثة إلى العشرة، وبعض أهل العلم يقول من العشرة إلى الأربعين يسمون العصبة، سموه عصبة لأنهم عصابة يتجمع بعضهم مع بعض ويتقوى بعضهم ببعض، يقول نحن أقوى منهم وكيف نحن عصبة.

ثم قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 8]؛ لما يكون بهذا حب يوسف وأخيه أشد منا، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

- أنا أسألكم الآن هل يوسف هل يعقوب في ضلال في ضلال؟ ما معنى الضلال هنا؟

أنت إذا كنت تقرأ القرآن ولا تعرف معنى كلمة الضلال هذه مشكلة، لأنك الآن هم ما هم إذا قالوا في ضلال بهذه العبارة التي أنت تفهمها أنها ضلال مقابل الهدى فهؤلاء هذا عقوق منهم، لا، هم ما يقصدون هذا.

الضلال هنا ليس معناه الضلال أنهم يقصدون يعني الضلال مقابل الهدى، لا، الضلال عندهم هنا معناه الخطأ، ولذلك هم يعني ليس هذا عقوق منهم في هذه الكلمة.

وفي آخر السورة لما قال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 94]؛ قالوا: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: 95]؛ ليس يقصدون الضلال الذي هو أنه يضل عن الطريق الصراط المستقيم لا، وإنما يقصد يقصدون الضلال يعني الخطأ يقول إن أبانا لفي خطأ كيف يفعل كذا ويحب اثنين ويترك البقية هذا خطأ. ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

أنا أسأل الآن هل فعلاً يعني لما يحب الأب أحد ابناءه هل هذا يلام عليه؟ ما يلام، لما يحب هو يعْدِل لا بد أن يعْدِل بين أولاده، لكن إذا كان يحب المحبة القلبية ما يملكها الإنسان ما يملكها الإنسان.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا لَا أَمْلِكُ»** يعني لا تلمني في قلبي، لما يكون إنسان عنده أكثر من زوجة ويحب أحد الزوجات محبة عظيمة. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قيل له: **"من أحب الناس عندك من أحب الناس؟"**

قال: **"عائشة"**، يعني يحبها أكثر من غيرها. المحبة القلبية هذه ما يملكها الإنسان، ويوسف ما ملك نفسه، يعقوب لما أحب يوسف هذا خرج عن إرادته ما ملك نفسه شيء ليس باختياره.

فلما قالوا إخوته: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ خطأ هو نعم هذا خطأ مبين أنه يظهر المحبة أمامه، لكن المحبة القلبية لا تحاول أن تظهرها أمام الإخوة أو أمام أبنائك؛ تقول وتتكلم تقول هذا أحب أولادي وهذا أحسن أولادي وهذا كذا، لا، هذا ما ينبغي، إذا كان عندك محبة ميل قلبي حاول أن تكتمه حتى ما يحقدون عليه، وهذا الذي جرى هذا الذي حصل.

ولذلك شف لما اجتمعوا فيما بينهم قالوا: أبونا يحب أخونا وهذا ويوسف وأخوه ما نبّي أن نسكت، ماذا خططوا؟ قالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: 9]؛ إما أن تقتلوه وإما تبعدوه تقصوه في مكان بعيد في الأرض تلقونه فيها ثم تمشون وتتركونه، إما حتى يضيع أو يأكله السباع أو يهلك أو يموت عطشًا المهم تخلصوا منه إما بقتله أو رميه بعيدًا.

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾؛ إذا أنتم أبعدتموه سيخلو لكم وجه أبيكم خلاص يلتفت إليكم ويحبكم، ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: 9]؛ عرفوا أن القتل أو رميه بعيد أنه خطر وأنه جريمة، ولذلك قالوا تتوبون بعد ذلك وتكونون قوم صالحين.

القصة ستستمر معناها ما نستطيع أن نقف عند قدر لكن الكلام يطول، فأحد الإخوة إخوة يوسف وهو أعقلهم قال لا ما فعَل جريمة ولا ذنب له تقتلون لماذا تقتلون تطرحونها تأكل السباع لماذا؟

أنتم تريدون أن تتخلصوا منه ابحثوا عن طريقة أسهل، قالوا: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: 10]؛ الجب البئر التي لم تطو؛ بئر محفورة وفيها ماء، قال ضعوه في هذا البئر يمر أحد يا إخوان خلاص تخلصوا منه ولا يموت، ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾؛ بعض المارّة الماشيين معهم قافلة يأخذونه وخلاص.

﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾؛ افعلوا هذا الشيء، أما قتله من غير ذنب أو طرحه في الصحراء لا، هذا أخوكم مهما كان، وهذا هو أعقلهم هذا الذي اقترح لهم هذا الاقتراح فوافقوه مباشرة، وافقوه مباشرة.

انتهى الحوار بين الإخوة الآن، الإخوة ماذا صنعوا؟ ذهبوا إلى أبيهم، ذهبوا إلى أبيهم؛ ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 11].

هذا الكلام إن شاء الله يأتي عنه عندما ذهبوا إلى أبيهم ماذا قالوا له وماذا رد عليهم، هذه إن شاء الله يأتي الكلام عنها إن شاء الله في اللقاء القادم، نسأل الله التوفيق والسداد، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(207)
(يوسف 11 - 21)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الرابع عشر من شهر جمادى الأولى من عام ١٤٤٧ من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ تحدثنا عنها وذكرنا ما فيها، وأخذنا شيئًا من آياتها، وقف بنا الكلام عند الآية العاشرة، وبعدها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف: 11].

الحوار الأول شوف سورة مقسمة وموزعة على حوارات كثيرة الحوار الأول كان بين يوسف وأبيه؛ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]، ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: 5]؛ هذا حوار بين الابن مع أبيه.

ثم الحوار الثاني كان بين إخوة بعضهم مع بعض؛ الحوار الثاني بينهم لما قالوا: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: 8].

وعرفنا أن معنى كلمة **"في ضلال"** يعني في خطأ، ما يقصدون الضلال أن أبوه ضال؛ هم يعرفون أن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي من أنبياء الله والله مدحه وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: 68].

- كيف يكون في ضلال؟

لا، هو في ضلال هنا معناها في خطأ؛ أنه أخطأ لما قدّم يوسف على إخوته.

فهنا لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ ثم ماذا فعلوا؟ قالوا: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: 9]؛ اقتلوه أو ألقوه في أرض بعيدة تأكله السباع، أو يهلك أو يموت من العطش، ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

يلتفت إليكم أبوكم ويقرّبكم إليكم أبيكم، ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: 9]. هم عرفوا أن القتل أو رميه بعيد أنه خطأ كبير، وأنه عقوبة وذنب، ولذلك قالوا: وتكونوا من بعده قومًا صالحين؛ يعني تتوبون إلى الله.

لكن كان فيهم الرجل العاقل بينهم فقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: 10]؛ ما فعل شيء ولم يذنب حتى تقتلوه هو بريء، لا تقتلوا يوسف هذا أخوكم، ولكن يعني ارتكبوا يعني أقل أخف الأضرار؛ إذا أنتم لا تقتلوه ولا تلقوه في غياب، ولا تطرحوه أرضًا بعيدًا، ولكن ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: 10].

- ما هي غيابة الجب؟

البئر، البئر إذا كانت غير مطوية، وليس عليها دِلال تسمى غيابة؛ تسمى قليب، القليب، وإذا كانت مطوية عليها مطوية بالحصى هذه تسمى بئر.

قال: ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ في أي غيابة من غيابة الجب ألقوه فيها ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: 10]؛ يعني يمر أحد يلتقطه بعض المارة بعض القوافل وتأخذه، بعض السيارة يعني الذين يسيرون يأتون فيأخذونه معهم، وتتخلصون بهذه الطريقة ولا تقتلوه.

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: 10]؛ افعلوا هذا الشيء، انتهى الحوار بين إخوة يوسف بعضهم مع بعض؛ الآن يأتينا الحوار مع يعقوب وأبناؤه، أبناء يعقوب مع أبيهم.

قالوا يا أبانا؛ جاؤوا الآن أتوا إلى أبيهم وحاولوا أن يأخذوا أخاهم الأصغر يوسف ويأخذوه معهم حتى ينفذوا ما خططوا له، قالوا: ﴿يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف: 11].

يا أبانا لماذا أنت لا تأمن؟ لماذا تخاف على يوسف؟ لما تسمع هذه الكلمة **"لا تأمنا على يوسف"** فيه دليل على أي شيء؟ على أنهم عندهم محاولات سابقة، وأنهم حاولوا لأبيهم أن يأخذوا يوسف أكثر من مرة وهو يرفض، فقالوا: أنت ليش لا ما تأمن؟ أنت ليش خايف؟ لماذا لا تأمنا على يوسف؟

لماذا لا تأمنا؟ شفت **"تأمنا"** هذه؟ تقرأ مشددة هي أصلها تأمننا، تأمننا، لكنها أدغمت النون بالنون، ولذلك إذا قرأها الإنسان يعطيها نوع من القراءة وهو ما يسمى بالإشمام؛ يعني ضم الشفتين من غير صوت **"لا تأمنا"**.

ولك أن تعطيها أيضًا حكم وهو صوت خفيف يعطي ضمة خفيفة، فهذه لها حكم تجويد خاص، ولذلك تجدها في بعض المصاحف لها علامة، علامة أن لها طريقة؛ لا تأمنا يعني لماذا أنت خائف على يوسف؟

ثم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾؛ يعني نحن سننصح له ونحرص عليه أشد من أنفسنا فاعطنا إياه، سلّمه لنا، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: 12]؛ أرسله يعني اجعله يذهب معنا، أطلقه معنا يذهب معنا غدًا يرتع ويلعب.

يرتع يعني نذهب معه معنا ويخرج معنا ويجد الفواكه والأطعمة ويأكل معنا، يرتع مثل ما ترتع البهيمة، يأكل معنا ويتسلى بالأطعمة ويلعب معنا يأكل يرتع ويلعب ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

شف تأكيد كلها مؤكدات؛ الأولى قال ناصحون ننصح له لا تخاف، والأمر الثاني قالوا: وإنا له لحافظون؛ سنحفظه حفظًا شديدًا لا تخليه، فمحاولات معه واستعطاف له ويحاولون معه.

- فماذا كان رد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

قال: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: 13]. أنا إذا أخذتوه يصيبني الغم والهم والحزن ما أتحمل، ما أريده صغير ويبعد عني سأكون في قلق وهم وغم.

والأمر الثاني أخاف أن يأكل الذيب، أنتم لا تنتبهون له فيأكله الذئب وأنتم عنه غافلون؛ فهو وضع الذئب هكذا كأنها حجة، ولا هو يقصد أنه يحزنه وأنه لا يريد أن يسلمه له، لا يريد يخاف عليه وهو عارف أن في صفات.

يعني الصفات التي ذكرها له أنه رأى هذه الرؤية وأنه سيكون له شأن، سيكون له شأن عظيم، فلذلك حرص عليه حرص شديد، وهذا الهم والغم والمحبة محبة قلبية ليست باختياره، فقال: أخاف أن يأكله وأنتم عنه غافلون.

فهم ردوا على الأمر الثاني، عرفوا أنه وضعه هكذا؛ الأول لما قال يحزنني ما لهم حيلة أن يردون عليه يقول لا تحزن ما يطيعهم، لكن لما جاء قالوا أخاف يأكل الذئب قالوا: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾ [يوسف: 14].

- كيف يأكل الذئب ونحن عصبة؟

عشرة ويأتي الذئب ويأكل من بيننا، إذا خاسرون، ما يمكن أن يستحيل هذا ولا يمكن أن يقع، فأغلقوا الحجة التي ذكرها الذئب، أما الأولى ما استطاعوا أن يروها.

فبعد هذا الأمر، التأكيدات والحرص الشديد ماذا جرى؟ سلمه له، سلّمه له وهو على قلق وعلى مضض وعلى نار؛ فلما ذهبوا به وخرجوا به مسافة بعيدة حتى استمتعوا بهذا هذه الطلعة وهذا وهذه الكشتة والبر واستأنسوا معه، لما بعد ذلك خططوا.

قال الله عليهم: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: 15]؛ وأجمعوا يعني عزموا أن يجعلوه في غيابة الجب، فذهبوا به إلى هذا البئر أو هذا هذه الغيابة وهذه الحفرة العظيمة فألقوه فيها.

وتركوه في غيابة الجب، ولكن الله كان معه وهداه وطمأنه وأنزل عليه السكينة؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 15].

إما رؤيا في منام لما نام تلك الليلة أو أن الله ألهمه هذا الشيء لتنبئهم بأمرهم، هذا الأمر الذي فعلوه أنت ستخبرهم بعد ذلك، بعد ذلك؛ يعني أن هناك خبر من الله أنه سينبئهم تخبرهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون، متى؟ في آخر السورة.

قال في آخر السورة لما جاؤوا قالوا: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: 88]، قال: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: 89].

تذكرون ما فعلتم بيوسف؟ أخبره تذكرون ما فعلتم بيوسف، هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه حتى أخوه فعلتم فيه، فهنا قال: شف قال: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ثم بعد ذلك لما وضعوه غابت الشمس رجعوا إلى ابيهم في ظلمة الليل ودخلوا عليه. وجاء أحدهم مسرعًا وألقى القميص على أبيه وقال: أكله الذئب، شف الدم أكله الذئب، فروّع أباه في ليلة مظلمة شديدة عصيبة عليه.

ولذلك يذكر أهل التفسير يقول إن الذي ألقى عليه قميص الدم هو الذي ألقى عليه القميص فارتد بصيرًا، قال: **"أنا الذي يعني أخفت والدي وروّعته بهذا الخبر، أنا الآن سأخبره بما يسره"**؛ فألقى القميص فارتد بصيرًا على وجهه.

هنا قال: رجعوا إلى أبيهم، ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: 16]. جاؤوا أباهم عشاءً بعدما أظلمت الدنيا دخلوا عليه وهم يبكون، عشرة كلهم يبكون، قال وهم لم يبكون حقيقة هم يتباكون، هم يكذبون يفتعلون الكذب، يفتعلون البكاء وهم لم يبكوا، يبكون على هذا، يفرحون.

جاؤوا أباهم عشاء يبكون قالوا: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: 17].

شف الآن هم قدّموا له السبب؛ ذهبنا نستبق نركض على الأقدام ولا على الدابة ولا على أي شيء ذهبنا نستبق، وتركنا يوسف عند متاعنا، عند أمتعتهم وطعامهم وملابسهم فأكله الذئب.

ثم قالوا: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾؛ يعني ما أنت مصدق، نحن نعرف أنك ما أنت مصدق ولو كنا صادقين ما أنت مصدق لنا. **"كاد المريب أن يقول خذوني"**، كشفوا أمرهم الآن هم كشفوا أمرهم يقول أنت ما أنت مصدق حنا صادقين لكن أنت لن تصدقنا.

﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: 18]؛ وضعوا دمًا إما من ذبحوا لهم عناق أو نحوه ووضعوا الدم عليه ولطخوه بالدم. وجاؤوا القميص حتى العجب أن القميص لم يمزق، أتوه بقميص ما مزق؛ يعني كأن الذئب لما افترسه خلع ثوبه! فشك، كيف؟

الكذب مثل ما يقولون: **"حبل الكذب قصير"**، مهما كان لو قلت ما قلت الكذب ينكشف. فشوف قال هنا: وجاؤوا على قميصه بدم.

فشوف الآن هم أتوا بأمور:

- الأمر الأول: جاؤوا يبكون وهم يكذبون يتباكون، هذا حالهم أنهم يبكون هذا الأمر الأول.
- الأمر الثاني: جاؤوا بحجة واحدة قالوا نستبق وتركنا يوسف، أين أنتم؟ تقولون قبل قليل: وإنا له لحافظون والآن تركتموه وحده!
- الأمر الثالث: قالوا: وما أنت بمؤمن لنا؛ ما أنت مصدق حتى لو قلنا لك وقلنا لك أنت لم تصدقنا، فهم شككوا في أنفسهم أو شككوه في أنفسهم [7، 8].

ثم الأمر الثالث جاؤوا على قميصه، كلمة جاؤوا على قميصه هذه تدل على الكذب، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: 11] دليل كذب، فهم أتوا بشيء لا حقيقة له بدم كذب.

فيوسف ويعقوب نبي ورجل أعطاه الله العلم والمعرفة والدراية عرف، عرف مباشرة، ماذا قال لهم؟ قال: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18].

"بل" يعني هذه للإضراب يعني كل كلامكم ما أقبله وغير صحيح، ولكن في أمر آخر، ما هو؟ قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾؛ زينت لكم أنفسكم الفعل به أمر، أنا ما أدري ش الأمر هل أنتم قتلتوه أو فعلًا أكلت، أو رميتوه أو أنتم فعلتم فيه شيء، قال: بل سولت لكم أنفسكم أمرًا هذا هو حقيقة الأمر، أما كلامكم هذا وبكاؤكم وحججكم هذه كلها لن تمشي ولن تُقبل عندي.

ولكني أنا فهمت منكم ومن أعينكم ووجوه النظر في وجوهكم أنكم أصحاب جريمة، وسولت لكم أنفسكم وزينت لكم أنفسكم الفعل فيكم أمرًا ما ندري إيش الأمر هذا، قتلتوه ألقيتموه فعلتم كذا ما ندري، لكن ليس عندي إلا صبري ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أصبر صبرًا جميلًا، والصبر الجميل الذي

ليس له.. ليس فيه شكوى للخلق، إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ولا أتسخط صبري، فأمسك نفسي وأصبر وأعرف أن الله سيرده لي سيرده لي.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾؛ أنا أستعين بالله على ما تصفون وتقولون هذه الأفعال وتفعلون الأفعال، أنا ليس لي إلا الله أستعين به وأتوكل عليه ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ على ما تصفون.

وانتهى الحوار الذي جرى بينهم وبين أخيهم، ثم الحوار الآخر بينهم وبين أبيهم لما جاؤوا إلى أبا عشاء يبكون انتهى ومضى، مضت تلك الليلة الشديدة العصيبة على يعقوب، إنها ليلة كلها هم وغم وحزن.

ثم أصبح الصبح؛ لما جاء النهار بدأوا إخوة يوسف يراقبون المكان ويراقبون يوسف، يخشون أن يخرج ويأتي إليهم، يخشون أن يتعرض لهم شيء، وإذا يراقبونه فإذا قافلة مقبلة ثم وقفت وأرسلوا وارِدَهم الذي يأتي لهم بالماء.

فلما أرسله جاؤوا إخوة يوسف قريبين يراقبون، ما مقصدهم؟

هم يريدون أن تأخذ القافلة ويرتاحون منها؛ فجاءت سيارة، ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: 19].

سيارة يعني قافلة، فأرسلوا واردهم إلى الماء. فأدلى دلوه؛ فلما أدلى دلوه يوسف تمسك وأخذ بالدلو، فقال صاحب الوارد هذا صاحب الماء: ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾.

يا بشرى هذا غلام؛ يبشر نفسه يبشر نفسه ويبشر من معه، هذا غلام، وأخذه غلام ويدل هذا غلام يدل على أن يوسف كان صغيرًا، ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾؛ أسرّوه بضاعة قالوا هذا غلام، أخذوه وأخفوه أخفوه عن أصحابهم.

أسرّوه بضاعة على أنه بضاعة، والله عليم بما يعمل إخوة يوسف وبما يعمل هؤلاء الذين أخذوه، الله عليم ما يعملون، فلما أخذوه من الجب أقبل إخوته قالوا: هذا عبد آبق منا، فرّ، أعطونا إياه، قالوا: لا نحن أخذناه.

قالوا: هو تبعنا وهو عبد لنا لكن أعطونا أي مبلغ من المال وخذوه تراه معدودة وخذوه؛ هم يريدون أن يأخذوه لكن لا يريدون يسلمونه مباشرة، ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: 20].

فشروه يعني شروه يعني باعوه إخوته، وباعوه بثمن بخس يعني دراهم قليلة، بثمن دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين؛ فكانوا فيه من الزاهدين يعني زهدوا في بيعه.

وبعض المفسرين يقول: **"شروه أصحاب القافلة باعوه في مصر بدراهم معدودة"**.

لكن الذي يظهر والله أعلم أن إخوته هم الذين باعوا ولذلك كانوا فيه من الزاهدين، أما أصحاب القافلة ما يزهدون فيه بالعكس إنهم قد فرحوا بها.

فثم ذهبوا به بعدما سلموا الدراهم، ورجعوا إخوة يوسف إلى أبيهم وهؤلاء أخذوا يوسف وذهبوا به إلى مصر؛ قافلة قد جاءت من الشام مارة بفلسطين تتجه إلى مصر، فذهبوا به إلى مصر.

ولما وصلوا مصر أدخلوه السوق ليبيعوه، فشف إذا أراد الله أمرًا لا بد أن يتم، لا بد أن يتم؛ قال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: 21].

- اشتراه من مصر، ما هو عزيز مصر؟

له مكانة عند الملك كبير رئيس عند الملك، فاشتراه من السوق وأخذه؛ لما أخذه عرف فيه النباهة والجمال وحسن الخلق فأخذه وذهب به إلى امرأته في القصر، فقال الذي اشتراه من مصر لامرأته: أكرمي مثواه أحسني يعني مقامه عندنا، أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا يكون نفع لنا بخدمتنا أو نتخذه ولدًا.

قال أهل التفسير: **"كان عزيز مصر لا يولد له وامرأته لا تحمل، فأتى الله لهم بهذا يخدمهم وكأنه ولد لهم، أو نتخذه ولدًا".**

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21]. الله مكن له من غيابة جب وظلمة وجوع وخوف ورعب إلى قصر، وقصر يقول صاحبهم أكرمي مثواه اخدميه واعتني به، الله مكن له.

قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾. والله غالب على أمره؛ لا يستطيع أحد أن يغلب أمر الله إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا بد أن تتنفذ هذه الأمور بأمر الله وبمتابعة ولطف منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الله غالب على أمره، وأن الأمور بيد الله، وأن البشر ليس لهم أي تصرف إلا تنفيذ أوامر الله فقط، وأما الأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وانتقال يوسف من بيت أبيه ثم وضعه في الجب ثم انتقاله إلى مصر وإكرامه في مصر ودخوله في هذا القصر كل ذلك بأمر الله، وستترتب عليه أمور أخرى عظيمة.

لعل نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(208)
(يوسف 22 - 29)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما وعملا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى من عام سبعة وأربعين وألف من الهجرة.

نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، القرآن الكريم ودرسنا الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كل أربعاء، نجتمع في هذا المقام المبارك، نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي تحكي لنا قصة يوسف وما مر به في مراحل حياته، وبعد أن أخذه ملك مصر، أو العزيز في مصر، تحت الملك، أخذه إلى بيته وأوصى امرأته، قال لها: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: 21]؛ أكرمي مثواه يعني اهتمي به واعتني به وبمقامه عندك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: 21]؛ أي مكن الله وجعله متمكنا يعيش في رغد من العيش، قال: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 21]؛ من الله عليه بالعلم والتعليم، ومن هذا العلم الذي خصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خص يوسف به؛ أن علمه تأويل الأحاديث، والمراد تعبير الرؤى؛ أنه يعبر الرؤى، يعبرها، ويفسرها، ويبينها من تأويل الأحاديث.

قال الله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: 21]؛ هذه الأمور التي تجري بقضاء الله وقدره وحكمته، الله غالب عليها، وكل ما يدور في هذا الكون هو بأمر الله وقدرته، والبشر إنما دورهم أن ينفذوا ما أراده الله، ليس لهم تدبير في هذا الكون ولا قدرة على هذا الكون.

إنما الغلبة والقدرة لله جل جلاله؛ ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 21]؛ إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الغالب على أمره، ولذلك كثير من الناس يضعف عنده التوكل على الله.

أنت تعلم أن الله هو الذي بيده كل شيء وأمره غالب على كل شيء، فعليك أن تتوكل وتفوض أمرك إلى الله، وتعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يجلب لك الخير ويأتي لك بالخير، وهو الذي يصرف عنك الشر؛ ليس أحد من البشر يستطيع أبدا، الذي يأتيك بالخير هو الله.

والذي يصرف عنك الشر هو الله؛ فالواجب هو الاعتماد والتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع فعل الأسباب، فعاش يوسف في رغد من العيش وعناية تامة في هذا القصر، قال الله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [يوسف: 22]؛ لما بلغ أشده.

- ما المراد بالأشد؟

الأشد هو القوة والنضج وتمام الخلق؛ بمعنى أنه وصل إلى قوة الفتوة والشباب.

ولذلك المفسرون: "وقفوا عند هذه الكلمة بلغ أشده فبدأوا يذكرون أرقاما في تحديد هذا العمر كم؟ فمنهم من يقول بلغ الحلم وهو خمس عشرة سنة، ومنهم من قال ثماني عشرة سنة، ومنهم من قال خمس وعشرون، ومنهم من قال ثلاثون أو بين الثلاثين والأربعين".

والذي يظهر والله أعلم أنه ما بين الخمس عشرة إلى العشرين؛ هذه هي المدة التي أو هذا العمر الذي وصل إليه في هذه الفترة، ويؤيد هذا الكلام أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا في قصة موسى أنه قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: 14].

قال بعدها: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ [القصص: 15]؛ فقتل القبطي، وكان في شبابه ما بين هذا السن وهذا السن؛ الخمس عشرة هذا المتوقع والعلم عند الله، ولا يهمنا نحن كم عمره، ما يهمنا كثيرا بلغ أشده كما قال القرآن. يقول لما بلغ أشده.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بمنه وفضله ورحمته عليه، قال: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: 22]؛ أعطاه الله الحكم والعلم.

- ما هو الحكم والعلم؟

الله أخبر في كتابه عن لوط قال: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: 74]، وقال في داوود وسليمان: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: 79]، وقال في موسى أيضا: ﴿وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: 14].

- فما هو الحكم وما هو العلم؟

الجواب: **"الحكم هو تمام العقل ونضجه وحسن التصرف والتدبير بحيث إنه يكون حكيما في تصرفاته عاقلا يعرف يزن الأمور، وأما العلم فهو العلم المعروف أو يقال مثلا النبوة أو معرفة الأسرار ومعرفة العلوم ونحو ذلك"**.

آتاه الله حيث إنه أصبح في هذا السن عنده حسن التصرف وكمال العقل والتدبير والعلم والمعرفة، قال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 22]؛ يعني ليس هذا فقط أن يكون آتاه حكما وعلما، جاء قبله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبعده داوود وسليمان، وكذلك قبله وبعده موسى وإلى ما يأتي، كما قال: نجزي كل محسن.

فما هو الإحسان هذا الذي يجزي الله كل محسن؟ يعني هذه الآية تخاطبك أنتِ وتخاطبك أنت وتخاطبني؛ هل نحن من المحسنين ويجزي الله مثل ما جازى يوسف؟ هذا معنى كلام؛ "الإحسان هو إتقان الشيء إتقان العمل".

فبينك وبين الله أعمال؛ الصلاة، الزكاة، الصيام، الحج، بر الوالدين، أعمال كثيرة؛ هل أنت محسن بها ومتقن بينك وبين الله؟ "فالإحسان بينك وبين الله إتقان العمل وضبطه وأداؤه على ما يريد الله، والإحسان أيضا يقتضي إحسانك بين الناس؛ إحسانك إلى الوالدين، وإلى الأقارب والأرحام والجيران والفقراء والمساكين وغير ذلك".

فكلمة المحسنين تشملنا جميعا، فهل نحن فعلا طبقنا هذه الكلمة في حياتنا؟ كنا من المحسنين حتى تنطبق علينا هذه الآية التي قال الله فيها: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ يعني مثل ما جازينا يوسف لما أحسن.

لما أحسن مع ربه علاقته ومع الناس، لما أحسن هذا الشيء جازاه الله بهذا الجزاء، أي أنه آتاه الحكم والعلم؛ فكل من أحسن علاقته مع ربه ومع إخوانه المسلمين فإن الله يمن عليه بأن يعطيه الحكم والعلم.

فبلغ يوسف هذا السن، وبلغ هذه المنزلة وهذا السن مع ما أعطاه الله من الجمال الباهر والخلقة الحسنة، فهو جمع بين الخلق الحسن والخلقة الحسنة والعلم والرشد وتمام العقل؛ فأصبح يعيش في هذا القصر والله قد من عليه بهذه الأشياء كلها.

- ما الذي جرى بعد ذلك؟

الآن تحدثنا الآيات عن فتنة عظيمة يمر بها يوسف، هي من أشد الفتن التي تمر بكل إنسان أو تمر بأي إنسان يقع في مثل هذا الأمر؛ أشد الفتن فتنة العرض.

يعني يوسف يلقى في الجب لا يهمه كثيرا، يوسف يلقى في السجن لا يهمه كثيرا، لكن يتعرض لعرضه؛ هذا لا يمكن أن يتنازل ولا يتسامح، وهذه من أشد الفتن التي يواجهها الإنسان في حياته؛ أن يتعرض شخص لعرضه أو يحصل مثلا هذا الأمر.

فيوسف في هذا الموقف العظيم من أشد المحن والبلايا والفتن التي تواجهه، ولذلك واجه هو بقوة، بقوة الإيمان والتوكل على الله، ولذلك شوف لما وصل هذه المرحلة قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: 23].

هذه امرأة العزيز؛ امرأة العزيز لما رأت فيه هذه النجابة وهذه الصفات الطيبة والخلق الطيب والجمال الذي أخذ بلب عقلها وبقلبها؛ قد شغفها حبا ما استطاعت أن تملك نفسها أمامه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: راودته؛ يعني محاولات سابقة تحاول فيه وهو يمتنع، ففي الأخير وقفت له؛ ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾؛ شوف عبارة ما قال وراودته امرأة العزيز، ما صرح القرآن لأن هذه الأشياء تستهجن وتستقبح أن تذكر.

القرآن يستر دائما، يستر ولا يعلن هذا الشيء، ولذلك جاء بعبارة يفهم من يفهمها؛ ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ﴾ أي يوسف ﴿فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾؛ أي طلبت منه أن يزاول معها هذا الأمر المشين المنكر الذي لا تقبله العقول السليمة.

حاولت وحاولت في محاولات كثيرة فامتنع، ففي هذا الوقت الآن فعلت معه ثلاثة أشياء في هذه المحاولة الأخيرة التي معه؛ تريد أن تنفذ هي ما تريده وتطلب منه أن ينفذ ما يريد، بمعنى أنه يفعل الفاحشة معها، وهو ممتنع. فحاولت وجاءت بهذه القوة بثلاثة أمور؛ ما هي؟

- الأمر الأول: المراودة، هذا الأمر الأول والمحاولات بقوة.
- الأمر الثاني: غلقت الأبواب حتى يتهيأ لها المكان يتهيأ؛ غلقت الأبواب كلها.
- الأمر الثالث: أنها طلبت منه.

والغالب في العادة الجارية أن المرأة ما تطلب من الرجل، هو الذي يأتي إليها، لكن هذه بلغت مبلغا ما تملك نفسها، ولذلك طلبت منه قالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23]. فثلاثة أشياء: مراودات شديدة، محاولات، إغلاق الأبواب؛ شوف ولم يقل القرآن أغلقت الأبواب.

قالت: ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾؛ تشديد، بمعنى أنها أحكمت الأبواب بقوة.

حتى ذكر بعض المفسرين: **"أن القصر الذي فيه يوسف له سبعة أبواب فقامت بإغلاقها حتى لا يدخل علينا حتى يتهيأ الجو ليوسف"**. فغلقت الأبواب وقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾.

- ما معنى هيت لك؟

أقبل، تعال، أسرع، تهيأت لك، ولذلك فيها خمس قراءات؛ هيت لك، وهيت لك، وهئت لك، وإلى آخر القراءات الخمس، كلها تدل على أنها جاءت بعبارة هذه تدل على أنها تريده بقوة.

قالت هيت لك يعني أسرع وأقبل إلي ولا تمتنع؛ إلا القراءة التي فيها **"هئت لك"** يعني تهيأت لك وتجملت لك، وقد تجملت بأحسن صورة وأحسن جمال، وأغلقت الأبواب وطلبت منه بقوة، طلبت منه بقوة.

- ولكنه ماذا كان موقفه؟

شوف؛ أولا الخلوة هي وهو ما في أحد، ثانيا لا يشك فيه لأنه هو عندهم يعمل مملوك عندهم يعمل فلا يشك فيه، وهي طلبت منه، وأمور كلها تدعو له أن يندفع لهذا الشيء ولا يتردد، ولكن موقفه ليس مترددا أو مندفعا، موقفه موقف صارم بالامتناع بقوة.

ولذلك هو رد عليها بثلاثة أشياء، هي طلبت منه أن يقبل عليها بثلاثة أمور: راودته، غلقت الأبواب، هيت لك، فرد عليها بثلاث؛ قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ [يوسف: 23]؛ معاذ الله يعني أعوذ بالله منك وألجأ إلى الله من هذا العمل.

هذا أولا؛ لجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لم يلجأ إلى أحد، ولا إلى أي قوة خارجية، ولا إلى قوته، ولا إلى إيمانه، ولا إلى أي شيء، وإنما لجأ إلى الله؛ في مثل هذه الأمور الشديدة التي لا يمكن الإنسان/ يلجأ إلى الله، ما في أحد أقوى من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أنا أعوذ وألجأ إلى الله، ثم الأمر الثاني قال: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: 23].

- من هو ربه؟

سيده العزيز؛ يقول ربي يعني سيدي العزيز الذي أحسن مثواي، وقال لك أكرمي مثواه؛ أخونه في عرضه وفي زوجته؟ هذا لا يمكن ويستحيل، فأنا أولا لجأت إلى الله، والأمر الثاني قال لا يمكن أن أفعل هذا الشيء في بيت وقصر ربي وسيدي الذي قام بتربيتي وأحسن إلى وأيضا أمرك بالإحسان إلى وحثك على هذا، ثم أنا أخونه؟

﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾. ثم الأمر الثالث قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: 23]؛ هذا ظلم، ظلم شديد أن أعتدي على حرمات الله وأنتهك محارم الله، هذا الأمر الأول، ثم أخون هذا الرجل؟ إنه لا يفلح لا يمكن أن يفلح الظالمون.

فخلاص عرفت هي موقفه القوي وهو لم يتنازل عن هذا الشيء، فقال الله بعدها: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ [يوسف: 24]؛ همت به يعني عزمت على أن يقع عليها بقوة، هيأت الجو كله وتجملت وحاولت وطلبت منه بصراحة، هذا هو الهم القوي؛ العزم على أن يقدم عليها.

﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: 24]؛ هم بها، ما معناها؟ هذه **"دخل فيها المفسرون واختلطت الأقوال فيها، وكثرت فيها الأقوال، ومن يقرأ في كتب التفسير سيضيع في هذه الأودية ما يدري أي قول صحيح"**، ولكن الصحيح الذي تطمئن إليه النفس ويوسف قد اصطفاه الله وجعله نبيا، وكريم ابن الكريم ابن الكريم.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: 22]، وقال بعدها في هذه الآيات قال كذلك، عنه السوء والفحشاء؛ لا يمكن أن يهم بوطئها أو فعل الفاحشة، لكن هذا الهم ماذا نسميه؟

الجواب: ما يدور بالإنسان هو شباب وفتى وفيه قوة، الميل إلى المرأة لا بد أن يكون في نفسه شيء من ذلك، لكن الله أبعده عن هذا الشيء، هذا الهم معناه ما يدور في الإنسان من حب هذا الشيء أو ميل النفس إليه، لكن حاجز الإيمان منع ورده.

ولذلك قال: ﴿لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: 24]، وإلا النفس ضعيفة؛ كيف يرى امرأة أمامه بهذه الصورة وخلوة؟ لا بد أن تكون النفس ضعيفة مثل الصائم الآن.

لو أن الصائم الآن وهو قد بلغ من العطش ما بلغ، ثم رأى ماء باردا، تجد نفسه تميل إلى هذا الماء، لكن يتذكر أنه صائم لله فيبعد؛ هذا هو هذا هو الذي فعله يوسف، مالت نفسه بطبيعتها ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإيمانه منعه من ذلك؛ ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.

- ما هو برهان ربه الذي رآه؟

المفسرون لهم أقوال كثيرة لا دليل عليها، فنقول: رأى برهان ربه ما استقر في نفسه وفي قلبه من الإيمان، الإيمان الذي استقر في نفسه وهو تربى عليه وهو عاش في بيت نبي وهو يعقوب، استقر ذلك فيه أنه لا يمكن أن يقدم على هذا الشيء؛ فتصور هذا الأمر أمامه.

الإيمان أحيانا الإنسان مهما كان تسول له نفسه فعل معصية فيتذكر أنه من بيت يعني متدين، وهو تربى على الطاعة والاستقامة، فيحجم عن هذا الشيء؛ فهذا معناه لولا أن رأى برهان ربه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: 24]؛ يقول: مثل ما أننا ربيناه التربية الصالحة وآتيناه الحكم والعلم ونجزيه على إحسانه، شوف هذه يجب أن نقف عندها: نجزي على إحسانه، وأنه قد امتلأ بالإيمان والطاعة، الله صرف عنه، صرف عنه السوء والفحشاء؛ السوء العمل السيئ الخبيث، الفحشاء كل ما قبح من الأمور، يصرف الله عنه.

هذه الآية ينبغي لنا أن نقف عندها؛ هذه شوف دائما الأشياء التي أنت تخفيها، الأعمال الصالحة التي تعملها في الرخاء وتخفيها عن الناس، الخبايا هذه تنفعك في الضيق، تنفع الإنسان إذا ضاقت عليه الأمور تنفع.

شوف يوسف لما وقف هذا الموقف العصيب الشديد نفعته أعماله السابقة، ومنة الله عليه، فلذلك دائما شوف دائما تنفع هذه الأشياء؛ ولذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ عن يونس لما ألقي في البحر والتقمه الحوت، قال: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ 143 لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ144﴾ [الصافات: 143 - 144]؛ لولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه، لكنه كان من المسبحين وعنده سابقات خير كثيرة فنفعته.

فالإنسان يعمل في الرخاء أشياء كثيرة، هذه تنفعك؛ صلوات في الليل، ختم قرآن، صيام في الرخاء، صدقة في الرخاء، هذه بعدين تجد رصيدا لك ينفعك، ولذلك شوف قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾؛ مثل ما صرفنا عنه ومثل ما مننا عليه الشيء، نصرف أيضا عنه السوء والفحشاء.

لماذا؟ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]؛ الذين نحن أخلصناهم، وفي قراءة **"المُخلِصين"** الذين أخلصوا أعمالهم لله وقدموها لله، لا رياء ولا سمعة، والله أخلصه ولذلك نفعه هذا الشيء.

قال الله بعدها: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ [يوسف: 25]؛ لما رأت منه هذا الموقف الصارم القوي ولم يتنازل، فر منها هاربا من هذه الفتنة، فلحقت لحقته بقوة، وتسابقوا عند الباب.

هذا الباب قال أهل التفسير: **"هو الباب الذي يخرج إلى الخارج"**، فتسابقوا إليه؛ ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: 25]؛ قدت يعني قطع القميص من أعلى إلى أسفل، القَد الشق القميص من أعلى إلى أسفل، قدت قميصه من دبر من خلف؛ إذا هو يهرب وهي تلحق به فأخذت بثوبه وشقت الثوب من دبر، ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ [يوسف: 25].

ألفيا وجد سيدها لدى الباب؛ يعني سيدها يعني زوجها، زوجها تعظيما لحق الزوج سمى السيد والبعل، فلما وصلوا الباب إذا الزوج يفتح الباب أو يريد الدخول، فوجد سيدها لدى الباب.

فهي مباشرة لأن مكرها شديد وخبثها شديد وأرادت أن تطهر نفسها وتبرئ نفسها مباشرة تكلمت فقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: 25]؛ الذي يريد بأهلك، تقول أنا زوجتك وأنا أهلك، والذي يريد فيَّ سوء ماذا تصنع به؟

شوف كيف الحيلة؛ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا؟ ثم حكمت مباشرة دون أن تنتظر حكما آخر: ﴿إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ يدخل السجن أو يعذب بعذاب أليم.

فهو مباشرة لم يقف ساكنا وإنما رد، قال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: 26]؛ هي التي حاولت فيَّ وراودتني عن نفسي، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: 26]؛ شهد شاهد، حضر حاضر من أقاربها؛ من هو؟ الله أعلم، قد يكون ابن عمها أو ابن خالها أو أي شخص.

حتى قال بعض المفسرين: **"عنده طفل صغير تكلم في المهد والله أعلم بذلك"**. شهد عليه شيء، قال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: 26]؛ أنه هو المعتد وهو من الكاذبين في أنه يقول راودتني، ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 27]؛ كذبت في دعواها وهو صادق فيما قال.

فلما رأى من هو؟ العزيز زوجها لما رأى قميصه قد قطع وشق من دبر عرف؛ قال: ﴿إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: 28]؛ أي هذا من مكرك أنتِ وحيلك كيدكن، إن كيدكن عظيم خبيث وعظيم وشديد.

ثم لما عرف الحقيقة قال ليوسف: ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: 29]؛ لا تحدث به ولا تخبر به أحدا أبدا، واكتم هذا الخبر واسكت عنه، أعرض عن هذا. وأما أنتِ: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 29]؛ قد وقعتِ في أمر سيئ فاستغفري استغفري الله لذنبك، إنكِ كنتِ من الخاطئين.

ما معنى الخاطئين هنا؟

ليس الخاطئ هنا معناه الذي يفعل الشيء يعني أن نقول يفعل الشيء وهو لا يريده، لا؛ الخاطئ هنا المتعمد، ليس الخاطئ الذي يفعل الشيء ولا يتعمد، وإنما هذا قال: إنكِ من الخاطئين أي المتعمدين الخطأ، المتعمدين الفعل في هذا الشيء.

ولذلك الله يقول في سورة أخرى: ﴿لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: 37]؛ يعني المتعمدون. فالخاطئ غير المخطئ، الخاطئ غير المخطئ؛ فالخاطئ الذي يفعل شيئا تعمده، والمخطئ الذي يفعل شيئا ولا يريده ولكن يقع فيه بالخطأ، ففرق بين هذا وهذا.

إلى هنا انتهى ما جرى في هذه القصة بين امرأة العزيز ويوسف وزوجها، بعد ذلك ما الذي حصل؟ يأتي الكلام عنه إن شاء الله في اللقاء القادم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(209)
(يوسف 30 - 42)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الأربعاء، الموافق للثاني عشر من شهر جمادى الآخرة من عام سبع وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة، نجلس هذا المجلس المبارك، ونسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، نقرأ آيات من كتاب الله، نتأملها ونتفكر فيها، ونسأل الله أن ينفعنا بها.

سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذه السورة كما لا يخفى على الجميع هي في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من بداية نشأته إلى آخر المطاف، وآخر ما ذكره الله عنه لما قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

وما الذي جرى ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من التقلبات في حياته؛ ما بين شدة ثم رخاء، ثم ذلة ثم عزة، وما بين تفرُّق ثم اجتماع. كل هذه الأمور التي يقلبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من حال إلى حال، والله لطيف بعباده؛ ولذلك قال يوسف في آخر شيء: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: 100].

لطيفٌ يأخذ بيدي العبد وهو لا يدري، ويأخذ به في المضايق وهو لا يشعر، ويسوق له الأرزاق وهو لا يشعر، لما جرى ما جرى من امرأة العزيز، وأنها راودت يوسف عن نفسه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأبى ذلك واستعصم وقال: معاذ الله إنه ربي، يعني سيدي ومولاي، أحسن مثواي، أحسن تربيتي، إنه لا يفلح الظالمون، وحاولت فيه محاولات ولم تجدِ، أو لم يظهر من ذلك شيء.

بعد ذلك انكشف الأمر أن امرأة العزيز التي تقول: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: 25]. انتهى الأمر إلى أن قال لها العزيز: ﴿اسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 29].

انكشف الأمر بأن هي التي طلبت وراودت يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن يوسف أبى واستعصم ونجاه الله، ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24].

دائمًا العبد عندما يقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24]، ليعلم أن أعماله الصالحة التي يعملها في الرخاء سيجد أثرها في الشدة. إذا ضاق بك الأمر تذكر أن عندك أعمالاً صالحة تنفعك، فإذا كنت في الرخاء استغل: **«اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: صِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَشَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»**.

استغلها في طاعة الله، ادخِر لنفسك، ستجد هذا الكنز الذي تدخره، ستجد أثره في حياتك؛ ولذلك الله ماذا قال في يوسف؟ قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24].

هذا الأمر الذي حدث لا شك أنه لابد أن تتسرب معلوماته، فشاع في المدينة، وخاصة قريب من قصر الملك، ملك مصر، وانتشر الأمر؛ لأن العزيز هو تحت الملك، وظهر الأمر أن امرأة العزيز تراود فتاها، يعني شوف الأمر العكس؛ المفترض العكس، يعني المملوك أو العبد هو الذي يحاول أن يقع في الجريمة ويحاول أن يراود أو كذا.

أما تأتي امرأة إلى مملوكها وإلى عبدها وإلى فتاها وتقوم بمراودته؛ ولذلك استنكر وتعجب كثير من النسوة. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: 30].

هذا أسلوب إنكار وتعجب منهم؛ كيف تفعل هذا الشيء؟ أصاب عقلها شيء، تقدم على فتى مملوك عندها يخدمها ويقوم بخدمتها، تأتي إليه وتتجمل أمامه وتطلب منه؛ هذا ما يمكن يُقبل أبدًا إلا هناك سر، لابد أن يكون هناك سر؛ ولذلك بدأوا يسألون؛ ولذلك سماه الله مكراء، مكر.

فلما علمت مكرهن أو لما سمعت مكرهن، شوف قال هنا: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [يوسف: 30]، أي في مدينة مصر، ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ﴾ [يوسف: 30]، تطلب من فتاها أن يأتيها، ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: 30].

شغف حبًا يعني ملأ قلبها محبة، والشغف هو غلاف يكون على القلب ما يصل أي شخص أو أي شيء إليه إلا بعد مشقة، فهي هذه المرأة وصل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى شغاف القلب إلى أن شق هذا الغلاف ودخل في قلبه.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: 30]؛ شوف كيف عبارة النسوة؟

أول شيء قالوا: ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا﴾ [يوسف: 30]، أنكروا وتعجبوا. ثم قالوا: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: 30].

ثم أتوا بأمر آخر قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: 30]. هي في هذا الضلال المبين يعني أنها أخطأت خطأً عظيمًا لا يمكن أن يُغتفر ولا يقبله أي عاقل؛ كيف تأتي إلى هذا الشيء وتفعل هذا الشيء إلا أنها أصابها جنون أو أصابها شيء في عقلها؟ كيف تأتي لهذا الأمر؟

﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: 30]. وهم يقصدون من هذا ليس هو الإنكار عليها أنها فعلت هذا الشيء؛ لا، ما ينكرون عليها، لا، إنما يريدون أن يصلوا إلى ما هو السر الذي جعلها تفعل هذا الشيء، أكيد وراء هذا الشيء أمر ما ندري عنه نحن؛ ولذلك هذا سماه الله مكرًا منهن.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ [يوسف: 31]؛ أي امرأة العزيز سمعت بمكر هؤلاء النسوة. قيل هؤلاء النسوة مجموعة عدد ليس بالكثير كانوا يعملون في أو كان رجالهم يعملون في القصر؛ منهم الخباز ومنهم الساقي ومنهم كذا ومنهم كذا، تعالوا هذه الأخبار.

فبدأوا يتكلمون في هذا الشيء، ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: 31]، دعتهن إلى وليمة إلى البيت، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ [يوسف: 31]؛ مجلساً، وسائد ومجالس، مجلس يتكئون فيه ويعني جعلت لهم متكأً مجلسًا يجلسون عليه وطعامًا يتناولونه.

قيل هذا الطعام هو الأترج وقيل لحم وفواكه؛ لأن هذه الأشياء تحتاج إلى تقطيع، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ [يوسف: 31]. فقالت: هذا الطعام أمامكم وهذه السكاكين تفضلوا، فلما اشتغلوا بالطعام قالت ليوسف: اخرج عليهن.

فجعلته في أحسن صورة، وكان معهم شيء يحمله ليقدمه أمامهم، فلما دخل عليهم وهم يتناولون هذه الفواكه واللحوم نظروا إليه فبهرهم بجماله وحسن بهائه، فأخذ بأعينهم فقطعوا أيديهم لا يدرون عن، تريد الواحدة تقطع الطعام أو اللحم أو الفواكه فقطعت يدها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ [يوسف: 31]؛ أعظمنه، شيء عظيم، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ [يوسف: 31]، تنزيه.

- كيف الله يخلق مثل هذا الشيء كالقمر؟

عجبًا أن خلق، إن الله على كل شيء قدير. ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]. أعطوه أحسن صورة وأحسن جمال، قالوا: هذا من الملائكة.

شوف استقر في الأذهان أن الملائكة هم على أحسن صورة، واستقر في الأذهان أن الشياطين على أقبح صورة؛ ولذلك الله لما ذكر شجرة الزقوم قال: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: 65]؛ لأنها في النار.

وهذه قال: ﴿مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: 31]؛ يعني على أحسن صورة وجمال، فلما حصل أنهم قطعوا أيديهن وقالوا هذا الكلام، عظموه وقالوا ليس هذا بشر هذا ملك، وأخذ بقلوبهم وبأعينهم، الآن هي عرفت كيف تتحدث معهم، قالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: 32].

هذا اللي تقولون أنتم كيف تفعل وكيف تفعل، ها ما رأيتم الآن؟ يعني كان فعلي صحيح ولا خطأ؟ ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: 32]. ثم صرحت أمامه بكل صراحة؛ شوف الأول لما كان عند العزيز وهي تقول: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: 25]، كانت تنكر، الآن صرحت ماذا قالت؟،

قالت: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: 32]، بصراحة، ﴿فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: 32]؛ امتنع بقوة، ثم هددت، هددته أمام الحاضرات النساء، قالت: ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: 32].

تقول والله لأسجننه، أدخله السجن وأذله وأجعله من الصاغرين، شوف لما جاء في السجن هي تستطيع أن تسجن، لكن هل تستطيع أن تذله؟ هو عزيز ما تستطيع؛ ولذلك شوف قال: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ [يوسف: 32] نون التوكيد الثقيلة، لما جاء في الصاغرين والذلة قال: ﴿وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [يوسف: 32] بالتخفيف؛ ما تستطيع فيه، فقالت والله لا أترك حتى يلبي حاجتي، وإلا سيسجن ويذل.

فلما رأى الأمر هكذا، و**"ذكر أهل التفسير أن كل امرأة خلت بيوسف وقالت أطع سيدتك بما تأمرك ونحن معها افعل بنا وافعل بها"**، فقال والله لا أفعل ذلك؛ ولذلك شوف ماذا قال الله سبحانه؟

قال يوسف: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: 33]. ﴿يَدْعُونَنِي﴾ [يوسف: 33] يعني النساء كلهم دعوه. ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: 33].

إن لم تصرف عني كيد هؤلاء النسوة وامرأة العزيز معهم أصْبُ إليه، يعني أميل إليهن؛ أنا ضعيف هذا إنسان أمام الشهوة وشاب ويلزمونه بقوة، قال ما أقدر إلا أنت تصرف عني يا رب.

ويعتصم بربه، شوف الاعتصام والتوكل على الله، تفويض الأمر إلى الله، ما أحد يستطيع يقول والله إيماني قوي ولا عندي كذا وعندي كذا مهما كان مهما كان، إلا أن الله عَزَّ وَجَلَّ يحفظه ويصرف عنه. ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: 33].

يقول الآن إذا فعلت هذا الفعل أصبح من الجاهلين، ما يفعل هذا إلا إنسان جاهل، ﴿وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: 34]. ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ [يوسف: 34]، شوف جاءت الفاء بسرعة، الله استجاب مباشرة، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ [يوسف: 34].

استجاب الله له وصرف هذا الكيد عنهن، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 34]. يسمع دعاء العبد إذا دعاه، وعليم بحاله، لكن متى؟ ارفع يديك وتضرع إلى الله وأسمعه دعاءك وبين حالك وضعفك أمام الله، والله لا يرد السائل، لا يرد السائر بس، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 34].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ [يوسف: 35]. ﴿بَدَا لَهُمْ﴾ [يوسف: 35] يعني ظهر لهم أمر آخر ما هو؟ من بعد ما تبين لهم الآيات أن يوسف سليم من هذا الشيء، وأن يوسف بريء، وأن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يريد هذا الشيء، وأن هؤلاء النسوة ومعهم امرأة عزيز هم الذين أرادوا هذا الفعل، بدا لهم ظهر لهم من الآيات أن في يوسف براءة؛ فماذا صنعوا؟

قالوا: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: 35]؛ يعني يسجنونه ويدخلون السجن حتى حين، لماذا؟ قالوا نبعده من القصر ونبعده من بيت العزيز، ونبعده من كلام الناس حتى ينساه الناس، ما عاد يذكرونه، نبعدهم خلاص يسجن حتى حين. كم سنة؟ حتى حين لا يدري، المهم إنه يبعد حتى لا يذكره أحد.

فلما أدخل السجن ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ [يوسف: 36]، هؤلاء الفتيان شابان يعملان في القصر عند الملك، فتيان أحدهما لما دخلوا ونظروا إلى يوسف وإلى جماله؛ جماله الظاهر وجماله الداخل من أخلاقه الحسنة وتعامله مع السجناء.

وكان يكرمهم وكان يتكلم معهم بالكلام الطيب، حتى إن الذين في السجن أحبوه محبة عظيمة ورأوا فيه من الإحسان، وكان يخبرهم أنه يؤول الرؤى ويفسر الرؤى.

فقال أحد هؤلاء الاثنين الفتيان، ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي﴾ [يوسف: 36]؛ يعني رأيت المنام، ﴿أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: 36]؛ يعني أعصر عنبًا أو زبيبًا أو تمرًا ليصبح خمرًا، يعني كأني أعمل في الخمر.

﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ [يوسف: 36]. يقول كأني رأيت نفسي إني فوق رأسي خبز والطير تأكل منه. فهذه رؤيا وهذه رؤيا، وكلاهما كانا يعملان عند الملك؛ أحدهما ساقي الملك في الخمر والثاني خباز.

وقالا إني رأيت كذا ورأيت كذا، فيوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يفسر لهم الرؤية مباشرة، استغل هذه الفرصة ودخل في الدعوة، وبدأ يبين لهم أولاً مكانته وثانيًا دعوته إلى الله والتوحيد؛ لأنهم كانوا على شرك. كيف؟

قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: 37]. كيف يقول ما يأتيكم طعام غداء ولا عشاء قبل أن يأتيكم إلى السجن أنا أخبركم ما هو هذا الطعام؟ كيف هذا من إعجاز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ الله أعطاه معجزة أنه يخبر بالأشياء الغيبية.

مثل ما كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: 49]. عيسى يقول لهم: أنبئكم بما تأكلون في بيوتكم وما تدخرون في المخازن عندكم؛ أنا أخبركم بهذا، هذا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. فيوسف أعطاه الله هذه المعجزة أنه يخبر.

قال: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ [يوسف: 37]. ثم قال هذا الأمر ليس من عندي، إنما هو من عند الله، ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: 37]. فلما بين لهم فضل الله عليه، وأن الله هو الذي علمه، دخل في التوحيد، قال من هو؟ ربي الذي علمني؟ قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [يوسف: 37].

اللي هم بيت العزيز والذين في مصر كانوا على شرك، قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: 37].

ولكنني تركت ملتهم وأصبحت وبقيت على التوحيد الذي هي ملة، قال: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ﴾ [يوسف: 38] جد أبيه إبراهيم صاحب الملة الحنيفية، ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ [يوسف: 38] جده، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ [يوسف: 38] أبوه؛ كانوا على التوحيد وعلى العقيدة الصحيحة، ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي

إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: 38].

هذا من فضل الله علينا وعلى الناس الذين منَّ الله عليهم بالتوحيد، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: 38]. لا يشكرون هذه النعمة؛ نعمة التوحيد والطاعة، وهذه حقيقة نقف عندها نحن نعيش نعمة التوحيد في بلادنا، نعمة عظيمة.

شوف من حولك من الشرك؛ الذين يطوفون حول القبور ويتمسحون بالقبور والذين يدعون الأموات: يا فلان يا فلان، المدد المدد! ماذا هذا؟ هؤلاء إذا ماتوا إلى جهنم، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: 72]. فالتوحيد نعمة فضل عظيم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: 38].

تجد الحين من أبناء التوحيد ما يعرف هذه النعمة، لا يشكرون. ثم حتى الآن يدعوهم يوسف قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ﴾ [يوسف: 39]؛ يعني عبادات كثيرة معبودين من دون الله، ﴿خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: 39]؟ نعبد أصنامًا ولا نعبد الواحد القهار؟ الواحد الذي توحَّد في كل شيء، الواحد في أسمائه في صفاته في عبادته في خلقه؛ هو الواحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القهار الذي قهر المخلوقات كلها.

- نعبده ولا نعبد هذه الأصنام؟

ثم قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ [يوسف: 40] من هذه الأصنام ﴿إِلَّا أَسْمَاءً﴾ [يوسف: 40] هي أسماء فقط، ولا هي منحوتة من شجر وحجر، ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [يوسف: 40]. ما عندكم حجة ولا دليل.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: 40]؛ الحكم لله والقضاء لله والشرع لله، ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: 40]. ما أمرنا الله إلا بعبادة الله بعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 40].

انتهى في دعوته الآن، أعطاهم دعوة التوحيد، دلهم على التوحيد. ثم الآن يأتي تفسير الرؤى اللي هم: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: 36]. الآن قال: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ [يوسف: 41]؛ ما قال أنت فلان؛ لأن في واحد منهم سيقتل ويموت؛ ولذلك ما أراد أن يصرح لهم.

قال: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ [يوسف: 41]؛ يعني سيخرج من السجن ويعمل على عمله هذا يسقي ربه خمرًا، يعني يعمل على أن يكون ساقيًا للملك. ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ﴾ [يوسف: 41]؛ يعني يقتل ثم يصلب، ﴿فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ [يوسف: 41]. هذا الخبز تأكل الطير من رأسه.

ثم قال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: 41]. أنتم تستفتون تسألونني عن الرؤية، هذه الرؤية هذه حقيقتها.

ثم عرف أن أحدهما سينجو وهو الساقي، ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ﴾ [يوسف: 42] يعني علم واعتقد ﴿أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42]. يعني أنني دخلت السجن بظلم، اذكرني قل فلان وفلان دخل السجن بظلم، ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: 42].

يعني أنسى هذا الرجل الذي خرج، نسي أن يذكر يوسف. ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: 42]. جلس، قالوا سبع سنوات مضى فيها يوسف بالسجن.

وقال بعض أهل التفسير: **"حتى ذكروا حديثًا لو أن يوسف دعا ربه وسأل الله ولم يسأل هذا، لم يقل لهذا الرجل اذكرني عند ربك وإنما سأل الله العافية وسأل الله أن ينجيه لخرج"**، ولكنه لما اتكل على هذا نُسي وتركه فبقي ولبث في السجن بضع سنين.

لعلنا نقف عند هذا القدر، نكتفي به إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(210)
(يوسف 43 - 57)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك المتجدد، وهذا اليوم هو اليوم التاسع عشر من الشهر السادس من عام سبع وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم؛ نأخذ آيات من كتاب الله ونبين ما فيها ونوضح، ونسأل الله أن يعيننا وأن يوفقنا وأن يسددنا. السورة بين أيدينا هي سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا زلنا في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما دخل السجن ولبث فيه بضع سنين.

- ما الذي جرى بعد ذلك؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا أراد شيئًا جعل لهذا الشيء سببًا، فلما أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يفرج عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وأن يخرجه من السجن جعل هناك سببًا قويًا، جعله يخرج ببراءته ومعززًا ومكرمًا، وذلك أن ملك مصر في زمانه رأى رؤيا.

وهذه الرؤيا أهالته واشتد وبحث عن تفسيرها فلم يجد أحدًا يفسرها له، وجمع جلساءه وجمع حاشيته والملا، وأحضر أيضًا الذين يفسرون الرؤى؛ أهل التعبير وأهل الرؤى، وتعذروا كلهم ما استطاع أحد منهم أن يستطيع أن يفسر هذه.

فماذا جرى؟ هناك أحد الفتيين الذين دخلا السجن، ودخل لما دخل السجن يوسف دخل معه فتيان ورأى كل منهما رؤيا فسرها يوسف وقال: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: 41].

يعني هذا سيخرج ولن يصيبه شيء وسيرجع إلى عمله؛ لأنه كان ساقي الملك خمرًا، وأما الآخر فيصلب ويموت ويصلب وتأكل الطير من رأسه.

فلما حُكم لهم وخرج هذا الذي سلم من الموت وأصبح ورجع عند الملك يعمل تذكر أن يوسف الذي في السجن هو الذي يفسرها فقال: أرسلوني إليه.

نسمع الآيات، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ۖ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: 43].

يعني الملك رأى في منامه هذه الرؤيا؛ أنه يرى سبع بقرات سمان طيبات ومن ورائهم سبع عجاف ضعاف هزيلات، يأكل هؤلاء السمان الضعيفة، تأكل السمينة.

ثم أيضًا رأى سبع سنبلات خضر وحولها سبع سنابل يابسات، سنبلات يابسات، هذه اليابسات قد التفت كأنها تريد أكلها، التفت حولها حول الخضر، فتعجب هذا الملك؛ ما هذه الرؤيا؟ وبدأ يبحث.

قال: **"يا أيها الملأ"** حاشيتهم التي حوله، ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: 43]، إن كنتم تعرفون تفسير هذه الرؤى فسروا لي هذه الرؤية التي رأيتها [2، 3]. فما استطاعوا، قالوا: ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: 44].

أضغاث يعني جمع مجموعة أحلام، يعني هذه الأحلام غير الرؤى؛ الرؤية من الله والحلم من الشيطان، فقالوا: هذه خزعبلات ورؤيا ليست رؤيا، هذا حلم من الشيطان، اترك أحلام مختلطة مع بعض ما لا تلتفت إليها؛ ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ [يوسف: 44].

ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ [يوسف: 44]. يقول: هذه الأحلام نحن لا نشتغل فيها، نحن نشتغل بالرؤى التي تُرى، أما الأحلام ما نتنزل لها ولا نثبت إليها، اتركها عنك.

- لماذا قالوا هذا الكلام؟

لأنهم عجزوا عن تفسيرها، فبدأوا يعني يتعذرون بأعذار لن تُقبل، فلما عجزوا وقفوا صامتين والملك تحير، حتى يظهر قدر يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما عجزوا، ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: 45]. قال الذي نجى سلم وخرج من السجن، نجى منهما واذكر بعد أمة؛ تذكر بعد زمن طويل، يوسف لبث في السجن مدة.

قال: **"أنا أنبئكم بتأويله"** هذه الرؤيا أنا أخبركم بها، فأرسلوني، أُرسلت إلى وين؟ قال: ارسلوني إلى السجن، قالوا: اذهب. فلما جاء إلى السجن دخل قال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 46].

وصفه بأنه صادق كثير الصدق، افتنا أخبرنا أفسر لنا هذه الرؤية في سبع بقرات سمان يا سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخرى يابسات، لعلي أرجع إلى الناس ينتظرون، لعلي أرجع الناس لعلهم يعلمون تفسيرها.

فشوف، إذا أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعزز ويكرم أولياءه يجعل هناك أسبابًا مثل ما ذكرنا، شوف يوسف لما لو أن يوسف فسرها مباشرة دون أن يجمع الملك الملا ويجمع المفسرين ما كان لها وقع، لكن لما يجمعهم ثم يتعذرون ثم يأتي يوسف، يدل على أنه له حتى هم يعرفون قدره.

- ولذلك في قصة سجود الملائكة كيف سجدوا؟

لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للملائكة: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 31]. مسميات هذه الأشياء، أخبروني بأسمائها، ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 32].

اعتذروا، ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: 33]. فلما أخبرهم عرفوا قدر آدم فسجدوا له، هكذا عرفوا قدره.

يوسف لما جاءه هذا الرجل الساقي ما عنفه وقال: وين أنا قلت لك اذكرني عند ربك وتركتني؟ ما كلمه ولا ذكر لك شيء أبدًا، مباشرة فسر له الرؤيا فقال: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: 47].

يقول: ازرعوا، تزرعون يعني ازرعوا سبع سنين دأبًا يعني مستمرة، لا تتوقفون في هذه السبع أبدًا، يعني لابد أن تبذلوا جهدكم في زراعة هذه السنين المتوالية السبع دأبًا.

فما حصدتم من هذه الحبوب فذروه في سنبله، لا تدوسوه ولا تخرجوه من سنبله، اتركوه. لماذا؟ لأنه يسلم من التلف، إذا كان في السنابل ما يصيبه لا سوس ولا شيء، يبقى سنين طويلة يبقى ما يتغير.

فقال: اتركه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون تحتاجونه، أما البقية فادخلوه في الخزائن بسنابله.

قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: 48].

ثم ياتي بعد هذه السبع التي تزرعون فيها ياتي من بعد ذلك سبع شداد.

شوف السبع الأولى سبع ممطرة وفيها خير، وهذه سبع شداد فيها الجذب والقحط ما فيها مطر، خلاص ما يستطيعون أن يزرعوا، فقال: ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد، سبع سنوات شديدة عليهم، يأكلن ما قدمتم لهن؛ يعني يأكل الذي في خزائنكم التي أنتم حفظتموها في السنين السبع، ما قدمتم لهن إلا قليلاً مما تحصنون، إلا قليلاً مما تحفظونه لكم، خذوا واتركوا يعني أشياء تُحفظ لكم عند الحاجة.

ثم بعد مضي السنين السبع الشديدة هذه التي فيها قحط وجذب وليس فيها زراعة ولا مطر، قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49]. يعني ستأتي أمطار وسيول وستكون سيكون عام خير يغاث به، وفيه يعصرون، حتى يعني سينتج هذا العام نتاج قوي سواء في الحبوب أو في الثمار.

حتى الناس يعصرون من شدة كثرة الفواكه، يعصرون الزيتون ويعصرون الحمضيات وغيرها لأنها فاضت وكثرت، قال لما فسر يوسف هذه لهذا الرجل انطلق مباشرة إلى الملك وأخبره بالخبر، قال: كذا وكذا وكذا.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾ [يوسف: 50]. أحضروا لي هذا الرجل الذي اسمه يوسف وفسر هذا التفسير ومن عندي وحولي كل الملأ عجزوا عن ذلك، أحضروه لي. فقال: ائتوني به.

فلما جاءه الرسول، جاءه المندوب من الملك قال: اخرج يا يوسف من السجن، خلاص اخرج الآن الملك يريدك، قال: لا لن أخرج، لماذا؟ قال: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 50]. ارجع إلى ربك إلى سيدك الملك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن، اسأله أول ليش قطعوا أيديهم؟

- شوف ما ذكر امرأة العزيز ليش؟

احترامًا لزوجها العزيز الذي أكرمه ورباه، ستر عليها ولم يذكر شيء، وإنما خص النسوة؛ النسوة ستكشف الأمر، فقال: اسألهم أول ليش قطعوا أيديهم، خلوني أنا في السجن الآن واسألوه ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ثم قال: **"إن ربي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكيدهن عليم"**، إن ربي بكيدهن عليم، الله يعلم كيدهن؛ لأن عندهن كيد، وكانوا يعني طلبوا منه أن يخضع لامرأة العزيز وأن يستجيب لما تدعوه ولكنه أبى وامتنع وشدوا عليه هؤلاء النسوة، فقال كيدهن الله عليم به.

فلما رجع هذا الرسول والمندوب للملك قال: إن يوسف يقول لا أن أخرج حتى تسأل النسوة. قال: ما هي القصة؟ الملك قد لا يدري ما هي القصة، قال القصة كيت وكيت وكيت وفعل كذا وفعل، أعطوه كل القصة بحذافيرها، وأن امرأة العزيز راودته، وأن إلى آخره.

فقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: 51]. ائتوني بالنسوة، فجاؤوا بالنسوة ومعهم امرأة العزيز، فقال: ما خطبكن ما شأنكن إذ راودتن يوسف؟ أنتم راودتوه عن نفسه تريدون منه أن يفعل فاحشة، ما خطبكن لماذا أنتم طلبتم منه؟ اعترفوا.

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: 51]. قلنا حاشي لله تنزيهًا لله وتعظيمًا لله، ما علمنا عليه من سوء؛ هو بريء وسليم وعفيف وبعيد عن ذلك، ما علمنا عليه من سوء، فهم ما فعلوا معه شيء، إنما حضروا وأمروا بهذا الشيء، أو يعني أرادوا منه هذا الشيء وهو مستعصم وبعيد عن ذلك.

قالت امرأة العزيز وهي الحاضرة عند الملك: ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: 51]. الآن حصحص الحق، الآن ظهر الحق، أنا أعطيكم الآن دون أن أخفي شيئًا، الآن حصحص الحق، أنا راودته عن نفسي، أنا الذي اعتديت وفعلت إلى آخره، راودته عن نفسه، وإنه يوسف لمن الصادقين والبريئين والعفيفين أشد العفاف.

ثم قالت: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: 52]. ذلك ليعلم، أي ذلك الكلام الذي أقوله ليعلم يوسف أني لم أخنه بالغيب، يعني أنا لا أريد يوسف الآن في السجن ولا أريد أن أقول شيئًا عليه ولا أخونه، إنما هو بريء لم أخنه بالغيب، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين.

وقالت أيضًا: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: 53]. أنا ما أبرر نفسي، كل يقع في الحرام، إن النفس لأمارة بالسوء، لكن من قوي على نفسه استطاع أن يردها، وإلا تأمر بالسوء إلا من رحمه ربي الذي يرحمه الله ويستثنيه من ذلك، إن ربي غفور رحيم.

هذا كلام امرأة العزيز في مجلس الملك، وأنها قالت هذا الكلام الواضح وأنها هي التي راودت وأن يوسف سليم وبريء، ولا تريد أن تخون يوسف ولا غيره. فلما ظهر الحق وحصحص، ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: 54].

ائتوني به استخلصه بنفسي، الآن خلاص ظهر، رجعوا إلى يوسف قالوا حصل كذا أو كذا عند الملك والآن الملك يريدك، قال: الآن أخرج مادام ظهرت براءتي الآن أنا أخرج.

فقال الملك: ائتوني به استخلصه لنفسي؛ يعني أجعلُه خليصًا عندي، أجعلُه من المقربين عندي لنفسي، لما فيه أولاً من العلم وتفسير الرؤى وثانيًا من العفاف يعني سلامة الداخل والخارج، فقال: ائتوني استخلصه لنفسي.

فلما كلمه وصل إليه وجلس معه وكلمه وأعجبه كلام يوسف ورجحه عقله، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: 54]. قال: إنك اليوم لدينا مكين أمين، نمكنك وأنت أمين في عندنا، تعمل عندنا في يعني في شؤون البلاد.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55]. قال: اجعلني على خزائن الأرض، الآن الأرض هذه وأرض مصر والمزارع تحتاج إلى من يقوم عليها بدقة؛ لأنها ستأتي سنين خصبة ثم تأتي بعدها سنين عجاف شديدة، لابد أن تكون هناك من يقوم بهذا العمل حتى لا تضيع الأمور.

قال: اجعلني على خزائن الأرض، إني حفيظ لخزائنها وعليم كيف أتصرف بها وكيف أوزعها على الناس، اجعلني على خزائن الأرض. والإنسان إذا كان عنده قدرة على الشيء ويعرف أن هذا المكان لا يسده إلا هو، ويعرف من نفسه أنه يقوم بهذا العمل لا مانع، لا مانع أن يعرض نفسه، وإلا الأصل لا يعرض نفسه على مثل هذا الأمر.

☜ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا»**.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56]. وكذلك مكنا ليوسف، جعلناه متمكنًا في هذا المقام العظيم؛ كيف أمس في السجن واليوم في مجلس من مجالس الملك؟

شوف كيف العزة، يعني كيف الله سبحانه يرفع أولياءه بالصبر والتقوى، بالصبر واليقين، والصبر والتقوى الله يعز أولياءه، كذلك مكنا ليوسف الأرض يتبوأ منها يعني ينزل منها أي مكان، التبوؤ هو النزول في أي مكان يتبوأ من حيث يشاء.

ثم قال: **"نصيب برحمتنا من نشاء"**، نعطي برحمتنا من نشاء من عبادنا، ولا نضيع أجر المحسنين، ويوسف من المحسنين؛ **"إنك لمن المحسنين"**.

ولا نضيع أجر المحسنين هذا في الدنيا، أما في الآخرة: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: 57] [9، 10]. ولا أجر الآخرة خير من الدنيا كلها، ولا أجر الآخرة خير لكن للذين آمنوا وكانوا يتقون؛ الذين آمنوا وصدقوا بما جاءهم عن الله، وتمسكوا بشرع الله، واتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ وخافوه، هؤلاء الآخرة خير لهم من الدنيا.

بعد هذا، هذا تمكين وأصبح يوسف هو الذي يدير خزائن مصر، كما يقال الآن وزير المالية، أصبح يتصرف ويديرها إدارة متقنة. وأصبح في هذا المقام جاء إخوة يوسف، لأن متى جاؤوا؟ بعد مضي هذه السنين، السنين الخصبة هذه الناس لا يحتاجون أن يأتوا إليها.

لما جاءت السنين المجعبة سنين القحط، حتى إن مصر أصابها ما أصابها من القحط وانقطعت الأمطار، كذلك من كان حول مصر، وكان يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وأبناؤه في فلسطين، أصابهم ما أصابهم من الجوع، فجاؤوا إلى مصر لأنهم سمعوا أن ملك مصر يعطي من الطعام فجاءوا يأخذون.

لما جاؤوا، الآن الآية تتحدث عن إخوة يوسف، ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [يوسف: 58]. جاؤوا إلى يوسف ودخلوا عليه، وعرفهم وهم له منكرون؛ لأنهم ما يدرون هل وصل إلى هذا المقام؟ يعني يستحيل في أذهانهم أن يوسف أصبح وزيرًا، ما يخطر ببالهم، لكن هو نظر إليهم وعرفهم.

يأتي الكلام إن شاء الله عن قصة عن هذا الموقف، والذي يعني جاءت إخوة يوسف ودخلوا على يوسف، ما الذي جرى وما الذي صار بينه وبينهم، هذا يأتي الكلام عنه إن شاء الله في اللقاء القادم.

نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(211)
(يوسف 58 - 76)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بالهدى إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك المتجدد من كل أسبوع، وهذا اليوم هو اليوم السادس من شهر جمادى الآخرة من عام سبع وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة، نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

ولا ننسى أيها الإخوة الكرام أن هذا المجلس المبارك الذي نجلسه قد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه أنه تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين الموجودين يستمعون لهذا الدرس في الملأ الأعلى بالذكر الحسن؛ نحتسب الأجر في هذه الدقائق المباركة، ونسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

سورة يوسف وقصة يوسف التي قال الله عنها أحسن القصص، هي أحسن القصص في كتاب الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: 3].

ولا زلنا نقلب صفحات هذه القصة العجيبة، ووقف بنا كلام أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رفع يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه المنزلة الكبيرة، حتى وصل به المقام إلى أن يكون على خزائن الأرض؛ على خزائن أرض مصر، هو الذي يديرها وهو الذي يدبرها بأمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 55]. أي حفيظ لهذه الخزائن؛ لأن ستأتيهم هذه السنين السبع العجاف، اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم، حافظ لها وعالم كيف أتصرف فيها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56]. إذاً يوسف وصل هذه المنزلة بأمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وفضل من الله، يقول مكنا له؛ مكنا يوسف الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، يتصرف فيها ويتنقل من مكان لمكان حيث يشاء.

أصبح هو عزيز مصر، بدل من أيام ماضية كان عند عزيز مصر مملوكاً، الآن أصبح هو عزيز مصر يتبوأ منها حيث يشاء، قال الله: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: 56]؛ حتى نعرف أن هذا الفضل وهذا التمكين ليس خاصاً بيوسف، بل رحمة الله واسعة ويمكن من يشاء من عباده، ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 56].

أي إنسان يحسن ولو بمثقال ذرة، ولو يحسن لحيوان، لو يحسن لأي شخص؛ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين، وفوق ذلك ما هو؟ ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: 57].

- وتمضي الأيام ويوسف يدير خزائن مصر، ما الذي جرى؟

هذه السنين العجاف التي أصابت مصر قد أصابت غيرها من أطراف مصر، حتى وصلت إلى الديار التي يسكنها يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأصابهم من القحط والجدب حتى اضطروا إلى

الذهاب إلى مصر؛ لأنهم علموا وقد أخبر يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أبناءه أن هناك في مصر ملكاً أو عزيزاً فيه خير، وأنه يعني يعين الناس على هذه النوائب الشديدة التي أصابتهم.

فذهب إخوته واسمهم عشرة إلى مصر، فماذا جرى لما ذهبوا؟ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [يوسف: 58].

دخلوا مصر وذهبوا إلى هذا المكان الذي فيه الخزائن يريدون الميرة والطعام لحاجتهم، فلما دخلوا عليه عرفهم يوسف؛ عرفهم وعرف أشكالهم ووجوههم، وهم لم يعرفوه.

لم يخطر ببالهم أن يوسف في هذا المقام وزيراً، يظنون أن يوسف تاه في الأرض وهلك ومات أو لم يصل إلى هذه المكانة أبداً، ولم يخطر ببالهم. ثم أمر آخر؛ أن يوسف العزيز لا يخرج إلى الناس بهيئته، إنما يخرج بهيئة الملوك ولباس الملوك من التيجان المذهبة واللباس الذي يليق بمقامه، فلم يعرفوه.

ولذلك قال: ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [يوسف: 58]. شوف جملة ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ فعلية، و﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ اسمية؛ يعني هو عرفهم بحالهم لكن هم أثبتوا إثباتاً أن هذا ليس بيوسف، ولو قيل لهم أن هذا أخوكم يوسف لم يصدقوا أبداً.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ [يوسف: 59]. الجهاز هو الطعام الذي تحمل به الإبل، جهز لهم وأدخلهم عنده وجلس معهم وبدأ يسألهم، وأكرمهم عنده جعل لهم مقام إكرام، ثم بدأ يسألهم ويستدرجهم في الكلام: من أين أتيتم؟ وما حالكم؟ وما الذي دعاكم إلى هذا المكان؟

ولماذا؟ وبدأ يسألهم: وأين من الذي عندكم هناك؟ قالوا: عندنا أب نبي ابن نبي ابن نبي، وعنده أخ لنا ليس أخاً لنا شقيقاً، وإنما أخذه والده عنده ولا يسمح لنا أن نأخذه.

وبدأ يستدرجهم بالكلام فأكرمهم إكراماً عظيماً، ولذلك قال لما جهزهم للطعام: ﴿ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: 59].

أنتم تقولون أن لكم أخاً من أبيكم ائتوني به وأكرمه مثل ما أكرمتكم، ثم أزودكم، أنتم ستأتون مرة أخرى لأنه ليس عندكم طعام ستضطرون، فإذا جئتم المرة القادمة ائتوا به حتى أزودكم حمل بعير، فيصبح الحمل زائداً لكم.

فبدأ يستدرجهم بهذا الكلام فقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ [يوسف: 59]؛ أعطيكم الكيل وأوفي وأزيدكم من الطعام، ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: 59]؛ المكرمين الذين ينزلونكم المنازل الطيبة، أنزلهم وأكرمهم وأسكنهم عنده وأنا خير المنزلين.

﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: 60]. إذا لم تأتوني في المرة القادمة ولم يحضر معكم فلا كيل لكم عندي لن أبيعكم ولن أعطيكم شيئاً من الطعام، ابحثوا عن غيري ولا تقربون بلدي أبداً.

فلما رأوا منه هذا الكلام قالوا: ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف: 61]. نراود يعني نحاول محاولات مع أبيه لعله أن يأتي، ﴿وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ [يوسف: 61] تأكيد إلى أنهم سيراودون بقوة حتى يفعلوا أن يأتوا به، ثم إن يوسف أيضاً حاول فيهم وبعد محاولاته أيضاً زادهم إكراماً، بعد ما أكرمهم الإكرام الأول زادهم إكراماً آخر.

- ما هو الإكرام الآخر؟

﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: 62].

قال لفتيانه وعماله: اجعلوا الأموال التي أتوا بها ردوها في رحالهم، اجعلوها فوق الطعام، لعلهم يرجعون حتى إذا انقلبوا ورجعوا إلى أهلهم وفتحوها ووجدوا هذا الطعام معهم والأموال التي اشتروا بها رجعت إليهم، هذا يكون دافعاً قوياً إلى أن يرجعوا مرة أخرى.

فلما رجعوا إلى أبيهم ووصلوا إلى أبيهم، وخرجوا من مصر، قالوا: ﴿يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: 63].

بدأوا بأنهم لن يذهبوا مرة أخرى حتى يكون هذا حافزاً قوياً لأن يسلم لهم أخاهم، فقالوا إن عزيز مصر قد منعنا أن نقترب من عنده أو نأخذ منه، منع منا الكيل، وقال لا تقربون، فأرسل معنا أخانا المرة القادمة نكتل؛ أي نأخذ كيلاً من عنده ونزيد، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [يوسف: 63].

فهذا الأمر لما قالوا **"إنا له لحافظون"** وأرسله معنا، هذا حرك في يعقوب الأحزان السابقة لما أخذوا يوسف وقالوا إنا له لحافظون ولم يردوه، فلم يوافقهم.

فقال: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 64].

- هل أنا آمنكم عليه؟

أعطيكم هذا مثل ما أعطيتكم الأول فيذهب علي، لن أسلمه لكم أبداً، هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل؟ ثم لما شعر أن الأمر ضروري وأنهم محتاجون إلى الطعام قال: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 64].

قال بعض أهل العلم وهذه فائدة: **"يقول في الأول قال أخاف يأكله الذئب فذهب عليه، لما قال فالله خير حافظاً رجع أولاده جميعاً"**.

فالله خير حافظ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكل إنسان يحفظ دين الله ويحفظ شرع الله ويحفظ ما أمره الله به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإن الله يحفظه: **«احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»**. فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين بنا.

فلما قال هذه العبارة فكأنه نعم، وقال الله خير حافظاً إن ذهبتم وهو أرحم الراحمين سيرحمني بأبنائي. ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: 65].

الدراهم ردت إليهم، فقالوا يا أبانا ما نبغي، هل تريد أكثر من هذا الشيء؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا، يعني أصبح معنا دراهم، ويوسف قصد بذلك ماذا؟ إذا صارت الدراهم بأيديهم سيرجعون بسرعة لأن الأموال معهم متوفرة، وهذه خطة من يوسف.

فقالوا: ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ [يوسف: 65]؛ أي نزود أهلنا بالطعام، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: 65]. قالوا ونحفظ أخانا الذي سيذهب معنا، أكدوا على حفظه مرة ثانية، ونزداد كيل بعير؛ يعني إذا كانت الإبل التي تأتي معنا عشرة على عددنا نزيد واحداً فيصبح أحد عشر.

ثم قالوا: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: 65]؛ ما هو الكيل الذي أتينا به من مصر، هذا قليل لن يبقى عندنا إلا أياماً قليلة وينتهي، ذلك كيل يسير وسنضطر أن نذهب مرة أخرى. ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: 66].

ما زال متمسكاً بابنه، لن أرسله معكم حتى تؤتوني معاهدة قوية، مع أنه قال الله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين إلا أنه شد عليهم، فقال أعطوني مواثيق قوية وأيماناً أنكم تردونه لي، ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: 66] إلا إذا أراد الله أمراً آخر خارج الإرادة فأنا لا أملك وأنتم لا تملكون،

فلما آتوه موثقهم وعاهدوه وعقدوا هذه الأيمان أمامه، ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: 66].

شوف يفعل الأسباب ويتوكل على الله، لا يفعل الأسباب فقط ولا يتوكل، أو يتوكل ولا يفعل الأسباب، الاعتماد على الأسباب هذا شرك لأنك تعتمد على السبب ولا تعتمد على الله، والتوكل من غير فعل الأسباب هذا قدح في الشرع، فالله ما أمر بهذا الشيء.

فالإنسان يكون بين هذين الأمرين؛ يفعل الأسباب ويتوكل على الله. هذا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فعل الأسباب وأخذ المواثيق وتوكل على الله، ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: 66].

ثم أيضاً من اتخاذ الأسباب قال: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67].

إذا ذهبتم أنتم الآن أحد عشر فلا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة؛ لماذا؟ خاف عليهم من العين، والعين خطيرة، الإنسان يحفظ نفسه من العين التي تصيبه من الناس من الحسد، الحسد خطير.

الإنسان يحفظ نفسه بالأذكار ولا يعرض نفسه ويظهر أمام الناس نعم الله عليه؛ الناس يحسدونك، تظهر وتصور ما في بيتك من أثاث ومن أطعمة.

ما الهدف من ذلك؟ الناس يحسدونك، ويصيب الناس كثير من الأعين، كما قيل يقول: **"العين أدخلت الرجل القبر وأدخلت الإبل القدر"**.

العين خطيرة؛ هذا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة حتى لا تصيبكم العين، ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: 67]. أنا لا أدفع عنكم شيئاً أراده الله لكن اتخذوا الأسباب، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: 67]؛ الحكم بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكنني أفعل الأسباب، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: 67].

شوف التوكل مع يعقوب يتنقل معناه، يقول والله على ما نقول وكيل، ثم يقول وتوكلت على الله، ثم أيضاً يرشد الناس قال وعليه فليتوكل المتوكلون. ما معنى التوكل؟ هل تعرف التوكل؟ هل تطبق في حياتك التوكل؟

أن تفوض أمرك كله لله؛ الصغير والكبير وكل شيء، ما تملك لنفسك شيئاً، حتى النظارة لو تريد أن ترفعها تتوكل على الله، حتى حذاؤك تلبسه تتوكل على الله، معنى أنك ما يأتيك بالخير إلا الله ولا يدفع عنك الشر إلا الله.

التوكل هو اعتماد على رب العالمين بكل حياتك؛ في طعامك وشرابك ونومك وصلاتك وعباداتك وذهابك ومجيئك، فوض أمرك إلى الله وتوكل على الله. هذا يعقوب توكل على الله فلم يضيعه.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 68].

لما دخلوا من أبواب متفرقة أبواب مصر، لم يدخلوا من باب واحد، ما دفع ذلك من الله من شيء، لم ينفعه ذلك من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها.

- ما هي الحاجة التي قضاها؟

أنه علمهم وأرشدهم وحثهم على الخير، وبين لهم أن التوكل لا يتعارض مع القدر، أن توكل على الله واستعن بالله والله يقضي ما شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقضي لك الخير ويدفع عنك الشر، أنت عليك أن تتوكل وإذا قضى الله أمراً هذا ليس بيدك.

أثنى الله على يعقوب بهذا الثناء العظيم فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: 68]؛ أي أعطيناه علماً عظيماً، نبي ويوحى إليه، علمه الله، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 68].

هذا العلم الذي علمه يعقوب كثير من الناس يجهلون هذه الأشياء؛ التوكل وتفويض الأمر وإلى آخره، كثير من الناس يجهلونها وتغيب عنهم. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 68] منزلة يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه ذو علم وذو مكانة عند الله.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: 69]. دخلوا من أبواب متفرقة ودخلوا على يوسف كما وعدوه، أتوا بأخيه.

ذكر بعض أهل التفسير: **"أنه وزعهم فجعل كل اثنين في مكان، فلم يبق إلا الأخير واحداً لم يبق معه أحد فضمه إليه وأدخله عنده"**.

فلما أدخله عنده، وهو يقصد ذلك وهذه كلها التخطيط والحيل بأمر من الله وبوحي، وبنفس الوقت يريد يوسف أن يصل إلى أمر يريده، آوى إليه أخاه قال: ﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: 69].

أنا أخوك وشقيقك فلا تحزن ولا يضق صدرك بأعمالهم السيئة التي عملوها معي وعملوها معك أيضاً، لأنهم أيضاً كانوا يسيئون إلى أخيهم، فقال لا تحزن ولا تبتئس بما كانوا يفعلون.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: 70]. المرة الثانية جهزهم كلهم بطعامهم، جعل السقاية في رحل أخيه؛ والسقاية هي الصواع، مشربة يشرب بها وكانوا يستخدمونها للميرة والطعام وهو الصاع، جعل السقاية في رحل أخيه، وهو ما باشر هذا الأمر وإنما كان يوصي الفتيان والعمال فوضعوها من حيث لا يشعرون في رحل أخيه.

ثم أذن لما انطلقوا راجعين إلى أبيهم، أذن مؤذن نادى منادٍ بصوت: ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: 70]؛ والعير تطلق إما على الإبل المحملة أو على مجموعة من الإبل، اتهموهم بالسرقة.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [يوسف: 71]. أقبل عليهم إخوته وقالوا ماذا تفقدون؟ أنتم تقولون نحن سارقون وتتهموننا بالسرقة، ماذا تفقدون؟ ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: 72].

نفقد صواع الملك، ولمن جاء به حمل بعير كامل؛ **"هذه ما يسميها أهل العلم بالجعالة، من يحضر لي كذا فله كذا"**.

﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: 72]؛ أي كفيل، وهذا يدل على مشروعية الكفالة أنك تكفل شخصاً بكذا وكذا. ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: 73].

تالله أقسموا، لقد علمتم وعرفتم ما جئنا لنفسد، لا نريد الفساد ونحن أبعد الناس عن الفساد، نحن أبناء أنبياء وأخلاقنا واضحة معروفة، وما جئنا للاستطلاع وما كنا سارقين أبداً.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ [يوسف: 74]. ما جزاء الذي معكم وقد سرق الصواع؟ ما جزاء من كان كاذباً في كلامه؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: 75]. شوف خطة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه يريد أن يحكم بحكم يعقوب؛ لأن حكم مصر يختلف، شريعة ملك مصر غير شريعة يعقوب.

شريعة يعقوب أن الذي يسرق فإنه يصبح مملوكاً لمن سرق منه، يصبح عبداً عنده لمدة سنة أو سنتين حسب السرقة، وأما في حكم ملك مصر لا يحكم به إنما يغرم أو يجلد أو نحو ذلك.

ولذلك يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أراد حكم يعقوب، فقالوا باعترافهم جزاؤه من وجد في رحله الصواع في رحله فهو جزاؤه، يحكم بهذا الحكم، كذلك نجزي الظالمين.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:

76]. بدأ يوسف أو أوصى الفتيان بأوعيتهم قبل وعاء أخيه، ترك وعاء أخيه للأخير، ثم استخرجها من وعاء أخيه.

قال الله: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: 76]؛ مثل ما كدنا له، ما كان ليأخذ أخاه في دين ملك مصر، لو حكم به ما يأخذ أخاه إنما يدفع غرامة أو يجلد، لكن كاد الله له. والكيد هنا هو الحيلة في أخذ الشيء، والكيد قد يكون حراماً محرماً وفيه ظلم للآخرين، وقد يكون مباحاً وفيه مصلحة، ولذلك الله وصف نفسه فقال: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: 16].

الله يكيد لأوليائه ويكيد على أعدائه، فالكيد لا نقول إنه لا يجوز، أحياناً يكيد الإنسان ليحصل على مصلحة عظيمة بحيث إنه ما يظلم أحداً ولا يخطئ على أحد، فهذه الحيل إذا هي في مصلحة وليس فيها ضرر على الآخرين فهذا أمر جائز.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: 76]؛ كما رفع الله يوسف إلى هذه المنزلة، نرفع درجات من نشاء حتى تعلم أنت أن رفع الدرجات ليس خاصاً بالأنبياء وليس خاصاً بيوسف أو يعقوب، الخلق كلهم الذين يريدون رفع الدرجات عند الله يسألونه فيرفعهم الله، نرفع درجات من نشاء، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76].

الناس على درجات في العلم، كل عليم أو عالم فوقه من هو أقوى أو من هو أعلم، وهكذا درجات؛ فأسأل الله أن يزيدك علماً وأن يفقهك في الدين وأن يعلمك من حيث لا تدري، ففوق كل ذي علم عليم.

فأخذ يوسف أخاه عنده والآن ضمه عنده، وقال خلاص أنتم حكمتم بأنه مملوك وعبد والآن يبقى عندنا.

فماذا جرى بعد ذلك؟ وماذا صنع إخوة يوسف لما ذهب أخوهم؟ كيف سيرجعون إلى أبيهم؟ وكيف سيواجهون أباهم؟ هذا ما يأتي الحديث عنه إن شاء الله في اللقاء القادم.

نقف عند هذا القدر والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(212)
(يوسف 77 - 93)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، نُصلي ونسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا ربَّ العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في درسكم الأسبوعي مع تفسير القرآن العظيم، وهذا اليوم هو اليوم الرابع من الشهر السابع من عام سبعٍ وأربعين وأربعمائةٍ من الهجرة، نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يسددنا وأن يبارك لنا.

سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، لا زلنا نقلب صفحات هذه الآيات وهذه القصة العجيبة، وقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: 77]، بعدما كشف يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وفتش في أوعيتهم عندما تُهموا بالسرقة.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76].

فلما تبين واستخرج الصواع من رحل أخيه وتبين الأمر حاولوا أن يدفعوا عن أنفسهم التهمة، لأنهم هم أبرياء من هذا الأمر، فقالوا إن كان قد سرق هذا الأخ فقد سرق أخ له من قبل، شقيق له، يقصدون يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا كله مقصودهم تبرئة أنفسهم، وإلا هم يعلمون أن يوسف لم يسرق ولم يحدث له سرق.

وقال بعض أهل التفسير **"أن يوسف سرق وهو صغير، سرق ماذا؟ قالوا سرق صنماً لجده من أمه كان مذهباً، فأخذه وكسره"**، هذه دعوى ولا ندري عن صحتها أيضاً، لكن كلها مجرد اتهام وتبرئة لأنفسهم، قالوا: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: 77].

فأرادوا أن يتهموا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: 77]، ما رد عليهم ولم يقل ما الذي سرقه، وكيف تتهمونه، ومن هو هذا الذي تقولونه، وإنما ترك هذا الأمر وتغاضى عنه.

وهذا يستدل به بعض أهل العلم عن التغافل والتغاضي، يعني عدم التدقيق في الأشياء؛ إذا أعطاك شخص كلاماً لا يليق، أو جهل عليك، فينبغي له فينبغي ألا تجهل عليه، وينبغي أن لا، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63]، يعني قالوا سلاماً.

- ما معنى قالوا سلاماً؟

ليس مقصوده أنه قالوا سلاماً أن يقولون سلام سلام، لا، ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63] قالوا نسلم أنفسنا أن نؤذي من خاطبنا أو من أساء إلينا وأن نؤذي أنفسنا، فيسكتون، هذا معنى سلام، ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ سكت ولم يرد عليه، ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: 77].

ثم قال في نفسه: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾ [يوسف: 77]، أنتم شر ما جئتم به، وهذا الكلام الذي قال أنتم لم يكن منه في مواجهته، وإنما قاله سراً في نفسه.

وهذا الذي ذكره ابن كثير وابن جرير الطبري وغيره: **"أن أسر يوسف في نفسه هذه العبارة أسرها"**.

قال: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 77]، الله أعلم وعالم ومطلع على ما تصفون أخاكم هذا أو تصفون أيضاً أخاكم يوسف بهذه الصفات.

ثم لما رأوا أنه لا حيلة لهم، وليس لهم مخرج، وهم يريدون أن يعيدوا أخاهم إلى أبيهم، وماذا سيكون موقفهم أمام أبيهم إذا رجعوا وقد رجعوا بغير هذا الذي أُخذ عليهم المواثيق، بدأوا أو يستعطفون يوسف ويحاولون فيه محاولات، فقالوا: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ [يوسف: 78]، أتوا بهذه العبارة تفخيماً له وبياناً لمقامه.

﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ [يوسف: 78]، يعني يريدون الاستعطاف، يقول له أب وهذا الأب شيخ وكبير، ﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ [يوسف: 78] سيتأثر إذا فقد، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 78]، شفت كيف العبارة استعطاف، خذ أحدنا مكانه، يعني إذا لم إذا لم تعفو عنه بالكلية، أقل الأحوال أن تأخذ مكانه أحداً منا، ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 78].

أحسنت إلينا في الأول وأكرمتنا وفعلت معنا من الإكرام والتقدير، فنراك من المحسنين أن تتعاون معنا في مثل هذا الأمر.

فقال: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: 79]، أعوذ بالله أن نأخذ من وجدنا أن نأخذ قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: 79]، كيف نأخذ شخصاً بريئاً ونضعه في مكان شخص قد وقع منه ما وقع؟

ولذلك شوف ما قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ما قال هنا **"إلا من سرق"**، قال: ﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: 79]، لأنه ما سرق في الحقيقة، شوف قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: 79]، أي الصواع عنده، ولم يقل إلا من سرق لأنه لم يسرق، وهذا يعني أسلوب وعبارة فيها السلامة من الوقوع في الكذب أو نحوه.

﴿إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ [يوسف: 79]، إذا أخذنا شخصاً لم تقع منه السرقة ونطلق شخصاً قد وقع منه هذا الأمر، هذا ظلم لا يجوز، ولا يمكن أن نفعل، ﴿إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ [يوسف: 79]. فلما حاولوا وتقطعت بهم السبل ولم يستطيعوا يعني أن يفكوا أخاهم، ماذا صنعوا؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80]، يعني وقع منهم اليأس من والرجاء من أن يأخذوا أخاهم، خلاص ما عاد في حيلة ولا رجاء أن يأخذوا أخاهم.

- ماذا صنعوا؟

لما استيأسوا ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80]، خلصوا يعني انفردوا بعيداً وبدأوا وهم عشرة، وبدأوا يتناجون فيما بينهم، ماذا يقولون؟ يتحدثون حديثاً خفياً فيما بينهم، هذه العبارة ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80] تكلم عنها أهل البلاغة، وذكروا أن أعرابياً لما سمع هذه العبارة ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80] قال: **"هذا ليس من كلام المخلوق، إنما هو من كلام الله"**.

وذكر بعض أهل التفسير: **"أن أعرابي آخر لما سمع قال أن يقرأ هذه الآية ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80] سجد، قالوا للأعرابي تسجد؟ هذا موضع سجود؟ كيف تسجد؟ قال أسجد لبلاغتها"**.

فهي عبارة بليغة جمعت كل ما جرى، ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: 80] يعني خلاص اجتمعوا وانفردوا وبدأوا يعني يتحدثون فيما بينهم ماذا سيصنعون الآن، ماذا سيكون موقفهم أمام أبيهم.

فقال كبيرهم وهو أعقلهم، وقيل أن هذا الذي قال هذا الكلام، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [يوسف: 80] هو الذي أشار إليهم في الأول ألا يقتلوا يوسف، وإنما يلقوه في غيابة الجب، ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ

تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ [يوسف: 80].

سأبقى في مكاني، ليس لي وجه أن أقابل أب أن أقابل أبداً، لا يمكن، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ [يوسف: 80] إذا أذن لي أبي جئت، ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: 80] ويقضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: 80]، إذا حكم الله لي بحكم فهو خير حاكم.

ثم قال لهم بتوجيهات لهم حتى قال: **"أنا لنر أنا سأبقى وأنتم اذهبوا إلى أبيكم"**، ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: 81]، نقول هذا الشيء، هذا اللي رأيناه أمامنا، نشهد إلا بشيء رأيناه أمامنا، ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: 81] حتى نحفظه ما نحفظ الغيب، الغيب يحفظه الله.

ثم أكدوا ذلك في مؤكدات عظيمة فقالوا: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82] يقصدون مصر وما حولها، ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: 82] اسأل أهلها يخبرونك بهذا الشيء، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: 82] لما أقبلنا من مصر كانت معنا قوافل كثيرة.

اسأل القوافل التي أقبلت أقبلنا هم شهدوا ذلك الأمر وأهل القرية شهدوا ونحن شهدنا، شهدنا هذا الشيء بأعيننا، ﴿وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: 82]، جاء بأساليب مؤكدة، جملة اسمية ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [يوسف: 82].

لما أُخبروا بهذا الخبر انفجع؛ كيف يذهب الثاني يذهب هذا ثم هذا، فاشتد الحزن عليه، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: 83]، زينت لكم أنفسكم أمراً أن تجعلون هذا الثاني أفقده، ولكن الأمر ليس حيلة في هذا الأمر إلا أن أصبر، فقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: 83].

شوف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: 18] جاءت في أول السورة مع يوسف، وهنا قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: 83] يعني صبري صبر جميل.

- ما هو الصبر الجميل؟

الذي ليس فيه اعتراض على قضاء الله وقدره، وليس فيه تسخط، وليس فيه شكوى للبشر، إنما أشكو بثي وحزني إلى الله، ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: 83].

ثم قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: 83]، لماذا قال هذا الشيء؟ لأنه عرف أن الأمر اشتد عليه، والكرب عظم عليه، ودائماً إذا اشتد الأمر والكرب اعلم أن وراءه فرج، اعلم أن وراءه فرجاً مباشرة؛ إذا اسود الليل جاء النهار أصبح الصبح، فلذلك هو شعر بأن الأمر اشتد عليه فعرف أن وراء هذه الشدة بإذن الله فرج قريب.

ولذلك قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: 83]، جميعاً ثلاثة، فَقَدَ ثلاثة الآن: يوسف وأخوه الشقيق والأكبر، قال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: 83] يعني الذي يعلم حالنا ويعلم ما أصابنا من الشدة والكرب، ﴿الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 83] فيما يدبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويقضي.،

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ [يوسف: 84]، أعرض عنهم وتركهم، ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: 84].

- لماذا ذكر يوسف؟

لأنهم حركوا في نفسه يعني هذا الحزن السابق لما ذكروا أنهم أن أخاه قد ذهب عليهم، ذكر هذا الموقف بألم بموقفه السابق الشديد الذي لم ينسه أبداً، ولذلك قال: ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: 84] يعني حسرتي وندمي وأسفي على يوسف الذي ذهب عليه في أول أمره وهو صغير، أما هذا قد يرجع.

﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: 84] وبدأ يبكي بكاءً شديداً وحزناً شديداً، ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ [يوسف: 84] ذهب سوادها، فإذا ذهب سوادها ذهب البصر والنظر فأصبح لا يبصر، ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ [يوسف: 84] بشدة الألم والحزن الذي أصابه والبكاء.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 84]، يعني كظيم يعني قد كظم هذا الشيء في نفسه ولم يبده لأحد، إنما بينه وبين الله، بينه وبين نفسه، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: 84].،

﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ [يوسف: 85] قسم مثل والله، ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 85] تف، يعني لا تزال تستمر تذكر يوسف في كل حالك، ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ [يوسف: 85] يصيبك مرض شديد يؤدي بك إلى الهلاك، ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: 85] تموت، فهذا ردهم عليه، فماذا قال لهم؟

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: 86]، أشكو بثي يعني أبث أوجاعي إلى الله، البث هو أصل أصله انتشار الشيء، فيقول كل ما في نفسي أرفعه إلى الله، أشكو إلى الله لا أشكو إلى أحد، لا أنتم ولا غيره، ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 86].

هو نبي ويوحى إليه وعنده علم فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 86]. ولذلك عرف وعلم يعني من سبر الأحوال والأمور على كبر سنه أن إذا أنه إذا اشتد الكرب فقد جاء الفرج، ولذلك قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: 87].

تحسسوا يعني تتبعوا وانظروا واخرجوا واسألوا بحواسكم؛ بالنظر والمشي والسؤال، ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: 87]، لا تيأسوا من رجاء الله وروحه وفرجه، لا تيأسوا لا تقطعوا فرج الله، ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

﴿الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87] هو الذي ييأس من روح الله، أما أنتم مؤمنون وتربيتم على الإيمان فلا تقطعوا اليأس، فلا تقطعوا الرجاء، ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87].

فأمرهم فذهبوا إلى حيث جاؤوا في مصر، فرجعوا إلى مصر، هذه الرحلة الثالثة هذه ذهبوا، ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ [يوسف: 88] دخلوا على عزيز مصر، على يوسف، ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ [يوسف: 88] استعطفوه استعطافاً أشد من الأول.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ [يوسف: 88] يعني أصابنا الضر والفقر شدة الفقر، ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ [يوسف: 88] بضاعة مزجاة يعني الدراهم القليلة التي لا تقبل، كلٌ يدفعها ولا يريدها لأن إذا جاء الشيء دفعه فلا يكل لا يأخذها دراهم قديمة لا يلتفت إليها ليس لها قيمة.

فجاؤوا قال ما معنا إلا هذه الدراهم وقد مسنا الفقر بشدة الفقر، ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ [يوسف: 88] أعطنا مثل ما أعطيتنا في الأول، ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: 88]، زدنا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: 88].

فلما رآهم على هذه الحال رقَّ لهم وعطف عليهم، ثم كشف لهم الأمر فقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: 89]، قال هل علمتم ماذا صنعتم بيوسف في الأول وأخيه الآن لأنكم آذيتم أخاه واتهمتموه.

قال: ﴿وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: 89] بأفعاله، لا يلمس لهم العذر، عرف أنهم فعلوه، فعلوها هذه الأشياء عن جهل، ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: 89].

﴿قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: 90] يسألون أأنت يوسف؟ لأن عرفوا من كلامه وهو بدأ يظهر لهم هذه الأشياء، ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: 90]، ما قال منَّ الله عليَّ أنا وأصبحت وزيراً وأصبحت عزيزاً، لا، ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: 90] جميعاً، منَّ الله يعني أنا وأخي، ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: 90].

ثم قال إنه بين السبب: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90]، من يلزم تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ ويراقب الله ويحافظ على أوامر الله ويبتعد عن النواهي، ويصبر على ما يصيبه ويبتعد عن الحرام، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90]، لا يضيع أجر المحسنين، شوف تقوى وصبر وإحسان، جمع بيننا ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90].،

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 91]، يقول تالله يحلفون، ﴿لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: 91] فضلك الله علينا بهذا بهذه المنزلة، ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 91]، اعترفنا يعني فعلنا هذه الأفعال معك وواجهناك بهذه الأمور واعتدينا عليك. ف

ماذا كان موقف يوسف؟ ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: 92]، ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: 92] أي لا أذكر شيئاً فيه تعيير لكم، وأتجاوز عنكم كل شيء، لا تثريب أي لا عتاب عليكم، ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: 92]، شوف جعل المغفرة من الله لأنه ذنب عظيم.

وأما هو قال أبداً لا تثريب عليكم، لا أُعيركم بهذا الشيء ولا أُعاتبكم عليه، ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: 92] خطيئتكم، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92]، ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 92].

ثم قال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ [يوسف: 93]، لما علم أن أباه قد فَقَدَ بصره فقال: **"هذا قميصي وفيه بركة الأنبياء، فيهم بركة"**، ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: 93] يرجع إليه بصره، ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: 93].

- شوف كم قميص ليوسف حصل في السورة؟

⬅القميص الأول: قالوا أكله الذئب ولطخوه بالدم.

⬅القميص الثاني: الذي قدته امرأة العزيز.

⬅القميص الثالث: الذي ألقوه على وجه أبيه.

لعل نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(213)
(يوسف 94 – آخرها)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، صلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا ربَّ العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الحادي عشر من الشهر السابع من عام سبع وأربعين وأربعمائة من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع. درسنا أيها الإخوة الكرام في تفسير القرآن العظيم، أسأل الله أن ينفعنا، وأن يبارك لنا، وأن يعيننا، وأن يوفقنا لطاعته.

درسنا في تفسير القرآن العظيم وسورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبعدما انكشفت الأمور واتضحت، ورأى إخوة يوسف أخاهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وتعرفوا عليه، لما قالوا: أإنك لأنت يوسف؟

قال: أنا يوسف وهذا أخي قد منَّ الله علينا. ثم بين السبب الذي جعله يصل إلى هذه المرتبة وهذا الخلق العالي، قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 90].

ثم أمرهم لما أخبروه عن والده يعقوب أنه قد ذهب بصره، أمرهم أن يذهبوا بقميصه، قال: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: 93]. وهذا لا شك أنه من معجزات النبوة أن الله يمنُّ على أنبيائه بمثل هذه المعجزات، أن تكون بركة في مثل هذه الأمور.

فقال: يأتي بصيراً، كيف يعلم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أن البصر يرجع بإلقاء القميص إلا بوحي من الله وبتمكين من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ يأتي بصيراً ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: 93]، طلب منهم يوسف أن يحضر أهله جميعاً إليه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: 94]. فصلت العير يعني خرجت من مصر متوجهة إلى ديار يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، فصلت العير يعني انفصلت من المكان هذا إلى مكان آخر، لما ركبوا العير وركبوا دوابهم وانطلقوا، هبت الريح على يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال: أجد ريح يوسف لولا أن تفندون، قلت لكم فعلاً إن هذا الكلام الذي أقوله حقيقة، أنا أجد ريح يوسف وهو في داره وبعيد عن مصر؛ يعني مسافة تأخذها أيام طويلة.

فقال: إني لأجد ريحه لولا أن تفندون، تحكمون عليَّ أنني قد ذهب عقلي ولا أدرك شيئاً كالمجنون، لكنني أقول لكم هذا عن علم.

فقالوا: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: 95]، يعني ما زلت تائهاً لا تدري أين، ماذا تقول؟ ما هذا الكلام؟ ريح يوسف؟ أربعين سنة أو أكثر وأنت لا تزال تكرر وتعيد علينا يوسف، إنك لفي ضلالك القديم، فلما أقبلت العير، جاء أحد إخوة يوسف وأخذ القميص معه.

قال الله: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: 96].

قال بعض أهل التفسير: **"أن الذي ألقى القميص على وجه أبيه ليدخل عليه السرور هو الذي أتى بالقميص الذي قال إن الذئب أكل يوسف وألقاه"**، فالذي أفزعه في الأول وروَّعه هو الذي أدخل عليه السرور والبشارة في هذا اللقاء.

فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً، بمجرد ألقى القميص على وجهه رجع بصره إليه.

قال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 96]. لما أقول لكم أجد ريح يوسف، وأقول لكم يا أسفي على يوسف، وأقول اذهبوا فتحسسوا، ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون؟ أنا يأتيني الوحي، أعلم من الله ما لا تعلمون.

قالوا: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 97]، قد أخطأنا عليك وأخطأنا على أخينا، فاستغفر لنا إنا كنا خاطئين. ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: 98]. ما قال سأستغفر مباشرة، قال: سوف، سوف تفيد المدة المهلة الزمنية.

ولذلك قال بعض أهل التفسير: **"إن يعقوب قال سأستغفر لكم، لكن في وقت الاستغفار وفي وقت الإجابة؛ يعني آخر الليل وقت السحر"**، فأجل استغفاره إلى وقت السحر، قال: سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الذي يغفر الذنوب، الرحيم بي وبكم.

فلما دخلوا على يوسف، لأنه قال: وأتوني بأهلكم أجمعين، فلما أخبروه عن يوسف وأنه أصبح عزيز مصر وأنه طلب إحضارهم جميعاً، فحضرت العائلة كلها؛ حتى **"ذكر بعض أهل التفسير أنهم جاوزوا ثلاثين شخصاً"**، فجاءوا برجالهم ونسائهم وبناتهم وأولادهم، فدخلوا على يوسف.

قال: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: 99].

- كيف يدخلون مصر وهم دخلوها؟

قال أهل التفسير: **"إن يوسف كان يترقب مجيء أبيه وإخوته، وكان يرسل أناساً يخبرونه بقدومهم، فلما أخبروه بالقدوم خرج إليهم يستقبلهم"**؛ يعني إكراماً لوالديه ولإخوته، فخرج إليه، فلما استقبلهم خارج مصر أدخلهم مصر.

فلما دخلوا عليه أوى إليه أبويه، وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين، قال ادخلوا بأمان لا خوف، لا تخافون ومطمئنين. ولما دخلوا مصر ودخلوا مكان العزيز وقصر العزيز، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100]؛ يعني أذن لأبويه أن يجلسوا على عرشه، فرفع أبويه على العرش، ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: 100].

من الذي خر؟

أبواه وإخوته كلهم، يعني الأب والأم والإخوة، ولا يقال إن هذه الأم ليست أم يوسف وإنما هي زوجة أبيه، هذا كلام لا صحة له، الأصل أن الله إذا قال أبويه هم أمه وأبوه، فلذلك نقول هم أبواه، خروا سجداً، وإخوته سجدوا، أحد عشر كوكباً، وأمه وأبوه الشمس والقمر، فخروا سجداً.

هذا السجود ليس سجود عبادة، سجود العبادة لا يكون إلا لله، هذا سجود تحية وإكرام، مثل ما سجدت الملائكة لآدم تحية وإكراماً، وكان ذلك جائزاً في الشرائع الماضية.

لكن في شريعة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، التي هي خير الشرائع وأفضلها، لا يجوز للرجل أن يسجد لرجل آخر لا تحية ولا عبادة ولا غيره، السجود لا يكون إلا لله.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَوْ كُنتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا»**؛ لعظم حق الزوج عليها، فلا يجوز السجود أبداً مطلقاً.

قال هنا: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: 100]، قد تحققت هذه التأويل، يعني حصل ما كان رآه في رؤيته؛ يعني شوف مضى ما يقرب من أربعين سنة الآن ظهر هذا التأويل.

ثم قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: 100]. شوف ما قال من الجب أو غيابة الجب، ما يريد أن يذكر

إخوانه بهذا العمل السيئ، قال أخرجني من السجن؛ لأن السجن ما لهم علاقة فيه، وجاء بكم من البدو.

كيف هم يعيشون في البادية؟

الجواب: لا، الأنبياء ما يعيشون في البادية، والله لا يرسل رسلاً ولا ينبئ أنبياءً من الأعراب أو من البادية، إنما من الحاضرة، لكن لما كان يعقوب يعيش في أطراف فلسطين في أطرافها ويوسف في بلد مصر وهي بلد حاضرة وقد تطورت، مقارنة بين هذا وهذا كأنهم يعيشون في بادية لقلة ما يتوفر لهم وإلا هم في البلد.

ولذلك سيأتينا الآن بعد قليل أن الله أخبر أنه لا يرسل إلا رجالاً وأن يكونوا من أهل القرى لا من أهل البادية، قال: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: 100]، ما قال من بعد أن فعل إخوتي بي كذا وكذا وكذا، لا، قال الشيطان هو الذي فعل هذا بيني وبين إخوتي، الشيطان هو الذي نزغ ووسوس وزين لنا، هه زين هذا الشيء وفرق بيننا وبين إخوتي.

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: 100]. اللطيف اسم من أسماء الله، اسم جميل يدل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يلطف بعباده ويأخذ بهم في المضايق ويفرج عنهم الكرب.

الله لطف، يعني هذه الكلمة لطيف تأملها في قصة يوسف، من لما كان عند أبيه ثم خرج به إخوته ثم ألقي في الجب ثم بيع في مصر ثم عاش في القصر ثم حصل ما حصل من الفتنة مع امرأة العزيز ثم السجن، تجد أن الله لطيف بيوسف، لطف به في هذه الكروب الشديدة والمضايق التي مرت به.

قال: إنه هو العليم بكل شيء لا يخفى عليه شيء، حكيم فيما يدبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ثم دعا يوسف، قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 101]، هو من الأنبياء الذين أعطاهم الله الملك، كداود وسليمان وأيوب ويوسف، هؤلاء أعطاهم الله النبوة والملك.

قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101].

فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة، أنت وليي وولي الصالحين في الدنيا والآخرة، ثم قال: توفني مسلماً، يعني ثبتني على الإسلام حتى أموت، ليس معناها تمني الموت، الإنسان ما يتمنى الموت، وإنما يقصد الثبات على الإيمان على الإسلام حتى الموت، والحقني بالصالحين.

إلى هنا تنتهي قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم تأتي تعقيبات من الوحي ومن الله لنبينا محمد، فيقول الله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: 102].

يا محمد، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ليلقوا يوسف في غيابة الجب، ما كنت لديهم، وهذا الكلام دائماً يأتي في القصص: وما كنت لديهم إذ أجمعوا، ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: 44].

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: 46]، وقال: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 44]. كل هذا يدل على أن كل هذا القرآن وحي من الله، وأن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأتِ بالقرآن، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا، ما كنت تعلمها، الذي علمك هو الوحي.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103]. يقول: ما تجد مؤمنين كثير ولو حرصت أن تبحث وتريد مؤمنين، ما تجد، الكثير على الكفر والكثير على البعد عن طاعة الله، وما أكثر الناس المؤمنين، ما تجد كثيراً من الناس المؤمنين.

ثم قال: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: 104]. أي قومك، ما تسألهم عليه أي على هذه الدعوة من أجر، أنت ما تريد منهم أجراً ويدفعون لك مالاً، إن هو إلا هذا الوحي ذكر للعالمين، ليس لقومك ولا لأهل مكة ولا للجزيرة العربية ولا للعرب، ذكر للعالمين جميعاً.

ثم قال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: 105]. كثير من الآيات، السماوات والأرض، يمرون عليها وهم عنها معرضون، ما يتفكرون.

يقول: **"وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد"**، لو تفكر، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21]، تتفكر في السماء وما فيها من أبراج، تتفكر في الأرض وما فيها من جبال وأنهار وحيوانات، هذه آيات الله في الكون عجيبة.

يعني يقول: آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون، إما يضحكون أو يستهزئون أو لا يتفكرون، ينبغي لك أن تتفكر في الآيات.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106]. يدعون أنهم يؤمنون وأنهم يقولون، لئن سألتهم من خلق السماوات يقولون الله، من خلقهم يقول الله، يعرفون الله لكن يشركون معه.

حتى تجد من أهل الإسلام من يقع في الشرك، تجد من يقع في الشرك، يصلي الرجل لأجل الرجل هذا شرك الرياء، تصلي لأجل فلان وتتصدق لأجل فلان. من عمل عملاً أشرك معه غيري تركته وشركه.

إذا قال واحد لولا فلان ما حصل كذا، هذا شرك، لولا الله وفلان هذا شرك، كيف تجعل فلان مع الله؟ فأحياناً يقع الإنسان في الشرك، قال: وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون.

ثم قال: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 107]. هؤلاء المشركون والكفار، من أن تأتيهم غاشية من عذاب الله تصيبهم مصيبة عظيمة، غاشية تنزل عليهم تغشاهم يعني عذاب شديد، أو تأتيهم الساعة ينتظرون الساعة تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون.

- كيف يأملون وهم على كفر وضلال ومعاصي؟ كيف يأمل أن تصيبه البلاء وتصيبه العقوبة؟

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه محمد، كل هذه توجيهات بعد القصة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: 108].

هذه شريعتي وهذا سبيلي وهذه دعوتي، أدعو إلى الله على بصيرة، على علم وعلى نور، أنا ومن اتبعني، ليست لي أنا فقط، أنا الذي أدعو أنا وكل من اتبع محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو يدعو بدعوة محمد، بلّغ عني ولو آية.

أنا ومن اتبعني، وسبحان الله وما أنا من المشركين، وإنما أنا من المؤمنين، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: 109]. أنت رسول ورجل، وقد أرسلنا من قبلك رجالاً كثيرين، وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى، أولاً لابد أن يكونوا رجالاً، لا يكون نساءً.

الأمر الثاني أن يكونوا من أهل القرى لا من البادية، وإنما يكون أهل القرى، كان هذا تعقيباً لما قال من البدو، ثم قال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: 109].

هؤلاء المشركون، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ لماذا لا يسيرون في الأرض ويتأملون ويتفكرون؟ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، سيروا انظروا إلى ديار ثمود، وانظروا إلى ديار لوط، وإلى مدين، وإلى عاد، كلها موجودة، انظروا سيروا انظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كيف دمر الله عليهم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 109]. دار الآخرة خير، لكن للذين اتقوا، خافوا الله وراقبوه واستجابوا له، الذين اتقوا، ثم قال: أفلا تعقلون أن الآخرة خير من الدنيا وأنتم تعيشون للدنيا وتتركون الآخرة؟ اعمر الآخرة.

ثم قال: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: 110]. يعني الرسل قد تصعب عليهم الأمور، وتضيق بهم الأمور، وتضيق بهم الكروب ويشتد بهم الأمر والأذى.

لأن هذه السورة نزلت في وقت كان المشركون يؤذون المسلمين في مكة أذىً شديداً، كانوا يؤذون صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويؤذون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزلت هذه السورة تسليهم وتفرج عنهم.

قال الله: حتى إذا استيأس الرسل، يعني وقع اليأس عليهم بأنه لا نصر، اشتد الأمر والأذى يشتد وهم ينتظرون النصر من الله ما أتاهم نصراً، استيأسوا.

وظنوا الرسل أنهم قد كُذِبوا، كُذِبوا على قراءة ظن الرسل أنهم قد كُذِبوا؛ يعني كذبتهم أممهم، جاءهم النصر إذا اشتد الأمر جاءهم النصر، وأما على قراءتنا: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾؛ أي وظن الأقوام أن الرسل قد كذبوا، يعني كذبوا بالوعد ما في وعد، جاءهم نصرنا فنجي من نشاء.

ينجي الله من نشاء وهم المؤمنون، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين، لا يرد البأس، الشدة والبأس والعذاب إذا أراده الله لا أحد يستطيع أن يرده عمن أراده الله إهلاكه.

قال الله في آخر السورة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]. أي

في قصة يوسف وقصص القرآن وقصص الأنبياء عبرة وعظة، عبرة لأولي الألباب ليس لكل الناس، وإنما لأولي الألباب أصحاب العقول الراجحة.

قال: ما كان حديثاً يفترى، لا تظن أن هذا الكلام حديث افتراه محمد، ما كان حديثاً يفترى، ولكن تصديق الذي بين يديه، هذا الكلام، تصديق القرآن، يصدق الكتب السابقة، وتفصيل كل شيء، القرآن يفصل كل شيء تفصيلاً دقيقاً، وهدى، أي هذا القرآن هدى وقصصهم هدى ورحمة، ولكن لقوم يؤمنون.

شوف لاحظ مرة يقول للمتقين، ومرة يقول لقوم يؤمنون، ومرة يقول لأولي الألباب، حرك في النفوس الإيمان والتقوى والعقول الراجحة والتفكر والتأمل، أما الغافلون الذين لا يجلون عن أي شيء من هذه الأمور لا يهمهم هذا، والقرآن يعرض عنهم أصلاً إعراضاً لأنهم لا يستحقون أن يخاطبهم.

هم في غفلة يعيشون كالبهائم، أما الذين لهم عقول وأهل تقوى وأهل صلاح هم الذين يستفيدون من هذه القصة. هذه سورة يوسف التي عشنا معها لقاءاتنا الماضية وتأملناها وتفكرنا فيها وبينا ما فيها من آيات.

فنسأل الله أن ينفعنا بها، وأن يبارك لنا في كتابه وفي هذا القرآن العظيم، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا في أيامنا وفي أعمالنا، ويجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الرَّعْد)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(214)
(الرعد 1 - 6)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا ربَّ العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الموافق من الثامن عشر من شهر رجب من عام سبعة وأربعين وأربعمائة من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

بعدما أنهينا سورة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ ننتقل للسورة التي تليها وهي سورة الرعد، سورة الرعد سُميت بذلك؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر الرعد وأنه آية من آيات الله، وأنه يسبح بحمده سبحانه ويقدسه ويعظمه ويمجده.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: 13]؛ يعني والملائكة تسبح لله من خيفته.

وسورة الرعد حديثها عن أنَّ القرآن هو أعظم آية وأعظم معجزة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحديثها عن القرآن؛ لأن المشركين لم يرضوا بالقرآن كمعجزة، وقالوا في أكثر من موضع في هذه السورة: **"لولا أنزل عليه آية من ربه"**، يريدون آية حسية، يقولون: لماذا موسى أعطاه الله آية حسية عصا ويدًا، وعيسى يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى؟ وأنت يا محمد ما عندك آية حسية.

فالله ردَّ عليهم، قال: القرآن هو أعظم آية، قرآن أعظم آية باقية إلى قيام الساعة، تتجدد مع مرور الزمان ولا تتغير، فأيُّ آية أعظم؟ ولذلك لو تلاحظ في قراءتك في سورة يوسف في آخرها، لمّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن أنَّ قصة يوسف هي من عند الله، وأنَّ هذا القرآن من عند الله.

لمّا قال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111]؛ أي القرآن، بعد ذلك ذكر وأثنى على كتابه في هذه السورة، في سورة الرعد.

مثل ما ذكرنا سورة الرعد سورة مكية تخاطب المشركين، وتقيم عليهم الحجة وتبين ما يتعلق بقضايا العقيدة التوحيد وعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبيان الأدلة الظاهرة الكونية الدالة على وحدانية الله التي لا ينكرها إلا مكابرٌ، إلا معاندٌ، إلا من لا عقل له، كيف تنظر للآيات الكونية في السماوات والأرض ثم تجحدها إلا تكبرًا من عندك؟

فذكر الله الأدلة الدالة على وحدانيته وإحاطته بكل شيء وسعة علمه، ثم ذكر بعد ذلك مناقشة المشركين في عقائدهم والرد عليهم. هذه السورة مثل ما ذكرنا مكية.

وبعض أهل العلم: **"يقول إنها مدنية"**، ولكن الصحيح إنها مكية؛ لماذا؟ لأنها مفتتحة بالحروف المقطعة: **"ألف، لام، ميم، را"**، وقبلها ثلاث سور كلها: **"ألف، لام، ميم، را"**، وبعدها أيضًا سورة إبراهيم.

وأيضًا سورة الحجر كلها مفتتحة بالحروف **"ألف، لام، ميم، را"**، فهي من ضمن هذه السور، وحديثها عن مناقشة المشركين يدل على أنها مكية.

نبدأ على بركة الله في هذه السورة، بسم الله الرحمن الرحيم، يقول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿المر﴾ [الرعد: 1]، هذه حروف ما معناها؟

- ما معنى هذه الحروف لمّا تقرأها أنت، وتقرأ: **"حم"**، و**"ألم"**، و**"ق"**، و**"ص"**؟

الجواب: **"هذه حروف من حروف الهجاء"**، الله يبين لك أنَّ القرآن مكون من هذه الحروف ويرد على المشركين الذين هم هذه لغتهم وهذه حروفهم، وهم يكتبون الشعر والقصائد والخطب من حروفهم، والقرآن كُتب بهذه الحروف التي هم يعرفونها.

فكان افتتاح بعض السور، وهي تسع وعشرون سورة مفتتحة بالحروف المقطعة؛ لإقامة الحجة على هؤلاء الكفار، هذا الكتاب الذي بين أيديكم مثل ما تكتبون أنتم وتقرأون، لماذا لا تقبلون؟ ما الذي يمنعكم من الاعتراف به والإيمان به؟ ما الذي يمنعكم؟

ولذلك هددهم الله قال: فإن لم تؤمنوا ولن تؤمنوا، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]، فاتوا بسورة، وتحداهم الله قال: فاتوا بعشر سور، فاتوا بمثله، فاتوا بسورة، ومع ذلك ما استطاع واحد منهم أن يأتي، ولا جميعهم ما يستطيعون أن يأتوا بشيء مثل هذا القرآن.

فهذا معنى الحروف المقطعة لمّا تقرأها أو سألت أحدًا عنها، قال: **"هي حروف من حروف الهجاء"**، ولا حاجة نبحث يعني نقول بأقوال أخرى لا دليل عليها. باختصار هي حروف: **"ألف، لام، ميم، را"**، **"طاء، سين، ميم"**، حروف هجائية، ولذلك تلاحظ لمّا تأتي حروف ماذا يذكر بعدها؟ يذكر بعدها القرآن.

يقول: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 1]، تلك إشارة؛ يعني هذا الذي بين يديك في هذه السورة وما قبلها من سور وما بعدها هي آيات الله، هي آيات الله القرآنية، ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ هو القرآن، ثم خصَّ الله هذا القرآن وهذه السورة فقال: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: 1]، بيان لهذا القرآن.

- ما هو الذي أنزل إليك يا محمد؟

﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ [الرعد: 1] ليس باطلاً، الحقُّ؛ القرآن حقٌّ، والوحي حقٌّ، والله حقٌّ، ورسولنا محمد حقٌّ، والشريعة حقٌّ، ليست بالباطل أبدًا، انظرقال: ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ دلَّ على أنَّ القرآن منزل من عند الله، ليس من محمد ولا من أحد من البشر، ﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ أي القرآن، وفيه دلالة على أنَّ الله في العلو فوق السماوات مستوٍ على عرشه؛ لأن النزول من أعلى.

﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ثم بيّن لك المصدر قال: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هذا القرآن من ربك ليس من أحد من البشر هو حقٌّ من ربك، ولكن مع الأسف ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: 1] بالقرآن، ولا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون بالشريعة.

بل هم على كفر وإعراض، ولذلك انظرفي آخر سورة يوسف قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: 103]، تجد كثيرًا من الناس على الكفر والطغيان ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. ثم بدأت الآيات تبين عظمة الله وقدرته ووحدانيته.

لذلك دائمًا لمّا نقرأ في القرآن تأتيك آية أول ما تبدأ الآية بكلمة **"الله"** اعلم أنَّ هذا من خصائص الله، وأنه يدل على وحدانيته وقدرته، اسمع ماذا قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الرعد: 2]، من رفعها غير الله؟ هل في أحد من البشر يستطيع أن يرفع السماوات بغير عَمَد؟ ما يستطيع يرفع ولا قطعة صغيرة.

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]؛ من الذي رفع السماوات بغير عَمَد؟ ما فيها عَمَد، ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ ترون السماء أنتم، ترفع رأسك ترى السماء ما فيها عَمَد، هذا يدل على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سبع سماوات، سبع سماوات بعضها فوق بعض من غير عَمَد، ما الذي يمسكها؟

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: 65]. وملائكةٌ امتلأت السماوات بالملائكة، والملائكة خلق عظيم.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَا مِن مَوضِعِ بِقَدرِ أَربَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَو سَاجِدٌ للهِ»**، يصلون ويتعبدون الله، والصافات صفًا، مليئة السماوات والله رفعها ولا تسقط.

هذا يدل على قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ووحدانيته، ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، بعض أهل العلم يقول فيها عَمَد لكن نحن لا نراه، **"هذا غير صحيح، غير صحيح، كيف لا نراه؟ الله إذا خلق الشيء يرينا إياه"**، فالصحيح أنَّ الله رفع السماوات، خلق السماوات ورفعها مسافة بعيدة من غير عَمَد، نحن نراها الآن بدون عَمَد، فليس لها عَمَد بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال بعدها: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: 2]، بعد خلق السماوات والأرض، كما في آيات أخر: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54].

- كيف استوى على العرش؟

الجواب: هذه صفة من صفات الله الفعلية، يجب على كل مسلم يعتقد أنَّ الله مستوٍ على عرشه، أما الكيف فلا نعلمه، الكيف ما رأيناه، لكن نؤمن ونعتقد أنَّ الله استوى استواء يليق بجلاله وعظمته، ولا ندخل بعد ذلك ولا نتجاوز، وإنما نؤمن ونعلم أنَّ الاستواء صفة من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال بعدها: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الرعد: 2]، سخرها يعني ذللها مطيعة لا تعصيه، الشمس ما تعصي الله، الإنسان يعصي الله والشمس لا تعصي الله، والسماوات لا تعصي ولا الأرض.

قال الله للسماوات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: 11]، ما تعصي، والشمس على عظمها، أكبر من الأرض بمسافات ومراحل كبيرة، ومع ذلك ما تعصي، سخرها وذللها تمشي كل يوم تطلع من المشرق وتذهب إلى المغرب، وتذهب وتسجد تحت العرش كما في حديث أبي ذر الصحيح.

ثم يأذن الله لها فترجع مرة أخرى وتخرج من المشرق حتى يأتي يوم لا يؤذن لها فتأتي من حيث غربت، وهذا معنى طلوع الشمس من مغربها، وهي آية من آيات الله، وأيضًا علامة من علامات الساعة الكبرى.

ولذلك انظر قال الله: ﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ﴾ ذللها تسير بدقة ونظام، ﴿وَسَخَّرَ الْقَمَرَ﴾ أيضًا يسير بدقة ونظام، الشمس سيرها يومي والقمر شهري، حركة دقيقة، قال: ﴿كُلٌّ﴾ أي من الشمس والقمر والكواكب والنجوم ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الرعد: 2]، يجري لحركة ينتهي عندها، إما حركة يومية أو حركة شهرية أو غير ذلك.

أو يجري لأجل مسمى نهاية الدنيا فينتهي عمله ويذهب، الشمس والقمر تجمع، ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: 9]، الشمس والقمر تجمع وتلقى في النار. قال هنا: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر شيئًا من أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيقول: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [الرعد: 2]، يدبر الأمر.

يعني يتصرف في هذا الكون، يدبر الأمر يرزق يحيي يميت وهكذا أعمال؛ يعني الله سبحانه في كل يوم له شأن، كل يوم له أعمال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدبر الأمور ويتصرف في هذا الكون لا أحد يتصرف فيه سبحانه إلا هو، ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾.

ثم قال: ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ [الرعد: 2]، يبين الآيات.

- ما هي الآيات؟

الآيات القرآنية والآيات الكونية في السماوات والأرض، من الذي يفصلها ويبينها لك؟ الله، ثم قال: ﴿لَعَلَّكُم﴾ رجاء، ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2]، يقول: رجاء أن تؤمنوا بلقاء الله، ما قال تؤمنون، قال: ﴿تُوقِنُونَ﴾، اليقين هو الإيمان الثابت الراسخ؛ يعني لا شك بأنك ستبعث، هذا معنى ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ﴾؛ يعني بالبعث ﴿تُوقِنُونَ﴾.

- ما علاقة البعث وعلاقة السماوات ورفعها واستواء العرش الشمس والقمر؟

الجواب: هذه الآيات التي بثها الله وبينها، وهذه الأشياء التي ذكرها الله فصلها وبينها لنا، وأنه يتصرف في هذا الكون يدبره، لم يخلق هذا الكون عبثًا، وإنما خلقه كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

خلق هذا الكون كله ودبّره ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى ويجزي الذين أساءوا بما عملوا، الله لم يترك الخلق عبثًا هكذا، الظالم يظلم ويقتل ويفعل، لابد من إقامة العدل والقضاء والحكم بين الخلق، متى؟ يوم القيامة عندما يبعث الناس من قبورهم، وتكون أمامهم النار لأهلها والجنة لأهلها، هذا معناه.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لك أيضًا آيات أخر عظيمة، هذه أيها الإخوة تزيدنا علمًا وتعلقًا ومحبة لله، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: 165]، إذا عرفت هذه الأشياء زاد ذلك تعلّقًا بربك ومحبةً وعظمةً لله وتعظيمًا وعبادةً، انظرقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ هو ليس معه أحد واحد.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ [الرعد: 3]، انظرلمّا تكلم عن رفع السماوات والشمس والقمر فوق في الأعلى، الآن يعطيك في الأرض حتى أنت تتفكر وتنظر في آيات الله، ترفع رأسك وتشوف الآيات أمامك، وتخفض رأسك وتشوف الآيات أمامك.

- من الذي مدَّ الأرض وبسطها؟

اخرج في الصحراء وشوف مسافات بعيدة ممتدة، لا جبال، في بعض المناطق ما في جبال أبد ممتدة، من الذي مدَّ الأرض بسطها وسطحها جعلها مثل السطح الذي مده؟ هو الله.

انظرقال بعدها: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الرعد: 3]؛ جعل فيها الجبال.

- ما الحكمة من وضع الجبال؟

قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: 15]، حتى لا تضطرب، الجبال تثبتها رواسي، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 7]، ثم قال: ﴿وَأَنْهَارًا﴾ [الرعد: 3]، دائمًا إذا جاءت الجبال تأتي الأنهار؛ لماذا؟ لأنَّ منبع الأنهار من الجبال، انظرقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ جعل الأنهار تجري، الأنهار المياه العذبة التي يشرب منها الناس ويسقون مواشيهم وزروعهم.

- ولذلك شو قال بعدها؟

﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الرعد: 3] جميع الثمرات من غير عدٍّ، من الذي أوجدها؟ هو الله، الثمرات وأشجارها وأصولها، قال: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الرعد: 3]، انظربعض الأشجار أو نقول خاصة النخيل ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى الفحل والنخلة.

وكذلك بعض الأشجار تتزاوج، أو نقول ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني أصنافًا مختلفة، تجد الأحمر والأخضر في الزروع وفي الثمار، وتجد الأسود كما في بعض العنب، وتجد في التمور أحمر وأصفر وهات هذه، من الذي وضع هذه الألوان؟ ومن الذي جعل هذه الألوان؟ ومن الذي أخرج هذه الثمرات بهذه الأشياء؟

ثم لمّا لفت نظرك إلى الأشجار والأنهار والجبال والأرض، في الأرض هذه آيات الله الكونية، قال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الرعد: 3]، الليل والنهار بين السماء والأرض، يلفت نظرك إلى هذه الحركة السريعة اليومية، حركة سريعة يومية، من الذي يغطي الليل والنهار؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يأتي بالليل ويجعل النهار يذهب، فتأتي ظلمة الليل وتغطي الأرض كالعباءة فتصبح الأرض سوداء، من الذي فعل هذا؟

ثم بعد ساعات يغطي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بشمسه الليل فيذهب الليل وتصبح الدنيا قد أسفرت بالشمس وأضاءت بالشمس، من الذي يفعل ذلك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ ولذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي في هذه الأشياء المذكورة ﴿لَآيَاتٍ﴾ ليست آية واحدة، آيات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: 3].

أما الغافلون واللاهون والساهون والذين يلعبون هذا ما يخاطبون، هذا الخطاب، الله يخاطب من؟ ﴿قَوْمًا يَتَفَكَّرُونَ﴾ يحركون الفكر والذهن والعقل وينظرون في آيات الله، لا يخرج إلى الصحراء ويضحك ويلعب ويستهزئ ويضيع وقته، لا يخرج إلى الصحراء وينظر في هذا الكون ويتأمل ويتفكر.

انظر يزيدك الله عَزَّ وَجَلَّ من الآيات يقول: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ [الرعد: 4]، عجيب!

كيف يقول لك أراضي متجاورة مختلفة؟ هذه لينة رملية، وهذه حجرية لا تستطيع أن تحفرها كيف بجنبها، وهذه صالحة للزراعة وهذه لا تصلح سبخة ما تصلح الزراعة، وهذه فيها ماء إذا حفرت وهذه بجوارها ما فيها ماء ولو حفرت أعماقًا ما تجد.

- كيف جعل الله هذه الأشياء متقابلة ومتلاصقة ومختلفة؟

هذه قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وآياته، ولذلك قال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ فيها آيات عظيمة، ﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ﴾ [الرعد: 4] جعل في الأرض، يلفت نظرك إلى الأرض إيش فيها؟

قال: فيها ﴿جَنَّاتٌ﴾ يعني بساتين ومزارع ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ خصَّ ثلاث أشياء العنب والزروع الحبوب والنخيل؛ لماذا؟ لأنها مشهورة عند أهل العرب يعرفونها والله يخاطب العرب، قال: ﴿جَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ﴾ يعني الزروع الكثيرة في الأرض الحبوب كالأرز والقمح والذرة، ﴿وَنَخِيلٌ﴾ كثيرة، قال هذه النخيل: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: 4].

كيف ﴿صِنْوَانٌ﴾؟ يعني مجتمعة في مكان واحد أصلها واحد، تجد الأصل واحدًا متفرعة، تجد بعض وأنت تدخل في بعض البساتين والمزارع تجد نخيلًا متجمعة مع بعض، ونخلة واحدة هنا وواحدة هنا، هذا معنى ﴿صِنْوَانٌ﴾؛ الصنوان الذي يكون له أصل واحد.

قال: ﴿نَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ مجتمعة ومتفرقة، والعجب الذي يلفت الأنظار أيها الإخوة أنها كلها ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ [الرعد: 4]، ثم قال: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ [الرعد: 4]، تأتي للتمور أنواع كثيرة وبعضه أفضل من بعض في الطعم.

وتأتي إلى العنب وتأتي إلى الزروع الحبوب القمح والأرز والعدس وعد من الحبوب لا حصر لها، هذا أفضل وهذا أفضل وهذا أفضل؛ الرمان البرتقال التفاح، يعني فضّل الله بعضه على بعض في الأكل، والعجيب أنه يسقى بماء واحد والأرض واحدة، أليس في ذلك آية عظيمة على قدرة الله؟

- ولذلك انظر ختمها بأي شيء؟

ليس بالتفكر قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 4]؛ يعني الذي ما يعرف هذه الأشياء ولا تدله على وحدانية الله هذا لا عقل له، هذا معناه؛ الذي لا يعرف أنَّ الذي جعل هذه القطع المتجاورات، وجعل الجنات والزروع ويسقيها الله بماء واحد وفضل بعضه على بعض.

هذا الذي لا يميز لا عقل له، ذهب عقله، والذي لا يعرف أنَّ هذا بقدرة الله ووحدانيته لا عقل له. ولذلك لمّا ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الآيات العجيبة التي تزيدنا إيمانًا وتقوينا تعلقًا برب العالمين، انظر ماذا قال بعدها؟

قال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ [الرعد: 5] يا محمد وأنت أيها الرجل المخاطب إذا تتعجب من هذه المخلوقات العجيبة التي تلفت نظرك هذه أشياء عجيبة هذه مخلوقات الله العجيبة، ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ من هذه المخلوقات، هناك ما هو أعجب منها، ما هو موقف هؤلاء المشركين؟ يكفرون بالله وهم يرون هذه الآيات ويرزقهم الله ويكفرون به ويقولون ما في بعث.

انظرقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: 5]، يقولون: إذا أصبحنا في الأرض ترابًا ودُفنّا فيها وآباؤنا الذين دُفنوا من سنين طويلة، أنت تعتقد أنَّ الله يخرجهم أحياء؟

هذا بعيد مستحيل، انظرقال: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ الله ردَّ عليهم بأقوى الردود، هددهم قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الرعد: 5]، الذي يقول هذا الكلام وينكر ويجحد اليوم الآخر والبعث هؤلاء كفروا بربهم وكفروا بآياته.

- من الذي خلق النبات هذا وأخرجه من الأرض؟

هذا الذي أخرج النبات من الأرض وأخرج الماء من الأرض هو الذي يخرج الإنسان من الأرض، كيف تنكر هذا الشيء؟ قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ ثم هددهم قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: 5].

الأغلال جمع غُلٍّ وهو الرباط من الحديد، تُربط أيدي هؤلاء المجرمين الكفرة الملحدين الذين ينكرون آيات الله الكونية وينكرون البعث وينكرون الجنة والنار، يؤتى بهم وتغل أيديهم في أعناقهم بالحديد، ثم الأرجل بالسلاسل، ثم تأتي الملائكة تسحبهم، والسلاسل يسحبون إلى نار جهنم، هذه عقوبة من يكفر ويجحد قدرة الله ووحدانيته.

قال: ﴿أُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾، والنتيجة ماذا؟ ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد: 5] ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. والعجب أيضًا أنَّ هؤلاء الكفار لا يبالون، لا عقول لهم، يستعجلون العذاب.

يقول: **"متى هذا الوعد؟"**، **"عجّل لنا قطّنا"**، أين يا محمد الذي يهددنا بالعذاب؟ وينه؟ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: 6]، أسأل الله العافية، ولا تسألونه السيئة وتسألونه

العذاب، والله يهددهم يقول: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: 6]؛ العقوبات مضت في أمم ماضية، وأنتم تطلبون العذاب!

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حليم لا يستعجل، قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: 6] هم يظلمون والله لا يستعجل لهم بالعذاب، يمهلهم لعلهم يرجعون إلى ربهم، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: 6] لمن أصرَّ واستمرَّ ولا يبالي، الله شديد العقاب.

لعل نقف عند هذا القدر، نكتفي به، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(215)
(الرعد 7 - 14)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصلِّ وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملًا يا ربَّ العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الثاني من الشهر الثامن من عام 47 من الهجرة، درسنا أيها الإخوة الكرام في تفسير القرآن العظيم، السورة التي بين أيدينا هي سورة الرعد، وأخذنا آيات منها في لقاءات ماضية.

ونستكمل ما توقفنا عنده، وقفنا عند الآية السابعة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد: 7]. الذي يستمع لهذه الآية يظن أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أرسل رسوله هكذا من غير آيات، وأنه ليس هناك أي دليل يدل على وحدانية الله.

ولكن هؤلاء الكفار يطالبون بأمور وهم لا يريدون الحقيقة، ولا يريدون البحث عن الهداية، إنما هذه طلبات منهم على وجه التعنت والاستكبار، يقولون للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"ما أوتيت يا محمد آية"**، القرآن ليس آية؟ القرآن آيات عظيمة، قالوا: **"ما أوتيت آية، ما أعطاك الله آية"**، ماذا تريدون؟ يريدون آيات، آيات هم على وجه التعنت، يريدون آيات تشتهيها أنفسهم، يعني أشياء يرغبونهم هم يخترعونها من أنفسهم.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل على نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم آية وهي القرآن الكريم، لم يقبلوه ولم يرتضوه، وإنما يقولون: **"موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطاه الله العصا واليد، وعيسى أعطاه الله إنه يخرج الموتى ويكرم الموتى وأنه من أعطاه الله ما بيده أن يشفي المرضى، فأنت ما أعطاك يا محمد الله عَزَّ وَجَلَّ مثل هذه الآيات"**، أيهم أفضل وأعظم عند الله وعند الناس؟ آية القرآن الكريم، القرآن الكريم هذه أعظم آية، أعظم آية.

ولو قرأوا القرآن وهم هؤلاء الكفار وتدبروا لعلموا أنَّ القرآن أعظم آية على وجه الأرض، وثم إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر آيات في هذه السورة في أولها قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: 2]، قال: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الرعد: 2].

قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ [الرعد: 3]، هذه آيات الله كونية؛ يعني عندكم آيات كونية وعندكم آيات شرعية وما قبلت هذا ولا هذا، وتريدون عصا ويد وكذا وكذا هذا، ولذلك الله ردَّ عليهم ما تركهم، هم يريدون الآيات هذه ولم ولو جاءتهم هذه الآيات كما يطلبونهم ما آمنوا، لو جاءتهم هذه الآيات كما يريدونهم على شهواتهم ورغباتهم ما آمنوا؛ لأن قصدهم هو الاستكبار والتعنت ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الرعد: 7].

الله ردَّ عليه قال بيّن لهم: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: 7]، أنت رسول تنذر فقط ما لك علاقة في الآيات، لا تطلبها ولا تخترعها أنت، إنما أنت منذر ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: 7].

يقول: أنت تنذر ولست جديدًا، أول رسول؟ لكل قوم قبلك من الأقوام الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يهديهم، فإن قبلوا وأخذوا بهذه الرسالة وفرحوا بها فهي خير لهم في الدنيا والآخرة، الله يسعدهم في الدنيا ويسعدهم في الآخرة، وإن ردوها شقوا في الدنيا وشقوا في الآخرة، ومع ذلك ما قبلوا هذا فشقوا في الدنيا وشقوا في الآخرة.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لهم عظمته بسعة علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله وسع علمه السماوات والأرض، لو تفكر في سعة علم الله هذا التفكر يزيدك إيمانًا ومحبة وقربًا إلى الله، اسمع هذه الآية، أنت إذا قرأت أيها الأخ الفاضل، إذا قرأت هذه الآية التي فيها سعة علم الله، هذه الآية لمّا تتفكر فيها وتتدبر هذه الآية.

هذه أولًا تزيدك أجرًا عند الله وتزيدك علمًا، لأن الإيمان، الإيمان يزيد، يزيدك إيمان وعلم، علم يزداد والإيمان يزداد، وتزيدك قربة إلى الله تقربًا إلى الله وزلفة إلى الله، اسمع هذه الآية: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد: 8].

دائمًا مثل ما ذكرنا كثيرًا إذا قرأت أنت آية في كتاب الله تبتدئ بقوله **"الله"** اعلم أنَّ هذا من خصائص الله لا أحد يتدخل فيه أبدًا، من الذي يعلم ما تحمل كل أنثى؟

من شوف، كل أنثى من بني آدم، من حيوان، من زواحف، من طيور، من أسماك، كل أنثى تحمل الله يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أليس هذا يدل على سعة علم الله؟ تصور أنت في البراري، في الصحاري، في الجبال، في البيوت، في البحار، كل أنثى، كل أنثى على وجه الأرض الله يعلم ما تحمل كل أنثى، ما قال لك ما حملت، لا، ما ستحمل، يعني تحمل هالسنة ذي ولا السنة القادمة ولا بعد عشر سنوات؟

الله يعلم، قد علم أنَّ هذه الأنثى هذه المرأة مثلًا أو هذا الحيوان الله يعلم كم سيحمل في عمره ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ ثم زادك علمًا أكثر قال: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ [الرعد: 8]، تغيض يعني تنقص، قد يكون الحمل هذا فيه نقص، فيه تشويه الله يعلم، أو يكون هذا الحمل ينقص من حيث الوزن ينقص.

أو أحيانًا يسقط يصبح سقطًا يعلمه الله سبحانه ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ يعني تنقص الأرحام ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: 8] من حيث اكتمال الخلق في بطن أمه، من حيث تعدده أحيانًا، يعني يصبح توأم اثنين ثلاثة أكثر، في بعض الحيوانات أكثر ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ وتزداد المدة أحيانًا تسعة أشهر تزيد تنقص الله يعلمها ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾.

ثم بيّنت قال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: 8]، كل شيء عنده مقدر لا يزيد ولا ينقص، كل شيء عنده بمقدار مقدر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا لابد إذا أنت قرأت هذه الآية قف عندها تامل تفكر تعرف سعة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وإذا علمت أنَّ الله عالم بكل شيء ارتاحت النفس، اطمأنت، اطمأن القلب، انشرح الصدر، وعرفت أنَّ كل ما يأتيك من الله خير ولو كان ظاهره فيه الضرر عليك لكنه خير، فهذا يقوي إيمانك.

ثم زادك الله سبحانه قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الرعد: 9]، يعني الله يعلم كل ما غاب عن الناس يعلمه الله، أنت الآن ما تعلم إلا الذي أمامك، الذي خلفك ما تعلمه، الذي وراء الجدران ما تعلمه، الذي وراء البحار ما تعلمه، الذي في السماوات ما تعلمه، الله يعلم كل ما قد يغيب عن الناس الله يعلم ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الظاهر والخفي يعلمه الله سواء.

ولذلك قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: 9]، الكبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عظيم في أسمائه في صفاته جل جلاله، المتعالي يعني ذو العلو العظيم المتعالي عن كل نقص.

ثم زادك في العلم، انظر هذه الآيات تزيدنا إيمانًا، تزيدنا علمًا، اسمع يقول: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: 10]، يقول: كله واحد سواء عند الله، تسر قولك في نفسك، تجهر به بمن هو معك أو في مجلس أو تتكلم الله يسمع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعلم سرك ونجواك، يعلم سرك وعلانيتك سواء عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ هذه حالة، ثم قال: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ [الرعد: 10] يعني مختفي في بيته، في غرفته، تحت فراشه، مستخفٍ في بيته، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: 10]، ظاهر أمام الناس في النهار خارج أو دخل في سرب في النهار، كل ذلك عند الله سواء يعلمه لا يخفى عليه شيء، اختفيت عن الناس لكنك لا تختفي عن الله، وظهرت أمام الناس الله يعلم سواء عنده الظهور والخفاء.

هذا شيربي في أنفسنا يا إخوان؟ يربي في نفسك مراقبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تجد بعض الناس إذا اختفى بنفسه وخلا زينت له نفسه عمل أعمالًا سيئة، فقد يقع في الأعمال، يعني أحيانًا كما هو الآن واقع عند كثير، الجوال بين يديك تستطيع أن تدخل على أشياء لا يعني أشياء لا تقبلها النفوس، النفوس الطيبة ما تقبلها.

يعني مواقع إباحية وغيرها، أنت تستطيع أن تدخل في سيارتك، في بيتك، في الشارع، في أي مكان ما أحد يدري عنك، لكن الله يعلم، انظرقال: ﴿مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ كلهم عند الله سواء، فإذا علمت أنَّ الله يعلم، وتعلم أنَّ الله مطلع عليك، هذا يجعلك تتأدب، تتخلق، تخاف من الله، تراقب الله، فهذا أمر عظيم.

ثم خذ زيادة، إذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالم الغيب والشهادة ولا يخفى عليه شيء ويسمع ويرى ويبصر، أيضًا زيادة على ذلك وضع ملائكة، الملائكة هذه تتابعك في كل مكان معك، يعني عقل الأحوال أن تستحي أنت أن تستحي من الملائكة التي معك، يعني إذا أردت أن تقع في معصية تذكر أنَّ معك ملائكة، كيف تقدم على معصية الله لا يرضى بها والملائكة محيطة بك؟

- تدري كم معك من ملك؟

عشرة، عشرة ملائكة معك، ثمانية، ثمانية ملائكة، انظركل إنسان معه ثمانية ملائكة، كم عدد الملائكة؟ كثير، كيف ثمانية ملائكة؟

أولًا: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، عتيد يعني حاضر، ملائكة يمين ويسار، زين ملائكة اثنين يكتبون الحسنات والسيئات هذول اثنين، واثنين واحد أمامك وواحد خلفك، ش وظيفتهم أمامك وخلفك؟ يحفظونك من الأمور التي لا تريدها أنت.

أمور أمامك أحيانًا حوادث أمامك أمور صعبة سيئة تدفع عنك، تدفع عنك إذا كنت من أولياء الله، كنت من المحافظين على طاعة الله، كنت من صلى الفجر في جماعة، كنت ممن صلى العشاء في جماعة، هذه صلى العصر في جماعة هذه تحفظك.

اسمع قول الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ [الرعد: 11]، معقبات يعني ملائكة، ليش قال معقبات؟ لأنَّ الملائكة يتعاقبون فيك بالليل والنهار، يعني تأتي ملائكة، يعني ملائكة الآن عرفنا كم؟

أربعة، اثنين يمين تكتب الحسنات والسيئات واثنين واحد أمامك وواحد خلفك يحفظونك بأمر الله، طيب هذه أربعة، هذه الأربعة معك في النهار معك من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العصر وهم معك، إذا جاء صلاة العصر صعدوا إلى السماء وجاءت ملائكة أربعة أخرى وأخذوا مكانهم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار الذين يأتون وقت صلاة العصر يجلسون معك أو يمضون معك إلى الفجر.

إذا جاء الفجر صعدوا إلى السماء وجاءت ملائكة أخرى نزلت وهكذا على كل يوم، اسمع يقول: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: 11]، هذه ملائكة أمامك وخلفك يحفظونه من أمر الله، يحفظونه من أمر الله. هذه المعقبات متى يكونون معك؟

عرفنا المعقبات يأتون بعد صلاة وقت صلاة الفجر، إذا جاء وقت صلاة الفجر نزلوا من السماء زين يطلعون الآخرين إلى السماء يصعدون، إذا صعد إلى السماء يسألهم الله عَزَّ وَجَلَّ وهو أعلم: **«كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟»**، الذين أنا وكلتكم بهم قالوا: **«تَرَكْنَاهُمْ يُصَلُّونَ الْفَجْرَ»** أو يقول **«تَرَكْنَاهُمْ نَائِمِينَ فِي فُرُشِهِمْ»**، ثم يأتي العصر **«كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟»** قال: **«تَرَكْنَاهُمْ يُصَلُّونَ الْعَصْرَ»**.

- ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماذا قال في صلاة الفجر والعصر؟

قال: **«مَنْ صَلَّى الْبَرْدَيْنِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»**، وقال: **«مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ حَتَّى يُمْسِيَ»**، إذا كنت في ذمة الله معك ملائكة تحفظك، إذا أنت ما صلاة الفجر لست في ذمة الله والملائكة تتخلى عنك.

إذا جاء أمر الله قضاء الله قدره تخلت عنك تركتك لأنك لست في ذمة الله ولست من أولياء الله، فشوف فضل صلاة الفجر وفضل الطاعات وشوف كيف الملائكة الله جعل لك ملائكة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، أنت إذا كنت على معصية ومستمر الله ما يبالغك ولا يغير حالك، إذا رجعت إلى الله وتبت واستغفرت وعدت إلى الله يغير حالك يجعل حالك حالة سعادة وانشراح الصدر وارتياح إذا أنت أقبلت على الله وتبت إلى الله ما يغير.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، وكذلك إذا كنت في نعمة وفي رغد من العيش وتعصي الله يغير عليك النعمة يسحبها منك ويزيلها عنك وتفقدها، غني اليوم غني بكرة تصبح فقيرًا، اليوم صحيح غدًا تصبح مريضًا وهكذا.

فنحن نحتاج إلى أن نراعي نعم الله علينا، وإن كنا في معاصي نكثر من الاستغفار والتوبة حتى الله يغير حالنا إلى حال أحسن، وإذا كنا في حالة حسنة من رغد العيش ومن الطاعة نسأل الله الثبات ونسأل الله الشكر والزيادة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: 11]، هذا تهديد إذا أراد الله أن، يعني أن يصيب أحد بسوء ما أحد يستطيع أن يرده ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: 11]، ما يجدون من يتولى أمرهم، الأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ليس هناك أحد يتولى أمرهم غير الله، فإذا أراد الله بقوم سوءًا ما أحد يرده أبدًا، قدرة الله فوق كل شيء.

ثم بدأ يعطيك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني أشياء تدل على ماذا؟ على قدرته، مثل ما ذكرت لك أشياء تدل على سعة علمه أيضًا هو العليم القدير، اسمع: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: 12]، السحاب إذا امتلأ وانتشر في السماء وبدأ سبحان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسخر هذا السحاب بدأ البرق يظهر منه.

- ما هو هذا البرق؟

هو اللمعة اللي تظهر، النور الذي يظهر من السحاب هذا هو البرق، البرق الذي يظهر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرسل هذا البرق قد يصيب الإنسان ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: 43]، يرسل ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

يخاف الناس من السحاب إذا رأوا البروق كثيرة شديدة خافوا من السحاب أن يغرقهم الله أن يهلكهم أن، يعني يصيبهم تتهدم بيوتهم تهلك مواشيهم، فخوفًا وطمعًا في هذا المطر والسيل بركة عظيمة، تمتلئ الآبار والناس وتعود لهم حياتهم ويسقون بهائمهم وزروعهم ففيه خير.

ولذلك قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ من آثاره السيئة وطمعًا في آثاره الطيبة، ثم قال: ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: 12]، يبدأ السحاب يثقل بالماء يثقل، يلقحه الله بالريح فيثقل، يثقل ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾.

ثم قال: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: 13].

- ما هو الرعد؟

هو الصوت الذي يظهر في السحاب، ما هو صوت يظهر في السحاب، كثير من تكلم قال: **"شحنات كهربائية يضرب بعضها البعض"**، الله أعلم، جاء في بعض الأحاديث أو بعض الآثار

أنَّ الرعد ملك وأنَّ صوت الرعد صوت ملك الله يسوقه، يسوق السحاب أو يجعل هذا الملك يسوق السحاب معه مخاليق يدفع السحاب بها.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ وهذا الله أعلم أنه قد يكون أقرب أن نقول إنه ملك؛ لأن هذا الأثر يدل عليه أنه ملك، وهذا يسبح يعظم الله وينزهه، الدليل قال: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ يسبحه وهو حامد لربه ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: 13].

والملائكة أيضًا تسبح بحمده إذا الملائكة مع هذا الرعد أو مع هذا الملك، ملك السحاب، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ تسبح الله خوفًا منه، تخاف الملائكة ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50] فالله أعلم أنَّ هذا ملك، والملائكة تسبح وتعظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نحن لا نستطيع أن نصل أو نتجاوز هذه الحدود، السحاب بعيد عنا، والرعد مجرد أننا نسمعه فقط، والبرق نراه، لكن حقائق هذه علمها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ [الرعد: 13]، الصواعق هي مثل الرعد لكنها أصوات قوية مزعجة ويصحبها ماذا؟ يصحبها نار، فالصاعقة تنزل بصوت عالي وتنزل بالنار أحيانًا وتحرق، تحرق الناس تحرق الأشجار.

انظر قال: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ إذا أراد الله أن يصيب بها يصيب بها من يشاء، مع هذه الآيات العظيمة والقدرة العظيمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تجد من الناس من يجادل في الله، كيف قال؟

انظر قال: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ [الرعد: 13]، يجادلون في قدرته في علمه في وحدانيته، كيف تجادل في الله؟ ما يجادل فيه الله، يجب عليك أن تؤمن به، تؤمن بقدرته وبعلمه وبذاته.

ويجب عليك أن تعبد الله وأن تخشى من الله، الملائكة على عظم خلق خلقتها تخاف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنت لا تخاف تجادل في الله ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: 13]، شديد القوة يعني شديد الانتقام وشديد العقوبات، ينزل بك العقوبة وأنت لا تدري ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

- قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا كان الأمر كذلك ما الذي يجب؟

يجب أن نعبد الله حق عبادته، وأنَّ هؤلاء الذين يعبدون الأصنام ويعبدون الآلهة ويعبدون الأموات ما تنفعهم، ما تنفعهم ولا هذا يقارن بهذا، اسمع يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: 14]، يعني الذي يعبد هو الله، والذي يدعى هو الله، دعوة الحق، الحق يعني ما سواه باطل.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ لله أن تدعو ربك أن تسجد لله أن تعبد الله فقط، وما سواه لا يجوز أن تصرف شيئًا من حقوق الله إلى أو من خصائص الله إلى مخلوق ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾. ثم قارن بين عبادة الله وعبادة الشياطين وعبادة الأصنام قال: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ [الرعد: 14]، الذين يدعون من دونه هذه الأصنام التي تدعى من دون الله، وهذه الآلهة والمعبودات من دون الله والأموات لا يستجيبون لهم بشيء، ما يستجيبون.

كيف تدعو شخص دفن في قبره ما يملك لنفسه هو شيء؟ كيف يستجيب لك؟ ما يستجيب، أين عقولكم؟ يذهبون إلى القبور ويذهبون إلى الأموات ويطوفون حولهم ويدفعون الأموال ويسألونهم المدد، المدد يا فلان يا فلان، تأتي المرأة تقول: **"أنا ما حملت يا فلان أدعوك أن تجعلني أحمل"**، كيف أين عقولكم؟

هذا ما يفعله عاقل، فكيف يذهبون للأموات ويذهبون للأصنام؟ ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: 14] إلا في حالة واحدة مستحيل، يعني حالة واحدة من باب التعجيز، ش هذه الحالة؟

قال: ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ [الرعد: 14]، يقول هم يستجيبون إذا استجاب الماء لمن بسط كفيه، أنت الآن لو تأتي إلى بئر زين والبئر فيه ماء الماء بعيدة عنك بينك وبينها ثلاث أمتار أربع أمتار وتأتي وتضع يدك تقول: **"يا ماء تعال"**، يأتيك الماء؟ ما يأتيك، أين عقولكم؟

يقول: ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ أو يضع فمه ويأخذ الماء بيديه وهي منبسطة اليدين هكذا أصابعه مفرجة ويأخذ الماء هكذا ويريد أن يشرب، هل يبقى الماء في يديه؟

ما يبقى يسقط الماء، فيقول حال الذين يعبدون من دون الله هذا مثلًا، حال الذين يذهبون إلى القبور أو يذهبون إلى الأموات أو يذهبون إلى الأصنام ويعبدونهم من دون الله ما يستجيبون لهم، مثل ما أنَّ الماء لا يستجيب، الماء إذا رأيته في إناء بعيد عنك تريد أن يأتيك الماء عشان تشرب ولو كنت أشد الناس ظمأ جاك الماء؟

أو تأخذ بيديك تقول: **"أنا أريد أن أشرب"** وإيديك مفرجة الأصابع، هذا مثل شو قال: ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ [الرعد: 14]، ليبلغ فمه وما هو بمستحيل، ثم قال لك: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: 14]، بس هذا النهاية، هذه خاتمة تدعو من دون الله دعاؤك في ضلال ولا ينفعك.

لعل نقف عند هذا القدر نكتفي به، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، هذه آيات عشنا معها أيها الإخوة دقائق استفدنا منها، نسأل الله أن ينفعنا بالقرآن ويجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(216)
(الرعد 15 - 24)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء المرسلين؛ نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك والمتجدد من كل أسبوع بعد صلاة المغرب من كل أربعاء، أسأل الله أن ينفعنا بهذا المجلس المبارك، وأن يوفقنا، وأن يسددنا، هذا اليوم هو اليوم التاسع من شهر شعبان من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة. درسنا في (تفسير القرآن العظيم)، والسورة التي بين أيدينا هي (سورة الرعد).

وقف بنا الكلام عند آية السجدة من (سورة الرعد)؛ وهذه السجدة هي السجدة الثانية من سجدات (القرآن الكريم) حسب ترتيب المصحف. وسجدات (القرآن الكريم) على الصحيح أنها خمس عشرة سجدة؛ إذا مر بها المسلم وهو يقرأ (القرآن)، سواء كان في الصلاة أو خارج الصلاة، أن تيسر له المكان أن يسجد فليسجد؛ فإن السجدة هذه فيها فضل عظيم. أولاً: فيها حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه أخبر أن إبليس إذا رأى الإنسان يسجد يبكي بكاءً شديداً فيقول: **«أُمِرَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ أَنَا بِالسُّجُودِ فَلَمْ أَسْجُدْ فَلِيَ النَّارُ»**. فأنت تغيض الشيطان عندما تسجد؛ وفيها فضل عظيم.

طيب، عندنا هذه السجدة، الله يقول فيها: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩﴾ [الرعد: 15]

لما بين الله سبحانه وتعالى في هذه السورة عظمته، وتوحيده، وآياته، وسعة ملكه، وسعة علمه؛ وذكر لنا آيات عظيمة مشاهدة، وبين أن له سبحانه وتعالى دعوة الحق، وأن له الدعاء الخالص والعبادة الخالصة، وأن الذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء؛ بين لنا أن جميع المخلوقات تسجد لله؛ جميع المخلوقات من الإنس، والجن، والملائكة، وحتى الجمادات، حتى الجبال. ولذلك في (سورة الحج) أخبر الله بأوسع من ذلك، قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 18]

كل هذه تسجد لله. فما معنى (السجود)؟ (السجود) معناه الخضوع لله. وإذا قرأنا هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ عندنا "مَنْ" هم العقلاء كبني آدم؛ الإنسان المسلم، والمسلم من الجن والملائكة؛ هؤلاء يسجدون حقيقةً، سجود على الأعضاء السبعة، يسجدون حقيقةً. وأما سائر المخلوقات كالجبال والجمادات والأشجار والانهار وغير ذلك؛ كل هذه تسجد لله، هذه تسجد سجوداً يليق بها ولا يعلم ذلك إلا الله.

لكننا نؤمن بأنها تسجد، وأنها تسبح، وأنها تقر وحدانية الله. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ بدون استثناء ﴿وَالْأَرْضِ﴾. ثم قال: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾؛ طوعاً المؤمن يسجد طائعاً محتسباً الأجر ويطيع ربه في السجود ويسجد لله.

وكرهاً الكافر؛ كيف يسجد الكافر كرهاً؟ نقول معناه انقياد لله واعترافه بربه؛ حتى فرعون الذي يدعي الربوبية والألوهية هو في ذات نفسه يعترف بوجود الله، ويعترف بأن الله هو الذي خلقه. فما من مخلوق أبداً إلا ويقر بوحدانية الله، ويخضع وينقاد؛ ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾.

قال: ﴿وَظِلَالُهُم﴾؛ كيف الظلال؟ ظل الشيء يسجد معه؛ الأشجار إذا سجدت تسجد الظلال معها، والإنسان إذا سجد والشمس في جهته يسجد الظل معه. وكل المخلوقات تنقاد لله وتسجد لله، وحتى الظلال التي معها تنقاد وتسجد لله.

قال: ﴿وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾؛ يخضعون في جميع الأوقات، من بداية الغدو إلى نهاية الآصال، كل هذه الأوقات هم يخضعون لله ساجدين. وليس معنى ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أنها فقط وقت الغدو ووقت الآصال؛ لا، بين هذين الوقتين، لكن خصّ الوقتين هذين لشرفهما، ولبيان عظمة ودلالاته وقدرته. و(الغدو) جمع مفرده (غدوة)، والغدوة هي أول النهار من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؛ و(الآصال) جمع (أصيل)، وهو من صلاة العصر إلى غروب الشمس .

لما بين الله سبحانه وتعالى أن المخلوقات كلها تسجد لله، قال مخاطباً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يناقش هؤلاء ويطرح عليهم الأسئلة؛ هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام ويعبدون الآلهة، يخاطبهم يقول لهم: قل لهم من رب السماوات والأرض؟ من هو؟ شأنكم أنتم الآن تعبدون أصناماً؛ من رب السماوات والأرض؟ من خالق السماوات والأرض الذي خلقها وأوجدها؟ من هو؟ ثم لم ينتظر منهم جواباً، قال: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ [الرعد: 16]

لأنهم يعرفونه، يعرفون الجواب بأن الخالق هو الله. ثم يناقشه بالعقيدة: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: 16]

يقول: إذا كنتم تعرفون أن رب السماوات والأرض هو الله، وأنه هو الذي يستحق العبادة، كيف تتخذون من دونه أولياء؟ أصناماً؛ حجارةً من حجر وشجر، أو أمواتاً تذهبون إليهم في قبورهم تتخذون من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً؛ ما يملكون لنفس الشيء أبداً. شوف هنا في الآية قال: ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ في بعض الآيات يقدم الضر على النفع، وهذا أغلب وأكثر شيء تقديم الضر، وهنا قال: ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾؛ فلماذا قدم النفع هنا؟ نقول لأن الآيات التي قبلها -لأن هذا دائماً يراعى فيه سياق الآيات- فالآيات التي قبلها أبرز الله منافع كثيرة للخلق وأنهم أحوج ما يكون إلى ربهم .

فقال الله الذي ينفعكم، وهو الذي يعطيكم ويرزقكم، فكيف تذهبون إلى هؤلاء ما يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً؟ يزيدهم في الأسئلة في المقارنة بين من عنده علم ومعرفة ويعرف ربه ويعبده، وبين الكافر الذي لا عنده علم ولا يعبد ربه؛ يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [الرعد: 16]

الأعمى ما يبصر طريقه، لو تتركه في الطريق سقط على وجهه ما يبصر طريقه؛ والبصير يعرف طريقه. فهل هذا يستوي مع هذا؟ إذا كنتم تقرون أن هذا ما يستوي مع هذا، فكذلك من يعرف ربه ويعبده لا يستوي مع من يعبد الشياطين والأولياء والأصنام.

ثم قال: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾؟ الظلمات هي تخبطات الشيطان، هي أماكن عبادة الشياطين، ومن هم يعبدون غير الله؛ هذه الظلمات كلها الذي يذهب إلى الأصنام، والأضرحة، والقبور وغيرها؛ هذه ظلمات بعضها فوق بعض. والنور هو طاعة الله في المساجد؛ في المساجد النور طاعة الله. هل تستوي هذه الظلمات والتخبطات مع نور الله؟ ما يستوي .

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾؛ يعني بل أجعلوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾؟ يقول: هم الآن جعلوا لله شركاء في العبادة؛ هل هذه الشركاء الذين يعبدونهم من دون الله هم خلقوا شيئاً؟ خلقوا

كخلق الله؟ ما خلقوا شيئاً ولا يستطيعون أن يخلقوا ولا ذباباً؛ ما خلقوا شيئاً. هم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم؟ والله اشتبه علينا الأمر ما ندري من خلق السماوات أو خلق الأرض أو الأشجار؟ ما في إلا خالق واحد. ولذلك قال: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: 16]

بدون استثناء؛ الله خالق كل شيء هو الواحد سبحانه هو الخالق. ولذلك شوف ختم الآية بأي شيء؟ ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾؛ خالق كل شيء، يعني المخلوقات كلها الذي أوجدها وخلقها هو الله، وهي مسخرة بأمر الله وتطيعه؛ إذاً هو الواحد، (الواحد) المنفرد بالتوحيد والطاعة والعبادة. فإذا كان هو الواحد وليس معه شبيه خالق غيره، إذاً هو الذي قهر المخلوقات كلها وأذلها، وأصبحت مسخرة مذللة لا تعصي الله عز وجل .

بعد هذا البيان، المقارنة بين عبادة الله وعبادة الشياطين، وبين أولياء الله وأولياء الشياطين؛ يضرب الله لنا مثلاً واضحاً أو مثلين واضحين في بيان الحق والباطل، وأنت تحكم؛ أنت الذي تحكم على هذه الآيات. ما هو المثل المائي الذي ضربه الله؟ قال: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد: 17]

يعني لما نزل الماء من السماء؛ سحاب، فسالت أودية بقدرها، يعني امتلأت الأودية وسالت الأودية؛ وهي الطرق المنخفضة في البراري وغيرها الممتدة. إذا نزل السيل امتلأت الأودية بقدرها؛ كيف بقدرها؟ بما يقدره الله سبحانه وتعالى؛ شوف كيف تقدير الله، حتى "بالصنتي" ما تزيد ولا تنقص، بقدرها.

قال: وهذا الوادي إذا سال يحتمل معه -يعني يحمل معه هذا السيل- زبداً رابياً؛ يعني معه الأعواد، والأشجار، والورق، والزبد الذي يطفو على الماء. الزبد هذا كله يحمله معه، يقول زبداً رابياً يعني مرتفع فوق الماء .

هذا مثال واحد، المثال الأول مثال مائي؛ الماء عندنا الصافي النظيف الذي ينفع للشرب، شرب البهائم، لسقي الأشجار، وفوقه الزبد الذي يطفو ويعلو فوقه؛ أوراق وأعواد. وهذا الزبد الذي يطفو فوقه هذا ما فيه فائدة، هذا في النهاية يلصق في جدران الوادي أو يذهب في أي مكان ما يستفاد منه؛ الصافي هو الذي يستفاد منه. إذن هنا عندنا حق وعندنا باطل.

طيب، خذ هذا المثال الثاني؛ قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾. يقول: هذا المعدن أو نقول (الذهب الخام)؛ (التبر) لما يخرج من الأرض ما يؤخذ هكذا ويصنع منه حلي؛ لا، يؤخذ ويوضع على النار على درجة حرارة شديدة تصل إلى أكثر من ألف حتى يخلص ما فيه؛ ما فيه من شوائب يذهب كله ويصبح ذهباً خالصاً صافياً، حتى يصبح (سبائك ذهب) خالصة.

ثم بعد هذه السبائك تصنع منه الحلي مثل القلادة، والسوار، والخاتم ونحوه؛ يقول: ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ﴾. المتاع مثل السيوف ومثل ما يعني القدور ونحوها التي تصنع؛ قال زبد مثله. الذي يعلو الذهب يذهب عندما يطرق على النار ويحرق على النار، يتساقط كل هذا الذي فيه ما ينفع؛ التراب والأشياء التي لصقت فيه تتساقط. فهذا لا ينفع، وهذا لا ينفع، وهذا ينفع ويبقى. الماء الصافي يبقى به الناس، الذهب الصافي يبقى وينتفع به الناس، وما سواه يذهب .

إذن عندنا حق وعندنا باطل؛ ولذلك شوف ماذا قال الله بعدها؟ قال مثل هذا المثال: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17]

علشان تعرف الحق من الباطل. الحق باقي وينفع الإنسان؛ حق (الإسلام) والطاعة والصلاة تبقى لك وتنفعك، والكفر والضلال وعبادة الشياطين لا تنفع وتضرك. شوف قال جفاءً؛ يعني

يذهب بعيداً ما تنتفع به، ويمكث في الأرض وينتفعون به؛ كذلك يضرب الله الأمثال علشان تعرف الحق من الباطل.

ولذلك شوف رتب الله عليه من الذين يستجيبون للحق ويطيعون ربهم، والذين يكفرون ولا يطيعون؛ قارن بينهما فقال: ﴿لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [الرعد: 18]

للذين استجابوا لربهم الحسنى؛ الفوز بجنات النعيم. والذين لم يستجيبوا له، ولم يقبلوا على طاعته، ولم يعرفوا ما أمرهم الله ونهاهم عنه؛ ولو، يقول هؤلاء إذا جاء يوم القيامة سيندمون أشد الندم، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا لكن ما ينفع، ويتمنون أن يتخلصوا من النار إذا رأوها أمامهم. شوف قال: لو أن لهم كل أموال الأرض جميعاً ﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾؛ يعني "أدبله" مرتين، لو أن لهم كل ما على الأرض من الأموال مثلها مرتين ليفتدوا ويخلصوا أنفسهم من عذاب جهنم ما استطاعوا؛ ليفتدوا ما يمكن ولا يقبل منهم؛ لماذا؟ لأن هؤلاء لهم سوء العذاب، العذاب الشديد، ومأواهم جهنم لن يستطيعوا أن يفروا منها، وبئس المهاد والقرار الذي يكون لهم يوم القيامة .

وشوف الآيات سبحان الله العظيم تميز بين هذا وهذا علشان تعرف أنت طريق الخير والصلاح والنجاة والسعادة، وطريق الهلاك والضلال وما يؤديك إلى النار؛ وهؤلاء يؤديهم إلى الجنة. يقول: أفمن يعلم؟ هؤلاء أهل السعادة وأهل الشقاء: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: 19]

يقول هل هذا يستوي مع هذا؟ الذي يعلم عنده علم ومعرفة بأن الذي نزل عليك وهو (قرآن)، هذا الكتاب والوحي والشريعة، يعرفون أنها حق وأنها من الله؛ كمن هو أعمى لا يدري جاهل؟ قال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أصحاب العقول النيرة هم الذين يعرفون يميزون بين الحق من الباطل .

ما هي صفات (أولي الألباب)؟ يعني حقيقة يا إخوان مثل هذه الصفات ينبغي أن نقف عندها ونتأملها وننظر في أنفسنا؛ هل نحن فعلاً نحن قائمون بها أم مضيعين لها؟ فاسمع هذه الأوصاف، يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ طيب من هم (أولي الألباب)؟

1) قال: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: 20]. ما معنى يوفون بعهد الله؟ كلنا جميعاً بيننا وبين الله عهد؛ (الصلاة) بينك وبين الله عهد أن تؤديها، لأن الله تعهد أنك إذا أديت ما شرعه وما أمرك الله به أن الله عليه عهد أن يدخلك الجنة. فهل أنت قمت بهذا العهد؟ (الصلاة) بيننا وبين الله عهد أن نؤديها على أكمل وجه، و(الصيام)، و(الزكاة)، و(الحج)، وسائر الأعمال التي بيني وبين الله، كل الأوامر والنواهي تدخل. هل نحن نوفي بهذا العهد ولا ننقض الميثاق ولا نضيعه؟ وكذلك العهود بيننا وبين الناس نوفي بها ولا نضيعها؛ هذه أول صفة عندنا؛ ثمان صفات الآن، هذه أول صفة .

3) الصفة الثانية قال: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: 21]. تصل بينك وبين الله ما تقطع، أنت عبادتك هي التي تجعلك تتصل بين الله لا تقطعها أبداً. وكذلك (صلة الأرحام)، وصلة الأقارب، وصلة الجيران؛ يجب عليك أن تراعي هذه الأشياء. يصلون ما أمر الله به أن يوصل فيتواصلون، وخاصة (صلة الأرحام) من الوالدين والأعمام والأخوال والإخوة؛ يجب عليك أن تصل.

3، 4) ثم قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 21]. يخشون ربهم؛ يخافونهم، يخافون الله ويخافون عقوبات الله أن تنزل، ويخافون سوء الحساب يوم القيامة. كيف قال يخشون ربهم ويخافون؟ ما الفرق بين الخشية والخوف؟ ليش قال في حق الله يخشون ربهم، ولما جاء في سوء الحساب ويوم القيامة قال يخافون؟ يخشون ربهم؛ (الخشية) دائماً تكون يكون

معها العلم، دائماً يخشونه بعلم؛ يعني يعرفون ربهم ويخشونه. أما يخافون يوم الحساب ما رأوه، لكنهم يخافون مما سمعوا عنه، مما جاءهم من أخبار يوم القيامة؛ يخافونها لكنهم لم يروها. أما ربهم فهم يخشونه لعلمهم التام بربهم. هذه الآن أربع صفات؛ الوفاء بالعهود، وصلة الصلة، والخشية والخوف .

5) والخامسة قال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: 22]. هذه قف عندها كثير منا؛ يعني تأتيه أمور في أمامه يصبر أو لا يصبر، يعني العاقل يصبر لكن لا جئت لما قلت له أنت صبرت؟ قال لي: "شكو الله ما إلا صبر"، لا تقول كذا؛ قال اصبر لوجه الله. قال هنا صبروا ابتغاء وجه ربهم؛ يعني تصبر لما تجد عند الله من الأجر، (الصابرون) يوفون أجرهم بغير حساب، تحتسب صبرك أجراً. أما تقول: "والله علي ضغوطات وما لي خيار لا بد أن أصبر"؛ لا، فرق بين أنك تقول هذا الكلام وبين تقول: "والله أنا أصبر محتسباً الأجر عند الله". كم يفوتنا من الصبر ومن الأشياء التي تمر علينا في حياتنا ما نستدرك هذه الأشياء. صبروا ابتغاء وجه ربهم، ما صبروا علشان يقال والله فلان يمدح بأنه صادق ويحتسب ويتحمل الحياة؛ لا، مدح الناس ما ينفع، اصبر لوجه الله.

6) ثم قال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الرعد: 22]. هذه صفة عظيمة في المسلمين وهو الفرق بينه وبين الكافر؛ الكافر لا يصلي، والمؤمن يقيم الصلاة. شف قال "أقام"؛ فرق بين أقام الصلاة وصلى. صلى الآن ثلاث صفوف أربعة، من الذي أقام الصلاة ومن الذي صلى؟ تجد الذين أقاموا الصلاة قلة؛ أقاموها بمعنى أتوا بها بخشوعها وشروطها وأركانها وواجباتها.

7) ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد: 22]. أنفقوا نفقات سواء نفقة واجبة؛ النفقة على البيت والزوجة والأولاد والوالدين، أو نفقة مستحبة كـ (الصدقات) أو (الزكوات). أنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية؛ قدم السر لأنه أقرب إلى القبول، والسر أفضل الصدقة ان لا تخبر أحداً، لا تخبر سراً. وعلانية؛ والعلانية أحياناً يكون فيها مصلحة يتعلم الناس منك فيتصدقون ويتشجعون .

8) قال أيضاً من صفاتهم، الصفة الأخيرة الثامنة قال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: 22]. يدرؤون يعني يدفعون السيئات بالحسنات؛ إذا أخطأ عليه شخص يقابله بالحسنة، كل ما حصلت سيئة قابلها بالحسنة، وقع في سيئة عمل حسنات علشان تمحو السيئات؛ يدرؤون يدفعون بالحسنات هذه السيئات.

ما النتيجة في هذه الصفات التي نحن نتمنى إن شاء الله أن نكون منهم، ونتمنى أيضاً أن نكون متصفين بها حقيقة؟ ما جزاؤهم؟ قال الله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 22]؛ يعني العاقبة الحسنة في الدار الآخرة. ما هي؟ قال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: 23]

(عدن) يعني إقامة، يقيمون فيها ولا يخرجون منها؛ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم؛ ليس وحدهم حتى الآباء معه، لكن شرط: (مَنْ صلح) من الآباء والأزواج والذرية. شوف أنت ووالديك وأزواجك وأولادك وذريتك؛ بناتك وأبنائك، كلهم معك بس بشرط (مَنْ صلح)؛ ولهذا الصلاح هو الذي سبب دخول الجنة؛ من صلح من آبائه.

وإذا دخلوا الجنة في هذه السعادة والاجتماع، اجتماع أسري، يقول الله عز وجل: والملائكة يدخلون عليهم من كل باب؛ دل على أن القصور واسعة وكبيرة لها أبواب كثيرة، يدخلون عليهم من كل باب يدخلون لماذا؟ الملائكة تحيي وترحب بهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 24]

لا يصيبكم أذى ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾؛ شفت جاء الصبر؟ شوف عظم الصبر. سلام عليكم بما صبرتم؛ وإذا سمعت أنت كلمة ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أولاً تحتسب الصبر، وثانياً تعرف أن الدنيا هذه كلها

لا بد من الصبر، كلها مشاق ومصائب؛ اصبر وتجد نتيجة الصبر: سلام عليكم بما صبرتم. فنعم عقبى الدار؛ نعمة هذه الدار العاقبة الحسنة لكم أنكم فزتم بهذه الدار التي الكل يتمنى الفوز بها. ولكن مثل ما ذكرنا ومثل ما ذكر الله سبحانه وتعالى، هذه الصفات الثمان ينبغي لنا أن نعيد النظر فيها ونراجعها وننظر في حالنا؛ هل نحن فعلاً يعني متصفين بها ولا مضيعينها؟ هذا الذي ينبغي لنا أن نراجعه .

طيب، لعلنا نقف عند هذا القدر نكتفي به إن شاء الله؛ في اللقاء القادم استكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(217)
(الرعد 25 - 35)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء المرسلين؛ نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو اليوم السادس عشر من شهر شعبان من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة. مجلسنا المبارك مع (القرآن الكريم) قراءةً وتفسيراً وبياناً وتدبراً. أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

الله سبحانه وتعالى قال في كتابه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: 24] أمر (التدبر) في أربعة مواقف؛ تأكيداً على أنه ينبغي للإنسان المسلم عندما يقرأ (القرآن) يقرأه بتمعن وتفكر وتدبر، وأن يقف عند هذه الآيات ويفهم معانيها؛ لا أن يقرأ هكذا قراءة لا يستفيد منها ولا يتدبر ولا يتفكر ولا يدري ماذا يخاطب.

الآيات التي معنا هي من (سورة الرعد)، بعدما بين الله سبحانه وتعالى أن الذين هم من أهل الجنة وصفهم بأوصاف، ذكر ثمانية أوصاف لهم في هذه السورة، وبين أنهم لما اتصفوا بهذه الصفات وأخذوا بها وتمسكوا بها وعدهم الله بالفوز العظيم في جنات النعيم.

هذه الأوصاف التي ذكرها الله: أنهم يوفون بعهد الله، ولا ينقضون الميثاق، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب؛ كل هذه الصفات التي ذكرها، ماذا قال في آخرها؟ قال: أولئك لهم عقبى الدار، جنات عدن يدخلونها ومن صلح أيضاً من آبائهم معهم وأزواجهم وذرياتهم، إلى آخر ما ذكر الله في فوزهم بهذا النعيم .

تأتي آيات بعدها تقابل هذا الشيء، وهو من هم الذين ضد هؤلاء والذين خسروا الدنيا والآخرة؟ من هم؟ حتى نحذر أن نتصف بصفاتهم ونتجنبهم، ولا نخالطهم، ولا نوقع أنفسنا بما أوقعوا هم أنفسهم فيه. اسمع هذه الصفات؛ لما ذكر الله صفات الفائزين في جنات النعيم ترغيباً وتشجيعاً للمسلمين، ذكر صفات الخاسرين ترهيباً وتخويفا وحتى لا يسلك المسلم مسلكهم. ما هي؟

قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: 25]

ما هو عهد الله الذي ينقضونه؟ العهود متنوعة والآية شاملة لكل العهود؛ بينك وبين الله عهد أن تقيم (الصلاة) كما أمرك، وأن تأتي بفرائض الله، وأن تأتي بكل ما أمرك الله به وتحافظ عليه، وأن تتجنب ما حرم الله، وأن تبتعد أن تنتهك حرمات الله ولا تبالي. هذا عهد بينك وبين الله؛ إنك إن وفيت بهذا العهد أدخلك الجنة، وإذا نقضت هذا العهد فأنت الخاسر.

والعهود أيضاً أوسع من هذا؛ العهود بينك وبين المسلمين، بينك وبين إخوانك؛ أي معاهدة بينك وبين الزوجة عهد، وإخوانك تقع عهود بينك وبينهم؛ هذه العهود يجب إذا أنت التزمتها يجب أن توفي بها ولا تنقض ولا تخالف؛ فإن نقض العهود من صفات المنافقين، وهي ممن وصف الله أنهم خسروا الدنيا والآخرة.

شُوف قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ ما معنى كلمة **«من بعد ميثاقه»**؟ يعني أن هذه العهود نقضوها بعدما تأكدت وثبتت؛ بعد (الميثاق) يعني وقع عليها

الميثاق وتأكدت وثبتت، ينقضونها ولا يبالون ولا يهتمون. تجدهم بينه وبين الله، بينه وبين الناس؛ لا يبالون بها وينقضونها. هذه الصفة الأولى.

الصفة الثانية قال: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾؛ ما هي الأشياء التي أمرنا الله سبحانه أن نصلها؟ أول وأعظم أمر أن تصل نفسك أنت برب العالمين؛ ومن أعظم اتصالك من أسباب الوصل بينك وبين الله هذه (الصلاة) التي نؤديها. الصلاة سميت صلاة لماذا؟ لأنها تصل العبد لربه؛ المصلي متصل بربه في كل وقت، يصلي هنا، يصلي في البيت، يصلي في كل مكان، إذا سافر يصلي في كل مكان. الذي لا يصلي قطع العلاقة بينه وبين الله بمجرد تركه للصلاة.

ما الذي يصلك بينك وبين الله وأنت لا تصلي؟ انقطعت. فالله قال هنا: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾؛ أعظم وصل بينك وبين الله، بينك وبين رسول الله بمحبته وتعظيمه وإجلاله وعدم معصيته. أين صلتك مع الرسول صلى الله عليه وسلم وأنت لا تحبه ولا تجله ولا تعظمه ولا تستن بسنته؟ صلتك أيضاً بأقاربك، بوالديك، بأرحامك؛ هؤلاء يقطعون الأرحام، والله سبحانه وتعالى أخبرنا بأن الذين يقطعون الأرحام قد لعنهم الله:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: 22-23]

فهؤلاء الذين ذكرهم الله: ينقضون عهد الله، يقطعون ما أمر الله به أن يوصل. ثم قالت الصفة الثالثة: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ يفسد في الأرض بالمعاصي، بالشرك، بالكفر، بالسرقة، بالإيذاء؛ بجميع أنواع الفساد يفسد في الأرض ولا يصلح. فهؤلاء هم شرار الخلق وهم الذين في مقابل من وعدهم الله بالجنة. ماذا توعد الله هؤلاء؟ قال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾؛ لهم اللعنة في الدنيا والآخرة. ما هي (اللعنة)؟ هي الطرد وإبعادهم من رحمة الله؛ لا يرحمهم الله هؤلاء الذين ينقضون عهد الله ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض؛ هؤلاء مطرودون من رحمة الله، لا تعمهم رحمة الله حتى يعودوا إلى الله ويتوبوا إلى الله. هذا في الدنيا والآخرة؛ اللعنة.

والأمر الثاني قال: ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ يوم القيامة؛ لهم الدار السيئة يوم القيامة، وهي (نار جهنم)؛ لأنهم نقضوا العهود وأفسدوا في الأرض وقطعوا الأرحام؛ فهذا جزاؤهم .

الكفار لا يبالون بمثل هذه المواعظ والتذكير والتخويف، وهمهم الدنيا؛ وتجد من أبناء المسلمين أو من بعض المسلمين من يتصف بصفات الكفار في أن تكون الدنيا هي همه، يعني همهم الدنيا فقط، يعيشون للدنيا ويظنون أن الدنيا سيلمونها كلها وسيطرون عليها؛ ولا يعلمون أن الدنيا لا يكون لهم شيء منها ولا نصيب منها إلا بما قدره الله؛ يعني لا تتعب نفسك وتهلك نفسك ولن يأتيك إلا ما كتب الله لك في هذه الدنيا.

ولذلك الله سبحانه عقب هذا الشيء؛ الذين يفسدون في الأرض وغالب هؤلاء الذين يتصفون بهذه الصفات، نقض المواثيق والعهود وتقطيع الصلات والإفساد في الأرض؛ هؤلاء يريدون جمع الدنيا فقط. ولذلك الله رد عليهم، قال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: 26]

بسط الرزق؛ الله هو الذي يبسط الرزق، لا هذا ولا هذا ولا أي إنسان؛ لو يبحث لو يتعب نفسه في الدنيا في الليل والنهار لا يستطيع أن يأخذ إلا ما كتب الله له. فالذي يبسط الرزق، يعني يوسع على عباده، هو الله. والذي يقدر، يعني يضيق الرزق ويجعل هذا فقيراً وهذا غنياً، هو الله؛ ليس إنساناً أبداً .

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هؤلاء الكفار فرحوا فرح بطر وأشر وتكبر؛ لا فرح شكر. لو كانوا يفرحون فرح شكر لكان هذا أمر طيب، لكنهم لا يفرحون فرح

الشكر، وإنما يفرحون فرح الإفساد والبطر والاستكبار. قالوا: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؛ والحياة الدنيا ما هي؟ عند الله لا تزن جناح بعوضة.

قال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ يتمتع به الإنسان؛ مثل الطعام، أو الشراب، أو النوم، أو الجلسة الخفيفة؛ هذا المتاع يتمتع بشيء ثم ينتهي. ما الحياة في الدنيا بالنسبة للآخرة إلا متاع.

ثم إن الله سبحانه وتعالى أيضاً يحكي لنا مواقف المشركين واحتجاجاتهم، وكل احتجاجاتهم ومواقفهم تعنت واستكبار وعدم قبول للحق.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: 27]

يقولون محمد صلى الله عليه وسلم ما أتى بآية من ربه، ما أعطانا آية واضحة؛ (القرآن) لا نريده، نحن نريد آية حسية مثل عصا موسى واليد وناقة صالح؛ هذه: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾. قال الله سبحانه وتعالى: لو أراد الله أن يأتي بآية أتى بها، ما يمنعها شيء، لكن هل أنتم ستسلمون وتؤمنون وتنقادون؟ إن كنتم تنقادون فانقيادكم للقرآن -الذي هو حجة قوية- أولى، لكنكم لا تريدون الانقياد .

قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ الآن الضلال والهداية بيد الله، ليست بأن تشاهد آية أمامك؛ وإلا فالنبي صلى الله عليه وسلم أتى بأعظم آية وهي (القرآن)، وأتى أيضاً بآيات حسية لأهل مكة وما قبلوا منه؛ انشق القمر أمامهم وقالوا: "سحر"، ولم يقبلوا بآيات حسية. فهم ليس مقصدهم الوصول إلى الحق، وإنما التعنت والاستكبار ورد الحق فقط. ولذلك الله قال: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾؛ ويضل من يشاء ويهدي إليه من أناب. أمامكم الطريق والقرآن أمامكم، وإن ضللتم تركككم الله في ضلالكم وفي غيكم، وإن اهتديتم ورجعتم لربكم فإن الله يهديكم ويدلكم على الخير.

ولذلك قال: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾؛ ورجع وتاب إلى الله؛ يفتح لهم باب (التوبة) لعلهم يرجعون.

من هو الذي يهديه الله؟ الذي أناب. من هو الذي ينوب ويعود إلى الله؟ قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]

الذين آمنوا وتابوا وعادوا هم الذين يهديهم الله وهم المهتدون فقط؛ آمنوا. وأيضاً تطمئن قلوبهم بذكر الله؛ إذا قرئ عليهم القرآن اطمأنت قلوبهم وانشرحت، وإذا ذكر الله بالتهليل والتكبير والتسبيح والتعظيم والإجلال أيضا خشعت قلوبهم واطمأنت وارتاحت؛ بخلاف المنافق والكافر تشمئز نفسه ما يقبل الحق. هؤلاء آمنوا وصدقوا واطمأنت قلوبهم بذكر الله. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا﴾؛ تنبيه، انتبه؛ ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾. القلوب تنشرح وتطمئن وترتاح تستقر ولا تقلق؛ يذهب عنها القلق ويذهب عنها الريب والشك ويذهب عنها كل ما يجعلها تقلق؛ هو كتاب الله (القرآن) وذكر الله .

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: 29]

الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ بخلاف هؤلاء الذين كفروا ولم يعملوا الصالحات. بما وعدهم الله؟ تأكيداً على ما سبق قال: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾؛ ما معنى طوبى لهم؟ يعني حياة طيبة في الآخرة، أن تطيب نفوسهم وتسعد وترتاح بحياة طيبة في الدار الآخرة؛ لماذا؟ آمنوا وصدقوا وعملوا الصالحات.

أيضاً **«طوبى»**؛ لا يفوتنا ما جاء في الحديث أن في الجنة شجرة اسمها (طوبى)، يسير الراكب تحت ظلها أربعين سنة لا يقطعها؛ هذا ظل شجرة واحدة وهي طوبى، لمن؟ للذين آمنوا وعملوا الصالحات. ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾؛ أي حسن رجوع إلى ربهم، حسن مرجعهم إلى الله سبحانه وتعالى وهي (جنات النعيم) .

ثم الله يرد على هؤلاء الكفار الذين لم يقبلوا القرآن ولم يؤمنوا ولم يصدقوا؛ يهددهم، يقول: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: 30]

أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء، إلى أمتك وإلى العرب، وقد خلت قبلها أمم كثيرة كقوم نوح وعاد وثمود؛ أمم كثيرة مضت. أرسلناك إليها لماذا؟ ﴿لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن؛ شُوف عظمة القرآن ونعمة القرآن. الرسول صلى الله عليه وسلم أرسل إلينا ليقرأ علينا القرآن؛ فقرأه على أصحابه فحفظوه في صدورهم وكتبوه وتناقلوه إلى أن وصل إلينا محفوظاً. وقرأه على الكفار وسمعوه ولكنهم لم يؤمنوا به ولم يقبلوه؛ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾. إذا قيل لهم اسجدوا للرحمن كفروا، وقالوا: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ وزادهم نفوراً. يقولون: لا نعرف (الرحمن)، لا نعرفه إلا الله؛ فيكفرون بالرحمن. و(الرحمن) اسم من أسماء الله يدل على سعة رحمته سبحانه وتعالى.

والله رد عليهم، قال: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾ هو خالقي ورازقي، هو الله عز وجل؛ ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لا معبود بحق إلا هو؛ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في طلب رزقي وعبادتي واستعانتي؛ ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾؛ توبتي ورجوعي إلى الله .

وهؤلاء الكفار لا يزالون في غيهم وضلالهم ولا يستوعبون، حتى إن الله سبحانه وتعالى يبين لهم عظمة القرآن الذي رفضوه ولم يقبلوه، يقول الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: 31]

أي كتاب سُيِّرت به الجبال -يعني أزيحت به الجبال- أو قطعت وشققت به الأرض أو كلم به الموتى لكان هذا القرآن. طيب لماذا اختار الله هذه الأشياء الثلاثة؛ تسيير الجبال، قطيعة الأرض، تكليم الموتى؟ لأن هذه حجج الكفار؛ يأتون النبي صلى الله عليه وسلم يقولون: "جبال مكة ضيقت علينا أزحها يا محمد، افسح لنا في الأرض اجعل الأرض قطعاً واسعة، أخرج لنا الموتى آباءنا وأجدادنا نكلمهم"؛ يحتجون بهذا. قال الله سبحانه وتعالى: لو أن هناك كتاب عظيم ينزله الله تسير به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى لكان هذا القرآن؛ لما فيه، لعظم هذا القرآن وجلالته وقدره عند الله. فلذلك قال: ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾؛ الأمر لله في الإيمان والكفر والضلال والهداية .

ثم قال الله سبحانه وتعالى لهؤلاء المؤمنين: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [الرعد: 31]

يقول لماذا المؤمنون غير مقتنعين بأن الله جعل الناس كفاراً ومؤمنين؟ الأمر لله سبحانه والحكمة لله. ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾؛ ييأس هنا عند جمهور المفسرين أن معناها (أفلم يعلم)؛ على لغة من لغات العرب ولهجة من لهجات العرب أنهم يقولون "ييأس" بمعنى يعلم. فقوله هنا: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أفلم يعلموا هؤلاء المؤمنون، ما استقر العلم واستوعبوا أن الله لو أراد أن يهدي الناس جميعاً لاستطاع أن يهديهم؛ لا يمنعه شيء؟ لماذا يغيب عنهم هذا الشيء؟ أولو حملنا "ييأس" من (اليأس) على معناها فالمعنى جاري وصحيح؛ يعني لماذا ييأس المؤمنون من إيمان الكفار؟ الله قادر على أن يجعلهم كلهم مؤمنين ويهديهم.

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: 31]

باقون على كفرهم ولكن الله يهددهم بالتخويف؛ تصيبهم بما صنعوا بسبب ذنوبهم (قارعة)، يعني يحل بهم العذاب وتنزل بهم الأهوال؛ أو تحل قريباً من دارهم تحيط بهم قريبة، إما أن تباشرهم مباشرة أو تكون قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله بالانتقام منهم وإهلاكهم جميعاً في الدنيا أو في الآخرة. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾؛ هذه الآية تهديد لهؤلاء الكفار الذين يستمرون على ضلالهم وطغيانهم؛ والله يهددهم ويخوفهم ويرسل عليهم هذه القوارع وهذا التخويف وهذه الآيات لعلهم يرجعون، ولكن لا يزالون في غيهم وضلالهم؛ عقولهم فارغة، ولذلك يسخرون ويستهزئون من الرسول ومن المؤمنين.

قال الله سبحانه تهديداً لهم أيضاً: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: 32]

رسل كثيرة استُهزئ بها يا محمد؛ ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾، يعني أمهلت وأعطيت فرصة للذين كفروا؛ يتمتعون قليلاً وتركتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعقوبة؛ فكيف كان عقابي؟ كيف كانت عقوبتي شديدة؟ فالله سبحانه وتعالى قد يمهل الكافر، يمهل العاصي ويعطيه لعله يرجع، فإن استمر فإن الله إذا أخذ الظالم أخذه أخذ عزيز مقتدر: **«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»**

فليحذر أولئك الذين لا يبالون؛ والله سبحانه وتعالى محيط بالعباد، قادر عليهم، مهيمن رقيب عليهم، يعني (بالمرصاد)؛ لا يفوت شيء من أعمالهم لا من خير ولا من شر، كل ذلك الله عالم به محيط به لسعة علمه .

ولذلك يخبرنا الله سبحانه وتعالى هنا بأسلوب الاستفهام، يقول: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ [الرعد: 33]

الله قائم على كل نفس؛ أي نفس من النفوس الله قائم عليها رقيب، عالم بحالها؛ لا يمكن أن تحدث حركة من حركاتها إلا الله عالم بها ومحيط بها، ولا يمكن أن تخرج أي نفس عن علم الله. ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ خيراً أو شراً؛ قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾! كيف تجعلون لله شركاء والله بسعة علمه قد أحاط بالنفوس لا يمكن لأي نفس أن تتحرك إلا بعلم الله؟ وهؤلاء جعلوا لله شركاء.

قال الله سبحانه وتعالى احتجاجاً عليهم: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾؛ صفوهم للناس، من هم؟ لا نعرفهم نحن، أين هؤلاء الشركاء؟ سموهم؛ ما عندهم علم. ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ تخبرون الله بما لا يعلم في الأرض؟ الله غاب عن هذا الشيء؟ تخبرون عن شيء خفي عليه؟ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. ﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾؛ بمجرد كلام عندكم ظاهر فقط.

كل هذا لا دليل عليه، ولكن قال: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: 33]

زين للذين كفروا مكرهم وكيدهم بالمسلمين؛ فقد زين لهم مكرهم وظنوا أنهم يستطيعون أن يتسلطوا على المسلمين. ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾؛ صدهم الشيطان وأنفسهم الخبيثة صدتهم عن سبيل الله؛ ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾؛ من أضله الله لن تجد من يهديه أبداً إلا أن يعود إلى ربه .

وهؤلاء الذين صدوا عن سبيل الله وكفروا وأشركوا، قال: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: 34]

لهم عذاب في الحياة الدنيا؛ يعذبهم الله بالقتل والسلب والنهب والأسر، ويعذبهم بضيق الأنفس والكرب والشدة والهم والغم؛ كل هذا لهم عذاب في الحياة الدنيا. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾؛ وأعظم وأقوى من عذاب الدنيا. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾؛ أي لا يجدون من يقيهم من عذاب الله يوم القيامة.

طيب، لعلنا نقف عند هذا القدر نكتفي به إن شاء الله؛ في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(218)
(الرعد 35 - آخرها)
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء المرسلين؛ نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، الموافق الثالث والعشرين من شهر شعبان من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة.

أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع؛ مثل هذه المجالس المباركة، وهذا الدرس الذي يعقد كل أسبوع من يوم الأربعاء بعد المغرب، هذه مجالس مباركة تحفها الملائكة بإذن الله، وتغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، ويذكر الله الحاضرين عنده في الملأ الأعلى. نأخذ شيئاً من آيات الله سبحانه وتعالى نقرأها، نبين معانيها، ونتفكر فيها ونتدبرها؛ كما أمر الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24] يقول: لماذا لا يتدبرون (القرآن)؟ هل القلوب مقفلة مغلقة؟ لماذا لا تتدبر (القرآن) تقرأ (القرآن) ولا تقف عند معانيه وتتدبر هذه الآيات؟

السورة التي بين أيدينا هي (سورة الرعد)، وقف بنا الكلام عند الآية الخامسة والثلاثين، وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿۞ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: 35]

(القرآن) طريقته بين الترغيب والترهيب؛ بين أن يفتح للناس طريق الخير ويشجعهم ويبين ثمرة من يسلك هذا الطريق، ويبين في الجانب الآخر طريق الشر وأثره السيئ على صاحبه. تقرأ هذه الآية تشتاق إلى (الجنة) وأنت تسمع أوصاف (الجنة) ولمن هي. الله سبحانه وتعالى يقول: «مَّثَلُ الْجَنَّةِ»؛ يعني حالها ووصفها، هذه (الجنة) لمن؟ قال: ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾؛ دائماً نجد عندما تُذكر (الجنة) يُذكر أهلها بصفة (التقوى)، (المتقين).

يقول الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]

وهنا يقول: ﴿الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾؛ إذاً (تقوى الله) هي أقوى أو من أقوى أسباب دخول (الجنة). متى يكون الإنسان تقياً؟ تقوى الله ما معناها؟ التقي هو الذي عرف حق الله عليه، وسارع إلى مرضاته، وسارع إلى تحقيق ما فرض الله عليه وأوجبه، وما سنه له واستحبه، والابتعاد عن كل طريق يؤدي إلى النار وكل طريق محرم؛ فبالمحافظة على طاعة الله وترك المحرمات تتحقق (التقوى).

وصف (الجنة) قال: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ يعني (الجنة) ليست جنة واحدة هي جنات، وهذه الجنات والقصور والمساكن الأنهار تجري من تحتها. ما هي هذه الأنهار؟ هذه الأنهار ذكرها الله سبحانه وتعالى بأنها أربعة أنهار: أنهار من ماء غير آسن، أنهار من لبن لم يتغير طعمه، أنهار من خمر لذة للشاربين، أنهار من عسل مصفى.

ثم زادت وصفاً تشتاق إليه فقال: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾؛ بمعنى لا ينقطع أبداً، لا مقطوعة ولا ممنوعة، في الدنيا الثمرات لها أوقات محددة؛ تأتيك الفواكه شتوية أو صيفية، هذه السنة فيها فواكه والسنة التي تليها قد لا يكون؛ (الجنة) لا، ثمرتها دائمة لا تنقطع، وتصور أنك تقطف وأنت

مضطجع، أو قاعد، أو قائم؛ تقطف فتعود ثمرة في مكانها أخرى بمجرد قطفك، أو مكانها ثمرة أخرى.

﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ ما تنقطع، ﴿وَظِلُّهَا﴾؛ قال وظلها أيضاً دائم، حُذف الخبر للعلم به؛ مثل قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ وأيضاً تقيكم البرد؛ ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد. ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أيضاً دائم لا ينقطع. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً -اسْمُهَا طُوبَى- يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا»** تصور شجرة واحدة في الجنة يسير الراكب على الخيل منطلقاً سريعاً مائة سنة ما يقطع ظلها.

قال الله سبحانه وتعالى تأكيداً: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾؛ هذه هي عاقبة من اتقوا، أما الذين لم يحافظوا على (تقوى الله) فقد يخسرون هذه الأشياء. ثم قابلها فقال: ﴿وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾؛ النار تنتظر كل من كفر وجحد آيات الله ولم يؤمن بربه.

ثم سبحانه وتعالى يبين لنا موقف (أهل الكتاب) الذين أعطاهم الله (التوراة) و(الإنجيل) فضلّوا بالعلم؛ ما هو موقفهم؟ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ۚ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ [الرعد: 36]

هذه طائفة من (أهل الكتاب) ممن أسلم؛ كـ (عبد الله بن سلام) وغيره، إذا سمعوا (القرآن) يفرحون؛ لأنه يوافق ما عندهم في (التوراة)، فيفرحون أنه من عند الله. ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾؛ أي طوائف أخرى من اليهود والنصارى أو من المشركين، ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾؛ لأنه لا يوافقه، ويؤمن ببعضه لأنه يوافقه. قال الله عز وجل قل لهؤلاء جميعاً: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾؛ هذه رسالتي ودعوة (الإسلام) وبعثة النبي صلى الله عليه وسلم، كلها تدور على هذا الأمر؛ ﴿أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾؛ تحقيق العبادة لله والحذر من (الشرك) الذي يمنع صاحبه من الدخول إلى (الجنة).

ما من نبي إلا ويقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره؛ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ كل هذه دعوة (توحيد) وترك (الشرك). ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾؛ محمد صلى الله عليه وسلم يدعو إلى (التوحيد) ونبذ (الشرك)، وكل من كان على طريقه يدعو؛ ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾. ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾؛ أي مرجعي وتوبتي، ورجوع الخلق كلهم إلى الله.

ثم سبحانه يمدح هذا الكتاب الذي يفرح به بعض (أهل الكتاب)، فيقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: 37]

ما معنى «حكماً عربياً»؟ يعني حاكماً يرجعون الناس إليه يقضي بينهم، وفي نفس الوقت ذو حكمة عظيمة. كما قال الله عز وجل: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: 1] فالله أنزله محكماً متقناً حاكماً الناس يرجعون إليه. ثم حذر من اتباع طرق هؤلاء الغافلين المعرضين: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ يا محمد بعدما ظهر لك العلم والوحي و(القرآن)، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ ينصرك أو يمنعك، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من العذاب. هل النبي صلى الله عليه وسلم يتبع أهواءهم؟ لا؛ هو معصوم ولا يمكن، لكن الله يخاطبه ويريد به غيره؛ مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؛ الرسول لا يمكن أن يشرك، لكن هذه رسالة لغيره؛ أي إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحذر من هذا الشيء فغيره من باب أولى لأنه أضعف منه.

ثم تجد من هؤلاء اليهود والنصارى أو غيرهم من يعترض على النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "النبي عنده نساء متزوج"؛ تزوج النبي صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة امرأة، ومات عن تسع. قالوا: "محمد يحب النساء!" فالله رد عليهم: تتعجبون أن محمداً عنده تسع أو إحدى عشرة؟ (سليمان) عنده مائة امرأة، و(داوود) عنده تسع وتسعون امرأة، وغيرهم من الأنبياء عندهم نساء؛ لماذا لا تعترضون عليهم؟

اسمع الآية، قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: 38]

جعلنا لهم ﴿أَزْوَاجًا﴾ ما قال زوجة واحدة، وذرية؛ (إبراهيم) عنده (إسماعيل) و(إسحاق)، و(داوود) عنده (سليمان). إذاً اعتراضهم هذا ليس له وجه. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾؛ هذا رد عليهم أيضاً ثانٍ لما قالوا: "لولا أُنزل عليه آية من ربه"، الرسول لا يأتي بالآيات؛ الذي يأتي بها هو الله، إلا بإذن الله إذا أمره أو أذن له. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ يعني ما من أجل لأمة من الأمم أو لشخص إلا وقد كُتب عند الله؛ كتاب للآجال مقدرة.

ثم فصل في هذه الآجال والأقدار: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 39]

الأقدار عند الله؛ شيء قد كُتب في (اللوح المحفوظ)، هذا لا يمكن أن يطرأ عليه تغيير أبداً؛ ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ هو (اللوح المحفوظ) الذي كتب الله فيه كل شيء. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: 70] قد كتب الله كل شيء.

لكن هناك أشياء أخرى تحدث يومياً وتكون في صحف الملائكة، يكتبونها مما يقع من الناس من ذنوب ومعاصٍ أو استغفار أو توبة؛ هذه الأعمال يطرأ عليها أحياناً نسخ: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾، يبدل هذا مكان هذا؛ لأن الأعمال تعرض على الله فيقبل منها ما يقبل ويرد ما يرد. وكذلك يدخل في هذا ما يتعلق بنسخ الأحكام الشرعية؛ الله يبدل ويغير في الأحكام الشرعية؛ الناس أول (الإسلام) كانوا يصلون إلى (بيت المقدس) ثم حولوا إلى (الكعبة)؛ ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾. لكن الأصول كالآجال والأرزاق لا يطرأ عليها نسخ؛ لذلك قال: ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

ثم سبحانه العظيم يهدد هؤلاء الكفار فيقول لمحمد: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: 40]

إما أن نريك؛ يعني ننزل بهم عقوبات، أو نتوفينك وتنزل العقوبات بعدك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أنت تبلغ رسالة ربك، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾. وقد أراه الله مصارع مشركي مكة في (بدر)؛ النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء إلى (بدر) بدأ يبين للصحابة فيقول: "هذا مصرع فلان هنا، وهذا مصرع فلان"، فأراه الله ذلك.

ثم بين سبحانه أن هذا الدين سينصره الله مهما كان: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 41]

﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؛ بالفتوحات وانتشار (الإسلام) أراضي المشركين تنقص؛ سقطت (فارس) وسقطت (الروم) وأصبحت ديار للمسلمين. ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ ويقضي ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾؛ لا أحد يستطيع أن يقول: "لماذا كذا؟" ويعترض؛ حكم الله ثابت لا معقب له. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ في لحظة لا يمنعه شيء.

وهؤلاء الكفار يمكرون، لكن مكرهم لا ينفع: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 42]

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾؛ مكرهم تحت حكم الله لا يستطيعون أن ينفذوا شيئاً إلا بأمر الله. و(المكر) هو الحيلة؛ يحتالون ليخدعوا الأنبياء والله حافظ أولياءه. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ سعة علمه أنه ما تكسب أي نفس؛ أنا وأنت والثاني، من حسن أو سيئ، إلا يعلمه الله. ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾؛ سيعلمون النهاية لمن، ومن الذي ينصره الله ويؤيده إلا عباده المتقين.

ثم يقول سبحانه في بيان موقف الكفار واعتراضهم على الرسول: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: 43]

يقولون: "أنت لست رسولاً!"؛ الله يشهد أنه رسول، ولذلك قال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ إذا أنتم تنكرون الرسالة فالله يشهد أني رسول. ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أيضاً يشهدون؛ وهم (أحبار اليهود) و(النصارى) الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم. وفي قراءة: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾؛ أي الله عنده علم الكتاب ويعلم سبحانه وهو الشهيد والعالم.

إلى هنا تنتهي هذه السورة؛ (سورة الرعد)، التي عشنا معها اللقاءات الماضية وقلبنا صفحاتها، تبيّنا معانيها وتدبرناها. أسأل الله أن يبارك لنا وأن يجعلها في موازين حسناتنا جميعاً، ونحمد الله ونشكره وله الحمد والمنة على أن ختمنا هذه السورة.

إن شاء الله في لقائنا القادم ننتقل للسورة التي تليها. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ إِبْرَاهِيم)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(219)
(إبراهيم 1 - 8)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الأربعاء الموافق للسادس من شهر شوال من عام 1447من الهجرة.

نسأل الله أن ينفعنا بما نقول، وبما نسمع، وأن يجعل مجلسنا هذا مجلسًا مباركًا نافعًا، وأن يجعله مما تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين في هذا المجلس المبارك عنده في الملأ الأعلى، نسأل الله أن يحرمنا هذا الفضل العظيم.

نجلس هذه الدقائق مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونقرأ آيات من كتاب الله، السورة التي بين أيدينا هي **"سورة إبراهيم"** عَلَيْهِ السَّلَامُ خليل الله، وسميت بهذا الاسم؛ لأن الله ذكر في آخرها قصة إبراهيم مع البيت ودعائه الذي ابتهل الله بهذه الأدعية المباركة.

وهذه السورة بلا شك أنها سورة مكية، ودائمًا أيها الأخوة الكرام إذا أردنا أن نفهم كتاب الله ونعرف مراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من إنزال هذا القرآن جميعًا نعرف أن المقصد والمراد هو **"التدبر والفهم"** لا أنك تقرأ هكذا لا، القراءة السطحية هذه لا تستفيد منها، وإنما تقرأ بفهم وتدبر وتعقل.

هذه السورة **"سورة إبراهيم"** لما تقرأها وهي ليست طويلة صفحاتها قليلة لابد أن تعرف مقصد السورة وهدف السورة، ولماذا أنزلها الله؟ وعما تتحدث؟

هذه السورة هي تتحدث عن أعظم وأجل نعمة أنعم الله بها على الثقلين جميعًا الإنس والجن، وأن كفرانها سبب لدخول النار، وسبب للهلاك في الدنيا والآخرة.

✍ما هي هذه النعمة التي أنعم الله بها علينا جميعًا؟

لما تقرأها ستجدها بإذن الله في أول الآيات، ماذا قال الله في أول الآيات؟ قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم: 1]، إليك يا محمد؛ لماذا؟ قال: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: 1].

هذه أجل نعمة، الناس قبل بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا في ضلال وفي ضياع وفي كفر وفي شرك، فجاءهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخرجهم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الطاعة والإيمان، هذه أعظم نعمة، أعظم نعمة أنزلها الله علينا.

ولذلك لما حكى الله عن هذه النعمة، ورسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن أيضًا من نعمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه لم يترك أمم من الأمم إلا وأرسل إليها رسولًا ينذرهم ويذكرهم بما ينفعهم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4].

وهذا فضل من الله ونعمة أن الرسول يأتي مناسبًا لقومه، فيتكلم معهم بلسانه ويبين لهم دعوته.

ثم ساق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التي هي شبيهة بقصة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقريبة ومعروفة عندهم، وذكر قصة موسى وفيها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾، هذه النعمة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

أي نعمة من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تأتيك إن شكرت؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، ثم قال: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

ولاحظ أنه قال في الشكر: ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، وفي الكفر ما قال: **"لأعذبنكم"** وإنما قال: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]، يعني أنتم عرضتم أنفسكم إلى العذاب الشديد.

وأنت تجد في هذه السورة حوار الأنبياء مع أقوامهم، إلى أن يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن تبديل نعمة الله والكفر بها سبب للهلاك، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ 28 جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: 28، 29].

وتلاحظ أيضًا أن الله أعطانا نعم عظيمة، وذكر لنا نعمًا عظيمة في هذه السورة قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ 32 وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ 33 وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:32- 34].

ولاحظ أنه قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]، لو تريد أن تعد ما تستطيع أن تعدها أصلاً حتى تنتهي إلى إحصائها، ثم قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34].

وهذه الآية مذكورة في سورة النحل التي ستأتينا، لكن الله ختمها هناك لما قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: 18]، قال بعدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 18]، لماذا؟ لأن **"سورة النحل"** كلها نعم، فناسب أن يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 18].

وهنا قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]؛ لأنه ذكر موقف الأمم وموقف الأقوام الماضية؛ بأنها كفرت نعمة الله ولم تؤمن، وأن الكثير من الناس يكفرون نعمة الله، ولذلك **"سورة إبراهيم"** تتحدث عن النعم وموقف الإنسان منها، و**"سورة النحل"** تتحدث عن النعم، وبيان فضل الله على عباده بهذه النعم العظيمة.

هذا ما تحتويه هذه السورة، وأنت عندما تقرأ هذه السورة بهذا التدبر، وهذا التأمل، والنظر في آياتها ككل بإذن الله تفهم السورة فهمًا جيدًا، وتدرك معانيها.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتحها بعد: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ [إبراهيم: 1]، بالحروف المقطعة، ونحن عرفنا أن هذه الحروف هي حروف من حروف الهجاء ولكن لها دلالات، ولها مغزى،

ولها هدف، وهو إعجاز العرب، وإعجاز عموم الناس بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، هذا القرآن مكون من حروف هجائية كلٌّ يتكلم بها، وكلٌّ يكتب بها، وكلٌّ يتحدث، لكن القرآن نزل بلغة العرب، وتحدى العرب أن يأتوا بمثله، وعليهم أن يؤمنوا به.

✍ لاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتح هذه السورة بثلاثة حروف، ما هي؟

قال تعالى: ﴿الر﴾ [إبراهيم: 1]، وهذه الحروف الثلاثة افتتحت بها ست سورة، **"يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر"** ست سور، إلا أن **"الرعد"** فيها زيادة حرف الميم أربع حروف، طيب هذه الحروف عرفناها مرت معنا كثيرًا.

لما ذكر الله الحروف قال بعدها: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم: 1]، يعني القرآن هذا الذي بين أيدينا.

✍ قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم: 1]، هذا ماذا تفهم منه؟

نفهم من ذلك: **"أن الذي أنزله هو الله وأنه كلام الله"**.

ثانيًا: **"فيه إثبات العلو"** أن النزول من أعلى، وأن الله فوق سماوات مستوٍ على عرشه.

ثالثًا: أن قوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم: 1]، فيه إثبات رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه لم يأت به من نفسه، وإنما أوحى الله به إليه، أنزله الله إليه.

✍ ثم بيّن السبب لماذا أنزل الله هذا الكتاب؟

✍ ما الحكمة؟

✍ ما السر في ذلك؟

✍ ما الغاية؟

قال: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ [إبراهيم: 1]، لتكون يا محمد سببًا في إخراج الناس من الظلمات، أي ظلمات؟ ظلمات الجهل، والكفر، والضلال، إلى نور الطاعة والإيمان، والعلم، والتعلم، والهداية.

قال: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: 1]، الظلمات جمع، والنور مفرد، لماذا؟ نقول: لأن طرق الشر كثيرة، وأما الخير فطريقه واحد وهو النور.

قال: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: 1]، يعني أنت سبب في إخراجهم؛ لكن الهداية بيد الله، لا يمكن للإنسان أن يهدي نفسه، ولا أحد يستطيع أن يهدي فلان ولا فلان إلا إذا أراد الله هدايته، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: 1]، أي بأمره وعلمه.

قال: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: 1]، تخرجهم إلى ماذا؟ إلى النور، ثم هذا النور ما هو؟ قال: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]، هذا النور هو صراط العزيز الحميد، الصراط يعني **"الطريق إلى الله"** من هو العزيز؟ هو الله، من هو الحمد؟ هو الله.

ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اختار هذين الاسمين في هذا المقام، ما قال: **"إلى صراط الغفور الرحيم"** أو اسم من غير هذا الاسم لا، قال: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1].

دل على: أن صراط الله صراط عزيز وقوي، وأن من سلكه من الناس فهو عزيز غالب، وكذلك الحميد المحمود على أفعاله، المذكور بالذكر الحسن، ولذلك فيه لفتة جميلة هنا.

ثم قال: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ 1 اللَّهِ﴾ [إبراهيم: 1، 2]، هذه على قراءتنا، وعلى قراءات أخرى كقراءة نافع وابن عامر **"اللهُ"** على الابتداء، وهنا لا، هنا على أنه عطف بيان أو بدل، ﴿اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 2].

قال: ﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: 1]، من هو العزيز الحميد؟

القرآن يبين بعضه بعضًا، قال: العزيز الحميد هو الله، والله هو الذي له ما في السماوات وما في الأرض، هو الذي يملك السماوات والأرض وما فيهن، كلنا نحن عبيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يملكنا، ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 2].

ثم هدد وخوف؛ قال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 2]، **"ويل"** تهديد، وتخويف، ووعيد شديد للكافرين نعمة الله، في أجل وأعظم من هذه النعمة؟ نعمة الهداية، ونعمة إخراج الناس من ظلمات الجهل والضلال والكفر إلى نور الطاعة والإيمان والاستقامة؟ في أعظم من هذه النعمة؟ ما في، ولذلك هدد الكفار الذين يكفرون هذه النعمة، ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 2].

✍ من هؤلاء الكفار؟

✍ من هم هؤلاء الكفار الذين هددهم الله بهذا التهديد الشديد؟

قال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: 3]، الذين لا يرجون لقاء الله، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، هم هؤلاء، ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ [إبراهيم: 3]، يعني يحبونها حبًا شديدًا؛ لأن السين والتاء تفيد التأكيد والمبالغة، ﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 3].

لو قال: **"إنهم يحبون الدنيا ويحبون الآخرة"** في ناس تحب الدنيا وتحب الآخرة، لكنه يقدم الآخرة على الدنيا، وهؤلاء لا، ﴿يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 3]، يكفرون بالآخرة ولا يعترفون بها.

وزيادة على ذلك؛ قال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: 3]، يصدون بأنفسهم، يعرضون، ويصدون غيرهم، يمنعون غيرهم من الدخول في الإسلام.

قال: ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ [إبراهيم: 3]، ما هي؟ سبيل الله، يعني شرع الله، ﴿عِوَجًا﴾ [إبراهيم: 3]، يعني يشهون سمعتها، ويلطخونها بالأوصاف السيئة.

قال: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: 3]، يعني في الدنيا هم في ضلال، أما في الآخرة فلهم عذاب شديد.

✍ قال: ﴿فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: 3]، هل الضلال يكون قريب وبعيد؟

نقول: الضلال إما ضلال شديد، أو ضلال أقل، لكنه وصفه بالعبد؛ لأنهم أضلوا أنفسهم فأبعدوا عن طريق الخير بعدًا شديدًا.

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد هذه النعمة العظيمة نعمة رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا، لو لم يرسل الله عَزَّ وَجَلَّ محمد بالرسالة ولم ينزل القرآن لأصبح الناس إلى الآن في ضلال، إلى الآن في كفر وجاهلية وعمياء، لكن الله أنعم عليهم بهذه النعمة العظيمة.

ومن النعم؛ قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ﴾ [إبراهيم: 4]، أي رسول أرسلناه من أول رسول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى آخر الرسل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الله يرسله بلسان قومه، ﴿إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: 4]، يعني بلغة قومه، فهذه نعمة؛ لأنه يتحدث معهم، ويسمعون له، ويتقبلون منه، لو جاءهم بلغة غير لغتهم ما استطاعوا.

قال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 4].

🗐 لو جاءك سائل وقال:

✍ إذا الله لا يرسل رسول إلا بلسان قوم؛ فمحمد أرسله الله إلى كافة الناس العرب والعجم فكيف؟

نقول: رسالة إلى العرب، ورسالته بالعربية؛ لأنها هي اللغة السائدة، ولأنها هي اللغة التي فوق كلّ اللغات، ثم إن رسالته خاتمة؛ ولأن غيره من العجم يلزمهم الدخول فيه والتعلم، ويلزم المسلمين بيان هذه الدعوة لهم.

قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4]، ليقيم عليهم الحجة، ثم بعد ذلك إذا أقام عليهم الحجة من سلك طريق الهداية وأخذ برسالة نبيه نجا وسلم وسعد، ومن خالف ذلك أوقع نفسه في الضلال.

ولذلك قال: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ﴾ [إبراهيم: 4]، هذا من لم يرد الهداية، الآن ما من رسول من الرسل إلا ويبلغ رسالة ربه، فالناس موقفهم من الرسالة إما الإيمان أو الكفر، فالذي آمن سلم وهداه الله، والذي كفر أضله الله على كفره، وزاده طغيانًا وكفرًا، وجعلهم في ظلمات يعمهون.

قال: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4]، هو العزيز الغالب ذو القوة، وهو الحكيم في تدبيره في هذا الكون.

ثم ذكر لنا قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التي تشابه قصة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيها الحجة، وفيها البيان؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ [إبراهيم: 5]، أرسل الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بآياته.

✍ ما هي الآيات التي أرسل الله بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

نقول: آيات الله ذكرها في موضع ثاني أنه تسع آيات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: 101]، العصا، واليد، وفلق البحر، وغيرها من الآيات.

قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: 5]، هذا من رسالته، الله أرسله إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان والطاعة، وأرسله إلى قومه أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، نفس الشيء **"من الظلمات إلى النور"** كما في رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: 5].

✍ ما هي أيام الله التي يذكرهم بها؟

نقول: أيام الله إما أن تكون نعم الله عليهم، أن الله أنجاهم من فرعون، و**"أنه ظلل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، وفجر لهم العيون"** هذه نعم، ذكرهم بهذه النعم حتى يثبتوا على الحق.

أو يُراد بأيام الله: **"نقمه ووقائعه في الأمم الماضية"** أن موسى يذكرهم؛ يقول: انظروا ماذا جرى لقوم نوح، لقوم عاد، لقوم صالح، ونحوهم؟!!

أو يذكرهم **"بأيامهم لما كانوا عند فرعون في بطشه وجبروته عليهم"**.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5]، **"صبار"** أمام النعم والمصائب، و**"شكور"** أمام النعم.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دعوة موسى؛ فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: 6]، ماذا قال؟ قال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [إبراهيم: 6]، السورة تركز على النعم.

قال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [إبراهيم: 6]، إذًا هو يخاطب قومه من بني إسرائيل، يقول: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: 6]، الأيام الماضية الله أنجاكم من فرعون، ماذا يصنع بكم؟ قال: ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ [إبراهيم: 6]، يعني فرعون ومن معه، ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [إبراهيم: 6]، يسومونكم يعني يولونكم العذاب الشديد، يسلطون عليكم العذاب الشديد.

ثم قال: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: 6]، في سورة البقرة قال: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ [البقرة: 49]، دون الواو، وهنا قال: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾ [إبراهيم: 6]، لماذا أتى بالواو؟ لأنها في سياق التذكير بالنعم.

قال: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: 6]، يعني يذبحون الذكور الصغار، أي إنسان يولد له مولود جديد ذكر يذبحون أبناءهم، يعني تسلط فرعون على بني إسرائيل بذبح الأبناء.

قال: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: 6].

✍ ما معنى يستحيون؟

✍ الكثير منا يقرأ هذه الآية لكن ما هو معناها؟

✍ هل هو من الحياء ولا من الحياة؟

نقول: هو من **"الحياة"**، قال: ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: 6]، يعني يبقونهم حيات، يعني البنات ما يقتلونهم، طيب ما الغرض؟ لأنهم يقومون بخدمتهم، يعني البنات يتركونهم أحياء ويجعلونهم خدامًا لهم، يخدمونهم، يولونهم الخدمة الشديدة، أما الأبناء فيذبحونهم.

قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ [إبراهيم: 6]، أي في هذا الفعل، ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: 6]، هذا امتحان وفتنة من الله عَزَّ وَجَلَّ، الله هو الذي قدر هذا الشيء، ليس فرعون ولا غيره، فرعون آلة فقط، أما الذي أراد ذلك هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لحكمة.

ثم بيّن لهم قاعدة مهمة جدًا ولنا ولكل إنسان ينبغي أن يفهمها فهمًا جيدًا؛ قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ [إبراهيم: 7]، أي أعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أعلمكم وأخبركم، ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7].

هذه قاعدة في الحياة كلها: **"تشكر الله على طاعته يزيدك"** إذا شكرت الله على أنه وفقك لصيام رمضان يزيدك صيام، الذي شكرت الله على أنه وفقك لحضور صلاة الجماعة يزيدك ثباتًا، وهكذا، وإذا شكرت الله على نعمة الصحة والعافية والمال يزيدك.

قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، اللام هنا قسم **"والله لئن كفرتم"**؛ قال: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

ما قال: **"ولئن كفرتم لأعذبنكم"**؛ ولكن قال: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]، لأنكم عرضتم أنفسكم له، فالذي يكفر نعمة الله ويجحد نعمة الله يُعرض نفسه لزوال النعمة، والتعرض للعذاب الشديد.

قال: ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ [إبراهيم: 8]، يعني هذا من دعوة موسى لقومه، وتذكيرهم بهذه النعم، ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: 8]، لو كفرتم كلكم جميعًا فالله غني؛ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: 8].

الله غني، لا تنفعه طاعة الطائع، الله غني عن طاعة الخلق، وغني عن الخلق، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15].

ولاحظ أنه دائمًا في الغالب إذا جاء اسم **"الغني"** يأتي معه اسم **"الحميد"** لماذا؟ لأن غنى الله غنى الناس ينتفعون به، والخلق ينتفعون به، ليس غنًى لنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال: ﴿الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، يعني يُحمد على غناه.

لعل نقف عن هذه الآية، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(220)
(إبراهيم 9 - 21)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا اليوم يوافق الثالث عشر من شهر شوال من عام 1447من الهجرة، نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا أيها الأخوة في تفسير القرآن العظيم، و**"سورة إبراهيم"** عَلَيْهِ السَّلَامُ، نواصل ما توقفنا عنده، ونحن تحدثنا في لقاءنا الماضي أن **"سورة إبراهيم"** هي تتحدث عن نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عباده المؤمنين؛ وأن من أجلّ النعم وأعظمها نعمة **"الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"** وإخراج الإنسان نفسه من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الطاعة والعبادة.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في أول السورة أنه أنزل القرآن على رسوله لهذا الغرض؛ قال: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: 1].

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه؛ يعني بلغتهم التي يفهمونها، وهذا أيضًا من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الخلق أنه يرسل إليهم الرسل، وينزل إليهم الكتب، ويبيّن لهم بالأسلوب الواضح واللغة التي يفهمونها.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأنه أنذر قومه وذكرهم بنعمه عليهم؛ قال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]، يعني لئن شكرتم نعم الله عَزَّ وَجَلَّ وأثنيتم بها على الله، وذكرتموها بالقلب واللسان والجوارح زادكم الله، والذي يكفر نعمة الله، ولا يبالي بها فكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7].

ثم بعدما ذكر الله قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه أرسل إلى أمم سابقة فكفروا، ولم يؤمنوا، فماذا جرى لهم؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [إبراهيم: 9]، هذا الكلام جاء بعد قصة موسى مباشرة.

ولذلك المفسرون وقفوا عند هذه الآية، وقالوا:

هل هذا من كلام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والقصة ما زالت مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أو كلام جديد؟

نقول: على قولين، والذي يظهر أن هذا الكلام ليس من كلام موسى، وإنما هذا خطاب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمن نزل عليهم القرآن وهم أهل مكة ومن جاء بعدهم، فيخبر الله أهل مكة ومن جاء بعدهم أن الأمم الماضية أرسل الله إليهم رسلاً فكفروا، واستكبروا، وعاندوا، فماذا جرى لهم؟!!

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9]، ما جاءتكم أخبارهم؟ بلى، هذا استفهام تقريري، يعني قد جاءتكم الأخبار وعلمتم بها، علمتم عن قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله أرسل إليهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدعاهم إلى

التوحيد وعبادة الله، وترك الشرك، فأبوا، وكفروا، وعاندوا، فأنزل الله بهم العقوبة، ما هي؟ أنزل عليهم الطوفان الماء الذي أغرقهم جميعًا فماتوا عن آخرهم.

وعاد أرسل الله إليهم هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدعاهم إلى التوحيد وعبادة الله، وترك الشرك، فأبوا وكفروا وعاندوا، فالنتيجة أرسل عليهم ريحًا صرصرًا قطعتهم وأماتتهم جميعًا، ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: 20].

وثمود قوم صالح؛ أرسل الله إليهم صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ فدعاهم إلى التوحيد وعبادة الله، وترك الشرك، فأبوا وكفروا وعاندوا، والنتيجة أن أرسل الله عليهم صيحة واحدة أماتتهم جميعًا وقطعت قلوبهم.

قال: ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [إبراهيم: 9]، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9]، من هم؟ رُسل كثيرين، قال: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: 9]، يعني أن بعد عاد وثمود أرسل الله وبعث الله رسلاً كثيرين لا يعلم عددهم إلا الله، ولذلك جاء في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الله أرسل من الرسل مائة وأربعة وعشرين ألف رسول، لا يعلمهم إلا الله، ولذلك الله يقول في كتابه العزيز: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164]، فالرسل كثيرين جدًا.

قال: ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ﴾ [إبراهيم: 9]، أي هذه الأمم، ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: 9]، يعني هذه من نعم الله أن أرسل الله لهم رسلاً يدعوهم إلى التوحيد، وإلى عبادة الله، وإلى الأخلاق الحسنة الطيبة، وترك الشرك، والكفر، والفسق، لكن أبوا.

قال: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم: 9]، ما هي النتيجة؟ قال: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9].

✍ ما معنى ردوا أيديهم في أفواههم؟

✍ من هم الذين ردوا أيديهم في أفواههم؟

🗐 هذه للمفسرين فيها أقوال:

الرأي الأول: هؤلاء المعاندين الكفار لما جاءتهم الرسل يدعوهم إلى التوحيد ماذا صنعوا؟ استهزئوا، وكفروا، واستحقروهم، وبدؤوا يضعون أيديهم على أفواههم استهزاءً ضحكًا وعدم قبول الدعوة، هذا رأي.

الرأي الثاني: أنهم ردوا أيديهم هم في أفواه الرسل، يعني جاؤوا إلى الرسل ووضعوا أيديهم عليهم؛ وقالوا: اسكتوا، لا تتكلموا في هذا الذي تقولونه أبدًا، فردوهم، وهذا من تطاول الأمم على الرسل.

الرأي الثالث: أنهم ردوا أيديهم في أفواههم أي أن هؤلاء الأقوام ردوا أيدي الرسل في أفواههم، يعني أخذوا أيدي الرسل ووضعوها في أفواههم؛ وقالوا: اسكتوا ولا تتكلموا، وكلها محتملة، المهم أنهم ردوا الرسالة وكفروا بها وعاندوا.

ولذلك قال الله بعدها: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ [إبراهيم: 9]، نحن لا نؤمن برسالاتكم، أنتم أيها الرسل جئتم برسالاتكم، ونحن لا نؤمن برسالتكم، ولا نصدق بها.

قال: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: 9]، دعوتكم هذه التي تأتون بها **"قولوا لا إله إلا الله"** والتوحيد، وطاعة الله، هذه نشك فيها، لا نؤمن بها، ولا نصدق بها، لماذا؟ لأنهم وجدوا آباؤهم يعبدون الأصنام، وهم لن يتركوها، ولن يتنازلوا عنها، فلذلك يشكون في طاعة الله، يقولون: كيف آباؤنا ما وحدوا ولا أطاعوا الله، ونحن نطيع ونوحد؟!!

لذلك الرسل مباشرة ردوا عليهم بقوة؛ قال: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: 10]، في توحيده وطاعته، وأنه هو الخالق، وهو العالم بكل شيء، المحيط بكل شيء، تشكون في الله وفي وجوده؟!!

قال: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 10]، من الذي خلق السماوات والأرض وفطرها وأوجدها وأبدعها من غير مثال سابق؟!! الله تشكون فيه؟!!

والله أيضًا من صفاته أنه يدعوكم أنتم، يرسل الرسل إليكم ويدعوكم؛ لماذا؟ قال: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: 10]، يعني الله أرسل الرسل حتى تعودوا، كما قال هود؛ قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: 10]، وكلّ الرسل يقولون ذلك، ارجعوا إلى ربكم، ليغفر لكم ذنبوكم.

وقوله: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: 10]، يعني يغفر لكم جميع الذنوب، فـ **"من"** هنا ابتدائية؛ أي لا يبقي لكم ذنبًا من الذنوب.

ومن فضل الله عليكم ونعمته؛ قال: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [إبراهيم: 10]، كيف يؤخركم إلى أجل مسمى؟ ما يعاجلكم بالعقوبة، ما ينزل عليكم العقوبة مباشرة، إذا أنتم رجعتم إلى ربكم ووحدتموه، وعبدتموه، واستغفرتموه، مد الله في أعماركم، ولن ينزل بكم العقوبات، وإذا أصررت على كفركم نزلت بكم العقوبات.

قال: ﴿قَالُوا﴾ [إبراهيم: 10]، أي الأقوام للرسل، ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [إبراهيم: 10]، أنتم بشر كيف نطيعكم؟ هل نطيع بشر؟!!

قال: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: 10]، أنتم تريدون أن تصرفونا عن عبادة ما كان يعبده آباؤنا من الأصنام والأنداد، ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: 10]، يريدون بينة وحجة، والأنبياء أتوا بالبينات والحجج؛ لكن هؤلاء يقترحون عليهم بينات، ويقترحون عليهم معجزات، ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [إبراهيم: 10].

الرسل لن يسكتوا فردوا عليهم، قال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: 11]، نحن بشر، تريدون ماذا؟ تريدوا الملائكة تنزل عليكم أو جن يكلموكم؟ البشر أحسن وأفضل، تسمعون منهم ويسمعون منكم، وتعرفونهم ويعرفونكم، هذا هو الأليق.

قال: ﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: 11]، ولكن الفرق؛ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: 11]، ينعم بالرسالة، والله اختارنا لنبلغكم، وكلفنا بالرسالة، ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ [إبراهيم: 11]، أنتم تريدون معجزة؟ ما نأتي بمعجزة إلا بإذن الله، إذا أراد الله شيئًا، وأراد الله أن يحققه لكم نحن لا نتعرض له.

ثم قالوا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: 11]، يعني نحن مؤمنون، وسنتوكل على الله، ونفوض أمرنا إلى الله، وسنستمر في دعوتنا، وتبليغ رسالة ربنا، وقفتم أمامنا أم لم تقفوا سنتسمر في الدعوة؛ لأننا متوكلون على الله، والله هو الذي يتولى أمرنا.

ثم قالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ [إبراهيم: 12]، ما الذي يمنعنا؟ ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: 12]، لابد أن نتوكل؛ فهو الذي دلنا على هذا الطريق طريق النجاة.

قال: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم: 12]، عرفوا أن الأقوام سيؤذونهم، سيخرجونهم، ويستعرضون للأذى، لكن قالوا: فوضنا أمرنا إلى الله، وتوكلنا على الله، مثلما قال نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: 71]، ولم يأبه بهم، ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس: 71]، ما تستطيعون.

وقال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ 55 إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: 55، 56].

ومحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196]، فهذه سنة الرسل، وهذا منهج الرسل؛ أنهم يتوكلون على الله ولا يأبهون بأحد أمامهم، ولا يضعفون أمامهم في هذه الدعوة.

✍ ولذلك لما وقفوا هذا الموقف الشديد القوي ما النتيجة؟

✍ الأقوام أكثر عدد وأقوى، والرسل قلة وأتباعهم قلة، فما طريقة الأقوام؟

الجواب: دائمًا إذا ما استطاعوا أن يحاجوهم بالدليل، ولا يحاجوهم بالحجة يستعملون القوة، فماذا قالت الأقوام لرسلهم؟

قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [إبراهيم: 13]، استعملوا القوة، قالوا: خلاص، نحن لن نقبل منكم الدعوة، ما في طريقة إلا أن نخرجكم من بلدنا، مثلما قال قوم لوط؛ قالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: 56].

قال: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [إبراهيم: 13]، انظروا كيف البجاحة منهم؛ قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [إبراهيم: 13]، هل الأرض لهم؟ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وعباد الله والأنبياء هم الأولى بالأرض، أما هؤلاء فلا يستحقون أن تكون الأرض لهم.

قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [إبراهيم: 13]، لكن هم أتوا بها لأنهم يدعون أنهم هم الذين يسكنونها، وكان آباؤهم فيها، فهم أولى.

قال: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: 13]، تعودون إلى ديننا، ودين آبائنا وعبادة الأصنام.

🗐 لكن هنا وقفة:

✍ هل الرسل كانوا يعبدون ما كان يعبد آباؤهم؟

نقول: لا، الرسل معصومون ما يعبدون الأصنام أبدًا، لكن هؤلاء إما قالوه ادعاءً منهم، أو يريدون أن يرجعوهم بقوة، أو أنهم يقصدون أتباع الأنبياء؛ لأن أتباع الأنبياء فيهم من كان يعبد الأصنام، ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: 13].

فلما اشتد الأمر بالإخراج والإيذاء وقد يصل إلى القتل، ماذا جرى؟

أوحى الله إلى الرسل لطمئنهم، ويبشرهم بالنصر؛ قال: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 13]، أوحى الله إلى الرسل، ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: 13]، هذه بشارة، أن يُهلك الله هؤلاء الظالمين الكافرين المعاندين.

قال: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: 14]، الأرض أصبحتم لمن؟ للأنبياء وأتباعهم، فهذا وعد من الله، ﴿ذَلِكَ﴾ [إبراهيم: 14]، أي هذا النصر، والتأييد، والطمأنينة، والأمن، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: 14].

الرسل يخافون مقام الله، ومعنى مقام الله **"الوقوف بين يديه يوم القيامة"**؛ قال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: 14]، جاء بالجملة هذه لتكون عامة إلى قيام الساعة، كلّ من خاف مقام ربه، وخاف وعيده؛ له الأمن في الدنيا والآخرة، وسيفتح الله له من الخير في الدنيا والآخرة.

قال: ﴿ذَلِكَ﴾، أي هذا النصر والتأييد، وأن الله يستخلفهم في الأرض، ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: 14].

قال: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ [إبراهيم: 15]، من؟ هؤلاء الكفار، استفتحوا يعني تحدوا الأنبياء والرسل أن ينزل الله بهم العقوبة، مثلما قال أهل مكة؛ قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: 32].

ويقولون: متى هذا الوعد يا محمد؟ أن تعدنا بالعذاب أين العذاب؟ يستفتحون على أنفسهم، ولا ينبغي للإنسان أن يستفتح على نفسه بالشر، متى يحصل كذا؟ متى يحصل كذا من الشر؟ لا.

قال: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: 15]، استفتحوا على أنفهسم الشر فجاءتهم العقوبات، وخاب وخسر كلّ جبار معاند؛ فيه من الجبروت والقوة والعناد فهذه النتيجة خاب وخسر وهلك، هذا في الدنيا، أما في الآخرة، ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: 16]، يعني تنتظره أمامه، الوراء هنا بمعنى الأمام.

✍ والذي وصل إلى جهنم ماذا سيجري له؟

قال: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 16].

✍ ما هو الماء الصديد؟

هو: دم أهل النار، وقروحهم، وما يسيل منهم، يؤخذ هذا، تجري أنهار، تجري أودية من القروح وهذه الدماء، ثم يسقون أهل النار من هذا الشيء.

قال: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 16]، القروح والدماء، ولكنه إذا رآه ما يستطيع أن يشرب؛ قال: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ [إبراهيم: 17]، لماذا؟ لأنه ظمآن، اشتد عطشه، فهو يريد أن يشرب أي شيء، فإذا أعطي هذا الشيء القيح والقيء يتجرعه، يعني يشربه بقوة وهو لا يريد.

قال: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: 17]، ما يسيغ ما يذهب بسهولة، ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [إبراهيم: 17]، ثم وهو في النار يأتيه الموت من كلّ مكان، من شدة العذاب عليه يأته الموت من كلّ مكان، ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: 17]؛ لأن النار ما فيها موت، والآخرة ما فيها موت، ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: 17]، ما هو بميت، ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: 74].

قال: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: 17]، هذا لمن؟ لمن كذب الرسل، وعاند، واستكبر، ورد رسالات الله، بدل ما يشكر الله على رسالاته، وعلى رسله؛ يكفر هذه النعمة، هذه هي نتيجة من لا يبالي بدين الله، ولا يعترف بدين الله، ولا يقبل شرع الله هذه النتيجة، ﴿وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: 17].

ثم إن هؤلاء الكفار قد يدعي من يدعي منهم أن له أعمال صالحة، مثل إطعام الطعام، وكفالة الأيتام، وصلة الأرحام، أحيانًا يكون عندهم أعمال صالحة، هل تنفعهم في الآخرة ولا ما تنفعهم؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [إبراهيم: 18]، أي حالهم، مثلهم وشأنهم الذين كفروا، ﴿كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: 18]، لم يؤمنوا بربهم، النتيجة ما هي؟

قال: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: 18]، الرماد الذي يكون أثر الحطب بعدما تخمد النار، هذا الرماد ضعه في ريح شديدة عاصفة ماذا تصنع به الريح؟!!

قال: ﴿أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: 18]، ما يبقى منه أثر، كذلك أعمال الكفار تذهب، قال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23]، ما يبقى له أثر.

قال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا﴾، هؤلاء الكفار، ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: 18]، ما يجدون شيء، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: 18]، هذا هو الضلال، في الدنيا ضلوا ففي الآخرة أشد ضلالًا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يخلق الخلق عبثًا، ما خلق السماوات السبع عبثًا، ولا الأراضين السبع عبثًا، ولا

خلق هذا الخلق العظيم عبثًا؛ إنما خلق هذا الخلق ليقيم عدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويجازي المحسن على إحسانه، ويجاز المسيء على إسائته.

قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [إبراهيم: 19]، خلقها بالحق، ﴿إِنْ يَشَأْ﴾، أيها الناس، ﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 19]، الله قادر بلحظة أن يُذهب كلّ من على الأرض، بلحظة واحدة يقول: **"كن فيكون"** ويأتي بخلق جديد بلحظة.

قال: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: 20]، ليس بقوي على الله، البشر يعجزن عن ذلك، لكن الله يقول للشيء:**"كن فيكون"**.

قال: ﴿وَبَرَزُوا﴾ [إبراهيم: 21]، يعني إذا جاء يوم القيامة، ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: 21]، يعني خرجوا من قبورهم وظهروا أمام الناس، لا يخفى على الله منهم خافية، ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [إبراهيم: 21]، لا يخفون على الله.

✍ فبدؤوا بالحوار يتناقشون، من؟

هم: أهل النار، قال: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ [إبراهيم: 21]، الضعفاء الذين يتبعون الكبار، يتبعون الملأ، لمصالح دنيوية، ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: 21].

✍ هل تنفعوننا وتردون عنا العذاب؟

قال: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: 21]، قالوا: نحن ما هدانا الله كنا في ضلال، تريدون أن نخلصكم من العذاب؛ بل كلنا في العذاب.

قال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: 21]، جزعنا يعني نلوم أنفسنا، ونصرخ، ولا نرضى بالشيء هذا أو نصبر فالأمر سيان، ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: 21]، ولا مهرب ولا مفر، هذا مكاننا نار جهنم، نصرخ فيها أو لا نصرخ، نجزع فيها أو لا نجزع، أو نصبر؛ فالأمر سيان، هو مصرينا وهو نهايتنا، نحن وإياكم سواء.

نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(221)
(إبراهيم 22 - 34)
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا اليوم الأربعاء الموافق للعشرين من شهر شوال من عام 1447من الهجرة، نسأل الله أن ينفعنا بما نقول، وبما نسمع، وأن يجعل هذا المجلس مجلسًا مباركًا نافعًا، وأن تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين في هذا المجلس عنده في الملأ الأعلى.

نأخذ آيات من كتاب الله نقرأها ونبيّن معانيها ونتدبر ما فيها، والسورة التي بين أيدينا هي **"سورة إبراهيم"** عَلَيْهِ السَّلَامُ، سُميت بذلك؛ لأن الله ذكر فيها قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعواته الطيبة، وهذه السورة كما ذكرنا في عدة لقاءات ماضية هي تركز على **"نعمة الهداية"** وأن أعظم نعمة يمن الله بها على الإنسان أن يُنعم عليه بأن يعرف الطريق إلى الله، وأن يسلك الصراط المستقيم، صراط النجاة والهداية والسعادة، والسورة تركز على هذا الأمر.

وقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: 22].

ذكر أهل التفسير: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا حاسب العباد وجازاهم وذهب أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، ودخل أهل النار النار وُضع لإبليس منبر من نار، فيصعد هذا المنبر ويخطب خطبة فيهم، هذه الخطبة التي يخطبها عليهم هي ما ذكره الله هنا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ [إبراهيم: 22]، يعني إبليس، ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: 22]، يعني الحساب والجزاء والجنة والنار، كلٌّ ذهب إلى مصيره ومأواه، ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: 22]، وقف خطيبًا على أهل النار، كلّ أهل النار يسمعونه.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: 22]، يقول: الله وعدكم وعد الحق؛ أن من أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وتحقق وعد الله، أما أنا فكنت أزين لكم الأعمال، وأغريكم بالمحرمات، وأدلكم على المحرمات، وأصدكم عن الطاعات في الدنيا، وأقول: هذا هو الوعد، وهذه هي السعادة.

وأنت تلاحظ الآن الشيطان وفعله، والله يقول: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: 48]، تجد الكثير الآن يسلك مسالك الشيطان، والشيطان يقوده إلى المهالك، وهو لا يشعر، ويظن أنه في سعادة، ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ [فاطر: 8].

فهنا يقول الشيطان: الله وعدكم وعد الحق، أما أنا وعدتكم فأخلفتكم، قلت لكم: سيكون كذا، وسيكون كذا؛ لأنه قال: ما في بعث، ولا في جنة، ولا في نار، اعملوا ما شئتم في هذه الدنيا، وافسقوا، واكفروا، ولن يصيبكم شيء.

وأيضًا هو الآن يتبرأ منهم؛ قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [إبراهيم: 22]، يقول: ما لي قوة عليكم، وليس معي القوة التي تجبركم، وإنما أزين لكم فقط.

قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: 22]، يعني مجرد أني دعوتكم ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: 22]، أنا دعوتكم قلت لكم: اسلكوا هذا الطريق، وافعلوا كذا، وافعلوا كذا من المنكرات، وأنتم استجتم لي.

ثم قال: ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ [إبراهيم: 22]، لا تلقون باللوم علي؛ وتقولون: أنت، وأنت، لا، ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: 22]، أنتم الذين سلكتم هذا الطريق؛ حتى صار مصيركم إلى النار، لوموا أنفسكم.

ثم قال: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: 22]، المصرخ أو الصريخ المغيث الذي ينادي لينجو من ينادي له، يعني الذي ينادي يستغيث بالناس حتى يغيثونه هو أو من معه، يقول: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: 22]، ما أنادي لكم أحد ولا أستغيث لكم.

قال: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: 22]، ما أنتم أيضًا تستغيثون لي، ما أحد ينفع الثاني، ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾ [إبراهيم: 22]، أنتم أشركتموني مع الله وأنا كفرت بشرككم.

✍ كيف أشركوا مع الله؟

نقول: **"شرك الطاعة"** أنهم أطاعوا الشيطان وعصوا ربهم، هذا الشرك.

قال: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: 22]، هذه هي الخطبة والوجيزة المختصرة التي يخطب بها إبليس متبرئًا من أتباعه، واللوم يقول: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [إبراهيم: 22]، لا تلومني وأنا لا أعرفكم ولا تعرفوني، وهذا يحصل في الدنيا قبل الآخرة، الشيطان يجر الإنسان إلى المهالك إلى المعصية فإذا أوقعه في المعصية إما قتل أو مخدرات أو مسكرات أو فواحش أو غيرها أو سرقات، إذا أوقعه فر الشيطان وتركه.

مثلما فعل مع أهل مكة يوم بدر؛ قال: أنا معكم، وأنا، وأنا، ولما رأى الملائكة فر هاربًا وتركهم، قال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ [الأنفال: 48]، فهذا الشيطان حتى في الدنيا قبل الآخرة، يزين للإنسان المعصية ثم إذا أوقعه في المعصية تركه، يعني بدأ يمارس المعاصي مخدرات، ودخان، وفواحش، وغيرها، ثم يتركه، يلقيه في هذه البؤرة السيئة، ثم يتركه ويبحث عن غيره وهكذا، فهو يوقع الإنسان في الدنيا، وفي الآخرة أشد وأنكى.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خاتمة الآية: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: 22]، ظلموا أنفسهم، والله ما ظلمهم، ولذلك جزاهم بالعذاب الأليم.

✍ أما أهل الطاعة والسعادة ماذا قال الله فيهم؟

قال: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [إبراهيم: 23]، جاء بصيغة الماضي، ﴿وَأُدْخِلَ﴾ [إبراهيم: 23]، يعني خلاص انتهى الأمر دخلوا، واحتفلوا بهذا الفوز العظيم.

قال: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [إبراهيم: 23]، حققوا الإيمان في الدنيا، آمنوا بربهم وصدقوا بكل ما جاءهم عن الله، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [إبراهيم: 23]، بالمحافظة على الصلاة، المحافظة على الأخلاق، بر الوالدين، الصدقات، الأعمال الصالحة.

قال: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [إبراهيم: 23]، مقيمين فيها أبدًا، لا يخرجون منها، ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: 23]، أي بأمره وفضله أن منّ عليهم.

ثم قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: 23]، قارن فهذا الشيطان يتبرأ ويقول: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [إبراهيم: 22]، ويتركهم، وهؤلاء في الجنة، ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: 23]، الله يسلم عليهم، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: 58]، والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب يسلمون عليهم، وبعضهم يسلم على بعض، كلها السلام والتحية الطيبة.

بعد هذا البيان، وهذا العرض فيما جاء عن موقف الشيطان الذي تبرأ من أتباعه، وأيضًا نتيجة المؤمنين الصادقين، الله يذكر لنا أثر العقيدة الصحيحة، والتوحيد والطاعة في الدنيا وفي الآخرة.

قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ [إبراهيم: 24]، ألم تر يعني ألم تعلم؟ أما علمت؟ قال: ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: 24]، كلمة التوحيد **"لا إله إلا الله"** وما يتبعها من الكلمات الطيبات، التحيات الطيبات، هذه الكلمة الطيبة كلمة التوحيد التي هي أصل كلّ الكلمات مثل الشجرة الطيبة، وهذه الشجرة فسرها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنا، ما نحتاج أن نقول: شجرة الزيتون، أو شجرة التين، أو شجرة كذا، لا؛ بل هي النخلة بإجماع المفسرين وبحديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [إبراهيم: 24]، النخلة عروقها في الأرض، وتلاحظ أنها ثابتة، حتى لو تأتي رياح قوية النخلة قد تتمايل لكن لا تسقط، أحيانًا ترى أشجار يجرفها السيل وتذهب بالهواء، والنخيل في الغالب ثابتة.

يقول: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 24]، لأن ثمرتها عالية وهي ممتدة في السماء، ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 24]، فيها ثمار طيبة، النخلة ثمرتها طيبة، وفي نظرتها جمال وبهاء، الله يمثل التوحيد الذي في قلب المؤمن في قلب المسلم مثل الشجرة.

قال: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: 25]، في كلّ وقت تجد التمر، في كلّ وقت على طول السنة، ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: 25]، إذا أثمرت تبقى ثمرتها ممتدة، مثل التوحيد والإيمان تجده أنت معك دائمًا في الليل وفي النهار وفي كلّ مكان.

✍ التوحيد الطاعة له ثمرات ما هي الثمرات؟

إذا كان معك توحيد ثابت، إذا جاءتك مواقف ومصائب تثبت، إذا علمت أن الله وعدك بالصبر تصبر، إذا وعدك بالإحسان تحسن، تجد أن هذه الشجرة مليئة بالثمرات، شجرة الإيمان مليئة بالثمرات، هذا معناه.

قال: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: 25]، الله ضرب لك مثل إيمانك في قلبك مثل الشجرة، وهذا ضرب المثل تقريب للصورة، لماذا؟ قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: 25]، يعرفون نعمة الإيمان ويتمسكون ويثبتون على الإيمان.

أما الجانب الآخر أهل الشقاوة، أهل الكفر والطغيان اسمع؛ قال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: 26]، كلمة الشرك، قال: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: 26].

قال أهل التفسير: الشجرة الخبيثة هي شجرة الحنظل، ترون الحنظل في الصحراء لونه أصفر، وممتد في الأرض، أوراقه في الأرض، هذه شجرة الحنظل شجرة خبيثة، حتى لو تأكلها الدواب ما ترتاح.

يقول: كلمة الشرك والكفر مثل هذه الشجرة الخبيثة، ﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 26]، تُقطع، تجتث، تُنزع من فوق الأرض، ﴿مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: 26]، ليست قائمة مثل النخلة، ما تستطيع أن تقلعها بسهولة، لا، لو ما قلعتها أنت الهواء يقلعها.

يقول: الشرك والكفر في قلب هذا الكافر مثل هذه الحنظلة ما فيها فائدة، ولا أحد يأكلها، وفي نفس الوقت تذهب، تجتث وتنقطع، والشرك يذهب ولا يستفيد منه صاحبه، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: 26].

ثم تأتيك الثمرة القوية الآن، ثمرة الإيمان، وثمرة الشرك، لا تظن أنك مؤمن وعندك إيمان وطاعة وتجد أثر الإيمان في الدنيا، ستجده في الدنيا، وفي القبر، ويوم القيامة، هذا الإيمان أنت تحافظ عليه؛ لأنه ينفعك في هذه المقامات، والشرك يتخلى عن صاحبه في هذه المقامات.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: 27]، انظر؛ قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [إبراهيم: 27]، ما قال: نثبت أي واحد، لا، أصحاب الإيمان الذين عندهم التوحيد والإيمان الله يثبتهم بالقول الثابت، يثبتون على الإيمان متى؟ في الحياة الدنيا، تأتيك أحيانًا مواقف تزعزع الإيمان عند بعض الناس، لكن أنت تثبت يثبتك الله، ما ثبتك إلا الله.

قال: ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: 27]، هذا في الدنيا، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27]، يعني في القبر لما ينزل الملكان منكر ونكير، ويسألان: **"من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟"** ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: 27].

يثبتك الله فتجيب بسهولة، ويوم القيامة في أهوال يوم القيامة الشديدة يثبت الله المؤمنين، لهم الأمن التام يوم القيامة.

ولذلك قال هنا: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: 27]، بالتوحيد، بسبب التوحيد، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 27].

وأما أهل الكفر، والظلم، والشقاوة؛ قال فيهم: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27]، هذا من فعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتقديره لأهل الطاعة ولأهل الشقاوة.

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر أن هذه النعم العظيمة لأهل الإيمان؛ يذكر لنا أهل الكفر الذين بدلوا هذه النعمة، وخاصة أهل مكة الذين نزل عليهم القرآن، كان عندهم الأمن، وعندهم رغد العيش، وجاءهم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرسالة، وكفروا بهذا كله، ولذلك عذبهم الله.

قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [إبراهيم: 28]، يعني أما علمت ورأيت، ﴿إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: 28]، ما شكروها، نعمة عظيمة عندهم نعمة الأمن، ونعمة العيش، ونعمة الرسالة وهو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كفروا بها.

قال: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: 28]، والنتيجة، ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28]، دار الهلاك، يعني قلبوا على قومهم، وجعلوا قومهم يهلكون، وتنزل بهم المصيبة، ولذلك قتلت رؤوس الشرك في بدر، أهلكهم الله، وأصابهم بالجوع، والخوف، ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28]، هذا في الدنيا.

أما في الآخرة؛ فقال: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: 29]، قرارهم ومكانهم هذه جهنم يصلونها، لماذا؟ قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [إبراهيم: 30]، أشركوا بالله، جعلوا أصنام، ونظراء، وشركاء، مع الله يعبدونهم.

قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [إبراهيم: 30]، لا تظن أنه أشرك وعبد صنم وانتهى، لا، خذ زيادة؛ قال: ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [إبراهيم: 30]، أضلوا الناس، كلّ من جاء إلى مكة يطوف أو يؤدي عمرة أضلوه وقالوا: لا تتبع محمد، ولا تسمع منه، هذا ساحر، هذا كذاب، أضلوا الناس، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [إبراهيم: 30].

قال: ﴿قُلْ﴾ [إبراهيم: 30]، قل لهم، ﴿تَمَتَّعُوا﴾ [إبراهيم: 30]، تمتعوا قليلاً، تمتعوا متاع الدنيا، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: 30]، لو أعطيناكم الدنيا؛ لأنه أحيانًا تجد بعض الناس مقيم على المعاصي، وبعضهم مقيم على الشرك والكفر، والله يعطيه من النعم، لا تظن أنه على خير؛ بل هذا استدراج، تمتع قليلاً ثم مصيرك إلى النار، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ثم نضطرهم بقوة إلى النار.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر حال هؤلاء الذين كفروا نعمة الله وبدلوها الله ينادي عباده، يضيفهم إليه يقول: أنتم عبادي، قال: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ﴾ [إبراهيم: 31].

من هم عباد الله؟

أعطني صفاتهم؟

قال: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: 31]، هذه أقوى صفة في المؤمنين المحافظة على الصلاة، وخاصة صلاة الجماعة، يحافظ على صلاة الجماعة ولا يتخلف عنها.

تأمل عبارة القرآن، ما قال: **"يصلون"** الذين يصلون كثير، ولكن من الذي يقيم الصلاة؟ يقيمها بأركانها، وشروطها، وواجباتها، وخشوعها، ما تجد، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«يصلي الرجل وليس له من صلاته إلا نصفها، إلا ربعها، إلا عشرها»**.

تجد بعض الناس يصلي يدخل المسجد ويخرج وليس له من صلاته إلا الربع، وثلاثة أرباعها أين هي؟ راحت في الغفلة، وفي عدم التركيز، فالخشوع هو الأساس.

قال: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [إبراهيم: 31].

لماذا القرآن دائمًا يقول: الصلاة والزكاة، الصلاة والنفقة؟

نقول: لأن الصلاة صلة بينك وبين الله، والنفقة الصدقة بينك وبين أخوانك المسلمين، أخوانك يحتجون إليك، وأنت محتاج إلى الله، فاربط نفسك بالله بالصلاة، واربط نفسك بإخوانك المحتاجين، قال: ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [إبراهيم: 31]، يعني شيء قليل من رزق الله، ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [إبراهيم: 31]، يعني هذا المال الذي معك ليس لك، المال هو من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: 33].

قال: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [إبراهيم: 31]، في السر والعلانية، السر أقرب إلى القبول؛ لأن فيه إخلاص، تجد بعض الناس يخفي صدقه، يخرج من جيبه ويعطي الفقير ولا أحد يشعر به، هذا أولى.

قال: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ [إبراهيم: 31]، أنفق وصلي وحافظ قبل أن تودع الدنيا، ثم تُحضر يوم القيامة، هذا اليوم، ﴿لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: 31]، لا بيع ولا معاوضات، ولا شراء، خلاص انتهى، لو تريد أن تفدي نفسك تخلص نفسك ما في بيع وشراء، ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: 31]، ما في أصدقاء يشفعون لك، الصديق يشفع، والأب يشفع، والصالحون يشفعون، ما في يوم القيامة، ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

ثم بيّن لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا نعم كثيرة، هذه النعمة التي تأتيك الآن التي نختم بها كلامنا أكثر النعم، قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [إبراهيم: 32].

من الذي خلق السماوات والأرض؟ الله يذكرك بخلقه، وقدرته، وإنعامه عليك، وتوحيده، الله وحده هو الذي خلق السماوات والأرض.

قال: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [إبراهيم: 32]، هذا رزق، أنزل من السماء يعني من السحاب الماء والمطر والغيث، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم: 32]، أخرج بهذا الماء ثمرات كثيرة، حدائق عظيمة، ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾ [إبراهيم: 32]، حلال.

ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ [إبراهيم: 32]، السفن، ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [إبراهيم: 32]، تنقل البضائع، وتنقل الناس من مكان إلى مكان، من الذي سخرها؟ ممن تسقط، أنت لو تأتي بمسمار الآن وتضعه في البحر سقط، سفينة تحمل، حاملة طائرات، ومع ذلك راسية وتمشي، والله قادر على أن يهلكها في هذا البحر، لكن الله أنعم بأن سخرها لك، وهي تمشي في هذا البحر مسافات بعيدة بأمره.

قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: 32]، للشرب، وشرب البهائم، وسقي الزروع، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ﴾ [إبراهيم: 33]، لما فيها من مصالح عظيمة، ﴿وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾ [إبراهيم: 33]، مستمرين، دائمًا في الليل والنهار، نرى الشمس تأتي في النهار، والقمر في الليل، على طريقة واحدة، لا ينقطع هذا.

قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ [إبراهيم: 33]، تنامون فيه وترتاحون، ﴿وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: 33]، تقضون فيه معاشكم، ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: 34]، تسأل الله ويعطيك، أنعم عليكم من كلّ ما سألتموه.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]، ما تستطيع تعد نعم الله، عينك فيها نعمة، ويدك فيها نعمة، وعقلك فيه نعمة، نعم لا تعد ولا تحصى، وإن تعد نعمة الله لا تستطيع إحصائها.

ثم في الأخير؛ قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]، ظلم نفسه وكفر ربه، هذه السورة مبنية على كفر النعمة، إذا قرأت في سورة النحل تأتي نفس الآية هذه؛ يقول: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: 18]؛ لأنها في سياق نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبيان منته على عباده.

نقف عند هذا القدر نكتفي به، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(222)
(إبراهيم 35 – آخرها)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك المتجدد من كلّ أسبوع، نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

هذا اليوم هو اليوم الخامس من شهر ذي القعدة على حسب تقويم أم القرى، ودرسنا في تفسير القرآن العظيم، نجلس هذا المجلس المبارك، نسأل الله أن يجعله مجلسًا مباركًا نافعًا.

"سورة إبراهيم" عَلَيْهِ السَّلَامُ وخاتمة السورة هي ذكر قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ودعوات إبراهيم وابتهالاته إلى رب العالمين.

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأنبياء وهو خليل الله، نتأمل هذه الدعوات التي دعا بها واستجاب الله دعاءه.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: 35]، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه محمد ولكل من يصلح له الخطاب، واذكر إذ قال، اذكر حينما قال إبراهيم ودعا ربه، دعا بأي شيء؟

قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: 35]، في هذه السورة الله ذكر البلد معرفًا، ﴿الْبَلَدَ﴾ [إبراهيم: 35]، في سورة البقرة لما ترجع إلى سورة البقرة يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: 126]، وهنا قال: ﴿هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: 35].

✍ في فرق ولا ما في فرق؟

نقول: في فرق، كيف؟ لما أقول: **"خذ هذه الدراهم"** أنت تشير إلى شيء معين موجود أمامك، لكن لما أقول: **"خذ دراهم"** ما تدري أين هي؟ إذًا في فرق في العبارة، ولذلك العلماء وقفوا عندها؛ قالوا: الله لما قال في سورة البقرة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: 126]، الكعبة غير موجودة، وما في شيء إلا أنه وادي غير ذي زرع، يقول: اجعل هذا المكان بلدًا آمنًا.

لما جاء في **"سورة إبراهيم"** وقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: 35]، كأنه يشير إلى الكعبة، ويشير إلى هذا المكان الذي فيه ناس، فيقول: اجعل هذا البلد القائم آمنًا، لاحظ في سورة البقرة قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ﴾ [البقرة: 126].

🗐 لما أسألك وأقول:

✍ أشد شيء على الإنسان الخوف واحتياج الأمن ولا الطعام والشراب والرزق وذهاب الجوع، أيهما أهم في حياة الإنسان؟

نقول: الأمن أهم، لو كانت عندك الدنيا كلها بحذافيرها وأنت غير مستقر آمنًا ما ترتاح، لذلك إبراهيم أول ما بدأ بالأمن؛ قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ﴾ [البقرة: 126]، ولذلك استجاب الله دعاءه.

البلد الحرام من دخله كان آمنًا، ومن أراد أن يفسد في المسجد الحرام أو في البلد الحرام في مكة أذاقه الله العذاب قبل أن يأتي أو بعدما يأتي.

ولذلك ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: **"لو أن رجلاً في عدن"** عدن في اليمن **"هم"** فقط مجرد هم، **"هم أن يلحد في المسجد الحرام؛ لأذاقه الله العذاب قبل أن يتحرك"**.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهلك أبرهة ومن معه أصحاب الفيل قبل أن يصلوا إلى الكعبة؛ فالله حمى بيته بدعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: 35].

ثم قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35]، الأمن من الشرك أشد من الأمن من العدو، يعني الأمن من العدو قد يقتل، قد يفعل، قد يأخذ مالك، لكن الشرك لا، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«الفتنة أشد من القتل»**، يعني الشرك أشد من القتل، تموت يقتلك العدو ولا تشرك بالله، إذا مت وأنت مشرك فلك نار جهم.

ولذلك إبراهيم خاف على نفسه وهو إمام الحنفاء؛ قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35]، حتى أبنائي أعصمهم من الشرك.

✍ لماذا إبراهيم خاف مع أنه معصوم ونبي ورسول، وأبناؤه كلهم أنبياء ومع ذلك خاف من الشرك، يقول: ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ [إبراهيم: 35]، أبعدني عن الشرك؟

قال: لأن الشرك خطير، من وقع فيه إلى نار جهنم، ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: 72].

ولذلك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: 36]، ما هي؟ الأصنام، ضلت كثير من الناس، ليس عدد قليل؛ بل الكثير، ضلوا وهلكوا وماتوا على شركهم بسبب هذه الأصنام، ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: 36]، ولذلك خاف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ما يضمن على نفسه ولا على أبنائه.

قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ [إبراهيم: 36]، على التوحيد والطاعة والإسلام، ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: 36]، مسلم، ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ [إبراهيم: 36]، ولم يؤمن، ولم يتبعه، ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36]، لمن تاب، أو عصى ربه ولم يقع في الشرك، أما الشرك ما يقال: اغفر لفلان المشرك، المشرك لا يُدعى له بالمغفرة أبدًا، لا حي ولا ميت، المشرك يُدعى له بالهداية، ندعو له بالهداية، أما أن ندعو نقول: اللهم اغفر لفلان، حيًا أو ميتًا ما يجوز.

ولذلك إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ماذا قال؟ قال: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: 36]، لمن تاب، ورجع إليك، أو لم يقع في الشرك.

انظروا إلى هذه الدعوات المتتالية؛ قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: 37]، يقول: أنا جئت ببعض ذريتي ووضعته في هذا الوادي قبل أن أبني البيت، وضعتُ هؤلاء، من هم؟ هاجر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وابنها إسماعيل رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أتى بهاجر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ صغير جدًا في زمن الرضاع، ووضعهم في هذا الوادي، لا شجر ولا ماء، ولا أنيس ولا أحد يتحرك، ولا أحد يرد الصوت.

فلما وضعهم ومعهم جراب من الطعام وسقاء صغير، ذهب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قالت: **"إلى أين؟"** قال: **"أذهب إلى الشام أرجع إلى مكاني"** قالت: **"تتركنا في هذا الوادي؟"** وتكرر عليه أكثر من مرة لا تتركنا.

وفي الأخير قالت رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **"آلله أمرك؟"** قال: **"نعم"**، قالت: **"اذهب فلن يضيعنا الله"**.

ولذلك توكلت على رب العالمين، وأخذت بالأسباب بالبحث عن الماء، فوفر الله لها الماء، والطعام، والشراب، إلى آخره.

قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 37]، ليست ذريته كلهم؛ لأن إسحاق وسارة في الشام.

قال: ﴿إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: 37]، يقول: عند هذا البيت الوادي أنا أسكنت من ذريتي، لأنه سيقوم هذا البيت.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: 37]، يقول: هذا الغرض، أنا أريد أن يكون هذا البلد آمنًا، وأن يُقام فيه هذا البيت، وأسكن ذريتي أولًا، ثم يأتي الناس، والناس إذا جاؤوا سيقومون التوحيد، قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: 37]؛ لأن إقامة الصلاة هي إقامة لتوحيد الله، لأنك تصلي لله لا تصلي لغيره.

ولذلك قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: 37]، شعيرة الصلاة في الحرم شعيرة ما تجدها في أي مكان، ثلاثة ملايين أو يزيد في مكان واحد يسجدون ويركعون، وتتعجب من هذا، فهي دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم قال بعدها: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]، ما قال: **"فاجعل الناس يذهبون إلى مكة"**لا، وإنما قال: **"الأفئدة"** القلوب، ولذلك لاحظ القلوب تحن على المسجد الحرام، إذا ذهبت إلى المسجد الحرام ثم عادت تريد أن ترجع، وهكذا، تحن على المسجد الحرام، القلوب الطيبة المحبة للخير.

قال: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: 37]، ولذلك ما قال: **"أفئدة الناس كلهم"** لا، في ناس ما يريدون الحرم، ولا يريد أن يقترب منه، لكن في ناس قلوبهم مليئة بحب الحرم، وحب دخول المسجد الحرام، وحب الحج والعمرة.

✍ هذه الأفئدة ماذا تصنع؟

قال: ﴿تَهْوِي﴾ [إبراهيم: 37]، الهوي **"السقوط من أعلى إلى أسفل"** كأن القلوب تنطلق بقوة وتسقط، ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم: 37]، اجعلهم في رغد من العيش حتى لا يحتاجوا إلى غيرهم؛ لأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يعلم أن مكة ما فيها، لا فيها أشجار، ولا حدائق ولا شيء، ولذلك ﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: 57].

تتعجب في مكة كم يدخل من التمور يومًا في المسجد الحرام؟ أعداد هائلة بالأطنان، من أين تأتي؟ قال: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم: 37]، دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37].

ثم قال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: 38]، اعتراف بضعف الإنسان، وسعة علم الله، الله يعلم ما نخفي وما نعلن، هذا بيان من إبراهيم بأن الإنسان ضعيف، ولو أخفى أو أعلن الله محيط بكل شيء.

ثم قال: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 38]، يقول: نحن نتكلم وندعو ونعبدك يا رب، وهذا جهدنا، وأنت تعلم بأحوالنا، فلطف بنا، وتولى أمرنا، هذه دعوة جميلة جدًا، ولذلك قال: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: 38].

ثم هو شكر ربه، على أي شيء؟ على الذرية الطيبة، هو بلغ من العمر ما بلغ، طعن في السن؛ حتى قال بعضهم: جاوز التعسين وما رزق بولد، وامرأته ما رزقت، عقيم، ومع ذلك رزقه الله بعد هذا السن.

اسمع؛ قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [إبراهيم: 39]، بدأ بالشكر والحمد لله، لماذا؟ قال: ﴿الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ [إبراهيم: 39]، أنا الآن في سن العجز والاحتياج.

قال: ﴿الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: 39]، إسماعيل من هاجر، وإسحاق من سارة، هم أنبياء، وجاءوا على كبر، وفضل من الله ليس بجهد منه، كلّ هذا يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ عليه.

قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: 39]، يعني يسمع الدعاء، وهذا توسل بالأسماء الحسنى.

قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ [إبراهيم: 40]، هو الآن نبي، وأبو الأنبياء ومع ذلك يدعو ربه أن يجعله مقيم الصلاة، أنت الآن تلاحظ أن الكثير من الناس يصلون، لكن من الذي أقام الصلاة؟ من هو؟ ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت، أما الهواجس، والذهاب يمين ويسار في أودية الدنيا، ولا تدري إلا والإمام قد سلم، ما عقلت من صلاتك شيء، ما لك إلا ما أدركت، ولذلك دائمًا الإنسان يدعو بأن يجعله الله مقيم الصلاة، ادع وأنت في صلاتك، وعند الصلاة، وفي كلّ وقت، ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ [إبراهيم: 40]؛ لأن الكثير من الناس يصلون، صفوف كثيرة، لكن من الذي يقيم الصلاة بكل ما تعنيه إقامة الصلاة؟!!

قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 40]، ما قال: ذريتي كلهم؛ لأن ذريته فيهم مؤمن، وفيهم غير مؤمن، ولذلك قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 40]، اجعل من هو مقيم الصلاة.

قال: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: 40]، يعني اقبل دعائي، أدعية كثيرة وهو يسأل الله القبول، يسأل الله القبول.

ثم قال في آخر الأدعية، خاتمة الدعاء ما هي؟ **"طلب المغفرة"**؛ قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي﴾ [إبراهيم: 41]، الأول أنا، ثم، ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم: 41]، ولذلك الإنسان يدعو لنفسه ثم لوالديه، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم: 41]، ثم عمم؛ قال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: 41]، اغفر لي الآن، وإذا قامت الساعة اغفر لي ذنبي.

الملاحظ هنا قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم: 41]، وأبوه مشرك يعبد الأصنام ويبيعها، فهذا كان في أول الأمر، ثم جاء النهي، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114]، تبرأ منه ما دعا له.

ثم السورة تختم بهذه الآيات التي فيها تهديد لأعداء الدين وأعداء الإسلام، وأيضًا فيها تسلية للضعفاء المستضعفين في كلّ مكان؛ الذين يضطهدون في كلّ وقت، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾ [إبراهيم: 42]، لا تظن أن الله غافلاً، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: 42]، يعمل أعمال مكر وإيذاء للمسلمين، وإيذاء للمضطهدين في كلّ مكان، لا تظن أنهم يفعلون هذا الشيء والله غافل لا، ما غفل الله عنهم.

قال: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42]، لهذا اليوم الذي سيهلكون فيه، أو يلقون ربهم فيه، ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42]، يعني تصعد أبصارهم إلى السماء ولا ترجع إليهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: 43].

ثم قال: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ [إبراهيم: 43]، المهطع هو **"الذي يمشي بسرعة"** لأنه خائف، قال: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ [إبراهيم: 43]، المقنع رأسه **"الذي رفع رأسه"** شاخص بصره ومسرع في المشيء، طيب لماذا هم هكذا؟ لأن الأغلال في أعناقهم، والأيدي مشدودة على أعناقهم، فقد رفع عنقه ومسرع.

قال: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: 43]، لا يرجع الطرف إليهم، خلاص شاخص، ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: 43]، فارغة من كلّ شيء إلا هذا الأمر الذي أمامه، وهو شدة الكرب يوم القيامة، هذا كله تهديد لهؤلاء الظالمين وتسلية للضعفاء.

ثم قال: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [إبراهيم: 44]، أيها المخاطب أنذر الناس، ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: 44]، حذرهم إذا جاءهم العذاب.

✍ فإذا جاء العذاب ماذا سيقول الكافر؟

قال: ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [إبراهيم: 44]، الظالمين المفسدين في الأرض، ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [إبراهيم: 44]، أعطنا فرصة نرجع، ﴿نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: 44].

✍ هل هم صادقون؟

الجواب: لا، كاذبون، ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: 28].

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: 44]، تقولون: ما في بعث، ولا في شيء، والآن تقولوا: ردنا، أنتم غير صادقين، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال في آية أخرى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: 100]، هم غير صادقين.

قال: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [إبراهيم: 45]، عشتم في مساكنهم، سكنتم في مساكنهم، ولم تردعوا، ولم تعتبروا بهلالكم، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: 45]، من الهلاك والتدمير، ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: 45]، أمثلة كثيرة.

قال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ [إبراهيم: 46]، هؤلاء الظلمة المفسدون في الأمر، مكروا ماذا؟ قال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ [إبراهيم: 46]، الله محيط بمكرهم، ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ [إبراهيم: 46]، من شدته، ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: 46]، يمكرون ولكن ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: 43].

قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: 47]، الله وعد الرسل بأي شيء؟ بأن ينصرهم، وينجيهم، ويهلك أعداءهم، فالله لا يخلف وعده.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ﴾ [إبراهيم: 47]، ذو قوة غالب، ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: 47]، وذو انتقام؛ متى؟ يقوم القيامة.

✍ ماذا يحدث يوم القيامة؟

قال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 48].

✍ كيف تُبدل يعني تذهب الأرض وتأتي أرض ثانية؟

نقول: لا، تبدل بصفاتها لا بذاتها، تذهب الجبال، وتذهب الأودية، وتذهب الأشجار، تصبح قاعًا صفصفًا، ﴿وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [إبراهيم: 48]، كذلك، ﴿وَبَرَزُوا﴾ [إبراهيم: 48]، الخلق كلهم، ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: 48]، الواحد في قدرته وإلاهيته، وتدبيره، الذي قهر المخلوقات.

قال: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾، يوم القيامة، ﴿يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: 49]، في السلاسل، مقرنين يعني قد شدت عليهم السلاسل، هذه السلاسل قد ربطت عليهم، ثم، ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ [إبراهيم: 50]، يعني ملابسهم، اللباس الذي يلبسونه، والقميص الذي يلبسونه، سرابيلهم من أي شيء؟ ﴿مِنْ قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: 50]، من نحاس حار شديد الحرارة.

قال: ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: 50]، أول ما تغشى النار وجوههم، شوف كيف النار تبدأ بالوجه؟ أشرف مكان في الإنسان تأكله النار.

قال: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ [إبراهيم: 51]، حتى تعلم أن هذا حكم الله العدل، ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم: 51]، هذا حكم الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: 51]، سيحاسبهم في لحظة.

ثم قال الله في آخر هذه السورة، والقرآن كله وصفه بأي شيء؟ قال: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: 52]، هذا القرآن وهذه الآيات التي تسمعونها هي بلاغ للناس، نبلغ الناس حتى يعرفون، ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم: 52]، ينذروا بهذا القرآن، هذا القرآن موعظة لهم، ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [إبراهيم: 52]، أن الله إله واحد، هو المدبر، هو المنزل للقرآن، هو الذي يحاسب عباده، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [إبراهيم: 52]، أصحاب العقول هم الذين يتذكرون، وينتفعون بذلك.

نقف عند هذا القدر ونكتفي به.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الحِجْر)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الحجر 1 - 25)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو اليوم الثاني عشر من شهر ذي القعدة من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع. نجلس هذا المجلس المبارك، نسأل الله أن ينفعنا.

ولا يخفى علينا أيها الإخوة أن مثل هذه المجالس المباركة كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة وتنزل عليها السكينة ويذكر الله الحاضرين عنده في الملأ الأعلى.

☜والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»**؛ يعني خير الناس الذي يجلس مثل هذه المجالس في تعلم القرآن وفهم الآيات القرآنية وتدبرها، درسنا الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كل أسبوع من يوم الأربعاء في تفسير القرآن العظيم.

السورة التي بين أيدينا هي سورة الحجر، وهي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف، وتوافق الجزء الرابع عشر، وهذه السورة سميت بسورة الحجر لأن الله ذكر فيها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠].

- من هم أصحاب الحجر؟

هم قوم ثمود الذين كانوا يحفرون وينحتون الجبال ويصنعون فيها بيوتاً؛ ولذلك تسمى مكانهم الحجر، والسبب إما أنه قد تحجر بين، يعني بين جبال وسهول، أو لأنهم يحفرون وينحتون بيوتاً في جبال تحجرهم وتحفظهم من الأعداء، وتحفظهم عن الشمس وعن البرد ونحو ذلك.

السورة لو تأملناها، وآياتها تسع وتسعون آية، تقرأها بهدوء تتأمل تلاحظ أن هذه السورة وهي سورة الحجر التي هي حفظ لأهل الحجر، أن السورة تشير إلى الحفظ في آيات كثيرة.

وتشير إلى أشياء كثيرة فيها أن الله قد حفظ أشياء ستمر عليك، منها:

⬅الأمر الأول: القرآن الكريم؛ هذا القرآن حفظه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حفظه عند نزوله من الشياطين، فالشياطين لا تستطيعه، ما يستطيعون ولا يقتربون منه، وحفظه الله في صدور أهل العلم الذين يعرفون قيمة القرآن فيحفظونه في صدورهم، وحفظه الله في المصاحف من حيث إنه لا يمكن تغييره أو تبديله أو تحريفه أو أي شيء، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، شوف الآية التاسعة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

⬅الأمر الثاني: السماء؛ ثم إنك تقرأ في هذه السورة تجد آيات فيها حفظ، مثلاً الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في السماء، قال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] ثم قال بعدها: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]؛ حتى الشياطين ما تستطيع أن تصل إلى السماء، السماء محفوظة.

⬅الأمر الثالث: الأرض؛ والأرض كذلك محفوظة، محفوظة الأرض بالجبال، الجبال تثبتها تحفظها حتى لا ترتج، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [الحجر: ١٩]؛ مددناها وألقينا فيها رواسي يعني جبالاً أن تميد بكم حتى لا تضطرب، الأرض محفوظة بالجبال هذه.

⬅الأمر الرابع: الأرزاق والأقوات؛ السماء هذه، الأرض هذه، القرآن هذا، حتى شوف قال في الأشياء والارزاق محفوظة لنا: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]؛ خزائن يعني الله يحفظ لنا أرزاقنا في السماء وفي الأرض، شايف؟ وفي أشياء كثيرة تجدها يعني فيها حفظ.

⬅الأمر الخامس: حفظ العباد الصالحين؛ الإنسان المؤمن الصالح التقي محفوظ، شوف الشيطان ماذا يقول في بني آدم، قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ 39 إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ 40﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]؛ يعني بني آدم كلهم هو يقول جميعهم.

ثم قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، أهل الطاعة، قال الله عليه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، ما تستطيع، ليش؟ لأنهم حفظوا أنفسهم بالأذكار والأوراد والطاعات فحفظهم الله.

وهكذا تقلب صفحات هذه السورة تجد فيها الحفظ العجيب يتكرر فيها، حتى أصحاب الحجر حفظوا أنفسهم في هذه الجبال، يسمون بأصحاب الحجر.

وكل هذه الآيات، حتى تجد الأمم التي ذكرها الله، قصة لوط، أو قصة أصحاب الأيكة، أو أصحاب الحجر أو غيرهم، الله حفظ أولياءه وحفظ عباده ونجاهم، نجيناهم، تسمع تجد في القرآن كثيراً في الآيات التي ستمر معنا أن الله نجى عباده الصالحين.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٩]؛ فالله حفظهم، لماذا حفظهم؟ بسبب الطاعات، وأعظم ما يحفظ الإنسان نفسه بالقرآن الكريم والذكر، يكثر من الذكر وقراءة القرآن.

- الله عظم القرآن في أول السورة وفي آخرها، ماذا قال في آخرها؟

يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

- ما هي السبع المثاني؟

هي الفاتحة، أعظم سورة في كتاب الله.

بعد هذا البيان والتوضيح الجميل في هذه السورة وأنت تقلب صفحاتها وتجد فيها هذه اللفتات الجميلة، اقرأ من أول السورة ويتضح لك الأمر أكثر وأكثر، والقرآن لا تنقضي عجائبه، ولا يمل الإنسان من قراءة القرآن، كلام الله ليس مثل كلام البشر.

اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول السورة، بسم الله الرحمن الرحيم، يقول: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١].

هذه حروف مرت معنا كثيراً، حروف من حروف الهجاء، ألف حرف هجاء، ولام، وراء.

- ما الحكمة وما السر في افتتاحية السور أو بعض السور في هذه الحروف؟

الجواب: والله أعلم أن السر هو تحدي العرب، العرب هم أهل اللغة، هم أهل اللسان، ويأتي القرآن بلسانهم يتحداهم وهم يعرفون قيمة القرآن، هم يعرفونه، ومع ذلك يتحداهم القرآن وأن يأتوا بمثله.

ولذلك تحداهم الله قال: فاتوا بسورة، فاتوا بعشر سور، فاتوا بحديث مثله، ولم يستطيعوا، حتى أقصر سورة ما استطاعوا أن يأتوا بمثلها، لماذا؟ لأن هذا القرآن كلام الله، كلام الله المعجز، وهم يعرفون لغتهم ويكتبون الأشعار ويكتبون الرسائل، فتحداهم الله بهذا القرآن وألزمهم أن يؤمنوا به.

شوف بعد الحروف المقطعة: ﴿الر﴾ يأتي الحديث عن القرآن، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]؛ يقول هذه السورة هي آيات، تسع وتسعون آية، هذه الآيات هي من القرآن الكريم، هي جزء من القرآن الكريم، قرآن مجزأ إلى ثلاثين سورة، هذه السورة هي جزء من القرآن، وهذه ﴿تِلْكَ﴾.

أشار بها إلى البعيد، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أشار بها إلى البعيد لعلو منزلة القرآن وتشريفه وإلا هو بين أيدينا.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ هو القرآن، سمي كتاباً لأنه يكتب، ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ﴾ سمي قرآناً لأنه يقرأ على الألسنة، ومبين يعني موضح لكل شيء تبياناً لكل شيء، القرآن واضح وبين وآياته واضحة وهو يبين لك كل ما تحتاج إليه في هذه الحياة، كل ما تحتاج إليه، تبياناً لكل شيء، ما فرطنا في الكتاب من شيء، ولما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مدح كتابه ومدح القرآن وأثنى عليه بيّن موقف هؤلاء الكفار المعاندين المستكبرين.

بأنهم سيندمون أشد الندم على تفريطهم، ولا أقول يعني مثل ما أن الكفار سيندمون أشد الندم على تفريطهم وعدم إيمانهم بالله ولا بالقرآن، أنا أقول كل من هجر القرآن ولم يقرأ القرآن وتركه ولم يبال بأحكامه ولا بتلاوته أنه سيندم أشد الندم، لماذا؟

لأن القرآن يؤتى به يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ويقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها. فسيندم كل من يفرط في هذا القرآن، اسمع ماذا قال الله عن ندم هؤلاء، قال: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢].

يقول سيندمون ويتمنون أنهم كانوا مسلمين وأنهم تقبلوا القرآن وفرحوا به ولكنهم لم يقبلوا، سيندمون متى؟ إما عند ظهور الإيمان وظهور الطاعة، الإسلام، أو عند موتهم إذا شاهدوا الموت، أو يوم القيامة أنهم سيندمون في أي حال من هذه الأحوال.

يقول الله بعدها عنهم، قال إنهم يعيشون للدنيا، هم يعيشون، شوف يعيش للدنيا ما يعيش للآخرة ولا يستعد للآخرة ولا يعمل للآخرة، هذا الذي يريد الدنيا فقط، سواء قلنا هم الكفار أو حتى من بعض المسلمين الذين لا يصلون ولا يبالون، يأكلون ويجمعون المال ويعيشون للدنيا ولا يفكر يوماً من الأيام بالموت ولا بما بعد الموت، ما يشتغلون.

بهذه الدنيا فقط، يعيش للدنيا ويظن أنه سيبقى يعني في هذه الدنيا ولن يموت، يظنه كذا، اسمع ماذا يقول الله عن هؤلاء الكفار، يقول: ذرهم، يعني اتركهم ولا تبال بهم، لماذا؟ قال: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

الأمل يعني طول الزمان، يقول اتركهم يأكلون مثلما تأكل البهائم ويتمتعون بهذه الدنيا وزينتها وزخارفها ويلهيهم، يشغلهم الأمل، يعني طول الحياة يظن أنه سيعمر، ثم قال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، تهديد لهم أنهم سيعلمون شيئاً لا يتصور، سيحاسبون حساباً شديداً.

ولذلك الله يخبر عن أن الأمم الماضية لما عاندت وكفرت أهلكها الله، وهؤلاء إذا استمروا على ما هم عليه سيصيبهم ما أصاب الأمم الماضية، شوف قال: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الحجر: ٤].

يقول القرى الماضية التي أهلكها الله: قوم نوح، قوم عاد، ثمود، أصحاب مدين، هؤلاء أهلكهم الله، قدر لهم يوماً يهلكون فيه لأنهم عاندوا واستكبروا وكذبوا ولم يقبلوا دعوة الله، وهذا اليوم أو هذا الأجل قدره لا يمكن أن يتقدم ولا يتأخر بعلم الله السابق: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: ٥].

يقول ما يمكن أن تسبق الأجل ولا تستأخر عنه، هو محدد سيأتيه. وفي هذا كله، في هذا كله تهديد لكل من يعاند ويستكبر ولا يتقبل أنه في قبضة الله في أي لحظة، وأن الله قادر على أن ينزل به العقوبة ويهلكه بلحظة، لا يظن أنه يعيش لهذه الدنيا وهو في صحة وفي عافية وفي مال وفي رغد من العيش وأمن، يظن أن خلاص هذه هي حياته ولا يفكر بالموت ولا يفكر بما بعد الموت.

ثم شوف موقف هؤلاء الكفار يستهزؤون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقولون: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

شوف يستهزؤون يقولون يا أيها الذي نزل، يعني محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، يقولون يا أيها الذي نزل عليه الذكر، يعني القرآن، إنك لمجنون، هم الآن يقولون نزل عليه الذكر استهزاءً، يقولون أنت تدعي أن القرآن نزل عليك والذكر نزل عليك، أنت مجنون لأنك تقول اتركوا آباءكم واتركوا ما كان يعبد آباؤكم وتعالوا إلى دين جديد، هذا لا عقل له، هذا مجنون، ولذلك اتهموا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنون واستهزؤوا به.

ثم اعترضوا على الله عَزَّ وَجَلَّ حتى يعني بالاقتراحات التي هم يقترحونها ولا يبالون بها، شوف قالوا وقال قالوا، ثم قالوا بعدها: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٧]؛ يقولون ليش ما تأتينا بالملائكة، لماذا؟ قال يشهدون على أنك رسول.

احنا ما نصدق القرآن هذا، لا نؤمن به، هذا أساطير الأولين، نحن إذا أردتنا يا محمد أن نؤمن بك اجعل الملائكة تنزل وإذا نزلت تشهد أنك رسول من عند الله. أنتم تقترحون الملائكة تنزل ثم أنتم ستؤمنون حقيقة ولا بس مجرد كلام؟ وحتى يعني حتى رسالة النبي ما صدقوا بها.

يقول: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، نحن لا نصدقك الآن أنت كذاب، فإن كنت صادقاً فأْتِ بالملائكة. ﴿لَّوْ مَا﴾ هذا حرف يفيد العرض والتحضيض مثل لولا تأتينا.

لو ما تأتينا، الله رد عليهم، هم يقترحون أن تنزل الملائكة، الله قادر على أن ينزل الملائكة، الله ينزل الملائكة ليلة القدر ما أحد يمنعها، تنزل الملائكة والروح فيها، لكن لو نزلت الملائكة ليس في صالحهم لأنهم اقترحوا آية ثم كفروا بها، تنزل عليهم عقوبة مباشرة، اسمع قال: ﴿مَّا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨].

الملائكة ما تنزل إلا بالحق، يعني بالفصل بينهم خلاص ينتهي الأمر، تؤمن وإلا تأتك العقوبة مباشرة، ﴿مَّا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾، يقول إذا نزلت الملائكة لن ينظروا يعني لن يمهلوا لن نتركهم، ستنزل العقوبة مباشرة عليهم.

ثم رد الله عليهم قال: أنتم تريدون ملائكة، طيب وإذا رأيتم الملائكة شفتم الملائكة أمامكم نزلت على الجبال وفي الأراضي ثم تكلمت قالت إن محمداً صادق هل ستؤمنون؟ لو أنكم عندكم فعلاً يعني رغبة في الإيمان فالقرآن يكفيكم، القرآن يكفي.

ولذلك اسمع ماذا قال الله، قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. يعني القرآن يكفيكم خلاص خذوه وتدبروه وافهموا ما فيه، خير لكم من أن تنزل ملائكة أو لا تنزل.

ولاحظ شوف الله أكد حفظ القرآن بالقوة قال: ﴿إِنَّا﴾ مؤكدة، ﴿نَحْنُ﴾ نزلنا من عند الله، ليس من محمد ولا أساطير الأولين، ﴿الذِّكْرَ﴾ الذكر هو القرآن.

- لماذا سمي ذكراً؟

لأنه ذكرى وموعظة للناس، ولأنه فيه شرف: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]، فيه شرفكم، و ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ جملة مؤكدة بـ (إِنَّ) واللام ﴿لَحَافِظُونَ﴾.

إذاً القرآن من أجل النعم علينا، نزله الله لنا رحمة، وهو كلام الله وحفظه لنا لا يمكن أن يتغير، شوف كم الآن ألف وأربعمائة وسبعة وأربعون سنة من هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس منذ نزل القرآن يعني أكثر من ألف وخمسمائة سنة تقريباً في هذا العدد والقرآن محفوظ لا يتغير مع مرور الأزمنة، فهذه نعمة عظيمة.

شوف الكتب السابقة: التوراة والإنجيل والزبور وين راحت؟ كلها ضاعت، أما القرآن محفوظ، هذه أكبر نعمة علينا.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسلي نفسه، يسلي نبيه بما يواجه من قومه من عناد وكفر وصد، يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠].

يعني في الأمم الماضية الكثيرة أرسلنا رسلاً كثيرة، ولكن مع الأسف: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١١]؛ فإذا استهزأ قومك بك واستهزؤوا بأصحابك وردوا رسالتك وقالوا أنت مجنون واستهزؤوا بك، فاعلم أن الأمم الماضية والأنبياء السابقين كان يستهزأ بهم ومع ذلك صبروا، فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، اصبر.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين أنه عاقب هؤلاء وهم لا يشعرون، هذه العقوبات اللي تأتي الإنسان وهو لا يشعر هي أشد شيء، أحياناً الله يعاقب الإنسان، يعاقب العاصي والمذنب بعقوبات وهو لا يدري عنها، هؤلاء الكفار لما استهزؤوا وردوا ولم يقبلوا الرسالة.

- ماذا قال الله فيهم؟

عاقبهم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢].

يقول نسلك هذا العناد والكفر وعدم الإيمان، نسلكه في قلوب المجرمين، يقول مادام أنهم في أول مرة لم يقبلوا، الله يجعله في قلوبهم بحيث لا يقبلون أبداً، وهذه أشد العقوبات، شوف قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٣]؛ لا يؤمنون بالقرآن لأنهم عاندوا وكفروا فلا يمكن أن يؤمنوا إلا إذا أراد الله.

وقد خلت سنة الأولين، مضت سنة الأولين، سنة الله في الأمم الماضية أن الله كل من عاند فيعاقبه في الدنيا بصده عن طاعة الله ثم بالعقوبة الأخرى، ولا أقول يعني إذا كانت هذه العقوبات موجهة للكفار أيضاً هي تكون في أهل الذنوب والمعاصي.

شوف الذي يذنب ويعصي الله ولا يبالي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعاقبه بكثرة الذنوب عليه وهو لا يدري، اليوم يذنب ذنباً، ذنبين، ثلاثة، بكرة أكثر وأكثر ويستمر حتى يطبع على قلبه وهو لا يشعر.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لهم يقول: أنتم الآن تريدون ملائكة، ألزم، إذا نزلت الملائكة تؤمنون؟ ثم يبين لهم حالهم يقول: لو فتحنا السماء، فتحنا باباً من السماء، زي، وضعنا معراجاً، سلماً يصعدون إلى السماء، قلنا لهم تعالوا اصعدوا إلى السماء وفتحنا لهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون يمشون ودخلوا في السماوات، والله ما يؤمنون ولا يصدقون، ماذا سيقولون؟

يقولون محمد سحرنا، وهذا سحر، لا يؤمنون أبداً، شوف: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ 14 لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ 15﴾ [الحجر:14-15].

قل لو فتحنا لهم باباً سيقولون محمد سحرنا، أو أصبنا بسحر، هذا غير حقيقي، لماذا وأنت تصعدون السماء وترون السماء بأعينكم تقولون سحر؟ هذا دليل على أنكم لن تؤمنوا أبداً، يعني الحقائق هذه لا يؤمنون بها.

لكن الله لن يفتح لهم باباً من السماء لأن السماء عظيمة عند الله وشريفة ومعظمة، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مدح هذه السماء بالجمال فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]؛ الكواكب والنجوم والشمس والقمر جعلها الله لماذا؟ زينة في السماء، زينة وجمال وهداية للناس يهتدون بها، ورجوماً للشياطين.

انظر قال: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]؛ حفظ الله هذه السماء أن تقترب منها الشياطين، وترجم الشياطين، ترجم، ولو اقترب أحد يسترق السمع، لأنهم كانوا يسترقون السمع، كانوا يصعدون، الجن يكون بعضهم فوق بعض هكذا، بعضهم فوق بعض إلى أن يصلوا إلى السماء، ويأتي الأخير الذي أعلى واحد عند السماء يسترق السمع يسمع كلام الملائكة فينزل به، لماذا؟

لأنه ينزل به ويلقيه على الكهان، ثم يأتي الكاهن هذا ويدعي الغيب يقول أنا سيكون كذا وسيكون كذا من الأخبار الغيبية، كان يقول مثلاً سيأتي مطر غزير، سيأتي حادث عظيم، ستكون كذا، ستهلك هذه الأمة، يأتي بأخبار من السماء، فهؤلاء الجن الذين يسترقون السمع لن يتركوا، يصيبهم الشهاب، شوف قال: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٨].

يلقى عليه، هذه النجوم تلقى، تلقي عليه الشهب يعني قطعة نار تحرقه، ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ﴾، أحياناً إذا ألقي عليه الشهاب ما يصيبه، وأحياناً يصيبه ويموت، لكن قبل ما يصيبه يلقيه على الذي تحته، والذي تحته يلقيه على اللي تحته بسرعة حتى ينسب، فتجد اللي فوق أصابهم الشهاب وماتوا وهلكوا، فهذا معناه هذه السماء، السماء محروسة ومجملة محسنة بهذا الجمال.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]؛ جعلها ممتدة مبسوطة، وألقينا فيها رواسي يعني جبالاً حتى تثبتها، وأنبتنا فيها من كل شيء موزون، أنبت فيها من النباتات والحدائق والأشجار والنخيل، وجعلنا لكم فيها معايش تعيشون في هذه الدنيا، ومعايش لكم.

والله سبحانه سخر لكم غيرهم من البهائم والخدم والمماليك، وهؤلاء البهائم والخدم والمماليك أنتم ما ترزقونهم، الذي يرزقهم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لكن سخرهم لكم، شوف قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ٢٠].

وإن من شيء إلا عندنا خزائنه، ما في شيء في هذه الدنيا إلا خزائنه عند الله، راتبك الذي يأتيك هو من عند الله ليس من شخص، خزائن من عند الله، هذه الثمار والخضار والفواكه الموجودة في الأسواق هذه خرجت من خزائن الله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]؛ الله ينزل الأرزاق والأمطار والسيول بقدر معلوم.

ثم إن هذه الرياح هي التي تلقح السحاب، قال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢٢].

يقول أنزلنا من السماء، الرياح تلقح السحاب حتى ينزل المطر، وتلقح الأشجار، قال: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾.

- ما الذي يستطيع هذا الماء الذي أتى به؟

الذي أتى به وجعله ينابيع في الأرض وآباراً هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وخزنه لك، ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾، أنت ما تستطيع أن تخزنه في الأرض.

ثم قال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣]؛ الحياة والموت بيد الله، هو الذي يحيي ويميت كل المخلوقات وهو الذي يرث الأرض ومن عليها، ويعلم المستقدمين والمستأخرين.

- كيف المستقدمين والمستأخرين؟

الله يعلم من يذهب لهذه الدنيا الآن ويموت ومن يتأخر، ومن ولد ومن سيولد، حتى في الصفوف الأولى في المساجد، الله يعلم المستقدمين الذين يأتون للصلاة مبكرين ويعطيهم الأجر على ذلك، ويعلم المستأخرين الذين يغيبون عن الصلاة أو يتأخرون ويتأخرون عن الصلاة، الله كل هذا عنده بعلم لا يخفى عليه شيء، وسيحشرهم ويجازيهم.

ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤].

قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٥]؛ يحشر الخلق كله، ولو ذهب من ذهب تحت الأرض سيبعثهم ويحشرهم، لماذا؟ لأنه حكيم في أفعاله عليم بأحوالهم.

نقف عند هذا القدر نكتفي به، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا في هذه الآيات العظيمة وفي كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا، إن شاء الله لنا لقاء نستكمل فيه هذه السورة، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحجر 26 - 48)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو اليوم التاسع عشر من شهر ذي القعدة من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعل هذا المجلس مجلساً مباركاً نافعاً.

درسنا أيها الإخوة الكرام في تفسير القرآن العظيم، وسورة الحجر تكلمنا عنها في لقائنا الماضي ونواصل ما توقفنا عنده. الآيات التي بين أيدينا تحكي لنا قصة خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وموقف الملائكة لما أمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالسجود لآدم؛ سجود تحية وتكريم، وموقف إبليس ونتيجة هذه المواقف.

وقصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أوردها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خلقه وسجود الملائكة له في **"سورة البقرة"** وفي **"سورة الأعراف"** وفي **"سورة الحجر"** هنا وفي **"سورة ص"** وفي غيرها؛ مختصرة ومطولة، لكن السؤال الذي نطرحه: ما الحكمة من إيراد قصة آدم وخلقه وسجود الملائكة؟ ما الفائدة؟ هذا التاريخ مضى في أول الخلق وانتهى، فلماذا الله يحكي لنا، وما الفائدة منه؟

لا شك أن هناك فوائد عظيمة جداً من حكاية القصص القرآني؛ فيها العبرة وفيها العظة وفيها الدروس، وخاصة قصة آدم، الإنسان يتفكر في خلقه الأول؛ أنه خلق من طين وأنه ضعيف، ثم بيان أيضاً العداوة التي حصلت بين آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وإبليس، وماذا جرى لما نزل آدم إلى الأرض وإبليس، وعداوته لما قال:

قال المصنف في كتابه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤].

وقوله أيضاً: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

- ما هي الدروس التي أنت تستفيد منها؟

هي أن تكون حذراً دائماً متيقظاً من هذا العدو الذي لا يفارقك؛ لا في الليل ولا في النهار، وجنوده كثير، إبليس معه جنود كثيرون يساعدونه ويعاونونه،

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

يعني أعوانه، فالشيطان أقسم بالله، قال: فبعزتك، أقسم بعزة الله بس أن يغوي بني آدم جميعهم إلا عباد الله المخلصين.

فإبليس نصب العداوة لآدم وذريته؛ حتى آدم ما تركه أول الأمر لما قاسمه أن يأكل من الشجرة ودله على الشجرة حتى أكل منها وعصى ربه فغوى فأنزل وأهبط للأرض. هذه أول أمر انتصر فيه الشيطان على آدم وزوجه فأنزلهما، ولا يزال إلى قيام الساعة وهو سيستمر في عداوته وإغواء بني آدم.

فما الواجب علينا نحو هذا الشيطان العدو؟ العدو الذي يتربص بنا في كل لحظة، يجب أولاً أن نتعوذ بالله من الشيطان الرجيم دائماً، نكثر من الاستعاذة بالله، ونحذر كل الحذر، ونعلم أن الشيطان لا يدل إلا على معصية، وعلى كفر، وعلى إعراض، وعلى تمرد على شرع الله، فكل انسان يتمرد على شرع الله ويعرض ويستكبر ويعصي الله، كل ذلك من الشيطان الرجيم، كله من الشيطان.

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]

- من هو الإنسان هذا؟

هو آدم؛ هو أول بني، هو أول مخلوق من هذا الجنس وهو آدم، أبونا آدم. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ﴾؛ جاء بمؤكد وقسم، والله لقد خلقنا الإنسان من أي شيء؟ قال: ﴿مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

في آية أخرى قال: خلق آدم من تراب، ومرة آية أخرى قال: خلقه من طين، وهنا يقول: من صلصال.

- فكيف إذا سئلت: خلق آدم من أي شيء؟ هل هو من تراب ولا من طين ولا من صلصال ولا من أي شيء؟

الجواب: هذه مراحل مر بها، مر بها؛ أولاً تراب، خلق الله آدم من تراب، أخذ من كل مكان حفنة فاجتمعت له، ولذلك تشوف بني آدم مختلفين في الألوان والطبائع مثل الأرض.

ثم بعد ذلك التراب إذا وضع عليه ماء أصبح طيناً؛ فهذا معناه من طين، ثم إذا طبخ وترك مدة طويلة أصبح حمأً مسنوناً؛ الحمأ المسنون يعني الطين الأسود الذي له نتن، له رائحة، ثم إذا يبس أصبح صلصالاً كالفخار؛ مثل الأواني الفخارية، له صوت إذا حركته له صوت، هذه مراحل مر بها آدم.

مثل ما أنك أنت مررت بمراحل؛ أنت كنت أصلك أولاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم لحم وعظام، ثم أنشأك الله الخلق الكامل وأخرجك إلى هذه الدنيا؛ فكلٌّ يمر بمراحل.

إذاً هنا لما قال: ﴿خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ﴾ [الحجر: ٢٦]؛ يعني الطين الذي إذا يبس وترك أصبح له صلصال، يصل، ﴿مِّن حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]. الحمأ مثل ما ذكرنا؛ الحمأ هو الطين الأسود.

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]. يعني كأنها تغرب في طين أسود، مسنون يعني متغير بلونه ورائحته، يقول الله سبحانه، يقول هنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

ثم قال: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

- من هو الجان؟

هو إبليس وذريته، خلقهم من نار، شوف قال: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]. السموم الذي يكون له يعني، يكون له هواء حار؛ شفت الهواء الحار الذي يأتيك، هذا الهواء الريح ريح سموم لأنها تدخل في مسام الجسم، ومعنى نار السموم: أي النار الحارة شديدة الحرارة.

قال المصنف في كتابه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. فإبليس وذريته هم الجن، الجن فيهم مسلمون وفيهم كفار؛ فذريته، فيهم المسلمون.

قال تعالى في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤]. ففيهم مسلمون وفيهم كفار، فالجن على نوعين؛ مسلمون وفيهم كفار، وهم مخلوقون كلهم من نار، من نار السموم.

- لماذا يذكر الله خلق الجن؟

يبين لك أنه مخلوق قبل آدم؛ الجن وإبليس مخلوق قبل آدم، وأنه مخلوق من النار، والملائكة خلقت من نور.

☜قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ»**. ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أعطاك المقدمة هذه، الخلق، خلق آدم وخلق إبليس، قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [الحجر: ٢٨]؛ يعني لما خلق الله آدم، خلقه وتم خلقه ونفخ فيه الروح؛ لأنه لما خلقه جسداً هكذا ملقى في الأرض مدة طويلة.

قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]

ملقى على الأرض ما يتحرك، فنفخ فيه من روحه، فقام وتحرك وعاش في الجنة، يعني يتقلب فيها في الجنة، ثم بعد ذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد أن يبين للملائكة فضل آدم، وأنه أن له فضل، فاختبر الله الملائكة في أسماء مسميات.

قال: انبئوني بأسماء هذه الأشياء، هذه الأشياء العظيمة التي أمامكم أخبروني بأسمائها، قالوا: لا علم لنا، ما نعرف إلا ما علمتنا، فقال: يا آدم أخبرهم وأنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم وانتصر عليهم بالعلم، أمر الله الملائكة تسجد لآدم تكريماً واحتراماً لكونه انتصر بالعلم؛ وهذا يدل على أن العلم يرفع، يرفع الإنسان، والجهل يحط الإنسان.

فبعد هذا الذي جرى وأمر الله سجود الملائكة له، أبى إبليس أن يسجد. الآن يأتينا كيف، قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ 28 فَإِذَا سَوَّيْتُهُ 29﴾ [الحجر: ٢٨ - ٢٩]؛ يعني جعلته في صورة مستوية كاملة الأعضاء، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]. ما هي الروح؟ الروح لا أحد يستطيع أن يعرفها؛ لماذا؟

لأن الله يقول في كتابه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. الروح لا يعلمها إلا الله، الروح شيء لطيف يدخل في الجسم ويحرك الجسم؛ وش هو ما ندري، الله أعلم، لكنها روح.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]؛ الروح هذه مخلوقة، مخلوقة، الروح مخلوق والجسد مخلوق، لكن إضافتها إلى الله إضافة تشريف، ليست هي من جنس الله، لا؛ إضافة تشريف مثل ما تقول بيت الله وناقة الله.

يقول: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]. فنفخ الله من روحه، ثم جرت ما جرى من الإخبار بهذه الأسماء والمسميات، بعدها أمر الله الملائكة أن تسجد لآدم، فسجد الملائكة. شوف ﴿فَسَجَدَ﴾؛ الفاء تدل على السرعة، يعني لم يتأخروا، لما أمرهم الله بادروا لأنهم لا يعصون الله، فسجد الملائكة كلهم أجمعون بدون استثناء، شوف كم ملك في السماوات، كلهم سجدوا له، أعداد هائلة.

- إلا إبليس؛ هل إبليس من الملائكة؟

لا، إبليس مخلوق من نار والملائكة من نور، وإبليس يأكل ويشرب ويتزوج وله ذرية وينام، والملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تنام، تختلف، لكنه إبليس، لما قال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الحجر: ٣١]؛ لأنه كان من جملة الملائكة في العبادة؛ لأنه كان يتعبد مع الملائكة فقط، كان متعبداً مع الملائكة.

لما خلقه الله كان يتعبد في السماوات مع الملائكة. لكن لما جاءت قضية سجود الملائكة لآدم، هو امتنع بما في نفسه، شوف كيف، قال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١]. وقف هكذا؛ كلهم سجدوا إلا إبليس.

قال الله له: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]؛ لماذا لم تسجد؟ ما منعك؟ ما الذي منعك أن تسجد؟ فظهر ما في نفسه من الكبر والحسد، قال: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

كيف أسجد لبشر مخلوق من طين وأنا من نار؟! قال: لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون وأنا خلقتني من نار، أسجد لهذا؟ ما أقدر أسجد، أنا أفضل منه! هذا التكبر؛ هذا التكبر والحسد، حسد آدم لأن آدم شرفه الله بالعلم وجعل الملائكة تسجد له سجود تحية. هذا سجود الملائكة ليس عبادة؛ تحية وتكريم، فامتنع، امتنع لما في نفسه من الحسد أولاً، وهو ملكه التكبر على طاعة الله فتكبر.

لذلك قال الله له: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤]. اخرج منها، ما يكون لك أن تتكبر فيها، اخرج من الجنة ما يكون لك أن تتكبر فيها.

شوف قال: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤]؛ أي من الجنة، فإنك رجيم يعني مرجوم مطرود من رحمة الله، وزيادة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٥]؛ الطرد والإبعاد إلى يوم الدين، إلى يوم القيامة، فعرف أنه الآن طرد من الجنة، وحلت عليه اللعنة والغضب من الله بسبب أنه عصى الله.

وهنا وقفة: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا أمرك بأمر ينبغي أن تبادر مثل الملائكة: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]؛ ينبغي إذا أمرت بأمر أن تبادر، تبادر لطاعة الله وبما فرض الله عليك وأوجب عليك أن تسارع، وأن الله إذا نهاك عن شيء، تبتعد عن هذا الذي نهاك الله عنه؛ يعني تمتثل أمر الله في الطاعة والبعد عن المعاصي.

وهذا أثر المعصية على إبليس؛ ماذا كان في الجنة فطرد من الجنة وأخرج بسبب معصية، بسبب كونه امتنع عن السجود، وآدم أخرج من الجنة بسبب معصية واحدة؛ أكل من الشجرة فطرد.

فكيف بمن يعصي الله في الليل والنهار؟! ماذا سيكون مصيره يوم القيامة وهو لا يبالي ولا يحترم أوامر الله؟ هذا أمر لابد أن يقف عنده، كيف، قال: لما عرف إبليس أنه طرد ولعن وأبعد.

- ما النتيجة؟

قال، سال الله وطلب منه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦]. قال: اتركني وامهلني حياً، لا تقبض روحي، واتركني إلى يوم يبعثون؛ لماذا؟ لأنه سيغوي آدم وذريته، قال: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦].

- فأجابه الله، ولا لم يجبه؟

الجواب: لم يجبه الله إلى يوم يبعثون، وإنما أجابه إلى وقته المعلوم، شوف فرق؛ يوم يبعثون هي النفخة الثانية، الله ما أجابه إلى النفخة الثانية، أجابه إلى النفخة الأولى؛ يعني إذا نفخ في الصور النفخة الأولى مات الخلق كلهم وإبليس معهم، هذا معناه.

فقال: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ 37 إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ 38﴾ [الحجر: ٣٧ - ٣٨]؛ وهو يوم الصعق، النفخ في الصور في النفخة الأولى التي يصعق فيها كل من في السماوات والأرض إلا ما شاء الله، وإبليس يموت مع هؤلاء الخلق كلهم يموتون، ولم يبق إلا الله، فقال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨].

قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

يقول: بما أغويتني، هل الله أغواه؟ لا، الله ما يغوي؛ أغواه الله لما هو غوى، لما هو استكبر وحسد وأبى وامتنع، طرده الله وحل عليه، حلت عليه اللعنة وأغواه وأبعده. لو أنه استجاب ما أغواه الله، وهذا أيضاً نقف عندها: أي إنسان يرتكب معاصي ولا يبالي ويخالف ولا يبالي، الله يبعده.

مثل ما قال الله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. لو لم يزيغوا ما أزاغ الله قلوبهم، ولذلك الذي يهتدي ويعود إلى الله يحبه ويهديه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. فالإنسان إذا أقبل على الله يقبل عليه، وإذا أعرض، أعرض الله عنه.

وهذا إبليس لما أعرض وكفر واستكبر أبعده الله، قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩]. شوف، كل معصية يزينها الشيطان حتى يوقع الإنسان فيها؛ يزينها لك، ما يمكن الشيطان يقول لك تعال اعصي الله هنا، قال: لا، ما تطيعه، أنت لو قال لك تعال تعصي الله ما تطيعه، لكن يزين لك المعصية ويجملها ويحسنها حتى يوقعك في المعصية.

ولذلك قال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ [الحجر: ٣٩]؛ يعني أجعلهم كلهم يقعون في الغواية ويقعون في المعاصي، ﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]؛ كلهم، كل بني آدم.

ثم استثنى قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]؛ أهل الطاعة، الذين هم تحت ولاية الله، الذين حفظوا شرع الله وحفظوا فرائضه وحافظوا عليها، هؤلاء الشيطان لا يغويهم الغواية الشديدة؛ قد يأتيهم قليلاً لكن لا يغويهم بحيث إنه يبعدهم عن طاعة الله؛ لأنهم أولياء الله، عرفوا طاعة الله وعرفوا عظمة الله فعظموها، فهؤلاء لا يستطيع الشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

شوف قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]؛ الذين أخلصهم الله، أو المُخلِصين الذين أخلصوا لله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]

يقول: هذا الصراط عليّ أنا أن أحفظ أوليائي، لا تستطيع أن تتسلط عليهم، هذا صراط أنا وضعت صراطاً مستقيماً، لا يمكن أن تصل أنت إليه ولا ذريتك؛ لأنهم أولياء الله قد حفظهم الله.

بين لك قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

خلاص ما تقدر تصل إليهم؛ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، إلا من اتبعك من الغاوين؛ الذي يتبعك من الغاوين تتسلط عليه، أما عبادي فهم قد حفظوا أنفسهم.

ولذلك يا إخوان، حقيقة ينبغي للإنسان أن يحفظ نفسه من الشيطان في الصباح والمساء في المحافظة على أذكار الصباح وأذكار المساء، ودائماً الشيطان ينفر من الذي يذكر الله دائماً، إذا كنت تكثر من ذكر الله الشيطان يبتعد عنك؛ لأنك محفوظ بذكر الله، من آثار الذكر أنها تحفظك من الشياطين، تحفظك من الشيطان، والأوراد والأذكار، وخاصة صلاة الفجر.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ»**. خاصة صلاة الفجر التي نلاحظ فيها هذه الأيام بعد، يعني نلاحظ أن الوقت يرجع كثيراً الآن، صلاة الفجر تقام الساعة الرابعة والربع، زين تجد الصف الأول لم يكتمل، تجي المغرب والعشاء ثلاث صفوف، صفين، وين راحوا؟

لا في أعمال في الفجر ولا شيء إلا النوم! الإنسان ينتبه لنفسه ويحذر ويحافظ على الصلاة، وخاصة صلاة الفجر؛ تبي النفس تبي مجاهدة، تبي مجاهدة، تبي حرص، يب النفس النوم وكسل.

يأتي يسهر إلى الساعة واحدة، اثنتين، ثم يقول: ما استطعت أن أقوم الفجر! أكيد ما تستطيع لأنك متأخر بالنوم! لا تسهر، السهر مرض ويحرمك من صلاة الفجر، ضع منبهات واستعن بالله وبكر في النوم ويعينك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أما تتساهل، يذهب عليك يوم، يومين، أسبوع، شهر، وأنت ما صليت مع الفجر، مع صلاة الفجر مع الجماعة، فهذا أمر خطير عليك، والمعصية تجر إلى معصية، والمعصية لها آثار سيئة.

قال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

ثم هدده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو ومن معه قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣]

أنت ومعهم، ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ يعني الذي يعصي الله ويطيع الشيطان ويكون في ولاية الشيطان، النتيجة يوم القيامة جهنم موعدهم أجمعين.

- ثم بين لك قال هذه جهنم ما حالها؟

قال: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]. لأنها تأتي دركات كذا، دركات على أسفل، أدوار زي الأدوار زي الأطباق، كل طبق له باب، قال: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]؛ كل باب يدخل معه مجموعة، قسم الله لهم أن يكونوا من هذا الباب وهكذا، وكلها نار في نار وسعير تتسعر به، قال: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]. أما عباد الله الصالحين المتقين المخلصين.

- ما النتيجة؟

قال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥].

يسلمون من النار ويدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار وفيها العيون المتدفقة بالماء، والله يقول لهم والملائكة تقول لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]. بسلام يعني لا يصيبكم نصب ولا تعب ولا أذى، وآمنين من الخوف، سلام الآمنين.

ثم ذكر بعد قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]. الغل قد يوجد في بعض الناس؛ يكون حسد وغل وحقد وضغينة بينه وبين إخوانه أو بينه

وبين المسلمين، الله ينزع حتى تكون قلوبهم صافية، قلوبهم كلها مودة ومحبة. الجنة ما فيها غل ولا حقد ولا حسد ولا ضغن.

قال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم﴾ [الحجر: ٤٧]، شوف ﴿وَنَزَعْنَا﴾ يعني أخذناها بقوة، ما في خلاص، ﴿مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ [الحجر: ٤٧] خلاص ما في حسد ولا شيء، أصبحوا ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، بعضهم يقابل بعض، ما تجعل الآخر في ظهرك مثل الدنيا تجلس على سرير أو على كراسي وناس خلفك؛ لا، الجنة ما فيها واحد يجلس خلف الآخر أو أمام الآخر، قال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

ثم قال: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]. ما في تعب ولا إرهاق في الجنة، ولا مرض ولا سقم ولا موت، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]؛ لن يخرجوا منها، سيبقون فيها دائماً، لا يبغون عنها حولاً.

أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة الفائزين بهذا النعيم، نسأل الله أن يجعلنا في ولايته وأن يبعدنا عن ولاية إبليس الذي أغوى كثيراً من الناس.

الآن هو في كل مكان، ما ترك الشيطان أحداً إلا أغواه، إلا عباد الله الذين حفظوا أنفسهم، فينبغي علينا أن نحفظ أنفسنا بطاعة الله، والمحافظة على الصلوات مع الجماعة، وخاصة صلاة الفجر التي يتأخر عنها الكثير والكثير، ينبغي أن نراجع أنفسنا وأن نحرص على طاعة الله.

وتعرف أن الذي ينام عن صلاة الفجر ماذا يقوم؟ يقوم كسلان خبيث النفس، خبيث النفس كسلان، والذي يقوم ويصلي صلاة الفجر يقوم نشيطاً طيب النفس.

أسأل الله أن ينفعنا بهذه الآيات التي استمعنا لها وبيناها، والله الموفق الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحجر 49 - 79)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المتجدد؛ لقاء الأربعاء بعد صلاة المغرب من كل أسبوع، نجلس هذا المجلس المبارك، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا ممن تحفهم الملائكة وتغشاهم الرحمة وتنزل عليهم السكينة ويذكرهم الله فيمن عنده في الملأ الأعلى.

نأخذ شيئاً من آيات الله الكريمة؛ نقرأها ونبين معانيها ونتدبرها، ونسأل الله أن يعيننا وأن يوفقنا وأن يسددنا. لا زلنا في **"سورة الحجر"**، وبعدما ذكر الله لنا قصة خلق آدم وموقف إبليس من السجود وما جرى لذلك، يعقبها الحديث عن قصص الأنبياء.

وسياق قصص الأنبياء بعد ذكر قصة إبليس الذي عصى ربه وآدم الذي رجع إلى ربه وتاب، ذكر قصص هؤلاء الأنبياء الكرام قدوة لنا؛ لنقتدي بهم، ولنسير على منهجهم، ولنحذر مما وقع فيه أقوامهم من المخالفات والخروج عن طاعة أنبيائهم.

وماذا حل بهم؟ ماذا حل بقوم لوط؟ وماذا حل بقوم شعيب الذين ذكرهم الله في هذه السورة؟ وكذلك أصحاب الحجر وهم قوم ثمود، ما الذي جرى لهم؟ ففي سياق قصص القرآن عبر، ودروس، وفوائد نستفيدها في حياتنا؛ نحذر من المعاصي، ونقبل ونتوب إلى الله.

ولذلك تلاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر قصة آدم وإبليس وما جرى لهم، قال بعدها: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩] يعني أخبر يا محمد، ويا من يسمع هذا الخطاب، أخبر هؤلاء العباد الصالحين التائبين إلى الله أن الله يقبل توبتهم؛ لأن الله هو الغفور الذي يغفر الذنوب.

والرحيم بعباده يفتح لهم باب التوبة: ﴿۞ نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

وفي المقابل لمن خرج عن طاعة الله وتمرد: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠].

ولذلك ينبغي للمسلم العاقل أن يكون بين هذا وهذا؛ بين رجاء رحمة الله ومغفرته، وبين الخوف من عقابه.

ففي الدنيا يعيش الإنسان -كما قال "ابن القيم"-: **"الخوف والرجاء كجناحي طائر؛ ما تستطيع أن تطير إلا بجناحين، ما تستطيع أن تسلك هذه الحياة الدنيا وتتعبد ربك إلا أن تجمع بين هذين الأمرين؛ الرجاء بمغفرة الله ورحمته، والخوف من عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"**. لكن في آخر حياة الإنسان يغلب جانب الرجاء؛ حتى يحسن الظن بربه فيختم له بخير.

لما أخبر الله بهذا الخبر، وهذه بشارة حقيقة للمؤمن أن يقبل ويتوب إلى الله ويرجع ويخشى عقابه، قال أيضاً: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١] ونبئهم أيضاً بخبر آخر مهم جداً في حياتهم، هو عن ضيف إبراهيم.

- من هم ضيوف إبراهيم المكرمين؟

هم الملائكة، جاءوا إلى إبراهيم ضيوفاً؛ قيل إن عددهم ثلاثة، وقيل غير ذلك، لكن المشهور أنهم هم رؤساء الملائكة الثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل. جاءوا في صورة رجال ودخلوا عليه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢] إبراهيم معروف بكرمه، وكان يفتح بابه للضيوف، فدخلوا عليه؛ قد يكون دخلوا في وقت غير مناسب أو نحو ذلك، فلذلك خاف منهم، أو لأنه لم يرهم قبل ذلك؛ صور جديدة عليه فخاف منهم، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً؛ سلموا عليه، فقالوا سلاماً، قال: إنا منكم وجلون.

وفي آية هود قال لما قربه إليهم: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠] لأنهم لم يأكلوا؛ الضيوف إذا كانوا جاءوا ضيوفاً حقيقة يأكلون، أما إذا لم يأكلوا يخاف منهم صاحب الدار؛ لأنهم قد يكونون قد قصدوا شراً، فلذلك شوف قالوا إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً؛ يعني نسلم سلاماً.

ولذلك في سورة **"الذاريات"** رد عليهم فقال: سلام؛ فرد عليهم بما هو أقوى وأفضل في التحية؛ لأنها جملة اسمية، قال: فقالوا سلاماً، قال سلام هنا، قال: إنا منكم وجلون؛ خائفون خاف منهم.

قالوا: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. طمانوه وأذهبوا عنه الروع، فقالوا: لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم؛ فجاءوا بالبشارة هنا، قالوا: نبشرك.

وفي سورة أخرى: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] بشروا امرأته سارة، وبشروه بغلام عليم وهو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنه غلام؛ أي أنه ذكر، وعليم؛ أي أنه ذو علم، وسينشأ ويصبح نبياً.

قال: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤] يقول: أنتم تبشروني في هذا الوقت الذي أصبحت قد طعنت في السن وتقدم بي السن، وامرأته عاقر؛ لأنها تقول: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢] فقال: كيف؟ يعني هو يتعجب الآن، كيف تبشروني في هذا الوقت؟ وهو لا يستبعد أن الله يرزقه، لا يستبعد؛ ولذلك قال: فبم تبشرون؟ بأي شيء؟

قالوا: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٥] هذا حق من الله أنك سترزق بهذا الغلام العليم وهو إسحاق؛ قالوا: بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين. **(القانط)** الذي يقنط من رحمة الله؛ ييأس من رحمة الله، ييأس من أن الله يأتي له بالخير، وهذا لا يجوز؛ ما ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون.

ولذلك إبراهيم رد عليهم مباشرة فقال: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦] لا أحد يقنط من رحمة الله إلا الضالون؛ الضالون الذين لا يعرفون حقيقة رحمة الله، ولا يعرفون قوة الله وعزته، هؤلاء هم الذين يقنطون، أما المؤمن فقال: لا، أنا لست من هؤلاء، أنا لا أقنط من رحمة الله؛ ما يقنط من رحمة الله وييأس إلا القوم الضالون، أما المؤمن فهو في رجاء بما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلما بشروه واطمأن وذهب عنه الروع وجاءته البشرى، عرف أنهم قد جاءوا لأمر آخر، فقال: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٥٧] ماذا جئتم؟ ما الهدف من مجيئكم هنا؟ ما خطبكم؟ ما شأنكم أيها المرسلون؟

لما أخبروه أنهم رسل من الله؛ لأنهم لما لم يأكلوا، وقد قرب إليهم عجلاً سميناً أو حنيذاً، لما قربه إليهم ولم يأكلوا، أخبروه أنهم ملائكة، والملائكة ما تأكل ولا تشرب ولا تنام، وإنما هي تتعبد لله ولا تتزوج.

قالوا: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨] أصحاب جرائم، أصحاب إفساد في الأرض؛ علوا وطغوا وأفسدوا وأجرموا، هم قوم لوط؛ لأن لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ هو ابن أخي

إبراهيم، يعني إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هو عم لوط، وهو الذي هاجر معه من العراق، لكن إبراهيم استقر في فلسطين، وهذا أرسل إلى هذه القرى؛ قرية سدوم وما حولها في وادي الأردن.

قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٩] يعني المؤمنون؛ لوط ومن معه: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٩]، هؤلاء سننجيهم لن يصيبهم العذاب.

إلا امرأته؛ استثناء بعد الاستثناء: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا ۙ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠] وهي امرأة لوط الكافرة، قدر الله عليها أن تكون من الهالكين؛ قدرنا أنها لمن الغابرين الباقين الذين سيصيبهم العذاب، ولذلك أصابها ما أصابهم.

فلما جاء آل لوط المرسلون؛ لما خرجوا من إبراهيم توجهوا إلى لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فجاءوا ضيوفاً، ودخلوا على لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ 61 قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنكَرُونَ 62﴾ [الحجر: ٦١ - ٦٢] هو الآن يعني حتى في آية أخرى قال: ضاق بهم ذرعاً.

وقال: هذا يوم عصيب؛ لأنه يعرف أن إذا جاءه ضيوف أن قومه لن يتركوا هؤلاء الضيوف، سيعتدون عليهم ويفعلون بهم ما يفعلون، فلذلك خاف وقال: هذا يوم عصيب شديد علي، ماذا أصنع وهو واحد وقومه كثيرون؟ ولذلك هنا قال: قوم منكرون لا أعرفكم، جئتم ضيوفاً عندي، من أنتم؟

قالوا: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٣] يقولون: جئناك بما كانوا يشكون فيه؛ هم يشكون في العذاب ويستبعدون، لما كان يخوفهم ويهددهم بالعذاب لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، كانوا لا يبالون ويشكون يقولون أين العذاب، فجاءوا قالوا: جئناك بما كانوا فيه يمترون.

قالوا: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الحجر: ٦٤] جاءوا بهذا الخبر الذي هم كانوا يشكون فيه وهو العذاب الذي سيحل بهم، وقالوا: وهذا هو الحق، قالوا: أتيناك بالحق وإنا لصادقون.

شوف كيف تأكيد الجمل: ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الحجر: ٦٤].

ثم أمروه أن يسري بليل بأهله بقطع من الليل؛ قال اخرج أنت ومن معك، اخرج سينالهم عذاب ستقلب عليهم ديارهم فاخرج، فقالوا: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥] الإسراء هو الذهاب ليلاً بقطع من الليل؛ يعني بشدة ظلمة الليل، يعني حتى قال بعض المفسرين إنهم خرجوا في وقت السحر؛ لأن الله أخبر في سورة القمر: ﴿نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] يعني وقت السحر.

قال: فأسر بأهلك بقطع من الليل، واتبع أدبارهم؛ يعني كن خلفهم حتى لا يتخلف منهم أحد أو يرجع، واتبع أدبارهم كن في المؤخرة، وهذا الذي ينبغي أن يكون؛ أن يحرص الإنسان على من معه فيكون في المؤخرة.

ثم قال: ولا يلتفت منكم أحد.

- ما معنى ولا يلتفت؟

للمفسرين قولان:

القول الأول: **"ولا يلتفت منكم أحد"** أي لا يلتفت الالتفات المعروف برأسه حتى لا يرى العذاب ثم يفجع بهذا العذاب الشديد؛ قال لا يلتفت لأن إذا التفت سيقف، وإذا وقف سيتأخر بالمسير، فلذلك نهاهم: ولا يلتفت منكم أحد، وهذا المعنى المتبادر أنه لا يلتفت برأسه.

القول الثاني: أن معنى لا يلتفت أي لا يبقى في مكانه، ولذلك في آية أخرى قال: ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك؛ يعني لا يبقى أحد منكم إلا امرأتك تبقى، ثم قال: وامضوا حيث تؤمرون؛ حيث يأمرهم الله ويأمرهم الوحي يتوجهون.

- أين توجهوا؟

قيل إنهم ذهبوا إلى إبراهيم في فلسطين، وقيل إنهم ذهبوا إلى مصر، وقيل ذهبوا إلى مكان آخر بعيد عن هذا العذاب؛ وامضوا حيث تؤمرون.

قال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦] قضينا؛ يعني حكمنا وبينا إلى لوط ذلك الأمر؛ أي الشأن الذي سيجري عليهم وهو العذاب: أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين، ولذلك يقول لوط لما رأت الشدة عليه واشتد الأمر عليه، قال: متى يأتيهم العذاب؟

قال الله له: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]؛ الصبح قريب. وهنا قال: أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين. دابر هؤلاء؛ يعني آخر القوم، الدابر هو مؤخرة الشيء، فيقول: سيقطع دابر هؤلاء، سينتهون جميعاً لن يبقى منهم أحد.

كما قال الله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. فإذا قطع الدابر، وهو نهاية الشيء، فمقدمتهم ووسطهم من باب أولى؛ قال: أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين؛ وقت الصبح وهم في غمرة النوم وفي سكرة النوم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: ٦٧] جاء أهل المدينة؛ مدينة سدوم التي يسكنها لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما سمعوا، وامرأته أيضاً أخبرت وقالت إن لوطاً عنده ضيوف، وسمعوا بالضيوف فجاءوا؛ جاء أهل المدينة، شوف لم يأت واحد ولا اثنان، جاء أهل المدينة، كم عددهم؟ كثير يريدون الضيوف يفعلون بهم، فجاء أهل المدينة يستبشرون؛ يبشر بعضهم بعضاً أن هناك عند لوط ضيوفاً، فانتهزوا الفرصة؛ هذا أهل الشقاق يستبشرون.

قال لهم لما جاءوا إلى لوط وهو في بيته وطرقوا الباب: ﴿قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ 68 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ 69﴾ [الحجر: ٦٨ - ٦٩]. هؤلاء ضيوف عندي فلا تفضحونني عند ضيوفي، اخرجوا اذهبوا لا تفضحوني عند ضيوفي، واتقوا الله خافوا الله ولا تخزوني عندهم؛ تفضحوني وتخزونني وتذلونني عندهم، أصحب ذليلاً عندهم وأنا أريد أن أكرمهم.

قالوا له: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] ما قلنا لك اتركنا وشأننا نفعل ما نشاء؟

قال: ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١] إما بناتي حقيقة، وكان له ثلاث بنات، أو أنه يريد البنات بنات قومه؛ لأن النبي هو أب بالنسبة لقومه، وأزواجه أمهاتهم، أزواج الأنبياء أمهات، ولذلك نحن نقول عائشة أم المؤمنين، فهذا معنى: ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]؛ إذا تريدون تفعلون هؤلاء عندكم البنات اللاتي أباحهن الله لكم، تزوجوا الزواج الصحيح.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطباً نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] هذا قسم من الله، يقسم بحياة محمد؛ لشرفها ومكانتها، لم يقسم الله بحياة ولا بعمر أي نبي إلا محمد: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]؛ يقول هم في غفلتهم وفي صدودهم وفي غيهم وفسادهم يعمهون، يتخبطون ما يدرون أين يذهبون.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣] كم أصابهم من أنواع العذاب؟ كم؟ ثلاثة؛ أخذتهم الصيحة، وجعل الله عاليها سافلها، والثالث أنه أتبعهم الحجارة، ثلاثة؛ قلبت عليهم ديارهم لأنهم قلبوا الفطرة، ذهبوا إلى الرجال وتركوا النساء، قلبوا الفطرة فقلبت عليهم ديارهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]؛ صاح بهم جبريل صيحة قوية متى؟ مشرقين؛ وقت شروق الشمس وهم في أشد عمق النوم، لا يدرون إلا وقد جاءهم العذاب وقت الشروق.

قال: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤] جعلنا عاليها؛ أي الديار، وهي سبع قرى قلبت عليهم، جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليهم؛ حتى قال بعض أهل التفسير إن الملائكة في السماء الدنيا سمعت صياح الديكة ونباح الكلاب ونهيق الحمير لما رفعت عليهم ثم قلبت؛ قال هنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل.

السجيل: الطين المطبوخ الذي إذا رمي به الشخص أحرقه وأهلكه، فتعجب وشوف كيف العذاب؛ صيحة، وقلبت عليهم الديار، ثم أتبعوا بالحجارة حتى الذين كانوا في الأسفار أصابتهم الحجارة وماتوا، لم يبق منهم أحد.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥] يعني هذه القصة فيها، ليس فيها آية واحدة، بل فيها آيات عظيمة لمن؟ للمتوسمين. من هم المتوسمون؟ هم الذين عندهم الفراسة والمعرفة والدراية؛ يتوسم يقول: **"أنا أتوسم فيك الخير، أتوسم في فلان خيراً"** يعني أعرف، أعرف؛ هذا المتوسم هو الذي يعرف ويتدبر مثل هذه الآيات ويتفكر فيها ويدرك هذه المعاني ويخاف من العقوبات، هذا معنى المتوسمين.

ولذلك قال الله عنها عن هذه الديار، قال: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦] يقول هي في طريق، حتى أهل مكة يمرون عليهم: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ 137 وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ 138﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨] فهم كانوا على طريق الشام، كل من يمر مع هذا الطريق يمر بديارهم؛ قال: وإنها لبسبيل مقيم.

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧] إن في ذلك لآية أخرى عظيمة لمن؟ للمؤمنين المصدقين؛ المؤمنين الذين يسمعون هذا الكلام ويصنعون يعتبرون به، لا تمر عليهم القصة هكذا كأنها **"سواليف"**، لا تمر عليهم بل هم يعتبرون ويتفكرون فيها.

ثم يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصحاب الأيكة.

- من هم أصحاب الأيكة؟

هم قوم شعيب.

يقول الله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ [الحجر: ٧٨] ظلموا أنفسهم بالكفر، والشرك، وعبادة الأيكة؛ وهي عبادة الشجرة وعبادة الأصنام، وبخس الموازين والمكاييل

قال: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩] انتقم الله منهم، كم عذاب أصاب أهل الأيكة؟ كم عذاب؟ ثلاثة؛ مثل هؤلاء ثلاثة؛ أخذتهم الصيحة في سورة، وفي سورة أخذتهم الرجفة، وفي سورة أصابهم عذاب يوم الظلة.

جاءهم حر شديد جداً، هذا الحر الشديد جاءهم فخرجوا من بيوتهم، ثم جاءت سحابة فكل من دخل تحت هذه السحابة شعر ببراد وبجو لطيف جميل، فاجتمعوا كلهم تحت هذه السحابة، فنزل العذاب عليهم وأهلكهم الله جميعاً.

شوف قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]؛ وانهما أي قوم لوط وقوم شعيب لبإمام مبين، يعني بطريق واضح كل يراهم.

لعلنا نقف عند هذا القدر نكتفي به، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحجر 80 – آخر السورة)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، ومع لقائكم الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كل أربعاء، وهذا اليوم هو اليوم السابع عشر من الشهر الثاني عشر من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

نجلس أيها الإخوة الكرام هذا المجلس المبارك، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعله مما تحفه الملائكة وتغشاها الرحمة وتنزل عليه السكينة ويذكر الله الحاضرين عنده في الملأ الأعلى.

درسنا في تفسير القرآن العظيم وسورة الحجر، ونحن في خاتمة هذه السورة ومع القصة الأخيرة من قصص القرآن الكريم وهي قصة أصحاب الحجر التي سميت السورة باسم أهلها أصحاب الحجر.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠].

هذا الأسلوب عند أهل التفسير يسمى بأسلوب القسم، وين القسم؟ قسم محذوف.

- كيف عرفنا أنه محذوف وكيف عرفنا أنه قسم؟

الجواب: اللام هذه **"ولقد"** اللام الداخلة على **"قد"** هذه يسميها أهل العلم **"لام موطئة للقسم"**، التقدير: والله لقد كذب أصحاب الحجر المرسلين.

- من هم أصحاب الحجر؟

هم قوم ثمود الذين أرسل الله إليهم نبيه صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى تقوى الله وترك الشرك والكفر، ولكنهم أبوا وكفروا، وهنا أخبر الله أنهم كذبوا؛ كذب أصحاب الحجر.

- أصحاب الحجر هم ثمود، لماذا سموا بأصحاب الحجر؟

الجواب: لأنهم يسكنون في مكان قد تحجر بين الجبال والسهول، أو لأنهم ينحتون من الجبال ويحجرون فيها بيوتاً، ينحتون من الجبال بيوتاً.

بدأوا يحفرون وليس عندهم الآلات الموجودة عندنا الآن، ومع ذلك أعطاهم الله من القوة يحفرون في هذه الجبال ويضعون فيها بيوتاً، وآثارهم حتى الآن موجودة منذ سنين طويلة، قرون بعيدة، ومع ذلك قوة، أعطاهم الله القوة، قال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

وقال أيضاً: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

كانوا يأخذون القطع الحجر الذين جابوا الصخر بالواد، هم يقطعون الحجارة ويبنون في السهول قصوراً، ويبنون في هذه الجبال كهوفاً تحميهم عن الشمس تحميهم عن البرد، فأعطاهم الله من النعم العظيمة لكنهم كفروا، كفروا نعمة الله.

شوف قال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠]؛ مرسلين، رسول واحد كيف يقول مرسلين؟ يقول: **"لأن الذي يكذب رسولاً واحداً قد كذب الرسل كلهم؛ لأنه لو آمن به لآمن بالجميع"**.

شوف الآن الله أخبر أنهم كذبوا، طيب بعد ذلك ماذا قال؟ الله يخبر أيضاً عن أن الله أنعم عليهم بنعم، قال: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ [الحجر: ٨١].

- ما هي الآيات؟

هي الآيات التي أعطاها الله نبيه صالحاً، ومن أعظمها الناقة التي هم اقترحوها وقالوا: أخرج لنا ناقة من هذه الصخرة، فدعا رب، فدعا صالح ربه أن يخرج، فأخرج له ناقة عشراء؛ يعني حامل في الشهر العاشر، ولما خرجت ونظروا إليها قالوا: سحرنا صالح، هذا سحر، أعطاهم الله آية عظيمة، ناقة الله.

قال: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨١]؛ لا يريدون أن يؤمنوا بالآيات ولا يصدقون بها، ويتهمون صالحاً بأنهم **"من المسحرين"**؛ يعني قد أصابه السحر، فكانوا عنها قال: كانوا عنها معرضين.

ثم بين الله ما أنعم الله عليهم قال: ﴿وَكَانُوا يَنْحَتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]؛ ينحتون يعني يحفرون في الجبال ويضعون فيها بيوتاً وفي أمن وأمان، الجبال بيوتاً آمنين، ولكنهم لما كفروا نعمة الله وكفروا رسولهم وردوا رسالاته، النتيجة ما هي؟ أن الله عذبهم، أن الله أنزل عليهم العقوبة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣]؛ أخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل حتى تقطعت قلوبهم وماتوا جميعاً، أصبحوا جاثمين، شوف قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣]. متى؟ قال: مصبحين؛ وقت الصبح، دائماً العذاب والمصائب والحروب تأتي في غفلة الناس وهم على فرشهم نائمون تأتيهم.

قال: أخذتهم، في الآية التي قبلها قال: مشرقين؛ عند شروق الشمس وهو قد استغرق في نومه، وهنا قال: مصبحين؛ عند وقت الصباح، قال: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٤]؛ ما نفعتهم عدتهم وقوتهم، ما نفعهم، ما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما ذكر لنا القصص الماضية؛ قصة إبراهيم ولوط وشعيب وهنا أيضاً قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، عليه جميع السلام، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ﴾ [الحجر: ٨٥]؛ هذه رسالة لكل شخص، أنت وأنا والثاني، هذه رسالة لنا أن الله لم يخلق السماوات والأرض عبثاً ولم يخلقها للعب، إنما خلقها للعبادة، خلقها ليظهر الحق.

شوف قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجر: ٨٥] من المخلوقات التي لا نعلمها نحن ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥]؛ خلقها الله بالحق.

- ما هو الحق؟

بيان العدل؛ يعني لا تظن أن الفاجر المجرم الذي يفسد في الأرض ويقتل ويسرق ويؤذي الناس يترك هكذا، والصالح المطيع يترك لا يثاب، لا؛ من عدله أن يجازي المحسن على إحسانه والمصلح على صلاحه، ويجازي المفسد المجرم بما يستحق، هذا عَدْلُ اللَّهِ، ولذلك الناس الآن يعيشون بهذه الدنيا ولكن عندهم يوم يجتمعون فيه الله يحاسبهم بالعدل يعطي كل ذي حق حقه، هذا معنى خلق ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ﴾ [الحجر: ٨٥].

ولذلك شوف بعدها ماذا قال: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ﴾ [الحجر: ٨٥]؛ يعني لابد، لا تظن الناس هنا مفلتين ضائعين، يأخذون ويلعبون ويفسدون ويتركون، لا؛ في يوم سيجتمعون فيه، اتركها الآن خله يمشي في هذه الدنيا ويضيع فيها ولكن مصيره الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله، بين يدي الله، ولمن خاف مقام ربه هنا تأتي النتيجة.

أما الدنيا خلها يأخذ راحته في اللعب والضحك ولكن في النتيجة في الأخير يأتي الحساب، شوف تأمل هذه الآيات ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ﴾ [الحجر: ٨٥].

الساعة هي يوم القيامة، سميت بالساعة لأنها الوقت التي، الوقت الذي يبعث الله فيه الأولين والآخرين من قبورهم، ولا تظن أن الذين ماتوا في قبورهم من قرون بعيدة أنهم لم يبعث، لن يبعثوا، لا؛ يخرجون كلهم يخرجون ويجمعون في صعيد واحد ويحاسبون، قال: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ﴾ [الحجر: ٨٥].

ثم قال: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]؛ يعني تجاوز عنهم وتسامح معهم، والصفح الجميل الذي ليس فيه عتاب وليس فيه أذى للناس، خلاص أنت تستخدم معك أسلوب الصفح والعفو والمسامحة تكسب الأجر، ثم مع أنك إذا عفوت سواء عفوت عن بيت، عن أهلك وأولادك أو جيرانك أو شخص آذاك عفوت عنه.

اتبع العفو هذا بعدم ذكر الشيء هذا وعدم الإيذاء وعدم العتاب، خلاص، أصبح الصفح الجميل، لا تقول ترى صفحت عنك وتراي فعلت وفعلت، لا خلاص، صفحت وعفوت خلاص، هذا معنى قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥].

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦]؛ الذي خلق الخلق كله السماوات والأرض، وخلق الناس وخلق أرزاقهم، هو الخلاق؛ صيغة مبالغة، العليم؛ بأحوالهم، يخلقهم ويعلم أحوالهم، لا تظن أن الله يخفى عليه شيء من أحوالنا، لا يخفى عليه شيء.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر ما من به على نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه المنة والنعمة هي لنا أيضاً ليست لمحمد فقط، يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧].

- ما هي السبع المثاني؟

☜هي الفاتحة على الصحيح؛ في حديث أبي سعيد بن المعلى رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لي: **«سَأُخْبِرُكَ بِأَعْظَمِ سُورَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ»**، فلما خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وأبو سعيد من المسجد، فقال له: يا رسول الله، قد أخبرت، قد ذكرت لي أنك ستخبرني بأعظم سورة في كتاب الله ما هي؟

قال: **«﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيتُهُ»**. وفي لفظ الصوتية: **«أَعْظَمُ سُورَةٍ الْفَاتِحَةُ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي الَّذِي أُوتِيتُهُ وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ»**. هذا التفسير هو التفسير الصحيح في معنى السبع المثاني.

وبعض المفسرين يقول: **"السبع المثاني هي السبع الطوال؛ البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، مع الأنفال والتوبة"**، والصحيح الحديث، هذا الحديث نص في تفسير الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧].

- ما معنى المثاني؟

أقول هي الفاتحة؛ ليش سميت بالمثاني؟ لأنها تثنى في كل ركعة، في كل ركعة تثنى، يعني تعيدها، تعيدها تكررها. والقرآن العظيم هو إما من باب **(عطف العام على الخاص)**، أو أنه أيضاً تسمى الفاتحة بالقرآن العظيم لاشتمالها على علوم القرآن كله.

لما أنعم الله على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه السورة وبالقرآن الكريم وهو أعظم نعمة على الرسول وعلينا نحن، ذكره أو بين له أن لا ينشغل بالدنيا، اشتغل بالقرآن، اشتغل بالقرآن

تلاوة وتدبراً وتفسيراً وبياناً، هذا أفضل لك من اشتغالك في الدنيا التي تأخذ بتلابيب قلبك وقد تضيع عليك أموراً مهمة.

شوف قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ 78 لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ 88﴾ [الحجر: ٨٧ - ٨٨]؛ يقول: لا تمد عينيك إلى ما أعطيناهم متاع الدنيا، أزواج يعني أصناف من الأموال، والأولاد، والأزواج، والخدم، والجواري، والمراكب، والمساكن، والقصور، قال: لا تمد عينيك، ما قال: لا تنظر، النظر ما فيه شيء، انظر لكن تمد عينيك لا.

- ما معنى تمد عينيك؟

يعني تستمر في النظر، تتبع النظرة، وتجلس يعني تشغل نفسك بهذه الأمور، أما أنك تنظر إلى زخرفة الدنيا وجمالها بمجرد النظر هذا ما فيه، ما فيه بأس، لكن الله يقول: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، مد العين غير النظر، مد العين بمعنى أنك تتبع بحيث أنها بحيث هذا النظر يأخذ بقلبه، يأخذ بالقلب، هذا هو المقصود: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨]. المقصود بالأزواج هنا الأصناف من أمور الدنيا؛ من الأموال والأزواج والأولاد والمراكب والمساكن وغيرها.

ثم قال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨]؛ لا تحزن لماذا؟ لأن لا يستحق، لا يستحقون أن يحزن عليهم لأنهم لا يريدون الهداية ولا يريدون الحق، فلا تحزن عليهم اتركه، لكن ما الذي ينبغي لك؟ قال: ينبغي لك أن تلتفت إلى المؤمنين الذين صدقوا وآمنوا.

ولذلك شوف قال: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]؛ تواضع للمؤمنين، هم الذين يستحقون، أما هؤلاء المعاندين المستكبرين لا يستحقون أن يحزن عليهم، الذين يستحقون من يلتفت إليهم هم عباد الله المؤمنون.

وقل لهؤلاء، يقول: إذا كنت لا تحزن عليهم ولا تلتفت إليهم لكن ذكرهم بأنك أنت النذير، شوف: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩]؛ إني أنا النذير المبين، يعني أنا جئتكم أنذركم وأخوفكم من عذاب الله لا تنزل بكم العقوبات.

ثم قال: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر: ٩٠]؛ يعني أنزلنا عليك السبع المثاني والقرآن وقد أنزلنا على المقتسمين.

- من هم المقتسمون؟

قال: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١].

قال بعض أهل التفسير: **"هم اليهود والنصارى؛ أنزل عليهم التوراة والإنجيل فقبلوا بعضها وتركوا بعضها، وآمنوا ببعضها وكفروا ببعضها"**، شوف قال: **"المقتسمين"** اللي قسموا هذه التوراة والإنجيل، قسموها أقساماً؛ شيء يقبلونه، شيء يردونه، شيء يحرفونه وشيء يقبلونه.

شوف قال: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١] جعلوه مثل الأعضاء، قسموه أقساماً؛ الذي تشتهي أنفسهم يأخذونه، والذي ما يناسبهم يردونه.

وبعض المفسرين يقول: **"هذه كما أنزل المقتسمين هم أهل مكة كفار قريش؛ الذين آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه، منهم من آمن ببعضه ومنهم من كفر، ومنهم من أصلاً لم يؤمن به كله، ومنهم من آمن به كله، فأصبحوا أقساماً يقبلون شيئاً ويردون شيئاً"**.

ثم هددهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]؛ أقسم الله بنفسه وبذاته الشريفة أنه سيسألهم أجمعين، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ 92 عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ 93﴾

[الحجر: ٩٢ - ٩٣]؛ أي سنجمعهم نسألهم، ما فيه أحد إلا سيسأله الله ويحاسبه، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ 92 عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ 93﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣] في الدنيا.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجهر بالدعوة، خلاص، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول ما بعث دعا الناس سراً، الدعوة السرية ثلاث سنوات وهو يدعو الناس سراً ما يعلن دعوته.

لما نزلت هذه السورة قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]؛ يقول: اصدع لن يضر لك أحد، ولن يستطيع أحد أن يعتدي عليك، أنت في حفظ الله ورعايته، فاصدع بالدعوة. بعد ذلك بدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو، ولذلك لما نزلت هذه الآية صعد الصفا ونادى، نادى يعني أهل مكة وأعلن إليهم قال: **"إني أنا النذير المبين"**، وأعلن لهم هذه الدعوة.

هذه الآية يا شيخ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فيها من البلاغة العجيبة، يمكن أنت ما تقدر تصل إلى معناها البليغ، لكن أعرابي كان عند، يعني أعرابي قح عربي فصيح، لما سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ سجد هذا الأعرابي، قيل: كيف تسجد وهذا ليس بموضع سجود؟ قال: **"سجدت لبلاغتها"**؛ هذه فيها من البلاغة الشيء العجيب.

اصدع يعني أعلن، الصدع أصلاً هو الشق القوي، ثم تقول هذا الإناء فيه صدع والجدار فيه صدع؛ يعني شق كبير، الله أمر نبيه أن يشق بهذه الدعوة وأن يعلنها بقوة: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] أي بهذه الدعوة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] لن يضروك.

- كيف لن يضروك؟

اسمع الآية اللي بعدها: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]؛ الذين يستهزؤون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويردون دعوته لن يستطيعوا أن يقتربوا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لماذا؟ لأن الله قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]. ولا تظن أن هذه الآية في زمن النبي فقط، في حياته، لا؛ حتى بعد مماته إلى عصر الحاضر، أي شخص يستهزئ بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الله يعاقبه، شوف كفيناك المستهزئين؛ الله كافي نبيه كل من استهزأ، كل من على مر القرون.

- من هم المستهزئون؟

قال: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٦]؛ شرك وكفر، يكفرون بالله ويستهزؤون؛ لأنه لو كانوا مؤمنين ما استهزؤوا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن الاستهزاء كفر، ولو أن مؤمناً من المؤمنين استهزأ بالنبي لخرج عن الإسلام، الاستهزاء بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، استهزاء بالرسول هذا كفر، قال شوف قال: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٦] تهديد.

ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع شدة رحمته وشفقته على أمته وعلى قومه، شدته ألا يضيق صدره، يضيق صدره، شوف قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]؛ يستهزؤون ويسخرون ويردون دعوته ويؤذون أصحابه ويؤذونه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يضيق صدره، الله يقول: نعلم أنه أنك يضيق صدرك بما يقولون.

- ما الحل ضيقة الصدر؟

قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٨]؛ كثرة ذكر الله، التسبيح والتهليل والتكبير والصلاة.

إذا ضاقت بك الدنيا وضاقت بك واشتدت عليك الهموم ماذا تصنع؟ قم وصل؛ إذا حزبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزبه أمر فزع إلى الصلاة، إذا ضاقت بك الدنيا والهموم والغموم افزع إلى الصلاة وأكثر من ذكر الله؛ أكثر من لا إله إلا الله، أكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، أبداً يفرج الله عنك.

هذا القرآن يخبرك: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ 97 فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ 98﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٨].

واستمر على طاعة الله إلى أن تموت، لا تعبد الله مرة أو وقت أو زمن، لا، استمر بطاعة الله: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]؛ اليقين الموت، واعبد ربك واستمر على طاعته، لا تتخلف عن طاعته إلى أن يأتيك الموت وتموت على الإسلام، وتموت على حسن الخاتمة، أما أن تعبد وقت وتترك وقت، لا تدري متى يأتيك الأجل فتمسك بشرع الله وتمسك بالعقيدة الصحيحة ومت عليها كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

إلى هنا تنتهي سورة الحجر التي عشنا معها الأيام الماضية، ونسأل الله أن ينفعنا بها وأن يبارك لنا، وتأتينا السورة التي بعدها إن شاء الله في اللقاء القادم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ النَّحْل)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(النحل 1 - 14)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم: يوم الأربعاء الموافق للـ 24 من شهر ذي الحجة من عام 1447 للهجرة؛ أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

أيها الإخوة، درسنا في تفسير القرآن العظيم، وأسأل الله أن يعيننا وأن يوفقنا وأن يسددنا جميعاً، وبين أيدينا سورة جديدة بعدما أنهينا **(سورة الحجر)**؛ ننتقل للسورة التي تليها وهي **(سورة النحل)**.

سُمِّيَتْ بهذا الاسم لأن الله ذكر فيها هذه المعجزة العظيمة؛ هذه الحشرة الصغيرة التي أوحى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جل جلاله فوق عرشه، أوحى إلى هذه النحلة: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا 69﴾ [النحل: ٦٨ - ٦٩]؛ إيحاء عجيب! وهذا الإيحاء يسميه أهل العلم **(إلهاماً)**؛ بمعنى أن الله ألهم هذه النحلة أن تتنقل بين هذه الأزهار وتأخذ هذا الرحيق.

ثم أيضاً تتأمل في هذا المخلوق الضعيف الصغير وما أودع الله فيه من الآيات العظيمة؛ ولذلك لما ذكر الله قصة النحل في هذه السورة قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩]؛ يتفكرون ويتأملون في هذا المخلوق.

لما تقرأ أنت في عالم النحل وخلق هذا المخلوق العجيب، وما يقوم به من عمل دؤوب تتأمل وتتعجب؛ ترتيب دقيق واستغلال للوقت، وتعرف أنواع هذا النحل، وبينها **(الملكة)** التي تدبر أمر النحل، و**(العاملات)**، و**(الذكور)**، و**(الإناث)**؛ شيء عجيب!

ثم أيضاً لما تقرأ في خلق هذه الحشرة الصغيرة، ذكر أهل العلم أن لها ثلاثة بطون: بطن خاص بالعسل؛ **(معدة العسل)** يتكون فيها العسل ثم تقذفه من فمها في هذه المنازل السداسية العجيبة التركيب، التي لو جئت بأدق المقاسات في المساطر وغيرها لوجدت أنها متساوية الأطراف باستغلال كل الفراغات.

ما تجد أي فراغ فيها، ولو جاء إنسان أن يصنع صنيعها لم يستطع إلا القليل من الناس، ثم هناك معدة أخرى؛ **(معدة الهضم)**، وهناك معدة ثالثة، فعجيب! تركيب دقيق، صنع الله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

فهذه السورة **(سورة النحل)** حتى سماها بعض أهل العلم بـ **(سورة النعم)**؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر فيها نعماً عظيمة. أنت تقرأ في هذه السورة تأتيك آية: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وتأتيك آية أخرى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

و﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٨١]، و﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، و﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرية: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]، وقال في إبراهيم: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١].

إذاً كلمة **(النعم)** تتكرر بلفظها وبمعانيها؛ انظر اللفظ كم مرة تكرر، والمعنى ما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة من الأشياء العجيبة.

انظر، أنت تقرأ أول السورة تجد أعظم نعمة، أعظم نعمة على هذا الإنسان ما هي؟ أعظم نعمة عليك وعلى أي إنسان هي **(نعمة الهداية والطاعة)** ومعرفة لماذا خُلقت؛ هذه أعظم نعمة: **(نعمة الوحي والقرآن والرسالة)**.

ولذلك أول نعمة ذكرها الله في هذه السورة هي نعمة الوحي والرسالة لما قال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [النحل: ٢] -انظر ليس ملكاً واحداً؛ جبريل نعم ومعه ملائكة- ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ﴾ أي بالوحي والقرآن ﴿مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ يصطفي من يشاء؛ لماذا؟

﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]؛ يعني للتوحيد وتجريد العبادة لله، وتقوى الله التي هي جِماع كل خير. هذه أعظم نعمة: نعمة الهداية والقرآن والوحي.

- ولذلك لما تقرأ في (سورة الرحمن) وأسألك أقول لك: سورة الرحمن تتحدث عن أي شيء؟

تقول: عن آلاء ونِعَم الله، عن الآلاء والنعم، أعظم نعمة: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ٢]؛ أعظم نعمة في أول السورة، في **(الرحمن)** ما قال: خلق الإنسان، بل قال: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ [الرحمن: ٢ - ٣]؛ يعني التعليم والعلم ومعرفة القرآن ومعرفة الشرع هذه مقدمة.

ولذلك هنا انظر، لما قال: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ولما قال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ [النحل: ٢]، بعدها قال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [النحل: ٣]، ثم قال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ [النحل: ٤]؛ يعني الخلق أمر آخر، لكن نعمة الهداية والطاعة هي أعظم نعمة تجدها في هذه السورة.

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك عدد علينا نعماً عظيمة:

- **(نعمة خلق السماوات والأرض)**.
- و**(نعمة خلق الإنسان)**.
- و**(نعمة خلق الأنعام)**: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥].
- و**(إنزال المطر من السماء)** شراب للناس كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠] -يعني تسيمون: ترعون أنعامكم-، ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١].

انظر، هذه أعظم نعمة: الطعام، الطعام في الأنعام منها تأكلون وتركبون، ومن هذه الأطعمة: الزروع وغيرها، وتسخير الشمس والقمر والنجوم، وتسخير البحر بما فيه لحماً طرياً والأنهار، ونِعَم عظيمة تلاحظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعرضها لنا: المآكل المتنوعة والمشارب، نعمة الماء: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النحل: ١٠]، ونعمة اللبن يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

تأمل وتفكر في هذا اللبن كيف يأتي من بين الدم والفرث، ولا تجد لا رائحة ولا طعماً ولا لوناً، بل هو أبيض صافٍ خالص، ولا تجد فيه شيئاً! مَن الذي أخرجه؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والعسل كيف تقذفه هذه النحلة الصغيرة وتملأ هذه الخلايا ونحوها من هذا الشيء.

وكذلك (نعمة اللباس): ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، ومِن أصوافها وأشعارها وأوبارها، و**(نعمة البيوت)**: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]، و﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١]. فنِعَمٌ عظيمة، وأنت تمشي في هذه السورة تجد النعم الكثيرة العظيمة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يختم هذه السورة بعبرة في أمرين، ما هما؟ مَن كفر بنعمة الله، ومَن شكر نعمة الله.

- مَن الذي كفر بنعمة الله ومَن الذي شكر؟

⬅الأمر الأول: تجد الذي كفر بنعمة الله قرية كاملة: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]؛ هذا مثال لمن يكفر بنعمة الله.

⬅الأمر الثاني: المثال الآخر في شكر نعمة الله: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١]؛ فهو نموذج من نماذج الشاكرين لله. السورة حقيقة عظيمة جداً تذكرك بنعم الله.

- قد يسأل سائل يقول: لماذا هذا التذكير بهذه النعم؟

حتى تعرف عظمة الله، وتعرف فضل الله عليك، وتعرف نعمة المنعم عليك فتشكره وتعبده، وتعرف الذي أنعم عليك بخلقك ورزقك وهدايتك؛ أن تشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله في أولها: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]. لما تقرأ أنت السورة التي قبلها لما يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] -والذي هو الموت-، قال بعدها مباشرة: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

- ما هو (أمر الله)؟

قيل: البعث وهو يوم القيامة، أو العذاب الذي يحل بالمنكرين المكذبين للرسالات.

- هل هو أتى؟

الجواب: لا، ما أتى، يوم القيامة حتى الآن ما أتى! نقول: طيب، كيف يقول ﴿أَتَىٰ﴾ وهو لم يأتِ؟ نقول: يُنزَّل الفعل المضارع منزلة الماضي كأنه أتى ووقع، مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]؛ الساعة ما أبعد، كيف اقتربت؟

ستقترب، فهذا معناه، فلذلك قال الله هنا: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]؛ لماذا ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾؟ لأن الكفار يقولون: متى هذا الوعد؟ يستهزئون ويسخرون، يقولون: متى يا محمد، أنت تهددنا بالعذاب وتهددنا بيوم القيامة وما رأينا شيئاً! قال: لا تستعجلوا، استعجالكم ليس في صالحكم.

ثم قال سبحانه تنزيهاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُكذَب في وعده، أو تُكذَب رسله في وعده: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]. هؤلاء الذين أشركوا بالله، الله ينزه نفسه عن الشرك فيقول: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١].

ثم أتى بأعظم نعمة، قال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]. مثل ما ذكرنا؛ الذي ينزل بالروح هو جبريل: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]، وذُكر الملائكة معه تعظيماً.

(سورة عامة) هذه لما نزلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة شيعها سبعون ألف ملك نزلوا معه، فالملائكة تنزل بالروح ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾، والروح: الوحي، ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي إذا أمر الله به، ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي من رسله. والغرض من ذلك والهدف قال: ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

- يقول: أنذروا الناس بأمرين، ما هما؟

⬅الأمر الأول: عبادة الله وحده لا شريك له **(لا إله إلا الله)**.

⬅الأمر الثاني: التقوى التي هي جِماع كل خير. انظر كيف جمعها الله! هذا جمعُ كل شريعته بأمرين: التوحيد والتقوى.

ثم بدأ يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه النعم، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]. خلق السماوات وخلق الأرض بالحق، ما خلقها بالباطل كما يزعم هؤلاء:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]؛ خلقها بالحق ليحق الحق وليقيم العدل، ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]. انظر تكرار الشرك؛ تحذير من الشرك وعقوبته.

ثم قال بعدها: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤]. هذه نعمة، لو تمشي في السورة وتبدأ تكتب هذه النعم لوجدت أعداداً هائلة وأرقاماً!

قال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، والنطفة: هي الماء المهين **(المني)**، هذه النطفة الماء حتى يُذكَّر الإنسان بأنه ضعيف وأنه ضئيل مخلوق صغير.

يقول: خلق الإنسان من نطفة ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾؛ يخاصم ويجادل في الله! كيف والله خلقك ضعيفاً: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم يخرجك إلى هذه الدنيا، ثم تترعرع فيها ثم تكبر، ثم تصبح قوياً شاباً أو رجلاً، ثم تجادل في الله وتشرك بالله وتعبد مع الله إلهاً آخر، تعبد شجراً وحجراً لا ينفع ولا يضر؟! كيف تكون خصيماً خصومته واضحة: ﴿خصيم مبين﴾؟!

ثم يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً من النعم (الأنعام): الإبل، والبقر، والغنم، وكذلك يدخل فيها الصيود والأشياء المباحة: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]. خلقها لكم، ما خلقها لأي مخلوق آخر؛ خلقها لكم أيها الناس حتى تشكروا نعمة الله، ملّككم إياها، خلقها لكم:

- ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾: يعني من مصالحها هذه الأصواف والأشعار والأوبار فيها دفء،
- ﴿وَمَنَافِعُ﴾ كثيرة: ومن منافعها الألبان تشربون، واللحوم، والجلود، والعظام، والعصب، وغير ذلك من الأشياء العجيبة،
- ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]. أي هذه البهيمة **(الإبل، البقر، الغنم)** لكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون:

(تريحون): يعني وقت الرواح وهو آخر النهار **(العودة)**،

(تسرحون): وقت أول النهار، كانوا يخرجون الإبل والبقر والغنم من بيوتهم لترعى في الصحراء، فيخرجونها أول النهار لا يلتفتون إليها ولا يدققون النظر فيها لأنها تخرج جائعة وضروعها ليس فيها لبن.

فإذا جاء وقت المساء بدأوا يترقبون وينظرون متى تأتي، وإذا هي تأتي بجمالها وبطونها قد امتلأت والضروع قد امتلأت! فلذلك انظر قَدَّم فقال: ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ **(وقت الرواح والعودة)** ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾؛ لها فيها جمال.

ثم قال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]. الإبل تحمل الأثقال: تحمل الرجال والأمتعة، تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس؛ إلا بالصعوبة والتعب، ولكن الله يسَّر هذه الإبل مذلَّلة تحمل أثقالكم وتنقلكم إلى هذه البلدان البعيدة.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]؛ رؤوف بكم ورحيم بكم حيث خلق لكم هذه النعم، فتفكروا فيها.

ثم يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً من المراكب غير الإبل: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]. والبغل هذا متولّد من بين الخيل والحمار، ولذلك ذكره معه.

قال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ لأن أكثر استخدامها للركوب، ﴿وَزِينَةً﴾ فيها جمال، ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المراكب: كالسيارات، والطائرات، والقاطرات، والبواخر، وغيرها.
الله يخلق شيئاً ما نعلمه ما أحد يعلمه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ولما ذكر الطرق في الأرض وانطلاق الإنسان فيها على المراكب، ذَكَر طريقاً أعظم من هذه الطرق؛ وهو الطريق إلى الله **(صراط الله المستقيم)**، أعظم من هذه الطرق.

قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]. يعني: الطريق المقصود والطريق المراد هو طريق الله، طريق الصراط المستقيم: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾.

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾: يقول هناك طرق، طرق الشياطين كثيرة تأخذ بالإنسان وتضيعه، طرق الباطل كثيرة، لكن طريق الحق واحد؛ قصد السبيل طريق الله.

ثم قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]؛ الله قادر على أن يهدي الخلق جميعاً، لكن جعل هذه الدنيا دار امتحان وابتلاء: مَن يطع الله يعش حياة طيبة وينتقل إلى الدار الآخرة الطيبة، ومَن يعصِ الله يضع في هذه الدنيا، ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾.

ثم يذكر أيضاً من النعم: الماء الذي أنزله الله من السماء. مَن الذي يأتي بالسحاب؟ مَن الذي يُنزل السحاب إلا الله؟! ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

هو وحده ليس هناك غيره، أنزل من السماء ماءً ﴿لَّكُم﴾؛ انظر تأتي كلمة **(لكم)** تذكيراً بالنعمة، الماء نازل لك أنت: ﴿لَّكُم﴾.

قال: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ﴾ تشربون لأنه ينزل في الأرض ويستقر في الآبار فيشرب الناس منه، قال: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]؛ يعني ينبت بالماء الشجر ﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾؛ **(تسيمون)** يعني ترعون أنعامكم، والسائمة هي التي ترعى في الصحراء.

ثم قال: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١]. انظر ﴿لَكُم﴾؛ يعني هذه نعمة لك أنت!

- ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ﴾: والزرع المراد به الحبوب **(القمح، الشعير، العدس، الأرز)**.
- ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ الذي فيه مصالح عظيمة، زيتون وشجرة مباركة.
- ﴿وَالنَّخِيلَ﴾ بشتى أنواعه.
- ﴿وَالْأَعْنَابَ﴾.
- ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.
- لماذا خصّ النخيل والأعناب والزيتون والزرع؟

لأنها تكثر في الجزيرة.

قال: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾؛ يعني ليس فقط هذه، بل ثمرات كثيرة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ تقف عندها، لمن؟ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ أما الذي لا يتفكر فلا ينفعه ولا يستفيد.

ثم يذكر الله نعماً عظيمة، قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

سخر لكم الليل لتسكنوا فيه وتناموا وترتاحوا، وسخر لكم الليل والنهار لتبتغوا فيه من رزق ربكم، والشمس والقمر أيضاً سخرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها مصالح العباد، والنجوم مسخرات بأمره؛ النجوم التي في السماء والكواكب كلها مسخرة يعني مذللة وفي مصلحة هذا الإنسان.

قال: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢].

انظر: الأول قال: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ لأنها تحتاج إلى تفكر؛ ما ينزل من السماء وينبت الزرع ونحوه هذا يحتاج تفكراً، لكن هنا يقول لك: الليل والنهار والشمس والقمر ﴿يَعْقِلُونَ﴾.

يقول لأن الذي يغفل عن آية الليل وآية النهار وآية الشمس وآية القمر وهي أمامك ما تغيب عنك كل يوم أمامك، الذي يغفل عنها لا عقل له! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ الذي عنده عقل يعرفها.

ثم قال: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٣].

﴿وَمَا ذَرَأَ﴾: يعني ما بثّ في الأرض؛ الشيء الذي بثه الله في الأرض من حيوان، من طير، من حشرات، من نبات، من زروع، ما ذرأ الله لكم ﴿لَكُم﴾.

انظر كلمة **(لكم)** تلاحظ أنها تتكرر لأنها نعم للإنسان، ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: بثه لكم في الأرض ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾؛ تفكر في هذه الحشرات والمخلوقات والطيور المختلفة الألوان! يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾؛ تلاحظ كل شوي تأتينا كلمة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾؛ يعني لعبرة لمن يتفكر ويعتبر.

﴿لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ يعني يتذكرون هذه الأشياء حتى لا يغفلوا عنها. هذه المخلوقات التي يخلقها الله على الأرض وفي البحر أشياء عجيبة بشتى الألوان، تدعو الإنسان أن يتذكر نعمة الله عليه لأنها مسخرة لهذا الإنسان.

ثم ينقلك الله بعد ذكر السماوات والأرض **(السماوات: النجوم والشمس والقمر، والأرض: ما بث فيها)** ينقلك إلى البحر، فيقول: تذكر نعمة البحر!

- ما هي النعمة التي في البحر؟

قال أولاً: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤].

- ﴿سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾: ذلله.
- ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾: الأسماك العجيبة.
- ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾: تستخرجون هذه الحلي من قاع البحر واللآلئ والدرر تلبسونها؛ يعني تُلبسونها نساءكم فالنساء يلبسنها للرجال، وإلا فالرجل ما يجوز له أن يلبس الحلي والذهب والفضة إلا الخاتم **(خاتم الفضة)**. انظر قال: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.
- ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾: يعني السفن.
- ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾: **(مواخر)** يعني تمخر بقوة الماء، تدفع الماء بقوة فيه.
- ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾: تنقل البضائع من مكان إلى مكان من فضله.
- ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الآيات حقيقة كثيرة والنعم عظيمة، تحتاج منا إلى تأمل وإلى تفكر حتى نتدبر هذه الآيات، وكلما تقرأ وتتدبر يزداد إيمانك؛ الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة بالتفكر بقراءة القرآن.

فنسأل الله أن يزيدنا إيماناً، وأن يوفقنا، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن، نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النحل 15 - 29)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو يوم الأربعاء الموافق للثاني من شهر الله المحرم من عام 1448 من الهجرة؛ نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

نجلس هذا المجلس المبارك ونسأل الله أن يجعله مجلساً مباركاً تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة ويذكر الله الحاضرين عنده في الملأ الأعلى.

سورة النحل؛ نأخذ آيات منها ونبينها ونتدبرها، وقف بنا الكلام عند الآية الخامسة عشرة من السورة، ولا تزال آيات في ذكر هذه النعم، ولذلك سميت هذه السورة بـ**(سورة النعم)** لذكر نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي أنعم بها على عباده.

تأتي هذه النعم تترى متتالية لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هذه النعم خلق الأنعام في قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]، ثم ذكر أنه أنزل من السماء ماء لكم منه شراب، ثم قال: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ [النحل: ١٣]، و﴿سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤].

قال بعدها: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ [النحل: ١٥] يعني ألقى في الأرض رواسي، يعني ثبت الجبال للأرض، ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني وضع الجبال على الأرض، ﴿رَوَاسِيَ﴾ يعني ترسي الأرض. ما وجه كون الجبال يعني أنها رواسي تكون نعمة لنا؟ كيف الله يذكر النعم؟

- هل الجبال نعمة لنا عندما الله يلقيها على الأرض ويثبتها؟

الجواب: نعم، نعمة عظيمة وهي أنها ترسي الأرض وتثبتها، ولذلك الله قال ماذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] يعني تضطرب وترتج الأرض؛ لو لم يضع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الجبال أوتاداً ويثبت الأرض بهذه الجبال ارتجت بنا واضطربت ولم ولن نستطيع أن نعيش عليها، ولا نزرع ولا نبني ولا نمشي ولا نعيش عليها، حتى البهائم ما تعيش عليها.

لكن هذه من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونعمته أن ثبت الأرض، يحفر الحافر عليها ويبني الباني عليها وكل شيء يستقر عليها والناس يستقرون وينامون، قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

ثم قال: ﴿وَأَنْهَارًا﴾ [النحل: ١٥] أي جعل أنهاراً، هذه الأنهار أيضاً من أعظم نعم الله لأن ماءها عذب تسقى به الزروع والحدائق وتشرب ويشرب منها الناس ويشرب منها البهائم ففضل من الله.

ثم قال: ﴿وَسُبُلًا﴾ [النحل: ١٥] أي جعل سبلاً في الأرض؛ طرقاً ينتقل الناس ويعرفون طرقهم فجاجاً سبلاً فجاجاً، قال: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥] إلى طرقكم.

إنسان ينتقل من بلد إلى بلد يعرف كيف ينتقل من مكان لمكان وكيف يعرف، وجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً علامات، قال: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ [النحل: ١٦]؛ علامات الجبال علامات والأودية والتلال وما يضعه الإنسان من علامات في الطرق.

هذه كلها علامات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى يتنقل الناس ويعرفون طرقهم، قال علامات على الأرض وعلامات في السماء.

- ما هي علامات السماء؟

قال: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]؛ النجوم يهتدون بها: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، فالذين في البحر في الليالي المظلمة لا يستطيعون أن يعرفوا طرقهم إلا بالنجم، وكذلك على الأرض إلا بالنجوم، وهذا فضل من الله كله نعم، هذه كلها تأتي في سياق ذكر نعم الله على الناس.

ثم بعدما ذكر هذه النعم وسيؤكد الله أيضاً بعد ذلك نعماً عظيمة بدأ يناقش ويحاجّ هؤلاء الذين يعبدون من دون الله: كيف هؤلاء أين عقولهم؟

يذهبون ويعبدون من دون الله أصناماً أو أمواتاً في قبورهم يطوفون عليهم ويسألونهم ويدعونهم ويستغيثون بهم وهم ليس لهم أي أثر على هذه الأرض! الله آثاره ونعمه لا تعد ولا تحصى فكيف يذهبون إلى من شوف اسمع ماذا يقول الله: يقول: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧].

وهو الله يخلق هذه الأشياء كلها ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] وهذه الأصنام لا تخلق شيئاً ولا تستطيع أن تخلق شيئاً، يقول: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]؟

- لماذا لا تتذكر وتتفكر في نفسك وتميز، أيها مَن يعبد من دون الله، تميز بين الخالق وغير الخالق؟

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾، الله يقول في سورة أخرى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]، ماذا خلقوا؟ ما يخلقون ولا ذباباً!

ولذلك شوف ماذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]؛ يقول هذه نعم كثيرة عظيمة وهو الذي خلقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو الذي أنعم بها على العباد، والعباد لا يستطيعون حصرها ولا عدها ولا يمكن أن يعدوها: ﴿وَإِن تَعُدُّوا﴾ يعني تحاولون العد فما يستطيع الإنسان يعد، مستحيل يعد، لكن على فرض أنكم تعدون نعم الله فإنكم لا تستطيعون إحصاءها.

وهنا قال: ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٨] ليس نعمة واحدة، إنما هي نعم كثيرة، ولذلك هذا مفرد مضاف إلى معرفة يفيد العموم أي نعم عظيمة.

ولذلك ختم الله الآية قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]، يعني نعم الله عليك كثيرة وأنت تقع في معاصٍ وتخالف أمر الله وأحياناً تعصي ربك والله غفور رحيم، وهذا يفتح لك باب التوبة والاستغفار والعودة والإقرار على نفسك بالتقصير في شكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بين لنا هذا الخلق العظيم، وهو صفة من صفات الله، صفة أنه هو الخالق، اسمه الخالق وصفته أنه يخلق، ذكر صفة العلم؛ يعني يخلق ويعلم.

ولذلك قال الله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، أيّ إنسان يسر في نفسه الله يعلمه أو يعلن الله يعلمه. شوف قدم السر على العلانية لأنه قد يكون في جانب الإنسان أصعب، والله عنده الأمر سيان، السر والعلانية واحد، شوف قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، وما الذي يسره الإنسان أو يعلنه الله يعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال بعدها: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [النحل: ٢٠] هذه الأصنام والمعبودات والآلهة من دون الله والأموات: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٢٠] أعطاك جواب ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾.

هذه لا تخلق شيئاً، أيّ شيء مطلقا: **(شيئاً)** نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ لا يخلقون أي شيء ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠] هم يخلقون، هم خاضعون للخلق، هم مدبرون الله خلقهم.

ثم زادك في هذه الآلهة فقال: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١] هذه أموات؛ إن جئت إلى القبور فهم أموات، وإن جئت إلى هذه الأصنام والأوثان والمعبودات من دون الله فهي حجارة مخلوقة، إما من حجر أو من شجر.

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١] هم ما يشعرون متى يبعثون، الذين في قبورهم ما يشعرون متى يبعثون، وكذلك أيضاً العابدون لها الذين يعبدونها ما يشعرون أيان يبعثون، لا يدرون متى يبعثون، يعبدون هذه الأصنام ولا يدرون.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما أبطل هذه الآلهة وأنها لا تستحق العبادة وأنها لا تخلق شيئاً، بين لك من الذي يستحق، من هو الإله الحق، من هو؟ فقال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٢٢] الذي ليس لكم غيره، إلهكم إله واحد وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وشوف أكد لك قال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٢٢] ما قال إلهكم واحد يمكن يقول لك إلهكم اثنين ثلاثة، قال لا: إلهكم الحق الذي ليس غيره هو إله واحد وهو الله الذي في السماء وهو الذي يستحق العبادة.

﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [النحل: ٢٢] هؤلاء الذين يعبدون من دون الله ما يؤمنون بالأخرة، لو كانوا يؤمنون بالأخرة لاستعدوا لها وعبدوا ربهم، لكنهم منكرون للأخرة، قال: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]؛ قلوبهم منكرة تنكر عبادة الله وحده ولا تريد الحق، قلوبهم منكرة وهم مستكبرون.

شوف كيف جمعوا:

- أولاً: أنهم لا يؤمنون بالآخرة.
- ثانياً: أن قلوبهم منكرة للحق ولا تقبله.
- ثالثاً: أن عندهم استكبار، هم مستكبرون لا يقبلون الحق.

- انظر ماذا سيصيبهم؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا جَرَمَ﴾ [النحل: ٢٣] أي حقاً ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

- يمكن يجيك شخص يقول لك: قبل قليل الله يقول ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ١٩]، لماذا أعادها؟

الجواب: أعادها ليرتب عليها اسمع ماذا قال، لما قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النحل: ٢٣] قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، لأن الله علم ما في قلوبهم من الاستكبار والله لا يحب المستكبرين بل يبغضهم أشد البغض.

ولذلك إذا كان يعلم أحوالهم ويعلم قلوبهم وما يسرونه فإنه سيجازيهم، ومن أشد العقوبة أن الله لا يحبهم بل يبغضهم أشد البغض.

الآن هؤلاء الذين يعبدون من دون الله: أولاً ما عرفوا حق الله بل عبدوا غيره وصرفوا أشياء هي لله صرفوها لغير الله؛ يذبحون لغير الله، يسجدون لغير الله، يدعون غير الله، يستغيثون بغير الله، فهؤلاء موقفهم من الله أنهم لا يعرفون حق الله، وموقفهم من الآخرة مثل ما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنهم لا يؤمنون بالآخرة.

- ما موقفهم من الكتاب وهو القرآن الذي أنزل الله علينا رحمة؟

اسمع يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]. أساطير الأولين يعني أخبار وترهات الأولين التي ينقلها آباؤنا عن أجدادنا، يعني مجرد أخبار وسواليف ما فيها أي فائدة.

فيقولون القرآن هي أساطير الأولين التي تنقل إلينا من أخبار الأولين؛ سمعوا أن الله يذكر قصة نوح وقصة عاد وثمود فقالوا هذه أساطير، ولم يعرفوا قيمة القرآن أنه يذكر هذه القصص للعظة والعبرة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ متوعداً لهم، قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ [النحل: ٢٥]، الأوزار يعني الذنوب المعاصي، يحمل أوزارهم.

- كيف يحملون ما معنى يحمل أوزارهم؟

يحملون على ظهورهم كما في الآية الأخرى يحملون على ظهورهم هذه الذنوب والمعاصي التي لا نراها نحن الآن، هي أشياء معنوية تتجسد يوم القيامة تصبح مثل الأجساد وتحمل على أصحابها تُحمل وتُحمل على ظهور أصحابها فيحملونها على ظهورهم كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

شوف قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ سماها أوزارهم لأنها أثقال كما قال في آية: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]، شوف قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ [النحل: ٢٥] من غير نقص لا تظن أن الله سيتجاوز عن شيء منها، لا ما يتجاوز عن شيء، سيحملون أوزارهم كاملة يوم القيامة.

متى؟ يوم القيامة، فقط أوزارهم؟ لا، ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]، يعني سيحمل ذنوبه وذنوب غيره، فالذي يدل الناس على الشر، يدل الناس على الشر ويحضهم ويحرضهم على الشر وعلى الفساد هذا سيحمل وزره ووزر غيره إلى يوم القيامة، وكل من استن بسنته تحمله يوم القيامة.

لو أن إنساناً أنشأ شيئاً فيه فساد للإسلام والمسلمين فإن هذا سيتحمل وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة، وكذلك من يسن بدعة والناس يقتدون به ويسيرون على طريقته سيتحمل وزرهم إلى يوم القيامة.

شوف قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يضلونهم ما عندهم علم يتبعونهم يعني رعاع الناس ما يدرون فيتبعونهم قال يحملون أوزارهم وأوزار غيرهم، أما الذي عنده علم ما يتبعهم.

قال: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، ساء يعني صيغة ذم، يقول: ساء الوزر الذي سيزرونه وسيتحملونه، وزر شديد ثقيل، هذا يوم القيامة، أما في الدنيا اسمع ماذا يهددهم، يقول إن كانوا يمكرون، يمكرون بالإسلام ويمكرون بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالمسلمين ويسبون القرآن ولا يؤمنون به سيصيبهم ما أصاب الأمم الماضية.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] مكر قوم نوح بنوح، ومكر قوم عاد وثمود وغيرهم من الأمم الماضية، وصالح مكروا به، قال: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦] فأتَى الله بنيانهم، حتى ذكر بعض المفسرين أن بعض الكفار وضع له بنياناً ليقاتل، يعني أو ليصد عن سبيل الله، فأتَى الله بنيانه فخرّ عليه بنيانه.

قال: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]، نزلت بهم العقوبة من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، ما يدرون إلا وقد نزل بهم العذاب وهم لا يشعرون.

إذا كان الله قد أخبرنا هنا بأنه قد مكر الذين قبل، الأمم الماضية قد مكرت بأولياء الله وبأنبيائه، فماذا صنع الله بهم؟ عاقبهم ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾، أو قد

يكون هذا من باب التمثيل يعني أن الله سينزل بهم العقوبات بأي صفة من الصفات، لكن أشد العقوبات أن يؤخذ من قواعده فيخر السقف عليه.

هذا في الدنيا عقوبة عاجلة، ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصف حالهم يوم القيامة يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧]، إذا جاء يوم القيامة يخزيهم؛ يذلهم ويهينهم. الخزي والهوان والذل أشد شيء، أشد ما يواجهه هؤلاء الكفار، يخزيهم ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧]، وين الشركاء؟

أنتم تقولون مع الله شركاء، وين الشركاء؟ ولما يقول الله ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ هذا على زعمهم وإلا ما يقر بأن له شركاء. شوف قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾؛ تجادلون وتحادّون الله ورسله وتشاقون الله فيهم أين هم؟ ذهبوا عنهم، ما في، قالوا ضلوا عنا.

هنا قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [النحل: ٢٧] شوف هذا فضل العلم وأهل العلم، قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧]؛ الخزي الهوان والذلة، والسوء العذاب على الكافرين الذين كفروا بالله ورسله.

ثم بين حالهم عند قبض الأرواح، وهذا أشد، عند نزع الأرواح، عند الموت وحضور الموت ماذا يصنع الله بهم؟ قال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: ٢٨]، تنزل ملائكة العذاب ماذا تصنع بهم؟

تنزع أرواحهم بشدة: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ [النحل: ٢٨] القوا السلام يعني استسلموا، خلاص ما عاد عندهم شيء: ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، ينكرون: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾.

الملائكة تضرب وجوههم وأدبارهم عند الموت وتنزع أرواحهم بشدة، ثم إذا رأوا الموت أمامهم استسلموا، وحتى يقول قائلهم ربي ارجعون لعلي أعمل صالحاً، لكن ما ينفع: ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ﴾، أقروا بأنهم ما يعملون سوءاً.

قال الله: ﴿بَلَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨]؛ بلى كنتم تعملون السيئات والله عليم، إن الله عليم بما كنتم تعملون، الله عالم بأحوالهم وعالم بأعمالهم.

ثم توعدهم بالوعيد الشديد فقال: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]؛ أبواب جهنم السبعة يدخلون منها بشدة: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي في النار، فلبئس مثوى المتكبرين الذين تكبروا عن طاعة الله.

شوف الآيات التي قبلها قال: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]، قال: هذا مأواكم وهذا مثواكم وهذا مقامكم، نار جهنم هي مقام المتكبرين يوم القيامة، هذا مصيرهم.

أما المتواضعين لله الذين يعني يسعون لرضا الله والعمل في رضاه فهؤلاء استقبلهم الملائكة كما سيأتينا في الآيات الأخرى التي قال الله فيها: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ طيبين، يقولون سلام عليكم، الملائكة تسلم عليهم وتقول اخرجي أيَّتها الروح الطيبة.

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فرق بين هذا وهذا! هؤلاء يقال لهم: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وهؤلاء يقال لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة، وأن يجنبنا وإياكم طرق أهل النار وأحوال أهل النار، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النحل 30 - 39)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في درسنا الأسبوعي في تفسير القرآن العظيم، وهذا اليوم هو اليوم التاسع من شهر الله المحرم من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

السورة التي بين أيدينا هي **(سورة النحل)**، كما مر معنا في تفسير شيء من آياتها، ونواصل التفسير في بقية الآيات، أو ما يتيسر من ذكر بعض هذه الآيات.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه العزيز: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ [النحل: 30]؛ هذه الآية جاءت بعد ذكر الآية السابقة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حق الكفار المعاندين المستكبرين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: 24].

بين الله عقوبتهم لما أنكروا كتاب الله وأنكروا نعمة الله في هذه الرسالة وهذا الوحي، قال: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: 25]، هذا فيمن أنكر واستكبر وعاند في قبول رسالة الله وفي هذه النعمة العظيمة.

- لكن في الجانب الآخر الذي ذكره الله في حق المتقين، ماذا أنزل ربكم، ماذا كان جوابهم؟

أولاً وصفهم الله بأنهم أهل تقوى، والتقوى يعني جماع كل خير، التقوى معناها هي الخوف من الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هذا معنى التقوى، يعيش الإنسان في هذه الدنيا تقياً نقياً إذا امتثل أمر الله واجتنب نواهيه.

ماذا قال أهل التقوى في حق الله وفي هذه النعمة العظيمة الجليلة، نعمة القرآن والوحي؟

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: 30]؛ يعني قالوا أنزل الله خيراً، يعني هذا الوحي وهذا القرآن هو خير علينا، قالوا خيراً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -شوف جزاءً على هذا الجواب منهم- قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: 30]، لاحظ كلمة ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾.

- ما معنى الذين أحسنوا؟

أولاً الإحسان هو إتقان العمل والقيام به على أحسن وجه، فقيامك بالصلاة على أحسن وجه، الزكاة، الصيام، كل ما أوجبه الله عليك هذا إذا أقمته على أحسن وجه هذا من الإحسان، الإحسان هو أعلى مراتب الدين، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ يعني أحسنوا أعمالهم وعلاقتهم برب العالمين، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة، يعني لهم نصيب وفضل من الله في هذه الدنيا قبل الآخرة؛ من السعادة وانشراح الصدر والطمأنينة وحب الطاعة والإقبال عليها ورضا الله عنهم، كل هذا في الدنيا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة.

أما جزاؤهم في الآخرة؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: 30]، الذي يعطيك الله في الدنيا من انشراح الصدر والسعادة والطمأنينة والراحة النفسية، الآخرة أعظم: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، ثم أثنى الله على دار الآخرة فقال: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: 30].

- ثم زادك معرفة: ما هي هذه الدار؟ دار المتقين ليست دار أي شخص، دار أهل التقوى، ما هي؟

قال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [النحل: 31]؛ كلمة **(عَدْنٍ)** معناها إقامة دائمة مستمرة، ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [النحل: 31]، هذا كله وصف لفوزهم بالآخرة، ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [النحل: 31]، كل ما تتمناه النفس وتلذ الأعين يجدونه، بل ذكر بعض أهل التفسير أن أشياء لا تخطر ببالك أصلاً الله يأتي لك بها من النعيم.

قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: 31]؛ أي مثل هذا الجزاء يجزي الله المتقين، شوف كلمة التقوى، المتقين، تتكرر معنا؛ لأن هذا جزاء من أصلح عمله مع رب العالمين واتقى الله، هذا الآن النعيم والجزاء والفوز في الدنيا وفي الآخرة.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً يذكر لهم جزاءً آخر ليس في الدنيا ولا في الآخرة، عند الوفاة، اسمع ماذا يقول: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النحل: 32]، عند حضور الموت وعند وفاتهم، مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر قبل ذلك وفاة الكفر والعناد.

قال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: 28]، هنا قال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: 32]؛ طيبة نفوسهم، طيبة ألسنتهم بذكر الله، مطمئنين لا يحزنهم الفزع الأكبر، يعني تنزل عليهم الملائكة أو تتنزل عليهم الملائكة ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قال: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 32]؛ تسلم عليهم الملائكة: سلام عليكم، ادخلوا الجنة، تبشرهم عند الموت، عند الاحتضار وعند النزع والخروج من الدنيا.

تبشرهم بهذه البشارات الطيبة: ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون، دل على أن الأعمال، الأعمال الصالحة هي سبب في دخول الجنة بعد فضل الله ورحمته جل جلاله، فلن يدخل أحد الجنة إلا بفضل الله ورحمته، ولكن الأعمال هي الأسباب، والتنافس في الدرجات العلا عند الله في جنات النعيم بالأعمال الصالحة.

ثم تعود الآيات إلى هؤلاء المعاندين المستكبرين تخويفاً لهم وردعاً لهم، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 33]؛ أي هؤلاء هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم أو يأتي أمر ربك بنزول العذاب؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، يقول: مثل ما فعل الأمم الماضية؛ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب وفرعون، ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

والنتيجة: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾؛ ما ظلمهم لا هؤلاء ولا هؤلاء، هم الذين ظلموا أنفسهم، بالعناد والكفر والاستكبار وارتكاب المعاصي والذنوب والشرك، هم الذين ظلموا أنفسهم، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثم قال -يبين لك أثر الذنوب والمعاصي- فقال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [النحل: 34].

- ما هي السيئات؟

الذنوب والمعاصي.

- كيف تصيبهم؟

الجواب: تصيبهم -ليس السيئات- جزاء السيئات وأثر السيئات، شوف أثر الذنوب والمعاصي على أصحابها وعلى أهلها، أثر سيئ، قال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾؛ أعمالهم السيئة جاء أثرها وجزاؤها، فأصابهم سيئات ما عملوا، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أحاط بهم.

- ما هو السبب؟

هو استهزاؤهم، كانوا يستهزئون بالرسل ويستهزئون بالله ويستبعدون العذاب ويقولون: متى هذا الوعد؟ فلما استكبروا واستهزؤوا نزل بهم وأحاط بهم هذا الذي كانوا به يستهزؤون.

ثم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حجة، أو ما نقول حجة نقول شبهة من شبهات المشركين، وهذه الشبهة لا تظن أنها خاصة بالمشركين، قد تقع حتى من بعض المسلمين، من ضعفاء المسلمين، ما هي؟

حجة الاحتجاج بالقدر، إذا قلت له الشيء احتج بالقدر، ما حكم الاحتجاج بالقدر؟ لما أقول: قدر الله، هذا شيء قدره الله، هذا شيء قضاه الله، كتبه الله، شيء أراده الله، هل هذا الاحتجاج بالقدر يقبل من الناس، سواء كان من الكفار المشركين أو من العصاة، أو لا يقبل؟

نقول: الاحتجاج بالقدر على المصائب هذا جائز، لما يصاب الإنسان بمصيبة أو بخسارة في ماله أو في ولده أو في بيته يقول: **«قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ»**، هذا شيء كتبه الله، هذا لا بأس ما فيه شيء، الاحتجاج بالقدر على المصائب جائز.

أما الاحتجاج بالقدر على الذنوب والمعاصي هذا لا يجوز، كيف؟ لما تقول لشخص: لماذا لا تصلي؟ لماذا لا تحرص على الصلاة؟ قال: هذا شيء كاتبه الله علي، الله ما كتب له الهداية، لماذا تحرص على الطاعة؟

قال: الله كاتب لي إني أعيش على هذه الحياة، أنا خلاص الله كاتب لي، هذا احتجاج باطل ولا يجوز، كيف عرفت أن الله كاتب عليك الشقاوة؟ أنت الذي أشقيت نفسك، فتجد بعضهم تقول له: الله يهديك تعال صل كذا.

قال: إذا أراد الله لي الخير فتح الله علينا وصلينا، إذا ما أراد الله ما صلينا، هذا احتجاج بالقدر على الذنوب والمعاصي، هذا مردود وباطل ولا يجوز، إلا في حالة واحدة؛ متى؟

فيما مضى، لو أنك مثلاً أو هذا الشخص ترك صلاة الفجر أو نام، هذا خطأ من تقصير، إذا كان مقصراً لو جئت له وقلت: ليش ما صليت الفجر؟ قال: هذا كتبه الله علي، هذا جائز فيما مضى، لكن في الأشياء الجديدة لا.

ولذلك في (سورة الزمر) يقول الله عَزَّ وَجَلَّ عن النفس: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: 57]،

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ [الزمر: 59]، ما تقول والله: لو هداني الله صليت، لو هداني الله أطعت، لا، ابذل الأسباب.

ولذلك الاحتجاج بالقدر، يقول بعض أهل العلم: لو جئت إلى هذا الذي يحتج بالقدر، يقول: ما هداني الله، لو أنك أخذت ماله بقوة، ثم قال: أعطني مالك، تقول: لا، الله قدر علي إني آخذ مالك، ما رضي، ما يرضى، ما يقول والله أرضى إنك تأخذ مالي وهذا شيء كتبه الله، في أمور الدنيا ما يرضى، الأشياء اللي فيها الطاعات.

اسمع ماذا يقول الله عن المشركين حتى تعرف هذه القاعدة التي ذكرتها لك في الاحتجاج بالقدر: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: 35]؛ شوف كيف حجتهم!

- وحجة باطلة وداحضة، شبهة، يقول المشركون: لو شاء الله ما عبدنا الأصنام، لكن الله أراد أن نعبدها فنعبدها، هل هذا صحيح؟

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: 35]؛ كانوا يحرمون البحيرة والسوائب وبعض بهيمة الأنعام: ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رداً عليهم: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النحل: 35]؛ يقول: مثل ما احتجوا احتج الذين من قبلهم فأنزل الله بهم العقوبات.

هذه الآية هي شبيهة بآية أخرى ذكرها الله في (سورة الأنعام)، قال: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 148]، فبين الله جزاءهم في سورة الأنعام بأن احتجاجهم باطل وأن الله أنزل بهم العقوبات.

هنا قال: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: 35]؛ الرسل بلغوهم وأقاموا عليهم الحجة، احتجاجهم هذا غير مقبول.

ولذلك الله قرر بعدها آية عظيمة تبين وظيفة الرسل، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: 36]؛ ما في أمة من الأمم مضت إلا بعث الله فيهم رسولاً حتى لا يحتجوا: ﴿مَّا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [المائدة: 19]، لا، جاءكم، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

- ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ ما وظيفتهم؟

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]؛ فاعبدوا الله ووحدوه واتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ، واعلموا أنه هو الذي يستحق العبادة، لا هذه الأصنام وهذه الأحجار وهذه الأشجار، اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت، ابتعدوا عن كل ما يعبد من دون الله؛ من الأصنام والحجارة والأشجار، أو كل ما عُبد من دون الله وهو راضٍ فهو طاغوت، قال: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾؛ من سلك طريق الهداية هداه الله وفتح الله عليه، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾؛ لأنه أغلق على نفسه باب الهداية فحقت عليه الضلالة.

قال الله: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: 36]؛ انظروا في الأمم الماضية، انظر في مدائن صالح، وانظر في مدائن مدين، وانظر في قوم عاد.

- ما الذي جرى لهم؟

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾، شوف هؤلاء المشركين يحتجون بالقضاء والقدر، كل هذا كذب في كذب، ولذلك قال: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم وجه الله الخطاب لنبيه قال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: 37].

يقول: إذا حرصت أنت يا محمد على أنهم يهتدون، وأنت تتمنى أن يهتدي قومك كلهم، فإن الله لا يهدي من يضل، الذي لا يريد الهداية وفي نفسه كبر على طاعة الله هذا يضله الله، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ عند نزول العذاب والعقوبات.

ولذلك هم كانوا يكفرون، ومن أشد كفرهم بالله وكفرهم باليوم الآخر، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [النحل: 38]؛ شوف أيمان مغلظة عندهم، تقسمون على أي شيء؟

قال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ قوة الأيمان، على أي شيء؟ قال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: 38]، شوف عقيدتهم في الكفر باليوم الآخر وبالجنة وبالنار وبالحساب والجزاء! يكفرون بذلك: لا يبعث الله من يموت.

قال الله: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 38]؛ بلى يبعث من يموت، وعداً عليه حقاً، الله وعد وهو حق عليه أن يفي بوعده: ﴿بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، لا يعلمون وعد الله ولا يعلمون حقيقة خلق الناس وتكليفهم بالعبادة، كيف يخلق الله الناس ويكلفهم بالتكاليف وبالأعمال ثم يتركهم بدون حساب؟

شخص يقيم حدود الله ويواظب ويسارع في طاعة الله ويقدم نفسه ويقدم ماله لله، وشخص متمرد معاند كافر مؤذٍ ظالم، أفيستوي هذا وهذا في حكم الله؟ هذا من الظلم إذا يُترك هكذا، لا بد من الحساب والجزاء والجنة.

اسمع ما يذكر الله، يقول ليبين لهم الذي يختلفون فيه، لا بد من الحساب حتى يقضي الله، هذا يوم الفصل، يبين الله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: 39]؛ هذا أول أمر، الحكمة من البعث أن يقضي بينهم في خلافات، في نزاعات، في قضايا.

إذا كان بين الشاة الجلحاء والشاة القرناء يقضي الله بينها وهي غير مكلفة ويقتص من هذه فكيف بالناس؟ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في عقيدتهم وفي احتجاجاتهم وفي إنكارهم على البعث وقسمهم وحلفهم بأن الله لا يبعث.

لا تزال الآيات أيها الأخوة الكرام في بيان هذه الأمور المهمة مما يتعلق بالتقوى والطاعة والعمل الصالح وثمرة ذلك في حق المتقين، ومناقشة من خالفهم في العقائد وفي الكفر والعناد.

كل هذه الآيات تقرر هذا الأمر الذي نحن حقيقة بحاجة أن نتعلم وأن نتفكر وأن نتدبر كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه التوجيهات التي يعيش معها الإنسان وتزيده إيماناً وطاعة، أنت تقرأ القرآن يزيدك الله إيماناً، أنت تتفكر في الآيات وتستمع لبيانها وتوضيحها وتفسيرها هذا يزيد إيمانك.

فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوفقنا لطاعته وأن يعيننا وإياكم على ذكره وعلى شكره وعلى حسن عبادته، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النحل 40 - 55)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله أن يجعله لقاءً مباركاً نافعاً، وهذا اليوم هو اليوم الأول من شهر صفر من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا أيها الإخوة الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كل أربعاء في تفسير القرآن العظيم، نجلس هذا المجلس المبارك، ونقرأ آيات ونتأملها ونبين ما فيها من آيات، من معانٍ ودلالات وأحكام، نتدبرها ونتفكر فيها وننتفع بها.

وقف بنا الكلام عند الآية الأربعين من (سورة النحل)، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40]؛ هذه الآية هي تكررت في القرآن في مواضع كثيرة، وهي تفيد أن الأمور كلها سهلها وصعبها عند الله، لا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنما يقول للشيء: كن فيكون.

هذه الآية إذا أردت أن تفهم معناها الفهم الدقيق فانظر في سياقاتها؛ المشركون ينكرون البعث ولا يعترفون بيوم القيامة، ولا بالبعث، ولا بالحساب، ولا بالجنة، ولا بالنار، المشركون من معتقداتهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: 82]؛ يعني يستنكرون ويستبعدون البعث، ما في بعث، خلاص من مات انتهى، أصبح تراباً، هذه عقيدتهم؛ العقيدة الفاسدة الباطلة، فالقرآن رد عليهم.

ولذلك شوف الآية التي معنا؛ يعني هم أقسموا بالله وليس قسماً مجرد قسم، لا، جهد أيمانهم، يعني بقوة أيمان مغلظة: لا يبعث الله من يموت، يقولون: ما في بعث ولا يبعث الله من يموت.

- من أين أتيتم بهذا الكلام؟

لأنه مُحكَّمٌ عقولهم، إذا تحكّم عقلك تستبعد هذا الشيء، إذا أنت تؤمن بالغيب -وهذه من صفات المؤمنين الذين تؤمنون بالغيب- تؤمن بالجنة، تؤمن بالنار.

هذه كلها أشياء غيبية، تؤمن بالبعث، بالجزاء، بالحساب، بالكتاب، يأخذ المؤمن كتابه بيمينه وغيره يأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، هناك ميزان، هناك صراط، هذه كلها ما رأيناها ومع ذلك نؤمن بها إيماناً يقيناً.

كما قال الله سبحانه: ﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]. هذا المؤمن العاقل، المؤمن الذي معه إيمان يؤمن بهذا الشيء، أما الكافر المنسلخ ما يؤمن، ولذلك شوف أقسموا أنه لا يبعث الله من يموت، الله رد عليهم قال: بلى يبعث الله وعداً عليه حقاً، ثم بين لهم السبب ليش، لماذا الله يبعث الخلق؟ لماذا؟

قال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [النحل: 39]؛ هم يختلفون في يوم القيامة هل الناس يبعثون أو لا يبعثون، وهم أيضاً في خلافات بينهم يقضي الله، هو يوم الفصل يفصل الله بينهم.

ولذلك قال: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذين جحدوا بيوم القيامة، ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: 39]؛ أنهم ما في بعث؟ لا، في بعث.

ولذلك شوف الآية اللي بعدها قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40]؛ يعني بعث الناس من قبورهم لمجرد **(كُن فَيَكُونُ)**، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28]، ما يعجز الله شيء.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: 19]، قائمون، فليس هذا في حكم الله؛ الآن لو يفكر الإنسان في نفسه، أنت في خلقك في بطن أمك تسعة أشهر تمر بمراحل؛ نطفة، علقة، مضغة، إلى آخره، ثم تذهب إلى الأرض وتدفن فيها فتصبح تراباً، الله يبعثك بلمحة مكتمل الخلق بفرط لحظة **(كُن فَيَكُونُ)**.

يخرجون من الأجداث سراعا، فكيف يأتي هذا يقول: ما في بعث، ما في جنة؟! هذه عقيدة ينبغي لنا أن نعرف أنها من أصول إيمان المؤمن ومن أركان الإيمان؛ أن تؤمن باليوم الآخر وبكل ما يجري في هذا اليوم.

ولذلك الله قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ إذا أراد الله هذا الشيء يقول له: **(كُن فَيَكُونُ)**، ما يعجزه شيء.

ولذلك شوف ذكر الله بعد هذه الآية المؤمنين الصالحين وما وعدهم الله بالكرامة في الدنيا والآخرة، هؤلاء المؤمنون الذين صدقوا باليوم الآخر وسارعوا إلى الطاعة وسارعوا إلى الإيمان بالله وبالرسول، اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ هاجروا يعني تركوا ديارهم وتركوا أموالهم، وهم الصحابة الأجلاء من أهل مكة الذين آمنوا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأوذوا في سبيل الله وعُذِّبوا، تركوا ديارهم وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة.

ثم هاجروا إلى المدينة، تركوا ديارهم وأموالهم، وبعضهم ترك زوجته وترك أولاده، هاجروا في الله لا يريدون الدنيا إنما يريدون ما عند الله نصرة لدين الله، ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ يعني ظلمهم الكفار، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في -يعني ما أكرمهم الله به- قال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: 41]؛ هذا وعد من الله **(لَنُبَوِّئَنَّهُمْ)** يعني ننزلهم المنازل الطيبة، ويجعلهم من السعداء في الدنيا، ويكرمهم بالطاعة ويهيئ لهم الحياة الطيبة.

قال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، ثم بين أن هذه الدنيا يعطيهم الله منها، لكن ما هو هناك ما هو أعظم.

قال: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 41]؛ يقول: أجر الآخرة أعظم من أجر الدنيا، الدنيا سيعطيهم الله الحياة السعيدة الطيبة، لكن حياة الآخرة للذين هاجروا بالله وآمنوا وصدقوا هؤلاء أجر الآخرة أكبر بلا مقارنة لو كانوا يعلمون.

أو من يتكاسل عن الهجرة لو كان يعلم لبادر إلى الهجرة، أو هؤلاء الكفار الذين لا يعلمون باليوم الآخر أن الله قد أعد الأجر الكبير العظيم الكريم لهؤلاء المطيعين الذين هاجروا في الله.

- ومن صفاتهم؛ صفات الهجرة وصفات المؤمنين ما هي؟

قال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ [النحل: 42]؛ لا بد من الصبر، صبروا على ما أُوذوا وصبروا، يعني تصور خرجوا من ديارهم من مكة ذاهبين إلى الحبشة أو إلى المدينة، لا دار ولا مال ولا مأوى، ومع ذلك صبروا لأنهم عرفوا وعد الله.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ماذا؟ ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: 42].

فهم أخذوا بهاتين الصفتين العظيمتين:

⬅الصفة الأولي: الصبر.

⬅الصفة الثانية: التوكل على الله وتفويض الأمر إلى الله، وهذه كلها عبادات نحتاج إليها، نحتاج أن نتصف بها، الإنسان يمر في الدنيا بأمور عظيمة وأحياناً تمر به كروب شديدة، فعليه بالصبر لأنه يعرف أن الصبر له أجر عظيم.

وأن الله يجزي الصابرين، الله يحب الصابرين، والله مع الصابرين، فيصبر ويحتسب، و ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]. ثم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، لا يتوكلون على الخلق، والله على وظيفة أو على كذا أو على مرتبة، لا!

التوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تفويض أمرك إلى الله، هو الذي يرزق وهو الذي يصرف عنك الشر، وهو الذي يهديك وهو الذي يوفقك، أما البشر ما يفعلون، لو جاءتك وظيفة أو منصب أو مرتبة هذه من الله، صح البشر سبب، لكنك توكل على الله كما قال الرجل الصالح: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: 44].

التوكل أيها الإخوة عبادة يجب أن نستحضرها دائماً أمامنا، لا نتكل على فلان وعلى الخلق وعلى كذا وعلى كذا، أو أتكل على نفسي أو أتكل على عملي، لا! توكل على الله وحده لا شريك له، هو ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23].

ثم إن هؤلاء الكفار الذين تناقشهم هذه الآيات وتجادلهم وتحاجهم، هم يكفرون بالبعث، يكفرون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالرسالات وبالوحي، اسمع الله يثبت أمامهم قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 43].

يقول: أنت لست جديداً عليهم، في رسل قبلك كثير، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾؛ الله يوحي إليهم بالوحي، يرسل إليهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيوحي، نُوحِي إِلَيْهِمْ.

وشوف هذه الآية تدل على أن النبوة والرسالة في الرجال ليست في النساء، وفي آية أخرى قال: من أهل القرى ليست من البادية، فهذه تعتبر من شروط النبوة؛ أن يكون النبي رجلاً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ أيُّها الجهلة الذين تنكرون رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا تؤمنون به، اسألوا أهل الذكر، اسألوا أهل الكتاب الذين عندهم كتاب موسى وعيسى وغيره، اسألوهم يخبرونكم ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43]، فاسألوهم.

- ثم إننا أرسلناهم بأي شيء؟

أرسلناهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [النحل: 44]؛ البينات: الحجج والأدلة الواضحة، والزبر: الكتب المنزلة كالقرآن والتوراة والإنجيل، ثم خص الله نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا القرآن العظيم الذي هو أعظم نعمة، هذا الذي بين أيدينا هو أعظم نعمة.

ينبغي لكل مسلم أن يتمسك به تلاوةً، تدبراً، عملاً، يجعله دائماً نصب عينيه دائماً، الآن المصاحف في الجوالات ما لك حجة، افتح جوالك في أي مكان واقرأ، وحاول أن لا يمضي عليك شهر إلا وقد ختمت أو أقل؛ أسبوع أو أسبوعين أو ثلاثة، تعلق بالقرآن ففيه بركة عظيمة، اسمع ما يقول الله في القرآن.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ [النحل: 44]؛ سماه ذِكْراً، الذكر هنا بمعنى الموعظة، الذكر بمعنى الشرف؛ أنزلنا إليك هذا الذكر، و ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 44]، ذِكْرٌ لَكَ يعني شرف لك، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: 10]؛ أي شرفكم، فالقرآن شرف لك، والقرآن موعظة لك وتذكير.

شوف قال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ يا محمد ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]؛ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين لهم ألفاظه ومعانيه وشرح لهم ودلهم على معاني هذا القرآن وبين لهم

هذه الألفاظ لتبين ما نُزِّلَ إليهم، وهم أيضاً الأمة من الصحابة ومن جاء بعدهم يتفكرون في القرآن.

شوف قال: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، فانت تقرأ وتتفكر، ما تقرأ هكذا قراءة سطحية ما تستفيد منها، هذا قرآن؛ كتاب الله، ينبغي أن تقف وتتفكر وتتأمل، عندك آية مرت عليك اللفظ غير واضح؛ ارجع إلى كتب التفسير، إلى المعاني، اسأل أهل الذكر، لا تمشي وأنت ما تدري، ينبغي لك أن تعرف هذه المعاني، الله أمرك قال: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في القرآن؛ يتأملون ويفهمون المعاني ويقرأون.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك يهدد هؤلاء المعاندين المستكبرين الذين يمكرون بالمؤمنين ويعذبونهم، اسمع ماذا يقول: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [النحل: 45]؛ يقول: هل يأمنون من عذاب الله؟ كيف تأمن وأنت تمكر السيئات وأنت تؤذي عباد الله المؤمنين؟!

كما أذى أهل مكة المشركون؛ أذوا الصحابة وعذبوهم، هؤلاء يأمنون؟ العذاب سينزل بهم، ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ تنشق بهم الأرض ويذهبون في قعر الأرض، قال: أن يخسف الله بهم الأرض كما خسف بقارون، خسف الله به وبداره.

﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: 45]؛ يأتيهم العذاب من أي جهة لا يشعر، ما يدري هو نائم في فراشه أو يتقلب في سفره أو نحو ذلك لا يدري إلا وقد نزل به العذاب، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

ثم قال: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل: 46]؛ التَقَلُّب: التقلب في البلاد؛ يعني الذهاب والإياد والسفريات، هذا التقلب، أو تقلبهم في فرشهم؛ يتقلبون في فرشهم، يعني ينامون في غفلة ويتقلب في فراشه يمنة وشمالاً ولا يدري إلا ونزل بهم العذاب، يأخذهم في تقلبهم وهم قد غرقوا في النوم، أو يأخذهم في تقلبهم في تنقلهم في البلاد فلا يدري.

يقول: ﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾، ما يعجزون الله عَزَّ وَجَلَّ، هؤلاء الذين يمكرون السيئات ما يعجزون الله بأن ينزل بهم العقوبة.

ثم قال أيضاً -شوف أنواع العذاب؛ إما خسف، أو عذاب على غفلة، أو يأخذه وهو نائم وغافل أو في سفره- ثم قال: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ يعني تنقُّص، تنقُّص في الأنفس وفي المال وفي الثمرات يأخذهم على تخوف، أو على خوف على رعب لا يدرون، ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: 47].

كل هذه التهديدات والتخويف والله يقول: ربكم رؤوف رحيم، لعلهم إذا سمعوا مثل هذا الكلام وهذه التهديدات أن يعودوا إلى ربهم الرؤوف الرحيم فيتوبون إلى الله.

ثم إن هؤلاء الكفار المعاندين المستكبرين وإن أعرَضوا وكفروا فالله غني عنهم، لماذا؟ لأنك اسمع هذه الآية تبين لك أن الله غني عن هؤلاء كلهم، وأن هناك من هو يعرف عظمة الله ويعرف عبادة الله، اسمع يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ هؤلاء الكفار المعرضون، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ يعني إلى خلق الله كله، ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي كل مخلوقات الله ماذا تصنع؟

الأشجار والجبال والأنار والسماوات والأرض والملائكة والجن والإنس، كل المخلوقات والطير والحيوان ماذا تصنع؟ أنت الآن شو تتصور ماذا تصنع؟

اسمع مثلاً يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: 48]؛ **(يَتَفَيَّأُ)** يعني يرجع الظل، مرة يروح ويأتي من الشمس تطلع من المشرق فيكون ظله إلى المغرب، تذهب إلى الغروب يكون ظله العكس إلى الشرق.

يقول: يتفيأ الظلال، يرجع مرة هنا ومرة هنا، عن اليمين وعن الشمال، مرة خلف وأمام ومرة يمين عن الشمائل، هذه الظلال تسجد لله، وأهلها وأصحابها يسجدون لله، و ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الرعد: 15].

حتى يعني شوف الظل يسجد، يعني إذا سجدت الشجرة سجد ظلُّها، إذا سجد الجبل سجد ظله، إذا سجد الملك سجد، وهكذا كلها تسجد وظلالها سجدٌ لله وهم داخرون؛ مذعنون لله خاضعون لله.

ثم بين لك: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: 49]؛ ما في دابة في السماوات وفي الأرض من حيوان أو زواحف أو طير؛ كل الدواب إنس وجن وملائكة في السماوات وفي الأرض تسجد لله، حتى الكافر يسجد ولو لم يسجد بظاهره يسجد بقوة يعني بقرارة نفسه، كل له قانتون.

شوف كيف قال: **(طَوْعاً وَكَرْهاً)**، وفي آية أخرى قال: طوعاً وكرهاً، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: 49].

- لماذا قالوا للملائكة؟

الملائكة يعني داخلة في **(مِن دَابَّةٍ)**، قالوا: الملائكة تطير لها أجنحة وتمشي أحياناً، ولأن الله يعني يبين لك عظم خلق الملائكة؛ شوف جبريل وحده رآه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرتين على ما خلقه الله عليه، رآه مرتين؛ رآه مرة عندما نزل من غار حراء رآه قد سد الأفق، له ستمائة جناح، هذا الملك هو جبريل، والملائكة غيره يسجدون لله ويخضعون لله.

شوف قال: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن طاعته، و ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 50]؛ هم يخافون ربهم والله فوقهم، الله فوق السماوات، فوق سبع سماوات ومستوٍ على عرشه، وهم يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يعصون الله ما أمرهم أبداً ويفعلون ما يؤمرون.

شوف كيف عِظَم هذه المخلوقات وكثرتها تسجد لله، وكفار قريش وغيرهم من الجاحدين الملحدين لا يسجدون لله وإن كانوا في قرارة أنفسهم خاضعين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لأن الله يقول: ﴿كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾.

هذه الآية إذا مر بها القارئ، أنا وأنت والثاني، إذا مررت بهذه الآية تسجد، لماذا؟ حتى تصبح من جملة هؤلاء الذين يسجدون، ولأن الشيطان إذا رآك تسجد يبكي فيقول ماذا يقول الشيطان؟ يقول: **«أُمِرَ ابْنُ آدَمَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَأُمِرْتُ بِالسُّجُودِ فَأَبَيْتُ فَلِيَ النَّارُ»**، فأنت تسجد عند هذه الآية.

- ثم تأتي الآيات بعد ذلك تبين لنا ماذا؟

إذا كان هذا السجود وهو طاعة لله، إذاً لا يجوز أن نصرف أي طاعة من الطاعات لغير الله، يعني شوف التوكل لا يكون إلا على الله، الخضوع، كل الأشياء هذه، الرهبة، الخشية، الخوف لله، كل العبادات؛ السجود، الركوع، الطواف لا يكون إلا لله.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: 51]؛ تجد بعض الناس يعبد هذا ويعبد هؤلاء الذين يذهبون إلى القبور وإلى الأضرحة ويطوفون عليهم ويدعونهم: يا فلان، يا فلان، المدد المدد! هذا يعبد إلهين.

من بلاد المسلمين من تجد عندهم قبور يطوفون حولها، هذا شرك، لو مات فإلى نار جهنم، ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: 72]، أو يُعبد من دون الله، أو يُدعى من دون الله، يقول: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ لماذا؟

قال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النحل: 51]؛ اعبد الله وحده لا شريك له، اسجد وادعُ وكل أنواع العبادات تكون لله وحده لا شريك له، ولذلك شوف قال: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، ربكم إله واحد هو الذي يستحق العبادة.

ثم قال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: 51]؛ يعني خافوني، الرهبة: الخوف والخشية لا تكون إلا لله، شوف قال: ﴿فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، لا تخافوهم وخافوني.

ولذلك شوف لما بين أن العبادة له بين أن الخلق والملك له، قال: ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النحل: 52]؛ كل ما في السماوات والأرض ملك لله، كيف أنت مملوك وتخضع لغير الله؟!

تخضع لحجر وشجر والله هو الذي خلقك وله ما في السماوات وهو الذي يملكك، ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾ [النحل: 52]؛ الدين لله واصباً يعني مستمراً ثابتاً لا يتغير، هذا دين الله لا يتغير مع مرور الأزمنة أو مع مرور البعثات، الله يبعث رسلاً كلهم متفقون على أن الدين لله، أن الدين لله: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: 52]؛ كيف تتقون غير الله وهو الذي ترهبونه وتخافونه وتخشونه وتتقونه وتعبدونه؟! أفغير الله تتقون؟!

ثم يبين لك يعني النعمة اللي أنت تتقلب فيها من وين؟ من الله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]؛ أي نعمة قليلة أو كثيرة؛ نعمة البصر، نعمة العقل، يعني غيرك ما له عقل، أعطاك الله عقلاً والبهيمة ما لها عقل، أنت أعطاك الله عقلاً، البصر، السمع، أشياء كثيرة، يعني: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: 34]، أشياء كثيرة.

قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾، ليست من البشر وليست من أي مخلوق وليست منك أنت، حتى المال ليس منك أنت، المال والصحة والعافية والأمن هذه من الله، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾.

ثم شوف الكفار إذا قال الله فيهم: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: 53]؛ الكفار ما يعرفون نعمة الله ولا يشكرونه، وإذا أصابهم ضرر أو خوف أو غيره قال: ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾، كيف تجأرون؟ تصيحون، شوف المريض الذي يعاني معاناة شديدة يصرخ ويصيح يدعو ربه إذا أصابه الضر، ولكن المؤمن إذا أعطاه الله الصحة والعافية شكر، يشكر الله، أما الكافر فلا يشكر.

ولذلك شوف قال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ 53 ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ 54﴾ [النحل: ٥٣–٥٤]. خلاص ذهب المرض عنك أو الفقر أو الخوف واطمأننت وأصبحت صحتك في صحة، ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 54].

قال: ليس الجميع، يوجد منكم من يعود إلى شركه وكفره وجحده لوحدانية الله فيشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال لماذا؟ قال: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [النحل: 55]؛ الله أعطاك النعمة تكفر بها؟!

تكفر بها حتى لو كفرت بها تتمتع قليلاً، ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 55]؛ تتمتع ولكن أمامك يوم تحاسب فيه على هذه النعمة، ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: 8].

لعلنا نقف عند هذا القدر ونكتفي به، نسأل الله أن ينفعنا بما وقلنا وبما سمعنا، نسأل الله أن يجعل هذا الكلام الذي ذكرناه والذي استمعتم إليه في موازين حسناتنا جميعاً، وأن يوفقنا جميعاً لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النحل 56 - 69)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الموافق للثامن من الشهر الثاني من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

أيها الإخوة الكرام، نجلس هذا المجلس المبارك مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ نقرأ آيات من كتاب الله ونبين ما فيها، ونسأل الله أن يعيننا وأن يسددنا وأن يوفقنا.

عندنا أيها الإخوة الكرام في **(سورة النحل)**، والتي سماها بعض المفسرين بـ **(سورة النعم)**؛ لما فيها من ذكر النعم العظيمة، ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر شيئاً من نعمه، وبين أن نعمه لا تعد ولا يمكن أن تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: 18].

وقال أيضاً في موضع آخر: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: 53]؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر هنا مواقف الكافرين بنعم الله، المنكرين الجاحدين لنعم الله، ومواقف سيئة لهؤلاء المشركين.

وذكر شيئاً من قبائحهم في صرفهم نعم الله في غير وجهها الصحيح، وهذا كله تذكير للمؤمنين أن يعرفوا نعمة الله عليهم، وأن يشكروا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليها، وأن يصرفوها فيما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

اسمع هذه المواقف التي يذكرها الله عن هؤلاء المشركين؛ الموقف الأول: موقفهم من الرزق الذي يسوقه الله إليهم؛ سواء كان من الحروث والأشجار والثمار أو من الأنعام التي أنعم الله بها من الإبل والبقر والغنم، ماذا يصنعون بهذه النعم؟

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [النحل: 56]؛ يجعلون لما لا يعلمون يعني يجعلون هذه الأرزاق التي يرزقهم الله من الحروث والزروع والثمار أو من بهيمة الأنعام يجعلون نصيباً منها للآلهة للأصنام والأوثان، يتقربون بها إلى هذه الأصنام، أو يجعلونها لسدنة الأصنام الذين يخدمون الأصنام.

شوف قال: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾، يعني هذه الأصنام لا تعلم ولا تدري، نصيباً مما رزقناهم، يقولون: هذه نتقرب بها إلى الأوثان، كيف تجعل شيئاً رزقك الله إياه تصرفه لغير الله نصيباً؟! حتى إنهم يذبحون القرابين من الإبل أو البقر أو الغنم يذبحونها على الأنصاب ويجعلونها لهذه الآلهة.

شوف قال: ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾، توعدهم الله بالوعيد الشديد فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: 56]؛ هذا قسم من الله: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾.

- ليش قال: ﴿عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾؟

ما قال: عما كنتم تعملون، تفترون؛ لأنهم يفترون على الله يقولون: الله أمرنا، يعني نحن نتقرب ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: 3]، فيكذبون على الله ما أمرهم، فقال: ﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾. هذا موقفهم من نعمة الأرزاق من الحروث والثمار ومن بهيمة الأنعام.

- موقف آخر: موقفهم من الذرية؛ لما يرزق أحدهم ذرية هل يشكر الله أنه رزقه ذرية أو ما يشكر؟

اسمع الآن قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾ [النحل: 57]؛ يجعلون لله البنات، هذه الآن مقدمة؛ لأنهم يقولون: الملائكة هم بنات الله، الله يقول: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ﴾؛ تنزهاً، ما أعظم كيف يكون البنات؟! هل أنتم شهدتم الملائكة حتى تقولوا إنهم بنات الله؟!

﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 19]، يجعلون لله البنات سبحانه، ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: 57]؛ الذكور لهم والبنات لله ما يشتهون، ويجعلون البنات لله!

أما هم فموقفهم من البنات -وهو رزق من الله وفضل من الله أن يُرزق الشخص منهم بذرية- قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾؛ إذا رُزق أحدهم بالأنثى ماذا سيكون موقفه؟

قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: 58]؛ يسود وجهه من الكآبة والضيق والحزن وهو كظيم؛ يكظم هذا الحزن في نفسه، لا يريد أن يظهر أمام الناس، لا يريد أن يبين للناس، لماذا؟ لأنه رُزق ببنيه، لا يريد ذلك الشيء.

قال: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ [النحل: 59]؛ يعني يختفي، لا يريد أن يقابله شخص يقول له: ما شاء الله، رُزقت وعندك بنت، جاءتك بنت، ما يريد هذا الشيء، قال: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾؛ يقول: هذه بشارة سيئة! ثم ماذا يكون موقفه إذا رُزق بهذه البنت، ماذا يصنع؟

قال: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ [النحل: 59]؛ يأخذه على إهانة وذلة ويسكت ويتحمل، أم يدسه في التراب؟ يئده، يأخذ البنت ويحفر لها حفرة وهي حية ويلقيها في هذه الحفرة ثم يهيل عليها التراب، قال: ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾.

قال الله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: 59]؛ كيف البنت نعمة من الله وفضل من الله تصنع بها هذا الشيء؟!

هذا أمر تقشعر منه الجلود ولا تتقبله النفوس السليمة، كيف تأخذ نعمة وفضلاً من الله تصنع هذا الشيء؟! وإن كان هذا لم يصنعه جميع العرب، لكن فيه قبائل تصنع هذا الشيء، وفي أهل مكة من كان يصنع ذلك، من كان إذا بُشر بالأنثى يسوءه هذا الأمر ثم يئدون البنات.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ 9 بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ 10﴾ [التكوير: 9-10].

ولذلك جاءت الشريعة السمحة، شريعة الإسلام بالحث على تربية الأبناء، وجاءت أحاديث كثيرة في تربية البنات أكثر من الأبناء، أحاديث كثيرة: **«مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ»** -يعني بنتين- وأحسن تربيتهما، كانتا له ستراً من النار.

☜وجاء في حديث: **«مَنْ عَالَ أَرْبَعَ بَنَاتٍ»**. حتى لو كثرت البنات لا يحزن على ذلك.

☜وجاء في حديث: **«مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ»**.

جاءت فضائل كثيرة في تربية البنات وحب البنات والفرح بأن يُرزق الإنسان ببنت، لا أن يكون مثل هؤلاء، لماذا؟

قالوا: إن البنت تأتي بالعار، البنت لا تأخذ السيف ولا تركب الخيل، البنت لا تدافع عن نفسها، وهكذا فعللوا بتعليلات فاسدة لا صحة لها لا عقلاً ولا نقلاً.

ولذلك قال الله سبحانه هنا: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ كيف تحكمون بهذا الحكم؟! تحكمون على أن الملائكة بنات الله، وتحكمون على أن البنات ترفضونها رفضاً شديداً وتقتلونها وتئدونها وهي حية، ألا ساء ما يحكمون!

قال الله بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾ [النحل: 60]؛ المثل السيئ، الوصف والحال السيئة للذين لا يؤمنون بالآخرة، الذين يكفرون بالآخرة.

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: 60]؛ تصف الله بأن الملائكة بناته والله غني سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السماوات وما في الأرض، فكيف تصفه؟! ولله المثل الأعلى؛ لله الصفات الحسنى والصفات العلا والأسماء الحسنى، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: 60]؛ له العزة والغلبة والقوة، وهو الحكيم في خلقه وفي تدبيره.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وغفور ورحيم، ويقبل توبة التائب، ولو أنه يؤاخذ الناس بذنوبهم ما ترك على هذه الأرض أحداً يمشي، ولذلك اسمع قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: 61]؛ الناس يرتكبون ذنوباً كثيرة وأعمالاً سيئة ويظلمون.

قال: لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها -أي على هذه الأرض- من دابة، حتى الحيوان والطير ما ترك عليها؛ لأن العذاب والعقوبة تعم، ما ترك عليها من دابة.

ولكن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يعاجل، وإنما يؤخرهم إلى أجل مسمى؛ أي إلى آجالهم التي تأتي، أو إلى نزول العذاب بهم، أو إلى يوم القيامة، فإذا جاء أجلهم -الموت- لا يستأخرون ساعة ولا لحظة، هذه آجال مقدرة.

إذا وصل الإنسان هذا الوقت واستكمل رزقه وعمره خلاص، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: 61]؛ لا يتقدم ولا يتأخر.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: 62]؛ هذه أيضاً أعمال سيئة منهم، ويجعلون لله ما يكرهون، الأشياء التي يكرهونها يجعلونها لله؛ البنات يكرهونهن يجعلونهن لله، الحروث والزروع والأعمال التي يكرهونها والأشياء التي لا يريدونها يجعلونها لله.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النحل: 62]؛ يعني أن ألسنتهم لا تتحدث إلا بالكذب على أي شيء؟ أن لهم الحسنى، أن لهم الأولى والذكور، وأن لهم العاقبة الحسنة يوم القيامة وأن لهم الجنة، أن لهم الحسنى.

قال الله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: 62]؛ **(لَا جَرَمَ)** يعني حقاً أن لهم النار يوم القيامة، أن لهم النار ليس لهم العاقبة الحسنة وليس لهم الجنة، لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون؛ يعني سابقون، مفرطون يعني سابقون إلى النار أنهم سيسبقون إلى النار.

كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ»**؛ يعني أنا سابقكم، فـ **(مفرطون)** يعني سابقون إلى النار، يعني لن يتأخروا، سيعجل بهم إلى النار.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تسلية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رسالته وموقفه من هؤلاء المشركين، قال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [النحل: 63]؛ قسم: تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك يا محمد، أرسلنا إلى أمم كثيرة أرسلنا رسلاً كثيرين من نوح وما بعده إلى أمم قبلك.

﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النحل: 63]؛ يعني زين لهذه الأمم الشيطانُ أعمالَهم، يعني هذه الأعمال السيئة التي يرتكبونها هي من أمر الشيطان، الشيطان يأمرهم بالسوء، قال: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ [النحل: 63]؛ لأنه هو الذي يقودهم وهو يتولى أمورهم وهم يتولونه في الدنيا.

قال: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾، أما أهل الصلاح والخير فأولياء الله: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196]، أما هؤلاء فوليهم الشيطان، قال: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: 63]؛ في الآخرة.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين فضل هذا القرآن الذي بين أيدينا، نحن نقرأ القرآن ونسمع الآيات القرآنية، فضل عظيم، اسمع فضل الله في إنزاله هذا القرآن، يقول: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: 64]؛ أي يا محمد، وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه، هم يختلفون في أشياء كثيرة؛ يختلفون في البعث.

ويختلفون فيك يا محمد، ويختلفون في الله، ويختلفون في عباداتهم، جاء القرآن ليبين لهم الذي اختلفوا فيه، مثل هذه الآيات التي سمعناها؛ مواقفهم من البنات ومواقفهم من الله ومن الملائكة، جاء القرآن ليبين لهم الذي اختلفوا فيه.

ثم هذا القرآن أيضاً هدى؛ كتاب هداية وعلم وهداية، هداية من الضلال ومن الجهل، قال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ [النحل: 64] يرحم الله بها أهل القرآن، لكن شوف قال: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ هذا لهؤلاء المشركين، لما جاء عند ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ كان هذا للمؤمنين.

ولذلك قال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 64]؛ الذين تؤمنون وتصدقون بالقرآن وتتبعون أحكامه وتعملون به، هذا القرآن هدى ورحمة عليهم، هدى ورحمة عليهم.

القرآن هذا فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كتاب الله وهو نعمة من الله عظيمة، القرآن سماه الله روحاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: 52]، القرآن روح تحيا به القلوب، تحيا به القلوب، الذي يبتعد عن القرآن ولا يقرا القرآن ولا يستعمله يقسُ قلبه ويبتعد عن القرآن ولا يجد لذة القرآن، لكن القريب من القرآن، الذي هو قريب من القرآن يتأمل القرآن ويقرأه حق تلاوته يجد فيه الراحة النفسية ويجد فيه الحياة.

ولذلك شوف دائماً القرآن لو تتتبع الآيات القرآنية إذا ذكر الله إنزال القرآن يذكر بعده إنزال المطر من السماء فتحيا به الأرض، لماذا؟ لأن المطر والماء يحيي الأرض والقرآن يحيي القلوب.

اسمع لما ذكر الله قال: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ قال بعدها: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل: 65]؛ هذا يتكرر في القرآن كثيراً، يعني يبين لك أن القرآن فيه حياة، فيه حياة، والبعيد عن القرآن تلاحظ قسوة القلب وعدم التدبر وعدم التفكر ويلهوه بهذه الدنيا.

﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [النحل: 65]؛ عبرة وعظة لأي شيء؟ لمن؟

قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: 65]؛ يسمعون سماع تدبر وتفكر وتأمل، أما الذي يخرج وينظر إلى المطر وهو ينزل وينظر إلى الأودية وهي تجري ولا يتفكر ولا يتأمل، ماذا يستفيد؟! المؤمن يختلف؛ ينظر ويتأمل ويتفكر ويسمع هذه الآيات العظيمة ويستفيد منها.

تعود الآيات الآن إلى ذكر شيء من نعم الله، ذكر في هذه السورة مواضع كثيرة شيئاً من نعمه، وتعود الآيات الآن، الله يذكر لنا نعمة الشراب.

- ما هو الشراب؟

الماء، اللبن، العصير، الخمر، العسل؛ خمسة أشياء يذكرها الله لنا الآن هنا كلها من نعم الشراب التي أنعم الله بها علينا، لا نستطيع أن نصل إلى الماء إلا بفضل من الله ورحمة وإلا قد يغور الماء عنا ويذهب، نعمة من الله، وكذلك اللبن من الذي يخرجه ويأتي به إلينا إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!

وكذلك العصيرات، والخمر الذي ذمه الله هنا، وشراب العسل، كل هذه، اسمع هذه النعم وتأمل في هذه الآيات، الله ذكر الماء فقال: أنزل من السماء ماء، طيب وبعدها في آية مرت معنا في النحل قال: يسقيكم من هذا الماء يسقيكم.

هنا بعدها قال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل: 66]؛ الأنعام: الإبل والبقر والغنم فيها عبرة، فيها عبر عظيمة، ثم قال: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ بطون هذه الأنعام، ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ [النحل: 66]؛ الفرث هو الفضلات، لما تكون في الأمعاء لما تخرج من الأنعام تخرج من الأمعاء يسمى روثاً.

هذه فضلات في الأمعاء تسمى فرثاً في بطن البهيمة، يسمى فرثاً، والدم معروف، الله يخرج هذا اللبن من بين هذا الفرث ومن بين هذا الدم، تجد لبناً خالصاً سائغاً صافياً لا فيه رائحة الفرث ولا رائحة الدم ولا لون ولا طعم ولا شيء، من الذي أخرجه بهذه الطريقة؟!

من الذي أوجد لبناً خالصاً؟! قال شوف قال: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أي خالصاً من هذه الشوائب، ﴿سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: 66]؛ في شربه تشربه من بهيمة الأنعام مباشرة، فمن الذي أخرجه؟

قال: ﴿سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾، هذه نعمة، أولاً نعمة من الله أنه سهله لك، ونعمة من الله أنه نفعك الله وأتى به إليك، فنعم عظيمة، الآن تجد الألبان في كل مكان، نعمة عظيمة، قال: هذا الآن عندنا الماء واللبن.

ثم قال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ [النحل: 67]؛ يعني ثمرات النخيل التمور والأعناب، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ أي الخمر، تتخذون منه سكراً.

ثم قال: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: 67]؛ أي العصيرات، لما جاء عند السكر قال: سكراً، لما جاء عند العصيرات قال: ورزقاً حسناً، وصفه بالحسن دليل على إباحته، أما السكر فهو محرم، وهذه أول آية أشار فيها إلى أن السكر والخمر محرم، ثم تبعتها آيات كثيرة.

قال: ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 67]؛ شوف الأول لما جاء عند الماء قال: ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ سمع تدبر وتفكر، هنا قال: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ليش؟

قال: لأن الذي يستخدم هذه الأشياء في المحرمات لا عقل له، كيف تستخدم هذه ثمرات النخيل والأعناب تستخدمها في الخمر والسكر وتجعل عقلك يذهب وتتصرف أنت تصرف البهائم وتصرف المجانين؟!

ولذلك شوف قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وكذلك اللبن، التفكر والتأمل فيه يحتاج إلى شخص عنده عقل يتفكر فيه، ولذلك شوف خواتيم الآيات في هذه السورة خواتيم عجيبة فيها تدبرات.

ثم يأتيك النوع الخامس -شوف عندك أو الرابع؛ عندك الماء واللبن والخمر والعصيرات هذه أربعة، الخامس: العسل- جاء بأسلوب آخر فيه تدبر وتفكر أشد من الأول، ما هو؟

قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ﴾ ما قال: ومن النحل العسل، قال لا، قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: 68]؛ يعني الله أوحى إلى هذه الحشرة الصغيرة.

- كيف أوحى لها؟

الجواب: هذا الوحي هو إلهام من الله؛ لأن الوحي أنواع كثيرة؛ الله أوحى إلى الأرض: تحدث أخبارها، الله أوحى في كل سماء أمرها، الله أوحى إلى الحواريين، الله أوحى إلى أم موسى، فالوحي أنواع كثيرة، وأوحى إلى الرسل، هنا وحي إلى حشرة صغيرة يعني ألهمها كيف تتصرف.

قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [النحل: 68]؛ تصنع البيوت في الجبال العالية الشاهقة، ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ في أعالي الأشجار، ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: 68].

في البيوت التي يعرشونها، هذه تتخذها بيوتاً عجيبة سداسية دقيقة الصنع لو يصنعها الإنسان ما يستطيع بدقة مسافاتها وترتيبها، يعني لا تجد فيها فراغات أبداً، من الذي ألهمها في هذا الصنع، صنع هذه البيوت والخلايا إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!

قال: ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ 68 ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ 69﴾ [النحل: 68-69]؛ شوف النحل إذا وضعته في أي مكان وأطلقته ما يضيع، لو ذهب إلى مسافات بعيدة يعود إلى مكانه ويعرفه، قال: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾؛ جميع الثمرات؛ الزهور وغيرها.

ثم قال: ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل: 69]؛ الطرق تعرفها بأمر الله، فاسلكي سبل ربك ذللاً يعني مذللة الطرق لك، ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ [النحل: 69]؛ يخرج من أين؟

هل يخرج من دبرها ولا من فمها؟ يخرج من فمها، تقيأ هذا العسل في هذه الخلايا، يخرج من بطونها، حتى لو قرأت أنت الآن في حالة من النحل وكيف يعني حال هذه النحل ستتعجب من تكوين خلق هذه النحلة وبطونها؛ لأن لها ثلاثة بطون، بطن خاص بالعسل فقط.

فهذا البطن الذي يتكون فيه العسل تقذفه في هذه البيوت، قال: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾؛ تجد الألوان مختلفة؛ أبيض وأسمر وأصفر وإلى آخره أنواع مختلفة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: 69]؛ شفاء وعلاج ودواء للناس في هذا العسل، شوف لما جاء في العسل قال: ﴿شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾، لما جاء في القرآن قال: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: 57]، ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82] ليس شفاء للكفار، إنما الذي يستشفي بالقرآن الذي يؤمن بالقرآن.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ لمن؟ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 69]؛ شوف الأول قال: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، والتي قبلها ﴿يَسْمَعُونَ﴾، هنا قال: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، هذا يدعونا إلى التفكر في عالم هذا النحل والملكات والشغالات، يعني شيء مملكة عظيمة، مملكة تحتاج منا إلى أن نتأمل ونتفكر فيها.

نقف عند هذا القدر ونكتفي به إن شاء الله، في لقائنا القادم نستكمل ما توقفنا عنده في هذه الآيات العظيمات؛ نقرأها ونتدبرها ونتفكر فيها، ونسأل الله ألا يحرمنا أجر هذا المجلس المبارك لنا وللحاضرين، ونسأل الله أن ينفعنا بها وأن يبارك لنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النحل 70 - 79)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعل هذا المجلس مجلساً مباركاً نافعاً؛ نجلس هذه الدقائق المعدودة ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا ممن تحفهم الملائكة، وتغشاهم الرحمة، وتنزل عليهم السكينة، ويذكرهم الله فيمن عنده في الملأ الأعلى جل جلاله.

ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«خَيرُكُم مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ وَعَلَّمَهُ»**؛ نأخذ آيات نتعلم ما فيها من توجيهات ونستفيد منها في هذه الدقائق المعدودة، هذا اليوم هو اليوم الخامس عشر من شهر صفر من عام ألف وأربعمائة وثمانية وأربعين للهجرة.

الآيات التي بين أيدينا نأخذها ونبين معانيها ونتدبرها، هي من **(سورة النحل)**؛ وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [النحل: ٧٠].

نلاحظ -ومر معنا كثيراً أيها الإخوة- بعض الآيات تبدأ بقوله "والله"، وهذا مر معنا أن هذا إذا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول الآيات هذه الجملة "والله"؛ اعلم أن هذا من خصائص الله لا يتدخل فيها أي مخلوق؛ يعني لما يقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾؛ يعني لا خالق إلا الله.

في الآية التي بعدها مباشرة يقول: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]؛ إذن هو الله سبحانه وحدنا، الآية التي بعدها يقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٧٢]؛ جعل يعني خلق لكم من أنفسكم أزواجاً.

لاحظ كلمة "والله"، وقبلها: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النحل: ٦٥]؛ يعني هذه الأشياء تكون من خصائص الله ينبغي أن نفهمها ونعرف أن هذه الأمور هي من خصائص الله، ثم إن هذه السورة هي مبنية على ذكر نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ جميع النعم التي تخطر ببالك تجدها في هذه السورة، نعم عظيمة.

الآيات التي مرت معنا في اللقاء الماضي ذكر الله فيها نعمة الأشربة، الشراب؛ أنزل من السماء ماءً، هذا شراب الماء ضروري للحياة، حياة الإنسان والحيوان والنبات، ثم ذكر اللبن لما قال في الأنعام قال: ﴿مِّن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

ثم ذكر أيضاً المشروبات العصيرات، حتى ممن يستخدم السكر فيها قال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]، ثم ذكر الله الآية العجيبة العظيمة التي سُميت السورة باسمها أن قال: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وبين أنه يخرج من بطونها شراب وهو العسل مختلف ألوانه فيه شفاء للناس.

بعد هذه الآيات التي فيها نعم عظيمة، نعمة الأشربة وقبلها نعمة الأطعمة والثمرات؛ الله ينقلنا إلى نعمة عظيمة وهي نعمة الخلق، نعمة أن الله أوجدك في هذه الحياة لتعبده، خلقك الله للعبادة وهذه فضل ونعمة عظيمة، أنت كنت معدوماً قبل سنوات فأوجدك الله؛ ولذلك الله يأتي بهذه الآية للعبرة، تتفكر في نفسك وتعرف مصيرك أيضاً؛ لأنه قال ماذا؟

قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ [النحل: ٧٠]؛ يعني خلقكم وأوجدكم على هذه البسيطة، ثم إنه بعد ذلك سيتوفاكم وتنتقلون من هذه الدار إلى دار البقاء، دار الحياة الأبدية.

أما هذه الدار فليست دار حياة أبدية، هذه دار منغصة ومعرض صاحبها إلى كل ما يصيبه، قد يصيبه الموت مباشرة، فهي ليست دار الإقامة، دار الإقامة هي الآخرة.

ولذلك قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾؛ يعني أوجدكم وأخرجكم من بطون أمهاتكم، ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾؛ منكم من يتوفى مباشرة، ومنهم من يمتد به العمر؛ ولذلك قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ [النحل: ٧٠]؛ يُرد إلى أن يكون في حالة لا يرغب في أن يعيشها.

- ما هي الحالة هذه؟

حالة لا يعلم كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠]؛ شيئاً نكرة، لا يعلم شيئاً أبداً، حتى يذهب عقله ولا يستطيع حتى يخدم نفسه، فهذه حالة قد يمر بها بعض الناس إذا مد الله في عمره ووصل إلى أرذل العمر، وهو عمر الهرم والتخريف.

فالله هو الذي قدر الأعمار؛ فمنهم من يعطيه الله عمراً متوسطاً، ومنهم من يزيده في العمر، ومنهم من يمتد في عمره، فهذه كلها بحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ خلقكم ثم يتوفاكم، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً.

قال الله في خاتمة الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠]؛ عليم بأحوال الناس، وقدير على أن ينقلهم إلى هذه الأحوال، لا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكرنا بالرزق والمال الذي بين أيدينا، فيقول: حتى هذه الآية التي فيها الرزق والمال يذكرك بأن الذي رزقك هو الله ويجب أن تعبده، الذي خلقك هو الله، والذي توفاك - من هو الذي يحيي ويميت؟ هو الله.

اسمع الآية التي تليها، قال: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]؛ الناس في الرزق يتفاضلون، منهم من يملك الأموال الطائلة، ومنهم من لا يملك شيئاً ولا يعيش في شيء يملكه، درجات؛ والله هذا بحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، جعل من الناس من هو غني وجعل من الناس من هو فقير.

قال: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾، ثم لفت الأنظار إلى الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر، يعبدون الأصنام، يعبدون الآلهة، يعبدون الأموات، يذكرهم: هل هذا يجوز لهم أن يعبدوه؟ وهل هذا يحق لهم أن يصرفوا شيئاً من حقوق الله لمخلوق؟ هذا ما يمكن عقلاً، ما يمكن ولا يقبله الشرع ولا العقل.

اسمع؛ قال لما قال: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ قال: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [النحل: ٧١]؛ ملك اليمين، الرقيق، العبد الذي يملكه الشخص، ما يملك هو شيئاً، ما عنده شيء، هو مملوك، فهل أنت تعطيه من مالك؟

يعني هل أنت ومالك هذا تتناصفه أنت وإياه؟ يعني هو له نصف وأنت لك نصف؟ هل تصرف من مالك شيئاً له؟ ما تعطيه الشيء؛ لأنه مملوك عندك، هو وما يملك لك أنت، فكيف تصرف له شيئاً؟

فالله يأتي بهذه الآية يذكرنا أن الذين يصرفون العبادات أو شيئاً من العبادات لغير الله هم بمنزلة هذا الغني؛ هل يرضى لنفسه أن يعطي جزءاً من ماله للمملوك؟ هو ما يرضى ولا تسمح نفسه أنه يعطيه شيئاً من ماله، فإذا كان كذلك، إذا كان على هذه الحال، فكذلك نقول ماذا نقول؟

إذا أنت ما ترضى تعطي المملوك عندك من مالك، فأنت كيف ترضى أن تصرف شيئاً من حقوق الله لمخلوق؟ تسجد لمخلوق، أو تدعو مخلوقاً، أو تستغيث بمخلوق، هذه كلها من خصائص الله، تركع وتسجد وتطوف كل هذا لله.

فالله يذكرك يقول: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ [النحل: ٧١]؛ يقول: أنت والمملوك العبد الذي عندك تملكه أنت وإياه سواء في المال؟ أنت ما ترضى، ما تسمح نفسك أن تعطيه من هذا الشيء.

قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]؛ الله ينعم عليهم بنعم عظيمة ثم هم يستخدمون هذه النعمة في معصيته ويعبدون غيره ويجحدون عبادة الله، هذا هو المقصود.

ثم يذكرنا الله أيضاً بنعمة؛ شوف النعمة الأولى الخلق، والثانية الرزق والمال، الثالثة نعمة أن جعل لنا من أنفسنا أزواجاً؛ جعل المرأة للرجل فجعل بينهم مودة ورحمة، وهي أنيسة الرجل، وهي التي تقوم بخدمة الرجل، وهي التي بإذن الله تكون سبباً في وجود الذرية للزوج، فهي وعاء الذرية للزوج.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٧٢]؛ يعني خلق من آدم حواء، أو جعل لكم من جنسكم أزواجاً، يعني أنتم ذكور ورجال وهن إناث ونساء.

قال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]؛ يقول: تذكروا هذه النعمة، الرجل عنده المرأة تؤنسه وتدخل عليه السرور ويرتاح إليها، هذه نعمة من الله عظيمة.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، وهنا قال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم﴾؛ يعني بسبب المرأة ووجودها ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾، البنون معروف: الأولاد، والحفدة هم أولاد الأولاد والذرية، الحفدة يعني الأحفاد أو الخدم، يعني جعل لكم أولاداً يخدمونكم ومماليك يخدمونكم أيضاً.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أعطاكم من الطيبات من المآكل والمشارب، ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢]؛ تؤمنون بالباطل يعني يعبدون غير الله ويتخذون إلهاً غير الله، وبنعمة الله هم يكفرون، هم يكفرون بنعمة الله؛ يعني أنهم لا يشكرون نعمة الله، ومن أعظم كفر النعمة أن تعبد غير الله، ينعم عليك ويعطيك المال وأنت تعبد غير الله.

ولذلك شوف الآية التي بعدها، قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]؛ يقول: يعبدون من دون الله هؤلاء الذين يعبدون الأصنام والأوثان والأشجار والحجارة، أو الذين يذهبون إلى القبور ويعبدون الأموات.

- هل هؤلاء المعبودات والأموات تملك لهم رزقاً؟

ما تملك لهم رزقاً، أموات غير أحياء، يقول: ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا﴾؛ لا يملكون لا في السماوات ولا في الأرض شيئاً، ولا شيئاً حقيراً أبداً، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يملكوا أصلاً، ما عندهم قدرة ولا يستطيعون.

ثم قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]؛ لا تشبهون الله بالمخلوقين، الله له خصائصه، والله هو المستحق للعبادة وهو المنعم عليكم وهو الخالق، فلا تشبهوا الخالق بالمخلوق: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٤].

الله يعلم من يستحق العبادة وأنتم لا تعلمون، لو كنتم تعلمون لما صرفتم شيئاً من عبادته لغير الله، تستغيثون بغير الله، وتستعينون بغير الله، وغير ذلك من العبادات.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ ويُشبه الخالق بالمخلوق؛ ضرب لك مثلاً هنا بين الخالق والمخلوق، يعني ما معنى ضرب الأمثال؟

هو تقريب الصورة بشيء أمامك محسوس تشاهده عشان تفهم هذه الأمثال، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، فالإنسان يتفكر في هذه الأمثال وهذه الأشياء.

اسمع المثل هذا الجميل يضربه الله، يقول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥]؛ هذا عبد مملوك، ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ يعني ما عنده شيء، ما يملك شيئاً ولا يقدر يصنع أي شيء، لا يقدر على شيء.

وشخص آخر قال: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾؛ شخص آخر رزقه الله منا رزقاً حسناً، ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾؛ هل يستوي هذا مع هذا؟

واحد مملوك ما عنده مال أبداً حتى يتصرف فيه أو ينفق منه لا على نفسه ولا على غيره، هو مملوك، هو وما معه من المال لسيده، وشخص آخر حر معه مال وينفق منه سراً وجهراً، يتصدق ويكرم ويعطي الناس المستحقين، هل هذا يستوي مع هذا؟ ما يستوون.

ولذلك قال: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾، ما يستوون، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

الحمد لله أننا أعطيناهم الصورة الواضحة، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

- ما معنى هذا المثل؟

يقول: لو كان عندك واحد مملوك ما يملك شيئاً، وعندك شخص آخر حر عنده مال كثير وينفق منه، هل هذا يستوي مع هذا؟ عقلاً ما يستوي، إذن الله ينفق ويعطي وسخي وكريم، وهذه الأصنام ما تعطيك شيئاً، فهل تساوي بهذه الأصنام والمعبودات، تساوى بها الله؟ هذا ما يستوي، ماذا حصلت من هذه الأصنام؟ أعطتك مالاً؟ استجابت لك؟

ما تعطيك، وهذا الله يستجيب دعاءك وينفق ويرزق ويرزقك من حيث لا تحتسب، فهذا المثل يشبه الله بين -يعني بين الخالق وهذه المعبودات المخلوقة التي لا تصنع شيئاً.

اسمع مثلاً آخر، قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ [النحل: ٧٦]؛ أبكم يعني أخرس ما يتكلم، ﴿أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾؛ لا يقدر أن يصنع شيئاً، يعني هو لا يتكلم ولا يصنع شيئاً، وزيادة على ذلك هو: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ﴾؛ ثقل وعبء على سيده، ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾؛ كل ما أعطاه شغلة أو عملاً ما يحسن، أخرق ما ينفع أبداً.

هذا الرجل الذي هو أبكم ما يتكلم، ولا يقدر أن يصنع شيئاً، وزيادة على ذلك أنه كلٌّ على مولاه، ثقل وعبء على مولاه، وكل ما وجهه لشيء يصنعه أو يفعله أو يرسله لشيء ما يحسن.

أربع أشياء كلها شوف:

- أولاً: أبكم.
- ثانياً: ما يصنع شيئاً لا يقدر على شيء.
- ثالثاً: كلٌّ على مولاه.
- رابعاً: لا يأتي بخير.

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]؛ يعرف الحق ويأمر به وهو على هداية من الله، هل هذا يستوي مع هذا؟ عقلاً لو جئت لأي شخص عنده انصاف يقول لك: هذا ما يستوي مع هذا أبداً.

كذلك نقول: من يعبد الله ليس كمن يعبد غير الله، هذا معناه، هذا معنى المثل؛ من يعبد الله ليس كمن يعبد مخلوقاً، هذا الذي يأمر بالمعروف وبالعدل وهو على صراط مستقيم، هذا على نور من ربه ويعبد ربه ويعرف طريقه إلى الله، والمخلوق الذي يُعبد من دون الله كالأموات والحجارة والأصنام هي أبكم لا تصنع شيئاً وهي كلٌّ ولا فيها مصلحة أبداً.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يأمر بالعدل وهو الذي على صراط مستقيم، فهل يستوي هذا مع هذا؟ ولذلك الله بعد هذه الأمثال التي بينها -وهذه أمثال عقلية يقبلها أي شخص عاقل يحكم بذلك-.

ثم بين لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علمه الواسع وقدرته، شوف العلم والقدرة؛ العلم لما قال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النحل: ٧٧]؛ غيب السماوات، كل ما غاب في السماوات والأرض الله يعلمه، أنت ما تعلم، لو أسألك عن من خارج المسجد ما تعلم، الله لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عالم الغيب والشهادة.

ثم بين لك قدرته قال: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]؛ أمر الساعة يعني قيام القيامة، قيام مجيء يوم القيامة، قيام الساعة في علم الله وفي قدرته مثل لمح البصر، تلمح ببصرك هكذا عينك، مجرد رمش العين، الصعقة تقوم بلحظة.

ولذلك الذين يحكّمون عقولهم ويأتون إلى البعث وإخراج الناس من قبورهم يقولون هذا شيء بعيد مستحيل؛ لأنه يحكّم عقله، مثل ما قال الكفار: لا يبعث الله من يموت، لماذا؟ لأنه يحكّم عقله.

لكن ليش يقول مثلاً شخص مات في البراري وأكلته السباع، وواحد مات في البحار وأكلته الحيتان، وواحد احترق بالنار وأصبح رماداً، وواحد جرفته السيول؛ يتصور يقول كيف هذا يبعثهم الله، وناس من قرون قديمة كيف يبعثهم الله؟

إذا تحكّم عقلك تطرح السؤال على نفسك، لكن إذا تقول لا الأمر بيد الله، هذا يرجع إلى الله، لماذا؟ لأن أمر الساعة كلمح البصر، بلحظة الناس يخرجون من قبورهم مهما كانوا، ولو كانوا في بطون الحيتان أو السباع يخرجون يوم القيامة: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣].

ولذلك شوف قال: ﴿كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾، لمح البصر لمحة سريعة، الله يقول لك: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ بعد من ذلك، أشد من لمحة البصر، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النحل: ٧٧].

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً ذكرنا بنعمة أخرى لما يقول شوف جاءت كلمة "والله"، طيب شو اللي بعدها؟

قال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]؛ يذكرك بضعفك، وكنت معدوماً أنت لا شيء، فالله هو الذي خلقك في بطن أمك وأخرجك: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾؛ يبين لك أنك ضعيف جداً، ليس لك قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أبداً؛ تخرج، شوف الطفل الآن الذي في الأشهُر الأولى هل يعلم شيئاً؟ ما يعرف شيئاً، حتى ثدي أمه ما يستطيع أن يصل إليه، ما يعرف شيئاً أبداً.

يعني بعض الحيوانات والحشرات عندها معرفة أكثر من الإنسان، لما تسقط على الأرض أو تفقس من البيضة تعرف طريقها وتعرف الأكل وتعرف الشرب، هذا الإنسان بني آدم أضعف منها: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ أبداً، لا تعرفون شيئاً.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ من الذي جعل لك السمع؟ غيرك ما يسمع وأنت تسمع، من الذي جعل لك البصر؟ غيرك كفيف وأنت تبصر، أليست هذه نعمة وهذه نعمة يجب أن نشكر؟

ولذلك شوف قال: ﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾، غيرك فقد عقله ولا يدرك ولا يفهم، وأنت الله أعطاك العقل وأعطاك الهداية وتعرف طريقك إلى الله.

قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة، إذا تذكرت أن الله أنعم عليك بهذه النعمة وأخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئاً وأنعم عليك بالعلم، تجد هناك جهابذة من العلماء وخبراء، من أين أتاهم هذا العلم إلا من الله، وإلا هم خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً.

- ثم يذكرنا أيضاً بنعمة أخرى نختم بها هذا المجلس، ما هي؟

يقول: انظر إلى الطير قدرة الله ونعمته، قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

- انظر إلى هذه الطيور في السماء ترتفع في أعالي السماء في الأجواء وتنزل، من الذي يمسكها؟

قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾، أحد يستطيع أن يمسكها؟ تمسكها هكذا بيدك؟ ممكن تطلق عليها نَاراً أو نحو ذلك تصيدها هذا شيء آخر، لكن تمسكها بيدك وهي في جو السماء ما تستطيع، أنت ضعيف، الله هو الذي يمسكها.

شوف: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾، هذا شيء سهل واضح، طيور في السماء مسخرة في جو السماء، مسخرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تطير، من الذي يمسكها إلا الله؟ قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ بآيات الله ويعرفون قدرته وعظيم علمه وسعته.

ولذلك هذه الآيات التي مرت معنا كلها قرأناها وتأملناها كلها تدور حول النعمة المحيطة بك؛ نعمة الخلق خلقك الله، ونعمة أيضاً الرزق أعطاك المال، أعطاك الزوجة، أعطاك الأولاد والأحفاد ورزقك من الطيبات، وذكّرك أن لا تعبد إلا الله.

وضرب لك الأمثلة بأن الله هو الذي يستحق العبادة، وبين ضعفك أنت وبين سرعة قيام الساعة لتستعد لها وتكون على أهبة الاستعداد وعلى يقظة، هذه كل الآيات مرت معنا نسأل الله أن ينفعنا بها وأن يبارك لنا ولكم دائماً، وأن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح.

نقف عند هذا القدر ونكتفي به، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النحل 80 - 89)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الموافق للثاني من الشهر الثاني من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية؛ أسأل الله أن ينفع بما نقول وبما نسمع.

درسنا الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كل أربعاء في تفسير القرآن العظيم؛ نجلس هذا المجلس المبارك، ونسأل الله ألا يحرمنا فضل هذه المجالس المباركة؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»**؛ فليكن لك نصيب من هذا الخير العظيم وهذا الفضل العظيم.

وقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر في هذه السورة، كما ذكرنا سابقاً، عدداً من نعمه العظيمة؛ في كل آياته يذكر الله نعماً عظيمة، ثم يذكر العباد بشيء من آياته الكونية وبشيء من سعة علمه وقدرته.

فهذه الآية التي بين أيدينا هي إشارة إلى سعة علم الله وقدرته، وأنه أحاط بكل شيء علماً وقدرة؛ هذه الآية التي قصر فيها كثير من الناس أو قرأها كثير من الناس تحتاج منا وقفة.

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ [النحل: ٧٩]؛ من هم؟

الناس عموماً؛ يعني يقول هذا استفهام يلفت الأنظار، يقول: لماذا لم يلتفتوا إلى هذا الطير؟ لماذا عميت أبصارهم وقلوبهم فلم يتفكروا في طير في السماء، مجرد أنه يطير في السماء؟ الله يخبرنا عن سر هذا الطير، ما هو سره؟

يقول: أولاً إن هذا الطير -من أي أنواع الطيور- يمكن كثير منا ينظر إلى الطيور في السماء صغاراً وكباراً، لكن لا يقف متأملاً متفكراً في هذا المخلوق الصغير الضعيف.

وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذا الإنسان الذي خلقه الله وأعطاه القوة وأعطاه السمع والبصر والفؤاد والعقل، الله أعطى هذا الحيوان شيئاً لم يعطه هذا الإنسان؛ هذا الطير أعطاه الله قدرة لم يعطها هذا الإنسان؛ هل الإنسان يستطيع أن يطير في جو السماء؟

ما يستطيع؛ الطير يعلو ويرتفع في جو السماء ويفوق الإنسان بهذه الصفة وهذه الميزة، فهذا الذي يجعلك تتفكر في هذا المخلوق الضعيف الصغير بالنسبة لك، وتتفكر وتتأمل في قدرة الله التي وهبها لهذا المخلوق.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ﴾ [النحل: ٧٩]؛ من سخرها؟ يعني مذللة ومسخرة، تطير بأمره، وتقع بأمره، وتذهب من مكان إلى مكان، كل هذا مسخرة بأسره ومذللة بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ [النحل: ٧٩]؛ في ارتفاعه وعلوه وسعته.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]؛ يعني الذي يحيط بها وتحت قدرته وإحاطته وعلمه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يمسكها كيف شاء.

وهناك من المفسرين -وهم الأكثر- أن معنى ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩] أي: ما يمسكها أن تقع على الأرض؛ مثل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا

بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، فالذي يمسك الأشياء هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أو تكون مثل ما ذكرنا: يحيط بها بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبقبضه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم تلاحظ أن الآية ختمت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [النحل: ٧٩]، ولم يقل: **(لآية)**، مع أنه ذكر نعماً كثيرة سابقة كلها يذكرها بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [النحل: ٦٧]، آية واحدة؛ وهنا قال: ﴿لَآيَاتٍ﴾ [النحل: ٧٩]، في هذه الآية وقبلها في أول السورة.

- ما معنى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [النحل: ٧٩]؟ لماذا قال آيات كثيرة؟

لأن الطير فيه عبر، وفيه أشياء عظيمة ليست مجرد أنه يطير ويقع؛ يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في سورة أخرى: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١]؛ فالطيور تصلي، والطيور تسبح، والطيور تذكر الله وتسجد لله، ففيها آيات عظيمة.

ولذلك قال: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]؛ بالله ويصدقون بكل ما جاءهم عن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم تنتقل الآيات إلى شيء من النعم التي نحن نعيشها، نعم عظيمة يذكرنا الله بها حتى نشكر الله ونعبده ولا نعصيه ولا نفسد في الأرض، اسمع الآيات؛ هذه النعمة، هي نعمة المسكن الذي أنت تعيش فيه، نعمة البيت.

كثير منا خلاص تعود على أنه يدخل بيته ويخرج وينتقل من بيت إلى بيت، لكن ما يتذكر هذه النعمة التي إذا دخل بيته آمناً مطمئناً عنده طعامه وشرابه وأمنه، ما يتذكر هذه النعمة ويتفكر فيها.

يعني أنت انظر إلى غيرك ممن يفترش الأرض ويلتحف السماء، أو ممن يعيش في صناديق، أو ممن يعيش في بيوت الشعر، لا يجدون ما تجده أنت من تهيئة البيت بسعة البيت وكثرة منازله، ومهيأ بكل ما يحتاجه الإنسان؛ هذه آية من آيات الله ونعمة نحتاج نحن كلنا إلى أن نشكر الله ليديمها علينا؛ قد تسلب منا في يوم من الأيام، ناس هجروا من بيوتهم وطردوا من بيوتهم؛ فهذه نعمة عظيمة.

اسمع ماذا يقول: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]؛ وعرفنا افتتاح الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ﴾ [النحل: ٨٠] أن هذه من خصائص الله. ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠].

- ما معنى ﴿سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]؟

السكن هو الطمأنينة والراحة، يقول: الله جعل في بيتك راحة وطمأنينة، أنت جئت من تعب وحرارة الشمس وشدة الشمس أو البرد أو الإرهاق، تدخل بيتك لتسكن وترتاح وتطمئن فيه، تجد الراحة فيه؛ هذا معناه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠].

ولم يذكر نوع البيوت؛ لأن البيوت تتجدد مع الزمن، قد تكون من الطين، قد تكون من غيره، فالله ما حدد لك، قال: ﴿مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠].

- ثم ذكر لك بيوتاً أخرى هي مستعملة ولكنها تختلف عن هذه، ما هي هذه البيوت؟

بيوت الشعر، قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ [النحل: ٨٠]؛ الخيام وبيوت الشعر تختلف، لماذا؟

قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠]. ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ [النحل: ٨٠] يعني تنتقلون بها خفيفة، يأخذها اليوم وضع له خباءً في هذه الأرض، نقله وذهب إلى مكان آخر وضع له خيمة، أخذها ونقلها إلى مكان آخر.

البيوت التي من طين أو غيره هذه صعب التنقل، ما تنتقل معه؛ لكن هذه خفيفة تستخفونها لأنها خفيفة يأخذونها معهم في أي مكان. ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠] يعني يوم سفركم، ﴿وَيَوْمَ

إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠] إن كان مقيماً في هذه الأرض وضع خباءه أو خيمته أو بيت الشعر واستقر فيها.

وإن أراد التنقل انتقل من سفر إلى سفر ومن مكان لمكان، وهذه دائماً تكون لأصحاب الوبر وأصحاب الخيام والشعر وهم أهل البوادي يتنقلون من مكان إلى مكان.

ثم ذكر لك نعمة في هذه الجلود وما يتعلق ببهيمة الأنعام، قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ [النحل: ٨٠] اصواف الضأن، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ [النحل: ٨٠] الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ [النحل: ٨٠] المعز والبقر؛ طيب هذه ماذا فيها من النعم؟

قال: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]؛ يقول فيها أثاث كالبسط والسجاد، وما يلبسه الإنسان من ملابس، وما يصنعه من أوانٍ من الجلود ونحوها؛ كل هذه أثاث لك ومتاع إلى حين، تتمتع به إلى زمن معين؛ إما هي تنتهي، أو أنت تذهب وتتركها في هذه الحياة كلها.

ثم يذكر لك أيضاً الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيوتاً أخرى قد ينتفع بها الإنسان ولو مؤقتاً، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ [النحل: ٨١]؛ مثل ظلال الأشجار والنخيل، ومثل ظلال الجبال والحيطان، جعل لنا ظلالاً يتظلل بها الإنسان ويستقر تحتها، قال: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ [النحل: ٨١].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١]؛ يعني فيها أماكن يدخلها الإنسان مثل الغير والكهوف ونحوها، هذه بيوت، أو يحفرها الإنسان كما كانت ثمود تحفر بيوتاً، فيحفرها الإنسان في الجبال يسكن فيها.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ [النحل: ٨١]؛ يعني لباساً، الله هو الذي جعل لنا هذه الألبسة، من أين أتينا بها؟

الله هو الذي خلقها لنا؛ اللباس سواء من اللباس الخفيف لباس الصيف، أو لباس الشتاء كالصوف ونحوه، الله خلقه لماذا؟

قال: ﴿جَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ الإنسان لو تكشف أمام الشمس الحارة يتضرر، فهذه الملابس والثياب تقيه من شدة الحر. وكذلك البرد، لكن الله لم يذكر البرد هنا لأنه ذكره في أول السورة قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ [النحل: ٥] يتدفأ الإنسان بهذه الأشياء.

وقال: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]؛ البأس المراد به الحرب، السرابيل مثل الدروع التي يلبسها أمام الحرب، وما يوضع على الرأس من المغفر والبيضة ونحوها؛ هذه الله جعلها ليتقي بها الإنسان من الأعداء ومن ضرب الأعداء بالسهام ونحوها.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ يعني مثل هذه النعمة التي مرت، نعم كثيرة، انظر، ذكر الله لك نعمة المراكب فقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]؛ هذه نعمة المراكب.

وذكر نعمة الأطعمة فقال: ﴿وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ [النحل: ٦٧]، وذكر لك بهيمة الأنعام لتأكلوها، والسمك قال: ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل: ١٤]؛ ذكر نعمة الطعام، ونعمة الشراب لما ذكر لنا الماء واللبن وثمرات النخيل والعسل وغيره من الأشربة؛ ذكر لنا نعماً كثيرة، وذكر لنا أنه خلقنا وخلق لنا من أنفسنا أزواجاً وأولاداً وذريّة وأحفاداً؛ هذه كلها تأتيك في هذه السورة تذكرك بنعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أتمها الله علينا وأسبغها علينا حتى نشكر؛ قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ تعرفون نعمة الله وتشكرونه.

- وكيف نشكر نعمة الله؟

شكر الله في ثلاثة أشياء:

⬅الأمر الأول: بالقلب؛ تعترف بأنها من الله وتقر وتعرف أن الذي ساقها لك وأعطاك إياها هو الله، هذا إقرار بالقلب.

⬅الأمر الثاني: باللسان؛ تلهج بشكر الله: الحمد لله والشكر لله على ما أنعم علينا.

⬅الأمر الثالث: الجوارح؛ تستعملها في طاعة الله لا تستعملها في معصية الله؛ وإنما من شكر الله أن تستعمل نعمته في طاعته. الشراب والطعام والمراكب والملابس والمساكن، هذه كلها تستخدمها وتستعملها في طاعة الله لا في معصيته، هذا من الشكر؛ أما أن تستعملها في المعصية فهذا من كفران النعمة.

اسمع، يقول: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ تنقادون لطاعة الله. يذكرنا بهذه النعمة حتى نعرف فضل الله علينا ونعمته علينا ونشكره ونسلم وننقاد لطاعته.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]؛ هؤلاء المعرضون المعاندون؛ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]؛ عليك يا محمد أن تبلغ، أما الحساب فعلى الله؛ هو الذي يحاسب من أعرَض ولم يقبل ويسمع نعم الله ويكفر بها ولا يبالي، هذا حسابه على الله.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]؛ يقول هم يعرفون، لو سألت أي شخص الآن، تسأله عن النعم التي هو يتقلب فيها تقول: من أين هذه النعمة؟

يقول لك: من الله؛ يعرفونها، يعرفون النعم، لكنهم ينكرون أن يشكروا نعمة الله، ولذلك انظر قال: ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، ما ينسبونها إلى الله، ينكرونها.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]؛ يعني انظر الآن بعضهم مثل قارون لما قيل له هذه نعم من الله اشكروا الله، قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]؛ أنكر نعمة الله، فأكثرهم ينكرونها. عندما تأتيه إلى منصب وإلى جاه وإلى مال، يقول لك: لا يا أخي، هذا عرق جبيني، هذه دراستي، هذا كذا.

لا! هذا فضل الله عليك؛ صحيح أنت سبّبت وبحثت، لكن لولا فضل الله ورحمته عليك ما حصلت على هذا الشيء، ولا يمكن أن تحصل عليه إلا أن يتفضل الله عليك؛ فتشكر الله ولا تنكر ولا تجحد نعمة الله.

وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]؛ لنعم الله.

ثم بعد سياق هذه النعم العظيمة التي ذكرها الله لنا في هذه الآيات وفي هذه السورة، تنتقل الآيات إلى التذكير باليوم الآخر وموقف هؤلاء الكفار، حتى يستعد الإنسان لهذا اليوم، ويعرف أن هذه الدنيا بزخارفها وبنعمها وبمتاعها هي حياة مؤقتة، تعيشها كم سنة ثم تنتقل وتتركها.

لا بد أن تذهب وتتركها، لكن العبرة ليست هنا، العبرة هناك في موقف يوم القيامة، كيف ستقف أمام الله؟ هناك يأتي الكلام، ولذلك الله دائماً يذكرنا بهذا الموقف العظيم بنهاية الإنسان وخروجه من الدنيا إلى الآخرة.

اسمع يقول: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [النحل: ٨٤]؛ يعني الأنبياء هم الشهداء، كل أمة الله يبعث فيها شهيداً؛ أمة نوح يبعث فيها نوح، فيقال: هل بلغكم نوح؟ فيقولون: لا، ما بلغنا نوح ولا أتانا ولا علمنا ولا ذكر لنا شيئاً؛ ينكرونه! فيقال لنوح: هل بلغتهم؟ قال: بلى إني بلغتهم.

فيقال: أتجد أحداً يشهد لك؟ قال: نعم، أمة محمد؛ محمد وأمته يشهدون، فنحن نشهد، لماذا؟ لأن الله أخبرنا في القرآن عن أمة نوح وهود وصالح وشعيب، كلهم علمنا عنهم فنحن نعلم ذلك فنشهد.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النحل: ٨٤]؛ لا يؤذن لهم بالاعتذار لما يعتذرون يقولون: ﴿رَبَّنَا أَرْجِعْنَا﴾ [المؤمنون: ٩٩] نرجع للدنيا نعمل صالحاً؛ ما يؤذن لهم، ليس هذا وقت الرجوع، خلاص انتهى!

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤]؛ أن يقبل منهم العذر؛ ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤] يعني تقبل منهم أعذارهم لو اعتذروا وقالوا: ربنا تبنا ورجعنا ولن نعمل سيئة.

ما يقبل! لأن هذا ليس وقت التوبة؛ وقت التوبة وقت العمل الصالح في الدنيا، أما إذا حضر الموت وانتقل من الدنيا إلى الآخرة ما تقبل منه توبته ولا يقبل منه عمل، ما فيه فرصة؛ الفرصة الآن موجودة، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

ثم ذكر لك أيضاً موقفاً آخر، قال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [النحل: ٨٥]؛ إذا جاءت القيامة ورأوا النار أمامهم ورأوا العذاب.

يقول: إذا رأى الذين ظلموا -الكفار المجرمون العتاة- النار أمامهم، عرفوا أنهم سيدخلونها فيطلبون التخفيف: خفف عنا العذاب؛ فلا يخفف عنهم، ولا هم ينظرون؛ يعني لا يمهلون، ما يعطون فرصة أنهم يستعتبون أو يرجعون، خلاص ليس هناك فرصة، النار أمامك.

ثم أيضاً التحسر الأشد أنهم تحشر لهم معبوداتهم من دون الله، الأصنام والأموات وغيرها والأوثان تحشر أمامهم ويرونها أمامهم التي كانوا يعبدونها، هذه معبوداتكم أمامكم!

انظر قال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾ [النحل: ٨٦]؛ رأوا الأصنام أمامهم شركاءهم، قالوا: ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دون؛ هؤلاء الشركاء هم السبب فينا، هم السبب في إضلالنا، هم السبب!

فترد عليهم الأصنام، الأصنام تتكلم يوم القيامة وترد عليهم، قالوا: ﴿رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦]؛ الأصنام ترد عليهم تقول: أنتم كاذبون، نحن ما أمرناكم بالعبادة، ولا الشيطان أمركم.

أنتم الذين تسببتهم في ضلالكم، نحن ما أمرناكم! ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦]؛ ما وقلنا لكم اعبدونا، أنتم الأصل تعبدون الله، ما تعبدون الشيطان ولا تعبدون الأصنام.

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ [النحل: ٨٧]؛ أي هؤلاء المشركون لما رأوا النار ورأوا الأصنام وعرفوا أنهم وقعوا وليس لهم حيلة ولا مفر، ألقوا إلى الله يومئذ السلم، استسلموا لله واعترفوا بذنبهم؛ فصحقا لأصحاب السعير!

اعترفوا؛ قال: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٧]؛ يظنون أنها تنفعهم هذه الأصنام: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]؛ هذه ما نفعتهم، ضل عنهم وذهب عنهم ما كانوا يفترون، ولم يجدوا إلا أمامهم عذاب النار صِلياً.

وليس فقط مجرد العذاب، اسمع! أشد العذاب؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]؛ يعني كفروا بآيات الله ولم تؤمنوا بها، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصدوا هم أيضاً بأنفسهم وأعرضوا عن سبيل الله.

قال: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]؛ يعني عذاباً فوق عذاب، فسر **(ابن مسعود)** رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه الصحابي ما معنى: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]؟

قال: **"تحشر عليهم العقارب والحيات كأمثال البغال"**. -شفت البغل، الحيوان البغل الذي قريب من الحمار ونحوه- عقارب وحيات كأمثال البغال تتسلط عليهم في نار جهنم: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]؛ لأنهم كانوا يفسدون في الدنيا.

ثم يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]؛ ذكر لك البعث مرة ثانية.

- ولكن لماذا أعاده مرة ثانية؟

ليبين لك مقام النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه شهيد؛ انظر قال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩]؛ يعني أنبياءهم. ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩]؛ على أمتك.

النبي يشهد على أمته أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، فمن تمسك بسنة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبشريعة الله فهو الفائز في الدنيا والآخرة، ومن خالف سنته وابتدع وخالف وعصى فلا يلومن إلا نفسه؛ فلذلك قال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩].

ثم قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [النحل: ٨٩]؛ أي القرآن، هذه السور تقرؤها، نزل الله على محمد الكتاب.

- لماذا نزله؟

قال: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]؛ انظر! كل شيء في الدنيا بيانه في القرآن، أي شيء في هذه الحياة الدنيا في جميع أحوال الدنيا وأحوال الآخرة تجده في القرآن؛ ولكن من الذي يستخرجه من القرآن؟

هنا الإنسان يأتي من يجهل ما يدري، تأتي للواحد تقول له: والله هذه الأشياء موجودة في القرآن، يقول لك: أين هي؟ لأنك ما تعلم، أنت جاهل؛ الله أخبرنا، قال: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] من غير استثناء، أي شيء في هذه الحياة تجده في القرآن، تجده في القرآن!

انظر قال: ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى﴾ [النحل: ٨٩]؛ يهتدي به المهتدون، أي هذا القرآن هداية، كتاب هداية يهتدي به المهتدون.

﴿وَرَحْمَةً﴾ [النحل: ٨٩]؛ لأولياء الله المؤمنين، رحمة القرآن عليهم يتراحمون به، وفضل من الله لهم. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]؛ يستبشرون بالآيات التي يسمعونها؛ إذا سمعت الآيات التي فيها فوز المؤمنين في الدنيا والآخرة وتوفيقهم للخير تفرح بهذا القرآن، بشرى القرآن لك، بشرى للمسلمين.

لعلنا نقف عند هذا القدر ونكتفي به إن شاء الله؛ في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النحل 90 - 97)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا المجلس مع القرآن الكريم، وهذا اليوم هو اليوم السادس من الشهر الثالث من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة.

درسنا في هذه الدقائق المعدودة التي نسأل الله أن يجعلها من المجالس التي تحفها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، ويذكر الله الحاضرين في هذا المسجد عندهم في الملأ الأعلى، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الإخلاص في القول والعمل.

درسنا في تفسير **(سورة النحل)**، وقف بنا الكلام عند الآية رقم تسعين من السورة، وهذه الآية الكثير منا يحفظها، لكن نحتاج إلى فهمها فهماً جيداً واضحاً؛ هذه الآية سماها **(ابن عباس)** رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا بأنها أجمع آية في كتاب الله؛ يعني جمعت خير الدنيا والآخرة.

وجمعت كل ما يحتاجه الإنسان في حياته وفي آخرته، كل ما تحتاجه في الحياة موجود في هذه الآية، كل ما تحتاجه في الآخرة موجود في هذه الآية، كل ما يجعلك تتأدب بالقرآن وتتعلم الشرع في هذه الآية.

آية ليست طويلة، لكنها جمعت كما قال **(ابن عباس)**، جمعت كل العلوم، كل ما يحتاجه الإنسان في حياته، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -ولاحظ أن هذه الآية التي قال **(ابن عباس)** إنها هي أجمع آية وإنها شملت الدنيا والآخرة، جاءت بعدما نوه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذكر القرآن الكريم ومزايا القرآن.

شوف الله قال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]؛ يعني يا محمد نزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء، كل ما تحتاجه موجود في القرآن، ولا يلزم أنك تقول والله مثلاً بعض الأشياء الجديدة المستحدثة غير موجودة، لا.

هي موجودة في القرآن، هي موجودة ولكن تحتاج إلى فهم واستخراج، وإذا أنت لم تعرفها غيرك يعرفها. القرآن تبيان لكل شيء في الحياة، ﴿وَهُدًى﴾؛ يعني علم الأولين والآخرين في القرآن، ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ يعني فيه الأجور العظيمة، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾؛ يستبشرون بهذا القرآن ينتفعون به.

- فلما نوه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا القرآن ومدح كتابه بأنه مشتمل على التبيان والهدى والرحمة والبشرى، أتى لك بأجمع آية في كتاب الله، ما هي؟

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. هذه الآية أقول إن الكثير منا يحفظها؛ لأنه يسمعها من كل خطيب في كل جمعة.

- أمرنا الله بثلاثة أشياء ونهانا عن ثلاثة أشياء، ما هي هذه الأشياء؟

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾؛ العدل في جميع الحياة، كل ما يتعلق بحياتك قائم على العدل.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]؛ يعني وضع العدل، العدل في كل حياتك حتى في نفسك، حتى في كلامك؛ ماذا يقول؟

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]. حتى في الكلام ينبغي لك أن تعدل في كلامك، والعدل ضده الجور والظلم، لا تظلم ولا تجور على أحد.

العدل في تعاملك في بيتك، بين زوجاتك، بين أبنائك وبناتك، بين عمالك، في كل مجالات الحياة يجب عليك أن تعدل في كل شيء؛ تعاملك في شرائك، في بيعك، في كل شيء ينبغي لك أن تعدل، لا تظلم ولا تجور على أحد، ولا تعتدي على أحد، هذا معنى العدل.

العدل حتى مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ العدل مع الله في صلاتك، في عبادتك، في قولك، في كلامك، في برك بوالديك، في أعمالك كلها، في صدقاتك، في زكاتك؛ كلها يجب أن تقوم على العدل مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والعدل مع المخلوقين مع الناس، هذا العدل، ولو نتكلم عن العدل شيء يطول من الكلام.

قال بعدها: ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾؛ العدل يتعلق بنفسك، بينك وبين الله، بينك وبين نفسك، الإحسان نفس الأمر، كيف تحسن عبادتك مع رب العالمين؟ كيف تصلي؟ هل أحسنت صلاتك؟ هل أحسنت زكاتك؟ صيامك؟ طاعتك؟

هذا معنى الإحسان: إتقان العمل، هل أنت متقن لعملك مع الله؟ هذا الإحسان مع الله، والإحسان مع الخلق، حتى مع زوجتك تحسن إليها، مع أبنائك تحسن إليهم، مع جيرانك تحسن إلى الجيران، مع الوالدين: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦]؛ يعني مثل ما ذكرنا مجالات الإحسان واسعة، ويكفيك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ماذا قال؟

☜قال: **«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ»**.

حتى الحيوان الذي تريد أن تقتله لأنه يؤذيك يجب أن تقتله بإحسان، والذبيحة يجب أن تحسن في ذبحها، وهكذا. الإحسان مثل ما ذكرنا مجال واسع لا حد له، في كل حياتك ينبغي لك أن تحسن، حتى في نفسك تحسن، تتقن نفسك، تتقن عملك، تتقن أخلاقك، تتقن كلامك، كيف تتكلم؟

أحسن إذا أردت أن تتكلم، ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]؛ حتى الكلام أن تحسن، هذا الأمر الثاني، العدل الأول، الإحسان.

قال: ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ القرابة لها حق عظيم عند الله سبحانه، صلة الأرحام.

☜حتى إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ»**؛ لشدة الأمر.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعن قاطعي الرحم، قال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ 22 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ 23﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

انظر كيف عقوبة الذي يقطع رحمه! وأعظم الرحم الوالدان، أعظم الأرحام الوالدان، ألا تقطع بهم مهما كان، لا تقطع ولو حصل منهم ما حصل، يجب أن تحسن إلى والديك، ثم إلى الأقارب بشكل عام: الإخوة والأخوات، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات؛ كل هؤلاء لهم حق القربى.

- ما معنى حق القربى؟

التواصل، والسلام، والزيارة، والهدية، إلى غير ذلك، الكلام الطيب؛ كل ذلك يجب عليك، شاهد هذه الآية مثل ما ذكرنا أجمع آية؛ ثلاثة أمور يجب عليك أن تراعيها في حياتك كلها: العدل، الإحسان، وإيتاء ذي القربى؛ إيتاء: قال أعطهم حقهم، لهم حق عليك.

وينهى عن ثلاثة أشياء:

عن ﴿الْفَحْشَاءِ﴾؛ الفحشاء في الكلام، بعض الناس كلامه فاحش سيئ بذيء، الله ينهى عنه ولا يسمح لك أن تتكلم بهذا الشيء ولا يرضى عنك. الفحشاء في الأقوال والأفعال؛ بعض الناس أفعاله سيئة، أفعاله خبيثة، سيئ تعامله مع بيته، مع زوجته، مع أبنائه، مع الجيران، يتأذون منه؛ الله ينهى عن هذا الشيء ولا يرضى عنه، ينهى عن الفحشاء، شوف الكلمة واسعة: الفحشاء لا حد لها.

- ﴿الْمُنْكَرِ﴾؛ ما هو المنكر؟ هل الفحشاء تختلف عن المنكر؟

نعم، المنكر هو ضده المعروف، المنكر الأفعال السيئة التي ينكرها العقلاء، الشرع ينكره لا يرضاه الشرع والناس العقلاء لا تتقبله النفس، كل منكر تشمئز منه النفوس الله لا يرضى عنها والله ينهى عنه، ما تستطيع أن تقول ما هو المنكر أعطني حدد لي منكر، لا.

المنكرات في الأقوال وفي الأفعال وفي كل شيء؛ المنكرات معروفة ما تحتاج إلى أن أضرب لك أمثلة، كل ما تنكره العقول السليمة، الشرع يرده لا يقبله هذا من المنكرات، وضده المعروف: الكلام الطيب الذي تقبله النفوس الطيبة، الأفعال الطيبة.

- ﴿وَالْبَغْيِ﴾؛ ما هو البغي؟

البغي هو التعدي على حقوق الآخرين، كيف؟ هذه نفس الكلام مجالها واسع؛ يعني الغيبة من البغي لأنك تتعدى على حقوق الآخرين، تؤذي الناس في أعراضهم؛ يعني تسبهم، وتغتابهم، وتفدح فيهم، وتتنقص منهم، وتستهزئ بهم.

هذا داخل في البغي لأن التعدي على أعراض الناس ولو كان أقرب الناس، تجد بعض الناس يجي يشتكي يقول والله الوالد يسوي كذا ويفعل كذا وليفعل كذا؛ تغتاب أباك عند الناس! وهكذا.

والذي يغتاب أولاده، والذي يغتاب زوجته؛ داخل في هذا البغي، التعدي على أعراض الناس، على أموالهم تأخذ أموال الناس تعتدي عليهم، وكذلك على أنفسهم بالإيذاء والقتل وإجراحهم أو تؤذيهم بأي شيء في أبدانهم؛ كل ذلك داخل في معنى البغي.

إذن الآية تأمر بثلاثة أشياء: العدل، الإحسان، إيتاء ذي القربى، وتنهى عن أشياء ثلاثة: الفحشاء، المنكر، البغي.

ولاحظ من رحمة الله وفضله علينا أن علمنا هذه الأشياء؛ ولذلك اسمع ماذا يقول الله بعدها، قال: ﴿يَعِظُكُمْ﴾؛ يعني يذكركم وينصحكم، الله نعم الواعظ ونعم ما يعظكم الله به، هذه موعظة من الله لنا يجب أن نتقبلها منه ونفرح بهذه الأشياء، ﴿يَعِظُكُمْ﴾ لماذا؟

قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]؛ ينفعكم وتتذكرون الذي ينفعكم فتأتون به وتتمسكون به، ويذكركم أيضاً بالذي يضركم فتجتنبونه؛ الفحشاء تضركم، والمنكر يضركم، والبغي يضركم فتجتنبونه.

وهذه الأمور كلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخذ العهد والميثاق علينا، الله وعدنا بالفوز بجنات النعيم مقابل أن نلتزم شرعه.

ولذلك شوف قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١].

الوفاء بعهد الله بينك وبين الله إذا عاهدتم، أو بينك وبين الخلق بالخلق. الوفاء بالعهد هذا من العدل والإحسان، الوفاء بالعهد هو داخل في الأول، ونقضه -لما قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ داخل في النهي؛ لأنه إما من المنكر أو البغي أو غير ذلك.

فيجب الوفاء بالعهود، الوفاء بالعهود بينك وبين الله؛ أنت يجب عليك أن تصلي كما أمرك الله، أن تتوضأ كما أمرك الله، أن تصوم كما أمرك الله، سائر الأعمال يجب عليك أن تفي بهذا الوعد الذي بينك وبين الله.

وعدك بالفوز بجنات النعيم مقابل أن تقوم بحقوق الله؛ ما هو حق الله عليك وما حقك على الله؟ كل هذه ينبغي لك: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾.

والعهود التي بينك وبين الناس؛ هناك معاهدات بينك في عملك، في شركة، في مؤسسة، في بيتك، في أي مجال بينك عهود حتى مع زوجتك عهد، عهد وميثاق، ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ الأيمان المغلظة سواء حلفت يميناً أو وقعت على أشياء أو معاهدات هذه كلها.

﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، إن أكدتها ورضيت بها واستسلمت لها. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾؛ مطلع، رقيب، مطلع، شهيد، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ضامن كفيل؛ لما تقول فلان كفيل لفلان يكفله؛ يعني يتولى أمره، فالله كفيل علينا بأن نستجيب له بأن عاهدنا بهذه الأشياء.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾؛ الله يعلم كل ما نفعله، سواء أخفيناه عن الناس، لو كنت تخفيه عن أقرب الناس لك الله مطلع ويعلم ويكتب كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله يكتب ما تقولونه وما تفعلونه، وملائكته تكتب كل شيء، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لنا أن نقض العهود لا يليق؛ ولذلك شبهه بحالة، حالة سيئة، هذه امرأة في مكة كانت تعمل بالغزل بالصوف، تصنع إما لباساً أو ثوباً أو أي شيء، فتقوم بالصوف تجمع الصوف هذا من صوف الغنم، ثم تبدأ تشتغل عليه وتصنع وتغزل هذا الشيء.

فإذا اكتمل هذا الغزل وصنعت هذا اللباس أو هذا الجاكيت أو غيره، قامت في الآخر - تشتغل عليه في أول النهار حتى إذا مضى وقت ساعات طويلة- قامت ونقضته! هل هذا يليق؟ هذه امرأة حمقاء، هذه ما لها عقل، كيف تشتغلين وتتعبين نفسك ساعات ثم آخر شيء تنقضينه ويضيع عليك؟

يقول: هذا مثل الذي يعاهد الله ثم ينقضه، أو يعاهد الناس ثم ينقض، هذا مثل هذه المرأة.

شوف قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢].

يعني اشتغلت شغلاً دقيقاً تاماً متقناً، ثم نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، أنكاثاً يعني نكثت هذا الشيء وأفسدته، والإنسان ينكث العهود؛ الذي يفسدها.

قال: ﴿أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾؛ تتخذون تجعلون الأيمان والحلف والمعاهدات دخلاً بينكم؛ يعني إفساداً، إما خيانة أو غدراً أو غيرها، هذا الدخل هو الإفساد.

يقول: بعض الناس يأت بمعاهدات بينه وبين غيره، معاهدات سواء معاهدة دولية أو على مستوى أقل من الدولة، أو على الشركات أو غيره يسوي معاهدات ثم يغدر، يسوي لو بينه وبين شخص، يعني اثنين يعاهد شخصاً أنه سيفعل كذا وسيفعل كذا ثم يغدر ويخون، هذا معناه: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾.

يقول: إنهم كانوا في الجاهلية يعاهدون، فإذا وجد قبيلة أقوى وأنشت وأكثر عدداً راح للقبيلة هذه وعاهدها وترك الأولى ونقض عهد الأولى، فهو يبحث عن مصلحته ولا يهمه العهود؛ فيقول: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾؛ بهذه المعاهدات يبلوكم من يصدق ومن يكذب.

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؛ يقول: كل الأعمال التي تعملونها من نقض العهود أو التزام العهود هذه كلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبينها لكم يوم القيامة مفصلة دقيقة واضحة، لا تفوت ولا تغيب عن الله، ﴿مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾؛ من المعاهدات ومن العقود والمواثيق الله يقضي بينكم ويحكم بينكم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لك عظمته وقدرته: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٣].

ما يحتاج أن تكون أمماً مختلفة، لو شاء الله لجعلكم كلكم أمة واحدة على التوحيد وعلى الطاعة وعلى الإيمان، ولكن الله بحكمته يجعل من الناس من هو في ضلال وبعد عن الحق وبعد عن الطاعة، ويجعل من الناس من يصطفيه ويجعله من أهل الخير والصلاح والهداية، هذه حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خلقه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ فالناس هكذا طبيعي الله خلقهم بحكمته، تجد من الناس من يعرف حق الله عليه وقد هداه الله إلى الحق والتزمه وسار عليه، فهذا يحمد الله ويشكره على أن الله اصطفاه واختاره وبين له.

وتجد من الناس من هو في ضلال مبين لا يعرف لماذا خلق، فهذا لا يدري أين يذهب قد تولته الشياطين.

شوف قال الله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ يضل من يشاء بحكمته، ويهدي من يشاء بحكمته، ولتسألن عما كنتم تعملون، كل أعمالكم تسألون عنها يوم القيامة.

ثم عاد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وذكرنا بأمر آخر، وهو التأكيد على الأيمان وأن لا نفسدها بالخيانة والغدر، قال: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ٩٤].

احذر، كل هذه نواهٍ، بعض الناس لا يبالي باليمين ما يهمه، يحلف أيماناً مغلظة ولا يبالي ولا يهمه. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾؛ هذا أثر عدم المبالاة بحقوق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحقوق الناس، تجي بعض الناس لا يبالي بحق الله ولا يبالي بحقوق الناس، هذه أثرها السيئ أن الله يعاقبه بعقوبة شديدة، ما هي؟

قال: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾؛ الإنسان لا يدري، يصبح مؤمناً ويمسي كافراً، ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً لا يدري، فسبب الذنوب والمعاصي وعدم المبالاة بهذه الأشياء قد تكون سبباً في ضلاله وانطماس بصيرته حتى لا يعرف الحق، ما يعرف الحق ولا يميز بين الحق والباطل.

هذا هو أخطأ الأشياء، تجد بعض الناس لا يصلي وإذا جئت تناقشه قال مقتنع أنه غير ضروري الصلاة وكذا، لماذا؟ لأن الله طمس على قلبه ما يدري ما يعرف الحق من الباطل، فهذا من أشد العقوبات، الذين لا يبالون بحقوق الله ولا يبالون بحقوق الناس هذا من أشد العقوبات أن الله يزيغ قلبه.

هذا معناه شوف قال: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ كان على الحق ويصلي ومحافظ ويعرف حق الله عليه ثم تدري قد انسلخ من الدين وانحرف.

شوف قال: ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ في الدنيا قبل الآخرة، هذا معناه؛ يأتيه من الكآبة والضيق والحرج قبل الآخرة، والعقوبات تنزل به والخسائر تنزل به قبل الآخرة.

قال: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ صدوا عن سبيل الله وأعرضوا، قال هذا في الدنيا، أما في الآخرة قال: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ لا يقدر قدره إلا الله.

ثم يؤكد الله كل هذا في التأكيد على الأيمان التي يتساهل كثير من الناس فيها، يقول: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٩٥].

بعض الناس يحلف عشان يأخذ مالاً، يأخذ أموالاً، يحلف أنه ما أخذ ويأخذ وهكذا، أو يحلف أنه فعل وصنع وفعل كذا وكذا عشان يأخذ أموالاً، قال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾؛ تشتروا بعهد الله وأيمانه، اليمين والحلف ثمن قليلاً، تأخذ مالاً قليلاً من أموال الدنيا، الدنيا كلها قليلة، فإذا أخذت مالاً قليلاً قال: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ إذا حافظت على الأيمان ولم تعرضها للخيانة فعند الله خير من الدنيا كلها.

قال: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ فالذي عند الله خير من الدنيا، بل التزم طاعة ربك وحافظ على أيمانك، لا تعرض يمينك للكذب والخيانة فالذي عند الله خير لكم.

ولذلك شوف الله يقارن بين ما عندكم وما عند الله، شوف قال: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ﴾؛ ينفد يعني ينتهي، يذهب، اليوم معك مال بكرة ما عندك مال، ما عندكم ينفد، أي شيء، الخزائن التي عندك تذهب كلها، ما عندكم ينفد بالدال ليس بالذال؛ ينفذ يعني يخرج، ينفد يعني ينتهي، النفاد مثل ما تجد أحياناً يكتب لك يقول لك نفاد الكمية، نفاد وليس نفاذ، بالدال ينفد يعني ينتهي.

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾؛ يعني خزائن الله لا تنتهي ولا تنقضي، وما يعطيك الله في الدنيا يعطيك في الآخرة أعظم وأعظم، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ تمسكوا بشرع الله وصبروا، صبروا وحافظوا على الصلاة صلاة الفجر، وصبروا على الصيام، وصبروا على الأعمال الصالحة، وصبروا على ما يصيبهم من أمور الدنيا ومصائب الدنيا، وصبروا عن المعاصي وابتعدوا عنها؛ هؤلاء قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، يجازيهم الله بأحسن ما كانوا يعملون.

اسمع الآية الأخيرة هذه عشان تستبشر بالخير؛ الله لما أكد على الأيمان وأكد على هذه الأمور وأكد على أشياء وأتاك بأعظم آية، الآن تريد الحياة الطيبة؟ تريد أن تعيش عيشة هنيئة تجد فيها السعادة قبل الآخرة؟

اسمع هذه الآية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾؛ هذا الشرط الأول: من عمل صالحاً، أي أعمال صالحة تحافظ عليها، ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾؛ من جميع الجنسين امرأة أو رجل، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ شرط الإيمان والتصديق واتباع الحق وعدم الابتداع في الدين، قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

- ما هي النتيجة؟

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾. يحييك الله حياة طيبة.

- ما هي الحياة الطيبة؟

السعادة في الدنيا، انشراح الصدر، الطمأنينة، الارتياح، القناعة بما أعطاك الله، تجد بعض الناس يعيش كآبة ضنكاً ضيقاً حالات نفسية، يريد أن يقتل نفسه لا يريد أن يعيش، وأنت مطمئن، حتى تجد بعضهم عنده من الأموال لكن لا يعيش حياة هنيئة.

الذي يعيش الحياة الطيبة الهنيئة هنا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ إذا جاء يوم القيامة نجزينهم

أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، الله يعطيك أحسن وأحسن وأعظم من أعمالك كلها، يعطيك الله من الأجور ما لا تتصوره، من الخيرات في الآخرة ما لا تتصوره.

هذه الآية ذكر أحد العلماء وهو **(الرازي)** قال له يهودي: قال أنتم المسلمون تقولون يحييكم الله حياة طيبة ونجد منكم فقراء ومرضى وناساً متعبين، كيف حياة طيبة؟

ونحن كفار ولم نؤمن بكم ولا بشريعتكم ونعيش عيشة يعني رغداً من العيش، مثل ما تشوف الآن الواقع بعض بلدان المسلمين يعيشون اضطهاداً وفقراً وجوعاً وأمراضاً، وتجد بعض بلاد الكفار يعيشون في رفاهية، كيف رد عليها **(الرازي)**؟

قال: المؤمن لو عاش في فقر ونكد مقابل الآخرة هذا لا يهمه، وأنتم تعيشون في رفاهية مقابل أن أمامكم ماذا؟ أمامكم أياماً شديدة يوم القيامة من أشد الأيام؛ فلا تقاس الدنيا بالآخرة، حتى لو ضاقت عليك الدنيا تجد بعض الناس يعيش فقراً وديوناً وعنده من المصائب لكنه مطمئن؛ لأنه يقول هذا بقضاء الله وقدره، القناعة ما يتصورها الإنسان، هذا معناه.

نقف عند هذا القدر، نكتفي به، وإن شاء الله نكمل إن شاء الله في لقاءات قادمة، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وجزاكم الله خيراً على حضوركم وإنصاتكم، نلقاكم على خير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النحل 98 - 110)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا المجلس، وفي هذا اليوم الموافق للثالث عشر من شهر ربيع الأول من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة. أسأل الله أن ينفع بما نقول وبما نسمع، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

درسنا أيها الإخوة الكرام في **(تفسير القرآن العظيم)**، والسورة التي بين أيدينا هي **(سورة النحل)**؛ وقف بنا الكلام عند الآية الثامنة والتسعين من هذه السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

لما تنظر إلى هذه الآية وفيها الأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن، انظر إلى ما قبلها؛ الآية التي بشر الله بها المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأنه سيحييهم في الدنيا حياة طيبة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [النحل: ٩٧]، شرط الإيمان تصديق بما جاءه عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الوحي والرسالة؛ قال الله في البشارة: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، هذه اللام تسمى عند أهل العلم لام القسم الموطئة للقسم؛ أي: والله لنحيينه حياة طيبة.

- ما هي الحياة الطيبة؟

هي السعادة في الدنيا، الراحة النفسية، انشراح الصدر، طمأنينة القلب؛ ليست الحياة الطيبة بكثرة المال، وليست السعادة بجمع المال. السعادة الطيبة أن يسعد الإنسان بتعبده لرب العالمين وخشوعه وتذلله لرب العالمين، يسعد بالطاعة؛ إذا صلى وجد راحة نفسية وطمأنينة، إذا قرأ القرآن وجد راحة نفسية، إذا تصدق، إذا اعتمر، إذا حج، إذا صام يومه لله في سبيل الله وجد انشراحًا في صدره، هذه هي الحياة الطيبة، والقناعة بما قدر الله له وبما رزقه.

انظر؛ قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧] هذا في الدنيا، أما في الآخرة: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]؛ الله يجازيك أجرك يوم القيامة بأحسن مما كنت تعمل، الحسنة بعشر أمثالها، أنت تعمل حسنة واحدة الله يكافئك عليها بعشر حسنات أضعافًا مضاعفة.

إذا فهمنا هذه الآية، ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها يقول: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ...﴾؛ قف عند هذه الآية، ما علاقة أنك لما تعمل العمل الصالح وأنت مؤمن ويسعدك الله في الدار الدنيا قبل الآخرة - تسعد في الدنيا قبل سعادة الآخرة –

- ما علاقة القرآن الكريم؟

الجواب: أقوى ما يربطك برب العالمين ويسعدك هو القرآن الكريم عند قراءته وتدبره، وأن يجعل وأن يكون القرآن هو شغلك الشاغل في كل وقتك، تردد هذه الآيات بتمعن وتفكر وتأمل، هذه هي السعادة.

حقيقة سعادة الدنيا أن تكون قريبًا من القرآن الكريم، وأن يكون همك وشغلك القرآن الكريم، إذا كنت من هؤلاء الذين لا يمر عليهم يوم إلا وقد قرأوا آيات من كتاب الله فهذه هي السعادة الحقيقية، والبعد عن القرآن وهجره هو الهم والغم وضيق الصدر وفقد السعادة.

ولذلك ذكر الله لنا بعد هذه السعادة أن أعظم وسيلة وأعظم صلة للسعادة هي قراءة القرآن، ثم أمر آخر مرتبط بقراءة القرآن وهي الاستعاذة من الشيطان الرجيم؛ الشيطان يريد أن يشغلك عن كل شيء ويأتي لك بالهموم والغموم والشقاوة.

ولذلك انظر؛ لماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عند قراءة القرآن: ﴿فَاسْتَعِذْ﴾؟ لأن أقوى صلة بينك وبين الله بعد الصلاة - أو الصلاة والقرآن - هي أقوى الصلات؛ فالشيطان حريص على أن يبعدك.

ولذلك تجد بعض الناس الذين يغفلون عن الاستعاذة ويأتون إلى القرآن ويقرأون - أو لا يقرأون - لا يستطيعون أن يطيلوا القراءة؛ يقرا بمجرد سطر أو سطرين أو ثلاثة ثم يغلق مصحفه ويمشي! الشيطان حريص على هذا الأمر، يريد أن يحقق هذا الأمر، يريد أن يبعدك عن القرآن.

فأنت عندما تريد قراءة القرآن فاستعذ واستحضر الاستعاذة. ما معنى الاستعاذة؟ ما صيغتها وما معناها؟ الاستعاذة معناها اللجوء إلى الله ببيان ضعفك؛ أنك لولا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعصمك من الشيطان لتسلط الشيطان عليك.

ولذلك انظر في الآية هنا قال: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠]، أما المؤمن الصالح فيستعيذ بالله ويقترب من الله ويلجأ إلى الله ويعتصم بربه، ويعرف ضعفه أمام هذه المثبطات كلها إلا أن يعصمك الله ويقويك بالطاعة.

ولذلك قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]؛ أنت لما تقرأ هذه الآية في ظاهرها أنك إذا قرأت القرآن وانتهيت تستعيذ، هل هذا صحيح؟

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾ لابد أن نقدر شيئًا محذوفًا، ما هو؟ إذا أردت؛ إذا أردت أن تقرأ القرآن وأقبلت على القرآن، قبل أن تدخل في القراءة وتشرع فيها؛ استعذ بالله. هذا المقصود، استعذ بالله.

مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: ٦]؛ ليس إذا قمت إلى الصلاة، بل إذا أردتم القيام وتوجهتم إلى الصلاة تذهبون إلى الوضوء.

كذلك هنا: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾؛ أي: إذا أردت قراءة القرآن فابتدئ بالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم؛ يعني أن تقول: **(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)**.

ومعنى **(أعوذ بالله)**: ألتجئ وأعتصم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الشيطان الرجيم. والشيطان سمي شيطانًا لبعده ولاحتراقه، والرجيم لأنه مرجوم ملعون مطرود؛ فأنت تلجأ إلى الله بأن يحفظك من هذا الشيطان المطرود. هذا الشيطان المريد المتسلط تلجأ إلى الله أن يبعده عنك أشد البعد؛ لأنه مبعد مرجوم ملعون. ولذلك انظر؛ هذا توجيه من الله ورحمة من الله أن بين لنا كيف نعالج أنفسنا ونبعد عن هذا الشيطان الذي يتسلط علينا عند قراءة القرآن.

- هل أقول: (بسم الله الرحمن الرحيم)، أم أقول: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)؟ وهل أقولها في الصلاة أم خارج الصلاة؟

الجواب: الأول أن تبدأ بالاستعاذة ثم البسملة إذا كنت في أول السورة.

أما إذا كنت في وسط السورة أو آخرها فلا تأتي بالبسملة؛ البسملة يؤتى بها عند أول قراءة السورة، إلا **(براءة - التوبة)** فليس فيها بسملة. وأما إذا قرأت في وسط القرآن فتقول: **(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)** ثم تقرأ. هذا أمر.

الأمر الثاني في الصلاة: في الصلاة إذا كبرت تكبيرة الإحرام وأتيت بدعاء الاستفتاح، تأتي بالاستعاذة: **(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)** ثم البسملة ثم الفاتحة. أما بقية الركعات فتأتي بالبسملة ثم الفاتحة فقط.

ثم قال الله مبينا لك لماذا تستعيذ؛ لتسلط الشيطان، اسمع؛ قال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]؛ المؤمنون الذين يستعيذون بالله ويلجأون إلى الله ويتوكلون على ربهم؛ الشيطان لا يتسلط عليهم.

والشيطان اعترف بذلك قال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]؛ لا أستطيع أن أصل إليهم.

فالمؤمن المطيع لربه، المصلي، المحافظ على الطاعة، المحافظ على ذكر الله، والمحافظ على هذا الذكر خاصة وهو الاستعاذة؛ لن يتسلط عليه الشيطان، وهذا خبر أنه ليس له سلطان - أي تسلط وقدرة - على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

انظر؛ قال: ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾، صفة الإيمان صفة ثابته لا تنفك عن الإنسان، ولما قال بعدها التوكل قال: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، الفعل المضارع يفيد الاستمرار، أنهم دائمًا يتوكلون على ربهم. ومعنى يتوكلون على ربهم: أنهم يفوضون أمرهم إلى الله، ويظهرون ضعفهم امام الله، ودائمًا في كل أمورهم - سواء في أمور الدين أو في أمور الدنيا - يفوضون أمورهم إلى الله ويتوكلون عليه؛ لا على أنفسهم.

ولا على مخلوق، ولا على قدرتهم، ولا على عقولهم، ولا على أموالهم، كل هذه لا تنفع معك، الذي يجب عليك أن تتوكل عليه هو الله، لا على أحد من المخلوقين ولا على شيء من هذه الأمور، فهذه الأمور إنما هي مجرد أسباب فقط.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]؛ انظر، سلطانه - أي الشيطان - على من؟ قال: ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾؛ الذين تركوا ولاية الله وتولوا الشيطان، والشيطان تولى أمورهم وأصبحوا من حزب الشيطان، هؤلاء الشيطان قد تسلط عليهم، وأصبحت سلطته عليهم: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ﴾ وقدرته وقوته على هؤلاء الذين صحبوا الشيطان وأطاعوه واستسلموا له؛ ﴿الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾؛ يشركون بالله معه غيره في العبادات، ويشركون الشيطان أيضًا مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يشركون بالله ويجعلون الشيطان شريكًا مع الله في طاعته؛ فهم أطاعوا الشيطان والله أمرهم بمعصية الشيطان وعدم طاعته وهم أطاعوه.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر لنا بعض شبهات المشركين؛ المشركون الذين تصدوا للدعوة، والذين حاولوا الوقوف في وجه دعوة الإسلام ودعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يحاولون أن يثيروا الفتن ويثيروا الشكوك والشبهات؛ إما في القرآن، وإما في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

اسمع هذه في القرآن؛ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٠١]. الله يبدل الآيات، يبدل الأحكام بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا ما يسمى عند العلماء بـ **(النسخ)**؛ أن تأتي آية ثم تنسخ بآية أخرى، ويبدل الله حكمًا بحكم آخر. هذه الأمور الله أعلم بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو حكيم، قد يكون الأمر ينفع في زمان أو مدة ثم يرتفع ويأتي حكم آخر مكانه خير منه؛ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

وهنا قال: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ﴾، ثم قال: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾؛ جملة معترضة، الله أعلم، هو الذي يعلم كيف ينزل الآيات وكيف يبدلها، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾. قال هؤلاء أعداء الدعوة وأعداء الإسلام: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾؛ يعني أنت يا محمد تكذب على الله؛ لأنك تأتي بحكم ثم تغير وتكذب على أصحابك وتغير الأحكام، قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾. قال الله: لست أنت بمفتر، ﴿بَلْ

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ كثير منهم - وإن وجد من يعلم قليلًا - لكن الكثير منهم لا يعلمون، لا يعرفون أحكام الله ولا يعرفون شرائع الله.

تتغير الأحكام وتتغير الشرائع؛ شريعة تأتي ونبي يأتي ثم تأتي شريعة أخرى وهكذا، لكن لجهلهم وقلة علمهم لا يفهمون، ولذلك اعترضوا واتهموا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه يكذب على الله وأنه يفتري على الله.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يزيد في هذا الأمر ويوضح أكثر؛ قال لهم ولهؤلاء الذين لا يعلمون: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

- من هو روح القدس؟

هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- لماذا سمي بـ (روح القدس)؟

لأن فيه حياة القلوب؛ لأنه ينزل بالوحي، وهو الروح، يسمى الروح: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ 193 عَلَىٰ قَلْبِكَ 194﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]؛ فسمي روحًا لأنه جبريل الموكل بالرسالات وبالوحي، فتحيا القلوب برسالاته إذا أنزلها بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾، والقدس من القداسة وهي الطهارة؛ بانه طاهر وبسببه تطهر القلوب وتحيا الأرواح. ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾؛ ليس من عند جبريل ولا من عند أحد، ولست أنت بمفتر كما يقولون، إنما هو تنزيل رب العالمين؛ نزل به الروح الأمين على قلبك.

قال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ﴾؛ لا بالكذب ولا بالباطل، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فالقرآن يثبت القلوب، وقصص القرآن خاصة تثبت القلوب: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، ونزول القرآن أيضًا مفرقًا لتثبيت المؤمنين لتثبيت قلوبهم. وهنا قال: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ يثبتهم إذا قرأوا القرآن واقتربوا من الله وتأملوا وتفكروا في هذه الآيات وزادتهم إيمانًا وثبتوا على الحق.

وزيادة على ذلك فالقرآن: ﴿وَهُدًى﴾ يهتدي به المهتدون، وفيه علوم الدنيا والآخرة، ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾؛ بشارات للمؤمنين حين تسمع القرآن؛ مثل هذه البشارة: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، بشرى للمسلمين لا للكفار، أما الكفار الذين يعترضون فلا بشرى لهم.

ثم الله سبحانه يذكر أيضًا شبهة أخرى تتعلق بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

- الكفار ماذا يقولون الآن؟

يقولون: محمد يذهب لشخص ويجلس عنده يعلمه القرآن، فالقرآن هذا يأتي به محمد من رجل في مكة!

هذا الرجل اسمع ماذا يقول الله عنه؛ يقول الله رادًا عليهم: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ - يميلون إليه ويشيرون إليه - ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ وهو ليس بعربي، ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ كيف هذا الكلام؟ هل هذا يعقل؟

يقولون - كما ذكر في أسباب النزول - إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يذهب إلى رجل حداد يصنع السيوف، وهذا الحداد أصله رومي لا يتكلم بالعربية بفصاحة، فيقولون إن محمدًا يجلس عنده فيروي له روايات وقصصًا ويذكر له أشياء.

ثم يأتي محمد ويقول: هذا قرآن أنزل علي! هذه شبهتهم، يقولون: إن هذا القرآن أتى به محمد من معلم، وإنما قالوا: **(معلم مجنون)**.

رد الله عليهم قال: هذا القرآن ليس من بشر، إنما هو من الله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

لسان الذي يميلون إليه ويدعون أنه منه قال: أعجمي ليس بعربي، وهذا القرآن الذي تسمعونه لسان عربي مبين، وأهل مكة وكفار قريش والعرب قاطبة كلهم يعرفون عظمة القرآن وفصاحته وبلاغته، فكيف يأتون ويقولون: هذا قرآن يأخذه من أعجمي؟! لا يمكن.

ولذلك رد الله عليهم وزاد في الرد فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٤]؛ هؤلاء لا يؤمنون بآيات الله، والذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله حتى يتوبوا ويرجعوا إليه.

أما بقاؤهم على ما هم عليه فيبقون في ضلالهم، لا يهديهم الله لأنهم لا يؤمنون بالله، هذا في الدنيا لا يهديهم الله حتى يتوبوا، أما في الآخرة: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم بين - وهم يقولون إن محمدًا يفتري ويأخذه من بشر - رد الله عليهم قال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]؛ الذين لا يؤمنون بآيات الله ولا يصدقون هم الذين يفترون الكذب.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ لا غير. انظر، كل هذه فيها قصر وحصر: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فقط، الذين لا يؤمنون هم الذين يفترون الكذب وغيرهم لا يفتري، ثم قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ لا غير.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لنا عظمة أو خطورة الكفر والشرك بالقرآن وبالإسلام وبالله، ويبين أن الإنسان لو وقع في ذلك بغير اختياره - كأن يكون مكرهًا - فإنه لا ذنب عليه ولا يؤاخذ إذا ألجئ إلى الإكراه بشدة.

فهذا الإكراه لا يحاسب الله عليه ولا يؤاخذه؛ لو أنك وقعت في مثل هذا الأمر وألجئت إلى أن تكفر بالله أو تكفر برسوله من غير رغبة منك؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يؤاخذك.

وهذا قد وقع لعمار بن ياسر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه وأرضاه؛ الصحابي الكريم كان من السابقين إلى الإسلام، عذبت أمه سمية وعذب أبوه ياسر، وكانت أمه وأبوه هما أول الشهداء في الإسلام قتلهما المشركون، وعذبه المشركون عذابًا شديدًا حتى ألجأوه أن ينطق بالكفر، فحزن حزنًا شديدًا.

فنزلت هذه الآية: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

من كفر بالله من بعد إيمانه - يعني صدق وآمن ثم كفر وارتد - ثم قال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾؛ هذا لا أثر عليه ولا حرج عليه، ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾. ولكن العقوبة على من شرح بالكفر صدرًا؛ ان يشرح صدره بالكفر ويطمئن للكفر، فهؤلاء هم الذين يؤاخذون وهم الذين عرضوا أنفسهم للعذاب.

فلذلك قال الله فيهم: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ شدة الغضب من الله وعدم الرضا عنهم، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ بسبب كفرهم وعدم إيمانهم بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو دخولهم في الإيمان ثم كفرهم بعده وهو الردة والارتداد عن دين الإسلام.

- لماذا هذه العقوبة الغليظة والغضب والعذاب؟

قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ١٠٧]؛ قدموا الحياة الدنيا القصيرة المنغصة على الآخرة، استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

وقال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾. أنت تسمع كثيرًا في القرآن: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، ثم نجد كافرين وظالمين وفاسقين يهتدون!

- كيف نقول لا يهديهم؟

ما داموا كافرين لا يهديهم، ما داموا ظالمين لا يهديهم، ما داموا على كفرهم وظلمهم حتى يتوبوا؛ فإذا تاب الإنسان هداه الله، إذا رجعوا وتابوا إلى الله تاب الله عليهم، ولذلك هنا لا يهديهم ما داموا على كفرهم.

انظر؛ قال بعدها: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [النحل: ١٠٨]؛ هذه عقوبات شديدة على من عرف الحق ثم ارتد عنه ورجع.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من شدة العقوبات: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾.

- ما معنى طبع الله على قلوبهم؟

يعني ختم على قلوبهم، لا يدخل فيها خير أبداً، أغلق خلاص! طبع الله على قلوبهم يعني أغلق على قلبه فصار لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء، مختوم على قلبه، وهذا معناه، وهذه أشد العقوبات، وهذه لا تظن أنها في الكفار فقط، بل قد تقع في أهل المعاصي.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]؛ كسبوا من الآثام والذنوب فأصبحت القلوب مسودة ومنغلقة لا تقبل خيرًا، طبع الله على قلوبهم فلا يفقهون، وسمعهم فلا يسمعون خيرًا، وأبصارهم فلا يبصرون شيئًا ينفعهم، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾؛ الغافلون عن طاعة الله، الغافلون عن ذكر الله، أصبحوا في غفلة بعيدين عن الحق.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩]؛ **(لا جرم)** أي: حقًا أنهم في الآخرة هم الخاسرون. هذا في الدنيا الطبع والعقوبات، اسمع جزاء الله عليهم أو مجازاة الله لهم في الآخرة: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته ولطفه قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]. تركوا ديارهم لله نصرة لدينه كالمهاجرين في مكة؛ تركوا بيوتهم وأموالهم نصرة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾؛ أي عُذبوا في سبيل الله، ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ أعداء الله وجاهدوا أنفسهم ﴿وَصَبَرُوا﴾ على طاعة الله؛ قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ - أي من بعد هذه الصفات الطيبة - ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ يغفر لهم ويتجاوز عنهم ويرحمهم برحمته.

لعلنا نقف عند هذا القدر ونكتفي به، وإن شاء الله لقاؤنا القادم بإذن الله نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النحل 111 – 119 آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم وهو الموافق للعشرين من شهر ربيع الأول، من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة [١٤٤٨ هـ]. نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا أيها الإخوة الكرام في (تفسير القرآن العظيم)؛ وينبغي لكل إنسان أن يحرص على تلاوة القرآن، كلام الله سبحانه وتعالى يختلف عن أي كلام من كلام البشر؛ أنت تقرأ حرفاً واحداً من كتاب الله يكتب لك عشر حسنات، كم تقرأ من حرف بالآية الواحدة! كلام الله سبحانه وتعالى له مكانته وله شرفه وله عظمته، هذا من حيث التلاوة؛ أما من حيث العلم والتعلم وفهم هذه الآيات وتدبرها، هذا شيء آخر يفوق. وصحابة النبي صلى الله عليه وسلم أخبرونا -الذين حصلوا على علم عظيم من القرآن أخبرونا- أنهم كانوا ما يتجاوزون عشر آيات فقط إلا ويتعلمون ما فيها، قالوا: **«فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»**. فهذه الآيات التي بين أيدينا نقرأها وأنت تقرأها، تحت هذه الآيات علوم عظيمة.

والقرآن لا يشبع العلماء منه، العلماء مع كثرة علمهم لا يشبعون منه، لا تنقضي عجائبه؛ فيجب علينا أن نعرف قدر هذا القرآن العظيم وما فيه من العلوم الزاخرة. سورة (النحل) كم درسنا منها! يعني مدة طويلة ونحن نقرأ في هذه الآيات؛ ما فيها من توجيهات، ومواعظ، وتذكير، ووعد، ووعيد، أشياء كثيرة؛ تذكير، أوامر، نواهي.

الآن وقف بنا الكلام عند الآية الحادية عشرة بعد المائة [١١١] من السورة، وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾. دائماً نقول أيها الإخوة: عندما تريد أن تفهم الآيات، اربط بعضها ببعض؛ لأن الآيات مترتبة بعضها فوق بعض. اقرأ الآية التي قبلها، الله يقول فيها ماذا؟ قال:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]

هاجروا؛ تركوا ديارهم وأموالهم نصرة لدين الله، هاجروا من بعد ما فُتنوا؛ عُذبوا في سبيل الله وفُتنوا في سبيل الله، ثم جاهدوا؛ أعداء الإسلام بالسيف، والسنان، واللسان، وصبروا على ما أصابهم، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. متى الله يغفر لهم ذنوبهم؟ وأشد ما يحتاج الإنسان أن تغفر له ذنوبه في يوم القيامة، اليوم هذا الشديد الذي ذكره الله هنا، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ...﴾؛ هذا اليوم هو الذي يحصل فيه، تحصل فيه، يحصل فيه الفوز العظيم والمغفرة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]

نفس؛ أي نفس: مؤمنة، كافرة، ذكر، أنثى، عالم، صغير، كبير، هذا إذا جاء يوم القيامة، كل نفس تأتي ماذا؟ تأتي لأي شيء؟ قال: تأتي تجادل عن نفسها. كيف تجادل؟ أي تدافع عن نفسها تريد التخلص. أنت كإنسان يوم القيامة سيجد أمامه أهوال عظيمة ما يتصورها الإنسان في الدنيا،

ما يدري، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، أنت تظن الأمر هين؟! هذا يوم يكون فيه الولدان شيباً، هذا اليوم المرأة تضع حملها من شدة أهواله، وترى الناس سكارى. تأتي كل نفس تجادل عن نفسها؛ تريد التخلص، تناقش، وتجادل، وتدافع عن نفسها لتخلص من العذاب وتنجو منه.

هي النفس تجادل عن نفسها، نفسها ليست تجادل عن غيرها؛ ما أحد يجادل عن أحد، الأم ما تجادل عن أبنائها، ولا الآباء ولا الأولاد يجادلون عن أبويهم، كل نفس مشغولة بنفسها تجادل عن نفسها. قال: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾؛ الله يوفيك عملك، يعني يوفيك أجر أعمالك؛ عملت أعمالاً خيرة في الدنيا، الله يعطيك أجرها من غير هضم ومن غير نقص. كيف؟ قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ما يمكن أن يظلمك الله؛ أن يزيد على سيئاتك، أو ينقص من حسناتك، كل نفس تجد ما حصّلت.

الآن أنت في الدنيا تعمل، اجتهدت في العمل وسارعت بالطاعات ستجده أمامك؛ قصرت وضَعُفت نفسك، وهذا هذا الناس الآن في هذه الدنيا كلٌ يمشي، لكن النهاية أمام الله سبحانه وتعالى في هذا اليوم، مثل ما ذكر الله: توفى كل، تعطى كل نفس أجر أعمالها إن خيراً أو شراً، توفى كل نفس ما عملت من خير أو شر وهم لا يظلمون. لا يظلم الكافر، والظالم، والطاغية ما يظلم، ما يظلم الله في هذا اليوم، يوم يقيم الله ويظهر فيه عدله سبحانه وتعالى؛ عدله للكفار وأهل المعاصي، وكرمه لأهل الطاعة.

فهذه آية عظيمة حقيقةً نحتاج إليها؛ يعني من حيث أن نفهمها ونتدبرها، ومن حيث أيضاً أن نستعد لهذا اليوم، يكون عندنا استعداد. تجد بعض الناس أوقات تضيع؛ اشغلها بالتسبيح، والتهليل، والذكر، وقراءة القرآن، والصلاة، والطاعة، اشغلها بما ينفعها، لا تضيع عمرك يذهب بدون فائدة؛ فستجد كل ما تعمله ستجد حصيلته في هذا اليوم. يوم من الأيام المشروعة في الصيام كالاثنين والخميس؛ صمته وجدت أجره، ما صمته راح، ذهب الأجر عليك. يعني هذه الحياة كذا، الإنسان يستعد ويعمل في هذه الدنيا، هذه الدنيا دار عمل.

طيب، ثم سبحانه وتعالى يذكر لنا مثلاً وقصة، شوف الآن ستأتيك في هذه السورة قصتان: القصة الأولى في الذين كفروا نعمة الله ولم يعرفوا قدرها ولم يعظموها، والقصة الثانية فيمن شكر نعمة الله ماذا جرى له. القصة الأولى في هذه القرية التي ذكرها الله؛ اسمع ماذا جرى لهذه القرية، واسمع ماذا جرى لمن شكر نعمة الله. من الذي شكر نعمة الله؟ أعظم إنسان ذكره الله في كتابه قد شكر نعمة الله، سماه شاكراً، من هو؟ إبراهيم عليه السلام؛ ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١]. وهنا اسمع قصة الذين كفروا نعمة الله.

يقول الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]

الله يضرب مثلاً في القرآن، يعني يذكرك ويشبه حالك -حال الذي يكفر نعمة الله- بحال القرية التي أصابها ما أصابها لما كفرت نعمة الله. يعني الله سبحانه وتعالى دائماً يذكر لنا في الكتاب، في القرآن، قصص الأولين؛ قصة نوح، قصة هود، قصة صالح، قصة لوط، لماذا؟ لنعتبر، ماذا جرى لهم؟ هم رجال وعندهم عقول، فلما عصوا ربهم سلّط الله عليهم أنواع من العذاب. فهنا الله يبين لك من يشكر نعمته؛ لما ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة (النحل) عدداً كبيراً كثيراً من النعم، ذكرك هل تشكر أو لا تشكر؟ إن شكرت خير لك، وإن كفرت هذا عليك.

ما هي القرية؟ نقول: قرية الله أعلم بها؛ لا ندري أين مكانها ولا ندري أين زمانها، هي قرية

من القرى الله أخبر عن حالها، وأهم شيء أنك تفهم هذه القرية ماذا جرى لها وماذا صنعت.

اسمع، يقول: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾؛ يعني الله سبحانه وتعالى أنعم عليها بنعمة الأمن، ونعمة الأمن أعظم النعم؛ أعظم من نعمة الطعام والشراب، لو عندك طعام وشراب وأنت خائف ما تأكل ولا تنام، فنعمة الأمن هي أعظم النعم. شوف قال: ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾؛ لا حرب، ولا أحد يؤذيها، ولا تنكيد في عيشها ولا شيء، مطمئنة، تخرج من بيتها وتأتي بسلام واطمئنان وأمن، قال: ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾.

وزيادة قال: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾. شوف، تأمل هذه الآية وتفكر فيها؛ الله ما قال يأتُون بالرزق يبحثون عنه -مع أنه هم الذين يبحثون- قال: لا، قال: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾، يعني الله يسوق لها الرزق من كل مكان، مثل الآن ما نعيشه نحن؛ تأتينا الأرزاق من أقصى الدنيا، من أقصى أماكن الأرض تأتينا من حيث لا نشعر، لا ندري إلا وهي موجودة في الأسواق. اسمع، قال: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾، الرغد يعني واسع كثير، يأتِيها رزقها يعني ليس رزق قليل، يمكن يجيك رزق قليل، لا؛ هذا رزق عظيم كثير، ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ واسعاً كثيراً من كل مكان بدون استثناء، من كل بقعة من بقاع الأرض، يأتيك من البلدان مما وراء البحار، تُحمل لك ويؤتى بها لك من أقصى الأرض، وأنت إن كفرت نعمة الله حاسبك الله عليها.

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾؛ ما قال بنعمة ولا نعم الله، قال: ﴿بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾، أنعم دليل على أنها كثيرة جداً، ومع ذلك كفرت بأنعم الله. أنت عاصرت بلدان قريبة منا كفروا نعمة الله، فسلط الله عليهم؛ ذهبت نعمهم، وسلط الله عليهم الأعداء، وأصبحوا يعيشون في خوف وجوع.

النتيجة ما هي؟ هم الذين كفروا بنعمة الله؛ ما استعملوها بطاعة الله، ما عرفوا قدرها، ما شكروا الله عليها، تركوها. فالنتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾؛ أذاق هذه القرية وأهلها الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. يأتيها، يعني رزقها من كل مكان، انقلبت الحال؛ أصبحوا يعيشون في جوع وفي خوف، الأمن ذهب أصبحوا في خوف، ورغد العيش ذهب عنهم أصبحوا يعيشون في جوع ما يجدون شيئاً يأكلونه. بماذا؟ ما السبب؟ قال: ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾؛ صنعهم السيئ أولاً كفروا نعمة الله ولم يشكروها، واستعملوها في معصية الله وفي الفساد في الأرض، فالنتيجة أذاقهم الله.

شوف كلمة ﴿فَأَذَاقَهَا﴾؛ أذاق، دليل على أنه ما أصابهم إلا شيء قليل من الجوع والخوف، وإلا لو أصابهم جوع شديد وخوف شديد لماتوا وما بقوا، لكن أذاقهم شيئاً، الذوق؛ في الطعام غير الأكل، لما تقول ذوق الطعام غير أن تأكل الطعام.

شوف قال: ﴿لِبَاسَ﴾، كيف لباس؟ كأن الجوع والخوف لَبِسَهم، غطاهم ما يفارقهم، مثل ما تلبس الثوب؛ الثوب ما يفارقك، تمشي، تجلس، تنام، الثوب معك، الجوع معهم والخوف معهم ما يفارقهم؛ يعني ما في تأتي ساعة يطمئن فيها، ما تأتي ساعة يشبع فيها، يعني ملازم لهم.

ثم يبين الله لهم حتى تعرف أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم الناس، هم الذين يظلمون أنفسهم. يقول:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٣]

جاءهم رسول من الله، أرسل الله إليهم رسولاً يذكرهم بنعم الله حتى يشكروه؛ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾، شوف ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الفاء تفيد السرعة، يعني بمجرد جاءهم الرسول ودعاهم على طول كذبوه، وردوا رسالته ولم يقبلوه. قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾، نزل بهم مع الجوع والخوف، الله أيضاً أنزل عليهم عقوبته؛ ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾. شوف ظالمون بما كانوا يصنعون؛ كفرت بأنعم الله، هذه كلها تصرفاتهم، كفروا وصنعهم سيئ بما كانوا يصنعون،

وظالمون فاستحقوا العذاب، والله لم يظلمهم، ما ظلمهم.

ثم سبحانه وتعالى يذكرنا جميعاً نحن أهل القرآن، اسمع! أنت يخاطبك الله بهذا الخطاب، يقول:

قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]

ليس من عند أنفسكم، هذا الطعام الذي يأتيك في بيتك ليس من جهد منك أنت، هذا الله يسوقه لك. قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾؛ الذي رزقكم هو الله، والذي أتى به هو الله، ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾؛ يقول كلوا من الحلال هذا الذي أحل الله لكم، وطيب ليس بخبيث. لكن ما هو الشرط؟ ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. تعرفون عظمة الله، وتعرفون حق الله عليكم بالعبادة، اشكروا نعمة الله.

كيف نشكر نعمة الله؟ شكر النعمة يكون على ثلاثة أشياء:

1. **الشكر أولاً بالقلب:** كيف تشكر نعمة الله بالقلب؟ تعترف بقلبك أن هذه نعمة من الله ليس جهداً منك، هذه فضل من الله عليك، والله الذي ساق لك الرزق، تعترف بقلبك؛ هذا أولاً.
2. **الشكر ثانياً باللسان:** أن تلهج بلسانك: الحمد لله على ما أنعم الله، نشكر الله ونحمده دائماً، نحمد الله؛ وُضع لك الطعام قل: الحمد لله، رُفع الطعام قل: الحمد لله، دائماً الهج بالشكر بلسانك.
3. **الشكر ثالثاً بالعمل:** يعني أن تستعمل نعمة الله في طاعته ولا تستعملها في معصيته. تجد بعض الناس الله ينعم عليه؛ أنعم الله عليك بالبصر ما تستعمل بصرك في الحرام؛ أنعم الله عليك باللسان تتكلم لا تتكلم إلا بالخير، لا تتكلم بالشر؛ أعطاك الله نعمة السمع اسمع ما أباحه الله لك وأحله لك؛ أعطاك نعمة الطعام لا تسرف ولا تبذر ولا تستعملها في معصية. اعرف نعمة الله عليك وقدرها؛ اليوم عندك وغداً تذهب النعمة ولا تبقى عندك.

ولذلك الله أباح لنا، والأصل في الأطعمة كلها أنها حل حلال. شوف قال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، أما الحرام ما أحل الله لك؛ الطعام الحرام بأي طريقة من طرق الحرام لا يجوز لك أن تأكله. وكذلك الطيب يقابله الخبيث؛ الأطعمة الخبيثة المحرمة التي تأتينا الآن كلها هذه لا يجوز استعمالها. شوف يقال:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥]

شوف، الحرام محصور، شيء قليل، والأصل الحِلُّ. قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾؛ ما هي الميتة؟ هي التي ماتت حتف أنفها من غير تذكية، ما ذُكّيت، هذه ماتت؛ طير مات، أو بهيمة الأنعام ماتت من نفسها وجدتها ميتة، هذه حرام لا يجوز. حَرَّمَ الله عليك الميتة؛ لماذا؟ لما فيها من أضرار عليك، يعني هي فيها أضرار عليك لأنها إذا ذُكّيت خرجت عنها هذه الأمراض التي فيها، الميتة.

طيب، هل هناك شيء ميت نأكله ولا كلها لا يجوز أكلها؟ نقول: لا، فيه شيء ميت نأكله، مثل ماذا؟ السمك؛ تأكله من غير تذكية، والجراد؛ الجراد ما يذكى، تأخذ الجراد وتضعه في الإناء وتطبخه من غير تذكية، والسمك والحوت كذلك، شيء واضح من الميتات.

ثم قال: ﴿وَالدَّمَ﴾؛ الدم المقصود هنا هو الدم المسفوح الذي يخرج عند التذكية، شفت إذا جئت تذكي بهيمة الأنعام عند التذكية يخرج دم يندفع بقوة، هذا الدم هو الدم المسفوح المحرم وهو نجس، لو أصاب الثياب أو البدن يجب غسله؛ نجس ومحرم، أما الدم الذي في العروق والدم الذي

في اللحم في أجزاء اللحم هذا مباح ما فيه شيء، لكن الدم المراد هو الدم المسفوح كما في آية أخرى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. هل فيه دم يجوز أكله؟ الكبد؛ دم يجوز، الطحال؛ يجوز.

طيب، قال: ﴿وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾؛ هذا محرم ما يجوز أكله، لحم فقط؟ طيب والشحم؟ نقول: كل أجزاء الخنزير لا يجوز أكلها. طيب ليش الله يقول لحم الخنزير؟ نقول لأن الآية تتحدث عن الأكل، والأصل في الأكل من البهيمة هو اللحم، وغيره تابع له؛ الكبد، والطحال، والكرش، والشحوم كلها تابعة، فالخنزير محرم لما فيه من أضرار وأمراض، سواء في شحمه، أو في عظامه، أو في لحمه، أو في أي جزء من أجزائه.

قال أيضاً -شوف هذه الآن الميتة، والدم، ولحم الخنزير، الرابع-: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾؛ ما أُهِلَّ يعني عند الذبح ذكر اسم غير الله، يعني عند الذبح ماذا تقول؟ تقول: بسم الله، الله أكبر. لو جاء شخص قال: باسم فلان، باسم اللات، باسم العزى، باسم المسيح، باسم كذا؛ هذا ما يجوز، عندها حرام، إذا ذُكر اسم غير الله عليها حُرّمت، هذا معناه ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾؛ لأن أهل الجاهلية كانوا يذبحون للأصنام، وتجد الآن من يذبح لغير الله، فهذه تحرم.

ثم الله سبحانه وتعالى بلطفه ورحمته، وشوف رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده؛ إذا اضطر الإنسان، هل يجوز له أن يأكل من هذه الأشياء، يأكل من الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ لغير الله به، أو لا يجوز؟ قال: يجوز. قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾، بس بشرط: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾. يعني ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾؛ يعني ما يأكل كثيراً، يأكل بقدر ما يسد رمقه يسد حاجته؛ يعني إذا كان لقمتين ثلاث تكفيه ما يجلس يأكل ويشوي ويطبخ، لا؛ هذه ميتة، تأكل ما يذهب عنك الجوع، هذا معنى غير باغ. ﴿وَلَا عَادٍ﴾؛ يعني أنك تأخذ معك بعضاً، إذا جاء عند الميتة وهو يرى أنه مضطر يأخذ من الميتة لحم ويدخره له في البيت؛ نقول: لا، خذ ما يسد رمقك في حالتك بس.

قال: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. يعني هو الآن ارتكب محرم لكن الله غفر له بسبب الجوع، وإلا هو حرام ما أحله الله إلا يجوز لك أكله، لكن الله عفا عنك؛ قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، غفور عفا وتجاوز، ورحيم به أن أحل الله له وعفا عنه، عفا عنه.

ثم هذه نعرف القاعدة الشرعية في الأطعمة: أن الأصل فيها الحلال، والحرام يأتيك شخص يقول: هذا حلال، هذا حرام؛ ما يجوز لك تتكلم بغير علم! شوف، الله يقول:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]

مَن أنت لتتكلم وتقول: هذا حلال وهذا حرام؟! الحلال والحرام هو حكم الله شرعه في الكتاب والسنة فقط، وأهل العلم يعرفون ويتكلمون: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]. أما تأتي تقول: هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب؛ تكذبون على الله وتقولون على الله بما لا تعلمون.

الكفار كانوا يحرمون بعض البهائم؛ ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] ما جعلها الله، ما حرمها الله، وهم يحرمونها ويقولون: هذه حرام وهذه حلال، وهذا حرام، قال الله: لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام. تجد الآن من الناس من يأتي يقول لك: هذا حلال وهذا حرام من عندك! تحلل وتحرم؟! لا، التحليل والتحريم شرع الله، ولذلك شوف قال: هذا كذب على الله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾. لا يفلحون.

قال تعالى: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٧]

يتمتعون في هذه الدنيا على كذبهم على الله، وهذه الدنيا متاع قليل، يعيش فيها فترة من الزمن

ثم ينتقل للآخرة؛ ولذلك شوف قال: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾، الدنيا ولو أعطاهم الله الدنيا هي متاع قليل، ثم في الأخير ماذا؟ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يوم القيامة؛ لأنهم كذبوا على الله، وافتروا على الله الكذب، وأفتوا بغير علم، وقالوا: هذا حلال وهذا حرام. من أنت لتتكلم؟!

من أفتى بغير علم، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: **«أَجْرَأُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا أَجْرَأُكُمْ عَلَى النَّارِ»**

ما يتكلم الإنسان؛ إذا جاءك شخص قال لك: هذا حلال ولا هذا حرام؟ قل: لا أدري، إذا ما عندك علم لا تتكلم في شرع الله في شيء.

ثم سبحانه وتعالى لما ذكر لنا المحرمات، ذكر أن هناك محرمات على اليهود خاصة، وهي في الأصل مباحة، لكن حرمها الله عليهم بسبب ذنوبهم. اسمع، يقول الله عز وجل:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]

قص الله علينا أنه حرم على اليهود أشياء في سورة (الأنعام) ذكرها؛ شوف، هذا يدل على أن سورة (النحل) نزلت بعد (الأنعام)، لأنه يقول: ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ يعني في الأنعام:

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦]

ببغيهم؛ سبب ذنوبهم وبغيهم. شوف قال هنا في سورة (النحل): ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. ما ظلمهم الله؛ ما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، كانوا يظلمون أنفسهم.

ثم سبحانه وتعالى يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى يعفو، كثير العفو، توّاب يتوب على عباده. اسمع هذه الآية إذا سمعتها انشرح صدرك لها وارتحت لها؛ لأن فيها باب خير عليك. كلنا -كل ابن آدم خطّاء- قال الله عز وجل:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]

لأن الذي يعمل السوء ويعصي الله هذا جاهل، العالِم ما يعصي؛ يعرف أن هذا حرام ويعرف أن هذه معصية، غالب الذي يعصي ربه هو جاهل. قال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾؛ شوف شرط أن يتوب إلى الله، يقلع عن الذنب ويصلح عمله مع الله، يصلح؛ يكثر من الصالحات: تابوا وأصلحوا.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. هذه بشارة عظيمة لنا؛ نحن كبشر كلنا نقع في الأخطاء، لكن ما الذي ينبغي لنا؟ أن نصلح وأن نتوب ونكثر من التوبة والصلاح، النتيجة ماذا؟ غفور رحيم.

طيب، نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الإِسْرَاء)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الإسراء 1 - 8)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الموافق للرابع عشر من شهر الله المحرم من عام 1448 من الهجرة.

أسأل الله أن ينفعنا، وأن يبارك لنافي أوقاتنا وفي أعمالنا، أيها الأخوة الكرام درسنا الأسبوعي بعد صلاة العشاء من كلّ اثنين في هذا الجامع المبارك، مع تفسير القرآن العظيم، نأخذ آيات ونبينها ونبين ما فيها من معاني ودلالات وأحكام.

وكما نمتثل أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

وقال أيضًا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]، يعني لماذا لا يتدبر الإنسان القرآن ويتأمله؟ هل أغلقت القلوب بالأقفال؟ لماذا لا تتفكر وتتأمل؟ وليس الغرض من القرآن أنك تقرأ الآيات فقط لا، مجرد القراءة فيها أجر عظيم الحرف يكون بعشر حسنات، لكن التدبر، التفكر، التأمل، هو المطلوب، هو الهدف هو الغاية.

تقرأ الآيات مجرد قراءة ما تستفيد كمن يقرأ الآيات ويفهم معانيها، ويتدبر هذه الآيات، هذا هو الهدف الذي ينبغي لكل قارئ أن يستحضر هذا الشيء أمامه عند قراءة القرآن، تريد أن تقرأ الفاتحة في صلاتك، في راتبة، في سنة، في نافلة، اقرأ الفاتحة وأنت تستحضر معاني هذه الفاتحة العظيمة التي هي أعظم سورة في كتاب الله، ما نزل في التوراة ولا في الإنجيل، ولا نزل في أي كتاب من الكتب مثل سورة الفاتحة، وأنت تقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 2].

وأنت تفكر في كلمة **"الحمد"** الثناء على الله، الثناء على الله بكل ما يستحق، الحمد كله والثناء كله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لماذا؟ لأنه رب العالمين، خالق الخلق كلهم، خالقه ورازقه، لم يخلقه ويتركه هملاً؛ بل خلقه ورزقه وأيضًا أنزل الكتب، وأرسل الرسل حتى لا يضيع هذا المخلوق أو هذا الإنسان.

ثم قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 3]، ليدلك على رحمته، وأن رحمة الله قريبة، وهكذا تمشي على سورة الفاتحة آية آية، وكلمة كلمة تتدبر وأنت تصلي، أما القراءة السريعة هكذا ما تستفيد شيئًا.

بين أيدينا أيها الأخوة سورة من سور القرآن العظيم، هذه السورة إذا أردنا أن ندخل عليها ينبغي لنا أن نعرف هذه السورة، أنت لما يُعرض عليك مثلاً سكن أو دارًا أو شقة أو نحو ذلك ما تستطيع أن تجزم عليها حتى تتعرف على محتوياتها كاملة، تُعرض عليك سيارة ما تستطيع أن تأخذها إلا بعدما تتعرف على محتوياتها كامل، القرآن وكلام الله وسور القرآن هكذا، لابد أن تتعرف على كلّ سورة.

- "سورة الإسراء" لماذا سميت بهذا الاسم؟
- ثم هل لها اسم آخر أم فقط هذا "الإسراء"؟

أولًا: **"سورة الإسراء"** سميت بذلك لأن الله ذكر في أولها قصة الإسراء والمعراج، لما قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1]، هل لها اسم آخر؟ نقول: نعم، جاء في بعض الأحاديث

تسمى بـــ **"سورة بني إسرائيل"** لماذا؟ لأن الله ذكر في آيات كثيرة الحديث عن بني إسرائيل، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: 4]، وغيرها من الآيات، السورة أيضًا تتحدث في مواضع كثيرة عن بني إسرائيل فلذلك سميت بـــ **"سورة بني إسرائيل"**.

✍ هل لها اسم آخر غير هذا؟

نقول: نعم في اسم ثالث وهو **"سورة سبحان"** يسميها بعض المفسرين بـــ **"سورة سبحان"** لأنها الوحيدة في القرآن المفتتحة بكلمة ﴿سُبْحَانَ﴾ [الإسراء: 1].

✍ عرفنا الآن أن السورة هذه لها عدة أسماء؛ طيب هل هي مكية ولا مدينة؟

نقول: المكية التي نزلت بمكة قبل الهجرة، والمدينة ما نزلت بعد الهجرة، فنقول: السورة مكية.

طيب إذا عرفت أنها مكية يعني أنها نزلت قلب الهجرة، غالب السور المكية تتحدث عن أصول الشريعة والعقيدة، لترسيخ العقيدة، مناقشة المشركين في عقائدهم وإبطالها والرد عليهم.

تتحدث عن التوحيد، تتحدث عن الإيمان بالملائكة، تتحدث عن الإيمان بالقرآن، الإيمان بالرسل، تتحدث عن هذه القضايا، قضايا مهمة، لترسيخ العقيدة، فالسورة سورة مكية بإجماع المفسرين.

✍ متى نزلت؟

نقول: **"نزلت في أواخر العهد المكي"** بالضبط متى؟ نقول: في السنة التي أسري فيها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نزلت **"سورة الإسراء"** لتبين للمشركين أن القصة التي حدثهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها بأنه أسري به من المسجد إلى المسجد الأقصى ثم عرج به السماء السابعة ودخل الجنة ورأى النار وعاد إلى فراشه في ليلة واحدة، هذا لما أخبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما صدقوه وكذبوه، فجاءت السورة تؤكد أن قضية الإسراء واقعة حقًا بلا شك.

✍ طيب متى وقعت قصة الإسراء؟

نقول: لما توفي عم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أبو طالب، لما توفي أبو طالب الذي كان ينافح ويدافع عنه بقوة، وكانت قريش تهاب أبا طالب ولا تستطيع أن تتعرض إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسوء، خوفًا من أبي طالب عمه.

ثم لما توفي وتوفيت خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا التي كانت تحثه في الداخل، كان تحثه في الداخل وأبو طالب يحميه في الخارج، فذهب هذا وذهب هذا، فتسلطت قريش على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اشتد إيذاؤها للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة، ولأصحابه.

✍ فماذا صنع؟

خرج إلى الطائف يستنصر بهم لعلهم، يعرض عليهم الإسلام فيسلمون وينصرونه، ولكنه وجد ما كان يتوقعه من الطرد والتكذيب والإيذاء؛ بل أرسلوا صبيانهم ليؤذون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويرمونه بالحجارة، حتى رجع قد ضاقت به الأرض، واشتد عليه الكرب.

فنزل من الطائف يريد أن يدخل مكة، وفي الطريق يعني انظر إلى تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحكيم حتى يفرج عن نبيه من هذا الهم والغم، لما رجع في الطريق من الطائف إلى مكة في وادي نخلة صلى الفجر، فاجتمعت عليه الجن، ولما اجتمعوا عليه الجن وسمعوا القرآن آمنوا، لما آمنوا انصرفوا إلى أقوامهم، ﴿وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: 29].

انطلقوا إلى قومهم، ﴿يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ 30 يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: 30، 31].

وفي سورة الجن قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا 1 يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: 1، 2].

الجن آمنت بمجرد موقف واحد سمعوا القرآن، وأهل مكة يسمعونه بالليل والنهار، ويكفرون ويعاندون، ويؤذون، شوفوا الفرق بين هؤلاء وهؤلاء.

فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُر لهذا الشيء وفرح، وذهب عنه الغم والهم، ثم لما أراد دخول مكة يريد أن يذهب إلى بيته وإلى أولاده منعته قريش ولم يدخل، ولم يدخل إلا بجوار المطعم بن عدي، خرج إليه وكان معه أولاده وقد سلوا السيوف، قال: يا محمد ادخل بجواري لن يؤذيك أحد، فدخل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجوار مشرك، سيد الأولين والآخرين، خير البرية، أفضلهم، خليل الله، ونبي الله، لن يدخل مكة إلا بجوار مشرك، فدخل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا أعطاه منحة أخرى لما أعطاه المنحة الأولى في إسلام الجن أعطاه منحة أخرى أكبر وأكبر، ضاقت به الأرض فأخذه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى السماء، إلى أوسع من الأرض، فأسري به، وعرج به إلى السماء؛ لأن الأرض ضاقت به، فوقعت حادثة الإسراء والمعراج تقريبًا قبل الهجرة بثلاث سنوات، بعد وفات عمه وزوجته خديجة، قبل الهجرة بثلاث سنوات، بعدما مضى في دعته عشر سنوات جاءت قصة الإسراء والمعراج.

العجيب أن قصة الإسراء معجزة عظيمة، القرآن أثبت قصة الإسراء وهي معجزة عظيمة وهي معجزة حسية، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في **"سورة الإسراء"** أثبت ما هو أعظم من معجزة الإسراء والمعراج.

الإسراء معناه: **"انتقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ذهابه من مكة إلى بيت المقدس في فلسطين"**.

المعراج معناه: **"العروج إلى السماء"**.

أهل مكة يعرفون أن الإنسان يقطعه على الإبل المسافة من مكة إلى بيت المقدس إلى القدس في أربعين يومًا، يأتي محمد يقول لهم أنا قطعتها في جزء من الليل وذهبت إلى السماء وعدت ونمت في فراشي، هذا لا يفهمه العقل مستحيل، وهذا في نظرهم هم، أما في حكم الله لا، لكن هم في نظرهم القاصر كيف؟ وبدؤوا يكذبون، حتى ذهبوا إلى أبي بكر الصديق؛ فقالوا: إن صاحبك أصابه جنون، يقول: ذهبت وصليت في المسجد الأقصى، وعرج بي إلى السماء، وعدت إلى فراشي في جزء من الليل، قال: **"هو قال هذا؟"** قالوا: نعم، قال: **"قد صدق"** فسمي بالصديق.

طيب أنتم يا أهل مكة تريدون معجزات حسية، يريدون معجزات حسية؛ حتى أنهم قالوا: يا محمد نحن لا نصدق أنك رسول، إذا أنت رسول أعطنا آيات حسية حتى نصدقك، مثل ناقة صالح، فهي آية حسية، ومثل عصا موسى فهي آية حسية، ومثل يد موسى، أنت ما عندك آيات حسية، قال: **"القرآن"** قالوا: لا، ما نريد القرآن.

قال: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: 90]، تضع ينبوع في مكة، فتجر من الأرض ينبوع، هذه معجزة، ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: 91].

هذه معجزة؟ قالوا: نعم؛ حتى نؤمن لك، قالوا: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: 91]، لن نؤمن لك إلا إذا وضعت ينبوع بئر، قالوا: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا 91 أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: 91، 92].

ألم تقل: يأتيكم العذاب من السماء؟ هات العذاب، ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: 92]، قطع، هذه معجزة، ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: 92]، يعني أمامنا ننظر إليهم، تأتي بالله والملائكة قبيلاً، ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: 93]، يعني من ذهب، ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ [الإسراء: 93]، كما زعمت، هم يقولون: أنت تزعم أنك رقيت إلى السماء، ﴿ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ [الإسراء: 93]، ما نصدق أنك رقيت، ﴿حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: 93].

✍ما هو هذا الكتاب؟

قالوا: هذا الكتاب مكتوب فيه أسماء أهل مكة قريش، يا فلان يا فلان، يا أبا جهل، يا أبا لهب، يا فلان آمنوا بمحمد؛ فإنه رسول، إذا جئتنا بكتاب بهذه الصفة نؤمن لك، ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: 93].

قال: ﴿قُلْ﴾ [الإسراء: 93]، قل لهم، ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: 93]، يعني أنتم تريدون هذه المعجزات، وفي أمر آخر قالوا: يا محمد إذا أردت أن نؤمن لك اقلب لنا الصفات جبل الصفا اقلبه ذهبًا، إذا أصبح ذهبًا آمنا، ومرة قالوا: شق لنا القمر شقين ونؤمن، كلّ هذه معجزات حسية ما تبقى، ما لها أثر.

الإسراء المعراج وقع حقيقة ومعجزة عظيمة لكنه انتهى، انشقاق القمر انشق القمر وثبت انشقاقه وهو معجزة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكنه انتهى، والقرآن معجزة باقية، ولذلك السورة لما ذكر فيها معجزة الإسراء والمعراج أكد القرآن أو أكدت السورة على قضية المعجزة الحقيقية الثابتة الراسخة، الباقية الدائمة وهي معجزة القرآن.

ولذلك ذُكر فيها لفظ القرآن أكثر من ثماني أو تسع مرات في السورة، يؤكد الله، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [الإسراء: 9]، الذي جاءكم يا أهل مكة، ﴿يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، يهدي إلى أحسن الأخلاق والأعمال، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا 9 وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: 9، 10].

هذا القرآن، القرآن باقي غض، غض طري، لا يتغير مع مرور الأزمنة، وإعجازه مستمر، أعجز الخلق جميعًا، والله تحداهم، قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: 23]، ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ [هود: 13].

حتى السورة هذه وأنت تقرأها تجد فيها تحدي لهم، التحدي في السورة يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ﴾ [الإسراء: 88]، جميعًا، ﴿وَالْجِنُّ﴾ [الإسراء: 88]، جميعًا، ﴿عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

لو تعاونوا وتكاتفوا، وتجالسوا، وعقدوا مجالس، وندوات ما استطاعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولذلك السورة أكدت على قضية أن الإعجاز الحقيقي هو القرآن الكريم، ولذلك انبهروا.

وأنت تقرأ في هذه السورة تتعجب من مواقفهم، الآن في ثنايا السورة تجد مواقف لهم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا 46 نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: 46، 47]، يعني يستمعون إلى القرآن، ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: 47]، يعني يتحدثون خفية، ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: 47].

يتناجون ثم ينتهون على أنه رجل مسحور، يعني هم يستمعون القرآن ويتعجبون منه، لكن ما كتب الله لهم أن يؤمنوا به، ولذلك قال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: 45]، ما يفقهون، ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ

وَقْرًا﴾ [الإسراء: 46]، بسبب أنهم لم يقبلوا على القرآن حتى تفتح لهم الآذان والقلوب، إذًا المعجزة حقيقة هو القرآن، تركز على قضية القرآن.

✍ ما زلنا في مقدمة السورة، هل السورة ورد في فضائلها شيء؟

نقول: نعم، ورد عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان لا ينام كلّ ليلة، لا ينام حتى يقرأ **"سورة الإسراء"** والزمر، كلّ ليلة يقرأ **"سورة الإسراء"** والزمر، وهذا يدل على فضلها.

أيضًا هذه السورة مثلما ذكر ابن مسعود من السور المكية، يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"إن بني إسرائيل"** يعني **"سورة الإسراء"، "والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء"** ذكر خمس سور متتالية مركبة، على حسب الترتيب في المصحف.

قال: **"إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي"** يعني أنها نزلت مبكرًا، أو نزلت قبل الهجرة يعني مكية.

إذًا الآن تعرفنا على السورة من حيث تسمية السور، ومن حيث أيضًا موضوع السورة، وعما تتكلم عنه، موضوعاتها وعما تتحدث عنه، وما هي المعجزة الحقيقية؟ الرد على المشركين وخاصة في قضية إنكار البعث، هم ينكرون البعث، يقولون: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: 49]، قال الله: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا 50 أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: 50، 51]، يعني سيبعثكم الله مهما كان، فردت على المشركين في قضية الإيمان بالبعث والجزاء والجنة والنار.

✍ قبل الدخول على السورة وعلى بيان آياتها، ما هي قصة الإسراء والمعراج؟

مثلما ذكرنا لكم: الإسراء معناه أنه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: 1].

أسري به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان نائمًا في بيت أم هانئ، ثم أسري به، هذا على قول أنه جاءه جبريل وأخذه، وأركبه دابة، هذه الدابة هي ما بين الخيل والحمار تسمى البراق يركبها الأنبياء.

البراق سرعة عالية جدًا، يعني يضع حافره عندما ينتهي بصره، ولا ينتهي بصره إلا على مسافة بعيدة، فكان سريعًا، فركب جبريل وأركب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وانطلق به من مكة إلى بيت المقدس.

✍ أسرى به في الليل، يقظة ولا كان نائم؟

نقول: يقظة، لو كان نائم لأصبحت رؤيا، الرؤيا ما أحد يستنكرها، لو قال لأهل مكة: إني رأيت في المنام، ما أحد يعترض عليه، كلٌّ يرى في المنام أشياء عجيبة، وإنما هي يقظة، أخذه معه أردفه.

✍ هل أسرى به بروحه وجسده في مكة ولا بالروح والجسد؟

نقول: بالروح والجسد وإلا ما أصبحت معجزة، فانطق به من مكة هذا قول، قول أنه من بيت أم هانئ، ولذلك الله ماذا قال؟ قال: ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: 1]، وهذا يدل على أن مكة كلها الحرم حكمه حكم المسجد الحرام، يعني سليت في أي مسجد من مساجد مكة في أي مكان أو حي من أحياء مكة فكأنك صليت في الحرم، هذا القول هو الصحيح من أقوال أهل العلم أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع أقام بالأبطح، والأبطح قريب من الحرم فكان يصلي في الأبطح، وهو يدري ويعلم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن صلاته في المسجد الحرام بمائة ألف، ما كان يذهب إلى المسجد الحرام؛ بل كان يصلي في الأبطح.

هذا يدل على فضل الحرم كله، وأن الأجور مضاعفة، فلا يشق الإنسان على نفسه بأن يصلي في الحرم، لاشك أن الصلاة في مسجد الكعبة أفضل، وأمام الكعبة أفضل، وتحصل على صلاة الجنائز وغيرها، لكن لا تشق على نفسك، إذا ما تيسر صل في أي مكان من محيط الحرم؛ لأن الله قال: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: 217].

هل أهل مكة أخرجوا المؤمنين من المسجد الحرام ولا من بيوتهم؟ أخرجوهم من بيوتهم، أصبحت البيوت حكمها حكم المسجد الحرام.

وقال أيضًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: 95]، هل الهدي يذبح تحت الكعبة؟ الهدي يذبح في منى، كيف يقول: بالغ الكعبة؟ نقول: هذا يدل على أنهم واحد كلهم.

وأيضًا لما وصل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحديبية على حدود الحرم منعته مكة في العمرة في صلح الحديبية، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: 25]، ما قال: صدوكم عن مكة، هم صدوهم عن مكة، ولكن قال: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: 25].

أدلة كثيرة تدل على أن حكم الحرم حكم المسجد الحرام، من صلى هنا أو صلى هنا الأمر فيه سعة.

فأسري بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مكة وانطلق به جبريل، وقطع هذه المسافة كلها حتى وصل المسجد الأقصى، فربط كالدابة في حلقة الباب ودخل، فعرض عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جميع الأنبياء بأرواحهم وإلا هم في قبورهم، فقام وصلى بهم إمامًا، ولما صلى بهم عرج به

جبريل إلى السماء ففتحت السماء الدنيا، فلما فتحت وجد فيها آدم، فسلم قال: هذا آدم، فسلم عليه فقال: **«مرحبًا بالابن»**، فرحب بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم السماء الثانية، إلى السماء السابعة، إلى أن وصل إلى سدرة المنتهى، سدرة المنتهى فوق السماء السابعة وتحت العرش، والمنتهى لأنه ينتهي إليها علم العلم، وينتهي إليها من علم الله إلى الدنيا، فهي السدرة ما بين هذا وهذا.

ودخل الجنة ورآها، وثبت عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه دخل الجنة، وقال: **«رأيت قصرًا لعمر فأردت أن أدخله فتذكرت غيرة عمر فرجعت»**، ونظر إلى النار قال: **«واطلعت على النار فوجدت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار»**، يعني أمعاءه، لماذا؟ قال: **«لأنه هو الذي أتى بالأصنام من الشام ووضعها في مكة»**، حتى انتشر الشرك في مكة، وهكذا.

يقول: **«رأيت رجالًا ونساء يخدشون وجوههم وصدورهم بأظفار من حديد، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويتعرضون لأعراض الناس»**، مثل الغيبة والسب والكلام في أعراض الناس ونحو ذلك، الإنسان يحذر حتى لا يُحشر أو يأتي يوم القيامة وهو يعرض نفسه لهذه العقوبة الشديدة.

ثم عاد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة ونام في فراشه قبل الفجر، فلما جاء النهار أخبر أهل مكة، وقالوا: كيف ذهبت؟ قال: كذا وكذا، قالوا: صف لنا الطريق، فكشف له الطريق أمامه، قال: رأيت كذا، ورأيت كذا، فأخبرهم بكل ما حصل فكذبوه.

طيب أنتم تقولون: افجر لنا ينبوعًا، وهو أعطاكم الآن معجزة، كذبتم، يعني لو أتيناكم بكل المعجزات لن تؤمنوا ولن تصدقوا.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا هذه القصة حتى يثبت أنهم لا يريدون الحق، ولا يريدون الإيمان؛ بل يريدون العناد، ولذلك جاءهم أعظم معجزة وهي معجزة القرآن.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بداية هذه السورة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ [الإسراء: 1]، **"سبحان"** مصدر، **"سبح يسبح"** أنت تسبح تقول: **"سبحان الله"** هذا تسبيح، التسبيح مصدر، **"سبح يسبح سبحان"** فـ **"سبحان"** يؤتى بها عند التعجب أو التنزيه، لما يأتي كلام لا يليق بالله تقول: سبحان الله، هذا ما يليق، أو ترى شيئًا مستنكر لا يليق تقول: سبحان الله، يعني اتهمت عائشة بالإفك ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ قال: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 16].

فأنت إذا أردت التنزيه تقول: سبحانك، وإذا أردت العجب تقول: سبحان الله، إذا رأيت منظرًا هائلاً عجيبًا يعني مثلاً شلالات وخضرة وأشياء عجيبة وطيور تقول: سبحان الخالق، كلمة سبحان تستعمل بمعنى تنزيه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن صفات النقص، أو التعجب من آيات الله وآلائه العظيمة في الكون.

هنا قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ [الإسراء: 1]، على أي شيء نحملها؟ على التنزيه، الله ينزه نفسه ويعظمها بأنه أنعم على نبيه بهذه المعجزة العظيمة، وأنهلا يجوز، ولا ينبغي لهؤلاء المشركين أن يستنكروا، وأن يعترضوا، كيف تعترض؟تعترض على قدرة الله؟! الله قادر على أن يأخذهم في لحظة ويعيدهم في لحظة، يقول للشيء: **"كن فيكون"**.

قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ [الإسراء: 1]، تنزيه لله أنكم تقولون: إن محمد يكذب على الله، أو أنه لم يُسر به، ولم يُعرج به، لا، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ [الإسراء: 1]، تنزيه له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي نفس الوقت ممكن تحملها على التعجب، عجبًا هذه آية عجيبة، آية عجيبة الناس يقطعون المسافة من مكة إلى بيت المقدس أربعين يوم، ومحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقطعها في جزء من الليل، هذا شيء ملفت عجيب.

قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ [الإسراء: 1].

✍ الإسراء ما هو؟

هو: **"الذهاب ليلاً"** ما تقول الإسراء في النهار، لو ذهب شخص في النهار ما يقال له: أسرى، يُقال: سرينا نسري أي بالليل فقط.

قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ [الإسراء: 1]، وهذا يدل على أن ذهابه كان ليلاً.

🗐 في وقفة هنا عند الإسراء:

✍ هو ذهب ليلاً، متى ذهب؟ في أي تاريخ؟ وفي أي شهر؟ وفي أي سنة؟

عرفنا أنه قبل الهجرة بثلاث سنوات، لكن أين؟ نجد أن أهل التاريخ اختلفوا، فبعضهم قال: في ربيع، وبعضهم قال: في رجب، وبعضهم قال: في كذا في خلاف، هذا الاختلاف يدل على أنه غير واضح، وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته لم يهتموا بهذا الأمر، أسرى في تاريخ كذا أو أسرى في تاريخ كذا، فلا يُعرف.

أما القول بأنه في سبعة وعشرين رجب، وأنه ينبغي أن نحتفل بهذه الليلة، وأن نحييها وأن نقوم ونصلي، ونأخذ عمرة فيها، كلّ هذا من البدع التي لم ينزل الله بها سلطان، ولم يدل عليها دليل، والشيطان يفرح إذا حصل على مثل هذه البدع ليحث الناس عليها.

ولذلك تجد أعداد هائلة من أبناء المسلمين من يقوم بالاحتفال في هذا، ما احتفل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا احتفل الصحابة حتى تأتي أنت تحتفل، هل أنت أعلم منهم وأفهم منهم وأقدر منهم؟ لا، هم أعلم منك، فالاحتفال بمثل هذا الشيء من البدع التي لم يأمر الله بها؛ بل هي من أوامر الشيطان الذي يحثهم على إحداث البدع في الدين.

قال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1]، من هو؟ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

✍ طيب لماذا قال: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1]..؟

نقول: العبودية شرف، شرف أن تكون عبدًا لله ولا تكون عبدًا لحجر أو شجر أو عبدًا لميت، فأنت عبد لله وهذا شرف لك، ولذلك لما جاء في مقام الإسراء قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1]، لما جاء في مقام الإنزال قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الكهف: 1]، لما جاء في مقام التحدي قال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: 23].

ولما جاء في الدعوة إلى الله قال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: 19]، حتى عيسى قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: 30].

شرف أن تكون عبدًا لله، لا تكون عبد لمخلوق يموت ويهلك، لذلك قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1].

عرفنا أن الإسراء لا يكون إلا في الليل، طيب لماذا قال: ﴿لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1]..؟ قال: ليدل على أنه جزء قليل من الليل، ذهب وعاد إلى فراشه، حتى قيل: إن فراشه لم يبرد، ذهب وعاد إلى مكانه.

قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: 1]، **"من"** ابتدائية، يعني من المسجد الحرام، ولذلك اختلف أهل العلم وأهل السير، هل أسري به من بيت أم هانئ أم أسري به من المسجد الحرام؟ على أقوال.

بعضهم قال: إنه بات في بيت أم هانئ، وبعضهم قال: إنه أسري به من الحجر، الحجر الذي يسمى الحطيم، الحجر الذي في الجهة الشمالية من الكعبة، قالوا: إنه كان هناك فجاءه جبريل فأخذه، على خلاف.

وبعضهم وفق بين القولين فقال: إنه بات في بيت أم هانئ ثم لما جاء جزء من الليل ذهب إلى الحجر، ومكث فيه بين النوم واليقظة فجاءه جبريل، والله أعلم بذلك.

قال: ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: 1]، **"إلى"** حرف يفيد الغاية، يعني المسجد الأقصى الذي هو القدس، أو المسجد الأقصى المعروف الذي في فلسطين.

المسجد الأقصى قيل: الذي بناه سليمان، وقيل غير ذلك، وبين المسجد الأقصى وبين المسجد الحرام أربعون سنة أو أكثر.

الشاهد: أن المسجد الحرام هو أول بيت وضع للناس، ثم بُني المسجد الأقصى، سمي بالأقصى لبعد المسافة، وهو من المساجد الثلاثة التي تشد لها الرحال، تشد لها لرحال أي يُسافر لها من أجل العبادة.

إذا أردت أن تسافر إلى مكان تتعبد الله فيه لا يجوز لك أن تسافر إلى أي مكان إلا إلى المساجد الثلاثة فقط، المسجد الحرام والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى.

والمسجد الأقصى الصلاة فيه بخمسمائة صلاة، لو صلى الإنسان في المسجد الأقصى كأنه صلى خمسمائة صلاة، وفي المسجد النبوي عن ألف، وفي المسجد الحرام عن مائة ألف، فهو من المساجد الفاضلة التي تُشد لها الرحال.

أما يأتي شخص ويقول: أنا أشد رحالي مثلاً لأي مسجد على وجه الأرض ما يجوز، تسافر ما في مانع، سافر واذهب إلى البلد، لكن تقول: أنا أريد أن أذهب علشان أصلي في هذه البقعة هذا لا يجوز، لا تشد الرجال إلا لهذه البقاع.

قال: ﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: 1]، ثم أثنى الله على المسجد الأقصى، قال: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: 1]، ما هي وجه البركة التي حصلت؟ نقول: إنه مبعث الأنبياء، عيسى وأيضًا ذكريا ويحيى أنبياء كلهم بعثوا هناك، وكذلك البركة تكمن أيضًا في الرسالات ومهبط الوحي، إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، كلهم كانوا هناك، فهي مهبط الوحي.

وداود وسليمان كلهم في القدس، فهذا مبعث الأنبياء ومهبط الوحي، وكذلك من الناحية الدنيوية أن الله بارك فيه بكثرة الأشجار والثمار، والأنهار، والمكان الخصب، كلّ هذا حصل في هذا الذي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: 1].

ثم قال: ﴿لِنُرِيَهُ﴾ [الإسراء: 1]، من؟ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذي أسرى عبده، ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: 1]، الله أراه آيات عجيبة، أعظم الآيات التي رآها سدرة المنتهى، والسموات والأنبياء، والجنة، والنار، هذه كلها عجيبة، آيات.

قال: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: 1]، حتى تثبت نبوته أمام قومه، ومع ذلك ما آمنوا، ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1]، **"إنه"** يعني الله، الآية فيها التفات بلاغي، كيف ﴿نُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: 1]..؟ هذا كلام، ثم قال: ﴿إِنَّهُ﴾ [الإسراء: 1]، ضمير غائب، تغيير الضمائر يسمى التفات.

قال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1]، الله سميع لأقوال قومك ماذا يقولون؟ بصير بأحوالهم، وسميع لك ماذا قلت لكم؟ وبصير بحالك، فهو سميع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصير.

إذًا هنا الحديث عن الإسراء واضح باختصار جدًا، يعني حادثة واضحة وهي معجزة عظيمة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن قومه لا يؤمنون، ولو جاءت كلّ آية لا يؤمنون.

ثم انتقلت الآيات للحديث عن أبي إسرائيل وعن موسى، قال: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [الإسراء: 2]، ما علاقة موسى بالإسراء؟ نقول: في علاقة وثيقة جدًا، تعرفون في ليلة الإسراء فرضت الصلاة، وكانت كم؟ خمسين، كانت خمسين صلاة، فلما رجع إلى موسى وهو في السماء السادسة

فقال له موسى: **«ماذا فرض الله عليك؟ قال: فرضي خمسين صلاة، قال: لا تستطيع لا أنت ولا قومك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف»**، فما زال يرجع إلى أن أصبحت خمس صلوات في اليوم، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **«هي خمس في الفعل وخمسين في الأجر»**.

يعني أنت تصلي في اليوم خمس صلوات يكتب لك خمسين صلاة، شوف الفعل، وموسى له فضل على أمة محمد بعد محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه كان يراجع في هذا الشيء، ولذلك ذكرت قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعده، هذا من وجه، ومن وجه آخر أيضًا الحديث عن بني إسرائيل وإقامة الحجة عليهم، أن هذا القرآن أخبر عن أشياء هم يعرفونها في كتبهم.

دائمًا يقرن الله كثير في القرآن بين قصة موسى وبين قصة محمد؛ لأن كلاهما له كتاب، موسى التوراة، ومحمد القرآن، ولأن كلاهما لهما شريعة مستقلة، ولأن أتباع الأمم أكثرهم هم أتباع موسى وأتباع محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي تشابه ما بين محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما بين موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [الإسراء: 2]، أي التوراة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ [الإسراء: 2]، أي التوراة هذا الكتاب، ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: 2]، يقول: أنزلنا عليهم الكتاب وأنتم يا أهل مكة ما آمنتم بالكتاب، ما آمنتم بالقرآن، والله أنزل الكتاب على بني إسرائيل وأخذوه، لكن حرفوه بعد ذلك.

قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الإسراء: 2]، يهتدون به من ظلمات الجهل إلى نور الطاعة والعلم.

قال: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 2]، يقول: أنزلنا عليهم الكتاب وأرسلنا إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى يعبدوا الله وحده، ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 2]، يعني ألا تتعلقوا بغير الله في أموركم، يعني أنت تتخذ الله وكيلاً بمعنى أنك لا تتعلق بمخلوق، المخلوق ما ينفعك، قد يضرك ولا ينفعك، الذي ينفعك هو الله، تعلقك برب العالمين.

ولذلك الوكيل والتوكل عبادة، يعني تجعل الله ويكل، تجعل الله وكيلاً عليك هذه عبادة، التوكل نوع من أنواع العبادة، الاستعانة والتوكل، وغيرها من أنواع العبادة هذه عبادات كثيرة، استغاثة لا تستغيث إلا بالله، لا تستعين إلا بالله، لا تتوكل على مخلوق، وإنما تتوكل على الله بمعنى أنك تتعلق بربك، لا تتعلق بمخلوق، الذي يأتيك بالخير هو الله، الذي يصرف عنك الشر هو الله.

نحن يغيب عنا قضية أو عبادة التوكل على الله، نفوض أمرنا إلى الله في جميع أحوالنا، لن يأتيك بالخير إلا الله، تصرفاتك هذه كلها بيد الله، ففوض أمرك إلى الله، هذا معنى التوكل الذي قد يغيب عنك.

قال: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 2]، يعني لا تعبدوا غيري، ولا تعتمدوا على غيري، ولا تتعلقوا بالمخلوقين، المخلوقين لا يملكون الذي ولا ينفعونك.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 3]، يعني يا ذرية، ينادي بني إسرائيل يقول: أنتم ذرية تفضل الله عليكم وعلى آباءكم بأن حملكم في سفينة نوح؛ لأن كلّ من على الأرض غرق ومات إلا من كان في السفينة، فالله أنجى آباؤكم، وأجدادكم وأسلافكم، فتذكروا هذه النعمة، يا ذرية من حملنا مع نوح.

ثم أثنى على نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3]، قال: ﴿عَبْدًا﴾ [الإسراء: 3]، لأن العبودية شرف، قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3]، كثير الشكر، وفيه لمحة أو إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يكون شاكرًا لربه دائمًا.

قال بعدها: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: 4].

قضينا يعني أخبرنا وأعلمنا بني إسرائيل بأن هناك أمرًا لابد أن يقع في قضاء الله وقدره، ما هو؟ أنهم سيفسدون في الأرض، يفسدون في الأرض كم مرة؟ مرتين، وهذا حصل منهم، كلّ هذا مضى.

قال: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: 4]، المرة الأولى ثم المرة الثانية، قال: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ [الإسراء: 4]، يعني الفساد بالشرك والكفر والمعاصي، والقتل والسلب والنهب إلى غر ذلك.

قال: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 4]، يعني تتكبرون، العلو في الأرض التكبر، تتكبرون في الأرض، ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 4]، تفسدون وتتكبرون وتبطرون نعمة الله.

قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ [الإسراء: 5]، أي الإفساد الأول، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: 5]، إذا أفسدتم في الأرض الفساد الأول الله سيسلط عليكم من يقتل منكم ويشردكم ويؤذيكم بأشد الأذى.

قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾، يعني أرسلنا جنودًا، ﴿عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء: 5]، جاسوا يعني دخلوا وخرجوا، وتسلطوا وسيطروا عليكم، يعني سلكوا الديار طريقًا طريقًا، ذاهبين وراجعين، يعني خلاص حكموا عليكم، يعني دخلوا بلادكم وحكموكم وأصبحتم في حكمهم.

قال: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾ [الإسراء: 5]، يعني الله وعد وحصل هذا الوعد منه أنكم إذا أفسدتم وآذيتم وخربتم الديار أن الله سيسلط عليكم من يقتل منكم، ومن يشردكم، ومن يأسركم، ومن يجعلكم في أسوأ حال، وحصل هذا.

لكن قضية من هم الذين أرسلهم، قال: ﴿عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: 5]، في خلاف طويل في التاريخ هل هذا بختنصر أو هو ملك كذا أو ملك كذا؟ الله أعلم، المهم أن الله سلط عليهم، القرآن أبهم هذا شيء لأننا لسنا بحاجة له.

قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ﴾ [الإسراء: 6]، كيف رددنا لكم الكرة؟ أعادهم مرة ثانية إلى الخير، وبسط الرزق والأمن والأمان، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: 6]، على هؤلاء، فذهبوا تركتموهم، ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: 6].

أعطيناكم قدرة وقوة وأموال وبنين وأعدنا لكم كلّ النعم مرة أخرى، فهل ستشكرون الله أم تفسدون مرة أخرى، هذا الفساد الأول سلط الله عليكم، والآن أعاد لكم الأمن والأمان والرزق، ماذا ستفعلون؟

ولذلك قال: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: 7]، إذا أحسنتم أنتم فالنفع عائد عليكم، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ [الإسراء: 7]، إذا أسأتم أنتم، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7]، هذه الإساءة ستعود عليكم أنتم بالضرر، الضرر سيرجع عليكم.

هذه قاعدة: من أحسن سواء من بني إسرائيل أو من أي أمة فالإحسان له، تحسن لك أنت، تصلي، تحافظ، تستقيم على طاعة الله، هذا الإحسان لك أنت، تحسن لوالديك هذا بر لك، تحسن إلى الجيران، وهكذا.

قال: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: 7]، وإن أسأتم وأفسدتم فلها يعني العقوبة عليكم.

ثم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ [الإسراء: 7]، هذا الإفساد الثاني، إذا جاء وعد الآخرة أنكم أفسدتم، كأنه قال: جاء وعد الآخرة الذي أنتم أفسدتم فيه كما أفسدتم في الأول.

قال: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: 7]، أي أن الله سيسلط عليكم من يسيئكم ويذلكم؛ حتى تصبحوا ذليلين.

قال: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ [الإسراء: 7]، أي المسجد الأقصى مرة ثانية، ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: 7]، يدخلون المسجد الأقصى ويقتلون، ويشردون، ويبطشون بكم.

قال: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: 7]، أي يخربوا ويفسدوا ويدمروا، ﴿مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: 7]، أي تدميرًا.

قال: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: 8]، بهذه الآيات وبهذا التسلط حتى تعودوا إلى ربكم حقيقة، وتتوبوا من الإفساد، ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ [الإسراء: 8]، إذا تبتم إليه ورجعتم إليه، ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ﴾ [الإسراء: 8]، إلى الفساد، ﴿عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: 8].

يقول: في الدنيا سلطنا عليكم من يؤذيكم، ويشردكم، ويقتلكم، ولكن يوم القيامة أشد وأنكى، ما هو؟ جعلنا جهنم هي مصيركم، وجعلناها حصيرًا لكم، الحصير هو الذي يُجلس عليه، أصبحت مهاد، أو حصير معناها محصور، جنهم محصورة عليكم يعني مغلقة الأبواب عليكم.

لعل نقل عند هذا القدر ونكتفي به، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

(الإسراء 9 - 21)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الموافق للثامن والعشرين من شهر الله المحرم من عام 1448 من الهجرة، أسأل أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا أيها الأخوة الكرام في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي **"سورة الإسراء"**، وتسمى أيضًا في بعض المصاحف وفي بعض الأحاديث بـــ **"سورة بني إسرائيل"** وأيضًا تسمى بـــ **"سورة سبحان"** لافتتاحها بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ [الإسراء: 1].

وقد ورد في فضلها أحاديث؛ منها أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينام حتى يقرأ **"سورة الإسراء"** أو **"سورة بني إسرائيل"** و**"سورة الزمر"** في كلّ ليلة.

وهذه السورة كما تحدثنا عنها في لقاءنا الماضي هي من السور المكية التي نزلت في العهد المكي قبل الهجرة، وهي تتحدث عن هذه المعجزة العظيمة التي نالها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الإسراء والمعراج، فهي معجزة عظيمة.

أسري به من مكة إلى بيت المقدس ثم عرج به إلى السماء السابعة في جزء من الليل، ولذلك أنكر المشركون واستبعدوا هذا الأمر.

كان الرجل ينطلق من مكة إلى بيت المقدس يأخذ أشهر أو نحو ذلك، فكيف يقطعها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في جزء من الليل ويرجع وينام في فراشه إلا أن هذا أمر معجز؟!!

والقرآن أو السورة تؤكد على أن المعجزة الحقيقية للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي القرآن الكريم، وليست هذه، هذه معجزة حسية، لها زمن محدد وتنتهي، كلّ المعجزات الحسية اليد والعصا لموسى والناقة لصالح هذه معجزات حسية في وقتها.

لكن القرآن معجزة باقية على مر السنين وتجدد، في كلّ زمان يظهر في القرآن معجزات وآيات عظيمة، ولذلك تلاحظ في هذه السورة وأنت تقرأ هذه السورة تجد أن كلمة القرآن فيها تتكرر كثيرًا، دليل على أن المعجزة الحقيقية للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي القرآن.

فالمحور والأساس والموضوع الأساس في هذه السورة وإن كان قد قدم بمقدمة وهي معجزة الإسراء والمعراج في أولها، إلا أنها تركز على قضية أن هذا القرآن هو المعجز، وهذا المنهج في الحياة، ولن يستطيع الإنسان أن يعيش بعيدًا عن القرآن.

فإن عاش بعيدًا عن القرآن عاش في همٍ وغمٍ وضيق، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: 124].

والحياة الحقيقية هي بالقرآن، ولذلك انظر الآية التي معنا وهي الآية التاسعة من **"سورة الإسراء"** ومثلها الآية التاسعة في **"الحجر"** كلها تشير إلى عظم هذا القرآن الكريم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، الله يخبر عن أي شيء؟ عن هذا القرآن، عن شرف القرآن وجلالته وعظمته.

وقف عند كلمة ﴿يَهْدِي﴾ [الإسراء: 9]، هو ما قال: إن هذا القرآن **"هُدًى"** أو **"هَدى"** لا، حركة متجددة يعني يهدي في كلّ وقت وفي كلّ زمان، يهدي إلى أي شيء؟ ومن يهدي؟ يهدي من أقبل

عليه، من أقبل عليه وعرف قيمة القرآن كان القرآن هداية له، ومن أعرض كان القرآن عليه عمى، لا يزيده إلا بُعدًا.

فالقرآن يهدي، يهدي من؟ يهدي من أقبل عليه، يهدي المؤمن الذي يعرف قيمة القرآن، ويقرأ القرآن ويعطيه قيمته، ويعطيه مكانته، ويكون له حيزًا في حياته، يكون له وقت في حياته.

ما يجعل القرآن إن وجد وقتًا وإلا ليس من الضروري أن أقرأ، تجده يجلس على أشياء أخرى تأخذ من وقته وهو لا يشعر، ساعات طويلة والقرآن لا يجد له مكان، فالذي يعرف قيمة القرآن، ويحب القرآن ويحب كلام الله ويقبل عليه ويعرف منزلة القرآن وما فيه من الأجور العظيمة هذا الذي يهديه القرآن.

ولو كنت مهتديًا، ولو كنت تصلي، ولو كنت من أهل الخير يزيدك هدًى، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ﴾ [محمد: 17].

قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، التي هي أقوم ما هي؟ هي الملة، الطريق، السبيل، المنهج، يهديك، ما معنى أقوم؟ يعني أعدل، وأعلى، وأعظم، القرآن يهدي أهله وأصحابه للخصال التي هي أقوم، للأخلاق، الأعمال، العقائد، يهديك هذا القرآن، أو يهديك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا القرآن للصفات والخصال التي هي أعدل وأقوم وأفضل في كلّ شيء، في العقائد، في الأعمال، في الأخلاق.

ولذلك تجد أهل القرآن العقيدة عندهم صافية، أهل القرآن أعمالهم لها مكانة عظيمة، ويسارعون في الأعمال الصالحة، أهل القرآن أخلاقهم القرآن، خلقه القرآن، ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: 24].

فهذه الآية آية عظيمة، قال: ﴿يَهْدِي﴾ [الإسراء: 9]، ثم قال بعدها: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 9]، ما قال: **"يبشر الناس"** أو يبشر أي شخص لا؛ بل المؤمنين المصدقين بالقرآن، المتبعين المتمسكين به.

قال: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 9]، ثم من هم المؤمنون؟ لا تظن أن الإيمان هو التصديق بالقلب أو باللسان فقط؛ بل كذلك بالجوارح والأعمال، إذا لم يظهر إيمانك على جوارحك وعلى أعمالك، تعرف قيمة صلاة الفجر فتحضرها، ولا تتغيب عنها، تعرف سائر الأعمال الصالحة، من الصلاة، والزكاة، والصيام، أعمالك الصالحة تعرف قيمتها وتبادر إليها.

ولذلك قال: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الإسراء: 9]، إيمان وتصديق وعمل هذا هو الإيمان الحقيقي، الإيمان إيمان القلب، إيمان اللسان، التصديق بالقلب والإقرار بالقلب والنطق باللسان والعمل بالجوارح، هذا هو حقيقة الإيمان.

ولذلك دائمًا في القرآن يُعطف العمل الصالح على الإيمان حتى يبين لك أن الإيمان ليس مجرد تصديق فقط.

بعض الناس يقول: الحمد لله أنا مؤمن، أهم شيء القلب، صح أهم شيء صلاح القلب، القلب إذا صلح صلحت الجوارح، القلب هو سيد الجوارح، **«إلا أن في القلب مضغة إذا صلحت صحت الجسد، وإذا فسدت فسد الجسد»**.

لو قلبك صالح صلح الجسد، أما أن تقول: أنا مؤمن بالقلب وأنت لا تصلي، الإيمان بالقلب وأنت لا تبر والديك، الإيمان بالقلب وأنت لا تصل أرحامك، الإيمان بالقلب وأنت لا تزكي مالك؟ كيف الإيمان بالقلب؟!!

ولذلك بعض الناس ما يعرف حقيقة الإيمان والله قد بينها لك، قال: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الإسراء: 9]، يبشرهم بأي شيء؟ قال: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9].

الآية هذه أثبت القرآن لنا ثلاثة أشياء:

أولًا: أنه يهدي، أن هذا القرآن يهدي للخصال الطيبة.

ثانيًا: أنه يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات، يبشرهم بالأجر الكبير، ما هو الأجر الكبير؟ هو فوزهم بجنات النعيم.

الأمر الثالث: قال: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: 10].

القرآن أعطاك ثلاثة أشياء:

1. الهداية للتي هي الأحسن من الأخلاق والأعمال.
2. البشارة لمن تمسك بهذا القرآن وعرف قيمته.
3. النذارة والتحذير والتخويف لمن أعرض ولم يعرف قيمة القرآن بأن له عذابًا أليمًا.

قال: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الإسراء: 10]، ما قال: وأن الذين لا يعلمون الصالحات، لا؛ بل قال: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الإسراء: 10]، أعطاك الخلاصة.

لماذا خص الآخرة؛ بأنهم لا يؤمنون بالآخرة؟

نقول: لأن الذي لا يؤمن بالآخرة ولا يعترف بالجنة ولا بالنار ولا بالبعث لا يستعد له، والذي لا يستعد لها لا يعمل الصالحات، ولا يعرف قيمة الإيمان والطاعة؛ لأنه غير مستعد أن يقف أمام الله، هو منكر أصلاً للبعث، هو ما يعترف بالآخرة، لا يؤمنون بالآخرة، منكر للبعث فكيف يعمل الصالحات؟!!

هذا يظلم، ويسرق، ويأخذ أموال الناس، ويتعرض لأعراضهم، يقع في أعراضهم، يفعل المنكرات في الأرض، لماذا؟ لأنه ما عنده أي إحساس بالبعث، ولذلك ركز القرآن على أنه لو كان يؤمن بالآخرة لأتى بهذه كلها.

لكن لا يؤمن، خلاص منسلخ هذا، هذا ملحد ما يعرف أن هناك بعثًا، وأن هناك جنة ونارًا، ولذلك الله توعده بالوعيد الشديد.

قال: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: 10]، أعد الله له؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة فتنتظره جهنم، يصلها مذمومًا مدحورًا.

قال: ﴿أَعْتَدْنَا﴾ [الإسراء: 10]، أصل الكلمة هذه أعددنا، أعدد، فلما كان دال ودال فيها ثقل في النطق قلبت الدال الأولى تاء، ﴿أَعْتَدْنَا﴾ [الإسراء: 10]، وإلا أصلها **"أعد لهم"** ﴿أَعْتَدْنَا﴾ [الإسراء: 10]، أصلها **"أعددنا"** لكن لما كان فيها تكرار وثقل قلبت، هذا من التخفيف.

إذا عرفت القرآن وعرفت منهجية القرآن، وعظم القرآن وجلالة القرآن، ومكانته، وعرفت قيمته وأعطيته حقه من التلاوة، والتدبر، والتأمل والتفكر، وأصبحت من أهل القرآن، اسمع تأتيك الآيات التي بعدها، القرآن يؤدبك بالأخلاق الطيبة.

قال: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11]، هذا الإنسان المراد به جنس الإنسان، يعني عموم بني آدم، لكن المؤمن الله أدبه، والله أنعم عليه وهداه إلى أنه لا يدعو على نفسه، جاءت آيات وأحاديث تدل على أن الإنسان لا يتعجل بالدعاء على نفسه؛ بل يدعو لنفسه ولا يدعو عليها، ما يقول: اللهم أهلكني، الله أهلك مالي، أو يدعو على نفسه أو يدعو على ولده، أو يدعو على زوجته، أو يدعو على ماله.

المؤمن العاقل ما يدعو على نفسه، فيعرف أن هذا الدعاء ليس في مصلحته، وأما غير المؤمن الذي لم يؤدب بآداب الله هذا يضيع، ولذلك أخبر الله عن جنس الإنسان؛ قال: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ﴾ [الإسراء: 11]، أصل **"يدع"** الفعل هذا بالواو، **"يدعو"** في المصحف محذوفة الواو،

لماذا؟ للالتقاء الساكنين، **"يدعو الإنسان"** فحذفت تخفيفًا، وهذا يدل أنه لما تثبت في مواضع وتحذف في مواضع يدل على أن الله قد حفظ كتابه من الزيادة والنقصان.

✍ في مواضع محذوفة، طيب لماذا لم تحذف في مواضع؟

لأن الله حفظه، لأن هذا كله راجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مثل: **"ويدع، ويمحو"**، ومثل ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: 18]، هذه كلها موجودة في القرآن بالحذف.

قال: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ﴾ [الإسراء: 11]، يعني يدعو على نفسه بالشر، بالهلاك، ﴿دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: 11]، يقول: مثلما يدعو لنفسه بالخير يأتيه وقت غضب، وقت شدة، وقت مصيبة، وقت مرض يدعو على نفسه، تجد بعض الذين يعانون من شدة الأمراض خاصة الأمراض النفسية كالهم والغم يدعو على نفسه أنه يموت يهلك، خلاص يحترق أو يكون في حادث أو كذا، يقول: خلاص الحياة عندي كلها متساوية ما لي حياة، أنا أتمنى أن أموت وأرتاح، فيدعو على نفسه.

أو يعاني من مرض خطير، يعالج ويعالج وما وجد له علاج خلاص يدعو على نفسه، ما يدري أنه يؤجر على مرضه إذا كان مؤمنًا صالحًا عاقلاً يسلم الأمر إلى الله، ويقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ 156 أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 156، 157].

لو كان على هذا المنهج كان يؤجر عليه، ويعرف أن ما أصابه من مصيبة إلا بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا كله بإذن من الله وأمر من الله وحكمة، ويسلم أمره إلى لله ليؤجر على هذا الشيء.

لكن هذا لا، هذا ما عنده، عنده أنه يعترض ويتسخط ويدعو على نفسه، ولذلك بيّن الله، قال: من الناس من يدعو على نفسه بالشر دعاءه بالخير.

قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11]، خُلق من عجل، طبيعة الإنسان يعجل في كلّ شيء، يريد أن ينتهي من كلّ شيء بسرعة، ولذلك بمجرد موقف صعب يدعو على نفسه بالهلاك، يدعو على ماله، يدعو على ولده، إذا الولد عاسره أو الولد شاقه أو حاده في شيء أو لم يأتي معه على ما يريد يدعو على ولده، يدعو على زوجته، يدعو على ماله، يدعو على كذا.

🗐 قد يسألك سائل يقول:

✍ طيب حديث القرآن في هذه الآية عن طبيعة الإنسان وأنه يدعو على نفسه، وأنه عجول، ما علاقته بالآية التي قبلها ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ [الإسراء: 9]..؟

نقول: القرآن يربيك على الأخلاق الحسنة، والذي لا يعرف القرآن يقع في هذا الشيء، الذي لم يعرف قيمة القرآن ولم يتأدب بأخلاق الإسلام فهذا يضيع في هذه الحياة، يقع في هذا الشيء.

وهذا مثلما ذكرنا دليل على جهل الإنسان وعجلته، يدعو على نفسه وعلى أولاده بالشر، عند الغضب يدعو على نفسه، وقد هذه الدعوة توافق بابًا مفتوحًا فيستجاب له، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر في آية أخرى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: 11].

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لحكمته لا يعجل، لا يجعل الاستجابة، تجد بعض الناس يدعو على نفسه أو على ولده والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيم فقد يجيبه وقد لا يجيبه.

قال الله بعدها: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 12].

الحديث عن الزمان والوقت، ليل ونهار، ما علاقته، دائمًا أيها الأخوة إذا أردنا أن نفهم القرآن فهمًا، ونتدبر ونفهم ونستوعب معاني القرآن، اربط الآيات بعضها ببعض، هذا القرآن جاء

منظمًا نظام دقيق مرتبًا، تأتي الآية بعدها آية بعدها آية، هذه فيها أسرار، فيها ربط، ما هي مجرد آيات تأتي هكذا.

✍ من الذي رتب الآيات؟

هو: الوحي، لا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رتبها، ولا أحد من الصحابة رتب الآيات، وإنما ترتيب الآيات وكذلك على الصحيح ترتيب السور كله بوحي وتوقيف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا نزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالآيات قال: **«ضعها في مكان كذا وكذا»**، فوضعها جاء بالوحي.

الآن الآيات تتحدث عن الزمان الليل والنهار، وقبلها الإنسان، طبيعته بالدعاء على نفسه، وقبلها القرآن، ليبين لك الآن الزمن الذي ينبغي للإنسان أن يحرص عليه ويملأه بالطاعات، عندك قرآن وأعمال صالحة، الله قال: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9].

فالوقت أمامك ليلاً ونهارًا، تدعو على نفسك بالهلاك ولا تدعو على نفسك بالصلاح والهداية؟ تستغل هذا الليل والنهار في طاعة الله.

ولذلك الآيات تتحدث عن آيات كونية مثلما تحدث القرآن قبلها عن الآيات المقروءة القرآن الكريم، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، هي آيات القرآن الكريم.

ثم ذكر الآيات الكونية الليل والنهار، ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [آل عمران: 27]، ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: 5]، هذه كلها آيات.

✍ وآية الليل والنهار أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل الليل والنهار آيتين، طيب ما معنى جعلها آيتين؟

نقول: جعلها آيتين تدل على قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونعمته على عباده ورحمته، من الذي يأتي بالليل؟ الله؛ لأنه قادر على أن يأتي به، طيب من الذي يأتي بالنهار بعد اسوداد الليل وامتداده؟ الذي يأتي بالنهار هو الله، إذًا هذا القادر على ذلك، فهي تدل على قدرته، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: 37].

هذه كلها آيات تدل على وحدانيته، وعلى قدرته، وعلى فضله ونعمته على البشر، لو لم يأتيك الليل ما تستقر، الليل يجعل الناس يهدئون وينامون ويستقرون من نصب وتعب النهار، والنهار معاش وحركة وابتغاء رزق وعبادة، وهذه كلها فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورحمة.

فقوله هنا: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء: 12]، يعني آيتين دالتين على كمال قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووحدانيته، وسعة رحمته بعباده.

ثم قال: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: 12].

✍ كيف محونا آية الليل؟

قال: جعلنا الليل أسود مظلم، الليل ظلام دامس، لماذا؟ حكمة عظيمة، لو لم تكن ما استطعت، فالليل سكن وراحة، لو لم يأتك الليل، أنت لا تنظر الآن إلى التقدم في الصناعة وكذا وهذه الأنوار، لا، لو أنت كنت في مكان بعيد هذه الأنوار، في فلاة في أرض في خيمة، تشعر بالليل وقدومه، والراحة النفسية والطمأنينة، ثم النوم والسكينة، الله جعل الليل سكنًا.

في الليل تستقر النفوس والحيوانات، والطيور، والحشرات، ستستقر، وإذا جاء النهار تبصر، النهار مبصر تشوف.

ولذلك قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 12]، الليل مظلم، جعل الله الليل مظلمًا للسكون، والراحة، والطمأنينة.

✍ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 12]، مبصرة يعني مضيئة بالشمس، لماذا جعلها مبصرة؟

السبب الأول: قال: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الإسراء: 12]، هذا السبب الأول، تبتغوا معايشكم، وصناعاتكم، وتجاراتكم، وأسفاركم، ومزارعكم، هذا السبب الأول.

السبب الثاني: ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ [الإسراء: 12]، مع الليل والنهار واختلافها تعلموا عدد السنين، تعرف، هذه ليلة ثم جاء بعدها نهار انتهى، جاءت ليلة ثانية، إذًا هذه الليلة الثانية، جاءت ليلة ثالثة، جاءت ليلة سابعة، جاءت عليلة عاشرة، وهكذا، هذه الليلة الثلاثين، هذه الليلة الخمسين، عرفنا الآن الأعداد.

ولذلك قال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾ [الإسراء: 12]، بالليل والنهار، ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: 12]، تعرف فتبني عليها أشياء، عندك الدورات الزراعية، تعرف الصيف والشتاء، وكم مضى على الزرع؟ تعرف الآجال، الديون، أوقات العبادات، متى تصلي الظهر؟ متى تصلي العصر؟ متى تصلي المغرب؟ متى تصلي العشاء والفجر؟ هكذا.

تعرف الصلوات، تعرف الصيام، متى يدخل؟ متى ينتهي؟ تعرف الحج، متى تقف في عرفة؟ تعرف الزكاة، عليك زكاة إذا مضى حول، وهكذا.

المرأة تعرف عدتها، المطلقة، المتوفى عنها زوجها، والديون، والإجارات، كم مضى على الإيجار ستة أشهر أو سنة؟ هذه حكمة من الله.

إذًا الحكمة من جعل هذا الزمان والليل والنهار أن نعرف عدد السنين، هذا أمر، ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: 12]، تعرف الحساب، تحسب كم مضى؟ وهذا الأسبوع الأول، وهذا الأسبوع الثاني، هذا الشهر الأول، وهذا الشهر الثاني وهكذا.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12]، بينا الحق من الباطل، وبينا الهداية من الضلال، ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، فصل كلّ شيء في هذا الشيء.

لكن هنا سؤال قال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [الإسراء: 12]، ثم قال: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: 12]، ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: 12].

✍دائمًا يقدم الليل ما هو السر؟

نقول: هو الأصل، الليل سابق النهار، ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ [آل عمران: 27]، الليل سابق النهار، مثلاً هذا اليوم الاثنين انتهى، متى انتهى يوم الاثنين؟ بغروب الشمس، خلاص انتهى.

الآن نحن دخلنا في الثلاثاء، الثلاثاء متى يبدأ؟ بغروب شمس اليوم خلاص دخلنا في الغد، إذًا الليلة هذه تابعة للغد.

ولذلك إذا أعلن دخول رمضان في الليل الناس يصلون التراويح، لماذا؟ لأن هذه الليلة ليلة رمضان، وهكذا، فالليل هو الأصل وهو السابق والنهار شيء عارض، يعني لو لم تكن فيه الشمس لأصبح مثل الليل، كأن الليل والنهار واحد، هذا معناه.

لما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عظم كتابه وجلل كتابه وبين حقيقة هذا القرآن، وبين أيضًا ضعف الإنسان وأنه في بعض الحالات يدعو على نفسه، ثم ذكر لك الزمان الذي ينبغي للإنسان أن يستغله في الطاعات، والأعمال الصالحة، ذكرك بمصيرك ورجوعك إلى ربك، وأن كلّ من يعمل الصالحات هذه الأعمال محفوظة لك، سواء عملت الأعمال الصالحة، قدمتها لنفسك، أو الأعمال السيئة ممن عمل أعمال سيئة، فهي محصية لا تضيع أبدًا، في كتاب.

قال: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: 13]، كلّ إنسان يعني هذه الآية حتى نقف عندها موقفًا دقيقًا، هذه الآية فيها بيان كمال عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن كلّ إنسان يلزم طائره.

✍ ما هو طائره؟

✍ هل هو حيوان أو طائر؟

هو: **"العمل"**، قال: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: 13]، لماذا سمي العمل طائرًا؟ لأنه يطير، يذهب، يرتفع، يروح إلى السماء، أعمالك كلها، ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10]، فسمي العمل طائرًا؛ لأنه يطير بصاحبه يرفعه.

قال: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: 13]، كيف ألزمه في عنقه؟ يعني كأنه وضع في عنقك يا يفارقك، يذهب للقبول وعدم القبول، لكنه معك ما يفارقك.

قال: ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: 13]، يعني من عمل عملاً سواء كان في عمل الخير أو عمل الشر هذا العمل لا يفارقك معك لا يتعداك، ولذلك كأنه ملازمًا لك كملازمة القلادة للعنق ما تنفق، يعني أنك ستحاسب عليه.

كأنه يقول: عملك معك في الدنيا وفي الآخرة، حتى تحاسب عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كلٌّ سيحاسب عن عمله لا عن عمل غيره، هذا معناه، والإنسان عمله قد وضع في عنقه، ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: 13].

ثم قال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا﴾ [الإسراء: 13]، هذا العمل سيكون يوم القيامة كتابًا يأخذه الإنسان المؤمن بيمينه، أو يأخذه الكافر بشماله ومن وراء ظهره، هذا معناه، عندما تتطاير الصحف.

قال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: 13]، إذا جاء يوم القيامة يعطى كتابه، منشور معناه أنه قد فتح له ونشر، وفيه جميع أعماله، لو تسبح تسبيحة أو تذكر ذكرًا، أو أي شيء من أعمالك سواء أعمالك القولية باللسان أو قلبية، أو أعمال الجوارح كلها تسجل من خير أو شر، الكلمة الطيبة صدقة، والكلمة السيئة تكتب عليك وهكذا.

قال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: 13]، فيه عملك من خير أو شر، هذا هو، حاضر أمامه، عمله أو كتابه يجده أمامه حاضرًا، ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49].

ويقال له أيضًا من باب التأكيد حتى تقوم عليه الحجة لا يستطيع أن ينكر، قال: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ [الإسراء: 14]، يقرأه المتعلم وغير المتعلم.

قال: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 14]، يقول: يكفي أن نفسك هي التي تحاسبك، نحن ما نحاسبك، هذا أمامك لا تستطيع أن تنكر شيء من أعمالك، مثلما الآن لو آتيك بفاتورة وأقول: هذه فاتورة عليك، هذه مسجلة عليك كلها، هل تنكر شيء؟ قلت: لا والله ما أستطيع أن أنكر، وهكذا.

وهذا يدل على أن هذا من أعظم العدل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، العدل والإنصاف من الله أن يقال للإنسان: أنت حاسب نفسك بنفسك، أنت حاسب نفسك حتى تعرف ما الذي لك؟ وما الذي عليك؟ حتى إذا كنت مقصرًا وعوقبت أنت السبب، تعترف بنفسك، هذا معناه.

ولذلك رتب على الحساب وتطاير الصحف، وأنك تقدم لنفسك من الأعمال الصالحة أو تقدم، رتب عليه.

قال: ﴿مَنِ اهْتَدَى﴾ [الإسراء: 15]، من اهتدى وعرف طريق الهداية، واهتدى بالقرآن وتمسك به، ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [الإسراء: 15]، هو لك، ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ [الإسراء: 15]، وأعرض عن ذكر الله ما هي النتيجة؟ قال: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الإسراء: 15]، تضل على نفسك، الضلال عليك والهداية لك.

يعني عرفت طريق النجاة والسلامة والسعادة هذا لك أنت في مصلحتك، وخير لك، طريق الضلال والهلاك هذا عليك أنت.

ثم أعطانا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قاعدة مهمة يجب أن نفهمها جيدًا؛ قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: 15]، ما معنى لا تزر؟ أي تحمل، وازرة يعني من حملك الوزر هذا الذنب، الأوزار هي الذنوب، يقول: لا تحمل حاملة، وازرة يعني حاملة، هي عندها ذنوب، لا تحمل وزر أخرى، النفس هذه عليها ذنوب هي تحمل ذنوبها، طيب هل تحمل ذنوب غيرها؟ قال:لا، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: 15]، ذنوب غيرها ليس عليها، كلّ واحد مسئول عن نفسه.

هذه الآية إذا أخذناها بظاهرها أن كلّ إنسان هو مسئول عن ذنبه، ولا يحمل ذنب غيره.

✍ طيب إذا كان هو السبب؟

✍ لو كان هو المتسبب أضل غيره، دل الناس على الشر فهل يحمل؟

نقول: يحمل، والدليل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها»**، والله قال في آيات أخرى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: 25].

وقال أيضًا: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: 13]، إذا كان متى؟ إذا كان متسبب، إذا كان هو دل الناس على الشر وحثهم، يحمل وزرهم إلى يوم القيامة، لو دل الناس على شر، فتح لهم باب شر، وبدأ الناس كلهم يعملون هذه البدعة أو هذا الفساد أو هذا الشر يتحمل ذنوبهم إلى يوم القيامة، والعكس بالعكس، دل الناس على الخير، حثهم على الخير، فتح لهم باب خير، أرسلت رسالة فيها خير، فيها حث على صلاة مثل الضحى، فأنت يأتيك أجر كلّ من عمل بها إلى يوم القيامة، فلا تتهاون بهذا الجانب ولا بهذا الجانب.

لا تظن أن الرسالة التي أنت ترسلها في جوالك وتصل إلى عشر أو خمسة عشر أو تصل إلى الملايين لا تدري أنت أين تروح؟ فلا تتعجل بالرسائل لا في الحالات وفي رسائل الجوال، ولا في الواتس آب أو في أي شيء، لا تستعجل، جاءك حديث أو جاءتك آية تثبت، إن كان فيها خير ونفع أرسلها، إذا ما تعرف عنها شيء أوقفها.

يمكن ترسل حديث موضوع، حديث مكذوب على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعليك وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة، وأنت لا تشعر، تقول: والله أنا ما دريت، لا ما في شيء ما دريت انتبه.

ولذلك يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: 15]، ما تحمل حمل غيرها إلا إذا تسببت فيه.

قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ [الإسراء: 15]، هذه أيضًا قاعدة شرعية مهمة، ما كنا معذبين أحدًا حتى نبعث رسولًا، هذه سنة الله أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد أن تقوم عليه الحجة، ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165]، يعني بعدما يبين لهم.

🗐 لكن عندنا مسألة مهمة:

أهل الفترات، هناك فترات ما فيها رسالة أنبياء، مثلاً ما بين عيسى ومحمد ستمائة سنة، أهل الفترات يسمون أهل الفترة، وكذلك أطفال المشركين، طفل مات بعد يوم أو يومين وأمه أو أبواه مشركين، هو مات صغير عمره شهر أو أسبوع أو عشرة أيام ومات، يسمون أطفال المشركين،

هل يعذبون بالنار؟ هم ما عملوا سيئات، وأهل الفترة البعيدين أو الذين يعيشون الآن في مناطق نائية جدًا ما يعرفون حقيقة الإسلام، فهل معنى هذا أن الله يعذبهم أم ماذا؟

هذه الآية استدل بها أهل العلم أن أهل الفترات ومن يعيش نائيًا بعيدًا عن الإسلام، كالذين يعيشون في غابات بعيدة لا يوجد عندهم تصور عن الإسلام، أو أطفال المشركين الذين في سن الطفولة لم يصلوا إلى سن التكيف، هؤلاء ما حكمهم؟

الآية تدل على أن هؤلاء ما يعذبون، هل يدخلون الجنة أم النار؟ اختلف أهل العلم في هذه المسألة اختلاف طويل، لكن خلاصته أنهم لا يعذبون، وذكر أهل العلم أنهم يمتحنون يوم القيامة، يمتحنون بالتكليف، يمتحنون قبل الجنة والنار، فمن أجاب واستجاب دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

هذه ذكرها ابن القيم وغيره أنهم يمتحنون، وهذا فيه تنزيه أن الله لا يظلمه أحدًا، وأن الله يقيم العدل في مثل هؤلاء.

ولذلك هذه الآية التي تأتينا الآن تبين أن سبب العذاب الإنسان نفسه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء: 16]، إذا أراد الله أن يهلك قرية من القرى، ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16].

أولاً عندنا أن هذا خبر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يخبر أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب؛ قال: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: 16]، يعني يأمر المترفين يعني المنعمين، المنهمكين في النعم الطاغين المفسدين في الأرض، المتكبرين عن طاعة الله المستكبرين، يأمرهم بأي شيء؟ يأمرهم بالفساد.

نقول: هذا أمر قدري وليس شرعي، الله لا يأمر أمرًا شرعيًا بالفساد؛ بل يأمر أمرًا شرعيًا بالصلاح، بالطاعة، هذا نسميه الأمر الشرعي، عندنا أمر شرعي وعندنا أمر قدري، التقدير قدري يعني أن الله قدر هذا الشيء، أمر بمعنى قدر، فيقدر عليهم الفساد والتكبر، فيفسقون فيها، ويشتد طغيانهم، فيحق عليهم القول، قول العذاب، كلمة العذاب، يحق عليهم القول فيدمرهم الله تدميرًا، ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16].

✍ وهذا يدل على أي شيء؟

يدل على أن: سبب الهلاك والضلال والتدمير والعذاب والعقوبات سببها المعاصي، ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: 16].

وأيضًا زوال النعم، الناس يعيشون في نعم، فتزول النعم عنهم، زوال النعم بالفساد والكفر، وثبات النعم بالشكر، بالشكر تدوم النعم، وبالكفر تأتي النقم وتزول النعم، هذا أمر مهم جدًا ينبغي أن نفهمه فهمًا جيدًا.

كلمة، ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: 16]، عرفنا أن هذا أمر قدري، يعني قدرنا للمترفين أن يفسدوا فيها، ففسدوا بتقدير الله، وبعضهم يقول: يقدر، يعني توجيه للآية قال: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: 16]، بالطاعة، يعني أمرناهم بأن يطيعوا، ولكنهم عصوا ففسقوا وتركوا الطاعة.

أو على قراءة أخرى، هناك قراءة: **"أمّرنا مترفيها"** أمرناهم يعني كثرناهم فكثر فسادهم، **"أمّرنا"** بمنى كثرناهم، لها عدة توجيهات، أما على ظاهرها القراءة الأولى أمرناهم أمرًا قديرًا، أو أمرناهم بالطاعات فتركوها وفسقوا فيها، ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: 16].

وليس فقط هذه القرية أو هذه القرى؛ ولكن هذه سنة الله، سنة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن من عصاه نزلت به العقوبات.

قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ [الإسراء: 17]، **"كم"** هنا خبرية يعني كثير، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 17].

✍ لماذا خص نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

نقول: لأن ما بين آدم ونوح كانوا على الإيمان والإسلام، لم يظهر الشرك والفسق والكفر إلا في زمن نوح، لما ظهر بعث الله نوحًا، نوح أول رسول.

قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: 17]، هذا يدل على أن القرون كثيرة، **"كم"** خبرية تدل على الكثرة، قورن كثيرة، وقال الله في آية أخرى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: 38].

القرون جمع قرن، والقرن هو المدة الزمنية الطويلة، حددها بعضهم بمائة سنة تقريبًا.

قال: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 17]، يقول: يكفي أن الله خبير بذنوب العباد، لا يعذب إلا بعد وقوعهم في الذنوب، واستكبارهم، وتعنتهم، وعدم قبولهم للتوبة أو الرجوع إلى الله.

قال: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 17]، يكفي بربك أنه يعلم ذنوب عباده، وخبير بصير، خبير وبصير، يعني خبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعباده.

✍ الخبير والبصير ما هو الفرق؟

✍ هل هناك فرق أو هي واحد؟

الخبير هو: **" الذي يعلم الخفايا"** لما تقول: والله هذا خبير في التكنولوجيًا، خبير في كذا، خبير في علم كذا، يعلم أشياء خفية.

والبصير دائمًا في الأشياء الظاهرة، المطلع على الأشياء الظاهرة نقول: بصير، الذي يعلم الأشياء الخفية هذا خبير.

وهذه الآية الحقيقة جميلة، يعني فيها أمان، وفيها تخويف، فيها أمان لأهل الطاعة أن الله خبير بصير بأعمالك فلا يفوتك شيء، لا يضيع عليك مثقال ذرة، فالله يحصيها لك، تمشي وأنت تسبح وتذكر الله كلها محفوظة ما تضيع عليك، خبير بصير عالم بك.

وفي وعيد شديد وتخويف لمن يتساهل، ولا يبالي، ويقع في الذنوب والمعاصي، فالله عالم به مطلع عليه، عالم بخفاياه، فكل شيء مسجل عليك، كلّ شيء معلوم مسجل عليك.

نختم هذا المجلس بهذه الآية التي فيها مقارنة بين الدنيا والآخرة، لما كان الناس في هذا الدنيا الله أحصى أعمالهم، وعالم بأحوالهم، قد يكون منهم أهل الخير والصلاح والطاعة، وأعمال البر، وأعمال الخير، والعكس أهل الفساد والفسق وأعمال الشر، فبين لنا أن من الناس من يعمل هذا، أو من الناس من يعمل هذا.

ولذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: 18]، يريد الدنيا، الدنيا أمامه الآن، ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ [الإسراء: 18]، تريد الدنيا الله يعطيك الدنيا، ولكن لا يعطي كلّ إنسان، تجد بعض الناس يعيش في الدنيا فقيرًا ويموت وهو على ضلال، لا أخذ الدنيا ولا أخذ الآخرة.

الله يقول: من أراد العاجلة وأراد الدنيا ومتاع الدنيا نعطيه، لكن ليس كلّ الناس؛ بل لمن نشاء، مقيدة، ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: 18]، الله إذا أراد أن يعطيه الدنيا أعطاه الدنيا، وقد لا يعطيه، ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: 18].

قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: 18]، يقول: الذي يريد الدنيا ولا عمل للآخرة، ولا يقر بالأعمال الصالحة، ولا بالقرآن ولا شيء، نعطيه الدنيا يهلك فيها، وينغمس

فيها، ولكن يوم القيامة، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ [الإسراء: 18]، يصلاها يعني يدخلها ويقاسي حرها ويعذب بها، يصلاها يشوى بها.

قال: ﴿مَذْمُومًا﴾، قد ذمه الخلق، يعني لا يذكر بخير، ﴿مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: 18]، أي مبعدًا أشد البعد، يعني لا ذكر حسن ولا تقريب لأهل الخير، خلاص دخل جهنم أبعد الناس، ويذمه الخلق.

قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: 19]، سارع في الطاعات، وجعل الآخرة نصب عينيه دائمًا في الليل والنهار يفكر في الآخرة، ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: 19]، ما يسعى على ضلال وعلى بدع، لا، أهل البدع يسعون، يقومون الليل والنهار، ويعملون الأعمال ويتصدقون، لكن على فساد في العقيدة وبدع فما ينفعهم، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: 23].

أما السعي وهو مؤمن بشرط الإيمان الصحيح والعقيدة الصافية، قال: ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19]، هؤلاء يشكر الله سعيهم، يعني يعطيهم جزاء الأعمال الصالحة يضاعف لهم الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها ويزيدهم من فضله.

قال: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ [الإسراء: 20]، أهل الدنيا الله يعطيهم حقهم، وأهل الآخرة الله يعطيهم حقهم.

قال: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: 20]، يعني أهل الخير يعطيهم الله الدنيا والآخرة، وأهل الشر يعطيهم الله الدنيا ويحرمهم من الآخرة، يعني كلٌّ يأخذ نصيبه من الدنيا، الله قدر لك نصيبك في الدنيا فيعطيك إياه، فكلاً يمده الله بمتاع الدنيا من المؤمنين الصالحين ومن غيره، حتى الكفار يعطيهم الله الدنيا.

قال: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20]، ما كان ممنوع عن هؤلاء ولا عن هؤلاء، كلهم يأكلون ويعيشون ويجمعون المال، لكن الآخرة لا، الدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب، والآخرة لا يعطيها إلا من يحب.

ولذلك قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: 21]، في الدنيا، هذا غني وهذا فقير، وهذا كذا وهذا كذا، فضل الله بعضهم على بعض، لكن الآخرة أعظم وأشد.

قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 21]، درجات الآخرة شيء لا تتخيله، ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض، درجات الآخرة شيء عظيم، غرفات بعضها فوق بعض، غرفات مبنية، والقصور العالية، حتى أن المؤمنين في الجنة يدخلونها وهم على درجات، هذا فوق هذا، وهذا فوق هذا، هم درجات عند الله.

لعلنا نقف عند هذا القدر، استمتعنا بهذه الآيات الجميلة، قرأنها، وبينا معانيها، وتدبرناها، حق التدبر، نسأل الله ألا يحرمنا أجر هذا المجلس المبارك الذي تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين عنده في الملأ الأعلى، أسأل الله ألا يحرمنا هذا الفضل، وإن شاء الله لنا لقاء قادم بإذن الله نستكمل فيه ما توقفنا عنده.

(الإسراء 22 - 30)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو اليوم السادس من الشهر الثاني من عام 1448 من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

أيها الأخوة الكرام درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي **"سورة الإسراء"**، تسمى أيضًا بـ **"سورة بني إسرائيل"** وأيضًا تسمى بـ **"سورة سبحان"** وهي تتحدث عن المعجزة العظيمة التي أعطاها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيه محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إرغامًا لهؤلاء المشركين، وإثباتًا لنبوته، وهي معجزة حسية وقعت وظهرت وانتهت.

لكن القرآن وخاصة في هذه السورة أثبت الله فيها أن هناك معجزة عظيمة هي أعظم من معجزة الإسراء والمعراج، وهي معجزة القرآن العظيم، معجزة عظيمة وباقية ومستمرة ولن تنتهي، لن تنتهي إلا بانتهاء القرآن، وكلّ يوم تجدد، وكلّ يوم تظهر آيات القرآن العظيم.

القرآن أو هذه السورة أشارت إلى عظم هذا القرآن الكريم، وما فيه من توجيهات أو ما فيه من حجج عظيمة، وبيان للناس، وهو كتاب هداية، يعني باختصار القرآن كتاب هداية، من اهتدى به سعد في الدنيا والآخرة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تعظيم هذا القرآن: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ [الإسراء: 9]، وقف عند كلمة **"يهدي"** ما قال: **"إن هذا القرآن هداية"** ولم يقل: **"إن هذا القرآن قد هدى الناس"** لا، **"يهدي"** فعل مضارع بمعنى أنه يهدي في كلّ وقت، وفي كلّ زمان ومكان، فكلمة **"يهدي"** تدل على الاستمرار.

قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ [الإسراء: 9]، يهدي لأي شيء؟ قال: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، ما هي التي هي أقوم؟ قال: الخصال، والأعمال، والأخلاق، والأقوال، يعني أدخل فيها ما شئت، انظر إلى عبارة القرآن مختصرة ودلالتها عظيمة.

قال: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]، أقوم يعني أعدل، وأعلى، وأعظم.

✍ طيب ما هي التي يهدي القرآن لها وهي أعدل وأعظم وأقوى؟

قال: الخصال من الأخلاق، والأعمال، ما من خلق طيب إلا يدعو له، ويهدي الناس ليه، ما من عمل صالح إلا يهدي يدعو إليه، أخلاق، أعمال، العقائد السليمة، الصحيحة، الصافية القرآن يهدي إليها.

ثم بيّن لك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا أثرًا آخر عظيمًا وهو أن هذا القرآن يبشر المؤمنين المصدقين للكتاب والسنة، المصدقين بما جاءهم من الوحي، طيب فقط مؤمنين؟ الكثير يدعي يقول: أنا مؤمن، ولكن قال: ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الإسراء: 9].

جمعوا بين الإيمان القلبي، والإيمان العملي، أما يقول: أنا مؤمن ولا يعمل، أنا مؤمن ولا يصلي، ويدعي، هذه كلها دعاوى لا تصح، ولكن الله قرن بين الأمرين آمنوا وعملوا الصالحات، أنت قرأ في سورة العصر: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا﴾ [العصر: 3].

ليس مجرد إيمان فقط، ولذلك الله قال هنا في أثر القرآن أنه يبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا﴾، ما حده؟ قال:﴿كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9]، لا يعلم كبره إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم في المقابل، ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الإسراء: 10]، هذا إنذار وتخويف، ما قال: لا يؤمنون بالرسول، أو ما يؤمنون بالله، ولكن أتاك بأمر آخر ليس أعظم من الإيمان بالله ورسوله، ولكنه يدل على كفرانهم بالله ورسوله، قال: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الإسراء: 10].

فالذي لا يؤمن بالآخرة من باب أولى لا يؤمن بالله، ولا يؤمن بالرسول ،ولا يؤمن بالقرآن، ولا يعمل الصالحات؛ لأنه لا يؤمن بالآخرة، هو يقول: هذه حياتي إلى مت انتهيت، لا يؤمن بالآخرة، لا يؤمن بأن هناك بعثًا، وجمعًا، وحسابًا، وعرضًا، وميزانًا، وصراطًا، وجنةً، ونارًا، لا يؤمن بهذا أبدًا، فهو يقول: كلّ واشرب ونم واستمتع بحياتك، وهذه حياتك، تنتهي تصبح ترابًا.

لو كان يؤمن باليوم الآخر لآمن بالله ورسوله وبالوحي وبالقرآن وعمل الصالحات واستعد، وأصبح اليوم الآخر أمامه في الليل والنهار، يشعر بذلك اليوم، ويحسب له ألف حساب.

ولذلك الله قال: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: 10]، أنت ما تؤمن بالآخرة إذًا العذاب ينتظرك، قد أعد لك العذاب، أعد الله لك النار والعذاب الأليم.

فاستشعر عظمة هذه السورة، وعظمة هذا القرآن وأنه هو المعجزة حقًا، لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات التي مرت معنا في لقاءنا الماضي لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال الناس في الدنيا، من الناس من يريد العاجلة ويحب الدنيا ويعمل لها، من الناس من يحب الآجلة والدار الآخرة ويعمل لها، فالناس على قسمين.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: 18]، أي الدنيا، ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ [الإسراء: 18]، نعطيه حقه من الدنيا بمشيئة الله، ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: 18]، ليس الجميع، تجد بعض الناس يريد الدنيا ولا يجد فيها شيئًا، ولا يحصل على شيء، يعيش فقير ضال لا يدري أين يذهب؟ لا مال ولا بنون ولا ذرية ولا زوجة وما مال ولا بيت ولا شيء، يعني لا حصل على حظ الدنيا ولا حظ الآخرة، ولكن قد يعطي الله من الناس من يعطيه الدنيا كلها، لكن ليس له حظ في الآخرة.

ولذلك قال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: 18]، يعني لا يريد إلا الدنيا، ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ [الإسراء: 18]، نعطيه حقه ونصيبه في الدنيا، ﴿مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: 18]، ليس لكل الناس، لكن لمن نريد نحن، ثم في النهاية، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: 18].

مذمومًا يعني يذمه الناس؛ لأنه أصبح من أهل النار، مدحور يعني مبعد، دحره يعني أبعده، فهو مبعد ومذموم، هذه من يريد الدنيا فقط ولا يعمل للآخرة، ولا يستعد للآخرة.

وفي المقابل؛ قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: 19]، بعض الناس يريد الآخرة، ويتمنى الآخرة، ويتمنى الفوز بالجنة، ويتمنى أن يكون من أهل الجنة، لكن هل تعمل؟ لا، هنا قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: 19]، قدم أعمالًا صالحة، سارع، انظر إلى كلمة: **"سعى"** ما كان مجرد عمل؛ بل في سعي وفي حث، في سرعة، في مسابقة، في مسارعة، ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: 19]، الأعمال الصالحة تحتاج إلى جهد، تحتاج إلى استعداد، تحتاج إلى مسارعة.

قال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: 19]، أنت تصوم في الشهر ثلاثة أيام، وغيرك يصوم الاثنين والخميس والبيض، بعضهم يصوم هذه الأشياء وغيرهم ما هو أعظم،

يصوم يومًا ويفطر يومًا، هذا صيام داود الذي قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه: **«خير الصيام صيام داود يصوم يومًا ويفطر يومًا»**.

تجد من يقوم قبل الفجر بنصف ساعة، غيرك يقوم بساعة، من الناس من يقوم بثلاث ساعات، وأنا أعرف أناس الآن في وقتنا الحاضر يقوم من الساعة الثانية ويجلس إلى أذان الفجر، أنت يمكن ما تستطيع أن تقوم، ولكن غيرك يقوم، وهكذا، أنت تنفق مالًا قليلاً غيرك ينفق أموالًا طائلة، وهكذا، المسألة مسألة مسارعة.

قال: ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19]، كيف مشكورًا؟ يعني أن الله يشكر سعيهم بأن يجازيهم أضعافًا مضاعفة، هذا معنى اسم الله الشكور، ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: 147]، والشكور هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يعطي على القليل الكثير.

هذا في الأعمال الصالحة الذي يريد الآخرة والذي يريد الدنيا، الذي يريد الدنيا يعجل الله له حقه وليس في الآخرة شيء؛ لأنه لم يعمل صالحًا، والذي يريد الآخرة ويعمل لها يوفيه الله أجره أضعافًا مضاعفة، هذا في الأعمال الصالحة.

✍ لكن هل الدنيا أيضًا يعطيها الله حتى الكافر؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: 20]، الله يعطي هؤلاء وهؤلاء، تجد ملحد كافر شقي مؤذي محارب لله ورسوله والله يعطيه من الدنيا الشيء الكثير، فهذا عطاء الله، الدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب، الآخرة والعمل الصالح ما يعطيه الله إلا من يحب.

ولذلك قال: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾، نمدهم نعطيهم، ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: 20]، رزق الله، ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: 20]، يعني غير ممنوع، لا على الكافر وعلى لا غيره، لما قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: 126]، قال ومن كفر أعطيه، لما قال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ [البقرة: 126]، الدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب.

قال: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: 21]، في الدنيا تجد واحد يملك ملايين، ويملك عقارات، ويملك ويملك، وشخص آخر فقير لا يملك شيئًا معدمًا، الله فضل بعضهم على بعض في الدنيا، لكن الآخرة فضلها أعظم وأعظم درجات عند الله، ولذلك قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 21].

فيها درجات وفيها تفضيل، فالآخرة أعظم، لما تسمع مثل هذه الآيات تأتيك الآيات التي هي أصول الإيمان والشريعة والطاعة التي ترفعك عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتعلي منزلتك عند الله.

هذه السورة ركزت وذكرت أعمالًا مهمة يسميها أهل العلم بالوصايا العشر، ذُكرت في هذه السورة، ابتدأها الله بالتوحيد والتخويف والتحذير من الشرك، وختمها بالتوحيد، ابتدأت بالتوحيد وختمت بالتوحيد، وابتدأ بالحذر من الشرك وختمت من الحذر من الشرك وبيان عقوبة المشرك، وما بينها أصول إيمان تتعلق بالإيمان والأعمال الصالحة والأخلاق، هذه أسس تربية، تربية المسلم كيف يربيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

هذه الوصايا العشر مذكورة في سورة الأنعام في ثلاث آيات، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: 151]، إلى نهاية الوصايا العشر في الأنعام، وأيضًا في سورة ثالثة وهي سورة النساء، في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾ [النساء: 36]، إلى آخرها، هذه يسميها أهل العلم الوصايا العشر.

الآن بين أيدينا هذه الوصايا العشر نأخذها وصية وصية، أول وصية هي التوحيد واعتقاد أنه لا إله إلا الله، وتجريد العبادة لله، توحيد العبادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن صرف أي نوع من أنواع العبادة مما هو لله ومن خصائصها أن يصرف لمخلوق، لا تصرف شيئًا من العبادات لمخلوق حجر أو شجر أو ميت في قبره.

لا يجوز أن تدعو ميتًا تطوف حول قبره تدعوه، وتسأله، أو تذهب إلى مثل هذه الأحجار والأشجار وتدعوها، الدعاء والاستغاثة والخوف والرهبة والتوكل، فأنواع العبادة كثيرة، هذه أنواع العباد.

فلا يجوز صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، وأن من أشرك بالله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31].

وأن الله لا يدخل من اشر كبه الجنة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: 72]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48].

من مات مشركًا ولم يتب هؤلاء الذين الآن يعني أنتم رأيتم صور كثيرة ممن يطوفون حول القبور ويسألونهم ويتمسحون بالقبور، إذا مات على هذه الحالة إلى نار جهنم، إذا مات ولم يتب فإن الله لا يغفر، لا يُقال: إنه جاهل، الشرك وهو في بلاد المسلمين، وهو يعرف ويعرف المساجد، ثم تذهب المرأة تقول: أنا حملت، ولم أرزق بذرية، يا فلان ارزقني ذرية، ويأتي فقير ويقول: المدد المدد، ويقول: أنا علي ديون وهكذا.

قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: 21]، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ 13 إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: 13، 14]

سُئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»**، كيف تجعل لله معبودًا مع الله والله هو الذي خلقك ورزقك؟!!

أول وصية: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: 22].

ثم تلاحظ هذه الوصايا في الغالب أن الله يبين لك السبب والحكمة في ذلك، ولذلك آخر الوصايا بيّن لك قال: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: 39]، هذه حكمة، وبيّن الله لك الحمة منها، لماذا الله نهى عن الشرك؟ لماذا الله أمرك ببر الوالدين؟ لماذا نهاك عن الزنا؟ لماذا نهاك عن قتل النفس؟

قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37]، لماذا؟ قال: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37]، ما في فائدة أن تتكبر؛ فتحشر كأمثال الذر ويطؤك الناس بأقدامهم، ما الفائدة؟ تنازع الله في كبريائه؟!!

ولذلك بين لك قال: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: 39].

طيب هذه الوصية الأولى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: 22].

وبعدين إذا جعل مع الله آخر؛ قال: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: 22]، يذمك الناس على صنعك؛ لأنك أشركت بالله، ومخذول فلن ينفعك أحد، ولن ينصرك أحد، تُخذل وتُلقى في نار جهنم.

لا تعتقد أن أحدًا من المخلوقين من الشجر أو الحجر أو من بني آدم أو أموات أو أحياء يستحق شيء من العبادة، ولذلك أعظم وصية أوصى بها لقمان قال: ﴿يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

لا تشرك مع الله أحدًا؛ فإن هذا داعٍ لأي شيء؟ علل لك السبب، قال: هذا يدعو إلى أن تُذم يذمك الناس، وتُخذل، يتركك الناس، المخذول من تولى الناس عنه سخطًا، تركوه خلاص خُذل هذا فلان، ليس معه أحد، لا أحد ينصره ولا أحد يتولى أمره، فهو مخذول.

أعطاك السبب قال: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ [الإسراء: 22]، تصبح، يكون حالك أنك مذموم مخذول، ﴿مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: 22].

التوحيد تمسك به وعبادة الله، واعرف عظمة الله وانته عن الشرك والكفر بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإنك ستهلك في الدنيا والآخرة.

ثم انتقل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك، لما نهى عن الشرك أمر بالتوحيد، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما نهى عن الشرك أمرك بالتوحيد، قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23]، ما قال: اعبدوا الله؛ بل هو أمر منتهي منه، قضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قضى الله وأمر أمرًا شرعيًا، وحكم وأنزل ووصى.

قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه﴾ [الإسراء: 23]، صيغة حصر لا تعبدوا إلا إياه، قضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أهل الأرض وأهل السماوات الأحياء والأموات، قضى عليهم ألا يعبدوا إلا الله، يعني اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا.

قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه﴾ [الإسراء: 23]، لأنه الواحد الأحد الصمد الذي له صفة الكمال، وله من كلّ صفة أعظمها، ولا وجه يعني ليس هناك من يشبه أحد من خلقه، ولا أحد يصنع صنعه، فهو المنعم، هو الهادي، هو الرزاق، هو الخالق، فليس هناك من يستطيع أن يتصف بصفات الله ولا أفعاله.

فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي بيده زمام الأمور، فأفرده بالطاعة، واعبده ولا تشرك به شيء، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاه﴾ [الإسراء: 23]، باختصار.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]، بعدما ذكر حق الله ذكر حق الوالدين، وتلاحظ دائمًا القرآن يجمع بينهما، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: 36]، يجمع الله بينهما، ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: 151].

وهنا قال: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]، بعدما ذكر حقه وأمر بقيامه ذكر حق الوالدين، وأمر بالقيام بحق الوالدين،، لماذا؟ ما الحكمة؟ لأن الله الذي خلقك رزقك يجب أن تعبده، والوالد إذا كان سببًا في وجودك، وكان سببًا في رزقك وتربيتك يجب أن تطيعه في غير معصية، هذا معناه.

ولذلك السبب الذي أوجدك في هذه الدنيا هو الله، والوالدان سبب أيضًا في وجودك، لولا الوالدين لهلكت بعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عبر بأحسن العبارات قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]، أي أحسنوا إليهما، دائمًا تسمع كلمة الإحسان، واحد يصنع لك معروف فتحسن إليه، والوالدين هم الذين سبقوك بالإحسان، فأنت الآن مأمور برد شيء قليل من إحسانهما، هم قدموا لك إحسان عظيم.

انظر إلى رأفة الوالدين بولدهما وهو صغير إلى أن يكبر، حتى أنك تجد بعض من كبر وتزوج ولا يزال الوالدان مشفقين عليه، ويتابعانه، الأمم تتابعه، والأب يتابعه، فحقهما لا ينقضي، فينبغي أن ترد الإحسان بالإحسان.

قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]، أي أحسن إليهما، بجميع وجوه الإحسان القولية والفعلية، الكلام الطيب الحسن والأفعال الحسنة، ليس مجرد كلام بدون أفعال، تجد منهم من يأتي

ويقبل، ويتكلم كلام طيب، لكن إذا أُمر بشيء لا ينفذ، تجده ضعيف من حيث التطبيق ومجرد كلام.

أو بعضهم لا هذا ولا هذا، ولهذا أمر الإحسان بالقول والفعل، وأيضًا لهم المحبة العظيمة، ليس مجرد فقط كأنك تؤدي رسالة، تؤدي عمل، والله اليوم أنا عندي موعد زيارة مع الوالدة لازم أروح، لا، القضية قضية محبة، قضية بشاشة، إدخال السرور عليهما، ما هي قضية تؤدي عمل وتمشي لا.

فينبغي المحبة والإحسان إليهما، تقديم الهدايا، دفع المال لهما، وهكذا، كلّ هذا يكون من البر والإحسان، وعدم التكبر، الإحسان والبر كلمات واسعة جدًا.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: 23]، إذا وصل إلى سن الكبر، وقد ضعفت قواهم وأنت كانت قواك ضعيفة جدًا في صغرك، وهم الآن ذهبت قوتهما وأصبحوا في ضعف، ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ [الإسراء: 23]، فضعفت القوة واحتاج من اللطف والإحسان والكلام الطيب والمعروف الطيب، وتذكر أنك كنت عندهما في صغرك في بداية حياتك، ويجب أن ترد هذا الإحسان وتزيد.

قال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ [الإسراء: 23]، الوالدان جميعًا أو أحد الوالدين.

✍ فبما أوصاك الله؟

🗐 خمسة أشياء اضبطها معي:

الأول: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: 23]، يعني أدنى مراتب الأذى، أدنى شيء نبه عليه، يعني أدنى ما يقال، لا تقف أف، يعني كلمة تضجر وتضايق كأنك تتضايق منهم، يعني مجرد كلمة أف يعني لو أظهرتها خفية هذا من العقوق.

فأول أمر قال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: 23]، أتى بأدنى ما يستعمل، ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: 23].

ثم ارتفع زاد قال: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: 23]، النهر كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: 10]، النهر ما هو؟ الزجر، قال: لا تزجرهما بالكلام، الكلمة الغليظة الكلمة الخشنة القوية لا يسمعها، لا يسمعه أحدكما منك أبدًا، لا تعطهم إلا الكلمة الطيبة اللينة الرقيقة، أما الكلمات القوية، أو تصادمهم بالكلام، أو تقطع حديثهما، أو تضحك أمامها، أو تسخط أو تصد أو تلتفت، أو تأخذ جوالك تتكلم وهو يتكلم معك، وهو ما يزال يتحدث الوالد أو الوالدة ثم تقطع حديثهما لترد على المكالمة، كلّ هلا ينبغي أن يحصل منك أبدًا؛ فإن هذا يدخل عليهما شيء من الحزن والضيق.

لذلك في الأول نهاك عن أمرين:

1. لا تقل لهما أف.
2. ولا تنهرهما.

نهاك عن أمرين ثم أمرك بأمرين:

الأمر الأول قال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23]، هذا مقابل هذا، لا تقل أف لا تنهر، لا تقل لهما أف هذا قول، لا تنهر هذا احتمال قول واحتمال فعل، ومقابل ألا تقل لهما أف؛ قال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23].

والقول الكريم ما هو؟

هو: القول الذي يحبانه، القول الذي فيه أدب، وفيه تلطف، فيه لين، فيه حسن، يتلذذ الوالد والوالدة بهذا القول، تلين قلوبهما بسماع هذا، تطمئن نفوسهما بهذا الشيء.

قال: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23]، هذا من حيث القول.

وفي المقابل لا تقل لهما أف، ثم لما قال: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ [الإسراء: 23]، قد يكون هذا قول أو فعل، فقابله بالفعل؛ فقال: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، وهذه العبارة تعتبر من بلاغة القرآن، عبر عن التواضع بهذه الجملة، يعني تواضع لهما وتذلل لهما كما يتذلل الطير لما يخفض جناحه لصغاره أو لنزوله وهبوطه، تجده ينزل جناحيه، فأنت اخفض لهما جناحي الذل، يعني كأن الذل له جناحان فأنت تخفض جناحي الذل لهما.

تواضع لهما أشد التواضع وتذلل لهما، واخضع لهما بالقول والفعل رحمة لهما، وأمر آخر: احتساب الأجر، ليس مجرد أداء واجب، والله الوالد والوالدة لهما حق علي لازم أمر عليهما، لازم أفعل كذا، لا، في احتساب، في أجر، في بر، فهم سبب دخولك الجنة، في باب من أبواب الجنة اسمه باب الوالد، باب البر بر الوالد.

فاحتسب الأجر، وليس من أجل خوف أو يحصل منهم زعل عليك، أو خوف من الكلام عليك، أو خوف من الوالد، والله الوالد أنا أخاف أن يزعل، أو لا يتحدث معي أو كذا، ما هي قضية خوف، أو رجاء أحيانًا مقابل الخوف، والله أنا أرجو من الوالد كذا، أو أرجو من الوالدة كذا، أو لك مصلحة دنيوية، لا، لا رجاء ولا خوف؛ بل احتساب الأجر.

فليكن مقصدك هو ما عند الله، فتؤجر على خطواتك، وتؤجر على أفعالك، وكلماتك وابتسامتك، وممازحتك معهم، وضحكك معهم، كلّ هذا أجر عظيم.

قال: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، هذا فعل، ثم عاد إلى القول؛ فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ﴾ [الإسراء: 24]، هذا في الدعاء، عندنا القول الأول: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23]، الثاني: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ﴾ [الإسراء: 24]، يعني عندنا نهيين، بدأ بالنهي، نهيين عن العقوق، وأمرين بالبر، ثم في الأخير الدعاء.

قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا ﴾ [الإسراء: 24]، يعني ادعو لهما بالرحمة أحياء وأمواتًا جزاء على تربيهم، هم من رحماك، هم رحموك وأنت صغير، رحمة الأم ورحمة الأب عليك وأنت صغير أشد من رحمتك أنت عليهم وهم كبار، فادع الله لهم بالرحمة.

يُفهم من هذه الألفاظ والتوجيهات الربانية وهذه الأوامر والنواهي، يفهم منها أن كلما زادت تربية الوالد لك زاد برك به، أنت تذكر كيف رباك وجعلك رجلاً مستقيمًا، مطيعًا، سلكت طريق النجاة، سلكت طريق الخير، من الذي وجهك هذا التوجيه؟ إذًا هو لك حق كبير عليك.

بخلاف لو أن هذا الأب مهمل، وصاحب سفريات وذهاب وإياب ولا يدري عنك ولا يدري عن البيت، ولا يدري عن شيء، فحق من يعتني بك له حق عظيم، وينبغي لك أن تزيد في بره كما زاد هو في تربيتك.

الشيخ السعدي في تفسيره كلام جميل جدًا لما ذكر هذه الأشياء؛ قال: **"وبمنزلة الوالد منزلة المربي والمعلم"** فمن رباك وعملك سواء في المدارس النظامية أو في غير المدارس، فهذا له حق عليك، مثل حق الأبوين، المربي والمعلم رباك تربية صالحة وأنشأك، فتخرج عالم كبيرًا، إذًا له حق، الشيخ السعدي استنبط من باب القياس أن حق المعلم وحق المربي حق عظيم، مثل حق الوالدين، قد يفوق الوالدين في التربية الحسنة والتعلم.

بعدما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الوصية ببر الوالدين والإحسان إليهما لاشك أن كثرة الممازجة والاحتكاك قد تورث بعض التقصير، يعني البنت مع أمها، ملاصقة معها، قد يبدر منها شيء من التقصير، إما في كلمة، أو في فعل أو في كذلك، وكذلك الابن مع أبيه، قد يتضايق أحيانًا من بعض التصرفات، قد يقصر في هذا الشيء، فمها المنهج؟ نحن عشنا هذا الشيء ونعيشه، ما المنهج تجاه الوالد أو الوالدة إذا حصل منك شيء من هذا التقصير، بعضهم يتضايق من والده، أو يصير بينهما نوع من العناد، وهو لا يريد هذا الشيء، لكن قد يحصل منه وتجده يأسف على هذا الشيء ويندم.

✍ لكن ما التوجيه القرآني في مثل هذا؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: 25]، الله مطلع على الأبناء تجاه والديهم، مطلع على ما تكنه نفوسهم من الخير والشر، ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ [الإسراء: 25]، الذي في نفسك الله يعلم به.

قال: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ [الإسراء: 25]، نيتك صالحة لكن يحصل شيء من التقصير وأنت تبادر بالتوبة والاستغفار والإحسان ولا تزال محسنًا لوالديك بارًا بهما، ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: 25].

كلام جميل يعني إذا حصل منك تقصير في حق الوالد أو الوالدة، ورجعت وتبت واستغفرت، وعرفت أنك أخطأت؛ فإن الله غفور يتجاوز عنك، مجرد أنك أحسنت لهما، وأكثرت من الإحسان، وحصل منك شيء من التقصير؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتجاوز عنك.

هذه جملة جميلة جدًا وهي تستكمل ما قد يقع من الإنسان من قصور في حق الوالدين، أو صد أو انشغال، تجد بعض الناس والله أنا عندي دوام، وعندي عمل، أروح الصباح ولا آتي إلا آخر النهار، ثم بيتي، ثم أولادي، ثم كذا، ثم كذا، متى يحسن لي أن أمر على الوالد وكذا.

أنت نيتك البر ولو كان عندك فرصة لذهبت إليهما وجلست بين رجليهما، أو تحت قدميهما، فلمثل هذا الأمر الله يعلم بما فينفسك، ويمكن يضاعفك الله الأجر، ويمكن يكتب لك الأجر على نيتك وأنت بعيد، **«إن بالمدينة أقوامًا ما قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم العذر»**.

فأنت إذا حبسك العذر عن والديك وأنت تجاهد نفسك أن تبرهما، الله عَزَّ وَجَلَّ يكتب لك الأجر، وبر الوالدين لا ينتهي، بعض الناس قد يكون توفي والده أو والدته أو جميعًا لا ينقضي البر والإحسان إليهما.

فبرهما بالدعاء والصدقة والحج أو العمرة، والأعمال الصالحة كثيرة، كذلك صلة ود أبيك، أصدقاء الوالد وأرحامه وأقاربه، كلّ هذا من البر؛ حتى زيارة الأب والأم في قبورهما.

بعض الناس يقول: خلاص أنا أدعو لهما ولا أحتاج أني أذهب، أقول: اذهب ولا يضيع عليك مع الزمان والمدة مكانهما أو قبرهما، اذهب وزرهما في كلّ وقت.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان في المدينة وخرج إلى مكة مر بالأبواء، فذكر أن أمه قد دفنت في الأبواء، فمر عليها وزارها، لما استأذن ربه أن يزورها أذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له أن يزورها، لما استأذنه أن يدعو لها ما أذن له.

ولذلك لما ذهب رآه الصحابة أنه ضحك، وابتسم، ثم رأوه يبكي، فقالوا: يا رسول الله رأيناك ضحكت وابتسمت ثم بكيت، فقال: **«إني استأذنت ربي أن أزور أمي فأذن لي فاستبشرت خيرًا وزرتها، ولما استأذنته أن أدعو لأمي لم يأذن لي فبكيت»**.

الشاهد من هذا القصة كلها: أن زيارة الوالدين مشروعة، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهب وزار، فينبغي أن يحرص الإنسان على هذا.

بعدما ذكر بر الوالدين وهم أقرب الأرحام وأقرب الأقارب لك الوالدان ذكر بعدها القرابة شيئًا فشيئًا، كالأخوة والأعمال، والأخوال، ونحو ذلك.

قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26]، ذا القربى ما هو حقه؟ حقه البر والإكرام، والصلة، والزيارة، ومساعدته إذا احتاج إلى مساعدة، إدخال السرور، التواصل معه باستمرار.

وهو يتفاوت بتفاوت الأحوال والأزمنة والأماكن والبعد والقرب، لكن لا يقطع الإنسان صلة الرحم، صلة الرحم سبب لدخول الجنة، فلا يدخل الجنة قاطع، وأيضًا جاء في بركة العمر والرزق الطيب بسبب الرحم، **«من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أجله فليصل رحمه»**.

والله أكد في كتابه في مواضع كثيرة حق القربى، قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ [الإسراء: 26]، ثم قال: ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ [الإسراء: 26]، أيضًا الفقراء لهم حق، من الزكاة ومن الصدقة، لتزول المسكنة، وإدخال السرور عليهما، وزيارتهما، الفقراء والمساكين بحاجة.

ثم قال: ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26]، ابن السبيل هو من انقطع في سفره، ليس معه شيء، لا زاد، ولا راحلة، ولا سكن ولا شيء، يموت، فهذا يجب أن يوقف معه وأن يوصل وأن يُساعد، وأن يعطى حقه من الزكاة أو غيرها.

قد يأتي شخص: الآن ما عاد نجد ابن السبيل، في الآن جوالات، وفي حسابات، وفي كذا وفي كذا، نقول: نعم لكن يوجد في زمن من الأزمان أو في مكان آخر، قد تجد في بقاع الأرض من هو من أبناء السبيل الذي ينقطع في الطريق ليس عنده لا مال ولا شيء، فمثل هؤلاء لا يساعدون.

لما حث على البر ومن أعظم البر هو البر بالمال حث عليه، حذر من إنفاق المال في الوجوه المحرمة؛ فقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: 26]، في الكثير الآن من الآيات كلما يذكر شيء يبين لك العلة والسبب، قال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: 26]، ثم علل؛ قال: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 27].

✍ هل تريد أن تكون أخًا للشيطان، والشيطان لربه كفورًا فتصبح شبيهًا به؟

هذا تعليل قوي وبيان أن التبذير أمر محرم، ولا يجوز، التبذير ما هو؟ وهل هناك فرق بين التبذير والإسراف، أو التبذير والإسراف واحد؟

نقول: التبذير هو **"جعل المال في الحرام"** نسميه مبذر ولو كان قليلاً، لو أن إنسان اشترى علبة دخان بسعر قليل نقول: مبذر، التبذير في الأشياء المحرمة، صرف المال في الحرام هذا نسميه تبذير.

✍ طيب والإسراف؟

الإسراف هو: **"تجاوز الحد"** قد يكون في الحرام، وقد يكون في الحلال، والغالب في الحلال، مثل تجاوز الحد في الماء، تجاوز الحد في البناء، تجاوز الحد في الطعام، في الشراب، في اللبس، قد يكون اللباس تستطيع أن تشريه بمبلغ معتدل، فيشتريه بأضعاف أضعاف، فهذا نسميه إسراف.

قد يكون تأكل لك وجبة بعشرين ريال خمسة وعشرين إلى ثلاثين ريال، ثم يأتي بوجبة تجاوزت المائة، هذا نوع من الإسراف، أو يكون الطعام كثيرًا ولا يأكل إلا قليلاً فهو تجاوز الحد سواء في الحلال أو الحرام، هذا الإسراف.

والإسراف لا يحبه الله، ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: 141]، والتبذير لا يحبه الله وقد نهى عنه، وشبه المبذرين بإخوان الشياطين.

فلو أعطيت مالك أو نصف مالك في أشياء مباحة وفيها مصالح ما يسمى تبذير، ولو تعطي أقل القليل من مالك في شيء محرم هذا تبذير، هذه قاعدة.

✍ قال: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء: 27]، ما هي علاقة الشيطان بالتبذير؟

قالوا: إن الشيطان لا يدعو إلا للتبذير الإفساد، ويدعو إلى الإمساك، يعني الشيطان إما أن يمنعك من الأنفاق، فيجعلك بخيلاً، أو يحثك على التبذير وإفساد المال، والاعتدال هو الوسط كما سيأتينا.

الآن ستعود الآيات إلى حق الفقراء سواء كانوا الأقارب أو المساكين أو ابن سبيل، الآن الله أمرنا أن نعطي القريب المحتاج الضعيف الفقير أو المسكين أو ابن السبيل نعطيه من الزكاة أو من الصدقة، ونساعده، ونعينه، طيب أنا ما عندي صدقة، ما عندي زكاة، ما عندي مال.

✍ ماذا أصنع؟

قال: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ [الإسراء: 28]، يعني ما عندك شيء تعطيهم، أعرضت عنهم، ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ [الإسراء: 28]، تريد أن يرزقك الله حتى تعطيهم، ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ [الإسراء: 28]، يعني إذا كان أعرضت عنهم ولم يكن معك شيء تعطيهم، ولكن ترجو من الله أن ييسر الله لك الأمور فتعطيهم، فما الواجب تجاههم؟ قال: قل لهم قولًا ميسورًا لطيفًا برفق ووعد جميل، إن شاء الله يرزقنا الله، تأتينا بعد أشهر، تأتينا بعد سنة، تعطينا فرصة متى ما سنحت الفرصة، وتعتذر لهم بالاعتذارات الطيبة، وتطمئن قلوبهم، وكما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة: 263]، هذا معنى هذا الكلام.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاك قاعدة مهمة في التربية والتعامل مع المال، كيف نتعامل مع المال؟ قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29]، هذه نفس الشيء نسميها كناية من كنايات القرآن، كأنك قد ربطت يدك في عنقك ما تخرج شيء، ما تنفق، قد غلت يدك في عنقك، ما تخرج من جيبك ولا من مالك شيء أبدًا.

قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29]، لا يعني لا تكن بخيلاً، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: 29]، تمد يدك تبسطها كلّ البسط فتنفق مالك كله فيضع، فكن وسط، خير الأمور الوسط.

قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29]، هذه كناية عن شدة الإمساك والبخل، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا ﴾ [الإسراء: 29]، هذه كناية عن الإسراف والتبذير، ولكن كن وسط، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في صفات عباد الرحمن في سورة الفرقان؛ قال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]. لم يقتروا يعني لم يبخلوا.

الآن الله نهى عن البخل والإسراف، ثم علل لك إذا فعلت ذلك؛ قال: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29]، لابد أن نفهم ختم الآيات، ختم الآيات من أجمل شيء، لما جاء في الشرك قال: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ [الإسراء: 22]، لما جاء في الإسراف والتبذير أو البخل الشديد؛ قال: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29].

ملوم ترجع إلى شيء، ومحسور ترجع إلى شيء، الملوم يرجع إلى أي شيء؟ يرجع إلى البخل، إذا كنت بخيلاً ممسكًا حتى الزكاة ما تخرجها، وحتى نفقة البيت ما تخرجها، الناس يلومونك، يذمونك، الناس يلومونك على أفعالك السيئة.

✍ وما معنى محسورًا؟

هذا في الذي ينفق ماله ولا يمسك شيئًا، يضيع ماله، محسورًا يعني حاسر اليد، حاسر اليد يعني فارغ اليد ما عندك شيء، خلاص ذهب ملك، كلمة مسحور ترجع إلى، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: 29]، وكلمة ملومًا ترجع إلى، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾ [الإسراء: 29]، انظر إلى ختم الآيات.

ثم علل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبين لك، إن كنت بخيلاً أو كنت مسرفًا ما هي النتيجة؟ قال: الأمر بيد الله، فلا تخاف أيها البخيل أن يذهب مالك، وأنت أيها المسرف انتبه وامسك مالك في مصلحته.

قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: 30]، يبسط يعني يوسع الرزق على عباده، الرزق بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر يعني يمنع، يمنع من ذلك.

قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 30]، فالذي يمسك ويبسط الرزق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والذي يضيق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لحمة، فيعطي من يشاء فيجعلها غنيًا، ويجعل من يشاء فقيرًا كما جاء في الحديث في الحديث القدسي قال: **«إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه»**.

فتجد بعض الناس الفقر أصلح له، وبعض الناس الغنى أصلح له، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المقدر، وهو الذي بحكمته يوسع على من يشاء ويغني من يشاء، ويفقر من يشاء، والحكمة والعلة، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 30].

✍ ما الفرق بين الخبير والبصير؟

نقول: الخبير الذي يعلم السرائر الخفايا والبصير الذي يعلم الأشياء الظاهرة، فالله جمع بين هذا وهذا.

الحقيقة الوصايا كثيرة ولا نستطيع أن نأتي عليها جميعها في مثل هذا اللقاء، بقي عندنا النهي عن القتل، والنهي عن الفواحش، قتل النفس، وقتل الأولاد، ومال اليتيم، والوفاء بالكيل، إلى آخره من الوصايا، إن شاء الله يأتي الحديث عنها في اللقاءات القادمة، نكتفي بهذا القدر، ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الإسراء 31 - 39)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو اليوم الثالث عشر من شهر صفر من عام [1448 هـ]. أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

أيها الإخوة الكرام، مجلسنا المبارك مع تفسير القرآن العظيم، نجلس هذه الدقائق المعدودة ونتناول شيئاً من آيات الله البينات، والسورة التي بين أيدينا هي سورة الإسراء.

وما زلنا في هذه الآيات التي فيها التوجيهات، والأوامر، والنواهي المتعلقة بالأخلاق، والآداب، و**(العقائد)**. وبدأها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بـ**(التوحيد)** و**(العقيدة)**، وختمها أيضاً بـ**(التوحيد)** و**(العقيدة)**.

فأنت تقرأ في هذه الوصايا التي سماها أهل العلم بـ**(الوصايا العشر)** في سورة الإسراء، وقد ذكر الله أيضاً وصايا أخرى عشراً في سورة الأنعام في ثلاث آيات، وذكر أيضاً وصايا عشراً في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36].

هذه **(الوصايا العشر)** التي بين أيدينا ابتدأها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالنهي والتحذير من **(الشرك)**، وبيان عاقبة **(الشرك)**: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: 22]؛ لا تعبد مع الله إلهاً آخر، تصرف شيئاً من حقوق الله لمخلوق، هذا هو **(الشرك)**؛ أن تجعل مع الله معبوداً آخر.

☜كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: **«أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ»**.

كيف الله خلقك، ورزقك، وأعطاك الصحة، والعافية، والأمن، والذرية، والزوجة، وأعطاك من كل ما سألت، ثم تأتي وتصرف شيئاً من حقوقه لمخلوق ميت في قبره، أو صنم، أو حجر، أو شجر لا يسمع، ولا ينفع، ولا يضر؟!

كيف تصرف هذا؟! تدعو من دون الله، أو تستغيث بغير الله، أو تستعين بغير الله، أو تذبح لغير الله، من أنواع **(الشرك)** الكثيرة، فالله نهى هنا قال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾.

- ما هي النتيجة؟

قال: ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: 22]؛ مذموماً: الناس يذمونك على فعلك هذا الشيء؛ تعبد غير الله والله خلقك، ومخذولاً: أن يخذلك الله والناس، تصبح مخذولاً ما أحد يعينك، ولا أحد ينصرك، ولا أحد يتولى أمرك إذا جاء يوم القيامة ورأيت النار أمامك.

ثم أكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -لما نهى عن (الشرك)- أكد على الأمر بـ(التوحيد)، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: 23]؛ وقضى يعني: حكم، وألزم، ووصى، وأمر ربك.

- قضى على أي شيء؟

قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]؛ حقق **(التوحيد)**، لا تعبد معه إلهاً آخر، لا تعبد إلا إياه وحده لا شريك له.

من الذي خلقك؟ الذي خلقك هو الله، ما في معه أحد خلقك، الذي رزقك هو الله، ما في مخلوق رزقك، وهكذا، فالذي أنعم عليك هو الله، إذاً يجب عليك أن تعبد الله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.

ثم لما أوصى بعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإفراده بالعبادة -وحق الله عظيم- ذكر الحق الآخر الذي هو حق الوالدين، قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]، ثم فصل في التعامل مع الوالدين بالآداب، والأخلاق، والإحسان، والبر، إلى آخر ما ذكر.

ثم ذكر أيضاً وصايا أخرى وهي الإحسان إلى الأقارب، الأقارب ذوي الأرحام، أن تحسن إليهم بالتواصل، والزيارة، والاتصال، والهدايا، وبأي وجه من وجوه التواصل تصل إليهم، قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: 26].

فالأب له حق، والإخوة لهم حق، والأبناء لهم حق، والأعمام لهم حق، والعمات، والأخوال، والخالات، وهكذا كل الأقارب الذين هم من الأصول، والفروع، والحواشي، ينبغي أن تصلهم، قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾.

☜وتعرف عظمة الرحم: **«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»**؛ **(قاطع رحم)** لا يدخل الجنة.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ 22 أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ 23﴾ [محمد: 22-23]؛ شوف حكم عليهم بالإفساد لأنهم قطعوا أرحامهم لا يزورونهم.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾، تجده يسمع لكن أصمه الله عن الحق، صمه عن الخير وحرمه الخير، وأعمى أبصاره؛ أعمى بصره عن الحق، وأعمى بصره عن الخير.

ومع الأسف، تجد كثيراً من أبناء المسلمين وممن ينتسب للمسلمين عندهم من قطيعة الرحم الشيء الكثير، تجده مع عمه، أو مع خاله، أو مع قريب له، له سنوات؛ مع إخوته يمر الشهر والشهران ما تواصل! فينبغي الحرص على صلة الأرحام والحذر من قطيعة الرحم، قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾.

ثم قال: ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾ [الإسراء: 26]؛ المسكين له أيضاً حق عليك؛ أن تعطيه من الزكاة، من الصدقة، ومن الكلام الطيب، الرد بالبشاشة، والكلام الطيب، والوعد الكريم، وكذلك: ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26] المحتاج، وهكذا.

- ثم بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي ينبغي لك في التصرف بالمال، ما هو؟

قال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: 26]؛ **(التبذير)** هو صرف المال في الأشياء المحرمة، لا تظن أن **(التبذير)** معناه أنك تدفع أموالاً كثيرة فيما لا فائدة له، ولو كان المال قليلاً، إذا صرفته في شيء محرم فهذا من **(التبذير)**، و**(التبذير)** محرم.

وكما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 27]؛ يعني المبذر هو مع الشيطان، أخ للشيطان، الله جعله أخاً للشيطان، والشيطان كان لربه كفوراً.

- فإذا سئلت: ما الفرق بين (التبذير) وبين (الإسراف)؟ فما الفرق؟ هل (الإسراف) هو (التبذير) أم يختلف؟

الجواب: **(التبذير)** هو جعل المال في الشيء المحرم، فلو اشترى علبة دخان -ولو قيمتها قليلة- فهذا مبذر، ولو اشترى وليمة تصل إلى ثلاثة آلاف، هذا ما نقول مبذر؛ لأنه اشترى شيئاً حلالاً، هذا لا يسمى مبذراً، بل يسمى مسرفاً.

إذا كان اشترى هذه الوليمة بثلاثة آلاف أو أكثر أو أقل، ولكن اشتراها ولم تؤكل، أو اشتراها لعدد قليل، كأن يجعلها لشخص واحد أو شخصين ثم لا يؤكل الكثير منها، فهذا نسميه **(إسرافاً)**، أما إذا أُكلت وكان العدد كبيراً وأُكلت فهذا لا يسمى **(إسرافاً)**.

فـ**(الإسراف)** هو تجاوز الحد في الأشياء المباحة، يستطيع أن يشتري مثلاً أو أن يلبس ثوباً قيمته مائتان أو مائتان وخمسون، فيشتريه بألف، أو ألفين، أو ثلاثة آلاف، فهذا نسميه **(إسرافاً)**؛ لأنك ممكن أن تأخذ لباساً لا يصل إلى هذا المبلغ.

وكذلك نقول في مثل ما يتعلق بالحذاء، وما يتعلق بكذا، تسمع أحياناً بعضهم يبالغ في شراء مثل هذه الأشياء مبالغة لا حد لها، وأحياناً على وجه الافتخار يقول: أنا اشتريت بكذا، واشتريت كذا، واشتريت كذا.

وكذلك في جانب المرأة، في النساء تسمع أحياناً مبالغ خيالية، فساتين تصل إلى ثلاثين، أو أربعين، أو خمسين ألفاً! هذا نسميه **(إسرافاً)**؛ لأن الملبس حلال، فأنت اشتريت شيئاً حلالاً فلست بمبذر، بل نقول هذا مسرف.

فـ**(الإسراف)** هو صرف المال في الأشياء الحلال ولكن فيها تجاوز للحدود، أما **(التبذير)** - ولو كان قليلاً- في أشياء محرمة، فهذا نسميه **(تبذيراً)** وهو محرم، والله أكد وشدد عليه.

بعض الناس يقول: يعني ولو اشتريت ملابس أو كذا واشتريت شيئاً غالياً ما فيها شيء، ما فيها شيء؟ لا، فيها! ليش ما فيها شيء؟ فيها، والله إن الله لا يحب المسرفين: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31]. الله لا يحبك إذا فعلت هذا، الله لا يحب الإنسان المسرف.

ولذلك شوف لما ذكر الله **(التبذير)** والمبذرين، أعطاك القاعدة التي تستطيع أن تمشي عليها في حياتك.

- ما هي القاعدة والتعامل مع المال؟

قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: 29]؛ يعني تشد يدك حتى تكون بخيلاً، ما تنفق على نفسك ولا بالقليل، ما يلبس ملابس لائقة به، ولا يأكل شيئاً يليق به، ولا يركب مركبة تليق به، ولا يسكن مسكناً يليق به، تجده مقتراً وبخيلاً وشحيحاً على نفسه، هذا لا ينبغي، هذا يقع في الحرام، **(البخل)** محرم ومنهي عنه.

هذا الجانب الأول، الجانب الثاني: **(الإسراف)**.

- ما القاعدة؟

القاعدة هي التوسط في الأمور، وخير الأمور الوسط، لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك بخيلاً شديد البخل، لا تنفق لا على نفسك ولا على أولادك، ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: 29] بحيث تضيع أموالك، تجد بعض الناس عليه من الديون ما عليه.

وإذا نزل الراتب يذهب الراتب في خمسة أيام أو في عشرة أيام، ويجلس طيلة الشهر وهو على أسلاف وديون، هذا الذي قال الله سبحانه فيه: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: 29]. ملوماً: الناس يلومونك، ومحسوراً: حاسراً ما عندك شيء، يعني عليك ديون.

والديون خطيرة جداً، يعني جاء في حديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في الشهيد - حتى في الشهيد شهيد المعركة- يغفر له عند أول قطرة.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ»**. حتى الشهيد ما يغفر له ما دام عليه دين! فكيف بغير الشهيد؟! كيف بحالنا نحن؟!

تجد بعضهم عليه ديون ويموت وعليه ديون، إذا متّ مَن يسدد عنك الديون؟ قد لا يسددون عنك من الورثة، فلا تلزم نفسك وتحدّ نفسك على الديون ثم في الأخير لا تستطيع سدادها.

وهذه الديون قد تكون لأجل أشياء ليست ضرورية؛ معه سيارة ومركبة مناسبة، يذهب يبيعها قبل قليل ويشتري شيئاً جديداً بالمال الغالي يضعه على ظهره بالديون!

يغير مثلاً أثاث البيت لأجل أشياء ليست ضرورية، كلها من الكماليات، ويجعل على نفسه ديوناً أنت لست مضطراً إليها، إذا اضطررت للديون فالله يعينك على سدادها وأنت محتاج ومعذور عند الله، لكن تجي تأخذ أسلافاً وقروضاً وديوناً وتضعها على ظهرك فهذا ليس في مصلحتك أبداً، فنحذر هذا كل الحذر، وننتبه لهذا الأمر.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -شوف هذه كلها وصايا ينبغي لنا أن نعتني بها ونفهمها- شوف قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾، يعني خلك كن متوسطاً في الإنفاق وتراعي حقوق نفسك، وحقوق من تحتك من الزوجة، والذرية، والوالدين إذا كانوا محتاجين تراعيهم وتصلهم، تتوسط في الأمور، تتوسط في نفقة البيت.

واعلم أن الله يرزق، يعني بعض الناس يمسك ويقول: أخاف إذا دفعت الأموال أجلس ما عندي شيء، وبعضهم ينفق ويقول: الله خير الرازقين، لا تخف أبداً، أنفق يرزقك الله، لا كذا ولا كذا.

ولذلك شوف قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: 30]. الله هو الذي يعطي الشاكرين، ويمنع الممسكين البخلاء لا يعوضهم، فالله يبسط لمن يشاء ويقدر -يعني يضيق-، إنه كان بعباده خبيراً وبصيراً بمن يستحق أن يوسع عليه وبمن يستحق أن يضيق عليه.

ثم بعد ذلك تأتينا وصايا أيضاً مهمة تتعلق -مثل ما ذكرنا- إما بالعقائد، أو تتعلق بالأخلاق والآداب، أو بأمور وصايا مهمة.

شوف قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ [الإسراء: 31]. كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم الذكور والإناث أحياناً، وأحياناً الإناث خشية العار حتى لا تفضحه، والذكور **(الأولاد البنون)** يقتلونهم خشية أن يأكل معه، يضيق عليه بالمال أو يأكل معه.

☜ كما في الحديث قال: **«أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ»**. الله نهى هنا، قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾، ويدخل في ذلك **(الإجهاض)**، أن تجهض المرأة أو الرجل يأمر زوجته أن تسقط وتجهض، هذا داخل فيه، فلا تقتلوا أولادكم، رزقهم على الله، الذي خلقهم هو الذي يرزقهم: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: 31]؛ **(الإملاق)** هو الفقر، يقول: لا تقتلوهم خشية الفقر، تقتل ولدك الذي خلقه هو الذي يرزقه؟!

لا تقتل خشية إملاق: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 31]. يعني قتلهم خطأ عظيم جداً، من أعظم كبائر الذنوب أن تقتل ولدك.

شوف لما أمر الله ببر الوالدين ولهم حق عظيم، نهى عن قتل الأولاد، هؤلاء أصول تبرهم، والأولاد تحسن إليهم وتربيهم لا أن تقتلهم، فشوف يعني بين هذا وهذا قال هنا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ۖ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾.

شوف في آية أخرى في سورة الأنعام قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: 151]. هنا غير، قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، هناك ﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ وهنا ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾، هناك قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

وهنا قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾. لماذا؟ هناك قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ يعني **(الإملاق) (الفقر)** متحقق.

وهنا قال: ﴿خَشْيَةَ﴾ يعني قد يوجد فقر وقد لا يوجد، إنك تخاف من الفقر، فلما كان يخاف من الفقر قال الله هنا -لأنه يقتل خشية الفقر-: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ هم، اتركوهم لا تقتلوهم رزقهم على الله.

هناك لما كان الفقر متحققاً قال: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ أنتم، لا تخافون الفقر ولا تخشوه ولا يضركم الفقر، نحن نرزقكم وإياهم، وهنا قال: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾.

لما نهى عن قتل الأولاد نهى أيضاً عن نوع من القتل، وإن لم يكن قتلاً لكنه شبيه بالقتل وهو **(الزنا)**، وهو نشر الذرية من غير طريق شرعي، هذا **(الزنا)**؛ **(الزنا)** أن تحمل المرأة من زنا ثم يضيع الولد، ليس له أب، من يربيه؟ إلى من ينتسب؟ إذا ولدت المرأة عن طريق **(الزنا)**، هذا لا ينسب إلى أبيه، أبوه غير معروف.

☜قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ»**. يعني المرأة إذا ثبت عليها الزنا بإقرارها أو بالشهود تُرجم بالحجارة إذا كانت ثيباً.

الشاهد هنا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما نهى عن قتل الأولاد نهى عن **(الزنا)**؛ لأن **(الزنا)** طريق محرم، ليس طريقاً للنسل وبث الذرية بطريق شرعي، وإنما للنسل وبث الذرية في طريق محرم، فيوجد عندنا عدد كبير من الأولاد لا ينتسبون إلى آبائهم، مَن يربيهم؟ ومَن يقوم بهم؟ أين يوضعون؟

يكبر ولا يدري أين يذهب، فيصبح يعني كما يقال: **(قنبلة موقوتة)** ينفجر في المجتمع، يضيع المجتمع بسببه، بين من اسم من هذا إلى من هذا! فلذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نهى عن **(الزنا)**؛ **(الزنا)** علاقة الرجل بامرأة بطريقة غير شرعية.

الله لما نهى عن **(الزنا)** فتح الباب في الحلال؛ هذا حرام وهذا حلال، الحلال أن تتقدم لامرأة وتتم الموافقة من الطرفين، ويتم العقد الشرعي الصحيح، ويأخذها بطريق شرعي صحيح مباح، وتنتشر الذرية.

أما العلاقات المحرمة مثل **(الزنا)**، و**(السفور)**، و**(الفواحش)**، و**(السفاح)**، هذا طريق سيئ جداً، وسيكون أولاً عالاً على المجتمع، وثانياً يؤذن بفساد المجتمع وحلول العقوبات والأمراض المستعصية فيه.

كما جاء في الحديث: **«لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّىٰ يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا»**.

وفي اللفظ المذكور: **«مَا ظَهَرَ الزِّنَا فِي أُمَّةٍ إِلَّا ظَهَرَ فِيهَا الْأَمْرَاضُ الَّتِي لَا يُوجَدُ لَهَا عِلَاجٌ»**.

ولذلك شوف الآن إذا انتشر **(الزنا)** في بعض المناطق تظهر فيهم أمراض ليس لها علاج، فالشريعة نهت؛ لأن هذا طريق سيئ محرم، وهذا طريق مباح حلال، هذا طاهر وهذا نجس.

شوف قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -ما قال لك لا تزنوا، قال-: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾ [الإسراء: 32]؛ لأن **(الزنا)** له مقدمات.

- ما هي مقدمات (الزنا)؟

مقدماته: نظرة، ضحكة، ابتسامة، علاقة، **(خلوة)**، شيئاً فشيئاً ثم ما يدري إلا وقد وقع في الحرام، وتصير علاقات محرمة، ثم موعد، ثم لقاء، ثم فساد، فهذا هو.

قال: لا تقرب، لا تنظر إلى الحرام أمام الشاشات، نساء كاسيات عاريات مسافرات تنظر إليه وتقول: والله أنا أتابع الأخبار، أنا والله أشوف البرنامج، هذا لا يجوز! احفظ نظرك.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الْعَيْنُ تَزْنِي وَزِنَاهَا النَّظَرُ»**، لا تنظر إلى الحرام، لا في الجوال، ولا على القنوات، ولا على الشاشات، احفظ نظرك من الحرام فإن العين تزني، ولا ترضى أنت لنفسك أن تزني عينك، وعينك ستحاسب وتعذب فاحذر!

وكذلك السمع، سمع الحرام تحفظه، فكل هذه وسائل، وسائل **(الخلوة)** بالمرأة الأجنبية؛ لا يجوز أن تخلو بامرأة أجنبية في مكان واحد، لا يجوز فتحذر هذا، حتى في المصاعد الكهربائية لا تخلو بامرأة، دخلت المرأة وأنت وحدك اخرج، إذا كان فيه امرأتان أو رجلان ادخل، وهكذا، فالإنسان يحذر ويحذر.

أولاً ليست القضية -يمكن تقول والله المصعد كله خمس دقائق أو عشر دقائق- فأنت لا تنظر إلى خمس وعشر، انظر إلى: هل هذا حلال أم حرام؟

هنا الكلام، أنا عندي حدود، وعندي رب العالمين مطلع علي، **«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**. إنه يراك، فاحذر هذه الخلوات، الخلوات والنظرات المحرمة، أنت لا تدري ما عاقبة هذه الأشياء! هذه لها عقوبات، والله يعاقبك وأنت لا تشعر؛ يعاقبك بحرمان الخير، يعاقبك بحرمان الطاعات وهكذا.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾، شوف قال المؤلف هنا: النهي عن قربان الزنا أبلغ من النهي عن الزنا مباشرة؛ لأن **(الزنا)** له مقدمات، وهذه المقدمات تثير عند الإنسان الغريزة فيحذر. لا تقرب **(الزنا)**.

- ثم علل لك السبب حتى ما يجي واحد يقول ليش طيب الزنا؟

قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ [الإسراء: 32]؛ فاحشة يعني أمراً محرماً، الفاحشة شيء مستقبح، فاحشة يعني مما يستفحشه الشرع والعقل؛ يعني لا يقبله الشرع في شريعة الله، ولا يقبله العقل، أن ترضاه لبنتك أو ترضاه لأمك أو ترضاه لأختك؟ ما ترضاه!

لو ترى أختك مع شخص قد ركبت معه أو خلى بها، أو أمك، أو بنتك، ما رضيت، يعني لا تسمح نفسك بطبيعتها وفطرتها بهذا الشيء، وكذلك الشرع يمنع هذا، فلذلك سماه فاحشة؛ لأنه منكر عظيم، فاحش عظيم، ولأنه يترتب عليه اختلاط الأنساب وضياع الأولاد وهكذا.

فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32]؛ ساء سبيلاً يعني ساء طريقاً، طريقاً سيئاً أن تسلك هذا الطريق، احذر ولا تسلك هذا الطريق.

هذا -مثل ما ذكرنا- هو نوع من القتل، أحياناً الذين لهم علاقات محرمة يجهضون ويسقطون فيقتلون أنفسهم لأجل الفضيحة والعار، فهو نوع من القتل.

ثم صرح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -شوف لما نهى عن قتل الأولاد نهى عن القتل عموماً- فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الإسراء: 33]؛ أي نفس معصومة محرمة لا يجوز قتلها، لا يجوز قتلها، لا بالسيارات والمراكب، ولا بالآلات، ولا بأي طريقة تتسبب في قتلها، ولا حتى أن يقتل نفسه هو بتناول المحرمات كالمخدرات، والحبوب، وشرب المسكر، لا تقتل نفسك.

قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾، وفي آية أخرى قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: 29].

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ يعني حرم الله قتلها، سواء كانت صغيرة كـ**(الإجهاض)**، أو كبيرة، ذكراً أو أنثى، حراً أو عبداً، مسلماً أو كافراً، كل ذلك.

الكافر إذا كان له **(عهد)**، أو **(ذمياً)**، أو معصوم الدم، كافر بينك وبينه عهد، **(مستأمن)** دخل بلاد المسلمين بأمان وبعقد أو بعهد، فهذا لا يجوز التعدي عليه، لا يقول: والله هذا كافر ويقتله!

لا، ما يجوز، ما دام دخل بأمان يجب أن يؤمَّن: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6]. ما يجوز التعدي عليه ولو كان كافراً، إلا إذا فعل شيئاً يستحق العقوبة، فهذا يسمى نفس معصومة.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

- ما هو الحق «إِلَّا بِالْحَقِّ»؟

قتل النفس بالنفس **(القصاص)** حق؛ إذا قَتل يُقتل، أو زنى وهو محصن يُرجم إذا قامت البينة عليه، أو ارتد؛ ارتد سواء من أبناء المسلمين أو من غير المسلمين، دخل في الإسلام ثم ارتد، **(المرتد)** يُقتل، يعني يستتاب فإن تاب وإلا قُتل، هذا معناه: **«إِلَّا بِالْحَقِّ»**.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ [الإسراء: 33]؛ لو قُتل هذا الشخص مظلوماً.

- هل نرد القتل بالقتل؟

لا، إذا قُتل مظلوماً، إذا قتل هذا الشخصُ شخصاً، ما يقوم الآخر ويقتله من أوليائه، لا! هناك شرع وهناك ضوابط وهناك قضاء وهناك جهات وهناك نظام، ما يأتي أحد يأخذ هذا بهذا.

شوف قال: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ [الإسراء: 33]؛ وليه هو صاحب الدم الذي يرثه، إذا قُتل مثلاً لو قتل هذا الرجل، عنده أبناء هم أولياء، عنده آباء، عنده إخوة، هؤلاء هم أولياؤه الذين يرثون **(عصبة)**.

قال: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ أي حجة قوية على **(القصاص)**، يعني الله أيده بـ**(القصاص)**، هذا الشخص قتل هذا الشخص يؤخذ بـ**(القصاص)**، يؤخذ في طريق سليم.

قال: **(حجة ظاهرة في القصاص)**، **(القصاص)** على القاتل، من قتل يقتل.

قال: ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾؛ سلطاناً شرعياً وسلطاناً قدرياً بمعنى أنه يقتل، القاتل يُقتل وذلك عندما تجتمع شروط **(القصاص)**؛ يعني إذا كان قاتلاً قتلاً عمداً، أما الخطأ فلا يُقتل به،

العمد أو شبه العمد هذا يقام عليه **(القصاص)**، أما الخطأ فلا يقام عليه **(القصاص)**، الخطأ الدية والكفارة فقط.

ولذلك يعني لا يؤخذ والله قَتَلَ يُقْتَل، لا! لو قتل خطأ، ما أراد قتله لكن قدّر الله ومات، فهذا نسميه **(قتل خطأ)**.

(الخطأ) أن يقتل الإنسان وهو ليس عنده نية القتل، غير متعمد؛ مثلاً معه آلة وأراد أن يصيد، فأثناء الصيد مر رجل فصارت الضربة في الرجل ومات، هذا ليس قتلاً متعمداً فلا يُقتل هذا.

هذا حكمه كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (الدية) و(الكفارة) في (القتل الخطأ): ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً ۚ وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ [النساء: 92]، هذا حكم الله.

قال: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: 33]، يعني قوة وحجة فلا يسرف الولي في القتل.

كيف يسرف في القتل؟ يعني إذا حصل القتل من هذا الشخص تعمداً فهذا القاتل يُقتل، لكن الولي لا يؤذيه.

- كيف لا يؤذيه؟

يعني إذا أراد أن يقتل يقتل شرعاً بما يريحه بـ**(القود)**، بالسيف يُقتل ولا يؤذيه، مثلاً يُمثّل به، يقطع أذنيه، يقطع أنفه، يؤذيه بالماء الحار بكذا، فلا يجوز الإيذاء لا بالتمثيل ولا بأي شيء، بل يقتله كما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾.

أو بعضهم يقول: أقتله وأقتل أباه، أقتله وأقتل أخاه، فهذا ليس منهجاً، كيف؟ فـ**«إِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ»**، الشرع أمرنا بالقصاص بالعدل، قال: يعني لا يتجاوز الحدود، قال: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: 33]، يعني الله نصره وأيده وأعطاه حكم الشرع، فالشرع هو الذي يقيم هذا الحد عليه.

قال: ثم قال -شوف لما نهى عن قتل النفس نهى عن المال، المال المحرم، وخاصة مال اليتيم- قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 34].

- لماذا خص مال (اليتيم)؟

(اليتيم) قد يكون صغيراً لا يدرك هذه الأشياء، ويموت أبوه وهو صغير فيكون يتيماً، ثم يأتي أحد أقاربه من أعمامه أو أخواله فيستغله ويأخذ ماله ويأكله.

قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾، حتى القربان؛ مال **(اليتيم)** لا تقترب منه أبداً، اتركه يتولاه من يحسن إليه إذا خفت على نفسك منه.

ولذلك توعد الله فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]. يعني يأكل مال **(اليتيم)** ظلماً، هذا يأكل في بطنه ناراً، يعني إذا وضع في قبره يحترق بطنه من النار.

☜حتى ورد في الحديث: **«أَنَّ الدُّخَانَ يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ وَمِنْ دُبُرِهِ»**؛ يعني في داخله في أمعائه نار تحرقها لأنه أكل مال **(اليتيم)**.

فلا تقترب من مال **(اليتيم)**، **(اليتيم)** فيه أجر عظيم كفالة **(اليتيم)**.

☜يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ»**.

لكن متى؟ إذا أحسن إليه، ولذلك الله سبحانه استثنى فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ بالتي هي أحسن أن ينمي ماله ويشتغل به حتى يزداد ويتضاعف ويعطي **(اليتيم)**

حقه، يراعيه بحقوقه ويحفظ له ماله حتى لا يضيع، له أجر عظيم ويكفله ويكون تحت ولايته حتى يبلغ.

شوف قال: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الإسراء: 34]. إذا بلغ **(اليتيم)** أشده؛ يعني بلغ سن **(الرشد)** والعقل التمام وحسن التصرف يعطى ماله، ولذلك يُمتحن، لابد يُمتحن.

حتى بعضهم **(اليتيم)** قد يصل خمسة وعشرين، ثلاثين، أربعين سنة وهو سفيه ما يحسن التصرف، هذا لا يعطى، لا يعطى من المال إلا إذا -مثل ما قال الله سبحانه-: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: 6]. بلغ النكاح؛ يعني بلغ سن التكليف والعقل الذي هو **(البلوغ)**، ثم قال: ﴿فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ يعني حسن التصرف.

تعطيه؛ تقول له: كم تريد في الشهر أعطيك؟ قال: أعطني ألفين أو خمسة عشر ألفاً، تعطيه ألفاً أو ألفين أو خمسة عشر ثم هو بعد أسبوع بعد عام ولا ريال! هل هذا يحسن التصرف؟! وين المبلغ اللي أنا أعطيتك إياه لمدة شهر؟!

فإذا كان يضيع أمواله هذا ما يحسن التصرف.

فيقول الله سبحانه: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾، فتعطيه، أما إذا كان لا يحسن التصرف، ويشتري أشياء تافهة بمبالغ عالية، فهذا لا يعطى، هذا يُحفظ ويُحجر على ماله حتى يعرف قيمة المال؛ لأنك ممكن تعطيه خمسمائة ألف أو ثلاثمائة ألف، وبعد شهرين أو شهر ونصف تجدها ضاعت من يديه، ضيعها في سفريات وضيعها في أشياء واشترى أشياء أثمانها غالية ولا يستفيد منها، فهذا لا يعطى، هذا يحفظ ماله لمصلحته، الله ماذا يقول؟ ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: 5]، لا تعطيه، هذا يُمنع ويُحجر عليه.

هذا عُرف، قال: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ [الإسراء: 34]. العهود التي بينك وبين الله؛ العهد الذي بينك وبين الله أن تقوم بشرع الله، يعني أنت دخلت في الإسلام استسلمت لله، ووعدك الله إذا حققت الإسلام والإيمان أن يدخلك الجنة، هل أنت وفيت بهذا العهد؟ هل أنت صليت كما أمرك الله، ولا دخلت في الصلاة وخرجت وأنت لا تدري ماذا تقول؟!

هل أنت أدّيت الزكاة؟ هل أنت صمت الشهر وراعيت حقوق الصيام؟ هل أدّيت فريضة الحج وأنت قادر وعندك مال، أم تساهلت في هذه الأشياء؟ حقوق الله عليك، حقوق الوالدين عليك، عهد بينك وبين الله.

وكذلك العهود التي بين الناس؛ عهود الشركات وعهود الوظائف الحكومية وغيرها، هذه معاهدات وتوقيعات تقوم بالعمل ولا تخون، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 34].

كيف كان مسؤولاً؟ العهد يعني مسؤول عن الوفاء به، أنت ستُسأل يوم القيامة: هل وفيت بهذا العهد أم ضيعته وفرّطت فيه؟ هذا المقصود.

فإن وفيت فلك الثواب الجزيل عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن ضيعته فعليك الإثم، فهذا معناه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ يعني التزموا بالعهود، ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

ثم قال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: 35]. إذا كلتم للناس أعطوا الكيل وافياً، الله ماذا قال في الذين لا يوفون؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: 1].

(المطفف) هو الذي يبخس الناس حقوقهم، الله توعّد بقوله: ﴿وَيْلٌ﴾؛ و**(ويل)** كما قال بعض أهل التفسير هي وادٍ في جهنم لو أُلقيت فيه جبال الدنيا لذابت، وقيل: **(ويل)** كلمة ردع وزجر

وتهديد وتخويف، فهددهم الله؛ **(المطففين)** الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، إذا ذهب إلى الناس يشتري منهم بالأوزان يأخذ كاملاً ولا يريد أن ينقص منه شيئاً، لكن إذا جاء هو يعطي الناس يعطيهم الأقل.

هذا يقع ليس فقط في الموازين والمكاييل، قد يكون ما عنده ميزان ومكيال، بل حتى في التعامل؛ يعني أنت تأتي بعامل يعمل عندك في البيت وتتفق معه يقوم بهذا العمل، وهو قام بهذا العمل وأدّاه، فلا تعطيه حقه! تريد منه أن يعطيك حقك كاملاً ولا ينقص منك شيء، وتجد بعضهم يتفق معه على شيء معين ثم هو ماذا يصنع؟

يعطيه عدة أشياء يقول: تعال هذا أصلحه، وهذا أصلحه، أنا ما اتفقت معك على هذا وهذا، أنا متفق معك على شيء معين، إذاً تعطيني أشياء جديدة نتفق عليها! يقول: لا، اشتغل وأنا أعطيك.

فإذا جاء في الأخير -وسمعنا أناساً يفعلون هذا- يقول له: خلاص، انتظرني في الطريق عند الباب وأنا آتيك، ثم يغلق الباب ويذهب! هذا يدخل في قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾.

أنت تريد حقك كاملاً ولا تريد أن تعطي الناس حقوقهم، هذا هو الظلم بعينه؛ ظلم العمال، وظلم حقوق المرأة؛ تريد من المرأة أن تعطيك شيئاً كاملاً في زينتها بأكمل شيء، وفي طاعتها، وفي إعداد البيت كله، وأنت تقصر لا تأتي لها بالذي تريد.

وإذا طلبت منك شيئاً قلت: أنا والله مشغول وعندي أعمال وعندي كذا، ولا تعطيها حقها، وتريد منها أن تعطيك الحق كاملاً! وكذلك التعامل مع الأولاد، وهكذا، فرفقاً رفقاً، والإنسان يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

تحب لزوجتك ما تحب لنفسك، تحب للعامل الذي يعمل عندك إذا كان مسلماً يصلي تخاف الله فيه وتعطيه حقه كاملاً، فلا تبخسوا الناس أشياءهم، تجد أحياناً عندك سائق، أحياناً عاملة في البيت خادمة لا يعطونها رواتبها ولا يعطونها حقوقها.

ولا يعطون السائق حقه، ثم يقصر في حقه ويطالب بأشياء كاملة ويتوعد، فهذا قد أخل بهذه الوصية التي أوصى الله بها: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾.

- و(الكيل) و(الوزن)، هل فيه فرق أم ما فيه فرق؟

الجواب: **(الكيل)** بالصاع، و**(الوزن)** بالموازين ذات الكفتين أو الكفة الواحدة؛ الميزان الذي يتحرك، والآخر كيل، يعني مثلاً الذهب لا يوضع في الكيل، لا يوضع في الصاع، الذهب بالميزان، فالذهب والفضة هذه بالموازين.

لكن الحبوب، الأرز مثلاً والقمح والشعير، هذه بالكيل، وفيه شيء بالكيل مثلاً الطحين بالكيل، فيه شيء كيل وفيه شيء موازين، وقد يكون هذا مكان هذا ما يمنع، تأخذ الطحين تضعه على الميزان صحيح كله ماشي، لكن المراد استعمال الناس لهذا ولهذا.

قال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: 35]. قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما هو؟ الوفاء بالكيل والوزن بالقسطاس، و**(القسطاس)** هو العدل، يعني **(القسطاس)** يعني العدل.

قال: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ يعني فعلك هذا خير من عدمه، أو الوفاء به خير من البخس به، ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ يعني أحسن عاقبة؛ **(تأويلاً)** أي أحسن عاقبة لك، يعني عاقبته حسنة عليك لأنك عملت بما أمرك الله به: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

ثم تأتينا آية حقيقةً هذه مهمة تحتاج لها جلسة خاصة حقيقةً، والناس الكثير منهم واقع فيها وينبغي الحذر من هذا الشيء، ماذا يقول الله سبحانه؟ اسمع هذه الوصية المهمة التي يتساهل فيها كثير من الناس، والحقيقة لابد من فهمها وتطبيقها في الواقع.

- ما هي الوصية هذه؟

اسمع: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: 36]، ولا تقفُ يعني لا تتبع ما ليس لك به علم، تتبع أي شخص وأنت ما عندك علم، وقف شخص وأمرك أن تفعل كذا لا تفعل إلا أن تكون على بينة، إذا كان الأمر حراماً أنت ستحاسب، فلا!

هنا يجب عليك أن لا تتعجل بالحكم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، ويدخل في ذلك نقل الأخبار عن طريق الرسائل وغيرها، ينتبه؛ وسائل التواصل ليس من الضروري أن تنقل هذه الأخبار، ليس من الضروري أن كل ما جاءتك رسالة ترسلها، لا، ليس ضرورياً.

حديث ما تدري أهو ضعيف أم موضوع أم صحيح، ليس من الضروري؛ آية يمكن فيها خطأ ليس من الضروري، تأكد من هذه الأمور كلها، ينبغي عليك أن تتأكد منها ولو جاءتك من جهات موثوقة.

انتبه، احذر أخبار، أو رسائل، أو حكم شرعي، أو كذا، ليس من الضروري. يرسلون ويضعون في الحالات ويعلقون تعليقاً، انتبه شوف اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لا تتبع ما ليس لك به علم بل تثبت إذا جاءك خبر، تثبت في كل ما تقوله وتفعله.

والله لو كان في أمور الدنيا يتثبت أشد التثبت؛ يريد أن يشتري أرضاً، أو يشتري سكناً، أو يشتري جوالاً، أو يشتري سيارة، شو يسوي؟ يتثبت ويسأل ويتأكد! وأمور الشرع أو غيرها يتساهل في نقلها! لا، ليس من الضروري هذه الأخبار.

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: 83] هذا خطأ، قال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83]، عرفوا كيف يحكمون عليه، أما تأتي هكذا لا، انتبه!

لماذا؟ لأن الله شدد فيه، قال: لا تظن أن هذا يذهب سدى، أنت ترسل رسالة يمكن تذهب إلى ملايين الأشخاص وأنت ما تشعر بلحظة! احذر، يعني لا تظن أنها تجلس عندك ولا تظن أنها تذهب سدى لا لك ولا عليك، لا، تُحاسب عليها.

واعلم أيضاً أنك لو أرسلت فتوى غير متثبت فيها، أو حديثاً موضوعاً، أو آية فيها خطأ، وأرسلتها بدون أن تتثبت، فاعلم أن كل من أرسلها الوزر عليك والذنب عليك، أنت السبب الأول، قف لا ترسل، تأكد، ما يصلح، أرسل الذي أنت على بينة منه.

شوف لماذا؟ شوف ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]. يعني الإنسان سيسأل عنها يوم القيامة، سيقف: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: 24].

ينبغي للعبد أن يعرف أن يستعمل جوارحه فيما أباحه الله؛ السمع والبصر والفؤاد **(القلب)**، كلها: ﴿كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾، ستُسأل أنت عنه، خلقك الله خلق لك هذه الأشياء وسيسألك الله عنها: ماذا صنعت بها؟ أعدّ للسؤال جواباً؛ نظرك نظرت حراماً، سمعك سمعت حراماً، وهكذا، كل هذه الأمور ينبغي التثبت فيها، ولا يتعجل الإنسان في مثل هذه الأمور.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً من الوصايا المهمة: التكبر في الأرض. مَن أنت حتى تتكبر؟ مَن أنت؟ تجد بعضهم يتكبر على بعض العمال، يتكبر على بعض الفقراء، يتكبر على والديه، يتكبر على أولاده، يتكبر على زوجته! مَن أنت؟!

انظر في نفسك حتى تعرف. ثم المتكبر، المتكبر هذا يحشر يوم القيامة كأمثال الذر، يعني أنت الآن بجسمك هذا يحشرك الله بوزن أو بمقدار الذرة، يطأهم الناس بأقدامهم، إذلالاً لهم؛ لأن الكبر ليس لك، الكبر لله، وله الكبرياء في السماوات والأرض، أما أنت مَن أنت حتى تتكبر؟!

ولذلك شوف الله شدد في هذا الأمر فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: 37]، يعني كبراً وبطراً، ومتكبراً عن الحق أيضاً، ومتعاظماً في نفسك أمام الناس، وشايف نفسك أمام الناس أنك أنت أفضل واحد، هذا التكبر على الخلق وعلى الناس الذين تجعلهم كلهم تحتك، مَن أنت؟! ﴿وَلَا تَمشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا﴾.

ولذلك شوف قال: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37]. يقول: أنت لو تكبرت هل ستخرق الأرض؟ ما تخرق الأرض. هل ستصل إلى الجبال في الطول؟ ما تصل إلى الجبال.

لماذا؟ لأنك حقير، يعني أنت في نفسك ترى نفسك شيئاً، لكن في ميزان الشرع أنت حقير؛ لأنك أوقعت نفسك في شيء ليس لك، وضعت نفسك في مكان ليس لك، فأنت حقير عند الله، محتقر حتى عند الخلق؛ يحتقرونك حتى إذا رأوك متكبراً ولا تسلّم ولا تتكلم معهم.

الناس يحتقرونك ولا يلقون لك بالاً، مبغض، يبغضك الناس ويمقتونك، اكتسبت أسوأ الأخلاق وشر الأخلاق واكتسبت بأرذلها، فما الذي كسبته لما تفعل هذه الأشياء؟! ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.

فهذه خاتمة الوصايا العشر، قال الله في خاتمتها: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: 38]. يعني هذه الأعمال التي ذكرناها لك سيئة ومكروهة، الأفعال هذه أفعال سيئة.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: 39]، يقول: هذه التي أوحاها الله إليك يا محمد، وأنت أيها المخاطب لتسمع هذه الآيات، أوحاها الله إلى نبيك من ربك، هذه هي **(الحكمة)**.

- ما هي (الحكمة)؟

وضع الشيء في مواضعه، **(الحكمة)** هي التمسك بمحاسن الأعمال ومكارم الأخلاق، هذا رجل حكيم؛ لأنه يعرف حق الله عليه ويتمسك بأحسن الأعمال، ويتصف بأحسن التعامل ومكارم الأخلاق، ويبتعد عن أرذل الأخلاق وأسوأ الأعمال، تجد بعضهم له مكانة ووجاهة في المجتمع، وتجده متواضعاً مع الناس كلهم، حتى مع العمال، حتى مع كذا، يتواضع.

ولذلك يعني في قصة أبي ذر -تعرفونها كلكم-، قصة أبي ذر ماذا؟ أنه قال لبلال: **(يا ابن السوداء!)**، صار بينه وبينه كلام فقال: **(يا ابن السوداء!)**.

☜فبلال ذهب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: إن أبا ذر عيرني بأمي. فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رأى أبا ذر قال: **«أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»**. قال: **«إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»**. قال: يا رسول الله، إنه قال كذا وكذا. قال: **«إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»**.

فماذا صنع أبو ذر؟ ذهب إلى بلال، ووضع أبو ذر خده على الأرض وقال: **(يا بلال، ضع رجلك على صفحة خدي، أنا الذليل وأنت العزيز!)**. هذا شوف الأدب! كيف تأديب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم، وكيف هم عرفوا هذه الأخلاق وعرفوا أنفسهم، هذا الذي ينبغي أن يتواضع للناس.

شوف قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: 39]، ختمها بما افتتحها به هذه **(الوصايا العشر)**. شوف أول وصية في هذه الوصايا.

قال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: 22]، يذمك الخلق ومخذول ما أحد ينصرك إذا جاء يوم القيامة وتُجر إلى نار جهنم ما أحد ينصرك، وختم: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: 39].

الأولى قال: ﴿فَتَقْعُدَ﴾، وهنا قال: ﴿فَتُلْقَىٰ﴾، ملوماً مدحوراً، شوف غيّر شلون! ملوماً: الناس يلومونك على فعلك، ومدحوراً: مطروداً مبعداً عن رحمة الله، يعني مأواك جهنم.

إذاً إلى هنا تنتهي هذه الوصايا المهمة الحقيقة التي نحتاج إليها في تطبيقات حياتنا في حياتنا، التعامل مع الناس نأخذ بهذه الوصايا:

- الوصية الأولي: **التعامل مع الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾.
- الوصية الثانية: **التعامل مع الوالدين:** وفصّلنا فيه تفصيلاً، والآيات فصّلت: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا 23 وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ 24﴾ [الإسراء: 24-23].
- الوصية الثالثة: **التعامل مع الأقارب:** ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾.
- الوصية الرابعة: **التعامل مع الفقراء والمساكين:** ﴿وَالْمِسْكِينَ﴾.
- الوصية الخامسة: **التعامل مع المال:** ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾.
- الوصية السادسة: **التعامل مع الأولاد:** ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾.
- الوصية السابعة: **التعامل مع العلاقات المحرمة:** ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا﴾.
- الوصية الثامنة: **قتل النفس:** ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.
- الوصية التاسعة: **لا تقرب مال اليتيم:** ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.
- الوصية العاشرة: **أوفِ الكيل والميزان:** ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾.
- الوصية الحادية عشر: التواضع.

وكذلك: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾؛ لا تتبع كل ما يقال وكل ما تسمع، لا! احذر واحفظ لسانك واحفظ سمعك واحفظ جوالك من هذه الأشياء التي تروّجها من عندك وتمررها، لا تمرر ليس من الضروري، لا أحد يلومك إذا لم تمرر، ما أحد يقول لك شيء، ليس من الضروري!

(عندي عشرين جروب وأرسل لها كلها يومياً، وعندي حالات أوصلها إلى أكثر وأكثر من الأعداد) لا، ليس من الضروري، لو ما يكون عندك أي شيء من هذه ما أحد يلومك، فانتبه واحذر هذه الأشياء.

وختمها الله بالتشديد على العقيدة الصافية، ينبغي أن يبتعد عن الشرك، قال: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾. هذه الوصايا المهمة التي استفدنا منها، ونسأل الله سبحانه أن يعيننا على تطبيقاتها، وأن تكون دائماً أمامنا في حياتنا نعمل بها؛ يعني أشياء تتعلق بالتعامل مع الناس، أشياء تتعلق بالأخلاق بينك وبين الله، بينك وبين أبويك، بينك وبين أولادك، بين زوجتك، والتعامل في مكتبك، في عملك، في طريقك، في كل شيء، فنسأل الله أن يعيننا.

- وهذه من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وفضله أن أرسلها لنا، ماذا قال الله؟

قال: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾، من **(الحكمة)** احفظها، هذه حِكَم عالية نسأل الله أن يعيننا عليها.

لعلنا نقف عند هذا القدر نكتفي به، ونسأل الله أن يوفقنا لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الإسراء 40 - 52)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، وهو اليوم العشرون من شهر صفر من عام [1448 هـ]. أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم؛ نأخذ شيئاً من القرآن الكريم ومن آياته نقرأها ونتدبرها ونبين ما فيها، ونسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

والقرآن إنما نزل أيها الإخوة لأمور كثيرة؛ من أهمها: **(التدبر)** والتفكر في آيات القرآن الكريم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر ذلك وأمر، قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].

وقال أيضاً: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]؛ إلى غير ذلك من الآيات. وقال أيضاً: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: 29].

إذاً؛ المقصد الأساس هو **(التدبر)** والتفكر، تقرأ القرآن لك به أجر، والحرف الواحد فيه عشر حسنات، كم تقرأ من حرف فيه خير عظيم؛ لكن القراءة هذه التي فقط مجرد قراءة ما تستفيد مثل ما أنك تقرأ بتمعن وتفكر وتأمل، وتعرف أن القرآن نزل للعمل به، والتفكر فيه، وتدبره، والنظر فيه، واستخراج العلوم منه، واستخراج الحكم والأحكام؛ هذا هو المقصد.

عندنا بين أيدينا سورة الإسراء، وتسمى أيضاً بسورة **(بني إسرائيل)**؛ هذه السورة تحدثنا عنها، وأخذنا شيئاً من آياتها، ونواصل ما توقفنا عنده.

الآية التي توقفنا عندها هي الآية (40) من سورة الإسراء، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: 40].

إذا أردت أن تفهم الآيات وتتدبرها، وتفهم مراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منها؛ اقرأ هذه الآية واقرأ ما قبلها واقرأ ما بعدها ويتضح لك الأمر، الآيات التي قبلها كلها في الآداب، والأخلاق، وأصول **(العقائد)**؛ بدأت من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الإسراء: 22]، وقلنا إن هذه الآيات تسمى بـ**(الوصايا العشر)**؛ **(الوصايا العشر)** التي ذكرها الله في سورة الإسراء.

بدأها الله بالنهي عن (الشرك)، والأمر بـ(التوحيد): ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]؛ ثم ذكر الإحسان إلى الوالدين، والإحسان إلى الذين ذكرهم الله قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وبذوي القربى، واليتامى، والمساكين، والجار، والمساكين؛ لا، قال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء: 23] هذه في سورة الإسراء.

ثم قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: 26]؛ فأوصى بهؤلاء أن يحسن إليهم، وأن يؤتوا حقهم، ثم تكلمت الآيات عن امور كثيرة؛ منها النهي عن قتل الأولاد، والنهي عن قتل النفس؛ النفس المعصومة إلا بالحق.

والنهي عن **(الزنا)** ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: 32]، وإلى غير ذلك من الأمور التي ذكرها الله، ونهى عن **(الكبر)**: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: 37].

قال الله في آخر كل ذلك: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: 38]؛ يعني كل ما ذكر من هذه الأشياء هي أمور محرمة وعظيمة وكبائر وسيئه ومكروهة عند الله، لا يقبلها الشرع ولا العقل. ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: 39]؛ هذه وصايا حكمة.

ثم بعد ذلك، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين مواقف المشركين الكفار الجاحدين من بعض **(العقائد)**؛ هم في مواقفهم مع الله أنهم يجعلون مع الله إلهاً آخر، يكفرون ويعبدون الأصنام؛ ولذلك الله ختم هذه الوصايا بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: 39].

فلما نهى عن عقيدة الكفار **(الشرك بالله)**، نهى عن معتقدات الكفار، منها أيضاً أنهم جعلوا لله ولداً، ولم يجعلوا ولداً هكذا؛ لا، جعلوا لله البنات، وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً؛ أشهدوا خلقهم؟ ما شهدوا، ستكتب شهادتهم ويسألون.

وقال هنا: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾ [الإسراء: 40]؛ هذا استفهام يفيد الإنكار والتشنيع عليهم؛ حيث إنهم يجعلون لله شركاء، وينسبون إلى الله الأقل من الأولاد، فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم على وجه الإنكار: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: 40].

- هل الله أصفاكم واختار لكم البنين؟

قال: البنون لكم والبنات لله! ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾؛ جعل الملائكة بنات وأنتم تقولون ولد الله! يعني كما قال الله، قال: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا 89 تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا 90 أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا 91﴾ [مريم: 89-91]. كيف تجعلون هذا؟!

هذا من معتقدات بعض اليهود، وبعض النصارى، وبعض مشركي العرب؛ اليهود ماذا يقولون؟

يقولون: **(عزير)** ابن الله، والنصارى تقول: **(المسيح)** ابن الله، والمشركون يقولون: الملائكة بنات الله؛ هذه معتقدات باطلة، ولذلك أنكر الله عليهم.

يقول: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ﴾ يعني اختار لكم وأعطاكم البنين، وقال لكم البنون، والملائكة لله، وتصفونهم بأنهم بنات! جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾؛ يعني فيه جرأة على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيث تنسبون له الولد.

وقالوا: اتخذ الله ولداً؛ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: 116].

لا يمكن أن يوصف الله بأن يكون له ولد؛ لماذا؟ لأنه هو **(الغني)** سبحانه، الذي يحتاج إلى الولد هو الفقير الضعيف، أما الله القوي العزيز الغني ما يحتاج إلى الولد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكيف ينسب إليه وليس له مثيل ولا شبيه من خلقه حتى تنسبون له الولد؟!

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أنكر عليهم هذا المعتقد الباطل الفاسد -وهو اعتقادهم أن الملائكة إناث- بين أن هذا القرآن -كما ذكرنا في هذه السورة- يتكرر معنا كثيراً؛ يتكرر لأنه هو المعجزة العظيمة، قال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: 41].

يقول: صرفنا في هذا القرآن؛ يعني نوعنا الآيات، والأمثلة، والأحكام حتى ليس لهم أي شبهة، أبطل الله جميع شبهاتهم، وبين واستدل بالأدلة والبراهين على وحدانيته وعلى شرعه.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾؛ تقرأه من الأول تجد فيه أنه قد صُرِّف ونُوِّع فيه الأدلة والبراهين الساطعة في هذا القرآن؛ لماذا؟ قال: ليتذكروا؛ لينتفعوا، هذا المقصد؛ المقصد ليتعظوا وينتفعوا ويتذكروا.

قال: ولكن مع الأسف لأنهم كفار حجبوا أنفسهم، منعوا **(التدبر)** وأغلقوا على أنفسهم؛ قال: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾؛ أي القرآن والآيات تزيدهم قال: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾؛ تنفر منه أنفسهم، لا يريدون القرآن، فيه الآيات أدلة التوحيد وفيه تعظيم الله وفيه صفات الله وأفعاله؛ لا يريدون هذا الشيء.

إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون؛ ولذلك هنا قال: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾؛ لا يريدون هذا، أي التقبل، يعني لم يريدوا قبوله العارض والتفكر فيه؛ لا، وإنما ينفرون منه ويفرون منه، قال: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

ثم أيضاً أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً أن يبطل دعواهم وزعمهم أن مع الله آلهة أخرى؛ يقول: لو كان مع الله آلهة أخرى لأرادت أن يكون الحكم لها، لو هناك إله آخر، لو عندنا إله آخر مع الله؛ لتنازعوا الحكم وتغالبوا، ما يمكن هذا، مستحيل؛ هذا يريد أن يكون مثلاً الوقت نهاراً، وهذا يريده ليلاً، وهذا يريد أن يحيي، وهذا يريد أن يموت، وهذا يريد أن يفعل، وهذا يريد ألا يفعل؛ ما يمكن، يتنازعون الحكم.

ولذلك شوف رد الله عليهم، قال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 42]. يقول: هذه الآلهة تبتغي إلى ذي العرش سبيلاً؛ كيف تغالب؟ تريد أن تغالب، وما كان معه إله؛ إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض، ما يمكن هذا.

فلذلك شوف أبطل، قال: ﴿إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾؛ إذاً ذي العرش يعني إلى الله سبيلاً، يريدون الانتصار ويأخذون الحكم لو كان فيه إله آخر؛ ما في إله آخر، باطل هذا وجه.

أو الوجه الثاني: أنه كما ذكر بعض المفسرين، قال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾؛ يعني أن الالهة تبتغي إلى ذي العرش سبيلاً، يعني أنها تتعبد الله، أنها تتعبد الله؛ يعني لو كان هناك آلهة، الآلهة مفتقرة إلى الله؛ لو زعمنا، لو وافقناكم على أن هناك آلهة؛ هذه الآلهة لضعفها وفقرها تلجأ إلى الله.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية التي ستأتينا في سورة الإسراء قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: 57]؛ الملائكة تبتغي إلى ربها الوسيلة تتقرب، والصالحون يتقربون.

هم يعبدون مثلاً **(عيسى)**، وعيسى يتقرب إلى الله؛ يعبدون **(عزير)**، وعزير يتقرب إلى الله؛ يعبدون فلان وفلان من الصالحين، والملائكة لضعفها ومحتاجون يتقربون إلى الله؛ هذا معنى ﴿إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

يعني أحد أمرين:

- الأمر الأول: إما أن يكون هذا الإله المزعوم يريد أن يكون إلهاً فيتغالب مع الله.
- الأمر الثاني: إما أن ينتصر أو ينتصر؛ فالغالب هو الذي يستحق أن يكون إلهاً، أو نقول: هذا الإله الذي أنتم تزعمون أنه إله أو تعبدونه هو فقير، هو محتاج، هو يبتغي من الله، يحتاج إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فكل هذا باطل وهذا باطل.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تنزيهاً لله عَزَّ وَجَلَّ عما يقولون: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 43]. يقول: تنزيه أن يكون معه آلهة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً؛ لماذا؟ لأن الله هو المستحق العبادة، والخلق كلهم مفتقرون إليه؛ لا آلهتهم المزعومة ولا غيرهم.

ولذلك شوف قال -يعني حتى نعرف عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: 44]؛ السماوات كلها، الأجرام هذه العظيمة، تسبح لله تنزهه وتعظمه وتقدسه، وأيضاً مفتقرة له، وفي الوقت نفسه أيضاً هي تعبده أو توحده أو تسجد له وحده لا شريك له، ولا تشرك معه إلهاً آخر، وتعرف حق الله. هذه السماوات على أنها جمادات إلا أنها تسبح لله؛ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾.

الأراضون السبع تسبح لله ومن فيهن من المخلوقات كلها تسبح؛ حتى الجبال تسبح، وحتى الحيتان، وحتى النمل في جحورها كلها تسبح له، والأشجار تسبح وتسجد: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 18].

كلها تسجد وتسبح لله. ما عرفوا، يعني ما عبدوا الله حق عبادته، وما عرفوا عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾.

- ثم قال -أتى بجملة أخرى عامة أعظم من الأولى وهي ما هي؟

قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]؛ ما في مخلوق، إنسان، حيوان، ملك، طائر، حشرة، جماد، غير جماد، أشجار، إلا تسبح؛ ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

لا تفقهونها أنت ما تفقه، الذي يفقه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله عَزَّ وَجَلَّ هو عالم بتسبيح هذه الأشياء، أو من أعطاه الله مثل **(داوود)** عَلَيْهِ السَّلَامُ يسمع التسبيح والجبال تسبح مع داوود: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: 10]، أو من أعطاه الله هذا الشيء.

- السؤال هنا: هل تسبيح هؤلاء تسبيحاً حقيقياً بالمقال ولا بالحال؟

يعني حالة أنها تسبح لخضوعها لله؛ قيل هذا وقيل هذا، والذي يظهر أنها تسبح بالمقال وبالحال كلها، يعني خضوعها هذه حال تسبح، وإقرارها تسبيح، وأيضاً هي تسبح بألفاظ لا ندري ما هي، ما نعرفها نحن، الطير يسبح لكننا لا نعرف تسبيحه وهكذا؛ يقول: ﴿وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ هم يسبحون ولكن نحن لا نفقه تسبيحها هذه.

ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44]؛ حليماً لمن عصاه وتمرد عليه وأشرك معه وعبد غيره، حليم لا يعاجله بالعقوبة، يمهله ولا يهمله؛ وغفور لمن تاب وأقبل عليه ورجع إليه، هذا معنى حليماً: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

هذا الآن موقف من موقف المشركين: أولاً من عبادة الله يشركون مع الله آلهة أخرى، موقفهم أيضاً أنهم يزعمون أن لله ولداً؛ هذا موقف.

أيضاً الآن يأتيك موقفهم من القرآن ومن محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اسمع يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: 45]؛ خطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذا قرأت يا محمد القرآن جعل بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً؛ هذا الأمر الأول.

- لماذا يجعل بينهم حجاب؟ لماذا لم يجعل الله، يفتح الله لهم الباب حتى يدخلون ويهتدون؟

لأنهم لم يأتوا القرآن مقبلين ليتعظوا ويستفيدوا منه، وإنما يريدون أن يقفوا على شيء من الشبهات ويتمسكوا بها فيقولون: انظر ماذا يقول محمد، انظر ماذا يقول محمد؛ حتى يحتج على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لو كانوا مقبلين على القرآن حقيقة لفتح الله قلوبهم له، لكنهم لم يأتوا إلى القرآن؛ ولذلك قال: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، شوف: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾؛ هذا الأمر الأول، هذه العقوبة الأولى.

والثانية قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الإسراء: 46]؛ القلوب عليها أكنة، **(الأكنة)** هي جمع كنان وهو الغطاء، القلوب مغطاة يعني قد طبع عليها ختم ما تتقبل؛ قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ ما يفقهون؛ طيب هذه العقوبة الثانية.

الثالثة قال: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: 46]؛ **(الوقر)** هو الثقل في السمع، هم يسمعون بس ما يسمعون القرآن سماع تدبر؛ ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثقل حتى لا يسمعون سماع يعني سماع تفهم وتدبر.

شوف ثلاثة عقوبات:

- العقوبة الأولى: أولاً جعل الله بينه، بينه وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حجاباً مستوراً.
- العقوبة الثانية: جعل على قلوبهم أكنة.
- العقوبة الثالثة: في آذانهم وقراً؛ كيف يستفيد إذا كانت، إذا كان السمع مغلقاً والقلب لا يفقه ما يسمع؟! ما تنفع معه المواعظ أبداً؛ فهذه عقوبات بسبب ماذا؟ عدم إقبالهم على القرآن.

وهذا الإنسان يخاف، حتى المؤمن يخاف من هذه الآية؛ كيف القرآن يقرأ عليك، الإمام قرأ علينا قبل قليل هل منا من تأثر بالقران واستفاد؟ ماذا قال؟ ماذا قرأ الإمام؟ ماذا ما هي الآيات التي قرأها الإمام واستفدنا منها قبل قليل؟

القلوب مشغولة؛ القلوب يعني الإنسان يأسف، يأسف حقيقة أن الإمام يسلم وهو يسلم من صلاته ولا يدري ولا يفقه ماذا قال في صلاته وماذا قال الإمام!

ما يفقه، هذه مشكلة عظيمة لابد الإنسان أن يعالج مثل هذا الأمر، ولا وهذه يخشى الإنسان على نفسه العقوبة أن القرآن يتلى عليك وأنت تقرأه ولا تفقه؛ تقرأ سورة كاملة ثم تنتهي من القراءة وتخرج، ماذا استفدت من هذه السورة؟

فإذا ما استفدت عندك إشكال، عندك مشكلة لازم تعالجها، ما يمكن أن تقرأ هذا الشيء ولا تستفيد.

فلذلك شوف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عاقب هؤلاء، قال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾.

- أنا أسأل الآن: ما معنى ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾؟ ما معنى أن يجعل بينك وبينه الحجاب مستوراً؟

الجواب: يعني حجاباً مستوراً بمعنى أن هؤلاء يأتون إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى كان المشركون وكبار المشركين كـ**(أبي جهل)**، و**(أمية)**، و**(أبو سفيان)**، وغيرهم من كبار المشركين، كانوا يأتون بيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقرأ القرآن في الليل ويستمعون له.

وأحياناً يستمعون إليه وهو عند الكعبة يصلي، فيستمعون إليه بحيث لا يشعر بهم؛ ولكن لا ما يستفيدون من هذا القرآن، ما يستفيدون منه. ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾؛ يعني حاجز، ما يتعظون خلاص، يعني حاجز مانع.

- أيضاً هنا سؤال: يعني جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، هل نقول حجاب مستور ولا حجاباً ساتراً؟ المتبادر أنت لك الآن حجاب، الحجاب يكون ساتراً ولا يكون مستوراً؟ الحجاب ساتر، لما تضع حجاب الحجاب يكون ساتر؛ يعني الله جعل بين المشركين وبين محمد حجاباً ساتراً، الآية ما تقول ساتراً، تقول مستوراً! كيف نقول شيء مستور؟

الجواب: هو حجاب ساتر، وفي نفس الوقت مستور عن أعين المشركين؛ المشركون لا يرون شيئاً، هم يرون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمامهم يقرأ ويصلي لكن بينهم وبين محمد حجاب، هذا الحجاب الساتر الذي جعله الله ساتراً هو مستور بالنسبة لهم هم ما يرونه، ما يرون الحجاب.

الحجاب موجود لكن هم لا يرونه، يرون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي ويقرأ لكن ما يستفيدون. هذا معنى شوف عبارة ﴿مَسْتُورًا﴾، لو في كلام غير القرآن قال حجاباً ساتراً، قال لا: ﴿مَسْتُورًا﴾؛ مستوراً عنهم ما يرونه؛ ﴿حِجَابًا مَسْتُورًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾؛ أي مغلقة، القلوب مغلقة؛ إذا كانت القلوب مغلقة ما تستفيد، ولذلك الله لما أمرنا نحن جميعاً بالتدبر، أنكر على الذي لا يتدبر فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]؛ هل القلوب مغلقة؟ مقفل عليها؟ ما تسمع، ما تعي، ما تتعظ، ما تبكي، ما تتأثر؟! لماذا لا تتأثر القلوب بالقرآن؟ لماذا؟! فهذا معناه ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾.

الكافر العاصي المسرف على نفسه بالذنوب، تقرأ القرآن ولا ما تقرأ ما يسمع، ما يدرك هذا الشيء؛ لأن القلوب خلاص: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]؛ ما كانوا يكسبون من المعاصي رانت على القلوب يعني أغلقت على القلوب فلا تفقه.

ولذلك شوف قال: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ ما يفقهوه، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ يعني الآذان فيها ثقل ما يسمع، ما يستوعب، ما يستوعب.

تجد بعض الناس الآن، في بعض أهل المعاصي الذين أسرفوا على أنفسهم، تأتي وتلقي عليه محاضرة كاملة ما يستوعب، ما يفهم، ما يتأثر؛ لماذا؟ الآذان خلاص مغلقة ما تسمع الموعظة ولا تتأثر أبداً، هذا لو كان لو كان القلب منفتحاً والنفس مقبلة على الله، الآذان تسمع؛ فهذا معناه.

ثم قال سبحان؛ هذا موقفهم الآن من القرآن، هم يأتون لكن ما يستفيدون؛ هذا موقف.

والثاني قال: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: 46]؛ يعني ذكرت الآيات والأدلة تدل على أنه واحد، في آيات كثيرة مثل آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة: 255].

ومثل سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1]، وغيرها من الآيات التي فيها **(التوحيد)**: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ﴾ [البقرة: 163]؛ إذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً. يفرون ما يريدون، تشمئز قلوبهم، لا يريدون؛ إذا ذكر الله وحده اشمأزت، نفرت القلوب، يقول: الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون.

إذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً، ينفرون لا يريد أن يتقبل ذلك؛ شوف **(التوحيد)**، القرآن ما يريدونه، ما يريدونه.

قال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ [الإسراء: 47]؛ يقول الله نحن أعلم، لأنهم يأتون يستمعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقول: نحن أعلم بما يستمعون به، بالذي يستمعون به؛ ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ﴾ [الإسراء: 47]؛ **(نجوى)** يعني يتناجون، كلام خفي، يعني يجتمع هذا مع هذا مع هذا ويبدأ يتحدثون بكلام لا يسمعه غيرهم، هذا معنى النجوى.

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾؛ شوف سماهم ظالمين لأن كلامهم ظلم، قال: ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الإسراء: 47]. يقول: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، يقول: هذا محمد مسحور، كلامه هذا يعني ما في فائدة، كلام ملخبط، كلام غير مرتب، كلام متناقض؛ هذا معناه فلا تتبعونه.

يطعنون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويطعنون بالقرآن؛ يطعنون بالقرآن أنه كلام لا يقبل، وبالرسول يتهمونه بأنه مسحور، شوف هذه الآية، يصفونه بأنه مسحور؛ في آية أخرى وصفوه بأنه ساحر! كيف ساحر ولا مسحور؟!

يقولون هو ساحر لأنه يؤثر على غيره، وهو مسحور لأنه يأتي بأشياء ما يقولها إلا المسحور؛ ومرة يقولون هو شاعر، ومرة يقول هو كاهن، ما تخبط هذا! تخبط منهم في وصفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو منزه عن ذلك كله، بعيد عن هذه عن هذه الأشياء كلها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شوف قال انظر وتأمل يا محمد في حالهم: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 48]. انظر كيف ضربوا لك الأمثال؛ مرة ساحر، مرة كاهن، مرة شاعر، مرة مسحور، مرة كذا.

انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا لا يدرون أين يذهبون، فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً؛ ما يدرون أين، لا يهتدون، ما يدرون أين يذهبون خلاص، أصبحوا في ضلال، منغمسين في هذا الضلال وفي هذه الظلمات يتخبطون، لا يدرون أين يذهبون، فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً.

الآن هذه كل الآيات تركز على معتقدات هؤلاء المشركين والرد عليهم؛ اعتقدوا أن الملائكة بنات الله ورد القرآن عليهم وأبطل هذه الشبهات وأبطل قولهم، اعتقدوا بالقرآن أنه هذا وأنه كلام يأتي به محمد فأبطل القرآن وحرمهم من التأثر بالقران، يأتون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويستمعون ولا يستفيدون.

جعل الله بينهم وبين النبي حجاباً مستوراً فلا يستفيدون بسبب عدم إقبالهم على القرآن وعدم توبتهم وعدم يعني خضوعهم لله، موقف أيضاً الموقف الذي ذكرناه اتهامهم القرآن واتهامهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه رجل مسحور.

ما موقفهم من **(البعث)** والجزاء وخروج الناس من قبورهم والحساب والجنة والنار؟

موقفهم الإنكار والكفر؛ أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون؟! هذا شيء مستحيل؛ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت؛ ما في بعث أنكروه مطلقاً.

اسمع الآيات الآن، وكيف يرد القرآن على هذا المعتقد الباطل -وهو إنكار يوم القيامة وعدم الإيمان باليوم الآخر- اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: 49]؛ قالوا، أي هؤلاء الكفار المنكرون الجاحدون المستبعدون البعث، وقالوا: أإذا كنا، أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً؟!

يعني أنت تتصور بعقلك أنك إذا أصبحت عظاماً ورفاتاً ستبعث؟! هذا مستحيل؛ وأن ناساً ماتوا في البحار وأكلتهم الحيتان، وناساً ماتوا في القفار وأكلتهم السباع، وناساً احترقوا وأصبحوا رماداً؛ كيف يبعثهم الله؟!

لما تحكم عقلك صح كلامك هذا، لما تقول: قدرة الله فوق كل شيء؛ هذا ما يمكن مستحيل. الله بلحظة: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: 28]؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ﴾ [النحل: 77]؛ أمر الساعة يعني بعث الناس من قبورهم مثل تغميض العين وفتحه إشارة، كلمح البصر أو أقرب من ذلك، قدرة الله فوق كل شيء.

تصور أنت لما تحكم عقلك تقول: كيف يبعث الله هؤلاء من بطون السباع وبطون الحيتان يبعثهم؟! كيف؟! لا تحكم عقلك؛ هذا شيء لله، ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ﴾ بلحظة، فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم قيام ينظرون؛ القضية تحكم عقلك.

ولذلك شوف الله، شوف هم يحكمون قولهم يقول: أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً، عظاماً ورفاتاً.

- ما الفرق بين العظام والرفات؟

الجواب: العظام معروفة، والرفات هي تفتت العظام؛ هم يقولون: إذا وضعنا في، إذا وضع الواحد في قبره ثم أكلت الأرض، أكلت جسده فلم يبق إلا العظام وأيضاً آثار من العظام رفات متكسرة، بعض العظام الباقية متكسرة؛ يعني يا محمد نبعث؟! أتزعم أننا نبعث خلقاً جديداً؟ يبعثنا الله مرة ثانية؟!

قال القرآن: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا 50 أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ 51﴾ [الإسراء: 50-51]؛ يقول لو كنتم حجارة -ليست عظاماً وليست لحماً- لا، لو كنتم حجارة، قل كونوا حجارة أو حديداً؛ أشد من الحجارة، الحديد يقطع الحجر، حجارة أو حديداً، أو خلقاً مما يكبر في صدوركم؛ بعضهم عندكم أكثر من الحجارة والحديد، خلق آخر في صدوركم، قل كونوا حجارة يبعثكم الله يبعثكم.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء: 51]؛ فسيقولون من يعيدنا؟ من الذي يعيدنا؟ قل الذي فطركم أول مرة؛ الذي أنشأكم أول مرة هو الذي يعيدكم. من الذي خلقكم أول مرة؟ من الذي أوجدك أنت معدوماً لست موجوداً على الأرض؟

فالذي أوجدك على الأرض وأخرجك من بطن أمك من هو؟ من الذي خلقك في بطن أمك؟ الذي خلقك أول مرة هو القادر على إعادتك على العالم، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: 27].

الآن لو تأتي أنت لشخص قد اخترع آلة ثم تأتي أنت وتقول له: أنا الآن أفكك لك هذه الآلة، تقدر تستطيع أن تركبها؟ شو يقول لك؟ أنا مخترعها، أولا أركبها؟ أنا الذي بدأتها أول مرة، الله الذي بدأ الخلق أول مرة يعجز أن يعيده؟! هذا مستحيل.

فشوف قال: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ يعني أنشأكم أول مرة؛ ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ﴾ [الإسراء: 51]؛ يهزون رؤوسهم، يعني استبعاداً وعدم قبول وعدم واستهزاء وسخرية، فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون: متى هذا اليوم؟

﴿قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: 51]؛ ما تدرون، الموت ينزل في أي لحظة، ما تدري إلا نزل بك الموت خلاص انتقلت إلى الآخرة؛ هذا هو، هذا عسى أن يكون قريباً، نزول الموت أو قيام الساعة، عسى أن يكون قريباً.

ثم بين لك قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ مَّلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 52]؛ يوم يدعوكم، يوم القيامة عندما يدعوكم وأنتم في قبوركم، ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً؛ عندما يصيح من الملك الموكل بنفخ الأرواح، الموكل بنفخ الصور من هو؟

(إسرافيل)؛ لما ينفخ، يوم ينادي المنادي من مكان قريب عندما ينادي، قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ﴾؛ فتستجيبون بحمده تخرجون من قبوركم حامدين الله على أن الله أعادكم وبعثكم ورد إليكم أجسادكم، وتظنون عندما ترون يوم القيامة أن لبثتم -أي في الدنيا- أن لبثتم إلا قليلاً؛ يعني ما عشتم إلا زمناً قليلاً.

- كم لبثنا؟

لبثنا يوماً أو بعض يوم؛ يظنون أنها أيام قليلة من لبثهم يعني، وقال أيضاً في موضع آخر: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: 46]؛ يعني فترة قصيرة.

الآن أنا لو أسألك وأنت بلغت الثلاثين، الأربعين، الخمسين، الستين، أقول لك: الأيام الماضية التي عشتها كم؟ شو تتصورها؟ تقول كأنها لحظة؛ كأنها لحظة. فإذا جاءهم القيامة، بعث من قبورهم كأنهم ما لبثوا في الدنيا ما لبثوا إلا عشية أو ضحاها، أو يوماً أو بعض يوم.

هذه الآيات التي مرت معنا، شوف الآيات التي مرت معنا يعني قلبنا صفحات هذه الآيات ومرت معنا من الآية رقم **(40)** وإلى الآن، يعني إلى الآية رقم **(52)**؛ يعني تقريباً اثنتا عشرة آية قرأناها وتأملناها وتفكرنا فيها.

ووجدنا كيف القرآن إنما هو حجة عظيمة، وإنما هو مليء بالعلم، وأيضاً مناقشة هؤلاء أصحاب المعتقدات الفاسدة ممن يدعي الربو، يدعي أن أو ممن يعبد مع الله إلهاً آخر، أو يصف الله بأن أو يصف الملائكة بأنهم من؛ هذا اعتقاد باطل، هذه معتقدات باطلة.

أول شيء يجعلون مع الله آلهة أخرى، ثانياً يصفون الملائكة بأنهم بنات الله؛ ثالثاً -يعني والله رد عليهم ويعتقدونهم مع الله آلهة أخرى ورد عليهم- قال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 42]. ثم بين أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تسبحه السماوات كلها والاراضون ومن فيهن كلها تعظم الله.

ثم بين القرآن وأثره على القلوب، لكن هؤلاء قلوبهم مغلقة ما يتأثرون، أما المؤمن إذا سمع القرآن تأثر به، يتأثر بالقرآن؛ ولذلك اسمع الآية في سورة الزمر: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 23]؛ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، الذين يخشون ربهم تقشعر وتتأثر وتلين قلوبهم. أما الكفار قلوبهم قاسية ما يتأثرون.

سبب السبب فيه السبب الكفر والمعاصي، والكفر والمعاصي يستمعون وهم نجوى لكن ما في فائدة، ما يستفيدون، ثم بين أيضاً عقيدتهم وموقفهم من البعث والرد عليه؛ هم يقولون لا يبعث الله من يموت، قال الله يبعثهم ولو كانوا حجارة أو حديداً سيبعثهم ويحاسبهم.

نقف عند هذا القدر، نكتفي به إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده

(الإسراء 53 - 65)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الموافق للرابع من شهر ربيع الأول من عام [1448 هـ]. أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا في تفسير القرآن العظيم وسورة الإسراء؛ وقف بنا الكلام عند الآية الثالثة والخمسين من السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 53].

الآيات السابقة كلها في مجادلة ومحاجة المشركين في عقائدهم؛ في إنكارهم لـ**(توحيد الإلهية)** و**(توحيد العبادة)**، وأنهم يشركون مع الله إلهاً آخر، وكذلك إنكارهم للبعث والجزاء والحساب؛ حيث يقولون: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: 49].

فرد القرآن عليهم، وناقشهم، وجادلهم، وأقام الحجة عليهم، وبعد هذه الإقامة للحجة ومناقشتهم، يأتي الخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجهاً، أي: موجهاً للمؤمنين؛ كيف يتعاملون مع مثل هؤلاء، وكيف يتعامل بعضهم مع بعض، في بيان أن الإسلام يدعو إلى أحسن الأخلاق وأحسن الآداب في التعامل.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُلْ﴾؛ خطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنت لو تتتبع القرآن الكريم في آيات كثيرة، إذا جاء الخطاب فيها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بـ **"قُلْ"**؛ فهذا يدل على أن وراء هذا الأمر أمراً مهماً، لابد أن تستشعر معنى هذا الأمر وتفهمه جيداً.

مثلاً: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: 30]؛ **"قُلْ"** هذا يعني الخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم الرسول يوجه للمؤمنين، وهذا يدل على أن الأمر له أهمية عظيمة.

فهنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾؛ كما أنك ناقشت وأقمت الحجة على هؤلاء المشركين، أيضاً خاطب عباد الله المؤمنين.

انظر كيف قال: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾؛ لما يضيف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العباد إليه، يدل على أنهم هم أولياؤه، وهم عباده الذين استجابوا له وآمنوا به، فإضافة **(العبودية)** هنا شرف؛ أن تكون عبداً لله، لست مثل الذي يكون عبداً لحجر، أو شجر، أو ميت لا ينفع ولا يضر، ولا يدفع عنك البلاء، ولا يرفع عنك الأذى؛ شرف لك أن تكون عبداً لله.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر عن نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل المواقف -يعني يذكر فيها **(العبودية)**- مثل الإسراء، وهو موقف عظيم ومعجزة عظيمة، ماذا قال الله فيها؟

قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1]، ولم يقل: **"برسوله"** ولا **"بنبيه"**.

ولما جاء عند إنزال القرآن قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: 1]، ولم يقل: **"على رسوله"** ولا **"على محمد"** ولا **"على نبيه"**؛ قال: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾، فـ**(العبودية)** شرف.

ولما جاء في مقام الدعوة قال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: 19].

فأن تكون عبداً لله؛ فهذا شرف لك، وزيادة على ذلك أن الله يضيفك إلى نفسه فيقول: ﴿عِبَادِي﴾؛ أنا، لست عباد الناس، بل عبادي أنا، فهذا شرف لك: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾.

إذا سمعت أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوجه الخطاب لرسوله ويقول قل لهم، ثم أيضاً يصفك بصفة **(العبودية)** فيقول: أنت عبد الله، ويضيف فيقول: أنت عبدي، أنت لست عبداً لمخلوق بل أنت عبدي لخالقك، ورازقك، ووليك: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾؛ فما الأمر الذي سياتي بعد هذه المحفزات القوية؟

قال: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ هذا هو المراد من هذا كله؛ يقولوا الخصلة التي هي أحسن، ويقولوا الكلمات التي هي أحسن، ويستعملوا الطيب من القول دائماً؛ ليكن لسانك طيباً، لا يكن لسانك خبيثاً كلاماً سيئاً.

ما القول الحسن الذي أمر الله به؟ الله يقول لنبيه: قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن. ما التي هي أحسن؟ ما هو القول الذي هو أحسن شيء؟

قال بعض أهل التفسير: **"هو أعظمها؛ قراءة القرآن، وذكر الله؛ وذكر الله يدخل فيه قراءة القرآن، والذكر، والعلم، والتعلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكلام الحسن اللطيف الجميل مع الخلق على اختلاف مراتبهم واختلاف منازلهم؛ هذا كله داخل في قوله: ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾"**.

اجعل دائماً لسانك رطباً بالذكر الحسن الطيب؛ تلاوة القرآن، ذكر الله، التسبيح، التهليل، دائماً يلهج لسانك بهذه الأشياء، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكلام اللطيف الجميل مع الناس.

كيف تتعامل معهم، كيف ترسل لهم رسائل، كيف تتحدث معهم إذا قابلتهم؛ كلها مع أبنائك، مع الأطفال على اختلاف منازلهم، مع الكبار، مع المسؤولين؛ لتكون قدوة لغيرك، ولتكن أخلاقك وتعاملك بلسانك أفضل شيء، هذا المقصود.

ولذلك قال: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ مع العدو، حتى مع المنكرين للبعث والمشركين بالله؛ قل لهم الكلام الطيب تكسبهم؛ فالكلام الطيب هو الذي يأتي بهم، والكلام السيئ هو الذي يصرفهم عنك.

فهذا معناه أنك تقول القول الطيب الحسن، والطيب من القول الحسن هذا يعتبر دعوة منك لهم؛ لما يسمعون منك الكلام الطيب يتقبلون، ويعرفون أنك على مستوى من الخلق، فالناس يقتدون بك إذا رأوك بهذا الكلام.

والقول الحسن أيضاً يجر لكل خلق حسن؛ إذا كان لسانك حسناً ولسانك طيباً، ستكون الأخلاق والتعامل مع الناس أيضاً طيبة.

ولذلك تلاحظ أنت اللسان السيئ البذيء كيف تعامل الناس معه وكيف هو يتعامل معهم؛ إذا كان لسانه بهذه الصفة فأخلاقه وتعامله أسوأ وأسوأ.

فدائما القول الحسن من آثاره الطيبة أنه يأتي بالأخلاق الجميلة الحسنة والأعمال الصالحة؛ فصاحب الخلق الطيب أعماله طيبة حسنة، ولذلك إذا ملكت لسانك ملكت كل شيء في جسدك؛ إذا ملكت لسانك ملكت أخلاقك، تعاملك، أعمالك إلى كل هذه الأشياء، والعكس بالعكس؛ فالأخلاق السيئة ستجر إلى أعمال سيئة وتعامل سيء.

- ولذلك انظر ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أمرنا بأحسن الأخلاق؟

قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: 53]؛ قل لهم يقولوا الكلام الطيب؛ لماذا؟ الشيطان يترصد لهم، الشيطان يحثهم، يسعى الشيطان وينزغ، و**(النزغ)** -نزغ الشيطان- يعني أنه يطعن؛ مثل الطعن، شفت النزغة هذه مثل الطعن، الشيطان يطعن فيك وينزغ فيك حتى تتحدث بالكلام

السيئ مع الناس، يسعى الشيطان ينزغ بينهم؛ يثير العداوة بينهم، يسعى بالعداوة بين الناس بما يفسدهم.

إذاً بعض الناس الذين لا يملكون أنفسهم، إذا جاءتهم كلمة بذيئة سيئة يرد بما هو أقوى عليها؛ هذا الشيطان، الشيطان الآن أصبح يتفرج على مثل هؤلاء ويفرح، ويشعر أنه حقق أمراً عظيماً إذا هذه كلمة كبرت المسألة؛ فهذا هو الذي يريده الشيطان؛ أن يفسد بينهم الأخلاق، والدين، والتعامل، هو الذي يسعى عليه.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: 53]؛ الشيطان عدو للإنسان، ويحاول أن يفسد أخلاقه وتعامله، ويفسد بينه ويثير البغضاء والشحناء بينهم، هذا الذي يريده الشيطان.

فأنت إذا تذكرت أن الأخلاق الطيبة من الله، وأن آثارها طيبة، وأن الشيطان ينزغ ويترصد لك ولمثل هذه الحالة؛ تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذا جاءتك كلمة سيئة خذها بهدوء.

☜وأنت إذا خرجت من بيتك خذ بهذا الدعاء: **«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»**.

ما تدري في الطريق يجي شخص يجهل عليك بالكلام السيئ، فانت لا تجهل ولا يجهل عليك، هذا الذي ينبغي، الإنسان أحياناً في الطرقات، وفي الشوارع، وفي الممرات يأتيه من يجهل عليه ويستفزه؛ فماذا ستقول؟

وماذا سيكون موقفك؟ لو كنت اتخذت بهذه الآية ارتحت؛ ارتحت ولم يهمك مثل هذا الأمر؛ لأن هذا من الشيطان، وهذا الرجل نزغه الشيطان ودفعه، فخذ مثل هذه الأشياء؛ هذه من آداب القرآن وآداب الأخلاق.

ولذلك شف هذه الآية نعيدها لأول السورة التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: 9]؛ للأخلاق الطيبة الحسنة، وهذا من الأخلاق الطيبة الحسنة؛ من أعظم الأخلاق أن تمسك نفسك، وأن تعرف كيف تتعامل مع من يجهل عليك: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]؛ طبق هذه الآية.

شوف قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [الإسراء: 54]؛ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ من أنفسكم، يعني لا تزكي نفسك، ولا تقل: **"أنا خير من فلان"**، و**"أنا أستطيع أن أفعل"**، و**"أنا وأنا"**؛ مَن أنت عشان تقول أنا أنا؟!

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [الإسراء: 54]؛ الأمر لله، فمعنى ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ يعني هو أدرى بكم من أنفسكم، ويعرف ما هو الخير لكم وما هو الشر؛ قد ترى الشيء ظاهره شر وهو خير لك، وترى الشيء ظاهره خير وهو شر لك؛ ليش؟

الله يعلم وأنت لا تعلم، ما عندك؛ علمك ضئيل قليل، ولا تدري ما وراء هذه الأشياء، هذه الأشياء وراءها خفايا لا يعلمها إلا الله، فلا تتعجل في الحكم وتأنى في مثل هذه الأمور.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾؛ شلون ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾؟ ما معناها؟

يعني إذا أراد الله توفيقك للخير وفقك؛ إذا رأى منك علامات الخير دلك على الخير ووفقك للخير وصار الخير ذا رحمة عليك، وإذا رأى منك علامات الشر تركك في ضلالك فامتد بك الضلال وضللت، وأصبح يعمه في ضلاله ويمتد في ضلاله؛ ﴿يَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15] إلى أن يعاقبهم العقوبة السيئة، فيكون هذا مستحقاً للعذاب وهذا مستحقاً للرحمة، هذا معنى هذا الكلام.

شوف قال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 54]؛ يا محمد ما أرسلناك عليهم أنت الوكيل عليهم في كل شيء؛ إنما وظيفتك وظيفة الرسل وهي البلاغ المبين.

أما تدبير أمورهم ومجازاتهم فليست لك، لست أنت وكيلاً عليهم، إنما أنت مبلغ، وأنت هادٍ ومبلغ وتدلهم وتهديهم إلى صراط مستقيم، أما هذه الأمور مما يترتب عليها رحمة أو عذاب فهذه مرجعها إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: 55]؛ مثل ما هو أعلم بنفوسكم ويعلم أسراركم، أيضاً من سعة علمه أنه يعلم من في السماوات؛ كل من في السماوات والأرض من أصناف الخلائق، الله يعلم من يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلال فيتركه في ضلاله وبما تقتضيه حكمته وعلمه السابق؛ هذه كلها ترجع إلى الله.

ولذلك حتى تعرف سعة علم الله وحكمته وتدبيره؛ أنه حتى الأنبياء وهم أنبياء فضل بعضهم على بعض، وزاد بعضهم على بعض فضائل ودرجات، جعلهم على درجات.

ولذلك شوف قال: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: 55]. شوف الملائكة قد فضل الله بعضهم على بعض؛ فجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أفضل الملائكة على الإطلاق، فهم درجات.

وكذلك الأنبياء فضل الله بعضهم على بعض، وكذلك البشر فضل الله بعضهم على بعض، وأشياء كثيرة؛ حتى القرآن كلام الله فضل الله بعضه على بعض؛ لو قيل لك مثلاً: ما أفضل سورة؟ تقول: الفاتحة.

قيل لك: ما أفضل آية؟ تقول: آية الكرسي. إذاً الآيات بعضها أفضل من بعض، لكن لا نقول في القرآن -كلام الله- ما نقول: هذه الآية هي أفضل آية وهذه ليست فيها فضل؛ لا نقول ذلك، بل نقول: كل القرآن فاضل على كل كلام.

ولكن فيه ما هو فاضل وأفضل، يعني القرآن كله عظيم، ولا يجوز أن نقول إن فيه ما هو أقل أو رديء؛ لا، هذا لا يجوز لأنه كلام الله ولا يمكن أن يوصف بمثل هذا، ولكن نقول القرآن كله فضيل وفيه ما هو أفضل لرجحانه.

وكذلك الأنبياء كلهم فضلاء وفيهم من هو أفضل؛ أفضلهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو أفضلهم وسيدهم، وكذلك يفضل -عندنا- **(أولو العزم)** الخمسة: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، ثم محمد؛ هؤلاء **(أولو العزم)** الخمسة هؤلاء هم أفضل الرسل، ثم هم درجات درجات، هذا معنى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

قال: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55]؛ تفضيل الأنبياء هذا عرفناه بما فضلهم الله به من الأخلاق، والأعمال، والاتباع؛ يعني بعضهم لم يتبعه إلا قليل، وبعضهم اتبعه كثير فكثرة أتباعه هذا تفضيل، ونزول الكتب؛ بعضهم نزل عليه وبعضهم لم ينزل عليه، وبعضهم نزل عليه كتاب وهذا الكتاب أفضل من هذا الكتاب، وهكذا الشرائع والعقائد؛ كل هذه وجوه التفضيل.

فلما ذكر وجوه التفضيل ذكر أيضاً من التفضيل أنه فضل داود عَلَيْهِ السَّلَامُ بالكتاب مع أنه ليس من **(أولي العزم)**، لكنه فضله الله بهذا الكتاب.

- ما هو؟

هو **(الزبور)**. **(الزبور)** كتاب أنزله الله على داود فيه مواعظ كثيرة، وكان يقرؤه وقراءته طيبة وحسنة، وصوته جميل؛ مزمار من مزامير آل داود كان يقرؤه، فإذا بدأ يقرؤه تجتمع

الطيور عنده والطير محشورة والجبال تسبح وتردد معه؛ فكان صوته حسناً ويقرأ ويقوم الليل به، ويسمى قرآناً أحياناً لأنه يقرأ، ويسمى بالزبور لأنه متزبر يعني متجمع، هذا معناه.

☜وداود هو أحد أنبياء الله، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال فيه: **«خَيْرُ الْقِيَامِ قِيَامُ دَاوُدَ، وَخَيْرُ الصِّيَامِ صِيَامُ دَاوُدَ؛ كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»**.

☜وفي لفظ: **«كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»**؛ ففضله الله سبحانه وأثنى عليه وذكره في كتابه، وهذا من ذكره؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾.

وأيضاً فيه رد على المشركين الذين يزعمون أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يسبق بالأنبياء ولا الرسل، ويقولون إن محمداً جاء بشيء لم يسبقه إليه أحد؛ فرد القرآن وقال: انظروا إلى من أتى بالتوراة وهو موسى، ومن أتى بالإنجيل وهو عيسى.

ومن أتى بالزبور وهو داود، وهناك كتب كثيرة أنزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد: 26]؛ كتب منزلة وأنبياء ورسل لا نعلمهم، لا يعلمهم إلا الله.

لما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات إرشاد المؤمنين وعباده إلى الأخلاق الحسنة، وبين أن الأمر بيد الله، وأن الإنسان إذا أراد الله هدايته وجهه للخير، وإذا تركه في ضلاله وتعرضه للعذاب تركه، وبين وظيفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضاً أن الله فضل الأنبياء.

تعود الآيات لمناقشة المشركين في عقيدة **(التوحيد)**، عقيدة **(التوحيد)** وإفراد الله بعبادته هي أساس كل رسول؛ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، و﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]؛ فكل الرسل يقولون: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59]. فجاءت هذه الرسالة - رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لتحقيق **(التوحيد)**.

اسمع مناقشة الآن المشركين وإقامة الحجة عليهم: ﴿قُلِ﴾؛ جاءت **"قُلْ"** خطاباً للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وانظر ما بعدها له أهمية عظيمة وهو **(التوحيد)**؛ ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الإسراء: 56].

قل لهؤلاء المشركين: ادعوا الذين زعمتم؛ هؤلاء الذين أنتم تزعمونهم، ومنهم من كان يعبد الملائكة، وليس المشركون فقط، بل كل من لا يعبد الله أو كل من خرج عن طاعة الله؛ هناك من النصارى من يعبد عيسى، وهناك من يعبد النجوم والكواكب، وهناك من يعبد الأموات، وهناك من يعبد الأصنام، أصناف كثيرة.

فيقول الله لهم: قل للذين زعمتم من دون الله الذين أنتم تعبدونهم من دون الله، قل ادعوا الذين زعمتم من دونه؛ ادعوهم واسألوهم واعبدوهم؛ لا يملكون لأنفسهم وهم لا يملكون: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: 56].

يقول: انظروا إلى هؤلاء الذين تدعونهم، هل يكشفون الضر عنكم إذا أصاب الواحد منكم ضر، أو فقر، أو أي مصيبة تنزل به؟ هل المعبود من دون الله -سواء من الملائكة، أو من الرسل، أو من الأموات، أو من الصالحين، أو من الأصنام- هل هذه تكشف عنهم الضر؟

هذه مناقشة عقلية لهم؛ تعال يا أيها المشرك، أنت تعبد الآن هذا المعبود من دون الله، هل هذا المعبود من دون الله يستطيع أن يزيل عنك الضر أو الفقر ويغنيك أو يعطيك الصحة؟

هذا معناه؛ يقول: ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾، لا يزيله ولا يكشفه، وفي نفس الوقت حتى ما يحوله؛ يعني لا يحوله من شديد إلى أخف، أو من مكان إلى مكان، أو من

شخص إلى شخص؛ لا يستطيع أن يملك هذا. فالمعبود من دون الله هو لا يزيل الضر عن نفسه، فكيف تعبدون شخصاً هو أقل منك لا يزيل عن نفسه ولا ينفع نفسه؟! فهم ضعفاء لا يملكون شيئاً، فكيف تعبد شخصاً هكذا؟

- من الذي يكشف الضر عنك ومن الذي يحوله ويبعده؟

هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: 17]؛ لا يستطيع المخلوق أن يفعل ذلك.

- ولذلك انظر ماذا قال عن ضعف هؤلاء الذين تدعونهم وتزعمون أنهم ينفعونكم من دون الله؟

قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57]؛ هذا هو الأمر الثاني الذي يدل على ضعفهم. يقول: هم أنفسهم يعبدون الله.

فالملائكة تعبد الله، والرسل يعبدون الله، والأولياء الصالحون يعبدون الله؛ فأنتم تذهبون إليهم وهم يبتغون إلى الله **(الوسيلة)**، يعني يبتغون إلى الله الأعمال الصالحة التي هي وسيلة تقربهم إلى الله وتنفعهم عند الله؛ يبتغون إلى الله **(الوسيلة)** أيهم أقرب عند الله، ويرجون رحمته ويخافون عذابه.

هم يرجون رحمة الله وهم يخافون عذاب الله، وأنتم تدعونهم وتؤلهونهم وتجعلونهم آلهة وهم ضعفاء يسألون الله فيرجون رحمته ويخافون عذابه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾؛ فهم يحذرونه ويخافونه.

وهذه الآية وقف عندها العلماء فاستنبطوا منها وسيلة النجاة في الدنيا وحقيقة العبادة؛ وهي أن أركان العبادة تكون على ثلاثة أركان: **(المحبة)**، و**(الرجاء)**، و**(الخوف)**.

حتى قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: **"الانسان كالطائر في هذه العبادات الثلاث؛ مثل الطائر، (المحبة) رأسه، فإذا قطع رأسه مات"**؛ فـ**(المحبة)** هي الأساس، وهي التي تدعوك إلى كثرة الطاعات إذا كنت تحب الله وتحب عبادة الله.

كقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يسارعون في محبة الله ورضاه. ثم عندنا **(الرجاء)** و**(الخوف)** كجناحي طائر.

يقول ابن القيم: **"كجناحي طائر؛ الرأس المحبة، والرجاء والخوف جناحا الطائر، فإذا ذهب الخوف والرجاء سقط الطائر، وإذا ذهبت المحبة مات الطائر"**.

فالإنسان يمثل نفسه بالطائر بهذه الأشياء الثلاثة التي تقوم عليها العبادة والطاعة؛ فالعبادة والطاعة تقوم على محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومحبة الأعمال التي ترضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يحبون قيام الليل، يحبون تلاوة القرآن، يحبون الصلاة والتبكير لها، يحبون الصدقات؛ كل هذه الأعمال الصالحة يحبونها ويسارعون فيها ما يتخلفون عنها.

وعندهم **(الرجاء)** عند الله؛ يرجون ما عند الله من الأجور، ويخافون من العذاب الذي قد ينزل بهم؛ هذا معنى هذه الآية. فهؤلاء الذين يدعونهم من دون الله هم يحبون الطاعات ويسارعون فيها، وفي نفس الوقت يرجون رحمة الله ويخافون عذابه؛ فكيف تدعونهم من دون الله؟! ما يمكن هذا، لا يمكن.

فهذه الأمور الثلاثة: **(الخوف)**، و**(الرجاء)**، و**(المحبة)**؛ هي من صفات عباد الله الذين يتقربون ويسارعون في طاعة الله، فإذا تمت هذه الأمور الثلاثة امتلأ القلب من العبادة والطاعة،

وإذا ذهبت خلا القلب منها ولا ينفع؛ فعلامة محبتك أنت لله هي المسارعة بالطاعات، والرجاء بما عند الله.

والخوف مما أعد الله من العذاب؛ هذا معنى هذه الآية. فكيف يدعون أناساً هم يتقربون إلى الله؟! فمن زعم أنه يحب الله وهو لا يعمل، ولا يتنافس في الطاعات، ولا يرجو رحمة الله، ولا يخاف عذابه؛ فهذا زعم كاذب لا يصح، كما قال الشاعر:

تَعْصِي الإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ	هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
إِنْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ	إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

فأن تزعم أنك تحبه وأنت لا تلقي بالاً لطاعته ولا المسارعة في طاعته؛ فهذا كله دعوى باطلة.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: 58]؛ شوف هذه الآية لابد أن نقدر لها شيئاً محذوفاً، لا نأخذها بظاهرها؛ كيف الله يعذب كل قرية؟ لا، هذا لا يمكن إذا أخذ بظاهره، بل ما التقدير؟

التقدير: **"وإن من قرية ظالمة"**؛ فالقرية الظالمة -كما دلت عليه الآيات الأخرى- هي التي تستحق العذاب، أما القرية التي أهلها طائعون فهؤلاء لا يستحقون العذاب.

فما من قرية من القرى الظالمة المكذبة للرسل -وهذه رسالة لأهل مكة المكذبين للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلا لابد أن يصيبهم أحد أمرين في الآية؛ لابد أن تصيبهم مصيبة: إما الهلاك بأن تدمر عليهم وتهلك جميعاً قبل يوم القيامة، وإما العذاب الذي سينزل بهم في الآخرة؛ العذاب الشديد.

كيف؟ قال: وإن من قرية ظالمة عاصية، ما النتيجة؟

﴿إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ مهلكوها يعني تدمر وينزل بها العقوبة في الدنيا، ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾ يوم القيامة عذاباً شديداً ينتظرها، وأن الله قد كتب ذلك وأبرمه؛ لأنه قال: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾، فلابد من وقوعه؛ ما من قرية إلا سيصيبها أحد أمرين: إما العذاب في الدنيا وإهلاكها قبل يوم القيامة، وإما العذاب في الآخرة ينتظرها؛ لابد أن يقع قضاء مبرماً عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإذا سمعت هذه الآية ما الواجب عليك؟ الواجب عليك أن تبادر بالتوبة والاستغفار، وألا تعرض نفسك للعذاب؛ لأنه قد يصيبك في الدنيا أو يصيبك في الآخرة، وهذا معناه. وهذه رسالة لأهل مكة لعلهم يرجعون، لعلهم يتوبون ويستغفرون.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: 59].

- ما السبب؟

المشركون من شدة عنادهم وكفرهم وعدم تقبلهم للدعوة، كانوا يحاجون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقولون: **"إذا أنت يا محمد رسول أعطنا آية"**، قال: **"القرآن"**، قالوا: **"لا، القرآن ما نصدق، نريد آية حسية"**؛ كصالح عَلَيْهِ السَّلَامُ أتى لقومه بآية حسية فأخرج لهم ناقة الله، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عصاه بيده تنقلب ثعباناً وحية ويده تصبح بيضاء للناظرين، **"وأنت يا محمد ما عندك آيات فأعطنا آية"**.

قال: **"ماذا تريدون؟"** قالوا: **"اقلب لنا الصفا -جبل الصفا- اقلب لنا الصفا ذهباً"**.

وفي آيات ستأتينا في هذه السورة، من شدة عنادهم انظر ماذا يقولون؛ ما يرضون بالقران، لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88].

انظر إلى عقول المشركين، عقول قاصرة، قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا 90 أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا 91 أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا 92 أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ 93﴾ [الإسراء: 90-93].

وبعدين إذا أعطيتم هذه الأشياء تؤمنون؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: 93]؛ أنا بشر رسول الله يوحى إلي وأبلغكم، وأنا جئتكم بأعظم من هذه كلها؛ هذه سهلة أمرها يسير، وكلها آيات مؤقتة تظهر وتنتهي؛ جنات من نخيل وأعناب، وبيت من زخرف، أما أنا فقد أعطيتكم معجزة أعظم من هذا كله باقية إلى قيام الساعة وهو القرآن، أعظم معجزة، ولكنكم لا تريدونها!

انظر هنا، قالوا: **"إذا أنت يا محمد تريد أن نسلم لك الأمر ونتبعك ونصدقك؛ أعطنا آية عظيمة"**، فما هي الآية؟ قالوا: **"اقلب لنا الصفا ذهباً"**، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"إذا سألت الله وقلب الصفا ذهباً تؤمنون؟ إن لم تؤمنوا سينزل بكم العذاب"**؛ لأن سنة الله أن البشر إذا طلبوا الآية من نبيهم ثم كفروا نزل بهم العذاب، مثل ثمود طلبوا الناقة ثم كفروا بها وعقروها فأنزل الله بهم عقوبة.

حتى الحواريون -وهم مسلمون- لما طلبوا نزول المائدة هددهم الله وخوفهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: 115]؛ احذروا، أنتم تطلبون آية، فانتبهوا هنا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾؛ يعني ما الذي منعنا أن نرسل الآيات؟ الأولون كذبوا بالآيات ونزل بهم العقوبة، وأنتم يا أهل مكة ستكذبون لو قلبنا الصفا؛ ستقولون: **"سحرنا محمد"**، فما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون، فلما كذب بها الأولون نزلت بهم العقوبة.

ولذلك قال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: 59]؛ مبصرة يعني ظاهرة بينة، فظلموا بها وعقروها، فما نفعهم؛ فأنتم احذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

هذا منهجهم؛ يتبع بعضهم بعضاً ويسلكون هذا المسلك؛ كل أمة تأتي لنبيها تقول: **"أعطنا آية"**، ثم يكفرون، ثم تنزل بهم العقوبة، فأنتم يا أهل مكة احذروا هذا الأمر.

ولذلك قال سبحانه: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: 59]؛ الغرض من الإرسال بالآيات هو التخويف، وإقامة الحجة، وإثبات الرسالة؛ ما نرسل إلا تخويفاً لعلكم ترجعون.

فمثلاً عندك خسوف القمر، كسوف الشمس، إرسال الوباء، إرسال الرياح، إرسال الأمطار، الزلازل، البراكين؛ هذه آيات من الله ما يرسلها إلا تخويفاً لعل الناس يرجعون إليه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ [الإسراء: 60]؛ يا محمد، إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس، يعني الله أحاط بالناس فلا يخرج شيء منهم عن علم الله سبحانه؛ الله أحاط بهم علماً وقدرة، فلا يخرجون عن قدرته ولا عن علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أحاط بالناس علماً وقدرة، ليس لهم ملجأ أبداً ولا يستطيعون أن يختفوا عنه.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: 60]؛ ما هي **(الرؤيا)** التي أراها الله نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ما هي؟

هي **(الرؤيا)** البصرية التي رآها بعينيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما أُسري به؛ رأى آيات عظيمة؛ رأى الجنة، ورأى النار، ورأى جبريل في صورته، ورأى سدرة المنتهى التي هي أعلى شيء ينتهي عنده الخلق، فرأى آيات عظيمة.

فهذه الآيات التي رآها في ليلة الإسراء هذا هو الصحيح، وليس المقصود هنا الرؤيا في المنام؛ فالمنام كلٌّ يرى فيه أشياء عجيبة لا تُنكر، رؤيا المنام ما لها علاقة، بل هي رؤيا البصر؛ الله أراه آيات عجيبة لما أُسري به.

وكما ذكرنا لكم سابقاً؛ الإسراء كان بجسده وبروحه يقظة لا مناماً؛ إنما كان في اليقظة، ولو كان في المنام ما تعجبت مكة ولا استنكروا ولا اعترضوا عليه؛ فكل إنسان في المنام يرى أشياء عجيبة، بل كان يقظة، وليس بقلبه ولا بروحه فقط، إنما بروحه وبجسده، هذا هو الصحيح؛ وأن **(الرؤيا)** هنا رؤية بصرية وليست رؤيا المنام، هذا معناه.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾؛ فتنة أن أهل مكة كفروا، وأعرضوا، وتمادوا في كفرهم، بل إن بعض المسلمين الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام ارتدوا؛ ارتد بعضهم يوم جاء بعض المشركين إليهم فقالوا: **"أتصدق محمداً؟ تصدق بهذا الكلام؟!"**

قال: **"كيف؟"** قالوا: **"يقول إنه ذهب من مكة إلى بيت المقدس، ونحن نجلس في مسيرنا شهراً وأربعين يوماً، وهو يقول ذهبت في ليلة ورجعت! وتصدق أنه يقول صعدت إلى السماء السابعة؟!"** فلذلك شككوا في بعض ضعفاء الإسلام فارتد بعضهم؛ فهذه هي الفتنة، هذا معنى الفتنة: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: 60].

- ما هي الشجرة الملعونة في القرآن؟

هي **(شجرة الزقوم)**. لما أنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ 43 طَعَامُ الْأَثِيمِ 44 كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ 45 كَغَلْيِ الْحَمِيمِ 46﴾ [الدخان: 43-46]، وذكر أن شجرة أصلها في أصل الجحيم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ 64 طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ 65﴾ [الصافات: 64-65].

قال المشركون مستنكرين: **"محمد يأتينا بما لا يقبله العقل؛ شجرة تنبت في النار؟! هل هذا كلام يقبله أحد؟!"** فجعلها الله فتنة لهم. نعم، شجرة تنبت في النار، والله قادر لا يمنعه شيء، الله قادر أن يجعل هذه الشجرة التي يأكل منها المجرمون في نار جهنم تنبت في نار جهنم، في أصل الجحيم، في وسط الجحيم، وفي قاع الجحيم ويأكلون منها.

وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (شجرة الزقوم) في سورة الصافات، وفي سورة الواقعة، وأيضاً في سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ 43 طَعَامُ الْأَثِيمِ 44 كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ 45 كَغَلْيِ الْحَمِيمِ 46 خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ 47﴾ [الدخان: 43-47].

وكان أبو جهل -من جهله وسفهه- يأتي إلى أحد عبيده فيقول: **"قرب لنا الزبد والتمر"**، ثم يغمس التمر في الزبد ويقول مستهزئاً: **"تزقموا تزقموا معنا؛ فإن محمداً يزعم أن في النار زقوماً، تزقموا معنا!"**.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ 47 ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ 48 ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ 49﴾ [الدخان: 47-49].

فهذا معنى قوله: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ وهي **(شجرة الزقوم)** التي ذكرها الله في القرآن طعام الأثيم، والفتنة -مثل ما ذكرنا- فتن بها الكفار؛ كيف شجرة في النار؟

فكفروا بها، واستهزؤوا، وسخروا، واستبعدوا هذا الأمر؛ استبعدوا الإسراء واستبعدوا الزقوم فذكرها الله أنها فتنة.

قال: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 60]؛ نخوفهم بالآيات ونذكرها لهم، ولكن إذا كان القلب منطمساً فلا فائدة؛ نخوفهم بالآيات وما يزيدهم هذا التخويف إلا طغياناً، بل يزيدهم تمسكاً وتحلياً بالشر، ومحبة للشر، وبغضاً للخير، وعدم الانقياد؛ وكل هذا بسبب انطماس القلوب.

نختم المجلس في هذا اللقاء بهذه الآية التي لابد أن نفهمها؛ وهي سبب ضلال الخلق، يعني سبب ضلال هؤلاء وكفرهم وعنادهم.

ما هو السبب؟ لماذا هم لا يؤمنون بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد أتاهم بالآيات؟ لماذا الأمم الماضية لا تؤمن بأنبيائها؟ ما السبب؟ لماذا هذا العناد وهذا الكفر والطغيان؟ ما سببه؟ ما الذي تتوقعونه؟

هذا السبب قد ذكره الله في سورة البقرة، وذكره في الأعراف، وذكره في سورة الإسراء، وذكره في الكهف، وذكره في مريم، وذكره في سورة ص؛ مَن تتوقعون؟

هو الشيطان؛ الشيطان إبليس هو الذي سبب ضلال كل شيء. ولذلك الله دائماً إذا ذكر مواقف للمشركين من عناد وكفر واستهزاء، يذكر أن سبب ذلك هو الشيطان، وأن الشيطان هو السبب الأول في إخراج الأب آدم من الجنة؛ هو الذي أضل آدم وأخرجه من الجنة.

وبعد ذلك قال -كما ذكر-: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17]، وقال: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62]؛ فذكر أنه سيضلهم ولن يتركهم.

اسمع هذا موقف الشيطان؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -ومثل ما ذكرنا مناسبة ذكر قصة إبليس مع آدم بياناً لأن ضلال هؤلاء هو بسبب إبليس؛ فاحذروه، من الذي أخرج أباكم من الجنة؟ من هو؟ من الذي حرمكم الخير إلا إبليس؟

فاحذروه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الإسراء: 61]. الله أمر -يعني لما فضل الله آدم بالعلم- لما علم آدم المسميات وقال للملائكة: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ﴾ [البقرة: 31]، قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: 32].

فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: 33]؛ فجاء آدم وأخبرهم وأعاد عليهم كل أسمائهم، فعرفوا فضل آدم عليهم بالعلم؛ فشرفه الله بالعلم، فأمر الملائكة أن يسجدوا له تشريفاً له بالعلم، هذا معناه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: 61]؛ هنا الحسد والكبر؛ أسجد أنا المخلوق من نار لطين؟!

يظن أن النار أفضل، وما درى أن الطين أفضل من النار؛ فالطين فيه الرزانة، وفيه الثقل، وفيه المنافع تبني بها البيوت، وتزرع عليها؛ أما النار فماذا تبني؟

لا تبني ولا تزرع، وما فيها مصلحة إلا مصالح نادرة، والنار فيها الخفة والسفه والاحراق والإيذاء، والطين ليس فيه ذلك، فلذلك هو يظن في عقله القاصر أن النار أفضل؛ ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]؛ وما درى أن خلق آدم أفضل منه، فسجدوا إلا إبليس قال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾؛ استكبر وأبى.

قال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62]؛ لما قال الله له اخرج منها مذؤوما مدحوراً، قال: أرأيتك، يعني أخبرني يا ربي

هذا الذي كرمت علي وجعلته أكرم مني؛ لئن أخرتني إلى يوم القيامة -لما طلب الإنظار فقال الله له إنك من المنظرين- قال: ربي إذاً لئن أخرتني إلى يوم القيامة ماذا سأصنع بذرية آدم؟ عرف أن آدم سيكون له ذرية فقال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾.

- ما معنى احتناك الذرية؟

تعرفون الحنك؛ الحنك هو أسفل الفك السفلي من الإنسان والحيوان، أنت إذا أردت أن تقود الحصان أو الخيل تقوده من حنكه باللجام الذي وضع في حنكه وتسيره كيف تشاء، والإبل كذلك تسيرها كيف تشاء.

- فإبليس ماذا يقول؟

يقول: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾؛ يعني لآخذن بذرية آدم كلهم إلى يوم القيامة ساخذاً بأحناكهم وأجعلهم يمشون معي كيف شئت، وأسيرهم كيف شئت؛ يعني أتسلط عليهم تسلطاً عظيماً، هذا معناه.

شوف قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾؛ احتنك مثل ما ذكرت لك من الحنك؛ يأخذ بحنكه ويتصرف فيه كيف يشاء كما يتصرف الإنسان بالخيل أو بالإبل.

والآن الواقع يحكي لك كل هذا؛ شوف كيف يصنع الشيطان بكثير من الناس؛ أخذ بأحناك النساء والرجال، كثير من الرجال وكثير من النساء صاروا في حوزة الشيطان يسيرهم كيف يشاء.

ولذلك استثنى فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لأنه عرف أن هناك أناساً لا يقدر عليهم، ولذلك رد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه فقال: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾ [الإسراء: 63]؛ اذهب واصنع ما شئت، والذي يتبعك أنت وإياه في نار جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً؛ أي تاما كافياً عظيماً وافراً.

ثم قال سبحانه: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: 64].

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾: **(الاستفزاز)** هو الخفة والعجلة؛ من **"الفز"** يقال فز فلان أي قام بسرعة، فالخفة والعجلة هذا معناه؛ أي أزعجهم واستخفهم حتى يتبعوك واجعلهم يطيشون معك.

- ﴿بِصَوْتِكَ﴾: ما معنى بصوتك؟

قال بعض أهل العلم: **"بصوتك معناه الغناء والمزامير؛ مزامير الشيطان والغناء"**. وهذه الآية تدل على تحريم الغناء وانه من الشيطان؛ فمزمار الغناء من الشيطان.

وفي آية أخرى أقسم فيها ابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه بالله أنها تدل على الغناء؛ وهي قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: 6]؛ أقسم ابن مسعود أن هذه الآية في الغناء.

وفي غيرها من آيات القرآن ما يدل على تحريم الغناء؛ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: 72]؛ قال ابن عباس وغيره: لا يشهدون الزور أي أماكن الغناء والمزامير.

وآية: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: 61]؛ قال سامدون يعني تسهرون على الأغاني، ولذلك يقول بعض العرب وبعض أهل الجاهلية للقينة التي تغني لهم: **"اسمدي لنا"** أي غني لنا؛ وأنتم سامدون أي تستمعون للأغاني.

وكل هذه الآيات تدل على تحريم الغناء؛ وقد ذكر القرطبي وغيره أن آيات تحريم الغناء أربع أو خمس آيات في القرآن الكريم وهذه منها: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾.

- ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾: ما معنى أجلب؟

(الجلبة) هي الصوت العالي؛ أي صح بهم واستحثهم.

﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾: بخيلك أي بخيولك وفرسانك التي عندك، ورجلك أي الذين يمشون على أقدامهم **(الرَّجِل)**؛ فالرجال والجنود الذين يمشون على أقدامهم في طاعتك؛ ارفع صوتك واسمعهم الأغاني والمزامير واجلب عليهم وصح بهم واستحثهم بخيلك ورجلك.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾: شارك هؤلاء أهل الضلال وأتباعك في الأموال والأولاد؛ بأن تدخل معهم في الأموال فتضلهم حتى تكون أموالهم حراماً؛ كالسرقات، وأخذ الحرام، والربا وغيرها؛ هذه كلها من الشيطان، يشاركهم في الأموال فيجعل أموالهم كلها حراماً في حرام، والأولاد كذلك؛ بالزنا والفواحش وغيرها.

حتى قال بعض أهل العلم: **"من مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد دخوله إلى بيوتهم وأكله من أطعمتهم"**؛ فالشيطان إذا دخل الإنسان بيته ولم يقل: **"بسم الله"**؛ دخل الشيطان وبدأ يأكل طعامه ويقول لجنوده: **"أدركتم العشاء"**.

وإذا أوى إلى فراشه ولم يذكر الله قال: **"أدركتم المبيت"**؛ فالشياطين تبيت معهم في بيوتهم وتشاركهم في طعامهم. وقوله هنا: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾.

قال بعض أهل العلم أيضاً: **"تجده عند الجماع لا يسمي، فيشاركه الشيطان حتى تأتي الذرية من أشقى الناس"**؛ فهذه كلها أسباب من الشيطان، فالشيطان لم يترك شيئاً إلا وشاركهم فيه؛ في أموالهم، وأولادهم، وفي بيوتهم.

﴿وَعِدْهُمْ﴾: عِدهم أن سيكون لهم كذا وكذا من المزايا وغيرها، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾؛ كلها بهرجة وغرور وكذب في كذب، لا حقيقة لها.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مبيناً أن كل هذا التسلط لا يكون على عباد الله المخلصين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 65]. عباد الله هم الطائعون المستقيمون؛ الذين يحافظون على صلاة الفجر فيكونون في ذمة الله.

☜كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مَنْ صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللهِ»**، والذين يحفظون أنفسهم بالأذكار والأوراد بالصباح والمساء ويحافظون على الطاعات؛ هؤلاء لا يتسلط الشيطان عليهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾؛ هؤلاء لا تستطيع أن تتسلط عليهم.

فسلطانك عليهم ضعيف لا تقدر عليهم؛ إنما تقدر على الضالين الذين لا يعرفون ذكر الله ولا الصلاة، فهؤلاء سلموا أنفسهم لك، أما هؤلاء الذين يحافظون على الصلاة وحافظون للطاعات؛ فلا تستطيع أن تصل إليهم: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾: كفى بالله وكيلاً لمن توكل عليه وفوض أمره إليه؛ فإن الله سبحانه هو وكيله وهو الذي يحفظه، وهو الذي يرد كيد الشيطان عنه، ويرد كيد الكائدين عنه؛ هذا معنى هذه الآيات.

لعلنا نقف عندها إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

(الإسراء 66 - 81)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله أن يجعله لقاءً نافعاً مباركاً. هذا اليوم هو اليوم الحادي عشر من الشهر الثالث من عام [1448 هـ].

درسنا أيها الإخوة الكرام في تفسير القرآن العظيم؛ السورة التي بين أيدينا هي سورة الإسراء. ووقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: 66].

هذه الآية هي في بيان نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الخلق وفضله؛ بيان نعمة الله جل جلاله على خلقه وفضله عليهم، كيف يتفضل عليهم، وهذا بعدما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشيطان وتسلطه على كثير من الناس.

اقرأ الآية التي قبلها؛ الشيطان توعد، توعد هذا الإنسان **(آدم)** وذريته أن يتسلط عليهم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال له: اعمل ما شئت، فإن موعدك وموعد من يتبعك النار.

ولذلك الشيطان لما أمر الله الملائكة أن تسجد لـ**(آدم)** إكراماً له وتفضلاً من الله عليه، سجدت الملائكة كلهم، ملائكة السماوات سجدوا كلهم لـ**(آدم)** سجود تحية، ليس بسجود عبادة؛ سجود تحية وإكرام وطاعة لله، إلا إبليس؛ إلا إبليس تكبر، قال: أسجد لمن خلقت طيناً؟! هذا مخلوق من طين كيف أسجد له وأنا مخلوق من نار؟! فامتنع.

فلما توعده الله أخرجه من الجنة قال: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: 18].

وقال في آية أخرى: ﴿اهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: 13]. توعد قال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 62]؛ إلا يعني المخلصين من عباد الله الطائعين لله، قال الله: اذهب افعل ما شئت، من تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً.

بعد ذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لنا فضله ومنته وكرمه علينا بما أنعم علينا؛ حتى يعود الإنسان إلى ربه ويعرف حق الله عليه ويطيع الله ولا يطيع الشيطان، ولذلك الله يذكر بهذه النعم وبفضله، وأنه هو الواحد المتصرف في هذا الكون وهو الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ويذكر عباده، وخاصة المشركين الذين يعبدون الله في الشدة وإذا جاء الرخاء عبدوا الأصنام. يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم يذكرهم، يقول: ربكم وخالقكم ورازقكم والمتصرف فيكم والمالك لكم هو الذي يزجي لكم الفلك في البحر.

- ما معنى يزجي لكم الفلك؟

(الإزجاء) هو دفع الشيء بهدوء، تقول: أنا أزجي لك هدية؛ أي أعطيك إياها بهدوء، **(الزجاء)** دفع الشيء بهدوء، من الذي يسير هذه الفلك في البحر، وهذه السفن والبواخر تحمل الناس وتحمل البضائع وتحمل أشياء ثقيلة؟!

من الذي يجعلها تنطلق على ظهر البحر لا تغرق؟! أنت لو تلقي فيه مسماراً -على صغر حجمه ودقته- يسقط في البحر، وهذه على ضخامتها يحملها البحر! يحملها لأن الله سخر البحر لها، وهو الذي سخر البحر سبحانه.

ربكم الذي يزجي -يدفع بهدوء- لكم الفلك وأنتم عليه ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الإسراء: 66].
يقول: هذه الفلك صنعها الله لكم، وجعلها آية لكم، وتحمل أثقالكم وتنتقل من مكان إلى مكان بفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾.
كيف تأتي البضائع من أقصى الأرض، أو من أقصى الشمال، أو من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب؟! من الذي ينقلها إلا هذه البواخر العظيمة وهذه الناقلات التي تنقل من دول إلى دول عبر هذه البحار والمحيطات؟!
﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: 66]؛ هذه رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رحمكم وتفضل عليكم وأنعم عليكم بأن سخر لكم هذه الفلك التي تنقل هذه الأشياء.
ثم يذكرهم يقول: أليست هذه نعمة؟! بلى نعمة؛ هذه النعمة لماذا لا تشكرون الله عليها وتعرفون حق الله عليكم وتعبدونه حق العبادة؟! ثم أنتم تعرفون فضل الله عليكم.
اسمع الآية التي بعدها يقول: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67]. وهذا خطاب للكفار الجاحدين؛ أما المؤمن فلا، المؤمن يعرف حق الله في الشدة وفي الرخاء، وفي السراء وفي الضراء.
الكافر إذا جاءت الضراء والشدة عرف الله، وإذا جاء الرخاء والسراء ترك عبادة الله وجحد نعمة الله عليه.
قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾؛ يقول: إذا مسهم الضر في البحر.

- ما هو الضر الذي يمسهم في البحر؟

الأمواج؛ وإذا غشيهم موج كالظلل، أمواج تتلاطم ترتفع حتى إن هذه السفينة تبدأ تذهب يميناً وشمالاً من شدة هذا التلاطم الشديد، تتلاطم الأمواج.
قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ﴾؛ الرياح الشديدة والعواصف والأمواج ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 67]؛ يقول: تتركون عبادة كل هذه الأصنام وهذه المعبودات من دون الله، تتركونها فتضل؛ خلاص تتركونها وتعبدون الله وحده.
كما قال الله في آية أخرى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65].
هنا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ﴾؛ خلصكم من هذه الشدة وهذا الكرب، حتى إن من كان في هذا الموقف يرى الموت أمامه.
﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾؛ أعرضتم عن طاعته، وعبدتم غيره، وخضعتم لغيره، وجحدتم نعمة الله عليكم، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: 67]؛ كفوراً يكفر نعمة الله عليه، وهذا في الكفار؛ أما المؤمن فلا يكفر نعمة الله، المؤمن يعرف نعمة الله عليه ويعبد الله ويشكره.
ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يهددهم بطرق كثيرة؛ لأن الله قادر عليهم، وهم تحت قبضته في أي لحظة.
قال على وجه الإنكار: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: 68]؛ هل تأمنون ولا تخافون أن يخسف الله بكم جانب البر؟!
يقول: أنتم الآن خرجتم من البحر بعدما دعوتم الله وخفتم من الموت ورأيتم الموت أمامكم، ودعوتم ونجاكم إلى البر، هو الذي نجاكم وأبعد عنكم العواصف هذه حتى هدأت العاصفة وحتى هدأت الأمواج وسرتم إلى الشاطئ ونزلتم سالمين؛ الله أليس هو بقادر على أن يخسف لكم البر وأنتم في البر؟! تكفرون وتعبدون أصناماً وأنتم في البر!
﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾؛ يخسف بكم الأرض فتسقطون فيها، أو يرسل عليكم عذاباً ينزل من تحتكم أو من فوقكم ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ حجارة كما أرسلها على قوم لوط،

أو ريحاً كما أرسلها على قوم هاد، أو برداً شديداً، قال: قادر على ذلك.

قال: ﴿ثُمَّ لَا تَجَدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ينقذكم ويخلصكم من هذا الشيء.

(الوكيل) هو من تتوكل عليه وتفوض أمرك إليه حتى يتولى أمرك ويخلصك من هذه الشدة، هل هناك أحد غير الله؟! لو أراد الله أن يخسف بهؤلاء الأرض، هل هناك أحد يستطيع أن يرد هذا الخسف؟! ما في؛ لأن هذا أمر من الله. هل هناك من يستطيع أن ينجيهم لو أرسل الله عليهم حاصباً أو برداً أو ريحاً شديدة تقلعهم؟! ما في أحد.

ثم يذكرهم مرة أخرى، يقول: هذا في البر، وأنتم قبل ذلك كنتم في البحر تدعونه لما تتلاطم الأمواج عليكم، الله ذكرهم مرة ثانية قال: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجَدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: 69].

- هل تأمنون مرة أخرى أيضاً تأمنون العذاب أن يعيدكم فيه؟

تارة أخرى؛ وأنقذكم من البحر، الله قادر على أن يعيد هؤلاء مرة أخرى إلى البحر، فإذا أعادهم وركبوا هذه السفينة أو هذه الباخرة، يرسل عليهم ﴿قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾؛ يعني ريحاً شديدة تقصفهم قصفاً؛ أي تهلكهم.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾؛ انظر إلى التهديد وبيان فضل الله ونعمته، لكن لا يعرفون فضل الله عليهم، الله أنجاكم لما تلاطمت عليكم الأمواج وهبت الريح الشديدة ورأيتم الموت أمامكم، ونجاكم إلى البر ودعوتموه: يا رب يا رب، وتركت الأصنام وتركت المعبودات.

فنجاكم الله، وهو قادر على أن يهلككم في البر فيخسف بكم الأرض أو يرسل عليكم حاصباً من فوقكم، أو يعيدكم مرة ثانية أخرى إلى البحر وتركبون السفن ثم يرسل عليكم ريحاً شديدة عاصفة قاصفة؛ فهذه الريح تغرقكم في هذا البحر بسبب كفركم.

﴿ثُمَّ لَا تَجَدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: 69]؛ لا تجدوا علينا حجة أبداً، ولا تجدوا لكم علينا به تبيعاً، **(التبيع)** يعني التبعة؛ أي المطالبة، تقول: عليه تبعة؛ أي عليه مطالبة. لا تستطيع أن تطالب الله بشيء وأنت الذي فرطت وأنت الذي فعلت ما فعلت.

بعد هذا البيان العظيم وبيان فضل الله وقدرته عليهم، وأنهم ضعفاء أمام قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يبين بعد ذلك أيضاً أن الله تفضل على هذا الإنسان وكرمه، كرمه على سائر المخلوقات.

اسمع ماذا يقول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

ما وجه الإكرام وما وجه الإحسان إليك؟ كيف أحسن الله وأكرمك؟!

لو سئلت الآن: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾؛ هذا خطاب لك أنت، خطاب لك أنت، كرمك الله أم ما كرمك؟ نعم كرمني؛ كرمك بأي شيء؟ هل يستطيع أحد أن يجيب؟!

أنا أقول: ما أحد يستطيع أن يجيب بكل وجه للتكريم، يعني لو قلت: كرمني الله بالإيمان، بالطاعة، بالعقل، بكذا، بالقدرة؛ ما تستطيع أن تحد كرم الله عليك، ما تستطيع أن تحد إحسان الله عليك؛ سمعك، بصرك، لسانك، عقلك، قلبك، سائر جسدك، هذه كلها تكريم من الله لك، كرمك الله وأحسن الله إليك، لا تستطيع أن تحصيها أبداً.

كرم الله بني آدم بوجوه الإكرام التي لا يمكن أن تحصى، ما يمكن أن تحصيها، نعم الله هذا معناها ما يمكن حصرها. كرمك بالعقل، كرمك بالعلم، كرمك بإرسال الرسل، كرمك بإنزال الكتب، جعل من بني آدم أولياء اختارهم الله وأصفياء، أنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة التي لا يمكن أن يحصوها مهما كانوا.

ثم قال من كرمه الظاهر: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء: 70]؛ لأن السياق في الحديث عن البحر وعن الفلك وعلى نحو ذلك.

قال: حملناهم في البر، حملك الله في البر على الإبل؟ نعم؛ على البغال؟ نعم؛ على الحمير؟ نعم؛ على المراكب الحديثة كالسيارات وغيرها؟ نعم، حملتهم في البر.

وحملك في السفن أيضاً، حملك في البر والبحر؛ البحر في السفن والمراكب البحرية، وحملك أيضاً في الأجواء كالطائرات؛ كل هذا بفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الإسراء: 70]؛ رزقك الله من الطيبات: المآكل الطيبة، والمشارب الطيبة، والملابس الطيبة، والمناكح الطيبة، والمساكن الطيبة، وخذ من المراكب الطيبة.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾؛ فضلك الله على كثير من المخلوقات، فضلك الله على الحيوانات؛ أنت تأكل بيدك وبيمينك، والحيوان يأكل بفمه، أنت أفضل!

أنت تمشي على قدمين، والحيوان يمشي على أربع! أنت تتكلم، والحيوان لا يتكلم، علمه الله؛ علمه البيان، النطق، تتكلم ولا يتكلم، أعطاك الله عقلاً، أعطاك الله علماً، أعطاك الله أشياء تدركها لا يدركها هو ولا يعرفها، حيوانات وطيور وغيرها فضلك الله عليها، بل سخرها لك! سخر لك هذه الحيوانات، منها للركوب، ومنها ما تأكله، ومنها ما تشربون من ألبانها، وكل هذه مسخرة لك.

إذاً قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. والمؤمن، المؤمن فضله الله حتى على بني آدم، يعني أنت كمؤمن تعرف الطريق إلى الله ومنّ الله عليك به؛ أنت أفضل من الكافر، أنت ولي من أولياء الله وتعرف وتعبد ربك، والكافر ليس بولي إنما له ولاية الشيطان ويعبد الشيطان ويطيعه، وأنت تطيع الرحمن؛ فرق بين هذا وهذا.

فانظر كيف فضائل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذا الإنسان، لما ذكر الله أنه هو الذي خلق الإنسان وخلق له هذه الأشياء التي سخرها له في البر والبحر وفضله على كثير من المخلوقات، ما الذي يجب عليه؟

يجب عليه أن يشكر الله، ويجب عليه أن يعبد الله، الشكر بالعبادة والطاعة والذكر؛ أن تعبد الله وأن تخضع لطاعة الله، وأن لا تخالف أمر الله، وأن تتقيه في السر والعلن، وتتذكر أنك ستبعث بعد موتك وتحاسب، وأن هناك جنة وناراً.

ولذلك الله يذكرنا هنا قال: تذكروا هذه النعم واشكروه واعبدوه، فإن لكم يوماً ستقفون فيه أمام الله، ما هو هذا اليوم؟ أعطنا أوصافه.

قال سبحانه: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: 71]. كل أمة تدعى: أمة نوح، وأمة هود، وأمة صالح، وأمة شعيب، وأمة لوط، أمم كثيرة؛ أمة إبراهيم، وأمة موسى وعيسى، وغيرهم من الأنبياء الذين ذكروا والذين لم يذكروا.

- ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾؛ ما هو (الإمام)؟

قال أهل التفسير: **"المراد بـ(إمامهم) يعني بنبيهم"**، كل أمة تدعى بنبيها وتكون هناك أمم والنبي معهم وشاهد عليهم، كما شهد عليهم في الدنيا يشهد عليهم في الآخرة، وهو الذي تكون له الراية معهم وهم يتبعونه، كل أمة تتبع نبيها؛ هذا قول اختاره **(السعدي)** في تفسيره وغيره.

وهناك قول آخر اختاره **(ابن كثير)**، وهو أن المراد بـ**(الإمام)** هو **(الكتاب)**؛ كل إنسان يعطى كتابه فتتطاير الصحف، فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله من وراء ظهره.

فالمراد بالـ(إمام) الكتاب كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: 12]؛ يعني في كتاب. فالـ**(إمام)** هو الكتاب. ولذلك الذي قاله **(ابن كثير)** قد يكون أرجح الأقوال؛ لماذا؟ لأن الآية لو قرأتها كاملة اتضح لك الآن.

قال: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ ثم قال: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾؛ فهذا أقرب أن يقال كتاب ولا يقال نبي رسول؛ كتاب، لماذا؟ لأنه ذكر بعدها الكتاب قال: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ كأنه يقول: يوم ندعو كل أناس، كل إنسان يدعى بكتابه، يعطى كتابه ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾.

يقرؤون على وجه الفرح والسرور: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ 19 إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ 20﴾ [الحاقة: 19-20]، يفرح! أولئك يقرؤون كتابهم ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: 71]؛ ما يظلم في كتاب، يعطى حقه وزيادة لأن أهل الطاعة تضاعف لهم الحسنات، ولذلك قال: لا يظلمون فتيلاً.

- ما هو (الفتيل)؟ وما هو (النقير)؟!

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: 124] ما هو **(النقير)**؟!

وقال سبحانه: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13] ما هو **(القطمير)**؟! عندنا ثلاثة أشياء، وكل هذه الأشياء متعلقة بالنواة؛ كلنا يعرف التمرة ويعرف نواة التمرة، نواة التمرة إذا أنت فتحتها ستجد في هذه النواة مجتمعة ثلاثة أشياء ذكرت في القرآن:

1. الفتيل: هو الخيط الصغير الذي يكون في شق النواة؛ خيط أبيض صغير هذا نسميه **(فتيلاً)**، مثل فتيل السراج.
2. النقير: هو نُقرة صغيرة؛ حفرة صغيرة على ظهر النواة، هذه النقرة هي **(النقير)**.
3. القطمير: هو اللفافة الشفافة؛ تجد على النواة لفافة شفافة لونها أبيض، هذه اللفافة هي **(القطمير)**.

هذه الأشياء الثلاثة هل هناك أحد يستفيد منها؟! ما أحد يستفيد منها ولا يلتفت إليها أصلاً، كلنا نأكل التمر وما في أحد منا وقف عند هذه الأشياء وقال: والله أنا أستفيد من **(النقير)** ولا **(القطمير)** ولا **(الفتيل)**! لا؛ ولذلك الله ذكر أقل وأحقر الأشياء، ما تظلم حتى بمقدار **(الفتيل)**، ما يظلمك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾. هؤلاء هم أهل الطاعة، أهل التقوى الذين يأخذون كتابهم بيمينهم.

ثم قال في الجانب الآخر أهل الشقاوة الذين يأخذون كتابهم بشمالهم، ماذا قال فيهم؟ قال: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 72]؛ ومن كان في هذه

الدنيا؛ أعمى عن طاعة الله، وأعمى عن الصلاة، وأعمى عن الصيام والزكاة، وأعمى عن ذكر الله.

يعيش كالبهائم وهو يبصر، ليس بأعمى البصر بل يبصر ما يريد؛ يبصر حياته، ويبصر ويبحث عن المال، ويبحث عن الدنيا يبصرها، لكنه أعمى عن طاعة الله! يرى المسجد والصلاة تقام ويمشي أعمى لا يرى! يرى الفقير محتاجاً وعنده من الأموال الطائلة الكثيرة ولا يلتفت لهؤلاء!

يأتي رمضان ويرى الناس يقومون للسحور ويتسحرون ويقبلون على الصيام وهو ما يصوم! لا يصوم، بل يخرج إلى خارج الدول المسلمة في دول أخرى حتى ما يعايش الناس وهم يصومون ويفطرون؛ فيذهب إلى أماكن بعيدة خوفاً لأنه لا يريد أن يرى الصيام والقيام والتراويح، هذا يزعجه فيتضايق!

من كان في هذه أعمى في هذه الدنيا عن طاعة الله، ففي الآخرة سيكون حاله كحال ما قال الله: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 72]؛ من عمي في الدنيا عمي في الآخرة، جزاء من جنس العمل.

قال: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا 125 قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ 126﴾ [طه: 125-126]؛ جزاء من جنس العمل، لو أنك ذكرتها وأقبلت على طاعة الله لذكرت في الآخرة، لكن نسيتها فتنسى؛ نسوا الله فنسيهم.

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ يعني أشد ضلالاً، أضل لا يعرف الطريق أبداً ولا يعرف النجاة.

بعد هذا البيان وموقف الناس يوم القيامة، يذكرهم الله بهذا الموقف؛ أنت تختار، لك الخيار في الدنيا الآن في أن تسلك طريق النجاة والسلامة والسعادة فتفوز في الدنيا وتفوز في الآخرة، أو تسلك طريق الضلال والعمى فتعمى في الدنيا وتعمى في الآخرة، أمامك الخيار.

أعطاك الله عقلاً وعلمك وأرسل إليك الرسل وأنزل لك الكتب، ما لك أي حجة، الخيار لك أنت كما قال الله سبحانه: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].

ثم يبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموقف أعداء الإسلام من دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يذكر شدة مكرهم وعداوتهم حتى للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أهل مكة شديدون حتى مع الرسول يريدون الكيد بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

اسمع يقول: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: 73]؛ وإن كادوا، أي هؤلاء الكفار، ولما يسوق الله لنا هذه الآية ليس خبراً فقط بأن المشركين يكيدون، لا؛ بل فيه شيء أكبر من هذا، وهو ما منّ الله به على رسوله في إتمام دعوته وإنجائه من هؤلاء، وصرف شرهم.

هؤلاء يصرف الله شرهم عن نبيه ويحفظ نبيه من شرهم، وكما حفظ رسوله من شرهم يحفظ أولياءه، هذا المقصود، وأنت إذا تقرأ هذه الآية وتعرف كيف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نجى رسوله وسلمهم من فتنة هؤلاء وإضلالهم، تعرف فضل الله عليك أن الله سلمك من هذا الشيء.

قال: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾؛ **(كاد)** بمعنى قارب، تقول: كدت أن أسقط؛ أي قاربت السقوط ولكن لم أسقط، وإذا جاءت **(كاد)** مثبتة فما بعدها منفي، وإن جاءت منفية فما بعدها مثبت.

كيف هذا؟! أنا أعطيكم مثالاً؛ الله يقول عن بني إسرائيل: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: 71]؛ هذا نفي **(وما كادوا يفعلون)**، طيب هل فعلوا؟! نعم فعلوا وذبحوا، فما كادوا يفعلون؛ إذاً جاءت **(كاد)** منفية فالذي بعدها مثبت، نعم ذبحوا.

وإذا جاءت مثبتة فما بعدها منفي؛ شلون؟! قال سبحانه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: 43]؛ هل يذهب بالبصر؟ لا، يكاد بس ما يذهب. فـ(كاد) هذه لغة العرب، تعرف أن (كاد) إذا جاءت مثبتة فما بعدها منفي، وإذا جاءت منفية فما بعدها مثبت.

انظر هنا قال: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾؛ هل فتنوه؟! ما فتنوه؛ لأنه معصوم لا يمكن، كادوا وقاربوا أن يفتنوك. ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ بس ما يستطيعون؛ لأنه معصوم والوحي أيضاً محفوظ. ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ يعني يمكرون بك ويتحايلون عليك؛ لماذا؟!

قال: ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾؛ يعني تأتي بشيء يرضيهم، هم يريدونك أن تأتي بشيء يرضيهم وليس من الوحي وتدعي أنه من الوحي! ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: 73].

يقول: لو فعلت هذا إذاً لاتخذوك خليلاً، أحبوك أشد المحبة وعظموك في نفوسهم لأنك وافقتهم، ودوا لو تدهن فيدهنون؛ ودهم تلين عشان يلينون معك. فهم يتمنون هذا وهم حاولوا وحاولوا بقدر ما يستطيعون؛ يأتون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تريد مالاً يا محمد؟ تريد زوجة؟ تريد كذا؟ تريد إمارة؟ يحاولون فيه يصرفونه عن الدعوة.

يقول الله سبحانه: يحاولون ويكيدون لك، لكن لو تنازلت معهم وكتمت شيئاً من الوحي أو انصرفت عن الوحي لاتخذوك خليلاً.

لكن الله سبحانه قال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 74]؛ لولا أن ثبتناك، لولا أن الله ثبتك على الدعوة وعلى كونك نبياً من أنبيائه، لولا أن الله ثبتك ﴿لَقَدْ كِدْتَ﴾.

جاءت (كدت) مثبتة، يقول: لولا أن الله ثبتك وامتن عليك بعدم الإجابة لدعوتهم، لقد كدت تركن إليهم، مع كثرة ضغطهم وضغوطاتهم عليك وهم يحبون أن يصرفوك عن الوحي، لولا أن الله ثبتك لكنت معهم، كدت لكنك لم تكن معهم؛ لم تركن إليهم شيئاً قليلاً.

هذه الآية ينبغي لنا أن نفهمها فهم عظيم؛ لولا ثبات الله لك ما ثبتّ، والله لولا نعمة الله عليك مع كثرة الفتن الآن التي تزعزع الإنسان وتشككه، أحياناً تأتيك رسائل ومقاطع وتأتيك روابط فيها تشكيك في الدين، تشكيك في وجود الله، تشكيك بالملائكة، تشكيك بكذا؛ فلولا فضل الله ونعمته عليك لا تقل: أنا عندي علم، وأنا أقدر، وأنا أفعل؛ لا، أنت ما عندك شيء أمام هذه الفتن، ضعيف إلا أن يثبتك الله.

إذا كان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يوحى إليه ومعه القرآن والوحي الله يقول له: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾؛ الله الذي ثبته، فأنت من أنت؟! وما الذي معك من القوة والدين؟!

أنت ضعيف؛ فتجد -ولذلك ترون أنتم كثيراً- تجده اليوم يصلي في المسجد ويحافظ، ثم بعد فترة انقلب وترك الدين وترك الصلاة! يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على طاعتك، ينبغي دائماً تكرر هذا الدعاء، النبي كان يكثر من هذا الدعاء.

فأنت واجب عليك أن تحرص على هذا الشيء؛ لولا فضل الله عليك ما جئت لهذا المسجد، لولا فضل الله عليك ما صليت ولا صلاة واحدة، لولا فضل الله عليك ما ثبتّ على الاستقامة، إلا بفضل الله سبحانه، لولا أن الله ثبت نبيه محمداً لكان لكاد أن يميل ميلاً شديداً معهم.

وإذا مال وركن إليهم ما النتيجة؟! اسمع: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: 75]؛ يعني لأعطيناك عذاباً شديداً مضاعفاً في الحياة ومضاعفاً في الممات، لأنك عرفت الحق وانصرفت عنه.

وهذا أيضاً فيه تهديد لكل من تضعف نفسه ويمل؛ أحياناً يقول: يا أخي كل يوم صلاة كل يوم صلوات! ويمل وتضعف نفسه فيعاقب بهذه العقوبة الشديدة، فينزل الله به العقوبة في الدنيا

والآخرة، يذيقه العذاب المضاعف في الدنيا والعذاب المضاعف في الآخرة.

فالإنسان يحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويسأل الله الثبات ويسأله يقول: يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك، أحسن لي الخاتمة، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

ولا تقول: والله مللنا، وش بعدين وش بنصير وكذا وشوف الناس كلهم منفتحين وشوف الناس كلهم يعيشون بهذه الحياة؛ أنت تعرف عظمة نعمة الله عليك وتعرف قدرك عند الله إذا خرجت من هذه الدنيا وأنت ثابت على الحق، وعرفت نعمة الله وعرفت ما الذي سيكون لك في قبرك.

القبر تعرفونه؛ إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، الناس الآن في قبورهم في المقابر على قسمين ما في ثالث:

⬅القسم الأول: إما روضة يمد له على قدر بصره، يفسح له في قبره ويكون روضة ويأتيه عمله ويؤنسه القران والصلاة والصيام والأعمال الصالحة؛ يأتيه رجل يأتيه بصورة رجل حسن الوجه ويقول: أنا عملك الصالح، ويجلس ويؤنسه ويفسح له وهو في قبره.

⬅القسم الثاني: وإما حفرة من حفر النار مظلمة شديدة العذاب، ما في ثالث.

القبور حتى في بلاد المسلمين؛ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول وقد مر بقبرين يعذبان فقال: **«إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ»**. وهما قبران لمسلمين! قال: **«أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ»**؛ **(النميمة)** أن ينقل الكلام ليفسد، يتصل على فلان يقول مثلاً: يا فلان تعرف فلان؟

قال: إيه أعرفه؛ قال: تراه يقول فيك كذا وكذا وكذا؛ ثم يذهب يتصل على الآخر ويقول: تعرف فلان؟ قال: إيه يقول فيك كذا! يمشي بالنميمة. وأنت لا تظن أنه يتصل ويقول مباشرة: تعرف فلان، لا؛ الكلام يجر بعضه بعضاً: السلام عليكم، كيف حالك؟ شو أخبارك طيب؟

من زمان ما شفناك؛ ومن هذا الكلام، ثم يقول: يا أخي شفت فلان أنت تعرفه؟ قال: إيه عارفه؛ قال: يا أخي شفت وقابلت كذا، يا أخي يقول فيك كذا! هذا يعذب لأنه يمشي بالنميمة.

☚والثاني قال: **«وَأَمَّا الْآخَرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنَ الْبَوْلِ»**. يعني لا يتنزه منه؛ بعض الناس كالحيوانات، إذا انحصر وقف في أي مكان في الشارع، ولا يبالي بوقوع النجاسة ولا بالماء ولا بأي شيء، ونجس نفسه ونجس بدنه ونجس ثيابه لا يتنزه! هذا يعذب بسبب هذا الشيء.

ولذلك كثير من أهل العلم ينبه ويذكر على الحرص على **(الطهور)**؛ الحرص على الطهارة، بعض الناس ما يطهر نفسه تطهيراً حتى يكون على نقاء، يتساهل في هذا الشيء، فقد يكون هذا موعوداً بالعذاب في القبر، فنقول نحن: الإنسان يسأل الله الثبات، ويسأل الله أن يثبته حتى يموت على الإسلام: ربي توفني مسلماً وألحقني بالصالحين.

انظر الله يقول لنبيه: لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً، ما تجد أحداً ينصرك.

ثم قال: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 76]؛ وإن كادوا ليستفزونك.

- ما معنى يستفزونك؟

(الاستفزاز) أصله الإزعاج، يستفز فلان يعني يعطيك كلمات حتى يستفزك حتى تقوم وترد عليه بقوة، يزعجك بالكلام ما يخليك تجلس، هذا هو الاستفزاز.

ولذلك الله قال عن الشيطان: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: 64]. وكلمة الاستفزاز في سورة الإسراء وردت ثلاث مرات؛ وردت في آخر السورة أيضاً عن **(فرعون)** قال: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: 103]. أراد أن

يستفزهم؛ أي يزعجهم ويؤذيهم ويخرجهم، فأغرقه الله.

وهنا الله يخبر عن أهل مكة أنهم يريدون أن يستفزوا النبي ولكن ما استطاعوا، وإن كادوا ما استطاعوا يستفزونك يزعجونك ليستفزونك من الأرض؛ يزعجونك إزعاجاً حتى تخرج من مكة، هم يريدون هذا، يريدون إخراجك: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾.

☜وهم ضيقوا عليه حتى خرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهاجر وترك مكة، ولما خرج من مكة التفت إليها وقال: **«وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»**. وخرج وذهب، ومن الذي أخرجه؟ أخرجوه، وفي آية: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّي قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: 13].

قال هنا: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 76]؛ يقول: لو يخرجونك من مكة ما يجلسون في مكة خلافك إلا قليلاً. كم جلسوا؟!

سنتين فقط! لما أخرجوا النبي وخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وترك مكة، بعدها جلس المشركون رؤوس الشرك المؤذون الذين آذوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما عاشوا إلا سنتين ثم هلكوا!

خرجوا إلى **(بدر)** بقوتهم وعدتهم وكبريائهم وخيلائهم، وظنوا قالوا: محمد ومن معه فئة قليلة وشرذمة قليلة ونحن أكثر قوة وعدد وعدة؛ نحن ألف وهو ثلاثمائة! تصور ثلاثمائة تقابل ألفاً، فما توقعوا ولا جاء ببالهم أنهم سيهلكون ولن يرجعوا إلى مكة؛ فقطعت رؤوسهم ومات الرؤوس!

ماتوا كباراً، مات عتبة وشيبة وأبو جهل وإلى آخره؛ هؤلاء الذين كانوا يؤذون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما بين قتيل يلقى في قليب بدر وما بين أسير، حتى من الأسرى من أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتله كعقبة بن أبي معيط الذي كان يؤذي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويبصق في وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: والله إني رأيتك خارج مكة لا أتركك؛ فكان من الأسرى فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتله.

فالشاهد من الكلام: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ ما يمكثون بعدك إلا قليلاً، وفعلاً ما مكثوا مدة إلا وانتهى أمرهم.

قال: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: 77]؛ اعرف أن هذا في الأمم الماضية والأمم اللاحقة وفي كل زمان؛ الذي يؤذي أهل الخير وأولياء الله ولو ضيق عليهم وفروا من بلادهم إلى بلاد أخرى، لا يستطيع المؤذي أن يعيش بل تصيبه عقوبة من الله.

هذه سنة الله في الأمم، لما خرج موسى هو وقومه من مصر، هل بقي فرعون واستقر في مكانه؟! ما بقي؛ خرج مباشرة يلحق بموسى فهلك! هذه سنة الله: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾؛ ما يمكن تتحول السنة ولا تتبدل.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بين شدة عداوة المشركين للرسول إما بالفتنة أو بالإخراج والإيذاء؛ ثبت الله نبيه، وبأي شيء يثبته؟! ما هي أقوى وسيلة في تثبيت الإنسان على الحق؟ ما هي؟!

أقوى وسيلة هي **(الصلاة)**؛ التمسك بالصلاة. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا حزبه أمر - اشتد عليه أمر- فزع إلى الصلاة، اسمع لما بين شدة عداوتهم، قال لنبيه: اقم الصلاة، حافظ عليها؛ أقم الصلاة لتفريج الكرب، وتفريج الهموم والغموم. ضاق صدرك، اشتدت بك الكروب والهم والغم؟! افزع إلى الصلاة، اذهب وتوضأ وصلِ، صلِ ما شئت يذهب الله عنك كل هذه الهموم والغموم.

قال سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78]. هذه الآية دلت على الصلوات الخمس؛ من يستطيع أن يخرج لي

الصلوات الخمس في هذه الآية؟ الصلوات الخمس معروفة: الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر.

- ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾؛ ما معنى دلوك الشمس؟

زوال الشمس، الشمس تأتي من المشرق وتذهب إلى المغرب، فإذا كانت في كبد السماء وبدأت تزول إلى جهة المغرب، هذا الزوال دخل به وقت الظهر، والعصر تجمع مع الظهر ويقال لهما **(الظهرين)**.

فهذا وقت الظهر والعصر، ثم قال: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾؛ وغسق الليل هو شدة الظلمة، ويدخل فيه صلاة المغرب وصلاة العشاء.

ثم قال بعدها: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾؛ يعني صلاة الفجر، ولماذا سماها قرآناً؟ لأن الإمام يطيل فيها، وللمصلي أن يطيل في صلاة الفجر القراءة؛ فلذلك سمى الله صلاة الفجر قرآناً: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

- هل هناك آيات أخرى تدل على الصلوات الخمس؟

نعم؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ 17 وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ 18﴾ [الروم: 17-18]:

- ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: صلاة المساء؛ وهي المغرب والعشاء.
- ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: صلاة الفجر.
- ﴿وَعَشِيًّا﴾: صلاة العصر.
- ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: صلاة الظهر.

فهذه الصلوات الخمس في آية الروم. وفي موضع آخر قال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: 114]؛ طرفي النهار: أول النهار الفجر، وآخر النهار الظهر والعصر، وزلفاً من الليل: المغرب والعشاء.

وأيضاً قال سبحانه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: 130]؛ قبل طلوع الشمس: الفجر، وقبل غروبها: الظهر والعصر، ومن آناء الليل: المغرب والعشاء، فهذه آيات كثيرة في خمسة أو ستة مواضع في القرآن، كلها استنبط منها أهل العلم الصلوات الخمس المفروضة.

قال سبحانه عن صلاة الفجر: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: 78].

- ما الذي يشهده؟

يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار؛ الملائكة إذا جاء وقت صلاة الفجر نزلت ملائكة النهار وصعدت ملائكة الليل، انتهى دور الليل وانتهى دوامهم، وتأتي ملائكة النهار يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار.

وإذا جاءت صلاة العصر نفس الشيء، تصعد ملائكة النهار وتنزل ملائكة الليل؛ هذا كل يوم هكذا، فصلاة الفجر مشهودة وصلاة العصر مشهودة.

ومع الأسف تجد من الناس من لا يشهد صلاة الفجر! نعم ينام ويقول: والله أنا نومي ثقيل! نومك ثقيل؟! لو عندك موعد في المطار هل تنام؟! لو عندك موعد في المستشفى هل تنام ويستمر نومك الثقيل؟!

لا؛ اتخذ الأسباب، نم مبكراً، ضع منبهات، ضع من يتصل عليك، هناك أسباب. اجعل من في البيت عندك من زوجة وأولاد يوقظونك، ولا تقل هذا وصمّم على الاستيقاظ وعليك بالدعاء: يا رب اللهم اجعلني مقيماً لصلاة الفجر، اللهم اجعلني أصليها.

أما لو غاب يوماً في الشهر أو في الشهرين مرة أو مرتين من غير تفريط فهذا يعذر؛ لكن يمر الشهر والشهران ما صلى الفجر في المسجد إلا مرة أو مرتين ويقول: أنا لا أستطيع! هذا تفريط وتضييع لهذه الصلاة العظيمة، الملائكة تشهد وأنت لا تشهد، أنت نائم!

إذا نمت عن صلاة الفجر الشيطان ماذا يصنع بك؟! يبول في أذنك!

☜وجاء في الحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ»**.

فإذا قام الإنسان فذكر الله انحلت عقيدة، فإذا توضأ انحلت العقيدة الثانية، فإذا صلى انحلت العقد كلها، فيقوم طيب النفس نشيطاً. أما إذا نمت وعقد عليك الشيطان ثلاث عقد، وأذن المؤذن للفجر واجتمع الناس وصلوا وأنت في فراشك نائم؛ تقوم ونفسك خبيثة كسلانة.

وأيضاً قد بال الشيطان في أذنك! كما في الحديث ذكر عند النبي رجل نام ليله حتى أصبح، قال: **«ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنَيْهِ»**. الشيطان بال في أذنيك وقمت كسلاناً خبيث النفس سيئ الخاطر؛ ولذلك تلاحظون -مثلاً صلاة الفجر تقام الساعة الرابعة والنصف أو الخامسة إلا ربعاً- فلا يحضرها، ثم بعدها بساعة ونصف في السادسة والنصف يستيقظ ويأخذ أولاده للمدارس ويذهب لعمله! الفرق ساعة؛ لماذا تقوم الآن وقبل ساعة لا تقوم؟!

ولذلك تلاحظ كثيراً من الحوادث تقع في هذا الوقت؛ لأنه يقوم ولا يذكر الله، ولم يصلِ الفجر ويخرج من بيته ولا يقول: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ ولا يذكر الله، فتتسلط عليه الشياطين بسبب العقد الثلاث، فيحرص الإنسان على هذا الأمر.

قال سبحانه: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79]. هذا خطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ و**(التهجد)** هو أن تقوم بعد النوم، تقوم بالليل فتهجد به؛ أي بالقرآن، نافلة لك؛ أي زيادة لك يا محمد.

يعني الله أوجب عليك قيام الليل، فقيام الليل واجب على نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحده، أما الأمة فإنه مستحب لها، قيام الليل دأب الصالحين، يحرص الإنسان عليه ولو ركعة، ولو ركعتين تقوم ولو عشر دقائق، عوّد نفسك قم عشر دقائق أو ربع ساعة، وبعدها تزيد نصف ساعة وهكذا تزيد شيئاً فشيئاً؛ ليكن لك حظ من قيام الليل، ولا تكن ممن يقوم دائماً بعد الأذان بل حاول أن تقوم مبكراً.

قال: ﴿فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾؛ و**(عسى)** من الله واجبة؛ أي أن الله سيبعثك بالتأكيد مقاماً محموداً.

- ما هو (المقام المحمود) الذي ندعو به بعد الأذان: «وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ»؟!

(المقام المحمود) هو أن الله لما يبعث الخلق جميعاً يوم القيامة يحشرون في صعيد واحد، ويشتد عليهم الحر وتدنو منهم الشمس ويزيد العرق عليهم -إلا من كان في ظل الرحمن تحت ظل عرشه، والناس على درجات في هذه الشدة-، فيأتون إلى الأنبياء.

يأتون أولاً إلى **(آدم)**: يا آدم اشفع لنا عند ربك ليقضي بيننا ونخلص من هذا الضيق؛ فيعتذر ويذكر خطيئته، ثم ينتقلون إلى **(نوح)** فيعتذر، ثم إلى **(إبراهيم)** فيعتذر، ثم إلى **(موسى)** فيعتذر، ثم إلى **(عيسى)** فيعتذر، كلهم يعتذرون!

فيقول **(عيسى)** عَلَيْهِ السَّلَامُ: اذهبوا إلى محمد، اذهبوا إلى محمد؛ فيذهبون إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: **«أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا»** [البخاري ومسلم]، فيأتي تحت العرش فيسجد ويفتح الله

عليه بمحامد عظيمة وشكر لله وحمد لم يفتح بها على أحد قبله، ثم يقول الله عَزَّ وَجَلَّ له: يا محمد ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع.

فيقول: يا رب، يا رب، أجر الحساب لهم، اقضِ بين عبادك، فيقضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بينهم ويجري الحساب، هذا هو **(المقام المحمود)** الذي ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لما يستشفعون بالأنبياء كلهم فلا يكون ذلك إلا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو الذي يشفع لهم ليرحمهم الله من هول هذا الموقف العظيم وشدته وكربه.

ثم يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: 80]؛ وهذا خطاب لمحمد ولغيره.

اسمع: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾.

- ما هو مدخل الصدق؟

بعضهم يقول: خروجه من مكة ودخوله المدينة وكذا؛ ونقول: لا، الأصل العموم، أنت تقول هذا الدعاء والرسول يقوله، كيف تقوله أنت؟! إذا أردت أن تخرج من بيتك، إذا أردت أن تسافر، إذا أردت أن تدخل بلدة، إذا أردت أن تفعل أي عمل؛ تدعو: ربي أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق؛ أي اجعل مداخلي ومخارجي كلها في طاعتك وفي مرضاتك، واجعل أعمالي كلها لك: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]، هذا هو المعنى، ﴿وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾؛ أي اجعل لي حجة وناصراً مؤيداً من لدنك وملائكة تنصرني وتؤيدني وتحفظني، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: 81].

قل لهؤلاء المشركين وغيرهم: هذا هو الحق؛ القرآن والوحي والإسلام جاء الحق، وزهق الباطل؛ انتهى الباطل وذهب ولا يبقى، لماذا؟ لأن الباطل أمام الحق زهوق، يذهب ولا يبقى، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾؛ وهذا الوحي وهذه الرسالة سينشرها الله، وهذه بشارة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن دينه سينشر على وجه الأرض ويضمحل الباطل أمام الحق، نقف عند هذا القدر ونكتفي به إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده

(الإسراء 82 – آخر السورة)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله أن يجعله لقاءً مباركاً نافعاً. وهذا اليوم هو يوم الاثنين، الموافق للثامن عشر من شهر ربيع الأول، من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة [١٤٤٨ هـ]. أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا في تفسير القرآن العظيم؛ السورة التي بين أيدينا هي سورة (الإسراء). وقف بنا الكلام عند الآية الثانية والثمانين، وهي تتحدث عن القرآن الكريم. والسورة -كما ذكرنا لكم سابقاً في لقاءات ماضية- هي تتحدث عن معجزة الإسراء والمعراج، ولكن الله سبحانه وتعالى ذكر أن القرآن هو المعجز حقيقة. الإسراء والمعراج معجزة مرت وانتهت، وهي معجزة كمعجزات الأنبياء السابقين؛ لأن المعجزات الحسية التي تشاهد بالعين أو تنقل أو نحو ذلك هذه تأتي عرضاً، يعني: عصا موسى، اليد، ناقة صالح، هذه معجزات عارضة، لكن القرآن معجز باقٍ إعجازه إلى قيام الساعة. ولذلك الله سبحانه وتعالى أكد في هذه السورة التي فيها الإعجاز على ماذا؟ على أن القرآن هو المعجز حقيقة.

بدأ الله في أول السورة فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال قبل هذه الآية بآيات، قال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾، لما تكلم عن صلاة الفجر قال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] وهنا الله يخبر بخبر أن القرآن هو شفاء ورحمة، شفاء ورحمة. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾؛ هل **"مِنْ"** هنا تبعيضية؟ يعني أن الله ينزل بعض الآيات التي فيها شفاء وبعضها ليس فيها شفاء؟ نقول: لا هذا كلام غير صحيح؛ القرآن كله شفاء. ولا نقول مثلاً: سورة (الفاتحة) شفاء و(البقرة) ما فيها شفاء، أو (آل عمران) شفاء و(النساء) ما فيها شفاء، لا؛ كل آية من كتاب الله فيها شفاء. فكلمة **"مِنْ"** هنا ليست تبعيضية، وإنما يقال فيها ماذا؟ هي بيانية، يعني: ننزل من القرآن، يعني ننزل القرآن، تبين لك الذي منزّل ما هو، الذي نازل ما هو، المنزل هو القرآن الكريم. فكلمة **"مِنْ"** تبين لك ما هو الذي ينزل؛ هو القرآن الكريم. قال الله: ننزل القرآن ما هو؟ الذي هو شفاء، الذي هو شفاء ورحمة للمؤمنين.

شفاء من أي شيء؟ هل المراد هنا شفاء للأمراض النفسية، شفاء للقلوب، يعني يشفي الصدور من الأمراض النفسية ومن الشبهات والشهوات، ولا يشفي الأجساد من الأمراض العضوية؟

هذا أو هذا؟ ها؟ كلها، أحسنت، كلها؛ القرآن ثبت أنه شفاء لما في الصدور. في القرآن نفسه قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧] هذا يشفي الصدور من أي شيء؟ من الشبهات، من مرض الشبهات والشكوك في القرآن والشكوك في الشريعة، ومن مرض الشبهات؛ ومرض الشهوات وحب الفواحش ومرض القلوب، هذا القرآن شفاء. إذا إنسان أخذ القرآن واستشفى به شفاه الله من هذه الأمراض التي في الصدور.

وكذلك نقول أيضاً إنه شفاء لأي شيء؟ شفاء للأمراض حتى العضوية؛ مما يدل على ذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وهو أنه خرج هو وأصحابه في سرية، فمروا بحي من أحياء العرب، فطلبوا منهم أن يضيفوهم -استضافوهم، أو طلبوا منهم أن يضيفوهم-. فكأنهم رفضوا ولم يقبلوا أن يضيفوهم، فجلسوا في ناحية الحي لعلهم يعني يغيرون من رأيهم، أو

يضيفونهم أو نحو ذلك، أو يعطوهم شيئاً من الطعام. فمكثوا، فجاءت جارية -وفي رواية جاء رجل- فقال: إن سيد هذا الحي قد لدغ، أصيب بلذغة سامة؛ يا عقرب يا حية، فهل عندكم من شفاء؟ قال أبو سعيد الخدري: نعم، عندنا شفاء. فقام أبو سعيد وذهب إلى هذا الرجل، وإذا هو قد أصيب بلذغة سامة، فقرأ عليه (الفاتحة) سبع مرات، وقام كأنما نشط من عقال؛ كأنما فك من عقال، يعني كأنه مقيد بحبل وفك منه، وقام يمشي ما فيه إلا العافية بسبب قراءة الفاتحة، قرأها عليه سبع مرات. فالقرآن شفاء حتى للأمراض العضوية، حتى من السم ومن كل شيء شفاء القرآن.

وقال ابن القيم -قال ابن القيم رحمه الله-: قدمت من الشام إلى مكة فأصبت بوعكة شديدة، فلزمت الفاتحة وماء زمزم، فشفاني الله بمجرد زمزم الذي هو طعام طعم وشفاء سقم، وكذلك أيضاً الفاتحة، فالفاتحة شفاء. النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟»** وسماها الشافية الكافية؛ فالفاتحة الشافية. فالقرآن كله شفاء، كل آياته وسوره شفاء، ولكن العلماء ركزوا على بعض الآيات والسور التي فيها تأثير كبير؛ مثل (الفاتحة)، (المعوذتان)، (الإخلاص)، (آية الكرسي)، و(آمن الرسول)، وفاتحة (آل عمران)، وفاتحة (غافر)، وفاتحة (الصافات).

فهذه الآيات يقرأها الإنسان، ويقرأ الأحاديث التي فيها الشفاء؛ كقوله: **«اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ»** ويأتي بأدعية أخرى: **«بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللَّهُ يَشْفِيكَ»** ويأتي بهذه الأدعية كقوله: **«أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ»** (سبع مرات)، وهكذا. وينفث كل ما قرأ، ينفث، ويقرأ في ماء، ويقرأ على المريض.

بشرط إذا أراد أن تكون القراءة قراءة مؤثرة، بشرط أن يقرأ، وعنده اليقين بأن القرآن شفاء. بعض الناس ماذا يقول؟ جرب، ما يضرك، جرب القرآن ما يضر. لا، القرآن ليس بالتجربة! لماذا لا تقول نجرب المستشفى؟ تذهب مباشرة، ما تقول جرب القرآن، تقول: والله جرب، نحن ذهبنا المستشفيات وعلاجات وخسرنا ودفعنا، لكن ما في مانع جرب القرآن، يمكن الله سبحانه وتعالى يشفي بالقرآن! هذا ما عنده يقين أن القرآن شفاء.

إذا عندك كلام متردد تقول نجرب، هذا ما يمشي في القرآن؛ القرآن شفاء. لذلك من الأخطاء التي يقولها بعض الناس، يقول: والله يا أخي قرأنا على المريض ونفثنا عليه وجئنا بقارئ يقرأ، والله ما خرجنا بنتيجة! لا، لأنك متردد، لأنك شاك أن القرآن يشفي أو لا يشفي، تقول: دعنا نجرب! لا، ليس بالتجربة القرآن. طيب، إذا القرآن أخبر الله أنه شفاء، تأتي أنت تقول نجرب؟! والله يخبر بأنه شفاء؛ كأنك ليس عندك تسليم، ولا عندك يقين بخبر الله. يقول في كتابه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] ما هو شفاء؛ تستشفى به القلوب والصدور والأبدان. ورحمة؛ القرآن رحمة على المؤمنين، يرحم الله المؤمنين بهذا القرآن. وأيضاً رحمة؛ لأن الأجور الكثيرة على من أولى اهتمامه بالقرآن وأعطى القرآن اهتماماً عظيماً من حيث التلاوة، ومن حيث التدبر، ومن حيث العمل، يعني هذا يكون رحمة. كم تقرأ من القرآن من الآيات يأتيك من الأجور العظيمة. ولمن؟ للمؤمنين.

وأما الظالمين الكافرين لا يزيدهم إلا خساراً: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] القرآن يزيدهم خسارة؛ لأنهم ماذا؟ لأنهم لا يؤمنون به، ولا يعملون به، ولا يتلونه، ولا يقرأونه، ولا يعملون به، ما الفائدة؟ لا يزيدهم إلا خساراً. هذه الآية، والآية سمعناها قبل قليل مع الإمام، قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤] القرآن عمى عليهم؛ لأنهم ما أرادوا التبصر به، والتعلم والتفقه والتلاوة؛ لا، فأصبح عمى

عليهم، وهنا أصبح خسارة عليهم.

طيب، ثم سبحانه وتعالى يذكر حال الإنسان؛ حاله حال ضعيفة جداً، ولا يبقى شيء جاهل إلا من الله عليه بقوة الإيمان والطاعة والعلم والتمسك بالقرآن وعرف تأثير القرآن عليه. أما البعيد عن القرآن، بعيد عن العلم، بعيد عن الشريعة، هذا يتخبط. ولذلك اسمع ماذا يخبر الله عنه، يقول: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣] هنا ما المراد به؟ نقول: جنس الإنسان، ويخرج من ذلك المؤمن؛ أنعم الله عليه بالعلم والمعرفة. أما هذا فجاهل. إذا أنعمنا على جنس الإنسان عموماً، الله إذا أنعم عليه وأعطاه من الخير والصحة والمال ماذا يصنع؟ أعرض؛ عن طاعة ربه، يكفر، ونأى بجانبه؛ أبعد عن طاعة الله، يعني هو كافر ويبعد لا يريد أبداً.

وإذا مسه الشر؛ إذا أصابته مصيبة، مرض أو فقر أو أي حالة تصيبه، كان يئوساً. يئوس يعني أنه ييأس من أن يذهب عنه، يقنط. فهو ما بين تكبر وقنوط. إذا أنعم الله عليه تكبر وأعرض، قال: هذا لي، وأنا. تأتي إليه تقول له: يا أخي الله أنعم عليك بالمال والصحة، قال: لا، المال أنا الذي بحثت عنه وتكسبت واشتغلت وكذا، على مثل ما قال قارون؛ قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] ما قال إن هذا فضل من الله.

وانظروا العكس أو المقابل؛ سليمان لما أنعم الله عليه بالنبوة، وأنعم الله عليه بالمال والملك ماذا قال؟ قال: ﴿هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠] فهذا فرق بين هذا وهذا. جنس الإنسان إذا أنعم الله عليه وأعطاه الصحة والعافية والمال يتكبر على الناس، يتكبر على الفقراء، ويتكبر حتى على أهل بيته، ويتكبر على نعمة الله؛ يرى النعمة أمامه ينظر إليها بازدراء وتكبر. طبيعة الإنسان هكذا، كثير من الناس حتى تجد من بعض أبناء المسلمين يصنع ذلك؛ يتكبر، يرى النعم أمامه فيتكبر. وإذا قلت له شيئاً قال: يا أخي غيرنا أحسن منا، نحن ليس عندنا إلا هذا! أحمد ربك، انظر إلى من هو أقل منك، إلى من لا يجد شيئاً يأكله. فطبيعة التكبر عند الرخاء وعند الصحة وعند العافية يتكبر.

وإذا أصيب بمرض، لو جاءه مرض عضال يبحث في المستشفيات لا يجد علاجاً، يذهب خارج المملكة لا يجد علاجاً، يشتكي إلى ربه. قال: وإذا مسه الشر؛ المصيبة تنزل به إما فقر أو ديون أو أمراض مستعصية، كان يئوساً. خلاص، يقول: خلاص انتهت حياتي، أنا خلاص ميت، أنا خلاص أنا... يستسلم للشيطان وييأس من رحمة الله. فالأنسان المؤمن العاقل -يعني انظر حتى نعرف أننا يعني الإنسان- عند النعم يفرح فرح بطر، وعند النقم ييأس ويقنط، إلا من رحم الله من المؤمنين.

المؤمن ما حاله؟ إذا أنعم الله عليه شكر؛ ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. إذا أنعم الله عليه شكر، وعرف أن هذا... وقال: هذا فضل من الله ونعمة من الله، وأحمد الله وأشكره على أنعم الله؛ الذي أنعم عليّ هو الله ليس بجهد مني، المال الذي بين يدي هو من الله ليس بجهد مني. هذا المؤمن يعترف بنعمة الله عليه ويشكر الله على هذا، ويقول: هذا فضل الله.

وإذا مسه الضر، أصابته مصيبة، أصابه فقر، ذهب ماله، لا ييأس؛ يدعو ربه ويلجأ إلى الله، ويعرف أن الذي يكشف الضر هو الله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧] وفي سورة أخرى: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]. فالذي ينعم هو الله سبحانه وتعالى. وإذا أنعم على الإنسان شكر، وإذا أصابته مصيبة يحمد الله ويشكر ويصبر ويرضى، يرضى ولا يتسخط. هذا المؤمن، كما جاء في الحديث العجب لأمره؛ قال: **«عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ،**

وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»

طيب، قال بعده سبحانه وتعالى، قل لهم إذا كان هذا حال الناس وحال جنس الإنسان إلا من رحم الله، قل لهم: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤] اعملوا، كل يعمل، كل يعمل على شاكلته. كيف على شاكلته؟ على طريقته، من الشَّكْل، كل يعمل على شكله؛ أنت شكلك من أهل القرآن اعمل، أنت شكلك من أهل الصلاة اعمل، شكلك من أهل الصيام اعمل. وهؤلاء شكلهم أهل الفسق والفجور يعمل على ما هو عليه؛ يعمل على فسقه وفجوره. وهؤلاء شكلهم يعمل بالربا وأكل أموال الناس بالباطل يعمل، كل على شكله، كل على طريقته. قل: كل يعمل، لكن الله مطلع وعالم ومحصٍ أعمالهم وسيجازيهم عليها: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤] يقول: الله أعلم، كل يعمل بما يليق به من الأحوال، كل يعمل بما يليق منه. ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ يعني: الله أعلم بمن يصلح للهداية ومن لا يصلح للهداية، ربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً؛ الله يعلم من يصلح للهداية ومن لا يصلح.

ثم أيضاً، انظروا مما يدل على عظمة القرآن وأن الله أودع فيه علوم الأولين والآخرين; انظروا إلى هذه الآية التي بين أيدينا، لها سبب نزول أو ذكر المفسرون أن لها سببين، وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾. هذا يدل على أن الإنسان علمه قليل وجهله أكثر: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] ما هي الروح؟ أنت عندما تقرأ في القرآن ستجد أن الروح لها معانٍ كثيرة؛ جبريل اسمه الروح، قال: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾، و ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾. والقرآن سماه الله روحاً، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾. روحاً يعني القرآن. الروح في القرآن لها معانٍ كثيرة. هنا يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]

ما المقصود بالروح هنا؟ هي روح الإنسان؛ الإنسان مكون من جسد وروح، إذا خرجت هذه الروح خلاص الجسد لا ينفع، لا يتحرك ولا يمشي، يكون جسداً هامداً. إذا أودع الله فيه هذه الروح وأودعها فيه تحرك، الإنسان. المخلوق في بطن أمه جسد، ثم الله سبحانه يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح فيتحرك. هذه الروح ما حقيقتها؟ هل نراها أو لا نراها؟ ما حقيقتها؟ من أي شيء مخلوقة؟ فهذه الروح لا تموت، الذي يموت هو الجسد؛ الروح تفارق الجسد، الموت هو مفارقة الروح للجسد. إذا خرجت الروح، بلغت الروح الحلقوم، إذا خرجت هذه الروح من هذا الجسد خلاص الجسد لا يتحرك. إذا أعاد الله الروح له تحرك، ولذلك عند الموت تخرج الروح من هذا الجسد، والروح إذا خرجت أخذها ملك الموت، يقول لها: اخرجي أيتها الروح، فيأخذ هذه الروح. فإذا أخذها، معه ملائكة؛ إن كان من أهل الخير والصلاح فملائكة الرحمة، وإن كان من أهل الشقاوة فملائكة العذاب، فيأخذون من ملك الموت هذه الروح ويضعونها في أكفان؛ إن كان من أهل الخير فأكفان من الجنة، وإن كان من أهل الشر فأكفان من النار. ثم يصعدون بها إلى السماء، فإنه إن كان من أهل الصلاح فتحت له أبواب السماء، وإن كان من أهل الشقاوة تغلق أبواب السماء، لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة. فهذا معناها.

والروح إذا وُضع هذا الميت بعد ما يكفن -هذا جسد خلاص، يكفن، يغسل، يكفن، يذهب به يصلى عليه، ثم يذهب به يدفن- إذا دفن في قبره تأتي الروح بإذن الله، تعود إليه روحه. فإذا عادت إليه روحه جاءه الملكان يسألانه. ثم هي تأتي تفارقه تارة وتارة تبقى معه في قبره. هذه الروح ما حقيقتها؟ ما هي؟ هل في أحد يعرفها؟ هل الطب الآن اكتشفها ويستطيع؟ الله ماذا قال؟ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾.

قيل السائل هم... مثل ما ذكرنا لها سببان في النزول؛ السبب الأول: أن كفار قريش قالوا: إن

محمد أتانا بدين لا نعرفه ولا يعرفه آباؤنا، وفرق بيننا وبين أبنائنا وأزواجنا؛ الزوجة تؤمن فتفارق زوجها، والابن يؤمن فيفارق أباه وفارق أهله. محمد فرق بيننا وفعل وسب آلهتنا، فماذا نصنع؟ فقال بعضهم: لو نذهب أو نرسل وفداً إلى اليهود حتى ينبئونا عنه، وماذا يقولون وماذا يكون، سيكون موقفهم. فذهب وفد لليهود في المدينة وقالوا: إن عندنا رجلاً يدعي أنه يوحى إليه وأنه نبي، وكذا. فقال أحبار اليهود: اسألوه عن ثلاثة أشياء؛ إن أجابكم عنها فهو نبي، وإن لم يجبكم فهو كذاب. قالوا: ماذا نسأل؟ قال: اسألوه عن الروح، واسألوه عن فتية ذهبوا في السنين الأولى لا يدرى عنهم -حتى اليهود لا يدرون عنهم-، واسألوه عن رجل طاف الأرض. فجاؤوا فقالوا: يا محمد، جئنا بالفصل بيننا وبينك. قال: ماذا تريدون؟ قالوا: سنسألك؛ إن أجبت فأنت صادق، وإن لم تجب فأنت كاذب. قال: اسألوني. فقالوا: ما الروح؟ ما هي الروح؟ ومن هم الفتية الذين ذهبوا في السنين الأولى؟ ومن هو الرجل الذي طاف الأرض؟ فقال صلى الله عليه وسلم: **«أُخْبِرُكُمْ غَدًا»**.

فجاؤوا من الغد فقالوا: أخبرنا يا محمد. قال: **«مَا أَتَانِي الْوَحْيُ، إِذَا أَتَانِي الْوَحْيُ أَخْبَرْتُكُمْ»**. فمكث خمس عشرة ليلة، فحزن النبي صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً، ثم نزل الوحي بسورة (الكهف) وبهذه الآية. ولذلك تجد في سورة الكهف آية تذكرك بهذا الأمر؛ ما هي الآية؟ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤] لا تقل غداً أخبركم إلا أن يشاء الله. ولذلك جاء في قصة موسى حتى ينتبه النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال لما جاء الخضر، وجد عبداً من عبادنا، قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩]، ما قال ستجدني صابراً هكذا، بل علق الأمر بالمشيئة. فالنبي صلى الله عليه وسلم بعدها خلاص بدأ يعلق الأمور الغيبية المستقبلية بالمشيئة. فنزلت سورة الكهف فيها قصة الفتية وفيها ذو القرنين الذي طاف الأرض، ثم نزلت هذه الآية. هذا قول ذكر ونقل في بعض كتب السنن كـ (سنن الترمذي) وغيره.

وهنالك قول آخر في (صحيح مسلم)، أو سبب نزول آخر؛ وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمشي في أحد طرق المدينة ومعه ابن مسعود، وكان النبي صلى الله عليه وسلم معه عصا يتوكأ عليها، فمر بطائفة من اليهود، فقال اليهود: سلوه -يعني محمداً-. فوقف النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: نسألك عن الروح، ما الروح؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن مسعود: فرأيته يوحى إليه، ثم قال ثم قرأ عليهم هذه الآية على اليهود. فاختلف أهل التفسير هل سبب النزول قصة ابن مسعود أو قصة أهل مكة -كفار مكة-؟ مختلفون فيه. فالذين رجحوا قالوا: قصة ابن مسعود أقوى وأصح؛ لأنها رواها مسلم، ولأن ابن مسعود شاهد يتكلم ويقول: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم. لذلك يقولون هذه الآية نزلت في المدينة، والله أعلم.

والشاهد منها أنهم سألوا، فقال الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ -اليهود أو أهل مكة- ﴿عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. لا تعلمونها أنتم، ما تعلمونها، لا نخبركم بها؛ لماذا؟ لأن الجواب عليها من الأشياء التي هي مخلوق من المخلوقات حقيقتها الله أعلم بها. فما الفائدة؟ ليس هناك كبير فائدة تستفيدون منها، أمرها إلى الله سبحانه وتعالى. فلذلك قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ يقول: ما عندكم أصلاً علم إلا قليل، فلا تتعبون أنفسكم في أشياء قد لا تكون فيها فائدة كبيرة، وفي نفس الوقت لا يخصكم هذا. يعني أنت إذا عرفت الروح؛ هل يزيدك في العبادة أو ينقصك؟ لا، هذه أمور غيبية، هذه أمور شأنها يعود إلى الله، يعني لا يستفيد منها السائل.

ثم سبحانه وتعالى يخبر عن نعمة الله عز وجل على نبيه محمد وعلى أمة محمد بهذا القرآن؛ هذا رجعنا إلى القرآن، السورة تدور حول القرآن، يبين لك الله نعمته سبحانه وتعالى على نبيه وعلى محمد. يقول: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] اللام موطئة للقسم؛ أي

والله لئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك. يقول: نقدر على أن نأخذ القرآن الذي أوحيناه إليك، نذهب به، لا يكون في صدرك شيء منه، خلاص يذهب به من صدرك ومن صدور المؤمنين، لا يبقى منه شيء. يقول: لو أراد الله عز وجل أن يذهب بهذا القرآن كله لذهب به، لا أحد يمنعه: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦] يقول: لا تجد من يعيده لك، ما تستطيع. يقول: لو شئنا لذهبنا بهذا القرآن، فلا يستطيع أحد أن يعيده، لا تقدر أنت ولا تجد من يرده إليك، ولا تجد من تتوكل عليه غير الله، ما أحد ينفعك إلا أن تتوكل على الله، هذا معناه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٧] يقول: لكن رحمة الله هي التي جعلته يبقى عندك؛ الله سبحانه وتعالى ثبت القرآن في صدرك وثبته في صدور المؤمنين. ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾؛ إن فضله في تثبيته ونزوله كان عليك وعلى أمتك فضلاً كبيراً عظيماً. هذا فضل الله سبحانه وتعالى.

ولا زلنا مع القرآن في عظمته؛ عرفنا أن القرآن شفاء ورحمة، والآن الله قادر على أن يذهب بالقرآن، لكن رحمة منه أبقاه في صدور المؤمنين. ولذلك إلى الآن، منذ نزول القرآن أكثر من ألف وأربعمائة وزيادة، والقرآن غضاً طرياً في صدور الرجال وفي المصاحف، فضل من الله سبحانه وتعالى. كل الكتب السابقة انتهت، والآن الله سبحانه وتعالى هنا يبين لك عظمة القرآن لكي تعرف قدره ويكون له مقام في نفسك، اسمع! يقول الله عز وجل قل لهؤلاء الكفار وغيرهم: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]

اللام ماذا نسميها؟ موطئة للقسم؛ قل: والله لئن اجتمعت الإنس كلهم -بنو آدم- والجن كلهم -أبناء إبليس-، لو اجتمع الجن -حتى المسلمون من الجن أو الكفار- واجتمع الإنس كلهم في صعيد واحد على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ما استطاعوا، يستحيل؛ لماذا؟ لأنه كلام رب العالمين، والذين يريدون أن يأتوا به كلام البشر، وفرق بين كلام الله وكلام البشر. قال: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ يستحيل قطعاً لا يأتون بمثله ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾، لو اجتمعوا وتظاهروا وتعاونوا وتكاتفوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن يستحيل، ولا يأتون ولا بآية ولا بسورة.

وهذه الآية فيها التحدي للثقلين جميعاً أن يأتوا بمثله؛ وتحداهم أن يأتوا بعشر سور وما استطاعوا، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة وما استطاعوا -أقصر سورة وهي سورة (الكوثر) ما استطاعوا-، ثم تحداهم أن يأتوا بحديث: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ وما استطاعوا؛ لماذا؟ لأن كلام الله لا يمكن أن يكون مثله شيء من كلام البشر، مستحيل تضع كلام البشر في ميزان كلام الله. هذا مستحيل؛ كلام الله معجز بألفاظه، ومعانيه، ودلالاته، وشفائه، وتأثيره في القلوب، يعني من جميع الوجوه معجز بكل ما تستحقه كلمة الإعجاز؛ فيه إعجاز غيبي، فيه إعجاز في قصصه، فيه إعجاز في أحكامه، وفي شريعته، وفي كل شيء، لا تجد مثله أبداً. قال: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾.

ثم قال سبحانه وتعالى -ولا زلنا مع القرآن، مع القرآن المعجز العظيم-: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩] ﴿صَرَّفْنَا﴾ يعني: نوّعنا وأكثرنا، من كل مثل؛ أمثال القرآن كثيرة، وقصصه كثيرة، وأخباره كثيرة، يصرّفها الله ويبينها؛ فيها شيء مختصر، وشيء مطول، وشيء كذا، ودلالات كثيرة، لكن مع الأسف: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ -ليس جميعهم- ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾؛ يكفرون بالقرآن ولا يريدون الإيمان.

ثم انظر إلى سفاهة عقول هؤلاء الكفار؛ قرآن يأتيكم معجز، والله يبين لكم حقيقة إعجازه

وتأثيره في القلوب، وتقولون: لا نريد القرآن، نريد معجزة أخرى! ماذا تريدون؟ انظر الآن، اسمع الآن ماذا يريدون من المعجزات، معجزات تدل على حماقتهم وسفاهة عقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] انظر كيف سفاهة العقل! يقول: إذا أردت يا محمد أن نؤمن لك، احفر لنا بئر نحفر لكم بئر والقرآن بين أيديكم؟! قالوا: لا، احفر بئراً لنا. انظر! قالوا: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾، لماذا؟ لأن مكة -كما تعرفون- ماؤها قليل، والمياه يأتون بها من أماكن بعيدة، فيقولون: نحن في مكة احفر لنا ينبوع، أخرج لنا ينبوعاً عند بيوتنا ونؤمن لك! هذا الذي تريدونه؟ هذا هو المعجز؟ قالوا: نعم.

ثم قالوا: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإسراء: ٩١] يعني يكون لك بستان فيه من نخيل وأعناب، وتفجر الأنهار في هذا البستان خلالها تفجيراً، هذا نؤمن به. يعني النبي صلى الله عليه وسلم يقول: يا أهل مكة، أنا لما يكون عندي بستان فيه نخيل وأعناب وفيه أنهار تجري تؤمنون؟ قالوا: هذا الذي نريد، هذا الإعجاز!

ثم قالوا: أو أيضاً -تسقط، يعني افعل شيئاً من هذا، أي شيء منها-: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] ﴿كِسَفًا﴾ يعني قطعاً؛ يقول: أنت تقول إن الله يرسل عليكم حسباناً من السماء، ينزل عليكم عذاباً من السماء، بلا إذا أردت أن نؤمن فأسقط علينا عذاباً من السماء حتى نؤمن لك! انظر!

ثم قالوا أو أيضاً -انظر "أَوْ" للتخيير، يعني افعل أي شيء من هذه الأشياء-: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] ﴿قَبِيلًا﴾ يعني أمامنا ننظر إليهم، بلا ادعو ربك أن يأتي هو والملائكة وننظر إليهم. مَن أنتم يا أهل مكة حتى تنظروا إلى الله وملائكته مقابل أن تؤمنوا؟! لو جئناكم بهذه ما آمنتم؛ لأنكم أنتم قصدكم التعجيز فقط، وليس قصدكم الوصول إلى الحق.

واسمع أيضاً: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣] ﴿مِنْ زُخْرُفٍ﴾ يعني من ذهب؛ لماذا يا محمد بيتك بيت صغير ومن طين؟ تكون أنت ملك، أنت نبي ورسول يوحى إليك، يلزم أن يكون بيتك من ذهب، أو يكون لك بيت من زخرف، إذا كان بيتك من زخرف آمنا بك!

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣] انظر! هم يقولون: أنت يا محمد تزعم أنك رقيت إلى السماء، وأنك ذهبت في الإسراء والمعراج، ورأيت الجنة، ورأيت الملائكة، ورأيت كذا؛ قالوا: أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك -ما نصدق أنك رقيت- حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه، تنزل علينا كتاب يثبت أنك رقيت إلى السماء. وبعض المفسرين يقولون: ترقى إلى السماء وتنزل علينا كتاباً فيه أسماؤنا، يأمرنا الله فيه أن نؤمن ونصدق بك، وإلا فلن نؤمن ولن نصدق، كتاب نقرأه.

يقول الله عز وجل قل لهؤلاء، هؤلاء السفهاء الحمقى، قل لهم: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] أنا بشر ورسول من عند الله، وأنتم ما صدقتموني، وتريدون مني هذه المطالبات؟! والله لو تحققت كلها، جميع ما أردتم لو تحققت -انظر الأول: ينبوع، الثاني: بستان، الثالث: أن تسقط من السماء كسفاً قطعاً من العذاب، الرابع: تأتي بالله والملائكة قبيلاً، الخامس: يكون لك بيت من ذهب، السادس: أن ترقى إلى السماء، كل هذا- لو جئنا بالستة كلها تؤمنون؟ لا يؤمنون. ولذلك تعرفون قصة انشقاق القمر; لما خرج بعض أهل مكة مع النبي قالوا: يا محمد، تريد أن نؤمن؟ شق لنا القمر شقين نصفين. فدعا الله فانشق نصفين، فقالوا: سحرنا محمد! وأهل ثمود قالوا: أخرج لنا ناقة، فأخرج الله لهم ناقة، فكفروا بها وعقروها وكذبوا؛ فأنتم لا يصيبكم ما أصابهم؟! فلذلك قال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾. كيف أنا؟! ما أنا إلا بشر ورسول يوحى إليّ، وعليّ البلاغ.

وما الذي منع الناس من الإيمان لكي تعرف أنها ليست بقضية القرآن ولا معجزة؟ ما الذي منع الناس من الإيمان؟ قال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] الوحي والقرآن جاءهم، وحجتهم ماذا؟ أن بعث الله بشراً رسولاً! هذه حجتهم. الذي منعهم من الإيمان والطاعة والاستسلام لك والانقياد لك هو أنهم يقولون: كيف نطيع بشراً؟! هذه حجتهم فقط. يعني لو جئناهم بهذه المعجزات كلها، وأخرجنا لهم كل ما يريدونه، سيقولون ماذا؟ نطيع بشر؟! نطيع محمد؟! لا، ما نطيعه، لماذا نطيع محمد؟ هذه هي حجتهم: ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾، يعني: الله لماذا لم يبعث ملائكة؟ لماذا يبعث محمداً؟

رد الله عليهم فقال: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥] لو كان في الأرض ملائكة يعيشون فيها ويمشون عليها مطمئنين لبعثنا لهم ملكاً رسولاً؛ لأنه هو الذي يناسبهم. لو بعثنا لهم رجلاً من البشر ما تقبلوه. فأنتم يا أهل مكة نبعث لكم بشراً يناسبكم، تعرفونه؛ تربى عندكم، ونشأ بين ظهرانيكم، وعرفتموه وسميتموه (الصادق الأمين)، وتعرفون خلقه، وأخلاقه، وتعامله معكم، ثم في الأخير تنكرونه وتردون رسالته؟!

فقل لهم يا محمد: إن كنتم لن تؤمنوا بي ولن تصدقوا برسالتي، فيكفي شهادة الله؛ يشهد عليّ أني رسول: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦] شهادة الله لرسوله أكبر من كل شيء. الله خبير بصير، الله خبير وبصير لا تخفى عليه أحوالكم وهو الذي أرسلني وهو الشهيد على دعوتي. ولكن القضية ليست قضية معجزة ولا أن محمداً بشر أو نحو ذلك؛ القضية هداية وضلال، أنتم لا تريدون الهداية، تريدون الضلال.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الإسراء: ٩٧] من أراد الله هدايته فهو المهتدي، وهو الذي يسعد بالهداية. ومن يضلل ويريد طريق الشر والفساد والتعنت وعدم الإيمان فلن تجد لهم أولياء من دونه، ما تجد له ولياً ينصره؛ سيظل في ضلال في الدنيا والآخرة، ويهم القيامة أشد عذاباً وأنكى. ما هو؟ قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]

هؤلاء الذين لا يريدون الهداية ويريدون الضلال؛ ما عقوبتهم في الآخرة؟ قال: نحشرهم يوم القيامة على وجوههم. الناس يحشرون على أقدامهم يمشون على أقدامهم، وهؤلاء يحشرون على وجوههم! سأل رجل ابن عباس فقال: كيف يحشرون على وجوههم؟ كيف يمشي على وجهه؟ قال: إن الذي أقدره أن يمشي على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه، ما يمنعه.

قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ يذهب بصره فلا يرى ما أمامه، ﴿وَبُكْمًا﴾ لا يتكلم حتى ليقول ابعد عن طريقي، ﴿وَصُمًّا﴾ لا يسمع من يناديه. صور: لا يبصر، لا يتكلم، لا يسمع، ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾. هذه عقوبة من يعرض ولا يقبل الحق ويشاق الله ويحاده ويقول: ما نريد القرآن معجزة، ولا نصدق محمد لأنه بشر، ولا نريد ولا نريد إلى آخره. هذه عقوبته، تهديد لهم؛ تهديد لهم أنهم يحشرون على وجوههم يوم القيامة. ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥] ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]

فيحشرون عمياً لا يبصرون، صماً لا يسمعون، بكماً لا يتكلمون، وعلى وجوههم تجد أشد من هذا، ثم مأواهم جهنم؛ مرجعهم إلى النار، سيدخلون نار جهنم. وهذه النار كلما خبت وهدأت نارها وتكاد تنطفئ: ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾؛ كلما خفت النار وهدأت زادها الله سعيراً فاشتعلت عليهم، اشتعلت عليهم. إلى متى؟ ما تنتهي أبداً، ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾.

ما السبب في هذه العقوبة الشديدة؟ ما السبب؟ ﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا

عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨] ما ظلمهم الله؛ كفروا بآياتنا -جاءهم القرآن والوحي والرسالة فكفروا بآياتنا، هذا الأمر الأول-، والأمر الثاني: كفروا باليوم الآخر والبعث والجنة والنار، وقالوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾؛ العظام معروفة، والرفات هو تكسر العظام وبقايا العظام، يقولون: عظام وبقية بقايا عظام أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً؟! لأنهم حكموا عقولهم، ما حكموا قدرة الله؛ قالوا يعني نوضع في القبور، وتمر علينا سنين طويلة مائة سنة مائتين ثلاثمائة سنة قرون طويلة ثم يبعثنا الله؟! هذا مستحيل! لماذا؟ لأنهم حكموا عقولهم.

رد الله عليهم فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩] خلق السماوات والأرض وهي أعظم منكم؛ تصور إنسان موضوع في قبره متر ونصف أو مترين، والسماوات السبع كلها والأراضين، هل يقارن خلق هذا بهذا؟! قادر على أن يخلقهم ويخلق مثلهم، وجعل لهم أجلاً وهو يوم القيامة؛ أجل البعث أجل لا ريب فيه، يصدقون أو يكذبون هناك أجل لا ريب فيه، يوم يبعثون فيه، ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾؛ أبوا لا يريدون إلا الكفر والطغيان.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] يقول: قل لهم لو أنتم أيها الكفار تملكون خزائن السماوات والأرض -خزائن رحمة ربي، كل خزائن عطاء الله وأرزاقه- لو تملكون أرزاق السماوات والأرض لأمسكتم وبخلتم بالعطاء. هذه طبيعتكم؛ طبيعة البخل خشية الإنفاق، خشية أن ينتهي، تظنون أن الخزائن تنتهي، خشية الإنفاق. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾؛ بخيلاً شحيحاً ممسكاً. يقول: أنتم الله يعطيكم وينعم عليكم بالأرزاق والأموال ولا تشكرونه، لو هذه الأرزاق والأموال بيديكم ماذا تصنعون؟ لبخلتم على الناس ولا تعطونهم، تمسكون لأنك شحيح بخيل.

ثم سبحانه وتعالى يثبت لهؤلاء الكفار موقف فرعون وماذا جرى له وموقف موسى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] أنتم تريدون... كم ذكرنا من آية؟ ست، صح؟ ست آيات: ينبوع، وجنة، وبيت من زخرف، وإلى آخره يريدونها. الله يقول: آتينا موسى تسع آيات، تسع وليس ست؛ تسع آيات بينات واضحات أنها معجزات من الله. ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]

اذهب واسألهم. فرعون يقول لموسى ماذا؟ قال: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾. فرعون يقول: أنا ما أعلم منك يا موسى إلا أنك ساحر! هذه الآيات التي جئت بها؛ ألقى العصا أمامه فأصبحت ثعباناً، وأخرج يده فأصبحت بيضاء، قال: هذا سحر! فقال: ما أظنك إلا ساحراً. ما آمن، كفر فرعون، كفر برسالة موسى.

قال له موسى رداً عليه: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] يقول: لقد علمت يا فرعون علماً يقيناً في نفسك، وإن لم تظهر أمام الناس تدعي أنك كذا، لا؛ علمت في نفسك ما أنزل هؤلاء الآيات البينات البصائر إلا رب السماوات والأرض علماً عظيماً. ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾، ﴿مَثْبُورًا﴾ يعني هالكاً؛ يقول: أنا أظنك يا فرعون -بما أنك لا تقبل هذه الآيات ولا تريد أن تصدق ولا تريد أن تتبعني- لكني أظنك يا فرعون ستهلك، وأهلكه الله وأغرقه وقضى عليه. انظر كيف!

قال: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣] أراد فرعون أن يستفزهم يعني يزعجهم ويخرجهم، أراد أن يخرجهم ولا يريد قبول الحق، ويضيق عليهم ويستفزهم ويخرجهم من أرض مصر؛ فالله سبحانه وتعالى أخرجه هو؛ أخرجناه من جنات وعيون، أخرج فرعون وأغرقه ومعه في اليم أهلكهم، فغشيهم من اليم ما غشيهم.

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤] وقلنا من بعده -من بعد هلاك فرعون- لبني إسرائيل لموسى ومعه: اسكنوا الأرض، إما أرض مصر أو أرض فلسطين أو الأرض التي هم فيها، اسكنوا الأرض خلاص الأمن لكم اسكنوها. يقول: أنتم اسكنوا الأرض لكن اشكروا الله ولا تكفروا نعمة الله يا بني إسرائيل. واسكنوا الأرض أباح الله لكم، لكن اعلموا أنكم في آخر الزمان ستعودون. قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾؛ يعني إذا جاء في آخر الزمان. إما أن يكون آخر الزمان أو يكون يوم القيامة؛ بعض المفسرين يقولون: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يعني يوم القيامة جئنا بكم لفيفاً يعني حشرناكم وأتينا بكم من كل مكان، وهناك من المفسرين من يقول: هذا خبر من الله أن اليهود سيجمعون في آخر الزمان في الأرض المقـ ـدسة، يأتون من كل مكان من أقطار الأرض يجتمعون فيها حتى يقضي عليهم المسلمون. وها هم الآن يجتمعون في هذا المكان، لكن لا ندري متى، وإلا فسيقتل المؤمنون اليهود حتى يقول الشجر والحجر: **«يَا مُسْلِمُ، إِنَّ وَرَائِي يَهُودِيًّا فَاقْتُلْهُ»** سيأتي زمان هذا أن الله يقضي عليهم ولكن الله أعلم متى.

قال الله عز وجل في عظمة هذا القرآن الذي لا يؤمنون به: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥] ما نزل إلا بالحق؛ تقبلونه أو لا تقبلونه، تؤمنون أو تكفرون، أنزلناه بالحق؛ أنزلناه بالصدق والعدل، وبالحق نزل؛ بالصدق والعدل نزل القرآن آمنتم أو كفرتم. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ يا محمد؛ ما أرسلناك لهؤلاء إلا بشارة لمن يؤمن ونذارة لمن يكفر.

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] هذا القرآن فرق؛ فرقه الله، كيف فرقه الله؟ أنزله على سنين؛ ثلاث وعشرين سنة وهو ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعثته وعمره أربعون إلى أن بلغ عمره ثلاثاً وستين سنة، ثلاث وعشرون سنة والقرآن ينزل؛ تارة خمس آيات، تارة عشر، تارة سورة كاملة، تارة أقل، تارة أكثر هكذا. لماذا؟ ما الحكمة؟ ليش لم ينزل جملة واحدة؟ قال في آية أخرى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾، وقال هنا: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ حتى يفهموه. تنزل الآيات ولذلك الصحا ـبة إذا نزلت عليهم الآيات يفرحون بها ويستبشرون، وإذا ما أنزلت سورة قال... يعني يستبشر بها المؤمنون ويفرحون بها.

طيب، قالوا: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ يعني جعلناه ينزل مفرقاً، أو فرقنا به بين الهداية والحق. قال: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾؛ على ترسل وطمأنينة وهدوء تقرأهم. كلما نزلت آيات، الصحابة كانوا يجتمعون عنده، فإذا نزلت الآيات قرأها عليهم ففرحوا بها؛ لأنها تزيدهم إيماناً، كما في الآية: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. فتنزل عليهم على مكث. قال: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾؛ هذه يعني مزية من مزايا القرآن أنه ينزل مفرقاً.

ثم قال: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] يقول: آمنوا به أيها الكفار أو لا تؤمنوا، الأمر سيان لا يهمنا تؤمنون أو لا تؤمنون؛ لماذا؟ قال: لأن الذين أوتوا العلم من قبلكم من علماء اليهود يعرفونه، المؤمنون مثل عبد الله بن سلام الذي آمن، ومن آمن منهم يعرفون عظمة القرآن. قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾.

الأذقان نهاية الأذقان؛ الأذقان جمع ذقن، والذقن هو نهاية الوجه من الأسفل، يخرون حتى تصل أذقانهم إلى الأرض خروراً وسجوداً لله وخضوعاً لله. هؤلاء من أهل العلم من اليهود والنصارى من أهل الـ ـكتاب، يخرون للأذقان سجداً.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨] يعني هم يخرون فعلاً

وقولاً يقولون: سبحان ربنا! يقولون يعني: سبحان الله تعظيماً له، ووصفاً بما يليق به، وتنزيهاً له عن أقوال المشركين. ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ يعني: وعدنا بالبعث والجزاء والجنة والنار مفعول لا بد منه.

ثم قال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء: ١٠٩] انظر! قال الأول: ﴿يَخِرُّونَ﴾ ثم قال: ﴿وَيَخِرُّونَ﴾؛ لماذا كررها؟ قال: الثانية بنى عليها حكماً جديداً، ما هو؟ قال: ﴿يَبْكُونَ﴾. الأول ما قال يبكون، قال: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾، وهنا قال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ يعني سجداً وبكياً، ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ أي القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ لله؛ يزيدهم إذعاناً وخشوعاً لله. يبكون إذا قرئت عليهم الآيات يبكون، هؤلاء من العلماء الذين يعرفون القرآن.

طيب، قال بعدها سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] لأن الكفار يقولون: ما الرحمن؟ نحن لا نعرف إلا الله، الرحمن من هو؟ فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾، إن قلت: يا رب، يا رحمن، يا غفور، يا رحيم، كلها أسماء الله. ﴿أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾؛ الأسماء كلها حسنى، ليس هناك اسم أفضل من اسم، أو اسم حسن واسم أحسن، لا؛ كلها أسماء حسنى. تدعو بهذا أو تدعو بهذا: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾. يا رحيم، يا قدير، يا عزيز، يا حكيم، كلها أسماء الله.

ثم قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] ما المقصود بالصلاة هنا؟ قراءة القرآن؛ لأن الصلاة ركوع وسجود ليس فيها جهر بالأفعال، وإنما الجهر بالركن القولي سواء في قراءة الفاتحة أو قراءة القرآن. الأقوال التي تكون في الصلاة لا تجهر بها جهراً كبيراً ولا تخافت بها، يقول: لا تجهر ترفع صوتك عادياً، ولا تخفضه بالمرة، وكن وسطاً، كن وسطاً.

وهذه الآية نزل بها العلم أنه ينبغي للمصلي في صلاته أن يحرك لسانه وشفتيه، وألا يخفض صوته بالمرة بحيث إنه لا يقرأ ولا يحرك شفتيه. انظر! بعض الناس يكبر بقلبه هكذا؛ كبر بقلبه وقرأ الفاتحة بقلبه، هذا صلاته صلاة غير صحيحة! ولذلك يسأل كثير من النساء خاصة -وقد سألتني أكثر من امرأة، تقول: لي سنين طويلة أقرأ في الصلاة بقلبي- صلاتك بقلبك؟! لا تصح الصلاة! أنت لو كبرت تكبيرة الإحرام بقلبك لم تنعقد الصلاة، فكيف ببقية الصلاة؟! فلا بد من تحريك اللسان والشفتين، وأن تسمع نفسك ولو قليلاً، لا تخافت تخفض بالمرة، ولا تجهر بها بحيث إنك تزعج من بجانبك. تجد بعض الناس الآن إذا صلى ما يخليك تقرأ؛ إذا كبر: الله أكبر، سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله... إلا الله، طيب لماذا هذا؟! الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم... أزعجت الذي بجانبك فلم يستطع أن يصلي! حتى بعضهم في السنن الرواتب ونحوها يصلي ويرفع صوته والذي بجانبه يقرأ القرآن فلا يستطيع أن يقرأ القرآن، أو هو بعد الراتبة أو بعد السنة يجلس ويأخذ المصحف ويرفع صوته، فيشوش على المصلين، خاصة يوم الجمعة تجد بعضهم والله لا يستطيع فيغلق المصحف ويجلس يستمع! ليش تزعج الناس؟! لا ترفع صوتك بإزعاج، ولا تقرأ بنفسك دون تحريك؛ كن متوسط القراءة، معتدل القراءة، لا تجهر بصوتك ترفع صوت عالي، لا تجهر ولا تخافت، كن متوسطاً، هذا هو المطلوب؛ خير الأمور الوسط، هذا معناه: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾؛ توسط بينهما. هذا هو، يعني المسألة واضحة. بعض الناس تجد بجانبك من يزعجك حتى في صلاة الجنائز: اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه... طيب أنا أريد أن أدعو مثلك وأنت لم تدعني أدعو! فيشوشون، بعضهم يشوشون. فلا تشوش، ولا تخفض بحيث إنك لا تسمع نفسك فتقع في الخطأ، فالتوسط هو الخير.

طيب، قال: ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١] انظر كثرة كلمة **"قُلْ"**؛ توجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أحمد الله واشكره على هذه النعمة، واثنِ عليه، مجده وعظمه. الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً، سبحانه؛ هو المنفرد بالكون كله، وهو المنفرد بالعبادة والطاعة والربوبية، كيف تجعلون له ولداً؟! تقول الملائكة بنات الله، أو يأتي اليهودي فيقول عزير ابن الله، أو يأتي النصراني فيقول عيسى ابن الله، ما اتخذ ولداً سبحانه وتعالى. ولم يكن له صاحبة. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾؛ الكفار يشركون الأصنام مع الله أو الأموات، ليس له شريك سبحانه وتعالى، قل هو الله أحد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾؛ لا شريك في الملك معه، ولا ولي؛ لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به، لم يكن له ولي من الذل. حتى يعني تذهبون إلى الأولياء من أهل الدنيا، تذهبون إليهم تقولون: هذا ولي عند الله! ما جعل الله لك ولياً تتقرب به إلى الله، ادع الله وتقرب إلى الله، والْجأ إلى الله، وانكسر بين يديه، واعترف بعبوديتك لله وتشرف بها فقط. قال: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾؛ عظمه وكبّره بأوصافه العظيمة، واثنِ عليه بالثناء، واحمده واشكره على نعمه.

هذه الآية يسميها أهل العلم بـ(آية العز) هذه آخر آية من سورة الإسراء اسمها آية العز: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ تسمى بآية العز. آيات القرآن أحياناً لها ألقاب؛ مثل (آية الكرسي) لقب، ومثل (آية المصابرة)، ومثل (آية العز)، ومثل (أجمع آية في كتاب الله) وهي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]؛ هذه أجمع آية، وهكذا تجد في آيات لها أوصاف.

هذه سورة الإسراء انتهينا منها، ولله الحمد والمنة، منَّ الله علينا بقراءتها وتفسيرها وبيانها والوقوف وتدبر آياتها. فنسأل الله ان لا يحرمنا فضلها، ولا يحرمنا أجرها، ونسأل الله أن يوفقنا لما يحب ويرضى، ويجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته. وإن شاء الله ننتقل للسورة التي تليها في لقاء قادم بإذن الله.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الكَهْف)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الكهف 1 - 8)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الثلاثاء، وهذا اليوم هو يوافق العشرين من شهر شوال من عام 1442 من الهجرة.

نبدأ على بركة الله بعدما أنهينا تفسير القرآن كاملاً من أوله إلى آخره، واليوم نبدأ إن شاء الله بداية مباركة حميدة إن شاء الله نبدأ من أول **"سورة الكهف"**.

قد يسأل السائل يقول:

لماذا تبدأ بسورة الكهف، لماذا لا نبدأ من أول القرآن؟

أقول: عندنا درس آخر يوم الأربعاء بعد صلاة المغرب، من كلّ أربعاء بعد صلاة المغرب بدأنا من أول القرآن، وانتهينا من سورة الفاتحة والآن في البقرة تقريبًا سننتهي من الجزء الأول، ونبدأ بالجزء الثاني، ولذلك لا نريد أن نكرر، فمن أراد أن يتواصل معنا يوم الأربعاء فعلى نفس الرابط، يدخل على نفس الرابط ويستمع لتفسير **"سورة البقرة"**.

ويوم الثلاثاء نأخذ من النصف الثاني حتى يستمر النصف الأول مع النصف الثاني ويكون هذا أوفر للوقت؛ حتى ننجز أكثر، ولذلك سنبدأ بهذه السورة **"سورة الكهف"** على بركة الله إن شاء الله.

هذه السورة التي بين أيدينا **"سورة الكهف"** هي بلا شك تهم كلّ مسلم وكلّ واحد منا يحفظ هذه السورة لكثرة تكرارها وقراءتها وخاصة يوم الجمعة، فقد جاء في فضائلها أحاديث.

جاء في فضائل هذه السورة أحاديث:

منها: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة سطع له نور إلى عنان السماء من الجمعة إلى الجمعة»**، وجاء في رواية: **«من قرأها ليلة الجمعة»**، فليلة الجمعة تبدأ من غروب شمس يوم الخمس، فإذا غربت شمس يوم الخميس فقد دخلت في الجمعة.

فمن غروب الشمس إلى غروب شمس يوم الجمعة هذا كله لقراءة **"سورة الكهف"**، لكن الكثير من العلماء أو من مشايخنا يرجح أن الأفضل أن يقرأها في نهار الجمعة، فلو قرأها في الليل فلا بأس.

وهذا الحديث يضعفه بعض العلماء، ومجموع الأحاديث الواردة في فضل **"سورة الكهف"** في قراءتها يوم الجمعة كلها يقوي بعضها بعضًا، ويشد بعضها بعضًا فتكون في مجموعها تصل إلى درجة القبول والصحة، ففضائلها واضحة.

أيضًا من فضائل "سورة الكهف": أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إذا خرج الدجال في آخر الزمان؛ فإن استطعت أن تقرأ عليه سورة الكهف»**، لأن **"سورة الكهف"** تمنع من تسلط الدجال على الإنسان.

وجاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«من حفظ عشر آيات من سورة الكهف العشر الأول»**، وفي رواية: **«من حفظ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصم من الدجال»**، عصمه الله من الدجال.

قد يأتي سائل ويسأل يقول:

ما الرابط وما العلاقة بين قصة الدجال وسورة الكهف؟

✍ لماذا الدجال يفر من سورة الكهف ؟

✍ ولماذا سورة الكهف تعصم الإنسان من الدجال؟

نقول: لأن **"سورة الكهف"** حصن حصين من الفتن، من الفتن كلها، وأعظم هذه الفتن فتنة المسيح الدجال، هي أعظم فتنة يُفتن فيها الناس، هذه السورة ينبغي للمسلم أن يحافظ على قراءتها يوم الجمعة، وأن يحفظها، مع التكرار سيحفظها.

على الأقل أن يحفظ الآيات العشر الأول، والآيات العشر الأخيرة منها حتى يكون في حصن حصين من هذه الفتنة التي أرشد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأمة إلى الحذر من هذه الفتنة، هذا ما يتعلق بفضائل هذه السورة.

أما ما يتعلق بنزول هذه السورة: فإن نزول السورة لها قصة عجيبة وهي تدل على أن نزولها كان في وسط الزمن الذي عاش فيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة، يعني لم تكن من أوال ما نزل، ولم تكن من أواخر ما نزل، وإنما لما اشتد إيذاء المشركين للمسلمين، وبدأ الإسلام يكون له قوة، وبدأ يظهر، وبدأ يزداد العدد شعر أهل مكة وكفار مكة بأن محمدًا سيكون له شأن، وستكون له قوة، فأرادوا صد الناس وإضعاف المسلمين، فبدؤوا يتشاورون فيما بينهم.

فقال بعضهم: لعلكم تذهبون إلى اليهود في المدينة وتسألوهم كيف نتخلص من هذا النبي محمد، وهل هو في الحقيقة رسول من عند الله وإلا هو يدعي الرسالة ويكذب علينا؟

فذهب نفر من المشركين إلى المدينة، وقابلوا اليهود، وقالوا: إننا عندنا رجلاً يُقال له: محمد، يدعي النبوة، وأنه يأتيه الوحي، وأنه كذا وكذا.

فقال اليهود: سلوه عن ثلاثة أشياء لا يعرفها أحد إلا من أنزل عليه الكتاب، ثلاث عن ثلاثة أشياء فإن أجابكم فهو رسول، وسيظهر، وإن لم يجبكم فهو كذاب.

جاءوا من المدينة فرحين ليحاجوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما جاءوه قالوا: يا محمد جئناك بما يفصل بيننا وبينك، قال: ما هو؟ قالوا: سنسألك عن أشياء إن أجبتنا فأنت صادق، وإن لم تجبنا فأنت كذاب.

فقال: سلوني، قالوا: نسألك عن هذه ثلاثة أشياء، هذه الأشياء الثلاثة ذكرها اليهود للمشركين.

فقال اليهود: سلوه عن فتية في الدهر القديم ذهبوا ولا يُدرى ماذا جرى لهم؟ وسلوهم عن رجل طاف الأرض من مشرقها إلى مغربها، وسلوه عن الروح، فإن أجابكم فهو صادق، وإلا فهو كذاب.

فجاءوا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: يا محمد نسألك عن هذه الأشياء الثلاثة فأجب إن كنت صادقًا، فقال: سلوني.

فقالوا:

✍ من هم الفتية الذين ذهبوا في الدهر السابق ولا يُدرى ماذا جرى لهم فروا بدينهم وفروا من أهليهم؟

✍ ومن هو الرجل الذي طاف الأرض من مغربها إلى مشرقها وكانت له أحداث عجيبة؟

✍ وما هي الروح؟

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أخبركم غدًا»**، ولم يقل: إن شاء الله، وانتظر الوحي، فالوحي لم يأت، فحزن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزنًا شديدًا، وبدأ أهل مكة أو فرحوا بما حصل من هذا الأمر، وبدؤوا يشككون المسلمين في رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبدؤوا يقولون: لو كان محمد صادقًا لأجبنا عن هذا، إذا كان يأتيه الوحي فليجب عن هذه الأسئلة، فانقطع الوحي، ولم ينزل على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمدة خمس عشرة ليلة، ثم

نزل **"سورة الكهف"**، وفيها: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا 23 إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: 23، 24].

ونزل بقصة الكهف، وبقصة ذي القرنين، وأما ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: 85]، فجاء في سورة الإسراء، وأخبر الله بأن الروح من أمره، ولا يعلمها أحد، فهذا سبب نزول هذه السورة.

هذه السورة أيها الأخوة لو اطلعنا عليها وقرأنها، وتأملناها والكثير منا عنده تصور من هذه السورة، هذه السورة أيها الأخوة هي قد اشتملت على الحذر من الفتن؛ لأن كلمة الكهف وإن كان الكهف حصنًا حقيقي إلا أن هذه السورة **"سورة الكهف"** حصن معنوي، تحفظ الإنسان من الفتن، فكأنها في الحقيقة هي الحصن الحصين من الوقوع في الفتن.

✍ ما هي الفتن؟

🗐 لاشك أن الفتن كثيرة، ولكن الله ذكر أربع فتن في هذه السورة أربع فتن مربوطة بأربع قصص:

أول هذه الفتن: **"فتنة الدين"**، وأشد ما يفتن الإنسان في دينه، وهذه فتنة الدين جاءت في قصة أصحاب الكهف، فتنوا في دينهم، وأراد أهل القرية أن يصدوهم عن دينهم، وأن يعذبوهم، ولكنهم صبروا وتحملوا حتى بلغ بهم الأمر أن يهاجروا ويتركوا بلادهم، ويتركوا أهليهم، ويذهبوا لا يردون أين يذهبون؟ إلا أنهم ذهبوا بدينهم، وفروا بدينهم.

فآواهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى هذا الكهف، وأنزل عليهم السكينة والرحمة، وحفظهم من قومهم، وحفظهم من أي شيء أي أحد أن يعتدي عليهم، وهذه قصة عجيبة، في أن الإنسان إذا حفظ الله؛ فإن الله يحفظه، وإذا تمسك بدينه وتمسك بتعاليم دينه ولم يتنازل؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعوضه خيرًا، ويحفظه من أي أحد يعتدي عليه، هذه الفتنة فتنة الدين.

القصة الثانية: ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها **"فتنة المال في صاحب الجنتين"**؛ الذي اغتر بماله، قال: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34]، واغتر بماله وتكبر واستكبر، وقال: لن تقوم الساعة أبدًا، وأن هذه هي جنتي، وهذا هو مالي، وهذه هي حياتي، فاغتر بهذه الجنتين، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه؛ قال: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 35].

فعاقبه الله فما انفتن واغتر وانخدع بالمال عاقبه الله بأن أحاط الله بثمره، فأصبح يقلب كفيه، وذهبت عليه دنياه كلها لم يبق له شيء، هذه القصة الثانية.

أما القصة الثالثة: **"فهي قصة موسى مع الخضر العبد الصالح"** قص الله علينا قصته، والفتنة فيها فتنة العلم.

🗐 قد يأتيك شخص يقول:

✍ كيف فتنة العلم؟

✍ ما معنى أن إنسان يفتن في العلم؟

أقول: الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ رجل وعبد صالح، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو نبي بني إسرائيل، ولم يكن في زمانه نبي غيره، ومع ذلك تواضع، وذهب يبحث حتى وجد هذا العبد الصالح، ولما جد هذا العبد الصالح وجد عنده علم عظيم، ومع ذلك خضع ولم يغتر بنفسه يقول: أنا يوحى إلي، وأنا رسول، وإنما تواضع للعلم وخضع للعلم.

وكذلك العبد الصالح لم يغتر ويقول: أنا أعلم منك وأنت نبي، وإنما عرف أن ما عنده وما عند موسى في علم الله لا يقوم له مقام؛ لأنه لما ركب السفينة جاء عصفور ووقف على طرف السفينة، ثم نقر بمنقاره من الماء من البحر ثم طار، فقال له الخضر: **«يا موسى ما علمي وعلمك في علم الله الواسع إلا مثلما أخذ هذا العصفور من هذا البحر»**.

فهذا يدل على التواضع، ويدل على أن الإنسان مهما أعطاه الله من العلم فهو ضعيف بنفسه، هذه الفتنة الثالثة **"فتنة العلم"** ألا يغتر بعلمه، قد يكون العلم وبالًا على الشخص.

القصة الرابعة: **"فتنة السلطة"** الإنسان يعطيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى السلطة، ويمكن له في الأرض، لكن قد يحكم بغير حكم الله، وقد يتكبر، مثل هذا الرجل الذي آتاه الله الملك؛ قال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، وفرعون قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]، أما هذا ذي القرنين؛ فإنه عرف حكم الله، وتواضع لله، وعلم أن ما أعطاه الله من القوة والسلطنة أن ذلك فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك لما وصل إلى مغرب الشمس قالوا: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا 86 قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ [الكهف: 86، 87]، حكم بحكم الله، ولذلك أعزه الله ورفع من شأنه ومقامه، هذه الفتن الأربع.

السورة تدور على هذه الفتن الأربع:

1. فتنة الدين مع الفتية.
2. وفتنة المال مع صاحب الجنتين.
3. وفتنة العلم مع موسى والخضر عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.
4. وفتنة السلطة مع ذي القرنين.

والعجيب أن هذه القصص الأربع لم تتكرر في القرآن أبدًا، ليست مثل قصة موسى ولا قصة نوح ولا أي قصة من قصص القرآن تتكرر علينا لا، هذه لم تتكرر أبدًا، ولم ترد إلا في هذه السورة.

نبدأ على بركة الله في أول هذه السورة؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا 1 قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا 2 مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 1 - 3].

نلاحظ أيها الأخوة أن السورة افتتحت بالحمد، وهناك في القرآن خمس سورة افتتحت بالحمد، **"الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر"** كلها افتتحت بالحمد.

والحمد هو: **"الثناء على الله بما يستحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"** نثني على الله بصفاته صفات الكمال، بأسمائه الحسنى، ونثني على الله بما أنعم علينا بأفعاله الحسنة، ونثني على الله بنعمه الظاهرة والباطنة، نثني على الله بما أنعلم علينا في ديننا، وبما أنعم علينا في دنيانا.

وأجل هذه النعم وأعظم هذه النعمة أجلها وأعظمها إنزال القرآن وبعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

فبدايتها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الكهف: 1]، فعلاً الله عَزَّ وَجَلَّ يستحق الحمد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نعمه التي لا تعد ولا تُحصى، ومن أعظم هذه النعم على الإطلاق، نعمة إنزال الكريم، نعمة هذا القرآن، هذا الكتاب كتاب الهداية الذي هذا من أجل النعم، أنزله الله وجعله باقيًا غضًا طريًا لا يتغير ولا يستطيع أحد أن يغير فيه أو يبدل أو يزيد أو ينقص، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أجل النعم أن أنزل علينا هذا القرآن، وكما قال أهل التفسير، قالوا: لما أخبر الله بأن الحمد كله له وأنه هو الذي أنزل القرآن هذا فيه تعليم للناس، فيه تعليم لهم على أن يحمدوه.

فكأن الآية تقول: **"احمدوا الله"** احمدوا ربكم واحمدوا الله عَزَّ وَجَلَّ على أن أنزل عليكم هذا الكتاب، كتاب الهداية، فاحمدوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ما أنزل عليكم هذا القرآن العظيم، وهذا الكتاب العظيم.

ولاحظ أن الله قال: ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الكهف: 1]،، قوله: ﴿أَنْزَلَ﴾ [الكهف: 1]، هذا دليل على أي شيء؟ دليل على أن القرآن منزل من عند الله ولم يكن من عند محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن كلمة، ﴿أَنْزَلَ﴾ [الكهف: 1]، دليل على أنه أنزله من العلو.

ثم قال: ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ [الكهف: 1]، وعبده محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصفة العبودية صفة شرف، تشرف أن تكون عبدًا لله، يميزك الله بأن تكون عبدًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك نلاحظ أيها الأخوة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوصف بالعبودية في أجل المقامات، يوصف هنا عند إنزال القرآن، ويوصف عند الدعوة، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: 19]، عند الدعوة، ويوصف عند أعظم عجزة الإسراء والمعراج، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1].

لاحظ كلمة العبد أنها صفة شرف، ولذلك وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأنبياء بأنهم عباد الله، ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: 45]، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص: 17]، ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: 41]، فالعبودية شرف، شرف أنك تكون عبدًا لله ولا تكون عبدًا لمخلوق، لا لحجر ولا لشجر.

قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: 1]، والكتاب هو القرآن، سمي كتابًا لأنه يُكتب، وسمي قرآنًا لأنه يُقرأ.

قال: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: 1]، أنزل هذا الكتاب وهذا الكتاب لم يجعل فيه عوج.

✍ ما هو العوج؟

العوج هو: **"الميل وعدم الانضباط وعدم الاستقامة"**؛ لأنه قال بعدها: ﴿قَيِّمًا﴾ [الكهف: 2]، والقيم هو: **"المستقيم"**.

فإذا كان كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قيمًا مستقيمًا فلا شك أنه بعيد كلّ البعد عن أن يكون معوجًا وأن تكون أخباره أو تكون أوامره أو نواهيه فيها العوج، والعوج أن يكون فيها ظلم أو يكون فيها عبث، أو يكون فيها أخبار كذب، أو أوامر لا تصلح، هذا كله يتنافى مع القرآن، القرآن مستقيم، فوصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتابه بأنه قيم أي مستقيم وليس فيه عوج.

✍ لما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه أنزل القرآن على عبده، وأنه وصفه بهذه الأوصاف من الغرض من إنزاله، وما الفائدة من إنزاله؟

قال: ﴿لِيُنْذِرَ﴾ [الكهف: 2]، ينذر من؟ قال: القرآن كتاب إنذار، وتحذير، وتخويف، ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا﴾ [الكهف: 2]، أي عقوبة، وعذاب شديدًا، وهذه العقوبة والعذاب الشديد من أين أتى؟ قال: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا﴾ [الكهف: 2]، يعني العذاب من الله وليس إلى البشر، وهذا أشد في التخويف.

قال: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: 2]، لينذر من؟ لينذر كلّ من خالف الله، وكلّ من أغضب الله، وكلّ من لم يرض الله في أعماله؛ فإنه موعود بهذا التخويف هذا الإنذار، ينذرهم أن يخالفوا أوامره، وأن يعصوه.

إذا كان القرآن أيضًا ينذر؛ فإن القرآن أيضًا بشارة، كما أنه نذارة وتخويف؛ فهو بشارة وتبشير للمؤمنين، ولذلك قال: ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ [الكهف: 2]، يبشر من؟ قال: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: 2].

لاحظ أن الله وصفهم بوصفين:

الوصف الأول: **"الإيمان والتصديق بما جاءهم عن الله"**.

الوصف الثاني: **"العمل"**.

الأعمال الصالحة، فلا يكفي أن يقول: أنا مؤمن، إنما هو مؤمن يعمل الصالحات، ما النتيجة؟ قال: يبشرهم، ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: 2]، وهذا الأجر الحسن هو الفوز بجنات النعيم، وبرضا

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وما أعد الله لهم في جنات النعيم في الدار الآخرة؛ لأن الله قال بعدها: ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 3].

لا يزولون ولا يتحولون عنه، ولا يزول عنهم؛ بل باقٍ لهم مستمر، ﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 3].

ثم عاد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحذر مرة أحرى، وأنذر مرة أخرى ليفصل لك من هم الذين أنذرهم؟ فقال أيضًا مرة أخرى: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: 4].

من هم الذين قالوا اتخذ الله ولدًا؟

هم: اليهود والنصارى والمشركين، كلهم ادعوا أن الله ولدًا، فاليهود قالت: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، والنصارى قالت: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، والمشركون قالوا: الملائكة بنات الله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: 4]، يعني هذه الكلمة الخبيثة، وهذه المقالة الشنيعة قالها هؤلاء، وتطاولوا على ربهم، ووصفوا الله بما لا يليق، انتقاصًا لربهم، ولم يعرفوا عظمة الله، ولم يعرفوا قدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك وصفوه بهذه الأوصاف، والله أبطل مقولتهم وردها عليهم؛ لأن هذه المقولة لا تليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتخذ ولد، الذي يتخذ ولد هو المخلوق، الذي يتخذ ولد هو الضعيف المسكين الذي يحتاج لمن يسانده، يحتاج لمن يساعده، أما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو القوي القدير، الغني، الذي لا يحتاج إلى ولد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله يقول: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 47]، وأمره بين الكاف والنون، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: 67]، وكلّ شيء بعلمه، لا يفوته شيء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ما قدروا لله حق قدره حتى يقولوا: إن لله ولدًا، فالله عَزَّ وَجَلَّ أبطل مقولتهم.

ولاحظ وتدبر معي كيف أبطلها؟قال: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الكهف: 5]، يعني أن هذه المقولة مقولة فقط من غير علم، ولا عندهم أي علم فيها، هذه أقوال بأهوائهم وشهواتهم، من عند أنفسهم لا دليل لهم، أعطونا العلم، أعطونا الكتاب.

قال: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [الكهف: 5]، حتى آباؤهم ما عندهم علم، وإنما هم يرددون ما قال آباؤهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: 5]، هذا الرد الثاني أنها كلمة فقط، مجرد كلمة على الأفواه لا حقيقة لها، ولا أصل لها، وإنما يرددونها على أفواههم.

قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ [الكهف: 5]، عظمت هذه الكلمة التي تخرج من أفواههم.

ثم رد عليهم الرد الثالث فقال: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: 5].

فأبطل هذه المقولة بثلاثة ردود:

أولًا: أنهم ما عندهم علم؛ بل هم جهلة وليس عندهم يستندون إليه، ولا كتاب يعتمدون عليه، وإنما هي مجرد كلام بالأفواه، وأن هذا كله كذب في كذب، ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: 5].

فتوعدهم بالعذاب الشديد وأبطل ما قالوه، كلّ هؤلاء رد على أعداء الله الذين وصفوا الله بهذا الوصف الشنيع، وأنهم قالوا: إن لله ولدًا.

ثم انتقلت الآيات إلى بيان حال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته مع قومه، أنه كان حريصًا أشد الحرص على تبليغ رسالة ربه، وأنه كان أشد الحرص على دعوة قومه.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ﴾ [الكهف: 6]، يا محمد، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ [الكهف: 6]، يعني مهلك نفسك، باخع أي مهلكها.

البخع قالوا: **"إنه عرق متصل من الرقبة إلى الرأس، إذا قُطع مات صاحبه"** فلذلك وصفه الله بأنه باخع نفسه؛ أي مهلك نفسه، كأنه قطع هذا العرق، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى؛ قال: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: 8].

وهذا يدل على حرص الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحزنه الشديد على قومه أنه يراهم على هذه الحال، وأنه يدعوهم لينجو من النار، ومع ذلك لم يقبلوا منه، ولذلك قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ [الكهف: 6].

يعني تلاحقهم في كلّ مكان، ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ [الكهف: 6]، أي تتبع آثارهم، أينما كانوا تأتيهم، في مجالسهم، وفي بيوتهم، وفي أنديتهم، وفي طرقاتهم، وفي أسواقهم، لا تترك لهم حال، وهذا يدل على حرصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته.

قال: ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6]، أي بهذا القرآن، وهذا الخبر الذي يأتيه من السماء لم يؤمنوا وأنت قد أهلكت نفسك معهم، وحزن حزنًا شديدًا، أسفًا يعني حزنًا شديدًا، فلا تحزن عليهم.

وهذه الآية فيها التخفيف على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الله ألا يحزن نفسه، فلا تحزن عليهم، وخفف ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، وخفف من نفسك إن لم يؤمنوا، إذا كان الله لم يكتب لهم السعادة فلا تحزن عليهم، فخفف من نفسك.

ثم بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال هذه الدنيا، وأن على الإنسان أن يعتبر بهذه الدنيا وألا يغتر بها، ولابد أن يتحقق بأن هذه الدنيا هي سريعة الزوال، وهذه الدنيا متاع الغرور، وأن هذه الدنيا يتمتع بها الإنسان لينتقل منها إلى دار السعادة، لا أن يغتر بها، وينخدع بها.

ولذلك وصف الله هذه الدنيا في سرعة زوالها، وأن الإنسان ينبغي له أن يسعى إلى الآخرة، لا أنه ينهمك في هذه الدنيا فيغتر بها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصف هذه الدنيا: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ [الكهف: 7]، يقول: كلّ هذه الدنيا وهذه الأرض هذه البسيطة كلّ ما عليها زينة وامتحان، زينة في أشجارها، وفي أنهارها وفي قصورها، وفي مراكبها، وفي نسائها، كلّ ما على هذه الدنيا، وفي أطعمتها، وأشربتها، ومطاعمها، كلّ ذلك زينة تزول، سريعة الزوال.

قال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ [الكهف: 7]، فهي بلوى وامتحان، لنبلوهم بهذه الفتن والمحن، ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7].

إذًا حقيقة الدنيا أن تعمل فيها العمل الصالح، ولذلك الله أراد أن يختبر العباد في هذه الدنيا أيهم الذي يحسن العمل مع ربه؟ لأن هذه الدنيا ذاهبة، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: 8].

هذه الدنيا التي تراها الآن على هذه الأوصاف العظيمة، والانبهار بجمالها وحسنها ستذهب بزخارفها وتنتهي؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ جاعل ما عليها صعيدًا، يعني أرضًا ملساء، أرض زلقاء لا تجد فيها شيئًا من هذه الزينة.

قال: ﴿جُرُزًا﴾ [الكهف: 8]، أي لا نبات فيها، هذه الزروع والمناظر البهية والرياض والأشجار والصور والذهب والفضة والخيل والجمال كله هذا يذهب تصبح كأنها زلقة، أرض مستوية لا شيء فيها، ولا عليها شيء، ﴿جُرُزًا﴾ [الكهف: 8]، لا نبات فيها تنتهي.

فإذا كانت هذه الدنيا يصفها الله لنا بهذه الصفة، وبسرعة زوالها، وأن العبرة فيها العمل الحسن، إذًا لابد أن نعتبر بها وألا نغتر بها.

أيها الأخوة بعد هذه الآيات وهي الآية الثامنة، تنتقل الآيات إلى الدخول في قصة أصحاب الكهف، ولعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده فيما يتعلق بهذه القصة، ونسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(الكهف 9 - 16)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الحاضرون سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق السابع والعشرين من شهر شوال من عام 1442 من الهجرة.

ونواصل تفسيرنا لـــ **"سورة الكهف"**، وفي اللقاء الماضي تكلمنا عن هذه السورة بشكل عام، وأخذنا آيات معدودات من هذه السورة، والآن نواصل ما توقفنا عنده.

وقفنا عند الآية التاسعة من **"سورة الكهف"**، وهي قول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: 9].

لما تحدث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات السابقة عن عظمة هذا القرآن، وأنه قيم وليس فيه عوج، وأن الله هو الذي أنزله على عبده، وهو رسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه من أشرف النعم وأعظمها؛ لأن الله قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: 1].

فجعل إنزال القرآن وإرسال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه الأمة من أعظم النعم التي ينبغي للمسلم أن يشكر الله على هذه النعمة.

ثم بيّن يعني في عظمة هذا القرآن القيم المستقيم أنه أنزل للنذارة والبشارة، فهو ينذر بأسًا شديدًا؛ أي عذابًا شديدًا ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ [الكهف: 2]، أي من عند الله، وأيضًا ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ [الكهف: 2]، فيه بشارات لمن؟ للمؤمنين المصدقين، ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: 2]، فهم صدقوا وآمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحة وحافظوا عليها؛ لأن لهم الأجر الحسن.

وأيضًا حذر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من إنذار من يدعي ويزعم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اتخذ ولدًا، وهذا من أعظم الفرية، وأعظم الافتراء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأعظم الكذب أن تدعي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اتخذ ولدًا، أو أنه محتاج للولد، فحذر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلّ الطوائف التي تدعي أن لله ولدًا كاليهود والنصارى والمشركين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الكهف: 5]، ليس عندهم علم في ذلك، إلى آخر ما أبطل هذه الدعوى، أبطلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ [الكهف: 5]، ولا لآبائهم علم، وأن هذه كلمة خرجت من أفواههم لا دليل عليها، وليست مستقرة، ولا أصل لها، وأن هذا كله كذب في كذب.

ثم بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك حرص الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحرصه على دعوة قومه، وعلى دعوة الناس أن يدخلوا في هذا الدين، لما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6].

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى زهد في هذه الدنيا الفانية، الهالكة، المنتهية، التي لا تبقى؛ بل كلها مكدرة، لا صفو لها، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر هذا الأمر زهد في هذه الدنيا؛ لأنها زينة ذاهبة لا تبقى ولا تستقر، وإنما هي ابتلاء للناس، ابتلاء لمن يعمل الصالحات فيها، ويجعلها زخرًا له في الآخرة، يجعل هذه الأعمال زخرًا له في الآخرة، قال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: 7].

وأن هذه الدنيا زائلة بسرعة، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ سيزيل هذه بلحظة، لما قال: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: 8]، الصعيد هو **"الأرض المبسوطة"** والجرز هي **"الأرض التي لا زرع فيها ولا نبات فيها"** ستذهب كلّ ما على هذه الدنيا.

بعدما حكى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقرر هذه القضايا المهمة من إنزال القرآن ورسالة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعظمة القرآن، ودور القرآن ووظيفته.

بعد ذلك انتقل إلى أن يسوق لنا خبرًا لا يعرفه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تعرفه العرب، ولا علم لها بذلك، حتى اليهود وهم أهل الكتاب الذين يدعون أن عندهم كتاب، ويدعون أنهم أرسل إليهم رسل، ويدعون أن فيهم الأحبار الرهبان، والعلماء، وأن عندهم علم، ومع ذلك لم يعرفوا هذه القصة قصة أصحاب الكهف التي مضى عليها قرون طويلة لا يعرف عنها أي خبر، لا يعرف مكانها، ولا يعرف أهلها، ولا يعرف زمانها، ولا يعرف عددهم، ولا كم مضوا؟ كلّ ذلك مغيب عنهم، حتى جاء القرآن العظيم الذي أوحي إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبر بهذه القصة.

ولما اخبر بهذه القصة بحذافيرها، ودقائقها، وحساباتها الدقيقة، لما أخبر عنها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن أنها قصة غريبة، وأنها عجيبة، وأن الناس سيتعجبون منها، ويستغربون هذا الأمر، ثم أكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هذه القصة ليست هي الغريبة في كتاب الله، وليست هي الغريبة في علم الله؛ بل أن في علم الله وفي كتابه، وفي أخباره ما هو أغرب وأغرب من ذلك، فلا تقف عندها وتستغربها؛ فإن في الكون ما هو أغرب، وفي أخبار الله ما هو أغرب ولذلك افتتح الله القصة بأي شيء؟

افتتحها بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: 9].

أهل التفسير قالوا: إن قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ [الكهف: 9]، استفهام، واستفهام بمعنى النفي والنهي، أي لا تحسب أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آيتنا عجبًا، لا تظن هذا الظن أنها هي العجيبة؛ بل في آيات الله ما هو أعجب، ولذلك الله يرشد إلى النظر في الكون، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 185]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا﴾ [الأنعام: 11].

ففي خلق الله آيات عظيمة، فلا تظن أن هذه القصة هي الوحيدة في كونها عجيبة، وغريبة في علم الله، وفي أخبار الله؛ بل هناك ما هو أعظم وأعجب وأغرب.

ولذلك يقول: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ [الكهف: 9]، أي لا تظن ولا تحسب أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آيات الله عجبًا.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن بعد ذلك حال هؤلاء أصحاب الكهف، وأنهم من هم؟ أنهم فتية، أن أصحاب الكهف فتية، والفتية جمع فتى، والفتية هم الشباب، لا هم كبار السن أو كهول ولا هم صغار؛ وإنما هم في سن الشباب.

قال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: 10]، الكهف ما هو؟ قالوا: **"هو الفجوة في الجبل"** إن كانت صغيرة سميت **"غارًا"** و‘إن كانت كبيرة تأخذ عشرة أشخاص أو قريبًا من ذلك سمي **"كهف"** وهو **"الفتحة أو الفجوة تكون في الجبل"**.

والجبال التي خلقها الله فيها أكنان، وفيها كهوف، وفيها غيران، يستقر فيها الناس، ويدخلون فيها، ويأوون إليها من العدو، ومن الشمس، من حرارة الشمس، ومن الأمطار، ومن الرياح، فهي فيها مصالح.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ﴾ [الكهف: 10]، يعني واذكر حين أوى الفتية يعني توجهوا إلى الكهف، لما أووا إلى الكهف فارين بدينهم، قالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: 10].

هذا يدل على أن الإنسان ينبغي له أن يفعل الأسباب، وأن يتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعليه أن يلجأ إلى رب العالمين، يلجأ ويتضرع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويدعو ربه إن كان يحتاج إلى تفريج كربة دعا ربه وانكسر بين يديه، أو احتاج إلى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستجيب دعوته، أو يفتح له من رحمته، المهم أن الإنسان بحاجة إلى ربه وإلى دعاء ربه.

ولذلك سبحانه هنا بيّن لنا أمرًا مهمًا وهو أن هؤلاء الفتية فروا بدينهم، ولجئوا إلى الكهف ودعوا ربهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]، دعوا ربهم، قال: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: 10].

✍ ما الفائدة؟

الفائدة: هذه الرحمة سبحان الله العظيم هم بحاجة لها، أن يثبتهم الله، وأن يحفظهم من الشر، وأن يوفقهم إلى الخير، الرحمة إذا نزلت؛ نزلت السكينة، ونزلت الطمأنينة، وهم في رعب، وخوف، قد فروا بدينهم من أعدائهم، ومن قومهم أن يبطشوا بهم، وأن يقبضوا عليهم وأن يعذبوهم، ففروا بدينهم ولجئوا إلى هذا الكهف طلبًا أن يثبتهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذه الرحمة، وأن يحفظهم من كلّ شر، وأن يوفقهم لكل خير، ولذلك دعوا بهذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: 10].

ثم قالوا: ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 10]، أي يسر أمورنا، ودلنا على الرشد والخير والصلاح فيما يخص ديننا، أو ما يتعلق بديننا ودنيانا.

🗐 فجمعوا بين أمرين:

الأمر الأول: أنهم فروا بدينهم، ولجئوا إلى هذا الكهف ليحصنهم الكهف ويحفظهم؛ حتى يختفوا عن قومهم.

الأمر الثاني: أنهم تضرعوا إلى ربهم وسألوه أن ييسر أمورهم، وألا يتكلوا على أنفسهم، ولا يتكلوا على شيء من خلق الله، لا على الكهف ولا غير الكهف، ولا على أي مخلوق، وإنما يتكلون على رب العالمين، ويفعلون الأسباب.

ولذلك استجاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم، استجاب الله لهم، وقال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: 11]، ومعنى قوله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ [الكهف: 11]، أي أنمناهم نومة عميقة، لأن الضرب على الأذان جعلهم يستغرقون في النوم، وهذا النوم الذي استغرقوه سنين طويلة، ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: 11]،وهي كما صرح القرآن بها أنها ثلاثمائة وتسع سنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: 25].

✍ ما الحكمة من هذا النوم؟

✍ لماذا ضرب الله على أذانهم فناموا هذا النوم العميق الذي أخذ ثلاثة قرون وزيادة؟

قال أهل التفسير: إن هذا النوم نعمة من الله، حفظ لهم قلوبهم من الاضطراب والخوف، والوجل، وحفظهم أيضًا من قومهم؛ لأنهم إذا ناموا نسوا قومهم، وقومهم نسوهم، وهذه آية عظيمة، والنوم راحة واستقرار.

الإنسان قد يكون في خوف، أو في رعب، أو في تعب وإرهاق، فإذا نام استقرت نفسه، وزال عنه كلّ شيء.

أما إذا لم يأته النوم وهو يحتاج إلى النوم، ثم يصاب بهذا الأرق وهذا التعب والقلق سيستمر في خوف ورعب، فالنوم رحمة كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: 23]، فالنوم آية من آيات الله، ورحمة وفضل عظيم، يتفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به على عباده.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا 11 ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ [الكهف: 11، 12]، أي استيقظناهم، جعلناهم يستيقظون من هذه النومة، والنوم هو أخو الموت؛ لأن الله يبعث، ولذلك الإنسان عندما يقوم من الصباح ماذا يقول: يقول: **"الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور"** أحياك بعدما أماتك، فالنوم موتة صغرى، فأحياك الآن، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ [الكهف: 12].

- بعثهم الله لأي شيء؟
- لماذا لم يناموا ثم يقبض أرواحهم ويموتون؟
- بعثهم الله مرة أخرى لماذا؟

قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: 12]، لنعلم أيهم أحصى لمقدار هذا المدة التي لبثوها.

- من هم الذين يحصونها؟
- من هم الذين سيحصون هذا العدد؟

قال بعض المفسرين: ﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف: 12]، أي أصحاب الكهف، ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ [الكهف: 12]، قالوا: الحزبين هم أصحاب الكهف؛ لأنهم انقسموا قسمين:

قسم قال: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: 19].

وقسم آخر قالوا: **"الله أعلم"** ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: 19]، فسكتوا قالوا: ما ندري.

طائفة قالت: **"نحن لبثنا يوم أو بعض يوم"** لا يدرون هل لبثوا يوم كامل، أو يوم أو أقل من يوم، وطائفة قالوا: **"الله أعلم بذلك"** هذا رأي بعض المفسرين.

وبعض المفسرين قال: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ [الكهف: 12]، الحزبين هم الذين أعثر الله أهل الكهف لهم، لما أعثر الله وكشف أمرهم، لما قاموا وذهب أحدهم إلى المدينة ليأتي بالطعام، علم أهل المدينة بذلك فجاءوا إليهم، فاختلفوا فيهم، الذين قالوا: ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: 21]، أو قالوا: الله أعلم بهم أغلقوا عليهم، فاختلفوا فيما بينهم.

واختلفوا أيضًا في المقدار، ما يدرون كم لبثوا؟ فبدؤوا يتخرصون الأعداد؛ فأخبر الله تعالى قال: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى﴾ [الكهف: 12]، أدق في الحساب، ﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف: 12]، لما لبث أصحاب الكهف من المدة الطويلة، ﴿نَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: 12].

هذا اختصار القصة، اختصرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوجزها ثم فصل فيها، هذا الإيجاز، هذا خبرها الموجز، أنهم فتية، وأنهم أووا إلى الكهف، وأنهم سألوا الله أن ينزل عليهم الرحمة، وأن يهيئ لهم من أمرهم رشدًا، ثم إن الله أنامهم، ثم بعثهم، هذه القصة باختصار، ثم الآن بدأ التفصيل.

قال الله في تفصيلها: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: 13]، لا محمد، ولا اليهود، ولا النصارى، ولا أي إنسان يقص نبأهم بالحق، والتفصيل الدقيق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك الله افتتح بأي شيء؟ قال: ﴿نَحْنُ﴾ [الكهف: 13]، الله هو الذي يتولى هذا الأمر، أما غيرهم لا يعلمون، أما غير الله لا يعلم.

ولذلك قال: ﴿نَحْنُ﴾ [الكهف: 13]، نحن الذين سنقص عليك، سنقص عليك نبأهم، ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [الكهف: 13]، على من؟ على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا يدل على أن الخبر من الله وليس من عند محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ﴾ [الكهف: 13]، أي خبرهم، ﴿بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: 13]، أي الصدق الذي لا مرية فيه ولا شك، الذي لا يدخله الشك ولا الكذب، ولا الخلل، وإنما هو حق ضد الباطل.

ثم فصل الله؛ فقال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ [الكهف: 13]، فتية مثلما ذكرنا، الفتية جمع **"فتى"** وجمعهم على **"فتية"** دل على أنهم جمع قلة، جمع القلة ما دون العشرة، وهم سبعة كما سيأتي أنهم سبعة.

✍ ما صفاتهم هؤلاء الفتية؟

أول صفة قال: ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: 13]، صدقوا بربهم؛ بأن الله هو الذي خلقهم، وهو الذي يستحق العبادة، وأنه لا يجوز أن يصرفوا شيء ممن العبادة لا لآلهة مزعومة، ولا لغيرها.

آمنوا بربهم الذي خلقهم، ورزقهم، وأوجدهم، وهو الذي يميتهم ويحييهم، فعرفوا أمر الله، وعرفوا أن الله هو وحده الذي له تلك الصفات؛ الذي له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يختص به، من الأمر، والنهي، والخلق، والرزق، وغير ذلك.

قال: ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: 13]، قال الله ردًا عليهم: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13]، لما آمنوا، وصدقوا بربهم، واعترفوا بوجود الله، وكفروا بالآلهة المزعومة قال الله: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

فزادهم الله إيمانًا، وهدًى، وعلمًا، ويقينًا، ولذلك الله يقول: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: 17]، هذا أمر.

الأمر الثاني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال فيهم: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: 14]، وهذا أمر مهم جدًا، أن الله ربط على قلوبهم أي ثبتهم على الحق، لم يتزعزعوا، أو يتنازعوا فيما بينهم؛ بل اجتمعت قلوبهم على التوحيد، وعلى الإقرار بوجود الله، وبالإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فثبتهم الله وربط على قلوبهم، وأذهب عنهم القلق والخوف والفزع، وهذا من أهم الأمور، في مثل هذه الأمور والشدائد أن يربط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على قلب الإنسان، اللهم أربط على قلوبنا، اللهم ثبتنا، وهكذا، فربط الله على قلوبهم، وثبتهم.

قال: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: 14]، لاحظ أنهم قاموا فقالوا: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: 14]، أي خالقنا هو الله، خالقنا هو خالق السماوات والأرض، فأقروا بتوحيد الربوبية؛ بأن ربهم هو رب السماوات والأرض؛ فالذي خلق السماوات على عظمها وما فيها من المخلوقات، وخلق الأرض على عظمها وما فيها من المخلوقات هو الذي خلقهم، فقالوا: هو ربنا وهو رب السماوات والأرض.

فإذا اعترفنا بتوحيد الربوبية لزم أن تعترف بتوحيد الإلوهية، أو الإلهية والعبادة وأن تصرف العبادة لله، ولذلك قال: ﴿لَنْ نَدْعُوَ﴾ [الكهف: 14]، أي لا نعبد ﴿مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ [الكهف: 14]، لا نعبد أحدًا من دونه، ثم عللوا ذلك؛ قالوا: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: 14]، أي قولًا فيه جور، وفيه ظلم، وفيه تعدي على حق الله، كيف ندعو من دون الله آلهة؟ ندعو صنمًا لا يسمع ولا يبصر؟ ندعو صنمًا لا ينفع ولا يضر؟! تعبد شجرًا وحجرًا لا ينفعك، تترك الذي خلق الحجر والشجر، خلق الخلق كله؟!

قال: ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ [الكهف: 14]، لا نسجد، ولا نعبد، ولا نقر، ولا ندعو، ولا نعترف إلا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الواحد الأحد الفرض الصمد، ولذلك قال: من قال غير ذلك فقط ظلم نفسه، وشط شططًا بعيدًا، وخرج عن الطريق المستقيم، ولذلك قال: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: 14].

بعض المفسرين يقول: إن قوله: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ [الكهف: 14]، ما معنى قاموا؟ قالوا: إنهم قاموا جميعًا بهذه الكلمة، وبعضهم قال: إنهم قاموا عند قومهم، عند الملك، وعند الناس، وعند قومهم قاموا فوقفوا، واعترفوا، اعترفوا بعبادة الله وحده لا شريك له، وأن الإله الواحد المعبود هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا قالها بعض المفسرين والله أعلم بذلك، المهم أنهم أقروا بهذا الأمر.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: 14]، ثم توجهوا إلى قومهم فقالوا: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ [الكهف: 15]، أي من دون الله، اتخذوا ماذا؟ أي عبدوا، اتخذوا ﴿آلِهَةً﴾ [الكهف: 15]، والآلهة جمع إله، والجمع دليل على البطلان؛ لأنه كثرت الآلهة دل على بطلانها، من هو الذي يُعبد هذا؟ ولا هذا؟ ولا هذا؟ فأصبحت آلهة كثيرة دل على بطلانها وسقوطها وأن الإله واحد.

قال: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: 15]، هؤلاء قومنا يعبدون هذه الأصنام من دون الله، ولا يعبدون ربهم، هل عندهم دليل؟ هل عندهم حجة؟ ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: 15].

ما عندهم دليل، كيف تعبدوا ما لا يدل عليه أنه يستحق العبادة؟ فهذا الظلم بعينه، ولذلك قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: 15]، ممن ادعى أن مع الله آلهة، وعبد من دون الله، يعبدون الأحجار، والأشجار، ويعبدون الأموات، ويطوفون على الأضرحة والقبور، ويدعون أن هذه تنفع؛ بل هذه تضر ولا تنفع، فهذا من الخطأ، وهذا من الظلم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الكهف: 16]، أي أصحاب الكهف اعتزلوا قومهم وفروا بدينهم، لما اعتزلوهم وخرجوا منهم، واجتمعوا على أن يغادروا بلدتهم وأن يفروا بدينهم، اعتزلوا قومهم، وأخذوا بالعزلة، وتركوا الجلوس معهم.

قال: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الكهف: 16]، أي اعتزلوهم، واعتزلوا عبادتهم إلا الله وحده فهم يعبدونه فقط.

قال: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: 16]، قال بعضهم إلى بعض: نأوي إلى هذا الكهف، فخرجوا فارين بدينهم، فلما وقفوا على هذا الكهف دخلوا فيه، ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: 16]، يعني بعضهم قال لبعض: أووا إلى الكهف، وادخلوا في هذا الكهف، وانضموا إليه، واختفوا بدينكم، وبأنفسكم عن قومكم.

✍ فإذا دخلتم بهذا الكهف وتحصنتم به النتيجة ما هي؟

✍ قال: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الكهف: 16].

✍ ما معنى قوله: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الكهف: 16]..؟

أي ييسر لكم الأمر، ويفسح لكم من رحمته، والنشر من نشر الثوب، أنت تنشر الثوب تجعله يأخذ مكانًا واسعًا؛ فأنت تدخل في هذا الكهف لتتسع فيه، وتتيسر أمورك فيه، ويكون سببًا لك وحصنًا لك من أن يعتدي أحد عليك.

قال: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الكهف: 16]، تنزل عليكم الرحمة، ويتسع بكم هذا المكان الذي قد يكون ظاهره ضيقًا، لكنه واسع.

فلذلك قال: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ﴾ [الكهف: 16]، يهيئ وييسر لكم من أمركم مرفقًا، يجعل لكم من هذا الأمر الذي اتخذتموه يجعل لكم المرفق، والمرفق هو المكان الواسع، ومنهم قولهم: **"مرافق الدولة"** وهي الأماكن الواسعة، تجد فيها حدائق ومتسعات، وساحات، تسمى مرافق الدولة، فالمرفق هو المكان الواسع.

قال: ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ [الكهف: 16]، يهيئ وييسر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكم المكان والمحل الواسع الذي تستقرون فيه، وتتهيئون فيه.

بعد ذلك تدخل الآيات في وصف هذا الكهف، ويعطيك القرآن يعني كأنك تشاهد هذا الكهف أمامك، لما قال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: 17].

وكأنك تشاهد هذا الكهف، لكن الحديث يطول، والقصة طويلة وشيقة جدًا، ولكن الوقت ضيق، فلعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(الكهف 17 - 20)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهو لقاء الثلاثاء في تفسير القرآن العظيم، وهذا اليوم هو اليوم الخامس من شهر ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم، شهر ذي القعدة من عام 1442من الهجرة.

والآيات التي بين أيدينا كما هو ظاهر للجميع أنها من **"سورة الكهف"**، وهذا اللقاء الثالث والمجلس الثالث من مجالس تفسير **"سورة الكهف"**، وتوقف بنا الكلام في لقاؤنا الماضي عند الآية السابعة عشرة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْه﴾ [الكهف: 17].

الآن أصحاب الكهف لجئوا إلى الكهف وآووا إلى الكهف؛ لأنهم اعتزلوا قومهم، وآووا إلى الكهف، وقالوا: نذهب إلى الكهف لينشر لنا ربنا من رحمته، ويهيئ لنا من أمرنا مرفقًا، وتركوا قومهم وما كانوا يعبدون من دون الله من هذه الأصنام، وكفرهم بالله، وتمسكوا بما هم عليه من مبدأ الإسلام والإيمان هؤلاء الفتية، وخرجوا مهاجرين تاركين ديارهم، وتاركين أهليهم، وتاركين قومهم الذين كانوا على الكفر وعلى عبادة الأصنام.

ولجئوا إلى ربهم وهم قد فروا بدينهم؛ لأنهم قد حاولوا الدعوة إلى الله، وقاموا أمام قومهم ودعوهم، ولكن لم يستجيبوا، مثلما فعل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

إبراهيم إمام الحنفاء عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما دعا قومه واستمر في دعوته لأبيه وقومه، وأبوا إلا الكفر وعدم الإيمان ماذا صنع؟ هاجر، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: 99].

فلما وصل الأمر إلى أن أحرقوه بالنار تركهم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: 99]، فهاجر وترك بلده العراق واتجه إلى الشام، واستقر في فلسطين، هذا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أخذ زوجته معه سارة، وذهب إلى ذلك المكان واستقر فيه ليقيم شرع الله، وليقيم عبادة الله.

هؤلاء أصحاب الكهف هؤلاء الفتية فروا بدينهم، لما عجزوا عن إقامة الدين كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: 56].

ففروا بدينهم وخرجوا، وتعرف أنهم شباب وفتنة، لم تكن عندهم تجارب سابقة، وفي خوف ورعب، ويخشون أن يُكشف أمرهم، ويخشون أيضًا أن يُقبض عليهم، ولا يعرفون الطرقات، فلما وجدوا هذا الكهف لجئوا إليه، لجئوا إلى هذا الكهف واستقروا في هذا الكهف.

فأخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنهم دخلوا إلى هذا الكهف واستقروا فيه، لما استقروا في هذا الكهف ذكر الله لنا حالهم لما دخلوا هذا الكهف واستقروا فيه، يعني من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهؤلاء الفتية المؤمنين الصالحين أن الله ضرب عليهم النوم كما قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: 11].

فجاءوا خائفين، وجاءوا متبعين، منهكين، فكل ألقى بنفسه على الأرض ونام، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصفهم، والله عَزَّ وَجَلَّ يعطيك الصورة الواضحة وكأنك تراهم رأي العين كأنك الآن أمامهم، كأنك الآن أمام الكهف، ولذلك يصور الله لنا الصورة ويستحضر لنا هذه الصورة كأنك أنت الآن حاضر؛ يقول: ﴿وَتَرَى﴾ [الكهف: 17].

✍من هو الذي يرى؟

✍قال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ﴾ [الكهف: 17]، من هو؟

قالوا: الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه هو المخاطب في أول الآيات، ومن يقرأ هذه الآيات، فكل من يقرأ هذه الآيات أو يستمع إلى هذه الآيات يخاطب بهذا الخطاب؛ فيقال له: أيها المستمع، أيها القارئ، أيها النبي ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ [الكهف: 17].

الكهف مفتوح، والشمس عند طلوعها في أول النهار إذا طلعت تزاور عن كهفهم تميل؛ لأن معنى تزاور أي تميل، في قراءة **"تتزاور"** وفي قراءة**" تزور"** فكلها بمعنى الميل، يقول: **"وترى الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم ذات اليمين"**.

✍قال: ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ [الكهف: 17]، كيف اليمن؟

يقول: تأتي الشمس وتميل إليهم ميلاً خفيفًا، يعني تدخل عليهم في وقت قصير ثم تذهب، هذا عند طلوعها، وتكون عن يمين داخل الكهف، الذي يدخل إلى الكهف يستقبل الكهف تأتي الشمس عن يمينه، فتدخل في الجانب الأيمن من الكهف، وتستقر فترة ثم تذهب، وإذا ارتفعت ذهبت.

✍وإذا غربت وقت الغروب ماذا يحدث؟

قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: 17]، أصلاً القرض هو القطع، ومنه قرض الثوب أي قطعه، فهي تقرضهما ذات الشمال يعني لا تطيل المكث عندهم، ذات الشمال يعني الجانب الأيسر من الكهف، الذي يدخل الكهف ويستقبل الكهف جهة اليسار تأتي الشمس في آخر العصر، ولكنها لا تمكث طويلاً؛ لأنه تعرف وقت غروب الشمس تتفيأ بسرعة، وتذهب بسرعة، ليست مثل طلوعها وارتفاعها شيئًا فشيئًا لا، وقت الغروب تذهب الشمس في وقت سريع.

قال: ﴿وَهُمْ﴾ [الكهف: 17]، حالهم ماذا؟ قال: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ [الكهف: 17]، في فجوة من الكهف، فجوة يعني اتساع، المكان واسع، متسع، ويطرقهم الهواء، ويزول عنهم الأذى من المكان الضيق، والشمس تدخل عليهم وقتًا قصيرًا، وتذهب، وهم في هذا المتسع.

قال الله بعدها: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الكهف: 17].

السؤال هنا:

✍إذا عرفت أن الشمس عند طلوعها تدخل عليهم من جهة اليمين، وعند غروبها تأتيهم من جهة الشمال، فماذا سيكون واجهة الكهف؟

أكثر أهل العلم ومنهم الإمام الرازي قال: إن جهة الكهف جهة شمالية، الجهة الشمالية من الأرض الشمس تأتي من المشرق فتدخل جهة اليمن من الكهف، وإذا ذهبت إلى جهة المغرب تأتيه من جهة الشمال، فدل ذلك على أن واجهة الكهف واجهة شمالية.

لكن يبقى عندنا كلام وهو أين موضع الكهف؟
وأين مكان الكهف؟
وفي أي زمن كانوا أصحاب الكهف؟
نقول: القرآن لم يحدد المكان، ولم يحدد الزمان؛ لأنها ليست ذات أهمية كبيرة، الأهم أن نأخذ الدروس والمواعظ، والتوجيهات الربانية من القصة، لا أن نعرف مكانها، أو أن نعرف زمانها.
ولذلك كثير في القرآن الكريم، ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: 259]، ما هي القرية؟، وأيضًا ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ [يس: 13]، ما هي القرية؟
تحديد الأسماء وتحديد الأماكن هذه لا تعنينا كثيرًا، ومما يدل على أن الله طوى ذكره ولم يقف عنده كثيرًا تجد أن الذين يحددون الأماكن يتخبطون، الآن لو تقرأ عن مكان أهل الكهف يقولون: في الأردن، وهو الآن موجود في الأردن، يدعون أنه هو، والله أعلم عن صحته.
الآن موجود في الأردن مكان مزار أصحاب الكهف، وتدخل إلى الكهف وتشوف أماكن أصحاب الكهف، لكن هل هو فعلاً مكان أصحاب الكهف؟ الله أعلم.
وبعضهم يقول: إنه في تركيا، وبعضهم يقول: في شمال لبنان قريبًا من أنطاكيا، وبعضهم يقول: قريب من حلب، وبعضهم يقول: في عمان، في دولة عمان، الله أعلم بالتحديد، لا نستطيع أن نجزم بمكان أصحاب الكهف؛ لأن أهل مكة والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واليهود في زمن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يعرفون قصة أصحاب الكهف، ما يعرفونها بتفاصيلها، فكيف يأتي هؤلاء المتأخرون ويقولون: هذا مكانه؟!! فالله أعلم.
فالزمان ما ندري، هل هم قبل عيسى؟ بعد عيسى؟ قبل موسى؟ لا نعرف، الله أعلم، ولا يهمنا كثيرًا، والذي يهمنا العبرة.
الذي نريد أن نركز عليه أن نأخذ العبرة، أن نعرف أن أهل الصلاح، والإيمان، والهدى، مثل هؤلاء أهل الكهف الذين تمسكوا بدينهم وفروا بدينهم أن الله تولى أمرهم، هذه هي العبرة، أن نعرف أن الله تولى أمرهم، وحفظ لهم دينهم، وحفظ لهم أبدانهم، حتى أبدانهم مع مر السنين ثلاثمائة سنة حفظ الله لهم أبدانهم، حفظ لهم كلبهم، هذا الذي يعنينا، حتى أن الله ذكر الكلب وخلد ذكره في القرآن؛ لأنه صاحب رفقة صالحة، هذه الفرقة الصالحة هي التي تعنينا.
فنأخذ الدرس من هذه القصة: **"ونعرف أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع العبد إذا صدق العبد مع ربه، إذا صدق العبد مع ربه؛ فإن الله معه، وأن الله يتولى أمره"** وهؤلاء تولى الله أمرهم.
حتى تلاحظ أن في الآيات أن الله حماهم وحفظهم، ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: 18]، كلّ ذلك ألقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الهيبة على من أراد أن يقترب منهم فقط، هذا الذي يهمنا.
قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ [الكهف: 17]، هذا التيسير واختيار المكان، وتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم أن وقعوا على هذا المكان وجلسوا فيه، وألقوا بأنفسهم في هذا المكان ودخلوا فيه، فهذا آية من آيات الله، اختاره الله لهم، وهداهم، ووفقهم وحفظهم، فأصبح هذا الأمر آية من آيات الله، وليست آية فقط؛ بل آية خالدة على مر السنين منذ نزول القرآن إلى الآن، وستستمر هذه الآية.
قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الكهف: 17]، هذه جملة شرطية، الذي يهده الله هو الذي يهتدي، وهو الذي يفوز بالهدي، طيب وإذا لم يهتد بهداية الله؟ قال: ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ [الكهف: 17]، ضل بنفسه ثم أضله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: 17]، لن تجد له من يتولى أمره، ويرشده ويهديه أبدًا، فسيبقى في ضلال، وفي حيرة.

لكن الهداية هداية الله، والمهتدي هو من هداه الله، والضلال من خالف أمر الله؛ فإنه لن يستطيع ولو بحث، ولو حاول الهداية لن يجدها، تعود الآيات مرة أخرى تصور لنا أيضًا موقف آخر من أصحاب الكهف، لما دخلوا هذا الكهف ما الذي جرى لهم؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: 18]، يعني تظنهم، تحسبهم يعني تعتقد أو تظن، تظن أنهم أيقاظ، يعني لم يناموا، أيقاظًا، لم يغلب عليه النوم، والحقيقة أنهم رقود.

✍ لماذا يقول هذا الكلام؟

قال أهل التفسير: إن الناظر إلى أصحاب الكهف إذا دخل عليهم يظن أنهم أيقاظ، والحال أنهم نيام، لماذا؟ قال: لأن أعينهم منفتحة، فالله جعل أعينهم منفتحة لم تنغلق، لماذا؟ لئلا تفسد؛ لأنها لو أطبقت العينين وأغمضوا أعينهم في نومهم كعادة الإنسان ستمر هذه السنين الطويلة التي هي ثلاثمائة سنة وزيادة؛ فإنهم لن يستطيعوا أن يفتحوا أعينهم، فجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعينهم منفتحة لئلا تفسد.

فالناظر إليهم يظن أنهم أيقاظًا، والحقيقة أنهم رقود.

✍ طيب لماذا قال: رقود؟ لماذا لم يقل: إنهم نيام؟

✍ ما الفرق بين النائم والراقد؟

قالوا: الرقود أشد من النوم، الرقود يعني إنسان ينغمس في النوم أكثر، والرقود أعلى وأشد من النوم، النوم قد يستيقظ بسرعة، لكن الرقدة طويلة، ولذلك الكفار يقولون يوم القيامة: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾ [يس: 52]، يظنون أنها نومة طويلة، فالنومة الطويلة تسمى رقود، تسمى رقدة، ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: 18].

قال: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: 18]، وهذا من حفظ الله لهم، حفظ الله أجسادهم، لو بقوا على جهة واحدة واستمر ذلك ثلاثمائة سنة لاشك أن الأرض ستأكل أجسادهم، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حكمته أنه يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، مرة على الجنب الأيمن، ومرة على الظهر، ومرة على الجنب الأيسر، وهكذا حتى لا تأكل الأرض أجسادهم، لأن طبيعة الأرض من بقي فترة طويلة؛ فإن الأرض تأكل الجسد، وتأكل ما فوقها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: 18]، الكلب أصابه النوم الذي أصابهم، فرقد معهم، وكان جالسًا عند الباب، يحرسهم؛ لأن طبيعة الكلب، طبيعة كلب الحراسة أنه يبقى في المكان، ما يكون داخل، وإنما يكون عند الباب.

قال: ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ [الكهف: 18]، لأن الذي يحرس ينظر يمين وشمالًا من الكلام المعلمة التي تقوم بالحراسة فإنها تبسط ذراعيها وتجلس ترقب من يأتي يعتدي عليهم، ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: 18]، الوصيد مدخل الكهف، وقيل: هو فناء الكهف، في وسط الكهف، وهو قد يكون راجعًا إلى وسط الكهف، وقد يكون على باب الكهف.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: 18]، يقول: لو اطلعت عليهم يا محمد، ولو اطلعت عليهم أيها الإنسان المخاطب يا من يسمع هذا الكلام أو يقرأه، والله لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارًا، لأسرعت فارًا منهم، ولملئت منهم رعبًا وخوفًا، سيصيبك الرعب، وستفر فرارًا شديدًا، لماذا؟ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قذف الرعب في من أراد أن يقترب منهم، سواء كان هذا إنسانًا أو حيوانًا، وإلا الكهف قريب من المدينة، ومعروف، يستطيع أي إنسان يمر من عنده ويراه.

لكن كلّ من أراد الاقتراب منه فر، وخاف، أُلقي الرعب فيه، وما يُذكر في بعض المسلسلات أنهم كانوا يعني ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: 18]، لأن أشكالهم

مخيفة، وأن أظفارهم طويلة، وأن شعورهم طويلة، وأنه تغيرت أشكالهم، هذا كله كذب في كذب ولا يصح.

✍ما هو الدليل على ذلك؟

الدليل على ذلك: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بعثهم من نومتهم قال بعضهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: 19]، ولم ينكر بعضهم على بعض، لم يقل: لماذا شكلك تغير؟ ولماذا طالت أظافرك؟ ولماذا شعرك هكذا؟ ما ذكروا، ولكن قالوا: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: 19]، فهذا دليل أنه لم تتغير حالهم أبدًا، والكلام عن الرعب كان سببه كذا، هذا كلام غير صحيح أبدًا.

بعدما دخلوا الكهف وألقوا بأنفسهم على الأرض، كلٌّ أخذ مكانه ونام، وألقى الله عليهم النوم، ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ [الكهف: 11]، فأنامهم ليستريحوا، يستريحوا من أي شيء؟ يستريحوا من التعب، ويستريحوا من الرعب والخوف الذي أصابهم؛ لأنهم يخافون أن يكشف أمرهم، ولذلك أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلهم ينامون هذه النومة، والنوم رحمة آية من آيات الله، ورحمة تستقر النفوس مع النوم، ويزول الهم والغم، ولذلك الإنسان إذا نام واستقر ثم استيقظ تكون حاله أحسن مما كان قبل النوم.

لما ناموا هذه المدة الطويلة جدًا التي ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن مدة نومهم ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعًا هذه المدة مضت، ومضت هذه القرون الثلاثة، وذهب قومهم وماتوا ولم يبق منهم أحد، وخلفهم أقوام، وأقوام، وأقوام، وتغيرت البلاد، وتغيرت الطرقات، وتغيرت الأحوال كلها، بعثهم الله، أيقظهم من نومتهم، قاموا جميعًا، فلما قاموا قال الله فيهم: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ [الكهف: 19].

مثلما أنامهم الله هذه النومة العميقة، أيضًا بعثهم، لماذا؟ قال: ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: 19]، ليسأل بعضهم بعضًا؛ لأن الله قال في أول الآيات: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: 12]، لأنهم أصبحوا فريقين، فأيهم الذي أدق في الحساب؟

قال: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: 19]، يسأل بعضهم بعضًا، يتساءلون عن أي شيء؟ قال: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: 19].

قيل: إنهم دخلوا في الصباح أو أول النهار واستيقظوا آخر النهار، فهم لا يدرون أن آخر النهار هو ليوم كامل أم بعض يوم؟ ما يدرون هل ناموا إلى العصر؟ أو يوم وزيادة، ما يدرون، ولذلك هم قالوا: يمكن يوم أو جزء من يوم.

فقال بعضهم: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: 19]، كأنهم استنكروا الأمر، ما ندري يمكن يوم ويمكن يومين ويمكن أكثر الله أعلم، فوكلوا الأمر إلى الله، وهذا هو أحسن شيء، الإنسان إذا شك في شيء ما يدري يقول: الله أعلم، لا يتكلم بشيء لا يعلمه، فالإنسان ينبغي أن يفوض أمره إلى الله؛ فيقول: الله أعلم.

قال: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ [الكهف: 19]، أرسلوا واحد منكم يأتينا بالطعام، الورق هي **"الفضة المضروبة"** العملة إذا كانت من الفضة المضروبة؛ فإنها تسمى ورق.

قال: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: 19]، وهذا يدل على أنهم كانوا قريبين من المدينة، قالوا: أرسلوا واحد منكم يذهب إلى المدينة، لماذا؟

قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ [الكهف: 19]، أيها أفضل طعامًا، يعني يتخير من الطعام أطيبه وألذه، ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ [الكهف: 19]، خذ الدراهم، وهذا يدل على جواز الشركة أن يشتركوا في المال؛ لأنه قال: ﴿بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ﴾ [الكهف: 19]، فدل على ما يسمونه بالجطة، يعني كلّ واحد يدفع مال ويشتركون فيه، ويدل على جواز الوكالة؛ لأنهم وكلوا واحد منهم، وكلوا أحدهم، وقالوا: اذهب وائت لنا بالطعام.

قال: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: 19]، التلطف هو أن يذهب بخفية، لا يظهر نفسه أمام الناس، فهو يذهب بسرعة وينجز الشغل ويأتي بسرعة؛ بحيث لا يشعر به أحد، هذا هو التلطف، بخفية.

✍ لماذا نصوا على أن يتلطف؟

نقول: حتى لا يُكشف أمرهم، ولذلك قال: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 19]، يعني لا تجعلوا أحد يحس بكم، فأنت حاول أن تذهب وتأتي بالطعام، وأن يكون الطعام من أفضل الأطعمة، وهذا يدل على أن الإنسان إذا أراد أن يشتري الطعام أنه يتخير أطيبه ولو كان ثمنه أكثر، يبحث عن الطعام الطيب ولا يبحث عن الأطعمة الرديئة.

قال: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 19]، أي لا يجعل أحد يشعر ويحس بكم، ويكشف أمركم.

✍ لماذا يتلطف؟ ولماذا لا يشعر أحد بهم؟

قال: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 20]، لو عثروا عليكم، وعلموكم، وعرفوكم، وكشفوا أمركم؛ سيرجموكم بالحجارة ثم تموتون، أو أشد من ذلك أن يلزموكم بالعودة إلى الكفر، وهذا الذي نحذر منه؛ لأنه لن تفلح إن كفرت بالله، ولذلك خافوا على دنيهم أشد من خوفهم من أن يرموا بالحجارة.

طيب أيها الأخوة لا نطيل عليكم والوقت يضيق بنا، لعلنا نقف عند هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف: 21]، يعني أعثر الله الناس عليهم، كشف للناس أمرهم، وماذا جرى لما كشف الله أمرهم للناس؟ ماذا حصل لهم بعد ثلاثمائة سنة وزيادة تسع سنوات؟ هذا ما يأتي الحديث عنه إن شاء الله في اللقاء القادم، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(الكهف 21 - 26)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق الثاني عشر من شهر ذي القعدة من عام 1442من الهجرة.

في هذا اليوم نستكمل ما توقفنا عنده ولا زلنا نتناول الآيات الواردة في **"سورة الكهف"** ووقف بنا الكلام عند الآية الحادية والعشرين من هذه السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: 21].

قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الكهف: 21]، هم أصحاب الكهف، وفي الآيات السابقة قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ [الكهف: 19]، أي جعلناهم يستيقظون من نومهم، بعثهم الله وأحياهم من النوم، لما ناموا أيقظهم الله من نومتهم الطويلة التي مكثت ثلاثمائة سنة، وتسع سنين، هذه المدة الطويلة التي ناموها بعثهم اللهم، فبعثهم الله جَلَّ جَلَالُهُ وقاموا وتساءلوا بينهم، فقالوا: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [البقرة: 259]، يعني نومتنا هذه استغرقت يومًا أو أقل من يوم.

ثم وكلوا الأمر إلى الله، وهذا من حسن الأدب، أنك إذا شككت في أمر من الأمور أنت تكل الأمر إلى الله، ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: 19].

ثم قالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ﴾ [الكهف: 19]، أي أرسلوا واحدًا منكم، بهذه الورق، وهي دراهم من الفضة مضروبة كانوا قد جمعوها، ودفعوها لهذا الشخص ليذهب إلى المدينة وهذا يدل على أن الكهف كان قريبًا من المدينة، يذهب ويأتي بأفضل الطعام، يأتي به وليكن في ذهابه وعودته متسترًا مختفيًا، ومسرعًا لا يتأخر؛ حتى لا يُشعر بنا أحدًا، ثم يأتون إلينا ويعرفون مكاننا ويقبضون علينا.

فإذا ظهروا علينا فإنهم سيرجموننا حتى الموت، أو أنهم يلزموننا بقوة أن نعود إلى دينهم الكفر، هذا أشد وأعظم؛ لأنه لا فلاح بعده، أما القتل فأهون أن يقتلوا وهم على الإسلام، أهون من أن يعودوا عن الإسلام إلى الكفر.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا﴾ [الكهف: 21]، أي جعلوا الناس يعثرون عليهم، أي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي جعل الناس يكشفون أمرهم، وإلا مرت سنين والناس يبحثون عنهم في وقتهم، ولم يستطيعوا الوصول إليهم، ومرت أجيال ثم أجيال، وقرون بعد قورن، ومرت سنين طويلة والناس يتذاكرونهم ويتناقلون أخبارهم ولكن لا يعلمون أين هم.

فمرت هذه السنين الطويلة ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد هذا الأمر أن يجعل الناس يعثرون عليهم، ويكشفون أمرهم، بأن الله أيقظهم من نومتهم، ولما أيقظهم من نومتهم وأرسل أحدهم انكشف أمرهم، والذي كشفه هو الله؛ لأن الله يقول هنا: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا﴾ [الكهف: 21]، أعثرنا الناس عليهم؛ فالذي أعثر الناس عليهم هو الله.

ومعنى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ [الكهف: 21]، أي مثل ما أننا أيقظناهم من هذه النومة الطويلة كذلك أعثرنا الناس عليهم.

لو سألك سائل قال:

لماذا أعثر الله عَزَّ وَجَلَّ الناس عليهم؟

نقول: دائمًا كلمة العثور على شيء مفقود، أنت فقدت شيئًا غاليًا عندك، مثلاً جوال أو ساعة، ثم بحثت ولم تجده، ثم وجده آخر، فنقول لهذا الشخص: هذا الذي عثر عليه، وأتى به.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ [الكهف: 21]، فالعثور يكون على شيء غائب، كان الناس ينتظرونه.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا ﴾ [الكهف: 21].

لو سألك سائل قال:

ما الحكمة من أن الله كشف أمرهم للناس؟

لماذا لم يستمر الستر عليهم كما أن الله ستر عليهم في أول الأمر؟

نقول: قال: ﴿لِيَعْلَمُوا ﴾ [الكهف: 21]، أي ليعلم الناس الذين في وقتهم والذين يأتون من بعدهم، وكلّ من قرأ قصتهم وعرفها يعلم أن وعد الله حق، ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الكهف: 21].

ما هو وعد الله؟

هو: **"أن الله سيبعث من في القبور"** أن وعد الساعة، وأن يوم القيامة آتٍ وأن الله يبعث من في القبور، ولذلك قال: ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: 21].

هذه الساعة لا شيك فيها عاقل؛ إنما الذي يشك فيها هو ضعيف الإيمان أو معدوم الإيمان، أما المؤمن؛ فإنه لا يشك في بعث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقد بعث هؤلاء من رقدتهم الطويلة ثلاثمائة وتسع سنوات، بعثهم الله أمام الناس، وبعث الرجل الذي يقال له عزير الذي مر على قرية فأماته الله، أماته ولم يجعله ينام، لا؛ بل أماته قبل روحه، أماته الله مائة سنة، مائة عام ثم بعثه، فأحياه، فالذي أحياه بعد هذه المدة الطويلة، وأحيا هؤلاء أصحاب الكهف الفتية؛فلا يشك عاقل في أن الله قادر.

فالذي بعثهم واراك إياهم في الدنيا قادر على أن يبعث الناس جميعًا في الآخرة، ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ 49 لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: 49، 50].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: 13]، يعني صيحة واحدة يصيح بهم إسرافيل الموكل بالنفخ في الصور، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ 13 فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: 13، 14]، أي على الأرض، وفي سورة أخرى؛ قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: 53]، أو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الصافات: 19].

كلها تدل على سرعة هذا الأمر، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، قال: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: 21].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ [الكهف: 21].

من هم الذين يتنازعون أمرهم بينهم؟

هم: هؤلاء الذين انشكف الأمر عندهم، هم الذين كُشف عن أصحاب الكهف في زمانهم، تنازعوا فيهم أي تخاصموا فيهم، في أمرهم، في أي شيء؟

أولًا: لابد أن نعرف أن هذا الرجل الذي بعثه أصحابه الفتى الذي بعثه أصحابه؛ لما بعثوه إلى المدينة كان معهم هذه الدراهم، فذهب وهو يمشي قد رأى أن الطريق تغير، ومعالم الطريق تغيرت عليه، لكنه اتهم نفسه قال: لعل كذا، فلما دخل السوق؛ فإذا الباعة يبيعون، فاشترى منه طعامًا وأخرج الدنانير ليعيطه، فأخذ الدنانير هذا البائع فإذا الدنانير قديمة جدًا لا يعرفها، قال له: من أين أتيت بهذه الدراهم؟ قال: هذه الدراهم قد بعت بها أمس، حصلتها من أمس، وأخذت من زملائي بعضها، قال: هذه ليست من أمس ولا أيام قليلة، هذه مدتها طويلة جدًا، فنظرًا فإذا الأشكال قد تغيرت، والملابس والملامح، وكلّ شيء تغير.

فاستنكر عليه فبدأ يخبر من حوله، فاجتمع الناس حوله، فلما رأى الناس قد اجتمعوا حوله فر منهم إلى الكهف إلى أصحابه، فلحقوا به فدخل الكهف مع أصحابه، فلما وصل الناس والله عَزَّ وَجَلَّ أرحم الراحمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فمن رحمته جَلَّ وَعَلَا أن أماتهم جميعًا، أن أماتهم في تلك الساعة، لماذا؟ لئلا يحرجهم مع الناس، الناس سينظرون إليهم ويسألونهم، ويستنكرون الأمر، ويستغربونه؛ فالله من رحمتهم لأنهم لن يعيشوا معهم فالفارق كبير جدًا، فمن رحمته أنه أماتهم جميعًا.

فلما وصل القوم وأصحاب القرية إلى الكهف فإذا هم قد ماتوا، فعرفوا وقص عليهم صاحب المحل القصة وقال: إنه أتى إلى بدراهم، وعرفوا أنهم هم هؤلاء الذين كان الناس قديمًا وقديمًا يتحدثون أن هناك فتية فعرفوا، فلما عرفوا قالوا: هؤلاء فتة آمنوا بربهم، وصدقوا بالله، وآمنوا به، فهم من أولياء الله، لا نتدخل بهم.

✍ لذلك بدؤوا الناس يتنازعون فيهم ماذا نصنع بهم؟

✍ هل نتركهم للسباع تأكلهم والناس يتفرجون عليهم؟

قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ [الكهف: 21]، فقال بعضهم: ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا﴾ [الكهف: 21]، نبني عليهم بنيانًا ونغلق عليهم الكهف ونتركهم لله، ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ [الكهف: 21]، نبني ونغلق عليهم الكهف والله يتولى أمرهم.

قالت طائفة أخرى وهم الأكثر وهم الذين قولهم غلب: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ [الكهف: 21]، على أمر الأولين، ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ [الكهف: 21]، فهؤلاء رجال صالحون وأولياء من أولاء الله لا نتركهم هكذا، نغلق عليهم، ونبني مسجدًا عليهم؛ لأنهم رجال صالحين، فنتبرك بهم.

انتهى الأمر إلى أنهم يتخذون عليهم مسجدًا، يتقربون فيه، ويدعون فيه ربهم، ويكون ذلك كأنه تقربًا إلى الله بهذا الأمر.

وهذا فعلوه، ولكنه أمر محرم، وهو بناء المساجد على القبور لا تجوز، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**، وقال: **«لا تتخذوا قبري مسجدًا»**، ونهى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا الأمر، فهذا لا يجوز.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك، يعني لما انتهى هذا الحوار وحصل هذا الأمر، وانتهى الأمر، انتهت القصة، قصة أصحاب الكهف، ثم عادت الآيات بعد ذلك لبيان موقف اليهود الذين ادعوا أو هم الذين أثاروا موضوع الفتنة وقالوا للمشركين: اسألوا محمد عن الفتية الذين ذهبوا في السنين الأولى لا يُدرى ماذا جرى لهم؟

فبدؤوا يناقشون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون: إنهم كانوا ثلاثة، ومعهم كلب وهو الرابع، وبعضهم من بعض اليهود وهم يدعون أنهم عندهم علم قالوا: لا، إنما كانوا خمسة، والسادس هو الكلب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذين القولين: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: 22]، أي تخرصًا منهم، تخرصًا وتخمين وليس حقيقة؛ لأن هذا القول غير صحيح، فالذين قالوا: إنهم ثلاثة ورابعهم كلبهم قول باطل، والذين يقولون: خمسة وسادسهم كلبهم أيضًا قول باطل، فالله أبطلهم؛ بقوله: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: 22]، اي أنهم يرمون رميًا بشيء غائب عنهم لا يعرفونه، وهذا كله تخرص، كيف تحكم على شيء وأنت لم تراه؟ كلّ هذا باطل.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: 22]، لم يقدح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذا القول، وإنما سكت عنه، وسكوته دليل على صحته، أي أنهم سبعة وثامنهم كلهم.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ [الكهف: 22]، أي قل يا محمد لهؤلاء اليهود: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ [الكهف: 22]، الله هو الذي يعلم عدتهم، ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [الكهف: 22]، إلا أُناس الله أعلمهم وأخبرهم.

يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **"أنا من القليل الذين يعلمون عددهم"** فدل على أنهم كانوا سبعة وكان الثامن كلبهم.

قال الله موجهًا ومعلمًا رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [الكهف: 22]، يعني لا تجادل ولا تناقش فيهم، في هؤلاء، إلا نقاش ومجادلة ظاهرة فقط، يعني لا تتوسع في هذا؛ لأن هذا كله لابد من أن تكون المجادلة القوية والنقاش لابد أن يكون عن علم وعن دليل، وأما مثل هؤلاء لا دليل ولا علم فلا تناقش فيهم، إلا نقاش خفيف، ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [الكهف: 22].

ثم قال: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ [الكهف: 22]، أي لا تطلب الفتيا والعلم ﴿فِيهِمْ﴾ [الكهف: 22]، أي في أصحاب الكهف، ﴿مِنْهُمْ﴾ [الكهف: 22]، أي من اليهود، لا تستفت في هؤلاء في أصحاب الكهف، ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 22]، لا تذهب إلى هؤلاء اليهود وتسألهم فتقول لهم: كم عددهم؟ وما حالهم؟ وكم لبثوا؟ فهم لا علم لهم، لا علم إلا تخرصًا.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال موجهًا إلى الرسل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يجادل الجدال القوي، وألا يستفتي هؤلاء في حال أصحاب الكهف؛ فإن علمهم عند الله.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا 23 إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: 23، 24].

هذا الكلام يربطنا بسبب نزول السورة، لما ذهب نفر من المشركين إلى اليهود وقالوا: إن محمد يدعي أنه رسول، وأنه يوحى إليه؛ قال اليهود: **"سلوه عن ثلاثة أشياء، إن أجابهم فهو رسول، سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح"**.

فالرسول لما جاء المشركون إليه فقالوا: **"نسألك يا محمد، قال: ماذا تسألونني؟ قالوا: نسألك من هم أصحاب الكهف؟ ومن هو ذي القرنين؟ وما معنى الروح؟ فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أخبركم غدًا"** ولم يقل: إن شاء الله.

فانقطع الوحي خمس عشرة ليلة، لم يأت حتى أرجف أهل مكة؛ وقالوا: إن محمد يعدنا ويكذب علينا، فأحرج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وضاق صدرًا بهذا الأمر؛ حتى جاء الوحي وأخبره وأدبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألا يقول لأي أمر مستقبل إلا أن يعلق ذلك بالمشيئة، فلا تقول: **"أذهب غدًا"** أو **"أسافر غدًا"** أو **"أقابلك غدًا"** إلا أن تقول: **"إن شاء الله"**.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾، يا محمد لا تقولن، ﴿لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا 23 إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: 23، 24].

فعلق ذلك بالمشيئة؛ لأن أعمالك وأقوالك وأحوالك وتقلباتك كلها بأمر الله، لا يمكن أن تفعل شيئًا إلا بأمر الله.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توجيهًا للرسول، وكلّ هذا فيه تأديب للرسول: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: 24]، إذا نسيت وجاءتك غفلة ونسيان أكثر من ذكر الله؛ فإن ذلك يذهب النسيان عنك، ويجعلك دائمًا متذكرًا لربك غير غافل؛ فإن الغفلة عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تجعل الإنسان تتسلط

عليه الشياطين، وتشغله وتلهيه؛ ولكنه إذا أكثر من ذكر الله؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصرف عنه الشياطين.

فذكر الله سبب لعدم الغفلة، الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله كالحي والميت، فهنا إرشاد من الله أن يكثر من ذكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يدعو بهذا الدعاء، ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: 24].

قل يا محمد في دعاءك: **"اللهم زدني هداية وقربًا إليك، وزيادة في الرشد"** واسأل الله أن يعطيك من العلم، ويوحي إليك، ويزيدك علمًا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، الإنسان يطلب من الله أن يزيده هداية، وأن يزيده رشادًا، ويزيده علمًا.

قال الله بعد ذلك: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: 25]، أي أصحاب الكهف، لا أحد يعلم كم لبثوا؟ المدة التي لبثوها لا أحد يدري عنها، حتى الذين أعثرهم الله عليهم لا يدرون كم كانوا جلسوا في هذا الكهف؟ لا يدرون، يظنون أنها ستين سنة، سبعين سنة، مائة سنة، لم يعلموا أنها بهذه الدقة.

ولكن الذي أخبر بهذا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة لا يعرف أصحاب الكهف، ولا أهل مكة يعرفونهم، ولا اليهود يعرفونهم بدقة، والله هو الذي أوحى إلى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخبرهم الدقيق، وبمدة لبثهم.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في أول القصة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: 13]، فلبثوا هذه المدة ثلاثمائة سنة، ثلاثة قرون، وازدادوا تسعًا.

لماذا قال: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: 25]..؟

قال أهل التفسير: إنهم قد ذكروا في التوراة؛ لأنهم مكثوا ثلاثمائة سنة؛ لأن اليهود والنصارى يؤرخون بالشمسية، والمسلمون يؤرخون بالقمرية، والقمرية تختلف عن الشمسية، كلّ مائة سنة ثلاث سنوات، فالثلاثمائة تزيد في الشمسية تزيد عن القمرية بتسع سنوات، ولذلك قال: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: 25]، على التقويم القمري.

والتقويم القمري الهلالي هذا هو الحق، وهو الذي أقره القرآن في الكثير من الآيات، ولذلك قال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: 189].

فالناس في رمضان وفي الحج وفي عدة المرأة، وفي الديون، وغيرها يربطون ذلك بالشهور القمرية، ولذلك حتى في قصة مدين قال: ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: 27]، يعني حجة الإسلام، الحجة معروفة مربوطة بالهلال.

قال: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف: 26]، أي أن الذي أخبر بهذا الخبر هو الله، والله أعلم بما لبثوا، كم لبثوا؟ الله هو الذي يعلم، أما الناس لا يعلمون، لماذا؟ لأن الله له غيب السماوات والأرض، ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: 26].

كلّ ما غاب عن المخلوقين فالله يعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله يعلم الغيب والشهادة، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: 73]، فالذي يغيب عن الناس يعلمه الله، والذي يظهر للناس يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالغيب والشهادة عنده سواء.

قال بعد ذلك: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: 26]، أبصر به أي بالله، وأسمع أي ما أسمعه؟! ما قوة بصره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! ما أعظم بصره؟! وما أعظم سمعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! فهو الذي يُبصر العباد، ويراهم، وهو الذي يسمع كلامهم، ويسمع ما يقولونه، وما يدور في أذهانهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يغيب عنه شيء مما يفعلونه، فهو يبصرهم ولا يغيب عنه شيء مما يقولونه فهو يسمع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما أبصره وما أسمعه؟!! ما أشد إبصاره؟!! وما أشد سمعه؟!!

ثم قال: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 26]، ما لهؤلاء الكفار والمشركين وغيرهم ليس لهم من دون الله ولي؛ إنما وليهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُشرك في حكمه أحدًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [الكهف: 26]، أي هو الذي تولى أصحاب الكهف بلطفه، ولم يتولى أحد لهؤلاء أصحاب الكهف، من الذي تولى أمرهم؟ هو الله، فهؤلاء ما لهم من دونه من ولي، ولا غيرهم حتى اي مخلوق من الناس ليس له ولي إلا الله، فوليي الله، ووليك الله، والله ولي الناس، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: 196].

ووِلاية الله على نوعين:

1. ولاية عامة.
2. وولاية خاصة.

الولاية العامة: **"أن الله ولي الناس جميعًا الكفار والمؤمنين"** كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ﴾ [الأنعام: 62]، فالله مولى الناس كلهم، هو الذي يتولاهم بإحيائهم، وإرزاقهم، ويتولاهم بكل ما يحتاجونه، سواء كانوا مسلمين أو كفار.

والولاية الخاصة: **"هي لأوليائه المتقين"** هؤلاء يتولاهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بتربيته الصالحة في الطاعة، فولاية النصرة، وولاية الطاعة، والتأييد، هذه ولاية خاصة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 26]، أي لا يشرك ولا جعل أحدًا شريكًا في حكمه، هو الواحد في حكمه، هو المنفرد في حكمه، فالحكم هنا المراد به الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي؛ فالذي يحكم بإهلاك أو تدمير أو إحياء أو صرف شر أو نزول عذاب هذه الأقدار ما يملكها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يقضي بها ويحكم بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كلّ ما يدور في هذا الكون ويحصل في هذا الكون من نزول عذاب أو صعود رحمة، أو أي أمر يحصل في هذا الكون من مرض أو صحة أو مصيبة أو عافية أو رزق كلّ ذلك في حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدره؛ فهو الذي يحكم بذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أما الناس فلا يحكمون بذلك، فهو المنفرد.

وكذلك هو المنفرد في الحكم الشرعي الديني، فالذي يحكم بالحلال والحرام، والذي يحرم ويحلل، والذي يوجب الناس بفعل كذا، وينهاهم عن كذا هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الحاكم، لا حاكم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو المنفرد بالحكم، والحاكم فيهم بالأمر والنهي، والثواب والعقاب هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليس للمخلوق أي تصرف في حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

بعدما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قصة أصحاب الكهف، وهي في الحقيقة دروس وعبر، ونعرف أن من يتولاه الله فلا يمكن لأحد أن يؤذيه بأي أذية، فمن كان في ولاية الله؛ فالله ناصره، ومؤيده، وحافظه، فالأصحاب الكهف وهم قلة سبعة أشخاص، لم يستطيع أحد أن يتعرض لهم، حتى الحيوانات لا تستطيع أن تقدم عليهم وهم في كهفهم، فحفظهم الله.

حتى إن الله حفظ لهم أجسادهم وملابسهم، وكلّ ذلك بحفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى الله حفظ لهم كلبهم، فالله عَزَّ وَجَلَّ يتولى الصالحين، هذه من الدروس والعبر التي نأخذها من هذه القصة.

وأيضًا من نصر الله في دينه وتمسك بدينه؛ فإن الله معه، ولا يقول: الناس يفعلون، والناس يفعلون، وكثر الفساد، لا، فالقابض على دينه كالقابض على الجمر.

فهؤلاء أصحاب الكهف وهم سبعة فردوا بدينهم، وتركوا بلادهم، وتركوا أهليهم، تركوا أموالهم، كلّ ذلك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما فعل أهل مكة المهاجرين، لما هاجروا مكة تركوا أموالهم، وتركوا ديارهم، وفروا بدينهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ذهبوا إلى الهجرتين في الحبشة، ثم هاجروا أيضًا إلى المدينة، كلّ ذلك نصرة لدين الله ولنبيه.

فمن ينصر الله ينصره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فأصحاب الكهف نصرهم الله وأيديهم وحفظهم، فنعتبر بهؤلاء، وخلد ذكرهم في القرآن؛ بل سميت سورة كاملة بكهفهم الذي دخلوا فيه، فخلد الله ذكرهم، ورفع شأنهم، والناس يتذاكرونهم على مر السنين، والمفسرون يذكرون أخبارهم على مر السنين.

ففيها دروس وعبر والحقيقة، ونعرف أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أعثر الناس عليهم وبعثهم مرة ثانية من هذه الرقدة الطويلة حتى يثبت للناس قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على بعث الناس من قبورهم، وأن الساعة آتية، ولابد أن أتي، ولابد أن يجازى الناس في هذا اليوم يوم القيامة، ويؤخذوا ما يستحقوه من الحسنات أو السيئات ويرى جزاءه، فهذا أيضًا من الدروس والعبر، وغيرها الدروس والعبر التي نستطيع أن نستلمها ونستخرجها من هذه القصة العجيبة.

هنا تنتهي القصة، وينتهي الحديث عن أصحاب الكهف، ويأتي الخطاب للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يتلوا ما أوحي إليه من القرآن الكريم، وهذا يأتي الحديث عنه إن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله، في لقاءنا القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الكهف 26 - 30)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الثلاثاء، واليوم التاسع عشر من شهر ذي القعدة، من عام 1442 من الهجرة.

ولازلنا في هذه السورة التي بين أيدينا وهي **"سورة الكهف"**، والحقيقة أن **"سورة الكهف"** من السور الممتعة جدًا لكثرة القصص فيها، واختلاف هذه القصص، وكلّ قصة لها مغزى، ولها فائدة، نحتاجها في حياتنا.

فقصة أصحاب الكهف يعني **"الفتة في الدين"** ونحن نعرف الإنسان مطالب بأن يحفظ دينه، وأن يعتصم بهذا الدين في مواطن الفتن العظيمة.

الفتة الثانية: **"فتنة المال"** التي ستأتينا في الرجل صاحب الجنتين، كيف طغى المال وأسرف وضيع دينه مقابل هذا المال؟ والنتيجة أن المال ذهب عليه ولم يبق له إلا أن يتوب إلى الله، وقد تاب الرجل كما جاء في التفاسير، أنه ندم وتاب ورجع، فالفتنة فتنة المال، وفتنة العلم أحيانًا يفتن في العلم، وأحيانًا يفتن في السلطة كما في قصة ذي القرنين، كلها أمور الحقيقة نحتاجها في حياتنا.

قصة أصحاب الكهف انتهينا منها، وانتهى الحديث عنها عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخر الكلام، لما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: 25].

فانتهت القصة وبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مدة اللبث؛ لأن اليهود لما سألوا النبي أو أرسلوا من يسأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أصحاب الكهف كان تركيزهم على عددهم، على عدد أصحاب الكهف، ،على المدة التي لبثوها.

فأخبر الله عن عددهم وبيّن العدد الصحيح أنهم كانوا ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: 22].

ثم بعد ذلك أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن مدة لبثهم بالحساب الدقيق كما قدمنا في اللقاء الماضي أنهم، ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: 25].

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مرشدًا نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف: 26]، لا يمكن لأحد أن يعلم إلا من طريق الوحي؛ فإن هؤلاء غاب علمهم عن الناس، ولم يعرف أحد كم لبثوا؟ حتى الذين عثروا عليهم وكشفوا أمرهم لا يدرون كم لبثوا، وهم أنفسهم أصحاب الكهف لا يدرون كم لبثوا؟ فالذي يعلمه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: 26].

فغيب السماوات وما غاب عن هذا الإنسان من علم السماوات وما فيها، والأرض وما فيها مما يغيب عن هذا المخلوق علمه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله يعلم الغيب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: 73].

قال الله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: 26]، يعني يا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويا أيها المخاطب، ويا أيها الإنسان أبصر بالله وأسمع، كيف أبصر بالله وأسمع؟ هذه صيغة يسميها أهل العلم وأهل اللغة يسميها صيغة التعجب، ومعناها ما أبصره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!! وما أسمعه؟!!

يعني بصره وسع كلّ شيء فهو يبصر المخلوقات، ويبصر الكائنات ولا يغيب عنه شيء حتى إنه ليبصر النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على صفاة سوداء، لا تخفى عليه، فيبصرها ويسمع دبيبها، فما أبصره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!! وما أوسع بصره؟!! وما أوسع سمعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!! وسع سمعه السماوات والأرض، لا يغيب عنه شيء، مجرد الحركة وصوت الشجر، وصوت الحجر، وصوت الماء لا يغيب عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكلّ ذلك يعلمه جَلَّ وَعَلَا، فما أبصره؟!! وما أسمعه؟!!

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الكهف: 26]، أي هؤلاء الكفار ليس لهم من دونه ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ [الكهف: 26]، يتولى أمرهم، فسبحان وتعالى هو الولي فوق كلّ شيء، وولايته هي الولاية الحقيقة، فليس للمخلوق أن يكون وليًا إلا في ولاية يقدر عليها، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا﴾ [الدخان: 41].

يكون الإنسان ولي على زوجته، يكون وليًا على أسرته، يكون وليًا على أولاده، هذه ولاية محدودة، وولاية خاصة، لكن الولاية العامة، الولاية المطلقة الله هو الولي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما قال: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [يونس: 30]، حتى إن الله يتولى أمر المؤمن والكافر، فولايته عامة على الكفار وعلى المؤمنين.

وهناك ولاية خاصة من الله يتولى بها عباده الصالحين، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257].

فالولاية المطلقة ولاية الله على الخلق كلهم، المؤمن والكافر، وهناك ولاية خاصة للمؤمنين خاصة وهي ولاية التأييد، والهداية، والنصرة، وهناك ولاية للمخلوق ضعيفة قصيرة يستطيع أن يتولى مال اليتيم، يتولى مال أبنائه، يتولى كذا، هذه ولاية مخصوصة جدًا.

إذا عرفنا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الولي، وليس لهم من دونه ولي يتولى أمرهم غير الله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 26].

الله عَزَّ وَجَلَّ هو الواحد في حكمه، هو الحاكم، والحاكمية المطلقة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يحكم، يحكم في أحكامه الكونية القدرة، وفي إحكامه الشرعية، فأحكام الكونية القدرية بما يقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويحكم على بطول العمر، وعلى هذا بقصر العمر، وعلى هذا في الغنى، وعلى هذا في الفقر، وعلى هذا في صحة، وعلى هذا في مرض، وهكذا، وهذا في مصيبة، وهذا في سعادة، هذه أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القدرية الكونية التي قدرها بحكمتها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وله أحكام شرعية، فهو يحكم بحكمه الشرعي، فيحكم بما يراه مناسبًا للبشرية في أحكامه الشرعية، مما يتعلق بالعبادات وغيرها.

فحكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يشرك فيه أحدًا، ولذلك قال: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 26]، أحدًا من الخلق، فالخلق لا يستطيعوا أن يصنعوا شيء في حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن حكم الله فوقهم، فهو الذي يأمر، وهو الذي ينهى، وهو الذي يثيب، وهو الذي يعاقب، والبشر لا يملكون ذلك؛ فلا يشرك معه أحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

فهو الواحد في الحاكمية، وهو الواحد في الحكم، واحد في حكمه، وواحد في عبادته، وواحد في قضائه، هكذا.

لما بيّن الله لنا هذا الأمر، فكأن سائلاً يسأل يقول:

هذه الأخبار عن أصحاب الكهف الدقيقة من أين أتت؟

محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة من أين أتى بها؟

لا أهل مكة يعلمون ذلك، ولا اليهود يعلمون ذلك، من أين أتى بها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

نقول: **"أتى بها من الوحي"** الله أوحى إلى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك تأمل هذه الآية التي بين أيدينا؛ قال: ﴿وَاتْلُ﴾ [الكهف: 27]، اتل يا محمد، ﴿مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [الكهف: 27]، اتلوا هذه القصة عليهم، واتلوا عليهم القرآن، واتل كلّ ما أوحي إليك من ربك، مصدره من الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: 27]، اتل ما أوحي إليك من الكتاب الذي أنزل عليك وهو القرآن، هذا الكتاب كتاب عظيم، عظيم القدر ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: 27]، كلماته لا تحتاج أن تُبدل، فلا مزيد عليها، ولا هي فيها نقص، فكلماته تامة كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: 115]، فكلمته تامة، لا مبدل لكلماته.

قال: ﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: 27]، أيها الإنسان لا تستطيع أن تجد من دون الله ملجأ تلجأ إليه، ومعتصمًا تعتصم به إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الواحد الذي يُلجأ إليه ويُعتصم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يُعبد وغيره لا يستحق أن يُعبد، فهو الذي ينفع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يكشف الضر، وهو الذي يملك الخلق كله، فكيف تجد من دونه ملتحدًا تلتحد إليه وتميل إليه؛ لأن كلمة ملتحد مأخوذة من اللحد، واللحد هو **"الميل"** فكيف تميل بنفسك وعبادتك وطاعتك وخضوعك لغير الله؟!! لا يمكن أن تجد مخرجًا لك غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في جميع حالاتك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك مخاطبًا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان الخطاب له ولغيره من الناس؛ قال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: 28].

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صحبة أصحاب الكهف، وأنهم كانوا أصحابًا متلازمين، وأنهم كانوا أخوة متحابين، وأنهم فروا بدينهم، ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هناك من هو مثلهم من أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من فقراء المهاجرين الذين كانوا في مكة، فقد أسلم مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الفقراء من كان إما مملوكًا، وإما حدادًا، وإما صعلوكًا، وإما لا مال له، فكانوا ضعفاء.

وأهل مكة يأتون إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صناديد الشرك والكفر وكبراء مكة يقولون للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إذا أردت أن نسمع منك، وإذا أردت أن نجالسك فاطرد هؤلاء الضعفاء، اطردهم عن مجلسك ونجلس معك.

فأرشد الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يطرد هؤلاء، ألا يطردهم عن مجلسه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ﴾ [الكهف: 28]، أي تصبر، وصبر نفسك، ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: 28]، وهم الفقراء، فقراء المهاجرين، ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: 28]، يعني يعبدون الله بالليل والنهار.

قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ [الكهف: 28]، في أول النهار وآخره، كلّ حياتهم عبادة وطاعة لله، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: 28]، هذا دليل على الإخلاص، أنهم يخلصون عملهم، فيريدون وجه الله، ويعملون لله، وقد أسلموا وحسن إسلامهم وطاعتهم لله وحده لا شريك له، لا يريدون من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دنيا، ولا يريدون منه مالًا، وإنما يريدون الآخرة، ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: 28]، أي يريدون وجه الله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ناهيًا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: 28]، يعني لا تصرف نظرك عنهم، ولا تصرف بصرك عن هؤلاء الضعفاء، ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28]، تلتفت إلى هذه الدنيا؛ فإن النظر فيها بهذه الصورة وبهذا الشكل قد يضر الإنسان،

ويشغله، ويجعل القلب يتعلق بهذه الدنيا، والفكر يتعلق بهذه الدنيا، فيصبح قلبه متعلقًا وأفكاره متعلقة بالدنيا، وينسى آخرته على حساب هذه الدنيا، والنظر إليها، فنهاها.

وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن ينظر إلى هذه الدنيا وزينة هذه الدنيا نظر إعجاب، ونظر ميل وحب وفتنة؛ بل هذه الدنيا لا تقوم عنده، ولا يلتفت إليها في مقابل التعلق بالله، وبما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولذلك قال: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 28].

ثم قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ [الكهف: 28]، وهؤلاء هم صناديد الشرك وكبراء المشركين؛ الذين أغفل الله قلوبهم، فأشد عقوبة أن يغفل الله قلب هذا الإنسان عن ذكره، ويجعله يشتغل ويفكر بغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهؤلاء لما غفلوا عن طاعة الله، وغفلوا عن عبادة الله أغفلهم الله، فعاقبهم بأن أغفلهم عن ذكره، فأصبحوا لا يذكرون الله أبدًا، وإنما يذكرون حياتهم الدنيا فقط، فهذه عقوبة.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: 28]، فلا يذكرون الله أبدًا، لا في عباداتهم، وفي ألسنتهم، ولا في قلوبهم أبدًا.

قال: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف: 28]، لما أغفله الله ما النتيجة؟ لما أغفله الله وصده عن ذكره النتيجة أنه اتبع هواه، صار تبعًا لهواه، يتبع هواه، وهواه وشهوته هي التي تقوده، أينما تريد هو يذهب وراءها، فأصبح أسيرًا في يد شهوته وهواه، وأصبح هواه هو الذي يملكه.

قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ [الكهف: 28]، أي أمر الدنيا، وأمر الآخرة ﴿فُرُطًا﴾ [الكهف: 28]، منفرطًا عليه، أي ضائعًا، ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28]، أي انفرط عليه وضاع عليه، ولم يبق له شيء ينفعه لا في دينه ولا في دنياه.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ﴾ [الكهف: 29]، قل لهؤلاء الذين يقولون: اطرد هؤلاء الضعفاء نجالسك، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الكهف: 29]، هذا الحق الذي اقرأه عليكم وأخبركم به وهذه الرسالة التي أبلغها لكم هذا هو الحق من الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ﴾ [الكهف: 29]، من أراد الإيمان فليؤمن، ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، ومن أراد الكفر فليكفر، وهذا من باب التهديد لا من باب الإباحة، يعني ليس لك الخيار تقول: أنا حر، وهذه حرية، أنا أريد أن أؤمن آمنت، أو أريد أن أكفر كفرت، لا، هذا ليس من باب الحرية؛ وإنما من باب التهديد والوعيد، إن شئت أن تؤمن فامن؛ فإن إيمانك سينفعك، وإن شئت تكفر فاكفر؛ فإن كفرك سيضرك، من باب التهديد.

ولذلك قال بعدها: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: 29]، الذي كفر واختار الكفر فسيلقى جزاء كفرهم وهم ما أعده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للظالمين، ودل على أن من اتخذ الكفر وسار على الكفر هو ممن ظلم نفسه ولذلك سماه الله ظالمًا، قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: 29]، أي أعد الله هذه النار.

وهذا دليل على أن النار الآن موجودة؛ لأن الله أخبر بأنه قد أعدها وجهزها لأصحابها؛ فهي موجودة، كما أن الجنة موجودة التي قال الله فيها: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]، يعني النار مخلوقة ومعدة، والجنة مخلوقة ومعدة.

قال: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾ [الكهف: 29]، أي بأصحابها ﴿سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: 29]، والسرادق هو الحيطان، يعني الأسوار التي في النار قد أحاطت بأصحابها لا يستطيعون الخروج منها، فأسوارها عظيمة لا يستطيعوا تجاوزها، فقد أحاطت بهم السرادق.

قال: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ [الكهف: 29]، إن طلبوا الغوث والماء لشدة ما يرون من العطش، ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف: 29]، إن أرادوا أن نغيثهم فإننا نسقيهم ماء كالمهل، ماء حميمًا يقطع أمعاءهم، والمهل كما قال أهل اللغة هو: **"الرصاص المذاب"** إذا أتيت برصاص وأذبته في النار هذا هو المهل، فيسقون هذا الحميم الذي يُقطع أمعاءهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: 29]، إذا قرب من الوجه يشويه من شدة حرارته، فكيف سيتجرعه؟ وكيف سيشربه؟ وهل سينفعه إذا شربه؟ فنسأل الله العفو والعافية من أهل النار، ومن حال أهل النار.

قال: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29]، بئس الشراب، وبئس المكان، فقوله: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29]، أي المكان سيئ، والشراب سيئ؛ لأن السرادق قد أحاطت بهم، وأي مرتفق يرتفقون به؛ لأن المرتفق الأصل فيه السعة، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: سوء هذه السعة، وهي ليست سعة؛ وإنما هو استهزاء بهم، فبئس وساءت السعة التي هم فيها، قد ضيق عليهم.

الله عَزَّ وَجَلَّ لما ذكر مصير الظالمين والكفر، ذكر أيضًا مصير أهل الخير والصلاح والتقوى والإيمان، وهذا من باب الترغيب والترهيب في طريقة القرآن، دائمًا تخويف وتبشير، وبشارات وإنذار.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الكهف: 30]، أي صدقوا بما جاءهم عن الله عَزَّ وَجَلَّ، وآمنوا وتحقق الإيمان في قلوبهم، آمنوا بالله، وآمنوا بالرسول، وآمنوا بالقرآن، وآمنوا بما فرضه الله عليهم من هذه الأمور، ما النتيجة؟ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الكهف: 30]، وزيادة على ذلك: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: 30].

ليس إيمانًا باللسان أو بالقلب لا بالجوارح، فعملوا الصالحات وأقاموا شرع الله من الصلاة والزكاة وسائر الأعمال التي شرعها الله والتي أمر بها، النتيجة ما هي؟ قال ا لله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: 30].

فالذين أحسنوا أعمالهم، وحافظوا على ما أمرهم الله؛ فإن الله لا يضيع أجرهم؛ بل سيضاعف لهم الأجر، وسيكافئهم الله على أحسن ما كانوا يعملون، يجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون، سيرفع درجاتهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يضيع أجر المحسنين أعمالهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

✍ إذا عرفت هذا كيف سيحسن عملهم؟

قال: اسمع ما بعدها، قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ [الكهف: 31]، أي الصالحون المتقون، ما النتيجة؟ قال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [الكهف: 31]، وليست جنة أو جنتين؛ بل جنات كثيرة، وعدن معناها إقامة، أي جنات سيقيمون فيها إقامة أبدية، لا يبغون عنها حولها.

قال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ﴾ [الكهف: 31]، أي من تحت أهلها، في قصورهم، وفي غرفهم، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الكهف: 31]، هذه قصورهم، وهذه أماكنهم، وهذا مستقرهم.

ثم ذكر لباسهم؛ فقال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: 31]، أي هؤلاء المتقون يلبسهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأساور التي توضع في الأيدي من ذهب، وفي سورة أخرى من فضة؛ لأنها جنتان، جنة آنيتها وما فيها من ذهب، وجنة آنيتها وما فيها من فضة، فهؤلاء يحلون الأساور في أيديهم من الذهب للرجال والنساء سواء، وإن كان في الدنيا الرجال لا يلبسون الذهب، إلا أنه في الآخرة ينعم الله عليهم بإباحة لبس الذهب للرجال والنساء.

قال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ﴾ [الكهف: 31]، ثيابهم خضر من أحسن الألوان، يلبسون الثياب الخضر، وهذه الثياب من الحرير، الحرير اللين، والحرير الغليظ، ﴿مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: 31]، يعني يلبسون الثياب المختلفة المتنوعة، يعني يلبسون مرة هذه الثياب، ومرة هذه

الثياب، يعطون من هذه الحال، فمرة يلبسون الغليظ من الحرير، ومرة يلبسون الرقيق من الحرير، فثيابهم متنوعة.

السندس هو: **"ما رق من الحرير"** الرقيق من الحرير يسمى سندس.

والاستبرق هو: **"الغليظ"** الغليظ من الحرير، فيلبسون تارة هذه، وتارة هذه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [الكهف: 31]، أي جلستهم جلسة المطمئن الآمن المرتاح، متكئ على هذه الأرائك وهي السرر، السرر التي قد أُلبست من الأقمشة الجميلة الحسنة، وزينت بهذه الزينة يجلسون عليها ويتكئون عليها، ودائمًا الاتكاء دليل على الراحة، ودليل على الطمأنينة، والأمن، وهم قد جلسوا في هذا الأمن، وفي هذه الطمأنينة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 31]، أين تعم هذا الثواب الذي أثابهم الله، ولاشك أنه ثواب فيه النعيم العظيم، ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 31]، هناك في الكفار قال: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 29]، وهنا قال: حسن المرتفق، واتسع مرتفقه، وأصبحوا في أماكن واسعة جدًا، هذا معنى قوله: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 31].

هذه نتيجة من تمسك بهذا الدين، وكأنها خاتمة لقصة أصحاب الكهف الذين تمسكوا بدينهم وأنعم الله عليهم بهذه الكرامات؛ بأن حفظ لهم أبدانهم بأن جعلهم آية، بأن أكرمهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالثبات على الإيمان، بأن توافهم على الإيمان، وخلد ذكرهم، كلٌّ يقرأ هذه السورة، ويذكر أصحاب الكهف ويعرف حالهم، وكيف ثبتوا وتركوا ما كان عليه قومهم من الكفر والشرك، فهذه نتيجة، ولذلك ختم الله بحالهم أنهم على هذه الحال وأن الله وعدهم بهذا الوعد الكريم.

ونلاحظ كأنها أيضًا رسالة لأصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن يثبتوا على الحق، وأن يبقوا على الحق، فهذا معنى أنهم يعني كأنها رسالة لأصحاب محمد أن يثبوا، ولكل من جاء بعد أصحاب محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إلى قيام الساعة، فالقابض على دينه في أيام الفتن كالقابض على الجمر، يتذكر هذه الآيات ويتمسك بهذا الدين.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا ولكم الثبات على هذا الدين، وأن يحسن لنا الخاتمة على هذا الدين، وأن يتوفانا على الإسلام، نسأل الله التوفيق والسداد، وجزآكم الله خير على حضوركم وبارك الله فيكم.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الكهف 31 - 44)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم الثلاثاء الموافق للسادس والعشرين من شهر ذي القعدة من عام 1442من الهجرة.

نجتمع في هذا المقام المبارك حول كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والسورة التي بين أيدينا هي **"سورة الكهف"** ومر معنا آيات كثيرة بينا معانيها وقصة أصحاب الكهف أيضًا هي القصة الأولى التي تُبين مدى التمسك بدين الله، والعصمة بدين الله، وأثر ذلك في حفظ الإنسان، حفظه في دينه، وحفظه حتى في جسده، يعني ثلاثمائة وتسع سنوات وأجسادهم محفوظة بسبب قوة الإيمان؛ لأن الله زادهم هدى وإيمان وثبتهم عند المحن، فالإنسان بحاجة إلى هذه السورة، وبحاجة إلى هذه القصة في الأزمات.

القصة الثانية التي أوردها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة وكما هو معلوم عند الجميع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أورد فيها أربع قصص:

1. قصة أصحاب الكهف الفتية.
2. وقصة صاحب الجنتين.
3. وقصة موسى مع الخضر.
4. وقصة ذي القرنين.

القصة الثانية قصة **"صاحب الجنتين"** هذه تبين لك مدى الصراع بين الحق والباطل، وبين الكفر والإيمان، وما أثر هذا الكفر ونهاية هذا الكفر؟ وما أثر الطاعة والإيمان ونهاية الطاعة والإيمان؟ وإن كان الإنسان في طاعته وفي إيمانه وفي تحقيق عبوديته لرب العالمين قد يمر في هذه الدنيا بأزمات إلا أن العاقبة حسنة كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128].

وقد يُعطى الإنسان من هذه الدنيا ما يُعطى، ولكن قد تكون العاقبة سيئة، وهذه القصة التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة تبين مدى الصراع بين الحق والباطل، وموقف هذا وموقف هذا، وما نتيجة هذا الأمر؟

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول الآيات: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ [الكهف: 32]، المخاطب في بداية القرآن هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أنزل الله عليه القرآن، وبعد محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلّ من يقرأ القرآن أو يُفسر القرآن أو يبحث عن معاني هذه الآيات الله يخاطبه.

يقول: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ﴾ [الكهف: 32]، اضرب لمن؟ للناس، فمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يضربه لقومه، وأنت تضربه لمن حولك حتى يعتبر الناس، فأنت إذا قرأت هذه الآيات لمن حولك من أهل بيتك أو من جيرانك أو في المسجد أو نحو ذلك تضرب لهم هذا المثل حتى يعتبر الناس به.

فقوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا﴾ [الكهف: 32].

✍ ما معنى ضرب المثل، إذا قيل: نضرب مثال على هذا الشيء؟

ضرب المثال معناه: **"أن أقرّب لك صورة تنطبق على هذه الحال"** فإذا أردت أن تصف حال معينة أمامك، ولا تستطيع أن تصفها وصفًا دقيقًا؛ تقول: هذه الحال مثل حال فلان، فتضرب مثال لحال سابقة؛ فتقول: مثل هذا الشيء.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أكثر الأمثال في القرآن، بيّن أن القرآن فيه أمثال كثيرة، وبيّن الحكمة من ضرب الأمثال، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: 43].

أما غير العالمين لا يعقلونها ولا يفهمونها، فهذا معنى ضرب الأمثال، يعني أنا أقرب لك صورة واقعية سابقة بحال موجودة الآن، فنقول: هذه حالك الآن مثل هذه الحال، وهذه الحال التي أضربها لك مثلاً هي حال وقعت سابقًا ورأيناها أو سمعنا عنها والنتيجة حصل كذا وكذا.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا﴾ [الكهف: 32]، ما هو؟ قال: ﴿مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ [الكهف: 32]، هذا المثل واقع على رجلين، من هما هذان الرجلان؟ قال: ﴿رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: 32].

✍ هذه القصة أين وقعت؟

✍ وفي أي مكان؟ وفي أي زمان؟

القرآن أبهم هذا الشيء وتركه؛ لأنه ما في فائدة من وراء أن نعرف من هذا الرجل وما اسمه؟ وهذا الرجل ما اسمه؟ وفي أي مكان؟ هل وقعت في كذا أو وقعت في كذا؟ مثل أصحاب الكهف الآن أين الكهف؟ ما ندري، الله أعلم، تحديد المكان، وتحديد الزمان، وفي أي عصر كان أصحاب الكهف؟ لا ندري.

تحديد الزمان، وتحديد المكان، وتحديد الأشخاص، هذه كلها القرآن يُعرض عنها؛ لأنه لا فائدة ورائها، ما في فائدة كبيرة وراءها، ما الفائدة؟ الفائدة أن تأخذ العبرة من القصة، ما يهمك رجلين واحد اسمه زيد، وواحد عبيد ما يهمنا، نحن يهمنا الرجلين ما حالهم؟ ولذلك القرآن يركز على العبرة، ويذكرك بهذه الأشياء، أحيانًا يذكر لك بعض الأسماء لكن ليس دائمًا.

كنت أقرأ سبحان الله العظيم في **"سورة الكهف"** فجاءتني لفتة جميلة في **"سورة الكهف"** يقول: أصحاب الكهف كانوا سبعة، وكانوا آووا إلى كهف صغير، يعني ما يستطيع الإنسان يعيش فيه فترة زمنية طويلة، هم جلسوا في الضيق جدًا، لكن معهم سعة الإيمان والطاعة.

سبحان الله العظيم؛ الله عَزَّ وَجَلَّ يضرب لنا مثلاً في أول السورة في هؤلاء السبعة الذين دخلوا في هذا الغار أو في هذا الكهف، ويضرب لنا في آخر السورة رجل واحد أعطاه الله الأرض كلها، بلغ المشرق والمغرب، كلّ الأرض تحته يحكم فيها، واحد يعطيه الله الدنيا كلها ويفتح له الكرة الأرضية كلها من مشرق الأرض إلى مغربها، يعني الأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله قد يوسع على واحد، وقد يضيق على واحد؛ لأن الحكمة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذين الرجلين جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وانظر إلى كلمة ﴿جَعَلْنَا﴾ [الكهف: 32]، يعني هذا الأمر بيد الله؛ لأنه في ثنايا القصة يأتيك الآن أنه يقول: هذا لي، وهذا أنا الذي فعلته وكذا، وأنا أكثر مالًا، ولكن الله تعالى يقول: ﴿جَعَلْنَا﴾ [الكهف: 32]، هو الذي جعل الله له، هو الذي أعطاه.

قال: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: 32]، يعني بستانين، بستان يمين، وبستان شمال، إذا أردت أن تصف الشيء الجميل الحسن تقول بهذه الصفة، مثلما قال في قصة أهل سبأ: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: 15].

هذا أجمل ما تكون أن تدخل لك بستان أو مزرعة أو استراحة فتجد الجنة إحداهما على اليمين والأخرى على اليسار، وهذا في الدنيا، فكيف بنعيم الآخرة الذي يقول فيه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: 46]، فهذه من أجل النعم.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول هنا: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: 32].

✍ طيب ما أنواع هذه الجنتين؟

قال: ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: 32]، مليئة بالأعناب، والأعناب جميلة، شكلها جميل، تكون على عريش، تكون معروشة وسهلة القطف والأكل، وشكلها جميل، ولذلك الله وصفها قال: ﴿مِنْ أَعْنَابٍ﴾ [الكهف: 32].

ثم قال: ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا﴾ [الكهف: 32]، أي هاتان الجنتان حفها الله، يعني أحاط بها بنخل، فهذا من أجمل شيء، أن تأتي إلى البستان وتجد الوسط فيه هذا العريش من العرائش هذه من الأعناب وتجدها محاطة بسياج من النخل، قد أحاطها النخل من جميع الجهات؛ فهذا يعطيك جمال لهذا البستان.

قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: 32]، أي بيّن الجنتين، وفي وسط الجنتين زرع، هذا الزرع يعطي أيضًا خضرة على الأرض وجمال ورائحة طيبة، ونظرة جميلة، قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: 32]، وهذه الزروع أحيانًا تجد فيها مثلاً من أنواع السنابل والحبوب، وشتى الحبوب.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: 33]، يعني هذه الجنة، وهذه الجنة، ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: 33]، يعني أعطت أكلها، يعني أخرجت ثمارها الجميلة، ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: 33]، يعني أخرجت ثمارها الطيبة، فتجد النخيل قد أعطت الثمار، والسنابل أعطت الثمار، والعنب قد امتلأت العرائش منه، كلّ ذلك قال: ﴿آتَتْ أُكُلَهَا﴾ [الكهف: 33].

ثم قال: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ﴾ [الكهف: 33]، يعني لم تنقص، لم ينقص منها شيئًا، لم تجد فيها مثلاً نخلة ما أثمرت، أو تجد فيها مثلاً شجرة من العنب ليس فيها ثمرة، كلها ما شاء الله تبارك الله، قد أعطت أكلها ولم تنقص ﴿مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: 33].

✍ ولو سألت عن الماء فيها والثمر ماذا سيكون؟

أما الماء؛ فقال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: 33]، ولاحظ أن الله يقول: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ [الكهف: 33]، يعني ليس بيد هذا الشخص؛ وإنما التفجير من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله هو الذي فجر خلالها النهر الذي يمشي، قال: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ [الكهف: 33]، يعني أنهار تصب فيها.

وأما الثمار قال فيه: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ [الكهف: 34]، يعني قد حصد منه الثمار الكثيرة وامتلأت عنده الأحواض من الثمار، من العنب، ومن التمر، ومن الحبوب وغيرها.

✍ طيب هذه نعمة عظيمة ما الواجب؟

✍ وما الذي ينبغي للمسلم الذي رأى مثل هذا الشيء وكانت له مثل هذه الأشياء يملكها؟

✍ ماذا سيكون موقفه؟ وما الذي يجب عليه؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: 34]، هذا الرجل لما دخل جنته ووجد هذه الأشياء العجيبة نسي الله عَزَّ وَجَلَّ، ونسي حق الله فيها، وتبجح نفسه وافتخر، حتى الآخرة قد نسيها، فافتخر نفسه، ولم يعرف قيمة هذا الشيء، ولم يعرف أن كله من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ بل افتخر.

قال: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: 34]، كان عنده صاحب، إما يكون جار له أو صديق له؛ لأن الله قال: **"صاحب"** إما جار أو صديق أو معرفة، ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: 34]، وهو يفتخر، وصاحبه كان مؤمنًا، وهو كان كافرًا.

قال: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34].

✍ افتخر بأي شيء؟

افتخر بالمال والجاه، وأن عنده هذه الثمار الطيبة، وعنده هذا الماء الكثير، ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: 34]، أصحابي أكثر، وعندي الجواري، وعند الخدم يخدمونني؛ فأنا في مكانة عظيمة؛ فأنا أفضل منك، وأحسن، وأنا خير منك، ونسي أن الافتخار هو الافتخار بالطاعة، الافتخار بالتمسك بدين الله، هذا الافتخار الذي يفتخر به الإنسان، يفتخر بما قدمه لله، وبما ينفع عند الله، أما هذا الشيء هذا يذهب ويزول، فهذه الأشياء لا تبقى فلا تفتخر بها، تفتخر بمنصب وغدًا تُعزل منه؟! تفتخر بمركب وغدًا يؤخذ منك أو يفسد أو يتعطل؟! تفتخر بشيء لا يدوم؟! هذا ليس محل الافتخار، محل الافتخار بما يبقى لك.

افتخر بكثرة ماله وعزته وأنصاره ومن يكون معه من الخدم، فهذا الذي افتخر به كافتخار الجهلة والصبيان الصغار الذين يفتخرون بهذه الأشياء، أما العقلاء فلا يفتخرون بهذا الشيء، ولهذا يدعوك إلى أن تتواضع لله، وأن تعرف حق الله فيه.

قال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [الكهف: 35].

✍ كيف دخل جنته والله يقول: **"جعلنا له جنتين وليست واحدة"**..؟

نقول: لا يمكن أن يدخل جنتين في آن واحد، لابد أن يكون دخل إحدى الجنتين، فلما دخل إحدى الجنتين دخلها وحاله أنه ظالم لنفسه، سماه الله ظالمًا، وصفه بأنه ظالم لنفسه، لماذا هو ظلم نفسه؟ لأنه لم يعرف قدر الله، فلم يعرف حق الله، وافتخر بهذا المال وهذا الجاه، ولذلك لم يعط حق هذه المزرعة لأهلها من المساكين، ولذلك افتخر وهو ظالم لنفسه، وهو ظلم نفسه بأي شيء؟ بما سيأتي أيضًا من أنه أنكر البعث، وأنكر اليوم الآخر، وظن أن هذه الحياة هي الدنيا فقط.

قال: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 35]، يقول: أنا على يقين أن هذه الجنة، أو هاتان الجنتان لن تبيد أبدًا، ولن تنتهي، ولن تفسد، وستبقى لي، ما في شيء في الدنيا يبقى، المزارع وغير المزارع لابد أن ينتهي، البقاء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: 26]، أما هذه ما تبقى، هو يظن أنها ستستمر، ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: 35].

لما نظر نظرة القاصرة إلى الدنيا أيضًا نظر إلى الآخرة فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: 36]، ما في ساعة، وما في بعث، ولا في جزاء، لكن لو سلمنا أن هناك يعني أن هناك بعث وأن الساعة تأتي وسيقوم الناس لرب العالمين؛ فأنا كما أعطاني الله في الدنيا هذا النعيم سيعطيني في الآخرة أمثال وأمثال هذا النعيم، فالذي أعطاني في الدنيا ورضي عنه سيعطيني في الآخرة ويرضى عني.

ولذلك قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ﴾ [الكهف: 36]، يعني لو أنني، ﴿رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ [الكهف: 36]، ورجعت إلى الله وكان هناك بعث، ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: 36]، أي سأرجع إلى الله وأجد خير من هذه المزرعة؛ لأن الله أعطاني في الدنيا، وسيعطيني في الآخرة، هذا هو ظنه.

قال: ما في بعث، وأنكر البعث، ثم قال: ولو سلمنا أن هناك بعث؛ فإن الله سيعطيني خيرًا من هذه الجنة، هذا الكلام يقوله كما قال بعض المفسرين يقوله على سبيل الاستهزاء والسخرية، على

سبيل التهكم، يقول: لو فرضنا فالذي أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة، لكن ما في بعث، ولا غير هذه الدنيا، وهو يقول هذا استهزاءً.

مثلما تقول لأحد الناس: يا أخي اتق الله، وقدم لآخرتك، واعمل لآخرتك يوم القيامة، يستهزئ ويسخر ويقول: يوم القيامة، إذا جاء يوم القيامة سنجد شيئًا عند الله خيرًا من هذا، فهو يقوله فقط استهزاءً وسخرية.

قال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [الكهف: 35]، قال هذا الكلام فرد عليه صاحبه الذي يسمعه وهو ليس عنده شيء من مال، وليس عنده مثل هذا الشخص.

قال: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الكهف: 37]، أنت من أين أتيت؟ تكفر بالذي خلقك؟ تجحد نعمة الله الذي خلقك وأوجدك وأنت لم تكن موجودًا، وخلقك من هذا التراب الذي على هذه الأرض، ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الكهف: 37]، يعني أصلك من تراب؛ لأن آدم خُلق من تراب، ثم أنت من نطفة؛ لأنك جئت عن طريق النطفة، ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما خلقك نطفة في بطن أمك وفي رحم أمك سواك رجلاً، ﴿ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: 37]، أخرجك إلى هذه الدنيا حتى أصبحت رجلاً من الرجال.

قال: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ [الكهف: 38]، يقول: لكني أنا لا أقول هذا الكفر، وأربأ بنفسي من مثل هذا الكلام، لكني أقول: الذي خلقني هو الله، ولا أكفر به، بل أعرف نعمة الله علي.

قال: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: 38]، لا أجحد نعمة الله، ولا أكفر بالله، ولا أشرك به أحدًا، ثم وجهه إلى هذا التوجيه؛ قال: هذا الفرق بيني وبينك، أنت كافر، وأنا مؤمن، ولكن نصحه قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [الكهف: 39]، لو أنك دخلت جنتك هذه أو جنتيك وقلت: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39]، لو قلت هذا الكلام لكان خيرًا لك.

✍ ما معنى: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39]..؟

معناه: أي ما شاء الله هذا الذي أنظر إليه في المزرعة أو في البستان أو في هذه الجنة شيءٌ أراده الله، شيءٌ شاءه الله، وليس لي قوة إلا بالله، وليس لهذه المزرعة أو هذا البستان من قوة إلا بالله، لو قال ذلك لكان خيرًا له، لو قال هذا الكلام لبقيت ونزلت عليه البركة وبارك الله فيها، لكنه لم يعرف هذا الكلمة ولذلك فاته هذا الشيء فزال عنه هذا النعيم.

وهذه الكلمة ينبغي لنا أن نحافظ عليها، فإذا دخلت منزلًا فينبغي لك أن تقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39]، إذا ركبت سيارة تقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39]، إذا نظرت إلى شيء يعجبك قل: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: 39].

هذا الذي ينبغي؛ فإن هذه الكلمة فيها بركة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في المحافظة والبقاء على هذا الشيء، لو قال هذا الشيء لكان خيرًا له.

ولذلك قال هذا الرجل الصالح الضعيف: ﴿إِنْ تَرَنِ﴾ [الكهف: 39]، يعني انظر إليّ، ﴿أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا﴾ [الكهف: 39]، أنت كثير المال، وأنا قليل الماء، وقليل الولد، أنت تقول: عندي مال، وعندي جاه، وعندي أولاد، وعندي كذا وكذا، وأنا ليس عندي هذا كله، ﴿أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: 39].

قال: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: 40]، أدعو الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأني أعلم أن الله هو الذي يرزق، فأسأل الله أن يرزقني خيرًا من جنتك هذه التي تفتخر بها، أو هاتان الجنتان أنا أدعو الله أن يرزقني خيرًا من هذه الجنة، وأما جنتك التي صدتك وكانت سببًا في صدك عن طاعة الله، وكفرك بالله؛ أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يزيلها حتى يكون ذلك خيرًا لك.

فأنا أدعو الله عَزَّ وَجَلَّ أو أدعو ربي أن يزيل هذه التي تفتخر به؛ حتى تكون سببًا لك في عودتك إلى الله، فهذه ستكون في مصلحتك.

قال: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا 39 فَعَسَى رَبِّي﴾ [الكهف: 39، 40]، دعوة منه، ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: 40]، وأما جنتك، ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: 40]، ينزل عليها عذابًا من السماء حتى تصبح هذه المزرعة، ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: 40]، والصعيد هو **"الأرض الملساء التي لا نبات فيها"** فتنزلق الأقدام فيها، فتذهب ولا يبقى لها أثر، فإذا ذهبت هاتان الجنتان ووجدت ما فيها هذه النعمة العظيمة؛ فإنها ستكون نعمة عليك.

وانظر إلى النهاية؛ قال: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ [الكهف: 41]، يعني بعيدًا لا تستطيع أن تخرجه، لو أدخلت الدلاء فيه وسبحت الماء لا تجد ماءً؛ لأن الماء ذهب بعيدًا، فإذا ذهب الماء ستعطش هذه الأشجار وهذه الثمار، ثم تموت، فتصبح خاوية.

قال: ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: 41]، فإذا ذهب الماء ماتت، أو إذا نزل عليها عقوبة من السماء؛ فإنها ستدمر تدميرًا.

لما دعا هذا أجاب الله دعوته؛ فقال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: 42]، وهذه كناية عن التدمير بالكامل، فأصبحت صعيدًا زلقًا، ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: 42]، يعني أحاط العذاب بهذه المزرعة، فلما رآها، ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: 42]، بدأ يضع يدًا على الأخرى، وهذه دلالة على شدة الندم، كناية عن شدة الندم؛ بمعنى أنه ندم، والندم خيرٌ له.

قال: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: 42]، ساقطة على عروشها، ﴿وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: 42]، ندم أشد الندم، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«والندم توبة»**، فإذا ندم الإنسان أشد الندم؛ فإن الندم توبة، فهذا الرجل تاب.

قال: ﴿يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا 42 وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ﴾ [الكهف: 42، 43]، أين أنصاره الذي يقول أنا عندي أنصار؟ ما في أنصار له، ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ﴾، ما كان هو أيضًا، ﴿مُنْتَصِرًا﴾ [الكهف: 43]، بل قد انهزم وسقطت جنته وذهبت.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُنَالِكَ﴾ [الكهف: 44]، أي لا يبقى إلا ولاية الله، أما ولاية أصحابه لم ينصرونه، ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ﴾ [الكهف: 44]، الولاية الحقيقية عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الحق.

قال: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: 44]، فالرجوع إلى الله هو الخير، هو الخير في الثواب والخير في النتيجة الأخيرة العقبى.

فهذه القصة التي ساقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنعتبر بها بين الحق والباطل، والإيمان والكفر.

✍ فهذا الإيمان ماذا كان موقفه؟

إيمان بربه وتصديق به، ويدعو ربه أن يكون له الخير، وهذا الذي افتخر بنفسه وافتخر بجنته لم تنفعه جنته؛ بل ذهبت أمامه وهو ينظر إليها، فدمره الله تدميرًا.

في هذه دروس وعبر على أن الحياة سريعة الزوال، وأن الإنسان لا يغتر بهذه الدنيا على حساب الآخرة؛ بل يجعل الدنيا هذه طريق له إلى الآخرة، وينبغي للمسلم أيضًا أن لا تكون هذه الدنيا سببًا في كفره وطغيانه واستكباره على أخوانه، أيضًا ألا تكون سببًا في إنكاره للبعث والجزاء والحساب؛ بل يجعل هذه الدنيا وما فيها من هذه الخيرات طريقًا له إلى الجنة، وعونًا له على الطاعة.

ففيها دروس وعبر، نسأل الله أن ينفعنا بها، وقفنا معها وتأملنا هذه القصة العجيبة، ستأتي إن شاء الله أيضًا قصص أخرى في هذه السورة، نسأل الله أن ينفعنا بها.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الكهف 45 - 51)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الثلاثاء، وهذا اليوم هو اليوم السابع عشر من شهر ذي الحجة من عام 1442 من الهجرة.

نلتقي على بركة الله، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإعانة والتوفيق والسداد، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

الآيات التي بين أيدينا من **"سورة الكهف"**، وتوقف بنا الكلام في لقاءنا الماضي عن الآية الخامسة والأربعين من **"سورة الكهف"**، وهي قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45].

إذا أردنا أن نفهم هذه الآية فهمًا جيدًا، وندرك معاني هذه الآية لابد أن تنظر لما قبلها، وهذا أيها الأخوة دائمًا في تفسير القرآن العظيم، وكتاب الله وهو أجل الكتب على الإطلاق، لابد أن تنظر فيما قبل هذه الآية وفيما بعدها، تجد ترابط وثيق بين الآيات، وأن الآيات لم تأت هكذا عبثًا، وإنما جاءت مرتبة، ومنسقة، ومنظمة.

الآن لو ترجع قليلاً في الآيات تجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا ماذا؟ ذكرن لنا قصة صاحب الجنتين؛ الذي اغتر بجنتيه، ونسي الله، ونسي البعث، ونسي من خلقه، ولم يعرف الطريق إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلما اغتر بجنتيه سلط الله على هذه الجنتين فأبيدت وأحيط بثمره، وأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها.

هذه القصة فيها عبرة وعظة لنا، أن هذه الدنيا لا تبقى على حال، وأن هذه الدنيا فيها الكدر، وفيها التنغيص، وفيها الابتلاء، والامتحان، وأنها لم تصفو لخير البشرية صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم تصفو لأفضل الناس وهم الأنبياء، كلّ من الأنبياء قد أصيبوا وأوذوا، وأصابهم النكد، نلاحظ هذا في تاريخ الأنبياء كلهم، فكيف تصفو لغير الأنبياء؟!

فالحياة كلها هكذا، فلابد أن نستطيع أن أو نحاول كيف نتعامل معه هذه الحياة؟ الله عَزَّ وَجَلَّ لما يضرب لنا قصة صاحب الجنتين، ثم يضرب لنا يعني الحياة الدنيا وسرعة زوالها، هذه حتى نعتبر، حتى نتعظ ونعرف أن هذه الدنيا هي دار ممر، وكلّ سيرتحل منها وليست داء بقاء، وإنما هي دار عمل، ودار استعداد للدار الباقية، هذه دار فانية، والدار الباقية ستأتيك.

فأنت تعمر دارك الباقية، لا تعمر دارك الفانية، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحذرنا من هذه الدنيا، ومن بطشها، ومن فتكها، وقد يغتر بها الإنسان، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [لقمان: 33].

في آيات كثيرة تحكي لا تغرنكم الحياة الدنيا، لا تغتر بالدنيا، وبمتاع الدنيا، وزخرفها وزينتها، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 131].

لذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ضرب لنا قصة الرجلين، أو قصة صاحب الجنتين، وأنه زالت عنه حياته، وانتهت، بيّن لنا حقيقة الحياة الدنيا في هذه الآية؛ فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 45].

✍ ما هي حقيقة الدنيا؟

✍ نحن نريد أن نصل ونعرف ما حقيقة هذه الدنيا؟

يقول: هذه الدنيا في سرعة زوالها وذهابها، إما أنت تزول عنها عن قرب، وإما هي تزول عنك، إما أن تذهب عنك أو تذهب أنت عنها، لا تظن أنك ستبقى أنت أو هي ستبقى لك، يا هذا يا هذا.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 45].

يضرب الله لنا مثل الحياة الدنيا بأي شيء؟

يشبه الحياة الدنيا بأي شيء؟

قال: الحياة الدنيا هذه كلها التي يعيشها الناس هي مثل الماء الذي ينزل من السماء، ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: 45]، فينزل من السماء، ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ [الكهف: 45]، فيختلط به نبات الأرض، فإذا اختلط به نبات الأرض ودخل هذا الماء في الأرض، وأنبتت الزرع والزهور، والخضرة والبهجة والجمال والرائحة الطيبة بلحظة لا تدري إلا وقد أصبحت هشيم، ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: 45]، أصبحت الخضرة والزهور هشيمًا متكسرًا يابسًا تذروه الرياح أي تطير به الرياح، فهذه هي الحياة الدنيا.

صفة الدنيا التي اغتر بها صاحب الجنتين، واغتر بها من اغتر بها في سرعة زوالها مثل الماء الذي ينزل من السماء فهذا الماء يخرج الله به النبات، ويصير هذا النبات مخضرًا، وبألوانه البهية الجميلة، ورائحته الطيبة وخضرته، وما هي إلا مدة يسيرة ولحظات حتى صار هذا النبات الأخضر، والنبات ذو الألوان الزاهية في لحظة إذ هو يابس ومتكسر، تنسفه الرياح، وتدفعه الرياح، وينتهي، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على كلّ شيء مقتدرًا.

قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: 45]، أي له قدرة عظيمة لا يعجزه شيء، فالحياة سريعة، تغتر بها فإذا هي قد ذهبت وانتهت، فلا تغتر، لا يغر بطيب العيش إنسان، فلا تغتر بهذه الحياة الدنيا.

هذا المقصود: أنه ينبغي أن تعرف كيف تتعامل مع هذه الحياة؟ نحن خلقنا في هذه الحياة، وعشنا فيها مدةن، وسنذهب ونتركها كما ذهب وتركها آباؤنا وأجدادنا وأسلافنا، ذهبوا وتركوها.

✍ فما الواجب علينا تجاه هذه الحياة الدنيا؟

نعمر هذه الحياة الدنيا بطاعة الله، ونجعلها خزائن لنا إلى يوم القيامة، ونستغل كلّ وقت، وكلّ ساعة، وكلّ دقيقة وثانية في طاعة الله، هذا هو العاقل الحصيف الذي يعرف كيف يتعامل مع الدنيا.

أما أن يغتر بالدنيا وتشغله وتلهيه وتجعله غافلاً عن طاعة الله وعن الاستعداد لليوم الآخر؛ فهذا خطره عظيم على هذا الإنسان.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن لك حقيقة الدنيا، إذا عرفت أنت حقيقة الدنيا أنها كالماء الذي يزول ويذهب فكيف تتعامل معها؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

الأموال والأولاد هم جمال الدنيا، والدنيا ذاهبة، والمال سيذهب، والبنون سيذهبون، والإنسان في الدنيا قد يغتر بكثرة المال، وقد يغتر بكثرة الأولاد، لكن الله أخبرنا في آيات أخرى أن المال والبنون فتنة، ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: 28]، فالإنسان يعرف أن المال فتة، والأولاد والبنين أيضًا فتنة، فينبغي أن يحذر هذه الفتنة.

تلاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدم المال على البنين، لماذا؟ لأن المال هو زهرة الحياة الدنيا، المال هو الذي يبحث عنه الإنسان، منذ أن ينشأ في هذه الدنيا وهو يبحث عن المال، والفتنة فتنة المال.

والبنون يأتون بعد المال؛ لأنه لو كان عندك بنون ولا عندك مال ما شعرت بلذة الحياة الدنيا، عندك أولاد ولكن ما عندك مال فقير ستشعر بضيق في الدنيا، لو لم يوجد عندك البنون فالمال شيء كبير في هذه الحياة.

ولذلك قدمه الله قال: ﴿الْمَالُ﴾، ثم قال: ﴿وَالْبَنُونَ﴾، وقال: ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ﴾ [الكهف: 46]، فدل على أنها زينة الحياة الدنيا، يعني جمال الدنيا في هذا الشيء، وهذا يدل على عدم ثبوت هذا الأمر؛ لأن الزينة ما يتزين به الإنسان فترة من الزمن ثم يذهب ويتركها، فهذا حقيقة المال، ينبغي للإنسان أن يحسن التصرف مع هذا المال، ينبغي له أن يحسن التصرف مع المال ومع البنين.

قال: ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46]، زينة الحياة الدنيا يتزين بها، وقد يغتر، وقد تكون هذه تضره، هذا المال وهؤلاء البنون قد يكونوا ضرر عليه؛ لأن الله بيّن أنهم فتنة.

ثم بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عد ذلك ما هو الذي يبقى لك في الدنيا أن تستغله في الدنيا فيبقى لك في الآخرة؛ فقال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ [الكهف: 46]، سماها باقيات؛ لأنها تبقى لك في الآخرة، وهذه الباقيات وصفها بأنها صالحة، وحكم عليها بأنها خير عند ربك، ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: 46]، خير في ماذا؟ قال: ﴿ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46]، خير في الثواب، ،خير فيما يأمله الإنسان ويتطلع إليه.

طيب ما المراد بالباقيات الصالحات؟

اختلف أهل العلم والمفسرون في المراد بالباقيات الصالحات على عدة أقوال: وأوضحها أن المراد بالباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة، سواء كانت من التسبيح، والتهليل، والتكبير، والذكر عمومًا باللسان، أو بالأعمال الصالحة من الصلاة، والزكاة، والصيام، ونحو ذلك، كلّ ذلك من الباقيات الصالحات التي تبقى للإنسان.

والله حكم عليها بأنها خير من المال، وخير من البنين، وخير من الدنيا كلها، فاحرص على ما هو خير، واحرص على ما هو يبقى، واحرص على ما هو ينفع في الآخرة.

وهذه الأعمال هي التي يرجوها الإنسان عند ربه؛ لأن الله قال: ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46]، أي خير رجاء عند الله، أن ترجوه عند الله، وتأمله في آخرتك هذا الذي ترجوه عند الله.

إذا جاء يوم القيامة يتمنى الإنسان هذه الأعمال، وهذه الباقيات الصالحات أن تبقى له، متى؟ نقول: في يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ [الكهف: 47]، أي في هذا اليوم يوم القيامة ستحدث حوادث عظيمة تعرف قدر هذا اليوم، ما هو هذا اليوم؟!!

ستعرف هذا اليوم وتعرف عظمة هذا اليوم متى؟ إذا جاء هذا اليوم، وهذا اليوم ذكر الله فيه أهوال عظيمة، من أعظم أهوال هذا اليوم العظيم أن الجبال الراسيات الشامخات التي لا يستطيع أي بشر أن يحركها عن أماكنها يوم القيامة يسيرها الله، فتذهب تسير تمشي لا تبقى، ﴿وَتَرَى

الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: 88]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا 105 فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: 105، 106].

هذه الجبال تذهب، الجبال الشامخة القوية تذهب، قال عَزَّ وَجَلَّ: يوم القيامة هذا اليوم نسير الجبال، في آيات أخرى قال: نسفت الجبال، تنسف، وفي آيات أخرى قال: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: 20]، ما يبقى لها أثر، تذهب كالصوف المنفوش، وكالعهن المنفوش.

قال هنا: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ [الكهف: 47]، فتذهب الجبال، وإذا ذهبت الجبال استوت الأرض، ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: 47]، أي مستوية وظاهرة، ليس فيها عوجًا، لا مرتفع، ولا منخفض؛ بل هي قطعة مستوية، يحشر الله الأولين والآخرين، ويحشر الله الخلق كلهم.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحشر الخلق كلهم، سواء من بني آدم، أو من الجن، أو من الإنس، أو من المخلوقات أو من الوحوش، كلها تحشر يوم القيامة.

ولذلك قال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: 47]، والنتيجة ما هي؟ قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ [الكهف: 47]، أي جمعناهم، جمعنا الخلق كله، الحيوانات والوحوش والطيور والإنسان والجن، وكلّ هذه الأشياء.

قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47]، أي لم نترك منهم أحد؛ بل الجميع سيحشرون أمام الله،لا يمكن أن يتخلف أحد من الخلق أن يقول: لن يستطيع أحد أن يحشرني أو يأتي بي، كلهم سيأتون داخرين، بغير اختيارهم بقوة، سيحضرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويحضرون جميعًا.

قال: ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: 47]، لم نترك منهم أحدًا لا يحضر، كلهم سيحضرون، يحضر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الخلق كلهم، الأولين والآخرين لموقف الحساب، هذا الموقف العظيم، يحشر الله الأولين والآخرين، على هذه الأرض البارزة والجبال قد ذهبت، لأي غرض؟ قال: لحسابهم ومحاسبتهم.

ولذلك قال بعدها: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: 48]، يُعرض الجميع، والخلق كلهم يعرضون على ربهم، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: 18]، عرضوا جميعًا على رب العالمين، مصطفين لا يحجبهم أحد، وسيحاسبهم رب العالمين، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيبعثهم جميعًا ويجازيهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ [الكهف: 48]، يأتوا فرادى ليس معهم لباس، ولا معهم مال، ولا معهم جاه، ولا منزلة ولا أي شيء، يأتون فرادى، لا مال، ولا ولد، ولا أحد معهم، كما خلقهم الله أول مرة.

قال: ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: 48]، كما خلقهم أول مرة يعودون، فيعودون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ [الكهف: 48]، هذا رد على المشركين المنكرين للبعث، بل زعمتم وظننتم أنه ليس هناك موعد، وليس هناك بعث، هذا ظن الذين كفروا، أنه لا يبعث الله ولا يجازي، وليس هناك جنة ولا نار؛ بل سيبعثهم ويجازيهم.

يظنون أنه ليس هناك بعث ولا مجازاة، ولا جنة ولا نار؛ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: 48]، هذا هو الموعد الذي وعدناكم، والآن أتيم إلى هذا الموعد راغمين من غير اختيار.

قال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ [الكهف: 49]، والمراد بالكتاب هنا هو جنس الكتب وليس كتابًا واحدًا، وإنما هي كتب الأعمال، كتاب الأعمال، كلّ إنسان سيأخذ كتابه إما بيمينه أو بشماله من وراء ظهره، ستتطاير الصحف، ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: 14].

فكل سيأخذ كتابه ويقرأه، ويجازى عليه، فمنهم من يقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ 19 إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: 19، 20]، ومنهم من يدعو ثبورًا، ويصلى سعيرًا.

قال الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ [الكهف: 49]، أي العصاة المجرمين، الفاسقين، الكافرين، المنكرين للبعث، ﴿مُشْفِقِينَ﴾ [الكهف: 49]، أي خائفين، ﴿مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: 49]، مشفقين وخائفين مما في هذا الكتاب، وحالهم ماذا؟ أنهم يقولون: ﴿يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ [الكهف: 49]، هذا الكتاب كتاب عظيم.

قال: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49]، ما عملوا من عمل في الدنيا صغير مثقال ذرة، أو كبير، أو أي عمل من الأعمال إلا وقد أودع في هذا الكتاب، وأحصاه الله، أحصى الله أعمالهم، ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: 6]، جمعه الله لهم كله، وكشفه لهم.

قال: ﴿يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49]، ما في عمل من الأعمال حتى قال بعض المفسرين: حتى الضحك والابتسامة تسجل عليك وتكتب عليك، تسجل وتُكتب في صحيفتك تجدها في صحيفتك.

كلّ ما عمل ابن آدم من عمل في الدنيا، صغيرًا كان أو كبيرًا سيجد ذلك العمل في صحيفته، ﴿يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾، من الأعمال، والأفعال، والقوال، ﴿وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: 49]، إلا وهو موجود فيها.

قال: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: 49]، أحضرت لهم أعمالهم التي عملوها في الدنيا، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49]، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: 40].

فلا يُنقص من أعمال الطائعين شيئًا، ولا يُزاد على أعمال العاصين شيئًا من ذلك، كلٌّ يأخذ حقه؛ بل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يضاعف الأجور للطائعين، ويعطي العصاة حقهم بالعدل.

✍ ما هي الأمور التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما يحصل يوم القيامة؟

نقول: أولًا ذكر تسيير الجبال وذهابها، وذكر أن الأرض ستبرز وتظهر أمام الناس، وذكر أن الله سيحشر الأولين والآخرين، وذكر أن الناس سيعرضون على رب العالمين، وذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه ستتطاير الكتب والصحف، وكلٌّ آخذ صحيفته، وسيجازون ويحاسبون عليها إما فائز، وإما خاسر، هذا هو الحشر العظيم، والموقف العظيم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الكهف: 50].

🗐 قد يأتيك سائل ويسأل:

✍ لماذا ذكر الله قصة إبليس بعدما ذكر لنا أحوال يوم القيامة؟

نقول: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حذرنا من الدنيا أن يغتر بها الإنسان فتضيع أعماله، فلما حذرنا من الدنيا، أيضًا حذرنا من عدو لنا وهون الشيطان، فالذي يضرك والذي يشغلك عن الآخرة وعن العمل الصالح الذي ينفع في الآخرة إما الاغترار بالدنيا وإما طاعة الشيطان.

ولذلك هنا يحذر الله من الشيطان، ويذكر قصته الأولى مع أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: واذكر يا محمد، واذكر أيها القارئ، إذ حين أمرنا الملائكة بالسجود، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الكهف: 50].

لما خلق الله آدم أمر الملائكة أن يسجدوا، عندما علم الله آدم الأسماء كلها وفاز آدم على الملائكة بالعلم، أكرمه الله بأن تسجد له الملائكة سجود تحية، وليس سجود عبادة، فأمر الملائكة أن تسجد لآدم، ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الكهف: 50]، إبليس كان من الملائكة، كان يتعبد، وليس من الملائكة في الخلق؛ لأن الملائكة خُلقوا من نور، وإبليس كما قال هو: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾ [الأعراف: 12]، فهو مخلوق من نار.

فهو معهم في الطاعة فقط والعبادة، وليس من جنسهم، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال هنا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: 50]، يعني أصله من الجن، وهو أبو الجن، فهو أساس الجن، والجن ذريته، والجن فيهم مؤمنون، وفيهم كفار، فسقة، لكن الشيطان قال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: 50]، أي خرج عن طاعة ربه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [الكهف: 50]، تجعلونه لكم أولياء، تجعل الشيطان ولي لك، وذريته أولياء لك؟!!

ذريته أي ما يتناسل من الشيطان من أعوانه وذريته وأولاده، فلا تتخذ الشياطين أولياء من دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهم أعداء، قال ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: 50].

ثم قال: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50]، كيف تستبدل طاعة الرحمن بطاعة الشيطان؟ هذا نقص في العقل، لا يليق بالإنسان، ولا يجوز له أن يفعل مثل هذا الأمر، عليه أن يحذر الشيطان، لما ذكر الله قصته قصها علينا في هذه الآيات حتى يحذرنا من طاعة الشيطان الذي هو سبب في صد الإنسان عن طاعة الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: 51]، أي ما أشهدت هؤلاء الشياطين والشيطان وذريته، ولا أشهدت هؤلاء الكفار خلق السماوات والأرض، ﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الكهف: 51]، لما خلقتهم لم يروا هذا الشيء، ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: 51]، أهل الضلال وأهل المعصية من الشياطين أو من غير الشياطين لم يجعلهم الله أولياء، ولم يجعلهم يساعدونه ويكونون معينين له في شيء من خلق الله؛ بل الخلق كله خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لعلنا نقف عند هذه الآية، الآية الواحدة والخمسين وإن شاء الله نستكمل بقية الآيات إن شاء الله في اللقاء القادم، ونكتفي بما ذكرناه في هذه الآيات، نسأل الله أن ينفعنا بها، وأن يجعلنا وإياكم موفقين، ومباركين أينما كنا.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الكهف 52 - 59)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم المبارك، وهو يوم الثلاثاء الموافق للرابع والعشرين من شهر ذي الحجة من عام 1442من الهجرة.

نجتمع حول تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي **"سورة الكهف"**، والآيات قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ [الكهف: 52].

هذه الآية لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات الماضية، وهذا يمكن كررناه أكثر من مرة أنك إذا أردت أن تفهم الآيات، وتتدبر الآيات لابد أن تنظر في سياق الآيات، يسميه أهل العلم سياق الآيات، سياق الآيات يعني ما قبل الآية وما بعدها حتى تعرف لماذا جاءت هذه الآية في هذا المكان؟

هنا يقول: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ [الكهف: 52]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا جاء يوم القيامة وحشر الناس جميعًا، وحشر هؤلاء المشركين قال للمشركين وناداهم: أين شركائي؟ نادوا شركائي، أنتم تقولون: هذه الأصنام هي شركاء مع الله، ونعبد هذه الأصنام كما نعبد الله، هؤلاء الشركاء سواء كانوا من الأصنام، أو من أي مخلوق، حجر كان أو شجر، أو إنسان ميت، أو غير ذلك، أو ولي أو غير ذلك، أين شركائي الذين أنتم تزعمون؟!!

وقوله: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ [الكهف: 52]، دليل على أنه كذب؛ لأن الزعم كلام باطل، فيقول الله لهؤلاء: أين شركائي الذين زعمتم أنهم معي شركاء، وأنكم تعبدونهم، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى، وأنهم يدخلونكم الجنة على زعمكم؟ أين هؤلاء الشركاء؟!!

نحن ذكرنا لكم قبل قليل ننظر في الآيات التي قبلها، الآيات التي قبلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ضرب لنا الحياة الدنيا بماء أنزله من السماء وقال: إن الباقيات الصالحات هي خير للإنسان، وأن المال، والبنون، زينة الحياة الدنيا، وتذهب الدنيا كلها بزينتها، وأن الباقي هو لك، وهي الأعمال الصالحة، هي الباقات الصالحات من الأعمال الصالحة والذكر الطيب.

✍ هذه التي تبقى لك متى؟

قال: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46]، يعني خير أجر وثواب عند الله، وخير ما يأمله الإنسان ويتمناه في الآخرة، متى؟ قال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: 47]، في هذا اليوم الذي قال الله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا 47 وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ﴾ [الكهف: 47، 48].

انظر كيف تأتي الآيات، عندنا أول شيء تسير الجبال، ثانيًا: الأرض تبرز وتصبح قطعة واحدة، لا ارتفاع، ولا منخفض، ويحشر الله الأولين والآخرين، قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ [الكهف: 47].

ثم عرض الناس، ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: 48]، ثم بعد ذلك يؤتى بالكتاب، قال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: 49].

كلّ هذه الأعمال وهذه الأمور تحصل متى؟ تحصل يوم القيامة، إذا جاء يوم القيامة يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهؤلاء المشركين: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ [الكهف: 52]، أنتم تقولون: إن معي شركاء، وأنتم تعبدونهم من دوني، أين شركائي الذين زعمتم؟!!

فإذا قال: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ [الكهف: 52]، دعوهم، فإذا دعوهم، قالوا: يا فلان، وبدؤوا يدعون هؤلاء المعبدون من دون الله والأصنام، واللات والعزى وغيرها، دعوهم فلم يستجيبوا لهم؛ لأنها أصنام، ما استجابت لهم في الدنيا حتى تستجيب لهم في الآخرة، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [الكهف: 52].

قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ [الكهف: 52]، أي جعل بين المشركين وشركائهم، بين المشركين والذين يعبدونهم من دون الله الأصنام وغيرها، جعل الله بينهم موبقًا.

✍ ما معنى موبقًا؟

قال أهل التفسير: أي مهلكًا، يهلكون فيه، وقال بعضهم: إنه وادي طويل وعظيم، يجعله الله مهلكة لهؤلاء، فيجعله لهؤلاء المشركين وشركاءهم الذين جعلوهم آلهة من دون الله، يجعلون في هذا الوادي، ويلقون في هذا الوادي، فهذا معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ [الكهف: 52].

وأصل كلمة الموبق من **"وبق الشيء إذا هلك"** ولذلك الموبقات السبع أي المهلكات السبع، الموبقة سميت موبقة؛ لأنها تهلك صاحبها، فمعنى موبقًا **" أي مهلكًا"** فهذا معنى كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الفلك تمشي في البحر، والسفن تمشي في البحر؛ قال: ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: 33]، ثم قال: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ [الشورى: 34]، أي يغرق هذه السفن، فالوبق هو الهلاك.

فقوله تعالى هنا: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ [الكهف: 52]، أي دعوا الأصنام، ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: 52]، أي بين الشركاء والمشركين، ﴿مَوْبِقًا﴾ [الكهف: 52]، أي مهلكًا يهلكون فيه.

✍ ما هو هذا المهلك؟

قال بعضهم: إنه وادي يهلكون فيه، والله أعلم بحال هذا الشيء، لكنهم سيهلكون جميعًا، وسيحشر الله المشركين وشركائهم في نار جهنم، كلهم يحشرون في نار جهنم، ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ [الكهف: 52].

قال الله بعد ذلك: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ﴾ [الكهف: 53]، لما يحشرون يوم القيامة، ويناديهم الله ويقول: أين شركائي، ويهلكون هلاكًا عظيمًا، سيرون النار أمامهم.

من الذي يرى هذه النار أمامه ويسقط فيها؟

قال: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ [الكهف: 53]، والمجرمون هم أصحاب الجرائم العظيمة، أصحاب الجرائم والمعاصي العظيم، والشرك والكفر بالله، هؤلاء إذا رأوا النار جزموا وتيقنوا أنهم سيسقطون فيها لا محالة.

وقوله: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: 53]، أي جزموا، فالظن هنا بمعنى اليقين، أي أيقنوا أنهم ساقطون فيها، ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: 53]، أي لا يستطيعون أن ينصرفوا يمينًا أو شمالًا، أو يعدلون، أو يجدون أحدًا يشفع لهم، أو يصرفهم، لابد أن يسقطوا في هذه النار، هذا معنى قوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: 53].

إذا جاء يوم القيامة ورأى المجرمون النار علموا، وجزموا، وأيقنوا أنه لا محالة من أنهم سيردون النار، وأنهم ساقطون فيها، وأنهم لن يجدوا مفرًا، ولا مصرفًا، ولا فرارًا من هذا اليوم، ولا ملجئًا يلجئون إلا أن يسقطوا في نار جهنم، هذا وعيد شديد، وخبر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يهدد ويخوف به هؤلاء المجرمين، أنه إذا جاء يوم القيامة فإنهم سيتساقطون في نار جهنم، فليحذروا من هذا الوعيد الشديد.

✍ هذه الأخبار أيها الأخوة يخبر الله بها في أي شيء؟

يخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الأخبار عن طريق الوحي، والقرآن الكريم، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا ينوه بعظمة هذا القرآن الكريم، وأنك ما تسمع فيه من أخبار وأمثال التي يذكرها الله كقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ [الكهف: 32]، وقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: 45].

وغيرها من ضرب الأمثال، ومن ذكر هذه الأخبار العظيمة التي هي أخبار حقيقية، هذه طريقها ومصدرها القرآن الكريم.

ولذلك ينوه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعظمة هذا القرآن وجلالته، فيقول: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الكهف: 54]، هذا القرآن صرفنا ونوعنا فيه وأكثرنا فيه في هذا القرآن للناس من كلّ مثل من الأمثال، وكلّ خبر من الأخبار، في بيان الحلال والحرام، وبيان الأعمال الصالحة، والأعمال السيئة، وجزاء الأعمال الصالحة، وأعمال الشر، وطريق الهداية، وطريق الضلال، كلّ ذلك موجود في القرآن الكريم.

طريق السعادة، وطريق الشقاء كل ذلك أوضحه الله غاية الوضوح في القرآن الكريم، وبينه غاية البيان، ولذلك الله يقسم هنا يقول: والله لقد صرفنا، وأوضحنا، وبينا في هذا القرآن للناس من كلّ مثل، فليس لأحد حجة أن يقول: لم أفهم، أو لم أسمع، أو لم أعلم بهذا الشيء، كلّ ذلك موجود في كتاب الله.

اقرأ القرآن والقرآن واضح بيّن لا غموض فيه، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17]، هل من متذكر؟ ولذلك قال: بينا فيه من كلّ مثل من الأمثال، كلّ شيء واضح، ولكن الإنسان هو سبب كلّ شقاء، وكلّ ضلالة؛ لأن الإنسان كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يقبل الحق؛ بل ينازع، ويجادل، ويرد.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: 4]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: 77].

شديد الخصومة، شديد الجدال والمنازعة، هذا الحق يأتيك، والخير يأتك، ومع ذلك تجادل، ولذلك قال هنا: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 54]، مجادلة، ومنازعة، ولا يقبل الحق بكل هدوء وطمأنينة.

وهذا ليس عامًا في كلّ إنسان، نجد من الناس من يتقبل الحق، وتطمئن نفسه إلى الحق، ويسارع إلى الحق، وهذا مشاهده كثيرة، فمن الصحابة من لما سمع الدعوة إلى الله بادر، وسارع، ولم يجادل، وأذعن، وأقبل إلى الحق، نقول: هذا ليس في كلّ إنسان؛ وإنما هي صفة ظاهرة في الكثير من الناس.

فقوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 54]، هذا في الكثير من الناس، وليس في كلّ إنسان أنه يحب العناد، ويحب الظلم، ويحب النزاع، والمشاقة، والمجادلة، لا، وإنما فيهم من هو يسارع إلى الإيمان والتصديق، وقبول الحق مباشرة، فهذا صفة يعني ظاهرة في الكثير من الناس هذا معناه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ [الكهف: 55]، ما المانع منهم أن يؤمنوا؟ لماذا لا يؤمنوا إذا جاءهم القرآن بتصريفاته، إيضاحه، ودلالاته، وأمثاله؟ لماذا لم يقبلوا؟ ما الذي منعهم؟

✍ لو سألك سائل قال:

الله عَزَّ وَجَلَّ صرح في هذا القرآن، وأوضح، وبيّن، وأقام الحجة، وأوضح لنا طريق الهداية، وطريق الشقاء؛ فما الذي يمنع الإنسان من الإيمان؟ ما الذي يمنعهم؟ ما الذي يجعلهم يترددون ويمتنعون؟

الكثير من الناس تجده يعني أو يوجد من الناس من يمتنع عن قبول الحق، لماذا؟ الله أخبر قال: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ [الكهف: 55].

وسمى القرآن والشريعة هدى؛ لأنه فيه هداية الناس، هداية الناس من الضلالة، وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: 55].

✍ لماذا لا يستغفرون الله؟

✍ ولماذا لم يؤمنوا بالهدى لما جاءهم؟

قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: 55]، ما يمنعهم إلا كفرهم، وعنادهم، فلا ينتظرون إلا العقوبة أن تنزل بهم، هذا معنا.

يقول: الذي منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى، ومنع الناس أن يستغفروا ربهم ويقبلوا عليه هو عنادهم وكفرهم.

✍ فلماذا الجدال والمنازعة والخصومة والكفر والعناد؟

✍ لماذا لم يتقبلوا الحق ويسارعوا إليه؟

لا ينتظرون إلا سنة الأولين سنة الأولين هو إهلاك الأمم الماضية لما كفرت، وعاندت، وأصرت على كفرها، أنزل الله بها العقوبات، سنة الله في الأولين.

قال: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: 55]، أي أمامهم العذاب ينزل بهم مباشرة.

يا من لم يقبل الحق، ولم يؤمن بالهدى، ولم يستغفر ويعود إلى الله، ماذا تنتظر؟ إما تنتظر عقوبة الأمم السابقة، عقوبة الأمم الماضية التي أهلكهم الله في القرون الماضية، أو تنتظر العذاب ينزل لك مباشرة، فإما هذا، وإما هذا، ولكن الناس قليلاً منهم من يقبل على الحق، ويسارع إليه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مكانة الرسل، ودور الرسل، دورهم العظيم، ومكانتهم العظيمة؛ لأن القرآن ينزل على الرسل، القرآن ينزل على محمد، والكتب تنزل على الرسل، ودور الرسل إبلاغ هذه الرسالات التي كلفوا بها، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الكهف: 56].

فالرسل والمرسلين الذين يرسلهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويوحي إليهم، ويرسلهم إلى البشر، دورهم ماذا؟ أنهم يبشرون من أطاع بالجنة والسعادة، الأبدية، في الدنيا والآخرة، وينذرون من عصا، وعاند، وكفر.

قال: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الكهف: 56]، الذين كفروا لا يقبلون من الرسل، ولا يسمعون منهم، ولا يبادرون بقبول دعوتهم، وإنما ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [الكهف: 56]، تجادل بالباطل وتترك الحق، ما هذا العناد؟!!

قال: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ [الكهف: 56]، ويظهرون الباطل، ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: 56]، ليطمسوا الحق، هذه طريقة الكثير من الذين كفروا، ومن هم على شاكلة الذين كفرا في كلّ زمان، وفي كلّ مكان، وفي كلّ قرن، وفي كلّ جيل تجد من يريد أن يظهر الباطل ويطمس الحق بأي طريقة، ويستهزئ بآيات الله.

ولذلك قال: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا﴾ [الكهف: 56]، من النذر، والتخويف، إلا يستهزئون ويسخرون منهم، ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: 56]، هؤلاء هم أهل الباطل، وأهل

الكفر، وأهل الضلال من المنافقين، والمشركين، والكفار، ومن هم على شاكلتهم، يردون إظهار الباطل، وطمس الحق، وأنهم لا يقبلوا ما جاء عن الله؛ بل يستهزئ ويسخر فتنزل بهم العقوبات.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: 57]، كلّ هذه الآيات أيها الأخوة نسمعها، كلها مواعظ، القرآن كله مواعظ وتذكير بحال أهل الشقاء، وبحال أهل السعادة.

قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [الكهف: 57]، أي لا أحد أظلم، ولا أحد أشد ظلم، ﴿مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: 57]، يُذكر بآيات الله، ويُذكر بالقرآن، ويُذكر بالهدى، ويُذكر بطريق السعادة، يُذكر بآيات الله والنتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: 57].

هذا أشد الناس ظلمًا؛ الذي يُذكر بآيات الله، ويوعظ، وينصح بآيات ربه الآيات القرآنية، والآيات الكونية، والعقوبات، والمثلات التي نزلت بالأمم السابقة، ويحذر، ويذكر، وينذر، ومع ذلك يعرض ولا يقبل؛ بل ينسى ما قدمت يداه من الكفر والمعاصي، والذنوب، ينسى ذلك.

✍ فهؤلاء إذا كانوا على هذه الحال؛ فمَ عاقبهم الله؟

✍ هل أنزل بهم الهلاك والعقوبة والعذاب؟

لا، ما أنزل الله بهم العذاب؛ بل عاقبهم بما هو أشد من ذلك، ما هي العقوبة التي تظن أنها يتنزل في مثل هؤلاء؟ إنسان يُذكر بآيات الله ويُوعظ، ويُهدد، ويُخوف، ويُنذر، ثم هو يعرض وينسى ذنوبه، وينسى أعماله السيئة التي فعلها، ما هي النتيجة؟

من أشد العقوبات أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يملي له ويجعله يستمر في ذنوبه ومعاصيه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: 178].

تجده يُعطى الصحة، والعافية، والمال، والرخاء، وهو يزيد يزيد، وهذا استدراج من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو يزيد في المعاصي، ويفتح الله عليه أبواب المعاصي، ويزداد كفرًا؛ لأنه لم يعرف الطريق إلى الله، أعمى بصيرته وبصره عن الله، ولذلك قال الله في عقوبته: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: 57]، وهذا أشد.

لو نزلت به العقوبة وهلك كان خير لك، لكن يستمر؟ قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: 57]، الأكنة جمع كنان وهو الغطاء، يعني لا يفقه أبدًا، القلوب مغلقة، عليها أقفال، قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: 57]، أغلقت القلوب.

قال: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [الكهف: 57]، يفقهوا هذا التذكير، يعني تذكر أو لا تذكر، كما قال قوم عاد: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: 136]، لا يزيد عندنا ولا يقدم، لا نفقه ماذا تقول.

وكما قال قوم شعيب: ﴿يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ [هود: 91]، ما نفقه، ما ندري ماذا نقول؟ لماذا؟ لأن القلوب أغلق عليها، خلاص، عليها أقفال، وعليها أغطية، ما يقبل هذه القلوب.

وأما الأذان؛ فقال: ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: 57]، والوقر الثقل، ثقل السمع، ما يسمع، هو يسمع الباطل، يسمع الأغاني، والموسيقى، ويسمع الحرام، لكن الحق ما يسمعه، الله جعل على أذانه الثقل في سماع الحق، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: 57].

إذا عرفت أن القلوب مغلقة، والأذان لا تسمع، قال: ﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى﴾ [الكهف: 57]، لو تدعهم إلى الهدى بالليل والنهار، ﴿فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: 57].

✍ لماذا لا يهتدون أبدًا؟

لأنهم هم السبب، أغلقوا على أنفسهم، أعرضوا عن الحق، ونسوا معاصيهم، فالنتيجة أن الله عاقبهم بأن أقفل قلوبهم وجعل على سمعهم الثقل الذي لا يسمعون الحق أبدًا، فالنتيجة مهما دعوتهم بجميع وسائل الدعوة لن يقبلوا منك أبدًا، ولن يهتدوا إذًا أبدًا، كما أخبر.

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع هذا كله، وشدة ظلم هذا الإنسان، وإعراضه، ونسيانه ذنوبه، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو رحمة واسعة سبحانه.

ولذلك قال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ﴾ [الكهف: 58]، الغفور لهم، ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: 58]، الذي يرحمهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ [الكهف: 58]، لو أراد الله أن يجازيهم بكسبهم الذنوب، لعجل لهم العذاب، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل لهم موعد، تركهم ولم يعجل لهم العقوبة لعلهم يعودون، لعلهم يستغفرون فيغفر لهم، لعلهم يرجعوا عما هم عليه، لكن لهم موعد، إن استمروا على كفرهم، وعنادهم، وإعراضهم.

قال: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: 58]، لا يستطيعوا أن هذا الموعد يتخلفوا عنه، لا يمكن أن يتخلفوا عنه، ولا يمكن أن يلجئوا إلى شيء أو يفروا منه، لابد أن يواجههم هذا الموعد، لابد أن يقابلوا هذا الموعد، ولا يمكن لهم أن يفروا من هذا الموعد.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ [الكهف: 58]، يوم القيامة، وعند الموت والاحتضار، ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ﴾ [الكهف: 58]، لن يجدوا من دونه مفرًا، ومهربًا، وملجئًا يلجئون إليه.

قال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ [الكهف: 59]، إذا أدت أن تعرف حقيقة العقوبة والإنذار والتهديد، اسمع القرى الماضية.

قال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الكهف: 59]، ما السبب؟ قال: ﴿لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: 59]، أي سيجدون لهذا الملك يومًا يجاوزن فيه، ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: 59]، أي يجازون فيه، ويلقون عقوبتهم فيه.

فالقرى الماضي أهلكها الله، عاد، وثمود، ونوح، وقوم فرعون، وغيرهم من الأمم الماضية أهلكهم متى؟ لما ظلموا أنفسهم، وردوا رسالات ربهم، وأعرضوا، ونسوا ما ذكروا به، النتيجة أهلكهم الله، وجعل لهلاكهم أيضًا بعد موتهم موعدًا يجازون به، بهلاك الآخرة وهو أشد وأبقى.

هذه الآيات أيها الأخوة التي مرت معناه كلها مواعظ، عرض لحال المجرمين في الآخرة، وشركاؤهم، أين شركاءهم الذين يزعمون أنهم معهم؟

وأيضًا بيان عظمة هذا القرآن، وأن الله أقام الحجة بهذا القرآن على الناس جميعًا، وأن المانع من الناس هو أنهم أرادوا العناد، والكفر، والمعاصي، والجدل، والمنازعة، ولا يقبلون الحق.

وأما الرسل؛ فإن الله أرسلهم يبشرون وينذرون، ويحذرون، ولكن الناس كثيرًا منهم لا يقبل؛ بل الأعراض، ونسيان ما قدمت يداه، والنتيجة هي العقوبات التي تنزل بهم، كلّ ذلك تهديد من الله للناس لعلهم يرجعون، ويعودون إلى الله.

آيات عظيمة أيها الأخوة، وقفنا معها، وتأملناها، فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بها، وأن يجعلنا ممن إذا ذُكر بآيات الله تذكر، واتعظ، وتدبر.

لعلنا نقدر عند هذا القدر، وإن شاء الله نكمل في اللقاء القادم.

وَاَللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الكهف 60 - 82)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق لليوم الأول من شهر الله المحرم، من عام 1443من الهجرة.

نستهل هذا اليوم وهذه المناسبة بدخول هذا العام المبارك الذي أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يبارك لنا ولكم في أوقاتنا، وأن يجعل أوقاتنا كلها معمورة بطاعة الله، وأن يجنبنا كلّ ما لا يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى.

هذا اليوم يوم الثلاثاء معنا في هذا اللقاء المبارك هذه السورة المباركة وهي **"سورة الكهف"** وقد وقف بنا الكلام في لقاءنا الماضي عن الآية رقم ستين من هذه السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: 60].

إذًا هذه بداية قصة الرحلة في طلب العلم، وبداية قصة موسى مع الخضر، وهي تحتاج منا وقفات جميلة، ونحتاج نحن بإذن الله أن نتأملها تأملاً نستفيد منه.

ذكرنا في لقاءاتنا الماضية أن **"سورة الكهف"** ذكر الله فيها أربعة قصص:

1. قصة أصحاب الكهف.
2. وقصة صاحب الجنتين.
3. وقصة موصى مع الخضر.
4. وقصة ذي القرنين.

أربع قصص كلها مرتبطة بفتن، فتنة الدين مع أصحاب الكهف، وفتنة المال مع صاحب الجنتين، وفتنة العلم الذي قد يفتن الإنسان بعلمه في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفتنة السلطة في قصة ذي القرنين.

قد يسأل سائل ويقول:

كيف تقول: فتنة موسى والعلم؟

نقول: مما يبين ذلك أن الإنسان قد يفتن في علمه، وقد يصيبه الغرور في علمه، وقد يظن أنه هو أفضل الناس، وأن الناس كلهم تحته، وأن الناس لا قيمة لهم وهو خير منهم، فقد يغتر يصبه الغرور.

ما سبب قصة موسى مع الخضر؟

أن موسى وقف مرة خطيبًا في بني إسرائيل، فلما خطب بهم قام رجل وقال: يا موسى هل يوجد في الأرض من هو أعلم منك؟ قال: لا، وتعجل ولم يقل الله أعلم، لم يكل الأمر إلى الله، لم يقل: الله أعلم، ولكن قال: **«ليس هناك من هو أعلم مني»**.

فامتحنه الله بالرحلة والذهاب والبحث عن هذا الرجل الذي هو أعلم منه، فأوحى الله إليه أن هناك من هو أعلم منك، فقال: **«يا ربي أريد أن أقابله، فما علامة ذلك؟ قال: أن يكون معك حوت في مكتل فإذا نسيت الحوت فإنك ستجد هذا الرجل»**.

فانطلق موسى كما في هذه القصة مع فتاه، فتاه هو يوشع بن نون الذي نبأه الله وهو الذي فتح بيت المقدس، هذا يوشع هو الذي فتح بيت المقدس، لما مات موسى ومات هارون وبنو إسرائيل بقوا في التيه؛ لما كان موقفهم أنهم قالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: 24].

فامتحنهم الله بالتيه، فبقوا في التيه حتى ماتوا، ولم يدخلوا الأرض المقدسة إلا بعدما ذهب هذا الجيل بعد أربعين سنة، قال: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: 26]، بعد الأربعين جاء جيل جديد؛ فأخذ يوشع بن نون هذا الجيل الجديد وفتح به بيت المقدس.

الشاهد: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال لفتاه: ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ [الكهف: 60]، أي لا أزال، ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف: 60].

✍ ما هو مجمع البحرين وما معناه؟

أن الله أوحى إلى موسى أن ذلك الرجل سيجده في مجمع البحرين، مجمع البحرين مكان بلا شك معروف في وقت موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وموسى وقف عليه هو وفتاه، لكن نحن لا نعلم أين هو؟ ولا يهمنا أين هو؟ بعض المفسرين وبعض المؤرخين بحثوا وبحثوا وحددوا هذه الأماكن.

ونحن كما ذكرنا سباقًا وفي عدة مرات ونحن نذكر أن الأماكن لا تهم، لا نهتم بها كثيرًا؛ لأن القرآن لم يحدد هذه الأماكن، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص: 20]، ما نعلم ما هذه المدينة، وغيرها ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: 259]، لا يهمنا هذا المكان.

القرآن يبهم هذه الأشياء؛ لأنها لا يترتب عليها كبير فائدة، فلذلك مجمع البحرين قيل: هو عند قناة السويس، وقيل: هو اتصال البحر الأحمر مع البحر الأبيض، وقيل: هو في تركيا، وقيل: هو في طنجة في المغرب، وقيل: هو في عمان عند مضيق هرمز، والله أعلم بالمكان.

والأقرب والله أعلم : أن يكون قريب من التيه، وقريب من مصر؛ لأن موسى انطلق يبحث عنه فكان في هذا المكان والله أعلم، ولا يهمنا تحديد المكان.

قال: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: 60]، أي أمضي سنين طويلة لا حد لها، وهذا يدل على عزيمة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وحرصه على طلب العلم، يقول: لو أقطع المسافات الشاسعة لابد أن أصل إلى هذا الرجل حتى أتعلم منه، وحتى أستفيد منه.

وهذا استدل به العلماء على مشروعية الرحلة في طلب العلم، وأن الإنسان يبحث ويسافر من أجل أن يحصل على حديث، أو على تفسير آية، أو على كتاب.

قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ [الكهف: 61]، أي هو وفتاه، ﴿مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ [الكهف: 61]، أي مجمع البحرين، لما وصلوا إلى هذا المكان، وارتاحوا فيه، وقيل: إنهم باتوا وناموا فيه وكان معهم مكتل فيه حوت يتزودون منه، فالحوت لما شم رائحة الماء وشعر بالماء خرج من المكتل ودخل في الماء.

قال: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: 61]، أي جعل له سربًا والسرب هو الطريق، فسلكه ودخل في البحر.

فبعد ذلك لما دخل في هذا البحر وقام موسى وفتاه انطلقوا مسرعين، وذهبوا يبحثون عن هذا الرجل، ولما جاوزا هذا المكان مجمع البحرين شعر موسى بالتعب، وهذه أيضًا علامة وآية؛ لأنه في الآية انطلق ولم يشعر بالتعب أبدًا، لكن لما كان مسيره الثاني لا فائدة فيه شعر بالتعب حتى يرجع إلى مكانه.

قال: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: 62]، قال لفتاه أي يوشع: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: 62]، أي طعامنا لنأكل منه، ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: 62]، شعر بالتعب وشعر بالإنهاك ولذلك طلب منه أن يأكل الطعام.

وفي هذه دلالة كما ذكرها المفسرون على أن الإنسان لا مانع من أن يظهر ما في نفسه من التعب إذا شعر بضعف في صحته أو تعب، أنه يجوز له أن يقول: أنا متعب، ولا حرج في ذلك؛ لأن بعضهم يقول: هذا من التشكي على البشر، وأنت تبث شكواك إلى الله لا يصلح أن تقول لفلان: أنا متعب وأنا في كذا وفي كذا.

لكن هذا فيه دلالة على الجواز، جواز أن تقول: أنا هذا اليوم أشعر بتعب، ولا بأس بذلك لأن موسى قال ذلك.

فدر عليه الفتى؛ فقال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ﴾ [الكهف: 63]، يعني أتذكر ذلك الموقف، ﴿إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: 63]، إذ بتنا واستقرينا عند تلك الصخرة التي عند مجمع البحرين؛ قال: نعم، قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ [الكهف: 63]، نسي الفتى الحوت، ونسي موسى أيضًا أن يذكر الفتى.

قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: 63]، هذا من حسن أدب الفتى مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: إن الشيطان هو الذي أنساني، أنا لم أرد أن أنساه، لكن الشيطان هو الذي جعلني أنسى هذا الشيء.

قال: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: 63]، اتخذه سبليه من؟ الحوت، الحوت اتخذ سبيله في البحر عجبًا.

✍ كيف يقول: سرب، ثم قال: عجبًا؟

نقول: سرب أي الطريق، وعجبًا لحاله، كيف يكون ميتًا ثم تعود له الحياة؟ فتعجب موسى، وتعجب أيضًا فتاه أن الحوت دخل في البحر، ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: 63].

قال موسى في هذه الحال: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الكهف: 64]، نعم هذا الذي نريده؛ لأنه أوحي إليه أنه إذا استقر في مكان ونسي الحوت فيه؛ فإنه سيجد الرجل الصالح فيه.

قال: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: 64]، أي على طريق الأثر، بدأ يقصون الأثر الذي جاءوا منه، قالوا: أين الطريق الذي أتينا منه؟ فعادوا من حيث جاؤوا، عادوا إلى مكانهم الذي باتوا فيه.

فلما وصلوا الصخرة ووصلوا مجمع البحرين؛ فإذا رجل مسجى أي مغطى، فسلم عليه موسى، فلما سلم عليه قال: **«أنى بأرضك السلام»**، يعني ما في سلام من أين أتيت؟ قال: **«أنا موسى، قال: أنت موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، إني أريد أن أصحابك وأريد أن أتعلم منك»**.

قال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف: 65]، هذا العبد هو الخضر، وهذا فيه دلالة على أن الخضر ليس برسول وليس بني؛ وإنما ألهمه الله علمًا لدني، ليس باجتهاد منه، وإنما علم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أعطاه الله يعني العلم، قذف الله العلم في قلبه، ولم يصل إلى درجة النبوة، لو كان نبيًا لذُكر مع الأنبياء.

ولذلك قال: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ [الكهف: 65]، الله أعطاه رحمة من عنده، ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65]، يعني علم لدني، يعني علم ذاتي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لم يكن مجتهدًا، ولا طالبًا للعلم، وإنما قذف الله العلم في قلبه، ولذلك حصل على هذا، فأصبح عبدًا من عباد0 الله وعالمًا من العلماء.

لما قابله موسى ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾ [الكهف: 66]، بأسلوب طيب وحسن وأدب، ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف: 66]، هل تأذن لي أن أتبعك ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66]، أي أتعلم منك مما علمك الله.

قال له الخضر: لن تستطيع، ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 67]، ستجد مني أشياء ستنكرها، ولا يمكن أن تقبلها؛ لأنها سيخفى عليك علمها، وأنا بالنسبة لي سيظهر لي علمها، فأنت ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 67].

قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 68]، ما عندك خبر فيه، فلذلك لن تستطيع الصبر.

قال له موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: 69]، وهذا أيضًا فيه أسلوب الأدب مع العالم، ومع الشيخ، أنه ماذا قال؟ قال أولًا: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: 69]، وعلق الأمر بمشيئة الله، وهذا من أدب موسى، ﴿صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: 69]، أي لا أعصي لك أمرًا تأمرني به إلا وأستجيب لك.

قال: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ [الكهف: 70]، قال له الخضر: إذا اتبعتني فلا تسألني أبدًا ﴿عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 70]، إذا حصل شيء مني فلا تسألني عنه، الزم الصمت، والزم السكوت حتى أنا أخبرك بهذا الشيء، فوافق موسى وانطلقا، انطلق موسى والخضر.

قيل: غن الفتى أيضًا معهم؛ لأن الفتى لا يمكن أن يُترك في مكان لا يُعرف، ولذلك كان معهم، ولكن التركيز على موسى وعلى الخضر.

قال: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ [الكهف: 71]، وهم على مجمع البحر مرت سفينة، مرت سفينة فيها أناس يعملون بها، ويتكسبون في نقل الناس فيها، فمرت السفينة فطلب منهم الخضر أن يركب، فعرفوا الخضر فأركبوه مجانًا، أركبوه بلا مقابل، فركب هذا وموسى.

قال: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ [الكهف: 71]، لما ركبا في السفينة وانطلقت بهم السفينة حتى وصلوا الشاطئ الثاني خرقها كسر لوحًا منها، أخذ لوح وكسره وألقاه، فخرقها.

قال له موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: 71]، تغرق السفينة حتى يغرق أهلها فيها؟ هذا أمر عظيم لا يمكن السكوت عليه، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف: 71]، أي شيئًا عظيمًا لا يمكن السكوت عليه، هم يعني بذلوا معروفًا لنا ونقلونا بلا مقابل، وبلا أجرة، ونقابلهم بأن نفسد السفينة عليهم؟

فقال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 72]، قلت لك في الأول لن تستطيع، ولكن قلت: ستجدني صابرًا، قال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف: 73].

يقول: لا تؤاخذني، ولا تحاسبني على شيء نسيته، أنا نسيت، فكان الأول عذره النسيان، فقبل منه الخضر، قال: ما دام أنك نست لن أرهقك من أمري عسرًا، لن أشد عليك، ولن أعسر أمرك، سأتجاوز عنك، وستستمر معي.

لما نزلوا من السفينة ومشوا على شاطئ البحر؛ فإذا أولاد صغار وغلمان يلعبون، فقام الخضر وأخذ أحد هؤلاء الغلمان، وأحد هؤلاء الأطفال فأخذه وقلع رأسه ورماه، قطع رأسه ورماه، وفي هذه الحال لا يمكن لموسى أن يصبر، ولذلك استنكر موسى مباشرة.

قال: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾، طاهرة، ولا فعلت شيء، تقتل نفسًا ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾، بغير مقابل، ما قتل هو تحت تقتله قصاصًا، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: 74]، أشد من الأول، شيئًا منكرًا لا يمكن السكوت عليه.

قال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾ [الكهف: 75]، جاءت **"لك"** زيادة للتأكيد، لأنه في الأول قال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ﴾ [الكهف: 72]، وهنا قال: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: 75]، أنت لا تستطيع الصبر، وأنا قلت لك: لا تتكلم ولا تتحدث ولا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا.

قال موسى في هذه المرة وهي الثانية: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ [الكهف: 76]، إذا قلت شيء أو ابتدأتك بشيء فهذا هو الذي لك عذر ألا أصاحبك، ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: 76]، العذر وصلك، وليس لي عذر آخر غير هذا.

قال: ﴿فَانْطَلَقَا﴾ [الكهف: 77]، لما قتل هذا الغلام انطلقوا، فلما انطلقوا؛ فإذا قرية فيها أناس، فدخلوا القرية، فلما دخلوا القرية وجدوا الناس فيها يبيعون ويشترون، وفي الطرقات، فطلبوا منهم أن يضيفوهما، أن يستضيفوهم أو يضيفوهما في دار ويكرموهم، ويعطونهم وجبة يأكلونها؛ لأنهم كانوا جياعًا، ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: 77]، فأبت القرية ولا واحد من أهل القرية استضافهم، وإنما كلّ واحد اعتذر منهم، وامتنع أن يضيف الخضر وموسى.

فكانوا يسيرون في هذه القرية؛ فإذا جدار قد مال وآل إلى السقوط، فوقف الخضر على هذا الجدار وبدأ يأخذ الطين والماء ويبني الجدار حتى لا يسقط، فبدأ يشتغل عليه ويبني ويقوم على هذا الجدار الذي ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ [الكهف: 77]، ويسقط، فبدأ يقيمه إقامة، ويعدله حتى اعتدل هذا الجدار.

قال له موسى مستنكرًا: هذه القرية كلها أبى أهلها جميعًا أن يضيفونا، ولا بوجبة واحدة، وأنت تشتغل لهم بلا أجر، وتقيم هذا الجدار، أقل شيء خذ مقابل حتى نشتري به، ﴿فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: 77].

قال الخضر في هذه الحال: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: 78]، هذه الحال التي لم تصبر عليها في الثالثة لن أتجاوزها أبدًا، لابد أن تسير في طريق وأنا في طريق.

قال: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 78]، ما لم تستطع عليه صبرًا في الأول، سنعطيك الجواب على كلّ حالة من الحالات التي لم تستطع الصبر عليها.

قال: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ [الكهف: 79]، وهي الحال الأولى، ﴿فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ [الكهف: 79]، كانوا ضعفاء ومساكين ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: 79]، يعني يؤجرون هذه السفينة وينقلون الناس على هذه السفينة.

قال: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: 79]، كانوا سيمرون على ملك وهذا الملك واقف وأعوانه معه يأخذون السفن، فإذا رأوا السفينة الصالحة؛ فإنهم يأخذونها مباشرة، وأما إذا كان فيها عيب فإنهم يتركونها لأهلها، فلذلك أراد الخضر أن تبقى السفينة لأصحابها، وفي هذا مصلحة كبيرة لأن تسلم السفينة لأصحابها ويستمرون في الاستفادة منها، ولذلك خرقتها حتى لا يأخذها الملك.

قال: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: 80]، هذا الغلام كان أبواه مؤمنين صالحين، وأخشى أن هذا الولد الذي كتب الله عليه الكفر والشقاء أنه إذا كبر واستمر؛ فإنه سيرهق أبوه الطغيان والكفر، إما لحبهما لولدهما، أو أن الولد يؤثر عليهما فلذلك قتلته حتى يرزق الوالد والوالدة بولد خير منه.

قال: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ [الكهف: 81]، طهارة، ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: 81]، رحمًا لوالديه، فيكون هذا أرحم لوالديه وأزكى وأطهر، فالخير ألا يبقى هذا الولد، ولذلك قتله الخضر؛ حتى لا يبقى يُرهق والديه.

قال: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: 82]، هذا الجدار كان لغلامين، وهذان الغلامان صغيران، ويتيمان أبوهما قد مات، ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ [الكهف: 82]، هنا قال: ﴿يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الكهف: 82]، وفي الأول قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: 77]، هذا فيه

دلالة على أن القرية تسمى قرية وتسمى مدينة، ولا فرق بينهما، أما عند المتأخرين هنا الآن يقولون: المدينة أوسع وأكبر من القرية.

قال: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ﴾ [الكهف: 82]، أي تحت هذا الجدار ﴿كَنْزٌ﴾ [الكهف: 82] يعني مال، ﴿لَهُمَا﴾ [الكهف: 82]، أي لهؤلاء اليتيمين، ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: 82]، هذا السبب الذي جعل الخضر يوجه إلى بناية هذا الجدار؛ لأن أبوهما صالحًا، هذا السبب في كون أن الله حفظ لليتيمين وهم صغار هذا الجدار؛ لأنه لو سقط الجدار وظهر الكنز لذهب عنهم، والأب صالح.

ولذلك استنبط العلماء: صلاح الأب يكون سببًا في حفظ الأبناء، صلاح الأب وإحسانه، وعمله الصالح، وتقواه مع ربه يكون سببًا في حفظ ماله، وفي حفظ زوجه، وفي حفظ ولده، ولذلك حفظ الله له المال، وحفظك له أيضًا هؤلاء الأولاد.

قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف: 82]، هذه رحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهؤلاء الأيتام.

قال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ [الكهف: 82]، يقول الخضر: هذا الذي فعلته كلّ هذه الشياء ما فعلته اجتهادً مني وعن علم مني، ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: 82]، وإنما هو من الله، ألهمني من لدنه علمًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: 82]، يقول: أخبرتك، وأولت لك، وفسرت لك، وأوضحت لك هذا الأمر الذي لم تستطع يا موسى أن تصبر عليه هذا هو خبره.

هنا قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ﴾ [الكهف: 82]، وفي قبلها قال: ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِعْ﴾ [الكهف: 78]، ما الفرق بينهما؟ نقول: فيه حذف التاء تخفيفًا، وهذا جائز في لغة العرب أن تقول: **"لم أستطع"** و**"لم أتسطع"** كلها جائزة، من باب التنويع والتفنن.

هذه القصة التي وقفنا معها وتأملناها أيها الأخوة الكرام، قصة عجيبة، فيها فوائد عظيمة، استنبط العلماء منها فوائد كثيرة مهمة لطالب العلم، وينبغي للإنسان فعلاً أن يتأمل في هذه القصة العجيبة.

نقول:

من فوائد هذه القصة: أن السفر في طلب العلم والرحلة في طلب العلم هذه سنة سنها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أصحابه أيضًا يسافرون في طلب العلم، وأيضًا فعلها الأنبياء كما فعل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فكان الصحابة، وكان التابعون، وكان العلماء يذهبون يبحثون عن حديث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو كان حديثًا واحدًا، فالسفر في طلب العلم أمر مستحب وأمر مشروع في الإسلام.

من فوائد هذه القصة: نلاحظ أن الشر يكون سببه الشيطان، ولذلك قال: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: 63]، وإن كان بقضاء الله وقدره إلا أنه ينبغي للإنسان ألا ينسب الشر إلى الله، وإنما يقول: من الشيطان؛ لأن بعض الناس يقول: هذا شيء مكتوب علي، فمن الأدب أن تقول: من الشيطان، وهذا في جانب الشر.

ولذلك أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: 41]، فنسب الضر إلى الشيطان.

من الفوائد التي نستطيع أن نأخذها من هذه القصة: أن الإنسان يخبر عما في طبيعته، وفي تعبه، وفي نصبه، وفي جوعه، وفي عطشه، يقول: أنا كذا، وأنا كذا، فهذا جائز.

من فوائد هذه القصة: أن هذا الرجل وهو الخضر سماه الله عبد، ﴿عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف: 65]، ووصفه الله بأنه آتاه الله رحمة، وأعطاه العلم من عنده، ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65].

ولذلك قال في آخر القصة: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: 82]، وإنما هو بعلم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه فوائد عظيمة نستنبطها.

من فوائد هذه القصة: أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أفضل من الخضر، بلا شك موسى نبي ورسول، وكليم الله، وهو من أولي العزم، وهو أفضل من الخضر ومع ذلك ذهب يتعلم منه، فهذا فيه جواز التواضع في طلب العلم وإن كان المتعلم عليه أقل من هذا الشخص؛ فإنه يذهب ويتعلم، وإن كان أصغر سنًا وأقل مكانة؛ إلا أنه يذهب إليه ويتعلم، ولا يمنع ذلك من أن يتعلم العلم وإن كان أكبر منه.

هذه الفوائد التي استنبطناها، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا ولكم، وأن يوفقنا وإياكم للعلم النافع، والعمل الصالح، هذه القصة التي ساقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الإنسان لابد أن يعرف قيمة العلم، وأن يتعلم، وأن يذهب إلى العلم، ولا يظن أنه هو أعلم الناس، وأن الناس كلهم تحته، وأنه هو أفضلهم، لا؛ وإنما عليه أن يتواضع، وأن ما أعطاه الله من العلم هو شيء قليل.

ولذلك حتى في القصة مما يدل على أن هؤلاء ينبغي لهم التواضع، لما ركب موسى السفينة مع الخضر وقع عصفور على طرف السفينة وشرب من الماء ثم طار، قال له الخضر: **"يا موسى ما علمي وعلمك في علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا مثلما أخذ هذا العصفور من هذا البحر"**.

يعني علم الله هذا البحر كله، والذي عندي وعندك مقدار ما أخذ العصفور وطار، فينبغي للإنسان أن يتواضع في علمه وأنه ليس عنده من العلم شيء بالنسبة لعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي أحاط بكل شيء علمًا.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى، ونلقاكم إن شاء الله على خير.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الكهف 83 - 98)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المتجدد الأسبوعي من يوم الثلاثاء، وهذا اليوم هذا اليوم الثامن من شهر الله المحرم من عام 1443من الهجرة.

نجتمع في هذا المقام المبارك ونتناول آيات من كتاب الله جَلَّ جَلَالُهُ، ولازلنا في **"سورة الكهف"**، والقصة التي بين يدينا هي القصة الرابعة من قصص هذه السورة، قصة أصحاب الكهف، وهي الأولى التي سميت السورة بها، ثم صاحب الجنتين، ثم قصة موسى مع الخضر، ثم هذه القصة الأخيرة وهي القصة الرابعة قصة ذي القرنين.

وسبب نزول **"سورة الكهف"** أن المشركين أرسلوا وفدًا إلى اليهود يريدون أن يعجزوا الرسول بشيء من المسائل أو نحو ذلك، فذهب الوفد إلى اليهود فقالوا: إن محمد يدعي أنه نبي، وأنهي قول كذا وكذا، فهل هو نبي؟ فقال اليهود: سلوه عن ثلاثة أشياء إن أجابكم فهو نبي، وإن لم يجبكم فهو كذاب.

فقالوا: ماذا نسأل؟ قالوا: سلوه عن أصحاب الكهف، فتية ذهبوا في الدهر الأول لا يُدرى ماذا جرى لهم؟ وسلوه عن الروح، وسلوه عن رجل طاف الأرض.

فجاءوا مستبشرين وفرحين، جاءوا إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: **"نسألك عن ثلاثة أمور إن أجبت فأنت وإلا فأنت كذاب، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سلوني"** فسألوه هذه الأشياء الثلاثة، فقال: **"أخبركم غدًا"** ونعرف القصة إلى آخرها.

والشاهد منها: أن قوله تعالى هنا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: 83]، أي المشركون الذين جاؤوا من اليهود يريدون أن يسألوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: 83]، هذا يدل على أن هناك سؤال ورد من المشركين بسبب من اليهود، أو بدلالة من اليهود.

✍ يسألون عن أي شيء؟

✍ يسألون من هو هذا الرجل الذي طاف الأرض كلها؟

فأخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن هذا الرجل سيذكر الله له ذكرًا طيبًا، وذكرًا حسنًا، وهذا الرجل هو ذو القرنين، فالقرآن لا يفصح عن الأشياء التي لا نحتاج إليها، مثل أين عاش؟ وفي أي مكان؟ وفي أي زمان؟ هذه الأشياء يُعرض عنها القرآن، القرآن يهدف إلى هدف أكبر من هذا كله، ولذلك يركز على العبرة والحكمة من ذكر هذه القصة، وصرح القرآن بالعبرة والحكمة من ذكر قصة ذي القرنين.

فقال: ﴿قُلْ﴾ [الكهف: 83]، أي قل لهم يا محمد، ﴿سَأَتْلُو﴾ [الكهف: 83]، أي سأخبركم وأقرأ عليكم، ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 83]، أي ذكرًا تتذكرون به، وتنتفعون به، وعبرة تعتبرون بها، وعظة تتعظون بها.

وهذا الرجل ذو القرنين هو فعلاً عبرة، وذكرى، وسيرة عطرة له؛ حيث أن الله أثنى عليه، ومدحه في كتابه، وخلد ذكره في كتابه؛ لأنه رجل صالح، وملك صالح، وهذا هو الصحيح، ليس

بنبي ولا رسول؛ وإنما هو ملك صالح، ورجل صالح، أنعم الله عليه بنعمة الإسلام، ونعمة الصلاح، والهداية، وإقامة شرع الله بالعدل والقسط، فهو إمام عادل، وملك صالح، هذا هو ذو القرنين.

أين عاش؟ ومتى عاش؟ هذه لا ندري عنها، الله أعلم بذلك، لا نريد أن ندخل في هذه التفاصيل التي لا نستفيد منها كثيرًا.

لماذا سمي ذو القرنين؟ أيضًا كلام طويل، هم ذكروا عدة أسباب قالوا: سمي ذي القرنين لأن له ضفيرتين جديلتين من الشعر، وقيل: لأنه يلبس تاجًا على رأسه فيه قرنان، وقيل: لأنه قطع مسافة لا تقطع إلا بزمن القرنين من المشرق إلى المغرب.

وقيل: سمي بذي القرنين لأنه وصل مطلع الشمس ومغربها، وهما قرنا الشمس، أقوال الله أعلم بصحتها، الله أعلم بذلك.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ [الكهف: 83]، يا محمد، أي المشركون وأهل مكة، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: 83]، من هو؟ قال: ﴿قُلْ﴾ [الكهف: 83]، قل لهم، ﴿سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: 83]، أي سأخبركم بخبره الذي تتذكرون به، وتنتفعون به، ويكون موعظة لكم، وذكرى، وعبرة لكم.

فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأي شيء؟

قال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: 84]، أي جعلناه يتمكن في الأرض، بمعنى أنه يملك الأرض، وعنده الإمكانيات القوية.

✍ ما هي الإمكانيات القوية؟

أن أعطاه الله الملك والقوة والجنود الذين يسيرون معه، ويتمكن من فتح البلدان والسيطرة عليها، ه معنى قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: 84].

ومكن الله له بالحكم أيضًا، يحكم بشرع الله، ويحكم بالعدل، هذا معنى قوله: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: 84].

يقول أهل التاريخ: إن الذين ملكوا الأرض أربعة، اثنان مسلمان، واثنان كافران، فأما المسلمان فسليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذو القرنين، وأما الكافران فهما بخت نصر، والإسكندر المقدوني، فقالوا: هؤلاء اثنان كافران، واثنان مسلمان.

قد يفتح بعضكم أحيانًا كتب التفسير فيجد أنهم يقولون: إن ذو القرنين هو الإسكندر، وهذا خطأ كبير؛ لأن ذو القرنين رجل صالح، وملك عادل، والإسكندر لو نقرأ في حياته لوجدناه رجل كافر وثني، يعبد الأصنام، فلا نخلط بين هذا وهذا.

قال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: 84]، أي أعطاه الله من كلّ شيء يصلح للملوك، ويصلح للفتوحات ونشر الخير، فأعطاه الله القوة والأسباب التي من خلال هذه الأسباب يتوصل إلى ما يستعين به على قهر البلدان، وعلى فتح الفتوحات ونشر الخير، ونشر الإسلام.

قال: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 85]، أي اتخذ هذه الأسباب وأخذ بها، هذه السباب مثل الخيول، والأسلحة، والمراكب، والعدة، والعتاد، وغير ذلك، فسلك هذا المسلك وانطلق، ينطلق للفتوحات ونشر الخير.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ [الكهف: 86]، جهة المغرب، جهة مغرب الأرض، أو جهة مغرب الشمس، وصل إلى نهاية الأرض من جهة المغرب، قالوا: إنها بلاد المغرب الموجودة الآن، أو على حدود سواحل المحيط الأطلسي.

قال: ﴿وَجَدَهَا﴾ [الكهف: 86]، أي وجد الشمس، ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: 86]، أي عينٍ حارة، وعين سوداء، لونها يميل إلى السواد، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26]، أي الطين الأسود.

قال: ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: 86]، أين العين الحمأة؟ هناك من يتكلم كلام طويل في تحديد العين الحمأة، وهذا كله لا نلتفت إليه، والله أعلم أن الشمس إذا توجهت إلى الغروب وأنت على البحر وعلى المحيط ترى الشمس تسقط في البحر، وكأنها سقطت في البحر، وتميل إلى الحمرة الشديدة والسواد.

فهو نظر إليها هو وجنوده على ساحل البحر فوجد الشمس قد انتهت إلى أن وصلت إلى سطح البحر، وكأنها تسقط في البحر، وكأنها مع غروبها بلون الحمرة الذي يميل إلى السواد، هذا أصح والله أعلم في معنى قوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: 86]، وفي قراءة: **"فين عين حامية"** أي شديدة الحرارة.

قال: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ [الكهف: 86]، لما وصل إلى هذه السواحل، وهذه المنطقة وجد فيها أقوام، وجد فيها أناس يعيشون.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: 86]، إما إلهام من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه ليس وحيًا، لو كان وحيًا لكان نبي، إما إلهام من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو بطريق ملك، الله أعلم، أنه قيل لذي القرنين: احكم بهم بحكم الله، لأن أكثرهم كانوا كفارًا وكانوا أهل معاصي، وفيهم أهل طاعة.

قال: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ [الكهف: 86]، هؤلاء العصاة الكفار، ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: 86]، وهم أهل الطاعة.

فحكم بحكم الله؛ قال: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [الكهف: 87]، ظلم نفسه، وظلم حق الله فيه، بارتكاب المعاصي، والذنوب، والكفر، ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ [الكهف: 87]، أي سيقيم فيه ذي القرنين حكم الله بالتعذيب، إما بالقتل أو بالأسر أو بالضرب أو نحو ذلك.

قال: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾ [الكهف: 87]، يعني يرجع إلى ربه، ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ [الكهف: 87]، لأنه كان ذا معاصي، وذا كفر، وطغيان، وهذا حكم الله في أهل الكفر والطغيان والمعاصي، هذا حكم الله فيهم من أول الخليقة إلى آخرها.

قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [الكهف: 88]، وهم قلة معه، ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ [الكهف: 88]، أي في الآخرة، وقدم جزاء الآخرة لأنه أعظم في حق المؤمن.

قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ [الكهف: 88]، وأما نحن، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: 88]، أي سنعامله معاملة طيبة، ونحسن إليه، ونتلطف معه.

وهذا حكم الله، وحكم الملوك الصالحين، الملوك الصالحين العادلين الذين يقيمون العدل في البشرية، وينشرون الخير والصلاح يحكمون بهذا الحكم، وأما من لم يحكم بمثل هذا الحكم فهو لا يُعد ممن أثنى الله عليهم من الملوك الصالحين.

قال: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: 89]، أي انطلق هو وجنوده متبعين الأسباب التي معهم في التنقلات والرحلات والفتوحات.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ [الكهف: 90]، انطلق من مغرب الشمس وقطع الأرض كلها حتى وصل مطلع الشمس، لما وصل مطلع الشمس وجد الشمس تطلع على قومٍ؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: 90]، أي في منطقة في أقصى الشرق، والله أعلم قد تكون جنوب شرق أسيا أو جزر الشرق، هذه المنطقة أولًا بعيدة ونائية، فأهلها بدائيون، ليس عندهم حضارة، وليس عندهم بنايات، هذا من وجه.

الوجه الثاني: أن أرضهم أرض لا يمكن البناء عليها لكثرة الزلازل فيها، ولا يستطيعون، وحتى في قوتنا الحاضر في جزر اليابان ونحوها لا يستطيعون البنايات وإنما يعيشون على الأكواخ ونحوها، والبنايات الخفيفة.

قال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: 90]، أي لا يستترون عن الشمس، إما لأنهم بدائيين ليس عندهم ما يستترون به من الشمس، أو أنهم يدخلون في الكهوف إذا طلعت، أو أن الشمس لا تطلع عليهم وقتًا طويلاً، فكل هذه احتمالات.

فوصل إلى هذا المكان، ووجد فيه هؤلاء القوم، فحكم أيضًا بحكم الله فيهم، من الخير أو الشر، ومن الجزاء الحسن، والجزاء الذي يتناسب معهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ﴾ [الكهف: 91]، أي مثل ما مكنا له في الأرض، وأطلعناه على هذه الأشياء، وأعلمناه هذه الأمور التي كان لا يعلمها، فاطلع على هذه الأشياء.

قال: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: 91]، أي أن الله أحاط به علمًا وخبرة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعلم منه بنفسه، والله محيط بأعماله، وما يقوم به من حكم، فالله مطلع عليه، وقد هيأ الله له القدرة على الحكم بما أنزل الله، والحكم العادل وإقامة شرع الله.

بعد ذلك المرحلة الثالثة والرحلة الثالثة؛ قال: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا 92 حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: 92، 93].

قال أهل التفسير: إنه اتجه بعد ذلك إلى جهة الشمال، ولما اتجه إلى جهة الشمال؛ فإذا هي سلسلة من الجبال العظيمة، الممتدة، قيل: إنها سلسلة جبال القوقاز والله أعلم، فلما وصل وجد هناك فجوة بين الجبال، هذه الفجوة هي التي يُقال: إنها ما بين السدين.

فلما وصل إلى هذا المكان وجد من دون السدين قومًا، هؤلاء القوم لما وصل إليهم قال: ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: 93]، أي يكادون لا يفقهون الكلام، لما يتحدث معهم ذو القرنين أو أصحابه وجنوده لا يفهمون منهم، ففهم صعب، وهم في نفس الوقت لا يتحدثون بكلام يُفهم، فهم لا يُفهمون، ولا يفهمون، لا يُفهمون الذين يخاطبونهم، ولا يفهمون من يخاطبهم، ففهم صعوبة في النطق وفي الكلام، وفي صعوبة عندهم أيضًا في إدراك الكلام وفهمه.

لاشك أن ذو القرنين معه أناس وجنود، ومعه أناس يترجمون له، ففهموا منهم أنهم يشتكون، يشتكون إلى ذو القرنين أن هناك أناسًا أتعبوهم وأزعجوهم وأفسدوا عليهم حياتهم.

قال: ﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: 94]، قالوا: إن ما وراء السدين أناس يأتوننا وهم يفسدون، إما بالسلب، أو النهب، أو القتل، أو الإيذاء، فنريد أن نغلق الطريق عليهم.

نحن لا نريد أيها الأخوة الدخول والتشعب في مثل هذه الأمور التي لا ندري عن صحتها، وإلا التاريخ والكتابات المعاصرة تكلموا عن مكان ذي القرنين أو مكان السد أو الردم.

✍ أين مكان السد أو الردم؟

الله أعلم بذلك، فأكثرهم يقول: إنها جبال القوقاز، والله أعلم بهذا المكان، قالوا: إن ما وراء جبال القوقاز هي بلاد الصين، وبلاد روسيا، وأن يأجوج ومأجوج هم وراء هذه المنطقة.

والسدين قيل: إن السدين هما البحر الأسود وبحر قزوين، وبينهما ممر وسلسلة جبال، وهذا الممر هو الذي يأتي منه هؤلاء يأجوج ومأجوج.

🗐 وإن قيل لك:

✍ من هم يأجوج ومأجوج؟

نقول: هم قبيلتان عظيمتان من بني آدم، هم من بني آدم، وقيل: هم يرجعون نم يافث بن نوح؛ لأن نوح أولاده ثلاثة: **"سام، وحام، ويافث"** فيافث هذا يعتبر أصل هؤلاء الأقوام، يأجوج ومأجوج.

ويأجوج ومأجوج كما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنهم يعني علامة من علامة الساعة، وخروجهم في آخر الزمان علامة من علامات الساعة الكبرى، وأنهم سيفسدون في الأرض، وينبهون ويقتلون، وهم قوم من نبي آدم.

وأما تصوير بعض الإسرائيليات أو بعض المؤرخين بأشكالهم وألوانهم الله أعلم بذلك، لكن جاءت السنة ببعض الأوصاف من صغر العيون، وأن وجوههم كالمجن المطرقة، يعني وجوههم واسعة، والله أعلم بهذه الأوصاف.

أما أن يقولوا: أنهم قصيروا القامة، أو طويلوا القامة الله أعلم بذلك، فهم قوم كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ 96 وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: 96، 97]، فهم آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات الله، وعلامة من علامات قرب الساعة، وأنهم يخرجون في آخر الزمان.

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فتح من ردم يأجوج مأجوج مثل هكذا، فحلق بين الإبهام والسبابة»**.

قال: **«فتح»**، وأنه سيُفتح ويسقط الردم، فسيأتي الآن أنه سيسقط الردم، ثم بعد ذلك سيخرج هؤلاء، وهناك قصص كثيرة وحكايات والله أعلم بصحتها، الإعراض عنها في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الأولى.

طيب اشتكوا إليه أن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض؛ قال: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾، أي نعطيك مال وأجرة ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: 94]، يعني تغلق الطريق الذي بيننا وبينهم، وتغلق هذه الفجوة.

قال: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: 95]، قال: أنا لا أريد منكم مال، أنا قد أعطاني الله الخير، لا أريد منكم مال، ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: 95]، خير مما تريدون أعطائي من المال.

قال: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: 95]، قال: أنا أريد منكم المساعدة فقط، أما الأجرة فلا أريدها، أريد منكم أن تساعدونني علشان نقيم هذا السد، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: 95]،الردم أشد من السد؛ بحيث أنهم لا يستطيعون كما سيأتي، لا يستطيعون خرقه، ونقبه، ولا يستطيعون أيضًا أن يتجاوزوه ويظهروا فوقه، فهذا ردم يأجوج ومأجوج.

قال: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: 96]، أعطوني قطع الحديد الكبيرة حتى نضعها، ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ [الكهف: 96]، أي بين الجبلين، لماذا قال: **"الصدفين"؟** قالوا: أصلها مأخوذ من الصدفة، والصدفة تكون قطعة منفتحة من الأعلى، منغلقة من تحت، تسمى صدفة من صدفات البحر.

فهذين الجبلين من الأسفل متقاربان جدًا، ومن الأعلى متباعدان، فسمي صدفان، وقيل: إن الصدفين الواحد الصدف وهو الجبال العالي الشاهق، والله أعلم.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا﴾ [الكهف: 96]، أي أشعلوا النيران، ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ [الكهف: 96]، حتى إذا جعل هذه المنطقة أشعلها النيران والحديد أتى بالرصاص وقيل بالنحاس وأذابه على هذه النار، ثم إذا أذابه بدأ يصب على الحديد من الرصاص حتى يتماسك.

قال: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف: 96]، والقطر هو النحاس المذاب أو الرصاص المذاب، يُصب على هذا الحديد فيتماسك بعض مع بعض.

بعد ذلك لما أنهاه ووضع زبر الحديد وأغلق الطريق عليهم؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: 97]، ما يستطيعون ظهروه، أي يأجوج ومأجوج، ما يستطيعوا أن يقفزوا هذا السور، وهذا الحجاز، وهذا الردم.

قال: ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: 97]، أي يخرقوه؛ لأنه حديد قوي، فما استطاعوا، فكفى الله هؤلاء القوم شر يأجوج ومأجوج، فلم يستطيعوا الدخول.

جاء في بعض الأحاديث وإن كان فيها ضعف: أنهم كلّ يوم يخرقون، يحاولون خرقه، فإذا غابت الشمس وذهبوا رجعوا كما كان، ثم يبدؤوا يخرقون، حتى إذا كان آخر الزمان فتحوه وسقط كما بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذلك، قال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: 97].

قال ذي القرنين بعدما أغلق وأتم العمل: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: 98]، أي هذا العمل ليس بجهد مني، وهذا من تواضعه، واعترافه بنعمة الله عليه، وهذا الذي ينبغي له، كما قال سليمان لما أُحضر عنده عرش بلقيس ماذا قال؟ قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: 40]، ليس بقوة مني ولا بالجنود.

وكذلك ذو القرنين، يقول: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: 98]، هذا العمل الذي فعلته، وأغلقت هذا الحاجز وهذا الطريق هو فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ورحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا قال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: 98].

ثم أخبر ذو القرنين بالخبر؛ فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98]، يقول: إذا جاء وعد ربي وهو الآخرة، وقرب الساعة؛ فإنه يجعله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مندكًا، ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98]، في مجيء هذا اليوم.

قوله تعالى: ﴿دَكَّاءَ﴾ [الكهف: 98]، لابد أن تُقرأ هكذا بالمد، ولا يصلح أن تقرأها من غير مد، **"دكًا"** خطأ، ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: 21]، هذه في سورة الفجر، هذه تختلف، الدك هو دك الشيء حتى يذهب وينتهي.

لكن هنا قال: ﴿دَكَّاءَ﴾ [الكهف: 98]، أي مستويًا ليس له أي أثر، فيذهب، ينهدم ويستوي مع الأرض، فلا يبقى له أثر، ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98].

هذه قصة ذي القرنين التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه، والحكمة منها كما ذكرنا كما بيّن القرآن أنها تذكرة، وموعظة، وعبرة لمن يعتبر لهذا الشيء، وأيضًا رسالة لمن يقيم شرع الله في الأرض؛ فإن الله يعينه ويسدده، ويهيأ له أسباب إقامة هذا الشرع، لمن أراد أن يقيم شرع الله، فهذا معنى الحكمة من سياق هذه القصة، حتى نعتبر بها.

في كلام طويل موجود في النت وغيره، أين مكان السد؟ والبحث عنه، وتحديد الأماكن، حتى قال بعضهم: لا يوجد سد أصلاً، ولا يوجد ردم؛ لأن الآن توجد الأقمار الصناعية، والاكتشافات، والطائرات، أين هو؟

نقول: لا يمنع أن يكون موجود، لكن أنت لم تصل إليه، فقد يُعمي الله البصائر عنه لا يستطيعوا الوصول إليه، يعني أصحاب الكهف دخلوا في الكهف وهم قريبين من المدينة وأهل المدينة لم يستطيعوا ولا أحد استطاع أن يكشف أصحاب الكهف ثلاثمائة سنة وهم في الكهف القريب من المدينة، ولم يستطيع أي شخص أن يكشفهم حتى أعثر الله الناس عليه.

فلا نستبعد أن الله قد أخفى هذا المكان حتى لا يستطيعوا الوصول إليه، ولو عرفت الآن بالأقمار الصناعية والاكتشافات قد يغيب عنهم هذه الأشياء والله أعلم.

فنحن نؤمن بما أخبرنا الله به في كتابه، ونعتبر، ونتعظ بهذه القصص، ونستفيد منها، هذا الذي نذكره حول هذه القصة، وهذه العبرة، ونستفيد منها في دروسنا وفي حياتنا، والله أعلم.

ونقف عند هذا القدر، وجزآكم الله خيرًا، وإن شاء الله نلتقي في اللقاء القادم بإذن الله لاستكمال هذه السورة.

وَاَللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الكهف 99 – آخر السورة)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا الدرس، وفي هذا اللقاء المبارك، اليوم الثلاثاء الموافق الخامس عشر من شهر الله المحرم، من عام 1443من الهجرة.

وهذا اللقاء يُعقد في تفسير **"سورة الكهف"**، وهذا يعتبر المجلس الأخير من مجالس تفسير **"سورة الكهف"**، وهو المجلس الثاني عشر، يعني جلسنا مع هذه السورة وتمتعنا بمها فيها من آيات وهدايات وإرشادات، وعلم غزير، تقريبًا أحد عشر مجلسًا، وهذا هو الخاتمة الثاني عشر من مجالس هذه السورة العظيمة.

وقف بنا الكلام في لقائنا الماضي عن الآية التاسعة والتسعين من **"سورة الكهف"**، وهي قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: 99].

هذه السورة أيها الأخوة يعني من المفترض أن كلّ واحد منا يستوعب معانيها، ويفهم ما تتحدث عنه السورة، لماذا؟ لأن هذه السورة في الحقيقة سورة تكرر على الألسنة كلّ أسبوع، يعني كلّ جمعة يقرأها، الكثير من المسلمين لا يفرطون في قراءة السورة، سواء قبل صلاة الجمعة أو بعدها، فهم حريصون على فضل هذه السورة وفضل قراءتها، لما ورد فيها من أحاديث تدل على فضلها.

فالكثير منا يقرأ السورة، والكثير منا أيضًا يحفظ السورة كاملة، أو يحفظ كثيرًا منها، فبقي علينا أن نفهم هذه السورة فهمًا جيدًا.

الآن لو نسأل أي واحد ونقول له: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]، من هم؟ من هم الذين يموج بعضهم في بعض؟ هذه يعني العلماء اختلفوا فيها، العلماء والمفسرون اختلفوا في البعض الذي يموج في بعض.

بعض المفسرين يقول: الضمير في ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ [الكهف: 99]، يعود إلى يأجوج ومأجوج المذكور قبل هذه الآية، التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الكهف: 94]، إلى أن قال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا 97 قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98].

قال الله بعدها: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ﴾ [الكهف: 99]، أي تركناهم خلف السد، لما أغلق ذو القرنين وأقام الردم وأغلق الطريق للسد، بدأ يموج بعضهم ببعض، يريدون الدخول فلم يستطيعوا، فهذا رأي لبعض المفسرين.

وفي رأي آخر: أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج لكنه في آخر الزمان، أنه في آخر الزمان إذا سقط هذا الردم وفتح الردم جاؤوا منكبين بأعداد هائلة فبدؤوا يموجون في الأرض، وهذا يوافق الآية التي في سورة الأنبياء، في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ 96 وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: 96، 97].

فهذا في آخر الزمان يظهرون من مكانهم ويموجون على الأرض ويفسدون في الأرض؛ حتى أنهم يعيثون في الأرض فسادًا، وكما جاء في الحديث الذي رواه مسلم أن عيسى ينزل فيقتل الدجال، فإذا خرج يأجوج ومأجوج؛ فإن عيسى هو ومن معه من المؤمنين يلوذون بالطور ويصعدون الطور، ثم بعد ذلك ينزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى داءً أو بلاءً يقتل يأجوج ومأجوج وينتهي أمرهم، هذا في آخر الزمان.

في أيضًا رأي آخر ثالث: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]، هذا يوم القيامة، أن الناس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض، وذلك في الحشر؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال بعد هذه الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: 99]، أي نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة الجمع والحشر، وهم يموجون في آخر الزمان ثم ينفخ في الصور فيجتمعون في صعيد واحد.

والآية والله أعلم قد تحتمل هذا وقد تحتمل هذا، يمكن تكون الدلالة على أقرب ما يكون والله أعلم أنها عائدة إلى يأجوج ومأجوج وخروجهم في آخر الزمان، وهو الرأي الأوسط الرأي الثاني أن معنى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: 99]، أنه يأجوج ومأجوج في آخر الزمان إذا هُدم الردم وخرجوا على العالم؛ فإنهم يفسدون في الأرض ويموجون في الأرض، يموجون في الأرض موجًا، فهذا معنى أنهم يموجون في الأرض.

ومعنى يموج أي **"يضطرب"** ويكثرون على الأرض، وينتشرون انتشار الموج كموج البحر، يموجون موجوًا كموج البحر لكثرتهم.

قال الله بعدها: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف: 99]، أي النفخة الثانية وهي نفخة البعث التي ينفخ إسرافيل في الصور وهو البوق، فتعود الأرواح إلى الأجساد، ثم يُحشرون ويُجمعون في موقف الحساب يوم القيامة، ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: 99].

ثم قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: 100]، أي أن جهنم يؤتى بها تُقاد بسبعين ألف زمام، مع كلّ زمام سبعون ألف ملك، فيؤتى بها كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: 23]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: 91].

فيؤتى بجنهم وتُعرض، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: 100].

✍ فهل تعرض على الكافرين أو تعرض على الخلق كلهم؟

نقول: هي تعرض على الخلق كلهم، ويكون الصراط فوق متن جهنم، لكن خص الكافرين؛ لأنهم هم الموعودون بالعذاب؛ ولأنهم هم الذين ينكرون النار، فهددهم الله بأنه ستعرض النار عليهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾ [الكهف: 100]، أي يوم القيامة، ﴿لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: 100]، من هم؟ هؤلاء وصفهم الله، وصف هؤلاء قال: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: 101].

✍ هؤلاء الكفار اتصفوا بصفتين:

الصفة الأولى: أنهم لا يبصرون.

الصفة الثانية: أنهم لا يسمعون.

فعبر عن أنهم لا يبصرون بقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ [الكهف: 101]، وهذا أشد في العقوبة كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: 7]، أي أغلقت

بالأبصار فهم لا يبصرون الحق، تأتي إليهم بالآيات وتذكرهم بالآيات ولا يعتبرون بها، ولا يتعظون بالآيات، تقول لهم: انظروا إلى آيات السماوات والأرض لا يتعظون.

لا ينظرون إلى الحق أبدًا، قد أعميت أعينهم عن الحق، هذا معنى أعينهم في غطاء عن ذكري، أي عما يذكرهم بلقاء الله، وعما يذكرهم بما أمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال بعدها: ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: 101]، أي في الدنيا كانوا لا يريدون أن يسمعوا الحق، ولا يريدون أن يسمعوا آيات الله، ولا يريدون أن يسمعوا شيئًا يتعلق بالإيمان، وبالقرآن، والرسول، كلّ ذلك حجبوا أنفسهم عن سماعه، لا يسمعون إلا الباطل، فهذه صفاتهم أنهم لا يرون الحق أبدًا، ولا يسمعون الحق أبدًا، يريدون الباطل فقط.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هؤلاء الذين تعرض عليهم الناس وهم الكفار أنهم كانوا في الدنيا قد اتخذوا الأولياء من دون الله؛ لأنهم كانوا يعبدون الأولياء من دون الله، سواء هؤلاء الأولياء من الأصنام، أو الأولياء من الملائكة، أو الأولياء من الصالحين كعيسى، والحسين، وعلي، وعزير، وغيرهم ممن اتخذوهم أولياء من دون الله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الكهف: 102].

✍ هل ظن هؤلاء الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء؟

✍ هل يظنون أن هذا مقبول، وهذا مرضي عند الله؟

بل الله لا يرضى بذلك، وهؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم، ويدعونهم، ويطوفون عليهم هؤلاء وقعوا في الكفر والشرك، ولذلك سماهم الله قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الكهف: 102].

قال: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الكهف: 102] ، أي هل ظن أولئك الذين كفروا عندما اتخذوا عبادي من دوني أولياء أن ذلك سينفعهم؟ بل سيضرهم، الذين يعبدون الملائكة ويعبدون الصالحين كالمسيح ابن مريم، أو كالحسين، أو علي، أو أي من الصالحين يطوفون على قبورهم ويدعونه من دون الله، يا فلان، يا فلان المدد المدد، ونحو ذلك، كلّ هؤلاء عبدوا ودعوا من دون الله واتخذوا من الله أولياء، فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: 102].

فهؤلاء حبطت أعمالهم، ولا يُقبل منهم عمل، ومأواهم جهنم، لكفرهم وشركهم، كما قال عيسى بن مريم، عيسى الذي تعبده طوائف من النصارى ماذا قال؟ قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: 72].

والله قال هنا في هؤلاء الذين يتخذون عباد الله ويتخذون المخلوقين أولياء من دون الله ماذا قال الله فيهم؟ قال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: 102].

فجهنم تنتظرهم نزلًا، أي قد أعد الله لهم كما يعد الطعام والقرى للضيف، استهزاءً بهم وسخرية، وإلا أي نزل ينتظرهم؟ العذاب الأليم والحميم، والغساق، والزمهرير، والأغلال، والسعير، أي نزل هذا؟!!

فهذا من التهكم بهم والاستهزاء بهم، أن جهنم تنتظرهم كما ينتظر الإنسان ضيوفه أن يكرمهم، ولا كرامة لهم في جهنم، ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: 102].

قال بعدها: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ [الكهف: 103]، قل يا محمد، وقل أيها المخاطب، قل لهؤلاء ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: 103]، لاحظ الأخسرين أعمالًا، كلّ هذا تهديد، تهديد لأهل النار، وبيان صفات أهل النار، الأخسرين أعمالًا هم الذين خسروا أعمالهم.

يعملون الأعمال ويقدمون الأعمال، ويقدمون القرابين، ويسجدون ويصلون، ويدعون، ويطوفون، ويدفعون الأموال الطائلة ويسافرون، وهم قد خسروا أعمالهم، من هم؟ قال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104].

هؤلاء الذين يعملون الأعمال الصالحة على غير نور، وعلى غير طاعة، وعلى غير بينة، وعلى جهل، مثل النصارى الذين يعبدون الله على جهل، وغيرهم من طوائف البدع الذين يطوفون على القبور ويعبدون ويتقربون، وتجدهم أحيانًا يأتون إلى الحج، ويأتون إلى العمرة، ويدعون غير الله، ويسجدون ويصلون بصفات لم يشرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هؤلاء يظنون أنهم يحسنون صنعًا، وهم قد ضل سعيهم في الحياة الدنيا، يظنون أنهم يعملون الصالحات، ويقدمون، وينفقون الأموال، وهذه كلها أصبحت وبالًا عليهم، وأحبطها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾، وأخبركم، ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: 103]، الذين أعمالهم خاسرة، وضالة، ولا يبقى لها أثر، وتضمحل يوم القيامة، وتصبح هباءً منثورًا، هم الذين ضل سعيهم، وأتعبوا أنفسهم، سماه سعي، يسعون ويركضون، ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهو يظنون ويحسبون ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104]، يظنون أن هذا هو الصحيح، وأنهم يتقربون إلى الله ويبكون، ويسجدون، ويطوفون، وأعمالهم كلها باطلة، لماذا باطلة؟ لأنها مبنية على جهل وعلى بعده، وعلى خرفات.

قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الكهف: 105]، كفروا بآيات الله، لم يتبعوا الرسول، ولم يتبعوا سنة الرسول، ولم يأخذوا بما أمرهم الله، فكفروا بآيات الله ولقائه.

قال: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [الكهف: 105]، حبطت أعمالهم التي عملوها وظنوا أنها تنفعهم؛ فإذا حبطت فالله عَزَّ وَجَلَّ لا يقيم لها يوم القيامة وزنًا، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105].

إذا جاء الله بالموازين، أُتي بالموازين ووضعت الموازين لن تثقل موازينهم بهذه الأعمال، الأعمال هذه لا تنفعهم، ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: 105].

قال: ﴿ذَلِكَ﴾ [الكهف: 106]، أي حبوط الأعمال، وذهاب الأعمال، وذهاب أجورها ولا يبقى لها أثر، ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ [الكهف: 106]، جزاؤهم ماذا؟ قال: ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الكهف: 106]، ما السبب؟ قال: ﴿بِمَا كَفَرُوا﴾ [الكهف: 106]، بسبب كفرهم.

كفروا بالله، وكفروا بلقائه، وكفروا بما شرعه الله، وكفروا باتباع الرسول، والنتيجة قال: ﴿بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: 106]، إذا رأوا آيات أو رأوا الرسل، أو سمعوا الرسل استهزؤوا وسخروا، سخروا بآيات الله، وبرسله، فالنتيجة أن الله جعل لهم جهنم وقد حبطت أعمالهم.

يختم الله لنا هذه السورة بهذه البشارة الطيبة، لما ذكر مصير هؤلاء الكفار، ومصير هؤلاء المبتدعون في دين الله، وهؤلاء الذين افتروا على الله الكذب، وعبدوا من دون الله، وتولوا أولياءه من دون الله، لما ذكر حالهم وأن جهنم تنتظرهم وأن مأواهم جهنم وأن أعمالهم قد حبطت قابلهم بأهل الصلاح، قابلهم بأولياء الله، من هم أولياء الله؟ ومن هم أهل الصلاح؟ ومن هم الذين يفوزون بالفردوس الأعلى يوم القيامة؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الكهف: 107]، صدقوا بقلوبهم وآمنوا الإيمان الحقيقي، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: 107]، صلحت عقائدهم، وعقيدتهم وتوحيدهم مع الله، وصلحت أعمالهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وكلّ ما أمر الله به أتوا به وحافظوا عليه.

فحافظوا على أوامر الله، واجتنبوا مساخط الله، فالنتيجة أنهم حققوا الإيمان والعمل الصالح، فالنتيجة ما هي؟ قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: 107].

جنات الفردوس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى من الجنة»**، تقولوا: اللهم إني أسألك الفردوس الأعلى من الجنة، **«فإنه أعلى منازل الجنة ووسطها، وفوقه عرش الرحمن»**.

هذا مكان خاص يسمى جنة الفردوس، لكن إذا جاءت الآية بقوله: ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ [الكهف: 107]، بالجمع، فإن هذا يشمل كلّ الجنة، يشمل الجنة، والجنة تسمى أحيانًا بجنات عدن، وتسمى بجنات الفردوس، يعني تسمية عامة، وتسمية خاصة.

تسمية خاصة هذا للمكان المعروف الذي هو في أعلى الجنة، وأوسطها وأفضلها، وفوقه سقف الرحمن أو سقف العرش، هذا خاص، وهناك فردوس عام كما تقول أنت: **"جنات النعيم"** و**"جنات عدن"** و**"جنات المأوى"** هذا عام، والدليل على أنه عام؛ لأن الله قال قبلها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: 107].

فكل من آمن وعمل الصالحات فهو موعود بدخول الجنة، الجنة العامة وهي جنات الفردوس، ولذلك جمعها قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: 107]، وليست جنة واحدة، ﴿جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ [الكهف: 107]، وهي منازلهم في جنات الفردوس، تشمل طبقات أهل الإيمان، والمقربين، والأبرار، والصالحين، كلّ ذلك داخل في جنات الفردوس؛ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: 107]، أي ينزلونها منازل لهم، وقد أعد الله لهم ما يرضيهم من الضيافة، فهم ضيوف الرحمن، فالنزل هو ما يعد للضيف، وأي ضيافة أعظم، وأي ضيافة أكبر من ضيافة الرحمن في جنات النعيم؟!! وتتلذذ الأعين بالنظر إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وتلذذ الأسماع بكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما يقول: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: 58].

والقصور، والغرف، والمنازل الأنيقة، والأشجار المثمرة، والأطعمة، والخيرات، والمياه المتدفقة، والأنهار المختلفة، والنساء الحسان، والخدم، كلّ ذلك في جنات الفردوس، مكان أعده الله لهم نزلًا.

ووصفهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الكهف: 108]، أي مُقيمين فيها أبدًا الآباد، لا يخرجون منها، ولا يريدون الخروج أبدًا، ولذلك قال: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: 108]، أي لا يريدون الانتقال من مكان إلى آخر، قد أعجبه المكان، وسرهم المكان، وفرحوا به، فلا يريدون الانتقال.

في الدنيا إذا جلس في مكان مل من المكان هذا وانتقل، تجده يسكن في بيت ثم بعد زمن، أو بعد فترة ينتقل إلى بيت آخر، وهكذا، هذه هي الحياة، وإذا نزل في مكان انتقل إلى مكان آخر.

أما الآخرة في الجنة ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: 108]، لا يريد أن يتحول ولا أن ينتقل عنها لما فيها من السرور، والبهجة، والفرح، والراحة النفسية، والطمأنينة، فهذه صفة الجنة.

قال الله بعدها لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا مصير هؤلاء الكافرين، وذكر لنا مصير المتقين الصالحين الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم جنات الفردوس نزلًا، ختم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى السورة بشيء يدل على عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما هو؟ أن كلام الله لا ينتهي، وأن كلام الله أمر عظيم جدًا، وهذا كأنه رد على الكفار الذين ذهبوا إلى اليهود وقالوا: أعطونا أسئلة نعجز بها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يعلموا أن الرسول يوحى إليه، وأن علم الله فوق كلّ شيء.

وكذلك يعني شوف اليهود يريدون أن يعجزوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببعض الأسئلة، وعندهم هم الكتاب، وقد أوحى الله إلى رسولهم موسى، ومع أن موسى قد منّ الله عليه بالعلم؛ إلا أن الله أرسله إلى ما هو من أعلم منه وهو الخضر، ولذلك لما ركب الخضر في السفينة وموسى معه، قال: **«ما علمي يا موسى وعلمك في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر»**، نقطة واحدة، والبحر كله علم الله، ولذلك الله بيّن لنا في هذه السورة عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعظمة كلامه، وصفة كلامه التي لا تنقطع، ولا تنتهي، ولذلك قال: ﴿قُلْ﴾ [الكهف: 109]، قل يا محمد، ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ [الكهف: 109]، والبحر هنا جنس البحور كلها، ﴿مِدَادًا﴾ [الكهف: 109]، تُمد ﴿لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ [الكهف: 109]، يعني حبر يُكتب به، ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ [الكهف: 109]، وانتهت البحور كلها وكلام الله لا ينتهي.

ولو جئنا بمثله أمداد أمداد البحور لا تنتهي، وهذا مثل قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السورة الأخرى لما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [لقمان: 27]، يعني أشجار الدنيا كلها أقلام، ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: 27]، يعني بحر، وبحر، وبحر، إلى سبعة أبحر، ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27].

وهنا قال: ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: 109]، يعني لا تنتهي كلمات الله أبدًا، ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109]، بمثله أمداد أمداد هذه البحور، لانتهت البحور، لماذا؟ لأن البحور مخلوقة، والأشجار مخلوقة، والأقلام مخلوقة، وكلام الله غير مخلوق، لا ينتهي، كلام الله عظيم، وهذا فقط تقريب لك، وإلا كلام الله لا يوصف بمثل هذه الأوصاف، ولا ينتهي، ولا يحد بحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطبًا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما الكفار لم يؤمنوا به، وردوا رسالته، وبحثوا عن أسئلة يعجزونه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ﴾ [الكهف: 110]، قل يا محمد لهم، ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، أنا مثلكم بشر، ولا آتي بالمعجزات، ولا آتي بالأشياء التي لا أستطيعها، أنا بشر مثلكم والفرق بيني وبينكم أنه يوحى إلي، هذه الميزة التي تختلف عني وعنكم، أن الوحي يأتي إلي، فخذوا من هذا الوحي، والوحي الذي يأتي إلي يأمرني بأي شيء؟

قال: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: 110]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إله واحدة، وإلهنا وإلهكم واحد، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، فإن كنتم ترجون لقاء الله وتريدون الفوز بلقاء الله فعلى كلّ إنسان أن يعمل عملاً صالحًا ويجعل عمله خالصًا لله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

لا يشرك بعبادة الله شركًا أكبر، ولا شركًا أصغر، والشرك الأصغر كالرياء، يعني من أراد الفوز ولقاء الله، والنجاة والسعادة؛ فعليه أن يحافظ على الأعمال الصالحة المبنية على العقيدة الصحيحة، ولا يشرك بعبادة الله.

لا يعمل عملاً لغير الله، لا يشرك بعبادة الله أحدًا؛ فيقدم عملاً لغير الله، أو مثلاً يُرائي بعمله غير الله، فإذا أنفق؛ أنفق ليُقال منفق، وليُقال كريم، وليُقال جواد، أو إذا صلى يُقال: هذا فلان يصلي، أو إذا قرأ قالوا: ما أجمل صوته، كلّ هذه أعمال تحبط، خطيرة جدًا.

أين الإخلاص؟ الإخلاص أن تعمل لله، لا تعمل لفلان حتى يمدحك الناس، وحتى يثنون عليك، هذا كله محبط للأعمال، الله حذر من هذا الشيء؛ قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

فلابد من الإخلاص، والمتابعة، أن تخلص عملك لله، وأن تتابع بعلمك ما جاء عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبهذا أيها الأخوة ننتهي من **"سورة الكهف"** في هذا المجلس الأخير وهو المجلس الثاني عشر من المجالس التي عقدناها في تفسير هذه السورة العظيمة، وهي في الحقيقة سورة عجيبة، وعظيمة، لا تنقضي عجائبها، ومهما قرأها الإنسان، وقرأ ما حولها من تفاسير وبيان لمعانيها، لا يشبع من معانيها، ولا تنقضي عجائب الله فيها.

هذه السورة افتتحها الله بالحمد، وعظم أمره بالحمد، وختمها بسعة كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فعظم الله هذه السورة بافتتاحية الحمد لله عَزَّ وَجَلَّ الذي أنزل الكتاب على عبده ولم يجعل له عوجًا، وختمها بعظم علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسعة كلامه جَلَّ جَلَالُهُ، وكلامه أعظم الكلام.

وتمثلت هذه السورة بأربع قصص كما مرت معنا:

1. قصة أصحاب الكهف.
2. وقصة صاحب الجنتين.
3. وقصة موسى مع الخضر.
4. وقصة ذي القرنين.

كلها عشناها وتدبرناها، وتأملناها، فنسأله جَلَّ جَلَالُهُ أن يجعل ما قرأناه، وما سمعناه، وما قلناه حجة لنا يوم القيامة، حجة لنا لا علينا، وأن ينفعنا وأن يبارك لنا في هذه السورة العظيمة، وأن يثبت هذا العلم في قلوبنا، والعلم هذا يظهر، ويتكرر مع سماع هذا الشرح، ومع قراءة هذه السورة.

وإن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله نواصل السورة التي بعد **"سورة الكهف"** وهي **"سورة مريم"** ونسأل الله الإعانة، ونسأل الله التوفيق والسداد.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ مَرْيَم)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(مريم ١ - ١٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم هو يوم الثلاثاء، الموافق الثاني من شهر الله المحرم من عام ١٤٤٣، نجتمع في هذا المقام مع تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي سورةٌ جديدةٌ بعدما أن أنهينا تفسير وبيان سورة الكهف، ننتقل اليوم إلى سورة مريم، وهي سورةٌ تليها.

سورة مريم من السور المكية التي نزلت قديمًا، يعني نزلت في أول العهد المكي، أول البعثة، وهي سورةٌ متقدمةٌ، متقدمةٌ في النزول على سورة الكهف، وذلك أنها -ومما يدل على ذلك- أن جعفر بن أبي طالبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْه لما هاجر إلى الحبشة -الهجرة الأولى هاجر إلى الحبشة- أخذ معه سورة مريم.

ولما بعث المشركون نفرًا إلى النجاشي ليرد هؤلاء إلى مكة، فوقف، وقفوا أمام النجاشي ومعهم الهدايا -الذين هم وفد قريشٍ- وقالوا: إن هؤلاء خرجوا عن دينٍ بيننا وجاؤوا إليكم فردوهم إلينا، فقال النجاشي: إنهم لجؤوا إلينا وسننظر في أمرهم.

فطلب منهم أن يتحدثوا عما، عن الذي دفعهم إلى أن يهاجروا، فخرج جعفرٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْه وبين له حقيقة خروجهم، وأن هؤلاء آذوهم في دينهم، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعث إليه رسولًا هو من خيرنا خلقًا وأدبًا، وأن الله بعثه بالتوحيد وعبادة الله والإيمان بالله ونبذ الشرك والكفر إلى آخر ما في هذا الدين من المزايا.

قال: وماذا قال؟ وقد أنزل الله عليه كتابًا، قال: يعني قال: أسمعني مما أنزل، فقرأ عليه سورة مريم، قرأ جعفرٌ على النجاشي سورة مريم وقصة مريم، وقص قصة وأيضًا قصة ولادة المسيح عيسى ابن مريم.

فبكى النجاشي وقال: والله لا أقول إلا ما تقولون، ولا أقول غير ما تقولون من حقيقة عيسى، حقيقة عيسى وأنه عبد الله ورسوله، ثم قال للوفد من قريشٍ: اخرجوا وارجعوا إلى بلدكم، ولن تمسوا هؤلاء بسوءٍ. فأبقاهم عنده. الشاهد من القصة أن سورة مريم مما نزل مبكرًا في العهد المكي.

هذه السورة تشتمل على قضايا العقيدة وهو الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتوحيد، والدعوة إلى الإسلام، ثم تتحدث أيضًا عن القرآن، وتتحدث عن البعث واليوم الآخر، وموقف المشركين منه.

السورة في الحقيقة إذا تأملناها كثيرًا وجدناها انقسمت إلى قسمين:

⬅القسم الأول: من بدايتها إلى موضع السجدة -هي فيها سجدةٌ في منتصفها- إلى موضع السجدة، وهي تتحدث عن أنبياء الله وأصفياء الله الذين اصطفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واختارهم لرسالته.

فتحدثت عن زكريا، وعن يحيى، وعن عيسى ابن مريم، وعن إبراهيم مفصلًا. ثم ذكرت بعض الأنبياء بأسمائهم والثناء عليهم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ [مريم: ١٦].

فذكرت إسحاق ويعقوب وإسماعيل وموسى وهارون وإدريس وآدم ونوحًا على الإجمال، فهؤلاء الأنبياء ذكروا في النصف الأول، ثم أثنى الله عليهم فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨].

ثم بعد ذلك ذكر من خالفهم وترك ما هم عليه فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩]، ثم وصفهم بأنهم أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأن الله توعدهم، إلا من تاب وآمن وعمل صالحًا فهو موعودٌ بالخير؛ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [مريم: ٦٠]. ثم ذكرت مواقف المشركين من البعث والنار، والجنة والنار إلى آخر السورة، هذه هي السورة بكاملها.

السورة تلاحظ أنها تتكرر فيها الرحمات، تتكرر فيها الرحمات، وأنها رحمةٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، السورة بكاملها رحمةٌ وهي فيها من الرحمات الشيء العظيم.

فلذلك الله افتتحها في أول آياتها بقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢]، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ [مريم: ٥٣]. فتجد أن كلمة الرحمة تتكرر فيها، ثم زيادةً على ذلك أن اسم "الرحمن" تكرر في هذه السورة تقريبًا اثنتي عشرة مرةً.

قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ﴾ [مريم: ١٨]، ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥]، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٥٨]، ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ [مريم: ٦١]، وكذلك ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨]، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

و ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] إلى آخر الآيات، كلها تجد أن كلمة **"الرحمن"** أو اسم **"الرحمن"** يتكرر فيها اثنتي عشرة مرةً، وكلمة الرحمة تتكرر فيها، فهي السورة بكاملها تجد الرحمات لا تكاد تفارقها، وكلها رحمةٌ في رحمةٍ، فهذا السر -الله أعلم- في ذكر اسمه فيها متكررًا أكثر من سورةٍ.

وسمى الله سبحانه هذه السورة بسورة مريم لتكرر اسمها ولذكر قصتها بكاملها في هذه السورة، ونلاحظ لم يذكر اسمٌ من النساء أبدًا إلا مريم، تكرر اسمها أكثر من ثلاثين مرةً في القرآن الكريم.

- **ما السبب في ذلك؟ ولماذا ذكر اسمها؟**

الله أعلم.

ذكر بعض المفسرين: **"أنه لما كانت النصارى تدعي أو اليهود تدعي -يعني لما ادعوا أن لله صاحبةً، قالوا مريم وعيسى ابن الله، وادعوا أن مريم هي لله صاحبةٌ أو زوجةٌ- فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرد عليهم وأن يبطل هذه الشبهة التي تمسكوا بها بأن يذكر اسم مريم في القرآن صريحًا؛ لأن العرب من عادتها أنها تشمئز أو يشمئز الرجل أن يذكر امرأته باسمها أمام الرجال، فلما ذكر الله دل على أنها ليست صاحبةً لله، دل على بطلان ما قالوا"**. هذا ما ذكره بعض المفسرين والعلم عند الله.

هذه السورة سورةٌ عظيمةٌ، نبدأ بأول آياتها، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١]. هذه حروفٌ مقطعةٌ وهي خمسة حروفٍ، ولم تتكرر هذه الحروف بكاملها بهذا الشكل إلا في هذه السورة، جمعت خمسة حروفٍ: بدأت بالكاف والهاء ثم الياء والعين والصاد. تقرأ مقطعةً ولا تقرأ متصلةً، ما تقول **"كهيعص"**.

☜**وإنما تقرأ هكذا كل حرفٍ لوحده؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قال:** ﴿الم﴾ [البقرة: ١]، قال: «لَا أَقُولُ الٓمٓ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ». والحروف المقطعة يأتي بها الله سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى في أول السور لحكمةٍ، وهي إثبات أن هذا القرآن الذي يسمعه العرب وأنزل على محمدٍ العربي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كلامٌ، أنه مكونٌ من الحروف العربية، حروف الهجاء العربية.

وكأنه ردٌ على الكفار ومشركي العرب أن هذا القرآن المكون من الحروف التي أنتم تتكلمون بها وتسمعونه لابد أن تؤمنوا به وبما اشتمل عليه، وإن لم تؤمنوا وتصدقوا به فأتوا بمثله.

ولذلك تحداهم فقال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] ولم يأتوا، فهذا دليلٌ على إعجاز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكتابه للعرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن المكون من هذه الحروف كالحروف المقطعة.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢]. أي هذا الذي نقصه عليك يا محمد ونقصه عليك أيها المستمع، هذا ذكرٌ من الله، هذا ذكرٌ من الله وهذا الذكر هو رحمةٌ، ذكرٌ هو رحمةٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تلطفٌ وترحمٌ وهدًى من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهذا العبد.

- **من هو العبد؟**

هو زكريا، وهو نبيٌ من أنبياء الله، نبيٌ من أنبياء الله أرسله الله إلى بني إسرائيل، بنو إسرائيل أرسل الله فيهم أنبياء كثيرين منذ موسى وما بعده، والأنبياء يرسلون إلى بني إسرائيل، وكان منهم هذا النبي وهو زكريا، وكان له من المناقب الجميلة وله من الصفات الطيبة التي ذكرها القرآن مما يكون أسوةً وقدوةً للمقتدين به.

وذكر الله حاله في صلاته وعباداته وأخلاقه إلى آخره، ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة آل عمران، وذكره في سورة الأنبياء، وذكره في سورة مريم وغيرها.

قال: ﴿عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾، قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، أي وقت ندائه ربه نادى ربه، نادى ربه أي دعا ربه، ناداه نداءً خفيًا أي دعا ربه.

- **متى دعا ربه بهذا الدعاء؟**

دعا لما كبر سنه وشعر بالضعف وقرب الأجل، دعا ربه لأي غرضٍ دعا ربه؟ لأنه رأى في بني إسرائيل عدم الالتفات إلى الدين وإلى الإمامة، إمامة المسجد الأقصى، وأن هذا الدين سيضيع، فأشفق على ضياعه وأشفق على أن ينفلت هذا الدين، فسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقه ذريةً طيبةً تقوم بوراثة هذا الدين، فدعا ربه بهذا الدين.

ولاحظ كيف دعا ربه قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]، وهذا من الأدب، من الأدب في الدعاء ألا يكون بصوتٍ عالٍ؛ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، فينبغي للإنسان أن يدعو خفاءً، وذلك أكمل وأفضل وأتم في الإخلاص أن يكون دعاؤك دعاءً خفيًا في سجودك وفي قيامك، أن تدعو ربك في دعاءٍ خفيٍ بحيث أنه لا يسمع أو لا يسمع أحدٌ، فهذا يكون أخلص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأقرب إلى الإجابة.

قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣].

ولاحظ أن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما دعا ربه بهذه الدعوات قدم مقدماتٍ، وهذا الذي ينبغي للإنسان عندما يريد أن يدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يقدم بهذه المقدمات التي تشعر باحتياجه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وضعفه هو.

ولذلك بدأ فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤]، أي ضعف العظم، يعني كبرت سني وضعف عظامي؛ لأن الإنسان كلما كبر في سنه ضعف عظامه، وإنما خص العظم.

- **لماذا خص العظم هنا قال ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ﴾؟**

لأن العظم هو الذي يحمل الجسم، فإذا ضعف العظم ضعفت عظام الإنسان، ضعف جسمه وهزل.

ولذلك قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، كنايةً على أن الرأس قد أصبح أبيض فقال ﴿وَاشْتَعَلَ﴾ كأن النار اشتعلت فيه فلم يبق منه شيءٌ يدل على بقاء الشباب، وإنما يقول ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي بلغت أي أن الشيب بلغ في رأسي مبلغًا عظيمًا، والشيب دليل الضعف.

وكما قال بعض أهل العلم: "الشيب في الرأس واللحية رسول الموت، ونذيرٌ للموت"، يعني دليلٌ على قرب أجل الإنسان وضعفه وعجزه، وفي هذا -حتى نفهم الآية- دليلٌ على أن الإنسان ينبغي له أن يتبرأ من حوله وقوته في عقله وفي قدرته، ما يقول **"أنا عندي قوةٌ في العقل أو قدرةٌ، قوةٌ في الجسم وقوةٌ في..."** لا، بل هو ضعيفٌ أمام قوة الله، ولذلك ينكسر بين يدي الله: يا رب وهن العظم مني، يا رب اشتعل الرأس شيبًا.

قال بعد ذلك حتى زيادةً على التوسل: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]، لم أكن يومًا من الأيام شقيت بدعائك بل سعدت بدعائك، كأنه يشير إلى أن الله قد استجاب له قبل ذلك، استجاب له عدة إجاباتٍ.

فيقول: يا رب ما شقيت في أدعيتي لك ولا خبت في أدعيتي ولم تحرمني الدعاء، الأدعية السابقة كنت أدعوك يا رب وأنت تستجيب لي، وإحسانك علي عظيمٌ، وأنا أتوسل بالنعم التي أنعمت بها على سابقًا ولاحقًا، فهذا من أدب الدعاء، قال: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤].

ثم بين السبب في دعائه فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ [مريم: ٥]، يعني الورثة الذين يرثوني في مكاني، خفت الموالي يعني أقاربه من ورائه أن يرثوا مكانه في الإمامة، ولا يقصد الميراث هنا، ميراث المال؛ لأن الأنبياء ما تركوه صدقةٌ، الأنبياء لا يورثون، «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ فَقَدْ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». المقصود هنا لما يقول: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، يقصد ميراث العلم، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦]، أي ورثه بالرسالة والنبوة والعلم.

فهنا لما قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾ [مريم: ٥]، يعني أن يأخذوا مكاني وهم ليسوا مؤهلين لذلك، لما رآهم أنهم ليسوا أهلًا لأن يكونوا في إمامة المسجد وأن يقوموا بما قام به زكريا، عرف أنهم فيهم الضعف وفيهم عدم الالتفات لهذا الأمر، وأنهم غير مؤهلين.

دعا ربه فقال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥]، ما عندي ذريةٌ، ما عندي أولادٌ يكونون في مكاني، ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ فأنا أخشى أن تضيع الرسالة التي أنا أقوم بها والأمانة، فماذا أصنع يا رب؟ ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]، ذريةً طيبةً، ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۝٦﴾ [مريم: ٥-٦].

ولاحظ أنه قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ إذن دل على أنه ليس ميراث مالٍ، وإنما يرث من آل يعقوب العلم والرسالة والنبوة، قال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]، أي مرضيًا ترضى عنه ويرضى عنه الناس فيصبح مقبولًا أمام الناس، يجعله رضيًا.

فلما دعا بهذا الدعاء وبين السبب، وتوسل إلى الله بهذه الكلمات الطيبة، وبين ضعفه وانكساره بين يدي ربه: **"وهن العظم"**، **"اشتعل الرأس"**، **"لم أكن بدعائك شقيًا"** يومًا من الأيام بل أنت تستجيب دعائي في كل دعوةٍ أدعوها إليك، لما فعل ذلك، بعد ذلك ناداه الله فقال: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧].

فيعني هنا في هذه السورة قال: ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾، وفي سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩].

- **فقد يسألك سائلٌ يقول لك: قوله ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾ هذا من الله فنادته الملائكة، فكيف نجمع؟**

الجواب: ما في مانع أن يكون الملائكة نادته والله ناداه ما يمنع، أو يكون ناداه الله سبحانه ثم نادته الملائكة بعد ذلك، كل ذلك جائزٌ كل ذلك ممكنٌ.

فقوله: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]، فبشره الله مباشرةً، والملائكة بشرته، نادته الملائكة وهو قائمٌ يصلي في المحراب، وهذا يدل على كثرة عبادته وطاعته، قائمٌ يصلي في المحراب.

وهنا قال: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾، أي ذكرٍ وسماه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سماه الله **"يحيى"**، ﴿بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾، فكان له نصيبٌ من اسمه، كان له نصيبٌ من اسمه فكان حيًا حياةً علميةً وحياةً طيبةً، فجعل الله له حياةً حسيةً وحياةً معنويةً، فحيي بروحه وقلبه وجسده وبعلمه وبالوحي والدين والنبوة، فكان اسمًا على مسمًى.

قال: ﴿اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]، أي لم يسم بهذا الاسم أحدٌ قبله، أو يكون لم يكن له شبيهٌ بأخلاقه إلا من كان من الأنبياء كنوحٍ وإبراهيم هؤلاء بلا شك موسى أفضل منه، هؤلاء من أولي العزم وهم أفضل. قال: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

فلما أخبره الله بهذا الخبر الطيب، وأخبره بأنه سيولد له ولدٌ اسمه يحيى، قال رب دعا ربه فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾[مريم: ٨]. كيف يكون لي غلامٌ وكانت امرأتي عاقرًا؟

- **قد يسألك شخصٌ يقول لك: كيف يقول هذا الكلام وهو قد دعا ربه أن -يعني دعا ربه أن- يرزقه الذرية ثم يقول كيف يكون لي؟**

الجواب: دائمًا الإنسان سبحان الله العظيم -حتى نفهم الآيات دائمًا الإنسان سبحان الله العظيم- لما يفاجأ بخبرٍ لم يكن يتوقعه، أول ما يكون من شدته وانبهاره وسروره وفرحه الشديد أن يسأل فيقول كيف؟

كيف يحصل هذا الأمر؟ كيف يحصل؟ فهذا السؤال منه سؤال فرحٍ وسرورٍ، فرحٍ وسرورٍ وشدةٍ -يعني مع شدة الفرح- قال هذا الشيء فقال كيف يا رب؟ كيف؟

وقال بعض المفسرين أنه سأل حقيقةً قال كيف ستحمل؟ هل أنا سأتزوج امرأةً ثانيةً فتحمل وما أو ماذا سيكون؟ أو هل سيكون أن الله سبحانه سيصلح رحمها فتحمل كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيةٍ أخرى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾[الأنبياء: ٩٠].

قال بعض المفسرين: "﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي أصلحناها للحمل، فيقول هنا كيف يكون لي غلامٌ؟".

وقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [مريم: ٨]، يعني كيف سيكون هذا الغلام؟ فأخبره الله، أخبره بذلك فقال: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٨]، أي زوجته لا تحمل من الأصل، كانت من الأصل، قال: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[مريم: ٨]، يعني هناك سببان:

- السبب الأول: أن زوجتي لا تحمل عاقرٌ عقيمٌ.
- السبب الثاني: أنني قد كبرت وبلغت من الكبر عتيًا، يعني شدةً في الكبر، يعني بلغت ما بلغت من السن.

قال بعض المفسرين: "أنه قارب المئة من العمر".

قال الله عَزَّ وَجَلَّ ردًا عليه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[مريم: ٩]. ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ يعني أراد الله ذلك الأمر فلابد أن يتحقق، ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾

ربك قال هذا الشيء أنه سيكون فيكون، قال ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي الله قال ذلك وقال إنه هي علي لا يصعب علي، كيف يصعب على الله أن تحمل زوجته وقد خلق من مريم ولدًا من غير زوجٍ، وقد خلق آدم من غير أمٍ ولا أبٍ فكيف يعجزه ذلك؟ !

قال الله: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾، كنت ترابًا وكنت ماءً نطفةً لا تتحرك وخلقتك وأوجدتك.

قال: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ [مريم: ١٠]، حتى يعني من باب الطمأنينة كما قال: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]. قال: ﴿رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠]، قال لا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سويًا.

- **قال كيف لا يكلم الناس؟**

قال إنك لا تقدر على أن تكلم الناس ثلاثة أيامٍ، إذا جاءت هذه الأيام الثلاثة ولم تستطع أن تكلم الناس فاعلم أن زوجتك قد حملت، قال ﴿سَوِيًّا﴾ يعني وأنت في صحةٍ وعافيةٍ، هذا معنى ﴿سَوِيًّا﴾ أنك ليس لست ليس فيك علةٌ.

وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ٤١]، أي بالإشارة فأشار إلى قومه إلا رمزًا واذكر ربك كثيرًا، يعني هذه الآية أن يكلم الناس من البشر ما يستطيع لكنه في الذكر والتسبيح والتهليل ينطلق لسانه.

قال: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ [مريم: ١١]، والمحراب المكان الذي يتعبد به، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرةً وعشيًا، أوحى إليهم بالإشارة بالأصابع أو بالكتابة أو نحو ذلك، فأوحى إليهم أن كثيرٌ من التسبيح والطاعة والصلاة بكرةً وعشيًا، أن بعد ذلك حملت الأم زوجة زكريا وولدت هذا الولد وكبر وأصبح غلامًا.

فقال الله فيه: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، قد يكون وحيٌ قد يكون وحيٌ أو إلهامٌ، ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أي التوراة بقوةٍ أي بعزمٍ، بقوةٍ أي بعزمٍ واجتهادٍ وجدٍ وبقوةٍ، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، أي العقل تمام العقل وهو صغيرٌ، والذكاء والفطنة والبر بوالديه والإحسان وعدم ضياع الأوقات فيما لا ينفع. قال ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أصبح حكيمًا في صغره.

قال: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٣]، أي أعطيناه حنانًا أي رحمةً من لدنا، ﴿وَزَكَاةً﴾ [مريم: ١٣] أي طهارةً وبعدًا عن الذنوب والمعاصي، ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣] أي محافظًا على طاعة ربه بعيدًا عن الوقوع في المعاصي.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم: ١٤] أي محسنًا إلى والديه ليس عاقًا بل محسنًا إلى والديه بارًا بهما، ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤] لم يكن من المتجبرين الطاغين، الذين المتكبرين المترفعين العاصين لربهم والعاصين لوالديهم.

ولذلك قال بعض العلماء: "إذا كان الولد بارًا بوالديه لا يكون جبارًا ولا عصيًا، وإنما الجبار العصي من كان عاقاً لوالديه".

قال الله في ختام هذه القصة: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ [مريم: ١٥]، أي على يحيى أي سلم من أي ضررٍ يضره، قال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ في متى؟ قال في هذه الأوقات الثلاثة العصيبة، ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ أي سلم من الشيطان وسلم من الشر وسلم من العقوبات، متى؟

قال: ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ [مريم: ١٥] عندما خرج من بطن أمه، فهو في بطن أمه في رحمها إذا خرج إذا خرج يتلقاه الشيطان وينزغه الشيطان فسل سلمه الله، قال: ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ [مريم: ١٥] إذا خرج من الدنيا للقاء ربه فيأتيه الشيطان فسلمه الله، ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥] إذا خرج من قبره حيًا يسلمه الله ويثبته.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يثبتنا وأن يسلمنا وإياكم، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

لعل نقف عند هذه الآية التي انتهت حتى ننتقل إلى قصة مريم في اللقاء القادم، نقف عند هذا القدر، ونسأل الله أن ينفعنا وأن يبارك لنا وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، والله أعلم، ونلقاكم على خيرٍ إن شاء الله.

(مريم ١٥ - ٣٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكاخ الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، ومع درسنا درس الثلاثاء، وهذا اليوم هو اليوم الثامن اليوم التاسع اليوم التاسع من شهر من شهر الله المحرم من عام ثلاثةٍ وأربعين وأربعمائةٍ وألفٍ من الهجرة.

ولقاؤنا في التفسير في سورة مريم، أخذنا منها المجلس الأول، وهذا هو المجلس الثاني من مجالس هذه السورة، وهو يتعلق بقصة مريم وابنها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

القصة الأولى كانت مع زكريا وبشارة الملائكة له بأنه يرزق بابنٍ اسمه يحيى، وهنا قصة مريم مع ابنها، والعجيب تأتي قصةٌ ثالثةٌ أيضًا؛ قصة إبراهيم مع أبيه، فعلاقة الولد مع والده، وكل هؤلاء من الابنية من الأبناء البارين الأبناء البارين.

فعيسى قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنه، فيحيى قال عنه: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: ١٤]، وقال عن عيسى ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مواقف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في تلطفه ودعوته لأبيه، فكلها تبين علاقة الأبناء مع آبائهم.

هذه القصة قصة مريم فيها معجزةٌ عظيمةٌ، ومناسبة ذكر قصة مريم بعد ذكر قصة زكريا أن زكريا فيه أيضًا معجزةٌ، لكن معجزة مريم أبهر وأعظم.

زكريا رجلٌ قد يعني اشتعل رأسه شيبًا، وشاخ وكبر، ووهن عظمه وضعف، ولم يرزق بذريةٍ أبدًا، وزيادةً على ذلك أن امرأته عاقرٌ، فأعطاه الله المعجزة العظيمة بأن يرزق بأن يرزق بولدٍ وهو في هذا السن الطاعن، وامرأته عاقرٌ، فرزق وأعطاه الله الآية العظيمة والمعجزة العظيمة.

ومريم فيها من المعجزة ما هو أعظم؛ إذا كان هذا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادرًا على أن يرزق هذا الرجل الشيخ الكبير وامرأته عاقرٌ، فإنه قادرٌ على أن على أن يجعل مريم تحمل من غير زواجٍ، وأن ترزق بولدٍ من غير زواجٍ، وهذه معجزةٌ عظيمةٌ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر في كتابه في مثل عيسى.

قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. آدم خلقه الله من غير من غير أمٍ ولا أبٍ، عيسى خلقه الله من غير أبٍ، فالذي خلق آدم من غير أمٍ ولا أبٍ وأوجده يعني قادرٌ على أن يخلق عيسى، وهذا فيه دلالةٌ وردٌ على اليهود والنصارى الذين غلوا في عيسى، ولم يعرفوا هذه المعجزة العظيمة.

يقص الله علينا قصة مريم بأسلوبٍ عظيمٍ فيه الحنان وفيه الرحمة وفيه اللطف وفيه المواقف العجيبة، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: واذكر يا محمد لقومك في الكتاب، أي في هذا القرآن اذكر لهم مريم، أي قصة مريم.

ما الذي حصل لها، وما الذي يعني جرى لها. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكرها بأجل الصفات وأعظمها، وأكرمها بكثيرٍ من الكرامات، ورفع شأنها وعظمها، يعني بجل ذكرها في القرآن الكريم، ومدحها بهذه الصفات الطيبة التي لم تكن يعني في كثيرٍ من النساء، فذكرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأجمل الصفات وأحسنها.

فقال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]. ومريم هي مريم ابنة عمران.

قال: ﴿إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]؛ **"انتبذت"** أي تباعدت وانعزلت عن أهلها، وجلست في مكانٍ بعيدٍ عنهم، ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦].

قيل: "إن المكان الشرقي هو المسجد الأقصى".

وقيل: "إنه جهةٌ من المسجد الأقصى في أقصى في شرقي المسجد".

وقيل: "هو مكانٌ بعيدٌ عن أهلها"؛ يعني تجلس فيه وتقضي فيه أيامًا تتعبد وتصلي وتسجد وتركع لله وتذكر الله وحدها، ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦] أي من جهة الشرق أينما كان؛ سواءٌ قلنا المسجد أو شرق المسجد أو شرق أهلها، الله أعلم بذلك.

قال: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٧]؛ أي حجبت نفسها حجبت نفسها، فجعلت من دونهم سترًا يسترها عنهم وعن الناس؛ أي أنها انعزلت وانفردت واعتكفت لله، واعتكفت لعبادة الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخلو في غار حراءٍ ويتعبد الله، فاستترت بهذا الستر عن أهلها وعن الناس.

فلما كانت تتعبد في يومٍ من الأيام، إذ دخل عليها جبريل في صورة رجلٍ؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]؛ أي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فتمثل لها بشرًا سويًا، أي جاء في صورة إنسانٍ تام الخلق، حسن الخلق، فدخل عليها.

فلما دخل عليها وهي شابةٌ وجميلةٌ، وخالٍ، كل الأمور مهيأةٌ، ومع ذلك يعني اعتصمت بالله ولجأت إلى الله تطلب العفة من الله، فقالت هي، قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]؛ أي أستجير بالرحمن، وألوذ وأعتصم بالرحمن ربي أن يرحمني منك، وأن ويصرف عني ما تريده.

فقال: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]؛ إن كنت ممن يتقي الله فابتعد عني ولا تقترب مني، فخافت منه، ولجأت إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهددته وخوفته بأن يبتعد عنها إن كان تقيًا يخاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويراقب الله، فلا يقترب منها.

فقال لها الملك جبريل، قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]؛ إنما أنا رسول رب، إنما أنا رسول ربك، بعثني الله إليك لأهب لك غلامًا طاهرًا زكيًا في أحسن الأخلاق، فتعجبت من هذا الأمر، كيف يهب لها غلامًا زكيًا؟ كيف يكون لها ولدٌ؟

وتعجبت من هذا الأمر، ولكنها اطمأنت لما قال: **"إني رسول ربك"**، فعرفت أنه من عند الله. فلما علمت أنه رسولٌ قد جاءها من الله، عرفت أن الله قد أراد به خيرًا أراد بها خيرًا، فقالت: أنى يكون ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]؛ تعجبت، أسلوب تعجبٍ، كيف يكون لي غلامٌ، وكيف يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشرٌ بنكاحٍ حلالٍ.

ولم أك بغيًا؛ أي لم أكن من البغايا التي يطلبن الزنا، ولم أكن يومًا من الأيام اقترفت هذه المهنة، أو وقعت في هذا الشيء، كيف يكون لي كيف يكون لي ولدٌ؟ وعلمت أن الولد لا يكون إلا من الرجل، سواءٌ كان بنكاحٍ صحيحٍ أو بأمرٍ محرمٍ، فكيف يكون لها ولدٌ وهي بعيدةٌ عن الرجال؟

فرد عليها الملك، قال: ﴿كَذَلِكِ﴾ [مريم: ٢١]، أي هكذا الأمر كما تصفين من أنه لم يمسسك بشرٌ، نعم كلامك صحيحٌ، لم يمسسك بشرٌ، ولم تكوني بغيًا يومًا من الأيام، فكذلك.

ثم قال لها: ولكن الله أراد أمرًا آخر، و﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١]؛ أي قال الله الأمر هينٌ علي، والأمر سهلٌ علي، لا يعجزني أن تحملي من غير زواجٍ، الله عَزَّ وَجَلَّ لا يعجزه أن يجعلها تحمل من غير زواجٍ.

قال الأمر هينٌ، الله إذا أراد شيئًا يقول له: كن فيكون، قال الأمر هينٌ على الله، ولكن الله أراد هذا الأمر، قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]؛ أي هذا الغلام الذي ستحملين به وسيولد سيكون له شأنٌ عظيمٌ وعلامةٌ، آيةً للناس شأنٌ عظيمٌ وعلامةٌ تدل على قدرة الله، كل من رآه أو سمع عنه تيقن أن الله على كل شيءٍ قديرٌ، وازداد يقينًا بالله.

قال: وزيادةً على ذلك ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ [مريم: ٢١] به وبوالدته وبالناس، فوجود عيسى رحمةٌ من الله على أمه، ورحمةٌ على الخلق، رحمةٌ على قومه، فما كان ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ [مريم: ٢١]، وهذا الأمر قد قضاه الله قد قضاه الله قبل خلق السماوات والأرض، ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]، ومسطرًا في اللوح المحفوظ، لا بد أن يقع لا بد أن يقع.

هذا جواب الملك، قال لها هذا، قال: إن الله يقول هذا أمرٌ سهلٌ علي أن تحملي من غير زواجٍ، وهذا فيه في حملك هذا آيةٌ عظيمةٌ ورحمةٌ، وهذا الأمر قد قضاه الله وانتهى الأمر، لا بد من وقوعه، والآن وقت الوقوع، فحملت به.

قال المفسرون: "إن الملك لما جاءها نفخ في درعها نفخ في درعها".

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] أي في فرجها، وفي سورةٍ قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] أي فيها، فنفخ جبريل في درعها فذهبت النفخة فدخلت في فرجها فحملت. قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ [مريم: ٢٢] أي هذا الحمل حملته في بطنها، وبدأت تشعر بالحمل، ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢].

حملت مريم بالغلام بعد أن نفخ جبريل في جيب قميصها، فوصلت النفخة إلى رحمها، ووقع الحمل بسبب ذلك، فبدأت تتباعد عن أهلها وعن الناس، ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢]؛ لاحظ الأول: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]، هذا قريبٌ، لكن هذا قصيٌ بعيدٌ، فابتعدت عنهم مكانًا لا يشعر بها أحدٌ، لأنها الآن في همٍ عظيمٍ.

في شأنٍ غير شأنها الأول العبادة والطاعة، هذا الآن أصبحت عندها هذه هذا الأمر الذي أقلقها، وهذه المعجزة العظيمة التي كلفها الله بها، فبدأت تعتزل حتى وصل وقت الولادة وقت الولادة.

ف ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]؛ (أجاءها) ف (أجاءها)، فرقٌ بين جاءها وأجاءها؛ هذه **"أجاءها"** بالهمز **"أجاءها"**، ففرقٌ بين جاءها، ما يقال جاءها المخاض، لا، هذا ليس من المجيء جاء، وإنما **"أجاء"**.

ف **"أجاء"** يعني ألجأها المخاض، يعني ألجأها طلق الحمل، جعلها تلجأ إلى أي شيءٍ، يعني ألجأها إلى جذع النخلة؛ يعني لما رأى لما شعرت بالطلق وشعرت بالولادة لجأت إلى هذا الجذع القريب منها جذع النخلة فتمسكت بهذا الجذع.

فلما رأت حالها هكذا وشدة الأمر، وهي يعني ماذا ستواجه الناس لما تلد هذا الطفل وتضعه بين يديها؟ ماذا ستواجه؟ فقالت: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]؛ يا ليتني مت قبل هذا اليوم الذي أشاهده، وكنت شيئًا لا يعرف، نسيًا، يعني كنت أمرًا تافهًا لا يلتفت إليه، حقيرًا لا يعرف ولا يذكر ولا يدري من أنا، ﴿نَسْيًا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] ينساه الناس.

☜ **النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:** «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ».

- **هل يجوز تمني الموت؟**

الجواب: يجوز تمني الموت؛ نقول الأصل أن الإنسان لا يتمنى الموت.

ولا يجوز له أن يتمناه إلا في حالتين:

- الحالة الأولى: طلب الشهادة في سبيل الله.
- الحالة الثانية: عند الفتنة، وهذه فتنةٌ عظيمةٌ، هذه فتنةٌ لمريم عظيمةٌ، فتتمنى الموت لتسلم من هذه الفتنة، فالإنسان إذا خشي على نفسه الفتنة في الدين فإنه يتمنى الموت، فهذا معنى تمنيها في هذه الحالة تمنيها الموت، فناداها لما اشتد بها الكرب والمخاض ووضعت، ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

- **من هو الذي ناداها؟**

قيل: **"جبريل"**.

قيل: **"عيسى"**، والأقرب والله أعلم أنه عيسى أنه عيسى؛ لأن هذه بشارةٌ منه من عيسى وتطمينٌ وسكينةٌ لها، ولأن الكلام قبل ذلك مع عيسى، لأنه كان الكلام يتحدث عن حمل عيسى، فلما وضعت عيسى ناداها، هذا أقرب ما يقال، وقيل جبريل، والله أعلم.

فناداها من تحتها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]؛ لأن اشتد الحزن معها، قال لها: لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريًا.

قيل: **"السري هو النهر الصغير أو الجدول من الماء يمشي ماءٌ"**؛ فلما رأت الماء وقال قال لها: قد جعل الله هذه، وهذه كانت معجزةً وكانت كرامةً لها كرامةً، لأن الماء لم يكن موجودًا عندها، فساق الله لها الماء، وجعل هذا الجدول وهذا الماء يمشي تحتها.

وهذه من المعجزات أو من الكرامات لها؛ لأن الله أكرمها بكراماتٍ سابقةٍ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقًا، فهنا من الكرامات. ف قال لها: قد جعل ربك تحتك سريًا ماءً يمشي ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

- **هي كيف تهز بجذع النخلة وهي في هذه الحال والضعف والولادة؟**

لكن الله أراد أن تتخذ الأسباب فقط، وإلا جذع النخلة يسقط بدون ما يعني أو النخل أو الثمر يسقط بدا بلا تحريكٍ، ولو حركته لم يتحرك، لكن هذا أراد الله أن يربط الأشياء بأسبابها.

قال: هزي أي حركي جذع النخلة، ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، يعني جنيةً من يعني الآن وللتو يقطف، فتساقط عليها التمر، وبدأت تأكل بدأت تأكل من التمر وتشرب من الماء.

وفي هذا وقفةٌ لبعض العلماء، قالوا: **"إن النفس يفضل أن تأكل التمر الرطب، فإن الرطب أرشد الله مريم إليه، فـ وساق الرطب إليها"**، فهذا يقال يعني والله أعلم، فقال لها: كلي من الرطب واشربي من الماء، ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦]؛ طيبي نفسًا واطمئني بهذا المولود وهذه المعجزة العظيمة وهذه الآية وهذه الكرامة.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦]؛ إذا رأيت أحدًا من البشر، فقولي وجهها هذا التوجيه الطيب فقولي -: إني نذرت للرحمن صومًا، إني أوجبت على نفسي ألا أتكلم مع أحدٍ، وإني نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيًا.

وهذه كانت عبادةً معروفةً عند عندهم أن الصوم هو الإمساك عن الكلام، فأمسكت عن الكلام ونذرت للرحمن صومًا، أوجبت على نفسها السكوت لله، وكان ذلك تعبدًا في شرعهم تعبدًا في شرعهم، فنذرت للرحمن صومًا.

فبعد ذلك، لما يعني بعد هذا الأمر، أخذت الوليد الصغير وحملته معها وأتت قومها؛ ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ [مريم: ٢٧]؛ فلما رأوها تعجبوا، لما رأوها تحمل مولودًا معها وقد جاءت من مكانٍ بعيدٍ، ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧]؛ جئت شيئًا أمرًا عظيمًا لا يمكن أن يقع، شيئًا لا يقبل؛ كيف يا مريم جئت بهذا الأمر وأنت بعيدةٌ عن هذا الأمر وقد يعني عرفت بأخلاقك الطيبة؟

وبدأوا يذكرونها يقولون: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [مريم: ٢٨] وكان رجلًا صالحًا في قومه يقتدى به قالت: أنت أخت هارون، يا أخت هارون وليس شقيقًا لها، وليس المراد بهارون أخو موسى، وإنما هو رجلٌ صالحٌ عندهم.

ثم بدأوا يذكرونها: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]؛ ما كان أبوك رجل سوءٍ، وما كانت أمك امرأة سوءٍ، ولم تكن بغيًا في يومٍ من الأيام، أنت يعني من سلالة أسرةٍ صالحةٍ وبيتٍ صالحٍ وأجدادٍ صالحين، بنت عمران.

- **كيف يحصل منك هذا الأمر؟**

لا يمكن أن يقبل أبدًا، يعني لم يخطر ببالهم أن هذه معجزةٌ، وإنما قالوا: يعني لا يمكن امرأةٌ تحمل وتأتي بطفلٍ وهي لم يعرف عنها الزواج إلا عن طريق إلا عن طريق الحرام.

فلما رأتهم قد يعني شد اشتد الأمر أمامهم، ولن تستطيع أن تناقشهم، ماذا فعلت؟ سكتت ولم تتكلم، و﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩]، قالت يعني أشارت إليه، عرفوا أنها قد أمسكت عن الكلام، فأشارت إليه، فأشارت إليه. ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

وهذا استنبط العلماء أو بعض العلماء من هذه الفائدة، وهو: "إذا كان أمامك أشخاصٌ سفهاء وجهالٌ ولا يعقلون وبدأوا يناقشونك، فالسفهاء أن يقال لهم سلامًا؛ أي يصرف الكلام عنهم ولا يتكلم معهم".

ولذلك مريم لما رأت منهم هذا الكلام ومباشرةً أوقعوها في التهمة وفي الحرام وفي الزنا، وعرفت أنهم لن يقتنعوا وأنهم ظنوا فيها الظن السيء، انصرفت عنهم ولم تتحدث معهم ولم تتكلم معهم، وإنما

تركتهم وأشارت إلى هذا الطفل، أشارت إلى عيسى ليسألوه ويكلموه، فقالوا منكرين أشد الإنكار: كيف نكلم من كان في المهد صبيًا؟ كيف نكلم من لا يزال في مهده طفلًا رضيعًا؟ هل الرضيع يفهم؟ وهل الرضيع يرد علينا؟

فمباشرةً أنطقه الله أنطقه الله وهو في أول أيامه رضيعٌ صغيرٌ؛ فقال عيسى وهو في مهده وهو يرضع صغيرٌ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]؛ إني عبد الله إني عبد الله، آتاني الكتاب أي أعطاني الكتاب، أي قضى على أن أقرأ الكتاب وأن ينزل الله علي كتابًا إذا كبرت، وهو الإنجيل، وجعلني نبيًا، أي جعل جعلني نبيًا من الأنبياء بأن يوحى إلي، وأن ينزل على الكتاب، وأن أدعو إلى الله، وجعلني مباركًا.

الصفات الأولى صفاتٌ ترجع إليه؛ أنه عبد الله، وأنه آتاه الكتاب والعلم والتعلم، وأنه جعله اصطفاه بالنبوة؛ هذه ثلاثةٌ كلها لعيسى، وأما الرابعة فهي للناس، قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]؛ أي عظيم الخير والنفع للناس حيثما وجدت، جاءت معي البركة، جعل البركة، ثم قال: أينما كنت.

وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا؛ أوصاني بأعظم العبادات وهي الصلاة والزكاة، وهذا فيه دلالةٌ على أن الأنبياء السابقين كانوا يصلون وكانوا يزكون، وكانت في شرائعهم الصلاة والزكاة، فأوصاه الله بالصلاة والزكاة، قال: ما دمت حيًا، ما بقيت حيًا.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢]؛ هذا يرجع إلى أمه، قال: وبرًا، أي جعلني بارًا بأمي، أمي مريم، ولم يجعلني متكبرًا لم يجعلني متكبرًا، لم ولم يجعلني جبارًا أي متكبرًا ولا شقيًا أي عاصيًا لربي وعاصيًا لأمي؛ لأن الذي لا الذي يكون بارًا لا يكون شقيًا، والذي يكون عاقًا في الغالب أن يكون شقيًا وأن يكون متكبرًا؛ فأثبت لنفسه البر والطاعة والإحسان لأمه، ونفى عن نفسه التكبر والجبروت والشقاء، جبارًا شقيًا.

ثـم ختم كلامه بقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]؛ أي السلامة والأمان علي، في ثلاثة مواضع مهمةٍ؛ قال: يوم ولدت، أي عندما أخرج من أمه، سلم الله فلم

ينزغه الشيطان؛ ويوم أموت، في آخر الزمان لما يأتيه الموت وينتقل من الدنيا إلى الآخرة؛ ويوم يبعث حيًا، إذا خرج من قبره، فهذه المواطن الثلاثة مهمةٌ أن يسأل الإنسان السلامة فيها والأمان فيها.

قال بعد ذلك: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]؛

هذا هو الحق، القول الحق في عيسى، هذا الذي قصه الله في هذه السورة في صفة عيسى وخبر عيسى هو القول الحق الذي لا يشك فيه لا يشك فيه عاقلٌ، بل هو قول الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الحق الذي شك فيه اليهود والنصارى فالعاقل لا يشك فيه.

لعلنا يا إخوان نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله حتى لا نطيل عليكم في اللقاء القادم نكمل ما تبقى من هذه القصة بإذن الله، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى آله وصحبه أجمعين، دع على آله وصحبه أجمعين، دع على آله وصحبه أجمعين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(مريم ٣٤ - ٥٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا الهدى والتقى يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ وهذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للسابع من شهر صفر من عام ألف وأربعمائة واثنين وأربعين، نجتمع في هذا المقام في تفسير القرآن العظيم كما هو معتاد.

وقف بنا الكلام عند سورة مريم وعند الآية الرابعة والثلاثين من السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]، يعني ما ذكره الله من قصة، من قصة عيسى وأمه مريم في الآيات السابقة لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦].

وما جاء في بعدها من الآيات التي قصها الله علينا في حقيقة مريم وما جرى لها لما أرسل الله إليها الملك فتمثل لها بشراً سوياً، وبين لها رسالة الملك، رسالة الملك من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ورضيت بذلك واطمأنت وانشرح الله صدرها فحملت بعيسى لما نفخ جبريل في صدرها أو في درعها وذهبت النفخة إلى رحمها فحملت بهذا الحمل، هذا الحمل المبارك.

هذا الحمل المبارك الذي قال الله فيه عن عيسى: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١]، فجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني عيسى آية من آيات الله، جعله آية من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومعجزة من معجزاته جَلَّ وَعَلَا، فذكر هذه الآية العظيمة.

ولما انتهى من حقيقة عيسى وأنه كلمة الله وأنه عبد الله ورسوله كما قال: "قال إني عبد الله، إني عبد الله آتاني، آتاني الكتاب، إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني مباركاً"؛ فلما بين الله حقيقة عيسى، وأن العقيدة

الصحيحة للمسلم أن يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، وأنه كلمة الله وأنه ألقاها إلى مريم، وأنه روح من الله.

فهذا كله من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يجب أن نعتقد هذا المعتقد الصحيح، ولا نكون كهذه الطوائف التي والأحزاب التي ذكر الله أحوالها فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **"ذلك"** أي ذلك الخبر المذكور السابق هو عيسى بن مريم وهو الحق، هو هذا هو قول الحق الذي فيه يمترون، الذي يشكون فيه ويجادلون، ويجادلون فيه بجدال لا دليل عليه، ويحاورون ويناقشون في شيء لا دليل عليه.

ولذلك ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنهم اختلفوا؛ فمنهم من يقول أن عيسى هو ابن الله، ومنهم من يقول أن عيسى هو الله، ومنهم من يقول أن عيسى ثالث ثلاثة، ومنهم من قال أن عيسى عبد الله ورسوله.

حتى وصل الأمر باليهود أنهم اتهموا مريم، مريم البتول الطاهرة النقية، اتهموها بالفاحشة والبهتان العظيم، وقولهم في مريم بهتاناً عظيماً: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، اتهموها بالفاحشة وقالوا إن عيسى ابن زنا -تعالى الله عما يقولون وتعالى الله تعالى أولياؤه ونزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عيسى من هذا القول ومن هذا الإفك والكذب والافتراء على الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]، يشكون ويجادلون ويأتون بالشبهات.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ [مريم: ٣٥]، كيف تدعون أن عيسى ابن الله؟ ما كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يتخذ من ولد، أن يتخذ سبحانه من ولد، ما يمكن ولا ويستحيل هذا أمر يستحيل.

لأن الغني ذو الغنى المطلق، الغني الحميد والمالك للخلق كله، المدبر القادر الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء لا يمكن أن يتخذ ولداً؛ الذي يتخذ ولد هو الضعيف المسكين، الضعيف المحتاج هو الذي يريد أن يقوي نفسه بالولد.

أما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو غني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك استدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالأدلة الدالة على أنه لا يمكن أن يتخذ ولداً، ولذلك قال: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم:

٣٥]، فكيف يتخذ ولداً وهو لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وإنما أمره أنه أن يقول لشيء كن فيكون.

فالأمور الصغيرة والأمور الكبيرة لا تمتنع ولا تستصعب في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه يقول للشيء كن فيكون، فالأمور كلها بقدرته ومشيئته نافذة في العلو ونافذة في، في العالم العلوي والعالم، والعالم السفلي لا يعجزه شيء، فكيف يكون له ولد وإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون؟ هذا من الأمور الـ يعني المستبعدة.

كما أن في قوله تعالى إذا قال كن فيكون دلالة على أن الله خلق عيسى من غير أب، وأنه لا يعجزه، وإنما خلقه كخلق آدم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، هذا هو فقط، هذه هي الحقيقة، وهذا هو وهذه الذي يجب الإيمان به؛ ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥].

ثم حكى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حكى الله عن عيسى أنه قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦]، يعني أن عيسى أقر، أقر بعبودية الله وأنه عبد لله قال كما قال في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠].

وقال هنا: إن الله ربي الذي رباني وخلقني ورزقني وأوجدني، هو ربكم الذي خلقكم وأوجدكم ورباكم ورزقكم، ربي وربي ربي وربكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المعبود الحق؛ وفي هذا دلالة على الاستدلال بدليل الربوبية على دليل الألوهية.

فالخالق المدبر الرازق هو المستحق للعبادة قال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ [مريم: ٣٦]، فاعبدوه، إذا كان هو خالقكم ورازقكم وهو الذي يتصرف فيكم فاعبدوه، فهذا هو الصراط المستقيم، هذا هو طريق النجاة وطريق السلام وطريق طريق السعادة في الدنيا والآخرة، هذا الطريق هو طريق الرسل وأتباع الرسل إلى يوم الدين، هذا صراط مستقيم.

قال الله بعدها: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧]، اختلف الأحزاب أي تفرق هذه الطوائف والأحزاب الذين اختلفوا في عيسى، كلٌ يقول في عيسى قول لا يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا من عصم الله؛ فمنهم من يقول إنه ابن الله، ومنهم من يقول إنه هو الله، ومنهم من يقول إنه ثالث ثلاثة.

ومنهم من يرميه بأنه ولد بغي وأنه ولد زنا كاليهود عليهم لعنة الله الذين يتهمون عيسى بأنه جاء عن طريق الحرام، كل هؤلاء الأقوال باطلة إلا من قال إنه عبد الله ورسوله، فاختلف الأحزاب من بينهم.

قال الله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [مريم: ٣٧]، فويل للذين كفروا، ولاحظ أن الله لم يقل فويل للأحزاب؛ لأن من الأحزاب من يقر بأن عيسى عبد الله ورسوله وأنه كلمة الله وأن الله خلقه بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلذلك قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [مريم: ٣٧]، كفروا بحقيقة عيسى وكفروا بما جاءهم عن الله في أمر عيسى.

قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[مريم: ٣٧]، أي يوم القيامة هو مشهد عظيم يشهده الأولون والآخرون، وينزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتشهده الملائكة، فهو موقف عظيم، موقف عظيم يشهده أهل السماء ويشهده أهل الأرض والخلق كلهم يشهدون ذلك، فويل من أهوال هذا اليوم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حال هؤلاء، في حال هؤلاء الكفار، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حال هؤلاء الكفار أنهم ما أبصرهم وما أسمعهم في ذلك اليوم، سيكون سمعهم قوياً وسيكون بصرهم قوياً في ذلك اليوم، كما أخبر الله عنهم قال.

قالوا: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، الآن وصلنا إلى درجة اليقين، والآن نبصر بصراً قوياً ونسمع ما ينفع ما ينفع؛ هذا لأن الله قال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ [مريم: ٣٨]، هذه صيغة التعجب، يقول ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم لما يأتي يوم القيامة يرون رأي العين ويبصرون بصراً قوياً لا ينفعهم، أما في الدنيا فهم في غفلة عن السماع، سماع الحق، وهم في غفلة عن إبصار الحق.

قال: ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، يوم القيامة سيكون، سيكون سمعهم قوياً وبصرهم قوياً، ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[مريم: ٣٨]، في ضلال عن الحقيقة لا يريدون، لا يريدون أن يعرفوا حقيقة عيسى ولا يعرفوا ما أمرهم الله وما خلقهم له، في ضلال مبين وفي جهل لا يعرفون ما أمرهم الله به، فهذا وعيد شديد لهؤلاء لما يأتي يوم القيامة.

ولذلك أكد الله هذا الأمر الذي هو يوم القيامة وسماه بيوم الحسرة قال: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ [مريم: ٣٩]، أي أنذر هؤلاء الكفار، وأنذر أهل مكة وأنذر الناس جميعاً، أنذرهم وأعلمهم وأخوفهم في هذا اليوم وهو يوم الحسرة ويوم الندامة، يوم الحسرة ويوم الندامة؛ الحسرة شدة الندامة.

﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩]، وانتهى الأمر، قضي الأمر وانتهى وقضي الأمر وحكم الله بين العباد، وفصل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين العباد وانتهى الأمر، وجيء بالموت فعلى صورة كبش فذبح وانتهى، وقيل لأهل النار خلود لا موت بعده وقيل لأهل الجنة خلود لا موت بعده وانتهى الأمر.

فمن شقي ومن سعد، قضي الأمر ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] هؤلاء أنذرهم وهم في هذه الغفلة عن هذه الغفلة وهذه الغمرة وهذه السهوة عن الآخرة، فهم لا يؤمنون بالآخرة ولم يستعدوا لهذا اليوم العظيم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]، أي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يرث الأرض بعدما يموت الناس جميعاً ويذهبون جميعاً، يرث الله الأرض ويعيد الخلق مرة ثانية ويرجعون إليه؛ فمن كان على خير فهو على خير ومن كان على شر فهو على شر أشد، وهم فقال هنا قال والينا يرجعون للجزاء والحساب إما الجنة وإما النار.

بعدما قص الله علينا قصة زكريا وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استجاب دعوته ووهب له يحيى غلاماً صالحاً ووصفه بالصف بالصفات الطيبة والأخلاق الطيبة والبر بوالديه، ذكر الله لنا قصة مريم وابنها البار براً بوالدته.

ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك القصة الثالثة وهو قصة إبرا قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع والده، وكيف كان يتلطف بالعبارات وكان كيف كان يعني يحترم والديه أشد يحترم والده أشد الاحترام، مع أن والده كان يعني سيء الخلق معه وكان جافياً مع ابنه.

ذكر الله هذه القصة العجيبة ليقتدي الناس يقتدي الناس بهذا، بإبراهيم الذي هو قدوة الناس وأمة للناس.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم: ٤١]، أي اذكر يا محمد في هذا الكتاب وهو القرآن العظيم، اذكر هذه القصة العجيبة واذكر هذه الحال العجيبة لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ،

اذكرها في الكتاب على ذكر التمجيد وعلى ذكر الذكر الحسن الذي يعني يذكره الناس بالذكر الحسن، أو يعني ويقرأون ذكره ويسمعون خبره الطيب، الخبر الطيب عن إبراهيم.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، أي كثير الصدق مصدقاً لربه وصادقاً في كلامه، صادقاً في أقواله وأفعاله ووعوده، كان كثير الصدق صديقاً نبياً، وصفه الله بالصديقية والنبوة وهو نبي ورسول من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل هو أبو الأنبياء.

ولذلك الآباء يقولون ثلاثة، الآباء ثلاثة: "الأبو المطلق آدم، والأبو الثاني الذي ذريته كلها ترجع إليه نوح لأن الله أنجى نوحاً ومن معه في السفينة، والأب الثالث هو إبراهيم أبو الأنبياء".

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ [مريم: ٤٢]، أي واذكر إذ قال لأبيه لما حاور لما حاور أباه ودعا أباه للتوحيد وعبادة الله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ [مريم: ٤٢]، ولاحظ هذا الأسلوب الطيب، حسن التعامل مع والده: ﴿يَا أَبَتِ﴾ [مريم: ٤٢].

بهذا الأسلوب الحسن والترغيب: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، كيف تعبد حجراً لا يسمع ولا يرد عليك، ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً؟ فلماذا لا تعبد الذي يسمعك إذا دعوت ويكشف عنك البلاء؟ لماذا لا تدعو وتعبد الذي يبصرك ويعلم حالك ويراك أينما كنت؟ لماذا لا تعبد الذي يغنيك عن الناس إذا سألته رزقك وإذا سألته أعطاك؟ هذا الذي ولذلك جاء بهذا الأسلوب الطيب.

ثم أعاد مرة أخرى قال: ﴿يَا أَبَتِ﴾ [مريم: ٤٣] بهذا الأسلوب الطيب: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، ولاحظ أنه لم يقل إني عالم وعندي علم وأنت جاهل لا تعرف.

إنما قال: أنت عندك علم وأنا عندي علم ولكن أنا عندي علم لم يأتك لأنه أوحي إلى من السماء، يا أبتِ إني قد جاءني من العلم جاءني علم غير العلم الذي عندك، وهذا من حسن الأدب من إبراهيم: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، أهدك الصراط المستقيم والطريقة الحسنة الطيبة.

ثم جاء في الثالثة فقال: ﴿يَا أَبَتِ﴾ [مريم: ٤٤]، بهذا الأسلوب الطيب الحسن واللطف: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مريم: ٤٤]، هذه طريقتك عبادة للشيطان، إذا كنت تسجد لصنم وتتقرب لصنم هذه عبادة للشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي دعاك لهذا الشيء: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]، يعني الشيطان كان لله عاصياً، فلا تطعه فتصبح في زمرة هذا الشيطان وفي جملة أتباع الشياطين. ثم مرة رابعة قال: ﴿يَا أَبَتِ﴾ [مريم: ٤٥]، يا أبتِ بهذا الأسلوب اللطيف: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥].

الرحمن الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا لا يعني رحيم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحيم يحب من عباده التوبة والرجوع إليه ويفتح لهم باب الخير، فهو رحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال: ﴿أَنْ يَمَسَّكَ﴾ [مريم: ٤٥]، مس قليل، ﴿عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٥]، وتكون في زمرة الشيطان وفي أتباعه وأوليائه.

فلما أتاه بهذا الأسلوب، بهذه العبارات الأربعة السليمة الطيبة الحسنة اللطيفة، ماذا كان رد والده؟ قال: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مريم: ٤٦].

يا إبراهيم لا تريد أن تكون يا إبراهيم لا ترغب في عبادتي وآلهتي وإلهِ وآلهتي ومعبوداتي يا إبراهيم؟ أنت لا تريد أن تكون معي في العبادة والخضوع لهذه الأصنام وترغب ولا تريدها؟ ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ [مريم: ٤٦]، وهذا أسلوب قسم كأنه يقسم يقول والله لئن لم تنته عن هذا الكلام وتتركني أنا وهذه الأصنام.

﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] بالحجارة، ولأشتمنك -كأنه يشتمه بلسانك كالرجم بالحجارة- ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، أي اتركني ولا تتحدث معي مدة طويلة؛ لأن معنى ملياً أي مدة طويلة لا تنقضي: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

- **فلما كان هذا موقف أبيه، ماذا كان موقف الولد؟**

هذا موقف القسوة، كيف الابن يأتيك بهذا الأسلوب الطيب ثم ترد عليه بهذا الأسلوب، يعني هذا الأسلوب الوقح وأسلوب يعني القاسي اهجرني وأرجمنك، فقال إبراهيم بأسلوب طيب وحسن: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧].

أي لا تجد مني إلا السلامة، لا يصيبك مني لا حجر ولا رجم ولا هجر ولا إيذاء، سيصيبك السلامة مني، ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، أي أن الله اعتنى بي وخصني بهذه الرسالة وهذه النبوة وهذا الأدب، والله عَزَّ وَجَلَّ أنعم علي بهذه النعمة فإنني سأستغفر لك ربي.

وبدأ يستغفر لأبيه حتى جاءه الخبر لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، فتبرأ إبراهيم من أبيه ولم يدعُ له لما جاء الخبر بأنه عدو لله.

ثم لما أيس من هذا الأمر من قومه الذين أحرقوه في النار، ومن قوم أبيه الذي هجره والذي شدد عليه بالخطاب، لما رأى وأيس منهم هجرهم وهاجر وترك بلده قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨]، هذه عبادتكم أعتزلها، وأعتزل أعتزل مجالسكم وأعتزل أن أكون من ساكناً معكم.

فخرج من بلده وهو يحب بلده ويحب أهله ويحب هذه البلد التي نشأ فيها، ومع ذلك تركها لله واعتزلهم وهاجر لله فانتقل من بلاد العراق ومن بابل إلى بلاد فلسطين واستقر بها.

فلما ترك هذا الأمر لله عوضه الله خيراً، عوضه الله خيراً لما قالوا: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨]، يقول أدعو ربي وأتقرب إلى الله، فإن دعائي لا يكون شقاء بل هو سعادة لي.

قال الله: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩]، وهاجر وهجرهم وتركهم وهاجر بلده وتركها وما يعبدون من دون الله، ولاحظ أنه قال: **"اعتزلكم وما تدعون"** ثم قال: **"وما يعبدون"**، فدل على أن الدعاء عبادة، و**"الدعاء كما ذكر أهل التفسير نوعان: دعاء مسألة ودعاء عبادة"** وهذا من دعاء عبادة.

فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله، قال الله تعويضاً له: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩]، فوهب الله له إسحاق من زوجته سارة،

ووهب له من هاجر إسماعيل، وجعل له أيضاً من إسحاق يعقوب؛ لأن يعقوب ابن إسحاق، فيعقوب حفيد لإبراهيم، يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم، وجعلهم كلهم هؤلاء الأنبياء وجعل في ذريته النبوة والكتاب.

قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صَدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، أي وهب الله لهؤلاء جميعاً، لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، الثلاثة، وهب لهم من رحمته أي أعطاهم من رحمته الفضائل والمنازل العالية والتكريم والذكر الحسن.

قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صَدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠]، أي يذكرونهم أو الناس يذكرونهم بالذكر الحسن واللسان الحسن الطيب، لسان صدق علياً أي أن الناس يثنون عليهم الثناء الحسن الصادق الطيب، وجعلهم الله من أئمة الإحسان ومن أئمة الصدق فجعلهم من الصديقين المحسنين.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾ [مريم: ٥١]، أي بعدما ذكر قصة إبراهيم عطف عليها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن موسى من ذرية إبراهيم، وموسى من ذرية يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم فذكره الله وخصه بالرسالة والتكليم فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم: ٥١]، أي أخلصه الله وهو مخلص على قراءة مخلَص ومخلِصاً، أخلصه الله وهو مخلص في عبادته لربه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]، أي أنه خصه الله بالرسالة والنبوة فأرسله إلى فرعون نبياً كليماً داعياً إلى الله وإلى بني إسرائيل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ [مريم: ٥٢]، أي خصه بالنداء والكلام، فهو كليم الله ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، وهو جبل الطور، لما رجع من مدين إلى مصر مر بالطور فجعل الطور عن يمينه، فيكون الأيمن هنا أن الطور عن يمين موسى وهو قد رجع إلى مصر.

وقيل: "معنى الأيمن هنا أي من اليمن وهو البركة".

فناداه الله وقربه نجياً: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، النداء الصوت العالي المرتفع والنجي الصوت المنخفض، فناداه الله بهذا وهذا فهو كليم الله، وفي هذا دلالة أيها

الإخوة على إثبات الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سواء كان نداءً أو مناجاةً، خلافاً لمن ينكر كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الفرق الضالة، ففي هذا الدلالة.

قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]، فجعل الله أخاه هارون نبياً رسولاً لما سأل موسى قال موسى في دعائه: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي۝٣١﴾ [طه: ٢٩-٣١]، أجاب الله قال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، فمنّة موسى على أخيه منّة عظيمة أنه طلب من الله أن يكون أخوه هارون نبياً معه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ [مريم: ٥٤]، وإسماعيل هو ابن إبراهيم.

- **قد يسأل سائل يقول لماذا لم يذكر مع إسحاق؟**

الجواب: لما ذكر الله إسحاق وذكر يعقوب وذكر ذرية يعقوب وهم ومن أعظمهم موسى وهارون، عاد مرة أخرى إلى إسماعيل لأنه هو أبو العرب، وهو من هاجر يعني أمه هاجر، فذكر ذكره هنا بهذه المزايا وهذه الصفات الطيبة وأثنى عليه فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

إسماعيل بن إبراهيم إنه كان صادق الوعد، لما قال له أبوه: إني أرى في المنام أني أذبحك، قال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فكان صادقاً الوعد وكان رسولاً نبياً أي أرسله الله رسولاً وأوحى إليه بالنبوة.

وكان من صفاته الطيبة أنه: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم: ٥٥]، فهو حريص عليهم على هذه العبادتين العظيمتين: الصلاة وإقامتها، والزكاة وإيتاؤها أهلها، ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥]، بسبب هذه الأعمال الحسنة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، فاجتهد في رضا ربه فرضي الله عنه فرضي الله عنه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦]، وهو نبي من أنبياء الله ولم يذكر الله قصته في كتابه وإنما ذكره باسمه، ذكره باسمه وبعض صفاته المختصرة كما ذكره هنا قال: صديقاً نبياً، فأثنى عليه بكثرة الصديقية، أو صفة الصديقية الجامعة للتصديق التام وهو يصدق الله وهو صادق في قوله، وصديقاً نبياً وأثبت له النبوة فهو نبي من أنبياء الله.

وقد ذكره الله في كتابه على سبيل الاختصار ولم يفصل في قصته، ولذلك لا ندخل في قصته أين ومتى وأين وما صفاته؟ ذكروا صفات كثيرة وأحوال عنه الله أعلم بصحتها، نحن نقتصر على ما ذكره الله في كتابه بأن الله اصطفاه بوحيه واختاره رسولاً نبياً، ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، قيل إنه في السماء الرابعة، والله أعلم، ورفع الله مكانه علياً أي رفع ذكره في العالمين ومنزلته في ذكر عال ومنزلة عالية.

قال الله في ختام هؤلاء الأنبياء قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [مريم: ٥٨]، أي أولئك المذكورون الأنبياء السابقون الذين ذكرهم الله من بدايته من زكريا إلى إدريس، هؤلاء هم الذين أنعم الله عليهم من أولئك الذين أنعم الله عليهم وغيرهم ممن أنعم الله عليهم.

قال: ﴿مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ [مريم: ٥٨]، أي هم قد جاؤوا من ذرية آدم، وممن حملنا مع نوح أي من ذرية نوح الذين حملهم الله في السفينة، ومن ذرية إبراهيم وهم إسحاق ويعقوب وإسماعيل، وإسرائيل وهو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي تسللت منه الأنبياء، قال: وممن هدينا واجتبينا أي هؤلاء الذين هداهم الله وغيرهم واجتباهم الله.

- **ما هي حالهم؟**

قال: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]، أي خضعوا لآيات الله وخشعوا لها ساجدين باكين، ساجدين باكين؛ وأضاف الله هذه الآيات للرحمن قال **"آيات الرحمن"** دلالة على سعته وسعة رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذه الآية إذا قرئت يستحب للإنسان أنه يسجد، يسجد سواء في صلاته أو خارج الصلاة، أن يسجد حتى يلحقه الله بهؤلاء الزمرة الطيبة من الذين أنعم الله عليهم فيسجدون.

قال بعض السلف لما سجد ولم يبكِ قال: "هذا السجود، فأين البكاء؟".

لعلنا أيها الإخوة نقف عند هذا القدر، نقف عند هذه قدر في خاتمة هؤلاء الأجلاء الصالحين، الأنبياء الصادقين، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، جزاكم الله خير على متابعتكم وعلى إنصاتكم وعلى حضوركم، نسأل الله لنا ولكم القبول والتوفيق والسداد، وأن يرزقنا وإياكم الإخلاص في القول والعمل، والله أعلى وأعلم.

(مريم ٥٩ - ٧٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق الحادي والعشرين من شهر صفر من عام ١٤٤٣ هـ.

حياكم الله في هذا اللقاء المتجدد ومع تفسير القرآن العظيم، وهذه المجالس الطيبة العطرة التي تتعطر بكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، السورة التي بين أيدينا هي سورة مريم، ولا زلنا نتفيأ ظلال هذه السورة ونتمتع بآياتها، الآيات العظيمة ودلالاتها الحسنة.

وقف بنا الحديث في لقائنا الماضي عند الآية التاسعة والخمسين، وآخر الكلام كنا عند السجدة، عند آية السجدة وهي آية ثمان وخمسين، يعني: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾[مريم: ٥٨].

قال الله بعدها: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]. لاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات السابقة ذكر الصفوة من الخلق، الصفوة الذين اصطفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واجتباهم.

لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾[مريم: ٥٨]، لما ذكر زكريا، ويحيى، وعيسى، ومريم، وإبراهيم وأبناءه يعقوب، إسحاق ويعقوب، وذكر موسى وأخاه هارون، وذكر إسماعيل، وذكر إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعلى الجميع وعلى نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل الصلاة والسلام.

لما ذكر هؤلاء الطائفة وهؤلاء من الأنبياء والنبيين قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[مريم: ٥٨]، أنعم الله عليهم بالنبوة والاصطفاء والرسالة والخير، ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾[مريم: ٥٨]، كلهم يرجعون إلى آدم.

قال: ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨]؛ لأنه هو الأب الثاني نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم: ٥٨] أبو الأنبياء، ﴿وَإِسْرَائِيلَ﴾ [مريم: ٥٨]، وهو كل أنبياء بني إسرائيل يرجعون إلى إسرائيل وهو يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨] من هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم وغيرهم، ﴿وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: ٥٨] أي: اخترناهم، ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]. إذا سمعوا الآيات تقرأ عليهم فإنهم يتأثرون بالقرآن الكريم ويسجدون، ويبكون البكاء الشديد.

لما ذكر هؤلاء، صفوة من الخلق، عطف عليهم من خالفهم وترك طريقهم ولم يسلك الصراط المستقيم، الصراط الذين أنعم الله عليهم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩]، من بعدهم خلف، والخلف غير الخلف؛ الخلف بالسك- بإسكان اللام **"خَلْف"**، الخَلْف سموا خلفاً لأنهم تركوا غيرهم خلفهم وخالفوا وخالفوهم.

أما الخَلَف -الخَلَف- وهم أتباع السلف، فهؤلاء خَلَف جاؤوا بعد السلف، فالخَلَف مدح والخَلْف ذم، فهؤلاء خَلْف، خَلْف مأخوذ من الخلف؛ لأنهم لما تخلفوا وخالفوا أصبحوا في الخلف، فأصبحوا في الخلف والوراء.

ما هي علاماتهم وكيف نعرفهم؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ [مريم: ٥٩]، أضاعوا الصلاة يعني ضيعوا الصلاة، ولم يأخذوا بالصلاة ولم يلتزموا بها ولم يحافظوا عليها، أضاعوها.

- **لماذا ذكر الصلاة؟**

لأن الحقيقة الصلاة هي عماد الدين وهي ميزان الإيمان، وهي التي تميز المؤمن من الكافر، **«العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»**؛ فالصلاة إذا ضيعها المسلم فقد -فلما هو سواها أضيع- فقد ضيع غيرها وضيع دينه، فالصلاة هي الفاصل، هي الفاصل بين المؤمن والكافر.

ولذلك الله ذكر هنا قال: من أهم الأعمال التي أو من أهم الصفات التي اتصف بها هؤلاء الخلف أنهم ضيعوا الصلاة.

قال: لما ضيعوا الصلاة، ماذا يقابل تضييع الصلاة؟ ماذا يقابل المحافظة على الصلاة؟ قال: لما ضيعوا الصلاة وأبدلوا المحافظة على الصلاة باتباع الشهوات، بدلوها باتباع الشهوات، فهم ضيعوا الصلوات واتبعوا شهوات أنفسهم وما تشتهيه أنفسهم.

فصار همهم هو اتباع الشهوات وترك الصلاة، فاشتغلوا بالدنيا واشتغلوا باللهو والمجون والسفور، واتباع شهواتهم، شهواتهم الفرجية، وشهواتهم شهوات البطنية، وأقبلوا على هذه الشهوات، وتركوا ما أمرهم الله بما يصلح أرواحهم من الصلاة، وبما يجعلهم يستقيمون في حياتهم ويتعلقون بربهم.

فلما أضاعوا، وهذا هذه قاعدة حتى نفهمها يا إخوان؛ أن كل من ترك ما أمره الله به، وكل ما ترك ما شرع الله له وضيعه، فإن الله يعاقبه بأن يشغله بشيء يجعله يشتغل به مما يكون عليه عقوبة عليه وذماً عليه.

ولذلك اليهود لما جاءهم ولما جاءهم رسول من عند الله، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة البقرة لما جاءهم رسول من عند الله: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ١٠١]، وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾[البقرة: ١٠٢]، فاشتغلوا بالسحر، والكهانة، والكسب الحرام، وتركوا شرع الله، وتركوا كتاب الله، وتركوا اتباع الرسول، فكل من ترك الحق أشغله الله بالباطل.

فهؤلاء لما تركوا، أضاعوا الصلاة وتركوا الحق، أشغلهم الله بالباطل فاتبعوا الشهوات، حتى انغمسوا في هذه في هذه في هذا الكفر، وشهوات الكفر، وشهوات المعاصي، وشهوات النفس، حتى أصبحوا كالبهائم.

قال: ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾[مريم: ٥٩].

- **ما هي النتيجة؟**

قال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩]، فسوف يلقون غياً، أي سوف، هذا وعيد شديد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهؤلاء الذين ضيعوا دينهم وضيعوا صلاتهم وضيعوا أعمالهم، النتيجة أنهم سيقابلون الله ويلقون هذا العذاب الشديد.

قالوا: "إن غياً هو يعني العذاب الشديد المضاعف الذي سيواجههم".

قال بعض المفسرين: "إن معنى غياً هو وادٍ في جهنم عظيم واسع، لو أُلقيت فيه جبال الدنيا لذابت فيه من شدة حرارته"، فهؤلاء سيقابلون هذا الوادي الذي سيعذبون فيه، قال: فسوف يلقون غياً.

ثم إن من رحمة الله، وهذه السورة كما ذكرنا سورة الرحمة، من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنهم مع هذا العمل ومع هذا هذه هذا الموقف السيء أنهم ضيعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، إلا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من رحمته يفتح لهم باب التوبة.

فقال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [مريم: ٦٠]، فمن تاب فمن هؤلاء قبل الله توبته، ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [مريم: ٦٠].

لابد من هذه الشروط الثلاثة:

- الشرط الأول: أن يتوب توبة نصوحاً.
- الشرط الثاني: يؤمن إيماناً حقيقياً بمعنى أن يسلم كل شيء لله.
- الشرط الثالث: يصدق بما جاءه عن الله، ويعمل الأعمال الصالحة.

أما أن يقول تبت وهو لا يحقق الإيمان ولا العمل الصالح، فهذه ليست توبة، فلا بد أن يتوب توبة نصوحاً، وأن يؤمن إيماناً حقيقياً ويصدق ويتبع، وأن يعمل الأعمال الصالحة التي تكفر عنه سيئاته.

قال الله في هؤلاء التائبين الصادقين المؤمنين العاملين الصالحات، إذا صدقوا مع الله في توبتهم، فإن الله قال في حقهم: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠]، يدخلون الجنة، وعدهم الله بأن ينجيهم من النار، وأن يجعلهم من أهل الجنة، أن يعيشوا في جوار ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يكرمهم الله في الجنة.

قال: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠] من أعمالهم، بل يجدون أعمالهم قد ضاعفها الله لهم، موفورة لهم مضاعفة الحسنات ولا يظلمون شيئاً. ثم بين ما هي هذه الجنة، فقال: ليست جنة بل هي جنات، قال: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [مريم: ٦١]، وعدن معناها الإقامة الدائمة المستمرة.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١]، شوف كلمة الرحمن تتكرر معنا، التي وعد الرحمن عباده بالغيب، أي أنه وعدهم عن طريق الغيب عن طريق الرسل، لم يشاهدوا الجنة ولم يروها، ومع ذلك صدقوا وآمنوا، فوعدهم الله بالغيب بهذا الذي لم يروه.

ومع ذلك آمنوا وصدقوا، ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١]، يعني لابد أن يأتي، وعده مأتياً يعني أن تأتي إليه أو هو يأتي إليك كلها صحيحة، يعني أن وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مأتى، أي أن هذا العبد سيأتي إلى وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لابد أن يأتي وعده من الفوز بالجنة والنجاة من النار إذا صدق مع ربه، وكان وعده مأتياً أي آتيه ما وعده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **هذه الجنة التي وصف وصفها الله بأي شيء؟**

قال بأن أهلها إذا دخلوها لا يسمعون إلا الكلام الطيب، قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢]، لا يسمعون فيها لغواً، أي الكلام السيء الخبيث لا يسمعون الكلام الساقط هذا لا يسمعونه أبداً، لا يسمعون فيها لغواً أي كلاماً لاغياً لا فائدة فيه، أو كلاماً إثماً كالغيبة والنميمة، أو مما يسمع في الدنيا من الكلام الساقط الذي لا خير فيه، بل الجنة تنزه عن ذلك.

لا يسمعون فيها اللعن أو الشتم أو العيب أو الغيبة أو النميمة أو كل قول فيه معصية لا يسمعونه أبداً، وإنما إلا سلاماً؛ أي قولاً سالماً من هذا كله من كل عيب، تحيتهم فيها سلام والملائكة يدخلون عليهم من كل باب يحيونهم بتحية السلام والإسلام.

الكلام الطيب والكلام الذي فيه خير وفيه سرور وخطاب الرحمن لهم يخاطبهم الله ويسمعون الأصوات الطيبة من الحور العين ومن الملائكة ومن الولدان، كل ذلك يتمتعون به فكلامهم طيب ولا يسمعون إلا الكلمات الطيبة، لا يسمعون فيها اللغو إلا سلاماً.

هذا من حيث من حيث يعني الكلام والسماع وما يستمعون إليه، أما من حيث من حيث ما يرزقهم الله فيه، فقال لهم: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، أي تأتيهم أرزاقهم من المأكل والمشارب وأنواع اللذات مستمرة في كل وقت، بل تزيد على ذلك أنها تأتيهم في الصباح والمساء.

- **قد يسأل سائل يقول: هل الجنة فيها صباح ومساء بكرة وعشية؟**

الجواب: لا، الجنة ما فيها شمس ولا فيها ليل، وإنما وقتها مستمر ظل ممدود لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً، ولكن الله لما قال بكرة وعشية أي بمقدار البكرة والعشية، أي بزمن البكرة والعشية، كأنهم يتحينون وقت الصباح فتأتيهم وجباتهم ومآكلهم ومشاربهم، ويتحينون وقت العشاء والليل فيأتيهم

أكلهم وأرزاقهم في هذه الأوقات، زيادة على ما يأتيهم في كل وقت، كل ما تشتهي النفس في كل وقت تأتي مباشرة كل ما تشتهي النفس.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾[مريم: ٦٣]، أي هذه الجنة التي نورثها عبادنا هي جنة هي تلك الجنة التي نورثها من عبادنا، أي نورث المتقين ونجعلها نجعلها من منزلهم الدائم يقيمون فيها لا يتنقلون ولا يريدون أن يتنقلوا عنها، أن يتنقلوا منها، فهي فهو قد ورثوها واستقروا فيها.

وقيل: "معنى نورث من عبادنا أي نجعل هذا كالميراث لهم لأنهم لما آثروا الدنيا لما آثروا الآخرة وطلبوا الدنيا وتركوا تركوا الدنيا بمقابل الآخرة فعوضهم الله كالميراث فاستقروا في جنات النعيم".

قال بعض المفسرين: "إن معنى نورث من عبادنا أن المؤمن يرث مكان الكافر لأن الكافر إذا جاء يوم إذا كان في قبره يفتح له باب فيقول هذا منزلك في الجنة لو أطعت الله وهذا منزلك في النار لما عصيت الله، فله منزل في الجنة ورثه المؤمن ورث هذا المكان".

فهذا معنى التي نورث من عبادنا من كان تقياً، واشترط الله أن يكون من الأتقياء الصالحين، لابد أن يكون تقياً حتى يفوز بهذه بجنات النعيم كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣]، من كان تقياً، أعدت للمتقين.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال هؤلاء الذين خلفوا بعد الصالحين وفتح لهم باب التوبة ووعدهم بهذا الوعد الكريم منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا كله وحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه كلها أخبار تنزل من السماء، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حريصاً جداً على نزول الوحي.

وإذا تأخر الوحي عنه وتأخر جبريل بنزول الآيات فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحزن، يحزن يريد أن يسمع القرآن، يريد أن تنزل عليه هذه الآيات، فلما تأخر واستبطأ مرة من المرات.

☜**قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجبريل مرة:** «لَوْ تَأْتِينَا أَكْثَرَ مِمَّا تَأْتِينَا»؛ نحن نتشوق إليك، نحن نتشوق إليك يا جبريل فلو تنزل إلينا، فأخبر الله أن نزول جبريل هو بأمر من الله وليس باختيار منه، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾[مريم: ٦٤]، أي ما ينزل جبريل إلا بأمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهؤلاء الملائكة لا تتنزل إلا بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والله يعلم ما بين يديها وما خلفها وما بين ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فهم عبيد لله مأمورون، فإذا أمرهم الله بالنزول نزلوا، وإذا لم يأمرهم لم ينزلوا، ولذلك هم تحت أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله قد أحاط بهم.

﴿لهِ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [مريم: ٦٤]، أي لهم له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علم الماضي والمستقبل والحاضر لهؤلاء الملائكة، فما فعلوه في الماضي يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يخفى عليه، وما يفعلوه في الحاضر أو المستقبل يعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فقد أحاط به علمه بهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، له ما بين له ما بين وما خلفنا وما بين ذلك كل ذلك في كل ذلك في أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخفى عليه شيء في الأرض.

قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]، أي غافلاً أن أو تاركاً لهذا، بل هو عالم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ينزه عن النسيان والإهمال، وأن وأنه لا يعني أو يغيب عن شيء من هذا، ما كان ربك ينسى وما كان ربك ينسى من ذلك شيء، فنزه نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن النسيان والغفلة والذهول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهو لا يغفل ولا يذهل لا إله إلا هو سبحانه، قال: فإذا تأخر نزول جبريل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو أعلم به بحالهم وأعلم بحال جبريل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا ينزل إلا لحكمة يأمر الله به بنزوله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥]، هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي أحاط بكل شيء، هو مالك السماوات والأرض وهو خالقها وهو ربها، أحاط علمه وعدم نسيانه بأن لأنه هو ربه لأنه هو رب السماوات والأرض وما بينهما، خالق السماوات والأرض وعالم أحوال هذه السماوات والأرض وما بينهما.

قال: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ [مريم: ٦٥]، فاعبده يا محمد واعبده أيها المخاطب وأيها المستمع، اعبده ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥]، لازم عبادة الله والعبادة تحتاج منك إلى صبر، ولم يقل أصبر وإنما قال واصطبر، والاصطبار أشد من الصبر أقوى، يحتاج إلى جهد ومجاهدة ومصابرة لابد، والاشتغال بالعبادة لله يعني تحتاج إلى صبر وتصبر، ولذلك قال: ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥].

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، هل تعلم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مشابهاً أو مماثلاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ قد أحاط بكل شيء علماً وهو خالق السماوات والأرض ليس له شبيه، ومعنى هذا هل تعلم سميه؟

قال أهل التفسير: "هو بمعنى النفي أي ليس له شبيه، وليس له مسامٍ، وليس له مشابه ولا مثيل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"، هو الخالق وهو البارئ وهو المصور، وكل مخلوق تحت حكمه، وهو الغني من جميع الوجوه، وهو العالم بكل شيء فلا يشابهه أحد من خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا في صفاته ولا في ولا في علمه ولا في نحو ذلك سبحانه، المنفرد بالكمال والجلال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك، يذكر الله لنا بعد ذلك يذكر الله لنا مواقف المشركين الكافرين المنكرين، المنكرين لما أوجب الله عليهم فيذكر لنا بعض المواقف، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ [مريم: ٦٦]، والمراد بالإنسان هذا هو الكافر، هو الكافر لأنه ينكر البعث.

قال: ﴿أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، **"ما"** بعد **"إذا"** جاءت للتأكيد فليست نافية، قال: ﴿أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، يقول: إذا ما مت، يعني إذا هلكت ومت وودفنت في الأرض سأخرج مرة أخرى سأخرج حياً، فكأنه ينكر البعث والخلق مرة ثانية.

يقول: إذا ما مت وكنت تراباً وتمزقت تحت الأرض، يعني أبعد ما يكون أن أبعث مرة أخرى، يستبعد البعث ويستبعد قدرة الله على إعادته مرة أخرى، فهو ينكر البعث وينكر الخلق مرة أخرى، وإعادة خلقه مرة أخرى.

فرد الله عليه، فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧]، قد خلقك الله قبل ولم تكُ شيئاً، فلماذا تنكر الخلق الثاني وأنت تعلم أن الله هو الذي خلقك الخلق الأول، فالذي قدر على أن يخلقك الخلق الأول فالإعادة أهون.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، أي الثاني هين، فالذي بدأك بالخلق الأول، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

أي تمزقت وأصبحت رميمة متهالكة متمزقة تراباً، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة، الذي أوجدها أول مرة هو القادر، فهذا رد عليهم بأن الذي خلق الخلق بأن الذي خلق الخلق الأول قادر، وهذا دليل عقلي على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على إعادة الخلق.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ [مريم: ٦٧]، يعني غاب عنه ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [مريم: ٦٧]، خلقناه من تراب وخلقناه من نطفة من قبل، ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧]، لم يكن شيئاً مذكوراً.

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فكيف تنكر هذا البعث والجزاء والحساب والجنة والنار والقيامة وتستبعد قدرة الله على أن يعيدك مرة أخرى وهو الذي خلقك أول مرة؟

هذا كله لا يصح، ولذلك توعدهم الله، توعد هؤلاء الكافرين المنكرين للبعث، توعدهم بهذا الوعيد الشديد فقال، فأقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أقسم بنفسه فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٨]، أقسم بنفسه فقال: فوربك، يعني أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بربوبيته، بربوبية مضافة إلى محمد.

فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٨] يا محمد ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم: ٦٨]، والله لنبعثنهم من قبورهم ثم نحشرهم جميعاً هم والشياطين؛ لأن هؤلاء في زمرة الشياطين، وكلٌ يبعث على ما كان عليه، فهؤلاء المنكرون يبعثون مع الشياطين فيجمعون في مكان واحد.

قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]، أي نأتي بهم على شفير جهنم فيجثون على ركبهم، فجثي من يجثو على ركبته، يجثو على ركبته يعني يجلس على ركبتيه.

وهذا أشد الإهانة لهم والإذلال لما يقف على ركبتيه وقد سُلسل وغُلت غُلت أيديهم إلى أعناقهم، وسُلسلوا بالسلاسل والأغلال، ووقفوا وقفوا على شفير جهنم، عرفوا هذا عرفوا أن الله حق، ولذلك قال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]، أي قد جثوا على ركبهم ينتظرون حكم الله فيهم، وينتظرون العذاب الذي ينزل بهم، فهو موقف فظيع شديد.

قال: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَتِيًّا﴾[مريم: ٦٩]، يعني الشيعة يعني جماعات، فيبدأ العذاب بهم، فينزع من كل طائفة ومن كل جماعة ومن كل فرقة، ينزع ويؤخذ أيهم أشد على الرحمن عتياً، أي أيهم أشد كفراً وظلماً وعتواً يؤخذ، يؤخذ الأول فالأول، فتنزع من هذه القبائل ومن هذه الفرق ومن هذه الطوائف من هم أشد على الرحمن عتياً.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾[مريم: ٧٠]، الله يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هو الأولى بإدخال النار، من هو الذي يدخل أولاً فأولاً، فقد رتبهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعلمه السابق أنهم من هو الذي يصلى نار جهنم أولاً فأولاً، فأخبر أنهم سيدخلون نار جهنم وأنهم سيعذبون بها، قال: ﴿أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾[مريم: ٧٠].

ثم أخبر خبراً عاماً للخلق كله فقال: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾[مريم: ٧١]، هذا خطاب لجميع الخلق، البر والفاجر والمؤمن والكافر، كلهم سيردون النار كلهم حتماً مقضياً، لابد أن يردوا النار كل إنسان منكم إلا واردها، كان على ربك حتماً مقضياً؛ أي كان واجباً أوجبه سبحانه نفسه على نفسه، وأوعده به عباده ولابد من نفوذه لابد من نفوذه ومن وقوعه حتماً مقضياً.

ثم قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[مريم: ٧٢].

ما معنى هذا الورود؟ كيف كان الناس يردون النار، المؤمنين والصالحين والأتقياء، والفجار والكافرين؟ كيف سيمرون على هذه النار؟

أما الكفار والفجار فهذا أمر واضح كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[مريم: ٧٢].

أما ورود المؤمنين الصالحين الأتقياء فاختلف المفسرون في هذا:

- الرأي الأول: **"إنهم يردونها أي يقتربون منها ولكنهم لا يدخلونها هذا رأي"**،
- الرأي الثاني: **"أنهم يمرون عليها من فوق الصراط وهي تحتهم والصراط قد وضع على متن جهنم فينجي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذين اتقوا فيمرون على متن على متن جهنم على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم كالريح، ومنهم كأجاويد الخيل، ومنهم كأجاويد الركاب، ومنهم من يزحف زحفاً وهكذا يمرون على قدر أعمالهم"**.

⬅الرأي الثالث: **"إنهم يمرون جهنم مروراً حقيقياً ويدخلونها ولكنها تكون عليهم برداً وسلاماً كما جعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً في الدنيا، وهو قادر على أن يجعلها لأوليائه الأتقياء الصالحين برداً وسلاماً"**، كل ذلك ممكن كل ذلك ممكن، وأكثر المفسرين على أن المراد بالورود هنا هو المرور على الصراط والله أعلم، المرور على الصراط.

قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: ٧٢]، ينجيهم إذا مروا على الصراط، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يسهل علينا المرور على الصراط، وأن ينجينا من عذاب جهنم ومن حرها وشدة عذابها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك.

في الآيات التي بعدها يتحدث سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن أيضاً مواقف المشركين المستهزئين بالبعث والمستهزئين بشرع الله يرد الله عليهم، هي مواقف طويلة لكن لا نريد الإطالة عليكم.

لعلنا نقف عند هذه الآية وهي آية ثلاث وسبعين، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما نتوقف عنده، نكتفي بهذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع، وإياكم العلم.

(مريم ٧٣ - ٨٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين؛ اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا الهدى والتقى والعمل الصالح يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الثلاثاء؛ وهذا اليوم هو اليوم الثامن والعشرين من شهر من شهر صفر من عام ألف وأربعمائة وثلاثة وأربعين، الآيات التي نتناولها هذا اليوم هي آيات من سورة من سورة مريم، من سورة مريم.

عندنا أخذنا عدة مجالس في هذه السورة، ووقف بنا الكلام عند الآية الثالثة والسبعين من سورة مريم، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر لنا ما منَّ الله به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من اصطفائه واختياره لهؤلاء الرسل الذين ذكرهم الله في أول السورة؛ قال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، وذكر قصة زكريا ويحيى، ثم مريم مع ابنها عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم ذكر قصة إبراهيم.

قال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]، ثم ذكر أبناء إبراهيم إسحاق وإسماعيل ويعقوب، ثم ذكر موسى وهارون، وذكر إدريس؛ قال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

لما ذكر هؤلاء الثلة من الصالحين الذين قال الله فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [مريم: ٥٨]، ثم ذكر بعدهم أن هناك من خلفهم من الخلف؛ قال: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

وبين مصير هؤلاء ومصير هؤلاء، ذكر هنا بعض مواقف المشركين، بعض مواقف المشركين المعاندين المستهزئين الكافرين؛ وقال هذه المواقف إنهم إذا قرئت عليهم الآيات القرآنية وتليت على هؤلاء الكفار الآيات الواضحات البينات.

قال: "آياتنا بينات" واضحات الدلالة على وحدانية الله، وعلى صدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى ما يجب عليهم أن يلتزموه ويكون خيرًا لهم في دينهم ودنيا دنياهم.

قال الذين كفروا؛ فبين أن المانع منهم هو الكفر، ما قالوا قال الذين كفروا، فأظهر صفة الكفر فيهم، الذين كفروا وجحدوا وعاندوا واستكبروا.

قال الذين كفروا للذين آمنوا؛ لأنهم يسمعون القرآن من الذين آمنوا أو من الرسول، قالوا: أي الفريقين خير مقامًا، أي الفريقين نحن أو أنتم، أينا أفضل وأينا خير؟

أنتم تقولون إنكم عندكم القرآن وعندكم الإيمان وعندكم كذا وكذا وكذا؛ نحن عندنا المال والبنون وعندنا أعطانا الله الدنيا كلها ووفر لنا كل ما نحتاج من الشهوات، أي الفريقين خير مقامًا في الدنيا من كثرة الأولاد كثرة الأموال، توفر كل ما نحتاج إليه، كل ذلك متوفر.

وأنتم فقراء صعاليك ليس عندكم مال ولا عندكم ولم يعطيكم الله شيء، لو كنتم على خير لأعطاكم الله؛ فظنوا بهذا المقياس أن من أعطاه الله الدنيا فهو يحبه، الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الآخرة ولا يعطي الدين إلا من يحب، هذا لم يستوعبها هؤلاء.

هؤلاء ينظرون نظرة قاصرة أن الله لما فتح عليهم الدنيا وابتلاهم بالدنيا ظنوا أن ذلك عطاء عن رضا من الله، لا يظن هذا هؤلاء؛ فمثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الفجر، قال: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦﴾ [الفجر: ١٥-١٦].

الله ليست إهانة وليست إكرامًا، فلا هذا ولا هذا؛ فقال هنا هؤلاء ردوا، قالوا: أي الفريقين خير مقامًا في الدنيا، أي وأحسن نديًّا؛ أي أحسن مجالس.

فاستنتجوا من هذا الكلام أن من كثر من كثر ماله وولده وأعطي كل ما يتمناه في هذه الدنيا، وأصبح في مجالس وأندية من أفضل الأماكن وأفضل المجالس تدار عليهم الخمر وتدار عليهم الأطعمة والأشربة

ويجلسون هذه المجالس، والمؤمنون لم يحصل لهم هذا كله، لم يحصل لهم هذا كله، ظنوا أنهم خير من المؤمنين.

هذه النظرة نظرة فاسدة ونظرة قاصرة ونظرة ضعيفة جدًّا. كيف تظن أن إن أعطيت المال والولد وحسن المنظر والجمال والأبهة والمجالس الطيبة أن ذلك عن رضا؟ قد يكون ذلك سبب قد يكون ذلك سبب لهلاك صاحبه وشقائه في الدنيا والآخرة، قد يشقى.

ولذلك رد الله عليهم، قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٤]؛ قرون كثيرة أهلكها الله، كانوا أحسن من هؤلاء أثاثًا ورئيًا، أحسن متاعًا من الأواني والفرش والبيوت والزخرفة أعطاهم الله، وأحسن رئيًا؛ أحسن منظرًا، إذا رأيته وجدت في وجهه أن النعومة العيش ورغد العيش وسرور الحال، أحسن أثاثًا ورئيًا، جمالًا ومنظرًا، أهلكهم الله.

"كم" و"كم" هنا للتكثير؛ يعني قرون كثيرة أهلكها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما كانت نظرتهم نظرة للدنيا في الأثاث والمرأى فقط، فإذا كان هؤلاء الذين أهلكهم الله هم أحسن من هؤلاء، فما المانع من أن ينزل الله بهؤلاء العقوبات ويهلكهم كما أهلك الأمم الماضية؟ فليست العبرة بأن يعطى هؤلاء الدنيا، فالله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب.

بل يفتح الله على الدنيا من لا يريد من لا يريد من عباده ومن لا يحبه، ولذلك زوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الدنيا عن أوليائه، زوى الدنيا عن أوليائه؛ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاش ولم يتمتع بهذه الدنيا أو بزخارفها، يمر عليه الهلال والهلالان والثلاثة الأهلة، ثلاثة أشهر لا يوقد في بيته نار.

فلو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء.

☜**كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الشريف:** «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»؛ لكنها لا تزن عند الله شيئًا، وهؤلاء جعلوا الميزان في النظرة في هذه النظرة الفاسدة.

فرد الله عليهم بهذا الرد، ثم رد عليهم أيضًا برد آخر أشد من الأول، أشد من الأول، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

يعني إذا كنت في الضلالة والله يعطيك، فسيَمُدَّ الله لك مدًّا عظيمًا في العطاء؛ ولا تظن أن هذا هذه هذا المد في العمر والولد والمال والخير، لا تظن هذا فيه خير لك.

قال إن قد يمد لك من مما يكون شقاءً عليك في الدنيا والآخرة؛ قال: من كان في الضلالة ولم يكن على استقامة الله فليمدد، أي سيمد الله له سيمد الرحمن؛ قال: فليمدد له الرحمن مدًّا، أي سيعطيه عطاءً ويزيده يزيده هذا العطاء الكثير حتى سيمتد معه إلى أن يأتيه إما أجله أو العقوبة.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ [مريم: ٧٥]؛ إذا رأوا هذا الوعد إما ما يوعدون به من العقوبات إما العذاب الذي ينزل بهم والعقوبة التي تنزل بهم ليلًا أو نهارًا، وإما الساعة يأتيه الموت أو تأتيه الساعة فيهلك، فسيهلكه إما بالعذاب وإما بهذا.

فهذا وعيد شديد، وعيد شديد لمن تكون نظرته نظرة دنيوية، ولا يلتفت للآخرة ولا العمل الصالح ولا الإيمان بالله، كل ذلك قد فقده وكانت نظرته قاصرة، هذا سيكون ذلك عقوبة عليه؛ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين في آيات أخرى أن الإنسان إذا امتد بالإعراض والكفر والطغيان أن الله يستدرجه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، لما امتدوا في الطغيان والكفر والضلال أزاغ الله قلوبهم وصدهم وأشقاهم، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

ولذلك قال هنا: من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدًّا، حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون، هذا تهديد وتخويف لهم.

فسيعلمون في ذلك الوقت بطلان ما هم عليه ودعوى ما ادعوه من أنهم على خير وأنهم على رضا من الرحمن؛ فسيعلمون من هو شر وليس خير، من هو شر مكانًا وأضعف جندًا.

فسيعلمون في ذلك الوقت أنهم في شر، وأن جندهم وأن جندهم لا يستطيعون في مجابهة ولا في ولا في مصادمة ولا في مواجهة لجنود الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأضعف جندًا لا تفيد لا يفيدهم ذلك ولا يفيدهم هذا، فليحذروا كل الحذر.

ولما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هؤلاء يزيدهم في الطغيان ويزيدهم في المد ويزيدهم في الضلال، بين أن الله سبحانه في مقابل ذلك يزيد أهل الخير والصلاح والطاعة بالخير، يزيده خيرًا؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ قال: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

يزيد الله، كما يمد الظالمين في الضلال وفي الشقاء، فكذلك يزيد المهتدين في الهداية والسعادة التي يمن بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم بفضله ورحمته، ويهديهم ويرزقهم العلم النافع ويرزقهم العمل الصالح ويوفقهم لمرضاته؛ فكل من سلك طريق الهداية وُفّق للهداية، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وهنا قال: ويزيد الله الذين اهتدوا هدى، الذين طلبوا الهداية واهتدوا وسلكوا طريق الهداية يزيدهم الله؛ وفي هذا دلالة على أن الإيمان يزيد بالطاعة، الإيمان إيمانك الذي عندك يزداد بالطاعة وينقص بالعصيان، فكلما تزداد من الطاعات يرتفع إيمانك ويزداد كما قال هنا.

قال: ويزيد الله الذين آمنوا إيمانًا، وفي آيات أخرى قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، فدل على أن هذا الإيمان يزداد ويرتفع ويقوى معك.

قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦]؛ لما رأى ونظر هؤلاء المعاندون الجاحدون المتكبرون، نظروا نظرة قاصرة أن الله أعطاهم الدنيا وهم خير أثاثًا ورئيًا، وأنهم خير من المؤمنين، بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هؤلاء معهم ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، أن معهم ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

قال: والباقيات الصالحات، الأعمال الصالحة من الذكر والتكبير والتهليل، والأعمال الصالحة من الصلوات والزكاة ونحوها، كل ما يتعلق بـ الأعمال الصالحة التي تتعلق بالصلاة والزكاة والصوم والحج والعمرة وقراءة القرآن والتسبيح والذكر والتهليل والإحسان إلى المخلوقين وأعمال والأعمال القلبية والأعمال البدنية، كل ما كان في رضا الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو من الباقيات الصالحات التي تبقى للإنسان ويجد أثرها يوم القيامة، يجد أثرها في الدنيا ويجد أثرها في الآخرة.

قال: خير عند ربك، فخير عند الله ثوابًا وخير مردًّا؛ قال خير عند ربك ثوابًا أي أجرها كثير لمن عمل القليل، ويجزيه الله يزيدهم من فضله، ويجدون أثره في الدنيا ويجدون أثر ذلك في الآخرة، خير مردًّا

أي أنهم إذا رجعوا إلى ربهم وعادوا إلى الله سيجدون ذلك خيرًا لهم في الدنيا وخيرًا لهم في الآخرة، وخير لهم في الآخرة.

هذا مقابل هؤلاء الذين اغتروا بهذا الأمر، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين أيضًا موقفًا آخر من مواقف هؤلاء المغترين وهؤلاء الجاحدين الكفار، فذكر أيضًا نموذجًا آخر من هؤلاء؛ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧].

أفرأيت يا محمد، وأفرأيت أيها المخاطب وأيها المستمع، أفرأيت الذي كفر بآياتنا، كفر بآيات الله، هذا كافر كفر بآيات الله؛ قيل إنه هو العاص بن وائل، وقيل أحد المشركين نزلت فيه هذه الآية، **"والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"** كما يقول أهل التفسير.

فهي عامة بكل من يقول هذا القول، كل من يعتقد هذا المعتقد يكفر بآيات الله ويقول إن الله سيؤتيني المال والولد وسيؤتيني في الآخرة خيرًا من ذلك، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]، فيظن أن هذه نظرة المخيلة نظرة المشركين نظرة المشركين؛ ماذا يقولون؟

يقولون إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المشركين يقول إن الله لما أعطانا الدنيا سيعطينا الآخرة، الذي أعطانا الدنيا وفتح علينا الدنيا بالمال والبنين سيعطينا الآخرة، هذه نظرتهم هذه نظرتهم.

فيقول قال: والله لأوتين، وهذا قسم؛ قال أولًا كفر بآيات الله وقال: والله إذا رجعت ومت ثم بعثني الله -على ما قيل إنكم ستبعثون- لو بعثت فإن الله سيعطيني الدنيا سيعطيني في الآخرة خيرًا من الدنيا، فهذه نظرته، ورد الله عليه كيف تقول، يعني يقول أفرأيت.

يعني أنت تعجب من قول هذا الطاغي أو هذا المجرم أنه يكفر بآيات الله ويكفر برسوله ويكفر بما جاءه عن الله ثم يدعي أنه في الآخرة سيعطى المال والولد وأنه سيكون من أهل الجنة، عجبًا لهذا من وين أتى بهذا الكلام؟ فرد الله عليه قال: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨].

هل عنده هل استطاع أن يطلع على الغيب ويأتي بهذا الخبر؟ هذا خبر غيبي لا يستطيع، هل اطلع الغيب هل عنده علم بالغيب؟ لا. هل اتخذ عند الرحمن عهدًا بأنه أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عهد إليه أنه يوم القيامة سيعطيه المال ويصبح من أهل من الفائزين بالآخرة؟

فليس عنده لا علم من علوم الغيب ولا عنده عهد بينه وبين الله، فلما بطل هذا وبطل هذا لم يبقَ إلا أنه في الآخرة من الأشقياء في الدنيا وفي الآخرة.

ولذلك لما حَجَّه الله بهذه الحجة وقال له هل عندك علم بالغيب اطلعت على الغيب أم عندك عهد من الله، لا هذا ولا هذا؛ قال: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]، كلا ليس عنده ذلك وليس عنده هذا.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: سنكتب ما يقول، سنسجل عليه ما يقول ونكتب عليه ما يقول وتكتبه الحفظة؛ قال والكتبة ما يقول، ونمد له من العذاب مدًّا، شوف العقوبة الشديدة هذه، أشد العقوبات يا إخوان حقيقة أن يمد له من العذاب مدًّا، وأن الله يعطيه الدنيا ثم في الآخرة يكون العذاب والعقوبة أشد.

قد يمد له في عمره، قد يمد له في الخير والعطاء من المال والولد، ثم فالنتيجة في الآخرة أن يكون العذاب عليه أشد، ستكون العقوبات أشد؛ الغي والضلال في الدنيا، والعقوبة في الدنيا قبل الآخرة، ويوم القيامة سيمد له من العذاب مدًّا لا ينقضي.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠]؛ أي نرثه ونرث ماله وولده، ويأتينا ليس معه لا مال ولا ولد ولا أنصار ولا أعوان يعينونه، ويأتي منفردًا ليس معه أحد إلا أن يجازيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على عمله ويأتينا فردًا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]؛ هؤلاء الذي الذين يفتخرون ويدعون أن الله فتح لهم الدنيا جعلوا عباداتهم هذه لمعبودات مخلوقة من الأصنام وغيرها، اتخذوا من دون الله آلهة يعني معبودًا من دون الله من الأصنام والأولياء ونحوهم، اتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزة، يظنون أن هذه ستعزهم سيعتزون بها وينتصرون بها، ولم يعلموا مساكين أنها ذل لهم وخزي في الدنيا والآخرة.

قال: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]، أي هؤلاء إن هؤلاء ستكون عليهم العقوبة، سيكفرون بعبادتهم يعني هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله ستنقلب أضدادًا ضدهم كما قال يكونون عليهم ضدًّا، ينقلبون ضدهم ويخاصمونهم.

كلا سيكفرون بعبادتهم يكفرون يقولون لا لم نأمركم بالعبادة نحن نكفر بكم وبعباداتكم، ويكونون الذين يدعون أنهم ستكون هذه العبادات شفعاء وتنصرهم في الآخرة ينصرونهم في الآخرة ويكون لهم أولياء عند الله وشفعاء، انقلب هذا الظن وأصبحوا هم أعداء لهم ويخاصمونهم أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حق هؤلاء الكفار: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]؛ فالذي جعلهم يصلون إلى هذا الحد وإلى هذه الدرجة أنهم سلطت عليهم الشياطين.

يقول: ألم ترَ أنا أرسلنا الشياطين، هذه عقوبة شديدة حقيقة أن يسلط على هذا العاصي وهذا الكافر وهذا المعاند أن ترسل عليه الشياطين تؤزه شياطين الشر، إنهم يزينون لهم أعمالهم تسلط عليهم الشياطين كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]، وهنا قال أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًّا؛ تزعجهم بقوة، والأزيز الصوت المزعج، يقول أزيز كأزيز المرجل صوت القدر إذا اشتد اشتدت النار عليه.

تؤزهم أزًّا أي تزعجهم إزعاجًا بأصوات مزعجة ووساوس وإيحاءات حتى يزينون لهم الباطل ويقبحونهم ويظنون أن هذا هو الحق، فتزين لهم أعمالهم يزين الشياطين تزين لهم أعمالهم فيزدادون يزدادون في طغيانهم وفي شرهم تؤزهم أزًّا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]؛ لا تعجل أيها يا أيها الرسول ويا أيها المؤمن لا تعجل على هؤلاء، لو أعطوا الدنيا وسلطت عليهم الشياطين وزينت لهم أعمالهم فلا تعجل عليهم لا تعجل عليهم، العقوبات نازلة بهم وسينتقم الله منهم.

قال: إنما نعد لهم العد كلها أيام معدودة، إنما نعد لهم عدًّا وتنتهي أيامهم ويواجهون ربهم بالمحاسبة الشديدة، سيجزيهم سيحاسبهم حسابًا شديدًا ويعذبهم عذابًا نكرًا؛ قال هنا فلا تعجل عن عليهم إنما نعد لهم عدًّا، يعني أيامًا قليلة ونؤخرهم ونمهلهم ونحلم عليهم، وما أحلم الله على هؤلاء، ما أعظم حلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

مثل هؤلاء الذين آذوا المؤمنين والذين تمادوا بالشر.والباطل وزينت لهم أعمالهم القبيحة، ما أحلم الله عليهم حيث أمهلهم مدة ثم سينتقم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هؤلاء، فإن الله عزيز مقتدر، والله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا أراد الانتقام انتقم منهم، وإنما هي أيام معدودة أيام معدودة، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هؤلاء إنها أيام وتنتهي حياتهم، ثم يواجهون رب العالمين ويصبح الناس في مواجهة ربهم على حالين: حال الفائزين وحال الخاسرين؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥].

لاحظ أنه قال المتقين، الذين اتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، اتقوا الشرك واتقوا المعاصي وخافوا الله وراقبوه وأطاعوا ربهم حق الطاعة والتزموا ما أمرهم الله، فإن مآلهم إلى الرحمن أن يكونوا وفودًا، أن يكونوا وفودًا إلى خير وافد وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إن الله سيكرمهم، يعني ما بالك بأناس هم وفود الرحمن، ماذا سيصنع بهم الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

فالمتقون هم الذين يفدون إلى الرحمن راجين رحمته وإحسانه والفوز بعطاء بالعطايا التي سيعطيهم وبرضوانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويفوزون بدار بداره بدار كرامته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأما الكفار؛ قال: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]، نسوق المجرمين سوقًا شديدًا كما تساق البهائم، نسوق المجرمين إلى جهنم وردًا أي عطاشًا، عطاشًا يردون النار وهم أشد الناس عطشًا، وإذا استغاثوا بربهم يغيثهم بماء كالمهل شديد الحرارة.

فحالهم نسأل الله العافية حال شديدة؛ قال يردون على أبشع حال وأسوأ حال في الذل والصغار وتكون نار وتكون النار سجنًا لهم وعقوبة عليهم ويصلون وهم في أشد حال من العطش، قال سبحانه يردون جهنم وردًا أي عطاشًا محتاجين إلى الماء، وإن استغاثوا أُغيثوا بماء كالمهل.

قال: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]؛ أي ليس لهم شفاعة ولا أحد يشفع لهم لأن الشفاعة لابد أن تكون من رضا الرحمن وهم لا يملكون الشفاعة والله لم يرضَ عنهم.

قال: لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا، من اتخذ عند الرحمن عهدًا والتزم طاعته فإن الله يعطيه الشفاعة؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فلا تنفع هؤلاء الشفاعة، بل الشفاعة لأهل الصلاح وأهل الطاعة ومن اتخذ عند الرحمن عهدًا وآمن بربه.

لعلنا يا إخوان نقف عند هذا القدر لا نطيل عليكم، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل السورة بكاملها بإذن الله، في اللقاء القادم نقف عند هذا القدر، ونسأل الله أن يبارك لنا ولكم، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

(مريم ٨٨ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛ أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم وبركات، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم.

هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للسادس من شهر ربيع الأول من عام ألف وأربعمائة وثلاثة وأربعين (١٤٤٣هـ)، في هذا المقام، وفي هذا المكان، وهذا الاجتماع الطيب على كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي نجلس معه، ونتدارسه، ونتفقه في دين الله، ونتعلم، ونتدبر كتاب الله.

والآيات التي معنا هي آيات من سورة مريم، وإن شاء الله في هذا اليوم نختم السورة، وننتهي من تفسير هذه السورة العظيمة الجليلة، وقف بنا الكلام في لقائنا الماضي عند الآية الثامنة والثمانين (٨٨)، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨].

يعني لو تأملنا السورة يا إخوان، قرأناها أكثر من مرة، وتصفحنا صفحات هذه السورة العظيمة، وقرأناها من أول آياتها إلى آخرها، لوجدنا أن هذه السورة في الحقيقة تحدثت عن عدة موضوعات مهمة في حياة المسلم.

أول هذه الموضوعات: ما أثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وما مدح أهل الصلاح والخير من أنبيائه الذين اصطفاهم الله، وأيضاً خلد ذكرهم في القرآن، وأمر رسوله أن يذكرهم للناس، لما قال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، و ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم: ٤١]، و ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ [مريم: ٥٦]، وهكذا ذكر الله من أول السورة إلى آخرها مجموعة من الأنبياء الأصفياء الذين اختارهم الله، وتربوا بتربية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

تلاحظ أن أول السورة في قصة زكريا؛ زكريا الذي حرص على الدين، وحرص على إقامة الدين، لما خشي أنه إذا مات لا يرثه أحد من ذريته يقيمون هذا الشرع ويقيمون الدين، وخاف أن ينفلت الدين ويضيع، فدعا ربه أن يرزقه الذرية الطيبة، فاستجاب الله له دعوته.

ثم جاءت قصة مريم وقصة إبراهيم، قصة زكريا من عجائب القصص؛ كيف تحمل زوجته وقد طعنت في السن وكبرت، وهو أيضاً كبر في السن، وامرأته عاقر قبل أن تكبر، ومع ذلك جعل الله ولادة امرأته معجزةً، معجزةً وآيةً من آيات الله.

ثم تأتي آية أعظم من ذلك؛ وهو أن تحمل امرأة وهي لم يسبق لها الزواج، ولم تكن تحت زوج، وهي بكر، ولم يتعرض لها أحد، ومع ذلك جعل الله فيها آيةً عظيمةً، بل جعلها معجزةً عظيمةً هي وابنها: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]؛ كيف تحمل امرأة من غير زوج، ومن غير أن يتعرض لها أي إنسان من البشر؟! فجعلها آيةً عظيمةً.

ثم ذكر قصة إبراهيم، ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولاد إبراهيم؛ إسماعيل وإسحاق، وأيضاً ولد الولد وهو يعقوب، ثم ذكر موسى وأخاه هارون، ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إدريس، كلهم هؤلاء من الأصفياء، ثم بعد ذلك بين الله ثنائه عليهم ومدحه لهم، بعدها قال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩].

- **مَن هم هؤلاء الخلف؟**

خلفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فتوعدهم الله بالوعيد الشديد إذا استمروا على ذلك، وفتح لهم باب التوبة لما قال: إلا الذين آمنوا، إلا الذين آمنوا، ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠].

ثم بعد هذا، هذه الآيات تنتقل إلى مناقشة المشركين، مناقشة المشركين ومحاورتهم فيما يدعونه وفيما يتقولونه على الله من الأشياء التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة؛ يعني من إنكارهم للبعث، ومن استهزائهم بالمؤمنين وسخريتهم، وأنهم خير من المؤمنين، وأنهم لو فرضنا كان كما قال قائلهم، يقول: لو فرضنا أن فيه بعث وفيه جنة ونار، فإنه سيكون لي نصيب في ذلك، كما أن الله أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة.

فرد الله عليهم وأبطل دعواهم كلها وافتراءاتهم. الآن عندنا من افتراءات هؤلاء المشركين الآية التي وقفنا عندها، وهي الآية الثامنة والثمانون، وهي قول الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨]، أي المشركون وكل من قال هذه المقالة.

- **مَن هم الذين قالوا اتخذ الله ولداً؟**

إذا رجعنا وجدنا أن اليهود قالوا: عزير ابن الله، فجعلوا عزيراً ولد الله، ولد الله؛ وكذلك النصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، وادعوا على أن هذا ابن الله؛ والمشركون أيضاً من أهل مكة قالوا: الملائكة بنات الله، الملائكة بنات الله.

فهؤلاء الذين قالوا هذه المقالات السيئة، ورموا الله بهذا الأمر القبيح، وهذا الأمر الشنيع الذي لا يقبله عاقل.

وقالوا رد الله عليهم قال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٩]؛ يعني شيئاً عظيماً قبيحاً. كيف تتجرؤون على الله وتقولون أن لله ولداً، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، وأنتم تقولون هذا الكلام؟! فكيف تدعون على الله وتتهمون الله؟! والولد إنما يكون لمن يحتاج إليه، والله غني سبحانه، هو الغني، وله ما في السماوات وما في الأرض، فكيف يحتاج إلى الولد؟!

الولد يحتاجه الضعيف، يحتاجه الفقير، يحتاجه هذا الذي يحتاج إلى ولد يحتاج إلى ذرية؛ أما الغني، الغني القوي العزيز، لا يحتاج إلى الأولاد، لا يحتاج سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٣-٤]. والله هو الصمد، ومعنى الصمد **"الذي تصمد العباد إليه وتحتاج إليه ويلبي حاجاتها"**. فكيف يقال أن له ولد؟!

هذه مقالة عظيمة وافتراء على الله، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ في حقهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٩]؛ تعديتم على الله وقلتم هذا القول العظيم القبيح في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

انظروا كيف هذه المقالة التي لم يقبلها حتى الجمادات، لم تقبلها حتى الجمادات، لم تصبر على مثل هذه المقولة. يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]؛ أي السماوات على عظمها وسعتها وهي جمادات، وعلى صلابتها وقوتها تتشقق وتتفطر وتسقط على هذه المقالة، والأرض على جمادها وقوتها وصلابتها تنشق وتتصدع لأجل هذه المقالة، وتخر الجبال؛ الجبال الشامخة الطويلة الشامخة الصلبة تخر على الأرض وتندك وتصبح رملاً بسبب ماذا؟

قال: ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩١]؛ بسبب أنهم افتروا على الله هذه الدعوة القبيحة التي تكاد المخلوقات كلها تزول بسبب هذه المقالة.

- **كيف يقولها هذا الإنسان ولا يبالي بمقولته؟!**

من اليهود والنصارى والمشركين، تقولون على الله هذا القول العظيم! قال الله عَزَّ وَجَلَّ لما رد عليهم، قال: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]؛ كيف ينبغي؟! ما يمكن أن يتخذ ولداً إذا كانت هذه المقالة مقالةً شنيعةً ومقالةً عظيمةً، والسماوات والأراضين والجبال لا تستطيع الصبر والتحمل لهذه المقولة وهي جمادات، والله عَزَّ وَجَلَّ رد عليهم وقال ما ينبغي، لا يمكن ويستحيل أن يكون للرحمن ولداً، ما يمكن، لماذا؟

قال: كل من في السماوات والأرض له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو يملكها في ملكه، له ما في السماوات وما في الأرض، فهو الغني سبحانه، الغني عَزَّ وَجَلَّ، والخلق كلهم فقراء إلى الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهِ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ كلهم ذليلين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسيأتون الله لما يامرهم بالحضور، كلهم سيحضرون ويأتون لله، كلهم عبيد مملوكين في ملكه.

قال: ﴿عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]؛ كل ما في السماوات والأرض من الملائكة ومن المخلوقات ومن بني آدم ومن الجن والإنس، وكلهم كلهم عبيد لله، وكلهم في ملك الله وتحت تصرفه، وأنتم تقولون اتخذ الله ولداً؟!

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤]؛ أحصى هذا الخلق كله، وأحصى هؤلاء كلهم وعدهم عداً من الجن والإنس والطيور والحيوانات وكل الخلائق قد أحصاهم الله وعدهم عداً لا يغيب عنه شيء، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض.

- **وكلهم يوم القيامة ماذا سيكون حالهم؟**

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]؛ كل هذه المخلوقات ستأتي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتنقاد لأمره، كل أتوه داخرين أي ذليلين حقيرين، والله هو الغني الحميد.

وتقولون لله ولداً؟! الذي يقول الذي يتخذ ولداً هو المحتاج الضعيف المسكين، أما الذي يملك السماوات والأرض والخلق كلهم عبيده وتحت حكمه، لا يمكن أن يقال مثل هذا القول: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٩]، جئتم شيئاً عظيماً.

قال الله: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤]، كلهم وسيأتونه يوم القيامة فرادى كما خلقهم أول مرة. فكيف يقولون مثل هذه المقولة الشنيعة العظيمة التي لا تصبر عليها الجمادات؟!

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: ٨٩]، نعوذ بالله من هذه المقالة، ونعوذ بالله من أهل هذه المقالة. ولذلك ختم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خاتمةً جميلةً حسنةً لهذه السورة العظيمة بوعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمتقين، وبأيضاً تحذير وإنذار من لم يكن من المتقين.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [مريم: ٩٦]؛ أي جمع بين الإيمان وهو التصديق والاعتراف، والعمل الصالح، لم يكونوا يقولون يدعون الإيمان فقط، وإنما هم مؤمنون عاملون الأعمال الصالحة مسابقون إلى الخيرات. ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [مريم: ٩٦]، ماذا جزاؤهم؟ قال ماذا بما وعدهم الله وما جزاؤهم؟

قال: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]؛ أي محبةً ووداداً في قلوب أوليائه من أهل السماوات والأرض. المؤمن الصالح، المؤمن الصالح، يجعل الله له محبةً في قلبه، والناس يحبونه، هذه المحبة والله يحبه، هذه أثر العمل الصالح.

☜**ولذلك جاء في الحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ، إِذَا أَحَبَّ، إِذَا أَحَبَّ عَبْدَهُ نَادَى فِي السَّمَاوَاتِ، نَادَى جِبْرِيلَ فَقَالَ فَنَادَى جِبْرِيلُ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاوَاتِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّونَهُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَحَبُّوهُ أَيْ يَعْنِي أَحَبُّوهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وُضِعَ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»

وبدأ الناس يحبونه، يحبون سيرته، ويحبون ذكره، وإذا لقوه حبوه، ويحبون كل أخبارة وكل أعماله، فهذا معناه؛ فإذا وجدت الرجل في الدنيا، إذا وجدت الإنسان، هذا الرجل في الدنيا يحبه الناس، ويحبون ذكره، ويحبون مجالسته، فاعلم أن الله يحبه، واعلم أن ملائكة الله تحبه.

هذه من أعظم الأمور؛ أن يجعل الله لك المودة، ويجعل الله لك المودة والمحبة، فتحب فيحبك الناس، ويقبلون عليك، ويعني ويجالسونك، فهذا من أعظم أثر الطاعة، أثر العمل الصالح، وأثر الإيمان أن يحبك الله، وأن تحبك الملائكة، وأن يحبك أولياء الله في الدنيا، وأحبابك يحبونك ويحبون مجالستك، هذا من أعظم الثمرات التي يتمناها كل انسان، يتمنى كل إنسان أن يكون من ثمرة أعماله الصالحة أن يجعل الله له المودة والمحبة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧]؛ أي هذا القرآن وهذه السورة وما تسمعه، هذا كله من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا القرآن جعله الله بلسان محمد لساناً عربياً فصيحاً، ويسر ألفاظه ومعانيه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

فإذا تيسرت آياته، وتيسرت ألفاظه، وتيسرت معانيه، حصل المقصود، وحصل الانتفاع بهذا القرآن، وجدت أثر القرآن عليك.

قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧]؛ لماذا؟ قال: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٩٧]؛ فالمتقين أهل التقوى، وأهل الطاعة، وأهل الصلاح يبشرهم الرسول، ويبشرهم أهل الخير، والقرآن يبشرهم بالحسنات الطيبة وآثارها، فتبشر به المتقين بهذا القرآن، حتى أهل الطاعة والاستقامة يسمعون فيجدون ثواب هذا الأمر في الدنيا والآخرة، والبشارة هي الخير، والبشارة هي الأخبار السارة؛ فلذلك قال تبشر به المتقين.

ثم في مقابلة ذلك قال: ﴿وَتُنْذِرَ بِهِ﴾ [مريم: ٩٧]؛ أي بالقرآن، تحذر وتنذر مَن؟ قال: **"قوماً لداً"**؛ أي قوماً شديدين في باطلهم، متمسكين في باطلهم، قوي الحجة يحاجون على غير جادة. فهذا اللد أو اللدود هو **"الذي يحاج ويجادل بغير حق"**. فقال تنذر به وتقيم عليهم الحجة وتناقشهم، تنذر وتحذرهم من أن يبقوا على ما هم عليه، أن يبقوا على ما هم عليه، على جدالهم وحجاجهم وكفرهم بالله وعنادهم.

وتحذيرهم من قولهم هذه مثل هذه المقالات الشنيعة القبيحة، وقولهم أن لله ولداً، ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، فكيف تدعون هذه الدعوة الباطلة؟! تنذر به ﴿قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

ثم حذرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [مريم: ٩٨]؛ كم أهلكنا قبلهم من قرن، وكم هنا للتكثير، للتكثير وليست عددية، ليست هي يعني استفهامية؛ لما تقول كم عندك من الدراهم؟ هذا استفهام، هنا لا يريد استفهام وإنما يريد التكثير؛ تقول كم وكم من الناس! هذا التكثير.

يقول كم أهلكنا وكم قضينا على أناس ودمرناهم وأنزلنا بهم العقوبات، كم أهلكوا، هذا من باب التهديد والتخويف. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ [مريم: ٩٨]؛ أي قبل هؤلاء المعاندين من أهل مكة وغيرهم من كفار قريش. ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ [مريم: ٩٨]؛ القرون الماضية التي مضت؛ قوم نوح، قوم عاد، قوم ثمود، قوم فرعون، قوم شعيب، كل هذه أهلكها، قرون كثيرة.

كما قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. وهنا قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [مريم: ٩٨]. ثم قال لهؤلاء المعاندين الذين أهلكناهم وأنزلنا بهم العقوبات: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ [مريم: ٩٨]؛ يعني هل ترى أحد منهم؟ فمعنى تحس أي **"تراهم بحاسة العين"**، هل ترى منهم أحد؟ هل رأيت منهم أحداً؟

ما رأينا أحداً منهم، كلهم انتهوا، ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]؛ هل تسمع لهم صوتاً خفياً؟ لأن الركز هو **"الصوت الخفي"**.

هل هؤلاء الأقوام تجد أثر من أنك ترى أحداً منهم أو تسمع صوتاً من أصوات؟ كلهم أبيدوا وقضي عليهم وهلكوا وانتهوا وأصبحوا تراباً، لا تسمع ولا ترى أحداً منهم، فهؤلاء إذا استمروا على ما هم فيه فسيصبح مصيرهم مصير هؤلاء، مصير هؤلاء.

فهذا تحذير من سلوك طريق الطغاة المعاندين من الأمم الماضية، هذا ما دلت عليه هذه السورة، وما ختمت به من هذا الوعد، ومن هذا الوعد الطيب لمن يكون من المتقين أن الله يجعل له المحبة والمودة، ويجعل في قلوب الناس محبةً له وقبولاً له؛ ومن ولم يقبل على الله ولم يعمل الصالحات أن القرآن حذره من هلاكه كما أهلك الله الأمم الماضية.

هذا ما دلت عليه هذه السورة، وأعيد وأكرر أيها الإخوة أن هذه السورة العظيمة وهي سورة مريم، وهي آياتها ثمان وتسعون (٩٨) آية قد اشتملت على موضوعات مهمة نحتاجها في حياتنا.

أولاً: ما ذكره الله من الأنبياء والرسل والأصفياء الذين اختارهم الله لرسالاته، وهذبهم وأدبهم بآداب الله وخلقهم بالأخلاق الحسنة، وتعلموا وتربوا تربيةً حسنةً، وذكر الله طائفةً منهم وبين صفاتهم وما أنعم الله عليهم بالآيات والمعجزات التي أعطوا؛ كزكريا وعيسى وإبراهيم وإدريس وغيرهم.

لما أثنى عليهم، حذر من ممن سلك طريقاً غير طريقهم ممن جاء بعدهم لما قال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[مريم: ٥٩].

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مواقف متعددة للمشركين وحجج احتجوا بها، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]، رد الله عليه قال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧].

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات، يعني كلهم يردون ويستهزؤون بالمؤمنين: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]، ورد الله عليه وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: ٧٤]. وهذا الرجل الذي ادعى قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]؛ ادعى أنه سيكون على المال الكثير، وأنه لو بعث سيكون له خير الكثير، وأنه سيعود إلى الله بأكثر وأعظم.

فرد الله قال: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨]؛ يعني هل عنده في هذا يعني شيء حجة يقوم عليها؟ ما في حجة ولا شيء، أم اتخذ عند الله عهداً؟ ما عنده لا عهد ولا شيء، وثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاء الذين ادعوا على الله الولد، قالوا اتخذ الله ولداً، ورد الله عليهم بهذه الردود.

هذه السورة سورة عظيمة، وإن شاء الله، في لقائنا القادم بإذن الله نواصل وندخل إلى السورة التي تليها، وهي سورة طه ندخلها إن شاء الله، ونتفيأ ظلال هذه السورة، ونعيش في كنوز هذه السورة، ونقرأها قراءة تدبر وتأمل، وندرك معانيها وما دلت عليه.

فنسأل الله أن يعيننا، وأن يوفقنا، وإن شاء الله نلقاكم في اللقاء القادم بإذن الله، ونقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ طه)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(طه ١ - ١٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم المبارك؛ يوم الثلاثاء الموافق للثالث عشر من شهر ربيع الأول من عام ألف وأربعمائة وثلاثة وأربعين. هذا اليوم حسب (تقويم أم القرى) هو اليوم الثالث عشر، وأما من حيث الرؤية فإن هذا اليوم هو اليوم الثاني عشر، وغداً هو اليوم الثالث عشر يوم الأربعاء.

بالنسبة لدرسنا؛ درس التفسير هذا اليوم، إن شاء الله ندخل إلى سورة جديدة من سور القرآن الكريم، وهذه السورة التي سنتناولها هذا اليوم هي (سورة طه). ومر معنا في لقاءاتنا الماضية سورة الكهف وأنهينا الحديث عنها تفسيراً وبياناً وصفات جميلة؛ من (سورة الكهف) و(سورة مريم)، و(سورة الكهف) كما هو معلوم عند الجميع، وأنت تلاحظ أي سورة من سور القرآن الكريم تلاحظ سبحان الله العظيم أن السورة تهدف إلى شيء معين؛ إلى هدف معين، تقصد مقصداً معيناً.

سورة الكهف إذا نظرت إليها بنظرة عامة تجد أن هذه السورة هي تتحدث عن كيف يحصن الإنسان والمؤمن نفسه من الوقوع في الفتن؛ لأن السورة أشارت إلى عدد من الفتن: فتنة الدين، فتنة المال، فتنة العلم، فتنة السلطة، كل هذه هي رؤوس الفتن وكيف الإنسان يحذر ويسلم من الوقوع في الفتنة.

تأتي (سورة مريم) بعدها؛ سورة الرحمة والحنان والعطف ويعني رحمة الله سبحانه وتعالى فوق ذلك كله. نلاحظ تكرر كلمة الرحمة: رحمة من عندنا، وهكذا، وعن أنه من لدنا. والسورة مبنية على ضعف الإنسان واحتياجه للولد؛ زكريا على كبر سنه وهو يحتاج إلى الولد، وعيسى وهو مولود من قِبل مريم، وإبراهيم مع حوارهً مع والده، وكلها تدور حول هذا الشيء، حتى تأتي السورة في نهايتها تحذر وتنذر القائلين إن الله قد اتخذ ولداً؛ كما قال سبحانه وتعالى:

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٩-٩١].

(سورة طه) سورة جميلة حقيقة؛ **سورة السعادة**. وتلاحظ أنها تهدف إلى كيف يسعد الإنسان في الدنيا، وكيف يسعد في الآخرة، ويقابل السعادة الشقاء. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في أول آياتها:

﴿طه ۞ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١-٢].

بل لتسعد، وتلاحظ في آخر السورة:

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

يعني سيكون مهتدياً سعيداً. وتلاحظ أن قصة آدم عليه السلام قال الله فيها:

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧].

فهي سورة حقيقة مبنية على السعادة وكيف يسلم الإنسان من طرق الشقاء والهوان والذل.

وتذكر السورة لنا قصة موسى عليه السلام باستطراد وتوسع وإسهاب، حتى إن هذه القصة أخذت حيزاً كبيراً من السورة، بل يعني شملت ما يقرب من ثلاثة أرباع السورة كلها في الحديث عن قصة موسى عليه السلام. وقصة موسى في السورة تتمثل في ثلاثة أمور مهمة؛ الأمور الثلاثة المهمة:

١. **موقف موسى من فرعون**: وكيف وصل إليه في الدعوة إليه، وكيف كان موقف فرعون من موسى.

٢. **موقف موسى مع السحرة**: وكيف أقنعهم وكيف آمنوا وأصبحوا شهداء؛ في أول النهار كانوا أعداء الدعوة وكانوا سحرة كافرين، وفي آخر النهار يكونون شهداء يلقون ربهم على عمل صالح.

٣. **موقف موسى مع السامري**: **(السامري)** الذي يعني أراد أن يضل بني إسرائيل، أو أضل بني إسرائيل في عبادة العجل، وكيف كانت نهايته، وكيف موسى قضى على هذا الانحراف الذي وقع في بني إسرائيل، وأعاد بني إسرائيل إلى التوحيد وإلى الطاعة.

نلاحظ شقاوة فرعون ونهاية هذا الشقاء، ونلاحظ أيضاً شقاوة السحرة في أول الأمر ولكن الله رحمهم، ونلاحظ شقاوة **(السامري)** وكيف كانت نهايته:

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧].

طيب؛ نبدأ بهذه السورة على بركة الله في أول آياتها. يقول الله سبحانه وتعالى في أول آياتها بعد بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ١-٢].

طه؛ هذه الكلمة مختلف فيها عند المفسرين. أكثر المفسرين وأيضاً القول الذي تطمئن له النفس وترتاح له النفس الحقيقة هو القول بأنها **حروف من حروف الهجاء**؛ مثل ياسين، ومثل نون، ومثل صاد، ومثل حاميم، وألف لام ميم، لا فرق، حروف وهي حروف مقطعة التي افتتح الله بها بعض سور القرآن الكريم؛ ألف لام ميم ونحوها، والكلام فيها تقدم معنا كثيراً.

وأن المراد بـ(**الحروف المقطعة**) هي أن هذا القرآن مكون من هذه الحروف؛ التي نقرأها ونسمعها ونتكلم بها. هذا القرآن هو مثل كلامكم، ومثل شعركم، ومثل خطابكم، ومثل كلماتكم؛ فكان الفرض ينبغي لكم أن تتدبروه وأن تفهموه وأن تؤمنوا بما جاء في هذا القرآن الكريم؛ إما أن تقولوا هو من عندي محمد أو تفترون وتقولون افتراءً على الله أو تكذبون على الله، فأمامكم القرآن إما أن تؤمنوا به وتصَدِّقوه أو تأتوا بمثله، أما غير هذا الكلام فإنه كلام غير مقبول.

المهم أن الحروف المقطعة مرت معنا كثيراً وهي معروفة في نطقها وفي قراءتها وفي وجودها وتجويدها، وطه ليس فيها إلا المد الطبيعي؛ طبيعي، ليس أكثر من ذلك. وأيضاً هي مثل ما ذكرنا، هذا الرأي هو الصحيح يا إخوان؛ هذا الرأي هو الصحيح.

بمعنى؛ هناك من يقول إن طه اسم من أسماء النبي ﷺ؛ اسم من أسماء النبي، وياسين اسم من أسماء النبي، ينادي الله فيقول: يا طه، يعني يا محمد. وهذا يحتاج منا إلى دليل؛ لما نقول إنه اسم من أسماء النبي، الصحابة ما كانوا ينادون محمد بـ طه، ولم يرد في الأحاديث أن محمد يقال له طه. فكيف يقال إنه اسمه ونحن الآن لم يصلنا أي دليل حتى نجزم بأنه اسم؟ فالقول بهذا يحتاج إلى دليل يعني نعتمد عليه، أما القول المجرد هكذا فمن الصعب أن نتجراء ونقول إن من أسماء محمد ﷺ أنه طه، أو أنه وصف له؛ هذا رأي.

الرأي الثالث: أن طه يعني من كلمات العرب، أنهم إذا قالوا بمعنى يا رجل؛ مثل ما تقول يا هذا، مثل ما تقول يا إنسان، وتقول يا رجل، ويا إنسان، ويا مؤمن، ويا مسلم، وهكذا من أداء بها. ولكن هذه ثلاثة

أقوال؛ الصحيح منها ما ذكرناه الأول: أنها حروف من حروف الهجاء، وهذا الأول هو الأولى، وعليه أكثر العلماء.

طيب، قال الله عز وجل:

﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ١-٢].

قد يأتي سائل: أين الكلام عن محمد؟ الله يقول: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ﴾، مَنِ الذي يقال له محمد؟ وهذا معروف ما يحتاج أن نسميه، يعني إذا عرفنا أن الذي أُنزل عليه القرآن هو محمد فلا يحتاج أن نقول يا محمد، أو نقول ما أنزلنا عليك يا محمد، هو معروف؛ مثل قوله تعالى في (سورة القدر):

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

إنا أنزلناه؛ الهاء تعود على القرآن. كيف عرفت؟ هو معروف ما يحتاج، الأمور الظاهرة ظاهرة. وهنا: ما أنزلنا عليك أي يا محمد القرآن، وهو معروف؛ القرآن الذي نقرأه، ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.

وقولـــه: ﴿مَا أَنْزَلْنَا﴾ دلالة على أن القرآن من عند الله وليس من عند محمد، وأن الله فوق سبع سماوات؛ لأن النزول يكون من أعلى.

وقـــول الله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، والشقاء هو العناء والتعب والهلاك؛ هذا معنى الشقاء. كأن الله سبحانه وتعالى يقول: يا أيها الرسول، يا محمد، يا من يسمع هذا القرآن -لأن القرآن أُنزل على الرسول وأُنزل على الأمة، فأنت وأنا من الأمة- لم يُنزل عليه القرآن لا لشقائنا وعنائنا وتعبنا، وإنما لسعادتنا. فهذا معناه: ﴿لِتَشْقَى﴾ أي لتشقى وتتعب وتصيبك المشقة والعناء والهلاك؛ لا، وإنما نزل عليك القرآن لأن القرآن سعادة؛ سعادة العبد في الدنيا والآخرة.

فلا يسعد الإنسان إلا بالقرآن، ولا يسعد إلا بالطاعة؛ يجد الراحة والطمأنينة إذا قرأ هذا القرآن في صدره. القرآن خير، نعم، شيء عظيم:

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وكما قال سبحانه وتعالى في آخر السورة؛ أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا القرآن:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤].

وهذه هي الشقاوة؛ المعيشة الضنك. قال سبحانه وتعالى: يا محمد ويا أيها المخاطب، لم ننزل القرآن للشقاوة والتعب والهلاك، وإنما أنزلناه للسعادة والطمأنينة، والفوز بالدنيا والفوز بالآخر.

ولذلك استدرك الله في الآية فقال: ما أنزلنا القرآن لتشقى:

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٣].

إلا موعظة وتذكرة يتذكر بها مَن يخاف عذاب الله ومَن يخاف لقاء الله. أما الذي لا يخاف ولا يخشى، فهذا لا ينتفع بالقرآن، وإن كان القرآن نزل عليه ليكون حجة عليه، لكنه لا ينتفع به. المنتفع -كما قال سبحانه وتعالى-:

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

الذي يخاف الوعيد هو من يتذكر، **وقال**: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

الذي يخشى الله هو الذي ينتفع. ولذلك خصَّ الله أن القرآن موعظة وتذكرة وهدى وذكرى لمن يخشى الله سبحانه وتعالى، فيؤدي ما فرض الله عليه ويتجنب ما حرّم الله عليه. هذا هو الذي يسعد بالقرآن وهو الذي ينتفع بالقرآن، أما غيره فلا ينتفع. الذي يخشى الله ويخاف الله ويؤدي ما فرض الله عليه ويراقب الله في أعماله، هو المنتفع بالقرآن.

فكأن هذه الآية سبحان الله العظيم، كأنها تطلب منا جميعاً أيها الإخوة أن يكون الإنسان إذا أراد أن يستفيد من القرآن وينتفع بالقرآن فليقبل على القرآن ويتدبره ويخشى، لا أن يقرأ هكذا وهو غافل، لا أن يقرأ وهو غير مبالٍ، وإنما إذا أردت أن تنتفع بالقرآن فكن من الذين يخشون الله، وكن من الذين يقبلون على الله، الذين ينتفعون بالقرآن بالتدبر. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

يعني قد أُقفلت القلوب فلا تنتفع به؛ لا تنتفع والقرآن يُقرأ أو لا يُقرأ لا تنتفع، يُقرأ عليها أو لا يُقرأ.

الآن قال: ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾. ثم بيَّن عظمة هذا القرآن وجلال هذا القرآن بأي شيء؟ قال:

﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَىٰ﴾ [طه: ٤].

أي هذا القرآن من أين أتاك يا محمد؟ ومن أين أتى أمتك؟ ومن أين أتاكم أيها الإخوة يا أمة محمد؟ من أين جاءكم هذا القرآن؟ هذا فضل من الله تفضل به، ومنّة من الله سبحانه وتعالى. تنزيل هذا القرآن من أين؟ تنزيلاً ممن خلق الأرض سبحانه وتعالى والسماوات العُلى؛ السماوات العالية، السماوات التي ارتفعت عن الأرض. والله فوق سبع سماوات.

قال: تنزيل هذا القرآن؛ تنزيل من الله الذي خلق، الذي أنشأ وأوجد وخلق وملك السماوات، وهذا تعظيم للقرآن وتعظيم لله سبحانه وتعالى. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى مبيّناً من هو الذي خلق الأرض والسموات العلى؛ قال:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

ولاحظ اسم الرحمن لما يأتي هنا؛ يدل على الرحمة، وأن من رحمة الله أنه لطف بالخلق وأرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتاب، ورحم هذه الأمة بأن أرسل إليها محمداً ﷺ، وأنزل عليها هذا القرآن العظيم. وهو رحمن سبحانه وتعالى؛ الرحمن على العرش استوى؛ أي علا وارتفع على عرشه سبحانه وتعالى.

وعلا وارتفع على عرشه الذي خلق، والذي هو أعظم المخلوقات؛ أعظم المخلوقات العرش، السماوات السبع والأراضين السبع بالنسبة للعرش كحلقة أو دراهم أُلقيت في أرض فلاة بالنسبة للعرش، فالعرش أعظم المخلوقات.

والله مستوٍ على عرشه استواءً يليق بجلاله وعظمته، ولا نتجاوز هذا الخط؛ هذا الخط خط أحمر لا نتجاوزه: كيف استوى؟ ما معنى استوى؟ نقول: الاستواء معلوم، كما قال الإمام مالك رحمه الله. هذا دائماً يا إخوان حقيقة ينبغي لنا عند صفات الله سبحانه وتعالى أن نثبت ما وصف الله به نفسه؛ نثبت هذه الصفات على الوجه اللائق بالله سبحانه وتعالى، ولا نتجاوز إلى كيف؛ لما تأتيك:

﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

كيف تكون اليد؟ نقول: نثبتها ونؤمن بها ولكن الكيفية لا نعلمها، لا نعلمها. هذا الذي ينبغي أن تسلكه، لا أن تقع في موقع وقع فيه أهل البدع؛ كـ**(المعتزلة)** و**(الأشاعرة)** و**(الجهمية)**

و**(الصوفية)** وغيرهم الذين يؤولون هذه الصفات ويتكيفون هذه الصفات. نقول: بلا كيف وبلا تشبيه، نؤمن بها كما قال الإمام مالك وهو إمام دار الهجرة رحمه الله:

«الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ».

فلا نتجاوز هذا الشيء، نؤمن بأن الله قد استوى على عرشه سبحانه وتعالى استواءً يليق بجلاله وعظمته.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن سعة ملكه فقال:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ [طه: ٦].

كل ذلك لله سبحانه يملكه، وإذا كان يملكه يتصرف فيه كيف يشاء. وما بينهما؛ ما بين السماوات والأرض لله. وما تحت الثرى؛ والثرى هو التراب الذي يكون متبللاً بالطين أو نحوه، أن يكون تراباً خفيفاً يسمى الثرى، يعني ليس صلباً؛ فهذا يسمى الثرى أي التراب. يقول: له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، وزيادة على ذلك ما تحت الثرى يملكه سبحانه وتعالى.

قد يسأل سائل: الثرى جزء من الأرض، فلماذا قالها مرة ثانية وقد قال ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؟ **ونقول**: زيادة أيضاً، زيادة في سعة ملكه وسعة علمه فلا يخفى عليه شيء من ذلك. فهو الخالق والمالك والمدبر والمتصرف في هذا كلياً سبحانه وتعالى، كل هذا تعظيم لشأن الله عز وجل لأن الله عظيم سلطانه.

ولما تحدث سبحانه وتعالى عن خلقه واستوائه على العرش وأنه يملك السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، أخبر أيضاً عن علمه، فدائماً تجد الملك والقدرة والعلم دائماً يقترن بعضها ببعض. قال:

﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

يعني هذا دليل على سعة علمه سبحانه وتعالى، وهو يخاطب الإنسان ويقول: يا أيها الإنسان، إن جهرت بالقول ورفعت صوتك -لأن الجهر هو رفع الصوت- إن تجهر بالقول فإنه يعلم سبحانه وتعالى الجهر وما هو دون الجهر وهو السر، وما هو دون السر وهو ما خفي عن السر.

كيف السر؟ أن تناجي شخصاً آخر؛ تتناجى أنت وشخص تخبره بسرٍ، الله يعلمه. وما هو أيضاً أخفى من السر. الذي يكون في نفسك وأنت تحدّث نفسك وتقول: أفعل كذا وأقول كذا وأذهب لكذا وسأصنع

كذا وسأقرأ كذا، هذا يعلمه الله قبل أن تخبر به أحداً من الناس. هذا رأي بعض العلماء، وهناك رأي أدق منه قالوا: السر هو حديث نفسك بينك وبين نفسك.

طيب ما هو الأخفى؟ الأشياء التي لم تخطر ببالك بعد، يعلمها الله؛ يعني ماذا ستصنع بعد سنة؟ الله يعلم، وأنت لا تدري ماذا ستفعل، ما تدري ما الذي سيأتيك من الأرزاق أو ما تذهب إليه، أنت لا تدري والله يعلم سبحانه وتعالى؛ فهذا معناه: أخفى، أي أخفى من السر.. والله سبحانه وتعالى يعني هذا دليل على سعة علمه سبحانه، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء؛ كما قال لقمان لابنه:

﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦].

يأتي بها الله، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه وتعالى. فهذا معنى: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾.

ولما عظم نفسه بالعلم والقدرة والإحاطة والجلال والكمال والخلق والملك، قال بعدها في التوحيد؛ إذا علمت ذلك فاعلم أنه لا معبود بحق إلا الله، ولا ينبغي الخضوع والسجود والركوع والعبادة إلا لله. ولذلك قال الله سبحانه -وهو أعظم الأسماء- (**الله**):

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

يعني الله لا إله إلا هو؛ لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى وحده؛ هو الذي يُعبد، لا يُعبد أحد غيره من المخلوقات. فلا يجوز أن تعبد الشجر، ولا الحجر من الأصنام، ولا تعبد المخلوق، ولا تصرف للمخلوق أي شيء من العبادة؛ بل ينبغي أن تخضع لله، وتقدم القرابين لله، وتصلي لله، وتسجد لله، وتعبد الله؛ كل ما هو من خصائص الله يجب أن يُصرف لله لا للمخلوق. فهذا معنى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لا معبود يستحق العبادة إلا الله سبحانه وتعالى وحده.

ولذلك ختمها بقوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨].

له الأسماء الحسنى سبحانه، الأسماء التي كملت في حسنها وجمالها. وأسماء الله كثيرة، وله الأسماء الحسنى سبحانه وتعالى؛ (**الحي**)، (**القيوم**)، (**العزيز**)، (**الرحيم**)، (**الحكيم**)، وغير ذلك من الأسماء، له الأسماء الحسنى.

إلى هنا؛ نصل إلى أن الله سبحانه وتعالى عظم القرآن لما **قال**: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾، وعظم أيضاً نفسه بأنه هو الخالق، وهو المالك سبحانه وتعالى، له ما في السماوات وما في الأرض، المستوي على عرشه، بائن من خلقه، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. ثم بيّن عظمة علمه وسعته سبحانه وتعالى، فلا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

بعد ذلك انتقلت الآيات إلى الحديث عن قصة موسى والدخول في قصة موسى، لكن لا أريد الإطالة عليكم، يعني نأخذ جزءاً من القصة، نأخذ شيئاً من هذه القصة ولا نطيل عليكم. قال الله عز وجل في بداية قصة موسى وما جرى له -لأن قصة موسى حقيقة في السورة أخذت حيزاً طويلاً، وأخذت آيات كثيرة ومساحة كبيرة، مثل (**سورة القصص**) و**(**سورة الأعراف**) كلها تتحدث عن موسى بإسهاب وتطويل- **قال هنا**:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩].

هذا خطاب للرسول ﷺ ولمن يصلح له الخطاب؛ يقول: هل سمعت بقصة موسى؟ هل جاءك خبر موسى؟ وهذا المراد بالاستفهام هنا للتسويق والتشويق؛ هل سمعت؟ هل اشتاقت نفسك إلى أن تسمع ماذا جرى لموسى مع فرعون؟ وماذا جرى لموسى مع السحرة؟ وماذا جرى لموسى مع قومه ومع (**السامري**)؟ هل تريد أن تسمع حقائق هذا الأمر؟ قد تأتيك أخبار عن بني إسرائيل وأنت لا تعرف حقائقها ولا تدرك معانيها، لكن أنا أعطيك إياها مفسرة واضحة بدقائقها؛ هذا معناه ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾.

والمراد به موسى بن عمران الذي أرسله الله سبحانه وتعالى إلى فرعون.

قال:

﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

متى رأى النار؟ ومتى قال لهم امكثوا؟ نعرف أن موسى ولد في مصر. ونشأ في بيت فرعون وتربى، ثم حصل له ما حصل من قتل القبطي وفراره من فرعون لما أخطأ وقتل خطأ ولم يرد القتل، وفرَّ من فرعون

وقومه ومن ملئه، وتوجه إلى (مدين) واستقر بـ (مدين) ولقي صاحب (مـدين) واستأجره على أن يزوجه، فبقي عندهم عشر سنوات وتزوج منهم، ثم عاد إلى أهله لما اشتاق إلى أمه وإخوته وأراد أن يرجع إليهم.

فانطلق من (مـدين) ومعه امرأته، وقيل معه امرأته واثنان من أبنائه، وقيل معه امرأته وخادم، وكان معه قطيع من الغنم، فانطلق من ذلك المكان متوجهاً إلى مصر.. ولما وصل يعني الوادي المقدس وجبل الطور، ناداه الله سبحانه وتعالى؛ لما وصل، إذ كان في ذلك المثال قد تاه عن الطريق، وكان الجو بارداً، والليل مظلماً وسحاب، وضلَّ الطريق لا يعرفه. فلما تحيّر في المكان رأى ناراً؛ أبصر ناراً فقال: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾، وفي آية أخرى **قـال:** ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]. قال هنا: ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا﴾؛ أي رأى النار من بعيد.

فقال لأهله ومن معهم: امكثوا؛ أي اقضوا وقتكم في هذا المكان، سأذهب لآتيكم، ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾؛ أي أبصرت وشعرت بنار، لعلي آتيكم منها بقبس؛ أي قطعة من النار تصطلون بها، وفي آية أخرى **قال:** ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] يتدفؤون بهذه النار.

قـال: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾؛ والقبس هو القطعة من النار أو الجذوة. ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾؛ يعني أجد عند النار من يهديني الطريق ويدلني على الطريق؛ لأنه قد تاه عن الطريق.

فلما جاء إلى هذه النار، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١١].

وفي آية أخرى قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢].

وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾. فلما أتاها نودي يا موسى؛ ناداه الله سبحانه وتعالى كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وفي آية أخرى قال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

فلما وصل هذا المكان كلمه الله مباشرة بصوت مسموع. فلما أتاها نودي: يا موسى؛

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

أي أنا الذي أناديك أنا ربك الذي خلقك ورباك، أنا ربك. ثم **قال:** ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾. وبيّن السبب لماذا يخلع نعليه؛ **قال:** إنك بالوادي المقدس المطهر، فمن الأدب أن تخلع نعليك، من الأدب ألا تدخل بنعليك؛ هذا من الأدب أنك إذا دخلت المجالس المطهرة والمراكز المناسبة ألا تأتي بنعليك. وهذا رأي بعض العلماء وبعض المفسرين؛ يقولون إن نعلي موسى عليه السلام صُنعت من جلد حمار ميت فلا ينبغي أن يحضر بها، هذا رأي والله أعلم بصحته.

الشاهد من الكلام أن الله أمره بأن يخلع نعليه لأنه بالوادي المقدس طوى، وطوى اسم الوادي، سماه الله ووصفه بأنه وادي مقدس؛ أي معظم مطهر، ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾.

ثم قال: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣].

أي اصطفيتك للنبوة والرسالة، فاستمع لما يأتيك من الخبر وعن الذي اخترتك لأجله؛ فاستمع لهذا الأمر العظيم وهو ما سيكلفك به من الرسالة؛ يعني أنت يا موسى ستكون نبياً رسولاً نرسلك إلى فرعون وتقوم بأداء الرسالة إلى فرعون وملئه لئلا يكونوا من أهل النار. هذا معناه ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾؛ كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ثم قال: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

فبدأ بالتوحيد والعبادة والصلاة؛ **قال:** ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ أي يا موسى أنا الله سبحانه وتعالى. بدأ الحوار؛ **قال:** ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾. أي لا معبود بحق إلا أنا، أما عبادة غيري فليست بحق، وإن كان قد وقع فيها من وقع من الناس فليست بحق.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾؛ أي اعبدني وحدي لا شريك لي، وأقم الصلاة، يعني كلفه بأداء الصلاة؛ أن يصلي لله، والصلاة هي الأفعال المعروفة التي يقوم بها العبد لله وحده لا شريك له؛ لأنها من أجلّ العبادات وأعظمها، فما من نبي إلا وكُلِّف بالصلاة. **قال:** ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾؛ أي لتذكرني، لأن الصلاة هي التي تذكر العبد دائماً بربه، فإذا صلى تذكر.

ثم قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

أي الساعة ستأتي، لابد أن تأتي، وسيجازى الناس؛ لأن الدنيا هذه تنتهي ويموت من يموت. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ ؛ لابد أن تأتي. ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ؛ أي أخفي علمها، وقال بعضهم: أخفي علمها حتى عن نفسي؛ يعني أخفى الله علمها عن كل مخلوق، فلا نبي مرسل ولا ملك مقرب يعلمها، لا أحد يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

قال: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ ؛ أي إذا أتت الساعة تجزى كل نفس بما تسعى في هذه الدنيا وتعمل من خير أو شر، ستجزى عليه. فالساعة هي نتيجة العمل، الساعة هي حصيلة العمل؛ فأنت تعمل في الدنيا، وإذا جاءت الساعة وجاء يوم القيامة فإن كل انسان سيُجزى بأعماله.

ثم قال: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦].

انتبه واحذر أن يصدك عنها مَن لا يؤمن بها؛ فالذي لا يؤمن بها ولا يعترف بها سيصدك عنها ويغريك ويشغلك عنها، وانتبه ولا تتبع هواه؛ لأنه على هوى وليس على الحقيقة، وليس على دين، وليس على دليل، وإنما يتبع هواه، فإذا اتبعته فإنك سترد؛ أي تهلك مع الهالكين. كن حذراً من مثل هؤلاء الذين يصدونك عن طاعة الله، ويصدونك عن عبادة الله، ويصدونك عن الاستعداد ليوم القيامة.

الدكتور: القصة طويلة أيها الإخوة، لا نريد أن نطيل عليكم، فلعلنا نقف عند هذا القدر. وإن شاء الله يعني في اللقاء القادم بإذن الله نستكمل ما توقفنا عنده.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(طه ١٧ - ٤١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله؛ محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم المبارك؛ يوم الثلاثاء الموافق العشرين من شهر ربيع الأول من عام ألف وأربع مائة وثلاثة وأربعين. نجتمع في هذا المقام المبارك وحول تفسير **(سورة طه)**.

ووقف بنا الكلام في اللقاء الماضي عند الآية السادسة عشرة من السورة، وهي قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦].

أي فترضى أنت فتهلك إذا اتبعته؛ يعني لا تتبع مَن لا يؤمن بالآخرة، ولا يحسب لها أي حساب، ولا يصدق بها، ولا يؤمن ولا يعمل لها إذا اتبعت هواه. ولذلك سمى نفسه أو سمى ما كان يقوم به هوى؛ إشارة إلى ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ أي فتهلك وتهلك إذا سلكت طريقه. هذا الخطاب أيها الإخوة هو لموسى؛ لأن الآيات تتحدث عن موسى.

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١١-١٦].

هذا الذي وقفنا عنده في لقائنا الماضي، ونواصل عند قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧].

هذا السؤال، والسؤال الذي قبله كان موجهاً للرسول ﷺ، وهو: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩].

يقول في التفسير: هذا السؤال في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ يسمى (**استفهام تشويق**)؛ يعني ألم تشتاق إلى قصة موسى في تفاصيلها ودقائقها؟ وهل سمعت بحديث موسى والذي جرى له؟ أسلوب تشويق.

هنالك هنا يختلف؛ **قال:** ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، هذا الاستفهام موجه لموسى عليه السلام. الله سبحانه وتعالى لما نادى موسى عند الطور، لما ناداه **قال:** ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾. قال بعد ذلك لما يعني كيف الآيات قبل هذا، لما قال له سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾. لما قرر التوحيد، **قال:** ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾؛ لا معبود بحق، ولا يستحق أحد أن يُعبد من دونه، والعبادة خاصة له.

ثم أمره وقال: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾؛ لأن من أجلّ العبادات وأعظمها اتصالاً بالله سبحانه وتعالى هي الصلاة. **قال:** ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾؛ أي لتذكرني، لأن الصلاة الحقيقة هي الجامع بين العبد وربه، هي الصلة التي تجمعك مع الله سبحانه وتعالى، تجعلك تتعلق بالله.

وهذا ملاحظ في الصلاة؛ الذي يصلي دعاء وخضوع واستغفار وقراءة القرآن ونحوه، كل هذا مرتبط بالله سبحانه وتعالى. تقيم الصلاة تقيم الذكر، تجعلك تتذكر وتذكر الله دائماً على لسانك: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

ثم ذكره بما هو أعظم من ذلك كله وهو (**اليوم الآخر**)؛ **قال:** ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾؛ اليوم الآخر لابد أن يأتي، وإن الساعة آتية للجزاء والحساب والجنة والنار، لتجزى كل نفس بما تسعى؛ لما قدمت من أعمال. ثم **قال:** ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

إذاً الخطاب الأول الذي وجهه الله سبحانه وتعالى في مناجاة الله ونداء الله، لما ناداه من جانب الطور، وقرر له هذه القضية وهي قضية الإيمان بالله سبحانه وتعالى وتوحيده والخضوع لله وعبادته، وإقامة الصلاة التي هي من أجلّ العبادات، والاستعداد لليوم الآخر، وأن الساعة آتية.

ثم بعد ذلك، يعني بعدما قرر هذه القضية المهمة جداً المتعلقة بالتوحيد والإيمان، قال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٧]. هذا الاستفهام، قال المفسرون: معنى هذا الاستفهام هو إدخال السرور

على الشخص، لما تسأله عن أشياء مع أنك تعلم، لتدخل السرور عليه. فالله سبحانه أراد إزالة الوحشة وإدخال السرور على موسى فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

الله جل جلاله يعلم أن بيمينه التي بيمينه هي العصا، يعلم سبحانه وتعالى لا يخفى عليه؛ وكيف يسال عن شيء وهو يعلم؟ قال هذا لإدخال السرور وإزالة الوحشة: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

فماذا كان الرد؟ المفترض أن يكون الرد أن يقول: هي عصاي. لكن موسى حكيم، وهذا يسمى بـ **(الأسلوب الحكيم)**؛ حكيم الرد وزيادة، أعطاه الجواب وزيادة، مثلما النبي ﷺ لما جاء الرجل وسأله عن ماء البحر، فقال: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**».

يعني توضأ وكل منه، أعطاه زيادة. وهنا لما جاء موسى وقال له: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، **قال:** ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨].

أتوكأ عليها؛ يعني أعتمد عليها في القيام والمشي والذهاب والمجيء، هذه خاصة له. ثم أيضاً فائدة أخرى لغيره؛ **قال:** ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾؛ أهش بها أي أنني أضرب الشجر ليتساقط الورق للأغنام التي معي فأهش بها على غنمي. وليس معناها أنني أضرب الغنم؛ هذا خطأ، هذا مفهوم خاطئ، وإنما أراد أن يقول: أهش بها على غنمي أي أضرب الأشجار والأغصان لتتساقط الورق وتأكلها الأغنام، وكان يرعى الغنم.

وقد أتى بعدد من الأغنام وهو يسير؛ لما جاء هو وأهله وتوجه إلى مصر، كان معه قطيع من الأغنام، وكان يرعى الأغنام كما قال ﷺ: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ**» فقال أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «**نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ**».

فكان يرعى الغنم. والنبي ﷺ **قال:** أهل الغنم أهل السكينة والوقار، وأهل الإبل أهل الكبرياء والخيلاء. فقال: ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾. ثم جاء بزيادة أيضاً **قال:** ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾؛ لحاجات فيها أخرى أيضاً، ليست فقط لهذا وهذا، بل لهذا ولهذا وزيادة. كان لهذه العصا قصة عجيبة، وكان لها شأن عجيب. ولذلك لما سأله الله عز وجل عن هذه العصا بعد ذلك وأجابه، **قال:** ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ١٩].

ألقها على الأرض يا موسى. ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠].

فألقاها مباشرة؛ جاء بالفعل تدل على المبادرة، لأن الله لما أمره بادر بالجواب، فألقاها فإذا هي حية تسعى. (**الحيـة**) هي الصغار؛ صغار الدواب أو صغار الثعابين، وقيل هي الأنثى تسمى حية، والذكر يسمى ثعبان، وقيل الذكر هو الكبير الضخم يسمى ثعبان، والصغير يسمى حية. **قـال:** ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾.

ولاحظ أنه **قـال:** ﴿تَسْعَىٰ﴾؛ لم يقل حية فقط، لماذا؟ لإزالة اللبس؛ يعني قد يفهم بعض الناس أن المراد أن العصا انقلبت وانطرحت على شكل حية لكن ليست حية حقيقية، مثل ما يفعله بعض الذين يستعملون السحر والتخييل، يجعلون الذي أمامك كأنه شيء ينقلب من حال إلى حال.

فلما **قـال:** ﴿تَسْعَىٰ﴾، زال الشك؛ يعني أنها حية حقيقية تتحرك وتجري، لا كما يفعله السحرة والمشعوذون؛ يأخذ العصا ويرميها وتتحرك كأنها تسعى ولكنها جماد لا تتحرك. ولذلك الله سبحانه **قـال:** ﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾؛ حتى يزول هذا الشك، وأنه فعلاً انقلبت حية؛ انقلبت من جماد إلى حيوان بقدرة الله سبحانه وتعالى. **قال:** فكانت تسعى.

وموسى ولى مدبراً ولم يعقب؛ في آية أخرى **قـال:** ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]. وفي آية أخرى **قال:** ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ [القصص: ٣١]. وهنا **قـال:** ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١].

خذها ولا تخف؛ أمره بأن يأخذها ونهاه عن الخوف. سنعيدها سيرتها الأولى؛ أي سترجع على هيئتها وصفتها الأولى، ترجع عصا كما كانت. فأخذها فرجعت عصا، فعادت العصا التي يعرفها.

ثم هذه آية عظيمة موسى رآها بعينه. ثم أعطاه آية أخرى؛ **قـال:** ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٢٢].

في سورة أخرى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [النمل: ١٢]، وهنا: ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾. كيف نجمع بين هذا وهذا؟ نقول إنه أدخل يده في جيبه؛ ما المراد بالجيب؟ الجيب هو فتحة عنق القميص؛ إذا كنت تلبس ثوب أو قميص ففيه فتحة عنق، إذا أدخلت يدك مع فتحة العنق فهذا هو الجيب.

فقال: أدخل يدك في جيبك، ثم إذا أدخلتها في جيبك اضممها إلى عضدك، إلى جناحك؛ والجناح المراد به العضد. فأدخل يدك إلى جيبه وضم يدك إلى جناحك؛ يدخلها تحت إبطه ثم يخرجها. فإذا أخرجتها ستجدها بيضاء؛ حتى قيل إنها تنير من حولها، تسطع بنورها لمن حولها.

قال: ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾؛ أي ليس فيها سوء من برص أو نحوه، وإنما بياض مقبول تقبله النفس وتشتاق إليه؛ لأنها تكره هذا البرص، فتخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى؛ يعني الآية الأولى العصا، وهذه آية أخرى، فأصبح معه آيتان.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ﴾ [طه: ٢٣].

يقول: سنريك آيات أخرى كثيرة. هذه هاتان آيتان، كما قال سبحانه وتعالى في سورة أخرى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢]. وقال هنا: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ﴾؛ سنريك آيات عظيمة مثل فلق البحر، وآيات أخرى كثيرة التي أراه الله سبحانه وتعالى، آيات عظيمة؛ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، كثيرة جداً.

فقال: هذه من آياتنا الكبرى. ثم بين له الغرض من ندائه وتكليفه؛ لما **قال:** ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ وجعله رسولاً، وبين له وأعطاه الآيات، بين الغرض من ذلك له، فقال سبحانه وتعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤].

اذهب إلى فرعون؛ ويعرف فرعون لأنه تربى في بيته. اذهب إلى فرعون إنه طغى؛ تجاوز الحد في الطغيان والاستكبار والعتو حتى **قال:** ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وحتى **قال:** ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. تجاوز الحدود وأسرف على نفسه، وطغيان وزيادة كفر.

فقال: اذهب إنه طغى. ماذا كان من موسى عليه السلام؟ إلا أنه لما رأى الأمر شديد عليه، وصار اذهب إلى واحد يبحث عني ليقتلني، اذهب إلى شخص يدعي الربوبية والألوهية، اذهب إلى شخص قد طغى وأسرف وتجاوز الحد في القتل والتعذيب؛ كيف سيواجهه؟ كما في آية أخرى **قال:** ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣].

ولذلك هنا ماذا قال؟ لجأ إلى رب العالمين في هذه الدعوات؛ لأن هذا أمر صعب جداً يحتاج إلى تثبيت ويحتاج إلى عون ودعوات صادقة، يسأل الله عز وجل أن يعينه على هذه الرسالة وعلى هذا الأمر، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥].

أهم الأمور وأعظمها في الدعوة إلى الله أن يشرح الله صدرك ويجعله فسيحاً؛ بأي شيء؟ حتى تتحمل الأذى؛ تحمل الأذى من الناس، سواء أذى في الكلام أو في الفعل ولا يضيق صدرك. فإن الصدر إذا لم يشرح صاحبه لا يكون سبباً لهداية الخلق ودعوتهم، لابد أن يواجه أموراً صعبة. فإذا فعل هذا الفعل، إذا سأل الله أن يشرح صدره فإنه يعينه الله سبحانه وتعالى ويجعله يتحمل الأذى ويصبر.

وكما تم في سيرة نبينا محمد ﷺ؛ كيف تحمل الأذى في مكة وضيق عليه، ومع ذلك صبر واستمر في دعوته ودعوة الناس وتبليغ هذه الرسالة. فهذا من أهم الأمور؛ أن يشرح الله صدرك ولا يضيق، لأنه إذا ضاق الصدر ما استطعت أن تستمر في دعوتك، لابد أن تتحمل.

ولذلك الله عز وجل ماذا قال لمحمد ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. الخلق ما يقبلون منك إلا بعد ما توسع الصدر وتشرح لهم صدرك وتيسر وتسهل الأمور لهم وتتحمل الأذى منهم. ولذلك بدأ بشرح الصدر، ثم عطف عليه فقال: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٦].

يسر لي هذا الأمر؛ الأمر الذي أنا سأسير عليه وهو الدعوة إلى الله، يسهل ويهون علي؛ لأن سيواجه الشدائد، يواجه أموراً عصيبة جداً، فكيف تيسر هذه الأمور؟ فلابد أن تتيسر الأمور من الله سبحانه وتعالى. هذا المطلب الثاني. ثم المطلب الثالث ماذا قال؟ ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧-٢٨].

كان فيه عقدة بلسانه في نطقه، وكان لا يستطيعون فهم هذا الكلام بسهولة؛ فلذلك سأل الله أن يحل العقدة، عقدة واحدة فقط. ولذلك قالوا إن موسى عليه السلام لم تذهب عنه العقد كلها، وإنما سأل أن تنحل ولو شيئاً يسيراً. ولذلك فرعون استهزأ بموسى يقول: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]؛ ولا يكاد يفصح إذا تكلم. **قال:** ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾.

وذكر بعض المفسرين، ولا أدري عن صحة هذا الأمر، أن سبب عقدة اللسان أنه لما كان موسى صغيراً في بيت فرعون، ولاحظ فرعون عليه النجابة والذكاء، فقال: أخشى أن يكون هذا الإسرائيلي الذي سيأخذ ملكي. فقالت له زوجته: لا يدري عن الملك، لا يعبر عن شيء. فقال: سآتي بتمرة وجمرة وأنظر موسى، أنظر ماذا يأخذ. فأخذ الجمرة ووضعها في فمه. هذا كلام المفسرين والعهدة على صحته؛ الله أعلم. لكن عموماً هي فيه عقدة في لسانه، سأل الله أن يفك هذه العقدة ويزيلها حتى يفقهوا قولي.

ولذلك جاء في سورة أخرى **قال:** ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ [القصص: ٣٤]. ولذلك هنا قال المطلب الرابع؛ لما قال اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، قال المطلب الرابع: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

أي من يوازرني ويساعدني ويعينني على هذه الدعوة، لا أستطيع وحدي، أريد من يشجعني على ذلك ويكون عضداً لي؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

هنا **قال:** وزيراً من أهلي، نجعله هارون أخي. قال بعض المفسرين: من أعظم المنن منة موسى على هارون بأن جعله نبياً؛ لأنه سأل الله أن يجعله نبياً فصار نبياً. وهذا من باب البر والإحسان إلى القريب؛ أن تجعل الخير في قريبك، في أخيك، في ابنك، في ابن عمه القريب. **قال:** ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾؛ أي قوِّ به قوتي وشب ظهري.

وكما **قال:** ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾؛ في الدعوة يكون نبياً معي نبي رسول، فجعله الله نبياً ورسولاً؛ كما قال سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]. وقال هنا: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ في الإرسال والنبوة.

ثم بين السبب في ذلك والفائدة؛ لماذا دعا بهذه الدعوات الأربع؟ **قال:** ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣-٣٤].

أي علم موسى عليه السلام أن مدار العبادات والدين والطاعة على ذكر الله سبحانه وتعالى؛ كما قال وأقم الصلاة لذكري. **قال:** سأل هذه الدعوات وأن يكون هارون معه حتى يساعده أن يسبح كثيراً ويذكر

كثيراً، وتساعده على البر والتقوى والذكر والتسبيح والتهليل والعبادة والتكبير ونحوه. نسبحك كثيراً، ولم يقل نسبحك فقط؛ بل **قال:** نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً.

صفة المؤمن التقي أن يكون كثير التسبيح كثير الذكر؛ لا أن يكون يسبح قليلاً، بل يسبح التسبيح الكثير، يشغل لسانه بالذكر والطاعة والتسبيح والتهليل والتكبير. ثم **قال:** ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٥].

أي علمت حالنا، وعلمت ضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في جميع الأمور؛ فاستجب دعاءنا ويسر لنا أمورنا، فإنك كنت بصيراً بنا وعالماً بحالنا. فاستجاب الله له، قال سبحانه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

استجاب الله له؛ أعطاه الله جميع ما طلب؛ فشرح صدره، ويسر أمره، وحل عقدة من لسانه، وشد عضده بأخيه هارون وجعل لهما السلطان، فلا يمكن أن يصلوا إليهما؛ لا يمكن لفرعون ولا لاتباع فرعون أن يصلوا إليهما بالسوء، وأخبر أنهم هم الغالبون. فاستجاب الله له فقال: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى منته عليه قبل ذلك؛ فبدأ يذكر الله نعمه عليه، على موسى قبل ذلك. **قال:** ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٣٧].

أي قبل ذلك، منَّ عليه قبل الرسالة مناً عظيمة؛ المنة من الله. ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ٣٨].

أوحينا إلى أمك؛ وحي إلهام، هذا يسمى الوحي وحي إلهام؛ يعني ألهمها الله، ولم يأتها جبريل، ولم تكن نبياً وإنما هذا وحي يسمى وحي إلهام؛ كما أوحى الله إلى النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، وأوحى إلى يوسف وهو في الجب. فهذا وحي يسمى وحي إلهام. **قال:** أوحينا إلى أمك ما يوحى: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

لأنها كانت خائفة عليه؛ لأن آل فرعون يبحثون في البيوت، مَن ولد له ذكر قتلوه؛ يذبحون الأبناء. فخافت عليه، فوضعته في صندوق صغير؛ ﴿اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾، والتابوت صندوق صغير.

فكانت تضعه وتربطه بحبل؛ فإن انحل الحبل، فليلقه اليم بالساحل؛ اليم هو البحر. أخبرها أن هذا التابوت سيذهب إلى الساحل ثم يأخذه فرعون، وعلمت ذلك بإخبار الله لها. **قال:** ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾. وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من كل شيء؛ ليس هناك عندها إلا هذا، كانت تريد أن تظهره أمام الناس ولكن الله ثبتها؛ لولا أن ربطنا على قلبها. ربط الله على قلبها ووعدها بأنه سيرجع إليها وسيكون نبياً.

قال: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾؛ ألقى الله عليه محبة، فكل مَن رآه يحبه؛ كل مَن رآه أُعجب به وأحبه محبة شديدة، حتى وإن كان عدواً له.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾؛ أي لتتربى على مرأى مني ونظر مني؛ تصنع على كفالة ومتابعة وحفظ من الله سبحانه وتعالى. تصنع الآن في قصر فرعون ملك من الملوك بمراقبة من الله وحفظ من الله سبحانه وتعالى. ثم **قال:** ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠].

لأن الله حرم عليه المراضع؛ فكل من جاء يرضعه ما استطاع لا يقبل، حتى جاءت أخته وهي تمشي. تتبعه؛ تمشي. ولم يشعروا بها. فجاءت وقالت: هناك من سيكفله ويرضعه. فأتوا بأمه، فلما أخذته ووضعته على صدرها قبل الثدي، ففرحوا جميعاً واستبشروا وقالوا: هذه تبقى عندنا، وقالت: بل آخذه معي. فأخذته معها وأعطوها الهدايا وأعطوها كل ما تحتاج إليه.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَل... فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾؛ تستقر عينها، ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾. ثم **قال:** ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠].

وقتلت نفساً فنجيناك من الغم؛ لما قتل القبطي، قتله ولم يقصد قتله وإنما خطأ. فنجيناك من فرعون وملئه لما علم أن الملا يأتمرون به ليقتلوه، وأخبره الرجل فانطلق مسرعاً وذهب إلى مدين.

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾؛ في كفالة عظيمة، يعني أصابته الأحوال التي مر بها من الخوف والغم والهم.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾؛ أقام في مدين سنين إلى عشر سنين واستقر وتزوج.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾؛ أي قدر قدرته لك، أن تمر بهذا الوادي المقدس وجانب الطور وتستمع لكلامي. جعلتك وأجريت عليك صناعتي وجعلت أن تكون مؤهلاً للرسالة والنبوة، وتربيت بتربية على رعاية الله ولطفه سبحانه وتعالى حتى وصلت هذا المكان. فأوحى الله إليه، وحكى عليه من صغره والله سبحانه قد تولى أمره.

لعلنا نقف عند هذه الآية؛ إن الوقت يضيق بنا ولا نريد أن نطيل عليكم. لعلنا نقف عند هذا، إن شاء الله نستكمل في اللقاء القادم ما توقفنا عنده.

والله أعلم، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

(طه ٤٢ - ٥٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، صلى الله وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للسابع والعشرين من شهر ربيع الأول من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف. أنتم في هذا المقام المبارك، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يستعملني وإياكم في طاعته. هذه الآيات التي نتناولها هذه الليلة ونقرأها ونبين معانيها ونتأملها تأملاً دقيقاً هي آيات من سورة طه، وفي قصة موسى عليه السلام.

مرت معنا آيات انتهت بقوله تعالى:

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]

يعني ثم قال بالتسعين في أهل مدين، ثم جئت على قدر يا موسى؛ هذا يحكي الله سبحانه وتعالى منته، ونعمته على موسى قبل أن يرسله بالرسالة؛ إذ كل هذه النعم العظيمة التي سبقت نعمة الرسالة والنبوة، كما قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٣٧]

إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى، أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له، وألقيت عليك محبة مني. مر معنا معنى وألقيت عليك محبة مني لأني صرت محبوباً بين الناس؛ حتى عدو وبيت يعني وقصر أشد الناس عداوة لله صار هذا القصر محباً له، وزوجته زوجة فرعون تقول: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]؛ فهذا كله مثل ماذا؟

قال: وألقيت عليك محبة مني، حتى قال بعض المفسرين: لا يرى أحد موسى عليه السلام إلا وأحبه، أو أعطيت عليك محبة مني. ثم **قال:** ولتصنع على عيني، في بيت فرعون تحت رعايتي وتحت عنايتي وتحت حفظي. وكانت تربيته برعاية من الله، برعاية الله، وفرعون في بيت فرعون أشد الناس

عداوة، فمنّ الله عليه بالمنن العظيمة حتى قال يعني: إذ تمشي أختك، لما حرّم الله على موسى العروس المراضع، بدأوا يأتون بالمرضعات وكل مرضعة لا يقبل فيها ولا يريد أن يشرب حليبها، حرّم الله عليه حتى تعود إلى حتى يعود إلى أمه التمشيط فتقول: هل أدلكم على من يكفله؛ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها، تقرر لأن العين لم تقر لم تستطع إلى الهدوء، وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً، كي تقر عينها ولا تحزن.

قال: وقتلت نفساً خطأ، لما استنجد به الإسرائيلي على القبطي، موسى القبطي فسقط الأرمنية ولم يرد قتله، فقتله قتلاً خطأ فتاب إلى الله أني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم. **قال:** فنجيناك من الغم؛ أي من شدة الغمة التي أصابته بعد قتل، وأصبح بالمدينة خائفاً يترقب. **قال:** وفتناك فتوناً، فأصبح في فتنة عظيمة مرتبة ومحنة عظيمة حتى انطلق هارباً إلى أهل مدين، مسافة بعيدة فاراً بنفسه ليس معه طعام ولا شراب ولا أحد في الطريق فانطلق مستعداً.

قال: فلبثت سنين في أهل مدين، جلس عشر سنين هناك وتزوج وعمل أجيراً عند صاحب مدين. وصاحب مدين هذا ليس هو شعيب، فهذا خطأ جداً بعض الناس يقول إنه هذي ابنة شعيب وإنه ذهب يعمل أجيراً عند شعيب. شعيب النبي هذا بعيد، أن موسى هذا قبل موسى بمسافة بعيدة من الزمان ليس له علاقة أبداً بشعيب؛ شعيب هذا أصله عربي وليس له علاقة، لكن وافقت كلمة مدين لأن البلدة والمكان يسمى مدين، ومن يعيش فيه ناس على مر القرون، بورسعيد هذا خطأ من خطأ الأوقات.

قال هنا: ثم جئت على قدر، يعني ليس صدفة أو غير مرتب له، لا؛ إن الله أراد أرادك أن تأتي لهذا المكان يقع ما يقع من اللقاء ونداء الله ومناجاة الله وتدبيره بالرسالة، تأتي على قدر، على مقصد وقد قدر لك هذا، هذا المجيء أن تمر بهذا المكان، المكان المقدس والوادي المقدس، وفي أحسن ما يحصل من تكليفك بالرسالة.

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]

أي هيأك، هيأه سبحانه وتعالى من أول الأمر النعم العظيمة، ما أنعم الله عليه حتى وصل إلى هذا المقام تتهيأ لهذا المقام وغير لأن يكون رسولاً ونبياً لله سبحانه وتعالى ويبلغ في كل هذه الرسالة وهذا البلاغ والقيام بأمر الله سبحانه وتعالى. **قال:** واصطنعتك لنفسي؛ أي هيأتك لتكون رسولاً مني إلى

فرعون. قال بعدها: اذهب أنت وأخوك، لما قال في دعاءه واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي، قال الله، استجاب الله دعاءه: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]

وفي آية أخرى في سورة أخرى سورة القصص قال: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]

قال: سنشد عضدك بأخيك؛ يعني أنه كلّ باب الرسالة وجعل معه أخاه هارون وزيراً ورسولاً ونبياً.

قال: اذهب أنت وأخوك بآياتي؛ الآيات المعجزات التي منها العصا واليد ونحوها، الحجج القوية حتى الحجج الحسية التي هي العصا واليد، والحجج المعنوية العلمية التي حاجبها نلاحظ كيف حاور وناقش فرعون حتى ألقمه الحجر، وحتى أقام عليه الحد ولم يستطع، أعطاه الله الحجة القوية.

قال: اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا؛ أي لا تضعف لا لا تضع جميعاً، ان لا تضعف على المداومة على ذكر والاكثار من ذكري؛ فإن ذكري من أقوى الأسباب للنصر. والتمكين وإقامة الحجة والمحاورة والنقاش والجدال، فإن صاحب الذكر دائماً قوياً، صاحب الذكر دائماً يكون قوياً، إذاً لا تنيا إيلات المداومة. اذهب أنت وأخوك لفرعون الذين **قال:** اذهبا إلى فرعون. طيب، أيها الإخوة، يعني ينبغي أن نقف عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢]

لا تطرف أيها الإنسان، أيها المؤمنون، لا يضعف ذكرك، أكثر من ذكر الله، أكثر من ذكره ولذلك من أقوى أسباب النصر ـ ذكر الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥]

فأمر الله سبحانه وتعالى بالذكر كثيراً؛ الذكر من آثاره أنه يعيد، يعين دائماً على نوائب الحق، العلم على حاجات الدنيا دائماً حتى في حاجة في الدنيا، في جميع أموره أكثر من ذكر الله، فإن ذكر الله سبب دائماً سبب قوي في الإعانة على شؤون الحياة. ولا تنيا الاجتهاد وصيته، هذه وصية الله سبحانه وتعالى إلى موسى وإلى هارون ان لا يرغب في ذكر الله، **قال:** ولا تنيا في ذكري. اذهبا إلى فرعون إنه طغى، اذهبا جميعاً إلى فرعون إنه قد جاوز الحد في الكفر والطغيان والظلم، والظلم جاوز.

قال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]

قولا له قولاً لطيفاً جميلاً حسناً؛ لأن القول سبب تديين القلب، القلب قاسم النفس قوية أحياناً الحمية تكون أيضاً لها دور عظيم في رد الحق، والكبر والتكبر سبب والكفر والطغيان والظلم كل ذلك سبب في رد الحق، فلابد أن يؤخذ مثلها مثل هؤلاء بالقول اللطيف والقول الطيب والقول اللين. ولذلك أوصل أن تقولا له قولاً ليناً؛ لأن القول اللين سبب في أن يتذكر، يعني ما هو عليه ويخشى، أن يتذكر الهداية والصلاح والإقبال على الله ويخشى العقوبة، ويتذكر هذا الأمر هذا إلى فرعون. فقال قال هنا: قولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، ما هو القول اللين؟ عرفنا أنه القول الذي الجميل الحسن، لكن ما هو قول لون إلى القول اللين؟ قال الله سبحانه وتعالى في سورة النازعات: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ - ١٩]

هل لك إلى، هل تريد الزكاة وتطهير نفسك وأهديك إلى ربك تكون سبباً في أدائه إلى ربك فتخشى؟ هذه هذا هو القول اللين الذي ذكر الله في سورة النازعات.

قال هنا لما قال الله لهم أن هذا إلى تقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، وتقوم على حجة حتى لا يقول لولا أرسلت إليّ رسولاً فأتبع آياتك، حتى تقوم على الحجة. فقال القرار، ماذا قال موسى وهارون؟ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى، يفرط علينا أن يعاجلنا بالعقوبة، هذا سفاك الدماء ويقتل ويبطش ومتكبر ويدعي انه الرب ويدعي أنه الإله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]

وهو كما يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]

وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، ويفرط عليه يفرط عليهم بالعقوبة إما بالقتل أو السجن كما قال هو، قال لأجعلنك من المسجونين، أو أن يطغى يتمرد على الحق ولا يقبل ويرده ويستقبل، ماذا نخاف من هذا من هذين الأمرين؟ إما أن يعاجلنا بالعقوبة أو أنه يتكبر أيضاً ويرد الحق.

قال لا تخافا ولا تخاطب، قال الله لموسى وهارون:

﴿قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]

لا يمكن أن يفصل ولا يمكن أن يتعدى عليكم ولا يمكن أن يعاجلكم بالعقوبة ولا يمكن أن يتكبر عليه، لا يمكن الله معه. وفي آية أخرى **قال**: سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون

إليكما أنتما ومن اتبعكما الغالبون؛ فهل بعد هذه الإشارة وهذا الخبر من الله سبحانه وتعالى أن يكون في نفسه بنفسه موسى وهارون أو في قلبهما شيء من الخوف وشيء من التردد والشك؟ لابد له فيذهبان وهما مطمئنين، وهما مطمئنان.

قال: لا تخافا، من فرعون ولا من بطشه ولا من جنوده، لا تخافا إنني معكما أسمع؛ معكما المعية، الله معهم لاي خاصة معية النصر. والتأييد والتمكين، إنني معكما أسمع كلامكما وأرى أفعالكما فلا يمكن أن، يعني يمكن أن يعتدى عليكم، ولا يمكن لا يمكن أن يعني يعتدي عليها. ولذلك **قال:** فأتياه، يذهب إليه، أقول إنا رسولا ربك، إنا رسولا ربك، ولكن هكذا أبداً وإنما نحن أرسلنا الله رب العالمين إليك، إنا رسولا ربك هناك وتؤمن برب الله وترجع، هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى؟

وأيضاً جئنا لننطلق بني إسرائيل، أرسل معنا بني إسرائيل أطلقهم من هذا العذاب والأسر، فكهم ليذهبوا إلى بلدهم، أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم، معنا بني إسرائيل ولا تقل لهم بما لا يطيقون، الأعمال الشاقة تعذبه، تحذير ولا تعذبهم. قد جئناك بآية، فرعون هناك الآية من الله، أتيناك بدلالات ومعجزات من رب العالمين على أننا لقد صدقنا في دعوتنا، جئناك بالحق جئناك بالحق: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧]

لاحقاً لمن ربك يعني هذا الذي سيأتي بعد قليل يقول فمن ربكما يا موسى أو يقول وما رب العالمين. بدأ موسى بهم قال جئناك بآيات من ربك لتكون أن يكون سبباً في هدايتك ونجاتك من النار ومن الهلاك، جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع، السلامة والنجاة والسلام كل من عذاب الله، من عذاب الله هذا يكون لمن اتبع هدى الله، أما من لم يتبع هدى الله فلا سلام عليه ولا مجادلة والسلام على من اتبع الهدى، ما بين أنهم لم يأتوا هكذا أبداً أو من أو من تلقاء أنفسهم وإنما هم جاءوا بأمر من الله سبحانه وتعالى.

قال: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]

اسمع يا فرعون إن الله أوحى إلينا، جاء الأرواح من السماء، وإن الله أوحى إلينا هذا الأمر ما هو؟ أن العذاب والعقوبة والرطوبة تحل على من كذب الحق وتولى وأعرض، وأعرض عن دعوة الله وكذب رسول الله، الله العقوبة على التحذير، الترغيب تلاحظ يقول له قولا ليناً هل لك إلى أن تزكى ثم بدأ

يبدؤون معه الرجاء والترغيب ثم التحذير والتخويف التخريج، أن العذاب على من كذب وتولى، جاءوا من هنا من هنا لأنه يشعر بشيء من قبل هذه الدعوة، ماذا كان جوابه؟

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]

هذا الكلام هذا يعني هذا السؤال يعني على وجه الإنكار ويعرف ولكنه يريد أن يمكن، يريد ويريد أن يشغل الحاضرين ويسهر موسى وهارون بأشياء هو يعرف الجواب عليها ولكنه يتجاهل ، من ربكما يا موسى، من الذي أسألكم إليه، من ربكما يا موسى يا موسى عليه؟ واقام الحجة عليه بقوة: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]

وفي آية أخرى قال: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]

وهنا يعني وجه إليه جواباً آخر أن انظر إلى الخلق وتأمل، هذا هو رب العالمين ربنا الذي خلق الخليق كله خلق الخلق كله، خلق الخلائق كلها وأعطى كل خلق أعطاه ما يناسبه، الذي أعطى كل شيء خلقه ما يليق به، فتجد من مخلوقات الله الصغير والكبير كل شيء خلقه الله وأعطاه وهداه لما خلق له، هداه لما خلق له.

فتجد النمل خلقها الله سبحانه وهداها بطريقتها وصنعها ومعاملتها وعملها شهرها وهكذا، والنحل وكل المخلوقات كل المخلوقات خلقها الله وهداها لما خلق دبرها الله وواجهها الله، وما خلقت الطيور والزواحف وعالم أو مخلوقات البحار وغيرها، كل هذه تعرف هذه الأمم أمم أمثالنا نعرف لماذا خلقت وتعرف من خلقها وتعرف تبحث الرزق هي وتعرف ما يضرها وتبتعد عنه وتعرف ما ينفعها وتقوم وتقترب من وهكذا، أشار أنه قال أن ننظر إلى الكون وانظر إلى وتأمل هذا الخلق العظيم الذي خلقه الله وأعطاه، أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

فلما عرف فرعون ولم يستطع الإجابة على هذا الشيء أجاب بجواب قوي والزمان الحجة ماذا قال؟ ترك هذا الكلام وانتقل إلى كلام آخر لأنه يريد أن، ويريد أن يتجاهل ويريد أن يشغل الناس، فقال فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]

قال فرعون على وجه المغاربة وأول كما قال بعض على وجه المشاغبة يريد أن يضيع الوقت، قال فما شأن الأمم السابقة أين ذهبت وما خبر القرون الماضية، سبقونا إلى الكفر والإنكار ماذا جرى لهم؟ كلهم

كانوا مثلنا وأشد ما الذي جرى لهم، يريد أن يسأل على الأمم الماضية لأنه يسمع بها يسمع بها وتأتيه أخبار المال، فما بال القرون الأولى؟ قال: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]

القرون الأولى كما بات في كتاب عند الله سبحانه، علمها عند ربي الله يعلم تلك القرون فيما فعل الله بها وماذا جرى لها وأرسل إليها الرسل وأقام عليها الحجة وأهلك من أراد إهلاكه وأنجى من أراد إنجاءه، كل ذلك في اللوح المحفوظ في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، لا يضل ربي في أفعالهم وأحكامه ولا ينسى شيئاً مما علمه سبحانه وتعالى، الضلال وعن النسيان فهو لا يقل سبحانه وتعالى ولا ينسى ألا ربي والإنسان الذي.

ثم بدأ يستطرد لما رأى أنه لا يريد أن يصل إلى الحق ولا يريد الحق، استطرد في بيان الأدلة الدالة على وحدانية الله وعلى وجوده وعلى قدرته سبحانه وتعالى قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣]

ربنا الذي جعل لكم الأرض مهداً، هذا هو جعل الأرض فراشاً ممهداً تستطيع أن تمشي عليها وتبني عليها وتجري عليها، وسلك لكم فيها سبلاً جعل فيها الطرقات تتنقل من مكان إلى مكان بسهولة فيها السبل جعل فيها الطرقات الكثيرة التي تستطيع أن تتنقل من مكان إلى آخر. قال وأنزل من السماء ماء المطر، أنزله من السماء لحكمة وهو قال وأخرجنا كيف أخرج أنواعاً مختلفة من النباتات فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى، اخرج جميع هذه الأصناف المختلفة من النباتات المختلفة الكثيرة.

انظر إلى النباتات والأشجار والى الأولين التي الذروع مختلفة الألوان مختلفة الطعام مختلفة المختلفة في ثمارها، من أوجدها كلها تسقى بماء واحد؟ فهل تنكر هذا الشيء هذه الأدلة يسميها العلماء أدلة مشاهدة، أدلة كونية أمامك لا يمكن إلا شخص يغالط ويتجنبها وإلا ما في أحد ينكر هذه الأشياء. قال:

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]

كلوا أيها الناس من الطيبات لما أخرجوا لكم الطيبات الدروع والثمار وارعوا انعامكم شي لكم وشيء لأنعامكم، إن في ذلك لآيات، ليست آية واحدة، علامات على قدرة الله ووحدانيته وإحاطته سبحانه وعلمه وإن ترابه بالعبادة لمن؟ لآيات لأصحاب العقول، لذوي العقول عن أهل العقول، هؤلاء هم

المستفيدون المستقيمون، قال يعني يقول وحدانيته سبحانه وتعالى، يقول إنها أول من هم من هم أصحاب العقول السليمة النيرة العاقلة التي تعرف تدرك ما ينفعها وترجع دائماً ما يضرها.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]

منها خلقناكم أي هذه الأرض التي أنبت الله فيها من النباتات العظيمة، ذكرهم خلقهم قال منها خلقناكم أيها الناس خلقهم الله وفيها نزيلكم خلقكم الله من هذه التربة، خلق آدم من تراب من الأرض، منها خلقناكم وفيها نعيدكم بعد الموت، أما يموت الإنسان يعود إلى هذه الأرض يدفن فيها ومنها نخرجكم يوم القيامة تارة أخرى، إخراج آخر كما أخرجناهم في الأول الأمر، هناك من هذه الأرض سنخرجكم منها، فكيف تنكر اليوم الآخر وتنكر الجزاء والحساب والجنة والنار وأنت تعرف أنك خلقت من تراب ثم أجل هذه الدنيا ثم عدت إلى هذا التراب ثم يبعث الله عليك؟

أن تؤمن بهذه الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله على أن الله استدل على قدرته على البعث بأمرين:

الأمر الأول: إخراج هذه النبات كما أحيا الأرض بهذه النبات قادر على أن يحييك.

والامر الثاني: كما أنه أحياك في الأول من تراب خلقك من هذه الأرض منها خلقناكم فإنه يحييك مرة أخرى من هذه الأرض.

كيف تنكر البعث والجزاء والجنة والنار إلى آخره الأيام هذه يعني هذا الحوارات، هذا الحوار مع فرعون، وهذه هذه الأموال وإقامة الحجة عليه وما جرى من موسى وهارون معه، هذه الآيات لا تزال تطلب معنا، لكن لعلنا نقف عند هذا القدر ونكتفي بذكر هذا، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى آله وصحبه أجمعين.

(طه ٥٦ - ٧١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء المرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للرابع من شهر ربيع الآخر من عام ألف وأربعمائة وثلاثة وأربعين، ومجلسنا المجلس المبارك في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي سورة طه. ولا زلنا في قصة موسى مع فرعون، ووصل بنا الحديث عند الآية السادسة والخمسين، من يتابع معنا في المصحف هي الآية السادسة والخمسون.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦]

ولقد أريناه؛ أي فرعون، أراه الله الآيات والعبر والأدلة والحجج، وأقام عليه الحجة، جاءه موسى بالآيات البينات. قد يسأل سائل يقول: ما هي الآيات التي قال الله فيها آياتنا كلها؟ كيف آيات كلها وهي فقط العصا التي ألقاها انقلبت حية أو ثعبان، واليد التي أخرجها من جيبه فأصبحت بيضاء من غير سوء؟

نقول: هذه الآية هي أعظم الآيات، آية العصا وآية اليد هي أعظم الآيات، وإلا هناك آيات قد يكون القرآن لم يفصح عنها ولم يذكرها، وذكرها مجملة في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]

تسع آيات بينات. إذا قال الله: ولقد أريناه؛ أي شاهدها بعينه، أريناه يعني راها عياناً أمامه، آياتنا قد تكون تسعاً، وقد تكون أكثر، وقد تكون أقل، وقال:

﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦]

أن يكذب هذه الآيات، وكذب ما أخبر به موسى وأنكر، ولم يطع ولم يقبل، وأبى يمتنع وأعرض ولم يقبل ذلك؛ عناداً واستكباراً وتمسكاً بما هو عليه.

قال الله سبحانه، قال عنه، قال؛ أي فرعون:

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧]

لاحظ يعني التعدي على حق موسى، وانظر وتأمل الآية حتى يقر الجالسين الملأ، يقول إن هذا -كما في آية أخرى، آية أخرى ماذا قال؟ قال-:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ﴾ [الشعراء: ٣٤ - ٣٥]

فقال: يخرجكم أنتم، وهنا **قال:** لتخرجنا من أرضنا. كأن موسى جاء لإخراجهم ولإيذائهم، وهذا فيه، كان بأسلوب فرعون -لمن تدبر أيها الإخوة- كان أسلوب فرعون هنا يريد أن يحرض القوم على موسى، يقول: هذا، انظروا، هذا جاء ليخرجكم من أرضكم، هل ترون؟ هل تسمحون له؟ ما رأيكم؟ هذا يريد أن يستولي على دياركم، على أرضكم، ويخرجكم منها أذلة صاغرين، فهل ترضون بذلك؟

هذا كله أسلوب لأنه لما رأى الآيات ولم يستطع الرد عليها، ولم يقتنع بها، ولم يرضَ بها، قال بالقضية، فقال إن هذا ساحر، **قال:** بسحرك يا موسى، ويعلم أنه ليس بسحر، **قال:** لتخرجنا من أرضنا، وفي آية أخرى قال: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠]

فبدأ يعني يحرض الملأ على موسى، ويقول: أنتم هل ستسكتون؟ أو ماذا ستصنعون؟ ماذا تقولون؟ تحركوا. فقال: أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨]

والله لنأتينك بسحر مثل ما جئتنا بهذا السحر، نحن نأتيك بسحر، وهذا كله تمويه وهو يعلم أن موسى ليس معه سحر، ولكنه يريد أن يشغل الملأ ويضيع الوقت، وإلا هو يعرف، ولذلك يعني أراد أن يشوه سمعة موسى أمام الملأ، **قال:** لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى، فلنأتينك بسحر مثله، مثل ما عندك أنت من سحر، نحن عندنا سحرة نأتي بهم، ولذلك قال في آية أخرى:

﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦ - ٣٧]

قال: فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً. موسى عليه السلام وكأنه يعني قد هبطت الأوراق أمامه وبدأت الأمور تضيع أمامه، كيف يطلب من موسى الموعد وهو الحد؟ هو يتهم موسى أن يحدد الموعد، دليل على أنه أصبح الآن يعني في ارتباك شديد، **قال:** فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه، يؤكد على القضية.

قـال: نحن لا نخلف هذا الموعد، ولا نتخلف عنه نحن، ولا أنت أيضاً تخلفه، مكاناً سوى؛ يعني مكاناً واضحاً بارزاً، ومكاناً يستوي العلم فيه، نحن وأنتم وأنت سواء في معرفة هذا المكان، فاجعل بيننا وبينه حتى نتمكن من الإتيان بالسحرة، نحاربك على سحرك هذا ونقضي عليك.

موسى رد عليه بقوة، ولم يكل الأمر إليه أو ماذا تنظرون أو ماذا تأمرون، لا، رد عليه بقوة، وهذا دليل على قوة موقف موسى عليه السلام، قال:

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]

وهو يوم العيد الذي يجتمعون فيه، العيد تتعطل فيه الأعمال وتغلق المحلات، ويكون الناس قد تفرغوا. **قال:** موعدكم يوم الزينة، يوم الاجتماع والعيد عندما يتفرغ الناس من أشغالهم، **قال:** وأن يحشر الناس ضحى، قالوا: وأن يجمع الناس وقت الضحى.

لأن وقت الضحى هو وقت الظهور والبيان والسطوع، يكون هناك الاجتماع في هذا الوقت وفي هذا اليوم المناسب والوقت المناسب. واختار موسى عليه السلام اليوم المناسب والوقت المناسب بأن يجتمع الناس في وقت الضحى وفي هذا اليوم. ولماذا يكثر الاجتماع؟ لأن موسى عليه السلام قد تيقن بوحي من الله أنه سينتصر، وأنه سيظهر الحق على يديه، فأراد كثرة اجتماع الناس وأن يروا الحقائق أمامهم، يروا الحقائق أمامهم. فلذلك حاول أن يغتنم الفرصة حتى يجمع أكثر وأكثر ليؤمنوا ويصدقوا بدعوته، فجاء رد موسى عليه السلام **قال:** وأن يحشر الناس ضحى.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠]

انطلق يجمع من السحرة، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، وفي آية قال:

﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦ - ٣٧]

يعني ما هي جودة السحر؟ لا تأتون بأي ساحر، لا، لا بد أن يكون ساحراً متقناً لسحره، فاهماً عارفاً لهذا الأمر، يأتوك بكل، قال هنا: فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى، جمع السحرة. فلما جاء السحرة، قالوا مستغلين الآن الموقف وبدأوا يعني يطلبون من فرعون، قالوا:

﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١ - ٤٢]

يقول: أعطيكم الأجور وأقربكم عندي وتكون لكم المنزلة والحظوة عندي، وإنكم إذاً لمن المقربين.

لما جاءوا واجتمعوا أمام موسى عليه السلام، وموسى لم يكن معه إلا أخوه هارون، موسى وهارون اثنان واقفان أمام أعداد هائلة، قال بعض المفسرين إنهم كانوا، وصل العدد بهم إلى اثنين وسبعين ساحراً، اثنين وسبعين ساحراً، وكل ساحر معه حبل وعصي، العدد كبير جداً أمام شخصين.

فلما رآهم موسى، قال بعضهم لما جمعوا من جميع البلدان، وعظهم موسى وأقام عليهم الحجة وحذرهم وخوفهم من الله، قال:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]

لا تكذبون على الله، لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب، لا تنتصرون على الحق، ولا تردون الحق، الحق معي وقد أوحي إليه:

﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]

وإلى أن من أطاعني سعد في الدنيا والآخرة، ومن عصاني فقد شقي. وبين لهم دعوته وأقام عليهم الحجة وحذرهم أن لا يتناصروا بالباطل على الحق، ويأتوا بسحرهم الباطل أمام الحق الذي هو آيات الله وليست بسحر، وإنما هي آيات. وقال: لا تفتروا على الله كذباً فيستأصلكم بالعذاب، يسحتكم؛ يعني لا يبقى منكم أحداً، ينزل عليكم العذاب فيضيع سعيكم في الدنيا والآخرة.

فلا أنتم حصلتم موعودكم به من فرعون، ولا نجوتم في الآخرة، احذروا كل الحذر أمام آيات الله وأمام حجة الله سبحانه وتعالى. فماذا صنعوا؟ **قال**: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾ [طه: ٦١]

فقالوا، ماذا صنعوا؟ قالوا: لما سمعوا هذا الكلام:

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ [طه: ٦٢]

تنازعوا أمرهم بينهم، بدأوا وأسروا النجوى، الارتفاع، ارتفع الخصام بينهم والنزاع بين السحرة، بين مصدق ومكذب، فبعضهم يقول: إن موسى على الحق، وإن ما معه من الآيات هي حجة الله، وبعضهم قالوا: إنه ساحر، وإن موسى، وإن فرعون قد وعدنا الوعود الطيبة، نبقى وسننتصر عليه، فبدأوا يتنازعون هذا الأمر، فكان الأكثر من السحرة أنهم رضوا بما وعدهم فرعون، وقالوا: لا بد أن نقف أمام هذا ونقضي.

عليه، فتنازعوا وأسروا النجوى، أسروا الحديث بأنهم سينتصرون لفرعون بما وعدهم به، وأسروا النجوى.

ولذلك قالوا أمام الناس، رفعوا أصواتهم وقالوا:

﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣]

أي موسى وهارون، إن هذان لساحران، وشك في الترتيب والتوافق مع فرعون، فرعون **قال:** يريد أن يخرجكم من أرضكم، والملأ قالوا لفرعون أيضاً، قالوا: يريد أن يخرجكم من أرضكم، والسحرة الآن يقولون هذا الكلام، يقولون: إن هذان لساحران؛ أي موسى وهارون يريدان أن يخرجاكم، أيها الناس المجتمعون الحاضرون يريدان أن يخرجاكم بسحرهما، ويخاطبون أيضاً السحرة الذين معهم، يخاطب بعضهم بعضاً، يقول: يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم، بطريقتكم المثلى؛ أي طريقتكم التي هي أفضل الطرق، وهو لا يبقى لكم أي دور، وينتهي دوركم في السحر؛ لأن هذا الساحر موسى وأخوه هارون يريدان أن يخرجوكم ويقضوا على هذه المهنة التي أنتم تزاولونها، ولا يبقى لكم أي دور، كما قال فرعون مثلما ذكرنا، مثلما قال فرعون، ويتوافق هؤلاء مع فرعون.

فلما وصلوا إلى هذا واتفقوا على أن يبارزوا موسى وهارون، قالوا لموسى: يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى، لأنهم قالوا، قالوا ويذهبا بطريقتكم المثلى، قال:

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٤]

أي قال بعضهم لبعض السحرة: اجمعوا كيدكم، يعني كونوا كلكم على، كونوا كلكم على يد واحدة متظاهرين متناصرين، ثم ائتوا صفاً، تجتمعون كلكم صفاً واحداً، تكون كلمتكم واحدة ووقفتكم واحدة أمام موسى وهارون، تشددوا شدة في الأمر وعزموا يواجهوا موسى بهذه المواجهة القوية.

هم قالوا: وقد أفلح اليوم من استعلى، شجع بعضهم بعضاً، إنكم إذا، إذا أفلحتم اليوم، إذا استعليتم فقد أفلحتم وكنتم عند، مو عند فرعون بحظوة عظيمة ومكانة عظيمة. قالوا: يا موسى، لما وقفوا وقفة واحدة وجمعوا كيدهم ومعهم في أيديهم، بأيديهم كل واحد بيده عصاً وحبل، حبالهم وعصيهم، فاجتمعوا وقالوا:

﴿قَالُوا يَٰمُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥]

إما أن تلقي عصاك ثم نلقي عصانا وننظر أينا الذي ينتصر، وإما أن نحن الذين نلقي ثم أنت تلقي عصاك. موسى وقفته قوية أمامهم، **قال:** لا، ألقوا ما في أيديكم، طالبهم بالإلقاء:

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]

وفي سورة أخرى قال:

﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]

فألقوا حبالهم وعصيهم، فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه؛ أي إلى موسى، يعني يكون أمامه، يظهر أمامه أنها تتحرك، لأنه قال بعض المفسرين إنهم وضعوا الزئبق على العصي. وأعطوها ألواناً زاهية وأعطوها رسوماً كالثعابين، ولأنهم أُخبروا بأن موسى إذا ألقى عصاه انقلبت ثعباناً فقالوا: نأتي بسحر مثله، فلما ألقوا هذه الأشياء التي أشبهت الثعابين، في العصي. والحبال بهذه الألوان ومع هذا الزئبق والشمس التي سطعت عليهم، بدأت تتحرك هذه الأشياء كأنها ثعابين، يخيل إلى موسى من سحرهم البليغ أنها تسعى، كأنها ثعابين وكأنها حيات تتحرك وتسعى.

فلما رأى ذلك موسى ماذا حدث لموسى؟

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧]

موسى هذه بمقتضى الطبيعة، طبيعة البشر، أنه أحياناً الخوف الطبيعي هذا يخاف مهما كان، وإلا فهو جازم وعالم بأن الله سينصره، وأن الله كما قال سبحانه: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]

وهو جازم، ولكن طبيعة الإنسان أن يصيبه شيء من الخوف، فأوجس في نفسه خيفة موسى، قال الله سبحانه وتعالى فأوحى إليه، قلنا: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨]

لا تخف يا موسى، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى عليهم، ستعلو عليهم وستظهر عليهم وستنتصر عليهم، ، ويصبح اذال أمامك، ستنتصر عليهم، فقال: إنك أنت الأعلى، وألقِ ما في يمينك؛ أي ألقِ العصا التي في يمينك:

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]

تلقف؛ أي تبتلع وتأخذ تلقف ما صنعوا، إنما صنعوا، هذا تعليل، هذا الصنع الذي صنعوا كيد ساحر، والساحر لا يفلح أبداً، ولا يفلح الساحر حيث أتى، في سورة أخرى قال موسى لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١]، وفي سورة أخرى **قال:** ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]،

الساحر لا يفلح أبداً، قال هنا: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]

كيد السحر والمكر هذا لا يمكن أن ينجح مهما كان، أمام الحق، وسيبطل وسيزول وسيدمحل ويزهق الباطل أمام الحق، ألقِ ما في يمينك.

فلما ألقاها، ألقاها موسى فإذا هي تلقف ما يأفكون، فبدأت تبلع، هذه الحبال والعصي، قد فتحت فاها وهي تمشي بين الناس وبين السحرة وتلتقط كل ما في أيدي السحرة مما صنعوه كذباً وزوراً حتى قضت عليه. فلما رأى السحرة وأنظارهم، وقد كانوا مترددين في الأمر ما بين مصدق ومكذب، لما رأى السحرة هذه الآية العظيمة عرفوا أن هذا ليس بسحر، لأنهم سحرة ومهرة في السحر ويعرفون، وتبين لهم الحق وأن هذا ليس بسحر، أن هذا الأمر ليس بسحر، فلذلك ماذا؟ بادروا بالتصديق والإذعان وقبول ما وعظهم به موسى وحذرهم منه: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]

يقول بعض المفسرين: في أول الأمر ألقوا حبالهم وعصيهم مفتخرين، وآخر الأمر ألقوا رؤوسهم على الأرض ساجدين خاضعين لله، فانظر الفرق! فالقي السحرة ساجدين، قالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون، قبلوا موعظة موسى لما قال إني رسول من عند الله، ووقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، وظهر الحق وبطل السحر والمكر والكيد في ذلك المجمع العظيم المشاهد، وصارت البينة والحجة قائمة عليهم.

قال فرعون لما رأى هذا المشهد، وهو متردد وخائف، ماذا قال؟ يريد أن يظهر قوته أمام الناس، وأن هؤلاء السحرة يعني أنهم كانوا قد تآمروا على فرعون، وأراد أن يظهر قوته، فقال للسحرة:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١]

كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة؟ هذه لا بد أن يكون هناك أمر قد خفي عليه، استغرب هذا الأمر حتى يظهر أمام الناس، بدأ يموه أمام الناس ويخدع الناس بكلامه، فقال يعني يريد أن يستخف عقول الحاضرين، وقال إن هذه الغلبة هي خدعة، وأن هؤلاء السحرة قد تمالؤوا عليه وموسى، وأن كما في آية أخرى **قال:** ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]؛ أي أن موسى هو كبيركم وهو رئيسكم وهو الذي دربكم وعلمكم، وأنكم قد اتفقتم معه ضدي، وبدأ يشوه سمعة السحرة، وهو في الأول كان يمدحهم، والآن صار ضدهم أمام الناس، وقال: إن إنه لكبيركم الذي علمكم السحر؛ أي هذا موسى هو كبيركم وهو الذي دربكم وعلمكم السحر، اتبعتم إليه وضحكتم.

يعني من على من حضر واجتمع، قال ثم توعدهم بالوعيد الشديد، **قال:** والله لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف. لماذا قال؟ حتى تكون عبرة لغيرهم، حتى لا يؤمن ولا يصدق أحد، ولا يتبع موسى أحد غيركم، وأنتم ما دام أنه حصل لكم هذا الأمر واتبعتموه لن أترككم، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف.

لماذا اختار قطع الأيدي والأرجل من خلاف؟ قال لأن هذا الفعل يفعل بالمفسدين، وهو الآن حمل هؤلاء السحرة على أنهم يفسدون في الأرض، ولذلك **قال:** فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وزيادة على ذلك ماذا قال؟ ولأصلبنكم في جذوع النخل، حتى يراكم كل من يراكم، كل شخص يمر يعرف أنكم قد خرجتم عن ملك فرعون وعن أمر فرعون، وهذا كله عبرة لكل من أراد أن يخرج عن ملكه وعن حكم فرعون، وأصلبنكم في جذوع النخل.

هل قطع أيديهم وأرجلهم وهل صلبهم؟ قال بعض المفسرين: نعم، إنه فعل ذلك لقوة فيه وجبروت. وقال بعضهم: لم يستطع؛ لأن الله حمى هؤلاء المؤمنين الصادقين لأنهم أصبحوا أولياء الله فلم يستطع هذا الأمر. ورجح السعدي في تفسيره أنه لم يقدر على فعل هذا الأمر ولم يقطع ولم يصلب، والعلم عند الله.

طيب، أيها الإخوة، لا نريد الإطالة عليكم، لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله يأتي الكلام عن موقف السحرة مع فرعون، وماذا فعل بهم، وماذا ردوا عليه، وإن شاء الله للحديث بقية بإذن الله.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(طه ٧٢ - ٧٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصلى وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛

اللّٰهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اليوم المبارك يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من شهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف من هجرة النبي ﷺ، لقاؤنا لا يزال في تفسير سورة طه ونواصل ما توقفنا عنده، وهو ما جرى بين موسى عليه السلام والسحرة في الآيات السابقة عندما ألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون.

فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون، وألقي السحرة ساجدين؛ قال الله سبحانه وتعالى يعني فألقي السحرة سجداً، قالوا آمنا برب هارون وموسى. لما آمنوا واتبعوا موسى، قال الله فيهم، أو قال بذلك فرعون:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]

لحظة، هذا الاستفهام من فرعون يقول آمنتم له قبل أن آذن لكم؛ قبل أن أعطيكم الإذن بذلك. هل الاستفهام نسميه على العلم؟ استفهام تهديد يهددهم؛ كأنه هو أصبح مالكاً لقلوبهم ومالكاً لعقولهم والتصرفات أو لتصرفاتهم؛ وفي أول الأمر سابقاً كان يقول لما قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين؛ كان يترجاهم أن يأتوا ويعطيهم هذه الوعود.

والآن لما آمنوا وصدقوا برسالة موسى قال كيف تؤمنون وأنا قبل ان اعطيكم الآذن؟! هذا أمر هو يريد بهذا هو يقصد بهذا أنه لا يزال في قوته، وأن موسى لا يزال ضعيفاً وليس له أي قيمة؛ وأن هذا العمل منهم، هذا العمل منهم لا بد أن يؤدب عليه حتى لا يغري غيرهم ان لا يتأسى بهم وان لا يؤمن، حتى

يضعف قيمتها يضعف قيمة يعني موسى وأنه ليس له أي قيمة، هذا هو قصده؛ ولذلك هذا هو المقصود من الكلام.

وأراد بذلك أن يعني يشجع نفسه ويشجع الملأ على أنه لا يزال في قوة وفي صمود أمام ما جاء به موسى عليه السلام؛ ولذلك قال كيف تؤمنون من أذن لكم بهذا الإيمان؟! ثم غير فقال إنه لكبيركم؛ أي موسى هو الذي علمكم السحر، موسى هو كبيركم وهو رئيسكم وهو سيدكم الذي هو شيخكم الذي علمكم السحر، كبيركم الذي علمكم فنون السحر حتى أصبحتوا ماهرين في السحر، اتفقتم أنت وإياه على أن تتواصلوا وتتفقوا وتتواطؤوا ضد مملكتي وضد قوتي؛ غير حتى يغري الجلساء ويغري البقية بأن لا يتأسوا بالسحرة؛ لأنه إذا رأوا السحرة قد آمنوا وصدقوا وهم سحرة كان هذا سيؤثر على الحاضرين وسيؤثر على الجالسين وعلى الملأ من قوم فرعون، لذلك أراد أن يقضي على هذا الأمر فقال:

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ﴾ [طه: ٧١]

فهددهم بسلطان قوته وجبروته وجنوده على هؤلاء الضعفاء الذين آمنوا، والذين آمنوا بالله وآمنوا برسالة موسى. ولاحظ أن عقوبته شديدة؛ لم يقل سأقتلكم، لو قال سأقتلكم لكان ريحاً لهم، كثير بها هؤلاء، سأعذبكم.

ما هو العذاب؟ من خلاف؛ اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، والرجل اليسرى مع اليد اليمنى، وهكذا يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. وهذا العمل لمن يكون؟ هذا يكون للمفسدين كما في آية المحاربة:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ﴾ [المائدة: ٣٣]

ففي ذلك هو نزلهم منزلة المفسدين، وهو في الحقيقة هو المفسد ولكنه أراد أن يشوه صورة موسى وأن يشوه صورة أتباع موسى، وقال لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل. هذه يعني زيادة على العقوبة أنه سيصلبهم في جذوع النخل؛ يعني بعد ما يأخذهم يصلبهم يربطهم فيها.

لماذا؟ أولاً زيادة في عقوبتهم، والأمر الثاني حتى يراهم من يراهم فيعتبر بهم، وحتى لا يقتدى بهم؛ وهو أراد أن يموتوا موتاً بطيئاً لأنهم إذا ربطوا في جذوع النخل وقطعت أيديهم وأرجلهم وبدأ الدم يسيل

منهم فإنهم سيهلكون من الجوع ومن العطش ومن شدة الألم، وأراد أن يعاقبهم بأشد العقوبات في جبروته وغلظة وقسوته.

طيب، قال لكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى؛ معنى حتى تعلموا أينا أشد عذاباً وأبقى يعني أينا أشد عذاباً هل عذاب الله أو عذابي أشد؟! وأينا الذي يبقى عذابه عذاب الله أو عذابي أشد؟! وهذا جراءة منه وتعدي على حدود الله سبحانه وتعالى. ذكرناها في لقائنا الماضي هل نفذ فيهم هذا الأمر وقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم في جذوع النخل وإلا مجرد فقط يعني تهديد ووعيد شديد؟ بعض العلماء قال إن هذا مجرد تهديد ولم يستطع، لم يستطع فرعون أن يفعل بهم هذه الأفاعيل لأنهم أصبحوا أولياء لله وأصبحوا في ولاية الله سبحانه وتعالى والله يحفظ أولياءه؛ وبعض المفسرين يقول نعم إنه فعل هذا الفعل لشدة جبروته وغلظة عمله، والله أعلم بذلك، الله أعلم بذلك؛ وبعض العلماء الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره وغيره رجح لهم أنهم لم أنه لم يفعل بهم هذا الشيء لم يفعل بهم.

قال فردوا عليه، فرد عليه السحرة بقولهم كما حكى سبحانه:

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]

لأنه قدم حق الله على، جاءتهم البينات، جاءتكم البينات من الله، من الله فلن نؤثرك ولنجعل مقدم حقك على الله إلا الحق، الله فوق كل شيء فلن نؤثرك ولن نقدم نجعل أمرك خيراً من أمر الله فلن نجد له أمراً كذا. ماذا تفعل؟ قبل وأثناء ذلك ما جاءنا من الفعل ما جاءنا من البينات والحق والهدى من الله سبحانه، والهداية، والذي فطرنا؛ أقسم بالذي فطرهم وهو الله سبحانه وتعالى، قال والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض؛ افعل ما تريد أن تفعله كل هذا لا يغيب عندنا ولا يؤثر فينا أبداً، فاقض ما أنت قاض؛ اقتل وافعل، إنما تقضي هذه الحياة الدنيا الشريعة الزوال التي لا تبغى أو لا تبقى لأحد يعني راحة في هذه الدنيا، فافعل ما شئت، افعل ما تشاء فإنك ومهما فعلت لن يعني تخرج بشيء ولا نحن سنقف صامدين أمامك، فافعل ما شئت أن تفعله.

يقض ما أنت قاض يعني هذا تهديد منهم، يعني وأنت وأتباعك أو نقول إن هذا الذي يقوله هو لا وزن له عندهم، لم يعتبروا به ولم يخافوا منه، افعل، يفعل ما يشاء، لا نقدم طاعة الله على طاعتك، ولن نقدم

طاعتك على طاعة الله؛ لأن آثرتك على ما جاءنا طاعة الله فوق وأمر الله فوق أمرك، ولا أنت مثل ما أنت فاعله؛ وإذاً تهديداتك فقل ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا؛ يعني افعل ما شئت وإنما هي هذه الحياة الدنيا التي تقضيها وهي سريعة الزوال وعذابها أهون من عذاب الآخرة.

ثم صرح وقال:

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣]

إنا آمنا بربنا الذي خلقنا وهو الذي يملك أمرنا، الله اعترفنا، ليغفر لنا خطايانا السابقة وما فعلناه من كفر وإشراك والسحر الذي حرمه الله سبحانه وتعالى، ويغفر لهم أيضاً وما أكرهتنا عليه لكي نعارض به موسى. قد يسأل سائل هنا فيقول كيف يعني كيف أكرههم؟ هل هو أكرههم على السحر أو أعطاهم الحرية؟ نقول أول ما حشر السحرة او جاء به عند فرعون وقالوا له إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين؛ كان هذا منهم بالخيار، ولما جاءوا أمامه وهددهم موسى وخوفهم وعظهم وذكرهم بالله فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى، بدأ بعضهم يتراجع، وجاء فرعون وألزمهم بقوة وقال لا بد أن تقفوا ولا يرجع منكم أحد وإني سأعطيكم كذا وكذا، هذا معنى قولهم وما أكرهتنا عليه من السحر؛ أي أنه ألزمهم لما رأى فيهم من يرجع من ذلك.

والله خير وأبقى؛ في عذابه، عذابك يزول وينتهي والدنيا سريعة ولكن ثواب الله خير، خير وأبقى جزاؤه وجزاؤه أكثر وأعظم وعطاؤه وثوابه لا ينتهي وهو الباقي الدائم.

ثم قال سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]

هل الكلام من وين؟ هل هو من السحرة استكمال لكلامهم أو أنهم الله؟ قال بعض المفسرين أنه من السحرة ولا يزال السحرة يردون على فرعون، وبعضهم قال أن هذا من الله سبحانه وهو كلام مستأنف من الله لبيان عقوبة من يجحد وعقوبة من يخالف أمر الله أنه من يأت ربه مجرماً فإن له نار جهنم. أين هذا المجرم له جهنم له نار جهنم يعذب فيها عذاباً شديداً، من شدة العذاب أنه لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة فيها راحة، كما قال سبحانه وتعالى في آية أخرى **قال:**

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]

ثم بين سبحانه وتعالى عاقبة المتقين قال:

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥]

إيماناً حقيقياً، مؤمناً قد عمل الأعمال الصالحات، قد عمل الصالحات، ومن يأتهم مؤمناً قد عمل الصالحات أولئك لهم الدرجات العلى؛ أي المنازل العالية الرفيعة لمن آمن وعمل صالحاً. وما هي الدرجات العلى؟ **قال:**

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦]

هذه الدرجات العلى جنات عدن الباقية معنا، عدن قائمة باقية دائمة، تجري من تحتها الأنهار تجري من تحت أشجارها وثمارها وقصورها ومساكنها تجري من تحتها الأنهار، وذلك جزاء من تزكى؛ أي هذا الجزاء جزاء من زكى نفسه وطهرها من الشرك والكفر والمعاصي، هذا جزاء وعد من الله سبحانه وتعالى لمن أطاعه ودخل في دينه وفي طاعته وفي تقواه.

وإلى هذا ينتهي ما جرى بين السحرة وموسى، وما جرى بين السحرة وفرعون، انتهى الأمر وانتهت مطوية هذا الأمر، وبعدها قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]

هناك يعني فترة زمنية بعد حادثة السحرة وخروج موسى، وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي؛ خروجه من مصر فيه فترة زمنية طويلة، قال الله سبحانه وتعالى في قصة موسى وفرعون، قال الملأ من قوم فرعون:

﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]

وقال وإنا فوقهم قاهرون، وقال موسى لقومه:

﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]

فلا يزال فرعون يعذب ويؤذي ويضيق عليهم ومن حتى تنزل بهم العقوبات من الله:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]

وأخذهم الله بالعقوبات العظيمة الكثيرة، وكلما جاءتهم عقوبة لجأوا إلى موسي: يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك؛ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ويرجعون وعاقبهم الله بعقوبات عظيمة. استمرت العقوبات والتضييق منه وإلى موسى ومن آمن معه، حتى أذن الله، بإذن الله لموسى أن يخرج مهاجراً وتاركاً مصر.هو ومن آمن معه: ولقد أوحينا إلى موسى؛ يعني الله سبحانه وتعالى: أن أسر بعبادي ويخرجهم ليلاً، يعني أسرى يعني هو الخروج والذهاب ليلاً، أن أسر بعبادي ليلاً، فأخرجهم ليلاً في أول الليل، وانطلقوا مسرعين خائفين من فرعون وبطشه وملئه، فانطلقوا مسلحين. ، فلما علم بذلك جهز الجيش، جهز الجيش وانطلق يلحق بهم يلحقهم، وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي أنكم متبعون، فارسل فرعون في المدائن حاشرين إن هؤلاء لطائفة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون، فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل، فاتبعوهم مشرقين؛ وقت الشروق أو جهة الشرق على جهة البحر الأحمر. [١٣، ١٤، ١٥]

قال الله عز وجل: أن أسر بعبادي ليلاً، فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين. قال هنا: أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً؛ اضرب لهم اضرب في البحر بعصاك، أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق. هنا طلب موسى، لما ضرب موسى البحر لما ضرب موسى البحر انشق البحر وأصبح، أصبح فيه ، اثنا عشر.طريقاً، كل قبيلة من قبائل بني إسرائيل تسلك طريقاً، وكلٌ يرى الآخر بينهما فأصبحت الجبال كالفود العظيم في الجبال الشاهقة الطويلة؛ فلما وصلوا إلى البحر قال أصحاب موسى إن لم ندرك خلفنا، لا، إن معي ربي سيهدين، فأوحينا إلى موسى أن اضرب البحر. قال هنا قال اضرب لهم طريقاً في البحر يابساً؛ اضرب لهم طريقاً في البحر طريق يابس، نزل في نزله موسى ومن معه وسلكوا هذه الطرق اليابسة، قال لا تخاف دركاً ولا تخشى؛ لا تخاف أن يدركك فرعون ولا تخشى كل ذلك، لا تخشى هذا ولا تخشى هذا.

فاتبعهم فرعون بجنوده فأراد الله سبحانه وتعالى أن يهلك فرعون، ففتح المجال له وأصبح، ولذلك قال الله عز وجل في سورة أخرى:

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤]

؛ أي ساكناً، اتركه على ما هو عليه، لأنه لو ضربه لإعادة المياه، قال فاتركه حتى ينزل فرعون وجنوده ثم بعد ذلك يطبق عليهم البحر، وترك البحر رهواً وساكناً. فنزل فرعون يتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم، لما استكمل فرعون في وسط قاع البحر وجنوده نزلوا جميعاً، أرسل الله عز وجل أوامر الله عز وجل للبحر بالأمواج أن تتالطم عليهم، قال فاتبعهم فرعون بجنوده نزل هو ومن معه فغشيهم من اليم ما أصابهم من اليم، ما أصابهم وغطاهم من اليم والماء الشديد الذي أغرقهم جميعاً، وأهلك فرعون وأهلك الله فرعون ومن معه وغشيهم. ولما، قال الله سبحانه وتعالى أيضاً:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٢]

واظهر الله ببدنه على شاطئ البحر ليراه بنو إسرائيل، وهم يرونه رأي العين ولا يشكون في هلاكه. وأضل فرعون قومه وما هدى؛ أي أضلهم عن طريق الصواب وما هداهم إلى ما جاء به موسى فماتوا وهلكوا على ما هم عليه من الضلال. طيب، بعد ذلك تنتقل إلى مخاطبة بني إسرائيل بعدما نجاهم الله من فرعون وبطشه وجاوز بهم البحر.

ونزلوا نزلوا بعد البحر في منطقة يقال لها التيه وهي سيناء، وهي سيناء، فنزلوا في سيناء ليس فيها ماء ولا شجر، فلما نزلوا فهنالك الله سبحانه وتعالى أنزل عليهم من الطعام المن والسلوى، وأيضاً وأمدهم وأمر أن موسى أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، وظللنا عليهم، فاصبحوا في ظل وفي براد وفي طعام ما بين المن وهو مثل العسل ينزل عليهم فيأكلونه، والسلوى طائر يطير على مقدار الشمال يأكلون ويشربون، ويأكلون وما عندهم الماء ولكنه لم يقبل ذلك، الحديث عن الكلام يعني عن بني إسرائيل لما نجاهم الله ونزلوا في التيه يأتي كلام عنه إن شاء الله. يجعلنا إن شاء الله في اللقاء القادم

نستكمل ما يعني ذكرناه في هذه الآيات، حتى نصل بعضها ببعض ونقف عند هذا القدر، نكتفي بما ذكرناه.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(طه ٨٠ - ٩٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الموافق للثامن عشر من شهر ربيع الآخر من عام ألف وأربعمائة وثلاثة وأربعين، يجتمع جلستنا المعتادة المباركة في تفسير القرآن الكريم. والسورة التي بين أيدينا هي سورة طه. تعرضنا لمجموعة من الآيات من سورة طه، وتكلمنا عنها، ووقفنا عند قوله تعالى عند الآية رقم ثمانين من سورة طه.

وهي قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [طه: ٨٠]

ذكرنا في أول ما تحدثنا عن سورة طه أن مواقف موسى عليه السلام كانت ثلاثة؛ مواقف، يعني قصة موسى في سورة طه يمكن أن نقسمها إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول قصة موسى مع فرعون؛ لما أوحى الله إليه، وقد رجع من مدين فأوحى الله إليه بالرسالة وكلفه الرسالة ثم توجه مباشرة إلى فرعون ودعوته إلى الله سبحانه وتعالى وعبادة الله. ثم القصة الثانية قصة موسى مع السحرة؛ وما ذكره الله سبحانه وما جرى بين موسى والسحرة، وانتهى الأمر إلى وجود السحرة والأيمان بموسى عليه السلام.

وبدأ يظهر أمر موسى عند فرعون. القصة الثالثة قصة موسى مع بني إسرائيل وخاصة مع عباد العجل؛ هذه هي قصة موسى، يعني انقسمت إلى ثلاثة أقسام. الآن انتهى الحديث في الحوار بين موسى وفرعون، وانتهى الأمر إلى أن الله سبحانه وتعالى بعدما لاقى بنو إسرائيل يعني شدة عظيمة وإيذاء فرعون، واستمر في إيذائهم، وبعد ذلك أوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى أن يخرج ببني إسرائيل، أن يخرج ويحمي بني إسرائيل من بطش فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]

فانطلق بهم، فلما وصل البحر وفرعون يتبعه بجنوده وقفوا أمام البحر، فضرب البحر بعصاه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم. فلما جاوزه قال الله له: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤]

أي يتركه ساكناً كما هو عليه في طرقاته ويبسه؛ لا تضربه حتى يعود الماء. فاتبعهم فرعون بجنوده فدخل فرعون وجنوده البحر، فلما استكمل العدد تراكمت عليهم الأمواج، وغشيهم من اليم ما غشيهم. قال الله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٩]

انتهت قصة، وانتهى أمر فرعون في هذه الحادثة، وإزهاق في هذه الحادثة انتهاء أمر فرعون، وأغرق الله فرعون ومن معه من جنوده المستكبرين الطاغية. انتقلت الآيات الآن بعد ذلك إلى الحديث عن بني إسرائيل.

الآية رقم ثمانين، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [طه: ٨٠]

وهذا خطاب لبني إسرائيل، يا بني إسرائيل خطاب لبني إسرائيل الذين نجاهم الله سبحانه وتعالى من بطش فرعون لما اتبعوا موسى: يا بني إسرائيل قد أنجيناكم الله سبحانه وتعالى بهذه النعمة العظيمة، نعمة الإنجاء من بطش فرعون وقتله، **قال:** يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم، وعدوهم فرعون، وأنتم رأيتم فرعون أمامكم يغرق، وأنشره الله على، يعني أخرجه على شاطئ البحر جثة هامدة ليراه بنو إسرائيل، يراه بنو إسرائيل رأي العين. قال الله سبحانه وتعالى هنا: «**قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ**»

يعني الله سبحانه وتعالى أنجاهم، فلما جاوزوا البحر استقروا في سيناء، لما استقروا هناك قد وعدهم الله سبحانه وتعالى أن ينزل على موسى، أن ينزل عليه كتاباً فيه هدايتهم وفيه ما يحتاجون إليه وسعادتهم، **قال:** وواعدناكم جانب الطور الأيمن أن ينزل عليكم الكتاب.

والله سبحانه وتعالى من أعظم النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل نعمة أنه أنجاهم من فرعون، ثم إن الله سبحانه وتعالى أيضاً من نعمه أنزل عليهم التوراة. قال أيضاً ومن النعم التي ذكرهم الله بها، **قال:** ونزلنا عليكم المن والسلوى؛ لأنه لما نزلوا ليس معهم طعام ولا شراب، وليس هناك شيء يستطيعون أن

يتحصلوا عليه، فمنّ الله عليهم بهذه النعمة بأن ينزل عليهم المنّ. قالوا: كان ينزل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، المنّ مثل العسل، حلو مثل العسل، ينزل على الأشجار فيأكلون منها كل يوم. والسلوى قالوا: طائر مثل السمان، شبيه بالسمان يأتي إليهم، تكثر الطيور عندهم فيصطادون من هذه الطيور ويأكلون، يعني بلا كلفة يأكلون من هذا المنّ ومن هذه السلوى.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]

الأمر هنا للإباحة؛ أن الله سبحانه أباح لهم الأكل، فقال: كلوا مما رزقناكم، أي كلوا من الطيبات. وهذا أمر لهم أن يأكلوا من الطيبات ويتجنبوا المحرمات والخبائث؛ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه، أي لا تتجاوزوا الحد. والطغيان في هذه النعم بحيث إنك تسرف على نفسك أو تستعملها في معصية الله؛ ولا تطغوا فيه، فإنك إذا طغيت وتجاوزت الحد في الإسراف والتبذير واستعملها فيما حرم الله سبحانه وتعالى، فإنه قد تنزل لك العقوبة؛ لذلك **قال:** يحل، وتجب عليكم العقوبة؛ فيحل عليكم غضبي، أي غضب الله سبحانه وتعالى بسبب ماذا؟ بسبب كفران النعمة. **قال:** ومن يحلل عليه غضبي.

قال: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١]

يعني من نزلت به العقوبة وغضب الله عليه بسبب كفران النعمة فقد هوى، أي فقد هلك، سقط في الهاوية وهلك. وهذا كله، أيها الإخوة، ينبغي للمسلم إذا كان في رغد من العيش، وفي أمن وطمأنينة، عليه أن يشكر الله وأن يكثر من شكر الله على هذه النعم العظيمة التي أنعم الله بها سبحانه وتعالى عليه؛ فيأكل ويشكر، يأكل من نعم الله سبحانه وتعالى، ويذكر الله عز وجل على ما أنعم عليه، ولا يستعمل هذه النعم في معصية الله؛ لا يستعمل هذه النعمة في معصية الله، أو يسرف فيها، أو يبذر، أو يستعملها في معصية الله، فإنها لسبب العقوبة وسبب لزوال النعمة إذا كفرها؛ فإن المعاصي تزيل النعم. فليحذر الإنسان، وليكثر من شكر الله سبحانه وتعالى، ويحمد الله عز وجل على ما أنعم عليه من هذه النعم العظيمة، كما قال سبحانه: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]

الإنسان يحذر، من عقوبة هذه النعمة، من زوال هذه النعمة، من تحول عافيتك وزوال نعمتك، يتعوذ الإنسان من هذه الأشياء. هذا الأمر، ثم الله سبحانه وتعالى فتح لهم باب التوبة والرجوع إليه، **قال:** وإني

لغفار؛ وغفار، كما قال أهل العلم، يقولون هذه صيغة مبالغة؛ يعني غفار، يعني كثير المغفرة، يعني أتجاوز وأغفر وأرحم، وإني لغفار لمن تاب.

أما الباقي على معصيته، مستمر عليها ولم يقبلها، الله لا يغفر الله له حتى يعود إلى ربه. **قال:** ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]

تاب توبة صادقة، أقلع وعزم على ألا يعود، فإن تاب وندم، يعني تمت فيه شروط التوبة؛ كالتوبة والندم، وآمن؛ صدق، وعمل صالحاً؛ فوق الإيمان العمل الصالح، ثم اهتدى؛ هذا لمن يتم له أولاً المغفرة من الله؛ أن الله يغفر لمن تاب ورجع إلى ربه، وآمن وصدق؛ آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وعمل الأعمال الصالحة؛ فليست مجرد إيمان وتوبة، لا، أن يعمل الأعمال الصالحة، يحافظ على ما أمره الله وأوجب عليه؛ الأعمال الصالحة التي فرضها الله عليه، ثم اهتدى؛ أي استقام على طريق الحق، وبقي وثبت، على الصراط المستقيم.

لا أنه يتوب ويؤمن ويعمل الصالحات زمناً؛ أما مثل الذين يأتون إذا جاء رمضان يتوبون، إذا دخل رمضان، فإذا خرج رمضان رجعوا إلى معاصيهم، ويتوب وإذا عاد من الحج رجع إلى معاصيه، والله سبحانه وتعالى لا يغفر لمثل هؤلاء. قال الله عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]

حيث استقام وبقي وثبت على الحق حتى يلقى ربه. هذه الأمور ينبغي، يعني أن يتدبرها الإنسان ويقف عندها، ويجاهد حتى تتحقق له التوبة، التوبة النصوح والتوبة الصادقة مع الله سبحانه وتعالى، ويترتب على ذلك أن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه. قال الله سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٣]

لما نزل بني إسرائيل، وأنزل الله عليهم المن والسلوى والطيبات واستقروا فيها، وظلل الله عليهم الغمام؛ لأن الشمس حارة، فظلل الله عليهم الغمام بدايات البراد. وهذا الغمام يقيهم من حرارة الشمس، فاستقروا، وزيادة على ذلك أن الله سبحانه وتعالى فجر لهم الأرض، الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، قد علم كل أناس مشربهم؛ كل طائفة وكل قبيلة (**السبط**) يشربون من مائهم، وأنعم الله بالماء والشرب والطعام والظلال، واستقروا. بعد ذلك أراد موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل إلى جبل الطور

ليقابل رب العالمين هناك، ويسمع من الله الكلام، ويأخذ التوراة التي تنزل عليه. ذهب وهو يظن أن القوم يتبعونه؛ لأنه أخبرهم أن يتبعوه، فظن أنهم يلحقون به. قال الله، ثم هم تقاعسوا وضعفوا وجلسوا ولم يتبعوه، وموسى وصل واقترب من الطور، قال الله له: وما أعجلك يا موسى عن قومك؟ الذي يجعلك تستعجل وتأتي وقومك وراءك، ما أعجلك عن قومك يا موسى؟

قال: ﴿قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤]

يقول هم جاءوا خلفي وعلى أثري يتبعوني، ولكني عجلت المجيء إليك لكي ترضى؛ وهذه دلالة على أن الإنسان دائماً يتعجل إلى طاعة الله ويستعجل بها، ويقدم لله نفسه حتى يرضي رب العالمين؛ حتى قال بعض أهل العلم، أو حتى في حديث قال إنه: «أَوَّلُ وَقْتِ الصَّلَاةِ رِضَا الرَّحْمَنِ»

فأنت لما تسارع في تحقيق أوامر الله ترضي رب العالمين؛ يعني الذي حملني ودفعني على التعجل إليك رب العالمين هو رضاك، والمسابقة في رضاك وتحقيق رضاك سبحانك يا رب العالمين؛ وعجلت إليك رب لترضى. قال الله عز وجل... **قال:** هم على أثري، أي هم سيأتون خلفي. **قال:** لا، لن يأتوا لأنهم أصيبوا بمصيبة عظيمة. ما هي هذه المصيبة؟ هذه الفتنة، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]

يعني ابتليناهم بمصيبة عظيمة، فتناهم لننظر من يكون صادقاً في دعوته ومن هو كاذب. فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري. لما علم موسى بذلك رجع مسرعاً، رجع إلى قومه مع هذه الفتنة التي فتنوا فيها، وما هو الذي أضلهم به السامري؟ ورجع مسرعاً إلى قومه، رجع مسرعاً على غضب وعلى أسف شديد وحزن شديد على قومه؛ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً، يعني شديد الغضب وشديد الحزن عليهم؛ كئيف هذه الفتنة ويفتنون، ويفتنون في هذا البلاء وهو سببه ضلال السامري.

لأن الله **قـــال:** وأضلهم السامري. قال لما رجع قال لهم: يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً؟ ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ [طه: ٨٦]

يعني الله عز وجل قد وعدكم، وعدتكم بالنصر والتأييد، ووعدكم بأن ينزل عليكم كتاباً يكون فيه هدايتكم وسعادتهم؛ وعداً حسناً، أفطال عليكم العهد؟ طالت عليكم المدة التي ينزل الله فيها، طال

عليكم الوعد الذي وعدكم الله؟ أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم؟ أردتم أن تنزل بكم عقوبة شديدة من الله فأخلفتم موعدي؟ كيف تفعلون هذا الفعل؟ حيث إن السامري لما ذهب موسى إلى ربه، ذهب إلى ربه لوقائع يسمع كلامه، إلى ميقات ربه، وكان ميقات ربه أربعين ليلة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٢]

وقال موسى لأخيه هارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]

فلما علم بذلك السامري لأنه ذهب إلى ربه أو ذاهب إلى أن يسمع كلام الله ويأتي بالتوراة، وعلم أنه سيبقى هناك، جاء وأضلهم؛ لأنه لما علم أن معهم حلي، وهذا الحلي الذي كان مع بني إسرائيل ليس لهم، إلا أنهم استعاروا هذا الحلي من الأقباط في مصر، أخذوا هذا الحلي منهم، استعارة منهم؛ لأنه كان عندهم مناسبة أو عيد وأخذوا هذا الحلي وخرجوا به معهم، فقالوا: هذا الحلي ليس لنا ولا نملكه فماذا نصنع به؟ **فقال لهم السامري**: اجعلوه كله في إناء وضعوه على النار حتى يذوب، فأتوا بهذا الحلي ووضعوه في هذا المكان وصنع لهم عجلا، صنع لهم عجلاً له خوار؛ هذا العجل الذي صنعه من الذهب كان له فتحة في فمه وفتحة في دبره، وكان الهواء يدخل فيحدث صوتاً كصوت خوار البقر، فبدأوا يسمعون له خوار وهو من ذهب، فقالوا: هذا إلهكم.

قالوا: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ [طه: ٨٧]

تصرفنا وبأرادتنا وباختيارنا، لماذا؟ قالوا: ولكننا حملنا أوزاراً، يعني حملنا شيئاً ليس لنا، هذه الأوزار يعني شيء لا نملكه، يعني هذه كلها أمانات وإذا أخذناها أصبح علينا الذنوب فيها وأصبحت معصية؛ أوزاراً من زينة القوم، أي الحلي من زينة القوم، والمراد بالقوم هم فرعون والأقباط؛ من زينة القوم قالوا فقذفناها، أي طرحناها بهذا الإناء، فكذلك ألقى السامري هذا الأمر عليهم وجمعوا هذا الحلي فأخرج لهم، صنع لهم هذا العجل، **قال**: فأخرج لهم عجلاً جسداً، عجل يعني من حلي، من ذهب لا يتحرك ليس حقيقياً، وإنما هو على شكل العجل له خوار؛ لأنه الهواء يدخل فيه له خوار، وقيل في بعض التفاسير إنه كما سيأتي قبضه من أثر الرسول؛ إنه أخذ قبضة من التراب من أثر الفرس التي كان يركبها جبريل لما جاء جبريل إلى موسى، نظر إليه السامري ورآه واخذ قبضة منه ووضعها مع الحلي على النار.

فلما صنعوه وتحرك وجعل الله فيه حياة وبدأ يحدث الصوت، فقالوا: هذا إلهكم؛ قال هنا: فاخرج لهم عجلاً جسداً له خوار، فقالوا، فبنو إسرائيل لما نظروا إليه اقتنعوا فيه، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسى فنسي؛ موسى نسي، ذهب يبحث عنه في الطور ليتحدث مع ربه، وهذا هو ربنا وربه، هذا إله موسى فنسي، موسى نسي ذهب يبحث عنه ولم يجده وسيرجع إلينا ويعبده معنا؛ وهذا من جهلهم، هذا من جهلهم. قال الله عز وجل رداً عليهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]

يقول: هذا ما يتكلم كيف تعبد إلهاً ناقصاً في صفة النقص، كيف تعبدون؟ أفلا يرون، يعني هؤلاء عميت بصائرهم وذهبت عقولهم؛ كيف يعبدون عجلاً لا يتكلم ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً؟ ثم انتقلت الآيات لبيان موقف هارون الذي قال له موسى لما ذهب: اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين. قال الله عز وجل: ولقد قال لهم هارون؛ هارون لم يسكت ولم يقف موقف الصامت أو المتحير، بل نصح لله كما أوصاه أخوه موسى: وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين. **قال:** ولقد قال لهم هارون من قبل، من قبل أن يأتي موسى ويرجع: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]

ابتليتم بهذا، هذا بلاء وفتنة؛ وإن ربكم الرحمن، كيف تعبدون هذا وتطوفون عليه وتكونون له خاضعين؟ ربكم الرحمن، ربكم الذي أوجدكم وربكم وخالقكم هو الرحمن الذي يرحمكم، فاتبعوني وأطيعوا أمري؛ فنصحهم بهذه الطريقة، بهذا الأسلوب الطيب الرقيق: اتبعوني وأطيعوا أمري. قالوا رداً عليه، وهذا الرد في الجفاء والغلظة: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]

قالوا لن نبرح وندعه أبداً حتى يرجع إلينا موسى. هارون لم يسلك معهم طريق القوة والشدة وإنما الأسلوب الطيب الحسن حتى لا يفرق، حتى لا يكون هناك شقاق بينهم كما قال. فلما جاء موسى ورجع، أخذ بأخيه؛ في آية أخرى أخذ برأسه ولحيته من شدة الغضب لله سبحانه وتعالى، **قال:** يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا؛ ما الذي منعك حين رأيتهم ضلوا وتركوا عبادة الله وعبدوا العجل ألا تتبعني أفعصيت أمري؟ كيف لا تتبعني وتترك الاتباع وعصيت أمري؟ أنا نصحتك وأوصيتك بأن تنصح لهم وأن ترشدهم: وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين. قال وهو مستعطف لأخيه من شدة غضب موسى: ﴿قَالَ يَا

ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤]

ينادي، يذكره بأمه وإن كان هو أخاً شقيقاً، لكن يذكره بأسلوب العطف والرقة: يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي؛ لأنه أخذ بيده اليمنى رأسه وبيده اليسرى لحيته، فقال: لا تأخذ ولا تشمت بي الأعداء، فلا تجعلني شماتة للأعداء؛ إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي؛ قال خشيت أن تقول هذا سبب، أنت فرقت بينهم وجعلتهم يتقاتلون ويفترقون فرقتين، وأنك لم تنتظر حتى آتي، فلذلك لم يتعجل معهم إلا بالأسلوب الهين اللين والدعوة بالأسلوب اللطيف حتى يرجعوا.

فبعد ذلك ندم موسى، وفي هذه الآية يقول كما ذكر بعض المفسرين، يقول القول: لا تأخذ بلحيتي، يقال هذا فيه دلالة على أن إعفاء اللحية من سمات الأنبياء، ومن علامات ومن صفات الأنبياء وسمات الأنبياء؛ الله سبحانه وتعالى أوصاهم في هذا الأمر، وأن إعفاء اللحية يدل على التجمل بها والتحسن بها، وأنها من صفات هؤلاء الذين ينبغي الاقتداء بهم كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]

بعد ذلك **قال**: إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي، عرف بعد ذلك وندم ندم موسى أشد الندم، فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]

ثم بعد ذلك توجه الخطاب إلى السامري، ولكن لعلنا نقف عند هذه الآية التي قال الله فيها قال موسى: قال فما خطبك يا سامري؟ وهذه الآن ستنتقل الآيات إلى مخاطبة موسى مع السامري وما جرى من السامري وكيف كان رده وكيف كانت النهاية بين موسى والسامري، هذا الحديث إن شاء الله عنها في اللقاء القادم.

نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(طه ٩٥ - ١١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، **أما بعد**؛

اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم المبارك، وهو اليوم الرابع والعشرون من شهر ربيع الآخر من عام ألف وأربعمائة وثلاثة وأربعين للهجرة النبوية الشريفة.

الآيات التي بين أيدينا، وسبق أن تناولنا كثيرًا منها، هي آيات من سورة طه، ووقف بنا الكلام عند الآية الخامسة والتسعين وهي قول الله سبحانه وتعالى:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه: ٩٥]

وذكرنا أكثر من مرة أن (**سورة طه**) في مواقف موسى كانت ثلاثة مواقف؛ الموقف الأول مع فرعون وانتهاء بنصرة الله سبحانه وتعالى لنبيه موسى وهارون وإغراق فرعون، والموقف الثاني مع السحرة وأيضًا انتهى بانتصار الحق على الباطل، ووقع الحق وبطل ما كانوا يعملون.

والموقف الثالث هو موقف موسى عليه السلام مع بني إسرائيل والسامري؛ وذلك أنه لما ذهب موسى لميقات ربه، نظر السامري إلى بني إسرائيل وكان معهم حلي، وهذا الحلي كان على آل فرعون، قوم فرعون قد أخذوه إعارة أو نحو ذلك، فقالوا: ماذا نصنع به؟

وقال السامري: يحرق، يوضع على النار حتى يذوب، فجمع كل الحلي بين أيديهم وكانوا أعدادًا كثيرة، جمعوه ولما أذابوه صنع لهم من خلاله عجل، صنع لهم عجلًا له خوار وقال: هذا إلهكم، وقال لهم: هذا إلهكم، فبدأوا يطوفون عليه وعكفوا عليه، وقالوا لما أنصحهم هارون عليه السلام، قالوا: لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى، وموسى قد ذهب إلى ميقات ربه.

فلما رجع وجد أن القوم قد عبدوا العجل من دون الله، وقد أخبره الله سبحانه وتعالى:

﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا، إلى أن حصل ما حصل وأخذ العجل وأحرقه بالنار، ثم لما حرقه ذرّه في اليم حتى انتهى أمره. قال الله سبحانه وتعالى مخبرًا عن موقف موسى عليه السلام، قال إن موسى توجه بالسؤال للسامري:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ [طه: ٩٥]

ما الذي دعاك؟ وما شأنك في هذا العجل وهذا الأمر العظيم الذي فرّقت به بين بني إسرائيل وجعلتهم يعبدون من دون الله إلهًا لا يسمع ولا يبصر ولا يتكلم؟ فما خطبك يا سامري؟

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦]

(بصرت بما لم يبصروا به)؛ أهل اللغة يقولون **(بصُرت)** بصر هنا إذا علم، و**(أبصر)** إذا رآه، يعني فيه فرق بين أبصر. فإذا قلت فلان أبصر الشمس يعني نظر إليها ورأيتها، وإذا قلت بصُر بالشيء أي علم حقيقة الشمس. وهنا يقول: بصرت بما لم يبصروا به؛ أي علمت بما لم يعلموا به. ماذا بصر؟ ماذا علم السامري عليهم وبأي شيء؟

فقبضت قبضة من أثر الرسول؛ ما هي هذه القبضة ومن هو هذا الرسول؟ قال إنني أنا يعني علمت بأن جبريل عليه السلام جاء على فرس ليردف موسى ويذهب به إلى الميقات، فنظر السامري فإذا جبريل قد ركب فرسًا وجاء مسرعًا ليأخذ معه موسى عليه السلام، كما ذكر كثير من المفسرين. فلما رآه السامري، فإذا هذه الفرس سريعة الجريان، فلما وضعت حافرها في الأرض، أخذ السامري قبضة من التراب التي من أثر حافر الفرس والفرس، أخذها وقال: فقبضت قبضة من أثر الرسول، أي من هذا التراب الذي من أثر حافر الفرس. والمراد بالرسول هنا هو جبريل عليه السلام. **قال:** فنبذتها؛ أخذ هذه القبضة وألقاها مع الحلي المذاب، فنبذتها بالحلي، وكذلك سولت لي نفسي، أي زينت لي نفسي، زينه له الشيطان وزينت له نفسه حتى دلهم على عبادته.

يعني لما أخبر السامري بهذا الخبر، قال له موسى عليه السلام:

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]

قال: فاذهب اذهب يا سامري، فإن لك في الحياة أن تقول **(لا مساس)**؛ أي أن عقوبتك الشديدة في الدنيا هي أنك تصاب بداء لا يستطيع أحد أن يمسك، وإذا مسّك أي إنسان تألمت وتأذى تأذيًا شديدًا، فتصرخ وتقول: لا مساس، فلا أحد يستطيع أن يمسك ولا أنت تريد أن تمس أحد، فأصبح منبوذًا فريدًا لا يقترب منه أحد ولا هو يقترب من أحد.

وأن لك موعدًا لن تخلفه؛ أي لك موعد يوم القيامة عند الله، لن يخلفه الله سبحانه وتعالى أبدًا، بل سيأتي هذا الموعد ويجزيك على عملك السيء. وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفًا، أي أقمت عليه عاكفًا تعبده وتطوف عليه وجعلت بني إسرائيل يعكفون عليه، لنحرقنه؛ فأحرقه موسى عليه السلام بالنار حتى ذاب ولم يبق له أي أثر، ثم لننسفنه في اليم نسفًا؛ أي ينسف نسفًا ويلقى في البحر تذرية تامة حتى لا يبقى له أي أثر، وبذلك انتهى السامري وعجل بني إسرائيل ومات وحيدًا منبوذًا.

لما حكى الله سبحانه وتعالى علينا هذه القصة العظيمة وهذا الدرس الجميل والمفيد والنافع، قال سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]

قيل إن هذا الكلام من الله سبحانه وتعالى، وقيل إنه من كلام موسى عليه السلام؛ لأنه لما حرقه توجه إلى بني إسرائيل وقال لهم: إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علمًا، هذا هو الإله الحق الذي يستحق العبادة، وأما هذا العجل فليس بإله ولا يستحق العبادة من دون الله، والله أعلم بذلك.

بعد ذلك تنتهي قصة موسى عليه السلام في المواقف الثلاثة؛ سواء مع فرعون في بدايتها، أو مع السحرة، أو مع السامري. قال الله سبحانه وتعالى بعد ذلك يخاطب نبيه محمدًا ﷺ:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]

كذلك نقص عليك؛ الكاف هنا كاف التشبيه، أي مثل ذلك، مثل هذا القصص العجيب وتفصيله البليغ الذي بلغ حوالي مائة آية في شأن موسى، نقص عليك يا محمد سائر قصص الأمم السابقة وأنباء من

سلف كنوح، وهود، وصالح، وشعيب. وقد آتيناك من لدنا ذكرًا؛ أي أعطيناك من عندنا ذكرًا وهو القرآن الكريم. وقد سمى الله كتابه ذكرًا؛ لأنه يتذكر به العباد، وينتفعون به وبآياته. وقيل: **(الذكر)** هنا هو الشرف، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ أي شرف عظيم لك يا محمد ولأمتك وقومك.

ثم بين سبحانه شأن المعرضين عن هذا الذكر فقال:

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا * خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠٠ - ١٠١]

من أعرض عن هذا القرآن، فاشتغل بغيره ولم يرفع به رأسًا ولم يعمل به، فإنه يحمل يوم القيامة وزرًا عظيمًا؛ ذنوبًا وأثقالًا ثقيلة على ظهره بسبب إعراضه وعدم قبوله للحق. خالدين فيه؛ أي في هذا العذاب الناري وفي نار جهنم وبؤس الحمل حملهم يوم القيامة. متى يكون هذا؟ قال سبحانه:

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]

يوم ينفخ في الصور؛ وهو القرن، والنفخة هنا هي النفخة الثانية؛ نفخة البعث والنشور والحشر. ونحشر المجرمين يومئذ زرقًا؛ قيل معنى **(زرقًا)** أي أن أعينهم زرقاء شاخصة لشدة الهول والموقف، وقيل زرقًا أي عميًا؛ لأن العيون إذا تركت وذهب ضوءها وبصرها ازرقّ ناظرها فتبدو زرقاء، ويحشرون يوم القيامة عميًا شاخصين لشدة الهول والغم.

ثم أخبر سبحانه عن حال كلامهم وتلاومهم فقال:

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٣ - ١٠٤]

يتخافتون بينهم؛ أي يتحدثون هامسين بأصوات خفية يتجادلون كم لبثوا في الدنيا من قصرها وسرعة زوالها، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام. فيقول الله سبحانه: نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة؛ أي أعقلهم وأعلمهم وأفهمهم: إن لبثتم إلا يومًا واحدًا! فكل حياة الدنيا الطويلة تصبح في أعينهم كأنها يوم واحد أو ساعة من نهار، كما قال سبحانه: ﴿كَأَنَّ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

ثم يخبر سبحانه عن مصير هذه الجبال الشامخة العظيمة فقال:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]

يسألونك عن الجبال؛ قيل إن السائلين هم مشركو قريش الذين كانوا يستبعدون البعث والنشور ويسألون النبي ﷺ استهزاءً: ماذا يصنع ربك بهذه الجبال العظيمة الصم يوم القيامة؟ وقيل إن السائلين هم المؤمنون سألوا استفسارًا وبصيرة. فأجابهم الله سبحانه وتعالى بأمره البليغ: فقل ينسفها ربي نسفًا؛ أي يفتتها ويزيلها عن أماكنها تفتيتًا ونسفًا تامًا، فيذرها قاعًا صفصفًا؛ والقاع هي الأرض المستوية الجرداء التي لا نبات فيها ولا انخفاض، والصفصف هو المستوي المستقيم الخالي من الارتفاع والانخفاض. لا ترى فيها عوجًا؛ وهو الانخفاض والنزول، ولا أمتًا؛ وهو الارتفاع والنتوء. فتصبح الأرض كلها بيضاء مستوية كالخبزة المستوية النقية.

فهذه الجبال الصم الشامخات تفتت حتى تكون هباءً منبثًا، وتكون كالعِهْنِ المنفوش وهو الصوف المنفوش الذي تطير به الرياح وتتلاعب به فلا يبقى للجبال الشامخات أي أثر وتصبح الأرض مستوية تمامًا تمهيدًا لحشر العباد عليها.

ثم بين سبحانه حال حشر الخلق بعد تسوية الأرض فقال:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]

يومئذ؛ أي يوم القيامة عند البعث والنشور، يخرجون مسرعين من قبورهم يتبعون صوت الداعي والمنادي الذي يناديهم، لا عوج له؛ أي أن صوته واضح صريح مكشوف لا غموض فيه ولا اعوجاج، بل هو صوته يبلغ الجميع فيتبعونه منقادين. وخشعت الأصوات للرحمن؛ أي سكنت وخضعت كل الأصوات هيبةً للملك وتذللًا لجلاله سبحانه، فلا تسمع إلا همسًا؛ والهمس هو الصوت الخفي الساكن الهادئ من شدة الخوف وعظمة الموقف الرهيب.

ثم أخبر سبحانه عن انقطاع الشفاعات وبطلانها إلا بإذنه فقال:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]

تتقطع كل الشفاعات والوساطات في هذا اليوم، فلا شفاعة تنفع إلا بتحقق شرطين أساسيين أجمع عليهما أهل العلم: الشرط الأول أن يأذن الله سبحانه وتعالى للشافع أن يشفع، والشرط الثاني أن يرضى تبارك وتعالى عن المشفوع له؛ فإذا تحقق الإذن والرضا صحت الشفاعة، وما سوى ذلك فكل شفاعة باطلة ولا تنفع أحدًا، كما قال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزمر: ٤٤].

ثم قرر سبحانه إحاطة علمه وعجز خلقه عن الإحاطة به فقال:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]

يعلم ما بين أيديهم؛ أي ما يستقبلونه في عرصات القيامة وأحوال الحساب والجزاء إما إلى الجنة أو إلى النار، وما خلفهم؛ أي ما قدموه في حياتهم الدنيا من أعمال وأقوال مضت وانتهت. ولا يحيطون به علمًا؛ فالخلق لا يستطيعون الإحاطة بشيء من علم الله وجلاله وعظمته سبحانه وتعالى.

ثم أخبر عن منتهى الذل والخشوع فقال:

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]

وعنت الوجوه؛ أي خضعت ودانت وذلّت الوجوه والرقاب لله سبحانه وتعالى، الحي؛ الذي لا يموت وله الحياة الكاملة الدائمة، القيوم؛ القائم بنفسه المستغني عن خلقه، والقائم على شؤون خلقه جميعًا بالرزق والتدبير. وقد خاب من حمل ظلمًا؛ أي خاب وخسر. خسارة عظيمة من لقي ربه يوم القيامة وقد تلبس بالظلم؛ سواء كان ظلمًا لنفسه بالشرك والمعاصي، أو ظلمًا لإخوانه وأقرانه بانتهاك حقوقهم وأموالهم وأعراضهم.

وفي مقابل خيبة المعرضين وظلمهم، بيّن الله بشارة العاملين فقال:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]

أما الصالح المطيع الذي يلقى ربه بالإيمان والعمل الصالح؛ فإنه يلقى ربه آمنًا مطمئنًا لا يخاف ظلمًا ولا هضمًا. وقد يسأل سائل: ما الفرق الدقيق بين الظلم والهضم؟ فنقول: **(الظلم)** هو أن يُحمَل عليه سيئات غيره أو يعاقب بذنب لم يفعله أبدًا، و**(الهضم)** هو النقص؛ أي أن يُنقَص من حسناته ودرجاته الطيبة التي عملها في الدنيا. فالمؤمن الصالح يأتي آمن القيامة، لا يُظلم بكبائر غيره، ولا يُهضم ولا ينقص من حسناته ودرجاته شيئًا بل يوفى أجره كاملًا بفضل ربه ورحمته تبارك وتعالى.

بهذا نصل إلى ختام هذا الدرس المبارك من تفسير سورة طه (**الآيات ٩٥ - ١١٢**)، حيث تنتهي القصة العظيمة لنبي الله موسى عليه السلام وتتصل العبر والمواعظ بتقرير عظمة الذكر والقرآن وشدة أهوال يوم القيامة. نسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن ينفعنا بالقرآن العظيم تلاوةً وتدبرًا وعملًا، وجزاكم الله خيرًا على حضوركم وعلى إنصاتكم والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

(طه ١١٣ - ١٢٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا الهدى والتقى يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم المبارك وهو اليوم الثالث من شهر جمادى الأولى من عام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة النبوية الشريفة. نجتمع في هذا المقام المبارك، وفي درسنا المعتاد الأسبوعي من كل ثلاثاء، والآيات التي بين أيدينا هي من سورة طه. وقف بنا الحديث عند الآية الثانية عشرة بعد المائة من سورة طه، واليوم نستكمل ما بعدها من آيات. الآية الثالثة عشرة بعد المائة هي قول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣]

دائماً أيها الإخوة، عندما نقرأ القرآن ونتأمل الآيات القرآنية، كثير ما تأتي كلمة كذلك، لا بد الإخوان أن نعرف ما معنى كذلك؛ ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾، ﴿كَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾، وغيرها كثير في القرآن. فما معنى كلمة كذلك؟ نقول: إذا جاءت كلمة كذلك، فإن هناك شيء الله سبحانه وتعالى يذكرك بشيء ماضٍ، يعني كأنها ما يسمى في (**علم البلاغة**) أو (**علم اللغة**) بـ (**التشبيه**)؛ يشبه شيئاً بشيء، يقول: مثلما ذكرنا لك هذا الشيء، نذكر لك هنا هذا الشيء، يقول مثلما أن الله سبحانه وتعالى قبلها بآيات، يعني لو نرجع قليلاً في قوله تعالى:

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]

يعني مثلما قصصنا عليك قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومع السحرة ومع السامري، نقص عليك غيرهم من القصص؛ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق. ثم بعدما مضت قصة موسى عليه السلام، قال الله سبحانه وتعالى بعدها، وكذلك هنا **قال**: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾؛ يعني مثلما أننا قصصنا عليه قصة موسى عليه السلام، أنزلنا القرآن وجعلناه قرآناً عربياً، كذلك أنزلنا. فدل هذا على أن القرآن

منزّل من عند الله. وفي هذه الآية دلالة على إثبات (العلو) لله سبحانه وتعالى؛ لأن دائماً الإنزال لا يكون إلا من شيء عالٍ، من العلو، وكذلك أنزلنا، فالقرآن منزل من عند الله.

وهو كلام الله، والله عز وجل هو الذي تكفل بنزوله، **قال:** ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾. ووصف الله كتابه هذا القرآن بانه قرآناً عربياً؛ لماذا جعله قرآناً عربياً؟ لأن الله بعث محمداً من العرب ورسوله إلى العرب وإلى كافة الناس بشيراً ونذيراً، ودعوته عالمية وعامة للثقلين؛ الإنس والجن، والعرب والعجم وغيرهم. ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، قال أيضاً: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾. ما معنى وصرفنا فيه من الوعيد؟ أي أن هذا القرآن الذي أنزله الله بلسان عربي مبين، واضح، وهذا فيه دلالة على أن اللغة العربية هي أفضل اللغات التي ختمت بها الرسالات التي أرسل بها سيد الأولين والآخرين. فهذا فيه دلالة على أن اللسان العربي واللغة العربية هي أفضل لغات العالم.

والله سبحانه وتعالى أنزل القرآن بلسان عربي مبين، لا عجمة فيه ولا صعوبة فيه، بل يفهمه العام والخاص. **قال:** ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾؛ أي صرفنا في هذا القرآن آيات كثيرة وأنواعاً كثيرة من الوعيد، الوعيد بالانتقام من الأمم الماضية؛ قوم نوح وعاد وثمود وشعيب ولوط وغيرهم، لما انتقم الله منهم، هذا الوعيد الشديد هذا معناه. وكذلك الله سبحانه وتعالى يذكر في كتابه عقوبات العصاة في الدنيا وفي الآخرة، ويذكر أحوال أهل النار، هذا كله من الوعيد الشديد، من الوعيد الذي يصرّف الله الآيات فيه يذكره في مواضع كثيرة، يعني أحوال أهل النار وما يصيبهم من المصائب، والأمم السابقة كلها كل ذلك داخل في أحوال ووعيد القرآن الكريم. الله صنف وأورد ونوع الآيات الكثيرة التي فيها التخويف والوعيد الشديد، كما قال سبحانه:

﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ﴾ [الزمر: ١٦]

قال: لماذا أنزله الله قرآناً عربياً ولماذا تصرف فيه ونوع فيه من الآيات التي فيها الوعيد الشديد؟ لماذا؟ **قال:** ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ لعلهم يتقون الله ويتقون النار أن يقعوا فيها، ويتقون المعاصي أن يقعوا فيها، لعلهم يحذرون ويخافون الله سبحانه وتعالى ويخافون عقوبة المعاصي، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾؛ يعني يحرك فيهم التذكير، ويحرك فيهم المواعظ، ويحرك فيهم التخويف ولعلهم يرجعون إلى ربهم. هذا هو

المقصد، من أن الله أنزله قرآناً عربياً وصرف فيه من الوعيد؛ لأن لعل الناس يتقون الله أو يحدث لهم ذلك تذكرة وموعظة.

فلما سبحانه وتعالى بين الحكمة من نزول القرآن وأنه صرف فيه من الوعيد، بين الحكمة من ذلك وهو أن يتقي العباد ربهم وأن يخافوا ربهم، قال بعد ذلك سبحانه وتعالى:

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]

يعني هذا يلزم الله نفسه يقول: تعالى الله، يعني ارتفع وتقدس وتعاظم سبحانه وتعالى عن كل صفة نقص أو كل شيء لا يليق بالله سبحانه وتعالى. لماذا يعظم الله نفسه؟ يعظم الله نفسه أن يأمر الناس أو ينهاهم أو يشرع لهم أو ينزل شيئاً عبثاً؛ فالقرآن لم ينزل أبداً عبثاً، ولم يخلق الله الخلق عبثاً، تعالى الله عن ذلك. والله هو الملك سبحانه وتعالى، الملك الذي الملك وصفه، والخلق كلهم مماليك له وتحت كل شيء، وهو مالك السماوات والأرض وما بينهما. فتعالى الله الملك الحق.

ولما بين سبحانه وتعالى أنه قد تعالى وتعاظم وتنزه وتقدس؛ لأنه سبحانه والله وهو الملك وهو الحق سبحانه وتعالى وما سواه باطل، قال بعدها سبحانه وتعالى مخاطباً محمداً ﷺ الذي أنزل عليه القرآن والذي قال الله فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، **قال:** ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾. يعني هذا كان فيه ﷺ أنه كان يبادر باخذ القرآن من جبريل، بمجرد أن جبريل يقرؤه عليه، يحرك شفتيه ويحرك لسانه حتى يحفظه خشية أن ينفلت عليه، كما قال سبحانه وتعالى في آية (**سورة القيامة**): ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦ – ١٨]

النبي ﷺ كان يتعجل ويستعجل أن يأخذ القرآن من جبريل ويحفظه، فالله سبحانه وتعالى وجهه التوجيه السليم **قال:** ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾؛ وانصت واستمع. كان ﷺ بعد ذلك إذا جاءه جبريل عليه السلام يلقي عليه الآيات القرآنية والسور والآيات، فإنه كان يطرق رأسه وينصت ويستمع، فإذا انتهى، جاء القرآن في صدره في صدد المحافظة؛ لأن الله وعده بأي شيء؟ قال له:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾، جمع الله هذا القرآن في صدره بحيث إنه لا ينفلت ويضيع منه شيء، ولأن الله تكفل بحفظه:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

وقوله هنا في الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾؛ أي من قبل أن ينتهي جبريل من الإلقاء عليك، فلا تستعجل وأنصت واطرق رأسك واستمع، فإذا انتهى الوحي ستجد هذا القرآن. ثم وجهه التوجيه الثاني فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. وهذا توجيه عظيم؛ لأن الإنسان كلما عاش مع القرآن فإنه يسأل الله أن يزيده علم؛ لأن القرآن فيه علم الأولين والآخرين، فيه علم الدنيا والآخرة. فالواجب على الإنسان أن يسأل الله سبحانه وتعالى الزيادة: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. مهما بلغ من العلم فهو بحاجة إلى الزيادة.

يعني إذا كان موسى وهو كليم الله وقد أعطاه الله من العلم، ثم لما جاءه الرجل وقال له: هل هناك من هو أعلم منك؟ **قال:** لا. أراد الله أن يمتحنه، **قال:** إن هناك من هو أعلم منك. فأوحى الله إلى موسى أن هناك من هو أعلم منك وهو الخضر، فذهب إليه ليتعلم منه هذا العلم. فلما ذهب معه في السفينة إلى آخره، وقع عصفور على طرف أو على حرف السفينة ونقر نقرة من الماء من البحر، فقال الخضر لموسى:

«مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا كَمَا أَخَذَ هَذَا الْعُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ الْبَحْرِ»

على علم عظيم، فالإنسان مهما أعطاه الله فهو يدعو ربه ويسأل الله أن يزيده العلم النافع والعمل الصالح. ولذلك قال الله عز وجل موضحاً لنبينا محمد ﷺ، وهو أعلم الخلق بربه وأعلم الخلق بشريعة الله، ومع ذلك يقول الله له: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾. فالإنسان نسأل الله أن يزيده العلم النافع، وألا يحرمه العلم، وألا يكون هو أيضاً سبباً في حرمان نفسه من العلم، بل يجب عليه أن يقبل على العلم وأن يتعلم وأن يدعو ربه أن يزيده علماً.

بعد ذلك تأتي في خاتمة السورة قصة آدم عليه السلام، وسجود الملائكة وإباء إبليس من السجود، وما الذي جرى. دائماً نسمع قصة آدم، قصة آدم مع إبليس ذكرها الله سبحانه وتعالى في (**سورة البقرة**)، وذكرها في (**سورة الأعراف**)، وذكرها أيضاً في (**سورة الحجر**)، وذكرها أيضاً في (**سورة ص**)، وذكرها هنا في (**سورة طه**)؛ تأتي أحياناً مجملة وأحياناً مفصلة.

ولاحظ دائماً لو تأملنا أيها الإخوة إيراد قصة آدم عليه السلام، الله يوردها في سور معينة تجد أن هذه السورة تتحدث عن شيء معين من الضلال والغواية والطغيان والكفر والانشغال بالدنيا عن الآخرة، كل هذه أسبابها الشيطان. والله سبحانه وتعالى ذكر يعني أحوال اليهود في (سورة البقرة) وتوسعهم وبين شدة عنادهم وكفرهم بآيات ربهم، كل ذلك سببه الشيطان فقدم قصة إبليس في سورة البقرة. و(سورة الأعراف) لما كانت تتحدث عن الأمم السابقة السالفة التي أنزل الله فيها العقوبات ودمرها تدميراً، كان سبب دمارها هو الشيطان. وكل سورة ذكر فيها قصة آدم تجد فيها رابط وعلاقة.

وعندنا هنا في (سورة طه)، ذكر الله سبحانه وتعالى فيها طغيان فرعون وأنه هو أشد من طغى على وجه الأرض واستكبر وتجبر، فذكر الله أن سبب ذلك هو الشيطان. والسامري وما فعله في بني إسرائيل من عبادة العجل سببه الشيطان. لذلك قصّ الله علينا قصة آدم وإبليس؛ وذلك يسوقها الله سبحانه وتعالى للتذكير، التذكير بعداوة إبليس لآدم وبني آدم. فأنت أيها المخاطب وأنت تستمع هذا الكلام، ينبغي لك أن تتذكر دائماً وتقرأ قصة إبليس وقصة آدم لكي يذكرك الله سبحانه وتعالى بشدة عداوة هذا الشيطان، شدة العداوة هذا الشيطان؛ كيف كان شديد العداوة لأول ابن آدم وإيقاعه في المعاصي، وكل ما فيها سببه الشيطان. طيب نسمع هذه القصة ونستمع إليها، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا﴾؛ يعني أوصينا وأكدنا على آدم بأوامر ومعاهدات ليقوم بها، وألا يعصي الله، وأن يلتزم، وأن يذعن، وأن ينقاد لكل ما يأمره الله به؛ لأن الله هو ربه وخالقه، فإذا أمره الله يجب عليه أن يستجيب لربه. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ﴾ عهد الله إليه بأوامر ونواهٍ، ومن هذه النواهي أنه نهاه عن أكل الشجرة لما قال له ولزوجه: اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا منها حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة، امتحاناً له، فلا تقربا هذه الشجرة. فعصى وأكل منها. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ﴾؛ أي غفل وذهل عن هذا الأمر، ولم يعصِ ربه متعمداً وإنما نسياناً منه، وأن الشيطان هو الذي زين له لما جاءه الشيطان وقال له:

﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]

هذا هو السبب؛ إشارة الشيطان وزين له حتى أوقعه وأزله، فأزلهما الشيطان وأوقعهما في المعصية.

قال: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾؛ أي لم نجد له قوة وعزيمة وصبر على ما يأمره الله به أو ينهاه عنه، بل تبين أن آدم وذرية آدم معه كلهم في ضعف، ولذلك الشيطان يتسلط عليهم إلا من رحم الله، إلا أولياء الله الذين ليس له سلطان عليهم. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾. قال بعدها، وتدخل في تفصيل هذا العهد ما هو الذي عهد إليه ولم يجد له عزم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦]

أي أن الله سبحانه وتعالى لما امتحن الملائكة بالعلم ونبأهم بأسمائها، هذه الأشياء والمسميات، **قالوا:** لا علم لنا، واعترفوا بعجزهم، فقال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائها انتصر آدم بالعلم على الملائكة كلهم. فلما انتصر، أكرمه الله بأن يسجدوا له سجود تحية لا سجود عبادة، سجود تحية. أمر الله أن يسجدوا لآدم تشريفاً له وتعظيماً لما له من العلم، لما عنده من العلم. فسجدوا إلا إبليس. وإبليس ليس من الملائكة، إبليس من الجن مخلوق من نار، والملائكة خلقوا من نور. والملائكة غير إبليس لا تأكل ولا تشرب ولا تنام ولا تتزاوج وليس لها ذرية، وأما إبليس فإنه يأكل ويشرب ويتزوج وله ذرية وله شهوة. فإبليس كان مع الملائكة في العبادة فقط وليس من جنسهم. **قال:** ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾؛ أي امتنع من السجود، وفي آية أخرى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، وتكبر لعناده وحسده لآدم.

فقال الله لإبليس: اخرج منها، فما يكون لك أن تتكبر فيها. لما أخرجه الله عز وجل وطرده من الجنة، قال لآدم: يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة، وقال هنا:

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧]

انتبه واحذر من هذا الشيطان الذي هو عدو لك وسيخرجك من الجنة فإن خرجت من الجنة شقيت. ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ بالتثنية، ثم **قال:** ﴿فَتَشْقَىٰ﴾ بالإفراد ولم يقل فتشقيان؛ لماذا؟ لأن الحقيقة الذي يشقى ويتعب في طلب الرزق والعمل هو الزوج، والمرأة مكفولة ونفقتها واجبة على زوجها وتابعة للزوج. ولذلك وجه الكلام لآدم فقال: ﴿فَتَشْقَىٰ﴾؛ لأنه إذا خرج من الجنة هبط إلى الأرض التي يزرع بها، وإذا زرع حصد، وإذا حصد أخذ هذا الطعام وصنع منه الأطعمة، فيعمل ويشتغل ويبحث عن الرزق، ولكن في الجنة مكفول الرزق يأتيه. **قال:** ﴿فَتَشْقَىٰ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾؛ أي هذه الجنة احذر أن

تخرج منها فإنك فيها لا تجوع ولا تعرى، فالإنسان في الجنة لا يجوع، ليس من جوع وليس من حاجة، فالأكل في الجنة ليس عن جوع وإنما هو تفكه وتلذذ. ولذلك **قال:** ﴿وَلَا تَعْرَىٰ﴾؛ لا تكون عارياً بل عليك لباس الجنة. لكن في الدنيا، كل مولود يولد عارياً ثم يلبس ملابس الدنيا، ولكن في الجنة لا يعرى. قال:

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٩]

﴿لَا تَظْمَأُ﴾؛ لا تحتاج إلى الماء لشدة العطش والظمأ، فلا ظمأ فيها بل تشرب المشروبات كلها من الخمر والعسل واللبن تفكهاً لا عطشاً. **قال:** ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾؛ والضحى هو شدة الحرارة لأن وقت الضحى تشتد الشمس، والجنة ما فيها حرارة ولا فيها شمس، هذا هو نعيم الجنة. ولكن الشيطان وسوس لآدم ولم يصبر آدم على ذلك ولم يتحمل. لما حذره الله أن يأكل من هذه الشجرة وحذره ألا يطيع الشيطان، وأنه في نعيم مقيم في الجنة، جاءه الشيطان ووسوس إليه:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]

الشيطان لو قال له اعصِي ربك وكل من الشجرة لم يطعه، بل يقول لا أعصي ربي، ولكن لم يأته هكذا بل بدأ يغريه، وهذا الشيطان هو الغرور للإنسان؛ يأتيه خطوة خطوة ويزين له أعماله. فقال لهما: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وزين لهما. ولذلك أول ما أتى لآدم **قال:** ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾؛ تأكل منها فتخلد فلا تموت أبداً، وتملك ملكاً لا يبلى ولا ينتهي ولا ينقطع. ثم أعظم من ذلك أن ابليس قاسم؛ أي حلف لهما وقاسمهما:

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]

حلف لهما بشدة وقوة أن هذا الكلام الذي يقوله هو الصحيح وأنه ناصح لهما. وصدقاه؛ حتى قيل إن آدم لم يخطر بباله أن أحداً يقسم بالله كذباً، ولذلك صدقه فأكلا منها:

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]

فبدت لهما سوآتهما؛ قيل إن آدم وحواء في الجنة كان عليهما لباس من نور الجنة يستر عوراتهما وجسديهما، فلما أكلا من الشجرة سقط هذا اللباس وانكشفت عورة آدم وانكشفت عورة حواء. وسميت

عورة لأنها تسوء الإنسان إذا انكشفت ورآها غيره. فبادر وطفقا؛ أي أخذا يخصفان عليهما من ورق الجنة وبداء يغطي كل واحد عورته عن الآخر بورق الجنة يضعه ورقة. ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾؛ وقع في المعصية وكانت المعصية سبباً لغوايته وابتعاده عن طاعة ربه، ولكن الله سبحانه من رحمته اجتباه وتاب عليه وهداه، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه وهداه، وهذه الكلمات ذكرها الله سبحانه وتعالى في (سورة الأعراف):

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]

هذه الكلمات التي تابا بها، وهي من أقوى أدعية التوبة التي ينبغي للمسلم أن يكثر منها: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وقال هنا:

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]

لما عصى، ما كان لآدم أن يجلس في الجنة بعد أن تلبس بالمعصية، فأهبطهما الله جميعاً؛ أهبط آدم وحواء وإبليس إلى الأرض. **قال:** ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾؛ أي تظهر العداوة والخصومات الشديدة بين ذريتكم. ثم **قال:** ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾؛ أي سأرسل إليكم الرسل وأنزل عليكم الكتب، فمن تبع هداي وشرعي لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، فهو في هداية وسعادة في الدنيا والآخرة. ومن أعرض عن ذكري، وهذا كله بيان للحق والغرض من بعث الرسل وأنزال الكتب:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]

من لم يقبل الهدى وأعرض عن القرآن، فإن له في الدنيا معيشة ضنكاً؛ ضيقاً وكآبة وحسرة وقلقاً، لا يجد طعم السعادة أبداً، بل حياته كلها شقاء وضنك. وإذا جاء يوم القيامة حشره الله أعمى. قال الله حكاية عن سؤاله:

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥]

أي كيف أحشر أعمى اليوم وقد كنت في الدنيا بصيراً أرى الأشياء؟ قال الله مجيباً له:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]

أي مثلما أتتك آياتنا البينات في الدنيا فنسيتها وأعرضت عنها ولم تعمل بها، فكذلك اليوم تترك وتنسى في العذاب الأليم أعمى لا تبصر شيئاً، والجزاء من جنس العمل. قال سبحانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧]

مثل هذا الجزاء العادل نجزي به كل من أسرف على نفسه بالمعاصي وتجاوز الحدود ولم يؤمن بآيات ربه، وعذاب الآخرة الذي ينتظره أشد وأبقى؛ أي أشد إيلاماً وأعظم عذاباً، وأبقى لا ينقطع أبداً بل هو دائم مستمر.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يهديني وإياكم الطريق السوي، وأن يوفقنا وإياكم للصراط المستقيم، وأن يجعلنا وإياكم في هذه الدنيا ممن قال الله فيهم لا يضل ولا يشقى. وللحديث إن شاء الله بقية في استكمال ما تبقى من السورة. نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(طه ١٢٨ - ١٣٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا الهدى والنور والعمل الصالح يا رب العالمين.

هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للعاشر من شهر جمادى الأولى من عام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة النبوية الشريفة، لجلسات هذا المجلس المبارك.

والسورة التي بين أيدينا، تناولنا الكثير منها ولم يبقَي إلا القليل؛ خاتمة السورة، وهذه السورة هي **(سورة طه)**.

وحقيقة هذه السورة يعني مليئة بالدروس والعبر والآيات العظيمة التي مرت معنا، والقصص؛ حقائق القصص، ما يسوقه الله سبحانه وتعالى من أخبار الأمم الماضية وما جرى لموسى عليه السلام مع فرعون أو مع السحرة أو مع السامري، وما تخلل ذلك من أهداف جليلة عظيمة ذكرها الله سبحانه وتعالى في هذا الكتاب العظيم وفي هذه السورة العظيمة. خاتمة السورة من الآية الثامنة والعشرين بعد المائة؛

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]

هذا الخطاب يخاطب الله سبحانه وتعالى به من؟ الذين أُنزل عليهم القرآن، وكان أول ما نزل على أهل مكة وهم قريش، وخاطبهم مباشرةً.

وهذا يدخل فيه كل من يصلح الخطاب إليه إلى قيام الساعة؛ لأن القرآن كتاب عظيم لا نستطيع أن نحدد له حد ولا نقول إنه يصلح لزمان دون زمان أو مكان دون مكان.

فكل من يريد الاعتبار بالقرآن الكريم يدخل في هذه الآية؛ يقول الله سبحانه وتعالى لهؤلاء الكفار المعرضين الذين يسمعون ويرون ويشاهدون الآيات العظيمة وينكرون ويعاندون ويستمرون على عنادهم، يهددهم الله ويخوفهم بما جرى للأمم الماضية فيقول: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [طه: ١٢٨].

فعلاً، الهمزة هذه يسميها أهل العلم **(همزة استفهام)**، والاستفهام هنا للإنكار والتوبيخ؛ ينكر عليهم ويوبخهم كيف لم يهتدوا؟ والفاء عاطفة؛ هذه حرف عطف.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؛ لماذا لم يهتدوا ولماذا لم يتدبروا ولماذا لم ينظروا ويعتبروا بأي شيء؟ بالأمم الماضية.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾؛ ليس قرناً ولا قرنين ولا ثلاثة، فالقرون كثيرة سبحانه وتعالى دمرها وأهلكها وأبادها؛ بسبب ماذا؟ بسبب كفرهم وعصيانهم.

وأنتم يا أهل مكة، ومن سلك مسلكهم إلى قيام الساعة، إذا لم تهتدوا بالأمم الماضية، وإذا لم تهتدوا وتعتبروا بهذه الأمم الماضية التي على هذا المنوال، الذين مروا وأُرسلت إليهم الرسل وأُقيمت عليهم الحجج، ومع ذلك كفروا وعاندوا واستمروا على كفرهم وعصيانهم، ما هي النتيجة؟ النتيجة ما هي؟

قال سبحانه وتعالى: لماذا لم يهتدِ هؤلاء المعاندون بالأمم الماضية؟ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾؛ يقول أهل التفسير إن كلمة **(كم)** هنا هي **(كم الخبرية)** التي يراد بها التكثير؛ أي قد أهلكنا قبلهم من القرون ليس قرناً واحداً واثنين وثلاثة، بل قروناً كثيرة.

دمرها الله سبحانه وتعالى وأهلكها، والسبب هو كفرهم وعنادهم.

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾؛ من هم الذين يمشون؟ هؤلاء أهل مكة ومن سار على طريقتهم، كلهم هؤلاء يمشون في مساكنهم؛ يمشون في مساكن قوم ثمود وقوم صالح في مدائن صالح وفي العلا، يمرون عليها ويمشون في مساكنهم، ويمشون في مساكن مدين في بلادنا، ويمشون في مساكن مصر، ويمشون في مساكن قوم لوط في فلسطين، وهكذا يمشون وهم متجهون إلى الشام يمشون في مساكنهم.

لماذا لم يهتدوا ولماذا لم يعتبروا؟ أين أصحاب هؤلاء المساكن؟ أين ذهبوا؟

كما قال سبحانه وتعالى في آخر (سورة مريم):

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨]

هل تشاهد أحد منهم؟ هل تشاهد أحداً منهم بالعين أو تسمع لهم صوتاً خفياً؟ الـ(ركـز) هو الصوت الخفي، ما فيه! وبئر معطلة وقصر مشيد، ذهب أهلها ودمروا تدميراً.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ [طه: ١٢٨]؛ يعني هذه المشاهد فيها آيات وفيها عبر وفيها دروس لمن؟ لـ﴿أُولِي النُّهَىٰ﴾ وهم أصحاب العقول؛ الذين يستعملون عقولهم ويعتبرون بما يجب الاعتبار به، ويتعظون بالمواعظ.

وأصحاب (النهى)؛ النهى جمع نهية، والنهية هي العقل، سميت نهية لأنها تنهى صاحبها عن سفاسف الأخلاق وتنهاه عن أن يقع في ما لا ينبغي الوقوع فيه.

قال الله سبحانه وتعالى تهديداً لأهل مكة:

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩]

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾؛ ان لا ينزل بهم العذاب، لأن الله سبحانه وتعالى سبقت كلمته لهذه الأمة ألا يبيدهم كإبادة الأمم الماضية؛ ألا يستأصلهم بسبب دعاء النبي ﷺ، أو لحكمة يعلمها الله سبحانه وتعالى؛ لأن النبي ﷺ دعا ربه ألا يهلك أمته بسنة عامة فاستجاب الله له.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ ألا يبيد هذه الأمة ولا يستأصلهم، لكان لزاماً؛ أي لكان العذاب ملازماً لهم واقعاً فيهم كما وقع في الأمم الماضية، ولكن السبب هو كلمة الله السابقة، وكذلك **قال:** ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

الكلمة التي كتبها الله أن يبقوا وألا يبادوا بعذاب يستأصلهم، وأجل مسمى بأن الله قدر لهم أجلاً ينتهون عنده، ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾؛ أي لكان العذاب نازلاً بهم لا يبقي منهم أحداً يستأصلهم جميعاً، ولكن الله برحمته أخر عنهم العذاب. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

فلما بين الله الحكمة من عدم استئصالهم العذاب الذي يبيدهم ويقضي عليهم، سلا نبيه محمداً ووجهه إلى الصبر؛ ووجهه إلى الصبر والطاعة والذكر؛ لأن الصبر هو الذي يجعل الإنسان ينشرح صدره عن مثل هذه الأمور التي تشغله، مثل مضايقة الكفار وإيذاء الكفار له، فيسلي نفسه بالصبر؛ يصبر على أذاهم ويصبر على كفرهم ويصبر على ضلالهم ويصبر على إعراضهم ويصبر على ما يتكلمون فيه وفي عرضه وفي دعوته ويسبونه ويشتمونه.

قال الله عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [طه: ١٣٠]

تحمل واصبر، فإن الصبر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحلاق: ٣٥]

والصبر من صفات أولي العزم.

قـــال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠]؛ أي اشتغل بالتسبيح والذكر والطاعة فإن هذا من أقوى المسليات عن الحزن على القوم وعن الضيق مما يحصل مما يضيق به؛

﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]

قـال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]؛ يقول اذكروا الله اذكر الله وأكثر من ذكره وسبحه وكبره وهلله، في أي وقت؟

قال: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾؛ لأن هذا وقت تحري الإجابة، ووقت بداية النهار، فيستقبله بالذكر.

قـال: ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾؛ أي قبل غروب الشمس، يعني هذا فيه تغيرات تدل على أن المغير والذي يملك التغير هو الله سبحانه وتعالى.

قال أيضاً: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾؛ أيضاً اشتغل بالتسبيح، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾؛ والطرف النهار هو وقت الظهر لأنه نهاية أول النهار وبداية آخر النهار، فيكون هو طرفي النهار.

وقيل أطراف النهار أوله وآخره لعلك ترضى.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بهذه الآية هي الصلوات الخمس؛ في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قالوا هذه صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ قالوا صلاة العصر، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ الظهر.

فهذه الآية الصلوات الخمس المفروضة، كما جمعتها آيات أخر منها:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨]

وعشياً قيل العصر، وحين تظهرون الظهر، فهي جامعة للصلوات الخمس. فهذه تدل على ذلك، ويدخل في التسبيح المطلق من الذكر.

ويدخل في ذلك إقام الصلاة؛ لأنها من الذكر:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]

فلما وجه الله سبحانه نبيه على أن يصبر على قومه وعلى ما يقولون ويتحمل ويشتغل بالذكر والتسبيح؛ لأن الذكر والتسبيح أقوى أنواع التفريج، تفريج الكرب، فإذا الإنسان شعر بضيق أو كرب ونحو ذلك، فعليه بذكر الله وعليه بالصلاة؛ لأن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

وابن عباس رضي الله عنه، عبد الله بن عباس، لما جاءه خبر وفاة أخيه قثم أنه توفي، قام وصلى ركعتين، فالصلاة سبب لدفع البلاء، سبب لتفريج الكرب، سبب لإزالة الهموم، كل ذلك.

ولذلك أمر الله بالصبر وأمره بالانشغال بالطاعة والتسبيح والذكر والصلاة، وحذره مما قد يصرفه عن ذلك؛ عن الذكر والصبر، من الانشغال بالدنيا والانهماك بها والتطلع إليها والإعجاب بها.

ولذلك قال:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]

يعني يقول لا تتمتع عينيك بحيث إنك تنشغل ويكون همك هو النظر إلى الدنيا وإلى خضرة الدنيا وزخرفها.

واستنبط بعض أهل العلم من قوله تعالى ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ إلى أن النظر إلى الدنيا كنظرة عابرة هكذا دون إمعان ودون استمرار وتطلع شديد، أن ذلك جائز؛ أن هذا جائز أن تنظر إلى الدنيا وزخرفها وجمالها وخضرتها وبهائها لا مانع، لكن لا يكون طويلاً بحيث إنك تنشغل بالدنيا وتركن إليها على حساب الآخرة.

ولذلك شرف التعبير في القرآن **قال:** ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾ لأنه يمد عينه بشدة؛ يمدها ويستمر في النظر إليها بحيث إن الدنيا والآخرة لا تجتمعان، الدنيا والآخرة لا يمكن لإنسان أن يجمع بين الدنيا والآخرة، إما أن تكون مقبل على الآخرة تارك للدنيا، أو تقبل على الدنيا وتترك الآخرة.

ولذلك قال لما أمر بالتسبيح والذكر والطاعة والصبر، حذره أن يكون مغتراً بالدنيا كما هي حال هؤلاء الكفار: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١].

هذه زهرة، والزهرة وصف الله بها الدنيا؛ لأن الزهرة سريعاً ما تذبل، يعني أيام قليلة وتنتهي، تكون جميلة بيدك ثم تذبل وتنتهي، ولذلك سماه الله: ﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

ثم بين الله عز وجل العلة: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ نفتنهم في هذا، في هذه الدنيا.

طيب هنا ﴿مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾؛ ما معنى الأزواج؟ الأصناف في الدنيا؛ جمال الدنيا أصناف، زينة الدنيا أصناف من الأموال ومن المراكب ومن المساكن ومن الجواري، ومن سائر زينة الدنيا التي تأتي على أصناف مصنفة وأزواج متنوعة، هذا المراد بالأزواج.

وليس المراد هنا بالأزواج يعني زوجات النساء، نعم يدخل فيها النساء، يدخل فيها كل أصناف الدنيا التي تلفت والتي يغتر بها من يغتر بها.

يقول: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ نفتنهم في هذا الجمال وهذا البهاء وهذه الزخرفة وهذه الزهرة.

قال الله عز وجل: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]؛ التفاتة، الطاعة خير من هذا الذي سريعاً ما يضمحل، الدنيا مهما أُعطي الإنسان لن يستقر، يذهب عنها أو هي تذهب عنه، وتصيبه المصائب والهموم والأمراض ونحو ذلك.

لكن الإنسان ينبغي له أن يحرص على الطاعة، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

ما المراد بالرزق هنا؟ قال أهل التفسير: المراد به هنا رزق الطاعة، أن يرزقه الله العمل الصالح، هو الذي يبقى، خير وأبقى.

أما رزق الدنيا من الأكل والشرب فهذا قد كتبه الله لك وقد قدره الله عليك وستأتيك الدنيا وهي راغمة، المراد هنا العمل الصالح؛ أن يرزقك الله التوفيق للعمل الصالح والمحافظة على تقوى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ لك في الآخرة.

ثم بين قال الله عز وجل بعدها:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]

لما أمره في أول الأمر أن يسبح وأن يطيع وأنه يكثر من الطاعة والذكر والصلاة، أمره أيضاً أن يأمر أهله ومن تحته بالصلاة؛ **قال:** ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾؛ من تحتك من الزوجات والأبناء والبنات، أمرهم بالصلاة وحثهم على الصلاة، يذكرهم بها ويشجعهم عليها.

﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾؛ لم يقل اصبر، وإنما **قال:** ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

يعني الاصطبار يحتاج إلى قوة، يحتاج إلى عزيمة؛ لأن الصلاة وأمر أهل البيت بالصلاة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾، هذا يحتاج إلى تصبر، يحتاج إلى أن الإنسان يصبر ويصبر على دعوة زوجاته وأولاده في البيت على طاعة الله سبحانه وتعالى، بأن يثبت نفسه على تشجيعهم على الصلاة وعلى الذكر وعلى الطاعة.

قال: ﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾؛ اصطبر على الصلاة وعلى دعوة أهلك بالصلاة واصطبر عليها.

﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾؛ يعني نحن لا نسألك أنت أن ترزق أبناءك أو ترزق ذريتك أو ترزق الناس، الأرزاق كتبها الله قبل ذلك، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ والله هو الذي يرزق.

وهو الذي قد قدر الأرزاق:

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]

والله هو الذي يرزق وهو الذي قدر الأرزاق، فلا تشغل نفسك بالدنيا على حساب الآخرة، وأنك تنشغل عن طاعة الله وعن الصلاة ونحو ذلك.

قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢]؛ أي والعاقبة لأهل التقوى، أهل التقوى حسن مآبهم في الآخرة، فكل من كان من أهل التقوى لتكون العاقبة حسنة طيبة، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوِي﴾.

وبعد ذلك، يأتي الحديث عن بيان موقف هؤلاء الكفار المعاندين الذين يعارضون ويأتون بالحجج الباطلة والكلام الذي لا يصح؛ قال عز وجل عنهم حكاية عنهم:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]

لولا يأتينا محمد بآية، ما هي؟ مثل القرآن، لولا يأتينا بآية حسية مثلما أعطى الله صالحاً الناقة وأعطى موسى العصا، يأتينا بها.

قال رداً عليهم وبإبطال حجتهم: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾؛ قد جاءهم ما هو أقوى من ذلك وهي بينة الصحف الأولى، يعني القرآن الكريم الذي فيه أخبار الأمم الماضية، هذا يكفيكم وفيه

أخبار بالأشياء الغيبية وفيه الحجج وفيه الأدلة؛ أقوى من العصا وأقوى من الناقة، وحجته قائمة مستمرة باقية لكل الأمم والأجيال، فالقرآن أعظم حجة وأقوى سلطان وأقوى آية من آيات الله.

ثم قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]

لو أنهم نزل بهم العذاب من قبل، يعني من قبل أن يأتي محمد أو من قبل أن ينزل عليهم القرآن: لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً؛ لولا بعثت إلينا رسولاً، فنتبع آياتك التي أُنزلت وجاء بها الأنبياء أو جاء بها الرسول من قبل أن يصيبنا الذل والخزي بالعذاب والهلاك، مطالب عادلة.

قال الله عز وجل، يقول لهؤلاء: هم يقترحون الآيات ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ﴾ وقد جاءهم مما هو أعظم وهو كتاب الله سبحانه وتعالى الذي فيه النور المبين والحجة القائمة وهو فيه أخبار وما ذكره الله عن الأمم الماضية، يدعون ذلك، يقولون: لولا الله سبحانه وهددهم أن تصيبهم مصيبة أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت فينا، وقد جاءهم رسول، لولا نتبع آياتك، قال الله قل لهم يا محمد:

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥]

قل لهم على وجه إقامة الحجة: تربصوا وانتظروا ما أنتم عليه، إنا منتظرون ومتربصون معكم من المتربصين، أنتم تتربصون ونحن نتربص معكم ونشوف النتيجة.

دائماً أيها الإخوة، كلمة التربص في القرآن ﴿تَرَبَّصُوا﴾ أو ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا﴾ يعني التربص هو انتظار شيء ينتظره الإنسان، هؤلاء يتربصون يعني ينتظرون، ماذا ينتظرون؟

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾؛ وسينظرون النتيجة فستعلمون من أصحاب الصراط السوي؛ من هم الذين على الطريقة السليمة، على الصراط المعتدل؟ الصراط السوي أي المعتدل القائم، من هم الذين هم على الجانب، من هم الذين على ما أمرهم الله وشرع لهم، من هم الذين هداهم الله؟

ولذلك **قال:** ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾؛ من هم أصحاب الصراط السوي ومن هم الذين هداهم الله سبحانه وتعالى فاستقاموا على طاعته؟ ستجدون ذلك بعدما تتربصون وتنتظرون النتيجة.

كل هذا تهديد لهم يختم الله به هذه السورة العظيمة.

حقيقة هذه السورة العظيمة، اجتمعنا أياماً طويلة ويعني تدبرنا آيات هذه السورة، وانظر أنت وأنت تقرأ هذه السورة يفتتحها الله بأي شيء؟ يقول:

﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ [طه: ٢]

فالقرآن هداية وسعادة، ويختمها بقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

الهداية وهي السعادة لمن تمسك بها ولمن تمسك بشرع الله وأخذ بالقرآن، فقد اهتدى وسلم وسعد في الدنيا والآخرة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يعيننا وإياكم على تدبر كتابه وفهمه والعمل به.

الله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الأَنْبِيَاءِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الأنبياء ١ - ٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو يوم الثلاثاء، الموافق للسابع عشر من شهر جمادى الأولى من عام (١٤٤٣ هـ) من هجرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أيها الإخوة، نجتمع في هذا المقام المبارك، واجتماعنا حول كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والقرآن العظيم، الذي خير ما يقضي المسلم وقته مع هذا القرآن وهذا الكتاب العظيم.

ولله الحمد والمنة، يعني من بداية استئنافنا للقرآن الكريم من منتصف القرآن الكريم، بدأنا بسورة (الكهف)، ثم (مريم)، ثم (طه)؛ ثلاث سور، والآن في السورة الرابعة وهي سورة (الأنبياء). ولو يكون كل شخص يتابع معنا، أن يكون المصحف بين يديه، والسورة بين يديه، هذا يساعد كثيرًا على تدبر القرآن وفهم الآيات.

هذه السورة، سورة (الأنبياء)، سميت بهذا الاسم، وليس لها اسم غير هذا الاسم، سميت بسورة (الأنبياء)؛ والسر في ذلك لكثرة ذكر عدد من الأنبياء، ذكر الله في هذه السورة ستة عشر نبيًّا.

وكل قصة تأتي أحيانًا موجزة ومختصرة، وأحيانًا يتوسع فيها؛ فمثلًا قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بسط الله الحديث عنه في السورة، وتكلم عن قصته بتوسع، وبعضهم متوسط الحديث عنه، وبعضهم مختصر جدًّا، فإن شاء الله سيأتينا الحديث عنها.

- **وقد يسأل سائل ويقول: ما السر في ذكر عدد هؤلاء الستة عشر الأنبياء في هذه السورة؟**

الجواب: أولًا؛ لنعلم جميعًا أن سورة (الأنعام) على طولها ذكر الله فيها ثمانية عشر نبيًّا، تعداد أسمائهم ولم يفصل فيهم، وأما هنا ففصل وتوسع قليلاً في بعض قصصهم.

- **لو سألك سائل وقال لك: ما السر في ذكر عدد هؤلاء الستة عشر في هذه السورة؟**

الجواب: لأن السورة هنا، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين فيها إقامة الحجة على الذين كفروا، الذين أعرضوا عن دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وشكوا في نبوته كما سيأتينا في الآيات القرآنية.

عندما تقرأ الآيات القرآنية تنظر موقف المعاندين المعرضين عن كتاب الله وعن دعوة الرسول، أنهم كذبوا بالقرآن وكذبوا بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يثبت لهم رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه رسول من عند الله بلا شك، فأراد سبحانه أن يثبت لهم الرسالة.

هذه السورة، إذا عرفت السر في ذكر عدد هؤلاء الأنبياء وكلهم رسل؛ فلماذا أنتم أيها المعرضون وأيها الكافرون تعترضون على رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتشكون في رسالته، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أرسل قبله رسلًا كثيرين؟ فلماذا تعترضون عليه؟ ما وجه الاعتراض؟ ليس لهم أي وجه.

- **هذه السورة لو سألك سائل وقال لك: هذه السورة التي عدد آياتها مائة واثنتا عشرة آية، عما تتحدث؟ ما موضوعها؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر فيها مائة واثنتي عشرة آية، لا شك أنها اشتملت على موضوعات، فما أبرز موضوعات هذه السورة؟**

الجواب: هذه السورة سورة مكية، والسورة المكية نزلت لمناقشة المشركين في قضايا كثيرة من قضايا (العقيدة)؛ لأن القسم المكي والسور المكية وبعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها تقوم على تصحيح العقيدة، فأكثر ما تأتي الآيات تأتي في تقرير عقيدة المسلم الصحيحة التي ينبغي أن يكون عليها.

- **ما هي الموضوعات العقدية التي تكلمت عنها السورة؟**

الجواب:

أولًا: **إثبات توحيد الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه المستحق للعبادة، وأنه لا يجوز صرف أي عبادة إلا لله، وبيان عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبيان الأدلة الدالة على ربوبيته وعلى قدرته وعلى ملكوته -سعة ملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وعلى سعة علمه، وأنه المحيط بكل شيء، وأن كل المخلوقات تحت تدبيره وحكمه.

هذه عقيدة المسلم التي ينبغي أن يكون عليها بهذه الصفة، هذا تقرير عقيدة المسلم في توحيد الإلهية -توحيد العبادة-: أنك لا تعبد إلا الله، ولا تخضع إلا لله، ولا تسجد إلا لله؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي خلقك وهو الذي رزقك وهو الذي أنعم عليك بالنعم العظيمة وهو الذي يستحق أن يعبد، وهو الذي خلق الخلق كله وهو الذي أحاط به وملكه ملكوت السماوات والأرض.

⬅ثانيًا: **عقيدة المسلم في عالم الملائكة**، فإذا تقرر هذا الأمر، تأتي قضية الملائكة، فتكلمت السورة عن تقرير عقيدة المسلم في الملائكة، وأنهم خلقهم الله لعبادته، وأنهم لم يشركوا بالله شيئًا، ولم يرضوا لأحد أن يعبدهم.

⬅ثالثًا: **عقيدة المسلم في الأنبياء والرسل**، وأن الله أرسل الرسل لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الطاعة، ومن الضلال إلى الهدى، فدورهم أنهم يبلغون رسالات ربهم، فعلى المسلم أن يعتقد العقيدة الصحيحة في جانب الرسل، وأنهم بشر، وأنهم يوحى إليهم، وأنهم خير الخلق اصطفاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

⬅رابعًا: **الإيمان باليوم الآخر**، وهذا ما قررته السورة وركزت عليه من أول آيات السورة إلى آخر آياتها، كلها تقرر عقيدة الإيمان باليوم الآخر، وما يجري في اليوم الآخر من الحساب ومن الميزان ومن الجنة ومن النار، كل ذلك تقرره السورة، التي يجب على المسلم أن يعتقد هذا المعتقد، والرد على منكري البعث ومنكري الحساب ومنكري الجنة والنار، كلها ترد عليهم.

⬅خامسًا: **عقيدة الإيمان بالقرآن**، وأنه كلام الله، وأن الله أنزله هداية للناس، وأنه وحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوحى به إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه كلام الله، وأنه كتاب هداية ودليل المسلم إلى جنات النعيم والى الصراط المستقيم، والرد على الذين اتهموا القرآن بأنه أضغاث أحلام وبأنه سحر وبأنه كلام بشر أو غير ذلك.

هذه السورة تركز على هذه الأمور المهمة، عقيدة المسلم بالله وبملائكته وبكتبه وبرسله وباليوم الآخر خمس قضايا مهمة ينبغي للمسلم أن يكون على علم ودراية بها وفهم.

هذه السورة الآن اتضحت لنا جميعًا، بما اشتملت عليه من هذه الآيات. إذا عرفت هذه السورة وكان عندك الآن تصور واضح عنها، نبدأ بآياتها الأول حتى تتضح لك العقائد وتتضح لك الموضوعات التي تحدثنا عنها.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة بعد بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]

هذه عقيدة الحساب والجنة والنار والبعث واليوم الآخر.

قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[الأنبياء: ١].

⬅الأمر الأول: هذه الآية نص ودليل صريح في قرب اليوم الآخر وقرب البعث والجزاء والجنة وقيام الساعة. أولًا: كيف عرفنا اقترابها من هذا اللفظ لما قال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾؟ وشوف الفرق بين **"قرب"** و**"اقترب"**، **"اقترب"** أقوى في التعبير؛ لأن **"اقترب"** يعني أشد؛ لأن أهل اللغة يقولون: **"الزيادة في المبنى زيادة في المعنى"**، فقولك **"اقترب"** أشد من **"قرب"**. لكن لما أقول لك: **"لا تقرب من هذا الشيء"** وأقول لك: **"لا تقترب"**، يكون **"لا تقترب"** أقوى.

وكذلك لما يقول الله سبحانه: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾[القمر: ١]

أشد من أن يقول **"قربت الساعة"**، فهذا دليل على قربانها. ولأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**». وقرن بين السبابة والوسطى؛ فدليل على قرب الساعة.

⬅الأمر الثاني: الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر الآية ﴿اقْتَرَبَ﴾ بصيغة الفعل الماضي، وهي لم تأتِ في كلام الناس، ما تقول: **"اقترب رمضان"** ورمضان لم يأتِ، أو تقول مثلًا: **"دخل رمضان"** وهو لم يأتِ، تقول: **"سيأتي رمضان"** ممكن للمستقبل، لكن هنا الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾، جاء بصيغة الماضي كأنه وقع وانتهى.

مثل قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]. فنقول: هذا لكونه واقعًا لا محالة متحققًا عبّر بصيغة الماضي، وهذا أسلوب من أساليب العرب؛ إذا كان الأمر واقعًا لا محالة فإنهم يستعملون فيه صيغة الوقوع وهي صيغة الماضي كأنه وقع وانتهى، ولذلك قال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

ولاحظ أيضًا من التأمل في الآية أن الله ما قال: "اقترب للناس موعدهم" أو **"اقترب للناس يومهم"** أو لم يقل مثلًا: **"اقترب للناس بعثهم"**، لا، قال: ﴿حِسَابُهُمْ﴾؛ وكلمة (الحساب) هذه تجعلك تقف عندها وتتأملها لأنها مخيفة، أمامك حساب.

فأنت لما تدخل متجرًا كبيرًا واسعًا ويقال لك: "ستخرج من هذا المتجر لابد أن تمر على المحاسبة"، فهذا سيوقفك أنك تتأمل أكثر، وما الذي ستأخذه من هذا المتجر وما الذي ستتركه، فتجلس تحسب وتتأمل وتنظر أكثر وأكثر.

لكن هنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ ماذا؟ ﴿حِسَابُهُمْ﴾؛ أي أنهم سيحاسبون، وأن يوم القيامة يوم فيه الحساب هو يوم الحساب، **(يوم الحساب)** من أسماء يوم القيامة.

فلما يقول: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ هذه أشد وأقوى من أن يقول **"اقترب موعد"** أو **"اقترب يومهم"** أو **"بعثهم"**، كلمة **(الحساب)** تدل على أن هناك حسابًا، وأنهم سيحاسبون، وإذا حوسبوا جوزوا على أعمالهم؛ إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، فهذه وقفة شديدة. ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ ماذا قال؟ ﴿حِسَابُهُمْ﴾.

- **ماذا حالهم؟**

قال: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

- **لما يأتيك السائل ويقول لك: الاقتراب للناس هذا يدخل فيه كل الناس حتى المؤمن والكافر؟**

الجواب: نعم.

- **كيف قال: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾؟ هل المؤمن في غفلة؟**

الجواب: لا، الاقتراب سيعم الناس جميعًا، الصالح منهم وغير الصالح، وأما الذين هم في غفلة فهم الذين لم يحسبوا لهذا اليوم أي حساب، وأنهم غافلون عنه وهم الكفار المعرضون، ولذلك خصهم؛ لأن المؤمن دائمًا يكون على استعداد، ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]

فالمؤمن دائمًا يخاف أنه سيحشر وأنه سيجازى، ولذلك قال هنا: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، هؤلاء الكفار، ومن في منزلة الكفار من أهل المعاصي الذين انغمسوا في المعاصي فشغلتهم الدنيا عن الآخرة، فأصبحوا كأنهم لا يحسبون أي حساب ليوم القيامة.

- **شوف لاحظ أن الله ماذا قال؟**

قال: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾؛ غفلة عن الحساب، وغفلة عن الجنة، وغفلة عن النار، وغفلة عن البعث، يعني همه الدنيا، يشتغل للدنيا ويعيش للدنيا ويأكل ويشرب للدنيا، لم يحسب للآخرة ألف حساب.

كيف الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لك: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ وقد قرب الحساب والجزاء والجنة والنار وأنت في غفلة لم تشعر بشيء!

الغفلة هي الذهول والسهو والانصراف وعدم التفكر فيما أمامه، هذا معنى الغفلة، وليست غفلتهم أنهم لا يدرون عن شيء أو أنهم قد أذهلهم شيء آخر، لا، غفلتهم عن إعراض؛ لا يريدون أن يتذكروا اليوم الآخر، لو جئت إلى هذا الشخص في دكانه وفي محله وفي مكتبه وفي بيته لا يريد أن تذكره بالآخرة أبدًا.

ولذلك قال الله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وفي نفس الوقت ﴿مُّعْرِضُونَ﴾، معرضون عن أن تذكرهم باليوم الآخر، هو لا يريد ذكر الآخرة أبدًا، هو يريد أن يعيش للدنيا، وهو في غفلة عن الآخرة ومعرض عن الآخرة، وهذا أشد؛ أن يكون غافلاً معرضًا.

ولذلك شوف قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]. أي ذكر يأتيهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن الكريم، أو في الوحي، أو في الرسالة، أو في ما يتكلم به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالوحي، ما يأتيهم من ذكر وموعظة وتذكير لهم من ربهم.

ولاحظ أن الذكر هذا من رب العالمين، الذي هو أرحم الراحمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي هو أرأف بخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾، ما معنى محدث؟**

أي كل ما يأتيهم ذكر جديد لا يقبلونه، هذا معنى المحدث، يعني ليس ذكرًا قديمًا واندرس وانتهى وتلاشى ولم يتكرر، لا، كل ما يأتيهم ذكر جديد، كل ما تنزل عليهم الآيات.

- **ما موقفهم؟**

موقفهم الإعراض وعدم قبوله، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتعاهدهم في كل وقت، وتنزل الآيات في كل وقت، ومع ذلك هم مصرون على الإعراض وهم في غفلة.

قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢]

استمعوه استماعًا لغير تدبر ولغير عمل، مجرد سماع فقط، يستمعون لكن ما يعملون به، ما يستفيدون منه، لذلك يقول هنا: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، وحالهم يلعبون، يعني ما بين غفلة وإعراض ولعب، هذه حالهم. أمامكم موقف عظيم تشيب له الولدان، أمامكم

موقف عظيم يبلغ العرق من الواحد أن يلجمه إلجامًا، وتدنو الشمس من العباد، وموقف عصيب جدًّا يهابه العقلاء ويهابه الذين يخافون الله، وأنتم في غفلة وأنتم معرضون وأنتم تلعبون، ما هذه الحال؟

قال بعدها ماذا؟ شوف كيف شدة الإعراض، قال: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]

قلوبهم لاهية، لا يريدون أن يسمعوا منك شيئًا، ولا يريدون أن يتقبلوا منك، ولا يريدون ذكرًا يُذكر فيه الجنة والنار والحساب، لا، هذا لا يريدونه، ولذلك قلوبهم لاهية ومنشغلة بالدنيا وحطام الدنيا وزخارف الدنيا.

ثم قال: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]

أي هؤلاء الكفار الذين وصفهم الله بما وصفهم في هذه الآيات، أن حالهم أنهم إذا سمعوا الرسول وسمعوا القرآن فإنهم يسرون النجوى، يخفون الكلام بينهم.

- **ماذا يسرون؟ يسرون أي شيء يخفونه؟**

قال: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، إذًا هم ظلمة، هم ظالمون، ويسرون النجوى، أي يخفون الكلام بينهم ضد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وضد القرآن، فماذا يقولون؟ يقولون: ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ يتناجون فيما بينهم ويتخاطبون فيما بينهم فلان مع فلان، ويجتمعون فيما بينهم ويقولون: هل هذا -يعني محمدًا- هل هذا إلا بشر مثلكم؟ يعني ما هذا إلا بشر، كيف تطيعون بشرًا؟ بشر يُرسل إليكم تطيعونه؟ ما وجهه؟ ما هذا إلا بشر مثلكم. سيرد الله عليهم، سيرد الله عليهم.

قالوا: ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، يعني ماذا تريدون من ذلك؟ ماذا تريدون من هذا الأمر؟ يعني هل هذا إلا بشر مثلكم؟ طيب تريدون ماذا؟ تريدون ملكًا ينزل عليكم؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٨-٩]

يعني الذي يتقبل ويصلح لكم أن يكون بشرًا مثلكم حتى تتقبلوه، لو جئنا بملك لما تقبلتموه، فمن الأنسب أن يكون الرسول منكم تعرفونه، ولهذا حجة، حتى حجة الأمم الماضية الذين أهلكهم الله كلهم يقولون: ما هذا إلا بشر، حجة باطلة وسيرد الله عليهم.

قالوا: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، أي ما هذا إلا بشر، هذا موقفهم من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- **وموقفهم من القرآن؟**

قالوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، سموا القرآن سحرًا، ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، تبصرون هذا الشيء أمامكم وتأتون السحر؟ فقدحوا بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وردوا رسالته وقالوا: **"هذا بشر"**، وقدحوا بالقرآن الذي هو حجة الأولين، حجة الله على الأولين والآخرين، والذي هو أفصح كلام، وهم يعرفون أنه منزل من عند الله، لكن يريدون أن يطمسوا الحق بالباطل، فقالوا: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، كيف تأخذون سحرًا؟ محمد ساحر وهذا الكلام يسحركم، فوصفوا القرآن بالسحر.

- **فماذا رد الله عليهم؟**

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٤].

وفي قراءة أخرى: **"قل ربي يعلم القول"**، وكلها قراءات صحيحة؛ ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾. شوف هم يسرون النجوى ويتناجون فيما بينهم، والله يعلم القول في السماء والأرض، لا يخفى عليه، لا يخفى عليه ما يقولونه في القرآن، ولا يخفى عليه ما يقولونه بمحمد.

وإذا كان لا يخفى على الله وهو السميع الذي يسمع أقوالهم وهو العليم الذي يعلم أحوالهم، فإن الله سيجازيهم، وكل هذا تهديد لهم، إذا كان الله يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القول في السماء ويعلم القول في الأرض وهو السميع العليم، فإنه سيجازيهم، سيجازيهم على ما يقولون.

لاحظ أيضًا بعد ذلك تأتي الآيات تبين موقفهم أيضًا من القرآن ومن محمد، بل قالوا: ليس فقط أنهم قالوا سحر بل قالوا أضغاث أحلام، بل افتراه، شوف كيف يتهمون القرآن؛ اتهموه بأنه سحر، ثم قالوا:

هذه أضغاث أحلام، والأضغاث جمع ضِغْث، والضغث الشيء المتجمع، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أيوب:

قال تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]

يعني من عِذْق النخل المتجمع، فأضغاث جمع ضِغْث، والضغث المتجمع، وهم يقولون: كلام مجمع ما فيه فائدة، مجمع من هنا وهنا، أضغاث أحلام، وهي أحلام مجرد رؤى وأحلام يراها ويأتي ويخبرنا بها مثل ما قالوا **"أساطير الأولين"**.

يقولون محمد: مجرد هذه أحلام يراها، جمع حُلْم، والحلم الذي يراه الإنسان مما لا حقيقة له، مما من الشيطان، أو مما كان يفكر فيه فيراه في منامه، مجرد هذه رؤى منامية وأضغاث وأحلام لا نلتفت إليها، لا نلتفت إليها.

ولذلك قالوا: هذا القرآن مجرد أضغاث وأحلام، ثم انتقلوا إلى ما هو أشد؛ شوف كلمة **"بل"**، **"بل"** هذه تدل على أنهم يرتقون أو يترقون من أشد إلى أشد، فهم يقولون: بل افتراه، بل افتراه، يعني هذا القرآن سحر، ثم قالوا: أضغاث أحلام، ثم قالوا: هذا فرية افتراه محمد، كذب افتراه، يعني أتى به كذبًا ليس له حقيقة، بل افتراه.

ثم انتقلوا إلى أشد من ذلك قالوا: بل هو شاعر، يعني القرآن شعر وهو شاعر، شوف كيف يصفون القرآن؛ يصفونه بأنه سحر، يصفونه بأنه شعر، يصفونه بأنه أضغاث أحلام، يصفونه بأنه كلام مفترى من محمد، محمد يفتريه على الله، يكذب على الله.

أيوه يقولون: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]، ومحمد مرة يقولون شاعر، ومرة يقولون ساحر، ومرة يقولون بشر، التخبط عندهم، كيف يصل عندهم تخبط! ليس لهم جادة وليس لهم طريق يستطيعون أن يسيروا عليه، وإنما يتخبطون هنا وهناك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]

فلماذا لا يأتينا محمد بآية حسية نشاهدها مثل عصا موسى ومثل ناقة صالح؟ وين الآيات الحسية؟ ما عنده آيات حسية.

فرد الله عليهم: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦]

أين قوم صالح الذين قالوا: **"أخرج لنا من الصخرة ناقة"**، هل أسلموا وآمنوا؟ بل زادوا عتوًّا ونفورًا حتى أهلكهم الله. عصا موسى هل آمن فرعون ومن معه؟ بل كفروا وحاربوا موسى.

- **ما الفائدة من أن نعطيكم آية حسية؟**

ما في فائدة، ما في شيء جديد، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾، لو أعطيناهم آية حسية ولم يؤمنوا لنزل بهم العذاب، فما الفائدة من ذلك؟ لا فائدة من ذلك.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]

هذا رد عليهم لما قالوا **"بشر"**، قالوا **"ساحر"**، قالوا **"شاعر"**، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: تعترضون عليه أنه بشر؟ ما أرسلنا قبلك إلا رجالًا؛ نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وعيسى، كلهم رجال، كلهم رجال، ما أرسلنا قبلك إلا رجالًا نوحي إليهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: إذا كنتم تجهلون وليس عندكم علم، ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، اذهبوا إلى أهل العلم من اليهود والنصارى وغيرهم وتعلموا، تعلموا، أنتم ما عندكم علم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ دليل على أن الرسل لا يكونون إلا رجالًا، وليس منهم امرأة، ليس منهم امرأة، حتى من يقول إن مريم نبية هذا غير صحيح؛ لأن الله ما يرسل إلا رجالًا نوحي إليهم.

قال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ في كل شيء، في كل مجال؛ في مجال الرسالة، ومجال الرسول، وفي مجال الدين، وفي مجال الأحكام الشرعية التي يحتاجها الإنسان يسأل أهل الذكر، حتى في أمور الدنيا إذا لم يعرف يسأل أهل الاختصاص حتى يخبرونه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حق الأنبياء: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨]

يقول: الأنبياء بشر مثلكم يأكلون ويأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ما جعلناهم جسدًا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين أنهم يبقون لا يموتون كالملائكة، الملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تموت، وأنتم لو جئنا بملائكة ما استطعتم أن تتبعوهم، فالأنبياء السابقون ما جعلهم الله جسدًا باقية أجسادهم، وإنما ماتوا لما جاءت آجالهم ماتوا، فأنت ستموت يا محمد وهم سيموتون، ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩]

أي الأنبياء السابقين الذين أوحي إليهم ودعوا أقوامهم، وكان أقوامهم معترضين عليهم وكانوا يكفرون بهم وردوا رسالاتهم، ما النتيجة؟ صدق الله عَزَّ وَجَلَّ، صدق أنبياءه الوعد لما وعدهم بالنصر والتمكين ووعدهم بإهلاك أعدائهم.

- **ما هي النتيجة؟**

قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩]

صدق الله وعده وأنجى عباده الصالحين، وأنجى من يشاء من عباده من أتباع الرسل، وأهلك الله المسرفين المعرضين، أهلك الله الطغاة، أهلك الله من اعترض على أنبيائه ورد رسالاتهم، هذه النتيجة وهذه سنة الله؛ أغرق الله قوم نوح لما ردوا رسالته، وأهلك الله عادًا بالريح لما ردوا رسالة هود، وأهلك الله ثمود بالصيحة لما ردوا رسالة صالح، وأغرق الله فرعون وهكذا.

فيخاطب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لعلنا نقف عند هذا حتى لا نطيل عليكم، فنقف عند هذه الآية التي يخاطب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها أهل مكة والمشركين بأن الله قد أنزل إليهم كتابًا فيه ذكرهم، وفيه شرفهم، وفيه علوهم، وفيه مكانتهم، لكنهم لا يعقلون.

ولذلك قال: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]

يأتي الحديث إن شاء الله عند الآية العاشرة في لقائنا القادم بإذن الله، نسأل الله التوفيق والسداد، وأن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الأنبياء ١٠ - ٢٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو اليوم الرابع والعشرون من شهر جمادى الأولى من (١٤٤٣ هـ) من هجرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ونحن في تفسير سورة (الأنبياء)، وذكرنا أن هذه السورة سميت بسورة (الأنبياء)؛ لأنه ذُكر فيها ستة عشر نبيًّا، وجاءت في سياقات مختلفة ومتعددة بين قصص الأنبياء المختصرة والتي توسّع الله في ذكرها، وكل هذه يعني حتى نعرف ونقف عند هذه النقطة.

- **وهي أن ذكر الأنبياء بهذا العدد الكبير (ستة عشر نبيًّا)، لماذا؟**

الجواب: ليقيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحجة على مشركي العرب الذين اعترضوا على رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفروا بالرسول وكفروا بالقرآن، فكان هذا ذكر الأنبياء تثبيتًا له، وأيضًا إقامة الحجة على هؤلاء الكفار بأن محمدًا لم يكن أول نبي، بل قبله أنبياء كثير.

نحن توقفنا عند قوله تعالى في الآية العاشرة: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]

انظر كيف الأسلوب؛ يقسم الله في هذه الآية، والْقَسَم غير موجود محذوف، ولكن دلت عليه اللام و **"قد"**؛ أي: واللهِ لقد! ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا﴾.

الله عَزَّ وَجَلَّ يخاطب هؤلاء المشركين؛ كفار مكة، ويخاطب غيرهم أيضًا على مر السنين وعلى مدى الأيام: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا﴾، ما هو؟ هو القرآن. ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾؛ أي: فيه شرفكم، فيه شرفكم وفيه عزكم في الدنيا والآخرة، وفيه ذكركم أي: تتذكرون به ما ينفعكم وتبتعدون عما يضركم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أين عقولكم؟ أين عقولكم وأين تفكيركم؟ لماذا لا تفكرون بعظمة هذا القرآن الذي هو كلام الله؟ فيه العز وفيه الشرف.

☜**يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ». فلا تكن ممن يضع الله بهذا القرآن، وكن ممن يرفع الله بهذا القرآن؛ فيه العز وفيه الشرف.

يقول: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.

وقال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]

﴿لَذِكْرٌ﴾؛ أي: شرف لك ولقومك وسوف تسألون. والمشركون -كما مر معنا في الآيات السابقة- يتهمون القرآن بأنه سحر، وبأنه شعر، وبأنه أضغاث أحلام، ويتهمون الرسول بأنه مفترٍ على الله، وأنه يكذب على الله، وأنه شاعر، وأنه ساحر، والله عَزَّ وَجَلَّ يلاطفهم بالكلام الجميل ويقول: هذا لكم، ويرغبهم في الإسلام، ويرغبهم في طاعة الله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أين عقولكم؟

ثم لما رغبهم في هذه الآية، وحثهم على أن يتمسكوا، وأن يفكروا وأن يعقلوا ما جاءهم عن الله، وأن يقرؤوا القرآن ويتدبروا هذا القرآن، لما حثهم عليه ودلهم عليه وشجعهم عليه ورغبهم فيه؛ هددهم بأسلوب آخر.

فقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

فيا أهل مكة، أيها المعاندون الكافرون بمحمد، والكافرون بالقرآن، والكافرون بالله؛ قد أهلكنا أممًا ماضية قبلكم وأنشأنا بعدهم قرنًا آخرين، فلا يصيبكم ما أصابهم. وقوله: ﴿وَكَمْ﴾؛ هذه استفهامية يراد بها التكثير، يعني: كم قصمنا؟ أي: قد قصمنا العدد الكثير جدًّا، قد قصمنا الأعداد الكثيرة جدًّا الذين لا تتصورونهم أنتم، قد أهلكنا أممًا كثيرة لا يخطر ببالكم عددهم، لا يعلمهم إلا الله.

أهلكنا وقصمنا؛ وانظر كلمة **"قصمنا"**، هذه الكلمة **"قصمنا"** قوية جدًّا، تدل على قوة الهلاك والإبادة والضرب الشديد؛ لأن **(القصم)** قصم الظهر، وهو قطعه بقوة، قطعه بقوة.

ولاحظ أن هناك فرقًا بين **(القصم)** و**(الفصم)** بالفاء: **(الفصم)** هو فصل الشيء عن شيء؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]. أي: لا تنفك. فـ**(الفصم)** هو فك الشيء عن الشيء، و**(القصم)** هو قطعه بقوة.

والله يقول: قد قصمنا؛ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾، كم من القرى والقرى قصمها الله قصمًا وأبادها، لم يبقَ لها أثر، ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾.

- **ما هي النتيجة؟**

السبب: ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾؛ هذا هو السبب، أنها ظلمت، كما ظلم أهل مكة؛ ظلموا محمدًا وهو يدعوهم، وظلموا أنفسهم بتكذيبهم للقرآن ولله، فالنتيجة أنهم وقعوا في الظلم.

والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، وأنتم أوقعتم أنفسكم في الظلم.

﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾؛ أي: أوجدنا أممًا وأقوامًا آخرين غيرهم هم خير منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]. قصمهم الله وأنزل بهم العقوبات.

يقول: ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢]. أي هؤلاء الأقوام لما أحسوا بأسنا؛ يعني شاهدوا وأحسوا -من الحاسة، حاسة البصر وحاسة السمع- شاهدوا وسمعوا العذاب ينزل بهم، وشاهدوه بأعينهم وبدأت بوادر تظهر أمامهم، ليس لهم حيلة.

- **فلما رأوا وأحسوا بأسنا، ما هي النتيجة؟**

﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾؛ إذا هم من القرية يسرعون ويهربون من العذاب؛ لأنهم عرفوا أن العذاب سينزل بهم، فبدأوا يسرعون ويهربون ويركضون.

و(**الركض**) أصله ضرب الأرض بالقدم بقوة، إذا ضربت الأرض برجلك بقوة فهذا هو الركض، ولذلك قال الله لأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]. أي: اضرب الأرض. و(**الركض**) هو الإسراع بالمشي؛ لأنه يضرب الأرض بقوة.

فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ لما رأوا العذاب قد أحاط بهم وبدأت بوادره تظهر أمامهم، ماذا صنعوا؟ ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾؛ يهربون ويركضون بشدة، ويفرون بشدة، يفرون بأي طريقة، على الأقدام، وعلى الإبل، والخيول، وعلى المراكب، يفرون من عذاب الله.

يفرون من عذابه، وهم يركضون قيل لهم: لا تركضوا. إما قال لهم ملك، أو بعضهم قال لبعض، أو الذين آمنوا يقولون لهم: لا تركضوا، لا تركضوا ما ينفعكم الركض والإسراع، لا تركضوا.

قال تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٣]

ولكنكم ارجعوا إلى بيوتكم ومساكنكم، وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه، ارجعوا إلى لذاتكم ونعيمكم ودنياكم الملهية، ومساكنكم المشيدة التي كنتم تفتخرون بها وتشتغلون بها عن الله وعن طاعته، ارجعوا إلى أماكنكم مستقرين فيها، لن ينفعكم الفرار، تعجزون الله قد أحاط بكم فلا ينفعكم الفرار.

لا تفروا من الله، ارجعوا لعلكم تُسألون؛ وهذا من باب الاستهزاء بهم والسخرية، هم لن يرجعوا، هم سيفرون، ولكن يُستهزأ بهم ويُسخر منهم. يقول: ارجعوا، ارجعوا إلى ما كنتم فيه، ارجعوا إلى ترفكم وإلى لذاتكم ونعيمكم، وارجعوا إلى ما كنتم تشتغلون به عن الله وعن الصد عن سبيل الله، وارجعوا إلى مساكنكم التي تفتخرون بها، ارجعوا لعلكم تسألون.

- **كيف يسألون؟**

قال: إما أنهم يُسألون يوم القيامة عن هذا النعيم، أو يقال لهم على وجه الاستهزاء والسخرية: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾؛ أي ترجعون إلى أماكنكم فيأتونكم الذين يحتاجون إليكم فيسألونكم هل تعطونهم أو لا. أو ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ ياتي الخدم عندكم إذا رجعتم إلى بيوتكم وإلى مجالسكم، تأتي الخدم التي كانت تخدمكم وتسألكم: ماذا تريدون؟ ماذا نصنع لكم؟ ماذا نقدم لكم؟

كل ذلك سخرية بهم واستهزاء لما أحاط بهم العذاب. ولو رجعوا إلى مساكنهم وإلى ترفهم ولذاتهم ونعيمهم لم ينفعهم ذلك؛ لأن العذاب قد نزل بهم، العذاب.

- **ولذلك ماذا كان ردهم؟ ماذا كان موقفهم؟**

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤].

لم يكن هذا الجواب إلا اعترافهم بأنهم مجرمون، بأنهم كانوا ظالمين، ويدعون على أنفسهم؛ لأن كلمة **"يا ويلنا"** دعاء، يدعون على أنفسهم بالهلاك والدمار: اللّهم أهلكنا يا رب! فلم يكن ينفعهم ذلك، وإنما قيل لهم ارجعوا استهزاءً بهم.

قال: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]. أي هذه المقالة التي يقولون: يا ويلنا إنا كنا ظالمين، ما زالت على ألسنتهم واعترافهم بذلك، ولكنه لم ينفعهم ذلك، لم ينفعهم هذا الدعاء وهو دعاء عليهم بالهلاك، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدًا خامدين.

و(الحصيد) هو المحصود؛ مثل الزرع الذي حُصد، فحصدهم الله جميعًا وخمدوا لا حياة فيهم، و(الخامد) مثل النار الخامدة التي لا تتحرك خمدت، وهؤلاء حصدهم العذاب فلم يُبقِ منهم أحدًا كالزرع المحصود، وأصبحوا خامدين لا حياة لهم.

فاحذروا أيها المخاطبون، واحذروا يا كفار مكة، واحذروا كل من أعرض عن ذكر الله وعن طاعته، احذروا أن تستمروا على ترفكم وعلى إعراضكم وعلى كفركم وعلى تكذيبكم أن يحل بكم ما حل بهذه الأمم التي كانت قبلكم؛ كفروا واستهزأوا وسخروا واشتغلوا بالدنيا عن الآخرة، فالنتيجة: جعلهم الله حصيدًا خامدين، والله لم يظلمهم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يظلم أحدًا، لم يظلمهم ولكن كانوا هم الظالمين، وهذه نتيجة الإعراض والكفر.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يخلق الخلق عبثًا، ولم يخلق الإنسان عبثًا، ولم يخلقه سدى، ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ١٦]

الله عَزَّ وَجَلَّ ما خلق السماوات السبع، ولا خلق السماء التي فوقنا، ولم يخلق الأرض هكذا عبثًا، ولذلك هنا يقول: ما خلقناهما لاعبين، وما خلق ما بينهما للعب واللهو والترف والاستهزاء والكفر والطغيان.

ولذلك في آيات أخرى يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٩ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٤٠﴾ [الدخان: ٣٨-٤٠]

فدائمًا يأتي أن الله لم يخلق الخلق عبثًا، ولم يخلق السماوات والأرض باطلاً ولا لعبًا إلا ليقيم العدل والحق، ليثيب من أطاعه ويجزي من عصاه، لم يخلقهم عبثًا وسدى.

ولذلك هنا يقول: وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما عبثًا وباطلاً ولعبًا، بل لإقامة الحجة على الناس وليعتبروا بذلك، فيعلموا أن الله خلق هذا الخلق لا للعب ولا للباطل ولا للعبث، بل لعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لإقامة عبادته وذكره. ولذلك قال بعدها: ﴿لَّوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧].

لو أردنا أن نسير على اللهو واللعب لسرنا عليه وأخذناه. يعني لو أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -والله هو الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقوله الحق، ولا يقول إلا الحق ولا يقول الكذب ولا يقول اللعب ولا اللهو، الله ينزه عن اللعب وينزه عن اللهو- ولذلك قال: ﴿لَّوْ أَرَدْنَا﴾؛ وهذا يستحيل لأن **"لو"** هنا حرف امتناع لامتناع، لا يمكن أن يقع. يقول: لو أردنا لو أردنا أن نتخذ لهوًا، لو أردنا أن نجعل لنا لهوًا.

قال بعض المفسرين: "اللهو هو اللهو بالولد والزوجة". لهو أن يلهو الإنسان بأولاده ويلهو بزوجته، لو أراد الله أن يتخذ ولدًا أو زوجة أو صاحبة ليلهو بها لاتخذه من لدنه، من عنده لا من البشر، وهذا رد على من يقول إن عيسى أو إن عزيرًا ابن الله؛ واللهِ لو أراد أن يتخذ ولدًا ما اتخذه من البشر، لاتخذه من لدنه.

قال: ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ ولكننا لم نكن نفعل ذلك لاستحالة الولد واستحالة الصاحبة على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل هو المنزَّه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨]. القول الباطل يسقط ويتلاشى والحق يظهر، ولذلك قال: نقذف بالحق على الباطل، كلما ظهر الباطل جاء الحق وأزهقه: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ﴾؛ و(**القذف**) هو رمي الشيء بقوة، القذف رمي الشيء بقوة. فيقول: بل نقذف بالحق الذي هو الحق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الباطل ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾؛ أي فيذهبه ويسقطه حتى يتلاشى ويضمحل.

- **قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾؛ قيل: ما معنى يدمغه؟**

قالوا: أصلاً كلمة **"يدمغه"** من **(الدماغ)**، وهو أن الإنسان إذا ضُرب على دماغه هلك وسقط ومات، فالحق يدمغ الباطل؛ يسقطه حتى لا يبقى له أثر، حتى لا يبقى له أثر، فيضمحل.

قال: ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ أيها الكفار وأيها المشركون، لكم الويل؛ لكم العقوبة ولكم العذاب، لماذا؟ ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾؛ تصفون ربكم بالولد وبالصاحبة، تقولون: الملائكة بنات الله، أو تقولون عيسى ابن الله، لا يليق هذا، بل الله له الأسماء الحسنى وله الصفات العلى جَلَّ وَعَلَا أن يوصف بمثل هذه الأوصاف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يوصف إلا بالأوصاف اللائقة به، فلكم الويل مما تصفونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأوصاف لا تليق به.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن بعد ذلك سعة ملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فكيف يكون له الولد؟ الذي له ولد هو المحتاج الضعيف، والذي له الصاحبة هو الذي يحتاج إلى المرأة، الضعيف.

أما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو غني حميد، غني عن الصاحبة وغني عن الولد، لماذا؟ قال: له ما في السماوات والأرض، السماوات والأرض تحت حكمه وملكه فهو غني غير محتاج، له ملك السماوات والأرض.

- **ومن عنده من الملائكة ما هي حالهم الذين تقولون إنهم بنات الله؟ ما هي حالهم؟**

خلقهم الله لعبادته، ولذلك قال: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾؛ لا يأنفون عن عبادته، ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾؛ معنى **"يستحسرون"** أي يملّون، ما يتعبون ولا يملّون عن عبادة الله، بل هم يعبدون الله في كل وقت، فكيف يجوز أن تشركوا بالله؟ وكيف يجوز ألا تعرفوا حق الله عليكم وأنتم عبيده؟ والله خلقكم لعبادته، والملائكة خلقها الله لعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهم لا يعصون الله ما أمرهم، ولا يستكبرون عن عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء: ٢٠].

يذكرون الله وينزهونه دائمًا في الليل والنهار في الليل والنهار. ولاحظ كلمة ﴿يُسَبِّحُونَ﴾؛ هذه فعل مضارع يفيد الاستمرار، أي أنهم لا ينقطعون عن التسبيح أبدًا، لا ينقطعون، ولذلك قال: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾.

ومعنى ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ أي لا يضعفون ولا يسأمون أبدًا، لا يصيبهم السآمة ولا الضعف؛ ملائكة لا تنام ولا تأكل ولا تشرب، بل هي كلها عبادة لله في جميع أوقاتها، ولذلك قال: ﴿الَّيْلَ وَالنَّهَارَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ أي مستغرقون التسبيح في كل وقت، لا ينقطعون عن ذكر الله، ولا يعصون الله ما أمرهم، فكيف تتهمونهم بأنهم بنات الله؟ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ في المشركين: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾[الأنبياء: ٢١].

- **قال: كيف يصح لهم أن يتخذوا آلهة؟**

يعني كيف يصح أن يتخذوا آلهة من الأرض ويتخذوا معبودات وأصنامًا من الأرض؟ ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾؛ هل هم ينشرون؟ هل هم يبعثون الخلق؟ وهل هم يعني يبعثون يستطيعون على إحياء الموتى؟

فمعنى **"ينشرون"** أي يوجدون الخلق وينشرونهم بعد موتهم؛ لأن **(النشور)** -معنى **(يوم النشور)** أي اليوم الآخر-، هذا معنى **(يوم النشور)** أي بعث الناس من قبورهم.

فهل معنى **"ينشرون"** أنهم لهم قدرة على بعث الناس حتى تعبدوهم؟ هل هذه الآلهة تعبد من دون الله؟ هل تستحق العبادة؟ لا تستحق العبادة وليس لهم قدرة على ذلك، لا يقدرون على إحياء الموتى.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الحق، هو المنفرد بالخلق، هو الذي يجب أن يخضع الخلق له وأن يعبدوه، لا أنهم يعبدون آلهة، الآلهة الأخرى لا تستحق.

- **ماذا صنعت في الكون هذه الآلهة المعبودات من دون الله؟**

أموات غير أحياء، ماذا صنعوا في الكون حتى نعبدهم من دون الله؟ ماذا صنعوا؟ ما في إله إلا الله.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[الأنبياء: ٢٢]

لو هناك إله آخر غير الله لفسدت السماوات والأرض، ما يمكن؛ لماذا تفسد؟ لأن إذا كان هناك إلهان -لو فرضنا لو فرضنا أن هذا العالم وهذا الخلق والسماوات والأرض فيه إلهان؛ الله وإله آخر- لم يستقم، لم يستقم؛ لأن أحدهما يأمر والآخر ينهى فلا يستقيم، وهذا يفعل وهذا لا يفعل فلا يمكن، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. كل واحد يريد أن تكون له السلطة والقدرة، فلا يمكن أبدًا.

ولذلك لو كان في السماوات والأرض آلهة غير الله تدبر شؤون الخلق لاختل النظام، ما يمكن هذا، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منزه، ولذلك قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عما يصفه الجاحدون الكافرون من الكذب والافتراء وكل نقص سبحانه تعالى لا يمكن.

قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُسأل عما يفعل، لا يُسأل عما يفعل من هذه الأمور، بل هم الذين يُسألون؛ لا يُسأل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بل هم الذين يُسألون، ولذلك قال هنا: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾؛ أي لا يُسأل هو عما يفعل لأن أفعاله كلها لحكمة، ولا يمكن لا يمكن أن يكون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يمكن أن يفعل شيئا يقدح في فعله، بل فعله عن حكمة وعن تمام، ولذلك لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون؛ لضعفهم وقِلة تصرفاتهم هم الذين يُسألون ولتقصيرهم، لا يُسأل سبحانه عما يفعل وهم يُسألون، تعالى الله عما يصفون.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤].

هؤلاء الذين يتخذون من دون الله، هل اتخذوا من دون الله آلهة من غير الله؟ آلهة تنفعهم، أي آلهة تنفع وتضر وتحيي وتميت؟ ما يمكن، ما يمكن أن تأخذ من دون الله آلهة.

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على هذه الآلهة، في دليل عندكم؟ عندكم برهان وعندكم دليل يدل على صحة دعواكم في أن هذه الآلهة تصح؟ ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾؛ قل لهم يا محمد: هذا القرآن ذكر من معي، ﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾؛ وذكر من قبلي من الكتب المنزلة السابقة، فطريقتي طريقة الرسل السابقة. لكنهم لا

يدرون ولا يفهمون لأنهم جهلة، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحق ولا يعرفون الحق ولذلك يعرضون عن الحق، لا يقبلونه، يعرضون عن الحق.

ولذلك ختم الله الآية بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]

يعني أن الرسل السابقين كلهم على طريقة واحدة؛ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

ما أرسلنا من الرسل السابقة إلا لعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما أرسلناك يا محمد وما أرسلنا قبلك من الرسل والأنبياء؛ من نوح ومن آدم إلا ليحققوا عبادة الله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

- **ولذلك كل نبي ماذا يقول؟**

يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والحقيقة الآيات تقرر أمورًا مهمة في الحياة، أمورًا مهمة فيما يتعلق بعبادة الله وحده لا شريك له وإفراد الله وبيان حقيقة الشرك وعدم صحته، وأن الله سبحانه هو الواحد المنفرد بالعبادة المستحق للعبادة، وما أرسل الرسل إلا لعبادة الله، وما خلق الخلق إلا لعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الأنبياء ٢٦ - ٣٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو اليوم الأول من شهر جمادى الآخرة من عام (١٤٤٣ هـ) من هجرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نواصل حديثنا في تفسير سورة (الأنبياء)، وقف بنا الكلام في لقائنا الماضي عند الآية الخامسة والعشرين، واليوم نواصل ما توقفنا عنده، يقول المولى جَلَّ وَعَلَا في كتابه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

- **من الذي قال اتخذ الله ولداً؟**

المشركون.

- **كيف اتخذ الله ولداً؟**

المشركون ادعوا وزعموا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اتخذ الملائكة بنات، قالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عما يقولون؛ وقيل إن هذه طائفة من المشركين أو قبيلة من قبائل العرب كانت تدعي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الملائكة هم بنات الله.

- **كيف رد الله عليهم؟**

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾.

ورد عليهم بالرد الأول، قال سبحانه: هذا الرد الأول **"سبحانه"**، و**"سبحانه"** تنزيه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقديس لله أن يكون موصوفاً بهذا الوصف.

- **كيف يتخذ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولداً من المخلوقات وهو رب كل شيء ومليكه؟**

الرب والمخلوقون جميعاً، جميعاً من الملائكة والأنبياء والرسل وسائر المخلوقات، كلها مربوبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مخلوقة، مدبرة، يتصرف الله بها، يملكها كيف يشاء.

- **كيف يتخذ ولداً سبحانه؟**

سبحانه تنزيه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوصف، الذي يتخذ الولد هو الذي يكون محتاجاً للولد، فقيراً، ضعيفاً، محتاجاً؛ أما الغني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الغني الحميد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، القوي العزيز الذي لا يضعف ولا يحتاج إلى الولد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يحتاج، لا يقال له إنه اتخذ ولداً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رداً عليهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾.

"بل" هذه يقول أهل اللغة إنها بمعنى الإضراب، يعني انتقال وإبطال؛ إبطال كلام سابق وتحقيق كلام جديد، يعني ليس كما تدعون أن الملائكة بنات الله، بل هم عباد الله، وليسوا فقط عباد الله، بل هم عباد الله مكرمون: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾.

فهم عباد الله المقربون، عباد الله المخصصون بالفضائل وحسن الطاعة، ولا يتكلمون إلا بما يامرهم الله به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال: هم عباد مكرمون، كرمهم الله ورفع شأنهم وجعلهم من عباده الطائعين.

ولذلك قال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]

يعني لا يتكلمون إلا بما يأمرهم الله به، ولا يسبقونه بالكلام، ولا يعترضون عليه، وإنما يستجيبون ويتكلمون إذا أمرهم، ولذلك في آية أخرى قال: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ولا يعملون إلا بأمر الله وإذنه.

ولذلك قال: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، وهم بأمره وإذنه وإرادته يعملون، كلٌّ إذا أمره الله نفذوا أوامر الله ودبروا ما أمرهم الله به. هذه وظائف الملائكة التي تليق بهم، لا أن يقال إنهم بنات الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى يثبت جَلَّ وَعَلَا أنه غني عن الخلق، وغني أن يتخذ الملائكة بناته.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

يعني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم ما بين أيدي الملائكة، يعني ما يستقبلونه من أعمال، وما خلفهم، ما مضى من أعمال، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أحاط به علماً، فأعمالهم المستقبلية التي هم لا يدرون عنها، هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم ما سيفعلونه في الأيام القادمة، وسبحانه وتعالى يعلم ما مضى.

وتقديمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم ما بين أيديهم، تقديمه للمستقبل هذا أشد، أشد في العلم وأدق في العلم؛ إذا كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم شيئاً للإنسان ما يدري ماذا سيصنع به غداً، هذا أشد وأدق، من أن يقال لك إن الله يعلم ما مضى منك.

هذا قد أنت علمته وعرفته وعرفه غيرك من الملائكة، لكن أشياء مستقبلية لم تقع، هذا أدق وأعظم، ولذلك قال **"يعلم"** بالفعل المضارع، أي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم ولا يزال يعلم جَلَّ وَعَلَا ما بين أيديهم وما خلفهم.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ﴾، لا يشفعون أي لا يتقدمون، لا يتقدمون على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بشفاعة لأحد إلا إذا رضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له؛ فإذا أذن الله، أذن الله للشافع للملائكة أو غيرهم، ورضي عن المشفوع له، صحت الشفاعة.

قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾، أي لا يستطيع الملائكة مع قربهم، ومع قربهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -والملائكة مقربون عند الله مطيعون يستجيبون لله، وهم أقرب الناس إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، منازلهم في السماوات- ومع ذلك لا يشفعون لأحد، ولا يستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد، لا من الملائكة ولا من الخلق ولا من أي مخلوق إلا إذا رضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه الآية فيها دليل على أن الشفاعة تحصل، وأنها واقعة، وأنها مشروعة، وأن الله قد أذن بها بشروطها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُم﴾ أي الملائكة ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أي من خوف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿مُشْفِقُونَ﴾، يعني على خوف وعلى حذر أن يخالفوا أمره، بل هم يسارعون ويخشون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهؤلاء الكفار يتهمونهم بأنهم بنات الله! ألم تعرفوا وأنتم من هم الملائكة؟

☜**الملائكة، ألم يقل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُتَحَدَّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ»**. والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى جبريل في صورته التي خلق عليها وله ستمائة جناح قد سد الأفق.

فكيف يعني لا يعرفون حقيقة الملائكة، ولا يعرفون عظمة خلق الله في هؤلاء الملائكة حتى يتهمونهم بهذه التهمة، ولا يعرفون عظمة هؤلاء الملائكة الذين خلقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ ومع ذلك هم خائفون، وجلون، مشفقون من أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك إذا تكلم الله بالأمر، كما في الحديث - حديث النواس بن سمعان: إذا أراد الله أن يتكلم بالأمر، رجفت أو أخذت السماوات منه رجفة قوية أو رعدة شديدة، ثم تسقط الملائكة كلها تصعق، أي يغمى عليها، يغمى عليها تصعق الملائكة كلهم.

ثم أول من يفيق جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فيخبره الله بالخبر، ثم بعد ذلك تفيق الملائكة، ثم تقول لجبريل: ماذا قال ربنا؟

فيقول: قال الحق، وهو العلي الكبير، كما في آية سورة (سبأ): ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. **"فُزِّع"** يعني ذهب الفزع عنهم، أي إذا زال عنهم الفزع؛ فزع يعني ذهب الفزع عنهم، ليس معنى فزع يعني أصابهم، لا، ذهب عنهم الفزع: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، ذهب الفزع عنهم وذهب الخوف والوجل عنهم، وذهبت الخشية حتى اطمأنت قلوبهم، قال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر صفات الملائكة وأنهم عباد وأنهم مكرمون وأنهم لا يسبقونه بالقول إلى آخره، بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن من يعتدي منهم على حق من حقوق الله فما مآله وما نتيجته؟

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

يعني ومن يقل منهم أي من الملائكة، ويدعي من الملائكة يقول: **"إني إله مع الله"** أو **"إني إله من دون الله"** يعني اعبدوني من دون الله، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾.

يقول على سبيل الفرض؛ يقول: لو فرضنا أن أحداً من الملائكة -مع أنهم ينزهون عن الشرك بالله، الله طهرهم ونزههم عن أن يشركوا به شيئاً- لكن يقول: لو فرضنا على سبيل الفرض أن واحداً منهم ادعى الربوبية أو الألوهية وقال: **"إني إله من دون الله"**، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: هذا نجزيه جهنم، هذا نجزيه جهنم، وتكون جهنم جزاءه كما نجزي كل ظالم وكل مشرك.

ولذلك قال: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾؛ لأن هذا الملك -لو فرضنا أنه قال مثل هذه المقولة- لأصبح ظالماً ودخل في زمرة الظالمين، زمرة الظالمين الذين مأواهم النار.

لما بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عظمة الملائكة وطهرهم، ونزههم من أن يشركوا بالله أو يعصوه طرفة عين، وبين ورد على المشركين الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله، أرشد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المشركين والكفار إلى النظر في الكون حتى يعرفوا عظمة الله وقدرته، فإن آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الكون دالة على عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعلى قدرته.

ولذلك يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

يعني هل عميت أبصارهم وعميت قلوبهم فلم يروا؟ أفلم يروا؟ أولم ير الذين كفروا أن السماوات -يعني ألم يعلموا ولم يصلهم خبر بأن السماوات السبع والأراضين كانتا رتقاً ففتقناهما؟ لو جاءك شخص وسألك قال: ما معنى **"رتقاً"**؟ تقول: شوف الآية التي بعدها تبينها، الكلمة التي بعدها تبينها، قال: ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، يعني رتقاً يعني أنها منغلقة.

قال بعضهم: إن السماء لا تمطر رتقاً أي أنها لا تمطر ولا ينزل منها مطر، السماء رتقاً يعني غير منفتقة، غير منفتقة بالماء، منغلقة ومنسدة فلا ينزل منها مطر؛ والأرض، قال: كيف تكون رتقاً؟ قال: لا تنبت، لا يدخلها ماء فتنبت الزرع، فالسماوات يعني منغلقة لا يأتي منها الماء، والأراضين أو الأرض منغلقة لا يدخل فيها ماء ولا تنبت زرعاً.

هذا رأي، وفي رأي آخر قال: إن السماوات والأرض ملتصقة، السماوات ملتصقة بالأرض، أول ما خلق الله، خلق السماوات والأرض ملتصقة ثم فتق هذا الالتصاق ورفع السماء عن الأرض، ورفع السماء على الأرض ثم بعد ذلك أنزل من السماء ماء وجعل الأرض تنبت.

- **ولذلك لاحظ ماذا قال بعدها؟**

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

الذي فتق السماء بالماء، والذي فتق الأرض بالنبات، وجعل من الماء هذا النازل من السماء، جعل كل شيء حي من نبات وحيوان وإنسان جعله حي، قال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ويصدقون ويتبعون ما أمرهم

الله به، ويعلمون عظمة الله، ويوقنون بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له القدرة في السماوات والأرض، ولذلك قال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، فهذا معنى قوله تعالى السماوات والأرض.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية يرشد ويوجه ويحث على النظر في السماوات والأرض، هذه السماوات والأرض آيات، آيات عظيمة دالة على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعلى سعة ملكه وعلمه وعلى وحدانيته وألوهيته، فلا يعظم ولا يعبد ولا يؤله إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك لاحظ بعدها، قال: لما تحدث عن السماء والأرض أيضاً تحدث بعد ذلك عن الأرض، قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

رواسي يعني جبالاً راسية ثابتة، هذا معنى رواسي، الرواسي الثوابت يعني الجبال، جعلنا الجبال رواسي وثوابت تثبت الأرض، لماذا قال ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾؟ يعني لا تميد وترتج بهم حتى لا يسقط عليها ما يسقط من البنايات والأشجار والجبال ونحو ذلك، فالجبال تثبت الأرض حتى تستقر الأرض تكون قراراً، حتى تكون الأرض، الله الذي جعل الأرض قراراً، فجعلها قراراً بالجبال ثبتها رواسي.

وقد قال في آية أخرى: "ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً"، فالأوتاد تثبت الأرض، ولذلك قال: ﴿رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ حتى لا تضطرب، حتى لا تميل بهم.

قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ يعني جعلنا فيها الطرقات، جعلنا في هذه الجبال، بين الجبال طرقاً، لم تكن قطعة واحدة، الجبل لو كان قطعة واحدة لصعب على الناس أن يتنقلوا، ولشق عليهم ذلك، لكن جعلها جبالاً بينها فجاج، هذه الجبال بينها طرقات سهلة.

تدخل أنت بين الجبال وتجد عدة طرق، هذا كله من تسهيل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومن نعمته عَزَّ وَجَلَّ على عباده أنه لم يجعل الجبل قطعة واحدة تمشي كيلومترات أحياناً ١٠ كيلو أو ٢٠ أو ١٠٠ كيلو لا تقطع الجبل، لا، إنما جعل الجبال بمسافة الأمتار وجعل بينها فجاجاً، جعل فيها طرقاً سبلاً.

يقول: فجاجاً يسلكونها سبيلاً يسلكونه، طرقاً يسلكونها حتى يقضوا ما يحتاجون إليه ويتنقلون من مكان إلى مكان ويهتدون إلى معايشهم، أما لو كانت قطعة لا صعب ذلك.

قال: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي لعلهم يهتدون إلى الطرق التي يتنقلون منها، يعرف أن الطريق الشمالي والطريق الجنوبي والطريق الغربي، فيسلك هذه السبل والطرق ويمشي على هذه الطرق، ولذلك قال:

﴿فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، لعلهم يهتدون في طرقاتهم، ولعلهم يهتدون أيضاً إلى ربهم ويرجعون إليه ويعرفون عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أرشد إلى النظر في الجبال والأرض أيضاً قال أرشد إلى النظر إلى السماء، قال: انظر إلى الأرض والجبال ثم انظر إلى السماء أيضاً، قال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]

سقف السماء سقف هذه الأرض، السماء هي ما يعلوك سماء وهي سقف الأرض وهي المقصود بها السماوات السبع.

قال: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾، وأقربها السماء الدنيا، محفوظة من أن تسقط، رفعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بغير عمد، هذه آية عظيمة، آية عظيمة أن ترفع السماء بغير عمد، أطرافها لا تنتهي ومرتفعة لا تسقط، حفظها الله من السقوط: **"إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا"**.

وقال في آية أخرى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ فمن نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن حفظ لنا السماء أن تسقط، وحفظ لنا السماء حفظها أيضاً بالشهب من أن يعتدي عليها أحد أو من الشياطين ونحوهم، وحفظها أيضاً بما فيها من الجمال والزينة، الجمال والزينة بالنجوم ونحوها، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل السقف محفوظاً.

﴿وَهُم عَنْ آيَاتِهَا﴾ أي آيات السماء والأرض ونحوها ﴿مُعْرِضُونَ﴾، الآية، السماوات فيها آيات عظيمة، فيها الشمس والقمر والنجوم، ومع ذلك هم يعرضون وغافلون ولاهون عن أن يفكروا ويتفكروا في هذا الخلق العظيم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استكمالاً لإظهار آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والتفكر في السماوات والأرض، قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

هو وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي أوجد الليل والنهار وخلقهما، والشمس والقمر أوجدهما وخلقهما مسخرات بأمره، قال: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ كل في مداره وفي طريقه ينتقل من مكان لمكان، الشمس والقمر والليل والنهار، كل يمشي يطلبه حثيثاً.

قال: ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، ومعنى **"يسبحون"** أصلها من السباحة وهو العوم، يعوم في الماء ويسبح في الماء؛ لأن الذي يسبح في الماء دائماً يكون جريه سريعاً، وهذه تسبح في الكون لأنها سريعة الجري، سريعة الجري.

فالليل والنهار الذي هو أثر الشمس والقمر، إذا ذهبت الشمس جاء الليل، وإذا جاءت الشمس جاء النهار، فالشمس والقمر فالليل والنهار مرتبط، مرتبط كل منهما مرتبط بالشمس والقمر: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

كل هذا آية عظيمة، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ في آية أخرى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

فلما أظهر آياته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بين موقف المشركين من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن رسالته ودعوته؛ لأنهم كانوا ماذا كانوا يقولون؟ سيموت محمد وينتهي ما يدعو إليه، وينتهي أمره وشأنه، فرد الله عليهم قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ۖ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

هو سيموت، ما خلد الله الأنبياء السابقين، لا نوح ولا هود ولا صالح ولا شعيب ولا موسى ولا عيسى، كلهم ماتوا، فما جعلنا لبشر من قبلك الخلد، كلهم سيموتون وأنت ستموت، ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾؟ لما يقولون محمد سيهلك ويموت وينتهي أمره، هل هم سيبقون؟

لا، الباقي هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والدائم هو الله عَزَّ وَجَلَّ، أما هم ينتهون، الدوام لله عَزَّ وَجَلَّ، والدنيا تنتهي، وكل من عليها سينتهي، فما الذي يجعلهم يعني يتربصون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتربصون به ريب المنون، يقولون: **"سيموت محمد وينتهي أمره"**.

وفي هذا دلالة على أن الخضر -الخضر يدعي بعضهم أنه لم يمت وأنه باقٍ- والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ فكلهم ماتوا، فكيف يقال إن الخضر باقٍ وأنه موجود؟ هذا الكلام غير صحيح لا يصح، وإنما هو بشر من الناس، ويأتيه الموت كما يأتي غيره، كما يأتي غيره.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بين أن الموت سيأتي، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

من غير استثناء، ما من نفس من بني آدم حتى من غير بني آدم، من الحيوان والطير ونحوه، كل نفس ذائقة الموت، لابد أن يأتيها الموت، ولابد أن تقبض روحها، كل هذا بني آدم والمخلوقات لابد أن يأتيها الموت، وليس لأحد أن يبقى، ولذلك قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، ولا أحد يخلد في هذه الدنيا ويبقى، قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

ولكن الدنيا ابتلاء، فأنت تنظر في نفسك؛ إذا كان مصيرك إلى الموت فحياتك ابتلاء، فاعرف كيف تُبتلى واعرف كيف تتعامل مع هذا الابتلاء، كيف تتعامل مع الابتلاء؟ الدنيا كلها بلاء وابتلاء ومحن وتكاليف وأمر ونهي وتقلب أحوال وخير وشر، فماذا سيكون موقفك من هذا الشيء؟

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾، وهذا كله فتنة للإنسان، يبتلى بالخير ويبتلى بالشر؛ ويبتلى بالشر بالمصائب، يبتلى بالمصائب، ويبتلى بالفقر، ويبتلى بغير ذلك؛ ويبتلى بالخير بالنعم، بالنعم يبتلى بالخير والصحة والعافية والنعم والمال.

- **أيهما، أيهما أشد ابتلاء؟ وأيهما الذي يستطيع الإنسان أن يصبر أمامه؟**

الجواب: البلاء بالشر أخف من البلاء بالخير؛ قد تُبلى بالشر، تُبلى بالمرض، تُبلى بالفقر، تُبلى بالمصائب، ولكنك تصبر لأنك أنت مضطر إلى الصبر، فلذلك تتحمل وتصبر بقوة، لكن ابتلائك بالخير هذا لا يصبر عليه كل الناس، ولا يتحمل كل الناس، ولا يستطيع أحد أن يرد؛ لأن الابتلاء بالخير يحتاج شكر، والابتلاء بالشر يحتاج صبر.

هذا الشخص إذا كان قد أصيب بمرض أو نحوه سيصبر مهما كان، لو اعترض، مصيره هو الصبر، لكن الابتلاء بالخير هل يشكر؟ هل يشكر هذا الذي هو يعني يكون عند الإنسان من الأمور الصعبة؟ أن الله يعطيك الصحة وتشكر كل وقتك، وأن الله يعطيك المال وتشكر، يعطيك الولد وتشكر.

فهذا الابتلاء بالصحة والابتلاء بالولد والابتلاء بهذه الأمور هي التي يصعب على الإنسان أن يشكر الله عليها، ولذلك سليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: **"ليبلوني أأشكر أم أكفر"** وهذا ابتلاء، قد يشكر وقد لا يشكر، فهذا من الابتلاءات.

طيب، تعود الآيات إلى -حتى نختم هذا المجلس المبارك- تعود الآيات إلى موقف المشركين من الرسول، كما أن موقفهم من الملائكة وموقفهم من الله، ذكر موقف المشركين من الرسول وأنهم يسخرون ويستهزئون، قال: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

يأخذونك يستهزئون ويسخرون منك، إذا رأوك يستهزئون ويقولون، يقولون: **"أهذا الذي يذكر آلهتكم؟"** على وجه السخرية والاستهزاء، يقولون: **"أهذا؟"** يسخرون من النبي: **"أهذا الذي يذكر آلهتكم؟"** يذكرها بسوء ويسبها ويشتمها، وهم بذكر الرحمن كافرون، يجحدون ويكفرون، إذا ذُكر الرحمن كفروا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

جاء ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ وذكر الرحمن الذي هو يرحمهم ويرزقهم ويعافيهم ويرزقهم الصحة والعافية، يجحدون نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ ويكفرون، ومن أعظم نعم الله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن أعظم نعم الله القرآن الذي بين أيديهم، ومع ذلك إذا ذكر الرحمن كفروا بالله، وهذا لقلة عقولهم وسفاهة عقولهم، ولذلك قال الله: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

خلق الإنسان عجولاً وخلق الإنسان من عجل؛ لأنه دائماً طبيعته العجلة والسرعة، يريد كل شيء يتحقق له، وصبره ضعيف وقليل جداً، ولذلك كأنه خلق من العجلة ولسرعته، ولذلك أهل مكة يستعجلون العذاب، يستعجلون، استعجلت قريش واستعجلوا يقولون: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

"إن كنت صادقاً يا محمد فأمطر علينا حجارة من السماء وأتنا بعذاب أليم"، وهذا من قلة ومن ضعف الإنسان، وإلا لماذا يستعجل على نفسه العذاب ولماذا يستعجل على نفسه العقوبة، بل يتأنى، ولذلك العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن، ينبغي للإنسان أن يتأنى في الأمور وأن لا يتعجل وأن لا يتسرع؛ لأن هذا كله لا يتناسب مع المؤمن العاقل، المؤمن العاقل.

لعلنا نقف عند هذا القدر، وهي الآية الثامنة والثلاثون، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنه، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الأنبياء ٣٨ - ٤٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا العلم النافع والعمل الصالح يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المتجدد؛ لقاء الثلاثاء، وهذا اليوم هو اليوم الثامن من شهر جمادى الآخرة من عام (١٤٤٣ هـ) من الهجرة.

نجتمع كما هو المعتاد، ونكمل ما توقفنا عنده؛ حيث ما زلنا في سورة (الأنبياء)، في تفسير سورة (الأنبياء)، وتوقف بنا الكلام عند الآية السابعة والثلاثين من هذه السورة. هذه السورة آياتها مائة واثنتا عشرة آية.

وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. يعني لو تلاحظ دائماً حتى تريد، إذا أردت أن تفهم الآيات دائماً -وهذا كررناه أكثر من مرة، يمكن الكثير منا استوعب هذا الشيء- إذا أردت أن تفهم الآية وتعرف دلالة الآية وألفاظها فاقرأ ما قبلها وما بعدها يتضح لك الأمر. الله عَزَّ وَجَلَّ يقول في الآية التي قبلها.

يقول: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

إذاً الآية في سياق الكفار، في سياق الكفار، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبر عن الكفار أنهم كانوا إذا رأوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسخرون منه ويستهزئون ويقولون: أهذا الذي بعث الله رسولاً؟ فيسخرون منه؛ ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾، هذا الذي يذكر آلهتكم ويسبها ويشتمها، ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأن بعدها أيضاً، انظر الآيات التي بعدها يقول: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، إذاً هم يستعجلون العذاب، يستعجلون العذاب، ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

- **﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ طيب لو جاءك سائل وقال لك: كيف خلق الإنسان من عجل، والإنسان مخلوق من طين ومن تراب، كيف مخلوق من عجل؟**

الجواب: يعني جبلته وطبيعته العجلة والسرعة، ولذلك كثير من الناس صفة العجلة تغلب عليه، فكأنه مطبوع ومجبول على العجلة، وكان كأنه -وهذا أيها الإخوة أسلوب عربي، العرب كانت تستعمله- يقولون للكريم: خلق من الكرم، يقولون للشخص الكريم: هذا مخلوق من كرم، ويقولون للئيم: هذا مخلوق من اللؤم، فمعناه أن اللؤم قد ألمّ به وأحاط به، وكذلك لما يقال: خلق من كرم كأن الكرم قد أحاط به، كأن جميع تصرفاته كلها تنبئ عن كرمه.

وكذلك هنا لما يقول: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ يعني صفته العجلة في كل شيء، يعني من جبلته ومن صفاته اللازمة له الاستعجال دائماً في أشياء كثيرة، ولذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾[يونس: ١١].

يعني يستعجلون الشر دائماً، ويستعجل الخير دائماً، يعني الإنسان ينبغي له -ولذلك من صفات المؤمن العاقل، المؤمن العاقل الحصيف الرزين- أنه لا يتعجل، أنه يطمئن، وأنه يتثبت ويتأنى في الأمور، وهذه من صفات المؤمن.

يقول: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾؛ يعني الإنسان دائماً يبادر الأشياء ويستعجل وقوعها، ويستعجل نتائجها، في طبيعته كذا، كلما دخل في شيء يستعجل نتيجته ويستعجل وقوعه. وأهل مكة وكفار قريش خاصة كانوا يستعجلون العذاب، يستعجلون العذاب، يقولون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: متى هذا الوعد؟ متى أنت تهددنا دائماً وتخوفنا بالعذاب؟ أين العذاب؟

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي﴾؛ سأريكم آياتي وعقوبتي وستنزل، سترون الأشياء ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، لا تستعجلون، فلا تسألوا هذه الأشياء وهي تنزل بكم.

ولذلك من مقولاتهم قال الله بعدها: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨].

أي الكفار مستعجلين العذاب، يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ مستعجلين العذاب مستهزئين؛ متى هذا الوعد؟ متى حصول ما توعدتنا به يا محمد؟ أنت تقول ستنزل بكم العقوبات وسينزل بكم العذاب، متى هذا الوعد إن كنتم صادقين فيما تقولونه؟ أين العذاب؟

ولذلك في آية أخرى يقول: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وهذا كله استعجال، فالإنسان لا ينبغي أن يتعجل في مثل هذه الأمور.

قال الله رداً عليهم: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

يقول: لو يعلم هؤلاء الكفار عندما ينزل بهم العذاب وعندما تأتيهم النار يوم القيامة؛ ﴿لَا يَكُفُّونَ﴾ أي لا يدفعون عن وجوههم النار، لا يدفعون النار عن وجوههم، ولا يصرفونها عن وجوههم ولا عن ظهورهم، ولا يجدون لهم من ينصرهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

- **من ينصرهم ومن يدفع عنهم العذاب؟**

هذا الاستعجال، أن هذا الكافر إذا جاء يوم القيامة فإن النار قد أحاطت به، قد أحاطت به فلا يستطيع ردها، لا يستطيع كفها ولا ردها ولا دفعها، قد أحاطت به من وجهه ومن ظهره، فكيف يستعجل شيئاً قد توعده الله بهذا الوعيد الشديد؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠]. أي هذه النار، لشدة وقوعها بهم وإحاطتها، قال: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ أي الساعة والنار تأتيهم بغتة فتبهتهم؛ بغتة يعني فجأة، ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أي تحيرهم، البهت أي التحير. ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ في الكافر الذي حاجّ إبراهيم.

- **ماذا قال له؟**

قال تعالى: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

لما قال إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾، قال: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ أي تحيّر ولم يستطع الإجابة. وهؤلاء ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً﴾؛ يعني تأتيهم الساعة أو يأتيهم يوم القيامة أو يأتيهم العذاب الذي توعدوا به أو تأتيهم النار بغتة وهم لا يشعرون، بغتة وهم لا يشعرون.

بل تأتيهم بغتة يعني فجأة فتبهتهم أي تحيرهم، ولا يستطيعون التصرف، يقفون متحيرين ولا يستطيعون ردها، لا يستطيعون دفع العذاب ولا يستطيعون رد النار، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي لا يعطون فرصة ويمهلون للتوبة والاعتذار، ما في فرصة خلاص، نزل بهم العذاب نزل ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

قال عَزَّ وَجَلَّ تسلية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يسلي رسوله من هؤلاء المعاندين الكفار المصرّين على استعجال العذاب والعقوبة، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ لمحمد يعني اصبر على ما يقول هؤلاء.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١]. أي يا محمد رسل كثيرون مرّوا واستهزئ بهم وسخروا منهم؛ سخر قوم نوح من نوح، وعاد من هود، وقوم ثمود من صالح، وأنبياء ورسل كثيرون استهزءوا بهم وسخروا منهم.

يقول: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أيها الرسول ويا محمد، ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي حلت العقوبة بهم، وحاق بهم العذاب أي حل بهم العذاب. الذين يسخرون نزلت بهم عقوبة هذه السخرية وهي العذاب، ما كانوا يسخرون ويستهزئون به؛ فهذه عقوبة المستهزئ وعقوبة الساخر بدين الله والساخر بنبيه أن العقوبة تنزل بهم.

ثم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاء الكفار المصرين على الكفر والعناد، يذكرهم بأي شيء؟ يذكرهم بما أنعم الله عليهم، يذكرهم بأن إلههم هو الله، لا هذه المعبودات والأصنام التي لا تنفع ولا تضر.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. يكلاكم يعني يحفظكم ويرعاكم؛ من الذي يرعاكم ويحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار؟ الإنسان نائم في فراشه قد فقد حركاته وألقى بنفسه على فراشه لا يدري عن نفسه، والله عَزَّ وَجَلَّ قد حرسه وقد حفظه وكلأه برعايته.

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ﴾ أو بالنهار أيضاً في اليقظة والتنقل من مكان إلى مكان، والإنسان يأخذ دابته أو يأخذ مركبته ويتنقل من مكان إلى مكان في أخطار الدنيا وفي حوادث الدنيا، من الذي يكلأك؟ من الذي يحفظك؟ من الذي يكلؤك ومن الذي يحفظك من غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ هل تجد هذه الأصنام.

هذه الأصنام وهذه المعبودات وهذه الأوثان تحفظك؟ هل تدفع عنك العذاب؟ ما تدفع عن نفسها العذاب، ولا تدفع عن نفسها الضر، ولا تنفع نفسها حتى تنفعك! الذي يحفظك ويحرسك ويكلؤك بالليل والنهار هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، جوابٌ بيّنٌ عندكم، هو الذي يحفظك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هذه الأشياء، هذا وجه من وجوه التفسير.

وبعضهم يقول: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ أي من الذي يحفظكم ويدفع عنكم العذاب إذا نزل بكم من الرحمن؟ إذا نزل بكم بأس الله فمن الذي يدفع عنكم؟ ومن الذي يحفظكم إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ وكلا المعنيين صحيح، كلاهما صحيح.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ لهم: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

- **هل لهم آلهة تمنعهم من دوننا؟**

إذا أردنا نزول العقوبة بهم، هؤلاء المستهزئون الذين يسخرون بك يا محمد ويستهزئون ويستعجلون العذاب، هل لهم آلهة ومعبودات وأصنام تمنعهم من دوننا؟ هل هذه الآلهة تمنعهم من دون الله إذا نزلت بهم العقوبة؟ لا يستطيعون نصر أنفسهم، هذه الآلهة لا تدفع عن نفسها فضلاً عن أن تدفع عن عابديها، فهي ما تدفع عن نفسها.

قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾؛ يُصحبون يعني هم لا يستطيعون أن يدفعوا العذاب، وليس لهم مكانة ووجاهة عند الله يستطيعون بها أن يطلبوا من الله أن يدفع عنهم العذاب، لا يُجار، إذا طلب الجوار من الله أن يجير فلاناً لا يُقبل منه، وإذا أراد أن يطلب من الله أن يصرف العذاب كالصاحب لصاحبه وكالشافع لشفيعِهِ لا يستطيع، هذا معنى ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾؛ يعني لا هم يدفعون عن أنفسهم، وليس لهم مقام ولا مكانة في أن يتدخلوا في مثل هذا الأمر.

قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[الأنبياء: ٤٤].

يعني أن هؤلاء المستهزئين الساخرين من الرسول المستعجلين العذاب لا يدفعون عن أنفسهم، ولا آلهتهم تنفعهم، والسبب في غفلتهم وإعراضهم وكفرهم واستهزائهم هو أن الله متعهم بالصحة والعافية والمال والجاه وأعطاهم الدنيا، فانشغلوا بها، انشغلوا بالمال والبنين.

ولذلك قال: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ يعني السبب في ذلك هو أن الله متعهم فاغترّوا، فاغترّوا هم وآباؤهم، اغترّوا بالإمهال واغترّوا بما أعطاهم الله.

قال: ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ متعهم الله بالمال والبنين وطول الأعمار والصحة والعافية فأقاموا على كفرهم لا يقلعون عن كفرهم وعن إعراضهم حتى طال عليهم الأمر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهذا إنكار عليهم: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾؛ ونقص الأرض من أطرافها إما أن يكون بإهلاك الأمم الكافرة حتى يقضي الله على الكفر وعلى أهل الكفر، وإما بنقصها بثمراتها، وإما بنقصها بانتصار الإيمان وانتصار الإسلام عليهم وتوسّع الفتوحات الإسلامية حتى قال بعضهم.

حتى قال بعض المفسرين في قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: بموت العلماء؛ لأن موت العلماء ثلمة عظيمة في الأرض، يعني ثلمة ونقص كبير وفراغ كبير لا يسده شيء، فهذا هو النقص الذي يحصل على أطرافها في هلاك هؤلاء العلماء الذين هم نجوم في السماء على الأرض، فإذا سقط نجم ذهب ضوؤه.

قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾، هل هم الذين سيغلبون وينتصرون أو الإسلام الذي ينتصر عليهم؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطباً محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموجهاً رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببيان وظيفته، وأنه يحذرهم ويذكر هؤلاء الكفار ببيان وظيفته وهو أنه جاء للإنذار، وأنه رسول من عند الله وأنه يوحى إليه، ليس له تصرّف، بل يوحى إليه: يا محمد قل لهم إنما أنذركم بالوحي.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

أي أنا ما أرسلت إلا بالوحي، وما جئتكم إلا بالوحي، وما خوفتكم إلا بالوحي، والوحي هذا هو القرآن، وحي من الله وهو القرآن الكريم، أنذركم بهذا القرآن.

- **ما هي النتيجة؟**

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾؛ الأصم لو تناديه ما يسمع، لا يسمع ما تلقي عليه، ولا يسمع ما تتكلم به، لا يسمع الصم الدعاء إذا دعوته لا يسمعك، قال: ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ وهؤلاء في منزلة أهل الصمم، منزلة الأصم، هؤلاء منزلة الصم الذين لا يسمعون. هؤلاء الكفار لا يسمعون ما تخبرهم به، ولا يسمعون ما تحذرهم وتنذرهم به وتهددهم به لا يسمعون، لا يسمع الصم، وهؤلاء بمنزله من لا يسمع؛ لأنه لا يسمع سماع تدبّر، ولا يسمع ما تنذره به وتخوفه به فيخاف، فهم بمنزلة من لا يسمع.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ تهديداً لهم وتخويفاً لهم: ﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦]

والام هنا يسميها أهل اللغة لام القسم؛ أي التقدير: والله، والله لئن مسّتهم -أي هؤلاء- من العذاب ومن نار جهنم، لئن مسّتهم نفحة؛ ونفحة يعني شيء قليل، نصيب قليل، شيء يعني نسبة قليلة جداً من عذاب ربك.

وعذاب النار ليس قليلاً حتى لا نفهم أن النفحة شيء بسيط، النفحة جزء من عذاب نار جهنم وهو عظيم، هذا جزء لو مسّتهم نفحة من عذاب ربك ليقولن هؤلاء الكفار: يا ويلنا، ليس لهم إلا الويل والثبور والهلاك، يدعون على أنفسهم بالهلاك؛ ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

والاعتراف بظلمهم وإسرافهم على أنفسهم، فيقولون: هذه عقوبتنا، هذه عقوبتنا، فيدعون على أنفسهم بالهلاك والموت والثبور، وأنهم قد ظلموا أنفسهم. لكن يوم القيامة أمرٌ آخر، أمر عظيم لا يتصوره الإنسان.

ولذلك من عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه يؤتى بالشخص يوم القيامة ويقال له: اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، أنت حاسب نفسك، واعرف ما الذي لك وما الذي عليك، ولذلك يوم

القيامة توضع الموازين للحسنات والسيئات، فمن كانت أعماله حسنات نفعته، ومن كانت أعماله سيئات ضرّته.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾[الأنبياء: ٤٧].

وليس ميزاناً واحداً بل هي موازين كثيرة، ونضع الموازين القسط؛ أي العدل، موازين العدل، وليست موازين الجور والظلم، العدل من الله العادل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا يظلم أحداً.

قال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾؛ يعني إذا جاء يوم القيامة وضعت موازين العدل، ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ﴾ مسلمة كانت أو كافرة، كلها لا تظلم نفس شيئاً ولا مثقال ذرة، حتى مثقال ذرة لا تظلم.

قال: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾؛ يقول: وإن كان هذا الميزان، حتى الخردل يزن هذه الأشياء، وإن كانت الحسنات أو السيئات أو الأعمال بمثقال حبة من خردل.

وحبة الخردل لا تحرّك شيئاً في الميزان، ولو جئت بأعداد هائلة من حب الخردل ما تحرك الميزان، والخردل نبات معروف ينبت في البراري والصحاري، له حبوب صغيرة خفيفة جداً، لو جمعت حبوب الخردل هذه ووضعتها في ميزان لا يتحرك.

قال: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾؛ أي هذه الحسنات والسيئات، بمثقال الذر أو بمثاقيل الذر ومثاقيل الخردل، قال: ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾؛ أتينا بها ووضعناها في الميزان حتى نعطي صاحبها ما يستحقه من الخير والشر.

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾؛ كفى بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى محاسباً ومحصياً لأعمال العباد ومجازياً عليها.

وإذا علم الإنسان إذا علم وقرأ هذه الآية أن هناك موازين العدل، وأن الله يضعها ويحاسب عباده، ويضع أعمالهم في الموازين من الحسنات والسيئات، حتى إن الأشخاص يوزنون، حتى إن الأشخاص يوزنون.

☜**ولذلك جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:** «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ». إذاً هو يوزن.

وفي قصة ابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، وابن مسعود كان نحيل الجسم وسيقانه دقيقة جداً، وصعد نخلة يوماً من الأيام، فضحك بعض الحاضرين على دقة ساقي ابن مسعود، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَضْحَكُونَ مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ».

فإذاً الموازين يوزن فيها الأشخاص وتوزن أعمالهم، كلها توزن يوم القيامة، وهذا من دقة القسط والعدل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مثل هذه الموازين.

ومثل هذه الآية إذا قرأناها ينبغي للإنسان أن يحسب لكل ما يفعله من خير أو شر؛ فإن أراد أن يتكلم بالخير قد تكون هذه الكلمة ترفع شأنه عند الله في أعلى عليين، وقد تكون الكلمة السيئة فينزل عند الله بها في نار جهنم أسفل سافلين، فالكلام محاسب، والقول محاسب، والأعمال محاسبة.

إماطة الأذى عن الطريق صدقة، ورجل مرّ وجد جذع شجرة في الطريق فأزاحه عن الطريق فأدخله الله الجنة، فأحياناً أعمال يسيرة ترفعك عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تحتقر شيئاً حتى بشاشتك في وجه أخيك، وسلامك في وجه أخيك، وكل هذه الأعمال التي يحتقرها كثير من الناس.

أو أحياناً يحتقر من الأعمال المحرمة كالغيبة والنميمة أو شيء من ذلك يقع فيه من المحرمات ويقول: هذه محقرات وهذه أشياء قليلة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ». فالإنسان يحرص على إذا مرّ على مثل هذه الآية أن يرى هل يعمل بها وهل يطبقها في حياته أو لا.

ونقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الأنبياء ٤٨ - ٧٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وارزقنا العلم النافع والعمل الصالح يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ لقاء الثلاثاء، هذا اليوم هو اليوم الخامس عشر من شهر جمادى الآخرة من عام (١٤٤٣ هـ) من هجرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نجتمع في هذا المقام المبارك، وبين أيدينا سورة من سور القرآن الكريم وهي سورة (الأنبياء)، التي ذكر الله فيها ستة عشر نبيًّا.

نلاحظ الآية التي عندنا الآن، ودرسنا اليوم في الآية الثامنة والأربعين؛ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

بدأ الآن الحديث عن عرض لقصص الأنبياء إما إجمالاً أو تفصيلاً، بدأنا الآن ندخل في عدِّ الأنبياء الستة عشر بعدما تحدثت السورة عن موقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وموقف الدعوة، وموقف القرآن، وموقف الكفار من الرسول ومن دعوته أيضاً.

وموقف الكفار من القرآن الكريم ومن هذه الرسالة، وإقامة الحجج عليهم ومناقشتهم إلى آخر الحديث، تنتقل الآيات الآن إلى عرض موجز أو مفصل لعدد من الأنبياء المذكورين في هذه السورة.

- **بدأ الله بموسى وهارون؛ ما الحكمة؟ ما السبب؟ ومَن هو موسى وهارون؟**

الجواب: أولاً: موسى هو موسى بن عمران وأخوه هارون، أرسل الله موسى إلى فرعون لإقامة الحجة عليه، ولدعوته إلى توحيد الله وعبادة الله وحده لا شريك له، والاستجابة لله.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٧-١٩]

فهذا موسى الذي أرسله الله إلى فرعون، موسى بني إسرائيل. وموسى لما كلفه الله بالرسالة سأل الله أن يجعل معه أخاه هارون وزيراً؛ فصارت الرسالة مشتركة بين موسى وهارون، وهارون تَبَعٌ لموسى، وموسى هو الذي أُنزلت عليه التوراة وهو الذي كُلِّف.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾؛ لماذا ذكر الله موسى؟ لأن قصة موسى في القرآن الكريم شبيهة بقصة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقد أُوذِيَ وأُخرِجَ وهاجَرَ، وفُعِلَ بهما كما فُعِلَ بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقصته شبيهة بقصة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك ابتدأ الله به فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾.

- **ما هو الفرقان؟**

الجواب: هي التوراة، فالفرقان وصفٌ للتوراة كما هو وصفٌ للقرآن؛ عندنا الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان: ١]. سمى القرآن فرقاناً.

- **لِمَ سُمِّيَ القرآن فرقاناً ولِمَ سُمِّيت التوراة فرقاناً؟**

لأن ذكر الله فيها، ما يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والاستقامة والضلالة؛ فهو فرقان بين الحق والباطل، وفرقان بين الضلال والهدى، والطاعة والمعصية.

وهذا وصف للتوراة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾، قال: هذا وصف للتوراة، ثم وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التوراة بقوله: ﴿وَضِيَاءً﴾؛ لأن فيها الضياء والنور، يستضيء بها أهلها، فالذين أُنزلت عليهم التوراة يستضيئون بنورها ويهتدون بها.

وقال: ﴿وَذِكْرًا﴾؛ أي يتذكرون ما ينفعهم فيها، ويتذكرون ما يهديهم إلى ربهم.

وقال: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وليس لكل الناس، وليس لبني إسرائيل جميعاً، وإنما للمتقين منهم.

- **لماذا خصَّ الله المتقين؟**

الجواب: لأنهم هم الذين ينتفعون بهذه الأشياء؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]. لأنهم هم المنتفعون، أما غير المتقين فلا ينتفعون بالقرآن ولا بالتوراة.

- **والمتقون مَن هم هنا؟**

قال المتقين: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩]؛ هؤلاء هم المتقون الذين يخشون ربهم بالغيب، يخافون الله وهم لم يروه، هذا معنى الغيب؛ أنهم يخافون ربهم وهو قد غاب عنهم، يعني لا يرونه رأي العين ومع ذلك يخافونه، فوق سبع سماوات لا يرونه ومع ذلك يخشونه، يخشون ربهم ويخافون عقاب الله عَزَّ وَجَلَّ، هذا وجه من أوجه التفسير.

أو يقال: الذين يخشون ربهم بالغيب؛ أي يخافون الله إذا غابوا عن الناس، كما أنهم يخافون الله أمام الناس، فهم في سرهم وعلانيتهم سواء، إنك تجد بعض الناس إذا كان أمام الناس فإنه يظهر إيمانه، وإذا خلى بنفسه الأمَّارة بالسوء ارتكب المعاصي؛ فهؤلاء المؤمنون الغيب والشهادة وظهورهم أمام الناس واختفاؤهم عنهم سواء، فهم سواء، يخافون الله ويخشونه أمام الناس وفيما اختفوا فيه، كل ذلك عندهم سواء.

يقول: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾؛ أي إذا غابوا عن الناس، أو لم يرو الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]؛ هم يخافون من يوم القيامة، يخافون ذلك اليوم الذي سيقفون فيه أمام الله، ولذلك الله مدحهم فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فالذي يخاف مقام ربه ويخاف الوقوف أمامه، هؤلاء هم أهل السعادة، هؤلاء هم المتقون، أما الكفار وأهل المعاصي فهم يستعجلون الساعة ويقولون: متى هذا الوعد؟ ويستهزئون ولم يستعدوا له، أما هؤلاء فهم على استعداد تام وعلى خوف ووجل من هذا اليوم الذي سيقفون فيه ولا يدرون ماذا سيجرى لهم، هذا معنى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾.

ذكر بعد ذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرآن الكريم، فلما أثنى على التوراة بأنها الفرقان والضياء والذكر، وأثنى عليها بالمدح بهذه الصفات، ذكر القرآن وأثنى عليه فقال: ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

أي هذا القرآن الذي بين أيديكم تسمعونه ويُقرأ عليكم، هذا ذكرٌ؛ أي تذكير لكم ورفعة لكم ومكانة لكم، هذا ذكر مبارك كثير الخير، مبارك كثير النفع وكثير الخير تنتفعون به وخيره لا ينقطع.

فهذا القرآن وصفه الله بهذه الأوصاف؛ بأنه ذكرٌ يُنتفع به ويتذكر به من تذكر، وهو لمن تمسك به شرف ومكانة، وهو مبارك كثير البركة، يعني ما ظنك بكتاب بين يديك وفي صدرك وفيه البركة العظيمة ثم لا تنتفع به؟! كثير النفع كثير البركة، فمن يستغل هذا القرآن لينتفع به؟

قال: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾؛ أي هذا القرآن أنزله الله، وفيه دلالة على أن القرآن كلام الله المنزل وليس من محمد. ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾؛ أيها الكفار له منكرون لا تؤمنون به وتكذبونه، مع أنه كان بهذا الظهور وهذا الوضوح ومع ذلك تنكرونه وتكذبون به!

هذا دليل على عدم إيمانكم وعلى عدم تفهمكم وإدراككم لمعنى هذا القرآن العظيم، لو كنتم تعرفونه حق المعرفة وهو قد ظهر لكم هذا الظهور الواضح ومع ذلك تنكرونه وترونه ولا تؤمنون به، فهذا نقص في عقولكم.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى عرض مبسط، أو عرض واضح ومتوسع في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. إبراهيم هو أبو الأنبياء، إبراهيم هو إمام الحنفاء، إبراهيم هو الذي أمر الله هذه الأمة وأمر نبيها باتباع ملته؛ فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ۗ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وإبراهيم هو الذي أثنى عليه الله عَزَّ وَجَلَّ وجعله خليله وحبيبه. ذكر الله قصة إبراهيم في القرآن في مواضع كثيرة؛ في سورة البقرة، وفي سورة إبراهيم، وذُكر في سورة الصافات، وذكره في سورة الشعراء، وكثير في القرآن، وهنا يذكر الله قصته.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥١].

شوف لما تأتيك كلمة **"ولقد"**؛ هذه جملة مؤكدة لأنها تتضمن القسم من الله، يعني يقسم الله، يقول الله: **"ولقد آتينا"**؛ يعني أقسم أننا آتينا إبراهيم رشده من قبل، هذا معناها؛ لأن الواو عاطفة، واللام موطئة للقسم، و**"قد"** حرف تحقيق وتأكيد، كل هذا يؤكد الله به؛ على أي شيء يؤكد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ على أنه آتى نبيه إبراهيم رشده.

- **ما معنى أعطاه رشده؟ ما هو الرشد؟**

الرشد: كمال العقل، وحسن التصرف، وإصابة الرأي، هذا هو الرشد، ولذلك تميز إبراهيم بهذه الصفة التي ألهمه الله إياها (الرشد).

قال: ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ من قبل ماذا؟ يعني وهو صغير من قبل النبوة، أو يقال: من قبل موسى وهارون ومن قبل إنزال هذا القرآن الكريم؛ لأن إبراهيم سابق لموسى وهارون في الزمان.

﴿مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾؛ أي كنا به عالمين أنه يستحق ذلك، وأنه أهلٌ لأن يؤتى رشده، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي آتاه الرشد وأعطاه العقل التام وحسن التصرف وإصابة الرأي في الأمور، هذه كلها من الله لإبراهيم، فكان بهذه المكانة يحسن التصرف ويعرف الطريق إلى ربه، ولذلك كلفه الله بالرسالة والنبوة، وهذا مما دل على كمال عقله ورشده.

انظر ماذا كان موقفه من قومه؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ﴾؛ أي واذكر لهم إذ قال، من إبراهيم إذ قال لأبيه. وأبوه آزر كان كافراً يعبد الأصنام ويبيعها ويصنع الأصنام.

إذ قال لأبيه وقومه: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

- **ما هذه الأصنام؟**

التماثيل جمع تمثال، والتمثال هو ما يُصنع من أي شيء؛ مصنوع من حديد، أو من خشب، أو من أي مادة من المواد، تُصنع على شكل إما حيوان أو إنسان أو نحو ذلك، فيعظمونها ويعبدونها ويجعلونها إلهاً من دون الله، هذا معنى التمثال وهي الأصنام التي كانوا يصنعونها ثم يقيمون أمامها يعبدونها.

قال: ﴿أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾؛ أي لازمون لها في العبادة، تجلسون أمامها تعبدونها، تسجدون وتركعون وتدعون، كل ذلك وهي أصنام لا تنفع ولا تضر ولا تسمع، فقال: ما هذه التماثيل؟ لِمَ أنتم تعبدون هذه الأصنام؟ هذه أصنام لا تنفع ولا تضر ولا تسمع، كيف تعبدونها؟

- **ماذا كانت حجتهم؟**

ما عندهم حجة، ما عندهم رد، هو يناقشهم ولا عندهم رد، ماذا قالوا؟ ردهم ردٌّ بارد ورد سخيف لا حجة لهم به؛ قالوا: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣].

وهل كل ما وجدتم عليه آباءكم تتبعونه دون تفكير دون نظر ولا تأمل؟! ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾؛ أي وجدنا آباءنا يعبدونها ونحن نعبدها اقتداءً بهم، فهذا لا دليل عليه.

الإنسان لا يصلي لأجل أن أبويه يصليان، أو لأجل أن أسرته تصلي، أو لأن المجتمع يصلي؛ لا، هو يصلي لله، ويزكي لله، ويتصدق لله، ويصوم لله لأجل كذا.

فإذا كنت تصلي لأن أهلك يصلون فهذه ليست حجة وليست دليلاً، بل هذا جهلٌ وتقليد أعمى، تقليد أعمى لا يصح، فهؤلاء يعبدون الأصنام، فلما قال لهم إبراهيم: كيف تعبدونها؟ قالوا: أهلنا يعبدونها، وجدنا آباءنا لها عابدين، وهذه ليست حجة.

ولذلك ما عندهم حجة، فرد عليهم وناقشهم بقوة، والله عَزَّ وَجَلَّ آتاه الحجة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤]

قال لهم إبراهيم: أنتم وآباؤكم وأجدادكم في عبادتكم لهذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر في ضلال مبين؛ في إعراض وضلال وتيه واضح، بعيد عن الحق. كيف تعبدون هذه الأشياء التي لا تنفع ولا تضر؟ ولذلك صارحهم بقوة وأعطاهم الكلام والحجة بقوة فقال: أنتم في ضلال أنتم وآباؤكم؛ لأن ما عندهم دليل.

فردوا عليه وقالوا: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥].

- **هل أنت جئتنا بحق، كلامك حقيقي وجد، أم كلامك هزل ولعب واستهزاء؟ ما هذا الكلام الذي تقوله؟**

فرد عليهم بقوة فقال: ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

قال لهم إبراهيم: بل ربكم الذي خلقكم ورباكم هو الذي يستحق أن تعبدوه، هو رب السماوات والأرض وهو الذي يستحق أن يعبد، أما هذه الأصنام وهذه التماثيل فلا تنفع ولا تضر ولا تستحق أن تعبد من دون الله، الذي يُعبد هو ربكم ورب السماوات والأرض الذي خلقكم وخلق السماوات والأرض وأوجدها، هو الذي يستحق العبادة.

ولذلك قال: ﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾؛ أي فطر السماوات والأرض وأوجدها من العدم هو الذي يستحق العبادة، ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ أنا أشهد أن الذي يستحق العبادة هو الله، وأن الذي خلق السماوات وخلقكم وفطرها هو الله، أشهد على أنه هو الواحد في ربوبيته، والواحد في ألوهيته، وأنه هو الذي يستحق أن يُعبد.

ثم هددهم لما لم يستجيبوا ولم يقبلوا منه ولم يرضوا بما قال، هددهم فقال:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]

وتالله، وهذا قسم، والقسم يجوز أن تقسم بأدوات القسم: الواو فتقول **"والله"**، والباء فتقول **"بالله"**، والتاء فتقول **"تالله"**؛ كلها صحيحة، فهذه أدوات تسمى حروف القسم.

فقال: ﴿وَتَاللَّهِ﴾؛ أي يقسم بالله ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾. يقول: إذا ذهبتم في أي مجال أو في أي فرصة أو مناسبة، سأتي عليها وأمكر بها؛ لأن الكيد هو فعل الشيء بخفية؛ لأنه لا يستطيع أن يكسرها أمامهم فيمنعونه ويأخذون على يديه، فهو يقول: إذا انصرفتم ولم يكن هناك أحد، فإنني سأقوم بإذن الله على الكيد والمكر والتدمير والتكسير لها، فتواعدهم بهذا الوعيد وهذا التهديد.

ومضت الأيام فجاءت مناسبة؛ قيل إن هذه المناسبة مناسبة عيد عندهم، فخرجوا لهذا العيد وطلبوا منه أن يخرج معهم فاعتذر وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]. فتولوا عنه مدبرين وذهبوا وتركوه.

فلما رأى أنهم قد ذهبوا جاء إلى الأصنام ودخل عليها، فكسرها فقال: ما لكم لا تنطقون؟! ما لكم لا تنطقون؟! وراغ إلى آلهتهم فقال:

قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾ [الصافات: ٩١-٩٢]

وكانوا قد وضعوا عندهم الأطعمة، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢﴾ [الصافات: ٩١-٩٢].

فجعلهم جذاذاً؛ أي جَذَّها جَذّاً، كسرها تكسيراً وقطعها قطعاً، فجعلهم جذاذاً إلا كبيرهم لعلهم إليه يرجعون، فقام على تكسيرها وترك الأكبر؛ لأنه كانت هناك أصنام صغيرة كثيرة ومعها صنم كبير.

فهذا الصنم الكبير تركه كي يرجعوا إليه حتى يسألونه: من الذي كسر هذه الأصنام وأبقاك أنت واحداً لم تُكسر؟ أو أنت الذي كسرتها لأنك لم ترضَ أن يُعبد معك معبودات أخرى تريد الانفراد؟ فكأنه تركهم.

يعني هو يريد أن يقيم عليهم حجة. فيقول: هذا الكبير اسألوه مَن الذي كسرها، يمكن هو الذي كسرها لأنه لا يرضى أن يُعبد معه أحد، لا يرضى يريد أن ينفرد بالعبادة، فاسألوه، قال: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]. كي يرجع القوم ويسألونه، فإذا لم يردَّ عليهم عرفوا أنها أصنام لا تنفع ولا تضر، فبهذا تقوم عليهم الحجة.

فلما جاءوا فإذا الأصنام قد كُسرت، فلما رأوها قالوا: ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

لما رجعوا رأوا الأصنام محطمة؛ مَن فعل هذا؟ بدأ يسأل بعضهم بعضاً: مَن فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين؟ هذا ظلم وجرأة منه، يكسر آلهتنا بهذا الشكل! مَن هذا؟

ثم ردَّ بعضهم على بعض فقالوا: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

سمعنا فتى يذكر هذه الآلهة بأنه سيكسرها وسيدمرها وسيكيد لها في يوم من الأيام، ولا نظن أنه إلا إبراهيم.

قالوا: ماذا نصنع؟ قالوا: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١].

أحضروه أمامنا حتى نشاهد، لعل الناس يشهدون عليه، أحضروه، فأتوا به، أتوا بإبراهيم على مرأى من الناس. فجيء بإبراهيم كي يشهدوا على اعترافه بما قال، ليكون ذلك حجة لهم وحجة على إبراهيم.

قالوا لما جاءوا بإبراهيم أمام الناس والناس ينظرون، وهذا فرصة لإبراهيم أن يقيم عليهم حجة حتى إن الناس أيضاً يتأثرون بهذا الكلام فتكون فرصة له، مثل ما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال فرعون: ﴿اجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾؛ قال: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

يوم العيد، وأن يحشر الناس كلهم ضحى؛ لكي يحضروا كلهم ويشاهدوا، وهنا يقول: دع هؤلاء يحضرون حتى يشهدوا على أنفسهم وعلى قومهم بأنهم في ضلال.

قالوا فلما أتوا بإبراهيم، قالوا: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[الأنبياء: ٦٢].

أنت يا إبراهيم الذي كسرتها ودمرتها؟ **(يعنون الأصنام)**، فرد عليهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣].

الآن أقام إبراهيم عليهم الحجة لكي يظهر لهم سفاهة عقولهم؛ قال: اسألوا هذا الكبير، اسألوه، لعله هو الذي فعلها، اسألوه، ما تدرون مَن كسرها وهو قائم أمامكم؟! اسألوه هو الذي كان حاضراً، هو الذي يرد عليكم، فاسألوا هذا الصنم الكبير، هذا الذي لم يتأثر بالتكسير ولم يصب بشيء، اسألوه يمكن يرد عليكم أو يتكلم أو يجيبكم بجواب.

فَسُقِط في أيديهم، قالوا: فعلاً، كيف يرد علينا وكيف يجيب وهو صنم لا ينفع ولا تضر؟ وبدا لهم أنهم في ضلال، وظهر لهم الأمر أنهم فعلاً في ضلال، فرجعوا إلى أنفسهم وتراجعوا، وقالوا: نعم، فعلاً هذا عاجز عن الرد ولا ينفع ولا يرد، كيف لم تدفع الأصنام عن نفسها شيئاً ولم تدافع عن نفسها؟ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[الأنبياء: ٦٤].

- **كيف تعبدون هذه الأشياء؟ كيف تفعلون هذه الأشياء؟**

ولكنهم لم يستمروا على ذلك، بل زين لهم الشيطان أعمالهم وجعلهم ينتكسون على رؤوسهم؛ ولذلك قال: ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾[الأنبياء: ٦٥].

سرعان ما عاد الباطل إليهم، والشيطان زين لهم أعمالهم فنُكسوا. انظر كيف تعبير القرآن! يقول: ﴿نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾؛ كانوا على الحق وأقبلوا على الحق واقتنعوا، ثم انقلبت رؤوسهم تحت وأصبحوا يمشون على رؤوسهم؛ ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، ثم قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾.

أنت تعلم أنها لا تنطق، كيف تستهزئ بنا وكيف تسخر منا وتسخر من آلهتنا؟! أنت عدو لنا. واحتجوا على إبراهيم بمثل هذا الكلام: أنك تسخر منا، ولابد أن نعاقبك على سخريتك واستهزائك وأنت الذي كسرتها.

فرد عليهم بقوة فقال: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾[الأنبياء: ٦٦-٦٧]

- **كيف تعبدون أصناماً؟**

وهذا احتقار من إبراهيم لهم؛ قال: كيف تعبدون هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر وتعبدونها من دون الله؟! ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ وهذه كلمة تضجر؛ كيف تعبدون، لكم ولهذه الأصنام.

أين عقولكم؟! ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كيف تعبدون أشياء لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع منكم شيئاً، ولا تدفع عن نفسها شيئاً؟!

فلما عرفوا وليس عندهم حجة استعملوا القوة، مثل ما فعل فرعون مع موسى لما أقام عليه حجة؛ فقال له: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وهنا لما رأوا قالوا: ما في حل إلا أن يُحرَّق، وفي سورة أخرى قالوا: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وهنا قالوا: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]. واتفقوا على إحراقه بالنار، وبدأوا يجمعون هذه النيران، وأجَّجوا نيراناً عظيمة، ثم وضعوا إبراهيم في المنجنيق، وجرَّدوه من الثياب، وألقوه في النار وقالوا: ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾.

وهذا يدل على سخافتهم؛ كيف تنصرون الآلهة التي تُعبد من دون الله؟! لِمَ لا تنصر هي نفسها؟! هذا دليل على ضعفها؛ ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾.

فلما ألقوه في النار قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للنار: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وهذه معجزة؛ معجزة من الله لإبراهيم، كما أن الله أعطى موسى المعجزة فيمشي في البحر يبساً، فكذلك يُلقى في النار ولا تصيبه النار، لا تصيبه النار مع أنهم أشعلوا نيراناً عظيمة فلم يُصب أبداً، وإنما كانت برداً وسلاماً عليه، فلم ينله أي أذى ولا مكروه من هذه النار.

وأرادوا بإبراهيم الكيد والانتقام، وإهلاكه بالنار وإحراقه، ولكن الله جعلهم الأخسرين؛ لأنهم قالوا: ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾، فجعلهم الله من المغلوبين ومن الأسفلين ومن المنهزمين.

كما قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، حتى لا نطيل عليكم.

وجزاكم الله خيراً، وبارك الله فيكم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(الأنبياء ٧١ - ٧٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، واتبع سنته، واقتفى أثره إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته؛ وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء، الموافق للثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة من عام (١٤٤٣ هـ) من هجرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

نجتمع كعادتنا في هذا اللقاء المبارك وفي هذا المجلس المبارك، المجلس المتكرر كل مغرب يوم الثلاثاء، والسورة التي بين أيدينا هي سورة (الأنبياء)، التي ذكر الله فيها ستة عشر نبياً، وفصل في أحوالهم.

العجيب، يعني لما نسمع سورة (الأنبياء) وذكر الأنبياء، المتوقع يعني في ذهنك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يورد فيها يعني أشياء يعني تدل على يعني ما يتعلق بالأنبياء من أمور يعني تظهر فيها مثل ما يقال بطولات الأنبياء وشجاعات الأنبياء، ولكن العجيب في هذه السورة، وإن كان وإن كنا جميعاً عندنا اليقين وعندنا الإيمان بشجاعة الأنبياء وقوتهم وصبرهم وتحملهم؛ يعني كل الأنبياء

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

فهم في صفاتهم المتميزة لا نشك في شيء من ذلك؛ لكن العجيب أن هذه السورة تأتي في ذكر سبحان الله العظيم يعني احتياج الأنبياء لرب العالمين، وذكر أدعيتهم ولجوئهم وتضرعهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك تلاحظ فيها كثيراً: فانجيناه، فانجيناه، فانجيناه؛ يعني سورة عجيبة أنها تذكر يعني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع ما أعطى الأنبياء من الصفات، وأعطاهم من القوة والشجاعة، وأعطاهم من الصبر وغير ذلك، إلا أنه تبقى فيهم يعني أو يبقى فيهم ضعف الإنسان الذي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أودع في هذا الإنسان المخلوق ضعفه واحتياجه لربه وتضرعه.

ولذلك تلاحظ يعني إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يُلقى في النار، ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: «انْصُرْنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، ويونس عَلَيْهِ السَّلَامُ ينادي في الظلمات، وزكريا ينادي ربه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾[الأنبياء: ٨٩].

يعني أشياء كلها تضرعات إلى الله سبحانه وانكسار بين يديه، تدل على أن القوة لله جميعاً، وأن الله هو المتفرد بكل صفة من صفات الكمال والقوة والشجاعة والقوة وصفة الملك ونحوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا لا يدل على أن الأنبياء في ضعف وانكسار، بل يدل على افتقارهم لربهم ولجوئهم إلى رب العالمين، وهذا ينبغي لنا أن نقتدي بهم؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[الأنعام: ٩٠].

يعني هم هداة وهم طريقنا، ونقتدي بهم ونسلك طريقهم في شجاعتهم، وفي قوتهم، وفي صبرهم، وفي جلدهم، وفي قوة محاورتهم مع أقوامهم وصبرهم عليهم، وأيضاً لجوئهم إلى رب العالمين وانكسارهم وتضرعهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أدعيتهم التي يقولون فيها: ربنا، ربنا، ربنا.

هذا كله تعليم لنا حتى نتعلم يعني كيف نلجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كيف يكون الافتقار إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ كل ذلك يعلمنا الله عَزَّ وَجَلَّ كيف نلجأ إليه وكيف نحتاج وأننا بحاجة ماسة إلى رب العالمين.

وقفنا عند الآية السبعين من هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾[الأنبياء: ٧٠].

ولو تلاحظ أن هذه الآية قال الله فيها: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾؛ أي قوم إبراهيم أرادوا بإبراهيم كيداً، أرادوا أن يكيدوا فجعلناهم الأخسرين. ولو تقرأ في سورة الصافات قال الله هناك: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾[الصافات: ٩٨].

- **لماذا قال هنا: ﴿الْأَخْسَرِينَ﴾، وقال هناك: ﴿الْأَسْفَلِينَ﴾؟**

لو تقرأ في الآيتين أو في السورتين تجد فعلاً أن التعبير بالأخسرين مناسب هنا وهناك الأسفلين مناسب، ولو غيرت هذا مكان هذا لا يتناسب. لماذا؟ لأنهم قالوا هنا: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾[الأنبياء: ٦٨].

فجعلهم الله هم الأخسرين، هم الخاسرين، وإبراهيم هو المنتصر عليهم، ولذلك قال بعدها: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾. وفي سورة الصافات قال: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾؛ لأنهم قالوا: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ [الصافات: ٩٧].

فجعلهم الله في أسفل سافلين، فهذا من تدبر يعني الآيتين؛ لماذا قال هنا كذا ولماذا قال هنا كذا. طيب، فأصبحوا هم يعني مغلوبين خاسرين أسفلين.

بعدها قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ أي إبراهيم، نجى الله إبراهيم، قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

إبراهيم كان في أرض بابل مع قومه في العراق، ولما يعني حصل ما حصل منهم من إيذائه وتضييقه حتى وصل الأمر أن يُحرق بالنار، عرف أنه لا فائدة من الجلوس معهم، فأمره الله بالهجرة، أمره الله بالهجرة أن يهاجر إلى بلاد الشام فخرج مهاجراً.

وهذه سنة الله في أنبيائه؛ فموسى هاجر خرج من مصر، ونبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج من مكة وهاجر وتركها، وهذا يعني إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ترك بلده التي عاش فيها وأهله ووالديه، وهاجر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هجرة يريد بها وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهاجر هو ولوط.

قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ لأنهم حاولوا قتله، وحاولوا التضييق عليه وإحراقه، فنجاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾.

ولوط آمن به كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وفي سورة أخرى قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات: ٩٩-١٠٠].

فانتقل من بلاد بابل وتوجه إلى الشام في أرض فلسطين، واستقر إبراهيم هناك، وهاجر معه لوط، قيل إن لوطاً هو ابن أخ إبراهيم؛ يعني إبراهيم عمه، وقيل إنه ابن من أبناء عمه، والله أعلم بذلك لكنهما كلاهما كانا في وقت واحد، في زمن واحد.

قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي أرض الشام، بارك الله فيها في خيراتها، وفي مائها، وفي ثمارها، وبارك الله فيها أن بعث فيها أكثر الأنبياء كانوا في ذلك المكان؛ داوود وسليمان وغيرهم كانوا في أرض الشام.

ولوط كان في منطقة يقال لها أو مدينة يقال لها (سدوم) عند البحر الميت، و(سدوم) هذه قرية من قرى لوط، هي أكبر القرى كانت هناك، سبع قرى، وأرسل الله إليهم لوطاً كما سيأتينا بعد قليل أن الله بعثه وأرسله إلى قومه ليدعوهم إلى التوحيد ونبذ الأخلاق السيئة، هذا سيأتينا إن شاء الله.

الشاهد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر إبراهيم بالهجرة ونجاه من قومه هو ولوط، قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي أرض بيت المقدس، التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] فهي أرض مباركة..

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢]

أي وهب الله لإبراهيم لما هاجر -إبراهيم عاش في قومه وبلغ ما بلغ من السن ولم يُرزق بذرية، حتى أصبحت امرأته سارة امرأة كبيرة بالسن، حتى قالت: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

قال الله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ بشرته الملائكة بإسحاق؛ لما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١]. -يعني قوم لوط- فجاءته الملائكة وبشرته بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب.

فإسحاق هو ابن إبراهيم من زوجته سارة، وإسماعيل أكبر من إسحاق، وهو الذي رُزق به من هاجر، ونقله إلى منطقة المسجد الحرام في مكة، انتقل إلى مكة، وأما إسحاق فهو قد بقي في الشام، وإسحاق كبر في زمن أبيه إبراهيم ورُزق بولد سماه يعقوب؛ فيعقوب ابن الابن.

ولذلك قال الله: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ يعني زيادة، زيادة على أن رزقه إسحاق، وكبر إسحاق وتزوج ورُزق بهذا الابن يعقوب، فأصبح إبراهيم رأى ابنه إسحاق ورأى ابن الابن، فيعقوب حفيد لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ويعقوب هو (إسرائيل)، وذرية (إسرائيل) (بنو إسرائيل) كلهم يرجعون إلى يعقوب، الذي هو أبناؤه الاثنا عشر، منهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال هنا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾؛ وهبه الله ذرية، وهبه الله ورزقه إسحاق، ورزق إسحاق يعقوب نافلة (زيادة) على هذه الذرية، قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.

- **مَن هم (كلاً)؟**

يرجع إلى أربعة أشخاص: إبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾، وصفة الصلاح صفة يتميز بها من يوصف بها من الأنبياء، ومن تحت الأنبياء من الأنبياء والصديقين والشهداء وغيرهم من عباد الله الصالحين.

- **لماذا يقول الله: ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾؟ ما علامة الصلاح؟**

الجواب: الصلاح صلاح العمل وصلاح الأعمال الصالحة، بحيث أن هذا الشخص تجده دائماً كثير الأعمال، موفقاً لفعل الخيرات، موفقاً لفعل الطاعات؛ فالذي تجده دائماً في فعل الخيرات وفعل الطاعات تقول: هذا رجل صالح، الذي تجده دائماً يعني يبذل وقته وحياته في طاعة ربه.

ودائماً في عبادة تقول: هذا من الصالحين، هذا من الصالحين، ولذلك وصف الله أنبياءه أن جعلهم من الصالحين، قال: ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ المطيعين لربهم الذين يعملون الصالحات ويحافظون عليها.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ ۖ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]

أي هؤلاء المذكورين وغيرهم أيضاً جعلناهم أئمة (يعني قدوة) أئمة للناس يقتدون بهم، قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي بشرعنا وما أمرنا به يهدون الناس، فهم سبب في هداية الناس؛ فإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ولوط، وغيرهم من أنبياء الله ورسله جعلهم الله أئمة قدوة للناس يدعون إلى عبادة الله وإلى طاعته وإلى عمل الصالحات ويهدون بأمرنا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ زيادة على ذلك قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾؛ أي هم أنبياء أُوحي إليهم، أُوحي إليهم بأي شيء؟

قال: فعل الخيرات (**الأعمال الصالحة**)، الله أوحى إليهم أن يفعلوا الخيرات من الأعمال التي شرعها الله على أيديهم، هؤلاء الأنبياء، ومن أجلها وأعظمها إقام الصلاة على وجهها التي أمر الله بها، وهذا يدل على أن هؤلاء كانوا يصلون وكانوا يحافظون على الصلاة؛ فإبراهيم يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وكلهم كانوا أهل صلاة وعبادة، أهل صلاة وعبادة هم وغيرهم، فكانت الصلاة مشروعة في الأمم السابقة، كانت الصلاة مشروعة، ولذلك شعيب يقول له قومه: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧].

فكانوا يصلون، وكانت الصلاة مشروعة في حقهم، قال: ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ ولم يقل "**يصلون**"، قال: ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾ فإقامها هو الإتيان بخشوعها وأركانها وواجباتها إلى آخر ذلك، ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾، كانوا يحافظون على إيتاء الزكاة كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لموسى وقومه: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [يونس: ٨٧].

وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

وأيضاً في إسماعيل قال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ [مريم: ٥٥]

فكلهم كانوا يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويحافظون عليها، نعم يحافظون عليها.

قال: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾؛ يعني ممتثلين لطاعة الله، مطيعين منقادين لله، لا يترددون في عبادة الله بل يسارعون، وهم عباد الرحمن، ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾.

قال بعد ذلك -لما حكى الله علينا قصة إبراهيم بالتفصيل، وبين عاقبة إبراهيم وأن الله نصره من القوم الذين أرادوا الكيد به وإحراقه في النار، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نجاه ووهب له الذرية الطيبة الصالحة وجعل له لسان صدق في الآخرين- ذكر بعد ذلك قصة لوط؛ لأن لوطاً كان معاصراً لإبراهيم، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في لوط: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤].

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا﴾؛ أي وآتينا لوطاً حكماً وعلماً، أي واذكر لوطاً إذ آتيناه الحكم والعلم.

- **ما هو الحكم؟**

الحكم هو يعني حسن التصرف وكمال العقل؛ فالله آتى الأنبياء الحكم، فأصبحوا حكماء، أصبحوا أهل حكم وأهل حسن تصرف، وأصبحوا أهل حكمة وحسن تصرف وحسن الفصل والقضاء بين الناس لأن الله أعطاهم المعرفة.

قال: ﴿وَعِلْمًا﴾، زيادة على هذا أن الله أعطاهم العلم، أن منّ عليهم بالعلم، فقال: آتيناهم حكماً وآتيناهم علماً، وآتى لوطاً خاصة الحكم والعلم.

فهو يأمر بأمر الله، وأعطاه الله المعرفة والإدراك والعلم النافع بمعرفة إقامة دينه والدعوة إلى الله وبما كلفه الله من هذه الرسالة، وأرسله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى قرية (سدوم) وما حولها من القرى السبع، ولما جاءهم أمرهم بتوحيد الله وعبادة الله وإقام الصلاة والأمر بالأخلاق الحسنة، والتحذير مما كانوا عليه من الأخلاق والخبائث التي كانوا يعملونها؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]

القرية التي كانت تعمل الخبائث والمنكرات، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فهم كانوا يفعلون الفواحش، ومن أشهر ما ظهر فيهم هو فاحشة اللواط، وهو إتيان الذكور من دون النساء، هذه التي قال الله فيها: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

☜**حتى قال عبد الملك بن مروان -أحد أمراء بني أمية-:** «واللهِ لولا أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ذَكَرَ آلَ لُوطٍ فِي القُرْآنِ مَا ظَنَنْتُ أَنَّ رَجُلًا يَفْعَلُ هَذَا بِرَجُلٍ».

وقال أيضاً في قصة لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ۝١٦٦﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

فعَدَوا على حدود الله وفعلوا هذه الصفة القبيحة التي لم تكن موجودة في الأمم السابقة ولا اللاحقة، فخرجوا عن طاعة الله، وردّوا رسالة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ ووقعوا في هذه المنكرات، وقالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

واستمروا وقالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]

فلما دعاهم لوط وأيس من قبولهم للدعوة، وحاولوا إيذاءه وحاولوا أيضاً إخراجه من قريته، أمره الله أن يهاجر وأن يخرج؛ لأنه أوحى إليه أنه سينزل بهم العذاب.

فعذبهم الله بأن قلب ديارهم عليهم، ثم أتبعهم بالحجارة؛ لماذا كان عذابهم بهذه الصفة؟ لأنهم قلبوا الفطرة السليمة فقلب الله عليهم ديارهم، ولأنهم وقعوا في الفاحشة فرُجموا بالحجارة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]. خارجين عن طاعة الله، متصفين بالسوء والأعمال السيئة والأخلاق الرديئة.

قال: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٥]؛ أي أن الله أتمّ عليه النعمة فدخل في رحمته، ونجاه مما حلّ بقومه من العقوبات؛ لأنه أمره أن يخرج هو ومن آمن معه، فخرج هو ومن معه، قال: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾، ثم أثنى الله عليه قال: ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ لأنه كان من الذين يعملون الصالحات، ويحافظون على طاعة ربهم ويعملون الطاعات ويستمرون عليها، فأثنى الله عليه وذكره على وجه الثناء والنعمة، وأن الله نجاه من قومه الذين أرادوا به الكيد.

بعد ذلك يذكر الله لنا قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. تأمل، انظر قصة موسى وهارون أول شيء، ثم إبراهيم، ثم إسحاق ويعقوب، ثم لوط، هؤلاء ستة، والآن السابع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

أي واذكر نوحاً، ﴿إِذْ﴾ أي وقت إذ، ﴿نَادَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل هؤلاء المذكورين كلهم؛ قبل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ولوط، وموسى، وهارون؛ كل هؤلاء الأنبياء المذكورين كان نوح قبلهم بزمن.

قال: ﴿مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾. لأن نوحاً قال: «رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ»، فنادى ربه، فلما نادى ربه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥].

فأجاب الله دعوته: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾؛ استجاب الله لنوح لما دعا ربه أن ينجيه من قومه، وأن يهلك قومه، فأهلكهم بالطوفان وأغرقهم جميعاً إلا من آمن معه، قال:

﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾، مَن هم أهله؟ هم المؤمنون معه، ولذلك لما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥].

قال الله سبحانه: ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦].

لأنه ليس مؤمناً، فأهله هم المؤمنون. فنجيناه وأهله من الكرب العظيم؛ أي الشدة التي حصلت له لأنهم ضايقوه وتربصوا به وآذوه، وقالوا: لَنَرْجُمَنَّكَ ولنخرجنَّك، فآذوه أذىً شديداً، وصبر حتى استجاب الله دعوته، فأغرق قومه، ونجيناه وأهله من الكرب العظيم، نجاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

نصره الله من القوم ونجاه من القوم الذين كذبوا بآياتنا؛ أي كذبوا بآيات الله وكذبوا برسالته وردوها وكفروا به ولم يستجيبوا لنوح لما دعاهم إلى التوحيد وترك الأصنام وعبادة الأصنام.

قال: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ أي قومه قوم سوء، أي قوم صفاتهم القبح والصفات الرديئة، قال: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ أي بالطوفان والماء، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولم ينجُ إلا من كان في السفينة مع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فنجى الله نبيه نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال بعد ذلك قصة داوود وسليمان وما جرى لهما عندما اختصم إليهما رجلان في قصة الغنم التي يعني دخلت الحرث ونفشت في هذا الحرث، ولكن هذه القصة تحتاج منا إلى وقفة أطول.

فلعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل قصة داوود وسليمان وما بعدها مما ذكره الله من الأنبياء، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الأنبياء ٧٨ - ٨٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلِّ وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، واتبع سنته إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ في هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للتاسع عشر من شهر جمادى الآخرة من عام ١٤٤٣هـ، نجلس هذا المجلس المبارك وبين أيدينا هذه السورة الجليلة القدر، وهي سورة (الأنبياء) التي ذكر الله فيها ستة عشر نبياً.

أنا حقيقةً ودنا أن نتأمل قصص هؤلاء الأنبياء؛ يعني الآن عندنا قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وبعدها قال: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. هؤلاء الأنبياء الثلاثة ذكرهم الله في سورة (ص) بنفس الترتيب؛ ذكر داوود، سليمان، أيوب. وهؤلاء عُرفوا بأن الله امتنّ عليهم بالملك، امتنّ عليهم به، فهم ملوكٌ أنبياء.

لو تلاحظ يعني في القصة السابقة، قصة نوح قبل هذه: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، وقبلها لوط، وقبلها إبراهيم؛ هؤلاء الأنبياء الثلاثة ما الملاحظ فيهم؟ يعني ذُكروا على أي وجه؟

لما تتدبر يعني تدبر الآيات حقيقةً تلاحظ أن هؤلاء الثلاثة الذين ذُكروا: داوود، وسليمان، وأيوب، أنبياء ملوك، أعطاهم الله الدنيا، لكن الذين قبلهم: إبراهيم، ولوط، ونوح ذكرهم الله يعني متتالين؛ واحد، اثنين، ثلاثة.

- **جمع الله بينهم؛ لماذا جمع الله بينهم؟**

تلاحظ أنه كلهم يقول الله فيهم: نجيناه، نجيناه، نجيناه؛ إذن واجهوا محناً عظيمةً، هؤلاء الثلاثة واجهوا محناً عظيمةً: إبراهيم واجه إحراقاً بالنار، ولوط واجه إخراجاً من القرية وإيذاءً، ونوح يقول: فنجيناه من الكرب العظيم؛ يعني حتى إن قوم نوح كادوا يرجمونه بالحجارة: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ

لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، فأوذي، أوذي هؤلاء كلهم، أُوذوا في سبيل الله وضُيّق عليهم، فنجاهم الله.

- **نأخذ داوود وسليمان؛ ما قصتهم؟ وما الذي ساقه الله في هذه السورة؟**

مع أن الله ذكر قصة داوود وسليمان في سورة (النمل) وفي سورة (ص)، وذكرهم هنا فقال: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]؛ أي: واذكر داوود وسليمان. متى؟ قال: زمن ووقت ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، والحرث: زرع، ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. إذن عندنا زرع وعندنا غنم.

- **ومعنى نفشت؛ ما معنى نفشت؟**

(النفش): هو الرعي في الليل بلا راعٍ، إذا جاءت الأغنام ترعى بالليل وليس معها راعٍ يقال: نفشت الغنم، وإذا رعت بالنهار من غير راعٍ يقال: همَلت الغنم، مهملة، وفي الليل: نفشت.

إذن عندنا الآن زرع وغنم، والغنم دخلت هذا الزرع في الليل ما معها راعٍ ولا شيء، دخلت وبدأت تأكل في هذا الزرع ولم تُبقِ منه شيئاً. ما هو الزرع؟ اختلف المفسرون فيه؛ وبعضهم يقول إنه كان عنباً على عريش، دخلت الأغنام وأكلت هذا العنب ولم تُبقِ منه شيئاً.

فجاءت هذه الأغنام ودخلت ولم تُبقِ منه شيئاً، فتنازع صاحب الغنم وصاحب الزرع، وترافعوا إلى داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجاءوا إلى داوود، فقال صاحب الزرع: إن غنم هذا الرجل دخلت في الليل وانتشرت في مزرعتي وأكلت الزرع كله، أكلت (الكرم) أو أكلت العنب فلم تُبقِ منه شيئاً، فما الحكم؟

فقال داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ لما نظر إلى الرجل وعرف أغنامه وعرف الزرع ومقداره، قال: هذا بهذا؛ لأن هذا مقارب لهذا. لو أن إنساناً أتلف مثلاً جهازاً لشخص وعنده جهاز مثله، خلاص خذ الجهاز بالجهاز، أنت أتلفت الجهاز خذ هذا بهذا، وهكذا. فحكم داوود بهذا الحكم؛ بأن على صاحب الغنم الذي أدخلها أو دخلت وأكلت من هذا الزرع عليه أن يسلم الغنم لصاحب الزرع؛ لأن هذا بمقدار هذا.

فلما قضى داوود بهذا القضاء، قيل إن سليمان كان عنده فقال: يا أبتِ، أو غير ذلك؟ وقيل إن سليمان كان خارجاً، فلما خرج الرجل قال: تعال، ماذا قضى لكم داوود (أو والدي)؟

قالوا: قضى كذا وكذا. قال: لا. فقضى لهم بغير هذا القضاء. طيب عموماً، كان سليمان عند داوود أو خارجاً، المقصود أنه قال: أو غير ذلك؟ فقال: ما الحكم يا سليمان؟

قال سليمان: على صاحب الغنم أن يسلم الغنم لصاحب الزرع، يشرب من ألبانها ويأخذ من أصوافها، حتى يصلح صاحب الغنم الزرع فيعود كما كان، فإذا عاد كما كان يأخذ غنمه.

فقال سليمان: القضاء ما قضيتَ، يعني داوود حكم بالعدل، وهذا مكان هذا، لكن سليمان رأى أن هناك أمراً أولى في القضية، أولى في الحكم، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]؛ يعني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مطلع عليهم وشاهد لحكمهم، ولم يعب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكمهم، بل رضي بحكمهم ولم يعترض على حكمهم، قال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾.

ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]؛ أي: القضية، فهَّم الله سليمان ما فيه رعاية المصلحة للطرفين مع العدل، ومع أن داوود حكم بالعدل، لكن سليمان كان حكمه فيه مصلحة للطرفين.

فحكم مثل ما ذكرنا على صاحب الغنم أن يصلح الزرع الذي أتلفته الغنم في مدة معينة، وهذه المدة تبقى الأغنام عند صاحب الزرع ينتفع بلبنها وصوفها ونحو ذلك، ثم تعود الأغنام إلى صاحبها ويعود الزرع إلى صاحبه فيرجع كما كان.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]؛ يعني سليمان وداوود، كلاً آتينا حكماً وعلماً، أعطاهم الله الحكم والعلم؛ معرفة الأحكام والقضايا، وأيضاً عندهم العلم كلهم، وهذا ثناء من الله، ثناء لداوود ولسليمان حتى يُفهم أن داوود لم يحكم بالحكم الخطأ، وإنما حكم بالحكم الصواب، قال: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

ثم بدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يثني على داوود وسليمان ويبين ما منّ الله به عليهم فيقول: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سخر مع داوود الجبال، تسبح؛ يعني ذللها لداوود بحيث إن داوود إذا سبّح وذكر الله وقرأ (الزبور) الكتاب الذي أُنزل إليه، ومعروف أن داوود كان ذا صوت حسن جميل جداً فكان إذا قرأ وسبّح بدأت الجبال تسبح معه، تردد معه: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]؛ أي: رددي.

وقال هنا: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾. كذلك الطيور تسبح وتردد معه، قال: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ أي: فاعلين هذا الأمر من التسبيح والذكر والترديد.

- **قد يسألك سائل يقول لك: لماذا قُدّمت الجبال على الطير؟**

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ سخرناها أيضاً، قدّم الجبال لماذا؟

لأنها يعني أعظم في الإعجاز؛ لأنها جمادات، جماد ويسبح، هذا أعظم، تسبح الجبال هذا ألفت للأنظار وأعظم، وهو آية عظيمة أُعطيت لداوود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال بعدها: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وعلمناه؛ أي: علمنا داوود وخصيناه بهذه المزية وهو أنه يصنع الدروع، يصنع الدروع من الحديد، قال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾.

- **ما هو (اللبوس)؟**

(اللبوس) غير **(اللباس)**؛ **(اللبوس)** ما يُلبس ضد العدو في الحروب مثل الدروع ونحوها، هذه يلبسونها، يصنعها، ومثل المغفر الذي يوضع على الرأس والدرع الذي يوضع على الصدر، هذه تسمى لبوس الحروب. أما **(اللباس)** فهو الملابس المعروفة؛ ففرق بين **(اللبوس)** و**(اللباس)**.

قال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾؛ تحصنكم أي: تحفظكم وتحميكم، من بأسكم أي: في الحروب، من وقع السلاح عليكم؛ إذا وقع السلاح أو السهام تضرب الصدور تكون، يكون هذا الدرع يحميكم والمغفر يحمي الرؤوس.

وهذه كلها كان يصنعها من الحديد، يصنعها من الحديد لأن الله ألهمه صناعة الحدادة ومهنة الحدادة. في آية سورة **(سبأ)** قال: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وألنا؛ يعني جعلنا الحديد ليناً في يده.

- **كيف ألنا؟**

يعني باستخدام أسباب الإلانة؛ يعني من الضرب بالمطرقة ومن وضعها على النار وغيرها يعني أسباب، وقال بعضهم: ألنا له الحديد؛ أي جعلناها معجزة، يعني أن الحديد يكون ليناً في يديه مثل العجين ومثل الطين، وهذا قول، الله أعلم، لكنه ألان الله له الحديد.

قال: ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾؛ أي: هل تشكرون نعمة الله؟ يعني اشكروا نعمة الله، اشكروا نعمة الله أن الله ألهم داوود صناعة الحديد والدروع ونحوها والسيوف، وأصبحت يعني مهنة يتخذها الناس، وفتح داوود للناس هذه صناعة التي ألهمه الله إليها، فاشكروا نعمة الله على هذه النعمة، هذا ما ذكره الله مما منّ به على داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم انتقلت الآيات إلى ما منّ به وسخر لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ-، قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٨١]؛ أي: وسخرنا لسليمان، ماذا؟ قال: ﴿الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]، الريح: الهواء، يعني هبوب الريح.

قال: ﴿الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾؛ أي: تهب بقوة، وعاصفة إذا كانت شديدة قوية. قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾، أي: بما يريد سليمان، شرقية أو غربية أو شمالية أو جنوبية، يجريها حسب ما يريد. قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾.

- **لو سألك سائل وقال لك: في هذه السورة يقول: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾، والعاصفة يعني السريعة القوية الهبوب، في سورة (ص) قال: ﴿رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، سخر الله له الريح الرخاء، رخاء يعني رخوة يعني لطيفة (أو ضعيفة)، فكيف نجمع بين أنه مرة يقول ضعيفة ومرة يقول سريعة؟**

الجواب: هذا يدل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سخرها لسليمان إن أراد سرعتها أسرعت، وإن أراد بطأها أصبحت بطيئة، فهي يعني حسب أمره، هذا وجه، وبعضهم يقول لا.

يقول: إذا كان يريد السفر عليها والانتقال فإنها تنقله رخاءً؛ لأن الرخاء يمشي بهدوء، وإذا عاد إلى مكانه تعود به بسرعة، وهذه طريقة المسافر؛ المسافر عندما يخرج لسفره فإنه يمشي بهدوء ورخاء، وإذا أراد العودة إلى بلده فإنه يعود مسرعاً، فجعل الله لسليمان هذه الريح تذهب به رخاءً وتعود به مسرعةً، والله أعلم.

قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١].

- **ما هي الأرض التي باركنا فيها؟**

هي بيت المقدس، هي الشام الأرض المباركة، الأرض المباركة التي هاجر إليها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وداوود، والتي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

فهي أرض مباركة بالخيرات الكثيرة، والفواكه، والخضار، ومباركة ببعث الأنبياء فيها وإرسال الرسل فيها، فقال الله هنا: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾. يعني أحاط علمنا بكل شيء؛ بما أحاط علمنا بما عند داوود وبما عند سليمان وبكل شيء، لا يغيب عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيء من الأشياء.

قال: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢]؛ أي: وقد سخر الله لسليمان من الشياطين، يعملون له، وسخرهم يستخدمهم خدماً عنده، فلا يمتنعون ولا يعترضون عليه، بل يأتمرون بأمره، فمنهم من يغوص في أعماق البحار ويستخرج اللآلئ والجواهر من قاع البحار: ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُ﴾.

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يقول: يعملون أعمالاً أخرى كما ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

فكانوا يعملون له، وكانوا يأتمرون بأمره ولا يترددون، حتى إنه لما مات ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ [سبأ: ١٤]. فلما خرَّ تبيّنت الجن؛ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، لكنهم لا يدرون، ولذلك سخر الله لهم وكانوا يعملون له ما يشاء.

قال هنا: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يعني أعمالاً كثيرة. ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾؛ يعني حفظهم الله لسليمان بقوته وعزته، حفظ الله هؤلاء الجن وحفظهم لسليمان بأن يأتمروا بأمره وأن يعملوا بما يريد بقوته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدرته جل جلاله.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى قصة أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ-. وأيوب هو نبي من أنبياء الله، فتح الله عليه الدنيا وأعطاه من الحروث والزروع والمساكن والخدم والجواري، أعطاه الدنيا، ثم بعد ذلك ابتلاه ببلاء؛ هذا الابتلاء هو الضر الذي أصابه والسقم العظيم الذي أصابه في جسده، جعل كل ما وراءه يذهب من أموال وأولاد وأهل، فلم يبقَ معه أحد إلا قيل إن امرأته هي التي بقيت عنده.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، أي: واذكر عبدنا أيوب وقت ما نادى ربه. عندما ابتُلي بالضر والسقم وأُصيب بهذا، صبر وصبر ولم يعترض، وسلّم الأمر لله.

وانظر حتى في دعائه فيه أدب عظيم، يقول: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، ما قال: أنت أصبتني يا رب العالمين، أو أنت الذي قدّرت عليّ، قال لا: الضر هو الذي مسّني، وهذا من حسن الأدب في الدعاء، قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. ولم يسأل يقول: اكشف عني أو كذا، وإنما قال: هذه حالي أمامك، الضر قد مسني وأصابني.

وفي سورة أخرى قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، فنسب الضر للشيطان، وهذا من حسن الأدب مع الله، مع أن كل شيء بقَدَر، لكن هذا من حسن الأدب، وذكر حاله وقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فقط؛ أنت أرحم الراحمين وأنا هذه حالي، فكشف الله عنه، مع أنه مكث مدة طويلة وهو على هذه الحال، وصبر، وصبره يُضرب به المثل، يُضرب بصبر أيوب المثل من شدة صبره.

فكشف الله، ولاحظ أنه قال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، مباشرة بمجرد دعائه جاء الجواب بالفاء: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾، استجاب الله له الدعاء وكشف ما به من ضر ورفع عنه البلاء.

وفي آية أخرى في سورة (ص) قال: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، اركض يعني اضرب برجلك، فضرب برجله فنبعت العين، فبدأ يغتسل منها ويشرب منها، ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾. ولذلك استنبط بعض أهل العلم أن الاغتسال ينبغي أن يكون بالماء البارد؛ لأنه أنشط وأقوى للجسم.

قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، لما فقد ماله وولده وعوّضه الله بأن آتاه زوجه وأيضاً رزقه الذرية الطيبة، قال: ردّ الله عليه ما فقده من الأهل والمال والولد، وضاعف له ذلك أضعافاً كثيرة.

قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ رحمةً منا، كل ذلك رحمة وعطاء من الله ومنة وفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من عندنا ﴿رَّحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾؛ أي: أن يكون قدوةً للعابدين، وقدوةً لمن يأتي بعده في صبره على البلاء يقتدون به، وفي دعائه، وفي موقفه.

قال بعدها: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]. انظر لما ذكر ثلاثة أنبياء مثل ما ذكرنا يا إخوان في الأول-؛ ذكر أنبياء أُصيبوا بالكرب الشديد فأنجاهم الله: إبراهيم من النار، ولوطاً من إيذاء قومه وإخراجهم له من قريته، ونوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ جاءه الكرب الشديد والإيذاء من قومه، هؤلاء ثلاثة.

ثم ذكر ثلاثة أعطاهم الله الدنيا والملك: داوود وسليمان وأيوب، ثم ذكر ثلاثة الآن هؤلاء وصفهم بالصبر، قال: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾.

إسماعيل معروف بصبره، لما أخبره إبراهيم أنه سيذبحه: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فكان من الصابرين، وإدريس من الصابرين، وذا الكفل.

لكن أجمل الله قصتهم ولم يفصّل فيها، بل لا نستطيع أن ندخل في تفاصيل قصصهم، لكن نعرف أنهم أنبياء، إسماعيل وإدريس وذا الكفل، أين ومتى عاشوا؟ وما موقفهم من أقوامهم؟ كل ذلك لم يفصّل الله فيه، فلذلك لا نستطيع الدخول في أشياء لا نعلم صحتها.

قال: اذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل، كل هؤلاء وصفهم الله بأنهم من الصابرين؛ الصابرين على طاعة الله، وعن معاصيه، وعلى أقداره، فاستحقوا أن يُذكروا بالثناء الحسن.

قال بعدها: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦]، أدخلهم الله في رحمته، إنهم من الصالحين؛ أي: ممن صلحت أعمالهم باطناً وظاهراً، فأطاعوا الله وعملوا بما أمرهم الله، فوصفهم الله بالصبر والصلاح، وهذا يعني ثناء من الله وشهادة من الله لهم.

قال الله بعدها: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وذا النون هو يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي بعثه الله، يونس بن متى، بعثه الله إلى قرية (نينوى) في العراق، هذه القرية كان فيها قوم، وبعث إليهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يونس، فدعاهم إلى التوحيد وطاعة الله،

فأبوا ولم يقبلوا منه، فغضب عليهم وخرج من عندهم، وتوعدهم بالعذاب ولم ينتظر أمر الله بالخروج، من شدة الغضب خرج ولم ينتظر أن يأمره الله بالخروج أو لا، فلذلك لما خرج ابتلاه الله، ابتلاه بأن ضيّق عليه فغرق في البحر.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَذَا النُّونِ﴾؛ أي صاحب النون، والنون ما هو؟ الحوت، كما قال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. ﴿إِذ ذَّهَبَ﴾؛ أي وقت ذهابه ﴿مُغَاضِبًا﴾ لقومه، اشتد غضبه على قومه لماذا لم يستجيبوا له ولماذا لم يطيعوا ما أمرهم به، فضاق صدره بعصيانهم واشتد الأمر معهم فلذلك خرج.

وقال الله: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، لأنه اشتد غضبه على قومه فخرج مغاضباً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وظن هو أن الله لا يقدر عليه ولا يؤاخذه؛ لأنه لما خالف أمر الله بأن خرج من غير أن يؤذن له فابتلاه الله، ابتلاه الله بشدة الضيق والحبس وضيق عليه.

ولما ركب السفينة كما في سورة (**الصافات**)- قال: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، ركب السفينة فبدأت الأمواج تتلاطم على صاحب السفينة، فقال: ليس هناك حل إلا أن نخفف من حمل السفينة، فساهموا اقترعوا الذي تقع عليه القرعة يلقي نفسه في البحر حتى لا نهلك جميعاً، فاقترعوا فوقعت القرعة على يونس، فألقى بنفسه في البحر فالتقمه الحوت وذهب به في قاع البحر.

فلما اشتدت الظلمة عليه نادى، نادى ربه، يعرف أنه ليس له منقذ إلا الله، فنادى ربه في ظلمات الليل؛ ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت، تائباً معترفاً مقراً بخطئه، فنادى في الظلمات: ﴿أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾؛ لا معبود بحق إلا أنت، ولا إله إلا أنت، ولا منقذ ولا مخلص لي ولا منجّي لي إلا أنت. سبحانك؛ تنزيهاً له جل جلاله أنه قد ظلم نفسه وأخطأ.

قال الله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، فاستجاب الله دعاءه وخلّصه من هذا الغم، ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، ونجيناه من الغم ومن هذه الشدة وكذلك ننجي المؤمنين. فالتقمه الحوت وهو مليم.

وفي سورة أخرى قال: ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٦]، ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝١٤٨﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨]؛ لما ألقاه الحوت على ساحل البحر أنبت الله عنده شجرة (اليقطين)، شجرة (اليقطين) وهي (الدباء) فنفعته.

ثم بعد ذلك رجع إلى قومه فآمنوا، لما رأوه فرحوا به وآمنوا، قال: ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٨].

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عِذَابَ الْخِزْيِ﴾ [يونس: ٩٨]، كشف الله عنهم العذاب.

قال: وكذلك ننجي كل من دعا بهذا الدعاء وبهذا الكرب: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ كان سبباً في نجاته، كان هذا الدعاء سبباً في نجاته، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين العاملين الداعين بهذا الدعاء.

نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الأنبياء ٨٩ - ١٠٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، وهو يوم الثلاثاء الموافق للسابع من شهر رجب من عام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

أيها الإخوة الكرام، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يزيدنا وإياكم علماً وعملاً وتقىً. أيها الإخوة، الآيات التي بين أيدينا هي آيات من (سورة الأنبياء)، وما زلنا في سيرة الأنبياء العطرة وفي مسيرة هؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله وهم ستة عشر نبياً.

بقي عندنا من الستة عشر نبياً نبيان - أو ثلاثة -: زكريا، ويحيى، وعيسى. وهؤلاء عاشوا في فترة واحدة وفي زمن واحد؛ فإن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا هما ابنا الخالة، وزكريا كما هو معلوم أنه هو الذي كفل مريم، وتربت على يديه، ونشأت نشأة صالحة على يديه، فالعلاقة بينهما قوية جداً.

وتلاحظ أنت وأنت تقرأ في (سورة آل عمران) عندما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قصة مريم، ذكر بعدها قصة زكريا، أو لما ذكر قصة زكريا ذكر بعدها قصة عيسى، وكذلك لما جاء في (سورة مريم) ذكر الله قصة زكريا ثم أردفها بقصة مريم وعيسى بن مريم.

وهنا لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى زكريا ذكر بعده قصة مريم وعيسى، فالعلاقة بينهما علاقة وثيقة من حيث القرابة في النسب، ومن حيث أيضاً القرابة في الزمن؛ فكلهم عاشوا في زمن واحد، وكلهم من أنبياء بني إسرائيل.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية التاسعة والثمانين من (سورة الأنبياء): ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]. ﴿وَزَكَرِيَّا﴾ يقول، يعني: واذكر يا محمد لقومك وللناس جميعاً، اذكر لهم زكريا وهو نبي من أنبياء الله ورسول من رسل الله، أرسله الله إلى قومه، وكان في الأرض المباركة؛ في الأرض المقدسة.

ولذلك يعني ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه قال لما سأل الله الولد قال: **"يرثني ويرث من آل يعقوب"**؛ فهو من ذرية يعقوب، من آل يعقوب، وسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **هنا سؤال: يقول: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ متى نادى ربه؟**

الجواب: نادى ربه لما رأى في مريم من النجابة والذكاء والفطنة والعبادة والاستقامة والأدب والخلق، ورأى فيها من الكرامات؛ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، قال الله بعدها: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

كان زكريا لا يولد له، ولذلك تعجب قال: **"أنى يكون لي ولد أو أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر"**؛ وهو قد طعن في السن، اشتعل الرأس شيباً، وامرأته عاقر لا تلد فكيف يعني يولد له؟!

وهنا ما يئس مع كبر سنه وكون امرأته لا تلد، لم ييئس وإنما سأل الله قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾؛ دعا ربه أن يرزقه الذرية الطيبة مع كبر سنه، قال: لا تتركني وحيداً.

- **ما معنى ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾؟**

يقول: لا تتركني وحيداً ليس لي عقب ليس لي ذرية. الذرية ماذا يريد منهم؟ قال: يريد أن يقوموا مقامه، يقوم مقامه في بأمر الدين والإمامة في **(المسجد الأقصى)**، وأن يقوم أمر الدين على يديه وعلى يدي ذريته ولا ينقطع؛ لما رأى من حوله من بني إسرائيل في زمانه أنه لم يجد من يصلح أن يقوم مقامه في الإمامة وفي أمر الدين، دعا ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقه عقباً وذرية طيبة.

- **يقول: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾؛ ما معنى أن الله هو خير الوارثين؟**

الجواب: كل من مات يورث، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حي لا يموت؛ فهو الذي يرث، يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الباقين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الباقي وغيره يموت، الخلق كلهم والمخلوقات كلها تفنى وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يفنى عَزَّ وَجَلَّ، وهو خير من يرث، وهو خير من قال: ﴿خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي أنت تتولى أمري، وأنت الذي ترث الأرض ومن عليها، وترزقني الذرية الطيبة.

الجواب جاء مباشرة، من الله كما في قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وهنا قال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ الفاء دائماً نشوف الفاء هنا في القرآن الكريم، الفاء دائماً تعطي معنى الاستجابة السريعة، تأتي دائماً بالفاء.

لما أقول: **"سألني فلان فأعطيته"**، لما تقول: **"سألني فلان ثم أعطيته"** في فارق في فاصل؛ لكن لما يقول: **"سألني فلان فأعطيته"** هذا يدل على السرعة، يدل على السرعة.

فقوله هنا، يعني قوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي أجبنا ما طلب مباشرة، ولذلك قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠] أي أعطيناه، استجاب الله دعاءه على كبر سنه وعلى أن زوجته عاقر، وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ كما قال سبحانه قال: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧] فسماه الله يحيى، فرزقه الله ابناً صالحاً براً، وبراً بوالديه ونبياً، نبياً من أنبياء الله: يحيى بن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٩٠]؛ أصلح الله زوج زكريا، أصلح الله زوجه، أصلحه بأي شيء؟ كيف أصلح زوجته؟

قال: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ هذا - أيها الإخوة - كلمة ﴿أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ تحتمل عدة معاني؛ تحتمل أن الله أصلح رحمها للحمل، أصلح رحمها للحمل بمعنى أن الله جعل رحمها صالحاً للحمل والولادة، وأبعد عنها العقر أو العقم، هذا يحتمل.

ويحتمل أن الله أصلح له زوجه؛ زوجته في العبادة والطاعة والأخلاق، وأصلحت صالحة في أخلاقها، صالحة في عبادتها وطاعتها، كل ذلك يحتمل؛ لأن كلمة ﴿أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ تحتمل هذه الأمور كلها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. من هم؟ هل هو زكريا وزوجه ويحيى، أو أنه يعود للأنبياء السابقين جميعاً الذين هم خمسة عشر نبياً تقدموا؟ يحتمل هذا ويحتمل هذا.

بعض المفسرين يقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ﴾ أي زكريا وزوجه، وهذا ثناء من الله على زكريا وعلى يحيى وعلى أم يحيى. وبعض المفسرين يقول: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ﴾ يسارعون ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي

الْخَيْرَاتِ﴾ هؤلاء هم الأنبياء السابقين، أثنى الله عليهم بأنهم أهل الخيرات، وأنهم يتسابقون إلى الخير وإلى العبادة.

ويبادرون إلى ما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كلهم من أول من ذُكر: موسى، وهارون، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، وداوود، وسليمان، وأيضاً أيوب إلى آخر، إلى آخر هؤلاء الأنبياء الذين مر ذكرهم؛ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ﴾ نعم كانوا صالحين وكانوا مسارعين إلى الخيرات.

وكانوا يدعون الله كما مر معنا دعوات منهم دعوات كثيرة؛ ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ يدعون راغبين فيما عند الله، وراهبين خائفين من عقوبة الله، فهم جمعوا بين الرغبة والرهبة؛ الخوف والرجاء.

وهذا هو المنهج الصحيح، هذا هو المنهج الصحيح للإنسان في الحياة الدنيا أن يجمع بين الرهبة والرغبة؛ الخوف والرجاء. وإن كان يغلب جانب الخوف في حياته، يغلب جانب الخوف في حياته وعندما يموت يغلب جانب الرجاء؛ يكون راجياً ما عند الله.

هذه هي الحياة المستقيمة، وهذا هو المنهج الصحيح لكل إنسان ينبغي أن يكون دائماً بين الخوف والرجاء؛ يخاف عقوبة الله، يخاف ألا يقبل الله منه، يخاف أن يُرد عليه عمله، يخاف من أن تنزل به عقوبة بسبب ذنوبه، يكون في خوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا يأمن العقوبة من الله، وعليه أن يرجو ويحسن الظن بربه ويرجو ما عند الله ويسأل ما عند الله.

فيجمع بين الأمرين؛ لا أن يغلب جانب الرجاء ويأمن الخوف، ولا أنه يغلب جانب الخوف دائماً في قلق وخوف وييأس من الرجاء ويكون بعيداً مما عند الله، هذا لا يكون في حق العاقل المسلم.

قال: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي خائفين متواضعين مسارعين، خاضعين لله، متواضعين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولعبادته.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]. هذه مريم.

- **لماذا لم يصرح الله باسمها؟**

مع أنه صرح باسمها في آيات كثيرة؛ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦]، وسمى سورة كاملة باسم (سورة مريم)، فلماذا هنا لم يذكر اسمها؟

قال بعض المفسرين: "إن الله لم يذكر اسمها هنا وإنما وُصفت بهذه الأوصاف لأنها جاءت في جملة الرجال؛ مجموعة من الرجال، ستة عشر نبياً، ولذلك لم يصرح باسمها لأن ليس من المناسب أن يصرح باسم المرأة أمام مجموعة الرجال"؛ هذا ذكره بعض المفسرين، والعلم عند الله.

قال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وصفها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وصف مريم ابنة عمران بأجل الأوصاف وهو أنها امرأة حصان، أنها امرأة حصان وأنها امرأة حصينة، وأنها امرأة عفيفة بعيدة مما اتهم بها أو اتهمها به اليهود.

اليهود ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، فاتهموا مريم بالفاحشة وبالزنا، فالله يعني برأها وطهرها فقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ كيف تقول أنها وقعت في الزنا والله يقول: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ وحفظت فرجها؟!

حفظت فرجها من الحرام؛ لا من الحلال ولا من الحرام لم تتزوج، يعني لم تكن ذات زوج ولم تكن بغياً كما أخبر الله عنها، ولم تأتِ الفاحشة في حياتها، يقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾.

كما قال الله سبحانه قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧]؛ فأرسل الله إليها جبريل فنفخ في جيبها، فنفخ في جيبها من روح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والروح مخلوقة، وأُضيفت إلى الله إضافة تشريف.

قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾؛ في (سورة التحريم) قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ [التحريم: ١٢] أي في فرجها، وهنا ﴿فِيهَا﴾؛ كيف نجمع بين الأمرين؟ نقول: نفخ جبريل في صدرها أو في جيبها أو في قميصها أو في درعها، فذهبت النفخة إلى رحمها، دخلت مع فرجها إلى رحمها، فخلق الله بهذا النفخ عيسى بن مريم، فحملت به من غير زوج وهو آية.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] يتفكرون فيها ويعتبرون بقدرة الله، وأن هذه علامة من علامات قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كيف يخلق بشراً من غير أب؟!

ولذلك الله لما قالت اليهود أو قالت النصارى، أو قال اليهود، أو النصارى ادعوا أن عيسى ليس مخلوقاً وانه الله أو أنه الإله أو أنه ابن الله؛ رد الله عليهم قال، يعني استعجب استغربوا قالوا كيف يكون من غير أب؟

قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. آدم خُلِق من غير أم ولا أب، فلماذا لا تتعجبون من عيسى وهو مخلوق من غير أب فقط وأمه موجودة، ولا تتعجبون من آدم الذي خلقه الله من غير أم ولا أب؟! ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، فهذا معنى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

قال الله بعدما ذكر لنا هؤلاء الأنبياء الستة عشر وأيضاً شرف مريم بذكرها وأوصافها مع هؤلاء، ورفع قدر هؤلاء وشرفهم بهذه الأوصاف وهذه المواقف الجليلة لهم؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

أي: هؤلاء الأنبياء هم قدوتكم، وهؤلاء وهذه الأمة هؤلاء الأنبياء الذين ساروا على هذا الطريق ودعوا إلى الله هم الجماعة الذين يُقتدى بهم، هم الجماعة الذين يُقتدى بهم؛ فهؤلاء الأنبياء دينهم واحد وهو الإسلام والطاعة لله، وإفراد الله بالعبادة والخضوع له ودعوته رغبة ورهبة، هؤلاء هم الذين كانوا على هذا المنهج.

فهذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون، الله يأمرنا بعبادته كما كانوا يعبدون، كما كان هؤلاء الأنبياء يعبدون الله؛ فأنتم اعبدوا الله وأطيعوا ربكم، لكن الأمر اختلف بعد مضي هؤلاء الأنبياء، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣]. أي: الناس اختلفوا على رسلهم وتمزقوا وتفرقوا، وأصبحوا شيعاً وأحزاباً، فعبدوا مخلوقين، وعبدوا ملائكة، وعبدوا أصناماً، وابتدعوا في دين الله ما ابتدعوا؛ ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ شرعهم ودينهم قطعوه وضيعوه بينهم.

قال الله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾؛ كل هؤلاء سيرجعون؛ الأنبياء والرسل وأتباع الرسل ومن جاء بعدهم وخلفهم، كل هؤلاء راجعون إلى الله، الأولين والآخرين كلهم سيحشرون إلى الله وسيحاسبون ويجازون بأعمالهم؛ ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾.

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العبرة في الرجوع؛ أنت سترجع إلى الله فبما ترجع وكيف ترجع؟ ولذلك قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾[الأنبياء: ٩٤].

أي: من يعمل ويلتزم بطاعة الله، يؤمن بالله واليوم الآخر، ويؤمن بالرسل ويعمل من الصالحات ما يعمل، ويطيع الله ويعبد الله؛ قال الله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ محقق للإيمان ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾؛ لا نجحد – لأن الكفر هو الجحود – قال: لا نجحد سعيه، بل نجازيه أحسن الجزاء، فلا كفران لسعيه الذي يسعى؛ هذا السعي لن يضيع سعيه، وإن الله سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أي قد كتبنا أعماله وأحصيناها له، وسنخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ويقرأه بنفسه، وسيجد ما عمله في هذا الكتاب يوم يبعث الله الأولين والآخرين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. أي: حرام؛ أي ممتنع ومستحيل، أي قرية أُهلكت بسبب ذنوبها وكفرها بالله وظلمها، مستحيل أنها ترجع إلى الدنيا إذا هلكت انتهى أمرها وانتقلت إلى الدار الآخرة؛ فمستحيل أن ترجع إلى الدنيا بعد هلاكها.

قال: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي إلى الدنيا يستحيل أنهم يرجعون إلى الدنيا ليستدركوا ما فاتهم وما فرطوا فيه؛ مستحيل. وبعض المفسرين يقول معناها: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إلى الله بل سيرجعون إلى الله وسيجازيهم؛ كل قرية ظلمت نفسها وكفرت وطغت فإن الله سيهلكها ويبيدها وأنهم مستحيل ألا يرجعوا إلى الله بل سيرجعون إلى الله ليجزيهم الجزاء في الآخرة.

ولذلك قال الله سبحانه بعدها يقول إنهم لا يرجعون، وأن هذه القرى؛ القرى الظالمة والتي أهلكها الله سيستمر الهلاك فيها حتى آخر الزمان، حتى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾[الأنبياء: ٩٦].

(يأجوج ومأجوج) قبيلتان عظيمتان يرجعون إلى آدم، وهم من ذرية آدم؛ فهم قوم أو قبيلتان عظيمتان تعيش وراء السد الذي أو الردم الذي بناه **(ذو القرنين)**، لما جاء بين الصدفين؛ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ

وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف: ٩٣-٩٤] فبنى السد وأغرقه.

فإذا جاء، إذا قرب يوم القيامة، فإن خروج (يأجوج ومأجوج) من علامات الساعة الكبرى؛ خروجهم من علامات الساعة الكبرى. فإذا خرجوا يوم القيامة، إذا خرجوا في آخر الزمان، فإنهم يفسدون في الأرض، يفسدون في الأرض ويقتلون. وهذا معنى أنه فتحت في يأجوج، ولذلك ردم عليهم (ذو القرنين) وقال في آخر شيء قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨] سيسقط هذا.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وقته وفي حياته قال: «وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ» وحلق بين الابهام والسبابة، ففتح، ولا يزالون هم يحاولون فتحه فإذا جاء أمر الآخرة وجاء وقربت الآخرة وأراد الله أن يسقط هذا السد، سقط وخرجوا؛ وخرجوا وأفسدوا في الأرض، ثم إنهم يموتون بعد ذلك؛ يرسل الله عليهم (النَّغَف) وهي دويبة صغيرة تهلكهم جميعاً فيموتون.

لكن خروجهم في إفساد الأرض وقتل أهلها هو من علامات الساعة الكبرى؛ علامات الساعة الكبرى المخيفة، وهي ينبغي الحذر منهم وهم أنهم شر ويفسدون ويقتلون، قال الله: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ ينسِلُونَ﴾؛ من كل مرتفع، من مرتفعات الأرض ينطلقون مسرعين، وهذا يدل على دنو يوم القيامة.

فإذا، إذا خرجوا وظهرت هذه العلامة الكبرى من علامات الساعة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧]. أي: اقترب قيام الساعة، واقترب يعني بداية اليوم الآخر؛ اقترب الوعد الحق.

قال: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ﴾ أي يوم القيامة تجد الكفار قد شخصت أبصارهم؛ أي خرجت من أماكنها إلى العلو، وأصبحت تنظر إلى العلو من غير إبصار من شدة الفزع، مفتوحة لا تكاد تنطبق؛ يدعون على أنفسهم بالويل يقولون: **"يا ويلنا يا ويلنا"** بالويل في الحسرة؛ ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي من هذا اليوم.

كنا لاهين غافلين عن هذا اليوم ولم نعد له أي عداد، بل كنا ظالمين؛ بل ظلمنا أنفسنا، كنا ظالمين وظلمنا أنفسنا، بعد ذلك يتحدث سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن مصير، عن مصير الكفار يوم القيامة، وأنهم حطب لجهنم وحصب لجهنم؛ يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

أي: أيها الكفار إذا جاء يوم القيامة، فأنتم ومعبوداتكم ستكونون حطباً لجهنم ووقوداً لجهنم؛ أنتم ومعبوداتكم من الأصنام، ولا يدخل في ذلك الملائكة ممن يعبد الملائكة أو يعبد عيسى أو يعبد الصالحين؛ كالحسين وعلي وغيرهم، هؤلاء لا يدخلون في قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾.

لماذا؟ لأن الله قال بعدها لما قال يعني لما قال: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩]. لو كان هؤلاء الأصنام آلهة كيف يدخلون النار؟ كيف يدخلون هذه الأصنام تدخل النار؟

لو كانت فعلاً آلهة تستحق الإلهية ما دخلت النار لأنقذت نفسها من النار؛ لكنها دخلت هي والمشركون العابد والمعبود سواء، دخلوا في نار جهنم وأصبحوا حطباً لجهنم.

قال الله لهم: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]. لهؤلاء الذين يعذبون في نار جهنم آلام شديدة، يعني يزفرون زفرة شديدة وهي خروج النفس بقوة؛ الزفير إظهار النفس ودفعه بقوة، والشهيق سحبه؛ شهيق وزفير كما قال سبحانه قال: **"لهم فيها زفير وشهيق"**.

وقال هنا: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يسمعون إلا العذاب، ولا يستطيعون أن يسمعوا شيئاً من شدة العذاب، ومن شدة تأنيب ملائكة النار وخزنة النار لهم وهم يصوطونهم بالعذاب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]. أي: الذين سبقت لهم من الحسنى كعيسى والصالحين الذين ادعوا أنهم يعبدون من دون أو ادعى هؤلاء عبادتهم من دون الله؛ هؤلاء لن يدخلوا مع هؤلاء.

لأن قال لما قال: **"إنكم تعبدون"** استثنى منهم هؤلاء والملائكة استثني لا يدخلون؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي سبقت لهم السعادة والعمل الطيب الحسن في أعمالهم بكونهم من أهل الجنة؛ أولئك عن النار مبعدون، ولا يمكن أن يدخلوها ولا يكونون قريباً منها، مبعدون عنها.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢]. أي: لا يسمعون صوت النار واحتراق أجساد أهل النار؛ لا يسمعون، لا يسمعون حسيس النار وأصوات النار، وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون؛ في منازلهم في جنات النعيم، فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، مقيمين فيها إقامة دائمة.

قال أنفسهم: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. أي: هؤلاء لا يحزنهم لما، لما يأتي الفزع الأكبر ويفزع الناس جميعاً، هؤلاء الذين اصطفاهم الله واختارهم من أنبيائه ورسله ومن عباده الصالحين، لا يحزنهم الفزع الأكبر بل تبشرهم الملائكة، ولا يخيفهم الهول العظيم، تبشرهم الملائكة بهذا الوعد العظيم، تبشرهم تقول لهم: **"هذا يومكم الذي كنتم توعدون"**، هذا اليوم الذي أنتم توعدونه والذي تنتظرونه هذا هو.

فقال بعض أهل التفسير: إنهم إذا خرجوا؛ أي الصالحون والأنبياء وأهل الخير وأهل الصلاح إذا خرجوا من قبورهم تنتظرهم الملائكة، تحملهم على النجائب وعلى الركائب إلى جنات النعيم.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا وإياكم منهم، وأن يجعلنا وإياكم ممن لا يحزنه الفزع الأكبر، وأن يجعلنا وإياكم ممن تتلقاه الملائكة تقول له: **"هذا يومك الذي كنت توعد"**.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الخير والصلاح وأن يوفقنا لطاعته. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الأنبياء ١٠٤ - ١١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر من شهر رجب من عام ألف وأربعمائة وثلاثة وأربعين (١٤٤٣) هـ.

السورة التي بين أيدينا هي (سورة الأنبياء)، وقد يكون هذا الدرس هو خاتمة الحديث عن هذه السورة؛ حيث توقفنا عند الآية رقم (١٠٣)، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٣].

هذا يعني لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه طريقة القرآن دائماً؛ طريقة القرآن لما يذكر أهل النار يذكر بعدهم أصحاب الجنة، أو العكس؛ يعني بين الترغيب والترهيب دائماً، هذه الآيات هكذا.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ أي: المشركون والكفار وما يعبدون من الآلهة حصب جهنم، أي: حطب جهنم، أنتم لها واردون؛ أي: أنتم داخلون النار، وواردونها معناها داخلون، أي: داخلون النار.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩]؛ يعني هذه المعبودات من الأصنام أو أي شخص معبود من دون الله؛ سواء من بني آدم أو الملائكة أو هذه الأصنام.

قال: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[الأنبياء: ٩٩]؛ هذا يفهم منه مثل ما مر معنا سابقاً، يفهم من هذا أن الذين يُعبدون من دون الله؛ العابدين والمعبودات كلهم سيكونون حطباً لجهنم وحصباً لجهنم، وكلهم فيها خالدون.

قد يسأل سائل يقول: والصالحون مثل عيسى ابن مريم الذي يُعبد من دون الله، ومثل الملائكة، ومثل بعض الصالحين كعلي والحسين وغيرهم الذين يعبدونهم ويقدسونهم ويؤلهونهم من دون الله؛ هل

هم سيكونون أيضاً في نار جهنم؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استثنى هؤلاء الصالحين، فقال لما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ كعيسى بن مريم والصالحين والملائكة الذين يُعبدون من غير أن يرضوا بذلك، هؤلاء سبقت لهم من الحسنى؛ أي: سبقت لهم الحسنات، سبقت لهم السعادة، هؤلاء هم من أهل الجنة وعن النار مبعدون؛ لا يدخلونها ولا يسمعون حسيسها.

فلذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]؛ يعني لا يسمعون صوت النار، أصحاب النار الذين يصيحون في النار، واحتراق الأجساد هناك والأصوات، وأصوات الملائكة التي تعذبهم هناك؛ لا يسمعون حسيسها؛ أي: أصوات أهل النار.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢]؛ أي: هؤلاء الصالحون في جنات الفردوس وفي جنات النعيم، سكنوا منازلهم في الجنة، ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] من نعيم الجنة وملذات الجنة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وهذا يدخل فيه كل من كان من المتقين الصالحين الذين يبعدهم الله عن النار ويقربهم إلى الجنة؛ إذا خرجوا من قبورهم ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]؛ أي: لا يخيفهم الهول العظيم يوم القيامة، بل تبشرهم الملائكة وتتلقاهم الملائكة.

حتى جاء في بعض الآثار أن **(النجائب)** و**(الركائب)** تنتظرهم، فإذا خرجوا من قبورهم حُملوا على هذه الركائب إلى جنات النعيم، والملائكة تتلقاهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]؛ هذا يوم الكرامة، ويوم الجزاء، ويوم الثواب، هذا هو اليوم الذي وعدناكم، إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعدكم وعد الخير فيه، ووعد الثواب والجزاء فيه.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]؛ بأن الملائكة تتلقاكم، وأنكم لا يحزنكم الفزع الأكبر، ولا تضيق بكم

الحال في يوم القيامة، بل أنتم في كرامة وفي سعادة، ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

- **متى يحصل هذا اليوم ومتى يأتي؟**

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، هذا هو اليوم؛ يوم القيامة، إذا جاء يوم القيامة طويت السماء وذهبت، والسماء أيها الإخوة تمر بأحوال.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ومرة قال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ومرة يقول: ﴿وَتَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨]؛ أي: كالرصاص المذاب، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩]؛ فهي أحوال كثيرة عظيمة جداً، يعني السماء تذوب من شدة الهول.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ كما تطوى الصحيفة، الصحيفة التي يكتب فيها وتكون صحيفة واضحة، تطوى الصحيفة كما تطوى السماء كما يطوي صاحب الصحيفة صحيفته.

إذا فل الصحيفة ونشر الصحيفة فإنه يقوم بطي الصحيفة التي كتب فيها ما كتب، مثل الصحائف التي تنشر للإنسان يوم القيامة؛ تنشر له دواوين وسجلات وينظر في أعماله، فكذلك تطوى هذه؛ فتطوى السماء كطي السجل للكتب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ أي: سنبعث الخلق كلهم كهيئتهم يوم خلقناهم، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ خلقناهم حفاة عراة غرلاً، يخرجون من قبورهم كما يخرجون من بطون أمهاتهم، فسيعيدهم الله كما خلقهم أول مرة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ يعني هذا وعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يخلف الله وعده، ولا بد أن يفعل، ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ لا بد أن يفعل هذا الفعل الذي وعده، وأن يتم وعده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، هذه بشارة للمؤمنين، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؛ دائماً إذا جاءتك **(لقد)** في القرآن؛ فهذا قسم من الله.

قسم محذوف تقديره: **(والله لقد)**، يقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه كتب في **(الزبور)**، والمراد بـ **(الزبور)** هنا هي الكتب المتقدمة؛ جنس الكتب المتقدمة التي أنزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قد كتب فيها أن هذه الأرض؛ أرض الجنة، يرثها عباد الله الصالحون.

يقول: والله لقد كتبنا في الكتب المتقدمة أن الفوز لأهل الصلاح، وأن الجنة لأهل الصلاح، وأنهم يرثون الجنة، ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

- **ما المراد بـ (الذكر)؟**

قال: هو **(اللوح المحفوظ)**؛ يعني من بعد ما قيدنا ودونّا وأودعنا في **(اللوح المحفوظ)** هذا الخبر بأن الأرض؛ أرض الجنة يرثها الصالحون من عباده، قد بيّن الله ذلك في الكتب السابقة، والصالحون هم الذين صلحت قلوبهم وصلحت أعمالهم، وأقبلوا على ربهم، هؤلاء هم الصالحون.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]؛ أي: في هذا الذي تسمعونه ويقرأ عليكم وقد أنزله الله، في هذا موعظة وعبرة، وكافٍ لكل من يعرف طريق الله من العابدين الذين يعبدون الله، ويعرفون شرعه، ويقيمون حدود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذا بلاغ لهم، وكافٍ لهم، وعبرة وموعظة أن يتعظوا به، ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]؛ أي: قد بلغهم وقد كفاهم هذا الأمر، تقول: هذا بالغ لك؛ أي: كافٍ لك، ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦].

يعني الآن عرفنا، عرفنا المراد بالأرض في قوله: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

- **ما المراد بالأرض؟**

الأكثر من المفسرين على أن الأرض هي أرض الجنة التي قال الله فيها في حق المتقين لما قال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]، قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا

الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[الزمر: ٧٤]؛ أي: أرض الجنة، فهذا قول كثير من المفسرين، وبعضهم يقول: الأرض هي أرض الدنيا؛ بمعنى أن الله يُمكِّن لهم في الدنيا، وينصرهم، ويعلي كلمتهم في الدنيا، هذا قول وهذا قول والله أعلم.

في خاتمة السورة يثني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نبيه محمد ﷺ، ويعلي مقامه، ويبين الحكمة والسر في إرساله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للبشر.

لو تلاحظ أول السورة كيف كان موقف الكفار المعاندين الذين عاندوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكفروا بالله وأشركوا؛ يقولون: ﴿أَهَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]، وقالوا: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]، واستهزأوا بالرسول واستهزأوا بالقرآن، وقالوا: هذا شاعر.

رد الله عليهم في آخر السورة فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ وكلمة (العالمين) تدل على أن رسالة نبينا محمد رسالة عالمية؛ ليست للعرب وليست لشيء معين، بل هي للإنس والجن قاطبة.

ولذلك قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فهو رسول للإنس والجن للجميع، ورسالته رحمة للجميع؛ لأن فيها السعادة، وفيها النجاة، وفيها السلامة، ومن خالفها فقد خسر، وقد خاب، وقد شقي وهلك، فرحمته في رسالته رحمة على الخلق كلهم.

قال لما بيّن رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: قل يا محمد لهؤلاء المعاندين الكافرين: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]؛ قل: إن الذي أقول لكم وأنتم تقولون أضغاث أحلام وتقولون شعر وتقولون سحر، هذا وحي يوحى إليّ، وبعثت به وأرسلني الله سبحانه لكم؛ أن ماذا؟

رسالتي كلها تدور حول أن إلهكم الذي يستحق العبادة إله واحد؛ أن الله هو الإله الواحد وما سواه من الآلهة باطلة لا تستحق العبادة، فالذي يستحق العبادة هو الله، قال: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]؛ أسلموا له وانقادوا واتبعوا رسولكم، وسلموا أنفسكم لله قبل أن تسلموها للنار، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ [الأنبياء: ١٠٩]؛ واعرضوا ولم يقبلوا، ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]؛ فقل: أخبرتكم وأعلمتكم، ﴿آذَنتُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] يعني: أخبرتكم وأعلمتكم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]؛ يعني أنتم تسمعون وأنا أسمع، وأنتم تدركون وأنا أدرك، كلنا على سواء.

﴿آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي﴾ [الأنبياء: ١٠٩]؛ يعني وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]؛ أي: ما أعدكم به، الذي تقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؛ ما أعدكم به من العذاب الذي يحل بكم لا أدري هل هو قريب أم بعيد؛ لأن أمره عند الله.

عند الله الذي يعلم ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]؛ يعلم ما تجهرون به وتسمعون غيركم بأصواتكم، إذا رفعتم أصواتكم فإنه يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا تخفى عليه الأصوات.

والعجيب أن الله قدّم الجهر هنا، قال: ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]، مع أن الكتمان أدق، لكن لماذا؟ قال: لأن الأصوات إذا ارتفعت وكثرت؛ البشر لا يستطيع أن يميز من الذي يقول كذا ومن الذي يقول كذا وتلجّ الأصوات وتلجّ الأسماء بأصوات عالية ما يستطيع يميز، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يميز كل واحد بصوته.

وهذا لو ترى مشهد الطواف إذا ازدحم وتسمع الأصوات تختلف، عرفت أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا تختلف عليه الأصوات جل جلاله؛ فإنه يعلم الجهر من القول ويعلم زيادة على ذلك ما تكتمون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال في آخر السورة: ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ [الأنبياء: ١١١]؛ أي قل لهم يا محمد: لا أدري، لا أدري ولا أعلم ﴿لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]؛ إذا أخّر العذاب عنكم ولم ينزل فلا تظنونه خيراً لكم، لا تدري لعله فتنة لكم تفتنون في الدنيا ومتاع إلى حين، تتمتعون في الدنيا ويزيد عليكم، تزيد عليكم العقوبة؛ ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢]؛ يقول النبي: يا الله احكم، احكم بيننا بالحق.

وفي قراءة: (قُلْ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ)، أي: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل الله ويدعو الله أن يفصل بينه وبين قومه المكذبين بالقضاء والحكم حتى ينتهي؛ لأن هؤلاء ما قبلوا رسالته، ولا عرفوا قدره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا آمنوا به ولا اتبعوا، بل عاندوه وحاربوه؛ فطلب أن يحكم، أن يفصل بينهم بالحق.

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾ [الأنبياء: ١١٢] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو الرحمة الواسعة، وهو ﴿الْمُسْتَعَانُ﴾ [الأنبياء: ١١٢] الذي يعين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في النوائب والشدائد؛ مَن يعينك في النوائب والشدائد غير الله؟

فهو المستعان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ما يصف هؤلاء الكفار من التكذيب، والافتراء، والتقول على الله، ووصف الرسول بهذه الأوصاف التي لا تليق.

بهذا تنتهي السورة، بهذا اللقاء تنتهي هذه السورة، عدد (١١٢) آية، انتهت السورة، وإن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله ندخل على السورة التي تليها وهي (سورة الحج)؛ و(سورة الحج) سورة عظيمة تتحدث عن أهوال يوم القيامة وأحواله العظيمة.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الحَجِّ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الحج ١ - ٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد؛ أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للحادي والعشرين من شهر رجب من عام (١٤٤٣هـ).

نجتمع في هذا المقام كالمعتاد بعد مغرب يوم الثلاثاء في درسنا المعتاد، واليوم نبدأ في سورة جديدة، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعيننا، وأن يسددنا، وأن يوفقنا لبيانها وتوضيحها وما فيها من دلالات وما فيها من أحكام.

السورة الجليلة التي بين أيدينا سورة عظيمة من سور القرآن الكريم، وهي السورة التي سميت بركن من أركان الإسلام وهو ركن الحج؛ سميت بـ(سورة الحج).

هذه السورة قال بعض أهل العلم عنها: "إنها من أعاجيب السور"، يعني عجيبة من حيث إنها اشتملت على أمور كثيرة جداً؛ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها أحوال الناس، وأقسام الناس.

وحتى قال بعض أهل العلم: "فيها (السفري)، وفيها (الحضري)، وفيها (الشتاء)، وفيها (الصيفي)، وفيها (المكي)، وفيها (المدني)"، ففيها أنواع النزول كلها، واختلف العلماء والمفسرون في هذه السورة؛ هل هي مكية ولا مدنية؟ فاختلفوا فيها اختلافاً عظيماً.

فقيل مكية، وقيل مدنية، وقال بعضهم: إن أول السورة مكي؛ لأنه يتحدث عن الكفار وعن البعث والرد على المنكرين للبعث بالأدلة العقلية.

ونصفها الثاني مدني؛ لأنه يتحدث عن أحكام الحج، وأحكام الحج لم تكن إلا في المدينة، فلذلك بعضهم جمع بين الأمرين فقال: نصفها الأول مكي، ونصفها الثاني مدني، وقيل إنها نزلت في أواخر الفترة المكية وبدايات الفترة المدنية. الحقيقة السورة عظيمة جداً، وموضوعاتها كثيرة.

تحدثت السورة أول ما تحدثت عن البعث وموقف الناس من البعث، وأقسام الناس: فمنهم المقلد للكفار، والمتبع للشيطان، ومنهم صاحب الذي عنده علم لكن لم ينتفع بعلمه بل يجادل في علمه؛ يجادل الله ويجادل شرع الله.

وهناك من هو ضعيف الإيمان متزعزع، متى ما حصل له فرصة من الخير فرح، ومتى ما حصل له من الشر توقف ورجع، وهناك من اصطفاه الله واختاره ومنّ عليه بالهداية ووعده بالخير.

ذكر الله سبحانه فيها أحوالاً كثيرة للناس. وذكر فيها الكلام عن الجهاد، وتحدث فيها عن الحج وأحكام الحج بتفاصيله، وموقف الناس بعد ذلك، وذكر فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعاقبة الأمم الماضية، وبيان القلوب القاسية والقلوب المطمئنة والقلوب الخابتة لله وغيرها من أنواع القلوب.

لكن الكلام هنا: سميت (سورة الحج)، فما الرابط بين أحكام الحج -الحج الحقيقي؛ الحج إلى بيت الله الحرام- والبعث؟ حيث ذكر بعض المفسرين وجمع بين الأمرين فقال: ذكر الله زلزلة الساعة والبعث؛ يعني يوم تذهل كل مرضعة وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى. يقول: ما الرابط بين الحج وبين البعث؟

هناك رابط قوي بينهما لو تتأمل:

⬅أولاً: إن الله يجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد يوم القيامة، يجمعهم في صعيد واحد وهو عرصات يوم القيامة، ويجمع الحجاج في صعيد واحد وهو صعيد عرفات؛ فبينهما جامع.

كما أن أهل عرفات أو الحجاج عند غروب الشمس ينتظرون الدفع بقوة إلى مزدلفة، وأهل المحشر يندفعون بقوة إلى أن يقضي الله بينهم، فيزدحمون بعضهم على بعض حتى يقضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويفصل بين العباد.

⬅ثانياً: تلاحظ أن الحاج يأتي وهو متجرد من الدنيا كلها، والذي يبعث يوم القيامة يتجرد من الدنيا كلها؛ يأتي من غير، يأتي تاركاً الدنيا وراءه. وتلاحظ أن الحجاج قد لبسوا إحراماً؛ هذا الإحرام وهم يتذكرون به الميت لما يكفن ويوضع في قبره. والحجاج عندما يغتسلون من الميقات يتذكرون غسل الميت وأنه يغسل ثم يكفن، وهم يغتسلون ويلبسون الإحرام.

ثالثاً: الحجاج لما يتوجهون إلى مزدلفة ويرمون جمرة العقبة وأيديهم ترفع إلى الأعلى، وهم يلقون هذه الحجارة وتتطاير الحجارة، يتذكرون تطاير الصحف وكلٌ يأخذ كتابه بيمينه أو بشماله. والحجاج لما يصلون إلى البيت الحرام ويطوفون ويشربون من زمزم يتذكرون الحوض الذي يرده المؤمنون ويشربون منه. فهناك ترابط عجيب جداً لو تتبعنا بين الحاج والحجاج وعرصات ومواقف الحجاج وبين يوم القيامة؛ فهو يذكر حقيقة هذا الموقف، يذكرك بيوم القيامة ويجعلك فعلاً تستعد لهذا اليوم.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتح سورة الحج، وهي التي سمى الحج بها، بقوله: يا أيها الناس، ونادى الناس جميعاً؛ ما قال: يا أيها الذين آمنوا، وإنما نادى الناس جميعاً، قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]. اسمعوا: يا أيها الناس، ثم قال: اتقوا ربكم، اتقوا ربكم؛ فالحاج يتقي الله، والمؤمن في حياته يتقي الله، والله يناديه بأن يتقي ربه.

لاحظ أنه قال: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ ولم يقل: اتقوا الله، وإنما جاء بقوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ ليذكرهم بأن الله هو ربهم، وهو خالقهم، وهو مدبر أمورهم، وهو رازقهم، فاتقوا الله وراقبوا الله، واحذروا عقاب الله.

والتقوى أن تحذر عقاب الله، والتقوى أن تلتزم ما أمرك الله، وتمتثل ما أمرك الله به؛ هذه هي التقوى؛ أن تمتثل أوامر الله وتجتنب النواهي وتسير على ما أمرك الله به، هذه هي حقيقة التقوى.

ولما تقرأ آيات الحج ستجد أن الله يأمر بالتقوى فيها في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وفيها آيات كثيرة: واتقوا الله، تجد أن الله يأمر بالتقوى في الحج.

وهنا يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾، ثم يقول: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾؛ والزلزلة هي الحركة القوية الشديدة التي تهز الأرض وتتصدع منها الأرض بقوة.

وقوله: ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ بالتنكير يدل على أن هذا الأمر أمر عظيم جداً؛ ولذلك وصفه الله بقوله: ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا تتصوره، ولا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يعلم كيفيته إلا الله عَزَّ وَجَلَّ، فهو أمر عظيم لا يتصوره الإنسان؛ أنت لا تتصور هذا اليوم أمامك، وهو شيء غيبي، يعني كل ما يخطر ببالك هو على خلاف هذا الأمر، على خلاف هذا الأمر.

وصف الله هذا اليوم الذي وصف بأنه شيء عظيم، وأعطاك صورة واضحة عنه، قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. يوم ترونها؛ يقول عند قيام الساعة: يوم ترونها تذهل؛ يعني تغفل المرأة أو الأم أو المرضعة، تنسى رضيعها.

في الدنيا لا يمكن أن تلقي رضيعها في الأرض، ولا يمكن أن تنسى رضيعها، بل هي تراقبه في الدقيقة والساعة، فلا يمكن أن تغفل عنه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَذْهَلُ﴾، ويأتيها شيء يذهلها ويجعلها تغيب ويجعلها تنسى حتى وليدها الذي بين يديها.

ولاحظ أنه قال: ﴿مُرْضِعَةٍ﴾، والمرضعة هي التي تتناول الوليد والرضيع يرضع منها وقد التقم الثدي، تسمى (مرضعة)، أما إذا لم يكن الرضيع بين يديها تسمى (مرضع)؛ مرضع بدون تاء.

أما (مرضعة) بالتاء فهي التي الآن تفعل الرضاع وترضع وليدها وترضع صغيرها. فهذا معنى: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾؛ تذهل عن هذا الرضيع الذي بين يديها من شدة الكرب ومن شدة اليوم المهول العظيم.

قال: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾؛ المرأة الحامل تضع حملها من شدة الموقف. المرأة في الدنيا تضع حملها أحياناً إذا جاءها أمر -جاءها شيء كرب، شيء من الكرب والشدة والموقف العصيب والموقف المرعب- تسقط ولدها، فهنا قال: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ تضع الحمل من شدة الهول وتغيب عقول الناس؛ تغيب عقولهم ويذهلون ولا يدرون أين؛ لا يعرفون حالهم.

ولذلك وصفهم الله قال: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ﴾؛ أشد من هذا الوصف ما فيه، بحيث إنه لا يدري أين هو، سكارى لا يعرفون من شدة الهول والفزع، كأنه في منزلة السكارى الذين تعاطوا الخمر والمخدرات فلا يدري ليله من نهاره، ولا يعرف القريب من البعيد، ولا يعرف الضار من النافع.

وهؤلاء من شدة الموقف كأنهم سكارى، والحقيقة كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾؛ أي العذاب شديد والموقف شديد أفقدهم عقولهم وجعلهم لا يدركون أين هم.

- **هل هذا يكون عند قيام الساعة في آخر الدنيا وعند النفخة الأولى، أم بعد البعث وبعث الناس من قبورهم؟**

هذا خلاف بين المفسرين؛ فبعض المفسرين يقول: هذه المواقف التي ذكرها الله من حيث موقف المرضعة والحامل والناس سكارى، قالوا إنها عند قيام الساعة؛ يحصل هذا الأمر عند قيام الساعة، وبعضهم قال: لا، هذا بعد البعث عندما يبعث الله الناس من قبورهم ويحشرهم؛ تجدهم من شدة الهول يحصل هذا الأمر.

الصحيح والله أعلم كما ذكر ابن كثير في تفسيره، وذكره السعدي أيضاً في تفسيره وغيرهم، أن هذا يحصل عند البعث وعند الحشر؛ عندما يحشر الله الأولين والآخرين ويبعثهم من قبورهم، تجد الناس في هذا، تجد يوماً كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، فالرضيع يشيب رأسه من شدة الهول في هذا اليوم الشديد العصيب، فالله أعلم أن هذا هو يوم القيامة.

قال الله بعدها لما ذكر وقرر هذا الموقف العظيم، وسيأتيك بعد ذلك الأدلة الدالة على ثبوت هذا اليوم؛ الله أثبت لك هذا اليوم وأعطاك صورة واضحة عن موقف الناس يوم القيامة، وذكر لك أحوال الناس: المرضعة تذهل عن رضيعها وتتركه من شدة الهول لا تدري أين تذهب، والحامل تضع حملها من شدة الهول ولا تلتفت إلى حملها الذي يسقط منها، والناس تجدهم سكارى؛ لا يدري أحد أين يذهب، وهذا وصف عظيم لهذا اليوم الشديد.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]. هذا جاهل؛ قال الله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ دل على أنه جاهل لا يعرف، ليس عنده علم، وإنما يجادل بغير علم، ما عنده علم، يجادل في الله، وفي شرعه، وفي رسالاته، وفي أنبيائه، وفيما أخبر الله به من البعث، وفي قدرة الله على البعث يجادل.

وأقرب ما يكون هنا أنه يجادل في قدرة الله على البعث؛ لأن الله لما ذكر البعث ذكر حال هذا بعد البعث، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي أنه يشكك في قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يشكك في قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ وفي قدرة الله على البعث، وهو مسكين؛ ليس عنده علم، جاهل.

وزيادة على ذلك؛ هو متبع للشيطان، يعني يقوده الشيطان؛ ولذلك قال: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾.

والشيطان هنا يشمل شيطان الإنس والجن، فهو يتبع الشياطين ويقتدي بهم، ويوحون إليه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

فهو يقتدي بما يقوله الشيطان، ولاحظ أن الشيطان هنا ليس شيطاناً فقط، بل قال: ﴿شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾؛ أي متمرد على الله وعلى رسوله متمرد. والتمرد هو الخروج من الخير مطلقاً؛ ولذلك يقال (رجل أمرد) إذا لم يكن في وجهه شعر، ويقولون (حجر أمرد) إذا كان أملس، وهذا الشيطان أمرد من جميع الخير؛ متمرد على الله.

قال سبحانه: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

كتب عليه؛ أي قضى الله عَزَّ وَجَلَّ وقدر على هذا الشيطان، كتب على هذا الشيطان أن كل من يتولى هذا الشيطان ويقتدي بهذا الشيطان فالنتيجة أنه يضله، وزيادة على ذلك يهديه إلى عذاب السعير؛ وبئس الهداية هذه الهداية! يهديه إلى عذاب جهنم، النار المتسعرة المتوقدة.

هذا جزاء هذا المجادل في الله وليس عنده علم؛ يجادل في الله وفي قدرة الله وفي البعث وفي الجنة وفي النار، ويشكك الناس في أن هناك جنة وأن هناك ناراً، وأن الناس يبعثون من قبورهم، وأنهم إذا ماتوا كيف يخرجون وقد ضلوا في الأرض وقد تمزقت أشلاؤهم؟! كيف يجادل وليس عنده علم، بل هو يأخذ علمه من الشيطان فهو مقتدٍ بالشياطين.

ثم يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد ذلك ليثبت للناس قدرته على البعث، وإنما هي كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩]؛ يعني هي لحظة كلمح بالبصر، الساعة وقيام الناس والبعث والجزاء والحساب كله في قدرة الله أن يقول له: كن فيكون، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فالذي يشكك في البعث يرد الله عليه بدليلين عقليين؛ عقليين ليس من السمع فقط بل يدركهما العقل:

الدليل الأول: تذكر خلقك الأول، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وكما قال: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ يعني تذكر خلقك الأول؛

أنت قبل مئة سنة لم تكن موجوداً على الأرض، فالذي خلقك قادر على أن يخلقك مرة أخرى، والذي أوجدك في المرة الأولى يوجدك في المرة الثانية، هذا دليل عقلي.

وكما قال تعالى حكاية عن منكر البعث: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، فالذي أنشأك أول مرة قادر على أن يعيدك، وهو سبحانه ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]. هذا الدليل الأول.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: يا أيها الناس، هذا يوم البعث، وهذا حال الناس فيه سكارى، والمرأة تذهل المرضعة، والحامل تضع حملها؛ هذا هو اليوم، فإن كنتم في شك وفي ريب من البعث فتذكروا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].

تذكروا خلقكم الأول؛ خلقناكم من تراب؛ أي خلق الله آدم من تراب، ولم يكن موجوداً، فخلقه من تراب الأرض، ثم جعل نسله وذريته من ماء مهين؛ من نطفة، ثم من علقة عندما تكون النطفة قطعة دم، ثم من مضغة تكون قطعة لحم بقدر المضغة، ثم هذه المضغة قد تكون مخلقة.

فيخلقها الله وينفخ فيها الروح ويشكلها، فتظهر أشكال الإنسان فيها من الأيدي والأرجل والرأس ونحوه، وغير مخلقة بأن تلفظها الأرحام وتلقيها في الأرض فتسقط، ويسمى (السقط)؛ غير مخلقة.

قال سبحانه: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾؛ لنبين لكم خلقكم الأول فتفكروا في أنفسكم؛ أنك كنت نطفة في رحم أمك، ثم كنت علقة، ثم كنت مضغة، ثم بعد ذلك أنشأك الله خلقاً جديداً.

ويقول هنا: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾؛ أي نجعلكم تستقرون في الأرحام مدة أشهر قد تكون تسعة أشهر، أو تزيد أو تنقص، ﴿إلى أجل مسمى﴾ وهو وقت خروجكم من بطون أمهاتكم، ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾؛ نخرجكم وأنتم على هيئة الأطفال؛ صغاراً، وليد صغير لا يدري ولا يعرف ولا يدرك شيئاً، ثم تنشأ في هذه الأرض وأنت طفل صغير، ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾؛ يقوى الإنسان ويصل إلى قوة البنية والخلقة.

قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾؛ يعني يتوفى مبكراً، قد يتوفى في سنوات مبكرة؛ وهو شاب، وهو طفل، وهو صغير، أو يتوفى بعد ذلك، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ مَن يمد الله في عمره فيصل إلى السن؛ يصل فيها إلى أنه يصل إلى ما يسمى بـ(**أرذل العمر**)، وهو سن الهرم وضعف العقل.

فبعد اكتمال عقله وقوته ونضجه ونشاطه وشبابه وكهولته وإدراكه بقواه، بعد ذلك يرجع إلى الضعف، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

فيرجع إلى الضعف حتى يصبح هذا المعمَّر لا يعلم شيئاً؛ لو جاءه أحد أبنائه لا يعرفه، فيذهب عقله ولا يدرك ولا يعرف الذي ينفعه من الذي لا ينفعه، يغيب عقله، فهذا معمر كما قال سبحانه: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾؛ لا يعلم شيئاً أبداً، هذا هو الدليل العقلي الأول على قدرة الله على البعث، فالذي جعلك تمر بهذه الأطوار قادر على أن يبعثك مرة أخرى.

الدليل الثاني: فقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]. انظر إلى الأرض لما يحييها الله بالماء فتنبت بالزرع؛ ترى الأرض هامدة يابسة مغبرة ليس فيها نبات، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت الأرض وربت؛ أي ارتفعت بالنبات، ﴿وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾؛ يعني تنبت من أشكال وألوان وروائح طيبة، نبات حسن يسر من ينظر إليه.

وفي آية أخرى قال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: ٣٩].

فهذان دليلان عقليان أمامك؛ دليل في نفسك أنت من أنت ومن أين أتيت وإلى أي شيء ستذهب، وانظر إلى الأرض التي أمامك كيف يحييها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فكيف ينكر المنكرون ويشكك المشككون في البعث؟! فالذي أحياها لمحيي الموتى.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦]؛ ذلك الذي نذكره لكم ونقصه عليكم، ذلك بأن الله هو الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي لا يُشك

فيه، وأنه هو الحق، وقوله الحق، وخبره الحق، وما يفعله كله حق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وأنه يحيي الموتى، فكيف نشك في هذا؟!

وقد أحيا سبحانه أمواتاً في الدنيا؛ ألم تر الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ فَقَالَلَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، وكالذي مر على قرية في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] فأحياه الله، وهكذا قتيل بني إسرائيل إذ قال الله سبحانه: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣] فكيف نشك؟!

﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ قدير سبحانه، قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يقول للشيء: كن فيكون. ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩]، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣-١٤]؛ أي على وجه الأرض.

لعلنا نقف عند هذا القدر حتى لا نطيل عليكم، وإن شاء الله بس نختم بالآية، قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]. أي الساعة؛ يعني ساعة البعث ووقت البعث ووقت القيامة آتية بلا شك ولا ريب، لا تشك فيها، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبعث من في القبور؛ سيبعث الموتى من قبورهم ويحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ إما جنة وإما نار.

نقف عند الآية الثامنة، وإن شاء الله في اللقاء القادم نواصل ما توقفنا عنده، والله أعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحج ٨ - ١٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين؛ أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للثامن عشر من شهر رجب من عام (١٤٤٣هـ).

نبدأ على بركة الله في تفسير القرآن العظيم، وفي تفسير (سورة الحج)؛ وتناولنا آيات من سورة الحج ووقف بنا الكلام عند الآية الثامنة؛ يعني أخذنا سبع آيات من السورة، والان نواصل ما توقفنا عنده.

ولكن قبل أن ندخل في استكمال ما توقفنا عنده، نعرج ونعيد ما تحدثت عنه السورة بإجمال أو الآيات السابقة؛ حتى نربط هذه الآيات، لأن الآيات مترابطة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ابتدأ هذه السورة بنداء الناس جميعاً، والناس هذا يدخل فيه بنو آدم جميعاً، قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرهم بالتقوى؛ أمرهم بتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وخوفهم وتواعدهم بأن يستعدوا لهذا اليوم العظيم؛ يوم القيامة، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

ثم وصف هذا اليوم العظيم بهذه الأوصاف العظيمة بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢].

أي يعني يوم ترونها تذهل؛ أي تنسى وتغفل كل مرضعة عما أرضعت عن رضيعها، وتضع كل ذات حمل حملها؛ تجد ذوات الأحمال قد أسقطوا أحمالهم في هذا اليوم العظيم، والناس في هذا اليوم العظيم إذا رأيتهم تظن أنهم سكارى من شدة الهول والفزع بهذا اليوم، وما هم بسكارى في الحقيقة.

لكن اليوم عظيم والعذاب شديد؛ وهذا وصف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهذا اليوم العظيم وهذا الكرب الشديد حتى يكون الإنسان على استعداد، وهذا اليوم هو اليوم الذي قال الله فيه قبل هذه السورة: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]؛ هذا هو الفزع الأكبر.

وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مواقف الناس من اليوم الآخر، ومن شرع الله، ومن دين الله، ومن أحكام الله، ومن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ذاته، ومن رسله؛ فذكر الله أصناف الناس.

فذكر من يجادل في الله بغير علم وهو المقلد؛ هذا المقلد الذي يتبع الشيطان ليس عنده علم ولا معرفة، وإنما مجرد تقليد. ولذلك يقول الله فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]، ويشكك ويخوض في قدرة الله على البعث، وفي ألوهية الله وربوبيته وشرعه يجادل في الله بغير علم؛ ما عنده علم.

وإنما يتبع كل شيطان مريد؛ يتبع كل ضال من شياطين الإنس والجن، وليس عنده دليل على ذلك، وإنما هو متبع مقلد لا علم عنده ولا دليل عنده ولا معرفة في أحكام الله.

كل شيطان يقول الله كتب على هذا الشقي؛ كتب عليه وكتب على هذا الشيطان الذي جعله قدوة له، قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]؛ كتب وقدر على هذا الشيطان أنه يضل كل من اتبعه، من تولاه فقد أضله؛ فكيف لهذا يتبع الشيطان يتبع شياطين الإنس والجن ويقلدهم بغير علم ولا معرفة؟!

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ساق لنا دليلين عظيمين على إثبات البعث، وأن الله قادر على بعث الناس ومجازاتهم؛ وأن يجزي المحسنين بالجزاء الحسن والجنة، وأن يجزي الأشقياء الضالين بما يستحقون من عذاب جهنم.

هذا اليوم الذي يشك فيه من يشك فيه وينكره من ينكره، استدل الله وذكره الله بدليلين عقليين؛ دليل عقلي من عقلك تفكر فيه، يقول الله سبحانه إن كنتم في ريب من البعث: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]؛ فمن الذي خلقك حتى تشك في البعث؟ الذي خلقك هو الذي قادر على أن يبعثك.

ضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨-٧٩]؛ فالذي خلقكم الخلق الأول من تراب، ثم خلقكم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، ومرر ومر هذا الإنسان وهذا المخلوق بهذه الأطوار، ثم أخرجه الله من بطن أمه طفلاً، ثم بلغ أشده، ثم عاد إلى الشيخوخة؛ وهذه أطوار، ثم في النهاية ينتهي أمره ثم يموت. هذا الإنسان الذي خلقه الله بهذه الأطوار وهذا الخلق، قادر على أن يعيده ولا شك في ذلك.

ثم ذكر الله المثال الآخر، أو ضرب لنا المثال الآخر، وهو إحياء الأرض بعد موتها؛ فالذي أماتها قادر على أن يحييها، فالذي أمات الأرض ثم أحياها بالنبات قادر على أن يحيي الموتى.

ولذلك قال: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]؛ وترى الأرض يابسة ميتة هامدة لا تتحرك، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وتحركت وربت وارتفعت بالزرع من كل زوج بهيج.

- **هذا الذي أحيا الأرض أليس قادراً على أن يحيي الموتى؟**

وفي آية أخرى قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: ٣٩]. هذان دليلان أيها الإخوة؛ دليلان عقليان يعقلهما من له عقل بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على إحياء الموتى، وعلى أن الله يبعث من في القبور.

ولذلك قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج: ٦-٧]؛ ما في شك بهذا كله. ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك:

- **ذكر بعد ذلك الصنف الثاني من أصناف الناس؛ ما هو الصنف الثاني؟**

قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]. هو يجادل، لكن ما عنده؛ الأول كان يعني يجادل بالأول مقلد ما عنده علم، وهذا الثاني يجادل في الله ولا علم عنده نافع؛ يقول: (بغير علم نافع) ما ينفعه، ولا هدى؛ ما عنده يعني كتاب مثلاً أو عنده هداية يهتدي بها، ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ ليس عنده كتاب يهتدي به ويسلكه.

هذا يجادل في الله، وتجده يأتي بالكلام الذي يشكك الناس في البعث، ويشكك الناس في وجود الله؛ وتجدهم أعداد كثيرة بهذا الشكل يجادلون في الله، ويجادلون في شرعه، ويجادلون في اليوم الآخر، وليس عندهم علم بهذا الشيء.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]؛ ليس عنده لا علم نافع -قد يكون عنده علم ولكن لا ينتفع به- ولا هدى يهتدي به يسلكه إلى سبيل النجاة، ولا كتاب يعتمد عليه منير ينير له طريقه. فهذا مجادل في الله ولكنه ما عنده العلم النافع.

ولذلك، هذا وصفه الله بأنه متكبر عن الحق ولا يريد الحق، ولذلك قال: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ [الحج: ٩]؛ هذه كناية عن التكبر والاستكبار يثني عطفه، قال: لأنه يقول، ما المراد بـ(ثاني عطفه)؟

قال: يلوي عنقه تكبراً معرضاً عن الحق لا يريده؛ إذا ناقشته وبينت له الحق لا يقبله، وإنما هو متكبر، ثاني عطفه، لاوياً عنقه لا يريد، وهدفه وقصده: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩]؛ هدفه وغايته إضلال الناس عن الحق، وعن طريق النجاة، وعن طريق الله.

- **فهذا هو الصنف الثاني من الناس، توعده الله بأي شيء؟**

قال له: ﴿لَّهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [الحج: ٩]؛ ذلة ومهانة وفضيحة يفضحه الله، وكراهية الناس له وبغض الناس له؛ هذا خزيه في الدنيا، يفضحه الله على رؤوس الخلائق، ويبغضه الله ورسوله، ويبغضه الخلق ويمقتونه لسوء تصرفه، ويخزيه الله ويذله في الدنيا.

أما في الآخرة، قال: ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٩]؛ يحرقه الله ويكون حطباً لجهنم، يحرقه الله؛ يفضحه في الدنيا ثم يحرقه الله في نار جهنم، هذا من يجادل بالباطل في الله، وفي توحيده، وفي رسوله، وفي شرعه، وفي القرآن.

كل ذلك يخاصم بغير علم ولا بيان، قد يكون عنده علم ولكن علم لا ينفع، ولا عنده اهتداء، ولا كتاب ينيره ويدله، ولا حجة عنده ظاهرة؛ فمثل هؤلاء هذا مصيرهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠]؛ ذلك العذاب وهذه العقوبة في الدنيا والآخرة بسبب قال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ وبما قدمت وفعلت

من المعاصي والمجادلة والمحاجة في الله بغير علم، وهذا ما اكتسبته من الآثام والذنوب. والله عَزَّ وَجَلَّ ليس بظلام للعبيد؛ لا يظلم ربك أحداً، وإنما كان وإنما هو ظلم نفسه.

ثم قال بعده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا الصنف الثالث من الناس؛ الصنف الثالث من الناس قال الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[الحج: ١١].

هذا ضعيف الإيمان أو المنافق؛ إن وجد خيراً أخذه، وإن وجد شراً فرّ، فهذا الصنف الثالث؛ الصنف الأول من الناس من يجادل في الله بغير علم ما عنده علم ويتبع مقلد، والصنف الثاني عنده علم ولكن لا ينفعه ضال ومضل، والثالث هذا هو الذي متردد؛ من يعبد الله على حرف، على يعني ضعف إيمان وشك وتردد في الشيء.

فإن أصابه خير؛ وجد خيراً، مثل الذي يكون على طرف شفير البئر أو على طرف الجبل، إن وجد خيراً استقر في مكانه، وإذا لم يجد خيراً سقط من هذا المكان؛ يعني ضعيف، ما عنده هذا الثبات العظيم، ما عنده هذا الثبات العظيم، يعبد الله على تردد غير متماسك، غير ثابت على الحق، وايمانه لم يثبت، لم يثبت على إيمانه ولم يثبت على دينه.

فإن جاءه خير؛ وعاش في صحة وسعة وجاءه رزق، استمر على عبادة الله. وإن أصابه ابتلاء ومحنة ومكروه ونحو ذلك، رجع وانقلب وخرج من دينه، وانقلب على وجهه بعد استقامته ودخوله؛ لأن مقصده الدنيا، ولأن نظرته نظرة دنيوية، ينظر إلى مصلحته وينظر لا لمصلحة الإسلام؛ وإذا وجد خيراً فرح واستقر في الدين، وإن وجد شراً خرج من هذا الدين وانقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة.

قال الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾؛ على طرف، على طرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ من صحة وعافية ومال ﴿اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ واستقر على هذا الدين، ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ وبلاء ومحنة ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾؛ خسر الدنيا وخسر الآخرة، ما أفلح في الدنيا ولا أفلح في الآخرة، لأنه خرج عن دين الإسلام، وفي الآخرة توعده الله وسينال عقوبته في الآخرة، يقول: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[الحج: ١١].

هذا هو الخسران الحقيقي، الخسران المبين الواضح، هذا هو الخسران؛ خسران الدين في الدنيا والآخرة، خسران الدين لا خسران الدنيا.

يقول هذا الذي فعل ما فعل: ﴿يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [الحج: ١٢]؛ لأنه لما أصابته المصيبة والفتنة انقلب على وجهه ورجع عن دين الإسلام بعد استقامته، هذا يدعو من دون الله ما لا ينفعه وما لا يضره؛ يدعو من دون الله لأنه ارتد ونكس على عقبيه، قال: ﴿ذَٰلِكَ هو الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ الذي يعبد من دون الله ويرجع عن دين الإسلام، ذلك هو الضلال البعيد.

ثم أكد فقال: ﴿يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣]؛ تدعو أصناماً لا تنفع، تدعو ما لا ينفعك ولا ينفع نفسه ولا يضرك، وتدعو من قد يكون ضرره عليك أشد وأقرب من نفعه؛ ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ بئس المولى وبئس من يتولى أمرك وتتولاه، ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أن تصاحبه وتعاشر مثل هؤلاء، مثل هذه المعبودات التي تعاشرها وتمكث عمرك معها، هذا أمر قبيح وأمر يعني كما قال: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾.

ذكر الله الآن لنا عدداً من أصناف الناس:

⬅الصنف الأول: من يجادل في الله بغير علم وهذا مقلد، ويتبع كل شيطان مريد؛ ليس عنده علم، وإنما يقلد شياطين الإنس والجن ويتبعهم، ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾؛ أي تولاه الشيطان فإنه يضله.

⬅الصنف الثاني: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]؛ هذا المتكبر الذي ثنى عطفه ولوى عنقه، متكبر ويجادل، وقد يكون عنده علم ولكنه علم غير نافع؛ قد يكون متعلماً، قد يكون يحمل الشهادات ولكن في غير مصلحة الإسلام والمسلمين، فهذا توعده الله قال: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وفضيحة وكراهية، وله في الآخرة عذاب، ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٩ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝١٠﴾ [الحج: ٩-١٠].

⬅الصنف الثالث: وهم من يكون ضعيف الإيمان أو منافقاً؛ إن وجد خيراً أخذه واستقر على دين الإسلام، وإن وجد فتنة ومصيبة وبلاء خرج من دين الإسلام، فهذا توعده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه كما قال: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣].

ذكر الله الصنف الرابع وهم المؤمنون الذين حققوا الإيمان والعمل الصالح بقوله؛ ولم يصف ولم يذكرهم يقول هو "من الناس"، وإنما أعطاهم البشارة مباشرة فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤].

هؤلاء الذين آمنوا وحققوا الإيمان الصادق، ودخلوا في الإيمان بعزيمة وقوة وتصديق واتباع للحق، وعملوا الصالحات وبادروا بالأعمال الصالحة؛ هؤلاء النتيجة أن مثل هؤلاء وعدهم الله بالخير فقال: يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، هذا في فوزهم في الآخرة.

والجنات التي تجري من تحتها الأنهار هي جنات الفردوس، وجنات عدن، وجنات النعيم؛ التي وعدها الله من حقق الإيمان واتبع الرسول واتبع ما جاءه عن الله وعمل الصالحات، وعده الله بهذا الوعد الطيب، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤] مما يثيب عباده الصالحين ومما يعاقب به من خالف أمره.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك لما ذكر لنا أصناف الناس الأربعة؛ المقلد، والمجادل بلا علم نافع، والمتكبر، والذي يعبد الله على حرف وعلى عدم ثبات، والمؤمنون الصادقون الذين يعملون الصالحات ويثبتون عند المحن.

بعد ذلك يذكر الله لنا حال من يجادل أو حال هؤلاء الذين لا يريدون الحق ولا يريدون إظهار الحق من المسلمين، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم؛ من يشك في نصرة الله، ومن يشك في انتشار الإسلام الذي الله عَزَّ وَجَلَّ أراد ثباته وأراد إظهاره؛ يشكون في ذلك.

قال الله في وصفهم وفي حالهم: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]. من كان يعتقد أن الله لا ينصر رسوله ولا ينصر أولياءه في الدنيا والآخرة، فعليه يقول يعني نقترح عليه أن يمدد بسبب إلى السماء؛ أن يضع حبلاً إلى السماء أو إلى العلو.

ويمد هذا الحبل إلى سقف بيته أو إلى السماء إن كان يستطيع أن يربطه في السماء، ثم ليقطع؛ أي ليخنق نفسه في هذا الحبل ويشنق نفسه في هذا الحبل، ثم لينظر هل هذا العمل الذي عمله سيذهب غيظه عن حقد الإسلام والمسلمين؟ بلا شك أنه لن يذهب هذا الشيء ولن ينفعه هذا الشيء إلا أنه سيهلك نفسه.

وهذا الأمر الذي ذكره الله، هذا رد على أولئك الذين يحاربون الله ورسوله ويريدون إطفاء نور الإسلام؛ مهما فعلوا من الأفعال لن يفلحوا ولن ينفعهم ذلك شيئاً.

ولذلك ضرب الله لهم هذا المثل، أو بين حالهم في هذا الشيء أنه إذا كان يغيظه الإسلام والمسلمون، فعليه أن يضع هذا الحبل ويشنق نفسه، فهل هذا الغيظ وهذا الفعل سينقص من الإسلام والمسلمين أو يضر الإسلام والمسلمين؟ لن يضر الإسلام ولن يضر أهل الإسلام ولا المسلمين بفعل هذا، بل سيضر نفسه.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومثل هذا البيان الذي بيناه لكم وأوضحناه أجل الوضوح والبيان: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦]؛ أنزلنا هذا القرآن آيات واضحات الدلالات، يقيم الله فيها الحجة على جميع الخلق.

فالله يهدي من يشاء، والهداية بيد الله؛ فعلى الإنسان أن يسأل الله الهداية، وأن يطلب الهداية من الله والارشاد والتوفيق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليكون على بينة، وليكون على هداية من الله وعلى نور من الله؛ فالأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك أحوال الناس يوم القيامة، ونختم بهذه الآية، أحوال الناس يوم القيامة، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[الحج: ١٧].

أي الذين آمنوا؛ آمنوا بالله ورسوله وبالقران الكريم وهم المؤمنون، والذين هادوا؛ الذين هم على دين اليهودية من اليهود.

والصابئين؛ والصابئون قيل هم قوم بقوا على فطرتهم، وقيل إنهم على دين إبراهيم، وقيل على الإسلام والحنيفية والتوحيد؛ هؤلاء مع أن يعني مختلف فيهم مختلف فيهم اختلاف قوي، لكن أقرب ما

يقال إنهم ليس لهم دين وليس لهم شريعة وليس لهم رسول، لكنهم بقوا على دين التوحيد وعبادة الله وعلى الفطرة؛ هؤلاء الذين يقال لهم الصابئون.

والنصارى؛ الذين هم على دين عيسى، والمجوس؛ عبدة النار، والذين أشركوا؛ وهم عبدة الأوثان.

هؤلاء الأصناف كلهم؛ المؤمنون، واليهود، والنصارى، والصابئون، والمجوس، والذين أشركوا؛ ست فرق، هؤلاء يفصل الله بينهم يوم القيامة، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾؛ فيفصل بينهم يوم القيامة ويحكم بينهم في هذا اليوم؛ يوم الفصل.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ أي عالم بأحوالهم وبأعمالهم، لا يغيب عنه شيء من أعمالهم، قد أحصاها وحفظها وسيجازي كلاً بعمله؛ فمن يستحق الجنة يدخله الجنة، ومن يستحق النار يدخله النار من هذه الأمم التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فسورة الحج جمعت لنا أحوال الناس؛ أحوال الناس ومواقفهم من البعث ومن الشريعة ومن الإسلام ومن الله كما ذكرنا أربعة أصناف: أربعة أصناف؛ مقلد، ومجادل بلا علم نافع، ومتكبر، وشخص متردد يعني إذا أصابه خير أقبل وإذا أصابه شر ارتد عن دينه، والمؤمنون الثابتون على الحق؛ أربعة أصناف، ثم ذكر لنا أيضاً أصناف الناس يعني من الأمم الماضية؛ سورة الحج سورة عجيبة تذكر الناس وأصنافهم.

بعدها تأتي آية السجدة وهي السجدة الأولى، لأن سورة الحج فيها سجدتان؛ هذه السجدة الأولى نقف عندها حتى لا نطيل عليكم، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحج ١٨ - ٢٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً وهدىً وتقىً يا رب العالمين. أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء العلمي المبارك مع القرآن الكريم، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للخامس من شهر شعبان من عام (١٤٤٣هـ). السورة التي بين أيدينا وسنتناول آيات منها هي (سورة الحج)، ووقف بنا الكلام عند الآية السابعة عشرة، واليوم نبدأ بما بعدها.

الآية السابعة عشرة لو رجعنا قليلاً؛ لأنها مرتبطة حقيقة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

هؤلاء الطوائف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم أمة محمد، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم اليهود، ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ الذين ذكرنا الخلاف فيهم وتبين -والعِلْم عند الله- أنهم هم الذين كانوا على دين الحنيفية أو على التوحيد.

﴿وَالنَّصَارَىٰ﴾ وهم أتباع النصارى وهم يعني طائفة من بني إسرائيل، وهم الذين على دين عيسى؛ سواء كانوا على دين عيسى الحقيقي أو أنهم حرفوه، هم الذين أنزل الله عليهم (الإنجيل)، ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ وهم عبدة النار؛ عبدة النار وقيل الذين يؤمنون بالنور والظلمة، هؤلاء المجوس.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وهم كل مشرك يعبد الأوثان والأصنام، هؤلاء الطوائف وهم أبرز الطوائف، وقد يوجد غيرهم؛ يوجد غيرهم طوائف كثيرة، لكن هذه هي أبرزهم، هذه يجمعهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوم القيامة ويفصل بينهم في يوم الفصل والقضاء، ويجازي كلاً بعمله، كلٌ يستحق ما يجازيه بما يستحق من أعمال.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ قد يسأل سائل فيقول: هذا الفصل الذي يكون يوم القيامة، وأن الله يجازي هذه الطوائف على أعمالها، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، متى سيكون؟

قال: يوم القيامة. قال: كيف سيكون؟ يعني كيف نعرف كيف سيكون ما هذا الجزاء؟ ما الذي نستطيع أن نتعرف على جزائهم؟ تأتيك الآية التي ليست التي بعدها مباشرة، وهذا هو السبب التي بعد التي بعدها، هذا يحتاج منا يا إخوان أن نتأمل.

ولذلك أنا دائماً أقول للطلاب والحاضرين والإخوة الحاضرين اللي معنا: ليكن بين يديك المصحف يعينك؛ لأن الآن إذا كان المصحف بين يديك -ولو كان مصحفاً إلكترونياً- المصحف الذي يكون بين يديك أولاً تعمل عندك عدة آلات: آلة النظر تشوف الآيات أمامك وتتابعها بدقة، وآلة السمع تسمع، وآلة القلب تستوعب، وبهذا تفهم الآيات؛ اشتغلت عندك عدة، تنظر وتسمع وتعي، هذا يكون أفضل شيء.

شوف الآية هذه الثامنة عشرة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩﴾ [الحج: ١٨].

هذه ذكر أكثر المفسرين: **"أنها مثل الجملة المعترضة"**، وإلا يعني إذا قيل لك مثلاً يعني في الآية السابقة مرت معنا لقيت: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧]، سيفصل بينهم ثم يجازي كلاً بعمله.

- **كيف يجازيهم وما حالهم يوم القيامة؟**

شوف الآية التي بعد التي بعدها قال: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]؛ هذه الطوائف كلها تعود وترجع إلى قسمين: مؤمن وكافر، لا ثالث لهما؛ فهؤلاء وهؤلاء، ما مصير هؤلاء وما مصير هؤلاء؟

ولذلك شوف الآية التي قبلها: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ﴾ هذه فقط في بيان عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الخلائق كلها تخضع لله، وأن الله هو الحق المبين، وأن هذه الطوائف وإن ادعت أنها تنتسب إلى الله وتنتسب إلى شريعة الله وأنها على الحق، هذه كلها دعاوى باطلة إلا من كان على الحق.

ولذلك هنا شوف قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ﴾ يعني ألم تعلم أيها الرسول وأيها المخاطب أن الله يخضع له وينقاد له، هذا معنى السجود؛ الخضوع والانقياد. يخضع له وينقاد له من في السماوات جميعاً؛ كلها تؤمن بالله وتخضع له، هذا فيه دلالة على عظمة الباري سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقدسية الباري، وأن الخلق كلهم مقرون بوحدانيته وألوهيته وربوبيته.

يسجد له من في السماوات جميعاً، ومن في الأرض أيضاً؛ كلها تسجد لله. ثم بدأ يفصل، قال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾؛ لذا ذكر هذه الكواكب؛ الشمس والقمر والنجوم، لأن من هذه الطوائف من يعبد الشمس والقمر ويعبد النجوم، فبين الله أن هذه المعبودات التي يعبدها بعض الناس وهي الشمس والقمر والنجوم، هي خاضعة لله، هي عابدة لله أصلاً؛ كيف تعبد من يعبد الله؟ فهي خاضعة وعابدة لله وتسجد لله وتنقاد لأمر الله ومسخرة بأمر الله.

ثم قال: ﴿وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ﴾؛ الجبال والشجر تصنع منها أصنام، أخشاب والتراب ونحوه يصنع منه أصنام؛ تصنع من جبل أو من تراب أو تصنع من شجر أو من خشب صنماً تعبده، هذه الأشجار والجبال تسجد لله، تسجد لله.

قال: ﴿وَالدَّوَابُّ﴾؛ كلها الدواب، المراد بالدواب كل ما دب على الأرض من حيوان أو طير أو حشرات كلها داخلة في الدواب، تسجد لله؛ فالنمل والنحل والحيوانات المفترسة والحيوانات الأليفة والطيور كلها تسبح وتسجد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **لما جاء عند بني آدم ماذا قال؟**

قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾؛ شوف مع الأسف بني آدم الذين أعطاهم الله العقول وفضلهم على هذه المخلوقات كلها، بل سخر هذه المخلوقات له، وأعطاه العقل، وأعطاه آلات النظر والسمع والبصر والقلب، ومع ذلك كثير من الناس هو الذي يسجد، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾؛ أي لا يسجد لله ولا يخضع بل ينكر ويعاند ويجادل في الله، كثير حق عليه العذاب.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]؛ هؤلاء الذين حق عليهم العذاب وجازاهم الله بالعذاب هم الذين أهانوا أنفسهم فعبدوا هذه المعبودات التي فيها إهانة لهم؛ كيف تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك من الله شيئاً؟

- **كيف تعبد مخلوقاً هو عبد لله وهو مملوك لله ومسخر لله؟**

فهذه أنت أهنت نفسك فأهانك الله، والذي يهينه الله ليس له من مكرم يكرمه أبداً، إن الله يفعل ما يشاء بهؤلاء.

نعود إلى الآيات التي ذكرنا فيها الطوائف؛ الذين آمنوا، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة.

- **كيف يفصل بينهم؟**

قال الله بعدها: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]؛ فريقان: فريق الإيمان وفريق الكفر، اختصموا في ربهم يعني جادلوا في الله، فمنهم من آمن وهم أهل الإيمان وصدق واتبع وسلم نفسه لله وانقاد لأمر الله، ومنهم الكفار المعاندون الذين كفروا بالله وجحدوا آياته وجحدوا رسله وعاندوا وعبدوا من دونه ما لا يستحق أن يعبد؛ كل هؤلاء يدعي أنه على حق، يدعي أنه على حق فتخاصموا فيما بينهم فالله يقضي بينهم يوم القيامة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩]؛ كفروا بالله ورسله وجحدوا وعاندوا.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾، قطعت هذه؛ هذا جزاؤهم يوم القيامة نسأل الله العفو والعافية. يعني هذه الآيات التي يسمعها أي إنسان يسمعها عاقل تقشعر منها الجلود، وتقشعر منها الجلود وتوجل منها القلوب؛ كيف تسمع مثل هذا الأمر وتمر عليك هذه الآيات دون أن تقف عندها؟ تفصل لهم ثياب، وهذه الثياب ما نوعها؟ ثياب من نار.

في آية أخرى في (سورة إبراهيم) قال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قِطْرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠]؛ يعني السرابيل يعني القميص الذي يلبسه الثوب الذي يلبسه، السربال من نار، قال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قِطْرَانٍ﴾.

- **ما هو القطران؟**

قال: النحاس المذاب، وقيل: هو ما تطلى به جلود الإبل والسفن من المادة هذه التي تخرج من الأرض، ما يسمى بالقار الأسود الذي إذا أحمي في النار لا يستطيع الإنسان أن يقترب منه، هذا يصنع ثوب أو يصنع منه سربال وثوب ويلبس الكافر؛ قطعت لهم ثياب من نار؛ كيف يلبس ثوباً من نار لا يستطيع أن يقترب هذا الشيء من جسده، سيحرق جسده.

قال: ﴿قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩]؛ يصب من فوق رؤوسهم الحميم، يؤتى بالماء الحميم، النار... الحميم هو الماء الذي تناهى في حره، اشتد في حره، وصل درجة الغليان والانصهار، قال: من حميم يصب من فوق رؤوسهم، يؤتى بالكافر فيصب كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَاعْتُلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ۝٤٨﴾ [الدخان: ٤٥-٤٨]، فهذا يصب من فوق رؤوسهم الحميم.

وإذا صب من فوق رؤوسهم دخل في أجسادهم فبدأ يصهر البطون والجلود؛ صار الذي صب فوق الرؤوس يدخل شيء منه يدخل في الجسد، وشيء منه يكون على الجسد، فالذي يدخل في الجسد يقطع البطون، يقطع الأمعاء، وتسهر به البطون، وأما الذي يكون خارجاً فهو يقطع الجلود ويحرق الجلود، فنسأل الله العفو والعافية.

قال: وزيادة على ذلك قال: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١]؛ أي الملائكة معها مطارق من حديد تطرق بها رؤوس هؤلاء، تطرق بها رؤوس هؤلاء وتعذبهم عذاباً أليماً.

ثم هم يريدون التخلص والنجاة والسلامة والخروج، كلما أرادوا أن يخرجوا وحاولوا الخروج أعيدوا فيها، ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]؛ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم، تخفيف من هذا الغم الشديد الذي غمهم وكربهم والشدة، أعيدوا فيها؛ في العذاب، وزيد عليهم العذاب.

وقيل لهم -من باب هذا يسمى العذاب النفسي؛ يعني العذاب الجسدي الذي أصابهم ثم تأتي الملائكة تعذبهم عذاباً جسدياً فتقول لهم-: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]؛ ذوقوا هذا العذاب الذي يحرقكم إحراقاً، فهذا أشد، هذه عقوبة الذي يخاصم في الله ويجادل في الله.

وتذكرنا هذه الآية بما جاء في أول السورة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]، و ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]، فهؤلاء هذه نتيجتهم؛ الذين يخاصمون في الله.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مصير الكافرين المعاندين الذين جحدوا وكفروا بالله، يذكر مصير الطائعين والطاعة الذين قال الله فيهم قبل آيات: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤].

جاء تفصيل نعيم هؤلاء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ﴾، وكلمة **"يدخل"** هذه تعد من أعظم النعيم؛ أنه يؤذن لك بالدخول وتفتح لك أبواب الجنة، هذا هو النعيم؛ يعني كلمة **"يدخل"** بذاتها هي من يعني من أشد النعيم أنك سلمت.

فإن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، يدخل أهل الإيمان الذين آمنوا وحققوا الإيمان، وامتثلوا أوامر الله وابتعدوا عن النواهي، وعملوا الصالحات وسابقوا وتنافسوا في طاعة الله، وسارعوا إلى مرضاته.

- **ما هي النتيجة؟**

يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، جنات نعيمها دائم لا ينقطع أبداً؛ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، تجري من تحتها الأنهار؛ من تحت القصور والأشجار هذه الأنهار.

قال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]؛ يحلون أي يلبسون ويزينون، أهل الجنة الذين فازوا بجنات النعيم، من النعيم الذي يحصل لهم أنهم يحلون من أساور من ذهب، الأساور جمع سوار، والسوار هو ما يوضع باليد، أساور ليس سواراً واحداً؛ أساور كثيرة، وهذه الأساور من ذهب توضع في أيديهم.

ولاحظ أنه في سورة أخرى قال: ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]، فكيف نجمع؟ هل هي من فضة ولا من ذهب؟

قال أهل التفسير: **"يلبسون هذا وهذا؛ أو تارة هذا أو تارة هذا، أو تجمع لهم في أيديهم الذهب والفضة، كل ذلك نعيم لهم"**. قال يحلون فيها من أساور من ذهب.

قال بعض أهل العلم: **"إنهم لما كانوا في الدنيا يعذبون على أيدي الكافرين -كما حصل للمهاجرين المؤمنين من مشركي مكة؛ كانوا يعذبونهم ويضعون القيود في أيديهم ويسحبونهم في حر الشمس- أبدل الله هذه القيود بهذه الأساور؛ أساور من ذهب ومن فضة"**.

قال: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن دَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾؛ وأيضاً يحلون الأساور من الذهب ويحلون اللؤلؤ؛ يلبسون اللؤلؤ في أعناقهم وفي أيديهم، واللؤلؤ معروف وهو جمع لؤلؤة، واللؤلؤة هي الدرر التي تستخدم من البحار؛ يلبسون منها، ولا بد أن نفهم جميعاً أن هناك فرقاً عظيماً شاسعاً بين لؤلؤ الدنيا الذي يستخرج من البحر، ولؤلؤ الآخرة، وذهب الدنيا وذهب الآخرة؛ فرق شاسع.

قال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]؛ لما يلبسون هذه، يزينون بهذه الأساور وبهذا الذهب والفضة واللؤلؤ، يلبسون الحرير، الحرير الذي كان محرماً على الرجال في الدنيا، يلبسه الرجال والنساء فيلبسون من الملابس الحرير؛ حرير الجنة وليس حرير الدنيا.

وآيات أخرى قال: ﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الدخان: ٥٣]؛ ثيابا خضراً من سندس وإستبرق، كل ذلك يلبسون من هذا النعيم العظيم.

قال: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]؛ ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي هداهم الله قبل أن يدخلوا الجنة في الدنيا؛ هداهم الله إلى الكلام الطيب، لا يتكلمون باللغو، ولا بالرفث، ولا بالكلام الخبيث، ولا بالكلام السيئ؛ هداهم الله قبل أن يدخلوا الجنة إلى الكلام الطيب في الدنيا، إلى القول الطيب والكلمة الطيبة وكلمة التوحيد وكلمة الشكر والحمد والثناء على الله، والذكر الحسن.

ومخاطبة الناس بأحسن الأخلاق؛ هذا كله من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تمهيداً لهم إلى دخول الجنة، فإذا رأيت هؤلاء بهذه الصفات وبهذا الكلام الطيب والأخلاق الحسنة، فاعلم أن هذا هداية من الله لهم وسيهديهم إلى جنات النعيم؛ وهدوا إلى الطيب من القول في الدنيا.

وأما في الآخرة قال: ﴿وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾؛ يعني الصراط صراط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الحميد يعني هدوا إلى صراط الحميد، أي أنهم هدوا إلى ما ينفعهم في الآخرة وهو **(دين الإسلام)**؛ دين الإسلام الذي يوصلهم إلى جنات النعيم، هدوا إلى صراط الله الحميد سبحانه.

ولاحظ أنه قال: ﴿صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ لم يقل صراط العزيز ولا يقول صراط الله الحميد، أي المحمود؛ يعني الصراط صراط يحمده الناس عليه؛ لأنه صراط النجاة والسلامة وهو من عند الله الحميد المحمود بأفعاله وأقواله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى موقف الكفار من المؤمنين في الدنيا، وخاصة أهل مكة الذين منعوا الرسول من الدخول، وكان هذه الآية تمهيد الحديث عن البيت الحرام والكعبة وعن أحكام الحج المتعلقة بهذا البيت، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

إن الذين كفروا وهم أهل مكة، كفروا بمحمد وبرسالته وبالقرآن، وامتنعوا من الدخول في الإسلام، قال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم يصدون بأنفسهم يعني يعرضون عن الإسلام ولا يريدون الدخول فيه، ويصدون أيضاً يصدون الناس عن الدخول في هذا الإسلام؛ يصدون الناس، يمنعون الناس، كلما جاء رجل دخل مكة صدوه عن محمد، فهم صدوا بأنفسهم وصدوا غيرهم عن سبيل الله وعن دين الله.

ثم قال: ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾؛ أيضاً صدوا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه عن المسجد الحرام لما جاؤوا عام (الحديبية) وهم لم يأتوا لا لحرب ولا لأي أمر إلا أن يؤدوا العمرة؛ جاؤوا متلبسين وقد لبسوا إحراماً.

الإحرام يلبون، قد عقدوا نية الإحرام بالعمرة، وجاء أهل مكة ومنعوهم وصدوهم، والمسجد ليس لهم ولا يملكون أن يصدوا؛ تصدون محمداً وأصحابه والناس لا تمنعونهم وهم أهل المسجد الحرام، وهم أهله وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون.

والمسجد الحرام الذي جعلناه؛ أي جعله الله للناس قاطبة وكافة، ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ يقول العاكف والبادي كلهم سواء.

- **من هو العاكف؟**

الذي مقيم في مكة.

- **من هو البادي؟**

الذي قدم إلى مكة، كلهم المقيم والقادم الذي جاء إلى البيت ليعظم هذا البيت ويطوف حوله ويتعبد الله عنده، أو من هو مقيم في مكة كلهم سواء عند الله، كلهم سواء عند الله.

ثم حذر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من شدة العقوبة لمن يعتدي في الحرم في حرم الله، أو من تسول له نفسه أن يقترف ذنباً أو ظلماً في هذا المسجد، قال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]؛ يعني يميل عن الحق ويظلم، إلحاد بظلم فيظلم نفسه ويظلم غيره ويعصي الله ويؤذي أو يقتل أو يتعمد أحداً بإيذائه عند المسجد الحرام؛ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم، قال: أو يعصي الله فيه قال: ﴿نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي نذقه من العذاب الموجع الشديد.

ولذلك قال ابن مسعود: "لو أن رجلاً في عدن أراد أن يلحد في المسجد الحرام وهو بعيد، بس أراد أن ينتقل ويسافر حتى يلحد المسجد الحرام لأذاقه الله من العذاب الأليم قبل أن يأتيه، قبل أن يأتيه".

وهذا مشاهد في قصص كثيرة واقعية أن كل من أراد الإيذاء في المسجد الحرام، أو التخريب، أو الاعتداء على الحجاج، أو اعتداء على المعتمرين، أو اعتداء على المصلين والطائفين، إلا فضحه الله وكشف أمره وكشف ستره وأذاقه من العذاب الأليم، من العذاب الأليم.

وفي هذا التحذير من اقتراف السيئات عند المسجد الحرام أو في الحرم؛ تجد بعض الناس ممن يقيم في الحرم يقع في سيئات كثيرة، ولذلك السلف كابن عباس وغيره خرجوا من مكة، وذهب إلى الطائف خشية أن يقع في مثل هذه الأمور؛ المعصية في الحرم ليست كالمعصية في غيره، فينبغي الحذر والانتباه لمثل هذا الأمر، لمثل هذا الأمر.

أيها الإخوة، لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله بعد هذه الآية يأتي الحديث عن الكعبة والمسجد الحرام وما فيه من أحكام في اللقاء القادم، والله أعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحج ٢٦ - ٣٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين.

اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للثاني عشر من شهر شعبان من عام (١٤٤٣ هـ). نجتمع في هذا المقام كالمعتاد، وكمثل لقاءاتنا الماضية كل ثلاثاء؛ نجتمع لنتدارس آيات من كتاب الله جل جلاله.

الآيات التي وقفنا عندها من سورة الحج وهي الآية الخامسة والعشرون - قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

هذه الآية شرحناها في اللقاء الماضي، ولكن لما كانت مرتبطة بما بعدها -وهو الحديث عن البيت وعن المسجد الحرام الذي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

- **ما هو المسجد الحرام؟**

يأتي الحديث عنه الآن- عندنا هذه الآية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبر عن هؤلاء الكفار الجاحدين؛ الجاحدين الله ورسوله، والجاحدين شرعه، المنكرين الكافرين.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ كفروا بالله وبرسوله وبالقرآن، وكذبوا بما جاءهم عن الله وعن الرسول.

النتيجة قال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ يصدون يعني يمنعون الناس، يصدون يعني يمنعون الناس عن سبيل الله يعني عن شرعه، ويحتمل أن تكون يصدون أي يعرضون، يعني صدَّ فلان بمعنى أعرض؛ فهم يصدون عن سبيل الله ويصدون غيرهم، يعني هم يعرضون وفي نفس الوقت يمنعون غيرهم.

كما منعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الدخول إلى المسجد الحرام، منعوه عام الحديبية في صلح الحديبية، جاء ليعتمر محرماً هو وأصحابه فمنعوه من الدخول، وليس لهم حق أن يمنعوه ويأذنوا لغيره من كل مكان، وهو والمؤمنون هم أولى؛ ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

فيصدون عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، هذه صفاتهم وهذه أفعالهم؛ يمنعون الناس عن الدخول في الدين، ويمنعون أيضاً من يشاؤون من الدخول إلى المسجد الحرام.

المسجد الحرام الذي جعلناه، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هذا المسجد الحرام ليس لأهل مكة وليس لقريش، هذا مسجد، هذا بيت الله؛ ماذا جعله الله؟ قال: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾؛ يقول: هذا صيرناه وأوجدناه للناس كافة.

﴿جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾؛ يقول: الناس فيه سواسية، الناس فيه سواء؛ العاكف: المقيم عند الحرم، الذي هو يسكن من سكان الحرم، والباد: الذي جاء من مسافة بعيدة، كلهم سواء في المسجد الحرام؛ يدخلونه ويتعبدون الله عنده، لا أحد يمنعهم؛ لا من يسكن ولا من يأتي من الآفاق، كلهم عند الله سواء؛ يدخلون المسجد الحرام ويقيمون فيه، هذا الشرع.

يقول: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾؛ (فيه) أي المسجد الحرام، (من يرد فيه) أي من يريد ومن ينوي ومن يقصد المسجد الحرام ليلحد فيه بظلم، أي ليوقع الإلحاد فيه بظلم.

والإلحاد يشمل كل معصية وكل أمر يخالف شرع الله؛ يريد فيه بمعصية أو بإلحاد أو بظلم أو بما يريد من إفساد عند المسجد الحرام، وترويع الآمنين عند المسجد الحرام؛ ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

هذا لمن يريد وهو ما فعل، ولكنه قصد ونوى النية؛ ولذلك يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا بِعَدَنِ أَبْيَنَ أَرَادَ أَنْ يُلْحِدَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَأَذَاقَهُ اللهُ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَلَدِهِ».

ولذلك تشاهدون وتسمعون ما جرى لأبرهة الأشرم وأصحابه الذين جاؤوا لهدم الكعبة، ماذا فعل الله بهم؟ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]؛ فجعلهم عبرة على مر الأزمان، يعتبر بهم المعتبرون، فمن يرد -من أراد فقط إرادة، وهذا أخطر شيء؛ يعني هو لم يفعل الآن وإنما بس مجرد النية- من أراد فيه بإلحاد بظلم.

ويدخل في ذلك سائر المعاصي، ويدخل في ذلك ظلم العباد، ظلم الناس في المسجد الحرام وفي الحرم كل ذلك، وارتكاب المعاصي ومحاربة الله ورسوله كل ذلك داخل في الظلم؛ ظلم العباد وظلم النفس وظلم الشرع، وكلها داخلة.

فالإنسان ينبغي له إذا وصل هذه البقاع الطاهرة المباركة المحرمة، أرض الله، إذا وصل هذا الحرم يجب عليه أن يلتزم أمر الله، وأن يبتعد عن المعاصي، وألا يأتي ليفسد في الأرض، وألا يأتي ليعصي الله في أرضه، وإنما يأتي ليتعبد الله عند المسجد الحرام.

- **ولذلك نلاحظ ماذا قال الله بعد هذه الآية؟**

قال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا﴾ ما معنى بوأنا؟

أي هيأنا وأنزلنا، يقول: هيأنا لإبراهيم المكان وأنزلناه في هذا المكان، هذا المكان البيت وهي الكعبة، يعني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هيأ لإبراهيم أن يأتي إلى هذا المكان ويبني فيه بيت الله، و(إذ) هذه ظرفية تفيد الزمان، أي: واذكر يا محمد، واذكر أيها المخاطب حين بوأنا وهيأنا وأنزلنا لإبراهيم مكان البيت.

تلاحظ أن كلمة ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ كأنها تفيد أن البيت غير موجود وأن هذا مكانه؛ هيأ الله مكانه حتى يقام عليه البيت،

ولذلك في سورة البقرة قال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فجاء إبراهيم إلى واد غير ذي زرع، فهيأ الله لإبراهيم هذا المكان ليبني فيه البيت.

⬅الرأي الأول: لكن بعض العلماء يقول إن قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ هذا يدل على أن القواعد موجودة وأن البيت قد عُمِّرَ، ولذلك يذهب بعض أهل العلم إلى أن الذي بنى البيت هم الملائكة قبل وجود إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأن الأنبياء السابقين قبل إبراهيم كانوا يحجون ويطوفون حول البيت، وأن البيت كان موجوداً ثم اندثر، ثم جاء إبراهيم وأعاد بناء هذا البيت؛ هذا رأي لبعض المؤرخين وبعض المفسرين.

⬅الرأي الثاني: أن الذي بنى البيت هو إبراهيم، ولم تبنه الملائكة ولا غير الملائكة؛ ما في دليل على أن الملائكة -ما أخبرنا الله أن الملائكة بنت البيت وإنما هذا كلام المؤرخين- لكن الذي أخبرنا به هو أن

إبراهيم هو الذي بنى البيت: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ فالذي بناه هو إبراهيم.

والله يقول هنا: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]. فقام إبراهيم لما بوأه الله وهيأ له المكان، توجه إبراهيم ليبني البيت حتى اكتمل بناؤه، فبناه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعندي والله أعلم أن هذا هو الصحيح؛ أن الذي بنى البيت هو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأما قد يسألك سائل يقول لك: إذا قلت إن إبراهيم هو الذي بناه، ونحن نعرف أن الأنبياء السابقين قد حجوا وطافوا، وأن آدم طاف، كيف يطوف؟

الجواب: يطوف؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل المكان مهيأً للملائكة أو مهيأً للأنبياء السابقين يطوفون حول هذا البيت الذي سيبنيه إبراهيم، يعني مكان البيت، مكانه فقط؛ يعني هم يعرفون هذا المكان قبل بنائه، فكانوا يأتون إلى هذه البقعة ويطوفون بها، والعلم عند الله. ثم لما جاء إبراهيم رفع قواعده وبناه وبنى هذا البيت.

يقول: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾؛ ما الغرض من بناء البيت؟ هو عبادة الله وحده لا شريك له، وتجريد التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والخضوع لله وحده لا شريك له، وأن يقوم الناس عنده بالطواف والقيام والصلاة والعبادة والذكر.

ولذلك قال: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]؛ يعني: هيئ هذا البيت وابنه حتى يقام التوحيد والعبادة لله وحده لا شريك له، ويكون بناء هذا البيت بناءً قائماً على تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإظهار الإيمان والطاعة لله، ودحر الكفر والشرك بالله؛ ولذلك قال هنا: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾.

وكلمة (شيئاً) نكرة تفيد العموم، أي: لا تشرك به ولا شيئاً ولا يسيراً، يعني لا يجوز الشرك بالله مطلقاً، وأشد من ذلك إظهار الشرك عند المسجد الحرام وعند الكعبة؛ ولذلك تجد بعضهم يتوسل ويشرك بالله عند الكعبة وهو يطوف وينادي: يا فلان يا فلان! وهذا قد حذر الله منه، قال: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾. ثم أمر إبراهيم بأمر آخر وهو تطهير البيت.

- **التطهير هنا هل هو تطهير حسي بغسل البيت وتطهيره من النجاسات، أم تطهير معنوي بأن لا يقام فيه الشرك والمعاصي والكفر بالله؟**

الجواب: الأمرين جميعاً؛ طهره بالتوحيد والطاعة ونبذ الشرك والكفر، وطهره أيضاً من النجاسات التي لا تليق بهذا البيت حتى يكون مهيأً للعبادة والطواف، ولذلك قال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ﴾ [الحج: ٢٦]. وبدأ بالطواف، قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

- **لماذا بدأ بالطواف؟**

الجواب: لأن الطواف لا يشرع إلا عند هذا البيت، ولا يجوز الطواف في أي بقعة من بقاع الأرض، لا يجوز في أي مسجد من مساجد الأرض إلا عند المسجد الحرام فقط، ولذلك خصه وبدأ به، قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾.

والطواف عبادة وصلاة، قال النبي ﷺ: «إِنَّ الطَّوَافَ بِالْبَيْتِ صَلَاةٌ، إِلَّا أَنَّكُمْ تَتَكَلَّمُونَ فِيهِ». فهو صلاة، هو عبادة لله يتقرب العبد به، بل الطواف قال بعض أهل العلم إنه أفضل من الصلاة، أفضل من صلاة النوافل.

- **لو جاء شخص يصلي صلاة نوافل عند المسجد الحرام، وشخص يطوف؟**

الجواب: الذي يطوف أفضل؛ لماذا؟ لأن الصلاة ممكن تصليها في أي مكان، والطواف لا يمكن أن يتحقق إلا في هذا المكان.

قال: ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ﴾، والقائمون هم الذين يقومون بالصلاة، تجده قائماً راكعاً ساجداً، ولذلك قال: ﴿وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. فهم منهم القائم يصلي ويقرأ القرآن، ومنهم الراكع ومنهم الساجد، ما بين قائم وراكع وساجد، كلهم يتعبدون الله في هذه البقاع الطاهرة وفي المسجد الحرام.

فلما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إبراهيم أن يبني البيت ويهيئه للناس حتى يقوموا بالعبادة عنده، وبناه واكتمل بناؤه وهم يرفعونه -إبراهيم وابنه إسماعيل- حتى اكتمل البناء؛ بعد ذلك أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إبراهيم أن ينادي بالناس أن يحجوا البيت ويقصدوا هذا البيت، فنادى إبراهيم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧].

قال إبراهيم -جاء في بعض الآثار قال إبراهيم-: كيف يا رب أناديهم وهل يسمعونني؟ فقال: نادهم وأنا أبلغهم حتى يسمعوك، فقيل إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ صعد على مقامه، وقيل إنه صعد الصفا، وقيل إنه صعد جبل أبي قبيس؛ وجبل أبي قبيس هو الذي أقيم عليه قصر الصفا، فصعد هذا ونادى بالناس: أيها

الناس حجوا بيت الله! أيها الناس حجوا بيت الله! فسمعه كل من كتب الله له الحج ولو كان في ظهر أبيه، فكل من سمعه ولبى وقصد الحج ممن كتب الله له الحج.

ونادى إبراهيم: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ﴾؛ يأتوك مباشرة، يأتوك لما سمعوا جاؤوا مباشرة من أقطار الأرض، يأتوك رجالاً. حتى الآن وهم يأتون إلى البيت في كل وقت وفي كل زمان عماراً وحجاجاً.

- **قال: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ ما معنى رجالاً؟**

أي راجلين، يعني يمشون على أقدامهم، على أرجلهم، هذا معنى رجالاً؛ يأتوك رجالاً أي يأتوك على أقدامهم. ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي على كل ضامر، يعني: يأتوك ماشين ويأتوك راكبين لا يتخلفون، كلهم يأتون.

- **لماذا قدّم الرجال على الركبان؟**

الجواب: أولاً لكثرة الذين يمشون على الأقدام، والأمر الثاني لسرعة الاستجابة، يعني لا يريد ينتظر أن يبحث عن راحلة يركبها، انطلق مباشرة لما سمع النداء جاء مباشرة، وهذا يعني أبلغ.

ولذلك تلاحظ حتى في أزمنة ماضية قبل ستين سبعين سنة إلى مائة سنة كانوا يأتون من أقطار الأرض، يأتون من مشرق الأرض ومن مغربها على أقدامهم يمشون على أقدامهم، وبعضهم على الإبل يأتون للحج.

قال: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾، والضامر هي الإبل التي ضمر بطنها، ضعفت؛ لأنها أصبحت هزيلة من كثرة المشي، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ﴾ أي الإبل ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾؛ من كل طريق عميق بين الجبال، الجبال التي قد التفَّت حول الحرم وحول البيت، يأتون من كل طريق بين الجبال، من كل فج عميق يأتون.

فتلاحظ مشهداً عظيماً أمامك؛ هذا يأتي من هذا الفج، وهذا من هذا الفج، وهذا من المشرق، وهذا من المغرب، وهذا من الشمال، وهذا من الجنوب، كلهم ينصبون متوجهين إلى البيت الحرام ليطوفوا ويتعبدوا الله في هذا البيت.

- **قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما العلة؟ لماذا ناداهم الله ولماذا جاؤوا من كل فج عميق؟**

قال: لأجل أن ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]؛ يحضروا ماذا؟ قال: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾.

هذه المنافع ما هي؟ قال: منافع دينية ومنافع دنيوية. فالحرم فيه منافع ومصالح دينية؛ تحط فيه الذنوب والمعاصي، تعظم فيه الأجور وتسكب فيه العبرات، ويكتب الله الأجور العظيمة المضاعفة عند المسجد الحرام، فالصلاة فيه عن مائة ألف صلاة في غيره، بلا شك أن الأجور مضاعفة، وعندها تحط الذنوب ويمحو الله الذنوب عند هذا البيت؛ ففيه مصالح دينية.

وفيه مصالح ومنافع دنيوية؛ هي التقاء الأحبة هناك والتعارف بين الناس فيه، وكلٌّ يأتي من كل قطر ومن كل مكان يتعارفون بينهم، وكذلك المصالح التجارية يتبادلون التجارات فيه؛ ففيه مصالح ومنافع لهم.

قال: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾، يذكر اسم الله في هذا عند البيت، يذكره متى؟ قال: ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾.

- **ما هي الأيام المعلومات؟**

قال: أيام الحج التي تبدأ في واحد ذي الحجة، التي تبدأ من أول الحج إلى اليوم الثالث عشر، هذه أيام الحج هي الأيام المعلومات، أيام عشر ذي الحجة وأيام التشريق الثلاثة، هذه الأيام المعلومات يذكرون الله عبادة وطاعة وصلاة، تكبيراً وتهليلاً وتسبيحاً.

ويذكرون الله أيضاً على ما رزقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من بهيمة الأنعام التي يأتون بها، يهدون إلى المسجد الحرام هذه الهدايا، يهدون هذه الهدايا، الهدي يأتون به معهم ويسوقون الهدي لينحروه عند الكعبة وينحروه في الحرم.

قال: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ يقولون: بسم الله، يذكرون اسم الله عند الذبح فيقولون: بسم الله والله أكبر؛ فيذكرون الله وحده لا شريك له، ولا يذكرون معه أحداً غيره من المخلوقين عند الذبح، فلا يقول: باسم فلان أو باسم فلان، بل يجرد التوحيد لله ويقولون: بسم الله والله أكبر.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، فإذا ذبحوها وكبروا الله عليها وسمّوا قال: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾.

فهذه مصالح، من منافع الحج أنها تأتي في الهدايا وتذبح وتنحر عند الكعبة وفي المسجد وعند المسجد الحرام وفي الحرم، وفي منى وفي مزدلفة وفي فجاج مكة تذبح وتنحر، ويؤكل منها ويوزع على المحتاجين على الفقراء.

﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ أطعموا الفقراء، البائس هو الفقير الذي اشتد بأسه واشتد فقره، فهؤلاء يعطون من الذبائح، يستحب أن يوزع عليهم ويعطون وهم فقراء الحرم.

قال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]. كل هذا يتعلق بأحكام الحج؛ أنهم إذا جاؤوا محرمين وجاؤوا ملبين وقد لبسوا إحرامهم، وكانوا في أزمنة ماضية يأتون إلى الحج مبكرين؛ يأتون في أول شوال، يأتون في ذي القعدة ويلبسون الإحرام ويبقون على إحرامهم أحياناً شهر ونصف أو شهرين، وأحياناً يعني مدة طويلة أربعين ثلاثين يوماً عشرين يوماً والإحرام عليهم.

ونعرف يعني أوضاع مكة؛ شدة الحر وقلة الماء، ويبقى عليهم الإحرام وشعورهم قد تكون كثيرة كثيفة، والأظافر؛ فإذا جاء يوم النحر ونحروا هديهم، قلموا أظافرهم وحلقوا شعورهم وأزالوا هذا التفث، وهو الوسخ الذي علق بهم وبأجسامهم، واغتسلوا ولبسوا أحسن الثياب، فكان ذلك تحللاً مما كانوا عليه من الإحرام، فشعروا بهذه العبادة.

ولذلك قال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، إنهم نذروا أن يأتوا هذا البيت ويطوفوا به ويطوفون بين الصفا والمروة، ويقفون بعرفات وبمزدلفة وبمنى، ويرمون الجمرات؛ كل هذه تعتبر من الوفاء بالنذور التي عزموا عليها وأمرهم الله بإتمامها.

قال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، آخر الأعمال الطواف بالبيت العتيق؛ فإن الحاج يقف بعرفة، ثم يقف بمزدلفة ويبيت بمزدلفة، ثم يتوجه لرمي جمرة العقبة، ثم ينحر هديه، ثم يحلق رأسه، ثم يغتسل ويتطهر ويلبس أحسن ثيابه كما فعل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يتوجه إلى البيت ليطوف طواف الزيارة أو طواف الإفاضة وهو ركن الحج، فيتوجه ويطوف بالبيت العتيق؛ ولذلك قال: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

يطوفون بالبيت العتيق، سماه الله عتيقاً لأنه بيت قديم قائم لا يتغير، وقيل لأن الله أعتقه من تسلط الجبابرة عليه؛ لا يستطيع أي جبار أن يعتدي عليه إلا قصمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠]؛ ذلك: أي هذا الذي نذكره لكم، ومن يعظم حرمات الله، من يأتي لهذا البيت ويعرف حرمات الله ويعظم حرمات الله، ويتجنب الفسوق والجدال والرفث عند البيت، ويتجنب الشقاق، ويتجنب الإلحاد والكفر والمعاصي وظلم النفس، ويعظم حرمات الله؛ يعظم البيت، ويعظم الصفا والمروة، ويعظم هذه الأماكن المقدسة من منى ومزدلفة وعرفات.

كل هذه يعظمها في قلبه ويشعر بعظمتها عند الله وبحرمتها عند الله فيحرمها ويقدسها، قال: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، خير له الأمر عند ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، خير له عند ربه يعني أعظم عند الله أجراً.

ثم قال: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ﴾، أي أن الأنعام أحَلَّها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن تذبحوا.

- **ما هي الأنعام؟**

هي بهيمة الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم، أُحلَّت لكم أن تأتوا بها هدياً وتذبحوها ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾؛ إلا ما يتلى عليكم مما حرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير، أو ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣]، كل ذلك يعتبر مما حرمه الله سبحانه من بهيمة الأنعام.

قال: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾؛ اجتنب هذه الأوثان فإنها رجس محرم لا يجوز، فحرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ قال: اجتنبوا الرجس، وأشد الرجس عبادة الأصنام وعبادة الأوثان وتعظيم غير الله عند بيته الحرام، كالذي يذبحون لغير الله أو يدعون في الأماكن المقدسة أدعية لغير الله أو نحو ذلك، أو يشركون بالله عند الكعبة، كل ذلك لا يجوز.

قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ سماها رجساً، قال: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾؛ وهو الشرك والكفر والقول المحرم وشهادة الزور، وكل ذلك داخل في قول الزور.

قال: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣١]؛ ولذلك قال حنفاء لله، يعني كن حنيفاً لله، يعني مقبلاً على طاعته مدبراً عن كل معصية، أقبل على الله، حنيفاً لله غير مشركين به، لا تشركوا به شيئاً، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً.

﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾؛ الآن يعطيك الله الصورة لهؤلاء المشركين؛ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ ويعبد مع الله إلهاً آخر.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

كأنما ألقى نفسه من أعلى شيء من السماء، خر من السماء فتخطفه الطير (**الطيور الجارحة التي تطير في الأجواء تخطف هذا الساقط**)، أو تهوي به الريح في مكان سحيق (**في أقصى شيء حتى يتمزق ويموت**)، مكان سحيق أي بعيد المدى؛ فإما أن تأكله الطيور وهو في الجو، وإما أن تأتي به الريح وتلقيه في أبعد شيء.

وهذا كله تصوير للشرك بالله؛ الذي يشرك بالله حاله كمن ألقى نفسه ومات، ففي هذا تعظيم لتوحيد الله وعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده لا شريك له، ونبذ الشرك.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]؛ نذكر لك ذلك الأمر؛ ومن يعظم شعائر الله (**يعظم الشعائر: يعظم البيت، يعظم مقام إبراهيم، يعظم الصفا والمروة، يعظم المقدسات: منى ومزدلفة وعرفات وسائر هذه الأشياء، ويعظم الهدايا، يعظم النسك، يعظم الإبل والبقر والغنم التي جاءت هدياً لله مقلدة يعظمها ولا يعتدي عليها**).

قال: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾؛ فإن تعظيمها يدل على القلوب التقية، يدل على أن صاحبها صاحب قلب تقي يخاف الله ويعظم أمره ويعظم شعائر الله، ويخشى الله ويخشى عقوبته.

قال بعدها: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]؛ أي هذه البهائم، وهذه الإبل، وهذه بهيمة الأنعام لكم فيها منافع، يقول: تنتفعون بها في ركوبها، في حلبها أيام الحج، لكم تستفيدون منها، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

- **ما هو الأجل المسمى؟**

وقت نحرها، وهو يوم النحر يوم العيد، قال: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

- **ما معنى محلها؟**

أي تحل ويجوز نحرها في ذلك الوقت، تحل مثل ما تقول: حلَّ علينا الإيجار، أو حلت علينا السنة، يعني وجبت ووجب وقتها؛ يقول هنا: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا﴾ أي وقت وجوبها ووجوب نحرها، وجواز نحرها، متى؟ قال: ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ في يوم النحر.

فإذا جاء يوم النحر، يوم النحر يوم العيد وهو العاشر، ذُبحت عند البيت العتيق، وهو الحرم؛ والمراد به الحرم كله، فيدخل فيه مزدلفة، ويدخل فيه منى، ويدخل فيه فجاج مكة، ويدخل فيه الذبح عند الصفا والمروة، كل ذلك يعتبر عند البيت العتيق، كل ذلك تعظيم لهذه المحرمات التي حُرِّمت.

لعلنا نقف عند هذه الآية إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحج ٣٤ - ٣٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً وهدىً وتقوىً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للتاسع عشر من شهر شعبان من عام (١٤٤٣ هـ). يعني لم يبقَ -الله المستعان- إلا تقريباً عشرة أيام على دخول الشهر الفضيل.

والحقيقة يعني ينبغي للمسلم أولاً أن يدعو كثيراً هذه الأيام وقبلها؛ أن يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ أن يبلغه هذا الشهر وهو في صحة وعافية وفي أمن، ويدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعينه على الصيام والقيام، وأن يعينه على أن يسلمه رمضان وهو صحيح طيب معافى.

والأمر الثاني وهو أهم أيضاً أو من الأشياء المهمة: أن الإنسان يعد العدة لهذا الشهر؛ كثير من الناس يعني يأتي الشهر وما رتب نفسه، قد يرتب نفسه في أمور أخرى من الطعام والشراب، لكن العبادة وتهيئة الجو للعبادة هذه الحقيقة نحتاج أن نعد عُدةً مهمة جداً نرتب فيها أوقاتنا.

كثير من الناس يعني: ما منهجك في القرآن؟ ما منهجك في الصيام؟ ما منهجك في النوم والقيام؟ ما منهجك في صلاة الليل؟ ما منهجك في صلاة التراويح؟ ما منهجك في التبكير للصلاة ودخولك وتواجدك في المسجد قبل المؤذن؟ إذا لم يرتب الإنسان وقته، وإذا لم يعد العدة استعداداً لنفسه لهذا الشهر أن يستقبل هذا الشهر، سيضيع عليه الوقت بدون فائدة.

هذه فرصة وهذه نفحة من نفحات الله؛ إذا لم تتعرض لنفحة من نفحات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتنتهز الفرصة وتسابق وتسارع وتملأ وقتك في طاعة الله. هذه فرصة؛ شهر واحد يمر في السنة.

☜**النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:** «إِنَّ لِلَّهِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ عُتَقَاءَ مِنَ النَّارِ». ما موقفك أنت من هذا الكلام؟ عتقاء من النار! «مَنْ قَامَ مَعَ الْإِمَامِ حَتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ».

- **كيف كان السلف يعيشون مع القرآن في رمضان؟ كيف كانوا يختمون؟**

كانوا يختمون كل ثلاث ليالٍ، يعني في الشهر عشر ختمات، غير ختمات العشر الأواخر التي يختمها السلف كل ليلة؛ فحريٌّ بالإنسان أن يستعد.

☜**وتتذكر أيضاً أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ».

- **لماذا تفتح أبواب السماء؟**

قال: تفتح أبواب السماء لأمرين:

الأمر الأول: الدعاء؛ فأنتهز فرصة في الدعاء تدعو في كل وقت، وتتحرى أوقات الإجابة عندما يؤذن المؤذن -هذا يعني وقت إجابة- وبين الأذان والإقامة، وأثناء السجود، والأوقات المتبقية يعني مثلاً عند إفطار الصائم مثلاً، عند آخر ساعة من يوم الجمعة، عند آخر الليل عندما يتنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى النزول الإلهي يدعو الإنسان: «هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟».

فمثل هذه أشياء يستغلها الإنسان في الدعاء، إذا أقبل رمضان فتحت أبواب السماء؛ تفتح للدعاء وتفتح لرفع الأعمال الصالحة، الإنسان يعني يكثر من الطاعات في هذا الشهر حتى ترفع أعماله فينتهز هذه الفرصة.

يقول: فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب النيران، وأيضاً تصفد، وفي كل ليلة عتقاء، وفيه ليلة هي خير من ألف شهر، «مَنْ حُرِمَ خَيْرَهَا فَقَدْ حُرِمَ». فالإنسان يعني يحرص كل الحرص على ألا تفوته هذه الفرصة، وأن يسأل الله أن يسلمه لرمضان وأن يسلم رمضان له، وأن يعينه ويسدده؛ لأنه إذا لم يكن للعبد عون من الله، فأول ما يجني عليه اجتهاده.

فلا تعتمد على نفسك ولا على ترتيب وقتك، وإنما تعتمد على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثم على ترتيب الوقت، لا نطيل، إنما أحببنا أن يعني نرسل رسالة يعني مختصرة تذكير للجميع، تذكير لنفسي أولاً، فنسأل الله أن ينفع بهذا.

الآيات التي معنا من سورة الحج، وهي الآية الرابعة والثلاثون من سورة الحج، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ دل على أن الأمم السابقة قد شرع الله لها المناسك.

- **ما المراد بالمنسك هنا؟**

قال: المنسك أصلاً، الأصل فيه هو العبادة؛ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. الأصل في المناسك هي العبادة مطلقاً؛ (تنسك): التعبد، أصل التنسك معناه التعبد، لكن أحياناً يطلق على الذبح.

- **متى يكون يعني على الذبح؟**

الجواب: ننظر في السياق؛ هذه الآية تدل على أن المنسك هنا هو الذبح؛ بدليل ماذا؟ لأن الله قال بعدها: ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ يذكر اسم الله ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾؛ فدل على أن المنسك هنا هو الذبيحة؛ الذبيحة وشعيرة الذبح، وشعيرة الهدي، وشعيرة الأضحية، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل للأمم السابقة مناسك ومذابح وهدياً وأضاحي؛ كلهم كانوا يضحون ويذبحون ويتقربون بالقرابين إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾.

- **ما الغرض منه؟**

قال يعني ذبيحة ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾؛ شعيرة هذا المنسك للأمم الماضية، وهذه الأمة أيضاً -يعني هذه الأمة أمة محمد- أيضاً منّ الله عليها بهذه الشعيرة؛ شعيرة المناسك، مناسك الذبح وإراقة الدماء، وأحياناً يسمى الحج (مناسك الحج)؛ لأن أعظم ما يفعله الحاج هو إراقة الدماء والهدي والذبح الهدايا التي تهدى إلى البيت.

مناسك الذبح قال: لإقامة ذكر الله؛ شرعت الذبائح والذبح لإقامة ذكر الله، وإفراد الله بالإلهية والعبودية؛ ولذلك قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ تعالى عند الذبح، يذكر اسم الله ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾؛ يذكرون الله عند الذبح عند ذبح ما رزقهم الله من الأنعام.

وهذه الأنعام رزق من الله، هو الذي ساق لك هذا الرزق من بهيمة الأنعام، وبهيمة الأنعام هي الإبل والبقر والغنم كما هو معلوم؛ هذه تقدم قرابين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هدياً وأضحية ونحو ذلك.

قال: ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾؛ وفي هذا الكلام يتضمن الشكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أن منّ على هذه الأمة كما منّ على الأمم الماضية بتقديم هذه القرابين والأكل منها على ما رزقهم الله وذبح هذه الأنعام.

هذه الأنعام قال لما أكد على ذكر اسم الله عليها، أكد على إفراد الله بالإلهية والعبادة لله وحده والبعد عن الشرك، كما قال: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣١].

قال: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾؛ فإلهكم أيها الناس إله واحد هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده لا شريك له، هو الذي أمركم وهو الذي خلقكم، وخلق لكم هذا الرزق وهذه البهيمة؛ إلهكم إله واحد، فانقادوا لأمره وأمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسارعوا لمرضاته، واعبدوه كما أمركم، ولا تعبدوا معه، لا تعبدوا معه ولا تصرفوا العبادة التي يستحقها لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾؛ انقادوا ولا ترددوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أسلموا لله لا لغيره.

قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾؛ لاحظ **(وبشر المخبتين)**، ونحن كأننا الآن نعيش في جو الحج؛ تعرف الآيات التي مرت معنا ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩] وغيرها من مناسك الحج، كأنك الآن تعيش في أيام الحج وفي مواطن الحج؛ ولذلك يقول هنا قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾.

- **من هم المخبتون؟**

قال: أصل الإخبات؛ **(الإخبات)** هو الأرض المنخفضة، تسمى خَبْت، الأرض المنخفضة تسمى خَبْت؛ و **(الخُبْت)** هو الانخفاض والخضوع.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾؛ المخبتون هم المتواضعون لله، الخاضعون لربهم، الخاضعون غير المتكبرين، غير الذين يأنفون عبادة الله، بل ينقادون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويتواضعون لأمره ويخضعون لربهم خضوعاً تاماً.

ولاحظ أن هذه الصفة -حتى نفهم ونتدبر القرآن جيداً- شوف هذه الصفة وين جاءت؟ جاءت في مواطن الحج؛ لأن الحج يحتاج من الحجاج التواضع، التواضع لله والتواضع للناس، أنت في الحج لا تتكبر، لا تتكبر في مشيتك ولا تتكبر على الناس في كلامك، ولا تتكبر على الناس، ينبغي أن تقوم بخدمة الناس في الحج وأن تقدم لهم ما تستطيع.

فالتواضع والخضوع يأتي في مقامات الحج؛ لأن الحج احتكاك الناس بعضهم ببعض، وتجد من الناس من يأنف، وتجد من الناس من يتكلم ويرفع صوته، وتجد من الناس من يعني إذا أُخطئ، أخطأ عليه شخص إنسان أو غلط عليه إنسان تجده يعني لا يتقبل بتواضع وخضوع وتسامح؛ فلذلك جاءت كلمة: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾.

ثم وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذين قال: قال الله ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ يبشرهم بأي شيء؟ يبشرهم بما يسرهم. من هم المخبتون؟ اسمع ماذا قال الله فيهم؛ قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥].

هذه أشد أنواع التواضع، الخشوع والتواضع لله؛ أن الله إذا ذكر الله عندهم خافوا ووجلت قلوبهم ورجفت قلوبهم، وحذروا مخالفة الله وخافوا عقابه، هذه معنى وجلت قلوبهم.

- **قد يأتيك سائل ويسألك يقول لك يعني: هنا يقول ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني خافت وارتعدت، نجد في آية أخرى يقول: ﴿تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ [الرعد: ٢٨]، فهل المؤمن قلبه مطمئن ولا خائف؟**

الجواب: المؤمن في مواضع الخوف يصبح القلب يعني وجل وخائف، وفي مواضع الأمن والسكينة يطمئن قلبه؛ فهي حسب المواضع التي يعني يعيشها الإنسان ويواجهها الإنسان.

قال هذه الصفة الأولى: إذا ذكر الله وجاء ذكر الله عندهم ارتعدت قلوبهم وخافت، خافت من عقابه ومخالفته.

قال: ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾؛ الصفة الثانية: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾. ولاحظ أن هذه كلها مرتبطة بالحج؛ إذا ذكر الله في مواطن عرفات، وليلة مزدلفة، وفي الجمرات، ومنى، وفي الطواف والسعي، وعند الذبح، وعند حلق الرأس، وعند أعمال الحج كلها تتذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأن الله سيحشر الخلق ونحو ذلك.

فيكون ذلك يعني سبباً لخوف القلوب وجل القلوب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذا الذي يتناسب مع المخبت الذي دائماً في خوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وأيضاً ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ يتناسب مع المخبت في أيام الحج؛ أن يصبر على ما أصابه من الشدة ومن البأس، ومن قد يكون من إيذاء الحجاج أو من الصعوبة التي

يواجهها في الحج في الوقوع بعرفة أو مزدلفة أو نحو ذلك، أو ازدحام، أو شدة، أو أعمال الحج؛ كل ذلك يقول: ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾.

ثم ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ من أجلّ الصفات التي يتصف بها هؤلاء المخبتون وهي المحافظة على الصلاة والنفقة في سبيل الله؛ فقال: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾؛ أي الذين يؤدون الصلاة في أوقاتها تامة بخشوعها وأركانها وواجباتها وأوقاتها، ويحافظون على أوقاتها.

وهذا تأكيد على المحافظة للحجاج؛ أن يحافظوا على الصلاة في أوقاتها. كثير من الحجاج تجده يعني تتعجب من بعض الحجاج؛ ينام أوقات الصلاة، الفجر لا يقوم إلا بعد طلوع الشمس، وتجد العصر ينام الظهر ولا يقوم إلا إذا قاربت الشمس أن تغيب، وهكذا تجده.

يعني أنت جاي تحج ولا جاي تضيع وقت الصلاة؟! فتتعجب! ولذلك أكد الله على قضية الصلاة، وبعضهم يتساهل يصلي وحده يقول: **(حنا حجاج وحنا مسافرين)**، وتجده يصلي وحده وهو يرى الجماعات تقام من هنا وهنا؛ فينبغي للإنسان أن يحافظ ولذلك الله قال: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾.

ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ وقوله **(مما)** أي بعض ما رزقهم الله، ينفق الشيء من ماله؛ الذي **«أَعْظَمُ مَالِكَ مَا قَدَّمْتَ، وَمَالُ وَارِثِكَ مَا أَخَّرْتَ»**. فيحرص الإنسان أشد الحرص أن ينفق على الحجاج ويساعد الحجاج وعلى المحتاجين؛ فيحرص على هذه الشعيرة التي تربط أواصر وقلوب المسلمين بعضها ببعض في أيام الحج، ويشعر بإخوانه المحتاجين؛ فيجعل رابطة نفسه مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلاقته بالله بالصلاة، وعلاقته بإخوانه الحجاج في النفقة والمساعدة للمحتاجين وغيرهم.

يقول: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذه صفاتهم، هذه صفات المتواضعين لله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ذكر بهيمة الأنعام التي قال الله فيها أولاً: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾؛ خصّ من بهيمة الأنعام أشرفها وأعظمها يعني تقرباً إلى الله وهي البُدْن؛ والْبُدْن جمع بَدَنَة، وتطلق على الإبل، وأحياناً تطلق على الإبل والبقر، ولكن هنا المناسب أن تكون تطلق على الإبل؛ لماذا؟ لأن الله قال: ﴿صَوَافَّ﴾، والصواف تناسب الإبل ما تناسب البقر.

قال: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٦]؛ المراد بها الهدي والأضاحي التي يقدمها الإنسان لله يتقرب بها إلى الله، وما تقرب عبد يوم النحر بأعظم مما يتقرب به من الهدي والمناسك والأضاحي وإراقة الدماء.

قال: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا﴾ أي جعلنا البدن لكم وهي ﴿مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي من أعلام الله الظاهرة التي تدل على أنها من خصائص الله، لا يجوز نحرها لغير الله، لا يجوز نحرها إلا لله؛ من شعائر الله خصها الله أنها من شعائره فلا يجوز أن تذبح لغير الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦]؛ يعني فيها منافع كثيرة، فيها منافع سواء قبل النحر من الركوب والحلب، أو بعد النحر من الأكل والتصدق والثواب والأجر والإهداء ونحو ذلك، كل ذلك منافع كثيرة.

قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ [الحج: ٣٦]؛ يقول عند نحرها عندما تنحر، يذكر اسم الله عليها صواف؛ يعني لا يذكر إلا اسم الله، لا يجوز، بل السنة أن تقول: «بِسْمِ اللهِ وَاللهُ أَكْبَرُ». فتنحرها؛ الإبل تنحر، والبقر والغنم تذبح.

والفرق بين النحر والذبح: أن الإبل تنحر قائمة، تضرب في لبتها بقوة بالسكين ثم تجر السكين، هذا يسمى النحر، أما الذبح: فإن البقر والغنم تضجع على الأرض على شقها الأيمن أو الأيسر وتوجه إلى القبلة ثم تجر السكين على حلقها، هذا الذي يسمى الذبح، ولذلك الله قال في البقرة: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] ما قال نحروها، قال: ذبحوها، وقال والإبل تنحر.

قال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾؛ أي تنحر الإبل واقفة، صواف معناها صافّة، صافّة كل واحدة جنب الأخرى، تصف البدن صفوفاً كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نحر مائة من الإبل صفّها صفوفاً واحدة تلو الأخرى واقفة.

والسنة أن تكون الإبل قائمة ومقيدة بيدها اليسرى، اليد اليسرى تقيد تربط ثم تكون قائمة، ثم بعد ذلك تنحر قائمة، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفّ الإبل وبدأ ينحرها واحدة واحدة حتى بلغ ثلاثاً وستين (٦٣) من الإبل، ثم أعطى علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أن يكمل المائة؛ فهذا يسمى صواف، معنى الصواف أي صافّات واحدة تلو الأخرى، تصف مثل ما يصف المصلي بجنب صاحبه يصفون صفاً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ [الحج: ٣٦]؛ وجبت يعني سقطت، يقال: وجبت الشمس إذا سقط قرصها، ويقال: وجبت جنوبها إذا نحرت ستسقط على الأرض، ثم إذا سقطت على الأرض قام الجزار بسلخ جلدها.

فإذا سلخ الجلد قطع جنوبها، سقطت جنوبها على الأرض، هذا معنى فإذا وجبت جنوبها؛ يعني فقد حلّ أكلها بعد نحرها وسقوط جنوبها فليأكل، ولذلك قال بعدها: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾؛ فليأكل منها أصحابها، والسنة أن يأكل منها، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ من كل إبل قطعة ثم طبخت وأكل منها وشرب مرقها، فهذا هو السنة، قال وتقرباً إلى الله تأكل، يعني تقرباً إلى الله وتعبّداً بهذا الأكل؛ ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ لأن الله أمرك بالأكل منها.

ثم قال: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦]؛ أي أطعموا منها المحتاجين الفقراء، سواء كان الفقير قانعاً، ومعنى **(القانع)** هو الفقير الذي لا يسأل؛ القانع الذي اقتنع بالفقر وجلس في بيته لا يلح ويسأل ويطرق الأبواب ويسأل الناس في الطرقات، وإنما قد رضي بما قدّر الله عليه فاقتنع بفقره وجلس وتعفف، فهذا يعطى ويحرص عليه أشد من غيره، ولذلك قدّمه الله سبحانه في الآية؛ قال أطعم القانع أولاً.

ثم قال: ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ وهو الذي يتعرض للناس ويسألهم حاجته، يطرق عليهم الأبواب ويأتيهم في الطرقات ويأتيهم في أماكن النحر ويسألهم، فهذا لا مانع، لا مانع إذا تحقق أنه محتاج وفقير فيعطى، يعطى السائل وغير السائل.

والذي لا يسأل هو أشد؛ قد تجد عنده أسرة وناس محتاجين وعنده أولاد وعنده زوجة محتاجين وعليه ديون ولا يسأل الناس، يصبر ويدعو الله عَزَّ وَجَلَّ أن الله يرفع عنه، هذا يحرص الإنسان عليه أن يعطيه من الصدقة ويعطيه من بهيمة الأنعام ومن هذه الهدايا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الحج: ٣٦]؛ أي هذه البدن وهذه الأضاحي والهدي سخرناها، سخر الله هذه البدن لكم. لماذا؟ قال: لعلكم تشكرون الله حيث سخرها لكم وأباح لكم نحرها وأباح لكم أكلها والتصدق بها، فاشكروا الله على هذه النعمة، اشكروه.

ولولا أن الله سخرها لما استطاع الإنسان أن يقوم بنحرها؛ إذا كانت الحيوانات قد تكون صغيرة وهي غير يعني متوحشة أو غير متوحشة وقد تكون صغيرة لكنها لم تسخر للذبح ما تستطيع أن تذبحها، كالقطط والكلاب ما تستطيع أن تذبحها إلا بصعوبة، ولكن هذه الإبل تنقاد، ولذلك قيل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا كانت تتزاحم هذه الإبل؛ أيها التي تنحر، ينحرها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تتسابق؛ فهذا تسخير من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من الله عَزَّ وَجَلَّ لنشكر هذه النعمة.

ولذلك ينبغي للإنسان أن يحرص على الطيب، الطيب من بهيمة الأنعام في الهدي وفي الأضاحي، أن يحرص على الأطيب لحماً والأسمن والأغلى ثمناً؛ لأنها قربة إلى الله.

ولذلك الله في الآية هنا قال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]؛ اللحوم والدماء لن تصل إلى الله، وإنما يصل إلى الله تقوى العبد وإخلاصه في عمله وقصده هذا العمل، أن يريد وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيتقبل الله منه؛ ولذلك قال: لن ينال الله لحومها ولا دماؤها، الدماء واللحوم لن تنال الله ولكن تناله تقوى هذا العبد؛ فيحرص المتقرب بهذه البهيمة أن يعظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يقدمها رجاء ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]. يقول: مثل هذا التسخير سخرها لكم، لعلكم تشكرون سخرها، قال كذلك سخرها لكم؛ أي سخر هذه البهيمة لأي شيء؟

قال: سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم، تعظموا الله وتذكروه على ألسنتكم وتشكروه على ما هداكم، على أن هداكم لهذه الشعيرة وهداكم لهذا الإسلام وجعلكم من عباده الصالحين المتقين المحافظين، ولذلك قال: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾.

وقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾. شوف أول الآيات قال: ﴿الْمُخْبِتِينَ﴾ والمتواضعين، وهذا يحتاجه الحجاج، ولما ختم الآية قال: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا يحتاجه الحاج؛ أن تحسن في كلامك، وأن تحسن علاقتك مع رب العالمين، وأن تحسن علاقتك مع إخوانك ومع الخلق أجمعين، فتحسن بكل ما تستطيع تقديمه من وجوه الإحسان، والكلام الطيب، والأفعال الطيبة، وأن تجعل عملك خالصاً لله. والإحسان أصله: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ».

فأن يكون عملك خالصاً لله، وهذا كله تركيز في الحج؛ لأن كثيراً من الحجاج أو بعض الحجاج يأتي لغرض إما احتياج يعني مثل ما يقال يعني للتجارة، أو الرياء أحياناً والسمعة، أو لأغراض أخرى من أغراض الدنيا؛ فأكد الله على أن يكون عمله خالصاً لله حتى يرجع من حجه «كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» ليس عليه خطيئة، هذا هو المقصد.

بعدها تنتهي الآيات إلى هنا، تنتهي الآيات التي تتحدث عن الحج وأحكام الحج والأضاحي، ثم تنتقل الآيات إلى الجهاد: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، والرابط بينهما أن الحج جهاد، والجهاد جهاد؛ ولذلك دائماً يُقرن بينهما.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، وفي اللقاء القادم بإذن الله نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحج ٣٨ - ٥١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، إخوتي الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المتجدد، لقاء الثلاثاء؛ وهذا اليوم هو السادس والعشرون من شهر شعبان من عام (١٤٤٣ هـ). نجتمع في هذا المقام المبارك، وبين أيدينا آيات من سورة الحج.

الآيات التي بين أيدينا هي الآية الثامنة والثلاثون من سورة الحج؛ الذين يتابعون معنا على المصحف هي الآية الثامنة والثلاثون، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨].

يعني الآيات التي قبلها -حتى نربط الآيات بعضها ببعض- الآيات التي قبلها مثل ما مرت معنا كلها تتحدث عن أحكام الحج؛ أحكام الحج، والهدي، والأضاحي، وما يتعلق بها؛ ما يتعلق بهذه الأشياء والمناسك، انتقلت بعد ذلك الآيات إلى أحكام الجهاد في سبيل الله.

دائماً سبحان الله العظيم، لما يأتي الجهاد يأتي الحج، ولما يأتي الحج يأتي الجهاد؛ لما تقرأ في سورة (البقرة) القتال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، وقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، جاء بعدها: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

لما جاء هنا الحديث عن الحج، جاء بعدها الحديث عن الجهاد في سبيل الله؛ فيه رابط شديد قوي بين الحج والجهاد في سبيل الله، كله جهاد؛ فالحجاج مجاهدون، الحجاج يجاهدون في السفر، الرابط يعني بينهما: كل منهم يسافر، كل منهما يعد العدة، وكل منهما يبذل جهده ويجتهد؛ فبينهما رابط.

ولذلك يعني لما جاءت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ: الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ». وفي لفظ قالت: «هَلْ عَلَيْنَا جِهَادٌ؟ قَالَ: لَكُنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فِيهِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ». إذاً هذا الحديث صريح بأن هناك رابطاً قوياً بين الجهاد والحج.

- **الآية ماذا تقول؟**

تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]. يعني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدفع -في قراءة ﴿يَدْفَعُ﴾، وفي قراءة ﴿يُدَافِعُ﴾- يدفع عن الذين آمنوا عدوان الكفار، ويدافع عن الذين آمنوا من يعتدي عليهم؛ يدافع عنهم ويرد عدوان المعتدين، يدفع ويدافع، يرد عدوان المعتدين عن الذين آمنوا.

وهذا يدل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولي الذين آمنوا، وأنه يتولى أمرهم وينصرهم، وينصرهم على من عاداهم؛ فالمؤمن تحت ولاية الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ على يعني الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦]؛ فالله يتولى عباده الصالحين، فيدفع عنهم الشرور ويدافع عنهم من يعتدي عليهم.

قال: يدفع عن المؤمنين عدوان الكفار وكيد الأشرار؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يحب كل خوان كفور، وهم الكفار؛ خوان: كثير الخيانة للأمانات، وكفور: يجحد نعمة الله، يجحد نعمة الله ويجحد ما أنعم الله به عليه. فهذا الكافر والكفور والخوان -الذي كثير الخيانة لا يعتد بعهود، ولا يعني لا يرقب في مؤمن إلاً ولا ذمة- هذا لا يحبه الله سبحانه ويبغضه، ويبطل كيده ويقمع فساده.

هذه كأنها مقدمة الآن بأن الله مع عباده المؤمنين، وأن الله يبطل كيد الكائدين، ولا يحب الخونة الكفار.

ثم دخلت الآيات بعد ذلك في الجهاد؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

المسلمون في مكة لم يؤذن لهم، لم يؤذن لهم بالقتال، وإنما يقول الله لهم: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخرف: ٨٩]، قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [النساء: ٨١]، وأعرض عنهم، قال: فاصفحوا

واعفوا، وقال يعني آيات كثيرة تدل على يعني على أن العفو والصفح وتجاوز وعدم مواجهة الكفار؛ لماذا؟ لأن المسلمين كانوا قلة، وليس معهم عدة ولا عتاد.

فلم يستطيعوا مواجهة الكفار، والكفار قد سيطروا عليهم. فلما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقام في المدينة قوي وقوي أصحابه، فأذن الله لهم؛ فأذن الله لهم بالقتال.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩] وهو الجهاد.

أُمروا بعد ذلك وأُذن لهم؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾؛ يقاتلهم أعداؤهم، يعني بلغ بهم الأذى من المشركين ما بلغ، وآذوهم في مكة، وأخذوا أموالهم، وعذبوهم حتى أخرجوهم من ديارهم، وأخرجوا نبيهم محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج مهاجراً إلى المدينة تاركاً ماله وداره، وكل من أصحابه تركوا أموالهم وديارهم.

كل ذلك بسبب ظلم هؤلاء الكفار وتعذيبهم لأصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فهاجروا إلى المدينة وأصبح هناك له قوة، فلما أصبح له قوة أذن الله، أذن الله لهم في القتال بسبب ما وقع من الظلم؛ لأن الله قال: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩]، هذا السبب في مشروعية الجهاد والقتال.

وهذا ينبغي لنا أن نفهمه يا إخوان؛ لأننا نسمع كثيراً من الناس يقول: **"هذا الإسلام إسلام السيف، وإسلام الدماء، والقتل البشيع"**؛ يعني يصفون الإسلام بهذه الصفات. الإسلام لا يقاتل مباشرة، وإنما يقاتل لأسباب؛ يعني شوف هنا يقول: ﴿يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾، سبب الظلم؛ رفع الظلم عنهم وعن إخوانهم، وأيضاً نشر الخير.

قال: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] لا يكون شرك، ويكون الدين كله لله، كلمة الله هي العليا وكلمة الكفار هي السفلى.

قال: ﴿بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]؛ هذا تأييد من الله للمقاتلين في سبيل الله المجاهدين أن الله سينصرهم؛ لأنه وعدهم قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ﴾ وإذلال أعدائهم وإحباط كيد أعدائهم ﴿لَقَدِيرٌ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ قادر على نصرهم، وقادر على هزيمة أعدائهم.

قال: ما سبب، ما هو الذي بأنهم ظلموا؟ كيف ظلموا؟ لو سألك سائل قال لك: بأنهم ظلموا، ما وجه الظلم؟

قلنا: اسمع؛ ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠]؛ الذين أُلجِئوا للخروج، وأُخرِجوا من غير حق، وأُلزِموا بالخروج لترك أموالهم وديارهم، لا لشيء فعلوه ولا لمنكر وقعوا فيه، وإنما لأنهم قالوا آمنّا بالله، ﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]؛ إلا أن يقولوا ربنا الله.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة (البروج): ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، هذا سبب انتقامهم منهم؛ لأنهم قالوا ربنا الله. وهنا يعني أخرجوهم من ديارهم بغير حق، لكن لأنهم قالوا ربنا الله؛ لأنهم وحدوا الله وآمنوا به، وتركوا عبادة الأصنام، وتركوا عبادة الأصنام.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الحج: ٤٠]؛ لولا أن، لولا ما شرعه الله من الجهاد ودفع الظلم؛ بأن الله يدفع بالجهاد أعداء الإسلام، لتمكن أعداء الإسلام من القضاء على الإسلام وأهله، وعلى كل دين من الأديان، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شرع هذا الإسلام، شرع الدين مقابل أعداء هؤلاء حتى يقمع أهل الزيغ والفساد.

فلولا دفع الله الناس، لولا أن الله دفع هذا الظلم بالجهاد، لاستمر الظلم، وانتشر الظلم، واستبد الظلم؛ لكن الله من رحمته دفع الظلم، الذي ينتفع به جميع يعني بهذا الجهاد ينتفع به جميع الأديان المنزلة؛ ورد الباطل وقمعه واذلاله.

ولذلك قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾؛ لولا أن الله شرع الجهاد وأذن للمسلمين أن يقاتلوا في سبيل الله، لرأيت أعداء الإسلام ماذا يصنعون في الإسلام، وماذا يصنعون بالأديان كلها.

قال: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ﴾ [الحج: ٤٠]، والصوامع جمع صومعة، والصومعة هي مكان الرهبان؛ الرهبان من النصارى يتخذون صوامع، الصومعة تأخذ شخصاً أو شخصين يجلس فيها يتعبد.

سميت صومعة؛ تكون مرتفعة في الغالب يصعد إليها، يعني غرفة أو مثل المحراب والغرفة تكون وحدها مرتفعة، فيدخلها ويغلق على نفسه، هذه تسمى صوامع ومثلها صوامع الغلال؛ الآن لو رأيت صوامع الغلال ستلاحظها أخذت في الطول وفي العلو وهي ضيقة، فهذه دائماً يتخذونها مرتفعة ويجلسون فيها.

قال: ﴿لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾ [الحج: ٤٠]؛ جمع بِيْعَة، وبِيَع هذه هي كنائس، كنائس النصارى؛ النصارى لهم كنائس، لهم صوامع، الواحد له صومعة، والكثير منهم يجلسون في الكنائس مثل المساجد، كنيسة كبيرة واسعة يجتمعون فيها ويتعبدون، ويتعبدون فيها؛ سميت كنائس، قال: كنائس النصارى.

قال: ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ [الحج: ٤٠]؛ والصلوات هي معابد اليهود، تسمى صلوات أو في لغة اليهود، في لغة اليهود في اللغة العبرية يقولون (صلوت)؛ (صلوت) يعني مكان العبادة، فالصلوات أماكن معابد اليهود.

قال: ﴿وَمَسَاجِدُ﴾ [الحج: ٤٠]؛ وهي مساجد للمسلمين، أماكن العبادة للمسلمين، ومساجد ﴿يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]؛ أي هذه الأماكن هي أماكن أصحاب الأديان من اليهود والنصارى والمسلمين يصلون فيها ويذكرون اسم الله فيها كثيراً على حسب أديانهم الأصلية أو المحرفة، يجتهدون في عباداتهم حسب ما كانوا عليه من الدين الصحيح أو الدين المحرف كما هو واقع الآن.

فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: هُدّمت هذه الأشياء، وارتفع الباطل، وقُمع أهل الدين كله، وانتشر الفساد في الأرض؛ لكن الله شرع الإسلام، شرع الجهاد حتى تبقى هذه العبادات ويقمع أهل الزيغ والفساد.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]؛ من يجتهد في نصرة الدين ينصره الله، من يبذل جهده في نصر الدين فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينصره ويؤيده؛ لأن الله هو القوي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الغالب، لا غالب إلا هو، عزيز لا يرام، قد قهر الخلائق كلها وأخذ بنواصيها، كل مخلوق وكل دابة الله أخذ بناصيتها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ينصر عباده الذين ينصرون الدين فإن الله ينصرهم ويؤيدهم؛ هذا كله في الجهاد. ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾، من ينصر الدين ينصره الله.

- **من هم الذين ينصرون الدين وكيف ينصرونه؟**

قال الله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]؛ الذين وعدناهم بالنصر وينصرون الدين، هم الذين مكنهم الله في الأرض، مكن لهم القوة في الأرض بسبب ماذا؟ كيف يكون التمكين في الأرض؟ التمكين في الأرض بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إذا تمسك المسلمون بهذه الشعائر الظاهرة من المحافظة على الصلاة، وإخراج الزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -الذي جعله بعض أهل العلم ركناً سادساً من أركان الإسلام- هذه الأمور إذا أخذ المسلمون بها مكن الله لهم وسيمكن.

وإذا مكن لهم قمع أعداءهم، قمع أعداءهم واستخلفهم في الأرض، استخلفهم وأظهرهم على أعدائهم؛ لكن بشرط، ما يمكن التمكين يحصل إلا إذا أقاموا الصلاة بأدائها في أوقاتها وحدودها وخشوعها، وأقاموها في أماكنها في المساجد؛ تجد صلاة الفجر وتجد صلاة العشاء وصلاة العصر، كلهم قد اجتمعوا في المساجد وحافظوا على الصلاة في المساجد، وأدوها على أكمل وجه بخشوعها وأركانها وواجباتها، وحققوا الصلاة.

بعد هذا، آتوا زكاة أموالهم لمستحقيها ولم يجحدوها ولم يمنعوا الزكاة، وإنما بذلوا الأموال وأنفقوا الأموال في سبيل الله وأدوا الزكاة المفروضة عليهم، وأمروا بالمعروف بما أمر الله به من حقوق الله وحقوق العباد، أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وقمعوا أهل الفساد في الأرض، ولم يتركون أهل الفساد يفسدون في الأرض وإنما ردوا الفساد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشروا، نشروا هذه الشعيرة نشروها.

فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيمكن لهم، ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]؛ والعاقبة للتقوى، ولله عاقبة الأمور، والعاقبة لأهل التقوى أن ينصرهم وأن يؤيدهم بهذا، بهذه الأمور شرع لهم الجهاد ومكن لهم في الأرض إن أقاموا شرعه على ما أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رداً على الكفار الذين آذوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآذوا أصحابه، واستهزؤوا بالله واستهزؤوا برسوله وبوعود الله، وكذبوا رسالاته؛ يذكرهم الله بمآل الأمم السابقة ماذا كان مآلهم، قال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ [الحج: ٤٢] كذبوا؛ وانظر النتيجة ما هي، وهذه تسلية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوم نوح كذبوا نوحاً وآذوه واستهزؤوا به، وأرادوا أن يخرجوه، أن يخرجوه وأن يرجموه. وعاد كذبوا نبيهم هوداً، وثمود كذبوا صالحاً، ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾ [الحج: ٤٣] كذبوا إبراهيم بل ألقوه في

النار، وقوم لوط كذبوا لوطاً، ويعني وأخرجوه من دياره: قالوا لا ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[النمل: ٥٦].

﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]؛ وأصحاب مدين وهم شعيب، قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾[الأعراف: ٨٨].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: فأمليت للكافرين؛ يعني أمهلتهم، أمهلتهم يعني تدريجاً واستدراجاً، أمهلتهم ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر؛ أخذ قوم نوح بالطوفان، وعاد بالريح، وثمود بالصيحة، وأهلك لوطاً بأن قوم لوط بأن قلب، وأصحاب مدين أهلكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالعذاب والصيحة والرجفة؛ فكلٌّ أخذناه بذنبه.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي كيف كان إنكاري عليهم، كيف الله سبحانه أوقع فيهم إنكاره عليهم كفرهم وتكذيبهم وتبديل نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم بالعذاب والهلاك والدمار.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]؛ ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ (**كأين**) هنا تفيد التكثير؛ يعني قرى كثيرة جداً أهلكها الله، ليس، ليس الذي ذكرناكم فقط نوح وعاد وثمود وإبراهيم ولوط ومدين، لا، في أمم كثيرة أكثر وأكثر: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[النساء: ١٦٤].

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾؛ إذاً السبب الظلم، السبب الظلم؛ أهلكها الله بسبب ظلمها، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ هذه الديار مروا عليها وانظروا فيها، قد سقطت على عروشها وتهدمت أسوارها وبيوتها وديارها ومزارعها، خاوية على عروشها؛ خاوية ولا لا صوت فيها ولا حس، هل تسمع هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً؟ لا تسمع شيئاً.

قال: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾؛ هذه البئر التي كانوا يسقون منها ويسقون مواشيهم ويسقون زروعهم، أصبحت لا أحد فيها؛ معطلة حتى لا يمر أحد من عندها، وليس فيها أحد يأخذ الماء منها، ولا أحد يتحرك عندها؛ بئر معطلة.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾؛ شُيّد، بُنيت القصور وشُيّدت وأصبحت خاوية لا أحد فيها، تنادي فيها لا أحد يرد عليك؛ بسبب أن الله أهلك أهلها، بالعذاب بسبب ذنوبهم، بسبب ظلمهم وقصر مشيد.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهؤلاء المعاندين من قوم، من قوم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول لهم: سيروا، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

- **لماذا لا يسيرون في الأرض؟**

يسيرون في الأرض فتكون لهم قلوب يدركون بها هذه الأمم التي أهلكها الله وقضى عليها بسبب ذنوبهم؛ أين عقولكم، لماذا لا، لا تعقلون؟ قال لهم: قلوب يعقلون أو آذان يسمعون بها؛ لماذا لا يسمعون المواعظ يتعظون بهذا الكلام؟ يسمعون منك يا محمد فيتعظون، ويعتبرون.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾؛ الأبصار تبصر لا تعمى، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور؛ فتجد بعضهم العمى ليس عمى البصر، العمى عمى البصيرة، هذه هو المصيبة؛ أما البصر ينظر إليك، ولكن لا يفقه.

لكن العبرة بإدراك البصيرة، أما إذا عميت البصيرة فلا فائدة في البصر، ينظر إليك ولا يسمع ولا يدرك ولا يعقل، لا فائدة فيه؛ فإنما العمى الذي يهلك هو عمى البصيرة ليس عمى الأبصار، قد تجد من هو قد فقد بصره ولكنه مدرك لهذه المواعظ فاهم لها.

قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]؛ قومك بالعذاب يستعجلونك يا محمد ويقولون: أين هذا، أين هو، متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ لابد من وقوعه، والله لا يخلف الميعاد، لن يخلف الله وعده.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ هذا اليوم الذي تنتظرونه هو عند الله كألف سنة مما تعدون.

- **ما المراد بهذا اليوم؟**

قيل: هو يوم القيامة، وبعضهم قال: لا، هو يوم عند الله من أيام السنة التي خلق الله عَزَّ وَجَلَّ فيها السماوات والأرض في ستة أيام، اليوم الواحد عن ألف سنة مما نعد.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (السجدة) : ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، فعروجه مدة ألف سنة مما نعد، وقد يكون يوم القيامة، قد يكون يوم القيامة؛ فالشاهد أن اليوم الواحد عند الله، عند الله عن ألف سنة مما نعد، فلماذا يستعجلون؟ لماذا يستعجلون العذاب؟ وإذا حلّ العذاب ماذا سيستفيدون؟ ماذا سينتظرون؟ لن يمهلوا، وإذا نزل بهم العذاب قضي عليهم.

لأن الله يقول: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨] ليست قرية ولا قريتين ولا ثلاث، كثير من القرى أمليت لها وهي ظالمة؛ أملى الله لها وأمهلها لعلها ترجع لعلها تعتبر لعلها تتوب ولكنها ظالمة واستمرت في ظلمها، قال الله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا ۖ وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾؛ أخذها الله بالعذاب أخذ عزيز مقتدر، وإليه المصير؛ إليه مرجع الخلق كلهم بعد هلاكهم، فيفصل بينهم يوم القيامة وينبئهم بما كانوا يعملون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]؛ قل يا، يا محمد قل لهؤلاء وقل لأهل مكة بل قل للناس جميعاً لأن رسالته عامة: قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين؛ أنا جئت برسالته أبلغكم عن الله، أنذركم العذاب الذي يحل بكم إن عاندتم وإن أصررتم على كفركم، نذير ونذارة واضحة، نذير مبين نذير ونذارة واضحة لكم ارجعوا إلى ربكم وعودوا إليه؛ فالنذارة من، وإخباره بأن الذين آمنوا -من آمن معه وصدق برسالته وآمن بالله ووحده وعمل الصالحات.

- **ما هي النتيجة؟**

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٥٠]؛ لهم مغفرة من الله لذنوبهم السابقة، يغفر الله لهم ذنوبهم، ولهم الرزق الكريم وهو الفوز بجنات النعيم.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١]؛ وأما الذين كفروا ولم يقبلوا وعاندوا وجحدوا وسعوا في الأرض فساداً وعاجزوا، وسعوا في الأرض معاجزين يريدون أن يعاجزوا الله ويغالبوا الله ويشاقوا الله، أولئك مأواهم جهنم وهم أصحاب الجحيم؛ النار المتوقدة تنتظرهم يدخلونها لا يخرجون منها.

لعلنا نقف يا إخوان عند هذا القدر، عند الآية الحادية والخمسين إن شاء الله؛ لنا لقاء قادم بإذن الله، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحج ٥٢ - ٦٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم يوم الثلاثاء مع درسنا المعتاد الأسبوعي بعد مغرب كل ثلاثاء؛ وهذا اليوم هو اليوم التاسع من شهر شوال من عام (١٤٤٣ هـ).

السورة التي تناولناها في لقاءاتنا الماضية وبقي منها آيات حتى نكملها هي سورة (الحج)، ووقفنا عند الآية الثانية والخمسين من السورة ونواصل ما توقفنا عنده، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

هذا خطاب لنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول الله مخاطباً له: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾.

- **لاحظ الآية فرقت بين (الرسول) و(النبي)، يعني الرسول هذا وصف والنبي وصف، في فرق بينهما؛ ما الفرق بين الرسول وبين النبي؟**

الجواب: الرسول أعلى من النبي، كل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً؛ يعني قد يكون نبياً ولا يكون رسولاً؛ لأن الرسول يجمع بين وصفين: رسالة ونبوة، والنبي قد يكون نبياً غير مرسل، فالأنبياء أكثر والرسل أقل، والرسل يعني أرفع درجة؛ لأن الرسول هو من أُوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه.

والنبي من أُوحي إليه بشرع قد يكون شرعاً لمن قبله فيبلغ به ويكون تابعاً لشريعة من قبله؛ مثل كثير من أنبياء بني إسرائيل كانوا أتباعاً لشريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، لكن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول؛ لأنه جاء برسالة مستقلة وجاء بكتاب مستقل، هذا الفرق بين النبي والرسول.

يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ يعني أرسلنا رسولاً أو نبياً كلاهما يقول ما أرسلنا ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

- **ما معنى تمنى؟**

أكثر المفسرين على أن كلمة تمنى هنا معناها تلا القرآن، أو تلا ما أُوحي إليه، أو قرأ، تمنى معناها قرأ؛ ولذلك الله قال في اليهود، في بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي إلا تلاوة، فالتمني هنا معناها التلاوة.

بعض المفسرين يقول: "التمني هنا معناه تمني الشيء، فالنبي أو الرسول إذا تمنى شيئاً يحصل، يأتي الشيطان ويلقي فيما يتمناه ويرغب فيه ويحب أن يكون له، على أن التمني من الأمنية والأماني".

والصحيح أن المراد هنا بـ (التمني) هو قراءة الكتاب المنزل سواء القرآن أو غيره؛ فإذا تمنى وقرأ الكتاب، ألقى الشيطان في قراءته الوساوس والشبهات؛ يعني يشوش الشيطان، يشوش الشيطان على من يستمع لقراءته أو من يقرأ.

أما الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا شك أن الله عصمه من وساوس الشيطان، ولا يمكن الشيطان أن يوسوس أو يلقي الشبهات على النبي؛ لأن الله قد عصمه وحفظه، لكن قد يكون لمن يستمع من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يظن أو يشك بأن هناك يعني ما يلقيه الشيطان ويوسوس به، فيسمع أشياء يظن أنها من النبي.

هذا فتنة والشيطان يعني هدفه ومقصده هو صد الناس وإشغال الناس بالشبهات، الشبهات والوساوس حتى يقع من يقع في هذه الفتنة وهذه الشبهات فيتأثر بها، وهذه فتنة بلا شك وامتحان من الله عَزَّ وَجَلَّ كما سيأتي.

قال: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ يعني في تلاوته ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ﴾ أي يزيل هذا الذي يلقيه الشيطان عن الرسول وعن المؤمنين، وأما غيرهم فيبقى فيهم هذه الشبهات؛ لأنهم أخذوا بها وتمسكوا بها، أما المؤمنون والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقدمتهم لا يتأثرون، والله عَزَّ وَجَلَّ يزيل، ينسخ يعني يزيل ما يلقي الشيطان.

﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾؛ أي ما يريد الشيطان أن يوسوس للمؤمنين الله عَزَّ وَجَلَّ يذهبه ويزيله ويثبت مكانه ما يحكمه من الآيات، يعني ما فيه من الدلالات الواضحات المحكمات، الدلالات على صدق ما يقوله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ عليم بما يلقيه الشيطان، وحكيم حيث جعل الشيطان يلقي ليفتتن، لينفتن من ينفتن من غير المسلمين، من الذين في قلوبهم مرض، أو كذلك الذين يعني الكفار كما سيأتي، كما سيأتينا الآن، فهذه فتنة، ينبغي للمسلم أن يبتعد عنها وألا يتأثر بها؛ وأما الذين يتأثرون بها كما سيأتي هم ضعفاء الإيمان أو الكفار.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الحج: ٥٣]؛ يقول: هذا يجعله الله اختباراً وامتحاناً للمريضة قلوبهم بسبب الشك والنفاق، هؤلاء الذين يشكون أو عندهم نفاق يتأثرون بما يلقيه الشيطان ويسمعونه ويظنون أن هذا من كلام الرسول.

قال: ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الكفار الذين لا يقبلون الحق، قست قلوبهم فلم يتأثروا من زواجر القرآن ولا من دواعي القرآن ولا من هدايات القرآن.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ ممن كانت قلوبهم مريضة أو كانت قلوبهم قاسية ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج: ٥٣]؛ يعني هؤلاء في خلاف وفي محادة ولا يقبلون، ويفرحون بالشبهات ويفرحون بما يلقيه الشيطان؛ لأنهم يتأثرون، يتأثرون بهذا، وهم يريدون أن يقفوا على هذه الشبهات ويظنون أنها يعني يحتجون بها على الرسول وعلى المؤمنين فيفرحون بها، وهذه فتنة عظيمة، فتنة عظيمة.

- **أما المؤمنون، المؤمنون الصادقون فما موقفهم من هذه الشبهات وما يلقيه الشيطان في تلاوة الرسول؟ ما موقفهم؟**

قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]؛ ليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك، أهل العلم يعلمون بعلمهم يفرقون بين الحق والباطل.

ويعرفون أن كلام الله حق وأن كلام الشيطان باطل، فلا يتأثرون بما يلقيه الشيطان؛ يعلمون أنه الحق من ربك فيؤمنوا به، يؤمنوا بأن كلام الله حق وأن ما ينسخ الله ويزيله هو الحق، ويزيله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكلماته فيبطل ذلك الباطل فيؤمنوا به.

- **قال: يؤمنوا بحقيقته وقلوبهم ماذا قال؟**

﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾؛ تخبت له قلوبهم أي تخضع وتلين القلوب لكلام الله، ويزداد المؤمن إيماناً، وتطمئن قلوبهم وتنشرح صدورهم لما يسمعونه من القرآن والحق ولما ينتفع، لما يكون فيه نفعاً لهم.

أما هؤلاء المرضى القلوب والقاسية قلوبهم فهذا يزداد كفراً على كفرهم وضلالاً على ضلالهم، أما المؤمنون فتخبت له قلوبهم وتزيدهم هذه الآيات هداية على هدايتهم؛ ولذلك قال: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ هذا أثر الإيمان يزداد إيماناً.

والهداية من الله؛ ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مثل هذه المحن وهذه الفتن التي تقع يكون المؤمن صابراً محتسباً مطمئناً خابتاً قلبه، مطمئناً، مطمئناً يعني ساكناً خاشعاً لله ذليلاً، وذلك بسبب إيمانه ورسوخه وبسبب هداية الله له.

وبسبب هداية الله له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هداية الله له عَزَّ وَجَلَّ؛ كل ذلك يزداد المؤمن إيماناً، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى طريق الحق الواضح وهو الإسلام، والبعد عن الشبهات.

وأما الذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وهم الكفار لا يزالون في شك، لا يزالون ويكذبون ويردون الحق، ولا يزالون في مرية وستستمر المرية معهم والشك والريب والتردد في قبول الحق ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥]؛ تأتيهم الساعة فجأة وهم لا يدرون، حتى تأتيهم الساعة بغتة وفجأة وهم ما زالوا على تكذيبهم، على تكذيبهم، أو يأتيهم عذاب يوم عقيم.

أي عذاب لا خير فيه، عقيم لا يلد لا خير فيه؛ هذا اليوم يوم شر عليهم.

- **ما المراد بهذا اليوم؟**

عذاب يوم عقيم؛ تأتيهم الساعة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم، بعض المفسرين يقول إن عذاب يوم عقيم هو ما ينزل بهم من العذاب كما نزل بأهل مكة مما نزل بهم يوم بدر، وبعضهم يقول عذاب يوم عقيم إنه يوم القيامة، إنه يوم القيامة؛ ويكون المعنى حتى تأتيهم الساعة بغتة، فإذا جاءتهم الساعة وبغتة وقضت عليهم الساعة وماتوا، جاءهم ذلك اليوم الذي يرون فيه العذاب، الذي يرون فيه العذاب، فكأن الساعة

مقدمة لعذاب يوم القيامة؛ وهذا أرجح، هذا أصح؛ لماذا؟ لأن الله قال بعدها: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦] أي يوم القيامة.

إذا حصل ما حصل فالملك لله، الملك والسلطان لله لا ملك إلا لله، والله عَزَّ وَجَلَّ في هذا اليوم يقضي بين العباد، يقضي بين المؤمنين والكافرين؛ ولذلك فصل الله عَزَّ وَجَلَّ في قضائه.

قال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الحج: ٥٦]؛ أي الذين آمنوا وصدقوا ما جاءهم عن الله، وأيدوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة، هؤلاء وعدهم الله في جنات النعيم، يتنعمون نعيماً دائماً في هذه الجنات التي تجري من تحتها الأنهار والقصور.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [الحج: ٥٧]؛ والذين كفروا وجحدوا وكذبوا بآيات الله وردوا آياته، فأولئك النتيجة لهم عذاب مهين؛ لماذا قال لهم عذاب مهين؟ ما قال أليم ولا عظيم، قال مهين؛ لماذا المهين؟ الذي يهينهم ويخزيهم في جهنم.

- **لماذا قال مهين؟**

قالوا لأنهم لما أهانوا شرع الله، وأهانوا رسوله، وأهانوا المؤمنين، عاقبهم الله بالعذاب المهين، والجزاء من جنس العمل.

ويبين الله لنا أيضاً زيادة على مصير الفريقين هناك فريق ثالث هو من ضمن الفريق الأول وهم المؤمنون، ولكن الله خصهم بخصائص لما تميزوا فيه من المناقب وما تميزوا فيه من الصفات الطيبة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨]؛ تركوا ديارهم وتركوا أموالهم وتركوا أهليهم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والذين هاجروا في سبيل الله يعني لم يهاجروا إلا لله وفي نصرة دينه وإعلاء كلمته، ثم قتلوا في الجهاد، هاجروا وقتلوا في مجاهدة الكفار أو ماتوا من غير جهاد، فإن الله سبحانه يكتب لهم ما كانوا، ما كانوا قد نووه، فإن الله يكتب لهم على نيتهم؛ فإذا هاجروا هجرة في سبيل الله وفي نصرة دينه وقاتلوا المشركين وقتلوا، هؤلاء نالوا الشهادة العظيمة، وإن لم يقتلوا وماتوا على فرشهم فقد كتب الله لهم هذه الشهادة؛ ولذلك قال: ليرزقنهم الله رزقاً حسناً.

هذا الرزق قد يكون في الدنيا بأن يمكن لهم، بأن يمكن لهم ويرزقهم من حيث لا يحتسبوا، وقد يكون في الآخرة بحيث إنه، أن، أن يفوزوا بجنات النعيم في جنات لا ينقطع نعيمها ولا يزول.

ولذلك قال رزقاً حسناً، وإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خير الرازقين، وهذا تأكيد لأن الله قد، قد ضمن لهم هذا الرزق في الدنيا والآخرة، فالله خير الرازقين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الذي يرزق عباده من غير أن يحتسبوا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ تأكيداً لهم: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩] إما الجنة في الآخرة، أو أن الله يمكن لهم في الأرض ويرزقهم ويجعل له، ويجعل لهم التمكين في الأرض؛ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه، ويدخلهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا المدخل يرضونه إما جنات النعيم في الآخرة أو التمكين في الأرض.

قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عليم بنيات من يخرج؛ لأن قالوا والذين هاجروا، لأن قد تكون هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، أو يكون هجرته لأمور من امور الدنيا، والله عليم بمن خرج لإعلاء كلمته في سبيل الله ومن يخرج لطلب الدنيا، الله عليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿حَلِيمٌ﴾ بمن عصاه لا يعاجل عليهم العقوبة، بل يمهلهم ولا يهملهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]؛ هذا الأمر هذا الشيء؛ ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ يقول هذا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أي من عاقب، هذا في حكم القصاص، سواء قصاص بالنفس أو دون النفس، من أخطأ عليك وظلمك وتعرض لك فإن لك أن تأخذ حقك منه؛ ﴿مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ أي يعني من اعتدي عليه وظلم فقد أذن الله أن يقابل هذا الظالم بالاعتداء عليه؛ ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

و﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، هذا معناه من، من ظلم له أن يأخذ حقه، له أن يأخذ حقه وأن ينتقم من الجاني بمثل ما فعل به؛ السن بالسن والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن، فإذا أخذ، فإذا تعرض لك هذا من عدل الله في القصاص أن يبيح لك أن تنتصر من هذا الظالم بأن تأخذ حقك منه.

إلا إذا كان في أمور لا تجوز محرمة شرعاً، هذا لا يجوز؛ فلو فعل بشخص مجني عليه جاني، فعل به فعلاً لا يجوز محرماً مثل الوقوع في اللواط أو نحو أشياء محرمة، أو يعني نحو ذلك فإن هذا لا يجوز.

أما من فقئت عينه يفقع عينه هذا حكم الله، ومن جُرِح له أن يجرح وله أن يأخذ حقه لكن بشرط ألا يتجاوز، يأخذ حقه بالقصاص.

لكن لو بُغي على هذا الشخص المجني عليه الذي يُعتدى عليه، بُغي عليه فإن الله معه وإن الله ينصر، لينصرنه؛ لكن لاحظ في الآية ختم الله الآية قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ أي يعفو عن المذنبين ويغفر ولا يعاجلهم بالعقوبة، فأنتم أيها الناس إذا ظُلمتم فتخلقوا بأخلاق الله فاعفوا واصفحوا.

ولذلك الآية الأخرى قال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، فالذي يعفو ويتجاوز ويصلح ولا يأخذ حقه، بل يسقط حقه فهذا، فهذا عند الله أعظم.

لكن ينبغي التنبه إلى أمر مهم جداً، وهو أن الناس يختلفون، وأن المعتدين والظلمة أيضاً يختلفون؛ قد يكون هذا الشخص فعل هذه الجريمة أو فعل هذا الشيء أو أنه اعتدى على هذا الشخص وفقع عينه أو قطع شيئاً منه أو ضربه بشيء، هذا يُنظر في حاله: إن كان قد أخطأ ولم يتكرر منه هذا الأمر فهذا الأولى أن يُعفى عنه.

أما إذا كان رجلاً أو شخصاً متهوراً وهذه من عادته، ومستهتراً، ويتعدى على حقوق الناس، ويعني يتعدى على الأشخاص وهذه من عادته كما يفعله المتهورون، فهذا ينبغي ألا يُتسامح معه؛ لأن العفو عنه والتجاوز عنه يجعله يستمر في طغيانه وفي ظلمه، لكن مثل هؤلاء يُردعون ويُقام عليهم الحق حتى يكونوا عبرة لغيرهم، وحتى يقفوا عند حدهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العفو المتجاوز والغفور والذي أعطانا هذه الأحكام وبيّنها لنا، هو الذي يملك الدنيا وهو الذي يتصرف فيها، فهو يولج الليل في النهار؛ مما أبين لك من الأحكام، أبين لك من هذه الأمور، هو الذي يتصرف في الكون وهو الذي قادر على كل شيء، لا يعجزه من شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بيده ملكوت كل شيء.

ومن ملكوته ما نلاحظه أمامنا من هذا الليل والنهار، من تغيرات وارتفاع ونقصان، ودخول الليل في النهار والنهار في الليل بزيادة الليل ونقصان النهار أو العكس، كل هذا بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يملكه.

ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٦١]؛ سميع للأصوات لا يخفى عليه صوت دون صوت، سميع للأصوات كلها، بصير بالأفعال لا يخفى عليه فعل دون فعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو السميع البصير المطلع على عباده لا يخفى عليه شيء في الأرض.

سميع بصير، يسمع دبيب النملة، النملة السوداء ويبصرها في ليلة سوداء تحت صفاه سوداء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تحت حجر أملس أسود في ليلة سوداء مظلمة، دبيب نملة سوداء لا يخفى عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من صوتها، ولا يخفى عليه من حالها، وبصير بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]؛ هذا هو الحق سبحانه لا إله إلا هو، لا تنبغي العبادة إلا له، ولا الخضوع إلا له؛ لا كما يعبده المشركون من هذه الأصنام؛ ولذلك قال: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾؛ الدعاء هنا العبادة، يدعون ويعبدون من دونه هو الباطل بلا شك؛ لأنه لا ينفع ولا يضر، والنافع الضار هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولذلك قال: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

العلي على خلقه ذاتاً وقدراً وقهراً؛ فـ **(علو الذات)** مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، و**(علو القدر)**، و**(علو القهر)** المتعالي عن الأشباه والأنداد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هو العلي الكبير، كبير في ذاته وفي أسمائه وهو أكبر من كل شيء، والكل والجميع من المسلمين كل يوم يقولون: الله أكبر؛ أي من كل شيء.

أيها الإخوة، لعلنا نقف عند هذا القدر، وما ذكرناه فيه كفاية إن شاء الله، وإن شاء الله لنا لقاء قادم في استكمال هذه السورة، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحج ٦٣ - ٧١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم السادس عشر من شهر شوال من عام (١٤٤٣ هـ).

نجتمع في هذا المقام المبارك وبين أيدينا سورة عظيمة من سور القرآن الكريم وهي سورة الحج، ونحن في أواخر هذه السورة وقف بنا الكلام عند الآية الثالثة والستين؛ نواصل عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣].

دائماً -يعني وإحنا نقرأ القرآن ونتأمل الآيات ونتدبر هذه الآيات- تأتي آيات كونية ملفتة للأنظار؛ السماء، الأرض، السحاب، المطر، الجبال، الأنهار. هذه الآيات التي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكرنا بها تدل في الحقيقة على أمرين؛ الأمر الأول حتى نتدبر يا إخوان نتدبر نفهم هذه المعاني:

الأمر الأول: بيان عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ وقدرته في الكون، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ هذه لا بد أن نتنبه لها.

الأمر الثاني: بيان أثر هذه الأشياء على الناس بأنها نعم عظيمة؛ الجبال نعم علينا تثبت الأرض، السماء نعمة: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، السحاب نعمة، الأمطار نعمة، الخضرة نعمة.

هذه تذكرنا بأن فعلاً نتدبر مثل هذه الآيات، ونجمع بين أن نعرف أو نتعلم ونعلم عظمة قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإحاطته بالكون وتصرفه في الكون وتدبير الكون، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ الأرض كلها، كل الأرض قبضته يوم القيامة، والسماوات السماوات السبع مطويات بيمينه، تدل على عظمة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذا وعلى نعمة الله علينا.

ولذلك شوف لاحظ الآية لما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ ماذا قال بعدها؟ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

اللطيف هو الذي يسوق لك الرزق وأنت لا تشعر، فهذه نعم عظيمة. فدائماً أيها الإخوة إذا مرت منها آيات كونية: السماء، السحاب، الأرض، البحار، الجبال، الدواب، الخضرة، الزروع، النبات، هذه قف عندها؛ تدل على عظمة الخالق؛ فعظمته وقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه المخلوقات.

وأنه لا يعجز، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنه عالم بها وبخفاياها، وفي نفس الوقت هي نعم عظيمة يجب علينا أن نشكر الله عليها؛ ما خلق الله هذه الأشياء إلا لمصالح العباد، وستأتيك آية بعدها تشعرك حقيقة بأن الله، أنعم الله على العباد بهذه النعم.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ هنا: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ هذا استفهام أيها الإخوة، استفهام يسميه العلماء استفهاماً تقريرياً؛ يعني أن الله يسوق لك هذا الأسلوب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يعني ما علمتَ، كيف خفي عليك وهو يقرر عليك؟ يقرر أن هذا الأمر كلنا نعرفه ولا يخفى على عاقل؛ أن الله أنزل من السماء ماء، يعني هذا أمر تقريري. لما أقول تقريري يعني أنت في قرار نفسك تعترف به لا تنكره؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ يخاطبك وأنت تعلم، يقول لك: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أنت ماذا تقول؟

تقول: نعم أعلم أن الله أنزل من السماء ماءً، ولم يستطع أحد أن ينزل من السماء ماءً إلا بعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا من خصائص الله.

فقوله هنا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ نقول ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هنا رأى بمعنى علم وبمعنى أبصر؛ يقول: أما علمتَ، أما علمتَ وعرفتَ وأدركتَ أن الله هو الذي ينزل من السماء ماءً؟ وما شاهدتَ ببصرك وعلمتَ ببصيرتك أن الذي ينزل من السماء الماء هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ وأنزل من السماء هذا الماء الطاهر الطهور النافع المبارك.

في آيات أخرى قال: ﴿مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]، وفي آية أخرى قال: ﴿مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩]؛ فهو فيه بركة وفيه طهارة. قال: أنزلنا من السماء؛ المراد بالسماء هنا هو ليست السماء الحقيقية، وإنما المراد بها العلو، العلو وهو السحاب؛ أنزل من السحاب ماءً مباركاً طيباً طاهراً.

- **ماء من السماء فإذا أنزله ماذا تصبح الأرض؟**

قال: إذا أنزله فاختلط، فاختلط به نبات الأرض، فسلكه ينابيع؛ النتيجة تصبح الأرض مخضرة، بساطاً أخضر، انقلبت بعدما كانت مغبرة إلى كونها مخضرة؛ مغبرة شهباء لا رائحة لها ولا منظر بديع لها، فقلبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في لحظة بكونها مخضرة، طيبة الرائحة، بهية يعني لونها جميل، حسنة المنظر، كثيرة الألوان والأشجار؛ كل هذا الذي أحياها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: ٣٩].

وهذا فيه إشارة تغيير؛ هذا الشيء المغير هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي بدل الحال، بدل حال كونها مغبرة إلى مخضرة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يذكرك بقدرته على البعث، على البعث.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها يعني مخضرة بالنبات، وبعدين قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. لطيف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ اسم اللطيف هذا اسم عجيب أيها الإخوة، لطيف من أسماء الله العجيبة.

- **ما معنى اللطيف؟**

قال: اللطيف الذي يعلم خفايا الأشياء؛ من الذي أنبت هذه الأشياء؟ من الذي استخرجها من تحت الأرض؟

من الذي أعطاها هذه الألوان وهذه الأشكال وهذه وصغّر الأشياء فيها وكبّرها وطوّلها وقصّرها؟ من الذي علم ذلك وأعطاها إياه إلا اللطيف الذي يعلم خفايا الأمور.

وللطيف له معنى آخر أيضاً؛ الذي يسوق الرزق للعبد من غير أن يشعر، الله يلطف بك ويسوق لك الأرزاق وأنت لا تشعر؛ وأنت نائم، وأنت ساهٍ، وأنت لاهٍ، وأنت غافل، يسوق الله لك الرزق وأنت لا تشعر، فهو لطيف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وخبير بمصالح العباد بما ينفعهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لطيف خبير، ولذلك تلاحظ اسم اللطيف الخبير مناسب جداً لذكره في هذه الآية؛ فالذي أنزل من السماء هذا الماء العظيم المبارك الطيب الطاهر، وأنبت هذه الخضرة الطيبة الطاهرة النافعة هو اللطيف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ الذي يسوق الأرزاق ويلطف بعباده ويعلم، يعلم أسرار الأشياء.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعد؛ حتى يبين لك، يعني يؤكد، يؤكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على أيضاً على سعة قدرة الله وسعة ملكه، وأن هذه الأرض جزء قليل من ملك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤].

السماوات السبع وما فيها ملك لله، وما في الأرض، السبع الأراضين السبع وما فيهن ملك لله؛ له ملك السماوات والأرض، فإذا ساق لك الرزق وأنبت لك، وأنبت لك الزرع، وأدر لك الضرع، هذا شيء قليل من خير الله وفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلذلك قال: له ما في السماوات خلقاً وملكاً وعبودية، كلهم يعني محتاجين، كلهم يحتاجون إلى الله، والله الذي أحاط بهم له ما في السماوات وهو الغني سبحانه، غني وهم الفقراء؛ وهو الغني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هم الفقراء وهو الغني عَزَّ وَجَلَّ، وهم المحتاجون وهو غني عنهم وفضله فوقهم، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

نلاحظ أيضاً حتى نتدبر الأسماء، أسماء الله الحسنى عندما ندري، عندما نتدبرها؛ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾، ليش جاء هنا غني حميد وقبلها لطيف خبير؟ هذا يدعوك إلى أن تتأمل، يدعوك إلى أن تتدبر؛ الغني لأن ملك السماوات والأرض له وما فيهن له، فهو غني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **ومع أنه غني، حميد؛ ما معنى حميد؟**

يعني يحمده العباد على كثرة فضله وعطائه. يعني الآن أيها الإخوة في عالم المخلوقات وعالم الإنسان، تجد من الناس من هو غني لكن ليس غنياً حميداً؛ تجده غنياً بس مو محمود، ليش؟

لأنه غني بخيل، غني لا ينفق عنده أموال طائلة ويملك ولكن لا ينفع ولا نفسه، فهذا نسميه غنياً، نسميه غنياً غير منتفع؛ لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غني حميد، بمعنى أنه غني ويعطي ويبذل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يعني يده سحاء بالليل والنهار يعطي سبحانه، بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، فهو غني حميد.

ومعنى الحميد هو الذي يحمده الناس على غناه وعلى فضله وعلى أفضاله على العباد وإعطائه؛ ينفق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعطي ويبسط الرزق لمن يشاء، فهذا معنى الغني الحميد، كل هذه فيها تعظيم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كل هذه الآيات فيها تعظيم لله، لقدرته، لعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لملكوته، لسعته، لعبوديته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم تؤكد الآيات زيادة على ذلك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]. كل ما في الأرض مسخر لك أيها الإنسان بقدرة الله وعلمه، ويجب عليك أن تشكر الله على ذلك.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ يقول: ألم تبصر وتعلم أن الله ذلل وسخر كل ما في الأرض؟

حتى الدواب تجد، يعني الجمل والبعير والناقة على كبر حجمها يقودها الطفل الصغير وتنقاد له، من الذي جعلها تنقاد إلا الذي سخرها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وذللها؛ دواب وبهائم وزروع وثمار وجبال وأراضي وحديد، كل ذلك سخره الله لهذا الإنسان؛ سخر لك كل ما في الأرض حتى تشكر الله.

وزيادة على ذلك، وخصوصاً ما فيها منافع الناس في ركوبهم وحمل بضائعهم ومنافعهم، ذللها الله لهم وهي السفن، الفلك تجري في البحر بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبأمره؛ فتحمل الأمتعة والبضائع وتحمل الناس، ويتنقلون من بلاد إلى بلاد على هذه السفن فوق البحار، والله هو الذي يسيرها؛ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كل هذا يحتاج منا أن نتأمل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومن نعمه وفضله علينا أن قال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾. يمسك السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن تقع على الأرض إلا بإذنه، يعني لولا أن الله عَزَّ وَجَلَّ أمسك السماء لوقعت علينا، لسقطت علينا؛ لكن الله، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمسكها لنا، أمسكها علينا سبحانه، أمسك السماء لنا حتى لا تسقط.

هذه نعمة من الله جَلَّ وَعَلَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أن أمسك السماء حتى لا تسقط علينا؛ هذا كله فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ لولا أن الله أمسكها لسقطت علينا، ما الذي يمسكها؟ لا، ليس لها أعمدة ولا شيء، فالذي أمسكها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي آية أخرى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١]؛ ما أحد يستطيع أن يمسكها، فمن فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن أمسك السماء حتى لا تقع. لو فرضنا أنها وقعت، ماذا سيجري؟ ماذا سيحصل؟ سيهلك الخلق كله؛ لو وقعت على الأرض ما بقي أحد يمشي على الأرض.

سقطت السماوات السبع على هذه البسيطة وعلى هذه الأرض، لدُكت الجبال دكاً، ولم يبقَ أحد يمشي على الأرض، ولم يبقَ أحد فيه حياة؛ فمن رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وفضله علينا أن أمسك السماء وهي سقف لنا وفيها ما فيها من المنافع، ويمسكها أن تقع على الأرض إلا بإذنه، لو أراد لسقطت إذا أراد الله، إلا بإذنه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ شديد الرحمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رؤوف بعباده رحيم بهم، لا يعاجلهم بالعقوبة؛ يعصونه ويجاهرون بالمعاصي ويحادّون الله ويظهرون معصيته أمامه ويجهرون بها ويتحدّونه، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رؤوف رحيم لا يعاجلهم، لا يعاجلهم بالعقوبة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل يلطف بهم ويسخر لهم ويرحمهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال بعدها أيضاً: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ الْأَنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦]. كل هذه يسوق الله يعني نعم عظيمة علينا؛ يجب علينا أن نشكر الله وأن نحمد الله على هذه النعم، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. من نعم الله أن أحيانا عَزَّ وَجَلَّ بعدما كنا معدومين غير موجودين، كنا في ظهور آبائنا معدومين، فلما انتقلنا إلى أرحام الأمهات أحيانا الله.

أحياناً وأخرجنا فأوجدنا بعد العدم، أحياناً، ثم يميتنا إذا عشنا على هذه الدنيا أعماراً مقدرة وآجالاً محددة؛ ليميتنا الله عَزَّ وَجَلَّ عندما تنقضي هذه الأعمار وهذه الآجال، ثم يحيينا بعد ذلك بالبعث لمحاسبة العباد على أعمالهم وجزائهم إما بجنة أو نار: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

قال الله: ﴿إِنَّ الْأَنسَانَ لَكَفُورٌ﴾؛ الإنسان جاء يجحد نعمة الله ويكفر نعمة الله، الآيات أمامه، وقدرته أمامه، ووحدانيته أمامه، ومع ذلك يكفر ويجحد.

وأنت تسمع وتقرأ في القرآن كيف كان الكفار يجحدون البعث: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، وفي آية قال: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٦]؛ كل هذا تحدٍ وكفرانٌ لقدرة الله، وكفر الإنسان؛ يكفر قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ على البعث سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعد ذلك لكل أمة من الأمم الماضية: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِى الْأَمْرِ ۚ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

لكل أمة جعلنا لها شريعة، لكل أمة جعلنا منسكاً أي شريعة؛ شريعة يتعبدون الله بها، يتعبدون الله بها فهم ناسكوه، وهم متعبدون لله؛ يعني وقد أشرع الله لهم.

فلماذا قومك ومشركو العرب ومشركو قريش يردون وينازعونك في الأمر؟ لماذا ينازعونك وهي عبادة فرضها الله وأنزل، أنزلها عليك لتدعو الناس عليها؟

قال: ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ فاعرض عنهم ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ ادعُ إلى توحيد الله وإلى عبادته وإخلاص العبادة له واتباع أمره؛ لأنك على دين صحيح وعلى صراط مستقيم لا عوج فيه.

وإن جادلوك واستمروا على جدال وناقشوك وردّوا وأرادوا دحض دينك ودحض شريعتك وردّ، وردّها ف ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج: ٦٨]؛ الله هو الذي يعلم أعمالكم ويجازيكم ويحصيكم عليها، هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ممن يؤمن وممن يكفر، ومن يكذب وممن يعاند وممن يكابر، الله أعلم بما تعملون.

والنتيجة أن الله يحكم بينكم يوم القيامة؛ فإذا نازعوك وكفروا وجادلوك فالنتيجة، فنتيجة يوم القيامة يقضي بين العباد ويفصل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويحكم يوم القيامة بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون في أمر دينهم ودنياهم.

وفي هذا بيان رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن بعث الرسل وبعث نبيه بهذا الدين العظيم، ورحمته أن يجازي المحسن على إحسانه؛ ومن عدله أن يقضي على مثل هؤلاء الذين يجادلون ويخالفون ويردون دعوة الله جدالاً فيه تعنت واستكبار، أن الله سيجازيهم يوم القيامة، وفي هذا تهديد لهم.

وكيف يغيب عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا الشيء أيها الإخوة؟ كيف يغيب عن الله هذه الأمور؟ كل شيء أحصاه الله بأدق وبما لا تستطيع أن تتصوره؛ اقرأ هذه الآية العظيمة، يقول: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]؛ يعني هل غاب عنك وذهلت ولم تعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم ما في السماوات؟ بلا شك المؤمن لا يغيب عن هذا الأمر بأن الله يعلم ما في السماوات والأرض، يعلم ما في السماء والأرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

يقول: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ أي في اللوح المحفوظ؛ علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكتبه قبل خلق السماوات والأرض. أول ما خلق الله القلم قال: «اكْتُبْ»، قال: «مَا أَكْتُبُ؟»، قال: «اكْتُبْ مَقَادِيرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ»؛ فكتب كل شيء، كل حركة وكل نطق ينطق به الإنسان، يتكلم به، أو يفعله، أو يعمله، أو يذهب، أو يأتي، أو يصنع، أو شيء، أي شيء؛ أو ينفق مالاً، أو صدقة، أو يقوم يصلي، أو يفعل كذا، أو يفعل من الأفعال المحرمة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ وهو على الله يسير، سهل في علمه وإحاطته وكتابته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالله علم وقدّر، علم وكتب وقدّر وشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذه تسمى مراتب، مراتب القدر: (العلم)، و(الكتابة)، و(المشيئة)، و(الخلق)؛ يعلم ويكتب ويقدر ويشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كل ذلك بمشيئته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدرته.

وأما الكفار فلا يعلمون ذلك ولا يدركون هذا الأمر؛ ولذلك قال الله فيهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١]. إذا جاء يوم القيامة أو حلّ بهم العذاب، فهم يعبدون أصناماً، ويعبدون آلهة، ويعبدون أمواتاً لا ينفعون أنفسهم؛ يعبدون ما لم ينزل به سلطاناً، ما عندهم دليل شرعي نقلي، وما ليس لهم به علم ولا عقلي.

فهم يعني ليس لهم يعني شيء يستندون إليه لا عقل ولا نقل؛ كيف يطوف على ميت ويسأل الميت ويقول: ارزقني، ارزقني وأعطني وفكّ عني كذا فك كربتي، وتأتي المرأة تقول: ارزقني ولداً وسهّل عليّ ولادتي وأفعلك، وهو ميت لا يشعر ولا يسمع! ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]؛ فكيف يعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم؟ وما للظالمين من نصير.

لعلنا نقف عند هذا القدر لا نطيل عليكم، فيما أخذناه فيه كفاية، وإن شاء الله لعلنا في لقائنا القادم في الأسبوع القادم نستكمل ما توقفنا عنده. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحج ٧٠ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

اللّهم إني أسألك علماً نافعاً، وعملاً صالحاً متقبلاً يا رب العالمين. اللّهم اجعلنا وإياكم ممن يستعمله الله في طاعته.

أيها الإخوة الكرام، درسنا؛ درس الثلاثاء مع تفسير القرآن العظيم، ونحن في أواخر هذه السورة الجليلة العظيمة وهي سورة الحج، ونواصل ما توقفنا عنده، وهذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثالث من شهر شوال من عام (١٤٤٣ هـ). وقف بنا الكلام عند قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

هذه الآية -رقم سبعين من سورة الحج- الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسوقها لنا ويخاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أولاً، ويخاطب الأمة التي هي تبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يخاطب كل إنسان، يخاطب؛ يخاطبني ويخاطب كل مسلم ويخاطبك، يقول: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾؛ يقول: أما علمت؟ و

هذا أسلوب استفهام يراد به التقرير، يعني: قد علمتَ، واعلم، وتأكد وتيقن أن الله يعلم ما في السماء والأرض، يعني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم كل ما في السماء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سبحانه، يعلم ما في السماء والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، لا يغيب عنه ولا يعزب عنه شيء.

يقول: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي هذه المعلومات وهذه الحقائق ﴿فِي كِتَابٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ يعني علمه وإحاطته وكتابته كلها يسير على الله، قد أراده الله وشاءه وقدره وأوجده وخلقه.

وهذه الآية وقف عندها أهل العلم وأخذوا منها ما يتعلق بالقضاء والقدر، فقالوا: مراتب القدر أربعة؛ مراتب القدر أربعة: (العلم)، و(الكتابة)، و(المشيئة)، و(الخلق).

والله علِمَ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، علمه واسع محيط بكل شيء، بكل شيء، وهذه المعلومات قد كتبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في اللوح المحفوظ؛ ما من حركة في

السماوات وفي الأرض تتحرك إلا وقد كُتبت في اللوح المحفوظ؛ ما من مولود يولد، أو ميت يموت، أو رجل يرزق، أو شخص يصاب أو يمرض، أو يتزوج، أو يفتح الله عليه من العلم، أو يفتح الله عليه من أمور الدين أو الدنيا، كل ذلك في كتاب.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وهذا العلم واللوح المحفوظ قد أراده الله سبحانه وشاءه، لو لم يرده لم يوجد؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ أراده وشاءه ثم أوجده، وهذه المراتب؛ مراتب القضاء والقدر، مراتب في القدر مرتبة ترتيباً دقيقاً؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يعلم كل شيء، وقد كتب كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأراد هذه الأشياء، لو لم يردها لم توجد، أرادها وخلقها وأوجدها.

بعد ذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يعني على عظمة الخالق وعلى عظمته، على سعة علمه وإرادته وكتابته وإحاطته ورحمته التي وسعت كل شيء، يأتي هؤلاء المساكين ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم! كيف تعبد حجراً وتعبد شجراً، وتعبد ميتاً تطوف حول قبره وتسأله وتدعوه؟! تعبد أصناماً، تعبد أمواتاً!

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١]. الله ما أذن لهم، ولا أنزل الله حجة لهم بشيء، ولا دليل لهم على ذلك، ما عندهم في ذلك علم، فيعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم، ما عندهم لا عقل ولا نقل، لا دليل شرعي ولا دليل عقلي.

- **كيف تعبد من دون الله؟!**

تعبدون أبقاراً، وتعبدون حجارة، وتعبدون حيوانات، وتعبدون مخلوقات لا تنفع ولا تضر، وأمواتاً!

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾؛ سمى هؤلاء الذين يعبدون من دون الله ويشركون بالله ما لم ينزل به سلطان سماهم ظالمين؛ لأن الشرك هو أشد الظلم، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾؛ هذا تهديد لهم بأن العذاب سينزل بهم، وإذا نزل بهم ليس لهم أحد ينصرهم ويرد عنهم هذا العذاب، بل سينزل بهم، ولا يستطيع أي مخلوق أن يرد عذاب الله عنهم.

ثم إن هؤلاء؛ هؤلاء المشركين، ثم إن هؤلاء المشركين العابدين من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، هؤلاء الذين يطوفون حول القبور ويعبدون الأصنام ويعبدون الحجارة والأشجار ويشركون بالله، في قلوبهم غل وحقد وكراهية على أهل الخير والصلاح؛ لا يحبون أهل الطاعة، ولا يحبون الذين يأمرونهم بالمعروف والخير، بل هم يعدونهم من أشد الناس عداوة لهم.

ولذلك قال الله في هذا قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢].

إذا تتلى على هؤلاء المشركين وهؤلاء العابدين من دون الله، إذا تتلى عليهم آياتنا بينات -الآيات القرآنية يسمعونها واضحة الدلالة- تعرف في وجوههم المنكر؛ ترى الحقد في قلوبهم والكراهية، ووجوههم قد عبست واكفهرت في وجوه المؤمنين من شدة الحقد والكراهية للمسلمين، تعرف في وجه الكافر المنكر؛ يعني الحقد والكراهية للمسلمين، وتعبير الوجه وشدة العداء؛ شدة ما في قلوبهم تظهر على وجوههم.

تعرف في وجوههم المنكر، ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾؛ يكادون ينتقمون منهم بالضرب والقتل ويعني بأي وسيلة من ذلك، لشدة بغضهم وبغض ما جاؤوا به من تلاوة القرآن.

يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا، وهذه طريقة أعداء الإسلام، طريقة الحاقدين، طريقة المتكبرين الطغاة؛ لا يناقشون، ولا يستطيعون أن يقبلوا الحق، فلذلك أسلوبهم أسلوب القوة، يستعملون القوة؛ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم، يستعملون القوة.

أما الحجة ومقابلة الحجة بالحجة والدليل بالدليل ليس عندهم، ولذلك فرعون؛ فرعون لما جاءه موسى بالدليل والحجج القوية والبراهين والسلطان القوي ماذا قال؟ قال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]؛ لماذا تستعمل القوة؟ لماذا لا تحاج؟ لماذا لا تناقش؟

وقوم إبراهيم لما حاجهم إبراهيم وأقام عليهم الحجة، قالوا: ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، هذه طريقة الجهال أعداء الإسلام، هذه هي طريقتهم يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا.

قال الله: قل لهؤلاء المشركين أعداء الإسلام، قل لهؤلاء، قل لهؤلاء أعداء المسلمين، قل لهم: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾؛ هل تريدون أن أخبركم بشر من ذلكم، بشر من هذه الأفعال التي تفعلونها، وثمرة هذه الأفعال؛ الكراهية والحقد والضرب والقتل بإخوانكم المسلمين؟

يعني هل أخبركم بشر ما يؤول إليه حقدكم هذا؟ ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢]؛ النار التي تنتظركم، النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير.

هذا يعني التي تنتظركم؛ الشر بشر من ذلك، الشر الطويل العريض، الشر هو أشد مما أنتم تفعلونه الآن؛ ما تنتظركم النار التي ستصلونها وستقاسون حرها وستجدون آلامها الشديدة على أبد الآبدين، وبئس المصير، بئس المرجع لكم والمآب والعودة إلى مرجعكم بعد موتكم

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد أن يبين لنا؛ يعني موقف هؤلاء الذين يعبدون من دون الله، وأيضاً موقف هذه الأصنام؛ هذه الأصنام التي تُعبد من دون الله هل تنفع نفسها أو تضر نفسها؟ هل تفعل شيئاً من ذلك؟

ليس بيدها شيء، اسمع يضرب الله لنا مثلاً عظيماً، وقبل أن يضرب لنا هذا المثل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينادي الناس، ينادي الخلق جميعاً، المؤمن والكافر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

يقول: يا أيها الناس اسمعوا؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾؛ اسمع لهذا المثل، فاستمعوا له، ألقوا سمعكم إليه واسمعوا، اسمعوا بتفهم وإدراك.

هذا المثل استمعوا له، والمثل الذي يضربه الله لا يضربه عبثاً، لا يضربه عبثاً، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ الأمثال يضربها الله للناس لعلهم يتفكرون، يتعلمون ويتفكرون ويتأملون في هذه الأمثال، فهذا المثل الذي يسوقه الله لنا لعلهم يعني يدركون ويتفكرون في هذا المثل.

يقول: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، ألقوا أسماعكم واستمعوا لهذا المثل وافتحوا قلوبكم؛ افتحوا قلوبكم لا تفتح أذنك وقلبك لاهٍ، بل افتح قلبك وافتح أذنك واستمع بأذنك واستمع بقلبك، وألقِ سمعك؛ وألقِ قلبك لتدرك هذا المثل.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾؛ هذه الأصنام والاموات والمخلوقات التي تدعونها والاشجار والحجارة والأصنام، هذه تدعونها من دون الله ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾؛ أصغر الحيوانات وأحقر الحيوانات، يضرب الله بالذباب في حقارته وخسته وضعفه.

هؤلاء الأصنام لو اجتمعت على أن تخلق ذباباً لن تستطيع، فكيف تعبدون شيئاً لا يستطيع يخلق أحقر الحيوانات وأحقر المخلوقات وأخسها وأضعفها؟! فإذا كانت لا تستطيع أن تخلق ذباباً، فإنها لا تستطيع أن تخلق ما فوق الذباب من الحيوانات، لن تستطيع تخلق ولا شيء، فالذي خلق الإنسان وخلق الحيوانات وخلق أكبر مخلوق وخلق السماوات وخلق الأرض هو الذي يستحق العبادة.

أما هذه التي لا تستطيع أن تخلق ولا ذباباً، ولو اجتمعت هذه الأصنام كلها حول هذا الذباب تستطيع أن تخلق ذباباً؟ ﴿وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾؛ ولو أراد الذباب هذا أن يأخذ شيئاً منهم، يسلب شيئاً منهم، ما استطاعوا أن يستنقذوه، أن ينقذوا هذا الذي أخذه.

فلو جاء هذا الذباب عند هذه، لو جاء هذا الذباب عندما يقدمونه من القرابين لهذه الأصنام ولهذه الأموات ويذبحونها، جاء الذباب وأخذ شيئاً من هذه القرابين وهذه الأطعمة التي يضعونها أمام الأموات، لو أراد أن يأخذ هذه الأصنام ما تستطيع، لو اجتمعت ما تستطيع أن ترد هذا؛ وهذا يدل على غاية العجز في هذه المخلوقات.

الذباب ضعيف، والأصنام أضعف من الذباب، والمعبودات هذه أضعف، ما تستطيع تستنقذ ما أخذه الذباب؛ لو أخذ شيئاً يسيراً، قطعة صغيرة، ما استطاعوا أن يأخذوه منه ويستنقذوه منه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾؛ المعبود وهذا، ضعف الطالب والمطلوب؛ فالطالب هو المعبود، هذا الصنم ضعيف، والمطلوب هذا الذي فر وطار وأخذ هذا الشيء وسلبه منهم، هذا هو المطلوب؛ هم يطلبونه.

فالطالب الصنم والمطلوب الذباب، الذباب أخذ فهو مطلوب يراد أن يؤخذ ما أخذه، أن يأخذ ما سلبه منهم، فهو مطلوب، فكل منهم ضعيف، كل منهم أضعف من الآخر؛ وضعيف يتعلق بضعيف، فكيف يُعبد من دون الله الضعيف ويأتيه ضعيف ولا يستطيع أن يدفع؟! كل منهم ضعيف، قال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

وبعض المفسرين يقول: "ضعف الطالب أي الطالب"؛ أي هذا الذي يعبد من دون الله، هذا الرجل المشرك طالب يطلب من هذا الصنم ومن هذا الميت تطلب منه حوائجك؛ ضعيف أنت وهذا المطلوب أضعف منك، ما عنده شيء يعطيك إياه، ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾[فاطر: ١٤].

فضعف الطالب والمطلوب كلهم ضعفاء، قال: كيف تجعلون المطلوب وهو الذباب، أو هذه الأصنام المطلوبة أو الطالبة، تنزلونها منزلة رب العالمين؟! كيف تنزلونها؟!

- **ولذلك قال الله بعدها ماذا؟**

قال: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]؛ حيث سوّوا الفقير العاجز الضعيف من هذه الأصنام بالغني القوي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾؛ وهذه الأصنام ضعيفة لا قوة لها ولا عزة، فكيف تعبدونها؟! لا تنفع ولا تضر، ليس لها ملك، لا تملك لا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، كيف لا تنفع نفسها ولا تدفع عنها الضر تعبدونها من دون الله؟!

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾؛ لو عرفوا الله حق قدره لما عبدوا من دونه هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، إن الله قوي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إن الله قوي عزيز، إن الله لقوي عزيز.

قال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]. هذا من فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا يدل على فضله وعلى منّته وعلى رحمته؛ أن يصطفي، يختار من الملائكة رسلاً ومن الناس، يصطفيهم لماذا؟

لينزلوا وحيه على الناس ورحمته على الناس وروحه وحياته على الناس، ينزلون هذه الروح وهذه الحياة التي تحيا بها القلوب، وهذه الرسالات وهذا الوحي من الله، يصطفي من الملائكة كما اصطفى

جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجعله هو الواسطة بينه وبين الخلق، واختار له وجعله وهو ملك الوحي ينزل بالرسالات. واصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس اصطفى رسلاً كثيرين من الناس؛ نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيرهم، يصطفي رسلاً من الناس.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾؛ إن الله سميع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سميع وبصير؛ يعني سميع لعباده وسميع سبحان القدر، أحاط سمعه بكل شيء وبصره بكل شيء، فيختار؛ يختار عن علم وعن بصيرة، لا يختار عن عبث، والوحي ينزله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على من يشاء من عباده ليكونوا يعني في دورهم أن يصلحوا العباد.

قال: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝٧٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٧٦﴾ [الحج: ٧٥-٧٦]. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعلم ما بين أيدي الخلق؛ يعني ما بين أيديهم في المستقبل، وما خلفهم مما مضى في الناس وفي الملائكة، يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني ما سبق مما عملوه وما سيعملونه.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ ترجع الأمور لأن الله يرسل الرسل يدعون الناس، يدعون الناس؛ فمن أجابهم فهو على خير، ومن رد دعوتهم فهو الذي خسر نفسه، خسر نفسه في الدنيا والآخرة، وإلى الله ترجع الأمور فيجازي كلاً بعمله.

ثم يخاطب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده المؤمنين بعد هذا البيان، يخاطبهم بعد بيان الوحي، يخاطب الله عَزَّ وَجَلَّ عباده المؤمنين، يخاطب عباده المؤمنين بقوله؛ يخاطب عباده المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ [الحج: ٧٧].

يناديهم بصفة الإيمان ويذكرهم بما عندهم من الإيمان؛ ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ يعني أقيموا الصلاة وتمسكوا بها، اركعوا واسجدوا؛ حافظوا على صلاتكم بركوعها وسجودها، وذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعظم أركان الصلاة: الركوع والسجود، الركوع والسجود في قوله تعالى: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾.

﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾؛ يعني الزموا طاعة الله، يعني بعدما أمرهم بالصلاة أمرهم بسائر العبادات، أمر بسائر العبادات، ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. وافعلوا الخير، اعبدوا ربكم، قال: وافعلوا الخير؛ وقوله: ﴿وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ يعم كل خير من صلاة وزكاة وصيام وسائر الطاعات والذكر وغير ذلك، افعل الخير.

ثم علق هذه الأعمال بالفلاح؛ متى ما قمت بهذه الأعمال من الصلاة والركوع والسجود والعبادة والخير، فإن هذا رجاء أن يفلح صاحبه، رجاء أن يكون قد أفلح في الدنيا وأفلح في الآخرة؛ سعد في الدنيا وسعد في الآخرة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

يعني هذه العبادات والطاعات تحتاج منا، تحتاج منا إلى جهاد، وأن نجاهد عدونا؛ نجاهد أعداءنا من المشركين، ونجاهد عدونا الشيطان، ونجاهد أنفسنا، ونجاهد أنفسنا بالطاعة، فقوله جاهد عام؛ جاهد في الله أي في طاعة الله، تحتاج النفس إلى جهاد.

قال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾؛ اختاركم وجعلكم مسلمين، جعلكم.

ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾؛ لماذا قال هذه الجملة؟ لأنه لما قال: ﴿وَجَاهِدُوا﴾ قد يظن بعض الناس أنه يتعب نفسه، يتعب نفسه في المجاهدة؛ فقال: جاهد نفسك لكن لا تشق على نفسك؛ فإن الله رفع عنك الحرج ورفع عنك الإثم، ما جعل عليكم في الدين من حرج، لا تحرجوا أنفسكم؛ فإن الله قد يسر لكم ورفع عنكم المشقة والعسر، وأبدل العسر يسراً والمشقة بالسهولة، فلا تشق على نفسك.

إن كنت مسافراً وأنت صائم فأفطر، وإن كنت مريضاً وأنت صائم فأفطر، إن كنت لا تستطيع الحج لعجز بك فإن الحج يسقط عنك، إن كنت لا تستطيع أن تسيل الماء؛ يعني تتوضأ بالماء فتيمم، إن كنت لا تستطيع أن تصلي قائماً صلِّ قاعداً أو على جنب، كل هذا من تيسير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من تيسير الله؛ و(**المشقة تجلب التيسير**)، و(**الضرورات تبيح المحظورات**). فينبغي للإنسان أن يشكر الله على نعمة تخفيف هذا الدين، وأن الله رفع الحرج.

وهذا الدين الذي يعني أوصانا الله به وأمرنا الله به هو ملة أبينا إبراهيم؛ ينبغي أن نلزمها، نلزم ونتمسك بملة أبينا إبراهيم، ملة أبينا إبراهيم هي الحنيفية السمحة، هي دين الله الحنيف السمح؛ ينبغي لنا، هي ملة، هي الملة الحنيفية السمحة التي ينبغي لنا أن نتمسك بها.

قال: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ الضمير يعود إلى الله، الله سمانا المسلمين؛ ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾ في الكتب السابقة، ويحتمل أن يعود إلى إبراهيم؛ لأن إبراهيم قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، فيحتمل أن يكون إبراهيم أو يكون الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي سمانا المسلمين في؛ هو سماكم المسلمين من قبل هذا؛ قبل أن ينزل هذه الشريعة وقبل أن يُبعث محمد، وفي هذا القرآن وفي هذه البعثة وفي هذه الرسالة والقران.

قال: ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾؛ يعني الرسول يشهد أنه بلغكم الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وأنتم تكونوا شهداء على الأمم بأنهم بلغوا رسالات ربهم.

لأنكم تعرفون أن الله قص عليكم قصص الأمم السابقة؛ قص عليكم نوح كيف جاهد نفسه وجاهد قومه، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى، وعيسى وغيرهم. الله، يأتون الأنبياء؛ فإذا جيء بالأنبياء السابقين، الأنبياء وجيء بأقوامهم، قال أقوامهم: ما بلغونا يا رب، ما بلغونا؛ فينكرون بلاغ أنبيائهم.

فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ لهؤلاء الأنبياء كنوح وهود وصالح: من يشهد لكم؟ فيقولون: تشهد لنا أمة محمد، يشهد لنا المسلمون من أمة محمد؛ فهذا معنى: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾؛ شهداء، فتقول: نعم بلغوا الرسالة، قد أخبرتنا يا رب في كتابك القرآن أنهم بلغوا رسالاتهم.

قال: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ فإذا علمتم أن الله اختار لكم الدين وجعلكم خير أمة أخرجت للناس، واصطفاكم، فعليكم أن تلتزموا هذا الدين، فأقيموا الصلاة؛ أكد الله على إقامة الصلاة، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾، وأكد على هاتين الشعيرتين؛ لأنها هي أهم شعائر الإسلام وفيها يظهر الإسلام، في الصلاة والزكاة.

قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾؛ تمسكوا بدينه، تمسكوا بشريعته، فإنه هو مولاكم، هو الذي يتولى أمركم، فنعم المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونعم النصير؛ فهو الذي يتولاكم وييسر لكم أموركم ويثبتكم على الحق وينصركم على أعدائكم.

ختمت هذه السورة بهذه الجملة الجميلة الحسنة: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ هو نعم المولى ونعم النصير.

إلى هنا تنتهي هذه السورة العظيمة الجليلة سورة الحج، وننتقل بعدها إن شاء الله إلى سورة المؤمنون، ونسأل الله أن يعيننا، أن يعيننا وأن يسددنا وأن يتقبل منا، وجزاكم الله خيراً على حضوركم وعلى إنصاتكم، أسأل الله أن يتقبل منا ومنكم، وأن يكتب الأجر للجميع، والله أعلم.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ المُؤمِنُون)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(المؤمنون ١ - ١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اللّٰهم أسألك أن توفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، هذا المجلس المبارك في هذا اليوم المبارك وهو غرة ذي القعدة على حسب تقويم أم القرى، أما حسب الرؤية؛ فإن اليوم هو المتمم لشهر شوال، اليوم الثلاثين المتمم لشهر شوال على حسب ما جاء الخبر عن الجهة المسئولة، أو الجهة المعنية في المحكمة بأن هذا اليوم هو يوم الثلاثين من شهر شوال، وغدًا الأربعاء هو اليوم الأول من ذي القعدة.

عمومًا نحن اليوم على حسب تقويم أم القرى هو اليوم الأول أو نقول: غرة ذي القعدة من عام ١٤٤٣ من الهجرة.

نجتمع في هذا المقام المبارك، وفي هذا المجلس المبارك وبين أيدينا سورة من سور القرآن الكريم، بعدما أنهينا سورة الحج ننتقل الآن **"سورة المؤمنون"**.

"سورة المؤمنون" بمجرد أن تقرأ هذا العنوان يكفيك أنك تشعر بأن هذه السورة فعلاً تتحدث عن المؤمنين، ومن هم المؤمنون؟ ما صفاتهم؟ ما حالهم؟ ما حالهم في الدنيا؟ ما حالهم في الآخرة؟ مصيرهم في الآخرة؟ كلّ ذلك السورة تتحدث عنه وتؤكد عليه، وإن تخلل هذه السورة يعني كما يتخلل السور المكية من تقرير الإيمان بالله، ومناقشة المشركين على توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والإقرار، والأدلة الدالة على توحيد الله، ومقارعتهم على شركهم.

وكذلك الحديث عن اليوم الآخر وعن القرآن، ومناقشاتهم في عباداتهم وكفرهم، كلّ هذه تتخللها السورة؛ كما تُذكر في غيرها من السور المكية التي تُقرر مثل هذه القضايا؛ لكن جو السورة بشكل عام هو **"الحديث عن المؤمنين"**.

والحقيقة تجد أن السورة مترابطة الآيات، آياتها مترابطة جدًا، مثل ترابط المؤمنون، المؤمنون أخوة يربط بعضهم بعضًا الإيمان، صفة الإيمان تربط الشرقي بالغربي، والشمالي بالجنوبي، هذه الصفة صفة الإيمان هي التي يتميز بها المؤمن عن غيره، ويرتفع بها ويقترب من الله بهذه الصفة.

هذه صفة الإيمان ترابط المؤمنين، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، تجد هذه السورة تتحدث عن تقرير هذه القضية، أو تقرير الإيمان حقيقة الإيمان بالله، صفات المؤمنين، وأعمالهم، صفاتهم الخُلقية، وأعمالهم التي يعملونها في الدنيا، وينتفعون بها في الدنيا والآخرة.

هذه الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة تُذكر في هذه السورة، ولا نطيل في هذه المقدمة، ندخل على السورة.

جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان جالسًا بين أصحابه، وأصحابه كان إذا أوحي إليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسمعون دوي كدوي النحل، أصوات ودوي خفيف كدوي النحل، إذا سمعوا هذا الصوت، ورأوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تأثر بالوحي كأن يحمر وجهه، أو يتفصد عرقًا، عرفوا أنه يوحى إليه.

وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالسًا بينهم فأوحى الله إليه، فلما أوحى الله إليه بهذه السورة ونزلت الآيات العشر من هذه السورة رفع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يديه واستقبل القبلة دعا، قال: «**اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا، ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، ثم قال لأصحابه: أبشروا**»، فقرأ عليهم هذه السورة أو العشر الآيات التي نزلت عليه.

وجاء عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا قال: «**عشر آيات من أول "سورة المؤمنون" من قرأها وتدبرها وتأملها أُعطي إياها**»، فتقرأها وتتدبرها وتتأملها وتفهم معانيها فإن الله يفتح لك هذه الصفات ويعينك عليها.

✍ ما هي هذه الصفات؟

✍ وماذا ذكر الله فيها؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في هذه الآيات التي بين أيدينا ذكر بخبره الصادق جَلَّ جَلَالُهُ بأن هؤلاء المؤمنين قد أفلحوا وفازوا إن اتصفوا بهذه الصفات، وفازوا بأي شيء؟ فازوا بالسعادة الدنيوية، وفازوا

بالآخرة بجنات الفردوس، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

بداية نبدأ بهذه السورة بعد بسم الله الرحمن الرحيم؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حاثًا ومرغبًا بهذه الصفات التي تزيد المؤمن إيمانًا، وتنقص العاصي أو المقصر إيمانًا؛ لأن إيمان المؤمن يزيد وينقص، وهذه حقيقة لابد أن نفهمها، بأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان، وهذه السورة تزيد في المؤمن بإيمانه لما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، تزيده إيمانًا.

فيزن المسلم نفسه في هذه الآية؛ ما موقفه من هذه الآية؟

فيزن المسلم نفسه في هذه الآيات التي أمامه زيادة في الإيمان أو نقصانًا، كثرة أو قلة، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتحها بافتتاح عجيب، وهو التأكيد والتحقيق، والتقرير بهذه الكلمة وهي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

فـ **"قد"** هنا تأكيد، يعني أسلوب من أساليب العرب أن كلمة **"قد"** تفيد التأكيد، ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ [المؤمنون: ١]، أي قد فاز، وظفر، وسعد، ونجح، وأدرك ما يريده، من هو؟ قال: ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، صفة الإيمان هي التي تميز بها المسلم عن غيره من بني آدم، صفة الإيمان هي التي تميزه، ولذلك قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

من هم المؤمنون؟

هم: "الذين آمنوا بالله وصدقوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" هم الذين آمنوا بما جاءهم عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هم الذين يؤمنون بالغيب، ويؤمنون بالله وبرسوله، ويؤمنون بالقرآن، وبأخبار القرآن، هؤلاء من صفاتهم أنهم مؤمنون، هذه أول صفة يتميز بها هؤلاء.

ثم بدأ يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صفات إما صفات قولية أو صفات فعلية، أو أخلاق، فبدأ أولًا بالصفات العملية التي لا يفارقها المسلم ما دامت روحه في جسده، ما يفارقها أبدًا؛ حتى يصل إلى درجة أنه لا يدرك شيئًا ويذهب عقله، ما دام عقله معه؛ فإن هذه الصفة الصفة العملية لابد أن يزاولها في كلّ يوم؛ بل يزاولها في اليوم أكثر من مرة وهي الصلاة، الصلاة التي أمر الله بها وفرضها وشرعها على الأنبياء السابقين، والرسل السابقين، والأمم الماضي، وأكد شريعتها في هذه الشريعة التي هي شريعتنا.

ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر هذه الصفات صفة الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو، والزكاة، وحفظ الفروج، وحفظ الأمانات والعهود، ختمها بأي شيء؟ بالمحافظة على الصلاة.

بدأها بالخشوع في الصلاة والمحافظة على الصلاة، لعظم الصلاة، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم**».

فأكد على قضية الصلاة، والصلاة المؤمنون يؤدونها ويصلونها، ولكن من يصليها بخشوع؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا وصف أهلها بأنهم يخشعون في صلاتهم، ما قال: **"قد أفلح المؤمنون الذين هم يصلون"** أو قال: **"قد أفلح المؤمنون الذين هم يقيمون الصلاة"** لا، وإنما قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

والخشوع في الصلاة حضور القلب، الحقيقة والعجيب أن مثل هذه الآيات التي تحرك القلوب، والحقيقة أن الإنسان يشتكي إلى الله قسوة القلب، يعني أين الخشوع؟ أين حضور القلب في الصلاة؟ نحن صلينا المغرب الآن، وسنصلي العشاء، تجد الإنسان الحقيقة يجد عنده هذا النقص، الذي هو ذهاب الخشوع في الصلاة، وعدم حضور القلب.

الإنسان يدخل في صلاته ويكبر تكبيرة الإحرام، ثم يخرج عن المسجد كله، هذه مصيبة عظيمة ابتلي بها الكثير من الناس، الخشوع في الصلاة هو **"حضور القلب بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"** تستحضر أنك بين يدي الله، وأنك قريب من الله، فتطمئن نفسك، ويسكن القلب، وتسكن الحركات، إذا سكن القلب، وخشع القلب خشعت الجوارح، تتأدب بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فاستحضر عظمة الله أمامك، تعرف أنك تصلي واله ينظر إليك، وتصلي والله مطلع عليك.

الخشوع هو لب الصلاة، وروح الصلاة، وإذا ذهب الخشوع ذهبت روح الصلاة، فأصبحت الصلاة ميتة.

والمقصود من هذا في الحقيقة؛ وحتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن ذلك قال: «**يُكتب للعبد من صلاته ما وعا منها**»، فالذي تدركه يُكتب لك.

صحيح أن الصلاة تصح، ومقبولة، لكنها درجات في قبولها، فما استحضرته في صلاتك كُتب لك، ما تعقله في صلاتك كُتب لك، يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ينصرف الرجل من صلاته ليس له إلا نصفها، ثم قال: إلا ربعها، إلا ثلثها، إلا سدسها، ينصرف الرجل من صلاته وليس له من صلاته شيء**».

فهذه مصيبة الحقيقة، مصيبة أن الإنسان يصلي وليس له من ثواب صلاته شيء إلا ما كان يعقله، فلب الصلاة، وحقيقة الصلاة الخشوع فيها، وتعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها، واستحضار قراءة الفاتحة، استحضار قراءة القرآن، استحضار التسبيح، والأذكار كلها في صلاتك كيف تستحضرها؟ هذا الذي يميز الخاشع في صلاته عن غيره.

والحقيقة لو وقلنا مع كلمة: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]، إذا جلست تتأمل هذه الآية وتربطها بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، كيف أن الإنسان يصلي وهو لاه القلب، غافل، يصلي وهو ساهي، يصلي وقلبه خارج الصلاة، ويريد أن يكون تحت قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]..؟ كيف تريد الفلاح في إيمانك وأنت لا تدرك هذه الأشياء ولا تدرك حقيقة الخشوع في الصلاة؟!!

هذه صفة الخشوع التي حقيقة أيها الأخوة نحتاج نحن من إعادة النظر والتأمل ومعرفة صفة الخشوع؛ حتى تخشع قلوبنا، وتستحضر الصلاة، وتخشع الجوارح، أما الحركات في الصلاة دليل على عدم خشوع القلب، فنستحضرها ونعظم الله عَزَّ وَجَلَّ في الصلاة، ونعظم هذه الصلاة حتى ندخل في هذا الفلاح الذي وعد الله بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

وأخبر بصيغة الماضي أنهم قد أفلحوا، وانتهى الفلاح، وحصل لهم، وسعدوا، ونجحوا، وفازوا بهذا الفوز، متى؟ إذا كانا في صلاتهم خاشعين، هذه الصفة الأولى التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهي تتعلق بالأعمال الصالحة، وهي من أجل الأعمال التي لا يفارقها الإنسان في حياته إلا بذهاب عقله أو موته.

هذه الصلاة العظيمة التي يؤديها الإنسان في اليوم، يؤديها عدة مرات ينبغي أن يستحضر الخشوع فيها الذي هو لبها وهو روحها.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، وهذه تتعلق بالأخلاق، الأول بالأعمال الصالحة التي أجلها الصلاة.

الثاني: "بالأخلاق التي هي أعظم أخلاق حفظ اللسان" لما النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر أعمالًا كثيرة۞ قال: «**ألا أدلك على ملاك ذلك؟ قال: نعم، قال: لسان، أو قال: هذا فأشار إلى لسانه**».

فملاك الأمر كله اللسان۞ فإذا حفظ لسانك حفظت نفسك۞ وحفظت الجوارح كلها۞ ولذلك قال هنا: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ [المؤمنون: ٣]، أي الكلام الساقط، الكلام الذي لا خير فيه، الكلام الذي لا فائدة فيه ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، يعني لا يدخلون في اللغو، ولا يتحدثون، وينزهون أنفسهم ويترفعون، وإذا سمعوا أحدًا يخوض باللغو يعرضون عنه ولا يجالسونه، ويعرضون عن مجالس اللغو، هذا في اللغو المباح في الكلام الذي لا خير فيه؛ لكنه مباح، فما بالك لو كانت هذه المجالس كلامها في الحرام كالغيبة، والنميمة، والسب، والشتم، واللعن؟ فمن باب أولى أن هؤلاء يبتعدون عنها.

وإذا ملك الإنسان لسانه ملك سائر أعماله، ولذلك مثلما ذكرنا لكم لما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قال: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه، وقال: كف عنك هذا، قال: يا رسول الله أو مؤاخذون على ما نقول؟ قال: وهل يكب الناس على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!!**».

المسلم يكف لسانه عن المحرمات، ويكف لسانه عن اللغو، ويحفظ لسانه عن الخوض في الكلام الذي لا فائدة فيه، فهذه من أجل صفات المؤمنين الذين وعدهم الله بالفلاح، الذين قد أفلحوا.

إذا أردت الفلاح فعليك أن تمسك لسانك، أن تمسك لسانك بالخوض في أعراض الناس في الغيبة، في النميمة، في المحرمات، في السب، في الشتم، في اللغو، وكذلك اللغو أن يبتعد عن الخوض واللغو.

الصفة الثالثة: يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]، ذكر لنا أجل الأعمال، وهي الصلاة، ثم ذكر لنا أجل الأخلاق وأفضلها، وهو إمساك اللسان، وعدم الخوض في أعراض الناس وفي الكلام السيئ واللغو.

ثم ذكر لنا مرة أخرى وعاد إلى أجل الأعمال بعد الصلاة، وهي: **"فعل الزكاة والمحافظة عليها"** يؤدون زكاة أموالهم، ويحافظون عليها، ويخرجون زكاة أموالهم، ويعطون مستحقيها، فصلاتك هي علاقتك بربك، والزكاة علاقتك بأخوانك، ولذلك تلاحظ كثير في القرآن الكريم ما يربط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين الصلاة والزكاة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥]،

،قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣].

فالزكاة هي إحسان العبد والإنسان للخلق لإخوانه لعباد الله، يحسن إليهم، فالخشوع في الصلاة مع رب العالمين، أداء الزكاة مع إخوانك المسلمين.

وبعض المفسرين يقول: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤]، أي يزكون أنفسهم بالأخلاق، والأعمال الطيبة، ويزكون أموالهم، ويدخل هذا كله في هذا المعنى، فأنت تزكي نفسك بالأعمال الصالحة، وبالأخلاق الطيبة، وبإخراج زكاة مالك.

الصفة الرابعة: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥].

يحفظونها من أي شيء؟

يحفظونها من الوقوع في الحرام، حفظها تجنب ما يدعو إلى ذلك؛ كالنظر، يعني أن تكشفها أمام الناس ينظرون إليها، أو يمسونها، وحفظها من التعدي عليها، هذا معناه.

قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥]، والمحافظة هي دقة المتابعة للشيء، فأنت تحافظ على الصلاة أي تتابعها، تحافظ على مالك أي تتابعه، والمحافظة على الفروج هي من الحرام، ومن الزنا، ومن الفواحش، ومن اللواط؛ بحيث أنك تحفظ نفسك من الحرام.

ولاحظ اللغو والكلام السيئ للسان والفرج، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يضمن لي ما بين فكيه وما بين فخذيه أضمن له الجنة**».

فاللسان بين الفكين، والفرج بين الفخذين، فإذا حفظت هذا وحفظت هذا دخلت الجنة، ولذلك تجد ترابط عجيب.

قال: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، الزوجة قد أباح الله لك، والمملوكة الأمة قد أباحها الله لك؛ قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦]، بقربها؛ لأن الله أحل ذلك.

قال: ﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ [المؤمنون: ٧]، يعني إذا سلك طريقًا غير هذا، غير معاشرة الزوجة والمملوكة؛ قال: ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧]، الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، الواقعون في محارم الله كالفواحش، والزنا، واللواط، وغير ذلك، كلّ ذلك دخل في هذا التحريم.

الصفة الخامسة: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، لما أثنى عليهم بحفظ الفروج، أثنى عليهم بحفظ الأمانات وحفظ العهود، يراعون ويضبطون ما حُملوا من الأمانات، أعظم الأمانة أمانة الشريعة، الله حملك الأمانة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فأعظم شيء أنك قد حُملت أمانة الدين، وأمانة الشرع، وأمانة الصلاة والزكاة، وكلّ ما يتعلق بشرع الله ودينه، أنت دخلت بأمانة، فيجب عليك أن تؤدي هذه الأمانة، ويدخل في الأمانات سائر الأمانات، إذا ائتمنك أحد بسر، أو ائتمنك بأن تحفظ شيئًا عندك من مال ونحوه، ائتمنك بأي شيء، يجب عليك أن تؤدي هذه الأمانة، وأن تحفظ هذه الأمانة، وألا تضيع، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [الفاتحة: ٥٨].

وأما خيانة العهود، وخيانة الأمانات؛ فهي من صفات المنافقين، ليست من صفات الذين وعدهم الله بأنهم قد أفلحوا، فهذا معنى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]، العهود التي بينك وبين الله، العهود التي بينك وبين أخوانك المسلمين، ولو كانت العهود بينك وبين غير المسلمين، ما دام أنك أبرمت عهودًا وعقدت عهودًا يجب الوفاء بها، كما عقد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلح الحديبية بينه وبين مشركي مكة، وأوفى بعده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقام الصلح، وأقام هذا العهد، فلا يجوز التفريط والتضييع في هذا العهد.

الصفة السادسة والأخيرة: قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩].

أول صفة: "الصلاة والخشوع فيها".

وختمها بـ: "الصلاة والمحافظة عليها" أي أنه يداوم عليها في أوقاتها، وحدودها، وشروطها، وأركانها، فمدح الله هؤلاء بالخشوع في الصلاة في أول الأمر، والمحافظة عليها، ولا يتم الخشوع إلا بالمحافظة، ولا تتم المحافظة إلا بتعظيم أمر هذه الصلاة، فتحافظ عليها بألا تضيعها، ولا تخرجها عن وقتها، ولا تصلي مرة وتتركها مرة، أو تصلي مرة في المسجد، ومرة في البيت، أو تهمل شروطها، كالطهارة، والطمأنينة، وسائر أركانها، وشروطها؛ بل تحافظ على ذلك كله.

فإذا حافظت عليها محافظة تامة فأصبحت الصلاة تامة دخلت في هذه الصفة التي يتصف بها المؤمنون.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صفات هؤلاء ذكر ما وعدهم به وجزاءهم، قال: ﴿أُولَئِكَ﴾ [المؤمنون: ١٠]، أي الموصوفون بهذه الصفات، المحافظون على هذه الصفات، ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، والفردوس هو أعلى الجنة ووسطها، وفوقهم عرش الرحمن، ومنه تفجر الأنهار، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنه وسط الجنة وأعلاها**».

فهذا الفردوس قيل: هو الجنة، وقيل: هو جنة من الجنان، الجنة درجات، والجنة أقسام، جنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الفردوس، وهكذا، وجنات النعيم، كثيرة، فيسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعظمها، وأفضلها، وأعلاها، وهي جنة الفردوس، قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠].

لماذا قال الوارثون؟

لأن هذا مثل الميراث، أعطوا ليس بمقابل أعمالهم، وإنما جاءهم فضل من الله، فلا تظن أن هذا الذي حصل لهم بمقابل أعمالهم؛ بل بمقابل فضل الله ومنته ورحمته ونعمته.

ولذلك قال: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١١]، كأنه شيء جاءك من غير تعب، وإنما هو بفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تجعل هذا الشيء يعني أنه مقابل عملك، أنت ما قدمت شيء ولا فعلت شيء، وإنما هو بتوفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١]، لا يريدون الخروج منها، ولا يريدون التنقل عنها، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، لما فيها من كمال النعيم، وأتم النعيم وفضله.

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم جنات الفردوس، وأن يجعلنا وإياكم من أهل الفردوس الذين وعدهم الله بأن يرثوا هذه الفردوس، وأن يورثهم الفردوس الأعلى من الجنة، وأن يجعلنا وإياكم ممن يلتزم هذه الصفات الست التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يجعلنا وإياكم ممن يحافظ عليها، يحافظ على هذه الصفات الطيبة، ويعمل بها.

تلاحظ أنها صفات عملية، وصفات خُلقية، عندك الإعراض عن اللغو، وحفظ الأمانات والعهود، هذه كلها أخلاق، مثلاً حفظ الفروج، الزكاة، الصلاة، هذه إنما هي أعمال ينبغي للإنسان أن يحافظ عليها، والدين عملٌ وخُلق.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، ونقف عند هذا القدر.

وَاللهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(المؤمنون ١٢ - ٢٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَعَلَى اٰلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ؛ أَمَّا بَعْدُ ...

أيها الأخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله أن يجعله لقاءً مباركًا وأن ينفعنا جميعًا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين.

أيها الأخوة الكرام السورة التي بين أيدينا هي **"سورة المؤمنون"**، قرأنا في هذه السورة وبينا معاني أو بُين شيئًا من هذه الآيات، وتوقف بنا الكلام في لقاءنا الماضي عند تقريبًا الآية رقم أحد أعشر.

اليوم نواصل ومثلما ذكرنا عدة مرات هو الآن يمكن يتيسر الأمر أكثر وأكثر، يعني إذا كان المصحف بين يديك يكون التركيز أكثر؛ لأنه تشتغل عندك آلة السمع، وآلة البصر، ويستوعب القلب هذه الأشياء مع اشتغال هذه الآلات.

فالجوال الآن يستطيع الواحد أنه يدخل على المصحف ويفتحه، ويدخل على السورة **"سورة المؤمنون"** الآية اثنا عشر، ويتابع معنا.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

الآيات التي معنا في اللقاء الماضي كانت تتحدث عن صفات المؤمنين التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الآية رقم واحد إلى أحد عشر، هذه الصفات صفات المؤمنين المفلحين الذين قال الله فيهم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١].

✍ ما هي صفاتهم؟

🗐 قال:

- أنهم خاشعون في صلاتهم.
- وأنهم عن اللغو معرضون.
- وأنهم يزكون أموالهم، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤].

- وأنهم يحفظون فروجهم إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم.
- وأنهم للأمانات والعهود حافظون.
- وأنهم أيضًا حافظون لصلواتهم.

ذكر الله هذه الصفات صفات المؤمنين، ثم ذكر بعدها جزاء هؤلاء المتصفين بهذه الصفات ما جزاؤهم؟ قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[المؤمنون: ١٠، ١١].

والفردوس هو أعلى وأوسط الجنة، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس؛ فإنه أعلاها وأوسطها وفوقه سقف الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة**».

الفردوس ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في **"سورة الكهف"**، وذكره في **"سورة المؤمنون"**، والفردوس بعضهم قال: إنه اسم من أسماء الجنة، وبعضهم قال: هو موضع في الجنة وهو أعلى الجنة، فيها جنة النعيم، وجنة عدن، وجنة المأوى، وجنات الفردوس وهكذا أسماء، هذه من أسماء الجنة.

وفي **"سورة الكهف"** قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، لما وصف الله هؤلاء المؤمنين بهذه الأوصاف ستة أوصاف ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بدأها بالصلاة والخشوع فيها، وختمها بالصلاة والمحافظة عليها.

هذه الصفات للمؤمنين لما ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ووعدهم بالفوز في الدار الآخرة، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك خلق الإنسان.

لو سألك سائل قال:

ما علاقة خلق الإنسان بهذه الصفات والوعد من الله الكريم في جنات النعيم بالفوز بجنات الفردوس في الدار الآخرة؟

نقول: لما وعدهم الله في الدار الآخرة، وهذا لا يحصل إلا بعد الموت، ذكّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده بأن الذي سيبعثهم بعد موتهم هو الذي خلقهم الخلق الأول، وأنشأهم، وخلق لهم ما يحتاجون له في هذه الحياة، وأنهم بعد موتهم سيقابلون رب العالمين، ويفوز من يفوز بجنات الفردوس.

فالرابط بين الآيات حتى نفهم ونتدبر هو: **"التذكير بوعد الآخرة وأن أقوى ما يذكرك بوعد الآخرة خلقك الأول"** أن الله خلقك من العدم فهو قادر على إعادتك، وهذا احتجاج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على

الخلق، وعلى منكري البعث، لما قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

فالذي وعدكم بالفردوس الأعلى في جنات النعيم بعد موتكم، وأنه سيبعثكم هو الذي أنشأكم وخلقكم، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتحدث بتفصيل دقيق جدًا عن مراحل خلق الإنسان في بطن أمه، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

وأنت قرأ كلمة ﴿وَلَقَدْ﴾ [المؤمنون: ١٢]، يقول أهل العلم: **"الواو هذه يسمونها واو القسم، والقسم محذوف"** والتقدير: **"والله"، "وأقسم الله لقد خلقنا الإنسان"** وقسم الله في هذا الموضع تأكيد على أن الذي خلق الإنسان هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، يعني والله لقد خلقنا الإنسان، والذي خلق الإنسان هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك أسند الفعل إلى نفسه، قال: ﴿خَلَقْنَا﴾ [المؤمنون: ١٢].

قال: ﴿خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، هذا آدم؛ لأن آدم خلقه الله من طين، والسلالة ما هي؟ السلالة هي ما يستخرج من الشيء، تسله سلاً، مثلما تسل الشعرة من العجينة، استخراج هذه الأشياء من السلالة هذه السلالة.

✍ **لماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]..؟**

لأن آدم خلقه الله من طين، خلقه الله من هذه الأرض، أو من الطين، أو من تراب الأرض، ليس من تراب معين، وإنما أخذه من عدة أماكن، اختار الله أن يخلق هذا الإنسان من التراب أو من الطين وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استل خلقه من الأرض، يعني استخرج خلقه من الأرض، ولذلك الأرض معروفة، فيها اللين، والقاسي، وفيها اللون الأحمر، والأسود، والأبيض، وفيها الطيب، والخبيث.

ولذلك لما استل الله هذه الطينة من الأرض واختارها من أماكن متعددة تجد أثر ذلك في ذرية آدم، فمنهم المختلف الألوان، ألوانهم مختلفة، وطبائعهم مختلفة، ما بين ليّن القلب، وقاسي القلب، وما بيّن خبيث النفس، وطيب النفس، وهكذا، ولذلك جاءت ذريته على هذه السلالة، فسل الشيء **"استخراجه من عدة أشياء"**.

فآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ استخرج أصله من هذا الطين ومن هذه الأرض وجُمعت من عدة أماكن؛ حتى جعل الله هذه الطينة يخلقها، ويخلق منها آدم، قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

ثم قال بعدها: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ [المؤمنون: ١٣]، هذه الذرية، يعني بعدما خلق الله آدم جعل ذريته يعني يخلقهم على هذه الطريقة، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ [المؤمنون: ١٣]، أي أصل الإنسان، وجنس الإنسان، جعله ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]، يعني أي إنسان على وجه الأرض بعد آدم أصله من نطفة، من ماء مهين، والنطفة هي **"الماء القليل المهين"**.

هذه النطفة البيضاء الصغيرة التي يلقيها هذا الإنسان في رحم المرأة ثم تستقر في هذا الرحم؛ قال الله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]، ولاحظ كلمة **"قرار"** و**"مكين"** أنه لا يصيبها ضرر، ولا تتعفن، ولا تتغير ولا تفسد مع الوقت، وأنت تلاحظ الآن لو تأخذ هذه النطفة وتضعها في مكان في الأرض لوجدت أنها قد تغيرت وفسدت في لحظة أو في ساعات، ولكن هذا المكان الذي جعله الله كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝٢١ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣].

فهذا الماء المهين المني يُقذف في رحم المرأة فيستقر في رحمها في مكان محفوظ، مكين، أمين، مستقر، لا يتضرر بشيء مما يضره.

قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]، ويبقى في هذا الرحم مدة أربعين يومًا، بعدما يمضي عليه أربعون يومًا يتحول هذا الماء المهين الأبيض إلى قطعة دم تعلق في جدار الرحم.

قال: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: ١٤]، يعني تحولت النطفة علقة بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والعلقة سميت علقة **"لأنها تعلق في جدار الرحم"** والعلقة هي **"قطعة الدم الصغيرة"** فتتحول هذه النطفة البيضاء إلى قطعة دم حمراء، وتمكث أربعين يومًا، فيصبح المجموع ثمانين يومًا.

ثم بعد ذلك تتحول العلقة إلى مضغة، ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [المؤمنون: ١٤]، والمضغة هي **"قطعة اللحم، بقدر ما يمضغ الإنسان"** لما تأخذ قطعة لحم وتدخلها في فمك هذه بمقاس المضغة، قطعة لحم، تحول الدم هذا إلى قطعة لحم بقدرة الله في أربعين يومًا، فأصبح المجموع مائة وعشرين يوم.

بعد هذه المضغة تتحول بعدها إلى عظام، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، ثم العظام تكسى لحمًا، ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، بدأ النفخ في هذا الإنسان حتى يتحرك، فينفخ الله فيه، بإرسال الملك إليه، فإذا تم لهذا الحمل في بطن أمه بهذه المراحل الثلاث وأصبح عمره مائة وعشرين يومًا؛ أرسل الله إليه الملك، فيرسل الله إليه الملك فينفخ فيه الروح، فتتحرك هذه المضغة التي أصبحت عظامًا.

وكسيت العظام لحمًا؛ لأن العظام يقوم عليها الجسم، واللحم يكسو هذه العظام، والعظام بشتى أنواعها عظام الجمجمة، وعظام الرقبة، وعظام الظهر، وعظام الساقين، والفخذين، عظام بشتى أنواعها، وما داخل العظام مما يسمى بالمخ والأعصاب، والشحوم، كلّ هذه يخلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو في بطن أمه، فيكسو العظام لحمًا.

ثم إذا أرسل إليه الملك نفخ فيه الروح فتحرك، وبدأ التصوير والتشكيل، يُشكل ويُصور، يعني تخرج الرأس، والأيدي، والأصابع، والبطن، والظهر، والقدمين، يبدأ تشكل الإنسان وتصويره، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦].

فيرسل الله له الملك فينفخ فيه، فيؤمر بأربع كلمات، **"بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي، أو سعيد"** بهذه الأمور، فإذا حصلت هذه الأمور وتم بقي في بطن أمه بعد ذلك، يبقى بعد المائة والعشرين ويستمر في أن الله يغذيه وقد تكفل برزقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بطن أمه قبل أن يخرج عن طريق هذا السر، ويستمر حتى يبقى إلى أن يأذن الله بخروجه.

إذا تم تسعة أشهر أو أقل أو أكثر هذه المدة التي إذا كمل فيها واكتملت المدة التي أرادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخرجه الله، ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وأنشأه خلقًا آخر، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

تبارك أي **"كثر خيره، وفضله، ونعمه على هذا الإنسان"** فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بركته عظيمة، وخيره عظيم، وعطاؤه لا يُحد، ونعمه عظيمة، سبحان من خلق هذا الخلق وتكفل برزقه، وهذه الآيات تعطينا صورة دقيقة عن خلق الإنسان وما يمر به من مراحل عجيبة، وتكوينه في بطن أمه، ثم بعد ذلك يخرجه الله طفلاً صغيرًا، ثم صبيًا، ثم غلامًا، ثم شابًا، ثم كهلاً، ثم شيخًا، ثم قد يموت قبل ذلك أو يُعمر ثم يموت،

كلّ هذه مراحل الإنسان في حياته، وأنت تلاحظ وتقرأ هذه الآية، ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ثم قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥]، ولم تُذكر الدنيا، لم يذكر الله ثم إنكم تخرجون إلى هذه الدنيا، وتعملون وتشغلون، وا وا إلى آخره.

طوى الله ذكر الدنيا؛ لأنها لا تستحق أن تُذكر، لأن الإنسان يعيش فيها بمقدار عشية أو ضحاها، فلا تستحق أن تُذكر، تذكر المدة بالتفاصيل الدقيقة وهو في بطن أمه لما فيها من العبرة والعظة، والتفكر، وأما الدنيا فهي ماضية.

ولذلك قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥]، ومنتهون، وخارجون من هذه الدنيا، وكلّ إنسان سيموت، سيأتيه أجله.

قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦]، وهذا هو الشاهد، أن الله الذي وعدكم بالفردوس الأعلى هو الذي سيبعثكم يوم القيامة.

فلما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات خلق الإنسان، ذكر ما يحتاج إليه الإنسان في هذه الدنيا، فذكر هذه السماوات وأنه جعلها طرائق، طريقة فوق طريقة، يعني طباقًا، طبقًا فوق طبق، والسماء سقف محفوظ للإنسان، يعني خلقه الله لهذا الإنسان، لما فيه من منافع عظيمة للإنسان.

يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ﴾ [المؤمنون: ١٧]، أيها الناس، وأيها الخلق، ويا بني آدم، ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]، خلقنا هذه السماوات السبع، وما كنا عن الخلق غافلين، فالله هو الذي خلقها بقدرته وبعلمه.

ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]؛ بل نعلم أحوالهم، ونعلم ما يحصل منهم، فلذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧].

ولما ذكر خلق السماوات على عظمها، وأنها أعظم من خلق هذا الإنسان، لما خلق الله السماوات هذه العظيمة، خلقها عَزَّ وَجَلَّ ولم يغفل عن خلقها؛ بيّن ما أنعم الله به على الإنسان من هذا الماء الذي يستطيع الإنسان يعيش فيه، والذي قال الله فيه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

قال هنا: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: ١٨]، إنزال الماء من السماء ينزله الله بقدر معلوم، لا يزيد ولا ينقص، بقدر حاجة الإنسان، لو زاد لأضر الإنسان وأضر المنازل، وأضر المزارع، ولو نقص لما انتفع به الإنسان، فيجعله الله بقدر، ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨]، ثم يسكنه في الأرض ينابيع في الأرض، وآبار، فيستخرج الإنسان.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]، أن يأخذه الله من الأرض فيذهب به، قادر على أن يبعده فلا يستطيع الإنسان أن يستخرجه، فهو قادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فنعمه عظيمة، وقدرته عظيمة، فينبغي للإنسان أن يشكر نعمة الله.

قال: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ﴾ [المؤمنون: ١٩]، أي بهذا الماء الذي أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ماءً ظهورًا، ماءً طيبًا مباركًا أنشأ به جنات كثيرة بساتين.

قال: ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [المؤمنون: ١٩]، فخص النخيل، والأعناب لكثرة فوائدها، ولأنها هي المنتشرة في الجزيرة.

قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩]، هذه الأشجار فيها كثير، وفواكه كثيرة وتأكلون منها ما تشاءون.

ثم خص فقال: ﴿وَشَجَرَةً﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وهذه الشجرة هي شجرة الزيتون في الأرض المباركة، ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وطور سينا منطقة معروفة بين الشام ومصر، هي التي نادى الله من عندها أو من هذا الموضع الذي فيها جبل الطور نادى الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكلمه، وكلفه بالرسالة.

وقال الله في سورة أخرى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]، يُقال: سنين، وسيناء، قال: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، تنبت هذه الشجرة في هذا المكان، ويكون فيها الدهن، والزيت؛ لأنها يعني أشهر ما في هذه الشجرة زيت الزيتون، قال: ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ﴾، هذا الزيتون، ﴿لِلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يصطبغون به، ويأكلون، ويكون أدمًا لهم، وفيه بركة، وفيه نفع، وفيه شفاء.

لما ذكر الأشجار، والنخيل، والزروع، والنباتات، ذكر الأنعام وما فيها أيضًا من مصالح وفوائد، وخيرات ونعم، قال: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ [المؤمنون: ٢١]، أي بهيمة الأنعام، البقر، والغنم، والإبل.

قال: ﴿لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١]، يسقينا الله مما في بطونها، يخرج الله لنا هذا اللبن الخالص من بين فرث ودم، خالصًا سائغًا للشاربين، يخرجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من بطونها.

قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [المؤمنون: ٢١]، من لحومها، ومما فيها من أوبارها وأشعارها، وأصوافها، وما فيها من فوائد عظيمة، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١]، تأكلون من هذه الأشياء.

قال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، أي الإبل خاصة؛ لأن الإنسان يُحمل على ظهر الإبل وهي سفينة الصحراء، والفلك وهي سفينة الماء، ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، يحملنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويهيئ لنا، كلّ هذه نعم عظيمة يحتاج الإنسان أو يضطر الإنسان إلى أن يشكر نعمة الله عليه، وأن يحمده وأن يعبد الله حق عبادته على ما أنعم عليه من هذه النعم.

خلق الإنسان أولًا، وهو تذكير بخلقك الأول، ثم خلق السماوات، ثم إنزال المطر وخلق الأشجار وأنباتها بشتى أنواعها، وخلق بهيمة الأنعام وما فيها من مصالح، كلّ هذه تجعل الإنسان يُقدر بقدرة الله، ويشكر نعمة الله على ما أنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأعطانا من هذه النعم العظيمة.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وَاللهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(المؤمنون ٢٣ - ٤١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر من ذي القعدة، من عام ١٤٤٣ من الهجرة.

درسنا المعتاد أيها الأخوة في تفسير القرآن العظيم، وأيضًا في **"سورة المؤمنون"**، **"سورة المؤمنون"** مثلما مر معنا في مواضع تحدثنا عنها، وتكلمنا عن صفات المؤمنين التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة، ثم في خلق الإنسان وتكوينه، والمراحل التي يمر بها الإنسان، وما خلق الله في الكون من خلق السماوات والأرض، وإنزال المطر، وإنبات الزرع، والأشجار المختلفة.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك يسوق لنا قصة أو مجموعة من قصص القرآن الكريم، في مقدمة هذه القصص قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قد يسأل سائل يقول:

ما المناسبة في ذكر قصة نوح وما بعده من الرسل في هذه السورة؟

فنقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر في هذه السورة خلق الإنسان، أو خلق آدم ثم خلق ذريته، ثم أنهم سيموتون ويبعثون، ويجازون يوم القيامة، وأن الله وعد المتقين بجنات الفردوس، ذكر أنه لم يترك الخلق هملاً؛ بل أرسل إليهم الرسل، وأنزل إليهم الكتب، ودعاهم إلى عبادته وتوحيده، فكفر من كفر آمن من آمن.

فمن آمن فقد سلم من العذاب، ونجا ووعد بالخير العظيم في الدنيا والآخرة، ومن كفر وطغى وأفسد في الأرض؛ فإن الله هو القوي العزيز، سينتقم منه في الدنيا وفي الآخرة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقام الحجة على البشر وأرسل إليهم الرسل، وكان أول رسول أرسله الله هو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، نوح رسول الله وعبده الذي قال الله فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣].

الله عَزَّ وَجَلَّ لما خلق آدم في الجنة وأسكنه جنته وحصل ما حل منه من معصيته في أكل الشجرة، وأمره الله بالهبوط وإخراجه من الجنة، فأخرج وأُهبط إلى الدنيا، وعاش في هذه الأرض، كان نبيًا وكان على التوحيد والإيمان، وكانت ذريته تبعًا له على التوحيد والإيمان والطاعة، ومضت عشرة قرون يعني ما يقرب من ألف سنة.

مضت عشرة قرون كما قال ابن عباس **"والناس على التوحيد وطاعة الله وعبادته"**، حتى جاء زمن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ فظهر فيهم الشرك، وسبب الشرك والكفر بالله أنهم طغوا وأنهم أيضًا غلوا في الصالحين، فكان عندهم رجال صالحين فلما ماتوا بدؤوا يزورونهم في القبور، ثم بدؤوا يعظمونهم في القبور، فجاءهم الشيطان وقال: بدلًا من أن تذهبوا إلى قبورهم؛ لماذا لا تصورون صورهم في مجالسكم وتدعونهم وتعظمونهم؟!!

فصوروهم وبدؤوا يعبدونهم من دون الله، فظهر الشرك فيهم، ومن رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن بعث فيهم خيرهم وأفضلهم خلقًا وأدبًا وعلمًا وهو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

واختار الله نوح واصطفاه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا﴾ [آل عمران: ٣٣]، اصطفى نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ وأرسله إليهم، وأمره أن يأمرهم بعبادة الله وحده.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [المؤمنون: ٢٣]، تأكيد، جملة مؤكدة، تأكيد على نوحًا أرسله الله ولم يأت من نفسه، ولم يدع النبوة؛ بل هو رسول من عند الله، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَلَقَدْ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، واللام هنا يسميها أهل اللغة لام موطئة للقسم، أي أن هناك قسمًا محذوفًا، والتقدير **"والله لقد"** و**"قد"** تفيد التحقيق، ﴿أَرْسَلْنَا﴾ [المؤمنون: ٢٣]، والمرسل هو الله، والمتكلم هو الله أصدق القائلين.

قال: ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وهو نبيه، أول رسول على وجه الأرض، ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿فَقَالَ يَاقَوْمِ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، وقوله: ﴿يَاقَوْمِ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، تلطف منه، وحسن أدب، يذكرهم يقول: أنا منكم، وأنتم مني، وأنتم قومي، وأنا أدعوكم.

قال: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، حققوا العبادة لله، لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تعبدوا الأصنام والأوثان، ولا تعبدوا هذه الصور، وإنما اعبدوا الله وحده لا شريك له، وأخلصوا العبادة له.

قال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، ليس هناك إله غير الله؛ بل هو الواحد الأحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المعبود بحق.

قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، تتقون الله عَزَّ وَجَلَّ، وتتقون الحرام، وتتقون عبادة الشرك، وعبادة غير الله، اتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فدعاهم إلى التوحيد، وهذه الدعوة ليست مع نوح فقط؛ بل مع جميع الأنبياء، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وفي سورة أخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فهذه دعوة الرسل، ودعوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم الرسل، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٣]، اعبدوا الله تنجو، اعبدوا الله تسلموا من العذاب.

فماذا كان موقف قوم نوح من دعوة نوح إلى عبادة الله وحده لا شريك له؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، الملأ هم السادة والكبراء، والعظماء في القرية أو في البلدة؛ الذين لهم كلمتهم المسموعة، وسموا ملأ لأنه كما قال بعضهم: لأنهم يملئون الأعين بحسن كلامهم، وتصرفاتهم، فلهم مكانة، ويتحدثون بلسان أمام الناس فيُقبل كلامهم.

قال: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، كبار القرية، وكبار المدينة، ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المؤمنون: ٢٤]، أول صفة من صفاتهم الكفر بالله؛ لأنه سيبين لك ماذا سيكون موقفهم؟ هل سيكون موقفهم أنهم يعينون نوح على دعوته ويساعدونه ويقفون معه أم سيمنعونه من الدعوة؟

قال: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المؤمنون: ٢٤]، كفروا بالله، وكفروا بدعوة نوح، وكفروا بما جاء عن الله ﴿كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقوله: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، بيان أن الذين كفروا كانوا من قوم نوح، ليسوا من خارج قوم نوح.

قال: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، يقصدون نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولم يقولوا: هذا نوح وسموه باسمه، وهذا للاستخفاف به، وعدم المبالاة، والسخرية به، وعدم قبوله.

قال: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا﴾ [المؤمنون: ٢٤]، يشيرون إليه يقولون: ﴿هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

فأول شبهة عندهم يقولون: كيف يبعث الله واحد منا بشر رسول؟ يعني الله عَزَّ وَجَلَّ يختار هذا فقط؟ هذا بشر مثلنا، طيب ماذا تريدون؟ قالوا: نريد ملائكة.

قالوا: ﴿هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، ،قصده أن يتفضل عليكم، وأن يكون له الكلمة، وأن يكون له الملك عليكم.

هذه نظرة ساقطة، نظرة سيئة، فلا تنظر إليه، ولا تنظر إلى كونه بشرًا، ولا تنظر لكونه يتفضل انظر ماذا يقول حتى تفهم دعوته؛ فإن كان خيرًا فخذه، وإن كان شرًا فانصرف عنه، كما قال مؤمن آل فرعون: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

قالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، لو أراد الله أن يبعث رسولًا لأنزل ملائكة، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، انظر إلى شبههم الساقطة، الشبه التي لا تقوم على شيء، يقولون: هذا بشر، والله لو أراد لأنزل ملائكة، وما سمعنا بهذا في آبائنا، آباؤنا ما قالوا في رسول.

طيب إذا جاء آباءكم قد جاءكم أنتم؛ لأنكم كفرتم، أنتم كفرتم وأشركتم، فجاء من ينذركم، ويحذركم من عقوبة الشرك.

قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، لو أنزل الله ملائكة لجعل هؤلاء الملائكة بشرًا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، ما يمكن أنك تقابل ملك، الملك عظيم الخلقة ويختلف عنك، ما تتقبله أنت، أنت تتقبل من هو من جنسك.

فالأنسب أن يأتيك واحد من جنسك تعرفه ويعرفك، وعشت معه سنين طويلة، وجلست معه، وفهمته، هذا أولى من أن يأتيك شخص ما تعرفه، ولذلك اختار الله من الرسل أفضل البشر خُلقًا وأدبًا وجعلهم أنبياء.

انظر أيضًا إلى شبهتهم السيئة قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، طيب وإذا كان رجل؟ قالوا: ﴿رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، أي مجنون، يقولون: هذا قد فقد عقله، هذا مجنون، وبدؤوا يستهترون، ويستهزئون، والحقيقة هو أرجح منكم عقلاً، وأكمل منكم عقلاً، وأحسن تصرفًا، وأعظم علمًا.

قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، انتظروا قليلاً حتى يموت، وإذا مات انتهى أمره، هذه شبهة كلّ من جاءهم من الرسل يأتون بهذه الشبهات الساقطة، قوم صالح يقولون: ﴿أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

حتى الأمم السابقة يقولون: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ [التغابن: ٦]، وكلّ هذا كلام لا يقبل، وليس عندهم حجة قوية، وإنما شبهات ساقطة.

قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، الله يختار خيركم ويجعله رسولًا ويوحي إليه، وتقولون به جنة؟ هذا تناقض، وكيف تقولون به جنة وأنتم تقولون يريد أن يتفضل عليكم؟ هذا يدل على أنه ليس مجنون؛ فهذا التناقض منكم لا يُقبل.

فلما دعاهم وأصروا على كفرهم وعنادهم؛ بل هددوا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرجم، وآذوه، واستهزؤوا به، وسخروا منه، ورأى منهم الإصرار على الكفر والعناد ورد الدعوة، ماذا صنع معهم؟

لما رأى ذلك قال: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]، ونادى نوح ربه أن قومه لن يؤمنوا به، ورأى منهم ما رأى من الإعراض والتكبر، وهو يدعوهم، ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ٥ - ١٠].

إلى آخر الآيات حتى نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]، فعرف حقيقتهم.

ففي هذه الحال قال: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]، وقال في سورة أخرى: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

قال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، أوحى الله إلى نوح أن يصنع سفينة عظيمة، ﴿أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧]، بمرأى منا ومتابعة، ومراقبة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحفظًا من الله عَزَّ وَجَلَّ له.

قال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

فأوحى الله إليه أنه سيهلك قومه بالطوفان، والغرق، وأن السماء ستمطر عليهم مطرًا عظيمًا، وأن الأرض ستتفجر عيونًا، ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢].

فلما علم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه سيهلكهم بالغرق والماء صنع السفينة، قال: إذا جاءنا أمرنا فعلامة العذاب أن ترى التنور الذي يخبز به يفور ماءً، لأن التنور غالبًا يكون تحت الأرض، فإذا رآه يفور ماءً عرف أنه عذاب، وأن الأرض بدأت تفور.

قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، اسلك واحمل فيها من الحيوانات والحشرات احمل فيها من كلّ زوجين اثنين، من كلّ جنس خذ ذكر وأنثى، ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، احملهم في السفينة.

قال: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، كزوجته، وابنه كنعان الذي كفر ولم يطع أباه؛ بل قال: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

قال: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [المؤمنون: ٢٧]، لا تجادلني ولا تدعوني في الذين ظلموا أن يُغفر لهم، أو يُتجاوز عنهم، وذلك لأنه قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۝٤٥ قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٥-٤٦].

قال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، إذا ركبتم الفلك واستويت أنت واستقررت عليه، ومن معك من المؤمنين؛ حتى قيل: إنه لم يؤمن من قومه إلا ما يقرب من ثمانين رجلاً، والبقية كلهم كفروا، ولم يؤمنوا به.

قال: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

انظر إلى دعوته، ما قال: **"قل الحمد لله الذي نجانا من الغرق أو من الهلاك"** ولكن قال: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، لأن القوم الظالمين يؤذون، وهلاكهم نصرة للإسلام والمسلمين؛ لأنهم يقفون في الدعوة، ويؤذون أهل الدعوة؛ فإذا أهلكوا فهذا خير عظيم أن يكون هناك فرصة للدعوة إلى الله، لا يكون هناك من يصدهم.

ولذلك دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أعظم دعوة دعاها قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، يقول: بعد هذا الماء والطوفان الذي قال الله فيه: ﴿وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤].

قال هنا: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، فأنزله الله المنزل المبارك؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو خير المنزلين، فنزلوا واستقروا وعاشوا، وكان معه ثلاثة من أبنائه، **"سام، وحام، ويافث"** وأما كنعان فقط هلك، وجعل الله الذرية الباقية ذريته، وأما من حُمل معه من المؤمنين؛ فإنهم لم يتناسلوا، وإنما ماتوا بعد ذلك ولم تكن لهم ذرية، الذرية في نوح، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧].

بعد ذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [المؤمنون: ٣٠]، أي في هذا الأمر العظيم، في رسالة نوح، وإهلاك قومه، وصنع السفينة، وإغراقهم، ونزول المطر، وأيضًا أن الأرض تظهر الماء تتفجر عيونًا، كلّ هذه آيات، ونصرة أهل الحق، وإهلاك الظلمة، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [المؤمنون: ٣٠].

قال: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠]، ابتلينا هؤلاء وهؤلاء ليظهر الحق، أيها الذين هم على الحق؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]، من هم الذين أنشأهم الله بعدهم؟ قيل: هم قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقيل: إنهم قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالذين قالوا: هم قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قالوا: لأن قوم عاد هم الذين خلفوا نوحًا، الذين خلفوا قوم نوح هم عاد، كما هي عادة القرآن.

وقيل: إن هؤلاء هم ثمود؛ لأن الله قال في آخرها: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الحجر: ٧٣]، والذين أخذتهم الصيحة هم قوم ثمود صالح، وليسوا قوم هود، هود أخذهم الله بالريح، فالكل اجتهد يقول هذا ويقول هذا والعلم عند الله.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]، عندما أهلكنا قوم نوح أنشأنا قومًا آخرين بعد مضي سنين طويلة، وأرسل فيهم رسولًا، ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، يعرفونه، ومن جنسهم، ويأمرهم بأي شيء؟ قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، هي الدعوة الواحدة لجميع الرسل.

وماذا كان رد القوم؟

كان كرد السابقين، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، أي الكبراء والوجهاء والعظماء قالوا ماذا؟ قال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، بالبعث والجزاء والجنة والنار، ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣].

ثلاث صفات:

١. الكفر بالله.

٢. والتكذيب باليوم الآخر.

٣. والترف بالحياة الدنيا ونسيان الآخرة.

قال: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، نفس الشبهة، تتكرر في جميع الأقوام، هذا رسول بشر مثلنا كيف نطيعه؟ ولكن البشر أنسب لكم، أنسب وأحسن، وهذه منة من الله أن يختار من البشر ويمن عليه بالرسالة.

قال: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، يريدون ملائكة لا تأكل ولا تشرب، هذه كلها حجج تافهة وساقطة.

قال: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، تأكيد وقسم منهم، وتأكيد على رد الرسالة، رد رسالته، والله لئن أطعتم بشرًا مثلكم إنكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، خسارة عظيمة.

ثم قال: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥]، يعدكم بالبعث وأنكم إذا متم وصرتم ترابًا وتمزقكم وذهبتم في الأرض أنكم تعودون، ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]، بعد هذا الشيء، ﴿هَيْهَاتَ﴾ [المؤمنون: ٣٦] اسم فعل يريدون به أنه أشد البعد لما توعدون.

ثم قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧]، يموت أناس ويحيون أناس، أرض تبلع الأموات، وأرحام تدفع أحياء، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، ما في بعث ولا شيء وإنما هذه الحياة الدنيا، ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨]، هؤلاء ادعوا أن النبي يكذب على الله، ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٨]، لن نصدقه، ولن نتبعه، ولن نؤمن به.

فلما أصروا واستكبروا، وردوا رسالته ماذا قال؟ عرف أنهم لن يتبعوه، وأنهم سيعاندون، قال: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون: ٣٩]، فدعا ربه أن ينصره بسبب تكذيبهم.

قال: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، سيأتيهم العذاب، وقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، هذا قد يُقال إنهم قوم ثمود؛ لأن الله قال فيهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وأخذتهم الصيحة، الصيحة هي التي عُذب بها ثنود، ثمود عذبوا بالصيحة.

قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ [المؤمنون: ٤١]، أي الذي لا فائدة، مثل الورق والأعواد التي تكون فوق الماء على الأودية تلصق بجدر الأودية، الغثاء الذي لا ينفع من أوراق الشجر، والأعواد الصغيرة التي تكون فوق الماء، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ [المؤمنون: ٤١]، أي مزقناهم.

وهذا يؤكد أنهم قوم ثمود؛ لأن الله قال في سورة أخرى: ﴿كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]، أي هشمهم الله عَزَّ وَجَلَّ وجعلهم كهشيم الحظيرة، حظيرة الأغنام.

قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، أي هلاكًا وبعدًا لهؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسهم.

لعلنا نقف عند هذا القدر نكتفي به، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ماذا قال الله في سياق هذه القرون، وهذه الأمم التي جاءها من الرسل من جاءها، وماذا كانت عاقبة هؤلاء وهؤلاء؟

نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا.

وَاللهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(المؤمنون ٤٢ - ٦٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم المبارك، هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للحادي والعشرين من شهر ذي القعدة، وحسب التقويم الثاني والعشرين، وهذا اليوم نجتمع في هذا المقام والسورة التي بين أيدينا وقد تحثنا عن بعض آياتها في لقاءات ماضية، هي **"سورة المؤمنون"** الذين يتابعون معنا على المصحف هي **"سورة المؤمنون"** الآية الثانية والأربعون.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢]، لما ذكر الله قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما جرى له مع قومه، ونهاية هذه الحوارات، ودعوته، وإغراق قومه ونجاته، ذكر بعدها قال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢].

وهذا القرن أبهمه الله لم يحدد ولم يذكر اسمه، ولكن من خلال ما ذكر المفسرون أن أكثر هؤلاء قيل: إنهم عاد، وقيل: إنهم قوم صالح قوم ثمود، أو عاد قوم هود، والعلم عند الله.

لما ذكر الله قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والقصة التي بعدها قد تكون قصة صالح أو قصة هود؛ قال الله بعدها: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، أي من بعد هذه الأقوام، وهؤلاء المكذبين ﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢]، يعني أنشأنا أممًا وخلائق كثيرين آخرين، وهؤلاء الأقوام مثل قوم لوط وشعيب، والأنبياء السابقين يعني الذين قبل موسى، هؤلاء الذين ذكرهم الله والذين لم يذكروا في القرآن هؤلاء قال الله فيهم: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢].

ثم قال: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٣]، أي ما يمكن لهذه الأمة أن تتقدم ولا تتأخر، يعني كلّ أمة لها أجل محتوم تنتهي عنده فتزول هذه الأمة وتأتي أمة مكانها، هذه الأمة قبل أن

تزول لا يمكن أن تتقدم ولا لحظة، ولا تتأخر عن وقتها ولا لحظة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الحكيم العليم؛ الذي قدر وجعل لذلك تقديرًا، محتومًا، مكتوبًا، لا يمكن لأي أمة أن تتأخر عن موعد زوالها وذهابها، أو تتعجل هذا الموعد لا يمكن، كلّ ذلك في علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي قدره بتقدير دقيق.

قال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ [المؤمنون: ٤٤]، حتى بعد هذه القرون، بعد نوح، بعد عاد، بعد ثمود، بعد القرون الكثيرة بدأ الله عَزَّ وَجَلَّ يُرسل الرسل الكثيرين، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

هؤلاء الرسل الكثيرون أرسل الله كما قال هنا: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾ [المؤمنون: ٤٤]، أي متتابعين، بعضهم يتبع بعضًا، مثلما قال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

قال: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وهذا يحكيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليبين شدة وقسوة هذه الأمم أن يأتهم النبي والرسول ويدعوهم إلى طاعة الله وعبادته، ونجاتهم من النار.

✍ مع ذلك ماذا كان موقفهم؟

قال: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، وردوا رسالاته وكفروا به، وتحدوه، كذبوه فالنتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، أي دمرناهم وأتبعنا بعضهم بعضًا بالهلاك والدمار، ونزول العذاب بهم، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، جعلهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أحاديث جمع أحدوثة، والأحاديث يعني أصبحوا يعتبروا بهم، صاروا عبرة لغيرهم، وبدأ الناس يتحدثون ويتعجبون من أحوالهم، انظروا إلى هذه الأمة كانت له القوة والسيطرة، ولها وكذا وكذا، والآن ذهبت، لا يُسمع لهم صوت، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

لا تسمع شيء، وهذه الأمة كان فيها القوة، وفيها كذا، وفيها النعيم التي تعيش فيه، والمقام الكريم، والخيرات، والقصور، والبساتين، أين هي؟ دمرت تدميرًا، فأصبحوا أحاديث للناس يتحدثون فيهم في المجالس ويتعجبون منهم، ويتفكرون فيهم.

قال: ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، والله عَزَّ وَجَلَّ قال في سورة أخرى: ﴿يَاحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وهنا يقول: ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، فالنتيجة: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، هذه دعوة عليهم، دعاء عليهم، **"بُعدًا"** يعني دعاء عليهم، يعني سحقًا وهلاكًا، وبُعدًا لهم لأنهم قومٌ لا يؤمنون، ولم يعرفوا الإيمان، ولم يعرفوا قدر هذه الرسل والرسالات التي أرسلت إليهم، لم يعرفوا هذا القدر، ولذلك دُعي عليهم بالهلاك والدمار.

قال الله بعدها: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٥]، بعدما ذكر هذه الأمم كلها الكثيرة التي لا يعلم عددها، ولا يعلم رسلها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [المؤمنون: ٤٥]، أرسل الله موسى وأخاه هارون إلى فرعون، ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، أرسله الله بالآيات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، العصا، واليد، وخمس ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في موضع قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وفلق البحر، هذه الآيات التي أعطاها الله موسى، والعصا، وإخراج يده بيضاء، هذه كلها.

قال: ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [المؤمنون: ٤٥]، يعني حجة قوية، أعطاه الله حجة في النقاش والجدال معهم، وإقامة الحجة عليهم، لما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤]، قال: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [طه:٥١- ٥٢]، أعطاه الله الحجة والقوة في إبطال ما هم عليه من الحجج الباطلة.

قال: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، فرعون مصر، الطاغية، المسرف، وملأه الذين حوله الأشراف من قومه، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ [المؤمنون: ٤٦]، لما جاءهم موسى وهارون استكبروا ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦]، أي مستكبرين مسرفين في الأرض، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

فمثل هؤلاء تطاولوا وتكبروا وادعوا القوة لهم، وكانوا قومًا عالين، وكانوا يستكبرون في الأرض ولم يقبلوا دعوة موسى؛ مع أنهم عرفوا الحق، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، وعرفوها، فقالوا: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

احتجوا بهذه الحجج، هذه الحجج الباطلة احتجوا بها، فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

أول شيء: احتجوا قالوا: هؤلاء بشر مثلنا كيف نؤمن لهم؟ وهذه سنة الله أن يرسل من البشر، تريدون ملائكة؟ وهذه مرت معنا لما أرسل الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، يحتجون بذلك.

ومن المناسب الأفضل أن يأتي الرسول منهم ومن جنسهم، ويعرفونه، ومن قومهم، وقد ولد بين أظهرهم وتربى عندهم، فهم يعرفونه، هذا هو الأولى الذي اختاره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحكيم العليم أن يكون الرسول من جنسهم يعرفونه، فكيف تستنكرون وتقولون: هذا بشر ما يصلح؟!!

والحجة الثانية لهم حجة المعاندين المستكبرين قالوا: كيف نؤمن لموسى وهارون وقومهما لنا عابدون؟ كيف نؤمن وقومهما تحت أيدينا مملوكين مستعبدين أمامنا، متذللين لنا؟!!

كما قال قوم نوح؛ قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، ما يمكن أن يأتي فرعون وقومه وملأه والأشراف أن يكون في طاعة موسى وبني إسرائيل الذين يعملون أمامهم ويستخدمونهم، هذه حجتهم الباطلة، حجتهم الداحضة.

قال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ [المؤمنون: ٤٨]، والنتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨]، فأغرقهم الله وأهلكهم بالبحر؛ لأنهم عاندوا واستكبروا، ولم يقبلوا، لم يقبلوا شرع الله ولم يؤمنوا بالله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩]، فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الكتاب والتوراة على موسى لبني إسرائيل، لعلهم يهتدون، يعني على قومه بعدما أهلك فرعون، ووعدهم موسى أنه يذهب إلى ربه فينزل عليه كتابًا من السماء يكون فيه هدايتهم، وصلاحهم، وسعادتهم في الدنيا، فأنزل الله التوراة، هذه التوراة قال الله فيه: لعلهم يهتدون بها، ويستنيرون بنورها، ويسعدون بما فيها، لأجل أن يهتدي هؤلاء.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣]، فأهلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القرون الماضية أهلكهم، بعدها لما جاء موسى وأُنزل عليه الكتاب لم يكن هناك هلاك عام بعد موسى، لم يكن هناك هلاك عام للأمم، يعني لم ينزل هلاك يقضي على أمة كاملة، وإنما الهلاك الذي كان يقضي على أمة كاملة ذلك كان قبل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أما موسى وما بعده من بني إسرائيل لم ينزل الهلاك التام عليهم.

قال بعدها: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، وهو عيسى بن مريم، ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، أمه مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، ﴿آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]، عبرة، وعلامة عظيمة على قدرة الله.

قال: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، يقول: جعلناهم آية للناس، كيف آية للناس؟ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اصطفى مريم، وآتاها من الأشياء الخارقة للعادة، وهي مثل أن الله اصطفاها وطهرها، واختارها على نساء العالمين، وأعطاها ومنّ عليها بالطاعات، وكان يأتيها رزقها وهذه كرامة، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾ [آل عمران: ٣٧]، هذه كلها آيات.

وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الله جعله آية؛ حيث خلقه من غير أب، وجعل أمه تحمل من غير زوج، وتكلم في المهد، وغيرها من الآيات التي أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، أي جعلنا لهم مكانًا عاليًا، الربوة هي **"المكان المرتفع المستوي ليستقروا عليه"** قال: ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، يعني يستقرون عليه، هذه الربوة في الشام، لكن تحديها العلم عند الله، لا نستطيع أن نقول: هي في مكان كذا أو كذا، بعد المفسرين بدأ يبحث عن بعض مدن الشام ويقول: هي في كذا، وهي في كذا، لكن الله أعلم بمكانها.

لكنها هي ربوة ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، يعني استقرار، ﴿وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، أي فيها الماء الطيب، والخصوبة، والأشجار ونحو ذلك، وهذه منة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى نفهم لماذا قال الله هذا؟ لأن الله يبين لنا فضله ومنته، ونعمته على أولياءه، على موسى بأن أتاه الكتاب، وعلى عيسى.

ودائمًا يُذكر موسى وعيسى لأنهم هم أنباء بني إسرائيل؛ فأول نبي في بني إسرائيل هو موسى، وآخر نبي في بني إسرائيل هو عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.

قال الله بعدها: ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، نادى الرسل جميعًا، ولم يناديهم في مكان واحد وفي وقت واحد؛ لأن الرسل مختلفون في الزمان لم يكونوا في وقت واحد، ولذلك ناداهم واحدًا واحدًا؛ يعني أوصى إليهم وأوحى إليهم أن يأكلوا من الطيبات، كلوا من الطيبات أيها الرسل واعملوا صالحًا.

✍ يقول بعض المفسرين: لماذا أمروا بالأكل الطيب والعمل الصالح؟

قيل: لأن الأكل الطيب يعين على العمل الصالح، ويعين على قبول الدعوة، والأكل الحرام يكون سببًا في الانصراف عن الطاعة، والانشغال عن الطاعات، وحرمان الطاعة، ولذلك جاء في الحديث قال: «**إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾** [المؤمنون: ٥١]»، وقال في المؤمنين: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرجل يكون مطعمه من حرام، ومشربه من حرام، وملبسه من حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب له؟!**»، لا يُقبل منه عامل، ولا يستجاب له دعاء، فأكل الطيبات سبب لقبول الأعمال، ولذلك قال: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، سبب لقبول العمل، وسبب لقبول الدعاء، أكل الحلال سبب، وذلك دليل على أن أكل الحلال يعين على الطاعة، وأكل الحرام سبب في رد الدعاء، وسبب في رد العمل.

قال: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]، أي عالم بأعمالكم وقبولها.

قال: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المؤمنون: ٥٢]، المراد بالأمة هنا الشريعة، يقول: يا أيها الرسل شريعتكم واحدة، وإن اختلفت في الفروع لكن شريعتكم واحدة، أيها الأنبياء وأيها الرسل شريعتكم واحدة، ودينكم هو الإسلام، كلكم تدعون إلى لا إله إلا الله، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، أنا ربكم، وأنا خالقكم، وأنا الذي أوجدتكم ورزقتكم، فاتقوني وأطيعوا أمري، وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي، ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

ولما أمر الرسل والأنبياء أقوامهم، أقوام الأنبياء وأتباعهم ومن جاء بعدهم تقطعوا أمرهم، ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وتفرقوا، وأصبحوا أحزابًا وشيعًا.

ولذلك قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، في الدين وأصبحوا أحزابًا وشيعًا، ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾، أي جماعات، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، كلٌّ يقول: أنا على الحق، ويفرح بما عنده، وهو لا يدري أنه على الباطل، فكلٌّ يزعم، وكلٌّ يعجب بنفسه.

قال: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، هؤلاء الذين يفرحون بما عندهم وهم ليسوا على جادة، وليسوا على طاعة، ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، أي في هذه الغفلة، اتركهم في غفلتهم وما هم عليه وفي ضلالهم حتى ينزل بهم العذاب، ﴿حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، أي حتى وقت العذاب.

ثم قال لهم وهم على ضلالهم وكفرهم: ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، أيظنون هؤلاء الذين تفرقوا أحزابًا، وتركوا دينهم، وتركوا طاعة أنبيائهم، ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [المؤمنون: ٥٥]، أي نعطيهم ونمدهم من الأموال يعني يظنون أن هذا خير لهم، هل يظنون أن هذا خير لهم وأن هذا أفضل لهم؟ ما يدرون أن هذا استدراج.

قال: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥٦]، نعطيهم المال والبنون، وهم مساكين لا يدرون ولا يشعرون إلا وقد نزل بهم العذاب؛ لأن هذا استدراج، إذا وجدت الكافر، والغافل، والمعرض يتقلب في نعمة الله، ويعطيه الله، ويفسح له ويعطيه، ويوسع عليه اعلم أن هذا استدراج ولا تظن أنه خير، هم يظنون أنه خير ولا يدرون، ولا يدري إلا وقد نزل به العذاب.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما هددهم وخوفهم وبيّن العقوبة، ذكر حال أوليائه الطائعين؛ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، هذه صفات المتقين الصالحين؛ الذين يسارعون في الخيرات، هذه صفاتهم، هؤلاء هم أتباع الرسل ولذلك قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، يعني يخافون من الله عَزَّ وَجَلَّ، وفي وجل شديد من عقوبة الله، هؤلاء هم الذين يخشون ربهم، يخشون ربهم يعني يخافونه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفي إشفاق وخوف ووجل مما خوفهم الله به، هذه حال المؤمن.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، دائمًا في خوف من الله ومراقبة، من الذي أخرجك من بيتك للصلاة؟ ومن أيقظك لتصلي الفجر، ومن الذي جعلك تخرج مالك إلا الخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! تتصدق بمالك، وتخرج زكاتك، وتفعل المعروف، وما الذي جعلك تبتعد عن الحرام والمنكرات، والوقوع في الغيبة والنميمة إلا خوفك من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!!

فهذه أقوى صفة من صفات المتقين أنهم يخافون أن يقصروا في حق الله، أو يقعوا فيما يغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٨]، يصدقون بالآيات، بالقرآن وغيرهم، ويتفكرون في آيات الله، ويعتبرون بها، وتكون زيادة لهم في إيمانهم.

قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩]، يبتعدون عن كلّ وسائل الشرك، لا يشركون بالله؛ بل يخلصون العبادة لله، لا يراؤون في أعمالهم، ولا في نفقاتهم؛ بل هم مخلصون عباداتهم لربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، يجتهدون في الأعمال الصالحة، ويسارعون في الخير والبر، وهم مع ذلك يخافون ألا يُقبل منهم عملهم، وهذه فصفات المتقين الصالحين؛ الذين يراقبون الله دائمًا في خوف ووجل، وإذا عملوا الصالحات يخشون ألا تقبل.

ولذلك عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لما قرأت هذه الآية قالت لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا نبي الله هؤلاء هم الذين يزنون، والذين يشربون الخمر، ويفعلون ويفعلون من المنكرات، يفعلون ذلك وهم خائفون أن يعذبوا؟ قال: يا عائشة إنهم هم الذين يصلون، ويزكون، ويصومون، ويخافون ألا يُقبل منهم**»، ويخافون ألا تقبل أعمالهم، وألا ينجو من عذاب الله، فهؤلاء هم الذين في خوف وفي وجل، يخشون ألا يُقبل منهم عملهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [المؤمنون: ٦١]، هؤلاء يوفقون، إذا كانوا على هذه الحال؛ فإنهم يوفقون للمجاهدة والمسارعة في طاعة الله، قال الله: ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، أي أن الله ييسر لهم حتى يكونوا من السابقين فيها.

وهذا ملاحظ من أهل الخير والطاعة والسعادة؛ الذين يخافون الله ويبتعدون عما حرم الله، وعما نهى عنه، ويسارعون في طاعة الله هؤلاء يوفقون في للمسارعة، تجدهم في الصفوف الأولى، وتجدهم دائمًا في الصدقات، وفي الصيام، يسارعون في وجوه الخير.

هؤلاء يسارعون لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وفقهم، وسددهم، ويسر لهم هذا الأمر، وهذا على قدر الإنسان، الله لا يكلف الشيء الذي يشق، ولذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: ٦٢]، لا يكلف الله عبدًا من العباد إلا بما يقدر عليه، لا تظن أنهم يعلمون الأعمال الشاقة عليهم؛ بل الله عَزَّ وَجَلَّ يأمرهم بما يستطيعون ويقدرون عليه، ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: ٦٢].

قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٦٢]، هذه الجملة أيها الأخوة تشجع الإنسان، إذا علم أن أعماله محصية، ويجزى عليها، وأن أعماله لا تضيع سارع في طاعة الله.

قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٦٢]، إذا جاء يوم القيامة أُخرج له هذا الكتاب، فرأى فيه كلّ أعماله، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢]، ترفع أعمالهم، وتسجلها الملائكة لهم، وتحصيها لهم؛ حتى لا يُظلمون حقوقهم؛ بل تُضاعف لهم أعمالهم، وتُضاعف لهم أجورهم.

بعد ذلك تعود الآيات إلى هؤلاء الغافلين، لما ذكر الله أولًا الغافلين عن طاعة الله الذين قلوبهم في غمرة، ثم ذكر أهل الخير والصلاح، عادة مرة إلى هؤلاء وما سينزل بهم العذاب، فتعود الآيات إلى هذا لكن الحديث يطول بنا، لعلنا نقف عند هذه الآية، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما وقفنا عنده.

وَاللهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(المؤمنون ٦٣ - ٧٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الثلاثاء مع درس تفسير القرآن العظيم، وهذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للسابع والعشرين من شهر ذي الحجة من عام ١٤٤٣ من الهجرة، السورة التي بين أيدينا هي **"سورة المؤمنون"**، والآية هي الآية الثالثة والستون من السورة.

السورة كما هو معلوم يعني سورة مكية، تناقش وتحاور أهل الشرك والكفر والعناد، وبيان مواقفهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والإيمان بالله وأسمائه وصفاته، ومن الدعوة ومن الرسول والقرآن، لهم مواقف ظاهرة وواضحة، أوضحها القرآن وبينها.

وفي هذه الآيات التي معنا بين أيدينا بيان وجوه الإعراض عندهم، أسباب الإعراض، أعرضوا عن ذكر الله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني فتح لهم باب الخير وباب الدعوة، ولكنهم لم يقبلوا ذلك.

وأسباب إعراضهم ما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ قال: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، يعني هم في غفلة عن الحق، وهم في إعراض، إعراض وغفلة جهل وعدم تقبل للحق، هذا السبب الأول.

السبب الثاني: قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٦٤]، السبب **"الترف"** الترف والنعيم الزائد، والرفاهية كانت سببًا في إعراضهم.

السبب الثالث: قال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦]، يعني إعراض شديد، والآيات تُعرض عليهم، ويرجعون إلى الوراء وإلى القهقرى، ولا يقبلون الحق، والسبب هو الاستكبار، مستكبرين.

ثم عرض الله عليهم الخير، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، لماذا لا يتأملون القرآن ويتدبرون القرآن ليفتح لهم الخير ويجعلهم يُقبلون على الخير؟!!

القرآن بين أيديهم، والرسول معهم، قال: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، فالرسول جاءهم بالخير، والحق جاءهم، ولكن لا يريدون الحق؛ بل يريدون الضلال والإضلال، هذه الآيات الآن التي بين أيدينا تُبين لنا أسباب الإعراض الشديد منهم، لا يريدون قبول الحق، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني قد من عليهم وأنعم عليهم برسالة النبي وبنزول القرآن، وفتح باب الهداية لهم، ولكنهم أغلقوا على أنفسهم.

طيب نأخذ هذه الآيات، الآن أصبح عندنا تصور واضح عن مواقف هؤلاء المشركين، وأسباب الإعراض، وأسباب الاهتداء التي لم يريدوا قبولها؛ بل أعرضوا عنها.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣].

يقول: هؤلاء الكفار في غمرة، أي في وسط غمرة من الجهل والظلم، والإعراض والغفلة، هذه الأشياء كلها سبب في منع قبول القرآن وتدبره.

القرآن ما قال: **"أبدانهم"** ما قال: **"أجسادهم"** وإنما قال: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، وهذه مصيبة عظيمة، إذا كان القلب في غمرة، في غفلة، في جهل، في إعراض، انطماس، هذه مصيبة، والسبب سبب الغمرة هو أنهم لا يريدون الخير، لا يريدون أن يُقبلوا، ولا يريدون أن يتقبلوا خير.

ولما أعرضوا عنه أعرض الله عنهم، ولما زاغوا زاغت قلوبهم، وأنزل الله بهم العقوبات، ولذلك أنت لما تقرأ في القرآن في آية أخرى يقول: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [الإسراء: ٤٥]، يا محمد، ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، حجاب يعني ما يمكن أن يستفيدوا أو يسمعوا.

قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ [الإسراء: ٤٦]، القلوب عليها غطاء، ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء: ٤٦]، أي صمم وثقل، هذه كلها عقوبات من الله، والقلوب في غمرة، كلّ هذه أسبابها الكفر والعناد، والإعراض، انظر كيف عاقبهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!!

وأيضًا يمد الله لهم بالأعمار والصحة والعافية ليزدادوا إثمًا، ولذلك قال: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، يعني الله مكن لهم في أبدانهم، وفي صحتهم، وفي أعمارهم حتى

يعملوا هذه الأعمال التي تنتظرهم، أعمال سيئة، ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، هم في أعمال، وتنتظرهم أعمال سيئة، فتجتمع ا]لأعمال على الأعمال السيئة، تجتمع عليهم فإذا اجتمعت عليهم ومُد لهم في الزمن، ومد لهم في الوقت فينزل الله بهم العقوبات، ينزل الله عليهم العذاب، إذا أمهلهم؛ أمهلهم حتى تجتمع عليهم هذه الأعمال السيئة، ثم بعد ذلك يوفيهم الله أعمالهم، ثم ينقلهم إلى شر حالة إلى غضب الله إلى عقابه.

ولذلك قال: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، لابد أن يعملوا، ويفسقوا، ويؤذوا عباد الله، ويظلموا، ويعرضوا، ويعاندوا شرع الله، ويحاربون أولياءه، النتيجة قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ﴾ [المؤمنون: ٦٤]، يقول: حتى يمتد الوقت لأعمالهم إلى أن يصل الوقت الذي تنزل بهم العقوبة؛ فيأخذ الله مترفيهم.

هنا سؤال:

لماذا يأخذ المترفين بالعذاب؟

قال: المترفون هم المنعمون؛ الذين اعتادوا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تصبهم مكاره، الجرح لا يصيبهم، فهم محفوفون مكفوفون، ما يتعرض لهم سوء، ولا أمراض ولا شيء، فهم منعمين، فإذا نزل بهم العذاب سيستنكرون هذا الشيء، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤].

الجؤار هو: "الصراخ بشدة مع الاستغاثة" لأنهم أصابهم شيء ما خطر ببالهم؛ لأنهم منعمون محفوفون بعيدون كلّ البعد عن أن يصيبهم من الأمراض والأذى، فيستنكرون هذا الشيء، ولذلك قال: ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤]، أي يستغيثون بصوت عالي فالله يرد عليهم، والملائكة ترد عليهم، ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ﴾ [المؤمنون: ٦٥]، ما ينفع الجؤار، والصراخ ما ينفع.

قال: ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥]، لن ننصركم نحن ولا أحد يستطيع أن ينصركم، أنتم في العذاب، قد أحاط بكم، فليس لكم مخرج.

ما هو السبب؟

السبب قال الله فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦]، آياتي تتلى عليكم لتؤمنوا بها، وتقبلوا عليها، فلم تؤمنوا ولم تقبلوا؛ بل رجعتم إلى الوراء وإلى الخلف، ﴿فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦]، لا تقبلون الحق، والحال أنكم مستكبرين، مستكبرين عن الحق.

قال: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]، قال أهل التفسير: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ [المؤمنون: ٦٧]، أي أنكم تتكبرون به أي بالحرم، تقولون: نحن أهل الحرم، لن يصيبنا عذاب، نحن أولياء الله، نحن سدنة البيت، نحن خدمة البيت، نحن أهل السقاية والرفادة، لن يصيبنا شيء، تظنون أنكم إذا كنتم في الحرم لن يصيبكم؛ بل لن ينفعكم ذلك بسبب استكباركم وإعراضكم.

قال: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا﴾ [المؤمنون: ٦٧]، السمر هو **"السهر بالليل"** التحدث بالليل سهرًا، فهم يسهرون بالليل حول البيت، يجتمعون جماعات ويسهروا على العبث، ويسهروا على الفسق، وعلى المجون.

قال: ﴿سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]، أي تهجرون القرآن، وتهجرون الحق، وتصفون القرآن بالأوصاف التي لا تليق، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]،لا يريدون الحق مستكبرين، هذا هو السبب الذي جعل الله ينزل بهم هذه العقوبات.

قال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

✍ لماذا لا يتدبرون القرآن؟

إذًا السبب لما أعرضوا ما استفادوا من القرآن، ولو أقبلوا على القرآن لفتح الله عليهم؛ لأن الله حثهم؛ قال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، أفلا يتدبرون القرآن، يتأملون آياته، ويتدبرون آياته حتى ينتفعوا بهذا القرآن، حتى يستفيدوا من هذا القرآن؟!!

قال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، يقول: هل جاءهم شيء لم يأت آباءهم؟ بل إن الأمم السابقة جاءتهم الرسل، وأنذروهم، وأرسل الله إليهم ولم يتركهم؛ بل قد جاءهم ما جاء آباءهم من الرسل.

قال: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، هل لا يعرفون محمدًا؟ بل يعرفونه بصفاته وأحواله، لا تخفى عليهم، وهم يعرفون أنه الصادق الأمين، ويعرفون أنه أعقلهم وأفهمهم وأحسنهم خلقًا، فهم يعرفون محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، يعني هل هو غريب عليهم لا يعرفونه؟ بل هم يعرفون صدقه، ويعرفون دعوته، ويعرفون حاله.

قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، هل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجنون؟ يقول بعضهم: إن محمد مجنون، هل هذا يُقبل وهم يعرفون كمال عقله وحصافة حديثه وكمال تصرفه؟! فكيف يقولون به جنة؟!!

قال: ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، وجاءهم بالرسالة، وجاءهم بالنجاة، والسلامة والهداية فلم يقبلوا ذلك، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، أكثرهم لم يقبل؛ بل يقل: كلهم، لأن فيهم من آمن، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]، لا يريدون الحق، كراهية له، وكراهية لمحمد، ولما جاءهم به.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٧١]، لو سلمنا لهم وأخذنا بما يريدون، الذي يريدونه، لو اتبع الحق أهواءهم، ومشى الحق مع آرائهم وأهوائهم الفاسدة، ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١]، لماذا؟ لفساد نياتهم، وفساد أعمالهم، وتصرفاتهم، وتدبيرهم، كلّ ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون: ٧١].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٧١]، أتيناهم بالقرآن الذي فيه ذكرهم، وشرفهم، وفخرهم، لكنهم لم يريدوا ذلك، لم يقبلوا ذلك، ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١]،لا يردون لشقاوتهم وعدم التوفيق، لم يقبلوا الحق ولا يريدونه، وهذا سبب إعراضهم، لما نسوا نسيهم الله.

قال: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا﴾ [المؤمنون: ٧٢]، أم تسألهم يا محمد خرجًا؟ هل تريد منهم مالًا؟ هل تريد منهم أجرة؟ هل طلبت منهم أجرة؟ قال: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، ما عند الله خير، فأنت لم

تطلب منهم مالًا، ولم تطلب منهم أجرًا على دعوتك؛ بل طلبت من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأجر، فكيف لا يقبلون؟!! جاءهم الخير بلا أجرة ومع ذلك ردوه!!.

قال: ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢]، ثم بيّن حقيقة دعوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال: ﴿وَإِنَّكَ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، يا محمد، ﴿لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المؤمنون: ٧٣]، أنك يا محمد تدعوهم إلى ما فيه نجاتهم، وما فيه نفعهم، ومصلحتهم، وهو سلوك الصراط المستقيم الذي فيه سلامتهم، وفيه نجاتهم، وسعادتهم، ومع ذلك قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [المؤمنون: ٧٤]، ولا يريدون الإيمان بالقرآن، ولا بالرسول، ولا بالآخرة، موقفهم ماذا؟ قال: ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٤]، أي لا يريدون قبول الحق، ولا يريدون الحق، ولذلك عاقبهم الله فتنكبوا الصراط، وضلوا، وجهلوا الصراط فهلكوا، وأهلكوا غيرهم، فلم يستجيبوا لله، وإنما استجابوا لأهوائهم، وشهواتهم.

لعلنا نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل، لكن ما نريد أن نوضحه أن هذه الآيات العظيمة التي قرأناها بينت لنا أسباب هلاك هؤلاء، وأن الله لم يهلكهم من أول وهلة، ومن أول الأمر؛ بل هم السبب.

وبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات السابقة أسباب الهلاك، وأنهم ظلمة، وأنهم فسقة، وأنهم معاندون، ولا يريدون الحق، وقلوبهم غافلة، وأنهم في ترف، وفي نعيم زائل، وأنهم كانت الآيات تتلى عليهم فيعرضون عنها، ويتكبرون، ويقولون: نحن أهل الحرم، ويسهرون على الفساد والفسق والمجون، والقرآن يأتيهم ولا يتدبرون القرآن، والرسول يأتيهم وينكرون رسالته، ويتهمونه بالجنون.

هذه كلها هي سبب هلاكهم، وسبب ما نزل بهم من العقوبات، والله قد عرض عليهم القرآن، قال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وعرض عليهم رسالة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين لهم حقيقته، ولكنهم لا يقبلون ذلك، عقوبات تنزل بهم بسبب إعراضهم، كفرهم، وعنادهم، وصدهم.

الحقيقة الآيات عظمية تحتاج من كلّ مسلم أن يتعظ، وأن يتذكر، وأن يتدبر هذه الآيات، نسأل الله أن ينفعنا بها، وأن يبارك لنا ولكم، وإن شاء الله نلتقي وإياكم في لقاء قادم بإذن الله.

وَاللهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(المؤمنون ٧٥ - ٩٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للرابع من شهر الله المحرم من عام ١٤٤٤ من الهجرة.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

السورة التي بين أيدينا هي **"سورة المؤمنون"**، تحدثنا عنها في لقاءات ماضية، ووقفنا عند الآية الخامسة والسبعين، وهي لا تزال السورة في بيان مواقف هؤلاء المشركين المعاندين، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لهم الآيات، ويحثهم على أن يتمسكوا، ويرجعوا عما هم عليه ما هم عليه من الغي والضلال، ولكنهم لا يريدون الرجوع إلى الله؛ بل لا يزالون في غيهم وفي ضلالهم.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، هذا يوضح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شدة العناد، ومع أن الله أصابهم بالمصائب لعلهم يرجعون ويصيبهم بهذه المصائب بذنوبهم وينزل عليهم البلايا ومع ذلك يستمرون في طغيانهم، تنزل بهم المصائب والأمراض، والجوع، والفقر، والوباء، ومع ذلك لا تجد من يرجع إلى الله.

في هذه المصائب يدعون الله أن يكشف عنهم، ويلجئون إلى الله، ثم إذا كشف الله عنهم الضر رجعوا إلى ما هم عليه.

فيبتليهم بالبلايا لعلهم يرجعون، لعلهم يتوبون، فإذا كشف الله الضر عنهم لجوا في طغيانهم يعني تمادوا واستمروا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، في ضلالهم، واستكبارهم يعمهون.

كلمة "**يعمهون**" العمه بالهاء "**عمى القلب**"، والعمى بالألف المكسورة هذا "**عمى البصر**"، يعني ما يرى ببصره، الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، وهذا أشد، يعمهون يعني يتحيرون، ما يدرون أين يذهبون، ﴿لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، يتخبطون، ما يدرون ماذا يقولون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، يعني ينزل بهم العذاب فلا يستكينون، ينزل بهم العذاب فلا يخضعون ولا يتذللون لله، ولا يتضرعون إلى الله، ولا يفتقرون إلى الله، العقوبات تحيط بهم، والمصائب تحيط بهم ولا يزالون في كفرهم، قسوة في القلوب، وتمرد وإعراض، شدة إعراض لا يريدون القبول، ويستمرون على هذه الحال حتى إذا فتح الله عليهم العذاب ونزل بهم العذاب في هذه الساعة يعرفون أين هم؟

إذا نزل بهم العذاب سواء قلنا: هذا العذاب كما وقع لأهل مكة في بدر، العذاب الذي ينزل بالأمم، أو قد يكون عذاب النار.

قال: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٧]، المبلس هو الآيس من كلّ خير، الذي انقطع خيره، انقطع رجاؤه، وحضر شره وليس له حيلة فقد نزل به العذاب، أحاط به العذاب أصبح لا يستطيع التحدث ولا الكلام.

أحاط به العذاب فأصبح مبلسًا آيسًا منقطعًا، صامتًا، ساكتًا، ولذلك قال: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٧].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع هذا كله وتذكيرهم، وبيان حالهم، إلا أنه لا يزال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تذكيرهم، ويعود مرة إلى تذكيرهم فيقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

يذكرهم بالنعم، وبقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني من قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ وعظمته أن جعل لهم السمع، والأبصار، والقلوب، يسمعون، ويبصرون، ويعقلون بقلوبهم، ومع ذلك لا يشكرون، يقول: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

ينعم الله عليهم، لم يجعلهم كالبهائم، أو يجعلهم كالذين ليس لهم عقول كالمجانين؛ بل أنعم عليهم بالبصر، يبصرون الذي أمامهم، يسمعون، يدركون هذه الأشياء، يعقلون، كلّ هذه النعم تدعوك إلى أن تُقر بالمنعم عليه وهو الله، وتوحده، وتطيعه، ولا تتمرد عليه، وأين الشكر؟

قال: ﴿قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨]، النعم تتوالى عليك وأنت لا تشكر؟!!

ثم ذكرهم بنعمة أخرى؛ قال: ﴿وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩]، بثكم في الأرض، ونشركم، آية عظيمة، ونعمة عظيمة، لو كنت عايش وحدك ما استطعت، فمن نعم الله أن نشر هذه الذرية بعضها يعين بعض، وبعضها يساعد بعض، وبعضها يقف مع بعض، فهذه كلها من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، للتناسل والعلاقات بين الزوجين، والعلاقات بين الأقارب، والعلاقات بين المؤمنين بعضهم ببعض، هذه كلها من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بعضهم يعين بعض يعينهم على الطاعة ويعينهم على ما يحتاجون إليه.

فمن نعم الله أن ذرأهم وبثهم في أقطار الأرض، وجعل لهم المعايش، وجعل لهم المساكين، وجعل لهم العقول، والعلاقات، والمودة والمحبة.

قال: ﴿وَهُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩]، تذكر أن الذي نشرك في الأرض وبثك هو الذي سيحشرك، وسيجمعك إلى يوم القيامة، ويجازيك بعملك.

قال: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، بيان قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يملك الموت والحياة إلا الله، ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: ٢].

فالذي يتصرف في الكون كله في الحياة والموت هو الله وحده لا شريك له، ولا أحد يتدخل، لا يمكن لأحد؛ الذي يحيي ويخلق الخلق، ويميتهم هو الله.

قال: ﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، هذه مما انفرد الله بها، لا يمكن للإنسان أن يدبر الكون في طول الليل وقصره، واختلاف الليل، واختلاف النهار، هذا مرجعه إلى الله.

تعاقب الليل كلّ يوم، وينوب أحدهما مكان الآخر، وهذا يقصر وهذا يطول، كلّ هذا يملكه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، أين عقولكم حتى تذهب عقولكم وأنتم ترون هذه الآيات كلها، وهذه النعم التي تحيط بكم وأنتم لا تعقلون ولا تفكرون في أن الله هو الذي جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، وهو الذي نشركم في الأرض وبثكم، وهو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يتصرف بالليل والنهار، وبالشتاء والصيف، وتعاقب الليل والنهار، وتغير هذه الأجواء، هو الذي يملكها.

أين عقولكم؟ لا تملكون هذه الأشياء، الذي يملكها؛ والذي خلقها؛ والذي يتصرف فيها هو الله، هو المستحق للعبادة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ قَالُوا﴾ [المؤمنون: ٨١]، يعني هؤلاء المشركون المعرضون، الذين في طغيانهم يعمهون، قالوا: ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١]، أنكروا، أنكروا ماذا؟ أنكروا البعث، لماذا؟ لأنهم لم يروه، ولم تبلغه عقولهم، ولذلك لما حكموا عقولهم أنكروا البعث، قالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، هذه طريقة الذين يحكمون عقلوهم في شرع الله، أنت عليك التسليم والإيمان، الله أخبرك بالبعث، وقادر على أن يبعثك، وأعطاك الآيات الكثيرة الدالة على قدرته على البعث، عليك أن تُقر وأن تستلم وأن تطيع، وأن تؤمن.

قال: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، ويستهزئون ويسخرون؛ قالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ [المؤمنون: ٨٣]، وعدنا هذا الشيء ولم نراه، ما زلنا نوعد، وآباؤنا يوعدون ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨٣].

هذه قصص، وحكايات، وخرافات الأولين، نسمعها من آباؤنا ولم نراها، هذا كله لا حقيقة له، كذب في كذب، فهذا موقفهم من الجزاء، ومن ابعث، ومن الجنة، ومن النار، ولذلك لا يبالون في الدنيا في حقوق الآخرين، ولا يذعنون لربهم، ولا يستكينون لربهم.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقيم عليهم الحجج والأدلة، فيسألهم أو يقول: يا محمد اسألهم، ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤]، عندكم عليم، وتقولون: إنا نعرف، طيب الأرض هذه كلها ومن في الأرض من الجبال والأنهار والدواب، والأشجار، والمخلوقات كلها، هذه الأرض وما فيها لمن؟ يأتيهم بالتدرج شيئًا فشيئًا.

يقول: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٥]، لماذا ما تتذكر أن الذي خلق الأرض قادر على أن يخلقك ويعيدك، لماذا لا تتذكر؟!!

ثم ترقى شيئًا فشيئًا فقال: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، الذي هو أكبر من السماوات كلها، أعظم المخلوقات العرش العظيم، من هو الذي خلقه؟ ومن هو ربه، ومن هو خالق السماوات والأرض وربها؟ بما فيها، وبما تحتويه؟ سيقولون: لله، يقرون بالربوبية.

فهم يقرون بذلك، لو سألت الكافر والمشرك تقول: الأرض لمن؟ لقال: لله، والسماوات؟ لقال: لله.

قال: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٧]، لماذا لا تتقون الله وتخافونه، وتخافون عقوبته، وما ينزل بكم، وما يتوعدكم به؟!!

ثم ترقى معهم أكبر وأكبر؛ فقال: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، يعني من هو الملك الذي له الملك الطلق، ملكوت أصلها ملك، والواو التاء للمبالغة، ملكوت، وجبروت، وطاغوت، للمبالغة.

قال: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، من الذي يملك الدنيا والآخرة؟!!

انظر إلى الترقي:

أولًا شيء قال: الأرض، ثم قال: السماوات ورب العرش، ثم ارتقى أكبر وأكبر وقال: ملكوت كلّ شيء، كلّ شيء موجود في السماوات والأرض من الذي يملكه؟ وزيادة على ذلك، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، يدفع عنك البلاء ويحفظك.

قال: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، ما أحد يستطيع أن يمنعه، وأنت تقول في دعاءك: **"ربي أجرني من النار"** يعني امنع النار عني، فهو يجير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولا أحد يستطيع أن يُجار عليه؛ لأنه هو الذي يملك ذلك، إذا أراد الله أن ينزل بأحد عقوبة أو يقدر عليه شيء من الأقدار ما أحد يستطيع أن يمنعه، إذا نزل مثلاً بهذا الشخص الموت هل يستطيع أحد يأتي بمنع الموت؟ لا يُجار عليه أبدًا.

قال: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٩]، يعني المالك للملك هو الله، هذا الملك لله، وهذه السماوات لله، وهذه الأرض لله، ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩].

ما الذي أصابكم؟ جنون؟ سحر؟ أنتم مسحورون ما تعرفون كلّ هذه الأشياء، والله يُقر، كيف تذهب عقولكم ولا تعرفون كلّ هذه الأشياء؟!!

فإذا عرفتم، وأقررت بأن خالق السماوات هو الله، وخالق الأرض هو الله، وخالق العرش العظيم هو الله، والملكوت كلها ملك لله، وجب عليكم أن تؤمنوا بالله، وأن تعبدوه وحده لا شريك له.

فالذي يُقر بالربوبية بأن الله هو الرب الخالق، البارئ، الرازق، المدبر، يجب عليه أن يقر بالألوهية، بأن يخضع لله، ويعبد الله ولا يجعل معه إلهًا آخر، ولا ينكر قدرة الله على البعث.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠]، أتاهم الله بالحق بالأدلة الصحيحة، ولكنهم يكذبون، ويفترون على الله على الكذب، ويقولون: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ [المؤمنون: ٨٢].

ويكذبون ويجعلون مع الله آلهة أخرى ويقولون: الله أمرنا أن نعبد الأصنام، ويكذبون ويتهمون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكذب، كلّ ذلك كذب منهم.

فرد الله عليهم بتوحيد الإلهية، وتوحيد الألوهية وأنه هو الواحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يُعبد وحده لا شريك له، فالعبادة لا تُصرف إلا له، ولا يجوز الخضوع إلا لله، ولا يجوز السجود والركوع إلا لله.

اسمع إلى دليل العقل؛ قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ما عندهم لتتهمونه بأنه له ولد، ما عنده ولد، ولا يمكن أن يتخذ ولدًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الذي يتخذ الولد يريد العون منه والمساعدة، والله هو الغني القوي، ما يحتاج أن يتخذ ولد، الذي يحتاج إلى الأولاد الشخص الضعيف المسكين الذي يريد من يعينه.

قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ما معه إله آخر، أين الإله الآخر؟ أين هو؟ إذًا ليس له ولد ولا معه إله.

قال: ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ولو كان معه إله لذهب كلّ إله بما خلق، كلّ واحد يقول: الخلق لي أنا، أنا الذي خلقت السماوات، هذا يقول: أنا خلقت الأرض، وهذا يقول: أنا خلقت النبات، وهذا يقول: أنا خلقت الجبال، ﴿إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، إما أن كلّ واحد يذهب بخلقه، أو يتغالبون، فالغالب هو الإله، وهذا لا يمكن، مستحيل، هذا يسميه أهل العلم دليل التمانع، ما يمكن أبدًا، فيستحيل هذا الأمر.

قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، لو كان في آلهة غير الله آلهة أخرى لفسدت السماوات والأرض، ولا يمكن، لا يمكن أن تمشي بهذا النظام الدليل فالله هذا الواحد الأحد المسخر بقدرته المدبر بحكمته لهذا الكون كله، فدليلهم باطل.

قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

نطقت السماوات والأراضين والمخلوقات كلها بوحدانيته وأنت تجعل مع الله إلهًا آخر؟ سبحان الله عما يصفه الواصفون بهذه الأوصاف التي لا تليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٢]، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم الغيب ما غاب عن الأبصار، وما تشاهده الأبصار، ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٢]، من جعلوا لله شركاء، تعالى الله عما يشركون.

قال: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣]، قل يا محمد لهم، لهؤلاء قل، وادع ربك، ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣]، أي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أقام الحجج هذه والأدلة على المكذبين ولم يلتفتوا، ولم يذعنوا، ولم يرجعوا إلى الله، وما استكانوا لربهم، وما تضرعوا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ويتوعدهم بنزول العذاب ويقيم عليهم الأدلة، ومع ذلك لا يقرون.

فيقول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣]، يعني أي وقت أنتظر هذا العذاب الذي سينزل بهم.

ثم يقول وهو يدعو الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٤]، احفظني واعصمني من أن أكون مع هؤلاء، وأن أخالطهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥]، إنا على أن نريك لقادرون، لكن نؤخر العذاب لحكمة، هو أراه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما وعدهم من العذاب، أراه سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى في يوم بدر، رأى صناديد الشرك والكفر تتطاير رؤوسهم، ويتساقطون على الأرض، ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥]، بإنزال العذاب بهم في يوم بدر أو في غيره، وقد أنزل الله بهم العذاب.

لكن من أخلاق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأدبه أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأمره بأن يتعامل معهم بأحسن مما يتعاملون معه، آذوه، وهددوه، ردوا رسالته، ولم يقبلوا رسالته، ومع ذلك يوصيه الله بأحسن الأخلاق.

قال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، إذا أساءوا إليك عاملهم بالأحسن، وإذا تكلموا فيك وردوا رسالتك فلا تقابلهم بالإساءة؛ بل تجاوز عنهم؛ لأنهم عقولهم ما يدركون مصلحتهم، قد عمهم الجهل، ولم يعرفوا مصلحتهم، فأنت قابل السيئة بالإحسان، ولا تقابلها بالسيئة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في موضع آخر: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فأعرض عنهم، واصبر عليهم، وانتظر النتائج، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، الخلق الحسن ادفع السيئة فيه، والمعاملة الحسنة اجعلها أمامك في دفع السيئة، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]،

قال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وبما يقولون، وبما يتهمونك، ويقولون: أنك شاعر، وأنك مجنون، وأنك، وأنك، ويكذبونك، وأنت قابلهم بالإحسان تكسبهم، وبإذن الله يرجعون إليك.

هذا خير من مقابلتهم بالسيئة، ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

هذا أيها الأخوة في معاملة الإنسان مع أشرار بني آدم، ومع شياطين الإنس، فكيف يتعامل مع شياطين الجن إذا آذوه، وإذا حرضوه على الشرك، وأشغلوه عن الطاعة؟!!

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، هذا في جانب هؤلاء الجن، ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ﴾ [المؤمنون: ٩٧]، يعني أعتصم وألتجئ إليك ربي بحولك وقوتك، وأتبرأ من

كلّ قوة ومن كلّ حول من همزات الشياطين،من همز الشيطان وهو أن يصيب الإنسان بالهمز والمس، والإيذاء.

قال: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٨]، ألا يحضرني الشيطان، وألا تحضرني وسوسة الشيطان، هذه كلها استعاذة، يستعيذ الإنسان المؤمن بربه، والرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خوطب بذلك، والأمة كلها مخاطبة بذلك؛ أن تدفع بالتي هي أحسن، مع تعاملهم مع شياطين الإنس، وشياطين الجن أن يتعوذوا بالله، وشياطين الجن أهون؛ لأنك إذا تعوذت بالله منهم يذهبون ولا يبقون، الشيطان ضعيف فعليك بالاستعاذة من نزغات الشياطين، ومن همزات الشياطين، والله عَزَّ وَجَلَّ يدفع عنك ذلك.

قال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ۝٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، أعوذ بك أن تحضر الشياطين معك، وتخالطك، في أكلك، وفي شربك، وفي مجلسك، وفي بيتك، وفي دارك، وفي سيارتك، تعوذ بالله دائمًا، وفي صلاتك، حتى في المسجد يدخل الشيطان، فعليك باللجوء إلى الله، والعصمة، والاعتصام بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من شياطين الإنس والجن.

لا نطيل عليكم، لعلنا نقف عند هذا القدر، ففيه البركة وفيه النفع، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(المؤمنون ٩٩ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اليوم المبارك، وهو يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من شهر الله المحرم، من عام ١٤٤٤ من الهجرة.

درسنا المعتاد في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي **"سورة المؤمنون"**، والآيات هي في آخر السورة الآية تسعة وتسعين.

والحقيقة أيها الأخوة الكرام الإنسان لما يقرأ القرآن، ويتدبر هذه الآيات ويتأمل معانيها يعيش في عالم آخر، عالم التدبر والتأمل والتفكر في كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فلا يمل الإنسان، وتتفتح له أشياء عجيبة لا يشعر بها ولا يخطر بباله.

الآن الآية التي معنا هي الآية رقم تسعين وتسعين من **"سورة المؤمنون"**، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، أحد من؟ أحدهم، قال: ارجع إلى الآيات السابقة حتى تربط الآيات بعضها ببعض، ارجع لها، وهذا الرجوع يحتاج منك إلى تأمل وتدبر.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وألوهيته، وربوبيته، وانفراده بالخلق، ونزه نفسه عما يصفه الواصفون مما لا يليق به؛ قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، أي المشركون، ثم قال: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٢]، أي هؤلاء المشركون الذين يشركون مع الله.

ثم قال مخاطبًا نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣]، يعني أرني يا رب ما وعدتني فيهم من العذاب.

ثم قال: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٤]، يا رب لا تجعلني مع القوم الظالمين.

ثم قال: ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ﴾،من العذاب ﴿لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥]، لكن الله يمهل ولا يهمل.

ثم بعد ذلك قال: اتركهم على ما هم عليه، وذرهم في خوضهم يلعبون، وفي استهزائهم وفي سخريتهم، ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، يعني إذا حضر الموت أحد هؤلاء المفرطين، هؤلاء الكفرة الظالمين، إذا جاء أحدهم الموت ماذا سيكون موقفه؟

قال: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، سيندم أشد الندامة، متى؟ إذا رأى حتفه، وموته، ومآله، وشاهد أعماله القبيحة، شاهدها أمامه، يطلب الرجعة إلى الدنيا، وينادي رب العالمين الذي خلقه، الآن تعرف الله؟!!

قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، لم يقل: رب أرجعني، الله واحد.

✍ لماذا قال: ارجعون كأنه يخاطب جماعة؟

الآن بدأ يعظم الله عَزَّ وَجَلَّ هذا التعظيم، ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، أو أنه يخاطب الله عَزَّ وَجَلَّ، ويخاطب الملائكة التي قبضت روحه وتولت أمره، فيقول: **"ارجعون، ارجعون"**.

✍ لماذا ترجع إلى الدنيا أنت كنت في الدنيا؟

قال أنا أريد أن أرجع، لكن لا أريد أن أتمتع بها ولا بلذاتها، ولا بشهواتها، وإنما أريد أن أغير صفحة جديدة، ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، يعني حتى أعمل صالحًا.

قال: ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، يعني فيما ضيعت وفرطت، في العمل، وفي الدنيا، الآن انتبهت، وأرجعوني حتى أعمل صالحًا، طيب أعطاك الله عَزَّ وَجَلَّ مدة، ومتعك الله سنين في الدنيا، وما عرفت الله، وما عرفت حق الله، والآن تقول: أرجعوني، لا رجعة، لا يمكن، ما يمكن لأي نفس تموت وينتهي أجلها في الدنيا أن ترجع هذا من المستحيل.

ولذلك رد الله عليه بأي شيء؟ قال: ﴿كَلَّا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، ما في رجعة، ولا في إمهال ولا لحظة، ولا تريد فقط مجرد أن أعطيك دقيقة واحدة ما نعطيك دقيقة، انتهى أجلك، وطويت صحيفتك، لا في رجعة ولا إمهال، قُضي الأمر، ما يمكن أن يرجع.

ثم أخبرك الله بأمر آخر هو في نفوسهم يخفونه، هؤلاء المجرمون الظالمون لا تظن أنه يقول: **"أرجعني أعمل صالحًا"** وهو يقول ذلك حقًا، وإنما يقوله بمجرد اللسان، أما حقيقة الأمر والله لو ردوا لعادوا إلى ما نهوا عنه.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، مجرد كلام وأماني، ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، الله أعلم بحاله، بحال هؤلاء المجرمين الطغاة.

قال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، مجرد كلام، ولو أعدناه إلى الدنيا فكما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، لو ردوا إلى الدنيا والله لرجعوا إلى ما كانوا عليه من التمتع، والكفر، والضلال، والطغيان، والإسراف على أنفسهم، ومحاربة الله، ومحاربة ديه ومحاربة شريعته، يعني مجرد كلام.

ولذلك الله قال: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، ومعنى وراءهم أي أمامهم، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩]، أي أمامهم، فكلمة الوراء تطلق على الخلف، وتطلق على الأمام، وهذه لغة العرب الواسعة، وهذه يسميها أهل اللغة من الأضداد التي تستعمل على وجهين، فوراء تستعمل على أمام وخلف.

قال: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، أي أمامهم برزخ، والمراد بالبرزخ هو عذاب القبر، وهذه الآية نص في إثبات عذاب القبر، ورد على منكري عذاب القبر.

قال: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، برزخ أمامهم حاجز، والبرزخ دائمًا هو الحاجز، وسمي عالم القبور برزخ لأنه حاجز بين الدنيا والآخرة، وإن كان هو من منازل الآخرة، لكنه لم يأت اليوم الآخر حتى ينتقل الإنسان من هذا القبر، هو الآن محجوز في هذا القبر البرزخ.

يقول: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، هذا البرزخ يبقى فيه هذا الميت، فأهل الطاعة ينعمون في قبورهم، وأهل المعاصي يعذبون في قبورهم، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**القبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار**».

فإذا جاء اليوم البعث يوم الجزاء والحساب أخرجوا من قبورهم لمجازاتهم على أعمالهم، والآن يأتيك تفصيل هذا اليوم العظيم، الذي يحتاج منا إلى التأمل والوقوف مع هذا اليوم العظيم، والتفكر فيه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، أي يوم القيامة، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، الصور هو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل الملك الموكل بالنفخ في الصور.

النفخ في الصور نفختان:

١. النفخة الأولى.

٢. والنفخة الثانية.

فالنفخة الأولى هي نفخة الموت والهلاك والدمار، تسمى النفخة الأولى، خراب الكون، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

النفخة الثانية نفخة البعث، والخروج من القبور، هذه النفخة التي أمامنا الآن هي النفخة الثانية، نفخة البعث من القبور، ومجازات الناس.

قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وجاء هذا الوقت؛ فإنهم يخرجون من قبورهم سراعًا.

قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، من أحوال يوم القيامة التي تذكر في هذه السورة أولًا أنه إذا نفخ في الصور وجاء يوم القيامة، وجاء هذا اليوم بأهواله وشدائده، إذا نفخ في هذا الصور نفخة البعث فحُشر الناس كلهم أجمعون لهذا الميقات العظيم، وهو ميقات الحشر، وحشر الناس جميعًا في هذا اليوم ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

لا أحد يعرف أحد، ولا أحد يسأل أحد، ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، تقطعت الأنساب، ما في إلا العمل الصالح، أما العلاقات الأسرية، والأنساب، والأب مع ابنه، والابن مع أبيه، والزوج مع زوجته، والأخوة مع الأخوات هذه لا أنساب بينهم، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤، ٣٥]، كلّ إنسان متعلق بنفسه، فلا ينفع نسب نسبًا، ولا ينفع أحدٌ أحدًا.

قال: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فتتقطع الأنساب، ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، لا يسأل أحدٌ أحد، كلّ مشغول، ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، لا يتساءلون، لا يسأل بعضهم عن بعض ماذا فعلت؟ وماذا قلت؟ وماذا قلنا؟ ما في تساؤلات.

لكن أيها الأخوة في آية أخرى أثبت الله فيها التساؤل، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧].

✍ فكيف هنا يقول: لا يتساءلون، وفي آية أخرى يقول: سأل بعضهم بعضًا؟

نقول: أحوال يوم القيامة مختلفة، والوقت مختلفو فقد يسأل بعضهم بعض في زمن دون زمن، يعني الوقت طويل، فقد يحصل في وقت يتساءلون، ووقت لا يتساءلون.

ثم فصل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أحوال الناس وانقسامهم قسمين، إذا جيء بالميزان وبدأت الموازين تظهر، والأعمال توزن، والناس يوزنون على هذه الموازين، وبدأ مثاقيل الذر من الخير والشر تظهر، فلا تحتقر مثقال ذرية من السيئات أومن الحسنات، فكلها تأتي على هذا الميزان الدقيق الذي يزن حتى مثاقيل الذر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُه﴾ [المؤمنون: ١٠٢]، أي من رجحت حسناته على سيئاته، وكثرت حسناته وغطت سيئاته؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]، لا فلاح بعده، هم الذين نجوا من النار، وهم الذين استحقوا أن يدخلوا الجنة، وهم الذين فازوا بالثناء الجميل، وفازوا بهذا الفوز العظيم.

قال: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُه﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، على الجانب الآخر بأن رجحت سيئاته على حسناته وأحاطت به خطيئته، ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

خسروا أنفسهم، وخسروا أهليهم، وأولادهم، ما في أشد من هذا الخسارة، خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وليس فوق هذه الخسارة خسارة أشد، خسارة صعبة، لا يُجبر صاحبها، ولا يستطيع أن يستدرك أو يعوض هذه الخسارة، خسارة وشقاوة أبدية مستمرة لا تنقطع.

قال: ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، والنتيجة؛ قال: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، أي أنهم إلى جهنم يلقون فيها ولا يخرجون منها أبدًا، إلا من كان من أهل المعاصي وكثرت سيئاته على حسناته وكان من أهل التوحيد الذين وحدوا الله؛ فهؤلاء يعذبون بقدر ذنوبهم، ومصيرهم إلى الجنة، وأن الله يخرج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فإذا كان معه شيء من الإيمان؛ فإنه لا يخلد في نار جهنم كما يُخلد هؤلاء الكفرة المشركين.

قال: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]، ما معهم شيء من الحسنات تنفعهم، كلها سيئات، فيحط على سيئاتهم سيئات ثم يلقون في نار جهنم.

ثم وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا حال هؤلاء الخاسرين لما يلقون في نار جهنم، ويرون العذاب، وصف الله لنا حالهم بقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

اللفح هو الهواء الشديد الذي يلفح الإنسان، إذا كان الهواء بارد لفحه، أو حار يلفحه، يصيب وجهه بقوة، ويغشى وجهه بشدة من جميع الجوانب، فهذه النار تلفحهم، وأنت ترى في الدنيا إذا اشتعلت النيران الشديدة وأصبح اللهب يرتفع وأصاب أشياء مما يلقى في هذه النار تجده يلفح هذه، تلفح الناس بلهبها ما يلقى فيها، تلفحه وتغشاه وتغطيه فلا يبقى منه شيء.

ولذلك قال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، وخص الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الوجوه؛ لأنها أشرف الأعضاء، فإذا أصيب أشرف الأعضاء فلا تسأل عن البقية.

قال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]، النار تأكل وجوههم وتصيبهم، وتقطع اللهب على وجوههم، وحالهم أنهم في النار كالحون، قد كلحت وجوههم وعبست واشتدت وقطبت الوجوه، وزيادة على ذلك تقلصت الشفاه، وظهرت الأسنان، وأصبحت الأسنان ظاهرة، والشفاه قد تقلصت وذهبت، والوجه قد أصابه ما أصابه من النار، وإذا أردت أن تتصور هذا التصور الذي لا يمكن إنسان أن يتصوره لكن من باب التقريب فانظر إلى رأس الذبيحة إذا وضع وشوي بالنار كيف يكون؟!!

تذهب هذه الشفاه وتظهر الأسنان، وينقبض الوجه ويسود، هذه حالهم نسأل الله العافية، هذه الحالة التي أخبر الله بها، قال: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

وزيادة على ذلك وأشد وأعظم أن الله يوبخهم التوبيخ الشديد، يوبخهم بالكلام الشديد، قال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، الآيات والقرآن جاءكم، والمعجزات جاءتكم وتكذبون بها، ولا تؤمنون بها، وتعترضون عليها عنادًا وكفرًا وظلمًا، قالوا ردًا: ﴿رَبَّنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، يردون، ولكن ما ينفع الرد والاعتذار.

قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، الشقاوة التي نشأ عنها الظلم والكفر، والإعراض هي التي غلبت علينا، فأصبحنا أشقياء، وأصبحنا قومًا ضالين، شقوتكم لو أنكم أبدلتموها بالسعادة في الدنيا، والإقبال على طاعة الله لكان خيرًا لكم، ولكن لا ينفع الندم، ولا ينفع الاعتذار.

ولذلك يسألون الله يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، اعتذار منهم وسؤال ودعاء أن الله يخرجهم، ﴿فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، أخرجنا منها وأعدنا إلى الدنيا؛ فإذا عدنا فإنا ظالمون، لكن ما ينفع هذا الاعتذار، قد قُطع الاعتذار عنهم، وأعطاهم الله في الدنيا ما أعطاهم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ﴾ [فاطر: ٣٧]، أي في الدنيا، ﴿مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، أعطيناكم أعمار وضيعتموها، ولذلك يرد الله عليهم بأشد الردود التي فيها الخيبة والخسارة والتوبيخ والذل، واليأس في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

اخسئوا فيها، واندحروا، وانذلوا، كما يخسأ الكلب، وينذل، ويطرد، ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، لا أقبل منكم الكلام.

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موقفهم وموقف الصالحين؛ قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، وهم الصالحون المطيعون، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح، ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، آمنا بك وبرسولك وبما جاءك عنك، آمنا يا رب العالمين.

قال: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، ﴿وَارْحَمْنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، يتوسلون بربوبيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يغفر لهم، ويتجاوز عنهم، ويرحمهم، ويتوسلون بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو خير الراحمين، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

قال: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ [المؤمنون: ١١٠]، لكنكم أنتم اتخذتموهم سخريًا، أنتم أيها الكفرة الضالون اتخذتم عبادي الصالحين سخريًا، اتخذتموهم، واستهزأتم بهم، وسخرتم منهم، ﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ [المؤمنون: ١١٠]، حتى نسيتم ذكري، وما أوجبته عليكم، ولم تتذكروا ما فرض الله عليكم، وأمركم به.

قال: ﴿كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠]، تضحكون من عبادي الصالحين، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]، ويضحكون، ﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١].

ويستهزئون بهم، فهذا جزاءكم اليوم، في نار جهنم تلفح النار وجوهكم، وأنتم فيها كالحون.

قال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ﴾ [المؤمنون: ١١١]، أي عبادي الصالحين جزيتهم لأنهم صبروا، وتمسكوا بطاعة الله، ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]، أهل الطاعة والخير والصلاح هم الفائزون بطاعة الله، هم الذين فازوا بجنات النعيم، هم الفائزون حقًا بالنعيم المقيم والنجاة من الجحيم، نجاهم الله من النار وأدخلهم الجنة.

قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، اليوم الذين آمنوا هم الذين يضحكون، أمس الكفار يضحكون من المؤمنين، واليوم أصبح المؤمنون يضحكون من الكفار.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موبخًا لهم: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢]، حتى تضيعونها؟ يجيبون يقولون: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٣]، يعني مدة قصيرة ونحن لا نشعر بها ولا ندري، ولكن اسأل العادين الذين هم أضبط منا، وأحصى عددًا منا، نحن في شغل وفي عذاب، اسأل هؤلاء الذين يعدون سيعرفون، ﴿فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ لهم: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٤]، هذه أيام معدودة قليلة ذهبت عليكم، والعمر قليل، كم تعيش في الدنيا ثم تذهب؟ لو أنك أحسنت وعملت الصالحات لكان خيرًا لك.

قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، أنتم تظنون أن الدنيا خُلقت عبثًا، وأنكم خلقتم عبًا؟ لا يمكن هذا، تحسبون أن الخلق جاء عبثًا؟ وأنا خلقناكم عبًا وسدًى باطلاً؟ لا، تأكلون وتشربون وتلعبون وتتمتعون بالدنيا كالبهائم لا.

شرع الله لكم الشرع، وأمركم ونهاكم، فمن استجاب كان خيرًا، ومن أعرض كان شرًا له، تظنون أننا سنترككم، وأنكم إلينا لا ترجعون؟ لا يمكن، بل لابد أن ترجعوا إلى رب العالمين.

قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، تعاظم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتقدس، وتنزه أن يخلق الخلق عبثًا، لا يمكن لو خلق الله هذا الخلق عبثًا لكان قادحًا في حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله عَزَّ وَجَلَّ تعالى عن هذا الشيء، هو الله، وهو الله المألوه المعبود، وهو الملك الذي يملك الدنيا، والملك كله له، والخلق كله عبيد له.

قال: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وهذا هو الحق، الحق الصادق في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ووعده ووعيده، المعبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السماوات والأرض، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وهو رب العرش الكريم أكبر المخلوقات وأعظمها.

فإذا كان هو رب العرش الكريم؛ الذي خيره عم وطم رب العرش الكريم؛ فمن باب أولى أن يكون رب المخلوقات كلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في خاتمة السورة: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، الذي يدعو مع الله، ويعبد مع الله إلهًا آخر، وليس له برهان، ولن يجد له برهان، وهذا خرج مخرج الغالب، أنه لا يمكن أن يكون هناك برهان ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

قال: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، سيرجع ويجازيه على أعماله، ولكنه لن يفلح، ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، لأنه لا يفلح الكافر أبدًا لكفره وطغيانه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُلْ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، قل يا محمد، وقل يا أيها الداعية، وقل يا أيها المؤمن، ﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، اغفر لي ذنبي، ﴿وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، اغفرنا لنا ذنبونا وارحمنا فإنك أنت أرحم الراحمين.

فكلٌّ يطلب الرحمة من الله وأنت رحمتك فوق كلّ رحمة، وإن كان البشر عندهم رحمات؛ فإن رحمتك فوق كلّ رحمة، وأنت خير الراحمين سبحانك.

وبهذا تنتهي هذه السورة العظيمة الجليلة التي عشنا معها هذه المدة الطويلة ولله الحمد، وإن شاء الله نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وأن يجعل هذه السورة وغيرها حجة لنا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن شاء الله في لقاءنا القادم ننتقل إلى سورة أخرى وهي **"سورة النور"** سورة النور يأتي الحديث عنها إن شاء الله في لقاءنا القادم، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا.

وَاللهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ النُّور)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(النور ١ - ٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ لقاء الثلاثاء مع تفسير القرآن العظيم، وهذا اليوم هو اليوم الثامن عشر من شهر الله المحرَّم من عام (١٤٤٤ هـ).

درسنا هذا اليوم في تفسير سورة النور، وهي سورة جديدة، وهي من (السور المدنية) التي نزلت بالمدينة، ولذلك ستلاحظ وأنت تقرأ هذه السورة وتقرأ تفسيرها ستجد فرقاً كبيراً بين (السور المكية) و(السور المدنية) من حيث الأسلوب؛ الفرق الشاسع والبَوْن بينهما.

- **ما هو الفرق؟**

الفرق في الأسلوب؛ تلاحظ أن أسلوب (المدني) يختلف عن أسلوب (المكي). (المكي) قرآن يخاطب ناساً معارضين وجاحدين ومنكرين ويحاربون الله ويردون دعوته، ولا يقرون بمسلمات كالقرآن والرسول ووحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واليوم الآخر والقضاء والقدر والأخلاق، كل هذه يعني لا يعترفون بها إلا قليلاً.

فالمدني يختلف؛ الآيات المدنية تخاطب ناساً آمنوا بالله وصدقوا بالرسول وأطاعوه واستجابوا له، ولذلك تجد الفرق بينهما واضحاً جداً. طيب، هذا من حيث السورة، من حيث كونها مكية أو مدنية.

ومن حيث الآيات التي تتحدث عنها؛ فـ (السور المدنية) غالباً في (الأحكام التشريعية الفرعية)، الأحكام التشريعية مثلاً أو (الأصولية) أحياناً؛ كالصلاة والصيام والزكاة والحج والأخلاق ونحو ذلك، كلها تدعو إلى تقرير هذه الأمور، بخلاف (المكي) الذي يتعلق بتقرير (التوحيد) والدخول في الإسلام وإفراد الله بالعبادة ونبذ (الشرك).

فلذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى (التوحيد) والإقرار بوحدانية الله وأن لا يُعبَد إلا الله، ونبذ الشرك والمعبودات والأصنام، أما لما هاجر إلى المدينة، وجد هناك المؤمنين المصدقين المتبعين، فلذلك جاءت الشرائع و(الأحكام التشريعية).

فمن ضمن هذه (الأحكام التشريعية) ما تتحدث عنه هذه السورة؛ سورة النور، وسورة النور أغلب آياتها تتعلق بالمرأة والنساء.

ولذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه من دقة فهمه وفقهه يقول: «عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ وَالأَحْزَابِ»؛ لأنه يعلم أن سورة النور فيها أحكام تتعلق بالمرأة، وكذلك سورة الأحزاب، فسورة النور هي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي افتتحها الله بقوله: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [النور: ١] ؛ لعظم شأنها وعظم الموضوع الذي تتحدث عنه والذي سيأتينا الآن.

سميت سورة النور في المصاحف بسورة النور لسببين:

السبب الأول: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر فيها (آية النور)، والنور اسم من أسماء الله، نور السماوات والأرض، أيُّ نورٍ هو الذي نور السماوات بنوره ونور الأرض بنوره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فسورة النور سميت للآية الواردة فيها في منتصفها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ [النور: ٣٥] إلى آخر الآيات، هذا وجه السبب الأول؛ سميت سورة النور لذكر هذا اللفظ فيها.

السبب الثاني: أنها هي في الحقيقة نور في البيوت؛ من أخذ بها وتدبرها وتأملها وعمل بآياتها وأحكامها، فهذا نور له في قلبه، ونور له في قلوب أزواجه وذريته، ونور له في بيته.

وهي في الحقيقة السورة حصن حصين وسلاح واقٍ للمسلم من أن يقع بأشد الأمور خطورة وهي (الفاحشة)، السورة تكلمت عن الأسباب التي تقي المجتمعات من الوقوع في الفاحشة.

وأنا أقول حقيقةً: هذه السورة نحن الآن بحاجة ماسة للوضع الحالي الذي نشاهده في تدهور الأمة وتوجهها إلى الساحقة في انتشار الرذيلة وطمس الفضيلة، وانتشار هذه الفاحشة؛ فاحشة الزنا وفاحشة اللواط، والإسلام جاء محارباً لهذه الفواحش والأخلاق الرذيلة، ومؤسِّساً وواضعاً الركائز والأسباب التي تقي المسلم، و(السياج) الذي يقي المجتمع المسلم من الوقوع في الساحقة.

فالسورة من تدبرها وتأملها وجد فيها هذه الأمور التي تحصن المسلم تحصيناً واقعياً؛ فهي أقوى تحصين للمجتمعات المسلمة هذه السورة.

ولذلك نزلت في جوٍّ كان المسلمون والصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في بأشد الحاجة للتمسك بهذه السورة أشد الحاجة، نزلت في السنة السادسة في المدينة، في منتصف الفترة المدنية، ونزلت بعد (غزوة المريسيع) أو (غزوة ذات الرقاع)؛ لما عاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الغزوة.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه، فمن وقعت عليها القرعة خرج بها، فوقعت على عائشة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا، فخرج بعائشة إلى هذه المعركة وإلى غزوة ذات الرقاع.

فلما عاد إلى المدينة -وكما سيأتينا تفصيل القصة بدقائقها- وحصل ما حصل من تأخر عائشة وذهاب القوم عنها، ثم مجيء صفوان بن المعطل الذي جعله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتفقد الجيش في الخلف فوجد عائشة، فأناخ لها الناقة وأتى بها.

لما رأى (المنافقون) وعلى رأسهم عبد الله بن أُبَيّ بن سلول -رأس المنافقين- لما رأوا صفوان المُعَطَّل ومعه أم المؤمنين زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الطاهرة المطهرة من فوق سبع سماوات، الصفية الصدِّيقة بنت الصدِّيق؛ لما رأوها قالوا ما قالوا فيها ورموها بالفاحشة، وحصل ما حصل.

كان المسلمون في ذلك الوقت بأمس الحاجة للتوجيهات القرآنية والتوجيهات الربانية لحفظ المجتمع المسلم، ونرى خطورة النفاق والمنافقين حيث ضربوا بيت النبوة، وضربوا فراش الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطاهر، ما ضربوا أحداً بعيداً، بل ضربوا أشد الناس وأعلى الناس طهارة ومكانة.

فالسورة الآن سنتناول آياتها، وهي في الحقيقة تحتاج منا إلى التركيز والتأمل في كيف يحفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المجتمعات من الفواحش والأخلاق الرذيلة، وكيف نحرس الفضائل؟ كيف نحرسها بهذه السورة؟

وقبل أن أبدأ بتفسير هذه السورة؛ السورة قررت أن الأسباب الواقية من الفاحشة في هذه المجتمعات المسلمة هي عدة أسباب ذكرتها السورة، وهي تصل إلى خمسة عشر سبباً (١٥ سبباً)، نحتاج إلى أن نقف على خمسة عشر سبباً نستخرجها من هذه السورة، وأنا آخذها معك واحدة واحدة.

الله عَزَّ وَجَلَّ قال في أول السورة: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١].

هذه السورة هي سورة عظيمة، يعني لما يأتي لفظ **"سورة"** هكذا نكرةً؛ فهذا يسميه أهل البلاغة **(التعظيم)** و**(التقدير)** للسورة، يعني سورة لها قدر ولها مكانة ولها عظم في النفوس.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾؛ هذه السورة لما ذكرها الله قال: سورة، ثم وصفها بأوصاف، قال أولاً:

١. ﴿أَنزَلْنَاهَا﴾: وأنزلها الله رحمة بالعباد لما فيها من الآيات التي يحتاجها المسلمون حاجة ماسة.

٢. ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾: أي قدرنا فيها فرائض وحدوداً وشهادات يحتاجها المسلمون.

٣. ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا﴾: أي في هذه السورة لما أنزلها ضمنها ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، الآيات هذه هي أحكام جليلة، وأوامر ونواهٍ وزواجر وحكم عظيمة.

لماذا الله عَزَّ وَجَلَّ أنزل هذه السورة؟ لماذا أنت تقرأ هذه السورة وتتأملها؟

قال: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١]؛ أي حين نبين لكم هذه الأحكام ونوضحها لكم لكي تتذكروا، ولكي تعملوا، ولكي تنتبهوا، ولكي تبتعظوا بالمواعظ، وتأتمروا بالأوامر، وتنزجروا عن الزواجر هكذا.

ثم شرع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الدخول مباشرة إلى هذه السورة التي فيها الأحكام الجليلة التي تحفظ المسلم وتحفظ المجتمع المسلم من الوقوع في الفاحشة.

أولها؛ أول أسباب حراسة الأخلاق وحراسة المجتمع المسلم من الوقوع في الفاحشة؛ فاحشة الزنا وفاحشة اللواط، هذه الفواحش التي تقدح في أعراض المسلمين.

أول حكم شرعي يقي المسلم، وهو سبب قوي، هو إقامة الحد على هؤلاء الذين ينتهكون أعراض المسلمين ويقعون في الفاحشة وفي الزنا من الرجال والنساء.

أول حكم، أول ما إذا أردنا أن نقضي عليهم ونقضي على هذه الفاحشة؛ إقامة الحد الذي أمر الله به، إقامة الحد عليهم؛ لأن أشد ما يردع هؤلاء إقامة الحدود في وجوههم، فيرتدعوا ويعرفوا أن هناك من سيقيم عليهم الحد، والحد هذا فضيحة وتشهير بهم في وسائل الإعلام، وفي الطرقات، وفي الأماكن؛ فلذلك هم يخافون أشد الخوف من إقامة الحد.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من رحمته لم يجعل الحد واحداً، وإنما جعل الحدود مختلفة، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

ثلاثة أحكام:

الحكم الأول: إقامة حد الجلد عليهم وهو مئة جلدة.

الحكم الثاني: أن لا نرحمهم ولا تأخذنا بهم رأفة في دين الله. ترحمهم يعني لا تقيم الحد عليهم، كيف ترحمهم؟ ترحمهم أنك تتجاوز عنهم، ترحمهم أنك تخفف عليهم الحد؛ بدل ما الله عَزَّ وَجَلَّ يقول مئة جلدة أقول ثمانين أو ستين أو سبعين، لا، هذا الوقت ليس وقت رحمة، وهذه الحال ليست حال رحمة ولا رأفة في دين الله، لا، الرأفة في دين الله في هذا الموضع لا.

الحكم الثالث: وليشهد هذا حكم عذابها، أي إقامة الحد عليهما، طائفة من المؤمنين لا بد أن تحضر، لا بد من التشهير بهم.

هذا في حكم من يقع في الزنا وتقوم عليه البينة بالإقرار أو الشهادة بأربعة شهداء، في الرجل أو المرأة إذا كانا بكرين لم يسبق لهما الزواج؛ إذا كان بكراً لم يسبق له زواج أبداً، فحكم الله فيه إذا وقع في الزنا أن يُجلد مئة جلدة، وجاءت السنة بأن يُغرَّب سنة كاملة؛ يعني إما أن يُسجن أو يُبعد عن البلد سنة كاملة حتى ينسى.

أما إذا كان محصناً غير بكر **(ثيباً)**؛ يعني عنده زوجة أو سبق أن تزوج، سبق أن تزوج وعرف الزواج وتلذذ بالمباح ثم يذهب إلى الحرام؛ فهذا حكمه أن يقام عليه **(حد الرجم)**، يرجم حتى الموت.

وقد جاءت فيه آية نسخها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورفع لفظها وبقي حكمها، وهي قوله تعالى في آية لكنها غير موجودة في المصحف: ﴿الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا الْبَتَّةَ نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [آية منسوخة التلاوة باقية الحكم]، والرجل الكبير المراد بالشيخ هنا هو الرجل الكبير والشيخة. فهذه آية في القرآن لكنها غير موجودة؛ لأنها نسخت لفظاً وبقي حكمها.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقام حد الرجم على الرجل الذي اسمه مالك بن ماعز، أو ماعز بن مالك رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، أظنه ماعز بن مالك، والمرأة الغامدية؛ أقام عليها حد الرجم حتى ماتت، وأقام حد الرجم على الرجل ماعز بن مالك حتى الموت.

فهذا حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الزاني والزانية إذا قامت البينة، وهي إما الإقرار وإما أربعة شهود يشهدون صريحاً. والشهود يصعب، يصعب جداً إقامة الشهود عليهم؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -يعني لأن الشريعة في السنة في الكتاب والسنة- شددت في قضية الشهود؛ يعني يشهد صريحاً في أن هذا الرجل يَلِج، يعني هذا قد لا يحصل إلا نادراً.

ولذلك شيخ الإسلام (ابن تيمية) يقول: "لَمْ أَسْمَعْ أَنَّهُ أُقِيمَ حَدُّ الزِّنَا بِبَيِّنَةِ الشُّهُودِ، وَإِنَّمَا بِبَيِّنَةِ الإِقْرَارِ"؛ أن تقر المرأة وتعترف، أو يقر الرجل ويعترف.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من لطفه ورحمته شدد فاشترط أربعة شهود، كل الأمور والبينات في الشريعة في جميع الأحكام يكفي فيها شاهدان عدلان: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢]، وإذا في البيوع والمعاملات إذا لم يوجد رجلان فرجل وامرأتان: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أما الزنا أربعة شهود هو فقط.

وهناك أحياناً بعض الأحكام عندنا في الشريعة يكفي شاهد واحد؛ شاهد مثل دخول رمضان يكفي شاهد واحد، وأحياناً شاهد ويمين في بعض القضايا؛ شاهد ويمين المدعي، لكن الزنا أربعة شهود، لا يمكن أن، لا يمكن أن ينقص منهم واحد، ويشهدون صريحاً.

هذا حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإذا أقيم هذا الحد، فإن المجتمع سيصبح نظيفاً، سيصبح طاهراً من هؤلاء؛ هؤلاء الذين يعني نجسوا وأفسدوا في الأرض بهذه الفاحشة، إذا أقيم سيرتدع من يرتدع، وسيكف من يكف، وستقل الفاحشة وانتشارها في المجتمع المسلم إذا أقيم هذا الحد وردع هؤلاء.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها؛ هذا السبب الأول، يعني مثل ما ذكرت لكم هناك يعني خمسة عشر سبباً **(١٥ سبباً)** في هذه السورة ذكرها الله، خمسة عشر سبباً ذكرها الله في وقاية المجتمع المسلم من الرذيلة والوقوع في الفاحشة وحماية المسلم وحراسته وحراسة أخلاقه وحراسة فضائله، الخمسة عشر هذه الآن أخذنا واحداً منها وهو إقامة الحد على الزناة والزواني.

- **لكن هنا فيه لفتة الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا يقول؟**

يقول: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾، ليش قدم الزانية؟ ليش ما قال الزاني؟ في السرقة قدم السارق، قال: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨]، قدم الرجل، هنا لا، قدم المرأة.

قال أهل التفسير: "قدمت المرأة هنا لأنها هي السبب؛ لو عصمت نفسها وحفظت عرضها وحفظت دينها وبقيت في بيتها ولم تخرج إلا لحاجة محتشمةً بعيدةً عن مواقع الرجال والريب، ولم تجعل هناك فرصة للرجل أن يتحدث معها أو يجالسها، لسلم المجتمع، لكن إذا هي أخلت بهذا وقع المسلمون في ذلك".

- **ما هو السبب الثاني؟**

ذكره الله بقوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]. شوف هنا بدأ بالرجل قال: الزاني، لماذا؟ لأن هذا زواج، والزواج يأتي من قبل الرجل، ليست المرأة هي التي تخطب الرجل، الرجل هو الذي يخطب المرأة.

- **ما معنى هذه الآية: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾؟**

هذه الآية مما وقع المفسرون فيها واختلفت الأقوال فيها، ولذلك لا نريد الدخول في عمق هذه الأقوال ولكن نعطيك الخلاصة في هذه الآية: خلاصتها أن الزاني لا يرغب ولا يحب أن يتزوج إلا بمن هي مثله؛ زانية أو مشركة؛ لأن المشركة تقع في الشرك والزنا، أما العفيفة الطاهرة المؤمنة الموحدة فلا تصلح للزاني، فالزاني طبيعته لا يحب ولا يرغب إلا في من كان على شاكلته ومن كان على طريقته.

وكذلك المرأة؛ المرأة لا تحب أن يأتيها رجل عفيف، ولا تحب أن يخطبها رجل يعني موحد وعفيف وطاهر، تريد رجلاً مثلها؛ لأنها اعتادت على الفواحش والزنا، فلذلك لا تحب إلا الرجل الزاني أو المشرك.

أما المؤمنون؛ فحرم ذلك عليهم: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، حرم الله ذلك على المؤمنين، المؤمن العفيف الطاهر لا يريد إلا طاهرة، ولا يجوز له أن يتزوج بزانية حتى تَتُوب، وكذلك عن المرأة؛ المرأة الطاهرة العفيفة لا توافق على الرجل صاحب الفواحش، لا ترضى على الرجل الرذيل، وإنما تريد طاهراً مثلها.

هذا معناها، هذا معنى الآية، فجرت العادة أن هؤلاء لا يرغبون إلا في أمثالهم، وقررت هذه الآية أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرّم على الرجل أن يتزوج بمشركة، وأن يتزوج بزانية فاحشة صاحبة فواحش، وكذلك إذا جاء الرجل يتقدم على امرأة طاهرة لا يزوّج؛ لأن الله حرّم ذلك على المؤمنين.

وهذه أيها الإخوة حقيقةً؛ هذه أشد من الأولى، هذا الحصن الحصين والسبب الواقي أشد من السبب الأول، السبب الأول: إقامة الحد عليه مئة جلدة، يُجلد على ظهره مئة جلدة ويُشهَّر به، هذه أشد؛ لماذا؟ لأن هذه معناها أنه يُنبذ من المجتمع ويُطرد، ما يزوجه المسلمون لا يزوجونه، ماذا يصنع؟

إذا أخرج من بين المسلمين: **"أنت ما تصح أن تجلس عندهم"**، ولذلك هذه حرب نفسية عليه أشد من إقامة الحد، هو يريد أن يقام عليه الحد ويزوج أهون عليه، فهذه أشد.

بعدها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]. هذا أيضاً أيها الإخوة سبب ثالث.

السبب الأول مثل ما ذكرنا: إقامة الحد على الزواني والزناة. السبب الثاني: طردهم وعدم تزويجهم، السبب الثالث هنا: إقامة الحد على من يتكلم في أعراض الناس وهو ما يسمى بـ **(القذف)**، كأنك قذفت بحجر إذا رميته بلسانك واتهمته في عرضه، قلت له: يا زاني، إذا قلت له هذه الكلمة أو نحوها: يا زاني، أنت تقع في الفاحشة، أنت تمارس الفاحشة مع البنات، أو تمارس الفاحشة مع الأولاد، هذا ما يرضى الإنسان أن يقذف في عرضه.

☜ **وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ».

فهذه الآية هي سبب واقٍ، السبب الثالث في حفظ المجتمع من الوقوع في الفاحشة؛ إذا قطعنا الألسنة وبدأ الناس ما يتكلمون في أعراض الناس، سيسلم المجتمع، ولذلك هذه الآية يجب علينا أن نطبقها تطبيقاً دقيقاً؛ أن لا نتكلم في أعراض الناس، لا نتكلم في أعراض الناس ولا نخوض في أعراض الناس؛ لا في الرجال ولا في النساء، ولا نستمع ولا نشاهد المقاطع والفيديوهات، ولا نروّج ولا نرسل رسائل، كل هذه داخلة في هذا، كله يدخل في رمي المحصنات.

ولاحظ أنه قال: ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ أين الرجال؟ قالوا: والرجال كذلك، لا يجوز، لا يجوز أن يرمي رجلاً عفيفاً.

- **لماذا خُصّت المرأة؟**

قال: لأن الغالب أنها مسكينة عفيفة غافلة فتُقذف.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ٤]، إذا رمى؛ نقول: تعال هات البينة، أنت تقول أن فلاناً يمارس الزنا؛ أعطني البينة، عندك بينة؟

- **ما هي البينة؟**

أربعة شهود يشهدون أن فلاناً كذا وكذا وكذا وكذا، فإذا ما عندك شهود؛ يقام عليك حد القذف ثمانين جلدة، تُرمى تُجلد ثمانين جلدة، وأيضاً عقوبة أخرى: شهادتك لا تقبل، تسقط عدالتك ولا تقبل شهادتك ولا يعترف بها، والعقوبة الثالثة: أن الله حكم عليك بأنك من الفاسقين، بأنك فاسق، والفسوق خروج عن طاعة الله، ليست لا توصف بأنك من الصالحين، بل أنت من الفاسقين.

فهذا حكم الله في من يرمي أعراض الناس ومن يتكلم في أعراض الناس، إلا من تاب الله عليه.

ولكن التوبة لا بد أن يتوب توبةً نصوحاً وأن يصلح عمله، فإذا تاب وأصلح عمله تاب الله عليه وغفر ذنبه، والتوبة: العزم على أن لا يعود، وأن يندم أشد الندم على هذا الشيء، وأن يقلع عن هذا العمل، فإن تحققت التوبة وأصلح عمله تاب الله عليه.

هذا بينه وبين الله، أما حقوق الناس ما تسقط، حقوق الناس لا بد أن يأخذوا حقهم في الدنيا وإلا في الآخرة. فمن رمى مسلماً عفيفاً، فعلى هذا المسلم الذي رُمي أن يطالب بحقه فيقام عليه الحق، يقام عليه؛ إلا إذا عفا الرجل فقال: **"أنا سامحتك وعفوت عنك"**، فهذا حكم آخر.

- **هذا الآن نحن عندنا كم سبب؟**

السبب الأول: من الأسباب التي تقي المجتمع من الفاحشة: إقامة حد الزنا، إما جلداً أو رجماً، تطهير المجتمع من هؤلاء.

السبب الثاني: طردهم وعدم تزويجهم.

السبب الثالث: إقامة حد القذف حتى لا تنتشر على الأسماع مثل هذه الكلمات فيُحفظ المجتمع.

عندنا حالة خاصة؛ حالة الرجل إذا رمى زوجته، هل يقام عليه الحد ولا هذه الآية، هذه ستأتينا في الآيات القادمة، تأتينا في الآيات القادمة ما يسمى بـ (حكم اللعان).

الله أعطى الزوج والزوجة حكماً آخر، إذا قذف الرجل امرأته ما يقام عليه الحد ولا يطالب بالبينة، وإنما له حكم خاص وهو ما يسمى بـ (اللعان)، هذا يأتي في الآية السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة؛ يعني خمس آيات يأتي الحديث عنها بإذن الله في اللقاء القادم.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النور ٦ - ١٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وأسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يجعلنا وإياكم موفقين لكل خير.

هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثالث من شهر صفر من عام (١٤٤٤هـ).

نجتمع في هذا المقام المبارك وبين أيدينا سورة عظيمة من سور القرآن العظيم؛ هذه السورة هي سورة النور، تكلمنا عنها في لقائنا الماضي وبينا أنها من (السور المدنية) التي تتحدث عن أمور تتعلق بالأخلاق وبالحياة والحشمة والفضائل وتنهى عن الرذائل وتحذر منها.

والسورة نزلت في المدينة تقريباً في السنة السادسة في غزوة ذات الرقاع في قصة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا واتهام اليهود - اتهام المنافقين - لها بذلك، وتكلمنا عن بدايات السورة وأنها تحذر تحذيراً شديداً، وتضع لنا الأسباب التي تحفظ المجتمع من الانزلاق والوقوع في الفواحش؛ الأسباب والتدابير التي تكون سبباً في حفظ المجتمع وحفظ مجتمعات المسلمين من الوقوع في الفواحش.

- **ذكرت السورة عدة أسباب؛ وصلت إلى خمسة عشر سبباً (١٥ سبباً)، ذكرنا منها تقريباً في اللقاء الماضي ثلاثة أسباب:**

السبب الأول: الذي إذا أقامه المسلمون وحافظوا عليه كان دافعاً قوياً لحفظ المجتمع من الوقوع في الرذائل والفواحش هو إقامة الحدود، ومنها (حد الزاني والزانية).

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتح السورة بقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ۖ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]؛ ليرتدعوا ويرتدع غيرهم، فإقامة حدود الله وإقامة حد الزناة، وإقامة الحد على الزناة بجلدِهم مائة جلدة والتشهير بهم إن كانوا لم يسبق لهم الزواج غير محصنين.

أما المحصن الذي سبق له الزواج؛ فقد جاءت آية وجاءت أحاديث في أنه يرجم حتى الموت؛ يرجم بالحجارة حتى الموت. هذا حكم الله في مثل هؤلاء؛ فإذا أقيم الحد ارتدع الناس.

السبب الثاني: من الأسباب الواقية التي ذكرها الله في هذه السورة أن الزاني والزانية لا يزوجون من العفائف والعفيفات، فالرجل العفيف لا يتزوج بالزانية، والمرأة العفيفة لا ترغب في الزاني، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، يعني مثله أو مشركة كافرة لا تعترف بشيء من ذلك.

وبهذا نعرف أن العفائف والحرائر وأهل الخير والصلاح والتقوى أبعد الناس عن هذه الأمور، وأنهم لا يجوز لهم الاختلاط بمثل هؤلاء، فمثل هؤلاء الذين أوقعوا أنفسهم في هذه الأخلاق الرذيلة يُبعدون ويُنحّون عن المجتمع؛ وهذه أشد عقوبة عليهم لما يُقصون عن المجتمع، هذه أشد عقوبة عليهم.

السبب الثالث: ذكر الله من أسباب أيضاً حفظ اللسان من الكلام في أعراض الناس و**(قذف المحصنات)** وقذف المحصنين؛ فلا يجوز أن يُقذف المسلم البريء العفيف بالكلام الذي يتعلق بالزنا؛ فلا يقال فلان زانٍ أو فلان يزاول يقع ويمارس الزنا ويمارس الفواحش وفلان له علاقات بالنساء ونحو ذلك، أو تُتهم المرأة البريئة في مثل هذا.

فمن تكلم في أعراض الناس أو روّج أو تسبب، فحكم الله أنه يُجلد ثمانين جلدة، ولا تُقبل له شهادة؛ تسقط عدالته لا تُقبل، ويُحكم عليه بالفسق إلا إذا تاب فإن الله يتوب عليه.

بعد ذلك تأتينا هذه الآية التي بين أيدينا وهي الآية السادسة، وهي تتعلق بالأزواج؛ فالزوج مع زوجته له حكم خاص يسمى عند أهل العلم حكم **(اللعان)**.

- **ما معنى حكم اللعان؟ وكيف يحصل هذا؟**

إذا رمى الرجل رجلاً آخر أو امرأة بالزنا؛ فإن هذا يسمى قذفاً، فحكم الله أنه يأتي بالشهادة بالبينة أو حد في ظهره؛ إما أن يأتي بالبينة أو يقام عليه حد الجلد ثمانين جلدة.

أما إذا اتهم الرجل زوجته بالزنا وقال إنها تقع في كذا وكذا ولها علاقة واني رأيت رجلاً عندها، أو رأيتها تدخل في بيت رجل أجنبي؛ فإذا حصل من الزوج هذا الشيء فحكم الله أنه لا يقال له: **"أين البينة؟**

أين بينتك؟"؛ لأنه قد يقول: **"والله أنا ما عندي بينة لكني أنا رأيتها؛ رأيتها ووجدتها تتصل، وجدتها تكلم ووجدتها تراسل، وجدت كذا وكذا وكذا"**.

فمثل هذا الحكم في هذه الحال، إذا رمى الزوج زوجته بالفاحشة؛ فحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه يقام عليه اللعان. لماذا؟ لأنه من الصعب أن يأتي بالشهود ويقول: **"انظروا إلى امرأتي انظروا إليها تفعل كذا وكذا"**؛ هو لا يريد الفضيحة ويريد الستر؛ الستر على نفسه ويريد الستر على زوجته.

فإذا حصل مثل هذا، الله عَزَّ وَجَلَّ أرحم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ستير يحب الستر، وأرحم من أن يكشف ستره، فلذلك أعطاه الله هذا الحكم الخاص.

فإذا وجد الرجل من امرأته أنه حصل منها هذا وتأكد - وتأكد يعني أن يحصل منها هذا الشيء - فإنه يرفع قضيته إلى الحاكم وإلى القضاء ويقول: **"إن امرأتي تفعل كذا وكذا"**؛ فيؤتى بالرجل والمرأة فكل منهم يلاعن الآخر، ثم يفرق بينهما، هذا معنى اللعان.

اللعان هو تفريج عن القذف؛ يعني الرجل إذا قذف امرأته وليس عنده بينة فإنه يُجلد ثمانين وهو لا يريد هذا الشيء، هو ما قذفها هكذا، هو أحرص الناس على سترها وأحرص الناس على أن تكون عفيفة، وهو يحفظ فراشه ولا يريد من فراشه أن يُدنس، وهو أشد الناس حرصاً على بيته وعلى أهله؛ فإذا رأى ما رأى ولم يستطع الصبر على ذلك فإنه في هذه الحال يقع اللعان؛ ما يسمى باللعان.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٧﴾ [النور: ٦-٧].

ففي هذه الحال فإنه إذا اتهمها فحكم الله قال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ يعني الرجال يرمون زوجاتهم النساء.

جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو (هلال بن أمية)، فقال: "يا رسول الله، يا رسول الله، إني وجدت امرأتي معها رجل يقال له شريك بن سحماء"؛ فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**». كيف تتهمها؟ البينة.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الرجل هذا: "يا رسول الله، إذا وجد أحدنا عند امرأته رجلاً يبحث عن بينة؟!"؛ فقال: «**الْبَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ**». فقال: **"والله ليبرئن الله ساحتي، ويبرئني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هذا"**؛ فأنزل الله هذه الآية.

فإذا لم تكن عنده بينة؛ فيشهد بالله أربع شهادات، فيقول: **"أشهد بالله أربع شهادات، أشهد بالله أن امرأتي فعلت كذا وكذا وإني لصادق فيما قلته"**؛ فإذا شهد أربع شهادات، قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: ٧]؛ فإذا جاءت الخامسة قال: **"عليَّ لعنة الله إن كنتُ كاذباً في اتهامي لها، وإن كانت هي صادقة وأنا كاذب فعليَّ لعنة الله"**.

ففي هذه الحالة ينتهي الرجل؛ فيؤتى بالمرأة فيقال لها: "ماذا تقولين؟ إن اعترفتِ رجمناكِ حتى الموت، وإن لم تعترفي وأنتِ تقولين إنه كاذب فانتِ اشهدي أربع شهادات".

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: ٨]؛ أي لَا يُقام عليها الحد إذا شهدت أربع شهادات فتقول: **"أشهد بالله أنني لم أقع في ذلك، وأنه كاذب عليَّ، وأنني بريئة"**.

فإذا قالت ذلك أربع مرات – أربع شهادات – تقول في الخامسة؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٩]، فتقول في الخامسة: **"غضب الله عليَّ إن كنتُ كاذبة وهو صادق"**.

والغضب أشد من اللعنة وأصعب، وكان الغضب في جانب المرأة لأنه في الغالب؛ لأنه في الغالب يكون الوقوع – وقوع هذا الشيء – من جهتها؛ لأن الرجل أشد الناس حرصاً على أن يحفظ فراشه ولا يُدنس عرضه، لا يُدنس عرضه؛ فهذا هو السبب، فلذلك كان الغضب في جانب المرأة.

فإذا حصل هذا؛ فُرّق بين الزوجين؛ فُرّق بينهما تفريقاً أبدياً، لا يمكن أن ترجع إليه، ولا يمكن أن يرجع لها.

وإذا حملت بهذا الحمل فإنه لا يُنسب الولد للزوج لأبيه؛ لا يُنسب لهذا الرجل لأنه تبرأ منها فلا يُنسب.

☜**ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:** «الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ» يعني لامه، الولد للفراش فلا يُنسب له لأنه هو تبرأ منها فلا يُنسب لها إذا حملت وفرّق بينهما.

إذا قالت هي: **"أنا بريئة وأنه متهم"**؛ فإنها تقوم باللعان وتقول في الخامسة: **"غضب الله عليَّ"**، فيُفرّق بينهما تفريقاً أبدياً؛ فهي تذهب في طريقها وهو يذهب في طريقه، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في المرأة: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ۙ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٩﴾ [النور: ٨-٩].

قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠]؛ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لولا فضله ورحمته لأصاب أحد - أي لنزل بأحد يعني الزوجين - العقوبة؛ لأنه لا بد أن يكون أحدهما كاذباً والآخر صادقاً، فلولا فضل الله سبحانه ورحمته عليهما لانكشف أمرهما ولكن الله ستر عليهما ورحمهما، وأن الله سبحانه تواب حكيم؛ يتوب على من تاب وهو حكيم فيما شرع، فشرع اللعان للستر على الزوج والزوجة، وكلٌ يذهب في طريقه ويُفرّق بينهما تفريقاً أبدياً، ولا يمكن أن يرجع إليها ولا ترجع إليه.

بعد ذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذا الآن اتضح لنا وهو حكم اللعان وحكم إذا قذف الرجل امرأته إذا قذف الرجل امرأته، ومثل ما عرفنا أن الرجل حريص على أن لا يتهم امرأته بمثل هذا بل هو أشد الناس حرصاً على فراشه وعلى عرضه، ولا يتهم إلا إذا وجد هذه الأمارات ووجد هذه العلامات الواضحة بأنها يحصل منها مثل هذا الأمر، وهذا عرفنا عرفناه يعني في القذف وأن هذا يحفظ هذا الحكم يحفظ أعراض الناس.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى إيراد أو إلى ما أورده الله فيما حصل في حادثة الإفك.

حادثة الإفك باختصار هي وما وقع للصديقة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم المؤمنين باتهام المنافقين لها في عرضها؛ وذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان - إذا أراد أن يخرج لغزوة من الغزوات - فإنه يُقرع بين نسائه فمن وقعت عليها القرعة خرج بها.

ففي غزوة ذات الرقاع في السنة السابعة - وتسمى أيضاً بغزوة المريسيع - وقعت القرعة على عائشة، فخرجت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة.

ولما رجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الغزوة - لما رجع ومقبلاً إلى المدينة - استراح في مكان في الليل ليرتاح ثم يذهب ثم يعني يواصل سيره؛ فنزل في مكان فاحتاجت عائشة لأن تقضي حاجتها فذهبت، فلما ذهبت وانتهت عادت، فلما عادت فإذا عقدها قد فقدته، فرجعت إلى المكان تبحث عنه؛ فبدأت تبحث عن المكان.

إذ القوم قد ذهبوا؛ وكانت تكون هي في الهودج على الإبل، فرحلوا الإبل ورحلت على أنهم يظنون أنها في الهودج ومضى الجيش، ومضى وهي جاءت إلى مكانها؛ فلما لم ترَ أحداً في المكان جلست وغلبها النوم وظنت قالت: **"يعني إذا علموا عني سيرجعون إليَّ"**.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان من حرصه على الجيش أنه يضع في مؤخرة الجيش من يتفقد؛ فقد وضع **(صفوان بن المعطل)** رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه وأرضاه - الصحابي الجليل - يتفقد الجيش، وقد غلبه النوم؛ فلما يعني استيقظ من نومه أو تنبه فإذا هو يرى سواداً، فلما جاء فإذا هي عائشة، فاسترجع وقال: **"إنا لله وإنا إليه راجعون، أم المؤمنين!"**؛ فأناخ ناقته حتى ركبت. تقول عائشة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا: **"لم يكلمني ولم أكلمه"**؛ ثم رحل الناقة ومشى.

فما جاء وقت الظهيرة وقد نزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكان ما، فبعدما وصل فإذا صفوان بن المعطل يقود الناقة وعليها عائشة؛ فرآه المنافقون ورآه عبد الله بن أبي بن سلول - رأس المنافقين - فقالوا: **"انظروا إلى هذا الرجل مع عائشة! ماذا حصل بينهما؟!"**.

فبدأ يُشيع في صفوف المسلمين وفي صفوف المنافقين هذه التهمة؛ بتهمة الفاحشة واتهام المؤمنين بهذا الإفك العظيم والكذب، فبدأ المسلمون يروّجون مثل هذا حتى وصلوا المدينة وعائشة لم تعلم ومكثت أياماً.

وفي يوم من الأيام قد خرجت مع امرأة يقال لها **(أم مسطح)**؛ ومسطح هذا من المهاجرين وقريب لأبي بكر، فلما سقطت أو عثرت قالت: **"تعس مسطح"**، فقالت عائشة: **"تقولين تعس مسطح! لماذا تدعين عليه؟"**؛ فقالت: **"ألم تعلمي ماذا قال فيكِ؟"**؛ فأخبرتها بالقصة.

فحزنت عائشة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا وقالت: "أو هل الناس يتكلمون فيَّ مثل هذا؟"؛ قالت: **"نعم"**؛ فرجعت ودخلت البيت واشتد حزنها اشتداداً، فطلبت من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تذهب إلى بيت أهلها وتمكث هناك فمكثت.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يزورها والناس يتحدثون، حتى خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصعد المنبر وقال: **"ماذا تقولون فيمن تكلم في عرضي؟"**؛ فحصل ما حصل بين صفوف الأنصار والمهاجرين والأوس والخزرج.

فبعد ذلك مكث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شهراً لا يدري ويسأل الصحابة ويستشيرهم ويقول: **"ماذا تقولون في عائشة؟"**؛ فمنهم من يقول: **"الله أعلم"**، ومنهم من يقول: **"لم يضيّق الله عليك، والنساء غيرها كثير"**؛ حتى اشتد الأمر على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجاء الوحي والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بيت أبي بكر عند عائشة، فقال: **"يا عائشة، أبشري قد جاء الفرج"**.

فأنزل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الآيات العشر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١]؛ فعرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هؤلاء هم الذين اتهموا عائشة، وأن هذا إفك وكذب وافتراء لا صحة له.

فنزلت هذه الآيات وعظ الله فيها المؤمنين بمواعظ شديدة، ونبههم على ما وقع منهم من أخطاء، وحذرهم من عقوبة ذلك؛ بأنه لا يجوز للمسلم أن يتكلم في عرض أخيه بل يحفظ لسانه، ولا يجوز له أن يتهم أخاه، ولا يجوز أن يروّج مثل هذا الكلام بين صفوف المسلمين، ولا يجوز له أن يظن بأخيه المسلم مثل هذا الكلام، ولذلك جاءت هذه الآيات العشر تحذر المسلمين من الوقوع في مثل هذا الأمر.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

يقول إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم؛ هذا دليل على أن هذه تهمة ألصقوها بأم المؤمنين لأن الله يقول: ﴿جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ يعني أتوا به ليس له حقيقة وليس له أصل، وإنما حملوه معهم فجاءوا بالإفك. وهم (عصبة) يعني جماعة على رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول.

﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ يعني من جنسكم وممن يقال إنهم من المسلمين في ظاهرهم، وإن كانوا من المنافقين؛ لأنهم يخرجون الجهاد ويصلون فهم من جملة المسلمين.

قال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا﴾ لا تظن أن هذا شر؛ هو في ظاهره شر ولكنه يحمل في طياته الخير، هو محنة ولكنه منحة من الله وخير: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

وهذا الذي ينبغي للمسلم إذا حصل ما حصل من الأمور الصعبة مثل هذه فليهوّن هذه الأمور بأنها خير، والله هوّنها لأنه قال: **"هذا خير"**. ومع أنه في ظاهره شر لكن قال الله: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فيه مصالح كثيرة وفيه منفعة؛ فيه رفع درجات للمؤمنين، وفيه رفع مكانة عائشة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا الصديقة، وفيه من المصالح فيما شرعه الله من أحكام كثيرة.

ثم قال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾؛ لكل من تكلم في عرضها ووقع في هذا له جزاؤه من الإثم وجزاؤه من العقوبة مما اكتسب.

﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ الذي تولى معظمه، وهو عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين؛ قال: ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يوم القيامة، وعذاب عظيم لا يقدر قدره إلا الله.

ثم بدأ الله عَزَّ وَجَلَّ يوجه المؤمنين بهذه التوجيهات؛ يقول: ﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

لولا إذ سمعتموه؛ سمعتم هذه التهمة، ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ يعني بإخوانهم. الواجب أن تظن بأخيك المسلم؛ إذا سئلت: **"ماذا تقول؟ سمعنا فلان يقال فيه كذا وكذا وكذا"**؛ تقول: **"لا، لا والله لا لا أعرف عنه إلا الخير، ولا أظن فيه إلا الخير"**، لا أنك تسمع مثل هذا وتروّجه، لا؛ الواجب أن تدفع التهمة عن أخيك المسلم وتظن فيه الظن الحسن.

ولذلك أم المؤمنين (زينب بنت جحش) لما دخل عليها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: "ما تقولين في عائشة؟"؛ قالت: **"أحفظ سمعي ولساني؛ لا أقول فيها إلا خيراً"**. فقالت عائشة: **"فنجت وسلمت من الوقوع في الإفك"**.

فهذا الواجب أن لا تظن بأخيك المسلم إلا الظن الحسن: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾؛ قالوا هذا كذب. وإذا جاءك مثل هذا الخبر الواجب أن تظن بأخيك وبأختك المسلمة الظن الحسن وتقول هذا كذب ولا دليل عليه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].

- **أين الدليل؟ أعطنا الدليل، أين الشهادة؟ البينة عندك؟**

بينة أنك تتهم أخاك المسلم بتهمة الفاحشة أو أختك؟ ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾؛ فإذ لم يأتوا بالشهداء وليس عندهم بينة، فأولئك عند الله وفي حكمه هم الكاذبون؛ فيُحكم عليهم بالكذب، وإذا حكم عليهم بالكذب أقيم عليهم حد القذف.

ثم قال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

هذا يعني تحذير ووعيد شديد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هؤلاء لولا فضل الله عليهم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسّهم ونزلت بهم العقوبة فيما أفاضوا وفيما تكلموا عذاب عظيم.

- **ثم قال كيف يحصل منكم هذا الشيء؟**

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]؛ تتلقفونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم، تتكلمون بألسنتكم وأفواهكم مجرد كلام ما تستوعبون وتعقلون هذا الشيء؛ مجرد أنكم بس تتناقلونه بالكلام ما ليس لكم به علم، وتحسبونه أمراً هيناً وهو عند الله عظيم أنك تتكلم في عرض أخيك وتتهمه بمثل هذه التهم وهو بريء منها.

قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]؛ لو سمعتموه قلتم: **"لا لا لا نتكلم، نحفظ ألسنتنا، سبحانك هذا بهتان عظيم"**؛ ننزهك يا رب العالمين وننزه هذا الأخ، هذا البريء، هذا بهتان عظيم وكذب، والبهتان أشد من الكذب؛ بهتان عظيم.

يقول الله: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]؛ الله يحذركم ويعظكم، ونعم الواعظ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونعم الموعظة أن تعودوا لمثل هذا أبداً إن كنتم مؤمنين فلا تعودوا.

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨]؛ ويبين الله لكم الآيات سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويوضح لكم ويحذركم؛ لأن الله عليم بأحوالكم حكيم فيما يشرعه.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، ونستكمل في اللقاء القادم ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النور ١٩ - ٢٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، ومع هذه الآيات من سورة (النور)، والتي تحدثنا عنها في لقاءاتنا الماضية، واليوم نستكمل ما توقفنا عنده، وهي الآية الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور: ١٩].

بعد ما مرت الآيات الماضية في التنبيه والتحذير والوعظ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتذكير والإرشاد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما يتعلق بـ (**حادثة الإفك**) التي وقعت لعائشة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا في هذه الآيات الماضية، وما أتى به المنافقون وألقوه في صفوف المسلمين من اتهام الصديقة والطعن في بيت النبوة؛ حذر الله، ونبه، وأرشد، ووجه توجيهات عظيمة، ووعظ مواعظ عظيمة.

بعد ذلك، يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا التنبيه العظيم على قضية (**الفاحشة**) وإشاعتها في صفوف المسلمين، ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾، هذا ترويج الفواحش في صفوف المسلمين.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾؛ يحبون ترويج وإشاعة الأخبار الخبيثة في صفوف المسلمين وفي مجتمع المسلمين؛ لنشر الرذيلة ونشر الفاحشة.

ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال - ما قال المنافقين ولا قال الكفار ولا قال أحداً - وإنما جاء بأسلوب عام، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾، الأسلوب هذا - (**اسم موصول**) - يعم كل من يحب الفاحشة من أي جنس؛ كل من يحب الفاحشة سواء من المؤمنين، أو المنافقين، أو الفسقة، أو الكفار، أو أي جنس، الذين يحبون الفاحشة. وهذا تحذير شديد للمؤمنين خاصة، ولغير المؤمنين عامة.

- **تلاحظ وأنت تسمع مثل هذه الآيات، الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا يقول؟**

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ﴾؛ مجرد محبة يتوعد الله بهذا الوعيد: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾. إذا أحبها مجرد محبة، إذا أحب هذه الفاحشة محبة بقلبه فقط، فيتوعد بهذا الوعيد، فكيف بمن يفعل الفاحشة؟ فكيف بمن يحرض؟ كيف بمن يدل عليها؟ يعني المسألة خطيرة جداً؛ يعني مجرد محبة.

وهذه عندنا سؤال هنا يا إخوان: ليش الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رتب هذا الوعيد على مجرد المحبة؟ ليش؟ لأن المحبة تنبع عن خبث نية نحو المؤمنين؛ إذا كان يحب الفاحشة في الذين آمنوا، النساء والرجال العفيفات والرجال العفيفين، يحب أن تشيع الفاحشة فيهم، مجرد محبة هذا دليل على خبث نيته، ولذلك استحق العقوبة.

ومعنى تشييع الفاحشة؛ أي يشيع أخبارها، والحديث عنها، والكلام عنها، وترويج الرسائل، والصور، والفيديوهات، وكل ما يتعلق بـ **(وسائل التواصل)**، يحب نشرها وإشاعتها وترديدها ونقلها وإرسال هذه الرسائل، هذه داخلة كلها في هذا الأمر.

والفاحشة المقصود بها هنا **(فاحشة الزنا)**؛ لأن القرآن إذا أطلق الفاحشة بهذا الأسلوب، فهي المراد بها الزنا، وإلا فالفاحشة كل ما فاحش من الأعمال الأفعال أو الأقوال تسمى فاحشة، لكن جرى **(عرف القرآن)** على أن المراد بها الزنا.

أنا أقول حقيقةً يا إخوان، حقيقةً هذه الآية تحتاج منا وقفة عظيمة؛ إذا كانت هذه مجرد المحبة، فكيف بمن ينقل؟ بكيف بمن يظهر؟ بكيف بمن يكتب؟ كيف بمن يتولى هذا الأمر؟ كيف بمن يفعل هذه الأشياء؟ هذه مصيبة أمر عظيم.

لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحيم ولطيف؛ لما شدد في هذا الأمر، قال: ﴿يُحِبُّونَ﴾، فضلاً عن أن يفعلوها، أو ينقلوها، أو يتناقلونها، أو يزاولونها. إذا كان مجرد محبة، الله عصمهم وحفظ حفظ صيانة أعراضهم، كما أنه صان دماءهم وأموالهم وأعراضهم؛ صان دماءهم وأموالهم وصان أعراضهم حتى يبعد هذا الأمر الكريه الذي يقع بينهم، فهذا رحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ولذلك ماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ؟ قال: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النور: ١٩].

فلذلك علمكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبين لكم ما تجهلون، والله الذي يعلم وأنتم لا تعلمون وأنتم تجهلون، والله يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠]؛ يعني لولا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليكم، قد أحاطكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من كل جانب بفضله ورحمته، وهذا يدل على شدة رأفته ورحمته بالمؤمنين، لولا فضل الله عليكم ورحمته؛ يعني ما أمهل كل من خالف أمره ووقع في معصيته، لكن الله رؤوف ورحيم وينبه.

ولاحظ أن (الرأفة) و(الرحمة) إذا اجتمعت، دلت على شدة الرحمة؛ لأن الرأفة فوق الرحمة، الرأفة أشد وأعلى من الرحمة، يعني أخص وأدق من الرحمة، فرحمة الله ورأفته بعباده أن نبههم، وحذرهم، وتفضل عليهم، وأنقذهم من هذا الاضطراب الذي يقع بين المسلمين، وحذرهم من هذه الأخلاق السيئة والآداب الرذيلة، ورأف بهم بأن شرع لهم مثل هذه الشرائع العظيمة.

والفرق بين الرحمة مثل ما ذكرنا والرأفة مثل ما ذكرنا؛ الرأفة أخص، والرأفة دائماً تكون في دفع المكروه وإزالة الأشياء الضارة، دائماً يقول لك: **"أنا فلان يرأف به"**؛ لأنه يخشى عليه أن يقع في الأمور المحرمة، فتأتي الرأفة.

والرحمة إذاً تدخل، الرحمة عامة، أعم؛ فإذا دفع عنك شراً أو دلك على خير، فهذا رحمة من الله، والله رحيم سبحانه، رحيم بعباده.

هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ [النور: ١١] إلى هذه الآية، هذه الآيات العشر نزلت في (أهل الإفك) وأصحاب الإفك الذين رموا عائشة بالفاحشة؛ نزلت عشر آيات في تبرئة عائشة وتبرئة ساحتها وتبرئة بيت النبوة، نزلت متتابعة، وتلاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان عند عائشة في بيت أهلها، في بيت أبي بكر لما كانت عند أهلها.

☜**فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخل عليها وجلس عندها، فبعد جلوسه، وإذا الآيات تنزل عليه، تقول عائشة:** «وَإِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي اليَوْمِ الشَّاتِي البَرْدِ الشَّدِيدِ، وَجَبِينُهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا»، تفصد عرقاً.

فلما صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوحي إليه، من شدة الوحي شعر بحرارة واحمرار الوجه وتفصد العرق، ثم نزل عليه الوحي بهذه الآيات العشر، فالتفت إلى عائشة قال: «**يَا عَائِشَةُ، أَبْشِرِي؛ فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ**»، فقد برأك الله، فقرأ عليها هذه الآيات وأهلها يسمعون؛ هذه الآيات العشر جاءت نزلت متتابعة.

بعدها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[النور: ٢١].

هذا نداء جديد غير النداءات الأولى، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ يعني كل ما مر مما يتعلق بالفاحشة، من إثارة الفواحش في المجتمعات والزنا، وكل ما يتعلق بالقذف ورمي المسلمين الأبرياء، وكل ما يتعلق بهذه الأمور؛ كله سببه الشيطان.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ نادى المؤمنين بـ **(نداء الإيمان)** تذكيراً لهم بهذه الصفة – صفة الإيمان – أن لا يتبع خطوات الشيطان، لا يتبع خطوات الشيطان، وبين أثر اتباعها، بين أثر اتباعها فقال: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ﴾ – أي الشيطان – ﴿بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

والفحشاء غير الفاحشة؛ الفحشاء مصدر، الفحشاء معناته كل ما فحش من الأقوال والأفعال. والمنكرات؛ المنكر كل ما أنكره العقل السليم والشرع من الأشياء التي لا تقبل، لا تقبلها النفوس الطيبة، فالشيطان يدعو إليها، يدعو إليه.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

- **كيف لا نتبع خطوات الشيطان؟ الشيطان له خطوات؟**

الجواب: نعم، الشيطان أنت لا تراه؛ يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، والشيطان يأتي الإنسان خطوة خطوة، ما يأتي يقول له: **"اكفر"**، ما يقول له: **"اكفر"** أو **"تعال تقع في المعاصي"** أو **"تقع في الزنا"**، لا، يأتيه تدريجياً شيئاً فشيئاً.

هذه نظرة، ينظر للمرأة فابتسامة فموعد فلقاء، فيأتيه شيئاً فشيئاً؛ ياتي يزين له الصور، يزين له النظر في المحرمات، ثم بعد ذلك يبدأ معه إلى أن يوقعه شيئاً فشيئاً.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ من رحمته أن قال: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ لأن الشيطان لو جاءك وقال لك: **"تعال نفعل كذا"** أو **"افعل كذا"** ما تطيعه، لكن لما يبدأ يزين لك شيئاً فشيئاً إلى أن يوقعك في الفخ وفي شراكه وأنت لا تدري.

فهذا المعنى: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾؛ فكأن الشيطان يمشي أمامك وأنت تتبع خطواته، فاحذر كل الحذر، واعلم أن كل معصية وكل مخالفة وكل رذيلة هي من دعوات الشيطان ومن خطوات الشيطان، فعلى الإنسان أن يحذر لأن كل ذنب سببه الشيطان.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال بعدها: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾؛ أيها المؤمنون، لولا أن الله تفضل عليكم ورحمكم، ما زكى منكم من أحد أبداً، ما سلم أحد من المعاصي ولا زكى منكم من أحد أبداً ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾.

والتزكية هي أن يسلم الإنسان من الذنوب والمعاصي، هذا معنى **(التزكية)**. فلولا ففضل الله عليكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورحمته، لما سلم أحدكم - أحد منكم - من الذنوب والمعاصي، ولكن الله هو الذي يزكي ويسلم؛ لأن الزكاة هي السلامة من المعاصي، الزكاة هي الأعمال الصالحة.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من دعائه، دعا بدعائه: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاهَا»؛ فهذا دعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يدعو بهذه: «أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا».

والإنسان لا يزكي نفسه يقول: **"أنا لا أقع في الذنوب، أنا لا أقع في المعاصي، أنا أحسن الناس، أنا أصلي، أنا أفعل، أنا أفعل"**، لا تزكي نفسك؛ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى.

فلو فضل الله ما زكى منكم، ولكنه يزكي من يشاء، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾؛ سميع لأقوالكم من يزكي نفسه، عليم بأحوالكم، فانتبهوا أن تقولوا شيئاً لا يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال بعدها: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢].

هذه الآن الآيات التي تأتينا كأنها تعقيب على هذه القصة.

- **يقول: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾؛ ما معنى يأتلي؟**

أي يحلف، **(الألاء)** وهو الحلف، لا يحلف، يأتلي أي لا يحلف. هذه لها سبب نزول، وهي أن رجلاً يقال له **(مسطح بن أثاثة)**، هذا رجل اسمه مسطح من المهاجرين وممن حضر بدراً، سمع الناس يتكلم في عائشة فتكلم جهلاً منه، وخاض في الإفك وقع في الإفك.

فلما علم أبو بكر أنه وقع - وهو قريب لأبي بكر وكان مهاجراً وكان ضعيفاً فقيراً - لما علم أبو بكر - وكان ينفق عليه - قال: **"والله لا أنفق عليه، والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد هذا اليوم"**، وهو وقع خطأ منه وتاب، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ولا يأتلي؛ لا يحلف أحد، لا يحلف أولو الفضل والسعة منكم.

والمقصود بأولي الفضل والسعة هو أبو بكر، وهذا ثناء من الله؛ ثناء من الله ومدح للصديق أبي بكر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه أن الله سبحانه أثنى عليه وقال: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فهذا الرجل قريب ومسكين ومهاجر.

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ لأبي بكر: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾؟ لماذا؟ اعفوا واصفحوا وسامحوا؛ يعني يعفو الله عنكم ويصفح عنكم.

فقال أبو بكر لما سمع هذه الآية، قال: "بلى، بلى يا ربنا، قد عفوت وقد صفحت عنه"، فأعاد النفقة له، لأنه قطعها عنه، وهذا تعقيب لما جرى في هذه القصة.

بعد هذا يأتي التعقيب الآخر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣].

هذه عقوبة من يقع في رمي عائشة أو رمي أمهات المؤمنين زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كل من يرمي عائشة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا أو إحدى نساء المؤمنين - إحدى نساء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - له هذه العقوبة في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، هذه عقوبة من يقع في رمي زوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخاصة عائشة التي برأها الله، التي برأها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾؛ أن يقذفون ويتهمون، ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾؛ المحصنات هنا العفيفات، ﴿الْغَافِلَاتِ﴾؛ التي لا يخطر ببالها شيء من هذا الأمر، لا يخطر ببالها أبداً غافلة، ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ قد آمنا وصدقنا واتبعنا الله ورسوله.

قال الله في عقوبة الذين يرمون: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا﴾؛ ملعونون مطرودون في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم، عقوبة شديدة.

حتى قال بعض أهل العلم: **"إن من قذف عائشة - رَضِيَ اَللهُ عَنْهَا - وقال إنها زانية أو أنها وقعت في الزنا أو نحو ذلك، مكذباً لله ولرسوله ومكذباً للقرآن؛ فقد كفر"**؛ هذا كفر لأنه يكذب الله ويكذب الرسول، الله عَزَّ وَجَلَّ يخبر بهذا الخبر وأنت تكذب - والله يقول هي - بريئة: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، وأنت تأتي وتتهمها! هذا كفر.

ولذلك قال ابن عباس: **"من رمى عائشة أو رمى إحدى نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه لا توبة له"**، لا توبة له من شدة الأمر، ولكن الصحيح أن من تاب تاب الله عليه؛ ولكن العقوبة الشديدة، والعلماء حكموا عليه بكفره؛ لأنه مكذب لله ولرسوله، مكذب للقرآن ومكذب لما جاء به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتلاه عليهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]؛ يعني تشهد عليهم ألسنتهم بما كانوا يعملون، تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

تشهد عليهم الألسنة؛ ألسنتهم تتكلم وتشهد عليهم، وأيديهم وأرجلهم، وأرجلهم بما كانوا يعملون.

- **هنا سؤال: ليش خص هذه الأشياء الثلاثة؛ اللسان واليد والرجل؟**

قال بعض أهل التفسير: **"لأن اللسان ينطق ويتكلم بالقذف، والايدي تشير إلى هؤلاء المقذوفين أو المقذوفات، والأرجل تسعى إليه؛ إلى مجالس الناس بإبلاغهم وذكر القذف عندهم"**. فالله عَزَّ وَجَلَّ جعل هذه الأشياء الثلاثة - الأعضاء: اللسان واليد والقدم - تشهد عليه يوم القيامة، لما يبعث الله الأولين والآخرين ويجازيهم ويحشرهم، يقولون: تشهد عليهم.

وفي هذا اليوم: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥]؛ يوفيهم الله دينهم الحق، يعطيهم جزاءهم.

(الدين) هنا مراد به الجزاء؛ جزاء جزائهم على أعمالهم، الجزاء الحق بالعدل والقسط يجدون جزاءهم يوم القيامة وافراً، لم يفقدوا منه شيئاً، يوفيهم دينهم يوفيهم الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين؛ يعلمون أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الحق، هو الحق المبين الذي يقضي بالحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الحق لا إله إلا هو.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ۖ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[النور: ٢٦].

وهذا تعقيب على القصة بأن الخبيث أو المرأة الخبيثة أو الكلام الخبيث أو الأفعال الخبيثة؛ لأن (الخبيثات) يشمل النساء الخبيثات، ويشمل الكلمات الخبيثات، ويشمل الأفعال الخبيثات، هذه لا تكون إلا لأهلها؛ للخبيثين.

لا يمكن يكون الطاهرة طيبة ويكون زوجها خبيث، ولا تبقى معه، ولا تكون المرأة طيبة وكلامها خبيث؛ لأن هذا لا يليق، أو أفعالها، فالخبيث مع الخبيث، والخبيثون للخبيثات، والطيب مع الطيب، والطيبات بعضهم مع بعض في كلامهم، في أفعالهم، في أحوالهم، كل يأتي إلى الآخر ويرضى به.

وأما الصديقة ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنهم مبرؤون مما قاله هؤلاء المنافقون، ولذلك قال: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾، ما قال "مبرأة" - يعني عائشة لا - لأن اتهامها اتهام للنبي، ولذلك قال: ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾؛ الرسول وزوجه عائشة مما يقولون - أي أهل الإفك - ﴿لَهُم﴾ - أي للرسول وزوجته عائشة - ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ من الله؛ لأن هذه سبب للتكفير، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ يوم القيامة يجدونه عند الله خير من الدنيا وما فيها.

هذه الآيات بعدها تنتقل الآيات في خطاب المؤمنين إلى التحذير من الوسائل، التحذير الأمر بالوسائل التي تقي المجتمع من الوقوع في الفواحش: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾[النور: ٢٧].

لعل نقف عند هذا القدر إن شاء الله، نكملها في اللقاء القادم بإذن الله. أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النور ٢٧ - ٣٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسمِ اللهِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على رسولِ اللهِ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَنِ اهتدى بهداهُ إلى يومِ الدِّينِ، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اليوم المبارك؛ يوم الثلاثاء الموافق للسابع عشر من شهر صفر من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

لا زلنا في هذه السورة الجليلة العظيمة، وهي (سورة النور). والحقيقة أن (سورة النور) -كما سماها بعض السلف- هي (سورة الحياء والحشمة)، وصورة الأخلاق والآداب كلها؛ فهي تتكلم عن المحافظة على البيت، والمحافظة على الأسرة، وحراسة الفضيلة ومحاربة الرذيلة.

إنها تحارب الفواحش، وتحارب الأخلاق السيئة، وتقرر قضايا الخلق والحياء والحشمة والأدب، والمحافظة على الأعراض، هي سورة عظيمة حقيقةً، تحتاج منا إلى تأمل، وتحتاج منا إلى تدبر.

والآيات لا تزال في ذكر السياج والحفاظ والسور الذي يضعه المسلم ليحافظ على أسرته؛ يعني بعبارة أخرى: الوسائل والتدابير التي ينبغي للمسلم أن يأخذ بها ليحصن نفسه ويحصن بيته، ويحصن عرضه ويحصن أعراض بيته: زوجته، وأبنائه، وبناته.

هذه السورة سورة عظيمة، ذكر الله فيها أسباب المحافظة على الأسرة والمحافظة على الأعراض، والأعراض كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ»؛ فجعل الأعراض بمنزلة الدماء وبمنزلة الأموال.

فالذي يتعرض لعرضك كأنه يتعرض لقتلك، وكأنه يتعرض لمالك؛ بل في نظري -والله أعلم- أن العرض أشد والعار أشد؛ يذهب مال الإنسان وتذهب نفسه ولا يذهب عرضه.

ولذلك كان السلف الصالح -بل حتى الجاهلية في جاهليتهم- يخشون العار؛ فكانوا يئدون البنات وهن أحياء، يأخذ البنت الحية ويحفر لها حفرة ويدفنها خشية العار! فكيف يرضى الإنسان لنفسه ولعرضه ويكون ديوثاً يرضى أن تنتهك أعراض بيته وزوجه وبناته؟!

إن السورة حقيقةً تركز على قضية محاربة الفاحشة بكل صورها، وإقامة مجتمع صافٍ سليم بعيد عن هذه الأشياء. والذين ينشرون الفاحشة ويشيعونها في صفوف المسلمين هم المنافقون، هم أصحاب الرذيلة.

الآن انظروا إلى الآيات التي أمامنا، وأنا حقيقةً دائماً أكرر: المصحف أمامك؛ المصحف أو الجوال، خذ الآيات، الآية أمامنا الآن، الآية رقم (٢٧) من (سورة النور)، افتح السورة وتأملها ونحن نقرأ ونفسر وأنت تنظر إلى الآيات.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول هنا: يناديك بأحسن الأوصاف: أيها المؤمن، اسمع كلام الله؛ فإنه إذا أمرك بأمر فاعلم أن فيه خيراً لك، ولما ينهاك عن شيء فاعلم أن هذا خير لك إذا امتثلته، وهذا النهي الذي ينهاك عنه احذر منه، احذر منه.

اسمع الآية التي بين أيدينا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

وانظر إلى جمال القرآن، ماذا قال بعدها؟ قال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧]؛ أي تذكرون ما ينفعكم. هذا خير؛ لا تدخل أي بيت إلا بإذن أهله. ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٢٧]؛ بيتك افتح الباب وادخل بيتك؛ لكن بيوت الناس الآخرين ولو كانوا أقارب؛ لو كان بيت والدك، أو بيت أعمامك، أو أخوالك، أو إخوتك، أو نحو ذلك؛ استأذن، لا تدخل بيتاً غير بيتك حتى تستأنس وتسلم على أهلها، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون.

أنا أسأل حقيقةً: لماذا تطلب منا الآية إذا أردنا أن ندخل البيوت أن نستأذن؟ لقد أجاب الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن هذا السؤال فقال: «**إِنَّمَا جُعِلَ الِاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ**»؛ حتى لا يقع البصر على العورات داخل البيوت. فالبيت للإنسان ستر كالثوب يستر عورتك؛ الثوب يستر العورة، والبيت يستر عورة الإنسان.

فقد يكون المرء في لباس لا يناسب، وقد تكون المرأة في لباس لا يناسب أو متكشفة، ويدخل رجل أجنبي؛ وهناك بنات في البيت، وهناك أغراض، وهناك ناس يريدون الستر ولا يريدون التكشف.

وبعد ذلك، إذا دخل الإنسان من غير إذن يُتهم بالريبة، ويُتهم بالشر، ويُتهم بالسرقة؛ فالدخول خفيةً يدل على الشر، ولذلك أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بأمرين إذا أردت أن تدخل بيت غير بيتك؛ لا بد أن تحققهما، ما هما؟ (الاستئناس) والتسليم.

- **ما معنى تستأنسوا؟**

(الاستئناس) هو إزالة الوحشة، و(الاستئناس) يتضمن الاستئذان؛ يعني تستأنس وتستأذن، والعلماء إذا كانوا يقولون إن معنى ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ [النور: ٢٧] هو تستأذنوا، فإن القرآن قد عبّر بعبارة غير الاستئذان فقال: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ [النور: ٢٧]؛ لأن (الاستئناس) معناه إدخال الأنس، والأنس يعني إزالة الوحشة.

فأنت عندما تريد أن تدخل بيتاً أو تريد أن تزور شخصاً وتدخل بيته، تكون في وحشة لا تدري ماذا تواجه، ولا تدري ما يأتيك من الرد، فتكون قلقاً لا تدري، ولذلك تلاحظ أن الذي يطرق الباب يجلس ينظر ويترقب ولا يدري ما الذي سيحدث له، وكذلك الذي في داخل البيت هو في وحشة لا يدري من الذي وراء الباب، ويخاف ولا يدري من يطرق الباب.

فالاستئذان إزالة للوحشة؛ فحين تطرق الباب أو ترن الجرس، أو بأي طريقة تنادي يا صاحب البيت بأي صوت، فهذا يسمى استئذاناً، ثم إذا رد عليك صاحب البيت وقال: «**من عند الباب؟**»، تسلم بعد هذا وتقول: «**السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أنا فلان**»، وتعرّف بنفسك.

فبهذا تزول الوحشة من الطرفين؛ هو يعرفك فيقول لك: «**يا هلا، حياك الله**»، وأنت في نفس الوقت تفرح أنه استقبلك بهذا الاستقبال. فكلمة ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ [النور: ٢٧] عرفنا لمَ لمْ يقل القرآن: «**حتى تستأذنوا**»؛ لأن الاستئناس استأذان وزيادة، هو استئذان وإزالة للوحشة وتسلم على أهلها.

لكن هنا إشكال ودي أن نتنبه إليه؛ فقد جاء في الحديث عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لما دخل رجل عليه، فقال: «**ارْجِعْ وَاسْتَأْذِنْ**». فقال: كيف يا رسول الله؟ قال: «**قُلِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟**».

ففي الحديث بدأ بالسلام ثم الاستئذان، والآية بعكس ذلك بدأت بالاستئذان ثم السلام: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧].

فكيف نجمع بين الأمرين؟ هل نقدم السلام أم نقدم الاستئذان؟

الجواب: الأصل أن تقدم الاستئذان كما في الآية؛ تقدم الاستئذان فإذا سمعوك تسلم عليهم، أما الحديث فهو في صفة أخرى، وهو أنك إذا وجدت الإنسان قد فتح بابه، أو في بيت مفتوح، أو في مجلس مفتوح، فإنك تسلم أولاً ثم تقول له: أأدخل؟ أو أجلس؟ فبهذه الطريقة تجمع بين الحديث وبين الآية.

الاستئذان له آداب جاءت في السنة؛ فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الِاسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ وَإِلَّا فَارْجِعْ». يعني تأتي تطرق الباب مرة، مرتين، ثلاثاً، وبعدها تمشي.

تنادي صاحب البيت: «يا فلان»، فإذا لم يرد عليك، تنادي مرة ثانية: «يا فلان»، فإذا لم يرد ثلاث مرات بعدها تمشي. أو اتصلت على صاحب البيت وأنت عند الباب بالجوال ثلاث اتصالات ولم يرد، خلاص امشِ.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الِاسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ، فَإِنْ أُذِنَ لَكَ وَإِلَّا فَارْجِعْ»؛ لأن الأولى (الاستئذان الأول) إعلامٌ تخبره فيه، والثانية تأمره أن يفتح لك لأنه قد سمع، والثالثة تستأذن بالرجوع، فالثالثة معناها الرجوع والانصراف.

والاستئذان يختلف باختلاف البيوت والأحوال والأماكن؛ فبعضهم لا يسمع إلا بطرق الباب بقوة أو بالجرس أو بالاتصال بالجوال، وبعضهم يكفي بالتنحنح، وبعضهم يكفي بالسلام، وبعضهم إذا قلت: «يا ولد»، أو «يا رجل»، أو «يا فلان». فتختلف؛ حتى إن بعض السلف كان يسبح ويكبر: «الله أكبر، سبحان الله»، فكل هذا نوع من الاستئذان.

لكن عندنا حقيقةً مسألة تفوت كثيراً من الناس؛ إذ يظن أن الاستئذان هذا إنما يكون فقط عند الدخول إلى البيوت، يعني إذا أردت أن تدخل بيتاً تستأذن، ويظن أن هذا هو الأهم.

انظر، الاستئذان عند الدخول إلى البيوت كما في الآية، وكذلك في غرف البيت الواحد؛ فإذا كان صاحب الغرفة قد أغلق بابه فلا تفتح الباب إلا بإذن، اطرق الباب أولاً.

أختك، أو بنتك، أو زوجتك -وقد تكون الزوجة أهون- لكن أختك أو بنتك أو أخوك أو الوالد أو الوالدة إذا دخل في غرفته وأغلق بابه، لا يجوز أن تفتح الباب هكذا مباشرة، بل لا بد أن تستأذن؛ فقد تفتح الباب على أختك وهي على حالة لا تريد أن تراها عليها، أو على أخيك، أو والدك، أو والدتك، فلا بد من الاستئذان.

إلا إذا كان باب الغرفة مفتوحاً فهذا شيء آخر؛ فما دام أنه فتحه فهذا دليل على أنه يأذن للناس بالدخول، لكن إذا كان قد أغلق الباب فلا تفتح الباب عليه إلا بإذنه، وهذه المسألة دائماً تفوت كثيراً من الناس.

ثم لاحظ الآية ماذا تقول: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧]؛ فـ **(ذلكم خير لكم)** أي أدب الاستئذان خير لك، هو خير محض، تؤجر عليه وتكسب به الخير، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧] ما فيه مصلحتكم وما فيه من الأخلاق الكريمة.

فإذا أُذن لك ودخلت بإذن ارتاحت واستقرت نفسك، وإذا دخلت بغير إذن لن تستقر نفسك ولن ترتاح. فهذه حكم عظيمة ينبغي أن ننتبه لها؛ لأنك لا تدري ما خلف الباب، فقد يكون صاحب الدار في بيته على هيئة غير مناسبة لا يريدك أن تراه عليها، أو تكون عندهم أشياء يريدون أن يطووها عن الناس ولا يريدون أن تتكشف، فلا بد من أخذ الإذن.

الآية التي بعدها تقول: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨].

فإذا لم تجد في البيت أحداً فلا تدخله ولو كان الباب مفتوحاً؛ فما دام صاحب البيت غير موجود فلا تدخل إلا بإذنه ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]، إما أن يعطيك المفتاح ويقول لك: «**ادخل**»، أو يقول لك: «**أنا أفتح لك الباب**»، أو يقول لك: «**الباب مفتوح فادخل**»، فإذا فتح لك الباب أو أذن لك صاحبه فادخل.

وقد يقول لك الشخص: «**ارجع**». جئت وطرقت الباب وسلمت على صاحبه عدة مرات، فقال لك صاحب البيت: «**ارجع**» -قد يكون باتصال بالجوال، أو يرسل لك رسالة يقول فيها: «**الوقت غير مناسب**»، أو يأتي عند الباب ويفتحه ويقول لك: «**اعذرني، الوقت غير مناسب**» فماذا تصنع؟ هل تجد في نفسك حرجاً؟

لا حرج أبداً، بل ارجع طبيعياً ولا يكن في صدرك أي ضيق؛ بل فيه تزكية لك، أي أجر وثواب، قال تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]؛ فلا تغضب ولا تحزن، فصاحب البيت إذا منعك فهذا حقه، وإذا أذن لك فقد تبرع وتفضل، أما إذا لم يأذن لك فلا تشمئز نفسك ولا تحزن؛

لأن الله تعالى يقول: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]، أي: أشد تطهيراً لكم من السيئات، وزيادة لكم في الحسنات.

فيا لله! أطرق باب فلان وأزوره ثم يقول لي: «ارجع»، فأرجع وأنا مغتبط وفرح؛ لأنني كسبت تزكية من الله بتطهيري من السيئات وتنمية حسناتي!

وقد قال بعض السلف: "لقد طلبت عمري كله هذه الآية أن تدركني؛ أن أستأذن على بعض إخواني فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط فرح مسرور؛ لأن الله يقول: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]".

فانظر كيف هو أدب القرآن وأدب الشريعة! حتى في طرق الباب، إذا قيل لك ارجع فارجع، بعض الناس اليوم يقول: **"جئت عنده، وضربت مشواراً، وطرقت الباب عليه، وفي النهاية يقول لي ارجع! هذا ليس فيه تقدير ولا احترام!"**. لا، هذا الكلام لا يصح؛ فهذا أدب قرآني، يقول لك: ارجع، فارجع مبسوطاً وفرحاً من غير أي إزعاج أو قلق؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]، فلا يفتك هذا الأجر العظيم.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨]، أي: عليم بما تعملون من الأخذ بهذا الأدب وعدم الدخول إلى البيوت إلا بإذن أهلها لتكسبوا الأجر، وعليم بامتثالكم إذا قيل لكم ارجعوا فرجعتم لتكسبوا الأجر، وإن خالفتم هذا الأمر ودخلتم البيوت بغير إذن أو حصل منكم ما حصل فإن الله بما تعملون عليم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٨] وعيدٌ شديد لأهل التجسس على البيوت، والذين يطلبون الدخول على أهلها على حين غفلة، ويريدون أن يجدوا الباب مفتوحاً ليدخلوا وينظروا إلى ما لا يحل؛ فالله بما تعملون عليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويجزي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حالة ثالثة، قال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور: ٢٩].

والآن قد عرفنا البيوت السابقة:

الحالة الأولى: بيت فيه أهله؛ تطرق الباب، فإذا أذنوا لك بالدخول دخلت.

الحالة الثانية: بيت ليس فيه أهله ولكن فيه أغراضهم ومتاعهم وهو مغلق؛ فهذا لا تدخله إلا بإذن صاحبه.

الحالة الثالثة: البيوت الفارغة غير المسكونة، التي ليس فيها متاع للناس **(أغراض أو أثاث مملوك لشخص بعينه)** وليس فيها أهلها؛ فهل يجوز لك دخولها أم لا يجوز؟

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ [النور: ٢٩] ولكن بشرط: ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ٢٩]، أي فيها حاجة ومنفعة لكم.

فإذا جئت إلى بيوت مفتوحة غير مسكونة وليس فيها أحد، فلك أن تدخلها إذا كان لك فيها **(متاع)** أي حاجة ومصلحة، مثل الاستظلال من الشمس والحر، أو الاتقاء من المطر والبرد والرياح، أو النوم والراحة، أو وضع الأمتعة، أو تناول وجبة الغداء أو العشاء، وهذا كان يكثر قديماً في طرق السفر.

ففي طرق السفر ما بين الحجاز والشام والعراق، كانت توجد غرف تُسمى **(الخانات)**، وهي غرف تُبنى في الطرقات ليس لها أبواب، لك أن تدخلها وتجلس فيها إذا كانت لك حاجة.

ومثلها الآن الشقق والفنادق المعدة للإيجار؛ فإذا كانت لك حاجة تدخل الفندق وتجلس فيه وتتفق مع أهله. ومثل الدكاكين والمحلات التي كانت سابقاً مفتوحة، تدخل فيها وتجلس إذا كانت لك حاجة تريد أن ترتاح، أو تستظل من الشمس والحر؛ فقد أذن الله لك في ذلك فقال: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ٢٩].

ثم ختم الله عَزَّ وَجَلَّ الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [النور: ٢٩]؛ فهو سبحانه يعلم أحوالكم الظاهرة والخفية، ويعلم ما فيه مصلحتكم، ولذلك شرع لكم هذه الأحكام المتعلقة بالاستئذان.

وكل هذا يدور على حفظ الأعراض وحفظ العورات؛ لأنك إذا دخلت بغير إذن اتُّهمت بالريبة والنية الخبيثة، والتطلع على عورات المسلمين، أو اتُّهمت بالسرقة وأخذ الأثاث ونحو ذلك.

فالإسلام يحفظ هذه الحقوق ويحافظ عليها بوضع الضوابط الشرعية، فلا بد من الاستئذان عند الدخول، ولا يجوز دخول البيوت إلا بإذن أهلها، وإذا قيل لك ارجع فارجع، وينبغي السلام عند

الدخول، فمشروعية التزاور والزيارة قائمة ولكن بآداب الإسلام، والبيوت غير المسكونة التي فيها منفعة ومصلحة لك لا يمنعك الإسلام من دخولها.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

وهذا إرشاد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ قل للمؤمنين يا محمد، وقل أيها الرجل لزوجتك ولأهل بيتك: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون.

وانظر، عندما تدخل البيت ويأذن لك أصحابه بالدخول، ينبغي أن تدخل بأدب، وأن تغض بصرك؛ فلا تجعل بصرك يتطلع يميناً وشمالاً، وتنظر إلى ما وضعوه في البيت، بل ادخل وأنت تطرق بصرك إلى الأرض ولا تنظر.

غض بصرك؛ لأنك قد تنظر إلى إحدى الغرف وتكون فيها امرأة أو بنت، فما ينبغي ذلك، بل لا بد من غض البصر. ولذلك أمر الله بغض الأبصار عند الدخول.

وغض البصر ليس فقط عند الدخول، بل حتى في غير الدخول؛ فأنت مأمور بغض بصرك عن الحرام مطلقاً، وعن النظر إلى العورات، فلو أن رجلاً قد كشف عورته أو كشف فخذيه -وهذه **(عورة الفخذ)** وتجد ذلك أحياناً في بعض الأماكن والمرافق مثل الحدائق والمسابح والشواطئ ومضامير الجري؛ تجد بعض الشباب والرجال قد كشف عورته وأظهر فخذيه، فهذا لا يجوز أن تنظر إليه، ولا يجوز النظر إلى العورات.

وكذلك لا يجوز النظر إلى المرأة السافرة التي كشفت عن وجهها وزينتها؛ لا في الشوارع، ولا في الأسواق، ولا في السيارات، ولا في الطرقات، ولا عند الأبواب، ولا في الجوالات، ولا على الشاشات؛ فكل هذا حرام ولو كانت مجرد صور.

وأحياناً تجد بعض من فيهم خير وصلاح، ومحبة للخير ومحبة للطاعة والمسجد، وتتعجب كيف ينظرون في جوالاتهم إلى صور محرمة! ويتداولون بعض المقاطع التي فيها صور نساء كاشفات عن شعورهن ووجوههن، فبأي حجة تنظر إليها والله عَزَّ وَجَلَّ قد أمرك بغض البصر؟!

لا يجوز ذلك أبداً، وليس لك فيه أي حجة. كما لا يجوز لك أن تروج هذه الصور أو تنشرها فتكسب إثماً عظيماً وأنت لا تدري؛ فقد تروج مقطعاً واحداً فيذهب إلى الملايين وأنت لا تشعر، وتكسب أوزاراً من حيث لا تحتسب. فلا يجوز النظر إلى العورات والمحرمات؛ بل الواجب على المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى وأطهر لهم.

- **ولماذا قرن الله بين غض البصر وحفظ الفرج؟**

لأنك إذا أطلقت بصرك حرّكت شهوتك؛ فإذا جلست تنظر إلى الصور المحرمة والعارية والكاشفة، فإن هذا يحرك الشهوة في النفس، فأمر الله بغض البصر لأنه وسيلة لحفظ الفرج.

ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، ولم يقل: «يغضوا أبصارهم»؛ بل قال: ﴿مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ بـ (من) التبعيضية؛ لأن البصر قد يقع أحياناً بغتةً من غير قصد، ولأن هناك نظراً جائزاً في بعض الأحوال، كنظر الطبيب للمرأة الأجنبية للعلاج، أو نظر الخاطب لمن يريد خطبتها، فهذا مستثنى وجائز.

أما في حفظ الفرج فلم يقل: "من فروجهم"؛ بل قال: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] بالإطلاق؛ فلا يجوز ارتكاب الفاحشة مطلقاً وبأي حال.

وانظر إلى ختام الآية العجيب، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]؛ وكلمة (خبير) تدل على العمق في الشيء ومعرفته بدقة بالغة. فـ (البصير) هو الذي يعلم الأشياء الظاهرة، أما (الخبير) فهو الذي يعلم بواطن الأشياء ودقائقها وخفاياها؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خبير يعلم ما تنطوي عليه القلوب، وخبير بما يصنعه الناس، وأحياناً يتصنع الإنسان في نظره ويتكلف، ولكن الله مطلع عليه خبير بما يصنع، وفي هذا وعيد وتهديد شديد لكل من يتساهل في النظر إلى المحرمات.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية التي تليها: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

فالأمر ليس مقصوراً على الرجال المؤمنين فحسب، بل يشمل النساء أيضاً، فكيف تغض المرأة من بصرها؟ لا تنظر إلى العورات؛ فإذا رأت رجلاً قد كشف عورته، أو امرأة قد أظهرت عورتها، فلا يجوز للمرأة أن تنظر إليها، فنظر المرأة إلى عورة المرأة محرم؛ فيجب عليها أن تغض من بصرها.

وكذلك لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجال نظر تعجب أو نظر شهوة؛ فبعض النساء قد تنظر إلى صور الرجال بشهوة تتحرك معها نفسها، فالواجب عليها أن تغض بصرها وتحفظ فرجها.

ولكي لا نطيل عليكم والوقت يضيق بنا، فإن في الآيات آداباً عظيمة للمسلمين نحن بأمسّ الحاجة إليها اليوم، وسندخل في اللقاء القادم إن شاء الله في قضية: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]؛ أي لا تظهر المرأة زينتها. وهذا الموضوع سنفصل فيه في لقائنا القادم بإذن الله تعالى.

نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينفعنا بما علمنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم من المتأدبين بآداب القرآن، المتمسكين بشرعه، المراقبين لحدود الله، المبتعدين عن محارمه. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النور ٣١ - ٣٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

أيها الأخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم المبارك، وهو يوم الثلاثاء الموافق للرابع والعشرين من شهر صفر من عام (١٤٤٤ هـ).

درسنا المعتاد مع تفسير (القرآن العظيم)، والسورة التي بين أيدينا هي (سورة النور)، و(سورة النور) قدَّمنا فيها مقدمات، وبيَّنا فيها يعني هذه السورة العظيمة الجليلة التي جاءت ستراً لكل مسلم، وتضفي عليه الحياء والستر والحشمة والأخلاق الطيبة، والبعد عن الأخلاق الساقطة، والبعد عن سفاسف الأخلاق، والبعد عن كل رذيلة، وهي تحيط المسلم وتحرسه بكل فضيلة.

نكمل الآيات التي بين أيدينا، وهي الآية الحادية والثلاثون من (سورة النور)، وهي خطاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأمر المؤمنات -كما أمر المؤمنين- أن يأمر المؤمنات بغضِّ أبصارهن وحفظ فروجهن.

قد يسأل سائل يقول: الآية التي قبلها قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، والله عَزَّ وَجَلَّ إذا خاطب أو أمر بخطاب المؤمنين يدخل فيه الرجال والنساء سواء، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، أو كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤].

وكقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، وكقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩] يدخل فيه الرجال والنساء، فلماذا هنا خصَّ النساء بعدما ذكر الرجال وذكر وأمرهم بغض الأبصار وحفظ الفروج؟ أعاد مرة أخرى بأمر النساء خاصة، فقال: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] يعني تغض المرأة بصرها.

- **لِمَ كرر مرة ثانية؟**

الجواب: تأكيداً على أهمية غض الأبصار وحفظ الفروج للرجال والنساء سواء؛ وليرتب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه الآية ما يجب على المرأة أن تحفظ نفسها، تحفظ نفسها من السفور، ومن كشف الوجه، ومن الخروج أمام الرجال سافرةً.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية، وهو أحكم الحاكمين، وهو الرحيم بعباده، وهو الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما يقضي ويحكم: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

- **قد يسأل سائل ويقول: المرأة تغض بصرها من أي شيء؟ يعني كيف تغض بصرها؟**

الجواب: المرأة مأمورة بغض بصرها عن النظر إلى العورات، النظر إلى الصور المحرمة، الصور الخلاعية والصور المحرمة، والنظر إلى العورات على الجوالات، وفي الشاشات، وفي الطرقات، وفي الأسواق، قد يبدي الرجل عورته بأن يكشف فخذيه أو غيرها، فيجب على المرأة أن تغض بصرها.

كما أن أمراً للنساء أن يغضضن أبصارهن من النظر إلى الشباب، قد تنظر المرأة في القنوات، وفي الشاشات، وفي الجوالات إلى بعض الشباب الذين فيهم شيء من النعومة وفيهم شيء من الوسامة والجمال، فتنظر المرأة نظر إعجاب، ونظر فيه نوع من التأثر بهذا الشاب، فقد يدخل الشيطان عليها، فنقول: نمنعها من النظر، ولا يجوز لها أن تنظر؛ لأن هذا النظر يؤدي إلى ما هو أكبر، يؤدي إلى الحرام.

ولاحظ أن الله قال: ﴿مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]؛ لأن قد يقع نظرها على شيء لا تريده، أو أنه قد يجوز لها النظر إلى رجل لحاجة.

قال: ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، ولم يقل: (من فروجهن)، وإنما قال تحفظ فرجها مطلقاً، لا يجوز للمرأة أن تبدي فرجها أو تكشف شيئاً منه، أو ينظر إليها رجل أجنبي، أو يمسها أو نحو ذلك، أو قد يصل الأمر إلى أن تمكنه من نفسها، كل ذلك أمر محرم، تحفظ فرجها إلا من زوجها، تحفظ فرجها إلا من زوجها.

قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]؛ أي تُنهى المرأة أن تبدي زينتها وتظهر زينتها أمام الرجال الأجانب، لا يجوز لها أن تبدي زينتها.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]؛ يعني ما ظهر بغير اختيارها، كأن ينكشف الوجه وهي لا تريد ذلك بسبب الهواء، أو سقوط (الخمار) عن وجهها، أو تنكشف يداها، أو أن تنكشف رجلاها أو نحو ذلك، كل هذا قد يظهر بغير اختيارها، أو ينكشف شيء من ثيابها الزينة.

فهذا نقول: بغير اختيارها، ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] بغير إرادتها ولا تقصد ذلك، فهذا معفوٌ عنه؛ لأن الله استثناه، معفوٌ عنه، وقد لا تستطيع هذا الشيء؛ لأنها قد لا تستطيع هذا الأمر ويخرج عن إرادتها.

بعض من يقول بجواز كشف الوجه، بعض من يقول بجواز كشف الوجه واليدين يأخذ بهذه الآية، يقول: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] الوجه والكفان، ويستدلون بحديث لا يصح، حديث ضعيف لا يصح.

☜وهو حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها دخلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعليها ثياب رقاق، فقال: «يَا أَسْمَاءُ، إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ لَا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تُبْدِيَ شَيْئًا إِلَّا هَذَا وَهَذَا» وأشار إلى الوجه والكفَّين.

هذا الحديث ضعيف لا يصح الاستدلال به، ولا يدل على الجواز، والآية مثل ما وجهناها، ولو كان الأمر كما يدعون أن المراد ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١] الوجه والكفَّين، لكانت الآية هكذا: (**ولا يبدين زينتهن إلا ما يظهرنه**)، أما (**ظهر**) من غير اختيارها، ما يتناسب أبداً، ما يتناسب.

والأدلة كثيرة جداً على أن المرأة ممنوعة من كشف وجهها وأي شيء من عورتها، والمرأة كلها عورة، كلها عورة، ويجب عليها أن تحتجب عن الرجال الأجانب، ولا يجوز لها أن تكشف شيئاً من زينتها.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، تضرب المرأة بـ(**الخمار**) -وهو (**الحجاب**) و(**الجلباب**) و(**العباءة**)- تضربها من رأسها إلى أطراف قدميها، ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] على جيوب، الجيوب فتحة العنق، الجيب فتحة العنق الذي يكون فيه الأزرار، هذا هو فتحة العنق، هو الجيب.

قال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، أعاد مرة ثانية، وهذا واضح أن الأمر بالخمار أن تحتجب.

ولذلك الجميع يتفق على أن الرجل إذا أراد أن يتزوج امرأة جاز له أن ينظر إليها، لو كان كشف الوجه مباحاً لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْظُرْ إِلَيْهَا»، لكان معروفاً أنها تكشف وجهها.

وفي آخر السورة قال: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠]، فإذا كانت المرأة الكبيرة يباح لها أن تكشف وجهها، فالصغيرة بلا شك أنها ممنوعة، والأدلة كثيرة لا نستطيع حصرها هنا لكنها موجودة تدل على ذلك.

وهكذا، أنت تقرأ الآية هذه التي أمامنا قال: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، لما ذكر الله هؤلاء الأصناف الاثني عشر، الأصناف هؤلاء ذكرهم بقوله: ﴿لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]، دل على أن ما سواهم غير هؤلاء لا يجوز.

ولذلك نُفصِّل هؤلاء الأصناف الاثني عشر الذين يباح للمرأة إبداء زينتها المعتادة أمامهم بحسب ما جاء في الآية الكريمة:

- **الصنف الأول: البعولة:** ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ وهم الأزواج، فزوجها يجوز لها أن تكشف وجهها ويديها، وله أن ينظر إلى سائر جسدها، كل ذلك مباح، ولذلك ابتدأ الله به؛ لأنه هو أقرب الناس إليها.
- **الصنف الثاني: الآباء:** ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ﴾ أبو المرأة يجوز له أن تبدي المرأة زينتها أمامه، ككشف الرأس والوجه واليدين والقدمين، كل ذلك جائز.
- **الصنف الثالث: آباء البعولة:** ﴿أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ أبو الزوج.
- **الصنف الرابع: الأبناء:** ﴿أَوْ أَبْنَائِهِنَّ﴾ فالمرأة يجوز لها أن تبدي زينتها أمام أبنائها بما يظهر عادةً كالوجه واليدين والساعدين والقدمين والشعر والذهب ونحو ذلك.
- **الصنف الخامس: أبناء البعولة:** ﴿أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ وهو ابن الزوج، ابن زوجها إذا كان عند الزوج أبناء من غيرها، يجوز لها أن تكشف أمام أبناء الزوج.
- **الصنف السادس: الإخوان:** ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ﴾ أخو المرأة، إخوانها يجوز لها أن تبدي زينتها أمامهم.

الصنف السابع: بنو الإخوان: ﴿أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾ والذين تكون هي عمتهم.

الصنف الثامن: بنو الأخوات: ﴿أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ﴾ والذين تكون هي خالةً لهم.

الصنف التاسع: النساء: ﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يعني النساء بعضهن مع بعض، فيجوز للمرأة أن تبدي زينتها أمام النساء إذا كان كلهن نساء، وإن لم يكنّ أقارب كالجارات والصديقات ونحوهن، يجوز للمرأة أن تبدي زينتها مما يظهر عادةً، لا أن تتكشف أمامهن بشيء لا يظهر عادةً.

كما نلاحظ الآن في بعض المناسبات والأعراس ممن يظهرن صدورهن، وبطونهن، وظهورهن، وأفخاذهن، هذا كله لا يجوز، هذا نزعٌ للحياء، ليس مما يظهر عادةً أمام العقلاء.

مسألة: قال بعض أهل العلم: "﴿أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ يدل على أن المرأة تبدي زينتها أمام المرأة المسلمة، وغير المسلمة كالكافرة لا يجوز إبداء زينتها؛ لأن الله قال: ﴿نِسَائِهِنَّ﴾ يعني نساء المؤمنات، فدل على أن غير المؤمنات لا يجوز، وهذا رأي لبعض السلف أن المرأة لا يجوز لها ذلك، خاصةً إذا خافت كأن تنظر نظرات غريبة أو تخشى منها الفتنة، فإنها لا تخلو بها ولا تبدي زينتها أمامها".

الصنف العاشر: ملك اليمين: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ يعني المرأة إذا كان عندها ملك يمين كامل تام، تملكه كعبد مملوك عندها، (قن) مملوك عندها، فلها أن تبدي ما يظهر عادةً كالوجه والكفين، ولا تخلو به ولا يخلو بها.

الصنف الحادي عشر: التابعون غير أولي الإربة: ﴿أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ وهم كبار السن، أو رجل معتوه عنده نقص في عقله، أو مريض، أو معاق، أو نحو ذلك.

يأتون كباراً، خاصة كبار السن الفقراء يأتون عند الأبواب، سابقاً في أيام مضت كانوا يأتون عند الأبواب ويعرفون ويدخلون البيوت يأكلون ويخرجون، فهل للمرأة إذا علمت أن هذا الرجل مما يعرف عندهم وهو ليس له رغبة في النساء، كأن يكون (عنيناً) أو ضعيفاً أو ليس له شهوة وهو كبير في السن.

- **هل يجوز أن يدخل على المرأة ويأخذ ويأكل ويخرج؟**

الجواب: الله استثناهم بشرط، قال: ﴿غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ يعني ليس له حاجة بالنساء، ما عنده إربة، ما عنده حاجة، فإذا علم أنه ضعيف ولا تتحرك شهوته فإن الله أباح إذا عُرف وعرفته المرأة وعرفه أهل الدار، هذا جائز.

الصنف الثاني عشر: الطفل غير المميز: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ والمراد به جنس الطفل، الطفل الذي لا يميز، لا يميز ولا يعرف ولا يفرق. وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا﴾ بالجمع؛ لأن الطفل هنا جنسٌ مراد به الأطفال الذين لم يظهروا على عورات النساء، وهذا شرط، يعني أنه لا يميز، إذا دخلت المرأة عنده لا ينظر إليها نظرات فيها شهوة، وإذا سألته قلت: هل رأيت المرأة؟ ماذا رأيت فيها؟ يقول لك: لا أعرف، فهذا غير مميز، أما إذا كان ينظر نظرة شهوة ويميز، وإذا جئت له وقلت له: صف لي المرأة، يصفها بدقة، فهذا يُمنع من الدخول، يُمنع.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: هؤلاء اثنا عشر صنفاً يجوز للمرأة أن تكشف وجهها وتبدي زينتها أمامهم، وما سواهم لا يجوز، فيدل على تحريم كشف المرأة وجهها أمام الرجال الأجانب، ولا تظهر شيئاً من عورتها.

قال الله بعدها: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ﴾ يعني المرأة لا تضرب بقدميها بقوة؛ لأنها قد تكون عليها ذهب خلاخل، أو سوارات في اليد، أو على صدرها ذهب فيسمعه الأجنبي.

ولذلك يقول بعض السلف: "سماع صوت الذهب أو الخلخال أشد تحريكاً للشهوة من النظر، والطيب أشد"، فإذا مرت المرأة وهي قد تطيبت أمام الرجال.

كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا مِنْ رِيحِهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ» يعني حكمها حكم الزاني، وعاقبتها عاقبة الزاني، فلا يجوز أن تتطيب وتخرج أمام الرجال، ولا يجوز أن تلبس الذهب وتضرب برجليها وبالكعب العالي أمام الرجال، كل ذلك يفتن الرجال، فلذلك الله منع وسد جميع الأبواب، فقال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

ثم قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

- **السؤال هنا: لِمَ قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾؟ لِمَ أمر الله بالتوبة وقال: ﴿جَمِيعًا﴾ الرجال والنساء؟**

وقال: ﴿أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ناداهم بصفة الإيمان، ورتب عليه قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؟ فإذا أنتم تبتم أفلحتم، وإذا لم تتوبوا لم تفلحوا.

- **ماذا نستفيد من هذه الآية؟**

نستفيد أن الرجال والنساء في جانب النظر، والأعين، والفرج، وإبداء الزينة، والنظر إلى النساء، كلٌ قد يقصر في ذلك، ولذلك أمر الله بالتوبة؛ لأن الرجل قد يقع نظره على الحرام وما أكثره في هذا الزمان، إذا خرجت من بيتك لحاجة إلى المسجد، إلى حاجة إلى طريق، إلى سوق، قابلت من النساء ما يقع نظرك عليه من الحرام، فلذلك ينبغي للإنسان عند خروجه ودخوله أن يكثر من الاستغفار والتوبة.

وكذلك المرأة تكثر؛ لأنها قد يظهر منها إما بصوتها، صوتها الناعم أن تخضع بالقول، أو بمشيتها، أو بلبسها، أو بشيء من ذلك، أو يظهر شيء من وجهها أو يديها، مأمورةٌ بالتوبة والاستغفار مما يحصل منها، مما يحصل من هذا الأمر، فهذا معنى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

ثم أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالزواج، فقال: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

هذا يا إخوان حقيقةً هو أقوى سلاح يتسلح به المؤمن من الوقوع في الفواحش، زوجوا الشباب وزوجوا الفتيات، ويتحصن المجتمع كله، أما أن يُترك الشباب دون زواج، ويغالى في المهور، ويعظم النكاح، ويشدد فيه، سهلوه، وإذا سُهل وحصَّن الرجال والنساء.

كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ». فالإنسان يبتعد عن طرق الشهوات بالزواج، خلاص، إذا أصبح عنده زوجة سلم من البحث عن النساء أو النظر إليهن، فأقوى من أقوى العلاجات: الزواج الذي أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ﴾ [النور: ٣٢].

- **مَن هم (الأيامى)؟**

(الأيامى) هم كل رجل أو امرأة لم يسبق له الزواج، كل رجل وامرأة لم يتزوج يسمى **(أيماً)**، لم يكن عنده امرأة، الرجل أو المرأة لا يكون عندها زوج يسمى **(أيماً)**.

وأما الصالحين، فالمراد به: ﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢] يعني الصالحين من العبيد، من المماليك أيضاً يؤمرون بالزواج حتى يتحصن المجتمع كله.

- **قد يدعي بعضهم يقول: فقراء، أنا فقير، أنا ما عندي مال، أنا ما أستطيع، يحتاج إلى تهيئة بيت وإلى مهر كل هذا تكاليف؟**

الجواب: الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢]، والله يغني.

وكما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ: ... النَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ»، فيغنيهم الله من فضله، وعد من الله يجب أن نؤمن بهذا الوعد، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]، واسع العطاء وعليم بمن يستحق؛ لأنه قد يتزوج ولا يغنيه الله؛ لأن الله عالم بحاله.

أما الذي لا يستطيع الزواج وليس عنده شيء، أمره الله بـ(**الاستعفاف**)، فقال: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]، فالفقراء الذين لا يجدون مطلقاً ما يتزوجون به، عليهم أن يحفظوا أنفسهم، وعليهم أن يتعففوا، وأن يبتعدوا عن الحرام بالصوم، وبأن يشغلوا أنفسهم، لا يفتحوا المجال لأنفسهم وينظروا في القنوات وفي الشاشات وعلى الجوالات ويحركوا شهواتهم، بل يبتعدوا عن ذلك كله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣].

لما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر الأولياء أن يزوجوا المماليك، حثَّ المماليك أيضاً على أن يحرروا أنفسهم، و(**المكاتبة**) معناها تحرير المملوك نفسه بأن يشتري نفسه من سيده، هذه (**المكاتبة**) على أقساط.

قال: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ أيها الأولياء وأيها السادة إذا جاءكم المملوك يبتغي (**الكتابة**) وأن يحرر نفسه ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]؛ يعني قدرةً وصلاحاً في دينهم ودنياهم، ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣] أعطوهم من الزكوات، وخففوا عليهم الأقساط، وراعوهم من مال الله.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣].

هذا نهي، المملوكات لأنه وجد في الجاهلية وفي الإسلام من يكون عنده مملوكات فيأمرها بأن تبغي، بأن تؤجر فرجها، تؤجر نفسها، قال: ولا تكرهوا فتياتكم على (البغاء) إن أردنا تحصناً، هي لا تريد ذلك، فكيف تلزمها؟

- **إذا كانت تريد تحصناً فكيف تلزمها؟**

ولا يُفهم من هذا أنها إذا لم ترد التحصن تُكره، نقول: لا تُكره، سواء أرادت أو لم ترد. ﴿لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣] تريد الدنيا وتريد المال.

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]، هذا وعيد شديد، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم لهن -للمملوكات-، وأما الذي يكرههن فإنه متوعد بالعقوبة، ومن يكرههن فعليه أن يتوب فإن الله غفور رحيم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]؛ يعني هذه الآيات التي تسمعها، والمواعظ والتوجيهات واضحة الدلالة، مبينات.

﴿وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النور: ٣٤] قصصاً عظيمة كقصة (يوسف) عَلَيْهِ السَّلَامُ في كيف حفظ نفسه، وقصة (مريم) عليها السلام المتهمة وهي بريئة، خَلَوا من قبلكم.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤] يتعظ بها المتعظون، يعني هذه دروس وعبر ومواعظ للمؤمنين يستفيدون منها ويعتبرون بها.

هذه خاتمة جميلة جداً؛ أن الله أنزل هذه الآيات بينات واضحات، وأمثلة للأمم الماضية تقتدون بهم، وموعظة للمتقين لمن يريد الموعظة من الأتقياء يستفيد من ذلك.

أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يستمع القول فيتبع أحسنه، نقف عند هذا القدر، لنا لقاء إن شاء الله، لقاء آخر نستكمل فيه ما تبقى من هذه السورة، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النور ٣٥ - ٣٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين؛ أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعل هذا الاجتماع اجتماعاً مرحوماً، وأن يغفر لنا ذنوبنا، وأن يجعلنا وإياكم ممن يقال له: قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسناتٍ.

هذا اليوم هو اليوم الأول من شهر ربيع الأول من عام [١٤٤٤ هـ]، ودرسنا المعتاد في تفسير (القرآن العظيم)، وفي سورة (النور). والآية التي بين أيدينا هي آية النور المشهورة المعروفة؛ الآية الخامسة والثلاثون من سورة (النور)، التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

أولاً لنعلم جميعاً أن من أسماء الله الحسنى اسم (النور)؛ فالنور من أسمائه سبحانه، وكل اسم يستنبط منه العلماء صفة؛ فإذا قلت: الله هو النور، فإن من صفاته أنه ذو نور وصاحب نور، ونوره قد عم السماوات والأرض وعم كل شيء.

وكل اسم له صفة، وكل صفة لها أثر؛ فإذا قلت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليم، فصفته أنه ذو علم، صفته العلم، وأثره أنه يعلم ما في السماوات وما في الأرض لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وهكذا جميع الأسماء؛ فالله من أسمائه الغفور، ومن صفاته المغفرة، ومن أثر هذه الصفة أنه يغفر الذنوب ويتجاوز عن الأخطاء.

وهكذا، فمن أسمائه (النور)، ومن صفاته أنه نور السماوات والأرض بنوره؛ قال تعالى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]، فحجابه النور، ونوره نور حسي ونور معنوي، وأثره على عباده الصالحين أثر واضح، وسيأتيكم الآن أثر هذا النور.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]؛ أي الله الذي نور السماوات ونور الأرض بنوره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **والآية تحتمل أن الله نور السماوات بالنور الحسي ونور الأرض بالنور الحسي والنور المعنوي؛ فإن قلت: ما نور السماوات والأرض؟**

قلنا: السماوات فيها نور، والله نورها بنوره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

☜**كما جاء في الحديث:** «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»؛ فهو نور، استنار به العرش، واستنار به الكرسي، واستنارت به الجنة، واستنارت به السماوات السبع، وأما في الأرض، فنوره من نور الشمس ومن نور القمر؛ فهو المنور للأرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فنوره نور حسي.

وكذلك النور المعنوي؛ الذي يعني الطاعات والاستقامة والإيمان، ولذلك إذا قرأت الآية قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور: ٣٥]، وقال في آخر الآيات: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]. إذاً الهداية نور من الله، والله يهدي لنوره؛ أي لطاعته واستقامته وهدايته من يشاء من عباده.

فقوله تعالى هنا: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ [النور: ٣٥]؛ أي مثل النور الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان، نور القرآن، نور الطاعة، نور الاستقامة؛ هذا نور في قلوب المؤمنين يقذفه الله.

☜**ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:** «الصَّلَاةُ نُورٌ»؛ أي تنور القلوب، تنور القلوب، فنوره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نور معنوي، والله عَزَّ وَجَلَّ يصور لك ويضرب لك المثل ويقرب لك الصورة بشيء محسوس معروف عند الناس، ولذلك قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

مثل نور الله في قلب المؤمن الذي يقذفه في قلب المؤمن بسبب الطاعة والاستقامة وبسبب القرآن، مثل نوره في قلب المؤمن كمشكاة، ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].

- **ما هي المشكاة؟**

المشكاة الكوّة التي تكون في الجدار، يمكن بعضكم شاهد في المساجد القديمة مثل الرفوف التي تكون في الجدار توضع فيها المصاحف، يعني هي فتحة غير نافذة، هي مكان مثل الرف داخل الجدار لكنه غير نافذ على الخارج.

هذا الرف (المشكاة) كانوا يضعون فيه المصابيح السرج الصغيرة، كانوا يضعون فيها سرجاً ومصابيح؛ لأنها كانت تُطلى بالجص أو بالجبس أو نحو ذلك باللون الأبيض، فإذا طليت باللون الأبيض ووضع فيها السراج عكس هذا النور الأبيض نور السراج فأضاء، فأعطى إضاءة قوية.

الله يشبه نور الإيمان في قلب المؤمن مثل هذه المشكاة؛ قلب المؤمن مثل المشكاة، مثل هذه الكوّة فيها مصباح، قلب نظيف فيه نور، هذه الكوّة فيها مصباح، هذا المصباح وهو السراج الصغير يوضع في هذه الكوّة: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ [النور: ٣٥]، والكوّة تجمع النور وتعكسه، والمصباح في زجاجة، وهذه الزجاجة صافية، فإذا كانت الزجاجة صافية والنور داخل هذه الزجاجة -المصباح- النور الساطع ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور: ٣٥]؛ أي مثل الكوكب الذي في السماء المضيء إضاءة قوية، يعني دريّ يعني مضيء إضاءة الدر مثل إضاءة الدر وهو اللؤلؤ.

قال: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

- **من أين يأتيه الوقود؟**

الوقود قال: يوقد المصباح من شجرة مباركة، هذه الشجرة المباركة هي شجرة الزيتون؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ﴾ [النور: ٣٥].

ومعنى مباركة: كثيرة الخيرات. شجرة الزيتون شجرة مباركة، إذا أُخذ الزيت من زيت الزيتون ووضع في هذا السراج، وهذا السراج وضع في هذه الكوّة، والكوّة مطلية بالأبيض وعكس هذا النور، هذا النور أصبح نوراً على نور.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥].

هذه الشجرة موضعها ومكانها من أشرف الأماكن؛ يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] لأنها لو كانت شرقية يعني أتتها الشمس في أول النهار وأثرت عليها بقوة الشمس، لأن الشمس إذا كانت الجهة شرقية منذ طلوع الشمس إلى أن ترتفع إلى نصف النهار والشمس عليها.

فهي ليست شرقية تأتيها الشمس تطول فيها، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] تأتيها الشمس في آخر النهار في النصف الثاني من النهار وتستمر حتى تغرب الشمس، فيقول: هذه مكانها ليس بشرق الأرض ولا في غرب الأرض، وإنما في وسط الأرض وهي بلاد الشام، وهي بلاد الشام.

فقال: ليست شرقية ولا غربية فقط فلا تصيبها الشمس أول النهار، وإذا انتفى عنها الأمران لا يؤثر عليها أول النهار ولا آخر النهار، أصبحت في الوسط كزيتون الشام، تصيبه الشمس في أول النهار قليلاً وفي آخر النهار قليلاً فيحسن ويطيب ويكون زيته أصفى الزيوت.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ [النور: ٣٥]؛ أي هذه الشجرة شجرة الزيتون ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]، يكاد زيتها من صفائه يضيء قبل أن تمسه النار، يضيء من شدة لمعانه وصفائه يضيء ولو لم تمسسه نار، فإذا مسته النار أضاء إضاءة قوية.

- **قال اللّه عَزَّ وَجَلَّ لما ضرب لنا هذا المثل؛ قد يسألك سائل يقول لك: ما الرابط بين هذا المثل وقلب المؤمن؟**

الجواب: قلب المؤمن هو المشكاة، فهو على فطرته وسلامته من أي شيء يكدره، على عقيدته الصافية وعلى فطرته الصافية وعلى ما ولد عليه يعرف ربه، فالكوّة نظيفة ومكانها نظيف، فإذا جئت بالسراج وأشعلت فيه هذا المصباح وأشعلت فيه هذا النور، أضاء هذا القلب بالطاعة؛ مثل ما أن القلب إذا كان على فطرته ثم عُلّم وأتاه العلم النافع والقرآن والسنة والهداية والطاعة، أنار هذا القلب.

فإذا زاد عليه العلم والقرآن والطاعة، اشتد إضاءة، فمثل هذا الذي يأتيه الزيت الصافي، فمثل الزيت الصافي مثل الوحي الصافي، فيزيده إيماناً وطاعةً ونوراً.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال في آخرها: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ نور الفطرة، نور الطاعة، نور القرآن، نور الإيمان، يزيده نورا، يزيده نورا، يزيده نورا حتى يضيء، مثل هذا السراج وهذا المصباح، كل ما تعطيه من الوقود، تعطيه من الزيت يضيء إضاءة شديدة، وهكذا نور النار ونور الزيت يزيد فيه يعني حتى يشتد نوره، وكذلك المؤمن.

فيضرب الله هذا المثل، يضربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حال المؤمن، ونور الله في قلب المؤمن هي الفطرة، كما ذكرنا، وإذا جاءه الزيت الصافي ففطرته صافية مستعدة للتعاليم الشرعية، فيبأ يقبل حتى يزداد إيماناً، يزداد طاعة في الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]؛ كان هذا النور، نور الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قلب المؤمن يقذفه ويزيده طهارة ويزيده زكاءً ونمواً فيزداد نوراً على نور.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]؛ أي يهدي من يشاء من العباد ممن يستحق الهداية، وممن يعرف الهداية، وممن ينتفع بالهداية، أما الذين لا ينتفعون بالهداية ولا يستحقون الهداية فلا ينتفعون بذلك، لا يستفيدون من ذلك.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

يضرب الله الأمثال للناس ليعقلوا ويفهموا؛ ضرب الأمثال في القرآن كثير، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في آية أخرى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. فالعالمون هم الذين يستفيدون، اللي عنده علم يستفيد من هذه.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]. ليعقلوا هذه ويستفيدوا، والله علمه محيط بجميع الأشياء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هذا واضح والآية واضحة.

لما كان نور الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا النور هو نور الإيمان ونور الطاعة ونور القرآن، أين نجده؟ أين نجد نور الطاعة والإيمان والقرآن والعلم والتعلم، أين يكون؟ اسمع الآية التي بعدها واقرأها؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦].

يعني المساجد؛ المساجد هي أحب البقاع إلى الله، المساجد هي بيوت الله، والمساجد أماكن فاضلة، أماكن طاهرة، أماكن الطاعات، أماكن ذكر الله، وقراءة القرآن، والصلاة، والعبادة، والدعاء، وحلقات القرآن، وحلقات العلم والتعلم. ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ [النور: ٣٦]؛ إذاً النور نأخذه من هذه الأماكن، في بيوت الله.

﴿أَذِنَ اللَّهُ﴾ [النور: ٣٦]؛ أذن الله يعني أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ووصى بأن ترفع، الله أمرنا ووصانا بأن نرفع البيوت هذه ونعمرها، نعمرها بالبناء الحسي ونعمرها بالطاعة.

لا تعمر في البناء فقط، تقوم هذه المساجد وبيوت الله على هذه الأعمدة والجدران والأبواب والأسقف ثم لا يكون فيها أحد؛ لا، نعمرها بالعمارة الحسية وننشر المساجد في كل مكان، ونعمرها بالعمارة المعنوية بالطاعة، وإقامة الحلقات والدروس، وقراءة القرآن والذكر والصلاة والعبادة.

ولذلك قال: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]؛ ترفع بالبناء ويذكر فيها اسم الله.

يعني مجموع هذه أحكام المساجد؛ أن ترفع ببنائها، وتنظيفها، والمحافظة عليها، وكنسها، وصيانتها مما لا يليق بها، ومنع الفسقة، والمجانين، والصبيان [غير المميزين]، والكفار من دخولها حتى لا تتأذى منهم وحتى تصان منهم.

وكذلك يعني تصان من أحاديث الدنيا؛ لا يتكلم الإنسان بأمور الدنيا ولا بيع ولا شراء. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سمع رجلاً يبيع قال: «**لَا أَرْبَحَ اللهُ تِجَارَتَكَ**»؛ ليست في بيوت الله، البيوت لم تُعمر لهذا.

ومنع رفع الأصوات؛ حتى يمنع رفع الصوت. عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه سمع رجلاً يرفع صوته في المسجد فقال: «**من أنت؟**» قال: «**أنا من أهل الطائف**» -أو كما قال-، فقال: «**لو كنت من أهل البلد لأوجعتك ضربًا، ترفع صوتك في مسجد رسول الله!**». فيمنع يمنع من رفع الصوت ومن الحديث.

ولذلك حتى من الأخطاء التي تجدها في بعض المساجد أن بعضهم يرفع صوته في الصلاة فيؤذي من بجانبه، تجد بعضهم في قراءة الفاتحة، والسجود، والركوع، والتحيات يرفع صوته فيؤذي من بجانبه، تجد اللي بجانبه يعيد الدعاء ويعيد الصلاة ويعيد القراءة وما يدري ماذا يقول لأن هذا يشغله ويشوش عليه قراءته.

فتجد بعضهم بهذه الطريقة، أو بعضهم تجده يقرأ القرآن ويأتي بالمصحف أمامه ويبدأ يرفع صوته فيتأذى من بجانبه لا يستطيع يصلي لا يستطيع يقرأ القرآن، فهذا من الخطأ، من الأخطاء التي تقع في المساجد.

☜**ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خرج إلى أصحابه وإذا بعضهم يرفع صوته على بعض، قال:** «**لَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقِرَاءَةِ**»؛ فيقرأ بهدوء، يقرأ بصوت يسمع نفسه، ولا حاجة أنك ترفع الصوت يتأذى من بجانبك. فكل هذا من المخالفات التي تقع في المساجد.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]؛ ترفع بالبناء والمحافظة عليها وصيانتها، وصيانة التكييف، وصيانة الأنوار، وصيانة الأبواب ودورة المياه حافظ عليها.

ويذكر فيها اسمه بالصلاة؛ بالصلاة الفرض والنوافل، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، والذكر، والدعاء، والعلم، والتعلم، تعلم القرآن، تعلم العلم، والمذاكرة، والاعتكاف؛ كل هذه مشروعة في المساجد تفعل في المساجد، فهذا من عمارة المسجد، إذاً عمارتها عمارة حسية وعمارة معنوية.

ولذلك شرعت الصلوات الخمس، وشرعت صلاة الجمعة، وشرعت الصلاة على الجنائز، وسائر الصلوات؛ صلاة الاستسقاء، وصلاة العيدين، وصلاة الكسوف والخسوف كلها في المساجد، والصلاة للرجال في المساجد.

قال ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ هنا: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۝٣٧﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

من الذين يسبحون بالغدو والآصال؟ الغدو هي أول النهار، الغدو جمع غدوة، والآصال جمع أصيل، الأصيل هو آخر النهار العشي بعد العصر، والغدو أول النهار، يسبح له قال: ﴿رِجَالٌ﴾ [النور: ٣٧]. دل على أن الرجال يكونون في المساجد، رجال يسبحون.

وخص الله هذين الوقتين؛ الغدو والآصال لشرفهما، لشرف هذين الوقتين؛ لأنه وقت الأذكار والأوراد المسائية والصباحية، يسبحون ويذكرون الله ويقرؤون القرآن ويتعبدون الله ويدعون، هذه الأوقات أوقات حرية.

قال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]؛ شوف ما قال لا يتجرون أو لا يبيعون، وإنما قال: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ﴾ [النور: ٣٧]، ففرق بين لا تلهيهم أو لا يتجرون؛ فهم يتجرون ويبيعون ويشترون ويتكسبون، ولكن إذا جاء وقت الصلاة لا، هذه التجارة يتركونها ويذهبون.

فدل على أنهم يتبايعون ويشترون ويتكسبون ويتجرون، لكن إذا جاء وقت الصلاة اتجهوا إلى المساجد، فلا تشغلهم، لا يشغلهم البيع ولا تشغلهم التجارة عن ذكر الله وعن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

هذه العبادات الجليلة العظيمة من إقام الصلاة ومن إيتاء الزكاة؛ أصحاب الأموال وأصحاب التجارات لا تشغلهم عن أن يؤدوا الصلاة في أوقاتها ويحافظوا عليها جماعة، وأن يؤدوا زكاة أموالهم.

ولماذا؟ قال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]؛ هذا اليوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، يوم عظيم، يوم مهول من شدة هوله وإزعاجه، القلوب تتقلب والأبصار تتقلب وتتأثر الأبدان بذلك.

ولذلك خافوا هذا اليوم، فمن خاف هذا اليوم آمنه الله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. فمن خاف هذا اليوم واستعد له -لأن الله قال: يخافون يوماً يعني مستعدين لهذا اليوم- فمن استعد لهذا اليوم وخاف الله وأدى حق الله، فإنه في هذا اليوم من المطمئنة قلوبهم.

قال يخافون هذا اليوم ويؤدون ما فرض الله عليهم: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨].

يقول: يجزيهم الله؛ لأنهم قدموا أحسن الأعمال فيجازيهم على أحسن أعمالهم بأحسن الأجور، بل ويزيدهم من فضله، ويزيدهم من فضله يزيدهم على طاعتهم طاعة، والله يرزق من يشاء.

ذلك فضل الله، يرزق من يشاء بغير حساب، يعطيهم من الأجور التي لا يحسبون لها أي حساب، من الأجور العظيمة التي لا يشعرون بها ولا تبلغها أمانيهم، بل يعطيهم الله أزيد من ذلك من الأجور بلا عد ولا كيل، يزيدهم، والله يرزق من يشاء بغير حساب؛ لأن الله فضله واسع وعطاؤه كثير.

(النور ٣٩ - ٤٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في لقائنا المبارك؛ لقاء القرآن الكريم وتفسير القرآن.

هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثامن من شهر ربيع الأول من عام [١٤٤٤ هـ]. نجتمع في هذا المقام المبارك ومعنا القرآن الكريم وسورة (النور).

سورة (النور) -مثلما تحدثنا عنها- في الحقيقة هي سورة تمس الواقع، ويحتاج الناس إليها؛ فيها توجيهات ربانية، وفيها رعاية وحفظ وحراسة الفضيلة، وفيها الأخلاق الطيبة، وفيها حفظ المجتمع من الانزلاق في الفواحش والرذائل، توجيهات رب العالمين، فيها النور، فيها حقيقة النور والهداية، ولذلك سورة (النور) وآية النور آية عظيمة.

مر معنا في لقائنا الماضي الحديث عن آية النور: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، ووجدنا أثر النور في قلوب المؤمنين الطائعين، وفي بيوت الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- التي تقام فيها الصلوات الخمس، وتقام فيها الدروس والمحاضرات والحلقات القرآنية، وفيها الهيبة، وفيها العلم والتعلم والآداب والأخلاق في هذه المساجد.

لما ذكر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هذا النور وهذه الهداية، قابلها بمن فقدوا الهداية وفقدوا هذا النور؛ هم أهل الضلال، أهل الكفر والطغيان، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حالهم وشبههم بمثلين عظيمين.

المثل الأول: مثل الرجل الذي أصابه الظمأ الشديد وهو في الصحراء، وهو أشد الناس احتياجاً للماء، فعُرِض عليه السراب أمامه، فجاء مسرعاً ليصل إلى هذا الماء ليشربه من شدة العطش.

فيضرب الله المثل بحال هؤلاء الذين يعملون الأعمال ويظنون أنها تنفعهم يوم القيامة، بحال هذا الذي اشتد عطشه فرأى السراب فجاء مسرعاً إليه فلم يجد شيئاً؛ لا ماءً، وإنما جاء أرضاً قيعاناً أو قيعةً ليس

فيها زرع ولا فيها ماء ولا شيء. فهذه حال الذين يظنون أن أعمالهم تنفعهم يوم القيامة؛ هذا المثل الذي ذكره الله.

ثم ذكر المثل الثاني في المتخبطين في الظلمات، نسمع كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونبينه؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[النور: ٣٩].

الذين كفروا؛ هذه صفتهم، الكفار المعاندون الجاحدون لوحدانية الله، المعرضون عن شرع الله وعن دينه وعن رسوله، الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة.

- **أعمالهم ما هي؟ هل لهم أعمال؟**

الجواب: نعم، لهم أعمال، أعمالهم التي يعملونها من التبرعات، ومن الإحسان إلى الخلق، ومن الكرم، ومن كل ما يقدمونه من العطف على الفقراء والمساكين، وما يسمونه بـ(**الإنسانية**).

هذه الأعمال للكفار، وأحياناً حتى أصحاب البدع؛ المخالفين لمنهج الله عَزَّ وَجَلَّ ويظنون أنهم يعملون صالحاً؛ يطوفون على القبور، ويعملون الأعمال، ويستغيثون بالمخلوقين (**يا فلان، ويا فلان**)، ويدعون من دون الله مخلوقين، هؤلاء يظنون أن أعمالهم تنفعهم، تجدهم يتعبدون ويعملون هذه الأعمال ويظنون أن أعمالهم هذه تنفعهم يوم القيامة.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: هؤلاء الذين كفروا وفقدوا النور، نور الطاعة والإيمان، أعمالهم مثل السراب الذي يكون في القيعة، والـ(**قيعة**) تجمع على قيعان، وهي الأرض المستوية التي لا نبات فيها ولا ماء، فيظنها الرائي من بعيد أن فيها ماءً، فإذا جاء لم يجد شيئاً، يجد السراب.

والسراب هذا تلاحظه في الطريق في السفر حتى في الأرض المعبدة؛ ترى بعينك أن هناك ماءً، فإذا جئت ووصلته ما وجدت فيه ماءً، فهذا السراب يسمى السراب بالأراضي القيعة؛ التي ليس فيها ماء وليس فيها نبات، وإنما هي مستوية جرداء.

فهذه يظنها الظمآن؛ الظمآن الذي اشتد عطشه وهو أحوج الناس إلى الماء، يأتي مسرعاً وهو يظن أنه ماء، فإذا جاء إليه لم يجده شيئاً؛ وجد هذه الأرض أرضاً يابسةً ليس فيها ماء، فكذلك الذين يعملون

الأعمال يظنون أنها تنفعهم يوم القيامة؛ إذا جاء يوم القيامة ما وجد أي عمل ينفعه، ما وجد أي شيء من الأعمال.

﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ [النور: ٣٩]؛ يعني يوم القيامة الله الذي سيحاسبه، فسيجد أمامه رب العالمين الذي يأتي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إتياناً ومجيئاً يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للفصل والقضاء بين الناس، فيحاسب الناس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فوجد الله عنده فوفاه حسابه؛ قال: هذا عملك وهذا حسابك، ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]؛ أي لا يشغله شيء عن شيء، ولا يعجزه شيء عن شيء، بل إنه سريع الحساب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا المثل الأول؛ مثل الله أعمال هؤلاء بالسراب الذي يراه الظمآن الذي اشتد عطشه، يرى أن الماء أمامه، فإذا جاء لم يجد شيئاً، فكذلك الكفار، وكذلك المعاندون، وكذلك أهل البدع؛ يظنون أن أعمالهم تنفعهم، فإذا جاء يوم القيامة وجدها كالسراب ليس هناك أي عمل يبقى له، تذهب ليس لها أثر، هذه حال هذا المثال الأول.

المثال الثاني: فأعمال هؤلاء الكفار وحالهم كظلمات في بحر لجي. و(لجي) يعني: عميق، قد اشتدت لجته؛ يعني كثر ماؤه وأصبح بعيد القعر. ظلمات في بحر بعيد القعر يغشاه موج؛ الأمواج تغشاه، أمواج فوق أمواج فوق أمواج، والسحاب من فوقه -فوق هذا البحر- والليل من فوق السحاب، فأصبح ظلمات بعضها فوق بعض، اشتدت الظلمات عليه بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده -وهي أقرب شيء إليه- لم يكد يراها؛ يراها ولكن لا يستطيع رؤيتها رؤيةً واضحةً جداً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

هؤلاء في ظلمات شديدة، فأعمالهم إذا جاء يوم القيامة رأوا أمامهم هذه الظلمات؛ لأن أعمال المتقين الصالحين تكون نوراً لهم يمشون بنورهم، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وهؤلاء في ظلمات؛ لأن أعمالهم في الدنيا كانت في ظلمات لم تكن على بصيرة، ولم تكن على هداية، ولم تكن على علم، فلذلك لا ينتفعون بها أبداً، ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها.

ولذلك هؤلاء أصحاب الأعمال الفاسدة ما يستفيدون منها. هذان المثلان اللذان ضربهما الله؛ ضرب الله المثل الأول وضرب لنا المثل الثاني في حال من يعملون على غير نور الله.

فقال بعضهم: هؤلاء الكفار إما يكونون على نوعين؛ إما حالهم كذا [المثل الأول] وإما حالهم كذا [المثل الثاني].

وبعضهم قال: "المثال الأول -وهو السراب الذي يكون في القيعة- هذا لأئمة الكفر المتبوعين الذين يضلون الناس، وأصحاب الظلمات والبحر اللجي هم التابعون الضعفاء الذين يتبعون الأقوياء". وكلهم على هذه الحال؛ فمن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

فقارن وميز -أنت وأنت تسمع هذه الآيات- بين من قذف الله في قلبه النور وجعل في قلبه النور والهداية، وعرف الطريق إلى الله، وعرف أن أماكن النور في المساجد؛ فصلى، وصام، وقرأ، وتلا القرآن وتدبره وعمل به، وعرف الطريق إلى الله، وشكر الله على هذه النعمة، وبين من فقدها في هذه الظلمات؛ يعمل على جهل وعلى ضلال، فإذا جاء يوم القيامة لم ينتفع. وهذا نور الله وهذه هداية الله.

بعدها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[النور: ٤١].

لما ذكر هذه الهدايات بين أن حتى هداية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عمت كل شيء، حتى الجمادات، والطيور، والبهائم؛ كلها استضاءت بنور الله واستفادت من نور الله على فطرتها.

فهؤلاء على الفطرة يسبحون لله ويوقنون ويقرون بعبودية الله، ويعرفون ربهم ويذكرون الله؛ حتى الجبال تسبح لله، وحتى السماوات تسبح لله، والأراضون تسبح لله، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ٤٤]، والأشجار تسجد لله وتسبح، فهذه فطرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلا الكافر.

وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية أخرى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ﴾ [الحج: ١٨]؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطينا في هذا العبرة والتفكر في مخلوقات الله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [النور: ٤١]؛ يعني ألم تبصر وتعلم أن الله يسبح له من في السماوات كلها من ملائكة، ودواب، ومخلوقات كلها تسبح لله وتعترف به وتقر وتذكره، السماوات كلها والأرض.

ثم خص الطير لما فيه من العبرة ولما فيه من الآية العظيمة، فقال: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ [النور: ٤١]؛ الطيور تصف أجنحتها في السماء تسبح لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١]؛ كل من هذه المخلوقات تعرف تسبيحها وتعرف كيف تسبح وتعرف كيف تصلي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو قد يكون المعنى: كل قد علم الله صلاته وتسبيحه؛ أي أن الله يعلم صلاتها وتسبيحها.

لماذا؟ لأن الله: ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١]. فالتسبيح والذكر والتهليل والتكبير وكل هذه الأشياء تفعلها هذه المخلوقات، وهذا ليس بغريب؛ لأن الله خلقهم وعلم أحوالهم وسخرهم لما خُلِقوا له، وهم تحت ملكه وتدبيره، ويعرفون ربهم ويقرون به.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢].

فلله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ملك السماوات والأرض، هذه المخلوقات كلها تحت قهره وتحت ملكه وتدبيره، وله ملك السماوات والأرض، وهذه مخلوقات خلقها الله وسيبعثها، ويجزي كل عامل بعمله، والإنسان وعده الله بالجنة إن أطاع وتوعده بالنار إن عصاه، وهذه مخلوقات -وإن كانت تحشر يوم القيامة من الطيور والحيوانات؛ ليحكم الله ويقضي بينها ويفصل بينها- ثم بعد ذلك تموت وتكون تراباً.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢]؛ المرجع يوم القيامة لله عَزَّ وَجَلَّ. هذه حال يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا من أحوال مخلوقاته؛ وهذه الطيور والمخلوقات كلها والسماوات ومن فيها والأرض ومن فيها تسبح لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتعظمه وتقر بتوحيده، وكلها آيات من آيات الله.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرينا أيضاً آيات مشاهدةً أمامنا من مخلوقاته؛ وهي آية المطر والسحاب، لما ذكر الطيور في السماء، وذكر أن السماوات السبع تسبح لله، ذكر هذا التسخير؛ تسخير السحاب المسخر بين السماء والأرض.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ وتشاهد بعينيك أن الله ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾؛ أي يدفعه برفق، يدفعه بين السماء والأرض ويسوقه برفق، ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾؛ أي يجمع قطع السحاب بعضها إلى بعض حتى تكون سحاباً متراكماً، ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾؛ متراكماً تجتمع هذه السحب بعضها فوق بعض، ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾؛ أي المطر يخرج من خلاله، لما تتراكم وتتلاقح يبدأ المطر ينزل منها يخرج من خلاله، قطرات المطر تنزل بقوة من خلال هذه السحب.

وينزل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من السماء، من جبال فيها من برد، أمطار شديدة تمتلئ بها الأودية؛ سالت أودية بقدرها، والشعاب بدأت تمشي، وامتلأت الأرض برحمة الله، وينزل من السماء برد وهو قطع الثلج الصغيرة، فيصيب به من يشاء؛ فهذه قطع البرد قد تتلف المزارع والبيوت والدور بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقديره وحكمته.

قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ﴾؛ هذا البرد يصيب به من يشاء، يصيب به المزارع والبيوت فتتأثر به، ويصرفه عمن يشاء بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾؛ برق السحاب هذا، و(سنا) يعني: لمعته، لمعة البرق تذهب بالأبصار؛ يكاد يأخذ البصر من شدته، لكنه لا يأخذه، ولكن يكاد يأخذه من شدة اللمعان.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

هذا السحاب، وهذه الطيور التي تسبح، والملك لله، والليل والنهار يقلبه طولاً وقصراً؛ يطول الليل ويقصر النهار، ويقصر الليل ويطول النهار، وهذا يلحق هذا، وهذا يتبع هذا، يطلبه حثيثاً يسرع في ملاحقته، يقلب الله الليل والنهار.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾؛ اعتباراً وتفكراً، ﴿لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ أهل البصيرة وأهل العقول المنتفعة هم المستفيدون، وأما غيرهم فلا يستفيدون، ويريك الله آياته.

وخذ من آياته ؛ قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥].

هذه الحيوانات والطيور خلقها الله من ماء، حتى الإنسان يخلق الله سلالته وذريته من الماء؛ من الماء المهين، والله خلق كل دابة من ماء، حتى الحشرات تجدها تتكاثر في الأماكن الرطبة وفي المستنقعات؛ يخلق الله من الماء أشياء عظيمة من دواب وحشرات وخشاش الأرض، كله يخرج من الماء، والدواب من بهيمة الأنعام وغيرها تتكاثر عن طريق الماء وعن طريق التلقيح.

قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾؛ كالزواحف والثعابين ونحوها، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾؛ كالإنسان والطير، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾؛ كبهيمة الأنعام ونحوها.

هذه الأشياء كلها، ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]. خلقها مختلفة الأنواع لتدل على أي شيء؟ لتدل على عظمة الله وعلى قدرته، والله على كل شيء قدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

خلق هذا الخلق ليتفكر الإنسان، يتفكر ويتأمل في هذا الكون وفي هذه المخلوقات، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

هذه الآيات التي ترونها والقرآن الذي ينزل والآيات التي يظهرها الله في الكون آيات مبينات، والله يهدي من يشاء إلى التفكر والتأمل والاعتراف بربوبيته وألوهيته، ويعبد ربه ويتجه إلى الصراط المستقيم.

هذا كله هداية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي يهدي من يشاء من عباده ليعلموا قدرة الله وليعلموا عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وملكه ورحمته في الخلق.

فعلينا أن نتفكر في هذه المخلوقات، نتأمل في هذه المخلوقات ننتفع بها، لا أن تمر أمامنا وننظر إليها كأنها أشياء خُلِقت عبثاً، وإنما خُلِقت لحكمة، والذي خلقها هو الحكيم الخبير.

أسأل الله أن ينفع بهذه الآيات، وأن يجعلها حجةً لنا لا علينا، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته. إلى لقاء قادم -بإذن الله- نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النور ٤٧ - ٥٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول من عام [١٤٤٤ هـ]، من هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

السورة التي نتحدث عنها وتناولناها في لقاءات ماضية؛ سورة (النور)، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر لنا ما جرى من المنافقين، وضرب المنافقين بيت النبوة وعرض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإتيانهم بهذا الإفك العظيم، واتهام الصديقة البريئة الطاهرة المطهرة، وعرفنا ما جرى وما حصل، وما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأخذ الحيطة واستعمال الأسباب الواقية من الوقوع في الفاحشة.

بعد ذلك جاءتنا آية النور التي هي نور وهداية للخلق أجمعين، فيهتدي بهذا النور من يريد الله أن يهديه ويشرح صدره للإسلام، يهتدي بهذا النور. فذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا النور الذي قال فيه: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾[النور: ٣٥].

ثم ذكر في المقابل الكفار الذين في ظلمات: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ هذه حال الكفار، حال أهل الضلال والكفر والطغيان.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا آيات الله الدالة على وحدانيته وهدايته في الكون، حتى إن بعض الحيوانات هداها الله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١]، فخلقها الله وهداها لما خُلقت له، وهي تسبح وتذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلقه في الكون وهذه المعجزات العظيمة الدالة على قدرته وعلى وحدانيته: ﴿يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ [النور: ٤٣]، ويخلق كل دابة من ماء، فمنها -من هذه

الدواب- من يمشي على بطنه كالزواحف، ومنها من يمشي على رجلين، ومنها من يمشي على أربع؛ كل هذه آيات الله في الكون ينبغي للإنسان أن يتفكر ويتأمل فيها تأملاً عظيماً، وينظر فيها نظر تدبر ونظر تأمل.

لما ذكر الله حال المؤمنين الذين اقتبسوا من نور الله واهتدوا بهداه، وحال الكفار الذين يتخبطون في الظلمات، يذكر الآن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا في الآية السابعة والأربعين من السورة، يذكر لنا حال المنافقين وشيئاً، يذكر لنا شيئاً من مواقفهم السيئة؛ أولاً من هذه المواقف: دعواهم الكاذبة أنهم يقولون آمنا وأطعنا وهم يكذبون.

فبيَّن الله لنا الآن حتى نعرف هذه الدعاوى وهذه الأكاذيب التي تصدر من المنافقين، اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بكلام واضح سهل العبارة، وواضح كلٌ يفهمه، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧].

ويقولون -أي المنافقون، المنافقون يقولون-: آمنا بالله؛ يعني صدقنا بالله وآمنا به، وبالرسول أيضاً آمنا بالرسول وبما جاء به الرسول، وأطعنا أيضاً؛ يعني زيادة على التصديق الطاعة، أي أطعنا أمر الله وأطعنا أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم يتولى فريق منهم؛ يعني يعرض، طوائف منهم تعرض لا تقبل الحق. ولاحظ -يعني من حسن العبارة وسلامتها- ما قال: **(ثم يتولون)**؛ لأنه قد يوجد منهم من يظهر الإيمان والطاعة ولا يتولى أمام الناس، ولذلك الله قال: ﴿يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾، لم يقل كلهم يتولى فريق منهم، طائفة منهم يتولون منهم من بعد ذلك فلا يقبلون حكم الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾؛ ليس إيمانهم إيماناً حقيقياً، وإنما هي دعاوى باطلة، دعاوى باطلة ومجرد إيمان فقط باللسان؛ يقولون آمنا بالله وبالرسول وصدقنا وأطعنا الله وأطعنا الرسول، وإذا هم يتولون ولا يقبلون حكم الله ولا يرضون به، هذه صفاتهم.

يأتيك بعدها أيضاً، خذ من صفاتهم وأحوالهم، يقول: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٨].

شوف احترازات القرآن! ما قال كلهم، قال: ﴿إِذَا فَرِيقٌ﴾؛ لأنه لا يمكن الحكم عليهم جميعاً، قد يوجد منهم ولو واحد، ولذلك القرآن لا يعمم.

قال: إذا دعوا في الخصومات والتحاكم إلى الله وإلى رسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون؛ لا يقبلون حكم الله ولا رسوله، مع أنهم يعلمون أن الحق هو حكم الله وحكم الرسول.

ومع ذلك يعرضون؛ يعني شوف إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم لا يقبلون، بل يعرضون ويذهبون إلى حكم الطواغيت، هذه دعوة ثانية؛ الدعوة الأولى يقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا -هذا كذب ثم يتولون-، وهنا يقول إذا دعوا إلى حكم الله أعرضوا ولم يقبلوا حكم الله.

- **لكن إذا كان الحق لهم، إذا كان الحق لهم ماذا يصنعون؟**

﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٩].

يعني إذا كان الحق لهم -يعني يعرفون أن الله سيحكم والرسول سيحكم لهم- ماذا يصنعون؟ ما يعرضون، يأتون مسرعين منقادين طائعين لحكمه؛ لأنهم يعرفون أنه سيقضي لهم بالحق وسيأخذون حقهم في هذا، فإذا كان لهم الأمر جاؤوا مسرعين، وإذا كان الأمر ضدهم أعرضوا ولم يقبلوا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حالهم على وجه الاستفهام: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠].

- **هل هؤلاء قلوبهم مريضة؟**

مرض نفاق، مرض اعتقاد، نفاق في الاعتقاد قلوبهم مريضة، أم ارتابوا؛ يعني شكوا في رسالة الرسول وفي حكم الله؟ ما السبب؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله؛ يعني يخافون أن يحكم الله عليهم حكماً جائراً، حكماً جائراً ليس بالعدل فينزل بهم العقوبة؟ لماذا يفعلون هكذا؟ هل قلوبهم مريضة؟ أم عندهم شك في رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أم يخافون أن ينزل الله بهم العقوبة فيحكم لهم بحكم ظالم وحكم جائر؟ لماذا؟

ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ: لا هذا ولا هذا ولا هذا، ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ فهؤلاء في الحقيقة -الحقيقة إذا أردت حقيقة هؤلاء المنافقين- فإنهم ظلمة، فإنهم فجرة، فإنهم مستكبرون معاندون، لا يريدون الحق ولا يريدون الوصول إليه.

هذه حال أهل النفاق، نسأل الله أن يعيذنا من صفاتهم، وألا نتأثر بهم. هذه صفاتهم ذكرها الله في ثلاث آيات؛ أنهم يدعون الإيمان والطاعة، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما قال الله وقال الرسول أعرضوا، وإذا

طُلِب منهم التحاكم إلى الله وإلى الرسول أعرضوا، إلا إذا كان الحق معهم فإنهم يأتون مذعنين. فهؤلاء قلوبهم مريضة، شاكون في شك، هم يعني يخافون أن يحكم الله عليهم حكماً لا يريدونه، بل هم ظالمون.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في المقابل المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[النور: ٥١].

هذا هو الإيمان الصادق، هؤلاء هم المؤمنون الصادقون؛ إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا: سمعنا وأطعنا؛ سمعنا قولك وأطعنا أمرك.

- **ما النتيجة؟**

قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ هم المفلحون الذين أفلحوا وفازوا ونجوا، وسلموا من كل شيء يخافونه، وفازوا بكل مطلوب يريدونه، فلهم جنات النعيم، أولئك هم المفلحون لا غير، هم المفلحون الذين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليقضي بينهم ويحكم بينهم أنهم لا يترددون، بل يقولون: سمعنا قولك وأطعنا أمرك.

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[النور: ٥٢].

جاء الله بحكم عام، بحكم عام؛ قال الحكم الأول: حكم التحاكم إلى الله الأول؛ أن المؤمنين إذا تحاكموا إلى الله يقولون سمعنا وأطعنا، أما موقفهم من الله ورسوله؛ أنهم يطيعون الله ويطيعون الرسول، ويخشون الله ويخافون عواقب العصيان، ويتقون الله، يبتعدون عما حرَّم الله، يتقون الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ لا غير؛ هم الذين فازوا، وهم المفلحون، وهم الفائزون في الدارين.

تعود الآيات بعد ذلك إلى المنافقين، المنافقون أيضاً من مواقفهم السيئة، إذا دُعوا إلى الجهاد ماذا يقولون؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[النور: ٥٣].

يقسمون -يقسم هؤلاء المنافقون أيماناً مغلظة، جهد أيمانهم أيمان مغلظة- أنهم إذا أمرهم الرسول بالخروج للجهاد ليبادرون ويسرعون للخروج، ليخرجون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ -قل يا محمد لهم-: ﴿لَّا تُقْسِمُوا﴾ ما يحتاج، ما يحتاج أن تقسموا، ما يحتاج إلى القسم، ﴿لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾؛ يعني طاعتكم معروفة؛ لأنها دعوة باطلة، لأنها مجرد دعوة باطلة، طاعتكم معروفة ليست صحيحة، بس مجرد كلام، طاعتكم معروفة مجرد كلام.

والله خبير وعالم بحالكم وسيجازيكم على كذبكم؛ تقسمون أو لا تقسمون، تقولون سنخرج وأنتم تدعون الدعاوى الباطلة، كل ذلك كذب وغير صحيح، ولا يقبل منهم، ولذلك والله خبير ومطلع على أحوالكم، وعالم بما تقولون وبما تفعلون وسيجازيكم على نياتكم وعلى أعمالكم.

ثم وجههم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

قل: أطيعوا الله -أيها المنافقون، خير لكم- أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تولوا ولم يقبلوا منك يا محمد ولم يسمعوا منك، أعرضوا كما أعرضوا سابقاً، فإن على الرسول ما حُمّل؛ يعني فإن عليك يا محمد ما حُمّلت، عليك أن تبلغ الرسالة التي كلفك الله بها، عليك تبليغ الرسالة، وعليكم ما حُمّلتم؛ يعني قل لهم أنتم مكلفون وستجازون وستحاسبون، والرسول مكلف بالرسالة وسيبلغها كما أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولكن هنا وقفة انتبهوا إليها: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾؛ أي تطيعوا الرسول وتسمعوا كلامه وتستجيبوا له تهتدوا؛ تهتدوا إلى الحق وتسلموا من العذاب، وتصبحون على خير وعلى نور من الله تهتدوا، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ الرسول عليه أن يبلغ، ما عليه إلا البلاغ المبين فقط، الرسول عليه أن يبلغ.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما ذكر حال المنافقين، جاءت البشارة للمؤمنين الصادقين، المؤمنين الصادقين يبشرهم الله بهذه البشارة العظيمة، وهذا خبر ولم يتحقق إلا بعد وفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من معجزات القرآن العجيبة؛ معجزات القرآن هو الإخبار بما سيقع، هذا من المعجزات، الإخبار بما سيقع ولم يتحقق في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ما هو هذا الوعد الذي وعد الله؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وعد الله الذين آمنوا منكم -أي الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومن جاء بعدهم- آمنوا منكم وعملوا الصالحات، التزموا طاعة الله والإيمان والعمل الصالح.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي يورثهم الأرض ويجعلهم خلفاء في الأرض، ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية؛ مثل ما استخلف الله قوم موسى بعد فرعون، كما استخلف الذين من قبلهم.

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾؛ يعني يجعل دينهم هو الظاهر، هو الذي يظهر على الدين كله وهو الذي يرتضيه، ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾؛ يعني يذهب الخوف ويبدل الخوف أمناً فيصبحوا آمنين لا خوف. متى؟

قال: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾؛ إذا حققوا العبادة ولم يشركوا بالله شيئاً، فأولئك قد وعدهم الله بالاستخلاف في الأرض والتمكين في الأرض، وأن يظهر الله لهم دينهم. ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾؛ من كفر ولم يقبل بعد هذا البيان ولم يصدق فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله.

- **هل تحقق ذلك؟**

نعم؛ تحقق في زمن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ؛ في زمن الصديق، وفي زمن الفاروق، وفي زمن عثمان، وفي زمن علي؛ كلها تحققت بفتح البلدان ونشر الإسلام وسقوط تلك الدولتين العظيمتين: (فارس) و(الروم)، فمكن الله للمؤمنين من الصحابة وتحققت هذه الآية.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

- **ما هي العبادة؟**

اسمع ما قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

هذه العبادة التي أمر الله بها، ووعد من حققها بالاستخلاف في الأرض والتمكين وإظهار الدين؛ أقيموا الصلاة تامة على الوجه الصحيح وحافظوا عليها وداوموا عليها، وآتوا الزكاة لمستحقيها وأخرجوها طيبةً نفوسكم بها، وأطيعوا الرسول في كل ما جاءكم عن الله عَزَّ وَجَلَّ وعن الرسول، استجيبوا لله وللرسول وأطيعوا الرسول؛ النتيجة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، رجاء أن يرحمكم الله ويمكّن لكم في الأرض.

أما الكفار، فاسمع ماذا قال الله فيهم: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[النور: ٥٧].

لا تظن أن الكفار معجزون في الأرض، ويعجزونكم ويعجزون الله، بل الله قادر على إهلاكهم في لحظة، وإذا أهلكهم قال: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾؛ إذا أهلكهم الله سبحانه وأنزل بهم العقوبات فمأواهم ومرجعهم في الآخرة إلى نار جهنم.

لماذا؟ لأنهم كفار لم يؤمنوا، وأرادوا أن يعجزوا الله ويهربوا ويفروا من حكم الله ومن قدرة الله وسلطانه، فمأواهم النار، وبئس المرجع وبئس المصير الذي ينتظرهم، وهو مأواهم في نار جهنم.

لعلنا نقف عند هذا القدر؛ لأن الآيات ستنتقل بعد ذلك إلى بعض الأحكام المتعلقة بما ذكرته السورة في أولها من بعض الأسباب التي تقي المجتمع من الفاحشة، وهو الاستئذان والحجاب ونحوه، تأتي الآيات -إن شاء الله- والحديث عنها في اللقاء القادم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النور ٥٨ - آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا؛ اللَّهُمَّ نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ. اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ نَسْأَلُكَ أَنْ تَهْدِيَنَا لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو اليوم الثاني من شهر ربيع الأول من عام [١٤٤٤ هـ].

درسنا المعتاد كل ثلاثاء بعد المغرب في تفسير القرآن العظيم، والسورة هي سورة (النور). وقد عقدنا عدة جلسات معها وعشنا مع هذه السورة العظيمة الجليلة؛ وهي تضفي علينا أحسن الأخلاق والآداب والحياء والحشمة للرجال والنساء.

والأدب في كيف تعامل الرجال مع النساء وكيف تعامل النساء مع الرجال، كل هذه توجيهات ربانية لحفظ المجتمع من الانزلاق في الهاوية وفي الردى، وفيما وقع فيه غير المسلمين من الضياع والضلال وارتكاب الفواحش وانتشار الأمراض والأوبئة فيهم؛ نسأل الله أن يحفظنا ويحفظ لنا نساءنا وبناتنا وزوجاتنا من كل سوء.

الآيات التي بين أيدينا؛ أول هذه الآيات هي الآية الثامنة والخمسون، هذه الآية تتحدث عن حكم من أحكام الاستئذان. نحن مر معنا في لقائنا الماضي أحكام الاستئذان، وأنه لا يجوز للإنسان أن يدخل بيتاً غير بيته إلا بعد أن يستأذن صاحب البيت فيأذن له.

فإن كان البيت ليس فيه صاحبه وفيه أغراضه فلا يجوز أيضاً أن يدخله، وإن كان الباب مفتوحاً لا يجوز أن يدخله إلا بإذن صاحبه، وهناك بيت خالٍ لا فيه صاحبه وليس فيه أثاث، والرجل الذي يريد أن يدخل له حاجة فيه؛ مثل البيوت التي تكون في الطرقات، بعض الغرف والبيوت الحجرات التي تكون في

الطرقات يحتاجها المسلم للدخول؛ ليتظلل عن الشمس أو عن المطر أو عن البرد أو ليرتاح أو ينام، هذه هي البيوت.

ذكر الله هنا -استدراكاً لما مضى- أن هناك من يدخل دائماً من غير استئذان؛ وهم الصغار، يعني الممنوع من دخول البيوت هم الكبار البالغون، الممنوع من دخول البيوت هم الكبار الذين بلغوا؛ لا يجوز لهم الدخول لا رجالاً ولا نساءً، تدخل بيت غير بيتك إلا بإذن.

- **لكن هل الصغار يدخلون في هذا الحكم؟**

الصغار الأطفال، وكذلك المماليك؛ يعني الصغير الطفل الصغير يدخل بيته ويخرج، هل نقول له استأذن؟ لا نقول له ذلك، بل يدخل ويخرج كما يشاء؛ لأنه لم يأت أمر أو منع.

وكذلك المماليك الذين يشتغلون في البيت؛ يصبح مملوكاً لصاحب الدار فيدخل ويقوم بتنظيف البيت، يقوم بالطبخ، يقوم بالغسيل، يقوم بأعمال البيت، هو من المماليك.

- **هل هؤلاء يمنعون؟**

الجواب: لا يمنعون، هؤلاء يدخلون البيوت في كل وقت إلا أوقاتاً ثلاثة منعهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منها؛ هذه الأوقات الثلاثة هي مظنة تكشف العورات وقت النوم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ [النور: ٥٨]. يعني الأطفال والمماليك، يستأذنونكم عند الدخول متى؟ قال: ثلاث مرات فقط، أما غير هذه الأوقات الثلاثة فيدخلون متى شاءوا، لكن هذه الأوقات الثلاثة يمنعون من الدخول.

- **ما هي الأوقات الثلاثة؟**

قال: ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ [النور: ٥٨]؛ يعني تعرف كثير من الناس يقومون قبل الفجر بساعة ونصف بنصف ساعة يقومون، وقد يحتاج بعض المماليك وبعض الأطفال الدخول وخاصة إلى البيوت أو غرف النوم، فهذا وقت حرج، وقت النوم وقت حرج فلا يجوز لهم الدخول إلا بعد الاستئذان.

وقال: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ [النور: ٥٨]. هذه الأوقات الثلاثة لا يؤذن فيها بالدخول، ولو كان الطفل صغيراً؛ لو كان الطفل عمره خمس سنوات أو

أربع يمنع من الدخول في هذه الأوقات الثلاثة؛ لأن هذه الأوقات الثلاثة مظنة تكشف ومظنة عدم لبس الثياب.

فقد يكون الرجل متلحفاً من غير ثيابه التي يعتادها في الخروج والدخول؛ يعني يلبس ثياباً أخرى أو يكون متلحفاً بلحافات، فهذه الأوقات أوقات حرجة؛ أوقات النوم قبل الفجر أو بعد صلاة العشاء؛ لما يصلي العشاء يدخل إلى غرفته لينام فلا يجوز الدخول في هذه الأوقات الثلاثة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ [النور: ٥٨]. شوف الظهر، الظهر يعني النوم فيه قليل، وإن نام نام نوماً قليلاً؛ فلذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: حين تضعون ثيابكم؛ يعني وقت الظهيرة، قد ينام الإنسان بثوبه المعتاد وقد يخلع ثوبه وينام بثياب النوم، ولذلك قال: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ [النور: ٥٨]؛ هذا إذا حصل هذا يمنع.

فالأوقات الثلاثة هذه يمنع الطفل منها ويمنع المملوك من الدخول. الله سماها عورات، بين لك السبب والعلة، قال: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ [النور: ٥٨]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ [النور: ٥٨]؛ وهذا يدل على أن غير هذه الأوقات الثلاثة ليس فيها جناح، وأن هذه الأوقات الثلاثة فيها جناح وفيها تحريم وفيها منع وفيها إثم؛ أن الرجل يترك الأطفال يدخلون عليه والمرأة تترك الأطفال يدخلون عليها، أو تترك المماليك، هذا لا يجوز؛ لأن الله منع من الدخول، فيجب أن يؤدبوا ويجب أن يوجهوا وأن يمنعوا من هذه الأوقات.

أما غيرها: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ [النور: ٥٨]؛ لماذا؟ قال: ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النور: ٥٨]؛ يطوفون عليكم يأتون لكم بالأعمال والأشغال ويحضرون لكم ما تحتاجون إليه، يطوفون عليكم بعضكم على بعض.

قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨]؛ يعني مثل هذا البيان الذي أوضحه الله لنا، الله عَزَّ وَجَلَّ يبين لنا سائر الآيات؛ لماذا؟ لأن الله عليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، حكيم حين يحكم وحين يقضي وحين يفرض علينا أو حين يوجهنا هذه التوجيهات ويأمرنا بهذه الأحكام.

فهذه الأحكام كلها صادرة من حكيم عليم، وفيها الحكم العظيمة وهي في مصالحنا؛ فعلينا أن نأخذ بتوجيهات القرآن وبما يأمرنا به، فهذه الأوقات الثلاثة يعني لو ترك الأطفال يدخلون وأعمارهم على خمس أو ست أو سبع يدخلون الغرف غرف النوم والمرأة متكشفة أو الرجل متكشف.

هذا قد يكون أولاً يعود الطفل على قلة الحياء وعلى عدم الاحترام، ويعود الطفل أن يتكشف العورات وينظر إلى أشياء لا يجوز له أن ينظر إليها، وكذلك مظنة أيضاً أن يقع هو في الحرام، قد تحدثه نفسه أو نحو ذلك أو ينقل لغيره ما يراه؛ فلذلك الله عَزَّ وَجَلَّ -من باب الحفاظ على الأسر والحفاظ على الأخلاق والحياء- يمنعون هؤلاء.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[النور: ٥٩]. يعني الأطفال في مرحلة الطفولة ما في مانع يدخلون في جميع الأوقات إلا هذه الأوقات الثلاثة، لكن غير هذه الأوقات الثلاثة طوّافون عليكم يدخلون، لكن ينتبه الأطفال؛ قال: إذا بلغوا الحلم، إذا بلغ الطفل -يعني أصبح في سن الحلم- فإنه يمنع ويستأذن كما استأذن الذين من قبلهم، يمنع ويصبح حكمه حكم الرجال.

وهذا إذا بلغ الطفل سن الحلم؛ يعني ما يتبين أنه قد بلغ مبلغ الرجال، بلغ سن الحلم وبلغ مبلغ الرجال؛ إما بأن يحتلم وهو نائم، أو ينزل المني سواء في النوم أو اليقظة، أو يجد علامات البلوغ كإنبات الشعر الخشن حول القبل أو الدبر، أو مثلاً يبلغ السن المعروفة وهي سن خمس عشرة سنة، هؤلاء يمنعون.

لكن ينتبه أيضاً أنه إذا لم تظهر هذه العلامات وهو أصبح قد كبر وجاوز العشر سنوات وعلم منه أنه يعرف هذه، يعرف أن يصف المرأة ونحوها، يمنع من الدخول.

فمن يبلغ العشر والحادية عشرة سنة أو تسع سنوات ولا يمكّن من الدخول على النساء الأجانب ولا يخلو بالمرأة؛ فإن هذا قد يجره إلى الوقوع في الحرام، فيمنع الأطفال ويعودون بمجرد سن التمييز؛ السبع سنوات أو الثماني سنوات يبدأ يُعوّد على أن الدخول على النساء لا يجوز، وأنه يحذر وأنه لا ينبغي، وأن في ذلك مفاسد، ويعلم ويؤدب ولا يترك؛ فهذا ينبغي أخذ الحيطة فيه.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[النور: ٥٩]؛ مثل ما بين لكم هذه الآيات يبين

لكم سائر الأحكام والآيات، والله عليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واسع العلم، حكيم فيما يدبر وفيما يأمر وفيما ينهى.

فهذه الحقيقة هذه الآيات التي بين أيدينا فيها من الآداب الشيء العظيم؛ فأولاً الإنسان مأمور بحفظ العورة، ولا يجوز له أن يكشف عورته، ولا يجوز له أن يتكشف أمام الناس، فيأخذ الحيطة ويغلق بابه ويغلق غرفته ولا يتكشف أمام الناس.

حتى تجد بعض الناس عند قضاء الحاجة أو عند الاغتسال أو نحو ذلك، تجده في بعض المناطق الصحراوية أو في البر أو نحو ذلك يكشف عورته أمام الناس ولا يبالي؛ هذا ينبغي الحفاظ، ينبغي أن يحفظ عورته إلا عند الحاجة؛ عند الحاجة كالنوم أو عند العلاج أو نحو ذلك بحيث إنه يتحفظ قدر الإمكان.

والصغير أيضاً دون البلوغ لا يجوز له أن يُمكَّن من رؤية النساء والدخول عليهن؛ تجد في بعض المناسبات وبعض الأعراس وبعض الحفلات تجد الأطفال يدخلون على النساء وينظرون إلى النساء وبعضهم يصور ونحو ذلك، فهذه الأمور ينبغي تأديب الأطفال وتعويدهم على أن هذه أمور محرمة ولا تجوز، وكذلك المماليك الذين ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال بعده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً في النساء؛ المرأة مر معنا أنها مأمورة بالحجاب، قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيما مر: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ﴾ [النور: ٣١]؛ تضرب المرأة بالخمار من رأسها إلى أطراف قدميها وتغطي سائر جسدها؛ لأن المرأة كلها عورة، فلا يجوز لها أن تكشف وجهها ولا يجوز لها أن تكشف يديها، كل ذلك أمر واضح مر معنا.

وهنا يستثني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يستثني **(القواعد)**؛ وهن النساء، **(القواعد)** جمع قاعد، وهي المرأة التي قعدت عن الزواج وقعدت عن النكاح وعن الولادة لكبر سنها، فأصبحت في حكم العجائز؛ لا يُرغب فيها ولا ترغب هي في الرجال.

فهذه في هذه الحال يجوز لها أن تكشف وجهها وأن تضع الثياب، قال هنا: المراد بالثياب هي الجلباب والملحفة والعباءة ونحو ذلك، يجوز لها أن تكشف وجهها ويديها إذا كانت امرأة كبيرة السن.

ما تلاحظون -من باب أننا نحن نفهم لغة العرب الآن- الله عَزَّ وَجَلَّ إذا أذن للمرأة الكبيرة بكشف الوجه فما مفهوم هذا الشيء؟ مفهومه أن من دون الكبيرة من الشابات مأمورة بالحجاب؛ يعني كأن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: المرأة لا يجوز لها أن تكشف وجهها إلا إذا وصلت هذا السن.

فإذا وصلت هذا السن أذن لها، أما إذا لم تبلغ هذا السن فإنها في حكم من يمنعن من كشف العورات أو من كشف الوجه أو من التبرج، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: القواعد، انظر أيضاً أعطاهن صفات، قال: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠]؛ لا ترغب في النكاح ولا يرغب فيها.

قال: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ [النور: ٦٠]؛ يقول: ما في إثم، فإذا دل الإثم على من سواهن، قال: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ [النور: ٦٠]، بشرط: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠]؛ بشرط ألا تضع مثلاً الكحل والروج والحمرة ونحو ذلك، وتلبس الذهب وتظهر شعرها وتغير شعرها بالسواد وتلبس الزينة أمام الرجال وتكشف صدرها، وإن كانت كبيرة السن وإن بلغت الستين فما فوق، فهذه قال الله فيها: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠].

وقال: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠]؛ يعني عفافها وغطاؤها خير لها، خير لها من كشف الوجه. (حفصة بنت سيرين) أخت الإمام (محمد بن سيرين) كانت امرأة عالمة تقية صالحة، فدخل عليها بعض الرجال وهي كبيرة في السن قد بلغت مبلغ السن الكبير، فدخلوا عليها وبدأوا يسألونها وتجيبهم وهي عالمة كبيرة، فقال بعضهم وهو يمازحها: «يا أم فلان قد كبرتِ.

والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ [النور: ٦٠]، ضعي ثيابك!»، **فقالت له:** «ألا تكمل الآية؟ ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ [النور: ٦٠]، ألا تريد لي الخير؟». **فانظر كيف فهمت الآية فهماً دقيقاً! والله قال: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠]؛ سميع للأصوات وعالم بالنيات، بمن يريد الخير أو يريد الشر.**

في نهاية الآيات أو السورة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لنا حكم بعض دخول البيوت والأكل من البيوت. لما تكلم الله عَزَّ وَجَلَّ عن دخول البيوت وأنه يستأذن فيها للدخول، بين لنا جواز الأكل من البيوت.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ﴾[النور: ٦١].

أي شأن الكفيف ليس عليه حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج، ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. فإذا دخل المريض معكم في الطعام لا حرج ولا تمنعوه، وإذا دخل الأعمى لا حرج ولا تمنعوه، وإذا دخل الأعرج لا حرج ولا تمنعوه؛ فأنتم هذه بيوتكم فادخلوها وكلوا منها، وليدخل هؤلاء معكم، هؤلاء الأصناف الثلاثة.

- **هنا سؤال: لماذا رفع الله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض؟ لماذا قال: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]؟**

قال بعض أهل التفسير: "إنه كان قبل الإسلام وفي أول الإسلام إذا جاء الأعمى يتحرجون من أن يدخل يأكل معهم؛ لأن الأعمى لا يبصر ولا يعرف مكان طعامه، فيده تطيش في الصحفة وتطيش في الصحن ويتأذى بعض الناس منه".

وكذلك المريض؛ الناس يتأذون منه ويخشون من العدوى ومن انتقال المرض فيتجنبونه، وكذلك الأعرج؛ قالوا: لأن الأعرج يتأذى الناس منه عند جلوسه على الطعام وهو يمد رجله ويضايقهم، فكان من الناس من يتحرج، فرفع الله الحرج وقال: ليس عليهم حرج أن يدخل هؤلاء ويأكلوا معكم.

وأنتم كذلك تأكلون من بيوتكم ومن بيوت أولادكم، ما قال الأولاد، قال: ﴿مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ [النور: ٦١]؛ تذهب إلى بيت أبيك وتأكل منه، بيت أمك تأكل منه، بيت إخوتكم وإخوانكم وأخواتكم، أو بيوت أعمامكم وعماتكم وأخوالكم وخالاتكم، كل هذا يجوز الدخول والأكل منه.

لم يذكر الأبناء، لماذا؟ لأن الابن منك.

☜**وفي الحديث يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ»، وقال: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ، وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»؛ فأنت تدخل بيت ابنك أو بنتك وتأكل منه؛ الدخول بالاستئذان، لكن الأكل جائز.

قال أيضاً من حيث الأكل: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١]؛ يعني إذا وكلك إنسان على مفاتيح البيت وأردت أن تأكل من البيت فإنه لا حرج، إذا دخلت وأكلت لا حرج.

وكذلك الصديق العزيز عليك الذي يعطيك المفتاح أو يأذن لك، فلا حرج أن تأكل من بيته، كل هؤلاء يجوز الأكل من بيوتهم، حتى لا يتحرج الناس من هذه الأمور؛ لأنهم لما منعوا من الدخول ظنوا أن الأكل ممنوع.

قال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]؛ كل ذلك جائز، فإذا أكلتم جميعاً على صحن واحد مجتمعين، أو أكلتم جماعات؛ هؤلاء على صحن، وهؤلاء على صحن، كل ذلك جائز.

أما أن ينفرد كل شخص لوحده، فهذا هو الذي كرهه بعض العلماء وقالوا إن البركة في الجماعة، ليس أن يأخذ الواحد صحناً ويجلس لوحده، لكن ما يسمى الآن بـ(البوفيه المفتوح)؛ هذا لا يسمى الإنسان يأكل وحده؛ لأنهم كلهم يجتمعون على طاولة واحدة لكن كل واحد له صحن بقدر ما يأكل، فهذا لا حرج فيه؛ لأنهم يأكلون على مائدة واحدة وعلى طاولة واحدة، فهذا لا حرج فيه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]. ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١]؛ إذا دخلت بيتاً من البيوت فالسنة أن تسلم، أن تقول: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

سواء كان هذا البيت فيه أحد أو لم يكن فيه أحد، فأنتم تسلمون؛ تسلم على نفسك وتسلم على الملائكة، لا حرج، السنة إذا دخلت بيتاً أن تسلم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: هذا السلام هو تحية لكم يحيي بعضكم بعضاً، وهي ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١]؛ لأن الله هو الذي علمكم إياها، وهي مباركة كثيرة الخير، وطيبة يعني أثرها طيب عليك؛ تطيب بها النفس وتحيا بها القلوب، كل ذلك طيب.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١]؛ مثل هذا البيان الشافي الواضح، يبين لكم سائر الآيات حتى تعقلوا ما ينفعكم وتأتوا ما ينفعكم وتبتعدوا عما يضركم، لم يذكر الله -مثلما ذكرنا- بيوت الأبناء؛ لأن الابن من كسبك، ولم يذكر الزوجات؛ لأن الزوجات في الغالب هن في بيوتكم.

نختم السورة بهذه الآيات الخاتمة في بيان توقير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمه ورفع مكانته.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]. هؤلاء هم المؤمنون.

ثم قال: ﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ [النور: ٦٢]؛ أي مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمر جامع؛ دعاهم إما لجهاد أو لاستشارة أو نحو ذلك من الأمور الجامعة، لم يذهبوا حتى يستأذنوه. وهذا فيه رد على المنافقين الذين يختفون ولا يحضرون المجالس، وإذا حضروا فروا وهربوا.

قال: ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في بيان هذا الأدب: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النور: ٦٢] حق الإيمان؛ ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢]؛ أي إذا احتاجوا شيئاً لبيوتهم أو بيوت أزواجهم أو أولادهم، فأذن لمن شئت منهم، واستغفر لهم الله؛ لأنهم لما تركوك بسبب أبنائهم أو بيوتهم أو حاجاتهم.

هذا لا ينبغي أن تقدم حاجاتك على حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فينبغي حتى لو كان عندك أعمال وأشخاص أن تتركها لأجل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا أن تستأذن، ولذلك قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ﴾ [النور: ٦٢]؛ لأن استئذانهم وخروجهم نوع من التقصير والمخالفة، فينبغي أن من اجتمع مع الرسول لا يخرج أبداً.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

يعني لا تجعل دعاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينكم كدعاء بعضكم بعضاً؛ فلا تناديه باسمه فتقول: «**يا محمد**»، وإنما تقول: «**يا رسول الله**»، «**يا نبي الله**».

هذا هو الذي ينبغي أن يُدعى به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وكذلك لا تجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضاً بأن ترفع صوتك وأن تناديه بأعلى صوتك.

وكذلك يحتمل أنه: لا تجعلوا دعاء الرسول؛ أي إذا دعاكم الرسول لا تجعلوا دعوته لكم كدعوة بعضكم بعضاً، بل لدعوته شأن خاص واستجابة خاصة فورية.

ثم قال متوعداً من لا يلتزم هذا الأمر، فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣]؛ يفرون ويخرجون من غير أن تشعروا بهم، فقد يعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذين يتسللون منكم لواذاً.

قال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]؛ تجد بعض الناس يختفي ويذهب من غير إذن، يتسلل ويلوذ بحيث لا يشعر به أحد، يسرق نفسه.

فهذا يحذر أن يقع في العقوبة: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣]؛ يذهبون لبعض شؤونهم من غير إذن، أو يقدمون شؤونهم على حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هؤلاء يحذرون: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣]؛ يصيبهم شر، أو يصيبهم شرك فيقعون في الكفر والشرك، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]؛ تُعجّل لهم العقوبة.

ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٦٤]. وهذه (**ألا**) هنا للتنبيه؛ أي انتبهوا واسمعوا، إن لله ما في السماوات ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو المالك للسماوات والأرض وما فيهن؛ ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤]؛ يعني قد أحاط بكم علماً، ويعلم حالكم ويعلم تصرفاتكم.

فلما بين لهم سعة ملكه وسعة علمه، نبههم إلى أنهم سيرجعون إليه يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤]؛ فينبئهم ويخبرهم بجميع أعمالهم؛ الدقيق والجليل منها، ويجازيهم على أعمالهم، والله بكل شيء عليم؛ وسع علمه كل شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وبهذا تختم السورة بهذه الجملة العظيمة في سعة علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وملكه وتدبيره للكون، وهو الذي يقضي ويحكم، وهو الذي يتصرف في عباده، وهو الذي ينزل آياته ويبين لهم أحكامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما بينها لنا في هذه السورة العظيمة الجليلة التي اشتملت على كثير من الأحكام التي يحتاجها الناس ويحتاجها البشر، وتحتاجها الأمة.

نسأل الله أن ينفعنا بهذه السورة، وأن يجعلها حجة لنا لا علينا، وأن يفقهنا في الدين، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الفُرْقَان)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الفرقان ١ - ١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الاجتماع بيننا اجتماعاً مرحوماً، وأن يجعل تفرقنا من بعده تفرقاً معصوماً؛ وأن يحفظنا وإياكم، ويحفظ لنا ديننا، ويحفظ لنا أعمالنا وعقولنا من كل شر.

هذا اليوم هو اليوم السابع من شهر ربيع الآخر من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة. السورة التي بين أيدينا هي سورة جديدة، بعد ما كان لقاؤنا في اللقاءات الماضية مع **(سورة النور)**، وهي سورة الحياة والحشمة، وسورة الأدب والأخلاق؛ والسورة كما لاحظنا فيها يعني تعالج قضايا تهم الأسرة المسلمة، وهي تفيض بظلال الإيمان. الآن ننتقل إلى سورة بعدها هي **(سورة الفرقان)**، والفرقان هو القرآن، ولكن ستلاحظ أن الأسلوب سيتغير جداً؛ لأن **(سورة الفرقان)** سورة مكية بخلاف **(سورة النور)** المدنية؛ فـ **(سورة النور)** نزلت بين مؤمنين، وهذه نزلت بين معاندين كفار غواة، لا يريدون الحق ولا يريدون الوصول إلى الحق؛ فرق بين هذا وهذا.

سميت هذه السورة بـ **(سورة الفرقان)**، والفرقان هو القرآن؛ والقرآن له أربعة أسماء، أما أوصافه فهي كثيرة جداً: هدى، ورحمة، وشفاء، وتبيان، وبيان؛ الأوصاف كثيرة جداً، لكن الأسماء أربعة: القرآن، والكتاب، والفرقان، والذكر. وكل دل عليه القرآن؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ﴾ [البقرة: ٢]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [النمل: ٧٦]

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

فالفرقان اسم من أسماء القرآن؛ ولماذا سمي بالفرقان؟ لأن الله سبحانه وتعالى فرق فيه بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين أهل الحق وأهل الباطل، وبين أهل الجنة وأهل النار، وبين أهل الشقاوة وأهل السعادة؛ فأنت إذا قرأت القرآن عرفت حقيقة معنى الفرقان؛ ففي كل سورة وفي كل آية من آيات القرآن الحكيم ستجد أن هذا القرآن يفرق ويميز بين أهل الخير وأهل الشر، وبين الشر والخير، وبين الهدى والضلال، والحق والباطل إلى آخره.

قال الله سبحانه وتعالى في أولها: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]

فلما تقرأ هذه الآية وقف عندها وتأمل؛ أولاً كلمة «تَبَارَكَ»: لم تفتتح سورة من سور القرآن بـ «تَبَارَكَ» إلا صورتان فقط -أو إلا صورتين فقط-؛ **(سورة الفرقان)**: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾، و**(سورة الملك)** التي تسمى بـ **(سورة تبارك)** ويسمى جزء تبارك بسورة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

لما تسمع كلمة «تَبَارَكَ» هذه تحتاج منك وقفة تأمل؛ ما معنى تبارك هذا؟ ما معنى كلمة تبارك؟ «تَبَارَكَ» هذا أولاً لا يطلق إلا على الله، لا يجوز إطلاقه على مخلوق، ولا تقول: فلان تبارك علينا، هذا غلط وقدح، ما يمكن هذا؛ هذا اللفظ لا يطلق إلا على الله؛ مثل ما تقول: سبحانه وتعالى، تعالى الله عما يقولون، ما تقول: فلان تعالى، ما تعظم فلان وترفعه عن مقامه، فـ «تَبَارَكَ» يطلق على الله فقط. أما أن تقول لفلان: والله أنت علينا بركة، وفيك بركة، اليوم بركة بحضورك، هذه الأشياء ممكن يعني تصح؛ لكن «تَبَارَكَ» هذا الوزن وهذا اللفظ على وزن تفاعل -تبارك وتعاظم وتعالى- هذا لا يكون إلا لله، هو صاحب البركة، هو صاحب البركة كلها؛ عظمت بركاته، وكثرت بركاته، وكثر خيره، وعم خيره، وكملت أوصافه سبحانه وتعالى، فهو وصف لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾؛ طيب أنت لما تقرأ هذه الآية ونحن نريد أن نقف مع كل كلمة، وهذا هو معنى التدبر والتأمل في القرآن، لما تسمع كلمة «تَبَارَكَ»، هذا اللفظ يعني يوحي عندك معاني عظيمة، وهي أن الله سبحانه وتعالى خيره عم كل شيء، هذا أمر، والأمر الثاني أن القرآن بركة؛ فالقرآن فيه خير،

فيه بركات سبحانه، القرآن الكريم فيه خير عظيم فيه بركات . الله سبحانه وتعالى وصفه بأنه كتاب مبارك؛ قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]

يعني كثير الخيرات، وهو مبارك وخيره كثير من نعم الله عز وجل؛ حتى نفهم هذه الكلمة، ليش الله افتتحها بكلمة «تَبَارَكَ»؟ حتى نفهم أن من نعم الله عز وجل سبحانه وتعالى وخيره العظيم الواسع أن أنعم علينا بنزول هذا القرآن. هذا القرآن المبارك جاء من عند الله الذي تبارك سبحانه وتعالى وعظم؛ فإذاً لا بد أن يكون عندنا رابط بين بركة الله سبحانه وتعالى وبركاته التي هي من عند الله، والله سبحانه وتعالى قد تبارك وعظم خيره وبركاته، ومن خيره وبركاته هذا القرآن العظيم الذي هو كلام الله.

وأنت الآن لما تسمع هذه الكلمة تستشعر أن بعدها سيأتيك موقف المشركين؛ ماذا قالوا في القرآن؟ وكيف قدحوا في القرآن؟ ووصفوه بأوصاف لا تليق. الله عز وجل أراد أن يعظم هذا القرآن ويرفع مكانته وشأنه، حتى يعرف هؤلاء الكفار ماذا قالوا عن القرآن، اسمع يقول: ﴿نَزَّلَ﴾.

حتى كلمة ﴿نَزَّلَ﴾ هنا، فرق بين «أَنْزَلَ»، لأن «نَزَّلَ» بالتشديد تفيد أن القرآن ينزل مفرق بخلاف الكتب السابقة؛ فالكتب السابقة نزلت جملة، يعني التوراة نزلت كاملة، والإنجيل نزلت كاملة، القرآن كتابنا هذا القرآن نزل في ثلاث وعشرين سنة، فكلمة ﴿نَزَّلَ﴾ تدل على أنه نزل مفرقاً، والحكمة في ذلك والله أعلم هو تثبيت قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقلوب أصحابه؛ وسياتيك آية في السورة هذه نفسها؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]

يعني قرأناه ونزلناه على رسل وعلى هدوء وعلى آيات متفرقة لحكم عظيمة.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾؛ وشوف حتى في كلمة ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ تدل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن يأتي بالقرآن من عنده، وإنما هو منزل من السماء، نزله الله سبحانه وتعالى على عبده؛ وقال ان هذا الرسول الذي أتاكم هو عبد الله ورسوله، وهذا الوصف تشريف للرسول صلى الله عليه وسلم، تشريف للرسول. الله عز وجل شرف نبيه بوصف العبودية في مواضع مهمة جداً؛ لما أسري به وخص بالإسراء، ورفعه الله عز وجل إلى السماء السابعة ورأى الجنة والنار، ووصل هذه المكانة العالية، قال الله سبحانه وتعالى فيه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]

حتى يشعر بالتواضع وأنه عبد لله، وأن مقام العبودية مقام شرف أن تكون عبداً لله. وهنا **قال:** ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١]، وحتى في (**سورة الكهف**) **قال:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وقال هنا: ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ . ولما جاء في مقام الدعوة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]

فالعبودية شرف، شرف عظيم، وفيه إشارة إلى أن محمداً رسول الله مكلف بالرسالة لا يملك شيئاً، إذا جاءه الوحي بلغه الناس. ودعوته ليست لأهل مكة، وليست لكفار قريش، وإنما دعوته عالمية، وليست للجزيرة العربية، دعوة عالمية؛ ولذلك الله سبحانه وتعالى **قال:** ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، لعالم الجن والإنس؛ يا محمد أنت يا رسول الله ودعوتك عالمية، والقرآن أنزل للثقلين، ليس لفلان ولا لفلان، ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

قد يسال سائل ويقول لك: طيب من الذي يكون نذيراً؟ هل هو القرآن ولا محمد؟ الله عز وجل يقول: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، هذا الفرقان -هذا القرآن- كتاب فيه النذارة، ويحتمل أن يكون «نَذِيرًا» وصفاً للرسول؛ أي ليكون عبده نذيراً للناس. لو قيل لك: طيب ما الذي نختار من هذا؟ نقول: كلها صحيحة؛ القرآن نذير، ومحمد نذير، كلها صحيحة.

طيب يسألك سائل يقول لك: أليس القرآن ومحمد نذير وبشير، ليش قال «نَذِيرًا» ولم يذكر البشير؟ نقول: لأن السياق في مواجهة هؤلاء المعاندين؛ فالقرآن جاء ينذرهم، والرسول جاء لينذرهم؛ لأنهم لا يتقبلون الحق ولا يريدون الوصول إلى الحق، فجاءت الآيات تخوفهم وتنذرهم، ولذلك اختار الله سبحانه وتعالى وصف النذارة: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] .

الله سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بأن الخير كله عنده، وأنه هو الذي تبارك وتعالى، بدا يذكر أوصاف الله التي فيها التنويه وفيها الإجلال وفيها الثناء على الله سبحانه وتعالى، فقال: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]

الذي نزل الفرقان وبعث محمداً وأنزل عليه القرآن وجعله رسولاً ليكون للعالمين نذيراً، هو الذي له ملك السماوات والأرض، الذي يملك السماوات والأرض سبحانه وتعالى، مالك الملك، ولم يتخذ ولداً -

لم يكن له ولد- ولم يكن له شريك في الملك؛ يعني هو المنفرد سبحانه وتعالى بالخلق والتدبير والملك، لا شريك له وهو مالك الملك. ولم يحتاج إلى الولد لكونه ضعيفاً أو فقيراً؛ فالذي يحتاج إلى الولد هو المسكين الضعيف الفقير، أما الله فهو الغني سبحانه، الغني لا يحتاج إلى ولد حتى يوصف بالولد: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يعني هو المالك الخالق، خلق كل شيء ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾؛ خلق خلقه على وفق ما تقتضيه حكمته، لا تظن أن هذا الخلق جاء عبثاً أو جاء سدى أو جاء لغير حكمة؛ فالله يخلق كل شيء بحكمة، ويقدره تقديراً دون نقص أو زيادة أو خلل، هذا لا يمكن سبحانه وتعالى . فما يمكن أن يخلق مخلوقاً في هذا الكون إلا لحكمة؛ فانظر في عالم الحشرات والدواب بالأرض، والطيور والزواحف والحيوانات والجبال والأشجار والهواء، وخذ من مخلوقات الله التي لا تعد ولا تحصى، خلقها سبحانه وتعالى بحكمة، وقدر كل شيء تقديراً، فخلقها بما يتوافق مع حكمته سبحانه وتعالى.

طيب لماذا هذا التنويه والتعظيم والإجلال والثناء على الله سبحانه وتعالى؟ رداً على المشركين الذين سيأتي الآن كلام ماذا كان موقفهم، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يبين عظمته سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي يعني ملك السماوات والأرض، وهو الذي خلق الخلق كله وهو الخالق البارئ المصور، هو خالق كل شيء فكيف تتخذون من دونه معبودات وأصنام لا تنفع ولا تضر؟ اسمع ماذا قال الله عليها:

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]

المشركون العرب وغيرهم اتخذوا من دون الله آلهة؛ يعني معبودات وأصنام وأولياء من دون الله . هذه الآلهة لا يخلقون شيئاً، لا تخلق شيئاً، وهم يخلقون؛ يعني هذه المعبودات والأصنام هي مخلوقة؛ قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]

هذه الأصنام وهذه المعبودات والأوثان والأولياء، حتى لو كان رجلاً من الأولياء يُعبد ويدعى ويطاف حول قبره ونحو ذلك، هذه مخلوقات، هم مخلوقون وأموات، لا يخلقون شيئاً ولا مثقال ذرة، لا يخلقون ولا ذباباً ولا حشرة، لا يخلقون شيئاً والله هو الذي خلق كل شيء، وهم مخلوقون.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ ما يملك نفسه لنفسه، يعني هذه الأصنام لا تدفع عن نفسها الضرر، لا تدفع لنفسها الضر ولا تجلب الخير، ولا تملك شيئاً. ما تملك يعني هي هذه المعبودات والأصنام والآلهة التي كسرها إبراهيم ووضع الفأس على الأكبر وقال كبيرهم، ليش ما دافعوا عن أنفسهم؟ لأنهم لا ينفعون غيرهم ولا يملكون لأنفسهم، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾؛ حتى الموت ما يستطيعون أن يميتوا أحداً، ولا يستطيعون أن يحيوا ميتاً، ولا يستطيعون أن يبعثوا الأموات فينشرونهم بعد موتهم، هذا كله من خصائص الله، فهذه الآلهة المزعومة آلهة باطلة لا تصح أن تكون معبودة من دون الله. فكيف هؤلاء أين عقولهم؟ وهم يسمعون قول الله سبحانه وتعالى، سبحانه وتعالى الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك؟ تعبد الشجر لا ينفع ولا يضر، كيف؟ أين عقولهم؟ هذا موقفهم مع الله؛ موقف المشركين مع الله أنهم يعبدون هذه المخلوقات وهذه المعبودات من دون الله التي لا تنفع ولا تضر. هذا موقفهم مع الله.

أما موقفهم من القرآن -وكل موقف يرد الله عليهم ويبطل دعاءهم- موقفهم من القرآن ماذا يقولون؟ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤]

شوف الإفك: أشد الكذب، الإفك هو البهتان، أشد الكذب هو الإفك. يصفون القرآن بأنه كذب وأنه إفك؛ وقال الذين كفروا إن هذا -أي هذا القرآن- إلا إفك يعني كذب وبهتان، يعني اختلقه محمد من عنده وأعانه عليه قوم آخرون، يعني استعان بأناس آخرين ساعدوه على هذا الكتاب حتى جاءنا بهذا القرآن الذي يدعي أنه ينزل عليه من عند الله، وهو يكذب على الله، وهذا الذي أتى به كله افتراء وكذب، وشيء أتى به محمد ويكذب على الله.

قال الله رداً عليهم: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ كيف يقول الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١] وأنتم تقولون: إن هذا إلا إفك افتراه! فقد جاءوا ظلماً وزوراً، جاءوا أمراً فظيعاً، وأتوا بشيء شنيع لا يقبله أي عاقل؛ فالقرآن ليس مما يمكن البشر أن يأتي به، القرآن مستحيل يأتي محمد ولا بسورة، محمد صلى الله عليه وسلم تحدى العرب قاطبة أن يأتوا بآية، أن يأتوا بسورة ولم يستطيعوا، فكيف هو يفتريه؟ من أين أتى به؟ مستحيل، هذا الكلام فوق طوق البشر، ما يمكن، هذا كلام رب العالمين،

مستحيل . ولذلك رد الله عليهم بقوة، قالوا: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ وقعوا في الظلم، جاءوا بالظلم وبالزور وهو الميل عن الحق الواضح، كيف تقولون هذا الكلام؟

رد الله عليهم، واسمع أيضاً من أقوالهم الباطلة الفاسدة ماذا يقولون، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]

أي هذا القرآن، لما لم يكتفوا بأنه إفك افتراه، قالوا: أساطير الأولين؛ وأساطير الأولين -جمع أسطورة- اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً. هذا الكلام الذي يأتي به محمد هو أساطير الأولين، هي أحاديث يتناقلونها الأجيال الماضية، مجرد أحاديث اتهموا القرآن بأنه أساطير الأولين، محمد يكتتبها ويستنسخها وتقرأ عليه وهو يكتب، تملى عليه بكرة وأصيلاً في الصباح والمساء، تنقل إليه، يذهب إلى أناس فينقولونها فيعطونها إياه، فهو يمليها، تملى عليه وهو يكتبها، هذا اتهام للقرآن.

رد الله عليهم بقوة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]

هذا القرآن الذي تسمعونه ويطلع على أسماعكم ويقرؤه الرسول صلى الله عليه وسلم، أنزله هو الله، أنزله، ليس أساطير الأولين وليس كذباً افتراه، إنما هو كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى، وهو كلام الله تكلم به. **قال:** ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سبحانه وتعالى، لا يخفى عليه شيء في الأرض، كل ما خفي في السماوات والأرض قد أحاط الله به علماً، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ فكيف تقولون هذا الكلام؟ هذا الكتاب الأسرار، ليس فقط يعلم أسرار السماوات والأرض، علمه واسع سبحانه وتعالى، تكلم بالقرآن فسمعه جبريل فنزل به على محمد؛ كلام الله يقولون إفك وأساطير.

ولكن مع هذا كله، الله سبحانه وتعالى الغفور الرحيم، الله هو الغفور الرحيم، ماذا قال؟ **قال:** ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. مع ذلك يفتح لهم باب التوبة، يقول: ارجعوا إلى الله فإن الله غفور عن معاصيكم وذنوبكم، رحيم بكم، حيث فتح لكم باب التوبة؛ أنتم تتهمونه وتجعلون معه آلهة أخرى، وتعبدون الأصنام وتردون رسالته وتكذبون نبيكم محمداً وتكذبون بالقرآن وتصفونه بهذه الأوصاف، وهو يفتح لكم باب الرحمة: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ .

وخذ أيضاً من مواقفهم وقدحهم؛ وقدحوا بالله فعبدوا معه آلهة أخرى، قدحوا في القرآن فقالوا هذا إفك وأساطير، والآن يقدحون بمحمد صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]

هذا الرسول، يستهزئون يقولون: هذا رسول من عند الله؟ كيف رسول ويأكل الطعام؟ كيف رسول ويمشي في الأسواق يبحث عن الرزق؟ هذا ما يمكن أن يكون الرسول؛ لو كان الرسول يأتون إليه ولا كان له مقام عظيم، أما يمشي في الأسواق ويأكل ويترزق ويبحث عن رزقه، فهذا ما هو رسول! شوف يقول: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾؟ لو كان الرسول نزل معه ملك، وين الملائكة؟ ما نزلت معه ولا ملك واحد، ﴿فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ هذا الملك يكون نذيراً معه، أو على الأقل يلقى إليه كنز -نوع من الأموال والقناطيل المقنطرة الكثيرة، يسمى الكنز إذا كانت الأموال كثيرة- أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة -بساتين- يأكل منها؛ قال الله تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]

شوف التخبط عندهم، تخبط! يعبدون مع الله آلهة، يتهمون القرآن بأنه إفك وأساطير، ويقدحون في محمد: لماذا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ ليش ما يكون معه ملك، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة؟ وآخر شيء اتهموه بأي شيء؟ يقولون: هذا الرجل مسحور، هذا محمد مسحور؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]

شوف، ما قالوا: وقال الكفار، **قال**: ﴿الظَّالِمُونَ﴾؛ لأن كلامهم هذا هو وقع في الظلم، ولذلك قال الظالمون. ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾، هذا محمد رجل مسحور، قد سُحر، ما يقول هذا الكلام، ولا يفرق بين الزوج والمرأة إلا الساحر، هذا سحر. وشوف التخبط عندهم؛ مرة يقولون محمد كاهن، ومرة يقولون شاعر، ومرة يقولون ساحر، والآن يقولون مسحور! هل هو ساحر ولا مسحور؟ كل هذا تخبط منهم، لا يدرون مساكين أين يذهبون. قال الله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩]

انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا؛ يعني أمثال وأقوال عجيبة لا يقبلها أي شخص. إذا رأى أي واحد من العرب -من غير العرب- لم يرَ محمد صلى الله عليه وسلم في حياته ولا مرة، يعرف أنه صادق

ويعرف أن ما أتى به هو كله خير، كيف تقولون له هذه الأمثال وتتهمونه بالكذب وتتهمونه بالافتراء على الله؟ ولذلك قال الله سبحانه: ﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾؛ طريقاً ولا منهجاً واضحاً يسلكونه ليصححوا عقيدتهم ويصححوا مواقفهم، ضلوا، ما يدرون أين يذهبون، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾.

قال الله تعالى رداً عليهم: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠]

«تَبَارَكَ» سبحانه وتعالى، وتعالى وعظم خيره وبركاته، لو أراد الله سبحانه وتعالى أن يرفع قدر محمد لما أحد منعه؛ إن شاء سبحانه وتعالى جعل لك خيراً مما يقولونه، خيراً من أن يأتي معك ملك أو كنز أو جنات؛ لو أراد الله فعلاً لجعل له جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً. لكن الله أراد ما هو أعظم وما هو خير: أعطاك النبوة والرسالة ورفعك وجعلك سيد بني آدم، وجعلك خير الرسل وأشرفهم. كيف يقولون هذا الكلام وهم لا يدرون؟ لو أراد الله جعل لك هذه الأمور، لكن الله أراد لك الخير وصرف عنك الدنيا ليعطيك الآخرة، وسوف يعطيك ربك يعطيك فترضى في الآخرة.

طيب، لعلنا نقف، ما نطيل عليكم؛ لأن بعدها الآيات تتحدث عن اليوم الآخر، وأن أقوالهم هذه - حتى نفهمها- أقوالهم هذه في القدح بالله عز وجل وبرسالته وبالقرآن وبمحمد، هم يعرفون، ولو سألت واحد منهم من أهل مكة عن حقيقة محمد وعن القرآن لقال لك: والله إنه على حق؛ لكن كل هذا يدور على أي شيء؟ لا يريدون الحق لأنهم لم يعترفوا بالبعث والجنة والنار، كذبوا بالساعة ولم يعترفوا بها، ولم يقروا ببعث ولا جنة ولا نار، هذا هو السبب الذي منعهم.

طيب لعلنا نقف عند هذه الآية إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده بإذن الله، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الفرقان ١١ - ٢٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم هو يوم اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة، درسنا المعتاد مع تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي سورة الفرقان التي ابتداها الله بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

تحدثنا عن السورة في اللقاء الماضي أن القرآن فيه سورتان مفتتحة بـ **(تبارك)**؛ هذه السورة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، والسورة الثانية هي سورة تبارك الذي بيده الملك التي تبدأ، التي هي بداية جزء تبارك: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

وعرفنا أن كلمة **(تبارك)** هذه لا تطلق إلا على الله، لا يجوز للبشر أن يقول بعضهم لبعض تبارك الله علينا؛ تبارك هذه الصيغة لا تطلق إلا على الله تعالى وتعاظم وتقدس وتبارك، أما البشر تقول أنت بركة علينا ووجودك فيه بركة وأنت مبارك؛ هذه كلها جائزة، فيك بركة، أنت مبارك يعني، أما تبارك فهذه تكون لله. طيب السورة هذه سورة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، سورة الفرقان من عنوانها واضح.

يعني هي سورة الفرقان يعني تتحدث عن أي شيء؟ تتحدث عن القرآن، عن القرآن وبيان عظمة هذا القرآن وأثره الطيب وآثاره الحسنة، وعن بيان موقف هؤلاء المشركين الكفار، هؤلاء المشركين المعاندين ماذا كان موقفهم من القرآن الكريم؟ لو تلاحظ يعني سورة الفرقان يعني تحدثت في أول الأمر، يعني تحدثت في أول أمر عن القرآن الكريم وعن تعظيم الله سبحانه وتعالى وتألهه، تعظيمه وتقديسه وصفاته بصفات الكمال سبحانه وتعالى؛ في تلاحظ في أول السور، يعني في أول الآيات يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ثم قال من هو الذي نزل الفرقان؟ قال الذي...

يعني الآن عندنا السورة هذه السورة سورة الفرقان مثل ما ذكرنا لكم، عظم الله سبحانه وتعالى نفسه وأثنى على نفسه بقوله: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

لما بين عظمة الله سبحانه، الله عز وجل بين عظمته وأن له ملك السماوات والأرض، وأنه جل جلاله لم يتخذ ولداً؛ لأن الذي يتخذ الولد هو المحتاج، ولم يكن له شريك في الملك، ما معه شريك له الملك حتى يعبد من دون الله، وهو الذي خلق الخلق كله وخلق كل شيء فقدره تقديراً؛ يعني خلقه بحكمة، ما خلقه هكذا، خلقه خلقاً مقدراً بحكمة عظيمة؛ فهذا الخلق العظيم الذي خلقه الله لم يخلقه عبثاً.

ولاحظ أن الله سبحانه وتعالى يعني قال في الآيات التي بعدها **قال**: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

أي هؤلاء المشركون اتخذوا من دون الله آلهة، اتخذوا من دونه يعني اتخذوا أصناماً ومعبودات من دون الله يعبدونها من دون الله، مخلوقات؛ لا، هذه المخلوق هذا المخلوق الذي اتخذوه إلهاً من دون الله لا يخلق شيئاً حتى يدبر نفسه أو غيرها، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يملكون لأنفسهم لا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؛ كل هذا في مقابل عبادة الله ومقابل عبادة هذه الأوثان، يعني مقارنة عظيمة لا يمكن أن للعقل السليم لا يمكن أن يقول يعني أن يجمع بين هذا؛ لا شك أن بينهما فرق وبون شاسع جداً أن تساوي هذا المخلوق بخالق السماوات والأرض، أن تساوي هذا الضعيف الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً بخالق السماوات والأرض الذي له ملك السماوات والأرض الذي يوصل الضر لمن يشاء ويوصل النفع لمن يشاء، الذي يملك الموت والذي يملك الحياة والذي يملك النشور هو الله، وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر. طيب هذا كله تحدثنا عنه يعني في لقائنا الماضي.

كل هذا تحدثنا عنه في لقاء الماضي لما تحدثنا في أول السورة وبينا يعني موقف المشركين من القرآن؛ يعني هم موقفهم من الله أنهم يعبدون أصنام وآلهة من دون الله، ثم موقف هؤلاء المشركين من القرآن أنهم اتهموا القرآن وهو كلام رب العالمين، أجل كلام على الإطلاق وأعظم وأقدس كلام، يقولون فيه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلاً؛ وقالوا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون؛

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤].

هؤلاء جاءوا ظلماً وجاءوا زوراً؛ كيف يعني يفعلون مثل هذه الأفعال ويقولون مثل هذه الأقوال الفاسدة الباطلة؟ طيب بعد ما مرت هذه الآيات معنا ونحن تحدثنا عنها، حتى وصل الأمر بهم إلى اتهامهم الرسول واستهزائهم بالرسول صلى الله عليه وسلم لما قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧ – ٨].

يقولون ليش هذا بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟ نحن نريد ملكاً أو على الأقل لولا أنزل معه ملك يكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة يأكل منها. شوف العقول الصغيرة! يظنون أن النبي لا يكون نبياً إلا إذا كان معه ملك، أو أُلقي إليه كنز، أو كان له جنة؛ هذه العقول! ثم في الأخير ماذا؟ من تخبطهم قالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

يعني هم وصل بهم الأمر إلى أن وصلوا إلى أن اتهموا النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر؛ كيف تعرفون محمداً صلى الله عليه وسلم وتعرفون أخلاقه وتعرفون مكانته عندكم وصدقه وعقله، كان عقله الكبير، تأتون وتتهمونه بأنه رجل مسحور؟ قال الله عز وجل رداً عليهم: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩].

فضلوا ما استطاعوا أن يسلكوا طريقاً واضحاً، فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً، ما يدرون أين يذهبون، فرد الله عليهم **قال:** قل لهم يا محمد: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠].

لو أراد الله لك الخير لا جعله؛ الجنة، هم يقولون جنة يأكل منها، جنة، وهو قال الله عز وجل: جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك القصور، وليس قصراً ولا قصرين. ثم بين الله سبحانه وتعالى الحكمة والسبب والعلة في قولهم يتهمون القرآن بأنه سحر وبأنه افتراه، ويتهمون الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه رجل مسحور، ويفعلون هذه الأفاعيل ويقفون هذه المواقف السيئة، السبب هو كله راجع لأي شيء؟

راجع لتكذيبهم بالبعث والجزاء والجنة والنار، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١].

هم كذبوا بالساعة، كذبوا بالبعث وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت وما فيه جزاء ولا فيه جنة ولا فيه نار، فكفروا بذلك؛ فلذلك لما جاءهم الحق من عند الله وهم يعبدون الأصنام ويعبدون الآلهة، ماذا قالوا؟ قالوا: إن هذا إلا إفك افتراه، فاتهموا القرآن بالإفك والكذب، واتهموا الرسول بالسحر، واتهموا الرسول بأنه كذاب؛ فقال الله عز وجل لا يا محمد ولا القرآن، أنتم عندكم معتقد سيء وهو كفركم باليوم الآخر، هذا هو السبب: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾.

قال الله عز وجل واعتدنا وعيد شديد لهم: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ يعني جهنم المتلهبة المتسعرة تنتظرهم، تنتظر هؤلاء الذين كذبوا بالساعة. يقول الله عز وجل في تهديدهم وتخويفهم وإرعابهم: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

يقول هذه النار التي تنتظرهم إذا رأتها من مكان بعيد، المسافة بعيدة وهي تراهم فإنها تتغيظ عليهم من شدة الغضب؛ التغيظ هو شدة الغيظ والغضب، يعني هي تغيظ عليهم بشدة وقوة وغضب شديد عليهم إذا رأتها من مكان بعيد.

ولاحظ أن الله عز وجل يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾، فهل النار ترى وتبصر؟ نقول: نعم، إن الله عز وجل **قال:** ﴿إِذَا رَأَتْهُم﴾، ومادام أن الله أثبت لها الرؤية وأنها ترى إذاً نحن ماذا؟ نحن يجب علينا أن نصدق وأن نؤمن؛ نؤمن لأن أحوال الآخرة، لا تتصور أن النار تراك، نعم لها عينان نعم نعم لها عينان تبصر. هل تتكلم؟ نقول: نعم تتكلم، ما الدليل؟ قال إن الله عز وجل قال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

تقول هل من مزيد؛ إذاً تتكلم مثل ما أن الجوارح يوم القيامة تتكلم، والجلود تتكلم، والعين تتكلم، والأذن تتكلم، قال تعالى: ﴿تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

كل هذه تحصل يوم القيامة تتكلم بقدرة الله سبحانه. قالوا لما أنطقتنا؟ قالت: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

هو الذي أنطقها جعلها تتحدث؛ ففي الدنيا تحدثت أشياء جامدة جمادات حدثت في الدنيا فكيف بالآخرة؟! النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب على جذع، فلما صنع له منبر وصعد المنبر سمع له حنين، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم وضمه إلى صدره حتى سكت هذا الجذع وهو جذع، يعني شوف كيف يتكلم! والنبي صلى الله عليه وسلم وضع الحصى في أصبعه وبدأ يسبح الحصى، والأبل جاء يشتكي للنبي صلى الله عليه وسلم أن صاحبه يجيعه، والذئب تكلم مع النبي؛ فهذه الحيوانات والجمادات نؤمن في الدنيا بأنها تكلمت مع النبي فكيف بالآخرة؟! لا نقول الآخرة، ترى النار تراهم ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا﴾، أصوات قوية وغضب شديد وزفير.

والزفير ما هو؟ الزفير هو الصوت الذي يخرج من الإنسان بقوة، يظهر المرء عند الولادة تحدث صوتاً قوياً، فالزفير والشهيق يقال للحمار أكرمكم الله، حمار صوت الحمار نهيق الحمار، زفير وشهيق أو شهيق وزفير، وهو يشهق ثم يدفع، يسحب الهواء إلى الرئتين ثم يدفعه بقوة، فهذا هو الزفير؛ دفع النفس من داخل الجسم أو من الباطن إلى أن يدفعه بقوة. فالنار كما قال الله عز وجل في سورة أخرى **قال:** ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦].

فالنار تزفر بقوة وتدفع الهواء الحار عليهم حتى يصيبهم ما يصيبهم من شدة هذه النار. قال الله عز وجل: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾، ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

أهل النار أصحاب النار يلقون من مكان ضيق في النار، تضيق عليهم المداخل وهذا أشد في التعذيب؛ لما تفتح لك الأبواب مسرحة واسعة غير لما يضيق عليك المدخل بقوة، هذه إهانة لهم وإذلال لهم، إذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين يعني قد شدت أيديهم إلى أعناقهم وربطت، يؤخذون بالنواصي والأقدام، ربطت أقدامهم وشدت أيديهم وربطت في أعناقهم، ويؤخذون مقرنين مع هذا الضيق ثم يلقون في نار جهنم، فإذا ألقوا فيها دعوا هنالك ثبوراً؛ يدعون بالهلاك لكن ما ينفع، ما في موت لا يموت فيها ولا يحيى، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٣].

يدعون على أنفسهم بالهلاك؛ قال الله عز وجل: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤].

ما يكفي، ادعوا ثبوراً كثيراً ولا ينفع، لو تدعو بالهلاك لا ينفع، دعاؤك لا يستجاب ولا يسمع له فلا ينفع. كل هذا أيها الإخوة حقيقة أمور عظيمة جداً، أمور عظيمة، كل هذا بسبب تكذيبهم اتخاذهم آلهة من دون الله وعبادتهم من دون الله وهو خالقهم، تكذيبهم بالقرآن، تكذيبهم بالرسول، تكذيبهم باليوم الآخر؛ هذه نتيجة من يكذب، من يكذب باليوم الآخر. قال سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾.

قال الله سبحانه وتعالى مقارنة بين بين يعني دار النجاة والسلامة ودار القرار ودار الفوز العظيم، ودار الهلاك والثبور ودار العذاب، شبه المقارنة **قال:** ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ [الفرقان: ١٥].

قل لهم يا محمد: أذلك الذي ذكرناه لكم الآن ورأيتموه في نار جهنم، ذلك خير أم جنة الخلد؟ أم جنة الخلد التي وعد المتقون؟ كيف تقارن بين هذا وهذا؟ ذلك الذي وصفناه لكم من العذاب خير أم جنة الخلد التي هي لأهل التقوى والصلاح؟ التي وعد من؟ التي وعد المتقون أهل التقوى والصلاح والاستقامة والطاعة والخوف من الله، هذه هي دارهم، هي دارهم ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾؛ جزاءً على أعمالهم ومصيراً يرجعون إليه، هذه تنتظرهم. قال الله عز وجل: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٦].

لهم فيها ما يشاءون، كل ما يدعون ويطلبون ويتمنونه، ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ﴾ مقيمين أبداً، ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾؛ أي هذا النعيم وهذا الوعد وهذا الذي ينتظره المتقون وعداً مسؤولاً ان يسأله أهله، يدعون ربهم يقولون: ربنا اغفر لنا، ربنا أدخلنا الجنة، يسألون الله يقولون: ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك، هذا هو الذي ينتظرهم، والملائكة تقول: ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم، فهو وعد من الله والعبد والمؤمن والتقي يسأل ربه هذا الوعد.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧].

إعادة الآيات إلى موقف المشركين يوم القيامة وتعطيك صورة من الصور يوم القيامة، شوف كيف الصورة! الله سبحانه وتعالى يقول ويوم القيامة يحشرهم جميعاً، هؤلاء المشركين ويحشر معهم معبوداتهم،

أصنامهم وأولياءهم الذين يعبدون الملائكة، والذين يعبدون عيسى، والذين يعبدون المعبودات والأولياء من البشر، والذين يعبدون الأصنام، كلها تحشر جميعاً أمام الله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾؛ مخاطباً من؟ مخاطباً هذه المعبودات التي اتخذوها آلهة، فيقول لهذه المعبودات: أنتم أضللتم عبادي أم هم ضلوا السبيل؟ من الذي أضلهم؟ أنتم أضللتموهم؟ أنتم أيها الذين تعبدون من دون الله، هل أنتم الذين أضللتم عبادي أم هم ضلوا السبيل؟

قالوا سبحانك، عيسى عليه السلام إذا جاء يوم القيامة تبرأ من الذين يعبدونه، هم الآن كثير من النصارى يعبدون عيسى يقولون عيسى هو الله ويقولون عيسى ابن الله فيعبدونه اتخذوه إلهاً من دون الله، فعيسى يوم القيامة لما يقول الله له: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ **قال:** سبحانك ما كان سبحانك ما ينبغي، وهنا يقول سبحانه وتعالى سبحانك، قالوا سبحانك؛ الملائكة وعيسى وكل من يعبد من دون الله إذا جاء يوم القيامة وعرضهم الله قالوا: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].

ما ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء، يقول ما يجوز لنا ولا نسمح لأنفسنا أن نتخذ أولياء من دونك، ولا يمكن أن نحن نعبد إلا أنت، عيسى يقول لا نعبد إلا أنت، وهذا يقول لا نعبد إلا أنت، كيف يمكن أن نعبد غيرك وهم يعبدوننا؟ ما رضينا بعبادتهم، ولكن هؤلاء أي المشركين متعتهم يا رب العالمين بالصحة والعافية والخير والرزق والمال، متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر، نسوا طاعتك ونسوا عبادتك حتى كانوا قوماً بوراً، قوماً هلكاً حتى هلكوا.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩].

يقول الله عز وجل للمشركين: هؤلاء الذين تعبدون كذبوكم، كذبوكم بما تقولون، أنتم تقولون نعبدهم من دون الله وهم يقولون ما رضينا ولم نسمح ولم نرض أن تعبدونا من دون الله، فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً، ما تستطيعون في هذا اليوم العظيم أن نصرف عنكم العذاب ولا

أحد يستطيع أن ينصركم، ومن يظلم بعبادته من دون الله، من يظلم ويفعل هذا ويشرك نذقه عذاباً أليما، من يفعل ذلك يلقى جزاءه عند الله فيذوق عذاباً أليما.

قال الله سبحانه وتعالى لما قال المشركون: ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق واستنكروا، رد الله عليهم **قال:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٠].

كل الرسل نوح وما بعده كل الرسل يمشون في الأسواق ويأكلون الطعام، مش شيء مستغرب، وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، لكن هم بشر مثلكم لكن الله سبحانه اختاره واصطفاهم وأوحى إليهم ليدعوكم إلى النجاة ويدعوكم إلى السلامة، هذه وظيفة الأنبياء يبلغون رسالات ربهم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾؛ يقول هذه أنتم بعضكم لبعض فتنة، فالغني مفتون بنفسه، والفقير مفتون بنفسه، والمعافى مفتون، والمريض مفتون، يفتن بعضهم ببعض، جعلنا بعضكم لبعض فتنة، أتصبرون؟ من الذي يصبر ويحتسب الأجر؟ يؤجر على مصيبته أو يؤجر على ما يبتلى به، أتصبرون يعني اصبروا وتحملوا، وكان الله وكان ربك بصيراً، أي بصيراً بأعمال عباده عالماً بهم سبحانه وتعالى، عالماً بأحوالهم مطلعاً عليهم.

السورة لا تزال تتحدث عن أحوال المشركين وعن مواقفهم السيئة وترد عليهم وتبين مواقفهم السيئة وتبين من الذي على الحق ومن هو الذي على الباطل، كل ذلك تدور السورة حوله. يأتي الحديث إن شاء الله نستكمل فيه ما تبقى من هذه السورة في لقاءات قادمة، أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الفرقان ٢١ - ٣٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو اليوم الحادي والعشرون من شهر ربيع الآخر من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة.

درسنا المعتاد في كل يوم ثلاثاء بعد صلاة المغرب، نجتمع على كتاب الله سبحانه وتعالى قراءةً وتدبراً وتأملاً وتفكراً ودراسةً لمعانيه والوقوف على أسراره التي لا تنقضي أبداً. السورة التي تناولناها في اللقاء الماضي وفي هذا اليوم هي **(سورة الفرقان)**. والفرقان هو القرآن، والقرآن هو الفرقان؛ فالقرآن سمي **(القرآن)** لأنه يُقرأ ويُتلى على الألسنة، و**(الفرقان)** سمي الفرقان لأن الله فرق فيه بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والسعادة والشقاوة، وأهل السعادة وأهل الشقاوة.

والقرآن يسمى كذلك **(الذكر)** لأن فيه التذكر والمواعظ وتذكير الناس بما ينفعهم، وهو ذكر وشرف؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[الزخرف: ٤٤]

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ١٠]

أي فيه شرفكم. والقرآن هو **(الكتاب)**؛ قال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢]

وسمي كتاباً لأنه مكتوب في المصاحف.

(سورة الفرقان) كما اتضح معنا هي تعالج قضايا عقدية مهمة؛ قضية الإيمان بالله، الإيمان بالله وبألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله، والإيمان بالملائكة، والإيمان بالرسل، والإيمان بالقرآن، والإيمان باليوم الآخر والجزاء والحساب والبعث والجنة والنار، هذه السورة تدور حولها.

وأيضاً ترد على مزاعم المشركين الباطلة؛ الذين قدحوا وعبدوا من دون الله آلهة لا تنفع ولا تضر، وقدحوا في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وقدحوا في القرآن الكريم واتهموه بأنه مفترى وبأنه كذب

وبأنه سحر، ولا يزالون يقدحون ويتكلمون. والسورة ترد عليهم بقوة، وحججهم باطلة، والله يرد عليهم من حججهم الباطلة واعتراضاتهم التي لا تنقضي ولا أساس لها ولا غاية لها ولا هدف.

إنهم يقولون كما في هذه الآية، الآية الحادية والعشرون من السورة، يقولون؛ ماذا قال الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]

هذه حجتهم؛ ليش قالوا يا محمد إن كنت نبياً ورسولاً من عند الله فلماذا لا تأتينا بآية مثل ما جاء بها الرسل السابقون؟ فإن صالحاً أخرج ناقة عشراء من صخرة صماء، وموسى يلقي عصاه فتنقلب حية، أنت ما عندك آية، أين آيتك؟ أين آياتك الحسية؟ فبدأوا يزعمون أنهم لا يصدقون بالرسول ولا يؤمنون حتى يأتيهم بآية يرونها عياناً .

ما هي الآية من تحديهم؟ يعني كل وقت يأتون باعتراضات، من اعتراضاتهم أنهم قالوا: لماذا لا تأتينا الملائكة؟ يعني بدلاً من أن تأتي أنت، تأتي الملائكة؛ أو أن الملائكة تأتي لتخبرنا بأنك رسول من عند الله، أو يأتي الله نرى ربنا فيكلمنا ويقول إن محمداً رسول الله! هذا تعنت منهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾؛ هذه أول صفة من صفاتهم؛ أول صفة من صفاتهم أنهم لا يعملون أو لا يؤمنون بلقاء ربهم، ولا يرجونه ولا يتمنون لقاء الله؛ لأنهم لم يستعدوا لهذا اليوم، ولم يعترفوا بهذا اليوم، لا يرجونه ولا يخافون من هذا اللقاء، لا يرجون ما عند الله في هذا اللقاء من السلامة والنجاة والنعيم، ولا يخافون من لقائهم في هذا اليوم بما أعد الله لهم من العذاب الأليم، لا يرجونه.

فلما نسوا هذا اليوم، وأيضاً تناسوا هذا اليوم ولم يعترفوا ولم يقروا بهذا اليوم، بدأوا يعني يضيعون الوقت في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن كنت صادقاً يا محمد فأنزل علينا الملائكة تخبرنا بأنك رسول من عند الله، أو يأتي ربنا عياناً فيخبرنا بأنك رسول وأنه أرسلك.

قال الله عز وجل: ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]

وصل بهم الغرور والإعجاب بأنفسهم والتكبر، شدة المعصية وشدة وقوة البأس وقسوة القلب؛ إذ قست قلوبهم واشتد بأسهم بألا يقبلوا الحق، عتواً كبيراً، ليس عتواً عادياً بل عتواً كبيراً. فهم لا يريدون

الحق ولا يريدون الوصول إلى الحق؛ فهذا عتو كبير لأن ليس مقصدهم الوصول للحق، لو كانوا يريدون الحق لقبلوا ما جاء به محمد، لكنهم يريدون التعنت والاستكبار ورد الرسالة.

قال الله سبحانه وتعالى رداً عليهم: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢]

كأن الآية تقول: إنكم أيها المعاندون المستكبرون سترون الملائكة، سترونها ولكن متى؟ يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم؛ ليست بشارة لهم بل بالحزن عليهم. ليست بشارة لهم إذا رأوا الملائكة يوم القيامة، وإذا رأوا الملائكة عند الاحتضار وتحضرهم الملائكة عند الاحتضار.

من الذي يقبض أرواحهم؟ الملائكة؛ ما الذي يحضر قبل قبض الأرواح؟ الملائكة، يأخذون روحه؛ فالملائكة تأتي وتأخذ روح الكافر، ملائكة العذاب وتأخذها وتضعها في كفن وحنوط من النار.

الملائكة يأتون هؤلاء الكفار في قبورهم يعذبونهم، يأتيهم منكر ونكير يسألونهم: من ربك؟ ما دينك؟ وتأتيهم الملائكة بعدما يبعثون من قبورهم تأخذهم الملائكة وتسحبهم على وجوههم وتسلمهم إلى خزنة النار . هذه التي ينتظرونها حين يقولون: لولا أنزل علينا الملائكة! فهذه الملائكة تأتي.

قال الله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾، ما **قال:** يوم ينزلها، **قال:** ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾؛ يعني إذا رأوها لا بشرى لهم يومئذ، لا بشرى لهؤلاء المجرمين ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾.

من الذي يقول ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾؟ قيل إن الملائكة هي التي تقول؛ تقول الملائكة لهم: لا بشرى لكم أيها المجرمون لا بشرى لكم هذا اليوم، بل لكم العذاب الذي تنالونه. وتقول لهم الملائكة حجرا محجوراً؛ أي قد منعتم وحرّمت عليكم السعادة والطمأنينة ومصيركم إلى النار، وحرّمت عليكم الجنة ومكانكم محجور، وهذا مكانكم وهذا مصيركم إلى نار جهنم؛ هذا رأي بعض المفسرين.

وبعضهم يقول إن الذين يقولون ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ هم الكفار هم المجرمون؛ إذا رأوا الملائكة يقولون حرام علينا أن تعذبونا، ويبدأون يمتنعون من العذاب ولكن الملائكة لا تعطيهم فرصة. والاية تحتمل أن يكون القائل هنا الملائكة، أو يكون هؤلاء المجرمون.

قال الله عز وجل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]

قدم الله إلى ما عمل هؤلاء من مظاهر الخير التي يدعونها؛ مثل العطف على الفقراء والمساكين والأرامل والعجزة، وما يسمونها بـ(الإنسانية) وما يقومون به من الإحسان والمصالح لهؤلاء؛ كل هذه لا تنفعهم، لا تنفعهم لأنها قائمة على الكفر والشرك، ولم تقم على الإخلاص لله والمتابعة للرسول .

وكل عمل يدعي صاحبه أنه بر وخير وإحسان لا يقوم على أساس الإخلاص والمتابعة، فإن الله يزيله ولا يقبله؛ ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ من مظاهر الخير والبر والإحسان ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾.

والهباء ما هو؟ هو ما يُرى في ضوء الشمس؛ لما تفتح الشباك أو النافذة وتشوف الآن ما يتطاير في ضوء الشمس، هذه الذرات الدقيقة التي تتطاير هي التي تسمى بالهباء، هباءً منثوراً؛ يعني أعمال كلها تتلاشى وتسقط وتزول ولا تنفع في الآخرة، لا تنفع لأنها لم تقم على أساس الإخلاص والمتابعة، فهي باطلة مردودة؛ تذهب كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، لا يبقى لها أثر.

قال الله عز وجل لما بين مصير هؤلاء الكفار إذا رأوا الملائكة ومصير أعمالهم، ذكر ما فيه أهل الجنة؛

قال: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]

أصحاب الجنة يومئذ -يوم القيامة- مستقرهم ومنازلهم في الجنة أفضل وخير من هؤلاء الكفار، خير؛ وما في مقارنة أصلاً حتى نقول هذا خير من هذا، وإنما من باب تقريب الصورة فقط، تقريب الصورة؛ وإلا فلا يمكن أن نقول هذا خير من هذا، لا؛ ما فيه مقارنة أبداً ولا في موازنة، بل أهل الجنة هم في أعلى عليين وأهل النار في أسفل سافلين.

يقول: ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾؛ وأحسن ما قيل؛ أي أحسن راحة، والمقيل هو وقت القيلولة وهي راحة للإنسان لما يرتاح فيها. قال بعض المفسرين إن وقوف المؤمنين يوم القيامة في حسابهم وقوف قليل الوقت، كبين صلاة العصر إلى غروب الشمس أو كمقدار صلاة، هذا جزاء حسابهم ثم بعد ذلك يصيرون إلى الجنة ويستقرون في الجنة، ويشعرون بالراحة كوقت المقيل كوقت القيلولة؛ يرتاحون بعد العناء والتعب الذي شاهدوه في عرصات يوم القيامة.

والجنة ما فيها نوم، الجنة لا ينام أهلها لا ينامون؛ فلذلك النوم هو أثر التعب والجنة ما فيها تعب، ولكن الله عز وجل يصور راحتهم وانشراح صدورهم ونعيمهم، يصور هذا كأنهم جلسوا في وقت القيلولة؛ الراحة التي يرتاح فيها الإنسان ويشعر بالطمأنينة والراحة، وإلا فلا قيلولة هناك.

قال الله سبحانه وتعالى مهدداً هؤلاء الكفار، لما ذكر مصيرهم وذكر مصير المتقين **قال:** ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾[الفرقان: ٢٥]

أي واذكر يا رسول الله، يا محمد لهؤلاء وهددهم؛ يوم تشقق السماء بالغمام، لما تتشقق السماء بالغمام ويظهر من فتحاتها السحاب الذي يسمى بالغمام، وهو السحاب الأبيض الرقيق، وينزل الله سبحانه وتعالى للفصل والقضاء بين الناس، ينزل الله سبحانه وتعالى النزول الذي يليق به، يأتي الله سبحانه للفصل بين عباده؛ قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]

وقال جل وعلا: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[الفجر: ٢٢]

فينزل الرب سبحانه وتعالى نزولاً يليق به، نزولاً يليق به سبحانه وتعالى، وتنزل الملائكة؛ ملائكة السماوات ينزلون نزولاً يعني صفوفاً، تنزل ملائكة كل سماء حتى ينزلون على الأرض ويحيطون بالأرض ويحيطون بالخلائق في المحشر، ويأتي الله سبحانه وتعالى لفصل القضاء بين العباد كما يليق به، يقضي بين عباده سبحانه وتعالى.

قال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾[الفرقان: ٢٦]

الملك للرحمن؛ خلاص تزول ملوك الدنيا ويصبح الناس كلهم على طبقة واحدة؛ الأمير والمأمور، والرئيس والمرؤوس، والملك والرعية، الفقير والغني، والضعيف والقوي، كلهم على طبقة واحدة وكلهم على درجة واحدة؛ قال سبحانه: ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[غافر: ١٦]

هذا لما يظهر الله سبحانه وتعالى بملكه في هذا اليوم، يوم الدين، يكون هذا اليوم يوماً عسيراً على الكافر؛ على الكافر يوماً صعباً شديداً على الكافرين؛ لما ينالهم من العذاب والعقاب الأليم، ولما يواجهونه من الأمور الصعاب التي لا يتحملونها لأنهم لم يستعدوا لهذا اليوم .

وفي هذا اليوم، يعض الظالم الذي ظلم نفسه يعض على يديه ندماً وتحسراً. في الدنيا، الظالم أو الذي قد ضيع نفسه يعني النادم الذي يندم يعض على أنامله، على أطراف الأصابع؛ أما يوم القيامة ما يعض على أصابعه، بل يتجاوز الأصابع ويعض على يديه من شدة التحسر والندم؛ يعض على يديه يقول: ﴿وَيَوْمَ

يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]

يندم ويقول ليتني صاحبت النبي صلى الله عليه وسلم وتبعته وتبعت أصحابه وكنت على طريقته وتمسكت بسنته، لكن لا ينفع التحسر. ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً؛ صاحبه وشيطانه من الإنس والذي ضيعه واتخذه خليلاً؛ قال سبحانه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]

يقول: لقد أضلني عن الذكر، أي ذكر الله وعن دعوة النبي بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً. الشيطان يخذل الإنسان إذا جاء يوم القيامة، يخذله ويتركه؛ قال سبحانه مبيناً مقالة الشيطان لما قضي الأمر: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾ [إبراهيم: ٢٢]

هذا الشيطان يخذل ويخدر الإنسان يوم القيامة.

قيل إن هذه الآية نزلت في رجل من المشركين يقال له **(عقبة بن أبي معيط)**؛ هذا عقبة كان عدواً للرسول صلى الله عليه وسلم وعدواً للدعوة، وكان صاحباً للرسول قبل ذلك قبل الدعوة، وقد صاحب النبي قبل الدعوة. وفي يوم من الأيام دعا النبي صلى الله عليه وسلم لطعام عنده وقال: يا محمد لعلك تزورني وتأكل من طعامي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **«أَبَى أَنْ آكُلَ مِنْ طَعَامِكَ حَتَّى تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ»**.

فلما استجاب للرسول صلى الله عليه وسلم أكل النبي طعامه ثم ذهب، فعلم **(أبي بن خلف)** وهو من رؤوس المشركين؛ فلما علم جاء إلى عقبة بن أبي معيط وقال له: صبأت يا عقبة؟ **قال:** لا والله ما صبأت، ولكنه رجل أبى أن يأكل من طعامي حتى أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يأكل من طعامي فشهدت له. فقال أبي: لا أرضى عنك أبداً ولا وجهي من وجهك حرام حتى تذهب إلى محمد وتبصق في وجهه! فقام عقبة وذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وبصق في وجهه الشريف. فقال النبي صلى الله عليه وسلم متوعداً إياه بأنه إن وجده خارج الحرم ليضربن عنقه.

فمرت الأيام وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ولما جاءت غزوة بدر كان عقبة مع المشركين وأُسر في المعركة، فلما مروا بالأسرى قال النبي صلى الله عليه وسلم لما رآه: «أَمَّا هَذَا فَيُقْتَلُ صَبْرًا» فقتله علي بن أبي طالب صبراً وهو أسير. ونزلت فيه هذه الآية؛ قيل إنه يعض على يديه ويقول: ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً، ويقول: ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً.

وفي هذه الآية بيان واضح بأن الصاحب؛ الذي لا يعينك على الخير، والذي يعينك على الشر ويدلك على الشر يجب عليك أن تحذر منه. صاحب السوء؛ عدو لك في الدنيا وعدو لك في الآخرة، ولو أظهر لك المحبة والخلة لك في الدنيا؛ فمن يدلك على الشر هو عدوك فاحذر، احذر.

ولذلك في آية الصافات، سورة الصافات؛ قال سبحانه حكاية عن صاحب الجنة وهو يذكر قرينه في الدنيا: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥١ – ٥٧]

لأنه كان يحاول فيه أن يصرفه عن طاعة الله.

ثم قال بعد ذلك سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]

الرسول صلى الله عليه وسلم يشتكي إلى ربه ما صنعه قومه ويقول: يا رب إن قومي صنعوا كذا وكذا؛ تركوا القرآن ولم يقرأوه ولم يتدبروه، وهجروه وعادوا هذا القرآن متمادين في الإعراض عنه وترك التدبر والعمل به. النبي صلى الله عليه وسلم يشتكي إلى ربه هجر قومه للقرآن الكريم وعدم العمل به .

فإذا كان الكفار لم يؤمنوا به ولم يعملوا به، فكيف بالمسلمين؟ كيف بالمسلمين الذين يهجرون القرآن وهو كتابهم وعزهم وشرفهم؟!

تجد والله مع الأسف أن بعض المسلمين يمكن يمر عليه الشهر والشهرين والثلاثة وهو لم يختم، لم يختم القرآن. كان السلف من الصحابة والتابعين يختمونه كل أسبوع أو كل ثلاثة أيام.

النبي صلى الله عليه وسلم وجه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما لما **قال:** إني أقرأ القرآن كل ليلة. **قال:** «اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ» **قال:** إني أطيق أفضل من ذلك، إني أقدر على أكثر من ذلك. فلم يزل يوجهه حتى **قال:** «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ»؛ فوجهه إلى أن يكون الختم كل أسبوع.

وكان السلف يتخذون الأسبوع سنة في ختم القرآن؛ قال ابن مسعود رضي الله عنه: **(يُختم القرآن من الجمعة إلى الجمعة)**. وكثير من السلف يختمون القرآن كل أسبوع من الجمعة إلى الجمعة، وبعضهم يزيد فيختم كل ثلاثة أيام؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو: «لَا يَفْقَهُ مَنْ قَرَأَهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ» فلا تزيد على ذلك.

بل ورد عن بعض الصحابة في مواسم الخير كأيام رمضان والعشر أنهم كانوا يختمون كل ليلة؛ ورد ذلك عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعن سعيد بن جبير، وعن تميم الداري وغيرهم أنهم كانوا يختمون القرآن كل يوم. ولكن كما قال ابن قدامة في **(المغني)** وغيره؛ قالوا: ويُكره أن يمر أربعون يوماً على الإنسان وهو لم يختم القرآن، هذا يكره ويقع في الهجران؛ إذا مر عليك أربعون يوماً وأنت لم تختم القرآن فانت قد وقعت في هجر القرآن.

والأولى بكل إنسان أن يقرأ كل يوم جزء واحد من القرآن، فإنه إذا استمر على هذه الطريقة فإنه يختم القرآن كل شهر، وهذه أفضل طريقة وأيسر طريقة؛ أن يختم القرآن كل شهر.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]

كما جعلنا لمحمد أعداء كعقبة بن أبي معيط وغيره وأبي جهل، جعلنا لكل نبي من الأنبياء السابقين أعداءً من المجرمين، جعلها الله سبحانه وتعالى تسلية لنبيه. **قال:** ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ يهديك ويرشدك ويعينك على أعدائك، ﴿وَنَصِيرًا﴾ ينصرك عليهم ويؤيدك بنصره.

وفي هذا كله تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم لما وجد قومه يهجرون القرآن ولا يلقون له بالاً وهو يشتكي إلى الله، ويرى أعداءه بهذه العداوة؛ قال الله سبحانه وتعالى: كذلك جعلنا لكل نبي، أنت وغيرك، أعداء؛ ولكن عليك أن تصبر وأن تحتسب وأن تتحمل.

ومن مواقف المشركين المعادية واحتجاجاتهم الباطلة التي لا تنتهي؛ يقولون: لماذا ينزل القرآن مفرقاً كل يوم آية أو آيتين أو سورة أو سورتين؟ لماذا لم يكن القرآن ينزل على محمد جملة واحدة كاملاً كما نزلت التوراة والإنجيل والكتب السابقة؟ ليش؟

رد الله عليهم؛ قال جل وعلا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]

أي نزولنا إياه مفرقاً آية وسورة حسب الحوادث، وحسب الأحداث وحسب الوقائع، هو تثبيتاً للرسول صلى الله عليه وسلم؛ تثبيت له ولأصحابه، وكذلك نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك. فإذا نزلت السورة ثبتت الرسول، وإذا نزلت الآيات ثبتت الرسول وثبتت أصحابه، ويقوى إيمانهم ويقوى قلبهم ويزداد يقينهم وتطمئن نفوسهم؛ ولذلك **قال**: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي نزلناه على مهل وعلى رسل وعلى تفريق لتقرأه بهدوء وتثبت وطمأنينة لا أن تتعجل فيه.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]

كلما جاءوا بحجة وشبهة واحتجاج، يأتي الجواب بالرد عليهم بأحسن بيان وأحسن رد؛ فلا تجد أفضل ولا أحسن من ردود القرآن على هؤلاء المجرمين الذين يحشرهم الله على وجوههم يوم القيامة؛ يُسحبون على وجوههم إلى نار جهنم. بدلاً من أن يمشي على رجليه، يمشي على رأسه ووجهه!

سأل الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم: كيف يمشي الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»

قادر على أن يجعلهم يمشون على وجوههم وعلى رؤوسهم، يحشرون إلى جهنم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤]

ذلك المكان هو شر مكان، وأضل طريقاً عن الحق.

بعد ذلك، تنتقل الآيات الكريمة إلى تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بذكر قصص الأمم الماضية؛ قصة موسى وهارون مع فرعون، وقصة نوح، وكذلك قصة عاد وثمود وأصحاب الرس، وقوم لوط؛ كل هذه يسوقها الله بإيجاز لنعتبر ونتدبر.

عند هذا القدر نكتفي به إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستكمل ما تبقى من هذه السورة العظيمة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك لنا، وأن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله تعالى أعلى وأعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الفرقان ٣٥ - ٥٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء المرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله أيها الإخوة الكرام في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء ليلة الأربعاء، هذا اليوم هو اليوم الثامن والعشرون ليلة التاسع والعشرين من شهر ربيع الآخر من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة.

المعتاد في مثل هذا الوقت وفي هذه الليلة بعد صلاة المغرب في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي **(سورة الفرقان)**. والفرقان هو القرآن؛ القرآن له أسماء وله أوصاف كثيرة، أوصاف كثيرة جداً، لكن الأسماء أربعة: القرآن، الفرقان، الكتاب، الذكر؛ هذه التي جاءت في القرآن الكريم بتسميتها.

(سورة الفرقان)؛ يعني يكفي أنك تعلم أن هذه السورة تتحدث عن القرآن وعن عظمة القرآن. والآيات التي وقفنا عندها هي تدور حول الأمور التي ذكرناها في اللقاءات الماضية؛ نحن ذكرنا لكم أن الأمور التي تذكرها السورة: تقرير الإيمان بالله وحده لا شريك له وعدم الإشراك به.

والأمر الثاني: تتحدث السورة عن القرآن الكريم على أنه كلام الله وأنه منزل وليس مفترى وليس كذب وليس اختلقه محمد أو جاء به محمد. وتتحدث عن اليوم الآخر وموقف المشركين من إنكارهم اليوم الآخر، وعرض لبيان مواقف المشركين يوم القيامة وأنهم يحشرون على وجوههم وأنهم يجازون لما يستحقون. وتتحدث السورة أيضاً عن الإيمان بالملائكة، الرد على الكفار حول اعتراضاتهم على القرآن الكريم وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

الآيات التي وقفنا عندها -الآية الخامسة والثلاثون وما بعدها- هي تعرض لنا قصصاً موجزة عن قصص الأنبياء السابقين وبيان موقف أقوامهم، وتأتي في سورة النذارة؛ لأن أول السورة لما تقرأها يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]

فالسورة جاءت في تحذير وإنذار هؤلاء المشركين لئلا يحل بهم ما حل بالأمم الماضية؛ ولذلك تعرض السورة لعدد من قصص الأنبياء في بيان مصير طغاة الرسل وأتباعهم.

يقول الله سبحانه وتعالى في أول هذه القصص:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥ - ٣٦]

شوف كيف الإيجاز وبيان عاقبة المكذبين وأن الله دمرهم تدميراً!

يقول الله سبحانه وتعالى بمنته وفضله إنه منّ على موسى وقومه بأنزل عليهم الكتاب وهو **(التوراة)**، وجعل مع موسى أخاه هارون وزيراً؛ أي معيداً ومساعداً. وهارون نبي ورسول؛ لأن هارون وموسى لما أتيا إلى فرعون قالا: «**إن رسول ربك**»؛ يعني اثنين كلهم رسول، فموسى رسول وهارون رسول.

هارون رسول الله سبحانه وتعالى جعله لما قال موسى: قال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢]

فاستجاب الله، فجعل أخاه هارون وزيراً معيناً ومساعداً إلى فرعون. فقال الله عز وجل -أي لموسى وهارون-: كلاكما رسول من عند الله، اذهبا إلى فرعون الذي كذب وطغى واستكبر وعلا في الأرض، وكذب بآيات الله، وادعى الربوبية، وادعى الألوهية. اذهبا إلى فرعون وقومه؛ ﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، فرعون وقومه كذبوا بآيات الله واستكبروا وطغوا وعارضوا وامتنعوا.

فذهب موسى وهارون إلى فرعون ودعوه وقومه وأتوا بالآيات والمعجزات، ولكنه أبى واستكبر وطغى وامتنع؛ فاهلك الله سبحانه وتعالى، فأغرقه في البحر وفي اليم، وبنو إسرائيل ينظرون. أغرق فرعون وقومه وبنو إسرائيل ينظرون كيف يغرق وكيف تتلاطم الأمواج عليهم، فدمرهم الله سبحانه وتعالى، دمر فرعون وقومه وما كانوا يعيشون.

هذه قصة موسى وهارون تحديداً وعيداً شديداً لمن يكذب بالرسل، وهي رسالة لأهل مكة الذين كذبوا بمحمد وردوا رسالته وفي القرآن؛ يقول: احذروا يا قريش ويا كفار مكة لئلا يصيبكم ما أصاب الأمم الماضية.

بعدها يقول عز وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧]

أي وقوم نوح؛ لما كذبوا الرسل أغرقناهم، أي أغرقنا وأهلكنا قوم نوح لما كذبوا الرسل؛ فأغرق الله قوم نوح بالطوفان، يعني جعل السماء تنزل بماء منهمر، والأرض تفجر عيوناً، فالتقى الماء على أمر قد قدر، وغرقوا جميعاً إلا من كان راكباً في السفينة.

طيب السؤال هنا يا إخوان حقيقة، سؤال يحتاج منا إجابة: الآن نوح هو أول الرسل؛ قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، وهو أول رسول إلى الأرض نوح؛ حتى جاء في حديث الشفاعة لما يأتون إلى من يشفع لهم في الموقف، يأتون إلى نوح فيقولون: «**أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ**». فإذا كان هو أول رسول، فكيف يقول الله عز وجل: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾؟ وهم ما جاءهم إلا رسول واحد، فكيف يكذبون بالرسل جميعاً؟

هذا يقول أهل العلم فيه: إن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب بالرسل جميعاً؛ لأن دعوة الرسل واحدة، والذي يكذب بالرسول يكذب بجميع الرسل. ولذلك قال الله سبحانه وتعالى في (**سورة الشعراء**): قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]

وهو لم يأتهم إلا رسول واحد، فتكذيب الرسول الواحد كأنهم كذبوا جميع الرسل.

هذا معناه؛ لما كذبوا رسله أغرقناهم، أغرقهم الله بالطوفان وجعلناهم للناس آية؛ أي عبرة يعتبرون بها على مر السنين. **قال**: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ أي لكل ظالم، ولكل من سلك مسلكهم بالظلم وتلبس بالشرك والظلم، أعد الله له العذاب الأليم يوم القيامة عذاباً أليماً.

وهي رسالة مثل ما ذكرنا رسالة لأهل مكة المعاندين المستكبرين الذين آذوا الرسول صلى الله عليه وسلم وردوا رسالته ولم يقبلوها، يحذرهم الله على وجه الإنذار والتحذير والتخويف؛ يقول: انظروا إلى قوم نوح لما كذبوا، النتيجة أن أغرقهم الله، فلا يغرقكم في جبال مكة ويهلككم جميعاً، فقد أغرقهم وجعلهم عبرة لغيرهم، وقد أعد الله لكل ظالم العذاب الأليم في الآخرة.

قال بعدها سبحانه وتعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]

يقول أيضاً: وأهلكنا عاداً؛ وعاد منهم؟ هم قوم هود، وهم أصحاب الأحقاف، يسكنون في أقصى جنوب الجزيرة العربية وهي ما تسمى الآن ببلاد حضرموت. هذه الأحقاف يسكنها قوم عاد، وأرسل الله إليهم هوداً فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته، ولكنهم أبوا وكذبوا واستكبروا وقالوا: «**من أشد منا قوة؟**» وعاندوا. وأهلكهم الله بريح سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً؛ فاهلكتهم جميعاً، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل خاوية؛ تأخذ الشخص وترفعه إلى السماء ثم ترميه على رأسه فيدق عنقه ويهلك فيتساقط في الأرض. وكانوا قد أعطاهم الله القوة والطول، ولكنهم أبوا واستكبروا وعاندوا، فكانت النتيجة أن أهلكهم الله.

قال بعدها: وثمود؛ وهم أصحاب الحجر، أرسل الله إليهم نبيهم صالح عليه السلام، فأبوا وردوا رسالته، وحاولوا قتله، وامتنعوا من الاستجابة له وطاعته، فخوفهم وهددهم، فلما استمروا وأصروا على كفرهم أهلكهم الله بالصيحة؛ صاح بهم جبريل صيحة فتقطعت قلوبهم وماتوا جميعاً في ديارهم جاثمين. وهم يسكنون في الشمال الغربي من الجزيرة العربية بما تسمى ببلاد العلا أو **(مدائن صالح)**.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾؛ وهذه لم يأت تفصيل لها ولم ترد في القرآن إلا في موضعين: في سورة الفرقان هنا، وفي **(سورة ق)**: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ [ق: ١٢]؛ يعني ما ذكر إلا هذا فقط بالاسم، ولم تأتي تفاصيل عنهم وأين يسكنون وبما عذبوا، كل هذا لم يتكلم عنه القرآن.

فالخير لنا أن نجمل ما أجمل القرآن، ونعرض عما أعرض القرآن عنه، ولا داعي لندخل في تفاصيلها؛ وإن تكلم عنها العلماء، فقال بعضهم: إن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود لأنهم حفروا للمؤمنين حفرة وأججوا فيها النيران وألقوا المؤمنين فيها وأحرقوهم، فالرس هو الأخدود. وقيل: إن أصحاب الرس هم قوم صاحب ياسين؛ القوم الذين أرسل الله إليهم اثنين فعززهم بثالث، فجاء رجل من أقصى المدينة يسعى، فأخذوه وألقوه في البئر وأهلكوه ودفنوه. وقيل أقوال كثيرة الله أعلم بصحتها؛ لكن أكثر المفسرين على أن المراد بالرس هو البئر، وأنهم أخذوا نبياً لهم فألقوه في البئر ودفنوه فسموا أصحاب الرس. الله أعلم أين مكانهم وفي أي زمان. فأحسن ما يقال فيهم: إنه لا يعلمهم إلا الله.

قال: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾؛ أي بين هذه الأمور قرون وأمم كثيرة أهلكها الله سبحانه وتعالى بسبب كفرها وظلمها وطغيانها.

قال الله عز وجل بعد ذلك: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٩]

كل أمة من هذه الأمم أقام الله عليها الحجج ووضح عليها الأدلة ولم يتركها هكذا، وأرسل إليها الرسل فكفرت وامتنعت، فأهلكها الله ودمرها تدميراً. وتبرهم تتبيراً أي أهلكهم بالعذاب إهلاكاً لم يبقوا بعده، والتتبير هو الهلاك بالكلية.

شوف كم ذكر الآن: قوم فرعون **(أرسل الله إليهم موسى وهارون)**، وقوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرس؛ خمسة أقوام. السادس قوم لوط؛ قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۖ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]

ولقد أتوا؛ أي أهل مكة المشركون في مكة مروا على القرية وهم في ذهابهم وأسفارهم وتجارتهم إلى الشام، يمرون بقرية قوم لوط وهي قرية **(سدوم)**، وهي سبع قرى أعظمها وأكبرها قرية سدوم.

أرسل الله إليهم لوطاً عليه السلام، ودعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ودعاهم إلى أن يتخلقوا بالأخلاق الحسنة والابتعاد عن الفاحشة؛ لأنهم وقعوا في فاحشة وفي خلق سيء لم يسبقهم إليه أحد من العالمين، ما سبقهم أحد إلى هذه الفاحشة الشنيعة وهي ارتكاب الفاحشة مع الذكور **(أنهم يأتون الرجال شهوة من دون النساء)**. فعاقبهم الله بعقوبة عظيمة.

قال: ﴿أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾؛ بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قلب عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، فهذا معنى أمطرت مطر السوء.

قال الله عز وجل: ﴿أفلم يكونوا يرونها﴾؟ أين مشركو مكة وهم يمرون بهذه الديار في أسفارهم؟ ما رأوها بعيونهم؟ ولم يسمعوا عنها وتنقل إليهم الأخبار؟ بلى قد رأوها وعاينوها، ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾.

لا يرجون النشور وهو البعث والجزاء الحساب والجنة؛ ولذلك هم لا يعتبرون في قصص الأنبياء ولا في قصص السابقين كلها، لأن ليس عندهم إيمان باليوم الآخر؛ لا يرجون ولا يخافون يوم النشور ويوم

البعث والجزاء والحساب، ما يرجون هذا الشيء؛ ولذلك ما عندهم استعداد لهذا اليوم يوم القيامة حتي يحذر هذا اليوم؛ فلذلك لم يعتبروا بهذه القصص تقرأها عليهم وتذكرهم بها ولا يعتبرون بها.

قال الله عز وجل مع هذا التحذير والتخويف وذكر الأمم السابقة، ومع ذلك إذا رأوا النبي صلى الله عليه وسلم يسخرون منه ويستهزئون به: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾[الفرقان: ٤١]

يجعلونه مكان استهزاء وسخرية، يسخرون من النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون: أهذا الذي بعث الله رسولاً؟ لم يجد الله أن يبعث إلا هذا الرجل! ما قبلوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ يقولون لو أنزل القرآن واختار الله رجلاً خيراً من محمد وأفضل من كبراء مكة أو الطائف، فيستهزئون ويسخرون.

ثم يقول بعضهم لبعض: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسوفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[الفرقان: ٤٢]

يقولون: إن كاد؛ أي قارب هذا الرجل بقوة حجته وبيانه أن يضلنا ويصرفنا عن عبادة أصنامنا وآلهتنا، لولا أننا صبرنا عليها وتمسكنا بعبادتها وصبرنا لكان قد صرفنا عنها. وهذا قلب للموازين!

قال الله رداً عليهم: ﴿وَسوفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ أهم أم محمد؟ الذين يتهمون محمداً بأنه يضلهم عن آلهتهم، يقول الله عز وجل: إذا رأوا العذاب وشاهدوا العذاب في الدنيا أو في الآخرة سيعلمون حقيقة من هو الرسول ومن هو الضال، أيهم الذي على ضلال هم أم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يتعجب الله سبحانه وتعالى من حالهم، ويعجّب نبيه من حالهم فيقول: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[الفرقان: ٤٣]

أعجب يا محمد؛ أرايت من اتخذ إلهه هواه؟ يجعل الهوى بما تشتهيه نفسه وتهواه نفسه دون أن يفكر بعقله؛ كيف تجعل من تعبده بما يتناسب مع هواك؟ فهم يطيعون أهواءهم كطاعة الله، فتجد أحدهم يعبد اليوم هذا الحجر أو الصنم، فإذا اشتهت نفسه أو جاع صب له إلهاً آخر أو أكل إله التمر؛ فهواه تصرفه كيف يشاء.

فلذلك قال الله عز وجل: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾؟ هل أنت يا محمد تكون حفيظاً عليهم أو قادراً على أن تردهم عن غيهم وتدخل الإيمان في قلوبهم؟ لست وكيلاً ولا مسيطراً عليهم، وإنما أنت نذير، وهذا أسلوب للتسلية والتهوين على النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]

أتظن أن هؤلاء عندهم عقول؟ تحسب أن أكثرهم يسمعون ويعقلون؟ والله ما يسمعون سماع تدبر وتفكر، ولا يسمعون سماع استجابة، ولا يعقلون؛ بل هم جهلة لا يعرفون طاعة الله وعبادة الخالق.

ولذلك قال الله عز وجل: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾؛ ما هم إلا كالبهائم، يأكلون ويشربون وينامون ويتناكحون، لا يعرفون لماذا خلقوا وما الغاية من خلقهم. بل البهائم والأنعام خير منهم وأهدى؛ ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ لأن الأنعام حقيقة تفهم وتدرك وتعرف خالقها، وتعرف ما ينفعها ويضرها؛ فإذا أقبلت على شيء فيه خطر انصرفت عنه، وإذا وجدت شيئاً فيه منفعة لها أقبلت عليه وتعرفه.

وتجد من البهائم من تعرف صاحبها وراعيها وتستجيب له؛ كالخيول والإبل إذا ساقها انقادت معه وتستجيب له لأنها تعرف من ينعم عليها. وهؤلاء الكفار لا يعرفون من ينعم عليهم ولا يعرفون حق الله عليهم، بل هم أضل سبيلاً من الأنعام.

ثم ينتقل السياق إلى بيان آيات الله في الكون؛ ليتأمل الإنسان وينظر في عجائب هذا الخلق؛ فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ – ٤٦]

يقول الله سبحانه وتعالى: ألم ترَ؛ أي ألم تبصر ولم تعلم يا محمد ويا أيها المخاطب كيف يمد الله الظل؟

ما هو الظل المذكور هنا؟ هذا الظل هو **(نور الفجر)**؛ الفجر لما يأتي قبل طلوع الشمس يأتي بنور ممتد يسمى ظل الفجر، يمتد حتى تطلع الشمس. فإذا طلعت الشمس، بدأت الشمس تأخذ منه ويتقلص مع طلوعها، فالشمس ترتفع والظل يتناقص ويتخلص شيئاً فشيئاً؛ ولذلك **قال**: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ

دَلِيلًا﴾؛ أي دليلاً على أنه ظل زائل وذاهب، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي يتناقص شيئاً فشيئاً بارتفاع الشمس حتى يذهب.

أما الظل الذي يأتي بسبب الشمس بعد ارتفاعها؛ فتجد الأشخاص والأشجار والجبال تبدأ تمتد ظلالها، فهذا يسمى **(ظل الفيء)**؛ لأنه يرجع ويفيء من جانب إلى جانب. فهناك فرق بين ظل الفجر **(الظل)** وظلال الأشياء بعد الزوال **(الفيء)**.

ثم قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]

هذه من آيات الله؛ أن جعل الليل لباساً يغطي كل شيء بظلامه كالعباءة أو الثوب يغطي الجسم، فتستقر النفوس ويدخل كل في مستقره وسكنه، ويرتاح الناس من عناء النهار ومشقة المعاش. وجعل النوم سباتاً؛ أي راحة للبدن يستقر ويرتاح وتستعيد الأبدان والنفوس نشاطها. وجعل النهار نشوراً؛ ينتشر الناس فيه ويبحثون عن أرزاقهم ومعايشهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨ - ٤٩]

من آيات الله أنه يرسل الرياح بشرى بين يدي نزول المطر **(الذي هو رحمته)**. والرياح أربعة من الجهات الأربعة: ريح الصبا **(من الشرق)**، ويقابلها الدبور **(من الغرب)**، والشمالية والجنوبية. هذه الرياح تبشر الناس بالمطر؛ تلقح السحاب وتتقدمه وتهب في الأرض ثم ينزل المطر.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾؛ يتطهر الناس به، وينفعهم وينفع أشجارهم وينفع نباتاتهم وينفع بهائمهم، فهو رحمة وبركة. ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾؛ يحيي الله به البلاد الميتة التي أصابها الجدب والقحط فتنبت، ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾؛ جمع ناسي وهم الخلق الكثير من بني آدم، يشربون منه ويستفيدون منه في الآبار والعيون والأودية.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠]

صرفناه بينهم؛ أي وزعنا هذا المطر وفرقناه على البلاد: ينزل هنا، وينزل في جهة أخرى لتتوزع الأمطار، لماذا؟ ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ نعمة الله وعظمته في تصريفه للكون وتدبيره، فيشكروا الله، ولكن ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ بجحود النعمة ونسبتها للأقواء والأنواء.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١ – ٥٢]

أي لو شاء الله لجعل في كل قرية نذيراً، ولكنه بمشيئته وفضله أرسلك يا محمد نذيراً ورحمة للخلق جميعاً لعالمية دعوتك ورسالتك.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾؛ هؤلاء الذين يعترضون عليك ويقترحون عليك المقترحات الباطلة؛ أعرض عنهم ولا تطعهم، ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ أي بالقرآن الكريم، ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ بإقامة الحجج عليهم وتبيين الحق وقراءة القرآن وتلاوته، واستمر على تبليغ الرسالة بجهاد كبير دون توقف ولا ضعف ولا فتور.

لعله نقف عند هذا القدر أيها الإخوة إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما تبقى عنده، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الفرقان ٥٣ - ٦٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو اليوم الخامس من الشهر الخامس من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة. درسنا المعتاد في كل ثلاثاء بعد صلاة المغرب في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي **(سورة الفرقان)**؛ والآية التي وقفنا عندها -الذين يتابعون معنا في المصحف- هي الآية الثالثة والخمسون. الآية الثالثة والخمسون، وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]

يعني هذه آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات الله، يجب على المؤمن أن يؤمن بها ويعتبر بها ويتفكر فيها، ويعرف أن وراءها أيضاً نعمة عظيمة على بني آدم وعلى الخلق وعلى المخلوقات.

لو ترجع قليلاً في المصحف، يعني في الأسطر الماضية، ستجد آيات الكون الواضحة التي انفرد الله بها وذكر الله لنا هذه الآيات لنتفكر فيها ولنعرف نعمة الله علينا. شوف الآيات السابقة، ارجع قليلاً في الآية خمسة وأربعين وستة وأربعين؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الفرقان: ٤٥]

من الذي يملك هذا الظل؟ من الذي خلق الظل؟ من الذي أوجد ما الذي مده؟ ما الذي يجعله؟ ما الذي يستطيع أن يجعله ساكناً؟ ما الذي خلق الشمس وجعلها عليه دليلاً؟ هذه آية من آيات الله.

شوف الآية التي بعدها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [الفرقان: ٤٧]

على الثوب يغطي الأرض بظلامه حتى تستقر النفوس، فحمة عظيمة؛ ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ راحة للنفس بعد الشقاء والعناء والتعب، ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ يتحرك الإنسان ويسعى فيه ويطلب الرزق.

خذ آية أخرى؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]

هذه أيضاً آية عظيمة؛ نسقي به ما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً. كل هذه الآيات يذكر الله سبحانه وتعالى إلى أن **قال**: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣].

ومعنى «مَرَجَ» يعني أرسل الماء هذا على هذا وخلط هذا بهذا، فالمرج المرج هو خالط الشيء المرج وإرسال بعضه على بعض. لكن ليس العجب بأن الله يخلط الماء هذا مع هذا؛ العجب أعظم أن هذا الماء، البحرين المقصود بالبحرين يعني هذا البحر وهذا البحر، لا يقصد به بحر معين وإنما يقصد هذا الماء وهذا الماء.

فالبحر الأول ماء عذب فرات؛ يعني تستسيغه الإنسان والحيوان وتشربه وتنتفع به النباتات. شوف نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان وعلى الحيوان وعلى النبات وعلى حتى بعض الجمادات؛ كل البيوت التي تبنى بالماء وترش بالماء، لو رشت وسقيت بغير هذا الماء العذب -مثل الماء شديد الملوحة- لم ينتفع به، لم ينتفع؛ لأن الماء الملح الأجاج خلقه الله لشيء، خلقه الله يعني لأشياء تناسبه. لو أتيت بهذه الاسماك وضعتها في الماء هذا الأشياء الماء الطبيعي هذا أو الماء العذب، ما تستطيع تعيش كعيشها في الملح الأجاج.

فالله سبحانه وتعالى جعل هذا وهذا، وهذا من يعني من حكمة الله سبحانه وتعالى أن مرج البحرين وفرق بينهما ولم يجعل هذا يختلط بهذا؛ حتى تجد أن الآن بعض الأنهار العذبة تصب في البحار، تصب في البحار وتجد هي تصب ولا تختلط ولا يختلط بعضها.

بينهما ماذا؟ بينهما حاجز؛ وجعل بين البحرين حاجزاً، وقال هنا: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]؛ يعني مانعاً شديداً، وبرزخاً مانع حاجز بينهما. هذا الحاجز لا تراه العيون، لا تبصره ولكنه موجود كما أخبر الله به؛ فالماء الماء العذب ياتي ويدخل في الماء الملح الأجاج ولا وكل يسير في طريقه، لا يخترق هذا بهذا ولا يؤثر هذا على هذا.

ولذلك في آية الرحمن، في **(سورة الرحمن)**؛ قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢٠]

يعني لا يبغي بعضه على بعض، هذا لا يغلب هذا وهذا لا يغلب هذا، هذا كله في طريقه؛ فصل الله بينهما، فصل بالبرزخ والحجر والحاجز والحجر المحجور، وجعل هناك مانعاً حاجزاً بينهما ومانعاً؛ لأنه لو اختلط لأثر على هذه الحيوانات، ولأثر على هذا، ولا يتغير تتغير هذه الأمور. لحكمة الله سبحانه وتعالى ورحمته أن جعل هذا المانع، جعل هذا المانع بين هذا وهذا؛ لا يصل أحدهما إلى الآخر، ولا يؤثر أحدهما على الآخر؛ هذه هذا هذه آية عظمى ونعمة من الله سبحانه وتعالى.

قال: خذ أيضاً من آيات الله الكونية العظيمة التي ينبغي للمسلم أن يتأملها ويشاهدها ويراها رأي التفكر والتأمل؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]

خلق الله سبحانه وتعالى من ماء الرجل وماء المرأة هذا البشر ذكوراً، وجعله صهراً أي الإناث. فأنت كرجل، أبناؤك الذكور منتسبون إليك وأولادهم وغيرهم وهم نسب إليك، والبنات أولادهم مصاهرة بينك وبينهم جهة الاناث المصاهرة. فيأتي الرجل ويتزوج بهذه البنت فيصير هذا الرجل؛ والنبي صلى الله عليه وسلم صاهر عدداً من يعني صاهر أبا بكر وأخذ ابنته، وصاهر عمر وأخذ ابنته، وعلي صهره وأخذ ابنته، وعثمان صاحبه وأخذ ابنته.

فالذي يأخذ البنات أو من جهة البنات يسمونه المظاهرة يسمونه، ومن جهة الأولاد والابناء يسمون النسب؛ فالقرابة قرابة نسب وقرابة مصاهرة. الله عز وجل وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً، وكان ربك قديراً؛ قادر على هذا الشيء، لا يعجزه شيء وقادر على كل شيء سبحانه وتعالى.

وهذه آية من آيات الله؛ لما بين الله سبحانه وتعالى هذه الآيات التي ذكرناها من قولي وهو الذي مد وهو الذي مد، وبعده من الآيات التي ذكر الله سبحانه وتعالى من هذه المعجزات؛ قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]

هؤلاء الكفار يعبدون آلهة لا تنفع ولا تضر. كيف تعبد من دون الله هذه الآلهة وهي لا تنفعك ولا تضرك، وتترك عبادة الله سبحانه وتعالى صاحب هذه النعم العظيمة النافعة لك وإنعامه وقدرته سبحانه وتعالى، ودلائل القدرة مشاهدة كلها في مسخراً لهذا الإنسان؟! ثم تذهب وتعبد حجر وشجر لا ينفع نفسه

ولا ينفعك، ولا يضر نفسه ولا يضرك؛ أين عقلك؟! أين عقلك حتى تعبد من دون الله مثل هذه الأشياء، أو تدعو من دون الله أمواتاً لا ينفعون أنفسهم ولا يسمعون؟!

يعبدون من دون الله ما لا ينفع ولا يضر؛ وكان الكافر على ربه ظهيراً، أي هذا الكافر معين يعين الشيطان ويعين شياطين الإنس والجن على ربه. يعني يكون الكافر للشياطين بعبادته بعبادة الشياطين وعبادة هذه الأصنام، هذا يكون ضد ربه ومظاهر لربه على المعصية؛ من مظاهر ربه ومظاهره لربه بهذه المعاصي، هذا شيء لا يقبله العقل، لا يقبله العقل ولا تقبله الفطرة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦]

رسالتك يا محمد ونزول هذا القرآن عليك وبعثك للناس رحمة عليهم؛ بشارة للمؤمنين ونذارة للكافرين. فمن آمن وصدق فالبشارة له بالجنة بالجنان والايمان، ومن عصى واستكبر وامتنع فنذارة له بالنار؛ تحذير له من النار الكبرى التي لا إله إلا الله.

لما بين الله عز وجل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وانه بشير ونذير؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]

أنا لا أخذ ولا أطلب منكم على تبليغ الرسالة أجراً، إنما أجري على الله. لا أطلب منكم الأجر إلا من شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً؛ يقول لا أسألكم الأجر، لكن من أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلاً فليسلك يسلك هذه الدعوة وليسلك سبيل الحق وطريق النجاة وطريق النجاح. فمن سلك طريق البشارة وسلم من الهلاك فهو خير له.

قال الله عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]

توكل على الله في دعوتك، وتوكل على الله في عبادتك وفي طاعتك لربك؛ توكل على الله الذي له الذي له جميع معاني الحياة. توكل على الحي الحياة الكاملة الذي لا يتطرق له موت ولا ضعف ولا سنة ولا نوم ولا نعاس ولا نحو ذلك؛ حياة كاملة لله سبحانه وتعالى كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى، الحي الذي لا يموت، والخلق والجن والإنس يموتون.

وقوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾؛ نزهه وعظمه عن صفات النقص وعظمه وصفاته بصفات الكمال، وسبح وأنت حامداً له على نعمه العظيمة، حامداً لربك على نعم عظيمة.

وكفى به، بالله سبحانه وتعالى، كافياً بذنوب خلقه، خبيراً بذنوبهم. والله سبحانه وتعالى يكفي أنه يعلم خلقه ويعلم عباده ويعلم ما حصل منهم من ذنوب سبحانه وتعالى، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وسيجازيهم سيحاسبهم على أعمالهم ويجازيهم على أعمالهم، وهو سبحانه وتعالى خبير به بأعمال عباده، خبير بنياتهم لا يغيب عنهم شيء. فعليه توكل؛ توكل على الحي الذي لا يموت، لا تتوكل على غيره، وهو الذي ينفع الذي ينفعك وهو الذي ينجيك وهو الذي ينجيك الجزاء الحسن.

هذا الله سبحانه وتعالى، هذا الذي تتوكل عليه وهو الله سبحانه وتعالى الحي الذي لا يموت، هو الذي: قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]

خلق هذه السماوات والأرض في ستة أيام؛ بدأ بيوم الأحد إلى يوم الجمعة، هذه الأيام الستة خلق الله فيها خلق السماوات. خلق الأرض أولاً في يومين، ثم خلق السماوات في يومين، ثم عاد إلى الأرض وبث فيها ودحاها وجعل فيها أقواتها في يومين، فأصبحت الأرض أربعة أيام والسماوات يومين. وقال لها قالت ائتينا طائعين فاستجابت لربها، وخلقها في ستة أيام.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ سبحانه؛ استوى عليه وارتفع استواءً يليق بجلاله وعظمته. ولذلك الإمام مالك رحمه الله لما دخل عليه رجل فقال: **(الرحمن على العرش استوى)** كيف استوى؟ الاستواء معلوم، يعني علا واستقر وارتفع، استواء معلوم والكيف مجهول، ما ندري كيف، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. ولا يجوز السؤال عنها عن كيفية صفات الله التي أخفاها الله سبحانه وتعالى ولم يبينها لنا؛ فعلينا أن نؤمن وعلينا أن نسلم بما أخبر الله به سبحانه وتعالى من صفاته، صفات الكمال وصفاته وأفعاله التي أخبر الله بها.

﴿الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾؛ إذا لم تسأل من عنده ذلك، والمراد به النبي صلى الله عليه وسلم. أي عليك أن تسأل نبي هذه الأمة، هو الذي عنده العلم بربه؛ فاسأل به خبيراً إذا جهلت، وعنده العلم وقد أوحى الله إليه بالقرآن والسنة. فاسأل به خبيراً هو وهو الذي يعلم صفات الله ويعلم عظمة الله وجلاله،

ولا أحد من البشر أعلم بالله منه صلى الله عليه وسلم، وأخبره الله عز وجل، أخبره بالوحي ليعلم بهذه العلوم أخبره الله سبحانه وتعالى بها.

طيب قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٠]

أي المشركون إذا قيل لهم اسجدوا إلى الرحمن، أنكروه ولم يؤمنوا به؛ قالوا: من هو الرحمن؟! أنسجد لما تأمرنا بالسجود له؟! نسجد نحن لا نعرفه، من هو الرحمن؟!

وزادهم زادهم في هذا الدعاء إليه، زادهم نفوراً؛ أي زادهم لما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ودعاهم المسلمون إلى الرحمن ويسجد لله وتعظيم الله عز وجل، زادهم نفوراً وبعداً عن الإيمان ونفوراً من هذا الإيمان زادهم. كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لهم: الرحمن على العرش استوى، الرحمن أطيعوا الرحمن؛ قالوا: من الرحمن؟ لا نعرف إلا رحمن اليمامة؛ يعني يعنون مسيلمة الكذاب، وكانوا ينكرون التسمية بالرحمن.

فأخبرهم الله سبحانه وتعالى وامرهم أن يسجدوا لله سبحانه وتعالى؛ إذا لم تعرفوه أيها الجاهل، إذا لم تعرفوه أيها الجاهلون فهو معروف لله الحمد، وآياته ونعمه وآلاؤه في الكون واضحة، آياته واضحة لا لا تفتقر إلى إيمانكم ولا إلى تصديقكم ولا إلى معرفتكم أيها الجهال. فاسمع ماذا قال الله؛ تبارك سبحانه وتعالى وعظمه بركاته وخيراته؛ لأن تبارك معناها كثرة الخيرات وعظمت البركات.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]

الذي خلق هذه السماوات وجعل فيها البروج هو سبحانه وتعالى. والمراد بالبروج ما هي البروج؟ منازل النجوم والشمس والقمر، هذه تسمى بروج؛ المنازل التي تنزل بها. النجم ينزل كل يوم في برج، له برج، والقمر له بروج؛ والقمر قدرناه منازل، والشمس وهكذا جعل الله لها بروجاً.

قال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾؛ والمراد بالسراج هو الشمس. لماذا سميت الشمس بالسراج؟ لأن الشمس فيها حرارة والسراج فيه حرارة. **قال:** ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾؛ القمر يضيء وليس فيه حرارة، ولذلك قال المنير ما قال القمر سراج، قال القمر منير؛ منير لأنه ليس فيه حرارة مثل الشمس.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]

جعل الليل والنهار خلفة؛ يخلف بعضه هذا يذهب وهذا يأتي، وهذا يذهب وهذا يأتي يومياً جعله خلفة. لمن أراد أن يتذكر، لمن أراد يعنى ذكر أو أراد الشكور؛ جعل الله هذا الليل والنهار يتعاقبان، جعلهما يتعاقبان هذا يخلف هذا وهذا يأتي مكان هذا، وهذا يزيد وهذا ينقص. جعله سبحانه لمن أراد أن يعتبر وأن يتفكر ويزداد إيماناً ويتدبر في خلق الله سبحانه وتعالى المدبر لهذا الخلق، المتصرف بهذا الخلق وحده لا شريك له، منفرد بهذا الخلق. من أراد أن يتفكر وأراد أن يشكر نعمة الله عليه فليتفكر في هذا، في هذا الكون، وينظر في هذا في هذا في الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم؛ كل هذه آيات الله المبثوثة في هذا الكون سبحانه وتعالى.

طيب بعد ذلك تنتقل الآيات إلى ذكر صفات عباد الرحمن؛ لما بين الله مواقف هؤلاء المشركين وإعراضهم، فكأنه يعني في مقابل هؤلاء المعرضين، هؤلاء الذين لا يتفكرون ولا ينظرون، يسوق الله لنا صفات المتقين، صفات عباد الله الصالحين.

ما هي صفاتهم؟ ذكر الله مجموعة من صفاتهم في هذه السورة في خاتمتها في قوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. لكن هذه الصفات لما كانت طويلة وكلها متصلة بعضها ببعض، ولا نريد أن نأخذ جزءاً منها ونترك بقيتها، وهي تحتاج منا إلى وقفات وتأملات، بحاجة حقيقة كلنا بحاجة أن نتصف بهذه الصفات.

عباد الرحمن يمشون على الأرض هوناً، عباد الرحمن إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً، عباد الرحمن يبيتون لربهم سجداً وقياماً. هذه كل الصفات نحتاجها حقيقة، نحتاج أن نتصف بها، ونحتاج أن نتأملها؛ الكثير منا مقصر، الكثير منا عنده خلل، كثير خلل العظيم. فنحتاج إلى أن نتصف بهذه الصفات، وأن نفهمها جيداً، وأن نطبقها؛ لعل الله سبحانه وتعالى يحشرنا في زمرة هؤلاء.

لأن الله لما بدأهم **قال: (عباد الرحمن)**، فأضافهم إليه، وهذا إضافة التشريف؛ تشريف أن يشرف الإنسان أن يكون عبداً للرحمن. ثم في الأخير ماذا قال الله فيهم؟ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]

والغرفة هي المنازل العالية في جنات النعيم. وكل يتمنى هذا، كل يتمنى هذا وعنده وفيهم وعندهم أدعية جميلة: ربنا اصرف عنا عذاب جهنم، ربنا هب لنا من أزواجنا. فنحتاج حقيقة مثل هذه الأدعية، ومن هذه الصفات التي تضمنت هذه الآيات في وقفة وفي لقاء أوسع من هذا.

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله نأخذ هذه الصفات، وكلنا حقيقة بحاجة لهذه الصفات.

نسأل الله أن يعيننا، وأن يسددنا، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يرزقنا وإياكم مثل هذه الصفات ومثل هذه الأفعال.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الفرقان ٦٣ – ٧٧ آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للثاني عشر من شهر جمادى الأولى من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا المعتاد مع تفسير القرآن العظيم، والسورة هي **(سورة الفرقان)**. و**(سورة الفرقان)** تعني الحديث عن القرآن وما يخبر به القرآن الكريم، وأنه حق وأنه منزل من عند الله، وأنه كلام الله سبحانه وتعالى؛ وليس لأحد من البشر أن يكون هذا القرآن من عنده كما يدعيه هؤلاء المشركون بأن محمداً قد افتراه وأنه يملي عليه بكرة وأصيلاً؛ كل ذلك لا حقيقة له ولا دليل عليه. سورة مثل ما مرت معنا في آيات كثيرة عشنا معها أياماً طويلة وتأملناها؛ هذه السورة العظيمة تتحدث عن القرآن وعظمة القرآن، وما يتعلق به من أخبار عن صفات الله وعن أسمائه وعن ألوهيته وعن أفعاله، وما يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالرسالة القرآنية، وما يتعلق أيضاً بالبعث والجزاء والحساب والجنة والنار.

وتهديد الكفار بالأمم التي أهلكها الله لما عاندت وكفرت وردت رسالات رسلها، أخبر الله عنها؛ كل هذه السورة تتحدث عنها. ثم تبين لنا مظاهر قدرة الله سبحانه وتعالى في الكون وآياته العظيمة من خلق السماوات والأرض، ومن خلق الليل والنهار والشمس والقمر، ومد الظل، وجعل البحر -أرجع إلى البحرين وما بينهما حاجزاً- وغير ذلك من الآيات التي ذكرها الله سبحانه وتعالى.

تختم السورة بخاتمة جميلة حسنة جداً تحتاج منا حقيقة جميعاً أن نتأمل، نتفكر ونعمل بهذه الخاتمة الجميلة؛ يختم الله سبحانه وتعالى **(سورة الفرقان)** بصفات عباد الرحمن. لما خاطب هؤلاء المشركين وذكرهم وأنذرهم وحذرهم وأقام عليهم الحجة ولكن لا يزالون في عناد وفي كفر وفي طغيان لرسالة الله، أخبر الله سبحانه وتعالى بصفات عباده المتقين الذين اصطفاهم الله وشرفهم بالعبودية، وشرفهم

بالصفات التي ينبغي لنا جميعاً الآن أن نسمع هذه الصفات ونطبقها في حياتنا حتى نحشر في زمرة هؤلاء المتقين الذين الله سبحانه وتعالى قال فيهم عباد الرحمن، قال فيهم بأنهم عباد الرحمن فشرفهم بهذا الشرف، وختم الآيات بخاتمة **قال:** ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]

والغرفة هي الغرفات العالية والأماكن الأماكن العالية في جنات النعيم . نسمع هذه الصفات ونتأملها ونتدبرها وننتفع بها.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]

أي عباده الصالحون، عباده المتقون الذين عرفوا ربهم وعبدوه حق العبادة؛ ولذلك أضاف الله أضافهم إليه ووصفهم بصفة العبودية التي هي شرف، يتشرف بها كل إنسان أن يكون عبداً لله، لا يكون عبداً لمخلوق. عباد الرحمن؛ شوف ولاحظ أنه **قال:** ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ لم يقل عباد الله؛ عباد الرحمن، إن هذه رحمة الله، رحمة أن تكون عبداً لله وأنت تتشرف بالعبودية للرحمن في الدنيا والآخرة.

قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ هذه صفاتهم؛ هذه أول صفة من صفاتهم، صفة خاصة بهم وهو صفة ظاهرة في أخلاقهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾؛ يمشون بسكينة متواضعين، لا يرتعدون في مشيهم ولا يسرعون في مشيهم بسرعة يعني تلفت الأنظار، وإلا ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا مشى كانما يعني يكون منصب من صبب، يعني يمشي صبباً، يمشي كأنما ينحدر انحدار، وهذه المشية لا تتعارض مع أنه يمشي هوناً.

يمشون هوناً ليس معناها التكاسل والموت في المشي والضعف؛ فإن هذا ليس من صفات المتقين، صفات المتقين يمشون بسكينة بوقار ويمشون بتواضع، ولكنه مشية معتدلة؛ هذا هو المقصود: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾. الله وصفهم هنا من جانب أن مشيهم بسكينة ووقار وتواضع.

طيب **قال:** هذا هذه في حالهم وأخلاقهم مع أنفسهم؛ أما مع غيرهم، فإنه إذا خاطبهم الجاهلون، خاطبهم الجاهلون؛ الجهال والسفهاء واذوهم بالكلام، ماذا يجيبون؟ في أي شيء يجيبون؟ إجابتهم بالكلام الطيب، أو يسكتون ويعرضون عنهم؛ هذا معنى ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾. إما أن يردوا عليهم بالكلام الطيب والخطاب الطيب، أو أنهم يسكتونهم حتى لا يقابلوا لا يقابل الجهل بالجهل، وإنما يقابلون الجهل بالحلم

والكلام الطيب أو الإعراض عنه، وكما قال الله سبحانه وتعالى في السورة الأخرى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

فهؤلاء الجهلة من الناس والسفهاء الذين لا يملكون أنفسهم وليس لهم عقول يعني يتصرفون فيها تصرف الحكيم، هؤلاء إذا تكلموا وتعرضوا لك وخاطبوك بخطاب سفيه، الواجب عليك إما أن ترد عليهم بالكلام الطيب والحسن وتكسبهم، وإما أن تعرض عنهم ولا ترد؛ ولذلك كلمة ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ تحتمل أمرين: تحتمل أنهم يردون عليهم بالكلام الذي يسلمون فيه من الإثم ويسلمون فيه من الاذي، لا يردون عليهم يتركونهم ولا يقابلون الجاهل بالجهل.

طيب هذا علاقتهم مع السفهاء أو مع غيرهم؛ أما علاقتهم مع رب العالمين سبحانه وتعالى فإنهم إذا خلوا بربهم رأيت أشياء عجيبة، قال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤]

لما يقول لك ﴿يَبِيتُونَ﴾ معناته أنهم يقضون ليلهم، يقضون ليلهم في ساعات الليل، آناء الليل؛ فيكثرون من الصلاة والدعاء والسجود والقيام. **قال:** ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ﴾؛ حتى كلمة ﴿يَبِيتُونَ﴾، المبيت هو قضاء الليل وإن لم ينم، ليس المبيت هو النوم؛ بعض الناس يفهم أن المبيت هو النوم، لا؛ المبيت أن تقضي الليل، أن تبيت الليل في مكان ما ولا يلزم أن تنام. كالمبيت بـ **(منى)** أيام ليالي التشريق؛ ليس لازماً منه النوم، أهم شيء تمكث في هذا المكان؛ فهذا معنى كلمة يبيتون.

قال: ﴿الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي يكثرون من صلاة الليل مخلصين فيها. كيف عرفنا أنهم مخلصون فيها؟ لأنهم قالوا: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾؛ يبيتون لربهم، لا يبيتون لغيره، لا يرجون من أحد جزاءً ولا شكوراً، وإنما يخلصون عملهم لربهم سجداً وقياماً، متذللين وأنوفهم في الأرض وعلى التراب، وقائمون لله سبحانه وتعالى خاشعون لله؛ هذا مع ربهم وعلاقتهم بربهم.

وهم في صلاتهم وفي قيامهم وسجودهم وركوعهم لا يخلو ذلك كله من الدعاء، ومن أهم الأدعية ما ذكره الله لنا؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥ - ٦٦]

صلاتهم ودعاؤهم وتضرعهم وانكسارهم بين يدي الرحمن، كل ذلك يرجونه؛ يرجون أن يصرف الله عنهم العذاب، عذاب جهنم. اجتهادهم في طاعتهم كل ذلك خوف من هذه النار التي تنتظر كل إنسان؛ فإذا صرف الله عنك عذابها ونجاك منها سلمت من أمر عظيم، ولذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾؛ هذا أول دعاء من أدعيتهم، أول دعاء أن يصرف الله عنهم عذاب جهنم.

ثم قالوا عللوا، قالوا لماذا؟ قالوا: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾؛ يعني ملازماً لك لا ينفك عنك، مثل ملازمة الغريم لصاحبه. الغريم الذي يطلب هذا الشخص المغرم يطلب منه مالاً، يلازمه بقوة، يتصل عليه بالليل والنهار؛ ملازمته يريد حقه، وكذلك النار، النار كذلك تلازم صاحبها، تلازم أهلها؛ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

ثم عللوا تعليلاً آخر، فقالوا: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ أي هذه النار، يعني نار سيئة في مستقرها ومقامها، سيئة المستقر والمقام. ما الفرق بين المستقر والمقام؟ نقول: المستقر دار القرار، نار جهنم دار قرار لمن كفر بالله فهي سيئة القرار. والمقام أن يقيم فيها زمناً ثم يغادرها؛ إذاً الفرق بين الاستقرار **(مستقر)** والمقام: المستقر هي الدار التي يستقر بها ولا يغادرها، أما المقام فإنه قد يستقر ويغادر؛ وتقول: **«أنا أقمت عند فلان يومين أو ثلاثة ثم ذهبت»**، ولا تقول: **«أنا استقررت عنده»** إلا ولم تغادره . فجهنم يتعوذ منها المؤمنون الصالحون عباد الرحمن؛ يتعوذون من النار لأنها ساءت، سيئة الاستقرار وسيئة المقام ولو زمناً قصيراً، فهم لا يريدون أن يبقى فيها لا قراراً ولا مقاماً. طيب هذا دعاؤهم في صلاتهم مع ربهم.

أما في المال؛ لأن الله دائماً سبحان الله العظيم، الله عز وجل إذا ذكر الصلاة ذكر الزكاة، إذا ذكر الصلاة ذكر الصدقة؛ لأن الصلاة علاقة العبد بربه، والصدقة علاقة المسلمين بعضهم ببعض لأنها تشد العلاقة القوية. الإنسان ينفق، وهم من صفاتهم الإنفاق، لكن كيفية الإنفاق؟ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]

أي إذا أنفقوا لم يسرفوا؛ لم يتجاوزوا الحد في العطاء بحيث إنهم يسرفون على هذا الشخص أو على أنفسهم، ولم يقتروا؛ لم يضيقوا على أنفسهم لم يبخلوا. **قال:** ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ أي متوسطاً بين هذا وهذا، لا هم من المبذرين إخوان الشياطين الذين يضيعون أموالهم في غير مصلحة؛ تجد بعض الناس عنده

زكاة لكن لا يحسن أن يوزعها على الفقراء أو يبخل بها، فهؤلاء لا يبخلون ويحسنون توزيعها وتصريفها في حقوقها وعند أهلها .

ثم ذكر مجموعة من الصفات التي تكون سبباً في بعدهم عن عذاب جهنم، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٦٩]

الذين يوحدون الله، ولا يدعون ولا يشركون معه غيره؛ هذا أول أمر وأهم صفة من صفاتهم: تجريد التوحيد لله عز وجل، والبعد عن الشرك المحبط للعمل؛ إن الله لا يغفر أن يشرك به. **قال:** ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي لا يدعونه ولا يعبدون معه آخراً؛ هذه الصفة الأولى وهي الإيمان بالله وحده لا شريك له ودعوة الرسول.

ثم قال بعدها: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾؛ أي لا يعتدون على النفس المؤمنة بغير حق، إلا بالحق. ما هو الحق؟ كما قال سبحانه وكما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث العظيم: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ**»

فهذه لا يحل دم مسلم فيها، ولا يجوز الاعتداء عليه؛ ولا يجوز قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. والتحقيق بالحق هو أن يكون هذا الشخص قد قتل نفساً أخرى **(القصاص)**، أو وقع في أمر يقام عليه فيه الحد كالثيب الزاني فيقام عليه حد الرجم، أو يرتد عن دينه فيقتل.

قال هنا: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾؛ لأن الزنا فساد في المجتمع، وضياع للأسر وضياع للأنساب؛ ولذلك الله سبحانه وتعالى لما حرم الزنا شرع النكاح، والنكاح طريق الحق والسلامة وطريق الأمر الذي أمر الله به، وحرم السفاح لأنه إفشاء للمجتمع جميعاً. **قال:** ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

ثم **قال:** ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾؛ شوف لما ذكر ثلاثة أشياء: التوحيد والعبادة لله سبحانه وتعالى، وعدم التعدي على النفس المحرمة إلا بالحق، وعدم الوقوع في الزنا والفاحشة التي تفسد المجتمعات؛ **قال:** ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ لو وقع في هذه الأشياء الثلاثة أو بعضها، ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾؛ أي يواجه عذاباً عظيماً ويلقى إثماً عظيماً عند الله. ما هو الإثم؟ قال مفسراً ومبيناً: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ

﴿مُهَانًا﴾؛ ليس عذاباً عادياً بل يضاعف له العذاب يوم القيامة، ويخلد في هذا العذاب وفي نار جهنم مهاناً؛ أي ذليلاً حقيراً، لأنه لما أهان شرع الله وأشرك مع الله أو قتل النفس التي حرم الله أو فعل الزنا، فلما فعل ذلك أذله الله وأخزاه .

ثم قال مستثنياً برحمته وفضله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧٠ - ٧١]

فاستثنى الله برحمته سبحانه وتعالى من تاب من هؤلاء، فالذي يتوب الله عليه؛ ولذلك **قال:** ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، ثلاثة شروط للتوبة الصادقة التوبة النصوح: التوبة وهي الإقلاع عن الذنب، والعزم على أن لا يعود، والندم على هذه المعصية؛ فإذا تاب توبة نصوحاً، وآمن إيماناً حقيقياً وصدق، وعمل الأعمال الصالحة التي تدل على صدق توبته؛ **قال:** ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾؛ وهذه بشارة عظيمة من الله سبحانه وتعالى.

كيف يبدل الله سيئاتهم حسنات؟ قال بعض المفسرين: إن الله يبدل سيئاتهم حسنات بأن يقلب ما كانوا يعملونه من السيئات إلى أن يبدأوا يعملوا الطاعات؛ يعني مثلاً لما كان مغنياً أصبح مؤذناً أو إماماً أو تالياً لكتاب الله، فانقلبت السيئة حسنة. ولما كان يقتل المسلمين ويسفك الدماء ويحارب الله ورسوله ويقطع الطرق، أصبح مجاهداً في سبيل الله يرفع راية الإسلام. وهكذا لما كان يسرق أموال الناس أصبح يتصدق عليهم؛ فهذا معنى يبدل الله سيئاتهم حسنات، بدل ما يفعل السيئات أصبح يفعل الحسنات؛ هذا وجه ذكره بعض المفسرين .

وبعضهم يقول إن المعنى: يبدل الله سيئاتهم حسنات بأن السيئات التي كانوا يفعلونها سابقاً انقلبت لهم حسنات في ميزانهم؛ وهذه بقدرة الله، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء. **قال:** ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ غفوراً لهم حيث غفر لهم وتجاوز عنهم، رحيماً بهم حيث رحمهم وأدخلهم في رحمته.

قال الله تأكيداً على التوبة: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾؛ أي الذي يتوب توبة صادقة ويرجع إلى الله رجوعاً صحيحاً، فإن الله يقبل توبته، ويوافق توبة من الله تقبله لأنه تاب توبة نصوحاً؛ هذا تأكيد للتوبة.

ثم قال من صفاتهم: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٢ - ٧٣]

لا يشهدون الزور؛ لا يشهدون الكذب والشرك والكفر والمعاصي، لا يجلسون مجالس المعاصي والمجالس التي يحارب الله فيها ورسوله، والتي يستهزأ بها بالله وبرسوله وبكتبه، أو التي تدور حولها الأخبار الكاذبة والأشياء التي لا تجوز، أو الشرك، أو أعياد المشركين، أو كل ما يكون مظهراً من مظاهر الشرك والفسوق والباطل؛ كل هذه لا يشهدونها ولا يحضرونها، ولا يحضرون شهادات الزور ولا كلام الزور ولا كلام الكذب ولا الكلام الباطل؛ كل هذا يعصمون أنفسهم ويحفظون أنفسهم .

ومع ذلك، إذا مروا مروراً سريعاً؛ إذا مروا بهؤلاء يصدون عنهم، وإذا مروا بأهل الباطل وأهل الزور والكذب واللغو من غير قصد **(لا يقصدون ذلك ولكن اتفق مرورهم بهم)**، فإنهم يمرون وهم معرضون وهم منكرون وهم يتنزهون؛ ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ يعني يحفظون كرامتهم ويحفظون أنفسهم ودينهم وأخلاقهم، يبتعدون عن ذلك فهم يمرون وهم غير راضين بهذا الشيء؛ هذا معناها ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾.

وأما عندما يسمعون كلام الله ويسمعون القرآن ودلائل القرآن، فهم إذا سمعوا القرآن خروا؛ **قال:** ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾؛ أي لم يتغافلوا عنها بل يسمعونها ويعونها ويفهمونها فهماً جيداً، وتعيها قلوبهم وتتفتح لها أبصارهم. فإذا مروا بآيات السجود سجدوا وخروا، وإذا مروا بآيات فيها تعظيم الله عظموه، وإذا مروا بآيات فيها تسبيح سبحوه، وإذا مروا بآيات فيها تخويف ووعيد شديد استعاذوا بالله من هذا؛ كل هذا من التدبر والفهم للقرآن الكريم .

ثم قال في آخر هذه الصفات: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]

هذه من صفاتهم مع أسرتهم ومع بيوتهم وأزواجهم وأبنائهم وأولادهم؛ يقولون يدعون ربهم في الليل والنهار: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾؛ أي ما تقر به أعيننا وتستقر، لأن الذي تكون زوجته مؤذية أو أبناؤه مؤذين أو أشقياء، لا تقر العين بهم ولا تستقر بل يشقى الإنسان مع هؤلاء وينعدم الاستقرار والراحة معهم. **قال:** ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ يجعلهم لنا قرة أعين؛ يعني إذا نظرنا إليهم سررنا بالنظر إليهم، وإذا تحدثنا معهم استأنسنا بالحديث معهم، يأتون إليك ببشاشة وكلام طيب واحترام

وتقدير؛ هذا الذي يتمناه كل إنسان، أن تكون زوجته بهذه الصفة وأن يكون أولاده -بنين وبنات- بهذه الصفة من الأنس والسرور والاستقرار والكلام الطيب، فيدعو الإنسان دائماً بهذا الدعاء ولا يغفل عنه.

قال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي اجعلنا قدوة لعبادك المتقين، ليس قدوة لعامة الناس بل قدوة للمتقين؛ وهذا أعلى وأشرف شيء أن تكون قدوة للمتقين.

قال الله مبيناً جزاء من كان بهذه الصفات وبهذا الدعاء ولازم هذه الأشياء -وأنا أقول حقيقة نسمع يا إخوان حقيقة مثل هذا الكلام ينبغي علينا أن نلتزم هذا الدعاء وهذه الصفات وأن نحافظ عليها- : ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥ - ٧٦]

﴿أُولَئِكَ﴾؛ أي هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات العظيمة، ﴿يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾؛ والمراد بالغرفة جنس الغرف، ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ والغرفات هي المنازل العالية في جنات النعيم. قال الله عز وجل يجزون أعلى المنازل؛ أي هم في عليين، وما أدراك ما عليون! وهؤلاء في عليين بسبب ماذا؟ صبرهم على الطاعات وتمسكهم بهذه الصفات.

وإذا دخلوا الجنة وفازوا بهذه الغرفة العالية والمنازل العالية، سيلقون في الجنة التحية والتسليم من الملائكة ويحيي بعضهم بعضاً، كل يسلم على الآخر ويحييه، يدخلون سلاما، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم؛ فهل تجد خيراً من هذا؟! هذا هو الفوز العظيم، وهذه هي الراحة الطيبة وهذه الحياة الطيبة والسلامة من كل الآفات.

قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾؛ والخلود فيها دائم لا يزول. ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ شوف الأول في الكفار **قال:** ﴿سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، وهنا في عباد الرحمن المتقين **قال:** ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ حسن المستقر الذي يقرون فيه، والمقام الذي يقيمون فيه ولا يبغون عنه حولاً ولا يبغون عنه تنقلا .

قال الله في آخر السورة: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ﴾؛ أي لا يبالي الله بهؤلاء الناس عموماً والكفار خصوصاً، لا يبالي بهم ولا يعبأ بهم لولا أن الله يدعوهم ولولا أن الرسول يدعوهم بهذا الدعاء، أو لولا أنهم يدعون ويستقيمون على شرعه؛

لما بالى بهم ولم يلتفت إليهم، لكن دعاءهم وطاعتهم جعلتهم في هذه المنزلة العالية. وأما الكفار فأخبر عنهم بأنهم قد كذبوا؛ **قال:** أيها الكفار قد كذبتم بالقرآن وكذبتم بهذه الأخبار، ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ واللزام هنا هو الذي سيلزمهم ويلزمهم بالعذاب. وقال بعض المفسرين: هو ما لزمهم يوم بدر، فنزل بهم العذاب والقتل يوم بدر، أو ما يلقونه يوم القيامة من ملازمة العذاب لهم وعدم الفكاك منها.

ففي هذا تحذير للناس عموماً؛ فمن فتح الله عليه الخير فليتمسك وليحمد الله، فإن الله لا يبالي بالناس لولا دعاء العباد وطاعتهم وتمسك المسلم بالطاعات والدعاء، وحصول هذا الخير له، وإلا لم يعبأ الله به؛ فكانت طاعته سبباً في ثباته وسبباً في محبة الله له، أما الكفار فكذبوا وأعرضوا وهددهم الله بأنهم يلقون ويواجهون هذا العذاب الذي يلازمهم ولا ينفك عنهم أبداً .

بهذا ننتهي من هذه السورة العظيمة، لقاؤنا القادم إن شاء الله في السورة التي تليها وهي سورة **(الشعراء)**؛ أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الشُّعَرَاء)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الشعراء ١ - ٢٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلِّ وسلِّم على أشرف الأنبياء المرسلين؛ نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم (العلم النافع) والعمل الصالح، هذا اليوم هو اليوم التاسع عشر من جمادى الأولى من عام الهجرة (١٤٤٤ هـ). السورة التي بين أيدينا هي سورة الشعراء.

- **قد يسأل سائل فيقول: لماذا سميت بهذا الاسم؟ وما السر في ذلك؟**

أولاً نقول: إن أسماء القرآن الكريم هي أسماء (توقيفية) نزل بها الوحي، هذا الصحيح، وبعض الأسماء (اجتهادية)؛ يعني قد تجد السورة لها أكثر من اسم، مثل سورة الفاتحة لها خمسة وعشرون اسماً، أو سورة التوبة لها أكثر من عشرة أسماء، فبعضها أسماء وبعضها أوصاف؛ يعني ممكن بعض الصحابة يسمي السورة بوصف، أو أحياناً جاء في الحديث أنها «قَلْبُ الْقُرْآنِ»، وهذا وصف ليس اسماً؛ (قلب القرآن). فهناك أوصاف وهناك أسماء؛ بعض الأسماء توقيفية من الله، وبعضها اجتهادية من الصحابة.

سورة الشعراء لم يُعرف في (كتب التفسير) ولا (المصاحف المتقدمة) إلا بهذا الاسم؛ تسمى بسورة الشعراء.

سميت بسورة الشعراء لسببين:

السبب الأول: ذكر لفظ الشعراء فيها؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في آخرها: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧]. إلى آخر الآيات.

لكن المتأمل يجد أن الشعراء في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبل البعثة هم وسيلة الإعلام بين المجتمعات؛ فالشعر هو وسيلة الإعلام، ونشر الأخبار، وطرق انتشار مثل هذه الأخبار، وما يسمى الآن بـ(التواصل الاجتماعي) كان طريقه الشعر عند العرب.

ولذلك القرآن جاء فوق الشعر، والقرآن هو أقوى وسيلة للإعلام؛ إعلام البشرية كلها بما يصلح أحوالهم وبما فيه سعادتهم في دنياهم وفي آخرتهم، فكان القرآن هو أعظم من الشعر.

والقرآن هو كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الشعراء في آخرها، قال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]؛ فالقرآن بلسان عربي مبين أقام الحجة على العرب وعلى الناس أجمعين وعلى الجن والإنس، ونشر فضائله وأخلاقه وتعامل الناس معه.

وأيضاً هناك سر عجيب في هذه السورة لما نتأملها؛ نجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر فيها قصص سبعة أنبياء، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسرد قصصهم في هذه السورة: موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب. سبعة أنبياء، وكل قصة تنتهي بقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء: ٨-٩].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ وردت ثماني مرات في هذه السورة، يكررها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويؤكد على أن هذه القصص فيها عبر، وفيها آيات لمن يتفكر ويتأمل، ودروس ومواعظ، وما كان أكثرهم مؤمنين بهذه القصص وبهذه المواعظ؛ فأكثر الناس ما هم بمؤمنين.

وأن ربك هو العزيز ذو القوة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي له الغلبة على كل شيء، الرحيم بعباده؛ يلطف بهم ويرحمهم، ويرسل إليهم رسله، ولا يعذب إلا من يستحق التعذيب.

تجد هذه السورة في سردها لقصص الأولين وقصص الأنبياء السابقين كأنها إعلام للبشرية؛ هذا موسى كيف بلغ رسالته؟ وكيف أداها؟ وكيف دعا إلى ربه؟ وماذا كان موقف فرعون وقومه من دعوة موسى؟

ثم يأتي إبراهيم ليناقش ويحاور قومه، فتجد الحوارات تتكرر؛ حوار موسى مع فرعون: ﴿قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤]، ثم يأتي إبراهيم ويحاور قومه، ثم يأتي بعد ذلك نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهود مع قومه عاد، وصالح مع ثمود، ولوط مع قومه، وشعيب؛ كلهم تجد لهم حوارات ومناقشات وتوجيه ووعظ لقومهم. فالسورة كلها مبنية على الإعلام،

والشعراء هم وسيلة الإعلام، وفي نزول القرآن الكريم فالقرآن هو أقوى وسيلة للإعلام وفوق الشعر وفوق كل شيء.

نبدأ بهذه السورة الجليلة العظيمة؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أولها: ﴿طسم﴾ [الشعراء: ١]. هذه حروف مقطعة وردت في القرآن في سورتين؛ السورة الأولى: سورة الشعراء هذه، والسورة الثانية: سورة القصص، وبينهما سورة النمل: ﴿طس﴾ [النمل: ١] فقط حرفين ﴿طس﴾ مثل ﴿يس﴾ [يس: ١]، وهذه ﴿طسم﴾.

ومر معنا كم مرة وفي أكثر من سورة افتتحت بها، قلنا: إن هذه الحروف هي حروف من حروف الهجاء، أتى الله بها ليثبت للعرب أن القرآن مكون من هذه الحروف التي أنتم تتكلمون بها، وتلقون قصائدكم وشعركم وخطبكم مكونة من هذه الحروف، والقرآن مكون من هذه الحروف، لا فرق بين القرآن وبين شعركم المكون من الحروف أو خطبكم أو قصائدكم؛ كلها مكونة من هذه الحروف، فآمنوا به أو ائتوا بمثله ولن تستطيعوا أن تأتوا بمثله.

ودائماً نلاحظ أن الله عَزَّ وَجَلَّ إذا ذكر هذه الحروف يأتي بعدها ذكر القرآن ليثبت أن القرآن مكون من هذه الحروف؛ ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢].

﴿تِلْكَ﴾؛ فـ (التاء) اسم إشارة، و(اللام) للبعد، و(الكاف) للخطاب. يقول ﴿تِلْكَ﴾ يعني هذه، ولكنه أشار بتلك للبعد لشرف القرآن وشرف آياته وعلو مقامه ومكانته.

يقول: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾؛ يقول: هذه الآيات التي تسمعونها هي آيات القرآن الكريم، وهذه السورة آياتها مائتان وسبع وعشرون (٢٢٧) آية. هذه السورة التي تجد آياتها كثيرة وآياتها قصيرة جداً، هذه الآيات هي آيات من القرآن الكريم. **ولذلك قال الله:** ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾.

(الكتاب) هو القرآن، سمي كتاباً لأنه مكتوب، وسمي قرآناً لأنه يُقرأ؛ فهذه الآيات في هذا الكتاب المبين؛ أي الواضح، (الكتاب المبين): وصف الله كتابه وقرآنه بأنه مبين، يعني واضح الدلالة، وهذا القرآن يوضح كل شيء ويفصل في كل شيء؛ يبين الهدى من الضلالة، والسعادة من الشقاوة، والطاعة من المعصية، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين في هذا القرآن كل ما يحتاج إليه البشر فهو بين واضح الدلالة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بيّن أن هذه السورة هي آيات من القرآن الكريم، خاطب نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنزل عليه القرآن فقال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]؛ أي: يا محمد، ويا أيها الرسول، ويا أيها الداعية، ويا أيها النور والبشير النذير، **(باخع)** يعني من شدة حرصك على هدايتهم أهلكت نفسك، فـ **(باخع)** يعني مهلك نفسك.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لكونهم لم يؤمنوا بك ولم يصدقوك، بل عارضوك وردوا دعوتك وتمردوا وعاندوك؛ فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، اصبر وتحمل.

وأصل كلمة **(البخع)**: قالوا البخع هو عرق ينزل من النخاع؛ **(النخاع)** من الرأس إلى أن يتصل بالصلب، هذا العرق المتين إذا قطع مات الإنسان، فإذا بُخعت الشاة من عنقها من الخلف ماتت، فهذا النخاع أو هذا العرق هو الذي تكون فيه الحياة، فسمي هذا الإنسان المهلك نفسه **(باخعاً)** كأنه قطع هذا العرق فأمات نفسه.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾؛ ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني لا تحزن عليهم ولا تغضب عليهم إذا لم يؤمنوا ويحتجوا عليك بالآيات ويقولوا: يا محمد، ما جئتنا ببينة وما جئتنا بآية كما جاء بها الأولون؛ مثل موسى أعطاه الله العصا واليد، وصالح أعطاه الله الناقة، وأنت ما معك آية! فلا تحزن عليهم: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

يعني لو أراد الله كما ادعوا وكما زعموا وكما طلبوا، لو أراد الله أن ينزل عليهم آية حسية تنزل من السماء -كأن ينزل ملائكة أو ينزل شيئاً من السماء كما يطلبون- لنزل عليهم من السماء آية.

فإذا نزلت هذه الآية الحسية المعجزة الخارقة، فإن أعناقهم ستظل لها خاضعة؛ أي أنهم سيلجؤون إلى الإيمان ويصدقون، ولكنهم لو كفروا بعدها لعُذِّبوا، مثلما أن قوم ثمود لما طلبوا من صالح الناقة ثم كفروا بها عُذِّبوا؛ فكل من طلب معجزة حسية ثم لم يؤمن بها عذبه الله.

فهؤلاء لو أراد الله أن ينزل عليهم من السماء آية حسية ثم كفروا بها فسيهلكهم الله، والآن الإيمان اختيار لهم، فلو كفروا لكان هذا الأمر صعباً عليهم.

قال: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾؛ أعناقهم أي عنق الإنسان رقبته ستظل ستمتد تنظر في هذه الآية وتتعجب، ولكن لا ينفع الإيمان حينئذٍ إذا كفروا.

- **ولذلك قوم موسى آمنوا متى؟**

لما نتق الجبل فوقهم كأنه ظُلّة كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ١٧١]، كانوا معاندين ولم يقبلوا شرع الله، فرفع الله عليهم الجبل فوقهم وأمرهم أن يؤمنوا أو يُسقط عليهم الجبل فآمنوا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥]؛ أي هؤلاء المشركون، ما يأتيهم من ذكر في القرآن الكريم -سورة تنزل أو آية تنزل- من الرحمن الذي هو أرحم الراحمين سبحانه، ينزل عليهم الآيات ويبين لهم الحق، يأتيهم من ذكر من ربهم محدث؛ يعني جديد.

فكل يوم تنزل آيات عليهم، وكل شيء ينزل هو أمر حديث عليهم محدث: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾. كلما جاءهم ذكر وجاءتهم سورة ونزلت عليهم آيات أعرضوا وامتنعوا من قبولها؛ آيات تأمرهم بالإيمان بالله، آيات تنهى عن الشرك، تذكرهم بالدين الحق، تذكرهم باليوم الآخر، إلا وأعرضوا ولم يقبلوا دعوتها، ولا يقبلوا ما يأتيهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء: ٦]؛ أي كذبوا بالقرآن واستهزؤوا به، فستأتيهم عقوبة استهزائهم وسيحل بهم العذاب جزاء على استهزائهم وتمردهم، وهذا أسلوب تهديد وتخويف لهم أن العذاب سينزل بهم إن لم يؤمنوا، فإن استمروا على كفرهم وطغيانهم والآيات تنزل عليهم ثم لم يؤمنوا فستنزل بهم العقوبة ويحل بهم العذاب.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوجه هؤلاء المعاندين الكافرين، يوجههم إلى أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، يلفت أنظارهم يقول: هذا القرآن نزل من السماء رحمة بكم وفيه سعادتكم ونجاتكم. إن شككتم في القرآن وترددتم ولم تؤمنوا به، فانظروا إلى آيات كونه التي أوجدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالذي أنزل القرآن هو الذي أوجد هذه الآيات، فلماذا لم تؤمنوا؟

انظروا إلى آيات الله، فلذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧].

- **لماذا تعمى أبصارهم ولا ينظرون ويغفلون عن الأرض؟**

انظروا إلى الأرض، تأملوا فيها، سيروا فيها، انظروا كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم، و(كم) هنا خبرية للتكثير؛ يعني قد أنبتنا فيها أزواجاً كثيرة من النبات، من كل زوج كريم؛ أي من أنواع النباتات المختلفة في ألوانها وروائحها وفوائدها وأشكالها.

اخرج إلى الصحراء، واخرج إلى الحدائق، وانظر فيها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾؛ ومعنى (كريم) أي: كثير الخير والبركة، فمن كل زوج، من كل شجر، ومن كل نوع من أنواع الأشجار، ستجد فيها الأشياء العجيبة والنباتات والمنافع للإنسان.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]؛ في هذا الخلق البديع وهذه الأشياء العجيبة آيات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عجيبة، وفيها أسرار، وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد سبحانه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ مع الأسف أنك تجد أكثرهم لا يؤمنون ولا يلتفتون ولا يقفون ولا يتدبرون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]؛ العزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو القوة والغلبة على كل شيء، ينتقم من أعدائه، ورحيم بأوليائه؛ رحمته وسعت كل شيء، يفرح بتوبة العبد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى أول قصة من هذه القصص السبع، وهي قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: ١٠-١١].

أي: واذكر يا محمد حين نادى ربك موسى عندما ناداه الله عَزَّ وَجَلَّ عند الطور لما مر بجانب الطور الأيمن، ناداه ربه بالوادي المقدس طوى، قال: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، و﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ من هم؟ قال: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾؛ قوم فرعون الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم.

﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾؛ ألا يخافون عقاب الله؟ ألا يخافون أن يُحشروا إلى الله؟ ألا يخافون من النار؟ أي: لماذا لا يتقون ويتركون ما هم عليه من الضلال والكفر والطغيان؟ فاذهب إلى فرعون وقومه وأنذرهم من العذاب الذي يحل بهم.

- **فماذا كان جواب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟**

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾[الشعراء: ١٢-١٤].

لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ عاش معهم فترة من الزمن، ثم حصل منه ما حصل في قتل القبطي، ثم فراره إلى مدين، فيخاف أنه إذا جاء إليهم أولاً أن يكذبوه ويكذبوا رسالته فلا يقبلون منه وهم قد عرفوه.

﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾؛ أن يكذبوني إذا جئتهم أدعوهم إلى عبادتك وأخبرهم بأني رسول من عندك، فأخشى من ذلك.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾؛ لكسر الضيق سيمتلئ صدري غماً وهماً منهم لأنهم سيكذبونني، ويضيق صدري إلا أن تشرح صدري، كما قال في سورة أخرى: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[طه: ٢٥].

﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ لأن فيه عقدة فهم لا يفهمون كلامي، ولذلك قال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾[طه: ٢٧-٢٨].

وقال في سورة أخرى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾[القصص: ٣٤].

ولذلك هنا قال: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ في الدعوة ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾، فأرسل الله هارون كما دعا موسى، قال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾[طه: ٢٩-٣٢]؛ لكي يعينه ويساعده على الدعوة، يكون وزيراً معه يؤزره ويساعده ويقويه.

ثم ذكر ما فعل قبل ذلك لما قتل القبطي، قال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾. أنا أخشى من هذا كله؛ أخشى أن يكذبوني، وأخشى أن يضيق صدري، وأيضاً لساني لا ينطلق، وهم أيضاً يريدون قتلي لأني فعلت ما فعلت فأخشى منهم.

وهذا لا يعني أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يعتذر عن تحمل الرسالة والدعوة إلى الله، لا، ولكنه قد قبل الرسالة وفرح بها، ولكنه أراد أن يعتذر إلى رب العالمين إن حصل منه تقصير، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يزيل عنه هذا كله، ولذلك قال الله تعالى له: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[طه: ٣٦].

فرد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال: ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾[الشعراء: ١٥]؛ أي اطمئن يا موسى، ولا تحزن ولا يضيق صدرك، فهذه كلها ستزول عنك بإذن الله.

قال: ﴿كَلَّا﴾ لن يقتلوك ولن يؤذوك ولن يصيبك منهم شيء.

﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾؛ فاذهبا أنت وأخوك بآياتنا، كلا لن يقتلوك ولن يؤذوك، فاذهب بهذه الآيات. أعطاه الله آيات؛ قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٧-١٨]، قال: ﴿أَلْقِهَا﴾ [طه: ١٩]، ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾[طه: ٢٠]. وأيضاً أعطاه اليد؛ ﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[النمل: ١٢]. فكانت هاتان آيتين عظيمتين يذهب بها إلى فرعون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾؛ أي الله عَزَّ وَجَلَّ معهم **(معية خاصة)** بالنصرة والتأييد والحفظ، ولن يصيبهم شيء أو أذى من فرعون: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، وفي آية أخرى قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[طه: ٤٦].

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾[الشعراء: ١٦-١٧]؛ أي نحن قد أرسلنا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ نحن نطلب منك يا فرعون أن تفك أذاك وتخلص بني إسرائيل من العذاب المهين، فأرسلهم معنا يخرجون من مملكتك التي آذيت بها هؤلاء المستضعفين: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

- **فماذا كان جواب فرعون؟**

قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨-١٩]؛ يعني ما الذي جئت به وأنت قد انقطعت عنا فترة من الزمن؟

جئت بهذا الكلام وبدأ يمنّ عليه بهذا، قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ وأنت صغير وعشت عندنا في بيوتنا وربيناك ومكثت في رعايتنا سنين، ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾؛ عشت زمناً من عمرك.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾؛ ارتكبت هذه الجناية وقتلت رجلاً من القبط من قوم فرعون حين وكزته فسقط على الأرض ميتاً، ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾؛ يعني تجحد النعمة التي أنعمنا بها عليك، نحن ربيناك وأنت صغير فكفرت النعمة فأصبحت من الكافرين.

قال موسى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]؛ أي من الجاهلين، وليس الضلال هنا ما يقابل الهدى أو عدم معرفة الحق، لا؛ وإنما يقول: ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي الجاهلين؛ لا أعرف هذا الحكم، وقد وقع مني بالخطأ ولم أقصد قتله، إنما وكزته فسقط على الأرض أنا من الضالين.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]؛ لما سمعت أنكم تبحثون عني وتأتمرون على قتلي فررت بنفسي، فأنعم الله علي بأن حفظني وكلفني بهذه الرسالة وجعلني من المرسلين.

ثم رد عليه قال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]؛ هل هذه نعمة تمنها عليّ وأنت تعبّد بني إسرائيل وتجعلهم عبيداً مستخدمين، وتقتل أبناءهم وتستخدم النساء وتهينهم؟ أي نعمة تقولها يا فرعون وأنت تعذب قوماً بأسرهم؟!

الحديث يطول، ولا ودنا أن نطيل عليكم. تبدأ الحوارات بين فرعون وموسى لما قال موسى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، قال فرعون: ﴿قَالَ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، وهو يعلم، لكن يتجاهل.

يأتي الحديث إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، ونقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الشعراء ٢٣ - ٥١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على شرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك مع تفسير القرآن العظيم، ودرسنا المعتاد في مغرب يوم الثلاثاء في تفسير القرآن العظيم، وهذا اليوم يوافق السادس من شهر جمادى الأولى -الشهر الخامس- من عام (١٤٤٤ هـ).

درسنا اليوم في تفسير سورة الشعراء، كنا قد تحدثنا في لقائنا الماضي عن أول السورة، وعن موضوعها، وتسميتها بهذا الاسم، واختيار هذا الاسم؛ كل هذا تحدثنا عنه في لقائنا الماضي.

وذكرنا لكم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -جل في علاه- قد ذكر في هذه السورة العظيمة الجليلة سبعة من الأمم الماضية التي أرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لها رسله؛ كل أمة يرسل لها رسولاً يدعوهم إلى التوحيد وإلى عبادته سبحانه وحده لا شريك له، ويبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موقف هؤلاء الضالين المعاندين الطغاة، ويحل بهم عقوبته وينتقم منهم.

هذه الأمم السبع هي: أولها قصة موسى مع فرعون، ثم إبراهيم مع قومه، ثم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، ثم هود مع قومه عاد، ثم صالح مع قومه ثمود، ثم لوط مع قومه، ثم شعيب مع قومه.

سبعة أنبياء وسبع أمم كلها نزلت فيها العقوبات والمثلات، وأنزل الله بها عذابه ورجسه عليهم لما عاندوا وكفروا وطغوا واستكبروا، وكفروا برسل الله وردوا رسالاتهم؛ فهذه حال كل من عتى وعاند وطغى، وسنة الله جارية في نصره لأوليائه والانتقام من أعدائه.

نواصل الحديث عند الآية الثالثة والعشرين من سورة الشعراء في قصة فرعون وموسى، نستذكر ما مضى؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وكلفه بالرسالة أن يذهب إلى فرعون في الآيات التي مضت معنا لما قال: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾[الشعراء: ١٠-١١].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۝١٢ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ۝١٣﴾ [الشعراء: ١٢-١٣]. خاف أن يردوا رسالته ويكذبوه ويضيق صدره إذا امتنعوا من قبول رسالته ولا ينطلق لسانه، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ عنه في سورة أخرى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨﴾ [طه: ٢٧-٢٨].

فقال: فأرسل إلى هارون يكون وزيراً معي، واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي. ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]؛ لأنه قد قتل القبطي وإن لم يكن يقصد قتله، فـ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]، فوقع على الأرض فمات، فخاف أن يقتلوه به.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ كَلَّا﴾ [الشعراء: ١٥]؛ أي ليس الأمر كما تقول، لن يقتلوك ولن يتعرضوا لك ولن يصيبوك بشيء، ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]. اذهب أنت وأخوك بآياتي، ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝١٧﴾ [الشعراء: ١٦-١٧]؛ أي أطلق سراحهم من التعذيب والإيذاء والقتل وأرسلهم معنا.

فلما وصل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبلغ رسالة ربه، فجاء إلى فرعون وبلغه بهذه الرسالة وقال: إني رسول من رب العالمين.

قال له فرعون -وفرعون يعلم أنه رسول ويعلم أنه قد جاء بالرسالة وجاء بالحق ولكن يريد أولاً أن يضيع الوقت، ويريد أن يرد رسالته، ويريد أن يشوه سمعته، ولذلك انظر لما قال له: إني رسول رب العالمين، وأوحى الله إلي أن أطلق بني اسرائيل وأطلق سراحهم- قال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]؛ أي نحن ربيناك وأنت صغير، ربيناك وأنت وليد صغير وبقيت عندنا من عمرك سنين، وقمنا برعايتك وتربيتك، وهذا جزاؤنا لما ربيناك؟ أصبحت من الجاحدين لهذه النعمة!

وقال له: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩]؛ بما أنك قتلت منا واحداً وأنت من الكافرين، أي المنكرين الجاحدين، فالكفر أصله الإنكار والجحود، فيقول هنا: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي الذين يجحدون نعمة الله وينكرونها. كيف تنكر النعمة التي أنعمنا بها عليك بأن ربيناك ومكثت مدة من الزمان عندنا؟!

قال له موسى رداً عليه: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]؛ أي لما فعلت هذا الفعل ووقع مني القتل، فعلت ذلك وأنا من الضالين، أي من المخطئين أو الخاطئين. يعني فعلت ذلك خطأً مني لم أقصد، وإنما وقع خطأً.

وكلمة (الضلال) هنا -حتى نفهم لغة العرب؛ فقد عرفنا الكفر بأنه الجحود، وليس الكفر دائماً هو إنكار وحدانية الله، بل الكفر هو الجحود كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ...﴾ [النمل: ٤٠] أي جحد نعمة الله، فالكفر جحود- والضلال هنا ليس المقصود به الضلال ضد الهداية، يعني أنه ضال لم يهتدِ، لا! وإنما يقصد بذلك الضالين المخطئين.

كما قال أبناء يعقوب ليعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] أي في خطئك وظنك الخاطئ، ولا يقصدون أبداً أن أباهم في ضلال ديني.

فلذلك لغة العرب واسعة، وتجد بعض الناس يقرأ القرآن ولا يفهم ويظن أن الضلال هنا يعني ضد الهدى، وأن موسى كان ضالاً! لا، كيف يقول أبناء يعقوب لأبيهم ذلك؟ وهنا يقول موسى لنفسه: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾، فالأنبياء ليسوا في ضلال وإنما يقصد: إنني كنت من الخاطئين المخطئين.

قال: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ ۝٢١﴾ [الشعراء: ٢٠-٢١]؛ فلما سمعت بأن الملأ يأتمرون بي ويريدون أن يقتلوني فررت من القتل، فررت منكم لما خفتكم، ففررت إلى مدين ومكثت فيها سنين، ثم عدت.

فلما عدت: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]؛ أي أوحى إلي وتفضل علي بهذه النعمة وجعلني نبياً رسولاً، فتفضل الله علي بالنبوة وتفضل الله علي بالعلم، فوهب لي حكماً وحكمة وجعلني من المرسلين، ومنّ علي بالرسالة.

ثم قال له: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]؛ ما هي النعمة التي تمنها علي يا فرعون؟ أأن عبدت بني إسرائيل؟! تعبيدك وإيذاؤك واستعبادك لبني إسرائيل، هل هذه نعمة؟!

أي تربية تربيتها في بيتك تعدها نعمة علي وقد جعلت أنت بني إسرائيل عبيداً، تذبح أبناءهم وتستحيي نساءهم للخدمة والإهانة؟! أي نعمة تمنها علي وأي وجه من النعم وأنت تؤذي بني إسرائيل بهذه الأذية؟!

فلما أقام عليه الحجة وناقشه وحاوره بهذا الحوار القوي وألقمه حجراً، قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

انظر كيف؛ لا يدري من هو رب العالمين، لا يدري من هو ربه! فقال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]. هذا السؤال أو الاستفهام على وجه الاستنكار والتكبر وعدم قبول الحق.

يقول لما قال موسى: إني رسول رب العالمين، قال فرعون: أنت رسول من رب العالمين؟ قال: نعم، قال: ومن هو رب العالمين الذي تقول إنك رسوله وأنه أرسلك؟ من هو؟

فرد عليه موسى قائلاً: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]؛ قال له: هو رب السماوات، مالك السماوات والأرض والمدبر لها والخالق والموجد لها وما بينهما -ما بين السماء والأرض- هذا كله هو رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رب السماوات والأرض وما بينهما ورب الخلق كلهم إن كنتم موقنين؛ أي إن كان عندكم اليقين والعلم والإيمان فأنتم تعلمون أنه رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال لمن حوله -انظر لما لم يستطع مواجهة موسى بالنقاش التفت إلى من حوله من الملأ-: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]؛ قال فرعون لمن حوله من أشراف قومه ومن الملأ: ألا تستمعون ما يقوله هذا من هذه الأقوال العجيبة بأن هناك رباً موجوداً غيري؟ **(أنا ربكم الأعلى)**.

- **كيف يقول هذا؟!**

اسمعوا ماذا يقول: رب السماوات والأرض وما بينهما وإن كنتم موقنين! ألا تستمعون لهذا الكلام؟ وهم يستمعون وهو يستمع، لكن أراد أن يحركهم ضد موسى حتى لا يتأثروا به، كأنه يريد أن يثيرهم أمام موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى لا يتأثروا؛ لأنه لو سكت هو وقبل مثل هذا ولم يستطع الرد سيتأثرون ويقولون: نعم، كلام موسى كلام حقيقي وكلام موسى على الحق.

قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]. انظر! الأول قال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، والآن لما نظر إلى المساحة والارتفاع، انتقل الآن إلى الزمان فقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

الرب الذي أرسلني والرب الذي أنا أدعو إليه هو ربكم، ليس رباً غريباً، أنتم تعرفونه، رب فرعون ورب الملأ، ربكم ورب آبائكم الأولين، فكيف تعبدون مخلوقاً وتتركون ربكم ورب آبائكم الأولين؟!

قال فرعون مستهزئاً: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]؛ انظر كيف يقول على وجه الاستهزاء للملأ حوله: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، كأنه لم يُرسَل إليه هو! والله أرسل موسى إلى فرعون، ما أرسله إلى الملأ ابتداءً بل أرسله إلى فرعون.

لكن فرعون قال: إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون! على وجه الاستهزاء يقول: هذا رسولكم، اسمعوا رسولكم الذي أرسل إليكم والذي يقول إنه رسول من عند الله، هذا مجنون يتكلم بكلام لا يعقل ولا يقبل! يقول لجلسائه وللملأ ليستثيرهم ويستثير غضبهم ليكذبوا موسى ولا يتأثروا به.

قال موسى رداً عليه: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]؛ لما أعطاهم المساحة العلوية: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وأعطاهم الزمان: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾.

أعطاهم الآن المساحة العرضية أو الطولية فقال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ المشرق مطلع الشمس والمغرب غروب الشمس وما بينهما هو ربكم إن كنتم تعقلون، إن كان لكم عقول وتفكرون بعقولكم وتتدبرون وتسمعون وتفقهون، فالله عَزَّ وَجَلَّ هو رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون.

فلما سُقِط في يدي فرعون ولم يستطع الإجابة وليس عنده قدرة على الحوار ومحاجة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ -وهذه طريقة كل طاغية؛ إذا لم يستطع الحوار والمحاجة والنقاش يلجأ إلى القوة- قال لما رآه هكذا: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

والله يا موسى لئن اتخذت إلهاً غيري، معبوداً غيري تعبده، لأجعلنك من المسجونين، هذا تهديد من فرعون لموسى، يقول: لئن عبدت غيري لأجعلنك وأسجننك مع من سجنت، وفي هذا دلالة على أنه عنده مسجونون، وأن قوته وسلطته مبنية على التعذيب والسجن والقتل: لأجعلنك من المسجونين.

قال له موسى لما رأى منه العناد واستعمال القوة: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]؛ يعني لو جئتك ببينة ودليل قاطع يبين أنني صادق فيما أقول، ولم آتك هكذا وإنما أرسلني الله عَزَّ وَجَلَّ إليك لأدعوك إلى عبادة الله وحده لا شريك له، أتجعلني من المسجونين؟

قال فرعون: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١]؛ إن كنت صادقاً في دعواك فأين الآية؟ أخبرني بها.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢]؛ ألقى موسى عصاه -وكانت معه عصا يتوكأ عليها- فألقاها فتحولت ثعباناً حقيقياً مبيناً ظاهراً، ليس تمويهاً كما يفعله السحرة بل حقيقة حقيقية ظاهرة رآها عياناً، فارتجف منها فرعون وارتجف الحاضرون من هذا الثعبان العظيم.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٣]؛ أدخل يده في جيبها ثم أخرجها فإذا هي بيضاء تعجب الناظرين، وليست بيضاء بسبب عاهة أو مرض كالبرص ونحوه، لا! وإنما تبهر الناظرين لجمالها وحسنها وسطوع نورها فإذا هي بيضاء للناظرين.

لما رأى فرعون هذه الآيات ما استطاع أن يردها ولم يستطع أن يناقش، فلتفت إلى من حوله من الملأ وجلسائه: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤].

قال للأشراف حوله والذين يجلسون في مجلسه -وهو يخشى من القوم أن يسلموا، ويخشى منهم أن يستسلموا ويؤمنوا بموسى فأراد أن يشغلهم- فقال: إن هذا لساحر عليم، أي ساحر وصاحب سحر عليم به مدرك، يعني ماهر بالسحر، ساحر عنده المعرفة التامة بالسحر.

ولكنه جاء بهذا السحر، وجاء هنا ليخرجكم -ما قال ليخرجني أنا أو يأخذ ملكي، بل قال يحرضهم-: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]؛ سيملك أرضكم ويخرجكم بسحره، فماذا تقولون؟ ماذا تأمرون؟ ماذا تشيرون علي؟ ماذا أصنع؟

يا فرعون، أين قوتك؟ وأين كونك تقول: لأجعلنك من المسجونين؟ الآن تستشير جلساءك؟! وجلساؤك هم تبع لك وأنت الآمر الناهي، كيف تأخذ وتستشيرهم؟! فبدأ الرجل يرتج ويضعف ولم يستطع التصرف، ويقول: أنتم أعطوني رأيكم وأنا أتبعكم بما تقولون.

قالوا له: ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝٣٦ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝٣٧﴾ [الشعراء: ٣٦-٣٧]؛ يعني أخّر أمره هو وأخوه هارون واتركهم وامهلهم مدة واجمع السحرة، أرسل إلى المدائن الجنود يجمعون لك السحرة بأن يأتوك بكل ساحر عليم، بكل من أجاد السحر وأصبح ماهراً فيه وتفوق في معرفته ليأتوا به.

فبدأوا يجمعون من المدائن -من المدن التي حول مصر- يجمعون السحرة. فجمعوا السحرة وحددوا موعداً؛ لأن فرعون قال لموسى: اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت سوى، قال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩].

قال: موعدكم يوم العيد؛ يوم العيد الناس يوقفون أعمالهم ويجتمعون، وإذا كان في وقت الضحى كان أكثر انتشاراً وأكثر رؤية، فاختار موسى الوقت المناسب الذي يجتمع الناس فيه، ولذلك قال: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾؛ يوم عيدكم الذي أنتم تتفرغون فيه من أشغالكم وتجتمعون وتتزينون فيه، تعالوا نجتمع كلنا ونقابل السحرة.

فلما قال ذلك، ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٣٩]؛ أي قيل للناس: اجتمعوا كلكم واحضروا. ولا يدري فرعون المسكين أن هذه الأشياء كلها ضده؛ لأنه إذا جمع السحرة وجمع الناس كلهم ثم انتصر موسى بقوة الإيمان وبقوة الوحي، ماذا سيكون موقفه أمام هذا الحشد الكبير؟!

فلم يستر على نفسه ويجلس في مجلسه وغرفته ويأتي بموسى وبعض السحرة، بل نشر الأمر أمام الناس فتأثر الناس، وهو يظن أن هذا في مصلحته، فحث الناس وجمعهم وامتلات الطرقات وحضر موسى وأخوه هارون وجاء السحرة فصفوا أمامه.

قيل إنهم كانوا سبعين رجلاً، وقيل كانوا ثلاثمائة رجل، فجاؤوا بحبالهم وعصيهم وقال لهم فرعون: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]؛ نطمع أن يكونوا غالبين فنثبت على ديننا ونهزم موسى.

فلما جاء السحرة واستغلوا الأمر فقالوا: الآن هو في ضعف ونحن الآن جئنا ولنا قوة، فقالوا له يشترطون عليه، ولما جاء السحرة: ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾[الشعراء: ٤١]؛ أي أإن لنا أجراً من مال وجاه؟ ماذا ستعطينا إذا غلبنا موسى؟ ماذا ستعطينا؟

قال: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[الشعراء: ٤٢]؛ سأعطيكم الأجر الذي ترغبون فيه، وزيادة على ذلك سأقربكم عندي في مجلسي وأجعلكم من المقربين، وأعطيكم ما تشاؤون من الأجر، ولكن قفوا وانتصروا واهزموا هذا الرجل الذي جاءنا بالسحر.

فلما اجتمعوا تشاوروا فيما بينهم، ووعظهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ﴾[طه: ٦١]، فتنازعوا أمرهم بينهم؛ قالوا: موسى على حق أو على باطل؟

فكانوا مترددين، بعضهم خاف من الموقف وتراجع، وبعضهم دفع بعضاً وقالوا: هذا فرعون سيقربنا وسيعطينا الهدايا وسيعطينا الأموال، فاجتمعوا على أن يلقوا حبالهم وينظروا في أمر موسى.

قالوا لموسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين، فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾[الشعراء: ٤٣]؛ قال ذلك استهانة بهم وسخرية منهم وعدم مبالاة بهم، قال: ألقوا أنتم سحرة وأنا معي الحق وأنا جاءني الوحي وهذه آية ومعجزة من آيات الله، ألقوا ما أنتم ملقون.

﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾[الشعراء: ٤٤]؛ فألقى هؤلاء السحرة حبالهم وعصيهم، وأقسموا بعزة فرعون أنهم هم الغالبون.

ألقوا حبالاً وعصياً وخُيّل للناس أنها حيات تسعى لما وضعوا عليها الزئبق في الشمس وبدأوا يحركونها فبدأت تتحرك فظنوا أنها حيات، فخاف الناس حتى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أوجس في نفسه خيفة، فقال الله له: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾[طه: ٦٨].

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾[الشعراء: ٤٥]؛ ألقى موسى عصاه فألقاها فإذا هي حية عظيمة حقيقية بدأت تبتلع كل هذه الحبال والعصي، تبتلع وتلقف ما صنعوا، فإذا هي تلقف ما يأفكون من الإفك والزور والكذب، تبتلع هذه الأشياء حتى قضت عليها جميعاً.

فلما رآها السحرة -وهم سحرة ويعرفون السحر ولم يشكوا بأن هذه آية وليست سحراً؛ لأنهم يعرفون السحر وأنه لا يبتلع الأجسام حقيقة- فلما رأوا هذه الآية ورأوا موسى بصدقه وكلامه: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦].

فلما شاهدوا هذا المشهد العظيم، وأن هذا ليس بتمويه وليس بسحر، آمنوا بموسى وبمعجزته وبالله وسجدوا لله، ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء: ٤٧-٤٨]. آمنوا برب العالمين وسجدوا لله واعترفوا وأسلموا لموسى وأسلموا لله.

قال فرعون لهم مستنكراً كيف تؤمنون: ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٤٩].

هذا موسى هو كبيركم وهو الذي تواطأتم أنتم وإياه ضدي! إنه كبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون، وبدأ يهددهم: لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين.

يقول: لن أقتلكم قتلاً هكذا، وإنما سأعذبكم عذاباً شديداً بأن أقطع أيديكم وأرجلكم وأصلبكم في جذوع النخل حتى تروا العذاب الأليم وتتمنون الموت فلا تجدونه، فأعذبكم عذاباً أليماً وأصلبنكم في جذوع النخل.

فردوا عليه رداً عظيماً: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾ [الشعراء: ٥٠-٥١]؛ قالوا: لا ضير، لا يهمنا ذلك ولا يضرنا ذلك ما دام أننا آمنا بالله فلا يضرنا ذلك، افعل ما شئت يا فرعون!

فافعل ما تشاء فإن ذلك لا يضرنا لأننا توكلنا على الله وآمنا بربنا، إنا إلى ربنا منقلبون أي راجعون إلى الله ومنقلبون إليه، اقضِ ما أنت قاضٍ، إنا منقلبون إلى الله وراجعون إليه، إنا نطمع ونرجو أن يغفر الله ربنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والشرك والكفر، خطايانا أن كنا أول المؤمنين بموسى بأن نؤمن بموسى أن كنا أول المؤمنين فآمنوا.

ولكن هنا سؤال: هل عذبهم فرعون وهل قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف؟

- **القرآن لم يبين ذلك، وإنما هو فقط توعدهم بذلك. ولكن هل فعل أو لم يفعل؟**

بعض المفسرين يقول: نعم فعل ذلك وعذبهم. وبعض المفسرين يقول: لم يفعل؛ لأن الله حفظهم وحماهم ولم يتسلط عليهم، لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينصر رسله فلم يتسلط فرعون عليهم، والله أعلم بذلك.

نقف عند هذه الآية إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

(الشعراء ٥٢ - ٨٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اليوم المبارك وفي هذا اللقاء، وهذا اليوم هو اليوم الثالث من شهر جمادى الآخرة من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية.

السورة التي بين أيدينا سورة (الشعراء)، وتحدثنا عنها في لقاءات ماضية، ووقف بنا الكلام عند قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ والله ذكر موسى عندما ناداه وكلفه بالرسالة إلى فرعون، وواجه فرعون بالأدلة العقلية والأدلة الحسية والمعجزات، وألقى عصاه وأخرج يده وأقام عليه الحجة.

ولكن فرعون أصر وعاند واستكبر، وجمع وحشد السحرة ليقابل الحق بالباطل، ولكن الله أبطل كيده. فلما رأى السحرة -وهم الذين يعرفون السحر معرفة تامة- لما رأوا آيات الله أمامهم وأنها معجزات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أيقنوا أنها حق.

فسجدوا لله كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝٤٦ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ۝٤٨﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٤٨]، فآمنوا مباشرة وأذعنوا لله وتابوا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، فقبل الله منهم وتحقق لهم هذا الإيمان، وتوعدهم فرعون بما توعدهم به من أساليبه الوعيدية الشديدة؛ ولكنها لم تجدِ.

حيث قالوا: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢]، وقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]؛ يعني راجعون إلى الله رجعة طيبة، ونطمع أن يغفر ربنا خطايانا وما أسلفنا من الذنوب والمعاصي، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١]؛ أي آمنا بموسى وبرب موسى.

بعد ذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية الثانية: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]؛ فيه يعني فاصل، في فاصل بين إيمان السحرة وظهور الحق، وأن الباطل وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ادمغ الباطل وزهق الباطل، بعد هذا هناك فاصل؛ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سور أخرى ماذا جرى بعد ذلك.

وأن الملأ من قوم فرعون قالوا: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، قال موسى لقومه: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨]، فصبروا وصبر موسى واستمر في دعوته لفرعون وأقام عليه الأدلة وتوعد، وبدأت الآيات تنزل بهم والعقوبات تنزل بهم: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، ولكنهم استكبروا وأصروا على كفرهم وعنادهم.

بعد ذلك أوحى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى موسى أن يسري بعباده، أن يخرج بهم ليلاً؛ أن يسري لأن الإسراء لا يكون إلا ليلاً، فخرج بهم ليلاً في خفية من فرعون وملئه وبطشه، وأخبر جميع أتباع موسى المؤمنين أنه سيخرج بهم من أذى فرعون، وسيغادر وسيهاجر.

فبعد وحي الله له خرج بهم، وأخبر الله عَزَّ وَجَلَّ موسى أنه سيتبعه فرعون؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]؛ اخرج بهم ليلاً واذهب بهم ليلاً، أسر بعبادي إنكم متبعون؛ أي أن فرعون سيتبعكم، سيتبعكم ولن يترككم، إنكم متبعون.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣]؛ يعني بدأ يدعو الناس ويجمعهم إلى الخروج معه؛ لأن يرده، لأن يرد موسى ومن معه، فجمع الجيوش الكثيرة والجنود والأعداد الهائلة، ولما علم أن موسى قد خرج جمع هؤلاء الجموع، وأرسل مثل ما ذكر الله في المدائن حاشرين؛ فبدأ يجمع وبدأ يجمع الجموع ليرد موسى ومن معه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال فرعون: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤]؛ الشرذمة هم الناس الحقيرون، الناس يعني الذين لا يؤبه لهم ولا يلتفت إليهم؛ السفلة من الناس، الحقيرون من الناس، يقول: هؤلاء سفلة وحقيرون، خرجوا عن دينهم وخرجوا عن مملكتي وأنا سأردهم، وهم قليلون.

- **لماذا يأتي بهذا الأسلوب ويقلل بهذا الأسلوب؟**

حتى يشجع من معه من الجنود، يشجعهم؛ ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٥]؛ يعني هم يغيظون علينا ولا يريدون ديننا ولا يرضون بمملكتنا، ونحن لا نرضى بهم ولا نتركهم؛ إنهم لنا لغائظون، ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٦].

يقول: نحن جميعاً نحذر، نحذرهم لا نتركهم، بل نكون على حذر ونكون متيقظين أمامهم، لا نتركهم يعبثون ويفسدون ويهربون، سنأتي سنعيدهم ونؤدبهم؛ وإنا لجميع حاذرون.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨﴾ [الشعراء: ٥٧ – ٥٨]؛ أي أخرج الله فرعون ومن معه، أخرجهم مما كانوا فيه من النعيم؛ قال: أخرجناهم من جنات وعيون، كانوا في مصر في جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم؛ مملكة قائمة وأموال طائلة ونعيم وخير ومقام كريم، قد يعني مستقرين في هذا المقام مكرمين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]؛ هذه جملة معترضة – كما يقول أهل التفسير– لأنها دخلت بين هذا الكلام المستمر، فقال الله سبحانه: مثل ما أننا أخرجناهم من مملكتهم لنغرقهم في البحر، أورثنا مملكتهم لبني إسرائيل.

وهذه الآية ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]؛ هنا اختلف أهل التفسير: هل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أغرق فرعون ومن معه من الجنود، وأسقط مملكة فرعون في مصر؛ هل ورثها بنو إسرائيل واستقروا فيها؟

أو أن بني إسرائيل لما جاوزوا البحر لم يرجعوا وإنما أقاموا في التيه؛ لأن الله أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة؟

هذا خلاف بين أهل التفسير؛ فبعضهم قال: إنهم رجعوا وملكوا مملكة فرعون وأقاموا فيها، وبعضهم يقول: لا، إنهم لما جاوزوا البحر أقاموا في التيه، وهذا الذي يدل عليه القرآن؛ يدل عليه في آيات كثيرة أنهم لما جاوزوا البحر أقاموا هناك، أقاموا فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل عليهم المن والسلوى، وأمر موسى أن يضرب الحجر فانفجرت عيوناً، فاستقروا في هذا.

وأمرهم موسى أن يدخلوا بيت المقدس فأبوا وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولما ذهب موسى لميقات ربه عبدوا العجل الذي صنعوه من الذهب من حُلي بني، من حلي قوم فرعون. فالذي يظهر -والله أعلم- أنهم لم يرجعوا إلى مصر.

- **لكن هذه الآية لما قال: أورثناها بني إسرائيل؟**

الجواب: يعني سقطت مملكة فرعون، فأصبح بنو إسرائيل هم الذين يملكون مشارق الأرض ومغاربها، يعني الشام ومصر، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، فيظهر أنها يعني أصبحت في ملكهم وإن لم يكونوا رجعوا وسكنوا فيها.

يقول: فأخرجناهم -فرعون ومن معه- من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم، قال: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]؛ أي اتبع فرعون ومن معه، لحق فرعون ومن معه من الجنود، لحقوا موسى ومن معه من المؤمنين، فاتبعوهم مشرقين.

- **﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ [الشعراء: ٦١]؛ ما معنى مشرقين؟**

قال بعض أهل التفسير: "مشرقين أي وقت شروق الشمس".

وقال بعضهم: "مشرقين أي جهة الشرق؛ لأنه وصلوا البحر الأحمر، ووصلوا على حدود البحر الأحمر، وضرب موسى البحر فجهة الشرق من جهة مصر جهة الشرق، قال: فاتبعوهم مشرقين".

فلما تراءى الجمعان؛ يعني بدأ ينظر بعضهم إلى بعض، فموسى ومن معه ينظرون إلى فرعون وقد أقبل عليهم، وفرعون ومن معه ينظرون إلى موسى ومن معه من المؤمنين؛ فلما تراءى الجمعان ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١].

قالوا: هم الآن يروننا ونحن نراهم، والعدو أمامنا والبحر من خلفنا، أو البحر أمامنا والعدو من خلفنا، فماذا نصنع؟ إنا لمدركون.

قال موسى -ثقة بربه وبما علم بوحي الله عَزَّ وَجَلَّ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيهلك فرعون؛ لأنه قال في موضع آخر: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] فقال: ﴿قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]؛ ليس الأمر كما تقولون إننا إنا لمدركون، قال كلا، إن معي ربي سيهدين؛ الله

معي، معية النصرة والتأييد، الله معي إن معي ربي سيهدين؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيدلني على النجاة وعلى الهداية، سيهدين.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]؛ بالفاء يعني مباشرة، فأوحى الله إلى موسى لما وصل إلى البحر، أوحى الله إلى موسى قال: فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر.

فضرب موسى بعصاه البحر فانفلق، انفلق أي انشق، فانفرق فكان كل فرق -لما انشق البحر أصبح عدة طرق- فرقاً يعني تفرق فرقاً أي طرقاً متعددة؛ فكان كل فرق كالطود العظيم، يعني أصبح البحر طرقاً فيه طرق.

قيل إنها يعني اثنا عشر طريقاً كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧]، فضرب بالعصا فأصبح أحد الطرقات، قيل اثنا عشر طريقاً على عدد قبائل بني إسرائيل، فدخلوا البحر وهو يبس يمشون فيه، والأمواج كالجبال ثابتة كالطود العظيم كالجبل العالي.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤]؛ أزلفنا يعني قربنا، ثَمَّ أي هناك الآخرين -فرعون ومن معه- يقول: قربناهم حتى نهلكهم بالماء، نغرقهم؛ فقربناهم حتى يدخلوا معهم ويلحقوا بهم، أزلفنا ثم الآخرين.

قال: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء: ٦٥ - ٦٦]؛ أي أنجيناه من البحر ومن الغرق، ثم أغرقنا الآخرين فرعون ومن معه ثم أغرقهم.

فهذا المشهد العظيم؛ أنهم لما وصلوا البحر وضرب موسى بعصاه البحر فانفلق وأصبح طرقاً يابسة، ونزل موسى ومعه من بني إسرائيل حتى إذا يعني بدأوا يخرجون من البحر.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤]؛ أي اتركه ساكناً، ساكناً يعني يبساً، يبساً واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون. فدخل فرعون فتبعه جنوده، فلما توسطوا في البحر عاد الماء كما كان، فبدأت تتلاطم الأمواج عليهم فأغرقهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جميعاً في مأواهم، وأهلك فرعون ومن معه وأنجى موسى ومن معه.

هذه قال الله بعدها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء: ٦٧ – ٦٨]؛ أي في هذه القصة ومن يستمع لها لآية، أي لعبرة يعتبر بها، ويعني ويدرك من معانيها ومن دلالاتها الشيء العظيم والدروس والعبر.

قال: إن في ذلك لآية، دروس وعبر، وما كان أكثرهم مؤمنين؛ ما كان أكثر من يسمع مثل هذا الكلام، لا من كفار قريش ولا من غيرهم، ما كان أكثرهم مؤمنين.

ولكن ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العزيز ذو القوة، العزيز ذو القوة، وما كان أكثرهم من قوم فرعون مؤمنين؛ وإن ربك لهو العزيز الرحيم سبحانه، ذو عزة وقوة يبطش بأعدائه ويهلك أعدائه، ورحيم بعباده حيث ينجي موسى ومن معه.

الحقيقة لما نسمع مثل هذه القصة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة يضطهد ويعذب أصحابه، ويؤذى ويضيق عليه، وقومه من مشركي مكة يعني لهم يدعون العزة والقوة والجبروت، ويفتكون بأصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ هذا كله يذكرنا بفرعون وبطشه، يذكرنا بفرعون وبطشه، ثم أن نهايتهم الهلاك والغرق.

يذكرنا أيضاً بوعد الله سبحانه على أنه سينصر نبيه محمداً وأصحابه، ونصرهم؛ نصرهم بعد الهجرة بسنتين، السنة الثانية، جاءوا هؤلاء الجموع خرجوا من مكة أبو جهل ومن معه من صناديد الشرك والكفر في مكة.

خرجوا بخيلائهم وبقوتهم وعدتهم ليقابلوا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو عدده قليل كموسى ومن معه، فأهلك الله الطاغية أبا جهل ومن معه، ونصر نبيه وأصحابه في غزوة بدر، فأهلكوا وألقوا في آبار وفي قليب بدر.

وهذا يذكرنا بنصرة الحق وإزهاق الباطل، كما نصر الله موسى ومن معه وأهلك فرعون ومن معه؛ حقيقة القصة يعني فيها عبر فيها دروس يستفيد منها المسلم ويعرف.

هذه القصة بعدها تأتي قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، نأخذ شيئاً منها قليلاً؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]؛ أي اقرأ عليهم واذكر لهم نبأ إبراهيم، أي اذكر لقومك من

أهل مكة ومشركي مكة الذين يدعون أنهم ينتسبون إلى إبراهيم وأنهم على دين إبراهيم، اذكر لهم ما هو من هو إبراهيم؟ وما حاله؟ وما موقفه من قومه؟ اتل عليهم نبأ وخبر إبراهيم.

- **ما هو خبره؟**

قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠]؛ أي اتل عليهم حينما قال إبراهيم، إذ قال لأبيه وقومه؛ أي أنه دعا أباه وقومه وناقشهم وحاورهم وجادلهم في معبوداتهم من دون الله، فقال لأبيه ولقومه: ما تعبدون؟

- **ما هي هذه الأشياء التي تعبدونها؟**

﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]؛ الأصل أنهم يجيبون فيقولون: نعبد أصناماً، خلاص، أنتم ماذا تعبدون؟ قالوا: نعبد أصناماً؛ لكن لما يقولون: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين، هذا تبجح منهم، واستكبار منهم وتعالٍ؛ يقولون: نحن نعبدها وليس فقط عبادة، بل نعتكف عندها ونقيم عندها الأوقات الطويلة.

قال لهم يناقشهم فيها، والله عَزَّ وَجَلَّ أعطى إبراهيم الحجة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]، كما أعطى موسى الحجة على فرعون، أعطى إبراهيم الحجة، تلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه؛ فقال إبراهيم لهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢]؛ لما تدعونهم وتجلسون أمامهم وتسألونهم، هل يسمعونكم تدعون؟ أجيبوني، ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٣]؛ في شيء مما تريدونه من النفع، أو يضرونكم لو تركتم عبادتهم هل يضرونكم؟

﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]؛ قالوا: لا، لكن وجدنا آباءنا؛ عرفوا أنهم ليسوا على حق، قالوا: لكننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلونها فنحن نسير عليهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

قال لهم وهو يناقشهم بقوة: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝٧٦﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٦]؛ أي أخبروني ما كنتم تعبدون، أخبروني عن هذه المعبودات، أنتم وآباؤكم الأقدمون؛ ليس فقط آباؤكم، ليس فقط آباؤكم بل الآباء الأقدمون يعني أسلافكم وأسلافكم البعيدون، أنتم وآباؤكم، ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧].

هذه المعبودات والأصنام عدو لي، صرح بعداوتها، إلا رب العالمين؛ إلا عبادة الله وحده لا شريك له. لماذا؟ قال: لأنه رب العالمين، أي خالق العالم كله، خالق السماوات والأرض وما فيهن، وخالق الخلق كله رب العالمين.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]؛ أي خالق العالم كله، خالق السماوات والأرض وما فيهن، وخالق الخلق كله رب العالمين، الذي خلقني أنا وأوجدني فهو يهديني؛ لما خلقني هداني لعبادته، وهداني لما خُلقت له.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩]؛ سبحانه، هو الذي يرزقني ويسوق لي الرزق، ويسوق لي الطعام والشراب، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]؛ شوف لم يقل: وهو الذي يمرضني ويشفيني، تأدب مع الله؛ لأن المرض ضر، فلا ينسب الضر إلى الله ولا ينسب الشر إليه؛ والشر ليس إليك، والخير بين يديك والشر ليس إليك.

فلذلك تأدب إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: وإذا مرضت، ما قال: وإذا أمرضني؛ مع أن المرض من الله، ولكنه من الأدب، ولذلك الجن في سورة (الجن) تأدبوا مع الله، قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]؛ لما جاء الشر قال: شر أريد، لما جاء الخير الرشد قالوا: أم أراد بهم ربهم رشداً.

ولذلك الخضر لما قال يعني في قصته مع موسى، قال: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]؛ ما قال: أراد الله، قال: أردت أنا أن أعيبها؛ لأنه عيب ولذلك لم ينسبه إلى الله، هذا من الأدب، الأدب ما يقول الإنسان: الله أمرضني والله، تأدب بالشر والله قدر علي كذا، لا، وإن كان هذا كله بتقدير الله.

ولذلك شوف قال: يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين. قال: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٨١]؛ يعني أن يأتيني الأجل فيقبض روحي سبحانه، ثم يحييني بعد ذلك، وإذا أحياني الحياة الثانية أحياني على خير؛ لأنني عرفت الله عَزَّ وَجَلَّ وأقررت بوحدانيته.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]؛ أي أطمع من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يغفر لي ذنبي وخطيئتي يوم الدين، وإن كان إبراهيم من الأنبياء المعصومين لكنه قد يقع في شيء من

الخطأ أو النسيان أو التقصير ثم يبادر؛ ولذلك طلب أن تغفر له خطيئة، أن يغفر الله له خطاياه يوم الدين، يوم القيامة، وفيه إثبات الجزاء والحساب يوم القيامة.

ثم بدأ يبتهل إلى الله بالدعاء، لما أقر بالله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته، وما يعني وما يذكره عن ربه من أنه هو الذي خلقه وهو الذي هداه، والذي أطعمه وسقاه إلى آخره، بدأ يدعو ربه؛ فقال: أنتم تدعون الأصنام وأنا أدعو ربي الذي له الصفات العلى، الذي له الصفات والأفعال الحسنة؛ ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]؛ يعني ارزقني العلم الذي ينفعني والعمل الذي ينفعني، ثم ألحقني بالصالحين في من عبادك الصالحين الذين اخترتهم وجعلت لهم الصلاح.

﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]؛ أي في الأمم الآتية بعد يُذكر بخير، ولذلك نوه القرآن بذكره، وذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث بذكر حسن؛ لسان صدق في الآخرين، ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥]؛ اجعلني من أهل النعيم، من أهل النعيم الفائزين بجنات النعيم.

﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]؛ دعا لأبيه وهو على الشرك، وكان هذا في أول الأمر، ثم لما أوحى الله إليه أنه لا يدعى للمشرك، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]؛ ذلك اليوم يوم الفضيحة ويوم الخزي، أن الله يستر عليه ولا يخزيه ولا يفضحه أمام الخلق يوم يبعثون، وفي دلالة على إثبات البعث.

قال هذا اليوم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩]؛ لا ينفع لا ينفعك المال ولا ينفعك الأبناء إلا في حالة واحدة: من أتى الله بقلب سليم من الشرك وسليم لربه، مطيع لربه، سالم مخلص العمل له، فهؤلاء ينفعهم تنفعهم أموالهم وتنفعهم أبناؤهم في ذلك اليوم، ينتفعون ويكونون على خير.

هذا ما أورده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدما ذكر لنا قصة موسى؛ وقصة موسى اشتملت على الجبروت والبطش والقوة، وأن أعداء الإسلام يبطشون بأولياء الله ويبطشون

بالمؤمنين، وأن الله ناصر عباده المؤمنين، وإن طال وإن طال الكرب والشدة فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منجيهم.

وفي قصة موسى وفي قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أننا نعرف أن التقليد الأعمى الذي لا دليل عليه ينبغي أن يحذر الإنسان؛ هؤلاء وجدوا آباءهم فقلدوهم ولا حجة لهم، وأقام إبراهيم عليهم حجة ولكنهم استمروا، حتى تواعدوه بأن يحرقوه، بأن يقتلوه أو يحرقوه، فأنجاه الله من النار، وهاجر وترك قومه.

يأتي الحديث -إن شاء الله- استكمالاً لما توقفنا عنده في اللقاء القادم، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الشعراء ٨٣ - ١٠٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للعاشر من الشهر السادس من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

نجتمع هذا اليوم على كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ القرآن العظيم، وعلى أيضاً هذه السورة الجليلة العظيمة؛ سورة الشعراء، فسرنا منها وتطرقنا لآيات منها، وهي أيضاً عرضت لنا سبع قصص من قصص الأنبياء المرسلين مع أقوامهم، وبيان دعواتهم، وموقف الأقوام منهم، وجزاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم.

القصة الأولى -مثل ما مر معنا- قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته فرعون، الذي دعاه موسى إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يرسل معه بني إسرائيل ولا يعذبهم، فأبى واستكبر واعترض وعارض ولم يقبل وعاند؛ فكانت النتيجة أن أخذه الله نكال الآخرة والأولى.

بعد ذلك تنتقل السورة إلى قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وموقفه مع قومه في دعوته إلى توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعبادته وحده لا شريك له، والتحذير من عبادة الأصنام.

ونلاحظ أن قصة إبراهيم في سورة الشعراء ختمها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالدعاء، ونحن مر معنا في اللقاء الماضي أننا أخذنا القصة كاملةً، ولكن هذا الدعاء في الحقيقة يحتاج منا وقفات وتأملات؛ من هذا الدعاء الذي دعا به إبراهيم بعدما أقام الدعوة، وأقام رسالته مع قومه، ونصحهم، وبذل كل ما يستطيع.

ومع ذلك هم أبوا واستكبروا، وحكموا عليه إما أن يحرق بالنار أو يقتل، فأحرقوه بالنار ولكن الله نجاه من هذه النار؛ فأخذ يدعو بهذه الدعوات العظيمة الجليلة التي حقيقةً جدير بنا أن نفهم هذه الدعوات، وأن أيضاً نقتدي بإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر قصص الأنبياء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]؛ يعني اقتد بهم وبهداهم.

قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]؛ هذه دعوات إبراهيم.

أول دعوة أنه سأل الله أن يرزقه الحكم، والمراد بالحكم هنا هو العلم والفهم والإدراك؛ بأن يمن عليه بالعلم النافع، وفهم الأمور وإدراكها، ومعرفة الحكمة من ورائها والأسرار.

وهذا الذي ينبغي للإنسان أن يدعو بأن يخرجه الله من ظلمات الجهل إلى نور الطاعة والإسلام والعلم؛ فإن آدم أبو البشر فاق الملائكة وانتصر عليهم بالعلم، لما قال: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١]، ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]، ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣]، ثم قال سبحانه: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤]؛ فالعلم شرف.

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾؛ علماً وفهماً، ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ أي اجمعني في جنات النعيم مع الصالحين، ألحقني بهم، وهذا تواضع منه؛ هذا تواضع من إبراهيم. إبراهيم هو في مقدمة الصالحين، وهو في السماء السابعة، وهو أبو الأنبياء، وفي السماء السابعة وتحت السماء السابعة ست سماوات فيها أنبياء وهو فوقهم.

ومع ذلك يقول: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ هذا من تواضعه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإلا هو في مقدمة الصالحين، لكن هذا الذي ينبغي للإنسان أن لا يفتخر بعمله، ولا يفتخر بنفسه، ولا يفتخر بما يقوم به من أعمال، بل يرى نفسه أنه مقصر وأنه ضعيف، ولذلك قال: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؛ واجمعني في زمرة هؤلاء الصالحين.

وهذا الذي ينبغي للإنسان أن يحرص على هذا الدعاء؛ أن يكون في رفقة الصالحين كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

- **قد يسألك سائل يقول لك: الآن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، ليش ما قال ألحقني بالأنبياء؟ الأنبياء أفضل من الصالحين.**

الجواب: إذا كلمة الصالحين إذا جاءت وحدها هكذا، فإن يدخل فيها الأنبياء قبل كل شيء، وإذا جاءت مع الأنبياء والصديقين عرفنا أن الصالحين لها معنى؛ لكن إذا قيل الصالح والصالحين هؤلاء في مقدمتهم؛ لأن تشمل كل صالح، والأنبياء في مقدمة الصالحين.

قال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]؛ شوف، طوى الدنيا في الأول، طوى الدنيا ما يتكلم عن الدنيا، قال: أعطني العلم النافع ثم ألحقني بالصالحين، وكأنه لا يريد أن يذكر الدنيا أبداً ولا يقول أعطني في الدنيا شيء، قال: ألحقني بالصالحين، ثم عاد مرةً أخرى إلى الدنيا.

ولكنه أراد معنىً واحداً من أمور الدنيا وهو الثناء الحسن والذكر الحسن له الجميل في الدنيا فقط؛ لا يريد مالاً، ولا يريد جاهًا، ولا منصباً، ولا أي شيء، وإنما أن يذكر بالخير والدعاء له؛ ولذلك قال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ أي في الأمم الآتية والأجيال القادمة أن يثنوا عليه، وأن يذكروه بخير، وأن يدعوا له، وأن يصلوا عليه.

ولذلك أنت وأنا والثالث والرابع نصلي على إبراهيم كل يوم أكثر من سبع عشرة مرةً في صلاتنا؛ الصلاة الإبراهيمية، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ تقبل دعاءه لما قال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾؛ فجعل له الثناء الحسن والذكر الجميل في الدنيا في كل مسلم من الناس منذ بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الآن، والناس جميعاً كل مسلم يدعو لإبراهيم، ويصلي على إبراهيم، ويذكره بالذكر الحسن: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ**».

قال بعدها: ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥]؛ عاد إلى الآخرة، قال: واجعلني من عبادك الذين يرثون الجنة، نعيم الجنة؛ لأن الجنة أعظم ميراث يبحث عنها الإنسان، أعظم ما يحصل عليه الإنسان في الآخرة أن يفوز بميراث الجنة.

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾؛ يعني اجعلني من أهل الجنة، وهذا أيضاً من تواضعه، وإلا هو من أهل الجنة، ومع ذلك يدعو ويحرص عليها، لم يقل والله إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد كتب لي الجنة؛ لا، إنما يدعو ويحرص عليها.

قال: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]؛ وهذا من إحسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه آزر، فإن أباه كان في ضلال مبين، وكان يصنع الأصنام ويبيعها ويعبدها، وقد دعاه إبراهيم إلى التوحيد ونصحه.

ومع ذلك قال: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا إِبْرَاهِيمُ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]، فقال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧]؛ فكان من دعائه أنه قال: اغفر لأبي فإنه في ضلال، فاغفر له وتجاوز عنه.

وهذا كان وعداً من إبراهيم أن يدعو لأبيه، وكان يدعو حتى جاءه المنع من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن لا يدعو لأبيه لأنه على الكفر والشرك؛ ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في آية أخرى: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]؛ تبرأ من أبيه.

والدعاء لأهل الضلال والكفر بالهداية هذا أمر مطلوب؛ أنك تدعو لهم بالهداية، تدعو لهم بالهداية أن يهديهم الله. إذا كان مثلًا قريب لك كالأب والأم والعم والخال ونحوهم على ضلال وعلى كفر وعلى إلحاد، تدعو لهم بأن يردهم للإيمان والإسلام ونحو ذلك.

قال بعدها من أدعيته: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]؛ وتلاحظ أن دعوات إبراهيم مركزة على اليوم الآخر، لا يريد الدنيا، إنما يريد الذكر الحسن والثناء من الدنيا ليدعوا له؛ ليدعو له الناس ويذكرونه بخير ويصلون عليه ويدعون له، هذا الذي يريده من الدنيا.

قال: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي إذا جاء يوم البعث والجزاء والحساب، وخرج الناس من قبورهم لا تجعلني ذليلًا، ولا تخزني تجعلني من المهانين الذليلين، بل اجعلني من الأعزاء المكرمين. ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾؛ الناس يخرجون من قبورهم للجزاء والحساب وأنا أخرج ذليلًا حقيرًا؟ لا، اللّٰهم اجعلني مكرمًا معززًا.

قال في هذا اليوم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ – ٨٩]؛ هذا اليوم لا ينفع فيه المال، ولا ينفع فيه الأبناء، لا أحد ينفع أحدًا من العباد إلا من أتى الله بقلب سليم.

- **من أي شيء سليم؟**

سليم من الكفر، سليم من النفاق، سليم من المعاصي؛ قد صلح قلبه، واستقام قلبه لطاعة الله، وتجرد قلبه للتوحيد ولعبادة الله وحده لا شريك له، فهذا اليوم وهذا الشخص هو الذي ينفعه هذا اليوم، ينتفع به، ينتفع بالقلب السليم.

قال الله بعد هذه الدعوات المباركات من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ -وقد استجاب الله دعاءه-؛ بعد هذه الدعوات المباركة يعرض الله لنا حال المؤمنين والمتقين وحال الكفار يوم القيامة، لما إبراهيم بدأ يذكر هذه الدعوات، ناسب أن يعرض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا اليوم العظيم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]؛ أي قربت الجنة للذين اتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالبعد عن الكفر والمعاصي، واتقوا الله بالإقبال على الطاعات.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾؛ أي قربت الجنة لهم، الجنة تدنى لهم وتقرب لهم فيرونها ويسارعون إليها.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]؛ أي أظهرت النار فرأوها من بعيد، يرون النار وهي مقبلة عليهم تجر بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألفًا من الملائكة يجرون النار فيراها المجرمون؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾؛ وأظهرت النار ورفعت ورآها الكفار الذين ضلوا عن الهدى وعن الحق، والذين وقعوا في المحارم ووقعوا في المنكرات والمعاصي والكفر وكذبوا الرسل، هؤلاء الغاوين. الغاوين معناها جمع غاوي، والغاوي هو الضال، الضال الذي لم يعرف طريق الهدى.

قال: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾؛ أي للغاوين أهل النار المجرمين، قيل لهم: ﴿أَيْنَمَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ۝٩٣﴾ [الشعراء: ٩٢ - ٩٣]؛ أين معبوداتكم التي كنتم تعبدونها من الشجر والحجر والأصنام والأوثان والأولياء؟ أيهم تعبدونهم من دون الله؟ وهذا السؤال توبيخ، وإلا يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والملائكة تعلم، لكن من باب التوبيخ؛ من باب التوبيخ يقال لهم: أين الآلهة التي تدعون أنها تنفعكم وتقربكم إلى الله زلفى وتشفع لكم.

أين هي تنصركم؟ أين هي؟

﴿أَيْنَمَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الشعراء: ٩٢ - ٩٣]؛ هل ينصرونكم بمعنى أنهم يدفعون عنكم العذاب ويخلصونكم من العذاب؟ أو ينتصرون بدفع العذاب عن أنفسهم؟ لا هم ينتصرون لأنفسهم ولا هم ينصرونكم، كلكم في نار جهنم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٩٤ - ٩٥]؛ فكبكبوا فيها هم، أي الأصنام وأصحابها الذين يعبدونها، الغاوون هم والغاوون كبكبوا فيها.

وكبكبوا يعني أشد من كب؛ لما تقول كب هذا الشيء غير لما تقول كبكب هذا الشيء، ولما يقول فلان يكب علينا غير لما تقول فلان يكبكب علينا؛ فكبكبة أشد في المبالغة وهو أكثر، تعني أنهم يتساقطون هؤلاء ويتدافعون ويجمع أولهم إلى آخرهم ثم يلقون في نار جهنم، فهذا معنى كبكبوا فيها. كبكبوا فيها هم، أي الأصنام والمعبودات والأولياء الذين كانوا يجعلونهم آلهةً من دون الله، والغاوون الذين يعبدونهم، كلهم في نار جهنم.

﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء: ٩٤ - ٩٥]؛ وجنود إبليس الذين زينوا لهم الشر، جنود إبليس جنود من الجن وجنود من الإنس؛ يعني إبليس له جنود من ذريته ومن الجن، وله جنود أيضاً من الإنس يساعدونه ويزينون للناس الشر ويدعون الناس إلى الشر، هؤلاء جنود إبليس، جنود إبليس سيجمعهم الله؛ يجمع هؤلاء الأصنام والآلهة وعابديها وإبليس معهم وجنود إبليس كلهم يلقون في نار جهنم.

فإذا ألقوا بدأوا يتخاصمون وبدأوا يتجادلون، يتجادلون فقال الله: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٦]؛ قالوا وهم فيها يختصمون يعترفون بخطئهم ويتنازعون فيما بينهم ويتخاصمون فيما بينهم، قال بعضهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨].

- **من القائل؟**

القائل الغاوون أهل النار، القائل أهل الضلال الذين يعبدون الأصنام والذين يرتكبون المعاصي، هؤلاء إذا جاء يوم القيامة يقسمون بالله يقولون: تالله، تالله إن كنا لفي ضلال مبين؛ أي في الدنيا لما كنا نعبدكم والله إننا لفي ضلال مبين. الآن تعترفون؟ ما ينفع الاعتراف؛ الاعتراف في نار جهنم ما ينفع، ولا

ينفع القسم أن تقسم بالله: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨].

- **كيف نسوي هذه الأصنام والأوثان والمعبودات والأولياء، نسويهم برب العالمين؟**

نجعلهم هم ورب العالمين سواءً! رب العالمين هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له، وهو الذي -كما قال إبراهيم- هو الذي يحيي ويميت، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين، وهو الذي وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يطعمني ويسقين.

هذا هو الرب الذي يستحق العبادة، الذي خلقك ورزقك وعافاك وأعطاك العافية والصحة وهداك إلى الطريق المستقيم، هذا هو رب العالمين الذي يستحق الشكر ويستحق أن يعبد، فكيف نسوي هذه الأصنام برب العالمين وهو الذي يستحق؟!

قال: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشعراء: ٩٨ - ٩٩]؛ الذي جعلنا نصير إلى هذا المصير السيئ وهذه النهاية السيئة في نار جهنم: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾، ما جعلنا في هذا المكان إلا المجرمون.

المجرمون هم الضلال والدعاة؛ الدعاة إلى نار جهنم وجنود إبليس وإبليس وهذه المعبودات كلها، كلهم هم مجرمون حيث أضلوا الناس: ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾.

ثم ينادون فيقولون: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١]؛ لا أحد يشفع لنا، الشافع أن يخلصك، أن يشفع لك ويتوسط لك بأن يخلصك مما أنت فيه من العذاب الأليم، فهم يقولون: فما لنا من شافعين؛ لأنهم إذا رأوا الشفعاء، الشفعاء كثيرون يوم القيامة؛ شفاعة الملائكة، وشفاعة الأنبياء، وشفاعة الصالحين، والقرآن يشفع، والصيام يشفع، والأعمال تشفع، والصدقات تشفع، فإذا رأوا هذه الشفاعات الكثيرة قالوا: فما لنا من شافعين؛ ولا واحد يشفع لنا، لا أحد يشفع لنا يخلصنا من العذاب.

ثم قالوا: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾؛ ولا صديق حميم؛ يعني من هو صديق لنا صداقته صداقة حميمية، مودته مودة تامة، يشفق علينا وينقذنا من هذا الموقف. ولاحظ أنه لما جاء في الشفاعة قال: ﴿شَافِعِينَ﴾؛ يعني كثير، لأنهم يرون الشفاعات كثيرةً ولأن الشفعاء كثيرون، ولكن الأصدقاء قلة.

متى تجد صديقًا حميمًا يخلص لك الصداقة ويقف معك في هذه مثل في هذه المواقف الشديدة العصيبة؟ متى تجد الصديق؟ إذًا الصديق كثير؛ يعني عندما تعد الأصدقاء تجدهم كثيرين، لكن إذا أردت صديقًا في وقت الحاجة يندر، يندر جدًا، ولذلك هم قالوا: ولا صديق واحد، ولا واحد.

قالوا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢]؛ بدأ الندم عندهم، قال: يا ليت، رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون، قال: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يقول: ليت لنا كرةً وليت لنا رجعةً، فنصبح من جملة المؤمنين، ونعرف ربنا ونطيع الله عَزَّ وَجَلَّ ولا نعبد هذه الأصنام.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٣]؛ إن في هذا، في قصة إبراهيم لعبرةً، وفي هذا الدعاء وفي دعوات إبراهيم لعبرةً، وفي عرض أهل النار ولما تزلف الجنة وتعرض النار على أهل النار ويرونها ويجري ما يجري معهم من هذا الكلام الذي مر معنا وهذه المخاصمات بينهم، في ذلك عبرة يعتبر بها كل عاقل ومن يسمع مثل هذه الأخبار والأنباء، يعتبر بها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾؛ الذين دعوا إلى هذا أكثرهم لم يقبلوا ولم يؤمنوا، ولكنهم سيندمون أشد الندم.

قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٤]؛ العزيز: ذو القوة، إذا أراد أن ينتقم من أعدائه فهو عزيز ذو قوة، ورحيم بأوليائه؛ رحيم بالمتقين، ورحيم بأوليائه وبين أنبيائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الرحيم بعباده المؤمنين، القادر على الانتقام من أعدائه المكذبين المجرمين.

الحقيقة، هذه الدعوات هي التي جعلتنا نرجع إليها؛ دعوات حقيقةً مهمة جدًا ونافعة، والإنسان يستفيد منها، وأفضل الدعاء ما جاء في القرآن والسنة، وهذه من دعوات إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذه الدعوات المباركة.

نستفيد فيها دروساً وعبراً، وأيضاً ما عرضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من موقف هؤلاء الضالين أهل النار، ينبغي أن يعتبر الإنسان ويستفيد منها في حياته، وأن يحذر طرق هؤلاء وأن لا يكون في جملتهم أو يقتدي بهم.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا. نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم؛ ننتقل إلى قصة أخرى وهي القصة الثالثة في السورة، وهي قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم قصة هود مع قومه عاد، ثم صالح مع قومه ثمود، وهكذا تأتينا القصص التي فيها الدروس والعبر.

نسأل الله ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، بارك الله فيكم، إلى لقاء قادم بإذن الله، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الشعراء ١٠٥ - ١٤٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو اليوم السابع عشر من الشهر السادس من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

لا زلنا في هذه السورة العظيمة القدر الجليلة وهي سورة الشعراء، التي ذكر الله فيها من أخبار الأمم الماضية ومن أنبيائهم، ذكر سبع أمم وسبعة انبياء؛ بدأهم بقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون ودعوة موسى لفرعون، وموقف فرعون من هذه الدعوة واصراره على الكفر والعناد ونهايته أن أغرق في البحر هو ومن معه.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد هذه القصة قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته لقومه ونصحه لقومه وتحذيرهم من عبادة الأصنام، ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك قصصاً متتالية مرتبة ترتيباً زمنياً: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، ثم خلفه بعد ذلك هود عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قوم عاد، ثم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى ثمود، ثم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم بعد لوط شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، هؤلاء جاء ترتيبهم ترتيباً زمنياً؛ كل قوم يبعث الله إليهم رسولاً فيكذبوه فيهلكهم.

والسورة تلاحظ سورة الشعراء إذا تأملتها وجدت أنها تركز على نهاية الأقوام ما مصيرهم، وما نهاية الأنبياء؛ يعني عاقبة الرسل وعاقبة المؤمنين الذين آمنوا مع الرسل وعاقبة المكذبين المعاندين.

تسير على هذا النمط بأسلوب مكرر ومختصر وبيان دعوة الرسل دعوة واحدة، وكل رسالاتهم تجمعهم رسالة واحدة: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ألا تتقون الله، فاتقوا الله وأطيعون.

كلهم على هذا النمط على هذه الطريقة، وتأتي مختصرة؛ لأن هذه القصص قد ذكرها الله في مواضع أخرى مفصلة، فبدأ بقوم نوح بطريقة وأسلوب واحد، كلهم تبدأ القصة بقوله: كذبت، كذبت؛ فقال الله عَزَّ وَجَلَّ في أول القصص: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٠٦ إِنِّي

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾ [الشعراء: ١١٠].

لاحظ كم مرة يقول نوح لقومه اتقوا الله؛ ثلاث مرات، ويقول أطيعون؛ أطيعون، ولاحظ كيف طريقة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في أسلوبه؛ يعني وحكمة هذا أسلوب بأبدع الألفاظ وأجملها وأحسن الأخلاق، يأتيهم ويقول: ألا تتقون؛ أسلوب حث وتشجيع وبهذه الطريقة يقول: ألا تتقون؛ ألا تتقون الله؟ لماذا لا تتقون الله؟ ثم قال: أنا وظيفتي رسول إليكم، ولست رسولاً فقط، رسول أمين؛ يعني مرسل من عند الله وأمين.

لاحظ وأنت تقرأ هذه القصة أن الله قال فيها ماذا؟ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

- **من أول رسول بعثه الله إلى الأرض؟**

هو نوح، هو أول رسول وليس قبله رسول، وإن كان قبله أنبياء مثل آدم نبي وقيل إدريس قبله وقيل حديث الله أعلم بهؤلاء لا نعرف عنهم لكن قاله أهل التاريخ الله أعلم، لكن المشهور أن نوح هو أول رسول: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]؛ فهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

- **متى بعثه الله؟**

لما عبدوا الأصنام، كان قوم نوح على التوحيد، وبين نوح وآدم عشرة قرون، عشرة قرون وكانوا على التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له، فلما مات رجال صالحين في قوم نوح حزنوا عليهم، فبدأوا يذهبون إلى قبورهم ويجلسون عندهم تعظيماً لهم وأشفاقاً عليهم وحزناً عليهم، فجاءهم الشيطان وقال: لماذا تذهبون إلى قبورهم؟ صوروهم وضعوهم في مجالسكم وتذكروا صورهم واحزنوا عليهم خير من تذهبون.

فجاءوا وصوروهم ووضعوهم في مجالسهم وبدأوا يتذكرونهم؛ إذا دخلوا المجالس واجتمعوا فيها بدأوا يتذكرون هؤلاء الرجال الصالحين: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، بدأوا يتذكرونهم.

ثم جاءهم الشيطان بعد هذا الجيل، جاء جيل آخر ثم جاء جيل آخر فقالوا: إن هؤلاء رجال صالحين، وكانوا أجدادكم وآباؤكم يعظمونهم ويدعون لهم ويحزنون على ذهابهم؛ فأنتم عظموهم واعبدوهم.

فبدأوا يعبدونهم فبدأوا يعظمونهم على وجه العبادة، فبدأوا يصرفون لهم أنواعاً من العبادات ويدعونهم من دون الله؛ فظهر الشرك فيهم، وقالوا: لا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً، فبعث الله فيهم نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان من أحسنهم أخلاقاً ودعاهم إلى عبادة الله، قال: إني رسول أمين.

الملاحظ أيها الإخوة تلاحظ أن الله قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]؛ كم رسول جاءهم؟ واحد، كيف يقول المرسلين وهو واحد؟ وآية أخرى مرت معنا: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ [الفرقان: ٣٧]؛ ما كذبوا الرسل كذبوا.

- **ليش قال الله عَزَّ وَجَلَّ المرسلين مع أنه واحد؟**

الجواب: الذي يكذب رسولاً واحداً بمثابة الذي يكذب الرسل كلهم؛ لماذا؟؛ لأن دعوتهم واحدة، ولأنهم كلهم يقولون اتقوا الله وكلهم يقولون اعبدوا الله؛ فمنهجهم واحد وعبادتهم واحدة، فالذي يكفر بواحد يكفر بالجميع؛ لأنه لو جاء كلهم هؤلاء إليهم ما آمنوا.

فلذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]؛ المرسلين مع أنه رسول واحد، لكن لما كذبوا الرسل جميعاً حكم الله عليهم لما كذبوا رسولهم حكم الله عليهم أنهم يكذبون الرسل جميعاً.

قال: إذ قال؛ أي واذكر يا محمد، واذكر أيها القارئ والمستمع اذكر حينما قال لهم؛ أي لقومه، أخوهم نوح.

- **هل هو أخوهم؟**

الجواب: نعم، أخوهم بالنسب؛ ليست أخوة إيمانية؛ هم كفار وهو مؤمن، وإنما الأخوة هي أخوة النسب؛ لأنه هو من قومهم ومن أسرتهم ومنهم يعرفون ويعرفون نسبه.

فقال لهم نوح: ألا تتقون؛ ألا تتقون الله؟ يعني تخافون الله وتخشونه بترك عبادته وعبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر؛ كيف تعبدون هذه الأصنام وتعبدون هؤلاء الرجال الصالحين وتتركون عبادة الله وحده لا شريك له؟ ألا تخافون عقوبته بأن ينزل عليكم العقوبة؟

ثم قال بين وظيفته، قال: إني لكم رسول من عند الله، أرسلني الله، لست من عندي ولست اجتهاداً مني، وإنما هذه رسالة الله كلفني بها؛ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٠٧]. ولاحظ أنه قال أمين؛ أي أمين بالرسالة، أبلغكم ما أرسلت به، لا أخفي عنكم شيئاً، بل أبلغكم رسالات ربي وأؤدي الرسالة على أكمل وجه بأمانة، فأنا رسول وأمين في رسالتي؛ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨].

أكد عليهم مرة ثانية، أكد عليهم التقوى، قال: اتقوا الله وخافوه وأطيعوني، أنا رسول من عند الله جئتكم برسالة فاسمعوا مني وأطيعوني؛ خيراً لكم وأسلم لكم من العذاب.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]؛ أنا لا أطلب منكم أجراً على تبليغ الرسالة، لا أريد منكم الأجرة على رسالتي وعلى وظيفتي وعلى عملي؛ إنما الأجر عند الله، إن أجري إلا على رب العالمين، الله هو الذي يرزقني وهو الذي يكتب لي الأجر وهو الذي يعطيني الأجر على عملي.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١١٠]؛ أعاد مرة أخرى ثالثة، اتقوا الله وخافوه وأطيعون؛ فلاحظ كيف طريقته وأسلوبه، وعلى أحسن الأخلاق وأحسن الطرق التي يسلكها، وأسلوب الترقيق لهم، وأسلوب أن يفتح لهم باب القبول، ويأتيهم بهذا الأسلوب الطيب: أنا رسول وأنا أمين وأنا لا أريد منكم مالاً وأطيعوني.

- **فماذا كان جواب قومه؟**

﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]؛ نؤمن لك ونصدقك ونتبعك، والذين اتبعوك هم الأرذلون؟ هذا ردهم، شوف كيف الرد الذي لا يقبله أي عاقل وليس له يعني ليس ردهم هذا على علم وعلى معرفة وعلى حكمة، وإنما هكذا قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]؛ يعني أسافل الناس وضعفاء الناس والناس محتقرين يتبعونك ونحن نأتي نتبعك؟

- **كيف تريدنا أن نجلس مع هؤلاء ونكون معهم في صف واحد؟**

وهذا يدل على تكبرهم وعدم قبولهم الحق، وعلى ازدرائهم لهؤلاء الضعفاء، كما قال قوم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة؛ قالوا: اطرد هؤلاء الفقراء؛ عمار وخباب وبلال ونتبعك. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الأنعام: ٥٢].

فقال لهم نوح هنا لما قالوا: أنؤمن لك واتبعك الأرذلون؛ واتبعك الأراذل والضعفاء والمساكين والأسافل من الناس الذين لا يؤبه بهم ولا يلتفت إليهم، قال رداً عليهم: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الشعراء: ١١٢].

- **كيف تريد أن أطردهم؟**

ما أنا بطارد الذين آمنوا، ما أنا بطارد الذين آمنوا؛ ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٥]؛ أنا ليس لا أطرد هؤلاء، هؤلاء حسابهم على رب العالمين، أنا ما أطردهم لست مكلفاً بمعرفة أعمالهم؛ ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الشعراء: ١١٢].

أعمالهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وهم آمنوا وصدقوا فحسابهم على رب العالمين، أنا كلفت أن أدعو إلى الإيمان وليس لي علاقة في أعمالهم، أعمالهم يحكم عليها رب العالمين ويقبلها أو يردها رب العالمين.

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ١١٣]؛ يعني حسابهم وجزاؤهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس عندي، عند الله هو المطلع على أعمالهم وعلى سرائرهم وعلى ما يظهرونه، هذه أعمالهم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لو كنتم تشعرون بذلك لما قلتم مثل هذا الكلام، لكنكم لا تشعرون ولا تسمعون ولا تعقلون؛ كيف تريدون أني أطرد أناساً آمنوا بربهم وصدقوا رسولهم؟ العقل لا يقبل هذا الشيء فكيف نقبل منكم هذا الأمر؟

ولذلك صرح لهم قال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤]؛ الذين يؤمنون بدعوتي ويصدقونني ويتبعونني أطردهم؟ ما أنا بطارد؛ ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ١١٥]. وظيفتي النذارة، أنذر نذير مبين؛ أنذر الناس وأخوفهم من عقوبة العصيان والتمرد على الله عَزَّ وَجَلَّ.

لما ناقشهم ورد عليهم بالحجج القوية والأدلة القوية ما استطاعوا أن يناقشوه، وقفوا؛ وهذه طريقة كل ضعيف ليس عنده حجة، وكل معاند ليس عنده حجة؛ كل هؤلاء المتكبرين المعاندين إذا عجزوا عن الحجة وليس عندهم قوة في الرد استعملوا طريقة أخرى وهي القوة.

- **ولذلك فرعون لما جاءه موسى وناقشه ماذا قال؟**

قال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]؛ استعمال القوة، ولما جاء إبراهيم ودعاهم وحاجهم وأقام عليهم الحجة، قالوا: ﴿اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤]؛ ما استطاعوا أن يناقشوه. وقوم نوح هنا الآن ماذا يقولون؟ ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]؛ تهديد، أسلوب تهديد.

قالوا: إذا لم تنته عن دعوتك لنا وأن تكف عنا، إذا لم تنته يا نوح لنجعلنك لتقتلنك قتلاً شنيعاً وهو الرجم، نجعلك مع من يقتل بالرجم، لتكونن من المرجومين؛ تقتل شر قتلة بالحجارة.

هذا ردهم رد ما استطاعوا أن يناقشوه ويحاجوه بالدليل، ولذلك قالوا: لتكونن من المرجومين؛ وهذا أسلوب القوة والعنف دائماً يستعمله الأكابر، يستعمله المتكبرون الذين لا يريدون قبول الحق.

فلما رأى منهم هذا الأسلوب وهذا التهديد والتخويف وعدم قبول دعوته، مع أنه بقي عندهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم؛ ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يدعوهم، وقد صبر عليهم وهم يستهزئون ويسخرون ويردون دعوته ويجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم.

- **ماذا قال الله لما رأى منهم هذا الشيء؟**

دعا ربه عليهم؛ قال: إني مغلوب فانتصر، دعا ربه عليهم، فلذلك قال هنا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء: ١١٧]، ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨].

دعا عليهم لما رأى منهم الإصرار على التكذيب وعدم القبول، قال: احكم بيني وبينهم؛ قال: إن قومي كذبون، فافتح بيني؛ فافتح يعني احكم، الفتح هنا الحكم: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ﴾ [السجدة: ٢٩]؛ يوم الفتح يوم الحكم لما يحكم الله.

فقال: احكم يا رب بيني وبينهم، احكم يعني خلصني منهم، ونجني ومن معي من المؤمنين؛ فاحكم بيني وبينهم حكماً ننتهي نحن وإياهم؛ لأنهم هم عاندوا وأصروا على كفرهم، فتهلك من يستحق الهلاك وتنجي من يستحق النجاة من المؤمنين.

فحكم الله بينهم، فأوحى الله إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يعملون، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون.

وقال في آية أخرى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١٢].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]؛ أنجاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومن معه من المؤمنين، حتى ذكر كثير من المفسرين أن الذين آمنوا معه ثمانون رجلاً؛ ثمانون.

قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩]؛ الذي شحنه الله، الذي شحنه نوح وملأه بأصناف المخلوقات وما يحتاجون إليه، فنجاه الله بهذه السفينة، وأغرق كل من على الأرض، كل من على الأرض لم يركب في السفينة أصبح من المغرقين الهالكين، أغرقهم جميعاً ونجى نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه.

هذه قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ التي ذكرها الله في سورة الشعراء ختمها بقوله تعالى لما قال: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٠]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٢١]؛ أي إن في هذه القصة التي أوردناها وخبر نوح آية عظيمة لمن أراد النجاة وأراد السلامة، هذه عبرة له وآية يعتبر ويتعظ بها.

وآية على صدق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أخبركم به، فهي آية عظيمة وعبرة عظيمة لمن يعتبر ولمن جاء بعدهم يسمع هذه القصة فيؤمن بها، ويعرف أن الله مؤيد رسله، وأن الله ناصر دينه، وأن الله مهلك من يعاند شرعه ويعاند أنبيائه ولا يقبل الحق.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٢١]؛ ما كان أكثر من يسمع هذه القصة من المؤمنين بالله ورسوله، بل يسمعونها ولا يلتفتون إليها ولا يعتبرون بها؛ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٢٢].

عزيز: ذو قوة وانتقام ممن كفر ومن أعدائه وممن خالف أمره، رحيم: بعباده حيث نجاهم وسلمهم من أعدائه، ولذلك قال: الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين.

بعد ذلك يسوق الله قصة جاءت بعد قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي قصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه عاد، مع قومه عاد، وهود أرسله الله إلى قومه وهم عاد، وكانوا يسكنون في الأحقاف؛ يسكنون بالأحقاف في جنوب الجزيرة العربية، وكانوا أهل عربية يتكلمون بالعربية، فأرسل الله إليهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعوهم لعبادة الله وحده لا شريك له.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]؛ أي كذبوا رسولهم وكذبوا الرسل جميعاً ولم يقبلوا، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ المرسلين مثل ما ذكرنا؛ لأن دعوتهم واحدة.

قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٤]؛ أي عاد قال لهم أخوهم؛ أخوهم بالنسب كما ذكرنا، أخوهم بالنسب لا أخوة الدين فهم كفار وهو مؤمن، قال أخوهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ألا تتقون؟ نفس المنهج ونفس الطريقة التي سلكها نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ والتي سلكها من جاء بعد هود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال لهم: ألا تتقون؛ وهذا أسلوب الأدب، أدب الأنبياء مع رسلهم وتحببهم إليهم وإظهار الشفقة عليهم: ألا تتقون الله وتخافونه وتخشونه فتخلصوا العبادة له؟ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٢٥]؛ أنا أرسلني الله إليكم رسولاً، أرسلني الله إليكم وأنا رسول من عند الله وأؤدي رسالته على أكمل وجه؛ فأنا أمين، أمين في رسالتي لربي.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٦]؛ أعاد مرة ثانية وأمرهم بالتقوى، قال: اتقوا الله وخافوه وأطيعوني فيما أدعوكم إليه. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧]؛ أنا لا أريد أجراً منكم، لم أسألكم أجراً، وإنما أنصح لكم، أنا ناصح أمين لكم، وجئتكم بدعوة من الله عَزَّ وَجَلَّ لأرشدكم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وكانوا يعبدون الأصنام فحذرهم ونبههم وأتاهم بهذا الأسلوب، ثم ذكرهم بنعم عندهم لا يعرفون كيف يستعملونها هذه النعم، ذكر شيئاً منها.

قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]؛ الريع هو المكان المرتفع، وقيل هو ما بين أو ما بين الجبلين، المكان الذي يكون مرتفعاً شاهقاً بين جبلين يسمى ريعاً، يسمى ريعاً وهو معروف حتى عند أهل مكة؛ يعرفون الريع يقولون: ريع الحجون، وريع بخش، وريع كذا موجودة حتى الآن.

فالريع هو المكان المطل المرتفع؛ فكان قوم عاد يبنون على هذه الأماكن المرتفعة مثل الأبراج؛ مثل الأبراج يرفعون هذه يضعون أماكن للعبث فقط: تعبثون؛ يعني على وجه الإسراف والافتخار، ولذلك يتخذون القصور والحصون.

وأعطاهم الله القوة على بناء مثل هذه المباني العالية الشاهقة، فكانوا يبنون بكل ريع آية؛ آية يعني العلامة، فهم يبنون هذه الأشياء لتظهر قوتهم أمام الناس وتظهر هذه البنايات المرتفعة أمامهم أنهم وصل بهم القوة وأنهم تمكنوا من بناء مثل هذه البنايات العالية والحصون والقصور المنيعة؛ ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩]؛ قيل المصانع إنها أحواض كبيرة كانوا يضعون فيها المياه حتى يحفظوا لهم تحفظ لهم المياه مثل السدود الآن، فكانوا يحفرون حفراً عظيمة كانت مصانع يضعون فيها المياه حتى يأخذوا يستعملونها عند الحاجة.

قال: تتخذون مصانع لعلكم تخلدون؛ يعني كأنكم تخلدون في هذه الدنيا وتبقون فيها، فأنتم تفتخرون ببناية القصور العالية وتفتخرون أيضاً بهذه المياه التي تجعلون لكم كأنكم لن تموتوا أبداً.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]؛ أي إذا أردتم الانتقام من أحد من الخلق قتلاً أو ضرباً فإنكم لا ترحمون، فأنتم تقهرون الناس وتقتلون قتلاً شنيعاً وتظلمون الناس، فأخلاقكم سيئة وأنتم تفتخرون وتتكبرون؛ وإذا بطشتم بطشتم جبارين.

فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٣١]؛ خافوا الله وأطيعوني في دعوتي ولا تغتروا بهذه الحصون وهذه القصور وهذه المصانع وهذه القوة التي أعطيتم بها، لا تفتخرون بذلك؛ فاتقوا الله وأطيعون.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ١٣٢]؛ من الذي أمدكم وأعطاكم هذه الخيرات؟ أمدكم بهذه الأشياء هو الله، فاتقوا الله الذي أمدكم بما تعلمون؛ ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٣]؛ أعطاكم الأنعام: الإبل والبقر والغنم، وأعطاكم البنين والأولاد.

﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٤]؛ وأعطاكم البساتين جنات وعيوناً وفجر لكم الأرض عيوناً وأعطاكم الخيرات، وآمنين في بيوتكم وقصوركم، كل هذه من الله عَزَّ وَجَلَّ ثم تعصونه وتعبدون الآلهة من دون الله، تعبدون الأصنام.

قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥]؛ شوف طريقته، الترغيب والترهيب؛ يذكرهم بنعم الله عليهم ثم يخوفهم من عقوبة انتقام الله منهم إذا أصروا وكفروا وردوا رسالة نبيهم هود؛ فإنهم عرضوا أنفسهم للعذاب العظيم: إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم؛ ينزل بكم وترون شدائده فاتقوا الله.

- **فماذا كان ردهم؟**

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]؛ يعني لا تذكرنا، لا ننتفع بذكر ذكراك، ولا تخوفنا، ولا تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا؛ تعظ أو لم تعظ، تذكر أو لم تذكر ما نقبل منك، لا نقبل منك مثل هذا الأمر. فردوا دعوته وأنكروا رسالته واستكبروا في قبولها وقالوا الأمر عندنا سيان في دعوتك، لا تدعو أو ما تدعو.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]؛ يقول هذه طريقة الأولين، كلهم يمشون على هذه الطريقة؛ يبنون ويتخذون المصانع ويتكبرون ويعبدون الأصنام، فهذه طريقة آبائنا وأجدادنا وجدناهم على هذه الطريقة ونحن نسير عليهم، فهذا خلقهم؛ خلق الأولين.

وفي قراءة أخرى قال: إن هذا إلا خَلْق الأولين؛ يعني هذا الذي وجد من الأولين، يعني هذا خلق يعني الخلق الأخلاق والخلق الإيجاد، يعني هذا موجود عند أسلافنا؛ فلماذا تنكر علينا يا هود وتقول اعبدوا الله واتركوا الآلهة وافعلوا ونحن هذه طريقة آبائنا وأجدادنا؟

وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]؛ ما عذب آباؤنا وأجدادنا نعذب نحن؟ ليس معذبين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الشعراء: ١٣٩]؛ فكذبوه وردوا رسالته ولم يقبلوا منه، فالنتيجة قال: فأهلكناهم؛ أهلكهم الله عَزَّ وَجَلَّ بأن أرسل عليهم ريحاً، أرسل عليهم ريحاً صرصراً باردة مكثت عندهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، وأهلكتهم تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل خاوية؛ فأهلكهم الله بالريح.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٩]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٤٠]؛ إن في ذلك، فيما نذكره لكم، آية عظيمة لمن يعتبر ويتفكر، ولكن مع الأسف الكثير لا يؤمن ولا يتعظ ولا يصدق.

قال: وإن ربك سبحانه لهو العزيز في انتقامه من مثل هؤلاء العصاة المكذبين، وهو رحيم بعباده المتقين؛ أسأل الله أن يرحمنا وإياكم برحمته الواسعة.

لعلنا نقف عند هذا القدر؛ أخذنا قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وما فيها من عبر وعظات، وقصة هود عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه عاد وما فيها من عبر وعظات، وإن شاء الله نستكمل ما تبقى من القصص في لقاءات قادمة، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا.

نسأل الله ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، بارك الله فيكم، إلى لقاء قادم بإذن الله، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الشعراء ١٤١ - ١٧٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للرابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، درسنا المعتاد في تفسير القرآن العظيم، ووصل بنا الكلام في سورة الشعراء عند قصة صالح نبي الله عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه ثمود.

ومثل ما ذكرنا لكم، السورة ذكرت عدداً من قصص الأنبياء؛ ابتدأ الله بقصة موسى مع فرعون، ثم قصة إبراهيم مع قومه وأبيه، ثم بعد ذلك قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، ثم بعد ذلك قصة هود مع قومه عاد؛ أربعة، والخامس قصة رسول الله ونبيه صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع ثمود، ثم تليها قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، ثم بعد ذلك شعيب؛ شعيب مع أهل مدين أصحاب الأيكة.

سبع قصص يوردها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإنك لتتعجب وتتفكر في سرد هذه القصص بهذا الترتيب العجيب وهذا الأسلوب العظيم، وتجد الأسلوب لا يختلف؛ كلهم على هذه الطريقة، كلهم على هذه الطريقة يمشون بطريق واحد ودعوة واحدة، كلهم يقولون: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ألا تتقون، اتقوا الله وأطيعون، على منهج واحد وكلهم دعوتهم واحدة.

ومواقف الأمم التي أرسلت إليهم كانت مواقفهم مواقف العناد والاستكبار والعتو وعدم قبول الحق والتكبر على الحق، والنتيجة تدمير هذه الأمم وإهلاكها بأنواع من العذاب؛ فأغرق فرعون سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأغرق قوم نوح، وأخذت الصيحة والريح قوم عاد، وأيضاً قوم ثمود بالصيحة، ولوط أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قلب ديارهم ثم أتبعهم بالحجارة من سجيل ومن طين، ثم شعيب أيضاً أتاهم عذاب يوم الظلة فأحرقتهم النار.

الآن نشوف ماذا يحدثنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن القصة التي وقفنا عندها، القصة التي توقفنا عندها؛ قصة ثمود، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]؛ كذبت ثمود؛ أي قبيلة ثمود التي كذبت، كذبت أخاهم صالحاً في رسالته لما جاءهم يدعوهم إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يتركوا عبادة الأصنام والشرك، وأن يتركوا عنهم الأخلاق السيئة، بل ردوا رسالته وكذبوه، وقالوا: أبشر يهدوننا؟

وقالوا: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١]؛ رسول واحد جاءهم، ما جاءهم مرسلين.

- **كيف يقول المرسلين وهو الذي أرسل إليهم صالح فقط؟**

الجواب: الذي يكذب برسول واحد كأنه كذب بالرسل جميعاً؛ لأن دعوتهم واحدة، دعوتهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فالذي يكذب الواحد منهم كأنما كذب الجميع.

قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٢]؛ أي واذكر، اذكر يا محمد، واذكر أيها المخاطب حينما قال لهم أخوهم صالح؛ أخوهم في النسب، أخوهم في النسب لا في الإيمان، ليست أخوة إيمانية وإنما أخوة في النسب فقط. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٢]؛ ألا تخافون الله؟ ألا تخشون عقاب الله؟ ألا تتقون الله فتفردوه بالعبادة وتوحدوه؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٤٣]؛ أي مرسل من عند الله، هو الذي أرسلني إليكم أدعوكم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٤٣]؛ رسول وأمين؛ يعني أمين على هذه الرسالة أؤديها كما أمرني الله عَزَّ وَجَلَّ، أمين في هذه الرسالة أؤديها كما أمر الله، تلقيتها من عند الله عَزَّ وَجَلَّ وأنا أؤديها على أكمل وجه.

ثم أكد مرة أخرى قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٤]؛ فاتقوا الله وخافوه واحذروا عقابه لا يصيبكم ما أصاب الأمم الماضية، اتقوا الله وأطيعون؛ لا يصيبكم ما أصاب من قبلكم؛ قوم نوح وقوم عاد، فلا يصيبكم ما أصابهم. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٤]؛ أنا رسول إليكم، أنصح لكم وأرشدكم وأوجهكم وأذكركم فأطيعوني.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٥]؛ أنا لا أطلب منكم على دعوة الأجر منكم وآخذ منكم المال، لا أسألكم مالاً ولا أسألكم أجراً، أجري على الله عَزَّ وَجَلَّ، أجري والذي يجازيني على عملي هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وجزائي عند رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ليس لي أجري إلا على رب العالمين.

ثم ذكرهم بالنعم التي يتقلبون فيها، فقال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦]؛ تعصون الله وتفسدون في الأرض وتخالفونه وتعبدون غيره ويترككم آمنين؟ ألا تخشون أن يأتيكم العذاب؟ تتركون؛ يعني تظنون أن الله يترككم وأنتم على معاصيكم في هذا النعيم مستقرين آمنين؟ تأمنون عذاب الله؟

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]؛ كيف تأمن مكر الله وأنت تزاول معاصيه، وأنت تفسد في الأرض وتحارب الله، ولا تظن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينزل بك العقوبات؟ هل أنت تظن أنك ستبقى آمناً لا يحل بك العذاب وأنت تعصيه؟ إن لم يحل بك العذاب سينزل بك الموت، سينزل بك الموت أو عقوبات.

قال: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ۝١٤٦ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٤٧﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٧]؛ الجنات: البساتين، الحدائق الكثيرة المثمرة، والعيون: المياه التي تتدفق عليهم، يحفرون الآبار والعيون تنبع عليهم فالمياه جارية، والأشجار منبتة والحدائق مثمرة والزروع كثيرة.

قال: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨]؛ وزروع متعددة كثيرة، ونخل ثمرها يانع لين نضيج، تأكلونه هكذا مباشرة دون أن يحتاج إلى أي عمل ولا جهد، طلعها هضيم، هذه نعم عظيمة وافرة، خيرات من هذه الأشجار الوفيرة والزروع والنباتات والحبوب، وهذه النخيل وهذا الأمان.

وأيضاً أعطاكم الله القوة وأعطاكم الله الفهم والحذق في هذه الجبال، فأنتم تنحتون الجبال وتضعون فيها البيوت لكم، تنحتون الجبال بيوتاً، تحفرون هذه الجبال وتنحتونها، أعطاكم الله القوة والتفكير في كيفية نحت هذه الجبال ووضع فيها هذه البيوت العجيبة والزخارف.

حتى الآن تراها وثمود معروفة ديارهم في الشمال الغربي من الجزيرة العربية، في طريقك إلى الشام تجدها، الذاهب من الجزيرة متوجهاً إلى الشمال الغربي قاصداً الشام يمر بديار ثمود، وهي ما تسمى بـ

(العلا) الآن، وهي (مدائن صالح) المعروفة القائمة تجد فيها ما تزال هذه البيوت التي حفروها في الجبال أنها موجودة.

قال: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]؛ أي ماهرين حاذقين، عندكم الحذق والمهارة في حفر هذه البيوت، وقرئت الآية بقراءة أخرى وهي ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ﴾، وفارهين غير فَرِهين؛ فالفاره هو الحاذق الماهر الذي يتقن الشغل والعمل، والفَرِه بدون ألف هو الأشر البطر المتكبر.

فيقول: تنحتون من الجبال بيوتاً وحالكم أنكم أشرين بطرين متكبرين، ما تشكرون نعمة الله ولا تعرفون أن الذي كتب لكم هذا، الذي أعطاكم هذه النعم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل تعصونه وتخالفون أمره وتعصون رسوله وتعبدون معه أو تعبدون غيره من المعبودات والأصنام.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٥٠]؛ اتقوا الله على هذه النعم وهذا الأمان وهذه الخيرات؛ بيوت آمنة وسكن ومساكن في الجبال، وأنهار وعيون وآبار وأشجار وبساتين وأمن، اتقوا الله وخافوا عقوبته وأطيعوني في دعوتي لكم، أنا جئتكم أدعوكم إلى عبادة الله فأطيعوني.

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝١٥٢﴾ [الشعراء: ١٥١ - ١٥٢]؛ المسرفين: المتكبرين، الملا المتكبرين المستكبرين من قومهم، لا تطيعوا أمر المستكبرين المتكبرين المترفين فإنهم سيضلونكم وسيجرونكم إلى العذاب، لا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

أصحاب المعاصي والإسراف دأبهم الفساد في الأرض ولا يريدون الإصلاح، لا يريدون الإصلاح وإنما يريدون الفساد؛ فيحذرهم نبيهم صالح أن يطيعوه لأنه رسول أرسل إليهم، ولا يسمعوا ويطيعوا لأمر هؤلاء المسرفين المفسدين في الأرض.

- **ماذا كان ردهم؟ هل قالوا نعم جئتنا بالدعوة ونحن نسمع منك؟**

لا؛ قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]؛ قال قوم ثمود أو قوم صالح، قالوا لنبيهم صالح: والله أنت إذا نظرنا فيك ما أنت إلا من الذين أصابهم السحر فسحروا سحراً عظيماً حتى

غلب السحر على عقلك ففقدت عقلك، أنت ما عندك عقل تقول هذا الكلام، أنت مسحور، أنت أصابك السحر.

وفي من المفسرين يقول أن معنى من المسحرين؛ أي أصابه المرض في سَحْره، والسَّحْر هو النحر، والسَّحْر النحر أعلى، والسَّحْر تحت يعني من المعدة جهة الحلقوم، هذا سَحْر الإنسان الداخلي، فيصاب أحياناً بمرض هذا السَّحْر، فإذا أصيب بمرض شديد ذهب بعقل الإنسان.

فيقولون: نحن ننظر إليك يا صالح فإما أنك أصابك السحر تتعاطى السحر وبدأت تهذي بهذا الكلام لأنك مسحور، أو أنك أصابك هذا المرض المس الذي يصيب في سَحْرك حتى يغلب على عقلك فيذهب عقلك.

قال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝١٥٤﴾ [الشعراء: ١٥٣ - ١٥٤]؛ ما أنت إلا بشر، ولذلك في سورة القمر قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤﴾ [القمر: ٢٣ - ٢٤]؛ فاعترضوا عليه؛ بشر يدعونا؟

فكذبوا صالحاً وقالوا إنه بشر، بشر مثلنا، وإذا كان بشراً فالبشر هو الذي يناسب، قالوا: ما هذا إلا بشر مثلنا من بني آدم، فكيف يتميز علينا بالرسالة وكيف يوحى إليه وكيف يقول هذا الكلام؟ هذا لا يقبل منه، بشر مثلنا، لو شاء الله لأنزل ملائكة؛ اعتراض باطل، وأيضاً هم يحتجون هذا الكلام مجرد احتجاج فقط لا صحة له.

قال: فاعترضوا عليه بأنه بشر ثم طالبوه بالآية، قالوا: نحن لا نطيعك حتى تأتينا بآية واضحة محسوسة نشاهدها، أما كذا نقبل منك ما يقبل، فأت بآية إن كنت من الصادقين في دعوتك وأنك رسول من عند الله، أعطنا آية تدل على أنك رسول.

فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نخرج نحن وإياك إلى الصحراء، فخرجوا هم وصالح فنظروا إلى صخرة عظيمة، فقالوا: يا صالح إن كنت صادقاً في دعوتك ورسول من عند الله، فأخرج لنا من هذه الصخرة ناقةً؛ ناقةً عشراء؛ يعني في الشهر العاشر حامل.

فصالح قام وصلى ثم لما صلى دعا ربه، فانشقت الصخرة وتصدعت فخرجت منها هذه الناقة؛ صخرة صماء تخرج منها ناقة حية تتحرك وتمشي، آية عظيمة! فقالوا: إن كنت فاتنا بآية، فأتى لهم بهذه الآية التي على يعني على طلبهم حسب طلبهم هم يقولون كذا، أعطاهم الله هذه الآية.

فأعطي هذه، قال لهم: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]؛ هذه ناقة الله، وهذه الناقة أخرجها الله من هذه الصخرة وهي ناقة عظيمة، ومنسوبة إلى الله مضافة إلى الله؛ ناقة الله، قال: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣].

وقال في سورة القمر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]؛ يعني لكم شرب ولها شرب، يوم لكم ويوم لها، فقسمة الماء قسمة بينكم. فكانوا إذا يوم في اليوم الذي يخصهم يأتون إلى الآبار ويسقون حدائقهم ونخيلهم وأشجارهم ويشربون ويسقون بهائمهم.

وإذا جاء اليوم الثاني تأتي هي على هذه الآبار فتشربها ولا يتعرضون لها، فتضايقوا منها، تضايقوا منها وكانوا يأخذون يشربون حليبها، فبعد ذلك تضايقوا منها، قالوا: نطردها أو نقتلها، ماذا نصنع؟ فقالوا: لا بد أن نعقر الناقة ونرتاح منها.

فهددهم الله فخوفهم نبيهم صالح، فقال: ناقة الله، احذروا ناقة الله وسقياها، لا تتعرضون لها بسوء، ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦]؛ لا تمسوها بسوء، لا تتعرضوا لها بشيء يصيبها بسوء، لا في قتلها ولا في إيذائها ولا في طردها، فإن أصبتموها، إن أصبتم شيئاً أو مسها شيء يسيئها فسينزل بكم العذاب فيأخذكم عذاب يوم عظيم.

ولكنهم أبوا فعقروها، ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]؛ أخذ الآلة وعقرها، ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

- **العاقر واحد، كيف قال عقروها؟**

الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]؛ واحد، نقول: لما وافقوه ورضوا، ورضوا بما فعل، عمهم العذاب وأخذوا كلهم؛ لأن الراضي كالفاعل.

﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧]؛ لما عقروها قال لهم صالح: سينزل بكم العذاب، تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، بعد ثلاثة أيام سينزل بكم العذاب، فندموا أشد الندم وتحسروا على أنهم

ذبحوها وأنهم عقروا الناقة وقتلوها، فندموا أشد الندم، لكن لا ينفع الندم؛ لأن الندم بعد نزول العذاب أو توقع النزول أو التهديد بنزول العذاب لا ينفع الندم، الندم توبة لمن لم يهدد بالعذاب.

ولذلك فرعون لما رأى الغرق قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]؛ ما نفعه، ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، لا نقبل منك. فهؤلاء لم ينفع لهم، لم ينفعهم ندمهم.

﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٨]؛ أخذهم العذاب، ما هو العذاب؟ أخذتهم الصيحة، صاح بهم جبريل فتقطعت قلوبهم في صدورهم فماتوا عن آخرهم، وأخذهم العذاب.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٨]؛ إن في تعذيبهم وإن في دعوتهم إلى النجاة والسلامة وإن في إصرارهم على العناد والكفر آية عظيمة، آية عظيمة ترجف منها القلوب وتخاف منها العقول السليمة.

الرجال الذين يعرفون العقوبات ويخافون المثلات ترجف قلوبهم، إن في ذلك لآية لمن يعتبر في حالهم وفي دعوة نبيهم صالح لهم وفي نزول العذاب بهم آية عظيمة وعبرة لمن يعتبر بهذه النهاية وهذا المصير السيئ لهم، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٨]؛ بل المؤمنون منهم قلة جداً، أكثرهم لم يؤمنوا بهذا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٥٩]؛ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي أنزل بهم العقوبات بل وأقام عليهم الحجة وأرسل إليهم رسولهم وأعطاهم الآية العظيمة، إن ربك هو العزيز؛ القوي المنتقم، يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، إن ربك هو، إن ربك لهو العزيز الرحيم بعباده؛ عباده المؤمنين، من آمن من خلقه وعاد إليه وتاب لطيف بهم رحيم بهم، ولكن هؤلاء لم يتوبوا ولم يقبلوا على الله فكانت العزة فوقهم فأهلكهم الله، هذه قصة ثمود مع نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعد ذلك، يسوق الله لنا قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه؛ لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ هو ابن أخ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ يعني إبراهيم عم لوط، وهاجر لوط وإبراهيم من بلاد العراق من بلاد (الأنبار) في العراق، وسكن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في فلسطين.

وأما لوط فإنه توجه إلى بلاد الأردن، وذهب ليدعو هذا القوم؛ قوم لوط، ذهب ليدعوهم، وكانت قراهم سبع قرى؛ أكبرها قرية (سدوم)، وكان أهلها أهل كفر وعصيان وشرك وفساد في الأرض وفساد في الأرض، فأرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحمةً بهم لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ ليدعوهم.

فدعاهم فكذبوه وردوا رسالته وهددوه بالإخراج، وكانوا يعملون فاحشةً لم يسبق أحد من العالمين إليها؛ يأتون الذكران ويأتون الرجال شهوةً من دون النساء، ويقطعون السبيل ويؤذون الناس ويفسدون في الأرض.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠]؛ كذبت قوم لوط برسالة لوط، كذبوا المرسلين، شوف المرسلين؛ ما كذبوا رسولهم فقط، لأن الذي يكذب رسولاً واحداً يكذب الرسل كلهم، تكذيبه تكذيب لسائر الرسل؛ لأنهم كلهم جاؤوا بالتوحيد وأصول الشرائع ودعوتهم واحدة، فردوا رسالته وكذبوه.

قال واذكر: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١]؛ أي اذكر حينما دعاهم أخوهم لوط؛ أخوهم بالنسب لوط، وهم يعرفونه معرفةً تامةً.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١]؛ ألا تخافون الله؟ ألا تخشون الله وتتقون الله وتبتعدون عن هذه المعاصي؟ خافوا من ربكم واتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ وابتعدوا عن معاصيه وابحثوا عن رضاه، ألا تتقون؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٦٢]؛ أنا رسول، رسول من عند الله، أرسلني الله وأوحى إلي، وأمين في تبليغ رسالة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أخوفكم عقاب الله على تكذيبي وتكذيب رسالتي.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٦٣]؛ فاتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ وخافوه وخافوا عقابه لا يصيبكم ما أصاب الأمم الماضية؛ قوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود، اتقوا الله وأطيعوني فإنا رسول من عند الله، اتبعوا دعوتي ونصحهم ولكنهم أبوا، أبوا.

ويقول لهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٤]؛ أنا ما أسألكم عليه من أجر، لا أطلبكم أجرةً ولا مالاً على دعوتي وإنما أجري على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو

الذي يعني يسوق لي الأجر وهو الذي يكتب لي الأجر لا أنتم، أنا ما أطلب منكم مالاً حتى تخشون أن آخذ منكم مالاً على دعوتي، لا، أدعوكم وأطلب الأجر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم حذرهم من فعل الفاحشة التي يزاولونها، فقال: قال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥]؛ على وجه الإنكار، كيف تفعلون هذا الفعل العظيم؟ كيف تفعلون هذا الفعل العظيم؟ أتأتون الرجال شهوةً من دون النساء؟ تأتون الذكران وتتركون الإناث؟ تأتون الذكران من العالمين، تستمتعون بالرجال وتتركون الاستمتاع بالنساء الذي خلق الله لكم، النساء.

قال: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

- **كيف تستمتعون بهذا الشذوذ؟**

هذا الشذوذ والعمل ومخالفة الفطرة، خالفوا فطرة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لا تجد حيواناً الذكر يعني يعلو الذكر، ولا تجد طيراً الذكر يعلو الذكر إلا هؤلاء القوم ومن شاكلهم واستن بسنتهم.

فقال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦]؛ بل أنتم قوم عادون، هذا تعدي وتجاوز ما أباح الله لكم من الحلال إلى الحرام.

كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٧]؛ فهذا تعدي، كيف تعتدون على هذا الشيء؟ وهذا مخالف الفطرة وما فيه من يعني من الآثار السيئة الصحية وغيرها، كيف تأتون لهذا الشيء؟

قالوا: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]؛ هذا ردهم، لم يقبلوا منه النصح وحذر وخوفهم ودعاهم إلى الأخلاق الحسنة وإلى عبادة الله وحده لا شريك له، لكنهم أبوا.

قالوا وخوفوه وهددوه قالوا لئن لم تنته وتترك يا لوط هذا هذه الدعوة عنك ونهيك عنا أن نأتي الذكران وأنك لا تقبل عملنا لتكونن من المخرجين؛ من المطرودين من بلادنا، والله لنخرجنك يا لنخرجنك يا لوط أنت ومن معك ممن آمن، ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]؛ فهددوه بالإخراج والطرد من بلده.

فرد عليهم قال: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]؛ هذا العمل المشين، عملكم هذا من القالين؛ أي من المبغضين، لأن القالي: المبغض، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣]؛ أي ما أبغضك، فالقالي: المبغض، قال: إني لكم، قال: إني لعملكم هذا العمل المشين السيء من المبغضين بغضاً شديداً له ولا أقبله ولا أوافقكم عليه.

ثم لما رأى إصرارهم وشدة يعني حبهم لهذا العمل السيء وعدم قبولهم لدعوته دعا ربه، قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩]؛ فلما دعا ربه لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ استجاب الله دعوته، لما قال: أنقذني وخلصني ونجني من هذه من هذا القوم الذين يزاولون هذه المعصية القبيحة ولا يخافون عقوبة هذه المعصية، نجني منهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٠].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] فنجا، أخرجه من هذه القرية، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٠] ممن آمن معه، ولم يؤمن إلا بيت واحد؛ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]، قيل إنه لم يؤمن معه إلا بناته، وامرأته كانت من الغابرين؛ كانت كافرة، قال: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١].

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١]؛ أي في الباقين في العذاب، الهالكين بالعذاب الذين قدر الله عليهم العذاب، ولذلك قال: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠]؛ قدرنا أنها لمن الغابرين.

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٢]؛ لما أخرج، خرج فسرت باهله، فسرى بأهله ليلاً وخرج منها، نزل بهم العذاب، دمر الله الآخرين؛ أي دمر قومه الكفرة.

وكان التدمير بأن أمطر عليهم مطراً، أمطر عليهم حجارة، وفي آية أخرى قال: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

والسجيل هو الطين، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]؛ طين مسومة عند ربك للمسرفين، فكان سجيل منضود، كل حجر مكتوب عليه صاحبه فيتوجه إلى صاحبه فيحرقه؛ فقلب الله عليهم ديارهم ثم أتبعهم بالحجارة فاهلكهم جميعاً.

قال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]؛ ساء هذا المطر وهو الحجارة، الحجارة أمطر الله عليهم حجارة فماتوا عن آخرهم، ونزل بهم هذا العذاب الشديد الذي ما سبق أحد عُذِّب به مثلهم، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ في آية أخرى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]؛ أي ما أصابهم سيصيب كل من فعل فعلتهم الشنيعة.

قال الله في ختامها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٤]؛ أي في قصة لوط، وكيف الله نجاه وكيف قام بدعوته ونصح لقومه ولكنهم أبوا واستمروا على كفرهم وطغيانهم وإفسادهم في الأرض، عبرة وعظة لمن يتفكر ويتعظ كيف حصل لهم هذا العذاب، قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٤]؛ بل أكثرهم معاندين كافرين، وما كان أكثرهم مؤمنين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٧٥]؛ وإن ربك لهو العزيز ذو القوة الغالب الذي يقهر المكذبين وينتقم منهم، ورحيم بعباده المؤمنين ينجيهم.

لعل نقف عند نهاية قصة لوط إن شاء الله، بعدها قصة أصحاب الأيكة وهم شعيب، وهم قوم شعيب، يأتي الحديث عنهم إن شاء الله في اللقاء القادم.

أسأل الله أن يبارك لي ولكم، وأن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الشعراء ١٧٦ - ١٩١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا الدرس المبارك، وفي هذا اليوم المبارك؛ هذا اليوم هو اليوم الثاني من شهر رجب المحرم من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يستعملنا وإياكم في طاعته، وأن يبلغنا هذا الشهر الكريم؛ نسأل الله أن يبلغنا هذا الشهر الكريم، وأن يعيننا على صيامه وعلى قيامه.

السورة التي بين أيدينا تناولناها في لقاءات ماضية، والحقيقة تعد من أهم السور التي تتعلق بالقصة القرآنية، والقصص القرآني قصة تحيي القلوب حقيقة؛ تحرك القلوب وتحيي القلوب، تسمع هذه القصص التي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقام عليها الحجة وأرسل إليها الرسل.

وسبحان الله العظيم؛ أمم وأقوام لما لم يعتنوا بالله عَزَّ وَجَلَّ ولم يعرفوا حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يأبه بهم وأهلكهم عن آخرهم، كم أمم أعطاهم الله من القوة! لو تقرأ في (سورة الفجر)، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر ثلاث أمم في (سورة الفجر) أهلكهم الله وقد أعطاهم القوة في أسماعهم وأبصارهم وقوة في أبدانهم وعقولهم.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: ٦ - ٨]؛ هذه عاد أعطاها الله القوة في الخلقة: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]. ثم قال: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]؛ أي قطعوا الصخر بالواد.

- **كيف قطعوها؟**

ما عندهم آلات مثل الآن، ومع ذلك شقوا الجبال وقطعوها، وحفروا هذه الخنادق في هذه الجبال، وأعطاهم الله القوة، وفرعون الذي الله عَزَّ وَجَلَّ أعطاه القوة، الذي قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[الزخرف: ٥١]؛ فأجرى الله الأنهار من فوقه، فالله لا يأبه بمثل هؤلاء.

الذين لا يعرفون حق الله ولا يعرفون لماذا خلقوا؛ ولذلك (سورة الشعراء) حكت لنا سبع أمم من الأمم الماضية: قوم فرعون وأرسل الله إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأغرق الله فرعون في الماء، وبعده ذكر الله قصة إبراهيم كيف أنجاه من النار، وبعدها جاءت قصة -بعد إبراهيم أتى الله عَزَّ وَجَلَّ بقصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ونوح مع قومه- أغرق الله قومه بالماء بالطوفان.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قصة عاد ونبيهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وأن الله أهلكهم بالريح؛ ريحاً صرصراً عاتية، ثم قوم ثمود ونبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وأهلكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالصيحة مزقت قلوبهم، ثم قص الله علينا قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه وأن الله نجاه من قومه وأهلك قومه؛ أمطر عليهم حجارة من طين.

حجارة من السماء مسومة، كل واحد عليه علامة، كل حجر عليه علامة لصاحبه، يتوجه على صاحبه ويهلكه ويحرقه، ثم قلب عليهم ديارهم وجعل عاليها سافلها، ثم أتبعهم بالحجارة حتى الذين كانوا في الأسفار أصابتهم الحجارة فماتوا؛ فأهلكهم الله. سبع قرى لم يأبه بهم لما لم يعرفوا حق الله فدمرهم تدميراً.

الآن معنا القصة الأخيرة؛ القصة السابعة: قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه. وشعيب سماه أهل التفسير خطيب؛ جاء في حديث أن «**خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ شُعَيْبٌ**».

أعطاه الله من القوة والبلاغة وإقامة الحجة على قومه بأقوى الأساليب؛ خطيب الأنبياء، سمي بخطيب الأنبياء. أرسله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى (مدين) وهم أصحاب الأيكة، والأيكة هي الشجرة الكبيرة الضخمة، أو الأشجار؛ فكانوا أهل زروع وأشجار، وأهل مكاييل وموازين وبيع وشراء وتجارة، فهم أهل (مدين).

و(مدين) معروفة؛ هي تقع في الشمال الغربي من الجزيرة العربية قريبة من فلسطين على حدود (خليج العقبة)، وهي الآن داخل حدود المملكة وتسمى الآن باسمها الجديد (مدينة البدع)؛ هذه هي الأيكة فكانت في الشمال؛ يعني فوق (مدائن صالح) في أقصى الشمال الغربي.

وكانوا -مثل ما ذكرنا- أصحاب مكاييل وموازين وتجارات، وكانوا يقطعون السبيل، وكانوا يصدون الناس عن طاعة الله، وكانوا يشركون بالله ويعبدون الأصنام؛ فأرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إليهم أخاهم شعيباً، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وإلى أن يوفوا الكيل وأن لا يطففوا، وأن يزنوا بالقسطاس المستقيم، وأن يتقوا الله، وأن يتقوا قطع السبيل: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٦].

وذكرهم بالله وخوفهم العذاب الأليم، ولكنهم عاندوا ولم يقبلوا، ولم يقبلوا دعوته، بل قالوا فيه لنرجمنك، وفي آية أخرى قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ﴾ [الأعراف: ٨٨]؛ فهددوا شعيباً والذين معه بالإخراج، قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، فهددوه بالإخراج من قريته، وقالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ [هود: ٩١]، فهددوه بالرجم وهددوه بالإخراج.

فصبر وتحمل ودعا وبلغ رسالة ربه، حتى هددهم وخوفهم بالعذاب ولكنهم لم يأبهوا بذلك. فلما رأى أنهم سينزل بهم العذاب وكانوا يستهزئون ويسخرون منه، خرج هو ومن معه من المؤمنين وتركوا بلادهم، ثم نزل العذاب بقومه فأهلكهم الله؛ كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا.

وفي آيات أخرى قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وفي آيات قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧]، وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]. سيتضح لنا ما عذاب يوم الظلة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية السادسة والسبعين بعد المائة -الذين يتابعوننا على المصحف يعني الآية ١٧٦ من (سورة الشعراء): ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦].

الآيات التي قبلها كلها يقول الله فيها كذبت، كل الآيات قبل: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ [الشعراء: ١٦٠]، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ [الشعراء: ١٤١].

- **هنا قال: ﴿كَذَّبَ﴾، ما قال كذبت؛ ما فيه التاء. لماذا قال؟**

لأن قوم -كلمة قوم- يجوز فيها التذكير والتأنيث، وأما أصحاب فهي مذكر؛ مذكر صرف، لا يجوز أن تقول كذبت أصحاب وإنما يقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ﴾؛ فلذلك حذفت التاء عنها لأن أصحاب مذكر صريح، هذه لفتة جميلة.

قال: ﴿أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾، والأيكة عرفنا أنها الشجرة الكبيرة الضخمة؛ فإذا الشجرة التف حولها أشجار كثيرة يسمونها الأيكة، وهم أهل (مدين)، هم أهل (مدين) كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]؛ وهم أهل (مدين).

قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦].

- **الله أرسل إليهم مرسلين ولا أرسل إليهم رسولاً واحداً؟**

الجواب: أرسل الله إليهم رسولاً واحداً وهو شعيب؛ لكن الذي يكذب بالرسول يكذب بالرسل كلهم، فمن لم يؤمن برسول فكأنما كفر بالرسل جميعاً؛ ولذلك لأن طريقتهم واحدة ودعوتهم واحدة، فمن يكذب بنبي واحد ورسول فكأنه كذب بجميع الرسل لأن الذي أرسلهم هو الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فتكذيبك لواحد تكذيبك للجميع.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾.

قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٧]. شوف في الآيات السابقة، القصص كلها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾.

في نوح قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ [الشعراء: ١٠٦].

وفي عاد قال: ﴿أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشعراء: ١٢٤].

وفي صالح قال: ﴿أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ [الشعراء: ١٤٢].

وفي لوط قال: ﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ [الشعراء: ١٦١].

- **هنا ما قال (أخوهم)، ليش؟**

قال لأنهم لما نُسبوا إلى الأيكة وهي شجرة كانوا يعبدونها ويعظمونها، الله عَزَّ وَجَلَّ لم يقل أخاهم احترازاً؛ لأنهم نُسبوا إلى عبادة آلهة من دون الله، فلا يتناسب أن يقال لهم أخاهم أو أخوهم، ولذلك حذفها قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ على طول.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ يعني ألا تخافون الله وتخافون عقوبته وما يحل بكم؟ اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ، اتقوا الله واشكروه على نعمه التي أنعم بها عليكم، أنعم الله عليكم بنعم عظيمة، خافوا الله وخافوا عقوبته، اعبدوا الله؛ لم يخلقكم عبثاً ولم يخلقكم للدنيا ولا للأكل والشرب كالبهائم، وإنما خلقكم لعبادته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فخوفهم وهددهم وبين أن هذه المعاصي ستكون وبالاً عليهم؛ ألا تتقون الله وتتقون الشرك والكفر والمعاصي وإيذاء الناس؟ ألا تتقون الله؟

ثم قال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: ١٧٨]؛ يعني أنا جئتكم أدعوكم لأن الله أرسلني، جئتكم أنصحكم وأذكركم لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي كلفني بالرسالة، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٩]؛ وشوف قال رسول وأمين، يعني مرسل من عند الله لم آتِ من نفسي، وأمين على الوحي بأن الله كلفني هذه الرسالة أن أؤديها على وجهها الأكمل، وحفيظ على هذه الرسالة وعلى هذا الوحي الذي أوحاه الله إليَّ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ خافوا الله وخافوا عقابه، اتقوا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وخافوا الله عَزَّ وَجَلَّ وأطيعوني؛ لأني رسول أطلب هدايتكم وأطلب إرشادكم وأطلب أن تكونوا على خير وعلى صلاح وعلى تقوى من الله وقرب من الله، أطيعوني فأنا رسول لكم وأنا أمين الوحي: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ثم إنني أنا على دعوتي هذه ونصحي لكم في الليل والنهار وتوجيهي لكم لا أطلب منكم أجراً ولا أسألكم أجراً على عملي: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٠]؛ أجري على الله، على رب العالمين هو الذي يجازيني على عملي، أما أنتم فلا أطلب منكم أجراً ولا شيئاً إلا أنني أنصح لكم.

ثم بدأ يدخل معهم في بعض القضايا التي هم يفعلونها من الأشياء التي أنكرها عليهم، وهي من الأمور التي حرمها الله، فقال -وهي من أشهر ما انتشر عندهم من هذه الأشياء، أشهر هذه الأمور-: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١].

قال شعيب لهم: أوفوا الكيل لا تنقصوه، أعطوا الناس حقهم في الكيل؛ الكيل والميزان: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾. وفي آية أخرى قال: أوفوا الكيل والميزان.

- **ما الفرق بين الكيل والميزان؟**

الجواب: الكيل ما يكال بالصاع، والميزان معروف ما يوضع في الميزان؛ فهناك أشياء لا تكال بالصاع وإنما توضع في الموازين، فأنت لا تكيل الذهب والفضة بالصاع، الذهب والفضة يوضع على الموازين.

الذي يكال مثل القمح والشعير والأرز والطحين والملح، هذه توضع في المكاييل؛ فهناك أشياء تصلح لها المكاييل -المكيال يعني الصاع ونحوه-، والموازين ما يوضع على الموازين مثل الذهب والفضة ومثل القطن الأشياء التي لا تدخل في الكيل ولا في الصاع.

قال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾؛ يعني أعطوا الناس، أتموا الكيل للناس لا تنقصوه، إذا جاء يشتري منكم أنقصتموه؛ فاتقوا الله أعطوا الناس حقوقهم، ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢]؛ زنوا بالميزان العدل المستقيم.

إذا جئتم بالموازين فضعوا الموازين دقيقة لتكون الموازين دقيقة، وإذا جئتم بالمكاييل أيضاً أعطوا الناس حقوقهم ولا تنقصوها، تنقص الكيل وتغش وتطفف؛ لا تكونوا من المطففين.

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣]؛ يعني تنقصوا الناس أشياءهم وحقوقهم، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ لأن عملكم هذا فساد؛ فساد في الأرض ولا يجوز.

ولا تعثوا؛ أي تفسدوا في الأرض على وجه الإفساد؛ يعني تكثروا الفساد في الأرض، لأن تعثوا في الأرض مفسدين معناه العثو كثرة الفساد؛ كثرة الفساد في الأرض بالشرك والكفر والعصيان، والقتل

والسلب والنهب، وتخويف الناس وقطع الطريق، وارتكاب المعاصي وبخس الناس حقوقهم، كل هذه من الإفساد في الأرض، من الإفساد في الأرض.

فنصحهم وحاورهم وناقشهم، وقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤]؛ خافوا من ربكم، خافوا ربكم الذي خلقكم وخلق الجبلة الأولين؛ يعني الأمم الماضية.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]؛ خلقكم وخلق الذين من قبلكم. فاحذروا عقوبة الله، واتقوا الله الذي خلقكم وأوجدكم من العدم، كنتم غير موجودين قبل سنين طويلة ما أنتم موجودين، فأوجدكم وخلقكم وأنشأكم عن أمم ماضية، وخلق الأمم الماضية، الجبلة كلها، الجبلة يعني الأمم المتقدمة الماضية: ﴿خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾.

ماذا كان ردهم؟ هل تقبلوا دعوته؟ هل فرحوا به؟ هل استبشروا وقالوا جزاك الله خيراً أنت الذي نصحتنا وأنت الذي ذكرتنا وأنت الذي... لا؛ كان ردهم رداً قاسياً، وكان ردهم سخرية واستهزاء وكفراً وعناداً وعدم قبول الحق.

قالوا -أي قوم شعيب أصحاب الأيكة-: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥]؛ يا شعيب، نحن نراك أنك قد أصابك السحر، وأنت الآن مصاب بالسحر تهذي وتتكلم ولا تدري ماذا تقول؛ عقلك قد ذهب ما عندك عقل، أنت شبه المجنون، أنت مصاب بالسحر فما نقبل منك. وهو أعقلهم وأرزنهم وأحسنهم خَلْقاً وخُلُقاً وكلاماً؛ فمع ذلك يصفونه بالصفات السيئة.

مرت معنا هذه الآية في قوم صالح، لما قال قوم صالح قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]؛ وقلنا معنى مسحر: **"الذين أُصيبوا بالسحر، تلبسوا بالسحر"**. هذا قول.

وقول آخر: "المسحرين الذين أُصيبوا بمرض عند الرئة في الحنجرة". هذا السَّحْر؛ سَحْري ونَحْري، النَّحْر في أعلى النحر أعلى الحلق قريب من الرأس هذا يسمى النحر، ما تحته السَّحْر.

ولذلك عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: «مَاتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي».

قالوا: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾؛ أي مصاب بمرض، هذا الذي يأتيك في السَّحْر في الرئة، فأنت تهذي من شدة هذا المرض أثر عليك، فبدأت يعني ذهب عقلك، غاب عنك عقلك، وبدأت تأتينا بأشياء ما أحد يقبلها؛ فلذلك اتهموه ووصفوه بهذا الوصف السيء وهو أعقلهم.

ثم زادوا قالوا: ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٦]؛ أنت واحد مثلنا بشر، كيف تقول لنا أنا رسول وأن الله أرسلني، وأنني نبي من عند الله، والله نبأني وجاءني بالرسالة؟ أنت بشر مثلنا، اختارك الله من بيننا؟

ولماذا تدعي أنك أنت الذي جاءتك الرسالة وحدك؟ لا تأتي إلا لك أنت؟ من أنت حتى تأتيك الرسالة؟ أنت بشر مثلنا، وهذه يعني سنة من قبل، من الأمم الماضية كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: قالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، وفي قوم صالح يقول: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾ [القمر: ٢٤]؛ فهم يدعون أن الرسول لا يكون بشراً، يكون نبي، يكون ملكاً، يكون كذا.

ولا يدرون المساكين الضعفاء العقول أن البشر هو الأنسب في الدعوة؛ لو جاءهم ملك بصورته ما تقبلوا منه، فالأنسب أن يرسل إليهم بشر منهم يعرفونه ويعرفون صفاته ويعرفون أخلاقه حتى يتقبلوا منه، فلذلك قالوا هنا: ﴿وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

ثم زادوا: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]؛ يعني أنت من جملة الكذابين لست صادقاً في دعوتك، وأنت لا نصدقك ولا نقبل منك لأنك كذاب؛ كذاب تدعي الرسالة وتدعي النبوة وتدعي أنك مرسل من عند الله، وكل هذه دعاوى كاذبة تدعي وتكذب على الله فأنت كذاب؛ ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾. شوف كيف الرد القاسي وكيف السخرية والاستهزاء وعدم قبول الحق؛ أنت من المسحرين، أنت بشر، أنت كذاب.

ثم بعد ذلك يستهزئون ويسخرون ويستعجلون العذاب ويقولون: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]؛ أي قطعاً من السماء، قطع العذاب الذي أنت تهددنا به.

- **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟**

قال: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾؛ إن كنت صادقاً تدعي أنه يأتيك الوحي وأنك رسول وأنك نبي أين العذاب؟ أسقط علينا. شوف كيف، كما قال أهل مكة ماذا قالوا؟

قال أهل مكة للرسول: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]؛ يقول انزل علينا يا محمد حجارة من السماء، شوف كيف الاستعجال والاستهزاء والسخرية.

فقال الله بعدها، قال لهم رداً عليهم: ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٨٨]؛ الأعمال التي تعملونها من الفساد في الأرض وبخس الناس ونقص المكاييل والموازين والإفساد والشرك والكفر والمعاصي، الله أعلم بأعمالكم وسيجازيكم عليها، وهذه الأعمال تستوجب العقاب من الله عليكم، وسيتنزل بكم العقوبات، والله أعلم بما تعملون.

أنا لا أملك شيئاً أكثر من هذا، أنا مبلغ رسالة ربي، وأما الذي يأتي بالعذاب هو الله؛ فأنا ما أستطيع أن آتي بالعذاب لما تقولون لي ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾، أنا لا أسقط عليكم كسفاً، الذي يأتي بالعذاب هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فكذبوه، واستمروا في تكذيبهم وعنادهم، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

- **ما هو عذاب يوم الظلة؟**

إنهم أصابهم حر شديد؛ فما استطاعوا أن يجلسوا في بيوتهم، فخرجوا من بيوتهم فإذا الشمس حارة، فأرسل الله لهم ظلة من السماء؛ سحابة تحتها شيء من البراد والهواء البارد، فبدأوا يجتمعون كلهم، فخرجوا من بيوتهم واجتمعوا كلهم تحت هذه السحابة العظيمة، ولم يعلموا أن هذه السحابة عذاب؛ عذاب شديد من الله.

فلما واجتمعوا عن آخرهم كلهم تحت هذه السحابة، أنزل الله عليهم -يعني لما استظلوا تحت هذه السحابة العظيمة ووجدوا بردها ونسيمها وفرحوا بها- نزلت عليهم بلهب من النار فأحرقتهم جميعاً؛ فهلكوا عن آخرهم ولم يبقَ منهم أحد، هذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾.

قال الله: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي هذا العذاب، إنه كان عذاب يوم عظيم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خاتمة القصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٠]؛ أي في هذا العقاب وفي هذه الرسالة التي أرسلها الله على لسان شعيب ولم يقبلوها، وعاندوا وكفروا واستمروا على كفرهم حتى جاءهم العذاب.

هذا فيه عبرة وفيه آية؛ آية لأهل مكة المعاندين للرسول، وآية لمن جاء بعدهم إلى قيام الساعة أن يعتبروا بأن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون، وأنه يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، وأنه قادر على أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، متعظين بالمواعظ ولم يقبلوا هذه المواعظ.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٩١]؛ العزيز: ذو القوة والانتقام، ينتقم من أعدائه وينزل بهم العقوبات؛ وهو الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعباده حيث أنجى شعيباً والذين آمنوا معه وسلمهم من هذا العذاب، وأنزل العقوبة بقومه المعاندين.

بعد ذلك تنتهي القصص وينتهي الكلام في قصص الشعراء؛ القصص السبع، ثم بعد ذلك يأتي الخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأهل مكة ولمن جاء بعد الرسول أن هذا القرآن تنزيل من رب العالمين، وأنه نزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولم يكن إفكاً أو افتراءً أتى به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هو قرآن منزل من عند الله.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله نكمل هذه السورة فيما فيها من آيات، بقية السورة بإذن الله، نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لطاعته، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال؛ والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الشعراء ١٩٢ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، نبدأ على بركة الله؛ بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا ولكم في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت.

الآيات التي معنا في درسنا هذا اليوم آيات من أواخر (سورة الشعراء)، و(سورة الشعراء) أخذنا معها مدة ولله الحمد في تفسيرها وبيان آياتها، وهذه هي الخاتمة؛ خاتمة السورة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية رقم مائة واثنين وتسعين: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]؛ بعدما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا هذه القصص السبع، القصص السبع التي ساقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للعبرة والعظة، ويقول في كل آخر قصة.

يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾ [الشعراء: ١٢١ – ١٢٢]. لما ختم هذه القصص ختمها بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي هذا الخبر وهذه الأخبار التي تسمعونها عن الأمم الماضية وما حل بهم من العقوبات والمثلات، وما جرى من إنجاء الأنبياء والرسل والصالحين المؤمنين بهم؛ نجى الله عباده المتقين وأهلك هؤلاء الطغاة المعاندين.

يقول: هذه الأخبار التي تسمعونها ليست من محمد ولا من بشر من المخلوقين، بل هذا الخبر تنزيل من رب العالمين؛ هذا الخبر تسمعونه هو القرآن الكريم الذي يخبركم به محمد، هو قرآن نزل على محمد ووحي نزل من السماء.

قال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ أي هذا القرآن تنزيل من رب العالمين، وهذه السورة منزلة من رب العالمين، وهذا القرآن منزل من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **ولاحظ أن الله ماذا قال؟**

قال: تنزيل؛ يعني أنه نازل من العلو، النزول لا يكون إلا من أعلى، فهو نازل من السماء ليس من بشر؛ لو كان من محمد أو كان من أحد من البشر لما قال تنزيل، لقال وإنه لكلام فلان، وإنه لقول فلان، وإن فلاناً أتى به؛ لكن لما قال لنا تنزيل عرفنا أن هذا منزل من السماوات، من فوق سبع سماوات، وهو من عند الله.

قال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ ولاحظ اختيار كلمة رب العالمين؛ أن الله سبحانه هو الرب الخالق الرازق المدبر المنعم، الذي أنعم على عباده بأن هداهم وأنزل عليهم كتبه وأرسل إليهم رسله؛ فهو ربهم الذي رباهم على الطاعة كما رباهم على أن يبحثوا عن أرزاقهم، ورباهم بالرزق ورباهم بالعقول ورباهم بأن أعطاهم أدوات التفكير ووسائل التفكير من السمع والبصر واللسان والعقل، أيضاً رباهم بالطاعة ولم يتركهم هملاً بل أرسل إليهم الرسل؛ ولذلك قال: تنزيل من رب العالمين؛ رب العالمين، عالم السماوات والأرض.

ثم فصل بهذا التنزيل، فصل تفصيلاً لنا، تفصيلاً جميلاً، فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]؛ وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، نزل به من عند الله. سمعه جبريل، الله تكلم به، الله تكلم به؛ وأما القول بأن جبريل هو الذي أخذه من اللوح، أو أن جبريل، أن الله لم يتكلم به وإنما خلقه الله، فهذا قول مبتدع لا يجوز؛ هذا كلام رب العالمين.

كلم الله به: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فهو كلام رب العالمين، ولا يجوز أن يقال إنه مخلوق كما تقوله **(المعتزلة)**، أو يقال إن جبريل تكلم به أو أنه أخذه من اللوح المحفوظ؛ كل هذا لا يجوز، وإنما نزل به الروح لما سمعه، الله تكلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سمعه جبريل، فلما سمعه جبريل نزل به.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصف أو سمى جبريل الروح؛ لأن الروح هي الحياة، وهو الروح الأمين؛ لأنه مكلف بالرسالات وبالوحي، فجبريل يحيي القلوب بالكتب المنزلة، وهو أمين على هذه الرسالة، على هذا الوحي؛ فهو لا يغير ولا يزيد ولا ينقص ولا يبدل، فهو أمين.

قال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤]؛ يا محمد، على قلبك نزل به الروح الأمين؛ فألقاه على قلبك فسمعته أنت فوعاه قلبك فاستقر في قلبك.

وشوف كيف القرآن ينزل على قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن القلب هو المضغة التي يصلح بها الجسد؛ فإذا نزل القرآن على القلب واستقر في القلب صلح الجسد كله، صلح السمع والبصر واللسان، وصلح الجسد كله والجوارح؛ وإذا فسد القلب فسدت الجوارح، ولذلك القرآن يستقر في القلب، والموعظة تستقر في القلب فينفع الله بها.

قال: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُون مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٤]؛ أن النبي هو المنذر.

وشوف كيف اختار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهذا القرآن؛ أن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي تكلم به، وجعل الذي ينزل به جبريل أفضل الملائكة، وأرسله إلى أفضل الرسل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وألقاه على أفضل مضغة فيه وهو القلب، واختار له أفضل الأماكن وهو (مكة).

وأفضل الأوقات (ليلة القدر)، وأفضل الشهور؛ كل ذلك يدل على مكانة هذا القرآن العظيم وهذه الرسالة، قال: ﴿لِتَكُون مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾؛ تنذر قومك، تنذرهم بهذا القرآن.

قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]؛ واضح الدلالة، لسان عربي واضح المعنى والدلالة، والمخاطبون وهم عرب بلغاء فصحاء يعرفونه، بمجرد أن يقرأ عليهم يعرفونه، قال: بلسان عربي مبين.

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]؛ زُبُر: هذا جمع، والمفرد زَبُور؛ والزَّبُور الكتب المنزلة السابقة، ومنها زبور داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾؛ أي هذا القرآن وهذه الأخبار وما تسمعون في القرآن الكريم مذكور في الكتب السابقة، في (التوراة) و(الإنجيل) و(الزبور) وغيرها، وبشرت به الأنبياء وذكروه الأنبياء في كتبهم؛ فما وجه العجب منه، وما وجه يعني إنكار هذا القرآن ورده من المشركين إلا التكبر؟ إلا التكبر وعدم القبول والعناد.

قال: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]؛ هؤلاء المعاندون المشركون الكافرون لم يكن لهم آية وعبرة وعظة ودلالة على أن يعلمه علماء بني إسرائيل؛ يقول: علماء بني إسرائيل يعلمونه ويعرفون أن القرآن، أنه حق وأنه منزل من عند الله ويؤمنون به.

ولذلك آمن عبد الله بن سلام لما سمع القرآن وأقر به، وعلماء بني اسرائيل يعرفونه؛ فإن كنتم أيها المشركون من كفار (مكة) تشكون بالقرآن ولا تؤمنون به، فاسألوا أهل الذكر واسألوا هؤلاء العلماء من بني إسرائيل يخبرونكم بحقيقة هذا القرآن.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ۝١٩٨ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ۝١٩٩﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ١٩٩]؛ يقول: لو نزلنا هذا القرآن الفصيح العربي، لو نزلناه هذا القرآن على قوم عجم لا يتكلمون العربية، وقرأه النبي عليهم ما كانوا به مؤمنين؛ لأنهم ما يعرفون.

لو ذهبنا إلى جمع من الهنود، أو من أهل (الصين)، أو من دول (أوروبا)، وجمعناهم وقرأنا عليهم القرآن ما يدرون ولا يفقهون ما كانوا به مؤمنين؛ لكن أنتم عرب، والله نزل عليكم القرآن العربي، فكان الواجب عليكم الإيمان والتصديق به.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝٢٠٠ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝٢٠١﴾ [الشعراء: ٢٠٠ - ٢٠١]؛ كذلك سلكناه؛ سلك التكذيب والإنكار من هؤلاء المشركين في قلوب المجرمين، يسلك كما تسلك الخيط والسلك في الإبرة يدخل في سم الخياط؛ يسلك الله هذا الإجرام والتكذيب والإنكار في قلوبهم بسبب ذنوبهم.

فإذا سمعوا القرآن أنكروه، كل ذلك سبب كفرهم وعنادهم. فكما أنهم كفروا وجحدوا وعاندوا، عاقبهم الله بأن أدخل في قلوبهم هذا الجحود، وصار هذا الجحود متمكناً في قلوبهم؛ فلا يؤمنون به، حتى لو رأوا العذاب الأليم لا يؤمنون به، حتى ما يؤمنون لو عاينوا العذاب الشديد بأعينهم ما يؤمنون إلا أن يشاء الله.

قال: لا يؤمنون حتى يروا العذاب؛ فإذا رأوا العذاب الأليم آمنوا، ولكن لا ينفعهم الإيمان، هذا الإيمان لا ينفع؛ الإيمان قبل الإيمان إيمان غيبي، قال: لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٢]؛ فيأتيهم بغتة هذا العذاب الذي يرونه، لن يأتيهم إلا بغتة وهم لا يشعرون، وهم لا يدرون.

قال: فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون؛ ينزل بهم العذاب فجأة وهم لا يدرون أنه نزل بهم؛ إما نائمون في فرشهم، أو في الضحى يلعبون ويستهزئون، فلا يدرون إلا وقد أحاط بهم العذاب، ونزلت بهم العقوبات وحلت بهم المثلات وهم لا يدرون وهم لا يشعرون.

فيقول إذا نظروا إلى العذاب: ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٣]؛ هل تنظروننا أو تمهلوننا ولو لحظة حتى نؤمن؟ تؤخرون العذاب عنا حتى نتوب ونستغفر؟ لكن إذا نزل العذاب لن يرفع، ولن تنفعهم توبتهم ولن ينفعهم الندم؛ إذا جاءت الآية ونزلت العقوبة لا ترفع.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٤]؛ لما نمهلهم ونعطيهم فرصة ونؤخر العذاب عنهم ونمهلهم إمهالاً يستعجلون العذاب؛ يقولون متى يا محمد تأتينا بالعذاب؟

ويقولون إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، يسخرون ويستهزئون بالعذاب ويستعجلون، يقولون أين العذاب الذي أنت تهددنا به وتتوعدنا به يا محمد؟ ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾.

قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]؛ لو أخرنا العذاب عنهم وتركناهم وأعطيناهم يتمتعون في هذه الدنيا سنين طويلة، لو أعطيناهم عمراً وتمتعوا بالحياة الدنيا وبزهرة الحياة الدنيا وأخرنا عنهم، وأخرنا عنهم العذاب أجلناه عنهم ومددنا في أعمارهم.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝٢٠٦﴾؛ نزل بهم العذاب ولو بعد سنين طويلة نزل بهم العذاب؛ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾؛ ما ينفعهم طول العمر وطيب العيش، ما ينفعهم إذا لم يتوبوا من كفرهم وشركهم فلا ينفعهم ذلك إذا، إذا استمروا على، استمروا على عنادهم؛ والله يمهل ولا يهمل، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعونه من هذه من الأعمار والآجال والصحة والعافية وطيب العيش؛ ما ينفعهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٠٩﴾ [الشعراء: ٢٠٨ - ٢٠٩]؛ كما أننا أنذرناكم يا أهل (مكة) وأنذرنا الناس برسالة محمد، فكذلك أنذرنا الأمم الماضية.

فالله عَزَّ وَجَلَّ ما أهلك أمة من الأمم إلا وقد أنذرها وأقام عليها الحجة وأرسل إليها الرسل: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾؛ إلا أرسل الله لها المنذرين وأرسل لها الرسل يحذرونهم، يحذرونهم من العذاب ومن نزول العقوبات عليهم ويأمرونهم بطاعة الله ويذكرونهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾؛ أي أن الحجة قامت عليهم والتذكير قام عليهم والأنبياء ذكروهم والرسل ذكروهم؛ والله ما ظلمهم، وما كنا ظالمين لما أنزلنا بهم العقوبات.

تعود الآيات إلى بيان هذا القرآن كما ذكرنا، وأنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين؛ لما كان القرآن منزلاً من عند الله، لما كان القرآن منزلاً من عند الله ولم تمسه الشياطين ولم تقترب منه، لأن الذي نزل به الروح الأمين القوي الذي لا تستطيع الشياطين أن تقترب منه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]؛ هذا القرآن الذي تسمعونه والذي يأتي به محمد ليس من الشياطين، ولم يأخذه محمد من الشياطين، ولم تنزل به الشياطين، ما تنزلت به الشياطين كما يزعمه الكفار ويدعونه.

﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١١]؛ وما ينبغي لهم ولا يمكن ولا يصح ومستحيل أن تنزل به الشياطين، وما يستطيعون أصلاً، لا يستطيعون؛ لأنهم عن السمع معزولون.

﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]؛ لأنهم عن استماع القرآن محجوبون مرجومون بالشهب؛ فإذا اقتربوا، اقتربوا من السماء الدنيا ليسمعوا ضربتهم الشهب فهلكوا، الشهب أن، أن تضربهم النجوم بالشهاب فيحترقون، فيحترقون.

كما قال: ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الحجر: ١٨]، فيأتيه الشهاب فيحرقه، فأحياناً يلقي الكلمة على من بعده ومن بعده يلقيها على الآخر، فيأخذون الكلمة ويضعون عليها مائة كذبة، مائة كذبة ثم يدعون ثم ينقلون ثم يلقونها هؤلاء الشياطين على الكهان، فيأتي الكاهن ويدعي الغيب فيقول سيحصل كذا وسيحصل كذا، من ادعاء الغيب الذي لا يصح، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: وما ينبغي له؛ ما يستطيعون، إنهم عن السمع لمعزولون.

قال: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]؛ إذا كان القرآن قد نزل عليك يا محمد وأنت النذير المبين وأنت تدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فابدأ، ابدأ بنفسك، ابدأ بنفسك فلا تعبد مع الله إلهاً آخر.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعبد إلهاً آخر ولا يمكن أن يعبد إلهاً آخر؛ لكن هذا تحذير لغيره، يعني كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، النبي لم يكن في شك ولكن كما يقال: **(إياكِ أعني واسمعي يا جارة)**؛ يعني فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر؛ أي لا يدعُ غيرك مع الله إلهاً آخر فيشرك فيكون من المعذبين.

وإلا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزه عن أن يعبد مع الله إلهاً آخر أو يعرض نفسه للعذاب؛ ولكن هذا من باب الخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمراد، والمراد غيره؛ المراد غيره تحذيراً وتحذيراً من عقوبة الشرك والكفر وعقوبة عبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]؛ لما حذر النبي، لما حذر الله النبي من، من الكفر والشرك، وأمره بأنذر عشيرته وإنذار الناس أجمعين، وليبدأ بالأقرب فالأقرب؛ وحذر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنذر عشيرته وقام وصعد **(الصفا)** ونادى: **«يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ»**؛ فأنذر عشيرته الأقربين وحذرهم بالعذاب الأليم إن بقوا على شركهم وكفرهم.

قال: إن الكفار، وأما المؤمنون: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]؛ أي كن ليناً، لين الجانب، ليكن كلامك متواضعاً، ولتكن الرحمة منك على، على لهؤلاء المؤمنين؛ فاخفض لهم وأظهر لهم حبك لهم ولينك في الكلام معهم حتى يحبوك وحتى يرغبوا في هذا الدين، قال: واخفض الدين.

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]؛ فإن عصوك، إن وجد منهم أحد، إن وجد منهم أحد قصر وعصى وخالف أمرك ولم يتبعك فتبرأ من عمله وما هو عليه من الشرك؛ فقل أنا بريء، إن عصوك ولم، ولم يقبلوا منك أو قصروا في شيء من أوامرك فلا تداهن معهم ولا تجامل بل تبرأ من أعمالهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]؛ وتوكل على العزيز الرحيم في جميع أعمالك؛ فوض أمرك له في دعوتك وفي أعمالك وفي صلاتك وفي عبادتك، فوض أمرك إلى الله العزيز الذي لا يغالب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الرحيم الذي رحمته وسعت كل شيء؛ فاسأل الله الرحمة وتوكل عليه، فإن الله مطلع على أعمالك.

ولذلك هو: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠]؛ يراك حين تقوم في جوف الليل، في ظلمة الليل وتقوم بالصلاة السجود والركوع يراك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويرى تقلبك في الساجدين؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سميع، سميع عليم يسمع دعاءك ويسمع صلاتك وقراءتك ويسمع دعاء ويسمع ذكرك، وعليم بحالك لا يخفى عليه شيء من أعمالك، وإن كان هذا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه شامل له ولأمته؛ فالأمة مطالبة بأن تتوكل على الله لأن الله مطلع عالم بأحوالهم.

قال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٢٢٢ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ۝٢٢٣﴾ [الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣]؛ يقول: القرآن لم تنزل به الشياطين، لكن أعطيكم الذي تنزل عليه الشياطين، من هم؟

قال الذي: هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ الشياطين تنزل على كل أفاك؛ كل كذاب كثير الإثم أثيم، صاحب ذنوب وصاحب كذب من الكهنة ومن العرافين ومن الدجالين ومن شياطين الإنس والجن، هؤلاء ينزلون عليهم ويلقون عليهم هذا الكلام، يلقون عليهم الكذب ونحوه.

قال: يلقون السمع وأكثرهم كاذبون؛ هؤلاء يسترقون السمع كما ذكرنا ثم يأخذون الواحدة ويضعون عليها مائة كذبة ويلقونها على الكهنة والدجالين، فهؤلاء هم الذين يعني تنزل عليهم الشياطين؛ أما المؤمنون الصالحون والأنبياء فهم معصومون من الشياطين.

قال: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]؛ أيضاً تعرف من، حتى الله عَزَّ وَجَلَّ يبرئ نبيه محمد، يبرئ نبيه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكذب والكهانة والشعر؛ كما يقولون هم يقولون كاهن ويقولون شاعر.

قال: الشعراء يتبعهم الغاوون؛ الشعراء يقولون شعرهم الباطل والكذب ويجاريهم الضالون الزائغون يمشون على طريقتهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٥]؛ والمقصود بالوادي هنا ليس الوادي من الأودية الذي يكون بين جبلين؛ لا، وإنما المراد أنهم في كل واد؛ أي في كل فن من فنون الكذب، وفي كل طريق من طرق الكذب يسلكونه، وفي كل مجال من مجالات الكذب والزور والدجل يسلكونه.

فتجد الشعراء منهم المداحون الكذابون، ومنهم الهجاؤون الذين يهجون الناس؛ الهجاء والمدح والغزل فتجدهم في كل مجال يهيمون، يأتون بكلام يهيمون به لا حقيقة له، فيتكلمون بمثل هذه الكلمات كالهائم الذي على وجهه لا يدري أين يذهب، يهيم ما يدري وين يروح.

قال: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٦]؛ يقولون كلاماً ويتكلمون في أعراض الناس ويتكلمون في الغزل ويتكلمون ويبالغون في المدح، كل ذلك كلام لا ليس له حقائق؛ يقولون ما لا يفعلون ليس له حقائق.

ولكن لما كان من الشعر من هو شاعر صادق ومن الشعر من هو شعر طيب في مدح الرسول وفي مدح الإسلام، حتى لا نفهم أن الشعر كله مذموم؛ ففي الشعر فيه ما هو طيب وفيه ما هو مقبول.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان له شاعر اسمه **(حسان بن ثابت)**، فكان الشعراء يأتون عند النبي ويشعرون عنده الشعر الطيب، فلا يفهم أن الشعر مذموم؛ ولذلك استثنى الله قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

إلا الشعراء الذين آمنوا، عندهم إيمان وعملوا الصالحات، حافظوا على الإيمان والصالحات واهتدوا بالإيمان وذكروا الله كثيراً في شعرهم، وانتصروا؛ أصبح شعرهم نصرة للإسلام والمسلمين، وانتصروا من بعد ما ظلموا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: هؤلاء شعرهم طيب وحسن وفيه الحكمة والموعظة والآداب الحسنة، وفيه النصرة للإسلام والمسلمين ورد كيد الكفار، هذا كله طيب.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾؛ الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي والكفر والاعراض، والاعراض فسيعلمون كيف ينقلبون وسيكون منقلبهم منقلباً سيئاً وعاقبتهم سيئة؛ كل ظالم لا بد أن تكون عاقبته سيئة إلا أن يتوب، سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلب؛ ستكون نهايتهم حسرة وندامة وسيئاً، نسأل الله أن يحفظنا وإياكم من كل سوء.

إلى هنا تنتهي السورة العظيمة الجليلة؛ **(سورة الشعراء)**، ننتهي منها ولله الحمد، وقد مكثنا فيها أسابيع عديدة؛ أسأل الله أن يجعلها حجة لنا، وأن ينفعنا بها، وأن يبارك لنا فيها، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ النَّمْل)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(النمل ١ - ٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للسادس عشر من شهر رجب ١٤٤٤ من الهجرة، نبدأ على بركة الله في درسنا هذا اليوم، مع تفسير القرآن العظيم، في هذا المجلس المبارك.

السورة التي بين أيدينا هي سورة جديدة بعدما أنهينا تفسير **"سورة الشعراء"** التي قبل هذه السورة، الآن ننتقل إلى سورة جديدة وهي **"سورة النمل"**.

"سورة النمل" قريبة من **"سورة الشعراء"** يعني مفتتحة بحروف مقطعة، الشعراء، ﴿طسم﴾ [الشعراء: ١]، وهذه، ﴿طس﴾ [النمل: ١]، وبعدها القصص، ﴿طسم﴾ [القصص: ١]، حروف مقطعة.

ثم إن **"الشعراء"** مثلما مر معنا ذكر الله فيها يعني سبعة من الأمم التي أرسل الله إلى كلّ أمة رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويحذرهم من الكفر، والمعصية، والشرك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

سبع قرى أهلكها الله، يذكر الله هنا يعني قصصًا أخرى، قد تختلف قليلاً وقد تكون مكررة، القصة الأولى قصة موسى مع فرعون، وجاءت بإيجاز واختصار، وتركيز على الدعوة دعوة موسى لفرعون، وموقف فرعون من هذه الدعوة.

ثم تأتي قصة داود وسليمان، ويأتي بسط الحديث والتوسع في قصة سليمان حتى يسمى بعض المفسرين هذه السورة بـ **"سورة سليمان"**؛ لأن الله تحدث عن قصة سليمان بتوسع، وجنود سليمان والحديث عنهم، وقصة الهدهد، وقصة المرأة التي كانت ملك سبأ، وموقفها من الدعوة، كلّ هذا تحدث القرآن عنه، ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه ثمود، ثم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعني أربع

قصص في **"سورة النمل"** سميت بسورة النمل لقصة النملة؛ فإنها قصة عجيبة، وأعطاها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الحكمة في حديثها وتوجيهاتها لِصَحِباتها، فذكرها الله وسماها بـ **"سورة النمل"**.

"سورة النمل" في الحقيقة لو ركزنا في الحديث عنها وتأملناها تأملاً جيدًا لوجدنا أن هذه السورة تدور حول الحضارة العمرانية، والحضارة التي تقوم على الدين والشرع، والاستفادة مما على هذه الأرض من مقدرات وممتلكات.

فسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ نموذج في كيفية الاستفادة من الحضارة العمرانية، فأعطاه الله القوة، وأعطاه الله الملك، وسخر له مسخرات عظيمة، وأعطاه الله اللغة؛ حتى إنه يدرك لغات كثيرة، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

ونموذج النملة في مملكة النمل، وترتيبها، وعملها، وبيوتها، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، ترتيب عجيب.

ثم تنتقل السورة إلى نموذج آخر من القوة والعمل في قوم ثمود الذين جابوا الصخر وقطعوها بالوادي وأعطاهم الله القوة من أنهم ينحتون الجبال بيوتًا، ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، يعمرون القصور، ويعمرون البيوت في الجبال، قوة عظيمة.

ويذكر الله قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن هذه الأمم المذكورة كأمة سليمان، وأمة صالح، لا؛ بل هم نكسوا ولم يكن لهم قوة وعمل نافع؛ وإنما أعمالهم سيئة، ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

أعمال خبيثة، ليس لهم هدف إلا الشهوة، ليس لهم هدف إلا الهوى والشهوة، وإضلال الناس، والتعدي على حقوق الناس، وعلى أعراض الناس.

فعذبهم الله بأن قلب عليهم ديارهم وأتبعهم بالحجارة حتى أهلكهم، لا سبيل لهم، ولا طريق لهم في العيش في هذه الدنيا، ولا يستوون مع من يعرف كيف يعمر الأرض بطاعة الله!!

سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ نموذج في الطاعة، مملكة إيمانية، قائمة على العمران، والإيمان، والطاعة وتحقيق شرع الله في الأرض.

وثمود مملكة عمرانية قائمة على الفساد، والكفر، والشرك بالله، فأهلكها الله، ودمر عمرانها، ولم يبق لها أثر إلا ما تراها قائمًا للعبرة والعظة.

دروس الحقيقة وعبر في هذه القصص العجيبة كلما ننتقل من سورة إلى سورة نجد عجائب هذه الدروس والعبر، وأنت تقرأ في **"سورة النمل"** تجد العجائب في أول السورة، وكيف هذا القرآن العظيم اشتمل على هذه الأشياء!!

كأن أول السورة فيه إشارات وتوجيهات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى عظم هذا القرآن، وعظم هدايات القرآن، وهدايات الشريعة، وأنه ينبغي للأمة الإسلامية أمة محمد أمة القرآن أن تعرف كيف تتعامل مع هذا الشرع وهذا القرآن؟ وكيف تعمر الأرض وتقيم حضارة الإسلام كما أقامها أول من أنزل عليهم القرآن.

عندما تصفحنا صفحات هذه السورة وتنقلها فيها، وعرفنا ما برزت فيه هذه السورة من نماذج فيما يتعلق بالعمران الإيماني الشرعي الاقتصادي، ننتقل الآن إلى الدخول إلى هذه السورة.

مثلما ذكرنا لكم هي تسمى **"سورة النمل"** وتسمى بسورة **"سليمان"** وهي أيضًا من **"الطواسيم"** الطواسيم ثلاث سور يقال لها: **"الطواسيم"** مثلما يقال: **"الحواميم"**.

هذه الطواسيم الثلاث:

١. الشعراء.

٢. والنمل.

٣. والقصص.

سميت طواسيم لأنها مفتتحة بـ الطاء والسين، الطاء والسين والميم في **"الشعراء والقصص"**، وبينهما **"النمل"** حرفين طاء سين، والطاء ليس فيها مد، والسين فيها مد، فيها مد لازم مخفف.

فأنت إذا قرأت تقول: طاء وما تمد، ما تقول: طاء وتمد هذا خطأ، ما فيها مد، تقول: طاء ثم سين، وتمد السين، السين فيها مد.

هذه حروف مقطعة مر معنا الحديث عنها كثيرًا، ونعيد ونكرر أن الحروف المقطعة هي حروف من حروف الهيجاء، أتى الله بها للإعجاز، لإعجاز العرب بأن هذا القرآن وهذه السور مكونة من حروف هجائية هم يتحدثون بها ويعرفونها.

فإذا قلت للعربي الفصيح البليغ من أهل العربية في مكة وحولها قلت له: طاء، عرف، سين، عرف، وهكذا، يعرف الحروف، فالقرآن مكون من هذه الحروف.

فعليكم أن تؤمنوا بهذا القرآن، وتصدقوا به، وتتبعوه، وتتبعوه من جاء به وهو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يأمركم وينهاكم، وأنت تعرفوا لماذا خلقتم؟ وأن تعرفوا ما هي رسالتكم في الحياة الدنيا؟ فإن عرفتم وأبيتم إلا الكفر والجحود ورد الرسالة، والكفر بالقرآن؛ فإن موعدكم النار.

ولذلك أنت لما تقرأ في سورة البقرة، لما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

لن تفعلوا حتى في المستقبل، النتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة: ٢٤]، إذن إذا لم تؤمن بالقرآن ولم تصدق ولم تتبع القرآن؛ فالنار تنتظرك، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

فاحذر أن تكون حطبًا لجهنم، هذا معناه، فالحروف المقطعة تدل إثبات القرآن وحقيقة القرآن، وأنه مكون من هذه الحروف الهجائية، وأنه جاء للإعجاز، لإعجاز العرب بأن يؤمنوا به، أو يأتوا بمثله، إن كانوا يدعون أن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي أتى به فليأتوا بمثله ولن يستطيعوا ولا بكلمة واحدة معجزة لا يستطيعوا؛ لأن هذا كلام الله، لا يُضاهى بكلام البشر أبدًا.

إذا فهمنا هذا جيدًا، وعرفنا هذه الحروف المقطعة، وأنها متنوعة في القرآن الكريم، وأن السور التي افتتحت بالحروف المقطعة تسع وعشرون سورة مختلفة بين مكي ومدني، وأيضًا مختلفة بعدد الحروف.

ففيها ما افتتح بحرف واحد مثل: ﴿ص﴾ [ص: ١]، ﴿ق﴾ [ق: ١]، ﴿ن﴾ [القلم: ١].

وبحرفين مثل: ﴿حم﴾ [غافر: ١]، ﴿طس﴾ [النمل: ١]، ﴿يس﴾ [يس: ١]، ﴿طه﴾ [طه: ١].

ومثل ثلاثة حروف: ﴿الم﴾ [البقرة: ١]، ﴿طسم﴾ [الشعراء: ١]، ﴿الر﴾ [يونس: ١].

وفيها أربعة: ﴿المص﴾ [الأعراف: ١]، ﴿المر﴾ [الرعد: ١].

وفيها خمسة مثل: ﴿حم ﴿١﴾ عسق﴾ [الشورى: ١، ٢]، ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١].

إلى خمسة كحد أقصى، حرف إلى خمسة أحرف، كلها لإثبات عجز العرب أن يأتوا بمثله وهم يعرفون ويكتبون قصائدهم وخطبهم، ويتكلمون ويتحدثون بطلاقة، ولا يستطيعوا أن يأتوا بسطر واحد من مثل هذا القرآن الكريم.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتح السورة بهذه الحروف ليدل على أن هذه الحروف جاء بها للإعجاز، انظر إلى ما يأتي بعدها دائمًا، كلما ذكر الله الحروف المقطعة أتى بالقرآن؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ [النمل: ١].

وفي سورة البقرة: ﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وهكذا، ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١، ٢]، ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

إذًا يأتي الحديث عن وصف القرآن بعد الحروف المقطعة يدل على أن القرآن مكون من هذه الحروف، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١]، يعني ما تسمعه الآن في هذه السورة وما تقرأه وما يلقى على سمعك هو آيات، هذه هي آيات القرآن الكريم، لكن العجيب مما يدل على إعجاز القرآن أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿تِلْكَ﴾ [النمل: ١]، **"تلك"** هذه للبعيد؛ لأن اللام للبعد، هو اسم إشارة، لكنه للعبيد، لما تقول: **"تلك"**، والقرآن تقول: **"هذه"**، **"هذه آيات الله التي بين يديك"** والبعيد تقول: **"تلك آيات"**، **"تلك السماء فوقنا"** فبعيدة.

✍ **فلماذا الله أشار إلى آيات القرآن بأسلوب اسم الإشارة للبعيد وهي بين أيدينا؟**

نقول: لعلو مكانة القرآن، وشرفه، لما كان عاليًا شريفًا أشار الله إليه بالبعد، كأنه يشير إلى أهل مكة وإلى الكفار، إلى أن هذا القرآن صعب المنال، لا يناله إلا المؤمنون، ولا يستفيد منه، ولا يهتدي بهداه إلا المؤمنون.

قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ [النمل: ١]، هذه السورة هي آيات، آيات من القرآن الكريم، السورة جزء من القرآن الكريم.

✍ **الآية ما هي؟**

هي: "كلام له بداية وله نهاية" هذه تسمى آية، تبدأ من رقم إلى رقم، نسميها آية، لها مبدأ ولها نهاية، الكلام الذي له مبدأ وله نهاية نسميه آية.

✍ سُمي آية لماذا؟

نقول: علامة، علامة على أي شيء؟ على صدق ما جاء به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، القرآن كله آية أي علامة على صدق دعوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسورة علامة على صدق دعوته، والآية الواحدة علامة.

قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ [النمل: ١]، القرآن معروف هو **"الكتاب المنزل على محمد** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **المتعبد بتلاوته"** يسمى قرآنًا لأنه يُقرأ على الألسن، ويسمى كتابًا؛ لأنه يُكتب، يُكتب في الألواح، ولذلك الله جمع بين الوصفين؛ قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ﴾ [النمل: ١].

فهذا القرآن الذي بين أيدينا تسميه أنت قرآن، وتسميه كتاب، سُمي مُصحف لأنه في صُحف في أوراق، يُكتب في الصُحف يسمى مُصحف، تسميته مُصحف لم تأت إلا في عهد الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما جمع القرآن، أبو بكر الصد=يق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ماذا نقول؟ قالوا: سميه مُصحف، سموه مصحف لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٣].

فالصحف والمصحف واحد، وهو قرآن وكتاب، ولاحظ أن الله لما قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ [النمل: ١]، قدم القرآن على الكتاب، لماذا؟ لأن الأصل قراءته، الأصل قراءته يعني على الألسن، وسماعه على الأذان، والكتابة يُحفظ؛ لأن المقصود من كتابه أن يُحفظ فلا يضيع، والمقصود من قراءته أن يبقى في الصدور؛ فكأن القرآن له مقام عظيم، القرآن يبقى في الصدور، وفي السطور، يُكتب في الصدور وفي السطور.

تكتبه في صدرك، تثبته في صدرك، وتثبته في المصاحف، والأصل ثباته في الصدور، ولذلك قدم الله قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ﴾ [النمل: ١]، لأن الأصل القرآن يتميز به المؤمن إذا كان من حفاظ القرآن، يعطي القرآن حقه في الحفظ؛ لأن الذي يحفظ القرآن يتلوه دائمًا، أما الذي لا يحفظ القرآن فيحتاج إلى أن يكون المصحف بين يديه، إما مصحفًا ورقيًا أو من المصاحف الإلكترونية.

لكن إذا فقد المصحف وقف، أما صاحب القرآن الحافظ؛ فإن القرآن في صدره، متى ما أراد أن يقرأ يقرأ، هذا التميز.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١]، يعني واضح الدلالة، لا غموض فيه، ولا شك فيه بأنه من عند الله، كلّ من قرأه فهمه، يقرأه العامي والمتعلم، تقرأه المرأة ، يقرأه الرجل، يقرأه الصبي، واضح الدلالة، بيّن.

قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١]، واضح الدلالة؛ لما فيه من العلوم المتنوعة، والحكم، والشرائع، والقصص، والدلائل، فيه ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وفيه ذكر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكر الرسل قبله، ومواقفهم مع أممهم، وقصصهم، فيه الأحكام الحلال والحرام، والأمر والنهي.

فيه دلالات القرآن وإعجازه وأوصافه، وفيه ذكر الكتب السابقة التوراة والإنجيل وما فيها، وفيه أيضًا خلق الإنسان، وحال الإنسان في الدنيا وأوصافه، وفيه مآله في الآخرة الجنة والنار، كلّ ذلك في هذا الكتاب العظيم.

لما قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١]، قال: ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ [النمل: ٢]، يعني هذا القرآن هدايات، يهتدي بها من يهتدي، هدايات وإرشادات، إرشاد وهادية وزيادة على ذلك بُشرى، يُبشر الله المؤمنين، ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الإسراء: ٩]، ففيه بشارات للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

يبشر الله المؤمنين الذين آمنوا وصدقوا، قال: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢]، لم يقل: **"لغير المؤمنين"** غير المؤمنين ما يستفيدون منه، ليس لهم هداية، وليس لهم بشرى، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، ما يستفيدون.

فالمؤمنون الذين صدقوا وآمنوا، واهتدوا بالقرآن وصدقوا بالرسالة، وصدقوا بالله بأسمائه وصفاته ووحدانيته وعبادته، وصدقوا برسالة النبي ودعوته، وصدقوا بالقرآن، هؤلاء هم الذين يهتدون بالقرآن، ويستفيدون من القرآن، ويكونوا بشارة لهم.

لكن هنا وقفة عجيبة أيها الأخوة:

هل كلّ مؤمن يستفيد؟

كلّ من ادعى أنه مؤمن يقول أنا مؤمن يكون القرآن له هدى وبشرى؟

الجواب: لا، الذين يدعون الإيمان كثير، كثير ممن يقول: نحن مؤمنون، ويدعون الإيمان، لكن في الحقائق لا تجد إلا مجرد إيمان على الألسنة، لكن لما كانت هذه الدعاوى قد يدعي بها من يدعي ويقول: أنا مؤمن؛ أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُثبت من هم أهل الإيمان الحقيقة، فأتى بصفاتهم الحقيقية الفعلية العملية.

قال: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ٢]، من هم؟ قال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [النمل: ٣]، هذا هو المؤمن حقيقة، الذي يقيم الصلاة، يأتي بالصلوات الخمس المفروضة، كاملة الأركان، مستوفية الشروط، بخشوعها، وأركانها، وواجباتها، ولذلك قال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [النمل: ٣]، وإقامة الصلاة هي الإتيان بها تامة.

قال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [النمل: ٣]، وانظر الفعل المضارع هذا تكرر معنا كثيرًا، إذا جاء الفعل المضارع يعني يدل على الدوام، يعني يقيمونها دائمًا لا ينقطعون عنها أبدًا، ما يصلي مرة ومرة لا يصلي لا، يقيم محافظًا على الصلاة يؤديها في أوقاتها.

قال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [النمل: ٣]، هذا الإيمان الحقيقي الذي صاحبه يتبع إيمانه بالعمل، بالمحافظة على الصلوات الفرائض والسنن.

قال: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [النمل: ٣]، المفروضة، الواجبة في أموالهم، يخرجونها، ويعطونها مستحقيها من الفقراء الذين أوجب الله عليهم، فالصلاة علاقة العبد بربه، والزكاة علاقة العبد بإخوانه المحتاجين.

قال: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣]، يعني هؤلاء المؤمنون الذين ذكرهم الله وأثبت لهم الهدى والبشرى في هذا القرآن عندهم اليقين في الآخرة، والإيمان الحقيقي بالساعة، وأن الساعة آتية لا يشك ولا يتردد بأنها ستأتي، وأن كلّ من يعمل في هذه الدنيا سيجازى بعمله في الدار الآخرة من ثواب أو عقاب، من جنة أو نار.

فعندهم اليقين التام بيوم البعث والجزاء والجنة والنار؛ ولذلك يسارعون في الأعمال الصالحة، ويبتعدون عن الأعمال ا لسيئة؛ لأنهم يخافون يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار، يخافون هذا اليوم العظيم، ولذلك قال: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣].

لما ذكر صفات هؤلاء المؤمنين قابلهم بصفات الكفار؛ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٤]، لما ذكر المؤمنين بأن عندهم اليقين الإيمان التام والعلم التام بالآخرة؛ قابلهم بهؤلاء، هؤلاء لا يؤمنون بالآخرة ولا يصدقون بها، ولا بالجزاء ولا بالجنة ولا بالنار، ولذلك ليس لهم عمل، لا يؤمنون بالآخرة.

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٤]، الله زين لهم أعمالهم، بسبب إعراضهم، فجعل لهم أعمالًا سيئة، يعملونها، ويفرحون بها، ويسارعون في العمل بها، ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، أعمال سيئة وهم يعمهون يعني متحيرين، لا يدرون أين يذهبون؟ يعملون أعمالًا يظنون أنها تنفعهم، ويشتغلون للدنيا، ولا يستعدون للآخرة، فهم يتخبطون ما يستفيدون، وليس عندهم نور ولا هدى من القرآن، قد حُرموا هذه الدعوة، وحُرموا القرآن فهم يتخبطون يتحيرون لا يدرون أين يذهبون؟

قال الله في عقوبتهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [النمل: ٥]، في الدنيا العذاب السيئ؛ الذي يصيبهم في الدنيا من القتل أو الأسر أو الذلة أو الأمراض أو الحالات النفسية التي تصيبهم من الضيق والنكد، قال: هذا في الدنيا.

وأما في الآخرة؛ قال: ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: ٥]، لا خسارة أعظم من خسارتهم، خسروا آخرتهم، وخسروا هذه الدار، خسرانًا عظيمًا.

قال الله لما ذكر القرآن وأثره، أثبت مصدر القرآن، القرآن أين مصدره؟ قال لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ﴾ [النمل: ٦]، أي يا محمد، ﴿لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٦]، يعني تأخذ القرآن من عند الله، ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، من عند الله الحكيم العليم، الحكيم في خلقه وتدبيره وتصريفه وشرعه، وعليم أحاط علمه بكل شيء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

بعد ذلك تنتقل السورة إلى ذكر أول قصة من قصص هذه السورة للتسلية وللعبرة، نستفيد منها، لكن الوقت يضيق بنا، نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نبدأ بهذه القصة العظيمة قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في بدء الوحي، ودعوته فرعون، ونتيجة هذه الدعوة. إلى لقاء قادم بإذن الله.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ،

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(النمل ٧ - ١٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثالث والعشرين من شهر رجب من عام ١٤٤٤ من الهجرة.

درسنا المعتاد بعد مغرب كلّ يوم ثلاثاء مع تفسير القرآن العظيم، السورة التي بين أيدينا هي **"سورة النمل"**، تحدثنا في لقاء ماضي عن هذه السورة وعما أودع الله فيها من علم، ومن آيات محكمات، وأخبار، وقصص، وعما تتحدث عنه هذه السورة العظيمة.

ذكر الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أرسله إلى فرعون، ونهاية هذه القصة، ثم ساق بعدها قصة داود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ثم قصة صالح مع قومه ثمود، ثم قصة لوط مع قومه، أربع قصص عظيمة الشأن فيها دروس وفيها عبر.

نبدأ بالقصة الأولى وهي: "قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ".

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين عظمة القرآن في الآيات الماضية لما قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١]، وأن هذا القرآن آياته عظيمة، وأنه كتاب واضح الدلالة بيّن، وبيّن أن هذا القرآن هدًى يهتدي به المؤمنون الصالحون، وبشرى يُبشر الله به هؤلاء الصالحين المؤمنين، وهؤلاء ذكر الله صفاتهم العظيمة بقوله: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣].

وبيّن الجانب الآخر، ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٤]، ولا يصدقون بها، ولا يعملون لها أن أعمالهم باطلة، وأن الله زين لهم أعمالهم السيئة، وهم يتخبطون، وأن الله قد توعدهم بالعذاب الأليم في الآخرة، والخسران العظيم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٦]، هذا القرآن تتلقاه من عند الله، ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦].

قال بعدها: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى﴾ [النمل: ٧]، **"إذ"** هذه دائمًا تأتينا في القرآن، ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ [النمل: ٧].

✍ **ما معنى "إذ"..؟**

قال أهل التفسير: إن **"إذ"** هذه ظرف زمان، ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ [النمل: ٧]، يعني اذكر يا محمد ذلك الوقت والزمان الذي قال فيه موسى لأهله: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [النمل: ٧].

هذا موسى هو موسى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي بعثه الله إلى فرعون، فهذه قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله بعث موسى إلى فرعون يدعوه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويترك الفساد في الأرض، وادعاء الألوهية والربوبية لنفسه، فبعثه الله ليبين له ذلك، بعثه الله لدعوته إلى التوحيد وطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أرسل الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى فرعون، وكلفه بالرسالة، موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد تربى في بيت فرعون وعاش في مصر، وبعد ذلك لما حصل ما حصل منه من قتل النفس هرب خوفًا على نفسه إلى مدين، فاستقر في مدين عشر سنوات، فلما قضى موسى الأجل وقد تزوج في مدين جاء من مدين متوجهًا إلى داره، وإلى أمه وأهله وأخواته إلى مصر.

وفي الطريق ضل الطريق لكونه في الليل وشدة البرد، فلما ضل الطريق بدأ يبحث عمن يدله على الطريق، قال هنا: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [النمل: ٧].

وهم في الطريق ومعه أهله، لما أبصر نار قال لأهله: إني أبصرت نارًا، ﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل: ٧]، وقوله: **"سآتيكم"** يدل على أنه توجه بسرعة ليأتي بالخبر.

قال: ﴿أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، يأتيهم بالخبر الذي يدله على الطريق؛ لأنه تاه في الطريق وضاع، فأراد أن يسلك هذا الطريق حتى لا يضل، حتى يدله من يدله، فلما رأى هذه النار؛ قال: النار عندها ناس، فأسألهم.

قال: ﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧]، أي قطعة نار، أو شعلة نار، يأتي بها حتى يستدفئوا، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، أي تستدفئون بهذه النار، يستدفئون بها من شدة البرد.

فكانوا في ليلة باردة ظلماء قد ضلوا الطريق واشتد عليهم البرد، فرأى هذه النار، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، يعني تصطلون على النار، من صلي إذا قرب من النار ليستدفئ بقصد الاستدفاء.

قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ [النمل: ٨]، ووصل إلى هذه النار، فإذا ما في نار وإنما ناداه رب العالمين، وإذا هو مكان نور الإله، فإذا هو رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلما جاء موسى إلى هذه النار ناداه وأخبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هذا المكان مكان مقدس ومبارك.

قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ﴾ [النمل: ٨]، أي ناداه رب العالمين، ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، أي أن هذا المكان مبارك، مبارك لماذا؟ لأن الله تكلم فيه، ولأن الله اختار فيه موسى؛ ولأنه جاء إليه رسول رب العالمين وهو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فنزلت البركة في هذا المكان، فكان مكانًا مقدسًا مباركًا، جعله الله واختار هذا الجبل، وهذا الوادي المقدس، وناداه من جانب الطور ليكلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كلامًا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فكلمه موسى وكلفه بالرسالة، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بارك له في هذه النار ومن حولها من الملائكة، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨].

قوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٨]، أي تنزيه الله عَزَّ وَجَلَّ رب الخلائق عما لا يليق به، وعما يصفه الواصفون، ويجحده الجاحدون، ويشرك به المشركون، ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨].

فالله عَزَّ وَجَلَّ هو المنفرد، هو رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو خالق الخلق، فكيف يشركون معه إلهًا آخر؟!!

ثم ناداه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَامُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ﴾ [النمل: ٩]، يعني هذا النداء من عند الله، ﴿إِنَّهُ﴾ [النمل: ٩]، أي الحال، ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، يعني أنا الله الإله المستحق للعبادة وحده لا شريك له، والعزيز ذو العزة والقوة والجبروت والغلبة بانتقامه من أعدائه.

وهذا فيه طمأنينة لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الله هو العزيز القوي، وأن الله إذا كلفه بهذه الرسالة؛ فإنه يكلفه ويرسله إلى فرعون وهو العزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القوي، ومن كان في ملاذ الله؛ فهو العزيز القوي، فهو العزيز لأن عزته بعزة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، عزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وغالب على أمره، وحكيم فيما يدبره ويختار، لما اختار موسى للرسالة، وحكيم لما أرسل إلى فرعون فلم يهلكه قبل إرسال الرسول، وقبل إقامة الحجة عليه، فأرسل إليه موسى وأقام الحجة عليه، فلما عاند واستكبر أهلكه الله، فالله عزيز قوي حكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ١٠]، في سورة أخرى قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى﴾ [طه: ١٧]، أدخل عليه السؤال ليزيل عنه الوحشة ويدخل عليه الأنس، قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى﴾ [طه: ١٧]، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم ما الذي بيده.

قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى﴾ [طه: ١٧ - ١٩].

وهنا قال: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠]، يعني لسرعتها وخفتها، كالجان أو كالحية الصغيرة التي في سرعتها وخفتها، فلما رآها حية تسعى وسريعة خاف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ منها، ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠]، في سرعتها، وحركتها، وخفتها.

قال: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ [النمل: ١٠]، لما رآها بهذا الشكل فر هاربًا، ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]، لم يلتفت ولم يرجع، فناداه الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَامُوسَى لَا تَخَفْ﴾ [النمل: ١٠]، لا تخف منها، ولا تخف من أحد فأنا معك.

قال: ﴿يَامُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]، الذين أرسلهم وأكلفهم برسالتي لا يمكن أن يخافوا، وستواجه أنت أعظم معاند كافر وهو فرعون؛ فلا تخاف، ولتكن عزيمتك قوية، وبأسك قوي، ﴿يَامُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]، المرسلون لدي لا يخافون، لا يخافون؛ لأنهم في ولاية الله، وفي حكمته وتحت رعايته.

قال: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ﴾[النمل: ١١]، يقول: لا يخاف لدي المرسلون إلا الذي قد ظلم نفسه ووقع في مثلاً معصية أو ذنب أو جناية فهذا يخاف، قال أهل العلم: هذا استثناء منقطع ليس له علاقة بالأول.

يقول: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾[النمل: ١١]، أي إنسان ظلم نفسه؛ فإن الذنوب تخيف أصحابها، والذنوب لها شؤم عظيم، لكن من ظلم نفسه وأخطأ ووقع في الذنب فباب التوبة مفتوح، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾[النمل: ١١]، يعني تاب وبدل حسن التوبة بعد هذا الذنب القبيح؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغفر الذنوب جميعًا، رحيم بعباده حيث فتح لهم باب التوبة، وهيأ لهم التوبة، ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[النمل: ١١].

وأظهر له آية أخرى؛ قال: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾[النمل: ١٢]، ما المراد بالجيب؟ الجيب هو فتحة العنق، الجيب فتحة القميص، وليس الجيب هو ما يسمى بالجيب اليوم، ليس المخبأة التي يُحفظ فيها الأشياء، وإنما الجيب هو فتحة القميص المفتوحة إلى الصدر.

قال: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ﴾[النمل: ١٢]، بيضاء ساطعة النور، مضيئة، ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[النمل: ١٢]، لا فيها برص ونحوه، ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾[النمل: ١٢]، ليس فيها مرض، وليس فيها سوء، ولا يستنكرها أحد، تخرج بيضاء من غير سوء.

قال: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾[النمل: ١٢]، أي هاتان الآيتان مع سبع آيات، يعني عندنا هنا العصا تنقلب حية هذه آية، واليد تخرج بيضاء هذه آية، معها سبع آيات أصبح المجموع تسع آيات، ذكر الله خمس آيات منها في سورة الأعراف، قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾[الأعراف: ١٣٣]، ذكر خمس آيات، وهنا ذكر آيتين هذه سبع آيات.

وقيل: الثامنة فلق البحر، والتاسعة ضرب الحجر الذي انفجرت منه الاثنا عشر عينًا، هذه تسع آيات.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾[النمل: ١٢]، لتثبت لهم أنك رسول من عند الله، فذهب بالآيتين العظيمتين، ثم تبعت هذه الآيات بعد ذلك، فذهب بهاتين الآيتين إلى فرعون وقومه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]، اذهب إليهم وادعهم إلى التوحيد، وطاعة الله؛ فإنهم خرجوا عن طاعة الله، قوم فاسقين خارجين عن أمر الله، كافرين به جاحدين وحدانيته، فاذهب إليهم وادعهم إلى التوحيد وطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فذهب إليهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا﴾ [النمل: ١٣]، القصة لها توابع ولها مكملات؛ لأنه قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٢٦ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۝٢٨ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٥ - ٣٠]، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى﴾ [طه: ٣٦].

فشرح الله صدره، وحل عقدة من لسانه، وأرسل معه أخاه هارون وزيرًا، وذهبا جميعًا، ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٤٣].

فلما جاءوا فرعون ودخلوا عليه وألقى إليهم الآيات، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ [النمل: ١٣]، ماذا كان جوابهم؟ قال: ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: ١٣]، ردوا دعوة موسى وأنكروها، وقالوا: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: ١٣].

لما أنكروها جحدوها وقالوا: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [النمل: ١٣]، ولم يؤمنوا وكفروا، واتهموا موسى بأنه ساحر، قال: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ [القصص: ٤٨].

فكفروا بموسى واتهموه بأنه ساحر مبين، أي واضح بيّن، وردوا رسالته ولم يقبلوها، فالنتيجة ما هي؟ قال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ [النمل: ١٤]، أخفوها، ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، أنفسهم عالمة وعلى يقين أن موسى رسول من عند الله، وأنه جاءهم بالحق، وأن معه معجزات حقيقية، استيقنت أنفسهم وتيقنت أن هذا هو الحق، ولكنهم ردوه تكبرًا وبطرًا، وعدم قبول للحق.

قال: ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، واستكبارًا، ردوها وكفروا بها، وقال فرعون لموسى: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ [طه: ٥٨]، فذهب وأتى بالسحرة، وأبطل الله كيد السحرة، وأظهر الله الحق على الباطل واستمر فرعون في طغيانه واستكباره، قال: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، النتيجة أنه استمر على عدوانه فأخذه الله نكال الآخرة والأولى.

قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]، أن الله أخذه هو وجنوده فأغرقهم في اليم وقضى عليهم، وفي هذا عبرة الحقيقة لمن يعتبر، ودرس وموعظة لمن يتعظ، كيف أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يترك العباد هملاً بل أرسل إليهم رسلاً، وأقام عليهم الحجة، ولكن كفر من كفر، وجحد من جحد، وكانت العاقبة على المفسدين عاقبة سيئة.

بعد ذلك يسوق الله لنا قصة داود وسليمان، وداود وسليمان عَلَيْهِمَا السَّلَامُ أنبياء، بعثهم الله بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، في فترة زمنية، وأنزل على داود الزبور وبعثه نبيًا رسولًا، وأعطاه الملك والحكمة، وعلمه مما يشاء، وجعل الملك أيضًا والنبوة في ابنه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفهم سليمان، وأعطى داود العلم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ [النمل: ١٥]، واللام هنا لام موطئة للقسم، والواو عاطفة، عطف قصة على قصة، والتقدير: **"والله لقد"** و**"قد"** هنا تفيد التحقيق، أي والله لقد آتينا داود وسليمان علمًا.

الله عَزَّ وَجَلَّ أعطى داود الملك، آتاه الله الملك، وأعطاه أيضًا الحكمة، وأعطاه أشياء كثيرة، لكنه لم يذكر هنا إلا العلم، حتى سليمان أعطاه الله الملك، ومع ذلك لم يذكر أمور الدنيا، وإنما ذكر أمور الآخرة؛ لأن العلم هو النافع، هو العلم النافع في الآخرة.

ولذلك خص الله العلم، أما الأشياء الملك وما يتعلق بها، هذه لا تهمنا كثيرًا، لذلك قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]، خصهم بالعلم، فلما أتاهم العلم ماذا فعلاً؟ قال: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ١٥].

عملوا بهذا العلم، وشكروا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه النعمة، ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ١٥]، أي قال داود وسليمان: الحمد لله، شكرا الله، ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

شكروا الله وقالا: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، ولم يقولوا: **"على عباده"** لأن فيهم من هو أفضل، من هم الذين أفضل منهم؟ أولي العزم، الرسل الخمسة أولي العزم، **"نوح، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ومحمد"** هؤلاء أولي العزم، هم أفضل ومحمد أفضلهم جميعًا، ولذلك قال: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

وهذا يدل على فضل العلم؛ لأنهم خصوا العلم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]، فهذا يدل على شرف العلم ومكانة العلماء عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعلو أهل العلم.

قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦]، ورثه ماذا؟ ورثه مالًا؟ لا، ورثه العلم، ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦]، يعني أن سليمان أخذ العلم عن أبيه، وأعطاه الله العلم زيادة على علم أبيه، وفهمه زيادة، فكان سليمان أُعطي علم أبيه وزيادة على علم أبيه، أعطاه الله العلم والنبوة والملك، وورث من أبيه العلم، والنبوة.

قال: ﴿وَقَالَ يَاأَيُّهَا النَّاسُ﴾ [النمل: ١٦]، قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه، ﴿عُلِّمْنَا﴾، وفُهمنا، ﴿مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، أي كلام الطير، يعني لغة الطيور يفهمها، الطيور أشكال وألوان وأنواع ومع ذلك أعطى الله سليمان معرفة نطق الطير، ولغة الطير.

قال: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦]، زيادة على فهم نطق الطير؛ قال: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦]، كلّ شيء تدعو الحاجة إليه، وكلّ شيء يتناسب مع الملك أعطاه الله.

قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، أي الذي أعطانا الله عَزَّ وَجَلَّ هو الفضل البيّن الواضح، بما ميزنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى واختارنا للرسالة والنبوة والملك، والعلم والفهم.

قال: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، نلاحظ أن القصة بدأت تدخل في سليمان؛ لأن الله عرض ذكر داود عَلَيْهِ السَّلَامُ ثم بسط الحديث عن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ﴾، أي جمعت الجنود له، ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾، جنود من الجن أعداد هائلة، ومن الإنس والطيور أيضًا، ﴿وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، يمشون معه، ويسيرون معه أينما سار، وأينما ذهب، ومع كثرتهم لم يكونوا مهملين؛ بل كان منهم من يكون حرسًا عليهم، وحاميًا لهم، ومتابعًا لهم، ولذلك قال: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، أي يرد أولهم على آخرهم حتى يوقفوا جميعًا بطريقة منظمًا، وأن عليهم من يدفعهم ويتابعهم بدقة.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ [النمل: ١٨]، الآن ندخل في قصة هذه النملة، وما جرى في حوارها مع أخواتها النمل، وماذا كان موقف سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ منها متعجبًا من حالها، وأسلوبها،

واعتذارها، وطريقتها، ونصحها لقومها، لا نريد الإطالة، لعلنا إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما جرى في هذه القصة العجيبة، والدروس العظيمة التي نستفيد منها، وننتفع بها من هذا العلم.

نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله نكمل في اللقاء القادم.

وَاَللهِ أَعْلَمُ

وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(النمل ١٩ - ٣٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، أما بعد ...

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعل هذا الاجتماع اجتماعًا مرحومًا، وأن يجعل تفرقنا من بعده تفرقًا معصومًا، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يبارك لنا ولكم في أوقاتنا وفي أعمارنا، وأن يسددنا، وأن يبارك لنا في أعمالنا، وأن يوفقنا لطاعته، ويبلغنا رمضان ونحن في صحة وعافية وأمن، ويعيننا على صيامه وقيامه.

أيها الأخوة الكرام درسنا في هذه الليلة وهذا اليوم الأول من شهر شعبان عام ١٤٤٤ من الهجرة.

درسنا في التفسير في **"سورة النمل"**، **"سورة النمل"** قرأنا فيها، وفسرنا شيئًا من آياتها، وقف بنا الكلام عند قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو نبي من أنبياء الله، من ذرية يعقوب، وجاء بعد إهلاك فرعون، وبعد موسى، وبعدما دخل يوشع بن نون وهو فتى موسى، دخل بيت المقدس وفتح فلسطين واستقر بها، وتتابعت الأمم والأجيال حتى بعث الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قتل جالوت، وكان قائد الجيش هو طالوت، فملكه الله الملك وأعطاه الحكمة والنبوة، ثم جاء سليمان ابنه بعده.

يسوق لنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قصته في هذه السورة، وقد أوردها في يعني أورد شيئًا من الحديث عنه في سورة (ص) وفي سورة (سبأ) وغيرها.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

السؤال أيها الأخوة:

هل داود وسليمان أعطاهم الله علمًا أم أعطاهم ملكًا؟

سليمان ملك، وداود ملك، فلماذا خص الله العلم؟

نقول: لأن الحقيقة الشرف كله في العلم، وارتفاع النفس وصعودها بالعلم، أما المال والملك هذا كله يذهب، ولذلك الله اختار ما هو عز لهم، وشرف، وما هو باقٍ لهم، قال: ﴿آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]، مع أنهم أعطاهم الله أكثر من هذا، فخص العلم لأنه هو العلم النافع، ولأنه ميراث النبوة.

قال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦]، ورثه ماذا؟ ورثه العلم، وإن كان قد ورث الملك ما في مانع، لكن التركيز على أن سليمان خلف داود في العلم والنبوة، وحكم بين الناس بالعلم والنبوة.

قال: ﴿وَقَالَ﴾ [النمل: ١٦]، أي سليمان، ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، يعني فُهمنا؛ لأن سليمان أعطاه الله العلم والفهم، ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فأعطاه الله معرفة نطق الطير والحيوانات؛ حتى سمع صوت النملة وهي تتكلم، وعرف وأدرك ما تقول، وأيضًا غيرها من الحيوانات.

قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، وهو الطير وغيره من الطيور، وإنما خص هنا قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، مع أن الله علمه أشياء أخرى كثيرة، السبب في ذلك أن الطير ستأتي له قصة عجيبة، وسيترتب على هذه القصة علوم عظيمة مما يتعلق بمملكة سبأ وغيرها، ولذلك قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، ولأن الطير أتى بشيء عجيب فألفت الأنظار، قال: **"عُلمنا وفُهمنا كلام الطيور وحديث الطيور"**.

قال: ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦]، أعطاه الله من كلّ شيء يتناسب مع ملكه، ومكانته، ونبوته، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، يعني أن هذا فضل من الله، تفضل الله به عليه، فضل واضح من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا يدل على تواضعه، وعلى أنه يعرف حق الله فيه، وأن ما به من نعمة فمن الله، وهذا اعتراف منه وشكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسيأتيك الشكر الصريح منه.

قال: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٧]، جُمعت الجنود كلها، وهذه الجنود متنوعة، جنود من الجن، وجنود من الإنس، وجنود من الطير، وانظر الطير خصه؛ لأنه ذكره قال: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦].

والطيور هي التي تنفع في الجهاد، والقتال، تأتي لك بالأخبار كما أتى الهدهد بالخبر، حشرت كلها في مسير واحد، يعني جمعت في مكان واحد.

قال: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، مع كثرتهم وتنوعهم واختلافهم لم يكونوا مهملين يعني ما يدري أين يذهبون لا، كلٌّ ينضم إلى جنسه، وكلٌّ يرد إلى آخره، يرد أوله إلى آخره كي يقفوا جميعًا منتظمين مرتبين، هذا معنى كلمة **"يوزعون"**.

كلمة **"يوزعون"** أي يُجمعون في مكان واحد، ويرتبون، وينظمون، ويرد أولهم على آخرهم هذا معنى أنهم يوزعون، فقال: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، بحيث يكونوا في ترتيب واحد، وتنظيم واحد.

وهذا يدل على مهابة الجيش وعظمه إذا كان بهذا الترتيب وهذا التنسيق، وهنا جنود من الإنس، وهنا من الجن، وهنا من الطيور، وبهذا التنظيم العجيب هذا يُلفت الأنظار إلى مهابة الجيش وعظم الجيش.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا﴾ [النمل: ١٨]، وهم يسيرون بقيادة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، يسيرون ذاهبون من وادٍ إلى وادي، ومن مكان إلى مكان، يقطعون الفيافي إما لجهاد أو نحوه، وهم يسيرون وصلوا إلى هذا الوادي، وصلوا إلى وادٍ من الأودية، تحديد الوادي بعضهم قال: هو وادٍ في الأردن، وبعضهم قال: هو وادٍ في كذا، وبعضهم قال: في كذا، نحن ما يهمنا أين الوادي؟ هذا ما يترتب عليه شيء كبير، هنا أو هنا المهم أنه وادي من الأودية.

إذا عرفت أنه وادي في مكان معين ما الذي يترتب عليه؟ ما في جديد، ولذلك القرآن يُعرض عن هذه الأشياء، ويُبهمها يجعلها مبهمة، مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، أين هذه القرية؟! ما نعلم.

فترك هذه الأشياء لأن القرآن لا يركز عليها؛ لأنه يعطيك العظة، ويعطيك الدرس من هذه القصة، والتذكير والتفكر فيها فقط.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ [النمل: ١٨]، أي بلغوا ووصلوا هذا الوادي، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ [النمل: ١٨]، نملة من النمل الموجودين في هذا الوادي نادت، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ﴾ [النمل: ١٨]، نادت، ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

لا يهلككم، ويحطمكم سليمان وجنوده، ودل على أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي يقود الجيش، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، ولا يعلمون بكم.

قال: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ [النمل: ١٩]، لبلاغتها وحسن كلامها، نملة قال بعض أهل العلم: نادت، وأمرت، وأيضًا اعتذرت، عدة أمور ذكرها السيوطي يمكن تسل إلى ستة أمور أو سبعة أمور، أنها نادت قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّمْلُ﴾ [النمل: ١٨]، ثم أمرت قالت: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، ثم قالت: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾ [النمل: ١٨]، يعني حذرت تحذيرًا، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ﴾ [النمل: ١٨]، على وجه التحذير، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، اعتذار لسلمان وجنوده؛ لأنهم لا يشعرون بهم ولا يدرون عنهم.

فانظر إلى البلاغة القرآنية، وأيضًا هذه النملة كيف خاطبت القوم معها؟ وخاطبت يعني من حولها من النمل، فقالت لهم بهذا الأسلوب نادتهم بالنداء، ﴿يَاأَيُّهَا النَّمْلُ﴾ [النمل: ١٨]، وأمرتهم، ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، وحذرتهم، ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، واعتذرت، ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، لا يدرون عنكم.

قال: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]، من قول هذه النملة، لفهمها، وهذا يدل على أن سليمان أُعطي فهم الطيور والحيوانات، يعني يخاطبهم، ويكلمهم، ويسمع كلامهم، ويُدرك معانيه، ولذلك لما سمع النملة تتحدث بلغتها مع أصحابها فهم كلامها، لما فهم كلامها تبسم ضاحكًا من قولها، وهي أيضًا لذكائها واهتدائها، وتحذير جماعتها.

قال: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]، ولم يقل: **"فضحك"** لأن الضحك هكذا يعني ليس من سمات العقلاء، والأنبياء، والرسل، الضحك والقهقهة يدل على خفة العقل، أما التبسم بهذه الطريقة وإن صحبه شيء من الضحك فهذه سنة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسنة العقلاء والأنبياء، أنه يتبسم فقد يتخلل هذا التبسم ضحك.

لما تبسم وتعجب؛ لأن التبسم هذا تعجب، تعجب من هذه النملة، فلما تعجب منها ماذا قال؟ قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩].

لما رأى هذه النعمة العظيمة، وأن الله أعطاه هذا الشيء والجنود، وأعطاه الفهم الدقيق، توجه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ودعا ربه، قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ [النمل: ١٩]، أي ألهمني، وأرشدني، ووفقني، ﴿أَنْ أَشْكُرَ

﴿نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، نعمتك هذه وغيرها من النعم العظيمة التي أنعم الله بها عليه، ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، أمه وأبوه.

قال: أوزعني وألهمني الشكر، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل: ١٩]، وأيضًا ألهمني ووفقني للعمل الصالح الذي ترضاه، ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

انظر إلى العبارات والجُمل، أول شيء يتوجه بالشكر إلى الله على ما أنعم عليه، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، لم ينس والديه أن الله أنعم عليه وعلى والديه، وإلا كيف جاء هو إلا من نعمة الله على والديه أن ربوه هذه التربية.

ثم سأل الله أن يوفق للعمل الصالح الذي يرضي الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو يقابل هذه النعمة التي يتقلب فيها وهو الملك العظيم والجيش، لم ينس العمل الصالح؛ لأن العمل الصالح هو حياته في الدنيا وثمرته في الآخرة؛ فقال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

لما حث نفسه وسأل الله أن يرزقه العمل الصالح في الدنيا، لم ينس الآخرة، قال: أدخلني في الآخرة في عبادتك الصالحين، في زمرة الصالحين، وهذا تواضع منه، لم يقل: أنا نبي، ولكن قال: أدخلني في زمرة هؤلاء العباد الصالحين، وأن أكون عبدًا صالحًا، وهذه الدعوات الطيبة الحسنة شوف كيف يشكر الله ويتذكر نعمة الله عليه وعلى والديه؟ ويسأل الله العمل الصالح، ولم يسأله الدنيا، ولم يسأله المال، سأله العمل الصالح الذي يرضي الله عَزَّ وَجَلَّ، وليس كلّ عمل؛ وإنما عمل يرضي الله عَزَّ وَجَلَّ، وسؤاله الدار الآخرة والفوز بها وعدمه الغفلة عنها.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ [النمل: ٢٠]، لما جاوز هذا الوادي وادي النمل كأنه وقف وتفقد الطير، والطيور هذه مسخرة، والمراد بالطير هنا سائر الطيور، وليس طير واحد؛ لأنها جمع، الطير هنا جنس جمع، فبدأ يتفقد هذه الطيور المسخرة له، وينظر فيمن غاب منها ومن حضر.

فلما تفقد قال: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ﴾ [النمل: ٢٠]، بدأ يسأل عنه، هل هو معكم؟ أو هو غائب؟ ما لي لا أراه؟

قال: ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]، هل هو استتر عندكم هنا أو أنه غاب عن الحضور معنا، لماذا لم أراه؟ فلما تبين أنه غائب اتضح أنه ليس موجودًا معهم، قال: كيف يغيب ولم

يستأذن مني ولم يعطني خبر على غيابه؟ هذا دليل على على عدم مبالاته، وعدم خوفه مني، وعدم احترامه للجيش، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١]، أي والله لأعذبنه، ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل: ٢١].

قال أهل التفسير: يعني أن ينتف ريشه، وبعض بعضهم: ينتف ريشه ويجعله في الشمس، ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ [النمل: ٢١]، عقوبة له على ما فعل، حيث قد يكون كله بعمل أو نحو ذلك.

قال: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٢١]، يعني يبين لي عذره في غيابه، فإن أتى بعذر في غيابه رفع عنه ذلك، وهذا يدل على متابعة سليمان للجيش ودقته، وحزمه في جيشه، حتى الطيور يتفقدها ويتابعها.

قال: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢]، مكث من؟ الهدهد، ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢]، يعني زمنًا غير بعيد، لم يتأخر، قد يكون فقده وبعد ساعات أو نحو ذلك حضر عنده، فعاتبه سليمان على مغيبه وتخلفه، قال: أين كنت؟ ولماذا غبت عن الجيش؟ ولماذا لم تعطني خبرًا؟

فقال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]، أي علمت بعلم لم تعلمه أنت يا سليمان مع ملكك وسعة نبوتك، وحكمتك، وعظم جيشك، غاب عنك شيئًا عظيمًا، وعلمت به أنا وأنت لم تعلم به.

وهذا يدل على أنه مهما أعطي الإنسان من علم وسعة قد يغيب عنه أشياء قليلة جدًا لا يُلتفت إليها، فانظر كيف سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما أعطاه الله من الملك والنبوة والحكمة والعلم، وأعطاه الله الجنود جنود الإنس والجن والطيور يأتون له بالأخبار، ومع ذلك غاب عنه ذلك.

قال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ [النمل: ٢٢]، وهي مدينة سبأ في اليمن، ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢]، بخبر يقين لا شك فيه، خبر أنا متقين منه لا أشك فيه ولا أتردد فيه.

قال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣]، بدأ يخبرهم بالخبر، وجدت امرأة تحكمهم، وتملكهم، تملك أهل سبأ، امرأة تملكهم، وهم بمطوعتها، ومشورتها، ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، من أسباب الدنيا، سخر لها كلّ شيء من أسباب الدنيا، ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وهو سرير الملك العظيم، عظيم القدر، تجلس عليها لإدارة ملكها، فهي في مكانة عظيمة، ومنزلة عظيمة.

إلى هنا حتى الآن الأمر واضح، ما في شيء إلا أن لها ملك، وبعدين قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]، هي وقومها يعبدون الشمس معرضين عن عبادة الله، شوف كيف

الهدهد أنكر عليهم؟! كيف يعبدون الشمس وهي مخلوقة مسخرة، تذهب وتغيب؟!! من الذي جعلها تغيب؟ ومن الذي أخرجها مرة أخرى كلّ يوم إلا الله؟! فهي مسخرة بأمر الله، فيعبدون الشمس، ويُعرضون عن عبادة الله.

قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤]، يقول: هذا العمل هو من تزيين الشيطان، زين لهم الأعمال السيئة، فظنوا أنها حسنة، فلذلك يسجدون عند طلوع الشمس وعند غروبها، يظنون أن هذا أمر حسن، فالشيطان زين، الشيطان يزين للناس أعمالهم، يزين لأهل الضلال ضلالهم، يزين لأهل الكفر كفرهم، والشرك شركهم، فيزين لهم أعمالهم حتى يتقبلوها.

قال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [النمل: ٢٤]، لما زين لهم أعمالهم ترتب على ذلك أنه صدهم عن السبيل عن طاعة الله، عن السبيل السوي، وعن السبيل المستقيم، والصراط المستقيم، صدهم عن طاعة الله، والإيمان بالله وتوحيده.

قال: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٤]، لا يهتدون إلى طاعة الله، وإلى توحيد الله، لماذا؟ لأنهم لما عبدوا الشمس، وزين لهم الشيطان أعمالهم السيئة وأضلهم خلاص عُميت أبصارهم، فلا يهتدون أبدًا إلا بأمر الله، وإلا يظنون أنهم على خير، وأنهم على أحسن حال.

ثم أنكر عليهم مرة أخرى؛ قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [النمل: ٢٥]، هلا يكون سجودهم لله؟ لماذا لا يسجدون لله؟ ثم علل؛ قال: يسجدون لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الواحد الأحد المستحق للعبادة.

قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥]، يخرج كلّ ما تخبأ واختفى تحت الأرض يخرجه الله، المخبوء في السماوات، والمخبوء في الأرض أي المستور الذي استتر تحت الأرض من حبٍ ونحوه، أو في السماوات أو في الأرض يخرجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يغيب عنه، من المطر، من النبات، من الحبوب، ونحو ذلك.

وزيادة على ذلك أيضًا هو ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]، يعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما تسره هذه القلوب، وما تظهره على الألسنة، كلّ ذلك يعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لماذا؟ لأنه هو الإله الواحد، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [النمل: ٢٦]، سبحانه المعبود بحق، الذي يستحق العبادة.

قال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، الذي هو أعظم المخلوقات، العرش وُصف بأنه عظيم؛ لأنه أعظم المخلوقات، الكرسي عظيم، والعرش أعظم، والسماوات عظيمة، والكرسي أعظم منها، والأراضي عظيمة، والسماوات أعظم منها، فعرش الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو سقف المخلوقات، وأعظمها.

فقال: ﴿هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، لماذا يسجدون لله الذي وسع علمه، وقدرته، وحكمته كلّ شيء؟ وتتركون عبادة الله وتعبدون الشمس التي لا تنفع ولا تضر؟!!

قال هنا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لما سمع هذا الكلام القوي الذي على يقين، على علم، وعلى معرفة تامة، ومع ذلك سليمان عنده التثبت وعدم التعجل، وإن كان الهدهد يقوله بيقين وعلم وعدم تردد؛ إلا أن سليمان مع ذلك هو قائد جيوش، ونبي، وملك، قال: لابد من التثبت.

قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ للهدهد: سنتأمل فيما جئتنا به من الخبر، ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]، لا ندري، لابد لنا من التثبت، ثم كتب له كتابًا، لما كتب له كتابًا قال: ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا﴾ [النمل: ٢٨]، اذهب إليهم إلى أهل سبأ، فأعطهم إياه، ثم تنحى قليلاً تولى قليلاً حتى يردون عليك، ثم تنحى قليلاً بحيث تسمع كلامهم وتخبرني به، وتتأمل بما يردون؟ وتنظر ماذا يرجعون ويردون عليك؟

فذهب الهدهد وأخذ معه الكتاب وألقاه على الملكة، فأخذته وقرأته، ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

قرأته، فقالت لمن حولها لأنها عندها مستشارين وعندها جنود وأشراف القوم والملأ، قالت لهم: ﴿يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ﴾ [النمل: ٢٩]، يا أيها الأشراف ويا أيها المستشارون، ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ﴾ [النمل: ٢٩]، وصلني الآن كتاب، وهذا الكتاب كتاب كريم، ليس أي كتاب، وصلني كتاب جليل القدر من ملك عظيم الشأن، وهذا الكتاب فحواه أنه من سليمان، وهو الملك المعروف عندهم ويسمعون به.

وأنه مفتتح بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠]، وهذا يدل على أنه مؤمن بالله، ومعترف بوحدانية الله وأسمائه الحسنى، وصفاته، وأنه يطلب منهم ألا يتعاظموا وألا يخرجوا عن طاعة الله وعن

ملكه، وأن يأتون مسلمين منقادين لله وحده لا شريك له، فأمرهم بالإسلام والدخول في مملكته، وعدم خروجه عن مملكته وكفرهم بالله.

فلما قرأت عليهم وقالت هذا الذي وصلني، قالت: ﴿يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ [النمل: ٣٢]، يعني أشيروا علي في هذا الأمر، ماذا تقولون في هذا الأمر؟ قالت: ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ [النمل: ٣٢]، أنا ما أقطع أي أمر، ولا أبت في أي قضية حتى تحضروني، ﴿حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]، تحضروني وأسمع منكم وتسمعون مني، ولا أفعل شيئًا إلا بمحضركم ومشورتكم.

فكان ردهم قالوا: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ﴾ [النمل: ٣٣]، رد الجيش عليها؛ قال: نحن معكم، نحن أصحاب قوة في العدد وفي العدة، وأصحاب شجاعة في الحروب، ﴿وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ [النمل: ٣٣]، إن أردت أن نخوض حربًا خضناها، والأمر أليك، وإن أردت أمرًا آخر نحن معك، فأنت صاحبة الرأي، ﴿فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣]، وتشيرين إلينا، فنحن نسمع منك ونطيع ما تقولينه.

قال: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤]، محذرة من مواجهة الحروب، قالت: هذه الحروب ليس فيها مصلحة؛ لأنه خضنا معهم حرب وحصل ما حصل، أول ما يبدؤون بالملوك، فإذا دخل الملوك أتوا على أعزة هذه البلد، ووجهاء البلد، والكبراء في البلد، أخذوهم وجعلوهم أذلة.

فأول ما تبدأ الجيوش والجنود والمنتصرون على هذه إذا دخلوها وقهروها خربوها، وأفسدوها، ﴿وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]، وأخذوا كبارها ووزراءها، وقادتها، وجعلوهم أسراء، إما يقتلونهم أو يأسرونهم ويذلونهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، أي أنه واقع وحقيقة، وهذا هو الذي يحصل، إذا دخل جيش قرية أول ما يحصل هذا الأمر.

ثم قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، فجهزت هدية عظيمة مليئة بالذهب والجواهر والجواري والمراكب، وقالت: اذهبوا بها إلى سليمان ننظر إن كان يريد الدنيا؛ فإنه سيأخذ هذه ويكتفي، ويقول: خلاص ما دام أعطونا لن نخرج إليهم، وإن كان يريد أمرًا آخر؛ فإنه لن تهمه هذه الأمور، وهذا يدل على ذكائها، وفطنتها.

لعلنا نقف عند هذا القدر، فالوقت يضيق بنا، نقف عند، ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٣٦]، أي جاء هؤلاء الذين معهم الهدايا، جاءوا إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، نقف عندنا، ونكمل إن شاء الله في اللقاء القادم.

وَاَللهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(النمل ٣٦ - ٤٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للخامس عشر من شهر شعبان من عام ١٤٤٤ من الهجرة.

اجتماعنا حول القرآن الكريم، وحول درسنا الأسبوعي، ووصل بنا الكلام عند **"سورة النمل"**، وفي قصة ملكة سبأ، وقف بنا الكلام عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٣٦].

لما أرسل سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ رسالته إلى ملكة سبأ، وأنه فيها، ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣٠ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠، ٣١].

والمرأة هذه كانت امرأة عاقلة، حصيفة، صاحبة عقل رزين، ولذلك هي عرفت كيف تتعامل مع مثل هذا الأمر؛ حتى قال بعضهم: انظر إلى رأي وعقل هذه المرأة، وعقل فرعون، فرعون ما كان موقفهم بمثل هذا الموقف، وإنما عارض وامتنع، وخالف أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يقبل منه، وهذه المرأة لما جاء سليمان بالسلم ولم يأت بالحرب، قال: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، حتى لا تدخلوا في حرب.

عرفت فقالت: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤].

هي لا تريد أن تخوض حربًا معه، ثم فكرت، مع أن قومها والملأ عندها يقولون: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣]، ومع ذلك لم تأخذ برأيهم، وإنما استشارت، وتأنت في الأمر، ثم فكرت ورأت أن ترسل هدية تنظر في أمره، هذا الرجل الذي قال: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١].

إن كان يريد الدنيا، ويريد المنصب، ،يريد التوسع في الملك؛ فإن هذه الهدية التي سأرسلها له سيفرح بها ويقبلها، وأعرف منه أنه يريد الدنيا، ويريد المال، فجهزت له هدية عظيمة جدًا، ولا تتصور أنها أي هدية، لا؛ بل هي هدية عظيمة، فتريد أن تجس نبضه في قبول هذه الهدية أو لا؟

قالت: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، تقول: أشوف ما هو موقفه من هذه الهدية؟ فلما وصل الوفد وفد المرأة ومعهم الهدايا والجواري، والذهب، والمجوهرات، ودخلوا على سليمان وقالوا: هذه هدية من ملكة سبأ، فلما جاء سليمان أي جاء الوفد ودخلوا على الرسل الذين أرسلتهم المرأة.

قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦]، لما شاف الهدايا وهذه الأشياء قال: أنتم تريدون أن تمدونني تعطونني تزيدونني مال؟

قال: ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ [النمل: ٣٦]، الذي عندي وأعطاني الله،ووسع علي أعطاني ملك أعظم وأعظم بكثير من هذه الهدايا التي أنتم أرسلتموها، ﴿فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ﴾، الذي أعطاني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ [النمل: ٣٦]، أفضل وأعظم مما أتاكم.

قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]، أما أنا فلا أفرح بهديتكم ولا أقبلها، فردها عليهم، ولم يقبلها، قال: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٣٧]، ارجع بهديتك إليهم، أنتم تفرحون الهدايا أما أنا فلا أفرح بالهدية، لأنني لست محتاج إلى الهدية، وليس غرضي وقصدي من هذا التوسع في الملك، أو قبول الهدايا أو أمر من أمور الدنيا؛ وإنما أنا أريد أن أقضي على هذا الشرك وهي عبادة الشمس.

هنا سؤال يحتاج إلى جواب:

هل يجوز رد الهدية؟

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يرد الهدية وقبلها فلماذا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يرد الهدية ولم يقبلها؟

نقول: الأصل قبول الهدية، وإذا كان المهدي غرضه المحبة والمودة فتقبل الهدية هذا هو الأصل، لكن إذا كان غرضه أمور أخرى أو أن هذه الهدية ستفسد عليك ما تريده أنت وتقصده فهنا يتوقف الإنسان عن قبول الهدية.

إذا كان المرسل لك هذه الهدية يريد أمرًا من أمور الدنيا، ولم يهدها لك لوجه الله ولا لمحبة، أو أنك أنت يريد أن يفسد عليك نيتك، ويفسد عليك قصدك ومرادك، ففي هذه الحال لا تُقبل الهدية، فلا مانع من أن يردها لما يترتب عليها من مساوئ، وما يترتب عليها من هذه الأمور.

ولذلك ردها سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لأنه عرف لو قبلها سيترتب عليها أمور أخرى، ولذلك ردها؛ قال: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٣٧].

✍ **طيب كيف ارجع إليهم؟**

✍ **هو يخاطب من، هو في الأول قال:** ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ **[النمل: ٣٦]، ثم قال:** ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ **[النمل: ٣٧]..؟**

نقول: كلّ وفد له رئيس فالأول لما قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]، يقصد الوفد، ولما قال: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٣٧]، يقصد رئيسهم، قال: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٣٧]؛ لأنه هو الذي يتكلم بلسانهم، فقال: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٣٧]، أي ارجع إلى ملكة سبأ ومن وراءك.

قال: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ [النمل: ٣٧]، أي ليس لهم طاقة بها، ولا يستطيعوا أن يواجهوا هذه الجنود لأن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حشر له جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون، فلا طاعة لهم، مستحيل أن يقابلونه بقوة مثل قوة سليمان.

قال: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ [النمل: ٣٧]، إذا هم لم يستجيبوا ولم يأتوني مسلمين؛ فسأجهز جيوشًا عظيمة، وسأقابلهم بجنود عظيمة لا قبل لهم بها.

قال: ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

وانظر إلى ثقة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ بربه، لما قال: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ﴾ [النمل: ٣٧]، هنا اللام يسميها أهل اللغة لام القسم، أي **"أقسم بالله"** كأنه يقول: **"أحلف، وأقسم بالله لنأتينهم بجنود"، "وأقسم بالله مرة أخرى"**، ﴿وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٧]، يعني ذليلين حقيرين، صغارًا، ﴿وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]، أي والحال أنهم يخرجون منها وهم ذليلون حقيرون، وهذا كله تهديد منه إن لم يستجيبوا له ويسلموا.

فلما رجع هذا الوفد إلى ملكة سبأ وإلى الملأ عند الملكة وأخبروهم بهذا الخبر، عرفت هي برجاحة عقلها أنها لا قبل لها بمواجهته، وعرفت أنه لا يريد الدنيا، ولا يريد الهدايا ولا الأموال، وإنما يريد أمرًا آخر هو أعظم من ذلك، وهو القضاء على الشرك والكفر، ونشر الإسلام.

ولذلك هي تأنت في الأمر، وقالت: أنا الذي سأذهب إليه، وأوجهه، وأخذت معها عددًا من الوفد الكبير حتى قال بعضهم إنما كانوا سبعين ألف رجل، والله أعلم بالعدد، لكن لا يهمنا العدد، قالت: سأقابله وأنظر في أمره.

فخرجت من قصرها ومن اليمن إلى الشام، وكان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مقيمًا في الشام، فخرجت وهي مسافة طويلة تحتاج إلى أيام طويلة.

قيل: لما خرجت أغلقت القصر، وأوثقت القصر توثيقًا قويًا، وأوثقت مكان العرش بحيث لا يدخله أحد، ولا يمسه أحد، وأغلقت جميع الأبواب، وجعلت الحراس عليه، وخرجت هي ومن معها متوجهة إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

لما علم سليمان أنها ستأتيه، وقد يكون ذلك بالوحي، أنها خرجت من بلدها ستأتيه، أراد أن يختبرها ويختبر عقلها؛ فقال لجلسائه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨]؛ لأنه عرف أنهم سيأتون.

قال: تأتوني بعرشها عندي ونتصرف فيه، ونغير فيها، وننكره، قبل أن يسلموا؛ لأنهم لو أسلموا عندي أصبحت أموالهم محرمة؛ لأنهم مسلمون، لكن قبل أن يأتوني مسلمين أموالهم الآن جائز أخذها؛ لأنهم غير مسلمين، وليس لها حرمة ولا عصمة.

قال: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ [النمل: ٣٩]، والعفريت من الجن هو القوي النشيط المتعفرت الذي عنده قوة، وعنده طاقة، ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩].

وكان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يجلس في مقامه من أول الصباح إلى أن ترتفع الشمس ويشتد النهار يعني أربع ساعات خمس ساعات يجلس للحكم والقضاء بين الناس، كان يجلس في مجلسه والناس يأتون إليه.

قال: قبل أن تقوم من مقامك؛ قبل أن تنتهي من مجلسك هذا وتقوم من مجلسك سيأتيك العرش أمامك، والمسافة تعرفون طويلة جدًا، حتى قال بعضهم: إنها كانت أربعة أشهر، شهران ذهاب، وشهران

إياب، تقريبًا أربعة أشهر يحتاج إلى وقت طويل، وهو يقول: يأتيك في ساعات، في غضون ساعتين أو ثلاث.

قال: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [النمل: ٤٠]، قيل: هذا رجل صالح من الإنس، من صلحاء سليمان ومن جلساء سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، من الصالحين، وقيل: إنه كان يعرف اسم الله الأعظم الذي إذا دعا الله به استجاب الله دعاءه، إذا دعا الله وسأل الله أعطاه الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]، أنا أدعو الله عَزَّ وَجَلَّ الآن بدعوة فيحضر حالًا، يحضر مباشرة، يعني أدعو الله فيحضر، قبل أن يرتد طرفك ما في أسرع من هذا، يعني قبل أن تغمض عينيك وتفتح عينك إذا هو أمامك، بسرعة عجيبة.

قال: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا﴾ [النمل: ٤٠]، رآه سليمان بهذه السرعة العجيبة، قيل: إن هذا رجل صالح أعطاه الله كرامات، وأعطي هذا الاسم الأعظم الذي يدعو به فيستجيب الله له، وهذه قدرة الله لا يعجزه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، بلحظة يأتي بالعرش وبما هو أعظم من العرش.

قال: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا﴾ [النمل: ٤٠]، فلما رآه سلمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أمامه، مستقرًا عنده، عرش ملكة سبأ يأتي من اليمن من هذه المسافة الطويلة، وبهذه السرعة، رآه مستقرًا عنده.

✍ ماذا كان موقف سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

كان موقفه: أن حمد الله وشكره على قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعلى ما أعطاه الله من الملك، وييسر له هذه الأمور، ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠]، شكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وحمد الله عَزَّ وَجَلَّ، قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ [النمل: ٤٠]، هذا شيء قليل من فضل الله، فضل الله كثير علي، ولكن هذا شيء قليل من فضل ربي علي، وهذا من الابتلاء والامتحان.

قال: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، ونعرف نحن الابتلاء والامتحان قد يكون في الخير، وقد يكون في الشر، ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

فالابتلاء أحيانًا يكون بالخير والشر، ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فالإنسان يبتلى أحيانًا بالخير، فإن شكر كان خيرًا له، وإن كفر نعمة الله كان ذلك أمرًا سيئًا عليه، يبتلى الرجل بالنعمة، هل يشكر أم لا؟ ويبتلى الرجل بالفقر والمصائب هل يصبر أم لا؟ فعندنا من يصبر ويحسب، ويرضى، ويشكر الله، وعندنا من يتسخط هذا موقف المبتلى بالمصائب، إما أن يكون صابرًا، يكون راضيًا، مطمئنًا، أو يصبر ويحتسب، أو يتسخط.

وعندك من ينعم الله عليه قد يكفر نعمة الله، وهذا هو الكثير، كثير يكفرون نعمة الله إذا أنعم الله عليهم، إذا وسع الله عليهم وأعطاهم النعم كفروا، بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

فالذين يشكرون الله ويحمدونه، ويردون هذا المعروف بالعمل الصالح قلة، ولذلك قال: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، نعمة الله وأحمده حتى يزيدني، أو أكفر هذه النعمة ثم يسلبها مني، ولم يغتر سليمان مع أن الله أعطاه هذه الجنود، وأعطاه هذه القوة، وأعطاه هذا الملك والسلطان، لم يغتر بهذا كما يحصل من بعض الجهلة، لم يغتر؛ بل علم أن ذلك امتحان من الله واختبار فخاف ألا يقوم بشكر هذه النعمة.

ثم أوضح سليمان في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠]، من شكر الله ورد هذا المعروف وهذا الخير بشكر الله وحمده؛ فإنما يعود ذلك عليه.

قال: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]، غني عنه، وعن ملكه، وعما أعطاه الله، وكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر، ولذلك تلاحظ من ينعم الله عليه ويعطيه الدنيا ويكفر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يزيده، يزيده من النعم؛ لأن الله كريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، غني كريم، والدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب، والآخرة لا يعطيها إلا من يحب، فهؤلاء يغترون ويظنون أن هذا خير لهم.

ثم قال لمن حوله: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]، أي غيروه، غيروه بزيادة أو نقص ونحو ذلك، ﴿نَنْظُرْ﴾ [النمل: ٤١]، نختبرها، نشوف عقلها ونختبر عقلها، ﴿أَتَهْتَدِي﴾ [النمل: ٤١]، للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة وتعرف أنه هو أم لا؟

قال: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١]، فلا تعرف هذا، ولا يكون عندها ذلك العلم وتلك المعرفة والدراية.

فلما جاءت ووصلت وقدمت عليه إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ عرض عليها عرشها، وكان عهدها به أنها قد خلفته وقد أغلقت عليه الأبواب، وجعلت عليه حراسًا، فكيف يأتي، وتستبعد المسافة، فمن يحمله؟ ومن يأتي به؟

قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢]، ولاحظ السؤال، ما قال: **"هذا عرشك"** وإنما قال: **"أمثل هذا عرشك؟"** قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢].

✍ **سمعنا أن عندك عرش، فهذا هذا مثل عرشك أو ليس مثل عرشك؟**

✍ **ماذا قالت؟**

ما قالت: ليس عرشي، ولم تقل: عرشي هذا، لأنه لو قالت: ليس، فكيف تنظر شيئًا تعرفه؟ وإن قالت: نعم، فكيف تقول نعم وهو ليس عشرها؟ لأنه مستحيل أن يأتي، لذلك أجابت بجواب يحتمل الأمرين؛ فقالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢].

وهذا يدل على ذكائها وفطنتها، ولم تقل: هو، لأنه قد غُير، ونُكر، ولم تقل: ليس هو وهي تعرفه، فجاءت بلفظ يحتمل الأمرين، فتعجب سليمان من عقلها، وكيف أجابت على هذا السؤال.

لذلك قال: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ [النمل: ٤٢]، أي من قبل أن تصل إلينا، ومن قبل أن تهتدي، ومن قبل أن تكون بهذا العقل، وبهذا الحزم، ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ [النمل: ٤٢]، والله عَزَّ وَجَلَّ أنعم علينا بالعلم، والمعرفة والنبوة، والحكم، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]، لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

بعض المفسرين يقول: إن قوله: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]، أن هذا من كلام الملكة، لما قالت: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ [النمل: ٤٢]، أي هذه المرأة تقول: أوتينا العلم عن ملك سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعرفنا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وعندنا علم بقدرته، واستطاعته وجنوده، ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]، أي من قبل هذه الحالة، وهذه الواقعة التي وقعت في العرش، يعني تقول: أنا ما أستنكر مجيء العرش عنده؛ لأني سمعت عنه ما سمعت من سعة ملكه وقدرته وجنوده، فلا أستغرب.

ولذلك قالت: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]، أي خاضعين لحكمه، ولذلك جئنا غليه، لم نواجهه بالحرب، هذا رأي وهذا رأي، الله أعلم بذلك، قد يحتمل الأمرين الله أعلم.

قال: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٣]، أي صدها عن الإسلام هو عبادتها والشرك الذي وجدت عليه آباءها وأهل ملتها، فقد كانوا على الشرك فسارت على طريقتهم، تأثرت، وأحيانًا العقائد الباطلة يعني تذهب ببصيرة العقل؛ مع أن عقلها كبير، وراجحة العقل، وذكية، لكن أحيانًا العقائد الفاسدة تُعمي البصيرة، تسمع الآن أناس على عقول وعلم واسع، وتتعجب كيف يتأثرون بالعقيدة الفاسدة؟!!

فأحيانًا العقائد تذهب البصيرة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣]، إذا جعلها تقع في هذا الأمر أنها كانت من قوم كافرين، فاستمرت على دينهم، وبقيت على دينهم.

فلما وصلت إلى سليمان وحصل ما حصل من قصة العرش قال لها: ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ [النمل: ٤٤]، كان عنده صرحًا واسعًا في قصره؛ فقال: ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ [النمل: ٤٤]، وهو الباحة الواسعة، المكان الواسع، مثل مقدمة القصر، فقال: ﴿ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ [النمل: ٤٤].

قال: ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ [النمل: ٤٤]، أي حسبته ماءً؛ لأنه كان يعني صرحًا ممردًا من قوارير، يعني هذا الصرح تحته الماء، وقد غُطي بزجاج، القوارير هي الزجاج، قوارير شفافة، سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطاه الله الجنود والقدرة، وأعطاه الجن يعملون له، فوضعوا له هذا الزجاج.

فلما رأت الماء يتحرك أمامها فظن أنه ماء حقيقة، فكشفت عن ساقيها، لتخوض في هذا الماء، ومن أدبها وعقلها لم تقل لا وتمنع، إنما استجابت له، فأرادت أن تخوض فرد عليها، قال: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤].

يعني الصرح هذا الباحة هذه الواسعة ممردة يعني فيها قوارير ملساء وزجاجية وشفافة، فلا حاجة إلى أن تكشفي عن ساقك، فدخلت وتعجبت من ملك سليمان، فلما عرفت أن سلمان بهذا الملك العظيم، وبهذا لعقل، وهذا الدين، والمعرفة، والحكم، والنبوة أسلمت؛ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

فاعترفت بأنها قد ظلمت نفسها في عبادتها غير الله، وعبادتها للشمس هي وقومها، وأسلمت وانقادت مع سلمان لله رب العالمين، ولاحظ أنها قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

[النمل: ٤٤]، ولم تقل: **"أسلمت لسليمان"** لأنها أعلنت إسلامها لله وحده لا شريك له، ودخلت في دين الإسلام.

هذه القصة أيها الأخوة قصة عجيبة، فيها دروس وعبر، والحقيقة أيضًا حولها كلام كثير، مما يُنقل عن الروايات الإسرائيلية التي لا حاجة لنا بها، مما يذكره الكثير من المفسرين، ونحن نقتصر على ضوء الآيات القرآنية وما تدل عليه بما فيها من دلالات وفهم لهذه القصة التي ساقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عبرة وعظة، حتى نعرف أن ملك الله يؤتيه الله عَزَّ وَجَلَّ من يشاء، وأن الأنبياء يعطيهم الله ويجعل منهم من يمسك عنهم الدنيا فيجعلهم فقراء، ومنهم من يوسع الله عليه من الدنيا، كداود وسليمان وأيوب وغيرهم، وهذا كله فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفيها من الدروس والعبر الأشياء الكثيرة.

تنتهي هذه القصة، وتنتقل الآيات إلى قصة ثمود، ونبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا نريد الدخول فيها؛ لأنها طويلة تحتاج إلى وقفات، وتحتاج إلى تأملات، والوقت يضيق بنا، لعلنا نقف عند هذا القدر.

إن شاء الله في اللقاء القادم استكمل ما توقفنا عنده.

وَاللهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(النمل ٤٥ - ٥٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى اِلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ؛ أما بعد ...

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو اليوم الثاني والعشرون من شهر شعبان من عام ١٤٤٤ من الهجرة.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يبارك لنا، وأن يبلغنا وإياكم رمضان في صحة وعافية، ويعيننا وإياكم على صيامه وقيامه إيمانًا واحتسابًا.

قبل ما أدخل سبحان الله العظيم أنا كنت أقرأ في هذا الحديث: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا**».

ما معنى إيمانًا واحتسابًا؟

إيمانًا أي تصديقًا بأن الله هو الذي فرضه، وهو الذي أمرك، وهو الذي وعدك بالخير، فتصديقًا لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا أن تصوم هكذا، وإنما تستحضر أن الذي فرض عليك الصيام، وأمرك به هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، واحتسابًا لأجر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تجد الكثير من الناس يفوته مثل هذا الأمر، يصوم لأن الناس يصومون، يصوم لأن البيت يصومون، يصوم لأنه يقول: الله فرض علينا صيام وأوجبه علينا، لكن لماذا ما تحتسب صيامك وأوقاتك وزمن الصيام، وساعات الصيام؟ وكيف تتعامل مع الصيام؟ كيف تتعامل مع الناس وقت الصيام؟ هذه كلها يفقدها الكثير من الناس؛ لأنهم يجهلون هذا المعنى العظيم وهو الصيام إيمانًا واحتسابًا.

ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رتب عليه؛ قال: «**من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه**»، يغني تغفر لك ذنوبك كلها إذا صمته إيمانًا واحتسابًا، فالإنسان يستحضر هذا المعنى العظيم.

ثم في مسألة مهمة قد تفوت على بعض الناس، وهي مسألة: إن قوله: «**غُفر له ما تقدم من ذنبه**»، أن الله يغفر جميع الذنوب، لا، المقصود بالذنوب هنا هي صغائر الذنوب، أما الكبائر فما تذهب إلا بالتوبة، الكبائر ما تروح إلا بالتوبة، إذا أقلع الإنسان وتاب راحت المعصية، أما الصغائر؛ فإن الأعمال الصالحة

مكفرات، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينها إذا اجتنبت الكبائر**».

أما كبائر الذنوب التي فيها وعيد شديد، وفيها وعيد بالنار، ووعيد بالعقوبة، وبالحد ونحو ذلك مثلما عرف أهل العلم، هذه لابد للإنسان أن يقلع وأن يتوب.

نعود إلى الآيات القرآنية، وقفنا عند الآية الخامسة والأربعين وهي قصة ثمود مع نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنت لما تقرأ هذه السورة العظيمة **"سورة النمل"** التي سميت بقصة نملة صغيرة، عُظم أمر هذه النملة، وسجل القرآن قصتها، وسمى السورة باسم هذه النملة.

هذه السورة ذكر الله فيها مثلما قدم أربع قصص قرآنية للأمم الماضية:

١. قصة موسى مع فرعون.

٢. وقصة داود وسليمان، والحديث قد يكون مع سلمان أكثر.

٣. وقصة صالح نبي الله مع قومه ثمود.

٤. وقصة لوط مع قومه.

أربع قصص، وتلاحظ القصة التي فاقت هذه القصص، والتي ركزت عليها السورة كثيرًا وهي قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما يتعلق بذلك ببناء الدولة الإسلامية، وأنا قامت على التوحيد، وعلى الطاعة، وعلى نشر الخير، ونشر الفضيلة، والقضاء على كلّ شرك وكفر، فكيف نظم سليمان مملكته؛ حتى في جنوده من الجن والإنس، والطير، حتى في عالم الطيور، والهدهد؟!

ترتيبات عظيمة، وتفقد للجنود، وأيضًا تجد أن سليمان كثيرًا ما تجد معه في بعض المواقف الدعاء والتضرع إلى الله، فهو يبني مملكة يبنيها على التوحيد، وعلى الطاعة، وعلى الاستقامة، وكيف فتح الله عليه واستطاع أن يقيم صرح حضاري على الطاعة والاستقامة؟!!

يقابل هذا فرعون، موسى مع فرعون، وصالح مع قوم ثمود، فرعون أعطاه الله القوة الحضارية والبناء، كما في الأهرام وغيرها، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠].

ولكنه لما كانت مبنية على الفساد، والكفر، والطغيان، والتكبر، لم يبق لها أثر، وأزال الله مملكته وأغرقه.

وكذلك في الجانب الآخر صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثمود أعطاهم الله القوة، والتفنن في العمارة، والحضارة المعمارية؛ حيث أقاموا هذه البنايات العظيمة، حتى الآن قائمة في الجبال، ينحتون من الجبال بيوتًا.

لكنهم لما عصوا الله، وأفسدوا في الأرض زال ملكهم، وزالت حضارتهم، ولم يبق لهم أي أثر، وكذلك لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لما لم يعرفوا الحضارة، ولم يعرفوا الاستقامة، ولم يعرفوا الطاعة، ولا يعرفوا الصلاح في الأرض، وإنما عاثوا في الأرض مفسدين، وأفسدوا في الأرض، وقلبوا فطرة الله التي فطر الله الخلق كلهم عليها، فطرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحيوان والإنسان، لما قلبوها وانتكسوا الفطرة الله عَزَّ وَجَلَّ لم يبق لهم أي أثر، فأزالهم جميعًا وأهلكهم.

فنعلم جميعًا أن إقامة هذه الدنيا، والحضارة المعمارية وغيرها، وإقامة الدول تقوم على التوحيد والطاعة، وأن مهما قامت على الفساد، والطغيان، والتكبر، لا يبقى لها أثر، وستزول كما زال غيرها.

ندخل في القصة قصة صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ذكر قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ وإقامة دولته على التوحيد.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [النمل: ٤٥]، أي أرسلنا إلى ثمود صالحًا بأي شيء؟ قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا﴾ [النمل: ٤٥]، أي وحدوه، ولا تعبدوا معه غيره، ولا تشركوا بالله شيئًا، يعني أقيموا التوحيد لله، فلا يُعبد إلا الله، ولا يُدعى إلا الله، ولا يُشرك معه غيره، فأمرهم بالتوحيد.

لما جاءهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم يعرفونه معرفة تامة، فقد عاش بينهم، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَخَاهُمْ﴾ [النمل: ٤٥]، فهو أخوهم، أخوهم في النسب لا في الدين، ويعرفونه معرفة تامة بخلقة، ولذلك قالوا: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢]، كنا نرجو فيك أن تكون كذا وكذا، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وترك عبادة الأصنام والشرك من دون الله.

قال: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]، أي أنه انقسم القوم قسمين، قسمٌ أطاعوا صالح، وآمنوا به، وصدقوه، وهم قلة جدًا، وهم المؤمنون، وقسم وهم الأكثر بقوا على شركهم، وكفرهم، وعنادهم، وأصبحوا يتخاصمون فيما بينهم، وإن كان هؤلاء قلة، وهؤلاء كثرة.

قال: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]، بعدما جاءهم بالتوحيد، والدعوة إلى الله، أصبحوا على فريقين، فريق مطيع، وفريق عاصٍ كافر.

قال لهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو يدعوهم إلى التوحيد: ﴿يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [النمل: ٤٦]، يخاطب قومه الكافرين يقول لهم: لماذا انتم تبادرون تستعجلون وتسارعون إلى السيئات وعمل المعاصي، وطلب العقوبات، ولا تخافون الله؟!

تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة، ولا تريدون الخير، ولا تريدون الطاعة، ولا تريدون أن أثر هذه الطاعة يكون سببًا في حصول الخير لكم، والسعة في الرزق؛ لأن السيئة ضيق في الرزق، والحسنة سعة في الرزق، فقال: لماذا أنتم تفعلون هذا الشيء؟ لم تستعجلون؟ لماذا تبادرون بالكفر على الطاعة؟!!

قال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦]، لو أنكم رجعتم إلى الله، واستغفرتم الله، وتبتم إلى الله، رحمكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكان استغفاركم سبب لتوبة الله عَزَّ وَجَلَّ عليكم ورحمته لكم، فاستغفروه وتوبوا إليه حتى يرحمكم، وحتى يغفر لكم ذنبوكم.

✍ فماذا كان جواب قومه؟

قالوا: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، سبب السيئة، والضيق، والفقر، وضيق العيش عندنا هو بأسبابك أنك، وانقطاع الخير، وانقطاع الأمطار، هو بأسبابك يا صالح أنت ومن معك، أنتم جئتم ونحن تطرنا بكم، أي تشاءمنا بكم.

والتطير ممنوع ومحرم؛ لأنه اعتقاد فاسد، كيف تعتقد في إنسان مخلوق أنه هو الذي يكون سببًا في الخير أو جلب الشر هذا كله من معتقدات أهل الجاهلية.

أهل الجاهلية كانوا إذا أراد الواحد منهم أن يسافر أو يفعل أمر من الأمور، أو يشتغل في شيء من الأمور، قبل أن يفعل ذلك يذهب إلى أحد الأوقار أوقار ا الطيور فيطلق هذا الطير، يخرجه من وكره، فإن راح يمينًا مضى هذا الرجل، قال: خير، وإن راح شمالًا امتنع وقال: هذا شر.

كانوا يعتقدون في البومة، ويعتقدون في الغراب أنه إذا وقع على بيت قالوا: خلاص، أصبح هذا البيت أهله في مصيبة، وهكذا يعتقدن في بعض الحيوانات أن الطيور أو البوم لا تقع إلا على البيوت الخربة، وأنها لا تأتي إلا بالشر، وكذلك الغراب، وأنهم يتطيرون بهذا المعتقد الفاسد.

وهذا كان أيضًا في الأمم الماضية، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف:١٣٠- ١٣١].

وهنا يقول: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، وغيرها من القصص القرآنية يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ أنهم يتطيرون، حتى قريش كانوا يتطيرون بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومرة كان ابن عباس ومع رجل فجاء طائر ووقع على الجدار، فقال هذا الرجل: **"خير يا طير"** قال ابن عباس: **"لا خير ولا شر، الطير لا خير ولا شر"** ما عنده لا خير ولا شر، كيف تقول خير؟!!

قال: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، تشاءمنا بك لما جئتنا، فأصابنا الشر، وذهب عنا الخير بسببك، فرد عليهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧]، أي ما تقولونه من الشر والخير هو من عند الله الذي قدره هو الله، فإن قدر عليكم الشر بسبب ذنوبكم، وإن قدر عليكم الخير فهو فضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم أعرض عنهم قال: ﴿بَلْ﴾ [النمل: ٤٧]، التي تفيد الإضراب للانتقال عن كلامهم هذا؛ قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]، أي هذا الخير والشر فتنة لكم، تختبرون وتمتحنون بالسراء والضراء، والخير والشر، ليس لكم إرادة في ذلك، وإنما هذا امتحان لكم، من يصبر في الضراء، ومن يشكر في السراء.

ثم ذكر لنا قصة وقعت في زمن صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم عدد من قوم صالح أرادوا القضاء على صالح، كما فعلت قريش مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما أرسلوا فتيان ووقفوا عند باب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقتلوه قتلة واحدة، ويضيع دمه بين القبائل، فهؤلاء فعلوا ذلك.

قال: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]، لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]، أي أنهم يريدون الفساد وليس معه أي صلاح، قد يكون الإنسان يفسد معه صلاح ولكن هذا ما عنده صلاح أبدًا، ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

ما في صلاح عندهم أبدًا، مدينة صالح هي التي تسمى بالحجر، وهي مدائن صالح المعروفة في الشمال الغربي من الجزيرة، وما ما تسمى ببلاد العلا، كان فيهم مجموعة من القوم يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

قال: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا﴾ [النمل: ٤٩]، يعني يقسم كلٌّ منا، ويحلف كلٌّ منا على أن يتمم هذا الأمر الذي اعتقدوه.

✍ ما معنى تسعة رهط؟

نقول: تسعة رجال، طيب الرهط رجل واحد ولا مجموعة؟ نقول: الرهط مجموعة، الرهط عدد من الناس، قال بعض أهل العلم: الرهط من الثلاثة إلى العشرة يسمون رهط، ولذلك شعيب قالوا له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩١، ٩٢]، فالرهط جماعة.

✍ طيب هنا لماذا قال: سعة رهط؟

نقول: لما كان كلّ واحد منهم تحته عدد، كأنه رئيس هو وتحته أناس بعده فسمي رهطًا.

قال: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ [النمل: ٤٩]، أي تقاسموا عندما اجتمعوا تحالفوا بالله، أو حلفوا بالله، كلّ واحد منهم حلف أن يتمم هذه الخطة، وأن يقوم بهذا العمل، ما هو هذا العمل؟ هو القضاء على صالح.

قال: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]، أي لنأتينه مبيتًا ليلاً ونقضي عليه بغتة فنقتله ونقتل من معه، ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ [النمل: ٤٩]، لما يأتون يطالبون بالدم من قرابته، ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]، أي أننا لم نحضر، ولم نشهد من قام بهذا العمل، وإننا لصادقون فيما نقول، ما شهدنا مهلك أهله الذي أهلكهم، ودبوا هذا الأمر، واجتمعوا، وجاء في بعض التفاسير أنهم ذهبوا إلى بيته وسلوا السيوف، وفي رواية أنهم دخلوا في غار، واختفوا فيه حتى إذا مر صالح قتلوه، وقيل: إنهم جلسوا في مرتفع من الجبل في طريق صالح، فإذا جاء صالح ومن معه قتلوه هو ومن معه، هذه روايات الله أعلم بصحتها، المهم أنهم أرادوا تنفيذ هذا الأمر.

فقيل: لما اجتمعوا بسيوفهم دمرهم الله وعاقبهم نزلت عليهم عقوبة من السماء، وقيل: الذين كانوا في الغار أطبق عليهم الغار، وقيل: الذين في الجبل انهد عليهم الجبل فأهلكهم جميعًا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠]، أي مكرًا عظيمًا هم الذين دبروه ومكروه، ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠]، لا يدرون أن الله يمكر؛ لأن الله انتقم وأخذهم بالعقوبة على غرة وهم لا يدرون، هذا معنى المكر، الحيلة والخداع، أن الله خدعهم واحتال عليهم دون أن يشعروا إلا وقد نزلت بهم العقوبة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل: ٥١]، انظر نظر تأمل وتدبر كيف أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عاقبهم بهذه العقوبة التي لا يشعرون بها لما أرادوا قتل صالح؟!

فدمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١]، ودمر قومهم معهم أجمعين؛ لأن قومهم أخذوا بالصيحة والرجفة فماتوا أجمعين.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ﴾ [النمل: ٥٢]، **"تلك"** إشارة، هذه بيوتهم أمامكم، هذه بيوتهم قائمة أمامكم، خاوية ما فيها أحد، قد خلت من الإنس، ما فيها أنيس، ﴿خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]، بسبب ظلمهم، وكفرهم، وشركهم، وتكذيبهم نبيهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ [النمل: ٥٢]، وعبرة واعتبار في ذلك، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢]، لمن يعلم ويتعلم ويفهم ويتدبر ويقف على مثل هذه القصص التي فيها العبرة والعظة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]، أي صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه من المؤمنين أنجاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنهم كانوا مؤمنين، وكانوا يتقون الله عَزَّ وَجَلَّ، ويخافون عذابه.

نختم المجلس بقصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي القصة الرابعة في السورة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [النمل: ٥٤]، وهذه القصة تكررت معنا، ولذلك نمر عليها مرورًا سريعًا؛ بل هي جاءت في السورة التي قبلها وهي سورة الشعراء.

قال: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ [النمل: ٥٤]، أي واذكر لوطًا النبي الذي أرسله الله إلى قرية سدوم ومن حولها سبعة قرى، وكانوا يفعلون الفاحشة، أتوا بأمر لم يسبقهم أحد إليه، وهو انتكاس الفطرة، وقلب

الفطرة، وهو أنهم يأتون الرجال شهوة من دون النساء، تركوا ما أباح الله لهم من النساء، وأقدموا على ما حرم الله عليهم من إتيان الرجال.

قال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]، يعني هذا أمر فاحش منكر عظيم، كيف تأتونه وأنتم تبصرون؟!! فهذا أمر لا يجوز، وأمر عظيم، ومُحرم، ثم أكد عليهم مرة أخرى وبيّن قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [النمل: ٥٥]، تأتون هذا المنكر العظيم، وهذا الأمر الذي لم يخطر ببال عاقل، ولم يفعله حيوان من الحيوانات.

قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ [النمل: ٥٥]، يعني لمجرد الشهوة فقط، ليس رغبة في أمر آخر، والله عَزَّ وَجَلَّ أعطاكم نساء تأتونهن ليكثر نسلكم، وتتكاثر الناس، وتقطعون هذا الأمر وتذهبون إلى هذا؟!!

قال: ﴿شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، وفي سورة أخرى؛ قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، وفي سورة ثالثة قال: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦].

فهم عندهم جهل وتعدي، وإسراف في هذا العمل، جمعوا بين هذه الأمور الثلاثة.

فلما ألح عليهم ودعاهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وأراد منهم أن يبتعدوا عن هذه الفاحشة وأن يتركوها، فماذا كان جواب قومه؟

قال: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦]، يعني على وجه الاستهزاء والسخرية، يقول: أخرجوهم، واطردوهم من قريتكم، ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، قوم يحبون التطهر، يستهترون بهم، ويسخرون منهم، يقولون: يتنزهون عن إتيان الرجال والذكران، فيستهزئون بهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ لما دعاهم وقال: ربي انصرني على القوم المفسدين، ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ [النمل: ٥٧]، فأنجاه الله من العذاب الذي وقع فيهم، وهو أن الله قلب ديارهم، وأتبعهم بالحجارة حتى ماتوا عن آخرهم، إلا امرأته الكافرة قدر الله أن تكون من الغابرين، ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]، أي الباقين في العذاب الذي حل بهم.

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ [النمل: ٥٨]، أي أنزل عليهم حجارة من طين، لما قلب ديارهم جعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨].

الحقيقة هذه القصة فيها عبرة عظيمة، كيف لما قلبوا فطرة الله، وقلبوا ما فطرهم الله عليهم ماذا كانت النتيجة؟ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قلب عليهم ديارهم وأتبعهم بالحجارة.

ولذلك بعض الفقهاء يقول: من فعل فِعل قوم لوط؛ فإنه يُلقى من أعظم شاهق في الجبل، كأعظم جبل أو دار، ثم يُتبع بالحجارة حتى يموت؛ لأن الله فعل بهم هذا الفعل، فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحفظ لنا فطرتنا، وأن يحفظ لنا ذرياتنا، وأن يسلمنا من هذا المرض العظيم، وهذا الخطر الشديد في قلب الفطرة، وفعل هذه الفاحشة العظيمة، وأن يسلمنا وإياكم، ويسلم ديار المسلمين من هذه الفتنة العظيمة ومن هذا البلاء العظيم.

نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاَللهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(النمل ٥٩ - ٧٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للتاسع والعشرين من شهر شعبان من عام ١٤٤٤ من الهجرة.

السورة التي نتناولها وتناولها في لقاءات ماضية هي **"سورة النمل"**، ووقفنا عند الآية التاسعة والخمسين، وقبلها كانت قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، وقبل لوط صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، وقبل لوط وصالح داود وسليمان وموسى، فذكر الله فيها خمسة من الأنبياء.

أولًا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم داود وسليمان، ثم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولوط، خمسة من الأنبياء، في هذه السورة العظيمة الكريمة، وبيان موقف هؤلاء الأنبياء في دعوتهم، وموقف أقوامهم من هذه الدعوة، وأن الله شرف هؤلاء بالرسالة والاصطفاء والاختيار، وأنهم رسل الله، وأيدهم بالمعجزات، والآيات البينات والحجج الواضحة، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنجاهم مما أراد به قومهم أو ما أراد به قومهم من الانتقام والمكر، فانتقم الله منهم وأهلك الظالمين.

ولذلك لما تقرأ أنت بعد هذه القصص الخمس؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلِ﴾ [النمل: ٥٩]، الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولغيره، ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]، أي أيها النبي قل الحمد لله، يعني احمد الله واشكره وأثني عليه بما يستحق من الثناء والشكر والحمد؛ لأنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فحمده أولًا وآخرًا، وظاهرًا، وباطنًا، وفي الأولى وفي الآخرة.

✍ **نحمده على أي شيء؟**

أحيانًا الآيات تعطيك تحديد لهذا الحمل، فنحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ماذا؟ على أن أهلك الظالمين، وأنجى عباده المتقين، فكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى؛ قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فيحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العبد على هلاك الظالمين، وإنجاء المتقين، فهذا معنى، ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٥٩].

قال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]، أي السلام والأمن على عباده الذين اختارهم الله واصطفاهم لرسالته وهم الأنبياء والأصفياء الذين اختارهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك هذه العبارة يستعملها العلماء في الخطبة يوم الجمعة وفي الرسائل وفي الكتب، ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر هذه الأقوام وانتهى الحديث عن الأمم الماضية بدأت الخطابات تتوجه لمشركي مكة، ومشركي قريش يناقشهم الله ويجادلهم ويحاجهم بالأدلة الدالة على أن الوحدانية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الإله المعبود هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا غير، وأن هذا الشرك، والإشراك معه وعبادة الأصنام والكفر بالله واتخاذ الآلهة كلّ ذلك لا يجوز، كلّ ذلك شرك وعاقبته وخيمة، وأن الله حرم الشرك وتوعد أهله بالنار، وحذرهم، وليس هناك مقارنة بين الله وهذه المعبودات هذه الآلهة الباطلة.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، **"آلله"** همزة استفهام يعني أخبروني أيها المشركون، الله خير أم الذين يشركون معه الذي جعلوه شركاء وهي الآلهة؟ يعني موازنة، الله خير أم هذه الأصنام والمعبودات، وهذا الشجر والحجر الذي يُعبد من دون الله لا ينفع ولا يضر؟ أو يعبدون الذي ينفع يضر، من الذي يستحق العبادة؟

ولذلك يقول بعض أهل التفسير: ما في مقارنة أصلاً، هذا من باب التنزل لهم، وإلا ما في مقارنة، لو قلت لك مثلاً: الجنة خير أم النار؟ ما في خير أصلاً في النار، أقول: السعادة أم الشقاوة خير؟ الشقاوة ما فيها خير، الشقاوة معدومة الخير.

لذلك ما يمكن أن يقال: الله خير أم الشرك والآلهة والأصنام؟ ما في مقارنة حتى يُقال، لكن هذا من باب التنزل مع الخصم حتى يقتنع أن هذا خير من هذا.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو النافع هو الضار، هو الذي يجلب الخير، هو الذي خلق السماوات، هو الذي رحم عباده، وهو الذي ساق لهم الأرزاق، هو المدبر للأمر، هو المتصرف في الكون، هو المالك، هذه الآلهة مملوكة لا تتصرف، لا تدبر شيئًا، لا ترزق، لا تنفع نفسها، لا تدفع عن نفسها الضر، فكيف يكون هذا مثل هذا؟ لا يمكن.

ثم لما أبطل هذا الأمر وعُرف بالعقل أن هذا لا يتساوى مع هذا، وليس هناك أي مقارنة بين هذا وهذا، بدأت الآيات خمس آيات متتالية تناقشهم بالأدلة العقلية على بطلان ما هم عليه، وأنه يجب أن يتوجهوا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فقال: ﴿أَمَّنْ﴾ [النمل: ٦٠]، وهذا استفهام، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

يقول: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ﴾ [النمل: ٦٠]، أخبروني، يسألهم من خلق السماوات، **"أم"** أصلها **"أمن"** و**"أم"** استفهامية، يعني **"أمن"** يعني من خلق السماوات والأرض، من الذي خلق السماوات وخلق الأرض على عظم جرمها وكبرها ومساحتها الواسعة من خلق السماوات السبع والأراضين السبع من هو؟

ومن الذي أنزل لكم من السماء السحاب ماءً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]..؟ فأنبت الله بهذا الماء الأشجار والثمار والحدائق ذات البهجة، وذات المنظر الحسن، والحدائق جمع حديقة، والحديقة هي التي أحيطت بالحيطان، تسمى حديقة، لإحاطتها لكون الحيطان قد أحدقت بها، وهي ﴿حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]، ذات منظر حسن.

قال: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]، يمكن أن تنبتوا شجرة واحدة من أشجارها، لولا أن الله هو الذي أنزل من السماء ماءً وأنبتها، أما أنتم فليس لكم قدرة على إنباتها، ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠].

قال: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٠]، أخبروني هل هناك إله غير الله تعبدونه من دون الله ومن هذه الآلهة وهذا الشرك الذي تشركون به معه غيره، وتعبدون الأصنام؟ هل مع الله إله آخر خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماءً وأنبت الأشجار، هل هناك إله آخر معه؟

هم سيقرون والمشركون يقرون بذلك، وهم يقولون: نعم ليس مع الله إلهًا آخر، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]، ولئن سألتهم أيضًا، من أنزل من السماء ماءً فأنبت به الحدائق ليقولون الله، فالذي خلق ورزق هو الله، والذي خلق ورزق هو القادر هو الرب، فمن كان على ذلك قديرًا كان على المخلوق الإنسان أن يتوجه إلى ربه، وأن يعبده حق العبادة، لا أن يعبد من لا يخلق ولا يرزق.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، ترك هذا الدليل العقلي الواضح، وبدأ يخبر عن حالهم أنهم قومٌ يعدلون، أي يساوون مع الله آلهة أخرى، ويعدلون بمعنى ينحرفون عن عبادته، وينحرفون عن طاعته إلى طاعة الشيطان، وإلى طاعة الأصنام.

ثم ينتقل إلى الدليل الآخر العقلي؛ فيقول: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل: ٦١]، بعد خلق السماوات والأرض، وإنبات الأرض، ينتقل إلى بيان ما في الأرض، فالله جعل الأرض قرارًا أي ثابتة مستقرة، لا تتحرك، ولا تتزعزع، ثبت بها الجبال الرواسي.

قال: ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ [النمل: ٦١]، وجعل فيها الأنهار، يعني في أوساطها الأنهار التي تجري، ينتفع الناس بهذه الأنهار من شربها، وشرب بهائمها، وزروعها، من الذي أوجد هذه الأشياء؟ من جعل الأرض قرارًا جعلها مستقرة، يستقرون الناس عليها، ويبنون عليها مساكنهم، وينامون عليها، من الذي جعل الأرض قرارًا؟ ومن الذي جعل خلالها أنهارًا؟ جعل الأنهار في أوساطها.

قال: ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ﴾ [النمل: ٦١]، الرواسي هي الجبال التي ترسيها وتثبتها حتى لا تتزعزع وحتى لا تميد.

قال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١]، بين الماء العذب وبين الماء الملح، تجد الماء العذب يدخل في الماء الملح ولا يختلط، أو العكس، جعل بينهما حاجزًا حتى لا يُفسد أحدهما الآخرة، من الذي قدر على أن يجعل بينهما برزخًا وحجرًا محجورًا؟

هل هناك إله آخر؟ أخبروني في إله جعل الأرض قرارًا؟ في إله جعل الأنهار خلقها وأوجدها؟ ما في، النتيجة ما في إلا الله.

ولذلك قال: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦١]، ما في إله مع الله، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١]، أكثرهم لا يعلمون حقيقة هذه الأمور؛ ولذلك لا يعلمون عظمة الله، وقدرة الله فيشركون به، تقليدًا لآبائهم وظلمًا؛ ظلمًا لأنهم وضعوا عبادة الله في غير مكانها.

ثم يناقشهم بالدليل الثالث: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، تنتقل الآيات إلى حال الإنسان.

✍ **من الذي يجيب المضطر إلى دعاه؟**

✍ **من هو المضطر؟**

هو: المكروه الذي أصابه الضر والمرض، والشدة، والفقر، والحال، وضاقت به الأرض، فأصبح مضطرًا إلى أن يتوجه إلى ربه، ويلح بالدعاء، ويشتد دعاءه مع ربه، فمن الذي يجيبه؟

قال: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، من الذي يكشف السوء عنه؟ ومن الذي يُفرج عنه الكرب، هذا المكروب من الذي يفرج عنه؟ ومن الذي يجيب دعوته يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويزيل البأس، ويرفع الأمراض والأسقام والوباء من هو؟ من الذي يجيب ويكشف السوء؟

قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢]، يخلف بعضكم بعضًا، يأتي قوم ويذهب قوم، والآباء يذهبون، والأجداد يذهبون، ويأتي أبناءهم والأبناء يكبرون ويأتي أبناءهم، هؤلاء خلفاء، يذهب هؤلاء ويأتي هؤلاء، من الذي جعلنا خلفاء الأرض يخلف بعضنا بعضًا؟ ومن الذي يفعل هذه الأشياء؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]، هل هناك معبود وإله يُعبد فعل هذه الأشياء، أو يفعل هذه الأشياء؟

قال: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]، قليلاً ما تقفون وتتأملون وتتذكرون، أنتم تتذكرون ولكن تذكركم قليل جدًا؛ لأنه عند الشدة والكرب يتذكرون الله، ولكن القليل منهم، أو يتذكرون وقتًا قليلاً ثم يعودون إلى كفرهم وإلى شركهم، ولذلك قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، لا يدعون إلا الله، ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فتذكرهم تذكرًا قليلاً، وزمنًا قليلاً ثم يعودون إلى شركهم، كيف تفعلون مثل هذه الأشياء وأنتم تعلمون أن الذي يُجيب المضطر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتدعونه مخلصين له الدين؟!!

قد يأتيك سائل ويسألك ويقول:

في أناس مضطرين دعوا ربهم فلم يجيبهم، أناس كانوا يُلحون بالدعاء ولم يكشف الله عنهم؟

نقول: نعم في من دعا ربه فلم يستجيب له الدعاء، لكن الأصل أن الله يجيب المضطر كما أخبر، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

لكن هناك أسباب وموانع تمنع إجابة الداء، فالمضطر أحيانًا عنده أسباب أخرى تمنعه من إجابة الدعاء، مثل قطيعة الرحم، وإيذاء الوالدين، يعني هناك أسباب موانع تمنع، مثل أكل الحرام، يأكل الحرام، مطعمه من حرام، ومشربه من حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب له؟!

فإذا وجدت من يقول:

أنا أدعو ولم ستجب لي؟

أقول: راجع نفسك، وتأمل في نفسك، فقد يكون البلاء بك أنت، وليس هناك مانع من أن يجيب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله يجيب المضطر.

الرابع: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣]، يقول: أخبروني هذه الآلهة وما تشركون هل هي تدلكم في ظلمات البحر؟ من الذي يهديكم ويرشدكم إذا كنتم في ظلمات البحر وأظلم عليكم البحر ولا تدرون أين جهة النجاة والسلامة؟

من الذي ينقذكم في البراري والفيافي الواسعة؟ تنطلقون في ظلمات البر والبحر من الذي يهديكم ويدلكم ويجعل لكم علامات؟

قال: ﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [النمل: ٦٣]، ومن الذي يرسل الرياح مبشرات؟ والرحمة هو المطر والغيث الذي يرحم الله به عباده، فيحيي به الأرض الميتة، وينتب به الزرع، من الذي يرسل الرياح تبشر بقدوم المطر، وتلقح المطر، وتلقح السحاب؟ هل هناك من يفعل ذلك من الآلهة؟

قال: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]، تعالى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتنزه وتقدس عن الشرك وما يشركون به.

الخامسة: ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [النمل: ٦٤]، أخبروني من الذي ينشأ الخلق الأول؟ من الذي خلق الخلق الأول؟ خلق آدم، وخلق ذريتهم وأوجدهم، وبثهم في الأرض، ثم يعيدهم مرة أخرى، وفي هذا دليل على قدرة الله على البعث.

قال: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٤]، من الذي يرزقكم ويسوق لكم الأرزاق في السماء والأرض من الأمطار، والنبات، والزروع وكنوز الأرض؟

قال: ﴿أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٤]، هل هناك إله يفعل هذا الشيء؟ أخبروني، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [النمل: ٦٤]، أعطوني حجتكم على أن هناك من يقوم بهذا الشيء ويستطيع أن يقوم بشيء من هذا؟ ما في، كلّ هذه أدلة عقلية، أدلة مشاهدة تدل على أن الله هو الواحد، وأن ما سواه من المعبودات والأصنام لا تصنع شيئًا، ولا تنفع نفسها ولا تضر ولا تنفع غيرها.

ولذلك أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن علم السماوات والأرض وعلم الغيب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده.

قال: ﴿قُلْ﴾ [النمل: ٦٥]، أي قل يا محمد لهم: ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، ما في أحد يعلم الغيب إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، علم الغيب مما استأثر الله به، فالمغيبات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يدرون هؤلاء عن شيء، لا هم ولا آلهتهم.

ولكن هؤلاء مساكين، ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، ما يدرون متى يبعثون إذا ماتوا؟ ومتى يخرجون من قبورهم لقيام الساعة والبعث والجزاء، والجنة والنار، لماذا لا يدرون؟ لأن علمهم تدارك.

قال: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ﴾ [النمل: ٦٦]، أي خفي عليهم علمهم، وضاع علمهم، ولم يعرفوا، لم يعرفوا علمًا بالآخرة، تدارك أي تلاحق وذهب واضمحل، ولم يكن هناك علم في الآخرة.

ولذلك أصبحوا في شك؛ قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا﴾ [النمل: ٦٦]، أصبحوا في شك، علمهم ذهب واضمحل وأصبحوا يشكون في الآخرة، ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]، أي عُميت أبصارهم وبصائرهم، فأصبحوا في حيرة ما يعرفون متى هذا اليوم؟ ولم يستعدوا له.

وبعض المفسرين يرى أن معنى ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]، أي تيقنوا علمهم في الآخرة، يعني إذا جاء يوم الآخرة رأوا علم اليقين وعين اليقين بهذا اليوم، وعاينوه مشاهدة، فلا يستطيعوا أن

ينكروه، في الآخرة متى؟ في اليوم الآخر، لكنهم في الدنيا يشكون، وهم قد عميت بصائرهم عنهم في الدنيا، وكلا المعنيين صحيح.

ولذلك المشركون يكفرون باليوم الآخر ولا يؤمنون، قال الله تعالى: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧].

يقول هؤلاء الكفار: إذا كنا في الأرض ترابًا وتمزقت أجسادنا وأصبحنا كالتراب والعظام النخرة هل سيخرجنا الله؟ يستبعدون هذا، يقولون: مستحيل، ولذلك قالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾ [النمل: ٦٨]، أي هذا البعث، ﴿نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨]، قد وعدنا بهذا البعث ولم نر حقيقته، ولكن هذه كلها أساطير وأكاذيب الأولين، أساطير وأخبار الأولين، ينقلونها لنا ويظنون أنها صحيحة؛ بل هي أكاذيب مفتريات.

قال الله ردًا عليهم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، سيروا وامشوا في الأرض، وانظروا عاقبة المجرمين المكذبين من الأمم السابقة، كقوم لوط، وقوم أهل مدين وغيرهم، سيروا في الأرض وانظروا عاقبة الذين كذبوا، أهلكهم الله وسيبعثهم ويجازيهم على أعمالهم.

قال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٧٠]، لا تحزن عليهم يا محمد على اعتراضاتهم، وكفرهم، وشركهم، وتكذيبهم لك، وإنكارهم لليوم الآخر، لا تحزن ولا تكن في ضيق مما يمكرون؛ بل ليكن صدرك واسعًا، ولتحلم عليهم، وتتحمل الذي يقولونه، وتتصبر عليهم وتصبر كما صبر أولي العزم من الرسل؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ناصرك مما يمكرون بك ويريدون الكيد لك؛ فإن الله معك وناصرك.

طيب أيها الأخوة لعل نقف عند الآية السبعين، وإن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله بعد رمضان إن شاء الله نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(النمل ٧١ - ٨٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثاني عشر من شهر شوال من عام ١٤٤٤ من الهجرة.

مجلسنا المعتاد ودرسنا الأسبوعي في مغرب يوم الثلاثاء مع القرآن الكريم، وتفسير القرآن العظيم، والسورة التي تناولناها في لقاءات الماضية هي **"سورة النمل"**، ولا زلنا في هذه السورة في أواخرها، وبيان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن لنا مواقف هؤلاء المجرمين، المعاندين الكفار، الذين لا يعترفون باليوم الآخر وينكرونه، والآيات في سياق إنكار هؤلاء المشركين لليوم الآخر.

يقول هؤلاء الكفار: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]، أي مخرجون من قبورنا وسنعود إلى حياة أخرى، هذا بعيد جدًا.

يقولون: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾ [النمل: ٦٨]، أي البعث والجزاء والجنة والنار، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [النمل: ٦٨]، نحن قد وعدنا هذا من نبينا وآباؤنا قد وعدوا بهذا وأسلافنا السابقين، ثم حكموا وانظروا كيف الجراءة قالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨]، يعني هذا كلام أكاذيب ووعود باطلة ليس لها حقائق.

رد الله عليهم: ﴿قُلْ﴾ [النمل: ٦٩]، قل لهم، ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، يقول: أنتم الآن تنكرون وتكذبون وتتهمون الرسول بأنه كذاب، وأن أقواله أساطير الأولين، هي الأساطير والأكاذيب والقصص وأخبار الأولين الكاذبة، انظروا في أسلافكم الأولين ماذا جرى لهم؟

سيروا في الأرض وامشوا في مناكبها وانظروا ماذا جرى لهؤلاء لم كذبوا؟

قال: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، الذين كذبوا الرسل، وكذبوا بوعود الله، وكذبوا باليوم الآخر، ماذا جرى لهم؟ قال: ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، أن الله دمرهم وأهلكهم، وكانت العاقبة عاقبة سيئة.

ثم بدأت الآيات تسلي الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]، لا تحزن على إعراضهم وكفرهم، واستهزائهم، وسخريتهم بك، لا تحزن على ذلك، ولا يضيق صدرك بمكرهم، كلما حانت لهم الفرصة مكروا بك؛ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، ويمكرون ويمكر الله، والله ناصرك عليهم، فمهما فعلوا، ومهما حاولوا أن يمكروا بك وأن يصدوك عن الدعوة، ويمنعوك، أو يريدون قتلك أو حبسك أو نحو ذلك؛ فإن الله ناصرك، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨].

فإن الله قادر على أن ينصرك عليهم، وقادر على أن يخذلهم، وأن يجعل مكرهم كيدًا عليهم، وهذا فيه تسلية للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضًا تطمين للنفس؛ بحيث لا يتضايق ولا يحزن ولا تذهب نفسه عليهم حسرات، كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، فلا تهلك نفسك.

وأيضًا من أقوالهم؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٧١]، كذبوا بالرسل، كذبوا باليوم الآخر، كذبوا بالجنة، وبالبعث والجزاء، فالنتيجة لا يزالون يكذبون بوعد الله، يقولون: متى هذا الوعد؟ وهذا الوعيد إما بنزول العذاب بهم، يحصدهم حصدًا، أو وعد الله بيوم الساعة أن تأتيهم الساعة بغتة.

فهم يقولون: أين الساعة التي تهددنا بها يا محمد؟ وأين أيضًا وعدك الذي قلته: إن لم تؤمنوا سينزل بكم العذاب كما نزل بالأمم الماضية؟ أين وعدك؟

فيستبعدون هذا الأمر، فيقولون: متى يأتينا هذا الوعد الذي أنت تعدنا به يا محمد وتقول: سينصرنا الله عليكم، وسيخذلنا؟ أين هذا الوعد، فيستعبدون هذا الأمر، ويستهزئون.

فرد الله عليهم قال: ﴿قُلْ﴾ [النمل: ٧٢]، قل لهم، ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢]، أنتم تستعجلون العذاب، وتريدون أن ينزل بكم العذاب، عسى أن يكون

قريب، عسى أن يكون العذاب الذي سينزل بكم قريب جدًا، قد اقترب أمره، ولذلك قال: **"عسى"** و**"عسى"** تفيد الترجي، وفي حق الله تفيد التحقيق.

قال: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ﴾ [النمل: ٧٢]، أي عسى أن يكون قريب، والردف من الرديف، أنت تركب مثلاً على الدابة ويكون معك رديف، الرديف هذا ملاصق لك، في حدث معاذ قال: «**كنت رديف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حمار**».فالرديف الذي يردفه الراكب.

فيقول هنا: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ﴾ [النمل: ٧٢]، يعني قريب جدًا ملاصق لكم العذاب، لا تدرون إلا وقد نزل بكم العذاب من حيث لا تشعرون، ولا تدرون.

قال: ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢]، لم يقل كلّ ما تستعجلون، قال: لو بعض، شيء مما تستعجلون، أنتم تستعجلون العذاب، وتستعجلون العقوبة، وتستعجلون كذا، قد يأتيكم شيء من هذا العذاب، فلو جاءكم بعضه لم يكن ذلك في مصلحتكم، لو جاءكم شيء من هذا العذاب.

ثم بيّن فضل الله عليهم ونعمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي لا تُعد ولا تُحصى، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ [النمل: ٧٣]، أي يا محمد، وأيها المستمع، وأيها المخاطب، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [النمل: ٧٣]، فضائله عظيمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإنعامه عظيم.

قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٣]، أكثر الناس لا يشكرون نعمة الله عليهم، ولا يؤمنون، ولا يخلصون العبادة له؛ بل يشركون ويكفرون، وينظرون في النعم ولا ينظرون في المنعم، وهذه مصيبة أيها الأخوة، أن تنظر في النعم ولا تنظر في المنعم.

تجد بعض الناس يدخل على هذه الموائد المتنوعة، وهذه الأكلات المختلفة، وهذه المطاعم المتنوعة، ويدخل الأسواق ويرى ما فيها من الخيرات والنعم، ويجلس يقلب هذه النعم وينسى المنعم، من الذي أتى بها؟ من الذي أتى بها إلى بيتك؟ ومن الذي أتى بها إلى السوق؟ ومن يسرها لك أن تنظر إليها وتأخذ منها ما تشاء؟ إلا المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [النمل: ٧٣]، فضائله عظيمة، ونعمه عظيمة لا تعد ولا تُحصى، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٣]، بل الغالب على الناس الكفر

وعدم الشكر، إما أن يكفروا بها، وإما أن يغفلوا عن شكرها، في غفلة عن شكرها، لكن كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤]، يعني إنعامه وفضائله على الخلق كثيرة، والخلق لا يشكرون، وأيضًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أحاط بهم علمًا، فعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهم محيط، فلذلك قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤].

ما تخفيه الصدور، وما تعلنه، ما يظهره الإنسان وما يخفيه هو عند الله سواء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، لا يغيب عنه شيء، كلّ ذلك في علم الله.

فإذا علم العبد أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، وأنه يعلم ما تُكن وما تخفي الصدور، وما تُعلنه وتظهره، في هذه الحالة علم علم اليقين أن الله محيط بكل شيء علمًا، وأنه قد علم هذه الأمور؛ فإن هذا يكون مدعاة للشكر، ومراقبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعبادته، والخوف من عقوبته إن كفر بها، وكفر بنعمة الله.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]، ما من شيء يغيب عن الأبصار، أبصار المخلوقين في السماء، ولا في الأرض، لا عن الملائكة، ولا عن بني آدم، ولا عن المخلوقين إلا الله يعلمه، وقد أودعه في كتاب، هذا الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي أودع الله كلّ ما كان وما سيكون إلى قيام الساعة، ما كان وما سيكون إلى قيام الساعة ما من حركة في الكون إلا قد أودع الله علمها في هذا اللوح المحفوظ.

فما من ميت يموت، أو مولود يولد، أو رجل يتزوج، أو امرأة تحمل، أو رجل يُرزق، أو رجل يُبتلى، أو يصاب بمصيبة، أو بحريق، أو بنجاة، أو بسلامة، أو بحادث، كلّ هذه الحركات وكلّ هذه السكنات في علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أحاط بكل شيء علمًا، وما من غائبة تغيب عن الناس وتخفى عن الناس وعن الأبصار إلا علمها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذا الكتاب العظيم.

فما قدروا الله حق قدره، ولم يعرفوا عظمة الله الذين ينكرون البعث والجزاء والجنة، ويكفرون بالله، ويعبدون معه آلهة أخرى من الأصنام والأشجار، من الأحجار، ما عرفوا الله، وما قدروا الله حق قدره

الذي أحاط بكل شيء علمًا، الذي يعلم ما تكن الصدر، وما تعلنه، ما من غائبة إلا علمها عند ربي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما بين سعة علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبين لنا أيضًا عظمة هذا القرآن، عظمة هذا القرآن الذي أودع الله فيه علم الأولين والآخرين، عظمة هذا القرآن ووصفه، وأجله، وشرفه بأوصاف جليلة، قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٧٦]، الذي تسمعونه، وينزل عليكم، وتقرؤونه على ألسنتكم، إن هذا القرآن ليس فقط يقص عليكم أنتم ويخبركم، بل يقص على بني إسرائيل ويخبر بني إسرائيل بأخبارهم التي عندهم، والتي اختلفوا فيها، فتجدها عندهم.

يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [النمل: ٧٦]، يقص الحق في كثير من القضايا التي اختلفوا فيه، ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

ذكر بعض المفسرين من اختلافاتهم اختلاف اليهود والنصارى في عيسى بن مريم، فاليهود يتهمون أمه بالزنا، ويقولون: عيسى ولد زنا، والنصارى غلوا فيه فجعلوه إلهًا من دون الله فعبدوه، أو جعلوه ابنًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا الاختلاف.

فجاء القرآن مبينًا حقيقة عيسى، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ [مريم: ٣٦]، وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠].

فلا غلو، ولا إفراط، فلا نتهمه كما اتهمه هؤلاء اليهود، واتهموا أمه وقذفوها بالزنا، ولا نكون كالنصارى الذين غلوا فجعلوه إلهًا أو جعلوه ابنًا للإله.

ولذلك القرآن يقص على بني إسرائيل، ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]، فيبين لهم الحق في ذلك.

وهذا القرآن من مناقبه، وأيضًا أوصافه الشريفة، ﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]، هذا القرآن هداية، هدًى يعني هداية من الضلال، هداية من الكفر وظلمات الكفر، ورحمة من العذاب، رحمة بالناس يتراحمون بها، هذا القرآن رحمة على المؤمنين وهداية لهم.

قال: ﴿وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]، ولم يقل للجميع أو للناس، لا؛ بل هذا القرآن هداية ورحمة للمؤمنين خاصة دون غيرهم، لماذا؟ لأنهم هم المنتفعون بهداياته، ومنتفعون برحمته، أما غيرهم فلا ينتفعون.

قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]، لا ينتفعون به، ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي﴾ [النمل: ٧٨]، أي يقضي بين هؤلاء المختلفين من بني إسرائيل وغيرهم، يقضي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحكمه العدل، فينتقم من المبطل ويجازي المحسن؛ لأنه هو العزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا غالب له القوي، فلا يرد قضاؤه، العلم بأحوالهم، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال بعدها: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [النمل: ٧٩]، إذا كان الله بهذه الأوصاف العظيمة وأنه يقضي بين عباده وهو المنزل للقرآن العزيز العليم سبحانه، يجب علينا أن نتوكل على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

والتوكل على الله أن تفوض أمرك في جلب المنافع ودفع المضار، لا يدفع عنك المضار إلا الله، ولا يجلب لك الخير إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتوكل عليه، فوض أمرك إليه، لا تتوكل على نفسك، لو وكلك ربك على نفسك لحظة ما استطعت أن تنفع نفسك لا بجلب خير ولا دفع ضر، فالذي يدفع عنك الضر والشر هو الله، والذي يجلب لك الخير والنعمة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فتوكل على الله وفوض أمرك إلى الله، في مثل هذه الأمور يتوكل الإنسان، ويسأل الله ألا يكل أموره إلى نفسه ولا نحوها، فلو وكلّ أموره وأشياءه إلى نفسه لهلك، ولم يبق.

فنعمة الله عظيمة، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الوكيل على كلّ شيء، ولذلك بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تسلية لنبيه كما بينها سابقًا لما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، بيّن له أنه لا يتعب نفسه فالهداية بيد الله.

فالله هنا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل: ٨٠]، هؤلاء بمنزلة الموتى، الكفار الذين ما كتب الله لهم الهداية بمنزلة الأموات، لا تسمع الموتى ولا يستفيدون منك.

قال: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ [النمل: ٨٠]، الأصم الذي لا يسمع لو رفعتك صوتك بأعلى شيء ما سمع منك، فهؤلاء الكفار بمنزلة الأصم لا يسمعون منك شيئًا أبدًا، ما يستفيدون ولا يسمعون منك شيئًا.

قال: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، إذا أعرضوا، وأدبروا، ولم يقبلوا عليك، فما يستفيدون هم، وأنت لا تسمعهم، ولا يستفيدون منك، فلا تتعب نفسك وراءهم، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر: ٨]، لأن المستفيد هو من يؤمن بآيات الله.

ولذلك قال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ [النمل: ٨١]، لا تسمع الصم ولا تهدي الأعمى، الأعمى خلاص يبقى أعمى، ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١]، فأهل العمى الذين عميت قلوبهم ما يستطيع أن يسمع شيئًا، لماذا؟ لأن الله منع منه أو حرمه هذا الشيء بسبب ذنوبه، ولذلك قال: ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١].

فالذين يستفيدون ويسمعون ويستجيبون، ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]، يستجيب لك من يؤمن بآيات الله، وهو المسلم، فإذا كان يؤمن ويصدق بآيات الله، وقد استسلم أمره، وسلم أمره لله فهو المستفيد، وغيره لا يستفيد.

طيب لما يذكرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باليوم الآخر، وبالجنة والجزاء، والجنة والنار، وقيام الساعة يذكرنا بعلامات من علامات قيامة الساعة في هذه السورة، وعلامات قيام الساعة كما جاء في كثير من الأحاديث هي عشر آيات، عشر آيات هي آيات قرب الساعة، وأشراط الساعة.

أشراط الساعة كثيرة جدًا لكن أشراط الساعة الكبرى كما ذكر أهل التفسير هي عشر كما جاء في الحديث، عشر آيات أو عشرة أمور تخرج في آخر الزمان تسمى بأشراط الساعة.

ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أشراط الساعة عندنا في "سورة النساء"، وفي "سورة الأنعام"، وفي "سورة الأنبياء"، وفي "سورة النمل":

الموضع الأول: في **"سورة النساء"** ذكر عيسى، نزول عيسى في آخر الزمان من أشراط الساعة، قال: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]، يعني في آخر الزمان إذا نزل، إذا نزل عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في آخر الزمان نزوله من أشراط الساعة، وهذا أشارت إليه سورة النساء.

الموضع الثاني: في **"الأنعام"** أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن طلوع الشمس من مغربها، قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

جاء في التفسير عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرفوعًا أنه طلوع الشمس من المغرب، أن الشمس تطلع كلّ يوم من المشرق وسيأتي يوم فتخرج من حيث غربت، فهذا معنى، ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

الموضع الثالث: في **"سورة الأنبياء"** في خروج قصة يأجوج ومأجوج في آخر الزمان، في الكهف وفي الأنبياء، ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ۝٩٦ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧].

الموضع الرابع: في **"سورة النمل"** في هذه الآية التي بين أيدينا، ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ [النمل: ٨٢]، خروج الدابة يوم القيامة، خروج الدابة من الأرض تكلم الناس وتحدثهم وتخبرهم بالمؤمن والكافر، وفي الآية هذه يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الناس في غفلة، وفي إعراض، وبآيات الله لا يوقنون، حتى إذا فسد الزمان، وانتشر الكفر والضلال خرجت عليهم الدابة، خرجت عليهم الدابة تكلمهم وهي من علامات الساعة الكبرى، ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

تكلمهم أن الناس كانوا بآيات الله لا يؤمنون، ولا يوقنون، ولا يصدقون، وهذا من دنو قرب الساعة.

والدابة اختلف أهل العلم في المراد بها، ومن أين تخرج؟

فبعضهم قال: إنه تخرج من مكان في مكة، قيل في صخرة في أجياد، وقيل: من المسجد الحرام، وقيل: بين الركن والمقام، وهذا عليه الأكثر، تخرج دابة، أما وصفها وأشكالها فهذا أمر لا نعلمه الله أعلم بذلك، لكنها تخرج وتكلم الناس، وتسم المؤمن بعلامة، والكافر بعلامة، فيُعرف الناس مؤمنهم وكافرهم، تخرج عليهم ثم تذهب، لكنها تسمهم بعلامات، جميع الخلق، فيُعرف الكافر من المؤمن.

حقيقتها وشكلها هذا لا نعلمه، الله أعلم، لكن نؤمن نحن بأن خروج الدابة هي آية من آيات الله وعلامة من علامات قرب الساعة، وشرط من أشراط الساعة، أشارت الآية إليه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ٨٣]، يوم القيامة عند قرب الساعة تخرج الدابة وبعدها تقوم الساعة فيحشر الله الناس يوم القيامة، يجمعهم جماعات جماعات، فوجًا فوجًا، والآية تشير إلى هؤلاء المكذبين، وإن كان الحشر يشمل الجميع، لكنه أشار إلى هؤلاء المكذبين؛ لأن السياق يؤيد ذلك، ولأنه تهديد لهم وتخويف لهم.

وإن الله سيجمع الأولين والآخرين، لكن السياق تهديد، فيحشر من يكذب بآياته وهم يوزعون، ومعنى يوزعون أن يوقف أولهم على آخرهم ثم يدفعون دفعة واحدة.

قال: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوا﴾ [النمل: ٨٤]، يوم القيامة جاءت هذه الأفواج، قال الله لهم: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾ [النمل: ٨٤]، كيف تكذبون بآيات الله وبالقرآن الكريم وأنتم ليس عندكم علم به، ﴿أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤]، ماذا كنتم تعلمون من أعمالكم السيئة؟ ماذا كنتم تصنعون؟

قال: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٨٥]، حقت كلمة العذاب عليهم، ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٨٥]، بسبب ظلمهم، ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥]، لا يستطيعون الرد على ذلك.

لعل نقف عند هذه الآية التي بعدها، حتى إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل السورة كاملة بإذن الله، أسأل الله أن ينفع بما قلنا، وبما سمعنا.

وَاللهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(النمل ٨٦ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ؛ أما بعد ...

أيها الأخوة الحاضرون المستمعون السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، هذا اليوم هو اليوم التاسع عشر من شهر شوال من عام ١٤٤٤ من الهجرة.

درسنا المعتاد في تفسير القرآن العظيم، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا في هذا الدرس، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعله حجة لنا، وأن ينفعنا بما نقول، وبما نسمع.

السورة التي بين أيدينا التي قضينا معها أيامًا ولله الحمد من أسعد الأيام، هي **"سورة النمل"**، والقرآن كله أيامه سعيدة، والجلوس معه لا يُمل أبدًا.

فالسورة التي بين أيدينا هي **"سورة النمل"**، نحن في أواخر السورة، في خاتمها، وهذه الخاتمة من أجمل وأحسن خواتيم السور؛ لأنها تذكر الإنسان بمرجعه ومآله، الإنسان في هذه الدنيا يعيش وقد يغفل، وقد يلهو، وقد يسهى، وقد يُصاب بأمور تشغله عما خلق له، وتشغله عن مصيره النهائي.

السورة لما عرض الله فيها أمور كثيرة عاد في آخرها إلى التذكير بمرجع ومآل ورجوع الناس كلهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ودائمًا القرآن يستعمل عدة صور في عرض هذا اليوم الآخر، وتقريره، يعني عندنا تقرير هذا اليوم وعرضه؛ لأن عندنا من ينكر هذا اليوم، ولا يؤمن به كما هو شأن الكفار الذين يقولون: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، ويقولون: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨].

يقرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالأدلة العقلية على أن هذا اليوم لابد أن يأتي ولابد أن يُحشر الناس جميعًا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيجازيهم، والعاقل المؤمن اللبيب الذي يستعد لهذا اليوم، الذي يستعد لهذا اليوم حتى إذا جاء هذا اليوم يكون على استعداد، ويكون زاده معه يستطيع أن تطمئن نفسه، ولا تفزع في هذا اليوم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦]، يقول: أولم ينظروا ويتأملوا ويفكروا ويعلموا يعني غفلوا عن هذا الشيء، ولم يبصروه، ولم ينظروه نظر تأمل وتفكر، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل هذا الليل، هذا الليل الآن دخلناه يعني لم يمض ساعة واحدة من دخلوه أو نصف ساعة، هذا الليل الذي دخلنا فيه جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحكمته ليسكن الناس فيه وتستقر نفوسهم فيه، جعل الله الليل سكنًا وراحة، وطمأنينة، ترتاح النفوس، وتنام وتستقر، وكلٌّ يرجع إلى مأواه ويستقر فيه.

هذه آية عظيمة، آية من آيات الله، قد لا يشعر بها الإنسان الآن؛ لأنه بين هذه الأنوار فما يشعر، وقد يكون في مكتب أو في غرفة أو في بيت، والأضواء مضيئة منذ وسط النهار، ما يشعر أن الليل جاء والنهار ذهب.

لكن لو يكون في أرض فلاة ليس عنده شيء من الأنوار مطلقًا، ويجلس في ضوء الشمس الشديدة، وتبدأ الشمس تذهب شيئًا فشيئًا، ثم لا يدري إلا وقد أظلمت الدنيا عليه حتى لا يبصر يده، هذه آية عظيمة.

هنا يستشعر عظمة هذه الآية، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿جَعَلْنَا اللَّيْلَ﴾ [النمل: ٨٦]، يعني خلقنا هذا الليل وسيرناه لتسكن النفوس فيه، وتسكن الخلق فيه، حتى الدواب والطيور، وأنت تلاحظ الدواب والطيور على فطرتها إذا جاء الليل سكنت، ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [النمل: ٨٦].

قال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [النمل: ٨٦]، يعني يبصر الناس فيه في ضوء الشمس، ليقضوا حاجاتهم، ويقضوا معاشهم، وينتقلوا من مكان إلى مكان، ويسافروا، وينقلوا ما يحتاجون إليه، ويعملوا من الأعمال ما يحتاجون إليه، كلّ هذا في النهار؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل النهار معاشًا، وجعل النهار مبصرًا.

إذا فهمنا هذا وكلٌّ يعقل هذا، وكلٌّ يفهمه ويدركه، ماذا قال الله بعدها؟ قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [النمل: ٨٦]، ما قال: آية واحدة؛ بل قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [النمل: ٨٦]، آيات لأي شيء؟ قال: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦]، يؤمنون بأي شيء؟ يعني أنت لما تقرأ هذه الآية ينبغي لك أن تقف عندها.

لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه خلق الليل لحكمة وهو أن يسكن الناس فيه، وخلق النهار لحكمة وهو أن الناس يتنقلون ويقضون حاجاتهم ومعاشاتهم فيه، طيب عرفنا هذا الأمر.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [النمل: ٨٦]، إن في هذا الخلق العجيب آيات وليست آية واحدة، طيب ما هي الآيات؟ ولمن هذه الآيات؟ قال: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦]، يؤمنون بأي شيء؟ قال: آيات عبر وعظات وتذكير وتفكر، آيات تدل على قدرة الله، تدل على وحدانيته، من الذي يدبر هذا الكون؟ هو الله وحده لا شريك له، القادر المالك، فالذي يملك السماوات وما فيهن، ويملك الأرض وما فيهن، ويملك الليل والنهار، ويملك الخلق كله هو الله، والذي يتصرف فيه بطول الليل وقصره وذهاب الليل ومجيء النهار مكانه هو الله، لا يمكن لأي مخلوق أن يتصرف في هذا، فهو الواحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الملك، القاهر، الذي له هذا الخلق، وله التصرف والتدبير في هذا الكون.

فإذا علم العبد هذه الأشياء دفعه ذلك إلى أن يعبد الله وحده لا شريك له، لأنه هو المستحق للعبادة، وهو المنعم على عباده، المتفضل عليهم بهذه النعم العظيمة، ومحسن إليهم بهذا الإحسان العظيم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦].

يؤمنون بأي شيء؟ يؤمنون بأن هذه آيات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه وحدانية الله، ويؤمنون بأن الذي يغير هذه الأشياء ويجددها ويقدر على أن يذهبها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو القادر على بعث الناس، فأنت تتفكر في أنك يأتيك الليل ثم تلقي بنفسك، تضطجع وتنام وتنسى نفسك، والله عَزَّ وَجَلَّ يتوفى الأنفس حين موتها، والليل قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، يعني النوم تنامون، ثم يبعثكم في الصباح، وأنتم تقولون في الصباح: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور**».

فتموت أنت الموتة الصغرى وهي النوم، ثم يبعثك الله عَزَّ وَجَلَّ في النهار، فتقوم وتستيقظ وتذهب، إذا عرفت هذه الآية، عرفت أن الله قادر على البعث.

وأنت تقرأ الآية الستة والثمانين انظر الآية السبعة والثمانين ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها؟ يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النمل: ٨٧]، إذًا في رابط، بينما يلفت الله نظرك إلى السماوات والأرض والليل والنهار؛ حتى يذكرك بالبعث والجزاء والجنة والنار.

فيقول: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النمل: ٨٧].

✍ الصور ما هو؟

الصور هو: "البوق الذي لا يعلم قدره إلا الله ولا يعلم صفته إلا الله" هو بوق يأخذه إسرافيل الموكل بالنفخ، وهو ملك من ملائكة السماء، وكله الله بالنفخ في الأرواح، والنفخ في الصور، فينفخ في الصور، فإذا نفخ في الصور، ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧].

إذا فزع الإنسان أي جاءه شيء يفزعه، وجاءه شيء يجعله ينفجع من هذا الشيء ولا يدري، فيصاب بأن يفجع في هذا الشيء وهو لا يشعر.

قال: ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]، ولاحظ الذي يفزع من هو؟ الخلق، الخلق أين؟ الخلق الذين في السماوات وهم الملائكة، وما فيها من خلق قد لا نعلم، يفزعون له اليوم؛ يوم الفزع الأكبر.

قال: ﴿فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]، ومن في الأرض من هذه المخلوقات ومن بني آدم، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، إلا من استثناهم الله قد لا يصيبهم الفزع؛ بل تكون قلوبهم مطمئنة.

قيل منهم هم؟

قيل: إنهم الملائكة، وقيل: هم الشهداء، ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقيل: هم الحور العين، وقيل: المؤمنون الصالحون الأتقياء لا يحزنهم الفزع الأكبر، والله أعلم بذلك، لكن نحن نؤمن بأن هناك من لا يصيبه الفزع الأكبر.

قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، كلّ الخلق يأتون إلى الله للحشر، يأتون إلى الله داخرين أي ذليلين حقيرين، كلّ الخلق يأتون إلى الله ذليلين حقيرين.

لكن هنا في سؤال:

كم نفخة تنفخ؟

الله هنا قال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

سورة الزمر أوضحت لنا أن النفخة اثنتان:

النفخة الأولى: تسمى "نفخة الصعق".

النفخة الثانية: تسمى "نفخة البعث".

إذًا في نفخة صعق وموت، موت الخلق كلهم، ثم بعد ذلك تأتي النفخة الثانية وهي نفخة بعث الناس من قبورهم، وجاء في الحديث: «ما بين النفختين أربعين»، أربعين سنة، أربعين شهر، أربعين يوم، الله أعلم.

بعض المفسرين ومنهم ابن كثير يقول: "النفخات ثلاث: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة البعث" وأكثر العلماء على أن النفخة اثنتان.

لو أخذنا بنفخة الفزع التي هي يفزع الناس وينفجعون معها، ثم تأتي بعدها نفخة الصعق فيموت الخلق كلهم إلا من شاء الله، ثم بعد ذلك تأتي النفخة الثالثة وهي نفخة البعث، بعث الناس من قبورهم هذا رأي.

والأكثر على أن النفخة اثنتان، ونفخة الفزع ممكن تكون هي نفخة الموت، وممكن تكون نفخة خروج الناس من قبورهم الله أعلم.

قال: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، يعني يبعثون من قبورهم فيأتون حقيرين ذليلين.

قال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النمل: ٨٨]، هذه من علامات اليوم الآخر، ومما يقع في اليوم الآخر، أن هذه الجبال يظنها الظان أنه ثابتة، وهي تسير، تمشي، ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، مثل السحاب، السحاب تنظر إليه وهو يمشي فما تدري إلا وقد ذهب وتركك، فالجبال تمر، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول في سورة أخرى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧]،

فتسير الجبال، وجاء في آية أخرى قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٥، ١٠٦].

فالجبال يوم القيامة الصم القوية الصلبة من شدة هول يوم القيامة تذهب وتصبح هباءً منثورًا، لا يبقى لها أثر، تمر مر السحاب.

قال: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨]، صنع الله في الجبال، وقدرته وإتقانه في هذا الخلق، وفي ذهابها، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]، أيها الخلق الله خبير، وعالم بأفعالك، وأقوالك، وكلّ ما تصنع، خبير بما تفعلون.

قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ [النمل: ٨٩]، هنا يأتي الجزاء والحساب عد البعث، الناس لما يخرجون من قبورهم يتوجهون إلى أرض المحشر، وينتظرون قضاء الله فيهم، هذا يوم الفصل، ينتظرون، ويشتد عليهم الأمر، وتدنو الشمس من رؤوسهم، ويلجمهم العرق، فبعضهم يصيبه العرق إلى ساقه أو إلى نصفيه أو إلى صدره، أو يلجمه العرق إلجامًا.

ويشتد الأمر بالناس وهم وقوف، قيامٌ ينظرون، وإذا اشتد الأمر يذهبون إلى الأنبياء والرسل، فيذهبون إلى نوح يقولون: أنت أول رسول بعثك الله، اشفع لنا عند الله يقضي بيننا، فيعتذر، ثم إبراهيم يعتذر، ثم موسى يعتذر، ثم عيسى يعتذر، ثم يأتون إلى محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: «**أنا لها**»، فيشفع، فيقول الله له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «**اشفع تشفع**»، فيسجد ويعطى من المحامد الشيء العظيم حتى يُقال له: «**ارفع رأسك**»، وهذا هو المقام المحمود الذي قال الله فيه: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

فيقضي الله بين العباد، فتتطاير الصحف، فآخذٌ صحيفته بيمينه، وآخذٌ صحيفته بشماله، ثم تأتي الموازين، فيؤتى بالحسنات والسيئات، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ [النمل: ٨٩]، الحسنات جنس الحسنات، من جاء بالحسنات بالطاعات، ما قدمه الإنسان من الخير، من الصدقات، من الأعمال الصالحة، من الأقوال الطيبة، تُجمع له في صحيفته، فيأخذ صحيفته بيمينه.

فمن جاء بالحسنة فله خير منها؛ لأن الله كريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعطي، يعطي على الحسنة عشر أمثالها وأكثر وأكثر.

قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، الفزع الذي يصيب الناس يسلم منه المؤمنون، ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

قال: ﴿وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، يأمنون من الفزع، لا يخافون، ولا يصيبهم القلق.

قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [النمل: ٩٠]، وهؤلاء هم أهل الكفر والعناد، والمعاصي، والطغيان، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [النمل: ٩٠]، جمعوا سيئات كثيرة؛ حتى أصبحت سيئاتهم عظيمة، فهؤلاء النتيجة ماذا؟ قال: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل: ٩٠]، يلقون على وجوههم في النار، يكبكون في نار جهنم وتكب وجوههم في النار.

قال: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]، يقال لهم: ما تجزون إلا على أعمالكم، هذه أعمالكم نحصيها ونجازيكم عليها، فهذا من عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم، وفضل الله في المؤمنين، ففضله في المؤمنين أعظم، وعدله في هؤلاء بالقسط.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخبرًا عن نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته وتذكيره بهذه الأشياء، وبهذه الأخبار، وبهذا القرآن أن يقول للناس: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ [النمل: ٩١]، يعني أمرني الله، ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ [النمل: ٩١]، يخاطب أهل مكة ويذكرهم بالبلد الحرام، يقول: أنا أمرت وجئتكم بهذه الرسالة وهذا الوحي؛ لأن الله أمرني أن أعبده وحده لا شريك له، لا أعبد هذه الأصنام.

قال: ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ [النمل: ٩١]، وهي البلد الحرام مكة، وهذا تشريف لها أن الله خصها، قال: ﴿أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ﴾ [النمل: ٩١]، والله رب هذه البلدة ورب غيرها، لكن خصها لشرفها مكانتها.

قال: ﴿رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، الله هو الذي حرمها، جعلها بلدًا حرامًا، لا يُقتل فيها، لا يُسفك فيها الدماء، ولا يُختلى خلاها، ولا ينفر صيدها، ولا تلقط لقطتها، كلّ هذا تعظيم لها، يلقى الرجل قاتل أبيه فلا يتعرض له بشيء ما دام أنه في هذه البلد الحرام.

قال: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٩١]، يعني هو رب هذه البلدة، ورب غيرها؛ لأن له كلّ شيء، يملك كلّ شيء، ﴿وَأُمِرْتُ﴾ [النمل: ٩١]، كما أنني أمرت بعبادة الله وحده لا شريك له، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ

الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، أن أبادر إلى الإسلام، وأن أكون من المسلمين الذين استسلموا لله بالطاعة، وانقادوا له.

قال: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩٢]، وهو من أجل العبادات تلاوة القرآن وتدبره، والعيش معه كلّ حياتك، فالجوال فيه مصحف، كلما جلست في مكان افتح المصحف واقرأ.

قال: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩٢]، لأن القرآن فيه من الأجور العظيمة، في كلّ حرف عشر حسنات، وفيه من التدبر والتأمل، وهو الأثر العظيم الذي تجده، يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: «**اقرأ ارتقي ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها**»، فلا يزال يرتقي يرتقي في الجنة.

والقرآن شفيع يوم القيامة إذا قرأته ولازمته، القرآن يشفع لك يوم القيامة، ويؤنسك في قبرك، فالقرآن كله خير.

قال: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾ [النمل: ٩٢]، من اهتدى أيها الناس بدعوتي وأخذ بها، ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٩٢]، هذا الخير له، ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ [النمل: ٩٢]، ولم يقبل دعوة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يقبل هذا الخير، ﴿فَقُلْ﴾ [النمل: ٩٢]، فقل لهم يا محمد، وقل لهم أيها الداعي، ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢]، أنا إنما أنذركم وليست عليكم بحفيظ ولا بوكيل.

قال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٩٣]، قل الحمد لله على نعمة الإسلام، ونعمة الطاعة، ونعمة القرآن، ونعمة الوحي، ونعمة ما اشتمل عليه هذا القرآن من هذا البيان العظيم.

قال: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [النمل: ٩٣]، ليست هذه الآية، وليس القرآن، وليست آية الليل والنهار والشمس والقمر؛ بل سيركم آياته في الآفاق، ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، وتعرفون قدرة الله، وعظيم ملكه، ووحدانيته.

قال: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، تعرفون هذه الآيات أنها من عند الله كما يرينا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آيات عظيمة، إذا جاء السحاب، وجاء الرعد والبرق أرانا الله الآيات العظيمة، وغيرها من الآيات التي تشاهدها بالليل والنهار، كلّ هذه يريكم الله كلّ يوم آياته فتعرونها.

قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٣]، الله لا يغفل عن أعمال الناس؛ بل يراقبهم، ويتابعهم، ويجازيهم على أعمالهم، ويحصي لهم أعمالهم، فيجازيهم عليها، كلّ هذا تذكير أيها الأخوة،

وموعظة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى يكون الإنسان قد تنبه ولا يكون في غفلة، وأن يكون على استعداد لمثل هذه الأيام التي سيواجهها مهما كان، فتكون على استعداد.

أقول مرة ثانية: هذه خاتمة جميلة الحقيقة في هذه السورة، تذكير لكل إنسان، ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، يسمع مثل هذه الأشياء التي تنفعه في حياته، وتوقظه من غفلته، توقظه من هذه الغفلة التي يعيشها الكثير والكثير.

ننتهي من هذه السورة العظيمة الجليلة، السورة التي تليها **"سورة القصص"** وهي قريبة من هذه السورة، وتتحدث عن أيضًا القصص كما هو ظاهر من اسمها، **"سورة القصص"** يأتي الحديث عنها إن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، وجزآكم الله خير على حضوركم وعلى إنصاتكم.

وَاللهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ القَصَص)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(القصص ١ - ٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛ اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك مع القرآن الكريم وتفسيره، وهذا اليوم هو اليوم السادس والعشرون من شهر شوال من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (القصص)، وهي تالية لما قبلها؛ قبلها سورة (الشعراء) ابتدأ الله بـ ﴿طسٓمٓ﴾ [الشعراء: ١]، ثم سورة (النمل) بـ ﴿طسٓ﴾ [النمل: ١] حرفين، ثم (القصص) ﴿طسٓمٓ﴾ [القصص: ١].

وهذه حروف -مثل ما ذكرنا- (حروف مقطعة)؛ يعني مقطعة أنها تقرأ منفصلة، ما تقرأ جميعاً، ما تقول: طصم، وإنما تقول: طا، سين، ميم، منفصلة، فسماها العلماء بـ (الحروف المقطعة).

هذه (الحروف المقطعة) اختلفت في القرآن الكريم؛ تسع وعشرون سورة افتتحت بالحروف المقطعة على اختلاف هذه الحروف؛ بعضها على حرف واحد، مثل سورة (نون) و(صاد) و(قاف)، وبعضها على حرفين، مثل (طا سين) و(ياسين) و(طاه)، وبعضها على ثلاثة حروف، مثل (طسم) و(الم)، وبعضها على أربعة، مثل (المر) ومثلها، وبعضها على خمسة، وهي أقصى حد، مثل ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١] و﴿حمٓ ۝١ عسق ۝٢﴾ [الشورى: ١ - ٢] ونحوها.

هذه الحروف مرت معنا كثيراً وعرفنا أنها (حروف هجائية)؛ حروف الهجاء التي يبني الناس كلامهم منها، ويبني الشعراء أشعارهم، والخطباء خطبهم، والقرآن مبني على هذه الحروف هذه الحروف حروف هجائية، الكل يعرفها والكل يعلمها.

- **ولماذا اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتح بعض السور بهذه الحروف؟**

الجواب: هذا فيه إشارة للعرب؛ العرب هذه لغتهم، العرب فصحاء وبلغاء، يعرفون لغتهم، فلما يذكرهم الله بأن هذا القرآن مؤلف من حروف، وأن الله تكلم به وأنزله على نبيه؛ كأنها رسالة لهم يذكرهم بأن هذا القرآن مثل ما أنتم تتكلمون، هذا القرآن يخاطبكم، فاسمعوا له واستجيبوا له، وصدقوا ما فيه من أخبار، وائتمروا بأوامره، وانتهوا عن نواهيه، وخذوا بوعده ووعيده.

فإن لم تستجيبوا، فاحذروا أن تخالفوه، احذروا كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتحداهم الله؛ قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، إذا أنتم تشكون أن هذا القرآن غير منزل من عند الله، وأن محمداً هو الذي أتى به، وأنه هو الذي افتراه، فأتوا بمثاله، مثل ما أن محمداً افترى.

- **أنتم لماذا لا تفترون؟**

فأتوا بسورة، فأتوا بعشر سور مفتريات، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا -حتى في المستقبل- فالنتيجة ما هي؟ ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]. احذروا، إن لم تؤمنوا بهذه الرسالة وبهذا النبي وبهذا القرآن؛ أمامكم النار. فهذا المقصود يعني من الإتيان بهذه **(الحروف المقطعة)** ﴿طسم﴾ [القصص: ١].

وتلاحظ دائماً إذا جاءت هذه **(الحروف المقطعة)** ياتي بعدها ذكر القرآن؛ شوف قال هنا: ﴿طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [القصص: ١ - ٢]، ﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ۝٢﴾ [البقرة: ١ - ٢]، ﴿حم ۝١ تَنزِيلُ ۝٢﴾ [غافر: ١ - ٢]، وهكذا يعني يذكرهم بأن هذا القرآن هو من هذه الحروف.

يقول: ﴿طسم ۝١ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [القصص: ١ - ٢]، **(تلك)** هذا **(اسم إشارة)** للمؤنث، و**(ذلك)** اسم إشارة للمذكر، تقول: **(ذلك الكتاب)** و**(تلك الآيات)**؛ ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة: ٢] وتلك الآيات، ف **(تلك)** اسم إشارة، أي: هذه التي نقرؤها عليكم، هذه السورة سورة **(القصص)** وهذا القرآن هو آيات، آيات **(الكتاب المبين)**.

و**(الكتاب)** هو القرآن، سمي كتاباً لأنه يكتب، وسمي قرآناً لأنه يقرأ، وسمي **(الذكر)** لأن الناس يتذكرون به، ولأنه ذكر لهم ويعني شرف لهم: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

فهذا القرآن قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصص: ٢]، (المبين) يعني الواضح الدلالة، الواضح في أوامره، وفي نواهيه، وفي أخباره، وفي صدقه، واضح فيما يخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكل من يقرؤه يفهمه؛ ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. وقوله (المبين)؛ أي: الموضح لما فيه، يعني تقرؤه وتفهمه، الموضح لما فيه من الآيات.

ثم بدا لك ما اشتمل عليه هذا (القرآن المبين)، فساق لك ما اشتمل عليه، وهذه السورة هي جزء من القرآن الكريم، فيخبر الله فيها بهذه الأخبار التي هي مواعظ وتذكير للمؤمنين، ولذلك قال: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣].

- **(نتلو) ما معناها؟**

يعني نقرأ عليك.

- **هل (التلاوة) هي (القراءة) ولا تختلف؟**

الجواب: القراءة هي نطق الحروف، لما يقول: **"اقرأ"**؛ نطق الحروف، لما تقول: **"هذا يقرأ القرآن"** يعني ينطق بحروف القرآن. لكن التلاوة لا، التلاوة تختلف عن القراءة؛ التلاوة تعني قراءة وتدبر وعمل، تقرأ وتتدبر وتفهم وتعمل.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مدح الذين يقرؤون ويتلون القرآن تلاوة جيدة، قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]. فالذين يتلونه حق تلاوته؛ يعني يقرؤونه قراءة تدبر وتفكر، ثم يعملون بما فيه.

مثل ما أنك أنت الآن لما تأتيك رسالة ومحادثة؛ بعض الناس ما يقرؤها أصلاً، ما يقرؤها ولا يفتحها، وبعض الناس يقرؤها قراءة سريعة، ما يدري إيش اشتملت عليه.

تقول له: **"إيش قرأت؟"** يقول لك: **"ما أدري، أنا ملف فاضي أقرأ مثل هذه الأشياء"**، وبعضهم لا، يقرأ قراءة تأمل، فتجده يقرؤها ويعيد قراءتها وينظر فيها ويشوف، ثم في الأخير يقول لك: **"ليش أرسلها؟ ما السبب؟"**

هذا هو (التدبر). ثم إذا رد عليها؛ هذا هو (العمل)، معناتها أنت عملت بهذه الرسالة. فكذلك القرآن نفس الشيء؛ (تلاوة) يعني تقرأ وتنظر، تتأمل وتعيد النظر، ثم إذا فيه أمر تائتمر، إذا فيه نهي تنتهي، إذا فيه خبر تصدق، وهكذا.

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٣]؛ وهذه علشان يعني نفهم لغة العرب ونعرف نميز بين (نتلو) و(نقرأ).

وقوله: ﴿عَلَيْكَ﴾؛ كلمة (عليك) هذه من المخاطب بها؟ هو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **"نتلو عليك يا محمد"**.

- **إذاً القرآن من أين أتى؟**

جاء من عند الله، الذي يتلو عليه هو الله بواسطة جبريل، إذاً هذا القرآن منزل. رد على الكفار؛ كفار يقولون: **"محمد افتراه، افترى على الله كذباً"**، نقول لهم: **"لا"**، قالوا: **"هو معلم مجنون"**.

قالوا: "معلم علمه"، يقولون: **"علمه أحد من البشر"**؛ ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، نقول: لا، القرآن من عند الله، يقول: ﴿نَتْلُوا﴾، وينزل عليك، فهو من عند الله.

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٣]؛ (من نبأ موسى)؛ (النبأ) هو الخبر، يعني نتلو عليك؛ أي: نقص عليك ونذكر لك من أخبار موسى مع فرعون.

- **في سؤال هنا: هل النبأ هو الخبر ولا يختلف؟**

الجواب: يختلف، النبأ يكون في الأمور المهمة، الأمور المهمة تأتي كلمة (نبأ)، الأمور التي ليست لها أهمية يأتي (خبر).

- **كيف؟**

الجواب: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمي (نبياً) لأنه يخبر بأخبار مهمة، والقرآن ذكر الله فيه أنه نبأ؛ سماه النبأ، ويوم القيامة سماه النبأ.

قال: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ: ١ - ٢]، النبأ ما قال الخبر، وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٤٩]، فالنبأ دائماً يكون في الأمور المهمة، الأمور المهمة يأتي كلمة النبأ، وإلا كلمة خبر فيه، لكنها في الأمور التي ليست لها أهمية.

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٣]. قبل أن ندخل في هذه القصة ونحن دائماً اعتدنا ولكن فاتنا هذا الشيء في أول الأمر؛ أي سورة ندخل عليها جديدة نعطيك ملامح هذه السورة، نعطيك عما تتحدث هذه السورة، عما تتكلم عنه، ما مقصد هذه السورة، ما الهدف من نزولها.

هذا الأمر تراه مهم جداً؛ لأنك ما تستطيع أن تتصور السورة وتفهم وهي آياتها كثيرة، أكثر من ثمانين آية، ما تستطيع أن تتصورها حتى تعرف لماذا جاءت، ما الهدف، ما الغاية منها، عما تتحدث عنه، القرآن سور كثيرة، كل سورة لها شيء معين، لها هدف.

أنت الآن لو تذهب إلى مكان يوقفك شخص يقول لك: **"وين رايح؟"**

تقول: "أنا لي هدف، هدفي أني أذهب إلى كذا، أنا لي مقصد"، فنزولها كان لمقصد معين. شو المقصد؟ نحن نقرأ الآن السورة، يمكن نقرأها من أولها إلى آخرها، هل نخرج بالمقصد؟ شو المقصد؟

هذه تحتاج منا إلى تدبر، إلى تأمل، نقرأها مرتين، ثلاث، أربع، إلى عشر مرات حتى نخرج بالزبدة؛ مثل اللبن لما يعمل له خض ورج حتى نخرج، نردد هذا اللبن في هذا الوعاء حتى نخرج زبدته، أنت الآن تردد هذه السورة، ترددها على لسانك وتفكر فيها حتى تخرج بالنتيجة.

- **ما هي النتيجة؟**

أنت لما تقرأ هذه السورة تجد فيها قصة موسى؛ قصة موسى منذ ولادته إلى نهاية الأمر في إغراق فرعون، ثم السورة تتحدث عن أمور أخرى، ثم تأتي في الأخير بقصة **(قارون)** الذي هو من قوم موسى، وما جرى له من تكبره ونهايته أن الله خسف به في قاع الأرض، فالسورة تتحدث عن مثل هذه الأمور.

ولما تقرأ في الأخير في آخر الآيات يقول لك: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]؛ علو فرعون، ولا فساد قارون.

إذاً هي لو نظرنا وتأملناها نجدها أنها تدور حول بيان وعود الله عَزَّ وَجَلَّ؛ هي تدور حول ما وعد الله به.

- الله وعد بني اسرائيل أو وعدهم بأنه سيمكن لهم في الأرض: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]، هذا وعد من الله.
- وأن يري فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون؛ هذا وعيد من الله أنه يهلكهم.

- وهناك وعد أيضاً أن الله وعد أم موسى بأنه سيرد موسى إليها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص: ٧]، هذا وعد تحقق لأم موسى.
- ووعد موسى بأن الله سينصره لما قال: **"اذهب إلى فرعون"** أن الله سيقف معه وأنه سينصره، ووعده بأنه سيغرق فرعون ويهلكه.

فهذه وعود كلها تحققت، وآخر هذه الوعود -آخرها- أن الله وعد نبينا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أخرجه قومه من مكة، وعده أنه سيعيده: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]؛ أنه سيعيده إلى مكة.

والسورة -مثل ما ذكر بعض أهل التفسير- أنها نزلت في أواخر العهد المكي، أو حتى قيل بعضهم، قال بعضهم أنها نزلت في الهجرة، في الهجرة؛ لأنها تحقق وعد الله لنبينا محمد، الله وعده أنه سينصره، وعده أنه سيمكن له، سينشر دينه، ثم يخرج من مكة.

- **أين الوعد؟**

يخرج من مكة مطروداً ملاحقاً، أرادوا قتله ووضعوا مائة من الإبل لمن يأتي به حياً أو ميتاً، فيأتي الشيطان يقول لك: **"أين الوعد؟ أين وعده؟"** قال الله: لرادك إليه وناصرك عليهم. وهو يخرج يعني شريداً ليس معه شيء، وبهذه الحالة ومع ذلك تأتي السورة تطمئن نبينا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن وعد الله حق، وأنه سينصره ويتولى أمره، وسيعيده منتصراً، وسيفتح مكة على يديه مهما كان الأمر، لا بد أن ينصره، فنصره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نصره.

نعود إلى الآيات؛ يعني الآن أصبح عندنا تصور واضح، أصبح عندنا تصور واضح للسورة، مقصدها، هدفها، الآن خرجنا بالزبدة وعرفنا أن سورة **(القصص)** يدور حول ما وعد الله به من الوعود التي أظهر الله هذا الوعد، أظهر الله ما وعد الله به، وبينه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما وعد.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص: ٣]. موسى بن عمران، هو موسى بني إسرائيل الذي أرسله الله إلى فرعون.

﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٣]؛ **(فرعون)** هذا لقب لكل من يملك مصر يقال له فرعون، مثل الذي يملك الحبشة يقال له **(النجاشي)**؛ النجاشي هذا ليس شخصاً معيناً، هذا النجاشي

لقب، وكذلك كثير يعني كثير؛ (قيصر) ملك الروم، (كسرى) ملك فارس، هذه ألقاب خلاص، يأتي أي واحد يكون ملقباً بهذا الشيء.

يقول لك: ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص: ٣]؛ أي: نتلوها تلاوة حقة صدقاً، هذا معنى بالحق، أي: ملتبس هذا الخبر وهذا النبا بالحق، يعني نتلوه تلاوة واضحة كلها حق وصدق، ليست تلاوة بالباطل وليست بالكذب وإنما هي حق.

- **وهذا الخبر الذي نتلوه عليك، هذه الأخبار لمن؟**

قال: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣]؛ يعني يصدقون، وغيرهم؟ قال: غيرهم ما ينتفعون وإن تليت عليهم، غيرهم من الكفار المعاندين المكذبين لو تلوت عليهم ما يصدقون ولا يؤمنون.

- **إذاً من المنتفع الذي ينتفع بهذه التلاوة؟**

هم المؤمنون المصدقون، الذي يسمع مثل هذه الأخبار تأتيه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيؤمن بها ويصدق بها ولا يتردد، ولذلك دائماً تسمع في القرآن: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٣]، وهكذا؛ لأنهم هم المنتفعون، ثم بدأت القصة أو بدأت السورة تبين لنا هذه القصة.

- **في سؤال هنا: سورة (القصص)، شو الفرق بين (القصَص) والقصص بالكسر؛ قصَص وقِصص، هل المعنى واحد ولا فيه اختلاف؟**

الجواب: القصَص بالفتح (القصَص) هكذا هذا (مصدر)، والقِصص هذا (جمع) قصة؛ تقول: قصة وقِصص. وهذا مصدر تقول: قصَّ قصَصاً، ﴿فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥]؛ لأن أصلاً هي قصة واحدة، لأن موسى لما وصل إلى صاحب مدين قال: ﴿فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

قص عليه القصص يعني المصدر، قص هذا الشيء الذي حصل له، هذه المواقف التي حصلت له، فكلمة القصص مثل في سورة يوسف قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]؛ هي قصة واحدة، أحسن القصص يعني أحسن الكلام وأجمل الكلام، وإذا قلت قصة تجمعها تقول قصة وقِصص.

يقول: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]؛ هذا فرعون الطاغية الذي قال: **"أنا ربكم الأعلى"**، علا في الأرض يعني استكبر، إنه كان من العالين؛ يعني المستكبرين، فالعلو هنا علو استكبار وتجبر وقهر لمن تحته، فقال: علا في الأرض. والمقصود بالارض هنا أرض مصر؛ مملكة فرعون.

﴿عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤]؛ أي: فرقاً، يعني جعلهم أحزاباً وفرقاً؛ هذا يعمل في كذا، وهذا يعمل في كذا، وهذا مستضعف، وهذا كذا، وهذا كذا، فجعلهم هكذا، قال شيعاً.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾ [القصص: ٤]؛ يعني بعضهم يستضعفهم، وبعضهم يشغلهم أشغالاً أخرى، وبعضهم يعملون عنده، وهكذا. فهذه الطائفة التي استضعفها هي طائفة بني إسرائيل؛ لأن الحكم لفرعون وملئه، وهم **(الأقباط)**، حكم القبط هم أو القبط هم مصر وملوك مصر.

- **جاء بنو إسرائيل دخلوا عليهم، متى دخلوا عليهم؟**

في زمن يوسف؛ يوسف لما جاء إلى مصر وبيع في سوق مصر واشتراه العزيز وتربى في بيت العزيز، ثم أصبح وزيراً للمالية في مصر، وأصبح هو العزيز الذي تحت الملك، أتى بأهله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣]، فاستقر بنو إسرائيل.

وإسرائيل هو يعقوب، جاء يعقوب وذرية يعقوب وبدؤوا يتناسلون في مصر، ومصر يعرفون أن بني إسرائيل قد دخلوا عليهم على زمن يوسف، فاختلطوا بهم واستقروا واختلطوا معهم.

لما جاء فرعون بدا يستضعف هؤلاء، قال: **"أنتم دخلتم علينا لستم من بلدنا"**، فبدا يخدمهم ويضغط عليهم يستضعفهم، يستضعف طائفة منهم.

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]؛ ليش يذبح أبناءهم؟ لأن الكهنة قالوا وادعوا من **(علم الغيب)**، قالوا: **"إن هناك من سيأتي من بني إسرائيل، سيولد في بني إسرائيل مولود سيكون سيذهب ملك فرعون عليه"**.

قالوا: **"إن هناك مولوداً في بني إسرائيل سيولد ثم ينشأ ثم يأخذ ملك فرعون بيديه ومن تحت رجلي فرعون"**. فلما قالت الكهنة لفرعون هكذا لم يستقر له قرار، فبدا يقتل قال حتى لا يولد، فبدا يذبح الأبناء الذكور.

﴿وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]؛ يعني يجعلهم أحياء. ومعنى يستحيي هنا؛ يعني يبقيهم أحياء، وليس هنا يستحيي من الحياء، لا، هذا من الحياة؛ يعني يبقي النساء يبقي البنات.

- **ليش يبقيهم ما يقتلهم؟**

لأنهم يستخدمهم في الأعمال، وأما الذكور بدا يذبح؛ كل ما ولد في بني إسرائيل ذكر ذبحوه على طول، بمجرد أن تلده أمه يأخذونه ويذبحونه أمامها.

فلما استمر الأمر هكذا، شعروا بأنه لا يمكن أن يكون الأمر كذا، قالوا: **"نحتاج إلى الذكور، لأن البنات إذا ماتوا من أين يأتون يتناسلون؟ سينقرضون"**.

فقال فرعون: **"إذاً نترك سنة ونذبح سنة"**. السنة التي يترك فيها الذبح ولد هارون، السنة التي يذبح فيها الذكور ولد موسى؛ تحدٍّ من الله، فلما ولد موسى أخفته أمه.

يقول هنا: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]؛ يعني في هذا العمل من المفسدين وفي غيره، يعني هو مفسد، مفسد في ذبحه أبرياء واستحيائه لهؤلاء البنات واستخدامهم، وهو مفسد في كل شيء حتى في عقيدته مفسد؛ لأنه يقول: **"أنا ربكم الأعلى"** ويدعي **(الربوبية)** و**(الألوهية)**، فهو مفسد في الأرض.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [القصص: ٥]؛ هذا الوعد، هذا وعد الله لما قص علينا حال فرعون في زمانه الآن يعطينا الوعد، قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [القصص: ٥]؛ أي ننعم، **(المنة)** النعمة من الله، ننعم على الذين استضعفوا وهم بنو إسرائيل في الأرض؛ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥]؛ أي في أرض ملك مصر وملك فرعون.

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]؛ نجعلهم أئمة يقتدى بهم، يعني فيهم أئمة؛ يعني عقلاء وصلحاء وعاملين بأمر الله.

﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]؛ الذين يرثون ملك مصر كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، قالوا: نجعلهم الوارثين الذين يرثون حكم مصر، وقد ورثوا بعده ورثوا الأرض؛ وجعلناهم هم الوارثين.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٦]؛ تمكين، نمكن لهم نمكن لهم في الأرض، يعني نجعلهم متمكنين في الأرض بحيث إنهم يتصرفون فيها كيف شاؤوا، وتكون لهم القوة ويكون الحكم لهم، هذا (التمكين).

مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في موسى مكنا له، وفي قارون قال مكنا له في الأرض، وفي ذي القرنين قال: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤]، وفي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٢١]، فالتمكين أنه يتصرف فيها كيف يشاء.

قال: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ [القصص: ٦]؛ وهذا هو وزير فرعون، (هامان) وزير فرعون.

﴿وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]؛ أي جنود فرعون وهامان، (منهم)؛ أي من بني إسرائيل ما كانوا يحذرون، الذي كانوا يحذرونه ويخافون أن يذهب ملكهم، سنريهم كيف يذهب ملكهم، فهذا وعد من الله.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧]. هذا الآن سندخل في قصة أو في وعد خاص وهو وعد أم موسى؛ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيعيد لها ابنها، ولذلك قال: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧]، وزيادة عن ذلك: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

لكن الوقت يضيق بنا، وإن كان الكلام حقيقة كلاماً شيقاً، والحقيقة النفس لا تريد أن نغادر هذا المجلس المبارك مع هذه الآيات التي تخاطبنا مخاطبة حية تحيي قلوبنا، تحيي هذه القلوب التي يعني امتلأت أو قست من كثرة الذنوب ومن كثرة الغفلة والـ (الرَّيْنِ) الذي أصابها؛ هذه تحتاج إلى صقل، فالقرآن يصقلها بقوة.

لكن الوقت يضيق، ولا نريد أن نأخذ أكثر من هذا الوقت، ولعلنا نقف عند قصة أم موسى ماذا جرى لها، يأتي الحديث عنها في اللقاء القادم بإذن الله، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القصص ٧ - ١٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، هذا اليوم هو اليوم الثالث من شهر ذي القعدة من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي (سورة القصص).

ومر معنا أن (القصص) سميت بذلك لذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع صاحب مدين؛ لما جاءه وقص عليه القصص، فلما جاءه وقص عليه القصص عرفنا الفرق بين (القَصَص) و(القِصِص)؛ فال (القِصِص) بكسر القاف جمع قصة، تقول قصة وقِصِص.

وال (القَصَص) بفتح القاف (مصدر)؛ تقول قص قصصاً مثلما تقول أكل أكلاً، طيب؛ لأنها ليست قِصص قصة واحدة أن موسى يقص على الرجل ما حدث له، فهي قصة واحدة ليست قِصص، لو كانت قِصص كثيرة لقال قص عليه القِصِص.

وقفنا عند قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧] الآية السابعة، اللي يتابعوا معنا على المصحف، سواء مصحف الجوال أو مصحف الورق، يتابعون معنا، ومثل ما ذكرنا يعني كثير في لقاءات متعددة أنك لما تفتح المصحف وتنظر إلى الآيات وتستمع الشرح والتوضيح والبيان لهذه الآيات يكون الاستيعاب أكثر؛ لأن عندك تشتغل آلة السمع وآلة البصر والتركيز أكثر.

تقرأ الحروف التي أمامك وتستمع للشرح، والشرح يعني يعاد ويكرر فتستوعب أكثر، وتثبت المعلومة أكثر، أما إذا لم يكن بين يديك مصحف وأنت تستمع قد تشرد يمين وشمال وتذهب، تذهب الأفكار يمين وشمال.

قد يكون أمامك أشخاص أو أمامك في مجلس أو كذا هم ما تركز تركيز مثل ما تكون في مكان مناسب وهادئ والمصحف بين يديك أو مصحف الجوال، تستمع وتقرأ، وتستمع وتنظر يكون الاستيعاب أكثر، والتركيز أكثر.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، هذا الآن الآيات عشان إحنا نركز على مسألة ماذا وعد الله، السورة سورة القصص كلها تدور على الوعود التي وعد الله بها.

لما قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] اللي هم بنو إسرائيل لما عُذبوا من قبل **(الأقباط)** ومن قبل آل فرعون، قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وقال كذلك: ﴿كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٨]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، فحقق الله الوعد الذي وعدهم.

وأيضاً من الوعود ما وعد الله أم موسى أن يعيد لها ويرد لها ابنها، فحقق الله، وستأتيك وعود كثيرة في هذه السورة أن الله وعد، وحقق وعوده كلها، ووعد الله لا يخلف الله الميعاد، ولا يخلف الله وعده؛ فالسورة مبنية على هذه الوعود التي وعد الله بها وتحققت هذه الوعود.

ولذلك لما تقرأ الآيات قال: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]، قال بعدها: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧].

الآن بدأت القصة أو بدأ الشروع في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي جاء لإنقاذ بني إسرائيل من اضطهاد فرعون وقومه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧]. لما وضعت أم موسى ابنها موسى، وضعته في السنة التي يقتل فيها الأبناء، فخافت عليه، فلما وضعته خافت عليه أن يقتل، فبدأت تخفيه، أوحى الله إليها أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، واليم المراد به هنا نهر النيل؛ لأن آل فرعون

يسكنون أو يقيمون على نهر النيل، ومن حولهم أيضاً يعيشون حوله، ولأن البحر بعيد عنهم، أقرب ما يكون نهر النيل.

يقول: فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك، هنا الوعد؛ هذا وعد الله إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، تحقق الوعد ولا ما تحقق؟ نقول تحقق.

- **أين تحقق؟**

لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٣]، فرد الله هذا الابن إلى أمه، قال: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣]. الحين إن شاء الله واضح.

- **الآن ما معنى وأوحينا؟ نقول هل هو وحي الأنبياء؟**

الجواب: لا؛ وحي الأنبياء يثبت أن من أوحي إليه أصبح نبياً، وأم موسى ليست نبية.

- **ما هو الوحي؟**

الجواب: هذا إلهام من الله، أن الله ألهمها هذا الشيء، مثلما ألهم الحواريين: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١]، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١]، والحواريون ليسوا أنبياء، هم أتباع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فالوحي هو إلهام، مثلما أوحى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى السماء وإلى الأرض: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]، وقال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، وأوحى إلى النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، فهذا وحي يختلف. أما وحي الأنبياء فهو وحي تكليف بالرسالة: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]، هذا وحي تكليف الرسالة.

- **فنقول لو سألك إنسان قال لك مثلاً: وأوحي إلى أم موسى، هل هي نبية؟**

الجواب: لا؛ الأنبياء رجال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩ / النحل: ٤٣ / الأنبياء: ٧]، لا بد أن تكون النبوة في الرجال. وهنا الوحي نقول وحي يختلف، الوحي هنا هو إلهام بمعنى أن الله ألهمها أن تصنع هذا الشيء.

قال بعضهم: "الوحي هنا هو رؤية أراها الله عَزَّ وَجَلَّ في المنام، أراها الله عَزَّ وَجَلَّ فسماه وحياً"؛ لأن الرؤية الصالحة من الوحي هي جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**».

قال وألهمنا قال هنا: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٧] يعني ألهمناها، أن أرضعيه يعني أرضعيه لحاجته للرضاع والحليب واستمر في رضاعه، فإذا خفت عليه من بطش فرعون وآل فرعون فالقيه في اليم.

وهي وضعته في التابوت كما في الآية الأخرى في سورة طه التي مرت معنا: ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ [طه: ٣٩]، فوضعته في التابوت وهو الصندوق الصغير، ثم ألقته في اليم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

سمعت أعرابية، امرأة عربية هي لا تقرأ ولا تكتب، وفي نفس الوقت هذه الأعرابية سمعت رجلاً يقرأ، وهي ما تعرف القرآن، سمعت رجلاً يقرأ القرآن، فلما استمعت إليه، إلى هذا الرجل.

فإذا هو يقرأ هذه الآية: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فقالت هذه العربية وهي عامية أُمّية لا تقرأ وتكتب ولا تعرف القرآن، فقالت: هذا كلام مَن؟ تقول لهذا، قال: هذا كلام رب العالمين.

قالت: سبحان الله! تقول هي: سبحان الله؛ آية واحدة جمع الله فيها أمرين ونهيين وبشارتين! آية واحدة جمع الله فيها أمرين ونهيين وبشارتين؛ شف قال: وأوحينا إلى أم موسى ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ هذا الأمر الأول، الأمر الثاني: ﴿فَأَلْقِيهِ﴾. طيب والنهي؟

قال: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾. طيب والبشارة؟ بشارتين: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ هذه البشارة الأولى، ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ البشارة الثانية. فجمع الله لها هذا الشيء وهذا الشيء، طيب يعني هذه من عجائب القرآن الكريم أن آية واحدة جمع الله فيها أمرين ونهيين وبشارتين.

- **لما وضعته في النيل وألقته في اليم، ذهب اليم به أين ذهب؟**

وهي أولاً ألقت وهي مطمئنة وعندها يقين بأن الله قال لها: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧]، فهي عندها يقين أنه سيرجع ولن يهلك ولن يموت؛ لأن الله قال: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧] يعني أن الله يجعله رسولاً، فهي عندها اليقين بأنه سيعود وسيكون رسولاً سيكبر، ولذلك لما ألقته في اليم ما خافت؛ لأن الله نهاها قال: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾ [القصص: ٧].

فذهب به اليم إلى قصر فرعون، فالتقطه آل فرعون، فلما التقطه آل فرعون والجواري النساء اللاتي عند النهر أخذوه ولم يعلموا أن فيه طفلاً، فأخذوا التابوت هذا الصغير وذهبوا به إلى زوجة فرعون آسية زوجة فرعون، فأخبروها بالخبر، فلما أخبروها فتحت هذا التابوت فإذا هو طفل صغير، فألقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المحبة في قلبها فأحبته حباً شديداً.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] يعني لتكون العاقبة في التقاطه عداوة لفرعون وحزناً عليهم؛ لأنه سيذهب ملكهم على يدي هذا الطفل.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨] هذه جملة تعليلية، إن فرعون معروف وهامان وزيره وجنودهما كانوا خاطئين، كانوا خاطئين؛ كيف خاطئين وفي أي شيء؟

قال: خاطئين في أعمالهم، وفي عداوتهم، وفي بطشهم، وفي إيذائهم، وفي قتلهم؛ لأن الله أخبر عنهم قال: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، هو ومن معه، فهم يذبحون ويستحيون ويفسدون في الأرض فهم خاطئون، والخاطئ هو مَن يفعل الخطأ متعمداً.

لما وصل الطفل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى امرأة فرعون، قالت امرأة فرعون: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] تعني فرعون؛ هذا سيصبح لنا قرة عين يعني تقر عيننا به، يعني تستقر أعيننا ونعجب به ونرتاح له.

تقول: ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]؛ عسى أن ينفعنا يعني يكون خادماً عندنا نافعاً لنا يقضي حاجاتنا، أو يكون أكبر من ذلك وهو أن يكون ولداً لنا، كأنه ولد يعني نحبه ونكرمه كما نحب أبناءنا ونكرمهم، وحصل له أنه كالولد عندهم، بل أشد من الولد، فأحبته حباً جماً لا تريد أن تفارقه.

قال: ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩] لا هي، ولا فرعون، ولا قوم فرعون يشعرون بذلك، لا يشعرون أن هذا من بني إسرائيل، وأن هذا سيكون له شأن عظيم، لا يشعرون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في أم موسى لما ذهب ورأته في اليم وفي النهر وهو يمشي: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠] بعدما ذهب ابنها عنها فارغاً، فارغاً يعني فارغاً من كل شيء إلا موسى، يعني

همها موسى، يعني لا تلتفت لأي شيء، لا لأكل، لا لشرب، لا لنوم، لا لأي عمل من الأعمال، يعني أصبحت متفرغة لشغل موسى، يعني همها كله ماذا جرى لموسى؟

يعني أشغلها ذهاب هذا الطفل وهو صغير في التابوت في اليم، ماذا جرى لها؟ مع أن عندها اليقين بوعد الله، ولكن النفس ضعيفة مهما كان، ولذلك أصبح فؤادها فارغاً من كل شيء، ما تفكر في أي أمر من الأمور إلا هذا الأمر، وهذا من أشد الهم الذي يصيب الإنسان.

شوف أحياناً الإنسان يصاب بهموم مختلفة، لكن بعض الهموم حقيقة يعني يشغل الإنسان عن كل أعماله، يمكن لو صلى ما يدري ماذا صلى، ويمكن ما يدري عن حاله، ولا يدري هل أكل أو لم يأكل، فهذا معنى قوله: فارغاً، ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠] يعني فارغاً من كل شيء.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ [القصص: ١٠] يعني لتظهر خبره؛ لأنها علمت بعد ذلك أن فرعون وآل فرعون التقطوه، علمت بذلك وجاءها الخبر، فلذلك كادت تبدي به، أن تقول: هذا ابني، لولا أن ربطنا على قلبها، كادت أن تخبر بهذا الخبر أنها هي التي ألقته في اليم وأنها هي التي وضعته في التابوت وهذا ابنها.

ولو قالت ذلك لذبحوه مباشرة، ﴿لَتُبْدِي بِهِ ۖ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، لولا أن الله ربط على قلبها يعني ثبتها، والربط على القلب يعني بحيث أن النفس تستقر وتثبت؛ وربط القلوب تثبيتها.

كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»، فتثبيت ربطها كأنه جيء برباط ورُبط بحيث أنه يستقر القلب لا يتزعزع، ربطنا على قلبها ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، مؤمنين بأي شيء؟ مؤمنين أي مصدقين بوعد الله، فربط الله عليها وثبّتها لشدة هذا القلق.

قال: ولما علمت وعرفت أنه عند فرعون وأنه في قصر فرعون، قالت لأخته -وأخته أكبر منه- قالت لأخته: ﴿قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] يعني تتبعي أثره وخبره، يعني اذهبي وائتيني بخبره، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

فبصرت به يعني أبصرته وعرفته عن بُعد، ﴿عَن جُنُبٍ﴾ يعني عن بُعد وهم لا يشعرون؛ لا يدرون بأن هذه أخته، ولا يدرون بأن هذا الصغير ينسب لهذا البيت، فبصرت به من حيث لا يدرون أنها جاءت لهذا الغرض، لا يشعرون.

- **قد يأتيك سائل يقول لك: طيب ما الفرق لما نقرأ في القرآن مرة يقول لا يعلمون - وسيأتينا: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]. ومرة يقول ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]، ما الفرق بينهما؟**

الجواب: الشعور أدق، لما تقول لا أشعر بكذا غير لا أعلم، فالشعور أدق من العلم، ولذلك سُمي الشعر شعراً لدقته، فلما تقول أنا لا أشعر بهذا الخبر يعني ليس عندي أدنى علم به، فهذا معنى الشعور.

قال: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، لما وصل إلى امرأة فرعون وأصبح في يدها، بدأ يبكي بكاءً شديداً يريد أن يتغذى بالحليب، فماذا صنعت؟ قالت: ائتوني بالمراضع، بمرضعة ترضعه، فجاءت المراضع كلها من النساء، فكلما أخذته امرأة لترضعه لا يقبل ذلك؛ لأن الله قال: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]، فكلما جاءت امرأة رفضها رفضاً قاطعاً، فأقلقهم وأشغلهم، وحرمنا عليه المراضع من قبل.

فلما جاءت أخته وقالت لهم عندما رأت أنهم قد أقلقهم هذا الأمر وأشغلهم: قالت لهم -ونحن نعرف أن الخدم والجواري هم الذين يبحثون عن المراضع ويدخلون ويخرجون في القصر، فهي قريبة من القصر- فقالت للجواري: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]؛ يعني أعطتهم أحسن الصفات.

قالت: أنا أدلكم على بيت يرضعون لكم ويكفلونه، يعني يحرصون على كفالته لكم، ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ يعني هم يكفلون لكم وينصحون له، يعني يحرصون عليه حرصاً شديداً، فقبلوا ذلك فقالوا: أينه؟ فقالت: هذا بيت، فذهبت بهم إلى بيت أمها.

قال بعض المفسرين: "أنهم ذهبوا بالطفل إلى بيتها".

وبعضهم قال: **"أنهم استدعوها فجاءت"**، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ﴾ [القصص: ١٣]. فلما أخذته ووضعته على صدرها التقم الثدي وبدأ يشرب، ففرحوا فرحاً شديداً، وبدأت البشارات تذهب إلى زوجة فرعون، امرأة فرعون، أخبروها بالخبر ففرحت فرحاً شديداً، واستقر وذهب عنها القلق، ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٣]. فاستقرت أم موسى وقرّت عينها، وذهب عنها القلق وذهب عنها الحزن، ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣].

ولتعلم أن وعد الله حق، هذا الشاهد، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣]؛ تعلم لأن الله وعدها قال: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧]، فوعد الله حق، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣] لا يعلمون أن وعد الله حق، ولا يعلمون أن الله هو الذي يدبر الأمور، ولا يعلمون أن أم موسى هي أمه حقيقة، ولا يعلمون أن أخت موسى هي أخته حقيقة؛ كل ذلك أخفاه الله حتى يعيد هذا الابن إلى أمه.

وتأمل تدبير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا الأمر العظيم، بحيث أن تدبير الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن جعله يذهب إلى قصر فرعون ليسلم من الذبح، هذا الأمر الأول، ثم ليكون له المكانة العظيمة في قصر فرعون؛ لأن الله ألقى محبته في قلب امرأة فرعون.

وشوف ما يترتب عليه أنه أعاده إلى أمه، وأمه الآن صارت في مكان مطمئن وآمن لا أحد يتعرض لها بسوء، بل زيادة على ذلك تأخذ أجرة على الرضاعة! بدأوا يدفعون لها الأموال لأنها ستأخذ أجرة على رضاعه لأنها مرضعة الآن، وهم لا يدرون أنها أمه، بل هي مرضعة، فبدأت الهدايا والجواري والأموال تأتيها، وفرحوا بها وكان أصبح لها مقام عندهم؛ كل ذلك بتدبير من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وبدأ يعني يتنقل في قصر فرعون، يأكل مما يأكل منه فرعون، ويشرب مما يشرب منه فرعون، وينام على فراش فرعون، ويجلس في مجلس فرعون، ويتربى في قصر فرعون حتى إذا كبر أخذ ملك فرعون منه، وفرعون يقتل ويذبح لأجل ألا يحدث ذلك! لكن قضاء الله وقدره فوق كل شيء، ولا يغني حذر من قدر، إذا أراد الله أمراً هيأ أسبابه، وتدرج في الوصول إلى هذا الأمر.

لعلنا نقف عند هذه الآية لأن الوقت يضيق بنا، ولا نريد الإطالة عليكم، فنقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القصص ١٤ - ٢٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومَن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم مباركين موفقين لكل خير.

هذا اليوم هو يوم الثلاثاء، الموافق للعاشر من الشهر الحادي عشر، شهر ذي القعدة من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة (١٤٤٤ هـ). هذا اليوم درسنا في (سورة القصص)، ووقفنا في لقائنا الماضي عند الآية الثالثة عشرة؛ يعني اليوم الآية الرابعة عشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ [القصص: ١٤].

ولكن الفضلاء، أحب بس أن أذكر نفسي وأذكركم اليوم؛ الأيام هذه التي نعيشها، الأيام هذه نعيشها في شهر، هذا الشهر يتميز عن الشهور؛ يتميز هذا الشهر والذي بعده والذي بعده، ثلاثة أشهر هذه، وأيضاً معها الرابع وهو شهر رجب المنفرد وحده؛ وهذه الثلاثة المتتالية عظمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وذكرها في كتابنا لما قال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦].

شوف لما يقول لك: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ عرفناها الأربعة (ذو القعدة)، (ذو الحجة)، (محرم)، و(رجب). قال: ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾؛ يعني أنها من دين الله وأنها تتعلق بشرائع الله.

- **ما هي الشريعة المتعلقة بها؟**

هي شريعة الحج وشعيرة الحج، التي يتقدمها (شهر ذي القعدة)، ويتلوها (شهر محرم)، والحج فريضة من فرائض الإسلام، ونعرف حتى في الجاهلية قبل الإسلام؛ الناس يحجون إلى (بيت الله الحرام) ويعظمونه، وكانوا يقدمون إلى هذا المكان بزمن.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل ما قبله وما بعده من الأمور المحرمة أو من الأشهر المحرمة لا تسفك فيها الدماء، ولا يعتدى على الأموال والأعراض، ولا يتجرأ الإنسان على معصية الله فيها.

ولذلك؛ الذي نريد أن نصل إليه أيها الإخوة الكرام أن نعرف أن هذا الشهر شهر معظم وعظمه الله: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ۖ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

بعض الناس ما يستوعب ولا يفهم أن هذا الشهر الذي نحن فيه شهر معظم عند الله ينبغي علينا أن نعظمه في قلوبنا؛ وينبغي ويجب علينا أيضاً أن نخفف أو نبتعد قدر المستطاع عن الوقوع في المعاصي والتجرؤ على حدود الله وعلى شرع الله.

كثير منا مقصر، إن لم نكن جميعاً مقصرين في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ومنا من يرتكب كثيراً من المعاصي ويزاول بعض المعاصي وهو قد يشعر بهذا أو لا يشعر يقع في هذه المعاصي.

فالشهر هذا شهر معظم عند الله؛ ينبغي للإنسان أن تقصر نفسه عن المعاصي، وأن يقبل على طاعة الله والتوبة النصوح لله عَزَّ وَجَلَّ، هذا الشهر والذي بعده والذي بعده؛ تعظيماً لله عَزَّ وَجَلَّ، وإن كان الإنسان مطلوباً منه في سائر السنة وجميع الشهور أن يعرف عظمة الله عَزَّ وَجَلَّ، ويعرف شرع الله، ويعظم شريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يبتعد عن كل معصية تجره إلى البلايا وتجره إلى سخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فجدير بنا أن نعرف ما هو الوقت الذي نعيشه؛ لا أن يدخل علينا **(شهر ذي القعدة)** ويخرج ويأتي الذي بعده والذي بعده ونحن الشهور عندنا سواء، والكثير منا منهمك في نفسه وعلى نفسه، وقد تجد بعضهم منهمكاً على المعاصي ولا يشعر بذلك حتى يوقفه الله عند حده؛ إما بمرض أو ببلية أو بموت. الإنسان ينبغي له أن يحاسب نفسه؛ أن يعرف الأزمنة والأوقات، وأن يعرف الأماكن.

إذا ذهب إلى مكة أو إلى المدينة يعرف عظمة هذه بيوت الله؛ فيها **(بيت الله الحرام)** ومسجد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يعظم هذه الأماكن ويعرف شعائر الله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

تعظيمك لها دليل على تقوى قلبك وخوفك من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والبعد عن المعاصي، مع الأسف تجده في شهر محرم ويشرب الدخان، في شهر محرم ويسرق، في شهر محرم ويشتم ويلعن؛ لا يعرف حدود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا شعائره.

نعود إلى الآيات؛ الآيات التي معنا: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

- **مَن هو الذي بلغ أشده واستوى؟**

السياق يقتضي أننا نقول هو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لما بلغ موسى أشده؛ يعني بلغ من القوة وكمال العقل، لما بلغ أشده أصبح عقله وجسمه بلغ النهاية والكمال في القوة وفي العقل والجسم؛ هذا معناه.

قال بعض المفسرين: **"إن هذا العمر من الثلاثين إلى الأربعين في الغالب؛ فالثلاثون إلى الأربعين هي فترة الأشد والقوة"**. قال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾؛ أي كمل في سائر أموره؛ كمل في قوته ونشاطه وعقله وسمعه وبصره واستوى.

﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ يعني أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا قبل النبوة؛ يعني حتى الآن ما وصلنا النبوة، النبوة جاءت بعدما رجع من مدين، الآن هو ما زال في مصر.

قال: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ المقصود بـ (الحكم) هنا معرفة الأحكام؛ أحكام الله عَزَّ وَجَلَّ من عبادته وطاعته، وما يكون في الإنسان من الأحكام التي يقضي بها ويحكم بين الناس فيها، ويعلم ويكون عنده العلم والمعرفة في حقوق الله عموماً؛ هذه (الحكم) و(العلم)، وكذلك أن يكون عنده علماً؛ أن يكون عنده علم ومعرفة وإدراك.

قال: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]. شوف ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ هذه تأتي في القرآن كثيراً، والمراد بـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما أعطينا موسى الحكم والعلم وهو إحسان من الله إليه؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ أحسن إليه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ كل محسن أحسن إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في عبادته، وأحسن إلى الخلق في التعامل معهم، كل مَن يفعل هذا ويحتسب الأجر عند الله فإن الله يكافئ هذا المحسن بإحسانه؛ والله أجدر وأحق بأن يحسن إليه فهو المحسن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكما مَنَّ على موسى بأن أتاه الله الحكم والعلم بسبب إحسان سابق له، وبسبب أن موسى عرف الله حق المعرفة؛ كافأه الله بأن أعطاه الحكم والعلم، وآتاه النبوة وجعله من أولي العزم، بل جعله كليماً؛ كليم الله عَزَّ وَجَلَّ، قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

قال: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص: ١٥].

هو في شبابه وقوته ونضجه، وإذا هو في يوم من الأيام دخل المدينة؛ إما إحدى مدن فرعون أو أنها مدينته التي فيها فرعون، فدخل فيها يمشي فيها؛ فإذا في قال: ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾؛ يعني في وقت غفلة الناس، والغالب أن يكون وقت الغفلة هو وقت القيلولة؛ الناس قد دخلوا بيوتهم واستقروا فيها.

قال: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾؛ يعني المراد بـ **(الاقتتال)** هنا التضارب والتخاصم، يتخاصمان ويتضاربان؛ ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ﴾ يعني من جماعته؛ يعني من بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ وهو من آل فرعون قبطي.

قال: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص: ١٥].

طلب منه الغوث؛ يعني طلب منه أن ينتصر له وأن يقف معه وأن يساعده؛ فاستغاثه الذي من شيعته الإسرائيلي على الذي هو من عدوه وهو الفرعوني أو القبطي.

هنا سؤال عشان نأخذ القرآن ونتفكر فيه ونتأمل؛ يعني هل موسى تبين له أنه من بني إسرائيل ولا كيف؟ يعني هو صغير وأخذه آل فرعون، أو أخذته امرأة فرعون وقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]، وأرضع ثم سكن وأصبح في بيت فرعون.

وأصبح حتى قال بعض المفسرين: "إنه اشتهر أنه يقال له: (موسى بن فرعون)؛ لشدة التصاقه بفرعون وتربى في بيت فرعون بين يديه حتى سماه بعضهم (موسى بن فرعون)".

- **كيف عرف أنه من بني إسرائيل وليس قبطياً وليس من آل فرعون؟**

الجواب: يعني بعد مضي الأيام عرف الناس وتبين أنه إسرائيلي؛ إما بعلامات أو بخِلقته أو نحو ذلك.

يقول هنا: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

طلب منه أن ينتصر الذي من شيعته الإسرائيلي على عدوه القبطي؛ فوكزه موسى، وكز العدو القبطي.

- **ما معنى وكزه؟**

ضربه بيده، واليد قد ضمت الأصابع؛ أنت إذا الآن ضممت أصابعك إلى كفك إلى باطن الكف ثم ضربت بجمع يدك؛ هذا الجمع لليد يسمونه (الوكز).

فموسى لما رأى هذا القبطي ينازع هذا الرجل بقوة ضربه في صدره أو قريباً من قلبه بقوة؛ فسقط ميتاً، وموسى لا يريد قتله، وإن من قتله ليس بعمد بيده، ولا يريد قتله، وإنما يريد يدفعه بقوة ولا يريد قتله؛ فوكزه موسى فقضى عليه؛ أماته وسقط ميتاً، وهذا يدل على قوة موسى وقوة بنيته.

فندم موسى أشد الندم على أنه لا يريد قتله ولكنه سقط ميتاً؛ فندم وقال: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]. وشوف امسك الآن عندك شرط من شروط التوبة وهو الندم؛ إنه ندم أشد الندم، قال: هذا من عمل الشيطان؛ هذا الفعل من عمل الشيطان، أي من تزيين الشيطان ووسوسته، أي الشيطان تعليل: ﴿عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾؛ أي هذا الشيطان عدو لنا ومضل أضلنا وضلاله بائن واضح؛ عدو مضل مبين.

ثم قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]؛ اعترف بالذنب، عندنا الآن الندم والاقلاع والعزيمة؛ وقوله: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ دليل على الاقلاع أنه أخطأ ووقع في هذا الظلم؛ ظلمت نفسي بقتل هذا الرجل، ظلمت نفسي فاغفر لي يا رب.

وهذا أيضاً يدل على الندم والاقلاع: ﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾؛ لما اعترف بذنبه وطلب من الله التوبة والمغفرة قبل الله توبته؛ قبل الله، والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب من عباده أن يتوبوا إليه.

فإذا تاب الإنسان بصدق وعزيمة قبل الله توبته؛ والله قد وعد بقبول التوبة، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده؛ فلذلك قال: ﴿فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ تعليل بأن الله غفر له لأنه غفور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعباده، رحيم بهم حيث وجههم إلى التوبة وقبل توبتهم.

قال موسى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]؛ أي بهذه التوبة والمغفرة، وأنعمت علي سائر النعم، كل النعم التي أنعمت بها علي؛ ﴿بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ أي معيناً ومساعداً ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي لا أعين أحداً على معصية.

وهذا وعد من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بسبب أن الله مَنَّ عليه وأنعم عليه ألا يكون، ألا يستعمل نعمة الله، لا يستعمل هذه النعمة في معصيته، لا يستعمل النعمة في معصيته؛ ولذلك قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ لا أستعمل النعمة بالمعصية.

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقع في معصية وهو لا يريد الوقوع فيها، أو قتل وهو لا يريد القتل؛ فندم أشد الندم، وعزم ألا يعود، واستغفر وطلب من الله المغفرة؛ فالندم والاقلاع والعزيمة توبة، ومع ذلك؛ لما فعل هذا الفعل وتاب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يزال الذنب يقلقه.

ولذلك: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]. خائفاً من هذا الذنب، من عقوبة آل فرعون؛ لأنه يشعر بأن آل فرعون سينتقمون منه، ولأنه علم أنه لا أحد يجرؤ على أن يعتدي على أحد من آل فرعون، ويعرف موسى أن بني إسرائيل قوم قد اضطهدوا وعذبوا وأوذوا.

فكيف يحصل منهم هذا الشيء ويفعل واحد منهم هذا الفعل؟! فبدأ ذلك يقلقه؛ واشتد عليه الأمر، وأصبح في المدينة خائفاً يترقب؛ ينظر يميناً وشمالاً ويراقب الأمر حتى لا يقبض عليه.

ثم بعد ذلك ومن الغد؛ ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ [القصص: ١٨]. وهو الإسرائيلي يستصرخه؛ يناديه بقوة: يا موسى يا موسى! يستغيث به ويستنصره، يقول: انصرني على هذا، على رجل آخر قبطي آخر. ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ توبيخاً له، ويعني يقول: كيف تفعل هذا الشيء؟ وكيف كل يوم تناديني على أمر مثل هذه الأمور؟!

ومعناه: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾؛ الغوي الذي قد حاد وخرج عن طريق الصواب وعن طريق الحق، ووقع في الغواية وهي الذنب العظيم والضلال البعيد؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ أي واضح وظاهر الغواية. كيف تراني بالأمس قد وقع مني قتل بغير قصد وندمت أشد الندم وأنت علمت ذلك، ثم اليوم أيضاً تأتي إلى وتستصرخني؟!

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

أراد موسى أن يبطش بالعدو وهو القبطي؛ أن يبطش به وهو يريد أن يبطش به، فقال له القبطي: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾؟ أنت تريد أن تقتلني كما فعلت أمس؟!

- **كيف عرف أن موسى قتل بالأمس؟**

الجواب: إما الموضوع تسرب والخبر تسرب، وإما أن يكون هذا الإسرائيلي قال له لما استنصره ولما استصرخه قال: اقتله كما قتلت الذي بالأمس؛ فسمع ذلك القبطي، فلما سمع ذلك قال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾.

يعني ما تريد إلا أن تكون جباراً، لا تريد أن تكون مصلحاً، تريد أن تقتل وتسفك الدماء ولا تريد الإصلاح بين الناس، فموسى وقف وانكف عن قتل هذا الرجل؛ ولذلك رجع موسى ولم يقتله وإنما تركه.

لما تسرب الأمر وصل إلى فرعون وآل فرعون؛ فقالوا: ائتوني بموسى؛ فبدأوا يبحثون عن موسى، فسمع رجل منهم هذا الخبر؛ فأراد أن ينصح لموسى، فجاء مسرعاً ناصحاً له: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

(الملأ) هم الأشراف والقوم، وملأ فرعون يأتمرون؛ يعني يتشاورون فيك ليقتلوك، يبحثون عنك ليقتلوك؛ ﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾؛ وخذ نصيحتي واخرج لا تبقَ، فإن بقيت ووجدوك سيأخذونك؛ فتنبه لهذا الأمر واخرج، إني لك من الناصحين.

فخرج موسى مباشرة لما سمع كلامه ونصحه وعرف أنه ناصح؛ مباشرة خرج من المدينة، من مدينة مصر خرج: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

خائفاً من أن يُمسك أو يقبض عليه ويُقتل، وهو خارج لم يتكل على الأسباب أو على نفسه؛ وإنما هو يخرج وهو يدعو ربه متعلقاً بربه: ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

- **كيف قوم ظالمين؟**

قال: لأن فرعون وملأه ظلمة، ويفسدون في الأرض ويقتلون بني إسرائيل ويذبحون أبناءهم؛ فهذا هو أشد الظلم، فقال: ربِّ نجني من القوم الظالمين؛ لا يعتدون على وأنا قد أخطأت ووقعت في هذا الذنب من غير قصد.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[القصص: ٢٢].

لما توجه تلقاء مدين؛ أي قاصداً جهة مدين، لأن (**مدين**) -وهي معروفة الآن- هي جنوب فلسطين وشمال المملكة؛ تسمى الآن في حدود المملكة بـ (**مدينة البدع**) وهي مدينة معروفة، وهي على (**خليج العقبة**).

لما توجه تلقاء مدين؛ هذا المكان يريد أن يكون في مكان آمن ويسلم من فرعون وملأه، توجه لهذا المكان وهو قد سلك هذا الطريق وأخذ منه أياماً وهو يمشي، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ بدأ يدعو ربه، قال: أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ وأطلب من الله أن يدلني الطريق السوي المعتدل القريب الذي لا يضلني، وأن يرفق بي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يهديني ويدلني على طريق النجاة؛ (**سواء السبيل**).

شوف كيف جمع بين الدعاء وفعل الأسباب؛ سلك الطريق الذي بإذن الله ينجو فيه من عدوه، ودعا ربه أن يكون معه، وهذا هو العاقل؛ العاقل الذي لا يتكل على الأسباب لأن الاعتماد على الأسباب شرك، ولا يتكل على الدعاء ويترك الأسباب فلا يكون كذلك، وإنما يجمع بين الأمرين.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة أحد وفي غزوة بدر فعل الأسباب ودعا ربه، وأصحاب الكهف فعلوا الأسباب ودعوا ربهم؛ ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[الكهف: ١٠]؛ أووا إلى الكهف ودعوا ربهم، فهذا هو العاقل أنه يفعل الأمرين.

الوقت يضيق بنا؛ لأن الآن تنتقل الآيات إلى عندما وصل موسى إلى بلدة مدين، ماذا جرى له وماذا حصل؛ وهذا كلام متصل بعضه ببعض، فلعل نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القصص ٢٣ - ٢٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وأعمالنا.

أيها الإخوة الكرام، درسنا المعتاد في تفسير القرآن العظيم، وأيضاً في تفسير سورة القصص، وقف بنا الكلام في لقائنا الماضي عند الآية الثانية والعشرين من سورة القصص، وتلاحظون أن سورة القصص يذكر الله فيها قصة موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بتوسع مع فرعون، ثم تنتقل في السورة في الأخير مع قصة قارون.

الآن في قصة موسى تمر بمراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة الولادة والرضاع، وهذه مرت معنا.

المرحلة الثانية: مرحلة الشباب والقوة والفتوة التي مر بها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص: ١٤]، وحصل ما حصل منه، ثم بعد ذلك فراره من مصر ومن فرعون وبطشه إلى مدين.

المرحلة الثالثة: تأتي المرحلة التي مكث فيها مدة من الزمن وهي مدين حتى استقر هناك وعمل عند صاحب مدين وتزوج، ثم عاد من مدين إلى مصر لأمه ولإخوته وأقاربه، هذه مراحل لما عاد حصل ما حصل أيضاً من تكليفه بالرسالة والوحي وذهابه إلى فرعون وبيان موقف فرعون وملئه مما جاء به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

الآن نحن في مرحلة فراره من فرعون وبطشه إلى مدين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية الثانية والعشرين، قال: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢].

الآن لما جاء الرجل قال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]؛ قال: إنهم يتشاورون في قتلك فاخرج إني لك من الناصحين، فـ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١].

ولاحظوا أن -حتى نعرف ونفهم جيداً في الآيات- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يذكر هذه المواقف العظيمة لموسى وتثبيته واتخاذه الأسباب مع عدم غفلته عن الدعاء؛ شوف لما خرج خائفاً يترقب يميناً وشمالاً ويخاف أن يُقبض عليه، يقول وهو يمشي ويتسبب في الأسباب لأنه خرج خائفاً، خرج منها، من هذه البلدة -يعني اتخذ الأسباب- ومع ذلك يدعو، قال: ربِّ نجني، قال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]؛ نجني وخلصني وسلمني من فرعون وبطشه وملئه، القوم الظالمين الذين ظلموا بني إسرائيل واضطهدوهم وعذبوهم وذبحوهم.

فلما خرج من مصر توجه تلقاء مدين -يعني جهة مدين- جهة مدين من مصر على طريق الشام، يعني من مصر إلى الشام.

مدين تقع في جنوب الشام وفي شمال غرب الجزيرة العربية عند خليج العقبة، هذه هي مدين وهي موجودة الآن، وفيما أعلم أنها تسمى بمدينة (البدع)، وهي معروفة الآن.

هذه مدين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، يعني جهة مدين، بدا يتوجه إلى طريق مدين، ومع أنه اتخذ الأسباب إلا أنه لم يغفل عن الدعاء، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]؛ (عسى) هذا فعل يفيد الرجاء، يعني يرجو من ربه أن يهديه سواء السبيل؛ يعني يهديه الطريق، الطريق المستقيم الذي يوصله إلى هذه البلدة التي يسلم فيها من فرعون.

- **لماذا اختار مدين؟ لماذا لم يتوجه إلى جهة أخرى؟**

الجواب: لأن مدين لم تكن في حكم فرعون، كانت خارجة عن حكم فرعون، ولذلك هو أراد أن يخرج حتى لا تكون في سلطان فرعون، ولذلك خرج من حكم فرعون إلى مدين، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]؛ يعني السبيل المستقيم، الطريق الذي يوصلني بهدوء وبسرعة وحتى لا أضيع.

ولذلك يذكرون أن الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللهُ خرج من -أظن خرج من مدينة عنيزة- متجهاً إلى إحدى البلدان -ما أدري هل هو إلى الرياض أو إلى مكة أو إلى المدينة- فتاه في الطريق، تاه، لا يدرون، كان معهم سيارة قديمة، والطريق غير معبَّد، وضيعوا الطريق، فكان السعدي معهم، فنزل السعدي وهم يبحثون عن الطريق فقال هذا الدعاء، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، وبدأ يكررها ويقول لهم: قولوا هذا الدعاء، فركبوا السيارة وتوجهوا وفعلاً سلكوا الطريق.

فهذا الدعاء ينفع للإنسان إذا تاه في طريق، أو ضيَّع، أو اشتبهت عليه الطرق؛ أن يدعو بهذا الدعاء: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]، فهداه الله سواء الطريق المستقيم السريع، فوصل إلى مدين وهي مسافة بعيدة أخذت أياماً طويلة، لكنه وفقه الله ويسر أمره فوصل.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]. لما ورد ماء مدين، (ورد) يعني وصل على أطراف مدين ولم يدخلها؛ لأن كلمة (وَرَدَ) في القرآن تأتي بمعنى الدخول كقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، يعني داخلها.

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]؛ أي أدخلهم النار، فالورود الأصل فيه الدخول للشيء، وقد يكون الورود بمعنى الوصول إلى الطرف وعدم الدخول، مثل ما حصل مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنه وصل إلى أطراف مدين ولم يدخلها، كما ذكر كثير من المفسرين أن هذا الماء الذي يسقون، الذي يسقي الناس منه، كان في أطراف مدين.

ولذلك قال: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]؛ ما قال: ولما ورد مدين، لو قال: ورد مدين لعرفنا أنه دخل مدين، لكن لما قال: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٣] كان على حدود مدين وعرفنا أنه توجه إلى مدين.

- **ما هي مدين؟**

عرفناها، مدين ذكر بعض المفسرين سميت مدين نسبة إلى (**مدين بن إبراهيم**) عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقال إن إبراهيم له أبناء غير إسماعيل وغير إسحاق، قالوا له مدين، ولكني أنا ما أستطيع أن أجزم، الله أعلم بذلك، الله أعلم، لا نستطيع الجزم؛ لأن المشهور أن إبراهيم كبر في السن ولم يُرزق بأولاد إلا إسماعيل من

هاجر، وإسحاق من سارة، وأما البقية ما ندري، والله أعلم، لكن هم يقولون هذا، لكن مدين قد يكون جدّاً من الأجداد الذين نُسبت إليهم هذه البلدة، مثل عاد ومثل ثمود وغيرهم.

مدين قال: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص: ٢٣]؛ يعني وجد جماعة كثيرة يسقون مواشيهم، يأخذون من هذه البئر ويسقون المواشي.

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣]؛ أي من دون هؤلاء الناس، الأمة الكثيرة، وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما، معهما غنم، وتذودان -معنى **(تذودان)**- أي تردَّان الغنم وتمنعانها من أن تشرب، وتحرسانها حتى لا تذهب يميناً ولا شمالاً.

هذا معنى **(الذود)**؛ يذودها يعني يمنعها حتى لا تذهب. فهاتان المرأتان واقفتان قريباً من الماء ومن البئر، والناس يسقون مواشيهم، وهؤلاء قد تنحوا قليلاً ويمنعون الأغنام أن تأتي إلى الماء تذودان.

لما رآهما موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو صاحب الخلق الطيب، وعنده الشيمة الطيبة وشيم الأخلاق، ولم يتركهما، رآهما بنتين ضعيفتين لم تدخلا مع هذا الزحام، فعطف عليهما فقال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: ٢٣]؛ أي ما شأنكما؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

قالتَا: لا نسقي المواشي التي معنا -الغنم لا نسقيها- ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾ [القصص: ٢٣]، يعني يرجع الرعاء، و**(الصدور)** العودة، يرجعون، والـ **(الرعاء)** جمع راعٍ، والراعي هو صاحب الغنم أو البقر أو الإبل.

قالت -يعني هي أو هاتان البنتان تقولان-: نحن لا نقترب، لا نسقي المواشي التي معنا -الأغنام- حتى يذهب الرعاة، فإذا خلا المكان أتينا بالأغنام وجعلناها تشرب، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣]؛ يعني كأنهما تبينان السبب.

أول شيء: نحن بنات لا نختلط بالرجال، ومن العيب وغير اللائق بنا أن نزاحم الرجال ونختلط بهم، بل نتنحى عنهم، ثم إن الذي دعانا نأتي أن أبانا شيخ كبير ما يستطيع أن يأتي ولا يسقي، ولكبر سنه قد يتكلف المجيء، فلذلك نحن نقوم بمقامه وليس عندنا من يقوم من الرجال.

لو كان عندنا رجل يقوم بهذا العمل ما أتينا إلى هذا المكان وزاحمنا، وانتظرنا حتى يذهب الرجال ونحن لا نختلط بالرجال ولا نزاحمهم، وهذا يدل على أن البنتين قد تحلَّتا بالأخلاق الحسنة والأدب والحياء، وأن الأصل في المرأة ألا تختلط بالرجال وألا تزاحم الرجال، بل تبتعد عن أماكن الزحام.

قال: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٤]، لما رآهما هكذا قال: خلاص أنا أسقي الغنم، وأدخل الأغنام وبدأت تشرب، تشرب بقوة، أدخلها بقوة؛ لأن هناك رجالاً، وفيه مواشٍ وفيه إبل وذا، فأدخلها بقوة، فرأوا من جَلَده وقوته ونشاطه.

ذكر بعض المفسرين: **"أن الرعاة كانوا إذا انتهوا أغلقوا البئر بحجر كبير، هذا الحجر لا يستطيع أحد أن يزيحه، إلا سبعة من الرجال، فلما أغلقوه وذهبوا قام موسى وأزاحه بقوة، لقوة موسى ونشاطه، لكن هذا الله أعلم بصحته، لا نستطيع الجزم به، لكن عموماً هو سقى لهما، هذا الذي ذكر القرآن"**.

ثم لما سقى لهما قال: خلاص هذه الآن الأغنام شربت وانتهت خذوها واذهبوا بها.

ثم هو -موسى- توجه إلى ظل، ﴿تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤]، ظل شجرة أو ظل جدار فجلس فيه. وتلاحظون أن موسى كلما يفعل شيئاً يتوجه، لا ينسى دعاء ربه، متعلق بربه، ولذلك لما جاء تحت الظل قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]؛ يقول: أنا في خير ونعمة، نعمة عظيمة، ومع ذلك لا زلت فقيراً إلى ربي، وهذا هو مثل ما تدعو أنت في دعائك تقول: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَفْقَرَ عِبَادِكَ إِلَيْكَ، وَأَغْنَى خَلْقِكَ بِكَ**»؛ فالإنسان دائماً فقير إلى ربه، ضعيف، محتاج إلى ربه، لا يتكل على نفسه، ولا يستغني عن ربه طرفة عين.

ولذلك هنا قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]؛ صحة وعافية وأمن وسلامة ونعم عظيمة، ومع ذلك أنا فقير محتاج إليك.

وهو في جلوسه واستقراره، البنتان ذهبتا إلى أبيهما ودخلتا عليه، فاستغرب مجيئهما سريعاً -يعني جاؤوا بسرعة والعادة يتأخرون- فلما سألهما قالتا: والله وجدنا رجلاً صالحاً فعل كذا وكذا وكذا، فقال: ائتوني به.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ هنا: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥]، فأرسل إحدى البنتين أن تدعو هذا الرجل، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، جاءت إحدى البنتين إلى موسى وهو تحت الظل وهي تمشي على استحياء.

قال بعض المفسرين: **"إن عليها قميصاً واسعاً أو جلباباً واسعاً، وكان له أكمام واسعة، فكانت تأخذ بالكم وتغطي وجهها من الحياء، فجاءت على استحياء"**، وهذا هو الأصل في المرأة أنها تنشأ على الحياء والاستحياء، وألا ترفع صوتها أمام الرجال، وألا تخالط الرجال، وألا تتكشف أمام الرجال، فهذه تمشي على استحياء وأدب وخلق.

فلما وصلت إليه قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]، ولم تكثر الكلام والوقوف عنده، وإنما أعطته هذه الكلمات ومشت: أن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فلما سمع منها هذا الكلام، وأن أباها يدعوه أن يأتي، فلما وسمع هذا، جاء مباشرة معها.

يذكر بعض المفسرين: **"أنها كانت تمشي وهو خلفها، وكانت الريح تسف بثيابها وترفع حتى تظهر أطراف قدميها"**، فقال لها موسى: لعلي أتقدم عليكِ وأنتِ تدليني المكان، وهذا أيضاً ما نستطيع أن نجزم به، هذه كلها أقوال ينقلها المفسرون ولا نستطيع الجزم بها، الله أعلم.

فلما جاءه قص عليه القصص، لما جاء موسى إلى هذا الرجل (صاحب مدين) قص عليه القصص، قال: القصة كذا وكذا، وأنه حصل مني كذا وحصل مني كذا، وأني فررت من بطش فرعون في مصر، قال: ﴿لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥]؛ لا تخف، أنت في أمن؛ لأن بلدة مدين ليست في حكم فرعون، لا تخف نجوت من القوم الظالمين، وعَرَف أنهم قوم ظالمون، وأنهم يبطشون ويقتلون، فقال: نجوت.

قالت إحداهما لما سمعت الحوار وكذا: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦] -يعني يريد أن يعمل عندنا أجيراً، يقوم بهذا العمل، يذهب بالأغنام ويعود ويشتغل عندنا ﴿اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]؛ استأجره يا أبتِ، إنه أفضل مَن تستأجر.

لماذا؟ قالت: لأنه القوي الأمين، قوي لأنه زاحم الرجال وسقى لنا الأغنام، أو أنه رفع الحجر، والأمين لأنه أدى هذا الشيء بأمانة، أو يقال إنه أمين لأنه لما رآها تمشي أمامه والرياح تسف بثيابها قال لها: كوني خلفي، الله أعلم بذلك، ﴿الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ولذلك استنبط أهل العلم أنه ينبغي للعامل أو الأجير أو السائق أو الخادمة أو مَن يعمل عندك أن يتصف بصفتين: القوة والأمانة، فإذا كان قوياً وأميناً يكون هذا أفضل شيء.

قال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧]؛ قال: اجلس عندي واعمل عندي، وأجرتك أن أزوجك، أن أزوجك إحدى هاتين البنتين، إحدى ابنتي هاتين، حتى قال بعض المفسرين إنه زوجه تلك البنت التي جاءت إليه على استحياء وهي التي قالت: استأجره، الله أعلم بذلك.

فقال: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧]؛ يعني ثمان سنوات، ولاحظ أنه يقول: (**حجج**)، والحجج جمع حجة، إذن هم يمشون على التواريخ الهجرية، التواريخ الهجرية؛ لأنك لا تعرف كلمة حجة في التواريخ غير العربية أو غير القمرية، فقال: ثماني حجج، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾ [القصص: ٢٧]؛ يعني وصلت إلى العشر فهذا من عندك، فإن أتممت عشراً فمن عندك.

ثم قال له الرجل هذا: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]؛ لا أريد المشقة عليك، ستجدني -إن شاء الله- من الصالحين، كلمة (**إن شاء الله**) للتبرك، ستجدني صالحاً وستجد إن شاء الله الراحة عندي ولا تجد مشقة.

فقال له موسى بعد ذلك، قال: ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨]؛ خلاص -يعني أنا اتفقت معك وأنت اتفقت معي، تم الأمر- ﴿ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ [القصص: ٢٨].

﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ [القصص: ٢٨]؛ أنا إما الثمان سنوات أو العشر فلا عدوان عليّ؛ يعني لا أعتدي عليك ولا يأتيني شيء منك، لا عدوان عليّ، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨]؛ والله وكيل، وقد فوضنا أمرنا إلى الله، وتم الأمر والعقد انتهى الأمر.

أحياناً نسمع أن صاحب مدين هذا هو شعيب، كثير منهم يقول: ابنتا شعيب، ابنة شعيب، وصحيح عدم تسميته بشعيب؛ شعيب مَن هو؟ هل هو شعيب صاحب مدين؟ وإلى مَن دُعِي؟ شعيب لا يمكن هذا.

لماذا؟ لأن بين شعيب وبين موسى مسافة من الزمن طويلة، ما يمكن أن يقال إن هذا هو شعيب، ثم كلمة (شعيب) هذه ذكرها المفسرون ولا دليل عليها، فنحن ماذا نقول؟ صاحب مدين وبس، والله أعلم بذلك.

ولكن لا نستطيع الجزم بأنه شعيب أو غيره، والله أعلم؛ لأن شعيب في زمن قديم، ولو فرضنا أنه شعيب لا يمكن لشعيب وهو نبي أن يترك بناته يذهبن، ولا يمكن لشعيب وهو نبي، وبعدين إن شعيباً قد أهلك الله قومه ونجاه هو ومَن آمن معه وأهلك قومه، فكيف يعملون بالسقي كذا وهم موجودون وقد أهلكهم الله؟ لأنهم كفروا وردوا رسالته.

ثم حتى ذكر الشيخ السعدي قال: ما يمكن لشعيب وهو نبي أن يجعل موسى وهو كليم الله ومن أولي العزم أن يعمل عنده، كل هذه الله أعلم بصحتها، عموماً يعني الآن مكث عشر سنوات وانتهت.

- **هل مكث ثمانياً أو عشراً؟**

يقول ابن عباس: **"إن موسى وفى بأتم الأجلين وأكمل الأجلين، يعني العشر"**، والله أعلم.

فعموماً لما تم العشر أخذ أهله ليعود إلى مصر، وهذا الكلام يأتي في اللقاء القادم إن شاء الله، نستكمل القصة؛ ماذا جرى لموسى بعدما أتم المدة التي اتفق مع صاحب مدين؟

لما انتهت المدة ذهب إلى مصر، وفي مروره بجبل الطور كلَّمه الله وكلَّفه بالرسالة، يأتي الحديث إن شاء الله في اللقاء القادم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القصص ٢٩ - ٣٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الرابع من شهر ذي القعدة من عام (١٤٤٤ هـ).

في هذا اليوم وهذا المجلس المبارك، نستأنف ونستكمل ما توقفنا عنده من سورة القصص، حيث وقف بنا الكلام عند ما اتفق موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع صاحب مدين على أن يبقى عنده هذه السنين، ويعمل عنده مقابل أن يزوجه.

وهذه الآية استنبط منها بعض العلماء جواز أن يكون مهر منفعة؛ يعني المهر الأصل فيه هو أن يكون يعني مالاً أو أجراً يدفع للمرأة، فإذا اتفقت المرأة مع الزوج على أن يكون المهر منفعة ومصلحة فهذا جائز؛ لأن في هذه الآية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقر وذكر قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن صاحب مدين اتفق معه على أن يأجره، موسى قال: ﴿تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧]، أن تبقى عندي أجيراً تشتغل وتعمل مقابل أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين، فاتفق عليه وزوجه، ولما زوجه بقي عنده، كم بقي؟ عشر أو ثمان؟ الآية تقول ثمان حجج، ﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ [القصص: ٢٧].

- **هل أتم العشر أو أنه بقي على الثمان؟**

يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْه: "إن موسى أكمل العشر، وإن موسى كان محسناً ويعني ومكرماً لصاحب مدين، ولذلك زاده وإكراماً مقابل أنه زوجه وفرح به"، فلذلك قالوا: إن موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- مكث عشراً وأعطاه يعني أوفى الأجلين، أوفى الأجلين.

لما قضى موسى الأجل وانتهت المدة التي اتفق عليها، استأذنه أن يذهب إلى أهله؛ إلى أمه في مصر وإخوته، أخته وأخوه هارون، وأسرته وأصحابه وعشيرته. فاستأذن أن يذهب لطول المدة التي انقطع عنهم، وليس هناك يعني شيء من التواصل بينهم، انقطاع، هم لا يدرون.

قد يمكن قد يكون موسى أخبر أمه بأنه حصل كذا وكذا وأنه سيهرب من القتل، قد يكون ذلك الأمر أنه أخبرهم، لكنهم لا يدرون أين جهته، لا يدرون أين جهته ولا يدرون ماذا كان ماذا جرى له.

فلما قضى موسى الأجل -المدة المتفق عليها- ومثل ما ذكرنا أنه وفى العشر سنوات وهي أكمل الأجلين وأكمل المدتين، سار بأهله -زوجته- إلى مصر، سار بأهله. فلما سار وهو في الطريق ضل الطريق، كان في ليل مظلم وليلة باردة من ليالي الشتاء وقد أضل الطريق لا يدري وتاه، فلما تاه الطريق وقد وصل إلى جبل الطور وإلى الوادي المقدس.

﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]؛ أبصر يعني آنس يعني أبصر من جانب الطور ناراً، فلما رأى ضوء النار وضياء النار قال لأهله: انتظروا وامكثوا، إني آنست ناراً؛ إني رأيت ناراً سأذهب إليها وأشوف وأرى من عندها لعلهم يرشدونني إلى الطريق، أو على الأقل آخذ منهم قطعة وقبس وجذوة من النار نستدفئ بها، شعلة من النار نستدفئ بها نشعلها معنا ونستدفئ بها حتى نرى أين الطريق.

- **فهنا سؤال يقول: قال لأهله ﴿امْكُثُوا﴾ [القصص: ٢٩]، هم امرأة واحدة ولا أكثر حتى يقول امكثوا؟**

الجواب: يجوز أن يقول الرجل لامرأته انتظروا واجلسوا، هذا لغة العرب، يجوز يعني إطلاق الجمع على الواحد، فتقول: اجلسوا هنا أو اركبوا أو تعالوا، فهذا جائز.

وبعض أهل العلم يقول: "إن موسى لما قال امكثوا كان معه زوجته ومعه خادم".

وبعضهم يقول: "كان معه زوجته ومعه من الأولاد اثنان". يعني أولاده اثنين وزوجته، لأنه مكث عشر سنوات وقد رزق بأولاد، والعلم عند الله، والله أعلم بذلك، فاحتمال أن يكون امرأته وحدها، واحتمال أن يكون معه، العلم عند الله، لكن هذه كلها اجتهادات من بعض أهل العلم.

قال: ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]؛ أبصرت ناراً، ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩] يعني من يدلني على الطريق حيث أنه تاه الطريق، ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩] يعني قبس وشعلة من النار ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، (الاصطلاء): التدفّي، تستدفئون، يعني يصطلي على النار؛ يعني يصلي يديه وأيضاً يعني سائر جسمه حتى يستدفئ بهذه النار ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

فلما استأذن أهله وذهب ووصل إلى هذه النار، فلما أتاها -أي النار، أتى موسى النار- ناداه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نودي؛ أي ناداه الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [القصص: ٣٠]، الأيمن لموسى؛ لأنه قد يكون أيمن من هنا قد يكون أيمن من هنا، لكن قالوا الأيمن لموسى؛ لأن موسى قادم من جهة الشام متوجه إلى مصر، فلما وصل هذا الوادي كان الجبل، شاطئ الوادي الأيمن على الجبل عن يمينه جبل الطور.

قال: ﴿مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] وهو الوادي المقدس البقعة المباركة التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]، والوادي اسمه طوى.

فـ ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠]، وكانت الشجرة قريبة منه، والوادي، واستبطن الوادي، والجبل أيضاً قريب منه، فلما وصل هذا المكان ناداه رب العالمين وكلمه: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] فقربه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وناداه، فلما وصل ما وجد النار، فلما وصل فقد يكون هناك نور من الله أو قد يكون نور من الأرض، إذاً لما وصل هذا المكان ناداه رب العالمين.

وقال: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]. (الله): يعني الإله المعبود الذي يستحق العبادة، و(**رب العالمين**): هو الرب الخالق الذي ربى الناس وخلقهم وأوجدهم ورزقهم.

فجمع الله بين الإلهية -أو الألوهية وهي العبودية- والربوبية، فهو الرب الإله، الرب الإله، ليبطل ما ادعاه فرعون لما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، أو قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، هذا هو الإله الحق وهو رب العالمين.

العالمين: كلّ يدخل فيها؛ عالم السماوات وعالم الأرض، بنو آدم والحيوانات والملائكة وغيرهم، كلهم يدخلون في العالمين، فلما بين له أن الذي يناديه هو رب العالمين وانه هو الله الذي لا إله إلا هو، كما في سورة طه: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

لما ناداه، قال: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١]. في سورة طه قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ١٧]، هذا السؤال يسميه أهل العلم (**سؤال الاستئناس**)؛ ليدخل الأنس عليه ويذهب الروع عنه، وإلا جَلَّ وَعَلَا يعلم ما في يمينه ويعلم أن العصا في يمينه.

لكن من إدخال السرور عليه والاستئناس وإذهاب الوحشة عنه قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ۝١٨﴾ [طه: ١٧-١٨]، وهنا لم يأتِ بهذا وإنما قال: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١]؛ يعني العصا التي بيمينك ألقها.

فألقاها موسى، فلما ألقاها رآها تهتز، لما ألقاها رآها تهتز، ألقاها موسى فصارت حية تهتز، فلما ألقاها: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [القصص: ٣١]؛ يعني ألقاها، ألقى العصا على الأرض فانقلبت حية تسعى، قال: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى ۝١٩ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۝٢٠﴾ [طه: ١٩-٢٠]. قال: فرآها تهتز كأنها جان.

شوف هنا وصفها الله بأنها كأنها جان من الجن، ووصفها في سورة طه حية تسعى، وجاء في سورة الشعراء: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢]. الثعبان قالوا: هو الذكر، هو الذكر من الحيات، الثعبان، والحية هي الأنثى، والجان من الجن كيف نجمع بينها؟

قال بعض أهل العلم: **"إن معنى وصفها بالجان لسرعتها وحركتها السريعة، سرعتها وحركاتها واهتزازها بالأرض حركة الجن"**، فوصف قال: كأنها جان.

وكونها حية؛ لأنه أول ما ألقاها عند في هذا المكان، عند الوادي أو عند جبل الطور عندما ناداه الله، ألقاها فإذا هي حية، والحية صغار ثعابين الإناث، ولما ذهب إلى فرعون وألقى عصاه عند فرعون انقلبت ثعباناً مخيفاً ضخماً، فهذا والله أعلم لما يقال هنا وهنا، هذا والله أعلم قد يكون الجواب.

فلما رأى موسى بهذا الشكل: ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [القصص: ٣١]؛ ولى مدبراً يعني رجع مدبراً إلى الخلف ولم يعقب؛ لا، لم يلتفت أبداً ولم يرجع، ولى مدبراً لما رآها تضطرب كأنها جان سريعاً، وحية انقلبت حية، ولى هارباً منها ولم يلتفت من شدة الخوف.

فناداه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]؛ أقبل إلي وارجع ولا تخف، ليزل عنك ليزول عنك الخوف، لا تخف كن من الآمنين، ولذلك قال: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾، آمنين من كل مكروه.

فلما سمع بهذا الكلام وهذا الوعد، وأنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينهاه عن الخوف، قال: ﴿لَا تَخَفْ﴾، ثم قال: ﴿أَقْبِلْ﴾، أمره بالإقبال وبشره بأنه من الآمنين لا يضره شيء، رجع مقبلاً.

وفي سورة أخرى قال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: ٢١]، خذها ولا تخف، فأخذها.

ثم أعطاه آية أخرى فقال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [القصص: ٣٢]؛ أدخل يدك في فتحة القميص، الجيب: فتحة العنق، كل قميص وثوب له فتحة يدخل العنق منها، هذه الفتحة قد تكون واسعة قد تكون ضيقة، هذه الفتحة يسمى الجيب.

أما بعض الناس، بعض العامة، يسمي الجيب يعني ما يسمى بالمخباة أو نحو ذلك يسمونه جيباً، يقول: جيبك الأسفل وجيبك العلوي، هذا تجوز منه فقط، وإلا الأصل أن الجيب فتحة العنق، لكنهم يسمون هذا الجيب لأنه فيه فتحة، في فتحة تضع فيها يعني حوائجك.

قال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ [القصص: ٣٢] يعني جهة الصدر، واخرجها مرة أخرى، ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [القصص: ٣٢]؛ تخرج بيضاء كالثلج مضيئة حتى تضيء ما حولها من غير سوء يعني من غير مرض أو من غير شيء يكره كالبرص ونحوه، قال: من غير سوء.

فكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٣٢]؛ فذلك برهان وأيتان اللي هي اليد والـ نعم، اليد أن العصا تنقلب ثعباناً واليد تخرج بيضاء، اليد والعصا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]. الجناح: هي اليد من العاتق من الكتف إلى آخرها يسمى جناحاً، مثل جناح الطائر هذا يسمى جناحاً، جناح تجوزاً يسمى جناحاً.

قال: اضمم جناحك ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ يعني يدك واضممها إلى الإبط، العضد ضمه إلى الإبط، لماذا؟ قال: ﴿مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي ليزول عنك الخوف ويزول وتزول عنك الرهبة.

الإنسان دائماً إذا شعر بخوف ترتجف فرائصه، ما تحت الإبط هذه الفرائص ترتجف، فإزالتها وإبعاد الرجف عنها أن تضم جناحيك إلى إبطيك أو إلى جنبيك فيزول، وأحياناً تجد حتى في الواقع الإنسان في وقت البرد شدة البرد إذا ضم جناحيه أو يديه على صدره وعلى جنبيه يعني يشعر بشيء من الدفء ويزول عنه تزول عنه يعني الرعشة هذه أو نحوها، قال: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾ لتأمن من الخوف.

قال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [القصص: ٣٢]؛ ذلك يعني هذا، هذان برهان -اللي هو اليد والعصا- من ربك إلى فرعون وملئه؛ يعني اذهب بها إلى فرعون وملئه، إلى فرعون وملئه يعني أشرافه وأعوانه وجنوده، اذهب بها إلى فرعون وادخل إلى فرعون وأره هاتين الآيتين إلى فرعون وملائه، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

يقول لفرعون وملائه: اذهبوا وبينوا لهم هاتين الآيتين وأقم عليهم حجة وادعهم إلى عبادة الله.

- **هل ادعهم إلى عبادة الله؟**

قال: ﴿إِلَى فِرْعَوْ وعَلَيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾؛ فسقوا يعني خرجوا عن طاعة الله وتمردوا، وفي آية أخرى قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤] فهم أفسدوا في الأرض وقتلوا وطغوا في البلاد وأفسدوا فيها وفسقوا وخرجوا عن طاعة الله، خرجوا عن طاعة الله.

فأرسل الله موسى إلى فرعون وملائه ليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ۝١٩ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَى ۝٢١﴾ [النازعات: ١٨-٢١]. قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]؛ كأنه يعني يقدم اعتذارات ليكون يعني هو لا يريد أن يعتذر عن الرسالة، وهذا مستحيل، بل هو فرح بهذه الرسالة واستبشر خيراً، وكيف ما يفرح والله رب العالمين يكلمه ويكلفه بالرسالة؟

وهنا قال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤]؛ هارون أفصح مني نطقاً، فأرسله معي عوناً، ﴿رِدْءًا﴾ يعني عوناً يصدقني، يعني يصدقني يعني يساعدني على أنني صادق، يبين لهم إذا خاطبهم، قال: هذا موسى وهذا أنا جئتكم، فيؤيده يعني يصدق يعني أيده برسالته.

قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤]؛ إذا جئت وحدي قد يكذبونني وهم سيردون سينتقمون مني، لكن إذا جاء معي يعني كما قال: ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠﴾ [طه: ٢٩-٣٠].

ولاحظ هنا شوف عشان تعرف يعني شوف على أن موسى يعني في مكانة عظيمة والله شرفه بالرسالة والنبوة، ومع ذلك شفت تواضعه يقول: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي﴾ [القصص: ٣٤]؛ الاعتراف بالحق فضيلة، والإنسان ما إذا وجد عند غيره ما هو أفضل منه أن يجده وأن لا يجد إليه وأن لا يثني عليه، لا، يقول موسى يقول هارون وهو أقل مني في الرسالة وأنت شرفتني، هو أفصح مني هو أفصح مني كلاماً، فليكن معي في الرسالة أشركه معي أشرك معي، فإني أخاف يكذبون إذا رحت وحدي فأرسله معي ردءاً يصدقني.

قال الله لموسى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]؛ أي سنقويك، نشد العضد يعني نقويك بأخيك، وزيادة على ذلك: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ يعني حجة قوية على فرعون بحيث لا يستطيع أن يخصمكم أو يتقوى عليكم بالخصومة والجدل.

قال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾؛ حجة على فرعون وقومه فلا يصلون إليكما بسوء، لا يضركم لن، قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، ﴿لَا تَخَافَا﴾ [طه: ٤٦].

قال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]؛ يعني أنتما - يعني موسى وهارون- بآياتنا أنتم ومن اتبعكم الغالبون؛ يعني بسبب آياتنا وما دلت عليه من الحق أنتم الغالبون والغلبة لكم، فبشارة من الله وخبر من الله ويقين بأنهم لن يضروه، بأن قوم فرعون لن يضروا موسى ولا هارون ولن يمسوهم بسوء.

ثم ألقى البشارة الأخرى أن الله سبحانه أخبر بأن موسى وهارون سيكون لهم أتباع وأنهم سيكونون هم الغالبين على قوم على قوم فرعون.

كيف يأتي موسى وحده ويكون معه هارون وحده ثم يخبره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه سيتغلب على فرعون؟ من يتغلب على فرعون في ذلك الوقت الذي يذبح الأبناء ومعه جيشه العرمرم الشديد؟ يعني هذا شيء يستبعده الإنسان.

فلما جاءهم موسى بآياتنا، لما وصل موسى إلى فرعون ودخل عليه في قصره: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾ [القصص: ٣٦]؛ جاءهم بالأدلة والحجج الواضحة البينة، وهذه المعجزات لما رأوها قالوا، قال: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ

شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٤٩-٥٠]، قال: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء: ٣٠-٣١]، فألقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء.

قال: هذا سحر، لما جاء بآياتنا بينات قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾؛ يقول: يا موسى أنت والآيات التي معك أنت ساحر، وما معك سحر، ما جئتنا به سحر تفتري علينا وتكذب علينا، ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦]؛ يقول: ما سمعنا بهذا الذي تدعو إليه أنت وتقول، ما سمعنا ما ذكر عند آبائنا، وهم يعلمون أن موسى أن يوسف قد جاءهم بالبينات؛ لأن مؤمن آل فرعون قال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكّ مِمّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ [غافر: ٣٤].

فهم يعرفون ذلك لكن هو لا يريد ويموه على قومه، قال: الذي معك سحر، نحن نعرف السحر، وأما كلامك هذا لا يقبل؛ لأن ما سمعنا في آبائنا أن هناك إلهاً وهناك رباً غيري، وما فيه حتى تقول فيه رب وفيه جنة وفيه نار وفيه كذا وكذا.

ورد عليه موسى بقوة: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدّارِ إِنّهُ لَا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧]؛ ربي أعلم، ربي أعلم بالمحق منا والكاذب، ربي أعلم بمن جاء بالهدى وجاء بالحق من عنده والرشاد من عنده، ومن الذي له العقبة المحمودة في الدار الآخرة ومن له عاقبة الدار؛ أي النجاة في الآخرة والسلامة والفوز بالآخرة.

قال: ﴿إِنّهُ لَا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ﴾، الظالمون في خسار ولن يفلحوا لا في الدنيا ولا في الآخرة، فلا تظلم نفسك يا فرعون وتظلم من معك، فعليك أن تعود إلى ربك: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٩]، وما جاء به موسى هو الحق ولكنه لا يريد ذلك، فلم يقبل ذلك واصر على عناده واستكبر ولم يقبل ذلك.

لا تزال الآيات مستمرة والوقت يضيق بنا، لعل نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

(القصص ٣٨ - ٥٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين؛ اللّٰهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ لقاء الثلاثاء، وهذا اليوم هو اليوم الثالث من شهر ذي الحجة من عام أربعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي تحدثنا عنها في لقاءات ماضية هي سورة (القصص)، قطعنا فيها مسافة في التفسير، وأيضاً قرأنا فيها عدة آيات. وصل بنا الكلام عند الآية الثامنة والثلاثين؛ هذه الآية تتحدث عن موقف فرعون وملئه، وأن فرعون لما جاءته الآيات وجاءه موسى بالآيات البينات ردها هو وقومه.

وقالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ [القصص: ٣٦]؛ يعني: أنت يا موسى ساحر، وما جئت به سحر، لما ألقيت العصا فانقلبت ثعباناً وأخرجت يدك فإذا هي بيضاء، هذا السحر نجمع لك السحرة. في آيات أخرى قالوا: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۝١١١ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝١١٢﴾ [الأعراف: ١١١-١١٢]؛ يعني رفضوا دعوة موسى ولم يقبلوها، وردوا عليه.

ردَّ عليهم موسى؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ حكاية عنه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧]؛ هذا ليس بسحر، هذا هدى، هداية للناس ونور، الله أعلم بمن جاء بالهدى من عنده، ومن تكون له عاقبة الدار.

يعني كأنه يقول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لهم: يعني انظروا، هذا هدى جاءكم، وأيضاً مآله خير لكم في الدنيا والآخرة، ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧]، فلا تظلموا أنفسكم، ولا تظلموا هذه الآيات التي جاءتكم بردِّها.

- **ماذا كان موقف فرعون؟**

ذكر أهل التاريخ والسير والقصص أن فرعون لم يكن بذلك الذكاء الذي يؤهله إلى أن يصل إلى هذه المكانة، وليس عنده من العلم ما يستطيع أن يجادل؛ فهو دائماً إذا جادله موسى بالحجة وأقام عليه الدليل فإنه لا يقابله بالدليل ولا يقابل الحجة بالحجة، وإنما يفر ويذهب إلى القوة، أو يشغل غيره عن دعوة موسى؛ فهو لما جاءه موسى بالدعوة كان موقفه قال: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، استعمل القوة.

وهنا لما جاءه بالدليل وأقام عليه الحجة ماذا صنع؟ بدأ يصرف الناس عن موسى بأن يدعي هو أنه هو الإله، وأن موسى ليس له إله، وليس هناك إله؛ ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ حكاية عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]؛ نادى قومه ولأشرافهم: يا أيها الملأ، نادى الملأ الأشراف الذين لهم مكانة، والذين يقبلون كلامه والذين يروجون للناس، لعامة الناس.

قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]؛ ليس لكم إله غيري، أنا إلهكم، يعني ادَّعى **(الألوهية)** وادَّعى **(الربوبية)**؛ في سورة **(النازعات)** لما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وهنا يدعي يقول: ليس لكم إله غيري، أنا إلهكم، وليس هناك إله غيري.

يقول هنا، قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ثم بدأ يعني يموه على الملأ ومن تحتهم، وهم يعلمون أنه كاذب لكن لهم مصالح، فبدؤوا يموهون حتى يغرهم.

كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة أخرى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]؛ استخف عقولهم، أصبحت عقولهم خفيفة تتبعه في كل شيء، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

ثم نادى وزيره هامان فقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]؛ بدأ يموه عليهم، يقول يعني: أنا أنظر هل موسى صادق في دعوته وأن له إله؟ أين إلهه؟

هو يقول إلهي في السماء؛ أوقد لي يا هامان؛ يعني أشعل لي النار على الطين، يعني اطبخ الطين بالنار حتى يكون صلباً قوياً وحتى يتماسك وحتى أبني صرحاً عظيماً، قال: اجعل لي صرحاً عظيماً ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

وقد ذكر أهل السير وأهل التاريخ أن هامان نادى العمال ليبنوا له صرحاً، فبنوا هذا الطين المطبوخ وبدؤوا يبنون الصرح العظيم، وصعد فرعون ليبحث عن إله موسى، صعد ليبحث عنه فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]؛ يقول: ليس له إله.

انظر كيف خفة العقل والسفه يصل إلى هذا الأمر؛ يبحث عن إله موسى وهو يعلم، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]؛ أنفسهم في الداخل متيقنة أنه حق، وهو كما قال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]؛ يعني هالكاً.

وهنا يقول: ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]؛ يؤكد الجملة، يقول: وإني بالتأكيد لا أظنه من الكاذبين، أجزم جزماً، والظن هنا معناه اليقين؛ يعني أتيقن يقيناً أن موسى من الكاذبين، ليس كاذباً فقط، لا، بل من جملة الكاذبين، وفي سورة أخرى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٧].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]؛ استكبر عن الحق، استكبر عن دعوة موسى، واستكبر عن عبادة ربه والإقرار بألوهية الله، استكبر هو وجنوده أيضاً أتباع له؛ لأنهم يطيعونه، استخف قومه فأطاعوه.

﴿وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص: ٣٩]، وبدؤوا يذبحون ويقتلون ويستحيون النساء ويهينون النساء ويحيونهم على وجه الإهانة، استكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]؛ جزموا جزماً أنهم لا يرجعون إلى الله، لو ظنوا وشكوا بالرجوع لما حصل

منهم هذا الأمر، لكنهم تيقنوا أنه لا رجعة ولا بعث ولا جنة ولا نار، وليس هناك يوم آخر، فظنوا أنهم إلينا لا يرجعون.

فاستحقوا العقوبة؛ لما جاءه موسى وأقام عليه الحجة وعاند واستكبر، لم يبقَ إلا أن تنزل به العقوبة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في العقوبة: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]؛ أخذه، المراد بالأخذ هنا العقوبة.

وكذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، قال: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ هو ومن معه ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]؛ انظر وتأمل كيف عاقبة فرعون ومن معه؛ لأنهم كانوا ظالمين، ولأجل ظلمهم عاقبهم الله هذه العقوبة، فأغرقهم في اليم.

هنا يعني اختصر الله عَزَّ وَجَلَّ عقوبته، وفي سور أخرى ذكر الله كيف عاقبه لما قال: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠]؛ فالقصة معروفة أن موسى سار بأهله ليلاً، سار بجنده، سار بمن معه من المؤمنين وبقومه المؤمنين ليلاً، ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]، فأسرى بالمؤمنين حتى إذا وصلوا البحر قالوا: يا موسى إنا لمدركون.

قال: كلا إن معي ربي سيهدين، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]، فأوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق، فجاوز الله ببني إسرائيل البحر، ثم أتبعهم فرعون وجنوده فأغرقهم في البحر جميعاً.

قال هنا: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠]، والنبذ هو الطرح والإلقاء من غير مبالاة؛ نبذه: ألقاه وطرحه من غير مبالاة، في اليم وهو الماء؛ ماء البحر.

- **وهناك فرق بين البحر واليم، لو سألك أحد يقال لك: ما الفرق بين البحر واليم؟**

الجواب: البحر هو الذي يحمل اليم؛ البحر هو الظرف الذي يحمل الماء، فالبحر هو ذات الشيء الذي يكون فيه الماء مثل الظرف ومثل الوعاء، هذا يسمى بحراً، وما فيه من الماء يسمى اليمَّ.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، ما قال فغشيهم من البحر؛ لأن البحر ثابت والماء متحرك، ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾، وقال هنا قال: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠] أي في الماء، فأغرقهم الله بالماء، قال: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]؛ لما أغرقهم الله جعلهم لغيرهم أئمة؛ يعني دعاة إلى النار، جعلهم يدعون إلى النار الناس يقتدون بهم، جعلهم قدوة لغيرهم وقادة يدعون إلى النار، جعلهم لمن لاتّباعهم أئمة يدعون إلى النار.

قال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]؛ إذا جاء يوم القيامة لا يجدون من ينصرهم، ومن يرد عنهم هذا العذاب، ومن يشفع لهم، فبسبب كفرهم وتكذيبهم لا يجدون ناصراً ينصرهم.

قال: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢]؛ أي اتبع فرعون وقومه في هذه الدنيا الخزي والعار والغضب واللعنة والطرد، هذا في الدنيا؛ في الدنيا نسمع ونقرأ في القرآن الكريم كيف تبعتهم اللعنة، وكيف أخزاهم الله وغضب عليهم.

قال: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢]؛ يعني ممن وصفوا بالقبح في أفعالهم وأبعدوا عن رحمة الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدما أهلك فرعون وقومه ونجى موسى ومن معه، أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ موسى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سينزل عليه كتاباً فيه هدى وفيه تعاليم وآداب وأخلاق وتشريع لقومه، ولذلك ذهب إلى ميقات ربه ليأخذ التوراة، ينزل عليه التوراة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]؛ أي (التوراة)، ولقد آتينا، يعني بعدما أهلك فرعون ومن معه، بعد ذلك أنزل الله التوراة، أنزلها جملة، وأنزل عليه الألواح، قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣].

- **ما هي القرون الأولى؟**

هي قوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وشعيب، وقوم إبراهيم؛ هذه الأمم الماضية قبل موسى كانت تهلك بالإبادة، بـ(الإبادة الجماعية)، بحيث أنها تنزل عليهم عقوبة تهلكهم جميعاً؛ فأغرق الله قوم نوح جميعاً إلا من آمن.

وأهلك عاداً بـ(الريح الصرصر) إلا من آمن، وأهلك ثمود بالصيحة، وأهلك قوم لوط بأن قلب ديارهم عليهم وأتبعهم بالحجارة، وأهلك أصحاب الأيكة بـ(عذاب يوم الظلة)، وهكذا هذه الأمم أبيدت جميعاً.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ هنا: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [القصص: ٤٣]؛ يقول بعد ما أهلكنا هذه الأمم لم يكن هناك عذاب عام بعدها، من بعد ما بعث الله موسى ومن جاء بعد موسى لم يكن هناك عذاب عام في الأمم، لا في أمة موسى ولا في أمة محمد، قال: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣].

قال: هذا الكتاب الذي أنزله الله وهو التوراة ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]؛ بصائر للناس يعني يتبصرون به ويبصرون ما ينفعهم ويأخذون ما ينفعهم ويتجنبون ما يضرهم، قال: بصائر جمع بصيره؛ يعني يتبصرون به، يعني تفهمه عقولهم ويستوعبون مفاهيمه.

قال: ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾، فيه الهداية وفيه الرحمة، يهتدون بهداه ويكون رحمة عليهم، ينتفعون به، قال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]؛ يتذكرون نعمة الله فيشكرونه على هذه النعمة ولا يكفرونه، يتذكرون أن الله أنجاهم من بطش فرعون وقومه.

ويتذكرون أن الله رحمهم ببعثة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويتذكرون أن الله أنزل هذا الكتاب الذي هو التوراة فيه الهداية وفيه النور وفيه الرحمة، كل هذا يحتاج منهم أن يتذكروا فيشكروا الله عليه.

هذا ما يتعلق بقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع فرعون، بل قصة موسى في هذه السورة، في سورة (القصص)، بدأها الله عَزَّ وَجَلَّ لما أوحى إلى أمه أن أرضعيه وألقيه في اليم، ثم بعد ذلك لما وجد في بيت فرعون وتربى فيه، ثم بعد ذلك لما حصل ما حصل من قتل القبطي، ثم ما حصل من فراره إلى مدين ومكثه عشر سنوات هناك.

ثم عودته ثم أوحى الله وناداه من جانب الطور، ثم ذهب إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فأصر فرعون ولم يقبل دعوته، فحصل ما حصل من إغراق فرعون ونجاة موسى ومن معه من بني إسرائيل وإنزال التوراة، كل هذه ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات.

بعد ذلك تنتقل الآيات في تذكير، تذكير قريش وأهل مكة وقوم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه النعمة وهي نعمة الوحي والرسالة، ويبين لهم أن هذه الأخبار التي تأتيهم، الأخبار التي تأتي ويسمعون قصة فرعون بتفاصيلها وقصة موسى وقصص الأنبياء السابقين، يعلمون أن هذا كله وحي، وليس من محمد.

ومحمد لا يعلمه كما قال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ۖ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩]، و﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤] في قصة مريم، وفي قصة يوسف: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]؛ كل هذه تأتي يعني في التعقيب على القصة.

هنا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في التعقيب على القصة: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]؛ يعني ما كنت بجانب الجبل الغربي من الجهة الغربية إذ قضينا إلى موسى الأمر؛ أي كلفناه بالرسالة لما ناداه الله من جانب الطور الأيمن وكلفه بالرسالة، وأمره بأن يذهب إلى فرعون: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢].

ما كنت عنده، ما كنت هناك تستمع وأنا أنادي موسى وأكلفه بالرسالة، وما كنت من الشاهدين؛ أي من الحاضرين هناك حتى تسمع أو ترى، لم تكن موجوداً هناك، بل الله أوحى إليك هذا الشيء.

قال: ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]؛ أنشأ الله أمماً كثيرة بعد موسى، فمكثوا زمناً طويلاً، تطاول عليهم العمر، امتدت بهم السنين الطويلة، فنسوا عهد الله ونسوا أمره وشرعه، فهذا هو السبب أن المدة طويلة فلم يتذكروا أن الله أوحى إلى موسى، وأن الله أرسل الرسل.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]؛ أي مقيماً في أهل مدين لما كان موسى قد أقام في مدين عشر سنين، ما كنت أنت موجوداً هناك تتلو عليهم آياتنا حتى يستمعوا.

وتقرأ عليهم القرآن فتعرفهم بقصتهم وتخبر بها، ما كنت هناك، ما كنت تتلو عليهم آياتنا، ولكن كنا مرسلين؛ كنا أرسلناك، فهذه رسالة من الله عَزَّ وَجَلَّ أوحى بها إليك يا محمد لتبلغ قومك.

ثم أكد أيضاً قال: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]؛ ما كنت بجانب الطور إذ ناديناه، ولكن رحمة من ربك، ما كنت بجانب الطور لما نادينا موسى وقربناه نجياً.

ما كنت تستمع لذلك النداء والتكليف، ولكن رحمة؛ أي هذه الرسالة التي جاءتك يا محمد رحمة من ربك لتنذر قوماً، وهم قوم محمد وهم قريش، لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون؛ يعني نحن أرسلناك وأخبرناك بهذه الأخبار.

وأنزلنا عليك القرآن، وقصصنا عليك هذه القصص، ولا قومك يعلمون ولا أنت تعلم، ولكن رحمة لتنذر قومك وهو لم يأتهم نذير من قبلك، لعلهم يتذكرون وينتفعون بهذه الرسالة.

ثم حتى تقوم عليهم الحجة: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]؛ لولا أن تصيبهم مصيبة تنزل بهم عقوبة بما قدمت أيديهم بسبب ذنوبهم.

فيقولون: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً، أنت ما أرسلت إلينا رسولاً، لو أرسلت إلينا رسولاً اتبعناه، فنحن أرسلنا إليكم الآن الرسول فلم تتبعوه، لو أرسلت إلينا رسولاً فاتبعنا آياتك ونكون من المؤمنين.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]؛ فلما جاءهم الحق وجاءهم الرسول من عندنا، وأرسلنا إليهم وأقمنا عليهم حجة، قالوا: لولا أوتي -شوف اعترضوا عليه- قالوا: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى، ما هو الذي أوتي موسى؟

قالوا: موسى أعطي آيات؛ العصا تنقلب حية، واليد، وعنده كتاب أنزل إليه جملة، وأنت يا محمد ما عندك كتاب أنزل جملة، ولا عندك آيات، فيعني هذه حجتكم، يعني لو جعلنا العصا تنقلب حية بيد محمد ويده تخرج بيضاء ستؤمنون؟ أم وإلا فقط مجرد عناد ومكابره؟

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: أولم يكفروا بما أوتي موسى، كفرتم أنتم وقوم موسى كفروا به، يكفر بما أوتي موسى من قبل، بل اتهموا موسى واتهموا محمداً، قالوا: سحران تظاهرا؛ أي تعاونا، ثم قالوا: إنا بكل كافرون.

وهذه ذكر بعض أهل التفسير أن قريشاً ذهبت إلى، أو أرسلت وفداً إلى اليهود ليسألوهم عن محمد، يسألوا اليهود عن محمد، فقالوا: والله إن محمداً الذي تذكرونه هو مذكور عندنا في التوراة بهذه الصفات، فقالوا: سحران تظاهرا، محمد وموسى كلهم سحرة، والذي معهم سحر، فالذي عند اليهود سحر والذي عند محمد سحر، فقالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه محمد: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]؛ قل لهم يا محمد: ائتوا بكتاب، فأتوا بكتاب من عند الله إذا أنتم صادقون، أعطونا كتاباً من عند الله هو أهدى منهما -من التوراة والقرآن-.

وإذا جئتم بالكتاب أنا أتبعه إن كنتم صادقين في دعواكم أن هذا سحر، أنتم ائتوا بكتاب، ولن يستطيعوا لأنهم كذبة؛ ولذلك قال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

يتبعون شهواتهم ويتبعون أهواءهم ولا يريدون قبول الحق، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]؛ يعني ليس هناك أحد أضل ممن اتبع هواه، ليس هناك أحد أشد ظلماً أن يتبع هواه وشهواته بغير هدى من الله، ليس عنده هدى من الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]؛ لأن هؤلاء ظلمة، قالوا: لولا أرسلت إلينا رسولاً، فجاءهم الرسول فكفروا به وعاندوا واستكبروا واتهموه بالسحر، فهم ظلمة في أقوالهم وأفعالهم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله نكتفي بهذا، في اللقاء القادم إن شاء الله نستكمل هذه السورة العظيمة الجليلة وما فيها من آيات وعبر وتذكير، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القصص ٥١ - ٥٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين. اللّٰهم لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثلاثين من شهر ذي الحجة من عام أربعة وأربعين وأربعمائة من الهجرة.

درسنا المعتاد في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي سورة القصص، ووقفنا عند الآية الخمسين من هذه السورة، ونواصل ما توقفنا عنده.

الآيات التي مرت معنا في لقائنا الماضي هي حديث عن موقف كفار مكة من دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعدم استجابتهم لهذه الدعوة؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[القصص: ٤٧].

يقول هؤلاء الكفار لو تصيبهم مصيبة ينزل بهم عذاب أو عقوبة قالوا: يا ربنا لو أن أرسلت إلينا رسولاً لآمنا وصدقنا واتبعنا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٤٨]؛ يعني احتجاج باطل وحجة داحضة. يقولون احتجاجاً مجرد مكابرة.

- **يقولون: لماذا لم يؤت محمد مثل ما أوتي موسى؟**

موسى أُعطي العصا التي تنقلب حية واليد التي تخرج بيضاء ومحمد ليس معه، ومحمد جاءكم بما هو أعظم!

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]؛ كفروا، هم كفروا برسالة موسى ولم يؤمنوا بها.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني لو جئناهم بكتاب ما آمنوا به: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]. فهم لا يريدون الوصول إلى الحق، ولكن الله سبحانه أقام عليهم الحجة وبلغهم هذه الرسالة، ولذلك قال في الآيات التي معنا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١].

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]؛ يعني بلغناهم هذه الرسالة، والمراد بـ (**القول**) هو القرآن الكريم؛ يعني فصلناه وبيناه، وجعلنا الآيات والسور يتبع بعضها بعضاً، فتنزل هذه الآية وتنزل هذه الآية وتنزل هذه السورة وتنزل هذه السورة، كلها تقيم الحجة عليهم ويبلغهم الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الرسالة العظيمة لعلهم يتذكرون، ولعلهم يتعظون، ولعلهم ينتفعون بهذا القرآن، لعلهم ينتفعون به.

ولكن مع الأسف لم يستفيدوا من ذلك، بل ردوا رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفروا بها ولم يؤمنوا بها، واتهموه بالسحر والكذب والكهانة إلى غير ذلك، ولم يقبلوه وكفروا به، ولكن مع الأسف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقام عليهم الحجة وبلغهم هذه الرسالة وأوصل إليهم القول وبلغهم هذا القرآن حتى يستفيدوا.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر حال بعض أهل الكتاب، ولم يكن جميع أهل الكتاب وإنما بعض أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢]؛ أي من قبل هذا القرآن ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾.

- **يقول: إذا لم يؤمن به كفار قريش فإن هناك من آمن به، من هم؟**

قال: أهل الكتاب آمنوا به، يعني ليس جميع أهل الكتاب وإنما الذين آمنوا من أهل الكتاب آمنوا به، وهم طائفة من اليهود والنصارى لم يبدلوا ولم يغيروا، ولذلك آمنوا بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآمنوا بالقرآن؛ لأنهم آمنوا بأنبيائهم وآمنوا بموسى وآمنوا بـ (**التوراة**) و(**الإنجيل**).

وهؤلاء طائفة قلة مثل عبد الله بن سلام ومن آمن معه، وهم قلة مدحهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأثنى عليهم فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثنياً عليهم: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]؛ يعني أنهم إذا قرئ عليهم القرآن وسمعوا القرآن الكريم فإنهم يؤمنون به ويقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾؛ يؤمنون بالقرآن ويقولون: إنه الحق من عند ربنا.

هذا القرآن الذي جاءكم هو الحق من عند الله وهو كما أُنزل على موسى (التوراة) وعلى عيسى (الإنجيل)، فكذلك أُنزل على محمد القرآن ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾؛ أي مسلمين بأنبيائنا ومؤمنين بأنبيائنا، وقد أسلمنا ودخلنا في الإيمان.

وهذا يدل على أن شرائع الأنبياء في أصولها متفقة، شرائع الأنبياء في أصولها متفقة؛ كلهم يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكلهم في حكم المسلمين، كلهم مسلمون؛ ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، كلهم يقولون: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

فهذه صفاتهم وهذا موقفهم، وأنهم كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ يؤتون أجرهم مرتين؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤].

- **لماذا يؤتون أجرهم مرتين؟**

لأنهم آمنوا بما أُنزل إليهم وآمنوا بما أُنزِل إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يعني آمنوا برسالة موسى وآمنوا برسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلذلك أتاهم الله أجرهم مرتين.

قال سبحانه: ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾؛ أي أن هذا الأمر يحتاج إلى صبر ويحتاج إلى تمسك، فمن يؤمن برسالة النبي ثم يأتيه رسول آخر مصدق لما معهم فيؤمن بهذا ويؤمن بهذا، لا شك أنه سيواجه أموراً عظيمة فلابد أن يصبر.

وجاء في حديث رواه (صحيح مسلم) أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى

حَقَّ اللهِ وَأَدَّى حَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ مَمْلُوكَةٌ فَغَذَّاهَا فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا، وَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا ثُمَّ تَزَوَّجَهَا، فَهَذَا يُؤْتَى أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ».

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مبيناً بقية صفاتهم: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾؛ يدرؤون يعني يدفعون السيئة بالحسنة؛ فالذي يسيء إليهم يقابلونه بالإحسان، وهذا الأمر قد يصعب على كثير من الناس أنك تقابل من يسيء إليك بالإحسان، هذا قد يصعب على كثير من الناس.

ولكن على الأقل الذي يقابلك بالسيئة أن تعرض عنه أو لا تقابل السيئة بالسيئة، لكن تقابل السيئة بالحسنة هذا من الأمور التي تحتاج إلى صبر ومثابرة وتحمل، ويعني من تجد من الناس يعني الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، ويسيء إليك وتحسن إليه.

ويسبك ويشتمك ثم أنت تدعو له وتحسن إليه وتقدم له الكلام الطيب والأفعال الطيبة؛ هذا يندر جداً، والنفس ضعيفة تحتاج إلى من يقويها.

قال: ﴿وَيَدْرَءُونَ﴾؛ يدفعون السيئة بالحسنة، يأتون بالحسنة فيغطون السيئة بالحسنة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ أي هذه من صفاتهم أنهم يتحملون السيئات ويغطون هذه السيئات بالحسنات، وأيضاً ينفقون أموالهم في سبيل الله، ولذلك قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾؛ فالرزق من الله سبحانه والمال مال الله، وهم ينفقون بالليل والنهار، ولذلك قال: ﴿يُنفِقُونَ﴾؛ أي ينفقون القليل والكثير، ينفقون بالليل والنهار، فنفقتهم سحاء.

قال أيضاً من صفاتهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، إذا سمعوا مَن يلغو في كلامه ويسب ويشتم ويغتاب ويقع في أعراض الناس ويتكلم بالكلام السخيف ويتكلم بالكلام الذي لا فائدة وراءه -يعني حتى في الكلام المباح الذي ليس وراءه فائدة- يعرضون عنه ولا يجالسونه، ويقولون: ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾؛ أنتم لكم أعمالكم السيئة والحسنة، ونحن أيضاً لنا أعمالنا الحسنة والسيئة، كلٌّ له عمله.

﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾؛ أي لا نريد مجالسة الجاهلين، ولا نخاطبهم، ولا نرد عليهم، ولا نسفههم، لا نبتغي الجاهلين، ويقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾؛ أي لا تسمعون منا إلا الكلام الطيب، لا تسمعون منا إلا الكلام الطيب.

هذه صفات من آمن بالكتابين؛ مدحهم الله وأثنى عليهم وذكرهم بأحسن الصفات، هؤلاء الذين أعطاهم الله الكتاب من اليهود والنصارى وآمنوا بكتابهم واتبعوا ما جاء عن أنبيائهم ثم أدركوا الإسلام فآمنوا بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كعبد الله بن سلام الذي بشره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[القصص: ٥٦].

حتى لو كان أقرب الناس، الهداية بيد الله؛ فهؤلاء من اليهود والنصارى آمنوا والله أثنى عليهم ومدحهم لأنهم عرفوا طريق الهداية فسلكوا طريق الهداية فزادهم الله هدى ويسر لهم أمرهم وأثنى عليهم ومدحهم.

فالهداية التي يملكها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا تقول هذا قريب وهذا بعيد وهذا له كذا وهذا لهذا، الهداية بيده؛ ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما استطاع أن يهدي عمه وهو أقرب الناس إليه وكان يدافع عنه، كان يدافع عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك ما استطاع أن يهديه.

وإبراهيم ما استطاع أن يهدي أباه، ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ما استطاع أن يهدي ابنه؛ فالهداية من الله عَزَّ وَجَلَّ، والإنسان يبحث عنها، والأمر بيد الله عَزَّ وَجَلَّ ولا تستطيع أن تتصرف فيها.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ولو كان أحب الناس إليك ما تستطيع أن تهديهم ولكن الهداية بيد الله، ولذلك قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾.

نحن نعرف أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في موضع آخر: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وهنا يقول: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾؛ كيف نجمع بينهما؟ هناك يقول: وإنك يا محمد لتهدي إلى الصراط المستقيم، وهنا يقول: لا تهدي، فكيف هل هو يهدي ولا ما يهدي؟

الجواب: الهداية نوعان:

النوع الأول: هداية (الإرشاد والبيان): وهذه يملكها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن هو دون الرسول حتى أنت، هذه هداية يعني بيان وإرشاد الناس وتوضيح الحق لهم، هذه كلٌّ يقدر عليها، وهي التي قال فيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

النوع الثاني: هداية (التوفيق والإلهام): هذه لله عَزَّ وَجَلَّ، لا يستطيع أحد أن يملكها، وهي المرادة بهذه الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾؛ أي لا تملك هداية التوفيق له.

تعود الآيات إلى موقف مشركي مكة ويحتجون بحجج باطلة ويرد القرآن عليهم ويبطلها في وجوههم، وهم يقولون: يا محمد لو اتبعناك وتركنا دين آبائنا يعني لحقنا بدينك وأصبحنا معك أتباعاً لك؛ سيتخطفنا الناس، وسيأخذوننا ما بين أسير وقتيل، يعني سيتسلطون علينا، والآن يهابوننا لأننا نحن أهل الحرم فيهابوننا، وإذا اتبعناك هم أعداء لك فسيقاتلوننا وسيتسلطون علينا؛ فرد الله عليهم.

قالوا: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]؛ نتبع الهدى معك يا محمد ونتبع شريعتك ودينك نتخطف من أرضنا، يعني يتخطفنا الأعداء ما بين قتيل وأسير من أرضنا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ رداً عليهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]؛ مَن الذي جعل لهم الحرم الآمن؟

هو الله عَزَّ وَجَلَّ، حرماً آمناً لا أحد يرفع فيه السيف ولا يُقتل فيه، وزيادة على ذلك على هذا الأمن؛ الرزق، قال: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ رزقاً من لدنا، تأتيهم الثمرات من كل مكان، يجبى يعني يأتيهم، تأتيهم الثمرات من كل مكان، يجبى إليها من كل مكان يعني يساق إليها الرزق من كل مكان، والثمرات تأتيها من كل مكان.

قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لا يعلمون أن الذي أعطاهم الأمن وأعطاهم الرزق، أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، هو الله عَزَّ وَجَلَّ، لا بدعواهم بأي دعوى، وإنما هذا من الله عَزَّ وَجَلَّ، فالذي أعطاهم قادر على أن يسلب ذلك. أما احتجاجهم بأنهم إذا اتبعوا النبي أن الأعداء سيتسلطون، فهذا ظن سيء بالله عَزَّ وَجَلَّ أن الله لا ينصر الأولياء، بل سينصرهم.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عما جرى للأمم الماضية التي كفرت أو كانت في وقتهم قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾[القصص: ٥٨].

أهلك الله أمماً كثيرة، و(كم) هنا للتكثير؛ أي كثير أهلكهم الله عَزَّ وَجَلَّ بسبب، قال: ﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾؛ بطرت معيشة هذه القرية، طغت وأفسدت لما جاءها المال الكثير والرزق الكثير، بطرت معيشتها فتكبرت وطغت ولم تشكر نعمة الله فأهلكها الله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾؛ يعني انظر إلى مساكنهم خالية ما سكنها إلا قليل، وثم ذهبوا أو لم يسكن منها إلا أطراف منها قليلة جداً، قال: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾؛ الذي ورثها وورث أهلها هو الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]؛ الله عَزَّ وَجَلَّ ما يهلك القرى حتى يبعث في أمها؛ أي في أصلها أو في أكبر قرية منها رسولاً يتلو عليهم آياتنا.

يبعث الله فيهم أو فيمن حولهم، وهذه القرى الصغيرة تكون القرية الكبيرة يبعث الله فيها رسولاً كما بعث محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مكة التي هي أم القرى ليتبعها مَن حولها، رسولاً يتلو عليهم آياتنا ويعلمهم ويقيم عليهم الحجة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾؛ ما كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليهلك القرى إلا وأهلها ظالمون.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نواصل ما توقفنا عنده، لا نريد الإطالة عليكم، يكفي ما ذكرناه وفيه بركة إن شاء الله، في اللقاء القادم نواصل ما بقي من هذه السورة وما بقي من هذه الآيات، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القصص ٦٠ - ٧٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء السابع من شهر الله المحرم من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا المعتاد في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي تناولناها في لقاءات ماضية ونتناولها الآن هي سورة (القصص). والآية التي بين أيدينا هي الآية رقم ستين من السورة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

هذه آية فيها موعظة عظيمة جليلة لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. هذه موعظة عظيمة؛ هذه الموعظة جاءت في مكانها؛ أنت لما تقرأ الآيات الماضية التي هدد الله فيها أولئك المشركين المعاندين بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨]؛ يعني تكبرت واستكبرت في معيشتها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ﴾ [القصص: ٥٨]؛ يعني ذهبوا وتركوها وأهلكوا عن آخرهم؛ أهلكهم الله، فهذه مساكنهم قائمة لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ [القصص: ٥٩]؛ يعني ما كان الله عَزَّ وَجَلَّ ليهلك القرى ويهلك الأمم ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩]؛ يعني إذا بعث الله فيها منذراً ينذرهم، يخوفهم، ويقيم عليهم الحجة، ثم لم يؤمنوا؛ أهلكهم الله بسبب عنادهم وكفرهم.

قال: ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص: ٥٩]؛ يبين لهم الأدلة والحجج والبراهين.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]؛ يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يظلم الناس، ولا يهلك أي قرية من القرى إلا بسبب أنفسهم؛ بظلمهم وإعراضهم وعنادهم.

لما بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدرته على إهلاك الأمم، وأن هذه الدنيا ماضية، وأن العبرة بما يقدمه الإنسان فيما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعرف أن هذه الدنيا ليست دار قرار، وأن هذه الدنيا ممر والآخرة هي المقر؛ يعظ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عباده بهذه الآية العظيمة التي فيها الموعظة الجليلة، فيقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ [القصص: ٦٠].

يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [القصص: ٦٠]؛ هذه يقول أهل اللغة: إذا جاءت الكلمة نكرة فإنها تدل على العموم؛ يعني ما أُعطيت أيها الإنسان من أي شيء من الأشياء، قلَّ أو كثر؛ يعني رخص أو كان ذا ثمن غالٍ أو أي شيء من الأشياء، فهذا -لو أُعطيت الدنيا كلها- فمتاع الحياة الدنيا قليل، فأنت تتمتع به متاعاً ثم يزول؛ يزول هو أو أنت تذهب عنه.

﴿وَزِينَتُهَا﴾ [القصص: ٦٠]؛ هذه متاع وزينة الدنيا، زينة الدنيا وزهرة الدنيا ومتاعها؛ تُعطى أي شيء مع أنَّ هذا المتاع وهذه الزهرة وهذه الزينة لا تخلو من المنغصات والهموم والغموم، ومع ذلك، إذا أُعطيت شيئاً فهذا متاع الدنيا، لكن ليست العبرة بهذا، ولكن العبرة ما عند الله؛ الذي عند الله هو خير وأبقى؛ يعني أفضل من هذا وأعظم، وخير من هذه الدنيا وما عليها وأبقى.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]؛ عقولكم كيف تساوي هذا بهذا؟ وكيف تركن إلى الدنيا والدنيا زايلة وذاهبة؛ ظل زائل ومتاع قليل؟! كيف تعيش وهي مليئة بالهموم والمنغصات والغموم؟!

ومع ذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول هي متاع؛ متاع ما يتمتع به الإنسان.

☜**وكما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا».

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يزهّد في الدنيا؛ لأنه يرى الكثير من الناس يميلون إلى الدنيا ويركنون إليها، ويظنون أن الحياة هي الدنيا فقط، ولذلك الكفار يقولون: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ يعيشون للدنيا، ويأكلون للدنيا، وينامون للدنيا، وهمهم كله وغايتهم الدنيا. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى زهّد بالدنيا حتى يرغبك في الآخرة التي هي خير وأبقى.

ولذلك الآية التي بعدها توضح لك هذا المعنى وضوحاً واضحاً جلياً، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على سبيل الاستفهام: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على سبيل الاستفهام: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ﴾ [القصص: ٦١]؛ يعني أخبرني وأجب على هذا السؤال: أفمن وعدناه وعداً حسناً -وهذا هو الذي سعى للآخرة وكان همه الآخرة- ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ [القصص: ٦١]؛ سيلقاه يوم القيامة، سيجده يوم القيامة، ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ﴾ [القصص: ٦١] -الذي هو همه متاع الدنيا- ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٦١].

شوف يقول الله: ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٦١]؛ حياة، أما الآخرة لا، هي (الحَيوان)؛ يعني هي الحياة الحقيقية، أما هذه فحياة دنيا دنيئة وتنتهي وتزول.

قال: ﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

قارن بين هذا وهذا؛ قارن بين المتقين والخاسرين والهالكين؛ يقول: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [القصص: ٦١]؛ عرف الوعد الحسن فاستعد له وعمل لأجله، ثم لقي هذا الوعد الحسن الذي وعده الله؛ أنَّ مَن سار على الطريق وسلك طريق الله المستقيم.

سلك طريق الله المستقيم ونجا من الدنيا وما فيها، لقي الوعد الحسن عند الله، لكن مَن عاش للدنيا وهمه الدنيا يتمتع فيها، فالدنيا متاع قليل ثم يزول، ثم يوم القيامة يكون من المحضرين.

- **ليش اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١] وما قال "من الحاضرين"؟**

شوف! الحاضر يحضر بنفسه وبإرادته واختياره، أما المحضر فيُحضر بقوة؛ لأنهم لا يريدون إذا رأوا النار أمامهم، ورأوا الذل والخزي والندامة، لا يريد أن يحضر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحضره بقوة؛ تحضره الملائكة بقوة.

فشوف؛ الدنيا والآخرة ضرتان لا تجتمعان، فالإنسان يعيش للآخرة لا يعيش للدنيا، ويعمل للآخرة، وليس معنى هذا أنه يترك الدنيا كلها؛ يعمل ويأخذ حقه من الدنيا الذي لا يجعله ينسى الآخرة: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، واعمل لآخرتك، فالعاقل الذي يجمع ويأخذ نصيبه من الدنيا وحقه من الدنيا بحيث لا تطغى الدنيا على الآخرة؛ يوازن.

لما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبرنا بمصير هؤلاء المتقين بالوعد الحسن، ومصير هؤلاء الغاوين الهالكين بالعذاب يوم القيامة وأنه يُحضر للعذاب؛ بدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعرض لنا مواقف هؤلاء المشركين يوم القيامة، فيقول: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

يناديهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يناديهم فيقول لهم: أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ أنتم تقولون مع الله شركاء، وين الشركاء؟ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول ﴿شُرَكَائِيَ﴾ [القصص: ٦٢] بناءً على ما يظنون هم ويزعمون.

يقول: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢] أنتم وتكذبون على الله، تقولون هذه الأصنام مع الله شريكة، ويعبدون غير الأصنام من المعبودات والآلهة يدّعون أنها شركاء مع الله؛ يقول: أين شركائي؟ أنتم أشركتم معي في عبادة غيري، أين الشركاء؟

- **فما الجواب؟**

قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]. ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [القصص: ٦٣]؛ أي حق عليهم العذاب وحقت عليهم كلمة العذاب وهم أهل النار، الكبراء والزعماء والأمراء والسادة والشياطين معهم من الجن.

يقولون: ربنا هؤلاء الذين أغوينا؛ يعني أضللناهم، ينادون مَن تحتهم من المتبوعين، يشيرون إليهم: هؤلاء الذين أغوينا؛ يعني هؤلاء الذين أضللنا، أغويناهم كما غوينا؛ يعني نحن ضللنا وهم أضللناهم فتبعونا.

السادة والكبراء والشياطين إذا جاء يوم القيامة تبرؤوا من أتباعهم ممن تبعهم، يقولون: يا ربنا هؤلاء الذين تبعونا نحن أغويناهم فتبعونا، ونحن أصلاً في غواية وفي ضلال، وهؤلاء تبعونا في ضلالنا، كلنا في ضلال، ثم إذا جاء يوم القيامة تبرؤوا منهم.

قالوا: تبرأنا إليك يا رب ما كانوا إيانا يعبدون، ما كانوا يعبدوننا ولكنهم يعبدون الشياطين ويعبدون الآلهة والأصنام، فنحن نتبوأ ونتبرأ منهم؛ لا نعرفهم ولا يعرفوننا؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية أخرى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، فيتبرأ كل من هؤلاء ويلعن بعضهم بعضاً.

ثم يقال لهؤلاء ينادون مرة أخرى، يقال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤]. يقال: ادعوا شركاءكم؛ وين شركاءكم؟ وين الأصنام؟

ادعوهم حتى نراهم، أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله سواء من الأولياء أو من الأصنام والآلهة أو من الأشجار والأحجار أو من الأوثان؟ أين شركاؤكم؟

قيل: ادعوا شركاءكم الذين كنتم تعبدونهم دله، فدعوهم؛ أهل النار يدعون شركاءهم فلم يستجيبوا لهم، يدعون وينادون اللات والعزى ومناة وغيرها فلا أحد يستجيب لهم؛ لا يستجيبون.

ورأوا العذاب؛ فإذا رأوا العذاب ندموا أشد الندم؛ لو أنهم كانوا يهتدون ما وقعوا في العذاب، لو كانوا يهتدون ولو كان هؤلاء شركاء ما رأوا العذاب ولا وقعوا فيه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

هذا النداء أشد من الأول؛ يناديهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيقول: أين شركائي؟ فما في رد هناك.

يقول: جاءتكم الرسل، أرسلنا إليكم رسلاً، فماذا كان موقفكم من هؤلاء الرسل؟ يقول: ماذا أجبتم المرسلين الذين أرسلناهم إليكم؟ ففي هذه الحال أشد حالاً من الأولى، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[القصص: ٦٦].

عميت عليهم الأنباء؛ ذهبت عنهم الحجج، غابت عنهم الحجج التي يحتجون بها على الله يومئذٍ، فهم لا يتساءلون؛ لا يسأل بعضهم بعضاً، ولا ينادي بعضهم بعضاً؛ لا المشركين ولا الشركاء ولا الأتباع ولا المتبوعين، كلهم لا يسأل بعضهم بعضاً، يستسلمون لله عَزَّ وَجَلَّ وحججهم ضاعت يوم القيامة، ليس عندهم حجة يردون بها على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بل يستسلمون ويسلمون الأمر لله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -رجاء أن يتوب مَن يتوب ويفتح الله له باب التوبة ولعله يرجع مَن يسمع هذا الكلام-: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾[القصص: ٦٧].

شوف الشروط: يتوب إلى الله متاباً، ويؤمن إيماناً حقيقياً، ويعمل الصالحات؛ فهؤلاء قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: فعسى أن يكونوا من المفلحين، و(عسى) في حق الله واجبة؛ يعني قد تحقق أنه من المفلحين.

- **لكن قد يسألك سائل يقول: إذا كانوا هم من المفلحين، لماذا الله عَزَّ وَجَلَّ يقول "عسى" مع أنّ عسى واجبة في حق الله وفي حق الإنسان للترجي؟**

الجواب: لما فتح الله لهم باب التوبة وهم على معاصيهم وذنوبهم وشركهم؛ فتح لهم باب التوبة والإنابة والإيمان والعمل الصالح جعلهم في رجاء؛ جعلهم في حقهم في رجاء يرجون هذه الرحمة ويرجون قبول التوبة، قال عسى أن يكونوا من المفلحين الفائزين في الآخرة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]. أي في الرسل وفي غير الرسل؛ الذي يختار سبحانه ويصطفي هو الله، والذي يخلق هو الله، أما البشر فليس لهم لا اختيار ولا خلق، ولذلك شوف قال: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]؛ ليس لهم أن يختاروا، الذي يختار هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عما يشركون.

شوف لاحظ أنه قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾[القصص: ٦٨] ثم رد عليهم قال: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]؛ ما قال **"ما كان لهم الخلق"**؛ لماذا؟ لأنه ليس

هناك مَن يدعي أنه يخلق ولذلك ما رد الله عليه، أما الاختيار فيدعي مَن يختار يقول نحن نختار لنا الخيرة، ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فيحتجون ويقولون لنا اختيار؛ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس لك اختيار، الاختيار من عالم الغيب والشهادة، أما أنت فلا تعلم أين الخيرة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]؛ تنزيهاً له وتعظيماً له عما يجعلون معه الشركاء الذين ليس لهم قدرة على الخلق ولا الاختيار.

وأيضاً من صفات الله التامة العظيمة التي يستحق بها أن يُعبد وغيره لا يستحق أن يُعبد؛ قال أيضاً: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩]؛ ما تخفيه صدورهم، تخفيه الصدور وتعلنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلمه؛ فالانسان ما يخفيه في صدره أو يعلنه يعلمه الله، فواسع العلم العليم بكل شيء هو الذي يستحق العبادة، فالخالق القادر صاحب الحكمة، الحكيم في اختياره، صاحب العلم العليم بما تكن الصدور أو تظهره هو الذي يستحق أن يُعبد.

ولذلك قال بعدها: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]. لا إله إلا هو؛ الخالق الحكيم في اختياره العليم هو لا إله إلا هو، لا إله إلا هو له الحمد؛ له الحمد والشكر والثناء الحسن والذكر الحسن لمن؟ لله. متى؟

قال: في الدنيا والآخرة، ﴿فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فيُحمد في الدنيا ويُحمد في الآخرة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، له الحمد كله في الدنيا فيحمده الحامدون ويعرفون عظمته وقدرته ويثنون عليه، وفي الآخرة، قال: ﴿وله الحكم﴾ في الدنيا والآخرة فهو يحكم بين عباده، والمرجع إليه، المرجع إليه وإلى حكمه، فله الحكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]؛ أي الناس يرجعون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا إلى غيره.

فالذي يحشرهم ويجمعهم هو الله وحده لا شريك له، وله الحكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وله الحمد، وله العلم التام الواسع، وله الخلق والقدرة، وله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الاختيار والحكمة، أما غيره فلا يملك شيئاً من ذلك.

لعلنا نقف عند هذا القدر وفيما ذكرناه من تفسير هذه الآيات العظيمة الجليلة التي فيها عرض لليوم الآخر ومواقف هؤلاء الضالين الغاوين؛ وكيف يتبرأ بعضهم من بعض، وكيف يلعن بعضهم بعضاً، وكيف تكون مواقفهم السيئة؛ الخزي والندامة والعار يوم القيامة.

فالإنسان إذا سمع مثل هذه الآيات يسأل الله العافية ويبتعد عن طريق هؤلاء الغاوين، ويسلك طريق النجاة والسلامة الذي وعده الله الوعد الحسن، ويتوب إلى الله ويعود إلى الله حتى يكون من المفلحين الناجين.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القصص ٧١ - ٧٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْمُرْسَلِينَ؛ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ وهو اليوم الرابع عشر من شهر الله المحرم من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة.

درسنا في تفسير سورة القصص، ونحن -إن شاء الله- على وشك الانتهاء منها، والحمد لله، وهذه نعمة عظيمة؛ وعندنا الآية الحادية والسبعون، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

هذه الآية لما تقرؤها أنت، وتمر عليك وتقف عندها وتتأملها، تشعر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقرر قضية مهمة جداً لا تكاد تغيب عن أي شخص يقرأ القرآن ويعرف اللغة العربية، ويقف يتدبر القرآن ويفهم تفسيره.

- **"قل"؛ الخطاب لمن؟**

الخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه هو الأول الذي أنزل عليه القرآن، ولكن ينبغي أن نفهم أن مثل هذه الخطابات التي توجه للرسول قد تكون موجهة للرسول مبدئياً وموجهة للأمة، لكل من يصلح له الخطاب.

هناك بعض الخطابات -بلا شك- أنها خاصة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ هذه تبقى في خصوصيتها، لكن هناك خطابات توجه للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأيضاً تدخل الأمة؛ فأنت وأنا والثالث والرابع كلهم يدخلون في هذا الكلام، فأنت تقول لنفسك وتقول لغيرك وتدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وتنبه وتذكر الناس وتقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ [القصص: ٧١]؛ يعني: أخبروني.

وهذه **"أرأيتم"** أصلها مأخوذة من الرؤية؛ يعني هل رأيت هذا الشيء أو لم تره؟ والرؤية قد تكون رؤية -مثل ما مر معنا- **(رؤية بصرية)**؛ يعني تراها بعينك، مثل لما أقول لك: **"أرأيت الشمس؟"**.

وهناك **(رؤية علمية)**؛ تراه في قلبك، تراه في قلبك، فهذه تسمى **(رؤية علمية)**؛ لما تقول يعني: **"هل لو رأيت يوم القيامة والناس يحشرون؟"**، هذه ليست بصرية، هذه علمية؛ يعني رأيت بمعنى علمت.

فهنا الآية هذه علمية، هذه علمية لأنها تتحدث عن شيء علمي، وقد تكون بصرية لأنها تتحدث عن شيء تبصره بعينك؛ لكنها لما تدخل عليها الهمزة **"أرأيت"** هذه تقلبها إلى أن تكون بمعنى: أخبرني، استفهام.

فأنت تقرأ تقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ [القصص: ٧١]؛ يعني أخبروني أيها الناس، أخبروني أيها المخاطبون، أخبروني أيها المسلمون وغير المسلمين، أخبروني، أنبئوني؛ بأي شيء؟

لو أن الله شوف **"إن جعل"** هذه شرطية، **"إن"** يقول: لو أن الله جعل عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة، **"سرمداً"**؛ يعني مستمراً لا ينقطع، ومنه أصلاً هي الكلمة هذه سرمداً؛ هذه بدون ميم **(السرد)**، **(السرد)**؛ تسرد الشيء سرداً، ثلاثة سرد، وأربعة سرد، وجاءوا سرداً؛ يعني متصل بعضهم ببعض. ف **"سرمداً"** أو **"سرداً"**؛ يعني مستمر لا ينقطع.

فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ وهو يقرر **(توحيد الربوبية)** الذي يبنى عليه **(توحيد العبادة)** و**(توحيد الألوهية)**، فيقول لك مثلاً: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ [القصص: ٧١]؛ يعني أخبروني لو أن الله جعل الليل لا يذهب، يبقى كله ليل إلى يوم القيامة، ما في نهار أبداً، ما في شمس إلى يوم القيامة.

وأنت الآن لا تتصور في وقتك الحاضر مع هذه التقنية والصناعات أنك في نور وفي إضاءة وفي كهرباء؛ لا، لو أنك رجعت سنين عديدة والكهرباء غير موجودة، ولو أنك في صحراء وفي خيمة أو بيت شعر وما عندك أنوار ولا سراج ولا شيء، والله جعل عليك الليل سرمداً إلى يوم القيامة؛ ما في نهار تبتغي فيه المعاش، تنظر فيه، تزرع، تأكل، تشرب، تطبخ، تذهب، تسافر، كله ليل في ليل، ظلمة في ظلمة.

تصور أنت الآن لو ما في أنوار ولا فيه تجلس في ظلمة، إن دخلت البيت وجدته مظلماً، وإن خرجت للشارع فهو مظلم، وإن ذهبت للمسجد فهو مظلم، وإن سافرت وركبت الدنيا كلها مظلمة؛ يقول لك: أخبروني لو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -وهو قادر، قادر لا يعجزه شيء- لو أن الله جعل الليل سرمداً إلى يوم

القيامة مستمراً ظلمة إلى يوم القيامة؛ ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]؟ في أحد؟ هل هناك أحد يستطيع أو عنده قدرة أن يأتي بالشمس؟ ما في.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الآن كأنه يناقش من يدعو مع الله إلهاً آخر؛ هؤلاء الذين يدعون مع الله إلهاً آخر، يعبدون الأصنام ويدعون الأولياء ويدعون معبودات لا تصح أن تكون معبودات، هذه المعبودات لا تنفع ولا تضر، ولا تقدم ولا تؤخر، هذه هل منها من يستطيع أن يأتي بالشمس؟

وهذه مثل محاجة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما حاج الملك لما قال له: **"الله يحيي ويميت"**، قال: **"أنا أحيي وأميت"**، فأتى بشخصين فقال: **"هذا اقتلوه، وهذا قد عفوت عنه"**، فقال: **"هذا أحييته وهذا أمتّه"**.

إبراهيم لما رأى أنه يموه على الحاضرين ويضحك عليهم، ترك هذا الدليل وانتقل لدليل آخر لا يستطيع أن يعوّله بتأويله، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]؛ إذاً أنت تقول: **"أنا إله، يلا عطني الشمس خلها تجي من المغرب"**، فبُهت الذي كفر ولم يستطع أن يجيب.

فالله عَزَّ وَجَلَّ هنا يناقشهم يقول: لو أن الله جعل الليل كله ليل، الدنيا كلها ليل، من يأتيكم بنهار، بشمس، بضياء؟ وشوف قال: **"بضياء"** ما قال: **"بنور"**، ليش؟ لماذا لم يقل: **"بنور"**؟ لأن الشمس توصف بالضياء؛ فيها حرارة، فيها حرارة.

☜ **ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:** «**الصَّبْرُ ضِيَاءٌ**»؛ لأن فيه حرارة، وهو الذي جعل، ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]؛ فالضياء أقوى من النور، النور مقتبس من الضياء، فالضوء والضياء فيه حرارة وفيه إنارة قوية، ولذلك قال: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]؛ أين سمعكم؟ لماذا لا تسمعون سمع تدبر وتأمل وتفكر؟ بس مجرد تمر عليك هذه الآية وأنت ما تقف عندها؛ فيحثك على التدبر، يحثك على التأمل، ويقرر لك قضية ماذا؟ قضية الإله الواحد المتصرف بالكون هو الذي يستحق العبادة، هذا الذي نريد أن نصل إليه.

ثم يأتي مرة أخرى وأيضاً يقرر لهم القضية هذه بطريقة أخرى، يقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢]؛ كله نهار، ما في ليل أبداً، كله شمس وحرارة وضياء، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ﴾ [القصص: ٧٢]؛ وشوف كلمة **"إله"** يعني معبود، ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢].

هل هناك معبود غير الله يستحق أن يعبد ويخضع له ويسجد له ويركع له ويدعى؟ هل هناك إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه؟ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢]؛ أين أبصاركم؟ لماذا لا تبصر وتنظر نظر تأمل وتفكر؟ وإلا هو يبصر، كيف يقول: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟ هو يبصر؛ ولكنه يبصر بصراً ليس فيه تأمل وليس فيه تفكر.

فلاحظ الفرق في الأول والثاني: الأول قال: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]، ما قال: بنهار. الثاني قال: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢]، ما قال: بظلمة.

شايف الفرق؟ ما قال: نهار، قال: ضياء؛ لأنك أنت في النهار تحتاج إلى الضوء أكثر، تحتاج إلى الشمس، تحتاج إلى الإضاءة. الليل؛ قال: ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٢]، ما قال: ظلمة؛ لأن لا يلزم أن يكون هناك ظلمة، قد يكون في ظلمة وقد يكون في إنارة، لكن الليل بشكل عام؛ الليل هو السكنة، يعني الإنسان إذا راحت الشمس ارتاح، حس بالهدوء والراحة والطمأنينة، ترك الأعمال الشاقة، فالليل سكن.

ولذلك قال: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٢]؛ هناك قال: ﴿بِضِيَاءٍ﴾ [القصص: ٧١]، بس ما قال: تتحركون وتعملون وتبحثون عن معاشكم؛ لا، هنا قال: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٢]؛ لأنك أنت تحتاج إلى الليل للسكنة والراحة، تسكنون فيه.

ثم قال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢]؛ شوف الأول يقول: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]، والثاني يقول: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢]. ليش؟ نقول: لأن الذي يناسب الليل السمع؛

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ [القصص: ٧١]، أنتم في ليل الآن، الليل استعمال السمع فيه أكثر من استعمال البصر؛ الليل ما تشوف.

لما جاء في الثاني قال: ﴿جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ﴾ [القصص: ٧٢]، أنتم الآن في نهار، ما قال: أفلا تسمعون، بل قال: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢]؛ فالبصر يتناسب مع النهار. فشوف دقة وإعجاز القرآن في اختيار وخواتيم الآيات.

يقول: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ يعني من رحمة الله وفضله وإحسانه على العباد، وهذه من أعظم النعم، وهي هذه النعم تقرر لك (توحيد الإلهية) وأن الله هو الذي يستحق أن يشكر فيعبد.

قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ﴾ [القصص: ٧٣]؛ جعل لكم الليل والنهار، يقول: هذه رحمة من الله أن الله جعل الزمان أو اليوم ليل ونهار، قسمين: ليل ونهار، الليل يطول والنهار يقصر أو العكس حسب الأوقات والأزمنة واحتياجات الناس؛ فهذا رحمة من الله جعل الليل والنهار.

- **لو سألك سائل قال لك: ليش قدم الليل على النهار؟**

قال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [القصص: ٧٣]؛

الجواب: لأن الأصل الليل (الظلمة)، والنهار طارئ. ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ ولأن الليل سابق النهار، الليل يسبق النهار.

الآن نحن هذه الليلة انتهى يوم الثلاثاء، لكن الناس الآن يخطئون يقولون: **"الثلاثاء"**؛ انتهى بغروب الشمس، غابت الشمس وأذّن للمغرب انتهى يوم الثلاثاء، الآن نحن دخلنا في الأربعاء، أول يوم أو أول وقت الأربعاء ليلته، ليلته سابقة له، سابقة له، فلذلك قال الله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ الليل يسبق النهار.

ثم قال: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣]؛ شوف **"لتسكنوا فيه"** يرجع إلى شيء، إلى الليل، و**"تبتغوا من فضله"** النهار. يقول الله: جعل لكم الليل لحكمة؛ وهي أن الإنسان يسكن فيه ويستقر فيه، والنهار لحكمة؛ قال ما هو؟

قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٧٣]؛ تطلبون معاشكم وتتحركون وتعملون، تعملون لكل ما تحتاجونه في الدنيا، فهذا يسميه علماء البلاغة **(اللف والنشر)**، كيف **(اللف والنشر)**؟ هو قال لك: لف لك، قال: **"الليل والنهار"**، ثم قال: **"تسكنوا" "تبتغوا"**؛ فـ **"تسكنوا"** تعود إلى الليل، **"تبتغوا"** يعود إلى النهار.

قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ أي يعني إذا تذكرت هذه النعمة، نعمة الليل وأنت تستقر وتضع رأسك على الفراش وترتاح من هموم الدنيا وغمومها، وتتفكر في مخلوقات الله وتنظر وتفكر في نفسك؛ هذا يدفعك إلى أن تشكر الذي أسدى وأنعم عليك بالنعم العظيمة، ومن أعظم هذه نعمة الليل الذي تستقر فيه نفسك وترتاح.

لماذا لا تشكر الله؟ ولماذا لا تشكر الله على أن جعل لك النهار تتحرك وتسافر وتتنقل وتبتغي من فضله؟ هذه كلها نعم لله، ويتضمن الشكر هنا أهم شيء هو **(شكر العبادة)**، بأن تشكر الله فتعبده وحده لا شريك له؛ فتعرف أن المنعم والخالق والمقدر والذي جعل هذه الأشياء وخلقها وأوجدها وانعم بها عليك هو الذي يستحق أن تعبده وتشكره، لا أن تعبد غيره من الأصنام.

ولذلك شوف لما انتهت هذه النعم التي ساقها الله وذكرك بهذه النعمة العظيمة التي لا ينكرها أي إنسان عاقل، بدأ ينادي ويناقش هؤلاء المشركين ويذكرهم بموقفهم يوم القيامة وأنه موقف سيئ لهم، يقول: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤].

من هم؟ المشركون، فيقول: أين شركائي؟ أيها المشركون، يقول الله -عَزَّ وَجَلَّ-: أين شركائي؟ أنتم تقولون مع الله شركاء، أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟ وكلمة **"تزعمون"** تدل على الكذب والافتراء؛ أي كنتم تفترون على الله وتكذبون على الله أن له شريكاً تعبدونه معه، تعبدون هذه الأصنام تقولون إنها شركاء مع الله، شركاء في أي شيء؟ لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون، أموات غير أحياء، قال: ﴿الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥]؛ كل أمة جاءها رسول، ما من أمة إلا وجاءها رسول.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]؛ فما من أمة إلا وأرسل الله فيها رسولاً.

هذا الرسول إذا جاء يوم القيامة يخرجه الله من بينهم، ينزعه نزعاً، قال: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [القصص: ٧٥]؛ هذا الرسول يشهد، يشهد على أمته، يشهد على أمته التي كفرت به أنه جاءهم وبلغهم رسالة ربهم ودعاهم إلى عبادة الله، ولكنهم كفروا وأشركوا، فإذا جاء يوم القيامة أنكروا قالوا: **"ما جاءنا من بشير ولا نذير"**.

فيقول مثلاً نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: "جئتكم ودعوتكم"، يقولون: **"لا ما جئتنا"**. هود عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لعاد الذين كفروا به: **"جئتكم ودعوتكم"**، يقولون: **"ما دعوتنا"**، وينكرون ذلك. فيقول الله -عَزَّ وَجَلَّ- لهؤلاء الرسل: **"من يشهد لكم؟"** قالوا: **"تشهد لنا أمة محمد"**، فيأتون إلى أمة محمد وإلى محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فتشهد هذه الأمة.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. كذلك جعلناكم أمة وسطاً، **"وسطاً"** يعني: عدولاً، شهادتكم مقبولة؛ فتشهد أنت الآن وأنا، نسمع أن نوحاً بذل نفسه في الدعوة فإذا جاء يوم القيامة: **"أنا أشهد أن الله أخبرني في القرآن بأن نوحاً بلغ رسالة ربه"**.

فهنا يقول: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [القصص: ٧٥]؛ أيها المشركون، هاتوا دليلكم، هاتوا الدليل، هاتوا الحجة على أن الله أمركم أن تعبدوا معه غيره وأن تجعلوا له شركاء.

﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥] من الأصنام، ينادون أصنامهم وأولياءهم لا يجدون أحداً يرد، ما تنفعهم يوم القيامة، ضلت عنهم وتاهت ولم تنفعهم، لن تنفعهم.

إذاً عندنا الآن في هذه الآيات تقرير **(توحيد العبادة)**، وأن الذي يستحق العبادة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وإذا علمنا ذلك، فإن كل من يعبد مع الله فإنه سيكون عدواً له يوم القيامة ولن ينفعه، وأن هذه المعبودات كلها معبودات زائفة لا تنفع ولا تضر في الدنيا بل تضرك في الآخرة.

ولذلك قرر الله (توحيد الربوبية) الذي يقره الجميع بهذا الأسلوب: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾؛ بهذا الأسلوب: أخبروني، ويترتب عليه (توحيد الإلهية)؛ فإذا كان الذي يدبر الكون ويأتي بالشمس ويذهب بها ويأتي بالليل ويذهب به هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إذاً هو المنعم، هو الخالق، هو الرازق، هو الذي يجب أن يعبد ويدعى ويخضع له، أما ما سواه لا يملك شيئاً ولا تدبر شيئاً في الكون فلا تستحق العبادة.

ولذلك قرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثم ساق لنا صورة من صور يوم القيامة وموقفاً من مواقف هؤلاء المشركين الذين يعبدون هذه الأصنام التي لا تنفعهم ولا تضرهم إذا جاءوا يوم القيامة تبرؤوا منهم وقرر عليهم قال: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [القصص: ٧٤]، وشهدت عليهم الرسل وشهدت عليهم هذه الأمة فندموا أشد الندم ولكن لا ينفع الندم.

في ختام هذه السورة يسوق الله لنا قصة قارون، فقصة قارون هذا الكافر، قارون هذا من قوم موسى، وقارون قرنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بفرعون وهامان.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٢٤﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]. أخبر الله أن الله أرسل إليهم موسى وكفروا به، وذكر هنا قصة قارون هذا الطاغية المسرف، ذكر الله سبحانه قصته هنا بما أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاه من الدنيا؛ ولكنه لم يحسن التصرف في هذا المال، فتكبر وطغى وأسرف وبغى.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقص علينا هذه القصة لهدف؛ وهو أن الاستكبار والتكبر والطغيان ليس مما يأمر الله به، بل الله ينهى عنه؛ ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، وينهى الله عن التكبر، هذا أمر. الأمر الثاني: الفساد في الأرض، فهذا قارون اتصف بصفتين: صفة التكبر والكبرياء والتغطرس، وأيضاً الإفساد في الأرض؛ أنه مفسد في الأرض.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]؛ إذاً هو من بني إسرائيل من قوم موسى، حتى حكى بعض المفسرين -والعلم عند الله- أنه كان ابن عم موسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، وبعضهم قال: ابن خاله أو ابن خالته.

وكان ثرياً مترفاً، كان في أول الأمر من بني إسرائيل رجلاً مؤمناً بموسى حتى قيل إنه كان يحفظ (التوراة)، ولكنه وكان من العباد ومن المؤمنين؛ ولكنه دخله الإعجاب والاغترار؛ أصبح اغتر وأعجب

بنفسه، لماذا؟ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنعم عليه فجعله ثرياً مترفاً، وأعطاه من المال الكثير فغره ماله، فلما رأى هذه الدنيا فتحت عليه وأعطاه الله المال الكثير؛ هذا جعله يغتر بماله ويكفر بموسى.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]؛ كان يعني كان من جملة بني إسرائيل من أتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وممن آمن بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولكنه بغى عليهم، وبغى هنا تعني أنه ظلم وطغى وتكبر واعتدى على موسى وعلى المؤمنين، حتى ذكروا أنه تعدى على حق موسى وعلى المؤمنين، بغى بشكل عام، بغى عليهم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]؛ **"من"** هنا بيانية؛ يعني أعطاه الله كنوزاً عظيمة، الذي أعطاه الكنوز وفتح عليه وأعطاه هذا المال العظيم، أموالاً عظيمة، آتاه من الكنوز هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كنوزه -يعني كنز قارون، يعني مال قارون- كما يضرب به المثل؛ أعطاه الله من الكنوز الأموال الكثيرة الطائلة، حتى ذكر هنا أن مفاتحه لتنوء وتثقل بالعصبة أولي القوة؛ يعني العصبة الرجال، الرجال، حتى قيل العصبة من العشرة إلى الأربعين يسمونه عصبة، فالعدد العشرة والعشرون إذا جاءوا يصعب عليهم رفع هذه المفاتيح. يقول: **"مفاتحه"**.

- **ما المراد بالمفاتح هنا؟**

فبعضهم يقول: **(المفاتح)** المخازن، المخازن التي امتلأت بالذهب والورق والفضة؛ فيعجز العشرات يحملون هذه الدنانير وهذا الذهب والفضة يعجز، فالمراد بالمفاتح الخزائن، ومثل قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]؛ يعني خزائن. وبعضهم يقول: **(المفاتح)** هي المفاتيح، فالمفاتيح عندي؛ المفتاح غير المفتح، عندنا **(المفتح)** و**(المفتاح)**.

قالوا: **(المفاتح)** مفردها **(مفتح)**، و**(المفتح)** هو الخزينة، و**(المفاتيح)** جمع مفتاح، **(المفتاح)** ما تفتح به، ما تفتح به الخزنة، فعندنا خزائن وعندنا مفاتيح؛ فلذلك أهل التفسير اختلفوا هل المراد بالآية أن مفاتحه هي الخزائن ولا مفاتيح الخزائن؟ بعضهم قال هذا وبعضهم قال هذا، والله أعلم. لكن الذي يظهر -والله أعلم- أن المراد بها هي الخزائن؛ لأن الله يقول في موضع آخر: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩]؛ يعني خزائن الغيب.

قال: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]؛ يعني تنوء: تثقل، تثقل بالعصبة أولي القوة؛ يعني الجماعة الأقوياء الأشداء يعجزون عن حمل أثقال هذه الخزائن كالصناديق والشنط ونحوها المليئة بالذهب والفضة ونحو ذلك، فيعجزون عن حملها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]؛ لما كان عنده الأموال الطائلة، ودخله الكبر والأشر والبطر، وأصبح يفتخر على قومه ويفرح بما عنده، نصحه قومه العقلاء منهم، المؤمنون من بني إسرائيل.

نصحوه بخمس نصائح:

النصيحة الأولى: قالوا له: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]؛ فرح بطر وأشر، وفرح كبر، لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين الذين يفرحون بهذا الشيء، أما الفرح الذي يفرح به المؤمن، فرح الذي ليس فيه كبر ولا بطر؛ هذا جائز.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤]، وقال: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]،

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفرح، والله يفرح؛ «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ»؛ فالفرح الأصل فيه الجواز، والفرح الأصل فيه الإباحة؛ لكن إذا كان هذا الفرح يؤدي إلى الكبر وجحود نعمة الله والكفر بها، هذا هو الذي لا يجوز، وهذا الفرح الذي قال فيه قوم قارون: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] ؛ لا تفرح فرح جحود للنعمة، لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين؛ هذه النصيحة الأولى.

النصيحة الثانية: قالوا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [القصص: ٧٧]؛ يعني هذا المال اجعله ينفعك في الدار الآخرة، لا تجعله للدنيا، ولكن ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]؛ خذ حقك من الدنيا واجعل الكثير للآخرة، قدم مالك ما قدمت؛ أنفق على نفسك، وأنفق على من تعولهم.

وأنفق على الفقراء والمساكين وذي القربى ونحو ذلك، اجعل مالك ينفعك في الآخرة؛ مالك ما قدمت ومال وارثك ما أخرت. فالعاقل يعرف يتصرف في المال؛ فنصحوه بهذا المال أن يحسن التصرف فيه ولا ينسى الآخرة.

النصيحة الثالثة: قالوا: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]؛ خذ حقك منه والبس أحسن شيء، إن الله يحب الجمال، والبس واسكن في سكن واسع وكل من الطيبات ووسع على نفسك؛ لكن ليس على حساب نسيان الآخرة.

النصيحة الرابعة: قالوا: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]؛ أحسن تعاملك مع الله في عباداتك، وأحسن إلى الخلق والفقراء والمساكين، أحسن كما أحسن الله إليك؛ أتقن عملك مع الله وعلاقتك مع ربك، وأحسن إلى هؤلاء الفقراء والمساكين.

النصيحة الخامسة: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]؛ لا تفسد في الأرض بهذا المال، إن الله لا يرضى ولا يحب من يفسد في الأرض بعد إصلاحها.

- **ماذا كان رده وموقفه؟**

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]؛ يقول هذا، يعني هم يقولون له يعني الله أعطاك هذا المال اشكر الله، قال: لا، هذا المال أصلاً أنا حصلت عليه بفكر وتفكير جهد مني، وبذل ومعرفة بالتجارات، ما جاني هكذا، أنا الذي أتيت به، أتيت به، ولم ينسب هذا المال وهذه النعمة إلى ربه، وإنما جحدها؛ فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

رد الله عليه قال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني هذا المسكين الضعيف نسي ولم يفكر وجحد نعمة الله، والله قد أهلك أمماً ماضية قبله من القرون -ليس قرناً ولا قرنين- من هو أشد منه قوة.

ليس عنده قوة مثل قوتهم، وأكثر جمعاً؛ هم أكثر منك مالاً، ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]؛ المجرمون ما يسألون يوم القيامة عن ذنوبهم لماذا أذنبت؟ وإنما يجازون على ذنوبهم.

- **قد يسألك سائل يقول لك: في آيات أخرى يسألون؛ ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]؟**

الجواب: يسأل في وقت دون وقت، أو في حال دون حال؛ فيسألون عن ذنوبهم **(سؤال توبيخ وتقريع وإنكار)**، ولا يسألون لأنهم لا يستحقون من يسألهم، بل يؤخذون إلى العذاب.

لا نطيل الوقت يضيق، نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل هذه القصة ونواصل لما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: ٧٩]؛ هذا موضع آخر أو حال أخرى من قصة قارون يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا، ويبين موقف الناس منها، يأتي الحديث عنها -إن شاء الله- في اللقاء القادم.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل. وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القصص ٧٩ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للحادي والعشرين من شهر الله المحرم من عام (١٤٤٥هـ).

درسنا في هذه الليلة مع تفسير القرآن العظيم، وخواتيم هذه السورة؛ (سورة القصص)، التي أمضينا فيها مدة ولله الحمد، قضيناها في قراءة هذه السورة وتدبر آياتها، وتعلم ما فيها؛ فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألا يحرمنا هذا الأجر.

(قصة قارون)؛ وذكرنا في لقائنا الماضي أن أهل التفسير ذكروا أن قارون كان من قوم موسى، وكان قريباً له؛ إما ابن عمه، أو ابن عمته، أو ابن خاله، وأنه بغى على قومه، وأسرف وطغى؛ حيث إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنعم عليه بالمال، وفتح عليه من الكنوز؛ أعطاه من كنوز وفتح عليه من المال، ولكنه لم يحسن التصرف، ولم يشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه النعمة.

وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى﴾ [القصص: ٧٨]؛ يعني علم عندي بمعرفة المكاسب، والقدرة على جمع المال، وإحسان التصرف فيه، ونسي أن ذلك هو بفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن المتفضل عليه الأول هو الله عَزَّ وَجَلَّ؛ هو الأول، وهو الآخر، وهو صاحب الفضل مطلقاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ونسي، وتكبر، وطغى، وأسرف، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قص علينا هذه القصة ليعتبر بها المعتبرون، ويتعظ بها المتعظون؛ بأن الأمر لله، والملك لله، والمدبر والمتصرف في هذا الكون هو الله، وأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

ومن بسط له رزق فليشكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وليحمد الله عَزَّ وَجَلَّ على هذه النعمة، ومن قتر الله عليه وضيق عليه فليحمد الله أيضاً؛ إن الله اختار له هذا الخير، اختار له هذا الأمر؛ والله يختار ما فيه خير للعبد؛ إنما يفقر الله العبد لأن (الفقر) أنسب له وأصلح له، وإنما يغني هذا لأن (الغنى) خير له؛ فالانسان لا يدري، لا يدري.

ولذلك لما أعطى الله قارون هذا المال العظيم، الذي تنوء بالعصبة المفاتيح؛ ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] من كثرة ماله وكنوزه، ونصحه من نصحوه من قومه وقالوا: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]؛ لا تفرح فرح بطر واستكبار، لا تفرح فرح كبر، واشكر الله عَزَّ وَجَلَّ على هذه النعمة؛ فإن الله لا يحب الفرحين بهذه الصورة، وإن كان الفرح أمره جائزاً ومباحاً.

وقد يكون مستحباً؛ والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤]، وقال: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]؛ فهذا فرح جائز.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جاء في الحديث: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ»؛ فالفرح صفة من صفات الله، والفرح أيضاً أمر مطلوب من المؤمن، لكن بهذه الصورة التي يفرح بها قارون؛ على وجه التكبر والاستكبار، وغمط الناس؛ فإن هذا فرح مذموم؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

- **ولذلك لو جاءك واحد وسألك وقال لك: كيف الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، ويقول في موضع آخر: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، وقال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤]؛ كيف نجمع بينها؟**

الجواب: الأصل في الفرح أنه جائز، وأن الله أباحه، والمؤمن يفرح بالطاعة، ويفرح بقدوم الطاعات كرمضان وغيره، ويفرح بنصر الإسلام والمسلمين، لكن الفرح المنهي عنه، الذي قال الله فيه: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]؛ هذا فرح الاستكبار، والبطر، والأشر، وغمط الناس واحتقارهم.

ولذلك نصحه قومه وقالوا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ [القصص: ٧٧]؛ اجعل مالك هذا ينفعك في الدار الآخرة؛ مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت؛ إذا أخرت هذا المال، المال الذي

أنت الآن تجمعه في رصيدك، هذا المال إذا لم تتصدق به فهذا ليس لك؛ هذا مال وارثك، يوماً من الأيام ستتركه، وإنما تجمعه لغيرك.

المال الذي ينفعك ما تقدم؛ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]؛ خذ حقك من الدنيا، وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، زوجك عليك حقاً، ولدك عليك حقاً، وأقاربك لهم حق؛ لكن لا تنسى نصيبك، ولا تنسى نصيب من حولك من الدنيا.

﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]؛ الله أحسن إليك بالمال، ورد هذا الإحسان بالإحسان؛ اشكر الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧].

- **ماذا كان رد هذا الطاغي المتكبر الباغي، الجاحد للنعمة، الكنود؟**

قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]؛ أنا أعرف وأحسن التصرف في المال والمكاسب، وأعرف كيف أكسب المال، وكيف أفعل.

وهذا قد يقع أيها الإخوة من بعض المسلمين الآن؛ يعني تجد النفس ضعيفة، والشيطان يدخل عليه يقول: لولا أني أنا أعرف أتصرف، وأعرف عن طريقة البيع والشراء ما حصل لي كذا، وأعرف كيف طريقة المساهمات، وطريقة كذا، وطريقة كذا؛ وينسى أن الله هو المتفضل، ويغيب عنه أن الله هو الرزاق؛ أن الله هو الرزاق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فينسى هذا ويعتمد على نفسه، وعلى ذكائه، وعلى معرفته بالمكاسب.

وهذا الذي أوقع قارون بهذا الأمر؛ أنه يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨]؛ أهلك أناساً كثيرين أكثر منه، أشد منه قوة، وأكثر جمعاً؛ لا يظن أنه هو الآن جمع الدنيا كلها؛ فمن هو أكثر منه وجمع الدنيا وأشد قوة، ومع ذلك أهلكهم الله.

قال سبحانه: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]؛ المجرم لا يسأل عن ذنوبه، لا يسأل عن ذنوبه ولا يلتفت إليه؛ لأن الله عالم بحاله، فلا يستحق أن يسأل عن ذنوب.

لكن هذه الآية لابد أن نقف عندها؛ نجد في القرآن الكريم آيات أخرى تقول: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

- **كيف نجمع بينها؟**

الجواب: السؤال المثبت الذي يقول الله فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]؛ هو **(سؤال توبيخ وتقريع)** لهم. وهنا السؤال المنفي الذي قال فيه: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]؛ هو **(سؤال استعتاب)**؛ يعني الله عَزَّ وَجَلَّ لا يستعتبهم ولا يسألهم سؤال استعتاب وهو عالم بحالهم.

هذا الطاغية الباغي قارون، لما نصحه قومه لم يقبل، وطغى واستكبر وبغى. ففي يوم من الأيام، خرج على قومه؛ خرج من بيته ومن قصره في أبهى زينة، وأبهى جماله، وأبهى حلة؛ لبس الملابس الجميلة الحسنة والابهة، وركب المراكب، والخدم معه.

فنظر إليه الناس، وانقسم الناس تجاهه قسمين كما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وشوف كيف نظرة الناس تختلف؛ فمنهم من ينظر إلى الدنيا، ومنهم من ينظر إلى الآخرة.

فالذين يريدون الحياة الدنيا تمنوا أن يكونوا مثله: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩]؛ أعطاه الله هذا الحظ العظيم، نتمنى أن نكون مثله؛ هذه نظرة قاصرة، نظرة الدنيا، وهؤلاء المساكين ينظرون أن يكونوا مثله حتى يتمتعوا بالدنيا.

وأما أهل العلم فنظرتهم نظرة بعيدة، بعيدة المدى؛ ينظرون إلى الآخرة، لا ينظرون إلى القريب، إلى الدنيا الدانية، وإنما ينظرون إلى الآخرة الباقية.

وشوف كيف الفرق بين أهل العلم وأهل الجهل؛ أهل العلم يعرفون، يعرفون الموازين، ويعرفون مثل هذه الأمور، ويقيسونها بمقاييس العقل، وهؤلاء أهل الجهل ينظرون إليه، فاغتروا بما هو فيه، وتمنوا أن يكونوا مثله، ويظنون أن الدنيا هي التي هي دار؛ هي الدار التي يستمتع بها الإنسان؛ لا، الدنيا ممر، تمر على الضعيف، والفقير، والغني، والأمير، والمأمور، كلهم؛ لكن الآخرة هي التي تبقى.

- **ولذلك أهل العلم ماذا قالوا؟**

أنكروا عليهم؛ قالوا: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: ٨٠]؛ هذا أسلوب إنكار، ويلكم تغترون بما هو فيه من هذه الأبهة! ثواب الله الذي عنده في الآخرة، وما عند الله خير

للأبرار؛ ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]؛ ثواب الآخرة خير لمن آمن وعمل صالحاً؛ لابد أن يكون محققاً للإيمان، والتصديق، والعمل الصالح؛ فمن كان مؤمناً بقلبه، يعمل الصالحات، محافظاً على ما أمره الله به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مجتنباً النواهي؛ هذا هو الذي يفوز بالآخرة ويطلبها.

ويلكم، ثواب الله خير من هذا كله، ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]؛ لا يلقى هذا الثواب، ولا يحصل على هذا الأجر العظيم إلا الصابرون؛ تصبر في الدنيا، تجد أثر هذا الصبر في الآخرة، تجد ثمرة هذا الصبر في الآخرة؛ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وبعض المفسرين يقول: "﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠]؛ أي هذه النظرة، وهذا التفكير، وهذا التأمل، وهذا الكلام لا يوفق له إلا الصابرون"؛ ولذلك أهل العلم الذين عرفوا بالصبر، عرفوا يتكلمون عن هذا الأمر: ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

فبعد هذه الأبهة، وهذا الغرور، وهذا الكبر من هذا الطاغية قارون؛ أخبر الله عنه أنه قد خسف به الأرض؛ قال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]؛ فخسف الله به وبداره، فأصبح هو وداره تحت الأرض؛ خسف به فسقط في داخل الأرض، يعني ساخ في جوف الأرض؛ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [القصص: ٨١].

ما في أحد نصره ومنع عنه هذا الخسف، ومنع هذا العذاب الذي نزل به، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]؛ ما استطاع أن ينتصر، بل انهزم أمام هذه القوة العظيمة.

فلما سمع الناس بأن قارون ذهب هو وداره تحت الأرض وخسف به، جاء أولئك الذين كانوا يتمنون أن يكونوا مثله؛ فلما رأوه على هذه الحال، أصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس؛ أي بالأمس القريب، يقولون: ﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [القصص: ٨٢]؛ ويكأن الله؛ **"ويك"** كلمة تعجب، يتعجبون؛ ويكأن الله؛ يعني الأمر بيد الله؛ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر؛ الله هو الذي يبسط الرزق، وهو الذي يوسع على عباده، وهو الذي يرزق من يشاء، ويقدر؛ يضيق على من يشاء ويجعله فقيراً.

قالوا: ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ [القصص: ٨٢]؛ يقولون: لولا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منّ علينا بمنّه، وكرمه، ونعمته علينا بأن لم يخسف بنا، لخسف بنا؛ لأننا كنا نتمنى، كانوا يتمنون أن يكونوا مثل قارون؛ فقالوا: الحمد لله الذي ما جعلنا الله مثله بالخسف.

وهذا فيه دليل على أن من يتمنى أن يكون من أهل الخير والصلاح، ويتمنى أن يكون عنده مال فينفق في سبيل الله، ويتمنى أن يكون من أهل القرآن فيحيي ليله ويقضي نهاره بالقرآن.

كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَهُمَا فِي الْأَجْرِ سَوَاءٌ». والذي يتمنى أن يكون مثل أهل الشر، ويتمنى أن يكون مثل ما ذكر هنا، قد يعاقب، وقد يصاب بما يصاب به هؤلاء؛ فالنية محلها القلب، والنوايا يثاب عليها العبد أو يعاقب.

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»؛ فالإنسان يتمنى أن يكون في زمرة أهل الخير والصلاح، لا في زمرة أهل الشر والضلال، فقالوا: ﴿لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢]؛ لا يفلح الكافر، لا يفلح الكافر، يخسر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تعقيباً على هذه القصة العظيمة التي فيها الدروس والعبر؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]؛ تلك الدار الآخرة التي قال فيها هؤلاء: ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً؛ هذا الطاغية قارون أراد العلو في الأرض والفساد، ولما كان يريد العلو والفساد، حرمه الله من الآخرة؛ قال: تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً؛ أما الذي يريد العلو والفساد فليس له حظ في الآخرة، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال بعض أهل التفسير: إن قوله: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾ [القصص: ٨٣] راجعة إلى فرعون في أول السورة؛ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]، و﴿وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] راجع إلى قارون؛ لأنه كان من المفسدين.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: الدار الآخرة لا تكون لمن يريد العلو كفرعون، ولا لمن يريد الفساد في الأرض كقارون، وكلاهما؛ فرعون، وقارون، وهامان، كلهم يريدون العلو في الأرض والفساد في الأرض.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]؛ العاقبة الحسنى، العاقبة الحسنة لأهل التقوى والطاعة.

ولذلك بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها، قال: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [القصص: ٨٤]؛ وعمل الأعمال الصالحة فله خير منها، والحسنة بعشر أمثالها، وتضاعف أضعافاً كثيرة، ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]؛ من عمل السيئات جوزي بعمله؛ يجازى السيئة بالسيئة، والحسنة بعشر أمثالها.

يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة العظيمة؛ إشارة إلى أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما خرج موسى خائفاً من قومه، فاراً بنفسه لئلا يقتله آل فرعون، ثم إن الله أنعم عليه بعد سنين ورجع؛ يعني بعدما مضى عشر سنوات في أهل مدين ورجع، وكلفه الله بالرسالة؛ فجاء وقد أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة والكلام، فعاد إلى مصر معززاً مكرماً.

يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبينا؛ يذكر نبينا محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما خرج وهو فار وهارب من أهل مكة، أن الله وعده أن يعيده إلى مكة معززاً مكرماً؛ قال: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]؛ أي أوجب عليك القرآن، وفرض فيه الفرائض، وأوجب فيه الأحكام؛ لرادك إلى معاد.

قال أهل التفسير: "إن هذه الآية نزلت في الجحفة؛ عند رابغ".

☜**والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد خرج من مكة، ولما خرج من مكة التفت إليها وقال:** «إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللهِ، وَأَحَبُّ أَرْضِ اللهِ إِلَى اللهِ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»؛ فلما وصل الجحفة أو رابغ نزلت عليه هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]؛ سترجع إلى مكة معززاً مكرماً.

بعض أهل التفسير يقول: "لا، إن معنى ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]؛ أي ستعود إلى ربك؛ لأن الذي أوجب عليك وفرض عليك القرآن وارسلك رسولاً وجعلك نبي هذه الأمة، فإن الآخرة خير لك من الأولى، وأنه ستعود إلى ربك".

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[القصص: ٨٥]؛ قل يا محمد لهم: ربي أعلم من جاء بالهدى، لما اعترضوا عليه؛ اعترض عليه المشركون أن محمداً في ضلال، وأن محمداً فيه كذا وكذا وكذا، واتهموه باتهامات؛ قال: قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين؛ هل أنا بالهدى، أو بالضلال؟ ولا شك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هدى من ربه، وهم الذين في ضلال.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[القصص: ٨٦]؛ وما كنت يا محمد ترجو، كنت تتمنى أن يلقى إليك الكتاب؟ إلا رحمة من ربك؛ هذه رسالة من الله عَزَّ وَجَلَّ رحمة، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[الشورى: ٥٢]، وما كنت ثاوياً في أهل مدين؛ ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥]، وما كنت بجانب الطور؛ ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ [القصص: ٤٦]؛ ولكن رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾[القصص: ٨٦]؛ لا تكون معيناً للكافرين، وهذا وإن كان مخاطباً به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فالمراد به غيره؛ أي لا تكون أيها الإنسان معيناً للكافرين على ربك.

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٨٧]؛ يقول: لا يصدنك هؤلاء الكفار عن آيات الله؛ يشغلونك عن آيات الله بعد أن أنزلت إليك يا محمد، أو أنزلت على أي إنسان.

﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]؛ كن داعياً إلى الله، ولا تكونن من المشركين؛ كن داعياً إلى ربك ولا تشرك بربك أحداً، وهذا لا يراد به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن النبي يستحيل أن يكون مشركاً، وإنما يراد به غيره.

ولذلك قال: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[القصص: ٨٨]. كل هذا في تقرير توحيد الإلهية، وأن المعبود بحق هو الله، ولا يجوز أن يدعى إله؛ أي إله مع الله، إلهاً آخر أبداً؛ لا إله إلا هو سبحانه.

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]؛ كل من على هذه الأرض سيباد، وكل شيء هالك إلا وجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فهو الباقي؛ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]؛ فالباقي هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي هذه الآية أثبت أهل العلم صفة الوجه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإذا بقي وجهه بقي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولما قال: وجهه؛ دل على أن لله وجهاً يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]؛ له الحكم والقضاء في الدنيا والآخرة، وإليه ترجعون يوم القيامة؛ فيجزي كلاً بعمله، كلاً بعمله.

وإلى هنا تنتهي هذه السورة؛ (سورة القصص)، فلله الحمد والمنة على ما أنعم علينا أن أنهينا هذه السورة ولله الحمد، وإن شاء الله في لقائنا القادم بإذن الله نتنقل للسورة التي تليها، والله أعلم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ العَنْكَبُوت)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(العنكبوت ١ - ٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. أَمَّا بَعْدُ؛ اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم، وهو اليوم الثامن من شهر الله المحرم من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة (١٤٤٥ هـ).

السورة التي بين أيدينا هي سورة جديدة ندخل عليها اليوم، وهي (سورة العنكبوت)، وهي تأتي بعد (سورة القصص).

هذه السورة، (سورة العنكبوت)، لو نتأملها جيداً نجد أن هذا الاسم له علاقة قوية بموضوع السورة؛ موضوع السورة هو موضوع يتعلق بالفتن، الفتن عظيمة خطيرة، والإنسان يتعوذ بالله من الفتن؛ لأنها يقع فيها الإنسان من حيث لا يشعر، وهي هشة ضعيفة إذا الإنسان احترز منها وتجنبها وابتعد عنها. ضعيفة؛ يعني بمجرد ابتعادك عنها تزول ولا تؤثر فيك.

- **قد يسأل سائل يقول: ما علاقة العنكبوت بالفتن في هذه السورة؟ ما الرابط؟**

الجواب: بيت العنكبوت بيت متشابك خيوطه متشابكة، والفتن متشابكة يدخل بعضها ببعض، وبيت العنكبوت بيت ضعيف جداً لا يقي لا من شمس، ولا من حر، ولا من مطر، ولا من عدو؛ والفتن ضعيفة جداً.

وقد يقع الإنسان فيها وهو لا يشعر، لكن يحترز ويأخذ حذره ويبتعد عنها. وهكذا شبكات العنكبوت، إذا لم تحترز منها وتأخذ حذرك ستقع فيها، وهي تقع وأنت لا تشعر بها؛ فهناك رابط شديد جداً بين العنكبوت وبين الفتن.

السورة تتحدث عن الفتن؛ فتن يواجهها الإنسان الحقيقة في الحياة الدنيا، فتن عظيمة يواجه فتناً عظيمة في حياته، يعني فتنة الدين هي أعظم الفتن؛ أن يُفتن الإنسان في دينه، والسورة ركزت على فتنة الدين.

أحياناً الفتن تواجه الإنسان في الطاعات؛ يُفتن في الطاعات، ويُمتحن في الطاعات. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أثنى على الصحابة لما قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]؛ فعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن قلوبهم صالحة للتقوى فجزاهم أحسن جزاء، وهنا أحياناً يمتحن الإنسان في دينه، ويمتحن في طاعاته، ويمتحن في صبره على الطاعات وجلده ومجاهدته نفسه على الطاعات.

وأحياناً يمتحن أمام المعاصي والذنوب؛ والمعاصي والذنوب تواجه الإنسان، الشبهات والشهوات تواجه الإنسان في حياته في كل وقت، فينبغي أو يجب على الإنسان أن يواجه هذه الفتن -فتن المعاصي وفتن الشهوات- يجب عليه أن يواجهها بقوة، فهي فتن؛ فتن في الطاعات، يفتن في دينه، فتن في المعاصي والذنوب.

وأحياناً يفتن الإنسان في أن يخرج عن دينه، أن يلحد في دينه، أن يلحد ويخرج عن دينه؛ فتن عظيمة، وأحياناً يفتن في بدنه؛ يفتن بالمصائب والأمراض والفقر والجوع، هذه كلها فتن؛ هل يصبر أو يجزع؟ هل يتسخط أو يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ ويشكر الله؟ هذه كلها فتن.

السورة ركزت على أعظم الفتن: الفتنة في الدين، سواء في جانب الطاعات أو جانب المعاصي، وساقت لنا موقف أحد الصحابة الذين فُتنوا في دينهم من حيث البر بوالدته، وهو سعد رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه **(سعد بن أبي وقاص)**؛ لما أسلم حزنت أمه حزناً شديداً وقالت: **"والله لا آكل ولا أشرب ولا أستظل تحت ظل حتى ترجع إلى دينك ودين آبائك"**.

فتركها ولم يقبل منها، ثم عاد إليها وقال: **"يا أمي كلي، اشربي، استظلي"**، قالت: **"والله حتى يعيرك الناس بأنك قاتل أمك"**، فلما مضى ثلاثة أيام دخل عليها وقال: **"يا أماه كلي واشربي واستظلي، والله لو لكِ مائة روح -أو مائة نفس- تخرج واحدة واحدة ما رجعت عن ديني"**. فلما علمت منه هذا الكلام عادت وأكلت وشربت.

الشاهد من الكلام أن الله أنزل فيه هذه الآيات التي ستأتينا، والتي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨]، وهذا امتحان؛ يبتلى الإنسان بأمه، يبتلى بأبيه من حيث الدين، يبتلى بأبنائه، وهذا من صور البلاء الذي وقع لبعض الصحابة.

ثم يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا صوراً من الامتحان والبلاء والفتن التي امتحن فيها عدد من الأنبياء؛ فبدأ بـ (نوح) الذي امتحن وفُتن في قومه، حيث أقام معهم -أو كانت مدة دعوته- تسعمائة وخمسين سنة ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] وهو يدعوهم، ولم يستجب له أحد منهم إلا ما يُعد على الأصابع، إلا قلة، عدد قليل.

و(إبراهيم) ذكر الله قصته بعد (نوح) أنه فُتن في دينه وأُلقي في النار، ومع ذلك صبر وتحمل؛ من يصبر أن يقال له: **"اترك دينك أو نلقيك في النار"**؟! وهكذا تأتي السورة لتذكر لنا تسعة من الأنبياء في سياق الامتحان والابتلاء والفتنة.

ويذكرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ثنايا هذه السورة بأن البعد عن الفتن، أو العلاج لمثل هذه الفتن، العلاج هو الصلاة؛ ولذلك ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن الصلاة والقرآن هما أقوى أسباب العلاج لمثل هذه الفتن -فتنة الدين وفتنة الطاعات-.

الإنسان يُفتن في الطاعة بأن يضعف أمام الطاعة ولا يقيم الطاعة على وجهها الصحيح، أو يتخلف عن الطاعات، أو يقع في المعاصي، العلاج هو قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وعن سائر الفتن، ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ أي ذكر الله في الصلاة أعظم من أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، إقامة كل الصلاة هي ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول لموسى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وتذكر السورة موقف المؤمنين عندما يفتنون مع أهل الكتاب أو اليهود بأن يوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأن يجادلهم بالتي هي أحسن: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فالسورة تدور على هذا المحور المهم الحقيقة، الذي يعيشه كل إنسان منا؛ يعيش هذا الأمر.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يترك الناس أن يدّعوا الإيمان ويُتركوا على ذلك؛ لأن منهم من يدّعي الإيمان وهو غير صادق، فلذلك الله أراد التمحيص لمن هو صادق ومن هو كاذب.

التمحيص بالفتن؛ الفتن بالطاعات هل يثبت وهل يستمر على الطاعات أو يتزعزع أمام الطاعة؟ فيسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الثبات؛ ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان من أكثر دعائه: «**اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**».

فالإنسان يسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يثبته على الحق، وأن يعينه على الطاعة؛ لذلك من وصايا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ أن يقول دبر كل صلاة: «**اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**».

فالإنسان يحرص كل الحرص على أن يؤدي هذه الطاعات على الوجه الأكمل الذي يرضي رب العالمين، ولا يُخل بشيء من ذلك أو يترك شيئاً من ذلك؛ فإن هذا امتحان وابتلاء من الله: هل يصبر على الطاعة أو لا يصبر؟

ابتلاء من الله: هل يصبر على المعاصي ويبتعد عنها ويصرف نفسه عن المعاصي أو يقع فيها؟ أحياناً تُعرض عليك فتن عظيمة، الآن صارت هذه الأجهزة بين أيدينا كلها فتن؛ فهل يفتن في النظر الحرام أو السماع الحرام أو نحو ذلك ولا يصبر؟

أحياناً يفتن في بدنه؛ يصاب بأمراض، يصاب بفقر، بجوع، بكذا، هل يصبر ويحتسب الأجر؟ يصاب أحياناً ويُفتن في النعمة؛ هل يشكر أو لا يشكر؟ ابتلاء؛ قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

فأحياناً الإنسان يُبتلى، الإنسان لا يخلو من الابتلاءات، الدنيا كلها ابتلاءات، لكن العاقل المؤمن - المؤمن المتقي- يعرف كيف يواجه هذه الفتن. ومثل ما ذكرنا: الفتن ضعيفة وهشة مثل بيت العنكبوت؛ إن واجهتها بقوة استطعت أن تتجاوزها، وإن ضعفت أمامها -وهي ضعيفة- تسلطت عليك.

السورة من السور المكية، وهي تعد من أواخر ما نزل بمكة؛ لأنها تحكي لنا بعض المواقف في الفتن، وأن المشركين فتنوا المؤمنين وأرادوا أن يردوهم إلى الشرك وأرادوا أن يضيقوا عليهم، فأمرهم الله بالهجرة كما في آخر السورة: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً تكفل بالرزق، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾[هود: ٦]. يعني ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخر السورة أن أرض الله واسعة، وأن الذي يرزق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠]؛ فالرزاق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ندخل على آيات السورة؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾[العنكبوت: ١-٢].

﴿الم﴾: هذه افتتاحية، افتتاحية الحروف المقطعة، هذه مرت معنا كثيراً، وعرفنا أنها جيء بها لتنبيه هؤلاء المشركين على أن القرآن كلام من كلام العرب، وكلام منزل على طريقة العرب، وأنه كلام مكون من حروف، وهذه الحروف أنتم تستعملونها أيها العرب فتعرفونها، فلماذا لا تفقهون هذا الكلام الذي يأتيكم؟

- **لماذا لا تفقهونه وهو يأتيكم وتسمعونه وفيه المواعظ والتوجيهات؟**

ولما قالوا إن هذا الكلام أو هذا القرآن من عند محمد، رد الله عليهم فقال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾[البقرة: ٢٣]، تحدّاهم أن يأتوا بمثله، فدل على أن هذا القرآن هو كلام الله وأنه مكون من هذه الحروف؛ هذا معناها.

فيها كلام طويل للعلماء، وهذا هو المعنى الصحيح الذي ذكرناه، وكلامنا هذا في معنى ﴿الم﴾ ليس تفسيراً لهذا اللفظ ﴿الم﴾، وإنما بيان الغرض من مجيئه؛ الهدف من مجيء هذه الحروف.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]؛ أيظن الناس؟ هل يحسب الناس ويظن أنهم يدّعون الإيمان ويقولون: **"نحن مؤمنون"**، ثم لا يُبتلون؟ لابد من الابتلاء والامتحان.

والهمزة للتعجب؛ يعني عجباً لهؤلاء الناس يظنون أننا نتركهم وهم يدّعون الإيمان ويقولون: **"نحن مؤمنون"** بألسنتهم، ثم إذا أُصيبوا بمصائب أو واجهوا مواجهات ضعفوا أمام هذا أو تخلّوا! فلن يُتركوا، لابد من امتحان حتى يظهر الصادق من الكاذب.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر أن المنافق في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]؛ هذا هو الامتحان. فيظن الناس أنهم يقولون **"آمنا"** ويُتركون بلا امتحان؟! لا، لابد من الامتحان.

ولذلك قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]. اللام للقسم؛ أي والله لقد فتنا الذين من قبلهم.

فتن الله عَزَّ وَجَلَّ أمماً كثيرة، بل فتن أنبياء؛ فتن إبراهيم بالنار، وفتن نوحاً -كما ذكرنا- مع قومه، وفتن يوسف، وفتن فلاناً وفلاناً من الأنبياء كثير، فتن أصابتهم الفتن والامتحانات وهم أنبياء وهم خُلّص وهم أقرب الناس إلى الله، ومع ذلك أصابتهم الفتن، وأقوام كثيرون أصيبوا بالفتن حتى لو كانوا كفاراً كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قوم فرعون﴾ [الدخان: ١٧].

فهنا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣]، فالفتن أصابت الأمم الماضية، وأصابت الذين آمنوا حيث امتحنوا، وأصابت الأنبياء. ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ الصادق، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ الكاذب، لابد أن يعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الصادق من الكاذب.

- **قد يأتيك شخص ويقول لك: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالم الغيب والشهادة وعليم بذات الصدور، كيف يقول ليعلم الله الصادق من الكاذب؟**

الجواب: ليظهر علمه فيجازي عليه؛ إذا أظهر الله علمه في الصادقين جازاهم على صدقهم، وإذا أظهر الله علمه في الكاذبين جازاهم على كذبهم.

ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

هذا موجه لمن؟ موجه للذين يفتنون المؤمنين؛ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات في دينهم يظنون أنهم يفلتون من قبضة الله! لا يظن هؤلاء، ظنهم سيء.

لا يظن ولا يحسب هؤلاء الذين يعملون السيئات -يعملون الأعمال السيئة ويمكرون في شرع الله ويمكرون بأوليائه- أن يسبقوا وأن يفلتوا من حكم الله وقبضته وسلطانه؛ بل الله قادر على أن يقبضهم في لحظة، وأنه لن يفلت منهم أحد ولن يغيب أحد منهم عن حكم الله وقضائه وعن جزاء هؤلاء.

فهذه رسالة توجه للذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات في دينهم؛ فلا يظن هؤلاء الذين يفتنون أن الله يتركهم على ما يريدون من فتن المؤمنين، بل سينتقم منهم.

ولذلك قال الله في حق أولئك الذين امتحنوا المؤمنين وفتنوا المؤمنين في أصحاب الأخدود: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، وتوعدهم الله الوعيد الشديد، وهؤلاء توعدهم الله أنهم لن يسبقوا الله، وأن الله قادر على أن يقبضهم في لحظة.

ثم وجه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توجيهاً للمؤمنين أن يصبروا على الفتن، قال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]؛ من كان يرجو لقاء الله ويطمع في لقاء الله ويحب لقاء الله ويتمنى لقاءه ويخاف ما سيواجه يوم القيامة؛ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لقريب.

إما بموت هذا الشخص أو مجيء يوم القيامة، مجيء يوم القيامة ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وهو السميع العليم؛ سميع للأقوال، عليم بالأحوال، ويعلم الصادق من الكاذب، فمن كان رجاؤه حقيقياً، ويأمل في لقاء ربه، فإن الله يحب لقاءه؛ «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ».

قال: ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]. أيها المبتلى، وأيها الممتحن، وأيها المكلف، وأيها الإنسان، أيها المؤمن؛ أنت تجاهد نفسك، الحياة الدنيا كلها جهاد في جهاد، تجاهد نفسك.

أعظم الجهاد: الجهاد لإعلاء كلمة الله في مجاهدة أعداء الله، ثم الجهاد درجات: مجاهدة النفس في الطاعات؛ تجاهد نفسك في الصبر على الطاعات والبعد عن المعاصي وهكذا.

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾؛ ثمرة الجهاد لك وتعود عليك، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غني عن طاعتك وعن جميع الطاعات، لا؛ الله عَزَّ وَجَلَّ غير محتاج لطاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين، ولكن الإنسان يجاهد نفسه.

ولذلك في آخر السورة جاء التنبيه على هذا الأمر: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ فالمجاهد المحسن في الطاعات والذي جاهد نفسه لا يظن أن هذا الجهاد يذهب عليه؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يهديهم أحسن الطرق ويثبتهم على الحق إذا علم منهم الصدق في المجاهدة.

قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[العنكبوت: ٧]. هذه المجاهدة؛ المجاهدة في الإيمان الحقيقي وعمل الصالحات.

- **ما النتيجة؟**

قال: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾. الله عَزَّ وَجَلَّ أقسم هنا باللام؛ شوف اللام هذه، هذه لام قسم، قال: والله لنكفرن عنهم سيئاتهم، أي نمحو عنهم جميع المعاصي والذنوب يزيلها الله عنك، ونعلم أنه يجازيك بأحسن ما كنت تعمل؛ إذا كنت تعمل حسنة الله يجازيك بعشر حسنات ويجازيك بأضعاف أضعاف الحسنات، فيضاعف الله لك الحسنات ويجازيك بأحسن الأعمال.

عندنا هنا -مثل ما ذكرنا- ما وقع لسعد بن أبي وقاص رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه؛ كان من السابقين للإسلام، فلما أسلم وعلمت أمه بذلك حزنت حزناً شديداً عليه.

ومثل ما ذكرنا سابقاً أن الله أنزل فيه هذه الآية لما قالت: **"والله لا آكل ولا أشرب ولا أستظل تحت ظل حتى ترجع عن دين محمد"**، فأبى عليها وامتنع، وكان بارّاً بأمه برّاً شديداً، فقالت: **"والله لا آكل حتى أموت ويعيرك الناس بأنك قاتل لأمك"**، قال: **"والله لا أرجع"**.

وكلما دخل عليها قال: "يا أمي كلي واستظلي واشربي"، قالت: **"والله لا آكل"**، فلما مضت ثلاثة أيام دخل عليها وقال: **"يا أماه، والله لو لكِ مائة نفس تخرج نفساً نفساً ما تركت هذا الدين أبداً"**.

فلما علمت هذا تمسكه -وهذا هو الامتحان، شوف كيف يمتحن وهو بار بأمه محب لبرها، ومع ذلك كيف كان رده: تمسك لأن هذه فتنة عظيمة، فتمسك فكان هذا خيراً له-.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]؛ وصيناه يعني ألزمناه وحثيناه على هذا الأمر وأمرناه أمراً مؤكداً بأسلوب الوصية العهد المؤكد، بوالديه **(أن يوصيناه بأمه وأبيه)** على أي شيء؟

قال: ﴿حُسْنًا﴾؛ أن يحسن إليهم حسناً يعني عمل فيه الإحسان إليهم أن يحسن إليهم، وشوف في آية أخرى في **(سورة الأحقاف)** قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ وإحساناً أقوى من حسناً؛ لأن **(سورة الأحقاف)** في المؤمنين، وصية المؤمن لوالديه المؤمنين، وهنا وصية المؤمن سعد لوالديه المشركين، ولذلك قال: ﴿حُسْنًا﴾ يعني أحسن إليهم حسناً.

قال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨]؛ يعني أمراك بالشرك وجاهداك مجاهدة على الشرك وعلى عدم الإيمان بالله، قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ لا تطعهما في المعصية، ليس في الشرك فقط؛ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

لو أمرك والدك المؤمن الذي يصلي في المسجد، أمرك بمعصية لله فلا تطعه، أو والدتك فلا تطعها؛ أي معصية لله لا ترضي الله عَزَّ وَجَلَّ، طاعة الله مقدمة، والله أمرك بالبر والإحسان ولم يأمرك بأن تعصي الله فيهم، فمعصية الله عظيمة.

قال: ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ [العنكبوت: ٨] والشرك أعظم الأشياء وأعظم المعاصي فلا تطعهما.

قال هنا: ﴿لِتُشْرِكَ﴾ [العنكبوت: ٨]، وقال في **(سورة لقمان)**: ﴿عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي﴾ [لقمان: ١٥]؛ ف **"على أن تشرك"** أعظم وأبلغ، لأن الزيادة في المبنى زيادة في المعنى، فهي أعظم أبلغ ﴿عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ﴾، أما ﴿لِتُشْرِكَ﴾ فلو تشرك ولو قليلاً لا تشرك.

قال: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]؛ إلى الله مرجعكم جميعاً ويحاسبكم الله ويجازيكم على أعمالكم وإن أحسنتم.

ولذلك قال في (سورة لقمان): ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]؛ أي صاحب أبويك وأحسن إليهم، ولذلك قال: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ في الدنيا ولم يقل في الآخرة، لأن علاقتك في الدنيا فقط معهم فصاحبهم، أو تكون علاقتك دنيوية يعني في المال والجاه والتجارات ونحو ذلك، يعني صاحبهم في أمور الدنيا لا في أمور الدين؛ أمور الدين لن يكونوا معك.

قال هنا: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]. تأكيد على من تمسك بالدين وعمل الأعمال الصالحة أن الله وعده أن يجعله في الصالحين، قال: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي في زمرة الصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين أو مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، فصحبة الصالحين في الآخرة أن تكون رفيقاً هذا من خيرة الله.

ولذلك في حق المؤمن: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، فادخلي في عبادي ك ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

الآيات لا تزال في ذكر يعني في ذكر هذه الآيات؛ الحقيقة مهمة جداً وأنا أرى أنها مهمة جداً وأنها تمس الواقع، يعني مثل هذه دروس وعِبر نستفيد كلنا منها، فإنا حقيقة نحتاج إليها؛ وصايا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتوجيهات لك أيها المسلم في مقابل هذه الفتن.

ونحن نعيش في زمن الفتن ينبغي لنا أن نتذكر هذه السورة ونتذكر هذه الآيات العظيمة التي وجه الله لنا فيها كيف نتمسك بهذا الدين، والقابض على دينه كالقابض على الجمر؛ «**الْقَابِضُ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ**».

لعنا نقف عند هذه الآية إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(العنكبوت ١٠ - ١٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للسادس من شهر صفر من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة (١٤٤٥ هـ)؛ درسنا المعتاد بعد صلاة المغرب من كل ثلاثاء مع تفسير القرآن العظيم.

والسورة التي بين أيدينا هي (سورة العنكبوت)؛ تكلمنا عنها في لقائنا الماضي، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر فيها قصة العنكبوت، وذكر فيها مثلاً ضربه الله في حق المشركين وهم يعبدون، قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فهؤلاء الذين اتخذوا أولياء من دون الله -يعني من الأصنام والمعبودات المخلوقة اتخذوا من دون الله أولياء- في ضعفهم وعدم نفعهم لعابديهم مثل ضعف هذا البيت؛ يعني ما ينفعهم.

يعني الذين يذهبون إلى الأولياء ويطوفون حول القبور ويقدمون لهم القرابين ويدعونهم: يا فلان، يا فلان، المدد؛ أو يذهبون إلى هذه الأصنام والأوثان ويعبدونها ويسجدون لها ويقدمون لها القرابين؛ هذه ما تنفعهم إلا كما ينفع العنكبوت وكما ينفع بيت العنكبوت، ويحمي ما يحمي بيت العنكبوت؛ فهو ضعيف وهزيل، ولو أصابه المطر يتمزق، ولو أصابته الشمس ما يدفع عنها، ولا يدفع الريح والغبار والعدو؛ يعني ضعف في ضعف.

فهؤلاء الذين يذهبون إلى هؤلاء الأولياء وهؤلاء القبور والقبوريين، والذين يعبدون ويدعون من دون الله؛ هؤلاء المعبودون من دون الله -وهذه الآلهة- ضعفهم مثل ضعف هذا البيت أو أشد، فما تنفعهم.

ولذلك الله ذكر هذا من وجه، والوجه الثاني ذكرناه في اللقاء الماضي؛ يعني العنكبوت تبني هذا البيت، وهذا البيت -سبحان الله العظيم- مكون من هذه الشبكة العظيمة المترامية الأطراف، وهي شبكة فيها هذه المادة اللزجة وضعيفة.

وإذا مسها الإنسان علقت في يده ولا يستطيع أن يتخلص منها. فهذه الفتن مثلها؛ هذه الفتن يعني مثل ضعف هذه الشبكة، هذه الفتن ضعيفة، يعني وإن كانت شديدة وقد علقت بأي إنسان وقد يتأثر بها، لكن إذا وقف منها المؤمن موقفاً قوياً فهي هشة وضعيفة.

الفتن مثل بيت العنكبوت، الفتن مثل شبكة العنكبوت؛ فتن مختلطة ومتشابكة، لو خرجت من هذه الفتنة وقعت في فتنة أخرى، والدنيا كلها فتن عظيمة؛ فالإنسان يحذر كل الحذر من فتنة الدنيا.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرنا جميعاً في الصلوات كلها، سواء صلاة الفريضة أو غيرها، أن نتعوذ من أربع؛ من فتنة الدنيا، وهذه فتن.

فتنة الدنيا يفتن الإنسان في دينه، ويفتن في دنياه، يفتن في ماله، ويفتن في ولده؛ فالفتن عظيمة، فالإنسان الواجب عليه أن يكون معه السلاح، وهذا السلاح موجود في هذه السورة؛ هذه السورة هي التي تعطيك كيف تتعامل مع الفتن، كيف تتخلص من الفتن إذا أردت أن تتخلص حقيقةً منها؛ فعليك أن تفهم هذه السورة فهماً جيداً.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -لو نرجع للسورة من أولها- تجد الآيات واضحة جداً؛ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]؛ هذا ما يمكن ومستحيل!

يظن الناس أنهم يقولون: نحن مؤمنون ونحن دخلنا في الإسلام ونحن متمسكون في الدين ثم لا يفتنون؟! لابد من الفتن يا أخي، فتن الأنبياء -كما سيذكر الله سبحانه لنا قصص الأنبياء في هذه السورة-؛ فتن نوح بزوجته كافرة وفتن بولده كافر وفتن بقومه أنهم عادوه ولم يؤمنوا به.

وفتن إبراهيم بأبيه كافر وفتن بولده أن يذبحه وهم من أولي العزم، وموسى قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]، والأنبياء كلهم لابد لهم من الفتنة؛ لابد منها، فالإنسان الذي يستطيع أن يتجاوز هذه الفتنة ويقف أمامها وقفةً قوية؛ هذا هو المؤمن حقاً.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

انظر في قصص الأولين؛ ليعلمن الله الذين صدقوا في إيمانهم وإيمانهم راسخ قوي، وليعلمن الله الكاذبين الذين يدعون الإيمان وبمجرد أي فتنة ينقلبون.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر هذه القاعدة، وأن الفتنة أتى الله بها ليميز الخبيث من الطيب، ذكر حال الخبيث وحال الكافر وحال الكاذب والكفار، فقال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

يظن أصحاب المعاصي والذنوب والكفر والشرك أنهم يسبقون؛ يعني يظنون أن الله لا يستطيع أن يسيطر عليهم، ويظنون أنهم يفلتون من الله وأنهم يخرجون من حكمه، وهم في حكمه وفي ملكه؛ ساء ما يحكمون، يقول: هذا الحكم حكم سيء وباطل وغير صحيح.

ثم عقب بذلك بذكر المؤمن الصادق فقال: ﴿مَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]؛ من كان يخاف الله ويرجو لقاءه ويرجو أن يكون من الفائزين في الآخرة ويتمنى أن يفوز فيها؛ فإن أجل الله آتٍ.

فالدنيا ماضية سريعة، فلابد أن تكون نظرتك عالية وبعيدة؛ نظرتك عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ونظرتك للآخرة، واترك الدنيا، وإذا أصبت بمصيبة فالدنيا تهون عندك جداً؛ فيكون أملك بما عند الله. يرجو الله فإن أجل الله لآتٍ، وهو السميع للأقوال العليم بالأحوال.

والدنيا تحتاج إلى جهاد ومجاهدة وبذل للوسع والطاقة؛ ﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦]. مجاهدتك تنفعك أنت، والله غني عنك وعن أعمالك.

والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وصدقوا مع الله وجاهدوا أنفسهم وقابلوا هذه الفتن؛ سيكفر الله عنهم سيئاتهم أولاً ويمحو عنهم كل ما بدر وحصل منهم من الذنوب والمعاصي ويجازيهم أحسن الجزاء؛ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

ذكر الله هذا كله -وقد ذكرناه في لقائنا الماضي ولكن نعيده لنربط الآيات-؛ ذكر الله أعظم الفتن، وهي أن يفتن الإنسان مع والديه، وقد يكون والداه على كفر وشرك أو على معاصٍ، أو يأمرانه بمعصية أو يلزمانه بشيء من عدم طاعة الله.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد وصى الإنسان بوالديه أن يحسن إليهما مهما كان، وقرن الله حق الوالدين بحقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فحق الوالدين عظيم ولكن في غير معصية الله.

ولذلك قال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ﴾ [العنكبوت: ٨]، ولم يقل: فعقهما أو اترك طاعتهما بالكلية؛ بل لا تطعهما في الشرك وتصلهما وتحسن إليهما، لكن في معصية الله لا طاعة.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهل الإيمان الحق ووعدهم بالوعد الحسن، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]. وانظر لما يقول: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾؛ وهي تختلف عن قوله **"ندخلهم الجنة"**؛ أي نلحقهم بهذا الركب، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

ولذلك زوجه فرعون قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]؛ فقالت: ﴿عِندَكَ﴾ أولاً بجوارك.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخر (سورة الفجر): ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]؛ فادخلي في عبادي أي في زمرة الصالحين.

ولذلك هنا قال: ﴿لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]؛ فإذا كنت في صحبة الصالحين فهذا فوز عظيم.

فلذلك الآن ندخل على الآيات التي وقفنا عندها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

دائماً أنت لما تتبع القرآن وتتبع الآيات، عندما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾؛ فهذا غالباً يكون في حق المنافقين.

ولذلك انظر حتى في أول (سورة البقرة) يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

- **وهنا ماذا يقول؟**

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ﴾؛ وكلمة **"مَنْ يَقُولُ"** تدل على أن هذا مجرد كلام، مجرد إيمان فقط باللسان؛ قال نعم من يقول آمنا، فإذا أوذي في الله -يعني أوذي في دين الله وضيق عليه في طاعة الله ولم يستطع أن يعمل الصالحات وضيق عليه في عبادة ربه-؛ ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾.

- **أنت أوذيت؛ فمن الذي آذاك؟**

آذاك عدوك، آذاك الكافر، آذاك الذي تسلط عليك؛ فلا تجعل فتنة الناس كعذاب الله، لا تجعل عذاب الناس كعذاب الله؛ فهنالك فرق كبير. الإنسان إذا أوذي وعُذِّب وأُلقي في السجن وحصل له ما حصل وهو في سبيل الله؛ فإن المنافق ضعيف الإيمان يظن أن هذا مثل عذاب الله!

ونقول له: لا، هذا عندما تفتن في دين الله وتعذب في دينه فإنك تؤجر عليه، كما أُجِر الصحابة لما عُذِّب بلال وخباب وغيرهم؛ كتب الله لهم الأجر العظيم.

فعذاب الناس المؤمن يؤجر عليه؛ وهذا هو الفرق لكي نعرف الفرق بين عذاب الناس وعذاب الله؛ فرق كبير جداً، عذاب الناس المؤمن الصابر يؤجر عليه، أما عذاب الله فهو عقوبة من الله ولا يؤجر عليها العبد.

وعذاب الناس أضعف وأقل بكثير من عذاب الله؛ فعذاب الله شديد، ولا تقيس هذا على هذا ولا تقارن هذا بهذا، وعذاب الناس قد يُدفع ويتخلص الإنسان منه، وعذاب الناس قد ينتهي وله مدة، أما عذاب الله فلا يُدفع وقد لا ينتهي.

فكلامهم بأن عذاب الناس مثل عذاب الله كلام غير صحيح ولا يُقبل منهم أبداً؛ ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ لا، هذا ما يقوله إلا منافق ضعيف الإيمان.

ثم قال: ﴿وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾؛ إذا وجدوا النصر والفوز وحصلت الفتوحات والفتح وجاء نصر من الله؛ ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾. يقولون: نحن معكم؛ مع أنهم في يوم الاضطهاد والتعذيب والإيذاء كانوا يقولون أنتم ضعفاء ولم تصبروا، وبعضهم ارتد وكفر ورجع عن دينه، فإذا جاء النصر قالوا: نحن معكم!

قال الله عَزَّ وَجَلَّ رداً عليهم: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠]؛ الله عالم بما في قلوبكم، وقولكم هذا لا يُقبل منكم وهو غير صحيح.

إذن السورة -لكي نركز أكثر- أعطتنا أن الناس ثلاثة أقسام:

القسم الأول: **مؤمن صادق:** في إيمانه، قوي في عقيدته، وهو الذي يستطيع أن يواجه الفتن ويتغلب عليها.

القسم الثاني: **كافر:** يحارب الله ورسوله ويأتي بالفتن ويتسلط على المسلمين ويفتنهم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]؛ فهذا عدو لله.

القسم الثالث: **منافق:** إذا جاءته الفتنة والمصيبة ضعف أمامها وقد يرتد ويرجع، مثلما قال الله عَزَّ وَجَلَّ في (سورة الحج): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]. فهؤلاء المنافقون؛ إذن عندنا كافر ومنافق ومؤمن قوي الإيمان.

وحتى ضعيف الإيمان قد يشبه المنافق؛ فبعض ضعفاء الإيمان قد يضعفون أمام الفتن وقد تتسلط عليهم حتى تخرجهم عن الإسلام، فلابد للإنسان أن يكون قوياً صلباً أمام هذه الفتن الهشة الضعيفة، الفتن تحتاج منك فقط مجرد قوة الإيمان ولا يبقى لها أي أثر.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبرنا هنا عن حقيقة هذا المنافق، فقال: ﴿فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠]. الله عالم بما في الصدور وعالم بحقيقة الإيمان، ومن هو المؤمن الصادق ومن هو الكاذب.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]؛ أي ليعلمن الله الذين آمنوا إيماناً حقيقياً وصدقوا ووقفوا أمام الفتن وقفةً قوية، وليعلمن الله المنافقين الذين إن جاء نصر فرحوا وإن ضعف الإسلام أو جاءتهم الفتنة انقلبوا على وجوههم فخسروا الدنيا والآخرة؛ فلذلك السورة ركزت على هذا.

ولذلك بعض المفسرين يقول: "إن هذه الآيات التي معنا -آية ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ وهي الآية العاشرة والحادية عشرة- نزلت في المدينة؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق".

وبعضهم يقول: "لا، السورة كلها مكية"، وهذه الآية أيضاً نزلت في مكة لتخبر بما قد يظهر في المدينة من النفاق؛ يعني كأنها إشارة غيبية إلى أن هناك منافقين سيظهرون، وهذا من إعجاز القرآن الغيبي الذي يخبر بشيء سيقع قبل وقوعه.

إن من الفتن العظيمة فتنة الكفار، وهي فتنة خطيرة؛ فالكفار يعذبون المؤمنين عذاباً أليماً حتى يرجعوا عن دينهم، ولكن الكفار أحياناً يجدون قوة وصلابة من المؤمن، مثلما حصل مع بلال رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه وخباب وعمار؛ فقد عُذِّبوا في سبيل الله عذاباً شديداً، وتوضع الحجارة على ظهورهم والحديد الحار والنار وصبروا.

فلما رأى الكفار موقف هؤلاء الصلب القوي، جاؤوا بطرق أخرى لفتنة المسلمين؛ فلهم طرق متعددة في فتنتهم، قد يفتنون المؤمن بالتعذيب والتضييق والتجويع ونحو ذلك، وقد يغرونه بإغراءات أخرى.

وهذه الآية تبين لنا موقف الكفار في إغراء المسلمين، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢].

انظر؛ يقول الكفار للذين آمنوا المضطهدين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا عنكم محمداً واتركوا هذا الدين، واتبعوا سبيلنا وما نحن عليه من العبادة والدين وكونوا معنا، والنتيجة: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾؛ أي نحن نحمل خطاياكم إن كان هناك بعث وإن كان هناك جزاء وحساب فنحن نتحمل، وثقوا بنا في ذلك!

وكما ذكر أهل التفسير: "كان الكفار من قريش يأتون للمؤمنين ويقولون: اتركوا محمداً ودين محمد وارجعوا إلى دين آبائكم واسلكوا ما نحن عليه، ونحن آثامنا عليه نتحملها في ذمتنا ورقابنا، وإن كانت هناك عقوبة من الله أو أن الله سيجزي من لم يدخل في الدين فنحن مسؤولون ونتحمل كل هذه الأمور عنكم؛ ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾".

فجاء رد الله عليهم حاسماً؛ ليثبت للمؤمنين كذب هؤلاء، فقال: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. هذا الكلام غير مقبول؛ فهم لا يستطيعون أن يحملوا من خطاياهم شيئاً، ولن يحملوا خطايا أولئك المؤمنين لو ارتدوا ورجعوا عن دينهم؛ بل سيعاقبون ويلقون جزاءهم عند الله، والكفار لن يغنوا عنهم من عذاب الله شيئاً.

ولكنهم مع هذا كله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣]. الكفار لا يحملون العقوبة التي ستنزل بالمرتدين عن دينهم؛ بل المرتدون يلقون جزاءهم.

ثم إن الكفار سيعاقبون عقوبتين:

- العقوبة الأولى: لأنهم كفار.
- العقوبة الثانية: لأنهم يحملون أوزار غيرهم الذين أضلوهم وصرفوهم عن الحق؛ ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ وهي أوزار كفرهم، ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي الأوزار والذنوب التي أضلوا بها غيرهم.

كما قال في آية أخرى في (سورة النحل): ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. وانظر كيف تكون الفتن والمصائب؛ فالكافر إذا كان داعيةً إلى الشر فإنه يحمل وزره ووزر غيره إلى يوم القيامة.

وكما جاء في الحديث الشريف: «مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا».

فالذي يسن سنةً سيئةً على وجه الأرض فكل من فعلها إلى يوم القيامة فعليه إثمه وإثم من سنها، والعكس بالعكس؛ فمن دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه كما في الحديث: «مَنْ دَعَا إِلَى

هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا». فإذا سننت سنةً حسنةً واقتدى بها الناس وعملوا بها؛ فاعلم أن لك مثل أجورهم.

فقول الكفار: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ كلام باطل وغير مقبول، ولذلك رده الله بكل وضوح؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولاً: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾؛ والشيء الثاني: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ ثم بين عاقبتهم فقال: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢-١٣]. وهذا السؤال سؤال توبيخ وتقريع على افترائهم الكذب على الله وتضليلهم للناس.

فلما ذكر الله لنا هذه القواعد والأسس، اتضح الأمر وصارت الصورة واضحة؛ فهذه فتن، والناس أمامها على أنواع وأشكال؛ منهم قوي الإيمان الذي يواجهها بقوة إيمانه ويتغلب عليها، ومنهم الضعيف، ومنهم المنافق، ومنهم الكافر الذي يثير الفتن ويفتن الناس، فبعد أن ذكر الله أحوال الناس وأقسامهم، ساق لنا قصص الأنبياء السابقين الذين فتنوا فصبروا.

ونلاحظ أن السورة تعرض لنا قصص الأنبياء في سياق مواقفهم من الفتن وكيفية صبرهم عليها وتغلبهم عليها؛ فالله يقص علينا هذه القصص لكي يعرف المؤمن كيف يواجه الفتن وكيف واجهها الأنبياء من قبله.

ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أول أصحاب هذه القصص، وأول الرسل المذكورين في هذه السورة؛ وهو ممن واجهوا الفتن بقوة عظيمة، وقصته هنا جاءت مختصرةً جداً في آيتين فقط؛ لأنها سيقت في مقام الفتنة لبيان صبره وتغلبه عليها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]. ولقد -واللام هنا موطئة للقسم وتقديرها: والله لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه بعثناه رسولاً-؛ وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

وانظر لبيان شدة صبره على الفتنة وطول مكثه فيها، قال: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ وهذا يدل على عظيم صبره؛ فقد فتن في ولده وزوجته وقومه، وآذوه وسخروا منه واستهزؤوا به ودعاهم فلم يقبلوا منه، وما آمن معه إلا قليل -قيل ثمانون شخصاً بين رجل وامرأة طيلة هذه السنين-!

فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً؛ وفي هذا رسالة لأهل مكة: يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويا أصحاب محمد؛ كم لبثتم في مكة وأذاكم المشركون؟ عشر سنوات أو ثلاث عشرة سنة؟ ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مكث ألف سنة إلا خمسين عاماً، فهناك فرق كبير جداً!

وهذه المدة (٩٥٠ سنة) هي وقت الدعوة فقط قبل الطوفان؛ أي دون حساب ما مكثه قبل البعثة وما مكثه بعد إهلاك قومه.

- **وقد يسال سائل: لماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ولم يقل مباشرة "تسعمائة وخمسين سنة"؟**

الجواب: ليبين لك الدقة التامة في الرقم بالاستثناء؛ فلو قال **"تسعمائة وخمسين"** لربما فُهم التقريب والزيادة أو النقصان، ولكن تحديدها بـ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ ينفي أي احتمال للتقريب ويدل على دقة الرقم تماماً.

ثم انظر إلى البلاغة القرآنية في استخدام لفظ (سنة) ولفظ (عام)؛ فقال ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ثم قال ﴿خَمْسِينَ عَامًا﴾؛ والفرق بينهما أن لفظ **"السنة"** في لغة العرب والقرآن يُطلق غالباً في الشدة والجدب والقحط والمرض، ولذلك يُقال لسنين القحط **"سنين"**.

ومنه دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أهل مكة: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ»، وقوله تعالى في فرعون: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]. أما لفظ **"العام"** فيُطلق في الخير والرخاء والنماء.

كما قال سبحانه في (سورة يوسف): ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]. فلذلك عبر بـ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ لأنها كانت سنوات شدة وبلاء ودعوة شاقة وصبر مرير، واستثنى منها ﴿خَمْسِينَ عَامًا﴾ وهي أعوام الخير والتمكين والنصر التي أعقبت الطوفان وإهلاك الظالمين.

ثم قال سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ والطوفان هو العذاب العام الذي يطوف بالشيء ويعمه من كل جانب، والمقصود به هنا الغرق بالماء الذي انهمر من السماء وتفجر من الأرض عيوناً؛ فلم يعاقبهم الله ويأخذهم بالطوفان إلا بسبب ظلمهم وكفرهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]؛ فأنجى الله نوحاً والذين ركبوا معه في السفينة وصدقوا به؛ فهم الذين نجوا وسلموا، وجعل الله هذه الحادثة والسفينة عبرةً وآية يعتبر بها العالمين.

حتى قيل إن سفينة نوح بقيت على جبل (الجودي) في شمال العراق قائمةً إلى عهد قريب من بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو قريباً من ذلك، والله أعلم بحقيقة ذلك.

الشاهد من القصة أن الله جعلها عبرة وأثبت فيها صلابة وقوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ وصموده أمام الفتنة الشامخة؛ فلم يتزعزع ولم يضعف ولم يتوانَ في دعوته بل ظل يدعو ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، ولم تضعفه الفتن؛ وهذا النموذج الأول من مواقف الأنبياء تجاه الفتن.

وتأتي بعد ذلك قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي فتن وأُلقي في النار، ويأتي الحديث عنها مفصلاً في لقائنا القادم إن شاء الله تعالى.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن لا يحرمنا فضله العظيم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(العنكبوت ١٦ - ٢٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الثالث عشر من شهر صفر من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة (١٤٤٥ هـ)؛ درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة هي (سورة العنكبوت)، والآيات التي بين أيدينا هي الآية السادسة عشرة وما بعدها، وهي تتحدث عن قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وتلاحظ دائماً -يعني أو في الغالب في الغالب في القرآن الكريم- إذا جاءت قصة نوح أحياناً تأتي قصة إبراهيم؛ لما بينهما من التشابه. ولذلك الله في (سورة الصافات) لما ذكر قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣]؛ يعني من أتباعه والذين ساروا على طريقته وعلى دعوته.

وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قيل بينه وبين نوح قرون كثيرة، وكان منهم قوم عاد وقوم صالح الذين أهلكهم الله، فجاء إبراهيم واستقر في العراق، ودعا دعا أباه ودعا قومه في العراق إلى توحيد الله وترك عبادة الأصنام، وناقشهم وجادلهم، وكان قوي الجدال والمناقشة، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣]؛ فهو قوي الحجة والجدال.

ولكن قومه أهل كفر وعناد وشرك واستمروا، وإبراهيم كان حليماً عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولذلك لم يدعُ على قومه، وإنما دعاهم إلى التوحيد وصبر عليهم، وأذوه حتى وصل الأمر إلى أن قرروا جميعاً أن يُقتل أو يُحرق بالنار، وأججوا ناراً شديدةً.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]. أشعلوا ناراً شديدةً، ولكن الله كاد لإبراهيم ونجاه من النار، نجاه سلمه من النار: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

ولما رأى منهم الإصرار على الكفر والعناد وعبادة الأصنام، رأى أن يتركهم ويهاجر إلى ربه، قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وفي موضع آخر: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩]، وتركهم وخرج منهم، اتجه إلى الشام حيث أمره الله أن يستقر في الأرض المباركة.

القصة معروفة، ونأخذ الآيات التي بين أيدينا؛ لأنها آيات حقيقة تتناسب مع السورة ومع موضوع السورة، كما ذكرنا سابقاً أن (سورة العنكبوت) هي سورة الفتن وبيان موقف الذين فُتنوا من الأنبياء وغيرهم؛ كيف كان موقفهم؟

- **ما العلاج من الفتن؟ كيف يخرج الإنسان من الفتن؟**

الفتن متشابكة مثل بيت العنكبوت، متشابكة. الفتن هشة ورقيقة مثل بيت العنكبوت، ضعيفة إذا وجدت من الشخص قوة في إيمانه وصلابة؛ فإنها ضعيفة يستطيع أن يتخلص منها.

وهي علاجها كما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آخر السورة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آخر السورة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فعلاجها بالقرآن، علاجها في قوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ علاجها بالقرآن، وعلاجها بالصلاة، وعلاجها بالذكر.

السورة أو القصة التي بين أيدينا قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، يعني يقصها الله من جانب بيان موقفه من هذه الفتنة وموقفه من هذا البلاء؛ فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ بعدما ذكر قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦].

﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: واذكر إبراهيم، أي: واذكر يا محمد، واذكر أيها القارئ والمستمع والذي يتلو كتاب الله، اذكر إبراهيم، اذكره في نفسك واذكره لغيرك، اذكر إبراهيم إذ قال لقومه، أي: حينما قال، ووقت وزمن، إذ حينما قال لقومه، أي: قام بالدَّعوة، والقول هنا معناه الدعوة إلى الله.

إذ قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]؛ لما كانوا يعبدون الأصنام والشرك، يعبدون الأصنام ويشركون بالله، نهاهم عن عبادة الأصنام وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له.

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ وتقوى الله هي الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ، والخوف من عقابه؛ ولذلك حذرهم قال: اعبدوا الله وحده لا شريك له، واتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ ألا يصيبكم بعذاب، خافوا الله عَزَّ وَجَلَّ.

كيف تعبدون من دونه؟ كيف تعبدون الأصنام وتتركون عبادة خالق الخلق كله؟! والله خلقكم وما تعملون، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات: ٩٦].

قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ١٦]؛ شوف كيف العبارة! يقول: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي عبادة الله وتقواه، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أنتم، يعني أثرها يعني يرجع إليكم، الله غني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن أثر العبادة والطاعة وتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ راجع إلى صاحب العبادة والتقوى. ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ متى؟

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أما إن كنتم تجهلون فما تستفيدون من ذلك، ولذلك كأنه يشير إليهم أنهم جهال؛ كيف تعبدون أصناماً؟! هذا جهل منكم، ولو كان عندكم علم، لو كان عندكم علم ومعرفة بربكم لعبدتم الله عَزَّ وَجَلَّ الذي يستحق العبادة، واتقيتم الله الذي يستحق التقوى.

ثم انتقل لما أمرهم بهذه العبادة، انتقل بعد ذلك إلى بطلان ما هم عليه، قال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[العنكبوت: ١٧].

﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر؛ أي ما تعبدون من دون الله إلا هذه الأوثان، تعبدون من دون الله أوثاناً. و﴿أَوْثَانًا﴾ نكرة تفيد التحقير وعدم المبالاة؛ أوثان ماذا تعبدون؟! تعبدون أصناماً ما تنفعكم ولا تضركم إذا تركتموها، تعبدون أوثاناً أي أصناماً، وهي التي قال فيها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ -يعني هذه الأوثان وهذه الأصنام- والتماثيل التي سماها التماثيل، كانوا يصورونها على شكل تماثيل ويعبدونها.

قال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[العنكبوت: ١٧]. ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ يعني تخلقون يعني توجدون الكذب، يعني تفترون على الله الكذب، تفترون على الله الكذب.

ومثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في (سورة الصافات) بيان لهذا الأمر، لما قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[الصافات: ٩٥]؛ تعبدون هذه الأصنام التي تنحتونها أنتم وتنجرونها وتصنعونها وتخلقونها وتوجدونها؟! هذا كذب وإفك وافتراء على الله.

ثم قال الجملة الثانية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: ١٧]؛ هذا أيضاً وجه آخر في بطلان هذه العبادة.

⬅الوجه الأول: أنها كذب وافتراء على الله.

⬅الوجه الثاني: أنها ما تملك شيئاً؛ تعبد شيئاً ما يملك، ما يملك لنفسه هو، ما يرزق نفسه، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾؛ ما يأتونكم بالرزق، أنتم تريدون الرزق الحلال الطيب؛ اعبدوا ربكم هو الذي يسوق لكم الرزق، هو الذي يرزق، هو الرزاق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

أما الأصنام فلا تملك رزقاً؛ ولذلك قال: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، كأنه يقارن بين هذا وهذا، يقول: خذ هذا وهذا، يعني أنت الآن تعبد شيئاً ما يملك لك رزقاً، وتترك الذي عنده الرزق!

﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾؛ ابتغوا عند الله اطلبوا من الله الرزق، ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ حتى يسوق لكم الأرزاق، يرسل السماء عليكم مدراراً، ف ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾؛ شوف كيف اطلبوا الرزق من الله، وحققوا العبادة لله، واشكروا الله على نعمه، واعبدوه حق العبادة.

ثم ذكرهم قال: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] يوم القيامة؛ إنكم إذا عبدتموه وجدتم أثرها، أثر هذه العبادة والطاعة والتقوى يوم القيامة، إليه ترجعون فيحاسبكم على أعمالكم.

ثم قال: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨]. يعني إن كذبتم ولم تطيعوا ولم تسمعوا ولم تقبلوا مني، فليس هذا الأمر جديداً، وقد كذب أمم من قبلكم وحصل لهم ما حصل، وأنتم تعرفون تاريخ آبائكم وأجدادكم كيف أهلكهم الله لما عصوا.

فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨]؛ أنا بلغتكم وحذرتكم وأمرتكم بطاعة ربكم وتقواه، وبينت لكم أثر الطاعة، وبينت لكم بطلان ما أنتم عليه.

- **شوف كيف قوة إبراهيم في حجته وجداله وإقناع أسلوبه!**

ثم بدأ يذكر لهم الأدلة التي تدل على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعلى أنه هو الخالق، وهو الرازق، وهو القوي، وهو الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو الذي يستحق العبادة، قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

هذه الجملة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ إلى تقريباً -يعني بعدها مجموعة آيات- هذه ذكر يعني بعض المفسرين أنها ليست من كلام إبراهيم، وإنما هي جملة معترضة، يعني من قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت: ١٩] إلى تقريباً الآية الثانية والعشرين: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

قالوا: هذه الآيات هذه الآيات جمل معترضة في داخلة على قصة إبراهيم، ثم تعود الآيات إلى قصة إبراهيم.

الغرض من هذه الجملة المعترضة التي جاءت دخلت؛ هي كأنها خطاب لأهل مكة، تذكير بدعوة إبراهيم، وتذكير بالبعث والجزاء والجنة والنار، وأيضاً رسالة لهم في دعوة محمد أنه على طريقة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذا رأي المفسرين.

والرأي الثاني قالوا: لا، هذا من كلام إبراهيم، ولا يزال إبراهيم هو الذي يتكلم، لكن غير الأسلوب ولم يخاطبهم؛ لما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ هذا يسميه أهل البلاغة هذا يسميه **(التفات)**، التفت عنهم بضمير آخر.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني هم كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، أي أن الله هو الذي يبدئ الخلق من العدم ثم يعيده مرة أخرى، إذا أفناه، إذا أذهبه وأفناه أعاده مرةً. الله الذي يبدأ الخلق، يعني يبدأ بالخلق ويوجده ثم يعيد مرة أخرى، قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: بدء الخلق، بدء الخلق ثم إعادته على الله يسير، إن ذلك أي إعادته، كما قال في **(سورة الروم)** قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ الإعادة أهون الإعادة أهون، فهو الذي يبدأ الخلق وينشئ ينشئ الخلق النشأة الأولى، ثم يعيده مرة أخرى؛

هذا الأمر على الله يسير ليس فيه صعوبة على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيبدأ الخلق ثم يعيده يوم القيامة يعيده مرة ثانية.

ولذلك قال بعدها قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[العنكبوت: ٢٠].

﴿قُلْ سِيرُوا﴾ أمر لهم بالسير في الأرض؛ لماذا؟ لأنهم إذا ساروا في الأرض سيرهم وسفرهم وخروجهم يجعلهم يتفكرون في مخلوقات الله، وينظرون في خلق الله، وينظرون في الأمم التي أهلكها الله، إذا مروا بقوم ثمود، أو مروا بأرض لوط، أو مروا.

كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[الصافات: ١٣٧-١٣٨]؛ فهذا يذكرهم بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فأمرهم قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ أي: تأملوا نظر تأمل، ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ أي: كيف تعجَّب من بدء الخلق؛ الله الذي بدأ الخلق كيف بدأ الخلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! كيف أنشأ الخلق من عدم؟!

ما كان موجوداً لا السماوات ولا الأرض ولا ما فيهن، ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ أي: البعث يوم القيامة، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[العنكبوت: ٢٠]؛ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالنظر في النشأة الأولى والنظر في البدء الأول، هذا يجعلك تعرف من أنت من أنت؛ الله الذي خلقك. لما قال المشرك وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه، قال: من يحيي العظام وهي رميم؟

قال: ﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾[يس: ٧٨-٧٩].

التذكير بالنشأة الأولى هذه هي التي تذكر الإنسان وتجعله يعرف أصله، ويعرف من أين أتى وإلى أين سيذهب.

قال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ثم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[العنكبوت: ٢٠].

- **فإذا أنشأ النشأة الآخرة وبعث الناس، ما النتيجة؟**

قال: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]. يعذب في الدنيا ويعذب في الآخرة من يشاء من يشاء تعذيبه ممن يستحق العذاب؛ الله يعذب من يشاء ويعفو عمن يشاء، وإذا عذب من يشاء فإنه يعذبه على جرمه وعقوبته، ﴿وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ﴾ ممن أراد رحمته، ولو أراد أن يعذبه لعذبه، ولكنه رحمه برحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ أي: ترجعون إليه يوم القيامة؛ كل ذلك تذكير بالبعث والجزاء والجنة والنار، كل ذلك حث على استقامتهم وطاعتهم.

قال: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢]؛ أنتم لا تعجزون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الأرض ولا في السماء، يعني لا تعجزونه يعني لا تغيبون عنه، ولا تفرون عنه، ولا تختفون عنه، ولا تعجزونه بقدرتكم، وإنما الله هو القادر هو المحيط بكم؛ فما في أحد يستطيع أن يعجز الله، وأن يجعله يفلت من قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أنتم في حكمه وفي ملكه.

﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ ما معكم قوة تعجزون بها، ﴿وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾، وبعض المفسرين يقول: وما أنتم -أيها البشر- بمعجزين الله في الأرض ولا الذين في السماء أيضاً يعجزونه، كلهم في حكمه.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢] يتولى أمركم، ولا نصير ينصركم، ليس لكم نصير ولا ولي، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم؛ لماذا؟ لأن الولاية لله والنصرة الحق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك توعد الله هؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام والذين يشركون بالله ويكفرون بآياته، قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣]؛ أي كفروا بما جاءهم على رسل الله وعلى ألسنة الرسل، والحجج والأدلة، كفروا بآيات الله ولقائه وهو يوم القيامة.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣]؛ إذا جاء يوم القيامة وحُشر الذين كفروا بآيات الله، وحُشر الذين كفروا بلقاء الله، فقد يئسوا من رحمة الله، في ذلك الوقت لا يمكن أن تصيبهم الرحمة، ولا يمكن أن تنالهم الرحمة.

قد يئسوا من رحمة الله، هم يئسوا والله أيأسهم من رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والنتيجة أن لهم العذاب الأليم في نار جهنم؛ كل هذا وعيد شديد وتهديد لكل من يعرض ويكذب بآيات الله.

فبعد هذا النقاش وهذه وهذا الجدال من إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه، وبيان الأدلة الواضحة المقنعة في النظر في الأرض والنظر في البدء بدء الخلق والنظر في الأمم الماضية، وتذكيرهم بعبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام، وتهديدهم وتذكيرهم بالبعث والجزاء والجنة والنار؛ النتيجة أنهم أصروا إلا على إبعاد وإقصاء إبراهيم؛ إما بالقتل أو الإحراق بالنار، قال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

هذا جوابهم دائماً؛ العاجز الضعيف اللي ما عنده حجة، ما عنده قدرة على الجدال والنقاش، ما يستطيع أن يناقش الحجة بالحجة، وأن يجادل الحجة بالحجة، وأن يرد الحجة بالحجة؛ ضعيف ما عنده قدرة.

- **ما النتيجة؟**

يستعمل القوة، ولذلك هم ما عندهم ما عندهم دليل ولا عندهم حجة فاستعملوا القوة، قالوا: ﴿اقْتُلُوهُ﴾ اقتلوا إبراهيم ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

ثم أجمعوا على تحريقه بالنار تحريقه بالنار؛ كما قال: ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]. فأرادوا فهم هم انتهى أمرهم إلى أن يحرقوا إبراهيم في النار.

فلما أججوا هذه النار العظيمة وأتوا بـ (المنجنيق) -كما ذكر بعض أهل التفسير- وربطوا إبراهيم وقيدوه بالحبال ووضعوه على (المنجنيق)، وجردوه من الثياب، ثم ألقوه من مسافة بعيدة؛ لأن النار محرقة، فألقوه في النار.

وهو في طريقه في النار يأتيه جبريل يقول: يا إبراهيم هل لك حاجة؟ فيقول: (منك لا، ولكن من الله)، وقال: «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ»؛ كافينا الله وهو نعم الوكيل، توكلنا عليه فهو نعم الوكيل، وهو الذي حسبنا وكافينا.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ للنار: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين، كما قال: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]، وفي (سورة الصافات) قال: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه العبرة وهذه المعجزة العظيمة، وهذه الخارقة خارقة هذه؛ كيف نار تحرق ثم لا تحرقه؟! تأكل قيوده ولا تحرقه؟! كيف موسى يتجاوز البحر ولا يغرق؟! هذه كلها معجزات عظيمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خارقة للعادة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: إن في ذلك لآيات، وليست آية واحدة لمن يعتبر، آيات عظيمة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤]. أما الكفار فلا يؤمنون؛ ولذلك لما خرج إبراهيم بعد أيام من النار، بعد ما خمدت ثم خرج إبراهيم من النار وجاء إلى أبيه وإلى قومه، تعجبوا كيف ما أحرقتك النار؟! ولم يؤمنوا.

يعني كيف لا تؤمنون وأنتم ترون هذه الآية العظيمة؟! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٤]؛ أما الذين لا يؤمنون فليست لهم آيات ولا يعتبرون.

ولما جاء إليهم ودعاهم واستمر في دعوته ولم يقبلوا منه واستمروا على عنادهم وكفرهم، ماذا قال؟ قال: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]؛ يعني استمر في دعوته، إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً، يعني اتخذتم هذه الأوثان عبادة من دون الله، تعبدونها وآلهة من دون الله، هذه الأوثان واتخذتموها لماذا؟

قال: اتخذتموها مودة بينكم في الحياة الدنيا، يعني مجاملات بينكم وترغيب بعضكم ببعض فقط، بعضكم ينظر إلى بعض ويقلد بعضاً ويقلد، وكل يقلدون آباءهم، ويتخذون ذلك محبة؛ إما محبة آبائهم، أو محبة بعضهم لبعض مودة بينكم في الحياة الدنيا، حتى يعني يعيشون هذه العيشة في الحياة الدنيا.

- **لكن يوم القيامة ما النتيجة؟**

قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]؛ إذا جاء يوم القيامة كفر، أين المودة وأين الأخلاء؟! ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. فإذا جاء يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً، ويبرأ بعضكم من بعض، كما قال سبحانه: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ فيتبرأ بعضهم ويكفر بعضهم ببعض، وزيادة على ذلك يلعن بعضهم بعضاً يلعن بعضهم بعضاً.

﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. يقول: أنتم في الدنيا تظنون أن هذه العبادة تنفعكم وأنكم بينكم مودة، لكن إذا جاء يوم القيامة عرفتم كيف تنقلب الأمور، فإذا جاء يوم القيامة كفر بعضكم بعضاً، ولعن بعضكم بعضاً، وسب بعضكم بعضاً، والنتيجة أن مأواكم النار وما لكم من ناصرين وما لكم من ناصرين.

تستمر الآيات؛ لأن بعدها يذكر الله أن لوطاً آمن بإبراهيم، ولوط هو ابن أخ إبراهيم، وكان معه في كان معه في العراق وآمن به، ولما أراد إبراهيم الهجرة هاجر معه لوط؛ فـ ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

- **من هو القائل؟**

إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، بعض العلماء يقول إنه لوط، لكن الصحيح أن القائل إبراهيم؛ لأن إبراهيم هو الذي هاجر، إني مهاجر، إن ربي سيهدين، فآمن له لوط ثم هاجر إبراهيم إلى ربه، إلى ربي؛ لأن الله هو الذي أمره بالهجرة، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]؛ العزيز ذو القوة، الحكيم في تدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]؛ فدعا ربه أن يرزقه الذرية الصالحة؛ لأنه مكث في قومه ولم يُرزق، وقد تزوج سارة وهو عند قومه وأبيه ولم يُرزق، فهاجر بسارة واستقر في فلسطين، فلما استقر هناك جاءته الملائكة بالبشرى، تبشره بإسحاق؛ فولد له إسحاق.

قال: ووهبنا له إسحاق، وبشرته الملائكة بإسحاق، وبشرته أن من وراء إسحاق يعقوب؛ لأن يعقوب ليس ابناً لإبراهيم، يعقوب حفيد، فيعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم.

وشوف كيف البشارة القوية! لم يولد وقد طعن في السن؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة أخرى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]. فلما طعن في السن وكبر؛ كيف أحمل؟ كيف تحمل زوجتي؟ كيف أُرزق؟

قال: لا، سترزق بولد اسمه إسحاق، وهذا الولد سيكبر ويُرزق ويتزوج ويُرزق بولد، وأنتم لا تزالون على قيد الحياة؛ فبشارة عظيمة. فوهب الله له إسحاق، وكبر إسحاق وتزوج ورزق بيعقوب، فيعقوب حفيد.

قال: وجعلنا -أي جعل الله في ذرية إبراهيم النبوة، جعلهم أنبياء؛ إسحاق نبي، ويعقوب نبي، ويوسف نبي، وموسى وهارون من ذرية إبراهيم، وداود وسليمان من ذرية إبراهيم، وعيسى من ذرية إبراهيم، كلهم.

قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]؛ الكتاب: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، ومحمد من ذريته، وإسماعيل من ذريته.

قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أعطاه الله أجره: السعادة، والراحة، والطمأنينة، والحياة الطيبة، أجره في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ وعده الله بالصلاح والنجاة والسلامة والفوز الفوز بجنات النعيم.

هذه هي قصة إبراهيم؛ كيف وصل كيف صبر على هذا الابتلاء؟! وأوذي أوذي في الله، وأُحرق، وأُلقي بالنار، ونجاه الله من النار، كل هذا ابتلاء يذكرنا بهذه السورة التي هي الفتن والابتلاءات.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحمينا وإياكم من الفتن، وأن يحمينا وإياكم من البلاء، ونسأل الله العافية، والإنسان يسأل الله العافية والبعد عن الفتن، والبعد عن الفتن ما ظهر منها وما بطن.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(العنكبوت ٢٨ - ٣٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ؛ مَّا بَعْدُ:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعله لقاءً مباركاً نافعاً، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين يتلونه حق تلاوته، والذين يعملون به ويتدبرونه.

هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للعشرين من شهر صفر من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة (١٤٤٥ هـ)؛ درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي (سورة العنكبوت).

تكلمنا عنها في لقاءات ماضية عن السورة بشكل عام؛ ومرت معنا أيضاً آيات وقصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ-، ثم قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ودعوته لقومه، وموقف قومه من دعوته، وماذا جرى بينه وبينهم.

تنتقل الآيات إلى قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ولوط مثل ما ذكرنا في اللقاء الماضي، وكما ذكر أكثر أهل التفسير هو ابن أخ إبراهيم؛ يعني إبراهيم عم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ-.

والآية التي مرت معنا قبل أيام أو في اللقاء الماضي واضحة جداً؛ حينما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]؛ آمن له أي: صدقه لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ-، آمن له أي: صدقه واتبعه ووافقه على دعوته، وهاجر معه لما هاجر إبراهيم من أرض العراق إلى بلاد الشام، هاجر معه لوط.

وأُمر لوط أن يتوجه إلى قرى سدوم؛ قرية سدوم وما حولها من القرى كانت سبعاً يسكنها قوم أهل لوط أو قوم لوط، وجّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لوطاً إليهم نبياً ورسولاً، داعياً لهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأمرهم بعبادة الله وتقواه، والبعد عن المعاصي، وتحذيرهم من عقوبات هذه المعاصي؛ حتى إنه ذكر لهم أو حذرهم من هذه الفاحشة التي كانوا يزاولونها.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٢٨]؛ التقدير تقدير لوطاً هنا يقدره أهل العلم بالفعل المحذوف وهو تقديره: واذكر؛ أي: واذكر أيها القارئ، واذكر يا محمد لقومك.

واذكر أيها القارئ والمخاطب واذكر لوطاً؛ أي: اذكر قصة لوط، أو اذكر لوطاً، اذكر النبي لوطاً على أي أساس؟ قال: اذكره ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

هذه الآية ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] جاء بيانها وتفسيرها في سورة أخرى لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف: ٨١]؛ فهذه الفاحشة فاحشة إتيان الذكور لم يسبق أحد إليها ولم يفعلها أحد إلا قوم لوط فعلوها.

والسبب في ذلك الله أعلم هو الشيطان؛ الشيطان بلا شك زين لهم هذا العمل، فكانوا هم قطّاع طريق؛ لأن بلدهم ومكان بلدهم في الطريق ما بين الشام إلى مصر أو الجزيرة، فكانوا في هذه المنطقة منطقة الأردن يسكنونها، وكانوا على مر الطريق.

وكان المارة يسيرون على هذا الطريق فيقطعون الطريق عليهم، ونهبوا أموالهم، ويأخذون ما معهم، حتى إنهم كانوا يأخذون ملابسهم ويجعلونهم عراة؛ فزين لهم الشيطان هذه الفاحشة فبدأوا يفعلون الفواحش في عابري السبيل.

فإذا مروا وقطعوا طريقاً أو قطعوا ناساً في الطريق أخذوهم وفعلوا فيهم الفاحشة، ثم بدأت تنتشر فيما بينهم في بلدهم، وانتشرت حتى أصبحت هي الظاهرة الواضحة في قرية سدوم وما حولها؛ فلما انتشرت هذه الفاحشة أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ إليهم لوطاً يحذرهم من جريمة هذه الفاحشة.

فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ فأوضح لنا ما المراد بالفاحشة هنا وهي إتيان الذكور، وفي آية أخرى قال: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

وقال هنا: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] جملة مؤكدة، تأكيد من لوط لقومه أنهم يفعلون هذا الفعل؛ لأن (إنّ) جملة اسمية ودخول اللام على الخبر ﴿لَتَأْتُونَ﴾ تأكيد عظيم يدل على أنهم يفعلون هذه الفاحشة بلا شك، ثم قال بالاستفهام: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾؛ هذا المنكر الأول.

ثم قال: ﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ هذا المنكر الثاني، أنهم يقطعون السبيل على المارة؛ إذا مر أهل السابلة الذين يمرون الطريق وقفوا لهم وقطعوا سبيلهم وأخذوا ما معهم من الأموال، تقطعون السبيل؛ تخيفون المارة، وتسرقون أموالهم، وتسلبونهم، وتؤذونهم.

﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]؛ كانوا لهم نوادٍ يعني مجالس يجلسون فيها ويفعلون المنكرات فيها-، ولاحظ أنه قال: ﴿تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾؛ أي أنهم يزاولون هذه المنكرات في مجالسهم، وما هي المنكرات التي يزاولونها؟ منكرات كثيرة، المهم أنها منكرات.

فلما خاطبهم وبين لهم هذه المنكرات وحذرهم منها كما في آيات أخرى حذرهم من عقوبتها ماذا كان جوابهم؟ لم يردوا عليه بالرد المقنع، ولم يناقشوه، ولم يُحاجّوه ببيان عملهم السيء؛ ما عندهم حجة إلا القوة؛ فما كان جواب قومه إلا قالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[العنكبوت: ٢٩].

وفي آيات أخر: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]؛ يستهزئون، يقولون: هؤلاء أناس يتنزهون عن هذا العمل وهذا الفعل، فهؤلاء اطردوهم عن بلدتنا واخرجوهم من قريتنا؛ فحاولوا إخراج لوط ومن معه من القرية.

وهنا لما خوّفهم وكانت هذه السورة في سياق المحن والفتن والابتلاءات وبين لوط جرائمهم وهددهم بالعذاب، كان من ردهم أنهم يستهزئون، ويسخرون، ويتحدون، فيقولون: يا لوط ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به، ائتنا، أين العذاب إن كنت من الصادقين؟ فأتِ بالعذاب الذي تهددنا به!

فما كان جواب لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أن دعا عليهم؛ لما رأى منهم الإصرار، والكفر، والعناد، والتهديد، دعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، فنصره الله؛ نصره الله على القوم المفسدين بأن أنزل بقومه العقوبات، ونجاه ومن معه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ [العنكبوت: ٣١]؛ جاءت الملائكة قيل: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل؛ ثلاثة-، لما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى، جاؤوا في صورة رجال ضيوف؛ ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤].

ضيوف في صورة رجال جاؤوا ودخلوا على إبراهيم، فأكرمهم وجاء بعجل حنيذ أو سمين، فلما أكرمهم وجاؤوا إليه: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا

﴿أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]؛ يعني نحن جئنا لجهة معينة وغرض معين وهو قوم لوط لنعذبهم، ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾ [هود: ٧١].

فجاؤوا يبشرون إبراهيم بالولد، وإبراهيم قد طعن في السن كبر في السن، وامرأته سارة لا تلد، فلما جاؤوا إليهم وهم في الشام بشروهم؛ لأن إبراهيم لما هاجر من العراق وتوجه إلى الشام قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١﴾ [الصافات: ١٠٠-١٠١].

وقال هنا: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ [العنكبوت: ٣١]؛ جاؤوا يبشرونه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب؛ يعني إسحاق ابن إبراهيم، ويعقوب حفيد لإبراهيم يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم-، فأخبروه حتى تعجبت امرأته فقالت: ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢].

فاستنكرت وقالت: كيف؟! فحملت وولدت إسحاق، وكبر إسحاق وهم قد طعنوا في السن كبروا، وتزوج إسحاق وولد له يعقوب وهم لا يزالون أحياء؛ هذا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بشروا بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب؛ هذه البشارة التي بشروا بها.

ثم قالوا: إننا أرسلنا إلى قوم لوط، ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١]؛ يشيرون إلى قرية لوط، ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي: ظلموا أنفسهم، وظلموا حق الله بأن اعتدوا على حدود الله وانتهكوا محارمه.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]؛ قال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يجادلهم في لوط: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، قالوا: نحن أعلم بمن فيها، عندنا علم بمن فيها.

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾؛ أي سننجي لوطاً وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين؛ لأنها كانت على دين قومها وعلى فسقهم وكفرهم، وقد خانت زوجها ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]؛ خانت زوجها بأن لم تؤمن به، ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الباقين مع قومهم الهالكين.

فلما أخبروا إبراهيم بهذا الخبر، وجاؤوا لبشارته بالولد ولعذاب هؤلاء القوم، خرجوا من عنده وتوجهوا إلى لوط.

وجاؤوا إلى لوط في صورة شبان مُرد؛ فتنةً لقومه، فلما دخلوا على لوط: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾[العنكبوت: ٣٣].

انظر إلى كلمة ﴿وَلَمَّا أَن﴾، دخلت (أنْ) وهي حرف زائد للتوكيد؛ وقيل: لبعد المدة والمسافة والانتظار؛ لأن لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ كان ينتظر العذاب، لأن الله وعده بأن ينزل بهم العذاب، فكان ينتظر على مضض؛ ولذلك قال لما جاءت يعني تأخروا؛ لأنهم مروا على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾؛ أي: سِيءَ بلوط؛ سائه هذا الأمر.

هذا أمر مشين بالنسبة للوط؛ كيف يأتيه ضيوف وماذا سيكون موقفه مع قومه؟ لأنهم كانوا يراقبون؛ إذا جاءه ضيف أخذوه، فخشي من ذلك، فساء به ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾؛ أي ضاق الأمر ذرعاً؛ والذرع هو الأمر الواسع فضاق، وهذا كناية عن الحزن الشديد والضيق والكرب الشديد؛ كأنه يقول: اشتد الكرب على لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لما جاءه الضيوف وجاؤوا في صورة شبان مُرد.

فلما علم القوم، وأخبرت زوجه لوط القوم بأن عنده ضيوفاً، بدأوا يطرقون الباب، حتى قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، وقال: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾[هود: ٧٨] يريدون أن يفعلوا بهم الفاحشة.

فقالت الملائكة: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]؛ لا تخف ولا تحزن منهم، لا يصيبك الخوف منهم ولا يصيبك الحزن؛ نحن ملائكة جئنا ولن يصلوا إليك، إنا منجوك وأهلك؛ أي ننجيك يا لوط وننجي أهلك الذين آمنوا معك إلا امرأتك فإنها لن تنجو من العذاب.

وفي سورة أخرى قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ﴾[هود: ٨١]؛ أي لا يتخلف منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم، وهنا قال: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: الهالكين.

ثم قالوا: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤]؛ أي: قرية سدوم الكبرى وما حولها من القرى، رجزاً من السماء أي: عذاباً شديداً من السماء بما كانوا يفسقون، تلاحظ أن القصة موجزة ليس فيها تفاصيل.

- **ما هو الرجز الذي أصابهم؟**

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في آية أخرى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، وفي سورة هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، وفي سورة أخرى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]؛ فقلبت عليهم ديارهم.

قيل: إن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رفع ديارهم بريشة من جناحه حتى وصل بها إلى عنان السماء إلى أطراف السماء ثم قلبت عليهم ثم أُتبعوا بالحجارة، فماتوا عن آخرهم وتعد هذه القرية هي أشد القرى عذاباً، لم يصف الله عذاب أي قرية من القرى بمثل هذا العذاب؛ لماذا؟

لأنهم وقعوا في جرائم كثيرة، ولأنهم فعلوا شيئاً لم يسبقوا إليه، ولأنهم قلبوا فطرة الله فقلبت عليهم ديارهم؛ قلبوا فطرة الله، فطر الناس على أن الرجل يأتي المرأة ولا يأتي الرجل، فكيف يخالفون فطرة الله؟! حتى الحيوانات لا تفعل ذلك.

يقول الوليد بن عبد الملك وهو أحد خلفاء بني أمية-: (لولا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر قصتهم في القرآن لم يخطر ببالي أن رجلاً ينزو على رجل، كيف يفعل هذا الشيء؟! كيف يفعل هذا الشذوذ؟!).

فقال هنا: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤-٣٥]؛ أي: تركنا من هذه القرية آية، جعلنا فيها آية عظيمة للناس، لقوم يعقلون؛ أي لقوم يعقلون يعني ينتفعون ويحركون عقولهم كيف يفعلون مثل هذه الجرائم.

هذه قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سياق بيان الفتن والمحن، وكيف امتحن قومه، وكيف امتحن هو، وامتحن الله قومه بهذه الجرائم والذنوب وسلّط عليهم العذاب الشديد.

ذكر الله بعد قوم لوط قوم شعيب وهم أهل مدين، وكما قال شعيب: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]؛ لأن بين مدين ولوط مسافة قصيرة في الزمن وفي المكان نفسه، يعني قريبة جداً.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦]؛ أي وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً، فقال: يا قوم اعبدوا الله أمرهم بعبادة الله وارجوا اليوم الآخر خوّفهم العذاب واطلبوا الدار الآخرة-، ولا تعثوا في الأرض مفسدين؛ أي لا تفسدوا، لا تكثروا الفساد في الأرض وتفسدوا فيها فساداً فوق الفساد.

- **ونصحهم كما في مواضع أخرى في القرآن، أن شعيباً ذكرهم وخوفهم ونصحهم، فما كان جواب قومه؟**

قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٧]؛ ردوا رسالته وقالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨]، واستهزأوا به وقالوا: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

وقالوا: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ﴾ [هود: ٩١]، واستهزأوا به وكذبوه، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

وفي سورة أخرى قال: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، وفي سورة ثالثة قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩].

- **كيف نجمع بينها؟**

الجواب: رجفت بهم الأرض، وصاح بهم جبريل، وجاءهم عذاب الظلة؛ كل هذا أصابهم، فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ أي هامدين لا يتحركون، قد ماتوا عن آخرهم لا يتحركون.

هذه أوجزها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن القصص هذه كلها موجزة لأنها في سياق بيان المحن والابتلاءات.

قال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]؛ عاداً وهم قوم هود، وثمود وهم قوم صالح، وقد تبين لكم من مساكنهم؛ يعني مساكنهم قائمة واتضحت لكم، انظروا فيها.

والشيطان زين لهم أعمالهم؛ صدهم عن سبيل الله وزين لهم أعمالهم في عبادة الأصنام والأوثان وصدهم عن السبيل عن الطاعة وكانوا مستبصرين؛ يعني جاءتهم الرسل وبصّرتهم بالحق ولكنهم أبوا إلا الكفر، فأصابهم ما أصابهم من العذاب.

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]؛ هؤلاء رؤوس الكفر، والشرك، والاستكبار، والفساد، جاءهم موسى بالبينات والحجج الواضحة والأدلة.

أرسل الله موسى إلى فرعون ووزيره هامان وإلى قارون الذي كان من قوم موسى فبغى عليهم فاستكبروا في الأرض؛ كلهم تكبروا واستكبروا عن طاعة الله وعن طاعة رسله، وما كانوا سابقين؛ أي لم يفلتوا من حكم الله ولم يفرّوا منه، بل هم في حكمه والله محيط بهم.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ساق لنا هذه القصص تسعة أنبياء ساقهم الله لنا وذكر لنا قصصهم على سبيل الإيجاز وبيان الفتن والامتحانات قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]؛ كل من هؤلاء عاقبناهم بذنوبهم؛ ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ﴾ يعني عاقبناهم بذنوبهم.

فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً مثل قوم لوط (حجارة)، ومنهم من أخذته الصيحة مثل قوم ثمود، ومنهم من خسفنا به الأرض كقارون، ومنهم من أغرقنا كنوح وفرعون، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾؛ هذه أنواع العذاب التي أصابت الأمم وغيرها من الأنواع الأخرى.

وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون؛ ما ظلمهم الله ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم، هم الذين أساؤوا وظلموا أنفسهم، والله لم يظلم أحداً؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

حقيقة هذه القصص التي يسوقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا فيها العبرة وفيها الموعظة لكل من يعرض عن ذكر الله، وكل من يبتعد عن طاعة الله، وكل من يقع في حدود الله وينتهك محارمه؛ ليحذر كل الحذر.

هذه أمم مرت وأصابها ما أصابها بسبب ذنوبهم وسبب إعراضهم عن ذكر الله، فالنتيجة أن الله كما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]؛ يعني أنزل عليهم سوط العذاب وعذبهم بسبب ذنوبهم.

نسأل الله أن يحفظنا وإياكم من كل سوء، وأن يحفظنا مما وقعوا فيه من الذنوب والمعاصي، وأن يجعلنا وإياكم من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وينتفعون بما يستمعون.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(العنكبوت ٤٠ - ٤٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للسابع والعشرين من شهر صفر من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة **(١٤٤٥ هـ)**، درسنا في تفسير القرآن العظيم.

السورة هي **(سورة العنكبوت)**، والآيات التي معنا نبدأ من الآية الحادية والأربعين، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾[العنكبوت: ٤١].

هذا مثل ضربه الله لنا في بيان الذين يتخذون من دون الله أولياء، ويعبدون من دون الله، ويدعون من دون الله، ويستغيثون بهم ويستنجدون بهم من دون الله.

يضرب الله هذا المثل، والأمثال في القرآن الكريم كثيرة جداً، والله ضرب لنا أمثالاً كثيرةً، وقال فيها: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف: ١٧٦]؛ فالأمثال والقصص القرآنية تُساق في القرآن الكريم للعبرة، والعظة، والتفكر، والتأمل، والاستفادة.

حتى هنا في هذه السورة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ لما ذكر هذا المثال أو هذا المثل، قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣].

إذن الأمثال في القرآن تأتي لأغراض ولأهداف سامية؛ فينبغي لنا إذا مرّ معنا مثل من هذه الأمثال في القرآن الكريم أن نقف عنده ونتأمله. ضرب الله مثلاً -ضرب الله مثلاً كثيراً- هنا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾[العنكبوت: ٤١].

أي هؤلاء الكفار الذين اتخذوا من دون الله أولياء، هؤلاء الكفار الذين اتخذوا من دون الله أولياء وبدأوا يعبدون الأصنام، ويعظمون، ويدعون من دون الله؛ قد يكون هؤلاء أيضاً من الصالحين كالذين يدعون عيسى، ويدعون علياً، ويدعون غيرهم من الصالحين، أو يكون هؤلاء من الأموات -يعني يدعونهم من دون الله-.

فالله عَزَّ وَجَلَّ يشبه حالهم في هذا المثال، أو في هذا المثل، الذين اتخذوا من دون الله أولياء؛ بأنهم هؤلاء لا ينفعونهم، يعني هم يقصدونهم أن يتعززوا بهم، ويتقووا بهم، وينتفعوا بهم، يدعونهم حتى يجري من ورائهم مصلحة.

هؤلاء الأموات، والأولياء، والأصنام لا نفع فيها؛ هي ما نفعت نفسها، هي لا تنصر نفسها حتى تنصرك، هي لا تنفع نفسها حتى تنفعك؛ فحال هؤلاء الله عَزَّ وَجَلَّ شبه حال هؤلاء الذين يذهبون إلى هؤلاء الأموات ويذهبون إلى الأولياء؛ مثلهم قال الله عَزَّ وَجَلَّ: مثلهم مثل هؤلاء كمثل العنكبوت.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[العنكبوت: ٤١]؛ يقول: هؤلاء الذين يتخذون أولياء، مثل حال العنكبوت لما تتخذ بيتاً.

بيت العنكبوت بيت ضعيف، تنسج هي البيت في الزوايا، في البيوت، في الأماكن المهجورة؛ تنسج هذا البيت، هذا البيت ضعيف لا يمنع من حرارة الشمس، ولا يمنع من المطر، ولا يمنع من الغبار، ولا يمنع من العدو، ضعيف جداً ما في أضعف منه.

- **ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا قال؟**

قال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ﴾؛ لم يقل **"من أوهن"**، لا، قال هو أوهن على الإطلاق؛ **(أوهن)** يعني أضعف، أضعف البيوت بيت العنكبوت لو كانوا يعلمون، لو كانوا هؤلاء عندهم علم لما اتخذوا هؤلاء أولياء وهم يعلمون أن هؤلاء ولايتهم أضعف من ولاية -أضعف من بيت العنكبوت- فكيف يدعون هؤلاء من دون الله وهم لا ينفعون، ولا يضرون، ولا ينصرون، ولا -يعني ليس من ورائهم مصلحة- فبيت العنكبوت أضعف البيوت.

شوف كيف الله عَزَّ وَجَلَّ اختار بيت العنكبوت قال: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾[العنكبوت: ٤١]، وقوله: ﴿اتَّخَذَتْ﴾ يدل على أن الذي يبني البيت هي الأنثى، هي الأنثى ليس الذكر؛ الذي يبني

البيت هي الأنثى. كمثل البيت كمثل العنكبوت اتخذت -الأنثى اتخذت- بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت.

نحن لنا وقفة هنا عجيبة حقيقة؛ أوهن البيوت بيت العنكبوت:

أولاً: الناحية الحسية: فبيت العنكبوت ضعيف جداً، ضعيف جداً لا يقي من حرارة الشمس، ولا المطر، ولا الغبار، ولا العدو، ولا شيء؛ ضعيف جداً.

ثانياً: الناحية المعنوية: حتى ذكر بعضهم أن بيت العنكبوت من أضعف البيوت تفككاً؛ تفكك أسري واضح جداً، وهو أن العنكبوت إذا حصل -إذا حصل التزاوج بين الذكر والأنثى- فإن الأنثى مباشرة تقضي على الذكر وتقتله، إلا أن يفر بنفسه؛ هذا تفكك أسري.

ثم إن هؤلاء الصغار -العنكبوت إذا ولدوا- يقومون، كما ذكر بعضهم، يقومون بقتل أمهم وأكلها، إلا أن تفر. وقال بعضهم لا، هي تقوم بأكل -هي التي تقوم بأكل الصغار- إلا أن يفروا؛ فتفكك يعني الزوج يُقتل، والصغار يُقتلون، والأم تُقتل، فعجيب! تفكك عجيب.

- **فعلاً الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا يقول؟**

يقول: أوهن -أضعف البيوت- لا من ناحية الناحية الحسية وهو البناء، ولا من الناحية المعنوية وهو التفكك الأسري؛ ليس هناك بيت من بيوت الحيوانات يحصل له مثل هذا الأمر إلا بيت العنكبوت، بيت العنكبوت، ولذلك سُميت السورة باسم (العنكبوت) لذكر العنكبوت هنا.

الأمر الثاني: أن السورة -كما ذكرنا في لقاءاتنا الأولى- السورة مبنية على بيان الفتن، وأن الناس يبتلون؛ ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، لابد من الفتنة والابتلاء.

ولكن الفتنة والابتلاء ضعيفة جداً أمام قوة الإيمان، قوة الإيمان؛ لكنها قد يتشبث بها الإنسان أو هي تتشبث به فتلصق به وهو لا يشعر، مثل بيت العنكبوت لا تدري قد لصق في يديك وأنت لا تشعر، والخروج منه صعب والدخول سهل.

فالفتن الدخول فيها قد يدخل فيها الإنسان ويبتلى بسهولة؛ لكن إذا أراد أن يخرج منها ويتخلص منها يجد مشقة، فسبحان الذي أنزل كتابه بهذا الإعجاز، وسبحان الذي بين هذه الفتن العظيمة في هذه

السورة، وسبحان الذي صوّر لنا هذه الفتن ببيت العنكبوت الضعيف؛ هي ضعيفة وهي فيها -يعني ما فيها من المصائب- الإنسان يحذر.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [العنكبوت: ٤٢]؛ الله يعلم أن هذه التي تُدعى من دون الله ما تنفع، يعلم الله عَزَّ وَجَلَّ، الله عَزَّ وَجَلَّ عالم بأن هؤلاء الذين -هؤلاء يدعون شيئاً لا ينفعهم كالعنكبوت لا ينفعها بيتها- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعلم أنها لا تنفع، يدعون شيئاً لا ينفعهم كمثل بيت العنكبوت لا ينفعها.

قال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ [العنكبوت: ٤٢] ذو القوة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ذو القوة المتين؛ العزيز الغالب على أمره، الناصر لأوليائه.

فإذا كان عزيزاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فإن الإنسان يلجأ إلى ربه، يلجأ إلى ربه؛ لأن الله عزيز قوي ينفع، له القوة، له القوة جميعاً، وله القهر على جميع المخلوقات، فأنت تلجأ إلى ربك القوي. ﴿الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٤٢] الذي يضع الأمور مواضعها، الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقن خلقه.

كيف يلجأ هؤلاء إلى أولياء، وإلى أموات، وإلى حجارة وأصنام، وإلى أوثان- والله عَزَّ وَجَلَّ هو القوي، هو العزيز، هو الحكيم؟!

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ أي هذه الأمثال التي نذكرها لكم وهذا المثل الذي مر معكم، ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت: ٤٣] نقرّب الصورة؛ ضرب المثل هو تقريب الصورة، الصورة يعني تقريب الشيء المعنوي بصورة محسوسة حتى كأنك تشاهده.

كأن هؤلاء الذين يتخذون أولياء مثل العنكبوت هذه التي اتخذت هذا البيت، وأنت تشاهد هذا البيت؛ ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ ما يعقل هذه الأمثال ويدري معانيها ويقف عندها ويتأملها إلا هؤلاء.

هؤلاء العالمون الذين عندهم علم وعندهم تفكر؛ فلا يستوي الجاهل ولا يستوي العالم مع الجاهل، بل العالم يدرك ويفهم ويعرف، وأما الجاهل فإنه مسكين لا يعلم عن ذلك شيئاً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحكمته لما قال: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٤٢]، قال: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [العنكبوت: ٤٤]؛ أي خلقها وحده، هو المنفرد بخلقها، وهو الذي -يعني أوجدها من العدم- خلق السماوات والأرض.

ولم يخلقها هكذا عبثاً، خلقها وجعلها في أحسن صورة وجعلها واسعة؛ جعل في السماء الشمس، والقمر، والكواكب، والملائكة، وجعل في الأرض الجبال، والبحار، والبراري، والقفار، والأشجار، والأودية، والماء، والزرع.

فخلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [العنكبوت: ٤٤] ما خلقها عبثاً من غير فائدة؛ وإنما خلقها ليقيم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقهره وتدبيره لهذه الأمور كلها.

ولم يخلق الناس عبثاً ولم يخلق الله عز -يقول ما سبحانك- لما قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

إذاً خلقها الله ليجزي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، ويقيم شرعه ويقيم عدله وحكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فلم يخلق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧]، و ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴿٣٩﴾﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]؛ الله خلق السماوات والأرض وخلق الأشياء هذه بالحق لعبادته، لإقامة عبادته.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٤٤]؛ أي خلق هذه الأشياء فيها آية وفيها عبرة وفيها عظة للمؤمنين، أما الكفار الجاحدون فلا يستفيدون، وإنما المستفيد من هذا والمتفكر هذا هم المؤمنون، الذين يتدبرون ويتفكرون وينظرون ويتأملون، وهم المستفيدون هم المنتفعون بذلك.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ المخرج من الفتن -هذه الفتن العظيمة- المخرج منها والفرار منها أن يلوذ ويعتصم بالله، يعتصم بكتابه.

☜**لما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «سَتَكُونُ فِتَنٌ»، قالوا: ما المخرج يا رسول الله؟ قال: «كِتَابُ اللهِ». فالفتن المخرج منها أن يلوذ بكتاب الله، ويعتصم بالقرآن الكريم، ويلزم الطاعة، يلزم إقامة الصلاة، ويلزم ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ.

فبتلاوة القرآن، وبذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وقراءة القرآن والصلاة هي المخرج وهي العصمة من الوقوع في الفتن؛ فإن أردت أن تسلم وأن -يعني تبتعد عن مواطن الفتن وأن يسلمك الله من هذه الفتن- فعليك بأي شيء؟

عليك بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإن فيه العصمة، وفيه الملاذ، وفيه الملجأ، وعليك بإقام الصلاة إقامةً حقيقية خاشعاً فيها، وكذلك ذكر الله؛ ذكر الله هذه الأشياء الثلاثة هي التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كأنها هي المخرج من هذا المأزق.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، واعلم أن تلاوة القرآن غير قراءته؛ لا تظن أن كلمة **"اتل ما أوحي"** يعني **"اقرأ"**، لا، في فرق كبير! القراءة كلٌّ يقرأ القران، كلٌّ يقرأ؛ القراءة هي -يعني أن تنطق بالحروف هذه تسمى قراءة- لكن التلاوة لا، التلاوة تدبر وفهم وتعقل واتباع وامتثال؛ امتثال لما يأمر الله به، اجتناب ما ينهى الله عنه، الاهتداء بالآيات، تصديق بالأخبار، تدبر المعاني، ليست مجرد تلاوة ألفاظ.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في موضع آخر: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة: ١٢١]؛ يتلونه حق تلاوته يعني يعملون به قراءةً وتفسيراً وتدبراً وتأملاً؛ هذا معناه.

فاعلم اعلم أيها المستمع أن التلاوة غير القراءة؛ تلاوة الألفاظ غير هذه، تلاوة الألفاظ قراءة لكن تلاوة القرآن المطلوب أن تفهم ما تقرأ، وتستوعب، وتتبع، وتعمل بما يأتيك في القرآن؛ هذا معنى التلاوة.

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] اتلُ يا محمد وليتلو غيرك؛ المؤمنون يتمسكون -المؤمنون يتمسكون بالقرآن- تلاوةً وتدبراً دائماً على ألسنتهم، يقرأون ويتفكرون ويقفون مع هذه الآيات ويعملون بها؛ هذا معناه وهذا هو الذي يجعلك تخرج من الفتن.

قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ إقام الصلاة غير الصلاة، تصلي غير أنك تقيم الصلاة؛ تقيم الصلاة تأتي بها بخشوعها، وأركانها، وواجباتها، وسننها، واستحضار ما تقوله في صلاتك حتى تؤدي

الصلاة كما أُمرت؛ هذا معنى إقامة الصلاة. إقام الصلاة غير -إقام الصلاة غير الصلاة- كم من يصلي في المسجد ولا يقيم الصلاة! فرق بين إقامة الصلاة وبين الصلاة نفسها.

قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ثم بين لك أثر الصلاة قال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ﴾ [العنكبوت: ٤٥] إذا أقمتها حق الإقامة فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

- **ما هي الفحشاء؟**

الفحشاء كل ما فحش من قول أو فعل؛ الأشياء الفاحشة التي لا تقبلها العقول وتنكرها العقول من الأقوال والأفعال؛ الأقوال السيئة، الكلام البذيء، والكلام المحرم، والأفعال المحرمة.

الصلاة تنهى عنها، تنهى عن الأفعال المحرمة كالزنا وشرب الخمر وغيرها من الأمور المحرمة، وكذلك تنهى عن الكلام الفاحش، الكلام البذيء، الكلام الذي لا يليق، سوء الأدب؛ كل هذا داخل في أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

كل ما تنكره العقول وينكره الشرع، وضد المنكر المعروف؛ فالمعروف يأمر الله به، والصلاة تأمر بالمعروف، والمعروف كل ما عُرف شرعاً وعقلاً بحيث إن القلوب -النفوس والقلوب- تتقبله وتتقبله وترتاح له، والمنكر كل النفوس تكرهه وتبغضه وتنكره تنكره ولا تتقبله؛ فهذا معنى الفحشاء والمنكر، فالصلاة تنهى عن ذلك.

- **تجد بعض الناس يقول: "والله الناس يصلون ولا يزالون في الفحشاء والمنكر، ولا وجدنا أثر الصلاة عليهم!"**

الجواب: لأنهم لم يأتوا بالصلاة على وجهها؛ لو أدى الصلاة على وجهها الصحيح لكان كانت الصلاة تنهاه عن هذه الأشياء تنهاه، لكن إذا كان يصلي مجرد صلاة يجد أثر هذا عليه.

قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

بعض المفسرين يقول: **"إن معنى ذكر الله مطلق الذكر، ذكر الله أكبر من كل شيء"**. يعني ذكر الله بالقلب واللسان والبدن أعظم من كل شيء، هذا يعني يقول بعض المفسرين إن الذكر أعظم من كل شيء؛ فالمراد بالذكر هنا مطلق الذكر: التسبيح، والتهليل، والتكبير، والتحميد، وغيرها.

وبعضهم يرى أن معنى ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أن الصلاة هي ذكر الله، وأن ذكر الله في الصلاة هو الأعظم؛ يعني ما اشتملت عليه الصلاة، ما اشتملت عليه الصلاة هي ذكر الله، فكأنه يقول: أقم الصلاة فإن الصلاة ذكر الله.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لموسى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]؛ فإن الصلاة يعني تذكر بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن من أعظم مقاصد الصلاة وثمراتها هي إحياء ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فهذا رأي أن الصلاة هي ذكر كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]؛ أي يعني اسعوا إلى الصلاة التي ذكر الله؛ لأن فيها ذكر الله وفيها حياة القلوب هذه الصلاة.

أو يقال إن الذكر هو الذكر مطلقاً؛ فهنا هذا رأيان كلاهما تحتمله الآية، يعني لما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ بالصلاة ومدحها أخبر أن الذكر هو أعظم ما يكون في الصلاة، أن الذكر هو أعظم ما يكون في الصلاة، أو يقال إن الله لما مدح الصلاة وأثنى على المصلين وأمر بها، أمر بالذكر أيضاً الذي هو أعظم.

وذكر الله بلا شك؛ «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»؛ فذكر الله داخل الصلاة وخارجها أعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]؛ أيها الناس من الخير والشر، فمن صنع خيراً وجده ومن صنع شراً وجده فيجزي كلاً يعني بعمله؛ والله يعلم ما تصنعون. وكلمة ﴿مَا تَصْنَعُونَ﴾ هنا؛ يعني لو قال: **"والله يعلم ما تفعلون"** أو **"ما تعملون"**، في فرق؟

في فرق يا إخوان حقيقة؛ يعني لما يقول: شوف (يكسبون)، و(يعملون)، و(يفعلون)، و(تصنعون)؛ هذه يستعملها القرآن فكلٌّ له مناسبة وكلٌّ يأتي في مكانه. هنا ما قال: **"والله يعلم ما تفعلون"** أو **"يعلم ما تعملون"**.

- **قال: ﴿تَصْنَعُونَ﴾ لماذا؟**

لأن دائماً (الصنع) فيه إعمال الذهن، وإعمال الجوارح، وإعمال الفكر، وإعمال -يعني فيه في تفكير فيه تدبير، ولذلك الصلاة، قراءة القرآن، الذكر؛ هذه تحتاج منك استحضار التلاوة، استحضار الصلاة، استحضار الذكر؛ لا أنك تكرر التلاوة أو تقرأ وأنت غائب لاهٍ مشغول، أو تصلي وأنت مشغول ذهنك

بعيد، أو تذكر الله بالسبحة وأنت لا تدري ماذا تقول ولا تدري ماذا كم قلت من التسبيحات ومن من التهليل، لا!

فكان قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ أنه ينبغي لك أن تستحضر، تستحضر هذه الأشياء التي أمامك؛ لا أن تذكرها هكذا، وإنما تستحضرها وتتدبرها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها لما ربى عباده المؤمنين على الطاعة وعلى الخروج من الفتن بتلاوة القرآن حق التلاوة، وإقام الصلاة حق إقامتها، وذكر الله الذي يحفظ الإنسان -يحفظ الإنسان الأوراد والأذكار تحفظ الإنسان- بيّن أنه ينبغي للمسلم أن يدعو إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، يدعو بالجدال، والمحاورة، والنقاش بالأسلوب الهادئ والأسلوب الهادف؛ وهؤلاء من أهم من يُدعون هم أهل الكتاب.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فالمجادلة لابد أن تكون بالطريقة الحسنة، الطريقة الهادفة، الطريقة المرضية؛ جدال على بصيرة، على نور، على -يعني على الكتاب والسنة.

فهؤلاء أهل الكتاب يجادلون ويوضح لهم الحق؛ لأن عندهم علماً وعندهم كتاباً، فنقنعهم ونجادلهم ونوضح لهم ونقيم الحجة عليهم، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فالذين ظلموا لن يقبلوا منك؛ لأنهم ظلمة لا يريدون الحق فما -يعني ما الفائدة من مخاطبتهم ومن مجادلتهم والجلوس معهم ومحاورتهم؟ الحوار معهم لا يهدف ولا يخرج بشيء، والوقت معهم يضيع، ولذلك الله قال: يُتركون هؤلاء إلا الذين ظلموا منهم.

ثم قال: من الجدال -من المجادلة- أن تقول لهؤلاء: ﴿آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٦] وهو القرآن، ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وهي الكتب التي أُنزلت كالتوراة والإنجيل؛ تبين لهم حقيقة أنك تعظم شريعة الله، وتعظم كتب الله، وتعظم الكتب المنزلة سواء القرآن أو التوراة أو الإنجيل، كلها كتب أنزلها الله.

فنحن بما أنزل إلينا وما أنزل من قبل؛ فتبين توضح لهم أننا مؤمنون بالقرآن وبالشريعة -بشريعة محمد- ونؤمن بالكتب المنزلة؛ لماذا؟ لأن: ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. والذي بعث الرسل هو الله، والذي أنزل الكتب هو الله، والذي شرع الشرائع هو الله، ونحن نسلم

لله كما أسلم موسى، وكما أسلم عيسى، وكما أسلم الأنبياء كلهم أسلموا لله، وكما أسلم الأنبياء جميعاً نحن معهم.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦]؛ هذه عقيدة المسلم يدعو إلى الله أهل الكتاب وغير أهل الكتاب إلى هذه العقيدة.

قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] يا محمد، مثل ما أنزل الكتب السابقة أنزل الله إليك الكتاب وهو القرآن؛ ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

منهم من يؤمن به؛ يؤمنون به ويعرفونه حق المعرفة، يؤمنون بالرسول ويؤمنون بالقرآن؛ ولكن منهم من ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧]؛ يقول: هؤلاء أهل الكتاب يؤمنون به ويصدقون ويدخلون في دينكم، ولكن هناك منهم من يجحد ويكفر بالآيات ولا يريد الدخول في الإسلام؛ فهؤلاء هم الكافرون.

والقرآن الكريم لما أثنى الله عليه قال: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وبيّن أن الله هو الذي وأنزل الكتاب؛ أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرد على شبه المشركين الذين يقولون إن محمداً هو الذي افتراه وهو الذي كتبه وهو الذي اخترعه من عنده.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ رداً عليهم: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ﴾ [العنكبوت: ٤٨]؛ يقول: قبل أن ينزل إليك، قبل أن يُوحى إليك ما كنت تعرف القرآن هذا ولا كنت تقرأه، ما كنت تتلوه، ﴿وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]؛ لا تقرأ ولا تكتب أنت، أنت أمي وهم يعرفون أنك أمي لا تكتب ولا تقرأ.

فلو كنت تكتب وكنت تقرأ ﴿إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]؛ الذين يريدون إبطال القرآن وإبطال الشريعة لشكوا في رسالتك لأنك تقرأ وتكتب، أنت ما تقرأ ولا تكتب؛ فهذا دليل على أن نبينا كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك أتى بهذا الكتاب؛ بهذا الكتاب المعجز.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]؛ هذا القرآن آيات بينات واضحة الدلالة في صدور الذين أوتوا العلم

يحفظونه في صدورهم، أهل العلم يحفظونه في صدورهم ويحملونه في صدورهم وهم حملة القرآن الذين أعطاهم الله العلم.

ولكن ما يجحد بآياتنا إلا الظالمون؛ هؤلاء الظالمون الذين يعرفون الحق ثم يتركونه، ظلموا أنفسهم وظلموا شريعة الله وظلموا أولياء الله بكفرهم بالقرآن وكفرهم بشريعة الله.

بعد هذه الآية يذكر الله حجج هؤلاء الكفار أنهم يريدون آيات حسية: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]؛ يريدون آيات حسية مثل عصا موسى واليد وغيرها، ومثل ناقة صالح، قال: رد الله عليهم قال الله عَزَّ وَجَلَّ: أعطاكم القرآن الكريم أعظم وأعظم.

هذه الآية يأتي الحديث عنها إن شاء الله في اللقاء القادم، نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(العنكبوت ٥٠ - ٦٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اليوم المبارك، يوم الثلاثاء الموافق للرابع من شهر ربيع الأول من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة **(١٤٤٥ هـ)**؛ درسنا في تفسير القرآن العظيم، وفي **(سورة العنكبوت)**، وقف بنا الكلام عند الآية رقم خمسين، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

نرجع قليلاً إلى الآيات السابقة؛ حتى نعرف لماذا حكى الله قولهم بأنهم اقترحوا هذا الأمر؛ فالآيات الماضية فيها تعظيم للقرآن، وبيان مكانة القرآن ومنزلته وشرف هذا القرآن.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٧]؛ واليهود والنصارى يؤمنون به؛ يعني يؤمنون به إما إيماناً وتسليماً ودخولاً في الإسلام - وهذا قد حصل من بعضهم- أو يؤمنون به بمعنى أنهم يصدقون بهذا القرآن بأنه منزل من عند الله، ولو سألت أهل الكتاب لأخبروك بأن هذا الكتاب مذكور عندهم في **(التوراة)**، فيؤمنون به.

قال: ﴿وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧]؛ أي هؤلاء أهل مكة منهم من آمن، والكثير كافر.

ثم بعدها مرة أخرى، قال في تعظيم هذا القرآن: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]؛ أي واضحات الدلالة في صدور الذين أوتوا العلم، فيحفظه العلماء الأجلاء الذين منَّ الله عليهم بالعلم؛ يعرفون قدر هذا القرآن ويعرفون عظمة هذا القرآن، فيعتنون به أشد العناية حتى يحفظونه في صدورهم، فصدورهم أوعية للقرآن.

قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]؛ وهم الذين عرفوا الحق فأعرضوا عنه وعاندوا، فهؤلاء هم المعاندون الذين لا يريدون الحق، ولا يريدون الوصول إلى الحق.

هؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]؛ هؤلاء هم الظالمون وهم المشركون الذين يقترحون هذه المقترحات، ولا يرضون بما أنزل الله من القرآن الكريم، ويبحثون عن أدلة حسية ومعجزات حسية؛ يقولون: لماذا محمد لم يأتِ بما أتى به موسى؟

موسى أعطاه الله العصا معجزة، وأعطاه اليد معجزة، وصالح أعطاه الله الناقة؛ أشياء محددة، ومحمد لم يأتِ بمثل ما أتى به هؤلاء الأنبياء؛ ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ يعني آيات حسية مشاهدة مثلما ذكرنا؛ عصا موسى وناقة صالح، يريدون مثل هذا الأمر.

يعني في العقل، لو الآن حكمنا العقل، أيهما أقوى في الإعجاز والدلالة التي ستبقى على مدى السنين ومدى العمر، وشاهدة وقائمة، معجزة قائمة مستمرة؟ القرآن الكريم الذي الله تحدى به الجن والإنس، وتحدى به الخلق كلهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن، والله عَزَّ وَجَلَّ ذكر أنه معجز.

وأنه ﴿فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وأنه باقٍ غضاً طرياً إلى قيام الساعة معجزاً.

- **أيهما أولى؟ هذا، أم عصا تنقلب ثعباناً، أو حجر ينقلب ناقةً، أو نحو ذلك؟**

هذه معجزات الله عَزَّ وَجَلَّ، ونحن لا ننقص من قيمتها، ولكن نقول: هذه معجزات حسية ومشاهدة تنتهي؛ يعني ناقة صالح انتهت، وعصا موسى انتهت، لكن القرآن باقٍ، فأين عقول هؤلاء ما يميزون بين هذا وهذا؟!

يقترحون الآيات الحسية، ويقولون: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠] حتى نؤمن، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: قل لهم يا محمد: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]؛ فالآيات من الله عَزَّ وَجَلَّ، أنا لا أملك أن أقترح على الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا أطلب من الله، وإنما الله عَزَّ وَجَلَّ إذا أراد أن ينزل آيات أنزلها؛ ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ يعني الآيات الحسية عند الله، إن أراد أن ينزلها فهو الذي ينزلها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يملكها؛ ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

أنذركم وأحذركم من بطشه ومن عقابه، ومن بأس الله وعقوبته التي تنزل بكم إن استمررتم على عنادكم وكفركم، فأنا جئت نذيراً ومبيناً، أبين لكم طريق الحق من طريق الباطل، فإن آمنتم فذلك خير لكم.

حتى لو سلمنا لهم وأنزلنا عليهم الآيات الحسية ما آمنوا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ [الأنعام: ١١١]؛ يعني لو أعطاهم الله مثل ما أُعطي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وصالح لم يؤمنوا؛ لأنهم لا يريدون الوصول إلى الحق، وإنما يريدون العناد، ولذلك الله رد عليهم بهذا الرد؛ قال: الآيات عند الله، ومحمد نذير مبين.

ثم رد الله عليهم أيضاً رداً آخر، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]؛ يعني ألا يكفيهم القرآن؟ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]؛ ألا يكفيهم هذا القرآن الذي بين أيديهم ويسمعونه، ويُقرأ عليهم آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم؟ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فالقرآن رحمة، والقرآن ذكرى؛ يعني موعظة وتذكير لهم، ورَحمة يتراحمون بها ويرحمهم الله بهذا القرآن، لكن لمن؟ لقوم يؤمنون؛ فأنتم أيها المشركون إن آمنتم وأصبحتم من المؤمنين، كان ذلك القرآن رحمة وذكرى لكم، رحمة يرحمكم الله بها في الدنيا وفي الآخرة.

أثر القرآن في رحمته على البشر في الدنيا والآخرة وفي القبر؛ فالقرآن مع المؤمن في حياته ومنذ صغره إلى أن يفارق الدنيا، وإذا جاء في قبره فالقرآن معه، وإذا حشر الناس يوم القيامة يأتي القرآن، وتأتي السور؛ تأتي (سورة البقرة) و(آل عمران) كأنهما غمامان يحاجان عن صاحبهما.

القرآن معك في المحشر، القرآن معك حتى إذا دخلت الجنة يُقال لك: «اقْرَأْ وَارْتَقِ»؛ فرحمة وذكرى يتذكرون بها، وعبرة وموعظة، فأين عقول هؤلاء يغفلون عن هذا، ويعاندون، ويطلبون الحجج؟!

ولذلك لما بيّن الله لهم القرآن، وقال إن فيه الكفاية، أيضاً بيّن لهم أن محمداً رسولٌ ويوحى إليه، وشاهد ذلك هو الله، ولذلك قال: قل لهم يا محمد: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت: ٥٢]؛ فالله يكفي شاهداً على صدقي أني رسول، وأنكم تكذبون، وعلى أن القرآن حق وأنكم تردونه ولا تؤمنون به وتقترحون المقترحات؛ فالله بيني وبينكم شهيد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولو كنت قد جئت بالقرآن من عندي، لما تركني الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالم يعلم ما في السماوات والأرض، ولا يغيب عنه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولاحظ في هذه السورة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت: ٥٢]، مع أنها في السور الأخرى وفي المواضع الأخرى يقول: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]؛ هنا فصل قال: ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾، لماذا؟

لأنه أخَّر (شهيداً)؛ لأنه سيأتي بعدها وصف آخر، وهو: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، فلو قدمها وقال: **"كفى بالله شهيداً بيني وبينكم يعلم"** لكان هناك فاصل بين شهادة الله وعلمه؛ فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والفعل المضارع دائماً -وهذا مر معنا كثيراً- الفعل المضارع إذا أتى ﴿يَعْلَمُ﴾ يفيد الاستمرار؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم الآن، ويعلم في المستقبل، وعالم في الماضي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]؛ هؤلاء الذين يؤمنون بالكفر والباطل ويعاندون ويطلبون الحجج ويطلبون الأدلة والآيات الحسية، آمنوا بالباطل وكفروا بالله وكفروا برسوله وكفروا بالقرآن.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛ وعيد شديد وبشارة سيئة لهم أنهم خسروا الدنيا وخسروا الآخرة؛ إذ لم يؤمنوا بالقرآن، ولم يؤمنوا بالرسول، وآمنوا بالباطل، فالنتيجة أنهم هم الخاسرون لا غير. وانظر إلى جملة: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، هذا يسميه العلماء (**أسلوب حصر**)؛ يعني هم الخاسرون لا غير، خسروا الخسارة العظيمة.

ثم بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قلة عقولهم وجهلهم؛ يطلبون الآيات الحسية، وفوق ذلك لا يؤمنون بالرسول، وفوق ذلك يكفرون بالله، وفوقها أيضاً يستعجلون العذاب!

يستعجلون العذاب يقولون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحدياً: يا محمد، متى تأتي بالعذاب؟ أين العذاب الذي أنت تهددنا به؟ حتى قال قائلهم -أبو جهل-: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. انظر كيف وصل بهم الأمر أنهم يستعجلون العذاب استهزاءً وسخريةً!

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [العنكبوت: ٥٣] قد وقَّته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فلا يتقدم ولا يتأخر، ﴿لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣]، ونزلت بهم العقوبة مباشرة حينما طلبوا الاستعجال، كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]؛ فإذا سألوا ودعوا الله نزلت بهم عقوبة، ولكن الله سبحانه قد جعل لكل شيء قدراً ووقتاً؛ ولذلك قال: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾.

ثم هددهم فقال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ [العنكبوت: ٥٣]؛ هذا الأجل المسمى الذي جعله الله أجلاً لهم وهم لا يشعرون، أن الله سيبغتهم بالعذاب وهم لا يشعرون.

وقد بغتهم وقد فاجأهم بالعذاب متى؟

يوم بدر؛ لما خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصد عير قريش، وكانت عيراً عظيمة وعليها أموال كثيرة لأهل مكة ويقودها أربعون راكباً، خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليصد هذه العير ويأخذ ما عليها، فلما علم أبو سفيان -الذي يقود هذه العير- وأخبر أهل مكة.

خرجوا لينقذوا هذه العير وليقاتلوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج أبو جهل ومن معه -وكانوا قد قاربوا الألف- خرجوا بكبريائهم وخيلائهم، ولم يعلموا أنهم يخرجون لحتف أنفهم ويخرجون ليقتلوا أنفسهم، فخرجوا مسرعين ووقفوا في بدر، فحصل ما حصل من أن كانت بدر هي مصارعهم وهي نهايتهم، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

ولذلك لما وصلوا بدراً وقد سلمت العير، قال بعض القوم: يا أبا جهل، قد سلمت العير ولا حاجة أن نقاتل ونعرّض أنفسنا للقتل، لنرجع، فقال: لا، سنقيم وتغني علينا القينات، ونشرب الخمر، وتسمع بنا العرب، ونقتل محمداً ومن معه! ولم يعلم أن هذا وقت نهايته، وأن الله سيهلكه هو ومن معه؛ ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤]؛ يعني هم يستعجلون العذاب ويقولون: متى هو؟ ولا يدرون أن العذاب سيجرهم إلى نار جهنم وسيكون مأواهم إلى جهنم؛

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ستحيط بهم فلا يستطيعون الفرار ولا الخروج ولا المهرب ولا المحيص.

قد أحاط بهم العذاب؛ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. كيف يسمعون مثل هذه الآيات والتهديدات وهم في مكة، ولا يؤمنون ولا يخافون ولا يعتبرون؟!

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥]؛ يعني يغطيهم العذاب من فوقهم إذا أحاطت بهم جهنم، بدأ العذاب ينزل عليهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال في سورة أخرى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]؛ فيعمهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم، كيف يهربون؟ وكيف يخرجون وقد أحاطت بهم جهنم وأحاط بهم العذاب؟!

ويقول الله لهم وتقول الملائكة لهم: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إهانةً لهم وإذلالاً لهم أن يقال لهم: ذوقوا هذا العذاب، هذا العذاب الذي كنتم أنتم تستعجلون به، وجزاءً بعملكم السيئ ذوقوا هذا العذاب الذي أحاط بكم.

لما بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرد على هؤلاء المشركين في حججهم، وهددهم بالتهديدات العظيمة التي خوَّف بها، وأنهم إذا استمروا على عنادهم وكفرهم فإنه سيصيبهم العذاب في الدنيا والآخرة.

انتقلت الآيات إلى مخاطبة المؤمنين بأنهم إذا ابتلوا وامتحنوا وفتنوا في دينهم فعليهم أن يهاجروا في سبيل الله، وليس لهم حجة أن يبقوا بين ظهراني المشركين لا يستطيعون إظهار دينهم.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]؛ فالهجرة أحياناً تكون واجبة إذا ضُيّق على الإنسان أن يظهر دينه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ هنا: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، يناديهم بصفة العبودية؛ شرفاً لهم، يناديهم أنهم عباد الله، وأنهم آمنوا وحققوا الإيمان.

إن كنتم في ضيق وحرج وعدم إظهار الإيمان والعبادة بسبب هؤلاء المشركين الذين فتنوكم في دينكم وابتلوكم وتسلطوا عليكم، ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾؛ فأرضي واسعة، هاجروا في أرض الله الواسعة واعبدوا الله وأظهروا عبادته ودينه، اعبدوه وحده: **"إياي فاعبدوني أنا وحدي"** وهاجروا، ولذلك كانت الهجرة واجبة عليهم، ولو لم يهاجروا لكان مصيرهم إلى النار كما ذكرنا في الآية السابقة.

ثم أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنهم إن هاجروا -أو مثلاً لم يهاجروا لأنهم كانوا يخافون من الموت؛ يقولون: كيف نهاجر مع شدة التضييق والجوع وقلة المال؟ كيف نهاجر ولو خرجنا لأصابنا الموت؟ فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

هاجروا وتوكلوا على الله، ولن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم، فلا تظنوا أنكم إذا جلستم في ديار الكفر ولم تقيموا شرع الله أن هذا يمنعكم من الموت، فالموت سينزل بكم؛ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، ما من نفس إلا سيصيبها الموت وينزل بها الموت، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ يعني كل الخلق سيرجعون إلى الله فيُحاسبون.

فهاجروا وتوكلوا على الله، وإن أصابكم ما أصابكم فإن هجرتكم مكتوبة وأجركم مكتوب، ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]. فالله عَزَّ وَجَلَّ وعد وبيّن أن الموت سيأتي الإنسان، فلا يخاف من الموت ولا يفر منه، فالموت سيأتي، لكنه يفعل أسباب النجاة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ هنا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨]؛ إذا صدقوا مع الله، وآمنوا وعملوا الأعمال الصالحة وهاجروا في سبيل الله، وحققوا ما أمرهم الله به، وامتثلوا ما أمر الله به.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ -ثم ماتوا سواء أصابهم الموت قريباً أو بعيداً-: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ أي لننزلنَّهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار، والغرف هي الأماكن العالية، فالمساكن العالية تسمى غرفاً؛ ﴿لَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة أخرى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]. غرف عالية والأنهر تجري من تحتها، قال: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾، الذين عملوا وصدقوا وآمنوا وهاجروا وحققوا الإيمان، هذا يثني الله عليهم يقول: نعم أجر هؤلاء العاملين بطاعة الله في الغرف وفي جنات النعيم.

وجاء في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا» فقيل: يا رسول الله لمن هذه الغرف؟ قال: «لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَفْشَى السَّلَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ». إلى آخر الحديث.

فإذن إذا عمل الأعمال الصالحة كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾؛ من طيب الكلام، وإفشاء السلام، وطول القيام في الليل، وكذلك الصيام، وإطعام الطعام، كل هذه من الأعمال الصالحة.

ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ واصفاً هؤلاء: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٩]؛ صبروا على الابتلاء والامتحان وعلى التضييق وهاجروا، وصبروا على الهجرة لما يواجهونه فيها من الانتقال من بلد إلى بلد مع المشقة والجوع والعطش وقلة المال، ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي أنهم يتوكلون ويفوضون أمرهم إلى الله، فهم صابرون متوكلون على الله، هؤلاء وعدهم الله الوعد الحسن؛ قال: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾، وقال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

والرزاق هو الله، والله خلق الخلق ولم يتركهم هملاً، بل خلقهم ورزقهم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]؛ أي كثير وكم من دابة، فكثير من الدواب التي خلقها الله، ما من دابة خلقها الله إلا يرزقها؛ خلقها ورزقها، فالدابة لا تحمل رزقها، الله هو الذي يرزقها؛ ويرزقكم أنتم وإياكم، وهو السميع؛ السميع لمن دعاه، العليم بحاله.

وهو سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم وبكل ما يخطر في قلوبكم؛ فحققوا الإيمان، وحققوا التوكل، وحققوا الصبر، واعلموا أن الرزاق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن الله خلق الخلق ولم يهملهم بل خلقهم ورزقهم، فاعبُدوه حق العبادة.

بعدها في خاتمة السورة يأتي الحديث عن مواقف المشركين في عبادة الله؛ يعني الله هو الذي خلقهم ورزقهم وخلق كل دابة ورزقها، فأين الإيمان وأين الطاعة؟! وأنتم تعرفون أن الله هو الخالق.

ولذلك قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]؛ يقول: كيف يعترفون بتوحيد الربوبية، وأن الله هو الخالق، وخالق السماوات والأرض، وهو الذي سخر الشمس والقمر وذللها، وهو الذي خلق هذا الخلق، ثم ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي يُصرفون عن عبادة الله؟!

عجباً لهم كيف يُصرفون عن عبادة الله! فالله هو الذي خلق السماوات، وهو الرزاق وهو الذي خلقهم وهم يعترفون بذلك، وهو الذي رزقهم وهم يعترفون بذلك.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢]؛ فالله يبسط الرزق لمن يشاء؛ يوسع لمن يشاء من عباده، ويقدر له؛ يعني يضيّق؛ فالرزق بيد الله، يبسطه لمن يشاء، يعطي ويغني من يشاء ويفقر من يشاء، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ يعلم مَنْ يصلح له الغنى فيغنيه، ويعلم مَنْ يصلح له الفقر فيفقره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]؛ فمطر السماء -وهو رزق السماء، الماء والمطر- الذي يحيي الله به الأرض، ويحيي به العباد، ويحيي به الخلق والبهائم، لو سألتهم مَنْ نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها -بعدما اغبرَّت واشهبَّت- ليقولنَّ الله!

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ الحمد لله الذي خلق الخلق ورزقهم وأنزل من السماء الماء فأحيا به الأرض بعد موتها، فأين عقولكم؟!

احمدوا الله حمداً يحقق العبادة لله، ليس حمداً باللسان فحسب، وإنما تحمدونه بأن تمتثلوا أوامره، وأن تفردوه بالطاعة كما أفردتموه بأنه هو الرب الخالق الرازق، فأفردوه بأنه هو الذي يستحق العبادة، ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فعقولهم ناقصة ولا يميزون ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]؛ فالدنيا تمشي وتمضي وهي لهو ولعب؛ فاللهو للكبار يلهون بها، واللعب للصغار يلعبون، فالصغار يلعبون والكبار يلهون. هذه الحياة الدنيا من اشتغل بها أشغلته وألهته وجعلها مكان اللعب.

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾؛ وهي الحياة الحقيقية، و(الحيوان) صيغة مبالغة للحياة، مثلما تقول: غضبان ورحمن؛ هذه صيغ مبالغة، فلما تقول غضبان يعني امتلأ غضباً، ورحمن يعني امتلأ رحمةً، و(الحيوان) هي الحياة الحقيقية، الحياة التي يحيا بها الإنسان حقاً ولا يموت بعدها، وهي الدار الآخرة؛ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا يعلمون أن حياتهم الحقيقية التي لا موت فيها هي الآخرة لعمِلوا لها واستعدوا لها، أما أن يقدّموا الدنيا على الآخرة وعلى دار البقاء فهذا يدل على جهلهم.

نقف عند ما تبقى من هذه الآيات القليلة، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما بقي من هذه السورة، وإن شاء الله نشرع بالسورة التي تليها بإذن الله، أسأل الله التوفيق.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(العنكبوت ٦٠ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ. اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من شهر ربيع الأول من عام (١٤٤٥ هـ).

درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة هي (سورة العنكبوت)؛ بقي عندنا مجموعة من الآيات التي تُختم بها هذه السورة، وهي في الحقيقة تتحدث عن مواقف المشركين في عبادتهم هذه الأصنام، وكيف يلجؤون إلى الله.

ومقارنة بين عبادة هذه الأصنام وهذه المعبودات الزائفة الباطلة وبين عبادة الله وحده لا شريك له، وأن عبادة الله هي العبادة التي شرعها الله، وهي التي أمر الله بها، وأن الله هو المستحق للعبادة؛ ولذلك جاءت السورة في تقرير (توحيد الربوبية) و(توحيد الإلهية).

لو نرجع للآيات السابقة حتى نربط هذه الآيات بعضها ببعض؛ نلاحظ في بداية الآيات وموقف المشركين ومحاجتهم في اللقاء الماضي، كانوا يحتجون بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يأتِ بآية حِسّيّة، ولم يأتِ بشيء يثبت أنه رسول؛ فردّ القرآن عليهم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

هذا القرآن رحمة وذكرى، ولكنه لقوم يؤمنون؛ فإن آمنوا انتفعوا بالقرآن، وإن بقوا على كفرهم وشركهم فإنهم لن ينتفعوا، ولذلك هم على الباطل؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢] في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر استعجالهم للعذاب، وأنه ليس خيراً لهم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣-٥٤]. يستعجلونك بالعذاب، وليس خيراً لهم.

فلما ذكر موقفهم وقِلّة علمهم وجهلهم بهذه الأمور، نادى الله عَزَّ وَجَلَّ عباده المؤمنين المضطهدين المعذبين الذين تحت سيطرة الكفر أن يهاجروا في سبيل الله، وأنه يجب عليهم الهجرة، وأن أرض الله واسعة؛ فعليهم أن يعبدوا الله في المكان المناسب لا أن يستسلموا ويتركوا عبادة الله.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ في الآية: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]. اعبدوني وحدي وحققوا عبادتي وأقيموا شرعي في أي مكان، أرض الله واسعة؛ أما أن تبقى في أرض الكفر ثم تدعي أنك لن تستطيع إقامة شرعه، فهذا لا يسلم لك.

- **ولذلك اللّٰه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ماذا قال؟**

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: ٩٧-٩٨]؛ هؤلاء معذورون.

فلما -شُف الآن- لما يُؤمر الإنسان بالهجرة يخاف من أمرين، يخاف من أمرين:

⬅الأمر الأول: أن يموت جوعاً، أو عطشاً، أو عدواً، أو هلكةً، أو نحو ذلك؛ إذا خرج من بلده وسافر ما يدري أين يذهب، فيخشى من الموت، يخاف من الموت.

⬅الأمر الثاني: أنه يخاف من الضيعة؛ لا يجد من يقوم عليه، أو لا يجد عملاً، أو لا يجد طعاماً، أو لا يجد رزقاً.

فالله عَزَّ وَجَلَّ بيّن في هذه الآيات أن من هاجر في الله، فإن الموت إن جاءه فالموت حتم لابد أن يأتي، وأما خوفه الرزق فإن الله هو الرزاق؛ ولذلك -شُف- لما ذكر الهجرة قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧]. يعني جلست بين ظهراني المشركين ولم تهاجر، أو هاجرت، أو حصل

لك أي أمر من هذه الأمور، فالنفس سينالها الموت مهما كان، إن لم تمت اليوم ستموت غداً؛ فلا تخشَ الموت، لا تخشَ الموت؛ هذا الأمر الأول.

ولذلك لما ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ خشية الموت، قال الموت حتم، والموت أمر لابد منه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، ولكن الأمر متى؟ ماذا؟ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾؛ كيف سترجع إلى الله؟

ولذلك ذكر جزاء المحسنين المتقين قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

فلو أصابك الموت، لو متّ بين ظهراني المشركين هذه مصيبة عظيمة، مصيبة عظيمة: ﴿تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧]؛ فهذا لا يُعذر صاحبه، ولكن لتهاجر في سبيل الله حتى إذا أصابك الموت تكون قد هاجرت وينالك الخير.

ولذلك قال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ -أي لنسكننهم ولننزلنهم منازل عليا- قال: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨]؛ هذا وعد الله لمن هاجر في سبيل الله لإقامة شرعه ولو مات.

قال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٩]. هاجر وآمن وحقق إيمانك، وتوكل على الحي الذي لا يموت، والله هو الذي يدبر أمرك، قال لما ذكر الموت، وأن الموت قد يقع، ولا تخشَ الموت؛ هاجر ولا تخشَ الموت.

كذلك الرزق والجوع والفقر؛ هاجر ولا تخشَ الجوع والفقر، ولا تخشَ الجوع ولا الفقر؛ لماذا؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ﴾؛ و(كأين) استفهامية تفيد الكثرة؛ يعني كثير جداً. ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ﴾، وهذه الدابة يدخل فيها الإنسان مسلماً كان أو كافراً، ويدخل فيها الحيوان، ويدخل فيها الطير، ويدخل فيها الزواحف والحشرات والهوام، كلها داخلة في كلمة الدابة: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

- **هي ما تحمل رزقها، ما الذي يرزقها؟**

قال: ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾؛ يعني يرزق الدواب ويرزقكم أنتم، فهاجروا وحققوا هجرتكم لله وأقيموا شرعه، وهو السميع يسمع لمن يدعوه ويسمع لمن يدعو ربه ويطلب منه الإعانة، وعليم بحال أولئك المهاجرين فيهيئ لهم الهجرة المناسبة.

تعود الآيات بعد ذلك بعدما هيأت أو بيّنت حقيقة الهجرة، وأن المسلم العاقل لا يخشى الموت ولا يخشى الفقر؛ لأن الموت لابد منه، والفقر الله تكفل بالأرزاق.

تعود الآيات إلى مناقشة هؤلاء المشركين في عقيدتهم؛ و(**توحيد الربوبية**) يلزم منه (**توحيد الألوهية**)؛ فمن اعترف بتوحيد الربوبية بأن الله هو الرب الخالق الرازق المدبر المسخر، يجب عليه أن يوحّد الله (**توحيد العبادة**) و(**توحيد الألوهية**)؛ فتوحيد الربوبية هو الإقرار بأفعال الله، أن هذه أفعال الله وحده لا شريك له، الذي سخر الشمس والقمر وخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان وخلق الحيوان وخلق الخلق كله هو الله.

فإذا أقر المشركون بهذا وجب عليهم أن يقرّوا بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يستحق أن يُعبد؛ فأفعالك أيها الإنسان يجب أن تصرفها لله وحده لا شريك له؛ هذا (**توحيد الإلهية**) أو (**توحيد الألوهية**) أو (**توحيد العبادة**).

شُف قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ -يعني والله لئن سألت هؤلاء المشركين- ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]؛ من خلق السماوات والأرض على هذا النظام البديع؟

ومن سخر الشمس، ذللها تسير في وقت محدد وتنتهي، والقمر كذلك؟ ليقولن: الذي خلق هذه كلها هو الله، والذي سخر هذه المخلوقات هو الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ عجباً لهم كيف يكذبون على الله، وكيف يصرفون عبادة الله لغيره ويعبدون هذه الأصنام، كيف يفعلون هذا الفعل، كيف؟! عجباً لهم، تعجباً لهم.

فلما بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأقام الحجة عليهم بأنهم يقرّون بتوحيد الربوبية الذي يلزم منه توحيد الألوهية، بيّن أن الرزق بيد الله فقال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

وشُف الفعل المضارع دائماً -أيها الإخوة- الفعل المضارع يدل على الاستمرار لا ينقطع؛ الله يبسط، ما قال لك: الله بسط الرزق وانتهى، لا؛ يبسط الآن، ويبسط في الغد، ويبسط في المستقبل.

ومعنى يبسط: أن يوسع على عباده يرزقهم، هذا معناه يبسط الرزق؛ أي يرزقهم ويوسع عليهم ويغني من يشاء، من أراد الله أغناه بحكمته وإرادته وعلمه من عباده، يبسط الرزق لمن يشاء من عباده، يعطيهم ما يشاء وزيادة، من عباده هنا كأنه إشارة إلى هؤلاء الذين يهاجرون ويخشون الفقر.

قال: ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾؛ أن يضيق عليه، يعني الله هو الذي يملك هذا الأمر، إن شاء بسط الرزق ووسع وأغنى من شاء من عباده، وإن شاء أفقر من شاء وقتر عليه وضيق عليه رزقه، ويقدر أن يضيق، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

لماذا خُتمت الآية بهذه الجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؟

لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عندما يرزق فلاناً ويغنيه ويجعل حاله منبسطة واسعة، هذا بعلم الله؛ لأن الله يعلم أن هذا خير له أو قد يكون شراً عليه، ومن ضيق الله عليه رزقه وجعله فقيراً.

فإن هذا بعلم الله يفقر عباده لأن الفقر خير له، ويوسع لأن الغنى خير له، فهذا الأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهو يعلم أحوالهم ويعلم لهم أمورهم، ويعلم من يصلح له الفقر ويعلم من يصلح له الغنى.

وتعود الآيات وتذكر هؤلاء المشركين وتناقشهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]؛ يعني هذا الرزق، الرزق من الله، من نزل من السماء ماء؟

- **لو جاءك شخص وقال لك طيب: الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، هي نفسها نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض؟**

الجواب: لا، هذا الأسلوب فيه إشارة أخرى، فيه زيادة علم، قال: كأنه الله عَزَّ وَجَلَّ يثبت لهم البعث ويذكرهم بالبعث، يقول: الذي نزل من السماء ماء فأحيا هذه الأرض بعدما كانت ميتة؛ إذن من الذي يحيي ويميت؟ هو الله.

تذكروا أيها المشركون أن الله يحييكم بعد موتكم ويبعثكم ويجازيكم ويحاسبكم، فكان فيه تذكير: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]؛ تأكيد.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ إذا كنتم تقرّون بأن الذي ينزل من السماء ماء هو الله، إذن الحمد لله، ينبغي عليكم أن تشكروا الله، تشكروا الله بأن تتوجهوا بالعبادة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]؛ بل أكثرهم هم لا يعقلون، لو كانوا يعقلون لعبدوا الله وحده لا شريك له، لكن الكثير منهم لا يعقل هذا الأمر، لا يعقل، بل هو جاهل في هذا الأمر.

- **ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ماذا يقول؟**

قال بعدها لما قرر لهم الهجرة، وأن الرزق بيد الله، والموت بيد الله، وأن هؤلاء المشركين لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ومن الذي يرزق ومن الذي ينزل من السماء ماء، كل هذه الأدلة، والدنيا الدنيا لا يسعى لها المؤمن وإنما يسعى للآخرة.

الدنيا ماضية ومنتهية، والحياة الحقيقية هي حياة الآخرة، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

لهو: يلهى بها الناس، يلهون بها؛ يعني ينشغلون عما خُلقوا له، ولعب: يتخذونها كما يتخذ الطفل هذه الألعاب يعبثون؛ يعني حياتهم عبث وغفلة، هذا معنى الحياة الدنيا كلها غفلة وعبث، فلماذا يعيش الإنسان لأجلها؟! وإنما الذي ينبغي له أن يتوجه إلى ما هو خير، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

الدار الآخرة؛ يعني الحياة في الدار الآخرة بعد البعث لهي الحيوان.

- **ليش قال (الحيوان) ما قال لهي الحياة؟**

الجواب: الحيوان هذه صيغة مبالغة بمعنى الحياة الحقيقية، مثل ما تقول يعني فلان غضبان؛ غضبان غير غاضب، غاضب يعني عنده غضب، لكن غضبان أشد؛ فالغضبان والغليان هذه صيغة مبالغة لشدة الغلي.

تقول: يغلي وتقول غليان شديد؛ فكأنه يقول (الحيوان) حقيقة الحياة الحقيقية التي لا موت فيها هي حياه الدار الآخرة، هي حياه الدار الآخرة، أما دار الدنيا فهي دار فناء ودار موت، وأما الدار الآخرة فهي دار البقاء فهي لهي الحيوان الحقيقية.

قال بعض المفسرين -كأني قرأت عنه يقول-: لأنه لما قال ﴿لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ لأن الحيوان يعيش في الدنيا وليس له شيء في الآخرة، فلذلك لما كان ليس له شيء في الآخرة قال: الحيوان، الإنسان هو الذي يحيا حياة حقيقية، يحيا حياة حقيقية، هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، ولكن المشركين مساكين لا يعلمون هذه الحقائق؛ ولذلك هم متذبذبون في عبادة ربهم، يعبدون الأصنام، متذبذبون.

قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

يقول: هذه خذ حالة من حالات المشركين في الشدة والرخاء، ماذا يصنعون وماذا يعبدون؟ يقول: إذا ركبوا في الفلك ورأوا الشدة ورأوا هذه الأمواج تتلاطم حولهم ورأوا الموت بعينهم أمامهم، توجهوا إلى ربهم، دعوا الله؛ طيب أين الأصنام ذهبت؟!

دعوا الله مخلصين له الدين، يخلصون التوجه لله لا يتوجهون لغيره، يخلصون الدعاء لله لا يدعون معه إلهاً أخر، فلما نجاهم وخلصهم من هذه الشدة وهذا الكرب، وغشيهم موج كالظلل ونجاهم من الغرق، إذا هم يشركون، يعودون إلى شركهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٦]؛ أي ليكفروا نعمة الله، يجحدون نعمة الله، قال: وليتمتعوا فسوف يعلمون، أي سيتمتعون قليلاً في هذه الدنيا، ولكنهم موعدون بالحساب الشديد، ولذلك قال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

العاقل من المشركين إذا سمع مثل هذا الكلام، كيف أنت إذا رأيت الموت أمامك أخلصت العبادة لله، وإذا جئت في الرخاء أشركت معه؟! ما هذا التناقض منك؟! ما هذا العمل؟! هذا العمل لا يعمله عاقل.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيذكر، أهل مكة خاصة، وقريش يخاطبهم ويذكرهم بنعمة عظيمة؛ نعمة الأمن، قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

مكة والناس حولهم يتخطفون، ﴿جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾؛ الناس يتخطفون يعني يتقاتلون ويسلب بعضهم بعضاً وينهب بعضهم بعضاً، القبائل التي حولهم كلها صراع وحرب وقتال وسلب ونهب، وأهل مكة لا أحد يتعرض لهم؛ أليست هذه نعمة عظيمة؟

- **لماذا لا يفكرون بهذه النعمة التي فقدها من حولهم من العرب؟**

الناس يتخطفون من حولهم وهم آمنون؛ ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾؛ كيف تؤمنون بالباطل وتؤمنون بالشرك والكفر وتتركون عبادة الله وتكفرون نعمة الله وتكفرون وحدانيته؟ هل هذا يصدر من عاقل؟!

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨]؛ أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب.

هؤلاء افتروا على الله الكذب، وكذّبوا وردّوا رسالاته، قال: لا أحد أشد ظلماً ممن يكذب على الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ يكذب على الله عَزَّ وَجَلَّ فينسب إليه ما هو بريء منه، ينسبون الأصنام إلى الله ويقولون إن الله يأمرنا أن نعبدها وأنها تقرّبنا إلى الله زلفى؛ هذا كذب وافتراء على الله، يكذبون افتراء على الله كذباً، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾؛ لما جاءه الحق وجاءه القرآن وجاءته الرسالة كذب الحق لما جاءه.

قال الله متوعداً لهم: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾؛ هذا استفهام تقريري، أي أن جهنم هي مثواهم، مثوى هؤلاء الكافرين.

قال الله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]؛ هذه خاتمة جميلة للسورة التي بُنيت على الفتن والابتلاءات؛ أن الله أن هؤلاء المؤمنين الذين يجاهدون أعداء الله ويجاهدون أنفسهم ويجاهدون الفتن ويجاهدون الشيطان ويجاهدون الدنيا، هؤلاء الذين حياتهم جهاد الله عَزَّ وَجَلَّ وعدهم بأي شيء؟

قال: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ -أي نرشدهم ونوفقهم- ﴿سُبُلَنَا﴾؛ سُبل النجاة، سُبل السلامة، سُبل الصراط المستقيم، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾، تأكيد زيادة، ﴿لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ أي أن الله معهم لأنهم أحسنوا أعمالهم وأحسنوا مواقفهم مع الله ومع الخلق فالله معهم، نصروا دينه وأحسنوا عبادته ونصروا أولياءه فتولاهم الله؛ فالمعيّة هنا معيّة النصرة والتأييد والولاية، فالله هو وليهم وهو ناصرهم.

فهذه بشرى عظيمة في خاتمة هذه السورة، أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع من جاهد نفسه وصبر وتحمّل ولم يتغير في دينه، هذا الله معه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتولاه؛ فهذه بشرى عظيمة، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا وإياكم منهم ممن جاهد وصبر وأحسن عبادته مع ربه.

إلى إن شاء الله لقاء آخر، نبدأ بالسورة التي تليها وهي (سورة الروم) في اللقاء القادم بإذن الله.

نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الرُّوم)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الروم ١ - ٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثامن عشر من شهر ربيع الأول من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

نجلس مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم وتفسيره، واليوم معنا سورة جديدة وهي "سورة الروم" ، و"سورة الروم" تأتي بعد "سورة العنكبوت" ونلاحظ أن هذه السور الأربعة المتتالية كلها مفتتحة بـ ﴿الم﴾ [الروم: ١]، أولًا "سورة العنكبوت" ثم "الروم" ثم "لقمان" ثم "السجدة" كلها ﴿الم﴾ [الروم: ١]، مع "البقرة" و"آل عمران"، يعني ست سور في القرآن الكريم مفتتحة بـ ﴿الم﴾ [الروم: ١].

وتلاحظك أن "سورة الروم" يعني في تشابه أو في رابط بينها وبين "سورة العنكبوت" لو تتأمل الآيات؛ حتى أنك تجد آخر آية في "سورة العنكبوت" قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، يأتي القتال، والجهاد، ونصر الله، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤، ٥]، ففي ترابط بين هذه السورة وهذه السورة.

ولو أنك تتأمل في آياتها يعني الحديث عن الخلق وعن الرزق، وعن اليوم الآخر، وعن الحياة الدنيا، تجد في ترابط بين "سورة العنكبوت" و"سورة الروم".

في "سورة العنكبوت" في آخرها قال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٦٢]، وفي "سورة الروم" قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الروم: ٣٧].

تجد أن "سورة العنكبوت" في آخرها الحديث عن اليوم الآخر، وعن الدنيا، والمقارنة بينهما، ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وتجد في "سورة الروم" يقول تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

فالحديث عن الآخرة، الحديث عن اليوم الآخر، الحديث عن الدنيا، الحديث عن بسط الرزق والأرزاق بيد الله، والحديث عن الجهاد، والنصر، في تشابه من عدة أوجه.

"سورة الروم" هي مكية، ونزلت في أواخر العهد المكي؛ حتى قيل: إنها نزلت قبل الهجرة بسنة واحدة، وأخبرت بخبر غيبي وهذا من الإعجاز الغيبي في القرآن الكريم، أن القرآن يتحدث عن أشياء غيبية لا يعلمها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يعلمها أهل مكة.

وذلك أن الله لما قدر أن تغلب فارس الروم في السنة يعني قبل الهجرة بسنة، وفرح المشركون بذلك؛ لأنهم أهل أوثان وأصنام، والفرس يعبدون النار، فهم يوالون الفرس، وفرحوا بانتصار الفرس على الروم، وبدؤوا يسخرون ويستهزئون ويشمتون بالمؤمنين، قالوا: أنتم تدعون أنكم أهل كتاب، وهؤلاء الروم أهل كتاب وقد انهزموا، وانتصر عليهم الفرس، فنزلت الآية، ونزلت هذه السورة تُخبر بخر لا يعلمه قريش ولا يعلمه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يعلمه أي أحد من البشر، وهو أن الروم ستنتصر وذلك في بضع سنين.

والبضع "من الثلاثة إلى التسعة" يعني في هذه الفترة من ثلاث سنوات إلى تسع سنوات ستنتصر الروم، فلما أخبر القرآن بذلك، وأخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك وعلمت قريش بذلك لم تصدق، وجاء أبو بكر وأخبرهم بذلك.

فجاء أبي بن خلف وهو رأس من رؤوس الشرك؛ فقال له أبو بكر: إن الروم ستنتصر، فأبى، ولم يصدق فقال أبو بكر: أنا أرهانك على أنها ستنتصر في بضع سنين، فقال: نعم، فتراهنا على أن يدفع كلٌّ مائة من الإبل، يعني إذا صدق أبو بكر دفع له أبي بن خلف مائة من الإبل، وإن لم يصدق لزم أبا بكر أن يدفع مائة من الإبل، فاتفقا على ذلك.

ومضت السنين وذهبت، فلما جاء صلح الحديبية في السنة السادسة انتصرت الروم، ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]، يعني في سبع سنين، سنة قبل الهجرة وست سنوات بعد الهجرة.

فانتصر الروم فجاء أبو بكر وإذا أبي بن خلف قد هلك ومات، فجاء إلى ورثته وأخبرهم الخبر فأعطوه مائة من الإبل.

الشاهد من الكلام: أن القرآن يُخبر بأشياء غيبية لا يعلمها إلا الله، ومثلها كثير في القرآن، يعني الله أخبر أن أبا لهب يموت على الشرك والكفر، وأن مصيره إلى النار، ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣]، وهو حي، ودل ذلك على أنه لن يؤمن لا يمكن أن يؤمن؛ لأنه كُتبت عليه الشقاوة وهو من أهل النار؛ لأن الله أخبر بشيء لم يقع، وسيقع.

ومثله قوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

هذه أيضًا يقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كنت أقرأها في مكة ولا أعلم معناها؛ حتى نظرت إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم بدر وهو يثب على رمح ويقول: «**سيهزم الجمع ويولون الدبر**»، فعرفت أنها تتحقق في هذا اليوم".

هي نزلت في مكة وبعد الهجرة بسنتين تحققت، فهناك آيات القرآن يخبر عنها أو أشياء يخبر القرآن عنها من الأشياء الغيبية التي لا يعلمها البشر، فهذا من إعجاز القرآن، أنه يخبر بأشياء مستقبلة.

ويخبر أيضًا بأشياء واقعية كما أخبر عن حال المنافقين، وحال المشركين، ويخبر أيضًا بأشياء ماضية، يعني مضى عليها الدهر ولا يعرف أحد عنها شيء، مثل أصحاب الكهف، وذو القرنين، وغيرهم.

هؤلاء اندثر ذكرهم ولم يُعلم عنهم، فجاء القرآن ليحيي ذكرهم والناس لا يعلمون، فهذا من علوم الغيب.

فالشاهد: أن الله أخبر بهذا الخبر العظيم الذي لا يعلمه إلا الله.

قد يأتيك شخص ما عنده علم فيقول:

ما علاقة المسلمين تنتصر الروم ولا تنهزم الروم، ما لنا علاقة بها حتى تنزل سورة تسمى باسمهم، ما العلاقة؟

نقول: في علاقة قوية، وهو أن أهل الروم هم أهل كتاب، ويدينون بدين سماوي،والفرس عبدة النار، وهم كفار مشركون، فنصر من هو أقرب إلى الإسلام أولى من انتصار من هو أبعد عن الإسلام، ففيه عز للإسلام؛ لأن المسلمون فرحوا، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤].

ثم أمر آخر: أن هذا يتعلق بالقرآن الكريم؛ لأن القرآن أخبر بشيء غيبي لا يعلمه إلا الله، فهذا مرتبط بعلوم القرآن الكريم.

السورة مثلما ذكرنا سورة مكية، تحكي انتصار الفرس على الروم، وذلك قبل الهجرة بسنة ثم تحكي لنا انتصار الروم على الفرس في بضع سنين، ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٣، ٤].

وأن الأمر لله، ليس لأحد، ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، في جميع الأمور، أي أمر من الأمور فهو لله، من قبل أن يقع ومن بعد أن يقع، لله الأمر فهو الذي يملكه.

تلاحظ أن السورة تتحدث عن الوعد، وتركز على قضية الوعد، وعد الله لا يخلف الله وعده هذا في أول السورة، ولما تذهب إلى آخر السورة تجد أيضًا ذكر الوعد، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، ففيها حديث عن الوعد وعن اليوم الآخر.

السورة لم تأملناها أيها الأخوة وقرأنها هي ستين آية، لو قرأتها وتأملتها وأعدت النظر فيها لوجدت أنها تتحدث عن أمرين أساسين:

الأمر الأول: يتعلق بالخلق والوجود، وآيات الله المبثوثة في هذا الكون، آيات الله الدالة على وحدانيته، والآية تتحدث في نصفها الأول عن الخلق، وتكرر كلمة الخلق فيها.

الأمر الثاني: لما تنتصف السورة يأتي الحديث عن الرزق، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ [الروم: ٣٧]، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، فتتحدث عن الأرزاق وعما يتعلق بذلك، فالسورة تدول حول هذين المحورين.

السورة تركز على قضايا مهمة تتحدث عنها السور المكية جميعًا وهي قضية "الإيمان بالله وحده لا شريك له"، والإقرار بوحدانية الله وقدرته ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه الخالق، أنه المحيي، المميت، وأنه المدبر للخلق كله، والمدبر لشئون الحياة كلها، وأنه بيده كلّ شيء وهو المتصرف في الكون.

وتقرر قضية "الوحدانية لله"، وتقرر قضية "الرسالة" رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضًا تقرر قضية البعث والجزاء، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم: ١٢]، كلها حديث عن البعث والجزاء والجنة والنار، هذا ما تتحدث عنه السورة بشكل عام.

ندخل على السورة على آياتها الأولى، أولًا عندنا: ﴿الم﴾ [الروم: ١]، هذه مرت معنا حروف تهجي، من حروف الهجاء معروفة، جيء بها لغرض وهو التحدي والإعجاز، وبيان أن الناس عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن ولو اجتمعوا وتظاهروا، ولو اجتمعت الجن معهم، ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وتحداهم الله أن يأتوا بسورة، ولا بعشر سور، ولا بحديث مثله، فدل على أن القرآن معجز، والقرآن يخاطبهم بحروف يعرفونها، هم يتكلمون بالحروف العربية، وينطقون بها، وينظمون شعرهم، ونثرهم، وخطبهم، وكلامهم كله مكون من هذه الحروف، فكأن القرآن يقول: هذه القرآن حروف مثل الحروف التي تتكلمون بها، لماذا لا تؤمنون به؟ آمنوا به أو ائتوا بمثله إن كنتم تدعون أن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي أتى بهذا القرآن، فأتوا بمثله.

فالحروف تقرر قضية يعني تحريك أذهانهم حتى ينتبهوا إلى أن هذا القرآن قرآن عربي، وأنه نزل بلسان عربي، وبحروف عربية، يجب عليكم أن تفقهوا هذا الكلام، وأن تؤمنوا به.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢، ٣]، قيل: الروم هم قومٌ من الإفرنج يستوطنون الشام وما فوق الشمال من الشمال إلى جنوب أوروبا هذه مساكنهم في وقت نزول القرآن الكريم.

ويذكر أهل التاريخ أن الروم نسبة إلى رجل يقال له: "روم" أو "رومي" وهو من أجدادهم، سموا بذلك، وقيل: إنها بلدة رومان ينتسبون إليها، والله أعلم، ولا يهمنا ذلك كثيرًا إلى من ينسبون الروم أو فارس ما يهمنا، ما يتعلق ذلك بالقرآن إلا أنه لما ذكر هذا اللفظ فيها احتجنا إلى أن نوضح هذا الأمر.

قال: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢، ٣]، يُخبر القرآن أن الروم انهزمت، في أي مكان؟ قال: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٣]، أدنى يعني أقرب، أقرب مكان إلى مكة، قيل: إنها منطقة الشام أو جنوب الشام، وبالتحديد فلسطين أو الأردن، هذا المكان حصل فيه انهزام ويحددونها أيضًا ببلدة أدرعات

التي دخلها الفرس وخربوها ونهبوا ما فيها، وقتلوا من قتلوا، فهذا المكان هو الذي حصل فيه انهزام الروم فيه.

فهي في أدنى الأرض، وقيل: ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٣]، يعني أخفض مكان في الأرض، والله أعلم قد يكون أخفض، وقيل: أدنى يعني أقرب، يعني أدنى وأبعد، الله سبحها سمى المسجد قال: "المسجد الأقصى" لبعده؛ لأن ليس وراءه مسجد، وهو أبعد شيء، وأدنى يعني أقرب، ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٣]، أي أقرب مكان إلى أهل مكة.

قال: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٣]، أخبر بهذا الخبر، أن الروم ستعاود الكرة وستنتصر على الفرس، وذلك خلال بضع سنين، ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]، والبضع من الثلاث إلى التسع سنوات، وقد وقع ذلك في السنة السادسة في صلح الحديبية، يعني بعد مضي سبع سنوات، الآية نزلت في آخر العهد المكي قبل الهجرة بسنة، ثم ست سنوات بعد الهجرة أصبحت سبع سنوات، يعني انتصرت الروم بعد مضي سبع سنوات كما أخبر القرآن ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤].

وهذه الأخبار فرح بها المسلمون؛ لماذا؟

أولًا: فرحوا بخبر القرآن وأن القرآن من عند الله.

ثانيًا: لأنه هزيمة لأهل الكفر والشرك ولأهل مكة.

ومثلما ذكرنا أن أبا بكر راهن أبي بن خلف وتم الرهان وأخذه، قال أهل العلم: إن المراهنة لا تجوز لأنها في أمور غيبية، وفيها أيضًا غرر، ،فيها أخذ مال بغير حق، ولكن كان ذلك في أول الإسلام؛ ثم بعد ذلك لما جاء التشريع الإسلامي حرم الرهان، إلا في صور معينة ذكرها أهل العلم.

قال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، يعني النصر والهزيمة، وهذه الأمور، وهذه الشئون، وهذا التصرف كله والتدبير راجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحكيم العليم الذي يملك الدنيا والآخرة، وكلّ ما يقع من نصر أو هزيمة أو أي أمر من الأمور؛ فإنه يرجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ويدبر الأمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يغيب عنه شيء.

قال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، من قبل انتصارهم، ومن بعد انتصارهم.

قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ [الروم: ٤]، وهذا يدل على الاستقبال؛ لأنها نزلت قبل الهجرة بسنة، ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ [الروم: ٤]، يعني يوم ينتصر الروم على فارس، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤]، يفرح المؤمنون بهذا النصر، ﴿بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٥]، فلا معقب لحكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك ختم الآية بقوله: ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٥].

فهو عزيز قوي لا غالب له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الغالب، ورحيم بعباده، فهو عزيز في انتصاراته في وقوته وغلبته، رحيم بعباده المؤمنين، يرحم من يشاء من عباده، والمؤمنون يفرحون بهذا النصر.

ومثلما ذكرنا النصارى أهل كتاب وهم أولى من فارس الذين هم أهل وثنية، فالوثنيون مدحورون، والمجوس وعبدة النار مدحورون، وأهل الكتاب هم أقرب إلى أهل الإسلام منهم، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: ٨٢]، فالله ينتقم من أعدائه ويعز من يشاء من عباده.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، وعد الله يعني أن الله لما وعد وأخبر في القرآن عن غيب وقع هذا الغيب، وقع مصداقه وظهر أمره، وأخبر القرآن بشيء لم يقع وهذا من إعجاز القرآن، ويؤيد صدق رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه رسول من عند الله، وأنه صادق في دعوته.

وكيف يخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر لا يعلمه أحد حتى إن أهل مكة يتحدون أن تنتصر الروم بعد هزيمتها، ولكن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتي بالخبر بأن أهل الروم سينتصرون، وذلك في سنين قليلة، في بضع سنين، فهذا من إعجاز القرآن، الإعجاز الغيبي الذي أخبر.

قال: ﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ [الروم: ٦]، أي وعد الله وعدًا، وإذا وعد الله هذا الوعيد؛ فإنه لا يخلف الله وعده أبدًا، ولذلك راهن أبو بكر وهو مطمئن وعالم بذلك؛ لأن القرآن أخبر.

قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٦]، لماذا لا يعلمون؟ لأن أكثر الناس يجهلون حكمة الله في كونه، وأفعاله المحكمة الجارية على وفق السنن، وعلى وفق العدل، وهم يجهلون هذه الأمور، ولا يهمهم هذا الأمر، ولذلك أكثر الناس لا يدركون هذه الأمور التي يعلمها الله والتي يدبرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الحياة.

ولذلك أخبر القرآن قال: لا يعلمون هذه العلوم العميقة، ولكن يعلمون أشياء ظاهرة، أشياء سطحية، ولذلك قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

ظاهر الحياة الدنيا ما يشاهدونه من زخارفها، ولذاتها، وشهواتها؛ التي تدعو إلى الانهماك فيها، والعكوف عليها، وهذه هي ظاهرة في الدنيا أن الناس والخلق والبشر يعلمون هذه الأمور الظاهرة فقط، أما الأشياء التي وراء هذا يجهلونها، يعني يعيشون للمادة، يعيشون للحياة، يعيشون للكسب والتجارة، والزراعة، والصناعة، هذه الأشياء الظاهرة يعلمون هذه الأشياء.

أما غيرها؛ فإنهم لا يعلمونها، يعلمون ظاهر هذه الأمور، وهذه حقيقة الدنيا وأهل الدنيا لا يعلمون إلا ما ظهر لهم في هذه الدنيا، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

الآخرة يغفلون عنها، لا يستعدون لها؛ لأن أهل الدنيا والذين يريدون الدنيا لا يمكن أن يجمعوا بين الدنيا والآخرة، فمن عكف على الدنيا نسي الآخرة، ومن سعى إلى الدنيا وجعل همه الدنيا غفل عن الآخرة، ولذلك أخبر؛ قال: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، الآخرة غفلوا عنها، ولهوا عنها، ألهتهم الدنيا، وأشغلتهم الدنيا عن السعي للآخرة.

ثم أرشدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ودلهم على ما هو أعظم من هذا الأمر وأنهم لا يشتغلون بالدنيا؛ بل ينبغي لهم أن يعلموا العلوم التي هي ليست علوم سطحية، وإنما علوم باطنية مهمة.

يقول: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]، لماذا لم يفكروا في أنفسهم تفكيرًا عميقًا لا تفكيرًا ظاهرًا، لا تنظر إلى الأمور الظاهرة، فكر في نفسك تفكير عميق، وانظر في نفسك وتأمل من أين أتيت؟ ومن الذي أتى بك؟ ولماذا تعيش؟ وما الغرض من حياتك؟ وإلى أين ستذهب؟ فكر في نفسك، فكر في خلقك، لماذا خلقك الله؟ لماذا أوجدك؟

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فالله عَزَّ وَجَلَّ يأمر الإنسان أن يقف وقفة ويتأمل.

يقول: أجهلوا وغاب عنهم هذا الأمر ولم يتفكروا؟ لماذا لم يتفكروا في أنفسهم؟ ولذلك جاء بهذا الأسلوب أسلوب الاستفهام، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]، ينظروا في أنفسهم.

ثم قال: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ [الروم: ٨]، استفهام، ما خلق الله هذا الخلق عبثًا، يعني الله خلق السماوات والأرض وما بينهما، وخلق الإنسان لم يخلقه عبثًا، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧]، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

قال: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم: ٨]، لإقامة العدل، وإقامة العبادة، والطاعة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والغرض معرفة الإنسان لماذا خُلق؟ أقامه الله بالعدل والحق، هذا المقصود.

قال: ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الروم: ٨]، يعني لابد أن تنتهي هذه الدنيا، وينتهي هذا الإنسان، وتزول هذه الدنيا ويأتي أمر آخر أعظم من ذلك وهو الحديث عن الآخرة.

قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾، أي اليوم الآخر، ﴿لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، جاحدون وكافرون ويحسبون أن الدنيا هي البداية والنهاية، وأنهم خُلقوا للدنيا، هذا ظن الذين كفروا، أما العاقل المؤمن الحصيف العاقل الذي منّ الله عليه بالعلم والمعرفة لا يسعى للدنيا، وإنما يسعى لما هو مستقر.

ولذلك الدنيا ممر والآخرة مستقر، الدنيا يمر بها الإنسان ليستقر في حياته الباقية، الحياة التي هي الحيوان، والناس غفلوا عن التأمل في أنفسهم، تأملاً عميقًا، كيف خلقوا؟ وكيف منحهم الله هذه الأدوات التي يفكرون فيها؟ ومن أين أتوا؟ وإلى أي أمر يذهبون؟ خلق الله ذلك بالحق والعدل، وخلقه لغاية محددة وهي الأجل المسمى الذي تنتهي عنده الحياة، وتبدأ حياة أخرى بعد الموت، البعث، والحشر، والجزاء، والحساب، والجنة والنار.

وكثير من الناس بلقاء ربهم كافرون بلقاء ربهم، لا يؤمنون، لو آمنوا لما عكفوا على الدنيا، لو آمنوا لما كفروا بالله، لو أمنوا لاستعدوا لهذا اليوم، فالدنيا تفنى والآخرة تبقى، والآخرة فيها النتائج، فيها الثواب للمحسنين، وفيها العقاب للمسيئين.

لعلنا نقف عند هذا القدر؛ لأن الآيات بعد ذلك ستستمر في توجيهات الحقيقة مهمة جدًا، نحتاج إليها في الحياة، نحن في غفلة الحقيقة أيها الأخوة، والله نحن في غفلة عن الحياة الآخرة، نعيش مع الأيام في

غفلة، لكن القرآن يحيينا من هذه الغفلة ويردنا إليه، ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [الروم: ٩].

هذا يأتي الحديث عنه إن شاء الله في اللقاء القادم.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الروم ٩ - ١٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للخامس والعشرين من شهر ربيع الأول من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

درسنا أيها الأخوة الكرام في تفسير القرآن العظيم، والسورة هي "سورة الروم" تحدثنا عنها في أولها، ونوع السورة وسبب تسميتها، ومضمون السورة وما فيها من آيات.

ووقف بنا الكلام عند الآية الثامنة، في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]، لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الأمم الماضية، لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال الناس وأنهم، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، أمرهم ولفت أنظارهم إلى أن يتفكروا في أنفسهم، يتفكروا في خلق الله في أنفسهم، خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنفسهم ينظرون فيها، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [الروم: ٨]، يعني من الذي خلقهم وأوجدهم؟ ومن أين أتوا؟ وإلى أين مصيرهم؟

قال: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الروم: ٨]، السماوات على عظمها، والأرض على سعتها، ما خلقها لله وخلق ما بينهما من هذه الأجواء ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الروم: ٨].

خلقها بالحق لإقامة الحق، ﴿وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الروم: ٨]، أي أن لها نهاية، وهذه النهاية التي يفنى فيها الخلق جميعًا أنه لابد أن يكون لهم نهاية يعني يبعثون فيها، ويجازون فيها.

ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، هذا اللقاء هو يوم الجزاء والحساب، هو يوم البعث، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، أي غافلون وجاحدون لهذا اليوم وهو اليوم الآخر.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرشد هؤلاء إلى أن ينطلقوا في الأرض، ويسيروا في الأرض، هؤلاء الجاحدون، المكذبون، الغافلون عن الآخرة لماذا لا يسيرون في الأرض سير تأمل وتفكر وتدبر، ويشاهدوا هذه الأمم التي مضت، أمم غابرة مضت أهلكها الله؟!!

قال: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، هذه الأمم التي مضت كقوم عاد، وثمود، ونوح، وشعيب، وفرعون، وغير هؤلاء، ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [الروم: ٩]، أشد من أهل مكة وغيرهم، أشد منهم قوة، قوتهم عظيمة، أشد منهم قوة.

قال: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ [الروم: ٩]، يعني هم أشد قوة من هم، أشد بأسًا وقوة، وقوة في أجسامهم، وقوة في عقولهم، وأعطاهم الله قوة في التفكير، وأثاروا الأرض، أي حرثوا الأرض، ﴿وَعَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، عمروا الأرض، فحرثوها للزراعة، وعمروها للبناية، وأقاموا هذه البنايات والقصور .

قال: ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، أكثر مما عمرها أهل مكة، وأكثر مما عمرها المعاندون لرسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهؤلاء الذين أعطاهم الله القوة في العقل والجسم جاءتهم رسلهم بالبينات، ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الروم: ٩]، وجاءتهم بالأدلة الواضحة التي تدل على أن الله بعثهم، وأن الله أرسلهم، جاءتهم رسلهم بأن هناك حساب، وجزاء، وجنة ونار، جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج الواضحة، ولكنهم كذبوا رسلهم، وظلموا أنفسهم.

ولذلك قال: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ [الروم: ٩]، ما كان الله ليظلمهم، ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم: ٩]، هم الذين ظلموا أنفسهم، وهم الذين جحدوا آيات الله، وردوا رسالات ربهم، ولم يقلبوا من رسلهم ما جاءوهم به، فأهلكهم الله بذنوبهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى﴾ [الروم: ١٠]، يقول: هؤلاء الذين كذبوا وعملوا السيئات كانت عاقبتهم سيئة، عاقبتهم إلى النار، كانت عاقبة هؤلاء أهل السوء من الطغاة، والكفرة، والفجرة، كانتا عاقبتهم أسوأ العواقب وأقبحها؛ لأن كلمة "السوأى" هذا اسم تفضيل.

مثلما تقول: "الحسنى، والفضلى، والسوأى" يعني العاقبة الأسوأ والأقبح لهؤلاء، جازاهم الله بأقبح وأسوأ الأعمال، لماذا؟﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ١٠].

السبب والعلة هو: أنهم، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الروم: ١٠]، يسخرون من الأنبياء، ويسخرون من آيات الله، ويجحدون ويكذبون، النتيجة أن الله جازاهم بأسوأ الجزاء، وجازاهم بأقبح الجزاء، هذا جزاء كلّ من عاند وكفر ولم يقبل الحق.

✍ هذا الجزاء متى يكون؟

نقول: يكون في الآخرة، وإن كان قد أصابهم في الدنيا ما أصابهم من العقوبات، إلا أن أسوأ العقوبات تنتظرهم يوم القيامة، أسوأ وأقبح العقوبات تنتظرهم يوم القيامة.

ولذلك الله ذكر هنا ما يتعلق باليوم الآخر، والبعث، وإعادة الخلق، وإنشاء الخلق مرة أخرى؛ فقال: ﴿اللَّهُ﴾ [الروم: ١١]، والله هو الإله الواحد، المتفرد بأسمائه، وصفاته، المتفرد بأفعاله، المتفرد بتصرفه في الكون، هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك ستأتينا كلمة "الله" كثيرًا، وخاصة في السور المكية لتقرير الإلوهية لله، وأن الله هو المتفرد بأنه لا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه، المتفرد بالأسماء والصفات والإلوهية والربوبية، والمتفرد بأفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فقال: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ [الروم: ١١]، ليس غيره هناك من يبدأ الخلق، ومن ينشئ المخلوقات، هو الذي أنشأ المخلوقات من العدم، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ١١]، يبدأ الخلق ثم يعيده وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو القادر على إعادة الخلق مرة أخرى.

كلمة ﴿ثُمَّ﴾ [الروم: ١١]، هذه تفيد الفصل بالمدة، الله يبدأ الخلق مدة ثم يستمر هذا الخلق إلى أن يريد الله إعادته مرة أخرى، بينهما مسافة طويلة، ولذلك قال: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ [الروم: ١١]، ثم إذا بدأ الخلق واستمر هذا الخلق أعاده مرة أخرى بعدما يفنى هذا الخلق، يعيده مرة أخرى.

قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ١١]، أي إلى الله، ﴿تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، يعني الخلق كلهم يرجعون إلى الله، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، هذه الآية وحدها تثبت البعث، إذا تأملتها أنت على قصرها، هذه الآية كافية في إقرار كلّ إنسان عاقل بالبعث، من الذي بدأ الخلق؟ هو الله، من الذي أنشأ النشأة الأولى؟ هو الله، إذًا الذي أنشأ النشأة الأولى قادر على أن ينشأ النشأة الآخرة ويعيد الخلق مرة أخرى.

قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، فيجازي المحسن بإحسانه فيدخله الجنة، ويجازي المسيء بإساءته فيدخله النار، هذا باختصار ما يتعلق بأفعال الله في خلق الإنسان، وإعادة خلقه، وبعثه، ومجازاته.

ولذلك بعد هذه الآية صرح سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيوم القيامة؛ قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم: ١٢]، والساعة هي مجيء يوم القيامة، ساعة الحساب، وساعة البعث، هذه هي الساعة، عرفت في القرآن الكريم أنه إذا جاءت كلمة الساعة أن المراد بالساعة هي ساعة البعث، وساعة الخلق، وإعادة الناس مرة أخرى.

قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم: ١٢]، أي ساعة القيامة، ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢]، إذا قامت الساعة هؤلاء المجرمون الجاحدون بيوم القيامة المنكرون للبعث، الكافرون بالجنة والنار، إذا بُعثوا من قبورهم ورأوا هذه الحقائق بأعينهم يبلس المجرم، يعني يسكت لا يتكلم، خلاص، يرى نفسه أنه في حيرة، وفي دهشة، لا يدري ماذا يقول؟!!

شيء كان ينكره ولم يتوقعه فرآه في الواقع، هذا يجعله يندهش ويتحير، ولا يستطيع أن يتكلم، ليس له أي وجه في الكلام، لا يستطيع أن يجحد، ولا يدري ماذا يقول؟ ولذلك قال: ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢].

ووصفهم بصفة الإجرام لكثرة جرائمهم، وكثرة ذنوبهم ومعاصيهم، فيصيبهم شيء من الذهول، والحيرة، وتنقطع حجتهم لا يستطيعون أن يتكلموا.

قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ [الروم: ١٣]، هؤلاء الشركاء الذين كانوا يعبدونهم من دون الله كالأصنام وغيرها، والأولياء يظنون أن هؤلاء الأولياء، وهؤلاء الأصنام أنهم يشفعون لهم عند الله، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ [الروم: ١٣]، شركاءهم ما شفعوا لهم، ولم ينفعوهم، بل شركائهم كانوا ضدهم، تبرؤوا منهم، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦].

الأصنام والمعبودات من دون الله هذه تتبرأ منهم، حتى الملائكة، الذين كانوا يعبدون الملائكة قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

فتتبرأ الملائكة، والجن تتبرأ، والأصنام تتبرأ، ويعلن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض، ولذلك قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ﴾ [الروم: ١٣]، ما عندهم، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠].

فأول من تبرأ منهم هؤلاء الذين كانوا يقدسونهم في الدنيا، ويعظمونهم، ويعبدونهم، ويقربون لهم القرابين، ويسجدون لهم، هؤلاء أول من يبرأ منهم يوم القيامة.

قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم: ١٣]، أي هؤلاء الشفعاء يكفرون بهم، هذه الآلهة تفكر بهم، إذا جاء يوم القيامة كفرت بهم، قالوا: ما أردنا منكم أن تعبدونا، ولن نأذن لكم بالعبادة، ولذلك يتبرؤون منهم ويكفرون بشركهم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

قال: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، هذه الأصنام والآلهة وأصحاب القبور، ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، يتبرؤون منكم، ويقولون: ما أمرناكم بعبادتنا، ولم نأذن لكم بالعبادة، ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

وهنا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الروم: ١٣]، فيتبرؤون منهم يوم القيامة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم: ١٤]، مرة أخرى، وأيضًا تفصيل أوضح وأوسع، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، إذا بُعث الناس قامت الساعة وجاء هذا اليوم الذي ينتظرهم وهذا اليوم الآخر، وبُعث الناس من قبورهم، تفرق الناس فرقتين، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ﴾ [الروم: ١٤]، أي في ذلك اليوم، ﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، الناس يتفرقون.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وجه التفرق: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ﴾ [الروم: ١٥]، "أما" هذه تفصيلية توضح لك ما هو التفرق هذا، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الروم: ١٥]، آمنوا وصدقوا واتبعوا ما جاءهم عن الله، آمنوا وصدقوا الرسل، وصدقوا ما جاءهم عن الله، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الروم: ١٥]، أتبعوا هذا الإيمان الذي في القلب

بالأعمال الصالحة، بأعمال القلوب، وأعمال الجوارح، لا أنهم آمنوا فقط، الإيمان اعتقاد وقول وعمل، هذا هو حقيقة الإيمان.

قال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، النتيجة ما هي؟ قال: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥]، هذه نتائج اليوم الآخر، فأهل الخير والصلاح والعمل الصالح هؤلاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبرهم بهذا الوعيد الكريم فيقول: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥].

✍ **الروضة ما هي؟**

الروضة من رياض الدنيا هي: "الأرض التي ازدهرت بخضرتها وجمالها، وماءها، ورائحتها الطيبة، وألوانها الزكية" هذه تسمى روضة، روضة من الرياض التي يجتمع فيها الماء ثم تنبت بالزرع بالأشكال والألوان الجميلة، هذه روضة، روضة في الدنيا.

فإذا سمعت أنت في الدنيا بروضة من مثل هذه الرياض يعني ذهبت إليها حتى تصل إليها وتجلس وتتأمل فيها وتنظر في جمالها وحسنها وبديعها، ورائحتها الطيبة، فكيف برياض الجنة الذين قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ [الشورى: ٢٢] ؟!! ليست روضة ولا روضتين؛ بل روضات.

قال هنا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥]، يعني في روضة جميلة حسنة وهم يصيبهم الحسن والجمال والنظرة الجميلة، فهم يحبرون بجمالها، ويصيبهم الحبور بجمالها وحسنها، ويسمعون تحبير الحور العين، تحبرهم بالأصوات الجميلة بالتسبيح والتهليل، كأنهم يطربونهم طربًا بذكر الله والتهليل والتحميد والتسبيح في جنات النعيم.

وأصل الحبور هو "الحسن والجمال" ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قال لأبي موسى: «**كنت أستمع إلى قراءتك لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»، قال: "لو علمت يا رسول الله أنك تستمع إلى قراءتي لحبرته لك تحبيرًا" يعني حسنته لك صوتًا جميلاً حسنًا.

فالحبور هو الحسن والجمال، فهؤلاء أصحاب الجنة في روضة من رياض الجنة، بجمالها وحسنها، ينعكس هذا الجمال والحسن على أهلها، فهم في حسن وفي جمال، وزيادة على ذلك كما فسره بعض السلف أنهم يسمعون هذه الأصوات المحبرة الجميلة الحسنة التي تطرب أسماعهم.

قال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦]، هؤلاء الذين كفروا وجحدوا آيات الله، وجحدوا رسله، وكفروا باليوم الآخر، وكذبوا بآيات الله التي جاءتهم، وبالحجج وبالأدلة، وكذبوا أيضًا بقاء الآخرة ولم يؤمنوا باليوم الآخر، اتصفوا بالتكذيب المطلق، والكفر، والجحود، والتكذيب، كذبوا بآيات الله، وأيضًا كذبوا بلقاء الآخرة اليوم الآخر، النتيجة؛ قال: ﴿فَأُولَئِكَ﴾ [الروم: ١٦]، أشار بإشارة البعيد أولئك لإبعادهم وإقصائهم أنهم لا يستحقون أن يدنوا وأن يقربوا، ﴿فَأُولَئِكَ﴾ [الروم: ١٦]، يعني لبعدهم، ﴿فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦]، أي أنهم سيحضرون في العذاب بغير اختيار.

محضرون غير حاضرون، الحاضر له الاختيار يأتي بنفسه، لكن لما يُحضر عند الشرطة يكون يحضر بقوة، هذا يؤتى به بالسلال والأغلال، فهم يأتون بالسلال والأغلال ويلقون في النار في العذاب، فهم يحضرون بقوة، ليس لهم خيار، فهؤلاء مصيرهم النار.

فأوضح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكمته وعدله في خلقه؛ أنه خلق السماوات والأرض ولم يخلقها عبثًا، وخلق البشر وكلفهم وأرسل إليهم رسل ليجازي المحسن على إحسانه، ويجازي المسيء على إساءته، هذا حكم الله وعدله في خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لم يخلق الناس عبثًا.

فإذا كان الأمر كذلك وأن هناك جنة وأن هناك نارًا، وأن هناك أعمالًا ينبغي أن تُعمل لتكون سببًا في دخول الجنة، فالله بعد ذلك قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧]، كأنه لما بين له ذلك الأمر أمر الخلق أو أمر عباده بأن يشتغلوا بالطاعات، ومن أجل وأعظم الطاعات ذكر الله والصلاة.

فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، أي سبحوه حين تمسون وحين تصبحون، أي أكثروا من التسبيح والتنزيه والثناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذا الذي ينبغي، ينبغي أن يشتغل الإنسان بالباقيات الصالحات، ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]، وقال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦].

الباقيات الصالحات ذكر الله والعمل الصالح، ولذلك كأن الآيات الآن تخاطبنا بأن ينبغي للإنسان إذا كان هذا مصيره، وأنه سيجازى وأن هذه الحياة امتحان، وحياة عمل، وينبغي للإنسان أن ينشغل بالطاعات، وأمامه حساب وجزاء، وجنة ونار، عليه أن يسارع في طاعات الله.

ولذلك قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ [الروم: ١٧]، أي سبحوه، سبحان مصدر مفعول مطلق، مصدر أي سبحوه تسبيحًا عظيمًا.

والتسبيح هو "التنزيه" تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أي نزهوه عن صفات النقص، وعن الشريك، وعن الصحابة، وعن الولد، وعن أي صفة من صفات النقص، وصفوه بصفات الكمال، هذا معنى التسبيح.

واذكروه ذكرًا كثيرًا بالتهليل، والتكبير، والتسبيح، سبحان الله والحمد لله، والتحميد سبحان الله والحمد ولا إله إلا الله والله أكبر، والمحافظة على الأوراد، والمحافظة على الصلوات، وأذكار الصلوات.

قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧]، أي تدخلون في المساء، يعني وقت المساء الذي يكون في العشي بعد العصر، ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧]، يعني تدخلون في المساء، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، أي وقت الصباح، إذا طلع الفجر بدأت الأذكار والأوراد، فاشتغلوا بالطاعات والأذكار والأوراد.

قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [الروم: ١٨]، أي أنه مستحق للحمد في السماوات والأرض، وليس بحاجة إلى من يحمده، لم يكن الله عَزَّ وَجَلَّ بحاجة إلى أن يحمده الحامدون؛ قد ثبت الحمد له، له الحمد في السماوات والأرض، ولذلك لاحظ قال: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [الروم: ١٨]، جاء بالمصدر، الحمد له ثابت، وجاء بـ "له" جار ومجرور قدمه، ليفيد الحصر، أي الحمد له لا لغيره.

فالحمد ثابت له في السماوات وثابت له في الأرض، لا ينتظر حمد الحامدين، ولا ينتظر ذكر الذاكرين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَعَشِيًّا﴾ [الروم: ١٨]، هذه جملة معترضة، ثم عاد قال: ﴿وَعَشِيًّا﴾ [الروم: ١٨]، أي سبحوه في المساء الصباح، ووقت العشي، ووقت الظهيرة.

سُئل ابن عباس قيل له: هل نجد في كتاب الله الصلوات الخمس؟ قال: نعم، وذكر هذه الآية، كيف دلت على الصلوات الخمس؟ قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧]، أي المغرب والعشاء، قوله: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، أي صلاة الصبح، وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾ [الروم: ١٨]، أي صلاة العصر، وقوله: ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨]، أي صلاة الظهر، خمس صلوات ذُكرت في هذه الآية.

فهذه الآية مضمونها الذكر والصلوات، والصلوات مضمونها الذكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]، أي الصلاة هي ذكر الله، والتسبيح هو ذكر الله.

فهذه الآية دلت على الصلوات الخمس، وعلى أن الإنسان إذا جاءت هذه الأوقات أن يحافظ على هذه الصلوات، ولذلك أتبعها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بانفراده، لأنه مستحق للحمد، ومستحق للتسبيح والتهليل والطاعة والعبادة، فبدأ يذكر لك الأدلة الدالة على أن هو الإله.

قال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الروم: ١٩]، كلمة "يخرج" الفعل المضارع يدل على الاستمرار، ما قال: أخرج وانتهى؛ بل قال: ﴿يُخْرِجُ﴾ [الروم: ١٩]، يخرج دائمًا.

قال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الروم: ١٩]، ما هو الحي؟ وما هو الميت؟ قال بعض أهل التفسير: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ﴾، أي المؤمن، ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الروم: ١٩]، أي من الكافر، تجد رجل كافر يخرج الله منه حي بإيمانه، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]، أي قد يكون مؤمنًا وولده كافر.

وقال بعضهم: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾، أي يخرج الإنسان من النطفة، النطفة ميتة فيخرج منها إنسانًا حيًا، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]، النطفة تخرج من هذا الرجل الحي.

وبعضهم قال: البيضة من الدجاجة، البيضة ميتة، والدجاجة حية، والفرخ حي من البيضة وهي ميتة، كلّ ذلك داخل في أن الله يخرج كلّ حي من ميت، ويخرج كلّ ميت من حي، ولما يذكر الله هذا الشيء يدل على أن هذه أشياء متضادة، حي وميت، ويخرج هذا من هذا، هذا يدل على قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الفائقة العظيمة، كيف يخرج هذا من هذا؟ كيف يخرج إنسان مؤمن داعي إلى الله من شخص كافر أو يخرج كافر من شخص مؤمن؟ كلّ هذا بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: إذا علمتم ذلك وقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فاعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها، يحييها بالماء والنبات، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت: ٣٩]، أي أن الله يحيي الأرض بالماء والنبات، ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [فصلت: ٣٩].

ولذلك هنا قال: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]، كما أنه أخرج الحي من الميت والميت من الحي، وأحيا الأرض بعدما كانت ميتة فأصبحت حية فكذلك يحيي الموت، يحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم

وإن كانوا قد ماتوا، وتمزقوا وذهبت أشلائهم، ولم يبق لهم أي أثر؛ فإن الله قادر على أن يعيدهم مرة أخرى، ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩].

لعل نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الروم ٢٠ - ٢٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الثاني من شهر ربيع الثاني، من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يمتعنا وإياكم بالصحة والعافية والعمل الصالح.

وأن يسددنا ويبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، درسنا في التفسير أو في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي هو أشرف كلام على الإطلاق، السورة التي بين أيدينا هي "سورة الروم"، تحدثنا عنها في لقاءات ماضية، وقف بنا الكلام عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٩].

سبق أن بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدرته على الخلق، وعلى الإيجاد، وعلى البعث، والآيات كلها تدور على إثبات التوحيد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإثبات القدرة، وانفراده بالقدرة والتوحيد، والخلق، ولا تزال هذه الآيات.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾ [الروم: ١٧]، تنزيه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ينزه نفسه عما يصفه الواصفون بالنقص، أو بالخلل، أو نحو ذلك، فقال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧]، أي وقت المساء، وهو أذكار المساء، وأوراد المساء.

قال: ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، ذكر الأذكار في الصباح والمساء، ثم أتى بجملة معترضة فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [الروم: ١٨]، الحمد كله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو المحمود على أفعاله، والعباد

يحمدونه، ولا ينتظر منهم حمد الحامدين؛ لأن له الحمد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبلاً وبعدًا، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ١٨].

ثم عاد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، أيضًا قال: ﴿وَعَشِيًّا﴾ [الروم: ١٨]، وهو وقت العشاء أو وقت الأصيل وقت آخر النهار، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨]، وقت الظهيرة.

وقد ذكرنا في لقاءنا الماضي أن هذه الآية استدل بها ابن عباس على الفرائض الخمس، الصلوات الخمس، فقوله: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾، أي المغرب والعشاء، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، أي صلاة الفجر، وقوله: ﴿وَعَشِيًّا﴾، أي صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٨]، أي صلاة الظهر.

فذكر الله في هذه الآية الصلوات الخمس، استنبط منها ابن عباس كما استنبط من غيرها، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾، دلوك الشمس أي زوالها، وهي الظهر والعصر تُجمع معها، ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾، المغرب والعشاء، ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، صلاة الفجر، هناك آيات حوالي أربع أو خمس أو ست آيات ذكر أهل العلم في كونها تدل على فرضية الصلوات الخمس في القرآن الكريم.

بعد ذلك لما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نزه نفسه وأشاد بنفسه أن له الحمد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو المنفرد بالتوحيد والعبادة؛ بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلقه وهو قدرته على الخلق؛ فقال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الروم: ١٩]، وهذه الآية ذكرناها في اللقاء الماضي، ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩]، هذا انفراده بالخلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ١٩]، لما تموت الأرض مغبرة فيحييها بالزرع والنبات.

فإذا كان الله هو الذي يخرج الحي من الميت، وهو الذي يحيي الأرض بعد موتها إذًا لابد أن تؤمنوا بقدرته على البعث، ولذلك قال: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ [الروم: ١٩]، أي مثلما أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخرج الحي وأنتم تشاهدون في الدنيا، ويخرج الميت من الحي، ويحيي الأرض بعد موتها بالمطر، وهذه الآيات مشاهدة أمامكم، فيجب عليكم أن تؤمنوا بالبعث، ولذلك قال: ﴿وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩].

ومثله قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [فصلت: ٣٩]، وهذا قياس، قياس يدل على قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالذي أحيانًا

الأرض قادر على أن يحيي الموتى؛ فما الذي يجعلكم تستنكرون وتستبعدون قدرته على بعث الأموات بعدما يكونوا ترابًا؟!!

بعدما تتقرر هذه القضية قضية التوحيد والإيمان بالبعث، وقضية القدرة، قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وما المانع من أن يعيد الخلق بعدما بعثهم، الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يبعثهم مرة أخرى.

فالله عَزَّ وَجَلَّ يُقرر قضية البعث والجزاء والجنة والنار لهؤلاء المشركين الجاهلين الذين ينكرون قدرته على البعث، ينكرون هذه القدرة، ويثبت الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدرته على البعث، الآن يسوق الله لنا ست آيات، نتأملها تأملاً دقيقًا ومن خلالها نستنبط منها قدرة الله، قدرة الله على كلّ شيء، وأنه لا يعجزه شيء.

الله على كلّ شيء قدير؛ فكيف يأتي هؤلاء الملحدون وهؤلاء المنكرون للبعث ويقولون: إن الله لا يقدر على أن يبعث، أو أن هؤلاء الأموات من المستحيل أن يُبعثوا مرة أخرى؟!!

فالله يرد عليهم ويثبت لك بالأدلة الصريحة الدالة على قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فيذكر لنا الله عَزَّ وَجَلَّ قدرته؛ فيقول: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠]، يقول: أنتم أيها البشر ويا أيها الإنسان خلقك الله من تراب، وخلق أصلك وهو آدم، خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون، ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠]، يعني خلق أصلكم، خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ﴾، بعد خلق أبيكم آدم، ﴿بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، لأن الله خلق آدم من تراب، فلما سواه ونفخ فيه من روحه، وجعله يتحرك ويصبح إنسانًا سويًا مستقيمًا وأسكنه جنته فعاش وحده، وشعر بالوحشة، فخلق الله برحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له زوجًا يأنس بها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، فخلق الله عَزَّ وَجَلَّ من آدم أي من ضلع آدم الضلع الأيسر الأسفل خلق الله منه حواء، زوجته حواء، وكان نائمًا فاستيقظ فإذا هي جالسة عنده، قال: "من أنت؟ قالت: أنا زوجتك حواء" فعاش معها في الجنة، واستأنس بها، واستأنست به. ﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١].

ولذلك لما نزل إلى الأرض وأهبط إلى الأرض بدأت الذرية تنتشر، قال: ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، يعني أنكم تنتشرون على هذه الأرض، لاحظ قال: ﴿تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، فعل مضارع يدل على الاستمرار، يعني انتشاركم لم يصل إلى حد معين، ينتشر على مر السنين والأيام والقرون، قوم يخلف قوم، وهكذا، فإذا هم بشر ينتشرون.

هذه آية عظيمة، آية من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، خلق آدم من تراب أو من طين، ثم بعد ذلك خلق منه زوجه حواء، ثم نشر هذه الذرية؛ التي تناسلت وانتشرت على هذه الأرض، وعلى هذه البسيطة، انظر كم وصت الأعداد؟ وكم مضى من العدد؟ وكم بقي من العدد؟ أعداد عائلة لا يعلمهم إلا الله، أمم مضت وأمم ستأتي، وحالنا كم الأعداد على وجه الأرض التي تمشي على وجه الأرض؟ سبحان الخالق، نشرهم ويعلم متقلبهم ومثواهم، ويعلم سرهم ونجواهم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

أليست هذه آية عظيمة تدل على قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تدل على أنه قادر على أن بعث الناس؟ لا يجحدها إلا ملحد جاهل يجهل قدرة الله، فكيف يأتي شخص ينكر أو يشك في قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على البعث، هذه الآية الأولى تأملناها وعرفنا ما فيها.

وكلّ هذه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، الآن الله عَزَّ وَجَلَّ يريك في هذه الآيات التي ستمر معنا آيات في الآفاق، في الأجواء أمامك في السماوات والأرض، وفي نفسك أنت، فأنت انظر في نفسك أن أصلك من تراب، خلق آدم من تراب وهو أبوك، ثم ذريته انتشرت بعد ذلك، فكل ذلك من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدرته.

لما بيّن لنا الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الخلق خلق الإنسان وأنه آية من آيات الله، بيّن لك آية أخرى أيضًا تتعلق بالإنسان وهو أنه جعل بين الزوجين الذكر والأنثى في هذا الإنسان في طبيعته جعل بينهم التواصل والتلاحم والعلاقات الزوجية التي من خلالها يظهر السكن والراحة النفسية والطمأنينة، والمحبة، والمودة، ونحو ذلك.

ولذلك قال الله بعدها: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الروم: ٢١]، يعني جعلكم ذكورًا وإناثًا حتى يبقى هذا العنصر، ويبقى هذا الخلق؛ لأنه لو لم يكن هناك تناسل وتوالد لانقطع

وانقرض، ولكن من رحمة الله جعل هذا التناسل وهذا التوالد حتى يستمر هذا الخلق، وهذا النوع من الخلق.

قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢١]، خلق آدم وخلق له من نفسه، أي من ضلعه الأعوج الأسفل خلق له من نفسه زوجته حواء.

ثم بعد ذلك جعل الزوجين الذكر والأنثى، جعل بني آدم ذكورًا وإناثًا حتى يحصل التآلف والتواصل والعلاقات الزوجية، ويسكن بعضهم إلى بعض، ويألف بعضهم ببعض، وتحصل هذه الذرية والتكاثر، والتناسل.

قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]، السكنى الراحة والطمأنينة، يسكن إليها؛ لأن المرأة مثل الدار سكن، تضم الإنسان، والعرب يسمون المرأة سكن، يسكن الرجل إليها ويرتاح إليها من القلق والتعب، وهي تزيل عنه الهموم، والأتعاب، وتخدمه، فهذه رحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رحمة أن يسكن إليها وتستقر نفسه، تصبح كالدار له كالسكن له.

قال: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ﴾ [الروم: ٢١]، أي بين الزوجين، ﴿مَوَدَّةً﴾ [الروم: ٢١]، أي محبة، ﴿وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، يعني بعضهم يحب بعض، الله قذف في قلوبهم إذا أراد المحبة والمودة بينهم، كلٌّ يحب الآخر، مع أنهم لم يعيشوا في أول حياتهم مع بعض، وهذه رحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الله عَزَّ وَجَلَّ جمع بينهم مع أنهم لم يجتمعوا قبل ذلك، تجد أنه لم يجتمع أكثر من عشرين أو ثلاثين سنة لا يعرفها ولا تعرفه، فجمع الله بينهم، وأصبح بينهم من المحبة الشديدة كلٌّ يحب الآخر ويود الآخر، في مودة ومحبة بينهم، وفوق ذلك أيضًا الرحمة، أن يرحم بعضهم بعضًا.

تجد الرجل يرحم المرأة، والمرأة ترحم الرجل، بينهما تراحم، تراحم كلٌّ يخدم الآخر، وكلٌّ يرى أن يقوم بخدمة الآخر، ويقوم بتعاون بين بعضهم البعض.

الله إذا وقف بينهم بتوفيقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وجمع بينهم على خير، وبارك لهما؛ فإنه تحصل هذه الأمور التي أشارت الآيات إليها، ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [الروم: ٢١]، هذه الآية العظيمة؛ قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [الروم: ٢١]، وليست آية واحدة؛ بل هي آيات لمن يتفكر في نفسه، ويتفكر في زوجه، والعلاقات الزوجية، ﴿إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، يعني دعوة للتفكير، يعني النظر في نفسك، والنظر في زوجتك والتلاحم والتقارب بين الزوجين وكلٌّ يعطف على الآخر، وكلٌّ يحب الآخر، وكلٌّ يرحم الآخر، هذه آيات وليست آية، آيات لمن يتفكر، لمن يحرك فكره، ويتفكر، ويتأمل، وينتفع بذلك، ويزيده إيمانًا بربه أنه على كلّ شيء قدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، هذه الآية الثانية.

الآية الثالثة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢]، الآن الله عَزَّ وَجَلَّ أراد منك النظر في الآفاق، قال: انظر إلى خلق السماوات العظيمة السبع، بغير عمد ترونها مرتفعة، بعيدة الأطراف، عظيمة الخلق، جميلة حسنة، والأرض أيضًا التي بث فيها من كلّ دابة، وجعل فيه الجبال والأشجار والأنهار، وجعلها منبسطة يعيش عليها الإنسان هذه آية عظيمة من آيات الله.

قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢]، ثم لما لفت نظرك إلى الآفاق عاد مرة أخرى إلى أن يلفت نظرك إلى نفسك، تأمل في نفسك ماذا قال؟ قال: ﴿وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢].

يقول: اختلاف الألسنة آية من آيات الله، كم لسان على وجه الأرض؟ كم لغة؟ كم لهجة؟ هذه الاختلافات التي تحصل والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلمها ولا يخفى عليه شيء على اختلاف الألسنة، تجد هذا يدعو وهذا يدعو، وأنت في المطاف عند بيت الله تسمع هؤلاء يدعون بلهجات عظيمة، والله لا تختلف عليه الألسنة ويعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والبشر لا يعلمون، لا يعلمون كثيرًا من ذلك.

اختلاف الألسنة من حيث اللغات واللهجات، واختلاف الألسنة من حيث نعومة اللسان ورقة اللسان، وخشونته، كلّ ذلك بقدرة الله الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي خلق هذا الخلق العظيم.

والألوان المختلفة في بني آدم، الله خلق آدم، ثم جعله ذريته مختلفين بألوانهم، فمنهم الأبيض، منهم الأسود، ومنهم الأحمر، ألوان مختلفة؛ حتى ذكر بعض أهل التاريخ: أن اختلاف الألسنة، واختلاف الألوان مع أن الأصل هو اللسان العربي؛ لأن آدم كان يتكلم بالعربية، والأصل اللون واحد؛ لأن آدم كان لونه واحد، ثم بعد ذلك اختلفت الألوان، واختلافها والله أعلم يرجع بسبب البيئة التي يعيش فيها الإنسان، طبيعة البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها الإنسان تؤثر، وطبيعة الأجواء تؤثر، وطبيعة الأرض تؤثر.

فتجد القارات مختلفة، القارة الأوروبية غير القارة الإفريقية، غير القارة الأسيوية، وهكذا، هذه تنعكس على طبيعة الإنسان في أخلاقه، في حرارته، في برودته، في لونه، في لسانه، اختلاف المجتمعات تؤثر في ذلك والله أعلم.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، العالمين جمع عالم يعني أهل العلم، يقولون: أهل العلم هم الذين يعرفون، ويدركون هذه الألسنة، وقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وآياته في اختلاف الألسنة، واختلاف الألوان هذه لا يشعر بها إلا العلماء يدركونها إدراكًا دقيقًا.

وهناك قراءة أخرى غير قراءة حفص عن عاصم، وهي: "إن في ذلك لآيات للعالَمين"، "العالَمين" يعني العالم جميعهم يعني الإنسان، هذه آية للإنسان لجميع أجناس الإنسان، عالمهم، وجاهلهم، عربيهم، وغير عربيهم، صغيرهم وكبيرهم، كلٌّ يدرك هذا الشيء، أن هذا لون وهذه لهجة.

عندنا الآن:

الأولى: خلق الإنسان من تراب.

والثانية: خلق لهم أزواجًا.

والثالثة: خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان، والمراد بالألسنة كما ذكرنا هي اللغات.

الآن الآية الرابعة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣].

يقول: من الآيات الدالة على قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وانفراده بالخلق والتدبير والعلم والإحاطة أن خلق لكم هذا النوم، ولاحظ أنه قال: "منام" وفي بعض الآيات "النوم".

النوم والمنام في فرق ولا في ما فرق؟

هناك فرق، سبحان الله العظيم قال: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، عندك سنة، عندك نعاس، عندك نوم، عندك منام، عندك أيضًا هجعة، ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، عندك الرقاد أو الرقود، ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨].

فقالوا: هذه مراحل، فالنعاس، والسنة بداية النوم، النعاس بداية النوم والسنة، ثم النوم، الهجعة أقل النوم، يهجعون قليلاً، ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، نوم يسير، ثم نوم عميق ثم رقاد وهو أشدها، ولذلك وصف الله أصحابه الكهف بأنه رقود؛ لأن نومهم طويل.

المنام والنوم بعض أهل العلم فرق بينهم؛ فقال: النوم هو الاستغراق وقتًا طويلاً، والمنام هي الساعات المحدودة، ولذلك قال إبراهيم: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ﴾ [الصافات: ١٠٢].

ولذلك الله قال هنا: ﴿مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣]، لأنها ساعات محدودة، يعني أوقات محدودة، النهار تأخذ لك نومة ساعة مثلاً أو أقل، والليل كذلك تأخذ ساعات تقل أو تكثر، هذه ﴿مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣]، وهي آية من آيات الله.

والإنسان لا يدرك هذا الشيء، أنت إذا شعرت بالنوم وبدأت تظهر عليك علامات النوم أويت إلى فراشك، ثم بعد ذلك إذا دخل النوم عليك وغلبك النوم خلاص ما عنت تشعر ما تدري أين أنت؟

فحقيقة النوم ما تدري أنت عنها، لكن تعرف علاماتها وبدايتها، ثم إذا استيقظت عرفت أنك استيقظت من النوم، لكن لا تشعر بالنوم وأنت نائم إلا بعدما تستيقظ تعرف نفسك، فالنوم غياب، يغيب الإنسان، ووعيه يغيب عن الناس بهذه الآية العظيمة التي يسترخي فيها، وتذهب عنه الهموم والغموم، وترتاح الأعصاب، وترتاح العظام، ويرتاح الجسد ثم ينشط بعد ذلك.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩]، قال: ﴿نَوْمَكُمْ﴾ [النبأ: ٩]، لأنه سبات عميق.

قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣]، تنامون ساعات، وتبتغون من فضله، يعني تسعون للبحث عن الرزق في النهار، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [الروم: ٢٣]، يسمعون سماع تدبر وتأمل وتفكر، فيستفيدون من ذلك.

هذه الآية الخامسة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم: ٢٤]، من آياته هذا السحاب العظيم الذي يسوقه الله وقبل أن ينزل يُريكم فيه هذه الآيات العظيمة، البرق وهو اللمعان الذي يظهر في السحاب، ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣]، هذا البرق آية من آيات الله عظيمة، والرعد، قال: ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢].

فإذا رأيت البرق وسمعت الرعد فرحت طمعًا بهذا الخير؛ لأنه ينفع العباد والبلاد، وتخاف من آثاره التي قد يكون فيه غرق، وفيها هدم، وفيه إتلاف للزروع، فأنت ما بين خائف وطامع، خوف وطمع، وهذا كله آية من آيات الله.

فإذا أراكم البرق وأسمعكم الرعد بعدها قال: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الروم: ٢٤]، ينزل المطر هذا الغيث من السماء، ﴿فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٢٤]، تجد الأرض ميتة مغبرة قاحلة، فينزل الله عَزَّ وَجَلَّ هذا المطر فيحييها، فتحيى الأرض، والله الذي أحيا الأرض قادر على أن يحيي هذا الإنسان.

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤]، لا يغفل عنها إلا غافل، ولا يغفل عنها إلا سفيه ناقص العقل؛ وإلا هي آية مشاهدة عظيمة، من الذي أتى بالسحاب وساقه لك، ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، أنزل هذا المطر العظيم، من الذي أنزله؟ ومن الذي أتى به؟ ومن الذي خلقه؟ ومن الذي صرفه على هذه الأرض إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ لا يجهله إلا سفيه.

الآية السادسة: قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، يعني قدرة الله، وآية الله على قدرته ثبات هذه السماوات، تقوم يعني تثبت وتستمر، ثابتة مستقرة مستمرة، السماوات المرتفعة عنها بعيدة المدى، سماوات سبع بغير عمد ترونها، مستمرة على مر السنين الطويلة والقرون، لم تتغير، ولم تتحرك، ولم يصبها آفة، وهي مخلوقة ومسخرة هذه آية عظيمة.

والأرض على مر السنين، ومر القرون أرض لم تتغير، هذه آية من آيات الله، وباقية لم تتحرك ولم تضطرب، هذه آية من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، دالة على قدرته عَزَّ وَجَلَّ، قيام السماء والأرض، أن تقوم السماء والأرض بأمره.

قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الروم: ٢٥]، هذه خاتمة الآيات الست التي تدل على قدرة الله، وأنه قادر على البعث؛ لأنه قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الروم: ٢٥]، أي نفخ في الصور، ونفخ فيه إسرافيل، ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، هذه دعوة البعث، يدعوكم الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا الملك الموكل الذي وكله الله على أن ينفخ في الصور، فيخرجون من الأجداث سراعًا.

قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٥]، إذا دعاكم دعوة من الأرض وأنتم في بطونها، ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، إذا دعاكم من الأرض ومن قبوركم وقد أرمتم تحت القبور وأصبحت

رفاة وعظامًا بلحظة إذا الله قد جمعكم ورد عليكم خلقكم، وبعثكم من قبوركم؛ فإذا أنتم تخرجون، ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهذه الآيات العظيمة الستة التي مرت معنا دالة على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه لا يعجزه شيء، قادر على كلّ شيء، عالم بخلقه قادر عليهم، وقادر على البعث، وقادر على كلّ من يستنكره المستنكرون، أو يدعون أن الله عاجز، هذا كله أمر باطل.

لعلنا نقف عند هذه الآية حتى لا نطيل، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الروم ٢٦ - ٣٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للتاسع من شهر ربيع الآخر من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

درسنا المعتاد في تفسير القرآن العظيم، السورة هي "سورة الروم"، وقف بنا الكلام عن الآية الخامسة والعشرين، وما قبلها من الآيات كانت في سرد أو مجموعة من الآيات التي بيّن الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عظمته وقدرته، وفيها الدلالة الواضحة على قدرته، وسعة علمه، ووحدانيته وانفراده بالخلق، ولذلك بدأها بخلق الإنسان من تراب.

قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ [الروم: ٢٠]، الدالة على أي شيء؟ على عظمته، وكمال قدرته، وعلى سعة علمه، وعلى وحدانيته؛ لأنه هو المنفرد بالخلق، ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

ثم قال مرة أخرى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ [الروم: ٢١]، الدالة على عظمته وكمال قدرته، وسعة علمه، ووحدانيته، ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الروم: ٢١]، خلق آدم وخلق له من نفسه زوجته حواء، وخلق الناس من ذريته ذكورًا وإناثًا، لتتم عملية البقاء والاستمرار في هذه الدنيا.

قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]، تطمئن النفس وتسكن إليها، وجعل بين الزوجين المودة والرحمة.

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، هذه الآية الثانية، أما الثالثة قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢].

هذه آيات عظيمة دالة على قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، خلق السماوات وارتفاعها بغير عمد، واختلاف الألسنة، واختلاف الألوان كلّ ذلك فيه آيات وعبر، ومواعظ لمن له عقل، وله بصيرة، وله علم، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

هذه الرابعة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٢٣]، هذه آيات عظيمة دالة على قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعلى وحدانيته، وعلى سعة علمه، وكمال قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونفوذ مشيئته، أن من آياته هذا النوم العظيم بالليل والنهار، وابتغاء الفضل، وطلب الرزق.

وأيضًا من آياته الخامسة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الروم: ٢٤]، فخلق السحاب ووجود هذا البرق والرعد وإنزال الماء، وإحياء الأرض بعد موتها لاشك أنه من أعظم الآيات الدالة على قدرته وعلى وحدانيته، من يتصرف في هذا الكون ويأتي بالسحاب إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!! هو الذي يحيي الأرض بعد موتها وحده لا شريك له سبحانه.

السادسة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]، أي بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن معنى أن تقوم السماء يعني أن تثبت السماء، وتستقر، والأرض تثبت وتستقر، ولولا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثبتها وجعلها مستقرة لزالت الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١].

قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، فمن يمسك السماء التي فوقنا؟ سبع سماوات طباقًا من غير عمد، من الذي أمسكها؟ لولا الله لسقطت على الأرض، وأهلكت كلّ من على الأرض، وهذه أيضًا الأرض الواسعة مترامية الأطراف وتحتها أراضين سبع أراضين طباقًا، من الذي ثبتها وجعلها تستقر إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!!

قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ﴾ [الروم: ٢٥]، يعني من آياته ترى السماء قائمة يعني ثابتة مستقرة، والأرض ثابتة مستقرة، ذلك بأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما بيّن عظمة السماوات والأرض، وأن خالقها وجعلها تستقر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لما بيّن لك ذلك؛ قال بعدها: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، أي إذا نفخ في الصور ونادى المنادي من مكان بعيد، خرج الناس من قبورهم مسرعين، من الذي أعادهم وأعاد خلقهم

وأعاد أجسادهم التي أصبحت ترابًا وأصبحت رفاتًا وعظامًا، من الذي أخرجها هكذا ورجعت إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!!

وكأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية يجعلك تقارن أيها أعظم خلق السماوات والأرض وجعلها قائمة مستقرة ثابتة بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أم خلق هذا الإنسان الضعيف؟!!

قال: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، بلحظة واحدة يخرج الخلق من قبورهم.

فإذا علم الإنسان العاقل الذي يستعمل عقله ويدرك هذه الأمور أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن الله بقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض، ويمسك الأرض أن تستقر حتى لا تضطرب، هذا الخلق العظيم بلا شك أعظم من خلق الإنسان، فإعادة الإنسان أهون عن الله، إعادته وإخراجه من قبره أهون عند الله، فهل يشك عاقل بقدرة الله على الخلق وعلى الإعادة وعلى بعث الناس من قبورهم؟!! لا يشك إلا جاهل.

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٦]، أي ملك لله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كلّ من في السماوات والأرض من خلق الملائكة، والجن، والإنس، والحيوان والنبات والجماد، كلّ ذلك له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مالك له، ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، كلهم قانتون لله، أي خاضعون، مقرون بوحدانيته.

السماوات أقرب بوحدانيته، والسماوات تسبح له، والأراضين اعترفت بوحدانيته وتسبح له، والملائكة عبادٌ مكرمون، والإنس أقروا، مؤمنهم وكافرهم يقر وينقاد لأمر الله ويخضع، ولو أشرك، ولو كفر، ولو ألحد، ففي نفسيته وفي داخل نفسه لا يشك بوحدانية الله.

وكلّ مشرك، وكلّ ملحد يعرف أن له ربًا خالقًا ولو كفر في ظاهره؛ فإنه مقر بوحدانية الله، ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، والجن قانتون، والحيوانات، والنبات، والجماد، كلٌّ يسجد، الجبال، والشجر، والدواب، كلها تسجد لله، وهي كلها تقر بوحدانية الله، وتخضع لأمره ولحكمه، حتى الكافر يخضع لأمره ولحكمه.

ولو كفر ولو أشرك فهو يعرف أن الله هو خالقه، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، يعترفون بذلك، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فهم يقرون بذلك وإن أشركوا.

قال: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم: ٢٦]، فإذا كان الخلق كلهم ملك لله؛ فإن الله هو المنفرد بالخلق والتدبير، وبدء الخلق وإعادته، وإعادته أهون كم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ [الروم: ٢٧]، وحده سبحانه لا شريك له، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ [الروم: ٢٧]، هو الذي يخلق الخلق الأول من العدم، إنسان غير موجود معدوم، ثم يوجده ويخلقه، الذي خلق الخلق الأول من هو؟

قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [الروم: ٢٧]، يعيد الإنسان، ويعيد الحيوان يوم القيامة، يعيدهم ويبعثهم من قبورهم، ويجازي حتى الحيوان يُقتص له ويجازى ثم يكون ترابًا، فهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده.

قال: ﴿وَهُوَ﴾ [الروم: ٢٧]، أي الإعادة، ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، هذا في قياس البشر، أما عند الله فليس هذا أهون من هذا، كله هين، عند الله كلاهما هينٌ، سهلٌ، لا صعوبة فيه في حق الله.

أما عند البشر فالقياس أن الإعادة أهون، فأنت لو اخترعت مخترع جديد، ثم قيل لك: اخترع لنا مرة ثانية، أو أعدهم مرة أخرى؛ لقلت: أنا الذي ابتدأته كيف أعيده؟ هذا أسهل عندي من البدء، فهذا في حق البشر فكيف في حق الله؟!!

فهذا كله هين عند الله، ولذلك قال الله فيه: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [الروم: ٢٧]، له الوصف الأعلى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يُقاس على البشر، الله له الصفات العلا، وله الأسماء الحسنى، وله القدرة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي لا تشبه قدرة المخلوقين، وله الوصف الأعلى في كلّ ما يوصف به أي إنسان؛ فإن الله له المثل الأعلى.

فلو وصف أي إنسان بأوصاف كريمة طيبة حسنة؛ فإن الله أولى بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو وصف أو لو نزه هذا الإنسان من أوصاف سيئة فالله أولى أن ينزه، فله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صفات الكمال، وينزه عن صفات النقص سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فله المثل الأعلى، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]، العزيز الذي لا غالب له، ولا يُغالب في أقواله ولا في أفعاله، وحكيم في تدبيره، في أمور خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحكيم في أقواله وأفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى انفراده بالخلق، وذكر الأدلة على وحدانيته وانفراده بالخلق والتدبير، وأنه لا خالق لهم إلا الله، وأنه الذي وعدهم بإعادتهم يوم القيامة ومجازاتهم على أعمالهم، ضرب لنا مثلاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في إبطال الشرك.

إبطال الشرك مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد يكون إبطاله بالدليل العقلي، وقد يكون إبطاله بالدليل الشرعي، وهذا أمامك الآن دليل عقلي، كلّ عاقل يستطيع أن يعترف بذلك، ولا يمتنع عن ذلك.

يقول: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا﴾ [الروم: ٢٨]، الله عَزَّ وَجَلَّ ضرب لنا مثلاً بأي شيء؟ قال: ﴿مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، المثل هذا من نفسك أنت، ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، هل لك مما ملكت يمينك يعني المماليك الذي عندك العبيد، ﴿مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الروم: ٢٨].

✍ هل هؤلاء المماليك هم يشتركون معهم في المال؟

إذا كنت أنت تملك مالًا وعندك رصيد، وعندك أموال أو عندك مزرعة، أو بيت، أو أغنام، ومواشي، وحلال، هل هذا المملوك الذي أنت تملكه يأخذ نصف مالك أو يكون شرك في نصف مالك أو ربعه أو جزء من مالك؟ لا ترضى، لا ترضى أن تتنازل عن شيء من مالك له، تقول: أنت مملوك عندي فكيف تأخذ نصف مالي أو ربع مالي أو شيء من مالي؟!!

فإذا كنت لا ترضى أن يأخذ من مالك شيئًا، لا ترضى في رزق الله لك هذا الشيء، وتكون أنت وإياه سواء، إذا كنتم أنتم وإياه مستوون يعني تخافون هؤلاء يعني هؤلاء المماليك أن يأخذوا أموالكم كخيفتكم من بعض أصدقائكم، وبعض شركائكم من الأحرار، في مقاسمة الأموال، فإذا كنتم لا ترضون فالله أولى، معنى هذا الكلام لما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، أي أنت إذا كنت لا ترضى أن المملوك يأخذ شيئًا من حقوقك؛ فكذلك الله لا يرضى أن تصرف شيئًا من حقوقه للمخلوقين.

الله لا يرضى أن تجعل له شريكًا من خلقه، يعني هذه الأمور الواجبة عليك، والعبادات التي فرضها الله عليك أن تكون لله خالصة، تصلي لله صلاة خالصة، وتعبد الله وحده لا شريك له، وتمتثل أوامر الله عَزَّ وَجَلَّ، إذا كانت هذه الأمور والعبادات لا تكون إلا لله خالصة؛ فلو صرفت شيئًا منها لمخلوق عبد لله مخلوق، صرفت شيئًا لمخلوق من مخلوقات الله؛ فإن الله لا يرضى.

فكيف أنت ترضى أن يأخذ هذا المملوك شيئًا من مالك، أو تعطيه شيئًا من مالك؟ أنت لا تعطيه، ولا تأذن له أن يأخذ شيئًا من مالك، فكيف ترضى لله أن تصرف شيئًا عن،،؟!

فهذا مثال واضح، ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨]، مثلاً من أنفسكم أيها المشركون، لما تعبد غير الله، وتصرف شيئًا من عبادتك لغير الله، والعبادة لله ملك، ولا يرضى الله أن تصرف شيئًا، فكذلك أنت لو كان عندك مملوك لا ترضى أن تصرف له شيئًا من مالك الحر، ولا تسمح له أن يأخذ شيئًا منك.

فالله أيضًا من باب أولى أنه لا يرضى، لا يرضى ولا يسمح لك أن تصرف شيئًا من حقوقه لأحد من خلقه، وتجعل له شريكًا في عبادته، هذا هو المثل الواضح، المثل في إبطال الشرك، فالشرك باطل.

ولذلك قال: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]، أما الذين لا يعقلون فغير داخلين في هذا الشيء لأنهم لا يفهمون، أما العقلاء فهم يدركون هذا المثل الواضح.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ بيّن قال: إنما شركهم هذا وعملهم الباطل اتباعًا لأهوائهم، ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الروم: ٢٩]، سماهم ظلمة؛ لأنهم ظلموا أنفسهم، وظلموا حق الله، حيث صرفوا شيئًا من حقوق الله لغيره.

قال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الروم: ٢٩]، ساروا على أهوائهم، يعني يتبعون الهوى، والشهوات، ليس لهم شيئًا يعتمدون عليه، لا شرع ولا عقل، وإنما اتباع للأهواء.

قال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم: ٢٩]، ما عندهم علم، إنما عن جهل وضلال، كيف تعبدون غير الله، وتصرفون شيئًا من حقوق الله للمخلوقين؟!!

قال: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩]، الله أضلهم بسبب كفرهم وعنادهم، ومعاصيهم، فهل تجد من يهديهم بعد الله؟! وليس لهم من ناصر ينصرهم ويخلصهم من العذاب الذي ينزل بهم، فهؤلاء المشركون أصحاب أهواء وشهوات، ويتبعون شهواتهم.

فلما قرر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو بيّن إبطال الشرك، وأسقط الشرك وأبطله، وبيّن حقيقة الشرك وأنه اتباع للهوى وجه نبيه إلى التوحيد وإظهار التوحيد وبيانه، قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [الروم: ٣٠]، وكذلك المؤمنون معه، ولذلك الآية التي بعدها قال: ﴿مُنِيبِينَ﴾ [الروم: ٣١]، يعني كلكم أيها المؤمنون، وكلّ واحد يقيم وجهه للدين حنيفًا.

قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [الروم: ٣٠]، أقم وجهك يا محمد، ﴿لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]، وليقم وجهه كلّ من اتبعك، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ [الروم: ٣٠]، يعني أخلص عملك لله، يعني استسلم لله، وانقاد لشرع الله، وانقاد لعبادة الله.

قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]، ومعنى حنيفًا أي مقبلاً إلى طاعة الله منصرفًا عن طاعة أي مخلوق، كن حنيفًا متبعًا ملة إبراهيم، الحنيفية.

قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]، هذا الدين وهذه الحنيفية هي فطرة الله التي فطر الناس عليها، هذا الدين هو فطرة الله، الله خلق الناس لعبادته، وخلقهم على التوحيد، وإنما الشرك شيء عارض، هذا الشرك هذا من عمل الإنسان، ومن فكر الإنسان، وإلا الله لم يلد مولودًا إلا على الفطرة، «**ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»، ولم يقل: "أو يسلمانه" لأنه هو على الإسلام أصلاً، على التوحيد والإسلام.

قال: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، لا تبديل لشرع الله، ولا لدين الله، هذا دينه وهذا خلقه، خلق الناس على الفطرة، لا تبديل لفطرة الله.

قال: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]، هذا الدين المستقيم، الموصل إلى رضا الله، الموصل إلى جناته، هذا الدين القيم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، لا يعلمون حقيقة هذا الأمر، ولو كانوا يعلمونه لما كفروا ولما أشركوا، ولما ارتكبوا المعاصي.

ولذلك لما قال: أقيموا الدين، وقال: فطرة الله، واستقم على شرع الله، قال: ﴿مُنِيبِينَ﴾ [الروم: ٣١]، أي حالكم منيبين أي راجعين إلى الله بالتوبة والإخلاص، الإنابة هي "الرجوع إلى الله، والتوبة إلى الله".

قال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١]، أهل التوحيد هم الذين ينوبون إلى الله، هم الذين يرجعون إلى الله بالتوبة وإخلاص العمل، ويتقون الله عَزَّ وَجَلَّ، ويقيمون الصلاة حق القيام، ويبعدون عن كلّ طريق يؤدي إلى الكفر والشرك مع الله في عبادته، هذه حقيقة التوحيد، والإيمان، ما أجمل هذا الكلام.

قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١]، التي هي عمود الإسلام، ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣١]، لا تكونوا من المشركين وتخرجون عن طاعة الله، وعن عبادته.

وهؤلاء المشركون هم الذين فرقوا دينهم، الله أعطاهم الدين الواضح، ولكنهم خرجوا واتبعوا الأهواء، وابتدعوا البدع، وتفرقوا وأصبحوا فرقًا، وأصبحوا شيعًا.

قال: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الروم: ٣٢]، أحزابًا متفرقة، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، بما عندهم من المعتقدات والعبادات فرحون، ويظنون وأنهم هم الذين على الحق، ولم يظنوا أنهم على الهوى والانحراف، فرحون بذلك ما يعلمون.

قال: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، مسرورون، يحكمون لأنفسهم؛ بأنهم هم الذين على الحق، ويظنون أنهم على الحق، وهم على الباطل.

ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قال: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين، وستفترق هذه الأمة على ثلاثٍ وسبعين، كلها في النار إلا واحدة، قيل: من يا رسول الله؟ قال: ما كنت عليه أنا وأصحابي**»، فمن تمسك بسنة نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسار على نهجه، وتمسك بطريقة أهل السنة والجماعة؛ فهو السالم من هذه البدع، ومن هذه الخرافات، ومن هذه الفرق التي ما أكثرها وهي في ضلال، إلا ما كان عليه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه.

والعجب أن الله لما أمر بالإنابة إلى شرعه أن تجد من هؤلاء المشركين من إذا أصابه الضر، وعرف أنه ليس له ملجأ إلا إلى الله تجدهم يرجعون إلى ربهم، يرجعون إلى ربهم في الشدة، وفي البلاء، وفي الضر، يرجعون إلى ربهم ويعرفون ربهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ [الروم: ٣٣]، إذا أصاب الناس شدة وبلاء، ومرض، وقحط، وفقر، ونحو ذلك، ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣]، دعوا ربهم مخلصين ومنيبين إليه، راجعين إليه، وعرفوا أنه لا يكشف الضر ولا يزيل هذه البأساء إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [الروم: ٣٣]، أي كشف عنهم هذا الضر، وأعطاهم شيء قليل من الرحمة، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣]، ولم يقل: إذا هم يشركون، لأنه قد يوجد من إذا تاب ثبت، ولكن فريق منهم أو كثير منهم يرجعون إلى شركهم، ويعبدون مع الله غيره.

كيف أنت بالأمس تسأل الله وتدعوه وحده لا شريك له وتخلص وتنيب إليه أن يرفع عنك الضر، ثم إذا أزال عنك الضر رجعت إلى الشرك،؟ أين عقلك؟ وهل هذا الحكم ترضى به؟ هذا لا يحكم به عاقل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ [الروم: ٣٤]، يكفروا نعمة الله، يكفروا ما آتاهم الله من النعمة، ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [الروم: ٣٤]، يكفروا بهذه النعمة، وهذه الصحة، لما كشف عنهم الضر وأزال عنهم الشدة قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تهديدًا لهم: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ [الروم: ٣٤]، تمتعوا بالصحة والعافية وأزال عنكم الضر، تمتعوا بالرخاء، ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٤]، وهذا تهديد لهم، سوف تعلمون إذا أصابكم ونزل بكم العذاب سوف تعلمون وتعرفون حق الله عليكم.

قال تعالى: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ [الروم: ٣٥]، هل أعطيناهم حجة، أعطيناهم حجة حتى يشركوا بالله؟ يعني هل أنزلنا عليهم سلطانًا ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥]، يعني هل هناك دليل ساطع وحجة ساطعة، أو كتاب ينطبق عليهم بصحة شركهم وكفرهم بالله؟! علامَ اعتمدوا هذا الشرك والكفر بالله؟ لا دليل عندهم، وإنما اعتمدوا أهواءهم وشهواتهم، وليس هناك ما يدل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أنزل عليهم سلطانًا أو حجة أو كتابًا يدل على جواز أن يُشركوا بالله وحده لا شريك له.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا﴾ [الروم: ٣٦]، إذا الله عَزَّ وَجَلَّ أذاق الناس رحمة نعمة أو صحة أو عافية فرح هذا المسكين، وفرحه هذا ليس فرح شكر، لو كان فرح شكر لكان خيرًا، ولكنه فرح بطر وأشر، لا فرح شكر.

قال: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الروم: ٣٦]، لو أصابهم الله بسيئة، مرض، وفقر، وضيق، ونحو ذلك بسبب ذنوبهم، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦]، قد أيسوا من رحمة الله، قد أيسوا من زوال هذا الضيق، أو الخوف، أو الفقر، أو المرض، أو نحو ذلك، وهذه طبيعة الإنسان.

ولاحظ أنه قال: ﴿إِذَا﴾ [الروم: ٣٦]، "إذا" تفيد القوة والجزم والأمر الأكيد، قال: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ [الروم: ٣٦]، ثم قال: ﴿وَإِنْ﴾ [الروم: ٣٦]، "إن" هذه للشك ضعيفة، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [الروم: ٣٦]، يعني لو أصابتهم أي سيئة من السيئات، ولو سيئة قليلة، أو خفيفة ييأس من رحمة الله.

وهذه طبيعة الكافر يفرح فرح بطر إذا أصابه الخير، وإذا أصابه الشر ضاقت به الأرض، وأما المؤمن؛ فإنه إذا أنعم الله عليه بالخير شكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا أصيب صبر واحتسب الأجر، هذا هو المؤمن، **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن»**.

قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الروم: ٣٧]، الذي يبسط الرزق ويوسع ويأتي بالرحمة والنعمة والخير والصحة والعافية هو الله، ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الروم: ٣٧]، فكيف تشركون؟ وكيف تيأسون من رحمته؟ وكيف تنقطون؟ فهذا كله لا يتمشى مع شرع الله، ولا مع دين الله، فالله يبسط الرزق لمن يشاء ويوسع، ويقدر ويضيق على من يشاء، وهذا كله امتحان، فمن رزق ووسع عليه هذا امتحان، هل يشكر أم لا؟ ومن ضُيق عليه هذا امتحان هل يصبر أو لا؟

قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧]، فالمؤمنون هم الذين يعتبرون، هم الذين يستفيدون من هذه الدروس، ومن هذه المواعظ، هذه المواعظ والدروس التي مرت معنا في بيان التوحيد والعقيدة، وبيان فساد الشرك، وموقف الإنسان في السراء والضراء، وبيان ضعف هذا الإنسان، هذه دروس وعبر يستفيد منها من يستفيد، فأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، وإلى لقاء قادم إن شاء الله.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الروم ٤٧ - ٥٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن ينفعنا وإياكم بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

السورة التي بين أيدينا "سورة الروم" والآيات هي الآية السادسة والأربعون من السورة، قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

هذه الآية استكمالًا للآيات الماضية، نحن مر معنا تقريبًا أربع آيات، أو ست آيات تقريبًا كلها "ومن آياته" متتالية، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الروم: ٢٤]، ست آيات تقريبًا، السادسة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥].

ثم هنا عاد مرة أخرى لذكر شيء من آياته أيضًا؛ فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ [الروم: ٤٦]، ما معنى ومن آياته؟ يعني الآيات الدلائل الحجج والعلامات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وعلى أنه هو الإله الحق، وأنه المنفرد بالخلق، والتدبير، والملك، والتصرف، والقدرة، وليس هناك إله غير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالملك له، والقدرة له، والخلق له، ولذلك يبرز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى آياته الدالة على وحدانيته، قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ [الروم: ٤٦]، "من" هنا تبعيضية يعني بعض آياته، وليست الآيات كلها.

قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، مبشرات لأي شيء؟ بقدوم الغيث والمطر، والخير، فالرياح ترسل أمام المطر بين يدي رحمته.

قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦]، يعني يرسل الرياح بين يدي رحمته مبشرات، كما سيأتينا بعد قليل، يرسل الرياح مبشرات بقدوم المطر، والرياح دورها أنها تثير السحاب، وتلقح، ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، تلقح السحاب، تلقحه حتى يتم هذا السحاب فيرسل الله وينزله على من يشاء من عباده.

قال: ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الروم: ٤٦]، ويذيقكم من رحمته بإنزال المطر؛ الذي تحيا به البلاد ويحيا به العباد، فهذه نعمة عظمية أن يرسل الرياح مبشرات حتى يذيقنا من رحمته وهو الخير والغيث والمطر، هذه آية عظيمة تدل على أنه والواحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المنفرد بهذا الخلق والتدبير وليس هناك من يستطيع أن يرسل الرياح أو يستطيع أن ينزل الغيث إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٤٦].

قد يسألك سائل يقول:

لما ذكر الله الرياح وأنها سبب بعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنزول الغيث والمطر، وأنها تلقح السحاب فينزل المطر والغيث، ما علاقة الفلك التي تجري في البحر بأمر الله؟

نقول: ما الذي يجري الفلك؟ الرياح، أصبحت الرياح لها دور، الرياح لها دور في تلقيح السحاب، ونزول المطر، وهي أيضًا لها دور في جريان السفن في البحر بأمر الله، ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣].

فالذي يجعل الفلك تجري في البحر، والسفن تمشي في البحر هي الرياح بإذن الله، ولذلك قال هنا: ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٤٦]، يعني بسبب الرياح تجري الفلك بأمره.

قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٤٦]، فإن الفلك إذا سارت بهذه البحار والمحيطات بأمره، وانتقلت من مكان إلى مكان؛ فإن هنا تحصل التجارات، وابتغاء الفضل من الله، ونقل البضائع ونحو ذلك، ولذلك قال: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: ٤٦]، أي من خيره ورزقه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي

سخر الرياح في نزول المطر، وسخر الرياح في جريان السفن في البحار، كلّ ذلك بفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك ختم الآية قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦]، "لعل" هنا معناها لأجل، للتعليل، إذا بينا لكم هذه الآيات، وذكرناكم بنعمة الله، كان هذا التذكير سببًا لشكركم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن تشكروا الله وحده لا شريك له المنفرد بالخلق والتدبير، تشكروه على نعمه العظيمة، ومعنى تشكروه أي تعبدوه وحده لا شريك له، ولا تشركوا به شيئًا.

ولا تكونوا كالمشركين إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين، وإذا أنجاهم من هذه الأمواج ومن هذا الكرب جعلوا لله شركاء وأشركوا، ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فالآية عظيمة هنا الحقيقة، تحتاج منا إلى تأمل، وتدبر، وشكر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه النعمة، ونعرف قدر الله وعظمته ونعبده حق عبادته، أن هذه آية من آيات الله، هذه الريح التي قد يعذب الله بها، وقد عذب بها أقواما وأهلكهم، هذه الريح التي هي مسخرة بأمر الله فيها منافع ومصالح للعباد، منافع من إنزال الغيث والأمطار، وكلّ هذا بفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومصالح الرياح والتنقل عبر هذا البحار، وعبر هذه السفن، والبواخر في نقل البضائع والتجارات، وتواصل العالم بعضها ببعض كلّ هذا من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي ينبغي لنا أن تتذكرها دائمًا ونشكر الله عليها، ولذلك قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤٦].

لو تنظروا إلى الآية التي بعدها وأنت تتابع معنا في المصحف، والكل يتابع معنا حتى من مصحف الجوال ممكن، بعدها قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

لو سألك سائل قال:

الآن الآيات التي قبلها تتحدث عن الرياح، ومصالح الرياح، وأنها سبب بعد الله عَزَّ وَجَلَّ في إنزال الغيث والمطر والخير، وسببًا في تنقل الناس وتجاراتهم على البحار، فما علاقة أرسل الله عَزَّ وَجَلَّ رسلاً إلى أقوامهم؟

نقول: هناك علاقة وثيقة جدًا؛ لكن تحتاج منا إلى تأمل، وإلى تدبر، لو فكرت في الآية وجلست تعيد النظر فيها، وتفكر فيها كما قال بعض السلف يقول: الآية مثل التمرة لا تأكلها بسرعة، أمضغ، وأعيد المضغ، وأعيد المضغ، يزداد الحلا في الفم، أما إذا أكلتها ما تشعر بهذه اللذة والطعم.

أما أخذتها بهدوء وأجلستها عندك فترة، وبدأت تقلبها وجدت أثرها، وكذلك الآيات القرآنية، إذا أخذت الآية وبدأت تقلبها، وتتفكر فيها وتعيد النظر، وتقرأ أكثر من مرة، مرتين وثلاث وأربع، ظهر لك هذا الأمر.

ومما يعينك على تدبر القرآن وفهمه كتب التفسير التي ترجع إليها فتكشف لك، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا﴾ [الروم: ٤٧]، في الآية أرسل الرياح ثم أرسل الرسل نقول: نعم في ترابط، ما وجه الترابط؟ نقول: الذي أرسل الرياح لمصالح العبادة في دنياهم من المطر والغيث والطعام والشراب والمصالح التجارية؛ الذي أرسل الرياح في مصالحهم الدنيوية هو الذي أرسل الرسل في مصالحهم الأخروية، وفي مصالحهم الدينية.

فالذي أرسل الرياح وهو يعلم أن هذا الرياح فيها مصالح للعباد، هو الذي لم يترك العباد هملاً؛ بل أرسل إليهم الرسل.

فهنا رسالة وهنا رسالة، هنا رسالة لأمور الدنيا، وهنا رسالة لأمور الآخرة، وكأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول لنا: تفطنوا أن الله لم يترككم هملاً، خلقكم ورزقكم وأرسل إليكم رسلاً، فمن أطاعهم دخل الجنة، ومن عصاهم دخل النار.

ولذلك أكد بأسلوب التأكيد قال: ﴿وَلَقَدْ﴾ [الروم: ٤٧]، واللام هنا مثلما ذكر أهل التفسير لام موطئة للقسم، يعني في قسم محذوف والتقدير: والله لقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً إلى قومهم.

وفي آيات أخرى يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الرعد: ٣٨]، هنا قال: ﴿مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا﴾ [الروم: ٤٧]، لأن هذه الآية فيها معجزات للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن أعظم المعجزات إخبار الله عَزَّ وَجَلَّ بانتصار الروم، فكأنها تثبت رسالة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيها أيضًا هذه السورة وعود كثيرة، لو تقرأ في أول السورة يقول: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦]، وتقرأ في آخر السورة يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا

يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وهنا يقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، إذًا كلها وعود من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هنا قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾، يا محمد، ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾، يعني أرسلنا رسلاً مبشرين، كما أن الرياح أرسلها الله مبشرة، كذلك الرسل أرسلهم الله مبشرين ونذرين، يدعون إلى التوحيد الذي فيه نجاتهم، وسلامتهم، يدعونهم إلى التوحيد ويحذرونهم من الكفر والشرك، ﴿فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾، جاؤوا بالبينات المعجزات، ورسولنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطي المعجزات، فجاؤوا بالبينات فمن آمن سلم ونجا، ومن كفر أهلكه الله، ولذلك قال: ﴿انْتَقَمْنَا﴾، بعد إقامة الحجة قال: ﴿انْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [الروم: ٤٧].

✍ كلمة أجرموا تدل على أي شيء؟

تدل على: أنهم وصلوا إلى أفظع وأشد المعاصي والسيئات، لما تقول: هذا مجرم، هذا صاحب جرائم، يعني وصل إلى ما وصل إليه من الإفساد في الأرض، والتكبر، والإعراض، ولذلك سماهم مجرمين، قال: ﴿الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [الروم: ٤٧].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، الله عَزَّ وَجَلَّ قد وعد وعدًا أكيدًا هنا ومؤكدًا بنصر أوليائه المؤمنين أتباع الرسل، وإهلاك المكذبين.

قال: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [الروم: ٤٧]، الذين كذبوا وحاربوا أوليائه فإن الله ينتقم منهم وينصر عباده المؤمنين، ﴿وَكَانَ حَقًّا﴾ [الروم: ٤٧]، حقٌّ حقه الله عليه، وأوجبه عليه كرمًا وتفضلاً، أن ينصر أولياءه المؤمنين ولو بعد حين، لابد أن ينصرهم الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٣].

فنصر الله لأوليائه لابد، ولكن ينبغي الصبر، والتحلي بالإيمان، والدعاء، الإنسان يدعو، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاء في بدر دعوات، واستغاث؛ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

فالدعاء هو أقوى سلاح، سهام الليل هي أقوى سلاح في نصرة الإسلام والمسلمين، ونصرة المستضعفين في كلّ مكان، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، النصر قادم، والخير قادم، والصبر لابد منه، وحسن الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه كما أخبر أنه ينصر أولياءه.

تعود الآية مرة أخرى إلى الرياح مثلما ذكرنا، لكنها بكلام أبسط وأوسع، حتى يبين لك فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وخيره على عباده.

قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ [الروم: ٤٨]، الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ليس معه غيره، هو المنفرد بإرسال الرياح، لا يستطيع أي مخلوق أن يرسل الرياح أو أن يأتي بهذه الرياح، أو يصرفها كيف يشاء، الذي يصرفها كيف يشاء هو الله.

قال: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]، السحاب غير موجود من الذي خلقه؟ هو الله، بمجرد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرسل هذه الرياح فتثير السحاب، فتجد هذه قطعة سحابة صغيرة، وهنا صغيرة، وهنا صغيرة، ثم تجتمع بعضها مع بعض، فيبسطه الله في السماء كيف يشاء ويجعله ركامًا بعضه فوق بعض، ويبسطه كيف يشاء في سعته وطوله.

قال: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨]، على ما يريده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا﴾ [الروم: ٤٨]، أي قطعًا بعضها فوق بعض.

فإذا تراكم هذا السحاب واجتمع وبدأ البرق يخرج من خلاله، والرعد، قال: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ [الروم: ٤٨]، الودق هو المطر، ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [الروم: ٤٨]، من وسط السحاب، ومن بين السحاب.

قال: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الروم: ٤٨]، إذا أراد الله أن يصيب به من يشاء من عباده، وينزله على أرض يشاء من عباده، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨]، إذا هم فرحون مستبشرون، مسرورون بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صرف ذلك إليهم، وبدأت الأمطار تنزل عليهم، ورويت الأرض، وأحيا الله الأرض بعد موتها، وانتشر الخير، وأنبتت الأرض، هذا كله استبشار وفرح.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩]، يقول: وإن كانوا هؤلاء الذين نزل عليهم الخير قبل نزول المطر كانا في يأس، وفي قنوط، وكانوا في أرض قاحلة، وقد غارت الآبار، وماتت الزروع، وكانوا في حال شديدة.

ولذلك قال: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾، أي من قبل هذا المطر ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩]، يعني قنطوا ويئسوا وسكتوا، ليس لهم حيلة في ذلك؛ لأن المطر انحبس عنهم، ولكنه رحمة الله فوق ذلك فساق لهم السحاب.

قال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٥٠]، انظر وتأمل إلى آثار رحمت الله يعني المطر، أثره ماذا؟ آثار رحمت الله في إنبات الزرع، والشجر، وإحياء الأرض، وتتحرك الأرض، وتربوا وتنبت، وتعود المياه إلى الآبار، ويشرب الناس، وتشرب البهائم، ويزرع الناس، هذه نعم عظيمة.

قال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ﴾ [الروم: ٥٠]، اليابسة، القاحلة، ﴿يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠]، بعدما ماتت يحييها بالزرع، والماء، والغدران والخضرة.

ولما يذكر الله المطر وإحياء الأرض، يذكرك بما هو أعظم وهو إحياء الناس بعد موتهم، يقول: مثلما أن الله أحيا هذه الأرض بعد موتها؛ فإنه قادر على إحياء الموتى، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٠]، أي يحيي الموتى بعدما يصبحون في قبورهم موتى يحييهم الله ويخرجهم من قبورهم.

قال: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يقول للشيء كن فيكون، فيحيي الأرض بعد موتها، ومثل هذه الآية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ [الروم: ٥١]، الأول قال: "رياح" لأن الرياح غالبًا في الرحمة، والريح في الغالب في العذاب، واللام هنا مثلما مر معنا لام قسم، أي والله لئن أرسلنا ريحًا شديدة عاصف على زروعهم وعلى حدائقهم ونباتهم، أرسلنا ريحًا مصفرة صفراء، مصفرة يعني شديدة، فرأوا نباتهم قد فسد ومات.

قال: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ﴾ [الروم: ٥١]، رأوا ماذا؟ رأوا النبات، والشجر، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ [الروم: ٥١]، أي قد مات بسبب هذه الريح، قطعته، وأماتته، ومزقته، مزقت الشجر والحشيش وغير ذلك.

قال: ﴿لَظَلُّوا﴾ [الروم: ٥١]، أي لبقوا ومكثوا، ﴿مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١]، يكفرون نعمة الله، ويجحدون نعمة الله، وينسون فضل الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذا تذكير لهم بأن الذي ينعم هو الله، وأن الذي ينزل بالبأس هو الله، فالإنسان المؤمن إذا أنعم الله عليه، فالله عَزَّ وَجَلَّ يربي عباده هنا في هذه الآيات.

إذا أنعم الله عليك فاحمد الله واشكره، واعرف عظمة الله، ونعمته، وفضله عليك، واعبده حق عبادته، وإذا أصابك ضر أو أصاب زرعك، أو أصاب هذه البساتين شيء من الضرر بإرسال الريح فأصبحت ميتة متكسرة فعليك أن تصبر، عليك أن تصبر وتشكر نعمة الله عليك، وتتذكر ما أنعم الله به عليك قبل ذلك، هذا الذي يجب على المسلم العاقل، لا أن يكفر نعمة الله ويجحدها، ويقنط من رحمة الله وييأس لا.

العاقل كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان ذلك خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان ذلك خيرًا له، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن**»، أما غير المؤمن فلا يملك ذلك.

لما يبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مواقف المؤمنين بين التسخط والجزع، أو عدم الشكر، يذكر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه عناد قوله، وكفرهم، الذين أرسل الله إليهم محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ماذا كان موقفهم؟ موقفهم العناد والكفر وعدم القبول.

فالواجب على نبينا وعلى كلّ واحد الصبر في الدعوة، والتحمل، ولذلك قال: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٢]، لا تسمع الموتى في دعوتك، الموتى من مات قلبه، ميت القلب هذا ما يستفيد، ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٢].

قال: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ [الروم: ٥٢]، يعني الصم الذي لا يسمع لو دعوته ما يسمع، ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [الروم: ٥٢]، يعني أعرضوا ولم يقبلوا منك الإيمان، فلا تجزع ولا تحزن عليهم، واصبر كما صبر أولي العزم من الرسل.

فهؤلاء بمنزلة الموتى، وبمنزلة الأصم الذي لا يسمع، كأن الآيات تشير إلى الصبر والتحمل في الدعوة، وعدم التعجل؛ لأنهم لا يدرون، ليس لهم عقول، فيفتح الله آذانًا صمًا فتصغي لذلك، ويفتح قلوبًا غلفًا فتتقبل ذلك.

قال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ﴾ [الروم: ٥٣]، حتى الأعمى ما أنت تهديه الأعمى ما يبصر، ﴿عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [الروم: ٥٣]، والعمى المراد به هنا عمى القلب، عمى البصيرة عن الهدى.

قال: ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [الروم: ٥٣]، أي هذا السمع وهذه الدعوة لا يتقبلها إلا من يؤمن بآيات الله ويسلم ويقبل عليه، ويمتثل أمر الله، أما هؤلاء لا يسمعون أبدًا، ولذلك لابد من الصبر والتحمل في الدعوة حتى يظهر الله الحق ويبطل الباطل.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى حال الإنسان في الدنيا، وحاله في الآخرة، وعند البعث، كلّ هذا تختم به السورة، لعلنا إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الروم ٥٤ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ م يَوْمِ الدِّينِ؛ أما بعد ...

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثلاثين من شهر ربيع الآخر، من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

أسال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يبارك لنا لكم.

السورة التي بين أيدينا هي "سورة الروم" تحدثنا عنها في لقاءات ماضية، واليوم خاتمة السورة، خاتمة السورة خاتمة جميلة الحقيقة، وختمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعرض أو بيان هذا الإنسان الضعيف وخلق الإنسان من ضعف، وأصله ومن أين أتى؟ ثم عرض لليوم الآخر، بيان موقف هؤلاء الكفار المنكرين للبعث.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

عندما نقرأ هذه الآية أيها الأخوة نقرأها بتدبر، وتأمل، وتفكر، الله يخبر عن هذا الإنسان، أنا وأنت والثاني والثالث، يخبر الله عن حالنا، وأن الله هو الذي خلقنا وأوجدنا بقدرته وقوته، وملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحكمته، فهو خلقنا، وخلقنا ضعيف جدًا، ولاحظ الآية لم يقل: الله الذي خلقكم ضعفاء، ما قال: خلقك الإنسان ضعيف، ولكن خلقك من ضعف، يعني أصلك ضعف، يعني لما يقول: خلقك من ضعف، غير أن يقول: خلقك وأنت ضعيف.

أنت ضعيف ممكن تكون قوي بعد ذلك، لكن لما يقول: أنت مخلوق من ضعف، أصلك من ضعف، فهذا ينبغي أن يعرف الإنسان قيمته، وأنه مخلوق من ضعف.

✍ ما هو الضعف الأول في هذا الإنسان؟

هو: "الماء المهين" هي "النطفة" النطفة والماء المهين هذا الماء الذي يكون الله منه هذا الإنسان، هذا المخلوق، هذا الإنسان الضعيف الله خلقه من ماء مهين وهي النطفة، ثم إن هذا الضعف لا ينتهي، هو يتحول من النطفة إلى العلقة إلى المضغة، إلى أن تكون هذه المضغة عظامًا، ثم يكسو الله هذه العظام لحمًا، ثم يخرج هذا الإنسان طفلاً صغيرًا يخرج من بطن أمه إلى هذه الدنيا وهو لا يزال في ضعف، وفي أحضان أمه في ضعف، ويبقى هذا الضعف معه إلى أن يصل وقت أن يكون قد استوى وبلغ أشده، ووصل إلى فترة الرجولة وأصبح قويًا بقوة الرجولة، هذا الضعف يمشي معه.

قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]، فقوته في رجولته، وفي شبابه، وعندما يشتد ساعده، هذه هي القوة، فترة القوة، فترة الشباب.

ثم إنها لا تستمر معه، يعود مرة أخرى إلى الضعف الذي خُلق منه، وهو ضعف هذا الإنسان، قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا﴾ [الروم: ٥٤].

وهو ضعف الكبر، والهزال والهرم والشيبة، ولذلك قال: ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤]، يعني ضعف تدرجي، إلى أن يصل إلى درجة الشيخوخة، والشيب، فيصبح فعلاً ضعيف، وهذه الآية يقرأها قراءتنا نحن برواية حفص عن عاصم، وأيضًا معه الإمام حمزة يقرؤونها "من ضعف" بفتح الضاد، وبقية القراء يقرؤونها "من ضُعف" حتى إن رواية حفص عن عاصم فيها وجهان يجوز أن تقرأها من "ضُعف"، ومن "ضَعف".

✍ وتكلم أهل العلم في الفرق بين الضُعف، والضَعف؟

فقالوا: "الضُعف" بالضم في البدن، "الضَعف" في العقل، فالله خلق هذا الإنسان ضعيف البدن، وضعيف العقل، ثم يعطيه الله من قوة البدن وقوة العقل، ثم يضعف مرة أخرى في بدنه وعقله، حتى لا يعلم من علم شيئًا.

حتى نفهم هذه القراءات أيها الأخوة القراءتان كلاهما تعطي معنيين منطبقين على هذا الإنسان، فإن قرأتها، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤]، فهذا في العقل، وإن قرأتها ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضُعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤]، فهذا في البدن، وكلاهما منطبق على هذا الإنسان الضعيف.

✍ عندما أنت تقرأ هذه الآية وتتأملها، لماذا الله يخبر عن إنسان أنه مخلوق من ضعف، ولا يزال معه الضعف، ثم القوة، ثم الضعف مرة أخرى؟

ليخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا الإنسان الضعيف ،وأي إنسان مخلوق ألا يتكبر، وألا يتجبر، وأن يعرف قدره، وأنه قد خلق من نطفة، ويعرف قوة الله عَزَّ وَجَلَّ الذي خلقه، وأنه في ملك الله، وأنه ينبغي أن يعبد ربه حق العبادة، وأن يعرف عظمة الله، ونعمة الله عليه، فإذا تذكر خلقته هذه الضعيفة عرف نعمة الله عليه، أن الله خلقه بهذه الصورة، أعطاه العقل، وأعطاه القوة، وأن الذي يملك هو الله، وألا يفتخر، ألا يكون فخورًا، ألا يكون متكبرًا، ألا يمشي في الأرض مرحًا، كلّ هذه تجعله يترك هذه الأشياء كلها.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في آخر الآية: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الروم: ٥٤]، يعني الذي يملك هذه الأشياء هو الله، الله هو القادر، وهو الذي يملك هذه القدرة العظيمة، يخلق ما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من القوة، وما يشاء من الضعف.

تجد بعض الناس يعني الله عَزَّ وَجَلَّ خلقه من ضعف وأعطاه القوة بعد ذلك، ويمكن أن تستمر القوة معه، ويمكن أن يبقى الضعف معه حتى وهو صغير، ويستمر الضعف معه، ضعف العقل، وضعف البدن، فالذي يخلق ما يشاء هو الله.

ولذلك ختمها الله بأي شيء؟ قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، عليم في خلقكم، وما ينفع لكم، وما يصلحكم، وقدير لا يمنعه شيء، فهو عليم بالخلق، وقادر على هذا الخلق وعلى غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك ختم الآية بـ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤]، مناسب للخلق.

لما يبين الله لنا أصل الإنسان هذا، وأنه مخلوق من ضعف، وأنه ضعيف، يبين موق فهؤلاء الكفار الجاحدين لليوم الآخر، فالكافر ينكر اليوم الآخر، لماذا؟ يستبعد يقول: كيف إذا إنسان مات في الأرض وأصبح ترابًا يعيده الله؟

يعني أنت تستبعد قوة الله، وتتعجب من قوة الله أن يعيدك؟!! فمن الذي خلقك أول مرة؟!! ولذلك الكافر الذي جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أبي بن خلف أو أمية، وقال: يا محمد أتزعم أن الله يعيد هذا العظم مرة أخرى، لما أتى بعظم؟ قال: «**نعم يميتك الله، ثم يبعثك، ثم يدخلك النار**».

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

فلما ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ الخلق جميعًا بني آدم بأنهم خُلقوا من ضعف، أثبت لهم أنه قادر على أن يعيدهم مرة أخرى، وبيان موقف الكفار، ولذلك يقول: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم: ٥٥]، المراد بالساعة هنا هي يوم القيامة، طيب لماذا سميت ساعة؟ لأنها آخر ساعة من الدنيا، خلاص انتهت الدنيا، فجاءت الساعة أي جاء الوقت، المراد بالساعة هي الحين والوقت الزمان، فلما جاء وقت يوم القيامة، هذا اليوم هو وقت خروج الناس من قبورهم، هي ساعة البعث.

قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم: ٥٥]، أي ساعة البعث، يقوم تقوم الساعة، ويخرج الناس من قبورهم، ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، شوف كيف يصفهم الله؟ يصفهم الله بأي شيء؟ بأنهم مجرمون يعني طغاة، وأصحاب جرائم، وأصحاب معاصي، وكفر، وشرك، إنكار لقدرة الله، يقسم هؤلاء المشركون أنهم ما لبثوا غير ساعة في الدنيا، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

وهنا قال: ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، يعني لحظة دقيقة، وقال بعض المفسرين: المراد بقوله: ﴿مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، أي ما لبثوا في قبورهم، وهذا ممكن، ممكن أنهم يقصدون القبور، أو يقصدون الدنيا، وكلّ هذا كذب منهم، وقسمهم هنا كذب في كذب؛ لأنهم في الدنيا عاشوا سنين طويلة، وأعطاهم الله الأعمار.

وإن قلت: القبر، فهم لا يعلمون، كيف يدرون عن القبر وهم أموات فيه؟!! فكل كلامهم غير صحيح، فيقسموا ما لبثوا غير ساعة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، يقول: مثل هذا الإفك والكذب الذي كذبوا علينا كانوا يؤفكون، ويكذبوا أكاذيب أخرى، ويصرفون عن الحق، كما أنهم صرفوا عن الحق في الدنيا بسبب ذنوبهم، يصرفون في الآخرة عن الحق، ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

ثم إن أهل العلم والإيمان يردون عليهم بالقسم، مثلما أقسموا هم يقسمون هؤلاء، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ [الروم: ٥٦]، من هم الذين أتوا العلم والإيمان؟ قال بعض أهل

التفسير: هم الملائكة، وقيل: هم الأنبياء، وقيل: هم المؤمنون من أولي العلم، كلّ هؤلاء يردون على الكفار، ويقولون لهم: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٥٦]، أي في علم الله، وفي قدر الله، وفي اللوح المحفوظ، لبثتم أعماركم التي تعرفونها أنتم.

قال: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، أنكم لبثتم في الدنيا مدة أو في القبور مدة طويلة.

قال: ﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]، لا تعلمون كم لبثتم لأنكم لا تعرفون قيمة الوقت، فأنكرتموه في الدنيا، وكذبتم، وأنكرتم القبر؛ فإنكم لا تعلمون، أموات في القبر، وفي الدنيا لاهية قلوبكم، في لعب وسهو وضياع عُمر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ [الروم: ٥٧]، أي يوم القيامة، ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الروم: ٥٧]، ظلموا أنفسهم، وضيعوا أعمارهم، لا ينفعهم.

قال: ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [الروم: ٥٧]، اعتذارهم أمام الله بأن يُقدموا أعذارهم لا تنفعهم، فات الأوان، يوم القيامة يوم جزاء وحساب، ليس يوم تقديم أعذار، ما تنفع الأعذار، فلا ينفع الظالمين معذرتهم يوم القيامة.

قال: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧]، يعني إذا طلبوا العتاب أن يعاتبوا لا يعاتبون، ولا يلتفت إليهم، ولا يرفع عنهم العتب، ولا يُقبل منهم، ولا يرضى الله عنهم بالتوبة والطاعة؛ لأن الوقت ليس وقت اعتذار، ولا عتب، لا يُطلب منهم العتب والاعتذارات، ولا يُقبل منهم، وإنما يجاوزون بأعمالهم، فالوقت وقت الجزاء، وليس وقت أن يُرضوا الله بأعمالهم، أو يُرضوا الله بالتوبة، فيستعتبون، ويطلبوا من الله أن يزيل العتب عنهم، ويزيل اللوم عنهم لا يلومهم، ليس وقت لوم ولا وقت عتب انتهى الأمر خلاص، وهم يطلبون أن يرفع الله عنهم اللوم والعتب، ما ينفعهم، فسيحاسبون ويجازون على أعمالهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تقرير كتابه العظيم، هذا القرآن الذي بين أيدينا، يقول الله في تعظيمه وإجلاله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]، ضربنا للناس الأمثال الكثيرة في إقامة الحج، وبيان إثبات الوحدانية لله، وعبادة الله وحده لا شريك له، والفكر بالطواغيت، والإقبال على طاعة الله.

وبيّن الله أدلة ربوبيته، وإلهيته، وأسمائه وصفاته في هذا القرآن؛ حتى قامت الحجة على الخلق، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾، لجميع الناس، ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]، نوعنا وصرفنا الآيات، وبيناها من كلّ مثل حتى لا يبقى لهؤلاء المبطلين ولهؤلاء الظالمين حجة.

ولذلك قال: ﴿وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ﴾ [الروم: ٥٨]، أي هؤلاء الكفار والله لئن جئتهم ﴿بِآيَةٍ﴾ [الروم: ٥٨]، حسية، مثلما جاء موسى بالعصا، واليد، ومثلما جاء صالح بالناقة، لو جئتهم بآية كما يزعمون، يقولون: أعطنا آية ولم يكفهم القرآن العظيم، ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الروم: ٥٨]، أي لو جئتم بآية؛ ماذا سيكون موقفهم؟

قال: والله، ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨]، يعني سيقولون لكم وأنتم تأتون بالآيات أنتم تريدون البطلان، ولا تريدون الحق، أنتم مبطلون فيما جئتمونا به من الأمور.

فهم لن يقبلوا منك، لو جئتهم بآية حسية، أو جئتهم بالقرآن هم قومٌ مستكبرون، معاندون، لا يقبلون الحق، فسيحكمون عليكم بأنكم أهل باطل، وهم أهل الباطل.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩]، يقول: مثلما طبع على هؤلاء الكفار بحيث أنهم لا يعرفون الحق، ولا يقبلونه، يطبع الله على كلّ كافر لا يعلم، لا يعلم الحق، ليس الطبع فقط على المعاندين لمحمد في وقته؛ بل الطبع في كلّ وقت وفي كلّ زمان، كلّ من يعاند الحق ويُعرض عنه يطبع الله على قلبه، ومعنى طبع الله على قلبه أن يختم عليه؛ بحيث أنه لا يقبل الحق، ولا يميزه، وهذا أخطر شيء.

أشد العقوبات أن يطبع الله على قلب هذا الشخص، فلا يعرف الحق حقًا، ولا يميز بين الحق والباطل، وتنقلب عنده الموازين، فيرى المنكر معروفًا، والمعروف يراه منكرًا فهذا قد طبع الله على قلبه، لا يدخل قلبه إيمان، قد خُتم على قلبه، وأُغلق على قلبه، فهذه أشد العقوبات لهؤلاء المجرمين، مثلما طبع الله على هؤلاء فلم يقبلوا الحق، وجاءتهم الآيات ولم يؤمنوا بها، فكذلك يطبع الله على كلّ قلب متكبر جبار.

ولذلك أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر كلّ من محمد قدوته، كل من اقتدى بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يصبر، فلذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ﴾، يا محمد، ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠]، بمعنى أن الله سينصرك، وينصر دينك، ويظهر كلمة الحق، ويعلي دينه،

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠]، فما ينالك من هؤلاء من أذى وسخرية وتكذيب وإعراض اصبر عليه؛ فإن الله وعدك بالنصر، ولابد أن يظهر، لابد أن يظهر الله نصره ويمكن لك، ويظهر دينه لابد.

قال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠]، وليصبر كلّ مؤمن، كلّ مؤمن مضطهد في دينه، مضيق عليه، مستضعف في الأرض فيصبر؛ فإن وعد الله حق.

ولاحظ سبحان الله العظيم خاتمة الآية هنا، خاتمة السورة كلها يقول: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠]، وأنت تقرأ في أول السورة، ويقول: ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦]، وتجد فيها من الوعود الكثيرة في هذا السورة، ومن أعظم وأظهر الوعود التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، لابد أن يظهر الله نصره، ولذلك أول السورة وأنت تقرأها وفي فاتحتها، ﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦]، وهنا في خاتمتها يقول: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الروم: ٦٠].

فالسور تدور على الوعود الصادقة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قال في آخرها: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، الذين لا يصدقون، ولا يؤمنون بالبعث، ولا بالجزاء، ولا بالجنة، ولا بالنار، ولا يؤمنون بالله وحده لا يستخفونك، يعني يستخفون عقلك؛ بحيث أنك تتبعهم على ما يريدون، وتكون معهم، فيستخفه أي يستخف عقله يجعل عقله خفيفًا.

فالواجب عليك أن تثبت ولا يستخفك هذا ولا هذا، وإنما تثبت على الحق، وتسأل الله الثبات والاستقامة على دينه، ولا تغتر بهؤلاء وبوعودهم وبكلامهم؛ فإنهم لا يوقنون، ولا يصدقون بالقرآن، ولا يصدقون بالدين، ولا بالشرع، ولا بالجزاء والحساب، ولا بالجنة والنار، فلا تغتر بهم.

هذه الآية الأخيرة من هذه السورة، والسورة ستون آية، عشنا معها أيام سعيدة، تقلبنا في آياتها وتفيئنا ظلالها، وعشنا مع هذه الآيات العظيمة، السورة بشرت بنصر الله للمؤمنين في أولها، وإعلاء كلمة الحق، ثم إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر فيها آيات عظيمة، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ [الروم: ٢٠]، ذكر آيات عظيمة تدل على

وحدانيته، وعلى قدرته، وعلى انفراده بالخلق والتدبير، والحكمة، والرحمة، إلى آخر هذه السورة وما جاء فيها.

فأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلها في موازين حسناتها، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال.

إن شاء الله لقاؤنا في الأسبوع القادم نبدأ بـ "سورة لقمان" إن شاء الله، نستفيد منها، ونتدبرها، ونتأملها، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ لُقْمَان)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(لقمان ١ - ٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجعله لقاءً مباركاً نافعاً. وهذا اليوم هو يوم الثلاثاء، الموافق للسابع من الشهر الخامس من عام (١٤٤٥هـ).

وفي هذا اليوم نستهل سورة جديدة من سور القرآن الكريم، والحقيقة أن هذه السورة لا نستطيع أن نقول إنها أجلُّ سورة، بل هي أعظم سورة في كتاب الله إذا قيل لك: ما هي أعظم سورة؟

هي ﴿الْفَاتِحَةِ﴾ [الفاتحة: ١]، وإذا قيل لك: ما هي أعظم آية؟ هي ﴿آيَةُ الْكُرْسِيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ولكن هذه السورة لها منزلة عظيمة ولها مكانة عظيمة؛ والقران كله له مكانة عظيمة وله منزلة عظيمة في قلوبنا، ولكن هذه السورة تنحى منحى آخر مما مر معنا في السور الماضية.

السورة الماضية كانت (سورة الروم)، وفيها وعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعد كريم في أولها وفي آخرها: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، و﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]؛ فاصبر إن وعد الله حق. ل

ما قال إن وعد الله ؛ في آخر آية قال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال في أولها: ﴿وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦].

فالسورة كلها تدور في الحقيقة على الوعود الكريمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تحقيق النصر وفي تحقيق إظهار هذا الدين وفي تحقيق أمنية كل مسلم في تحقيق كذا؛ حتى إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا ما كان المسلمون يتمنونه وهم في مكة وقت الاضطهاد ووقت التضييق.

وهم يتمنون أن ينصر الله الروم وهم أهل كتاب على الفرس الذين هم عبدة النار، ومع ذلك حقق الله لهم الأمنية لما قال: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]. فـ (سورة الروم) هي سورة الوعود الكريمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولكن هذه السورة التي بين أيدينا تنقلنا إلى مجال آخر عظيم، وهي (الحكمة)؛ الحكمة القرآنية، السورة سورة الحكمة، وهذه السورة كما هو ظاهر تسمى بـ (سورة لقمان)، ولقمان هو لقمان الحكيم.

ولما تتأمل هذه السورة وتعيد النظر فيها وتقلب آياتها وصفحاتها، تجد أن هذه السورة فعلاً تركز على قضية (الحكمة)؛ حكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحكمة كتابه، وحكمة هذا الرجل الحكيم الصالح الذي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاه الحكمة وظهرت الحكمة على لسانه.

فلما تقرأ هذه السورة، يتبين لك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطى هذا الرجل الحكمة لما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

- **وأنت تقرأ هذه الآية: ما الحكمة؟ ما المراد بها؟**

وأيضاً تتأمل هذه الوصايا التي أوصى بها لقمان ابنه، وتجد أن فيها من الحكم العظيمة. وأنت تقرأ هذه السورة، وتجد في أول آياتها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢]؛ فيصف كتابه بأنه حكيم في هذه السورة.

وفي سورة أيضاً في (سورة يونس) استهل الله بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وتجد آيات أخر يقول الله فيها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، ويصف الله كتابه بأنه مبين وبأنه عظيم وبأوصاف أخرى، لكن هذه السورة تستهل بكلمة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من أسمائه (الحكيم)، والحكمة قال الله فيها: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فالحكمة حقيقتها ومعناها هي وضع الأمور في مواضعها، ومتى تجد الشخص الذي يضع الأمور في مواضعها في حياته؛ يضع الأمور في مواضعها مع علاقته بربه، ومع علاقته ببيته وزوجته وأولاده، علاقته مع الجيران، تعامله مع إخوانه المؤمنين، حكمته في التصرف في ماله، تصرفه في أمور أخرى وأشياء أخرى، تجد هذا الذي يقال له: رجل حكيم. رجل حكيم في كلامه، في أفعاله كلها، في أخلاقه، تقول: حكيم.

ف (الحكمة) وضع الأمور في مواضعها، الحكمة حسن التصرف، الحكمة كمال العقل، وتدبير العقل وحسن التصرف مع ربك ومع خالقك ومع بيتك ومع أسرتك ومع جيرانك ومع إخوانك المسلمين، هذه هي الحكمة، ولذلك برزت الحكمة في وصايا لقمان مع ابنه كيف أوصى بهذه الوصايا التي كلها حكم.

وما ذكره القرآن من حكم لقمان شيء قليل جداً مما آتاه الله من الحكم التي لم تذكر في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن نقل بعض من نقل عن حكم كثيرة عن لقمان عجائب. ولقمان هذا الذي سميت به السورة، العجيب أنه لم يذكر إلا مرة واحدة في كتاب الله؛ حتى في السورة هذه (سورة لقمان) ذكر مرة واحدة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]، ولم يذكر في سورة أخرى أبداً؛ لم يذكر في سورة أخرى، وسُميت السورة باسمه لما في هذه السورة من الحكم والوصايا.

وأنت تتأمل الحقيقة في هذه الحكم التي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منحها هذا الرجل، تجد أن القرآن قبل ذلك هو (الكتاب الحكيم) كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ، استهل هذه السورة بكلمة: ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢]؛ فالقرآن حكيم وحَكَم، وحِكَم لقمان الذي آتاه الله الحكمة هي كلها داخلة في حكم القرآن الكريم.

فالقرآن فوق وصاياه وفوق حكم لقمان، وفوق هذا القرآن وفوق هذه الوصايا الله جل جلاله الموصوف بأنه ذو حكمة، والذي من أسمائه (الحكيم)؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيم بلا شك.

وكلمة (الحكيم) هذه لما وقف عندها المفسرون، قالوا إن (الحكيم) يمكن أن يرجع إلى معنيين:

⬅المعنى الأول: **الحكيم من (الحكمة)**: وهي في الأصل المنع. الحكمة منع مثل العقل؛ فالحكمة كالعقل، العقل يمنعك ويعقلك ويمنعك من التصرفات السيئة. والحكمة أصلها مأخوذ من المنع؛ ولذلك يسمى اللجام الذي يوضع في فم الفرس أو فم الإبل (حكمة)، هذه الحكمة تمنع من أن ينطلق وتوقفه. فالحكمة هي الأصل؛ ولذلك سُمي الحاكم حاكماً، والقاضي يسمى حاكماً لأنه يمنع الظالم من ظلمه.

⬅المعنى الثاني: **الحكيم من (الحكم)**: فهو حاكم بين عباده، يحكم بالحق وذو حكمة.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيم بلا شك، يرجع اسمه إلى الحكمة وإلى الحاكم. والقرآن أيضاً من أسمائه أو أوصافه (الحكيم)؛ والحكيم لأنه حاكم على الكتب السابقة وحاكم على كل حكم، وحكيم لأن الله قال: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]. الحقيقة أيها الإخوة لو نجلس نتأمل فقط كلمة ﴿تِلْكَ آيَاتُ

الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢]، أو نتأمل هذه الحكمة التي آتاها الله لقمان، لطال بنا المقام، ولكن ما ذكرناه فيه الوضوح والبيان.

ندخل على السورة؛ والسورة لو تأملناها حقيقة من أول آياتها إلى آخر آياتها، كلها تتحدث عن الحكمة، والحكمة منبعها وأصلها راجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله هو العالم بكل شيء؛ الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

ولذلك لو تقرأ السورة قراءة التدبر، تجد في ثنايا هذه السورة آية تشير إلى سعة علم الله الحكيم: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]؛ يعني لو أن ما في الأرض من شجر أقلام يكتب بها كلام الله، ويؤخذ المداد لهذه الأقلام من البحار والبحار وراءها سبعة بحار، ما نفدت كلمات الله ولا انتهت، فدل على سعة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وانظر في الآية الأخيرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]؛ دل ذلك كله على سعة علمه وعلى حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك ينعى الله عَزَّ وَجَلَّ على هؤلاء الكفار لما يرشدهم إلى القرآن والتأمل فيه، ويحثهم على اتباع ما أنزل إليهم، قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

ندخل على هذه السورة بعد أن أصبح لدينا تصور واضح عن تسميتها ومقاصدها وأهدافها وما احتوت عليه من آيات. السورة مفتتحة بالحروف المقطعة: ﴿الم﴾ [لقمان: ١] والسور المفتتحة بـ (الم) فقط ست سور: (البقرة) و(آل عمران)، ثم أربع متتالية: (العنكبوت)، و(الروم)، و(لقمان)، و(السجدة).

اثنتان في الأول وأربع متتاليات؛ ست سور مفتتحة بـ (الم). و(الم) هذه حروف مقطعة مرت معنا كثيراً، ولا حاجة أن نعيد الكلام فيها؛ فهي حروف من حروف الهجاء المقطعة تشير إلى إعجاز وتحدي العرب أن يأتوا بمثله، تشير إلى أن هذا القرآن نزل بلسان عربي مبين مكون من هذه الحروف.

فكأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأمر العرب الذين نزل القرآن عليهم ويأمر الناس جميعاً أن يؤمنوا بهذا القرآن وبما فيه من أحكام ودلالات، وإن رفضوا ولم يقبلوا وعاندوا، فنتحداهم أن يأتوا بمثله، وإلا فليسلموا الأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذه الحروف المقطعة واضحة.

قال بعدها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢] يعني هذه السورة التي تتلى عليك، ﴿تِلْكَ﴾ إشارة، يعني هذه آيات الكتاب الحكيم؛ كأن السورة هذه أو الله سبحانه يقول لك: هذه السورة (سورة لقمان) هي جزء من القرآن الكريم وهي من آيات الله، هذه الآيات التي تسمعونها هي آيات من الكتاب، آيات من الكتاب الحكيم.

فكلمة ﴿تِلْكَ﴾ هذه إشارة؛ إذا أردت أن تشير إلى القريب تقول **"هذه"**، وإذا أردت أن تشير إلى البعيد تقول **"تلك"**.

- **لو سألك سائل فقال لك: القرآن بين أيدينا وقريب منا، لماذا يشير الله إليه بإشارة البعيد؟**

الجواب: لعلو منزلته، ولكرامته عند الله ومقامه عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رُفع مقاماً فقال: ﴿تِلْكَ﴾.

وهذه الآيات؛ والآيات جمع (آية)، والآية هي جزء من السورة، السورة تتكون من آيات، و(سورة الكوثر) ثلاث آيات هي هذه، والآيات أصلها العلامة؛ لما تقول **"آية كذا"** يعني **"علامة كذا"**، فهي علامة دالة على صدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أن هذا القرآن منزل من عند الله.

قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾، والكتاب هو القرآن؛ وإذا سُمي (كتاباً) فلأنه مكتوب، وإذا سمي (قرآناً) فلأنه يقرأ، ف (الكتاب)، و(القرآن)، و(الذكر)، و(الفرقان)؛ هذه كلها أسماء من أسماء القرآن الكريم.

قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾؛ وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتابه بأنه حكيم، ولاحظ التدرج؛ تملأ النفس عظمة: الله هو الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والقرآن من الله صادر وهو حكيم، وهذا القرآن فيه سورة اشتملت على الحكمة، وفيها رجل آتاه الله الحكمة؛ فكيف التدرج!

فسمي القرآن أو وصف الله كتابه بأنه حكيم مثل ما ذكرنا حاكم على كل شيء؛ حاكم على الناس، حاكم بينهم، حاكم على الكتب السابقة، حكيم ذو حكمة بالغة، وهي وضع الأمور في مواضعها وحسن التصرف في الأمور كلها.

لما وصف الله هذا الكتاب، بيّن أثر هذا الكتاب؛ ولاحظ أن هذا الأثر لا يكون أثراً أو مؤثراً إلا على من هم أهل القرآن، ومن هم من أهل القرآن، ومن تآهل إلى أن ينتفع بالقرآن.

ولذلك قال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [لقمان: ٣] والهدى معناه أنهم يهتدون بهدايات القرآن وينتفعون به، ويهديهم إلى الصراط المستقيم؛ فالقرآن هدى يهتدي به المهتدون، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في (سورة البقرة) لما قال: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]؛ فالقرآن هدى يهتدي به المهتدون.

ورحمة يتراحمون ورحمة عليهم؛ بأن يكون رحمة عليهم فيعرفون الطريق إلى الله ويتجنبون طرق الشيطان، فهو رحمة عليهم، رحمة مسداة لهؤلاء.

ولاحظ أنه قال: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ ولم يقل **"هدى ورحمة للناس"**، وإنما خص منهم المحسنين هنا.

وفي (سورة البقرة) قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وفي (سورة النمل) التي مرت معنا قال: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢]. فمرة قال (المؤمنين)، ومرة قال (المتقين)، ومرة قال (المحسنين).

- **فلو قيل لك: طيب، كيف نجمع بين هذا؟ هل هو هدى للمؤمنين، أو هدى للمحسنين، أو هدى للمتقين؟**

الجواب: المؤمن يرتقي بالقرآن والعلم والطاعة؛ فهو مؤمن، ثم يزداد إيماناً وطاعة وتمسكاً بهذا الدين فيصبح من (المتقين) الذين حصلوا على التقوى، وهو فعل الخيرات والمسارعة عليها والبعد عن المعاصي؛ فوصلوا وتحلوا بالتقوى ولبسوا لباس التقوى.

فإذا لبسوا لباس التقوى ووصلوا إلى هذه الدرجة وازدادوا تقوى وقرباً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لبسوا لباساً أعظم من ذلك، وهو لباس (الإحسان)؛ والإحسان هو أعلى الدرجات.

ولذلك جاء في مراتب الدين في حديث جبريل الطويل: «الإِسْلَامُ، ثُمَّ الإِيمَانُ، ثُمَّ الإِحْسَانُ»، والإحسان: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». وتعرف الإنسان إذا كان الشخص الذي يأمره أمامه سينضبط ويعمل العمل الدقيق؛ فالإحسان درجة عالية.

الإحسان كيف تحسن عبادتك مع ربك، الإحسان كيف تحسن مع إخوانك المسلمين إخوانك المؤمنين؛ كيف تحسن إليهم، كيف تعاملهم بمعاملة الإحسان، كيف تحسن إليهم بأخلاقك وبمالك وبدعوتك وبتعاملك، فأنت على درجة الإحساذ فالإحسان أعلى الدرجات.

ولذلك وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا وبيّن أثره بانه هدى ورحمة للمحسنين.

- **وقد يسألك سائل ويقول لك: في سورة البقرة قال ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وفي سورة النمل قال ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهنا قال ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾؟**

الجواب: لما كانت (سورة البقرة) فيها الدعوة للتقوى وفيها الآيات الكثيرة التي تبين أثر التقوى؛ يعني تكررت كلمة التقوى في سورة البقرة تكرراً كبيراً جداً حتى قيل إن أكثر سورة ذُكر فيها التقوى هي سورة البقرة، فجدير أن يوصف هذا القرآن بأنه هدى لهم.

ولما تذهب إلى (سورة النمل) وتجد فيها الكلام عن الإيمان والاسلام، تجد أنها هدى للمؤمنين وهو أقرب إلى المسلمين.

وهنا درجة أعلى وأعلى؛ لأن السورة تتكلم عن الحكمة، والحكمة لا يصل إليها إلا القليل من الناس: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. ولذلك وصف الله هنا المنتفعين بالقرآن بأنهم محسنون.

والإحسان إحسان العمل وإحسان القول بينك وبين الله وبينك وبين الناس، هذا هو الإحسان؛ الإحسان إتقان الشيء وفعله على أعلى الدرجات، لما يقال: هذا متقن لعمله، متقن لصلاته، متقن لتعامله مع والديه يحسن إلى والديه إحساناً، يحسن إلى الخلق في التعامل، ويحسن إلى أقاربه؛ فالإحسان هو أعلى الدرجات وهو إتقان العمل.

ولذلك قال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾؛ أحسنوا العمل بما أنزل الله في القرآن وما أمرهم به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عملوا على أحسن درجات، أحسن الدرجات، فوصلوا درجة الإحسان.

- **فلما قد يسألك سائل ويقول لك: الآن أعطيتنا أنت المحسنين ولكن لم تذكر لنا أعظم درجات الإحسان أو أكثر أوصاف الإحسان، من هم هؤلاء المحسنون؟ يعني أجل أوصاف وأعظم أوصاف المحسنين؟**

الجواب: ما ذكره الله بعد ما ذكر المحسنين؛ ذكر الله بعد ذلك ما هي أجل أعمال هؤلاء المحسنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤]

ومثل ما ذكرت لك قبل قليل: الإحسان تعاملك مع الله وتعاملك مع إخوانك المسلمين.

العلاقة مع الله: فلما يقول: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، هذه علاقة العبد مع ربه؛ كيف يصلي، كيف يؤدي هذه الشعيرة العظيمة التي تربطك بربك وتقوي علاقتك بربك، كيف تصلي، كيف تحسن الصلاة، كيف تقيم الصلاة.

ولذلك لاحظ ما قال "الذين يصلون"، قال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾؛ فإقامة الصلاة شيء غير مجرد الصلاة.

قد تدخل المسجد وتصلي مع الإمام، وتجد في المسجد ما يقرب من مائة مصلٍ أو أكثر كلهم يصلون، لكن من الذي أتقن صلاته؟ من الذي أقام صلاته، أداها بخشوع واستحضار ومحافظة على أركانها وواجباتها وسننها، واستحضر الصلاة أمام رب العالمين وكأنه واقف أمام الله وهو ينظر إلى الله عَزَّ وَجَلَّ؟ هذه هي درجة الإحسان، فإقامة الصلاة مع ربهم هي أجل أوصاف المحسنين.

العلاقة مع الناس: ثم ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة عليهم، يؤتونها مستحقيها؛ والمستحقون هم إخوانك المسلمون المحتاجون، فتحسن إليهم، تحسن إليهم بإظهار هذه الزكاة.

وتحت الزكاة: النفقة على الوالدين، والنفقة على الزوجة، والنفقة على الأولاد، والنفقة على الأقارب المحتاجين؛ كل هذا داخل في علاقة الإنسان بإخوانه المسلمين حتى يصل إلى درجة الإحسان.

ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ وصف البار بوالديه بالإحسان أو أمره بالإحسان: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣]، والسورة تشير في ثناياها إلى الأمر بالإحسان، ووصية الإنسان بوالديه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]، ووصايا لقمان لابنه كلها تحث على أن يحسن إلى أبيه.

ثم قال: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. و(اليقين) هو أعلى درجات العلم؛ علم اليقين، يعني وصلوا إلى درجة عالية في العلم، والمحسن بلا شك هو صاحب الحكمة الذي أوتي الحكمة؛ وصل إلى أنه كأنه يرى يوم القيامة أمامه ويستحضر هذا اليوم العظيم الذي سيقف فيه أمام الله.

لأنه في الدنيا يقف أمام الله كأنه يرى الله أمامه، فهذا التذكير باليوم الآخر هو الدافع؛ هو الدافع لك بقوة إلى أن تنضبط في حياتك، فهو أقوى دافع لك في حياتك أن تنضبط في حياتك مع ربك ومع إخوانك المسلمين كيف تتعامل.

فكل من عرف اليوم الآخر واستحضر هذا اليوم الآخر وهو يوم القيامة واستحضر هذا اليوم العظيم أمامه في حياته كلها، انضبط في حياته، وأقوى طريق لضبط الإنسان في حياته؛ في أخلاقه، في تعامله مع ربه، في تعامله مع إخوانه المسلمين، أن يتذكر هذا اليوم.

فإن أساء إليه شخص قال: أتذكر هذا اليوم، أنه سيأخذ حقه منه، أو سيعفو عنه فيعفو الله عنه، وإن رأى شيئاً ستره حتى يستره الله في اليوم الآخر، وإن رأى شيئاً من الأعمال الصالحة قدمه ولو شيئاً يسيراً، ولو كان إماطة أذى عن الطريق؛ عرف أنه سيجد ذلك أمام الله يوم القيامة، فانضبط في حياته.

ولذلك كثيراً ما يذكر الله في الأعمال الصالحة التذكير باليوم الآخر الذي يحثك.

ولذلك في سورة البقرة قال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٣] إلى أن قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥].

وهنا قال: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾. وشوف لما يأتيك بالضمير مرة ثانية، مع أنه قال في الأول ﴿وَهُم﴾؛ يعني يكفي أن تقول **"وهم بالآخرة يوقنون"**، قال لا؛ زيادة تأكيد: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

يعني عندهم يقين شديد، ولذلك يسميه أهل اللغة هذا الضمير يسمونه (**ضمير الفصل**) يأتي للتأكيد؛ يعني هم بالآخرة هم يوقنون بلا شك ولا مرية. هذه الصفات صفات الحكيم، صفات المحسن الذي آتاه الله.

ولذلك أعطاك الله ثمرة هذا الأمر، ثمرته في الدنيا والآخرة فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ٥] أي الموصوفون بهذه الصفات؛ بكونهم من المحسنين، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وبالآخرة هم يوقنون. قال: أولئك الذين تمسكوا بهذه الصفات وهم على هدى.

وشوف كلمة ﴿عَلَىٰ﴾ تفيد العلو والارتفاع. لما جاء في الضلال؛ قال في آية: ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]، يعني منغمسون في الضلال لا يستطيعون الخروج عن هذا الضلال إلا بتوبة من الله.

أما المؤمنون الصالحون فهم ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ يعني ارتفعوا واستعلوا بالهدى، وأصبحت الهدى هي التي تقودهم أينما ذهبوا؛ فقال: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾ أي على هداية من ربهم.

وهذا الهدى مصدره من الله ليس من أي شخص؛ ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم تربية حسنة، تربية الإيمان والطاعة والانقياد إليه، ليس الرب هنا المراد به إطلاق الرب؛ فالكفار ربهم الله لأنه يربيهم بالطعام والشراب، أما أنت فيربيك الله بالطعام والشراب والهداية والتقوى ويؤدبك أحسن التأديب، فهذه تربية خاصة لك؛ ولذلك قال: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم التربية الخاصة.

ثم قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾؛ شوف الإشارة، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ اسم الإشارة للبعيد، يعني هؤلاء وصلوا منزلة عالية، فوق منزلة عالية، فهم على هدى والمنزلة العالية الأخرى ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وكلمة ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ يعني اهتدوا إلى الصراط المستقيم في الدنيا، وسيهديهم الله إلى الصراط المستقيم في الآخرة؛ فالهدى هنا شاملة للدنيا والآخرة.

وكذلك الفلاح؛ لما قال: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي كما أنار الله قلوبهم بالهداية في الدنيا، وفي الآخرة أيضاً نالوا الفلاح والفوز بالمطلوب والفوز بالدنيا وفي الآخرة.

فوزهم بالدنيا أنهم عاشوا عيشة هنيئة طيبة، وأحياهم الله حياة طيبة، كما قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]. وقال هنا أيضاً: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ الفائزون في الدنيا والفائزون في الآخرة.

وكلمة (الفلاح) هنا تشمل الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب. فانت إذا فزت في ما تريده من رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أيضاً تفوز بما تريد أن تتجنبه من سخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فهذا يسمى هو المفلح.

لما تذكر لنا هذه الصفات هذه السورة، ونحن وإياكم نتمنى أن نكون من هؤلاء، ممن اتصف بهذه الصفات ووعد بهذا الوعد الكريم من الله؛ هذه الصفات التي ذكرها الله لأوليائه الصالحين المحسنين الذين وصلوا لهذه الدرجة وعملوا الأعمال الصالحة.

القرآن دائماً يقابل تحذيراً يعني إنذاراً وبشارة؛ لما يبشرك بهذه الأشياء حتى تنقاد وحتى تكون في جملة هؤلاء، يحذرك من طريق الضلال أن تقع فيه. ولذلك قابل هذا بهذا؛ فلما ذكر صفات المحسنين، قابلهم بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦].

فذكر صفات هؤلاء، وذكر أيضاً عاقبتهم في الدنيا وفي الآخرة فقال: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]. فهذا الحديث عن هؤلاء الذين ضلوا ليضلوا عن سبيل الله، ضلوا ولم يهتدوا ولم يكونوا من المحسنين ولم يكونوا من المؤمنين ولم يكونوا ممن يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ولم يتصف بصفات المؤمنين؛ من هم هؤلاء؟ وما صفاتهم؟ وما أثر هذه الصفات عليهم؟ وما عقوبتهم عند الله؟

هذا الكلام يأتي إن شاء الله في اللقاء القادم بإذن الله. نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(لقمان ٦ - ١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء المرسلين؛ نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الرابع عشر من شهر جمادى الأولى من عام (١٤٤٥ هـ). مجلسنا المبارك ودرسنا المبارك مع تفسير القرآن العظيم؛ كلام رب العالمين.

السورة التي بين أيدينا هي (سورة لقمان). تحدثنا في اللقاء الماضي عن هذه السورة؛ يعني من حيث السورة وما تتحدث عنه بشكل عام، ومقصد السورة وهدفها أيضاً، والآيات التي تعرضت لها هذه السورة، والتركيز على (الحكمة).

(الحكمة)؛ يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر في كتابه في هذه السورة أن كتابه موصوف بأنه حكيم: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢]. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو (الحكيم)، ومن أسمائه (الحكيم)، ومن صفاته (الحكمة)؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يقضي قضاءً ولا يحكم بحكمٍ إلا بحكمةٍ؛ بحكمةٍ بالغةٍ. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

و(الحكمة) في هذه السورة ركزت على حكمة رجل صالح أعطاه الله (الحكمة)؛ فعمل بها وطبقها، وهو الذي سُميت به هذه السورة؛ (لقمان). وسيأتينا عندما نصل إلى قصة (لقمان)؛ سيتضح لنا من هو (لقمان)؟ وهل هو نبي ولا رجل صالح؟ ويأتيك الكلام عنه -إن شاء الله- في موضعه.

السورة تتحدث عن حِكمٍ عظيمةٍ من حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأيضاً تحدثنا عنها وأن حكمة الله لا تنتهي كما أن كلامه لا ينتهي ولا حد له؛ فحكمته أيضاً لا تنتهي.

ولذلك أشارت السورة إلى سعة كلام الله، وسعة علمه، وسعة قدرته، وركزت السورة على -يعني على- بديع قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الكون: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]؛ ولا تنفذ حكمته، فهو سبحانه ذو الحكمة البالغة والحكيم، وكتابه الحكيم؛ لأن الله قال في أول السورة: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢].

فإذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ قد أنعم على هذا الرجل -وهو لقمان- بشيء قليل من الحكمة؛ فكتابه كله حكمة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١]، وكتابه حكمة، والله عَزَّ وَجَلَّ هو ذو الحكمة على الإطلاق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نحن تحدثنا عن الآيات الأولى من السورة لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢]، ووصف كتابه بأنه هدى؛ يهتدي به المهتدون، ورحمة؛ يرحم الله به من يشاء من عباده، وبين أن هذا الكتاب هدى ورحمة للمحسنين.

- **وعرفنا من هم (المحسنون)؟ ولماذا وكيف وصلوا إلى درجة (الإحسان)؟**

و(**الإحسان**) هو أعلى مراتب الدين، وأنت تعرف أن مراتب الدين ثلاثة: (**الاسلام**)؛ كما في حديث جبريل لما سأل النبي عن (**الإسلام**)، وعن (**الإيمان**)، وعن (**الإحسان**). (**الإسلام**)، و(**الإيمان**) فوقه، ثم (**الإحسان**) فوق هذه المراتب.

ومتى يكون الإنسان محسناً؟ متى تكون أنت من (**المحسنين**)؟ إذا أحسنت علاقتك مع ربك، وأحسنت كيف تصلي، كيف تتعامل مع رب العالمين، وكيف تستجيب لله استجابةً -يعني تامة- تصل بها إلى درجة (**الإحسان**).

و(**الإحسان**) مع الخلق؛ كيف تتعامل مع إخوانك المسلمين وتحسن إليهم، حتى إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتب (**الإحسان**) على كل شيء.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»؛ حتى الذبيحة تحسن إليها، حتى الحيوان، وحتى الحشرات يجب أن تحسن إليها.

كلمة (الإحسان) يعني كلمة عظيمة جداً، يعني لو جلسنا نتحدث عنها لطال المقام بها؛ لكن الله أشار هنا إلى أن القرآن هدى ورحمة للمحسنين؛ كما قال إنه هدى للمتقين، وقال هدى ورحمة للمؤمنين. وكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -يعني بلا شك- أنه هدى ورحمة.

- **من هم (المحسنون)؟**

أعطانا الله شيئاً من أوصافهم؛ قال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [لقمان: ٤]؛ هذا إحسانك مع ربك، شايف إحسانك مع ربك؛ إقام الصلاة.

قال بعده: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [لقمان: ٤]؛ هذا إحسانك مع البشر، مع إخوانك المسلمين. ثم: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان: ٤]؛ يعني وصل درجة -وصل العلم عندهم إلى درجة- (اليقين)؛ أنه لا يشك في البعث، والجزاء، والجنة، والنار، لا يشك فيها، كما أنه لا يشك في وجوده هو الآن؛ لا يشك بأنه موجود.

وكذلك لا يشك بأن الجنة موجودة، والنار مخلوقة وموجودة، وأن الله يبعث من في القبور بلا شك، وهذه عقيدة المؤمن؛ عقيدة المؤمن التي -يعني يؤمن بها- ويعقد قلبه عليها؛ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبعث من في القبور، فيكون على يقين لهذا.

- **قال بعدها في ثمرة هذا الإيمان والإحسان، ماذا قال؟**

﴿أُولَٰئِكَ﴾ [لقمان: ٥]؛ المذكورين الذي سبق ذكرهم، ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ [لقمان: ٥]؛ على هداية، ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [لقمان: ٥]؛ وشوف قال "على"؛ كأنهم قد استعلوا على الهدى، لكن إذا جاء في الضلال.

يقول: "في ضلال"؛ يعني منغمسون في الضلال، هنا قال: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [لقمان: ٥]؛ أي ربهم الذي رباهم؛ رباهم أحسن تربية، الذي رباهم الله أحسن تربية، هم على هدى من ربهم؛ هذه الهدى مصدرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي أعطاهم الهدى، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ٥].

واعلم أن المؤمن التقي الصالح المحسن هو على هداية من ربه في الدنيا وفي الآخرة؛ في الدنيا هداية الله له إلى الطاعات، وفي الآخرة يهديهم ربهم بإيمانهم، و(الفلاح) أيضاً؛ فلاحهم في الدنيا وفلاحهم في الآخرة؛ فهم أفلحوا في الدنيا وأفلحوا في الآخرة، و(الفلاح) هو الظفر والفوز بالمطلوب.

إذا أنت سمعت مثل هذا الكلام -ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا في زمرة هؤلاء المحسنين الذين وصفهم الله بهذا الوصف وبين أن القرآن له أثر عليهم؛ هذا القرآن هدى عليهم ورحمة لهم-.

إذا عرفت أثر القرآن على هؤلاء، وتمنيت و-يعني أن تكون مع- هؤلاء الذين وصفهم الله بـ (الإحسان)، ووعدهم بالهداية والفلاح؛ العجيب تجد في المقابل ناساً آخرين -يعني يحذر الله منهم في مقابل- وهم أهل الضلال.

ولذلك قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ [لقمان: ٦]؛ يعني هناك من الناس من ترك طريق الهداية والاستقامة، وترك طريق القرآن وطريق النجاة، وسلك طريق الهلاك والضلال، قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦].

- **ما المراد بـ (لهو الحديث)؟**

كل ما يلهي عن طاعة الله؛ كل ما يلهي عن طاعة الله فهو من (لهو الحديث)، كل ما يصد عن رضا الله فهو من (لهو الحديث). ويدخل في هذا (الغناء)؛ ابن مسعود الصحابي الجليل رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه وأرضاه أقسم يميناً بالله أن هذه الآية نزلت في المغنين، وأن الآية هذه في (الغناء.

وقال: «إِنَّ الْغِنَاءَ يُنْبِتُ النِّفَاقَ فِي الْقَلْبِ كَمَا يُنْبِتُ الْمَاءُ الزَّرْعَ». وتكلم ابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه وأكد على أن هذه الآية نزلت في تحريم (الغناء)، وأنه محرم، وأنه من (لهو الحديث) الذي حرمه الله.

ويدخل في ذلك شراء المغنيات اللاتي يسمونهن (القينات)؛ (القينة) التي كانوا يشترونها سابقاً في الجاهلية؛ يشترون المغنيات لتكون مغنية عنده، فهذا من شراء (لهو الحديث). ويدخل في ذلك الغيبة، النميمة، والسب، والشتم، واللعن، الكلام السيئ، وكل ما يصد عن طاعة الله، وكل ما يشغلك عن ذكر الله وعن الصلاة؛ داخل في (لهو الحديث).

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦]؛ الحقيقة ما في -ما يشتري- أحياناً تجد من الناس ما يشتري، وإنما -يعني يذهب إلى هذه الأماكن- لكن الله عَزَّ وَجَلَّ -قد يشتري- كأنه هو باع دينه

بدنياه؛ باع دينه بدنياه، اشترى (لهو الحديث)، وترك الذي أمره الله به من قراءة القرآن ومن ذكره؛ فكأنه باع القرآن وباع ذكر الله، واشترى بدلاً منه هذا اللهو؛ هذا اللهو، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦].

- **ما الغرض من شرائه؟**

قال: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦]؛ ليضل الناس، هو ضل بنفسه -زين- ثم أضل غيره، ولذلك في قراءة أخرى: ﴿لِيَضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾؛ ليضل هو ويضل غيره، فجمعت القراءتان المعنيين؛ أنه ضل بنفسه وضل غيره عن طريق الهدى والنجاة والسلامة.

ويتخذها، شوف قال: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: ٦]؛ يعني ليضل الناس عن طريق الهداية، وطريق الاستقامة، وطريق القرآن، وطريق الطاعة؛ فيضل الناس عن شرع الله بغير علم؛ ما عنده علم، عنده هوى وشهوات وضلال، ما عنده علم، ف ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا﴾ [لقمان: ٦]؛ أي سبيل الله وشرعه، يتخذ سبيل الله وشرعه ﴿هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦]؛ يستخف -يعني يهزأ ويسخر- من شرع الله ومن دين الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أولئك في جزائهم: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]. الذين يشترون (لهو الحديث) ويضلون الناس ويسخرون من شرع الله؛ لأنه لو لم يسخر من شرع الله ما حقق مراده، هو يريد أن يظهر هذا الضلال؛ فيريد أن يطمس شرع الله ويسخر منه حتى يظهر ضلاله. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في جزائه: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

أنت قارن بين هذا وهذا؛ يعني هذا يقول الله فيه: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: ٥]، وهؤلاء يقول: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

- **ولو سألنا قلنا: لماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ "عذاب مهين" ولم يقل "عذاب عظيم" أو "عذاب أليم"؟ قيل لماذا قال "مهين"؟**

الجواب: لأنه لما أهان شرع الله واستهزأ به وسخر منه وأعرض عنه؛ أهانه الله بالعذاب، والجزاء من جنس العمل.

وحتى تعرف أيضاً موقفه من القرآن الكريم ومن شرع الله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ [لقمان: ٧]؛ إذا قرئ عليه القرآن وذُكر عنده حكم الله وأحكامه الشرعية، ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لقمان: ٧]؛ أعرض عن طاعة الله، وليس إعراضاً فقط؛ إعراض وتكبر.

﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لقمان: ٧]؛ أعرض وتكبر، ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [لقمان: ٧]؛ كأنها لم تقرأ عليه، ولا يسمع؛ كأنه لا يسمع شيئاً، وهو يسمع، ولكنه في منزلة من لم يسمع. ثم زاد الله سبحانه عليه فقال: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]؛ يعني صمماً؛ كأن آذانه قد صُمَّتْ لا يسمع؛ لأنه لا يريد؛ تجد بعض الناس يتضايق -يعني يصيبه- الضيق، والهم، والغم، والكرب إذا قرئ عليه القرآن الكريم؛ لأنه لا يريده.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ [لقمان: ٧]؛ أعرض وهو مستكبر عن القرآن الكريم، وكأنه لا يسمع، بل زيادة عن ذلك: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: ٧]؛ صمماً وثقلاً لا يسمع.

ولكن هذا عجل الله له العقوبة فقال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]؛ يعني بشره بهذه البشارة السيئة، البشارة دائماً تكون في الخير؛ ولكن هذا لما سخر من القرآن وسخر من شرعه، سخر الله به فقال: "بشره"، ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]؛ عذاب أليم؛ يعني موجع ومؤلم؛ لأنه تألم لسماع القرآن، فإذاقه الله العذاب الأليم.

ومثل ما مر معنا طريقة القرآن؛ إذا ذُكر أهل الشر، يُذكر أهل الخير تأكيداً لهم؛ فلما ذكر مآل هؤلاء الأشقياء، وهذا الشقي لما ذكر مآله أن له عذاباً مهيناً وله عذاباً أليماً، ذكر مآل أهل الخير والصلاح.

فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [لقمان: ٨]؛ بقلوبهم، وآمنوا بالله ورسوله وبشرعه، وعملوا بهذا الإيمان وطبقوه؛ لأنهم أقاموا شرع الله، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [لقمان: ٨]؛ عملوا الأعمال الصالحة التي افترضها الله عليهم وفرضها عليهم وأوجبها عليهم.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨]؛ أي لهؤلاء نعيم مقيم في **(جنات النعيم)**؛ لهم النعيم المقيم في جنات في الجنات وهم يقيمون لا يخرجون عنها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [لقمان: ٩]؛ حياتهم ليس فيها موت، لا يخافون من الموت، ولا من المرض، ولا من الهرم، ولا من التعب، ولا من الشقاء، ولا من الحزن؛ فهم في سعادة عظيمة، خالدين في هذه الجنات.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ [لقمان: ٩]؛ أي هذا وعد من الله، وعد من الله أن يدخلهم (جنات النعيم)، ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ [لقمان: ٩]؛ وعداً وحقاً أن يدخلهم (جنات النعيم)، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٩].

وشوف لاحظ أن الله ختم الآية بقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان: ٩]؛ يعني أنه ذو عزةٍ، وقوةٍ، ومنعةٍ ينفذ ويتمم ما وعد، ليس وعده عن ضعف؛ بل عن قوةٍ، وعن جزمٍ، وعن تحقيقٍ، فهو عزيز ذو قوةٍ، وحكيم يضع الأمور في مواضعها، وحكيم في تدبيره، وحكيم في اختياره، وحكيم في شرعه، ومثل ما مر معنا؛ قلنا الله حكيم ذو حكمةٍ بالغةٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لنا يعني عظمته، وعظمة خلقه، وإبداعه، وحكمته في الكون، ومن حكمته خلق هذا الخلق العظيم؛ فإنه خلق السماوات السبع بغير عمدٍ.

تصور أنك كل سماء تبعد عن الأخرى خمسمائة (٥٠٠) سنة، وليس كل سماء متصلة بالأخرى ولا ملتصقة ولا بينهما عمد؛ كل واحدة مستقلة بنفسها، والسماء الدنيا التي ننظر إليها وفيها النجوم والكواكب والشمس والقمر مرتفعة بغير عمدٍ.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]؛ يمسك السماوات والأرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فخلق السماوات بغير عمدٍ؛ قال: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان: ١٠]؛ يعني أنتم هل ترون عمداً؟ ما في عمد؛ ما في عمد تُرى ولا تُشاهد، فخلقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلقاً بديعاً.

ثم خلق الأرض، ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ [لقمان: ١٠]؛ الجبال الثابتة، لماذا؟ قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]؛ حتى تثبت الأرض، ولا تضطرب، ولا تتحرك، لولا أن الله وضع فيها هذه الجبال لبدأت تتحرك وتهتز ثم تساقط هذا البنيان؛ ولكن من نعمة الله أن رساها وثبتها بهذه الجبال العظيمة.

قال: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [لقمان: ١٠]؛ يعني نشر فيها من أنواع الدواب؛ من الإنسان، والحيوان، والطير، والهوام، والحشرات، والزواحف. تنزل في أرض من الأراضي في برٍّ ليس فيه ماء ولا شجر، ثم تجد هذه الهوام تمشي في الأرض؛ سبحان الله! من أوجدها ومن خلقها؟ ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [لقمان: ١٠].

ولما بيَّن لك أنه هو الذي خلق هذا الخلق؛ فإن الله هو الذي تكفل برزقهم، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [لقمان: ١٠]؛ هو مصدر الرزق، ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [لقمان: ١٠]؛ أنزل الله من السحاب هذا الماء؛ الماء المبارك النافع، فأنزل من السماء ماءً فكان سبباً في إنبات الزروع.

قال: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠]؛ أنبت الله من هذا الماء أزواجاً ونباتات مختلفة وكريمة؛ أي نافعة وحسنة المنظر، نافعة وحسنة المنظر، كريمة جميلة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رداً على هؤلاء المشركين: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ١١]؛ الذي خلق السماوات بغير عمد، وخلق الأرض، وبث فيها من كل دابة، وأنزل من السماء ماء ورزقهم؛ ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

ماذا خلق؟ أروني أيها المشركون! هل -هل الأصنام خلقت شيئاً؟

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]؛ ما يخلقون ولا ذباباً. فهذا خلق الله؛ ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].

ثم أعرض عنهم فقال: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [لقمان: ١١]؛ الظالمون الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم، وعبدوا من دون الله شيئاً؛ أشركوا بالله وعبدوا من دون الله معبودات وأصناماً لا تنفع ولا تضر، يطوفون حول القبور، ويدعون الأموات، ويذهبون إلى الأصنام ويدعونها؛ هؤلاء في ضلال مبين؛ ضلال واضح بيِّن أنه في ضلال وليس في هدى.

ليعقل من يسمع مثل هذا الكلام، ويرجع إلى ربه، ويعود، ويترك عنه عبادة هذه الأصنام، أو يقصر في حق الله، أو لا يقيم الصلاة، أو لا يقيم شرع الله؛ فليحذر كل الحذر من عقوبة الله.

فإن هذه الآيات التي مرت معنا فيها من النعيم، وفيها من الوعد الكريم، وفيها من الخير، وفيها من العقوبات والعذاب الأليم والعذاب المهين؛ فالإنسان في هذه الدنيا يحذر طرق الشر، والضلال، والغواية، ويسلك طرق النجاة، والسلامة، والسعادة.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بهذه الآيات، وأن يجعلها حجة لنا لا علينا، وأن يبارك لنا في كتابه، وأن يوفقنا لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(لقمان ١٢ - ١٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للحادي والعشرين من شهر (جمادى الأولى) من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية.

درسنا المعتاد كل أسبوع بعد صلاة المغرب في تفسير القرآن العظيم، وسورتنا هي (سورة لقمان)، وقفنا عند الآية الثانية عشرة، ونبدأ الآن بالآية التي بعدها، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[لقمان: ١٢].

- **من هو لقمان؟ هل هو رسول أو رجل صالح؟**

اختلف أهل العلم، وذكر (ابن كثير) في تفسيره أن أهل العلم اختلفوا؛ حتى من السلف ومن التابعين، من قال بأن لقمان نبي، وبعضهم قال إن لقمان ليس بنبي وإنما هو رجل صالح. والذي يظهر -والله أعلم- هو أن لقمان رجل صالح؛ بدليل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صرَّح في كتابه أنه آتاه الحكمة، ولو كان قد أُعطي النبوة لما ذُكرت هذه الحكمة له، وما خُصَّ بهذا الشيء، الله خصه بهذه الخصيصة وهي الحكمة؛ فدل على أن الله منَّ عليه بالحكمة.

هذا أمر، الأمر الثاني: أن الأنبياء في القرآن الكريم يُذكرون في مقام -يعني أكثر- تذكر مجموعة منهم؛ يعني في (سورة الأنعام) ذكر الله ثمانية عشر نبياً، وفي (سورة الأنبياء) ذكر ستة عشر نبياً، ولم يُذكر لقمان معهم أبداً. ولقمان لم يُذكر في القرآن كله إلا في هذه السورة؛ (سورة لقمان).

هذا أمر، أيضاً من الأدلة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سأله الصحابة عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾[الأنعام: ٨٢]، قالوا: يا رسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟

قال: «لَيْسَ الظُّلْمُ الَّذِي تَعْلَمُونَ، إِنَّمَا الظُّلْمُ هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ لُقْمَانَ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟»، فسماه (العبد الصالح)؛ ولذلك الذي يظهر -والله أعلم- أن لقمان ليس برسول ولا بنبي.

أما عما ذكر الله عنه، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاه الحكمة، وذكر شيئاً من وصاياه لابنه أنه أوصى ابنه بوصايا، هذا الذي جاء في القرآن الكريم، وأما ما جاء من أوصاف أخرى في وصف لقمان؛ وأنه كان عبداً، وأنه كان عبداً حبشياً، وأنه كان أفطس الأنف، وأنه كان عريض المشافر -يعني الشفتين-، وأنه كذا وأنه كذا.

وأنه كان مملوكاً ثم أعتقه صاحبه؛ هذه كلها أقوال لا نعلم صحتها ولا ندري عنها، وأكثرها روايات منقولة عن بني إسرائيل؛ يعني (الروايات الإسرائيلية). الروايات الإسرائيلية تعرفون فيها كلام؛ فيها ما هو مقبول، وفيها ما هو مردود.

هذا أمر، والأمر الثاني: أننا لا نستفيد؛ يعني ما الفائدة التي أنت تجتنيها لما تقول إنه حبشي أو أنه ليس بحبشي، وأنه من بلاد النوبة في مصر، أو في جنوب مصر، أو أنه من كذا؟

هذه الأشياء كلها القرآن أعرض عنها ولم يذكرها؛ لأنه لا فائدة وراءها، ما الفائدة لما تعرف هذه الأشياء؟ فلذلك نحن نقول إن الأولى تركها وعدم الخوض فيها، وإن ذكرها من ذكرها من العلماء أو من المفسرين فنحن في غنى عنها.

أما الحِكَم المذكورة عنه، فقد ذكروا حِكماً كثيرة؛ منهم (ابن كثير) في تفسيره ذكر حكماً كثيرة، ومنهم أيضاً (ابن عاشور) في تفسيره (التحرير والتنوير) ذكر جمع أشياء كثيرة، ولكن القرآن ذكر شيئاً من حكمته، ولا نريد الإطالة في مثل هذه الأمور، وقد تمر معنا بعض الحِكَم التي ذكرها ابن كثير في تفسيره.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢].

- **ما المراد بالحكمة؟ ما هي الحكمة؟**

قال ابن كثير فيها: "هي الفهم والعلم والتعبير؛ يعني قوة الفهم، والفقه، والعلم، وحسن التعبير في العبارات"؛ يعني لما تتكلم بعبارات يقال هذا فلان حكيم؛ عباراته قوية، وكلامه رزين، وكلامه فصيح وواضح؛ فهذا يسمى حكيماً.

و(السعدي) في تفسيره قال هي: "العلم النافع، والعمل الصالح، ومعرفة أسرار الشريعة".

الشيخ السعدي دائماً يركز على الحِكَم القرآنية والتشريعية المرتبطة بالعلم والعمل ومعرفة الأسرار؛ فتقول أنت مثلاً: ما الحكمة من مشروعية الصلاة؟ ما الحكمة مثلاً من فرض الزكاة؟ لماذا الناس يحجون إلى بيت الله الحرام؟ هذه فيها أسرار بلا شك، الصيام لماذا الناس يصومون رمضان؟ فيها حِكَم، هذه الحِكَم هي التي تسمى الحكمة.

والحكمة فسرها بعضهم قال هي: "وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها". والحكمة مأخوذة من (الحَكَم) وهو إتقان الشيء؛ ففلان إذا أتقن شيئاً تقول عنده حكمة، وإذا كان يتكلم بكلام متقن تقول هذا عنده حكمة؛ فالحكمة وضع الشيء في موضعه.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر بأن للحكمة فضلاً عظيماً ومنزلة عظيمة؛ قال سبحانه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]. ولقمان آتاه الله الحكمة، وأنت الآن تسمع وصايا لقمان لابنه فتعرف أنها وصايا وضعت في مواضعها ونزلت منازلها، وأُتقنت عباراتها.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢]؛ يعني آتيناه الحكمة لأجل أن يشكر هذه النعمة، أن يشكر الله؛ وأمرناه بأن يشكر الله على هذه النعمة، وعلى ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصه به عمن سواه فجعله في هذه المنزلة.

وأنا ذكرت لكم في اللقاء الماضي أن (الحكيم) هو الله، وأن الله ذو الحكمة البالغة، وأن كتابه موصوف بأنه كتاب حكيم ذو حكمة بالغة، وهذه السورة سورة حكيمة وتضمنت قصة هذا الرجل الحكيم، وتضمنت ما ذكر الله عنه من حِكَم.

فالسورة أصلاً أي (سورة لقمان) هي سورة الحكمة. وأنت لما تقرأ في آياتها وبيان أنها أوضحت منزلة القرآن وذكرت أوصافاً للقرآن في أولها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢]، فوصف الله كتابه بأنه حكيم.

ثم ذكر أهل القرآن الناجين أولياء الله فقال: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [لقمان: ٣-٥]. فذكر هؤلاء، وهذه الكلمات كلها حِكَم.

ثم ذكر فيما يقابلهم ذلك الضال الذي ضل بنفسه وأضل غيره، واشتغل بما يضره ولا ينفعه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: ٦]. ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيئاً من حكمته في خلق هذا الخلق: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١٠-١١]، فهذه كلها حِكَم.

ولما ذكر وقرر لك هذه الحِكَم -وسيأتيك في آخرها الحِكَم العظيمة- ركّز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وساق لنا قصة هذا الرجل الحكيم وهو لقمان؛ فقال هنا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان: ١٢]؛ أي أعطيناه هذه النعمة وأمرناه أن يشكر، فشكر هذه النعمة وعرف قدرها.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [لقمان: ١٢]؛ يعني هذا الشكر يعود نفعه عليك أنت، ويعود ثوابه أيضاً عليك أنت إذا شكرت. ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]؛ أي تمهد لنفسك.

فإذا شكرت؛ شكرت لنفسك أنت، والله غني عن شكرك، ولكنه يرضى عنك: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]؛ يرضى الله عنك ويزيدك إذا شكرت، والشكر يرجع إليك أنت.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [لقمان: ١٢] وجحد نعمة الله ولم يشكر الله عليها؛ فإن الله غني حميد؛ غني عن عباده لا يضره كفر الكافرين.

☜كما في الحديث القدسي الشريف: «يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا».

فكل هذا إنما يشكر لنفسه، ومن كفر؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غني عن العباد، ولا يتضرر بكفرهم؛ ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ما نقص من ملكه شيئاً، ولو آمن كل من في الأرض جميعاً ما زاد في ملك الله شيئاً؛ فالله غني عن عباده، قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

لاحظوا -وأنا حقيقة ودنا نتأمل- ألا تلاحظون يا إخوان دائماً إذا جاء اسم (الغني) في القرآن يقترن بـ (الحميد)؟ دائماً إذا قال الله غني قال حميد. في أسماء الله الحسنى تجدها مقترنة؛ مثل: (عزيز حكيم)، (الغفور الرحيم)، (الغني الحميد)، (اللطيف الخبير).

تجد هناك اقتران الأسماء بعضها ببعض في أسرار، فهل هناك سبب؟ اسم (الغني الحميد) جاء في القرآن في تسعة مواضع مقترناً، وجاء هكذا فرداً (الغني) وهو الغني وحده، لكنه يقترن بالحميد.

أولاً: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا قيل هو الغني؛ ففي حق الله هو غنى مطلق من غير حد؛ غني عن الولد، وغني عن الصاحبة، وغني عن الشريك، وغني عن عباده الخلق، وغني عن الخلق جميعاً، وليس بحاجة لأحد، وهو غني في ملكه يعطي من يشاء بغير حساب.

وتلاحظ أنه لما قال ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢] دل على أنه غني ويعطي؛ لأن (الحميد) هو المحمود الذي يحمده الناس، يحمده الأولون والآخرون؛ فهو غني حميد. تجد في بعض الخلق بعض صفات الناس.

تقول: فلان غني، ولكنه غني على نفسه وماله له، وتجد من هو أقرب الناس إليه لا يستفيد من ماله؛ فهذا غني ولكن ليس بحميد. أما (الغني الحميد) فهو الذي يكون غنياً بنفسه ويعطي الناس، يرزق ويبذل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويده سحاء الليل والنهار؛ فهو غني حميد؛ محمود عند الناس يحمدونه لأجل غناه وفضله.

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

ثم لما بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن لقمان آتاه الله الحكمة وأنه شكر ولم يكفر -وهي رسالة لمن يُعطى من النعم فيجب عليه أن يشكر الله- دخلنا الآن في القصة؛ فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ﴾ [لقمان: ١٣].

(إذ) هذه ظرفية؛ يعني ظرف زمان، والتقدير: واذكر إذ قال، أي واذكر حينما قال لقمان لابنه. ما اسم ابنه؟ نقول: القرآن ما سماه، ولا حاجة لنا في ذلك؛ حتى لو بحثنا ووجدنا اسمه ما نستفيد فائدة كبيرة، فالقرآن لم يذكره لأن ما فيه فائدة.

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ [لقمان: ١٣]؛ يعظه يعني (الموعظة)؛ وهي التذكير والنصح، يعني وعظه ونصحه وذكره وأوصاه بوصايا سُميت وصايا لقمان؛ فهذا معنى الموعظة.

الموعظة هي أن تذكر، وأن تنصح، وأن تعظ، وأن توصي من توصيه، هذه نسميها مواعظ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر عن نفسه أنه يعظ: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ﴾ [النور: ١٧]، وقال في آية أخرى: ﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ [النساء: ٥٨]؛ فأثنى سبحانه على نفسه بالموعظة، وأثنى على مواعظه فقال: نِعِمَّا الموعظة، والله يعظكم: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ﴾ [النور: ١٧]؛ فهذه مواعظ وتذكير.

قال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. هذه هي أول وصية.

أولاً حتى نجمل لكم الوصايا ثم ندخل في تفاصيلها: وصايا لقمان انقسمت إلى ثلاثة أقسام:

- القسم الأول: وصايا في العقيدة والتوحيد والإيمان.
- القسم الثاني: وصايا بالعمل الصالح -أعمالك الصالحة بينك وبين الله.
- القسم الثالثة: الأخلاق -تعاملك مع الناس وأخلاقك في نفسك ومع الناس-. كم قسماً؟ ثلاثة أقسام.

القسم الأول في العقيدة: تقرير العقيدة الصحيحة وعلاقة العبد بربه ثم العمل الصالح: تطبيق هذه العقيدة في الأعمال الصالحة.

العقيدة أيضاً تمثلت في أمرين:

- الأمر الأول: النهي عن الشرك وتقرير التوحيد؛ وهذا أهم أمر قامت السماوات والأرض لأجله، وهو الذي أرسل الله الرسل لأجله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، و﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].
- الأمر الثاني: مراقبة الله في السر والعلن، في كل ما تأتي وتذر؛ راقب الله، وهو درجة (الإحسان)؛ أن تعبد الله كأنك تراه.

وقد ذكرها لقمان في وصيته لابنه لما قال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان: ١٦]؛ أي المعصية أو السيئة أو الحسنة، لو كانت هذه الحسنة أو السيئة بوزن حبة الخردل، فتكن في صخرة صماء، أو في السماوات على سعتها وطبقاتها، أو في الأرض على سعتها؛ يأت بها الله.

وفي هذا تربية من لقمان لابنه أنه يراقب الله، وأنه ينظر في الحسنات والسيئات؛ فيبادر إلى الحسنات ويتجنب السيئات؛ لأن هذه كلها محصاة وكلها مجموعة وستوضع في صحيفتك وتنظر إليها: ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

حتى قال بعض السلف: "الصغيرة الضحك والابتسامة؛ حتى لو ابتسمت أو ضحكت سُجلت عليك". فهذه تربية لقمان لابنه في مراقبة الله؛ هذا في جانب العقيدة.

أما في جانب الأعمال، فنصحه بأمرين: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧]؛ أقم الصلاة بينك وبين الله، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر بينك وبين الناس.

ثم الأمر الثالث: الأخلاق؛ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]، هذا بينك وبين الناس؛ لا تتكبر عليهم، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨]؛ لا تكن متكبراً في نفسك. والتكبر محرم؛ التكبر يبغضه الله، والمتكبرون يحشرهم الله يوم القيامة كأمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم، من أنت حتى تتكبر؟ فهذه هي الوصية الأولى في الأخلاق؛ النهي عن التكبر على الناس أو التكبر في نفسه.

ثم وصية أخرى في الأخلاق: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨-١٩]؛ اقصد في مشيك يعني ليكن مشيك معتدلاً، واغضض من صوتك يعني لا ترفع صوتك بغير حاجة؛ ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

هذه وصايا لقمان؛ انقسمت إلى ثلاثة أقسام، وكل قسم تحته أنواع: في العقيدة، وفي الأعمال الظاهرة بينك وبين الله، وفي الأخلاق؛ حتى نفهمها فهماً جيداً.

وهنا وعظ لقمان ابنه بموعظة التوحيد وبيان خطورة الشرك؛ وأوصاه بهذه الوصية؛ قال لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ متلطفاً له بأسلوب لطيف، يا بني؛ أنا أبوك وأنت ابني، يا بني؛ وهذا أسلوب يجذب الابن لأبيه ويجعله يقبل على نصحه.

﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾؛ احذر الشرك، فالشرك عظيم. ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. والشرك ظلم، وصاحبه ظالم؛ لأنه وضع الشيء في غير موضعه؛ فالله أمرك بعبادته وحده لا شريك له وبتوحيده.

فلما تأتي وتشرك به وتعبد غيره؛ فهذا أشد ظلم، وهذا هو الظلم بعينه، فيُحذر الإنسان أن يشرك بالله شيئاً ولو بمقدار ذرة؛ فإنه ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢].

فالشرك خطير، والشرك محبط للعمل؛ الشرك يحبط الأعمال الصالحة، فلو أن إنساناً عمل أعمالاً صالحة ثم أشرك بمقدار ذرة حبط عمله؛ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال في حق الأنبياء: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

فمن شكر الله، ومن معرفة عظمة الله: تنزيهه عن الشرك في العبادة، والربوبية، والإلهية، والأسماء والصفات؛ تنزيه الله عن كل نوع من أنواع الشرك.

ولما أوصى لقمان ابنه بهذه الوصية العظيمة -وهي وصية التوحيد ومعرفة عظمة الله-، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه قد أوصى الأبناء ببر والديهم؛ ولذلك قال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤]. فجاء بيان أن الله أوصى الإنسان ببر والديه، ولقمان يوصي ابنه بعبادة الله؛ فتلاحظ أن عبادة الله وبر الوالدين كلاهما يمشيان في طريق واحد.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]؛ فتجد هناك اقتراناً بين التوحيد وعبادة الله وبين بر الوالدين.

☜ **وحتى العقوق والشرك؛ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ». فتجد منزلة الوالدين في البر أو العقوق تأتي بعد منزلة حق الله.

ولذلك لما أشفق لقمان على ابنه وأوصاه بهذه الوصايا؛ ذكر الله الولدَ بأنه قد أُوصي من الله سبحانه بوصايا؛ فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ [لقمان: ١٤]؛ أي أن يحسن إليهما إحساناً عظيماً.

ثم ذكر سبحانه السبب فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]؛ أي ضعفاً على ضعف، حملته جُهداً على جهد وضعفاً على ضعف؛ فأمه تحمله وتجد مشقة، تحمله وتكابد الأتعاب والأثقال مع وجود هذه النطفة في رحمها، وهي تكابد المشاق والأمور الصعبة.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]؛ أي الرضاع في عامين؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

ولكن هنا لفتة جميلة حقيقة؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية أخرى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ فإذا أنت الآن استخرجت الفصال وهو الرضاع في عامين **(أربعة وعشرون شهراً)** وطرحتها، يبقى عندك ستة أشهر؛ فماذا نستفيد؟

نستفيد أن أقل مدة الحمل هي ستة أشهر؛ فيمكن أن تضع المرأة ابنها لستة أشهر؛ لأن أقل الحمل هنا ذكره الله مع الفصال ثلاثين شهراً؛ فدل على أن أقل الحمل ستة أشهر.

وهذه الفائدة استخرجها علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْه؛ حيث قال إن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ بالجمع بين قوله: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقوله هنا: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

ثم قال سبحانه: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]؛ فشكرٌ لله وشكرٌ للوالدين، ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]؛ فتشكر الله عَزَّ وَجَلَّ على نعمه التي أنعم بها عليك، وتشكر والديك على ما قدماه لك من إحسان ورعاية؛ وكما قرن بين عبادة الله وبر الوالدين، قرن بين شكرهما. ﴿إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾؛ أي المرجع، فأجازيكم على بركم إن برتم، أو على عقوقكم إن عقيتم والديكم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ [لقمان: ١٥]؛ أي بذل الوالدان أو أحدهما جُهدهما وحرصا كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما، وعلى شركهما وكفرهما؛ فلا تقبل منهما أبداً، ولا تطعهما في معصية الخالق.

قال سبحانه: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [لقمان: ١٥].

ولاحظوا أنه لم يقل: فعُقَّهما، بل قال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]؛ فلم يمنعك سبحانه من مصاحبتهما وملازمتهما بالإحسان والمعروف، بل أحسن إليهما وصاحبهم وجالسهما، ولكن لا تطعهما في الشرك؛ فبرهما واجب في غير معصية؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ولذلك نبه سبحانه فقال: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]؛ أي اسلك طريق المطيعين الذين أنابوا إلى الله؛ وهم المؤمنون، اسلك طريق المؤمنين وانهج منهجهم، واحذر أن تطيع من يعصي الله أو يأمرك بمعصية الله.

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥]؛ أي أن الخلق كلهم يرجعون إلى الله، فيجازي كلاً بعمله.

تعالوا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(لقمان ١٦ - ١٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الثامن من الشهر الخامس، (جمادى الأولى)، من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي (سورة لقمان). ذكرنا في اللقاء الماضي أن الصحيح أن لقمان رجل صالح آتاه الله الحكمة كما صرح القرآن: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]. وبعض المفسرين وبعض السلف يقول إنه نبي من أنبياء الله، ولا دليل على كونه نبي؛ يعني يحتاج إلى دليل.

والأمر الثاني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر الأنبياء في مواضع كثيرة؛ ذكرهم في (الأنعام)؛ ذكر ثمانية عشر نبياً، وفي (سورة الأنبياء) ستة عشر نبياً، ولقمان لم يذكر إلا في سورة واحدة، ذكر مرتين هنا، وسميت السورة باسمه.

والله أعلم أنه رجل صالح أنعم الله عليه بنعمة أن آتاه الحكمة، والحكمة عرفناها الحكمة التي قال الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والحكمة هي فهم الأمور وإدراكها وإتقانها وضبطها؛ لما تقول هذا رجل حكيم، وأحكم هذا الكلام، وأحكم خطبته، خطبته حكيمة وكلامه حكيم وعمله حكيم؛ إذا كان متقناً، إذا كان صاحب حكمة، صاحب إتقان وكلام جيد ومضبوط، فهذا يسمى تسمى الحكمة، والحكمة هي أصلها من الحكم وهو المنع؛ لأنها تمنع صاحبها من سفاسف الأخلاق وترفع من مقامه، فيقال هذا رجل حكيم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الحكيم؛ هو الحكيم كما أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]. أثبت لنفسه أنه الحكيم، وأن اسمه الحكيم، وأن صفته الحكمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ موصوف بالحكمة البالغة.

والقرآن حكيم كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة في أولها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [لقمان: ٢]. فالقرآن حكيم، الله حكيم، والله سبحانه يؤتي الحكمة من يشاء، وقد آتاها هذا الرجل الصالح فأصبح حكيماً؛ ولذلك جاءت وصاياه على أدق الأمور وأجلها.

وصاياه كما ذكرناها في لقائنا الماضي أنها انقسمت إلى ثلاثة أقسام: وصايا تتعلق بالعقيدة والإيمان والتربية الإيمانية؛ حيث إنه أوصى ابنه بوصايا فيها تربية إيمانية، يعني وصايا تتعلق بالإيمان، ووصايا تتعلق بالأعمال الصالحة، ووصايا تتعلق بالأخلاق.

ثلاثة أقسام؛ تتعلق بالإيمان، يعني شيء يتعلق بالقلب، وبالجوارح الأعمال الصالحة، وبالأخلاق التعامل مع الناس.

ولاحظ أنك لو قرأت هذه الوصايا وتأملتها وأعدت النظر فيها وجدت أن كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة تحته أيضاً قسمين:

القسم الأول: **في التوحيد والإيمان:** ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؛ أمره بالتوحيد والإيمان، يعني اعبد الله ولا تشرك به، لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم.

إذا أشركت بالله فإنك ظلمت نفسك، بحيث إنك أيضاً ظلمت حق الله، بحيث إنك أنزلت غير الله منزلة الله، فجعلت مع الله إلهاً آخر، وهذا هو الظلم بعينه، الظلم بعينه؛ فأوصاه بالتوحيد والإيمان وإخلاص العمل لله.

ثم الوصية الثانية: مراقبة الله في السر والعلن، هذه تربي في الإنسان تربية الإيمان؛ كيف يراقب الله؟ قد تغيب عن الناس أنت، لكن عندك إيمان يجعلك تراقب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فرباه على التوحيد وعلى مراقبة الله؛ هذه تتعلق بالقسم الأول وهو الإيمان والتوحيد.

القسم الثاني: **الأعمال الصالحة:** فأمره بعملين صالحين جليلين عظيمين؛ الأول بينه وبين الله: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ [لقمان: ١٧]، والثاني بينه وبين الناس: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧].

القسم الثالث: **الأخلاق:** وهذه الأخلاق أيضاً مثل ما ذكرنا أخلاق تتعلق بنفسك أنت وأخلاق تتعلق مع الآخرين؛ الآخرين لا تصعر خدك للناس، وفي نفسك لا تمش في الأرض مرحاً.

فنهاه عن خلقين سيئين وأمره بخلقين أيضاً حسنين، فقال: ولا تمش في الأرض مرحاً، قال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩] هذا أمر، ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]؛ اقصد في مشيك هذا بينك وبين نفسك، اغضض من صوتك بينك وبين الناس، لا تزعج الناس.

فلاحظ وتأمل هذه الوصايا الجليلة العظيمة، تجدها وصايا في الحقيقة حكم عظيمة، حكم عظيمة.

نحن تكلمنا عن الوصية الأولى وهي أنه نهاه عن الشرك وبين له السبب، قال: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. لما أوصاه بالتوحيد وطاعة الله عَزَّ وَجَلَّ وإفراد العبادة له ونهاه عن الشرك والكفر بالله، ساق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصية الله أولاً، قبل أن يوصي لقمان ابنه؛ وصية الله للأبناء أن يبروا بآبائهم.

شوف جاءت قصة أو جاء الحديث عن وصية الإنسان بوالديه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]. فلما كان لقمان يوصي ابنه بعبادة الله وحده لا شريك له، ذكر الله أن الله قد أوصى الأبناء ببر الوالدين حتى لو كانا مشركين.

قال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥]؛ لا تطع والديك في معصية الله الشرك والكفر، ودون ذلك في معصية الله لا يطاع.

لكن كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينبغي أن يبرهما، قال: صاحبهما في الدنيا معروفاً؛ اتبع سبيل من أطاعني، أما طاعتهما في معصية الله فلا، هذه الوصية التي ذكرناها وصية التوحيد المتعلقة بالعقيدة.

الوصية الثانية: مراقبة الله، أين تجدها؟ نجدها لما قال: ﴿يَا بُنَيَّ﴾؛ ولاحظ أنه يستعطف ابنه ويذكره أن هذه وصية من أبيه الذي هو أشفق الناس عليه؛ يا بني، يناديه يا بني أنت ابني وأنا أوصيك، ففيه شفقة، فيه رحمة وفيه أيضاً أنه يجتذب ابنه حتى يستمع ويقبل: يا بني.

ثم قال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

- **ما هي؟**

قال العمل، أي عمل سواء كان من الخطايا أو من الأعمال الصالحة، مثقال ذرة أن يعمل مثقال ذرة؛ إنها إن تك هذه الحسنة أو السيئة صغيرة أو كبيرة، لو كانت هذه مثقال حبة من خردل؛ حبة من خردل، ايش الخردل؟ قال الخردل هو شجر معروف تجده في الصحاري له بذور صغيرة وممكن أنت الآن تستطيع تبحث وتجد صور له.

هذا الخردل له بذور، هذه البذور الصغيرة الحبة منها ليس لها وزن ولا قيمة؛ لو تجمع عدد كبير من هذه الحبوب لا تزن في الميزان؛ فالله يمثل يقول لو كانت هذه لو فرضنا أن هذه الحسنة أو السيئة بمثقال ذرة.

لو كانت مثقال ذرة إن تك مثقال حبة من خردل أو مثقال ذرة أو خردل فتكن في صخرة صماء، هذه التي مقدارها الخردل ودخلت في صخرة صماء، أخرجها الله وأتى بها وجازاك عليها، إما خير أو شر؛ في صخرة أو في السماوات على سعتها؛ سبع سماوات طباقاً واسعة الأطراف، لو كانت هذه خردة (خردلة) ضائعة في السماوات أتى الله بها، أو في الأرض أقل من السماوات يأتي الله بها، لا تضيع.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في آية أخرى، قال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]؛ يعني الحسنة والسيئة أتينا بها وكفى بنا حاسبين؛ يكفي أن الله هو الذي يحاسب، حسابه دقيق، ما تجد أشد من هذا.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]؛ لا تتهاون في معصية صغيرة وتقول هذه صغيرة، ولا تتهاون أيضاً في طاعة صغيرة تقول هذه صغيرة لا

يلتفت إليها، بل سارع في فعل الطاعات والبعد عن المعاصي. وإن كانت هذه المعصية صغيرة لا يلتفت إليها أو حقيرة أو يعني لا يلتفت الناس إليها أو لا يبالون بها؛ فالصغيرة تجتمع حتى تصبح كبيرة.

فهذه تربية لقمان لابنه؛ يربيه على مراقبة الله، راقب الله عَزَّ وَجَلَّ في سرك وعلانيتك، أمام الناس أو غبت عن الناس فإن الله لا يغيب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ الله مطلع عليك، فراقب الله في كل ما تأتي وما تذر؛ وصية تربية لقمان لابنه.

- **ولذلك شوف الآية ختمت باسمين عظيمين جليلين مناسبين جداً؛ لما قال يأتي بها اللّٰه، ماذا قال؟**

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦]. لطيف خبير؛ الآن لو نسأل نقول ما معنى لطيف؟ شوف لما قال يأتي بها الله ولا تخفى عليه ولا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ولو كان أدق الأشياء؛ لأن الله لطيف؛ لطيف العلم لا تخفى عليه خافية وإن دقت ولطفت وتضاءلت فإن الله يعلمها؛ لماذا؟ لأن اللطيف هو من يعلم دقائق الأشياء، فالله لطيف لأن علمه دقيق جداً.

واللطيف أيضاً من معانيه كما ذكر ابن القيم وذكر السعدي وغيره هو الذي يسلك في إيصال هذه الأشياء إلى من تصلح له مسلك الرفق؛ أنت أحياناً يسوق الله لك رزقاً وأنت لا تشعر، هذا لأن الله لطيف، أحياناً الله يدفع عنك شراً وأنت لا تشعر، يصرف عنك وأنت لأن الله لطيف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ الذي اللطيف هو الذي يسلك بك مسالك الضيق ويخرجك عنها، إما في خير أو شر وأنت لا تدري؛ فاسم اللطيف، ولذلك دائماً أنت تقول: اللّٰهم الطف بنا.

ويوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما مر بمحن عظيمة والله هو الذي تولى أمره، قال يوسف آخر شيء: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وأنت تقرأ في القرآن: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]؛ فيسوق لك الرزق وأنت لا تدري.

فشوف هنا لما جاء اسم اللطيف جميل جداً لما تتدبر هذه الآية، يقول لك يعني: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ ما قال إن الله عزيز حكيم ولا غفور رحيم، قال لا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾. والخبير هو الذي يعلم دقائق الأشياء وخفاياها، فالوصف دقيق في العلم والقدرة الكاملة، فهو عالم قدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك اللطيف هذا الاسم العجيب لم يذكر في القرآن إلا مع الخبير؛ ما فيه اللطيف العزيز أو اللطيف الحكيم لا، كلها اللطيف الخبير؛ فتأمل تدبر تزداد علماً وتزداد تدبراً ويزداد إيمانك، وكل ما تتدبر هذه الآيات العظيمة تجد وراءها كنوزاً عظيمة، نحتاج منا أن نستخرجها.

والعجب العجب، كل العجب أيها الإخوة، أن تجد كثيراً من الناس يقرأ ويمر على هذه الأشياء؛ يا أخي هذه الأشياء دفائن كنوز مدفونة، تمر عليها وتتركها! قف عندها، استخرجها، تأمل، تدبر.

ولذلك ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْه يقول: «لَا تَهُذُّوا الْقُرْآنَ هَذَّ الشِّعْرِ، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقَلِ، وَلَكِنْ قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ، وَلَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ». متى يخلص؟ لا يهمنا؛ يهمنا أننا ماذا نخرج بأي شيء؛ القرآن هدى ورحمة ومواعظ بقينا نستفيد منها.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾؛ هذه فهمناها الآن أنها قضية الاعتقاد والتوحيد ونبذ الشرك ومراقبة الله فيما يأتي ويذر. هذه تزيد في إيمان العبد؛ لما قرر لقمان لابنه هذه العقيدة، صححها وبينها له وبين عظمها، انتقل بعد ذلك إلى الأعمال؛ قال لا تكن فقط إيمان فقط، لا؛ إيمان وعمل، إيمان وعمل.

ولذلك أنت تقرأ في القرآن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، ولا يمكن إيمان بلا عمل، ولذلك شوف لاحظ هنا، قال: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ ناداه مرة أخرى، ثم قال: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وهذا دليل على أن الصلاة مشروعة عندهم، مشروعة حتى يعني عند الأنبياء السابقين؛ يعني إبراهيم يقول: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وأيضاً الله عَزَّ وَجَلَّ خاطب موسى وهارون قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٨٣].

وآيات كثيرة تدل على أن الصلاة، وشعيب يقول له قومه: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧]؛ الصلاة شعيرة في جميع الرسالات السابقة.

هنا لقمان يقول: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، ولم يقل: يا بني صلِّ، مثل ما يقول الناس؛ كثير من الناس الآن يقول لأبنائه: قم صلِّ، أو اذهب صلِّ في المسجد، لا؛ أقم الصلاة غير صلِّ؛ أقم الصلاة بحدودها وفرائضها وأوقاتها وخشوعها وواجباتها وأركانها.

يعني إقامة الصلاة شيء أخر، أنت خلاص تترك الدنيا وتقبل على الله، تترك الدنيا وراءك وتقبل على الله، فأقم الصلاة غير صلِّ، ولذلك القرآن كثيراً ما يأتي، إلا أن تأتي كلمة أقم الصلاة؛ فأمره بإقامة الصلاة.

قال لأنها من سبيل من أناب الله ؛ لأن قال: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، الذين أنابوا إلى الله وبحثوا عن رضا الله وأقبلوا على ربهم وأخبتوا له، وهم الذين يصلون ويحافظون على الصلاة؛ ولأن الصلاة ماذا تربي الإنسان؟

كما رباه على التوحيد والإيمان، الصلاة تربيك على التوحيد والإيمان؛ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتصفو النفس، تصفو النفس مع ربها، والصلاة يعني فوائدها كثيرة، كثيرة جداً؛ نور في القلب، الصلاة نور؛ فلا شك أن وصية في أجل العبادات وأجل الأعمال هي الصلاة.

والصلاة كما هو معلوم بينك وبين الله تربطك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي لا يصلي خلاص قطع العلاقة مع ربه.

وصيته الثانية قال: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [لقمان: ١٧]، هذا بينك وبين الناس؛ لا تكون عبادتك لك أنت وصلاحك لك أنت، لابد أن يكون صلاحك متعدياً إلى غيرك، وعبادتك متعدية إلى غيرك؛ يعني أنت أصلحت نفسك، بقي أن تصلح غيرك، أن تصلح غيرك؛ فلا تكون على نفسك فقط وإنما يجب عليك أن تبذل نفسك لغيرك.

ولذلك قال: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ بحسب وحسب الجهد والقدرة؛ قد تأمر بالمعروف بيدك، قد تأمر بلسانك، قد تأمر بقلبك، المهم أنك تأمر بالمعروف، لا تكون بعيداً عن هذه الشعيرة، وذلك يعني شوف لما كمّل نفسه بالطاعة مع ربه، أراد أن يكمّل غيره وينصح غيره.

ولاحظ أن الله لما قال: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالخير وبما فرض الله من واجبات، ﴿انْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ بالشر، أنهي عن الشر وعن كل ما يرتكبه من المعاصي والكفر.

قال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]؛ كلمة واصبر على ما أصابك هذه تدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يناله من الناس أذية لابد؛ فوطّن نفسه.

قال أنت ستخوض مع الناس وتخالطهم فلابد أن تصبر عليهم لابد، لابد أن تصبر كما أنك تصبر على الصلاة، قال في الصلاة يعني أمر الله، قال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]؛ كذلك تصبر على أذية الخلق؛ لأن الناس قد لا يتجاوبون معك.

وزاد على ذلك أنه قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]؛ أي الصبر على أذى الناس من عزائم الأمور، من الأمور التي يعزم عليها، من الأمور التي ينبغي الاهتمام بها ولا يوفق لها إلا أهل العزائم، أهل العزائم هم الذين يوفقون لهذا الشيء، فيأمره بالصلاة ويأمره بالمعروف والنهي عن المنكر لأن هذه الأمور من عزائم من عزائم الأشياء التي ينبغي أن يعزم عليها.

وهذا الآن لما قرر العقيدة وقرر أصول الأعمال الصالحة، هذه أصول الأعمال الصالحة والدعوة إلى الله والدعاء إلى الأخلاق؛ نعم دخل الآن في الأخلاق.

قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]؛ أي لا تعرض بوجهك تتكبر عليهم، تميل بوجهك عنهم إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك واستكباراً منك أنك لا تقبل بوجهك، بل الواجب عليك أن تلين الجانب وتبسط وجهك وتقبل عليهم.

كما في الحديث: «أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»؛ منبسط؛ لا تصعر خدك لا تتكبر، هذا بينك وبين الناس، لا تصعر ولا تتكبر، هذا بينك وبين الناس.

ثم قال بعدها: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾؛ يعني هذا الأول بينك وبين الناس لا تصعر خدك للناس، لما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي متكبراً عليهم؛ يعني المشي في الأرض مرحاً إذا مرح وتكبر وتجبر عليهم.

شوف تامل معي ختم الآية مثل ما ذكرناها قبل قليل، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]. مختال في نفسك، لأنه قال: ولا تمش في الأرض مرحاً هذا اختيال.

ثم قال: فخور أي على الناس؛ يعني لا تختال بنفسك ولا تفخر على غيرك؛ تختال في مشيتك وتتكبر، وعلى غيرك تستكبر عليهم، فشوف كيف الآية جمعت بين الأمرين وجاءت ختم الآية مناسبة للأمرين.

ثم قال بعدها: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]؛ يعني امشِ مشياً مقتصداً، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

اقصد في مشيك: اعتدل في مشيتك؛ لا تكن مشيتك مشية بطيئة، ولا تكون مسرعاً سرعة مفرطة، كن معتدلاً.

ولذلك وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه إذا مشى تكفؤاً كأنما ينحط من صبب؛ يعني يمشي مشياً معتدلاً وفيه شيء من الخفة، لا أن يكون بطيئاً متكاسلاً يُرى فيه الكسل والثقل، ولكنه فيه مشية يعني سريعة خفيفة لكن ليست سرعة مفرطة ملفتة للناس؛ فلهذا قال واقصد، والقصد في الشيء الاعتدال، القصد في الشيء الاعتدال، هذا بينك وبين نفسك.

أما بينك وبين الناس قال: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]؛ لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك، ولا تتكلف؛ تجد بعض الناس يتكلف في العبارات ويرفع صوته؛ لا ترفع صوتك وتكلف إلا في الحاجات الضرورية كالخطيب مثلاً والواعظ ونحوه، أما أن ترفع صوتك من غير حاجة فصوتك منخفض.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]؛ أقبح الأصوات وأنكرها يعني في العلو صوت الحمير، فصوت صوت الحمير صوت يبغضه الناس، فلا تتشبه بالحمير في أصواتها.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الْحَمِيرِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

ينبغي أن لا يرفع إنسان صوته بمثل هذه الصَّخَبِ في الأسواق، رافعاً صوته من غير حاجة، كل هذا ما ينبغي؛ قال: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

هذه وصايا جليلة عظيمة حقيقة، جديرة بأن نراجعها ونتأملها، ونوصي أنفسنا، ونوصي أنفسنا بالتمسك بها، ونوصي غيرنا من الأبناء والإخوة والأقارب أن يتأملوا هذه الوصايا وأن يأخذوا بها؛ فهي وصايا صادرة من صادرة من حكيم، حكيم يعرف ولذلك شوف الترتيب العجيب في هذه الوصايا.

هناك وصايا كثيرة لقمان ذكرها أهل العلم لكن لسنا بحاجة إليها، ولكن من أراد فليرجع إلى (تفسير ابن كثير)؛ فإن ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ ذكر وصايا كثيرة جداً نُقلت في كتب المواعظ والحكم، والله أعلم بذلك.

لعل نقف عند هذه الآية إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(لقمان ٢٠ - ٢٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للسادس من الشهر السادس، (جمادى الآخرة)، من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا المعتاد من كل أسبوع بعد صلاة المغرب، والحمد لله الآن دخلنا العقد الثالث؛ يعني مضى على الدرس هذا عشرين سنة وزيادة بدأنا ولله الحمد في هذا في مسجدنا الدرس عام ألف وأربعمائة وأربعة وعشرين.

والآن مضى عشرين سنة تقريباً وزيادة، والحمد لله؛ والدرس ماشي ولله الحمد والخير فيه كثير، والإخوة الفضلاء جزاهم الله خير انتفعوا ولله الحمد بهذا الدرس ونحن انتفعنا ولله الحمد، وقد اجتمعنا على خير، وعلى مائدة القرآن، وعلى هذا الفضل العظيم؛ نسأل الله أن يديم علينا، وأن يزيدنا، وأن يثبتنا وإياكم.

السورة التي بين أيدينا هي (سورة لقمان). تحدثنا في لقاءاتنا الماضية عن هذه السورة، وأيضاً خاصة عن الحديث عن قصة لقمان ووصايا لقمان لابنه، وأنهينا هذه الوصايا التي تحدثنا عنها في اللقاء الماضي.

وأن هذه الوصايا ركزت على ثلاث نقاط، على ثلاث نقاط:

المسألة الأولى: هي (التوحيد) و(العقيدة)؛ ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ومراقبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ [لقمان: ١٦]؛ حسنة أو سيئة يأتي بها الله ويجازي بها؛ مراقبة الله في السر والعلن.

المسألة الثانية: مسألة (الأعمال الصالحة)، وذكر أو أوصى لقمان ابنه بأمرين:

⬅الأمر الأول: متعلق برب العالمين، وهي قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾[لقمان: ١٧].

⬅الأمر الثاني: متعلق بمخالطة الناس، وأن ينفع الناس فيما يخالطهم به؛ قال: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾[لقمان: ١٧].

⬅المسألة الثالثة: **التي ضمن هذه الوصايا:** هي أنه أوصاه بأحسن الأخلاق ونهاه عن سيئ الأخلاق؛ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾[لقمان: ١٨]، ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[لقمان: ١٩]؛ فهذه وصايا مهمة حقيقة.

بعدما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الوصايا، عادت الآيات مرة أخرى في بيان عظمة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ووحدانيته؛ لما ذكر الله في الآيات السابقة أنه خلق السماوات بغير عمد ترونها، وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة، عادت الآيات للتذكير؛ تذكير هؤلاء المشركين بنعم الله عليهم، وبأن الله هو الواحد المنفرد بالخلق والتدبير، وهو الواحد في العبادة وهو الذي يجب أن يوحده؛ لذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾[لقمان: ٢٠].

هذه الآية، الآية رقم عشرين من السورة؛ قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان: ٢٠]. ألم تروا؛ يعني هل غاب عنكم ولم تروا هذه النعم التي أمامكم؟

أليس الله سبحانه هو الذي خلق السماوات، خلق هذه السماء وجعل فيها الكواكب النيرات، وجعلها سقفاً محفوظاً، وجعل فيها الشمس والقمر والنجوم والسحاب والأمطار والخير؟

هذه نعم عظيمة؛ سخر لكم ما في السماوات كلها مسخرة لهذا الإنسان، سخر الشمس والقمر والنجوم، وسخر السحاب؛ السحاب المسخر كل هذه نعم، والسماء كلها مسخرة لهذا الإنسان.

وسخر لكم ما في الأرض؛ جعل الأرض قراراً مسخرة لك؛ تزرع، وتبني، وتحصد، وفيها الأنهار، وفيها الأشجار، وفيها الزروع، وفيها الثمار، وفيها المعادن؛ كل هذا مسخر لك أيها الإنسان. ألم ترى أن الله سخر لك؟

الله وحده لا شريك له هو الذي سخر وذلل؛ تسخير التذليل والقهر، أي أنها قهرها وذللها فلا تستعصي؛ فأعطاك هذه النعمة العظيمة سخرها لك، وزيادة على ذلك أسبغ عليك النعم الظاهرة والباطنة.

والإسباغ هو إتمام الشيء وإكماله؛ أسبغ الشيء أسبغه يعني جعله تاماً كاملاً حتى فاض عليك، والله عَزَّ وَجَلَّ أسبغ علينا النعم تامة كاملة حتى فاضت علينا؛ نعم عظيمة ظاهرة وباطنة.

مما هو ظاهر أمامنا نراه ومما هو باطن لا نراه أو يغيب عنا؛ فتفكر في نفسك من النعم العظيمة التي تحيط بك وبجسمك، والنعم التي لا تعد، التي لا يمكن أن نحصيها، لا يمكن أن نحصيها؛ أسبغ علينا نعماً ظاهرة وباطنة.

ومع الأسف، مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني خلق السماوات لهذا الإنسان بأحسن الخلق وإبداعه، وخلق الأرض وبث فيها وسخر هذا الشيء كله لهذا الإنسان، مع ذلك كله أنك تجد من الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير؛ يجادل في الله؛ يجادل في توحيده، يجادل في توحيد الله بأنه هو الواحد وأنه هو المستحق للعبادة.

فتجده يعبد الشيطان ويعبد هذه الأصنام والآلهة ويترك عبادة ربه الذي هو الذي يستحق العبادة، ويجادل في إرسال الرسل، ويجادل في اليوم الآخر ولا يصدق بأخبار الله ولا يصدق برسول الله؛ فبغير علم، ما عنده علم، وقد تجد بعضهم عنده علم ولكنه علم لا ينتفع به؛ بعضهم عنده معرفة وعنده علم بهذه الأمور لكن علم لا ينفع.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠]؛ ليس عنده علم، ولا هدى يهتدي به؛ ليس له هداية اهتدى بها وليس له طريق يسير عليه بيّن، ولا كتاب منير؛ كتاب قد أنزل عليه أو وجده أثره عن غيره كتاب صحيح؛ لا تجد هذا كله، لا كتاب.

يعني يجادل هذا المجادل يجادل ولا علم ولا هدى ولا كتاب؛ يعني لا عقل ولا نقل؛ ليس عنده لا عقل ولا نقل، إنما مجرد شبهات؛ شبهات يقفون عندها ويثيرون هذه الشبهات حتى يضل الناس بها، يضل الناس بها.

فهذا المجادل في توحيد الله وفي انفراد الله بالخلق والتدبير؛ يعني يجادل بغير علم ولا عقل ولا اتباع هدى ولا كتاب يعتمد عليه؛ ليس عنده شيء أبداً، لا نقل ولا عقل؛ فهذا مسكين كيف يجادل؟ إنما يجادل بحجج شيطانية وشبهات.

وإذا قيل لهم، هؤلاء الذين يجادلون بغير علم، إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله؛ أي ما جاء على لسان الرسول من الشرائع المطهرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١]؛ يعني هذا ردهم؛ يعني لا يريدون قبول الحق وإنما يريدون التقليد الأعمى، لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وفي هذه الآية، قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

في آية (البقرة) قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؛ يعني لو كان الآباء لا يعقلون هذه الأشياء ولا يهتدون تتبعوهم؟ تتبعون آباءكم على غير بينة وعلى غير دليل؟ فكيف تصنعون هذا؟

ولذلك الله هنا بيّن أن هذا الضال، إذا ضل واعتمد على هذه الشبهات، وترك الحق البين الواضح كالشمس، وترك ما جاء به الله عَزَّ وَجَلَّ وما أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ ودخل في هذه الظلمات، من الذي يستولي عليه؟

يستولي عليه الشيطان؛ ولذلك قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]. من تخلى عن الله تسلطت عليه الشياطين؛ فاستحوذ عليه الشيطان وأصبح هذا المسكين أسيراً في يد الشيطان يقوده كيف يشاء ثم مصيره إلى النار.

ولذلك قال يدعوهم إلى عذاب السعير؛ فلا سبيل للتخلص من الشيطان ومن أعوان الشيطان إلا أن يتمسك بشرع الله؛ فإن عاد إلى ربه وتمسك بشرعه فسلم من ذلك، وإلا أصبح أسيراً في يد الشيطان.

ولاحظ الآيات سبحان الله العظيم يبين بعضها بعضاً؛ قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ ثم قال إن أردت التمسك والعودة إلى الله فعليك ماذا؟ قال: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

يعني أسلم وجهك وأقبل إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ولا تتبع الشيطان؛ فإنك إذا أقبلت وأخلصت العمل لله وأسملت وجهك، لاحظ قال أسلم وجهه؛ يعني أخلص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قدم الوجه لشرفه، وإلا هو قد أسلم نفسه بالكلية وانقاد لله عَزَّ وَجَلَّ وأخلص عمله وانقاد لأوامر الله واتبع شرعه.

ولذلك قال بعدها وهو محسن؛ أي ليس مجرد أنه يقول أنا آمنت وأنا متبع لله وأنا أسلمت وجهي لله لا، يسلم ويعمل؛ ولذلك قال وهو محسن، ما قال وهو يعمل الصالحات لا، أتى بأعلى درجات العمل وهي الإحسان؛ قال أحسن في عمله باتباع ما أمر الله وترك ما نهى عنه.

فهذا إذا فعل ذلك النتيجة ما هي؟

﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]؛ يعني أخذ بأمتن العرى وأقواها، فتمسك بهذه العروة وسلم من الهلاك؛ لأن إذا لم يتمسك بالعروة الوثقى فهو على شفا حفرة لجهنم، فكأن هذا أمامك الآن عرى وثيقة وأنت على طرف هذه الحفرة، حفرة من النار.

فإن تمسكت بهذه العرى تمسكت بقوة وصارت العرى هذه قوية نجوت، وإن كانت العرى ضعيفة أو تمسكك بها ضعيف فستسقط وتهلك كما هلك غيرك.

فهذا التعبير تعبير جميل جداً، يقول من يسلم وجهه ويقبل بوجهه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وانقاد بروحه وبدنه وهو محسن عامل الأعمال الصالحة فهذا قد استمسك بالعروة الوثقى؛ يعني تمسك بالعروة القوية التي تنجيه من النار.

قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢]؛ أي محاسبة الفريقين إلى الله، فأنت أحد هذا الأمر؛ إما أن تتمسك بالعروة الوثقى وتنجو، وإلا ستكون أسيراً في يد هذا الشيطان يقودك كيف يشاء ثم مصيرك إلى النار؛ وإلى الله المحاسبة وإلى الله المحاسبة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي جزاء الأعمال إلى الله عائد إليه، وسيحاسب كلٌّ بعمله، ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

قال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ [لقمان: ٢٣]. يقول هؤلاء الكفار الذين أصروا على كفرهم ولم يقبلوا الحق ولم يتمسكوا بالعروة الوثقى فلا يضرك هذا، لا يحزنك ولا يضرك هذا؛ نسميه أسلوب تسلية، تسلية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال لا تحزن عليهم في كفرهم وبما جئتهم به وقد ردوا رسالتك وكفروا بك وأصبحوا في يد الشيطان، فلا تحزن عليهم فلا يحزنك كفرهم إلينا مرجعهم؛ سيرجعون إلى الله فينبئهم بما عملوا، يرجعون إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ويجازيهم بأعمالهم.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣]؛ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم؛ إذا كان علياً بذات الصدور وهي الأشياء الخفية.

فمن باب أولى أنه عليم بأعمالهم الظاهرة وسيجازيهم على أعمالهم، سيجازيهم؛ وقفوهم إنهم مسؤولون، فهذا أسلوب تهدئة؛ يعني حتى يدخل السرور على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويزيل عنه الكآبة والحزن الذي واجهه من قومه؛ أنها إذا كفروا فهذا لا يضرك وإنما يضرهم، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يحاسبهم.

قال: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤]. يقول لا يضرك، هم سيتمتعون في هذه الدنيا متاعاً قليلاً ثم يرحلون ويتركون هذا المتاع؛ نمتعهم قليلاً ثم مصيرهم إلى الهلاك، مصيرهم إلى الهلاك؛ ولذلك قال ثم نضطرهم، أي نلجئهم.

- **ليش اضطرهم إلى عذاب غليظ؟**

قال لأن هؤلاء المتكبرين العاتين المعاندين ما ينفع معهم إلا القوة والغلظة، القوة والغلظة؛ لأنهم عتوا وتمردوا على الله وعلى رسوله فلا ينفع معهم إلا أن يضطروا ويلجؤوا؛ لأنهم لا يريدون دخول النار إذا رأوها فيضطرون إلى ذلك ويلجؤون بقوة إلى عذاب غليظ، ليس عذاباً فقط، عذاب غليظ فظيع صعب؛ يعني يشق على النفوس.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية أخرى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[يونس: ٧٠].

فالآيات التي مرت معنا تبين موقف المسلم وموقف الكافر، ومصير المسلم ومصير الكافر؛ لما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ وسلم ونجا، وأما الذي كفر فلا يحزنك كفره، لا يحزنك من استمر على كفره؛ فالحياة قصيرة ويمتع متاعاً قليلاً ثم النهاية يضطر ويلجأ إلى العذاب الغليظ.

وهؤلاء الكفار مع الأسف المعاندون الذين يصرون على كفرهم وعنادهم، لو أوقفناهم وسألناهم عن حقيقة ربهم وعن الإيمان به وسألتهم عن أفعال الله عَزَّ وَجَلَّ سيقرون بها.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]. لو سألتهم من الذي خلق السماوات والأرض؟

سيقرون بذلك لكن إقرار لا ينفع؛ ليقولون الله، قل لهم الحمد لله أنكم اعترفتم بهذا الشيء بأن خالقكم وخالق السماوات والأرض هو الله وحده لا شريك له، ومع هذا تعبدون معه شركاء، شركاء كيف تعترفون بأن الله هو خالق الخلق وهو المالك لها ثم بعد ذلك تحيدون عنه وتعبدون هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر؟

أليس ذلك يدل على سفاهة عقولكم؟ كيف تقدمون على هذا الشيء وتتركون الخالق الرازق المدبر الذي بيده كل شيء؟ فهذا إقرار منهم وإقامة الحجة عليهم؛ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

بل أكثرهم يعني عندهم جهل وعدم معرفة؛ كيف تعرف أن الله الذي خلق السماوات والأرض والمدبر لها ثم تنصرف عن الخالق وعن عبادته إلى عبادة هذه الأصنام، الشجر والحجر الذي لا ينفع ولا يضر؟ كيف تقدم على هذا الشيء؟

ولذلك أكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ملك الله عَزَّ وَجَلَّ السماوات والأرض؛ فقال: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٦]. فالله هو المالك للسماوات والأرض وما فيهن، وهو خالقها؛ فهو خالقها ومالكها.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦]؛ يعني أن الله الخالق للسماوات والأرض وما فيهن والمالك لها ملكاً حقيقياً غني عنكم أيها الكفار، غني حميد؛ وهو غني عن عبادتكم وليس بحاجة لعبادتكم، ولكنه إنما هي أعمالكم يحصيها لكم ويجازيكم عليها.

فإن أعرضتم واستمريتم على ما أنتم عليه فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غني حميد؛ فغناه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني هو في غناه مستغنٍ عنكم، وحميد في أفعاله، وحميد في غناه بأن يحمده الحامدون، بأن يحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحامدون على نعمه وآلائه وعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى.

ولذلك لما قال: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وبيّن لنا سعة ملكه وسعة خلقه، بيّن لنا سعة علمه بعد ذلك؛ لما بيّن لنا سعة الخلق وسعة الملك وسعة غناه وأنه غني وأنه محمود على أفعاله والكفار يحمدون على أفعاله.

ذكر أيضاً سعة علمه؛ فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

هذه الآية آية عظيمة أيها الإخوة، ولو أن عظيمة ولو أن ما في الأرض يقول لو أن الأرض كلها ما فيها من هذه الأشجار استعملت أقلاماً، جعلت أقلاماً، ثم هذا البحر الذي تراه أمامك، هذا البحر الواسع المحيطات هذه مدت بسبعة أبحر زيادة عليها، ثم كتب بها كلمات الله لتكسرت الأقلام ونفدت هذه البحار وكلمات الله لا تنتهي لا حد لها؛ والله عَزَّ وَجَلَّ العظيم وكلامه عظيم لا يحد بحد.

ولذلك مثل هذه الآية ما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في (سورة الكهف)؛ قال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

والمراد به هنا سبعة أبحر، لا يراد بها السبعة؛ فإن السبعة يستعملها العرب للكثرة فقط، وإلا لا يحدد بها؛ سبعون لو كانت ثمانية وتسعة لنفدت، لو كانت مائة لنفدت؛ لا يراد بها السبعة أو يعني عدد معين، وإنما يراد به الكثرة.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عن الصدقات والإنفاق في سبيل الله: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١]؛ فسبعة هنا لا يراد بها الحد المعين وإنما يراد بها الكثرة؛ تستعملها العرب السبعة والسبعين والسبعمائة.

ولذلك قال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠]؛ يعني لو استغفر واحداً وسبعين أو اثنين وسبعين نقول كله واحد؛ لأن المراد بالسبعين الكثرة، الكثرة.

وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية العظيمة يعني لو أن ما في الأرض من شجر والبحر يمده سبعة أبحر، هذا تقريب لنا تمثيل وتقريب لنا، تقريب للأذهان أن كلام الله لا يمكن أن يحصر، لا يمكن أن يحصر، ولا يمكن أن يتصور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فكلامه وقضاؤه وحكمه وحكمته فلا تنتهي. وكان هذا فيه إشارة إلى أن هذه السورة فيها حكم عظيمة من حكم الله وفيها قصة هذا الحكيم، الرجل لقمان الحكيم؛ فالحكيم هذا الرجل، والسورة الحكيمة، والقرآن حكيم كله صادر من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا ينقضي كلامه سبحانه ولا تنتهي عجائبه جل جلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]؛ أي ذو عزة وقوة ومنعة، وحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أحكامه وكلامه وقضائه وكتبه وغير ذلك، فهو حكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فكما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علمه أوسع؛ ولذلك لما ركب موسى في السفينة مع الخضر فوقع طائر صغير على حرف السفينة ثم أخذ من البحر ماء ثم طار، قال له الخضر: «**يَا مُوسَى، مَا عِلْمِي وَعِلْمُكَ فِي عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلُ مَا أَخَذَ هَذَا الْعُصْفُورُ -أَوْ هَذَا الطَّائِرُ- مِنْ هَذَا الْبَحْرِ الْوَاسِعِ**».

ولذلك لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية التي بين أيدينا سعة علمه وسعة كلامه، ذكر أيضاً قدرته على الخلق وأنه قادر على خلق الناس في لحظة؛ ولذلك قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]. يعني كل الخلق كلهم كأنها نفس واحدة؛ وفيه إشارة إلى أن الله قادر على بعث الناس بلحظة، إنما يقول له كن فيكون لا يعجزه شيء: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

مجرد لمحة البصر إذا هم مجتمعون: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾ [النازعات: ١٣-١٤]؛ إذا هم على سطح الأرض، فكيف ينكر هؤلاء الجاحدون قدرته وسعة علمه؟ كيف يجحدون ذلك؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨]. سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم وأفعالكم؛ فسمعه وبصره بالنسبة إليهم كسمعه وبصره إذا نفس واحدة، لا يعجزه شيء في الأرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو فله القدرة التامة، القدرة التامة في الخلق والبعث والجزاء.

لعل نقف عند هذه الآية إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم؛ وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(لقمان ٢٩ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين؛ أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثالث عشر من شهر **(جمادى الآخرة)** من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، الكتاب الذي بين أيدينا؛ درسنا في سورة **(سورة لقمان)**، **(سيرة لقمان)**؛ نحن تحدثنا عن هذه السورة ومر بنا عدد من الآيات، وقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩]؛ وهي الآية التاسعة والعشرون من هذه السورة، من سورة لقمان.

هذا خبر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا الخبر يتضمن الحث والارشاد إلى النظر في الكون والتأمل في آيات الله؛ لأنه لما قال ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا استفهام؛ استفهام تقريري، يعني: قد رأيت أو لعلك ترى؛ تلفت نظرك إلى هذا، إلى هذه الآية العظيمة وهي آية الليل والنهار.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر في سورة أخرى قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]؛ فجعل من آياته الليل والنهار، فالليل آية والنهار آية؛ لما تصبح قد ذهبت الشمس وتكون في ظلمة شديدة، هذه الظلمة الشديدة آية من آيات الله.

لما تكون في هذه الظلمة وقد اشتدت هذه الظلمة، ثم يأتي الفجر وينبثق النهار، وتأتي الشمس بازغة ويذهب الليل ويأتي مكانه النهار، هذه آية عظيمة من آياته؛ آية عظيمة ينبغي أن نقف عندها ونتأملها.

ولذلك يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؛ يعني: أعميت ولم ترَ؟ أجهلت ولم تعلم؟ لأن (ترى) هنا تحتمل أنك ترى بعينيك أو ترى بقلبك؛ فإن قلت: (ألم ترَ) يعني بعينيك، قلت: أعميت ولم ترَ، وإن قلت: بقلبك، تقول: أجهلت ولم ترَ ولم تتأمل ولم تتفكر؟

تتفكر في آيات الله الكونية التي من أعظمها آية الليل وآية النهار، وحركة الليل والنهار، وإيلاج الليل؛ إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل؛ لأن يولج يعني: يدخل هذا مكان هذا، ولا يجتمعان في وقت واحد؛ ما يمكن أن يجتمعا في وقت واحد، هذا يتبع هذا وهذا يتبع هذا؛ يطلبه حثيثاً سريعاً، وهذا يطول وهذا يقصر؛ كل هذا بتدبير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهي آية عظيمة.

ولكن هنا سؤال أيها الإخوة: لماذا بدأ بالليل؟ لماذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ﴾ ما قال يولج النهار؟

- **بدأ بالليل؛ قدم الليل على النهار، لا شك أن تقديم الليل على النهار فيه لفتة جميلة؟**

الجواب:

الأمر الأول: إن الليل آيته أعظم من النهار؛ يعني ظلمة الليل وشدته، هذه بلا شك أنها آية عظيمة، ولأنه يتناسب مع آيات أخرى لما قال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ يعني الليل يغطي النهار، هذا أمر.

الأمر الثاني: لو قيل لك ما الأصل؟ الأصل الظلمة؛ الأصل هو الظلمة، ثم النور طارئ؛ إذا جاءت الشمس وجد النهار، إذا لم تأتِ الشمس لا يوجد نهار، فالأصل الظلمة، الأصل الظلمة؛ ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، فالأصل الليل؛ ولذلك بدأ به فقال: يولج الليل في النهار.

ثم ذكر آية أخرى عظيمة، وأنت الآن لا زلت وأنت قد لا زلت وأنت في العلو قد رفعت رأسك إلى السماء؛ لأن هذه الآيات الآن الآيات في السماء، ستأتيك آيات الأرض؛ فآيات السماء: الليل، والنهار، والشمس، والقمر.

قال: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [لقمان: ٢٩]، لم يقل: وخلق الشمس والقمر؛ قال: سخر الشمس والقمر، إذاً الشمس مسخرة والقمر مسخر.

- **ما معنى مسخرة؟**

أي: مذللة؛ التسخير هو التذليل والخضوع، فالشمس خاضعة لله مذللة لله مطيعة لا تعصيه أبداً، والقمر كذلك خاضع مذلل لا يعصيه، وهي آيات كبيرة عظيمة أعظم من الأرض ومع ذلك تسير وتنقاد لله لا تعصيه.

كما هو حال هذا الإنسان الذي لا ينقاد في كل شيء ويعصي الله، فهذه تؤدي وظيفتها على أكمل وجه، وهي كلها مسخرة لهذا الإنسان في مصلحة، في مصلحة بني آدم، مصلحة العباد.

وكلٌّ من الشمس والقمر والنجوم تجري؛ تجري في هذا الكون الواسع الفسيح وتسير بسرعة لأن الله يقول: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ فتسير بسرعة، ولكنك أنت لبعد الشمس عنك تراها تسير ببطء.

وهنا انظر إلى اللفتة الأخرى أيضاً؛ هنا قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، في سائر الآيات يقول: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢]؛ وهنا قال: ﴿إِلَىٰ﴾، فهناك فرق بين لأجل؛ اللام حرف الجر، وإلى التي هي حرف جر يختلف؛ ولذلك وقف المفسرون عند هذه الآية قالوا: هذه الوحيدة في سورة لقمان التي فيها ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ﴾، قالوا: لأن هنا الأجل المراد به نهاية الدنيا.

أما السور الثانية الأخرى التي فيها ﴿لِأَجَلٍ﴾ يقولون: لا، هذه نهاية حركتها اليومية أو الشهرية؛ فالقمر والشمس لها حركة؛ فالشمس لها حركة يومية تطلع أول النهار وتغيب آخر النهار، والقمر له حركة شهرية يطلع أول الشهر ويغيب آخر الشهر، ويترتب على هذا معرفة السنين والحساب، يترتب عليه معرفة السنين والحساب.

فهنا لما قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ قال أهل التفسير: الأجل المراد به هنا هو نهاية الدنيا؛ نهاية الدنيا، كل يجري إلى أجل؛ أي إلى غاية ينتهي عندها ويسير إلى أجل ينتهي عنده.

انظر لما ذكر هذه الآيات العظيمة والمخلوقات العظيمة؛ الليل، والنهار، والشمس، والقمر؛ قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠]؛ أي خالق هذا الخلق والمدبر له والمتصرف فيه والمنعم على عباده بهذه النعم العظيمة.

نعمة الليل ونعمة النهار ونعمة الشمس والقمر، هذا هو الحق هو الله؛ ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من الآلهة المزعومة التي هي كذب في كذب وإفك، هذه باطلة؛ ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾، دلت على أنها باطلة لأنها لا تتصرف في هذا الكون، ولا تملك شيئاً، ولا تدفع عن نفسها شيئاً؛ صنم وآلهة ومعبودات وأموات غير أحياء.

يعني: ما يشعرون أيان يبعثون، ما يدرون عن شيء؛ فكيف تساوي هذا بهذا؟ ولذلك في أول السورة قال: ﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١]، وقال في سورة أخرى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]؛ لا يمكن هذا.

لما قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠]، لماذا قال: ﴿الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾؟ لماذا لم يقل: وأن الله هو العزيز الحكيم، أو الغفور الرحيم، أو السميع العليم؟

لمَ أتى بكلمة، باسمين: (العلي) و(الكبير)؟ العلي الذي لا أعلى منه أحد، والكبير الذي هو أكبر من كل شيء، وكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه؛ ولما ذكر عظم هذه المخلوقات؛ الشمس العظيمة، والقمر، والليل، والنهار، والأرض، بيّن أن الله أعظم منها كلها.

فعظمة هذه المخلوقات، عظمة الله فوقها، فالله هو (العلي) سبحانه هو العلي وهو أعلى منها وأكبر؛ أكبر من هذه المخلوقات، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو (الكبير) أكبر منها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالعلو هنا: (العلي) اسم من أسماء الله، وصفته صفة الله صفة (العلو)؛ والعلو يقتضي أنه علو بذاته فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، وعلو القدر والمكانة، وعلو القهر؛ قد قهر المخلوقات تحت حكمه، وكبير بلا شك.

لما لفت نظرك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى السماء والنظر في هذا الكون، أيضاً لفت نظرك إلى الأرض وإلى البحار، وأن الله سخر الشمس والقمر وقد سخر أيضاً البحر.

ولذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]؛ ألم ترَ؛ أي: أعميت وجهلت ولم ترَ أن الفلك وهي السفن تجري في البحر بنعمة الله؟

والله قد سخر البحر لهذه الفلك تجري بها؛ سخر لكم البحر تركبون البحر وتستخرجون منه حلية تلبسونها وتأكلون منه لحماً طرياً، هذا البحر سخر الله، سخره الله لكم تمشي هذه الفلك وهذه السفن عليه، على هذا البحر بنعمة الله بفضل الله عَزَّ وَجَلَّ ونعمته؛ وإلا لغرقت هذه السفن ولم تمشِ على البحر.

ولكن الله كما قال: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣]؛ لكن الله بفضله ونعمته سخر هذا البحر.

قال: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ﴾؛ حتى تعرف آيات الله في الكون، وهذه الآيات إذا رأيتها زادتك إيماناً إن كنت مؤمناً، وإن كان هذا كافراً أرشدته إلى الإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

يعني كما سخر هذا الكون، سخر هذه الأفلاك العظيمة، وسخر البحر، وسخر السفن تجري عليه، وقوله تعالى -تأملوا معي حتى نتدبر جميعاً- يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]؛ انظر: (الصبار) الذي يصبر عند الضراء والمصيبة، قد يصاب في البحر، قد يصاب في البر فيصبر؛ الصبار كثير الصبر، هذه صفة المؤمن يصبر عند الضراء.

و(الشكور) هو الذي يشكر الله في السراء وفي الرخاء؛ فإذا أصابه خير شكر، وإذا أصابه ضر صبر؛ هذا المؤمن، أما الكافر، أما الكافر فإذا أصابه الشر جزع؛ يجزع، جزوع هلوع، وإذا أصابه الخير بطر واستكبر؛ وأما المؤمن فلا.

ولذلك الشيخ قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ فالعاقل الصبار الشكور هو الذي يستفيد من هذه الآيات ويعتبر بها، أما غيره فيمر عليها مروراً ولا يعتبر بها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢]؛ يقول: إذا أصابهم الموج العالي في البحار، وهذه الأمواج أصبحت كالظلل.

قال: يعني كالظلل يعني كالجبال العالية التي تظللك أو كالغمام السحب، دعوا الله؛ هؤلاء الكفار دعوا الله مخلصين له الدين وهم مشركون، لكن إذا أصابتهم الشدة دعوا الله مخلصين له الدين؛ يخلصون في الشدة ويشركون في الرخاء؛ دعوا الله مخلصين له الدين.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين؛ ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]؛ وهنا قال: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ [لقمان: ٣٢].

- **من الذي خلصهم ونجاهم من هذا الكرب الشديد؟**

الله عَزَّ وَجَلَّ نجاهم إلى البر؛ ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾؛ قال هنا: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وفي آيات أخرى: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾، هنا قال: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾.

- **كيف يكون مقتصد؟ ما معنى مقتصد؟**

قال: مقتصد يعني: متوسط عدل؛ يعني الكافر إذا رأى هذه الآيات ينزجر فلا يسرف في الكفر، إذا رجع يعرف أن الله -يعني الله- خلصه من هذا الكرب، فيأتي شيء من عدم الإسراف؛ ولذلك قال: مقتصد، ما قال إنه تائب وراجع إلى الله؛ لا، هو باقٍ على كفره وعلى شركه، لكنه ضعفت نفسه قليلاً فانزجر انزجاراً يسيراً، فهذا معنى ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾.

قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢]؛ (الختار) هو الغدار الذي يعاهد ثم يغدر، يعاهد ثم يغدر؛ كيف أنت في الفلك وقد بدأت الأمواج تتلاطم ورأيت الموت أمامك، والفلك سيغرق وستغرق أنت ومن معك.

فتعاهد الله لئن أنجانا من هذا الكرب لنكونن من الشاكرين، ثم إذا أخرجك من هذا الكرب وخرجت إلى الأرض وبدأت تمشي، إذا أنت ختار؛ يعني غدار، تغدر بالعهود والمواثيق؛ أين عهودك ومواثيقك أمس وأنت ترى الموت أمامك؟

فهذا معنى: ﴿كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾؛ والكفور هو الجحود الذي يجحد نعمة الله، والختار هو الغدار الذي يغدر، يغدر بالعهود؛ كيف تعاهد الله ولما كشف عنك الضر رجعت إلى كفرك وإلى شركك، إلى كفرك؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في خاتمة السورة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

لما بيّن لهم الآيات العظيمة ومواقف الناس منها، ناداهم فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾؛ اتقوا ربكم وخافوا الله عَزَّ وَجَلَّ الذي هو رباكم وخلقكم وأوجدكم؛ اتقوا واخشوا يوماً لا يجزي، اخشوا يوم القيامة؛ هذا اليوم العظيم الذي لا يجزي.

أي: لا يفدي ولا يخلص أحد أحداً؛ حتى الوالد لا يستطيع أن يفدي ليخلص ابنه، أو الابن لا يجزي والد عن ولده؛ الوالد الأب لا يستطيع أن يقدم فدية ليخلص ابنه من النار، فكلٌّ مشغول بنفسه، وكلٌّ لا يستطيع أن يبذل شيئاً لغيره، وكل نفس تقول: نفسي؛ لا يجزي والد عن ولده.

ثم قال: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا﴾، ما قال: ولا ولد؛ لمَ لم يقل ولا ولد؟

ولد في الأول قال: ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ﴾، المفترض تقول: وولد عن والده؛ قال لا: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾؛ لمَ قال ذلك؟ قال: لأن المولود هو ابنك مباشرة، وأما الولد فقد يكون ابنك وقد يكون ابن ابنك أو ابن بنتك؛ ولذلك قال: حتى أقرب الناس لك وهو المولود الذي هو أنت سبب في ولادته وأنت أبوه مباشرة لا يجزي عنك يوم القيامة، فضلاً عن أن يكون ابن الابن أو بعيد؛ لا يجزي.

لماذا؟ قال: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ وعده يوم القيامة حق وسيقيم هذا اليوم العظيم، وسيقف الناس كلهم أمام الله في شدة وفي هول وفي كرب؛ فلا تغرنكم الدنيا، لا تلهكم الدنيا عن الآخرة؛ لا تغتر بالدنيا وتنسى الآخرة.

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]؛ والمراد بـ **(الغرور)** الشيطان، لأن الله فسره في آية أخرى قال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

فدل على أن الغرور هو الشيطان؛ فأنت بين الدنيا وبين الشيطان؛ الشيطان يزين لك عملك، والدنيا تلهيك عن طاعة الله؛ فلا تغتر بالدنيا على حساب الآخرة، خذ منها ما يكفيك واعمل لآخرتك واجعلها

هي مزرعة للآخرة؛ ازرع فيها حتى تحصده في الآخرة. والشيطان احذر؛ فهو الذي غر الأبوين وأخرجهما من الجنة، فكن على حذر واجعله عدواً لك؛ قال: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]؛ هذه الآيات الأخيرة، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾؛ هذه يسميها أهل العلم **(مفاتيح الغيب الخمسة)**؛ مفاتيح الغيب الخمسة التي لا يعلمها إلا الله.

كما في الحديث؛ علم الساعة، نزول المطر، ما في الأرحام، ما تدري نفس عن المستقبل ماذا تكسب، وما تدري نفس بأي أرض تموت؛ هذا كله عند العليم الخبير؛ العليم بالظواهر والخبير بالبواطن والمواطن، أما غيره فلا يعلمه؛ لا يعلمه لا نبي مرسل ولا ملك مقرب، كلهم لا يعلمون؛ لا يعلم علم الساعة إلا الله، لا يجليها لوقتها إلا هو.

وكذلك الغيث الأمطار؛ لا ينشئ السحاب ويأتي به إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يمكن أحد أن يأتي بالسحاب وينشئه.

وكذلك لا يعلم ما في الأرحام إلا الله قبل وجود هذا الخلق، هذا الجنين الذي في بطن أمه قبل أن يوجد؛ الله يعلم هذا الرحم كم يحمل وما الذي سيحمله، أما إذا حمل وتخلّق فالكل يدري حتى الملك يدري؛ الملك ينزل ويدري ما هو والله يخبره فيقول: شقي أم سعيد، ذكر أم أنثى؛ الأطباء لما يتخلق في بطن أمه يعلمونه، لكن المقصود بـ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ قبل الوجود أو أثناء الوجود؛ أما الأطباء فهم لا يعلمون إلا ظاهراً، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا فقط.

قال: وكذلك ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ في دنياها وأخراها، ما تدري؛ هذا علم الغيب لا يعلمه إلا الله، ولا تدري أين تموت، في أي بلد أين تقبض روحها؛ لا تدري، هو يمشي في هذه الدنيا ولا يدري؛ فعنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مفاتيح الغيب، وهذه من مفاتيح الغيب التي جاءت في الأحاديث.

لكن هنا لفتة جميلة؛ انظر لعلنا نرتب هذه المفاتيح الخمسة:

⬅أولاً: ﴿عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ الساعة يوم القيامة، الساعة هي فاتحة الآخرة وهي نهاية الدنيا، فهذه فاتحة الآخرة مفتاح؛ ولماذا سميت مفاتيح الغيب؟ لأن علم الساعة هو مفتاح الآخرة.

ثانياً: ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾؛ قال: أين المفتاح؟ قال: الغيث فاتحة للحياة؛ إذا انقطع الماء مات الناس، فالغيث هو مفتاح للحياة، مفتاح الحياة الماء.

ثالثاً: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾؛ قال: هذه فاتحة لبقاء النسل، بقاء الذرية وبقاء هذا الجنس؛ لو لم تحمل هذه الأرحام لانقطع وانقرض الناس، فالرحم هذا فاتحة لتناسل الناس.

رابعاً: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾؛ قال: هذه فاتحة المستقبل، مفتاح المستقبل عند الله؛ ما تدري نفس ماذا تكسب غداً.

خامساً: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾؛ قال: هذا مفتاح للقيامة؛ قيامة كل إنسان إذا مات قامت قيامته وذهب ودخل في عالم البرزخ، هذا مفتاح؛ المفتاح مع الله عَزَّ وَجَلَّ ليس معه، ما يدري متى يخرج من هذه الدنيا.

فهذا معنى هذه المفاتيح الخمسة التي خُتمت بها هذه السورة، وختمها الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]؛ أي عالم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذه المفاتيح وخبير بما تحتويه وبما يترتب عليها.

وبهذا تختم السورة بهذه المفاتيح العظيمة، وننتهي من الحديث عن سورة (**سورة لقمان**). إن شاء الله في اللقاء القادم نبدأ بالسورة التي تليها وهي (**سورة السجدة**)؛ أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا؛ بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ السَّجْدَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(السجدة ١ - ٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين. اللّٰهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وهذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للعشرين من شهر (جمادى الآخرة) من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية.

في هذا اليوم نبدأ بسورة جديدة، وهي سورة لا تخفى على الجميع وتتكرر على الأسماع، وخاصة يوم الجمعة؛ فلها مزية وهي أنها تقرأ أو تستحب قراءتها في فجر يوم الجمعة.

وقد ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة بـ﴿الم ۝١ تَنزِيلُ ۝٢﴾ [السجدة: ١-٢] -يعني سورة (السجدة)- وفي الركعة الثانية ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]؛ فهذه سنة ثابتة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أحاديث صحيحة أنه كان يقرأهما؛ فينبغي الحرص على إحياء هذه السنة وقراءتهما، ولو أحياناً ولكن لا يقطعها؛ فهذه من فضائل هذه السورة.

ولو تأملنا وتدبرنا لماذا اختار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فجر يوم الجمعة سورة (السجدة) وسورة (الإنسان)، فما السر في ذلك؟

السر -والعلم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أن يوم الجمعة يوم يتميز عن سائر الأيام؛ فهو عيد المسلمين، والناس يتفرغون فيه ويتذكرون، وتكون فاتحة هذا اليوم بقراءة هاتين السورتين؛ لأن فيهما ما أعده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده المتقين من النعيم، وما أعده الله لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون.

فـ (سورة الم تنزيل السجدة) فيها ذكر الخلق الأول؛ خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم ذرية آدم، ثم البعث والحديث عن البعث والجزاء والجنة والنار، والحديث عن أهل النار والحديث عن أهل الجنة.

وكذلك سورة (هل أتى) تلاحظ فيها أيضاً الحديث عن الخلق الأول: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ١-٢]، ثم الحديث عن نعيم أهل الجنة، وعن عذاب أهل النار؛ فكلها متقاربة في الموضوعات.

ولعل السر في ذلك -والله أعلم- أن يوم الجمعة هو اليوم الذي تقوم فيه القيامة، وهو اليوم الذي خلق الله فيه آدم؛ فخلق آدم في هذا اليوم، وقيام الساعة في هذا اليوم؛ فهناك رابط بينهما وبين اختيار هاتين السورتين، والعلم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه السورة -سورة (السجدة) التي بين أيدينا- تسمى بسورة (السجدة)؛ فما السبب؟

- **نقول: لو جاءك سائل وقال: "فيها سجدة، وسور غيرها فيها سجدة كذلك؛ فهناك حوالي ثلاث عشرة أو أربع عشرة سورة في القرآن فيها سجدات؛ فكيف سميت هذه السورة بالسجدة دون غيرها؟"**

الجواب: لأنه لما كانت ﴿الم﴾ وردت في القرآن الكريم في افتتاحية ست سور، وهي: (البقرة)، و(آل عمران)، و(العنكبوت)، و(الروم)، و(لقمان)، و(السجدة)؛ ميزت هذه السورة بـ (السجدة) لأنه لا توجد سورة في القرآن الكريم افتتحت بـ ﴿الم﴾ وفيها سجدة تلاوة إلا هذه السورة؛ فقيل سورة (السجدة)، وهذا وجه.

وأيضاً تسمى بـ (ألم تنزيل السجدة)؛ لأنها السورة الوحيدة التي ذكر فيها ﴿الم ۝ تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾؛ فأحياناً تسمى بسورة (تنزيل)، وتسمى بسورة (السجدة)، وتسمى أيضاً (الم تنزيل السجدة)؛ فكلها أسماء متقاربة، وهناك سورة مشابهة لها تسمى بسورة (حاميم السجدة)، وهي سورة (فصلت)؛ فلما كانت الحواميم قد تميزت فيها سورة (فصلت) بسجدة خصت بها؛ فقيل سورة (حاميم السجدة).

أيها الإخوة الكرام، لا يخفى علينا ونحن نقرأ هذه السورة -وهي ليست سورة طويلة، بل هي ثلاثون آية، تقع في حوالي وجهين وزيادة قليلة- وهي السورة التي تقرأها أو تسمعها أحياناً من بعض الأئمة في صلاة الفجر؛ أن تسميتها بـ(السجدة) توحي بموضوعها ومقصدها.

- **ما الذي تتحدث عنه السورة؟**

إننا ينبغي لنا عند الدخول في أي سورة أن نعرف عما تتحدث وعن موضوعاتها وأغراضها ومقصدها؛ لأن كل سورة لها هدف ومقصد وموضوعات معينة، وهذا مما يعين العبد على تدبر السورة وتفهمها والدخول في عمقها.

إن اختيار اسم (السجدة) يدل على الخضوع؛ فالسورة تركز تركيزاً تاماً على قضية الخضوع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك فإن السجود، والركوع، والاستجابة، والطاعة، والتقوى؛ كلها تدور حول كلمة السجدة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر فيها: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥]؛ فانظر إلى كلمة ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ التي تدل على غاية الخضوع والاستكانة لله رب العالمين.

حتى إن المؤمنين بين الله سبحانه خضوعهم في كثرة السجود والطاعة وصلاة الليل، فقال سبحانه: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]؛ ففيها الخضوع والاستجابة.

وحتى الكفار أشارت الآيات في هذه السورة إلى خضوعهم ولكن في الآخرة؛ حيث الذلة والخضوع لرب العالمين: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]؛ فهذه إشارات إلى هذا المقصد العظيم، وهو الخضوع والخشوع والاستجابة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهناك قضايا أخرى تركز عليها السورة وهي قضايا البعث، والجزاء، والجنة والنار، ومصير الناس؛ مصير أهل الجنة إلى الجنة، ومصير أهل النار إلى النار، وبيان أحوالهما.

ونحن نعلم القاعدة المتقررة دائماً: أن السور المكية -التي نزلت في مكة قبل الهجرة النبوية- تركز على قضايا العقيدة وأصول الإيمان؛ ومن ذلك توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإفراده بالطاعة والعبادة، ووصفه بالصفات اللائقة به وتنزيهه عن الأوصاف التي لا تليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وتركز أيضاً على قضية الرسالة؛ والرسالة تشمل الرسول والمُرسَل والمُرسَل به وهو القرآن الكريم؛ فتبين حقيقة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحقيقة هذا الكتاب المنزل عليه، وهذا كله من أصول الإيمان (الإيمان بالله)، و(الإيمان بالكتب)، و(الإيمان بالرسل).

وتتحدث كذلك عن (البعث) ومصير الخلق بعد بعثهم ومحاسبتهم ومجازاتهم؛ فهذه هي القضايا الكبرى التي تدور حولها السورة الكريمة مع التركيز على موضوع الخضوع والاستجابة والسجود لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لا نطيل في هذه المقدمة؛ فالآن أصبح لدينا تصور واضح وإلمام بالسورة ومقاصدها وموضوعاتها. ندخل الآن إلى تفسير الآيات:

افتتحت السورة بالحروف المقطعة: ﴿الم﴾[السجدة: ١].

وسميت حروفاً مقطعة؛ لأن الذي ينطق بها ينطق بها بتقطيع الحروف لا متصلة، فلا يقول: (أَلَمْ)، وإنما ينطق بكل حرف على حدة: (ألف)، (لام)، (ميم)؛ فيعطي كل حرف حقه في النطق وفي مخارج الحروف وأحكام التجويد، وهي آية مستقلة.

وقد افتتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ست سور بـ﴿الم﴾ وهي: (البقرة)، و(آل عمران)، و(العنكبوت)، و(الروم)، و(لقمان)، و(السجدة). وكما مر معنا مراراً؛ فإن الحروف المقطعة هي حروف هجائية جيء بها للإشارة إلى أن هذا القرآن الكريم مكون من هذه الحروف التي ينطق بها العرب ويتكلمون بها، وجاءت لإعجازهم وتحديهم.

كأنما يقال لهم: "هذا القرآن الذي تسمعونه وتتلى عليكم آياته مكون من جنس الحروف التي تنطقون بها وتصوغون منها كلامكم؛ فآمنوا به وصدقوه واتبعوه. فإن لم تؤمنوا به وادعيتم أن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد افتراه وكذبه وأنه أتى به من عنده؛ فأتوا بمثله، وإلا فعليكم أن تؤمنوا به وتصدقوا وتتبعوا ما فيه". فهذا تحدٍ وإعجاز بيّن للعرب.

ودائماً تلاحظ أنه إذا جاء ذكر الحروف المقطعة؛ يذكر القرآن بعدها في الغالب؛ ولذلك لما قال: ﴿الم﴾، قال بعدها: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[السجدة: ١-٢].

أي أن هذا الكتاب الذي تسمعونه هو تنزيل منزل من عند الله رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كما قال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]. وفي هذا تصريح صريح بأن القرآن منزل بلا شك من عند الله، وأنه كلامه جَلَّ وَعَلَا وتنزيله، وليس كلام مخلوق.

وقوله سبحانه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾؛ جاءت جملة معترضة لتقطع الشك وتزيله عن كل من في قلبه تردد أو شك؛ ليوقن الجميع بأنه كلام الله الحق المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يطرق إليه شك بأنه من عند محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو من عند أي مخلوق، بل هو من الخالق الرازق الرب جل جلاله.

وقد دخلت هذه الجملة المعترضة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بين الكلام المتصل؛ فالكلام المتصل في الأصل هو: **(تنزيل الكتاب من رب العالمين)**؛ فجاءت ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ لتدفع كل ريب وشك؛ كما قرأنا في افتتاحية سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرد على كل من يشك في هذا القرآن أو يتردد ويقول: "هل هو منزل من عند الله أم افتراه محمد؟"؛ فقطع الله هذا الشك وأزاله وحسمه بقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

ثم رد سبحانه على من ادعى الدعوى الباطلة بأن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد افترى هذا القرآن واختلقه من عند نفسه، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٣].

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ﴾ هنا هي بمعنى **(بل)** التي تفيد الإضراب، والاستفهام هنا للإنكار والتعجب؛ أي: بل أيقول هؤلاء المشركون كذباً وزوراً إن محمداً قد اخترق هذا القرآن وافتراه؟!

وهذا مستحيل ممتنعاً عقلاً وشرعاً؛ لأنه كلام رب العالمين الذي لا يمكن لأي مخلوق -لا ملك مقرب ولا نبي مرسل- أن يأتي بمثله، بل هو كلام الله الذي تكلم به حقيقة.

ولذلك جاء الإضراب بـ **(بل)** لإثبات الحق ودحض الباطل، فقال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي أن هذا القرآن هو الحق الثابت المنزل من ربك يا محمد، وكل ما يقال ضده هو الباطل

المحض، ومن يدعي أن محمداً افتراه فقوله باطل؛ لأن الحق هو ما قاله الله وتكلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومصدره هو الله جَلَّ وَعَلَا.

ثم يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الغرض والهدف من إنزال هذا القرآن العظيم، فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

والنذارة هي التحذير والتخويف من عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والقوم هنا هم العرب في بداية الأمر ثم سائر الناس أجمعين؛ حيث لم يأتهم رسول ولا نذير قبلك يا محمد، بل أنت أول رسول يبعث فيهم؛ وهذه نعمة عظيمة ورحمة مهداة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إليهم، وكان المفترض بهم أن يفرحوا بهذه النعمة ويشكروا الله عليها.

والهدف الأسمى من الرسالة والإنذار بالقرآن هو: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ أي ليعرفوا الحق ويؤمنوا به ويؤثروه على غيره، ويستقيموا على شريعة الله وطريقه المستقيم؛ بدلاً من أن يبقوا على ما هم عليه من الجهل والكفر وعبادة الأصنام، فهذا أمر لا يستقيم أبداً؛ فالقرآن رحمة ونعمة عظيمة ليهتدوا بها إلى طريق النجاة والسلامة في الدنيا والآخرة.

ثم تنتقل الآيات بعد بيان عظمه هذا القرآن وغايته إلى بيان عظمة الرب جل جلاله؛ فبين سبحانه شيئاً من أفعاله العظيمة التي تدل على ربوبيته وإلهيته وانفراده بالخلق والتدبير والعبادة، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو المنفرد بالإلهية والربوبية والعبادة، وقد بدأ بذكر أفعاله العظيمة: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي أوجدهما من العدم، فخلق السماوات السبع والأراضين السبع وما بينهما كالسحاب والأجواء وكل مخلوق بين السماء والأرض.

وخلق ذلك كله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾؛ بدأت بيوم الأحد وانتهت بيوم الجمعة. فخلق الأرض في يومين، وخلق السماوات في يومين، ثم دحى الأرض وبث فيها أقواتها في يومين؛ فكان خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام، وخلق السماوات في يومين.

والله عَزَّ وَجَلَّ قادر على أن يخلق السماوات والأرض وما بينهما في لمحة بصر وفي لحظة واحدة بكلمة (كن) فيكون؛ ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد أن يعلم عباده التدرج والتأني في الأمور، وإلا فقدرته جَلَّ وَعَلَا لا يعجزها شيء.

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾.

والعرش مخلوق عظيم وهو أول المخلوقات، فقد خلق قبل السماوات والأرض؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]. والعرش خلق عظيم شاسع ومحيط؛ حتى إن السماوات السبع والأراضين السبع بالنسبة للعرش إلا كسبعة دراهم ألقيت في فلاة من الأرض؛ فالعرش عظيم جداً فوق ما يتصوره العقل.

وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾؛ فيه إثبات صفة (**الاستواء**) لله عَزَّ وَجَلَّ، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية الثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة وإجماع السلف، والاستواء في اللغة هو العلو والارتفاع؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ علا وارتفع واستوى على عرشه استواءً حقيقياً يليق بجلاله وعظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **وإذا سأل سائل: "كيف استوى؟"**

الجواب: هو ما أجاب به الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ تعالى لما سئل في المدينة النبوية عن قول الله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ فقال قولته الشهيرة التي كتبت بماء الذهب: «**الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، وَمَا أَرَاكَ إِلَّا مُبْتَدِعاً**». فالسؤال عن الكيفية بدعة؛ لأن الله أخبرنا بفعل الاستواء ولم يخبرنا بكيفيته، فيجب الإيمان بالصفة وإثباتها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف؛ فالله جَلَّ وَعَلَا استوى على عرشه استواءً يليق به لا يشبه استواء المخلوقين.

ثم قال سبحانه: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي ليس لكم أيها الناس من دون الله ولي يتولى أموركم وينصركم ويحميكم؛ فالولي الحق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

وليس لكم شفيع يشفع لكم عند الله ويدفع عنكم العذاب إلا بإذن الله ورضاه وبعد شروته المتقررة؛ ففوضوا أموركم إلى الله وتوكلوا عليه؛ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي أفلا تتعظون وتتدبرون وتخلصون العبادة لله وحده المنفرد بالخلق والتدبير والملك والولاية؟

ثم يواصل سبحانه بيان كمال تدبيره وملكه فيقول: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

ومعنى ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾؛ أي يصرفه ويقضيه ويتقنه اتقاناً تاماً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالتدبير في اللغة هو إتقان الشيء وإحسانه وصنعه على أحسن وجه، ويقال: **"فلان حسن التدبير"** إذا كان يحسن تدبير أموره وإدارتها.

فالله عَزَّ وَجَلَّ يدبر شؤون الخلائق في السماوات والأرض؛ من الخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، وتصريف الرياح، والآجال، وكل التصرفات اليومية والسنوية.

وتصعد أعمال العباد وتعرج بها الملائكة وتنزل بالتدابير والأوامر الإلهية: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾؛ أي في حساب البشر ومقدار مسافتهم؛ لأن المسافة بين السماء والأرض خمسمائة سنة صعوداً وخمسمائة سنة نزولاً؛ فمجموعهما ألف سنة مما يعده البشر في مسيرهم.

أما في تقدير الله عَزَّ وَجَلَّ وسرعة الملائكة؛ فإنهم يصعدون ويعرجون وينزلون بالأمر الإلهي في لحظات يسيرة كلمح البصر؛ فهذا تدبير محكم وعجيب يدل على عظمة الخالق جَلَّ وَعَلَا.

ثم يختم سبحانه هذا السياق بقوله: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦].

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾؛ أي الإشارة إلى الخالق المدبر الموصوف بهذه الصفات العظيمة الجليلة؛ هو سبحانه ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾؛ يعلم كل شيء، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ يعلم الغيب ما غاب عن الأبصار وخفي عن العباد وما تكنه الصدور وتخفيه القلوب، ويعلم الشهادة وهو الظاهر المشاهد أمام الناس؛ فعلمه سبحانه بالسر والعلن سواء.

وهو سبحانه ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ و(**العزيز**) هو ذو الغلبة والقوة والمنعة والقهر الذي قهر كل شيء وغلب كل شيء؛ فلا يمتنع عليه شيء سبحانه، وبقوته وعزته دبر هذه المخلوقات وخلق هذه الأجرام العظيمة. و(**الرحيم**) بعباده المؤمنين ورحيم بالخلق أجمعين؛ حيث خلقهم ورزقهم ولم يتركهم هملاً، بل

أنزل عليهم الكتب وأرسل إليهم الرسل رحمةً بهم وشفقة؛ فهو سبحانه العزيز ذو القوة المتين، والرحيم ذو الرحمة الواسعة بعباده.

أيها الإخوة الكرام، الكلام في تدبر هذه الآيات العظيمة يطول، والوقت يضيق بنا في هذا المجلس المبارك؛ فلعلنا نقف عند هذه الآية **(الآية السادسة)** إن شاء الله تعالى، وفي اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده من تفسير السورة الكريمة.

هذا والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(السجدة ٧ - ١٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للسابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا الأسبوعي بعد صلاة المغرب من كل أسبوع في تفسير القرآن العظيم، السورة التي بين أيدينا هي (سورة السجدة)؛ كان في اللقاء الماضي تحدثنا عن هذه السورة، وعن موضوعها، وعن أمور تتعلق بها، ثم دخلنا إلى شيء من آيات هذه السورة.

ومثل ما ذكرنا، السورة سميت بـ (السجدة) لسببين:

⬅السبب الأول: وجود السجدة فيها، وجود آية السجدة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾[السجدة: ١٥].

⬅السبب الثاني: السورة تدور حول (الخضوع)؛ الخضوع والاستكانة والاستجابة لله عَزَّ وَجَلَّ، والسجود والركوع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ركز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة على قضايا العقيدة المهمة التي تبعث المؤمن الصادق المقبل على الله إلى الخشوع والخضوع والاستجابة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى إن الله ذكر الكفار بأنهم سيخضعون لله عَزَّ وَجَلَّ لما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[السجدة: ١٢]، هذا إذعان منهم وخضوع واستكانة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

السورة تدور حول هذا، ولا يغيب عنا أن (السور المكية) دائماً التي تمر معنا أنها تتحدث عن قضايا العقيدة المهمة؛ قضية (الألوهية) وإفراد الله بالعبادة، وبيان أسماء الله وصفاته وأفعاله وخلقه، ثم بعد

ذلك تتحدث أحياناً عن (الرسالة) والقرآن والرسول، وتتحدث أيضاً عن (البعث) وتقرير قضية البعث والجزاء.

والجنة والنار التي خُلق الناس لأجلها؛ ما خلق الله السماوات والأرض ولم يخلق الخلق إلا لعبادته ولإقامة عدله، وليجزي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته؛ هذه قضايا ضرورية لابد أن نفهمها والتي تقررها السور المكية تقرر هذا الأمر.

نحن وقفنا عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦].

﴿ذَلِكَ﴾ هذا اسم إشارة يعود إلى عالم الغيب والشهادة، يقول: ذلك المذكور الذي ذكرت أوصافه وذكرت أفعاله هو عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم.

- **ما هي أفعاله التي ذكرها؟**

لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول الآيات: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، هذا يدل على انفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بخلق السماوات وإيجادها من العدم، وقدرته وعلمه، خلق السماوات والأرض وما بينهما مما في هذه الأجواء كالسحاب والطيور وغيرها، وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش جل جلاله.

وعرش الرحمن هو سقف المخلوقات كلها، وعرش الرحمن لا يقدر أحد قدره، ولا يتصوره أي إنسان، كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ لما سئل عن الاستواء قال: «**الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ**».

وعرش الرحمن هو أكبر المخلوقات وأعظمها، وجاء في بعض الأحاديث والآثار أن السماوات السبع بالنسبة للعرش كدراهم سبعة ألقيت في فلاة؛ كيف تتصور أنت هذه الدراهم السبعة التي ألقيت في فلاة واسعة؟ تضيع هذه الدراهم! السماوات السبع تضيع بالنسبة للعرش.

قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة: ٤]، قال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]؛ ليس لكم أنتم أيها الخلق ويا أيها الإنسان، ليس لك من دون الله ولي يتولى أمرك، وليس هناك من ينصرك، ولا شفيع يشفع لك إلا بإذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إذا أذن للشافع ورضي عن المشفوع.

قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]؛ لماذا لا تحركون أذهانكم وتفكرون وتتفكرون وتتذكرون أن الذي خلق السماوات، الذي له القدرة والعلم، هو الله؟

ثم زادكم من أفعاله الجليلة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]؛ هو الشأن، يدبر شؤون الحياة، ويدبر شؤون الخلق، ويدبر الأمور في السماوات والأرض، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض؛ يعني ما من أمر من حياة، أو موت، أو رزق، أو مرض، أو كشف كرب، أو نحو ذلك، أو غنى، أو فقر، إلا بعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يدبره من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه.

يقول: هذا الأمر الذي يدبره الله ويقضيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينزل إلى الأرض، ثم يعرج إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، قال: مقدار النزول والعروج مقداره ألف سنة مما تعدون في حسابكم أيها الخلق؛ خمسمائة عروج وخمسمائة نزول، هذه ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة سنة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بين لك يعني قال: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [السجدة: ٦]؛ هذا الذي سمعت أوصافه وقدرته وأحواله وتدبيره وأفعاله، هو عالم الغيب والشهادة، الذي لا يغيب عنه شيء، يعلم الغيب ويعلم الحاضر، فالحاضر والغائب عنده سواء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قرن بينهما فقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [السجدة: ٦] ﴿الْعَزِيزُ﴾ ذو القوة الذي غلب كل شيء، وتحته كل الخلق مقهورون مغلوبون، والغلبة والقهر له، وهو القاهر فوق عباده، ومع قهره وقوته وغلبته إلا أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرحم الراحمين، فرحمته وسعت كل شيء، ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦]؛ عزيز على أعدائه وأعداء أوليائه، رحيم بأوليائه، العزيز الرحيم.

قال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]؛ هذا أيضاً يعطينا بياناً وزيادة في أوصاف الله وقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧].

كل الخلق لله، خلق السماوات، وخلق الأرض، وخلق الجبال، والأشجار، والأنهار، وخلق الإنسان، وخلق الطيور، وخلق الحيوانات المتوحشة وغيرها، وخلق الزواحف، هذا الخلق كله خلقه الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأحسن خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لم يخلقه إلا بصورة حسنة ولله الحمد، فهذا من فضل الله عَزَّ وَجَلَّ.

قال: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]؛ كل شيء خلقه أحسنه، انظر إلى السماء وبديع خلقها، والأرض، والجبال، والأشجار، والأنهار، والطيور، تجد جمالاً وحسناً في خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]؛ لما ذكر لك خلقه للمخلوقات جميعاً، خص هذا الإنسان المكلف الذي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فضله وكرمه على كثير من المخلوقات.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، الذي خُلق من طين هو أول الإنسان وهو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أبو الخلق، خلقه الله من طين.

قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]؛ ذريته الذين يتناسلون، قال تعالى: ﴿مِن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦] يعني يتناسلون يأتون فرادى.

قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]؛ يعني جعل ذريته يتناسلون ويتكاثرون عن طريق الماء المختلط، قال: ماء يعني سلالة، يعني ماء خالص، هذا الماء الذي يخلق الله منه هذا الإنسان ماء مهين، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤].

قال: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]؛ يقول: هذا المخلوق الذي خُلق من ماء مهين، من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، يقول: ﴿سَوَّاهُ﴾ يعني أحسن خلقته، والتسوية هنا معناها الحسن والاعتدال، ولذلك قال: الصراط السوي، يعني المعتدل، فالتسوية هنا هي الخلقة الحسنة المعتدلة. [٦]

قال: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]؛ يقول: إذا اكتمل خلقه في بطن أمه، أرسل الله إليه الملك فنفخ فيه الروح، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ﴾ [السجدة: ٩] أي أنه أرسل أو كلف الملك الموكل بنفخ الروح، فينفخ فيه الروح وهو في بطن أمه، قال: ﴿مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]؛ روح من روح الله.

- **كيف روح الله؟ ما هي روح الله؟**

الجواب: الروح لا يعلمها إلا الله، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، لا أحد يعرفها، حقيقة الروح لا نعلمها، لكن هنا لما قال: ﴿مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]، أضافها إلى الله، نقول: هذه الروح مخلوقة، وإضافتها إلى الله إضافة تكريم، مثل ما يقول: (**ناقة الله**)، و(**مسجد الله**)، و(**بيت الله**)، ونبي الله، ورسول الله، هذه الإضافة يعني إضافة تشريف وتكريم.

قال: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ [السجدة: ٩]؛ شوف غير الأسلوب، يقول: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ﴾ [السجدة: ٩] هذا ماضي أو غائب، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ﴾ [السجدة: ٩] خاطبهم، وهذا مثل ما يسميه علماء البلاغة: علم (**الالتفات**)، تغيير الضمائر، ولماذا غير الضمير؟ حتى يذكرك بهذه النعمة العظيمة، وهي نعمة ماذا؟ نعمة السمع والبصر والأفئدة؛ القلوب.

يقول: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ [السجدة: ٩]؛ بدأ بالسمع لأهميته، السمع إذا فقده الإنسان يصعب عليه الحياة، ويصعب عليه العلم والتعلم، وسماع الخطب وسماع القرآن، فأهمية السمع عظيمة.

ثم قال بعدها: ﴿وَالْأَبْصَارَ﴾ [السجدة: ٩]؛ إذا فقد البصر فقد أيضاً حاسة قوية ولكنه يستطيع أن يعيش، ولذلك جعل البصر بعد السمع.

- **لماذا قال ﴿السَّمْعَ﴾ بصيغة الإفراد، و﴿الْأَبْصَارَ﴾ بالجمع؟**

الجواب: لأن السمع جنس السمع، ولأن الإنسان لا يستطيع أن يسمع أصواتاً متعددة في وقت واحد فيميزها، أما البصر فممكن أن يبصر أشياء كثيرة متعددة؛ يبصر السماء، ويبصر الأرض، ويبصر الجبال في وقت واحد.

فلذلك لما قال السمع والأبصار، ولأن الأسماع جمعها صعب فخفف فقيل السمع جنس السمع، والأبصار والأفئدة وهي القلوب، القلوب التي تستوعب وتأخذ عن طريق السمع والأبصار، فالقلوب هي التي تدبر هذا الإنسان وتتكيف فيه، فإذا كان القلب سليماً طاهراً نظيفاً صلح سائر الجسد، وإذا كان فاسداً مريضاً أمرض الجسد كله، فالقلب هو ملك الأعضاء.

قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]؛ أي أنتم شكركم قليل جداً، يعني الغفلة وعدم الشكر، وإن شكرتم فشكركم قليل، أو يقال: قليل منكم من يشكر والكثير لا يشكر.

لما حكى لنا الله سبحانه قدرته وخلقه، وركز على هذا الإنسان المخلوق، وأنعم عليه بهذه النعم، وبين أن شكره قليل، ساق لنا موقف الكفار، موقف الكفار من (البعث)، وهو أنهم ينكرون اليوم الآخر، وينكرون أن الناس يبعثون بعد موتهم.

وتلاحظ هنا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما تحدث عن الخلق الأول، ذكر بعده الخلق الآخر وهو يوم القيامة، حتى يذكرك يقول لك: أنت مخلوق أول من طين، أو أباك مخلوق من طين، أو آدم مخلوق من طين، وأنت مخلوق بعده والناس يتناسلون، من الذي أوجدهم؟ الذي أوجدهم هو الذي سيبعثهم مرة أخرى، ففي هذا دليل على إثبات البعث.

ولذلك ساق الله موقف الكفار، قال: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠]؛ أي الكفار: ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠]؛ ضللنا يعني تهنا في الأرض، وذهبنا في الأرض، وتمزقنا في الأرض، واختلطنا مع التراب.

يقال: تقول العرب: **"ضل الماء في اللبن"** يعني إذا اختلط فلم يتميز، فقالوا: نحن إذا اختلطنا في الأرض وذهبنا وأصبحنا تراباً لا يستطيع أن يأتي شخص يميزنا عن التراب، ضللنا وأصبحنا في الأرض، ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]؛ استفهام إنكاري عندهم، ينكرون يقولون: مستحيل ما يمكن أن يخلقنا الله خلقاً جديداً! من الذي خلقكم أول مرة حتى تستبعدون الخلق الجديد؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس الأمر أنهم يستبعدون الخلق الجديد ولكنهم يكفرون باليوم الآخر ولم يعملوا له، هذا هو السر، ولذلك قال: ﴿بَلْ﴾ و(بل) للإضراب، يعني: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠]؛ ليست القضية أنهم يعجزون الله أن يعيدهم.

لكنهم قد يعرف الكثير منهم أن الله قادر لأنه هو الذي خلقه، لكن هم لا يريدون هذا اليوم، يقولون: إن هي إلا حياتنا نموت ونحيا، ولذلك قال: ﴿بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة: ١٠]، بل هم بلقاء ربهم كافرون، وذكرهم بأنه ربهم الذي خلقهم، وكافرون وصفهم بالكفر لأن هذا جحود للحقيقة.

ثم رد عليهم رداً قوياً أقوى من ذلك، قال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]؛ قل لهم الذين ينكرون البعث والجزاء والجنة والنار: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، ملك الموت هو الذي يتوفاكم، يقول: الذي وكل بكم، يعني وكله الله بقبض أرواحكم، ثم إلى ربكم ترجعون.

- **لكن هنا سؤال: من الذي يتوفى الإنسان؟ هل هو الله؟ ولا ملك الموت؟ ولا الملائكة؟**

لما تقرأ في القرآن يقول: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وفي آية أخرى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]، ثم هنا يقول: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

- **أصبح عندنا ثلاثة أشياء: الله يتوفى، والملائكة الرسل تتوفى، والملك يتوفى؛ كيف نجمع بينها؟**

الجواب: الله يتوفى لأنه هو الآمر وأمره نافذ وهو العالم بحقيقة من يتوفى، والذي يقبض الروح هو ملك الموت، والرسل تأخذها معه، تكون الرسل مع الملائكة مع ملك الموت، فتكون أعواناً لملك الموت، فهذا المعنى حتى نجمع بين الآيات.

- **من هو ملك الموت؟**

الجواب: هو ملك وكله الله بقبض الأرواح، لا يمكن على وجه الأرض أن تموت نفس إلا ويقبض روحها ملك الموت بقدرة الله عَزَّ وَجَلَّ.

- **ما اسمه؟**

الجواب: الله أعلم، لم يذكر اسمه، والله أعلم به، بعضهم يقول إنه (عزرائيل) وهذه التسمية فيها نظر، الله أعلم بصحتها، لكن لا يهمنا نحن الأسماء.

قال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١] فيجازيكم بأعمالكم؛ الحسنات بالحسنات والسيئات بالسيئات، وكل سيلقى جزاءه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تصوير هؤلاء المنكرين الكفار: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]؛ لو رأيت يا محمد،

وأيها الإنسان، أيها المخاطب وأيها المسلم، لو ترى المجرمين يوم القيامة، وسماهم مجرمين لأنهم أصحاب جرائم.

لو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤوسهم عند ربهم؛ إذا بعثوا سينكسون رؤوسهم خجلاً وخوفاً وخشية من الله عَزَّ وَجَلَّ عند ربهم، ثم اعترافهم يقولون ماذا؟ ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]؛ يقولون الآن أبصرنا وسمعنا، أين بصركم في الدنيا؟ وأين إسماعكم ونحن نتلو عليكم القرآن الكريم وأنتم تعرضون عنه؟ الآن أبصرتم وسمعتم!

﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]؛ هذا هم يتمنون ولكن الله أخبر أنهم غير صادقين، لما قالوا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، لا يمكن الرجوع، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

الله عالم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون، ولذلك يقولون: نعمل صالحاً إنا موقنون. الآن يأتي اليقين؟ أين اليقين في الدنيا؟ اليقين هو العلم الثابت الراسخ، لماذا لم يكن عندكم علم ويقين في الدنيا؟ في الدنيا تلهون وتلعبون، والآن تعترفون!

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]؛ يقول: لو أراد الله أن يهدي الخلق كلهم لهداهم، ولكن الله أراد أن يمتحنهم في الدنيا، فأرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب، ليعلم الله سبحانه وهو عالم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من يطيع يدخله الجنة ومن يعصي يدخله النار، فلو شاء الله لجعلهم أمة واحدة على الإيمان.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣] أن تهتدي، ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]؛ لأن الله قد كتب على أهل الشقاوة أن يشقوا، وأهل السعادة أن يسعدوا.

ولذلك قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]؛ (الجِنّة) هنا المراد بها الجن، ويقال لهم جن ويقال جِنّة، ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] يعني الجن فيهم كفار، والناس فيهم كفار، وأهل الكفر سيملأ الله منهم جهنم، كما قال: لاملأن جهنم.

ثم قال: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]؛ فذوقوا العذاب يوم القيامة، إذا رأوا جهنم قال: فذوقوا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم هذا، يقول: ذوقوا العذاب الآن، تنالون العذاب وتجزون بالعذاب الذي كنتم قد نسيتوه في الدنيا.

ومعنى نسيتوه هنا أي تركتموه ولم تعملوا به، وإلا هم يعلمون لكن نسوه وتركوه، ولذلك قال: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]، والنسيان من الله يعني الترك، قال: ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤] يعني تركناكم، ولا يقال في حق الله نسيناكم يعني من النسيان وهو الذهول والغفلة، لا، الله لا يغفل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]؛ هذا جزاؤكم، عذاب الخلد يعني أنكم خالدون في نار جهنم لا تخرجون منها بما كنتم تعملون.

لما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جزاء هؤلاء المجرمين، أردفه بجزاء المتقين قال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ [السجدة: ١٥]؛ يصدق بها حقيقة لما يسمعها وتأتيه.

هم الذين إذا ذُكّروا بها، إذا قرئت عليهم وتليت عليهم آيات وذكّروا بها، ﴿خَرُّوا سُجَّدًا﴾ [السجدة: ١٥] وهذا يدل على كمال الخشوع والإذلال لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والاستكانة لربهم والسجود لله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك قال: ﴿خَرُّوا﴾ [السجدة: ١٥]؛ الخرور يكون من أعلى إلى أسفل، كأنهم ألقوا بأنفسهم مباشرة، خروا سجداً، ساجدين لله.

قد وضعوا جباههم وانوفهم على الأرض، ﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٥]؛ سبحوا يعني نزهوا الله عَزَّ وَجَلَّ عن الشرك، ووصفوه بصفات الكمال، وسبحوا بحمد ربهم وهم يحمدون الله عَزَّ وَجَلَّ وهم لا يستكبرون، يخضعون لله ويسجدون ولا يستكبرون، إلى هنا فيه سجدة، إذا قرأ الإنسان ووصل هذه الآية يسجد، يستحب له أن يسجد.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]؛ هؤلاء الموصوفون بهذه الأوصاف تتجافى جنوبهم، يتباعدون عن المضاجع، ما

يهنؤون بنوم، ليس هو إذا ألقى نفسه على السرير أو على الفراش جعل ليله كله نوماً، لا، هذا تتجافى جنوبهم تتباعد يقومون لله سجداً صلاة.

خاشعاً قائماً ساجداً، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم بين الدعاء والركوع والسجود، خوفاً يخافون على أنفسهم ويخافون من النار ويخافون ماذا؟ سيواجهون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وطمعاً في رحمة الله، يطمعون في ثواب الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]؛ يصلون، يحيون الليالي، واما هذه في أبدانهم، وأما في أموالهم فينفقون أموالهم، ولذلك شوف لاحظ قال: ﴿يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] بفعل المضارع، يدل على الاستمرار أنهم ينفقون دائماً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في جزائهم كما ذكر جزاء المجرمين ذكر جزاء المتقين العاملين: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]؛ لا تدري نفس، أي نفس مؤمنة، ما أخفاه الله لها يوم القيامة.

وهذا دليل على كرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنه سيثيبهم الثواب الجزيل الكثير العظيم، ما تدري نفس ما الذي أخفاه الله لها من قرة أعين، تقر عينها وترتاح وتستقر، جزاء بما كانوا يعملون؛ بسبب أعمالهم الصالحة وقيامهم الليل وإنفاقهم في سبيل الله، فلا يدري، يعني أن الله أعد له هذا الجزاء.

☜ولذلك جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله يقول في الحديث القدسي: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» ثم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾» [السجدة: ١٧].

فهم يصلون الليل ويدعون الله ويخفون أعمالهم، يخلصونها، ولذلك الله جعل جزاءهم قد أخفي لهم، ﴿مَّا أُخْفِيَ لَهُم﴾ [السجدة: ١٧]؛ فأخفى الله أجرهم لأنهم كانوا يعملون وينفقون ويخلصون أعمالهم لله.

لا نطيل، الوقت يضيق، لعل نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(السجدة ١٨ - آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للرابع من شهر (رجب) من عام الهجرة [١٤٤٥ هـ].

درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أعيننا هي (سورة السجدة)؛ تحدثنا فيها في لقاءات ماضية، ووقف بنا الكلام عند الآية الثامنة عشرة. الذين يتابعوننا على المصحف، مصحف الجوال أو غيره، الآية الثامنة عشرة وقفنا عندها وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

هذه الآية جاءت بعد ذكر مآل المجرمين، وأن الله يملأ جهنم منهم ومن الجنة والناس أجمعين، وأن مآل المجرمين إلى نار جهنم؛ يذكر بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جل جلاله، ذكر نعيم أهل الجنة وفوزهم لما قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

يعني الآن لما يأتينا كلام وسياق عن مآل أهل الشقاوة في نار جهنم، ثم يأتينا كلام وخبر عن مآل أهل الجنة وأهل السعادة، مآلهم إلى الجنة، وأن لهم قرة أعين عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **يأتيك السؤال هنا يقول لك: هل يستوي المؤمن والفاسق؟**

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾؟ يعني هذا سؤال الآن، هذه الهمزة همزة الاستفهام؛ يقول: من كان مؤمناً هل هو كمن كان كافراً؟ هل أنت تشبه المؤمن بالكافر؟ وهل ترى أن المؤمن والكافر سواء؟ هذا سؤال ما يحتاج إلى جواب، وكل مؤمن يعرف الجواب، كل بشر يعرف الجواب؛ لكن القرآن في أساليبه العربية، مرة يأتي بالجواب، ومرة ما يأتي بالجواب.

لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في (سورة الزمر) : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]؛ ما في جواب؛ لأنه معروف لا يستوي الجاهل والعالم، هنا أتاك بالجواب حتى يثبت لك حقيقة هذا الأمر، يقول لك: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

لا يستوي المطيع لربه، المطيع لربه الذي سخر نفسه وروحه وجسده وجوارحه وماله لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مصدقاً بوعد الله ووعيده، وقد ملأ وقته كله في طاعة الله؛ هل يستوي هو ومن كان فاسقاً كافراً مكذباً لله ورسوله، أشغل وقته في معصية الله، وسخر جهوده وأمواله وجوارحه في معصية الله؟

- **هل هذا يستوي مع هذا؟**

في الدنيا الآن، في الدنيا لا يستوون، فكيف بالآخرة؟ في الآخرة من باب أولى، من باب أولى أن مآل هؤلاء إلى غير مآل هؤلاء، لا يستوون عند الله.

ولذلك ناظر، اسمع ماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ؛ قال: ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩]. الذين آمنوا، صدقوا واتبعوا ما جاءهم عن الله، وعملوا الصالحات، وسخروا جوارحهم لطاعة الله.

- **ما هي النتيجة؟**

﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾. شوف ما قال لكي يستووا في الدنيا؛ الدنيا عابرة، لكن الكلام في الآخرة، في الآخرة هل يستوون؟ في الآخرة لا يستوون. طيب لماذا قال؟ لأن الذين آمنوا -أهل الله وخاصته- آمنوا وصدقوا بالله وعملوا الصالحات؛ هؤلاء وعدهم الله أن لهم **(جنات المأوى)**، و**(المأوى)** يعني الذي يأوون إليه ويقيمون فيه، وهو نعيم.

قال: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ ثم قال: ﴿نُزُلًا﴾، و**(النُّزُل)** هو مكان الضيافة، ما يعد للضيف؛ فقال لهم **(جنات المأوى)** ينزلون بها ويكرمون بها أحسن تكريم؛ ﴿نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ بسبب أعمالهم الصالحة. أعمالهم الصالحة هي التي قربتهم إلى الله.

☜**كما في الحديث القدسي:** «لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ»؛ فالأعمال الصالحة سبب، وإن كان فضل الله فوق ذلك، ومنة الله ونعمته؛ لكن الله جعل الأعمال الصالحة سبباً للفوز بجنات

النعيم، وجعل الأعمال السيئة والمنكرات سبباً لضلال وهلاك أصحابها، هذا أمر معلوم، ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا بطاعة الله، شغلوا أعمارهم وأوقاتهم وسخروا جوارحهم في طاعة الله.

هؤلاء لهم جنات المأوى، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

وأما الذين فسقوا، وخرجوا عن طاعة الله، وارتكبوا السيئات والمعاصي، وخالفوا أوامر الله.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: ﴿فَمَأْوَاهُمُ﴾ أي مستقرهم ﴿النَّارُ﴾؛ مستقرهم جهنم، جهنم لا يخرجون منها أبداً، لا يموت فيها الواحد ولا يحيى، ولا يخرجون منها، وما هم منها بمخرجين؛ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا﴾؛ كلما حاولوا الخروج -مع أنه لا يمكن خروجهم لكن محاولات- ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾؛ لا يستطيعون الخروج ويعادون فيها.

وقيل لهم على وجه التوبيخ والتقريع، وقيل لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، وتقولون: ما في بعث، ولا في جنة، ولا فيه نار، وتنكرون ذلك وتستهزئون وتسخرون وتقولون: متى هذا الوعد؟ هذه نتيجة الاستهزاء والسخرية أن يقال لكم: ذوقوا العذاب بما كنتم به تكذبون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]. أي: لنذيقن هؤلاء الفسقة الخارجين عن طاعة الله المكذبين، نذيقهم من **(العذاب الأدنى)**؛ سواء كان من البلايا والمحن في الدنيا والمصائب في الدنيا، أو عذاب القبر.

عذاب القبر؛ حتى فسره بعض المفسرين بأن العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر أي عذاب القبر، نذيقنهم، يعذبون قبل أن يعذبوا في نار جهنم؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ويتوبون من ذنوبهم.

يعني أنهم إذا أصابتهم المصائب في الدنيا، ونزلت بهم المحن في الدنيا، فإن هذا نذير لهم يرجعهم إلى ربهم ليتوبوا إلى الله، قبل أن تنزل بهم مصيبة الموت، وقبل أن يلقوا عذابهم في نار جهنم، ومن العلماء -مثل ما ذكرنا- من يرى أن هذه الآية في عذاب القبر، وأنهم وعدوا بالعذاب الأدنى قبل أن يصلوا إلى العذاب الأكبر؛ ولما وُعدوا وذكروا به: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى رشدهم، ويعرفون أثر طاعة الله وأثر هذه المعاصي.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]. هذه حال الكافر وحال المجرم وحال الفاسق؛ أنه كلما ذُكر ووُعظ وحُذر من عذاب جهنم ومن عذاب القبر، فإنه لا يؤمن ويعترض.

ولذلك قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ هذا ليس هناك أحد أشد ظلماً لنفسه ممن يوعظ ويذكر بالدلائل ويذكر بآيات الله، ثم بعد ذلك يعرض عنها ولا يقبلها؛ كلما ذُكر لا يقبل هذا التذكير، وكلما وُعظ لا يقبل هذا الوعظ.

قال: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾؛ أي أعرض عن آيات الله، وأعرض عن التذكير بها، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾؛ سماهم مجرمين، وحكم عليهم بأنهم مجرمون؛ إذا ذُكر بآيات الله ولم يقبل فهذا أشد الظلم، بل هو إجرام عظيم، ولذلك هددهم الله بالانتقام بأن ينتقم منهم؛ لأنهم لم ينتفعوا بالآيات، ولم ينتفعوا بالحجج، وبقوا على ما هم عليه، فليس لهم إلا أن ينتقم منهم.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ذكرنا بآيات الله وعُرضت على هؤلاء المجرمين وهم لا يقبلون ذكر الله سبحانه؛ لما ذكرهم بهذه الآيات وبرسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذكر أيضاً برسالته برسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه أرسله إلى بني إسرائيل، قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [السجدة: ٢٣].

مثل ما أتيناك يا محمد الآيات والحجج والأدلة والقرآن، أتينا موسى الكتاب أيضاً وهو **(التوراة)**، فلا تكن في شك من لقائه؛ لقاء من؟ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾؛ لقاء من؟

قال بعضهم في التفسير: "لقاء موسى"، أي لا تشك يا محمد أنك ستلقى موسى، وتعرف أنه رسول أرسله الله إلى بني إسرائيل وأنزل عليه التوراة، وقد لقيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الإسراء والمعراج، وكان يراجع ربه بينه وبين موسى في فرض الصلاة.

هذا رأي كثير المفسرين، يقولون: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ أي لا تشك يا محمد في لقاء موسى. وبعضهم يقول: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ﴾ أي لا تكن شاكاً في أن موسى لقي الكتاب الذي أنزله الله إليه وعرف أنه من عند الله.

فأنت كذلك قد أنزل الله عليك الكتاب فليكن عندك اليقين بأنك أُنزل عليك الكتاب كما أُنزِل على موسى؛ وهناك تفسيرات أخرى، ولكن ما ذكرناه هو الأظهر والأكثر عند أهل التفسير.

قال: ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ أي الكتاب **(التوراة)** جعله الله هداية لبني إسرائيل، أي أن موسى دعاهم بالتوراة ليهتدوا به، وكانت التوراة هدى لهم، لبني إسرائيل دعاهم إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]؛ أي ممن قبل دعوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ واهتدى بهداه، جعل الله منهم أئمة يهدون بأمرنا، أي أن في بني إسرائيل أئمة ودعاة إلى الخير.

قال: جعلنا في بني إسرائيل هداة ودعاة إلى الخير يدعون الناس إلى الخير وإلى التوحيد وإلى عبادة الله، وهذا ثناء من الله لمن آمن من قوم موسى.

- **﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ متى؟**

﴿لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾؛ صبروا على أوامر الله وتركوا المعاصي، وصبروا على الدعوة إليه، وتحملوا الأذى في سبيل الله، وكانوا يوقنون بآيات الله؛ يعني يصدقون على وجه اليقين بلا شك أن هذه الآيات هي آيات من الله.

لذلك نالوا هذه الكرامة وأصبحوا أئمة؛ كما قال بعض أهل العلم: **"بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ"**، فمن صبر وتيقن حصل على هذا الشرف وهذه الإمامة، تنال الإمامة في الدين.

قال: فلما كان من بني إسرائيل من آمن ومنهم من كفر، بين الله أنه سيقضي بينهم، قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥]؛ يقضي بينهم يوم القيامة، بين من آمنوا وكفروا من بني إسرائيل، يقضي بينهم يوم القيامة في أمر الاختلاف الذي وقع بينهم؛ ما بين مؤمن وكافر، وما بين مصدق ومكذب، وما بين من مآله إلى الجنة ومن مآله إلى النار، يقضي الله بينهم ويفصل بينهم.

ثم بعد ذلك تأتي الآيات تذكر هؤلاء الكفار المعاندين الذين نزل عليهم القرآن من أهل مكة وغيرهم؛ يذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يبين لهم الآيات ويذكرهم بما جرى للأمم الماضية. يقول: ﴿أَوَلَمْ

يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

- **لم يهتدوا ولم يبلغهم هذا الأمر ولم تصلهم دلالة هذا الأمر؟**

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾؛ كم أهلكنا من الأمم الماضية التي أهلكها الله بسبب عنادها وكفرها وإعراضها؟

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾؛ أي أهل مكة وغيرهم، يمشون في مساكن عاد ومساكن ثمود ومساكن لوط في رحلة الشتاء والصيف، يمرون هذه الديار ويمشون في مساكنها ويشاهدون عياناً كيف أهلك الله هؤلاء الأمم؛ كعاد وثمود وقوم لوط.

يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾؛ ليست آية واحدة، آيات وعظات وتذكير، ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أين سمعهم وهم يرون ويبصرون وتأتيهم أخبار هذه الأمم؟ لماذا لا يسمعون سمع إجابة ويستفيدون ويتعظون؟ ولكنهم مع الأسف لم يقبلوا مثل هذا.

ثم أعطاهم أمراً آخر فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧]؛ ينظرون بأعينهم أن الله يسوق الماء، أي يبعث السحاب وينشئ السحاب ويسوقه إلى الأرض اليابسة.

(الأرض الجرز) التي لا نبات فيها، يابسة، فنخرج به زرعاً، ويخرج منها النباتات والأشجار المختلفة الألوان والروائح، قال: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ﴾ وتتغذى به أنعامهم، ثم هم يأكلون منها، فذكرهم بما تأكله أنعامهم وهم يأكلونها؛ أنعامهم وأنفسهم، ثم قال: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

- **أين أعينهم؟ لماذا لا يبصرون هذا الشيء الذي أمامهم؟**

⬅أولاً: أنها آية على وحدانية الله.

⬅ثانياً: آية على قدرة الله.

⬅ثالثاً: آية على نعمة الله؛ فهو الواحد القدير المنعم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الواحد الذي أرسل الرسل للأمم الماضية فكذبوا، وهو القدير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والقادر الذي أهلك الأمم الماضية، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا أيضاً وحده لا شريك له هو الذي أنشأ السحاب وهو الذي ساقه إلى الأرض.

وهو الذي أنبت بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنعم على هؤلاء بهذه النعم العظيمة، يقول: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ هذه النعم بأعينهم، فيعلمون أن الله سبحانه هو الواحد فيوحدوه ويؤمنوا به؟

وكذلك إشارة أخرى إلى أن الله أحيا هذه الأرض بعد موتها؛ مغبرة -يعني مقفرة- ليس فيها نبات ومغبرة، ثم أحياها بالنبات والماء، فالذي أحياها قادر على أن يحيي الموتى؛ فكيف ينكرون الحياة الأخرى وينكرون البعث؟

ومع هذا، ومع الأسف، أنهم لا يقبلون مثل هذه الأدلة، بل يستهزئون ويسخرون ويستبعدون البعث، فيقولون: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة: ٢٨]. يستعجل المشركون بالعذاب، يقولون: متى هذا؟ متى أنت الذي تعدنا به يا محمد من العذاب والعقوبات تنزل بنا؟ أين هي؟

وتعدنا أنه يأتي أمر الله ويأتي اليوم الآخر، ما رأينا هذا كله؛ فيستبعدون ويستعجلون ويستهزئون ويسخرون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعواكم أنتم، يعني يا محمد ومن آمن معه، أين هذا اليوم الذي تدعونه (يوم الفتح)؟ والفتح المراد به هنا الحكم، يعني ربنا افتح بيننا -أي احكم-؛ والمراد: متى يحكم الله بيننا وبينك يا محمد حتى يهلكك أو يهلكنا؟ فكانوا يستبعدون ذلك.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٩]؛ يوم القضاء ويوم الحكم، يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم، يعني إذا نزلت العقوبة وجاء العذاب لا ينفع الإيمان، ولو آمنوا لم يُقبل منهم الإيمان إذا جاءتهم العقوبة ونزل بهم العذاب.

فلا توبة ولا يُقبل منهم توبة إذا نزلت العقوبة أو عاينوا الموت بأعينهم؛ هذا لا ينفع الكافر إيمانه، لا ينفع الذين كفروا إيمانهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي يؤخرون ويُمهلون حتى يتوبوا ويرجعوا إلى ربهم، هذا لا يمكن.

وإذا كان الأمر كذلك في إعراضهم وشدة إعراضهم واستهزاء كفرهم، فالنتيجة: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠]. أعرض عنهم، اتركهم وشأنهم وحالهم ولا تبالي بتكذيبهم، ولا تلتفت إليهم.

قال: أعرض عنهم وانتظر ما الذي سيصنع الله بهم، وانتظر ما الذي سينزل بهم من العقوبات؛ قال: ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ أيضاً هم ينتظرون؛ لأنهم كانوا يسخرون ويقولون: أين النصر الذي وعدك الله؟ فاتركهم ينتظرون كيف ينصرك الله عليهم.

هذه السورة انتهت وهي (سورة السجدة)، وهذه السورة -مثل ما ذكرنا في أول الأمر- من السور التي يُستحب قراءتها فجر يوم الجمعة في صلاة الفجر؛ الركعة الأولى (سورة السجدة)، والركعة الثانية (سورة الإنسان) ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]، هذه من السنة.

ومثل ما ذكرنا، سورة قررت فيها قضايا مهمة عقدية: التوحيد، والإيمان بالجنان، والإيمان بالبعث، ومآل المعاندين الكافرين، ومآل المتقين الصالحين وأن لهم قرة أعين عند ربهم.

وهذه السورة التي قررت قضية الخضوع والسجود والإيمان والطاعة والانقياد، انقياد المؤمنين لربهم واستجابتهم لربهم؛ حتى إن الكافرين يوم القيامة أو المجرمين سيكونون ذليلين يوم القيامة، ناكسو رؤوسهم عند ربهم، ولكن لا ينفع هذا الإذلال ولا هذا التنكيس.

فأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يتقبل منا ومنكم، هذا ما جلسناه في هذه المجالس المباركة من قراءة القرآن وتدبره وفهمه؛ والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الأحْزَاب)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الأحزاب ١ - ٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من الشهر السابع من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك مع القرآن الكريم وتفسيره، انتهينا من **"سورة السجدة"** واليوم ندخل على سورة جديدة هي **"سورة الأحزاب"** الحقيقة هذه السورة العظيمة الجليلة **"سورة الأحزاب"** بلا شك أنها أطول من **"السجدة"** ثلاثة وسبعين آية، والحديث عنها يحتاج منا إلى أن نتأمل هذه السورة العظيمة.

السورة بلا شك أنها سورة مدنية، تتحدث عن أمور تتعلق بعد الهجرة، بإجماع المفسرين أن السورة مدنية نزلت بالمدينة، وخصائصها، موضوعاتها، ومقصدها كله عن الأمور المتعلقة بالمدينة؛ بل إنها نزلت في النصف الثاني من الفترة المدينة، يعني الفترة المدينة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث في المدينة عشر سنوات ثم توفي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، هذه العشر سنوات **"سورة الأحزاب"** نزلت في النصف الثاني، يعني من السنة الخامسة فما بعدها.

تتحدث عن أمور كثيرة:

أولها: "الحديث عن غزوة الأحزاب المسماة بغزوة الخندق"، وقد وقعت غزوة الأحزاب في شوال في السنة الخامسة، لما حاصر المشركون مشركو مكة ومعهم أوباش العرب يعني أعداد كثيرة من العرب، وأيضًا معهم قبائل بعض العرب، وأيضًا من ضمن هؤلاء يهود بنو قريظة الذين ظاهروا المشركين وتعاونوا مع المشركين، تتحدث عن غزوة الأحزاب.

ثانيًا: "تتحدث عن موقف المنافقين في الغزوات وفي غزوة الأحزاب خاصة"، وموقف المنافقين أيضًا من إيذاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والطعن فيه وفي زوجته وفي بيته، فهي تتحدث عن المنافقين،

وعن الأحزاب، كلّ هذا جرى في المدينة، وأيضًا تتحدث عن بعض التشريعات والأحكام المتعلقة بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالمؤمنين.

ولو تلاحظ أن الله نادى نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خمس مرات:

أول شيء: في افتتاحية السورة، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ثم جاءت نداءات خمسة كلها بصيغة، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١].

وأنت تلاحظ أن هذا تشريف للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن الأنبياء قبله حتى آدم الله يناديه باسمه يقول: ﴿يَاآدَمُ﴾ [البقرة: ٣٣]، ﴿يَانُوحُ﴾ [هود: ٣٢]، ﴿يَامُوسَى﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿يَاإِبْرَاهِيمُ﴾ [هود: ٧٦].

وأما محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينادى باسمه أبدًا؛ بل الله نهى المؤمنين وحذرهم أن ينادوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باسمه، ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، فحذر عن ندائه؛ وهذا بلا شك أنه تشريف للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ذكرت السورة بعض الأحكام والتشريعات المتعلقة بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة، بأن الله أحل له الزواج بأكثر من أربع، وأحل له زواج الموهوبة التي تهب نفسها، هذا من خواصه، وجواز القسم بين نسائه ليس فرضًا، يعني القسم بين الزوجات هذا واجب، لكن في حق النبي سنة، ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأحزاب: ٥١].

وأيضًا جاءت أحكام إبطال ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم مطلقة الابن الدعي، تحريم التبني، جاء تحريم التبني في هذه السورة؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قد تبنى زيد بن حارثًا، وكان يسمى زيد بن محمد، وأراد الله أن يُبطل هذا التبني، ويبطل ما يتعلق بالتبني وهو جازو الزواج، زواج زوجة الدعي أو المتبنى، أن يتزوجها من تبناه، وذلك أن زيد بن حارثة كانت تحته زينب بنت جحش، وكانت امرأة صالحة، وتقية، فتزوجها زيد وهي من أشراف مكة، ومن أنساب مكة، وزيد كما هو معلوم من الموالي، فتزوجها ثم أراد الله أن يطلقها فطلقها، ثم تزوجها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تزوجها بعقد من السماء لم يتدخل أحد في زواجها، ولذلك حتى هي كانت تفتخر على زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقول: **"أنتم زوجكم أهاليكم وأنا زوجني الله من فوق سبع سماوات"**.

قال: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، فدخل عليها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هكذا مباشرة، وجاءت أحكام تحريم أزواج النبي على أن يتزوجها أي إنسان، يعني أي امرأة تزوجها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يجوز لأي إنسان أن يتزوجها بعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن أزواجه أمهات المؤمنين.

وكذلك جاءت أحكام التأدب في دخول بيوت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومشروعية الصلاة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجاءت أحكام الحجاب، ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

تحريم الظهار والادعاء وحكم الإرث والنكاح والطلاق وعدة المطلقة غير المدخول بها، وفرض الحجاب، وغيرها من الأحكام التي ذُكرت في هذه السورة.

✍ **لو قيل: هذه السورة مضمونها ومحورها ومقصدها ما هو؟**

✍ **حتى نفهم أكثر عمّ تتحدث هذه السورة بشكل دقيق يسميه بعض المفسرين مقصد السورة وهدفها ومحورها؟**

لو تلاحظ حتى من تسميتها بـ **"سورة الأحزاب"** تجد أن محورها هو الدفاع عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن جناب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الدفاع عنه وعن جنابه، وتلاحظ في الأحزاب الله دافع عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وأرسل الله عليهم ريحًا وجنودًا لم يروها، وعذبهم، وطردهم حتى انخلعت خيامهم، وانكفأت قدورهم ودخل التراب في أعينهم، ففروا منهزمين هاربين، فالله عَزَّ وَجَلَّ دافع عن نبيه، وصرفه عنه أعداءه، دافع عن نبيه بكشف عوار المنافقين، المنافقون يسترون فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كشف لنبيه، دفاعًا وحمايةً للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إنك تجد أن هذه السورة أكثر سورة تحدثت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعن أحواله، النداءات التي في سورة خمس نداءات، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١]، لم تُذكر في أي سورة.

حتى نفهم أكثر وأدق السورة لو تأملناها أكثر نجد أنها تدور على ثلاثة أمور:

أولًا: "صفات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

كم تتوقع من صفة وُصف بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه السورة؟

نقول: أربعة عشر صفة ذُكرت في هذه السورة في أوصاف النبي، وصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه النبي، وبأنه الرسول، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ [الأحزاب: ٤٥].

وبأنه مبلغ للوحي، ووصف بالتقوى أنه تقي، والتوكل، والخشية، والحياء، ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، والشفقة، والصدق، والشهادة، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

صفات كثيرة؛ بل ذكرت خصائص النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خصائص اختص بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سائر المؤمنين.

من خصائصه:

١. أنه نودي مثلما ذكرنا بوصف النبوة، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١]، هذا خاص بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى الأنبياء ما نودوا بصفة النبوة.

٢. أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، هذه خاصية للنبي.

٣. أزواجه أمهات المؤمنين، هذه خاصية.

٤. ليس أبا أحد من الرجال.

٥. خاتم النبيين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٦. أنه أباح الله له التزوج من النساء ما شاء.

٧. وأباح له الهبة في النكاح خاصة، ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

٨. والقسم بين النساء كما ذكرنا ليس واجبًا.

٩. وأن الله تولى تزويجه من غير ولي ولا عقد ولا مهر.

١٠. تعظيمه بالصلاة عليه، بل إن الله جَلَّ جَلَالُهُ في علاه، وملائكته، والمؤمنون، كلهم يصلون على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذه خاصية عظيمة له.

عشر خصائص، عندنا أربع عشرة صفة في السورة، عشر خصائص، وخذ أيضًا الحقوق، ما هي حقوقه علينا؟

✍ حقوق النبي على أمته ما هي؟

🗐 ذكرت السورة ستة حقوق:

١. طاعته واتباع حكمه.

٢. التأسي، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

٣. تعظيم أزواجه وإجلالهم، تعظم زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

٤. التأدب في دخول بيوته هذه خاصة به.

٥. الصلاة عليه والتسليم عند ذكره، هذه واجبة علينا، حق للرسول علينا.

٦. عدم إيذاءه بأي نوع من الأذى، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

فهذه أمور عظيمة في السورة هذه، هذه الأشياء التي مرت معنا في حق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، له حقوق، وله خصائص، وله صفات.

فالسورة كلها تدور حول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والدفاع عنه، إذا عرفت هذا الأمر؛ فإن هذه السورة جاءت في فضائلها: **"أن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كتب لبعض الأمصار أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور"**.

أنهم أمرهم أن يتعلموا سورة النساء، والأحزاب، والنور، وأيضًا جاءت آثار أخرى قال: **"علموا نسائكم سورة النور والأحزاب"**.

سميت بالأحزاب؛ لأن كلمة الأحزاب تكررت فيها، تكررت فيها أكثر من مرة، ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ﴾ [الأحزاب: ٢٠]، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وغيرها من الآيات.

ومثلما ذكرت لكم: عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمر النساء بتعلم الأحزاب والنور، **"سورة الأحزاب"** هذه ذكر أهل التفسير أنها كانت سورة طويلة، قال بعض أهل التفسير ومنهم أبي بن كعب قال: **"كنا نعد** "سورة الأحزاب" **في زمن النبي** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أنها تعدل سورة البقرة، ثم لا يزال فيها النسخ حتى بلغت ما بلغت ثلاثة وسبعين آية"**.

كانت تعدل سورة البقرة فجرى عليها نسخ إلى أن وصلت هذا العدد، إذا أصبح عندك الآن تصور ومعرفة لهذه السورة، لو أردنا أن نربط هذه السورة بالسورة التي قبلها يعني سورة السجدة وسورة الأحزاب في رابط بينهما، ذكر بعض المفسرين أن **"سورة الأحزاب"** جاءت بعد **"سورة السجدة"** لأن الله ذكر في **"سورة السجدة"** قال في آخرها: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨ - ٣٠].

جاء قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠]، في آخر السورة، ثم جاء في أول السورة: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، فأمره بالإعراض عن الكافرين، وعن المنافقين وعن طاعتهم، ﴿اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

في أواخر السورة آخر آية في السجدة قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [السجدة: ٣٠]، وهنا قال: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

مثلما ذكرنا لكم السورة تدور حول نصرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتأييده والدفاع عنه، كلها تدور حول هذا الأمر، ثم تدخل عدة أحكام، وتشريعات، وآداب، وأخلاق، ودروس، وعبر، كلها تدور حول هذه السورة العظيمة.

تحدثت عن غزوة الأحزاب وأخذت حوالي عشرين آية، حوالي ثلث السورة في الحديث عن غزوة الأحزاب، وتحدثت عن أمور أخرى.

الآن الأمر واضح فيها، لكن الآن نحن نريد أن ندخل على السورة في آياتها الأولى، نبدأ بالسورة، في آياتها الأول.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١].

أنت لما تقرأ هذه الآية، وأنت تقرأ بتدبر وتأمل؛ تجد أن هذه الآية يعني مثلما ذكرنا تتحدث عن السورة ككل، وهذا يسميه علماء البلاغة براعة الاستهلال، تستهل السورة بعبارة تشير إلى كلّ ما يتعلق بالسورة.

فقوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١]، إذًا السورة تتحدث عن النبي، ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، تتحدث عن أوامر موجهة إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتشريعات، ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، تحذير بأن هؤلاء أعداء، وأن الله عَزَّ وَجَلَّ سيجعل كيدهم في نحورهم، وأنه يرد كيدهم، فيحذر نبيه من طاعتهم، والله متولي أمره.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]، عليم بأعدائه، وحكيم في دفع أذاهم عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

✍ ما معنى اتق الله؟

✍ هل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتق حتى يؤمر بالتقوى؟

نقول: لا، النبي أتقى الأمة، وإنما قال الله: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، معناها داوم، واستمر، وتمسك بتقواه وزد في تقواه، يعني لتعلم أيها النبي أن تقوى الله أمر لا ينفك عنه مسلم أبدًا في جميع حياته.

تقوى الله هي مراقبة الله ما دام هذه الروح في الجسد فعليك أن تتق الله، وأن تراب الله، وتقوى الله هي الخوف من الله، ،الخوف من عقابه.

وتقوى الله معناها الإقبال على طاعته، والتمسك بأوامره، والبعد عن مساخطه محارمه؛ إذا كان النبي يؤمر بهذا معنى أن غيره من المؤمنين يقتدون به، فإذا رأوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤمر بالتقوى، والنبي يقول: «**أنا أتقاكم لربي وأخشاكم**».

كان المسلمون يقبلون على التقوى بقوة، وهم يعلمون أنهم أحوج إلى التقوى من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي غُفرت له ذنوبه، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فنحن أحوج إلى التقوى.

ولذلك لما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه بالتقوى والتمسك بها، ومراقبتها في كلّ ما يأتي من التشريعات حذر من أعدائه، قال: لا تطع، واحذر أن تطيع الكافرين، وأهل النفاق المنافقين؛ لأن أعداءه أعداء خارجين وأعداء داخلين؛ العدو الخارجي واضح، عدو واضح ويأتي لمحاربته كأبي سفيان وغيره، هؤلاء أعداء ظاهرين.

لكن العدو الداخلي الذي في صفوف المسلمين هذا الذي يخشاه الإنسان وهم المنافقون، المنافق يأتي ويصلي ويتصدق، ويجاهد، تظن أنه مسلم، وهو منافق، يظهر لك الإيمان وباطنه كفر، ولذلك حذر الله من عدوين، عدو داخلي، وعدو خارجي، وكلهم سيأتي الحديث عنهم في السورة، كلهم سيكون لهم دور قوي في معاداة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحاربته.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]، ولما يأمر نبيه بالتقوى، وينهاه عن طاعة هؤلاء لأن الله عليم، عليم بالعدو، وحكيم في خلقه، حكيم في أمره، حكيم في تدبيره، حكيم فيما يأمر به نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتَّبِعْ﴾ [الأحزاب: ٢]، لما قال: ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ [الأحزاب: ١]، نهاه، ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، أمره بأن يتبع الوحي؛ لأن اتباعه للوحي هو السلامة من أعدائه، اتباعه للوحي هو سبب ثباته، وسبب رضا الله عنه.

قال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٢]، أي اتبع الوحي الذي يأتيك من السماء في القرآن والسنة؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتيه الوحي من السماء بالقرآن والسنة، واله مطلع، مطلع وعالم، ولذلك قال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٢]، ما يأتيك من الوحي، قال: ﴿مَا يُوحَى﴾ [الأحزاب: ٢]، وما قال: **"ما أوحي"** لو قال: **"ما أوحي"** يعني شيء ماضي، لكن، ﴿مَا يُوحَى﴾ [الأحزاب: ٢]، يعني يوحى الآن إليك ويأتيك بعد ذلك فعليك اتباعه والتمسك بشريعة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن فيها النجاة والسلامة، وفيها الدفاع عن العدو.

قال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢]، لأن الوحي جاءه من السماء من الله عَزَّ وَجَلَّ، ليس وحيًا من شياطين الإنس أو الجن، وإنما وحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢]، الخبير الذي يعلم السرائر، يعلم الظواهر والبواطن، الخبير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالمٌ بأحوال الناس، فالله مطلع على نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى المؤمنين وخبير بهم، وإذا كان مطلعًا عليهم وخبير بأعمالهم؛ فإنه يجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، فالله خبير ومطلع.

وفي هذا لما تختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢]، فيه ترغيب وفيه تخويف، ترغيب لمن يعمل ويتبع ويتمسك بشريعة الله وبسنة نبيه، والله مطلع وعالم، ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وترهيب وتخويف لمن يعصي ولا يتبع، ويتمرد على شرعه.

تأتيك أوامر، قال بعدها: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]، مع فعل الأسباب أن تتق الله، ولا تطع الكافرين والمنافقين، وأن تتبع ما يوحى إليك، كلّ هذه الأمور تمشي عليها، لا تنسى أن تعتمد على ربك، وتفوض أمرك إليه، جميع أمورك فوضها إلى الله، تعتمد عليه في جلب الخير، ودفع الشر، لا يأتي بالخير إلا الله، ولا يصرف الشر إلا الله.

أعداء أمامك كفار منافقون لا يمكن أن تحذرهم إلا بعد التوكل على الله، ولا يمكن أن تسلم من شرهم إلا أن الله يكف شرهم عنك، ولذلك قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣].

هذه الأسباب افعلها ولا تنسى أن تعتمد على ربك، قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]، وفوض جميع أمورك إليه، وحسبك به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكيلاً وحافظًا ورقيبًا ومدبرًا لك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ووكيل لك، هو الوكيل، الحافظ، المدبر الذي يتولى أمرك، ويحفظك من شر الإنس والجن، فتوكل عليه.

وفي هذا فائدة: أن الإنسان يجمع بين فعل الأسباب والاعتماد على الله، لا يعتمد على الله فقط ولا يفعل الأسباب، الله أمره قال: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، وقال: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٢]، ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

أمره بأوامر ، ثم قال: لا تنس التوكل، التوكل دون فعل الأوامر هذا خطأ، أو الاعتماد على الأسباب هذا أيضًا خطأ، فالجمع بينهما أن تفعل الأسباب وتعتمد على الله عَزَّ وَجَلَّ تجمع بينهما.

من أهم الأمور التي تتحدث عنها السورة: **"مسألة التبني"** كانوا في الجاهلية يتبنون من لا يُعرف أهله، يعني لو وجدت شخص لقيط، أو يُباع في السوق، أو مملوك أو شيء يعني كانوا يتبنوه، يأخذ الولد ويجعله عنده في البيت ويجعله ابنًا له، كما قال عزيز مصر: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [يوسف: ٢١].

فكانوا يتخذون هؤلاء أولادًا لهم بالتبني، فجاء الإسلام وأبطل التبني، قال: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ما يجوز أن يكون ابنًا لك وهو ليس من صلبك، لا يجوز أن يقول الرجل أو المرأة: هذا ولدي، وهذا ابني، وهو ليس في الحقيقة ابنًا له، وإنما ابن من ولده، ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢]، أما أنت ما يمكن أن تقول: هذا ابني، فهؤلاء أدعياء، أدعياء يعني ينتسبون إليكم فقط.

فوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

إما أن تقول: يا أخي، أو فلان بن فلان، هذا الذي أمر الله به، لكن لما أراد الله أن يقتلع هذه الصفة، وهذا الأمر، أو هذه العادة التي كانت موجودة في الجاهلية وفي أول الإسلام قدم لها مقدمات حتى يقتنع من يقتنع.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]، عندنا أمرين، ما في مخلوق له قلبين، ما في إلا قلب واحد، لا يمكن أن يكون له قلبين، كلّ البشر كلّ إنسان خلقه الله جعل فيه قلب واحد، صدره وجوفه ما فيه إلا قلب واحد، هل يمكن أن يكون في قلبين، الله يقول: ﴿مَا جَعَلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، الله ينفي.

سمعنا بعضهم يقول: إن هناك من كان له قلبين، لا، هذا غير صحيح؛ لأن الله قال: ﴿مَا جَعَلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

الأمر الأول حتى أعطيك تمهيد: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

الثاني: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، لا يمكن أن تكون زوجتك زوجة وأمك، هذا ما يمكن أن يجتمع، لا يمكن أن تكون زوجة وتكون أمك؛ لأن الأم محرمة

عليك، أمك لها أمر عظيم، هي محرمة عليك، وزوجتك مباحة لك، فكيف تجعل الزوجة تقول لها أم؟ هذا عمل محرم لا يجوز، كبيرة من كبائر الذنوب، ويلزم صاحبه الكفارة، يلزم من قال ذلك الكفارة.

ولذلك قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، تقول: هي كظهر أمي، يقول بعضهم لزوجته: أنت كظهر أمي، أو يقول: أنت كأمي، فإذا قال: أنت أمي، ولو كان مازحًا لزمته الكفارة، ولا يجوز أن يمسها حتى يكفر ذلك، كما ذكر الله ذلك في سورة المجادلة.

فهنا أشار الله عَزَّ وَجَلَّ إلى أنه لا يمكن أن تجمع صفتان في الزوجة، ما يقال للزوجة: أنت زوجة وأنت أمي، ما يمكن مستحيل، لا يجوز لرجل أن يقول لزوجته: يا زوجة، ثم يقول: يا أمي، فهذا محرم.

ولذلك الله بيّن لنا في الأول أنه ما في رجل في جوفه قلبين، وما في رجل يقول لزوجته: أنت أمي، وأنت زوجتي، ثم انتقل إلى الأمر الثالث الذي يريد أن يصل إليه قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، الدعي هو الذي يدعي أنه ينتسب إلى شيء، وهم أولاد التبني، يقول: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

ما يمكن أن يقول لشخص: أنت أبي، وهو عنده أب أصلي، أبوه الذي سبب في ولادته، وأنت سبب مثلاً في تربيته، ما يمكن أن يكون هذا الولد له أبوان، كما أن الإنسان ليس في جوفه قلبان، وكما أن الإنسان لا يقول لزوجته: أنت زوجتي وأمي، كذلك لا يقول أيضًا للمتبنى أو للدعي: أنت ابني، وأبوه يقول: أنت ابني، ما يمكن، هذا حرام، ولذلك نهي الله عن التبني، وهذه كأنها مقدمة، سيأتي أيضًا حكم التبني.

قال: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، هذا كلام من أفواهكم ولا يصح، فهذا كلام من عندك، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، يقول: الله هو الذي يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويبين الحق، ويُرشد الناس إلى الطريق الصحيح طريق الرشاد والسلامة، أما هذا الكلام فهو قولكم، عندكم أنتم بأفواهكم، لا يجوز أن تقولوه.

ولذلك قال: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، أي هؤلاء الأدعياء ادعوهم إلى آبائهم.

لا نريد الإطالة يا أخوان الوقت أخذنا، والحديث طويل شوية عن مقدمة السورة، لعلنا نقف عند هذه الآية، وإن شاء الله في اللقاء القادم نبيّن الحديث عنها بإذن الله أكثر وأكثر.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الأحزاب ٥ - ٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للثامن عشر من شهر رجب من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

درسنا في مثل هذا اليوم من كلّ أسبوع نجلس هذا المجلس المبارك نسأل الله أن بارك لنا ولكم، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، نجلس هذا المجلس المبارك نتناول آيات من كتاب الله نقرأها، ونتدبرها، ونتأملها، وينفع الله بهذه القراءة، القارئ والحاضر والمستمع، ومن يبلغه هذا المجلس المبارك.

"سورة الأحزاب" قد تحدثنا عنها في لقاءنا الماضي، وذكرنا أنها الحقيقة تتحدث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني من حيث صفات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكرنا أن السورة وصفت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تقريبًا أربعة عشر صفة، وخصائص خص بها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من سائر الأمة، خصه الله بخصائص، وذكر حقوقًا له على الأمة يجب على كلّ مؤمن بالله وبرسوله وباليوم الآخر أن يعرف حق الرسول عليه.

فالسورة ركزت على هذا الأمر وهي في الحقيقة رفع لمكانة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجلالة قدره، والدفاع عن جنابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى غزوة الأحزاب التي جاءت وتكالب الأعداء حتى سماها الله أحزاب، سمى الأعداء أحزابًا، تحزبوا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجتمعوا عليه، لإرادة القضاء عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى دعوته، وعلى أصحابه الذين ناصروه، هذه كلها تدور حول أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تولى أمر نبيه، ودافع عنه حتى هزم هؤلاء الأحزاب وطردهم.

الحقيقة السورة كلها تدور حول مقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنت من خلال قراءتك لهذه السورة، ومن خلال قراءتك في تفسيرها سيظهر لك هذا الأمر جليًا أن السورة تركز على النبي صَلَّى اللهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى وصف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها بصفة النبوة خمس مرات، ونودي فيها بنداء **"يا أيها النبي"** خمس مرات، نداؤه خمس مرات، وصفته أكثر من خمس مرات.

وستلاحظ حتى يعني مما يلفت الأنظار العجيب يعني أن وصف النبوة أكثر من وصف الرسالة فيها، يعني جاءت كلمة الرسول فيها، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

لكن لو تلاحظ كلمة النبي أو صفة النبي تلاحظها في هذه السورة أكثر من صفة الرسالة؛ لأن الرسول لما يوصف بالرسول يوصف على وجه التبليغ، تبليغ الرسالة ودعوة الناس إلى الدخول في الإسلام، لكن هذه الآية لا، الآية هذه تتعلق بالدفاع عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه نبي، وأنه قد نُبئ، واختاره الله أن يكون رسولًا، واختاره الله أن يكون خاتمًا لجميع الرسالات، وشرفه الله بأن يكون سيد الأولين والآخرين، فكان وصفه بالنبوة هو الأقرب، وهو الأولى.

حتى في أولها يقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ [الأحزاب: ١]، وبعدها يقول: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى﴾ [الأحزاب: ٦]، وبعدها: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وهكذا تلاحظ تكرر هذا الوصف فيها أكثر وأكثر.

نحن تحدثنا عن صدر هذه السورة ونداء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها؛ بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]، لما تقرأ هذه الآية الأولى فقط تشعر بأن هذه الآية فيها ما يسمى عند علماء البلاغة براعة الاستهلال، كأن هذه الآية تشير إلى أمور ستحدث في هذه السورة.

منها:

أولًا: نداء النبي ووصف النبوة، ومثلما ذكرنا صفة النبوة تتكرر في هذه السورة.

منها: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، وقبلها: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ففيها أمر بالتقوى، وهو طاعة الله والحذر من معصيته، وهذه وإن كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أتقى الخلق، وأتقى عباد الله وأخشاهم؛ إلا أن الله يؤكد عليه لأنه سيواجه أمور في هذه السورة، أمور تحتاج إلى التمسك بالتقوى أكثر وأكثر.

فكأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ودم واستمر وتمسك بتقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن تقوى الله ألا تطع الكافرين أبدًا؛ لأن الكفار سيحاولون زعزعة دينك، وإضعاف ما أنت عليه، والمنافقين، وتلاحظ السورة تدور حول أعداء الإسلام من الداخل ومن الخارج، وغزوة الأحزاب أظهرت هذا الأمر، أظهرت أعداء الإسلام، الأحزاب من الخارج والمنافقون من الداخل.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾، واسع العلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]، حكيمًا فيما يقدره وفيما يأمر، وفيما ينهى، في جميع أموره.

ومثلما مر معنا لما أمره باتباع ما يوحى إليه والتمسك به، والتوكل عليه، ففيها مواجهات، ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بدأ بالتمهيد لقضية **"تحريم التبني"**.

التبني هو: "أن ينسب الرجل لنفسه ما ليس من ولده" فيقول: هذا ولدي وهو ليس بولده، أو يأتي الشخص ويقول: هذا أبي، هذا كله دعوى من دعاوى الجاهلية، لما كان هذا الأمر متأصلاً في العرب، وفي أول الإسلام؛ حتى إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان زيد بن حارثة يسمى زيد بن محمد، والنبي قد تبناه، حتى إلى فترة يعني إلى تقريبًا قبل وفاة النبي بخمس سنوات أو سبع وهذه الأمور موجودة عندهم في الإسلام، فاستئصالها وإبعادها يحتاج إلى تمهيد، فبدأت الآيات بالتمهيد.

قال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]، هذا ما يمكن، ما يمكن أن يأتي رجل ويقول: هذا أبي وهذا أبي، ما لك إلا أب واحد، فكيف يكون لك أبوين؟!! ما يمكن، ما يمكن يكون لك أب وأب، لك أم وأب نعم، لكن لك أب وأب هذا يستحيل، أنت ترجع إلى أصل واحد وإلى صلب واحد أبوك واحد.

فكأنه مهد قال: ما في إنسان له قلبين، وفي إنسان يقول لزوجته: أنت أمي، أمك التي ولدتك، أما أن تأتي زوجتك وتقول: يا أمي، هذا ظهار، وهذا أمر محرم، وكبيرة من كبائر الذنوب.

ثم وصل إلى هذا الأمر الذي أراده قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، أدعياءكم يعني الأولاد بالتبني، ما جعل الله لك ابن، هذا لم يكن لك ابن في الحقيقة، ليس ابن له، ولذلك أراد الله

أن يزيل هذا الأمر من قلوب الصحابة والمؤمنين، فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

هؤلاء ليسوا أبناء لكم، هؤلاء ليسوا أبناءكم، وأنتم لستم آباءهم، آباءهم هم الذين كانوا سببًا في ولادتهم، ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

قال: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، هذا كلام من عندكم أنتم، ليس له أصل، هذا كلام تقولونه بأفواهكم، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤]، الذي يقول الحق هو الله، لما يقول الله: هؤلاء ليسوا أبناؤكم فهو الحق، ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

فكلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حق، ويقول الحق، ويهدي إلى طريق الحق وطريق السلامة، وطريق النجاة، وطريق الحق، والبعد عن التكلم بشيء لا يصح، فلما تقول: هذا ابني، وأنا أبوه، وهو ليس ابن لك؛ وإنما مجرد دعوى هذا كلام لا يجوز، وكلام لا يصح، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

ثم صرح سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذلك؛ قال: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، لا تدعوهم لأنفسكم، ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، هو أعدل، وأقوم، وأحق، هذا هو الحق، ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، هو أعدل وأهدى وأقوم، كلام مستقيم أن تدعوهم إلى آبائهم.

قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، الأصل أنك تدعو هذا الرجل لأبيه، مثلما دعاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد بن حارثة، قال: أنت ابن حارثة، لما كان يقال: زيد بن محمد، قال: أنت زيد بن حارثة، فدعاه إلى أبيه، الله قال: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

✍ طيب إذا لم نعلم آباءهم، ابن دعي ومتبنى ولا نعلم من هو أبوه وهو لا يعرف، فماذا نقول؟

قال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، تقول: يا أخ؛ لأنه أخوك في الدين، أنت وإياه يجمعكم دين واحد وهو الإسلام، فتقول: يا أخ، يا فلان، إذا ما تعرف اسمه ولا تعرف إلى من ينتسب فتقول: أنت أخي، يا أخ، إن كان من الأحرار تقول: يا أخ، وإن كان من المتحريين الذين تحرروا تقول: يا ولي، يعني مولى القوم منهم، من الموالي، إما من الأحرار أو من الموالي،

فتدعوه فتقول: يا فلان، يا مولاي، يا أخ، وهكذا، ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اعتذر جل أو تجاوز وعفا عما حصل من الأول، وقبل عذر من اعتذر؛ فقال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [الأحزاب: ٥]، لا حرج عليكم فيما مضى من كونكم تقولون: ابن فلان، وابن فلان.

قال: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، الأمر الذي أنتم أخطأتم به، ولا تعرفون حكمه، وجاءكم الآن حكمه، هذا قد مضى، أو مثلاً أنت قلت هذا الشيء وأنت ناسي فالله عذرك، لو قلته بعدما علمت وقلته عن نسيان فلا حرج في ذلك.

قال: ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، أن تقصد وتتعمد بقلبك أن تقول هذا الشيء، هذا هو الحرج، ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، هذا الذي يأثم ويكون عليه جناح في هذا الشيء.

قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]، الله غفور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، غفور لمن وقع في هذا الشيء، ورحيم بأن فتح له باب التوبة، ورحيم بأن أعطاه هذا الحكم وبين له الحكم، لم يبق على جهل، وإنما أنعم الله عليه بهذا الحكم وبينه له.

إذا عرفت هذا الأمر وتأكد عندك، وأنت مثلما ذكرنا لك الآن الآيات تقرر بأنها تستأصل عادة من عادات الجاهلية، وهي محرمة في الإسلام، وهي كذب، وادعاء، لما الآيات بدأت تستأصل ما يسمى بالتبني، وادعاء هذا الولد لفلان وهذا ليس لفلان، يأتي الآيات أيضًا بعدها وهي تقرر هذا الأمر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ٦]، هذه الصفة الثانية من صفات النبي، ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، يعني رسول الله أولى بكر مسلم من نفسه، يعني أنت أغلى ما تملك نفسك، الرسول أغلى من نفسك هذا معناه، يعني ينبغي أن تعرف مقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تعرف مرتبة النبي عند الله، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شرف نبيه محمد، وأعلى مرتبته، فينبغي أن نعرف كيف نتعامل معه؟

ولذلك قال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، حتى من أنفسهم، أقرب ما يكون لك نفسك، والرسول أولى، ولذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قال: **"والله يا رسول الله إني لأحبك من كلّ شيء، من ولدي ووالدي إلا من نفسي، قال: لا يا عمر، فقال عمر: والله يا رسول الله إني لأحبك أعظم من ولد ووالدي حتى من نفسي، قال: الآن يا عمر"**.

فمحبة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قلوبنا ينبغي أن تكون أعظم من أنفسنا، ولذلك الصحابة قدموا أنفسهم في الجهاد، وبذلوا أرواحهم لنصرة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالنبي أولى من كلّ مؤمن حتى من نفسه، لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذل لهم النصح، والشفقة، والرحمة، وهو أرحم الخلق وأرأفهم بأمته.

ما من خير إلا دلك عليه، وما من شر إلا حذرك منه، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شدة محبته لأمته كان أرحم الخلق بأمته، وأرأفهم، أشفقهم عليها، وأنصحهم لها، ما من باب خير إلا دلهم عليهم، وما في باب شر إلا حذرهم منه، ففضله عظيم، ومرتبته عظيمة، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وأنا مثلما ذكرت لكم في البداية ولازلت أكرر وهذا الأمر سيمشي معنا إلى آخر السورة، السورة تؤكد على مقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومكانته، حتى سميت بسورة الأحزاب فهي كلها تدور حول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومقامه ومنزلته، افتتحت بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١]، والآن الله يرفع مكانة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويبين لك مرتبته العظيمة، مرتبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كيف نتعامل مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكيف نعرف قدر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فالنبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

ثم قال: ﴿وَأَزْوَاجُهُ﴾ [الأحزاب: ٦]، أي أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، أي أمهات المؤمنين، من شدة رفع مقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى جعل زوجاته أمهات للمؤمنين، يعني زوجة النبي أمي لي ولك، وهذا ليس في المحرمي؛ وإنما في الحرمة والاحترام والإكرام والتقدير، لا في الخلوة، والمحرمية، يعني لست أنت محرمًا لها، ولا أحد من الصحابة محرمًا لزوجات النبي ولا أن يخلو بها، وإنما هذا مجرد مقام عظيم.

ولذلك جاء في قراءة عن بعض الصحابة قرأ: **"النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم، وهو أبٌ لهم"** النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا كانته زوجاته أمهاتنا فهو أبو الأمة كلها، فهو أبوهم جميعًا، وهذا كأنه إشارة إلى أنه لما قيل: زيد بن حارثة هو زيد بن محمد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: محمد ليس أبًا لزيد؛ بل هو أبًا للجميع، حتى يكون هذا فيه يعني لأن زيد لما كان يسمى زيد بن محمد سُلب منه هذا الاسم، وسمي زيد بن حارثة، كان هذا الأمر أثر فيه، فأراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يزيل هذا الأثر؛ فقال: محمد أبو الأمة كلها، ليس أبًا لزيد فقط، هو أبوٌ لزيد وأبوٌ لغير زيد.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في السورة نفسها وسيأتينا الكلام عنها: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ليس هو أبًا لأحد من رجالنا بالنسب، والانتساب، وإنما هو أبٌ في الاحترام والتقدير والإكرام.

فهذا معنى قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فاحترام زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احترام له، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرم الزواج من أمهات المؤمنين، فقال: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، لأنهم أم المؤمنين جميعًا.

قال: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦].

✍ **ما علاقة أولوا الأرحام؟**

✍ **ومن هم أولوا الأرحام؟**

العلاقة: أن التبني كان في الجاهلية يدعي الرجل أن هذا ابنًا له، فحتى يجعله يرثه، إذا مات المتبني الذي تبنى هذا الولد، هذا الولد يرثه وهذا من شدة التبني، وكان عندهم ولاء شديد، حتى إن الميراث كان أحيانًا إما عن طريق التبني، وأحيانًا عن طريق العقود والتحالف، يعني المحالفات والعقود التي يبرمونها بعضهم بعضًا، الواحد منهم يقول: دمي دمك، ومالي مالك، وترثني وأرثك.

فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يقطع هذه العيادات، الميراث بالنسب ليس الميراث لا بالرضاع، ولا بالتبني، ولا بالتحالف، ولا بالمعاقدات، وإنما هو بالأرحام بالنسب، وأولوا الأرحام الأقارب.

قال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦]، في حكمته، فيرث بعضهم بعضًا، ويبر بعضهم بعضًا، ويحسن بعضهم إلى بعض، وهم أولى في كتاب الله من التبني وأولى من المحالفة، وحتى أنه ينصر بعضهم بعضهم، ويؤيد بعضهم بعضًا، ويقف بعضهم مع بعض، ويتواصل بعضهم مع بعض.

قال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦].

✍ ما علاقة المؤمنين بالمهاجرين؟

نقول: أنت تقرأ القرآن ينبغي لك أن تفهم، تفهم الكلام هذا، من الصعب أيها الأخوة الحقيقة وأنا أكرر هذا الكلام كثيرًا في هذا المجلس وفي غيره، يا أخوة من الصعب أن الإنسان يقرأ القرآن ولا يفهمه، إذا كنا نحن عرب، ونحن أهل القرآن، وأقرب الناس إلى القرآن، نقرأ القرآن ولا نفهمه، هذه مشكلة، فلابد من قراءته بتدبر وفهم.

قال: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]، لما هاجر أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة آخى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهم وبين الأنصار، حتى إن الرجل الأنصاري يقول: نصف بيتي لك، ونصفه لي، ومالي نصفه لك ونصفه لي، وإذا كانت تحته أكثر من زوجة قال: اختر منها ما تشاء، وصل الأمر إلى أن هذا يرث هذا وهذا يرث هذا، فقطع الله هذا الأمر.

فالميراث لأولوا الأرحام فقط، أولى من التبني، وأولى من الحلف والمحالفات، وأولى مما حصل بين المؤمنين والمهاجرين لما آخى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بينهم.

ثم بين القرآن أن الميراث والمال إذا انقطع؛ فإن هناك أعظم لا ينقطع، ما هو؟ قال: ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٦]، المعروف ما ينقطع، المعروف التواصي والهدايا، والتبرعات، والمساعدات، والإعانة، ونصرته، والوقوف معه، وتوثيق العلاقة بينك وبينه هذه لا تنقطع.

يقول: ﴿إِلَّا﴾ [الأحزاب: ٦]، لكن ﴿أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٦]، افعلوا، من هم أوليائكم بالمعروف؟ هو الابن بالتبني المتبنى، أو إذا كان بينك وبينه معاهدة وتحالف، أو مؤاخاة؛ فإن له حقًا عليك ولك حقًا عليه في النصرة والمساعدة والتأييد، وتقوية العلاقة والمعروف.

يقول: هذا الأمر كله مقرر في كتاب الله، ومقرر في شرع الله، ولذلك قال: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]، يعني هذا الأمر قد قدره الله وكتبه ولابد أن ينفذ، لابد أن يتم هذا الأمر، هذا معناه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]، ما زلنا يا أخوان نعود وندور حول تعظيم وتبجيل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى إن الله أخذ الميثاق على الأنبياء بنصرة محمد، نصرة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخذه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الأنبياء السابقين، يعني أنتم يا أيها المهاجرون والأنصار وصحابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انصروا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واعرفوا قدره وعظمته؛ فإن الأنبياء السابقين قد أُمروا وأُخذ عليهم الميثاق أن ينصروه.

قال: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ﴾، أي السابقين ﴿مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]، ثم خص، من هؤلاء النبيين خص منهم أولي العزم الخمسة، فقال: ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب: ٧]، والخامس محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هؤلاء الخمسة هم أولوا العزم.

فأخذ الميثاق منهم، وأُخذ الميثاق على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يؤدي ما أُمر به، قال: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧]، يعني ثقيلاً قويًا على القيام بدين الله والجهاد فيه، ونصرة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ الذي هو سيد الأولين والآخرين وأفضلهم، وأن يقتدوا به، وأن ينصروه.

قال: ﴿لِيَسْأَلَ﴾ [الأحزاب: ٨]، الله عَزَّ وَجَلَّ يسأل من؟ قال: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]، الذين نصروه وأيدوه، وأيدوا أنبياءهم ونصروهم ممن تبع أنبيائهم.

قال: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨]، الكافرين الذين كفروا ولم ينصروه ولم ينصروا أنبياءهم قد أعد الله لهم عذابًا أليمًا.

وفي هذا إشارة أيها الأخوة إشارة ولمحة إلى أنه ينبغي أن ينصر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن هذه الأحزاب التي تحزبت عليه ينبغي أن يقف الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وقد وقفوا، يقفوا أمام هذا العدو وينصروه، ليسألهم الله.

ولذلك تجد في ثنايا قصة الأحزاب قال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤].

قال هنا: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨]، الذين كفروا وعاندوا ولم يعرفوا قدر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحاربوه، أعد لهم عذابًا أليمًا.

أيها الأخوة الوقت يضيق، والحقيقة الآن ستنتقل الآيات يعني الآية التاسعة الآن والعاشرة وما بعدها كلها الدخول في معركة الأحزاب، والحديث عن معركة الأحزاب، وذكر مواقف عظيمة جليلة، ودروس وعبر حول هذه المعركة نحتاج الحقيقة أن نستلهم هذه الدروس، والعبر، والفوائد؛ التي أوحى الله بها في القرآن، وأشارت الآيات إليها، ينبغي أن نقف عندها، لعلنا في لقاءنا القادم بإذن الله ندخل على هذه القصة، وما جرى في الأحزاب وكيف نصر الله نبيه؟ وكيف نصر الصحابة نبيهم؟ وكيف كان موقف المنافقين وأعداء الإسلام؟ كلّ هذا يأتيك إن شاء الله في اللقاءات القادمة بإذن الله، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وما سمعنا.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الأحزاب ٩ - ٢٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للخامس والعشرين من شهر رجب، من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، السورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأحزاب"**، **"سورة الأحزاب"** تحدثنا عنها في لقاءات ماضية، ووقف بنا الكلام عند الآية التاسعة، وهذه الآية التاسعة ومع بعدها تتحدث عن الأحزاب، ولذلك سميت السورة بهذا الاسم نسبة إلى الأحزاب الذين تحزبوا على حرب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والقضاء على الإسلام والمسلمين.

ومثلما ذكرنا هذه السورة تدور كلها حول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في خطاباتها، وحديثها، وموضوعاتها، كلها حول تشريف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكريمه، ومن تكريمه أن هؤلاء الأحزاب الذين تحزبوا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للقضاء على دعوة الإسلام، كلّ هؤلاء تحزبوا لينهوا هذا الدين ويقضوا عليه، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مكن لنبيه الانتصار عليهم، وفرق شمل هؤلاء وشتتهم، وهزمهم، هزم الأحزاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونصر نبيه عليهم، نصر نبيه وأصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هؤلاء.

ندخل إلى هذه القصة التي بدأها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالنداء؛ قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأحزاب: ٩]، خطاب للمؤمنين، والمقصود بهم صحابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المجاهدين، الذين جاهدوا لإعلاء كلمة الله ولنصرة دينه، ولنصرة نبيه.

قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٩].

✍ **ما هي النعمة التي يأمرنا الله بأن نتذكرها بقلوبنا؟**

نقول: نتذكر هذه النعمة بقلوبنا، ونتذكرها بعقولنا، ونتذكرها فنشكر الله عليها، نشكره بألسنتنا، وجوارحنا، وقلوبنا، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٩].

✍ **النعمة هنا مفردة هل هي نعمة واحدة؟**

نقول: لا، هي نعم كثيرة.

✍ **كيف تقول: نعم كثيرة والله يقول: نعمة؟**

نقول: عندنا قاعدة تفسيرية مهمة ينبغي للمسفر وكلّ من دخل في مجال التفسير أن يكون عنده قواعد تفسيرية يفهمها، ومن هذه القواعد: **"أن المفردة القرآنية أو اللفظة القرآنية إذا كانت نكرة ثم أضيفت إلى معرفة؛ فإنها تفيد العموم"**.

فلما تقول: نعمة الله فهي ليست نعمة واحدة؛ بل نعم كثيرة، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، لا يقصد نعمة واحدة.

قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٩]، أي نعمه الكثيرة، النعم الكثيرة، ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٩]، يعني بما أنعم الله عليكم أنتم خاصة، طيب ما هي؟ قال: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩].

✍ **ما هي هذه الجنود؟**

قال: ﴿جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الأحزاب: ٩]، وهم الأحزاب، الأحزاب جاءوا وأحاطوا بالمدينة، من هم الأحزاب؟ قريش، كفار مكة ومعهم الأحباش، وقبائل العرب كغطفان، وأيضًا المنافقون من الداخل، واليهود الذين أيضًا كانوا مجاورين للنبي والمؤمنين في المدينة، كلّ هؤلاء تحزبوا على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا عشرة ألاف، عشرة آلاف مقاتل في مقابل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة بثلاثة ألاف.

لما أرادوا التحزب والاجتماع للقضاء على الإسلام والمسلمين وبدؤوا يتحركون علم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فاستشار الصحابة، ماذا يصنع؟ فأشار عليه سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يحفر خندقًا؛ بحيث أنه يمنع وصول الجيوش إليه؛ لأن المدينة محاطة بحرة غربية، وحرة شرقية مترفعات، ومن

الجنوب جبل عير، ومن الشمال هو المدخل، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما استشارهم أشار إليه سلمان بأن يحفر خندقًا.

وهذا الحفر كما ذكر أهل السير أنه ما يقرب من ستة ألاف يعني طوله ستة ألاف متر، ما يقرب من ستة كيلو، فحفروا هذا حفرًا، وبدؤوا يعملون، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحفر معهم؛ حتى انتهوا من هذا الحفر.

فلما جاء الأحزاب قريش وقبائل العرب واجتمعوا لغزوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجدوا هذا الخندق، فأقاموا مقابل هذا الخندق، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج، خرج الصحابة وخرج النبي من بيته واجتمعوا عند جبل سلع، وهو صغير قريب من الخندق، فاجتمعوا فيه لرد عدوان هؤلاء، فكل من أراد أن يتجاوز هذا الخندق أقاموا عليه برده وعدم تمكينه.

فأقاموا في هذا المكان، ومن أراد معرفة هذه الغزوة بدقة؛ فإن هناك سورًا تعطيك كيفية تخطيط النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخندق، والأعداء كيف جاؤوا؟

فأقام المشركون شهرًا كاملاً وهم محيطون بالمدينة يتربصون بأن ينتقموا من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، أقاموا شهرًا والنبي قد عسكر وقد رابط في مقابلهم، وتعرف المدينة محاصرة لمدة شهر، والبرد شديد؛ لأنها كانت في السنة الخامسة في شوال، وكان البرد شديدًا، برد وجوع وخوف والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يترصدون للمشركين حتى لا يقدموا على دخول المدينة.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

أعطاك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآية خلاصة ما جرى في هذه الغزوة، أجمل لك كلّ ما حصل، جنود جاءوا وهم الأحزاب، ولما تجمعوا للدخول لغزو النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، والقضاء عليهم في المدينة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرسل عليهم ريحًا.

قيل: هي ريح الشرق، ريح شديدة فقلبت خيامهم، وأثارت الغبار عليهم، وقلبت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، فرأوا أنهم يرجعون، ويفرون، وأرسل الله أيضًا جنودًا ملائكة من السماء أيضًا تعين على تشتيتهم وتفريقهم.

قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩]، الله عَزَّ وَجَلَّ مطلع على رسوله وعلى المؤمنين لما كانوا يحرفون الخندق، ولما كانا معسكرين، ومرابطين أمام العدو، كلّ ذلك، ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

وفي قراءة: **"وكان الله بما يعلمون بصيرًا"** أي بما يعمل هؤلاء الأحزاب كان الله بصيرًا بهم، مطلعًا عليهم، ولذلك لا يخفى عليه شيء من أعمالهم فانتقهم منهم وفرقهم.

وقال الله في آخر القصة: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، هذا المجمل جاء بعده التفصيل.

ونحن نعرف أيها الأخوة جميعًا أن القصة القرآنية لما يسوق لنا الله عَزَّ وَجَلَّ أي قصة من قصص القرآن، سواء القصص السابقة أو القصص المعاصرة، أو يحكي لنا غزوة من الغزوات إنما يحكيها القرآن ويسوقها لعرض الدروس والعبر والفوائد، لا أن يحكي لنا تفاصيل القصة، تفصيل القصة كلٌّ يعلمها، ولكن الحديث عن الدروس والعبر.

ولذلك أجمل القصة كلها، وأجمل ما جرى في الأحزاب ثم بدأ يُفصل الدروس والعبر، ومثلها في **"سورة آل عمران"** في غزوة أحد كلها دروس وعبر، وكذلك غزوة بدر في **"الأنفال"** وغزوة تبوك في **"سورة التوبة"** وصلح الحديبية في **"سورة الفتح"** كلّ هذه تأتي لأخذ الدروس والعبر والمواقف المهمة، ولذلك الآن ستشاهد مواقف الحقيقة فيها دروس وعبر.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠]، يقول: جاءت الأحزاب من هنا ومن هنا، ﴿جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠]، قيل: جاءوا من جهة الشرق وهو المترفع الفوقي، وهذه قبائل العرب، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠]، جهة الغرب وهم قريش والأحباش.

ذكر أهل التفسير: أن حيي بن أخطب اليهودي رأس اليهود هو الذي أثار هذه الغزوة؛ لأنه ذهب إلى أهل مكة وبدأ يحرضهم على قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم ذهب إلى قبائل العرب كغطفان وغيرها ثم بدأ يحرضهم على قتل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاجتمعت الأحزاب.

قال: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠]، يعني أحاطوا بكم بحيث أنه ليس لكم حيلة، يقال: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، من أعلى الوادي من جهة الشرق، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٠]، من بطن الوادي من جهة الغرب.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ [الأحزاب: ١٠]، شخصت الأبصار، الزيغ أصله الميل، والمراد بها هنا شدة الرعب والخوف، وشدة الحيرة والدهشة، يعني وصل بهم الأمر يعني لاحظ أن المؤمنين عددهم أقل، ثلاثة ألاف مقابل عشرة ألاف، وقبائل، ومن الداخل المنافقون، والمحيطين بالمدينة اليهود، فأصبح هناك يعني الأمر اشتد صعوبة، فلذلك شخصت أبصار المؤمنين، وزاغت الأبصار؛ لأن زغ الأبصار وشخوص الأبصار لا يكون إلا عند الرهبة والخوف وشدة الرعب.

قال: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، انتقلت القلوب من أماكنها إلى الحناجر تريد الخروج من شدة الخوف ومن شدة الرعب، والحيرة والدهشة التي أصابت المؤمنين.

قال: ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]، يعني اختلفت الظنون، يعني ظنون كثرة ظن بالله من ظن من المنافقين الذين كانوا في صفوف المؤمنين، ومن ضعفاء الإيمان، وظنوا بأن الله لا ينصر دينه، وظنوا أن الله لا يعلي كلمته، وظنوا أن هؤلاء الأحزاب خلاص سينتقمون من المسلمين، ويضربونهم ضربة واحدة ويقضون عليهم.

هذه الظنون، وهذا الرعب الشديد الذي أصاب المسلمين وظن من ظن الظنون السيئة بخلاف المؤمنين، المؤمنين ما ظنوا إلا الظن الحسن، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

أما هذه الظنون والشكوك إنما هي من ضعفاء الإيمان، ومن المنافقين الذين كانوا في صفوف المؤمنين.

قال: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١١]، يعني في هذا الموقف العصيب اختبر المؤمنين وزلزلوا زلزالًا شديدًا، ومُحص القوم، يعني أصبح هناك تمحيص.

ومثلما ذكرت لكم القصة القرآنية وحكاية الغزوة هذه إنما هي تساق للدروس والعبر، ولذلك هذه بينت الصادق من الكاذب، وبينت المؤمن من المنافق، ولذلك زلزلوا واضطربوا اضطرابًا شديدًا، وظهر الخوف والقلق على وجوه المنافقين، وأما المؤمنون ازدادوا إيمانًا ويقينًا بأن الله سينصرهم، ويخذل أعداءه.

ثم بدأت الصورة تفصل في مواقف المنافقين أثناء الحرب؛ قال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

هؤلاء ضعفاء الإيمان ومعهم المنافقون اتهموا الله عَزَّ وَجَلَّ، واتهموا رسوله؛ بأن وعودهم كذابة، وقولهم: أننا سنمكن كلام باطل، وأن هذه الوعود كلها غرور، كأنهم يقولون: ما وعدنا الله إلا هذا الغرور فلا نصدق ولا نقبل، أين الذي يقوله محمد ستسقط فارس بين أيديكم والروم والواحد منا لا يستطيع أن يقضي حاجته؟!!

فظنوا هذا الظن السيئ وتحدثوا بهذا الكلام، هذا موقف بعض المنافقين، وبعض المنافقين لهم موقف آخر حكاه الله قال: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٣]، أي طائفة من المنافقين، ﴿يَاأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ [الأحزاب: ١٣]، ينادون بالوطنية، يعني لا دين، ولا أخوة إيمانية، وإنما يقولون: ﴿يَاأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ [الأحزاب: ١٣]، ما قالوا: يا أيها المؤمنون، أو يا أيها المجاهدون أو نحو ذلك، أو يا صحابة رسول الله لا، ﴿يَاأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ [الأحزاب: ١٣]، فينادون بالوطنية.

قال: ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٣]، ليس لكم إقامة هنا في هذا المعسكر، ارجعوا إلى بيوتكم، لا نستطيع أن نواجه هؤلاء، هذه معركة خاسرة لا نستطيع أن ننتصر فيها، والعدو قد تربص بنا وأحاط بنا، فارجعوا إلى منازلكم وادخلوا بيوتكم، هذه الطائفة الثانية.

الطائفة الثالثة: قالوا: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣]، يستأذن فريق آخر من المنافقين بالعودة إلى بيوتهم، ويدعون أن بيوتهم مكشوفة، وليس فيها أحد، وأن نساءهم وذراريهم معرضون للعدو، فلا نستطيع أن نجلس معك ونترك بيوتنا عروة مكشوفة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، يعني قصدهم الفرار من مواجهة العدو، لا أن بيوتهم عروة، يعني كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣].

عندك الآن مواقف المنافقين في هذه الغزوة انقسمت إلى ثلاثة أنواع أو ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: يقولون: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وأن مواعيد الله ورسوله كذب في كذب، لا رأينا نصرًا للمسلمين ولا شيء، والرسول يعدنا بالنصر ولا وجدنا نصرًا.

الطائفة الثانية: **"تنادي بالوطنية"**، ﴿يَاأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: ١٣]، ارجعوا إلى بيوتكم ولا تقفوا في وجه العدو، لا نستطيع المواجهة.

الفرقة الثالثة: تدعي أن بيوتها عورة تريد الفرار وعدم مواجهة العدو.

وكان رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول قد رجع وجلس في بيته، وقال: يا محمد لا نستطيع مواجهة هذا العدو وجهًا لوجه، إنما نجلس في بيوتنا، وبدأ بعضهم ينادي بعض، سيأتينا الآن بيان ذلك.

قال: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ [الأحزاب: ١٤]، أي دخل العدو عليهم، ودخلت الجيوش عليهم من أطراف المدينة وجوانبها، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا﴾ [الأحزاب: ١٤]، سئل هؤلاء المنافقون، ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ [الأحزاب: ١٤]، يعني الرجوع عن دينهم إلى الكفر، وموافقة المشركين، ﴿لَآتَوْهَا﴾ [الأحزاب: ١٤]، لجاءوا مسرعين، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٤]، يعني هم يخافون على أموالهم، وعلى بيوتهم، وعلى أنفسهم، لا يقاتلون لله، وإنما لو جاء الأعداء وأحاطوا بهم لسلموا لهم الأمر واتبعوهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ١٥]، هؤلاء المنافقون عاهدوا الله وعاهدوا الرسول من قبل غزوة الأحزاب أنهم لا يفرون في الحروب، ولا يتأخرون إذا دعوا إلى الجهاد؛ بل يخرجون إلى الجهاد.

قال: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ [الأحزاب: ١٥]، أي عهد الله مسئول، وأنهم سيسألون ويحاسبون على ذلك، كيف يعاهدون الله ثم ينقضون العهود؟!!

ثم بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ [الأحزاب: ١٦]، لا ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل في سبيل الله، ولو فررتم، ﴿وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦]، يعني لو فررتم وسلمتم من القتل أو الموت؛ فإن المدة قليلة أصلاً، ﴿وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ [الأحزاب: ١٧]، قل لهؤلاء، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٧]، ما الذي يمنعكم من الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ [الأحزاب: ١٧]، إذا أنزل بكم عقوبة في أحد يمنعكم؟ لأنكم عصيتم الله، وعصيتم رسوله، وخذلتم المؤمنين، ولم تنصروهم، من يمنعكم من الله لو أراد بكم سوء؟!!

قال: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، أو من يمنعكم لو أراد بكم رحمة ونصر وعزة؟! إلى أحد يستطيع.

قال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧]، لما تخلوا عن ولاة الله لا يستطيعون أن يجدوا وليًا يتولى أمرهم ولا نصيرًا ينصرهم.

يأتيك موقف عبد الله بن أبي بن سلول كما ذكرنا رأس المنافقين ومن معه، يأتيك الآن ما هو موقفهم في هذه الغزوة؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨]، يقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم هؤلاء المثبطين عن الجهاد، والقائلين لإخوانهم المنافقين تعالوا وانضموا إلينا، واتركوا محمدًا ومن معه في المعسكر، ولا تشهدوا معهم قتالاً فإنا نخاف عليكم الهلاك، فانضموا إلينا وادخلوا بيوتكم، وهذا تخذيل منهم لا يريدون القتال.

قال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨]، أقبلوا إلينا، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨]، يقول: لو جاءوا إلى البأس والحرب والقتال لا يأتون إلا قليلاً منهم أو وقتًا قليلاً منهم.

قال: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩]، يعني بخلاء لا يريدون بذل المال ولا بذل النفس، ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩]، ولكن حالهم إذا جاءهم الخوف ورأوا العدو أمامهم، والعدو قد تسلط على المسلمين وأحاط بهم، ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩].

إذا حضروا قتال ورأوا العدو أمامهم خافوا، ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩]، لذهاب عقولهم وخوفهم من القتل، يريدون الفرار، تدور أعينهم كدوران عين من حضره الموت كالذي يُغشى عليه من الموت، كالذي حضره الموت يعني ستخرج روحه.

ثم قال: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ [الأحزاب: ١٩]، إذا ذهب الخوف وانتهت الحرب وذهب العدو، ماذا يقولون؟ قال: ﴿سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، يعني رموكم بألسنة حداد مؤذية، ﴿أَشِحَّةً عَلَى

الْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: ١٩]، رموكم بألسنة حداد مؤذية، وتراهم عند قسمة الغنائم من أشد الناس شحًا وبخلاً وحسدًا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ [الأحزاب: ١٩]، لم يقاتلوا لله، ولا نصرة لدينه، ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩]، أحبط الله عملهم وكلّ ما عملوه من صلاة أو ذكر أو صدقة أو أي عمل من أعمال البر رد الله أعملهم، وكان هذا الفعل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسيرًا عليه حيث أذهب ثوابهم ولم يكتب لهم الأجر في ذلك.

قال: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ [الأحزاب: ٢٠]، يظن هؤلاء المنافقون أن الأحزاب الذين تحزبوا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يذهبوا، يظنون أنهم ما زالوا باقين.

قال: ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ [الأحزاب: ٢٠]، يظن هؤلاء الذين هزمهم الله وطردهم لم يذهبوا، ولم يفروا، لما سلط الله عليهم الريح والملائكة من شدة الخوف والجبن ما زال الخوف معهم، ولو عاد الأحزاب إلى المدينة للقتال تمنى هؤلاء المنافقون أنهم كانوا ﴿بَادُونَ﴾ [الأحزاب: ٢٠]، يعني بعيدين، أي من سكان البادية، كانوا غائبين عنكم في أطراف المدينة مع أهل البادية، ﴿بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ [الأحزاب: ٢٠].

قال: ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٠]، يعني يتابعون أخباركم، يسألون عن أنبائكم، ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٠]، لو ما خرجوا ولم يذهبوا إلى الأعراب، لو كانوا فيكم ما فيهم نفع ولا فيهم خير.

قال: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٠]، لخوفهم وجبنهم وذعرهم ما يقاتلون، إذا ذهبوا أو بقوا لا فائدة منهم.

أيها الأخوة لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل بقية هذه الدروس والعبر في هذه القصة قصة الأحزاب بإذن الله.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الأحزاب ٣٠ - ٣٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للعاشر من شهر شعبان من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم وفي تفسير **"سورة الأحزاب"** وقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [الأحزاب: ٣١].

وهذه الآية كما هو واضح عند الجميع مرتبطة بما قبلها، وهو توجيه الخطاب لأزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذه الآية التي وجه الله الخطاب فيها وهي الآية الثامنة والعشرين، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

هذه الآية وما بعدها تسمى بآية التخيير، آية التخيير أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر نبيه أن يأمر زوجاته بأن يخيرهن إما أن يرغبن في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما فيه من العيش والكفاف، معيشة الكفاف والزهد والإعراض عن الدنيا، والصبر على ما هم عليه، ويبقين زوجات للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإما أن يسرحهن ويطلقهن ويعطيهن الدنيا، ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]، لأنكن تردن زينة الحياة الدنيا.

فمثل ما مر معنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول ما نزلت عليه هذه الآية دخل على عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فقال لها: **"لعلك تستشيرين أهلك أو والديك في أمر قبل أن تقضي فيه، قالت: ما هو يا رسول الله؟ فقرأ عليها هذه الآية، قالت: أستشير والدي فيك يا رسول الله، والله لا أستشير أحدًا فيك، وقالت: أريد الله ورسوله والدار الآخرة"**.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، يعني يعطيهن المتعة التي شرعها الله، تعطى شيئًا من المتعة مما تيسر، ويسرحها سراحًا جميلاً، وإن كانت تريد الله، وتريد الرسول، وتريد الآخرة فيبقين على ما عليه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فخرهن الله، وخيرهن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاخترن الله واخترن رسوله والدار الآخرة، ولذلك مدحهن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأثنى عليهن؛ بل أمر الرسول ألا يتزوج عليهن، قال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

فقصر الله رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نسائه التسع؛ لأنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، جاءت الآيات فيها الوعظ والإرشاد والتوجيه لنساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويدخل في ذلك جميع نساء المؤمنين يدخلن في ذلك.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠].

ما المراد بقوله يأتين بفاحشة مبينة؟

المراد بالفاحشة هي: "ما قبح من الأقوال والأفعال" ولا يمكن حملها على الفاحشة التي هي فاحشة الزنا؛ لماذا؟ لأن نساء النبي قد عصمنهن الله من هذا الأمر، لحفظ فراش النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطهارته، فلا يمكن أي رسول ولا نبي أن يكون فراشه قد يعني نجس بالفاحشة أو نحو ذلك، فلم تحن امرأة نبيًا من الأنبياء بمثل هذا الأمر.

ولذلك تفسير الفاحشة هنا هو: "ما فحش وقبح من الأقوال والأفعال" فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، من قول سيء وقبيح أو فعل قبيح مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو معهن بأنفسهن؛ فإن العذاب يضاعف ضعفين، ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، لماذا؟ لأن المعصية من رفيع القدر، ورفيع الشأن تكون أشد قبحًا أعظم جرمًا، فزوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهن المكانة العليا، ولهن المنزلة والشأن العظيم، فإذا صدر منهن معصية؛ فإن المعصية لا تكون منهن كغيرهن من النساء؛ لأنهن أشرفهن وأعظم، ولذلك قال: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠].

وهذا من باب التقدير حتى نفهم أن ساء النبي لم يقعن ولا يمكن؛ لأن الله عصمنهن من أن يقعن في مثل هذا الأمر، أن يأتين بفاحشة وهو ما قبح وعظم من الأقوال والأفعال؛ لأن الله صانهن حفظًا لصيانة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومكانته، فهذا من باب التقدير، يعني من باب الجمل الشرطية التي لا يصح وقوعها، مثل قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ما يمكن أن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يشرك، مستحيل.

وكذلك لما قال الله في الأنبياء: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، فهذا من باب التقدير، لو وقعت في فاحشة ضوعف لها العذاب ضعفين، لكنها لا تقع.

قال: ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠]، يعني أن الأمر هذا على الله ليس بصعب، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؛ بل هذا يسير وهين إذا حصل مثل هذا الأمر، ولكنه لم يحصل، وهذا على سبيل الفرض والتقدير، وإلا لم يقع من زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إرشادًا لهن وتوجيهًا لهن: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [الأحزاب: ٣١]، القنوت هو لزوم الطاعة الحرص عليها، والحرص أيضًا على رضا الله، ورضا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن كلمة القنوت هنا هي لزوم الطاعة، ومن أشد الطاعات طاعة الله وطاعة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكأنها رسالة إلى زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أطعن الله وأطعن الرسول فيما يأمركم الله به، ويأمركم به رسوله.

ولذلك قال: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الأحزاب: ٣١]، يعني طاعة الله، وطاعة رسوله، ثم قال: ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ [الأحزاب: ٣١].

قد يأتيك سائل يقول:

الأول الفعل "يقنت" ثم قال "تعمل"، "تعمل" للنساء و"يقنت" عام للرجال والنساء؟

نقول: لأن الجملة شرطية، والجملة الشرطية تفيد العموم؛ فلما بدأ بالجملة الشرطية قال: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣١]، حتى يدخل فيه كلّ من يقنت، ثم قال: ﴿وَتَعْمَلْ﴾ [الأحزاب: ٣١]، المراد به نساء النبي، ﴿وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]، يعني الله عَزَّ وَجَلَّ أعطاهن الفضل

والمكانية العليا، فإذا عملت صالحًا ضاعف الله لها الأجر مرتين، وإذا وقعت على سبيل الفرض في معصية ضوعف لها العذاب مرتين، لمكانتهن وعلو شأنهن.

قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١]، أي في الجنة، أن الله أعد لمن التزم هذا الأمر وتمسك به أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أعد لنساء النبي وغيرهن رزقًا كريمًا.

قال: ﴿يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، أنتم لستم أي امرأة من النساء، هذه أم المؤمنين وزوجة النبي لا تساوى بغيرها، ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، جملة شرطية، إن اتقيتن الله وخفتم عذابه ومخالفة أمره، وبحثتم عن رضا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودمتم على هذه التقوى تمسكتم بها التي أمركم الله بها فالواجب عليكم أن تحذروا ما يخالف التقوى.

ما هو الذي يخالف التقوى؟

قال: ﴿إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، لماذا؟ قال: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، والمراد بالخضوع خضوع القول هو ترقيق الكلام، والتكسر بالكلام، والتغنج به؛ لأن هذا يثير شهوة الرجال، يطمع الذي في قلبه مرض الشهوة، فهذا مرض الشهوة يكون سببه هو أن المرأة تخضع بكلامها على وجه الترقيق والليونة والتكسر الذي يسير الشهرة، فنهاها الله عن هذا الكلام.

وهذا الكلام وإن كان في الأصل جائزًا لكنه لما كان وسيلة إلى أمر محرم حرمه الله، و**"الوسائل لها أحكام المقاصد"**، هذه قاعدة، **"الوسائل لها أحكام المقاصد"** إذا كانت هذه الوسيلة جائزة، ومباحة لكنها تؤدي إلى حرام حرمت، مثل الآن عندك في **"سورة النور"** نهى الله عَزَّ وَجَلَّ النساء أن يضربن بأرجلهن.

قد يأتيك شخص يقول:

طيب تضرب برجلها هذا جائز؟

نقول: هو جائز لكن لما كان يؤدي إلى فتنة مُنع، ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، لأنه إذا ضربت برجلها أحدثت أصوات، وأحيانًا يحدث صوت الخلخال الذي يوقع في الأقدام، أو الذهب الذي يكون على الصدر ونحوه يخرج صوت، صوت الخلخال وصوت الذهب يؤدي إلى الفتنة، فلما كان يؤدي إلى الفتنة مُنعت المرأة من ضرب الأقدام على الأرض.

وكذلك هنا لما كان التغنج بالصوت، والتمايل بالصوت والتكسر، والليونة، وترقيق الكلام، لما كان يؤدي إلى فتنة عظيمة وهو أنه يطمع من في قلبه مرض مُنع منه النساء، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وبيّن لك العلة والسبب، ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ولم يقل: اخشوشن بالكلام، ما يكون كلامها خشن بقوة، يعني تتصنع الخشونة، وتتكلف الخشونة هذا أمر لا ينبغي.

لا تكون المرأة كلامها رقيقًا ولا يكون كلامها خشنًا، إذًا ماذا يكون؟ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، متوسط بلا ميل إلى هنا، ولا ميل إلى هنا، أن يكون كلامًا طبيعيًا على طبيعتها وسليقتها لا حاجة إلى التكلف، لا في الليونة الزائدة التي فيها تكسر، ولا خشونة فيها تكلف، فالأمر يكون متوسطًا؛ بحيث أنه لا يثير الشهوات، ولا أيضًا يكلف المرأة شيئًا لا ينبغي تكلفه، فأرشد الله إلى القول الذي يرضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو القول المعروف الذي على طبيعته وعلى سليقته، قولًا حسنًا محمودًا، تنطق به المرأة بطبيعتها دون انحراف إلى التميل ولا انحراف إلى الخشونة، إنما هو كما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والأمر الثاني الذي ينبغي أيضًا: أن المرأة لا تتحدث مع الرجال الأجانب إلا عند الحاجة، أما إذا لم يكن هناك حاجة ماسة فلا حاجة إلى الحديث معهن والتكلم معهن، وإنما البعد عنهن، وهن أيضًا يبعدن عن التحدث مع الرجال بلا حاجة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، قرن من القرار، قرار المرأة أي استقرارها في بيتها، قرت المرأة وأصل الكلمة اقررن، لما حذفت الراء الأولى سقطت الألف، فقيل: **"قرن في بيوتكن"** يعني أقمن في بيوتكن واستقررن في بيوتكن، يعني تقيم المرأة وتستقر في بيتها ولا حاجة إلى الخروج إلا للحاجة التي يعني تُشرع لها، لماذا؟ لأن بقاء المرأة في بيتها أسلم، وأبعد عن الفتنة، **"بيوتهن خيرٌ لهن"**.

المرأة تحفظ نفسها في بيتها، لكن لا يمنع أن تخرج للصلاة، صلاة الجماعة، صلاة العيد، صلاة الكسوف، تخرج للمستشفى، تخرج لزيادة أهلها وأبويها، تخرج للسفر، للحج، للعمرة، كلّ ذلك من الأمور التي شرعها الله ولم يمنعها منه، فتخرج عند الحاجة.

أما أن تكون دائمًا في الطرقات، وخروجها أكثر من جلوسها في البيت فهذا مما لم يرغب فيه الإسلام، ولم يشجع عليه، ولا ينبغي أن تكثر الخروج؛ لأنها إذا خرجت خرجت من مكان الفطرة التي فطرها الله عليه، وهذا عملها، وهذه فطرتها، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل منزلها البيت، وحياتها في بيتها، في تربية أبنائها في طفولتهم، وإصلاحها شأن البيت، والرجل له الخارج، يقوم بأعماله، والله قد فرض على الرجل نفقة البيت والقيام بشئون البيت، يعني كلٌّ له خصائصه.

فإذا تعدى أحد الفريقين أو أحد الطرفين خصائص الآخر اختل النظام، اختل النظام وفسد البيت، فإذا الرجل لم يعمل أثر على نظام البيت، والمرأة إذا خرجت للعمل وتركت البيت يضيع أثر ذلك، فكل هذا من السلبيات التي تحدث في بعض البيوت.

ولكن كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، قيد التبرج، قال: لا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى، لها أن تخرج لصلاة الفريضة إذا أرادت، والحج، والعمرة، وزيارة الأقارب، وصلة الأرحام، وقضاء حاجاتها، هذا كله كما ذكرنا، لكن إذا خرجت لا تتبرج تبرج الجاهلية.

والتبرج أصله **"الظهور"** يسمى البرج لأنه ظاهر عالي، فالمرأة تخرج تتبرج بمعنى أنها تخرج لا غطاء عليها ولا حشمة ولا ستر لأنها تظهر، تظهر زيناتها أمام الرجال، وهذا ما كان عليه أهل الجاهلية بأنه تبدي المرأة زينتها في الخروج، فنهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، يعني تخرج وهي محتشمة متسترة، بعيدة عن مواطن الفتن هذا الذي ينبغي، تلقي خمارها على رأسها وعلى وجهها وتغطي جسدها وتخرج لا مانع من ذلك.

أما أن تخرج وتتبرج تبرج الجاهلية هذا الذي نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أمر نساء النبي أن يقررن في بيوتهن أرشدهن إلى ما تقضي به المرأة في بيتها من الوقت.

قال: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، تلزم البيت لإقامة الصلاة، تداوم على الصلاة، ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣]، فهي تداوم على إقامة الصلاة في أوقاتها المشروعة، وأوقاتها التي فرضها الله، وتكثر من صلاة النفل، كلّ هذا أمر شرعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأمرها أن تقضي وقتها وتشغل نفسها بالصلاة والزكاة التي فرضها الله؛ لأن الصلاة والزكاة هي

أعظم فريضة فرضها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو هاتان الفريضتان خصها الله بالذكر لأنها أساس العبادات كلها، كلّ العبادات تدور حول هذين الفرضين، إقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

قال: ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، أي في كلّ ما يأمركم الله به، أو يأمركن الله به، أو ينهاكم الله عنه، وكذلك رسوله، التزموا طاعة الله، والتزموا طاعة رسوله، لماذا؟ قال: لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يريد أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت، ويطهركم تطهيرًا، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

والرجس ما هو؟

هو: كلّ شيء مستقذر من قول أو فعل، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد أن يطهر بيوت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كلّ قول قبيح أو فعل قبيح، وكذلك يطهرهن من الذنوب والمعاصي والآثام.

المرأة إذا لزمت بيتها وأكثرت من طاعة الله ورسوله، والصلاة والزكاة؛ فإنها تبتعد عن كلّ ذنب، وكلّ إثم؛ لأن الذنوب والمعاصي هي نقائص وهي أدناس وأرجاس، وهي الرجس المعنوي، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد تطهيرهن من هذا الرجس.

قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، يعني يا أهل البيت.

✍ ما المراد بأهل البيت هنا؟

نقول: أهل البيت كما هو السياق واضح، سياق الآيات في الخطاب ومخاطبة نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنساء النبي يدخلن دخولًا أوليًا، ولا يمنع أن يدخل في أهل البيت بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآل محمد كلهم يدخلون في ذلك، يعني يدخل في ذلك ابنته فاطمة وعلي والحسن والحسين؛ لأنهما سبطا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزوجاته.

وأما القول بأن أهل البيت هم: فاطمة والحسن والحسين وعلي فقط، هذا مما يخالف الآية، فدخول النساء نص في القرآن الكريم في أنهن من أهل البيت، والآية نزلت فيهن، نزلت في نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكل ذلك داخل، يعني دخول زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومما يدل على ذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في إبراهيم وزوجته يعني الملائكة قالوا لزوجة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٧٣]، لما تعجبت من أن تحمل، قالوا: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣].

✍ من هم أهل البيت؟

نقول: إبراهيم وزوجته ما في غيرهما، ما عندهم أولاد، ومع ذلك سماهم أهل البيت، فدخول نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل البيت هذا هو الذي يقتضيه السياق، وإخراجهن تكلف وبُعد عن سياق الآيات.

وكذلك ندخل غيرهم يعني نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وابنته فاطمة وعلي والحسين؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، **"عنكم"** جاء بصيغة الجمع، ولم يقل: **"عنكن"**، وقال: **"ليطهركم"** ولم يقل: **"ليطهركن"** دل على أن النساء وغيرهن داخل في ذلك هذا هو الحق في تفسير هذه الآية، والله أعلم.

قال: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، أي أكثرن من ذكر الله في بيوتكن، من كثرة الذكر، من التصبيح والتهليل، وقراءة القرآن، والصلاة، كلّ هذا ذكر، ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

قال: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، آيات الله القرآن، والحكمة قيل: هي السنة، وقيل: هي تدبر القرآن وتفهمه وبيان ما فيه أسرار، كلّ ذلك من الحكمة، من الحكمة الوقوف على الآيات، والوقوف على سنة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]، لاحظ كيف ختمت الآية باللطيف الخبير، اللطيف من هو؟ اللطيف اسم من أسماء الله، ومعناه **"هو الذي لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد الدقيقة الخفية"** من يستمع إلى امرأة في قعد دارها تقرأ القرآن أو تصلي إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟!! فهو اللطيف الذي لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد.

وخبير أيضًا يعلم أحوالهم ويعلم ما خفي من أحوالهم، ولذلك جمع الله بين اسمي اللطيف الخبير، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخفى عليه شيء من دقائق الأمور، وكذلك خبير بأحوال العباد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قد يأتيك شخص ويقول:

هذه الآيات الآن كلها في نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هل يدخل نساء العالمين في ذلك نساء المؤمنين؟

نقول: يدخل نساء المؤمنين في ذلك، يدخل وإن كان نساء النبي هن المخاطبات أولًا، فلا يمنع من أن يدخل في ذلك سائر النساء، ولذلك جاءت الآية التي بعدها في وصف النساء عمومًا حتى يدخلن في ذلك.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فأتى بعشر صفات، كلها يتصف بها الرجال والنساء، نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونساء المؤمنين والمؤمنات، والرجال المؤمنين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، والإسلام صفة لكل إنسان، كلّ مؤمن كلّ مسلم يقول أنا مسلم لأنه منقاد لأمر الله، ومفوض أمره إلى الله، فهذا هو الإسلام، الانقياد لله، الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة، فكل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله هو مسلم.

قال: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، والمؤمن لأن الإسلام شيء ظاهر، فالمؤمن في القلب وهو تصديق القلب كلّ ما أخبر الله، بكل ما جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأركان الإيمان الستة.

قال: ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، والقنوت مثلما مر، ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣١]، وهو كثرة المواظبة على الطاعة، وكثرة الطاعات والاستمرار عليها من الطرفين الرجال والنساء.

قال: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، والصدق ضد الكذب والقول الباطل، فهم يصدقون الحديث، ويتكلمون بالكلام الذي يرضي الله ويرضي رسوله بصدق دون مخالفة، والله أثنى على الصادقين في كتابه، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر**».

قال: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، الصبر هو حبس النفس وتوطين النفس على تحمل المكاره والمشاق هذا كله داخل في ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ثم قال: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، والخشوع هو صفة تجعل القلب والجوارح فيها هدوء وعدم حركة؛ لأن الخشوع هو عدم كثرة الحركة، يعني يخشع القلب، تخشع الجوارح، تنقاد لله، تستشعر عظمة الله وجلاله، فتهدأ.

قال: ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فالمؤمن دائمًا كثير البذل والصدقة، ويقف مع إخوانه المحتاجين، والمؤمن في ظل صدقته يوم القيامة، فالمؤمن موصوف بكثرة الصدقة، والمرأة تتصدق، والرجل يتصدق، وهذه من صفات المؤمنين.

قال: ﴿وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، والصوم كما لا يخفى على الجميع هو من أعظم مراتب الدين، والإسلام؛ لأن الإنسان يترك ملاذ الدنيا وشهوات الدنيا تقربًا إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويمسك عن الطعام والشراب كلّ ذلك تقربًا ورضًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك أثنى الله ووصفهم بصفة الصيام.

قال: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، أي يحفظون فروجهم من الحرام، ومن الوطء، أو من العبث، أو من النظر، أو غير ذلك، كلّ ذلك، ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]، فالمرأة تحفظ فرجها، والرجل يحفظ فرجه من الحرام.

قال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ولاحظك أن الله لم يصف شيئًا بالكثرة إلا الذكر، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥].

قال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وهو أن يتمثل في النطق بما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من قراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، والتحميد، والتكبير، كلّ ذلك دخل في الذكر، حتى الصلاة للذكر، حتى الصلاة هي من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فدائمًا لسانه رطبًا بذكر الله.

جاء رجل قال: «**يا رسول الله أوصين؟ قال: لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»، فيكثر الإنسان من ذكر الله ولا يفتر عن ذكر الله، ويكرر الذكر دائمًا، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هؤلاء ختم الآية بالجزاء الحسن، قال: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فمن التزم هذه الأوامر والنواهي، وهذه الإرشادات، وهذه الصفات؛ فإنه سعد في الدنيا، وسعد في الآخرة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً﴾، لذنوبهم وما وقع منهم من زلل، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، مضاعفًا كثيرًا لا يعرف قده إلا الله.

لعلنا نقف عند هذه الآية وهذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الأحزاب ٣٦ - ٤٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للرابع والعشرين من شهر شعبان من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

حيا الله الحاضرين المستمعين والمتابعين لهذا الدرس المشارك، درس التفسير، والسورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأحزاب"** والآية السادسة والثلاثون قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

هذه الآية هو وإن كان لها سبب نزول معين لكنها آية عامة، أنه ما يكون لأي مؤمن دخل قلبه الإيمان واستقر الإيمان في قلبه، وآمن وصدقت الجوارح بامتثال أوامر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سواء كان ذلك ذكرًا أو أنثى، مؤمنًا أو مؤمنة أنه إذا قضى الله ورسوله أمرًا بحكم من الأحكام، بأمر من الأمور، أو فرض فرضه الله عَزَّ وَجَلَّ أو رسوله فرضًا من الفرائض أو حكم أو أمر لا يجوز لأي إنسان أن يعترض عليه، وليس لأي إنسان الخيرة أن يقول: أنا أختار هذا أو أختار هذا، أو أقبل هذا، أو أرفض هذا.

بل الواجب أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، هذا حق المؤمن أنه إذا دُعي إلى حكم من أحكام الله أو رسوله عليه أن يبادر هذا الواجب، وأن يُذعن لله، وأن يُحقق أمر الله ويستجيب وألا يخالف.

وليس له الخيرة أن يقول: والله هذا يناسبني و هذا لا يناسب، أو هذا يصلح وهذا لا يصلح، بل الواجب أن يبادر مستجيبًا لله ورسوله محتسبًا الأجر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ما يمكن أن تختار ما تريده أنت؛ لأن الذي يختاره الله ويختاره رسوله هو الخير، والله أعلم بالناس، بما يناسبهم.

فإذا قدر الله شيئًا أو حكم بشيء فهو في مصلحة الخلق، وفي مصلحة العباد، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رتب على هذا الأمر، يعني قد يقول بعض الناس: أنا أشوف الأنسب، وأشوف الذي يناسبني، وأشوف الذي يناسب الأحوال، ويناسب الوقت، نقول: لا، الأحوال والأوقات، والأشخاص هذه كلها لا تقف أمام أوامر الله وأمام أحكام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي هذا وعيد شديد لمن يقول مثل هذا الكلام؛ لأن الله يقول: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، بمعنى أنه لا يستجيب لقضاء الله، ولا لرسوله، ولا يستجيب لحكم الله؛ بل يخالف ويعصي الله ورسوله، ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

كيف بعدما دخل في الإيمان وعرف الصراط المستقيم، صراط النجاة والسلامة، ثم بعد ذلك يخرج عن هذا بتحكمه فيقع في الضلال، ولذلك قال: ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، أي بعد عن الطريق الصواب، ﴿ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ضلالًا واضحًا لا يُشك فيه، يعني أوضح من الشمس، أن من يعص الله ورسوله، ولا يحقق أوامر الله ولا يستجيب فهذا هو الضلال المبين.

إذا فهمنا هذه الآية على وجه العموم يبقى عندنا أن بعض المفسرين ذكر سبب نزول لهذه الآية، والله أعلم بصحة هذا السبب لكنهم ذكروا هذا السبب وهو أن زيد بن حارثة الذي كان يُدعى زيد بن محمد؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبناه، وأصبح يقال له: زيد بن محمد، لما نزل قول الله تعالى في أول السورة، ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، بدأ يُدعى بزيد بن حارثة لأبيه، وتُرك أن يقال: زيد بن محمد؛ لأن هذا بالتبني، والتبني نهى الله عنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحرمه.

فزيد بن حارثة هذا من الموالي، هو كان من الموالي وأعتقه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعله حرًا، أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب بنت جحش وهي ابنة عمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن صفية عمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أمر النبي زينب بنت جحش بأن يتزوجها زيد بن حارثة، فرفضت، قالت: كيف يتزوجني من هو من الموالي وأنا من أشرف أنساب قريش، وأنا كذا وأنا كذا؟ فكيف أتزوج بمثل هذا؟ فرفضت هذا الأمر، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها: «**تزوجيه، تزوجيه**».

فعندما كان هو يخاطبها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويتحاور هو إياها إذ نزلت هذه الآية، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

يعني ليس لزينب أن تقول: والله ما يناسبني، وهذا ليس على درجتي، وأنا أكفأ وأعلى نسبًا منه، وأشرف، ليس لها ذلك، ليس لها هذا الأمر؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرها أن تتزوج به، فالواجب عليها أن تبادر.

ولذلك لما قرأ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية عليها فما كان الجواب منها إلا أنها قالت: **"سمعت وأطعت لله ولرسوله، ورضيت به زوجًا"** فتزوجها زيد بن حارثة، تزوجها واستجابت لذلك يعني لرضا الله ورسوله، ولأمر الله وقضائه وحكمه، ولذلك الآيات التي بعدها كلها حديث عن قصة زينب رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، يعني واذكر حينما قلت لذلك الرجل الذي أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم الله عليه بالهداية، وأنعم عليه بأن جعله من الصحابة، وأنعم الله عليه بأن ذكر اسمه في القرآن، لم يُذكر أحد من الصحابة أبدًا في القرآن إلا زيد بن حارثة.

قال: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، ذكره الله باسمه، لا أبو بكر ولا عمر ولا أجلاء الصحابة.

قد يسألك سائل:

لماذا ذكر زيد مع أنه من الموالي وكان أقل منهم؟

لماذا ذكر زيد مع أن أجلاء الصحابة لم يذكروا بأسمائهم؟

نقول: لما كان زيد يُدعى بزيد بن محمد، وكان هو يفتخر بذلك على الناس بأنه زيد بن محمد، وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبناه، لما حرم الله التبني ونهى عنه، ونزع منه هذا الشيء فأصبح يُقال له: زيد بن حارثة، صار في نفسه شيء من هذا الأمر، فعوضه الله بأن ذكر اسمه في القرآن، ذكر اسمه بالتصريح في القرآن.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، أي تقول يا محمد، فالخطاب للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، أنعم الله عليه بالإسلام وبالهداية، أنعم الله عليه بنعمة الإسلام، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وهو زيد بن حارثة، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وأنعمت عليه أنت يا محمد؛ حيث أعتقته، وتبنيته، ورفعت مكانته.

قال: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، يعني أن زيد عندما تزوج بزينب بنت جحش وبقي معها، كأنه رغب عنها بأن يطلقها، فجاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستشيره، فقال: يا رسول الله إني أريد أن أطلقها، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تطلقها أمسك عليك زوجك واتق الله**»، اتق الله ولا تطلقها، أبق عليك زوجتك هذه زينب بنت جحش، ولا تطلقها، واتق الله يا زيد في طلاقها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، أي يا محمد، ما الذي أخفاه في نفسه؟ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبره الله عَزَّ وَجَلَّ أن زينب ستتزوج بزيد بن حارثة وهو متبنى للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه ابن للرسول بالتبني، وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علم أن زيد سيتزوجها ثم يطلقها، ثم يتزوجها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لما أخبر الله نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصعب أن يواجه قومه ويواجه الناس بهذا الأمر أنه يتزوج بزوجة ابنته المتبنى؛ لأن هذا كان عندهم من الأمور المحرمة، من الأمور التي لا يمكن فكأنه ابنه، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما حرم حليلة الابن زوجة الابن قال: ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]، حتى يخرج التبني، التبني ما يسمى ابن، الله أبطل التبني، لكن أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبطله قولًا، وفعلاً، يعني فعلاً أن يطبقه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال في بداية الأمر: «**اتق الله وأمسك عليك زوجك**»، يعني نصحه ألا يطلق.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، أنه سيطلقها وتتزوج بها، ﴿مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، أن الله سيظهره أمام الناس، ويعلم الناس جميعًا أن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوج بزينب بنت جحش التي كانت تحت ابنه زيد المتبنى.

قال: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، تخشى الناس تواجههم بهذا الأمر، ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، الخشية لله وليست للناس.

وهذه الآية التي فيها: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، التفسير الذي ذكرته لكم هو التفسير الصحيح، والله أعلم.

هناك من يذكر من المستشرقين خاصة أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء إلى زيد في بيته يطرق الباب؛ فإذا الباب كان مفتوحًا والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى زينب وكانت جميلة، فلما رآها قال: **"سبحان مقلب القلوب"** ورجع.

فنظرته لها وقرت في قلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأحبها، لما أحبها أراد أن يتزوجها، فأمر زيد أن يطلقها حتى يتزوجها، قالوا: هذا الذي يخفيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في نفسه، أنه يريد ويرغب في زواجها، وكان يقول لزيد في ظاهر الأمر: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وهو يريد أنها تخرج منه، ويطلقها، ويتزوجها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذا الكلام كلام سخيف، وباطل، ولا يصلح أن يُنسب إلى أي شخص من الناس، فضلاً عن أن ينسب إلى سيد الأولين والآخرين، وسيد الخلق، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم وأشرف من أن ينظر إلى امرأة ويغرب في زواجها وهي في عصمة رجل آخر، هذا ما يمكن مستحيل، ولذلك هذا الكلام كلام غير صحيح وباطل، وينبغي علينا أن نعرف هذا الكلام، وأنه كلام غير صحيح، وإنما هو من دسائس أعداء الإسلام.

✍ **الصحيح ما هو؟**

هو: مثلما ذكرنا لكم أن زيد كان يُدعى زيد بن محمد بالتبني، وكانت زينب تحته في عصمته، وأراد أن يطلقها، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أنه سيطلقها ثم يتزوجها حتى يبطل التبني، ويبطل ما كان عليه أهل الجاهلية، ولكن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخشى الناس أن يواجههم بهذا الأمر، فقال له: «**أمسك عليك زوجك**».

نصحه أن يمسك زوجه، وهو يعلم أنه سيطلقها، ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، والآية واضحة جدًا لا لبس فيها.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، يعني قضى منها حاجته، وأراد تطليقها، وطلقها، طلقها زيد، لما طلقها مكثت وانقضت عدتها، أوحى الله إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتزوجها، فزوجها الله لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فدخل عليها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير عقد، ولا شهود، ولا ولي، فتزوجها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك كانت تفتخر على نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقول لنساء النبي: **"أنتم زوجوكم أهاليكم، وأنا زوجني الله من فوق سبع سماوات"** فكانت تفتخر بذلك وكانت امرأة صالحة، وكانت صاحبة صدقة عظيمة؛ حتى قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أسرعكن لحوقًا بي أطلوكن يدًا**»، فكانوا يتطاولون الأيدي.

وأخبرهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن معنى «**أطلوكن يدًا**»، أي أكثركن صدقة، فكانت صاحبة صدقات عظيمة، وهي أول من لحق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من زوجاته.

قال: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، لماذا؟ قال: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، في أي شيء؟ قال: ﴿فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

يقول: إذا كان عندك ابن بالتبني، وعنده زوجة وطلقها لك أن تتزوج بها، لكن لو كان هذا ابنك ابن الصلب لا يجوز، لا يجوز أن تتزوج بزوجته لو طلقها؛ لأنها أصبحت من المحارم.

يقول: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، لابد أن يقع؛ لأن الله أراد هذا الأمر، ولا أحد يمنع من وقوعه.

هنا أيها الأخوة مسألة وهي: **"حكم التبني"** أحيانًا نسمع ناس يقولون: والله هذا يتبنى أولاد، قد تبنى ولد، أخذ هذا الولد وتبناه.

نقول: ما يسمى تبني، هذا يسمى بالكفالة، لو أنت جئت إلى جهة أو إلى مكان أو إلى شخص لا يُعرف أبوه، أو لا يُعرف أهله، ثم جئت وأخذته وربيته عندك، وأصبح مثل أولادك في البيت هذا نسميه كفالة، ما نسميه تبني، التبني محرم في الشريعة، التبني انتهى، نسميه كفالة.

طيب هل هذا مشروع؟

نقول: نعم مشروع؛ بل هو في منزلة كفالة الأيتام؛ لأن هذا ليس يتيمًا قد فقد أباه؛ بل هذا فقد أباه وأمه، فقد يكون هذا أعظم، فمثل هؤلاء إذا أحسن الإنسان إليهم وأخذهم وهم صغار ورباهم على الإسلام؛ فإن كانت المرأة زوجة هذا الشخص يعني ترضع وأرضعته فأصبح ابنًا لها من الرضاعة، إن لم يكن هناك رضاع فهو في كفالته وليس هناك أي علاقة بينهم، وتجد بعض الناس قد يكون الولد موجود في البيت ويكبر فلا يحتجون عنه، نقول: هذا خطأ لابد أن تحتجب، ما في علاقة بينها وبينه، لا نسب ولا غيره.

وكذلك البنت الصغيرة إذا ترتبت في كفالة يجب عليها أن تحتجب عن هذا الرجل الذي رباها وعن أبناءه، فهذه المسألة لابد أن نفهمها فهمًا جيدًا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، فرض الله يعني قدره الله وكتبه له، فإذا قدر الله شيئًا وكتبه وأحل له من زواج امرأة من تبناه ما كان عليه من حرج، ما في حرج أنك تتزوج بزوجة هذا الابن المتبنى؛ الذي كان قد تبني ثم أعتق أو نحو ذلك، هذا جائز.

قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، يقول: هذا الأمر الذي أباحه الله لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أباحه للأنبياء الذين من قبله، ليس هذا أمرًا جديدًا على محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بل هو مشروع له ولغيره.

قال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣٨]، أي هذه السنة التي سنها الله في الأنبياء السابقين، ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، يعني كان أمر الله لابد أن يقع ويظهر، قدره الله بقدر وبحكمة، ولابد من ظهوره، وبيانه.

ولذلك قال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، من هم؟ هم الأنبياء الذين خلو من قبل، فإنهم قد أباح الله لهم الزواج من زوجات المتبنين، وأيضًا هم يبلغون رسالاته، فهم أنبياء قاموا بتبليغ رسالات ربهم، وهم يخشون الله، ولا يخشون أحدًا إلا الله.

والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام بتبليغ رسالة ربه، وكان يخشى الله، يقول: أنا أتقاكم وأخشاكم لله، فكان يخشى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يخشى أحدًا، ولذلك أظهر هذا الأمر في زواجه بزينب،؛ حتى قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **"لو أراد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يخفي آية من كتاب الله لأخفى قوله: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾** [الأحزاب: ٣٧].."**.

قال: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]، حسيبًا يعني محاسبًا عباده على أعمالهم، مراقبًا عليهم، فينبغي أن يُخشى الله ولا يُخشى أحد؛ لأن الله هو الحسيب المراقب، الحفيظ لأعمال عباده.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، لما تحدث عن موقف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أبطل التبني؛ بيّن الله عَزَّ وَجَلَّ أن محمدًا لم يكن أبا أحد من رجالكم، يعني لم يكن هناك رجل يُنسب إليه، وليس هناك أحد من أبنائه من الذكور، كلهم ماتوا، ماتوا في حياته.

قال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، لماذا؟ لأنه هو خاتم النبيين، فلو كان له أولاد لاعتقد الناس في أولاده أنهم أنبياء فقطع؛ لأن إبراهيم كان أبناءه أنبياء، فلذلك قطع الله هذا الأمر، فقال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، هو وظيفته الرسالة، وقد أداها.

قال: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، هو آخر الأنبياء، فلا نبوة بعده أبدًا إلى قيام الساعة، ومن ادعى أنه نبي بعد محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو كذاب دجال مفترٍ على الله عَزَّ وَجَلَّ، وخاتم النبيين هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شرفه الله بختم النبوة.

قال الله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، يعني الله عليم بأعمال العباد، عليم بأحوالهم، وعليم بحال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما يناسبه، وأن يقطع عنه الذرية من الرجال؛ حتى يكون هو خاتم النبيين.

نختم هذا المجلس المبارك أيها الأخوة بهذه الآية العظيمة، أو هذه الآيات العظيمة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

لما كان الناس يتحدثون في ما وقع بين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين زيد، وأن الله أبطل التبني، وأن زوجة زيد قد تزوجها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قد هذا يفتح باب الحديث في مثل هذا الأمر، فالله عَزَّ وَجَلَّ برحمته لعباده المؤمنين، ولصحابة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يشتغلوا بما هو أنفع أرشدهم إلى الذكر، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

ولاحظ أنه لم يرد في القرآن أمر؛ أمر الله بالإكثار منه إلا الذكر، قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

فما في آية فيها كثيرًا يأمر الله به إلا الذكر، والذكر لم يعذر الله أحدًا فيه، ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، ليس له حد، وليس يُعذر بحال، يمكن بعض الأشياء تُعذر، لكن الذكر لا يسقط؛ لأن الذكر من أعظم الأعمال التي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن أسهل الأعمال، تذكره بلسانك، وبقلبك، وبجوارحك، كلّ هذا تذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكرًا كثيرًا.

وتشغل أوقاتك كلها بالذكر، في الصبح والمساء، ولذلك قال: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ [الأحزاب: ٤٢]، أي عظموه، وجللوه، وقدسوه، ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، أي في الصباح والمساء، الأوراد، وما بينهما، كلها أوقات ذكر وتخصيص البكرة والأصيل وهي الصباح والمساء؛ لأنها بداية النهار أو نهايته، فالإنسان يشغل نفسه في بداية الليل أو بداية النهار، ويحصن نفسه من شرور المخلوقات؛ لأن الذكر هو أقوى شيء يحتفظ به.

ولذلك الرجل الذي جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**أوصني؟ قال: لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله**»، يعني لا تفتر أن تقف عن ذكر الله.

جاء في حديث قال: «**ألا أدلكم على ما هو أعظ من إنفاق الذهب والورق، وأعظم من أن تلقوا عدوكم بالسيوف وتقاتلوه ويقاتلونكم، قالوا: ما هو يا رسول الله؟ قال: ذكر الله**»، ذكر الله أعظم من الجهاد وأعظم من الصدقة.

بيّن لك الآن أثر هذا الذكر؛ قال: اذكروه لأنه هو الذي يصلي عليكم وملائكته، يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصلي عليكم بالذكر الحسن، والثناء عليكم أيها المؤمنون والرحمة، والملائكة أيضًا تدعو لكم بالصلاة، الملائكة تدعو، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧].

فيستغفرون ويدعون، لماذا؟ قال: ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ليخرجكم الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، من ظلمات الجهل والضلال، ﴿إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، إلى نور الإيمان والطاعة، والإسلام، وهذه رحمة من الله، ولذلك قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، كان رحيمًا بهم.

أما عندما يلقون الله عَزَّ وَجَلَّ فتحيتهم السلام، ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، الله يسلم عليهم، ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، والملائكة يسلمون عليهم، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣]، وبعضهم يسلم على بعض، ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٦].

فتحيتهم عند لقاء ربهم في الجنة السلام، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وهي الجنة، الفوز بجنات النعيم.

نقف عند هذا القدر أيها الأخوة، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الأحزاب ٤٥ - ٥٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر رمن شهر شوال من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

السورة التي نتحدث عنها ونبين بعض آياتها هي سورة مضت معنا في لقاءات ماضية، وهي من السور التي الحقيقة تحتاج منا إلى تدبر وتأمل وفيها من التوجيهات القرآنية مما يتعلق بالأسرة والعلاقات الزوجية.

هذه السورة هي **"سورة الأحزاب"**، هي تحدثت في أولها عن بعض الأحكام، وعرضت قصة الأحزاب وغزوة الخندق وما جرى للمسلمين في ذلك، والذين صبروا وقضوا نحبهم وأدوا ما نذروا لأجله، وذكر الله مواقف المنافقين.

ثم السورة بعد ذلك تتحدث كما ذكرنا عن جوانب من علاقات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأحواله، وصفاته، وحقوقه.

وقف بنا الكلام عند الآية الخامسة والأربعين وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ٤٥]، هذا النداء الثالث للسورة، وقلنا لكم: إن السورة نادت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو الله عَزَّ وَجَلَّ نادى نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السورة خمس مرات، في أولها، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ثم بعدها بآيات قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، وهي تسمى بآية التخيير، لما طلبت زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيء من النفقة، الله عَزَّ وَجَلَّ أجاب عن نبيه؛ فقال: ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]، أعطيكم الدنيا ثم أسرحكم أطلقكم، ﴿وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ

الْآخِرَةَ﴾ [الأحزاب: ٢٩]، فاصبروا على ما صبر عليه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا تطالبوه بشيء لا يستطيعه.

لما نزلت هذه الآية التي تسمى بآية التخيير النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل أولًا على عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وقال: يا عائشة إني أريد أن أخبرك بخبر وألا تتعجلي فيه، استشيري أمك وأباك، ثم ردي علي، فقالت: ما هو يا رسول الله؟ فقرأ عليها هذه الآية: ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

فقالت: أستشير من؟ والله لا أستشير لا أمي ولا أبي فيك يا رسول الله؛ بل أختارك، ثم دخل على بقية زوجاته وقلن ما قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، هذه تسمى آية التخيير.

ثم جاء النداء الثالث في بيان وظيفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ويبقى عندنا موضعان فيها نداء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يأتي النداء الرابع والخامس بإذن الله في وقته.

هذه الآية وهو النداء الثالث: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ٤٥]، في بيان وظيفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن الله أرسله رسولًا، وأنه شاهدًا على أمته، وشاهدًا لها، فمن آمن وصدق واتبع فالرسول يشهد له، ومن كفر وأعرض ولم يقبل فهو شاهد عليه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالرسول شهيد على الأمة، شهيد على أمته، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، شاهدًا على أمتك بأنك أبلغت الرسالة لهم، ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، أي وظيفتك أيضًا البشارة، تبشر من؟ تبشر الطائعين المستقيمين على طاعة الله، تبشرهم كما سيأتي، ﴿بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧].

فالرسول مبشر، ومبشر لمن؟ لمن أطاعه، مبشر للمؤمنين بالرحمة وبالجنة، قال: ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وظيفته الإنذار، أنه ينذر، ينذر من عصاه وكذبه، ينذره من النار ويخوفه بالنار.

قال: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، يقول: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ [فصلت: ٣٣].

فالرسول هو أول الدعاة، وفي مقدمة الدعاة، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، داعيًا إلى توحيد الله وعبادته، والتمسك بشرعه، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، انظر إلى كلمة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، كلمة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، تدل على أي شيء؟ تدل على أن الرسول لا يدعو هكذا، وإنما يدعو بما شرعه الله، ﴿بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، أي بأمره وشرعه وإرادته، فالرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو بما يأمر الله به، لا أن يدعو من تلقاء نفسه.

قال: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، السراج معروف، السراج ذو الفتيل الذي ينير ما حوله، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سراج؛ لأن الناس كانوا في ظلمات، ظلمات الجهل، وظلمات الضلال، فجاءهم وأزال عنهم الجهل والضلال، فأصبح سراجًا منيرًا.

✍ لماذا قال منيرًا؟

نقول: لأن هناك من السراج ما لا ينير، فما الفائدة؟ تجد سراج هكذا لا يستفاد منه، لا ينير ولا يعمل، لكن الرسول سراج منير، وقوله: ﴿مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، حتى لا يُفهم لأن السراج فيه حرارة، ولذلك الله وصف الشمس بأنها سراج وهاج، فالسراج فيه حرارة، فلما قال: ﴿مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، أزال عنه الحرارة.

انظر إلى أوصاف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآية كم؟ قال: ﴿شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، خمسة أوصاف، وصف النبي وبين وظيفته، وقد قام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأشهد الناس يوم النحر، أشهد الناس في الحج قال: «**ألا بلغت؟ اللهم اشهد**»، فأشهدهم وأشهد الله على أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده.

ولذلك لما كانت رسالته بشارة ذكر الله بعدها قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧]، لأن الرسول جاء بشارة، قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧]، ولا تبشر إلا المؤمنين، أما غير المؤمنين فلا يُبشرون ما يستفيدون، أما الذي تحلى بالإيمان فهو الذي يستحق البشارة.

يبشره بأي شيء؟

قال: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]، ما هو الفضل الكبير؟ نقول: هو الثواب العظيم الذي أعده الله في روضات الجنات لعباده المتقين، «**أعددت لعبادي الصالين، ما عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**».

قال: ﴿بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧]، فضلاً عظيمًا لا يعرف قدره إلا الله.

ثم حذر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من غير المؤمنين كالمنافقين والكافرين؛ فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، احذر أن تطيعهم أو تتنازل لهم في شيء من ذلك، وإنما كن على حذر، وخالفهم، لا تطع الكافرين، وكذلك المنافقين؛ لأنهم يريدون منعك وصدك عن دعوة الله، وعن تبليغ الرسالة، فلا تطعهم، ولا تبالي بهم؛ فإنهم يريدون صدك ومنعك.

قال: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، لأنهم سيؤذونك، يعني لا تظن أنك إذا امتنعت عن طاعتهم انتهى الأمر لا، تمتنع عن طاعتهم وسيؤذونك، المنافقون آذوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة؛ بل آذوه حتى في بيته وفي فراشه، وآذى الكفار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حروب عديدة، فقال: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، لا تلتفت إليه واصبر عليه، وتوكل على الله، اعتمد على الله، وفوض أمرك إلى الله يكفيك همه، يكفيك ما أهمك.

قال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨]، نعم المولى، ونعم النصير، ونعم الوكيل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أن يفوض الإنسان أموره إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فإن الله هو النافع الضار، وهو الذي ينفع عباده، ويدفع عنهم ما يسيئهم ويضر أعداءهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويلحق الضرر بأعدائهم، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نعم المولى ونعم الوكيل؛ الذي على المؤمن أن يفوض أمره في جلب الخير ودفع الشر إلى رب العالمين.

أما إذا كفل على نفسه؛ فإن نفسه ضعيفة، لا تدفع شرًا ولا تجلب غيرًا، ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨].

لما كانت الآيات في السابق تتحدث عن الزواج، وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوج زينب بنت جحش من غير عقد، ومن غير شهود ولا ولي، وإنما زوجها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾

[الأحزاب: ٣٧]، ولأن الآيات ستأتي بعد ذلك بالحديث عن الزواج، جاءت هذه الآية في حكم من طُلقت قبل الدخول هل عليها عدة أو ليس عليها عدة؟

يعني لو أن رجلاً خطب امرأة ثم وافق أولياء هذا المرأة ووافقت المرأة، ودفع لها المهر، وعقد عليها، ولما عقد عليها بدا له ألا يستمر معها، ولم يدخل بها، ولم يخلو بها، وإنما مجرد العقد، ثم طلقها.

هنا يأتي السؤال:

هل عليها عدة أو ليس عليها عدة؟

فنقول: ليس عليها عدة؛ لأن الله يقول: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، يعني عقدتم عليها عقدًا، ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، من قبل أن يحصل بينكم وبينهن مسيس وهو الجماع، ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، يعني ليس عليها عدة تعتدها عدة المطلقة.

ثم بعد ذلك قال: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، متعها بما تستطيع أن تمتعها، بمال أو بشيء من ذلك، كالذهب والفضة والكسوة ونحو ذلك.

قال: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، والمتعة ليست واجبة، وإنما هي مستحبة، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متع، وأمر بالتمتع، الله أمر بالتمتيع.

فإذا تزوج الرجل وحصل طلاق فيستحب له أن يمتعها إذا كانت لم يفرض لها مهرًا، أو لم يدخل بها، وهذه الآن من حيث العدة ليس عليها عدة، من حيث التمتيع تُمتع؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

ومن حيث المهر فما مصير المهر الذي هي أخذته؟

نقول: لها نصفه، وللزوج نصفه، إلا أن تعفو هي وتسقطه، أو هو يعفو عنه ويسقطها لها كاملاً، وإلا الحكم فلها نصف المهر.

قال: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، يعني طلقها واجعلها تذهب بصفة سراحًا جميلاً، بصفة لائقة، تمتعها، وتكرمها، وتحدثها بالكلام الطيب، وتجبر خاطرها، وتستر عليها، وتتحدث معها بالكلام الجميل، والكلام اللين الطيب دون أي أذى تتأذى به، هذا هو الذي ينبغي لمن طلق سواء طلقها قبل الدخول أو بعد الدخول.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ينبغي للإنسان أن يكون تعامله مع زوجته في حال العصمة أو بعد الطلاق تعاملاً طيبًا حسنًا، الله يقول: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

هذه الآية واضحة، وعدة المرأة كما أوضحها القرآن والسنة لها أحوال، إن كانت حاملاً الوضع، وإن كانت من ذوات الأقراء الحيض ثلاث حيض، وإن كانت لا تحيض وليست حاملاً ثلاثة أشهر، هذا حكم الله واضح، إذا لم يدخل بها فليس عليها عدة.

هذا النداء الرابع الذي نودي به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

هذا الحديث عن زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحكم الزواج، قال: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، زوجاتك اللاتي تزوجتهن هن حلال لك، كما أن زوجات النساء من غيرك حلال لك، كذلك أنت زوجتك حلال لك.

فأزواجك يا رسول الله هن حلال لك، مباحا تلك، متى؟ قال: ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥]، فإذا الرجل تزوج وأعطى المرأة مهرها صارت مباحة له.

استنبط بعض أهل العلم: أنه لا ينبغي تأخير المهر، أو تأخير بعضه إلا للضرورة، فتجد بعض الناس يقدم نصف المهر أو بعضه ويؤخر بعضه، أو يجهل المهر مؤخرًا فهذا كله خلاف السنة وخلاف القرآن، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، يعني أجورهن كاملة، ما قال: أتيت نصف الأجر أو نحوه، وإنما ينبغي أن يُدفع الأجر لها كاملاً، كما أنك تريدها هي امرأة لك مباحة، ينبغي لك أن تعطيها أجرها كاملاً، لا أن يؤخر، إلا للحالات الضرورية.

يقول: هذه زوجاتك التي أتيت أجورهن هي حلال.

ثم قال: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، أيضًا هن إذا ملكت يمينك، ﴿مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، يعني في الحروب، إذا حصلت لك ملك يمين فهذا جائز لك أيضًا، هي ملك يمين ومباحة لك.

✍ ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الذي يحل من الأقارب هل جميع الأقارب يجوز الزواج بهن كالعمات مثلاً أو الخالات أو بنات الأخ أو بنات الأخت أو نحو ذلك؟

نقول: لا، إنما الذي يُباح هن ما ذكر الله هنا، بنات العم وبنات العمات، وبنات الأخوال وبنات الخالات، ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، فهؤلاء من أقاربك القريبات هؤلاء يجوز الزواج بهن.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في هذه الآية أن بنات العم وبنات الخال من قريبات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، اللاتي هاجرن مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذا يدل على سبقهن في الإسلام، وهجرتهن مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن لم يكن معه في الهجرة، لكن ف يجملة المهاجرات والمهاجرين، وهذه منقبة عظيمة يذكرها القرآن للمؤمنات اللاتي هاجرن، والهجرة بلا شك منقبة عظيمة، هذه كلها جائزة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتزوج بهن.

ثم قال: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ويا أيها النبي أيضًا مباح لك إذا جاءت المرأة ووهبت نفسها لك؛ فإن هذا جائز، ومباح لك، خالص لك أنت، يعني للنبي إن أراد النبي إذا أردت أن تتزوج بها فلك ذلك.

أما غيرك من المؤمنين فلا يجوز أن يتزوج الرجل بامرأة وهبت نفسها، أو وهبها وليها، فلو قالت امرأة لك: أنا أريد أن أهب نفسي لك، فنقول: لا يجوز؛ لأن هذه من خصوصيات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أو جاء وليها كأبيها أو أخيها وقال: أنا أعطيتك إياها أنا وهبتها لك، فنقول: الهبة خاصة بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والزواج لابد له من مهر قل أو كثر، ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال للرجل: **«التمس ولو خاتمًا من حديد، قال: ما عندي، قال: هل عندك شيء من القرآن؟ قال: نعم، عندي سورة كذا وكذا، قال: زوجتك بما معك من القرآن»**، فلابد من المهر.

قال: ﴿وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ [الأحزاب: ٥٠]، لابد أن تكون مؤمنة، ﴿إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، يعني بشرط أن يكون النبي له رغبة فيها.

قال: ﴿أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، لماذا؟ لأن المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم من الشروط في الزواج، وأن الموهوبة لا تصح، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، وما ملكت أيمانكم، الله بيّن أحكام الزوجات وملك اليمين.

قال: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، إذا حصل مثل هذا الأمر مما أباح الله لك من الموهوبات وغيرها، لا يكون عليك حرج؛ لأن الله بيّن للمؤمنين أحكام الزواج.

قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٠]، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غفور لذنوب عباده، رحيم بهم، ووسع عليهم وأباح له ما أباح.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أحكام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحكام العشرة الزوجية: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١]، ترجي يعني تؤخر، الإرجاء هو التأخير، ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١]، يعني أخره.

قال: ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأحزاب: ٥١]، يعني تؤخر من تشاء، هذا فيما يتعلق بالقسم، تعرفون أنتم جميعًا أن القسم واجب على الرجل إذا كان عنده أكثر من امرأة، أن يقسم الليالي والأيام بين زوجاته.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القسم ليس واجبًا في حقه، الله أباح له، إن شئت أن تبيت عند هذه أو تبيت عند هذه، تؤوي إليك هذه أو تؤخر هذه، كلّ ذلك جائز، لا تريد أن تبيت هذه الليلة عند فلانة أخر مبيتها.

قال: ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأحزاب: ٥١]، تؤوي من تريد أن تأوي إليه وتضمها غليك، هذا في القسم أنه مباح.

قال: ﴿وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ [الأحزاب: ٥١]، من تريد أن تبيت عندها أو تعتزلها كلّ ذلك جائز لك، ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥١].

قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾ [الأحزاب: ٥١]، يقول: ذلك أقرب لهن؛ لأنه إذا علمن أن القسمة جائزة يكون ذلك أريح للزوجات.

ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]، تستقر العين، وتهدأ، ويهدأ البال، ولا تحزن، وترضى بما آتاها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنها علمت أن القسمة ليست واجبة، ومع هذا كله؛ فإن

الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقسم ويتحرى القسم، يقول: «**هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك**».

فكان يتحرى القسم مع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أباح له ذلك، حتى أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتحرى أن يقسم بين زوجاته.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥١]، الله يعلم ما في قلوب الرجال، وما في قلوب النساء، والله عالم بأحوالهم، عالم بما في قلوبهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو عليم بكل شيء، حليم لا يعاجل بالعقوبة لمن عصاه أو خالف أمره.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: ٥٢].

كيف لا يحل لك النساء يعني أن الرسول لا يحل له أن يتزوج؟

نقول: نعم، الرسول كان عنده تسع من النساء واللاتي تزوجهن إحدى عشر، مات عن تسع، والتي ماتت في حياته امرأتان، فمات عن تسع، هؤلاء التسع لما الله عَزَّ وَجَلَّ خيرهن بين الدنيا والآخرة كما في آية التخيير التي مرت معنا، ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

ماذا قالت نساء النبي؟

كلهن قلن: "نريد الله ورسوله والدار الآخرة" فلما خيرهن الله واخترن الله ورسوله والدار الآخرة الله كافأهن بأن النبي لايتزوج عليهن؛ فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ [الأحزاب: ٥٢] ، من بعد هؤلاء النساء اللاتي عندك.

قال: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، لا تستبدل واحدة مكان أخرى أو تطلقها، لا تطلق ولا تتزوج عليهن، هؤلاء التسع قدمن أنفسهن لله ولرسوله، وعلى شظف العيش مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضين بالفقر والجوع، فهؤلاء أمسكوهن ولا تطلق منهن أحد، ولا تتزوج عليهن.

قال: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، إلا أن تكون ملك يمين، فملك اليمين أمرها آخر، قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢]، أي الله عَزَّ وَجَلَّ مطلع ورقيب لا يغيب عنه شيء من أحوال العباد.

ولاحظ أنه قال: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، لو وجدت امرأة أعجبك حسنها فلا تلتفت إليها، وابق على زوجاتك التسع اللاتي قدمن أرواحهن وأنفسهن لله عَزَّ وَجَلَّ، فهؤلاء هم الأولى بأن يكرمهن الله وأن تكرمهن.

لعلنا نقف أيها الأخوة عند هذا القدر ونكتفي به، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الأحزاب ٥٣ - ٥٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفيه اليوم الثلاثاء الموافق للحادي والعشرين من شهر شوال من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

درسنا المعتاد من كلّ أسبوع بعد صلاة المغرب في تفسير القرآن العظيم، والسورة هي **"سورة الأحزاب"** والآية هي الآية الثالثة والخمسون وما بعدها.

هذه الآية التي بين أيدينا وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وأنت تقرأ هذه الآية، وتقرأ ما قبلها من آيات تجد الآيات التي تحدثت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه السورة، وقبلها في بيان مكانة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنزلته، وحقوقه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخصائصه التي خصه الله بها، هناك خصائص خصه الله بها، وهناك حقوق على الأمة تجاه نبيها، وهناك أمور كلف بها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر بها، وشُرف بها، مثل قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

ثم تحدثت الآيات عن علاقة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأزواجه، وما أحل الله له إلى الأزواج، والمرأة التي تهب نفسها للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا من خصائصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك القسم بين زوجاته، ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأحزاب: ٥١]، لما تحدثت الآيات عما يتعلق بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء الخطاب هنا للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، خطاب للمؤمنين تجاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتجاه الدخول إلى بيته.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فهذا نهي صريح، ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فهذه الآية نص في أن بيوت النبي لا يجوز الدخول إليها إلا بعد الإذن، كما أن بيوت المسلمين لا يجوز الدخول عليها إلا بإذن.غير ناظرين إلا بإذن، فإذا أذن للإنسان أن يدخل بيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فله أن يدخل ولكن يدخل في وقت محدود، لا يطيل، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فعدنا دخول بيوت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يدخلها الإنسان إلا مقيد بأمرين:

الأمر الأول: أنه لا يدخلها إلا بالإذن أن يؤذن له.

الأمر الثاني: ألا يطيل الجلوس فيها.

فهذان قيدان مهمان فيما يتعلق ببيوت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

هذه الآية ذكر أهل التفسير أن لها سبب نزول، وذلك في زواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تزوج زينب، كما صرحت الآيات، ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

تزوج زينب بنت جحش وذلك في السنة الخامسة من شهر ذي القعدة، تزوجها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدما طلقها ابنه بالتبني زيد، زيد بن حارثة الذي كان يدعى زيد بن محمد، وكان يدعى بأنه ابن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن النبي تبناه في أول الأمر، ثم نزلت الآيات التي تحرم التبني، فنسب إلى أبيه فقيل: زيد بن حارثة.

وكان العرب عندهم أنه لا يمكن للرجل أن يتزوج بزوجة ابنه، سواء كان ابنه حقيقة من الصلب، أو ابنه بالتبني، فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبطل كلّ ما يتعلق بالتبني.

فتزوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب لما زوجه الله إياها، ووضع وليمة، فلما وضع هذه الوليمة جاء بعض أصحابه ودخلوا عليه، فدخلوا عليه واستأذنوا في الدخول واجتمعوا في إحدى حجراته، فكانوا قد جلسوا ينتظرون الطعام، فلما انتهوا من الطعام جلسوا وتثاقلوا وبقوا ولم يخرجوا.

فجاءت هذه الآية نازلة فيهم تبين لهم الآداب والأخلاق مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه ينبغي ألا يجلس الإنسان؛ لأن ذلك يُشغل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي له أعماله وأشغاله.

وهذه الآية كما قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: **"نزلت في الثقالين الذين يأتون إلى البيوت ولا يخرجون"** تجد بعض الناس ثقيل في جلسته؛ فإذا دخل لم يخرج.

هذه مثلما ذكرنا سبب نزولها أنه لما تزوج زينب بنت جحش وجلس من جلس بعد الطعام بدؤوا يتحدثون ويتجاذبون الحديث، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام وخرج ثم دخل، فلم يقوموا وجلسوا، فقام البعض وجلس البعض.

بعد ذلك نزلت هذه الآية، أنزل الله هذه الآية تعليمًا وأدبًا لهم، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

قوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، يعني غير منتظرين نضج هذا الطعام، يقول: لا تأتي مبكرًا وتجلس تنتظر، تجد بعض الناس يأتي مبكرًا وينتظر الطعام، فهذا يتأذى منه صاحبه.

قال: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، يعني ادخل على الوقت المناسب، ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، يقول: انتشروا واخرجوا، ولا تجلسوا مستأنسين لحديث، لماذا؟ قال: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان شديد الحياء، وكان يستحيي أن يقول لهم اخرجوا أن نحو ذلك، وليس هذا من باب الكرم وتكريم الضيوف أن يقول لهم: اخرجوا.

فكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شديد الحياء معهم، فكان يستحي أن يقول لهم مثل هذا الكلام، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يستحيي من إظهار الحق، وبيان الحق.

قال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، عادت الآيات إلى أحكام أمهات المؤمنين؛ لأن بيوت النبي مشتملة على أمهات المؤمنين، فجاء الحديث عن شيء من أحكام أمهات المؤمنين، وشيء من خواص أمهات المؤمنين.

قال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، أي زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿مَتَاعًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، المتاع هنا عام، لم يخصص بشيء، فهو يشمل المتاع مثل أغراض البيت التي يحتاجها الناس، أو أحيانًا

يسألون بعض المسائل، بعض الأسئلة، كأن يأتي الرجل فيسأل مثلاً الصديقة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا يسألها عن بعض الأشياء، فهذا شامل لهذا ولهذا.

قال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، مما يتعلق بالعلم، أو مما يتعلق باحتياجات البيت، ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، يعني بينكم وبينهم حجاب، لماذا؟ ما الحكمة؟ ما السر؟ قال: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

يقول: هذا الأدب بحيث أنك لا تختلط، ولا تباشر النظر إلى زوجات النبي؛ لأن هذا أطهر لقلوكم وقلوبهن؛ لأن ما سوى هذا مرض للقلب، لأنه لو لم يُطبق هذا الأمر أصبح سببًا في مرض القلوب.

ولذلك يأتيك الآن بيان الذين في قلوبهم مرض، مرض الشهوات، قال: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، لقلوبكم أنتم إذا ابتعدتم عن النساء، الرجل إذا ابتعدوا عن النساء ولم يختلطوا بالنساء الأجانب كان ذلك أطهر لقلوبهم وقلوب النساء.

قال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، هذه الآية أولًا عندنا ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

هذه الآية كما سيأتينا في بعض أحكامها:

أولًا: "أنها تبين لنا من أحكامها تحريم الاختلاط"، اختلاط الرجل بالمرأة الأجنبية هذا لا يجوز.

ثانيًا: "وجوب الحجاب" لأن الله قال: ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فدلت على وجوب الحجاب، وأن المرأة يجب عليها أن تحتجب عن الرجال الأجانب، وإذا أراد الرجل أن يسأل المرأة لا يسألها إلا لحاجة، إن كان هناك حاجة داعية فله أن يسأل، مثلما قال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، لك متاع لك حاجة اسأل، ليس لك متاع ولا حاجة فلا تسأل، وإذا سألتها اسألها من وراء حجاب وعليها أن تحتجب.

قد يأتيك شخص يقول:

طيب هذه الآية خاصة بنساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليست عامة، الله عَزَّ وَجَلَّ بيّن قال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، أي نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن الآية في بيوت النبي؟

نقول: طيب قوله: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، هل هو خاص بنساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أم نقول: غير نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحوج أن يكون أطهر لقلوبهن؟!!

فقوله: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، أن البعد عن هذه الريبة، والبعد عن الاختلاط، والبعد عن كشف الحجاب هذا هو السبب في طهارة القلوب، ،هذا عام، لا يُقال: إنه أطهر لقلوب نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقط، هذا لا يقوله عاقل، فدل على العموم.

قال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ليس لكم أن تؤذوا رسول الله بوجه من الوجوه، بأي شيء، لا لسانك، ولا سب شريعته، ولا سب سنته ولا نحو ذلك.

قال: ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فلا يجوز لأي إنسان أن يتزوج بإحدى زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعده؛ لأنها زوجته في الدنيا وزوجته في الآخرة، ولأن هذا لا يتناسب مع مقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتزوج بإحدى نساء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن هذا ينقص من مقام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك التزم الصحابة هذا الأمر.

قال: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، أي زواجكم من أمهات المؤمنين وهي أم هذا أمر عظيم عند الله.

قال: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٤]، ما يخفيه الإنسان في نفسه، مما يتعلق بالحجاب أو يتعلق بالاختلاط أو نحوه، أو أن يكون في نفسه ريبة أو في قلبه مرض فالله مطلع عليه، فما تبديه أنت أو تخفيه فهو عند الله سواء، فالله عالم بالسر وأخفى،وعالم بالجهر والسر سواء.

قال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، يعني أمهات المؤمنين، قد يسمع من يسمع أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، يظن بعضهم أنه لا يجوز حتى القريب.

فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يزيل هذا الأمر، هذا اللبس، فقال: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، أي أمهات المؤمنين، ﴿فِي آبَائِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، أن يدخل الأب، ﴿وَلَا أَبْنَائِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، أن يدخل الابن، ﴿وَلَا إِخْوَانِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، أي أخوتهم، ﴿وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، أبناء الأخوة وهن عمات، ﴿وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، وهن خالات، ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥]،

حتى المرأة مع المرأة جائز، ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥]، إذا كانت تملك يمينًا ملكًا تامًا فهذا لا شك أنه يجوز لها أن تكشف أمامه.

قد يسأل سائل يقول:

طيب والأخوال والأعمام؟

نقول: الأخوال والأعمال ينزلون منزلة الأمهات والآباء؛ ولأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكرهم في **"سورة النور"** فالأعمام والعمات، والأخوال والخالات ذكروا هنا.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٥٥]، أي على النساء أن يتقين الله في كلّ ما يأتين ويذرن، ويراقبن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السر والعلن؛ فإن الله على كلّ شيء شهيد، مطلعًا عالمًا رقيبًا على هذا الأمر لا يفوته.

نأخذ بعض الأحكام في الآيات الماضية خاصة هذه الآية التي مرت معنا، وهي التي تحتم الاستئذان، وتوجب الاستئذان عند دخول البيوت لتناول الطعام، لا تدخل بيتًا لتناول الطعام إلا أن يؤذن لكن في الدخول، وهذا عام في جميع بيوت المسلمين.

ووجوب الخروج بعد تناوله، إلا إذا كان هناك ضرورة أو شيء داعٍ إلى أن تجلس، أو صاحب البيت ألح عليك بالجلوس فهذا أمر آخر، أما الأصل فإنه لا ينبغي ألا تثقل على صاحب البيت.

الآيات التي مرت معنا أيضًا تبين لنا حرمة الاختلاط بين الرجال والنساء، ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فيدل هذا على أنه لابد من الحجاب الساتر والمانع من اختلاط الرحال بالنساء.

كذلك أيضًا مثلما ذكرنا وجوب الحجاب؛ لأن الله قال: ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، ولا يجوز للرجل الأجنبي أن ينظر إلى المرأة الأجنبية ولا يصافحها، ولا يجلس بجوارها، كلّ ذلك أمر محرم.

الآيات التي بعدها قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تعظيم النبي وتبجيله ورفع مقامه حتى يعرف الصحابة كيف يتأدبون؟ ويعرف المؤمنون بعد ذلك يكف يتأدبون مع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

جاء بعدها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

هذا بيان وخبر من الله أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَلَّ جَلَالُهُ في علاه يصلي على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والملائكة أجمعون يصلون على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك لما مهد وقال: حق النبي عظم، وأمره عظيم، وشأنه عظيم؛ فإن الله يصلي عليه، والملائكة يصلون عليه، أنتم أيها المؤمنون أيضًا نأمركم بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليمًا، وفي هذا مثلما ذكرنا لكم تكريم وتعظيم، وتبجيل للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

✍ **لكن هنا الصلاة من الله ما هي؟ ومن الملائكة ما هي؟ ومن المؤمنين ما هي؟**

✍ **هل هي نفس الصلاة أم تختلف؟**

نقول: صلاة الله على نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الثناء عليه في الملأ الأعلى، والملائكة الدعاء له والثناء عليه، وأما صلاة المؤمنين فهي أيضًا دعاء له وثناء وتبجيل له.

لاحظ أن الله هنا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾، قال: **"يصلون"** لما جاء في حق المؤمنين قال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، قال: **"صلوا وسلموا"** لأن معنى سلموا أي سلموه من الأذى، يعني احذروا أن تؤذوه.

✍ **طيب لماذا لم يأت في الأول؟**

نقول: الله وملائكته لا يأتي منهم أذى، الناس المؤمنين قد يأتي منهم، ولذلك قال: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وأفضل صيغ الصلاة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما جاء في الحديث، جاء في الحديث: «**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»، هذه أفضل الطرق، وأفضل الصيغ.

والصلاة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تكون واجبة، أو ركن كما في الصلاة، في الصلاة التشهد الأخير هذا ركن لا يسقط بحال، والصلاة عليه قد يكون أمر مستحب، ومتأكد الاستحباب كما في يوم الجمعة.

والصلاة على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مستحبة في سائر الأيام، في سائر الأيام يستحب أن يكثر، وقد يتحتم أيضًا في حالة أخرى إذا صُلي عليه وأنت تسمع فيجب عليك أن تصلي ولا تسكت.

لما قال: ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، يعني لا يصيبه أذى منكم، ثم بين الأذى؛ قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، أي طردهم من رحمته وأبعدهم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، أعد لهم في الآخرة العذاب المهين، كيف يؤذون الله ورسوله؟ يؤذونه بالشتم، واللعن، والقدح، ووصفه بأوصاف لا تليق، كأن يصفون الله بصفات النقص، ويصفون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلّ هذا من الأذى.

وإيذاء أولياءه من إيذاء الله، الذي يؤذي المؤمنين كأنه آذى الله، وكذلك سب شريعته، فهذا كله داخل في الأذى.

أما سب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا يتحتم على من سب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقتل، ولذلك شيخ الإسلام ابن تيمية ألف كتابه المشهور (الصارم المسلول على شاتم الرسول) فمن سب وشتم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحتم قتله، وقطع عنقه، وهذا من خصائص الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٨]، لما بيّن من يؤذي الله ورسوله، عطف عليه الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، بدون سبب، وليس هناك داعٍ إلى الإيذاء، قال: ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، أي حملوا معهم الحمل الشديد، والوزر العظيم، ما هو؟ قال: ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، والبهتان أشد الكذب، وعقوبته أشد، ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، يعني عقوبة شديدة.

لما ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ الحجاب في آية نساء المؤمنين وعرفنا أن الآية عامة في نساء النبي وفي نساء المؤمنين، جاء هنا تأكيدًا لهذا العموم، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

أمر الله نبيه وبدأ بزوجاته، قال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ثم ببناته؛ لأنهن أقرب الناس إليه، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وقوله: ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، هذا يدل على أن الحجاب عام، وليس من خصائص زوجات النبي أمهات المؤمنين ولا من غيرهن.

قال: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، الجلابيب هي الثياب التي توضع على ثيابهن، كالعباءات والحجاب والخمار ونحوه، أ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، أي تضع الخمار على وجهها.

قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، يعني هذا يدل دلالة صريحة على وجوب تغطية الوجه؛ لأن بعضهم يقول: الحجاب ليس فيه تغطيه الوجه، الحجاب أن تتحجب المرأة وتكشف وجهها، الوجه ليس داخل في الحجاب.

فنقول: الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، فإذا كانت قد كشفت وجهها، غطت سائر جسدها بالحجاب، وكشفت وجهها ما كان لهذا اللفظ معنى أنه يقول: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، فهذا يدل على أن المرأة تغطي وجهها حتى لا تعرف.

قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، لأنه إذا عُرفت بدون حجاب يؤذيها الفساق، الذين في قلوبهم مرض يؤذونها إذا عرفوا أنها لا تلتزم بالحجاب، ما يتركونها يؤذونها، وإذا رأوا المرأة ملتزمة بحجابها يهابونها ويبتعدون عنها.

قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ولأنه كان من المملوكات الذين كانوا في ذلك أن المملوكة لا يلزمها الحجاب، فتتميز الحرة عن المملوكة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]، غفورًا لما سلف من الذنوب والمعاصي، ورحيما بهم حيث شرع لهم ما يحفظهم ويحميهم من الأذى ونحوه.

لعل نقف عند هذه الآية، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل السورة بإذن الله، نقف عند هذا القدر.

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الأحزاب ٦٠ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى الِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنِا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للثامن والعشرين من شهر شوال من عام ١٤٤٥ من الهجرة.

درسنا في التفسير والسورة التي بين أيدينا هي **"سورة الأحزاب"**، ونحن في أواخر هذه السورة، والآية التي بين أيدينا هي الآية التاسعة والخمسون من السورة وهي ما تسمى بآية الحجاب، ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

الخطاب للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه هو المبلغ عن الأمة، وهو الذي ينقل ما يأتيه من الوحي إلى الأمة، وأحيانًا تأتي الخطابات مباشرة، تسمع أحيانًا في القرآن، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، مباشرة.

لكن لما يكون الموضوع أو الأمر له أهمية كبيرة يأتي بواسطة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ودائمًا في القرآن الكريم إذا جاءتك كلمة **"قل"** اعلم أن ما وراءها أمرًا مهمًا، ولما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ لنبيه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وينديه بصفة النبوة، وأنه نبي نبئ وأخبر من السماء، ثم يقول: ﴿قُلْ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، فهذا يدل على أهمية الأمر.

ولاحظوا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خاطب نبيه مباشرة وقال: ﴿قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وبدأ بالأزواج، ثم بناتك، ﴿وَبَنَاتِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، بعد ذلك ثنى بالبنات بنات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم قال: ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ثلث بنساء المؤمنين، هذا يدل على أهمية الأمر، وهذا من وجه.

ومن وجه آخر: أن مثل هذه الأمور التي فيها توجيهات وفيها نصح، وفيها مواعظ يبدأ الإنسان بالأقرب في الأقرب، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾ [التحريم:

٦]، فبدأ بالنفس، وهذا الخطاب أن الله وجه الخطاب لنبيه أن يذكرهم وأن يأمرهم بأي شيء؟ يبدأ بزوجاته لقربهم وأهميتهم، ثم بناته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم نساء المسلمين مطلقًا.

يأمرهم بأي شيء؟

قال: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، يعني تستر المرأة نفسها بالجلباب، هذا المقصود، ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، تدني أي تقرب، يدني الشيء أدناه بمعنى قربه، فهي تأخذ الجلباب وتغطي وجهها وما ظهر منها هذا المقصود.

والجلباب هو ما تستر به المرأة نفسها، الجلباب، والعباءة، والملحفة، وكلّ ما يعتبر من الخمار، والرداء، كلّ هذا معروف، فالمرأة تغطي وجهها، تغطي عورتها، والمرأة كلها عورة، فوجهها عورة، ويداها عورة، ورجلاها عورة، فيجب على المرأة أن تغطي نفسها، وتحتجب عن الرجال لما في ذلك من الفتنة، الفتنة لها والفتنة للرجال، ولأن ظهور المرأة أمام الرجال الأجانب دعوة للسفور، دعوة إلى إظهار وفشوا الفاحشة وإشاعة الفاحشة، فسترها بعدًا عن هذه الأمور، بُعدًا عن الريبة.

قال: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، لماذا تغطي وجهها؟ قال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، إذا عُرفت المرأة بجلبابها وحجابها، وسترها وعفافها وحيائها، فهذا سبب إلى ألا تؤذى، لا يأتيها أهل الفجور، والمرجفون، والمنافقون، والذين في قلوبهم مرض، وأصحاب الشهوات الذين يحبون الشهوات، إذا وجدوها قد تسترت واحتجبت وابتعدت عن مواطن الريبة فإنهم لا يؤذونها، ولا يتعرضون لها؛ بل يهابونها ويخافونها.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، فإن المرأة الحرة العفيفة إذا تحجبت وتسترت عن الرجال ما تُعرف، وعُرفت بحجابها فعرفوها أنها بعيدة عن السفور وعن الفاحشة، فهذا هو السبب والله أعلم.

قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]، غفورًا لما سلف من التقصير والخلل، وعدم الحجاب، ورحيمًا بهم، حيث أمرهم بالحجاب، وشرع لهم ما يسترهم ويبعدهم عن الفواحش، ويحفظهم من كلّ سوء.

هذه الآية أيها الأخوة الكرام هي من الآيات الدالة على فرضية الحجاب على المرأة، وأن المرأة مطالبة بالستر والحجاب، وأنه لا يجوز لها أن تكشف وجهها أمام الرجال؛ لأن الزينة في الوجه، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١]، وقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، أي تضرب المرأة بخمارها كما تضرب الخيمة، كما أنك تضرب الخيمة فالمرأة تضرب الحجاب من أعلى رأسها إلى أطراف قدميها، فتستر نفسها، فإذا سترت نفسها كان لها هيبة، وخافها أولئك أصحاب الريبة، والذين في قلوبهم مرض، يهابونها ويخافونها إذا رأوها بهذه الصورة.

وهذه مثلما ذكرنا من أدلة الحجاب، وأدلة الحجاب كثيرة، ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، والأحاديث كثيرة تدل على أن المرأة تحتجب، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ [النور: ٦٠].

هذه المرأة القاعدة التي لا يلتفت إليها الرجال ولا يرغبون فيها، جائز لها أن تضع ثيابها، يعني جائز ألا تحتجب، فإذا كانت المرأة الكبيرة المسنة الله رخص لها، فهذا يدل على أن الشابة التي تفتن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد منتها من إظهار زينتها أمام الرجال.

ولذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في الحج: «**لا تنتقب المرأة**»، دل على أنها في غير الحج تنتقب، وإذا كانت تنتقب معناه أنها تحتجب، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا أراد أحدكم أن يخطب امرأة فلينظر إليها**»، لو كانت تكشف وجهها ما قال: «**لينظر إليها**».

قال الصحابي الجليل: خطبت امرأة فبدأت أنظر إليها من شق الباب حتى لا تدري وأنا أنظر وأعرف أني أريد أن أخطبها، وإن كان النظر من شقوق الباب ونحوها هذا أمر محرم، لكن لما كان لغرض مشروع كان جائزًا.

فالشاهد من الكلام: نحن نعرف جميعًا أن المرأة مطالبة بالحجاب الساتر الذي يغطي عورتها ويغطي وجهها الذي فيه الزينة، ويغطي جسدها ولا يجوز لها أن تخرج يديها أمام الرجال الأجانب بحجة أنها تعطيهم أو تأخذ منهم، ولا يجوز أن تظهر رجليها ونحو ذلك.

كلّ ذلك يجب عليها أن تستر، وحتى نعرف أيضًا أن الذين في قلوبهم مرض والمرجفون، والمنافقون يريدون إثارة الفتنة في المجتمع وهو يدخلون من جهة المرأة ومن جهة الحجاب، يريدون منها أن تكون سافرة، أن تكون متبرجة، أن تكون مختلطة، وهذه يعني المنافقون في كلّ زمان ومكان.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما ذكر الحجاب جاء بمواقف هؤلاء الذين في قلوبهم مرض، فقال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، واللام هنا لام يسميها أهل العلم لام موطئة للقسم، يعني التقدير والله ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، يعني يقفون عند هذا الحج ويرجعون عما هم عليه.

والمنافقون من هم؟

هم: "الذين يظهرون الإيمان أمام الناس، ويظهرون الإسلام وأنهم مؤمنون ويصلون، وفي بواطنهم وفي قلوبهم الكفر والحقد على الإسلام والمسلمين" هؤلاء هم المنافقون.

قال: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، هؤلاء مؤمنون لكنهم ضعفاء إيمان، يتلقفون ما يقوله المنافقون، ويوافقون المنافقون أحيانًا، فهؤلاء في قلوبهم مرض.

قال: ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، المراد بالمدينة هنا مدينة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والمرجف هو من يرجف في المدينة يعني من يثير الفتن، من أرجف الشيء إذا هزه وحركه بقوة، ومنه الرجفة، ومنه القلوب ترجف تخاف، فهؤلاء يأتون بالأخبار السيئة ويثيرون الفتن، فيقولون: حصل كذا، وحصل كذا، وقتل المسلمون، ودمر كذا، فهؤلاء مرجفون.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: إذا لم ينتهوا ويقفوا عند حدهم، ويرجعوا عما هم عنه؛ فإن الله سيسلط نبيه عليهم، قال: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، أي نسلطنك عليهم، الله عَزَّ وَجَلَّ يسلط نبيه وأصحابه بقوة عليهم حتى يخرجوهم من المدينة ويطردونهم، ولذلك قال: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠]، إلا عددًا قليلاً أو مدة قليلة.

ثم بيّن الله عقوبتهم فقال: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ [الأحزاب: ٦١]، ومطرودين من رحمة الله، ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوا﴾ [الأحزاب: ٦١]، أينما وجدوا في أي مكان؛ فإنهم ملعونين.

ولك أن تقف وتقول: ﴿مَلْعُونِينَ﴾ [الأحزاب: ٦١]، هذا يصح الوقف عنده، تقول: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَلْعُونِينَ﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١]، بعني حال كونهم ملعونين، ثم تقول: ﴿أَيْنَمَا

﴿ثُقِفُوا أُخِذُوا﴾ [الأحزاب: ٦١]، أينما وجدوا ووجدتموهم أيها المسلمون خذوهم، ﴿أُخِذُوا﴾ [الأحزاب: ٦١]، يعني تأخذونهم للعذاب.

قال: ﴿أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]، يعني عذبوا، وعُرضوا للقتل، فقتلوا تقتيلاً، وهذه سنة الله في أعداءه، وسنة الله في أوليائه، سنة الله في أعدائه أنهم يصيبهم ما يصيبهم من العذاب، والطرد واللعنة ونحو ذلك، وسنة الله في أوليائه أن ينصرهم، وأن يؤيدهم، وأن يسلطهم على أعدائه، فهذه سنة الله وطريقته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعادته في أعداءه.

قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأحزاب: ٦٢]، الأمم الماضية سلط الله عليهم، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، هذه سنة الله لا تتغير، هذه سنة الله في وكلّ وقت وفي كلّ زمان، وأنت أيها الحاضر المستمع إذا سمعت مثل هذا الكلام سنة الله عرفت أن هذه السنة مستمرة حتى في زماننا، فالذين يؤذون المؤمنين، ويتسلطون عليهم، ويحاربون شعر الله؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيسلط عليهم، سيسلط عليهم من يؤذيهم، وكلّ ظالم فوقه ظالم، كلّ ظالم يسلط الله عليه ظالمًا.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عقوبتهم في الدنيا، عقوبة المنافقين والمرجفين بيّن عقوبة الكافرين الذين لم يقبلوا شرع الله، وصدوا عن سبيل الله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، والذين يسألون عن الساعة من هم؟ هم الذين لا يؤمنون بها، أما الذين آمنوا فهم مشفقون منها خائفون لا يسألون عنها؛ بل هم يستعدون لها.

ولهذا لما جاء الرجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ ما قال له الساعة كذا وكذا، ولكن قال: «**ماذا أعددت لها؟**»، تسأل عن شيء أنت لم تستعد له؟!!

ماذا أعددت لهذه الساعة؟ قال: «**حب الله ورسوله**»، فالمؤمن بالساعة ما يسأل عن متى وقوعها، المؤمن يستعد لها في كلّ وقت، ويكون قد أخذ أهبته للقاء ربه، ويكون مستعد في كلّ وقت لهذه الساعة ولهذا الحشر، أما الكافر الشاك في ذلك هو الذي يسأل متى الساعة؟

ولذلك الكافرون هم الذين يسألون، أما المؤمنون؛ فإنهم موقنون بوقوع الساعة، وأن علمها عند الله، ولذلك جاء الجواب هنا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، الساعة علمها عند الله.

لماذا قال يسألك الناس وما قال يسألك الكفار أو طائفة من الناس؟

نقول: لأن الأسئلة كثرت على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الكثير يأتي من هذه الطوائف والأعراب ونحوهم، يسألون عن الساعة، فتكررت الأسئلة، والجواب: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

لا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، فالله أخفاها كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]، يعني أكاد أخفيها عن نفسي.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، لا تدري قد تكون الساعة قريبة وأنت لا تدري، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

كلمة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، في القرآن الجواب غير موجود، لكن إذا قال الله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ [القارعة: ١٠]، الجواب موجود، لما يقول: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، وهكذا.

تجد في القرآن الجواب دائمًا بعد، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ [القارعة: ١٠]، موجود، أما ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، فالجواب غير موجود، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٣]، لا يعلم ذلك إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤]، هذه العقوبة الشديدة في الآخرة لمن كفر بالساعة، وكفر بشرع الله، وبما جاء عن الله، الكافر الجاحد وحدانية الله، الجاحد برسالة الرسول، الجاحد بالقرآن هؤلاء الذين كفروا وجحدوا، أعد الله لهم سعيرًا وهي النار التي تتسعر وتتوقد.

قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٥]، أي مقيمين فيها، ﴿أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٥]، أي دائمًا لا يخرجون منها، وهؤلاء هم الكفار، أما العصاة من أمة محمد؛ فإنهم يعذبون بقدر ذنوبهم إن أراد الله ذلك تحت مشيئة الله.

قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٥]، لا يجدون من يتولاهم وينصرهم، لا يجدون أحد يتولى أمرهم وينصرهم ويدافع عنه ويشفع لهم.

قال الله في تصوير حالهم نسأل الله العفو والعافية: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ﴾ [الأحزاب: ٦٦]، أي يوم القيامة في ذلك الوقت، ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦].

تقلب وجوههم أي يمينًا وشمالًا، مرة هكذا، ومرة هكذا، ومرة هكذا، هذا وجه من وجوه التقلب التي ذكرها المفسرون، وهناك وجه آخر تُقلب وجوههم أي أن وجوههم تتقلب مرة سوداء ومرة زرقاء، ومرة حمراء، تتقلب من شدة الحرارة وشدة النار التي تصيبهم، تتقلب وجوههم تتغير وجوههم.

والله عَزَّ وَجَلَّ خص الوجوه قال: ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦٦]، مع أنهم هم يقلبون جميعًا، قال: لأن الوجه هو أشرف شيء في الإنسان.

يقولون متحسرين نادمين أشد الندم: ﴿يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب: ٦٦]، يقولون: نحن ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول.

قال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، يقولون: ليتنا أطعنا لله، لكن ما ينفع الندم والتحسر خلاص انتهى، يعترفون أنهم أطاعوا ساداتهم، السادات الكبار المسئولين والكبار الذين هم لهم الكلمة، وهم أهل الملأ الذين كلمتهم لها اعتبار، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ثم يدعون ربهم يقولون: ﴿رَبَّنَا﴾ [الأحزاب: ٦٨]، هؤلاء السادة والكبراء والمسئولين العظماء عندنا يا رب، ﴿آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: ٦٨]، يقولون: ضاعف لهم العذاب، فهم كفوا وأضلوا، ضلوا وأضلوا فضاعف لهم العذاب، ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨].

في آيات أخرى قال: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف: ٣٨]، يعني أنتم وهم لكم كلكم عذاب، ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٨]، هذه حال أهل النار، وحال الكفار في نار جهنم، يصوره القرآن تذكيرًا وتهديدًا وتحذيرًا وحجة عليهم حتى لا يأتون يوم القيامة ويقولون: لا ندري.

تختم السورة أيها الأخوة الكرام بندائين للمؤمنين:

النداء الأول: تحذير المؤمنين من إيذاء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن يحذروا أن يكونوا كاليهود الذين آذوا موسى، وموسى يقول: ﴿يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٥]، كانوا يؤذونه بالأسئلة والتعنت، وطلب الأشياء، يؤذنوه بأشياء كثيرة، ولا يتقبلون منه، ويعصونه.

وجاء في بعض الآثار أن اليهود اتهموا موسى بأنه آدر، والآدر كبير الخصية، فقالوا: إن موسى آدر وأنه كبير الخصية، فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبرئه؛ لأن الله قال هنا: ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

فمرة ذهب يغتسل ووضع ثيابه على حجر، فلما اغتسل ذهب الحجر، فلحقه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالعصا ويقول: «**ثوبي حجر**»، يعني قف يا حجر أريد أن آخذ ثوبي، فرآه بعض اليهود فإذا هو سليم ما فيه أي عيب، ﴿فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩]، له مكانة، وله منزلة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

النداء الثاني: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، يقول: اتقوا الله، راقبوه، وحاسبوا أنفسكم، واحذروا معاصيه، اتقوا الله ائتمروا بأمره، وابتعدوا عن النواهي، الزموا التقوى، وقولوا قولًا سديدًا، قولوا الكلام الطيب الموافق للصواب، الكلام الحسن، ابتعدوا عن الكلام السيئ، لا تقول إلا قولًا طيبًا سديدًا نافعًا، واحذر من الكلام السيئ الضار، أؤمر بالمعروف وانه عن المنكر، وعلم الناس الخير، هذا كله من القول السديد.

وإذا فعلت ذلك ولازمت تقوى الله وقلت الكلام الطيب النتيجة ما هي؟

قال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١]، أعمالك يجعلها الله صالحة، ويجعل الله أعمالك مقبولة عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويوفقك للعمل الصالح المقبول عنده، والتزام التقوى والمحافظة عليها.

قال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧١]، إذا فعلتم ذلك كان ذلك سببًا لمغفرة الذنوب.

قال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، فالذي يلازم تقوى الله ويقول القول السديد، ويطيع الله ورسوله، النتيجة أنه فاز في الدنيا وفاز في الآخرة، وفق في الدنيا لمرضاة الله، وفاز بالدار الآخرة بما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الأمانة أيها الأخوة عظيمة، أمانة التكليف التي كلفنا الله بها، من إقام الصلاة، ومن إيتاء الزكاة، ومن الصوم، الأعمال كلها، كلها أمانة عندنا، الله ائتمننا عليها، هل نؤديها أو لا نؤديها أو نضيعها أو نفرط فيها؟ هذه أمانة عظيمة.

وهذه الأمانة من شدتها وعظمتها عُرضت على السماوات وهي جماد، وعُرضت على الأرض وعلى الجبال، وكلهم خافوا منها، وامتنعوا أن يحملوها، خيرهم الله قال: تريدون أو لا؟ فقالوا: أبينا وامتنعنا، وخافوا منها.

✍ **هل هذه حقيقة أو تصوير من القرآن؟**

بعض المفسرين يقول: هذا مجرد تصوير يعني يعطيك صورة، مثلما قال: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، هو ما أنزله، لكن لو أنزلناه لرأيته خاشعًا.

✍ **فقوله:** ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، **هل هذا تصوير فقط وتقريب للصورة أم حقيقة؟**

نقول: حقيقة، الله يخبرنا بالحقيقة، قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فكيف تقول: تصوير وأنه تقريب؟!! فهذه حقيقة، ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، الله يخبر بأنه عرض، مثلما قال في السماوات، ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، تكلمت، فلا مانع أن تتكلم، سبحت الجبال لداود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فنقول: الله عرض الأمانة عليها وأجابت، وخافت وامتنعت، وحملها الإنسان وهو آدم وذريته، حملوا هذه الأمانة.

قال: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، الإنسان ظلوم جهول؛ لأنه حمل شيئًا كبير ولا يستطيع؛ بل هو يظلم نفسه، وهو كثير الجهل، إلا من رحم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وابتعد عن هذا الأمر، وسلك طريق النجاة، أما الأكثر من بني آدم ظلوم جهول، إلا من عفاه الله وسلمه من هذا الأمر.

وهذه الأمانة هذه أمانة التكليف أن الله كلفنا بهذه الأمانة، لم يكلفنا عبثًا، وإنما كلفنا لنقوم بها، وأن من فرط فيها ظلم نفسه وجهل؛ فالنتيجة عرض نفسه للعذاب، وهذا كما يحصل للكافر والمنافق والمشرك.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، يعذبهم لأنهم فرطوا في هذه الأمانة، قدم النفاق على الشرك لأنه أشد، والمنافقين في الدرك الأسفل من النار.

قال: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]، المؤمنين الذين حصل منهم تقصير وتفريط يتوب الله عليهم؛ لأنهم قاموا بهذه الأمانة، لكن حصل منهم ما حصل، فيتوب الله عليهم.

قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٣]، غفورًا رحيمًا لمن تاب، وعاد؛ فإن الله يغفر له ذنوبه ويرحمه بقبول توبته.

نسأل الله أن يرحمنا وأن يتقبل منا، وأن يغفر لنا، ونحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فله الحمد وله الشكر وله المنة العظيمة أم منّ علينا بتفسير هذه السورة العظيمة الجليلة، وهي **"سورة الأحزاب"**، التي آياتها ثلاث وسبعون آية، عشنا معها مدة من الزمن، وقلبنا آياتها وتعرفنا على كثير من أحكامها، فنسأل الله أن يجعلها حجة لنا، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال، وأن يعيننا وإياكم على بقية ما بقي من سورة القرآن، وأن يوفقنا لحب هذا القرآن، وحب دراسته وتعلمه، «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**».

وَاللَّهِ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ سَبَأ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سبأ ١ - ٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ وهو يوم الثلاثاء الموافق للسادس من شهر ذي القعدة من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

لقاؤنا اليوم مع سورة جديدة بعدما أنهينا تفسير **(سورة الأحزاب)**، والتي أخذت منا وقتًا طويلًا، ولله الحمد والمنة أن انتهينا منها. الآن ننتقل إلى **(سورة سبأ)** التي تلي **(سورة الأحزاب)**. و**(سورة سبأ)** من السور المكية؛ ونحن نعرف أن السور المكية -مثل ما مر معنا- يختلف أسلوبها؛ فأنتم لما تقرؤون **(سورة الأحزاب)** -وهي مدنية- تجدون فيها العبارات والكلام والخطابات تختلف عن خطابات السور المكية؛ لأن عبارات السور المكية أقوى؛ كونها تخاطب أناسًا جاحدين كافرين، لا يريدون الحق ولا يقبلون عليه ولا يتقبلونه، فهذا هو سبب اختلاف الأساليب.

وهذه السورة المكية تعالج قضايا عقائدية مهمة وعظمى؛ ومن أبرز هذه القضايا الكبرى:

- **تقرِير توحيد الإلهية:** فالسورة تهدف إلى تحقيق أن الله هو الواحد، وأنه هو المعبود بحق، وأن ما سواه لا يستحق أن يكون إلهًا، ولا يُعبد من دون الله، ولا يستحق أن يُعبد؛ فهذه قضية مهمة وهي **(توحيد الإلهية)**.
- **الأدلة الدالة على أن الله هو الواحد:** لأن الله سبحانه وتعالى هو الرزاق، وهو الخالق، وهو العالم بالخلق كلهم، وهو المدبر، وهو المتصرف، وهو القوي، وهو العزيز؛ فكل هذه الصفات تدل على أنه هو الواحد المنفرد بالعبادة.
- **تقرِير قضية الإيمان باليوم الآخر:** وهي قضية مهمة؛ إذ تقرر السورة أن الله يبعث من في

القبور، وأنه سبحانه لم يخلق الخلق عبثًا، وإنما خلقهم لعبادته؛ لكي يتميز العابد لله من غيره، ولا بد أن يتمايزوا يوم القيامة ويُعطى كل ذي حق حقه. ولذلك خلق الله الجنة لمن أطاعه وخلق النار لمن عصاه، ولا بد من الجزاء؛ إذ لا يمكن أن يخلق الله الخلق عبثًا؛

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبتُم أَنَّمَا خَلَقنَكُم عَبَثا وَأَنَّكُم إِلَينَا لَا تُرجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]

تعالى الله الملك الحق؛ فما يمكن هذا ويستحيل عقلاً. فلذلك تقرر السورة أن العبادة لله، وتقرر في الوقت نفسه أن العباد سيعودون إلى الله، وأن الله سبحانه وتعالى سيبعثهم ويخلقهم خلقًا آخر ويجازيهم.

وقد أنكر الكفار البعث؛ فقالوا: لا تأتينا الساعة؛ ويقولون: إذا متنا وكنا ترابًا وعظامًا أئنا لمبعوثون؟

قالوا: ﴿أَءِذَا مِتنَا وَكُنَّا تُرَابا وَعِظَمًا أَءِنَّا لَمَبعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦] ﴿ذَلِكَ رَجعُ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]

فاستحالوا هذا الأمر، فرد القرآن الكريم عليهم بأدلة قوية؛ فالسورة تقرر قضية الإيمان بالبعث والرد على المنكرين.

أما عن سبب تسمية السورة بـ (سورة سبأ)؛ فذلك لورود قصة أهل سبأ وما جرى لهم فيها. والسورة تتحدث عن الشاكر العابد لله وجزائه في الدنيا قبل الآخرة، وعن الكافر الجاحد لنعمة الله وجزائه في الدنيا قبل الآخرة. وهي تذكر لنا نموذجين بارزين:

١. **نموذج الشاكر:** الذي شكر الله سبحانه وتعالى وعبده حق عبادته، وهو داوود وسليمان عليهما السلام؛ فتذكر لنا نموذج الشاكر في قصة **(آل داوود)**.

٢. **نموذج الكافر العاصي:** المتمرد في قصة **(أهل سبأ)**؛ كيف عصوا ربهم وأعرضوا، فسلط الله عليهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة.

وتقرر السورة أن الله هو الرزاق سبحانه وتعالى. وقبل أن ندخل في قضية الرزق وقضية الشكر ونماذج الشكر في داوود وسليمان ونموذج الكفر في سبأ؛ فإنكم لما تقرؤون **(سورة سبأ)** وتنظرون أيضًا إلى **(سورة النمل)**، تجدون أن السورتين متقاربتان في الأسلوب والقصة والمقصد والهدف. ففي **(سورة النمل)**، تجدونها تتحدث عن داوود وسليمان؛

قال تعالى: ﴿وَلَقَد ءَاتَينَا دَاوُۥدَ وَسُلَيمَنَ عِلما﴾ [النمل: ١٥]

وتبسط الحديث أوسع مع سليمان، ثم تذكر لنا نموذجً أيضًا مع قصة سبأ وأهل سبأ، وأنهم كانوا يعبدون الشمس، ثم تذكر نهاية أهل سبأ وإيمان ملكة سبأ.

ولو نتأمل بين السورتين؛ فإن الحضارة الحقيقية تقوم على الطاعة وعلى التقوى، فحضارة الدول وحضارة المدن إذا قامت على غير ذلك سقطت؛ ولذلك أسقط الله سبحانه وتعالى دولة سبأ لما كانت تعبد الشمس وأشركوا بالله وأعرضوا، بينما أقام دولة داوود وسليمان على الطاعة والتوحيد الإيمان والشكر. وتلاحظ أن (**سورة النمل**) لما ذكرت هذين النموذجين، ذكرت أيضًا قصة قوم صالح -وهم ثمود- الذين أعطاهم الله القوة في الحضارة والبناء والتشييد، حتى حفروا الجبال وينحتون الجبال بيوتًا، ولا زالت عمارتهم قائمة حتى الآن؛ لكن لما كانت حضارتهم قائمة على الكفر والعصيان والتمرد ورد الرسالات، سلط الله سبحانه وتعالى عليهم العذاب فأبادهم جميعًا.

وذكر الله سبحانه وتعالى **أيضًا في (سورة النمل) قصة لوط عليه السلام** وموقف قومه، وما كانوا يفعلونه من الجرائم وانتكاس الفطرة ورد الرسالة والكفر بها والخلق السيئ الذي كانوا يمارسونه؛ فكل هذا لم يقم لهم حضارة، بل أبادهم الله سبحانه وتعالى؛ سبع قرى أهلكها الله وجعل عاليها سافلها. إذن؛ فالحضارة الحقيقية تقوم على التوحيد، وعلى الطاعة، وعلى الاستقامة؛ هذا هو القرآن وهذا هو منهج القرآن، و(**سورة سبأ**) تبين لنا هذا الأمر العظيم.

ونعود إلى قضية الرزق والخيرات والعطاء من الله سبحانه وتعالى لمن يطيعه؛ فالله يبارك له في رزقه. ولذلك ركزت السورة على قضية الرزق، وتكررت كلمة الرزق فيها في أكثر من موضع؛

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [سبأ: ٤] وقال سبحانه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ٢٤] وقال سبحانه في شأن سبأ: ﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ﴾ [سبأ: ١٥] وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]

وقد تكررت هذه المعاني، فدل ذلك على أن الرزاق المستحق للعبادة هو الله سبحانه وتعالى.

طيب، لا نطيل في هذه المقدمة، فالآن أصبح لدينا تصور عن هذه السورة وعما تتحدث عنه، وما مقصدها والهدف من إنزالها، وكل هذا اتضح لنا وتبين ولله الحمد. نبدأ بفاتحة السورة والآيات الأولى منها؛ يقول الله سبحانه وتعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ٱلحَمدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلأَرضِ وَلَهُ ٱلحَمدُ فِي ٱلأَخِرَةِ وَهُوَ ٱلحَكِيمُ ٱلخَبِيرُ﴾[سبأ: ١]

هذه السورة افتتحت بالحمد؛ والسور التي افتتحت بالحمد في القرآن الكريم خمس سور: أولها: **(سورة الفاتحة)**. وثانيها: **(سورة الأنعام)**. وثالثها: **(سورة الكهف)**. ورابعها وخامسها: **(سورة سبأ)** و**(سورة فاطر)**.

ولو تاملنا هذه الافتتاحيات بالحمد وتقسيمها في القرآن العظيم، لوجدنا: أول القرآن يبتدئ بالحمد في **(سورة الفاتحة)**. وفي الكهف -وهي في منتصف القرآن- تبتدئ بالحمد. والربع الأول يبتدئ بالحمد في **(سورة الأنعام)**. والربع الأخير يبتدئ بالحمد في سورتين متتاليتين هما: **(سورة سبأ)** و**(سورة فاطر)**.

فجاء القرآن مقسمًا إلى أربعة أقسام؛ في كل قسم يبتدئ الله جل وعلا بالحمد. وتلاحظ أن كل سورة يحمد الله سبحانه وتعالى فيها نفسه، ويثني على نفسه بما يتناسب مع موضوعاتها:

- ففي **(سورة الفاتحة)** -لأنها أم القرآن وهي فاتحة الكتاب- لم يحدد جل وعلا أمرًا معينًا يُحمد عليه، بل عمم فقال:

﴿ٱلحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلعَلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] فهو الرب وهو رب العالمين؛ وكلمة العالمين يدخل فيها الإنس والجن، وعالم السماوات، وعالم الأرض، وعالم البحار، وعالم الأجواء، وعالم السحاب، وعالم الهواء، وعالم النبات؛ فهذه الكلمة تشمل المخلوقات جميعًا. فلذلك افتتح الله القرآن بالحمد لرب العالمين؛ الذي هو الله ربهم وخالقهم وموجدهم، لا رب لهم سواه، وهو رازقهم والمدبر لأمورهم والمتصرف في شؤونهم.

- ولما جاء عند **(سورة الأنعام)**، حدد سبحانه فقال:

﴿ٱلحَمدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] فأعطاك أمرين؛ الأمر الأول: أنه هو الخالق وأنه خلق السماوات والأرض وما فيهن، ثم بين سبحانه وتعالى أن بيده الهداية والضلال؛ فقال: ﴿وجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾؛ فالظلمات هي ضلال وجهل وعناد وكفر، والنور طاعة واستقامة وتقوى؛ وهذا يعني أن الله بيده الخلق والأمر، فهو الذي يخلق وهو الذي يهدى ويأمر.

- ولما نأتي إلى **(سورة الكهف)**، نجد الحمد جاء على نعمة خاصة؛

قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١] فالكتاب نعمة عظيمة جدًا، فنحمد الله ونشكره على نزوله علينا وبقائه محفوظًا غضًا طريًا لا يتغير مع مرور الأزمان؛ تعظيمًا لكتاب الله عز وجل وتلاوة وتدبرًا وعيشًا معه؛ وفي الحديث الشريف: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» فيحمد الله ويثني على نفسه على أنه أنزل هذا القرآن العظيم.

- وفي (**سورة سبأ**)، افتتح الله بقوله:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ١] أي المالك لكل ما فيهما؛ فنحمد الله سبحانه وتعالى ونثني عليه لأنه هو المالك المكتمل الملك تاما.

ثم قال سبحانه وتعالى **بعد ذلك مكملاً ثناءه العظيم:**

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [سبأ: ١]

له الحمد في الدنيا، وله الحمد في الآخرة؛ له الحمد على أنه الخالق، وله الحمد على أنه يفصل بين العباد ويجزي كلا بما يستحقه. ولذلك تلاحظون -أيها الإخوة- أنكم لما تنتقلون إلى (**سورة فاطر**) تجدون قوله:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]

فالله يثني على نفسه ويحمده على أنه أوجد السماوات والأرض وخلق الملائكة وجعلهم عبادًا له مطيعين مستقيمين على طاعته. فكُل سورة لها خصائص وموضوعات ومقصد تهدف إليه، حتى في افتتاحيتها بالحمد.

والحمد هو: الثناء على الله بصفاته؛ صفات الكمال، وتنزيهه عن صفات النقص؛ فصفات الكمال كلها له سبحانه. وأيضًا الحمد هو الثناء على الله على ما أنعم به على عباده من النعم الظاهرة والباطنة، والدينية والدنيوية. وله الحمد سبحانه لأنه مالك ما في السماوات وما في الأرض؛ فله الملك كله ملكًا تامًا وتصرفًا مطلقًا، فله الثناء على خلقه، وله الثناء على نعمه، وله الثناء بصفات كماله المطلق.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ أي له الحمد التام في الآخرة، وهو أعظم وأتم من حمد الدنيا؛ لأن الخلق كلهم يحمدونه في الآخرة، ولأن الله سبحانه وتعالى يحمده الحامدون على قضائه وفصله بين العباد؛ فالمؤمنون يجزيهم أحسن الجزاء، والمضطهدون والمعذبون في الدنيا والمضيق عليهم يجدون جزاءهم، وينصفهم الله ممن اعتدى عليهم وآذاهم من الظلمة والمعتدين. فحكمته سبحانه وفصله في

القضاء بين العباد حمد عظيم يُحمد عليه؛ يُحمد على أنه أكرم عباده المتقين بدار كرامته والفوز بها، وأنه انتقم من أعدائه وأعداء المؤمنين الذين عذبوهم.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]

فله الحمد في الآخرة سبحانه وتعالى.

ويقول أهل العلم: اللام في قوله ﴿لِلَّهِ﴾ هي للاستحقاق؛ وتسمى **(لام الاستحقاق)**؛ أي أن الذي يستحق الحمد حقيقة هو الله وحده؛ فالحمد كله بأنواعه ومحامده لله لا لغيره، والثناء الحقيقي لله سبحانه وتعالى. وقوله ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ جاء بالجملة الاسمية الخبرية؛ ولم يقل "احمدوا الله"، بل قال ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ وهذا يعني أن الله حمد نفسه وأثبت لنفسه الحمد قبل أن يحمده الحامدون، وقبل أن يخلق السماوات والأرض، وقبل أن يخلق الإنس والجن؛ فهو سبحانه المحمود في السماوات والأرض على أفعاله الحميدة ونعمه العظيمة، فلا ينتظر حمدًا من أحد، بل أخبر أن الحمد كله له سبحانه.

والألف واللام في (الحمد) تفيد الاستغراق؛ أي استغراق كل المحامد والثناء لله تبارك وتعالى. وفي هذه الجملة الخبرية المثبتة تعليم لنا جميعًا أن نحمده؛ فكأن الله سبحانه وتعالى يقول لعباده: احمدوا الله؛ احمدوه على نعمه وصفاته العظيمة، وعلى أن له الملك والتصرف في هذا الكون؛ فنحمد الله أن لنا إلهًا خالقًا مدبرًا متصرفًا رازقًا، وهذه كلها نعم عظيمة تستوجب الحمد. ثم قال سبحانه وتعالى:

﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١]

وانظروا إلى اقتران اسم الحكيم بالخبير؛ فـ **(الحكيم)** هو من الحُكم؛ فهو يحكم بين عباده بالعدل سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة. و**(الحكيم)** أيضًا من الحِكمة؛ وهي إتقان العمل ووضع الأمور في مواضعها الصحيحة، فالله ذو حكمة بالغة في خلقه السماوات والأرض وخلق الإنسان، وذو حكمة في شرائعه وفي أفعاله؛ فهو الحكيم سبحانه، وحمده لكونه مالك السماوات والأرض وحمده في الآخرة يقتضي أن يكون حكيمًا.

وكذلك (الخبير)؛ فإنه سبحانه وتعالى ذو خبرة عظيمة لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. و**(الخبير)** مشتق لغويًا من **(الخَبَار)**؛ وهي الأرض اللينة السهلة التي تثير الغبار إذا وطئتها؛ فالله سبحانه وتعالى يعلم ما تحت الأرض بدقة متناهية. والخبير يقتضي سعة العلم ودقته وخفائه؛ ولذلك لما

تصف إنسانًا بأنه عالم ثم تقول عنه إنه خبير، تجد أن كلمة (**خبير**) أقوى وأدق في الدلالة على معرفة التفاصيل والدقائق الخفية.

فالله سبحانه وتعالى **لما كان يعلم خفايا الأمور**، ويعلم ما تحت الأرض، ويعلم الأسرار وما تسر النفوس وما تكنه الصدور؛ سمى نفسه الخبير. وهذا الاسم هو الغاية في المناسبة هنا؛ لأنه خالق السماوات والأرض ومالكها ومشرع الأحكام، والذي يملك الآخرة ويقضي بين العباد؛ فكيف يحكم ويفصل بينهم بالحق والعدل إلا إذا كان عالمًا خبيرًا بأحوالهم وأعمالهم ودقائق شؤونهم سبحانه وتعالى!

فتأملوا -أيها الإخوة- وأنتم تقرؤون هذه السورة العظيمة كيف تفتتح وتختم آياتها ببيان كمال ملكه وحكمته وخبرته سبحانه وتعالى، وأنه لم يخلق الخلق عبثًا بل لحكمة بالغة، وخلق الإنس والجن لعبادته، وسيجزيهم في الآخرة؛ فيكرم عباده المتقين؛ ومن يهن الله فما له من مكرم؛

قال تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]

لما بيّن الله سبحانه وتعالى **هذا الأمر العظيم**، زادنا علمًا ومعرفة بسعة علمه؛ فكأن سائلًا يسأل: "الخبير هو الله، فزدني علمًا في معرفة كونه خبيرًا؟" فقال سبحانه وتعالى:

﴿يَعلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢]

وانظروا هنا إلى استخدام الفعل المضارع ﴿يَعلَمُ﴾؛ فالفعل المضارع يفيد الاستمرار والتجدد في كل لحظة؛ أي أن علم الله محيط بكل شيء باستمرار، وفي كل لحظة نتكلم بها الآن لا يغيب عن علمه شيء في السماوات والأرض. وتكلم سبحانه وتعالى أولاً عما يلج في الأرض؛ والأرض -على صغرها بالنسبة للسماوات- يعلم الله كل ما يلج فيها؛ أي كل ما يدخل تحتها؛ كقطرات الأمطار التي تنزل وتلج في باطن الأرض، وما في الأرض من كنوز ومعادن، وحتى من يدفن فيها من بني آدم بعد الموت؛ فكل ما يدخل تحت الأرض يعلمه الله سبحانه وتعالى علمًا مفصلاً.

ثم قال: ﴿وَمَا يَخرُجُ مِنۡهَا﴾؛ كالنبات الذي ينبت ويخرج، والماء العذب الذي ينبع، والمعادن التي تُستخرج، وكذلك الأموات الذين يخرجون من قبورهم وعموم بعثهم يوم القيامة. ثم انتقل بذكراك إلى السماء فقال: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ كالأمطار والخيرات والأرزاق والبركات، والملائكة، والوحي

الإلهي الذي ينزل على الأنبياء. ولم يقل "من السماوات" بالجمع، بل قال ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالإفراد؛ لأن المراد بالسماء هنا هو جهة العلو كلها التي تشمل السماوات بأجمعها.

ثم قال سبحانه وتعالى واصفاً حركة الصعود العظيمة:

﴿وَمَا يَعرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]

أي ما يصعد ويرتفع فيها؛ كالملائكة التي تعرج بالليل والنهار، وأرواح المؤمنين التي يُعرج بها إلى باريها، والأعمال الصالحة؛

قال تعالى: ﴿إِلَيهِ يَصعَدُ ٱلكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]

فكل هذه الأعمال تصعد وتعرج إليه سبحانه وتعالى.

وهنا وقفة مهمة جدًا في نطق قوله تعالى: ﴿يَعرُجُ﴾؛ فالفعل هنا من **(العُرُوج)** وهو الصعود؛ فننطقها بفتح الياء وضم الراء: "يَعْرُجُ" **(بمعنى يَصْعَدُ)**. أما إذا نُطِقَت بكسر الراء: "يَعْرِجُ"؛ فهو من **(العَرَج)** الذي يصيب القدم في مشي الإنسان وهو عيب جسدي، ويقال فيه "عَرِجَ يَعْرَجُ". لذلك يقع بعض الناس في خطأ كبير جدًا عندما يقرؤونها بكسر الراء أو يلفظونها على نحو يوهم العرج الجسدي؛ والصحيح الفصيح هو: "يَعْرُجُ" بضم الراء من العروج والصعود؛ فتنبهوا لهذا الفرق الدقيق في النطق لسلامة قراءة كتاب الله.

ثم ختم سبحانه وتعالى هذه الآية العظيمة بقوله الكريم:

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢]

وهذه هي الآية الوحيدة في القرآن الكريم التي يُقدَّم فيها اسم **(الرحيم)** على **(الغفور)**؛ فباقي الآيات في القرآن يتقدم فيها اسم الغفور على الرحيم؛ كقوله "وهو الغفور الرحيم" أو "والله غفور رحيم". ولهذا التقديم سر ولطيفة بالغة؛ لأن الله سبحانه وتعالى لما تكلم هنا عن أمور عظيمة؛ من ملك السماوات والأرض، وتنزيل الوحي، وتشريع الشرائع، والبعث والجزاء والحساب في الآخرة، وتفاصيل علمه المحيط بكل ما يدخل في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها؛ اقتضت هذه النعم العظيمة والتدبيرات البالغة أن يكون سبحانه رحيمًا بعباده أولاً فلا يتركهم هملاً، بل يشرع لهم

ويحفظهم برحمته، ثم يغفر لهم ما يقع منهم من تقصير وذنوب؛ فلذلك تقدمت الرحمة هنا على المغفرة غاية المناسبة للسياق.

ثم قال بعدها سبحانه وتعالى **مخبرًا عن موقف الكافرين المنكرين لليوم الآخر:**

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣]

وهذه الآية الكريمة تحتاج منا إلى وقفة تأمل أطول، والوقت الآن يضيق بنا، ولو أخذنا في تفسيرها الآن لما أعطيناها حقها من الشرح والتدبر. ونحن لا نريد أن نمر على آيات كتاب الله مرور كرام، بل نريد أن نتأملها أكثر وأكثر؛ لأن فيها أمورًا عظيمة تتعلق بالرد عليهم وبيان حكمة البعث والجزاء؛

كقوله تعالى بعدها: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سبأ: ٤]

وما يتبع ذلك من كلام طويل وعظيم نافع. فلعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله تبارك وتعالى، وفي اللقاء القادم نبتدئ بهذه الآية بهدوء وتأمل وتدبر، ليكون ذلك أنفع وأقرب للانتفاع. وإن كانت السورة أخذت منا وقتًا في بدايتها للتعريف بها وبأهدافها ومقاصدها العامة، إلا أن ذلك يمهد الطريق لفهمها وتأمل آياتها.

نسأل الله سبحانه وتعالى **ان لا يحرمنا هذا الفضل العظيم**، وأن يرزقنا تدبر كتابه والعمل به.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(سبأ ٣ - ٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين. اللّٰهم لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم. هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثالث عشر من شهر ذي القعدة من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

أيها الإخوة الكرام، لقاؤنا اليوم نواصل فيه ما توقفنا عنده في تفسير القرآن العظيم؛ السورة التي بين أيدينا هي **(سورة سبأ)**، وتكلمنا عنها في لقائنا الماضي عن السورة وما يتعلق بهذه السورة، وأخذنا شيئًا من آياتها، والآن نواصل ما توقفنا عنده؛ وقفنا عند الآية الثالثة وهي قول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]

يعني الذين كفروا؛ الكافرون الجاحدون لله ولوحدانيته ولقدرته، وكافرون بالدين والشرع والرسالة والقرآن، ويكفرون باليوم الآخر وينكرون البعث؛ هذا موقفهم، يقولون: لا تأتينا الساعة؛ يعني ليس هناك قيامة. ويوم القيامة سمي **(الساعة)**؛ لأنه زمن مؤقت بوقت، بساعة معينة؛ ولذلك غلب عليه اسم **(الساعة)** في القرآن الكريم؛ كثيرًا ما تسمع: يسألونك عن الساعة؛ المقصود بها هو يوم القيامة، يوم البعث والجزاء والجنة والنار.

قال الذين كفروا: لا تأتينا الساعة؛ هذا إنكار منهم، إنكار بلا دليل، وعدم الإيمان، مع أن الله سبحانه وتعالى أثبت لهم في آيات كثيرة قدرته على البعث بأدلة عقلية ونقلية، ومع ذلك هم يصرون على

إنكار يوم البعث؛ والسبب في ذلك لأنهم ليسوا مستعدين لهذا اليوم؛ فهم يعرفون أن هذا اليوم يوم عظيم، وأن هذا اليوم فيه جزاء وفيه جنة وفيه نار، ولذلك أنكروه لعدم استعدادهم له.

لما أنكروا هذا اليوم وقال الذين كفروا: لا تأتينا الساعة؛ رد الله عليهم؛ قال: قل لهم يا محمد، رد عليهم وناقشهم: قل بلى وربي لتأتينكم. ثلاث جمل قوية في الرد عليهم؛ أولاً قوله: قل بلى؛ و(**بلى**) هو جواب، يعني حرف جواب؛ وحرف الجواب (**بلى**) هذا لا يأتي إلا في السؤال المنفي، أما السؤال المثبت فلا يصلح أن تقول بلى، تقول نعم؛ فإذا قال مثلاً: حضرت الدرس؟ تقول: نعم، ما تقول: بلى. ولما يكون بصيغة الاستفهام أو بصيغة النفي: ألست أنت حضرت الدرس؟ ما تقول: نعم؛ إذا قلت نعم معناه أنك لم تحضر الدرس، لكن إذا قيل لك: ألست قد حضرت الدرس؟ تقول: بلى.

ولذلك قول الله سبحانه وتعالى في أخذ الميثاق:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]

يقول ابن عباس: لو قالوا نعم لكفروا؛ لأن إذا قال: ألست بربكم؟ قالوا: نعم؛ أي لست بربنا، فنتبه لهذه النقطة المهمة؛ يعني إذا كان السؤال فيه نفي الجواب ببلى؛ ألم تحضر أمس؟ تقول: بلى حضرت. هذه نقطة مهمة؛ ولذلك هم قالوا: لا تأتينا الساعة؛ نفي، قل لهم: بلى تأتيكم الساعة؛ هذا الرد الأول.

والرد الثاني قوله: وربي؛ أقسم بربه سبحانه، أقسم النبي صلى الله عليه وسلم بربه سبحانه وتعالى الذي ربّاه وخلقه، وهو القادر على أن يحيي الموتى، وعلى أن يأتي بيوم القيامة. قل بلى وربي؛ أمر الله نبيه محمد أن يقسم بربه في ثلاثة مواضع في القرآن فقط؛ ثلاثة مواضع:

الموضع الأول في (سورة يونس):

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]

فقوله (**إي**) بمعنى نعم؛ قل إي وربي، فهذا القسم الأول.

والقسم الثاني هنا في (سورة سبأ): قل بلى وربي.

والقسم الثالث في (سورة التغابن):

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]

فهذه مواضع ثلاثة أقسم فيها النبي صلى الله عليه وسلم بربه في القرآن.

عندك الآن الرد الأول (بلى)، والثاني القسم بربه أنهم سيبعثون؛ يعني وربي؛ يعني أقسم بربي أنكم ستبعثون، ثم الثالث قال: لتأتينكم؛ وكلمة **(لتأتينكم)** يعني ستأتيكم الساعة ومجيئها مؤكد؛ النون هذه تسمى نون التوكيد، يعني الفعل مؤكد بقوة: لتأتينكم. قل بلى وربي لتأتينكم. ثم هذه عندنا الآن الرد، حتى تفهم؛ حتى نتدبر القرآن ونفهم أكثر؛ رد الله عليهم الآن بثلاثة أدلة وسيأتيك الرد الرابع؛ الأدلة التي رد الله عليهم بها: أولاً قال: بلى؛ وهذا رد لاعتقادهم الفاسد؛ بلى تأتي الساعة. وربي: رد آخر بقوة بالقسم أنه أقسم بربه أن الساعة ستأتي. ثم الثالث: التأكيد بنون التوكيد الثقيلة: لتأتينكم؛ أي الساعة.

ثم الرد الرابع قال سبحانه وتعالى: عالم الغيب؛ إذا كان هو يعلم الغيب، ويعلم الغيب والشهادة، ويعلم الأشياء الدقيقة، هذا الذي يعلم هذه الأمور قادر على أن يبعث؛ البعث يحتاج ماذا؟ يحتاج إلى أمرين: العلم والقدرة، والله سبحانه وتعالى عالم وقادر؛ قال سبحانه وتعالى: عالم الغيب لا يعزب عنه؛ أي لا يغيب، يعزب يعني لا يغيب عنه، لا يعزب عنه مثقال؛ يعني وزن مقدار مثقال ذرة. ما هي الذرة؟ قيل الذرة كما قال ابن عباس: الذرة هي النملة الحمراء الصغيرة تسمى ذرة، وجمعها ذر؛ وقيل الذرة التي تجمع على ذرات هي الذرة الصغيرة التي تتطاير عند شعاع الشمس عند الأبواب والشبابيك؛ تشوف شيء يتطاير، هذا التطاير الخفيف؛ لا يغيب عنه سبحانه وتعالى.

يقول: لا يغيب عنه سبحانه وتعالى؛ لو كانت هذه الذرات التي تتطاير في الشباك مع شعاع الشمس، لو كانت هذه الذرات، ذرة واحدة منهن في السماوات غائبة في السماوات أو في الأرض، الله سبحانه وتعالى يعلم مكانها ويأتي بها سبحانه وتعالى؛ مثقال ذرة، لو كان لا يعزب عنه مثقال ذرة. طيب، الآن أنت تتصور الذرة أنها شيء صغير جداً؛ هل هذه الذرة تتجزأ؟ هل تتجزأ أو لا تتجزأ؟ كانوا عندهم في الدراسات والعلوم أن الذرة ما تتجزأ، صغيرة؛ لكن الآن اكتُشف أن الذرة الصغيرة هذه ممكن أن تتجزأ أجزاء. طيب إذا كانت تتجزأ أجزاء، إذاً القرآن أخبر عنها قبل أن يكتشف العلم التجزئة؛ لأن الله قال ماذا؟ قال: ولا أصغر؛ فدل على أنها ممكن أن تكون أصغر، حتى قال بعضهم: هذا من الإعجاز العلمي؛

الإعجاز العلمي أن الله أخبر سبحانه وتعالى في كتابه أن الذرة فيها ما هو أصغر منها، وهذا وهم يقولون ما في أصغر من الذرة، والله ضرب المثل بالذرة في صغر الأحجام أن الله يعلمها، وقال لك: ولا أصغر؛ حتى ما هو أصغر من الذرة، ولا أكبر إلا في كتاب مبين؛ إلا يعلمه سبحانه وتعالى؛ لأنه قال: عالم الغيب لا يعزب عنه؛ أي لا يغيب عنه.

ثم بين لك أن كل هذه الأمور قد أحصاها الله وأودعها في اللوح المحفوظ؛ علم بها وأحصاها وأودعها في **(اللوح المحفوظ)**، لا تغيب عنه سبحانه وتعالى. طيب، لو جاءك سائل وقال: الله سبحانه وتعالى يخبرنا بأنه لا يغيب عنه الأشياء الدقيقة الصغيرة جداً، الأشياء الدقيقة الصغيرة جداً لا تغيب عنه؛ طيب ليش ذكر الأشياء الكبيرة؟ ما يحتاج أن يذكرها، ما يحتاج أن **يقول:** ولا أكبر؛ لأن الأكبر معلوم أنه يعلم، إذا كان يعلم الأصغر فلا حاجة أن يذكر الأكبر؛ فلماذا ذكره؟

الجواب على هذا: أن الله سبحانه وتعالى لما قال: في كتاب مبين؛ بين لك أن هذا الكتاب يشمل الصغير والكبير؛ فلو قال مثلاً: لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك إلا في كتاب؛ لسأل سائل قال: طيب والاكبر؟ أليس في كتاب؟ فلما احتمل هذا الأمر، الله أجاب عنه قبل أن يكون هذا الشيء في نفس الإنسان: في كتاب مبين؛ **يقول:** هذا الكتاب هو اللوح المحفوظ، مبين واضح، يعني لا ليس فيه غموض، بل مسطر ومكتوب.

يأتيك أيضاً رد خامس على مدعي أو منكري الساعة؛ الآن الذين ينكرون الساعة يقولون: لا تأتينا الساعة؛ الرد عليهم، رد الله عليهم قال: قل بلى تأتي؛ هذا الرد الأول.

ثانياً: وربي، أقسم بربه.

ثالثاً: جاء بالفعل المؤكد بنون التوكيد الثقيلة: لتأتينكم.

الرابع: بين لك علمه وسعة علمه، فالذي يعلم قادر سبحانه وتعالى.

الخامس: بين لك الحكمة؛ من البعث ومن الجزاء، من الحكمة من البعث ومن الجنة والنار؛ لماذا؟ قال: ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات. البعث والجزاء والجنة لا بد أن تأتي، لا بد أن تأتي الساعة ولا بد أن يأتي يوم البعث؛ لماذا؟ ليحكم الله ويفصل بين العباد، وينتصر لعباده المظلومين المضطهدين، ينتصر لهم ويجازيهم أحسن الجزاء، ويعاقب أعداءه؛ الذين يتسلطون ويؤذون ويفسدون في الأرض، لن يتركهم

الله يعيثون في الأرض فساداً، ولن يتركهم يعني يحاربون الله ويحاربون رسوله ويحاربون أولياءه؛ فلا بد أن ينتقم منهم وينتصر لأوليائه؛ فهذه الحكمة؛ من قيام الساعة، الحكمة من قيام الساعة والحكمة من الجزاء والحساب والجنة والنار؛ ولذلك قال: ليجزي؛ يعني الساعة تأتي لماذا؟ قال: ليجزي الذين آمنوا؛ آمنوا وصدقوا؛ صدقوا بقلوبهم وجوارحهم وألسنتهم، وعملوا الصالحات؛ اتبعوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة، لم يقل: أنا مؤمن ولا يصلي، أو أنا مؤمن ولا يعمل، لا؛ آمنوا وعملوا الصالحات.

أولئك لهم مغفرة؛ تغفر لهم ذنوبهم ويطهرون من الذنوب والمعاصي؛ فإذا طهروا ونقوا منها، بعد ذلك يحلون بالرزق الكريم، وهو الفوز بجنات النعيم؛ فهذه الحكمة من البعث والجنة والنار ويوم القيامة، يعلم المؤمن أن الله سبحانه وتعالى يجازيه أحسن الجزاء ويغفر له ذنوبه ويدخله جنات النعيم. طيب، هذا جزاء المتقين؛ أما جزاء الكافرين، كما قال الله سبحانه وتعالى: والذين سعوا في آياتنا معاجزين؛ الذين سعوا، من السعي وهو السرعة وعدم التأخر، يعني يسابقون في أي شيء؟ في الصد عن سبيل الله. والذين سعوا في آياتنا معاجزين؛ يصدون الناس ويصدونهم بأنفسهم، ويصدون الناس ويكذبون الرسل، ويردون رسالات الله، ويردون ما أخبر الله به، ويسعون في إبطال شرع الله وإبطال الآيات. قال: معاجزين؛ يعني يظنون أنهم يعجزون الله، **(معجزين)** و**(معاجزين)** قراءة، يظنون أنهم يعجزون الله ويفلتون من حكمه ويفرون منه ويختفون؛ لا، هذا لا يمكن.

الذين يظنون أنهم يسعون في الأرض ويظنون أنهم يعاجزون الله، هؤلاء لن يفلتوا من الله وسيأتي بهم، سيأتي بهم؛ ولذلك قال الله جل وعلا: والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم؛ لهم العذاب، والرجز هو العذاب؛ كيف **يقول:** عذاب من رجز؟ نقول: لهم عذاب من أشد العذاب، يعني عذاب هو من أشد العذاب، وأليم مؤلم شديد يتألم صاحبه ويتوجع منه؛ فكل هذا لهم. طيب، إذا عرفنا الحكمة من إعادة الخلق وبعثهم للمحاسبة والجزاء والجنة والنار؛ فالمؤمنون الصالحون هؤلاء لهم مغفرة ورزق كريم، وأما الذين سعوا في الأرض معاجزين وكفروا وردوا رسالاته وحاربوا شرعه، فهؤلاء لهم عذاب من رجس **(من رجز أليم)**؛ سينالون جزاءهم. فعرفنا الآن أيها الإخوة الكرام، عرفنا أي شيء؟ عرفنا الأدلة التي ترد على منكري البعث، الذي **يقول:** لا بعث ولا جزاء ولا جنة ولا نار؛ رد الله عليهم

بتقريباً خمسة أوجه أو ستة، كلها أبطلت حجتهم: قل بلى وربي لتأتينكم، عالم الغيب، ليجزي الذين آمنوا؛ خمسة أدلة تردهم وترد ما قالوا وما افتروه من هذه الافتراءات الكاذبة.

لما بين سبحانه وتعالى **موقف هؤلاء الكافرين** وأنهم يقولون: لا تأتينا الساعة، وينكرون البعث، ورد الله عليهم؛ بين منزله أهل العلم؛ لأن هؤلاء جهلة، هؤلاء جهلة ضالون لا يعرفون قدرة الله ولا عظمته، ولذلك أنكروا الجزاء والجنة والنار؛ والله ما خلق السماوات والأرض باطلاً، ولا خلقها للعبث، وإنما خلقها ليقيم عدله؛ وخلق السماء والارض كما قال الله سبحانه:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]

فلا بد، لا بد أن يقيم الله عدله؛ ولذلك الله سبحانه وتعالى هنا أثنى على أهل العلم؛ العلم نور، نور ينير صاحبه، والعلم هداية يهدي صاحبه؛ فلذلك أثنى الله عليهم فقال: ويرى الذين أوتوا العلم؛ الذين أُعطوا العلم وعرفوا علم الله وعلم الكتاب والسنة، وعرفوا الحكمة لخلق الله السماوات والأرض، وعرفوا أن الله هو الذي خلق الإنسان وأنه سيجازيه، فعندهم علم؛ أثنى الله عليهم قال: أوتوا العلم، يرون ماذا؟ يرون الذي أنزل إليك يا محمد؛ هذا فيه تسلية وطمأنينة للرسول؛ **يقول:** لا تلتفت إلى ما يقوله الكفار من إنكار البعث، عندك أهل العلم وهم المؤمنون بك من الصحابة، أو من أهل الكتاب الذين عندهم علم، ويعلمون ويعرفون قيمة العلم وقيمة القرآن والشريعة؛ الذين أعطيناهم العلم ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك هو الحق.

الذي أنزل إليك، القرآن والشريعة هو الحق، ليس بالباطل، هو الحق وليس بالباطل؛ وهذا الحق الذي أنزله الله يهدي إلى صراط العزيز الحميد؛ يعني يهدي ويرشد الى طريق الله، الصراط الطريق؛ صراط من؟ صراط العزيز الذي لا يُغلب ولا يُمانع، القوي الذي قهر كل شيء وغلبه، والحميد أي المحمود الذي يُحمد في أقواله وفي أفعاله وفي شرعه؛ فسبحانه وتعالى، الله مدح أهل العلم، وأهل العلم اعترفوا بأن ما أُنزِل على الرسول هو الحق، وما يقوله القرآن هو الحق، وما يأمر به هو الحق، وما ينهى عنه هو الحق، وأن ما فيه من توجيهات في القرآن ومواعد كلها حق، وما فيه من أخبار صدق، يرون أنه كله حق؛ القرآن وما

فيه حق، وهذا القرآن أيضاً من ثمراته وآثاره أنه يهدي أهله وأصحابه المتمسكين به إلى صراط الله، صراط النجاة والسلامة؛ ففرق بين الجهلة الذين ينكرون البعث وبين أهل العلم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى **مرة أخرى** عن موقف آخر من مواقف هؤلاء الكفرة؛ هؤلاء الكفرة الذين جحدوا وكفروا قدرة الله، وجحدوا وحدانيته واليوم الآخر؛ شوف موقف آخر لهم، موقف يحمل في طياته السخرية والاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم، ويلصقون فيه التهم. اسمع ماذا يقول الله:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]

وقال الذين كفروا؛ كفروا وجحدوا رسالة الله وجحدوا وحدانيته، وكفروا بالرسول وبالشرع؛ ماذا قال الذين كفروا بعضهم لبعض؟ يخبر بعضهم بعضاً: هل ندلكم؛ يستهزئون يقولون لبعضهم بعضاً استهزاءً: هل ندلكم على رجل؟ تريدون أن ندلكم على رجل؟ ويقولون **(رجل)** وهم يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم، ومحمد عَلَمٌ على رأسه نار ليس خافياً، وهم يعرفون محمداً معرفة تامة، ويعرفون ما جاء به، ولكنهم يريدون أن يسخروا ويستهزئوا، يقولون: ندلكم على رجل؛ ينكرونه وهو ليس بنكرة، هو معرفة؛ قال: ندلكم على رجل ينبئكم؛ أي يخبركم، أنكم إذا متم وتمزقتم في الارض وتفرقت أجسادكم وأصبحتم قد ذهبت أجسادكم وتمزقت وأكلت الأرض أجسادكم ولم يبقَ منكم شيء؛ قال: إذا مزقتم كل ممزق، لم يبقَ منكم شيء، قُطّعتم كل قطعة، ما بقي إلا القطع الصغيرة، تمزقتم كل ممزق، إنكم لفي خلق جديد؛ يقولون: هل هناك خلق جديد؟ من أين يأتي الخلق الجديد وأنتم قد تفرقت أجسادكم وأوصالكم في الأرض كل فرقة؟ إنكم يعني ستحيون وتبعثون من جديد؛ هذا بعيد جداً.

ولذلك لما اتهموا النبي ﷺ وسخروا منه، وأيضاً اتهموه ووصفوه بصفتين؛ قالوا: هذا الذي يقوله محمد، هذا الذي يقوله انكم إذا مزقتم وهلكتم أنكم تخلقون مرة أخرى، هذا أحد رجلين لا ثالث لهما: إما أنه يفتري على الله الكذب، أو أنه مجنون:

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨]

أفترى على الله كذباً؛ هذا يفتري يكذب على الله يقول إن هناك بعثاً وجزاءً وجنة، هذا يكذب على الله، أو به جِنّة؛ أو أنه به جِنّة يعني مجنون، يعني ليس له عقل؛ يعني هذا الذي يقول أنكم ستبعثون

وتجازون بالجنة وبالنار، هذا إما أنه يكذب على الله يفتري، أو أنه ليس له عقل مجنون. رد الله عليهم قال: بل الذين لا يؤمنون بالآخرة؛ قال: بل الذين لا يؤمنون، و(**بل**) للاستدراك والإضراب، يعني عدم التفات إلى كلامهم؛ الذين لا يؤمنون بالآخرة، لا يصدقون بالآخرة ولا يؤمنون بها ويكفرون بها ويستبعدونها ويقولون: إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد، هؤلاء هم في العذاب والضلال البعيد؛ في العذاب أي في الشقاء في الدنيا، هم في شقاء لأنهم ما آمنوا، لو آمنوا لاطمأنت قلوبهم، ولكن قلوبهم لم تطمئن، قلوبهم منزعجة وحالهم منزعجة، وهم في شقاء وفي ضلال بعيد عن الحق؛ ووصف الضلال بالبعد لأنهم خلاص، يعني أبعد الناس عن الصواب وأبعد الناس عن معرفة الحق. فهؤلاء الذين يتهمون الرسول ويطعنون فيه ويسخرون منه، هؤلاء في شقاء وفي عناء، ولذلك قالوا مثل ما قالوا من هذا الكلام الذي قالوه.

ثم سبحانه وتعالى **أرشدهم قال:** يعني أنتم في ضلال بعيد وفي شقاء، ولكن ارجعوا إلى عقولكم وتأملوا؛ فلذلك قال:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩]

أفلم يروا؛ لماذا لم يلتفتوا؟ عميت أبصارهم، ولم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم؛ يعني أمامهم وخلفهم، ماذا؟ من السماء والأرض.

يقول: لماذا لا ينظرون إلى السماء يرفعون أبصارهم وينظرون في السماء وما فيها من الآيات والخلق العظيم، والشمس والقمر والنجوم والسحاب، وهذه الآيات العظيمة التي في السماء، لماذا لا يلتفتون إليها وينظرون ويتأملون فيها؟ أو ينظرون في الأرض، في جبالها ووديانها وأشجارها وأقواتها وزروعها، لماذا لا يتأملون وينظرون في السماوات وفي الأرض؟ لماذا أعموا أبصارهم؟

لأن هذه ستدلهم على أن هناك خالقاً قادراً عالماً؛ لماذا أنتم تعمون أبصاركم ولا تلتفتون لهذه الآيات التي في السماوات والأرض؟ هذا جحود منكم؛ ولذلك هددهم قال: إن نشأ؛ لو أردنا أن نخسف بهم الأرض خسفنا بهم الأرض كما خسفناها بقارون، إن نشأ نخسف بهم الأرض، الله قادر كما خسف بقارون خسفنا به وبداره؛ الله يخسف بهم الأرض. قال: نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء،

كسفاً يعني قطعة من العذاب من السماء كما فعل الله بشعيب، بقوم شعيب؛ فعل الله بقوم شعيب لما نجى شعيباً والذين آمنوا معه أنزل العقوبة بعذاب يوم الظلة، وهو قطعة من العذاب نزلت عليهم من السماء.

قال: أو كسفاً من السماء، قال: إن في ذلك؛ أي في هذا الكلام والخبر والآيات الموجودة في السماوات والأرض وعدم التفاتهم لهذه الآيات وتهديدهم بالخسف في الأرض أو إسقاط السماء عليهم أو قطع من السماء عليهم بالعذاب؛ **يقول:** هذا الكلام فيه آيات، فيه آية عظيمة لمن؟ لكل عبد منيب، ليس لكل الناس، وليس لهؤلاء الكفرة الذين لا يهتدون ولا يفتحون أسماعهم ولا أبصارهم، وإنما هذه الآيات لكل عبد، عبد لله سبحانه وتعالى مقبل على طاعته متعبد لربه، ولم يعبد الشيطان أو يعبد هواه، وإنما هو عبد لله؛ لكل عبد منيب، راجع إلى الله، متذكر، متخشع لله، تائب إلى ربه في كل وقت، يوحده ويخلص العبادة له، فهو عبد منقاد لأوامر الله، ومنيب يرجع في كل وقت، كلما فعل معصية أو أخطأ أو قصر فهو دائماً صاحب إنابة وعودة ورجوع إلى الله.

طيب بعد هذا البيان الشافي الجميل الحسن في تقرير البعث والجزاء والجنة وبيان...

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(سبأ ١٠ - ١٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم؛ وهو يوم الثلاثاء الموافق للعشرين من شهر ذي القعدة من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يرزقنا واياكم العلم النافع والعمل الصالح.

درسنا في هذا اليوم - يوم الثلاثاء بعد صلاة المغرب - في تفسير القرآن العظيم؛ السورة التي بين أيدينا هي **(سورة سبأ)**، ومر معنا تفسير بعض هذه الآيات، ووقف بنا الكلام عند الآية العاشرة، وهي في قصة داوود وسليمان عليهما السلام. وداوود وسليمان يعني ذكر الله سبحانه وتعالى قصتهما على أنهما نموذجاً من نماذج الشكر لله سبحانه وتعالى؛ أعطاهم الله الدنيا فشكروا، الله سبحانه وتعالى. وذكر الله سبحانه وتعالى مقابل هذه القصة قصة أخرى في كفر النعم وماذا جرى لهم؛ ماذا جرى لمن شكر نعمة الله، وماذا حصل لمن كفر نعمة الله. فنستمع لما يذكره الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات، وما يذكره المفسرون حول هذه الآيات من الشاكر لنعمة الله والجاحد الكافر لنعمة الله.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]

وقد؛ أنت دائماً تقرأ في القرآن كلمة ولقد: ولقد خلقنا الإنسان، ولقد علمنا المستقدمين؛ كثيرة في القرآن. ما معنى هذه الكلمة؟ نقول: هذه الكلمة مكونة من ثلاثة أشياء؛ أولاً: الواو، والواو هذه يسميها أهل العلم **(واو القسم)**، واللام موطئة للقسم، والتقدير: واللهِ؛ لا موطئة القسم، و**(قد)** حرف تحقيق، يعني يحقق لك الكلام ويثبت لك الكلام؛ واللهِ لقد آتينا. فالله سبحانه وتعالى، يقسم لماذا؟ يقسم على أن هذا الأمر الذي يذكره لك أمر حقيقي لا مرية فيه ولا شك؛ يعني مثل ما أن الله يقول ولقد خلقنا

الإنسان ولا يشك إنسان بأن الله هو الذي خلقه، كذلك الله يقسم بانه أتى داوود هذا الأمر الذي يذكره؛ فهذا من الله قسم.

من هو داوود؟ هو نبي من أنبياء الله من بني إسرائيل، جاء بعد موسى وهارون بزمن، وعاش في بلد الشام مهبط يعني مهبط الوحي أيضاً، وهي يعني مبعث الرسل ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيها بيت المقدس، فيها المسجد الأقصى؛ هذا داوود عليه السلام هو بعثه الله نبياً.

والله يا إخوان، حقيقةً لو نتأمل قصة داوود عليه السلام وفي جانب العبادة مع ربه؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم **يقول:**

«أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللهِ صَلَاةُ دَاوُدَ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا»

فهذا من ناحية قيام الليل؛ الله سبحانه وتعالى وجه نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم في **(سورة المزمل)** قال:

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: ٢-٤]

يعني الثلث أو زد عليه يعني الثلثين؛ فهذا توجيه الله لنبيه محمد. والنبي صلى الله عليه وسلم **يقول:** «**خير القيام قيام داوود**»؛ هذا من ناحية قيام الليل. أما من ناحية الصيام فقال صلى الله عليه وسلم: «**خير الصيام صيام داوود**» أيضاً؛ صيام داوود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً؛ هذا من جانب العبادات. وكان يقرأ **(الزبور)**؛ كان أنزل الله عليه كتاباً كبيراً، كتاب هذا ملأه الله بالمواعظ، حتى قيل إن **(الزبور)** أكثره مواعظ؛ فكان يقرأ **(الزبور)** ويبكي، وكان صوته صوتاً جميلاً، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع أبا موسى الأشعري قال: «**لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ**»

صوتك جميل. فداوود أعطاه الله الصوت الجميل، ولذلك إذا بدأ يسبح ويذكر الله بدأت الجبال تردد معه بالتسبيح، تستمع؛ إذا قَرَأَ الزبور استمعت الطيور واجتمعت حوله، حتى قيل إن الحيوانات تجتمع كالإبل والغنم تجتمع حوله وهو يقرأ تأثراً بقراءته. فأُعطي الصوت الجميل، وأُعطي كثرة العبادة في القيام والصلاة والصيام، وأيضاً أعطاه الله النبوة والرسالة نبياً رسولاً، وأعطاه الله سبحانه وتعالى من النعم أنه قاضٍ يقضي بين الناس:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[ص: ٢٦]

فهو قاضٍ يحكم بين الناس، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب. وأيضاً من نعم الله عليه أن الله سبحانه وتعالى -كما ذكر الله هنا سبحانه وتعالى- قد آتيناه فضلاً وألان الله له الحديد؛ كان حداداً، والحديد تعرف يحتاج إلى نار وطرق، والله سبحانه وتعالى جعل الحديد كالعجين في يده، كالعجين في يده، ويصنع السيوف ويصنع الدروع، وكان يأكل من عمل يده؛ كان كما قال صلى الله عليه وسلم: «**كان يأكل من عمل يده**»؛ نبي وحداد ويأكل من عمل يده! هذا داوود عليه السلام، ووهبه الله له هذا الابن البار وهو نبي سليمان عليه السلام، وورث سليمان داوود في ورثه النبوة؛ ورثة النبوية لم يرثوا لا مالاً ولا درهماً ولا ديناراً.

هذا داوود عليه السلام قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا﴾ يعني هذا التفضل منا، ولذلك قال: ﴿فَضْلًا﴾؛ منا فضلاً، يعني نحن تفضلنا وأنعمنا ومَنَنَّا على داوود بهذه المِنَن والنعم وهذا الفضل العظيم. ثم أبان لك ما هذا الفضل قال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي﴾؛ من الذي ينادي؟ الله سبحانه وتعالى؛ الله ينادي الجبال **فيقول:** يا جبال أوبي معه؛ رددي، ما يقول وسبحي كما يسبح؛ ولذلك قال سبحانه وتعالى في سورة أخرى:

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾[الأنبياء: ٧٩]

فأوبي أي سبحي ورددي؛ فالجبال الصم الشامخات الجامدة تسبح مع داوود عليه السلام. ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ أيضاً يناديها الله سبحانه وتعالى **يقول:** ويا أيها الطير سبحنا مع داوود ورددنا مع داوود؛ ولذلك قال: ﴿وَالطَّيْرَ﴾ محشورة، إنها تحشر أمامه تجمع تجتمع أمامه والطير محشورة، قال هنا إنها تسبح معه. وقال سبحانه وتعالى من نعمه: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾؛ أي مثل ما ذكرنا كالعجين يتصرف فيه كيف يشاء، لا يحتاج إلى طرق ولا إلى نار ولا إلى شيء؛ يأخذ الحديد ويصنع منه السيوف والآلات والدروع.

قال سبحانه وتعالى:

﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[سبأ: ١١]

أن اعمل سابغات؛ يعني ألنّا له لأجل أن يعمل السابغات. ما هي السابغات؟ قال: الدروع، أصلها التقدير: أن اعمل دروعاً سابغات، والسابغ من الشيء التام؛ يعني درع تام، درع يصنع هذه الدروع التي تقي تلبس وتكون واقية، ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى في **(سورة الأنبياء)** قال:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]

من الحرب تحصنكم تحفظكم من الحروب؛ صنعة لبوس، اللبوس هي الدروع التي تلبس ليتقي بها الضرب بالسهام والنبال ونحوها، فيلبس هذا الدرع. فالذي صنع الدروع أول من صنعها هو داوود عليه السلام بإلهام من الله سبحانه وتعالى وبوحي من الله؛ أن اعمل دروعاً، أي اعمل دروعاً تامات واسعات سابغات.

وقدّر في السرد؛ قيل السرد ما هو؟ هي فتحات الدروع يضع فيها المسامير ويضع والحبال يشدها ونحو ذلك والخيوط؛ قال: قدّر في السرد، يعني في الحلق، حلق الدروع، يضع فيها مسامير تمسك حتى تكون قوية وثابتة. والقدّر في السرد، والسرد يعني كثير من أهل التفسير يقولون هي حلق الحلقات، حلقات الدروع، حلقات الدرع؛ فيقدرها تقدير، كيف يقدرها؟ يعني لا تكون الحلقة واسعة فلا تنفع يخرج منها المسمار أو الذي يثبت الدرع، ولا تكن ضيقة فيصعب إدخالها؛ فتكون بتقدير مناسب.

وقدّر السرد واعملوا صالحاً؛ شوف غيّر الضمير جاء بالضمير الجماعة، لماذا؟ لأن داوود له ذرية وله زوجات، فالعمل الصالح ليس مقتصراً على داوود عليه السلام؛ فهو يعني الجبال تسبح ومعه وهو يصنع السيوف وألان الله له الحديد، ولكن الأعمال الصالحة تشمله هو وآل داوود؛ كل آل داوود مطالبون بالعمل الصالح، ولذلك قال: اعملوا جميعاً، اعملوا يا آل داوود ويا داوود أنت في مقدمتهم، وأْمُرْ أهلك أيضاً بطاعة الله، واعملوا صالحاً؛ ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ بصير مطلع عالم لا يخفى على الله شيء، مطلع عالم لا يخفى على الله شيء من أعمالهم؛ وفي هذا حث؛ إذا كان الله بصير بعملك مطلعاً عليك عالم، الذي يراك حين تقوم وتقلبك في السجود، فهذا يدعو الإنسان إلى أن يحرص على العبادة إذا علم أن الله معه وأن الله مطلع عليه عالم بحاله.

قال بعدها:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]

ولسليمان؛ لما بيّن الفضل الذي أتاه داوود، عطف عليه فضل الذي أتاه سليمان؛ قال: ولسليمان الريح؛ أي وسخرنا لسليمان الريح. الله أعطاه الريح سخرها له؛ الريح قال: غدوها شهر ورواحها شهر. الغدو من أول النهار إلى زوال الشمس، يعني الفترة الصباحية إلى وقت الظهر، هذه نسميها غدوة. بعد الظهر إلى غروب الشمس هذه نسميها الروحة؛ الرواح بالغدو والآصال؛ فهذه فترة الغدو والروحة. فمن طلوع الشمس إلى زوالها نسميها غدوة؛ هذه الغدوة التي الناس يقطعون مسافتها في شهر، هو يقطعها بهذه الفترة؛ ست ساعات أو سبع مقابل كم؟ مقابل شهر كامل؛ كم فيه من ساعة! يعني تحتاج إلى أن تشوف كم عدد الساعات، فالمسافة التي يقطعونها في شهر على الإبل أو وهم يمشون على أقدامهم، هو يقطعها بساعات معدودة. بمقدار الغدوة يعني سرعة الريح تنقله، الريح تنقل سليمان. قال: غدوها شهر ورواحها – عودتها يعني ذهابها ورواحها شهر؛ يعني إذا ذهبت شهر وإذا عادت شهر، الغدو شهر والرواح شهر؛ يعني إذا قلنا اليوم كم يقابل؟ نقول مسافة الشهرين التي يقطعها الناس يقطعها سليمان بيوم واحد، لأن الغدوة شهر والروحة شهر؛ أصبح عندنا شهرين. اليوم الواحد الذي يقطعه الناس في مدة شهرين هو يقطعه في يوم واحد؛ هذا معناه؛ في يوم واحد من طلوع الشمس إلى غروبها يقطع هذه، لأن الروحة شهر والغدوة شهر؛ أصبح عندنا شهرين، اليوم الواحد يعادل شهرين.

هذه مِنّة من الله وفضل عظيم أعطاه الله سليمان؛ منه أن تنقله الريح. ولاحظ هنا أنه ذكر الله سبحانه في سورة أخرى أن الريح عاصفة يعني سريعة، وذكر في سورة أخرى أن الريح رخاء يعني بهدوء لا تستعجل؛ كيف نجمع بينها، هل هي سريعة ولا بطيئة؟ فنقول: هي سريعة إذا أرادها سليمان أن تسرع، وبطيئة إذا أراد سليمان أن تكون بطيئة؛ وبعضهم يقول بطيئة عند السفر عند الذهاب وسريعة عند العودة، لأن الإنسان دائماً إذا أراد أن يعود إلى داره وإلى أهله يحاول أن يعود بسرعة، أما إذا خرج من عندهم مسافراً فهو يمشي بهدوء؛ الله أعلم بذلك.

وفي هذا أذكر لكم قصة عجيبة ذكرها بعض أهل العلم، وهي أن سليمان كان قد تسير به الريح، ويقولون بساط الريح تنقله الريح؛ فمر على صاحب بستان جالس في بستانه يعمل، فإذا الريح إذا البساط

يمر من فوق بستانه، فرفع رأسه قال: "سبحان الذي سخر لسليمان هذا الملك!". فسمعه سليمان فعاد، قال: "أعيدوني"، فرجعوا ونزل سليمان عنده فقال: "ماذا قلت؟" قال: "ما قلت شيئاً"، قال: "ماذا قلت؟" قال: "قلت سبحان الذي سخر لسليمان هذا الملك"، قال سليمان: "كلمة سبحان هذه أعظم من ملكي كله؛ قولك سبحان الله أو سبحان الذي سخر، هذه الكلمة أعظم من ملكي كله".

يقول هنا: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾؛ كما أن الله ألان لداوود جعل الحديد ليناً، كذلك النحاس جعله يسيل لسليمان؛ ﴿وَأَسَلْنَا﴾ يعني جعلنا النحاس - شوف قال: عين القطر؛ القطر النحاس - فعينه تسيل، ويصنع منها ما يشاء، ولذلك قال: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾؛ وهذا النحاس كما سيأتي أنه يصنع منه الجواب والقدور الراسيات.

﴿**وَمِنَ الْجِنِّ**﴾؛ أي سخر الله لسليمان الجن ماذا تصنع؟ قال: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ﴾؛ أي طائفة من الجن ليس الجن كلهم، لأن الجن منهم بناء ومنهم غواص، وهؤلاء يعملون بين يديه؛ قال: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾؛ يعملون هؤلاء الجن وبمشيئة الله وإذنه وأمره، ولو لم يأذن الله ما عملوا له؛ لأن الجن نعلم أنهم متمردون ونعلم أنهم عصاة، ولكن الله ليّنهم وسخرهم لسليمان يعملون له، يعملون له؛ ولذلك هم يعملون بأمر من الله سبحانه وتعالى وبأمر من سليمان وإلا لم يعملوا، ولذلك قال: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾. قال: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ يَمِلْ ويعصي ويتمرد ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾؛ تهديد لهم لأن كثيراً منهم متمردون ولا يريدون أن يعملوا، فهددهم الله سبحانه وتعالى أنهم متى خرجوا عن طاعة سليمان فإن الله عز وجل يذقهم من العذاب، من عذاب السعير، من العذاب الأليم.

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]

يعملون؛ أي الجن له لسليمان ما يشاء من محاريب؛ يصنعون الغرف والمجالس الكبار المرتفعة. دائماً المحاريب هذه المكان المحراب حتى في المسجد دائماً يطلق على المكان المرتفع؛ ولذلك مريم كانت تجلس في المحراب: كلما دخل عليها زكريا المحراب، وزكريا كان يصلي في المحراب؛ فالمحاريب معروفة مرتفعة. ﴿مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾؛ التماثيل الصور، يصورون له حيوانات ويصورون له طيور ويصورون له صوراً

أخرى كالأشجار ونحوها؛ تماثيل. وهذه التماثيل كانت جائزة في عهد سليمان وغيره، فلما جاءت شريعة محمد صلى الله عليه وسلم حُرِّمَت الصور والتماثيل؛ فلا يجوز تصوير الصور الحية كالطيور والحيوانات، هذه لا يجوز تصويرها، وأيضاً التماثيل محرمة؛ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لَعَنَ اللهُ الْمُصَوِّرِينَ**» ونهى عن التصوير وقال لعلي رضي الله عنه: «**لَا تَدَعْ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا**»؛ فيجب طمس الصور المحرمة التي ليس فيها مصلحة ولا حاجة، وكذلك التماثيل أشد؛ الذين تجد في بيوتهم وفي مجالسهم تماثيل الطيور والحيوانات والإبل، هذه يجب عليهم أن يزيلوها ويحرم عليهم إبقاؤها لا يجوز؛ هذه كانت في زمن سليمان تماثيل.

﴿**وَجِفَانٍ**﴾؛ الجفان جمع جفنة، وهي القصعة الكبيرة الإناء القدر الكبير، الجفنة يعني القدر العظيم الكبير؛ قال: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾؛ والجواب هي الأحواض، أحواض الماء التي تصنع من الطين أو الحجر أو نحوه، فيقول هنا يصنعون له جفاناً جفنة وقدور؛ والقدور أصغر من الجفنة ولكنها قدور كبار لأن قال: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ على الأرض لا تتحرك، ثقيلة ثابتة، يعني يصعب تحريكها من أماكنها؛ وقدور الراسيات. هذا كله تسخير من الله سبحانه وتعالى لنبيه سليمان وعمل هؤلاء الجن له.

قال: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**﴾؛ اعملوا شكراً، يعني اعملوا ما يكون شكراً لله من الأعمال الصالحة من الذكر باللسان والقلب، الإقرار بالنعم والاعتراف بها، والعمل الصالح بالجوارح كالصلاة والصيام ونحوه؛ اعملوا آل داود شكراً، اعملوا على سبيل الشكر لله عز وجل. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾؛ يقول اشكروا هذه النعمة التي أعطاكم، النبوة والرسالة والعلم: ولقد آتينا داوود وسليمان علماً؛ أعطاهم العلم فاشكروا، فإن شكرتم زادكم الله، ولكن الواقع أن الشكور من الناس قليل جداً، بل الأكثر يكفرون نعمة الله ولا يشكرون.

قال سبحانه وتعالى في بيان هذا أمر عظيم أيها الإخوة، وهو أن الجن كانوا يدعون أنهم يعلمون الغيب، وكانوا يذكرون للناس أنهم يعلمون الغيب ويأتون بأخبار السماء؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يثبت أن ليس عندهم علم. فالله لما أوحى إلى سليمان أن يأمر الجن بالأعمال الكثيرة والشاقة، أراد الله سبحانه وتعالى أن يقبض روح سليمان وهم لا يعلمون؛ فكان سليمان واقفاً أمامهم وهم يعملون بهذه الأعمال الشاقة المتعبة، وكانوا يتكلفون الأعمال وينظرون إلى سليمان، وكان سليمان قد وقف ماسكاً عصاه

منساته العصا ووقف؛ حتى ذكر بعض أهل العلم أن سليمان وقف سنة كاملة أمامهم وهم يعملون بشدة وقوة، خائفون من سليمان، وسليمان قد قُبِضَ ومات وهو واقف ومتكئ على عصاه. فأرسل الله هذه الدابة التي تسمى الأرضة، وهي الدابة أو النمل الأبيض، فجاء إلى عصا سليمان وبداء يأكل منها، فلما أكل منها وسقطت ومالت العصا، سقط سليمان؛ فعلموا أن سليمان قد مات من زمان لا يدرون.

ولذلك قال الله عز وجل:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]

قضى الله عليه الموت؛ ما دلهم على موته، ما دل الجن على موته إلا هذه الحشرة الأرضة تأكل عصاه منساته؛ تأكل عصاه التي كان متكئاً عليها، المنسأة هي العصا. قال هنا: تأكل منساته وكان متكئاً عليها، فلما أكلت منه وقع سليمان على الأرض؛ عند ذلك علمت الجن أنهم لا يعلمون الغيب، وأنهم لو كانوا يعلمون الغيب ما استمروا في هذه الأعمال الشاقة والعذاب المذل لهم والعمل الشاق الذي كان سليمان يطالبهم بهذا العمل فظنوا أنه حي. وهذا – مثل ما ذكرنا – يدل على أن الجن لا يعلمون الغيب؛ لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا وفاة سليمان، ومع ذلك لم يعلموا؛ ولذلك قال الله عز وجل: فلما خر سقط على الأرض تبين الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين.

هذا النموذج الأول في قصة داوود وسليمان. النموذج الثاني يتمثل في الذين كفروا نعمة الله، كفروا نعمة الله، فيذكر الله قصة أهل سبأ الذين كانوا في رغد من العيش وأمن ثم كفروا هذه النعمة فماذا جرى لهم؟ قصة سبأ تأتي إن شاء الله في اللقاء القادم. نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(سبأ ١٥ - ٢٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين. اللّٰهم لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم. هذا اليوم هو اليوم السابع من شهر ذي القعدة من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، ونجتمع في هذا اليوم مغرب الثلاثاء ليلة الأربعاء، نجتمع حول كتاب الله سبحانه وتعالى؛ الذي هو أشرف كتاب وخير كلام، كلام الله سبحانه وتعالى. نقرأ آيات من كتاب الله، نتأملها ونتدبرها، ونأخذ ما فيها من معاني ودلالات ومواعظ وتوجيهات ربانية.

الآية التي معنا هي الآية الخامسة عشرة من سورة سبأ؛ وهي قصة سبأ يحكيها الله لنا ويسوقها لنا ويبين ما فيها من دروس ومواعظ وعبر. وتلاحظ أنت وأنت تقرأ هذه السورة أن الحديث الذي قبل قصة سبأ هو ما يتحدث سبحانه وتعالى عما أنعم به على داوود عليه السلام وعلى ابنه سليمان؛ فآتاهم العلم والنبوة والملك وكانوا من الشاكرين: اعملوا آل داوود شكراً وقليل من عبادي الشكور. فذكر الله لنا نموذجاً من الشاكرين، ثم ذكر بعده نموذجاً من الكافرين؛ كافرين نعمة الله وهم قوم سبأ، هؤلاء في اليمن وأولئك في الشام داوود وسليمان. والله سبحانه وتعالى ذكر لنا هذه القصة لنعتبر، فقصة سليمان وداوود عليهما السلام قصة يعتبر بها المعتبرون في أن يكونوا من الشاكرين وأن يعرفوا قدر النعمة ويعرفوا ما يتفضل الله به سبحانه على عباده؛ والله **يقول:** ولئن شكرتم لأزيدنكم.

وهنا في هذه القصة التي بين أيدينا وهي قصة قوم سبأ؛ لما كفروا نعمة الله وقد أنعم الله عليهم بالرزق الوفير والرحمة والمغفرة، ولكنهم لم يقبلوا وأعرضوا وكفروا نعمة الله.

يقول الله سبحانه وتعالى في قصتهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]

ويبدأ الله سبحانه وتعالى **بأسلوب القسم**؛ الذي يؤكد لنا أن ما يحكيه الله سبحانه وتعالى حقاً لا مرية فيه. والله سبحانه وتعالى لو لم يقسم فإن العاقل المؤمن يصدق، ولكن لما كان هناك من يكذب ومن

يرد ومن لا يقبل، استعمل الله سبحانه وتعالى معه أسلوب التأكيد؛ فأسلوب القسم أسلوب تأكيد، لما أقول لك أنت: واللهِ إن فلاناً قد قال كذا، غير لما أقول لك: فلان قال كذا، فأسلوب التأكيد أسلوب القسم من أساليب التأكيد. فاللام هنا في قوله "لقد"، اللام هذه يسميها أهل اللغة **(لام موطئة للقسم)**، والتقدير: واللهِ؛ ولكن القسم محذوف، ويحذف للعلم به ومعرفته والتخفيف والاختصار. و**(قد)** هذا حرف تحقيق، يحقق لك الكلام.

طيب، لقد كان لسبأ؛ سبأ هذه قبيلة، عظيمة تسكن اليمن، سكنت اليمن وأنعم الله عليها بالنعم العظيمة. قال الله عز وجل: لقد كان لسبأ في مسكنهم؛ أي في مقامهم في هذه البلدة وهي بلدة اليمن، حتى حددها بعض المفسرين فقال: هي بلدة مأرب، والسد هو سد مأرب. قال: لقد كان لسبأ في مسكنهم آية؛ الآية هنا معناها العلامة والدلالة على أي شيء؛ على قدرة الله وعلى رحمته وعلى تفضله وإنعامه على عباده، كل هذه آية، آيات عظيمة. قال: جنتان عن يمين وشمال؛ الداخل لهذه البلدة، يعني وأنت كأنك تصور نفسك وأنت تدخل هذه البلدة بلدة مأرب، تجد عن يمينها وعن شمالها جنان؛ جنه عن يمين وجنة عن شمال، بستان عظيم على يمينك وبستان عظيم على شمالك، بستان ممتد في عمقه وفي طوله، حتى ذكر بعض المفسرين أن المرأة تحمل على رأسها المِكْتَل أو الزنبيل ثم تمر في وسط هذه الأشجار فلا تخرج وتنتهي من أن تقطع هذا البستان إلا وقد امتلأ هذا المكتل وهذا الزنبيل، قد امتلأ من الفواكه، خير عظيم ونعم عظيمة، ماء وأشجار.

فعن يمين وعن شمال؛ قال الله سبحانه وتعالى في إنعامه عليهم: كلوا من رزق ربكم؛ كلوا مما رزقكم الله وأنعم به عليكم من هذه الأنعام العظيمة والخيرات العظيمة والفواكه والحبوب وغيرها. كلوا من رزق ربكم واشكروا له؛ اشكروا نعمة الله، لا تأكلون وتبطرون وتتكبرون وتستكبرون، لا؛ كل واشكر واعرف أن الذي أنعم عليك هو الله. وشكر الله باللسان، وشكر الله بالقلب؛ وتعترف بأن هذه نعمة من الله، وباللسان بأن تشكر الله بلسانك بذكره وبالحديث عن هذه النعم وتحدث نفسك فيها على لسانك، وكذلك بالجوارح؛ شكر الله بالجوارح بحيث أنك تسخر هذه الجوارح التي معك تسخرها لعبادة الله سبحانه وتعالى.

ثم قال: بلدة طيبة؛ بلدة طيبة الثمرة، ثمارها طيبة، وأرضها طيبة، وهواؤها طيب، كريمة فيها الخيرات العظيمة. ورب غفور؛ فتح لهم باب المغفرة والتوبة، وكل من وقع في الزلل والخطأ فإن الله يغفر له ذنبه ويتجاوز عنه ويمحو ويعفو عنه؛ رب غفور لكم. فماذا تريد أكثر من ذلك؟ الخير عندك، والثمار عندك، ورغد العيش عندك، وعندك رب يعطيك ويتجاوز عنك ويرحم؛ ماذا تريد بعد ذلك؟ أمن وأمان وخير ورزق.

ولكنهم كفروا نعمة الله ولم يشكروه؛

فقال الله عنهم: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦]

أعرضوا عن أمر الله وعن طاعته وعن شكره، وكذبوا رسل الله التي جاءت تنذرهم؛ فما كان من الله إلا أن ينزل بهم العقوبات والمثلات. فأرسل عليهم سيلاً عظيماً، سيلاً جارفاً شديداً حتى خرب ما كانوا قد وضعوه من السد؛ لأنهم هم بنوا سداً عظيماً أحكموه بحيث يكون هذا السد سبباً لمنع السيول حتى لا تضيع، ثم هم يستخدمون هذه السيول في أوقات أخرى. فأرسل الله عليهم سيل العرم؛ والعرم يعني من العرامة وهي الشدة والقوة، حيث جرف هذا السيل كل ما أمامه؛ فقلع أشجارهم ونخيلهم وزروعهم، وهدم بيوتهم؛ فخرجوا كلهم من بيوتهم خائفين، وأغرق البساتين وأغرق البيوت والبهائم، فخرجوا خوفاً على أنفسهم وتفرقوا.

وبدلناهم بجنتيهم؛ أي بدلناهم بجنتيهم الحسنة الجميلة المثمرة جنتين أخرى؛ ما هما؟ قال: جنتين ذواتي أُكُل؛ ذواتي أُكُل خمط، كما ذكر بعض أهل التفسير أنه الثمر الخمط، وهو ثمر مر كريه، كريه الطعم، وقيل هو الأراك السواك؛ قال: خمط وأثل؛ والأثل معروف الشجر الطويل يشبه الطرفاء ليس له ثمر، قال وشيء من سدر قليل؛ والسدر معروف شجر النبق الذي يثمر ولكنه قليل وفيه شوك عظيم. هذا الذي أعطاهم الله بدل جنتيهم الأولى، الجنتين التي هي مثمرة كثيرة الثمار بهاتين الجنتين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧]

يعني لما بدلنا هذا التبديل، جزيناهم بسبب كفرهم وعدم شكرهم نعمة الله؛ وهذا عقاب من الله، عقاب شديد لهم. ذلك جزيناهم بسبب جحودهم وكفرهم نعمة الله، وهل نجازي إلا الكفور؟ لا

نجازي إلا من يكفر نعمة الله ولا يعرف قدر هذه النعمة. فإذا لم يعرف الإنسان نعمة الله ويشكر الله عليها فإن الله يسلبها؛ فإن الله سبحانه وتعالى يسلبها منه، يسلب هذه النعمة يسلبها منه فلا تبقى عنده هذه النعمة.

هذا الآن الله سبحانه وتعالى أوضح لك ماذا؛ أن الله فرقهم كما يقول العرب "تفرقوا أيدي سبأ"؛ يعني أن قبيلة سبأ تفرقت في العالم كله؛ فذهبوا إلى المدينة حتى قيل إنهم هم الأوس والخزرج، وذهبوا إلى الشام، وذهبوا إلى العراق؛ فتفرقوا حتى قيل إنهم هم الغساسنة والمناذرة التي عاشت هناك؛ فتفرقوا. وهذه آية عظيمة أن من لم يشكر نعمة الله ويعرف قدر النعمة فإن الله قادر على أن يسلبها منه في لحظة. فهذا في جانب الخير ورغد العيش، أصبحوا في جوع، أصبحوا في جوع.

أما من ناحية الأمن والخوف؛ فاسمع ماذا يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]

وجعلنا بينهم؛ أي بين أهل سبأ وهم أهل اليمن، بينهم وبين القرى التي باركنا فيها. والمراد بالقرى التي بارك الله فيها؛ إما مكة وإما الشام، وأكثر المفسرين على أنها بلاد الشام هي الأرض المباركة. قال: جعلنا بينهم وبين القرى التي باركناها قرى ظاهرة يقول أكثرنا فيها قرى، يعني إذا أنت خرجت من اليمن متجهاً إلى الشام فإنك تمر بقُرى ظاهرة؛ وهذه أدعى وأحرى للأمن، والإنسان إذا مشى في طريقه ثم صادف قرية، هذا يكون سبباً لاطمئنانه وراحته، غير الذي ينطلق من بلدته ولا يرى أي قبيلة ولا شيء يكون في خوف ورعب؛ فكيف شوف الفرق بينهم، الفرق بين هذا وهذا.

قال: جعلنا بينهم وبين القرى التي باركناها قرى ظاهرة، وقال: وقدرنا فيها السير؛ يعني الله قدر فيها سير الطريق هذا ما بين قرية وأخرى أمر مقدر، وما بين منزل ومنزل أمر قدره الله سبحانه وتعالى بعلمه، قدر الله فيها السير بحيث أنه إذا قضى أو قطع هذه المسافة جاءت قرية وإذا قطع جاءت قرية، وهذا كله فضل من الله سبحانه وتعالى ونعمة. طيب، قال: قدرنا فيها السير؛ سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين؛ يعني تسيرون فيها ليلاً ونهاراً. طيب، لماذا قدم الليل؟ لأن الليل في الغالب أنه يخيف الإنسان، وليس فيه أمن مثل أمن النهار؛ النهار يرى يشوف العدو، ومع ذلك الله قدم الليل هنا دلالة على أن الأمن قد وقع عليهم

بوضوح، فأصبح الأمن في الليل وفي النهار. فقال هنا: سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين؛ تسيرون في النهار والليل، كل ذلك تسيرون في أمان لا تخافون من عدو ولا من سبع ولا من أي شخص، وهم يعيشون في رغد من العيش وفي أمن وأمان، وبدل الله ذلك الأمر بالجوع والخوف، الجوع والخوف.

ولما الله سبحانه أنعم عليهم بقرب المسافات، هم من حماقتهم وغباوتهم دعوا على أنفسهم فقالوا: يا ربنا لا نريد أن تكون القرى متقاربة، نريد أن تكون متباعدة؛ كيف تكون متقاربة خير لكم! لا يريدون الراحة ولا يريدون الطمأنينة، يريدون القلق؛

فقالوا: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]

باعد بين أسفارنا؛ اجعل مسافة بعيدة في أسفارنا حتى نمشي هذه القرى ولا نجد أمامنا قرى عامرة. وهذا بلا شك أنه حماقة منهم وغباوة، كيف تدعو على نفسك بهذا الشيء! لأنهم ملوّا، من هذا الخير فأرادوا الشر، وهذا من تسلط الشيطان عليهم. وظلموا أنفسهم؛ قال الله سبحانه وتعالى: وظلموا أنفسهم بالكفر والطغيان والاستكبار والدعاء على أنفسهم بالشقاوة، فالله سبحانه وتعالى مزقهم وأهلكهم. قال سبحانه وتعالى: فجعلناهم أحاديث؛ جعلهم الله عبرة وأحاديث في المجالس يتحدث بها الناس ويروونها روايات في مجالسهم يتسلون بها، جعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق؛ أي فرقناهم كل تفريق وخربنا بلادهم، فتفرقوا في الأمصار، تفرقوا في البلدان، مزقناهم كل ممزق.

قال الله سبحانه وتعالى: إن في ذلك لآيات؛ ليست آية ولا آيتين، هذه آيات عظيمة، ولكن لمن هذه الآيات؟ من يعتبر بها ومن يأخذ بها؟ قال: لآيات لكل صبار؛ الصبار يعني الذي يصبر أمام المحن والجوع والخوف، ويصبر إذا امتحن وإذا ابتلي. وشكور؛ إذا أنعم الله عليه؛ فهذا هو الذي يستفيد من هذه، فيستفيد من قصة داوود وسليمان فيشكر، ويستفيد من قصة سبأ فيصبر ولا يكفر نعمة الله، لا يكفر. شوف قال: لكل صبار؛ من يصبر عند البلاء وعند المكاره والشدائد، وشكور؛ من يصبر عند النعم، شوف جمعت الآية بين القصتين.

قال الله سبحانه وتعالى **بعد ذلك**، لما قصّ علينا هذه القصة التي فيها العبرة والعظة حتى نعرف نعمة الله علينا وقدره علينا؛ حيث أنعم علينا بنعمة الأمن وأنعم علينا بنعمة رغد العيش، يأتيها رزقها من

كل مكان، خير ونعم، وتدخل المحلات التجارية تجد كل ما تريد، تدخل الأسواق تجد كل ما تريد؛ هذا خير ونعم، نعم عظيمة، بس تحتاج من الناس أن يشكروا، نعمة الله بقلوبهم وبألسنتهم وبجوارحهم. والشكر هو معناه؛ كيف يكون الشكر؟ أن تشكر الله بمعنى أنك تطيعه ولا تعصيه ولا تفسق ولا تتكبر، وتعرف نعمة الله عليك، ويعني تذعن لأوامر الله، تستجيب لأمر الله، لا أن تكفر نعمة الله وتفسق وتعصي وتستخدم هذه النعم في معصية الله؛ هذه تكون عرضة لأن يسلبها الله منك ويجعلك تبقى مثل ما حصل لهؤلاء لما كفروا نعمة الله عليهم.

يقول الله تعقيباً على هذه القصة: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]

إبليس قال "لأغوينهم أجمعين"، وكأنه يظن أنه سيهلك بني آدم "لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم"، كان هذا ظناً ليس يقيناً لأنه لا يعلم الغيب؛ فكان يظن أنه سيهلك ذرية آدم إلا القليل، وفعلاً تحقق هذا الظن منه حيث أنه أهلك الكثير منهم، وأنه أضل كثيراً من بني آدم؛ "ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً"، وأن أكثر بني آدم طاعة للشيطان؛ أكثرهم طاعة للشيطان ومعصية لله، ويسارعون فيما يغضب الله سبحانه وتعالى، فأطاعوا الشيطان وعصوا ربهم إلا من استثناه الله سبحانه وتعالى؛ إلا فريق، قلة من المؤمنين الذين ثبتوا عند المحن وثبتوا على طاعة الله ولم يغيروا ولم يبدلوا ولم يستسلموا للشيطان.

قال الله سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ٢١]

وما كان له عليهم من سلطان؛ يقول الشيطان إبليس سلطانه ضعيف وقوته ضعيفة، ما كان له قهر عليهم ولا قوة، ولكن الله أراد أن يمتحنهم. قال: إلا لنعلم؛ يعني ما جعلنا تسلط الشيطان على هذا الإنسان إلا ليعلم الله سبحانه وتعالى من يؤمن ومن يكفر. طيب، لو سألك سائل: الله لا يعلم ثم يعلم "إلا لنعلم"؟ نقول: لا، الله يعلم قبل أن يخلق الخلق، ولكنه أراد هنا أن يظهر علمه ليرتب عليه الجزاء. قال: إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة فنثيبه على إيمانه، ممن هو منها في شك ولا يؤمن فيجازى على كفرانه. قال: ما كان للشيطان سلطان، ما كان لهذا الشيطان سلطان على الخلق وعلى المؤمنين وعلى بني آدم إلا ليبتلي الله عز وجل هؤلاء العباد؛ فمن شكر فله الشكر ومن كفر فعليه كفره.

وهذا امتحان، وأنت تلاحظ حقيقةً عندما تقف عند هذه الآية وهي قوله تعالى: "وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة" ويثبت على الحق ومن يتزعزع؛ لوجدت أن أكثر الناس وخاصةً في هذا الوقت أنهم أصبحوا أسارى في يد الشيطان يصرفهم كيف يشاء، كما قال: "لأحتنكن ذريته"، فأصبحوا أسارى. وشوف وتأمل كيف يعني من كان على الحق ومن كان ثابتاً على الدين كيف تغير، وكيف تساهل، وكيف تنازل؛ كل ذلك استسلاماً للشيطان، وصدق إبليس ظنه عليهم فاتبعوه، فاتبعوه وأصبحوا في يديه، وتساهلوا وتنازلوا عن كثير من الثوابت، كل ذلك تسلط الشيطان عليهم وامتحان الله لهم؛ فمن امتحن في مثل هذه البلايا والمحن وصبر وتمسك ولم يتزعزع فهو على خير، فهو على خير من ربه. ولذلك قال: إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، قال: وربك على كل شيء حفيظ؛ يعني الله سبحانه وتعالى حفيظ، يحفظ أعمال عباده ويجازيهم؛ فمن عمل الخير وسار إليه وثبت عليه وازداد فالله حافظ لأعماله، ومن لم يفعل ذلك وتساهل وانجر خلف الشيطان فهذا الله حافظ وسيجازيه على أعماله؛ فهؤلاء لن تضيع أعمالهم في الخير وهؤلاء لن تضيع أعمالهم في الشر، كل قد أحصى الله عمله وسيجازيه عليه.

ثم قال الله سبحانه وتعالى: قل يا محمد ويا أيها الإنسان الداعية إلى الله، قل لهؤلاء المشركين الذين يعبدون آلهة لا تنفع ولا تضر، اسألهم عن شركهم هذا، فبين لهم حقيقة الشرك وبطلانه. ولاحظ في هذه الآية العجيبة أن الله قلع جذور الشرك من أصولها، قلع جذورها بأربعة أمور؛ وهذه الآية يسميها أهل العلم وأهل التوحيد والعقيدة بأنها الآية التي قلعت جذور الشرك بأربعة أمور، شوف ما هي الأربعة أمور تامل معي:

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبأ: ٢٢]

قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله؛ يعني شركاءكم وآلهتكم ومعبوداتكم من دون الله. لا يملكون؛ هذا الأمر الأول، لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض؛ يعني هم لا يملكون السماوات ولا يملكون الأرض، وليس لهم ملك في هذه الدنيا، فكيف تعبد من لا يملك ولا نفسه ولا مثقال ذرة! فهذا إبطال للشرك، إبطال للآلهة؛ كيف تعبد آلهة ما تملك شيء ولا نفسها ولا تتصرف في هذا الكون وليس لها تدبير في هذا الكون، هذا الأمر الأول.

قال بعدها: وما لهم فيهما من شرك؛ حتى هم ليسوا شركاء مع الله، يعني هم لا يملكون وليس لهم جزء من الملك هذا فيكونوا شركاء مع الله، هذا الأمر الثاني. الأمر الثالث قال: وما له منهم من ظهير؛ ليس لله منهم من هو معين، يعني حتى المعين والأعوان أو الوزير الذي يساند الملك ليس هم في هذه المنزلة، فهم لا يملكون وليسوا شركاء مع الله، وليسوا أيضاً معينين مع الله، يعني ليس لهم إعانة مع الله سبحانه وتعالى فليس لهم ذلك، هذه الأمور الثلاثة.

خذ الرابع ماذا أيضاً؛ حتى الشفاعة لا يملكونها، لا يملكون الشفاعة؛ ليس لهم شرك في الكون، ليس لهم عبادة وآلهة، ليس لهم شرك مع الله، ليسوا شركاء مع الله، وليسوا أيضاً في منزلة المعين والظهير والوزير، وليس لهم شفاعة، أربعة أمور أبطلها الله في هذه الآية.

وقال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]

ولا تنفع الشفاعة عنده؛ حتى الشفاعة ما تنفعهم إلا إذا أذن الله، وهذه الآلهة لا يأذن الله لها، فالله غني عن هذه الآلهة إلا لمن أذن الله.

يقول: حتى إذا فُزِّع؛ يبقى الشركاء على هذه الحال إلى أن تفزع قلوبهم.

يقول: حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم؛ يعني زال الفزع. شوف كلمة "فُزِّع"؛ لما يكون الحرف الثاني مشدداً "فُزِّع" هذا معناه زال الفزع، لما تقول "فَزِعَ" بالتخفيف معناه أصابه الفزع، ولما تقول "فُزِّعَ" معناه زال الفزع عنه.

يقول: حتى إذا ذهب الفزع عن هؤلاء المشركين قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق؛ اعترفوا، "واللهِ ربنا ما كنا مشركين"، اعترفوا وهو العلي الكبير؛ العلي سبحانه وتعالى بذاته وقوته وقهره وعلوه وقدره، الكبير على كل شيء فالله أكبر من كل شيء.

وهذا وجه، أو يقال إن هذه الآية في الملائكة التي تشفع؛ فإن الملائكة لا تشفع وشفاعتها لا تقبل إلا إذا أذن الله، وقلوب الملائكة يُفزّع عنها يزال عنها متى ما تكلم الله بالوحي. جاء في حديث النواس بن سمعان أن الله إذا تكلم بالكلمة أو بالكلام رجفت السماوات رجفة قوية، فصعق كل من في السماوات من الملائكة؛ فيصعقون ويسقطون، فأول من يفيق جبريل عليه السلام فيقول الله له ويخبره بالخبر، ثم إذا فاق

وسمع كلام الله قامت الملائكة بعده ثم قالت: ماذا قال ربنا؟ قال جبريل: قال الحق وهو العلي الكبير؛ فيقولون هم قال ربنا الحق وهو العلي الكبير، فينزل جبريل بالخبر. فالآية محتملة أنها في سياق المشركين للدلالة، أو في سياق الملائكة أو في كلام عن الملائكة دلالة الحديث.

لعلنا نقف عند هذا القدر، نكتفي به إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(سبأ ٢٤ - ٣٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين؛ أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم.

هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للتاسع عشر من شهر ذي الحجة من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة؛ أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا في اوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي **(سورة سبأ)**، ووقف بنا الكلام عند الآية الرابعة والعشرون؛ وهي قول المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].

﴿قُلْ﴾ دائماً تتكرر كثيراً في القرآن، والمراد بهذا الأمر أنه موجه للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الصادين عن دينك، المعاندين، الكفرة؛ قل لهم وأقم عليهم أدلة **(التوحيد)** والعبادة؛ **(توحيد العبادة)**، وأنه لا يُعبد إلا الله، وأنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يستحق أن يُعبد وهو الإله الواحد.

لكن مع أن هذا الخطاب - حتى نفهم أكثر - مع أن هذا الخطاب موجه للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيدخل فيه أمته جميعاً؛ فأنا وأنت والثاني والثالث كلنا مخاطبون بأن نقول لكل ملحد، ولكل من يجادل، ولكل من يكفر بالله، أن نناقشه ونحاوره بأن نقول له: من يرزقك من السماء والأرض؟

إذا أردنا أن نحاور وجلسنا في منصة المحاورة بيننا وبين هذا المشرك، نناقشه بالأدلة العقلية؛ وهذه المناقشة والمحاورة والجدال هي التي أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها في قوله: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فالجدال مطلوب حتى تقوم الحجة عليهم.

فقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ قل لهؤلاء الكفرة الملحدين المعاندين، حتى تقيم عليهم الدليل الصريح بأن الله هو الواحد، أن الله الرب الخالق الرازق المالك المتصرف في هذا الكون، المدبر للأمور، هو الذي يستحق أن يُعبد، وأن يُدعى، وأن يُسجد له، وأن يُركع له، هو الذي يستحق العبادة، وأن يكون الإنسان يذل نفسه ويعبد ربه، لا أن يعبد شيطانه.

- **قل لهم: من يرزقكم من السماوات والأرض؟ ما المراد بالرزق في السماوات وفي الأرض؟**
- **السماوات:** رزقها المطر، السماوات رزقها بالمطر الذي ينزل من السحاب، والأرزاق التي يقدرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالذي ينزل المطر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فحياة الإنسان بالماء والطعام.
- **الأرض:** التي تكون فيها الآبار والمياه، وتكون فيها الأشجار والخضروات والفواكه والحبوب والمعادن؛ فالذي يخرج من الأرض خيراتها، وينزل من السماء خيراتها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وكلهم يقرون ويعترفون؛ ما في أحد مخلوق من بني آدم ينكر أن الذي يرزق هو الله، كلهم. **ولذلك قال:** ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ﴾ [سبأ: ٢٤]، ثم أجاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لأن الجواب معروف، ويجيب حتى يقيم عليهم حجة: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾؛ فإنهم سيقرون بذلك.

- **ولذلك انظر ماذا؟**

ما قال: (قل الرب)، قال: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ يعني: الإله المألوه المعبود؛ يعني أن الذي رزقكم هو الذي يستحق أن يكون إلهاً واحداً: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ يعني انظر هذه الآن ستأتينا عدة أوامر ومناقشات وإقامة حجة على هؤلاء المشركين، فيقول تقول لهم: نحن وإياكم إما على هدى أو في ضلال، وهم يعرفون أن أهل الحق على الهدى، وأن أهل الباطل في ضلال.

ولاحظ انظر قال: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾، أتى بحرف العلو، حرف (على): ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾؛ يعني أن المؤمن مستولٍ عالٍ على هداه، يعني المؤمن على هدى يعني مرتفع، له العلو وله المكانة، المؤمن.

والكافر في ضلال، فكأنه منغمس؛ ما قال: (على ضلال)، لا، قال: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾؛ كأن الضلال هو الذي استولى عليه وهو منغمس في وسط هذا الضلال، وضلاله مبين؛ ما قال: (ضلال) وسكت.

قال: ﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ واضح الضلالة، لا يعني لا يخفى على عاقل لبيب صاحب عقل أن يعرف أن هذا ضلال وهذا هدى، فلما تقول لهذا الملحد وهذا المشرك وتناقش، تقول: نحن أو أنتم إما في ضلال وإما على هدى؛ فسيعرف من هو الذي في ضلال ومن هو الذي على هدى.

هذا النقاش الأول والجدال الأول والمحاورة الأولى.

المحاورة الثانية؛ قال: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]؛ يعني قل لهم يا محمد ناقشهم وقل لهم: أنتم لا تسألون عما أجرمنا.

- **لكن هل هنا سؤال: هل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أجرم؟ وهل المؤمنون يجرمون ويقعون في الجرائم والأشياء المحرمة حتى يقول: ﴿عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾؟**

الجواب: هذا من باب (التنزل)؛ يعني لو سلمنا لكم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين معه يقعون في جرائم - لو سلمنا لكم - فأنتم لا تسألون عن جرائمهم، لا تسألون عن جرائم ولا عن معاصيهم ولا عن ذنوبهم، هم المسؤولون.

ونحن أيها المؤمنون لا نسأل عما تعملون؛ نحن نبلغ رسالة الله عَزَّ وَجَلَّ ونبلغكم، لكن إذا دعوناكم إلى الإيمان والتوحيد ورفضتم وأبيتم إلا الكفر فإن كفركم وإجرامكم ومعاصيكم أنتم الذين ستحاسبون عليها، نحن لا نحاسب عليها، فكلٌّ مسؤول عن أعماله.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥]، لا تحمل حاملة ذنوبها ذنوب غيرها، فكل مسؤول عن عمله، كل مسؤول عن ذنبه وعن عمله، فلا تسألون ولا نسأل؛ يعني كلٌّ يعمل وكل مسؤول عن أعماله.

وفي هذا دلالة على أن من عمل الصالحات فهو خير له وسيجازى أحسن الجزاء، ومن عمل السيئات فيجازى عليها، ولا أحد يُسأل عن غيره من الذنوب إلا حالة واحدة.

- **ما هي هذه الحالة؟**

هي: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ أَجْرُهُ وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ دَلَّ عَلَى شَرٍّ فَعَلَيْهِ وِزْرُهُ وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»؛ فأنت تُسأل متى؟ إذا أنت دللت الناس على الشر وفتحت لهم باب

الشر، فإنك تسأل عن أعمالهم وتسال عن جرائمهم، لكن إذا لم تكن في مثل هذه الحال فأنك لن تسأل عن ذلك، كلٌّ يُسأل عن ذنبه.

ثم قال في النقاش الثالث والمحاورة الثالثة: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦]؛ ذكرهم بالجمع وهو يوم القيامة، أن الأولين والآخرين يجمعهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثم يحكم بينهم.

يعني قرر أولاً أن الرزاق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأن الرازق في السماوات والأرض وأن الذي يسوق الأرزاق هو الله؛ فاعبدوا الله ووحدوه، ثم بين أن أعمال الناس كلها كلٌّ يحاسب على عمله، فذكرهم بيوم الحساب؛ يوم الحساب يوم يجمع الله الأولين والآخرين: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، ثم يفتح بيننا؛ ومعنى يفتح: أن يقضي.

كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] يعني اقضِ بيننا وبين قومنا.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ ﴿٢٩﴾﴾ [السجدة: ٢٨-٢٩]؛ يعني يوم الفصل والقضاء، فالفتح هو القضاء، قال: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أي يقضي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويفصل بيننا بالحق، إذا جاء يوم القيامة قُضي بينهم بالحق. قال: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

اسم (الفتاح) في القرآن لم يرد في أي موضع إلا في هذا الموضع، لم يُذكر في القرآن الفتاح هكذا إلا في هذا الموضع: ﴿الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾. فما معنى اسم الفتاح لله عَزَّ وَجَلَّ؟ لا بد أن نعرف أسماء الله ونعرف دلالاتها.

فمعنى الفتاح - ذكر (ابن القيم) وذكر (السعدي) وكل من تكلم عن أسماء الله الحسنى ذكر أن اسم الفتاح له معنيان:

⬅ المعنى الأول: الفتاح بمعنى القاضي الحاكم بين عباده؛ مثل ما جاء في هذه الآية: ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أي يقضي بيننا، فالفتاح هو الحاكم القاضي بين عباده.

⬅المعنى الثاني: الفتاح الذي يفتح أبواب الخير للناس؛ ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفتح خزائنه، ويفتح رحمته، ويفتح أرزاقه للناس، ويفتح الخير، ويفتح الهدى، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفتح.

- **وأنت تدخل المسجد ماذا تقول عند دخولك؟**

«اللَّهُمَّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ»؛ فالذي يفتح أبواب الرحمة هو الله، فالفتاح هو القاضي الحاكم بين عباده، وهو الذي يفتح أبواب الخير لعباده؛ هذا معنى الفتاح.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا يقرر اليوم الآخر وحساب الناس: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾؛ أن يقضي ويحكم بيننا بالحق لا بالباطل وهو الفتاح العليم.

ثم نقاش آخر قال: قل لهم - وكل هذا تعليم للحوار والنقاش والمجادلة -: ﴿قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٧]؛ هذا إقامة الحجة عليهم لأنهم كفار مشركون، فيقول قل لهم: أروني الذين ألحقتم به شركاء، أروني هذه الأصنام والأولياء من دون الله الذين جعلتموهم شركاء مع الله، أروني ماذا يصنعون؟ هل هم يفعلون مثل أفعال الله؟ هل هم يرزقون؟ وهل هم يخلقون؟ وهل هم يملكون؟ أروني ماذا تملك؟ ماذا تصنع؟ هل هي تستجيب لمن يدعوها؟

﴿أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ﴾؛ أروني بالدليل والحجة الذين جعلتموهم شركاء مع الله، ألحقتموهم بالله وجعلتموهم بمنزلة الله، وعدلتم به، وجعلتموهم شركاء مع الله؛ أروني هل خلقوا شيئاً؟ ماذا خلقوا؟ أروني شركاء.

﴿كَلَّا﴾؛ كلا يعني ما تخلق، ولن تستطيعوا أن تأتوا بالأدلة والحجج على أنها شركاء مع الله، ما فيه إلا ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [لقمان: ٢١] فقط.

﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾؛ سبحانه المنفرد بالألوهية، ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا غالب له، عزيز ينتقم ممن أشرك وقوي لا غالب له سبحانه، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقواله وفي أفعاله وفي تصرفاته وتدبير أمور خلقه، لا يقضي إلا بحكمة، ولا يقول إلا بحكمة، ولا يفعل إلا بحكمة، ولا يدبر إلا بحكمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هو الذي يستحق أن يكون إلهاً، أما أنتم وشركاؤكم فلا تستحقون أن تكونوا آلهة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها - لما ناقشهم بهذه الأدلة كلها وأقام عليهم الحجة، ولن يستطيعوا أن يجيبوا على ذلك إلا بالجواب الصحيح، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تقرير عندما قرر الإلهية وأن الله هو المعبود بحق وأنه لا إله إلا هو، قرر رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه رسول من عند الله؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

آمنوا أو كفروا أو لم يقبلوا دعوتك، أنت مرسل من عند الله، وليست رسالتك لأهل مكة، ولا لقريش، ولا لكفار مكة، بل رسالتك أوسع، ليست للجزيرة بل هي للناس كافة بشيراً ونذيراً.

وفي هذا دلالة على أن دعوة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعوة عالمية، وأن الأنبياء يبعثون إلى أقوامهم، ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبعث إلى الناس كافة؛ كافة يعني عامة لجميع الخلق، كافة يعني دعوته دعوة عامة للناس بشيراً ونذيراً؛ بشيراً لمن آمن يبشره بالخير والجنة والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة، ونذيراً لمن يعصي ويبقى على كفره وشركه أن ينذره ويحذره من العقوبات والمآلات التي تنزل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيمن عاند.

يقول: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حق حقيقة دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يعلمون أن رسالة النبي رسالة عالمية، لو كانوا يعلمون لسارعوا إلى الإيمان، ولكنهم جهلة لا يعلمون الحق فهم معرضون، ولذلك باقون على شركهم وعلى كفرهم وعلى عنادهم.

ولما كان المشركون يستبعدون ويستهزؤون بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويسخرون منه، وكان يهددهم إما بالعذاب وإما بالعقوبات يوم القيامة؛ كانوا يتحدون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقولون: متى هذا الوعد يا محمد؟ أنت تعدنا بالعذاب وما رأينا عذاباً، أنت تعدنا بيوم القيامة وأين يوم القيامة؟

فيقول هنا: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سبأ: ٢٩]؛ متى يا محمد الوعد الذي تعدنا، تقول سينزل بكم العذاب والعقوبات، أو تقول موعدكم يوم القيامة، وأن الساعة آتية، وأن هناك بعث، أين هذا الكلام؟

فرد الله عليهم قال: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]؛ لا تتأخرون عن هذا اليوم، لا يمكن أن تتأخروا عنه ولا تتقدموا، هذا اليوم يعني إذا جاء هذا اليوم

المحدد بالتاريخ والوقت لا يمكن أن تتأخروا عن حضوره ولا يمكن أن تتقدموا عليه؛ فهو في موعد محدد أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا بد أن يكون ذلك اليوم.

ميعاد هذا لكم، لكم هذا الميعاد؛ أي هذا الوقت وهذا الوعد الذي أراده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلكم ميعاد أي هذا اليوم الذي يعدكم الله به إما بنزول العذاب بكم أو بمجيء يوم القيامة، الآية محتملة للأمرين.

وكفروا بالله وكفروا بالرسول، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقرر توحيده، ويقرر رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقرر اليوم الآخر، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[سبأ: ٣١].

انظر كفرهم بالقرآن، كفرهم بالله، كفرهم بالرسول، والآن يكفرون بالقرآن ويكفرون بالبعث؛ قضايا أربع مهمة هي المهمة في الحقيقة، هي المهمة، يعني عندنا قضايا أربع من أهم أصول الإيمان يكفرون بها: **(التوحيد)**، **(الرسالة)**، **(القرآن)**، **(البعث)**.

هنا يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ كفروا وجحدوا رسالة الله ووحدانيته: لن نؤمن بهذا القرآن جزماً، لن نؤمن بهذا القرآن الذي يقوله محمد والذي يحكيه محمد، لن نؤمن به ولا بالذي بين يديه؛ أي الكتب المنزلة السابقة.

لماذا؟ لأنها تقرر صدق رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهم يريدون أن يكفروا بالرسول فقالوا: لا نؤمن بالقرآن ولا بالذي بين يديه من الكتب التي أنزلها الله، كل ذلك لا يؤمنون به.

هددهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - كفروا بالله كفروا بالرسول كفروا بالقرآن كفروا بالبعث - هددهم الله قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[سبأ: ٣١].

يقول ولو ترى يا محمد ويا أيها المخاطب الظالمين لو ترى إذ الظالمون موقوفون، يعني سيوقفون ويحبسون يوم القيامة في عرصات يوم القيامة وفي وقت الحشر، الظالمون يوقفون ويحبسون قبل دخول النار، يحبسون عند ربهم ليحاسبهم، لكنهم يرجع بعضهم إلى بعض القول؛ أي تكون بينهم مراجعات ومناقشات وحوار بين الكفرة.

فالكفار منهم الأكابر والرؤساء ومنهم الأصاغر الأتباع، فيذكر الله حوارهم الذي يجري؛ قال: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم الأصاغر وهم الأتباع والضعفاء، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا - وهم الرؤساء رؤوس الشرك والكفر المستكبرون -: ﴿لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾؛ أنتم الذين فتحتم لنا باب الشر، وأنتم الذين جعلتمونا نكفر بالإسلام ونكفر بمحمد، أنتم السبب، لولا أنتم لآمنا.

فهم يحتجون عليهم يقولون: أنتم كنتم تعدوننا أن نكون معكم، وترغبوننا بالمال والجاه، وتعدوننا المواعيد على أن نكون معكم؛ مثل ما قال فرعون للسحرة: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: ١١٣] قال: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤].

فكانوا يعدونهم حتى يكونوا معهم، فيقول: فهؤلاء الضعفاء الآن يتبرؤون منهم، يتبرؤون منهم، كانوا في الدنيا يعني عندهم نوع من الاستحياء والمجاملات لأن لهم مصالح، فإذا جاء يوم القيامة ذهب كل شيء فواجهوهم بالكلام قالوا: أنتم السبب لولا أنتم لكنا مؤمنين.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢]؛ استكبروا الأكابر الرؤساء ماذا يقولون للذين استضعفوا؟ أنحن صددناكم؟ نحن صددناكم عن الحق، عن الهدى؟

أنحن صددناكم عن الهدى وعن الحق وعن اتباع الرسول بعد إذ جاءكم؟ بل كنتم أنتم مجرمين، أنتم كنتم مجرمين؛ فيقولون: نحن ما صددناكم، ما منعناكم، أنتم الذين كنت ترغبون في الصد وعدم الإيمان بالرسول لأن لكم مصالح عندنا، فأنتم لم تقبلوا ذلك، بل كنتم مجرمين إذ دخلتم بالكفر وبقيتم على كفركم.

اسمع ماذا يقول في الحوار أيضاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣]؛ الضعفاء هؤلاء الأتباع قالوا للرؤساء: بل مكر الليل والنهار، أنتم تمكرون بالليل والنهار إذ تأمروننا، أنتم عندكم حيل وخداع ومكر، تأمروننا أن نكفر بالله، وتأمروننا أن نجعل لله أنداداً؛ يعني جعلتمونا نكفر بالله وبما جاء عن الله وبرسول الله، ونجعل له أنداداً أي أصناماً ونظراء وشبهاء يعبدونهم من دون الله، جعلتمونا نكفر بالله ونشرك بالله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم جميعاً: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣]؛ أخفوا الندامة، كل الندم؛ يعني يوم القيامة إذا رأوا ما رأوا سيندمون أشد الندم، ولذلك يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ [الأنعام: ٢٧]، و﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]؛ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب بأعينهم حقيقة، ندموا أشد الندم ولكن لا ينفع الندم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في عقوبتهم: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ الأغلال جمع (غُلّ)، فالأغلال هي ما تربط به الأيدي في الأعناق، الأغلال تُغلّ أيديهم في أعناقهم، إذاً الأغلال في أعناقهم، والسلاسل يسحبون بها؛ فالمجرم تؤخذ يداه وتربط في عنقه، هذه الأغلال في أعناق الذين كفروا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ نجازيهم بقدر أعمالهم، هذه أعمالكم نجازيكم بقدرها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها - وهذا تسلية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: يا رسول الله يا محمد اصبر عليهم واصبر على أذاهم -: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]؛ يعني كنوح وهود وصالح ولوط والأمم السابقة، ما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها - أي أهل الترف والنعم المستكبرون -: إنا بما أرسلتم به كافرون. لما يكون المترفون هذا موقفهم، فالأتباع معهم.

المترفون يقولون: نحن كفرنا برسالتكم ولا نؤمن بكم، ولذلك تسمع دائماً في القرآن: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [الأعراف: ٧٥]؛ (الملأ) هم الأكابر، هم المترفون المنغمسون في اللذات والشهوات، لا يريدون أن ينفكوا عن شهواتهم ولذاتهم، منغمسون فيها فهم مترفون فيها، يعرفون أنهم إذا آمنوا سيتركون هذه الأشياء فهم لا يريدون أن ينفكوا عنها، فهم يعيشون في نعيم من نعيم الدنيا.

ولذلك قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]؛ يقولون: نحن الله أعطانا الأموال في الدنيا، وأعطانا الأولاد، وأعطانا الخيرات ونعّمنا، كيف يعذبنا وهو يعطينا هذه النعم؟ الذي أعطانا إياها في الدنيا سيعطينا إياها في الآخرة، ولذلك قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

قال الله رداً عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سبأ: ٣٦].

قل لا تغركم أموالكم ولا أولادكم، فإن الله يبسط الرزق، وليس معنى بسط الرزق أنه رضا؛ قد يعطي الله الكافر الدنيا ولا يدل ذلك على رضاه، قل إن ربي يبسط الرزق ويوسع الرزق لمن يشاء ابتلاءً، ويقدر – أي يضيق – على من يشاء امتحاناً.

فأحياناً تجده كافراً ملحداً محارباً لله ورسوله والله قد أعطاه الدنيا، وتجد مؤمناً خاضعاً لله منيباً وتجده ضعيفاً فقيراً، فليس إعطاء الدنيا على أنها تدل على رضا الله، وليس منع الدنيا عن هذا يدل على سخط الله، لا؛ ولذلك قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[سبأ: ٣٧].

هذه الأموال والأولاد ما تقربكم عندنا منزلة، ليس لكم منزلة بهذه الأموال والأولاد، منزلتكم بأي شيء؟ بالطاعة؛ ولذلك قال: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، وهؤلاء لهم المنزلة العظيمة، ولذلك قال: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾؛ أي أضعاف ما يعملون، جزاؤهم يعني أجورهم مضاعفة بما عملوا، وهم في الغرفات آمنون؛ الغرفات غرف الجنة، غرف عالية مبنية، غرف فوقها من فوقها غرف مبنية عالية، وآمنون مطمئنون فيها.

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨]؛ وأما الذين يسعون في آيات الله ويسارعون في رد آيات الله ويعاجزون، ويظنون أنهم يعاجزون الله ويفلتون منه، فإنهم لن يفلتوا؛ بل أولئك في العذاب محضرون، سيحضرون في عذاب الله، سينالون جزاءهم يوم القيامة.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(سبأ ٣٩ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ وهو يوم الثلاثاء الموافق للسادس والعشرين من شهر ذي الحجة من عام خمسة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا في أعمالنا وفي أوقاتنا.

سورة سبأ ما زلنا فيها، وإن شاء الله في هذا اليوم نختم هذه السورة بإذن الله تبارك وتعالى. وقف بنا الكلام عند الآية التاسعة والثلاثين؛ وهي قول الله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]

وهذه الآية وأنت تقرأ في السورة وتتأمل، تلاحظ أنه قد تكرر معنا لفظ الرزق فيها تكراراً واضحاً؛ والسورة –مثل ما ذكرنا في بدايتها– أوردت قصة سبأ الذين كفروا نعمة الله، وقبلها قصة داوود وسليمان الذين شكروا نعمة الله وقال الله فيهم: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]؛ فكما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

والآية تقرر أن الرزاق هو الله، وأن العباد عليهم أن يشكروا نعمة الله عليهم؛ ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، فكلوا من رزق ربكم؛ والرزق من الله سبحانه وتعالى، فالذي يبسط الرزق هو الله وحده لا شريك له، ليس معه أحد يرزق؛ فالرزاق هو الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ﴾ جاء رداً لما قال الكفار والمترفون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]؛ فقال الله سبحانه: قل لهم إن هذا الأمر بيد الله، وهو الذي يعطي من يشاء؛ والله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وأما الآخرة فليست إلا لمن يحب. قال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾؛ أي يوسع على من يشاء ويغني من يشاء من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ لَهُ﴾؛ أي يضيق على من يشاء ويجعله فقيراً قد ضيق عليه في رزقه؛ وهذا كله بحكمة الله وتدبيره، لا يملكها أي مخلوق.

ثم نبه سبحانه وتعالى **على أمر آخر**؛ وهو أن من وسع الله عليه وبسط له في الرزق، عليه أن يعرف أن هذا المال هو مستخلف فيه، وأنه يوم من الأيام سيذهب ويترك هذا المال أو يذهب المال عنه؛ فقال: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ﴾؛ أي أعطيتم وتصدقتم وبذلتم من الأموال في سبيل الله وفي وجوه الخير؛ النتيجة ما هي؟ ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾؛ أي يعوضكم الله خيراً مما ذهب عنكم؛ فلا تظن أن إنفاقك خسارة، بل إنفاقك مكسب لك؛ فلو ظننت في ظاهر الأمر أنك تنفق فينقص مالك، فالصدقة لا تنقص من المال، بل الصدقة تزيد المال. ولذلك قال: وما تنفقوا من شيء يخلفه الله لكم وهو خير لكم، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾؛ وهو الذي يرزق من يشاء ويوسع من يشاء.

فلا تظن الإنسان أن البخل والشح والتقتير على نفسه ليجمع المال كله هو خير له، بل الخير كله في الإنفاق في سبيل الله. وعندما يتحدث القرآن دائماً عن النفقة والإنفاق وتقديم الصدقات، دائما تجد أثر الصدقة حقيقة في الآخرة؛ فالمؤمن في ظل صدقته يوم القيامة، والصدقات تأتي يوم القيامة كالجبال. ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى بعدها موقفاً من مواقف يوم القيامة؛ وهذا الموقف يتحدث عن هؤلاء المشركين الذين أشركوا بالله ويقررهم على شركهم واعترافهم بهذا الشرك؛

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ هو خطاب وتذكير؛ والتقدير: واذكر أيها الرسول، واذكر أيها المخاطب وأيها القارئ للآيات، اذكر ذلك الموقف وهو أن الله سيحشرهم؛ أي يحشر الكفار والمشركين والعابدين والمعبودين من دون الله يحشرهم جميعاً. وهنا يثور سؤال: أليس الله يحشر الخلق كلهم؟

والجواب: نعم؛ الله يحشر الأنبياء والرسل، ويجمع الأولين والآخرين، ويجمع المتقين الصالحين، ويجمع الكفرة والمجرمين كلهم في موقف واحد؛ ولكن لما كان الخطاب في مناقشة المشركين أشار إليهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾؛ أي المشركون.

ثم يقول للملائكة؛ الله عز وجل يخاطب الملائكة وهو أعلم ويعلم سبحانه وتعالى، والملائكة كانوا عباداً مكرمين لا يشركون بالله شيئاً؛ ﴿وَمَن يَقُل مِنهُم إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]؛ فالملائكة هم عباد لله عز وجل، ولم يحصل من أحد منهم أنه ادعى الربوبية لنفسه أو الإلهية لنفسه؛ ولكن هذا الخطاب من باب إقامة الحجة على هؤلاء الكفار؛ فقال: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ﴾؛ يعني المشركين، ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾؛ هل هؤلاء المشركون كانوا يعبدونكم؟

فماذا كان جواب الملائكة؟

قالوا سبحانه وتعالى عنهم: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١]

قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ **تنزيهاً لك**؛ فنحن لم نرضَي ولن نقبل أن يعبدنا أحد منهم، ولا نقر بذلك، بل ننكر عليهم؛ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾؛ فنحن أولياؤك ونحن نعبدك سبحانك، ولا نرضى بشيء يسخطك أو يغضبك، ﴿مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا﴾؛ أي هؤلاء المشركون، ﴿يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾؛ لأن الجن والشياطين تقدم لهم خدمات فيظنونهم آلهة فيعبدونهم، ويذبحون لهم ويدعونهم ويتقربون إليهم بالنفقات، فهؤلاء كانوا يطيعونهم ويعبدونهم من دون الله، يعبدون الجن؛ ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

ولماذا قالت الملائكة: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ ولم يقل كلهم يؤمنون بهم؟ والجواب: لما كانت العبادة ظاهرة قالوا يعبدون الجن، ولما كان الإيمان خفياً في القلب والملائكة لا تستطيع أن تحكم حكماً جازماً أنهم كلهم مؤمنون بهم -إذ قد يكون بعضهم لا يؤمن ولكن يفعل ذلك من باب المصالح-؛ قالت الملائكة: ﴿أَكْثَرُهُم﴾ من باب التأدب في الأشياء الغيبية التي لا يعلمها إلا الله، لأنه هو علام الغيوب سبحانه وتعالى.

ثم قال الله سبحانه وتعالى **بعد ذلك مبيناً حالهم**:

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢]

فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً؛ يقول لهؤلاء المشركين وعابديهم من الجن: اليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً؛ أي لا تنفعون الجن والجن لا ينفعونكم، ﴿وَلَا ضَرًّا﴾؛ أي لا تملكون دفع العذاب عن أنفسهم ولا عن غيركم، بل سلموا الأمر لله. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ أي المشركين الظلمة، ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا؛ حيث كنتم تقولون لا بعث ولا جنة ولا نار، فهذا اليوم الذي تحضرون فيه فذوقوا ما كنتم به تكذبون؛ كنتم تكذبون بالعذاب والآن تواجهون العذاب عياناً.

وبعدما بين الله سبحانه وتعالى **عاقبة هؤلاء المشركين في الآخرة**؛ يذكر لنا الآن مواقف المشركين من الدعوة، ومن القرآن، ومن الرسول، ومن البعث؛ وهذه هي الأصول الأربعة التي يعني كفر بها المشركون: كفروا بالله، وبالرسول، وبالقرآن، وباليوم الآخر. فيعطيك الله سبحانه وتعالى مواقفهم ومناقشتهم في قوله سبحانه:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]

وهذا موقفهم من القرآن؛ فإذا قرئ عليهم القرآن وتتلى عليهم آيات بينات واضحات، وجهوا التهمة مباشرة لمن يقرأ عليهم القرآن وهو محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنهم إذا قالوا هذا رجل فيه كذا وكذا يترتب عليه رد ما معه من القرآن. فاتهموا صاحب القرآن فقالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾؛ يقولون نحن نعبد ما كان يعبده آباؤنا من الأصنام والآلهة، وهذا الرجل الذي معه القرآن وهو محمد ما يريد إلا أن يصدنا عن عبادة آلهتنا ويمنعنا أن نسير على ما كان عليه آباؤنا ويريد أن يغير منهجنا وطريقتنا.

ولذلك اتهموا النبي ﷺ واتهموا القرآن فقالوا: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾؛ أي كذب مختلق ومفترى على الله؛ أي هو كذب وصاحبه يفتريه على الله ويقول إن الله هو الذي قاله ونزله. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ قالوا إفك في القرآن، وقالوا مفترى، وقالوا سحر مبين واضح لا نشك فيه؛ وهذا دليل التخبط الواضح عندهم؛ فمرة يقولون سحر، ومرة يقولون إفك وكذب،

ومرة يقولون افتراء. فموقفهم من القرآن رد القرآن وعدم الاعتراف به، وموقفهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم لم يقبلوا منه وردوه واتهموه بأنه يريد أن يصد عما كان يعبد آباؤهم.

ثم قال الله سبحانه وتعالى **مبطلاً دعواهم:**

﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]

يعني ما عندهم حجة على كلامهم؛ فهم يتكلمون بهذا الكلام ولا دليل لديهم؛ يتهمون الرسول ويتهمون القرآن ويردون ويقولون نحن نعبد ما كان يعبد آباؤنا؛ فعلى ماذا اعتمدتم؟ ﴿وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ﴾؛ أي هؤلاء الكفار ليس لديهم كتب يقرؤونها ويدرسونها ويعتمدون عليها لتكون منهجاً في حياتهم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ أي لم يأتهم رسول يحذرهم وينذرهم ويتمسكون بكلامه؛ فليس عندهم لا كتاب ولا رسول، فكيف يحتجون عليك بهذه الحجج الباطلة!

ثم هددهم سبحانه وتعالى **في قوله الكريم:**

﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [سبأ: ٤٥]

وهذا تهديد بذكر الأمم الماضية؛ الأمم الماضية فعلت مثل ما فعلوا، بل الأمم الماضية كانت أفضل منهم وأقوى وأعطوا من المال والقوة أكثر من قريش؛ وقريش ما بلغت عشر ما أوتيت الأمم الماضية. فالأمم الماضية أعطوا من القوة ما لم تعطَ قريش، ووسع عليهم ما لم يوسع على قريش، ومع ذلك لما أعرضوا وكفروا كانت النتيجة أن الله أهلكهم؛ كذبوا رسلي والنتيجة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي كيف كان إنكاري عليهم وعقوبتي وإهلالي لهم بالعذاب! فاحذروا يا كفار مكة أن يصيبكم ما أصابهم، فأنتم لستم خيراً منهم ولا أشد قوة.

ثم وجه الله سبحانه وتعالى **إليهم رسالة للتأمل والتدبر**؛ حتى لا يستعجلوا في الحكم على الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر ومجنون وكذاب، ولا يتعجلوا بالحكم على القرآن بأنه سحر وافتراء؛ بل ينظروا في القرآن وفي محمد ويتأملوا؛ فقال سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]

قل لهم يا محمد: إنما أعظكم بواحدة فقط؛ أي أوجهكم لخصيصة وموعظة واحدة لا ثانية لها، مهمة جداً؛ وهي ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾؛ أي تنهضوا في طاعة الله وتتأملوا في رسوله وكتابه وما أنزله من الوحي، ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ﴾؛ أي اثنين أو فرادى منفردين؛ يجلس الإنسان يتأمل في رسالة النبي ودعوته وحال النبي بمفرده، أو يجتمع اثنان يتناقشون ويتحاورون وينظرون ويفتشون بإنصاف؛ لأنه قد يظهر لهم ما لا يظهر في الجمع والهرج الصاخب.

﴿**ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا**﴾ فيما جاءكم من القرآن والرسول؛ فإذا تفكرتم علمتم يقيناً: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾؛ فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بمجنون، وهو صاحبكم وتعرفونه معرفة تامة، وتعرفون صفاته وأمانته وعقله ورأيه السديد، فلا به جِنّة أبداً. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾؛ جاء ينذركم العذاب ويحذركم من بطش الله؛ فتأملوا في خلقه وكلامه. والرسول صلى الله عليه وسلم لو يجلس معه شخص لا يعرفه أبداً ويسمع كلامه وحركاته وسكناته وأخلاقه، لعرف أنه صادق؛ فكيف وأنتم يا أهل مكة قد عاش معكم سنين طويلة ثم تتهمونه بالجنون! هذا بلا شك نقص عظيم في عقولكم.

ثم بين النبي ﷺ أنه لا يطلب أجراً على هذه الدعوة؛

قال سبحانه وتعالى على لسانه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧]

أنا لا أطلب منكم أجراً؛ قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم؛ أي لو فرضنا أني سألتكم أجراً ومالاً فخذوه فهو لكم لا أريده، ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾؛ أي أطلب الأجر والثواب من الله وحده، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ مطلع عالم مراقب يجازي ويحاسب تبارك وتعالى.

ثم قال سبحانه وتعالى مبيناً سنة إحقاق الحق وإبطال الباطل:

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [سبأ: ٤٨]

قل إن ربي يقذف بالحق؛ أي أن الله سبحانه ينزل الوحي ويبين الحق، ويرمي الباطل بالحق ويدمغه فيفضحه ويكشفه فإذا هو زاهق تالف. وهو سبحانه ﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾؛ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يظهر الحق ويبطل الباطل؛ فلو كنت كاذباً وعلى باطل لكشف الله أمري وأزهقه أمامكم، ولكني على الحق وأنتم على الباطل.

ولذلك قال سبحانه وتعالى **مبيناً قوة الحق وظهوره:**

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]

قل جاء الحق؛ جاء الوحي والقرآن والرسالة والهدى، والباطل يتلاشى أمام الحق؛ فلا يبدئ الباطل ولا يعيد، أي لا يقدم ولا يؤخر ولا يبدأ بالشيء ولا يعيده؛ فالباطل أمام الحق لا حيلة له ولا تصرف بل هو زاهق وباطل.

ثم بين النبي ﷺ حقيقة هدايته وضلال من ضل:

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠]

أنا على حق وبينة؛ ولكن لو سلمت لكم جدلاً أني على ضلال كما تدعون: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾؛ أي فضلالي وأثره وعقوبته على نفسي، ﴿...وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾؛ فهدايتي ونبوتي ورسالتي بوحي من الله وفضله؛ فالضلال من العبد ومن الشيطان، وأما الهداية فمن الله سبحانه وتعالى وهو المنعم بها. وكل هذا تنبيه لهم وتذكير ليتفكروا أن الرسول على نور وهدى وهم على ضلال؛ ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾؛ سميع لأقوالكم قريب ممن يدعوه ويسأله سبحانه وتعالى.

ثم يصف الله سبحانه وتعالى **حال هؤلاء المجرمين يوم القيامة؛**

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١]

ولو ترى يا محمد حالهم ومشهدهم العظيم؛ إذ عاينوا العذاب يوم القيامة وخافوا وانزعجوا وفزعوا فزعاً هائلاً؛ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾؛ أي لا يمكن أن يفروا أو يهربوا، فليس هناك مفر ولا ملجأ ولا منجى، بل هم في قبضة الملائكة؛ ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؛ أي تأخذهم الملائكة بسهولة ويسر من مكان قريب من التناول، فلو رأيت هذا المشهد لرأيت أمراً عظيماً مهولاً لا تتصوره النفس.

فماذا يكون موقفهم عندئذٍ؟

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٢]

قالوا: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾؛ آمنا بالقرآن وبالرسول وباليوم الآخر؛ ولكن لا فائدة من إيمانهم حينئذٍ؛ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾؛ أي كيف لهم التناول؟ والتناول هنا هو تناول الإيمان وقبوله؛ فقد انتهى وقته وحيل بينهم وبينه. والتناوش والتناول بمعنى واحد؛ ولكن التناوش في لغة العرب يطلق للشيء القريب السهل، كأن

تقول ناولني أو ناوشني الشيء القريب؛ فيقول الله سبحانه: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي أصبح الإيمان بعيداً عنهم غاية البعد؛ فكيف يتناولونه وقد فات أوانه!

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۖ﴾

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥٣]

لقد جاءتهم الرسل والقرآن في الدنيا وكفروا به؛ بل كانوا ﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي يفترون ويخرصون ويدعون علوماً وتخرصات وكذباً وافتراء من تلقاء أنفسهم، ويدعون معرفة الغيب وهم أجهل الناس؛ فكل أقوالهم ترهات وكذب واختلاق.

فإذا جاء يوم القيامة ورأوا العذاب؛ أرادوا العودة للدنيا للعمل الصالح أو لشهواتهم وأموالهم؛ ولكن هيهات:

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤]

وحيل بينهم وبين ما يشتهون؛ فلا توبة تُقبل، ولا رجوع إلى الدنيا، ولا عودة للعمل الصالح، ولا لهو ولا لعب؛ بل انتهت الأمور وحيل بينهم وبين مشتهياتهم؛ ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾؛ أي بأمثالهم ونظرائهم من الأمم الماضية الكافرة؛ والسبب في ذلك كله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾؛ أي كانوا يشكون في البعث والرسول والقرآن، ولم يكن شكاً عادياً بل شكاً مع ريب؛ والريب هو القلق والاضطراب والتردد فلم يقبلوا بالحق، بل بقوا على كفرهم وعنادهم فكانت هذه عاقبتهم الأليمة.

والسورة في أواخرها أعطتنا حقيقة هذه الدعوة وحقيقة القرآن والرسالة وموقف هؤلاء المعاندين، ثم نتيجه هذا الموقف وأثره يوم القيامة. فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظنا وإياكم من كل شر، وأن يختم لنا بخاتمة السعادة، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ فَاطِر)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(فاطر ١ - ٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الثلاثاء الموافق للثالث من شهر الله المحرم من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة (١٤٤٦ هـ)؛ درسنا في تفسير القرآن العظيم.

السورة التي بين أيدينا هي (سورة فاطر)، وتسمى بـ (سورة فاطر)، وأيضاً تسمى بـ (سورة الملائكة)؛ لأن الله ذكر في أولها لفظ كلمة "فاطر" قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، وذكر فيها أيضاً أنه جعل الملائكة رسلاً، وذكر شيئاً من أوصافهم وأنهم أولي أجنحة -يعني أن لهم أجنحة يطيرون بها- ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١].

وأكثر؛ يعني جناحين يمين وجناحين شمال، وثلاثة يمين وثلاثة شمال، وأربعة وقد يزيد؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ على الصورة التي خُلق عليها مرتين؛ مرةً عندما نزل من غار حراء واستبطن الوادي، فإذا منادٍ ينادي: يا محمد، يا محمد! يقول: «فَالْتَفَتُّ يَمِينًا وَشِمَالًا وَمِنْ خَلْفِي، وَأَنْظُرُ مِنْ أَمَامِي فَمَا وَجَدْتُ أَحَدًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قَدْ سَدَّ الْأُفُقَ، لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ».

هذه الرؤية الأولى التي رأى فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جبريل على صورته، والرؤية الثانية هي في حادثة الإسراء والمعراج؛ فإنه رأى جبريل على صورته التي خُلق عليها له ستمائة جناح.

إذن السورة تسمى بـ (سورة فاطر)؛ لأن الله قال في أولها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، وتسمى بـ (سورة الملائكة)؛ لأن الله ذكر فيها الملائكة وذكر شيئاً من أوصافهم.

والسورة مكية؛ والسور المكية التي مرت معنا كـ (سورة سبأ) وغيرها من السور المكية، دائماً لابد أن نستوعب جميعاً أن السور المكية غالباً تتحدث عن قضايا العقيدة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ركَّز على تصحيح العقيدة في مكة، فدعوته ثلاثة عشر عاماً كلها في التوحيد، ونبذ الشرك، وإبطال المعبودات من دون الله، وتقرير التوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له. فغالب السور المكية التي جاوزت ثمانين سورة من القرآن -يعني أكثر من ثلاثة أربع القرآن- كلها تركز على قضية الاعتقاد الصحيح والتوحيد والإيمان بالله.

فالسورة هنا عندنا تتحدث عن:

⬅توحيد الله: وأنه لا معبود بحق إلا الله، وأنه لا يجوز أن نصرف شيئاً من حقوق الله لأحد من مخلوقاته؛ فأنت تعبد الخالق لا تعبد المخلوق، فالسورة تقرر هذه القضية؛ قضية الإيمان بالله وتوحيده.

⬅قضية الإيمان بالقرآن: وأنه منزل من عند الله، والإيمان بالرسول وأنه رسول وليس شاعراً ولا كاذباً ولا ساحراً ولا غيره.

⬅قضية الإيمان باليوم الآخر: وهي قضية مهمة جداً؛ أنكرها المشركون وكفروا بها، ولم يصدقوا أن هناك بعثاً وأن الناس يخرجون من قبورهم، ولا أن هناك حساباً ولا عذاباً ولا جنةً ولا ناراً، فأنكروا اليوم الآخر قطعاً.

فجاء القرآن يقرر قضية الإيمان باليوم الآخر، ولا يذكر شيئاً من نعيم أهل الجنة وشيئاً من عذاب أهل النار، والسورة تقرر هذه القضية تقريراً واضحاً، ثم تذكر بعض القضايا المتعلقة بالتوحيد وغيره، أو بالإيمان وبمسائل العقيدة كلها تتكلم عنها.

السورة لكي نفهمها جيداً لابد أن نعرف مقصد السورة وهدفها؛ يعني كل سورة في القرآن من سور القرآن، سواء كانت قصيرة أو طويلة، لابد أن تكون قد جاءت لهدف ولمقصد معين.

لما مرت معنا (سورة سبأ) تحدثنا عن مقصدها وهدفها، وهذه السورة لها هدف ولها مقصد؛ السورة هنا تركز على إبراز آيات الله الكونية المشاهدة في السماوات والأرض؛ يعني الله يقرر لنا هنا أنه هو فاطر السماوات والأرض، ثم يتكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن المطر وعن السحاب لما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ

الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]؛ فهذه آية من آيات الله الكونية، وهو خلق السحاب وإنزال المطر.

ثم يتكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن البحرين: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]؛ يتكلم عن البحار، وأن الناس يأكلون منها لحماً طرياً، ويستخرجون حليةً يلبسونها، وآية الفلك التي تجري في البحار وتقطع المسافات بالليل والنهار، والشمس والقمر، كل هذه آيات الله الكونية.

ثم يتكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً عن الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظل والحرور، والأحياء والأموات، ويتكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً عن المطر الذي ينزل وينبت النبات، قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

ثم تكلم عن الجبال واختلاف ألوانها، وهي آية من آيات الله الكونية، قال: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ - والجدد يعني الطرق، جمع جادة- قال: ﴿جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧]. يقول: تجد الطرقات الجادة في الجبال مرةً تكون بيضاء، ومرةً تكون حمراء، ومرةً تكون سوداء؛ ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ يعني سوداء جداً.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين أيضاً آيةً كونيةً أخرى في الدواب، قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ﴾ [فاطر: ٢٨]. فاختلاف الألوان، واختلاف الأجساد، واختلاف الطبائع، واختلاف الحركات، وهذه المخلوقات العجيبة.

هذه كلها من آيات الله، سواءً قلنا الآيات الكونية السماوية كالشمس، والقمر، والسحاب، والنجوم، أو آيات أرضية كالبحار، والأنهار، والأشجار، والدواب، والناس، والجبال؛ هذه كلها آيات كونية يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فكل السورة تقرر وتبين الآيات الكونية التي تدل على وحدانية الله، وعلى أن الله هو المالك؛ ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ [فاطر: ١٣]، وهو خالق السماوات والأرض، ومالكها، ومدبرها، والمتصرف فيها، كلها بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين منزلة القرآن الكريم ومنزلة أهل القرآن الذين يتلون كتاب الله، وأقاموا الصلاة، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانيةً، قال: هؤلاء ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]، لن تخسر أبداً.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيَّن من هم الذين يرثون القرآن، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ﴾ - القرآن- أورثه مَن؟ قال: ﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

وهؤلاء اصطفاهم الله وأعطاهم القرآن؛ فمنهم من حملة القرآن، ومنهم الذين يتلون القرآن في الليل والنهار، ومنهم من أُعطي القرآن فقصَّر في حقه،

ولذلك قال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ [فاطر: ٣٢] وهو المقصر، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو المتوسط، ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢] وهم المسارعون؛ حفظة القرآن وحملته الذين يعملون بالقرآن، والذين يتلونه آناء الليل وأطراف النهار، هؤلاء هم الذين وصفهم الله بأنهم سابقون إلى الخيرات، قال: وعدهم الله ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [فاطر: ٣٣].

ثم لما ذكر نعيم أهل الجنة، وأنهم ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣]، ذكر عذاب أهل النار الذين وعدهم الله بالعذاب الشديد، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، إلى آخر بيان حال أهل النار.

ثم تُختم السورة بشيء من مواقف المشركين الذين جعلوا لله شركاء، وإبطال شركهم، وبيان عظمة الله في إمساك السماوات والأرض، وأن الله هو الذي يمسك السماوات ويمسك الأرض أن تزولا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، وبيان موقف هؤلاء المستكبرين الذين يمكرون، وأن ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، إلى آخر ما تُختم به السورة.

هذه هي سورة فاطر، وهذه هي موضوعات السورة وأساسها ومقصدها: إبراز آيات الله الكونية في السماوات والأرض الدالة على أنه هو الخالق، وأنه هو الواحد، وأنه هو المنعم على عباده، هو الذي أسدى إليهم النعم، وهو الذي خلقهم، وهو الذي رزقهم، ويجب عليهم أن يعرفوا حق الله وعظمة الله، ويجب

عليهم أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن يحذروا معاصيه، وأن يحذروا أن يقعوا فيما نهاهم الله عَزَّ وَجَلَّ عنه فيعرّضوا أنفسهم للعذاب، وأن يشكروا الله على هذه النعم.

ولذلك تلاحظ -حتى نتدبر القرآن- تلاحظ أن السورة لما ذكرت هذه النعم العظيمة والآيات الكونية وتسخير السماوات والأرض وما فيهن، ابتدأها الله بالحمد؛ بمعنى أن الله الذي أنعم بهذه النعم يجب أن يُحمد ويجب أن يُشكر، وقال الله تعالى في أولها بعد بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

وهذه السورة -الحمد لله- هي السورة الخامسة؛ لو نتتبع القرآن نجد أن السور التي افتتحت بالحمد خمس سور:

(سورة الفاتحة): وهذا افتتاح في أول القرآن، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]؛ أي ربهم وخالقهم وموجدهم. و**"العالمين"** يعني الخلق كله؛ العالمين هم ما سوى الله من المخلوقات: عالم السماوات، وعالم الأرض، وعالم البحار، وعالم الأشجار، وعالم الأنهار، كل شيء فهو ربهم، فنحمد الله على أن الله خلق الخلق ورباهم.

(سورة الأنعام): في الربع الأول، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. فيحمد الله نفسه والناس يحمدونه على أنه هو خالق السماوات والأرض وموجدها بما فيها من النعم، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي جعل الظلمات والنور.

فالظلمة فيها مصالح العباد، فلولا الظلمة ولولا الليل لما نام الإنسان ولتعب نفسياً وبدنياً، ولكن من آياته الليل، والنور نور الهداية، نور الطاعة، نور الاستقامة، هذا الضوء، هذه الشمس، كلها أنوار -يعني نعم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

(سورة الكهف): في منتصف القرآن، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ﴾ [الكهف: ١]؛ نحمد الله ونشكره على أن أنزل علينا القرآن وحفظه لنا، وبقي غضّاً طريّاً لا يتغير مع مرور الأزمان، وكلها تشير إلى نعم.

(سورة سبأ): في الربع الأخير، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١]؛ يعني المالك للسماوات والأرض.

(سورة فاطر): قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١].

فالذي فطر السماوات وأوجدها ينبغي أن نحمد الله عليه ونشكره على هذه النعمة؛ نعمة الأرض، ونعمة السماء.

- **ما معنى "فاطر"؟ هل "فاطر" معناها "خالق" أم تختلف؟**

الجواب: لا، لو كانت **"فاطر"** هي **"خالق"** لاكتفى الله بواحدة منها، لكن الله مرةً يقول: خلق السماوات، ومرةً يقول: ﴿فَاطِرِ﴾؛ إذن هناك فرق، شفت دائماً تعبير القرآن بمثل هذه العبارات له وقفات وله تأملات.

يعني كلمة **"فاطر"**؛ ابن عباس -وهو ترجمان القرآن وهو أشهر المفسرين من الصحابة- يقول: **(أنا لا أعلم معنى فاطر)**، يقول: **(ما أعرف معنى فاطر المعنى الدقيق، مرةً حتى اختصم إليّ أعرابيان، اختصموا في بئر، فقال أحد الأعرابَين: أنا فطرتها -يعني البئر- وقال الآخر: أنا فطرتها)**.

يقول ابن عباس: (لما قال "أنا فطرتها" جلست أتأمل وعرفت أن كلمة "فاطر" هي إيجاد الشيء من العدم، إيجاد الشيء بصورة جميلة حسنة وهو لم يكن موجوداً).

يعني الآن أنا أعطيك مثالاً: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوجد السماوات، قبل أن يوجدها وقبل أن يخلقها هل كانت موجودة؟ ما كانت موجودة، فلما خلقها وأبدع خلقها وزينها وجملها، ما ترى فيها من فروج ولا شقوق: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ [الملك: ٣-٤]، وزيَّنها بالنجوم والكواكب والشمس والقمر، هذا الخلق والإبداع نسميه **(فاطر)**، نسميه فطر الله عَزَّ وَجَلَّ.

مثلما قال هذا الأعرابي: **"أنا فطرت البئر"**؛ الأرض في الأول قبل أن تأتي البئر أرض قاحلة مغبرة، فحفر ثم أخرج الماء، ثم طوى البئر ووضع عليها الدلو، وسقى ما حولها فأنبتت، فأصبحت حديقة وفيها ماء؛ إذن فطرها، يعني أبدعها وأوجدها على أحسن صورة.

فكلمة هنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الذي خلق السماوات والأرض من العدم، لم تكن موجودة وخلقها في أحسن صورة؛ هذا معنى كلمة **"فاطر"**. أما الخالق فهو الذي أوجد الشيء، ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، أوجده سواءً على صورة بديعة أو على غير صورة بديعة.

افتتاحها بالحمد هنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ يقول أهل التفسير: (ألف ولام) في "الحمد" تفيد الاستغراق، يعني المحامد كلها، كل الحمد لله له سبحانه، هو المستحق للحمد.

- **وإخبار الله في السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ماذا يفيدنا؟**

يفيدنا أن الله يعلمنا أن نحمده، يعني كأن الله يقول في هذه الآية: احمدوا الله الذي فطر السماوات والأرض، احمدوه.

فلما يقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعلم عباده أن يحمدوه، ولا ينتظر ممن لا يحمد الله أن يحمده، لا، هو حمد نفسه قبل أن يحمده الحامدون.

- **لو سألك واحد وقال لك: هل الحمد هو الشكر أم يختلف؟**

الجواب: لا، يختلف؛ الحمد أعم من الشكر.

الشكر دائماً في مقابل النعمة؛ لما يصنع لك أحد معروفاً تقول: "شكراً لك"، أعطاك هدية تقول: "شكراً لك"، ما تقول "الحمد لله لك" أو "الحمد لك"، تقول: "الشكر لك، أشكرك على فعلك"؛ إذن كلمة الشكر في مقابل شيء، أما الحمد فلا؛ الحمد هو الثناء على الله بصفات الكمال وأفعاله الحسنة؛ فصفاته كاملة، وأفعاله متقنة حكيمة، فنحمد الله على كل نعمة، نحمده يعني نثني عليه ونذكره بالخير، ونذكره بالصفات الحسنة والأسماء الحسنى؛ هذا معناه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

فاطر السماوات والأرض قال بعدها: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾.

- **كيف جعل الملائكة رسلاً؟**

يعني الذي خلق الملائكة هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا شك أن الذي خلق الملائكة هو الله، لكن خلقهم وجعلهم بصفة -يعني جاعل- يعني جعلهم يعملون، يعني صيَّرهم في أعمال، يعني جعل لهم وظائف، ولذلك قال: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾.

الملائكة هم رسل الله، يعني الله يرسلهم؛ يرسل منهم من يرسله بالوحي، ومنهم من يرسله بالقطر والماء والسحاب، ومنهم من يرسله لقبض الأرواح، وهكذا، ومنهم من يرسله يتفقدون حلقات القرآن وحلقات العلم، يطوفون بالشوارع ويطوفون بالطرقات يبحثون عن الحلقات، فالله يرسل ملائكته رسلاً

يجعلهم رسلاً ينتقلون من السماء إلى الأرض في أعمال، ومنهم من يعمل بغير هذه الأعمال؛ فوظائفهم كثيرة جداً.

الله يقول: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات: ١-٥]، هذه وظائف الملائكة، وقال: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات: ١-٣]، وقال: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، هذه كلها يعني وظائف الملائكة.

يقول: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾، يعني الملائكة خلقهم الله ولهم أجنحة -يعني يطيرون، لهم أجنحة- فبعضهم كما أخبر قال: ﴿مَّثْنَىٰ﴾ يعني اثنين من الأجنحة، اثنين اثنين؛ اثنين من هنا واثنين من هنا، ﴿وَثُلَاثَ﴾ يعني ثلاثة وثلاثة، ﴿وَرُبَاعَ﴾ أربعة وأربعة.

لو قال -شوف الفرق- لو قال **"أولي أجنحة ثلاثة"** لفُهم أن له ثلاثة أجنحة فقط، شوف الفرق! لو قال **"أولي أجنحة مثنى"** لكان فهمنا أنه جناحين؛ واحد يمين وواحد شمال.

لو قال **"أولي أجنحة اثنين اثنين"** -لو قال اثنين- قلنا واحد يمين وواحد شمال، لكن لما يقول ﴿مَّثْنَىٰ﴾ يعني اثنين من هنا واثنين من هنا، ولما قال ﴿وَثُلَاثَ﴾ -لو قال ثلاثة قلنا ثلاثة فقط- لكن لما يقول ﴿ثُلَاثَ﴾ نقول: ثلاثة من هنا وثلاثة من هنا، وكذلك ﴿وَرُبَاعَ﴾.

وقد تزيد؛ كما ذكرنا أن جبريل رآه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وله ستمائة جناح؛ قد تزيد، ولذلك الله بعدها قال جعل الملائكة لها أجنحة ثم قال بعدها: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١].

- **أي خلق؟**

الجواب: محتمل أنه يزيد في أجنحة الملائكة، ويحتمل أنه يزيد في خلق الخلق ما شاء في الجمال، ويعني جمال صورة الملك -الملائكة في صورة جميلة- وفي خلقه وإبداعه، يزيد في خلق الإنسان فيجعل بعض الخلق في الإنسان خلقاً جميلاً، ويزيد في خلقهم ويجملهم؛ فكلمة الخلق هنا ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾ الخلق على عمومه، ولذلك لأنه قال: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ يعني ما شاء من الجمال الباهر.

لما بيَّن لك أن الله قادر على خلق الملائكة بهذه الصورة وأنه يزيد، قال بعدها ماذا؟ قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]. فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادر على خلق هذه الأشياء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

لما تكلم الله عن الخلق، وخلق السماوات والأرض، وخلق الملائكة، ولا شك أنه يزيد في خلق الإنسان، وخلق بني آدم، وخلق الحيوان، وخلق المخلوقات، بعد ذلك انتقل إلى بيان الرزق؛ فالله هو الخالق وهو الرازق، فقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾، والرحمة هنا شاملة كل شيء؛ لأنها جاءت نكرة في سياق الشرط وهي تفيد العموم.

- **ما هي الرحمة هنا؟**

كل شيء من الأرزاق يسمى رحمة؛ المطر رحمة، والطعام والشراب، والأشجار والنباتات والخضروات والفواكه والثمار، وكل ما يحتاج إليه الإنسان من رزق وكنوز الأرض، هذه كلها رحمات من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

يقول -شوف قال-: ﴿مَّا يَفْتَحِ﴾، ويفتح يعني يرزق، ويفتح الأرزاق؛ لأن الله هو **(الفتاح العليم)** يفتح لعباده ويرزقهم، قال: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧].

والله إذا أراد الخير ما أحد يمسكه ولا أحد يمنعه، لو اجتمع أهل الأرض كلهم على أن يمنعوك من هذا الخير الذي أراده الله لك لا يمكن أبداً ولا يستطيعون؛ ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ ما أحد يمسكه، ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ -يمنع- ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢] ما أحد يتهيأ له.

يعني الله لو منع هذا الشخص أن يُرزق، لو اجتمع أهل الأرض أن يرزقوه ما استطاعوا، فالرزاق هو الله، والذي يفتح للناس من رحمة هو الله، والذي يمنع ويصرف هو الله؛ إذن هو الخالق، وهو المالك، وهو الرازق.

ولذلك قال: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

شوف ختام الآية: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ العزيز له العزة والقوة والغلبة، وحكيم لا يمنع أحداً ظلماً، وإنما يمنع بحكمة؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيم يضع الأمور مواضعها.

فإذا وسَّع على إنسان وأعطاه، أعطاه الذرية، رزقه الذرية، رزقه المال، رزقه الصحة، رزقه العافية، رزقه الطاعة والاستقامة، هذا ما أحد يستطيع أن يتدخل؛ لأنه عزيز وحكيم، أنه أعطى كذا ومنع كذا.

يعني الآية حقيقةً آية عظيمة جداً، تحتاج منا إلى أن نتدبر ونتفكر فيها؛ فعلاً أنت ما تستطيع أن ترد رزقك، ولا ترد رزق غيرك، ولا تملك شيئاً؛ أنت مملوك، والله يتصرف فيك كيف يشاء، وأنت ليس لك تصرف في هذا الكون؛ (العزيز الحكيم) هو الذي يدبر الأمور.

- **لكن أنت الواجب في حقك ماذا؟**

الواجب عليك أن تستقيم على طاعة الله، وأن تتقرب إلى الله بالطاعات، وأن تسأل الله عَزَّ وَجَلَّ وتكثر من الدعاء والسؤال أن الله يفتح عليك من الخير، وأن يصرف عنك الشر؛ هذا هو الحق الذي يجب عليك، أن تدعو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يفتح عليك من الرحمة ومن الخير، وأن يصرف عنك كل شر؛ هذا هو.

فلما ذكَّر الله عباده بالرزق، وأنه هو المالك الرازق الخالق، ذكَّرهم بنعمه العظيمة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ -نادى الناس جميعاً، مؤمنهم وكافرهم- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾.

- **هل هناك خالق غير الله يخلق؟**

ما في إلا الله، هو الذي يخلق؛ فهو الخالق وحده، وهو الرازق وحده، وهو الإله وحده، وهو المعبود وحده.

قال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]، ما في أحد يرزقكم إلا الله، فاحمدوا الله واشكروه، ولذلك شوف قال: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾، واشكروه على هذه النعمة. ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لا معبود بحق إلا هو، لا معبود ولا يُعبد ولا يُخضع ولا يُدعى إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]؛ كيف تُصرفون عنه وتعبدون الآلهة وتعبدون الأصنام وتطوفون حول القبور وتسالون الأموات وتدعونهم من دون الله؟! هؤلاء ما ينفعون ولا يضرون؛ فهؤلاء إن دعوتهم ما نفعوك، وإن تركت دعوتهم ما ضروك، أموات غير أحياء، فكيف تُصرفون؟!

ثم قال الله بعد ذلك -لما بيَّن أن الملك والرزق والتصرف في الكون كله لله، وأن الله من رحمته أرسل الرسل ليوقظ العباد من الغفلة، لكن مع الأسف أن الذين أُرسل إليهم من الأمم هم لا يتقبلون ويردون الرسالة ويكفرون بها، ولذلك الله سلَّى النبي محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآية فقال-: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤]؛ يعني قومك كذبوك ولم يقبلوا منك.

فقد كذبت رسل من قبلك، يعني لست أنت أول واحد؛ كذبوا نوحاً وهوداً وصالحاً وشعيباً وموسى، كذبوا الرسل من قبلك. ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾؛ الأمور سترجع إلى الله، كل أمور الخلق وشؤونهم راجعة إلى الله، والله يقضي ويحاسب ويجازي من جازى.

يعني الآيات حقيقةً مستمرة، والحقيقة أن الإنسان لما يقرأ مثل هذه الآيات، وبدايات السورة دائماً بدايات قوية تجذب الأسماع وتجذب الأذهان، الحقيقة مهمة جداً؛ لكن الوقت يضيق علينا، لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستمر في تدبر هذه السورة العظيمة وتأملها.

نسأل الله أن لا يحرمنا هذا الفضل العظيم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(فاطر ٥ - ١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم هو اليوم العاشر من شهر الله المحرم من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا ويبارك لنا ولكم.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي سورة (فاطر)، وكما ذكرنا في بعض المصاحف تسمى بسورة (الملائكة)؛ لأن الله ذكر الملائكة في أول السورة وذكر شيئاً من أوصافهم بأنه جعلهم رسلاً أولي أجنحة.

طيب، نحن تكلمنا عن السورة بشكل عام، وأخذنا الآيات الأول منها من واحد إلى أربعة، والآن نستكمل ما توقفنا عنده وهي الآية الخامسة؛ قال الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

السورة الله نادى فيها الناس ثلاث مرات؛ ثلاث مرات:

المرة الأولى: في الآية رقم ثلاثة؛ قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

ذكرهم بنعمة الله، ونعمة الله هنا ليست نعمة واحدة، بل نعم عظيمة؛ لأن كلمة نعمة المفردة إذا أضيفت إلى معرفة دلت على العموم، فقوله: «**اذكروا نعمة الله**» أي ذكروا نعم الله عليكم، ونعم الله كثيرة جداً لا يمكن لأي إنسان أن يحصيها.

يقول الله سبحانه وتعالى: «**اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله**»؛ هل أحد خلقكم، أو أنتم خلقتم أنفسكم، أو أحد يستطيع أن يخلق خلقاً غير الله؟! الله هو الخالق المنفرد بالخلق سبحانه وتعالى،

والله خالق كل شيء. ثم قال: «**غير الله يرزقكم من السماء والأرض**»؛ إذن الله هو الخالق وهو الرازق سبحانه وتعالى، هو الرزاق وهو الخالق سبحانه وتعالى، فعرفهم سبحانه وتعالى بنفسه وبشيء من أفعاله وربوبيته بأنه هو الخالق الرازق. طيب، هذا النداء الأول: التعريف بحق الله عليهم وأنه هو الذي خلقهم وهو الذي رزقهم.

النداء الثاني: قال الله فيه ماذا؟ «**يا أيها الناس إن وعد الله حق**»؛ يعني الله خلقكم وهو الذي سيعيدكم مرة ثانية؛ يعني ليست هذه هذا الأول الخلق الأول هو النهاية، لا؛ خلقكم في الدنيا وستموتون وسيبعثكم مرة أخرى، فوعد الله حق، ولذلك شوف ماذا قال؟ قال: «**إن وعد الله حق**».

طيب، النداء الثالث في السورة: وهو عند الآية الخمسة عشر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

يعني أنتم من أنتم؟ أنتم فقراء، الله سبحانه غني، يعني ليس بحاجة لعبادتكم؛ لو أن الجن والإنس كلهم قاموا وعبدوا الله كل حياتهم ولم يفتروا عن العبادة ما زاد ذلك في ملك الله شيئاً ولا نقص منه لو كفروا أو آمنوا، فالله الإنسان هو الفقير إلى الله والله غني سبحانه وتعالى ليس بحاجة لأحد من المخلوقات سبحانه وتعالى.

طيب، نكون الآن خلنا في الآية الخامسة: «**يا أيها الناس**»؛ نداء للناس جميعاً، المؤمن والكافر، كل الناس، كل بني آدم. طيب، يناديهم الله سبحانه وتعالى ويذكرهم بأي شيء؟ **يقول:** «**إن وعد الله حق**»؛ ما هو وعد الله؟ وعد الله وهو أنه وعدهم بعد موتهم إما بجنة يفوزون بها فوزاً عظيماً، وإما بنار تكون مأواهم ومثواهم، «**إن وعد الله حق**» في بعث الناس من قبورهم. ولذلك شوف قابلها؛ قابل الآخرة بالدنيا لما قال «**إن وعد الله حق**» كيف عرفنا أن وعد الله هنا هو اليوم الآخر؟ قابله بأي شيء؟ بالدنيا؛ قال:

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [فاطر: ٥].

لا تغرك الحياة الدنيا وتلهيك عن وعد الله، لا تلهيك الدنيا وتغتر بها وتنغمس بها وتعيش لها على حساب الآخرة وتنسى اليوم الآخر، هذا المقصود؛ لا تغرك الدنيا، الدنيا تغر وتهلك صاحبها وتفتنه فتنة. ولذلك العدو أمامك كثير أعداؤك، فلا بد أن تكون على يقظة؛ النفس أمارة بالسوء، والهوى، والدنيا،

والشيطان، وكثير ملهيات وفتن، فلا بد أن تكون أنت على تيقظ وعلى استعداد لمحاربة أعدائك الذين أمامك؛ فلا تغتر بالدنيا، الدنيا لا تكون تغرك ثم تنزل لأجلها وتنسى الآخرة.

«**فلا تغرنكم الحياة الدنيا**»؛ شوف وصف الحياة بأنها دنيا أي دنيئة وحقيرة مقابل ماذا؟ مقابل الآخرة، الآخرة التي هي الحياة الحقيقية. قال: «**فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور**»؛ من هو الغرور؟ لا يغرنكم، **يقول:** احذر من الدنيا واحذر من شيء آخر، ما هو؟ قال: «**الغرور**»؛ ما هو الغرور؟ فسره الله في الآية بعدها قال: «**إن الشيطان**»؛ إذن من هو الغرور؟ الشيطان؛ الشيطان هو الغرور. أحياناً تقرأ أنت في القرآن يقول لك: الغرور، الغرور بالضم (غرور) مثل قوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

الغرور هناك مصدر؛ مصدر يعني غر يغره غروراً. وهنا «**الْغَرُورُ**» بالفتح اسم للشيطان؛. **يقول:** لا تغرك الدنيا، احذر أن تغرك الدنيا وتنسى يعني تنسى أوامر الله وتكاليفه وما شرعه الله وما حذرك الله منه وما وعدك الله به في الآخرة، لا تنساه، ولا يضرك الشيطان؛ الشيطان عدو.

ولذلك قال شف قال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

إذا كان عدواً لنا فماذا نصنع؟ قال: «**فاتخذوه عدواً**»؛ عدو الشيطان عدو لك، الشيطان يتربص بك ولا يريد لك الخير أبداً. ولذلك شوف ماذا قال؟ قال: «**إنما يدعو حزبه**» يعني أتباعه الذين يتبعونه ويطيعونه، يدعوهم إلى أي شيء؟ «**إنما يدعو حزبه**» أعوانه وأتباعه والذين يطيعونه ويدخلون تحت رايته، يدعوهم لأي شيء؟ يدعوهم لكي يكونوا من أصحاب السعير.

هل تجد أشد من هذا التحذير؟! الله يحذرك من عدوك، **يقول:** احذر من العدو، احذر من هذا العدو، هذا عدوك فاحذر أن يغرك، وتأمل في هذا العدو؛ هذا العدو إن لم تتخذه عدواً وأطعته وأصبحت تحت رايته وكنت من حزبه فإنه يدعو أصحابه إلى أن يكونوا من أهل النار، أهل السعير. والسعير اسم من أسماء النار، سميت بالسعير لأنها تتسعر ناراً تتوقد.

ثم بين سبحانه وتعالى حال الناس يوم القيامة، وأن الناس ينقسمون يوم القيامة قسمين، قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [فاطر: ٧].

هذا وعد الله، لما قال «**إن وعد الله حق**» هذا وعد الله هذه النتيجة. النتيجة ما هي؟ قال: الناس على فريقين:

الفريق الأول: كفروا وجحدوا آيات الله وجحدوا وحدانيته ورسله ولم يؤمنوا ولم يتبعوا شرعه؛ النتيجة ما هي؟ «**لهم عذاب شديد**» يوم القيامة سيعذبون في نار جهنم.

طيب، و«**الذين آمنوا وعملوا الصالحات**»؛ آمنوا وصدقوا بما جاءهم عن الله وعملوا الأعمال الصالحة، يعني لم يقولوا بس آمنا بألسنتهم وبالإقرار نقول أنا مؤمن ولا يصلي، أنا مؤمن ولا يتصدق، أنا مؤمن ولا يحج؛ لا، آمنا وعملوا الصالحات، النتيجة ما هي؟ لهم مغفرة وأجر كبير. ولاحظ أنه قدم المغفرة لماذا؟

لأن الله أراد أن يمحصك من كل الذنوب حتى ينقيك وتصبح نقياً كالثوب الأبيض، ينقيك من الدنس ومن الذنوب والمعاصي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس والنجاسات، ثم بعد ذلك يدخلك الجنة؛ «**أجر كبير**» وهو فوزك بجنات النعيم. هذا هذه الآن حال الناس في الآخرة: فريق في الجنة وفريق في السعير.

طيب، ما حال الناس في الدنيا؟ قال: الناس في الدنيا على نوعين: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

أناس زينت لهم أعمالهم؛ «**زين له سوء عمله**». فالذي زين له سوء عمله، يعني عمله السيئ زين له، زين له الشيطان وزينت له نفسه الأمارة بالسوء، فأصبح عمله السيئ عملاً في نظره أنه عمل زين وأنه عمل حسن وجميل؛ **يقول:** «**فرآه حسناً**». تجد بعض الناس يتعاطى المحرمات ويرى أن هذا هو أحسن شيء، ليش؟ لأنها انقلبت عنده الموازين، أصبح الباطل حقاً والحق باطلاً، فيظن أن هذا هو الصح، فالشيطان يزين له عمله فيظن أن هذا العمل عملاً حسناً، فهذا يعني تجده أن بعض الناس على هذا المنهج؛ تقول له هذا حرام يقول لك: لا، هذا أحسن شيء، فهذا انقلبت عنده الموازين، أصبح الحق عنده باطلاً والباطل حقاً، فانقلبت عنده الموازين. هذا نوع.

النوع الثاني: هو الذي عرف الحق واتبعه، وعرف أن الحق هو الحق وأن الباطل هو الباطل، ولم تنقلب عنده الموازين، ولم تزين له نفسه عمله، بل اتبع الحق وأقر وأذعن واتبع الحق.

فهذا الموازين شوف هذه الموازنة: «**أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً**» كمن لم يزين له سوء عمله بل اتبع العمل الحسن وسار عليه؟ هذا لا يستوي مع هذا. ولذلك الله بين قال: «**فإن الله يضل من يشاء**»؛ يضل من يريد الضلالة، الذي يريد الضلال ويسلك طريق الضلال يضله الله ويتركه في ضلاله، و«**يهدي من يشاء**» يعني يهدي من يريد الهداية ويقبل على هداية ربه ويسأل الله الهداية، هذا يهديه الله سبحانه وتعالى ويثبته.

ولذلك الناس تجد منهم من ضل وأضله الله على ضلاله، ومنهم من اهتدى وهداه الله. ولذلك الله سبحانه وتعالى يسلي رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ويطمئنه **فيقول:** «**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**»؛ لا تحزن عليهم ولا تأسى عليهم إذا لم يؤمنوا، فإنهم على في ضلالهم اتركهم لأنهم لم يصلحوا للهداية، فلا تحزن عليهم؛ «**فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**» لا تكن متعباً نفسك وتلاحقهم، هدئ من نفسك واطمئن فإن الأمر بيد الله، أنت عليك البلاغ فقط والأمر بيد الله.

«**إن الله عليم بما يصنعون**»؛ يعني هؤلاء الذين الكفار لا تظن أنهم كفار وباقون على كفرهم ومعاندون ومستكبرون ويحاربون الدعوة، والله يعلم مكرهم وسيحبط مكرهم؛ ولذلك قال: «**عليم بما يصنعون**»؛ ما يصنعون يعني ما يدبرونه وما يخططونه الله عليم وسيبطل ويفسد كل ما يصنعونه.

بعد هذا البيان الشافي في بيان حقيقة الآخرة وحقيقة الدنيا والشيطان ومصير الناس يوم القيامة وحال الناس في الدنيا، بعد ذلك تعود الآيات إلى ذكر تعود الآيات إلى يعني ذكر الآيات الكونية التي ذكرناها في أن السورة معتمدة في أكثر آياتها على ذكر الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله وعلى ربوبيته وعلى قدرته وعلى رحمته. ولذلك بدأ السورة بقوله: «**فاطر السماوات**» يعني خالق السماوات والأرض وجاعل الملائكة، هو الذي خلق الملائكة وجعلهم على هذه الصورة. كذلك هنا نلاحظ أيضاً ماذا؟ أن الله يسوق لنا آيات أخرى تدل على قدرته سبحانه وتعالى وعلى رحمته ونعمته، وتدل على وحدانيته وأنه لا يفعل هذا الشيء إلا الله، وتذكير باليوم الآخر. شوف اسمعوا: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

في أحد غيره؟ لا، هو الله نعم الواحد الذي أرسل الرياح، لا يتدخل في إرسال الرياح أحد أبداً ولا يثير ولا يعني يستطيع أن يصرف هذه الرياح إلا الله؛ يصرفها شمالاً وجنوباً وغرباً وشرقاً، هو الذي يرسل

الرياح يبعثها، يرسلها ويبعثها؛ لماذا؟ ما الحكمة؟ قال: «**تثير سحاباً**»؛ تحرك السحاب. الرياح لواقح؛ قال الله عز وجل: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].

فأنزلنا من السماء. السحاب قبل أن تأتيه الريح سحاب خفيف زي القطن، فإذا جاءت الريح ولقحته حمل بالماء فأصبح أصبح سحاباً ثقالاً، أصبح ثقيلاً بالماء، فالله يرسي الرياح فتثير سحاباً، تحرك السحاب لأنه كان قطعة صغيرة في السماء ثم تزيد ويلقحها تلقحها الريح ثم تنشئ فيها تنشئ فيها الماء، المطر، الغيث؛ هذا معنى «**فتثير سحاباً**»؛ سحاباً ملقحاً «**وأرسلنا الرياح لواقح**».

قال بعدها: «**فسقناه**»؛ «**فسقناه إلى بلد ميت**» يعني ساقه الله هذا السحاب يسوقه ويصرفه إلى بلد ميت محتاج إلى الماء، أرض يابسة وأرض قاحلة ليس فيها ماء وقد أجدبت، فيرسل الله إليها هذا الماء، فإذا أرسل الماء إلى هذه الأرض الميتة أحياها؛ قال: «**فأحيينا به الأرض بعد موتها**»؛ أحياها بالماء وأحياها بالنبات، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. من الذي خلق الماء، ومن الذي أنزل الماء، ومن الذي أحيا الأرض؟ هو الله هو الله.

وألاحظ يعني لما تتأمل الآية يقول «**والله الذي أرسل**» ثم غير قال «**فسقناه**» ما قال «**فساقه**»؛ هذا دلالة على يسمى بـ(علم البلاغة) (علم الالتفات)؛ التفت من ضمير إلى ضمير، ومعناه والحكمة في ذلك والسر هو ليبين الله سبحانه أن هذا من اختصاص الله: «**فسقناه**»؛ نحن، لم أحد يستطيع أن يسوقه، لأنه أحياناً نقول لك مثلاً السحاب في السماء نستطيع نحن أن نتحكم فيه؟ لا، ما تستطيع أن تتحكم فيه، الذي يتحكم فيه هو الله؛ يمر على بلدة ولا ينزل عليها شيء ثم يتجاوزها ويمر على بلدة أخرى وينزل الماء فيها، الذي يصرفه هو الله سبحانه وتعالى، يصرفه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠].

طيب، قال سبحانه وتعالى بعدها لما قال «**فأحيينا به الأرض بعد موتها**» ماذا قال بعدها؟ قال: «**كذلك النشور**» يعني مثل ما أن الله أحيا الأرض يحيي الموتى. النشور يعني يبعث الناس من قبورهم؛ يوم النشور هو يوم القيامة، وهذا واضح في القرآن الكريم، في آية أخرى مثلها قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩].

فالله ساق لك هذا الشيء الماء والمطر يذكرك بأي شيء؟ بأن الذي يسوق هو الله، وأنه هو الواحد، وأنه هو الرحيم بعباده يرحمهم، وأنه هو القادر -القدرة معه- وأنه قادر على بعث الناس يوم القيامة، فتتذكر إذا رأيت السماء تمطر والسحاب تتذكر أن الله قادر على أن يبعث من في القبور.

طيب، هؤلاء الذين زينت لهم سوء أعمالهم ولم يلتفتوا إلى آيات الله الكونية ولم ينظروا فيه ولم يعبدوه، يريدون العزة، يظنون أن العزة في تزيين الأعمال لهم؛ لا، العزة في طاعة الله. ولذلك شوف قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

العزة لله سبحانه وتعالى يعطيها من يشاء، ولذلك أعطاها رسوله وأعطاها أولياءه، والله سبحانه وتعالى قال في سورة (المنافقون) لله العزة ولرسوله وللمؤمنين، فالعزة لله يعطيها رسوله يعطيها للمؤمنين؛ «**فلله العزة جميعاً**» يهبها لمن يشاء، أما الكفار وأما المعاندون ليس لهم عزة لهم الذلة. قال: «**من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً**».

طيب، العزة كيف نحصل عليها؟ إذا كانت عند الله كيف تحصل عليها أنت وأنا والثاني كيف يحصلون عليها؟ قال: تحصل عليها بالعمل الصالح. ولذلك ماذا قال بعدها؟

قال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

«**إليه**» أي إلى الله «**يصعد الكلم الطيب**»؛ ما هو الكلم الطيب؟ الذكر، وقراءة القرآن، والتسبيح، وكل ما هو من الكلم الطيب داخل في الكلمة الطيبة: السلام، يعني الحديث الطيب، قراءة القرآن، قراءة الأحاديث -أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم-، التسبيح، التهليل، التكبير؛ كل هذا كله الدعاء كلم طيب كله يصعد إلى الله «**الكلم الطيب**». أما الكلم الخبيث: السب، والشتم، واللعن، والغيبة؛ هذه لا تصعد إلى الله، ولو صعدت ما فتحت لها أبواب السماء. الذي يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه الله سبحانه وتعالى، يصعد إليه كلمه الطيب.

والله عز وجل هو الذي يرفع الأعمال الصالحة من صلاة، وصيام، وعمرة، وحج، وكل هذه الأعمال الصالحة يرفعها الله إليه. وبعض المفسرين **يقول:** لا، العمل الصالح هو الذي يرفع الكلم الطيب إليه؛ يصعد الكلم الطيب لكن الكلم الطيب لا يصل إلى الله إلا بالعمل الصالح، يعني لا يعني كأنه يقول الكلم الطيب وحده بدون عمل صالح ما ينفع. وهناك رأي بعض المفسرين أيضاً آخر **يقول:** «**والعمل الصالح**

يرفعه» أي يرفعه الكلم الطيب، يعني الأعمال الصالحة لا ترتفع إلا بالكلام الطيب والدعاء وحسن النية وذكر الله هي التي ترفعها. هذه العزة، هذه العزة.

أما الذلة اسمع ماذا يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر: ١٠].

«**والذين يمكرون السيئات**» يمكرون يعني يفعلون السيئات، ويمكرون بأولياء الله، والمكر هو التحايل على الشيء، فهؤلاء الكفار يحاولون والله عليم بما يصنعون، ويمكرون السيئات ولا يعملون الصالحات النتيجة ما هي؟ لهم الذلة في الحياة الدنيا، ولهم عذاب شديد في الآخرة، ومكرهم ماذا؟ مكرهم لا يبقى يذهب، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله: «**مكر أولئك هو يبور**»؛ يبور لا يبقى، لا يبقى له أثر.

الله سبحانه وتعالى يزيد يجيدك من الآيات الكونية، ويزيدك من الآيات التي تعتبر بها؛ يعني الآن رأيت أنت كيف الله سبحانه وتعالى يخلق السحاب وينزله، الله يذكرك بنفسك يقول: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

والله خلقكم أنتم من تراب؛ يعني خلق أصلكم وهو آدم من تراب، ثم قال: «**ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ**» أي ذريته، لأن آدم خلق من تراب وأما ذريته من ماء مهين، من النطفة وهي الماء المني الذي يخرج من الإنسان من الرجل فتلحق به المرأة؛ قال: «**من نطفة ثم جعلكم أزواجاً**» أي جعلكم ذكوراً وإناثاً، يهب لمن يشاء الذكور ويهب لمن يشاء إناثاً، جعلكم أزواجاً.

ثم لما بين الخلق الأول وخلقكم من تراب، قال: «**وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه**»؛ الله يخلق الأزواج، يخلق الذكور والإناث في بطون أمهاتهم، لكن لتعلم أن قدرة الله في الخلق يسبقها العلم سبحانه وتعالى، فهو يعلم ما تحمل من أنثى؛ أي امرأة تحمل الله يعلم متى تحمل وكيف تحمل وبأي شيء تحمل، سواء من بني آدم أو من حيوان أو من طير أو من خشاش الأرض؛ ما في أنثى تحمل إلا الله سبحانه وتعالى يعلم، ولا تضع في الوقت الذي تضع فيه وكيف تضع إلا بعلمه سبحانه وتعالى.

ثم قال سبحانه وتعالى إذا خلق الإنسان وخرج من بطن أمه كم يعيش في الدنيا؟ قال: «**وما يعمر من معمر**»؛ ما في أحد يعمر من معمر أي معمر يعمره الله يصل إلى الثمانين، التسعين، المائة، أو ينقص من

عمره فيكون حده الأربعين أو الثلاثين أو أكثر؛ «**وما يعمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب**» في (اللوح المحفوظ) وفي علم الله السابق، لا يمكن أحد أن يعيش يقول أنا عمري كذا أو ما يدري، فعمره في كتاب، وإن نقص أو زاد.

أو يمكن أن نقول في الآية: «**وما يعمر من معمر**» هذا شخص أعطاه الله عمراً طويلاً، «**ولا ينقص من عمره**» أي من عمر شخص آخر؛ عندنا شخصان: الأول مد الله في عمره وأعطاه عمراً طويلاً، والآخر نقص من عمره فأصبح عمره قليلاً، هذا وهذا الله قدره في كتاب. وزيادة على ذلك أن: «**إن ذلك على الله يسير**»؛ هذا كله على الله يسير ليس فيه صعوبة في زيادة العمر ونقصانه، أو في ما تحمل الأنثى أو في ما تضع أو ما يخلقه الله في بطون الأمهات، كل ذلك على الله يسير.

الحقيقة أيها الإخوة، الآيات عجيبة والتأمل فيها والتفكر فيها والعيش معها لا يمل لا يمل حقيقة؛ فيها من الآيات الكونية التي تزيد الإنسان تزيده إيماناً وحباً وتعلقاً بربه، وتزيده إيماناً بأن يتمسك بالقرآن وأن يتمسك بشرع الله، وأن يملأ فراغه ويملأ حياته ووقته كله وأيامه في طاعة الله. فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يزيدنا ولا ينقصنا، وأن يعطينا ولا يحرمنا، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(فاطر ١٢ - ١٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للسابع عشر من شهر الله المحرم من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك لنا، وأن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، وأن يجعله سائقنا إلى جنات الفردوس، وأن يجعله حجة لنا لا علينا، ويجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (فاطر)، وتحدثنا عن السورة بشكل عام وأخذنا شيئاً من آياتها، اليوم نكمل ما توقفنا عنده، ومثل ما ذكرنا في لقاءات ماضية السورة تركز على موضوع مهم جداً وهي آيات الله في الكون؛ يعني آيات الله في الكون في السماء والأرض: فاطر السماوات والأرض، جاعل الملائكة، ثم قال سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]

وهكذا.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا...﴾ [فاطر: ١١]

تجد هذه الآيات الكونية آيات دالة على أي شيء؟ دائماً شوف إذا نظرت إلى مثل هذه الآيات، هذه الآيات ينبغي علينا أن ننظر إليها من عده جوانب:

أولاً: تدل على وحدانيته، وأنه هو الخالق، وهو الرازق، وهو المنعم، وهو الذي يعبد ولا يعبد غيره، وينبغي أن يدعى ولا يدعى غيره، وأن تصرف له جميع العبادات؛ هذه قضية مهمة جداً؛ إذا نظرت إلى آيات الله في الكون ينبغي أن تعرف أن الذي خلقها وأوجدها والمتصرف فيها هو واحد القهار؛ هذه النقطة الأولى لا بد أن نفهمها.

ثانياً: أن نعرف أن الله سبحانه وتعالى هو الرزاق؛ فإذا ساق لك هذه الآيات: الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسحاب، والأمطار، والبحار وما فيها؛ الله هو الرزاق وحده لا شريك له، لا يرزق أحد غيره أبداً، لا بد أن نعترف ونقر بأن المنعم وأن الرزاق هو الله سبحانه وتعالى، فنكون فقراء إلى الله، نكون نعرف أن الله هو الغني سبحانه، هو المتصرف في هذا الكون وهو الغني وهو الذي يرزق من يشاء، وهو الذي قال الله سبحانه وتعالى في أول السورة وأنت تقرأها:

قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]

ثم القضية الثالثة بعدما نعرف قدرة الله عز وجل؛ يعني أنت عرفت أن هذه الآيات تدل على وحدانيته وتدل على أنه منعم على عباده ورزاق سبحانه، وتدل على قدرته عز وجل؛ من يستطيع أن يمسك السماء؟ من يستطيع أن يسوق المطر؟ من الذي يخلق الملائكة؟ من الذي يخلق البحار؟ من الذي يخلق الشمس والقمر؟ هذه تدل على قدرة الله، لا بد أن نعترف بقدرته جل وعلا، وأن القادر والقدير والمقتدر والذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

إذا تقرر عندك هذه القضايا المهمة جداً؛ يعني هذه آيات الكون في هذه السورة تدل على وحدانيته في العبادة، وحدانيته في الرزق والانعام، وحدانيته في القدرة؛ تقرر هذا الأمر عندك يعني هذا يعتبر مكسب كبير لك في طمأنينة القلب وانشراح الصدر وتعرف أن الله مع عباده المتقين المؤمنين ويزداد إيمانك عندما تتأمل هذه الآيات.

الآن عندنا آيات عجيبة الله سبحانه وتعالى يقول، وتوقفنا عند الآية الثانية عشرة:

قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]

ما يستوي البحران؛ ما هما البحران؟ العذب والملح أو المالح. **يقول:** ما يستوي البحران، لماذا قال هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ما تستطيع أن تشربه؟

طيب، ما معنى هذا عذب؟ قال: العذب الماء الذي يعني مثل ما ذكر الله قال: سائغ شرابه؛ يعني تستسيغه النفوس وتشربه بطمأنينة وبهدوء وبراحة، فهو يعني عذب؛ يعني سريع الجري خفيف ينطلق معك.

وفرات: يقطع، الفرات من الفرت وهو القطع، يقطع العطش؛ فالماء العذب السهل الذي تتقبله النفوس، الحلو العذب الذي طعمه طعم جيد، هذا يقطع العطش وسريع الجريان في الحلق، هذا معناه؛ فأنت تشرب من الأنهار وتشرب من الآبار وتشرب من الأودية وتشرب أو نحو ذلك، هذا الماء الذي والينابيع ونحوها، هذا ماء عذب فرات سائغ شرابه، لين هين سهل طعمه حسن.

مقابله مياه البحار وهي، قال: وهذا ملح، يقال ماء ملح ويقال ماء مالح كلها. طيب، ملح أجاج؛ الأجاج من التأجج، تقول نار تتأجج يعني تتلهب، والماء الملح يتلهب في المعدة وفي الحلق والمريء ويشتد عليك زيادة عطش على عطش، فهذا معنى ملح أجاج؛ شديد التأجج وهو الحرارة، تقول نار تتأجج ولهب يتأجج.

طيب، إذا كان هذا ما يستوي مع هذا؛ طيب لماذا؟ قد يسال شخص ويقول لك: ما الحكمة من كون البحار مياه مالحة؟ لماذا؟

نقول: ذكر بعض أهل العلم أن السبب هو أولاً: أن السبب أن إذا كان الماء يعني مالحاً فإنه يقطع الروائح الكريهة؛ لأن هذه البحار توجد فيها حيوانات كثيرة وتموت هذه الحيوانات، فإذا ماتت في الماء المالح فالماء المالح يقطع تلك الروائح الكريهة؛ هذا أمر.

الأمر الثاني: أن البحار في الغالب ما تجري، راكدة ليست كالأنهار تجري، لا؛ هذه راكدة، فالمياه الراكدة إذا لو كانت مياه غير مالحة لأظهرت روائح كثيرة وتعفنت مع الزمن، لكن لما كانت مالحة تقطع هذا الأمر.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [فاطر: ١٢]

يعني كل فيها من الأسماك والحيتان ونحوها، تستخرجون ومن حيوانات البحر وحيوانات النهر، تستخرجون منها هذا اللحم الطري وتأكلونه. وشوف كلمة (طَرِيًّا) تدل على أن هذا نعمة من الله والله يمتن به على عباده، لم يقل لحماً مجففاً ومقدداً، بل قال: طرياً جاهز، فدليل على سرعة أكله وأنه لا يحتاج إلى كلفة.

وهذا يدل على أي شيء؟ يدل على حل ما في البحار؛ الأصل في البحار هو الحلال، كل ما في البحار إلا ما كان فيه خبث، أو أذية على الإنسان، أما الأصل في حيوانات البحر؛ فإنها تؤكل.

قال النبي صلى الله عليه وسلم لما سُئل عن البحر قال: «**هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ**»

قال تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]

يقول: تستخرجون من البحار والأنهار هذه الحلي: اللؤلؤ، والمرجان، والجواهر، والمعادن الثمينة من قاع البحار، وقد توجد لأن الله قال: «**وَمِنْ كُلٍّ**»؛ يعني من كل أي من البحر البحار والأنهار، قد تكون في الغالب في الغالب كثيراً أن هذه الحلية في البحار والله أعلم.

قال تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]

ليش؟ لماذا قال الله: تستخرجون؟ شوف يعني ما قال: تخرجون؛ شوف في فرق بين تخرجون وتستخرجون. الفرق بينهما أن تستخرج يحتاج إلى كلفة، ولذلك الغواصون في البحار يغوصون بقوة وكلفة وتعب ويستخرجون هذه، لا يجدونها إلا بعد مشقة؛ ولذلك قال: تستخرجون.

قال تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]

هل الرجال يلبسونها؟ نقول: الأصل أن النساء هي التي تلبس هذه الحلي، والحلي للنساء هذا هو الأصل، وقد يلبسها الرجال كالخاتم والمنطق والحزام الذي يلبسه كبعض الاستعمالات التي يستعملها بعض الرجال؛ هذا جائز لبس الحلي. وهناك لا بد أن نفهم أيها الإخوة فرق بين الذهب والفضة والحلي؛

شوف الحلي كاللؤلؤ والمرجان وجواهر البحار والجواهر الثمينة التي تستخرج من البحار والألماس، هذه يجوز للرجال والنساء لبسها. أما والفضة، أما الذهب لا؛ الذهب لا يجوز إلا للنساء.

قال النبي صلى الله عليه وسلم في الذهب: «حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، حَلَالٌ لِإِنَاثِهَا»، وقال: «مَنْ لَبِسَهَا فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهَا فِي الْآخِرَةِ»

فلا بد أن نفرق، الذهب لا يلبسه إلا النساء ولا يجوز للرجل أن يلبس الذهب ولا خاتم ولا غيره، وأما الفضة فقد أباح الإسلام للرجل أن يلبس خاتم الفضة فقط، خاتم الفضة. أما الألماس والجواهر الأخرى والمرجان ونحو هذا جائز، لكن بشرط ألا يلبسه الرجل متشبهاً بالنساء؛ كيف؟

يعني ما يضع القرط في أذنيه، هذه القرط الأقراط التي توضع في الآذان هذا تشبه بالنساء، ولا يضع القلادة على صدره؛ لأن الذي يضع القلادة على صدره هي المرأة، فالسلاسل تلبس في الأيدي السوار ونحو ذلك هذه خاصة هذه من لبس النساء، فإذا لبسها الرجل تشبه بالنساء والرجل منهي أن يتشبه بالنساء، أما لو أخذ قطعة من الألماس ووضع خاتم مثلاً نقول: جائز؛ لأن الخاتم يلبسه الرجل والمرأة، أو وضع قلماً مثلاً أو ساعة أو نحو ذلك، هذا أو حزام يلبسه، هذا جائز؛ سواء من الألماس أو من اللؤلؤ أو من المرجان، غير الذهب لا يجوز.

طيب، يقول هنا شوف، **قال تعالى:** ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]

قال بعضهم: تلبسونها يعني تلبسونها نساءكم، أو تلبسها النساء لأجلكم.

ثم ذكر نعمة أخرى عظيمة في البحار وقد تكون في الأنهار وهي هذه السفن التي تنطلق ذاهبة وعائدة، **قال تعالى:** ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢] أي في البحر أو في البحار أو في الأنهار، وترى الفلك فيه مواخر.

مواخر: جمع ماخرة، والماخرة السفينة تمخر الماء أي تدفعه بقوة وتحدث صوتاً عند الانطلاق؛ هذا معنى مخر، **يقول:** مخر الماء إذا دفعه بقوة. الفلك تجدها تمخر الماء بقوة تذهب وتأتي وتحمل البضائع وتحمل الناس؛ هذه نعمة عظيمة من نعم الله، يعني كما قال سبحانه وتعالى:﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ [الشورى: ٣٣]

يقول: لو أسكن الله الريح والسفن على البحار لبقيت واقفة رواكد على ظهره، وأو يهلكها بريح عاصف. فإذا ركب الإنسان البحر وأراد أن ينتقل من مكان لمكان أو أركب هذه البضائع، يتذكر نعمة الله كيف يسير هذه السفن، والله سبحانه وتعالى **يقول:** وهو الذي يسيركم في البر والبحر، فنعمة الفلك وانطلاقها في نقل البضائع، شوف **قال تعالى:** ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ١٢] أي في التجارات. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢] نعمة الله على ما أنعم عليكم من المياه الحلوة العذبة ومن البحار وما فيها من الخيرات من هذه الأطعمة وهذه الجواهر، وكذلك هذه الفلك التي تحمل وتنقل البضائع، **قال تعالى:** ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢] نعمة الله عليكم. وفيها آيات عظيمة مثل ما ذكرنا تدل على أنه هو الواحد وتدل على أنه هو القادر وأنه هو المنعم.

ثم ذكر لنا آيات أخرى أيضاً عجيبة فقال:

قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]

هذه آية عظيمة؛ إيلاج الليل إدخال الليل في النهار والنهار في الليل. شوف الليل يدخل في النهار لا تجد بينهما فاصل، ما تدري إلا الليل قد دخل في مكان النهار، ثم يأتي النهار ويدخل في مكان الليل، ويزيد هذا وينقص هذا، كل ذلك يجري بنظام دقيق عند الله سبحانه وتعالى يجري بنظام دقيق؛ يعني ارتفاع النهار ونقصانه، هذا كله بأمر الله سبحانه وتعالى وتدبيره يجري في نظام دقيق يحتاج منا إلى أن نتأمل كيف يأتي هذا الليل بظلمته الشديدة فيأتي ويغطي النهار ويقضي عليه، ثم يأتي النهار بنوره السافر ويقضي على الليل؛ هذه آيات عظيمة.

وألاحظ أنه قال: «**يُولِجُ**» فعل مضارع يدل على أن الحركة حركة مستمرة.

قال: «**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ**»؛ الشمس هو سبب وجود النهار، والقمر وجود الليل، فإذا وجدت الشمس جاء النهار. قال: سخر الشمس، سخرها يعني ذللها وجعلها لا تستعصي، كل ذلك تسخير للإنسان، تسخير للإنسان في مصالحه؛ الشمس فيها مصالح عظيمة، والقمر فيه مصالح عظيمة.

قال: كل من الشمس والقمر والكواكب، كل يجري لأجل مسمى.

ما المراد بالأجل المسمى؟

قال بعضهم: أجل مسمى هو نهاية النهار، إذا انتهى النهار ذهبت الشمس إلى تحت العرش وسجدت تحت العرش فيؤذن لها، يؤذن لها أن تطلع مرة أخرى؛ هذه نهايتها، نهاية يومية. والقمر كذلك له نهاية شهرية، فيبدأ أول الشهر هلالاً ثم قمراً ثم بدراً ثم يتناقص يتنقص إلى أن يذهب وينتهي؛ هذا أجله، أجله شهرياً وهذا أجل يومياً، هذا وجه، هذا قول.

وبعض العلماء **يقول:** لا، إن المراد بالأجل المسمى هو نهاية الكون، نهاية الدنيا؛ يعني هذه حركة الشمس والقمر كل يوم كل يوم حركة إلى أن تنتهي الدنيا، فإذا انتهت الدنيا تعطلت هذه الحركة وانتهى دور الشمس والقمر.

قال شوف، قال في آخر هذه الآيات العظيمة ماذا؟ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ [فاطر: ١٣] يذكرك بالتوحيد والإلهية، ذلكم الذي سخر هذه الأشياء وحركها وأنعم عليكم وأتى بها هو الله هو الله، وهو ربكم الذي هو خالقكم مثل ما ذكرنا، الله توحيد الإلهية يعني المعبود بحق، وقال: رب ربكم، أي هو الخالق وله الملك هو المالك للكون؛ المالك، الخالق، الرب، المعبد، المنعم على عباده؛ هذه لا بد أن تكون في أذهاننا.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]

والذين تدعون من دونه؛ أيها الكفار أي المشركون تدعون آلهة من دونه وتعبدون الأصنام من دونه، وتستغيثون بالأولياء وتدعونهم هؤلاء والأموات وتطوفون حولهم، تدعون من دونه ما يملكون من قطمير؛ حتى القطمير ما يملكونه، حتى القطمير لا يملكونه.

ما هو القطمير؟

شوف إن النواة، نواة التمرة فيها ثلاث أشياء حقيرة جداً:

القطمير: وهو اللفافة، القشرة البيضاء، اللفافة التي تكون على النواة، هذا نسميه قطمير.

والنقير: النقرة الصغيرة، **قال تعالى:** ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] النقرة الصغيرة هذه نسميها نقير.

وفي ثالث ما هو؟ فيه الفتيل: قال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩] هذا الفتيل هو الخيط الصغير الذي يأتي على يعني على بطن النواة، هذا الخيط الصغير الممتد الأبيض السلك، هذا اسمه الفتيل.

والله يضرب بهذه الأشياء، هذه الأشياء الحقيرة في أن مثل هؤلاء الأموات الذين يذهبون إلى قبورهم ويطوفون حول الأموات: يا حسين وغيره، هؤلاء الأموات ما يملكون شيئاً، ما يملكون ولا لأنفسهم، فيدعونهم ويستغيثون بهم ويقربونهم القرابين، وكذلك الذين يعبدون الأصنام يأتون إلى هذه الأصنام والتماثيل، تجد تمثال عظيم يجلسون ويسجدون أمامه ويعبدونه، ما يملكون من القطمير.

ثم أمر آخر، اسمع قال تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]

إن تدعوهم؛ هؤلاء الأموات وهذه الأصنام، الأصنام مخلوقة من حجارة، مخلوقة من رخام ومخلوقة من خشب، هذه إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم؛ ما يسمعون دعاءكم. الله يسمع الدعاء، الله سميع بصير يسمع، وهؤلاء لا يسمعون؛ تترك الذي يسمع وتذهب الذي لا يسمع! أين عقلك؟

إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم، ولو سلمنا وفرضنا أنهم يسمعون، لو قلنا انهم يسمعون: ولو سمعوا ما استجابوا لكم؛ ما يستجيب لكم لأنهم ما يملكون شيئاً، ما يملكون، الذي يملك هو الله، الذي الله ربكم له الملك، ولو سمعوا ما استجابوا لكم.

وإذا أنتم أصريتم على عبادتهم وذهبتم إليهم وتركتم الخالق السميع البصير، يوم القيامة يكفرون، يكفرون بشركهم؛ **يقول:** لن نرضى ولن نسمح أنهم يعبدوننا، يكفرون بشرككم.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]

ما تجد خبراً مثل هذا الخبر الذي يأتيك من الله سبحانه وتعالى، ولا ينبئك مثل خبير؛ ما تجد أخباراً صحيحة دقيقة مثل أخبار الله سبحانه وتعالى.

شوف لما يذكر الله هذه النعم العظيمة ما موقف الإنسان منها؟ موقفه أن يعترف وأن يقر بعبودية الله وحده، وأن يشكر الله على هذه النعمة ويعترف بنعمة الله عليه، وأن يعبد الله لا يعبد غيره، ويعترف

بضعفه وفقره؛ ولذلك اسمع ماذا قال الله بعدها، **قال تعالى:** ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]

يا أيها الناس أنتم الفقراء؛ أنت فقير إلى الماء والمطر والسكن والطعام والشراب وكل هذه الأشياء، أنت ضعيف فقير، أنتم الفقراء لا غير، أنتم الفقراء إلى الله، والله سبحانه هو الغني الحميد؛ فهو الغني، غني بذاته لا يحتاج إلى أحد، وغني يعطي ويرزق ويهب لمن يشاء.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ومعنى الحميد الذي يعطي من غناه بلا حد حتى يحمده الحامدون، فهو غني رزاق سبحانه وتعالى ليس غنياً كالبشر، تجد بعض البشر غنياً ولا يعطي أحداً بخيلاً؛ بعض الناس تجده غنياً ولكنه لا ينفق بخيل، فهذا لا يستفاد منه، لكن الله سبحانه وتعالى الغني الذي له ملك السماوات والأرض ويرزق ويعطي من يشاء سبحانه وتعالى.

ولذلك شوف قال: أنتم الفقراء ارجعوا إلى ربكم واعبدوه واعرفوا قدر الله واعرفوا عبادته وإلا سيأتيكم ما يأتي غيركم:

قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [فاطر: ١٦]

يهلككم ويأتي بأمة جديدة تعبده، وأنتم إذا لم تعبدوه أذهبكم سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٧]

ليس ذلك أن يذهبكم على الله يعني يصعب عليه ويعز عليه، لا؛ ليس على الله بعزيز، فإن شاء يذهبكم، أو إن شاء يذهب الدنيا كلها وينتهي تنتهي الدنيا وتأتون إلى الله ويحاسبكم.

ولذلك **قال تعالى:** ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨]

ولا تزر وازرة وزر أخرى؛ لا تحمل، تزر يعني تحمل، لا تحمل حامله يعني إذا كان عندها ذنوب هي تحمل ذنوبها ما تحمل ذنوب غيرها، معناه: لا تزر وازرة وزر أخرى.

لكن هنا نقطة أيها الإخوة لازم نفهمها؛ الآن الله سبحانه وتعالى هنا يقول لا تزر يعني لا تحمل حاملة حمل غيرها؛ يعني الذنوب التي على ظهرها ذنوبها هي تحملها أما ذنوب غيرها ما تحملها، لكن تجد في آية

أخرى **قال تعالى:** ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]

و**قال تعالى:** ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]

يعني أوزارهم وأوزار غيرهم، نقول: كيف نجمع بين الآيتين؟

نقول: الأصل في الإنسان أنه هو المسؤول عن ذنوبه وهو الذي يتحمل ذنوبه لا يتحمل ذنوب غيره، إلا إذا كان يدل الناس على الشر؛ إذا كان هو السبب، فالدال على الشر فإنه يحمل وزره ووزر غيره، فلو أن إنسان دل آخر على معصية فإنه يحمل هذه المعصية هو ويحمل معصية غيره، أما إذا لم يكن دالاً عليه فلا تزر وازرة وزر أخرى.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨]

يقول هذه المثقلة؛ يعني المثقلة التي حملت الأوزار الثقيلة، لو تدعو إنسان آخر إلى حملها، تقول لشخص آخر أو لنفس أخرى: تعالي احملي عني شيئاً من الذنوب؛ لا، لا يحمل منه شيء لا يحمل، لا يمكن أن يحمل إنسان وزر غيره أبداً.

قال: حتى لو كان قريباً، **قال تعالى:** ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨] حتى لو كان الوالد لا يحمل عن أبنائه، والوالدة لا تحمل عن أبنائها، والأبناء لا يحملون عن والديهم، كل مسؤول عن ذنوبه وعن أوزاره.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨]

قال: ثم قال سبحانه وتعالى إنما أنت يا محمد في دعوتك وأنت أيها الداعي إلى الله، إنما أنت منذر فقط؛ تنذر الناس وتبين لهم هذه الحقائق، وتنذر؛ من الذين يستفيدون من النذارة؟ وإن كانت النذارة عامة، لكن نركز على من يستفيد من هذه النذارة، من هم المستفيدون من هذه النذارة؟

قال: الذين يخشون ربهم بالغيب؛ يخافون الله إذا غابوا عن الناس، أو يخشون الله وهو غائب عنهم لا يرونه، فهم يخافون الله سبحانه وتعالى ويخشونه في عباداته، ويبادرون إلى الطاعات والواجبات، ويتركون المحرمات خشية أن تكتب عليهم أو تسجل عليهم.

ثم هم مع هذا، يخشون هذا شيء غيبي أو قلبي أعمال قلبية، ذكر لك أعمال الجوارح الظاهرة قال: وأقاموا الصلاة؛ حافظوا على الصلاة، هؤلاء ينتفعون بالنذارة.

قال تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨]

ومن تزكى؛ هذه يعني حث على الطاعات وتطهير القلوب وتطهير الداخل والخارج أن يكون المؤمن دائماً أعماله وجوارحه وأخلاقه طيبة.

قال: من تزكى بأعماله الصالحة وزكى قلبه، من تزكى فإنما يتزكى لنفسه؛ من يتزكى لنفسه والى الله المصير؛ أي أعمالكم ترجع إلى الله يجازيكم عليها ويحاسبكم عليها، إلى الله مرجع الخلق كلهم ومصيرهم إلى الله سبحانه وتعالى وهو الذي يحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم.

وفي هذا لما يقول الله تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨] للمرجع يوم القيامة، حث على المسابقة للأعمال الصالحة والبعد عن الأعمال المحرمة، هذا هو المقصود.

طيب، لعل نقف أيها الإخوة عند هذا القدر إن شاء الله، في لقائنا القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(فاطر ١٩ - ٣٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للرابع والعشرين من شهر الله المحرم من عام سيرة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة (١٤٤٦هـ).

نجلس في هذا المجلس المبارك وبين أيدينا كتاب الله سبحانه وتعالى؛ خير الكلام، الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل فما له من هاد. السورة التي بين أيدينا هي سورة (فاطر)، والآيات عندنا هي الآية التاسعة عشرة وما بعدها؛ يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۞ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۞ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۞ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ۞ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٣].

الآية أيها الإخوة واضحة جداً؛ هذا يعني الفارق أو الفرق، أو البون شاسع بين هذا وهذا، لا يمكن أن يكون هذا مثل هذا أبداً، والله سبحانه وتعالى ينفي التساوي بين هذه الأمور؛ فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٩].

لا يمكن أن يكون الأعمى والبصير شيئ واحد؛ الأعمى شيء والبصير شيء، فالأعمى الذي لا يبصر والبصير الذي يبصر، هل يستوي هذا مع هذا عقلاً؟ لا يمكن أن يستوي أبداً.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ٢٠].

الذي يعيش في الظلمات مثل الذي يعيش في النور؟ الظلمة مثل النور؟ لا يستوي أبداً.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ [فاطر: ٢١].

المكان الذي يكون ظلاً كظل الشجر وظل الحائط وغيره، ومن يكون في شدة الشمس وهبوب الريح الحارة؛ لا يستوي هذا مع هذا، هذا ريحه طيب وقد يكون بارداً، وهذا ريحه حار شديد الحرارة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ٢٢].

هذا أيها الإخوة من المعلوم ومن المتقرر ومن المسلم أن هذا لا يستوي مع هذا، لكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يبين لنا في هذه الآيات أمراً آخر ينبغي للعاقل أن يفهمه، وينبغي لكل قارئ في القرآن أن يدرك هذا المعنى.

الله يقصد شيئاً آخر؛ لا يقصد الأعمى الذي قد كف بصره، هذا معلوم ما أحد يستطيع أن يقول هذا مساوي لهذا، كل الناس متفقون على أن هذا لا يساوي هذا، لكن الله أراد معنى آخر بعيد وهو مثل ما ذكر في آخر الآية؛ الذي يريد أن يفهم نفي التساوي في هذه الأشياء الأربعة فلينظر إلى آخر الآية؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٢٢].

يسمعه ماذا؟ يسمعه الحق، ويسمعه القرآن، ويسمعه شرعه ودينه، الله يسمع من يشاء، والمقصود به الهداية؛ إلى الصراط المستقيم وإلى طريق الحق، الله يسمع ويهدي من يشاء.

وأما أنت يا محمد فلا تستطيع أن تسمع من في القبور؛ الذين في القبور يسمعونك؟ لو قلت لهم السلام عليكم يردون عليك؟ ما تستطيع أن تسمع من في القبور، الأموات ما تسمعهم، ما يسمعون منك، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ * إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٢ - ٢٣].

أنت وظيفتك النذارة. إذن هذه الأمثلة الأربعة التي ساقها الله: الأعمى مع البصير، والظلمات مع النور، والظل مع الحرور، والحي مع الميت؛ هذه الأمثلة الأربعة ساقها الله سبحانه وتعالى ليقرر قضية الهداية والضلال، والضال والمهتدي؛ فلا يستوي من عرف الطريق إلى الله وسلكه ممن هو في ضلال مبين، لا يمكن، هذا هو المقصود، وهي رسالة من الله سبحانه وتعالى لكل ضال ولكل من ترك طريق الحق وسلك طريق الشياطين وطريق الطاغوت، هؤلاء الله ينبههم فيقول:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ ؛ الأعمى من هو؟ الكافر الأعمى الظالم، والبصير؟ المؤمن المهتدي.

ثم قال:

﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ الظلمات هي طرق الضلالة، الظلمات التخبط، الشياطين، الظلمات هي الكفر والطغيان، والنور هو الطاعة، ولذلك شوف لاحظ الظلمات جاءت بصيغة الجمع "ظلمات" ما قال "الظلمة" قال "ظلمات"، والنور ما قال "الأنوار" قال "نور" واحد؛ ليش؟ لأن الحق واحد والضلال طرقه كثيرة؛ كما قال تعالى:﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الحق واضح والحق واحد وطرق الضلال كثيرة.

ثم قال:

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ ؛ الظل أثر الطاعة؛ يعني المهتدي يجد في قلبه حلاوة الإيمان، يجد في قلبه الطاعة وأثرها وحلاوة الإيمان، كأنهم في ظل، وأهل الضلالة يجد الضيق والنكد، يجد الكآبة، فكأنه في مكان حار قد اشتدت عليه هبوبه الحارة. فتشوف كيف الفرق بين هذا وهذا.

ثم قرر مرة أخرى وعاد إلى الأول وقال:

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ ﴾؛ الذين أحياهم الله بالإيمان والطاعة وأحياهم الله بالإسلام،

﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ الذين في ظلمات الجهل والضلالة والكفر، لا يستوي هذا مع هذا، ولذلك قال: إذا كان هؤلاء لا يستوون فإن الهداية بيد الله يهدي من يشاء؛

قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ﴾؛ يسمع من يشاء ويهدي من يشاء، كل من أراد الهداية من البشر وبحث عنها وفقه الله، وكل من صد عن الهداية واستمر في طغيانه أضله الله وتركه في ضلاله.

ينبغي أن نفهم من هذه الآية أن من سعى إلى الخير وفقه الله، ومن تاب الله عليه، ومن عاد إلى الله فإن الله يفتح له أبوابه ويفرح الله بتوبة العبد، وإذا الإنسان بحث عن الهداية وجدها، وإذا صدق مع الله عز وجل أنه يريد الهداية فالله سبحانه وتعالى يشرح له طريق الهداية ويجعله يسلك طريق السلامة وهو النجاة. الله يسمع من يشاء ممن يبحث عن الحق يوفقه الله عز وجل، وأما من يبقى في ضلاله فكأنه مع أهل القبور، كأنه ميت مع أهل القبور، لا يمكن أن تسمعه ولا يمكن أن يفقه ما تقول.

الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتجاوز وظيفته ولا يتجاوز حده، فهو نذير وبشير؛ ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ؛ لم يقل الله هنا: «**إن أنت إلا نذير وبشير**»، وإنما قال: ﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فقط؛ لأن الآيات في

سياق التهديد والتخويف والإنذار، ولذلك الله سبحانه وتعالى استدرك هذا الشيء فبين أن الرسول وظيفته النذارة والبشارة فقال تعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

أي بالقرآن والدين والشرع الحق، أرسلناك بشيراً لمن يؤمن ويصدق ويتبعك، تبشره بفوزه بجنات النعيم، ونذيراً لمن يعرض ويستكبر، تنذره العذاب الأليم.

ثم بين سبحانه وتعالى أن الرسول ليس جديداً وليس ببدعة من الرسل، وليس هو أول رسول، بل أرسل الله في أمم ماضية رسلاً كثيرين، فلذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾؛ ما من أمة من الأمم الماضية إلا وجد فيها نذير، الله عز وجل لم يتركهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ثم بين سبحانه وتعالى تسلية لرسوله حتى يصبره على الدعوة وعلى الاستمرار في رسالته وفي تأدية الرسالة؛ قال سبحانه وتعالى لرسوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥].

يعني إن يكذبوك قومك، كذبوك وردوا رسالتك؛ قال: إن كذبوك فقد كذب الذين من قبلهم، يعني إن كذبوك أنت يا محمد قومك فلا تحزن ولا يضيق صدرك بأنهم كذبوك وأنهم ردوا رسالتك؛ فإن الأمم الماضية كذبت رسلها؛ قوم نوح كذبوا نوحاً، وقوم عاد كذبوا هوداً، وثمود كذبوا صالحاً، فلا تستغرب؛ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أقامت عليهم الحجج، قال: جاءتهم بالبينات؛ الأدلة الواضحة حتى ما تركوا شيئاً، ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أي الكتب الماضية التي أنزلت عليهم أو أنزلت من قبلهم، ﴿وَبِالْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ الكتب التي فيها المواعظ والتذكير والتخويف، جاءتهم والكتاب المنير الذي فيه هداية الناس وفيه شرائعهم وعباداتهم؛ كتاب منير واضح لا غموض فيه، ومع ذلك لم يقبلوا رسالة أنبيائهم. والنتيجة ما هي؟

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ٢٦].

أخذ الله الكفار الذين كفروا بالله وردوا رسالات أنبيائه، قال: أخذتهم أخذ عزيز مقتدر، يعني أخذتهم بالعقوبة؛ لأن الأخذ هي العقوبة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

يعني عاقبناه. وقال: «**ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ**» أي كيف كان نكير، يعني كيف كان إنكاري عليهم، أي أني أنكرت عليهم هذا الموقف منهم فعاقبتهم أشد العقوبة.

ثم تعود الآيات أيها الإخوة الكرام إلى أصل السورة وهي بيان الآيات الكونية التي تقرر وحدانية الله وتقرر قدرته وملكه وعظيم تصرفه وتدبيره وحكمته في هذا الخلق. السورة كلها مثل ما ذكرنا كلها تدور حول إظهار الآيات السماوية والآيات الأرضية، وكما قال الشاعر:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

في كل شيء آية تدل على أنه واحد. هذه الآيات الكونية اسمع ماذا يقول الله فيها؛ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧].

يقول: «**أَلَمْ تَرَ**» يعني ألم تبصر وتعلم علماً يقيناً، علماً يقينياً، وتبصر بعينيك أن الله هو الذي ينزل من السماء، يأتي بالسحاب فينزله ماء؛ مطراً مباركاً وغيثاً نافعاً، «**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً**»، وكان هذا الماء من أثره أن الله أخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها؛ أخرج ثمرات كثيرة لا حد لها، وهذه الثمرات مختلفة الألوان. طيب، **يقول:** «**مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا**» يعني هذه الثمرات فيها الأصفر وفيها الأحمر وفيها الأخضر وفيها الألوان المتعددة جداً، وهذا يدل على قدرة الله؛ ماء واحد وزروع مختلفة، يسقى بماء واحد والاختلاف في الألوان، والاختلاف في الطعوم؛ هذا طعمه حامض وهذا حلو وهذا كل له طعم، واختلاف الأشكال؛ هذا حجمه صغير وهذا حجمه متوسط وهذا حجمه كبير وهكذا، مختلف، ثم مختلف ألوانها وأحجامها وطعومها وغير ذلك. هذا في النباتات، الألوان والأشكال في الصحاري وفي المزارع، أشكال عجيبة تدل على قدرة الله وعلى وحدانيته، وأنه هو المتصرف في هذا الكون.

ثم لفت الله نظرك أيضاً إلى هذه الجبال العظيمة التي جعلها رواسي؛ قال: وانظر إلى الجبال فيها الطرق، قال: «**وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ**»؛ (جُدَدٌ) جمع جُدّة وهي الجادة التي تكون في الجبال، قال: «**وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ**»؛ الجادة إذا كانت تطرق طرقاً كثيراً باستمرار تطرق تكون هذه الجادة بيضاء، قال: «**بِيضٌ**»، «**وَحُمْرٌ**» إذا كانت تطرق طرقاً خفيفاً تكون الطرق فيها طرق حمراء، قال: «**وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا**»، يعني أبيض، أحمر، متوسط بينهما، أصفر.

ثم قال: «**وَغَرَابِيبُ سُودٌ**» يعني طرق سود شديدة السواد؛ لأن غرابيب تعني أن الطرق يعني شديدة السواد جداً سوداء، هذا معناه، والغرابيب جمع غربيب، ولذلك سمي الغراب بهذا الاسم لشدة سواده، فالغربيب شديد السواد. **يقول:** هذه طرق الجبال، وهذه ألوان الأشجار وطعومها، وخذ أيضاً من الاختلافات:

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

الناس ألوان؛ فيهم الأبيض وفيهم الأسود وفيهم الأحمر وفيهم الألوان المختلفة بين ذلك وبين ذلك، قال: «**مِنَ النَّاسِ اخْتِلافُ الْأَلْوَانِ**»، قال: «**وَالدَّوَابِّ كَذَلِكَ**»؛ الدواب كل ما دب على الأرض من حيوان، حيوان أليف صغير أو كبير، أو من حيوان متوحش من السباع، أو ما دب على الأرض من هوام الأرض وحشرات الأرض، أو من الطيور التي تطير وتدب على الأرض؛ كلها فيها من الألوان الشيء العجيب، ألوان؛ انظر للطيور، وانظر إلى الزواحف، وانظر إلى الحيوانات، وانظر إلى الحيوانات المتوحشة كالذئاب والكلاب والفهود، ألوان. ثم قال: «**وَالْأَنْعَامِ كَذَلِكَ**»؛ بهيمة الأنعام: البقر، الغنم، الإبل؛ فيها من الألوان والأشكال والأحجام والطبائع الشيء العجيب، الذي كل ذلك يدل على قدرة الله وعلى وحدانيته وعلى رحمته وعلى إنعامه وعلى ملكه، قال: «**مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ**» مثل الاختلاف الماضي.

إذاً الله سبحانه وتعالى أشار إلى هذه الأشياء وذكر هذا؛ لماذا يذكرها؟ لتعرف قدرة الله وتعرف عظيم نعمته وتعرف ألوهيته؛ أن الواحد الإله المنفرد بالتدبير والمنفرد بالربوبية والخلق سبحانه وتعالى. ولذلك قال: «**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**»؛ **يقول:** العلماء هم الذين أشد الناس خشية، وإن كان يخشاه من يخشاه على قدر خشيته حتى لو كان من العوام، لكن الذي يخشى الله حق الخشية فعلاً هم العلماء؛ لماذا؟

لأن كل ما يزداد الإنسان علماً يزداد خشية، وكل ما يدخل في عمق هذه الأشياء يعرف عظمة الله عز وجل، ولذلك حصر الله سبحانه وتعالى الخشية في العلماء؛ قال: لا يخشى الله حق خشيته مثل العلماء، هم الذين شرفهم الله بالعلم فكانوا هم أخشى الناس. ولذلك ختم الله فقال: «**إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**»؛ عزيز ذو قوة لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء يخلق ما يشاء، وغفور لمن وقع في ذنب ثم تاب فإن الله يغفر له ذنبه ويتجاوز عنه، فتوبوا إلى الله واعلموا عظمة الله وقدرته في هذا الكون، في هذا الخلق العظيم سبحانه وتعالى.

طيب، بعد ذلك لما ذكر العلماء وخشية العلماء، ذكر بأنه لا يكفي العلم فقط، العلم والعمل؛ فإن العلماء الربانيين فعلاً هم العلماء العاملون، ولذلك ذكرت الآية شيئاً من الأعمال، من الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى ربه؛ فقال تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

«**يَتْلُونَ**» يعني يقرؤونها قراءة التدبر والفهم والعمل؛ لأن معنى التلاوة هي القراءة مع التدبر والعمل، «**يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ حَقَّ تِلاوَتِهِ**» يعني يقرؤونه حق قراءته ويقيمون حروفه وحدوده. قال: «**يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ**»؛ شوف الفعل المضارع «**يَتْلُونَ**» يدل على أنهم لا يفترون في قراءة القرآن ولا ينقطعون عنه، يقرؤون باستمرار؛ كل ما ختم ختمة أعاد مرة أخرى، وله منهجه في قراءة القرآن وطريقته أنه لا يترك قراءة القرآن بل دائماً وأبداً مرتبط بكتاب الله سبحانه وتعالى، «**يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ**» لا ينفكون عنه أبداً، لا في الليل ولا في النهار.

«**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**»؛ الصلاة قد قامت عندهم، لا يمكن أن يتنازلوا عنها، أقاموها حق القيام، وشوف كلمة «**أَقَامُوا**» غير صلوا؛ يعني هم يصلون لكنهم يقيمون الصلاة إقامة بخشوعها وأركانها وواجباتها، ويتدبرونها ويستحضرون عظمة الصلاة.

«**وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**»؛ **يقول:** حتى هم ينفقون الأموال الكثيرة، ينفقون ويتصدقون مما رزقناهم، يعني بعض ما رزقناهم؛ لأن الذي رزقهم الله المال الكثير فينفقون منه ولو القليل، «**سِرًّا وَعَلَانِيَةً**» يعني خفاءً وعلانية أمام الناس، والسر أولى وأفضل؛ ولذلك قدمه الله قال: هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال؛ يعني

شوف التلاوة عمل لك أنت تقدمه لله، تقرأ حرفاً يعطيك الله فيه عشر حسنات، إقام الصلاة علاقتك مع ربك؛ هل أنت قد قويت علاقتك مع ربك في إقام الصلاة والاستمرار عليها؟

كلما جاء وقت الصلاة ووجبت الصلاة فزعت إليها وسارعت إليها، وعلاقتك بربك في الصلاة، وأما الإنفاق في سبيل الله فعلاقتك مع إخوانك المحتاجين، مع الإحسان إلى الوالدين والأقارب والمحتاجين وذي القربى ونحوهم؛ كلها إذا فعلت ذلك فاعلم أنك في تجارة رابحة لا يمكن أن يطرأ عليها أي خسارة، «**يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ**»؛ لن تخسر أبداً، تجارتك مع ربك في هذه الأمور لن تخسر؛ قوي، اقرأ، أكثر من تلاوة كتاب الله، وكن مرتبطاً بكتاب الله لا تنفك عنه في حياتك، حافظ على صلاة ربك، أنفق في سبيل الله ينفق عليك؛ إذا حققت هذه الأمور الثلاثة فاعلم أنك في تجارة رابحة لن تخسر أبداً.

قال الله سبحانه وتعالى في بيان هذه التجارة:﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[فاطر: ٣٠].

يعطيهم أجورهم كاملة، بل يزيدهم من فضله؛ يعطيهم الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة، «**إِنَّهُ غَفُورٌ**» لمن قصر أو حصل منه يعني فتور أو قصور أو نحو ذلك، «**شَكُورٌ**» لمن بادر وسارع فإن الله يعطي على القليل الشيء الكثير.

ثم **قال تعالى:** ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾[فاطر: ٣١].

لما عظم القرآن والصلاة والصدقة، عاد إلى القرآن وبين أثر القرآن على أصحابه؛ قال: «**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ**» وهو القرآن «**هُوَ الْحَقُّ**» الذي لا مرية فيه، «**مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ**» من الكتب السابقة، «**إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ**»؛ **يقول:** الله خبير بعباده وبصير بهم، من يستحق أن يكون من أهل القرآن ومن لا يستحق، ومن يستحق الهداية ومن لا يستحق. ولذلك ذكر سبحانه وتعالى عظمة القرآن، وأن هذا القرآن ميراث عظيم جداً، ميراث لمن أخذ به؛ يعني أخذ به حق الأخذ وتمسك به، هذا ميراث، النبوة وميراث محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[فاطر: ٣٢].

«أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ» من؟ قال: «الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا»؛ الذين اخترناهم للهداية والاستقامة والإسلام، ودخلوا في الإسلام وكانوا من أمة محمد، الله أعطاهم القران وجعله بين أيديهم يتلونه حق تلاوته، قال: «اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا»، ثم بين موقف الناس من القرآن ومن الصلاة ومن الصدقة ومن سائر الأعمال؛ فقال: «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ»؛ القرآن بين يديك، تجد بعض الناس يهجر القرآن ولا يقرأه إلا قليلاً، تجده في الصلاة مفرط كثيراً، تجده في الصدقة بعيداً عنها، فهذا قد ظلم نفسه. والله سبحانه وتعالى لما يذكر الظالم لنفسه هنا مع أنه يقول اصطفيناهم وهديناهم للإسلام؛ إن هذا تحذير، لمن يقصر في حق الله، ولذلك لما ذكر الظالم وقدمه لكثرتهم، ذكر بعدهم المقتصد وقال: «وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ»؛ منهم من يلازم القرآن لكن باقتصاد، ويحافظ على الصلاة لكن تجده باقتصاد؛ كالذي يؤدي الفرائض فقط، والصدقة يؤدي الزكاة فقط، هذا يسمى مقتصداً، يعتبر مقتصداً متوسطاً.

أما الذين يسابقون إلى الخيرات فهم الذين لا ينفكون عن تلاوة القرآن لا بالليل ولا بالنهار، بل يسارعون دائماً، القرآن على ألسنتهم حفظاً وتلاوة؛ وأما الصلاة فحدث ولا حرج من قيام الليل والصلاة الواجبة والسنن والرواتب؛ وأما الصدقة فخذ أيضاً الصدقات الواجبة والزكوات والصدقات المستحبة، لا يتركون باباً من أبواب الخير إلا وساهموا فيه، ولذلك قال سبحانه وتعالى: «سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ» وتوفيقه، قال: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ»؛ الذي منّ الله عليه بالمسابقة للخير أو كان مقتصد، حتى لو كان مقتصداً أو ظالماً لنفسه حتى يعود؛ هذا فضل الله سبحانه وتعالى أن هداهم للإسلام وجعلهم من أهل القرآن.

ولذلك سبحانه وتعالى وعدهم الله بوعده الكريم، وإن كان فيهم من كان مقصراً، فوعدهم الله بجنات النعيم؛ فقال تعالى:﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

جنات عدن؛ جنات الإقامة يدخلونها، وإذا دخلوها يحلون؛ يلبسون فيها من الأساور من الذهب ويلبسون اللؤلؤ ويلبسون الحرير، يضعون الذهب واللؤلؤ في أيديهم أساور، ويلبسون لباس الحرير عليهم.

وقال تعالى:﴿وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤].

وقالوا الحمد لله؛ حالهم مطمئنة وشاكرين لربهم يحمدونه، **يقول:** أذهب عنا الحزن؛ الخوف والحزن أذهبه الله عنا، «**إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**» يغفر ويشكر؛ يغفر لمن قصر كالظالم لنفسه، وشكور لمن سارع؛ يعطيه يعني على قدر حسناته الأشياء المضاعفة الكثيرة.

ثم **قال تعالى:** ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٥].

الذي أحلنا، جعلنا ننزل دار المقامة وهي جنات عدن، جعلنا ننزل هذه الدار التي نقيم فيها ولا نريد الخروج منها أبداً من فضله، فضل من الله سبحانه وتعالى؛ «**لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ**» تعب، لا يصيبنا فيها التعب؛ الدنيا فيها تعب، إذا عملت واشتغلت تعبت، «**وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**» أي إعياء؛ يعني أثر التعب، أحياناً الإنسان يصاب بتعب فهذا نسميه نصباً، وأحياناً يلحق هذا التعب إعياء وفتور؛ هذا الإعياء الذي يلحق التعب والفتور هذا نسميه (لغوباً)، يسمى لغوباً.

شوف، قد يأتيك شخص عنده سؤال يقول لك: ظالم لنفسه ويقول الله جنات عدن، كيف نقول هذا؟ الظالم لنفسه قد عرض نفسه للعذاب؛ قد يعذب في الدنيا، قد يعذب في قبره، قد يعذب في النار يدخل النار، لكن مصيره ماذا؟ النتيجة جنات عدن؛ إذا كان من أهل التوحيد وأهل الطاعة، لكنه قصر وظلم نفسه، هذا مصيره لجنات النعيم، لكن متى يصلها؟ هذا هو الكلام.

طيب، يعني ما ذكرناه إن شاء الله فيه النفع وفيه الكفاية وفيه ولله الحمد يعني الفائدة العظيمة. نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في لقائنا القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(فاطر ٣٦ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم هو اليوم الثاني من شهر صفر من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة (١٤٤٦هـ).

درسنا في تفسير القرآن العظيم، السورة التي بين أيدينا هي سورة (فاطر)، وكما مر معنا تسمى أيضاً بسورة (الملائكة)، وتحدثنا عن هذه السورة وأخذنا شيئاً من آياتها، واليوم إن شاء الله نختم السورة بإذن الله. عندنا الآيات التي وقفنا عندها هي تقريباً الآية السادسة والثلاثون من السورة، وهي قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

نحن ذكرنا كثيراً في القرآن؛ يعني طريقة القرآن ومنهج القرآن أنه إذا بين الترغيب والترهيب بين الترغيب والترهيب؛ فتارة يعني إذا ذكر الجنة ونعيم الجنة وما فيها من الخير، يقابل ذلك بذكر النار وما فيها من العذاب الأليم، وإذا ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، وإذا ذكر الله المؤمنين وصفات المؤمنين قابلهم بصفات الكافرين؛ لماذا؟ ليكون المؤمن بين الخوف والرجاء، وبين الوعد والوعيد؛ فإن كان على خير فيحمد الله عز وجل ويزداد، وإن كان غير ذلك يرجع ويتوب ويستغفر.

هذه حالة الإنسان؛ إن كان على طاعة واستقامة وخير وقرأ هذه الآيات أو استمع لآيات النعيم وآيات حديث القرآن عن الجنة وأهل الجنة وما فيها من النعيم يفرح ويستعد ويزداد طاعة، وإذا سمع أهل النار وما في النار من العذاب يستعيذ بالله. ولذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا مر بآية الوعد والرحمة سأل الله عز وجل، وإذا مر بآيات الوعيد والعذاب الأليم تعوذ بالله.

فنحن الآن عندما ذكرنا في لقائنا الماضي أهل الجنة لما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣].

ذكر هنا أهل النار وما أعد الله لهم في نار جهنم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

والذين كفروا؛ ما معنى الذين كفروا؟ الذين كفروا بالله، الذين كفروا بآيات الله وكفروا بالله، هؤلاء مصيرهم يوم القيامة أنهم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها. يعني أن هؤلاء إذا دخلوا النار لا يقضى عليهم في نار جهنم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها.

أولاً عندما تقرأ هذه الآية تأملها قليلاً؛ «**وَالَّذِينَ كَفَرُوا**» الواو عاطفة؛ يعني لما ذكر نعيم أهل الجنة ووعده الكريم لهم عطف عليه عذاب أهل النار والوعيد الشديد لهم، فقال: والذين كفروا، وكفروا أي جحدوا؛ جحدوا وحدانيته وجحدوا آلهته، جحدوا الوحدانية وجحدوا عبادته ورسله، وكل ما يدخل في هذا؛ جحدوا كل ما جاءهم عن الله عز وجل، جحدوا وكفروا واستكبروا عن طاعة الله، النتيجة لهم يوم القيامة نار جهنم.

نار جهنم؛ النار معروفة، وهي النار التي وعدها الله الذين كفروا، وجهنم اسم من أسماء النار، مثل ما قال الله سبحانه وتعالى: (جنات عدن)؛ الجنات التي وعد الله المؤمنين، وعدن اسم من أسماء الجنة. وكذلك الكفار لهم النار التي في جهنم (نار جهنم).

وإذا دخلوا نار جهنم لا يقضى عليهم؛ يعني لا يموتون، العذاب سرمدي لا ينتهي وهم لا يموتون، يتمنون الموت ولا يجدونه، لا يموتون فيها، لا يقضى عليهم؛ أي لا يكون العذاب قاضياً عليهم حتى يموتوا، لا يهلكهم العذاب بحيث إنهم يموتوا، وإنما العذاب معهم سرمدي ولكنهم لا يستطيعون الموت، يتمنون الموت فلا يجدونه.

«**ولا يخفف أيضاً عنهم من عذاب النار**»؛ يعني يتمنون أن الله يخفف عنهم، ويسألون الله أن يخفف عنهم فلا يخفف عنهم، ولا يقضى عليهم من عذابها؛ لماذا؟ قال: جزاء وفاقاً.

والله عز وجل **يقول:** «**كذلك نجزي كل كفور**» حتى يسمعها كل إنسان؛ إذا سمع الكافر عرف أنه موعود؛ لأن الله قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦].

كل كافر يجزى بهذا الجزاء، يعني ليس كفار دون كفار؛ يسمعه كل من يمر على مرور السنين والقرون والأجيال، يعرف أن هذا الجزاء يجازي الله به كل كفور من غير استثناء، الكفور يذوق هذا العذاب.

ثم يصف الله عذابهم فيقول:﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[فاطر: ٣٧].

«**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا**» يصطرخون؛ شوف كلمة يصطرخون هي أصلها يصرخون من الصراخ وهو الصوت العالي، يجارون بالصوت العالي، لكن لما تدخل الطاء تكون أقوى؛ "يصطرخون" مثل واصطبر؛ يعني اصبر بشدة، وهؤلاء يصطرخون يعني يصرخون بشدة، ليس صراخاً طبيعياً بل صراخاً زائداً بقوة، هذا معناه؛ يصطرخون يعني يصيحون صياحاً ويجارون بأصواتهم بقوة، يعني يجارون بأصوات قوية.

وينادون ويقولون: يا مالك ليقضي علينا ربك، وينادون الملائكة، وينادون رب العالمين فيقولون: ربنا أخرجنا؛ يصيحون بقوة ويسألون الله الخروج من النار. لماذا؟ يقولون: يريدون العودة إلى الدنيا «**نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ**»، كانوا يعملون ماذا؟ يعملون السيئات ويعملون الأعمال السيئة، فهم الآن يتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً.

فات الأوان، ما في عودة، العودة مستحيلة لا يمكن، فهم يتمنون العودة ولا يمكن العودة؛ فهي من الأمور التي لا يمكن أن يعودوا إليها. قالوا: ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل.

فيرد الله عليهم: «**أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير**»؛ يعني أعطيناكم عمراً يتذكر فيه من تذكر، الذي يريد أن يتذكر، عمره أعطاك الله عمراً. وجاءكم النذير؛ يقول الله أعطاك عمراً في حياتك، يعني كان المفترض أنك تستغل هذا العمر في طاعة الله، لا يفوتك ولا يضيع عليك، لكنك ضيعته؛ ضيعت عمرك.

«**أولم نعمركم**» أعطيناكم أعماراً ضيعتموها، نعمركم عمراً ما، بمعنى شيء؛ أي عمرناكم عمراً يتذكر فيه من تذكر.

«**وجاءكم النذير**»؛ ما المراد بالنذير؟ قيل هو الرسول -صلى الله عليه وسلم- جاءكم الرسول، وقيل النذير هذا العمر الطويل، وقيل النذير هو الشيب؛ الذي يظهر في الرأس هذا نذير، نذير بقرب الرحيل.

جاءكم النذير، قال: «فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ». **يقول:** جاءكم النذير ولكنكم لم تعتبروا، وأعطاكم الله العمر ولم تستغلوا أعماركم وأوقاتكم في طاعة الله، الآن النتيجة: ذوقوا فما للظالمين من نصير؛ أنتم ظلمتم أنفسكم فذوقوا العذاب، وليس لكم من ينصركم من هذا أو يخلصكم من هذا العذاب.

هذا جزاء من كفر بالله وجزاء من استكبر عن طاعة الله، هذه النتيجة؛ أن مصيره إلى نار جهنم، وإذا دخلها لا يخفف عنه ولا يقضى عليه فيموت، ويتمنى العودة فلا يستطيع أن يعود ليعمل صالحاً، فما الفائدة؟ إن كان الواجب مثلما في هذه الآية، وإن كان المخاطب بها الكفار وأهل النار، ينبغي للمسلم أن يعتبر ويتعظ بهذه المواعظ، مواعظ الرب سبحانه وتعالى؛ يتعظ بهذه الأشياء؛ أن الله أعطاك الآن العمر، وأعطاك الصحة، وأعطاك العافية؛ فاستغلها. انظر إلى الكفار يتمنون العودة إلى الدنيا، فمادام أن الله أعطاك المهلة في حياتك ومد في عمرك فلا يذهب عمرك في غير فائدة، اشتغل بطاعة الله، واملأ فراغك واملأ وقتك في طاعة الله.

طيب، عندنا قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [فاطر: ٣٨].

يقول: إن الله عالم غيب السماوات والأرض، إنه عليم بذات الصدور. شوف لما بين لك جزاء أهل الجنة وأهل النعيم، وجزاء أهل الضلال والكفر والاستكبار (نار جهنم)؛ أخبر الله أن هذا الخبر الذي يأتيك هو من عالم الغيب والشهادة، فالله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يخفى عليه أعمال العباد؛ فهو سبحانه وتعالى يعلم الغيب كما يعلم العلانية، لا يخفى عليه.

عالم غيب السماوات والأرض، عليم بذات الصدور؛ يعني ما غاب في السماوات وما في الأرض مما غاب يعلمه الله كما يعلم الذي يراه، والغيب والشهادة عنده سواء، وكذلك عليم بذات الصدور؛ أي بما في صدور العباد يعلمه سبحانه وتعالى.

بعدما بين سعة علمه وأنه عالم بأحوال العباد وعالم بما يستحقون من الجزاء،

قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [فاطر: ٣٩].

يقول: هو الذي جعلكم يخلف بعضكم بعضاً، وهذه نعمة عظيمة؛ نعمة أن الله أعطانا أعماراً نخلف بها من كان قبلنا، ويأتي أجيال يخلفوننا وهكذا. قال: هو الذي جعلكم خلائف في الأرض يخلف بعضكم بعضاً.

فمن كفر فعليه كفره، وهذا تهديد؛ الذي يكفر بعدما سمع هذا الوعيد الشديد في نار جهنم، فمن كفر فعليه كفره؛ الكفر عليه هو، وهو الذي يتألم من ذلك، وهو الذي سينال جزاءه، قال: عليه كفره.

«**ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً**»؛ المقت هو الغضب الشديد. **يقول:** هذا الكفر الذي يكفر به الكافر ويزاول هذه الأعمال الكفرية، هذه الأعمال لا تزيده عند الله إلا بغضاً ومقتاً وشدة البعد.

«**ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً**»؛ يقول الكافر إذا كفر لا يضر الله، يضر نفسه، فهو الذي سيخسر، ويزيده كفره غضباً عند الله. فإذا كان الكفر بهذه الصفة، والكفار يستمرون في كفرهم، والله سبحانه وتعالى يقول لهم: يعني كفركم هذا تزدادون به كفراً أو لا تزدادون، لا ينفعكم هذا الكفر، بل يضركم من وجهين؛ يضركم أن الله يغضب عليكم أشد الغضب، وأن هذا الكفر يزيدكم خساراً.

ثم تأتي الآيات تناقش هؤلاء الكفار في شركهم، فيقول الله سبحانه وتعالى:﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

«**قُلْ أَرَأَيْتُمْ**» يعني أخبروني عن شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله؛ الأصنام والآلهة والمعبودات والأولياء الذين تدعون من دون الله وتعبدونهم من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض؛ يعني اجعلوني أرى الذي خلقوه في الأرض، هل هم خلقوا شيئاً؟ ماذا خلقوا في الأرض؟ خلقوا جبالاً أو أنهاراً أو أشجاراً؟ ما الذي خلقته هذه الآلهة؟ هل خلقت شيئاً؟ ما خلقت شيئاً.

ثم قال: «**أم لهم شرك في السماوات**»؛ أخبروني هل لها شراكة في حكم الله في السماوات؟ هل لها شرك في العبادة وشرك في الخلق؟ يعني هي لم تخلق شيئاً، وليس لها شرك في السماوات والأرض. هذا دليل يسمونه (الدليل العقلي)؛ دل على أنها لم تخلق شيئاً، والدليل العقلي دل على أنه ليس لها شرك في السماوات والأرض.

إذن، أين الدليل النقلي؟ الدليل النقلي الذي جاءكم: «**أم آتيناهم كتاباً**»؛ هل عندهم دليل نقلي، كتاب نزل عليهم فهم على بينة؟ كتاب يأمر ويدلهم ويأمرهم أن هذه الأصنام تعبد من دون الله؟ هل هذه تستحق أن تعبد من دون الله؟ هل جاءكم كتاب ينص على أنها تعبد من دون الله؟ ما في كتاب، لم يعطوها كتاباً؛ «**أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه**»، ما فيه.

إذن، ما النتيجة؟ هؤلاء الذين يعبدون الأصنام والمعبودات من دون الله، هذه المعبودات لم تخلق شيئاً، وليس لها شرك في العبادة، ولا عندهم بينة وعلم وكتاب أمرهم بذلك.

إذن ما النتيجة؟ قال: «**بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً**»؛ **يقول:** ما يعد -«إن» بمعنى "ما" أي ما يعد الظالمون- الوعود هذه وعود وزخرف قول كاذب، مواعيد كاذبة. لأن بعض الظالمين يعد بعض الكفار، والذين ظلموا على طبقات ودرجات؛ فالكبار والمستكبرون والكبراء والسادة يعدون الذين تحتهم فيقولون: كونوا معنا ونعطيكم كذا وكذا؛ مثلما قال فرعون لما جاء السحرة: ﴿قَالُوٓاْ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١ - ٤٢]. فهذه مواعدهم.

ثم سبحانه وتعالى يبين نعمته عز وجل على الخلق وفضله عليهم، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١].

يمسك السماء أن تزول عن مكانها وتتحرك وتضطرب وتسقط، ويمسك الأرض عن أن تضطرب وتتحرك، فالله يثبت الأرض ويثبت السماوات؛ «**يمسك السماوات والأرض**» يعني الله يمسك السماوات ويمسك الأرض، لو لم يمسكها لسقطت السماوات وتحركت الأرض، لكن الله يمسكها سبحانه وتعالى.

«**أن تزولا ولئن زالتا**» **يقول:** والله إن زالتا لا يمسكهما أحد من بعده، إن زالت السماوات والأرض عن محلها ما في أحد يمسكها إلا الله سبحانه وتعالى. ولذلك ختم الآية بأي شيء؟ قال: «**إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً**»؛ حليم سبحانه وتعالى على عباده الذين يعصونه، وغفور يتجاوز عنهم.

والكفار كان موقفهم في الأول، كانوا ماذا يقولون؟ يقولون: لو جاءنا نذير آمنا. فالله يذكرهم و**يقول:** لو جاءكم نذير تؤمنون؟ يقسمون قسماً بجهد أيمانهم؛ وأقسموا بالله جهد أيمانهم: لئن جاءنا نذير وجاءنا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم ؛

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا * اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٢ - ٤٣].

لنكونن أهدى من إحدى الأمم؛ يقول لنكونن أهل هداية، ونطيع ونسمع ونستجيب خير من إحدى الأمم؛ أي خير من اليهود والنصارى وغيرهم ممن أوتوا الكتاب، لكن لما جاءهم النذير ما النتيجة؟ ما زادهم إلا نفوراً؛ فراراً ونفوراً واستكباراً وعدم قبول للحق، ففروا منه استكباراً في الأرض.

وزيادة على ذلك قال ومكر السيئ؛ يمكرون بالنبي والصحابة ويمكرون بالله عز وجل، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله؛ لا يحيق ولا يعود المكر السيئ إلا على أهله، فمن يمكر بالله وبأوليائه وبنبيه يعود المكر عليه.

فلذلك قال: فهل ينظرون إلا سنة الأولين؟ يعني سنة الله في الأولين أن أهلكهم؛ فيعاقبهم وينزل بهم العقوبات إذا ردوا رسالاته وكفروا ومكروا بعباد الله، فالله سبحانه وتعالى يسلط عليهم وينزل عليهم العقوبات، وهذه سنة الله لن تجد لها تبديلاً؛ لا تتبدل ولا تتغير ولا تتحول، بل هي باقية مستمرة.

ثم سبحانه وتعالى يرشد عباده إلى التفكر والسير في الأرض حتى يتأملوا في الأمم الماضية التي أنزل الله بها سنته؛ فيقول: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤].

لماذا لا يسيرون في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الأمم الماضية؛ كعاد وثمود وفرعون؟ ينظرون ويقرؤون ويتأملون ما يأتيهم من أخبارهم؛ فقد كانوا أشد منهم قوة، وكانوا أقوى منهم، والله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض، إنه كان عليماً قديراً؛ عالم بأحوالهم وقادر عليهم. فكانت هذه الأمم عندها قوة ولكن لم تغني عنها قوتها، بل أهلكهم الله سبحانه وتعالى.

ثم سبحانه وتعالى يختم هذه السورة بقوله : ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

لو عاقبهم بذنوبهم وبما كسبت أيديهم، النتيجة: ما ترك على ظهرها من دابة؛ لأهلكهم جميعاً؛ لأن الله إذا أنزل العقوبة عم بها، فيهلك كل من هلك مثلما أهلك قوم نوح بالغرق، قال: ما ترك على ظهرها من دابة، ولكنه سبحانه وتعالى حليم لا يعاجل بالعقوبة، بل يؤخر العقوبات إلى وقتها المسمى؛ إما عذاب الدنيا أو يوم القيامة الذي يعاقبون فيه. فإذا جاء أجلهم، إما بالعذاب وإما يوم القيامة؛ النتيجة: كان الله بعباده بصيراً، فالله سبحانه وتعالى بصير وعالم بمن يستحق العذاب ومن لا يستحق، وكلهم يبعثون يوم القيامة ليفصل الله بينهم ويجازيهم بما يستحقون.

هذه آخر ما جاء في سورة فاطر وهي الآية الأخيرة. والحقيقة أن هذه الآيات العظيمة التي فيها التذكير والوعظ، حقيقة جديرة بأن يتأملها الإنسان ويتفكر فيها؛ ففيها عقوبة الذين كفروا في نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، ثم بيان فضل الله عز وجل على الناس بأن جعلهم خلائف، وفضله سبحانه وتعالى في إمساك السماوات والأرض أن تزولا، ومناقشة المشركين في عقائدهم الباطلة الفاسدة، وأيضاً ما جاءهم من النذير ولكنهم لم يقبلوه بل استكبروا عن طاعة الله ومكروا المكر السيئ بأوليائه، فالله هددهم بالعذاب الأليم، وذكرهم بما أصاب الأمم الماضية من العذاب الذي نزل بهم، ولكن الله سبحانه وتعالى حليم لا يعاجل بالعقوبة، غفور يتجاوز ويرحم.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتجاوز عنا، وأن يغفر لنا، وأن يرحمنا، وان لا يحرمنا هذا الفضل العظيم في قراءة هذا القرآن الكريم، وما فيه من المواعظ والتذكير.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ يس)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(يس ١ - ١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء التاسع من شهر صفر من عام (١٤٤٦ هـ). حياكم الله في هذا اللقاء مع مجلس القرآن الكريم وتفسيره. اليوم معنا سورة جديدة وهي سورة (يس).

هذه السورة من السور المكية، وهي تعالج قضايا العقيدة. والحقيقة هذه السورة ورد فيها آثارٌ في فضلها، ولكن هذه الآثار تكلم عليها أهل العلم، وأكثرها آثارٌ ضعيفة.

☜**منها أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يس»؛ وجاء حديث آخر -هذا حديث ضعيف يعني، لكن من باب التنبيه- وأيضاً جاء حديث آخر قال: «اقْرَؤُوا عَلَى مَوْتَاكُمْ يس».

والمقصود بالموتى يعني الذي يحضره الموت؛ يعني الذي في الاحتضار، ليس الميت الذي خرجت روحه؛ لا، الذي في وقت الاحتضار؛ قال: «اقْرَؤُوا عَلَى مَوْتَاكُمْ يس»؛ أما الميت فإنه لا يقرأ عليه القرآن؛ لا سورة (يس)، ولا الفاتحة، ولا أي شيء.

وما يعتقده بعض أهل البدع أن الميت إذا مات يأتون يقرؤون عنده سورة الفاتحة ويكررونها؛ هذا كله ليس من الدين في شيء؛ الدين عبادات مشروعة يشرعها الله ورسوله، وما لم يدل عليه الدليل لا يعتبر.

وهذه السورة مثل ما ذكرنا، بعض أهل العلم يقبل هذا الحديث، والكثير من المحققين أنهم يضعفون هذا الحديث؛ الحديث الذي يقال: «اقْرَؤُوا عَلَى مَوْتَاكُمْ يس» يعني عند الاحتضار، أنه إذا قرأت عليه سورة (يس) تسهل خروج الروح عنده؛ هذا يعني ذكره بعض أهل العلم، والعلم عند الله.

هذا ما يتعلق بهذه السورة بفضلها، السورة حقيقة هي تتحدث عن أمور العقيدة؛ من الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ وإفراده بالطاعة، ومن الإيمان بالقرآن الذي الله أقسم به، قال: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢]، وأيضاً من الإيمان بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣]، والإيمان بالبعث الذي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [يس: ١٢].

والسورة حقيقة مع أنها تتحدث عن قضايا العقيدة وترسخ عقيدة المسلم في هذه السورة، إلا أنها تركز على عقيدة البعث والجزاء والجنة والنار وإحياء الموتى؛ هي تركز على إحياء الموتى.

بل هناك أدلة كثيرة في السورة تشير إلى إحياء الموتى:

➡أولاً: **قصة الرجل الذي جاء من أقصى المدينة؛** أن قومه لما قتلوه قيل له ادخل الجنة، قال: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦-٢٧]؛ فهو يعني لما قُتل قيل له ادخل الجنة، فقوله: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦] دليل على إحياء الموتى، وأن الناس يبعثون يوم القيامة بعد الموت، ويكون مصيرهم إلى الجنة أو إلى النار.

➡ثانياً: **إحياء الأرض الميتة؛** وفي أدلة أخرى، حتى أدلة يعني شوف قال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾ آية تدل على قدرة الله، ماذا قال؟ ﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾ [يس: ٣٣]؛ فإحياء الأرض الميتة دليل وآية عظيمة على إحياء الموتى؛ إن الذي أحياها لمحيي الموتى.

➡ثالثاً: **تعاقب الليل والنهار؛** حتى في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، الليل نوم وهو الموت الأصغر، وإذا قام الإنسان في الصباح كأنه أُحيي بعد موته؛ لأنه يقول: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**».

➡رابعاً: **توالد البشر وتعاقب الأجيال؛** حتى في يعني في السورة شوف يعني مثلاً قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: ٤١] يعني الذرية والآباء، وهذا يخلف هذا وهذا يخلف هذا، الخلق هذا، خلق الناس كله دليل على قدرة الله على إحياء الموتى.

➡خامساً: **النفخ في الصور؛** ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر النفخ في الصور: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾؛ أي من القبور، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، يخرجون مسرعين، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا

صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]؛ هذا كله حديث عن البعث والجزاء والجنة والنار.

سادساً: **مناظرة منكر البعث وردودها الخمسة؛** حتى جاء في آخر السورة، هذا الرجل الذي جاء، الكافر المعاند المستكبر الذي جاء للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي يده عظم يفته، فقال: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّارَ»؛ وأنزل الله في هذه الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴿٧٩﴾﴾[يس: ٧٧-٧٩].

فردَّ الله عليه في هذه الآيات بخمسة ردود تدل على قدرة الله على إحياء الموتى، فالسورة تدور حول هذا؛ تقرير اليوم الآخر وقدرة الله عَزَّ وَجَلَّ على إحياء الموتى، هذه هي السورة.

نأخذ آياتها، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾﴾[يس: ١-٦].

- **﴿يس﴾ ما معناها؟**

اختلف المفسرون فيها:

فبعضهم يقول: "اسم للسورة".

وبعضهم يقول: "اسم للقرآن".

وبعضهم يقول: "هو اسم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، (يس)". يعني كأنه يقول: يا محمد؛ لأنه قال بعدها: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣]، وبعضهم يقول: (يس) هذه يستعملها العرب بمعنى يا رجل؛ تقول يا رجل تقول (يس)، مثل (طه)، (طه) و(يس).

والصحيح عند أهل التفسير المحققين أن ﴿يس﴾ هي حروف من حروف الهجاء مثل (حم) ومثل (طه) ومثل (ق) و(ص)؛ كلها حروف من حروف الهجاء.

الصحيح أنها حروف مثل ما تقول (حم) والكتاب المبين، تقول (يس) والقرآن الحكيم؛ لا فرق، مثل ما تقول ﴿الم ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢]، فكلها حروف من حروف الهجاء.

هذا هو الصحيح وهو أيضاً؛ لأنك لو قلت مثلاً اسم من أسماء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحتاج إلى دليل، لو قلت اسم السورة وهكذا؛ السورة سُميت حقيقة باسم سورة (يس)، ولكن (يس) حروف، مثل ما سميت سورة (ق) بحرف القاف، و(ص) بحرف الصاد؛ فهذه أيضاً سميت بهذا الاسم، سميت بـ(يس)، ولكن هذه حروف مقطعة من حروف الهجاء.

بعدها قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢]، أقسم الله بالقرآن؛ لماذا؟ لشرفه ومكانته؛ القرآن له شرف وله مكانة وله عظمة عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، فالله يقسم بالأشياء الشريفة، بالأشياء العظيمة، بالأشياء التي لها مقام ولها مكانة، يقسم الله بها.

فلذلك أقسم بالقرآن في مواضع كثيرة، مثل: ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الدخان: ١-٢]، كثير، فأقسامه بالقرآن دليل على عظمة القرآن، ودليل على المقسم عليه؛ هذا المقسم به القرآن.

- **لكن المقسم عليه وينه؟**

الجواب: المقسم عليه قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣]؛ يعني أقسم الله بالقرآن الحكيم على أن محمداً من المرسلين، أنه رسول من الرسل، رسول من المرسلين.

- **شوف وصف القرآن بـ(الحكيم)؛ ما معنى الحكيم؟**

أي أن القرآن ذو حكمة، حكمة بالغة؛ يعني الحكمة إتقان الشيء وضبطه، إتقان الشيء وإحكامه وضبطه يسمى كلام محكم وذو حكمة، والقرآن حكيم كما أن القرآن حاكم، كما أن القرآن حاكم على غيره من الكتب وغيره، فالقرآن حاكم؛ الناس يتراجعون ويرجعون إلى القرآن في قضاياهم، والقرآن هو الذي يحكم بينهم.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣]؛ أي يا محمد، يعني لما كان المشركون ينكرون رسالته ولا يقبلونها ويكذبون الرسول، أثبت الله أنه رسول من عند الله، وأن الذي أرسله هو الله. ولاحظ أن الله أكد رسالته بمؤكدات بلاغية لغوية.

قال: ﴿إِنَّكَ﴾، النون إنَّ؛ هذه إنَّ حرف توكيد ﴿إِنَّكَ﴾، ثم دخول اللام ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وجعله من جملة المرسلين تأكيد على رسالته.

ثم أكد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه يتشرف بأن يكون رسولاً، قال بعدها: ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يس: ٤]؛ يعني أنت يا محمد رسول من عند الله، وأنت أيضاً على صراط وعلى طريق مستقيم.

صراط مستقيم على منهج صحيح وعلى دعوة صحيحة، لا كما يزعم هؤلاء المشركون الذين يقولون: أنت ساحر أو شاعر أو كاهن أو كذاب؛ أنت رسول وأنت على صراط من ربك مستقيم، مستقيم لا عوج فيه.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما عظّم الرسول وأثبت رسالته، أيضاً أثبت القرآن الكريم فقال: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: ٥]؛ أي نزلنا هذا القرآن تنزيلاً، أنزلناه تنزيلاً؛ يعني هذا القرآن الذي بين أيديكم والذي أقسم الله به هو منزَّل، تنزيل من وين؟ قال: ﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾.

شوف وصف الله عَزَّ وَجَلَّ بالعزيز وبالرحيم؛ لماذا العزيز؟ القوي ذو القوة والمنعة والعزة، فهو عزيز وكتابه عزيز لا يصل إليه أي إنسان، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو عزة وذو قوة ومنعة، وإذا أراد أن يبطش بأعدائه لا يمنعه أحد من ذلك.

فهو عزيز قوي ينتصر به الضعفاء فينصرهم، ورحيم بعباده المتقين الصالحين والمستضعفين يرحمهم برحمته التي وسعت كل شيء؛ فسبحانه الذي نزَّل القرآن، نزَّله بعزة وقوة ومنعة، ونزَّله رحمة للخلق جميعاً. فشوف ﴿تَنزِيلَ﴾ و﴿الْعَزِيزِ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾ كلها سبحان الله العظيم مترابطة.

قال: ﴿لِتُنذِرَ﴾ [يس: ٦]؛ يعني وظيفتك يا محمد، وظيفتك ورسالتك ماذا؟ ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ﴾ [يس: ٦]؛ يقول أرسلناك يا محمد على فترة من الرسل، على انقطاع ما في رسول، ولم يأتِ آباؤكم، لم يأتهم يعني لم يأتهم رسول ينذرهم، فجئت يا محمد لتنقذهم، لتخرجهم من ظلمات الجهل والضلال والكفر والشرك إلى نور الطاعة والإيمان، فأنت جئت رحمة بهم؛ فيقول: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦].

- **قد يأتيك شخص يقول لك: الرسول بشير ونذير، ولا نذير فقط؟ يقول: لا، هو بشير ونذير؛ قال: ليش قال: ﴿لِتُنذِرَ﴾ ولم يقل لتبشر؟**

الجواب: يعني ستأتيك البشارة، والبشارة للمتقين الطائعين المستقيمين، هذه بشارة لهم؛ أما الكفار فالنذارة. ولأن قومه لما كانوا قد عاندوا واستكبروا، حذرهم الله وأنذرهم وخوفهم؛ قال: لتنذر يا محمد قوماً وهم قومه ﴿مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦]؛ غافلون عن طاعة الله، وغافلون عما خُلقوا له من العبادة، وغافلون أن هناك بعثاً وجنة وناراً؛ كل هذا غافلون عنه يعبدون الأصنام، فجئت لتنذرهم وتحذرهم عن غفلتهم.

ثم بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن أكثرهم قد حق القول عليه أن يبقى في ضلالته، وأن يموت على كفره، وأن هناك من يهديه الله ولكنهم قلة والأكثر لن يقبلوا منك؛ وهذا كله توطئة للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتهدئة، حتى إذا واجههم وأصروا على كفرهم يعرف أن هذا الأمر بيد الله، وأن الهداية بيد الله، فلذلك جاءهم بهذا الأسلوب؛ يعني حتى تطمئن نفسه.

لأنك أنت الآن لو تبي تنزل دعوة إلى الله تدعو قوماً وثم تعرف أنت من هم هؤلاء المدعوين وكيف ستدخل معهم بالدعوة؛ لابد أن يكون عندك خلفية ومعرفة عنهم؛ فإذا جاءك واحد قال لك: شوف ترى هذه البلدة التي أنت ستنزل فيها تدعوهم إلى الإسلام ترى عندهم من العصبية وعندهم من التعصب وعندهم أيضاً من العناد والكفر.

فانتبه؛ فهنا نفس الشيء يقول الله عَزَّ وَجَلَّ يعني تهدئة له، يقول: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧]؛ أكثرهم، الكثير منهم حق عليهم قول أنه من أهل النار، قول أنه يموت على ضلالة، هذا معناه.

شوف لذلك قال: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أكثرهم، اطمئن يا محمد اطمئن، ولترضى نفسك ولتسكن نفسك، أنت أمام أناس معاندين مستكبرين، وأكثرهم سيكونون من أهل النار، حق القول عليهم أنهم لا يؤمنون.

ولذلك شوف شبّه الله حالهم بهذه الحال، اسمع هذه الحال هذا تشبيه، يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ [يس: ٨].

الأغلال والأذقان: الأغلال جمع غُل، وهو الحبل أو الرباط الذي يربط الإنسان في رقبته، هذه تسمى أغلال توضع في الأعناق؛ شوف قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾، الأعناق العنق الرقبة توضع يوضع فيها هذه الأغلال ﴿فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ﴾.

يقول هذه الأغلال شدت بقوة حتى كانت إلى يعني في الرقبة إلى الأذقان، والأذقان جمع (ذقن)، والذقن هو نهاية الوجه أسفل الوجه، ما تحت الفم يسمى الذقن بالذال (الذقن)، العوام يقولون (دقن) بالدال (الدقن) وهو (الذقن)، لغة العرب لغة العرب تقول (الأذقان).

والأذقان جمع ذقن؛ هذا الذقن هو يعني ما أسفل الفم من أسفل الوجه، يقول جعلنا الأغلال شدت عليهم حتى وصلت إلى الأذقان.

معنى مقمحون: قال: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾؛ يعني رافعو رؤوسهم بقوة؛ يعني هذا الذي شدت رقبته بالحبل وبهذا الرباط رفع رأسه بقوة حتى ما يرى الذي أمامه من شدة الأغلال التي ربطت برقبته؛ قال: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ يعني خلاص ما عاد يشوف اللي أمامه مرتفع رأسه.

حجاب السدود: ثم زيادة على ذلك الله أيضاً يقول: ﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]؛ ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ يعني أمامهم يعني كالجدار كالسور، سد مانع ما يشوف الحق، وخلفه ما يشوف الحق، ما يشوف يعني خلاص محجوز أمام وخلف ورقبة مرفوعة.

يقول: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ يعني غطينا أبصارهم ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ ما عاد يبصر، خلاص ما يشوف الحق، وهذا كله تشبيه ليس حقيقياً وإنما تشبيه بحالهم؛ إنك يا محمد لتهدأ نفسك بأن أولئك الذين أنت تدعوهم حالهم كحال من ربطت أعناقهم وشدت إلى الأذقان وجعل من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فهم لا يبصرون؛ يعني تتكلم معهم وتدعوهم لن يتقبلوا منك أبداً؛ تهدئة له.

يقول: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠]؛ شوف حتى يؤكد لك الكلام، قال: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ يقول: أنذرت ولا ما أنذرت كل واحد، الأمر سواء، ما في قبول، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

لا يؤمنون؛ هم متعصبون لعقيدة آبائهم ويقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وهم لا يريدون أن يقبلوا منك، ولن يخضعوا لك، إلا القليل منهم، من هم القلة؟ الذين فتح الله قلوبهم للإيمان، فتح الله قلوبهم للإيمان من أهل مكة آمنوا، آمنوا.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنذارك يا محمد ما الذي ينتفع به؟ ما الذي يتقبله؟ **قال:** ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]؛ الذي اتبع الذكر واتبع التوحيد واتبع القرآن واتبع شريعتك.

هذا هو الذي ينفع معه الإنذار:

- أولاً: أنه اتبع لم يعاند.
- ثانياً: أنه خاف الرحمن بالغيب؛ خاف عقوبة الله أن تنزل به وهو لا يدري؛ خشي الرحمن بالغيب.

- **كيف يخشى الله بالغيب؟**

يعني يخشى الله وهو لم يره؛ هذا قوة الإيمان، التصديق بأن هناك عقوبات، يخشى النار وهو لم يرها، يخشى عذاب الله وهو لم يره؛ فهذا معنى خشي الرحمن بالغيب.

إذا كان يتبع الحق ويخاف الله يخاف الله ويسلك طريق الحق ويحافظ على أوامر الله.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١]؛ شايف الأول يقول: ﴿لِتُنذِرَ﴾، جاءت الآن البشارة، قال: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

- **أول شيء المغفرة؛ لماذا أول شيء؟**

تمسح عنه ذنوبه وتمحى عنه ذنوبه حتى ينقى مثل الثوب الأبيض ينقى، يمسح تغفر له ذنوبه كلها؛ فإذا أصبح صافياً لا ذنب عليه بعد ذلك يأتي الأجر الكريم، الأجر الكريم يعني عطاء من الله كثير عظيم نافع، هذا معناه.

شوف بعد هذا التقرير؛ يعني أولاً بيان رسالة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن ثم موقف الناس منها، وتهدئة الرسول بأن هناك كثيراً ممن يعصي ولم يقبل، ثم بيَّن من يقبل الحق، بيَّن من يقبل الحق.

شوف بعدها قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]؛ هذا تأكيد على البعث، وأن الله يحيي الموتى؛ يحيي الناس بعد موتهم ويبعثهم من

قبورهم ويجازيهم على أعمالهم، يجازيهم على أعمالهم؛ هذا معناه، يعني يحيي الموتى أن يبعثهم وإذا أحياهم ما الغرض من الإحياء؟

يجازيهم على أعمالهم؛ كل من عمل يجازى على العمل؛ فإن عمل صالحاً كافأه الله الأجر الجزيل منه، وإن عمل سيئة فسيئة مثلها، فهذا الغرض؛ يعني الله لم يخلق الناس عبثاً وإنما خلقهم للعمل والطاعة وخلقهم أيضاً ليجازيهم في الدار الآخرة في الجنة أو النار.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾؛ يعني نكتب أعمالهم التي قدموها؛ أعمالهم سواء كانت أعمالاً حسنة كالصلاة والزكاة والصيام وسائر الأعمال الحسنة.

هذه يكتبها الله لهم، أو أعمالاً سيئة أحياناً من الكفر والضلال والعصيان وإتيان الأمور المحرمة؛ هذه يكتبها الله عليهم، فيكتب ما قدموا؛ كل إنسان قدّم خيراً يجده، قدّم شراً يجده، ما قدموا ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ في الدنيا أو بعد مماتهم.

آثارهم في الدنيا: الرجل الصالح الذي يدعو إلى الله؛ هذه آثار، عالم يدعو الناس ويحثهم على الخير ويبين لهم حكم الله وشرائعه، أو يكتب مؤلفاً ويبقى هذا المؤلف الناس يدرسونه؛ هذه آثار هذه آثار، أو بنى مسجداً، أو مثلاً أجرى ماءً أو نحو ذلك؛ كل هذه، أو صدقات أو غيرها؛ هذه كلها آثار، أو دل الناس على الخير.

لو لم يفعل شيئاً، لو لم يبنِ مسجداً، لو لم يكتب، لو لم يؤلف، لو لم يكن عالماً، دلَّ الناس على الخير، حثَّ الناس على الخير؛ هذه كم من الناس من يقتدي بهذا الشيء الذي أنت دللت الناس عليه؟ إذا دللت الناس على هذا الشيء وبدأ الناس يعملون، والناس الذين وراءهم يعملون ويعملون؛ هذه آثار لك طيبة.

آثار الشر: أو العكس أحياناً تجد من يدل الناس على الشر ويحثهم عليه؛ فتبقى عقوبات عليه إلى قيام الساعة، كل من اقتدى به وأخذ هذه السيئة منه فإنها وزر عليه إلى يوم القيامة؛ فهذه معنى الآثار.

الآثار بعد الموت: كذلك من الآثار ما يتركه الإنسان بعد موته، يعني لو عمل عملاً حسناً ودل الناس عليه ثم مات والناس يعملون فيه؛ هذه الحسنات تبقى له إلى قيام الساعة، وكذلك السيئات لو دل الناس على سيئات؛ فهذا معنى ﴿وَآثَارَهُمْ﴾.

حتى ذكر بعض المفسرين أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِمَ أو جاء خبر أن أناساً من بني سَلِمَةَ كانت ديارهم بعيدة عن المسجد، فكانوا يأتون إلى المسجد يصلون مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانت المسافة بعيدة، فأرادوا أن ينتقلوا عند المسجد.

فلما علم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لهم: «هَلْ صَحِيحٌ مَا قِيلَ أَنَّكُمْ سَتَنْتَقِلُونَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ وَتَتْرُكُونَ بُيُوتَكُمْ؟» قالوا: نعم يا رسول الله نريد أن نقترب من المسجد حتى نكون يعني قريبين منك؛ فقال: «دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ»؛ يعني أن الإنسان خطواته للمسجد هذه آثار طاعة.

فهذه تُكتب لك؛ كل خطوة تخطوها للمسجد تُكتب لك حسنة، خطوة يعني ترفعك درجة، وخطوة تحط عنك سيئة؛ فهذا كله داخل في هذه الآية: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]؛ يقول كل شيء لا تظن أنه يضيع على الله، لا حسنة ولا سيئة ولو كانت مثقال ذرة، كلها محصية؛ الملائكة والكتبة يكتبونها في إمام مبين، أو قد يكون الله كتبها في اللوح المحفوظ، أو في كتب الملائكة؛ كل شيء عند الله لا يضيع، لا يضيع أبداً، وسيجازى كل إنسان بعمله.

فلا تحتقر أيها الأخ الكريم، لا تحتقر من العمل الطيب والحسنات الشيء القليل ولو كانت ابتسامة أو سلام أو مصافحة أو نحو ذلك، أو صدقة ولو بالقليل؛ كل هذا يدخل كل هذا لا تحتقره، أو كذلك لا تحتقر السيئات تقول هذه سيئة صغيرة وكذا وتتساهل فيها.

لا تتساهل في المعاصي فإن المعاصي من شؤمها أنها تحرم الإنسان الخير، تحرم الإنسان الطاعات، فعليك أن تبتعد عن كل معصية ولو قلت، وتقبل على كل طاعة، ولا تحقرن من المعروف شيئاً.

لعل نقف عند هذا القدر؛ لأن الآن بعد ستنتقل السورة إلى ذكر قصة أصحاب القرية، وهذه يأتي الكلام عنها إن شاء الله في اللقاء القادم، نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(يس ١٣ - ٣٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للسادس عشر من شهر صفر من عام [١٤٤٦ هـ]. حياكم الله في هذا اللقاء مع مجلس القرآن الكريم وتفسيره، اليوم معنا سورة جديدة وهي سورة (يس).

درسنا في تفسير القرآن العظيم، وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعيننا، وأن يوفقنا، وأن يسددنا، وأن يبارك لنا، ويجعل القرآن حجةً لنا لا علينا، وينفعنا بهذا القرآن.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (يس)، تكلمنا عنها في لقائنا الماضي وأخذنا شيئاً من آياتها، وقف بنا الكلام عند قصة أصحاب القرية؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾؛ دائماً تمر علينا هذه الكلمة أو الجملة، مثل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢]، و﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]؛ تمر علينا.

- **ما معنى (اضرب)؟**

اضرب لهم، الضرب المقصود به -شوف ضرب الأمثال- يقول: (اضرب لهم مثلاً) يعني ضرب الأمثال، وضرب الأمثال المقصود بها تشبيه حالٍ بحالٍ يجمع بينهما شيء واحد؛ يعني مثلاً تشبه حالاً بحال، هذا كما يقولون: (ما شُبِّهَ مَضْرِبُهُ بِمَوْرِدِهِ).

فأنت تأتي وتأخذ هذا المثل وتضربه في حالٍ جديدة؛ حالك مثلاً، أو حال الشخص الذي أنت تتحدث معه؛ تقول: أنت حالك مثل الذي يقول كذا، مثلاً لو يُعجَبُ هو بشيء تقول: (كلُّ فَتَاةٍ بِأَبِيهَا مُعْجَبَةٌ)؛ هذا نسميه أمثالاً، أمثال تشبه بأحوالٍ بحال.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: يا محمد، ويا أيها المخاطب، اضرب لحال قريش مثلاً بحال أصحاب القرية، قريش وكفار مكة أرسل الله إليهم محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله وتقواه، وترك عبادة الأصنام والشرك، ويدعوهم إلى أحسن الأخلاق، وترك الأخلاق السيئة، إلى آخر دعوته؛ وينذرهم، ويحذرهم، ويبشرهم.

يضرب الله مثلاً، يقول: حالكم يا أهل مكة مع محمد؛ يعني مثل حال أصحاب القرية.

- **ما هي القرية هذه؟ وأين مكانها؟ وأين زمانها؟**

الجواب: القرآن ما حدد الزمان ولا المكان.

- **لماذا لا يحدد الزمان والمكان؟**

كثير في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩] مَنْ هو؟ وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] مَنْ هو؟ وقوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨] مَنْ هو؟ هذه مبهمة في القرآن يتركها؛ لماذا؟

لأن تحديد الأسماء ليس له هدف كبير؛ الهدف الكبير والغاية فهم القصة وأخذ العبرة منها والدروس؛ أما أسماء الأشخاص والأماكن، فهذه أمور لا يقف عندها القرآن كثيراً؛ لأنها ليس وراءها فائدة كبيرة.

ولذلك يقول بعضهم: مثل هذه التي تبحث عنها، تقول: أين القرية؟ وأين مكان هذا؟ قد يتعب الإنسان في البحث عنه ولا يحصل شيئاً، ولا يحصل شيئاً؛ فجهله لا يضر، ومعرفته لا تزيدك علماً، فما في حاجة نتعب أنفسنا.

ولذلك تجد بعض المفسرين يقول: هي (أنطاكية). وأين أنطاكية؟ حدود تركيا على البحر، وإذا عرفت أن أنطاكية، ماذا يترتب عليها؟ أصحاب الكهف أين مكانهم؟

قال بعضهم: "في الأردن".

قال بعضهم: "لا، ليس في الأردن وإنما كانوا في عمان".

بعضهم قال: "لا، إنهم كانوا في المغرب"؛ ثم تجلس تتنقل في الأماكن بدون فائدة؛ فالعبرة باخذ الدروس من القصة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٣]؛ كم رسولاً؟ قال: ثلاثة. كيف عرفت؟ قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ [يس: ١٤]، أرسلنا اثنين.

الرسل في الغالب رسول واحد لكل أمة يأتيها رسول؛ فنوح رسول لأمته، وهود، وصالح لثمود، وشعيب لأصحاب الأيكة، وهكذا، أحياناً يأتي رسولان؛ يأتي مثلاً يرسل الله رسولين مثل موسى وهارون؛ أرسل الله موسى وهارون لما سأل موسى أن يكون هارون معه وزيراً له، الله استجاب له وجعل معه وزيراً وهو هارون.

وهذه القرية، شوف مع أنها قرية وصغيرة، الله أرسل إليها اثنين، ما يحتاج إلى واحد؟ قال: لا، أرسلنا اثنين حتى تقوم عليهم الحجة؛ فكذبوهما مباشرة، ما قبلوا منهم؛ يعني ردوا رسالتهم، كفروا بهم مثل ما كفر أهل مكة بمحمد، وقالوا: أنت يا محمد شاعر وكذاب وتفتري على الله، وأنت ساحر، وإلى آخره.

قال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]، **(عززنا)** من التعزيز وهو التقوية؛ يعني قويناهم وزدناهم رسولاً ثالثاً، فأصبح المرسلون ثلاثة.

قال: فقالوا الثلاثة: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٤]؛ قالوا لقومهم: نحن أُرسلنا إليكم.

فبعض المفسرين قد تجد بعضهم يقول: هؤلاء الرسل الثلاثة الذين أرسلهم هم كانوا في زمان عيسى؛ في زمان عيسى وعيسى في الشام، فأرسلهم إلى أنطاكية، وكانوا ثلاثة رسل أرسلهم عيسى يدعون أهل أنطاكية إلى التوحيد؛ لكن هذا قول ما في دليل عليه.

يعني الأصل أن الله إذا قال: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ معناه رسول من عند الله، ما نقول هو رسول من نبي؛ لأن رسل الأنبياء ليسوا رسلاً وليسوا أنبياء، والله يقول هنا: ﴿أَرْسَلْنَا﴾، فنحن نبقى على أنهم رسل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذه الأقوال التي لا دليل عليها يعني لا نبقى معها كثيراً.

يقول: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٤]؛ نحن جئناكم رسلاً من عند الله، ندعوكم إلى التوحيد وعبادة الله وتقواه.

- **ماذا قال الكفار؟**

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

- **كيف تقولون نحن رسل؟**

الرسل من الملائكة، وأنتم بشر مثلنا؛ ما يمكن نقبل منكم! المناسب تأتي ملائكة ولا تأتي رسل؟ المناسب أن نرسل لهم أناساً مثلهم يعرفونهم، وخاصة إذا كانوا قد عاشوا معهم وعرفوا أخلاقهم؛ مثل ما عرف أهل مكة أخلاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قد لبث فيهم مدة طويلة، أربعين يوماً؟ أربعين سنة، أربعين سنة!

وكل الأنبياء يعيشون، كل الأنبياء يعيشون مع أقوامهم ويعرفونهم، كيف نأتي بأشخاص ما يعرفونهم؟ لو جاءك رجل وهو رجل من قرية أخرى، ما تقبلت منه مثل ما تقبل من واحد يعني هو عندك وتعرفه معرفة تامة؛ فنقول نحن: هذا هو الأنسب.

أما احتجاجهم بالبشرية، فماذا يريدون؟ يريدون ملائكة ولا يريدون جناً؟ لو جاءتهم ملائكة ما تقبلوا، ولو جاءوهم من الجن ما تقبلوا؛ البشرية هي الأنسب، والله هو الذي يختار، الحكيم الذي يعلم هو الذي يختار؛ فحجتهم باطلة: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

ولذلك الرسل ردوا عليهم في سورة أخرى قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ١١]؛ هذه منَّة من الله لا تعترضون عليها.

شوف، أولاً ردهم قالوا: أنتم بشر مثلنا؛ ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾، هذا الرد الأول. والرد الثاني قالوا: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾؛ لا تكذبون الله، ما أنزل ولا أوحى إلى أحد، كيف هذا؟ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾.

انتقلوا إلى أمر آخر، فقالوا: أنتم سبب التشاؤم، وأنتم سبب كل مصيبة جاءتنا؛ لما جئتمونا، جبتم؛ يعني أتيتم معكم بكل مصيبة؛ هذا معنى قوله: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨].

(التطير) و(الطيرة) التشاؤم؛ يعني نحن تشاءمنا بكم. وهذه طريقة كثير -يعني من الأمم- لأنبيائهم؛ يعني قوم صالح، وفرعون، وغيرهم؛ كلهم يقولون: نحن تطيرنا بكم، أنت سبب كل مصيبة.

فإذا انقطع المطر عنهم، أو ماتت عندهم البهائم أو الأشجار، أو أُصيبوا بوباء أو بأمراض أو غير ذلك، قالوا: أنتم يا الرسل ما جئتمونا إلا بالمصائب؛ فلذلك قال -شوف قالوا-: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾.

ثم هددوهم تهديداً قوياً، قالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨]. ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ يعني لنقتلنكم شر قتلة، وهي الرجم بالحجارة حتى تموتوا، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذا جزاء من يدعوكم إلى الجنة ويحذركم من النار؟ من يدعوكم إلى أحسن الأخلاق ويحذركم من أسوأ الأخلاق؟ من يدعوكم إلى عبادة الرحمن وينهاكم عن عبادة الشيطان؟ تقولون لهم: نرجمنكم ويمسكم منا عذاب أليم!

فماذا كان موقف الرسل؟ ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩]؛ أنتم سبب كل شؤم، سوء؛ أنتم الذين كنتم السبب، ذنوبكم ومعاصيكم هي التي تسببت بوجود هذه الأوبئة وهذه الأمراض.

وجاء رجل، قال: لا، قدم من أقصى، كأنه جاء من بعيد جداً، فقدم البعد؛ قال: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: ٢٠]. وهذا الرجل ما حاله؟ ﴿يَسْعَىٰ﴾ يعني جاء مسرعاً؛ يوم سمع، يعني سمع بأن الرسل دعوا إلى الله وإلى التوحيد وإلى أحسن الأخلاق، وأن هؤلاء، هؤلاء الكفار المشركون ردوا الرسالة وهددوا الرسل بالقتل؛ جاء مسرعاً، لم يرضَ بهذا الكلام، ولم يرضَ بهذا الرد.

فقال: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١﴾ [يس: ٢٠-٢١]. هؤلاء رسل ثلاثة جاؤوكم يدعونكم إلى التوحيد، اتبعوهم، اتبعوا من لا يسألكم أجراً.

يقول: هم ما يريدون منكم أجراً ولا مالاً ولا شيئاً، وإنما يدعونكم لله، يريدون الأجر عند الله، ما يطلبون منكم أي كلفة، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ لأن الله هداهم واختارهم؛ يعني هم يريدون شيئاً آخر إلا أنهم هداهم الله واختارهم وكلفهم بالرسالة، فكيف يعني كيف ما تتبعونهم؟

ثم بدأ يناقشهم، قال: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٢٢].

- **لماذا أنا لا أعبد الله؟**

كأنه يلمح أو يلمح لهم ويعرض بهم؛ يقول: أنتم تعبدون الأصنام، وأنا أعبد الله؛ لماذا لا أعبد الذي فطرني وخلقني وإليه ترجعون؟ أنتم ترجعون يوم القيامة إذا متم سيبعثكم الله وترجعون إليه؛ لماذا لا أعبد الله الذي فطرني وخلقني وأوجدني ونرجع إليه؟

هو يستطيع أن يقول هذا: وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه أرجع؛ قال: لا، ﴿فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، كأنه يعني يعرض بهم، يقول: أنتم سترجعون إلى الله.

ثم بدأ أيضاً يعرض بعبادتهم للأصنام، قال: ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]. يعني هل يمكن أن أعبد من دون الله صنماً وآلهة؟ هذا ما ينفع؛ لو أرادني الله بضر، هذه الآلهة لا تغني عني، لا تدفع عني شيئاً؛ ما تغني ولا تدفع عني، ولا تسلمني من هذا الضر الذي أراده الله، ما تدفعه.

وفي الوقت نفسه أيضاً، هذه الأصنام لا -يعني ولا تشفع لي عند الله- لا تدفع البلاء، ولا تكون سبباً في الشفاعة شيئاً، ولا تنقذني مما يريده الله بي من الضر؛ ما تستطيع؛ هذه أصنام منحوتة من إما من حجر أو من شجر، ما فيها لا تسمع ولا تنفع؛ فكيف تعبدونها وهي لا تغني عني شفاعتهم شيئاً ولا يشفعون ولا ينقذون من النار ولا شيء؟!

﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٤]؛ يقول: إني إذاً عبدتها هذه الأصنام، زين، واتخذتها إلهاً من دون الله، إذاً أنا في ضلالٍ مبين؛ كل هذا التعريض يعرض بهم.

ثم قال: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ [يس: ٢٥]؛ يقول: أنا آمنت بربكم الذي خلقكم وربي، والذي أرسل الرسل آمنت به، فاسمعون؛ أعلن أمامكم أني مؤمن.

- **ماذا جرى له؟ هل قتلوه لما يعني صرح معهم بهذه الدعوة القوية؟ هل قتلوه أو تركوه؟ ماذا جرى له؟**

الجواب: قتلوه.

- **كيف عرفنا أنهم قتلوه؟**

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦]؛ لأنه لا يقال له: ادخل الجنة إلا بعد موته؛ لكن القرآن لم يصرح بقتله حتى لا يحرض المشركين على قتل المسلمين في مكة؛ إذا سمعوا أنهم قتلوه تشجعوا، فلذلك الله طوى ذكر القتل ولم يصرح به.

﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ يعني بشرته الملائكة بدخول الجنة، لما مات رأى مقعده من الجنة، قال: هذا مقعدك في الجنة؛ قال: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

يقول: يا ليت قومي يعلمون بهذه الكرامة التي حصلت عليها؛ بما غفر لي ربي كل ذنوبي، ثم إن أكرمني بهذه الكرامة العظيمة، والفوز بجنات النعيم؛ ليت قومي يدرون ويسمعون ويروني أنا في هذا النعيم.

يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «دَعَا قَوْمَهُ حَيًّا وَمَيِّتًا»؛ يعني دعاهم وهو حي لما جاء من أقصى المدينة، ودعاهم وهو ميت يقول: يا ليتهم يعلمون.

ماذا جرى للقوم الذين كذبوا الرسل هذه القرية وقتلوا هذا الرجل؟ ماذا جرى لهم؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ [يس: ٢٨]؛ يقول: ما يستحقون أن نرسل جنوداً من السماء ملائكة، وما كنا نرسل جنوداً؛ لأنها قرية صغيرة ما تستحق كل هذا.

- **ما الذي جرى لهم؟**

قال: صيحة واحدة؛ ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩].

صاح جبريل؛ قيل إن جبريل صاح بهم على باب القرية صيحة واحدة قطعت قلوبهم وماتوا جميعاً؛ قال: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ لا يتحركون، قد سقطوا على الأرض، ماتوا جميعاً.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد يعني إرسال الرسل والإنذار ومجيء هذا الرجل الصالح الداعية. هذا الرجل ما قال: والله ما دام في ثلاثة رسل ما لي حاجة أذهب أدعو، لماذا أحد يدعو ما دام في ثلاثة رسل يكفي؟ لا؛ ولم يقف مكتوف الأيدي، بل ذهب ودعا إلى الله وقال: أنا مع الرسل، وأدعو مع الرسل، وانطلق ودعا حتى مات.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]؛ يعني كيف العباد؟ يعني أمر يتحسر منه كل إنسان، يعني يتحسر ويتندم كل إنسان على هؤلاء

العباد الذين الله أنعم عليهم بنعم عظيمة، وأمرهم بعبادته؛ والعجب ما يأتي قريةً من القرى من رسولٍ، ولا بلدةً، ولا قوماً إلا يستهزئون، ويستهزئون بهذا النبي ويسخرون منه ويردون رسالته!

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال لأهل مكة الذين أنزل عليهم هذا القرآن وهم يسمعونه، قال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١].

- **لماذا لا يرون الأمم التي أهلكها الله؟**

قوم نوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الأيكة، والمؤتفكات، وأمم؛ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، خلاص أهلكهم الله وانتهوا، ذهبوا إلى الآخرة وماتوا عن آخرهم، ما رجعوا إلى الدنيا؛ انتهى أمرهم.

وهؤلاء كلهم سيرجعون إلى الله، سيبعثهم؛ ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢]. كل هؤلاء سيحضرون يوم القيامة ويجمعهم الله ويحاسبهم.

شاهد الفرق: كلمة **(محضرون)** غير **(حاضرون)**؛ لما يقول: **(حاضر)** يعني باختياره، لما يقول: **(محضر)** يعني ليس له اختيار، سيحضرون جميعاً، كلهم؛ الخلائق يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ويحاسبهم.

الإنسان يتفكر في هذه القصة العجيبة التي سمعناها؛ قصة أصحاب القرية، وأن الله أرسل إليهم رسولين فردوا رسالتهم، ثم عززهم وقواهم بثالث، ومع ذلك رفضوا وكذبوا وهددوا بالقتل؛ وجاء الرابع وهو الداعية ودعا وقتلوه.

- **ما هي النتيجة؟**

أن الله لم يأبه بهم، بل أهلكهم جميعاً وقضى عليهم؛ وهذه عقوبة كل من لم يقبل الحق، ولم يذعن لله عَزَّ وَجَلَّ، أن مصيره مصير سيء.

فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بهذه القصة، وأن يجعلها عبرةً وعظةً لكل إنسان يأخذ منها الدروس ويستفيد منها، ويحذر عقوبات الله، ويحذر المعاصي، ويحذر الإعراض عن طاعة الله، ويقبل على طاعة الله.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، نلقاكم إن شاء الله على خير في لقاء قادم؛ والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(يس ٣٣ - ٤٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثالث والعشرين من شهر صفر من عام [١٤٤٦ هـ]. حياكم الله في هذا اللقاء مع مجلس القرآن الكريم وتفسيره.

درسنا في تفسير القرآن العظيم وفي هذه الحلقة المباركة التي نجتمع على كتاب الله، ونتذكر قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»؛ خيركم، وفي رواية: «أَفْضَلُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ».

وكلمة تعلم القرآن تحتمل أن تتعلم قراءته والنطق، وكيفية التلفظ بالقرآن، وكيفية تلاوته التلاوة الصحيحة؛ وكذلك تعلم معانيه وتفهم مراد الله من الآيات القرآنية.

☜ **فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ» يشمل أن تتعلم كيف تقرأ القرآن وكيف تتلوه، وكذلك يشمل كيف تفهم القرآن؛ ليس المقصود أنك تحسن التلاوة، يعني لابد أن تحسن تلاوة القرآن وتعرف كيف تقرأ قراءة سليمة صحيحة.

وكذلك تفهم المعاني والدلالات والأحكام وما يريده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من إنزال هذا القرآن هدى ورحمة وموعظة وشفاء وتبياناً لكل شيء؛ كل ما يحتاجه الإنسان.

نبدأ بالسورة التي بين أيدينا وهي سورة (يس)، ووقف بنا الكلام عند الآية الثالثة والثلاثين، ونحن عرفنا لما تكلمنا عن السورة في بداية الكلام، عرفنا أن سورة (يس) هي تركز على قضية البعث والجزاء والحساب والجنة والنار، وأنها تركز على قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ على إحياء الموتى.

كما قال في أولها، قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [يس: ١٢]، وقال في آخرها: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

فالسورة تدور حول قضية قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ على إحياء الموتى.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا في أولها، فبأن أخبر على أنه يحيي الموتى ويكتب ما قدم الناس، ثم ساق لنا قصة فيها عبرة وعظة وهي قصة أصحاب القرية؛ الذين أرسل الله إليهم رسولين فعززهم بثالث، ثم جاء الرجل الصالح الداعية ودعا قومه وحذرهم.

هذه القصة التي ساقها الله، بعدها تعود الآيات إلى التذكير بقدرة الله على إحياء الموتى؛ مع أن هذه الآيات التي تمر علينا في التذكير بقدرة الله على إحياء الموتى وأنه القادر، هي تتضمن يعني فضل الله عَزَّ وَجَلَّ ونعمته على عباده أن يخلق لهم ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب وكل ما يحتاجون إليه في هذه الحياة، وسبحانه وتعالى علمه الواسع علمه وكذلك وحدانيته؛ لا يتدخل أحد بخلقه، هو الذي يخلق سبحانه، لا أحد يخلق غيره.

فتأمل معي أيها المستمع وأيها المشاهد، تأمل معي هذه الآيات التي سيسوقها الله؛ ثلاث آيات، ثلاث آيات كلها يبتدئها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بلفظ ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾؛ آية دالة على قدرة الله على إحياء الموتى وعلى فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإنعامه على خلقه وعلى وحدانيته أن هو الخالق الواحد، الخالق العالم الذي يخلق بعلم.

اسمع ماذا يقول في الآية الثالثة والثلاثين، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

قوله: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ﴾؛ لهم، المخاطبون وخاصة أهل مكة الذين خاطبهم الله بالآيات، والذين هم أول من خوطبوا بالقرآن الكريم، وهي تصلح لكل زمان ومكان؛ كل تصلح له الآية.

﴿الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾؛ أنت تمر على أرض ميتة جرداء غبراء قاحلة مغبرة سوداء، ثم بعد ذلك ينزل الله عليها الماء؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾.

- **أحييناها بأي شيء؟**

أحياها الله بالماء؛ لما أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج؛ كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]؛ فأحياها الله بالماء.

أصبحت أرضاً فيها المياه وفيها الغدران وفيها الآبار وفيها الينابيع والعيون، وكذلك أيضاً أحياها بالزرع بالخضرة والزروع والألوان المختلفة والرائحة الطيبة؛ قال سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا﴾.

هذه آية على قدرة الله على إحياء الموتى؛ هم ينكرون ويستبعدون أن الله يحيي الموتى، الله رد عليهم؛ الله رد عليهم قال: انظروا إلى الأرض الميتة من الذي يحييها؟ من الذي يحييها؟ الذي أحياها قادر على إحياء الموتى؛ هذا معنى الكلام باختصار.

قال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾. شوف، أخرج الله الحب.

- **ما المراد بالحب؟**

الحبوب؛ الحبوب يعني القمح والذرة والشعير والأرز والعدس وسائر الحبوب التي يصعب حصرها وعدها. الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بدأ بها، بدأ بها قال: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾.

- **هذا الحب يتميز بأي شيء؟**

⬅الأمر الأول: أنه أشد احتياجاً إليه؛ يعني ممكن يستغنون عن الفواكه والخضار لكن لا يستغنون لكثرة استعماله في الطبخ؛ فالحبوب مثل القمح والشعير والذرة هذه لها استعمالات كثيرة فيحتاجها الناس.

⬅الأمر الثاني: أنها تدخر، ممكن أن تجعلها عندك سنين؛ يعني ممكن أن تجلس عندك سنين طويلة لا تتغير محفوظة، فهذه الحبوب ولذلك ابتدأها الله، ابتدأ بها قال: ﴿حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾؛ (مِن) هذه قد تكون تبعيضية؛ يعني هذه الحبوب شيء يأكلونه، وشيء يدخرونه، وشيء يكون للبهائم، يكون للبهائم.

ثم قال لما ذكر الأرض الميتة، قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ [يس: ٣٤].

جعلنا فيها أي في الأرض الميتة ﴿جَنَّاتٍ﴾ يعني بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾.

- **ليش خص النخيل والأعناب؟**

فيها غير النخيل والأعناب، فيها الزيتون وفيها الرمان فيها أشياء كثيرة؛ فنقول: الحكمة -والله أعلم- أن النخيل والأعناب فوائدها كثيرة واحتياج الناس لها؛ لأن النخيل مما يدخر أيضاً، يعني تأخذ التمر وتدخره سنين في عندك يدخر.

وكذلك الأعناب تتحول إلى زبيب ويكون طعاماً يدخر؛ فلذلك هذا من وجه. والوجه الثاني: كثرة الفوائد فيه، وأيضاً أن المخاطبين وهم أهل مكة كان النخيل والأعناب عندهم أمراً، شيئاً معروفاً جداً.

قال: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾؛ فجر الله فيها من العيون؛ يعني الأرض أحياها بالنبات وجعل فيها، جعل فيها العيون، جعل فيها العيون.

- **العيون ما المراد بها؟**

عيون الماء، الينابيع ونحوها؛ هذه عيون.

- **هل عين الإنسان تجمع على عيون ولا ما تجمع؟**

الجواب: عين الماء الجارية هذه تجمع على (عيون)، وعين الإنسان الباصرة، هذه الباصرة، هذه تجمع على (أعْيُن)، تجمع على أعين لا تجمع على عيون؛ العيون للجارية التي في الأرض، والأعْيُن للباصرة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٥].

قوله: ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾؛ أي ثمر النخيل والأعناب والزروع الجاهزة التي خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾؛ هذا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس للإنسان فيه أي تدخل، وإنما هو من الله، وإنما هو من الله؛ هذا عليه كثير من المفسرين؛ أي لم تعمله أيديهم بجهدها الذاتي دون خلق الله ونعمته وتيسيره.

وهناك رأي آخر وهو محتمل، أن معنى (ما) هنا يقولون اسم موصول؛ يعني ليأكلوا من ثم الثمار الناضجة الجاهزة ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أي والذي عملته أيديهم؛ لأن هذه الثمار التي تخرج فيها ما يؤكل يعني يأكل فيها ما يؤكل ناضجاً طازجاً وهو التمور والأعناب والزبيب.

ومنها ما يحتاج إلى طبخ، مثل الحبوب وغيرها التي تحتاج إلى طبخ. فقوله تعالى هنا ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ الجاهز الناضج المستوي يأكلونه مباشرة، ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ يأكلون أي مما يحتاج إلى عمل؛ فكل هذا فضل من الله على عباده.

- **ولذلك قال: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾؛ لماذا لا يشكرون؟**

استفهام، يعني مراد به التعجب من حالهم، التعجب والإنكار عليهم كيف لا تشكرون الله وتعبدون أصناماً ولا تشكرون الله وتصرفون هذه الخيرات والفضائل والإنعام لآلهتكم؟!

قال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦]؛ يصرفون ويجعلون مما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم؛ هذا كله لا يجوز وليس من الشكر، الشكر أنك إذا أنعم الله عليك بالحبوب والثمار والمياه والخير والنعم أن تشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما ذكر هذه الآية العظيمة الدالة على قدرته وعلى إحياء الموتى وهو الشاهد منها أنها إحياء الموتى، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

قال: ﴿سُبْحَانَ﴾؛ تنزيه لله أن يوصف بصفات النقص أو أن يجعل معه إله آخر؛ فعلينا أن ننزه الله ونعظمه ونعبده حق العبادة ونذكره ذكراً حسناً ولا نصفه بصفات النقص، ننزيهه عن كل صفات نقص لا تليق.

الأزواج يعني الأصناف هنا، الأزواج ليس الأزواج ذكراً وأنثى، لا، هو يحتمل، لكن الظاهر أن المراد بالأزواج هنا الأصناف.

قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أصناف الحبوب؛ يعني أنت لما تأتي إلى حب الأرز أنواع، القمح أنواع، الذرة أنواع؛ أصناف أنواع العدس أنواع شتى، العدس ألوان مختلفة؛ هذه الأزواج الأصناف المختلفة من الذي خلقها؟ الله.

﴿مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ﴾: كالحبوب والثمار.

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾: وهم الذكور والإناث وأصناف الرجال وأصناف النساء بالألوان والأشكال، الطول والقصر والألوان والأشكال واللغات والكلام؛ هذه أشكال وألوان كثيرة في الناس والطبائع؛ هذه خلقها الله أشكالاً وأصنافاً في الإنسان.

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾: مما يخلقه الله ونحن لا نعلمه، يخلق الله أشياء كثيرة من غير النباتات والثمار ومن غير الإنسان كالحيوان وغيرها مما يخلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه الآية الأولى هي آية عظيمة دالة على قدرة الله على إحياء الموتى.

ننتقل للآية الثانية، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

الليل آية عظيمة، آية من آيات الله؛ هذه الظلمة آية، يعني إذا جاء الليل استقرت النفوس وارتاحت وسكنت، وكل يعود إلى مسكنه وإلى مستقره؛ حيوان أو طير أو إنسان. الليل هدوء طمأنينة، هدوء طمأنينة، وهي آية من آيات الله تطمئن النفوس فيه وتستقر وتنام وترتاح، ترتاح من جهد النهار وتعب النهار وحركة النهار.

قال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ﴾؛ هذا الليل كيف يأتينا؟ كيف يأتينا ونحن في وضح النهار وفي شدة الشمس والنور الساطع والشمس فوق رؤوسنا ثم يأتي الليل؟ كيف يأتي الليل؟ ماذا قال؟ ﴿نَسْلَخُ﴾.

السلخ؛ سلخ الشاة، لما تأتي على الشاة تسلخها كيف تسلخها؟ تقشر وتزيل الجلد شيئاً فشيئاً؛ والليل يأتي شيئاً فشيئاً، هكذا حركة تأتي شيئاً فشيئاً، ما يأتي بسرعة؛ أنت جالس في النهار والشمس أمامك ما تدري وقد ذهبت الشمس إذا الليل قد أقبل من ها هنا والشمس النهار أدبر من ها هنا إلا وقد غطى الليل، غطى بظلامه كل شيء؛ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] غطى بظلامه كل شيء.

- **أنت في وضح النهار والشمس ساطعة، كيف يزال النهار شيئاً فشيئاً كالقشرة تزال عن اللحم؟**

هذه يقولون أهل البلاغة يقولون كلمة ﴿نَسْلَخُ﴾ هذه فيها بلاغة عجيبة، فيها استعارة؛ لأن الحقيقة يعني السلخ يكون إلا في الحيوان فكيف يكون في النهار؟ النهار يسلخ؟ النهار ما يسلخ؛ قال: هذه استعارة بلاغية من استعارات القرآن الكريم.

آية عظيمة يعني آية على قدرة الله الذي قادر على أن يزيل النهار ويأتي بالليل ثم يزيل الليل ويأتي بالنهار؛ قادر على إحياء الموتى، ثم الإنسان في الليل يموت الموتة الصغرى وهي النوم يموت، وإذا أصبح قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»؛ فيتذكر الحياة والموت، فهي آية على قدرة الله على إحياء الموتى.

قال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾. ﴿مُّظْلِمُونَ﴾ يعني دخلوا في الظلام، مثل ما تقول نحن مصبحون أي دخلنا في الصباح؛ فإذا هم مظلمون أي دخل عليهم الظلام، شوف خاتمة الآية، خاتمة جميلة، فاصلة جميلة؛ إذا هم مظلمون، قال ليل ثم قال مظلمون.

قال بعدها لما ذكر الليل والنهار، ذكرهم بآية النهار وهي الشمس وآية الليل القمر؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

الشمس تجري؛ الشمس تجري لمستقر لها؛ يعني الشمس لها حركة تطلع منها تطلع من المشرق في الصباح ثم تمشي حتى تصل إلى الغروب، حتى تصل إلى الغروب.

شوف قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

- **كيف مشي الشمس؟**

يعني لو تقرأ الآن أنت في ما يتكلم به علماء الفلك عن الشمس، تجد أشياء عجيبة جداً، أشياء عجيبة أنا قرأت فيها؛ يقال -والله أعلم بذلك- أن سرعة الشمس في هذه الأجواء، يعني في جو السماء، الشمس سرعة الشمس سرعة عجيبة جداً عظيمة جداً، مرة.

يعني حتى قالوا إن الشمس في الدقيقة الواحدة تقطع مسافة ما يقرب من [١٠٠ كم] في الدقيقة الواحدة. شوف الآن في السيارة ١٠٠ كيلو تقطعها أنت في السيارة في ساعة؛ هذه الشمس من سرعتها في الجو، وأنت تتصور أنها ما تمشي؛ ترفع رأسك هذه الشمس ما تتحرك لبعد المسافة، لكن سرعتها ذكر بعض علماء الفلك أن السرعة ما يقرب من حوالي تقطع ١٠٠ كيلو في الدقيقة، الله أعلم.

وأن الشمس، أن الشمس يعني هي أكبر من الأرض يعني بما يقرب يعني بأضعاف أضعاف؛ حتى يعني قالوا بأرقام خيالية، والعلم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والذي خلق الشمس هو الله، والذي خلق الأرض هو الله؛ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق السماوات وهي أعظم من الشمس والقمر، وخلق العرش وهو أعظم من السماء، والكرسي أعظم من السماوات؛ مخلوقات الله عظيمة والله عظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾.

☜ **جاء في حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأبي ذر:** «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ الشَّمْسُ؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «إِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنَ لَهَا، وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنَ لَهَا، يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ؛ فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا»؛ تطلع من حيث غربت. هذا حديث ثابت صحيح يدل على أن الشمس مسخرة، وأنها تستأذن في الطلوع والغروب، وأنها تسجد تحت العرش.

قال بعدها: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

القمر آية الليل، شوف الشمس تتحرك حركة يومية، والقمر حركته شهرية؛ فالقمر كل يوم له منزلة ينزل فيها، منازل في السماء، كل يوم ينزل في منزلة حتى ينتهي الشهر، يقول: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾.

شوف هذا أيضاً استعارة عجيبة وبلاغة عجيبة من بلاغة القرآن؛ العرجون ما هو؟ هو عذق النخل الذي فيه الثمرة إذا يبس؛ إذا يبس العذق هذا انحنى وتقوس تقوساً شديداً وانحنى؛ هذا العذق يصور القرآن لنا، أو يشبه القرآن لنا القمر بأنه في آخر الشهر ينحني ويتقوس على ضعف، هو آخر الشهر يسمى هلالاً وأول الشهر يسمى هلالاً.

لكن نظرتك أنت لما تنظر إلى أول الشهر، الأيام الأولى، تنظر إلى الهلال جميل وحسن وليس فيه تعرج ولا تقوس، لكن إذا رأيته في آخر الشهر، يوم السابع والعشرين أو الثامن والعشرين، تجده تقوسه ويدل على ضعفه على ضعفه أنه خلاص انتهى سيزول؛ فلذلك الله قال: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾؛ العذق البالي المنتهي.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

يقول هذه كلها الشمس ما تستطيع أن تأتي في وقت القمر، والقمر لا يأتي في وقت الشمس؛ كل له سلطان وكل له وقته؛ فالشمس في النهار والقمر في الليل، ولا يمكن هذا يدرك هذا مع أنهم كل يتلاحقون.

هذا يلحق هذا وهذا يتبع هذا، الشمس تلحق القمر والقمر يلحقها، والليل يلحق النهار والنهار يلحق الليل؛ كل كما قال سبحانه: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، وكما قال: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ يطلبه حثيثاً.

قال: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾. كل من الشمس والقمر والليل والنهار كلها في فلك؛ أي في مدار من مدارات السماء والأجواء، كل له طريقه يسلكه؛ لا أحد يتعدى على طريق الآخر، ولا أحد يدخل على الآخر، كلها تدور النجوم والكواكب والقمر والشمس كل هذه تتحرك في فلك يسبحون؛ يعني تسبح.

وشفت تعبير القرآن لما يقول: ﴿يَسْبَحُونَ﴾؛ السباحة دائماً في الماء، فهي لما كانت تنطلق بسرعة في الأجواء قيل: يسبحون؛ والسباحة دائماً سريعة، مثل سباحة السمك ونحوها.

والله سبحانه وصف الملائكة فقال: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣]؛ لأنها تنطلق بسرعة صاعدة ونازلة، وكذلك الشمس والقمر كلها تنطلق في هذه الأجواء.

- **لو سألك سائل قال لك: طيب كيف الليل والنهار يسبح؟ كيف؟**

الجواب: الليل يتبع النهار والنهار يتبع الليل، كلهم يتلاحقون فكأنهم يسبحون.

خذ الآية الثالثة؛ هذه الآية الثانية الآن عرفناها وهي آية الشمس والقمر أو آية الليل والنهار، وأن الله الذي حرك هذا الشيء وأتى بالليل والنهار قادر على أن يحيي الموتى.

خذ الآية الثالثة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

يقول: حملنا ذريتهم في الفلك المشحون، أنا بسألكم يا إخوان سؤالاً حقيقة كلنا نسمع السؤال هذا: الذين حملهم الله في الفلك المشحون الذرية ولا الآباء؟ الله يخاطب أهل مكة ويخاطب الذي نزل عليه القرآن.

يقول: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ يعني ذرية أهل مكة الموجودين؛ كيف حمل ذريتهم؟ الله حمل الأجداد والأسلاف من قوم نوح، هم الذين حملوا؛ الآباء، فكيف يقول حمل ذريتهم؟!

هذه الآية يقول (السعدي) في تفسيره: **"من أشكل الآيات ومن أصعبها واختلف أهل التفسير في تفسيرها"**؛ ولكن الذي يظهر بعدما يعني قرأت في عدد من التفاسير وبحثت فيها -والعلم عند الله، ولا أقول إنني بحثت وأنا أصغر من أن أقول هذا الشيء.

لكني الذي ظهر لي والله أعلم- أن معنى قوله هو آية لهم؛ آية على قدرة الله على إحياء الموتى أن الله حمل الذرية؛ لأن هذه الذرية كانت في أصلاب الآباء.

يعني أنا وأنت والثاني والثالث كنا في أصلاب آبائنا؛ فالله يخبرنا بمنته علينا ونعمته، يقول: نحن لما أنجينا آباءكم في السفينة، سفينة نوح، وأنتم في ظهور آبائكم، صارت النعمة عليكم؛ كأن النعمة عليكم؛ لأن النعمة على الآباء هي نعمة على الذرية، والنعمة على الذرية نعمة على الآباء، فهذا هذا الذي يظهر لي.

فقوله تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي حملنا هذه الذرية في أصلاب الآباء والأصول؛ هذا الذي يظهر.

قال: ﴿فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾؛ وهو الذي صنعه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، و(المشحون) يعني الممتلئ؛ ممتلئ من ممن ركب فيه وأركب فيه.

- **ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢]. ما الذي خلقه الله لنا من مثله؟**

الجواب: مثل الأنعام؛ مثل الإبل خلقها الله لنا لنركبها نركبها، والخيل والحمير والبغال؛ كما قال سبحانه: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨]، وكذلك مما يحدثه الله من السفن والبواخر والمراكب مثل السيارات ومثل الطائرات والقطارات وغيرها؛ هذه كلها مما خلقه؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ۝٤٣ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ۝٤٤﴾ [يس: ٤٣-٤٤].

يقول: الله قادر على أن يغرق من يركب في السفن في البحار، ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾؛ لا أحد ينقذهم، ليس لهم غيث ولا أحد ينقذهم؛ ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ ما أحد يستطيع أن ينقذهم، ما أحد.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾؛ يقول إلا أن الله يرحمهم، إلا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يرحمهم؛ هذا أمر. والأمر الثاني: يمتعهم متاعاً إلى وقت آجالهم، ثم ينتقلون ثم ينتقلون.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده؛ والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(يس ٤٥ - ٥٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين، اللّٰهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثلاثين من شهر صفر من عام [١٤٤٦ هـ]؛ أسأل الله أن يبارك لنا ولكم في أعمالنا وأوقاتنا وأعمالنا.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة بين أيدينا هي (سورة يس)، ووقف بنا الكلام عند الآية الخامسة والأربعين، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥].

عندما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الآيات الدالة على قدرته، وعلى وحدانيته، وعلى رحمته بالعباد؛ الآيات الثلاث:

الآية الأولى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ۝٣٤﴾ [يس: ٣٣-٣٤]؛ فلا شك أن هذا يدل على قدرة الله على إحياء الموتى، ويدل أيضاً على وحدانيته بانفراده في الخلق والتدبير والإنعام، وعلى فضله وإنعامه على عباده.

ثم ذكر الله سبحانه الآية الثانية، قال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]. وهذه أيضاً آية عظيمة دالة على قدرته على البعث، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وعلى وحدانيته المتصرف بهذا الكون؛ ما الذي يأتي بالظلام، ويأتي بالليل، ويأتي بالنهار، ويأتي بالشمس إلا الله؟! ودالة على فضله وإنعامه؛ يعني على عباده؛ لولا فضل الله وإنعامه بالليل لكان أصبح الناس في قلق شديد، وفي أرق، ولا يستطيعون أن يعيشوا، أو العكس.

الآية الثالثة، قال: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]. وهذه آية عظيمة جعلها الله من آياته؛ من الذي أنشأ هذا الفلك وخلقه وصنعه وعلم عباده؟ ومن الذي جعله مصلحة للعباد؟

ومن الذي أنشأ الذريات المتتالية جيلاً بعد جيل، وخلقاً بعد خلق، وكل يخلف الآخر؟ الذي يخلف هؤلاء يجعلهم يخلف بعضهم بعضاً، ويذهب قوم ويأتي آخرون؛ الذي يفعل ذلك هو الله الواحد القادر المنعم على عباده.

بعد هذه الآيات البينات، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين موقف المشركين؛ فيقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥].

معنى شوف، لم يأتِ ذكر للمشركين، لكن السياق يدل، قال: وإذا قيل؛ أي للمشركين، لهم: اتقوا ما بين أيديكم، ولاحظ أن هذه الآية وما بعدها سيبين لك الله سبحانه سبيل الإنسان بما يرضي الله، وخوف الله، وخوف عقوبة الله وعذابه؛ رحمة الله؛ قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥]؛ أي تكون التقوى سبباً في رحمتكم قال الله؛ أي هذا الموقف الأول.

الموقف الثاني، قال سبحانه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦].

آية لهم الأرض الميتة ثم يحييها الله بالماء والزرع والخضرة، وآية لهم الليل؛ يأتي الليل ويأتي النهار، وتعاقب الليل والنهار، وطول الليل وقصر النهار والعكس؛ هذه آية.

وآية لهم الذرية والتناسب، وذهاب الأجيال ومجيء آخرين؛ هذه آيات عظيمة، يقول: ما تأتيهم من آية من آيات ربهم؛ هذه أو غيرها، آيات ربهم كثيرة جداً، ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين؛ يعني في غفلة وفي إعراض وتكبر وعدم قبول للحق أو إذعان له؛ لا يريدون أن يستجيبوا لربهم.

الكبر يعني؛ إن في صدورهم إلا كبر؛ ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]؛ يريدون بس مجرد الكبر والإعراض والاستكبار؛ ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾.

يقول شوف الأول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥]؛ فيه يعني كلام محذوف تقديره: إذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون؛ أعرضوا ولم يقبلوا؛ هذا التقدير، ولذلك جاء التصريح به بعده، قال: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦].

ثم قال بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

- **لماذا خص النفقة؟**

⬅الأمر الأول: قال التقوى؛ وهي الخوف من الجليل.

⬅الأمر الثاني: بيان آيات الله في الكون وموقفهم منها؛ وهو الإعراض، ثم قال: أنفقوا؛ لماذا؟ لأن الصدقة تطفئ الخطيئة، ولأن الصدقة دليل على صدق صاحبها، والصدقة برهان؛ فإذا قلت لهذا الشخص: أنفق، ولم ينفق؛ دل على ضعف إيمانه، وإعراضه عن الصدقة دليل على عدم قبوله وتصديقه، والصدقة تدل على صدق صاحبها.

قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾؛ ليس مالكم، ليس المال مالكم؛ يعني أنفقوا من رزق الله شيئاً قليلاً مما أعطاكم الله وجعلكم مستخلفين فيه.

﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ شوف أظهر، ما قال: قالوا، لا، قال: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ الإظهار في مقام الإضمار؛ هذا للتصريح بأنهم كفار لا يريدون أن يقبلوا الحق.

قال الذين كفروا للذين آمنوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾. تريدون أن نطعم ونتصدق على أناس الله هو الذي يتصدق عليهم؟! الله لو أراد الله أن يطعمهم لأطعمهم، هو الذي جعلهم فقراء، فنروح نذهب ونعطيهم المال والله جعلهم فقراء؟!

هذا احتجاج، شوف احتجاجهم؛ حجة شيطانية؛ احتجاجهم بأن الله لو أراد أن يعطيهم لأعطاهم، الله هو الذي خلقهم وهو الذي رزقهم، فلماذا أنتم تأمروننا؟!

هذه حجة شيطانية من الكفار، وقد توجد عند بعض المسلمين؛ لما تقول له: هناك أناس يعني بحاجة، أو امرأة أرملة، أو أطفال يتامى، أو نحو ذلك يحتاجون إلى من يساعدهم، قال: الذي يتولى أمرهم

هو الله عَزَّ وَجَلَّ، الله هو الذي يرزقهم! وأعرضوا، ولا يريدون أن يتصدقوا؛ هذا إذا قيل لهم باب الصدقة مفتوح أمامكم سارعوا اليه وادخلوا فيه وتصدقوا.

قالوا: لو شاء الله؛ قال: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧]؛ يقول: أنتم في ضلال يوم تقولون هذا الكلام، أو يكون هذا رد من المؤمنين لهم، قال: إذن أنتم في ضلال؛ ما دمتم تحتجون بالمشيئة على المعصية؛ هذا ضلال، الاحتجاج بالمشيئة على المعصية أمر مردود لا يقبل، وطريق سيء لا يصح.

فالاحتجاج بالمعاصي؛ يأتيك واحد يعصي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا عصى الله، إذا عصى ربه قال: والله قدر علي؛ شوف، الاحتجاج بالقضاء والقدر على المصائب؛ هذا صحيح؛ لما تقول: قدر الله أن حصلت لي مصيبة؛ هذا ما أحد يعترض عليك.

لكن لما تقول: قدر الله أني عصيت، قدر الله أني لا أصلي؛ هذا الكلام غير صحيح؛ ولذلك في **(سورة الزمر)** قال الله سبحانه: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝٥٧ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝٥٨﴾ [الزمر: ٥٧ – ٥٨].

لو أن الله هداني؛ هداك الله وبين لك الطريق؛ فلما قال: لو أن الله هداني لكنت من المتقين، قال الله: بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها؛ هذا كلامك غير صحيح.

فهنا غير صحيح كلامهم؛ يحتجون يقولون: الله لو شاء الله أطعمهم! الله جعل الله من حكمته، جعل هناك أغنياء وجعل هناك فقراء، والغني الله جعله غنياً ابتلاءً من الله؛ هل يشكر أو لا؟ والفقير جعل الله فقيراً ابتلاءً من الله؛ هل يصبر أو لا يصبر؟ فكله ابتلاء؛ الله جعل الناس على هذه الدرجات امتحاناً وابتلاءً للناس.

ثم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً من مواقف هؤلاء المشركين أنهم يستهزئون، ويسخرون، ويستبعدون يوم القيامة؛ يقولون: متى؛ على وجه الاستبعاد والجحد؛ يجحدون هذا ويستبعدون أن يأتي، وعلى وجه الاستهزاء يسخرون ويستهزئون.

يقولون: يا محمد، أو أنتم أيها المؤمنون: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]. أنتم تقولون سيأتي يوم القيامة، أين هذا؟ متى؟ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ متى يأتينا؟

رد الله عليهم بقوة، قال: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[يس: ٤٩]. ما ينتظرون إلا صيحة واحدة، ما صيحة واحدة تأخذهم، والصيحة هنا هي (**النفخة الأولى**)؛ (**نفخة الصعق**) و(**نفخة الموت**)؛ لأن عندنا نفختان:

- النفخة الأولى: (**نفخة الصعق والموت**)؛ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[الزمر: ٦٨]؛ أي مات من في السماوات والأرض إلا ما شاء الله.
- النفخة الثانية: وهي نفخة البعث؛ نفخة البعث وخروج الناس من قبورهم؛ ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[الزمر: ٦٨].

فقال الله هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٤٩]؛ هي الصيحة هي النفخة؛ (**نفخة الموت**) و(**نفخة الصعق**).

شوف، المشركون الله ناقشهم: إذا قيل لهم اتقوا؛ أعرضوا، وكل ما تأتيهم من آية؛ يعرضون، وإذا قيل لهم أنفقوا؛ امتنعوا واحتجوا بأن الله لو أراد أن يغنيهم أغناهم، ويستهزئون ويقولون: متى هذا الوعد الذي هو يوم القيامة؛ فرد الله عليهم قال: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩]؛ تأخذهم وهم يخصمون.

- **ما معنى يخصمون؟**

أصلها يختصمون؛ يخصمون يعني يختصمون، أي يتخاصمون في البيع والشراء، ويتخاصمون؛ والمخاصمة هي مجادلة بقوة ونقاش حاد ورفع أصوات وكلام.

فتجد يعني تأتيهم الصيحة وهم غافلون وهم مشغولون؛ تجدهم يتبايعون في معارض السيارات، ويتبايعون في العقارات، ويتبايعون في الأسهم، ويتبايعون في السلع والأسواق؛ ما يدري إلا وقد جاءه الموت وجاءته الصيحة ونفخ في الصور ومات وهو لا يدري.

جاء في حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرَّجُلَانِ يَتَبَايَعَانِ وَقَدْ نَشَرَا الثَّوْبَ بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطْوِيَانِهِ»؛ يعني يتركونه ويذهب، والرجل وقد أخذ يعني لبن لقحته فلا يشربه، وهكذا يعني تأتي الساعة غفلة.

قال: ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٩]، قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ [يس: ٥٠]؛ إذا جاءتهم الصيحة الأولى، نفخ في الصور؛ ما يستطيع ولا أن يوصي، ما فيه فرصة له أن يكتب وصيته، لا يستطيع؛ قال: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠]؛ هو في الطريق ما يستطيع يرجع إلى أهله، خلاص انتهى؛ فهذه النفخة الأولى.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عن النفخة الثانية فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]. هذه هي **(النفخة الثانية)**؛ نفخة البعث؛ **(نفخة البعث)** هي النفخة الثانية.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾؛ فإذا هم؛ أي البشر، بنو آدم، ﴿مِّنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي من القبور.

- **هل هناك فرق بين الأجداث والقبور، ولا المعنى واحد؟**

كثير من المفسرين يقول المعنى واحد؛ قلت جدث أو قبر، أجداث قبور؛ المعنى واحد، وبعضهم يقول فيه فرق دقيق جداً؛ القرآن مرة يستعمل القبور ومرة يستعمل الأجداث؛ قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. فيقولون:

⬅القبر: إذا حُفر يسمى قبراً، وإذا دُفن فيه الميت يسمى قبراً؛ لأن القبر هو في حال حفره ودفن الميت فيه يسمى قبراً، يقبر فيه وهذا معناه.

⬅الجدث: إذا انشق وخرج منه الميت يسمى جدثاً؛ لا يسمى قبراً؛ لأنه يخرج.

وقالوا إن هذا في لغة العرب، يقول: جدثت الدابة بحافرها؛ يعني حركت الحافر فحفرت مكانها، تجدس يعني تحفر مكانها؛ فالقبر إذا تشقق وخرج منه الميت يوم القيامة يسمى جدثاً؛ هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين، وبعضهم يقول لا فرق.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]؛ ينسلون يعني يسرعون في المشي، يخرجون مسرعين؛ هذا معنى أن ينسل؛ يعني يخرج مسرعاً.

يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]؛ إذا تشققت الأرض وتشققت القبور خرجوا مسرعين.

فإذا خرجوا مسرعين انبهروا، فقالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]؛ ينادون الويل، والويل والثبور هو الهلاك؛ ينادون الهلاك، يقولون: يا هلاك تعال اقضِ علينا حتى نموت! ما هذا الموقف؟!

إذا شافوا موقف يوم القيامة والناس يخرجون من قبورهم وأمامهم النار؛ يتمنون الموت؛ يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]؛ يتمنى الموت ولا يستطيع؛ فهذا معنى قوله: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾.

يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؛ من الذي بعثنا من مرقدنا؟ يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا! قال: يظنون أنهم في مرقد؛ في نوم، ما ظنوا أن الدعوة بعث وحساب وجزاء وجنة؛ يظن أنه مرقدنا.

وبعض المفسرين يقول إن إذا نفخ في الصور النفخة الأولى؛ يعني بعد النفخة الأولى ينام، أن الذين في قبورهم ينامون نومة، فتأتيهم النفخة الثانية فيستيقظون من هذه النومة، فيقول أحدهم: من بعثنا من مرقدنا؛ يظنها نومة.

وبعضهم مثل ما ذكر الله يعني هنا، يظن أنه في مرقده ما يدري أنه يخرج من قبره؛ يقول: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا.

قال الله: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]؛ أو تقول الملائكة، أو يقول المؤمنون لهم: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾، أو هم يقولون يحدث بعضهم بعضاً، يقولون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

شوف هنا سكتة؛ إذا قرأت، إذا أردت أن تقرأ، إذا جئت عند ﴿مَّرْقَدِنَا﴾؛ هناك **(سكتة لطيفة)**، تقول: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]؛ ليست وقفة، وإنما سكتة؛ هذه في **(يس)**.

وأيضاً في (سورة القيامة): ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٧]، وفي **(سورة المطففين)**: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ﴾ [المطففين: ١٤]؛ هذه السكتات الثلاث التي يسكت عندها **(حفص عن عاصم)**؛ فأنت تقرأ ثم تسكت عند هذه ثم تقرأ؛ لأنك لو وصلت ستقول: من بعثنا من مرقدنا هذا؛ فتظن **(هذا)** تابعاً للمرقد، لا؛ من بعثنا من مرقدنا، ثم تسكت سكتة لطيفة وتقول: هذا ما وعد الرحمن.

هذا الذي أنتم تشاهدونه؛ البعث، هو ما وعدكم الله عَزَّ وَجَلَّ بالبعث، وصدق المرسلون؛ لما قالوا هذا الكلام، صدق المرسلون لما أخبروكم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

يقول: إن كانت إلا صيحة واحدة؛ هذه الصيحة التي سمعتموها أو التي أخبرناكم عنها، وهي النفخ في الصور، وهو الذي ينفخ فيه إسرافيل، والصور هو البوق الذي ينفخ فيه، لا يعلم كنهه وصفته إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً﴾؛ أي صيحة البعث، ﴿وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ بلحظة قال: اجتمعوا كلهم، نعم؛ وإذا هم جميعاً بدون استثناء ﴿لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾.

شوف كلمة **(محضرون)** غير **(حاضرون)**؛ الحاضر يحضر بنفسه ويحضر باختياره، لكن لما يقال **(محضرون)**؛ يعني يحضر بقوة، يحضر بقوة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[يس: ٥٤].

اليوم هذا إذا بعث الله الأولين والآخرين يقضي بينهم ويحاسبهم، فكل نفس لا تظلم شيئاً، ولا مقدار ذرة، لا تظلم أبداً؛ أي نفس لا تظلم شيئاً ولا مقدار ذرة.

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]؛ لا تجازى إلا بعملك، إن خيراً ستجده ويضاعف الله لك الحسنات، وإن شراً ستجده والله يجازيك بدون ظلم، فيعطيك حقك لا يهضمك ولا يظلمك، ويعطي عباده المتقين ويضاعف لهم الحسنات. ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

لعلنا نقف عند هذه الآية، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(يس ٥٥ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين. اللّهم إنا نسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للسابع من شهر ربيع الأول من عام [١٤٤٦ هـ].

درسنا في تفسير القرآن العظيم؛ لا زلنا في سورة (يس)، نقلب صفحاتها ونتدبر آياتها، وقف بنا الكلام عند الآية الخامسة والخمسين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥].

الحديث عن أهل الجنة وأصحاب الجنة؛ لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قبلها: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]؛ لما ذكر هذه الآية، ذكر الله أن كل نفس لا تظلم شيئاً، وأنها تجزى بما كانت تعمل، ذكر بعدها ما أعده الله من الجزاء الحسن والنعيم المقيم لأصحاب اليمين، لأهل الجنة، ثم ذكر أيضاً ما أعده لأصحاب النار.

فكان هذه الآية التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾؛ يعني يوم القيامة، ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، هذا جزاء الفريقين؛ جزاء السعداء وجزاء الأشقياء.

فبدأ الله بجزاء السعداء، فقال: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾.

- **ما معنى أصحاب الجنة؟**

هم أهل الجنة الملازمون لها، الذين لا يفارقونها، ولا يبغون عنها حولاً؛ هؤلاء هم أصحاب الجنة.

﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ﴾؛ يعني يوم القيامة إذا دخلوها، ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾.

الشغل: ما يشغل الإنسان عن غيره، فهو قد انشغل به عن غيره؛ فيقال هذا فلان في شغله؛ يعني مشغول بنفسه، أو مشغول بما هو فيه، فما هو الشغل الذي أشغل أهل الجنة؟ ما الذي يشتغلون به؟ قال:

﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾؛ يعني ليس الشغل شغل الدنيا؛ تعمل فتتعب، ويصيبك النصب والتعب والإرهاق، لا؛ هؤلاء هم يعملون ويشتغلون بنعيم الجنة، وفاكهون.

حتى قرأت في قراءة أخرى: ﴿فِي شُغُلٍ فكِهُونَ﴾؛ والفكه والفاكه: الذي يتلذذ بالنعيم.

أصل الفاكهة سميت فاكهة؛ لأن الإنسان يتلذذ بأكلها، لا تحتاج إلى طبخ أو نحوه، أو إضافة شيء على شيء؛ لا، تأخذها وتأكلها، الفواكه؛ فلذلك يتفكه بها الإنسان؛ يعني يتلذذ بها ويتنعم. ﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾؛ يعني أهل الجنة مشغولون بنعيمهم، يتفكهون ويتنعمون ويتلذذون بهذا النعيم.

قال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]؛ يعني زوجاتهم من زوجات الدنيا، وأيضاً زوجاتهم من الحور العين، ﴿فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾.

قال ابن عباس في: "﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾: قال فض الأبكار".

وقال أحد المفسرين في: "﴿فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ﴾: افتضاض العذارى."

قال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾، قال: ﴿فِي ظِلَالٍ﴾.

- **ما المراد بالظلال؟**

الجنة ما فيها شمس.

- **كيف يكون في ظلال؟**

قال: ظل الأشجار؛ لأن هذا يزيد في النعيم، فأنتم لما تكونون على الأرائك؛ والأرائك جمع أريكة، وهي السرير الذي يجلس عليه، فإذا كان السرير عليه الحجال، وعليه القماش، ومبطن، يسمى أريكة؛ مثل الكنب، لكن الأريكة واسعة تأخذ أكثر من شخص؛ يعني يجلس عليها أكثر من شخص تسمى أريكة، وإذا كان يجلس عليها شخص واحد هذا يسمى كرسي؛ فالأريكة واسعة.

فهم يجلسون على هذه الأرائك، وجلستهم جلسة تدل على الطمأنينة والراحة وانشراح الصدر والأمن التام. قال: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾؛ يتكئ كأن تتكئ على يمينك أو على شمالك.

وفي حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ»؛ فالاتكاء هو أن يميل، هذا الميل هو جلوسه يدل على راحته وطمأنينته والأمن التام؛ لأن الإنسان لما يكون قلقاً منزعجاً ما يجلس جلوساً متكئاً، يجلس وهو على مضض.

فهنا يقول: ﴿مُتَّكِئُونَ﴾؛ هم وأزواجهم في ظلال الأشجار من فوقهم تظللهم ومتدنية عليهم، وهم على هذه الأرائك متكئون متقابلون؛ على سرر متقابلين، وينظر بعضهم إلى بعض، ويتحدث بعضهم مع بعض في أعظم نعيم.

قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧]؛ شوف، فاكهة نكرة، نكرة في سياق الإثبات تدل على الإطلاق؛ يعني فاكهة، والتنكير يفيد التعظيم؛ يعني فاكهة عظيمة وكثيرة لا حد لها، ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾؛ فاكهة كثيرة.

وزيادة على ذلك: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾؛ كل ما يريدونه ويطلبونه يأتي بين أيديهم، الجنة فيها كل ما يتمناه الإنسان، كل ما يرغب فيه الإنسان، يتمناه يأتي بين يديه؛ فلهم ما يدعون. وزيادة على هذا النعيم، هم وأزواجهم وذرياتهم، وعلى الأرائك متكئون، وأمامهم الأطعمة والأشربة؛ يعني الراحة النفسية.

زيادة على ذلك، يأتيهم نعيم أعظم من ذلك كله، وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسلم عليهم، وينظرون إليه، كما في الحديث، فيكشف عن وجهه فينظرون إليه؛ وهذا أعظم نعيم الجنة، النظر إلى وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

اللّٰهم إنا نسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك. فهذا من أعظم النعيم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسلم عليهم، كما في الحديث، يسلم عليهم، قال: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]؛ يعني قول حقيقي، ليس سلاماً من أي شخص، لا، من رب العالمين؛ ليس من الملائكة، وإن كانت الملائكة تسلم عليهم.

والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم، وهم يسلمون بعضهم على بعض سلاماً سلاماً؛ وفوق ذلك سلام رب العالمين، والسلام التحية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

التحية من الله والسلام معناه أنه لا أذى يصيبكم، أنتم سالمون من كل أذى؛ فبعد سلام الله عَزَّ وَجَلَّ لا يجدون أي شيء يكدر حالهم ومجالسهم، فهم في أحسن مجلس وأحسن راحة، يسلم عليهم رب العالمين؛ هذا نعيم أهل الجنة. نسأل الله أن لا يحرمنا هذا الفضل، وأن يجعلنا وإياكم ممن ينعم بهذا النعيم، وأن لا يحرمنا هذا الفضل العظيم.

يقابل هذا الأشقياء ومآلهم؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الأشقياء: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]؛ هذا خطاب من الله لهؤلاء الأشقياء المجرمين أهل الضلال أهل أصحاب النار.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]؛ امتازوا: يعني ابتعدوا، وانعزلوا، وكونوا بعيداً عن أصحاب الجنة، لن تستطيعوا أن تصلوا إليها؛ وهذا طرد وإبعاد لهم. امتازوا؛ ابتعدوا، تميزوا أيها المجرمون.

- **ثم لماذا يبعدهم الله؟ لماذا؟**

حتى يوبخهم، وحتى يقرعهم في الكلام؛ يعني الذي يوجه إليهم توجيهاً عظيماً شديداً عليهم، فيقول على وجه التوبيخ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]؛ أنا عاهدت إليكم.

وأرسلت إليكم الرسل، وحذرتكم من طاعة الشيطان، ما حذرتكم إلا تعبدوا، لا تطيعوه ولا تعبدوه؛ إنه عدو لكم، عدو مبين، فحذر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن، وحذر على ألسنة الرسل، أن هذا الشيطان عدو لكم، وأن لا تطيعوه؛ ومع ذلك أطاعوه، وتركوا طاعة الرحمن.

قال: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١]؛ لا تعبدوا الشيطان ولا تطيعوه، واعبدوني أنا واتقون، وتمسكوا بما أمرتكم به، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾؛ هذا الصراط الذي أمرت به الرسل جميعاً أن يبلغوه لأقوامهم: صراط الله المستقيم؛ طاعته، والحذر من طاعة الشيطان؛ هذا صراط الله المستقيم، ولكنكم لم تسمعوه.

قال: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢]؛ يقول: أضل منكم أمماً كثيرة وأقواماً كثيراً، جِبِلًّا: يعني أعداداً هائلة، الشيطان يضل، وقد أضل كثيراً؛ ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾، ما عقلتم هذا الكلام، وسمعتم عن إهلاك الأمم الماضية بسبب طاعة الشيطان؟! فلماذا جهلتم هذا الشيء كله، ولم تعقلوا وتستخدموا عقولكم بما ينفعكم؟!

فإذا وبخهم الله هذا التوبيخ الشديد، بعد ذلك يقول لهم: هذه جهنم التي أمامكم، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [يس: ٦٣]؛ كنا نعدكم في الدنيا ونقول لكم هذه جهنم التي توعدون، كنا نحذركم منها ونقول جهنم فيها كذا وكذا وكذا، هذه جهنم اليوم.

﴿اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: ٦٤]؛ اصلوها: يعني ادخلوها وقاسوا حرها اليوم، ادخلوا النار حتى تصلاكم النار، ادخلوها بما كنتم تكفرون. شوف، أهل الجنة يقال لهم ادخلوها بأعمالكم الصالحة، وهؤلاء بما كنتم تكفرون.

هذه جهنم؛ إذا جاؤوا على شفير جهنم، ورأوا النار أمامهم، تختم على أفواههم؛ قال: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]؛ يختم على أفواههم فلا يتكلمون. فإذا ختم على أفواههم، ما الذي يتكلم؟

قال: ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ الأيدي تتكلم والأرجل تشهد على أي شيء؟ قال: بما كانوا يكسبون، بأعمالهم. فتقول الأيدي؛ الأيدي تتكلم فتقول: فعل كذا، وفعل كذا، وفعل كذا من الجرائم، وقال كذا، وقال كذا من الأقوال السيئة.

وتشهد الأرجل تقول: نعم، ذهب إلى كذا، وذهب إلى كذا؛ فتشهد جوارحه عليه، تشهد جوارحه عليه وتشهد الجلود، قالوا لجلودهم: لِمَ شهدتم علينا؟

قالوا: أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء؛ فتشهد عليهم، وهذا أشد شيء أن يشهد عليك ما هو معك؛ يعني ما تستطيع أن تنكر، تقول لليد: لا غير صحيح، أو للرجل: لا غير صحيح، لا؛ هذا يعترف به.

فهذا شوف كيف يجازون هذا الجزاء؛ قال: يختم على أفواههم فلا يستطيعون التكلم.

ولكن لو جاءك شخص وقال لك مثلاً: في آيات أنهم يتكلمون؛ يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، ويقولون: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، يتكلمون.

- **كيف يقول يختم على أفواههم ومرة يقول يتكلمون؟**

الجواب: يوم القيامة يوم عظيم، وتجده في أحواله الكثيرة تارة يتكلمون وتارة لا يتكلمون؛ فهذا معناه.

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٦٦]؛ يقول: لو شاء الله لطمس على أعينهم فأصبحوا عمياً لا يبصرون، ثم قيل لهم: امشوا على الصراط؛ على الصراط الذي على متن جهنم، كيف يمشون وهم لا يبصرون وهو أدق من السيف؟!

ما يمكن؛ فيقال لهم امشوا على الصراط حتى تتجاوزوه وتدخلوا الجنه؛ فقال الله: لو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنّى يبصرون؟ الصراط سيسقطون في نار جهنم.

قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٦٧]؛ لو شاء الله جعلهم في أماكنهم لا يتحركون، لا يتقدمون ولا يتأخرون؛ يقول: مسخناهم على مكانتهم، فما استطاعوا مضياً يتقدمون ولا يرجعون، صاروا مثل الجمادات مثل الحجارة لا يتحركون؛ مسخهم الله فأصبحوا لا يتحركون، أصبحوا لا يتحركون.

فالله قادر؛ فالذي شوف فالذي قدر على أن يختم على أفواههم وجعل الأرجل والأيدي تتكلم، والله قادر على أن يطمس أعينهم وأيضاً يمسخهم حتى لا يتحركوا ويجعلهم كالجماد، قادر على أن يحيي الموتى؛ فهؤلاء يشكون بالبعث والجنة والنار وإحياء الموتى.

وخذ من الشواهد التي نراها أمامنا ما أحد يخفى عليه، وهي أنك ترى الإنسان يخرج من بطن أمه طفلاً صغيراً، ثم ينشأ يكبر، ثم يصبح شاباً قوياً يافعاً فتياً، ثم يصبح رجلاً في نشاطه وقوته، ثم بعد ذلك يرجع إلى الضعف؛ يضعف.

إذا امتد به العمر جاوز الستين السبعين الثمانين التسعين، راجع إلى أشد مما كان يوم كان طفلاً؛ فيضعف جداً حتى يذهب عقله ويصبح كالمجنون لا يفهم ولا يدري، وعنده ضعف البنية؛ لا يستطيع أن يقوم، ولو أوقفته لسقط على الأرض، ضعف في الأكل، ضعف في النوم، ضعف في أشياء كثيرة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]؛ نعطيه عمراً طويلاً، نمده بالعمر، ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ يرجع إلى الخلق الأول الضعيف، ينكس إلى خلقه الأول الضعيف الخلق.

يقول: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؛ قدرة الله، ويفكرون في أنفسهم أن الذي جعلهم يترقون هذه المراحل قادر على أن يبعثهم مرة أخرى؟! أين عقولكم؟ لماذا لا تفهمون هذا الشيء؟!

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رداً على هؤلاء الكفار الذين يتهمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة بأنه يعني يفتري على الله الكذب، ومرة بأنه ساحر، ومرة بأنه كاهن، ومرة بأنه شاعر، ويقولون إن محمداً عنده شعر؛ الشعر الشعراء يتبعهم الغاوون، ما يتبعهم العقلاء.

والشعراء في كل وادٍ يهيمون، يقولون كلاماً ولا ويقولون ما لا يفعلون، والشعر إما في وصف وإما في هجاء وإما في مدح، وأما القرآن لا؛ القرآن مواعظ تذكير، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]؛ ما علمنا محمداً الشعر، وما ينبغي أن يتعلم الشعر، ولا يقول الشعر، وليس بشاعر.

- **ما الذي معه؟**

الذي تسمعه لهذه السورة وغيرها؛ قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾؛ موعظة وذكر وتذكير للناس، وقرآن مبين واضح، ما يحتاج إلى أن تقول ما هو؛ هذا قرآن مبين واضح، كلام رب العالمين.

- **والغرض منه ماذا؟**

قال: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]؛ الذي قلبه حي ويفهم ويدرك وعقله معه، هذا ينذر فينتبه ويفهم ويدرك ويعرف؛ لينذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، يقول: هذا القرآن يبين لك أنه نذارة للمؤمنين المنتفعين به، وأما الكفار تحق يحق القول عليهم بأنهم أعرضوا وكفروا.

بقي عندنا مجموعة من الآيات ودنا نكمل السورة يا إخوان؛ يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [يس: ٧١]؛ أي هؤلاء الكفار، عميت أبصارهم لم يروا، ﴿أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾؛ يقول: خلقنا لهم هذه الأنعام الإبل والبقر والغنم بقوة الله وقدرته، خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وليس المراد بالأيدي هنا هي أيدي الله عَزَّ وَجَلَّ؛ يعني صفة اليدين، لا، هذه لا نثبت فيها صفة اليدين مثل ما تقول أنت، مثل ما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]؛ اللي قدمت نفسك ليست يداك، لكن هذه من بلاغات العرب واستعمالات العرب؛ يقول لك عملته يدك.

لو كان هذه من الله لو هذه الأيدي لقال عملناه بأيدينا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما خلق البهائم بيديه، إنما خلق آدم بيده وخصه وشرفه باليد، أما البهائم وغيرها قال لها: كن فكانت أنعاماً، ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾؛ الله هو الذي أوجدها لهم وهم يملكونها.

﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢]؛ سخرناها وجعلناها مذللة لهم، فيركبون ويذبحون ويأكلون ولا تمانع؛ فتجد الإبل يركبها الصغير والكبير، قال: ذللنا، ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ يركبونها، ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ يذبحون ويأكلون من البقر والغنم والإبل يركبونها وتحمل أثقالهم.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣]؛ منافع كثيرة، منافع كثيرة من جلودها ومن منافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها، منافع كثيرة، ومشارب من ألبانها؛ يقول: أفلا يشكرون؟ لماذا لا يشكرون هذه النعمة؟ يتركون هذه النعمة ولا يشكرون الله ويعبدونه، لكنهم مع الأسف اتخذوا من دون الله آلهة.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤]؛ اتخذوا من دون الله آلهة يعني يعبدون الأصنام، لم يشكروا نعمة الله، وهم يعلمون أن الذي خلقها خلق هذه الأشياء هو الله، اتخذوا آلهة أصناماً لعلهم ينصرون؛ تنصرهم، تشفع لهم، ما تنصرهم ولا تشفع لهم، هم يتخذون لهذا الغرض، لكنها مع الأسف ما تنفعهم.

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٥]؛ ناصرهم ما تنصرهم، ولا هم وهم لهم جند محضرون؛ أي هذه الآلهة ستكون جنوداً أمامهم؛ يعني ستكون ضدهم يحضرون أمامها وهم الجند يحضرون ولا ينتفعون، ستكون سيكونون ستكون ضدهم.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه لما رأى من هؤلاء الإعراض والاستهزاء والاستكبار، فقال: ﴿فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: ٧٦]؛ يستهزئون بك ويسخرون منك لا تحزن عليهم؛ لأن الله يعلم ما يسرون ما يخفونه وما يعلنونه ويجازيهم على ذلك.

تختم السورة ببيان قدرته على البعث كما افتتحت. هذا الرجل المشرك؛ قيل إنه العاص بن وائل، وقيل هو أمية بن خلف، أو أيضاً أبيّ بن خلف أحد رؤوس الشرك، جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

ومعه عظم يفته بيده، فيقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟! تزعم يا محمد أن الله يبعث هذا؟! يفته، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُمِيتُكَ اللهُ ثُمَّ يُحْيِيكَ ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّارَ».

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]؛ أنت مخلوق من ماء مهين، نطفة، فإذا هو خصيم مبين، يخاصم ربه، عجباً له!

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]؛ يضرب المثل بالعظم وينسى خلقه الأول، أنه مخلوق من ماء مهين، وأنه مر بمراحل؛ قال: من يحيي العظام وهي رميم؟ تتفتت؛ يعني أصبحت رميماً تتفتت وقد بليت.

رد الله عليه خمسة ردود عقلية:

- الرد الأول: قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]؛ الذي خلقها أول مرة هو الذي يحييها.
- الرد الثاني: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾؛ فالذي بكل شيء عليم لا يعجزه.
- الرد الثالث: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]؛ أن الله جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون.

كانوا يشعلون النار من نوع من أنواع الشجر اسمه المرخ والعفار؛ يأتون بغصن من المرخ وبغصن من العفار، غصن رطب أخضر، ويأتون بهذا ويضعونه تحت الأعواد والحطب الذي جمعوه فتشتعل النار، إذا وضع هذا مع هذا اشتعلت ظهرت النار.

لو أتى بمرخ ولم يأتِ بعفار ما تشتعل النار، أو العفار فقط لا بد من هذا مع هذا؛ مثل الذكر مع الأنثى، يأتي هذا مع هذا ويضع هذا يضعه مع هذا هكذا، فإذا وضع هذا مع هذا اشتعلت النار وهو أخضر. فالذي الذي جعل النار وهي تحترق ونار من الأخضر قادر على أن يبعث الخلق، قادر على أن يعيد الإنسان؛ هذا الرد الثالث.

- الرد الرابع: قال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]؛ خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الإنسان، فكيف أنت تنكر خلقك مرة ثانية والله خلق السماوات والأرض وهي أعظم؟! هذا الرد الرابع وهو الخلاق العليم.

الرد الخامس: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]؛ يعني يقول للخلق كونوا فيكون، أي شيء يريده الله يقول له كن فيكون، لا يعجزه؛ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣]؛ سبحان الله تنزيهاً أن يوصف بأنه عاجز أو غير قادر أو يفوته شيء من هؤلاء، لا؛ كل شيء بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبعلمه وقدرته. ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

"بيده" هذه إثبات اليد، بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشريفة، بيده التي تليق بعظمته وجلالته. ﴿مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾؛ ما قال ملك، قال ملكوت؛ هذه مبالغة أعظم، ملكوت كل شيء دون استثناء، كل ما في السماوات والأرض ملك لله.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقيناً؛ سيرجع الله كل الخلق ويبعثهم جميعاً، سواء من بني آدم أو من حيوان أو من طير أو من خشاش ودواب، أو من أو حتى الأصنام تحشر معهم وتحشر معهم أموالهم، والله قادر على أن يعيد ويحشر هؤلاء كلهم جاز كلاً بعمله.

إلى هنا تنتهي السورة. أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما فيها من آيات، يعني جميلة حقيقة عشناها، تدبرناها، تفكرنا فيها، نسأل الله أن ينفعنا، وأن يبارك لنا، وأن يوفقنا، وإن شاء الله لقاؤنا في السورة التي تليها، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الصَّافَّات)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الصافات ١ - ٢٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسمِ اللهِ، وَالحَمدُ للهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحبِهِ وَمَنِ اهتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَومِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِّمنَا مَا يَنفَعُنَا، وَانفَعنَا بِمَا عَلَّمتَنَا، وَزِدنَا عِلمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ العَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ هذا اليوم هو اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الأول من عام (١٤٤٦ هـ)، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا ولكم هذا اليوم، يوم الثلاثاء.

ومعنا سورة جديدة من سور القرآن الكريم، هذه السورة هي تسمى بـ(سورة الصافات)، وسماها بعض المفسرين -أو بعض كتب التفسير تذكر- أنها تسمى بـ(سورة الذبيح)؛ لقصة الذبيح فيها؛ لأن هذه القصة لم ترد في القرآن إلا في هذه السورة.

وهذه السورة من السور المكية، والسور المكية كما هو معلوم عندكم هي تعالج (قضايا العقيدة)، تركز على تصحيح العقيدة وإبطال ما كان عليه المشركون من عقائد فاسدة؛ فهي تثبت التوحيد، وأن المعبود بحق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه هو الذي يستحق العبادة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السورة: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾ [الصافات: ٤-٥]، فربنا ورب السماوات ورب الأرض ورب المشارق هو إلهنا وهو الواحد، كما أنه هو الرب الخالق وحده؛ إذاً يجب أن يكون هو المعبود وحده.

إذا عرفنا هذه العقيدة؛ العقيدة في الإيمان بالله والتوحيد، أيضاً أشارت السورة إلى تقرير الإيمان بالملائكة وبما يجب أن نؤمن به ونصفهم ونعرف حقيقتهم، لا كما يدعيه المشركون أن الملائكة بنات الله؛ لأنهم ادعوا أن الملائكة بنات الله، والله عَزَّ وَجَلَّ رد عليهم قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

والله وصف الملائكة بأوصاف، فبدأ السورة بالقسم بالملائكة وبأوصافهم بأنهم يصفون عند الله صفاً، ومنهم الذين يزجرون زجراً، ومنهم الذين يتلون كتاب الله تلاوة وذكراً؛ فوصف أوصاف الملائكة وبَيَّن لك وظائف الملائكة.

وأيضاً ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها تقرير الإيمان باليوم الآخر؛ لما قال الكفار: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ [الصافات: ١٦-١٧]، رد الله عليهم قال: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ۝١٨ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ۝١٩﴾ [الصافات: ١٨-١٩].

ثم ساق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مصير الفريقين؛ مصير أهل الشقاوة وأهل السعادة، فذكر حال أهل الكفر والمجرمين وأنهم في نار جهنم، ثم أردف ذلك بذكر مآل المتقين الصالحين، فذكر عباده المتقين وبيان نعيمهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً بعدما ذكر -يعني من العقيدة الإيمان بالله والإيمان بالملائكة والإيمان باليوم الآخر- الإيمان بالرسل؛ فذكرت السورة لنا تسعة من الأنبياء، تسعة: أولهم نوح، ثم إبراهيم، ثم إسماعيل، ثم إسحاق، ويعقوب، ثم إلياس، ثم لوط، ثم يونس؛ فقررت قضية الإيمان بالرسل، والإيمان بالرسل يلزم منه أيضاً الإيمان بالكتب التي نزلت عليهم؛ فإنه يوحى إليهم، ومنهم من أنزلت عليه الكتب.

فإذاً السورة تؤكد على قضايا العقيدة: الإيمان بالله، الإيمان بالملائكة، الإيمان بالرسل، الإيمان بالكتب، الإيمان باليوم الآخر، ثم تحدثت عن عَدة أمور مهمة تقررها السورة.

هذه السورة نبدأ بها على بركة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، افتتحها بالقسم فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ [الصافات: ١]، هذا قسم، الله يقسم بالملائكة بوصفٍ، بأوصاف الملائكة، فالصافات وصف ومعناها: الملائكة التي تصف عند ربها صفاً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصفٍ عن الملائكة في آخر السورة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ۝١٦٦﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦].

- **فالصافون صفاً، ما معنى (الصافات)؟**

والملائكة تصف صفاً، معنى أن الملائكة تصف عند ربها للعبادة.

☜**جاء في حديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:** «صُفُّوا كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا» قالوا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يُتِمُّونَ الصَّفَّ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصُّفُوفِ».

☜**وجاء في حديث ما يقول:** «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا مِنْ مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ»؛ فالملائكة قد انتشرت في السماوات للعبادة وللطاعة والتسبيح والذكر والصلاة وتلاوة الكتب المنزلة وتلاوة ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذاً كلمة (**الصافات**) هذا معناها: الملائكة تصف عند ربها.

وقال بعض المفسرين: "(الصافات) صف الملائكة تصف أجنحتها عند الطيران، تصعد إلى السماء وتنزل إلى الأرض فهي ما بين نزول وصعود فتصف أجنحتها".

والملائكة لها أجنحة كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ [فاطر: ١]، حتى إن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رآه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وله ستمائة جناح.

وقال بعضهم: "(الصافات) صفاً الطيور تصف في السماء: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١]، وأيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [الملك: ١٩]". ولكن الذي يظهر أن المراد بـ(**الصافات**) هنا هي الملائكة.

حتى قال بعضهم: (**الصافات صفا**) الجيوش الإسلامية تصف في الحرب: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، لكن الذي يظهر والله أعلم أن المراد بذلك الملائكة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ [الصافات: ٢]، (**الزاجرات**) الملائكة زجراً، تزجر ماذا؟ قيل إنها تزجر المجرمين العصاة أهل النار، تزجرهم بقوة، تزجرهم زجرة للعذاب والحساب، وقيل إنها تزجر السحاب تدفعه بقوة حتى يسير في السماء.

قال تعالى: ﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ٣]، و(**التاليات**) من التلاوة وهي القراءة؛ يعني أن الملائكة تتلو كتاب الله، سواء قلنا القرآن أو غيره فإنها تتلو الكتاب، فهي تتلو الذكر سواء قلنا ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ فتردده وتقرؤه، أو القرآن، أو الكتب المنزلة أو غيرها، فهي تشتغل بالتلاوة والذكر.

لما أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصفات الملائكة: (الصافات)، و(الزاجرات)، و(التاليات)، أقسم بأن الله هو الواحد، قال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]، هذا جواب القسم؛ أي أقسم الله بهذه الأشياء على أن إلهنا ومعبودنا والذي يجب أن نعبده ويجب أن نعبده ونسجد له ونركع له وندعوه، هو إلهنا واحد لا شريك له، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **من هو إلهنا الواحد هذا؟**

قال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ [الصافات: ٥]، (رب السماوات) يعني خالقها والمتصرف فيها والمالك لها، رب السماوات السبع ورب الأراضين السبع وما بين السماوات والأرض هو ربها وهو خالقها وهو المالك، و(رب المشارق) أيضاً.

و(المشارق) المراد بها مشارق الشمس، الشمس تشرق كل يوم لها مشرق، ثلاثمائة وستون مشرقاً في السنة، كل يوم لها مشرق تشرق به، هذا معنى المشارق. المشارق والمغارب أيضاً.

- **قد يسألك سائل يقول لك: لماذا لم يذكر المغارب؟**

الجواب: الأصل هي المشارق، والمغارب تبع؛ لأنها إذا أشرقت غربت، إذا لم تشرق لم تغرب، فالمغارب أو الغرب تابع للشرق، فإذا أشرقت الشمس غربت، ولأن المشرق هو الأصل، ولأن الإنسان أو الناس يتشوفون في أول النهار إلى المشرق، يتطلعون له تنشرح صدورهم، ولذلك نص عليه قال: (المشارق).

هنا جاء بصيغة الجمع قال: (المشارق)، تجد في سورة أخرى قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، وسورة ثالثة قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: ٢٨].

- **كيف نجمع بين هذه الأشياء؟ كيف نجمع بين هذه الأشياء؟**

فنقول مثل ما ذكرنا: (المشارق) كل يوم مشرق، و(المشرقين) مشرق الشتاء والصيف؛ فإن الشمس تشرق في الصيف يعني إلى جهة الشمال -يعني من جهة الشرق إلى الشمال- وفي الشتاء من جهة الشرق إلى الجنوب، فهنا مشرق وهنا مشرق (مشرقين)، ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ هذا واحد، نقول جهة الشرق وجهة الغرب، أو نقول (المشرق) المراد به الجنس، جنس المشرق.

لما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ يعني ربكم هو رب السماوات والأرض وهو إلهكم الذي يجب أن تعبدوه.

بدأ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً يبين لنا شيئاً من نعمه ومن خلقه وبيان ملكه الواسع فقال: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات: ٦]، يقول: إنا زينا، يعني هذه من نعم الله وفضله وإنعامه على خلقه وقدرته أيضاً؛ أنه جعل السماء الدنيا مجملة ومحسنة ومزينة، بالكواكب.

فانت إذا خرجت إلى الصحراء في الليل والوقت مظلم، في ليل لا ترى إلا السماء وترفع رأسك إلى السماء لوجدت أن السماء مزينة بهذه المصابيح، مزينة بهذه المصابيح وهذه المصابيح وهذه الكواكب التي تنير على الأرض مع القمر، التي فيها جمال وفيها بهاء، يعني هذه من فوائدها.

- **من فوائد -يعني إذا قيل لك ما الفائدة من كون السماء فيها الكواكب والنجوم؟**

الجواب:

أولاً: زينة.

ثانياً: كما قال الله سبحانه قال: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧]؛ يعني رجوماً للشياطين، حفظاً من كل شيطان مارد، أي شيطان مارد يريد أن يقترب من السماء تأتيه الشهب كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: ٨]؛ يعني ترميهم الشهب بالنار فتحرقهم، فالسماء محفوظة والكواكب تحفظها بأن ترمي كل من أراد الاقتراب منها.

وكذلك من فوائد ومصالح الكواكب والنجوم أيضاً أنها هداية للناس، هداية للناس قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، قال: ﴿وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]. إذاً هذه مصالح النجوم: زينة الكواكب، وحفظاً من كل شيطان مارد.

- **ما معنى (شيطان مارد)؟**

الجواب: الشيطان هو المراد به شيطان الجن؛ لأن شياطين الجن هي التي تصعد إلى السماء، تصعد إلى عنان السماء، و(مارد)؛ أي مارد من كل خير، متمرد، يعني خَلَص من كل خير وأصبح الشر كله محيطاً به، فهو متمرد من الخير كله، يعني لم يبقَ فيه خير، شيطان مارد.

قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الصافات: ٨]، هؤلاء الشياطين لا يسمعون إلى الملأ الأعلى، أصل **(لا يسمعون)** أصلها **(لا يتسمعون)**، فالتاء أدغمت بالسين ثم شددت السين فقيل **(لا يسمعون)**.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ يعني لا يستطيعون الاستماع إلى الملأ الأعلى، والملأ الأعلى هم الملائكة في السماوات، يسمعون أصوات الملائكة وكلام الملائكة ثم يأخذون هذا الكلام.

قال: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾ لا يمكن أن يسمعوا، لماذا؟ لأنهم إذا اقتربوا من السماء قُذفوا بالشهاب، قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من كل جهة تأتيهم هذه الشهب، من كل جانب، كل ما الجن يصعدون إلى السماء يسترقون السمع.

- **يسترقون السمع، لماذا يسترقون السمع؟**

لأنهم يأخذون أخبار السماء فينزلون بها إلى الأرض، ويبلغونها لمن يطيعونهم، وهم الكهنة، كهنة تقدم للجن مصالح، تذبح لهم وتسجد لهم وتطيعهم ويستفيدون منهم، فيأتون لهم بأخبار، حتى إن الكاهن يسمع يأتيه الخبر من الجن بخبر السماء فيأتي ويدعي علم الغيب ويقول: أنا أعلم الغيب، سيحدث كذا ويحدث كذا ويحدث كذا.

والشياطين تحاول أن تسترق السمع فيصعد بعضها فوق بعض، هكذا يصعد -يعني الأصابع هكذا يصعد بعضها فوق بعض، فإذا استمع الأعلى جاءه الشهاب وأحرقه فيلقيه على الذي تحته وهكذا، والثاني يلقيه والثالث يلقيه إلى أن ينزل بهذه الكلمة، فإذا نزل بها إلى الأرض جعل معها مائة كذبة ثم أعطاها هذا الكاهن.

☜**ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن إتيان الكهان قال:** «مَنْ أَتَى كَاهِنًا لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

☜**وجاء في حديث آخر:** «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ». فالكهنة كفار، الكهنة يدعون علم الغيب، وعلم الغيب لا يعلمه إلا الله، فهم كفار ويدعون علم الغيب ويكذبون على الناس، طيب ولا يجوز الذهاب إلى الكهان.

قال هنا: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾ [الصافات: ٧-٨]

﴿دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٩]، (دحوراً)؛ أي مبعدين، يعني هم يبعدون لا يمكن أن يقتربوا، كلما اقتربوا ضربهم الشهاب فابتعدوا، دحوراً الداحر المبعد.

قال: ﴿دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؛ يعني دائم مستمر، عذابهم في الآخرة لن ينقطع، وإن أصابهم في الدنيا شيء من العذاب فإن عذاب الآخرة أشد وأبقى، عذاب واصب.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ وأنهم لا يستمعون، استثنى قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]، الذي يخطف الخطفة؛ يعني يلتقط الكلمة فينزل بها، هذا قد يحصل له ذلك، ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ الذي يتبعه الشهاب الثاقب الذي يثقبه بقوة ويحرقه، أو قد يصيبه فيخبله؛ يعني يجعله مخبلاً مجنوناً.

كان قبل بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجن كانوا يصعدون إلى السماء وليس هناك ما يمنعهم، لما بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُرست السماء كما قال الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾ [الجن: ٨-٩].

قال هنا: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، هذا الآن الحديث عن السماوات وأن الله زين السماء الدنيا وحفظها من الشياطين.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطباً نبيه قال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ [الصافات: ١١]، يستفتي هؤلاء المشركين الذين ينكرون البعث ولا يؤمنون بالبعث، قال: استفتهم، استفتهم اطلب منهم أن يخبروك وأن يفتوك.

استفتهم، أصل (الفتية)، هو طلب -يعني أن يكون الإنسان لا يستطيع أن يقدم على الشيء فيحتاج إلى من يقويه، فيبحث عمن يدعمه ويقويه من أهل الفتية؛ لأن الفتية أصلها من (الفتوة) وهي القوة، فيحتاج يقول: أنا ما أستطيع أن أفعل هذا الشيء، فإذا جاء وسأل قال: نعم افعل، قد يقدم على هذا الشيء، هذا معناه، فهذا أصل كلمة (الاستفتاء).

فيقول: استفتهم اطلب منهم فتوى واطلب منهم أن يخبروك بهذا الخبر: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ [الصافات: ١١]؛ يعني اسألهم، يعني هم ينكرون الآن البعث، هل خلقهم أشد من خلق السماوات والأرض، أو من خلق الملائكة، أو من خلق الذي يخلقه الله العظيم من الجبال وغيرها؟

﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فاسألهم يخبرونك هل هم أشد؟ الإنسان خلقه ضعيف، الله خلق أشياء أكبر من الإنسان بمراحل.

قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، ثم قال: إنا خلقناهم من طين، الإنسان مخلوق من طين ضعيف، من **(طين لازب)**، ولازب؛ يعني يلتصق؛ لأنه طين ترك مدة حتى تماسك، فقال: طين لازب؛ يعني يلتصق باليد، يعني ضعيف جداً.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، يقول: بل عجبتَ، بل للإضراب، أي انتقال من كلام إلى كلام، يقول: عجبتَ يا محمد منهم وهم هذه حالهم ويكفرون باليوم الآخر ويكفرون بالله ويسخرون منك ويسخرون من دينك ومن شرعك، ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾.

وهذه الآية قرئت بقراءة أخرى وهي قراءة: **(بل عجبتُ)**؛ يعني الله الذي يعجب، قال: بل، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: بل إني عجبتُ منهم وهم يسخرون منك، هذا شيء يلفت الأنظار، شيء يتعجب الناس منه كيف يفعلون هذا الشيء؟

وإذا قرأناها بقراءة **(بل عجبتُ)**، هذا فيه إثبات العجب لله، ويجب علينا أن نثبت هذه الصفة، صفة العجب لله، كما أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نثبت له صفة الضحك يضحك الله، والفرح يفرح الله أشد فرحاً، فهذه صفات، والله يحب ويغضب ويعجب، كلها صفات.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣﴾ [الصافات: ١٢-١٣]، إذا ذكرناهم باليوم الآخر، ذكرناهم بأن إلههم واحد، ذكرناهم بما خُلقوا لأجله وهو عبادة الله، لا يذكرون، لا يريدون، تعظهم أو لا تعظهم لا يريدون.

قال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٤]، أي آية في السماوات والأرض، مثل انشقاق القمر وغيره، إذا رأوا آية عجيبة يستسخرون، يستهزئون.

شوف في الأول قال: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾، ثم قال بعدها: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾.

- **هل يسخرون ويستسخرون واحد ولا في فرق؟**

الجواب: في فرق؛ الأول هم يسخرون منك، الثاني (يستسخرون)؛ أي يطلبون من الناس أن يسخروا منك، يعني هم يسخرون ويريدون غيرهم أن يسخر معهم، هذا معناه يستسخرون؛ لأن السين والتاء للطلب، فهم يطلبون من غيرهم أن يسخروا منه.

- **ثم ماذا كان موقفهم من اليوم الآخر؟**

اسمع: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصافات: ١٥]؛ يعني الذي أتى به محمد، كل ما أتى به محمد هذا سحر، يريد أن يسحرنا، سحر مبين واضح، هذا الذي أتى به محمد كله سحر في سحر، هو يدعو إلى إله واحد هذا سحر، يفعل كذا هذا سحر، يدعي أن هناك جنة ونار وأن هناك بعث هذا كله سحر، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم قالوا -هذه عقيدتهم الفاسدة في الإيمان باليوم الآخر يقولون-: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝١٧﴾ [الصافات: ١٦-١٧]؛ أصبحنا تراباً وعظاماً، تمزقت أجسادنا، أصبحنا عظاماً وتراباً، أإنا لمبعوثون؟ يعني تتصور أننا سنبعث بعد هذا التمزق؟ أو آباؤنا الأولون الذين ذهبوا لهم يعني سنين طويلة، تظن أن الله يبعثهم؟

قال الله: قل لهم نعم يبعثكم الله ويبعثهم: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨]، أنتم ذليلون صاغرون حقيرون يبعثكم الله؛ لأنكم ستبعثون في حال خاشعة أبصاركم ترهقكم ذلة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: هذا البعث ليس -يعني ليس فيه صعوبة على الله عَزَّ وَجَلَّ بل هو يسير، إنما هي: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩]، والزجرة الصوت العالي، تقول: زجرت البعير زجراً إذا رفعت صوتك بقوة عليه.

فإنما هي زجرة واحدة وهي الصيحة التي يصيحها الملك الموكل بالنفخ وهو إسرافيل، ينفخ في الصور فيصيح صيحة واحدة فإذا هم قد خرجوا من قبورهم، ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾، ينظرون ما يدرون أين يذهبون ولا يدرون ماذا سيفعل بهم، ينظرون يعني منبهرين ما يدرون، يعني مبهوتين ما يدرون ماذا يصنع بهم.

ثم قال: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات: ٢٠]، يقولون: وقالوا يا ويلنا، ينادون الويل، الويل هو الهلاك، يقول: ليتنا نهلك، ليتنا نموت، ليتنا لم نبعث؛ لأنهم ينادون الويل والهلاك،

يقولون للويل احضر، والهلاك احضر، نريد أن نموت ونهلك، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾، (**هذا يوم الدين**) يعني يوم الجزاء والحساب، الدين من دان يدين كما تدين تدان؛ يعني تجازى، ثم سمي يوم القيامة بـ(**يوم الدين**) لأن الناس يجازون فيه.

﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ [الصافات: ٢٠-٢١]، جمعناكم والأولين.

قال هنا: ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ۝٢٠ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾ [الصافات: ٢٠-٢١]، هذا هو الآن جاءكم، جاءكم (**يوم الفصل**) الذي أنتم كنتم تكذبون به وتقولون ما في بعث، ما في بعث، كنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون، اليوم ما تستطيعون أن تكذبوا، لا بد أن تصدقوا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢]، في هذا اليوم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأمر ملائكته أن يحشروا هؤلاء الكفار الظلمة.

﴿احْشُرُوا﴾، الحشر هو جمع الناس في مكان واحد للحساب، فيجمعون مثل ما تحشر الوحوش وتحشر الأغنام في مكان واحد ليجازوا يحشرون في مكان، قال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم الكفار، ظلموا أنفسهم وظلموا ربهم حق الله عليهم، وظلموا غيرهم من المؤمنين، هؤلاء الظلمة الذين جاوزوا الحد في الظلم، ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك.

قال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾.

- **ما المراد بالأزواج هنا؟**

الأزواج هنا الأصناف والأشكال؛ يقول: احشروهم هم ومن كان على شاكلتهم، هم ومن كان مثلهم في عقيدتهم وكفرهم، وقال بعضهم: الأزواج يعني الزوجات، ولكن الذي يظهر أنهم كل من هم على طريقتهم، احشروهم جميعاً.

واحشروا معهم آلهتهم قال: ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ أي احشروا الآلهة معهم، احشروا آلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله، الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله يؤتى بها يوم القيامة.

- **لماذا يؤتى بها؟**

حتى يروا أمامهم أن الآلهة هذه لا تنفعهم، الذين يقولون: ما نعبدها إلا ليقربونا إلى الله زلفى، لا تنفعهم يوم القيامة هذه الآلهة، إذا رأوها تحسروا وندموا أشد الندم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]؛ أي دلوهم إلى صراط الجحيم أي صراط النار، استهزاءً بهم وسخرية، ما هذه ليست هداية، هذه يجرون إلى نار جهنم.

قالوا: اهدوهم، استهزاءً بهم؛ لأنهم كانوا في الدنيا نقول لهم اهتدوا وتعالوا نهديكم ويقولون لا، الآن تهدون إلى نار جهنم.

قال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، قبل أن يدخلوا النار احبسوهم، وقفوهم على شفير جهنم، إنهم مسؤولون، فيسألهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتسالهم الملائكة، تقول لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥].

في آيات أخرى يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]، كيف يقول هنا ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ وهناك يقول لا يسأل؟ نقول: إن يوم القيامة أوقات مختلفة ومراحل، فتارةً يسألون وتارةً لا يسألون.

قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾؛ لماذا لا ينصر بعضكم بعضاً؟ وين التناصر في الدنيا؟ وين الآلهة اللي تنصركم؟ ما تناصرون؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦]، اليوم ما في تناصر ولا في أي كلام، خلاص استسلام لله وانقياد له بكل ما يستطيعون، ما يملكون شيئاً.

الآيات بعد ذلك تفصل في حالهم وما يجري بينهم من مناقشات ومن حوارات، ويحاول بعضهم بعضاً، هذا يأتي لما يقبل بعضهم على بعض يتساءلون تساؤلات ومحاولات، هذه يأتي الكلام عنها إن شاء الله في اللقاء القادم.

نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الصافات ٢٧ - ٦١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله أيها الإخوة الكرام والحاضرين والمستمعين، حياكم الله جميعاً، ونسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا ولكم، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا جميعاً، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا يا رب العالمين، اللّٰهم إنا نسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً.

هذا اليوم هو اليوم الحادي والعشرون من شهر ربيع الأول من عام ستة وأربعين للهجرة (١٤٤٦هـ)، ودرسنا في تفسير القرآن العظيم؛ السورة التي بين أيدينا هي (سورة الصافات)، وقد أخذنا طرفاً منها، ووقف بنا الكلام عند الآية السابعة والعشرين، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧].

- **من هم الذين أقبل بعضهم على بعض يتساءلون؟ هل هم المؤمنون أم الكفار؟**

الجواب: اقرأ ما قبلها وأنت تحكم دائماً أيها الإخوة الكرام، سياق الآيات يعني أنت تقرأ الآيات تجدها تنساق، هذا السياق هو الذي يبين لك؛ يعني إذا أنت فهمت ما قبل الآيات وما بعدها يتضح لك معنى الآية.

- **اللّٰه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ماذا يقول؟**

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الصافات: ٢٢]؛ أي كفروا وأشركوا وعتوا عتواً كبيراً، هؤلاء الظلمة الذين ظلموا حق الله وحق العباد.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ يعني أشكالهم وزوجاتهم ومن كان معهم وأقرانهم من الشياطين، لأن كلمة (أزواجهم) هذه لازم تقف عندها؛ فـ (أزواجهم) يحتمل أنهم الأزواج الأشكال الذين هم أشباه لهم.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٨]، والأزواج هم الزوجات النساء، والأزواج هم الأقران القرناء من الشياطين؛ فيُحشرون جميعاً هم وأشكالهم وزوجاتهم اللاتي كن معهم على عقيدتهم وعلى كفرهم، وقرناؤهم من الشياطين كلهم يحشرون، ومعهم ما يعبدون من دون الله ممن رضي بعبادتهم.

أما الذين لم يرضوا فلا يُحشرون؛ فعيسى لا يُحشر عَلَيْهِ السَّلَامُ، والملائكة لا يُحشرون، وعزير لا يُحشر، وغيرهم مما كانوا يعبدون من دون الله هؤلاء لا يحشرون، إنما يحشر الأصنام والذين رضوا بعبادتهم ونحوها.

قال: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]؛ دلوهم على نار جهنم، وقفوهم على شفير جهنم واسألوهم: لماذا أشركوا؟ لماذا كفروا؟

- **لماذا قالوا كذا؟**

اسألوهم وناقشوهم وقولوا لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَتَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات: ٢٥]؛ لماذا أنتم لا تناصرون؟ لماذا لا ينصر بعضكم بعضاً؟ لماذا أنتم وقفتم هكذا مبلسين صامتين؟ ﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٦] لله؛ ليس لهم حيلة ولا تصرف.

- **قال الله بعدها ماذا؟**

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٢٧]، من هم الآن؟ جاءك الجواب، عرفت من هم؟ من هم هؤلاء الذين جاء ذكرهم الذين قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾؟

هؤلاء الجاحدون لوحدانية الله ولرسله، والجاحدون لشرعه ودينه، هؤلاء هم الذين يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، قد يكون التساؤل هذا وهم على شفير جهنم، أو في نار جهنم، الله أعلم، قد يكون هذا وهذا.

- **ولاحظ قال بعدها ماذا؟**

قال: ﴿قَالُوا﴾ [الصافات: ٢٨]؛ أي هؤلاء.

- **الآن عندنا الذين يتساءلون من هم؟**

الجواب: أهل النار، وأهل النار على قسمين: المستضعفون الضعفاء، والكبراء السادة المتبوعون.

فالضعفاء ليس لهم حيلة؛ اتبعوا الكبراء المتبوعين، فيقبل بعضهم على بعض، فيقول هؤلاء الضعفاء.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [غافر: ٤٧].

هنا قال: ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٢٨]، من القائل؟ هؤلاء الضعفاء يخاطبون الكبراء، يخاطبون الذين استكبروا فيقولون: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾.

- **كيف تأتوننا عن اليمين؟**

قال: كنتم تقولون إننا نحن على حق وهؤلاء ليسوا على حق، وكنتم تقولون نحن الذين نعد على خير والله أعطانا، فكنتم تأتوننا عن طريق اليمين؛ عن طريق الخير والسعادة، لأن اليمين تطلق على الخير والشمال تطلق على الشر.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ و﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٢٧، ٤١].

⬅الوجه الأول: فقالوا: أنتم كنتم تقولون نحن على حق وعلى خير، ونحن الذين على الصواب وعلى الجادة وهؤلاء ليسوا كذلك، فظننا أنكم على خير في الدنيا وعلى خير في الآخرة، هذا وجه.

⬅الوجه الثاني: أن يكون معنى اليمين معناها القوة، القوة كما سيأتينا؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن إبراهيم: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبَاً بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]؛ أي بالقوة، فيقولون: أنتم ألزمتمونا بقوة، وكنا ضعفاء وأنتم أقوياء، فكنتم تلزموننا أن نتبعكم، وأن نسير على طريقتكم، وأن ننهج منهجكم، هذا وجه.

⬅الوجه الثالث: اليمين هي الحلف؛ ﴿كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾؛ أي تحلفون أيماناً أنكم على الصواب وأنكم على الخير، وأن هؤلاء المؤمنين على الخطأ وعلى الشر، فكنا نظن أنكم على هذا الشيء.

هذه أقوال ثلاثة كلها صحيحة، كلها يعني حين تتأمل بها تجد هؤلاء المستكبرين وهؤلاء الضعفاء أنهم يحلفون لهم بأيمان كاذبة ووعود كاذبة، ويلزمونهم بقوة -نعم يلزمونهم بقوة- ويعدونهم مواعيد الخير ويدعون أنهم على خير، فكلها صحيحة.

- **فلما قال هؤلاء: إنكم أنتم الذين فعلتم كذا، ماذا قال المستكبرون؟**

قال المستكبرون كما حكى الله عنهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٢٩]؛ قالوا: لا ليس كلامكم صحيحاً أننا قلنا لكم كذا وكذا، أنتم ما كنتم مؤمنين، أنتم لا تريدون الإيمان، أنتم لا تحبون المؤمنين، بل لم تكونوا مؤمنين ولم تصدقوا ما جاءكم عن رسول الله بل كفرتم به.

ولاحظ أن هؤلاء المستكبرين ردوا بخمسة أوجه عليهم:

- الوجه الأول: قالوا: أنتم ما كنتم مؤمنين ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾.
- الوجه الثاني: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾ [الصافات: ٣٠]؛ ما عندنا قوة، والسلطان يعني الحجة والقوة، ما عندنا حجة ولا قوة، ما ألزمناكم بقوة بل نحن عرضنا عليكم الخيار.
- الوجه الثالث: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ﴾ [الصافات: ٣٠]؛ أنتم كنتم قوماً طاغين، مسرفين في العصيان والكفر والاستكبار، هذه ثلاثة.
- الوجه الرابع: قالوا: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ [الصافات: ٣١]؛ يقولون: هذا حق قول الله، ووجب علينا، وكتب الله علينا وقدر بسبب ذنوبنا، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون؛ أي ذائقون العذاب. خامساً: ﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾ [الصافات: ٣٢].

يقولون: نحن أغويناكم، نعم نحن أضللناكم لم نلزمكم، وإنما كنتم بالخيار ونحن عرضنا عليكم الغواية والضلالة فأخذتم وسلكتم لأنكم تريدون مصالح وتريدون مالاً وتريدون جاهاً وتريدون أن تكونوا أتباعاً لنا، فهذا هو السبب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الحكم، حكم الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم قال: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات: ٣٣]؛ كلهم في عذاب النار، في نار جهنم وفي عذاب جهنم مشتركون بالعذاب، وإن كان بعضهم يزيد على بعض، وإن كانوا يتفاوتون في العذاب بلا شك، يتفاوتون على قدر جرائمهم، ولكنهم مشتركون في العذاب.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٤]؛ مثل ما فعلنا بهؤلاء الذين ذكرنا لكم نفعل بكل مجرم، ليس فقط هؤلاء، كل مجرم يفعل مثل هذا الإجرام فإن جهنم تنتظره.

- **ما هو الإجرام الذي كانوا يفعلونه؟**

قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]؛ إذا جئناهم بالتوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له يستكبرون ولا يريدون، يعني ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥]؛ إذا ذُكر الله لا يريدونه، وتقف قلوبهم ولا يريدون أن يسمعوا كلمة التوحيد ولا إله إلا الله، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

فكان إذا قيل لهم لا إله إلا الله لا يقبلونها ولا يذعنون لها ولا يقبلون عليها، ولا يقولون نعم لا إله إلا الله، بل يقولون: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٦]؛ يقولون: يعني تريدون أن نترك آلهتنا، أن نترك عبادة آبائنا وأجدادنا لشاعر مجنون؟ شوف كيف الوقاحة!

يسمون النبي المصطفى المختار الذي اختاره الله ووصفه بأحسن الأوصاف، يصفونه بأقبح الأوصاف فيقولون: **(شاعر مجنون)**، فيصفون الذي هو رحمة للعالمين، والذي هو النعمة المهداة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يصفونه بأنه شاعر وأنه مجنون لا عقل له!

فرد الله عليهم قال: لا ليس محمد -ليس محمد كما تزعمون أنه شاعر مجنون- لا: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]؛ جاءكم بالحق، الحق الفصل بيننا وبينكم بأن نعبد الله وحده لا شريك له ولا نعبد غيره، هذا هو الحق، جاءكم بالحق وبالوحي وبالقرآن، وصدق المرسلين الذين أخبروا بنبينا محمد؛ المرسلين الأنبياء السابقين قد أُخذ عليهم الميثاق أن يتبعوا محمداً وأن يبينوا دعوته، فجاء هو وصدّقهم على ما قالوا، وصدّقهم أيضاً بأنه وافقهم على شريعتهم ولم يخالفهم، صدّق المرسلين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾ [الصافات: ٣٨]؛ شوف لما قالوا في الآيات التي قبلها في الآية الحادية والثلاثين: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا ۖ إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾، جاءهم الذوق فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾؛ يعني الآن ستذوقون العذاب الأليم، وستنالون جزاءكم بأن يصيبكم العذاب الأليم: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٩].

هذا جزاؤكم، ما جزيناكم إلا بأعمالكم، عملتم هذه الأعمال في الدنيا، أعمالاً قبيحة فكان جزاؤكم جزاءً قبيحاً، أعمالكم سيئة في الدنيا تنالون الجزاء السيء، ابتداءً بما كنتم تعملون؛ فالجزاء من جنس العمل.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٤٠]؛ (إلا) استثناء منقطع ليس له علاقة بما قبله، يعني لكن بمعنى (لكن)، (إلا) هنا معناها (لكن)؛ أي لكن عباد الله المخلصين ليس يصيبهم مثل ما يصيب هؤلاء المجرمين من العذاب الأليم، لكن عباد الله المخلصين بعيدون عن ذلك أشد البعد وأعظم البعد.

- **من هم عباد الله المخلصين؟**

الذين أخلصوا العبادة لله، الذين أخلصوا طاعاتهم لربهم وأخلصوا عباداتهم لربهم، أخلصوا الصلاة وأخلصوا الصيام وأخلصوا يعني أخلصوها لله لا يشوبها رياء ولا سمعة ولا شرك، وإنما الإخلاص لله إخفاء العمل.

قال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾؛ فهم أخلصوا عبادتهم لربهم، فأخلصهم الله واختارهم، فهؤلاء عباد الله الذين اختارهم الله لعبادته، أنا وأنت والثاني والثالث لا نستطيع أن نتعبد الله بقدرتنا وبحولنا وإنما ذلك بفضل من الله ورحمته، والله هو الذي اختارنا لأن نكون عباداً له.

فهذا فضل من الله يجب علينا أن نشكر الله، وأن نلح بالدعاء بالثبات على الحق، أن يثبتنا ربنا على ما نحن عليه ويزيدنا ثباتاً وطاعة، وإلا ليس لنا حول ولا قوة.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾، قال الله في نعيمهم: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ٤١]؛ (أولئك) شوف الإشارة إلى البعيد، ما قال (هؤلاء)؛ دليلاً على علو منزلتهم ومكانتهم، ﴿رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ عظيم ومعلوم لأن الله أخبرهم برزقهم، أخبرهم في القرآن، فهم يعلمونه، ما هو؟

قال: ﴿فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ [الصافات: ٤٢]؛ فواكه، وما ذكره الله من نعيم أهل الجنة هذا هو رزقهم، لهم رزقهم فيها بكرة وعشياً. قال: ﴿فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾، (فواكه) جمع فاكهة، والفاكهة ما يتفكه بها الإنسان يأكلها بلذة، ولا تحتاج إلى طهي ولا طبخ.

وإنما تؤكل هكذا فيتفكه بها الإنسان ويتلذذ بها، وفواكه الجنة من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، لا يمكن أن تقصرها على الرمان أو على العنب أو على الموز أو على كذا أو على كذا، بل ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠].

وهم مكرمون؛ أكرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما عرفوا طاعة ربهم، أكرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهم مكرمون من عند الله، وأيضاً الملائكة الكرام تكرمهم وتحييهم، وبعضهم يكرم بعضاً؛ المؤمنون يكرم بعضهم بعضاً، فهم مكرمون من جميع الجهات، في جنات مكرمون.

وهنا ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾، أكرمهم الله بما أنعم عليهم من هذا النعيم العظيم وهذه الكرامة العظيمة، والملائكة وبعضهم يكرم بعضاً. قال: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الصافات: ٤٣]؛ هذا مكان الإكرام، هذه دار كرامة الله، نسأل الله أن لا يحرمنا وأن يجعلنا وإياكم ممن يكون مآله إلى دار كرامته، إلى الفوز بدار كرامته.

هذه جنات النعيم، جنات وليست جنة واحدة أو جنتين، جنات، وجنات النعيم -شوف إفضاء الجنات إلى النعيم- لأن الجنات كلها منعمة، كلها خير ونعيم، وأهلها منعمون: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨]، فكلهم على خير في هذا النعيم العظيم يتلذذون بهذا النعيم.

وإذا كان هذا مكانهم في جنات النعيم، وعندهم الرزق، ويكرمون بذلك؛ فحالهم أنهم جالسون مطمئنون، آمنون ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤]، حتى في آية أخرى قال: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ [الواقعة: ١٦]، والاتكاء أن يتكئ عن يمينه أو شماله، دليلاً على الراحة والطمأنينة والأمن والأمان، فهم في أمن وأمان على سرر متقابلين، يجلسون على هذه السرر وهي الكراسي أو الأرائك الممتدة التي يجلسون عليها ويأخذون راحتهم في الجلوس.

ولاحظ أنه قال: ﴿مُّتَقَابِلِينَ﴾؛ أي كل شخص يقابل الآخر، لا يوليه ظهره أو جنبه لا، وإنما يقابله؛ حتى لا يكون هناك شيء من الإهانة أو عدم المبالاة، بل هذا يقابل هذا بكل سرور حتى لا يوليه ظهره ولا جنبه.

وهذا من نعيم الجنة ومن فضل الله عليهم حتى لا يصيبهم شيء من الحزن أو الكآبة أو نحو ذلك، بل أبعد ذلك عنهم، قال: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾؛ الوجوه متقابلة ومرتاحة ينظر بعضهم إلى بعض.

وخذ من النعيم، لما ذكر نعيمهم في الفواكه، ذكر نعيمهم في الشراب، فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الصافات: ٤٥]، من الذي يطوف عليهم؟

في آيات أخرى قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ [الطور: ٢٤].

وفي آية أخرى قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩]؛ فهؤلاء الخدم -خدم الجنة، الولدان المخلدون- يطوفون عليهم بكأس من معين.

والكأس هنا المراد به الخمر، الخمر إذا جاء الكأس في القرآن فالمراد به الخمر، قال: ﴿بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، والعرب لا تسمي الكأس كأساً إلا إذا كان فيه خمر، إذا كان فيه خمر سميته كأساً، وإذا كان فارغاً يسمى إناءً أو يسمى كوباً (أكواب)، فإذا وضع فيه الخمر، أما لو وضع فيه ماء أو عصير ما يسمى كأساً.

الكأس في القرآن قال سبحانه: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ [الطور: ٢٣]، وقال: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٤]، كله المراد به الخمر. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾؛ أي من نهر، من نهر الخمر، لأن الجنة فيها أنهار من ماء ومن خمر ومن لبن ومن عسل، فهذا الخمر يأتيهم من هذه العين؛ أحياناً العين ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥]، يسقون من هذه العين.

وأحياناً عيناً فيها -كما في آيات أخرى- ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨] وغيرها، فيقول: ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾؛ أي هذا المعين يعني الخمر الذي يأتيهم ويشربون منه، معين يعني جارٍ يأتي إليهم ويشربون منه.

وهذه الخمر وصفها الله بوصفين:

⬅ الوصف الأول: أنها بيضاء، ليست كخمر الدنيا؛ ﴿بَيْضَاءَ﴾ [الصافات: ٤٦]، وهذا إذا كانت بيضاء تشتهيها النفس أكثر وتقبل عليها.

⬅ الوصف الثاني: أنها لذة يتلذذ بها شاربها، يجد اللذة ليست كخمر الدنيا، وإنما هي خمر الآخرة؛ قال: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦]. ثم إن خمر الآخرة ليس كالدنيا؛ يقول: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]؛ يقول: لا فيها غول، يعني ما تغتال وتقتل الإنسان، تغوله؛ ففي الدنيا إذا غالتها واغتالتها خنقتها وأهلكتها ومات.

ولذلك تلاحظ في الدنيا من يموت بسبب الخمر، في الآخرة لا ليس فيها أبداً لا فيها غول؛ لا تغول صاحبها ولا تقضي عليه، لا يموت فيها، ولا هم عنها ينزفون؛ ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾؛ أي لا يسكرون بسببها، ينزفون أي يسكرون، أو تنزفهم حتى تهلكهم ويصيبهم ما يصيبهم بسببها.

أو تنزف أموالهم؛ لأن خمر الدنيا تنزف الأموال، تسحب الأموال وتأخذها، وتنزف أصحابها بحيث إنه يصيبه ما يصيبه من السكر فتذهب بعقله.

أما خمر الآخرة فلا تميت صاحبها ولا تقتله ولا تذهب بعقله ولا تجعله يسكر، كلها نُزّهت من هذا. يعني وصفها الله بأوصاف إيجابية وهي أنها بيضاء وأنها لذة للشاربين، ووصفها بأوصاف نزهها عنها وهي الأوصاف السلبية، قال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾، فيشربون منها ويتلذذون بها.

ثم هم على هذه السرر يتقابلون ويجلسون هذا المجلس المبارك، والفواكه أمامهم والأشربة أمامهم، زاد الله أيضاً عليهم في النعيم بأن نساءهم أمامهم، قال: ﴿وَعِندَهُمْ﴾ [الصافات: ٤٨]؛ المرأة بقربه وبجانبه، المرأة من الحور العين تكون معه.

قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨]؛ عندهم، قريبة منهم قاصرات الطرف.

- **ما معنى قاصرات الطرف؟**

الطرف: النظر، يعني قد قصرت نظرها على زوجها لا تنظر إلى رجل آخر أبداً، لا تنظر إلا لزوجها، وهذا من كمال المحبة والمودة للمرأة أن تنظر في زوجها لا تنظر إلى غيره.

والمعنى الثاني أن عندهم قاصرات الطرف أي هنّ من جمالهن وحسنهن وبهائهن قصرن أطراف أزواجهن عن أن ينظروا إلى غيرهن، فهي من جمالها جعلت زوجها لا ينظر إلا إليها، وهو من جماله أيضاً المرأة لا تنظر إلا إليه، فجميعهم -كل واحد منهم- ينظر إلى الآخر لا ينظر إلى غيره، فالرجل لا ينظر إلى حورية أخرى، والحورية لا تنظر إلى رجل آخر.

قال: ﴿وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾، و(عين) معناها العين؛ يعني المرأة، وصفها الله بالعين، وعين جمع عيناء وهي واسعة العينين التي تحدق بالسواد، جمال باهر في عينيها.

ثم وصف هؤلاء النساء بأجمل وأحسن الأوصاف، قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]؛ البيض: بيض النعام أو بيض الطائر، مكنون أي محفوظ في عشه لا يصيبه شيء، أو يكون البيض داخله مكنوناً ومحفوظاً بقشرته.

فهؤلاء النساء وصفهن الله بجمالهن ولونهن الأبيض الجميل، والحفظ أنها محفوظة ومكنونة لا يصيبها أحد ولا يؤذيها أحد ولا يتعرض لها أحد، كأنها في مكان محفوظ.

إذا سمعت مثل هذا الكلام وهذا الجمال وهذه النظرة الجميلة، وأن بعضهم ينظر إلى بعض على السرر، والفواكه والمشروبات أمامهم، والنساء أمامهم؛ تجد أنه ليس هناك أعظم من هذا النعيم، نسأل الله أن لا يحرمنا هذا الفضل.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبر عما جرى من الأحاديث بينهم، عندهم أخبار وأحاديث يتحدثون عما كان في الدنيا؛ إذا كان المؤمنون في الجنة يجلسون على السرر بعد هذا النعيم يبدؤون يتحدثون عما كان عندهم في الدنيا؛ يقول: تذكر يا فلان لما كنا في الدنيا؟ وتذكر يا فلان لما كنا في الدنيا؟ يتذاكرون ويتحادثون، حتى ذكر بعض المفسرين أنهم يطرحون المطارحات العلمية والمسائل العلمية يتذاكرون فيها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠]؛ ويتناقشون ويتحاورون، فكان من حواراتهم أن أحدهم يقول: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١]؛ كان لي صديق في الدنيا وكان دائماً معي، وحبيب معي، ودائماً يمشي معي ولا يفارقني.

لكنه كان عنده عقيدة فاسدة وعنده منهج فاسد، وهو أنه كان على الكفر والطغيان، فكان يقول لي: ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: ٥٢-٥٣]؛ أنت تصدق أن هناك بعثاً وجنة وناراً؟ أنت تصدق؟ يعني إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون؟ أي لمجزيون؟ هل هناك جزاء وهل هناك جنة ونار؟

فكان هو يقول لي: ما فيه جنة ولا فيه نار، وكان يقول: لا تصدق، لا تصدق أن هناك بعثاً، الذي يموت يصبح تراباً وعظاماً وينتهي أمره، فكان يقول لي هذا الكلام وكان على عقيدة الكفر، وأنا قد دخلت في الإيمان والإسلام، فكان يقول لي هذا وكنت لا أقبل منه هذا الكلام وأبتعد عنه، والحمد لله الذي ثبتني على الإسلام وأماتني عليه.

وهو الآن أين ذهب؟ في جهنم، دعونا ننظر ونطلع، قال: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات: ٥٤]؛ لأصحابه الذين كانوا معه على السرر، يقول: ما رأيكم أن نطلع؟ فيأتون ويطّلعون.

ويذكر بعض المفسرين أن الجنة فيها كوات -يعني فيها فتحات- يأتون يطّلعون منها على النار، ويعطيهم الله من قوة النظر حتى يروا أهل النار، فينظرون مع هذه الكوات ويطّلعون، قال: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]؛ فاطلع هذا الرجل، فرأى صاحبه القرين في سواء الجحيم؛ أي في وسط الجحيم يتعذب في نار جهنم.

فنظر إليه فقال: هذا فلان! هذا فلان الذي يقول: أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمدينون! هذا الذي ينكر البعث والجزاء الآن في نار جهنم! ثم يقول له يقسم بالله: ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ [الصافات: ٥٦]؛ يعني كدت وقاربت أن تهلكني كما هلكت أنت وأهلك معك.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]؛ يقول: لولا أن الله أنعم عليّ بأن ثبتني على الحق لكنت معك من المحضرين في نار جهنم، فالحمد لله الذي خلصني. ثم يقول متهكماً أو متسائلاً بنعمة الله: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٥٩﴾ [الصافات: ٥٨-٥٩]؛ يعني أتظن أننا لسنا بميتين إلا موتتنا الأولى في الدنيا، ولا نُبعث ولا نُجازى، ولا يُعذّب من يُعذّب ويُنعم من يُنعم؟

يقول: هذا غير صحيح، تظن أنه ليس هناك بعث؟ لا، بل هناك بعث، وإن هذه الموتة بعدها حياة، حياة سرمدية أبدية لا تنقطع، وسيعذب من يعذب وينجو من ينجو.

ثم يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٦٠]؛ هذا الذي ذكرناه لكم لهو الفوز العظيم؛ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١﴾ [الصافات: ٤٠-٤١]. فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم على سرر متقابلين والشراب أمامهم يُطاف عليهم بكأس من معين والنساء أمامهم وعندهم قاصرات الطرف عين، وهذه أحاديثهم، هذا هو الفوز العظيم.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]؛ إذا تريد أن تحصل على هذا النعيم فاعمل، اعمل بهذا العمل، اعملوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]؛ تنافسوا وسارعوا وابذلوا، وابذلوا جهودكم، وأتعبوا أجسادكم في طاعة الله، أتعبوا أجسادكم في الصيام والصلاة والمحافظة على صلاة الفجر والقيام لها والذهاب إليها والصدقات، وأنفقوا أموالكم.

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾، وألا يبخل المرء على نفسه بالعمل الصالح بل يسارع للأعمال الصالحة.

نسأل الله أن لا يحرمنا هذا الفضل العظيم، وللحديث بقية، نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الصافات ٦٢ - ٩٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين، اللّٰهم إنا نسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثامن عشر من شهر ربيع الأول من عام ١٤٤٦ هـ.

درسنا في تفسير القرآن العظيم وسورة الصافات؛ تحدثنا عن هذه السورة وأخذنا شيئاً من آياتها في اللقاءات الماضية، ونستكمل ما توقفنا عنده؛ نحن وقفنا عند قوله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾[الصافات: ٦٢].

﴿أَذَٰلِكَ﴾؛ هذا اسم إشارة، والهمزة استفهامية؛ استفهام يقول: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾، يعني: أهذا الذي ذكرناه لكم خير نُزُلاً أم شجرة الزقوم؟

- **ما هو المذكور سابقاً؟**

أولاً لازم نعرف كلمة (نُزُلًا)؛ النُّزُل هو كل ما يُعدّ للضيف، وتجهزه للضيف، وهذا يسمى نُزُلاً، وهذا كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦]؛ فالنزل الذي أنت تجهزه وتعده لضيفك يسمى نُزُلاً، ولذلك قال: هذا النزل المذكور لكم خير أم نزل الكفار الذي هو شجرة الزقوم؟

- **ما هو النعيم المذكور سابقاً لأهل الجنة؟**

لما استثنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أهل النار عباده المخلصين، وهم أهل الجنة، قال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١﴾ [الصافات: ٤٠ - ٤١]؛ أي في جنات النعيم لهم رزق معلوم.

- **ما هو الرزق المعلوم؟**

قال: ﴿فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ [الصافات: ٤٢]، ثم قال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الصافات: ٤٥]؛ يعني الطعام فواكه، والشراب بكأس من معين وهو الخمر.

الخمر؛ لما ذكر نعيم أهل الجنة من الرزق المعلوم والفواكه، وكل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وكل ما يتمناه الإنسان في جنته؛ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]؛ والأشربة المتنوعة: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

☜**وفيها:** «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»؛

فهذا هو النعيم العظيم، لما ذكر الله نعيم أهل الجنة، قال: أهذا خير أم شجرة الزقوم التي أعدها الله للمجرمين في نار جهنم؟

إن شجرة الزقوم طعام الآثِم، كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم؛ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

- **(المهل)؛ ما هو المهل؟**

هو عكر الزيت، لما يُغلى عليه بشدة على النار، ويبدأ يتنضى ويتطاير؛ هذا الزيت الذي اشتدت حرارته، فكذلك شجر الزقوم إذا أكلوه وجدوا له حرارة شديدة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢]، هذه الشجرة؛ شجرة الزقوم، ما هي؟ قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣]؛ فتنة في الدنيا وفتنة في الآخرة.

كيف فتنة في الدنيا وفتنة في الآخرة؟

أما فتنة في الدنيا؛ فلأنه امتحنهم بها، فكذبوا بها ولم يصدقوا؛ لأنهم لما قرأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليهم هذه الآيات في سورة الصافات، وفي سورة الواقعة، وفي سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤]، بدأوا يضحكون ويستهزئون، ويقولون: شجرة في النار؟! النار تأكل الشجر، فكيف تكون شجرة في النار يأكل منها المجرمون؟!

وبدأوا يضحكون؛ حتى إن أبا جهل، على جهله وغباوته، كان يقول للجارية: ائتيني بالتمر والزبد أتزقمه! يعني آكله يستهزئ ويقول: أين شجرة الزقوم؟ فقال الله سبحانه: جعلناها فتنة لهم؛ أي امتحاناً وتكذيباً في الدنيا؛ وأما في الآخرة فهي فتنة لهم يعذبون بها، يفتنون على النار.

- **ما هي هذه الشجرة؟**

قال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤]؛ أي في قعر جهنم، تخرج من قعر جهنم وترتفع إلى دركات جهنم؛ وهذه الشجرة العظيمة التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسماها في سورة الإسراء: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠]؛ وهي شجرة الزقوم، وسُميت ملعونة لأن أهلها ملعونون قد لعنهم الله وطردهم من رحمته، فلا يأكلها إلا الملعونون.

قال سبحانه: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]؛ والطلع هو الثمار، فهل ثمارها كثمار الدنيا من الخوخ والعنب والرمان؟ لا، بل طلعها كأنه رؤوس الشياطين.

والإنسان لم يرَ الشيطان، لكن الشيطان يراه؛ والإنسان دائماً يتصور صورة الشيطان بأقبح صورة، كما يتصور صورة الملك بأحسن صورة، ولذلك قال النسوة في يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]؛ لأنه كان في أعلى صورة من الجمال، أما الشياطين فهي في أقبح صورة، ولذلك قال: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٦]؛ سيأكلون منها وتمتلئ بطونهم رغماً عنهم وبقوة؛ لأن طعامها مرّ وبشع ولا تتقبله النفوس، فإذا امتلأت بطونهم منها، خُلط لهم عليها من الماء الحميم: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات: ٦٧].

(الشوب) هو المخلوط، و(الحميم) هو الحار؛ فبينما هي تغلي في البطون كغلي الحميم، يأتي الماء الحار فيزيدها غلياناً حتى تتقطع أمعاؤهم.

ثم قال سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٨].

- **وإذا سأل سائل: هم في الجحيم، فكيف يكون مرجعهم إليها؟**

الجواب: أن الجحيم واسعة جداً، وفيها أودية وأماكن بعيدة، فهم يُنقلون من مكان إلى مكان تعذيباً لهم، كما قال سبحانه: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]؛ أي يطوفون بين النار وبين تلك الأودية شديدة الحرارة.

- **وإذا سأل سائل: ما سبب هذا العذاب الشديد؟ وما الذي صنعوه؟**

الجواب: أنهم كفروا بالرسالة وكفروا بربهم، وسلكوا ما كان عليه آباؤهم من الضلال؛ قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ۝٦٩ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ۝٧٠﴾ [الصافات: ٦٩ - ٧٠]؛ أي يسرعون خلفهم متبعين طريقتهم بغير تفكير، قائلين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، و﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ فهذا تقليد أعمى لا يجوز؛ إذ كيف تتبعونهم بغير دليل ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١]؛ فليسوا هم وحدهم من سلك طريق الضلالة، بل ضل قبلهم أمم كثيرة.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. ولم يضلوا بغير حجة؛ بل قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢]؛ أي أرسلنا رسلاً ينذرونهم لتقوم عليهم الحجة: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

قال سبحانه: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝٧٤﴾ [الصافات: ٧٣ - ٧٤]؛ أي انظر عاقبة من كذب بالرسل واستكبر، فهم في العذاب، إلا عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله وآمنوا بالرسل، وهم القلة الناجية.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إرسال المنذرين، بدأ يسوق قصص الرسل، وأولهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وهو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض بعد أن هبط آدم وعاش ذريته عشرة قرون على التوحيد، ثم ظهر الشرك في قوم نوح بسبب الغلو في الصالحين؛ حيث صوروا صورهم ونصبوا تماثيلهم في مجالسهم ثم عبدوهم.

فأرسل الله إليهم نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ برحمته ولطفه، وكان أعقلهم وأعلمهم، فكذبوه وهددوه بالرجم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وعاندوه فلم يؤمن معه إلا قليل؛ فلما رأى عنادهم ودعا عليهم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥].

والواو للقسم، واللام موطئة للقسم، وقد للتحقيق والتوكيد؛ نادانا نوح أي دعا ربه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]؛ فاستجاب الله له ونعم المجيب هو سبحانه، ففتح أبواب السماء بماء منهمر، وفجر الأرض عيوناً؛ والتقى الماء على أمر قد قدر.

قال سبحانه: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٦]؛ والمراد بأهله هنا هم المؤمنون معه؛ لأن زوجته كانت كافرة، وابنه غرق في الطوفان، وإنما الأهل الحقيقيون هم أتباعه المؤمنون.

كما قال سبحانه: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]. والكرب العظيم هو الطوفان، والإيذاء والسخرية التي لاقاها؛ فنجا نوح والمؤمنون في السفينة ومعهم أبناؤه الثلاثة: **(حام، وسام، ويافث)**؛ وسام هو أبو العرب، وحام هو أبو الحبش، ويافث هو أبو الروم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]؛ فكل من نجا مع نوح من المؤمنين انقرضوا بمرور الزمن ولم يبقَ إلا أبناء نوح الثلاثة؛ فالبشرية اليوم كلها ترجع إلى ذرية نوح، ولذلك يُلقب نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بـ**(الأب الثاني للبشر)**.

قال سبحانه في مدحه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٨]؛ والآخرون هم أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ترك الله ثناءه العطر وصبره فيها؛ وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٧٩]؛ أي تسليم وسلام له من كل سوء في العالمين؛ من الملائكة والجن والإنس، يثنون عليه بالجميل.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠]؛ فكل من أحسن عبادته لله وأحسن لخلقه، يجزيه الله بالجزاء الحسن؛ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ٨١]؛ أي من المؤمنين الصادقين الذين عبدوا الله حق العبادة؛ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: ٨٢]؛ أي أهلك الله الكافرين بالطوفان ولم يبقَ منهم أحد.

قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣]؛ والشيعة هم الأنصار والأتباع السائرون على دينه ومنهجه؛ وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون، بعث الله خلالها هوداً وصالحاً، ثم جاء زمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في بابل بالعراق، وكان أبوه يصنع الأصنام ويبيعها.

﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤]؛ أي سليم من الشرك والشك والذنوب والمعاصي، ممتلئ بالتوحيد؛ وكان إبراهيم خليل الله إمام الحنفاء، ووصل لدرجة اليقين العالية، ولما قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، قال الله له: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]؛ لأن المعاينة تفوق الخبر في الطمأنينة.

ثم أنكر إبراهيم على قومه عبادة الأصنام؛ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الصافات: ٨٥ - ٨٦]؛ وهذا استفهام إنكاري، أي: أتعبدون كذباً وإفكاً آلهة مصنوعة من خشب وحجارة، وتتركون رب العالمين الرازق المالك؟ ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٧]؛ أي ما ظنكم بجزائه وعقابه لكم وأشركتم به غيره؟

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ [الصافات: ٨٨ - ٨٩]؛ وكان لقومه عيد يخرجون إليه، وأرادوا خروجه معهم، فنظر في النجوم مجاراة لمعتقداتهم الفاسدة بأن النجوم تضر وتنفع، ليوهمهم بعذره فقال: إني سقيم؛ أي مريض لا أستطيع الخروج.

- **هل هذا كذب؟**

الجواب: لا، بل هي (**تورية**) و(**معاريض**)؛ كقوله: (**إني سقيم**) أي سأسقم وأموت؛ والتورية جائزة للحاجة، ومثلها تورية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغزو حين سئل: ممن أنتم؟ فقال: «**نَحْنُ مِنْ مَاءٍ**»؛ فظن السائل أنها قبيلة وإنما قصد الماء الذي خلق منه البشر. وتورية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قال للملك عن زوجته سارة: (**هذه أختي**)؛ أي أختي في الإسلام؛ وحين قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وأشار بيده إلى إصبعه الإبهام.

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: ٩٠]؛ تركوه وذهبوا لعيدهم، فاغتنم الفرصة: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١]؛ أي مال إليها خفية وسرعة في معبدهم، ووجد عندهم الأطعمة التي يضعونها للتبرك، فقال متهكماً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصافات: ٩١ - ٩٢]؟

فلم تجبه؛ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣]؛ أي أسرع يكسرها بيده اليمنى وبقوة، ولأنه حلف قبلها: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]؛ فجعلها حطاماً إلا كبيرهم لعلهم يرجعون إليه ويسألونه.

فلما رجعوا ورأوا ما حل بآلهتهم: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤]؛ أي يسرعون سرعة شديدة كزفيف النعام؛ فواجههم إبراهيم بكل شجاعة ويقين قائلاً: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٥ - ٩٦]؛ أي كيف تعبدون أصناماً منحوتة مخلوقة بأيديكم وتتركون الله الذي خلقكم وخلق أعمالكم وأصنامكم؟ ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ﴾ [النحل: ١٧]؟

ولما عجزوا عن الحجة والرد، لجأوا لقوة البطش: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]؛ فبنوا له بنياناً عظيماً وجمعوا الحطب الكثير وأوقدوها حتى تلظت، ثم ألقوا إبراهيم فيها؛ ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨]؛ فأبطل الله كيدهم بنصرة خيله، وأمر النار: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فخرج منها سالماً، فكانوا هم المغلوبين الأسفلين.

ونكتفي بهذا القدر في هذا اللقاء، ونستكمل ما توقفنا عنده في اللقاء القادم إن شاء الله، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الصافات ٩٠ - ١١٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصلى الله وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، وهو اليوم الخامس من الشهر الرابع من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة؛ نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي سورة (الصافات)؛ ذكرنا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في هذه السورة تسعة أنبياء/ جاء الحديث في لقائنا الماضي عن قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو أول رسول أرسل إلى أهل الأرض.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعده قصة إبراهيم أبو الأنبياء وخليل الله، ولا زلنا في هذه القصة، وذكرنا أنه جاء ربه بقلب سليم؛ قال أهل التفسير: القلب السليم الذي سلم من الشرك والشك، وأصبح قلبه طاهراً مقبلاً على ربه، لا شك فيه ولا شرك فيه.

يقول: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥]؛ أنكر على عبادة أبيه وقومه، لأن أباه كان يعبد الأصنام وكان يبيعها، وقومه كانوا يعبدون الأصنام، فأنكر عليهم حتى جاء في سورة أخرى قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]. فقال هنا على وجه الإنكار: ماذا تعبد؟ ماذا تعبدون؟

ثم قال: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات: ٨٦]؛ يعني بعبادتكم هذه تريدون إفكاً كذباً خالصاً واضحاً شديداً، وهذا الإفك آلهة يعني معبودات من دون الله، أصناماً دون الله تريدون أن تعبدوا هذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر من دون الله.

ثم هددهم قال: ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٧]؛ ما الذي سيفعل بكم الله؟ ما الذي تظنون أن الله فاعل بكم إذا أنتم استمريتم على هذه الحال ومتّم على هذه الحال، وهو الشرك بالله؛ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة، فما ظنكم برب العالمين؟

رب العالمين هو ربكم ورب آبائكم ورب السماوات والأرض، الذي يستحق العبادة، وهو الذي يجب أن تصرف العبادة له، فما ظنكم أن الله سيفعل بكم إذا عبدتم أصناماً آلهة؟

قال تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝٨٨ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ۝٨٩﴾ [الصافات: ٨٨ - ٨٩]. هذه ذكر أهل العلم لها قصة؛ وهو أن قومه أرادوا أن يخرجوا لعيد لهم يحتفلون به، فطلبوا من إبراهيم أن يخرج معهم وهو لا يريد الخروج معهم ولا مشاركتهم في أعيادهم.

فأراد أن يعتذر منهم، فسايرهم على طريقتهم؛ هم كانوا يعتقدون في النجوم أنها تؤثر، وأنها قد يكون فيها نفع أو ضر، فسايرهم في طريقتهم فنظر في النجوم، فلما رأوه ينظر في النجوم ويقلب نظره في النجوم، نظر نظرة في النجوم وبدأ يقلب.

قال لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]؛ أي إني مريض لا أستطيع الخروج معكم، أنا مريض ومتعب ولا أستطيع الخروج معكم.

- **كيف قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؟**

قال أنه نظر في النجوم على اعتقادهم وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ بمعنى أنني سأسقم، يعني أني مريض أي سأمرض، وهذا ليس كذباً، إنما هو (**تورية**)؛ والتورية تختلف عن الكذب، مثل ما ذكرنا التورية لها مندوحة عن الكذب، والإنسان يحاول أن يسلك مسالكها وألا يكذب لأن الكذب محرم.

فهنا قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ مثل ما قال إبراهيم للملك لما قال: من هذه؟ -يعني زوجته سارة- قال: «هَذِهِ أُخْتِي»؛ يعني أختي في الإسلام. ولما كسر الأصنام بيده اليمنى وقالوا: من فعل هذا بآلهتنا؟ قال: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] وهو يشير إلى الإبهام في أصبعه.

فهذه الأشياء هي تورية، فهو ورّى كأنه سايرهم على أنهم يعتقدون أن النجوم تؤثر ثم قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أي سأسقم، مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنبيه محمد: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]؛ يعني أنت ستموت وهم سيموتون.

قال: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ [الصافات: ٩٠]. لما رأوه يعتذر ويقول أنا مريض ولا أستطيع الخروج، تركوه وذهبوا إلى عيدهم، تولوا عنه مدبرين. فلما علم أنهم قد ذهبوا وابتعدوا عنه وخلا له الجو: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١]؛ راغ يعني مال مسرعاً، وهو السير بسرعة وميلان، يميل بخفية وسرعة.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾، آلهتهم كانت في مكان مجتمعة أو في معبد من معابدهم، وقد وضعوا الطعام عندها ليتبركوا به في طعامهم، وقالوا: إذا جئنا من العيد نأكل الطعام، فوضعوا الطعام وذهبوا.

فلما دخل إبراهيم على الآلهة قال مستهزئاً وساخراً منها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٩٢].

- **لماذا لا تأكلون أيتها الآلهة؟**

ثم قال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ [الصافات: ٩٣]؛ لا تأكلون ولا تتكلمون! ما هذه الآلهة؟! ثم: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٤]؛ يعني جاء مسرعاً بقوة وبيمينه يضرب. وقلنا أن اليمين يحتمل أنه اليد اليمنى، ويحتمل أنها القوة، ويحتمل أيضاً أنه اليمين التي حلف بها لما قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

فهو برّ بيمينه التي حلف بها، وأخذ بيمينه اليد اليمنى يضرب بقوة فكسرها جميعاً إلا كبيراً لهم، كما قال الله في سورة الأنبياء: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

فلما جاءوا من عيدهم ودخلوا فإذا الأصنام قد كسرت ولم يبقَ إلا واحد، ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٥]؛ يزفون يعني مسرعين بقوة مع إحداث صوت وهدرمة في الصوت، يعني يهدرمون بقوة يريدون الانتقام منه بشدة. يقال: زفّ زفّ؛ فإذا جاء مسرعاً يقولون: زفّ النعام، والنعام معروف في الصحراء ينطلق انطلاقاً سريعاً جداً.

فيقولون: زفيف النعام. ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ يعني مسرعين. في سورة الأنبياء في قصة إبراهيم قالوا: ﴿فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]، وهنا قال: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾.

- **السؤال هنا: هل هم جاءوا إليه أم قالوا فاتوا به يعني أحضروه؟ أحضروه لنا يعني يأتون به كأنه مجرم وقد يكون مقيد الأيدي أو الأرجل، فاتوا به، فكيف أقبلوا إليه؟**

الجواب: سورة الأنبياء تخبر أنهم قالوا فاتوا به، وسورة الصافات تخبر بأنهم أقبلوا إليه.

- **كيف نجمع بين الأمرين؟**

الجواب: إنهم قالوا فاتوا به، فلما أقبلوا به قاموا مسرعين إليه، مسرعين إليه منكرين عليه.

- **فلما قالوا يعني كيف تكسر آلهتنا؟**

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، فقال: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

ثم أنكر عليهم قال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥]؛ كيف تعبدون وتخضعون وتدعون وتسجدون وتركعون لشيء أنتم تنحتونه وأنتم تصنعونه؟! سواء من الخشب أو من الحجارة، تأتون بهذه الأصنام وتصنعونها وتنحتونها ثم تعبدونها؛ أين عقولكم؟! تدعون ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

والله هو الذي خلقكم؛ تتركون خالقكم الذي خلقكم وخلق السماوات والأرض وخلق الناس جميعاً، تتركون الخالق الرازق وتعبدون أصناماً لا تخلق ولا ترزق؟! ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]؛ خلقكم وخلق عملكم الذي تعملونه، وهذه الأصنام كلها الله خالقها.

فلما استطاعوا الرد عليه وهو يناقشهم بالحجة والقوة، وهذه طريقة الذي ليس عنده دليل ولا عنده حجة يستعمل القوة؛ فهؤلاء لما قال لهم إبراهيم ناقشوني، وأقمت عليهم الحجة، لما لم يردوا عليه استعملوا القوة، ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

مثل ما فعل فرعون لما قال له موسى بالبينات والأدلة والحجة قال: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦]؛ فهو يستعمل القوة لأنه ليس عنده دليل.

وهؤلاء قالوا: ابْنوا له بنياناً، فالقوه في الجحيم؛ قالوا اصنعوا -يعني أقيموا- أسواراً عظيمة، وبدأوا يجمعون فيها الحطب حتى امتلأ حطباً، فلما امتلأ حطباً أشعلوا النيران فيه، ثم قالوا نلقيه.

قال بعض أهل التفسير: "إنهم وضعوه في (المنجنيق)؛ لأن الاقتراب من هذا الوادي والاقتراب من هذا المكان سيكون فيه أذى وحرارة شديدة، فأرادوا فقيدوه بالحبال ووضعوه على المنجنيق، وقالوا: انصروا آلهتكم".

قال الله عَزَّوَجَلَّ في سورة الأنبياء: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

حتى قال بعض المفسرين: "لو قال برداً لاشتد البرد عليه، ولكنه قال: برداً وسلاماً حتى لا يتأذى، فأكلت النار القيود والحبال والأغلال، وجلس في هذا المكان الذي هو برد وسلام على إبراهيم، ولم يتأذَّ بشيء من ذلك".

فهنا قال: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨]؛ لما رفعوا هذا البنيان وارتفعوا عليه ووضعوه في هذا الوادي أرادوا أن يجعلوه في الأسفلين فالله جعلهم في الأسفلين ورفع إبراهيم. في سورة الأنبياء قالوا: انصروا آلهتكم.

فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]؛ هناك الأخسرين لأنهم قالوا انصروا، وهنا الأسفلين لأنهم أرادوا الارتفاع فجعلهم الله في سفل، وجعل إبراهيم في ارتفاع.

فلما رأى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من شدة عداوتهم وكراهيتهم وأنهم لم يقبلوا دعوته، وقد بلغهم هذه الدعوة ونصحهم واستمروا على عنادهم، تركهم ولم يدعُ عليهم بالهلاك، وإنما خرج وتركهم وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: ٩٩].

فهاجر هو وزوجته سارة ومعهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ -ولوط هو ابن أخ إبراهيم، يعني إبراهيم عم لوط- فخرجوا من العراق متوجهين إلى الأرض المقدسة إلى الشام، فنزل إبراهيم في الشام هو وزوجته، وأما لوط فقد كلفه الله بالرسالة ليذهب إلى أهل سدوم في الأردن، فذهب إلى أهل سدوم في الأردن.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]. فخرج وهاجر، فهنا قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾؛ يعني مهاجر إلى ربي، والله سيهديني إلى ما يكون خيراً لي.

فلما نزل في فلسطين واستقر فيها، دعا ربه بالذرية الصالحة، لأنه قد بلغ من الكبر، وامرأته أيضاً بلغت السن الكبير ولم يرزقا بولد، فسأل الله الولد قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

وامرأته قد كبرت حتى قالت: أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً! لما جاءت الملائكة تبشرهم بالولد، بشرته الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب؛ في سورة الذاريات: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ

عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، وفي سورة هود قالت: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]؛ فتعجبوا من هذا الأمر. وهنا يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

ونعرف قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ذهب إلى مصر وقابل الملك هناك ورجع وقد أُهديت إليه هاجر الجارية فتسرّاها ووطئها، فحملت وولدت إسماعيل؛ وكان في نفس سارة شيء من ذلك، فأراد إبراهيم ألا يؤذيها بشيء من ذلك.

فأخذ هاجر وإسماعيل بأمر من الله وذهب بهم إلى مكة، إلى الوادي الذي غير ذي زرع، وأسكنهم هناك، فقالت هاجر يعني تتركنا ليس طعام ولا شراب؟ فلحقت به لما أراد أن يرجع إلى الشام، لحقت به وتناديه فقالت في آخر الأمر: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لن يضيعنا الله. فاستقرت هاجر وإسماعيل، وذهب هو إلى الشام، ثم عاد بعد سنين لما كبر إسماعيل وبلغ معه السعي.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١]؛ حليم ذو حلم وعقل.

قال أهل التفسير -الكثير منهم-: "إن المراد بهذا هو إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، بدليل أن الله ذكر إسحاق بعد هذه القصة لما قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]؛ فالصحيح أن الغلام الحليم هنا هو إسماعيل وهو الذبيح".

قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]. بلغ معه السعي؛ أي أصبح يمشي مع والده، وقيل بلغ عمره ثلاثة عشر سنة، المهم أنه بلغ معه السعي يتحرك ويذهب ويأتي ويساعد والده.

وكان إبراهيم مشتاقاً للولد وفرح بإسماعيل فرحاً شديداً، فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يمتحنه ويبتليه؛ فرأى في المنام -ورؤيا الأنبياء حقّ- أنه يذبحه، قال أهل التفسير: رآه ثلاث ليالٍ وهو ينظر إليه.

فبعد ذلك أخبر إسماعيل بذلك فقال: يا إسماعيل إني أرى في المنام إني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ هو لا يستشيره في قضية أنه ينفذ أمر الله أو لا، هذا لا يستشار فيه، ولكن يريد أن يوطنه ويمهد له هذا الأمر حتى يتقبله.

قال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾، ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]؛ هذا رد الابن البر، قال افعل ما تؤمر، أمرك الله بالذبح نفذ ولا تتردد، وأنا إن شاء الله تجدني من الصابرين، أصبر على ما قدره الله وكتبه علينا.

فأخبر هاجر فأعدت له أدوات الذبح والسكين ونحوها وقالت: اخرج به عن وجهي لا يبقى أمامي.

فخرج به إلى منى إلى أرض منى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ [الصافات: ١٠٣]؛ أي كل منهما انقاد لأمر الله وأسلم واستسلم لله. ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾؛ لما وصل إلى منى أراد أن يذبحه هناك بعيداً عن أمه، وتلّه يعني صرعه وألقاه على جبينه.

والجبين للإنسان له جبينان: جبين أيمن وجبين أيسر، والوسط الجبهة، الأطراف الجبين، والجبين ما فوق العين وما فوق الحاجب، فألقاه على وجهه.

قال بعض أهل التفسير: "إنه قال اجعل وجهك إلى الأرض حتى لا تأخذني العاطفة". فأتى بالسكين وألقاه على الأرض وتلّه للجبين ووضع السكين على حلقه ليجرها جازماً وعازماً على ذبحه.

وأثناء جر السكين إذا يأتيه منادٍ من السماء: يا إبراهيم، فلما سمع الصوت رفع السكين؛ ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٥] يعني امتثلت أمر الله. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥] يقول نجزيك الجزاء الحسن ونجزي كل محسن؛ نجزيك يا إبراهيم الجزاء الحسن ونجزي كل محسن أحسن في عبادته وأحسن مع ربه. فما هو الجزاء الذي جازاه؟ أي أنه فداه بذبح عظيم.

قال: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝١٠٦﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٦]؛ يعني ليس هناك أشد من هذا البلاء العظيم، بلاء مبين واضح الشدة، والبلاء والامتحان الشديد؛ أنه يأخذ ابنه وليس له إلا هذا الابن وقد كبر بالسن وطعن ولم يرزق بأولاد.

ثم يؤتى هذا الولد الذي فرح به فرحاً شديداً ثم يؤمر بذبحه، لا يخبر بأنه سيموت أو يهلك أو يمرض أو نحو ذلك، لا، بل أنت تذبحه! تأخذ السكين وتذبحه! فمن يفعل ذلك؟ من يقوم بذبح ابنه وهو أشد الناس محبة له؟! فهذا من البلاء العظيم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]؛ كبش من كباش الجنة أنزله الله على إبراهيم، ذبح عظيم أي عظيم القدر، فنزل عليه الكبش فأخذ إبراهيم السكين أو (المدية) وساعده إسماعيل فقاموا بذبح هذا الكبش وتقطيعه وحمله والذهاب به إلى أمه إلى هاجر.

قالوا: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨﴾ [الصافات: ١٠٧ - ١٠٨]؛ ترك الله على إبراهيم صاحب القصة، ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي ترك الله له الذكر الحسن، يعني الناس يذكرونه، كل من جاء بعد إبراهيم يذكرونه بالذكر الحسن؛ فالمشركون يحبون الانتساب إليه، واليهود والنصارى وكل الناس يحبونه إلى قيام الساعة ويذكرونه بالذكر الحسن.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]؛ يعني سلام من الله وتحية على إبراهيم وهو سالم من كل أمر يؤذيه.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١١٠]؛ مثل ما جزينا إبراهيم هذا الجزاء الحسن والذكر الحسن، وأنه أصبح خليل الله وأصبح أبا الأنبياء، كذلك نجزي كل محسن.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١١]؛ إن إبراهيم من عباد الله المؤمنين، والعبودية شرف يشرف بها كل إنسان أن يكون عبداً من عباد الله المؤمنين.

قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]. لما عاد إلى الشام وإلى زوجته سارة وجلس عندها جاءته الملائكة، دخلت عليه الملائكة: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٨] وهو إسحاق.

بشروه لأنهم جاءوا، قال: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٥٧]، ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ٥٨] وهم قوم لوط ليهلكوهم ولينزلوا بهم العذاب، قالوا وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين، بشره الله بالولد من سارة وهو إسحاق، وأنه سيكون نبياً ومن الصالحين.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]؛ البركة الخير الكثير، يعني أن الله أنزل الخير الكثير في إبراهيم وفي بيته.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود: ٧٣].

باركنا عليه وعلى إسحاق، يعني البركة أصابت إبراهيم وإسحاق، وكانت لإبراهيم ولإسحاق.

قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾؛ يقول إبراهيم وإسحاق في ذريتهما من هو محسن سلك مسلك أبويه وسار عليهما وأصبح محسناً طائعاً لربه عاملاً للصالحات، وظالم ترك وخرج عن طريق والديه وظلم نفسه وقصر في حق الله، ظالم لنفسه مبين واضح الظلم.

يعني إبراهيم من ذريته وإسحاق الصالح والأنبياء الصالحون وعباد الله الصالحون، وفيهم من كان مقصراً أو خالياً عن طاعته.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى قصة موسى وهارون، ثم قصة إلياس وما بعده من الأنبياء، لعلنا نقف عند هذا القدر ونكتفي به إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الصافات ١١٤ - ١٣٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ هذا اليوم هو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الآخر من عام (١٤٤٦ هـ).

أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الموفقين لطاعته، وأن يتقبل منا ومنكم سائر الأعمال، وأن يستعملنا وإياكم في طاعته، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الملازمين له المصاحبين له.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (الصافات)، ولا زلنا في عرض السورة لعدد من قصص الأنبياء؛ عرضت لنا السورة قصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم قصة إبراهيم وبنيه إسماعيل واسحاق، ثم الآن عندنا قصة موسى وهارون؛ هي تسعة أنبياء: موسى، وهارون، ثم بعده إلياس، ولوط، ويونس عليهم السلام جميعاً.

وقفنا عند قصة موسى وهارون، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١١٤]. موسى وهارون من ذرية إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومن ذرية إسحاق ويعقوب؛ يعني إبراهيم الجد الأعلى، إسحاق، يعقوب الذي هو إسرائيل، ومن ذريته أنبياء كثير منهم موسى وهارون الذي بعث الله موسى إلى فرعون لينجي بني إسرائيل ويخلصهم من بطش فرعون واستبداده، وليدعو فرعون إلى أن يتزكى وإلى أن يعبد الله وحده لا شريك له.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١١٤]؛ الواو هنا يسميها أهل العلم هذه الواو واو القسم، واو القسم؛ مثل لما تقول: والله، والله؛ هذه واو القسم.

حروف القسم ثلاثة: الواو، والباء، والتاء؛ ﴿وَتَاللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٥٧] (تالله)، وبـ(الله)، و(والله)؛ فالواو هنا واو قسم.

- **كيف عرفنا أنها قسم؟**

لأن اللام التي في لقد الآن موطئة للقسم، التقدير: والله لقد أرسلنا، وقد هذه تفيد التحقيق؛ يعني الأمر قد تحقق تحقيقاً.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١١٤]؛ لما تسمع كلمة ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا﴾ وأنت تلاحظ يعني تغيير الأساليب في القصص، شوف الآن بعدها بيقول ماذا؟

بيقول الله عَزَّ وَجَلَّ بعد ذلك يقول: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣]؛ دخل على إلياس مباشرة وأثبت رسالته، ثم قال: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٣]، ثم قال بعدها: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩]؛ تلاحظ هذه الثلاثة الأخيرة كلها تبدأ بإثبات الرسالة لهم.

لكن لما ترجع في أول القصة، قصة نوح، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥]؛ أتى بأسلوب القسم والتأكيد على أن نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ نادى ربه نداءً عظيماً متضرعاً إليه داعياً ربه فاستجاب الله دعوته.

لما جاء عند إبراهيم قال: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ٨٣]؛ أي من شيعة نوح إبراهيم؛ يعني من أتباعه والذين هم على دينه وعلى طريقته. هنا غير الأسلوب فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١١٤]، وتلاحظ أن كلمة ﴿مَنَنَّا﴾ تفيد أن هناك نعمة عظيمة ومنة من الله وتفضلاً من الله على موسى وهارون.

على أي شيء منّ الله عليهم وينعم عليهم؟ قال: أنعمنا عليهم وفضلنا عليهم؛ بأي شيء؟ قال: منا عليهم بنعم عظيمة، من أجلها أن الله نجاهما وأيضاً معهما قومهما، قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ١١٥].

ما هو الكرب العظيم؟ ما هي الشدة التي واجهها موسى وهارون وقوم موسى وهارون بني إسرائيل؟ ما هو الكرب الشديد الذي يعني قابلهم واشتد عليهم واقترب عليهم؟

قال أهل التفسير يحتمل أمرين:

⬅الأمر الأول: هو بطش فرعون وتقتيله واستحياؤه للنساء واستعباده لهم؛ أصبحوا عبيداً بين يديه، فهو يعذبهم ويكلفهم من الأعمال الشاقة، فمنّ الله ببعثة موسى وهارون بأن يخلصهم من بطش فرعون، كما قال سبحانه قال: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥] فكهم وخلصهم منك، أرسل معي بني إسرائيل؛ فهذا يحتمل الكرب العظيم هو شدة بطش فرعون بهم.

⬅الأمر الثاني: الكرب العظيم يحتمل أيضاً أنه ماذا؟ أن الله نجاهم من الغرق في البحر لما أغرق عدوهم فرعون أمامهم ونجاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كما قال: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝٦٦﴾ [الشعراء: ٦٤ - ٦٦]. أنجى الله موسى ومن معهم من المؤمنين، ثم أغرق الآخرين.

لو نسأل أحد نقول: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤] من هم الآخرين الذين أزلفهم الله؟ كثير من الناس ما يدري؛ أزلفنا ثم يعني هناك، أزلفنا يعني قربنا، من هم الآخرون؟ فرعون ومن معه قربهم إلى أن وصلوا حد البحر.

ثم قال بعدها: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٦٥] من المؤمنين، أنجاهم الله من غرق البحر فدخلوا في البحر وخرجوا مع الجانب الآخر؛ هذه نجاة، نجاهم نجيناهم وجاوز بهم البحر، ثم قال: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٦] الذين أزلفهم وهم فرعون ومن معه.

هنا قال: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ١١٥]؛ يحتمل أن هذا كرب وهذا كرب وكلاهما كرب.

قال: ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ۝١١٦ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ۝١١٧﴾ [الصافات: ١١٦ - ١١٧]. ثم قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٨]. هدى الله موسى وهارون إلى الصراط المستقيم.

- **هم أنبياء كيف يهديهم؟**

الجواب: هداهم أي زادهم هدىً وثباتاً وعلماً إلى الصراط المستقيم وهو دين الله، وهو صراط السعادة وصراط النجاة والسلامة؛ فهما على هذا نجاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهداهم إلى الصراط المستقيم

واستقاموا عليه وزادوا وزادهم الله استقامة، وأنت تقول في صلاتك: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] يعني زدنا هداية وعلماً.

قال بعدها: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١١٩]. الآخرين هم القوم الذين يأتون بعدهم، شوف في فرق بين الآخَرين والآخِرين؛ الآخَر غير الآخِر، الذي يقابلك تقول هذا رجل وهذا آخَر يعني يقابله اثنان، لكن لما تقول الآخِرين يعني الذين جاءوا بعد الأول.

فهنا شوف مكسورة الراء والخاء مكسورة، فتقول: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١١٩]؛ يعني في الأمم التي جاءت بعدهم ترك الله ذكرهم الحسن؛ يعني ترك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر موسى وهارون الذكر الحسن في الأمم التي جاءت بعدهم.

فأنبياء بني إسرائيل وأمم بني إسرائيل كلهم وقبائل بني إسرائيل تثني على موسى وهارون، وأمة محمد أيضاً تثني وتذكر موسى وهارون بالذكر الحسن، فهم إلى قيام الساعة هذا معناه؛ ولذلك قال بعدها: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].

- **ما معنى السلام على موسى وهارون؟**

سلام يعني تحية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تحية عطرة طيبة من الله يحييهم؛ مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة يس قال: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]؛ فهنا قال الله عَزَّ وَجَلَّ سلام عليهم.

وفي معنى آخر، هو السلام من السلامة؛ يعني موسى وهارون سلمهم الله من كل أذى لا يصيبهم أذى لأنهم من عباده المخلصين، فسلمهم من كل أذى وسلم عليهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢١]، شوف هذه الجملة: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؛ إن الجزاء من جنس العمل، فكلما تعمل حسناً يجازيك الله بالأحسن، هذه قاعدة؛ هذا أمر.

الأمر الثاني، الفائدة الثانية نأخذها من هذه الآية: أن كلمة كذلك أي مثلما جازينا موسى وهارون بالجزاء الحسن والذكر الحسن والتحية والسلام، نجزي كل محسن؛ يعني ليست هي خاصة بموسى وهارون، نجزي كل محسن، فكل محسن أحسن يعني امرأة أو رجل، غني أو فقير، ذو مكانة أو لا يؤبه به.

كل هؤلاء عند الله إذا كانوا من المحسنين فإن الله يرفع قدرهم ومكانتهم ولو كانوا عند الناس أقل مما يذكر، فكل محسن أحسن علاقته مع ربه وحقق الإحسان الذي هو أن تعبد الله كأنك تراه؛ فالإحسان مع الله عَزَّ وَجَلَّ.

الإحسان مع الله بأن تحسن عبادتك وتتقنها وتخلصها لله، والإحسان مع الخلق أن تحسن إليهم بالتعامل الطيب والرفق وأن تقف معهم وأن تساعدهم في كل ما يحتاجون إليه؛ فقراء، محتاجين، معوزين، تصيبهم بلايا، مصائب، تقف معهم بالدعاء، بالمال، بالجاه، كل شيء؛ فانت تحسن، كما قال إخوة يوسف ليوسف قالوا: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨].

فالإحسان مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام، وباب واسع، إحسانك مع الله، إحسانك مع والديك، إحسانك مع جيرانك، إحسانك مع أبنائك وزوجتك، إحسانك مع الخلق جميعاً تحسن إليهم.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»؛ فالإحسان واسع.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في موسى وهارون: ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٢٢]، شهادة من الله أنهما من عباد الله وأنهما من المؤمنين.

قال بعدها: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٣]، لما ذكر قصة موسى وهارون انتقل إلى قصة إلياس.

- **من هو إلياس؟**

الجواب: هو رسول من رسل الله، أخبر الله أنه رسول: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أكد أنه لمن المرسلين.

- **أرسله الله؛ أرسله إلى من؟ وفي أي زمان؟**

الجواب: القرآن طوى هذا الشيء ما ذكره من باب الاختصار؛ أحياناً الله عَزَّ وَجَلَّ في القصص القرآني يبسط لنا القصة بأوسع ما يكون مثل قصة يوسف سورة كاملة، وأحياناً يختصر في سطرين؛ فهذه حكمة لله عَزَّ وَجَلَّ أنه لم يفصل في قصة إلياس، لا ندري أين مكانه ولا ندري في أي زمان، وأما ما يذكره المفسرون فيحتاج إلى دليل؛ هذه أشياء غيبية.

لما يقول لك: إلياس هو أرسله الله إلى أهل بعلبك؛ أهل بعلبك في الشمال الغربي من الشام أو قريباً من تركيا، طيب بعلبك هذه أرسلها الله، من وين جبتم الدليل؟ عندكم دليل؟ إذا في دليل نقبل، ونقول: الله أعلم بالمكان والزمان، بعضهم يقول: هو من ذرية هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ كل هذا نحن نعرض عنه صفحاً لأنه يحتاج إلى دليل، إلى تثبت.

ونحن أصلاً عرفنا المكان، هذه قاعدة لازم نفهمها في التفسير، وخاصة في قصص الأنبياء، عندنا قاعدة مهمة ينبغي لنا أن نأخذ بها حتى نسلم من كل شيء: الأماكن، والأوقات، والزمان، والأسماء؛ هذه لا يركز عليها القرآن كثيراً. لما يقول لك: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩]؛ من هو الذي مر؟ سماه؟ اتركه، القرية ويني؟ ما سماها، اتركها. ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠]؛ ما اسمه؟ ما سماه الله، فما حاجة أننا نتعب أنفسنا بدون فائدة.

إذاً هو إلياس هذا اسمه، وأرسله الله جعله من المرسلين؛ ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الصافات: ١٢٤]، دعاهم إلى تحقيق التقوى، تحقيق التقوى. وأعظم شيء يتعلق بالتقوى عبادة الله وحده لا شريك له، تحقيق التوحيد الذي هو نجاة العبد في الدنيا والآخرة؛ تقوى الله، والخوف منه، وعبادته حق العبادة، والبعد عن الشرك.

ولذلك أنكر عليهم الشرك، قال: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥ - ١٢٦]؛ البعل صنم، عندهم صنم عظيم يعظمونه، وجعلوه عندهم سيداً عظيماً، ويذهبون إليه ويدعونه من دون الله ويتوسلون ويستشفعون به ويتضرعون عنده ويسألونه ويدعونه من دون الله ويقربون له القرابين.

خضوع تام لمخلوق صنم، لا يسمع، ولا يبصر، ولا يتكلم، ولا ينفع، ولا يضر، ولا يجلب خير، ولا يدفع شر؛ يعني مصنوع من حجر أو من شجر أو من أي شيء، أين عقولكم؟!

﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥]. تتركون رب العالمين الذي هو أحسن الخالقين، خلق هذا الصنم وخلقكم أنتم وخلق السماوات والأرض، أحسن الخالقين جل جلاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

- **من هو أحسن الخالقين؟**

قال: ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ١٢٦]؛ يقول تتركون الله الواحد الأحد المنفرد بالخلق والتدبير، المنفرد بالعبادة والألوهية وهو ربكم ورب آبائكم الأولين، وتدعون بعلاً؟!

أصل البعل: السيد؛ ولذلك الرجل يسمى بعلاً، الرجل، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقال عن زوجة إبراهيم قالت: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]؛ يعني زوجي.

والعرب تسمي الزوج السيد، والبعل، وأصل البعل السيد؛ ولذلك امرأة العزيز لما راودت يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ واستبقا الباب: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]؛ يعني زوجها، سماه السيد؛ فهذا معناه. وهم كانوا يعظمون هذا الصنم حتى جعلوه سيداً وسماه بعلاً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [الصافات: ١٢٧]؛ هذا بيان لموقفهم، لما أمرهم بالتقوى ما اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ، ولما دعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وأنه رسول من عند الله لم يقبلوا وكذبوه.

قال الله متوعداً لهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٧]؛ يوم القيامة، أي سيحضرون يوم القيامة ويجازون على أعمالهم، وهذا تهديد وتخويف لهم، وأيضاً تأكيد على أنهم يحضرون يوم القيامة ويحشرون أمام النار، وهذا وعيد شديد لهم.

قال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ١٢٨]؛ أي من آمن معه، الذين آمنوا بإلياس وصدقوه واتبعوه وعبدوا الله حق العبادة وأخلصوا له، فهؤلاء لا يحضرون إلى النار.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٢٩]؛ ترك الله على إلياس الذكر الحسن في الآخرين، في الأمم التي جاءت بعده يذكرونه بالذكر الحسن، وهذا شرف له ومكانة.

قال: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]؛ سلام تحية من الله، وسلام أن يصيبه ما يؤذيه على إلياسين، وفي قراءة أخرى: ﴿عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾؛ آل ياسين يعني أتباعه.

قلنا إلياسين أو آل ياسين هم أتباعه؛ مثل ما تقول آل محمد، من هم آل محمد؟ هم أهل بيته الذين آمنوا به وصحابته وأتباعه إلى يوم الدين، كلهم يقال لهم آل محمد، فآل إبراهيم، آل إسماعيل، وهكذا؛ وهنا قال: آل ياسين.

- **قد يأتيك شخص يقول لك: في الأول يقول إلياس والحين يقول إلياسين؟**

الجواب: هذه لغة العرب يجوز فيها أن تقول إلياس وإلياسين، المعنى واحد؛ يسمى بإلياس ويسمى بإلياسين، مثل ما تقول في القرآن: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢] وطور سيناء؛ سيناء وسينين واحد، هذه لغة العرب.

قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٣١]؛ أيضاً مثل ما مر معنا، مثل ما جزينا إلياس الجزاء الحسن وأتباعه نجزي كل محسن.

قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٣٢]؛ شهادة من الله أنه من عباد الله المؤمنين، إن الله يشهد له بانه من عباده الذين اصطفاهم والذين حققوا الإيمان.

قال بعدها: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٣]؛ لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- **من هو لوط؟**

هذا لوط ابن أخ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عم لوط.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]؛ يعني في زمانه، فآمن له لوط، لوط آمن معه وهاجر معه؛ هاجر إبراهيم من أرض العراق، أرض بابل، إلى أرض الشام واستقر في فلسطين عند بيت المقدس.

واما لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فإن الله أرسله إلى قرى قوم لوط وهي (سدوم) وما حولها في بلاد الأردن، فأرسله الله إلى هذه القرى السبع، أكبرها سدوم، ودعاهم إلى التوحيد وإلى عبادة الله والى التخلق بالأخلاق الحسنة والبعد عن الأخلاق السيئة، وأعظمها فعل الفاحشة التي صرح القرآن بها: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ [الأعراف: ٨١]، وقال في آية أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٥ - ١٦٦]؛ فيتركون النساء ويأتون الرجال، وهذا قلب للفطرة.

حتى قال أحد خلفاء بني أمية، أظنه مروان بن الحكم: "والله لولا أن الله ذكر في كتابه قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يخطر ببالي أن ذكراً يعلو ذكراً أبداً"؛ ولذلك لا تجد هذه الجريمة وهذه الفعلة الشنيعة حتى في الحيوانات، لا تفعلها الحيوانات؛ ما تفعلها ولا الطيور.

ما تجد ذكراً يعلو ذكراً إلا في بعض بني آدم الذين انقلبت عندهم الفطرة وانتكست عندهم الفطرة فيفعلون هذه الفعلة الشنيعة ويفعلون هذه الفعلة الشاذة فيشذون بها.

قال هنا: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٣]؛ أثبت له الرسالة وأنه رسول من عند الله، وهذا شهادة من الله.

قال: ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الصافات: ١٣٤]؛ يعني لما دعا قومه وأصروا على كفرهم وعنادهم، وأصروا على كفرهم وعنادهم وهددوا لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإخراج: ﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ [النمل: ٥٦]، هددوه بالإخراج، فالله سبحانه أوحى إلى لوط أنه سيعذبهم، وجاءت الملائكة إلى لوط تخبره بأنهم سيعذبون، سينزل بهم العذاب فنجاه الله.

قال: ﴿نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الصافات: ١٣٤]؛ ممن آمن معه، ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٣٥]؛ إلا امرأته كانت من الغابرين؛ يعني من الباقين الهالكين.

قال: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: ١٣٦].

- **كيف دمرهم؟**

قال: فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل؛ قلب جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ديارهم، قلبها أخذها ورفعها إلى عنان السماء ثم قلبها، قال: جعلنا عاليها سافلها، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل؛ حجارة من طين تحرق كل إنسان تأتيه فتحرقه.

قال الله حتى يبين لك أن هذه العقوبة الشديدة على هؤلاء المجرمين ليست خاصة بقوم لوط فقط - يظن بعض الناس أنها خاصة بقوم لوط- قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]؛ كل من فعل هذه الفعلة الشنيعة فإن الله متوعده بهذا العذاب سواء في الدنيا أو في الآخرة أو عند موته سينال جزاءه سينال جزاءه.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]؛ ينال جزاءه بهذه العقوبة أو أشد، فإنها عقوبة شديدة لا تقبلها النفوس الطيبة لا تتقبلها أبداً؛ فهذا معناه ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: ١٣٦].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطباً أهل مكة يذكرهم بهذه العقوبات، قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧ – ١٣٨]؛ على ديار لوط، مصبحين في النهار، وبالليل تمرون أيضاً، أفلا تعقلون وتتفكرون أن الله الذي أهلكهم قادر على أن يهلككم إذا استمررتم على عنادكم وكفركم وتكذيبكم لنبيكم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فهذا تهديد وتخويف لهم.

تعال نقف عند هذا القدر؛ لأن التي بعدها قصة يونس تحتاج إلى وقت أطول، وأيضاً بعدها تختم السورة بمخاطبة المشركين في كفرهم وعنادهم وإشراكهم وقدحهم في الملائكة، فيأتي الحديث عنها إن شاء الله في اللقاء القادم نختم به السورة بإذن الله.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الصافات ١٣٩ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد؛

فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، اليوم التاسع عشر من الشهر الرابع من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة (١٤٤٦ هـ)؛ نواصل فيه ما بدأناه من مدارسة وتفسير (سورة الصافات).

وقد عرضنا لقصص الأنبياء التسعة الذين ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة العظيمة؛ وهم: نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإبراهيم وبناه إسماعيل وإسحاق، وموسى وهارون، وإلياس، ولوط عليهم السلام جميعاً، والآن نقف مع النبي الأخير المذكور في هذه السورة؛ وهو نبي الله يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قصة يونس بالثناء العظيم عليه وإثبات رسالته؛ فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩]؛ وهذا الثناء يثبت نبوته ورسالته، وأنه من عباد الله الصادقين الصالحين الذين اختارهم واصطفاهم.

ونبي الله يونس كما جاء في الأحاديث الصحيحة؛ هو (يونس بن متى) عَلَيْهِ السَّلَامُ، أرسله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى قرية (نينوى) وهي في أرض العراق، وتحديد الاسم والمكان إذا ثبت في الأحاديث الصحيحة فإننا نأخذ به ونعتقده؛ لأن أسماء الأماكن والأشخاص التي ترد بلا سند صحيح يصعب إثباتها.

وقد شرف الله سبحانه يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن سمى سورة كاملة باسمه في القرآن الكريم؛ وهي (سورة يونس)، مثلما سمى سوراً بأسمائه سائر الأنبياء كـ (هود) و(يوسف) و(إبراهيم) و(نوح) و(محمد)، وسمى سورة كاملة باسم (سورة الأنبياء) ذكر فيها ستة عشر نبياً.

ثم بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موقفاً من مواقف يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فقال جل جلاله: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ [الصافات: ١٤٠].

وكلمة ﴿أَبَقَ﴾ بفتح الهمزة والباء والقاف؛ ومعناها في اللغة: الشارد أو الهارب من سيده، ويقال: (عبد آبق) أي هارب، وينبغي الانتباه في القراءة؛ لأن بعض القراء يخطئون فيقرؤونها بسكون الباء أو بمد الهمزة (أبقى) وهذا خطأ يغير المعنى تماماً، فالقراءة الصحيحة هي ﴿أَبَقَ﴾ بالفتح.

ومعنى الآية: إذ هرب إلى الفلك المشحون؛ وذلك أنه كان يدعو قومه في قرية نينوى وكانوا ذوي أعداد كثيرة، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فلم يستجيبوا له، وحذرهم وأنذرهم العذاب الأليم، فلما رأى إصرارهم وعنادهم تضايق وحزن حزناً شديداً، فخرج مغاضباً لهم دون أن يأذن الله له بالخروج.

والأصل في الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أنهم لا يتصرفون في مثل هذه الأمور العظيمة كالهجرة وترك قومهم إلا بطلب وحي وإذن من الله سبحانه؛ كما أوحى الله إلى موسى بالخروج بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢].

وكذلك نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما هاجر الصحابة إلى المدينة وجاءه أبو بكر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه يسأله الهجرة؛ قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَمْ يُؤْذَنْ لِي»، حتى جاءه الإذن بعد ذلك من ربه جَلَّ وَعَلَا فهاجر.

أما يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقد استعجل وغضب على قومه وقال لهم: سأتيركم العذاب عن قريب لعصيانكم، وخرج دون إذن ربه، فلما انتهى إلى شاطئ البحر وجد قوماً معهم سفينة تتهيأ للإبحار فركب معهم؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾؛ أي السفينة المملوءة والمحملة بالأثقال والبضائع أو الركاب.

فلما ركب يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وانطلقت السفينة في عرض البحر؛ وقفت السفينة فجأة ولم تتحرك يميناً ولا شمالاً في منتصف اللجة، فعلم ركاب السفينة أن هناك خطباً، وقالوا: إن فيكم عبداً عاصياً أو قارَف ذنباً، ولا بد أن يلقي بنفسه في البحر لتخفيف الحمولة وتسير السفينة، واقترحوا إجراء القرعة؛ فقالوا: لا نلقي أحداً إلا بطريق القرعة العادلة، فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه.

وقد ذكر الله سبحانه هذا المشهد فقال: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١].

ومعنى ﴿فَسَاهَمَ﴾: أي شارك في القرعة وألقى بسهمه معهم، ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾: أي من المغلوبين المقروعين؛ يقال دُحض الرجل أي غُلب. فلما وقعت القرعة على يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ تراجع ركاب السفينة لما رأوا عليه من سيماء الصلاح والخير.

وقالوا: رجل صالح كيف نلقيه؟ فأعادوها ثانية وثالثة، وفي كل مرة تقع القرعة عليه؛ فعرف يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ أن في الأمر قدراً إلهياً، فألقى بنفسه في البحر.

بمجرد أن ألقى يونس نفسه في الماء؛ قيض الله له حوتاً عظيماً فالتقمه مباشراً؛ قال تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢].

ومعنى ﴿مُلِيمٌ﴾: أي آتٍ بما يُلام عليه؛ لأنه خرج من بين قومه مغاضباً بغير إذن ربه جل جلاله، وفي سورة الأنبياء بين الله سبحانه هذا الضيق الذي وقع فيه يونس؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

ومعنى ﴿نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ في الآية ليس من القدرة؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وإنما هو من التضييق؛ كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]؛ أي يضيق، فضيق الله عليه بأن صيره من سعة الدنيا إلى ضيق بطن الحوت في ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت.

ثم يعلمنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى درساً عظيماً في التربية والإيمان؛ فيقول جل جلاله: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

هذه الجملة العظيمة تستدعي منا وقفة تأمل؛ فلولا أن ليونس عَلَيْهِ السَّلَامُ رصيداً سابقاً من الأعمال الصالحات والذكر والتسبيح في زمن الرخاء، وإكثاره من الصالحات والعبادات في بطن الحوت؛ لكان بطن ذلك الحوت قبراً له إلى يوم القيامة ولبقي فيه مستقراً.

ولذلك؛ فإن العبد الصالح ينبغي له أن يكثر من العمل الصالح والعبادة في زمن الصحة والرخاء والعافية؛ تقرباً إلى الله تعالى؛ كصلاة الليل، وقراءة القرآن، والصدقة، والذكر، حتى يجد أثر ذلك في زمن الضيق والشدة.

☜**تطبيقاً لحديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العظيم:** «تَعَرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ».

☜**وقد دعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعائه فقال:** «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ»؛ وهي الأعمال الصالحة التي توجب رحمة الله للعبد عند الشدائد.

فلما نادى يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في بطن الحوت بكلمة التوحيد والتسبيح: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، واعترف بذنبه وأقر بالتقصير لربه؛ فرج الله عنه وأمر الحوت أن يقذفه خارجاً؛ قال سبحانه: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥].

ومعنى ﴿بِالْعَرَاءِ﴾: أي الأرض الفضاء الخالية الواسعة على شاطئ البحر، و﴿سَقِيمٌ﴾: أي عليل ضعيف الجسد والنبية مما لاقاه في جوف الحوت.

وقد اختلف علماء التفسير في المدة التي قضاها يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في بطن الحوت؛ فمنهم من قال يوماً، ومنهم من قال يومين أو ساعات، ومنهم من قال عشرة أيام أو ستين أو سبعين يوماً أو حتى سنوات؛ والعلم عند الله في تحديد ذلك ولا دليل قاطعاً عليه.

ولما كان يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ سقيماً عليل الجسد؛ لطف الله به فأنبت عليه شجرة تحميه وتغذيه؛ قال سبحانه: ﴿وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٦].

وذكر أهل التفسير أن (شجرة اليقطين) هي شجرة (الدباء) أو (القرع) المعروفة؛ وهي شجرة مباركة تمتاز بكثافة أوراقها ونعومتها، وظلها الظليل، والذباب لا يقترب منها أبداً بل يفر منها.

وكان جسد يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ غضاً رقيقاً يحتاج إلى حماية من حرارة الشمس ومن أذى الهوام والذباب، فجعل الله هذه الشجرة ستراً له وغذاءً نافعاً لجسده السقيم حتى استعاد قوته ونشاطه وعافيته.

فلما عاد يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى طبيعته ونشاطه؛ أمره الله بالعودة إلى قومه الذين تركهم؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧ - ١٤٨].

وكان قومه لما خرج من عندهم قد استشعروا صدق وعيده وخافوا نزول العذاب والهلاك بهم؛ فخرجوا جميعاً بكبارهم وصغارهم، ورجالهم ونسائهم، ودوابهم وبهائمهم إلى الصحراء، وعجوا بالبكاء

والتضرع والدعاء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرفع عنهم العذاب؛ فرحمهم الله وقبل توبتهم وصرف عنهم العذاب.

كما قال سبحانه في سورة يونس: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾[يونس: ٩٨].

فلما رجع إليهم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ وجدهم مؤمنين تائبين؛ ففرحوا به فرحاً عظيماً وآمنوا برسالته، فمتعهم الله بالصحة والعافية والرزق في الدنيا إلى منتهى آجالهم المقدرة لهم.

بعد فراغ السورة من تفصيل قصص الأنبياء التسعة العظام وتسجيل نصرهم وعافيتهم؛ عادت الآيات الكريمة لتناقش عقائد المشركين في مكة؛ فقال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾[الصافات: ١٤٩].

وهذا الاستفهام توبيخي وإنكاري؛ يعود إلى ما افتتحت به السورة في مناقشة المشركين في توحيد الربوبية والبعث في قوله سبحانه: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾[الصافات: ١١].

وهنا يسألهم سؤال توبيخ عن عقيدتهم الفاسدة في الملائكة؛ إذ زعموا أن الملائكة بنات الله، مع أنهم هم يأنفون من البنات ويكرهونهن ويفضلون البنين؛ كقوله تعالى في سورة النجم: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢﴾[النجم: ٢١ - ٢٢]؛ أي قسمة جائرة مائلة عن العدل.

فكيف تجعلون لله سبحانه ما تكرهون لأنفسكم وتنسبون إليه البنات ولكم البنون؟!

ثم طالبهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالدليل على دعواهم؛ فقال جل جلاله: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾[الصافات: ١٥٠].

أي هل حضرتم وشهدتم خلق الملائكة حتى تجزموا بأنهم إناث؟! والواقع أنهم لم يشهدوا ذلك؛ وإنما هو رجم بالغيب وافتراء قبيح؛ ولهذا قال سبحانه مبيناً كذبهم الفاضح: ﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝١٥٢﴾[الصافات: ١٥١ - ١٥٢].

فزعمهم أن الملائكة بنات الله وأن الله ولد؛ هو عين الكذب والإفك والافتراء المردود؛ لأن الله سبحانه هو الخالق الغني القوي، والولادة والوالد إنما يكون في عالم المخلوقات المحتاجة الضعيفة للتكاثر

والبقاء؛ أما الله جل جلاله فهو غني عن الصاحبة والولد؛ كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾[الإخلاص: ٣ - ٤].

ثم يترقى السياق في توبيخهم بأسلوب الاستفهام الإنكاري الحاد: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝١٥٧﴾[الصافات: ١٥٣ - ١٥٧].

أي كيف يحكم عقلكم بهذا الحكم الجائر؟! وكيف تنسبون لله البنات اللاتي لا ترضونهن لأنفسكم؟! وهل لديكم برهان واضح أو (سلطان مبين) أي حجة من كتاب منزل يثبت دعواكم؟! فإن كان لكم كتاب من السماء فأتوا به إن كنتم صادقين في دعواكم، ولكن ليس لديهم علم ولا حجة ولا كتاب؛ بل هو مجرد ظنون وأوهام كاذبة.

ثم فضح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصلاً آخر من أصول معتقداتهم الباطلة؛ فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[الصافات: ١٥٨].

و﴿الْجِنَّةِ﴾ هم الجن؛ كقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]. فقد زعم مشركو العرب قبحهم الله أن هناك مصاهرة وقرابة نسب بين الله سبحانه وبين سادة الجن في جبال (السروات)، وأن الملائكة قد تولدن من هذه المصاهرة الكاذبة!

وتعالى الله عن هذا الإفك العظيم علواً كبيراً؛ هذا القول الذي تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً!

ثم عقب سبحانه ببيان كذبهم وبطلان عقيدتهم بما تقره الجن أنفسهم؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي لقد علمت الجن علماً يقيناً أنهم عباد مربوبون مقهورون، وأن كفارهم سيحضرون يوم القيامة للحساب والعذاب في جهنم؛ فكيف يكون شريكاً أو صهراً لله من هو مملوك مربوب محضر للعذاب والجزاء؟!

ثم نزه الله نفسه وقدسها فقال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾ [الصافات: ١٥٩ - ١٦٠]؛ فنزه ربه نفسه عن كل صفات النقص والولد والمصاهرة التي يصفه بها الكفرة؛ واستثنى من المحضرين للعذاب عباد الله المخلصين الذين أخلصوا العبادة لله وصدقوا المرسلين.

ثم وجه الخطاب للمشركين موضحاً عجزهم وعجز معبوداتهم عن إضلال أحد من عباد الله الصالحين: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣].

أي إنكم وأصنامكم ومعبوداتكم من دون الله؛ لن تستطيعوا أن تضلوا وتفتنوا أحداً عن دين الله الحق وتصرفوه إلى شرككم؛ إلا من كتب الله سبحانه في سابق علمه وقدره أنه شقي من أهل النار وصال الجحيم؛ لأن القلوب بيد الله، والهداية والإضلال بيده وحده جل جلاله.

بعد دحض كذب المشركين الذين زعموا أن الملائكة بنات الله؛ أورد الله سبحانه حقيقة الملائكة على ألسنتهم هم؛ فقال جل جلاله حكاية عنهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦].

فالملائكة عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون؛ يقرون بعبوديتهم لله؛ فليسوا بناتاً ولا شركاء، بل لكل ملك منهم مقام معلوم ومكان محدد مخصص لعبادة الله وطاعته في السماوات.

☜**كقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح:** «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ». و(الأطيط) هو صوت الرحل وثقله؛ ومعناه هنا أن السماء ثقلت بعمارها من الملائكة العابدين.

وهم ﴿الصَّافُّونَ﴾: الذين يصفون صفوفاً متراصة خاشعة أمام ربهم في الصلاة والعبادة والطاعة، وهم ﴿الْمُسَبِّحُونَ﴾: الذين ينزهون الله جَلَّ وَعَلَا عن صفات النقص ويعظمونه ويقدسونه آناء الليل وأطراف النهار بلا فتور؛ فهذه هي حقيقتهم ومقامهم الشريف العبودي، فأين هذا من مزاعم المشركين الباطلة؟!

ثم فضح الله سبحانه تناقض قريش ومشركي مكة وعنادهم؛ فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الصافات: ١٦٧ - ١٧٠].

أي كان هؤلاء المشركون قبل بعثة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتمنون ويقولون: لو جاءنا ذكر أو كتاب أو رسول من رب العالمين كالذي جاء للأمم الأولى؛ لأخلصنا العبادة لله ولآمنا واتبعنا وسارعنا

في الخيرات؛ فلما جاءهم أكمل الرسل محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأحسن الكتب وهو الذكر الحكيم؛ كفروا به وعاندوا وصدوا عنه! ولهذا توعدهم الله سبحانه وعيداً شديداً بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي سوف يعلمون عاقبة كفرهم وتكذيبهم لرسولهم يوم القيامة.

ثم بشر الله سبحانه نبيه ورسله وجنده المؤمنين بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة؛ فقال جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۝١٧٣﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وهذا وعد إلهي قاطع مؤكد قد كتبه الله سبحانه في اللوح المحفوظ؛ أن النصر والتمكين والغلبة هي لعباده المرسلين وجنده المؤمنين المجاهدين في سبيله المتقين؛ كقوله تعالى في سورة غافر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

ثم أمر الله سبحانه نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإعراض عنهم تطييباً لقلبه وتسليماً لأمره؛ فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٥﴾ [الصافات: ١٧٤ - ١٧٥].

وأمره بالتولي والإعراض عنهم إلى حين يقدره الله لإنزال العذاب والهلاك بهم وهو يوم بدر؛ حيث قتل كبراؤهم وصناديدهم ودُحرت شوكتهم، وأمره برؤيتهم وإبصارهم كيف يتساقطون صرعى في قليب بدر وسيرون عاقبة أمرهم.

ثم قال سبحانه منكراً عليهم استعجال العذاب وتحديهم للرسول: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ۝١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ۝١٧٧﴾ [الصافات: ١٧٦ - ١٧٧].

فقد كانوا يقولون استهزاءً واستعجالاً: متى هذا العذاب؟ فبين سبحانه أنه إذا نزل العذاب بحيهم وساحتهم؛ فسيكون صباحهم شراً ووبالاً عليهم؛ وخص الصباح بالذكر لأنه وقت نزول العذاب غالباً ووقت إغارة الأعداء.

ثم أعاد سبحانه التأكيد بلفظ التولي لبيان عذاب الآخرة وتهديدهم به؛ فقال: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ۝١٧٩﴾ [الصافات: ١٧٨ - ١٧٩].

والتولي الأول كان مقيداً بيوم بدر في الدنيا؛ أما التولي الثاني فمقيد بيوم القيامة؛ حيث ينظر الرسول وينظر المؤمنون إلى مصير الكافرين في نار جهنم ويبصر الكافرون عذابهم الأبدي؛ وقيل إن الإعادة هي لتأكيد الوعيد الشديد في الدارين.

ثم ختمت السورة الكريمة بخاتمة عظيمة جليلة تجمع معاني السورة ومقاصدها العقدية؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

وهذه الخاتمة البديعة تتضمن ثلاثة معانٍ شريفة:

- المعنى الأول: تنزيه الله وتقديسه: بقوله ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾؛ أي تنزيهاً وتقديساً للرب العظيم، صاحب القوة والمنعة والغلبة، وتنزيهاً له عما يصفه به المشركون من النقص والصاحبة والولد والشركاء والمصاهرة.

- المعنى الثاني: السلام على المرسلين: بقوله ﴿وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾؛ وهي تحية مباركة وتأمين من الله لرسله الكرام وتسليم لهم من كل كرب وأذى وسوء في الدنيا والآخرة؛ لسلامة ما قالوه ودعوا إليه من التوحيد والهدى.

- المعنى الثالث: الحمد لله رب العالمين: بقوله ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ والحمد والثناء الكامل المستحق لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً على عظيم نعمه؛ ومن أعظمها بعثة الأنبياء والرسل وإنزال الكتب الهادية للبشرية من ظلمات الجهل والهلاك إلى نور الإيمان، وحفظه لكتابه العظيم غضاً طرياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وجعلنا من خير الأمم أمة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وبهذا تنتهي سورة الصافات المباركة بالحمد لله والثناء عليه؛ ونسأله سبحانه أن يعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا، ويزيدنا علماً وعملاً وتوفيقاً؛ وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ ص)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(ص ١ - ١٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى شَرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْماً وَعَمَلاً يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو اليوم السادس والعشرون من الشهر الرابع من عام (١٤٤٦ هـ).

درسنا المبارك مع القرآن الكريم؛ قراءةً، وبياناً، وتوضيحاً، وتفسيراً، وتدبراً. اليوم معنا سورة جديدة، وهي السورة التي تلي (سورة الصافات)، وهي (سورة صاد).

سميت بهذا الاسم لافتتاحها بهذا الحرف (صاد)، كما سميت (سورة قاف) و(سورة نون)، وهكذا بعض السور تسمى بأسماء الحروف التي افتتحت بها؛ مثل (يس) و(طه)؛ فتسمى أحياناً بأسماء الحروف التي افتتحت فيها.

وعند بعض المفسرين يسمى هذه السورة (سورة داوود) عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأن الله ذكر فيها قصة داوود وتوسع فيها.

(سورة الصافات) و(صاد) بينهما ترابط شديد قوي؛ أنت لما تقرأ في آخر (سورة الصافات) يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٨٠]. والعزة صفة من صفات الله، والعزة لله؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فرسوله له عزة، والمؤمنون لهم عزة من عزة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الكفار ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في (سورة صاد) أنهم في عزة؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢]. لكن عزة الكفار غير عزة الله وعزة المؤمنين، المؤمنون يعتزون بدينهم، يفتخرون بدينهم، ويعتزون بمبادئ الإسلام، وينتصرون للإسلام، ويعتزون أنهم عباد لله؛ يخضعون لله ويسجدون لله.

أما الكفار فـ (في عزة وشقاق)؛ عزة الكفار عزة الأنفة والتكبر والاستكبار عن الحق، والإعراض، والكفر، والشقاق، والمحادة، والمخالفة، فهناك فرق بين عزة الله وعزة الكفار.

وهذه الكلمة التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في (سورة صاد) وافتتح بها السورة، هذه العزة ستتكرر معك في السورة؛ أن الكفار في شقاق عن المسلمين؛ يعني هم في شق والمسلمون في شق، والكفار في عزة وحمية -حمية الجاهلية- وأنفة وعدم قبول الحق.

وستلاحظ أن الله يذكر قصصاً في (سورة صاد) فيها الإنابة؛ ثم أناب، ثم أناب، ثم رجع إلى ربي، ثم عاد؛ والكفار لا ينيبون ولا يعودون ولا يرجعون إلى ربهم.

(سورة الصافات) ذكر الله فيها تسعة أنبياء، ثم أكمل بهؤلاء الأنبياء أيضاً أنبياء آخرين في (سورة صاد)؛ تسعة أنبياء: داوود، وسليمان، وأيوب، وإبراهيم، وموسى، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، واليسع، وذا الكفل، هؤلاء تسعة أنبياء مع الذين ذكروا في (سورة الصافات)؛ إلياس، ولوط، ويونس، ونوح، وغيرهم.

الكفار في (سورة الصافات) اتهموا الأنبياء، واتهموا الملائكة بأنهم بنات الله، وقدحوا في الأنبياء، ولم يعرفوا قيمة الملائكة وعملهم الشريف، ولم يعرفوا قيمة الأنبياء ووظائفهم الشريفة؛ فلذلك قدحوا فيهم واتهموا الملائكة بأنهم بنات الله، ولم يعرفوا قدر هؤلاء الملائكة.

فلذلك رد الله عليهم فقال عن الملائكة: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٥-١٦٦]. فالملائكة صافّة للعبادة، والكفار في عزة وشقاق؛ والملائكة تسبح لله وتنزهه، والكفار يقدحون في الله ويشركون به وهم في عزة وشقاق.

بل إن الله ذكر في (سورة صاد) الجبال تسبح مع داوود والطير تسبح؛ يعني الجبال وهي صامدة لا تتحرك، جامدة وتسبح لله، والطيور التي لم تكلف تسبح لله، والكفار لا يسبحون لله ولا تسبيحة! والملائكة تسبح، والأنبياء والرسل يسبحون الله ويتعبدونه، تجد بين السورتين ترابطاً شديداً جداً.

و(سورة صاد) في الحقيقة هي تتحدث عن تصحيح العقيدة مع هؤلاء الكفار: مَن هو الله عَزَّ وَجَلَّ؟ مَن هو ربكم؟ تصحيح العقيدة مع الله عَزَّ وَجَلَّ، وتصحيح العقيدة مع هذا الكتاب الذي أُنزل إليهم؛ هذا

الوحي القرآن، القرآن الذي يقولون افتراه، ويقولون محمد كذاب وساحر، هذا القرآن الذي يقولون فيه: ما سمعنا بهذا!

القرآن وحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورسالته للبشرية إلى قيام الساعة؛ ما عرفوا عظمة القرآن ولم يعرفوا قيمة القرآن، فلذلك قدحوا فيه وكذّبوا به، فأراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبين لهم حقيقة هذا القرآن، وأنه ركن من أركان الإيمان؛ فالإيمان بالقرآن وبالكتب المنزلة هو ركن من أركان الإيمان الستة.

وكذلك كفرهم برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتهامه؛ حيث قال الكافرون: هذا ساحر كذاب! فاتهامهم للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحتاج تصحيحاً للعقيدة: من هو الرسول؟ وما الذي يجب عليكم تجاهه؟

الرسول اختاره الله واصطفاه، الرسول هو المبلّغ عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو أمين الأرض الذي يبلغ رسالة ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنتم تقدحون فيه وتتهمونه بالكذب وتقولون ساحر كذاب! لا بد من تصحيح العقيدة في الإيمان بالرسل، والإيمان بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ركن من أركان الإيمان.

فالسورة جاءت لتقرر هذه القضايا؛ قضايا العقيدة الصحيحة، ومنها الإيمان باليوم الآخر؛ فالسورة تذكرهم بالإيمان باليوم الآخر وما أعد الله؛ حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. فتكلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبيّن لهم مصير هؤلاء إن استمروا على ما هم عليه؛ أن مصيرهم إلى النار، وذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نعيم أهل الجنة.

فقال: ﴿مُفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ۝٥٠ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ۝٥٢﴾ [ص: ٥٠-٥٢]. فالسورة تقرر قضية الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالحياة الأخرى؛ الحياة الحقيقية.

نبدأ على بركة الله في هذه السورة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿صٓ ۚ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

أنت لما تقرأ أولاً كلمة ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾؛ تأمل: (صاد) حرف من حروف الهجاء، وهذا مرّ معنا كثيراً، وحروف الهجاء افتتح الله بها بعض السور تنبيهاً على أن هذا القرآن مكوّن من حروف الهجاء التي تعرفها العرب ولا تنكره.

هذه الحروف التي تعرفها العرب ولا تنكرها، هي التي تتكلم بها العرب وتنشئ القصائد والخطب، وكلامهم كله من هذه الحروف.

- **لماذا أنتم تنكرون القرآن؟**

وإذا جاءكم شخص بقصيدة أو بملحمة أو بخطبة تقبلتموها وأعجبتم بها، وحتى إنكم تحفظونها، والقرآن تكذبون به ولا تؤمنون به! يعني هذا جفاء وشطط لا يجوز؛ فلذلك الله سبحانه يذكر هذه الحروف ليذكرهم بأن هذا قرآن عربي من حروفكم العربية أنتم؛ فلماذا؟

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، وبيّن لهم أنه بـ﴿لِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]؛ فلماذا تنكرون هذا؟!

ثم أقسم الله جل جلاله بالقرآن فقال: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾؛ هذا قسم، الواو (واو القسم)، يعني أقسم بالقرآن، والقرآن قسم.

- **ثم وصف القرآن بأي شيء؟**

قال: ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾، ومعنى (ذي الذكر) أي: صاحب الذكر.

- **الذكر هنا ما معناه؟**

الذكر هنا معناه الشرف؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ يعني ذكر لك يعني شرف تذكر به، لما يقال: هذا فلان صاحب القرآن، هذا صاحب التلاوة الجميلة، الصوت الجميل، هذا يحمل القرآن في صدره، هذا من حَمَلة كتاب الله؛ فهو شرف لك.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ فيه مكانتكم، يعني القرآن يجعل لك مكانة في المجتمع.

وقال: (ذكر)، والذكر أيضاً هنا لا يفوت المعنى الثاني وهو: الموعظة والتذكير؛ فالقرآن مواعظ وتذكير، وشرف لك أن تكون من أهل القرآن.

فالله يشير إلى عظمة هذا القرآن؛ لماذا؟ ليرد على هؤلاء الكفار عقيدتهم الباطلة في القرآن الذي يتهمون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه مفترى وأنه كذب؛ فرد الله عليهم وبيّن أن هذا القرآن هو ذكر.

ثم لما بيّن الشرف وأن الكفار لم يشرفوا به ولم يقبلوه، بل ردوه واستهزؤوا وسخروا وكفروا به؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ٢].

(بل) هنا للاضراب؛ يعني لما بيّن عظمة القرآن انتقل إلى معنى آخر وبيّن موقف الكفار، فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾. لم يتقبلوا القرآن ويأخذوه الذي هو شرف لهم ومكانة، وكيف تعرضون عن القرآن؟! لماذا؟

قال: لأنهم في عزة وشقاق، والعزة -مثل ما ذكرنا- هي الأنفة والكبر والحمية؛ لا يريد أن يتنازل عما هو عليه ولو كان على خطأ، وتجد بعض الناس تأخذه العزة بالإثم. قال: ﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾؛ يشاق ويحادّ ويجادل ويرد الحق بالباطل وغير ذلك.

ثم هددهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال: إن استمروا على ما هم عليه من العزة والأنفة والكبر والشقاق؛ فسيصيبهم ما أصاب الأمم الماضية، تهديد: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]؛ (كم) هنا ليست استفهامية، بل هي خبرية؛ (كم الخبرية) تفيد الكثرة.

يعني: قد أهلكنا قروناً كثيرة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في موضع آخر: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧]. ويقول هنا: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾؛ يعني هم ليسوا بعيدين من أن يصيبهم الهلاك الذي أصاب الأمم الماضية.

فقد أهلكنا من قبلهم قروناً كثيرة، أهلكهم الله بسبب كفرهم بأنبيائهم ورسلهم؛ كفروا بالرسل وكفروا بما جاءت به الرسل، فالنتيجة أصابهم الهلاك. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾؛ هذا وعيد شديد وتهديد لهم.

ولما أصاب الأمم الماضية الهلاك، ونزل بهم العذاب، نادوا يستغيثون: ﴿فَنَادَوْا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾؛ نادوا يستغيثون بأحد يغيثهم وينقذهم من العذاب، لكن الله رد عليهم فقال: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾، يعني: ليس هناك مهرب ولا مناص ولا مفر من العذاب.

لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم؛ تركضون لماذا؟ أين تذهبون؟ ما في مناص، ما في مهرب، ما في ملاذ، ما في ملجأ، أمامكم العذاب! خلاص، أحاط بكم العذاب، أهلكناكم وأهلكنا الأمم الماضية وأحاط بكم العذاب.

لا تستطيعون الدخول تحت الأرض، ولا فوق الأرض، ولا تفرون؛ لا تصعدون إلى جبل، ولا إلى وادٍ، ولا إلى أي شيء؛ ما في مناص، وليس هناك مهرب من عذاب الله. لما نادوا ما أحد أغاثهم؛ لما استغاثوا لم يغثهم أحد.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن هؤلاء الكفار الذين في عزة وشقاق؛ عجبوا من أي شيء؟ عجبوا من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تتعجبون من أن يُرسل إليكم رسولاً تعرفونه وتعرفون أخلاقه؟! قال: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾[ص: ٤]. وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أشرفكم يا أهل مكة، وأحسنكم خلقاً، وأشرفكم نسباً، وأدباً وتعاملاً ومكانةً في المجتمع، وكانوا يسمونه (الصادق الأمين) ويحبونه؛ فلما جاءهم بالحق كفروا به.

قال: وعجبوا، وتعجبوا من مجيء منذر منهم، ولما تعجبوا أيضاً حكموا عليه؛ فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[ص: ٤].

انظر؛ لو في غير القرآن لربما قيل: (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقالوا هذا ساحر كذاب)، لكن الله لم يقل (**وقالوا**)، بل قال: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾؛ حتى يسجل عليهم صفة الكفر، وأنهم كفار جاحدون لنعمة الله، جاحدون لرسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جاحدون للوحي.

﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا﴾ -أي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾؛ اتهموه بالسحر والكذب، وهو لم يكذب عندهم ولا مرة واحدة، ولا يعرف السحر ولم يتعامل به، وإنما عُرف بخلقه وأدبه وصدقه، فجاؤوا وعكسوا الحقائق فقالوا: ساحر كذاب!

- **لماذا عجبتم مما جاء به واتهمتموه بهذا؟**

قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]؛ يقولون: أجعل الآلهة التي نعبدها من (**اللات**) و(**العزى**) و(**مناة**) وغيرها من المعبدوات والأصنام، تريد أن نعبد إلهاً واحداً ونتركها؟! يعني نترك هذه العبادات ونأتي إلى إله واحد؟! أيهما أفضل؟

أن تعبد إلهاً واحداً موصوفاً بصفات الكمال، موصوفاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه القادر الذي له الأفعال والقدرة والإحاطة بكل شيء، الذي يستحق أن يُعبد ويُسجد له ويُدعى، وتترك عبادته وتذهب لتعبد شجراً وحجراً؟! أين عقلك؟! فهم الآن ينكرون التوحيد ويقررون الشرك! والمفترض العكس؛ ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

هذا عجب؛ يتعجبون من الرسول، قالوا أولاً: عجب أن جاءهم منذر، والآن يتعجبون من دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾. كيف يريد أن نترك الآلهة ونعبد إلهاً واحداً؟! هذا لا يمكن.

ثم قال: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]؛ انطلق الملأ منهم يعني انطلقوا مسرعين ومتواصين بينهم: امشوا واصبروا على آلهتكم ولا تتنازلوا، إن هذا الذي يقوله محمد شيء يراد بنا ويريد أن يظهر علينا، ولكننا سنقف ونصبر على محاربة هذه الدعوة.

- **هذه الآية لها قصة؛ ما هي؟**

إن المشركين أو رؤوس الشرك كأبي جهل، وأمية بن خلف، وصناديد الشرك في مكة، وكبار المشركين؛ جاؤوا إلى أبي طالب عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاؤوا إليه وقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك محمداً قد جاءنا بشيء لم نعرفه، وفرق بيننا وبين أبنائنا، وبيننا وبين نسائنا، وفعل، وسبّ آلهتنا وسفّه أحلامنا؛ فلا بد أن توقفه عند حده.

فأبو طالب نادى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجلس عنده، فقال: يا ابن أخي، إن قومك قد اشتكوا منك، وإنهم يقولون إنك تقول كذا وكذا وكذا؛ فكُفّ عنهم.

☜**فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يا عمّ، والله لا أريد منهم شيئًا أبداً، ولا أريد أن أسب شيئًا لهم، ولكنني طلبت منهم شيئًا واحداً فقط يفعلونه؛ إذا فعلوه تدين لهم العرب وتستجيب لهم العجم، كلمة واحدة يقولونها».**

فقال أبو جهل: قلها وأبيك، ونقولها وعشر أمثالها!

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**».

فقاموا وانطلقوا مسرعين وبدؤوا يمشون وقالوا: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦].

ثم قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ٧].

- **ما هي (الملة الآخرة)؟ ما هو الدين الأخير؟**

آخر دين هو دين عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، بينه وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يقرب من ستمائة سنة؛ فكان هذا هو آخر الأنبياء.

فيقولون: نحن ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة، هذا ما سمعنا به لا في عيسى ولا في غيره؛ أنه يقول اعبدوا الله! إذاً ما سمعتم؛ فاسمعوا وابحثوا! فعيسى يقول: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧]؛ فيقولون: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾، يقولون: هذا كذب اختلقه محمد وافتراه.

ثم أتوا واعترضوا على رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِمَ اعترضوا عليها؟ كيف يكون محمد رسولاً من بيننا؟! ﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

يعني الله اختار محمداً وترك مَن هو أولى منه في مكة مثل (**الوليد بن المغيرة**)؛ وهو من كبار المشركين وله من الأموال والأولاد ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾ [المدثر: ١١-١٣]، فيقولون: هذا أولى، وفلان أولى! لِمَ يأتي الوحي إلى محمد؟ ﴿أَؤُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ -القرآن- ﴿مِن بَيْنِنَا﴾؟!

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٨]؛ يعني لم يتيقنوا ولم يقبلوا، بل اعترضوا عليه وشكوا في رسالة الله عَزَّ وَجَلَّ ووحيّه.

قال: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾؛ أي سيذوقون العذاب الذي سينزل بهم، و(لَمّا) هنا لنفي الشيء المتوقع القريب؛ يعني سيأتيهم العذاب قريباً.

ثم رد الله عليهم فقال: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]؛ هل هم يملكون خزائن رحمة الله حتى يختاروا مَن يشاؤون من الرسل ويعترضون على مَن يختاره الله؟! ﴿الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾.

ورحمة ربك العزيز الوهاب، هذه رحمة الله وخزائنه ملأى، ويختار ما يشاء؛ ﴿رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] سبحانه، هو (العزيز) ذو القوة والغلبة لا غالب له، و(الوهاب) يعطي مَن يشاء، ويهب لِمَن يشاء؛ فوهب الرسالة لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واختاره سيد الأولين والآخرين.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رداً على هؤلاء المشركين: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص: ١٠]. هل هم يملكون السماوات والأرض؟ لا! ليس عندهم خزائن السماوات والأرض، ولا يملكونها، وليس عندهم خزائن رحمة ربك، وليس لهم ملك السماوات.

فإذا كانت السماوات والأرض ملكاً لهم ويملكونها؛ فلماذا لا يرتقون في السماوات؟! ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾؛ و(الأسباب) هي السلالم والطرق، أي: فليصنعوا لهم سلالم ومعارج يرقون بها إلى السماء! لماذا لا يصعدون إلى السماء إن كانت السماء ملكاً لهم؟!

ثم استهزأ بهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسخر منهم فقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١]؛ هؤلاء جند متحزبون تجمعوا على محمد ليردوا رسالته، ولكنهم جند مهزومون؛ وهم من أحزاب الأمم الماضية، يعني غيرهم هُزم وهم سيهزمون؛ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢]؛ إن كنتم يا أهل مكة تكذبون برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد كذّبت قبلكم قوم نوح؛ كذبوا رسولهم نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعادٌ كذبوا هوداً، وفرعون ذو الأوتاد كذب موسى.

ومعنى ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾؛ أي: ذو القوة والشدة القوية.

قال بعض المفسرين: "الأوتاد هي الأوتاد المعروفة التي تُضرب في الأرض وتُنصب وتوضع لتُربط بها أجساد مَن يريد تعذيبهم، فكان فرعون يربطهم بها ويعذبهم".

وقيل: الأوتاد هي أعمدة شديدة قوية كانوا يعذبون بها مَن يشاؤون تعذيبه؛ فقوة فرعون بجنوده وأوتاده هزمه الله فيها وأغرقه في البحر.

ثم قال: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ [ص: ١٣]؛ وثمود وهم الذين أرسل الله إليهم صالحاً، وقوم لوط الذين أهلكهم الله وقلب عليهم ديارهم، وأصحاب الأيكة وهم قوم شعيب أهل مَدْيَن، قال: ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾.

- **كم أمة؟**

نوح، وعاد، وفرعون، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة؛ ست أمم! **(أو سبع أمم كما في اللفظ لكثرة تجمعهم وتكالبهم على الحق)**، أهلكهم الله جميعاً.

قال: ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾؛ كلهم تحزبوا وتجمعوا في رد الحق بالباطل.

قال: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤]؛ فنزلت بهم عقوباتهم؛ فأُغرق قوم نوح، وأُهلكت عاد بالريح، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالحجارة، وأصحاب الأيكة بالرجفة والصيحة وغيرها.

ثم قال: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥]؛ وما ينتظر هؤلاء - أهل مكة المشركون- إلا صيحة واحدة تأخذهم، ينتظرون صيحة واحدة؛ عذاباً ينزل بهم، أو يوم القيامة يأتيهم.

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾؛ أي هذه الصيحة إذا جاءت لا يمكن أن تتأخر، ولا يمكن أن تُردّ أو تُؤخّر.

وقال بعضهم: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ وقُرئت بالضم **(فُوَاقٍ)**؛ والفواق هو الزمن ما بين حلبتي الناقة، يعني إذا حُلبَت الناقة ثم تُرِكَت ليمتلئ ضرعها مرة ثانية ثم حُلبَت؛ فالمدة بين الحلبتين تسمى فواقاً، فيقول: هذه الصيحة التي ستأتيهم مدتها قصيرة جداً كمدة الفواق -والفواق يعني لحظة أو دقائق معدودة- ثم تصيبهم.

ولكنهم مع ذلك لم يرعووا، ولم يصحوا، ولم يرجعوا، ولم تعد لهم عقولهم، بل استمروا في ضلالهم؛ اسمع ماذا يقولون!

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]؛ يقولون: عجّل لنا نصيبنا في هذه الدنيا، ما دام أنه قبل يوم الحساب، ما دام لنا حظ في هذه الدنيا؛ فأعطنا نصيبنا وقسطنا قبل يوم الحساب! وقال بعضهم: **(قطّنا)** يعني كتابنا الذي كتبت لنا يا الله، أعطنا كتابنا وحظنا ننظر فيه ونتأمل فيه، نعرف ما لنا وما علينا! يستهزئون ويسخرون من ذلك.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال لنبيه: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]؛ اصبر على استهزائهم وسخريتهم وإعراضهم، وتذكر سنن الأنبياء السابقين، وماذا جرى لهم، وكيف صبروا وتحملوا؛ فاصبر كما صبر أولو العزم.

ثم الآيات تنتقل إلى تسلية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذكر قصص من الأنبياء السابقين؛ كقصة داوود وسليمان وغيرهما، يأتي الحديث عنها إن شاء الله في اللقاء القادم.

نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته؛ يجعلنا من أهل القرآن الذين يقرؤون القرآن، ويتدبرونه ويفهمونه، ويعرفون رسالات الله في هذه الحياة.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(ص ١٧ - ٢٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للثالث من الشهر الخامس من عام ستة وأربعين من الهجرة، درسنا في تفسير القرآن العظيم، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا وينفعنا بما نقول وبما نسمع.

حديثنا اليوم عن سورة صاد وما أورد الله فيها من قصص؛ قصص أنبيائه عليهم الصلاة والسلام. إن سورة الصافات التي قبلها ذكر الله فيها تسعة أنبياء، ثم زاد هنا أنبياء لم يذكر الكثير منهم، وهم تسعة أنبياء هنا أيضاً، ذكر منهم: داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وابنه سليمان، وأيوب، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ثم إسماعيل، واليسع، وذا الكفل، تلاحظ أنهم تسعة؛ في سورة صاد تسعة، وفي سورة الصافات تسعة، وكلٌّ يختلف.

ونلاحظ أن هؤلاء التسعة الذين ذُكروا في سورة صاد انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

- القسم الأول: أنبياء أعطاهم الله النبوة والملك؛ داوود ملك ونبي، وسليمان، وأيوب.
- القسم الثاني: ثلاثة زوى الله عنهم الدنيا، وجعلهم يتعلقون بالآخرة؛ حب الآخرة دائماً هي حياتهم وتفكيرهم واشتياقهم، وهم: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾[ص: ٤٦]؛ أي: دار الآخرة.
- القسم الثالث: ثلاثة أنبياء أثنى الله عليهم بكونهم أخياراً وصالحين، وهم: إسماعيل، واليسع، وذا الكفل. ولم يفصل فيهم وإنما ذكرهم بالإجمال، وذكر من قبلهم ثلاثة بالإجمال، وفصل في الأولين؛ داوود، وسليمان، وأيوب.

- **قد يسأل سائل يقول: لماذا الثلاثة الأول فصّل فيهم؟**

الجواب: إن السورة مبنية على موقف المشركين من دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنهم كما أخبر في عزة وشقاق وأنفة حمية وعدم تنازل وعدم خضوع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتواضع لله، وإنما هم يعني فيهم الكبر والتكبر، وبيّن الله أن ما سبب تكبرهم هو حبهم للدنيا واستكبارهم حباً للدنيا يعني عدم التنازل عما هم عليه.

فذكر الله قصة هؤلاء الأنبياء الذين أعطاهم الله النبوة والعبادة والطاعة ومع ذلك -وأعطاهم أيضاً، أعطاهم النبوة والطاعة وأعطاهم أيضاً الملك وأعطاهم الدنيا- ومع ذلك لم تؤثر الدنيا فيهم.

لا نطيل في هذا، نأخذ الآيات، والآيات أيضاً تتحدث وتخبرنا بهذا الشيء. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بيّن موقف هؤلاء المشركين وعنادهم وكفرهم واستكبارهم، وأنهم في عزة وشقاق وعدم تقبل الحق، وأنهم يؤذون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويردون دعوته.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطباً نبيه: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]؛ اصبر على ما يقولون من الاستهزاء والسخرية والتكبر وعدم عدم يعني تقبل الحق والإذعان له والتواضع له، اصبر يا محمد على ما يقولون؛ على أقوالهم هذه التي آذوك فيها.

فاصبر على ما يقولون، يعني اصبر كما صبر الأنبياء قبلك من الرسل؛ فإن قولهم هذا واستهزاءهم وسخريتهم لا تضر الحق شيئاً، ولا تمنع الدعوة، وهم لن يضروك أبداً، وإنما هم يضرون أنفسهم، فلا تأبه بهم ولا تلتفت إليهم ولكن تحلَّ بالصبر؛ ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧].

وسبحانه وتعالى ساق له قصصاً من الأنبياء فقال: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧]، وليكن صبرك على طاعة الله كما قال سبحانه في آيات أخرى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠]؛ فالصبر مطلوب ومما يعين على الصبر الذي يعين على الصبر هو العبادة والطاعة.

ولذلك ساق الله لنبيه قصة داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]؛ يعني اصبر على قومك واستعن بالله على هذا الصبر بما يذكره الله لك من قصص الأولين بالعبادة والطاعة وتذكر حال العابدين، ومن أشهرهم داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ من أعظم العابدين وأشهرهم نبي الله داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

"عبدنا"؛ كلمة ﴿عَبْدَنَا﴾ أنه كثير العبادة والخضوع لله، وكلمة ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾ أي: القوة؛ القوة في العبادة في بدنه وفي قلبه، كثير الصلاة، كثير القيام، قلبه متعلق بربه، قوة القلب.

ثم قال: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾؛ كثير الرجوع إلى الله في جميع الأمور، يعني أواب كثير الرجوع إلى ربه، منيب دائماً إلى ربه، يحب ربه ويخافه ويرجوه، يتضرع ويستغفر كثيراً.

فشوف هذه القصة ووصف داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه أواب وكثير الرجوع إلى الله كأنها رسالة لأهل مكة الذين هم في عزة وفي شقاق وتكبر، وهذا نبي أعطاه الله الملك ومع ذلك أواب وكثير الرجوع إلى ربه والاستغفار والتضرع والانكسار بين يدي ربه؛ لا كبر ولا عزة ولا شقاق.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا من كثرة إنابته لربه وكثرة عبادته أنه كثير الذكر والتسبيح وكثير تلاوة (الزبور) وسخر الله له الجبال تسبح معه، وكلما سبح سبحت الجبال تردد معه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾[سبأ: ١٠]؛ رددي معه.

قال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾[ص: ١٨]؛ يعني أول النهار، بالعشي يعني آخره العصر، والإشراق أول النهار الصباح، فكانت تسبح معه هذه الجبال وتردد معه تسبيحها بلا شك أنه تسبيح حقيقي ولا نقول إنه لسان الحال بل هو لسان المقال، فهي تسبح تسبيحاً حقيقياً.

بدليل أن حصى سبحت بيد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسمع الصحابة، وأن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما تركه بكى بكاء الطفل، فيعني والله سبحانه أخبر قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء: ٤٤]؛ أنتم ما تفهمونه وإلا هي تسبح لكن لا تفقهون.

والطير تسبح، قال هنا بالعشي والإشراق، قال: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص: ١٩]؛ والطير محشورة يعني الطير محشورة أي: مجتمعة عنده، تجتمع إذا قرأ (الزبور) اجتمعت وإذا سبح سبحت، ولذلك في آية سورة سبأ قال: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾[سبأ: ١٠]؛ الطير تؤب معه تردد معه.

قال هنا: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾[ص: ١٩]؛ كلٌّ -أي من الجبال والطيور- له أواب، يعني تردد معه وترجع معه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص: ٢٠]؛ شددنا ملكه يعني قويناه بما أعطيناه من أسباب الملك من العدد والعُدَد، فعددهم كثير وجنود كثيرة وعُدَد قوية، فقوّى الله ملكه فجعل له ملكاً عظيماً. قال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص: ٢٠].

- **ثم قال بعدها ماذا؟**

قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]؛ لما ذكر الملك ذكر العلم، فقال: آتيناه الحكمة أي: النبوة والعلم، العلم والنبوة، ثم قال: وفصل الخطاب، أي: فصل الخطاب في الخصومات والمنازعات، فكان ملكاً عالماً نبياً يوحى إليه وقاضياً يقضي بين الناس، فجمع الله له هذه الأمور كلها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر أنه أعطاه الله فصل الخطاب وحسن القضاء ساق له قصة عجيبة في كيفية القضاء فقال: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]؛ الخطاب لرسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا محمد هل سمعت؟ هل سمعت يا محمد وأتاك نبأ الخصم؟

وهذا استفهام للتشويق والتعجيب؛ هل سمعت يا محمد في نبأ الخصم؛ يعني خبر الذين تخاصموا، ولما تخاصموا جاؤوا إلى داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو قد انفرد بمحرابه يتعبد ربه، لأنه كان يحب العبادة ويحب الصلاة والذكر والدعاء، وينفرد بنفسه دائماً مع ربه، يخلو دائماً، يعتكف في محرابه.

فلما جاؤوا وإذا هو قد أغلق بابه ويتعبد ربه، فحاولوا الدخول ما استطاعوا، فلم يستطيعوا إلا أن يتسوروا المحراب؛ يعني يقفز يتسوروا جدار المحراب ويدخلوا عليه من الجدار، تسوروا المحراب، والمحراب هو مكان العبادة الذي كان يتعبد به داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

كما كان يتعبد فيه زكريا وكما كانت تجلس فيه مريم لما قال الله سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران: ٣٧]؛ فالمحراب معروف هو المكان المرتفع يعني الذي يكون في المسجد فيخلو به من يخلو به.

قال: تسوروا المحراب؛ أي: قفزوا إليه، فدخلوا على داوود ففزع منهم، خاف منهم، فلماذا خاف؟ لأنهم جاؤوا مع أمر لم يتوقع أنهم يدخلوا عليه، قالوا: لا تخف؛ فآمنوه وقالوا: لا تخف، نحن خصمان نحن بيننا خصومة بغى بعضنا على بعض.

وهذا من حسن الأدب؛ لم يقل أحدهما هذا ظالم وظلمني، لا، قال: بعضنا بغى على بعض حتى تفصل بيننا، تعرف الظالم من المظلوم، ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢].

شوف كيف الأدب أيضاً أنهم وجهوه وأرشدوه مع أن داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ يحكم بالحق ولا يشطط ومع ذلك ذكروه بهذه الأمور فقالوا: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ [ص: ٢٢]؛ لا تمل عن الحق وتزيغ إلى الباطل والظلم، فاحكم بالحق ﴿وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢]؛ دلّنا على الطريق السليم الذي ننتفع به والذي يكون مصلحة لنا.

ثم بدأوا يفصلون في هذه القضية التي رفعوها إلى داوود فقال أحدهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي﴾ [ص: ٢٣]؛ شوف من حسن الأدب أيضاً لم يقل هذا وسكت، سماه أخاً مع أنهم جاؤوا متنازعين ومع ذلك متخاصمين ومع ذلك سمى صاحبه أخاً فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣].

المتحدث هذا هو المدعي، المدعي الذي يقول إنني ظُلمت فيقول: هذا صاحبي، والأخوة هنا قد تكون أخوة الإيمان، قد تكون أخوة النسب، قد تكون أنه صاحب له، ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [ص: ٢٣] والنعجة هنا بلا شك أنها كما هو معلوم عند الجميع نعج الضأن.

فقال: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ يعني اجعلها في كفالتي وأنا أقوم بها وأجعلها مع هذه النعاج، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ قواني؛ عزة يعني قوي وغلبه، غلبني في خطابه وفي كلامه وفي أسلوبه حتى سلمت له هذه النعجة، والآن يعني بغى علي وأخذها مني وأنا أريد نعجتي.

فالمدعى عليه الذي عنده تسع وتسعون نعجة وأخذ هذه النعجة وغلب في الخطاب لم يتكلم وسكت، فبما أنه سكت فسكوته دليل على أن ما ذكره خصمه صحيح، فنظر إليه داوود فلم يجب شيئاً فقال حكم داوود فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ [ص: ٢٤].

يقول هذا ظلم كيف يأخذ واحدة وعنده تسع وتسعون، ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ [ص: ٢٤]، ثم بيّن داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ أن هذا قد يقع في كثير فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ

﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]؛ يعني الشركاء الذين يشتركون، كثيراً من الخلطاء، يبغي يظلم بعضهم بعضاً.

﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٤] قال: لا يبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا؛ إلا القلة، وهم من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، ولكنهم قلة وقليل ما هم؛ القليل ممن يتصف بهذا الوصف.

ثم ذهب الخصمان وعرفوا حكم داوود فيه وأن هذا قد ظلمه وعليه أن يعيد النعجة إليه فخرجوا من عنده وذهبوا، ثم إن داوود بدأ يفكر في هذا الأمر الذي حصل.

- **كيف يتسورون المحراب ويأتون إليه بهذه الطريقة؟**

﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص: ٢٤]؛ علم وتيقن أن الله فتنه بهذه القصة، لأنه أغلق بابه عن مصالح الناس ولم يذكر شيئاً لهم، يعني مفترض أنه يفتح الباب ويقضي بين الناس يعني ويقوم بما يحتاج إليه الناس من الحكم والقضاء، لأن الله شرفه بالنبوة والملك والقضاء بين الناس.

فإذا أغلق على نفسه وتركهم وهم بحاجة فعرف أن مصلحة الناس أهم من مصلحته لنفسه، وأن النفع المتعدي إلى الناس أحسن وأفضل عند الله من النفع اللازم لنفسه.

يعني لابد نفهم أن نقارن بين اثنين: شخص يبذل نفسه للناس ويقوم بمصالحهم وخدمتهم والقضاء بينهم والإصلاح بينهم، وشخص لا يعمل هذا العمل وإنما يتعبد الله في محرابه؛ فأيهما أفضل؟

الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، والذي يعني ينفع الناس ويكون نفعه متعدياً والناس خاصة إذا كان الناس بحاجة إليه، هذا أفضل من أن يجلس يتعبد ربه في مسجد أو في زاوية أو في بيت ويترك الناس من يوجههم، والله قد شرف داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ بالنبوة والحكم والقضاء والملك فهو فعمله للناس أولى.

فلما عرف أنه قد أغلق بابه عن الناس عرف أن هذا الأمر فيه خطأ كبير، وأن الله امتحنه بهذا الأمر بهذا الخصم، فما كان من داوود إلا أنه استغفر ربه وخر راكعاً وأناب؛ استغفر الله من عمله هذا ثم قام وخر راكعاً يعني ساجداً لله توبة، ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

والركوع هنا المراد به السجود لأن الخرور لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، والركوع والسجود ينوب بعضها عن بعض، قال: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] أي: رجع إلى الله وتاب، وعلم أنه قد أخطأ في كونه ينصرف عن الناس.

ولذلك شوف بعدها ماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٥]؛ خطأه وزلله أنه زوى نفسه زوى نفسه ولم يختلط بالناس، فغفرنا له ذلك، وهو اجتهاد منه.

قال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: ٢٥]؛ أي داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ زلفى أي منزلة عظيمة في الدنيا، ثم قال: ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥]؛ أي في الآخرة مرجعه مرجع حسن.

لكن لو قرأت في بعض كتب التفسير أنهم ذكروا قصة هي منقولة عن بني إسرائيل وهي ما تسمى بـ(الإسرائيليات)، وقد نقلها بعضهم في تفسيره وهي لا تليق ولا تصح، ولا تليق بأي رجل من الناس فضلاً أن يكون نبياً من أنبياء الله معصوماً من أن يقع في مثل هذه الأمور التي لا تليق بأي شخص من الناس.

- **ما هي القصة التي أوردها ممن نقلها عن بني إسرائيل؟**

يقال -وانتبهوا يا إخوان أن سوق هذه القصة حتى تنتبهوا أنها خطأ وأنها لا تليق- ما هي القصة؟ قالوا أن داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يتعبد الله في محرابه فجاء طير ودخل من النافذة ثم جلس بين يدي داوود.

فنظر إليه فإذا هو طير جميل وحسن ومنظره جميل فقام ليمسك به فطار الطير إلى نافذة عنده فقام داوود ليمسك به في النافذة فطار الطير، فلما طار نظر داوود مع النافذة فإذا امرأة تغتسل وقد تعرت -يعني كشفت عن جسدها وقد يعني وعليها شعر طويل قد وصل إلى أطراف قدميها وكانت من أجمل النساء- فانفتن بها داوود فسأل عنها فقال: من هي هذه؟

فقالوا: هي زوجة فلان ابن فلان، فذكروا أنه من قواده الذين يجاهدون فقال لقائد الجيش: اجعله في مقدمة الجيش حتى يقتل، فأخذه وجعله في مقدمة الجيش فقتل، فلما قتل أخذ امرأته وتزوجها.

وقالوا أنه لما فعل هذا أرسل الله إليه ملكين وهؤلاء الملائكة تسوروا المحراب ودخلوا عليه وقال أحدهم: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة؛ يعني تسع وتسعون نعجة يعني امرأة وداوود كان عنده تسع وتسعون امرأة.

قال: ولي أنا عندي نعجة هذا الرجل الذي هو جار عنده امرأة فقال: اكفلنيها وعزني في الخطاب، أخذها منه وأضافها إلى التسع والتسعين فأصبحت عنده مئة أي مئة امرأة، ثم لما قال داوود للخصم: لقد ظلمك بسؤول نعجتك إلى نعاجه؛ كيف يأخذ نعجتك وعنده تسع وتسعون؟

فقالوا: فعرف هذا فذهبوا وتركوه، فعرف داوود أن هذا فتنة من الله أنه كيف يقدم على أخذ امرأة لا تحل له بهذه الطريقة وأن يقتل زوجها ويتزوجها!

هل هذا يليق بأي رجل من الناس فضلاً أن يكون داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو النبي وعنده تسع وتسعون امرأة ما الذي يدعوه يأخذ هذه المرأة؟! فهذه من (الإسرائيليات) التي تسربت إلى كتب التفسير وينبغي الحذر منها.

وقد حذر منها بعض المؤلفين في التفسير حذروا منها وقالوا أنها لا تليق ولا يجوز ذكرها وهي لا تصح أبداً أن يقال أن داوود فعل هذا الفعل.

فما ذكرت لكم قبل ذلك أن الخصمين حقيقةً رجال، وأن النعاج هي من بهيمة الأنعام، وأن أحدهم أخذ نعجةً وضمها إلى نعاجه ثم جحدها ثم تخاصموا، وكان سبب تسور المحراب لداوود هو أنه كان قد خلى بنفسه للتعبد، هذا الذي توصلنا إليه في ذكر هذه القصة والعلم عند الله، يعني هذا قد يكون هو أولى ما يقال في هذا حفاظاً على مقام الأنبياء ومكانتهم عند الله.

ثم مما يؤكد على هذه القصة حتى نفهم أن هذه القصة التي جرت لداوود عَلَيْهِ السَّلَامُ هي جرت في هذه الحكومة وهذه القضية التي رفعت إليه وجاءه الخصم وتسور المحراب.

ولذلك اسمع ما قال بعدها: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[ص: ٢٦]؛ جاء خطاب من الله: يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض تخلف يعني تخلف الله عَزَّ وَجَلَّ في حكمه تقيم وتقيم حكم الله مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠].

جعلناك خليفة تقيم شرع الله في أرضه ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦] والعدل ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦]؛ لا تتبع الهوى في حكمك وتتبع الشهوات في حكمك ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]؛ هذا إذا اتبعت الهوى أضلك الهوى عن سبيل الله وعن شرع الله.

ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]؛ لهم عذاب شديد لأنهم اتبعوا الأهواء في حكم الله ولم يحكموا بحكم الله فتوعدهم الله بالعذاب الشديد، لأنهم لو كانوا يعرفون حكم الله لحكموا به وقضوا به وعرفوا أنهم سيحاسبون يوم القيامة.

فلذلك قال: ﴿بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]؛ أنهم لم يهتموا ويعتنوا بأنهم سيحاسبون يوم القيامة وسيجازون، فلذلك لما غفلوا عن يوم الحساب ونسوه حكموا بما شاؤوا حكموا ما شاؤوا، هذه ما ذكرت لكم هي القصة التي تحرينا فيها السلامة وتحرينا فيها الصواب والعلم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله بعد ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]؛ هذه الآيات التي تأتينا الآن والخبر بأن الله ما خلق السماوات باطلاً تأكيد على إقامة القضاء والحكم بما أنزل الله، وأيضاً أن الخلق لم يُخلقوا عبثاً وإنما خُلقوا للعبادة، وأنه وأن كلاً سيجزى بعمله.

قال: ما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً؛ ما خلق الله السماوات السبع والأراضين بالباطل، وإنما خلقها بالحق؛ لماذا؟ ما هو الحق؟

قال: ليشرع الله وليجزي الناس بأعمالهم؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ما خلقها الله بالباطل، وإنما خلقها ليرسل الرسل وينزل الكتب ويكلف الناس بالأعمال، فمن أطاع دخل الجنة ومن عصى دخل النار، وليقيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عدله في الأرض وعدله أيضاً في يوم القيامة، فمن ظُلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينتقم منه ومن ظُلم يأخذ الله له حقه، هذا المقصود.

شوف قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]؛ ذلك ظن الذين كفروا، هذا الذي يظنه الكفار ويعتقدونه، ولذلك تواعدهم الله قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

ثم بيّن لك الحكمة من خلق السماوات والأرض قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

- **هل تريد أن نساوي بين أهل الخير والصلاح والعمل الصالح مع المفسدين في الأرض؟**

ما يمكن، في حكم الله وعدله لا يتساوى هذا مع هذا، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]؛ الذي يتقي الله ويخاف كالفاجر الذي لا يبالي؟ هذا لا يمكن.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوقفنا وقفة مهمة جداً وهي مع كتاب الله؛ القرآن، جاءت هذه الآية بين قصص الأمم الماضية، بين داوود وسليمان، تبين لك أهمية التدبر والتفكر في القرآن الكريم فقال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]؛ كتاب أنزلناه هذا ثناء من الله على القرآن الكريم، يقول: كتاب أنزلناه أي: أنزله الله إليك يا محمد مبارك، كثير البركة.

لكن لابد نفهم كيف نحصل على هذه البركة، كيف نحصل على بركة القرآن؟ مبارك بلا شك، قال: إذا أردت أن تحصل على بركة القرآن فعليك بالتدبر.

- **ولذلك قال بعدها ماذا؟**

قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]؛ ليدبروا آياته ليتفكروا فيها ويتأملوها ويستخرجوا ما فيها من كنوز، لا أن يقرأوا قراءة سريعة لا يستفيدون منها، واجب عليك أن تقف وتأمل وتتفكر حتى تتضح لك الآيات حتى يكون القرآن بركة عليك، ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]؛ يتفكر في هذه الآيات ويتدبروها.

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

فيه مصلحتان:

⬅المصلحة الأولى: أن الحكمة أن القرآن مبارك وحصول البركة بطريقين: تدبر آياته والتفكر فيها والتأمل فيها.

⬅المصلحة الثاني: تذكر الألباب ما فيها من الدلالات؛ أصحاب العقول الصحيحة السليمة يتذكرون ويتدبرون ويتفكرون ويستخرجون ما في هذا الكتاب من كنوز يعني نحتاج إلى استخراجها.

يأتينا بعد ذلك قصة سليمان ابن داوود ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٠]، هذا يأتي الحديث عنه إن شاء الله في اللقاء القادم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(ص ٣٠ - ٤٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، نسأل الله أن يجعله لقاءً مباركاً نافعاً، ونسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العلم النافع، والعمل الصالح، والرزق الطيب.

الكرام، درسنا في تفسير القرآن العظيم، وهذا اليوم الثلاثاء الموافق السابع عشر من الشهر الخامس من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة (١٤٤٦ هـ)؛ درسنا في التفسير وفي (سورة صاد)، وقف بنا الكلام عند قصة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]. لما ذكر جل جلاله قصة داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأثنى عليه الثناء الطيب؛ ذكر بعده ما أنعم الله به على داوود، حيث وهب له هذا العبد الصالح، النبي الملك، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ﴾ [ص: ٣٠]، يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطي ويجزل العطاء ويشكر، فأعطى داوود هذه النعمة العظيمة والذرية الصالحة، قال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٠].

- **قد يسأل سائل ويقول: يعني داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما ذكر عنه من الزوجات ونحو ذلك، هل له سليمان فقط، أو له ذرية؟**

الجواب: قد يكون له ذرية، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أشاد بذكر سليمان؛ لأن سليمان أعطاه الله النبوة والملك.

فورث سليمان داوود، ورثه، قد يكون له، والميراث والمراد بالإرث ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: ١٦]؛ الإرث هنا إرث العلم وليس إرث المال؛ لأن معاشر الأنبياء لا يورثون، ما تركوه صدقة، وإنما ورث العلم.

فالمراد به هنا: المراد بأن داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطاه الله هذا الابن الصالح، والابن النبي الرسول الذي نبأه الله وأرسله، وآتاه الملك وأثنى عليه، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ۚ نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

الضمير يعود إلى (سليمان) ؛ لأن داوود قد سبق الذكر والثناء عليه، فقال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠]، نعم العبد سليمان، فأثنى الله عليه ومدحه، قال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠]. ووصف العبودية -مثل ما ذكرنا أيها الإخوة- صفة تشريف وتعظيم؛ لما تكون أنت عبداً لله، ويكون غيرك عبداً للشيطان، أو عبداً للحجر أو الشجر.

فأنت تشرف أن تكون عبداً لله، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بوصف العبودية في أشرف المقامات: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]. شرف الدعوة، شرف نزول القرآن، وشرف الإسراء. وهنا مدح الله سليمان كونه عبداً لله، قال: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠]، ومدحه بأنه أواب، والأوّاب كثير الرجوع إلى الله.

كلما غفل، وكلما شعر بالتقصير، وكلما اشتغل بشيء عن ذكر الله، أو ألهاه شيء عن ذكر الله؛ عاد ورجع إلى الله، وأكثر من ذكره والتوبة والاستغفار، فكان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ كثير الأوب، كثير الرجوع إلى الله.

قال: وهذا يدل على أنهم أصفياء، وأولياء، ومصطفون، واختارهم الله، ومع ذلك يشعرون بأنهم مقصرون في حق الله، وأنهم يرجعون كثيراً إلى الله، ويشعرون بالتقصير في حق الله.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قصتين هنا لسليمان:

- القصة الأولى: في (الصافنات الجياد).
- القصة الثانية: في الذي ألقي على كرسيه.

فالأولى قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ [ص: ٣١]، يعني واذكر حينما عرض عليه بالعشي، والمراد بالعشي هو ما بعد زوال الشمس، ما بعد زوال الشمس، يعني بعد صلاة الظهر إلى غروب

الشمس، يعني النصف الثاني من النهار، هذا يسمى العشي، حتى قال بعضهم: حتى يدخل فيه المساء، ويدخل فيه جزء من الليل.

قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ﴾ [ص: ٣١]؛ أي وقت منتصف النهار أو ما بعد النهار، ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١].

(الصافنات الجياد)؛ المراد بها الخيل الطيبة، ومعنى **(الصافنات)**: الصافنة أو الصفون، أو صفة **(الصفون)** هي أن تقف الفرس أو الخيل على ثلاثة قوائم وترفع قائمة، ترفع إحدى قوائمها، قد تكون التي أمام، ترفعها وتجعلها تمس الأرض مساً خفيفاً، فإذا رأيت هذه الخيل تقف على ثلاثة قوائم - ثلاثة أرجل- وترفع الرجل إحدى ترفع الرابعة عن الأرض، فهذه تعتبر من الخيول الأصيلة العربية.

قال بعضهم: **(الصافنات)**؛ الصافنة هي التي ترفع يديها وتقف على رجليها، تجد بعض الخيول في بعض المقاطع ترفع يديها وتقف كأنها واقفة على رجليها فقط، فهذه تسمى الصافنة.

و**(الصفون)** هو الوقوف على ثلاثة قوائم، وهي صفة مدح وصفة طيبة في الخيول. قال: ﴿الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ﴾ [ص: ٣١]، و**(الجياد)** هي السريعة، سريعة الجري، سريعة جيل، فوصف الله هذه الخيول بوصفين: إن وقفت فهي صافنة، وإن انطلقت فهي جياد؛ فهي سريعة.

يقول: عرضت عليه هذه الخيول الطيبة فانشغل بها، انشغل بحسنها وجمالها وصفونها وجيادها، فلما انشغل بها والنظر فيها وهيعرض عليه هذه الخيول؛ أشغلته عن -كما ذكر كثير من المفسرين- أشغلته عن صلاة العصر، لأنه كان يصلي العصر، فلما -فهو ينظر فيها ويتأمل فيها وهي معروضة أمامه، خيول كثيرة، عادات كثيرة.

فلما كان ينظر إليها؛ إذ قد غربت الشمس، وذهب وقت صلاة العصر. فقال هو، فقال: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]، و**(الخير)** هنا المراد بالخير المال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، هذا المال.

ولكن المقصود به هنا الخيل؛ لأن الخيل من المال، من الأموال الطيبة، فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢]، أي حب الخيل.

☜ **وكما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال:** «الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

فقال: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢]؛ يعني عن الصلاة، ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ [ص: ٣٢]؛ أي الشمس ﴿بِالْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]؛ يعني ذهب قرصها واحتجب السحاب ولا وغابت.

ثم لما فاتته صلاة العصر حزن حزناً شديداً، وعرف أن هذه الخيل ألهته وأشغلته عن الصلاة، فماذا صنع؟

قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ [ص: ٣٣]؛ أي ردوا هذه الخيل التي أشغلتنا عن الصلاة، ﴿فَطَفِقَ﴾ [ص: ٣٣]؛ أي شرع فيها ماذا؟ ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣].

بدا يقطع ينحرها، ينحرها ليتصدق بها، جعلها صدقة، مع أنها مع أنها من المال الطيب الغالي والخير، ومع ذلك قدمه صدقة لله عوضاً عن هذه الصلاة التي فاتته، يريد أن يكفر عن صلاته التي فاتته بذبح هذه الخيول، فبدأ يذبح ويأمر جنوده وأعوانه بالذبح، يضرب بالسوق، والسوق جمع ساق، ساق يعني الأرجل، والأعناق، يذبحها ويتصدق بلحومها على الفقراء، وقال: هذه التي أشغلتني هي صدقة في سبيل الله لهؤلاء الفقراء، فكلها تصدق بها.

فلما تصدق بها، قال الله، قال: فلما تصدق بها عوضه الله خيراً، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ [ص: ٣٦]؛ كان في الأول يركب الخيول وينطلق بها، والآن بدأت الريح تحمله، فعوضه الخير.

من ترك من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه؛ فالإنسان إذا ترك شيئاً لوجه الله، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعوضه خير منه، يعوضه خيراً منه، فلذلك سخر الله له الريح تجري بأمره حيث يريد.

هنا قال: هذه هي قصة الخيول التي عرضت على سليمان وأشغلته عن الصلاة.

قال بعدها: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]، كما فتن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أباه داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص: ٢٤].

ودل ذلك على أن الأنبياء والصالحين قد يفتنون ويمتحنون؛ أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الذين يلونهم، فأحياناً يبتلي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رفعة لدرجاتهم ولا يعني أن هذا الابتلاء مقابل أنهم وقعوا في سيئات، لا هم معصومون، معصومون، لكن امتحان وليبين لك أن حتى الأنبياء مع شرفهم ومقامهم إلا أنه يصيبهم ما يصيبهم.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ [ص: ٣٤]؛ والله لقد فتنا سليمان فتنة عظيمة، ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]. شوف، حتى مع أن الله فتنه وامتحنه بهذه المحنة؛ إلا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]؛ يعني رجع وعاد إلى ربه واستغفر.

كما استغفر أبوه داوود فـ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ [ص: ٢٤]، هذا أيضاً أناب إلى ربه ورجع وتاب، وليس معنى أنه وقع في سيئة حتى يتوب، أو وقع في معصية؛ لا، الأنبياء يتوبون كثيراً.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول لنبيه محمد: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]. فليس معناه أنه يقع في الذنب، لكن قد يقع في اجتهاد ويخالف في الاجتهاد الصواب، وينبه ويذكر، هذا ممكن.

قال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [ص: ٣٥]، رب اغفر لي؛ يعني تقصيري وغفلتي، قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [ص: ٣٥] أو خطئي واجتهادي، ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]. يقول: أعطني ملكاً عظيماً لا يكون لأحد من بعدي، عظيماً.

وقوله: لا يكون لأحد من بعدي، هل معنى هذا أنه لا يريده لأحد غيره إلا هو، أو معناته أنه لا قد أعطي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما هو أعظم؟ فنقول هو قال هذا الكلام وقال هذا الدعاء: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]؛ أي لا يريد أن يعطى غيره حتى لا ينشغل، لأن سليمان أشغله هذا الملك وهو يقول: أعطني ملكاً لعلي أقدر عليه، وإذا أعطيته غيري من بعدي قد ينشغل به، هذا توجيه بعض أهل العلم.

قال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]، وهذا التوسل بأسماء الله الحسنى؛ ينبغي إذا أردت أن تدعو الله تقول: يا رب، يا غفور اغفر لي، يا رحيم ارحمني، يا رزاق رزقني، وهنا سليمان يقول: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص: ٣٥]، ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

- **هذه التي ذكرت لكم، ما هي الفتنة التي وقع فيها وألقى الله على كرسيه جسداً ثم أناب؟ ما هي؟**

للمفسرين كلام طويل حتى دخلت (الإسرائيليات) الروايات التي لا تصح في هذا المقام، وأنا أذكر لك الآن أذكر لك الرواية أو القصة التي قد تكون هي الصواب بإذن الله، وهي التي أسلم لمقام الأنبياء.

☜ **وذلك كما جاء في البخاري في صحيحه أن سليمان قال:** «وَاللهِ لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى نِسَائِي، وَتَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مَوْلُوداً يَكُونُ مُجَاهِداً فِي سَبِيلِ اللهِ». فأقسم بالله ولم يستثنِ، ولم يقل: إن شاء الله، فطاف على نسائه ولم تحمل واحدة منهن إلا امرأة حملت بشق إنسان، فلما وضعته أخذته وألقته على كرسيه، فلما نظر إليه عرف أنه فعل هذا الفعل، ولم يقل: إن شاء الله، ولم يستثنِ.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاءه المشركون وقالوا: أخبرنا عن أصحاب الكهف الفتية، وأخبرنا عن ذي القرنين؛ قال: «أُخْبِرُكُمْ غَداً» ولم يقل: إن شاء الله، فماذا جرى؟ انقطع الوحي خمس عشرة ليلة حتى أنزل الله سورة الكهف فيها: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]. فأمورك هذه الغيبية بيد الله، ليست بيدك، فأنت من الأدب أنك إذا قلت: أفعل شيئاً، أن تقول: إن شاء الله.

وهذه حقيقة أن نقف عندها، أنا ألاحظ كثيراً حتى الجميع، كلنا نقع في هذا الشيء، كلنا واقعون في هذا الشيء؛ لما تتصل على شخص تقول: أنا جاي في الطريق، قول: إن شاء الله، أو تقول: سأذهب، قل: إن شاء الله، أو تقول: سأفعل كذا، كثير من الناس يستعمل هذه العبارة: سأرسل لك هذه الرسالة، سأفعل كذا، سأتصل بك، قل: إن شاء الله.

كل الأمور الغيبية والمستقبلية هذه بيد الله، فلا ينبغي للإنسان أن يغفل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]. فعلق هذه الأمور الغيبية بمشيئة الله حتى تتحقق لك، أما أن تغفل تقول: سأفعل، فهذا قد لا يتحقق لك، فيغفل كثير من الناس عن هذا الأمر، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يوقظنا من هذه الغفلة.

- **ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ماذا قال؟**

قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤]، فعليك بالذكر، وقل: عسى أن يهديني ربي لأقرب من هذا رشداً، ادعُ الله أن يزيدك رشداً وهداية.

- **ما هي القصة؟**

مثل ما ذكرنا لكم: سليمان قال: لأطوفن على نسائي وتلد كل امرأة مجاهد يجاهد في سبيل الله، ولم يولد له إلا شق إنسان، وضع على كرسيه.

هناك بعض الروايات التي لا تليق بمقام الأنبياء، يعني مثل ما ذكر بعضهم يقول: إن سليمان كان عنده جارية فقال لها: خذي خاتمي سأدخل الخلاء وإذا خرجتِ أعطيني الخاتم، فجعل الخاتم بيدها ودخل الخلاء.

فلما دخل الخلاء جاء الشيطان متمثلاً بصورة سليمان ووقف عند الجارية وقال: أعطيني الخاتم، فأعطته الخاتم، فلما أعطته الخاتم أصبح ملك سليمان بيد هذا الشيطان، فقام هذا الشيطان وجلس على كرسيه وبدأ يأمر وينهى، ولما خرج سليمان قال للجارية: أعطيني خاتمي، قالت: أعطيتك قبل قليل، فعرف أن الشيطان قد أخذه، فحزن حزناً شديداً، فبعد ذلك رجع إليه ملكه.

هل هذا يليق بمقام الأنبياء؟ أين العصمة وأين حفظ الله لهم؟

يأتي شيطان ويأخذ الخاتم ويجلس على كرسيه ويأمر وينهى! هذا ما يليق، وهذه رواية باطلة، ومن الروايات الإسرائيلية الساقطة، ولا يجوز تأويلها ولا يجوز تفسير القرآن بها، ولا يجوز ذكرها أمام الناس.

☚ **وإنما ما ذكرت لكم قبل قليل أن سليمان قال: لأطوفن، هذا في صحيح البخاري:** «لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى نِسَائِي، وَتَلِدُ كُلُّ امْرَأَةٍ مَوْلُوداً يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ» ولم يقل: إن شاء الله.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤]، الذي هو شق إنسان، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] وعرف أنه أخطأ ولم يستثنِ ولم يقل: إن شاء الله، فتاب إلى الله وعاد ورجع، ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ [ص: ٣٥]، اغفر لي خطئي وزللي، ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]. لما نحر الخيول لله وتصدق بها؛ عوضه الله الريح، سخر الله له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب، رخاءً يعني لينة هادية، لكن في (سورة الأنبياء) قال: ﴿عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: ٨١]؛ سريعة.

- **كيف نجمع؟**

الجواب: إن أرادها لينة جاءت لينة، وإن أرادها سريعة جاءت سريعة.

بعض المفسرين يقول: "هي رخاء عند الذهاب، إذا ذهب الإنسان وسافر بها تمشي بهدوء، وعاصفة عند العودة"؛ لأن دائماً الذي يريد العودة من السفر يحاول أن يصل بسرعة.

يقول: والشياطين أيضاً سخرها الله، سخر الله له الشياطين، شياطين قال: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٧]؛ الشياطين يعملون له، فمنهم من يبني البنايات، ومنهم من يغوص في البحر ويستخرج الدرر والآلئ والحلي من قاع البحر.

قال: وأيضاً هؤلاء الذين ذكرهم الله: ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٧]؛ هؤلاء يطيعون سليمان، يطيعون، وهم من الشياطين، ويستجيبون له. وهناك من لا يطيع من الشياطين، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨]؛ أي مصفدين ومقرنين، مقرون بعضهم ببعض بالأغلال والسلاسل لأنهم شياطين يؤذون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]، هذا الذي أعطيناك هو عطاؤنا يا سليمان من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فامنن؛ يعني أعطِ من تشاء، أو أمسك بغير حساب؛ لك الخيار، إن أعطيت ومننت على الناس به وأعطيتهم فهذا عطاء منك، وإن أمسكت ولم تعطِ فهذا كله راجع إليك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أثنى عليه وأعطاه الدنيا وأعطاه الملك، قال أيضاً ثناءً له في الآخرة، قال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٠]؛ يقول له منزلة عظيمة عندنا، كما قال الله في داوود: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥].

قال أيضاً لسليمان؛ أي له زلفة يعني قربة ومكانة عظيمة عند الله ومقربة عند الله، ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٠]؛ أي حسن مرجع عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو حسن الختام في هذه الدنيا والمنزلة العظيمة في الآخرة.

لما ذكر الله داوود وسليمان وأعطاهم الملك والدنيا وابتلاهم؛ ذكر أيضاً أيوب الذي أعطاه الله أيضاً الملك وأعطاه الأولاد وأعطاه الأموال والخيرات ثم زوى عنه ذلك وأذهب عنه ذلك امتحاناً فكان من الصابرين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]. واذكر يا محمد، اذكر هذا العبد أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ [ص: ٤١]، ومثل ما ذكرنا العبودية شرف، ولذلك الله يسمي أنبياءه عباداً.

قال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، وأيوب هو نبي من أنبياء الله.

قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ [ص: ٤١]؛ واذكر حينما نادى ربه، متى نادى ربه؟ لما أصابه ما أصابه من الضر والتعب والعذاب والأمراض، نادى ربه حتى قيل له: ادعُ الله ادعُ الله، فكان يقول: لا أدعو الله، أعطاني من الصحة والعافية مدة طويلة، فلما أصابني الضر أدعو الله أن يكشف؟

قال: لا بد من أن أصبر، فصبر صبر صبراً عظيماً، فلما اشتد به البلاء رفع يديه ودعا بهذا الدعاء.

ولاحظ هذا الدعاء الذي فيه الأدب، لم يصرح وإنما لمح فقط، يعني يلمح في دعائه ويشكو حاله وانطراحه بين يدي الله، يقول: ربي هذه حالي، وهذا أشد من الدعاء الصريح؛ لما تقول هذه حالي منكسر يا رب العالمين بين يديك فافعل بي كذا، أو ارفع عني أو كذا.

هو يشتكي حاله فيقول: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ [ص: ٤١]، وينسب الضر والبلاء إلى الشيطان مع أنه من الله، لكنه من الأدب، من الأدب: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ [ص: ٤١]، مثل ما أن إبراهيم من الأدب أنه قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، ما قال: وإذا أمرضني؛ لأنه أدب، وإن كان المرض من الله لكن هذا من باب الأدب.

قال هنا: ﴿بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]؛ بِنُصبٍ: النصب هو الإرهاق والتعب والكرب الشديد، والعذاب: الأمراض التي أحاطت به، فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾ [ص: ٤١]، هذا من باب الأدب وإن كان قد يكون الشيطان سبباً في ذلك لكنه بتقدير الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى استجابة له كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في (سورة الأنبياء)، قال: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]. يعني كشف الله عنه فقام، فقال: اضرب الأرض واركض؛ يعني اضرب بها الأرض لأن الذي يركض في الأرض يضرب برجليه.

فقال: اضرب برجلك الأرض فنبعت عين، نبعت هذه العين، قال: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]. اغتسل واشرب، فلما ضربها وبدأت تفور هذه العين بدأ يغتسل منها بعد هذه الأمراض التي أصابته مدة طويلة، حتى قيل -قيل- إنها سبع سنوات أو أكثر أو أقل، فبدأ يغتسل وعاد جسمه إليه ونشاطه وقوته وعافيته، وبدأ يشرب من هذا الماء الطيب، فهذه نعمة من الله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣]. لأنهم ذهبوا أهله وأولاده ماتوا، ومزارع وخيرات وبهائم كلها ذهبت وماتت، لم يبقَ عنده شيء أبد يملكه إلا زوجته.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ [ص: ٤٣]؛ يعني زوجته، ﴿وَمِثْلَهُم﴾ [ص: ٤٣]؛ يعني ذريته وأولاده، أعطاه الله أولاده حتى قال بعض المفسرين أن الله أحياهم له، أو أنه رزقهم أولاداً آخرين أضعاف الأولين، قال: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [ص: ٤٣]؛ يعني أضعافاً.

قال: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [ص: ٤٣]، هذه كلها رحمة من الله أن كشف عنه البلاء، وأن أعاد إليه صحته وأعاد إليه أهله وماله، قال: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣]؛ يعني يتذكر بها أصحاب العقول، يعتبرون بها؛ أنبياء وأصفياء ويصيبهم ما يصيبهم ويصبرون ويثبتون عند البلاء، فذكرى يتذكر بها أصحاب الألباب.

قال أيضاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ۗ﴾ [ص: ٤٤]. **(الضغث)**: مجموعة من الأشياء مثل ما قال: **"أضغاث أحلام"**؛ يعني أخلاط، فمجموعة من الأشجار أو الأوراق أو الأغصان، أو مثل عذق النخل الذي يكون فيه الشماريخ، هذا يسمى ضغثاً، فقال: خذ الضغث هذا فاضرب به ولا تحنث؛ حتى لا تحنث في يمينك.

- **ما هو هذا؟**

ذكر بعض المفسرين أنه مرة دعا امرأته وكانت بعيدة أو أنها لم تسمعه فحلف إن عادت أن يضربها، فلما علم أنها قد يعني لم تسمع أو أنها معذورة فقال: هذا يمين علي، ماذا أصنع؟

وكانوا قبل الإسلام وقبل شريعة محمد ليس هناك كفارة، أما شريعة محمد إذا أنت حلفت ثم أردت أن تخالف يمينك تكفر، أما هم ليس عندهم كفارة فماذا صنع؟ فقال الله له: خذ ما دام أنك حلفت خذ هذا الضغث فاضرب به حتى تبر بيمينك، وهذا الضغث خفيف ضربه خفيف تبر بيمينك ولا تحنث فيها، تحنث فيها.

- **وهنا مسألة: هل إذا إنسان فعل أو أراد أن يفعل شيئاً وأراد أن يبر بيمينه هل يأخذ مثل هذا ويضرب يحقق يمينه ولو بشيء خفيف؟**

قال بعض العلم: "هذا جائز"، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما عرض عليه شخص -يعني سيضرب مائة وهو رجل كبير ضعيف الجسم- فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اضْرِبُوهُ بِضِغْثٍ**» يعني حتى تحقق هذا الأمر وهو لا يتأثر ولا يعني يتضرر بهذا الشيء، قال: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ [ص: ٤٤]، وتكفير اليمين أولى إذا أنت رأيت هذا الأمر أنه أحسن كفر عن يمينك.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في الثناء عليه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، أثنى عليه الله بأنه صابر، صابر أنه صبر على البلاء، ثم أثنى عليه مرة أخرى فقال: ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤]، نعم العبد أيوب، نعم العبد ثناء عليه، ووصف بالعبودية أنه أواب، كثير الرجوع إلى الله، يرجع إلى الله، كثير الرجوع.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]. لعلنا نقف عند قوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا﴾ [ص: ٤٥] إبراهيم وإسحاق ويعقوب، نقف إن شاء الله نتكلم عنها في اللقاء القادم.

نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(ص ٤٥ - ٦٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الموافق للرابع والعشرين من الشهر الخامس من عام ستة وأربعين هجرية (١٤٤٦هـ)، نجتمع في هذا المقام المبارك، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير.

تفسير القرآن وسورة الحشر؛ قبل الدخول في هذه السورة نقدم مقدمات حول هذه السورة.

هذا الجزء الذي يعني دخلنا فيه ونبين يعني تفسير سُوَرِهِ وآياته، وهو ما يسمى بجزء (قد سمع) أو ما يقابله، هو كله من السور المدنية، ومعنى السور المدنية: التي نزلت بعد الهجرة، بعدما استقر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة، وهي تتحدث عن أحوال المؤمنين، والقرآن يوجه بالتوجيهات التي يحتاجون إليها من أحكام وآداب وأخلاق وغيرها.

ولذلك إذا قرأت أنت سورة من السور المدنية كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة، أو سورة من جزء (قد سمع) كالحشر أو الممتحنة وما بعدها، تجد في ألفاظها ودلالاتها وأحكامها ما ينتفع به المسلم في حياته، وأنها تمس واقع المسلم.

- **السورة التي بين أيدينا؛ أولاً سميت بسورة الحشر، لماذا؟ وما معنى الحشر؟**

سميت بسورة الحشر لأن الله ذكر فيها هذا الذكر الذي لم يذكر في القرآن، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢].

الحشر أصله معناه في اللغة هو الجمع؛ جمع الشيء في مكان حتى ينحشر هذا المكان، يعني حتى يمتلئ هذا المكان؛ ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قصة داوود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ

أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٩]، يعني قد حشرت، وقال أيضاً عن الناس يوم القيامة في آيات كثيرة: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ [الأنعام: ٢٢].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥]. فحشر الشيء جمعه في مكان، لما تأخذ الشيء هذا الذي قد يكون متفرقاً فتجمعه في مكان وتحبسه في مكان، هذا يسمى حشراً.

- **ما المراد بالحشر في الآية؟ إذا عرفنا الحشر في اللغة، ما المقصود بالحشر؟**

الحشر المراد به هو حشر اليهود أو طائفة من اليهود في مكان ما.

فقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [الحشر: ٢]، أهل الكتاب المراد بهم اليهود، المراد باليهود هنا خاصة هم بنو النضير؛ ولذلك جاء في (صحيح البخاري) عن ابن عباس أنه سمى هذه السورة بسورة (بني النضير)، فتسمى بالحشر وتسمى ببني النضير؛ لأنها تتحدث عن طائفة من طوائف اليهود في المدينة وهم بنو النضير.

الله قال هنا: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ﴾ [الحشر: ٢].

- **أخرجهم من ديارهم، أين كانت ديارهم؟**

في المدينة، فأخرجهم ووصفهم بوصفين:

- الوصف الأول: أنهم كفروا ولم يؤمنوا برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- الوصف الثاني: أنهم من أهل الكتاب وهم اليهود من بني النضير.

- **أخرجهم لأي مكان؟**

قال: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]، أخرجهم من المدينة لمكان ما يكون حشراً لهم ولطوائف اليهود، فكان هذا أول حشر لهم؛ لأن هذه الطائفة أخرجت من المدينة.

هذه الطوائف الثلاث التي كانت تسكن في المدينة. وقبل الدخول في مَن هم اليهود ومَن هذه الطوائف؛ القرآن يتحدث في آيات كثيرة وفي سور عن قصص كثيرة، قصص القرآن مختلفة؛ أحياناً القرآن يقص علينا أخبار مَن سبق كقصة نوح وعاد وثمود وقوم شعيب وغيرهم.

وأحياناً يتحدث القرآن عن قصص معاصرة للنزول وهي ما تتعلق بسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فسورة الأنفال تحدثت عن قصة غزوة بدر، وسورة آل عمران تحدثت عن قصة أحد، وسورة التوبة تحدثت عن غزوة تبوك وحنين، وسورة الفتح تحدثت عن صلح الحديبية وعن فتح خيبر.

وهذه السورة بين أيدينا سورة الحشر تحدثت أيضاً عن غزوة بني النضير والأحزاب، وأيضاً عن بني قريظة: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٦]، هذا بنو قريظة.

إذا عرفنا هذه الغزوات وأحاديث القرآن عن قصص النبي المعاصرة؛ هذه السورة بين أيدينا سورة الحشر تحدثت عن طائفة من طوائف اليهود. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاء إلى المدينة كان فيها اليهود، مَن الذي أتى باليهود وجعلهم يستقرون في المدينة؟ وأين كانوا؟

هم كانوا في الشام، وبعدما كانوا في بيت المقدس والشام؛ لأنهم في أصل اجتماعهم كانوا في مصر تحت حكم فرعون، وكان قد اضطهدهم وعذبهم وكان يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، فأرسل الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لينقذهم: ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

لينقذ بني إسرائيل، فأنقذهم وخرج بهم ونزلوا في التيه، وأمرهم أن يدخلوا بيت المقدس وفي فلسطين، فأبوا وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ورفضوا حتى ذهب هذا الجيل الأربعين.

لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

بعدما مضت أربعون سنة وزال وذهب هؤلاء، جاء أبناؤهم ودخلوا بيت المقدس بقيادة النبي (يوشع بن نون) عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما استقروا في بيت المقدس أرسل الله إليهم رسلاً كثيرين؛ داوود وسليمان وأنبياء كثيرين يرسلهم الله لهم، ولا يزالون في كفرهم وطغيانهم واستكبارهم، حتى سلط الله عليهم بعض القوى الخارجية كبختنصر وغيره وفرقهم في الأرض وضاعوا.

كانوا بعد زمن طويل يسمعون أن الله سيبعث نبياً في آخر الزمان يسمى بنبي الساعة، وهم يقرؤون في التوراة عندهم ويعرفون هذا النبي بأوصافه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فسمعوا عن هذا وبدأوا يبحثون في كتبهم وفي تواريخهم حتى علموا أنه سيبعث في جزيرة العرب ليس في الشام.

هذا النبي الأخير ليس في الشام، آخر أنبياء الشام هو عيسى وقبله يحيى وزكريا، فعرفوا أنه سيبعث في جزيرة عربية، وأنه سيبعث في منطقة هي ستكون بين نخل وماء، فبدأوا يبحثون فوجدوا خيبر والمدينة

أماكن قريبة من هذا، فوجدوا أن المدينة هي التي سيبعث فيها وبدأوا يبحثون عن هذا حتى جاءوا واستقروا في المدينة.

كانت ثلاث طوائف:

- الطائفة الأولى: بنو قينقاع.
- الطائفة الثانية: بنو النضير.
- الطائفة الثالثة: هم بنو قريظة.

فلما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستقر في المدينة جاء رؤوس هؤلاء اليهود وبدأوا ينظرون في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حتى جاء من بني النضير وهو رئيسهم وسيدهم حيي بن أخطب، فقال لصاحبه: أهذا هو الذي مذكور عندنا في التوراة؟ قال: نعم، قال: أهو هو؟

قال: نعم، قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته ما بقيت؛ والله أعرفه أشد مما أعرف أبنائي، فقال: والله لأقيمن العداء بيني وبينه، ولن أرضى أن أتبع رجلاً من العرب. وبدأت العداوة.

ومعروفة قصة إسلام عبد الله بن سلام رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه لما جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعرفه وقال: هذا هو المذكور عندنا في التوراة، فأعلن الإسلام وأسلم، حتى بشره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنة.

أما هؤلاء الرؤوس فإنهم أبوا الإسلام ونصبوا العداوة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- **فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماذا سيكون موقفه؟**

المعاهدة معهم في بداية الأمر؛ لن يستطيع المواجهة، لكن بدأ بالمعاهدة معهم، فعاهدهم ألا يعتدوا عليه، وألا يغدروا، وألا ينقضوا العهد، وألا يظاهروا أحداً يريد أن يحارب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاتفقوا على ذلك.

فكانت القبيلة الأولى قبيلة بني قينقاع، وكلهم يسكنون جنوب المسجد النبوي، يعني إذا ذهبت أنت للمدينة الآن فالجهة الجنوبية هذه هي قبلة المسجد هي محراب المسجد، هم يسكنون في الجهة.

أول قبيلة قريبة من المسجد هي قبيلة بني قينقاع، ثم بعدها بنو قريظة يميلون إلى الشرق قليلاً، ثم بعدها بين المسجد النبوي وقباء في المنطقة هذه بنو النضير، وكانوا يملكون مزارع كثيرة وبساتين، وكانت لهم أموال كثيرة.

فبنو قينقاع القبيلة الأولى، وذلك أن امرأة من المسلمين جاءت إلى صائغ يبيع الذهب لتشتري منه، فقال: اكشفي وجهك، فقالت: والله لا أكشفه، فحاول أن تكشف وجهها فلم تيسر، فجاء أحد اليهود فخدعها من الخلف وقام بربط شيء من ثيابها من الخلف إلى أعل.

فلما قامت بدت عورتها فضحك اليهود، فصاحت فسمعها رجل من المسلمين فجاء وقتل هذا اليهودي الذي صنع هذا الصنيع، فاجتمع عليه اليهود وقتلوه.

فلما أُخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهم نقضوا العهد وفعلوا ما فعلوا وقتلوا؛ أمر بقتالهم وحاصرهم خمس عشرة ليلة، حتى جاء عبد الله بن أُبي بن سلول رأس المنافقين وبدأ يسأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبقيهم وألا يقاتلهم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأجلاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى خيبر وأذرعات، فخرجوا وتركوا ديارهم ومساكنهم.

- **بنو النضير هؤلاء هم الطائفة الثانية، ما قصتهم؟**

الأولى بعد غزوة بدر، هم بنو قينقاع الذين فعلوا بالمرأة في السنة الثانية من الهجرة بعد غزوة بدر بشهر، لما جاءت غزوة أحد وحصل ما حصل بين المسلمين وبين كفار قريش، بعدها بوقت قتل رجل من المؤمنين من المسلمين من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلين خطأً.

فأُلزم بالدية وليس عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دية، فذهب إلى اليهود بني النضير؛ لأن بينه وبينهم معاهدة، فقال: أعينوني على هذه الدية، فقالوا: أبشر يا أبا القاسم، اجلس هنا ونعينك.

وجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت جدار من جدران ديارهم، فقال بعضهم لبعض: هذه فرصة، أتانا محمد إلى ديارنا لن يخرج منها إلا وقد قضينا عليه، فقال أحدهم: أصعد أنا إلى السطح وألقي عليه حجراً كبيراً ونستريح منه.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جالس تحت الجدار ينتظر منهم الدية ومساعدتهم في الدية، فجاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالخبر أنهم سيفعلون كذا وعاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسرعاً ورجع إلى المدينة.

وكان بين بني النضير وبين المدينة مسافة حوالي ميلين أو تقريباً يعني كيلو ونصف أو قليل من ذلك، فرجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة وجهز لمحاربتهم لأنهم نقضوا العهد، فحاصرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأخبر الله في هذه السورة أنه حاصرهم.

فلما حاصرهم جاء عبد الله بن أُبي بن سلول -لعنه الله، هذا هو رأس المنافقين- فجاء وقال لليهود: أنا معي ألف شخص سأعينكم، بألفي شخص معي، ولا تستسلموا لمحمد، وأنتم عندكم حصون قوية وعندكم من السلاح القوي ما ليس عند محمد، فقفوا في وجهه ولا تستسلموا.

فلما جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم قالوا: يا محمد، لن نستسلم لك ولن نسلم لك شيئاً، افعل ما شئت.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُ أَكْبَرُ، خَرِبَتْ خَيْبَرُ». فخرج صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه أصحابه فحاصروهم، وقد حُصنوا تحصيناً قوياً، فبدأ يحرق النخيل، فقالوا: كيف محمد الذي يأمر بالخير ويأمر بالبر ثم يحرق النخيل؟

فأنزل الله هذه الآية: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]، يعني هذا قطع النخيل كان بأمر من الله، ليس باجتهاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنما أُمر به.

وحاصروهم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قذف الرعب في قلوبهم، وتخلى عنهم عبد الله بن أُبي ولم يساعدهم بشيء؛ ولذلك تقرأ في هذه السورة في آخرها ماذا قال؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الحشر: ١١-١٣].

فلذلك لما حصرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشدد عليهم وبدأ يحرق النخيل وتشتعل النيران حولهم.

- **ماذا قال اللّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم؟**

قال: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

ألقى في قلوبهم الخوف والرعب حتى بدأوا يرتعدون خوفاً من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه فسلّموا أنفسهم، فقالوا: يا محمد، سنخرج من المدينة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تخرجوا من المدينة إلا على حمل بعير، يعني تحملون أغراضكم وأشياءكم المهمة على بعير فقط، ولا تحملون أي شيء معكم غير هذا وتخرجون منها، وتتركون السلاح والمال.

فتركوا سلاحهم وأموالهم وخرجوا، كل يخرج على بعيره، فخرجوا ذليلين حقيرين، وبدأوا يخربون بيوتهم كما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢]، بدأوا يخربون بيوتهم؛ يأتون على الأبواب ويقلعونها، ويفسدون بيوتهم بأيديهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]؛ اعتبروا بهؤلاء الذين عندهم حصون وقوة وسلاح ومع ذلك سلّموا أنفسهم.

السورة تتحدث عن هذه القصة؛ قصة بني النضير، وتقارن بين المؤمنين الصادقين وبين المنافقين الكاذبين. هؤلاء اليهود وقعوا في هذه الخيانة وأرادوا قتل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونقضوا العهد، وجاء المنافقون يدعون أنهم سيساعدونهم والله سماهم إخواناً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ﴾ [الحشر: ١١].

والله ذكر قصة أو ذكر أحوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأثنى عليهم، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في المهاجرين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

- **والمنافقون ماذا قال عنهم؟**

قال إنهم كاذبون.

ثم ذكر الأنصار وأثنى عليهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]؛ هيأوا الدار والإيمان للمهاجرين.

قالوا: تعالوا نفتح لكم بيوتنا، حتى يأتي الأنصاري إلى المهاجر فيقول: انزل عن إحدى زوجتيّ أطلقها وتتزوجها، وأقسم لك نصف مالي، من شدة الترابط والتلاحم بينهم.

قال الله فيهم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، أي فقر، فأثنى الله عليهم، حتى أثنى على مَن جاء بعدهم ممن سلك طريقهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

- **مَن الذين جاءوا بعدهم؟**

التابعون ومن جاء بعدهم إلى عصرنا الحاضر؛ حتى أنت وأنا نقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

السورة تتحدث عن عزة الإسلام وقوته، وعن أن الله عزيز وناصر لدينه، وتتحدث أيضاً عن اجتماع كلمة المسلمين؛ كيف الله سبحانه ألف بين قلوب المهاجرين والأنصار، وتتحدث عن موقف هؤلاء الخونة اليهود وموقف إخوانهم المنافقين وكيف تركوهم، كما قال الله -انظر حتى إنك تقرأ في السورة الشيء العجيب- قال هؤلاء المنافقون وتعاونهم مع اليهود: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

ولذلك أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما وصف المؤمنين المهاجرين والأنصار وأثنى عليهم؛ أمرهم بتقوى الله التي هي أقوى أسباب النصر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]؛ الزموا تقوى الله واستعدوا لما يأتيكم في الغد، لتنظر كل نفس ما قدمت ليوم القيامة

حذر فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩] وهم اليهود والمنافقون.

ثم قال: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وسبحانه وتعالى أيضاً أثنى على كتابه القرآن الكريم ثناءً عظيماً فقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، من خشية الله وعظمة هذا القرآن الكريم الذي نزل على القلوب وبعض القلوب قاسية؛ قال لو كان جبلاً شامخاً قاسياً لرأيته خاشعاً ذليلاً متصدعاً من خشية الله. ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ختم السورة بذكر شيء من أسمائه العظيمة الجليلة.

لاحظ أن السورة افتتحت بالتسبيح وختمت بالتسبيح، دليل على قدرة الله وعظمته وأنه ناصر أوليائه؛ قال: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]، وذكر اسمين مع التسبيح: (العزيز الحكيم). و﴿سَبَّحَ﴾ فعل ماضٍ يفيد الثبوت والاستقرار، أي أن هذا التسبيح قد استقر لله.

تسبح له السماوات وما في الأرض؛ الملائكة تسبح، والمؤمنون يسبحون، والطيور تسبح، والحيوانات تسبح، و﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ حتى الجبال تسبح، والشجر يسبح، وكل يسبح، والطيور، والحيتان في أعماق البحار تسبح، والحشرات في جحورها تسبح لله.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. وختمها بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

- **انظر! ﴿يُسَبِّحُ﴾ فعل مضارع، وهناك فعل ماضٍ، ما الفرق؟**

الجواب: الفعل الماضي يفيد أنه سبح واستقر له كل شيء، والمضارع يفيد أن ذلك مستمر لا ينقطع، فهو قد سُبِّح له ولا يزال التسبيح مستمراً؛ ولذلك قال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤]، العزيز ذو القوة الغالب على كل شيء، الحكيم فيما يدبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه السورة الآن اتضحت لنا، وعرفنا معالمها ودلالاتها وما فيها، بقي الآن الدخول في هذه السورة نأخذها آية حتى نعرف ما جرى في هذه القصة، وهي قصة بني النضير وكيف أجلاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخرجهم من المدينة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١].

افتتاح هذا التسبيح افتتاح جميل يسمى بـ **(براعة الاستهلال)**؛ يعني هذه السورة وقبلها سورة الحديد فتحت بالتسبيح، وسورة الصف بالتسبيح، وسورة الجمعة بالتسبيح، وأيضاً سورة التغابن بالتسبيح، وأيضاً الأعلى قال الله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وقبل هذه السور كلها سورة الإسراء قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١].

(سبحان) مصدر، وهنا فعل ماضٍ، وهناك فعل مضارع، وفعل أمر في قوله: ﴿سَبِّحِ﴾. سبع سور في التسبيح، سبع سور كلها مفتتحة بالتسبيح باختلاف صيغه؛ مرة ماضٍ، ومرة مضارع، ومرة أمر، حتى يشمل جميع صفات التسبيح وأحوال التسبيح، لا يبقى أحد إلا يسبح إلا من أغفل الله قلبه.

- **ولذلك انظر وتأمل الآيات؛ لو ترجع إلى السورة التي قبلها سورة المجادلة، ماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخرها؟**

قال: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]؛ فمَن استحوذ عليه الشيطان أنساه ذكر الله فلا يذكر الله، ولذلك تمر عليه الساعات والأيام لا يذكر الله، وهذا ممن استحوذ عليه الشيطان وأغفل الله قلبه.

أما المؤمن الصادق الذي يعرف قيمة التسبيح فإنه لا يغفل؛ كيف تغفل عن التسبيح ولا تسبح الله، ولا تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وأنت تسمع القرآن يقول: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أنت ممن يعيش في هذه الأرض ثم لا تدخل معهم! تحرم نفسك التسبيح؛ صادق وواقع ممن هم في السماوات والأرض، هل أنت منهم ولا خارج عنهم؟ فكر في نفسك وقف فأكثر من التسبيح وأنت تمشي، وأنت في سيارتك، وأنت في طريقك، وأنت جالس، وأنت تنتظر؛ أكثر من التسبيح ولا تكن من الغافلين.

افتتح الله سبحانه بالتسبيح؛ ما هو التسبيح؟ ما معنى لما تقول أنت: سبحان الله، سبحان الله وبحمده؟ أو تسبح والقرآن يذكر التسبيح يقول: ﴿سَبَّحَ﴾ و﴿يُسَبِّحُ﴾.

- **ما معنى التسبيح هذا؟ هل تعرف معنى التسبيح، ولا فقط تقول سبّح وتمشي وأنت ما تدري ما المعنى؟**

الجواب: التسبيح هو التنزيه، أصله التنزيه؛ سبحان الله لما تقول سبحان الله هذا تنزيه، تنزيه لله عن أن يوصف بصفات النقص، لأن الله له صفات الكمال، فأنت لما تقول سبحان الله يعني تعظم الله وتقدسه.

لما تأتي إلى أجواء فيها أمطار وسحب وترى هذه الأجواء العجيبة تقول: سبحان الله؛ مَن الذي خلق هذا الماء؟ مَن الذي أتى به؟ مَن الذي أنزله إلى الأرض؟ سبحان الله؛ يعني تعظم الله وتقدسه وتنزهه عن صفات النقص.

لما تأتي إلى أماكن فيها عجائب خلق الله أو مخلوقات الله كالحشرات أو الطيور أو الحيوانات: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله؛ هذا معنى التسبيح: تنزيه الله.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا ينزه نفسه وينزه كل ما في السماوات والأرض عن أن يوصف بالنقص أو بالضعف أو بالفقر أو نحو ذلك، وإنما الله له الكمال وله القوة؛ فالذي هزم هؤلاء دون أن يحاربهم النبي بسيف ولا شيء -النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما واجههم في قتال ولا أصحابه، إنما حاصروهم فقط، والله هو الذي قذف في قلوبهم الرعب فخافوا وسلّموا أنفسهم.

وهو الذي كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢]؛ جاءهم الله وهم لا يدرون كيف جاءهم الله، أتاهم من حيث لم يحتسبوا، فهذا يدل على قدرة الله وعظمة الله.

سبحوا الله، سبحوه لأن له ما في السماوات وما في الأرض وهؤلاء من تحت ملك الله، وهو العزيز ذو القوة والعزة والجبروت، والحكيم فيما يدبره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كيف قضى على هؤلاء وعُجّلوا وطردوا من المدينة بهذه السهولة دون أن يدخلوا حرباً.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا -قال جل شأنه-: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦]، **(أوجفتم)** يعني أسرعتم في حصارهم، يقول: ما حاربتموهم لا على خيل ولا على إبل، ولكن الله يسلط رسله على مَن يشاء، النبي حاصرهم فقذف في قلوبهم الرعب فخافوا وسلّموا أنفسهم.

والحديث حقيقة حديث شيق لا ينتهي، والجلوس مع القرآن الكريم وتدبر آياته والتفكر في مثل هذا، وخاصة فيما يتعلق بالقصص؛ وهي قصة واقعية في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتحدث عنها القرآن، والصحابة شاهدوها ورأوها بأعينهم، هذا مما لا يمل الحديث عنه، ولكن لا نريد الإطالة عليكم.

نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في لقاء قادم نستكمل ما تتحدث عنه السورة الجديدة العظيمة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(ص ٦٥ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو اليوم الثاني من شهر جمادى الآخرة من عام ستة وأربعين وأربعمائة من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم في (سورة الصافات) وفي (سورة صاد)، وقفنا عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧]، وقبلها في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥]، وهي الآية الخامسة والستون من (سورة صاد).

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥]، هذه الآية متصلة اتصالاً وثيقاً قوياً بما قبلها؛ وهي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر حال المتقين ومصيرهم ومآلهم في جنات النعيم مفتحة لهم الأبواب.

ثم ذكر حال الفجار الطاغين: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص: ٥٥]، ثم قال: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ﴾ [ص: ٥٩]، فساق حال هؤلاء وحال هؤلاء. هذه الأخبار وهي أخبار صدق وحق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبر كأنك تشاهدها أمام عينيك؛ المتقين يدخلون جنات النعيم، والفجار في نار جهنم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قل لقومك وقل للناس جميعاً، فأنت رسول من الله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ [ص: ٦٥]؛ يعني أنا وظيفتي وعملي منذر، كلفنا الله بأن أكون منذراً لكم، أنذركم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ [ص: ٦٥]، تلاحظ أن الآيات السابقة فيها بشارات للمتقين وفيها نذر وتحذير وتخويف للطاغين، فالله قال: قل لهم إنما أنا منذر.

- **أليس محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيراً ونذيراً؟**

الجواب: نعم، هو بشير ونذير.

- **لماذا قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ [ص: ٦٥] فقط ولم يذكر "إنما أنا بشير"؟**

الجواب: لأن الآيات في سياق التهديد والتخويف، ولأن الآية نزلت في تهديد وتخويف هؤلاء الكفار.

فلذلك ركز على قضية الإنذار وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ [ص: ٦٥]، وحصر دعوته في الإنذار، قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ﴾ [ص: ٦٥] فقط؛ أنذركم وأخوفكم، إن استجبتم فلكم الخير والبشارات العظيمة عند الله، وإن امتنعتم وبقيتم على ما أنتم عليه فأنا منذر مخوف لكم من هذه النار.

ثم ذكرهم فقال: إلهكم إله واحد ومعبودكم وربكم هو الله، هو الذي أمركم بعبادته: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥]، ما في إله آخر غير الله، ما من إله غير الله، الإله هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو المنفرد بالألوهية والعبودية والتوحيد: ﴿الْوَاحِدُ﴾ [ص: ٦٥]؛ الواحد في ربوبيته، الواحد في ألوهيته وعبادته، الواحد في أسمائه وصفاته، لا مثيل له ولا شبيه ولا ند.

الواحد في ملكه، الواحد في تصرفه في هذا الكون؛ فلا أحد يملك ولا يتصرف إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهو الواحد، وهو الذي قهر جميع المخلوقات تحت حكمه، ما في مخلوق يخرج عن حكمه، فهو واحد قهار.

ولاحظ أن هذا الاسم، اسم **(الواحد)**، الذي يدل على انفراده بكل شيء ولا شبيه له ولا كفو له ولا مثيل، دائماً يأتي الواحد ومعه اسم **(القهار)**، فلما قهر المخلوقات وانفرد بقهرهم وحكمهم وأصبحوا تحت حكمه، عرفنا أنه هو الواحد، ولذلك اسم ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥] ورد في القرآن في ستة مواضع، في ست سور؛ ثلاث سور متتالية ثم ثلاث سور متتالية.

في **(سورة يوسف)** قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وفي **(سورة الرعد)** ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وفي **(سورة إبراهيم)** ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، هذه ثلاثة سور متتالية ذكر فيها الواحد القهار.

- **ثم ذكر في ثلاث سور متتالية أيضاً، ما هي؟**

هذه **(سورة صاد)** ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

وبعدها أيضاً **(سورة الزمر)** فيها ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] في أولها.

وفي (سورة غافر) ﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [غافر: ١٦]، ثلاث متتالية وثلاث متتالية، لابد أن تقف أنت مع (أسماء الله الحسنى) وتتأمل وتتدبر هذه الأسماء حتى تعرف هذه الأسماء ودلالاتها، يقرن الله دائماً الاسمين؛ يقرن اسماً مع اسم: عزيز غفار، واحد قهار، غفور رحيم، عزيز حكيم، دائماً؛ ما الحكمة؟ نحتاج إلى التأمل أن نقف معها.

لما بين لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا أنه هو الواحد القهار، أيضاً أثبت لنا لما أثبت لنا الإله أنه ما من إله إلا هو، أثبت لنا الربوبية؛ (توحيد الألوهية) و(توحيد الإلهية) و(توحيد العبادة)، زائد (توحيد الربوبية)، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [ص: ٦٦].

- **الواحد القهار من هو؟**

قال: هو رب السماوات والأرض، هو رب السماوات والأرض؛ يعني ربها يعني خالقها وموجدها والمالك لها والمتصرف فيها، ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [ص: ٦٦]؛ أي ما بين السماوات والأرض من هذه الأجواء.

ثم قال: ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [ص: ٦٦]؛ العزيز في ملكه القوي في ملكه، العزيز في ملكه القاهر، ثم هو الغفار يغفر ويرحم ويتجاوز مع أنه عزيز قوي حكيم، قوي عزيز له ملك السماوات والأرض ومع ذلك يغفر ويتجاوز، فيجمع الله بين قوته وعزته ورحمته ومغفرته العزيز الغفار.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: قل يا محمد لهم أيضاً مثل ما أنك قلت لهم إنك منذر وإنك تدعو إلى عبادة الله الذي هو رب السماوات والأرض، قل لهم أيضاً: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧]؛ أي هذه السورة وهذا الخبر وهذا الوحي الذي يأتيني من السماء هو نبأ عظيم، خبر عظيم.

ينبغي لكم أن تقفوا عنده وتتأملوه، لا تنصرفوا عنه ولا تنشغلوا عنه، تأملوا إذا قال لك خبر عظيم قف عنده، وخبر من السماء، ليس خبراً من أحد من البشر، خبر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا أحد أصدق منه قيلاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [ص: ٦٧ - ٦٨]، حالكم ماذا؟ الحال أنكم معرضون، أنتم معرضون عنه، كيف تعرضون عنه وهو نبأ عظيم خبر عظيم؟

ثم قل لهم أيضاً: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩]، لما قالوا إنك أنت تعلم الغيب، وإنك يا محمد عندك وعندك، قل لهم أنا ما أعلم إلا ما يأتيني من السماء: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩]، الملأ الأعلى هم الملائكة في السماء، إذ يختصمون؛ يختصمون في أي شيء؟

قال: يختصمون في خلق آدم، أو يختصمون في الكفارات والدرجات، في الكفارات والدرجات جاء في الحديث اختصام الملأ في الكفارات والدرجات؛ أي في عظم الكفارات وعظم الدرجات، وقيل إن المراد به مثل ما ذكرنا في الملأ الأعلى يختصمون في خلق آدم لما أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ آدم لما أخبرهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الكفارات يقول في حديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «سَأَلَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ. قَالَ: وَمَا الْكَفَّارَاتُ؟ قُلْتُ: الْمَشْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ -يعني في شدة البرد- وَالتَّعْقِيبُ فِي الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ»؛ يعني انتظار الصلاة بعد الصلاة.

فهذه هذا الحديث هو يقول أتاني في أول الحديث قال: «أَتَانِي اللَّيْلَةَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ» -قد يكون رؤية- «فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ» -هذه في رواية أخرى- «بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا، فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.

قَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ. قَالَ: قُلْتُ فِي الْكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ. وَالْكَفَّارَاتُ قَالَ: الْمُكْثُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصلوات -يعني مثل ما تجلس بين المغرب والعشاء- وَالْمَشْيُ عَلَى الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ» **أو في المكاره،** «قَالَ: صَدَقْتَ يَا مُحَمَّدُ». **ثم جاء في حديث قال:** «وَمَا الدَّرَجَاتُ؟ قَالَ: إِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ».

هذا هو الحديث، هذا يحتمل أن المراد بها هنا أنه قال يختصم: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩] إلا بعدما أخبره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أو في خلق آدم كما سيأتي.

قال: ﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [ص: ٧٠]؛ يعني لا أتكلم، هذا وحي من الله يأتيني الخبر من السماء فأخبركم، وأنا نذير مبين واضح النذارة.

ثم تأتي قصة خلق آدم، هذا الذي قال كثير المفسرين إن المراد به هنا لما جاء في قوله يختصمون، قال: يختصمون في خلق آدم، الله أخبر الملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة، ثم بعد ذلك أخبرهم أنه سيخلقه ويخلقه ويسويه، فإذا خلقه وسواه أمرهم بالسجود، فخلق الله آدم، فلما خلقه وسواه وتمت خلقته نفخ فيه من روحه جل جلاله.

ثم بعد ذلك لما نفخت فيه الروح وبدأ يتحرك ويقوم ويذهب ويسمع ويبصر فبقي في الجنة، فبعد ذلك سأل الله الملائكة عن بعض عن أسماء، قال: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١] يختبرهم، فقالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة: ٣٢]، فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] فلما أخبرهم وعلموا مكانة آدم وشرفه وعلمه قال: اسجدوا لآدم لأن له مكانة.

اسمع ماذا يقول: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، هذا خبر أخبرهم بأنه خالق بشراً وسيخلقه من طين، من طين الأرض. ثم قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ [ص: ٧٢]؛ يعني جعلته مستوياً كامل الخلقة، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢]، ينفخ الله فيه من روحه، الروح هنا مخلوقة، الروح مخلوقة؛ الإنسان مكون من جسد وروح.

والجسد مخلوق والروح مخلوقة، وإضافته إلى الله لما يقول ﴿مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] إضافة تشريف، مثل بيت الله وناقة الله، ولذلك يسمى عيسى روح الله، وهو لأن الله نفخ فيه، قال: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

فلما نفخ فيه أمر، ويعني تميز آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بمعرفة الأسماء والملائكة لا يعرفونها، قال بعد ذلك: اسجدوا، ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢].

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣]، كل من في السماوات من الملائكة كلهم سجدوا لما أمرهم الله بالسجود، أجمعون دون استثناء، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٤]، الذي كان مع الملائكة وليس منهم، وإنما كان معهم في العبادة، وإلا هو مخلوق من نار، والملائكة مخلوقة من نور، والملائكة لا تتزوج ولا تأكل ولا تشرب، وإبليس يتزوج وله ذرية ويأكل ويشرب وينام، وهؤلاء لا.

فقال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ﴾ [ص: ٧٤]؛ امتنع وكان من الكافرين، امتنع من السجود وكان من الكافرين، امتنع قال استكبر؛ يعني تكبر عن أمر الله، وكان من الكافرين؛ أي في علم الله السابق أنه من الكافرين، فاستكبر وامتنع.

قال: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، ناداه الله: لماذا لم تسجد؟ لماذا ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟

خلقته، الله خلق يقول الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: أنا خلقته بيدي؛ أي يعني هذا شرف مني وتكريم له حيث أنني خلقته بيدي، وفي هذه الآية إثبات **(صفة اليدين)** لله عَزَّ وَجَلَّ، صفة ذاتية نثبتها لله حقيقة على الوجه اللائق دون أن نشبهها بصفة مخلوق أو بيد مخلوق أو نحوه، وإنما نثبتها كما أثبتها الله وكما أثبتها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، قال هنا، وقال في آية أخرى قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، فيجب علينا أن نثبت ما أثبت الله له، ما أثبته لنفسه من الصفات؛ **(صفة الوجه)**، **(صفة اليدين)**، **(السمع)**، **(البصر)**، كل هذه الصفات يجب علينا نثبتها كما أثبتها الله ولا نحرفها ولا نؤولها.

قال: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ [ص: ٧٥] تكبرت عنه، ﴿أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]؛ عندك علو سابق، كنت من العالين من جملة الذين عندهم علو وتكبر؟

قال رداً عليه: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦]، أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين؛ يقول أنا أفضل منه لأنني مخلوق من نار وهو مخلوق من طين، والنار أفضل، هذا في نظره هو، لكن في حقيقة الأمر الطين أفضل من النار، لماذا؟ النار فيها الخفة والسفاهة، والنار محرقة، والنار تفسد؛ تأكل الزروع وتأكل الأثاث وتفسد وتحرق الناس.

أما الطين فيه مصالح؛ فيه الزراعة، فيه البيوت، فيه البناء، فيه الصناعات، وفيه الثقل والرزانة والمصالح، أما الطين هو قياسه هذا قياس باطل لا يقبل منه وغير صحيح أنه يقول النار خير من الطين، لا، هذا كلام غير مقبول، وإنما قاله عن سفاهة وعن طيش وعن استكبار.

قال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧]؛ يعني يا إخوان الإنسان يجب عليه أن يمتثل أمر الله، لا ينظر في الأسباب أو في العلل؛ لماذا كذا ولماذا كذا.

إبليس الواجب عليك أن تمثل أمر الله، أمرك فتسجد، أما تحت تقول أنا خير وأنا كذا، تجد الحين بعض الناس على منهج إبليس، لما تقول له افعل كذا افعل كذا من الواجبات، بدأ يعلل لك يقول لك أنا كذا وأنا كذا وهذا كذا وهذا كذا، الواجب أن تتقبل أمر الله وتسارع في قبوله، لا أن تحتج بحجج واهية وباطلة وتعتل بعلل لا حقيقة لها.

الواجب هو أن تقول كما قال سبحانه: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، هذا منهج المسلمين، منهج المؤمنين أن يقولوا سمعنا وأطعنا.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [ص: ٧٧]؛ أي من السماء فإنك رجيم، يعني مرجوم مطرود، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨]، الطرد من أيضاً لعنة والطرد من الله إلى يوم الدين، إلى يوم القيامة مطرود.

فلما رأى هذا الموقف إبليس حاول واستضعف نفسه أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩]؛ يقول أنظرني إلى يوم يبعث الناس من قبورهم، أنظرني إلى يوم يبعث الناس من قبورهم. فهل الله أعطاه هذا الأمر والا منعه؟

الله قال له: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝٨١﴾ [ص: ٨٠ - ٨١]، لكن ليس إلى يوم يبعثون، أنا أجعلك من المنظرين لكن ليس إلى يوم يبعثون، وإنما إلى أن ينفخ في الصور فيموت الخلق؛ يعني إلى النفخة الأولى.

شوف قال: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨١] وهو النفخة في الصور، إذا نفخ إسرافيل في الصور النفخة الأولى صعق من في السماوات ومن في الأرض ومن جملتهم إبليس، يموت كما يموت الخلق كلهم، يموت إبليس، ثم بعد ذلك يبعثون ويبعث معهم، أما هو يقول أنظرني يوم الدين قال: لا أنظرك ولكن ليس إلى يوم البعث، إلى يوم الصعق، إلى يوم الوقت المعلوم.

فلما أعطاه الله وأنظره وأمهله قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]، أقسم بعزة الله لأغوينهم أجمعين؛ أي لأضلنهم جميعاً، لا يبقى منهم أحد، إلا استثنى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾

[ص: ٨٣]؛ يقول إلا العباد الذين يعبدونك ويعرفون طاعتك، وهم الذين أخلصتهم الله، أنت أخلصتهم يا رب العالمين واصطفيتهم لك، فهؤلاء لا سبيل لي عليهم ولا أستطيع.

كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فهو سيغوي الخلق كلهم إلا من حماه الله واصطفاه وجعله من عباد الله المخلصين، وعبد الله حق عبادته وعرف قدر هذا الاصطفاء وهذا القدر عرف قيمته فحافظ عليه، حافظ عليه وتخلص من إبليس.

﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤]، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: قولي الحق والحق كلامي حق ولا أقول إلا الحق.

- **ما هو الحق الذي قاله الله؟**

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]؛ لأملأن جهنم منك يا إبليس وممن تبعك من بني آدم كلكم، أملأ منكم جهنم أجمعين؛ يعني كل من تبعك وترك طاعة الله وكفر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيملأ جهنم.

هذا قسم من الله لأنه قال ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ [ص: ٨٥] اللام لام القسم، قسم من الله أن يملأ جهنم من إبليس وأتباعه وجنوده وأعوانه، هذا إلى هنا تنتهي قصة خلق آدم وموقف الملائكة وإبليس.

قال الله بعد ذلك: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، قل يا محمد لهم؛ أي قل لقومك وقل للناس أنا ما أسألكم على دعوتي الأجر أو المال أو نحو ذلك، لا أسألكم كما كان يقوله الأنبياء السابقين: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

الذين يأتون بالتكلف والأمور الصعبة، لا، أمري يسير وشريعتي سهلة ودعوتي سهلة فاستجيبوا وبادروا، أما التكلف والصعوبة والتشدد فإنه ليس مني، لست من المتكلفين.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، وهذا الذي تسمعونه في هذه السورة وفي هذا الوحي والقرآن هو ذكر يتذكر به من تذكر وشرف للعالمين، ذكر تذكير لهم لمن يتذكر من العالمين وشرف لمن يستجيب ويتقبل هذا الشيء.

ثم قال: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]، سيأتي خبر هذه الدعوة وهذا القرآن، أنه سيظهره الله على الأرض كلها، وستنتشر دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيقضي على الشرك في مكة وفي الجزيرة، وسيظهر دينه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨]؛ أي بعد زمن.

إلى هنا تنتهي السورة وهي **(سورة صاد)**، جلسنا معها في لقاءات ماضية وتأملناها وتفكرنا في آياتها، سورة عظيمة احتوت على ذكر عدد من الأنبياء والرسل، وبينت موقف المشركين الذين في عزة وشقاق وعناد وهددتهم بالتهديدات القوية ولكنهم يصرون على كفرهم وعلى عنادهم.

ثم بعد ذلك ساقت لنا مصير المتقين في جنات النعيم ونهاية هؤلاء الفجار الطاغين، ثم ذكر قصة آدم وخلقه وسجود الملائكة له.

الحمد لله على النعمة، الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً أن وفقنا إلى ختم هذه السورة. إن شاء الله لقاؤنا القادم بإذن الله في سورة تليها وهي السورة التي بعدها، سورة الزمر، أسأل الله أن يبارك لنا وأن يوفقنا وأن يعيننا وأن يسددنا، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الزُّمَر)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الزمر ١ - ٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يكتب لنا الأجر في مثل هذه اللقاءات المباركة مع القرآن الكريم؛ فدرسنا في تفسير القرآن العظيم هو في كل أسبوع من بعد صلاة المغرب من كل ثلاثاء، وهذا اليوم يوافق التاسع من الشهر السادس من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف (١٤٤٦هـ) من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم؛ السورة التي بين أيدينا هي سورة (الزُّمَر)، وليس كما ينطقها بعض الناس (سورة الزُّمُر)؛ فـ (الزُّمُر) غير (الزُّمَر)، هذه سورة (الزُّمَر) بفتح الميم، فتجد بعض الناس يخطئ في نطقها.

وسُميت هذه السورة بهذا الاسم لذكر هذا اللفظ فيها؛ وهو قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١]؛ يعني جماعات زمرة زمرة، وقوله سبحانه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ أي جماعات زمرة زمرة.

وهذا هو السبب في تسميتها هذه؛ أن هذه اللفظة لم ترد في القرآن العظيم إلا في هذه السورة، فلما اختصت السورة بهذا اللفظ سميت بها، وفي بعض التفاسير أنها تسمى بسورة (الغُرَف)؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر فيها قوله: ﴿لَّهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠]، فسميت بهذا الاسم وبهذا الاسم، لكن الاسم الشهير الذي جاء في الأحاديث وجاء أيضًا عند السلف وفي كتب التفسير هو سورة (الزُّمَر).

ومن فضائل هذه السورة؛ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما جاء في الحديث- كان لا ينام حتى يقرأ سورة سبحان -يعني سورة الإسراء- وسورة الزمر؛ فكان كل ليلة لا ينام حتى يقرأ سورة الإسراء وسورة الزمر.

☜**وفي حديث آخر:** «كَانَ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ الْمُسَبِّحَاتِ»؛ والمسبحات هي السور المفتتحة بالتسبيح بـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أو ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ أو نحوها، فمن فضائل هذه السورة أن نبينا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا ينام كل ليلة حتى يقرأها؛ لِمَا فيها من أمور عظيمة مهمة جدًّا في حياة المسلم.

هذه السورة -سورة الزمر- هي من السور المكية؛ ومعنى كونها سورة مكية أنها نزلت قبل الهجرة، وهي تعالج قضايا العقيدة.

- **ما هي قضايا العقيدة؟**

هي الإيمان بالله وحده لا شريك له، وترك الكفر، وترك الشرك، وترك عبادة الأوثان، وترك جعل أندادٍ لله سبحانه؛ فتوحد الله جَلَّ وَعَلَا وتعبده.

والسورة تدور حول توحيد العبادة، وأنه لا إله إلا الله، وأنه لا مستحق للعبادة إلا الله، ولا معبود بحق إلا الله، وتدور حول دعوة الرسل؛ فما من رسول إلا ويقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

فإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وخلق الخلق كله إنما هو لتقرير هذه القضية؛ قضية العبادة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومعنى ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: يوحدون.

هذه مسألة مهمة جدًّا تعالجها قضايا غالب السور المكية التي تدور حول تقرير توحيد العبادة، وأنه لا معبود بحق إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم تأتي بعد ذلك قضايا العقيدة الأخرى؛ كالإيمان بالقرآن العظيم؛ لأن الله تعالى افتتح هذه السورة بقوله: ﴿تَنزِيلُ﴾، وبقوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ [الزمر: ١]؛ فالقرآن منزل من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالإيمان بأن القرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ قضية كبرى.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فالقرآن كلام الله وليس مخلوقًا، وليس من كلام البشر؛ لا من جبريل، ولا من محمد، ولا من أحد، وإنما هو كلام الله جَلَّ وَعَلَا نزله سبحانه.

قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]؛ فقضية الإيمان بالقرآن هي من صلب قضايا العقيدة.

والأمر الثالث من قضايا العقيدة: الإيمان بالرسل وبنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة؛ فإرسال الرسل عقيدة مهمة لا بد أن نؤمن بها؛ أن الرسل أرسلهم الله وأوحى إليهم وكلفهم بالرسالات لينقذوا البشرية من عبادة غير الله، ويخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد/ وقد أشارت السورة إلى الإيمان بالرسل وبنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة، الذي أنزل الله عليه هذا القرآن وأمر بالدعوة وتبليغ الرسالة.

ومن قضايا الإيمان التي تقررها السورة أيضًا: الإيمان باليوم الآخر؛ وهو أن نؤمن جميعًا بأن الله يبعث من في القبور، وأن هناك يومًا هو يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيبعث الله الأولين والآخرين ويجمعهم في صعيد واحد، ويبنى على ذلك حساب الخلق ومجازاتهم بأعمالهم، وتطاير الصحف، وأخذ الكتاب باليمين أو بالشمال، ونصب الموازين.

فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية، ومن خفت موازينه فامه هاوية، ثم المصير إلى الجنة والفوز بجنات النعيم، أو الهلاك بالنار؛ وهذه كلها قضايا عقائدية عظيمة لا بد أن نستوعبها جميعًا، والسورة تركز عليها تركيزًا بليغًا.

وركزت السورة كذلك على قضية أخرى مهمة جدًّا في حياة المسلم؛ وهي قضية الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتلاحظ أن كلمة الإخلاص تتكرر في هذه السورة؛ ففي أولها يقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]؛ يعني أخلص العبادة لله، لتكن عبادتك خالصة لله؛ لأن من شرط قبول العبادة الإخلاص، فالإخلاص هو شرط القبول.

وستأتيك آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى؛ كقوله سبحانه بعدها مباشرة: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]؛ أي لله العبادة الطاهرة السالمة من الشرك والرياء.

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وسط السورة: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]، ويقول أيضًا: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]؛ فقضية الإخلاص وقبول الأعمال

تدور السورة حولها بقوة، حتى إنك تجد في أواخر السورة قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ حيث يأمرهم بإخلاص التوبة لله؛ فالتوبة النصوح المقبولة هي ما كانت خالصة لوجه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

تعرض السورة قضايا الاستدلال بالخلق والملكوت؛ فخلق الخلق، وخلق الشمس والقمر والسماوات والأرض، وخلق الإنسان، وإنزال الماء من السماء وإنبات الزروع؛ كل هذا يؤيد توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد الإلهية؛ فالذي خلق هذا الخلق هو وحده من يستحق أن يُعبد.

ثم تسوق السورة مقارنات بين من يعبد الله ومن يعبد غيره؛ فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [الزمر: ٨]؛ فهذا حال الكافر.

ثم يقابله بحال المؤمن: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وتتوالى المقارنات البليغة؛ فيقول سبحانه عن أهل التوحيد: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧]، ويقابلهم بأصحاب النار في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٥-١٦].

وتضرب السورة الأمثال لتقريب الحق العقل؛ كقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [الزمر: ٢٩]؛ فالعبد الذي يشترك فيه أسياد متشاكسون يطلب كل منهم منه طلبًا يختلف عن الآخر يضيع ويتشتت، بينما العبد المملوك لرجل واحد يعرف ما يطلبه سيده فيستقر أمره؛ وهذا مثل المشرك المتشتت بين الآلهة والموحد المستقر على عبادة ربه الواحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كما تقارن السورة بين هذه المعبودات الباطلة الضعيفة وبين الرب الخالق العظيم؛ فيقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ

مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]؛ فالذي يكشف الضر ويأتي بالرحمة هو الله وحده، ولهذا فالحق هو التوكل عليه وحده سبحانه.

إنها سورة عظيمة نقف أمامها لنقوي إيماننا وعقيدتنا، ونزيد من حبنا لله وطاعتنا له، وحبنا للقرآن ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إن تدبر القرآن الكريم وتفهمه هو الغاية العظمى من إنزاله ؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]؛ فالشأن ليس مجرد المرور السريع على الآيات أو معرفة ظاهر المعاني فحسب، بل الغوص في أعماقها وفهم أسرارها.

وقد ضرب بعض السلف في ذلك مثلًا رائعًا فقال: "الآية مثل التمرة؛ تضعها في فمك وتحركها وتمضغها كثيرًا وترددها يمينًا وشمالًا لتستخرج حلاوتها وتستمتع بطعمها، أما من يأخذ التمرة ويبلعها مباشرة فلا يشعر بطعمها ولا يجد حلاوتها".

وكذلك القارئ الذي يمر على الآيات سريعًا بلسانه دون تدبر لا يجد حلاوة القرآن ولا يثبت في قلبه أثره، والواجب تكرار الآيات وتأملها وإعادتها حتى يظهر طعمها الإيماني في النفوس.

بدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه السورة العظيمة بقوله: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

والتقدير اللغوي للجملة: **(هذا تنزيل الكتاب)**، والتنزيل لا يكون إلا من علو؛ وفي هذا إثبات لصفة العلو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنه فوق خلقه وفوق سماواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه جل جلاله.

وفي الآية رد على من زعم أن القرآن ليس منزلًا من عند الله؛ فهو كلام الله حقيقةً، تكلم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصوت وحروف مسموعة، فسمعه منه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وحفظه، ونزل به على قلب نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحفظه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبلغه للأمة كاملاً غير منقوص.

و﴿الْعَزِيزِ﴾ هو ذو القوة والقدرة والغلبة والمنعة والانتقام، الذي لا يغلبه شيء، والغالب على كل شيء، و﴿الْحَكِيمِ﴾ هو سبحانه الحكيم في تدبيره، وأحكامه، واختياره لرسله، وفي إنزال كتبه، وفي جعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مقررًا الإنزال مرة أخرى وموجهًا الخطاب لرسوله الكريم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]؛ أي أن الله هو الذي أنزل هذا الكتاب بالحق الملتبس به والمحيط به؛ ليظهر به الحق ويبطل به الباطل، والكتاب هو القرآن الكريم، وسمي كتابًا لأنه يُكتب، وقرآنًا لأنه يُقرأ بالحق الذي لا مرية فيه ولا كذب ولا افتراء.

والحكمة من هذا الإنزال هي العبادة والإخلاص؛ ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾؛ وهو أمر للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر لأمته من بعده؛ لتكون العبادة خالصة نقية لله سبحانه لا تشوبها شائبة شرك أو رياء أو سمعة، وإلا حبط العمل؛ كما قال تعالى في ختام السورة: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

ثم نبه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العباد بقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]؛ فـ (ألا) أداة تنبيه وتوكيد؛ أي اعلموا وتيقنوا أن الدين المقبول والطاعة التامة السالمة من الشرك والرياء لا تكون إلا لله، وما سوى ذلك فهو مردود على صاحبه وهو معرض للعذاب الأليم.

ثم فضح سبحانه طريقة المشركين وشبهتهم الباطلة فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]؛ فهؤلاء المشركون صرفوا العبادات للأصنام والأموات وأصحاب القبور، فصاروا يطوفون حول قبورهم ويذبحون لهم ويطلبون منهم المدد، محتجين بفرية عظيمة وهي: **"أننا لا نعبدهم لذواتهم، بل ليكونوا شفعاء لنا ووسائط يقربوننا إلى الله زلفى!"**.

وهذه حجة داحضة باطلة؛ لأن هذه المعبودات من دون الله لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، وهي مخلوقات ناقصة فكيف يُعبد من هو أنقص؟! بل إن دعاء غير الله هو الشرك بعينه الذي يباعد بين العبد وبين ربه أبعد المسافات، والشفاعة كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كما قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]، فلا تُنال شفاعة إلا بإذن الله ورضاه عن الشافع والمشفوع له.

ولهذا توعدهم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٣]؛ فيقضي بينهم يوم القيامة بقسطه وعدله، ثم حكم عليهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ

كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]؛ فهم كذبة في قولهم "تقربنا إلى الله زلفى"، وكفار بجحودهم توحيد الله وعبادتهم الأصنام من دون الله جَلَّ وَعَلَا.

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بطلان فرية أخرى وهي نسبة الولد إليه عَزَّ وَجَلَّ؛ كما ادعت اليهود في عزير، والنصارى في المسيح، ومشركو العرب في الملائكة أنهم بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ فما قدروا الله حق قدره.

فالذي يحتاج إلى الولد هو الضعيف المستعين به، أما القوي الغني العزيز سبحانه فهو منزه عن ذلك؛ ولهذا قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ سُبْحَانَهُ ۖ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

فلو فُرض تنزلاً مع مجادلاتهم الباطلة أن الله أراد اتخاذ ولد، لاصطفى واختار من خلقه ما يشاء ولسماه بذلك تنزلاً، ولكنه سبحانه لم يلد ولم يولد، وهو الواحد الأحد المنفرد بالخلق والربوبية والإلهية، القاهر الذي قهر جميع الكائنات وذللها تحت حكمه وسلطانه.

ثم يسوق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأدلة والآيات الكونية الباهرة الدالة على انفراده بالربوبية واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له؛ فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].

فالله عَزَّ وَجَلَّ خلق السماوات السبع الشاهقة والأرضين السبع بالحق العظيم لتكون مسرحًا للعبادة وتحقيق التوحيد. ومن عظيم تدبيره وجليل قدرته أنه ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾؛ فيدخل هذا على هذا، ويلف هذا على هذا كحركة تكوير العمامة في دوران مستمر دؤوب لا ينقطع؛ فينقص هذا ويزيد هذا ويحل أحدهما محل الآخر بقدرته ومشيئته العظيمة.

و﴿سَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وذللهما لمنافع العباد ومصالحهم الإنسانية؛ فلا يعصيان أمره ولا يستعصيان، بل ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ بنظام كوني بديع متقن؛ فلهما أجل يومي في الشروق والغروب، وأجل شهري في أطوار القمر، وأجل كوني نهائي ينتهيان إليه يوم القيامة وتنكدر النجوم وتكور الشمس.

ثم ختم سبحانه الآية باسمين عظيمين فقال: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾؛ فهو ﴿الْعَزِيزُ﴾ ذو العزة والمنعة والغلبة والقوة الباهرة التي خلق بها هذا الكون وسيره، والمنتقم ممن أعرض وكفر وعاند، وهو سبحانه ﴿الْغَفَّارُ﴾ لذنوب المنيبين والتائبين إليه يغفرها ويسترها برحمته وجوده.

نقف عند هذا القدر؛ لأن الآية التي تليها تتحدث عن خلق الإنسان وأطوار خلقه، وهذا موضوع عظيم يطول شرحه ويأتي الكلام عنه إن شاء الله تعالى في الدرس القادم.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

(الزمر ٦ - ٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم السادس عشر من الشهر السادس من عام (١٤٤٦هـ).

درسنا في تفسير القرآن العظيم؛ السورة التي بين أيدينا هي سورة (الزمر)، والآية السادسة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦].

لما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قرر توحيد الإلهية، وأنه لا يكون الدين إلا لله خالصًا، وأنه هو المستحق للعبادة، ونزه نفسه عن اتخاذ الولد، وأنه هو الواحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القهار؛ أثبت واستدل واستشهد بالآيات الكونية التي تدل على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الواحد القهار، وأنه هو المعبود بحق.

فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٥]؛ لم يخلقها عبثًا ولا لعبًا، إنما خلقها بالحق لإقامة دينه وشرعه، وإظهار عدله، وليجزي الذين أحسنوا بالحسنى والذين أساءوا يجزيهم بما عملوا. قال: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٥].

هذه آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته في ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته سبحانه؛ هو الواحد القهار، ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [الزمر: ٥].

فلما ذكر خلق السماوات والأرض، وتكوير الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر؛ ذكر بعد ذلك خلق الإنسان؛ يعني كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ فالإنسان ينظر فيما أمامه، وأولاً يتفكر في ملكوت السماوات والأرض، وينظر في نفسه؛ ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الزمر: ٦].

- **ما وجه الإعجاز في كونه خُلِقَ من نفس واحدة؟**

وجه الإعجاز أن ذرية آدم كم يصلون في الأعداد منذ خلق الله آدم إلى آخر الخلق؟ أعداد هائلة! فبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً؛ فبث الذرية بهذا العدد الكبير من نفس واحدة ومن أصل واحد. ثم الله قادر على أن يجمعهم بعد ما أن يصبحوا رفاتًا وعظامًا في الأرض؛ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يذكرهم بالخلق الأول، وفيه إشارة إلى أنه قادر على الخلق الآخر.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، والنفس الواحدة هي آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ. قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦]؛ (ثم) تفيد التراخي والترتيب؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق آدم أولاً، ثم بعد ذلك خلق من آدم زوجه حواء؛ خلقها من ضلع، من ضلعه الأيسر الأسفل الأعوج، خلقها منه وأنشأها من هذا الضلع.

أنت تلاحظ أن الله يقول: ﴿خَلَقَكُم﴾؛ أنتم أيها الناس من نفس واحدة؛ يعني بني آدم خلقكم من نفس واحدة، ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء.

- **السؤال هنا: هل الله خلقنا قبل حواء أو بعد حواء؟**

الجواب: لا، بعد حواء؛ لأنه خلق آدم، ثم خلق حواء، ثم جاءت الذرية بالتناسب.

إذًا حواء مخلوقة قبلنا، فكيف يقول: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؟ كيف يقول خلقنا ثم جعل منها زوجها؟

الجواب: إن (ثم) هنا لا تفيد الترتيب الزمني؛ يعني ذكر الله خلقنا لأننا نحن المخاطبون ويذكرنا بخلقنا الأول، ولأن الآيات في سياق تقرير قدرته ووحدانيته وقهره للخلق، وأنه هو العزيز سبحانه، فتحدث عن خلقنا ثم تحدث عن الخلق الآخر وهو خلق حواء، ولا يعني هذا أن حواء خُلقت بعدنا؛ هذا وجه.

وقد يأتي وجه آخر وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ يعني خلق أصولنا، يعني خلقنا في صلب آدم، يعني خلق الذرية؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مسح على ظهر آدم وأخرج ذريته وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

إذًا الله أودع في ظهر آدم ذريته، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]؛ أخذ الميثاق من ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم من ظهورهم، فهم في ظهور آبائهم وفي ظهر آدم.

لاحظ أنه قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦]، وفي آيات أخرى قال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١].

- **ما الفرق بين (خلق) و(جعل)؟**

الجواب: بعض المفسرين يفرق، يقول: الخلق شيء والجعل شيء، وبعضهم يقول: لا، هي ألفاظ مترادفة؛ (خلق) و(جعل) المعنى واحد، لكن تعبير بهذا وتعبير بهذا.

وبعضهم يقول: لا؛ لأن حواء لم تكن كآدم مخلوقة من تراب، أو من ماء كذريته، بل هي خُلقت من جزء من آدم، فقال: ﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؛ يعني جعل وصيّر هذا الخلق وفصله من آدم، وإلا فهي تعود إلى آدم.

هذا بالنسبة لخلق الإنسان؛ والله ذكرنا بخلقنا وأننا نعود إلى نفس واحدة، وأن أبانا هو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وزوجه حواء، والخلق كلهم يعودون إلى آدم الذي أنشأ الله خلقه أول الخلق.

لما ذكرنا بهذا الخلق، بعدما ذكرنا بخلق السماوات والأرض، وتكوير الليل والنهار، والشمس والقمر وتسخيرها؛ ذكرنا خلقنا، ثم بعد ذلك قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦].

- **ما مناسبة ذكر الأنعام؟**

والأنعام معروفة ثمانية أزواج، هي: الإبل ذكر وأنثى، والبقر ذكر وأنثى، والمعز ذكر وأنثى، والضأن ذكر وأنثى؛ هذه ثمانية معروفة.

- **لماذا ذكر خلق الأنعام بعدما ذكر خلق الإنسان؟**

الجواب: لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي خلقنا وتكفل بأرزاقنا؛ خلقنا ورزقنا، وهذا كله يدل على توحيد الربوبية الذي يلزم منه توحيد الإلهية؛ يعني أنت إذا علمت أن الله هو الذي خلقك، وهو

الذي خلق لك هذا الخلق ورزقك، فاعلم أنه هو الذي يستحق العبادة، وأنه لا يجوز أن تصرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله؛ لأنه هو الذي يستحقها.

- **يقول: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]؛ الآن هل الأنعام نزلت من السماء؟ كيف أُنْزِلَت من السماء؟ كيف أنزلها؟ هل الأنعام يعني في الجنة أو في السماء ثم أُنْزِلَت؟ ولا كيف؟**

الجواب: قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ﴾ هذه الآية مشكلة؛ لأن الأنعام لم تنزل من السماء، لم تنزل، ولو قلنا بهذا ينفتح علينا باب آخر وهو قوله تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ هل الحديد أنزله؟

ففي هذا إشكالات. ولذلك قال أكثر أهل التفسير، أو بعض أهل التفسير، قالوا: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ الأنعام؛ أي أنزل أسباب حياة الأنعام وهو الماء؛ لأن الله أنزل الماء فأنبت الزرع فكان هذا سببًا في حياة الأنعام، والأنعام معروف أنها مخلوقة من ماء.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥]، فخلقها الله، خلق هذه الأنعام، وخلق الزرع، وخلق الماء؛ لكن أنزل أسباب هذه الحيوانات وأسبابها التي تعيش بسببها وهو الماء، والماء ينبت الزرع؛ فالماء والكلأ هما أسباب عيش الحيوان.

وهناك قول لشيخ الإسلام (ابن تيمية) رَحِمَهُ اللهُ وهو يقول: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]؛ هي ذرية الأنعام، أنها تنزل من بطون أمهاتها؛ يعني تعرف أنت الإبل والبقر والغنم، ذرياتها وصغارها تنزل من خلال هذه البطون، فنزولها نزول نسبي؛ يعني هي تنزل لكن نزول نسبي، مثلما أن الحديد ينزل من الجبال؛ فهذا قد يكون توجيهًا.

يقول بعدها: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾؛ عاد لخلق الإنسان؛ لما ذكر الخلق الأول وهو خلق آدم وحواء، ثم الرزق وهو الأنعام، عاد إلى كيفية خلق هذا الإنسان في خلق ذرية آدم في بطون أمهاتها، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦].

- **لماذا يقول: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ ولم يقل: (خلقكم) مثل الأول؟ قال أولاً: ﴿خَلَقَكُم﴾ وهنا قال: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾؛ لماذا؟**

الجواب: لأن بطون الأمهات هي أوعية للحمل، فالحمل يتكرر؛ قد تجد المرأة الواحدة يكون فيها عشرة من الحمل أو أكثر أو أقل، فالخلق يتكرر ويعاد، قال: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ يعني في الاستمرار.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾؛ يعني أنتم أيها الناس ذكورًا وإناثًا، أصولكم أنكم مخلوقون في بطون أمهاتكم، قال: ﴿خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾؛ يعني مراحل؛ خلق ثم خلق ثم خلق إلى أن تخرج.

- **ما هي ﴿خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾؟**

قال: نطفة، علقة، مضغة، ثم المضغة تتحول إلى عظام وتكسى العظام لحمًا، ثم يكتمل الخلق ثم يخرج؛ هذه مراحل خلقًا من بعد خلق.

- **وأين؟ قال: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾؛ ما هي؟**

قال: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، فالإنسان هذا الضعيف المسكين يعيش فترة من الزمن، تسعة أشهر أو تزيد أو تقل، وهو في هذه الظلمات في بطن أمه؛ ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة؛ يعيش فيها فترة من الزمن ثم يخرج.

قال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [الزمر: ٦]؛ (الله) توحيد الإلهية، (ربكم) توحيد الربوبية؛ فكأنه يقول: ذلكم الله؛ أي هو المعبود بحق، هو ربكم؛ هو الذي رباكم، هو الذي أنشأكم، هو الذي خلقكم.

- **فلماذا تصرفون العبادة لغيره؟**

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾؛ الذي يملك السماوات وما فيهن، ويملك الأرض وما فيهن، ويملك كل شيء ويملككم أنتم؛ هو الملك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، المالك المتصرف في هذا الكون، هو الذي يستحق العبادة.

فلذلك قال: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، ثم قال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]؛ لا معبود بحق إلا هو، فأنى تصرفون؟ كيف تنصرفون عن عبادته؟ كيف تعدلون وتنصرفون عن عبادة الله إلى عبادة غيره؟

العبادة ليست هي الدعاء فحسب، العبادة ليست هي الصلاة، العبادة ليست هي ركوع وسجود؛ العبادة هو أن أفعالك أيها الإنسان كلها يجب أن تكون لله؛ تتوكل على الله، وتستعين بالله، وتستغيث بالله، وتذبح لله.

أنواع العبادة كثيرة جدًّا؛ الخوف عبادة، التوكل عبادة؛ كلها هذه يجب أن تُصرف لله.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ﴾، وقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]؛ كلها تدل على أن الإنسان يجب أن يجعل جميع أعماله لله لا شريك له؛ لا يخاف من البشر، ولا يتوكل على البشر، ولا يصرف شيئًا من العبادات لمخلوق، هذا مقصود قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾؛ كيف تنصرفون عن عبادة الله إلى عبادة مخلوق لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يقدر كقدرة الله؟

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هددهم؛ هؤلاء الكفار، هؤلاء الكفار الذين يعرضون ويصدون عن طاعة الله وينصرفون عنه، قال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٧]؛ أيها الناس جميعًا، لو تكفروا جميعًا، تكفروا بربكم ولم تؤمنوا به ولم تعبدوه ولم تتبعوا الرسل.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غني عنكم، غني ليس بحاجة؛ لو الناس جميعًا كلهم عبدوه وقاموا في صعيد واحد وعبدوه حق العبادة، ما زاد ذلك في ملكه شيئًا، ولو كفروا جميعًا ما نقص من ملكه شيء؛ الناس هم الفقراء والله هو الغني.

الله غني عنكم والناس هم الفقراء المحتاجون إليه؛ فإن كفرتم لا يضر الله ذلك، ولا يضره، وإن عبدتموه لا يزيده ذلك ولا ينفعه؛ فالعبادة عبادتكم لا تنفعه، وكفركم لا يضره، ولكن من عبده جازاه أحسن الجزاء، ومن كفر به فهو المستحق لأن يجازى بما يستحق.

يقول: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾؛ لكن انتبه! ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]؛ إذا كفرت أنت فالله لا يرضى عنك ولا يرضى عن عملك، لا يرضى لعباده أن يكفروا به؛ لأن الله يبغض الكفر ويكرهه كراهة شديدة، لا يرضى لعباده الكفر وإن كان يقدّره تقديرًا كونيًّا.

لكنه لا يرضى به؛ لا يرضى به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإن وقع في الكون، فليس كل ما وقع في الكون الله راضٍ عنه؛ يقع الكفر ويقع الشرك وغيره، فقال هنا فالله لا يرضى عن الكفر؛ يعني الله لا يريده ولا يحبه شرعًا، ولا يرضى بالكفر بل يبغضه.

قال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]؛ إذاً كفر وشكر، الكفر جحود، والشكر اعتراف وإقرار وعبادة، قال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا﴾ يعني تعبدوه وتشكروا نعمة الله عليكم، وتعترفون بأن الله هو المنعم، هو الخالق، هو الذي يستحق العبادة؛ يرضاه لكم، يرضى لكم الشكر، فالله يرضى ويحب من عباده أن يشكروه وأن يعبدوه؛ قال: ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

ثم قرر عندنا قاعدة مهمة جدًّا في حياة الإنسان؛ وهو أن كل نفس مسؤولة عن نفسها، وليست مسؤولة عن غيرها؛ كل إنسان مسؤول عن نفسه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٧]. يعني إذا كفر الأب فإن الابن لا يُسأل عن كفر أبيه، وإذا كفر الابن فإن الأب لا يُسأل عن كفر ابنه؛ إلا إذا كان سببًا في ذلك، فإذا كان سببًا فإنه يحاسب.

☜**ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»، وأيضًا بيّن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن «الدَّالَّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»، والدال على الشر كفاعله.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢ - ١٣]؛ لأنهم دلوهم على الشر فيحملون أوزارهم، لكن القاعدة الأساسية: إذا لم تدل الإنسان على الشر ولم تتدخل فيه فلا تحمل وزره.

ولذلك قال: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾؛ أي لا تحمل، ﴿وَازِرَةٌ﴾؛ أي حاملة، ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي حِمْلَ أخرى لا تحمله، كلٌّ هو مسؤول، لا تحمل نفسٌ إثم نفسٍ أخرى إلا إذا كانت سببًا في ذلك.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ [الزمر: ٧]؛ و(ثم) تفيد التراخي، يعني أنتم تعيشون في هذه الدنيا مدة من الزمن، والنهاية إلى ربكم مرجعكم؛ أي مصيركم وتعودون إلى ربكم.

- **فإذا رجعتم إلى ربكم فالنتيجة ما هي؟**

قال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٧]؛ ينبئكم ويخبركم ويحاسبكم ويكشف لكم أعمالكم التي كنتم تعملونها؛ إن كان خيرًا جزاكم أحسن الجزاء وضاعف لكم الأجر، وإن كانت سيئة فيحاسبكم عليها؛ لأنه قال: ﴿إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ **(القراءة المتواترة: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾)** [الزمر: ٧]؛ جملة تعليلية، لماذا يحاسبنا؟ وكيف يحاسبنا وكيف يخبرنا؟ قال: لأنه لا تخفى عليه خافية، عليم بذات الصدور.

- **ما هي التي بذات الصدور؟**

القلوب التي في الصدور يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويعلم ما تخفيه الصدور، ويعلم أسرار هذه النفس، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذا بيان لنا؛ يعني أن الإنسان خلقه الله ورزقه وخلقه في بطن أمه وأمره بعبادته، ولم يخلقه عبثًا ولا سدى ولا ضياعًا، وإنما خلقه للعبادة، ويذكره بأنه مخلوق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ فإن أطاعه وعبده فالله يرضى عنه، وإن عصاه وكفر فالله لا يرضى عن عباده الكفر، هذه قاعدة فهمناها الآن.

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطينا حال الإنسان في الدنيا بين الخير والشر، وبين الصحة والعافية، وبين الفقر والغنى؛ ما حاله؟ قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]؛ مس شيء قليل، يمسك مسًّا.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾؛ أي ضرر أو بلاء أو محنة أو مرض أو شيء، مسك مسًّا خفيفًا؛ هذا الكافر ما حاله؟ قال: ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾؛ عرف الآن ربه، واستغاث بربه ودعا ربه، لم يدع الأصنام؛ لأنه يعرف أن الأصنام لا تستجيب، دعا ربه لأن في حال الشدة يلجأ إلى الله، ولذلك: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

دعا ربه ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾؛ منيب يعني راجع إلى الله بقوة. وانتبه؛ الإنابة غير التوبة؛ في فرق بين التوبة، يعني شوف، ما قال: **(دعا ربه تائبًا إليه)**، بل قال: ﴿مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾؛ لماذا؟ لأن الإنابة أشد؛ الإنابة رجوع إلى الله بقوة، رجوع إلى الله عن المعاصي وعن غير معاصي؛ يعني تعلق بربه.

ولذلك وصف الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه منيب: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥].

فالإنابة صفة عظيمة ينبغي للإنسان أن يتحلى بها دائمًا؛ كن منيبًا أيها الأخ، دائمًا كن منيبًا، دائمًا كن رجَّاعًا، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]؛ ترجع كثيرًا إلى ربك.

دعا ربه منيبًا، يعني (ثم) تفيد أيضًا التراخي؛ يعني هو الآن في حالة ضر، شدة، بلاء، مرض، تعب، ثم بعد ذلك إذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كشف عنه، قال: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ [الزمر: ٨]؛ خوله يعني أعطاه.

ودائمًا هناك فرق بين (خوَّله) و(أعطاه)؛ العطية قد تكون في مقابل، وقد لا تكون في مقابل؛ مثلاً أنا أعطيتك دراهم وأعطيتني مثلاً شيئًا أو سلعة أو نحوها، هذه نسميها عطاء بمقابل، أحيانًا التخويل هذا يكون بغير مقابل؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاه، أنعم عليه نعمة عظيمة.

قال: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾؛ يعني كشف عنه هذا الضر، رفع عنه هذا البلاء، رفع عنه هذا المرض، أزال عنه الفقر وأغناه؛ خوله أي نعمة، ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨].

إذا أعطاه نعمة فإن الكافر ينسى! أين دعاء ربك يوم أن كنت مريضًا وتعبانًا وفقيرًا ومحتاجًا وفيك شدة وفيك بلاء وأنت تدعو ربك؟ لما أنعم عليك وأعطاك الصحة والولد وصرت تمشي، نسيت ربك: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ وهو دعاء الله.

- **ثم ماذا زيادة على ذلك؟**

نسي الله، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [الزمر: ٨]؛ جعل لله شركاء، وجعل أصنامًا يعبدها من دون الله، ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: ٨]، وفي قراءة: (لِيَضِلَّ)؛ يعني هو يضل عن سبيل الله ويضل غيره، في قراءة (لِيُضِلَّ) و(لِيَضِلَّ)؛ هو ضلَّ بنفسه ثم أضلَّ غيره، قال: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ -إذا أنت أعطاك الله الصحة والعافية وخولك نعمة ونسيت ربك وأشركت معه غيره-: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]؛ هذا تهديد وتخويف؛ تمتع بكفرك، ما دمت على هذه الحال وتعرف ربك وتجحده وتشرك به وتصر على كفرك والله ينعم عليك، فإذا متَّ فأنت من أصحاب النار إن لم تتب؛ أصحاب النار مخلدين فيها.

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾؛ أنت كافر جاحد لنعمة الله.

شوف، لما يذكر الله حال هذا الكافر يقابله بحال المؤمن، وتلاحظ السورة كثيرًا ما تقابل بين الآيات، شوف قال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

يقول: هل يستوي هذا الكافر مع الذي هو قانت لله عابد؟ هذا جاحد وكافر ويجعل لله أندادًا ويشرك بالله، وهذا المتمتع بكفره؛ أيهم أفضل؟ أم هذا القانت؟ أيهم أفضل عند الله؟ بلا شك أن هذا أفضل.

شوف قال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾؛ أهذا الكافر الذي يتمتع بكفره خير عند الله أم هذا العابد لربه قانت؟ وقانت يعني كثير القيام لله ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾؛ يعني ساعات الليل وهو قائم ساجد وقائم، يصلي ما بين قيام وسجود وركوع، كل الليل يشتغل بالطاعة، وهذا الكافر يلقي بنفسه على فراشه وينام كل الليل لا يدري عن نفسه؛ **(جيفة بالليل، حمار بالنهار)**؛ وهذا يتعبد ربه، هل يستوي هذا مع هذا؟

اسمع، يقول: ﴿ساجداً وقائماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾؛ يعني يخاف، يخاف من البعث، يخاف ماذا سيكون مصيره يوم القيامة، وما الذي سيجري؛ يخافون يوم القيامة، في خوف ورعب، لا يدرون ما الذي سيجري لهم، فيكون خائفًا.

يقول: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾؛ لأنه إذا حذر الآخرة استعد لها، وأقبل على الطاعات، وسأل الله أن يهون عليه، يحذر الآخرة ويحذر من أهوال الآخرة ومن عذاب الآخرة، ﴿وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾؛ يأمل في رحمة الله ويطلب رحمة الله، فهو ما بين خوف ورجاء؛ هذا المؤمن.

شوف: ﴿يَحْذَرُ﴾ خوف، ﴿وَيَرْجُو﴾ رجاء؛ فالمؤمن في الحياة الدنيا ينبغي له أن يكون هنا بين الخوف والرجاء، بين الخوف والرجاء، وإذا أقبل على الله في آخر حياته غلب جانب الرجاء حتى يحسن الظن بربه، أما في الدنيا.

يقول ابن القيم: "الخوف والرجاء كجناحي طائر؛ لا يمكن للطائر أن يطير إلا بجناحيه، فينبغي للمسلم أن يكون بين الخوف والرجاء".

شوف قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]؛ الذين يعلمون هم من يقنت ويقوم لله ويصلي الليل ساجدًا قائمًا، هذا الذي يعلم، والذين لا يعلمون هو هذا الكافر المتمتع بكفره؛ هل يستوي هذا مع هذا؟ قال: لا يستوي؛ الجواب لا يستوي.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ الذين يتذكرون وينتفعون بهذا هم **(أولو الألباب)** أصحاب العقول النيرة، هم الذين ينتفعون، أما غيرهم فلا ينتفع؛ خلاص قلبه مغلق مقفل.

شوف الآن عندنا الآيات ستنتقل أيضًا إلى نداء المؤمنين: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ [الزمر: ١٠]، وما يترتب عليه من العبادات والتخويف؛ لما قال ذلك يخوّف الله به عباده، والرجاء، والنعم التي ينعم الله بها على عباده والمتقين وغيرهم؛ هذا يأتي الحديث إن شاء الله تعالى عنه في اللقاء القادم.

نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الزمر ١٠ - ٢٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْكِرَامُ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ؛ حَيَّاكُمُ اللَّهُ فِي هَذَا اللِّقَاءِ الْمُبَارَكِ، وَفِي هَذَا الْيَوْمِ الثُّلَاثَاءِ الْمُوَافِقِ لِثَالِثِ الشَّهْرِ السَّادِسِ مِنْ عَامِ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَأَلْفٍ لِلْهِجْرَةِ (١٤٤٦هـ).

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَنَا بِمَا نَقُولُ وَبِمَا نَسْمَعُ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ، وَأَنْ يُبَارِكَ لَنَا فِي أَوْقَاتِنَا وَفِي أَعْمَالِنَا.

آياتٌ من كتاب الله نقرؤها ونبين معانيها ونتدبرها، ونمتثل ما فيها من الأوامر، وننتهي عما فيها من النواهي، هذه الآيات هي آياتٌ من سورة (الزمر)، وسورة (الزمر) فيها الحث على العبادة والإخلاص في العبادة؛ تجد كلمة العبادة، والعباد، والعبد تتكرر فيها كثيراً؛ والعبادة هي الخضوع لله والاستجابة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

تجد فيها ما أعدَّ الله لعباده المؤمنين، وتجد فيها ما أعده الله لأهل الشقاوة؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في عباده المتقين: ﴿لَّهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠]، ويقول في أهل الشقاوة: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]؛ مقارناتٌ بين أهل السعادة وأهل الشقاوة.

مقارناتٌ بين السعداء والأشقياء؛ فمن أراد أن يسلك طريق السعادة فالطريق أمامه، ومن أراد أن يسلك طريق الشقاوة فالطريق أمامه؛ اعملوا ما شئتم فكلٌّ ميسرٌ لما خُلق له.

سورةٌ عظيمةٌ تركز على قضية العبادة والإخلاص لله؛ يتكرر فيها لفظ الإخلاص والعبادة والخضوع لله، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ [الزمر: ٩]، كلها في العبادات والإخلاص والصبر والتحمل، وما أعدَّ الله لعباده الصالحين.

وقف بنا الكلام عند الآية العاشرة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

كلمة ﴿قُلْ﴾ ما تأتي في القرآن والمخاطَب بها هو المبلِّغ عن ربه محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سيد الأولين والآخرين، رسولنا وحبيبنا؛ إذا جاءت كلمة ﴿قُلْ﴾ فاعلم أن ما وراءها أمرٌ مهم.

كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلمُؤمِنِينَ يَغُضّوا مِن أَبصارِهِم﴾ [النور: ٣٠]، وقوله: ﴿قُل لا أَسأَلُكُم عَلَيهِ أَجرًا﴾ [الشورى: ٢٣]. فأشياء كثيرة تفتتح الآيات فيها بقوله ﴿قُلْ﴾، مما يدل على الحرص، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأمر نبيه محمداً أن يبلِّغ أمته هذا الشيء.

فقوله: ﴿قُلْ﴾ بعدها: ﴿يَا عِبَادِ﴾؛ نداءٌ من الله ينادي عباده، ويضيف العباد إليه إضافة تشريف؛ فلم يقل: **"يا أيها العباد"**، وإنما قال: ﴿يَا عِبَادِ﴾؛ أي أنتم عبادي. وفي هذا حثٌّ؛ إذا علمتَ أنت وسمعتَ أن الله يناديك ويقول لك: **"أنت عبدي، وأنت الذي استجبتَ لي وبادرتَ بطاعتي"**، فهذا يحثك؛ لأنه سيأتيك بعدها أمور.

ثم قال بعدها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فزادك صفةً ومنقبةً عظيمةً؛ كونك عبداً لله، وكونك من الذين آمنوا وحققوا الإيمان، والإيمان: التصديق بما جاء عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمبادرة والاستجابة لله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يا من اتصف بكونه عبداً لله، والعبادة والعبودية شرفٌ عظيم، ويا من اتصف بكونه مؤمناً، ثم قال بعدها ماذا؟ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾؛ فمع أنهم عبادٌ لله ومع أنهم مؤمنون، يأمرهم بالتقوى زيادةً: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾. والتقوى هي: الحث على فعل الخيرات وترك المنكرات، والخوف من الله.

وقوله: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ ولم يقل: **"اتقوا الله"** أو **"اتقوني"**؛ ذكرهم بما هو أعظم: **(الرب)**، ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾؛ مَن هو ربكم؟ ربكم الذي خلقكم، ورباكم بالنعم، ورزقكم، هداكم، وأعطاكم الخير؛ فتذكروا هذا الرب العظيم فاتقوه وخافوه، خافوا عقوبته وبادروا إلى طاعته.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ناداهم بهذا النداء، ووصفهم بهذه الأوصاف، وأمرهم بالتقوى؛ أخبرهم أيضاً بخبرٍ سارٍّ جميلٍ حسن، فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

- **ما هو الإحسان؟**

الإحسان هو إتقان العمل؛ أحسن فلانٌ في عمله أي أتقنه. فالإحسان يشمل إحسانك مع رب العالمين في عملك؛ تحسن صلاتك، تحسن أخلاقك، تحسن معاملتك، تحسن جميع عباداتك وتتقنها وتؤديها على أكمل وجه.

ثم هناك إحسانٌ آخر؛ وهو الإحسان مع الخلق؛ تحسن إليهم، تحسن إلى والديك، إلى أبنائك، إلى زوجتك، إلى جيرانك، إلى الفقراء، إلى المحتاجين وهكذا، تحسن بأي شيء؛ تحسن بالكلمة الطيبة، تحسن بالصدقة، بالنفقة، ونحو ذلك.

فالإحسان واسع، «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**»؛ فالإحسان أمرٌ واسع، وهو أعلى درجات الدين؛ فمراتب الدين: الإسلام، ثم الإيمان، ثم الإحسان، فالإحسان أعلى درجاته.

يقول: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾؛ ولم يقل: **"للذين عبدوا الله"** ولا **"للذين اتقوا الله"**، لا؛ أتى بأعظم الصفات: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾؛ أي أحسنوا أعمالهم وأقوالهم مع ربهم ومع خلقه في هذه الدنيا، قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

ومعنى ﴿حَسَنَةٌ﴾: أن الله يجازي المحسن على إحسانه؛ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ فالجزاء من جنس العمل؛ فكما أنك أحسنت علاقتك مع ربك، وأحسنت عملك مع الله ومع خلقه، فالله يجازيك بأحسن.

- **ما هي الحسنة التي وعدك الله بها في هذه الدنيا؟**

الحسنة كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. الحياة الطيبة، الحياة السعيدة، الحياة التي تجد فيها لذة الطاعة، وانشراح الصدر، والطمأنينة.

هذه هي السعادة؛ السعادة أن تكون دائماً متعلقاً بربك، دائماً في عبادة، تخرج من عبادة تدخل في عبادة، ما بين ذكر، وتلاوة قرآن، وصلاة، وعبادات؛ هذه هي حسنة انشراح الصدر، وسعة الصدر، والراحة النفسية، والطمأنينة، والصحة في الأبدان والعقول؛ هذه حسنةٌ مطلقةٌ جاءت نكرةً مطلقة.

- **ثم قد يأتيك شخصٌ ويدخل عليك شبهةً فيقول لك مثلاً: "والله يا أخي وجدنا ناساً يحسنون ويصلون ويتعبدون ربهم وحالتهم حالةٌ من الفقر والديون وضيق الصدر..."**.

الجواب: الله ماذا قال بعدها؟ قال: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾. إذا لم تحقق العمل الصالح، ولم تتمكن، ولم يكن المكان هذا مناسباً لك فهاجر؛ اخرج، غيِّر مكانك، اذهب؛ ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾.

- **وقد يأتيك شخصٌ ويقول لك: "طيب يا أخي، لا نستطيع أن نتعبد الله، أو نجد أناساً في أماكن لا يستطيعون أن يظهروا دينهم وقد ضُيِّقَ عليهم"**.

الجواب: لا يُعذرون؛ أرض الله واسعة، هاجِر؛ فإذا هاجرتَ -كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، فتجد السعة، ابحث.

- **ولذلك قد يأتيك الشيطان ويقول لك: "أتعبتَ نفسك في العبادات والطاعات، وكيف تهاجر وتترك البلاد والأهل والأوطان والديار؟"**.

الجواب: هذه كلها مرتبطة بالصبر؛ اصبر ولك الأجر، اصبر على العبادة، واصبر أيضاً على الهجرة في سبيل الله؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

صبروا على الطاعات، وصبروا على أقدار الله والمصائب، وصبروا عن المعاصي، وحققوا كلمة الصبر في الطاعات وما قدَّره الله؛ فالنتيجة: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وكما قال الأوزاعيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "يُغْرَفُ لَهُمْ غَرْفًا مِنْ غَيْرِ كَيْلٍ وَلَا وَزْنٍ"؛ يعني أجر الصابرين لا حدَّ له، الله يجازي على الأعمال؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعافٍ كثيرة، لكن الصبر بغير حساب؛ لأن الصبر أولاً من الأمور الصعبة التي قد لا يستطيع أي إنسانٍ عليها، وثانياً لأن الصبر مرٌّ يحتاج إلى عزيمةٍ قوية، ولذلك كان الجزاء فيه عظيماً.

ثم تعود الآيات إلى خطاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ قال: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

قل لهم: **"أنا أُمِرْتُ أولاً"**، وهو أول مَن يؤمر، فإذا كان هو قد أُمِرَ فغيره من باب أولى؛ ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ﴾، وغيري أُمِرَ أن يعبد الله مخلصاً له الدين؛ لا رياء، ولا سمعة، ولا لأجل أمرٍ من أمور الدنيا، وإنما العبادة تكون خالصةً لله. فلا تُقبل العبادة إلا بشرطين: الإخلاص، والمتابعة؛ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

- **ومتى نعرف أن هذا العمل عملٌ حسن؟**

بأمرين:

- الأمر الأول: الإخلاص لله؛ وأن يكون خالصاً لا يشوبه شيءٌ من أمور الدنيا.
- الأمر الثاني: أن يكون في متابعة ما جاء عن الله وعن رسوله.

فأعبد الله وأحقق العبادة، وهذه العبادة تكون خالصةً لله، الدين لله لا لأحدٍ من المخلوقين؛ ولذلك تؤكد السورة على العبادات، وتؤكد أيضاً على الإخلاص، انظر؛ قال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١٢].

أول المسلمين في هذا الدين محمدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بادر ربه واستجاب، واستجاب معه أصحابه فكان هو أولهم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزمر: ١٣].

انظر كيف تكرر ﴿قُلْ﴾؛ هذا كله يدل على عِظَمِ هذه الأمور. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أيها الإخوة، هذه الآية آيةٌ عظيمة، تبين لنا شؤم المعاصي، وتبين لنا آثار المعاصي السيئة.

انظر؛ إذا كنتَ قد عصيتَ ربك فإنك تخاف؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توعّد مَن عصاه بالعذاب. وجاء في الحديث القدسي: «**جَنَّتِي أَرْحَمُ بِهَا مَنْ أَشَاءُ، وَنَارِي أُعَذِّبُ بِهَا مَنْ أَشَاءُ**»؛ فالإنسان يخاف على نفسه.

- **ولذلك قال هنا ماذا؟**

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ﴾؛ متى؟ ﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾. إذا عصى الإنسان ربه كان في قلق؛ فالمؤمن يكون في قلق، والمؤمن إذا عصى الله يخاف كأن فوقه جبلاً يريد أن يسقط عليه، والمنافق إذا عصى الله كان كذبابٍ وقع على أنفه فقال به هكذا فطار؛ ما يهمه!

تجد المنافق أو ضعيف الإيمان، أو الذي يقع دائماً في المعاصي ويتلبس بها خلاص، تجد أن النفس تقبلت ذلك ولا يخاف، لكن المؤمن إذا وقع في معصيةٍ واحدة بدا يرتعد قلبه، ويخاف ليلاً ونهاراً ويستغفر ويتوب؛ هذا معنى ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ يخاف إن عصاه بشركٍ، أو بدعةٍ، أو معصيةٍ من المعاصي، يخاف العذاب الذي سيكون في هذا اليوم العظيم.

ثم عاد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى التأكيد على قضية الإخلاص التي ذكرناها؛ العبادة والإخلاص: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾[الزمر: ١٤].

أي أعبد الله وحده؛ وانظر كيف قدَّم لفظ الجلالة ﴿اللَّهَ﴾ ليدل على الحصر والقصر، فقال: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ لا غير، وأعبده ماذا؟ ﴿مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾؛ يعني أعبده وأنا أخلص العبادة لله، وإن لم أخلصها لا يقبلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ألا لله الدين الخالص.

ثم قال في حق الكفار: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥]. أنتم إن لم تستجيبوا لدعوتي، ولم تبادروا بالدخول في الإسلام، وبقيتم على عنادكم وكفركم؛ فاعملوا على مكانتكم إنا عاملون، ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾. وهذا الأمر للكفار هو على سبيل التهديد والتخويف.

ولذلك رتَّب عليه العقوبة فقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ١٥].

حقيقةً؛ الذين خسروا أنفسهم في نار جهنم، وخسروا أهليهم في نار جهنم يوم القيامة، هذا هو الخسران!

أما خسارة الدنيا فتُعوَّض؛ خسرتَ في صفقةٍ أو تجارةٍ فتُعوَّض مرةً أخرى وتربح، لكن الآخرة خسارةٌ لا ربح بعدها؛ فاحذر أن تكون من الخاسرين في الآخرة، احذر؛ فالمعاصي هي سبب الخسران.

ولذلك انظر كيف قال: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم﴾، فإن الخسارة الحقيقية لمن عبد الأصنام والطاغوت ولم يعبد الله، فخسر نفسه وآخرته في الآخرة: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

ثم قال: ﴿أَلَا﴾ للتنبيه، انتبه؛ ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾؛ أشد الخسران أن تخسر نفسك وأهلك يوم القيامة، هذا أشد الخسران؛ ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

ثم أفصح لك ما هو الخسران الذي سيحصل يوم القيامة وكيف يحصل؛ قال سبحانه مبيناً حالهم في نار جهنم: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

- **ما هي نار جهنم؟**

قال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾؛ والظلة مثل السحابة، وظللٌ من النار ليست ظلل سحابٍ أو ظل شجرٍ بارد، لا؛ بل ظل نار؛ يعني حرارة شديدة تظللهم النار من فوقهم. ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾؛ يعني تحتهم نارٌ وفوقهم نار. والظلل هي هذا الدخان الشديد الذي يظلل الإنسان، والنار التي تظلله والحرارة الشديدة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في موضعٍ آخر: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]؛ والمهاد من تحتهم، والغواش من فوقهم؛ فالغاشية هي الغطاء، يعني فوقك عذاب نار جهنم وتحتك عذاب؛ أي أن العذاب قد أحاط بهم، وهنا في الزمر قال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

- **قد يقول قائل: "معروفٌ أن الظلل تكون فوقك، فكيف تكون تحتك ظلل؟".**

الجواب: الظلل التي تحتك هي ظللٌ لمن تحتك؛ لأن النار دركاتٌ بعضها تحت بعض؛ فهناك أناسٌ وتحتهم أناسٌ وتحتهم أناس، والنار تتلهب وتتسعر، والظلل من فوق ومن تحت ونسأل الله أن يعيذنا وإياكم من النار.

قال بعدها: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ ۚ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦]. أي هذا المذكور من العذاب والخسران يخوّف الله به عباده؛ يخوفهم بالعذاب لكي تصلح قلوبهم، حتى تكون قلوبهم صالحة، وحتى يستقيموا، وحتى يخافوا، ويغلب عليهم الخوف فيبتعدوا عن الذنوب والمعاصي.

هذا معنى ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾؛ فإذا عرفتَ أن الله أعدَّ للعصاة هذه النار، خفتَ أن تكون منهم، ثم يناديهم ربهم: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾؛ اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ وخافوه، وابتعدوا عن معاصيه، فإن للمعاصي شؤماً عظيماً.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر عباده المتقين فيقول: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[الزمر: ١٧].

- **ما هو الطاغوت؟**

الطاغوت: كلُّ ما عُبِدَ من دون الله وهو راضٍ، فهو طاغوت؛ سواء كان من شجرٍ، أو حجرٍ، أو إنسانٍ، أو بهيمةٍ، أو وليٍّ، أو صالحٍ، أو نبيٍّ، أو ملك.

وكل مَن يُعبَد من دون الله وهو راضٍ؛ والملائكة لا يرضون، والأنبياء لا يرضون، ولكن من الناس من اتخذهم وعبدهم؛ وهؤلاء الأنبياء والصالحون والأولياء والملائكة لا نقول عنهم طواغيت.

وإنما نقول: **"عُبِدوا من دون الله"**، وعبادتهم شرك؛ لكن الطواغيت هم مَن عُبِدوا من دون الله وهم راضون بذلك؛ كما نجد ممَّن يُسجَد له ويُركَع له وهو راضٍ، فهذا طاغوت.

والطاغوت مشتقٌّ من الطغيان؛ والطغيان هو تجاوز الحد؛ طغى يعني تجاوز الحد، فسمي طاغوتاً لأنه تجاوز الحد حيث رضي أن يُنزَّل منزلة الله في العبادة ورضي أن يُعبَد من دون الله؛ فهؤلاء هم الطغاة. فالمؤمن يجتنب طريق الهلاك وطريق عبادة غير الله، فلا يعبد إلا الله.

ثم قال: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي رجعوا إلى ربهم، فهم كثيرو الرجوع والإنابة. والإنابة تختلف عن التوبة؛ فالتوبة أن تقع في ذنبٍ ثم بعد ذلك تستغفر وتتوب، فهذه توبة؛ أما الإنابة فهي كثرة الرجوع إلى الله، وكثرة الاستغفار، وقول: **"إنا لله وإنا إليه راجعون، أستغفر الله وأتوب إليه"**؛ فكثرة الاستغفار والتوبة والإكثار منها هي الإنابة، وأصحابها يقال لهم منيب ومنيبون.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾؛ هؤلاء الذين سلموا من عبادة الطواغيت وعبدوا ربهم وأنابوا إلى الله، قال عنهم: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾. وانظر كيف قال: ﴿اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ فلم يكتفوا بالاجتناب والجلوس بل قال: ﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾، فما هي النتيجة؟ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

- **ما هي هذه البشرى التي تظنها؟**

البشرى هنا مطلقة؛ تشمل البشرى في الحياة الدنيا؛ حيث يبشرهم ربهم بالنعيم والسعادة في الدنيا، والطمأنينة وانشراح الصدر، وتبشرهم الملائكة عند نزول الموت بهم.

حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. وتبشرهم في قبورهم، وتبشرهم عند خروجهم من قبورهم ومحشرهم؛ فلهم البشرى مطلقاً.

ثم قال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾؛ أي بشرهم يا صاحب الدعوة، وبشرهم يا أيها الداعي إلى الله، بشر العباد الذين أخلصوا عبادتهم لله، واجتنبوا عبادة الشرك، وأنابوا إلى ربهم؛ بشرهم بهذه البشارات الطيبة.

- **مَن هم عباد الله المذكورون؟**

قال سبحانه واصفاً إياهم: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨].

يستمعون الذكر والمواعظ ويأخذون بأحسنها، ويستمعون القرآن؛ والقرآن فيه من الفرائض والواجبات والمستحبات، وفيه من الحلال والحرام والمباحات؛ فالمؤمن العاقل يبادر ويتبع أحسن ما فيه.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨]. قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾؛ هداهم الله لحسن الأقوال والأفعال، وأحسن العبادات، وهداهم لأحسن الأخلاق؛ وهذه هدايةٌ عظيمةٌ من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ومَن الذي هداهم؟ هداهم رب العالمين.

وقال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أي أصحاب العقول النيِّرة التي أنارها الله بالطاعات والعلم النافع، فتجد الكثير من هذه البشارات وهذه الأوصاف التي وصف الله بها هؤلاء المتقين؛ ولا شك أنها بشاراتٌ عظيمة.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾ [الزمر: ١٩].

يعني: مَن حَقّت عليه كلمة العذاب، هل أنت تنقذ مَن في النار؟ الذي حقت عليه كلمة العذاب لا نستطيع أن ننقذه من النار؛ لماذا؟ لأن الذي حقت عليه الكلمة هو الذي تسبب بها، وهو الذي بحث عنها حتى أوقع نفسه في العذاب واستحق أن يُجازى به؛ فهذا لا تستطيع أن تنقذه من النار؛ لأنه عاش شقياً ومات شقياً، فلا يمكن ولا ينفع فيه الخير.

ولذلك قابل الله عَزَّ وَجَلَّ هذا الشقي بالسعيد، فقال: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠].

السعداء هم الذين عرفوا الحق، واتقوا ربهم وخافوا الله؛ واتقوا ربهم -مثلما ذكرنا قبل قليل- أي خافوه؛ قال: هؤلاء ﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ في الآخرة؛ والغرف هي المنازل العالية في جنات النعيم، ﴿مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾.

- **وممَّ وبأي شيء بُنِيَت؟**

☜**جاء في الحديث أن غرف الجنة مبنية:** «لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ»؛ فهذه الغرف المبنية العالية هي لمن اتقوا ربهم؛ منازل عالية وغرفٌ عظيمة لا يعلم قدر مساحتها إلا الله.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾؛ قصورٌ عالية والهدير والماء والأنهر تجري من تحتها؛ نعيمٌ عظيم ونعيمٌ لا ينفد. وهذه الغرف.

☜**كما جاء في الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:** «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا»؛ غرفٌ جميلة، وحسنة، وشفافة، وعالية. قيل: يا رسول الله، لمن هي؟ قال: «لِمَنْ أَلَانَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»؛ فيحرص الإنسان على هذه الأمور الجالبة لهذه المنازل العالية.

قال: ﴿وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾؛ أي هذا وعد الله الذي لا خُلف فيه؛ فالله وعد المتقين بهذه الغرف والمنازل العالية والقصور في الجنة، وهو لا يخلف وعده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده؛ فالسورة عظيمةٌ حقيقةً، سورة تزرع في قلوبنا هذه الطاعات والعبادات، ونسأل الله أن لا يحرمنا فضلها. السورة تحيي القلوب؛ تذكر ما بين وعدٍ ووعيد، وما بين جزاء لرب العزة للأشقياء وجزاء لعباده الاتقياء؛ نسأل الله أن لا يحرمنا فضله.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الزمر ٢١ - ٣١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثلاثين من شهر جمادى الآخرة من عام (١٤٤٦هـ) من الهجرة.

درسنا في التفسير؛ السورة التي بين أيدينا هي سورة (الزمر)، تحدثنا عنها في لقاءات ماضية، ووقف بنا الكلام عند الآية رقم واحد وعشرين من السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١].

- **لما تقرأ أنت هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ﴾؛ من المخاطَب بها؟ هل هو الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أم المؤمن، أو مثلاً كل من يصلح له الخطاب؟**

الجواب: هذا عام؛ أنا، وأنت، والثاني، والثالث، كلنا مخاطبون بهذا الخطاب؛ والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يلفت أنظار الناس إلى هذا الأمر، سواء كان مؤمناً أو كان كافراً، يجب عليه أن يتأمل ويتفكر ويتدبر، ولكن من هو الذي يتدبر؟

- **ومن هو الذي ينتفع؟ ومن هو الذي يتذكر مثل هذا الشيء؟ هو المؤمن، هو العاقل.**

ولذلك ختم الله الآية قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، يتذكر ويتعظ أصحاب العقول السليمة؛ العقول التي سلمت وأصبحت سالمة من أي أذى، ومن أي معصية أو بدع حجبتها عن القلوب.

(الألباب): القلوب؛ القلوب الصافية، القلوب السليمة التي سلمت من الذنوب والمعاصي والشرك بالله؛ كل هذه إذا سلمت فإنها تعتبر وتتذكر وتنتفع، أما القلوب المريضة والقلوب القاسية والقلوب التي فسدت ومريضة، هذه لا تعتبر ولا تستفيد من هذا الشيء؛ لذلك الله خصَّ هؤلاء أنهم هم المنتفعون، وإن كان الخطاب للجميع، كلهم مخاطبون.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يلفت الأنظار إلى هذا الشيء؛ يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، والهمزة هنا همزة إنكار، همزة إنكار وتوبيخ؛ كيف لا تلفت نظرك، وكيف لا تلتفت لهذا الشيء وتعتبر؟ كيف تعمي بصرك عن هذا الشيء؟ ولذلك كثير من المفسرين يقول: الهمزة متعلقة بفعل محذوف تقديره: **(أعميتَ بصرك فلم ترَ؟)**، **(أجهلتَ فلم ترَ أن الله...)**.

(أغاب عنك هذا الشيء فلم ترَ أن الله هو الذي أنزل من السماء ماء؟). هو الذي أنزل من السماء وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أنزل من السماء ماءً وهو السحاب؛ فالماء الذي نزل من السماء سلكه الله عَزَّ وَجَلَّ ينابيع، أدخله في الأرض وسلكه؛ أي جعل له طرقاً في الأرض.

طرقاً خفية لا تراها أنت؛ يعني لو جئت إلى الأرض ما وجدت فيها شقوقاً، فسبحانه وتعالى سلكه؛ يعني جعل له طرقاً في الأرض، سلكه ينابيع، و**(الينابيع)**: جمع ينبوع، وهي العيون التي تكون في الأرض، العيون التي تكون في الأرض.

قال: ﴿سَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾؛ أي بهذا الماء، ﴿يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾، الزروع المختلفة الألوان من العشب والخضرة والحبوب؛ كمثل الأرز، والشعير، والقمح، والذرة، وغيرها، زروع مختلفة.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ يهيج يعني ييبس، من **(هاج)** إذا اشتد؛ يقال أيضاً: **(هاجت الريح)** إذا اشتدت؛ يعني يشتد ثم ييبس، يقول: فإذا يَبِسَ ﴿تَرَاهُ مُصْفَرًّا﴾؛ بعدما كان بهذه الألوان الزاهية الجميلة الحسنة والرائحة الطيبة، إذا هو قد اصفرَّ، فإذا اصفرَّ بعد ذلك، قال: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾.

- **شوف لاحظ؛ يقول: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ثم ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ﴾، (ثم) هذه ماذا نستفيد منها؟**

هذه في لغة العرب تفيد التراخي؛ يعني هذا الذي يخرجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى زرعاً مختلفاً ألوانه يبقى مدة من الزمن، ثم بعد هذه المدة يهيج؛ يعني ييبس.

فإذا ييبس أصبح مصفراً، ثم بعدما يصفر يأخذ له مدة وهو أصفر، بعد ذلك يجعله حطاماً؛ يتكسر، يصبح أسود متكسراً، تبدأ الريح تذروه وتطيره؛ لأنه أصبح متكسراً يابساً.

يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾؛ ماذا نستفيد إذا كان الله يقول هذا فيه ذكرى أو تذكر؟ نتذكر قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فهو الذي خلق الماء، وأنزله من السماء، وأنبت به الزرع، ثم جعله يتحطم ويذهب ويتكسر، هذا فيه عبرة وتذكر.

⬅أولاً: تذكر قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العظيمة الباهرة في إنزال المطر، وخلق هذا الماء، ثم إنبات الزرع المختلف الألوان والروائح والزروع والنباتات؛ هذه قدرة الله العظيمة، ما أحد يستطيع أن يفعل هذا الشيء إلا الله.

⬅ثانياً: ضرب المثل في الحياة الدنيا وسرعة زوالها؛ لأن هذا دائماً يأتي في التشبيه بالدنيا، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ [يونس: ٢٤]؛ فيضرب الله مثل الحياة الدنيا في سرعة زوالها؛ فالدنيا فيها زهرة تقطفها وتأكلها، الدنيا فيها نعيم، فيها خضرة، فيها خير، فيها رزق.

ثم هذا الرزق وهذا المتاع وهذه الخضرة وهذا الخير لا يبقى لك، لا يبقى، سيذهب وينتهي، أو أنت تذهب وتتركه، فيضرب الله مثلاً للحياة الدنيا في سرعة زوالها بالماء الذي ينزل من السماء، ثم ينبت به الزرع، ثم ينتهي ويذهب؛ هذه سرعة زوال الدنيا.

⬅ثالثاً: لفت النظر إلى إحياء الناس بعد موتهم وإخراجهم من قبورهم؛ فقدرة الله على خلق هذا الماء وإنبات الزرع -من الذي يستطيع أن يخرج هذه الزروع المختلفة الألوان والحبوب المختلفة المتنوعة؟ هذا قدرة الله على البعث، ودائماً الله في القرآن يذكر الماء وإنبات الزرع ليدل على قدرته على البعث.

كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

فكما أنه أخرج الزرع من هذه الأرض يخرجكم من قبوركم، وكما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧-١٨]؛ كالزرع، مثل الزرع، ومثل الماء الذي يخرج من الأرض.

رابعاً: الوحي؛ فأنزال الوحي من السماء كأنزال الماء من السماء؛ فالله أنزل الماء من السماء ليحيي به الأرض، والله أنزل الوحي من السماء، أنزله على نبيه لتحيا به القلوب؛ مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، سمَّاها روحاً لتتحرك القلوب، فإذا دلالة الآية عجيبة.

فالوحي ينزل من السماء فيستقر في القلوب فتحيا به القلوب، وهناك من القلوب ما لا تحيا؛ كالأرض التي هي قيعان، تصب الماء عليها فلا تنبت ولا تستفيد، ولا تمسك الماء فيذهب الماء ويتركها.

وهناك من الناس مثل ما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قال: «مَثَلِي كَمَثَلِ غَيْثٍ»؛ يعني مثلي في الدعوة، لما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته، قال: «إِنَّمَا مَثَلِي كَمَثَلِ غَيْثٍ».

في الحديث الذي ورد قال: «إِنَّمَا مَثَلِي كَمَثَلِ غَيْثٍ»؛ يعني في ضربه المثل برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودعوته، فالوحي الذي ينزل من السماء مثل الماء الذي ينزل من السماء، وهذا أيضاً أقرب ما يكون؛ يعني لو تأملنا في هذه الآية لوجدنا أن ربطها بالوحي والقرآن والدعوة والدين الشرعي لكان هذا أقرب.

- **شوف لاحظ؛ تأمل الآيات، يقول بعدها ماذا؟**

قال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]؛ مثل الغيث الذي ينزل من السماء فتنشرح الأرض له ويستقر فيها، فتنبت به الزرع، ويستقر الماء فيها فيخرج الماء من الآبار، فيقول: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾.

ثم قال ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]. القيعان، الأرض اليابسة التي لا تنتفع بالماء ولا تنبت الزرع: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

يقول: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ﴾؛ هذا استفهام، يقول: أفمن شرح الله صدره للإسلام كمن لم يشرح الله صدره وأصبح صدره ضيقاً حرجاً وقلبه قاسياً؟ لا يستويان؛ فمن شرح الله صدره للإسلام وفتح الله له النور فهو على نور من ربه وهداية بالإسلام.

فتجد الشخص الذي دخل قلبه الإيمان واستقر فيه، منشرح الصدر، وقد أنار الله قلبه وأنار الله وجهه، فهذا من أثر الإسلام؛ مثل الماء الذي ينزل من السماء فينبت الله به، فتخرج هذه الألوان البهية والزروع والخير.

ثم قال: ﴿فَوَيْلٌ﴾؛ وعيد شديد لمن؟ ﴿لِّقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾، مثل القيعان لا تنبت ولا تمسك، ﴿قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لا يقبلون ذكر الله ولا وحيه، ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أولئك الذين قست قلوبهم لا شك أنهم في ضلال مبين، والمؤمن على نور من ربه، فرق بين هذا وهذا.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيَّن لك أثر هذا القرآن، فقال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ ما في أحسن من هذا الحديث أبداً، ما تجد أحسن من القرآن لا في ألفاظه ولا في معانيه؛ فألفاظه من أحسن ألفاظ لغة العرب.

أتى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به باختيار هذه الألفاظ التي يعجز العرب عنها، فهي من أفضل الألفاظ وأحسنها، ألفاظ سلسة وسهلة وواضحة المعاني، ليس فيها تعقيد ولا صعوبة، ومعانيه لا تنتهي؛ معانٍ عظيمة نستفيد منها دروساً وعِبراً.

قال: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾؛ القرآن متشابه في ألفاظه ومعانيه، تجد التشابه فيه في ألفاظه ومعانيه وفي دلالاته، تجده يذكر القصص متشابهة، ويذكر الأحكام متشابهة، لا ليس فيها تناقض ولا اختلاف؛ (متشابهة) يعني متماثلة، يشبه بعضه بعضاً في القوة والدلالة والمعاني، لا يناقض بعضه بعضاً؛ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، يأمر بالتوحيد وينهى عن الشرك، يأمر بالخير وينهى عن الشر.

﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ﴾؛ و(مثاني) لأنه يُثنى؛ أي يُعاد ويُكرر، فأنت تكرر الآيات وتقرأها وتعيدها وتختم، ثم تعيد ختمتك ثم تختم ثم تعيد، والآيات تثنى فيه، والقصص تثنى فيه؛ قصة نوح كم مرة ذُكرت؟ موسى كم مرة ذُكر؟ آدم كم مرة ذُكر؟ مثاني؛ أحكامه كم مرة ذُكرت؟ الطهارة، الصلاة، الصيام، الحج، فهكذا مثاني.

يقول بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ يقول هذه الآيات لقوتها وبلاغتها وإعجازها، إذا سمعها الإنسان، وفيها ما فيها من التحذير والتخويف؛ مثل ما مر

معنا لما قال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، تخويف؛ ولذلك يخوف الله به عباده، تقشعر منه الجلود وتخاف. يخشون، جلود من؟

قال: ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أما الذين لا يخشون ربهم فالقرآن لا يتأثرون به ولا ينتفعون به، لكن الذين قلوبهم لينة ويستمعون ويستفيدون ويعتبرون ويتدبرون، الجلود تقشعر؛ يعني الجلود تقف، تقشعر جلود الذين يخشون ربهم؛ ليس فقط تقشعر؛ يعني ترجف وتتحرك، وهذا مثل الارتعاش مثل التحرك، يعني يحصل فيها قشعريرة، ترجف الجلود وتتحرك.

قال: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾؛ بعدما يسمعون هذه الآيات تلين جلودهم، وإذا لانت الجلود لانت القلوب؛ قال: ﴿جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾.

القلوب لينة ليست قاسية مع الآيات، تتأثر وتتأثر، تجد الشخص إذا سمع الآيات العظيمة يخشع ويبكي ويتأثر ويقشعر جلده، ثم بعد ذلك يلين الجلد وتلين القلوب وتتأثر؛ لأن القرآن مثل الماء الذي ينزل على الأرض فتلين له الأرض تصبح لينة طينية.

قال: ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ إلى ذكر الله، وهو القرآن وما فيه من المواعظ.

قال: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي القرآن والمواعظ والتذكير، ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ﴾؛ ممن أحب الخير وأقبل عليه فالله يهديه، أي شخص يحب الخير ويقبل عليه فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يهديه ويدله على الخير، ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾؛ الذي يضلله الله بسبب ذنوبه ومعاصيه وإعراضه وتكبره، هذا لن تجد له من يهديه، ولن يستفيد من القرآن، ولا ينتفع بالقرآن.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك يبين عقوبة هؤلاء المعرضين القاسية قلوبهم والذين ضلوا وأضلهم الله يوم القيامة، فيقول: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٢٤].

وشوف الهمزة تأتينا بعد كل آية؛ يقول: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي﴾؛ لأن السورة فيها مقارنات؛ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ [الزمر: ٩] فيها مقارنات؛ فيها الذي يقنت ويطيع كمن هو جاهل لا يتعلم مثلاً.

وهنا مر معنا: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ﴾ كمن لم يشرح الله صدره، ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩] كمن حق عليه كلمة الخير والرحمة والنجاة؛ لا يستوي هذا مع هذا.

هنا يقول: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ يتقي بوجهه ولا يتقي بيديه، النار أمامه الآن، لهب النار وحرارة النار أمامه، فهل الإنسان إذا كانت أمامه لهب وحرارة يتقي بوجهه ولا يتقي بيده؟

في الدنيا يضع يده حتى لا يتأثر الوجه، هنا لا؛ يتقي بدنه بوجهه، لماذا؟ لأن الأيدي والأرجل؛ الأيدي قد غُلَّت، والأرجل فيها السلاسل، فليس أمامه إلا وجهه، فيتقي بوجهه النار، سوء العذاب؛ يتقي بوجهه العذاب السيئ الشديد يوم القيامة، أما إذا جاء لهب جهنم وقيل للظالمين.

يقول: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ كمن هو سالم بعيد عن هذا؟ لا يستوي هذا مع هذا؛ ولذلك قال: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾؛ سماهم ظالمين، ذوقوا هذا العذاب بسبب كسبكم، أنتم كسبتم هذه الأشياء، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون، بسبب ذنوبكم ومعاصيكم بما كنتم تكسبون.

قال: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٢٥]؛ يقول: إن كان هؤلاء المعرضون عن القرآن ولا يريدون قبوله كذبوا بالقرآن ولم يقبلوه، فقد كذب من قبلهم برسلهم وردوا رسالات ربهم، فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، نزلت بهم العقوبات.

فأنتم يا أهل مكة، ويا كل من يعرض عن القرآن ولا يقبله ويكذب القرآن، فإن عقوبة الله قريبة منه، وإن العذاب سينزل به؛ ﴿فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، ما كانوا يتوقعون أن ينزل بهم العذاب، في رغد من العيش وفي أمن وأمان، ولا يدري إلا وقد نزل به العذاب من حيث لا يشعر.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦]؛ فإذاقهم الله الخزي والعار والفضيحة في الدنيا قبل الآخرة في الحياة الدنيا، أما الآخرة قال فيها: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، لو كانوا يعلمون لما فعلوا هذا، لو كانوا يعلمون عذاب الآخرة وعذاب الدنيا لما أعرضوا ولما كذبوا، ولكنهم ما كانوا يعلمون لجهلهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسوق لنا ضرب الأمثال في هذا القرآن؛ فالقرآن مليء بالأمثال، قال: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، ومدحه.

قال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٨]؛ قرآن عربي فصيح واضح للعرب يفهمونه، ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾؛ ما في عوج، ما في ألفاظ غير واضحة غامضة، ألفاظه بيّنة واضحة، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وإذا إنسان ما فهم الآيات يقول: (الآية عندي غامضة)، هي عندك غامضة، أما القرآن واضح ولكن أنت ما تفهم لأنك أنت عندك قصور، عندك ضعف في اللغة، عندك ضعف في الفهم، هذا شيء يرجع لك أنت، أما القرآن واضح، ولو كان من عند غير الله.

كما قال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، لكنه من عند الله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾.

- **(عَوَج) و(عِوَج)؛ متى نقول عَوَج ومتى نقول عِوَج؟**

قال: (العَوَج) في الأشياء المحسوسة، و(العِوَج) في الأشياء المعنوية؛ تقول: هذا الجدار فيه عَوَج، وهذه العصا فيها عَوَج، وهذا الشخص عنده عِوَج في تصرفاته؛ فـ(العِوَج) للأشياء التي لا تُشاهد، يعني أشياء غير محسوسة، أشياء معنوية. فالقرآن ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾؛ القرآن لم يُجعل له عِوجاً.

قال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾؛ لماذا؟ قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فإذا كان القرآن يضرب الله فيه الأمثال لنتذكر، والقرآن العظيم أنزله الله علينا وجعله واضحاً بيّناً لنتقي الله عَزَّ وَجَلَّ فيه، ونتدبره ونعمل به.

لما ذكر الله أنه قد ضرب لنا أمثلة عظيمة في هذا الكتاب، الآن يسوق لنا مثلاً واحداً حتى تعرف هذه الأمثال؛ هذا المثل الذي سيسوقه الله لك مثلٌ يتعلق بالتوحيد؛ الذي يعبد الله وحده لا شريك له، شخص واحد يعبد الله، يعني واحد مقابله واحد يعبد الله، وشخص آخر يعبد أصناماً، يعبد ستة سبعة ثمانية؛ هل يستوي هذا مع هذا؟

هذا لا يستوي مع هذا؛ كيف تعبد كل يوم تعبد لك واحداً؟ ولا كل دقيقة تعبد واحداً؟ كيف تجمع بينها؟ عندك بعضهم يعبد الآلاف يعني من المعبودات الباطلة، الله واحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والذي خلقك واحد، والذي خلق الخلق واحد، والذي يرزقك واحد، يجب أن نعبده وحده لا شريك له.

اسمع المثل؛ يقول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]؛ يقول: هذا رجل مملوك، عبد يملكه

شركاء كثيرون، وهؤلاء الشركاء -يعني الأسياد الذين يملكون هذا المملوك- اشترك فيه عدد ستة، سبعة أشخاص، هؤلاء كلهم يملكون هذا الشيء، مشتركين كلهم اشتركوا في هذا المملوك، هذا العبد كلهم.

وهؤلاء الشركاء ليسوا متفقين بل هم متشاكسون؛ يعني مختلفون، كل واحد له رأي، وكل واحد له توجه، فهذا المسكين في حيرة وتعب ومشقة بين أوامرهم المتناقضة وتوجهاتهم المختلفة؛ بخلاف الرجل الذي هو خالصٌ وسَلَمٌ لسيدٍ واحدٍ، يعرف مراده ويرضيه فيستقر ويهدأ باله.

هذا مثل المشرك الذي تتجاذبه المعبودات الباطلة، والموحد الذي أخلص دينه لربه الواحد جل جلاله؛ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطباً نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومبيناً حتمية الرحيل عن هذه الدار: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]؛ كلكم ذاهبون، والدنيا دار ممر والآخرة دار مقر، فإن كلكم ميتون، ولكن كلٌّ يعتبر ويتفكر ويعمل لآخرته؛ هذا المقصود؛ يعمل، فإذا كنت عارفاً أنك ستذهب من هذه الدنيا فاستعد لهذه الرحلة ولهذا السفر.

ثم قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]؛ إذا جاء يوم القيامة اختصم المتخاصمون، يختصمون عند الله، يختصمون عند الله فيقضي الله بينهم بالعدل والحق؛ فالخلق كلهم سيصيرون إلى الله وإلى الله تصير الأمور، والذي يقضي بينهم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه الآيات التي استمعنا لها وقرأناها وتفكرنا فيها وتأملنا في معانيها ودلالاتها لا شك أنها آيات عظيمة، آيات عظيمة وتزيد الإنسان علماً وتزيده إيماناً وقوة وتمسكاً بهذا القرآن وتمسكاً بشريعته.

وتزيده أيضاً شكراً وحمداً لله أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل لنا خير أمة وهدانا للقرآن وهدانا للإسلام. شوف كيف الآيات وعِظَمها، وضرب الأمثال، والقرآن، ونعمة القرآن علينا ونحن غافلون عن هذا كله!

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بالقرآن، ويجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الزمر ٣٢ - ٤٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في لقائكم المبارك مغرب الثلاثاء من كل أسبوع في درسكم المتعلق بتفسير القرآن العظيم؛ سورة (الزمر). وهذا اليوم هو اليوم السابع من الشهر السابع من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة (١٤٤٦هـ).

سورة الزمر؛ وقف بنا الكلام عند الآية رقم إحدى وثلاثين، ونواصل ما بعدها؛ وهو قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٢].

انظر إلى هذه الآية العظيمة؛ يجب علينا أن نقف عندها ونتأملها؛ فقد افتتحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحرف الفاء: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ...﴾؛ أي كأن هذه الآيات التي مرت معنا تبيّن أن فيها ظلماً، وتعدياً، وإعراضاً، وكفراً؛ لأن الآيات التي سبقتها كلها تناقش المشركين، وتجادلهم، وتحاورهم في عقائدهم الفاسدة، وتبين الحق من الباطل.

فبعد هذا البيان الشافي، وذكر التهديد والتخويف بالنار، كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ثم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤].

وقوله: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٢٥]، وقوله: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦]؛ فبعد كل هذا التهديد، والتخويف، والوعيد الشديد، يعطيك الله النتيجة فيقول: ليس هناك أحدٌ أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه.

⬅المعنى الأول: وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ (مَنْ) هنا بمعنى النفي؛ أي: لا أحد أظلم، ليس هناك أحد أشد ظلماً ممن يكذب على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وفي هذا تعريضٌ أولاً بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكذب على الله عَزَّ وَجَلَّ، وحاشاه أن يكذب على الله.

وإنما جاءكم -أيها الناس ويا كفار قريش- بالحق، وبالرسالة، وبالوحي الصادق من الله؛ فلا يكذب، ولم تعهدوا أو تذكروا عنه كذباً قط طوال حياته بينكم، فما عهدتم عليه كذباً أبداً؛ فلا يمكن أن يكذب على الله، هذا هو المعنى الأول.

⬅المعنى الثاني: فهو تحذيرٌ لكم أنتم أن تكذبوا على الله؛ فتقولون عن هذه الآلهة والأصنام: إننا نعبدها لتقربنا وتخضع لنا وتشفع لنا عند الله، أو تزعمون أن الله أمركم بعبادتها؛ فلا تكذبوا على الله.

ولذلك قال سبحانه: لا أحد أظلم ممن كذب على الله؛ ويدخل في عموم هذه الآية كل من كذب على الله وقال: **"هذا أمر الله به"**، أو **"هذا حلال وهذا حرام"** بغير علم، أو افترى على الله كذباً، أو ادعى على الله شيئاً لم يقله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فكل هؤلاء داخلون دخولاً أولياً في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾[الزمر: ٣٢].

ثم قال بعدها: ﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾؛ وكذب بالصدق: أي بالقرآن العظيم، وبالوحي، وبالرسالة، وبالشريعة الغراء؛ كذّب بها فلم يقبلها، ولم يعترف بها، وإنما اعترض عليها وعاندها وأنكرها، كذب بالصدق إذ جاءه؛ أي جاءك الحق، وجاءك القرآن، وجاءك الوحي الإلهي فكذبت به وأعرضت عنه.

ثم لما بيّن سبحانه الحكم عليهم بأنهم أظلم الظلمة وأكذب الكذبة؛ أردف ذلك ببيان جزائهم العادل فقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾[الزمر: ٣٢]؛ و(المثوى) هو: المقام والمستقر؛ أي أليس في نار جهنم مستقر ومقام ومأوى لهؤلاء الكافرين الجاحدين؟ بلى، إنها مأواهم ومقامهم الخالد.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مقابلاً بين أهل الشقاوة وأهل السعادة: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[الزمر: ٣٣].

والذي جاء بالصدق هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والأنبياء من قبله، ومن تبعهم ودعا بدعوتهم؛ وصدَّق به: هم المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالوحي وعملوا به ودعوا إليه، فهؤلاء هم المتقون حقاً الذين اتقوا عذاب الله بفعل طاعته واجتناب معصيته.

ثم بيَّن ما أعده لهم من الجزاء العظيم فقال: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٤].

لهم ما يشتهون وما تطلبه أنفسهم وتلذه أعينهم عند ربهم في جنات النعيم؛ ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

☜**والإحسان كما بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث جبريل المشهور:** «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»؛ فهو إحسانٌ وتوفيقٌ بينك وبين الله عَزَّ وَجَلَّ في عبادتك، وهناك أيضاً إحسانٌ بينك وبين الخلق؛ وهو بذل الندى وكف الأذى، فيشمل إحسانك مع والديك ببرهما، وإحسانك مع أبنائك وزوجتك بتأديبهم والنفقة عليهم بالمعروف.

وإحسانك مع جيرانك بحفظ حقوقهم، وإحسانك مع إخوانك المسلمين في كل مكان بالوقوف معهم ومساعدتهم. فأحسن إلى الناس؛ تكن من المحسنين وتدخل في هذه الآية العظيمة: ﴿ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ فالإحسان أمرٌ واسعٌ جداً.

☜**وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»؛ فهو إتقان العمل وإحسانه لله وللخلق.

ثم يزيد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كرمه، وعطائه، وإنعامه على هؤلاء المتقين المحسنين، فيقول: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

الله عَزَّ وَجَلَّ إذا علم منك الصدق في قلبك، وجئت بالصدق، وآمنت به، ودعوت إليه، وحشت الناس عليه، واتقيت الله في سرك وعلانيتك، وعملت بطاعته، وأحسنت العمل مع الله، وأحسنت علاقتك بالناس حتى وصلت إلى منزلة الإحسان؛ وهي أعلى مراتب الدين؛ فاعلم أن هذه الأعمال الصالحة لن تذهب سدى.

فأول كرامةٍ يكرمك الله بها: أن يكفر عنك سيئاتك، بل يترقى في الكرم فيقول: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾؛ فإذا كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعفو ويكفر عنك أسوأ الأعمال وأشد السيئات التي اقترفتها قبل توبتك وإحسانك؛ فما دون الأسوأ من الذنوب الصغيرة والمتوسطة من باب أولى وأحرى!

والكرامة الثانية: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي يجازيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس بمجرد عملهم، بل بأحسن ما كانوا يعملون، وأفضل مما كانوا يعملون في الدنيا؛ فيضاعف لهم الحسنات، ويرفع درجاتهم في أعلى عليين؛ فهذا هو جزاء المتقين المحسنين.

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مقرراً كفايته وحمايته لنبيه وعباده الصالحين: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزمر: ٣٦-٣٧].

هذه الآية العظيمة تطمئن قلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقلب كل مؤمن؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كافٍ عبده، ومن كان الله معه فمن عليه؟ ومن كان الله كافيه وناصره فلا يضره كيد الكائدين؛ كشأن نبي الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام حينما أرسلهما الله إلى فرعون الطاغية المتجبر.

فدخلا عليه بغير جنود ولا أسلحة، ومع ذلك ما استطاع فرعون وجنوده -على بطشهم وقوتهم- أن يصلوا إليهما بأي أذى؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قال لهما: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]. فلم يصلوا إليهما ولن يستطيعوا؛ لأن الله كافٍ عبده وناصره.

وقوله سبحانه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾؛ كان المشركون يخوفون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصنامهم وأوثانهم، فيقولون له: **"إن آلهتنا ستصيبك بسوء، وستؤذيك وتفعل بك الأفاعيل، وستصيبك بالجنون والشر"**.

فبين الله سبحانه أن آلهتهم هذه جماداتٌ لا تضر ولا ينفع، ولا تقدم ولا تؤخر، ولا تخيف أحداً، فلا تخف منهم أبداً؛ لأنهم هم في ضلال مبين، يظنون أن هذه الحجارة تنفع وتضر.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٣٦]؛ فالذي أضله الله وخذله عن اتباع الحق ليس له أحدٌ يهديه ويرشده، بل سيبقى متخبطاً في ظلمات ضلاله؛ لأن الله يترك أهل الضلال في ضلالهم إذا استمروا في كفرهم وإعراضهم.

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]؛ ومن هداه الله وشرح صدره للإيمان، وكان في رعاية ربه وولاية الله الحافظة، فلن يضله أحدٌ أبداً.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧]؛ بلى، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عزيزٌ ذو انتقام؛ ينتقم من أعدائه الكافرين، ويدافع عن عباده المؤمنين الصادقين.

- **وكيف يخاف المؤمن من المشركين وأصنامهم والله هو العزيز القهار؟**

كقول خليل الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ۚ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ۖ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

ثم يلفت سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنظار هؤلاء المشركين المعرضين الضالين إلى أدلة ربوبيته الظاهرة التي يعترفون بها، فيأمر نبيه بسؤالهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]؛ فإذا اعترفوا وأقروا بأن الخالق والرازق والمدبر هو الله وحده، لزمهم عقلاً وشرعاً أن يوحدوه في عبادته وألّا يشركوا معه غيره.

ثم يقول لهم تبييناً لعجز هذه الأصنام: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

اسألهم عن هذه الأوثان التي تعبدونها من دون الله: لو أرادني الله بضر من مرض، أو بلاء، أو سقم، أو فقر، أو جوع؛ فهل تستطيع هذه الآلهة المزعومة أن تكشف هذا الضر عني؟ لا، والله ما تكشفه أبداً.

ولو أرادني برحمة من صحة، وعافية، وغنى، ورزق، وخير؛ هل تقدر هذه الأصنام أن تحبس هذه الرحمة وتمنعها عني؟ لا، والله لا تملك إمساك رحمة الله أو منعها، فإذا كانت هذه الأصنام عاجزةً تمام العجز؛ لا تدفع ضراً ولا تجلب نفعاً، فما الفائدة من عبادتها؟

ثم يختم الآية بالملجأ والملاذ الحقيقي: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾؛ أي كافيني الله وحده في جلب النفع ودفع الضر؛ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ أي على الله وحده يعتمد المعتمدون ويفوضون أمورهم إليه؛ لعلمهم بكفايته وقدرته سبحانه.

ثم يأتي التهديد الشديد لهؤلاء المعاندين الذين أصروا على شركهم وعجز آلهتهم، فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[الزمر: ٣٩-٤٠].

أي قل لهم -يا محمد-: يا قوم، الزموا طريقتكم ونهجكم الذي أنتم عليه من عبادة هذه الأصنام، واعملوا على حالتكم وتمسكوا بباطلكم، فإني عاملٌ ومستمرٌ على طريقتي من التوحيد والدعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وتبصير الناس بالحق؛ ولكن سوف تعلمون عاقبة هذا العناد والشرك.

﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ أي يخزيه ويهينه في هذه الحياة الدنيا؛ وقد نزل بهم الخزي في يوم بدر حينما قُطعت رؤوس صناديد الشرك وأُلقوا في القليب صاغرين. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾؛ أي وينزل عليه في الدار الآخرة عذابٌ دائمٌ مستمرٌ مؤبدٌ لا ينقطع ولا يحول عنهم؛ وهو عذاب النار وبئس القرار.

ثم يبيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك منزلة هذا الكتاب العظيم وأثر هدايته وعموم دعوته للخلائق كافة، فيقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾[الزمر: ٤١].

إنا أنزلنا عليك -يا محمد- هذا الكتاب العظيم وهو القرآن الكريم؛ ولم ننزله لأهل مكة فحسب، ولا للعرب خاصة، بل أنزلناه للناس جميعاً؛ ليكون هدايةً ودستوراً للبشرية قاطبة. وقد أنزلناه بالحق والصدق والعدل؛ ليظهر به الحق ويزهق به الباطل.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾؛ أي فمن سلك طريق الهداية، وعمل بما في القرآن من أوامر، وانتهى عما فيه من نواهٍ، فإنما نفع هدايته وثواب عمله راجعٌ لنفسه؛ فالله غنيٌّ عن طاعات العباد. ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ ومن تنكب طريق الرشاد، وأعرض عن هداية الكتاب، فإن شؤم ضلاله ووبال كفره راجعٌ على نفسه وحده؛ ولا يضر الله شيئاً.

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾؛ لست -يا محمد- موكلاً عليهم لتجبرهم على الإيمان، أو حفيظاً تحصي عليهم أعمالهم وتجازيهم بها؛ بل أنت مبلّغٌ ناصحٌ فحسب، والجزاء والحساب على الله سبحانه.

ثم يختم اللقاء بهذه الآية الكبرى والمحكمة، وهي آيةٌ عظيمةٌ جداً تحتاج منا إلى وقفة تلاوة وتدبر وتأمل؛ لما تشتمل عليه من الدلائل الواضحة والعبر الباهرة على أن الله سبحانه هو المالك الحقيقي والمتصرف المدبر لهذا الكون الفسيح، وأن كل إنسان -مهما بلغت قوته- فهو ضعيفٌ وعاجزٌ أمام قدرة الباري جَلَّ وَعَلَا.

حيث يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الزمر: ٤٢].

إن الوفاة المذكورة في هذه الآية الكريمة تنقسم إلى نوعين اثنين:

⬅النوع الأول: **الوفاة الكبرى** (وفاة انتهاء الأجل): وهي الموت الحقيقي بخروج الروح من الجسد كليةً، وانقطاع تعلقها بالبدن، والرحيل التام من دار الدنيا إلى الدار الآخرة.

⬅النوع الثاني: **الوفاة الصغرى** (وفاة النوم): وهو القبض المؤقت للأرواح عند النوم؛ وهو ليس قبضاً كلياً ولا طويلاً، بل تقبض الروح حال النوم ثم تعاد عند اليقظة.

ولذلك ثبت في السُنّة أن المسلم إذا استيقظ من نومه يقول: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ».

فالله جل جلاله يخبرنا بأنه هو الذي يتوفى الأنفس حين موتها عند انتهاء آجالها المقدرة، ويتوفى كذلك الأنفس التي لم يأتِ أجلها في منامها فيقبض أرواحها قبضاً مؤقتاً، ثم بعد هذا القبض المشترك في النوم واليقظة يقسم الله الأرواح إلى قسمين:

﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾: وهي الأرواح التي انتهى أجلها المقدر في الدنيا وماتت فعلياً حال نومها؛ فلا تعود أجسادها للحياة أبداً.

﴿وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: وهي الأرواح التي لم ينتهِ أجلها بعد؛ فيطلقها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويرسلها لتعود إلى أجسادها عند اليقظة، وتستمر في العيش والكسب إلى أن يبلغ أجلها المسمى المعلوم عند الله.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾: أي إن في هذا القبض والإرسال، وهذا التدبير العجيب للأرواح، لَدلائل وعلامات بينة لقوم يتفكرون بعقولهم في قدرة الخالق العظيم، وتصرفه المطلق في

الخلائق أجمعين؛ فلو كان المخلوق من أعظم وأقوى سكان الأرض من الملائكة والجن والإنس؛ فإن الله هو الذي يملك قبض روحه وإماتته إذا جاء أجله المعلوم.

قد يطرح بعض السائلين أو طلبة العلم إشكالاً فيقولون: "إن المشهور في الأذهان أن الذي يقبض الأرواح هو ملك الموت؛ فكيف نجمع بين ذلك وبين الآيات القرآنية التي تنسب الوفاة لجهات متعددة؟".

حيث وردت نسبة الوفاة في القرآن على ثلاثة أوجه:

⬅الوجه الأول: **النسبة إلى الله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: كما في آيتنا هذه ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢].

⬅الوجه الثاني: **النسبة إلى ملك الموت بمفرده**: كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

⬅الوجه الثالث: **النسبة إلى الملائكة (الرسل)**: كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

والتحرير العلمي والجمع بين هذه النصوص الشريفة يتبين من الوجوه الآتية:

⬅أولاً: **النسبة إلى الله** عَزَّ وَجَلَّ: هي نسبة خلق وتدبير وأمر؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو **(الآمر)** الحقيقي والمقدر لآجال العباد، فلا تخرج روحٌ إلا بأمره ومشيئته وإذنه جَلَّ وَعَلَا.

⬅ثانياً: **النسبة إلى ملك الموت**: هي نسبة مباشرة وتنفيذ أصيل؛ فملك الموت هو **(المكلّف الرئيسي)** والمنفذ المباشر الذي أمره الله بقبض الأرواح ونزعها من الأجساد.

⬅ثالثاً: **النسبة إلى الرسل (الملائكة)**: هي نسبة إعانة ومساعدة؛ فالملائكة هم **(أعوان ملك الموت)** الموكلون بمعاونته، فيتولون استلام الروح بعد خروجها.

فإن كانت الروح طيبة للمؤمن وضعوها في كفن من أكفان الجنة وحنوطها، وإن كانت الروح خبيثة للكافر وضعوها في كفن من أكفان النار وحنوطها؛ فالكل يعمل بأمر الله ووفق تدبيره الحكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

نسأل الله العلي القدير أن ينفعنا بما نقول ونسمع، وأن يجعلنا من المعتبرين بآياته الكونية والقرآنية، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الزمر ٤٣ - ٥٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر من شهر رجب من عام (١٤٤٦هـ) من الهجرة. درسنا الأسبوعي من كل ثلاثاء بعد المغرب في تفسير القرآن العظيم؛ سورة (الزمر).

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه هو المنفرد بتوفي الأنفس؛ وهو المنفرد بأن يلقي عليها النوم وهي (الوفاة الصغرى)، أو يلقي عليها الموت الذي هو (الوفاة الكبرى).

وهذا من خصائصه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي انفرد بها الدالة على قدرته وعلى علمه وعلى حكمته؛ فهو الذي يتوفى الأنفس حين موتها؛ يعني عندما يأتي أجل هذه النفس هو الذي يقبضها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويأمر بقبضها، وأما التي لم تمت في منامها وهي (الوفاة الصغرى) في منامها.

فيمسك التي قضى عليها الموت والتي انتهى أجلها، وأما التي في منامها فيطلقها إلى أن يأتي أجلها.

قال الله في خاتمة الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [الزمر: ٤٢]؛ وليست آيةً ولا آيتين، بل آياتٌ عظيمةٌ لقوم يتفكرون، أما الذين لا يتفكرون، ولا يتذكرون، ولا يتعظون بالآيات، ولا يتدبرون؛ فهؤلاء خارج الخطاب.

بعدها يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ [الزمر: ٤٣]. هؤلاء الكفار، و(أَمْ) هنا منقطعةٌ بمعنى (بَلْ)؛ أي: بل هؤلاء الكفار تركوا ربهم الذي يقبض الأنفس، والذي انفرد بهذا الأمر، والذي له الملك والتقدير والقدرة والعلم.

تركوه واتخذوا من دونه شفعاء؛ آلهةً من دون الله، هذه الآلهة يعبدونها ويدعون أنها تشفع لهم عند الله؛ كما قال سبحانه: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر: ٣]، يظنون أن هذه الآلهة تنفعهم عند الله وتشفع لهم.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: بل هؤلاء اتخذوا من دون الله شفعاء من الآلهة؛ قل لهم واسألهم سؤال تبكيت وسؤال حجة؛ يعني نحتج بها عليهم: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [الزمر: ٤٣]؛ هذه الآلهة تملك شيئاً؟ ما تملك شيئاً ولا أي شيء من الأشياء، ولا مثقال ذرة، ما تملك شيئاً ولا تعقل مَن يخاطبها؛ حجرٌ وشجر! كيف تملك؟!

ميتٌ في قبره يطوفون عليه ويدعونه ويسألونه: (المدد) والمدد، ويذبحون عنده قرابين! ما يملك شيئاً ولا يعقل، كيف يكون شفيعاً لكم؟! ما يمكن؛ ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال بعدها: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[الزمر: ٤٤].

الشفاعة لله، ليست لهذه الآلهة المزعومة الباطلة التي لا تنفع ولا تضر؛ أوثانٌ وحجارةٌ تشفع؟! ما تشفع، أين عقولكم؟! الشفاعة لله جميعاً؛ الشفاعة لله هو الذي يأذن بها، وهو الذي يرضى ويقبلها.

والشفاعة لا تصح أن تكون شفاعةً إلا بشرطين: أن يأذن الله للشافع، ويرضى عن المشفوع؛ وما سوى ذلك فهي شفاعةٌ مردودةٌ ما تنفع؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لله؛ لأنه هو الذي يملكها، وهو الذي يملك السماوات والأرض، قال: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[الزمر: ٤٤].

إذا كان الله هو الذي يملك الشفاعة ويملككم جميعاً؛ فتذكروا أنكم راجعون إليه وستبعثون وتحاسبون. وأنت دائماً تقول: **"إنا لله وإنا إليه راجعون"**؛ (إنا لله): يعني مِلك، أنت مملوكٌ لله، أنت في مِلك الله وفي قبضته، (وإنا إليه راجعون): أن نرجع إلى الله كلنا بعد الممات، يبعثنا الله ويجازينا. فهؤلاء لا تنفعهم الشفاعة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وانظر إلى حالهم وتعجب من حال هؤلاء المجرمين الطغاة؛ إذا ذُكر الله ماذا يكون؟ إذا قيل: "الله"، الله وحده، الله؛ ماذا يقولون؟ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهَ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥].

تنفر وتنكر ولا تقبل ولا ترضى، تشمئز قلوبهم إذا ذُكر الله؛ تشمئز قلوبكم؟! أين عقولكم؟! خالقكم، ومدبركم، وإلهكم، ومالككم؛ إذا ذُكر تنفر قلوبكم وتشمئز وتنكر هذا الشيء! وبالمقابل: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾؛ من الأصنام، ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]؛ يستبشرون ويفرحون ويهللون؛ لأنهم يوافقون أهواءهم الباطلة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]؛ يعني بدا لهم أمورٌ ما كانت بالحسبان، ما كانت تخطر ببالهم، ما كانت تخطر ببالهم. وهذه الآية -كما ذكر بعض أهل العلم- هذه الآية آيةٌ عظيمةٌ حقيقة؛ يعني وقف عندها علماء السلف وبكوا عندها، هذه آيةٌ تبكي!

يقول مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: "عملوا أعمالاً يظنون أنها تقبل عند الله؛ فإذا هي مردودةٌ عليهم"، ما توقعوا! توهموا أنها مقبولةٌ وأنها حسنات؛ فإذا هي أصبحت سيئاتٍ وأصبحت وبالاً عليهم.

ويقول سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ: "ويلٌ لأهل (الرياء) من هذه الآية"؛ تجد بعض الناس إذا قرأ يحسّن قراءته للناس، وإذا صلى يحسّن صلاته للناس، وإذا تكلم أو وعظ أو ذكّر حسّن كلامه وجمّله؛ يعني يرائي الناس، وإذا تصدق أو نحو ذلك من الأعمال، أو حج أو اعتمر، يظهر أمام الناس أنه يعتمر وأنه يحج وأنه يفعل وأنه يفعل.

هذا يقول فيه (سفيان الثوري): "ويلٌ لأهل (الرياء) من هذه الآية"؛ هذه الآية ويلٌ، ويلٌ لهم! يتظنون فبدا لهم من الله، ظهر لهم من الله ما لم يتوقعوا ولم يحتسبوا.

ولذلك (محمد بن المنكدر) -وهو من السلف- لما جاءه الموت وحضر الموت عنده، بكى بكاءً شديداً وجزع جزعاً شديداً؛ فقالوا له: "ما الذي يبكيك وما الذي يجزعك؟"، قال: "أخاف من آيةٍ في

كتاب الله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]"؛ هذه الآية أبكت العلماء؛ ما كانوا يتوقعون هذا الشيء.

يظن أن أعماله مقبولةٌ وأنه على خيرٍ وأنه كذا؛ وهم مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]؛ يخافون، يخافون أن ترد عليهم أعمالهم، هذا هو الذي يخشى منه الإنسان؛ ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.

قال سبحانه: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٨]؛ أي ظهر لهم العقوبة؛ عقوبة هذه الأعمال، عقوبة هذه الأعمال بدا لهم سيئات وجزاء أعمالهم السيئة، جزاء ما كسبوا، وحاق بهم؛ أي أحاط بهم ما كانوا به يستهزئون ويسخرون ويلعبون ويلهون وهم غافلون؛ ما توقعوا، بدت لهم سيئات وظهرت لهم عقوبة هذه الأعمال السيئة وهم لا يشعرون، وهم لا يشعرون.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

هذا في حاله في الدنيا، الكافر؛ الكافر في الدنيا الذي إذا ذُكر الله اشمأز قلبه، وإذا ذُكرت الآلهة من دون الله استبشر؛ هذا يعرف ربه! يعرف أن الله هو خالقه وهو النافع الضار، إذا مسّه خفيفُ مسٍّ؛ هذا الإنسان، ضررٌ، مرضٌ، مصيبةٌ، بلاء؛ ﴿دَعَانَا﴾؛ أي دعا ربه، أمسِ تشمئز إذا ذُكر الله، والآن تدعوه؟! ﴿دَعَانَا﴾.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾؛ خولناه يعني أعطيناه، وشوف **(التخويل)** بمعنى أعطى، لكن **(التخويل)** أدق من إعطائه؛ لأن **(التخويل)** عطاءٌ بدون مقابل، خولك الله يعني أعطاك شيئاً من عنده تفضلاً وتفضلاً، لكن العطاء قد يكون بمقابل، لكن **(التخويل)** ليس بمقابل؛ خولك.

قال: ﴿خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾؛ أي نعمةً ولو قليلة؛ يعني كشف عنه الضر، رزقه صحةً وعافيةً، خولناه نعمةً منا. ماذا سيكون موقفه؟ هل سيشكر ويقول: **"الحمد لله الذي أعطاني وتفضل عليّ"**؟ هذا المؤمن؛ أما الكافر فلا.

يقول: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾؛ يقول: الله أعطاني وهو يعلم أني أستحق، أو أنا أخذت هذا الشيء على معرفةٍ من عندي، أنا أعرف؛ مثل ما قال **(قارون)** لما أُعطي المال.

قال (قارون): ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]؛ أنا أعرف المكاسب، وأعرف كيف أجمع الأموال، وأعرف كيف أتصرف، وأعرف كيف أبيع وأشتري، والتجارات والأسهم وغيرها! يتكل على نفسه، يظن أنه عنده علم؛ هذا عطاءٌ فضلٌ من الله، ليس بقدرتك أنت. ولذلك شوف، قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، جحد نعمة الله، جحدها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له: لا تفرح ولا تجحد؛ ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾؛ **(الفتنة)** هنا أي ابتلاءٌ؛ إن أصابك ضررٌ ففتنة، وإن أعطيناك خيرٌ ففتنة؛ ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فتنةٌ وفتنة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر: ٤٩].

ولذلك (سليمان) عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]؛ فإن أعطاك الله خيراً فاشكر، وإن أصابتك مصيبةٌ فاصبر؛ أما الكافر فلا يصبر ولا يشكر.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٥٠]؛ يعني هذه العبارة التي يرددها ويجرؤ عليها هؤلاء، أناسٌ قبلهم قالوها، فما أغنى عنهم، وما نفعهم لما نزل بهم العذاب؛ **(قارون)** خسف الله به الأرض لما قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾، خسف الله به الأرض، فما نفعه هذا الكلام.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾[الزمر: ٥١]؛ عقوبة سيئاتهم وعقوبة كسبهم أصابهم؛ يعني أن العقوبة بسبب سيئاتهم وأعمالهم السيئة وكسبهم السيئ.

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ﴾؛ يعني هؤلاء السابقون الأولون نزلت بهم العقوبات، والذين ظلموا من هؤلاء المعاصرين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر: ٥١]؛ الله سينزل بهم العقوبات ولن يفلتوا من علم الله، ولن يسبقوا، ولن يستطيعوا أن يفروا من قدرة الله؛ هم في قدرته وفي قبضته في أي لحظة.

هؤلاء الذين يبطشون ويقتلون المستضعفين ويعذبون ويظنون أنهم يملكون الأرض، وأن عندهم القدرة، وأن الله لن يستطيع أن يصل إليهم؛ هؤلاء الجهلة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هم في قبضته في أي لحظة، ما هم بمعجزين، في أي لحظة في يد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالذي يدبر الأمور هو الله، ليس هم.

ولذلك قال: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: ٥٢]. هؤلاء الذين يفرحون إذا أعطيناهم خيراً، وإذا أصابتهم مصيبةٌ جزعوا وحزنوا؛ فغاب عنهم أن الرزق بيد الله، هو الذي يبسط ويوسّع على مَن يشاء بحكمته، ويضيق على مَن يشاء بحكمته.

هذا إذا تأملتَه أنت، هذا ينفعك؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، الآيات الدالة على قدرة الله، وأنه هو الذي يملك الرزق، وهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر؛ أما هؤلاء فلا يدرون ولا ينتفعون.

ومع هذا، أيها الإخوة الكرام، مع هذه المسيرة الطويلة في مناقشة هؤلاء الكفار ومواقفهم السيئة؛ إلا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الخاتمة يدعوهم، يدعوهم فيقول: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿قُلْ﴾؛ يا من أسرف على نفسه؛ قل لهم. وشوف، لما يقول: ﴿قُلْ﴾؛ فهذا دليلٌ على العناية بهذا الشيء والاهتمام به؛ قل يا محمد ويا أيها المخاطب، قل لكل من أسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي وغمرته الذنوب والمعاصي.

ليعلم أنه عبدٌ من عباد الله، والله يناديه بصفة العبودية؛ أنت عبدي وأنا خالقك وأنا إلهك وأنا ربك، ارجع إليّ، لا تشرد؛ تشرد إلى أين؟! إلى أي مكان تذهب؟! لا تشرد، ارجع إلى ربك وعُد إليه، الله يناديك.

﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾؛ ما قال أذنبوا ولا عصوا فحسب، لا؛ بل أسرفوا إسرافاً كبيراً على أنفسهم، ومع ذلك يقول الله لهم: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾؛ أي لا تيأسوا من رحمة الله ورجائه، فالله أرحم بكم من أنفسكم، والله يفرح بتوبة العبد؛ ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

كل الذنوب يغفرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا تبتم وصلحت نيتكم وأتيتم بشروط التوبة؛ الله يمحو عنكم، يمحو عنكم جميع الذنوب، إلا ما كان من حقوق الآدميين فهذا شيءٌ لهم، أما حقوق الله فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يغفر الذنوب جميعاً متى تاب العبد وأخلص التوبة لله غفر الله له؛ لماذا؟ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

لكن اسمع وتأمل، يا مَن يتوب أو يريد التوبة إلى الله؛ لا تنفع التوبة باللسان فقط، لا بد أن تعمل؛ ولذلك قال بعدها مباشرة: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤].

﴿وَأَنِيبُوا﴾؛ ارجعوا إليه بالطاعات والتوبة واعملوا الصالحات وسارعوا، ولذلك قال: أنيبوا إلى ربكم بقلوبكم، وأسلموا له بجوارحكم؛ فالقلوب تبكي وترجع إلى الله، والجوارح أسلمتْها وانقادتْ إلى ربها بفعل الطاعات، والصدقات، والصيام، والصلاة، والبر، ونحو ذلك؛ لا مجرد أنك تقول: **"تبتُ"** وأنت جالس! بل اتبع التوبة بكثرة **(الإنابة)** إلى الله والاعمال الصالحة، ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

إذا نزل العذاب أو العقوبة بك ما ينفعك؛ تُب إلى الله قبل أن يعاقبك رب العالمين، ما دام أن الله فتح لك باب التوبة؛ لا تنتظر حتى تنزل بك مصيبة، أو مرضٌ مستعصٍ، أو الموت، أو نحو ذلك؛ تُب إلى الله ما دام معك الوقت والفرصة.

وإذا تبتَ وأَنَبْتَ وعملتَ الصالحات، فاتبع؛ اتبع ما أنزل الله، اتبع القرآن وما فيه من أحكام: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

القرآن فيه أحسن وفيه حسن؛ وفيه محرمات وفيه مباحات؛ اتبعوا ما ينفعكم أكثر وأكثر، اتبعوا القرآن؛ امتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه، سارعوا في مرضاة الله، حققوا ما فيه من الأوامر والنواهي؛ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتةً وأنتم لا تشعرون؛ لا تدري وقد نزلت بك العقوبة، نزل بك المرض، نزل بك الموت، وأنت لا تدري ولا تشعر، في غفلة؛ احذر، احذر!

- **فإذا نزل الموت، ماذا سيكون موقف الإنسان؟**

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦]. تنادي الحسرة والندم، وما تنفعك؛ تحسَّر على ما ضيعتَ من حق الله: **"يا حسرتي على ما فرضت وضيعت حق الله عليّ، وإن كنت من الساخرين.**

كنت أستهزئ وأسخر وأقول: بعدين أتوب، إذا جاء رمضان تبتُ، إذا جاء الحج تبتُ، بعدين..."؛ ويستهزئ ويسخر؛ حتى إذا جاءه الموت ندم أشد الندم وقال: "أنا ضيعت حق الله، الآن أريد أن أرجع"، فلا يقبل منك؛ ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ فلا يرجعون.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]؛ تحتج بالقدر، وتقول: "يا ليت الله هداني لأكون من المتقين، لو أن الله هداني واهتديت لأصبحت تقياً"؛ مَن الذي منعك ألا تهتدي؟! مَن الذي منعك من (الهداية)؟! باب (الهداية) مفتوحٌ لك، تُب إلى الله وارجع إليه.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨]؛ يعني حين ترى العذاب يوم القيامة تقول: "لو أن لي رجعةً إلى الدنيا فأكون من المحسنين". أنت في الدنيا الآن، لِمَ لَمْ تصبح من المحسنين؟! لماذا لا تبادر بالتوبة؟! لماذا لا تسارع بالتوبة؟!

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رداً عليه ومبطلاً حجته: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩]. بلى، ليس كلامك صحيحاً؛ أعطيناك وفتحنا لك باب التوبة، وحثثناك على التوبة، وهديناك الصراط المستقيم.

وأرسلنا إليك الرسل، وأنزلنا لك الكتب، ودللناك على الطريق، ولكنك أنت لا تريد، بل تريد طريق الضلالة؛ بلى قد جاءتك آياتي والقرآن، فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين؛ كذبتَ واستكبرتَ، تكذّب القرآن وتستكبر عنه وتكفر به، والنتيجة هذه هي؛ نتيجة من لم يقبل.

فالتوبة التوبة أيها الإخوة، والعودة العودة إلى الله ما دام باب التوبة مفتوحاً؛ الله يبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار.

☜**كما جاء في الحديث عن نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ». توبوا إلى الله واستغفروه ما دام باب التوبة مفتوحاً؛ لا تقل: "غداً أتوب، وبعدين أتوب..."؛ فيلعب بك الشيطان وتصبح صيداً له، حتى إذا نزل بك الموت، والعقوبة، والأمراض، قلت: "رب ارجعون"، فلا ينفع.

لعلنا نقف عند هذا القدر أيها الإخوة؛ إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الزمر ٦٠ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم يوم الثلاثاء، ودرسنا في تفسير القرآن العظيم، معنا في هذا اللقاء آيات من سورة (الزمر)، وهي الآية رقم ستين، ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[الزمر: ٦٠].

هذه الآية تلاحظ أنه جاء قبلها آيات تتحدث عن التوبة، وأن الله نادى عباده الذين أسرفوا على أنفسهم أن يتوبوا، وأن الله يقبل توبتهم، وأن الله حثهم على التوبة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر: ٥٣].

لاحظ أنه قال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾، فأضافهم إليه لطفاً وحناناً بهم. ﴿الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾؛ أي جاوزوا الحدود في المعاصي، وأسرفوا على أنفسهم بالإتيان بالذنوب العظام والمعاصي الكثيرة، يقول لهم: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾؛ أي لا تيأسوا من رحمة الله؛ إن الله يغفر الذنوب جميعاً؛ الشرك وما دونه ما دام أنه تاب يتوب الله عليه.

وقوله في عاقبة الكافرين: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]؛ هذا استفهامٌ في التقرير؛ يعني أن جهنم هي مثوىً للمتكبرين؛ لأنه لما جاءته آيات الله وجاءته الرسل استكبر؛ فهذا جزاء المتكبرين الذين يتكبرون عن طاعة الله وعن اتباع شرعه.

وأما المتقون الذين عرفوا الله واتبعوا دينه، فالله يقول عنهم بعد ذلك: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١]؛ ينجي الله من جهنم وينجيهم من العذاب الأليم الذي يصيب أعداءه الكافرين.

- **الله عَزَّ وَجَلَّ ينجي الذين اتقوا؛ ما الذي جعلهم ينجون؟**

هو تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فالتقوى هي سبب النجاة.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾؛ أي معهم تقوى ينجون بها، ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ أي بفوزهم وسلامتهم من العذاب ونجاةٍ من العذاب، ﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾؛ أي لا يصيبهم عذاب جهنم، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من حظوظ الدنيا أو ما فاتهم وراءهم، بل يفرحون بما يستبشرون به من فوزهم بجنات النعيم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقرر أن هذه الأمور كلها بيد الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن الله هو الخالق لكل شيء، وهو المالك لكل شيء، وهو المتصرف في الكون كله، وعلى العبد أن يكون متوكلاً على ربه، مفوضاً أمره لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال الله سبحانه: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]. الله خالق الخلق كله؛ السماوات وما فيهن، والأراضين وما فيهن، المتصرف المالك المدبر لها، الحافظ لها، وهو على كل شيء حفيظ يدبر جميع شؤون خلقه؛ فعلينا أن نتوكل على ربنا وأن نفوض أمورنا إلى الله، فهو الوكيل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هو الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وهو الذي يصرف عنك الشر وهو الذي يأتي بالخير؛ فعليك أن نتوكل على ربك وتفوض أمرك إليه؛ لأنه مالك الملك، وهو الذي بيده مفاتيح ومقادير السماوات والأرض.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

له مقاليد؛ **(المقاليد)** جمع إقليد، وهو المِفْتَح أو المفتاح. مقاليد السماوات والأرض؛ يعني خزائنها، ولذلك بعض أهل العلم يفرق بين **(المفاتيح)** و**(المفاتح)**.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]؛ يعني خزائن، فـ **(المفاتح)** جمع مِفْتَح، والمِفْتَح هو الخزينة، و**(المفاتيح)** جمع مفتاح، وهو ما يُفتح به الخزنة أو نحوها، له مقاليد السماوات والأرض؛ يعني مفاتيح السماوات والأرض وخزائنها بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه المالك، والخالق، والمدبر، والوكيل على كل شيء.

وأما الذين كفروا بآيات الله ولم يؤمنوا به، ولم يعرفوا حقه، وجحدوا آياته، وكفروا برسله؛ فالنتيجة: هم الخاسرون، خسروا خساراً عظيماً؛ خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، وذلوا وأصابهم الخزي يوم القيامة.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأمر نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويأمر أتباع نبيه إلى قيام الساعة: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]؛ قل أيها الجاهلون الذين لا علم عندكم ولا تعرفون حق الله عليكم، ولا تقدرون الله حق قدره، أغير الله تأمروني أن أعبد؟ تريدونني أن أعبد غير الله؟ ماذا أعبد؟ أعبد أصناماً لا تنفع ولا تضر؟! قل: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾؛ كيف يصدر منكم هذا؟ ومن يقبل منكم هذا الكلام؟!

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أخبرنا وأوحى إلى نبيه أن من يشرك بالله فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]. ولقد أوحي إليك يا محمد وإلى الذين من قبلك من الرسل السابقين؛ كلهم أجمعوا على هذا الأمر: لئن أشركت ليحبطن عملك.

فالشرك سببٌ لحبوط العمل، وسببٌ للخروج في النار **(أو الدخول فيها)**، ولتكونن من الخاسرين في الدنيا والآخرة، ولا يقبل الله أي عمل مع الشرك.

كما في الحديث القدسي: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ». فالشرك محبطٌ للعمل، والشرك سببٌ للخلود في نار جهنم، والله عَزَّ وَجَلَّ قال عن الأنبياء الصالحين لما أثنى عليهم ومدحهم: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]؛ لا ينفعهم.

ولذلك قال سبحانه: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦]؛ أخلص عملك لله، واعبد ربك وحده، وكن من الشاكرين لنعمه؛ ومن أعظم النعم علينا نعمة التوحيد والهداية ومعرفة الطريق إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، طريق السعادة والنجاح.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لهؤلاء المشركين الذين يعبدون الأصنام وغيرهم ممن يُعبد من دون الله؛ كالذين يعبدون الأوثان، ويعبدون الأموات ويطوفون عليهم، ويسألونهم من دون الله، ويصرفون لهم مما هو حق لله؛ يبين لهم أنهم ما عرفوا عظمة الله، وما عظموه حق التعظيم، وما قدروا الله حق قدره.

وما عبدوه حق عبادته؛ كيف يعبدون مخلوقاً ويصرفون العبادة التي هي لله لغير الله؟! ما عرفوا قدره وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأرض هذه الأرض كلها على سعتها وعظمتها قبضته يوم القيامة يقبضها بقبضته، والسماوات السبع كلها مطوية تطوى بيمينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. تنزه وتعاظم جل جلاله عما يقوله هؤلاء المشركون، وعما يصفه الواصفون من صفات النقص، ويشركون معه غيره.

وهذه الآية فيها إثبات **(القبضة)** لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإثبات **(اليمين)**، وأنه يطوي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كل ذلك؛ يجب علينا أن نؤمن به ونصدق بما أخبرنا الله به.

لما قال: الأرض جميعاً قبضته والسماوات مطويات بيمينه؛ يجب علينا أن نؤمن بذلك، وأن نصدق ما أخبرنا الله به، وأن نثبت ذلك على الوجه اللائق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بجلاله وعظمته من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تعطيل، لا نقول لا ندري ما معناها، بل هي واضحة.

فلما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر أن يوم القيامة يحصل هذا الشيء، وأن الأرض قبضته والسماوات مطويات بيمينه، بدأ يشرع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان ما يجري يوم القيامة، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

عندنا في هذه الآية نفختان: نفخة **(الصعق)**، ونفخة **(البعث)**. ونفخ في الصور؛ فصعق يعني مات كل من في السماوات والأرض؛ إذا نفخ إسرافيل في الصور وهو البوق والقرن الذي ينفخ فيه نفخة واحدة، يموت كل من في السماوات وكل من في الأرض.

كلهم يموتون إلا من شاء الله عدم موته مما استثناه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعلمه، إما شهداء أو غيرهم ممن استثناؤهم بعلمه، الله أعلم.

ثم بعد ذلك تأتي النفخة الثانية، وبينهم أربعون؛ بين النفختين، فإذا مات الخلق، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ»، نفخ بعد ذلك إسرافيل النفخة الثانية وهي نفخة البعث، وخروج الناس من قبورهم.

فتتطاير الأرواح وتذهب إلى الأجساد، فتخرج الأجساد بأرواحها يخرجون من الأجداث قياماً ينظرون؛ قد خرجوا من قبورهم ينظرون ماذا دهشهم وماذا أصابهم، فيخرجون من قبورهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

الأرض مظلمة بعد ذهاب الشمس والقمر؛ لأنه عند النفخة الأولى خلاص يخرب الكون، تذهب كل شيء، والجبال والشمس والقمر، تؤخذ الشمس والقمر ويلقيان في النار ويصبح كل شيء ظلمة، الناس في ظلمة. فإذا جاء رب العالمين، أشرقت الأرض بنور ربها إذا تجلى جل جلاله للخلائق قضاءً ونشراً.

نشرت الملائكة الصحف وتطايرت الصحف، وجيء بالنبيين والشهداء على الأمم، ليسأل الله النبيين: **"هل بلغتم ما كلفتكم به وما أوجبته عليكم؟"** فيقولون: **"نعم يا ربنا"**.

وتأتي أمة محمد تشهد؛ هؤلاء هم الشهداء، الرسل تشهد وأمة محمد تشهد بتبليغ الرسل لأممهم، جيء بالنبيين وجيء بالشهداء، وقضي بينهم؛ قضى الله بين العباد بالعدل التام وهم لا يظلمون؛ لا يظلمون بنقص الثواب أو زيادة العقاب.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٧٠]؛ كل نفس تُعطى عملها وتجازى بعملها من خير أو شر، ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بأعمالهم وبما تكنه صدورهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم بعد ذلك يصدر الناس أشتاتاً.

ثم يتحدث الله سبحانه عن سوق المتقين إلى الجنة: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

مفتحة الأبواب؛ هذا يعني أعظم في الكرامة والاستقبال والحفاوة؛ لأن الأبواب قد فُتحت كما تفتح في الدنيا القصور وأماكن المناسبات تكون مفتحة لاستقبال الناس، لا أن تكون مغلقة، وفتحت أبوابها وتجد الملائكة أمام الأبواب.

تقول الخزنة (خزنة الجنة): **"سلام عليكم"**؛ قد سلمتم من العذاب وسلمتم من كل ما يعاب. **"سلام عليكم طبتم"**؛ سلمتم من كل شر وطبتم بكل خير وبكل سرور، أبشروا. **"سلام عليكم طبتم فادخلوها"**؛ أي الجنة، **"خالدين"** فيها؛ مقيمين فيها لا يبغون عنها حولاً.

فإذا دخلوها واستقروا فيها، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[الزمر: ٧٤].

حمدوا ربهم وشكروه الذي صدقنا وعده؛ لأنه وعدنا وصدق بوعده. صدقنا وعده، هذا معنى لما يقال من أسمائه (المؤمن)؛ المؤمن المصدق الذي يصدق وعده.

"صدقنا وعده وأورثنا الأرض"؛ المقصود بالأرض هنا أرض الجنة، وأورثنا الأرض أي أرض الجنة؛ يعني أصبحنا نرث الجنة نتبوأ منها نتنقل وننزل منها من أي مكان، من حيث نشاء، أي مكان، فنعم أجر العاملين الذين عملوا وأخلصوا عملهم ووحدوا الله واتبعوا رسله وأطاعوه واتقوه؛ فهذا ما يبشرون به، يقال لهم: تبوؤوا الجنة حيث شئتم.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الزمر: ٧٥].

ترى الملائكة حافين من حول العرش؛ الملائكة محيطين بعرش الرحمن تعظيماً له وينزهون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يسبحون بحمد ربهم ويعظمونه ويصفونه بصفات الكمال، ويذكرونه بالذكر الحسن ويشكرونه على نعمه، ويسبحون بحمده؛ يسبحونه وهم حامدون، وهم يسبحون حال كونهم حامدين الله، حامدين ربهم.

وقضي بينهم؛ أي بين الخلائق جميعاً، وقيل: الحمد لله رب العالمين؛ يحمده الخلق، يحمده على كرامته وعلى عدله، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو الفضل العظيم والكرم حيث منَّ على عباده بالفضل والكرم فأدخلهم

الجنة وفازوا بها، ويحمده الخلق على عدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حيث قضى على أهل النار بالنار بعدل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وليس بظلم.

فأهل الجنة يدخلون الجنة وأهل النار يدخلون النار، فيقال بعد ذلك: **"الحمد لله على ما قضى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين أهل الجنة وبين أهل النار"**؛ فيحمدون حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إلى هنا تنتهي هذه السورة وهي سورة (الزمر)، التي عشنا معها وقلبنا صفحاتها وتأملنا آياتها وتفكرنا فيها؛ سورة عظيمة تركز على عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإخلاص العبادة له، والحذر من الشرك والكبر والاستكبار والإعراض عن طاعة الله، وبيان مآل هؤلاء ومآل هؤلاء، والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ غَافِر)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(غافر ١ - ٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في لقائكم المبارك؛ لقاء الثلاثاء بعد صلاة المغرب من كل أسبوع، هذا اليوم هو اليوم الحادي من الشهر السابع من عام ستة وأربعين وأربعة آلاف من الهجرة. درسنا المبارك مع تفسير القرآن العظيم؛ قراءةً وتفسيراً وتدبراً وتأملاً.

سورة جديدة معنا اليوم، وهذه السورة هي بداية الحواميم أو بداية آل حم. هذه السور السبع المفتتحة بـ(حم)؛ أولها غافر وآخرها الأحقاف، تُسمى بـ(آل حم) أو تُسمى (الحواميم).

يقول ابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه فيها: "سُوَرُ آلِ حم هِيَ دِيبَاجُ الْقُرْآنِ"؛ فديباج القرآن يعني حريره، وحقيقة هذه السور -لما يقول ابن مسعود فيها هذا الكلام- كلها تدور حول القرآن؛ تفتتح بالقرآن، وتتحدث عن القرآن، وتختتم بالقرآن. كل السور الحواميم السبع:

- غافر تبدأ بالتنزيل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢].
- فصلت: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢].
- الشورى كذلك يحيي: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣].
- الزخرف: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ٢].
- الدخان: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الدخان: ٢].
- الجاثية: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢].
- الأحقاف: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: ٢].

كلها تتحدث عن القرآن الكريم.

أما السورة التي معنا وهي سورة غافر؛ سُميت بسورة غافر لأنها افتتحت بقوله: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، وكان فيه إشارة إلى عرض المغفرة والتوبة لما يقول: ﴿قَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: ٣].

على هؤلاء المعرضين المجادلين المبطلين الذين لا يريدون الإقبال على الله؛ يعرض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بلطفه ورحمته وفضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليهم وإحسانه عليهم، يعرض عليهم التوبة لعلهم يرجعون، لعلهم يتوبون إلى الله.

تُسمى هذه السورة أيضاً بـ(سورة المؤمن)؛ لذكر قصة مؤمن آل فرعون فيها. وحقيقة هذه السورة -مع أنها هي أطول سور حاميم- حقيقتها أنها تتحدث عن الصراع بين الحق والباطل، وإظهار الحق، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وتدور أيضاً على الجدال، وأن هؤلاء الذين يجادلون في الله بغير علم، ويجادلون الحق بالباطل؛ أن الله دحرهم وأبطل جدالهم ورد كيدهم.

ولذلك تجد كلمة الجدال فيها كثيراً؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وقال أيضاً في وسط السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾ [غافر: ٥٦]؛ فتكلمت عن الجدال، والجدال المراد به الجدال الباطل.

أما الجدال الحق فإن الله أمر به لما قال: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فالمجادلة المخاصمة وإظهار الحق وإبطال الباطل. أما مجادلة هؤلاء الكفار في إبطال الحق وإظهار الباطل فهي مجادلة باطلة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دحضهم وأبطله ولم يقم له أي قائمة.

السورة تدور حول الحوارات والجدال والمجادلة والمحاورة. الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين أن جدال الكفار جدال في مقابلة الحق فهو باطل مردود، ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن من المجادلة مجادلة بالحق؛ فإن مؤمن آل فرعون جادل قومه، وموسى جادل فرعون، ومؤمن آل فرعون جادل قومه وحاورهم حتى بين لهم الحق.

ثم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد هذا الجدال -الذي ذكره وهو الحوار- يذكر أيضاً حوار ومخاصمة ومجادلة الكفار في نار جهنم لما يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]؛ فالمحاجة والمخاصمة والمجادلة والمحاورة كلها قريب بعضها من بعض.

إذاً هذه السورة بشكل عام، وهي سورة مكية، تؤكد على قضية الصراع بين الحق والباطل، وأن أهل الباطل قد دحرهم الله وأبطل كيدهم، وأن أهل الحق أظهرهم الله؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينصرهم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]؛ فهي تدور حول هذه المعاني التي ذكرناها.

نبدأ بالسورة على بركة الله؛ يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر: ١-٢].

معنى ﴿حمٓ﴾: هذه حروف مرت معنا كثيراً؛ مثل (الم)، و(طسم)، و(حم). هذه حروف من حروف الهجاء جِيءَ بها لإثبات أن القرآن مبني ومكون من هذه الحروف التي يعرفها العرب، وأن القرآن قرآن عربي بلسان عربي مبين.

فيا أيها العرب، ويا من نزل عليهم القرآن، ويا من يتحدثون بالعربية؛ هذا قرآن يخاطبكم أنتم وتعرفون ألفاظه ومعانيه، فلماذا تصدون عنه وتكفرون به وأنتم تعرفون لغته؟ لغة القرآن هي لغتكم؛ تكتبون الأشعار والخطب وتتكلمون، فهو من جنس لغتكم فلماذا تكفرون به وتردونه؟

ولذلك تحداهم الله لما كفروا به، قال: ﴿فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مُّفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، وقال: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وعجزوا عن ذلك؛ إذاً ما لكم إلا أن تسلموا الأمر لله وتستجيبوا له أو النار: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]. هذا واضح؛ (حم) وكلها مفتتحة بـ(حم) هذه السبع المتتالية.

قال بعدها: ﴿تَنزِيلُ﴾؛ أي هذا الذي تسمعونه تنزيل، أي السورة والقرآن هو منزل من عند الله. وفي دلالة على أن -انظر لما يقول ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾- أن كلمة (حم) هي حروف هجائية، ولذلك يذكر القرآن بعدها دائماً (تنزيل)؛ أي هذا التنزيل، أي هذا القرآن تنزيل من الله.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي تنزيل القرآن من الله، أي هذا القرآن منزل من عند الله، مصدره رب العالمين، هو الذي تكلم به وأنزله، وسمعه جبريل فحفظه فأنزله على صدر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. هذه حقيقة القرآن؛ لا نقول إنه مخلوق، ولا نقول إن جبريل أخذه من اللوح المحفوظ أو إلى آخره، وإنما هو كلام الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، كلام الله.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ (مِن) ابتدائية؛ يعني مصدره من الله. من هو الله؟ قال:

- ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: الغالب على أمره، الذي إذا أراد شيئاً لا يمنعه مانع، عزيز ذو قوة ينتقم من أعدائه وينتصر لأوليائه.
- ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾: العليم بكل شيء.

وأنت تقرأ هذه الآية -حتى نتدبر أكثر وأكثر ونتأمل- وأنت تقرأ هذه الآية وتعيد وتكرر وتقرأ السورة ثم تعود إلى هذه الآية؛ تجد أن اسم (العزيز) و(العليم) يدور حول هذه السورة في جميع آياتها؛ عزيز انتقم من أعدائه ونصر أولياءه (في هذه السورة الصراع بين الحق والباطل)، عليم بأحوال العباد وبما يصلح لهم.

قال بعدها: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جل جلاله؛ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ للمذنبين؛ من أذنب وعصى وكفر وأشرك، الله يقبل توبته ويغفر ذنبه. متى يغفر ذنبه؟ إذا تاب وعاد إلى ربه؛ فالله غفور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾: يقبل توبة التائبين.

- **لو جاء شخص يسألك قال لك: ما الفرق بين (غافر الذنب) و(قابل التوب)؟**

الجواب: الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب وأقر بذنبه واعترف وندم فإن الله يغفر الذنوب، كما أن الله يقبل توبة التائبين؛ فمن تاب تاب الله عليه، ومن تاب غفر الله ذنبه، فالله يتوب على العبد ويغفر ذنبه؛ فجمع الله بين قبول التوبة وغفران الذنوب، ولذلك أتى بالمعنيين.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مهدداً من أعرض ولم يقبل، قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾. وانظر كيف قدم -انظر رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ- قدم مغفرة الذنب وقبول التوبة على أنه شديد العقاب.

ليفتح لهم باب التوبة ويرحمهم ويلطف بهم. لكن يصر من يصر على كفره، فشديد العقاب لمن يعرض ويصر ويتجرأ على الذنوب ولا يتوب؛ فالله شديد العقاب، لكن رحمته وسعت كل شيء.

يقول: ﴿ذِي ٱلطَّوْلِ﴾؛ أي العطاء والفضل والإحسان الشامل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رحمته وسعت كل شيء. الطول: العطاء؛ أعطى حتى الكفار أعطاهم وأنعم عليهم ورزقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فخلق الخلق وتكفل بأرزاقهم؛ للطول والإحسان والعطاء والفضل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

انظر لما قرر لك هذه الأشياء كلها؛ أنه عزيز، وأنه عليم **(عزيز بعزته، عليم بكل شيء)**، يغفر الذنوب ويقبل التوبة، وشديد العقاب لأعدائه، وهو ذو الطول والعطاء والفضل والإحسان؛ بعد ذلك يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي لا معبود بحق إلا هو؛ يعني اعبدوه وارجعوا إلى ربكم لأن ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي رجوعكم إلى الله.

فبعد ذلك رجوعكم إلى الله؛ يعني مهما أعرضت ومهما كفرت ومهما أبعدت عن الله فإنك راجع إلى ربك، وأنت أيها المذنب تب إلى الله الآن فإن مرجعك إلى الله، وأنت أيها التائب يقبل الله توبتك في الدنيا وموعدك ورجوعك إلى الله؛ فلا يكن رجوعك إلا على صفحة بيضاء.

يعني هنا أيها الإخوة حقيقة فيه قصة في زمن عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه وهو أن رجلاً كان يعرفه عمر جيداً، فكان قد ذهب إلى الشام ولكنه ابتلي بشرب الخمر.

☜**فسأل عمر عنه فقال -يعني سأل عمر عنه فقال-:** «مَا بَالُ فُلَانٍ؟ وَمَا حَالُ فُلَانٍ؟»، فقالوا: «لَا يَزَالُ يَشْرَبُ الْخَمْرَ». فحزن عمر حزناً شديداً عليه.

فقال -فنادى كاتبه فقال اكتب- فقال الكاتب: «مَا أَكْتُبُ؟»، قال عمر: «اكْتُبْ: مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى فُلَانٍ...» ثم بعدها قال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ»، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ؛ قال الله تعالى: ﴿حمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ٣﴾ [غافر: ١-٣]».

أرسل هذه الآيات الثلاث؛ كتبها وأرسلها إليه، وقال لمرسلها: «لَا تُعْطِهِ إِيَّاهَا إِلَّا وَهُوَ قَدْ صَحَا، لَا تُعْطِهِ وَهُوَ غَيْرُ صَاحٍ».

فلما جاءه أعطاه إياها وهو قد صحا، فقرأها فقال: «مِنْ عُمَرَ...» ثم عاد فقرأ الآيات، فقال: «غَافِرِ الذَّنْبِ، قَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ الْعِقَابِ»، وكررها: «غَافِرِ الذَّنْبِ، قَابِلِ التَّوْبِ، شَدِيدِ الْعِقَابِ؛ اللهُ عَرَضَ عَلَيَّ

التَّوْبَةَ، اللهُ عَرَضَ عَلَيَّ قَبُولَ التَّوْبَةِ وَعَرَضَ عَلَيَّ مَغْفِرَةَ الذَّنْبِ وَهَدَّدَنِي بِشِدَّةِ الْعِقَابِ؛ وَاللهِ لَا أَشْرَبُهَا! وَاللهِ لَا أَشْرَبُهَا!».

فلما أُخبر عمر بتوبته قال: «عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ خَيْرُ وَاعِظٍ، عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ خَيْرُ وَاعِدٍ».

قال بعده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾، قال: ﴿مَا يُجَادِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤].

الذين يجادلون في آيات الله ولا يقبلونها ويعرضون عنها؛ كيف تجادل في آيات الله؟ كيف تجادل في الله ولا تسلم الأمر لله؟ كيف تجادل في آيات الله وأنت تنظر إلى ما عليها من آيات كونية وآيات قرآنية، ولا تسلم الأمر لله ولا تصدق بها؟

تجادل لتبطل الحق وتظهر الباطل؛ هذا جدال باطل مردود. ما يجادل في آيات الله أبداً، المؤمن لا يجادل في آيات الله، المؤمن يسلم ويقبل ويفرح ويسعد بآيات الله. الكافر يجادل في آيات الله؛ يقول: ﴿مَا يُجَادِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

ثم إن هؤلاء الذين كفروا قد أنعم الله عليهم؛ يتقلبون في الأرض بنعم عظيمة، يركبون المراكب وينفقون الأموال ويسافرون ويذهبون شرقاً وغرباً، فالله سبحانه قال: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾؛ لا تغتر بأنهم في نعم يتقلبون وفي رفاهية وفي ترف؛ لا، سيأتيهم يوم يعذبون، ولذلك قال: لا تغتر بصنيعهم وتغتر بحالهم وما يصنعونه الآن، لا تغتر بذلك.

لماذا؟ هددهم قال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ [غافر: ٥].

إن كانوا هم كذبوا وجادلوا وردوا الحق ولم يقبلوه؛ فإن الأمم الماضية جادلت وأبطلت وأرادت إبطال الحق فأهلكها الله. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وقوم نوح هو أول رسول؛ نوح هو أول رسول.

قوم نوح والأمم والأقوام الذين بعده؛ عاد وثمود وغيرهم، ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد قوم نوح؛ أحزاب تحزبوا كلهم على رسلهم وحاربوا الحق. كلهم كذبوا، ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾؛ أي هموا كلهم بأن يأخذوا رسولهم ويهلكوه ويقتلوه ويطردوه من بلدهم، ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾؛ ليدفعوا به الحق ويسقطوا الحق.

- **ما هي النتيجة؟**

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؛ أخذ عزيز مقتدر، أهلكهم الله؛ أهلك قوم نوح بالغرق، وعاداً بالريح، وثموداً بالصيحة وهكذا. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ كيف كان عقابي؟ عقاب الله شديد إذا انتقم؛ إن أخذه أليم شديد.

قال بعدها: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ (٦)﴾ [غافر: ٦].

حقت كلمة الله على هؤلاء الكفار لأنهم كفروا؛ من كفر موعده النار. في الدنيا يسلط الله عليه العذاب ويرسل عليه عذاباً شديداً في الدنيا، وأما في الآخرة فهو من أصحاب النار، فهو من أصحاب النار.

لعلنا نقف عند هذا القدر؛ لارتباطي في هذا الوقت، ولم أرد أن أوقف الدرس اليوم، قلنا نأخذ ولو شيئاً قليلاً، يعني مضت الآن تقريباً سبع عشرة دقيقة قضيناها في فواتح هذه السور وفي ست آيات ومقدمات حول هذه السورة، فيها البركة إن شاء الله.

لعلنا في لقائنا القادم إن شاء الله ندخل في بقية السورة ونأخذ إن شاء الله قسطاً مناسباً بإذن الله، نستودعكم الله، وبارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً، ونلقاكم على خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(غافر ٧ - ١٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ؛ اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلاً يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للثامن من الشهر السابع (شهر رجب) من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، نجلس مجلسنا المعتاد كل أسبوع بعد صلاة المغرب مع القرآن الكريم قراءةً وتفسيرًا وبيانًا وتدبرًا، ونسأل الله أن يرزقنا وإياكم العمل بالقرآن، وأن يوفقنا لتدبره.

سورة غافر تحدثنا عنها في لقائنا الماضي، وأخذنا شيئًا من آياتها، واليوم نواصل ما توقفنا عنده، الآية السابعة؛ قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

عندما تقرأ هذه الآية، وأنت تقرأ الآيات التي قبلها وهي: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [غافر: ٤]

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عقوبة الأمم الماضية؛ كقوم نوح والأحزاب من بعدهم، وأنهم جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فأخذهم الله؛ فكيف كان عقابي؟ كيف انتقمت منهم؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر الأمم الماضية وهدد هؤلاء المجادلين بالباطل: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦].

يعني مثلما أن الله عذب هذه الأمم بسبب جدالها بالباطل، وإرادتها أن تدحض الحق بالباطل؛ قال: وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا. كل كافر حقت عليه كلمة الله، ما هي؟

العذاب؛ أنهم أصحاب النار، أي كما حق العقاب على هذه الأمم السابقة التي ذكرها الله؛ قوم نوح والأحزاب من بعدهم التي كذبت الرسل وجادلت بالباطل، حق على الذين كفروا جميعًا؛ وهو أن الله قدر عليهم وقضى بعلمه السابق أنهم أصحاب النار؛ تهديدًا لهم وتخويفًا لكل فاجر كافر أن يحذر أن يكون من أهل النار.

لما ذكر الله هذا الوعيد الشديد، ذكر وعده الكريم للمؤمنين الذين آمنوا؛ وعد عظيم، وهو دعاء الملائكة لهؤلاء؛ فشوف من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورحمته أن سخر هذه الملائكة بأنها تستغفر للمؤمنين وتدعو لهم بصالح الدعاء.

مَن هم الملائكة هؤلاء؟ هل هم أي ملك؟

لا، ملائكة مقربون؛ ملائكة مقربون هم حملة العرش، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ [غافر: ٧].

حملة العرش؛ قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]. حملة العرش من أعظم الملائكة خلقًا، ومن أقربهم إلى الله؛ فهم مقربون، ومعهم ملائكة أيضًا حول العرش، قال: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ [غافر: ٧]؛ يعني حملة العرش هؤلاء الملائكة -مع عظم الخلقة وهم معظمون عند الله ومقربون- وحولهم ملائكة. هؤلاء جميعًا ماذا يصنعون؟

قال: حملة العرش ومن حول العرش من الملائكة الذين يطوفون حافين حول العرش؛ كلهم يتعبدون الله، كلهم يتعبدون الله؛ يسبحون الله وينزهونه عن صفات النقص، يسبحون الله.

قال: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر: ٧]؛ يعني يسبحون وهم يحمدون الله، يحمدونه بما هو أهل للحمد والثناء، يحمدونه ويسبحونه ويقدسونه ويعظمونه وينزهونه ويذكرونه ذكرًا عظيمًا بالتهليل والتسبيح؛ زجل عظيم.

قال: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [غافر: ٧]؛ أي هم يؤمنون بالله حق الإيمان؛ يعني وصل الإيمان عندهم إلى أعلى درجات الإيمان، يؤمنون بربهم إيمانًا عظيمًا.

ثم قال بعدها؛ هؤلاء الموصوفون، هؤلاء الملائكة الموصوفون بهذه الصفات؛ أنهم حملة عرش وملائكة حول العرش، وأنهم يتعبدون الله بهذه العباد العظيمة؛ يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: هؤلاء ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]. يعني شوف فضل الإيمان؛ فضل الإيمان على الإنسان إذا كان من أهل الإيمان، ويؤمن بالله حق الإيمان، ويحقق أركان ومراتب الإيمان؛ هذا إذا وصل هذه الدرجة، فإن فوقه ملائكة تستغفر له، تستغفر له.

وشوف استغفار الملائكة وهم لم يذنبوا طرفة عين، منزهون ومعصومون من الذنوب والمعاصي؛ لا يعصون الله ما أمرهم، ومقربون وحملة عرش، ويستغفرون لك وأنت المؤمن؛ يستغفرون لك، فهذا فضل عظيم من الله.

وهذا شوف فضل الإيمان عليك؛ لو لم تكن مؤمنًا ما استغفرت لك الملائكة، فالملائكة تستغفر للذين آمنوا؛ مَن اتصف بالإيمان، شوف فضل الإيمان وثمرة الإيمان.

قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]؛ وتأمل وأنت تقرأ، الفعل المضارع **(يستغفرون)** يدل على الاستمرار؛ يعني أنهم يستغفرون لك في كل وقت، ما قال استغفروا وانتهوا؛ لا، هم على طول الوقت يستغفرون للذين آمنوا.

ويتوسلون إلى الله؛ لأن معنى الاستغفار هو طلب المغفرة، وهم يطلبون المغفرة لك، لكنهم يتوسلون إلى الله بوسائل تكون سببًا لقبول الدعاء، مع أنهم لم يعصوا الله طرفة عين، وهم من المقربين؛ ملائكة وحملة عرش، وعباداتهم عظيمة؛ يؤمنون ويسبحون ويستغفرون، أعمالهم عظيمة، ومع ذلك يتوسلون إلى الله بأسباب قبول الدعاء.

- **ما هي أسباب قبول الدعاء لديهم؟**

أولاً: قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾ [غافر: ٧]؛ فيتوسلون بكون الله عَزَّ وَجَلَّ هو ربهم، يتوسلون بأن الله هو ربهم، فيقولون: يا ربنا؛ يتضرعون باسم الله **(الرب)**.

فيقولون: أنت ربنا وأنت خالقنا وأنت المتصرف بنا يا ربنا. وهذا يدل على أن الله هو القوي العزيز، وأن الملائكة -مع عظم خلقهم بالنسبة لرب العالمين- هم ضعفاء، هم مخلوقون يتوسلون إلى ربهم، فيقولون: يا ربنا؛ يا رب ربنا.

ثم يقولون: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]؛ يتوسلون بسعة رحمة الله وسعة علمه؛ يقولون: رحمتك وسعت كل شيء وعلمك وسع كل شيء، فإذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ، والملائكة تدعوه بالتضرع بكونهم مربوبين والله ربهم، ورحمة الله وسعت كل شيء، وعلمه وسع كل شيء؛ قالوا بعد ذلك: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]

متى؟ يعني شوف، اشترط شروطًا؛ قال اغفر، لكن لا تغفر لأي شخص؛ لا، ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾؛ اغفر لمن تاب من الشرك والمعاصي وسلك طريق النجاة، قال: ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾؛ طريق الإسلام. فهؤلاء اغفر لهم يا رب متى ما تابوا وعادوا إليك، واتبعوا طريقك واتبعوا طريق الإسلام؛ فاغفر لهم.

ولاحظ، قف عند هذا الدعاء؛ يعني هذا يحثنا على أي شيء؟ يحث كل مسلم، ماذا يحث؟ يحث على التوبة؛ إذا علمت أن الملائكة تدعو الله أن يغفر لك إذا تبت، فهذا يحثك على التوبة؛ أن تتوب إلى الله دائمًا، اللّٰهم تب علينا، اللّٰهم اغفر لنا، اللّٰهم ارحمنا.

وأيضًا تحثك على التمسك بالإسلام، وبمعالم الإسلام، وبدين الإسلام وبشرعه؛ لأنه قال: ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾. فهؤلاء حقٌّ أن تدعو لهم الملائكة؛ إذا تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الله، وتمسكوا بمعالم الإسلام وبشريعة الله؛ فهؤلاء اغفر لهم، اغفر لهم وزيادة: ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]؛ أي نجهم وخلصهم من عذاب النار وأهوالها؛ يعني اغفر لهم ذنوبهم التي سلفت، وأيضًا نجهم من عذاب الجحيم.

وإذا غفر لهم ونجاهم من عذاب الجحيم، هل ينتهي الدعاء؟ قال: لا؛ عادوا مرة ثانية قالوا: ﴿رَبَّنَا﴾، وتوسلوا إلى الله باسم الرب وصفة الربوبية؛ يا ربنا ويا خالقنا ويا رازقنا، أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٨].

مثلما أنك وقيتهم وسلمتهم من عذاب النار ونجيتهم من عذاب النار، أدخلهم جنات عدن، ومعنى عدن؛ أي جنة إقامة، يقيمون فيها، لا يبغون عنها حولاً، ولا يريدون أن ينتقلوا أو يخرجوا منها.

﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾؛ التي وعدتهم على ألسنة الرسل، وعدتهم أن مَن آمن وأصلح عمله أنه من أهل الجنة، فالرسل أخبروا بذلك؛ الرسل أخبروا بذلك.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ على ألسنة الرسل، وأدخل معهم مَن صلح من آبائهم؛ لا تدخل معهم آباءهم جميعًا، لا، بل الصالحين من الآباء، والزوجات **(والأزواج مع الزوج، مع النساء)**، والذرية **(ذرياتهم؛ أبناؤهم، وأبناء أبنائهم، وأولادهم وبناتهم)**.

شوف فضل الله وشوف دعاء الملائكة! الملائكة تدعو تقول: اغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك، وقهم عذاب الجحيم، وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم مَن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٨].

شوف التوسل بأسمائه وصفاته؛ إنك أنت العزيز ذو العزة والقوة، القاهر لكل شيء، الذي لا يعجزه أي شيء، والحكيم في تدبيره وصنعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالله عزيز وحكيم، ويتقبل دعاء الصالحين من الملائكة وغيرهم، والملائكة تدعو لمن تاب ورجع وتمسك بشرع الله بهذا.

خذ أيضًا من دعاء الملائكة، قال: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۚ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩]

يعني اصرف عنهم السيئات، واصرف عنهم عقوبة هذه السيئات وأثر هذه السيئات.

شوف هذه الجملة: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾، قف عندها وتأملها؛ يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا وقاك السيئات.

- **كيف يقيك السيئات؟**

يعني يصرف عنك أسباب الوقوع في المعاصي؛ يعني الله يحفظك بسبب دعاء الملائكة وبسبب محبة الله لك وبسبب عملك الصالح؛ إن الله سبحانه يسلمك من كل معصية.

أحيانًا الإنسان تزين له نفسه أن يقع في معصية، أو يمر على أهل معاصٍ فتدفعه نفسه الأمارة بالسوء إلى أن يختلط بهم، أو يسمع شيئًا، أو يرى مقطعًا محرمًا أو نحو ذلك، فإذا تذكر؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقيه هذه المعاصي؛ لأنه حفظ، لأنه حفظ شرع الله.

«احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»؛ يحفظك من المعاصي، **«احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ»** يصرف عنك السيئات والمعاصي؛ بحيث إن الله يجنبك الوقوع في المعاصي ويسلمك، فتبتعد عن كل معصية، ونفسك وقلبك لا يقبل الإقبال على هذه المعاصي، تشمئز نفسك من الوقوع في المعاصي، الله يكره في نفسك هذه المعاصي.

وهذا فضل عظيم، ونعمة وقاية السيئات؛ فالله يقيك السيئات ويبعدك عن المعاصي، وعن آثار هذه السيئات لو وقعت فيها؛ فإن الله لا يؤاخذك، وإن الله يرفع ويعفو عنك.

ثم علل وقال: ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ [غافر: ٩]؛ يا ربنا الذي تقيه السيئات يومئذ -أي يوم القيامة- إذا وقيته في الدنيا وسلمته في الدنيا، ثم وقيته أثر هذه السيئات في الآخرة وعقوبة هذه السيئات في الآخرة؛ فقد رحمته، وليس فوق رحمة الله رحمة.

ثم قالوا: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٩]؛ أي الذي ذكره مما تقدم من هذه الدعوات، والسلامة من النار والفوز بالجنة؛ ذلك الفوز العظيم، هذا الفوز الذي لا فوز فوقه في دخول الجنة ونعيم الجنة والتلذذ بالنظر إلى وجه الله الكريم.

هذا أعظم، وأن يحل عليك رضوان الله؛ هذا ليس فوق هذا الفوز فوز أبدًا؛ أن تسلم من النار، وأن يدخلك الله الجنة، وأن تكون مع المتقين في جنات النعيم تتلذذ بنعيمها وبالنظر إلى رب العالمين، وأن يحل عليك رضوانه؛ هذا ليس فوقه فوز، ذلك الفوز العظيم.

هذا كله دعاء الملائكة للمؤمنين الصالحين الذين يتقربون إلى الله بالأعمال الصالحة، ومن أعظمها كثرة التوبة والاستغفار، والتمسك بشرع الله؛ تمسك بعبادة الله؛ بالصلاة، بالزكاة، بالصيام، بسائر الأعمال التي شرعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فضل المؤمنين وفضل الإيمان ودعاء الملائكة لهم، يبين لك -مثلما أن الله رضي عن المؤمنين- فإنه يمقت ويغضب على أعدائه من الكافرين.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

كفروا وجحدوا توحيد الله وعبوديته، وصرفوا العبادة لغيره، وكفروا بالله؛ هؤلاء ينادون، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمقت الله أكبر؛ عندما يأتي يوم القيامة، الكفار الذين كفروا بالله هؤلاء إذا جاء يوم القيامة مقتوا أنفسهم وغضبوا على أنفسهم؛ كيف نعصي الله؟ كيف نطيع الشيطان؟

كيف نرفض ما فرض الله علينا؟ وكيف نكفر بالله؟ يمقتون أنفسهم فينادون؛ تناديهم الملائكة أو خزنة جهنم يقولون: أنتم الآن غضبتم على أنفسكم، أنتم الآن غضبتم على أنفسكم، الله أشد غضبًا عليكم.

المقت: أشد درجات الغضب؛ مقت الله وغضبه وسخطه أشد من ذلك بكثير، أشد، لماذا أشد غضب الله عليكم؟ قال: لأنكم دُعيتم في الدنيا، دعتكم الرسل إلى الإيمان فكفرتم، وأبيتم إلا الكفر والعصيان.

ففي هذه الحالة يأتون يدعون فيقولون: يا ربنا؛ يدعون أهل النار -يعرفون ربهم الآن- فيقولون: يا ربنا يدعون: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]

- **كيف أماتهم اثنتين وأحياهم اثنتين؟**

﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]

أنتم كنتم أمواتًا، نُطفًا ميتة ما تتحركون، ما فيكم روح، كنتم أمواتًا فأحياكم في الدنيا، ثم يميتكم عند خروجكم من هذه الدنيا، ثم يحييكم في الآخرة في حال البعث؛ هذا معناه أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين: الموتة الأولى التي كنتم نُطفًا أمواتًا فأحياكم في الدنيا، ثم يميتكم هذه اثنتين، ثم يحييكم في الآخرة.

فاعترفنا بذنوبنا؛ الآن نحن عرفنا أننا قد أخطأنا، واعترفنا بأننا أذنبنا وارتكبنا الذنوب والمعاصي، فهل يا ربنا تخرجنا من النار؟ هل هناك طريق إلى الخروج من النار؟ أخرجنا فإن عدنا فإنا ظالمون؛ فهل لنا خروج؟ لا يمكن، لا يمكن الخروج، وما هم منها بخارجين؛ قال: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾؛ هل لنا طريق وسبيل أن نخرج؟ فما لهم خروج، ما يمكن.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ۚ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢]

ذلكم أي العذاب الذي أصابكم والنار التي دخلتموها، ذلك بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم؛ إذا دعت الرسل لعبادة الله وحده لا شريك له وتوحيده تكفرون به وتجحدونه، تشمئز قلوبكم؛

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾[الزمر: ٤٥]

تشمئز وتنفر ولا تريد التوحيد، وإن يُشرك به تستبشرون وتفرحون وتؤمنون وتحبون هذا الشيء؛ فالحكم لله العلي الكبير. هذا السبب الذي جعلكم تكونون من أهل النار؛ أنكم كفرتم بالتوحيد وآمنتم بالشرك.

فالحكم لله العلي الكبير؛ الحكم والقضاء، والحاكم فيكم حكمًا عدلاً هو الحاكم سبحانه، هو العلي الكبير؛ العلي الذي له علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، والكبير الذي له الكبرياء والعظمة في السماوات والأرض، هو الذي يقضي بينكم بحكمه وعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عاد مرة أخرى لمناقشة هؤلاء المشركين بأن الله هو ربهم، وهو الذي يريهم آياته، قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[غافر: ١٣].

يعني يظهر لكم آياته في الكون، آياته التي تشاهدونها؛ يريكم آياته العظيمة في السماوات والأرض، ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]، آيات الله الكونية في السماوات والأرض، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ [ق: ٦] و ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾[ق: ٧].

هذه آيات الله الكونية تدل على وحدانيته، وتدل على قدرته وعلى ملكه وعلى خلقه العظيم.

قال: يريكم آياته، ومن آياته أنه يخلق هذا السحاب وينزل لكم هذا الماء، قال: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ﴾ -أي من السحاب- ﴿رِزْقًا﴾؛ وهو المطر الذي هو سبب لنبات الأرض وإخراج ما فيها من أرزاق وحبوب وثمار، قال: رزقًا.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]؛ يقول: هذه الآيات العظيمة موجودة مبثوثه في الكون، لكن مَن ينظر إليها ويتأمل فيها؟ إلا مَن ينيب ويرجع إلى الله ويخلص عمله لله، ويعرف عظمة الله؛ هذا هو الذي يستفيد، أما هؤلاء المعرضون فما تنفعهم؛ ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

قال: فادعوا الله وارجعوا إليه، وأخلصوا العبادة له، ادعوا الله دعاء مسألة ودعاء عبادة؛ ادعوه، ادعوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنتم مخلصون العبادة له والدين له لا تشركون معه؛ فإن الذي يدعو مع الله إلهًا آخر لا يُقبل منه، ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]

لو غضبوا على ذلك ولو لم يقبلوا لا تبالوا بهم؛ فأخلصوا العبادة لله وارجعوا إلى ربكم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو العلي الكبير، وهو: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

الذي له الدرجات العلى هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، رفيع الدرجات، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾؛ صاحب العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات وهو سقف المخلوقات، ذو العرش سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾؛ أي ينزل الوحي، الروح: الوحي والرسالة؛ يلقي الروح، سمى الله الوحي والرسالة روحًا؛ لأنه تحيا به القلوب، قال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾؛ وهم الرسل، يختار من رسله مَن يشاء ويصطفي من رسله.

فيلقي الروح عليهم وينزل عليهم الوحي، وهو أعظم نعم الله عَزَّ وَجَلَّ على عباده، وأعظم الرحمات أن يبعث الرسل؛ حتى يقيم الحجة على هؤلاء، وحتى ينجي مَن ينجي بسبب هذه الرسالات، قال: على من يشاء ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾. ينذرهم هذا اليوم، يخوف؛ الرسل تخوفهم، ينذر الله هو الذي ينذر، والوحي هو الذي ينذر، والقرآن ينذر والرسل تنذر؛ ينذر الرسول، ينذر يوم التلاق الذي هو يوم القيامة.

وسُمي **(يوم التلاق)**؛ لأن هذا اليوم يلتقي فيه الأولون والآخرون، كلٌّ يلتقي، وتلتقي الملائكة بالخلق، والله يلتقي بخلقه، وكلٌّ يلاقي الآخر؛ التلاق.

قال: ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]

ظاهرون، لا يستطيع أحد منهم أن يختفي، ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾؛ مستحيل أن يخفى أحد؛ لا بأبدانهم ولا بأعمالهم، كلها ظاهرة أمام الله، أعمالهم وأبدانهم لا يخفى على الله منهم شيء.

﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؛ ينادي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: لمن الملك؟ لمن التصرف في هذا اليوم؟ لمن الملك هذا اليوم؟ فيجيب نفسه؛ لا أحد يستطيع أن يتكلم؛ ﴿لَّا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]. لمن الملك اليوم؟ قال: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾؛ الواحد الذي انفرد بالخلق والتدبير والألوهية والعبادة، القهار الذي قهر جميع المخلوقات بقدرته وعزته.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]. يوم القيامة تُجزى كل نفس مؤمنة أو كافرة، كل نفس مكلفة، صغيرة أو كبيرة، تُجزى بما كسبت، بأعمالها، تُجزى بما فعلت في الدنيا، تُجازى؛ تُجازى إن خيرًا فخير وتضاعف لها الحسنات، وإن شرًا فشر، وتُعطى وتُجازى على قدر أعمالها، ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾؛ يحاسب عباده ويحاسب الخلق في لحظة، لا يشغله شأن عن شأن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فيحاسبهم كما رزقهم في لحظة، يحاسبهم في لحظة.

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله السورة مليئة بالعلوم والمعلومات والتوجيهات والوعظ والتذكير، وإن شاء الله نستكمل ما فيها من هذه العلوم في لقاء قادم؛ نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(غافر ١٨ - ٢٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للخامس من شهر شعبان من عام ستة وأربعين من الهجرة؛ نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا، وأن يوفقنا لطاعته.

قبل أن ندخل في الدرس، في الحقيقة أحب أن أذكر نفسي وأذكر الإخوة الكرام بأن من فضائل هذا شهر الذي نعيشه -وهو شهر شعبان- أن من فضائله أنه يُشرع ويُستحب صيامه؛ يعني حتى ذكر بعض أهل العلم صيام الشهر، أو على الأقل صيامه أو أكثر هذا الشهر.

☜**فإن في حديث أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو قال أسامة:** يا رسول الله، إني أراك تصوم هذا الشهر، أو تصوم أكثر هذا الشهر؟ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذَاكَ شَهْرٌ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، شَهْرٌ يَغْفُلُ النَّاسُ عَنْهُ**».

يعني الناس يغفلون كثيراً في هذا الشهر؛ لأنه قريب من شهر الصيام، فالناس ينشغلون؛ إما ينشغلون بما يتعلق بالصيام أو غيره، فيغفل الناس عنه، فيصوم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر هذا الشهر.

حقيقة، الأوقات والأزمنة التي ينشغل الناس عنها، هذه تعد من الفضائل التي ينبغي للإنسان أن يستغلها؛ مثل صلاة الضحى الآن كثير من الناس ينشغل بأعمال ونحوها، فرصة، فالذي يجد عنده فرصة يستغل غفلة الناس في استغلالها في طاعة الله والتقرب إلى الله بالأعمال الصالحة.

فصيام شعبان صيامه مستحب ومؤكد؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصومه، وكثير من السلف درجوا على الحرص على صيام هذا الشهر حتى لا يبقى منه إلا يوم أو يومين، فيحرص الإنسان عليه.

إذا لم يتيسر، أو كان قد يشق عليه أو نحو ذلك؛ فعليه بالاثنين والخميس، وعليه بالبيض ونحوها مما تيسر، المهم أنه يشرك نفسه في هذا الأجر ولا يحرم نفسه أن يكون خارج هذه السنة، بل يطبقها على قدر المستطاع.

وأيضاً ورد عن بعض السلف أنهم كانوا يسمون شهر شعبان **(شهر القراء)**؛ لكثرة القراءة فيه، ولعل ذلك -والله أعلم- أنه تمهيد لشهر رمضان؛ لأن النفس تعود، والنفس ضعيفة، فإذا عودتها على الخير انطلقت، فإذا عودت نفسك على كثرة الصيام وعلى كثرة قراءة القرآن، وجاءك الشهر المبارك الكريم وكانت النفس مهيأة، انطلقت بأقوى وأشد.

ولذلك تجد بعض الناس ما يقرأ القرآن إلا في رمضان، وإذا جاء رمضان يجد فيه صعوبة ويجد مللاً، والصيام كذلك يشعر بتعب وملل؛ لكن الذين يصومون طوال السنة رمضان عندهم لا يغير شيئاً جديداً بالنسبة للصيام، يعني الصيام تعودوا عليه طوال السنة.

يحرص الإنسان، حتى ذُكر عن بعض السلف أنه كان يغلق محله التجاري، يسمى **(الحانوت)**، يغلق **(الحانوت)** لينشغل بالأعمال الصالحة في هذا الشهر.

وذكر ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ أن السلف كانوا يستحبون إخراج الزكاة قبل رمضان؛ في رجب وفي شعبان، لأن الناس في غفلة والناس محتاجون في هذا الوقت، الفقراء خاصة محتاجون أحوج ما يكون إلى الصدقة في هذا الوقت؛ لأن الناس كلهم يخرجون في رمضان وقد يضيعها بعض الفقراء في أشياء لا تنفع، فاستغلال مثل هذه الأشياء تدل على الحكمة وتدل على أن الإنسان يستغل مثل هذه الأوقات.

لا نطيل ونعود إلى درسنا، درسنا في تفسير القرآن الكريم في سورة غافر عند الآية الثامنة عشرة؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

- **من هم؟**

الكفار الذين أعرضوا، الذين جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحذرهم وهم لا يزالون في غيهم وفي ضلالهم، يقول: أنذرهم وحذرهم وخوفهم من هذا اليوم؛ هذا اليوم يوم عظيم وهم في غفلة عنه، بل هم لا يؤمنون بهذا اليوم؛ فيقول: أنذرهم وحذرهم هذا اليوم العظيم.

وإن كان الخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله : ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ هو خطاب للرسول، ويدخل فيه كل داعية إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كل زمان؛ أنا وأنت والثاني والثالث، كلنا ننذر ونحذر هذا اليوم الذي يغفل كثير من الناس عنه ولا يستعدون له.

ولذلك تجد ممن غفل عن هذا اليوم أو ضعف إيمانه بهذا اليوم لا يبالي بارتكاب المعاصي والذنوب والمخالفات؛ لا يبالي، لأنه لو كان عنده خوف شديد من هذا اليوم وأنه سيقف أمام الله ويحاسب لم يبال في الوقوع في هذه المعاصي؛ يقول: أنذرهم، هؤلاء الذين صدوا وغفلوا عن هذا اليوم، يقول: أنذرهم هذا اليوم.

وسمى الله هذا اليوم **(يوم الآزفة)**، والقرآن الكريم سمى يوم القيامة بأسماء كثيرة؛ سماه **(الطامة)**، و**(الصاخة)**، و**(القارعة)**، و**(الحاقة)**، أسماء كثيرة.

وهذه السورة فيها أكثر من اسم؛ **(يوم التلاق)** موجود في هذه السورة، و**(يوم الحساب)**، و**(يوم الآزفة)**، وأسماء كثيرة ليوم القيامة، وكثرة الأسماء تدل على عظم المسمى؛ أي هذا يوم عظيم جعل الله له أسماء كثيرة، وكل اسم له دلالة.

- **لماذا سمى الله يوم القيامة (يوم الآزفة)؟**

قال: (الآزفة) معناها القريبة، أزف الشيء إذا قرب؛ **"أزفت الآزفة"** يعني دنت وقربت، فيوم الآزفة سمي يوم القيامة يوم الآزفة لقربه؛ قربه لأن من مات قامت قيامته، والموت قريب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصف يوم القيامة: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾[الأنبياء: ١]؛ فمعنى الآزفة القريبة، وإن استبعده الناس هو قريب.

قال سبحانه: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]. (إِذْ) هذه ظرف زمان تفيد الماضي، و(إذا) تفيد الحال والاستقبال.

- **لماذا أتى الله بـ (إذْ) التي تفيد الماضي ويوم القيامة لم يأت بعد؟**

الجواب: لتحقق وقوعه، مثل قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١] ولم يأتِ بعد، كيف يقول أتى أمر الله ويوم القيامة لم يأتِ بعد؟ وقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩].

- **كيف نفخ وينفخ في الصور؟**

قال: ينزل الشيء الذي تحقق وقوعه منزلة من وقع وحصل؛ فقال: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

قلوب من؟ قلوب العباد من شدة الهول، إلا من منّ الله عليه بالأمن وخفف عليه الحساب؛ وإلا فغالبية الخلق والعباد في خوف وفي ذعر، يوم شديد عصيب، هم وحزن وغم.

فمن شدة هذا اليوم العصيب الذي تضع الحامل حملها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ٢]، وتذهل المرضعة عن رضيعها؛ هذا اليوم الذي وصفه الله بأن أهله سكارى وما هم بسكارى ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾ [الحج: ٢]؛ القلوب لدى الحناجر.

- **كيف لدى الحناجر؟**

يعني القلوب انتقلت إلى الحنجرة، والحنجرة مجرى الهواء في الحلق، والقلب تحت في الصدر؛ فمن شدة هذا اليوم انتقل القلب إلى الحنجرة يريد أن يخرج ولا يستطيع الخروج، ولا يستطيع أن يرجع إلى مكانه من شدة الهول، هذا يقع من شدة الهول ومخافة ما يجري في هذا اليوم، فمن شدة هذه الأمور ترتفع القلوب فتعلق بالحلوق والحناجر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

- **من هم الكاظمون؟ وما معنى كاظمين؟**

قال: أصحاب القلوب كاظمين، يكظم يعني يحبس شدة الخوف، لا يريد أن يظهر الخوف أمام الناس، والغم والحزن يكظمه أشد ما يستطيع، ولا يريد أن يبين للناس أن القلب ارتفع وخرج من مكانه إلى الحلق فيكظمه بقوة.

فالناس كاظمون، وأصل الكظم حبس الشيء، ومنه كظم القربة؛ القربة إذا امتلأت ماءً لابد أن تأتي إليها وتكظم فتحتها بقوة وإلا خرج الماء، فهنا يكظمون بشدة وإلا خرج ما وجدوا من الحزن والهم والغم الذي امتلأت القلوب منه.

يقول: ﴿كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، بعض المفسرين يقول: (كاظمين) تعود إلى القلوب لأنها هي المذكورة: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾؛ أي القلوب تكظم، يعني تمتلئ وصاحبها يكظمها بقوة، ولكن الذي يظهر أن (كاظمين) تعود إلى أصحاب القلوب.

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]؛ يعني هذا الظالم في هذا اليوم لن يجد له حميماً ولا شفيعاً.

- **كيف حميم وشفيع؟**

الجواب: الحميم هو الصديق شديد الصداقة، الذي وصلت صداقته إلى درجة الخُلّة، يعني أصبح له صاحب شديد الصحبة جداً؛ يقول: هذا الحميم يتخلى عنه يوم القيامة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. فالخُلّة والصحبة والمحبة تزول بين الظالمين؛ ليس لهم من يشفع إذا ظهرت الشفاعات ووجدت وأذن الله بالشفاعة، هؤلاء ليس لهم شفاعة.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]. فالظالم لن يجد من يقف معه ويساعده في هذا اليوم، ولن يجد أيضاً من يشفع له، فتخلى عنه الأحباب والشفعاء، وأصبح وحيداً لا خليل ولا حبيب ولا شفيع ولا معين ولا ناصر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سعة علمه وإحاطته بالناس في ذلك اليوم وفي غيره: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. هذه الكلمة في الحقيقة وُدّك تقف معها وقفة طويلة؛ يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

- **ما معنى خائنة الأعين؟ هل العين تخون؟**

الجواب: نعم تخون، كيف تخون؟ قال: تختلس العين نظرات يميناً أو شمالاً، يعني تسترق النظر يميناً أو شمالاً؛ أحياناً تجد بعض الناس ضعيف النفس إذا جلس شخص عنده وفاتح جواله بدأ يسترق بنظره ما في هذا الجوال.

وأحياناً يسترق بسمعه إذا سمع شخصاً يتكلم بجلس ينصت لهذا الشخص ويستمع لكل ما يجري من كلام بينه وبين أهله، بينه وبين أبنائه، بينه وبين والديه، بجلس يتسمع وينظر بعينيه.

وإذا مر شخص في سيارته وهو واقف يلتفت إليه ويجلس ينظر في سيارته نظرات يسترقها ويختلسها، لا داعي لها ولا ينبغي أن يحصل هذا؛ حتى تجد بعض الناس في حديثه أو كلامه إشارات بأعينه، يشير ويختلس بعينه ويسترق بعينه.

هذه تسمى خائنة الأعين لا ينبغي للمسلم أن يفعلها، خائنة سماها الله خائنة لأن العين تخون، فيحذر الإنسان أن يختلس ويسترق بعينه يميناً وشمالاً؛ فإن هذا الله يعلمه، حتى لو أن الذي بجانبك لا يدري، والذي حولك لا يدري وأنت تنظر إليه.

فالله يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما في نفسك من خيانة وفي عينك من خيانة؛ يعلم خائنة الأعين، وأيضاً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم ما تخفي الصدور، ما تضمره الصدور؛ فالإنسان يضمر في صدره أشياء كثيرة من خير أو شر والله يعلمها؛ فهذا يدل على سعة علمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وشوف الفعل المضارع ﴿يَعْلَمُ﴾؛ أي أن علمه لا ينتهي، يعلم الآن، ويعلم غداً، ويعلم في كل ساعة وفي كل لحظة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والذي يجمع الناس يوم القيامة ويجازيهم هو عالم بكل شيء وسيجازيهم ويحاسبهم على أعمالهم وعلى نواياهم، وعلى ما تخفيه الصدور وما تختلسه العيون، كل ذلك يعلمه.

قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٢٠]. والله يقضي ويحكم بالحق؛ لا يقضي بين الناس إلا بالعدل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يجمع الناس ليوم القيامة فيقضي بينهم بالحق.

يعطي كل ذي حق حقه لا يظلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولا يبخس الناس ولا يهضم حقهم، ولا يظلم أحداً بأن يزيد في عقوبة ما ليس له؛ كل ذلك بعدل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لكن هؤلاء الذين يدعون من دون الله من الأصنام والأوثان والمعبودات والأموات، هل تقضي بشيء؟ هل هذه تقارن بالله الذي يعلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كل شيء ولا يخفى عليه شيء، ويقضي سبحانه بالحق؟ هل هذه المعبودات من دون الله في صف الله؟ هل هناك مماثلة بينها ومعادلة أو شيء قريب؟

ما فيه؛ هذه أصنام، كيف تُعبد من دون الله؟ كيف تسوونها بالله في العبادة؟ تخضع لها، وتسجد لها، وتدعوها من دون الله، وتطوف حولها، وتقدم لها ما هو من خصائص الله، وهي لا تعلم خائنة الأعين ولا تعلم ما في الصدور، ولا تقضي بشيء ولا تحكم بشيء، وليس لها من خصائص الله مثقال ذرة! فأين عقول هؤلاء يساوون هذه الأصنام بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

قال: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ [غافر: ٢٠]؛ مطلقاً، (شيءٍ) نكرة في سياق النفي تفيد العموم، أي لا يقضون بأي شيء ولا مثقال ذرة. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٢٠]؛ يسمع الأصوات وهو البصير يبصر الخلق ويراهم بأفعالهم وأقوالهم، كل ذلك في علمه؛ فهو يسمع الأقوال ويبصر الأحوال والأفعال، وإذا كان يسمع ويبصر جل جلاله فإنه يحاسب ويجزي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا هذه الآيات التي فيها الوعيد الشديد لمن أعرض، وقال: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ هؤلاء الذين في ضلال وصدوا عن سبيل الله وعن طاعته؛ لما قال أنذرهم وحذرهم وجاءتهم المواعظ الشديدة كالجبال الصم ولم يرتدعوا ولم يذعنوا ولم يقبلوا ولم يتوبوا، خوفهم الله بتخويف آخر؛ انتقل إلى طريق آخر وهو تخويفهم بالعموم في الأمم الماضية، قال: أنتم لا تعتبرون بالمواعظ؟ اعتبروا بالأمم الماضية.

قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١].

- **لماذا لا يسيرون في الأرض وينظرون؟**

انطلقوا وانظروا نظر تأمل وتفكر في الأمم الماضية كيف كانت عاقبة الأمم التي كانت قبلهم؛ يعني عاد أهلكها الله بالريح، وثمود أهلكها بالصيحة، وقوم لوط الذين يمرون عليهم مصبحين وبالليل قلب الله ديارهم وأهلكهم بالحجارة، ومدين وفرعون وغيرهم أمم كثيرة.

لماذا لا يسيرون في الأرض فينظروا حتى يعتبروا كيف كانت عاقبة الذين كانوا من قبلهم؛ فيصيبكم ما أصابهم، لستم خيراً منهم، أكفاركم خير من أولئك أم لكم براءة في الزبر؟ ما أنتم بخير ولا عندكم براءة، ليصيبكم ما أصابهم.

قال: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١]؛ قوم عاد وثمود وغيرهم من الأمم وفرعون كانوا أشد، أعطاهم الله قوة في الأبدان وقوة في الأفكار والصناعات؛ فكانوا أشد منهم قوة بأجسامهم وعقولهم وآثاراً في الأرض في البنايات والغرس والزروع وغيرها.

لما أعرضوا وكفروا برسالات أنبيائهم واستكبروا؛ قال: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ [غافر: ٢١]؛ أخذهم يعني عاقبهم وأهلكهم بسبب ذنوبهم، حتى نعرف أن الله ما أخذهم هكذا وإنما أخذهم بسبب الذنوب

والمعاصي، ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١] يقيهم العذاب، ما وجدوا أحداً يدفع عنهم العذاب.

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مبيناً سبب تلك العقوبة التي نزلت بهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢]. ذلك العذاب الذي حل بهم سببه أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات؛ بالحجج والأدلة والدلائل القاطعة على أنهم صادقون في دعواهم وأنهم جاءوا من عند الله.

فكفروا وامتنعوا ولم يقبلوا دعوة أنبيائهم، فالنتيجة: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾؛ عاقبهم أشد العقاب، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قوي ينتقم من أعدائه وينصر أولياءه، ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ قوي لا يغلبه أحد، وشديد العقاب إذا عاقب عقوبته شديدة لمن كفر وعصى وعاند.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما لفت أنظارهم إلى الأمم الماضية والنظر في آثارهم، ذكر قصة أحد هؤلاء وهو فرعون الذي أرسل الله إليه موسى كليمه داعياً ومنذراً ومحذراً ولكنه أبى وكفر.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۝٢٣ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۝٢٤﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]. ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام موطئة للقسم، أي التقدير: والله لقد أرسلنا، و(قد) للتأكيد؛ أرسلنا موسى، يعني رسالة من الله، لم يأتِ موسى من نفسه وإنما هو رسول أرسله الله.

قال: ﴿بِآيَاتِنَا﴾؛ الآيات العظيمة التي أعطاه الله كاليد والعصا وغيرها من الآيات، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]. وقال: ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾؛ حجة قوية تدل على صدقه ودعوته، وكان يحاج ويناقش ويجادل فرعون بقوة.

لما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، قال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] وغيرها، فحاجه بقوة سلطانه، أعطاه الله قوة السلطان وقوة الحجة حتى يعلم فرعون ويعلم من حوله أنه على الحق.

أرسله إلى من؟ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ [غافر: ٢٤]. فرعون هو ملك مصر الذي قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]. وهامان وزيره الذي يعمل

عنده ويعينه ويساعده ويؤازره. وقارون هذا من قوم موسى؛ كفر واستكبر وافتخر بنفسه أنه أعطي كنوز الدنيا كلها، فتكبر بماله وكنوزه وأنكر رسالة موسى وكفر: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦].

هؤلاء كلهم اجتمعوا على رد رسالة موسى واتهامه بما هو باطل وغير صحيح؛ فقالوا: ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤]، كلهم اجتمعوا على أنهم اتهموا موسى الصادق الأمين الذي أرسله الله رحمة لهم، سموه ساحراً كذاباً؛ ساحر يسحر الناس، وموسى هو أصدق من جاء برسالة ربه، يقولون له ساحر كذاب! كيف تزعمون هذا الكلام وليس عندكم دليل على كلامكم؟ إنما هو مجرد إلقاء تهم بغير دليل.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥]. لما جاءهم موسى بالحق؛ بالرسالة والمعجزة والدليل الواضح والحجة من عند الله، قالوا -أي فرعون وهامان وقارون وأقوامهم وأتباعهم لما جاءهم بالدعوة وبالحق-: ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾.

وهنا سؤال بدي أن ينتبه له كل شخص: أليس فرعون كان يذبح الأبناء حتى في وقت ولادة موسى؟ فكيف يقول هنا اقتلوا أبناءه؟ هل هذا شيء جديد؟ كيف كان يذبح وكيف يقول الآن اقتلوا؟

قال بعض أهل التفسير في الجواب على هذا: قالوا ﴿اقْتُلُوا أَبْنَاءَ﴾ أي زيدوا في قتلهم، زيدوا وشددوا على قتلهم حتى إذا تركوا الأبناء لا يتأثرون بآبائهم وتصبح لهم قوة وصولة؛ فاقطعوا دابرهم واقتلوهم حتى ينتهوا.

اقتلوا أبناءهم لأنهم سيتأثرون بآبائهم، وأيضاً ردعاً وعقوبة لهم؛ هذا في زعمهم. ﴿وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ أي ابقوهن أحياءً لا تقتلوهن؛ يقتلون الذكور الأبناء ويتركون البنات، لماذا؟ قالوا: للخدمة والاسترقاق، يصبحن عندهم إماءً وخدماً يَقُمْنَ بخدمتهم.

ثم قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥]. لاحظ أنه لم يقل وما كيد فرعون أو كيد هؤلاء؛ بل أعطاك حكماً عاماً لكل كافر، فكل من اجتمع على الكفر فإن كيده على الإسلام في ضلال وفي ذهاب وفي هلاك، ولا تقوم له قائمة، سيضمحل ويذهب.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. ما الذي منعك يا فرعون أن تقتل موسى؟ وأنت تقتل أبناءهم ومعك قوة وجيش عظيم؛ ما الذي منعك أن تأخذ موسى وتقتله؟

﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾. قيل: لماذا يخاطب الملا عنده ويقول لهم ذروني؟ لأن الملا كانوا لا يريدون قتل موسى لعدة أسباب؛ أولاً: فيهم من هو مخفٍ إيمانه -كما سياتينا- يكتم إيمانه، وفيهم من يريد أن ينشغل فرعون بموسى وموسى يهدده حتى ينصرف فرعون عنهم وتكون لهم فرصة التمكين؛ وأيضاً هم يريدون القضاء على فرعون لأنه آذاهم، فانتشار قوة موسى وتوسعه سيهدد فرعون أو يقضي عليه، فإذا قضي على فرعون كان ذلك في مصلحتهم.

فلذلك كانوا يقولون له دائماً: لا تقتل موسى، اتركه؛ ولأن بعضهم يعلم أنه لو قتل موسى سينزل بهم عذاب شديد من الله؛ فلذلك كان كثير من جلسائه ومن الملا يقولون له: لا تقتله، اتركه، فلذلك قال: ﴿ذَرُونِي﴾. وقال: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ لأنهم قالوا له: ستنزل بك العقوبة، فقال: يدعو ربه إذا قتلته!

ثم بين السبب في زعمه لماذا يريد قتله، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

شوف كيف قلب الحقائق وقلب الموازين لأجل المصالح الدنيوية؛ فرعون يقلب موازين الحق إلى الباطل، موسى الذي أرسله الله رحمة وبالحق تقول عنه إنه يبدل دينكم؟ وأين دينكم؟

دينكم عبادة الأصنام ودينكم الكفر والضلال والفساد، وموسى يظهر في الأرض الفساد؟ من قال إن موسى يظهر في الأرض فساداً؟ أنت يا فرعون ماذا تصنع؟ الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر عن فرعون أنه كان من المفسدين وكان عالياً في الأرض، ويأتي ليقول هذا!

وهذا من قلب الموازين، وهو يعلم أن موسى لا يريد تبديل الأديان من الحق إلى الباطل، وإنما يريد تبديلها من الباطل إلى الحق، يريد أن يظهر دين الحق، وموسى لا يريد الفساد بل يريد الإصلاح.

ولما سمع موسى بأن فرعون يقول لهم أنا أريد أن أقتله، ماذا فعل موسى؟ لجأ إلى ربه؛ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

قال موسى لفرعون ولملئه: إني عذت بربي وربكم؛ أي لجأت إلى الله واستجرت بالله أن يعصمني وأن يحميني منكم ومن شركم. ﴿عُذْتُ﴾ بربكم ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾، ما قال من فرعون وحده، بل قال: ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾.

فإني ألجأ إلى الله من شره حتى يحميني ربي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. شوف كيف وصف فرعون ومن معه بأنه متكبر؛ هو ومن معه، وقال: من كل متكبر، سواء أنت يا فرعون أو غيرك ممن لا يؤمن بالحساب ولا يعرف يوم القيامة ولا يستعد لها.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى الرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه، وسيتضح لنا كيف دعا قومه وأنذرهم ونصحهم وحذرهم وحاورهم في محاورات طويلة لا نستطيع الدخول عليها الآن.

ولكن إن شاء الله في لقائنا القادم نبدأ بها بأذن الله، وننظر في هذه المحاورات والمحاجة القوية التي نصر الله فيها هذا المؤمن الذي حماه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٥].

نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(غافر ٢٨ - ٤٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين؛ اللّٰهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا المجلس؛ مجلس القرآن الكريم وتفسيره.

هذا اليوم هو اليوم الثاني عشر من شهر شعبان من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة؛ نجلس هذا المجلس المبارك، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

سورة غافر، أو سورة المؤمن، **(مؤمن آل فرعون)**؛ القصة التي بين أيدينا هي قصة مؤمن آل فرعون، لو نتأمل هذه القصة، وما فيها من حوار جميل هادئ، وحوار مقنع؛ انتهى هذا الحوار بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقى هذا الرجل الصالح المؤمن من شر فرعون وملئه، ووقاه الله سيئات ما مكروا.

هذه القصة جاءت، أو هذا الحديث والحوار من الرجل المؤمن، جاء بعد ماذا؟ جاء بعدما هدد فرعون موسى، لما قال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

أما موسى، فإنه استجار بربه، ولجأ إلى الله، واستعاذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧]؛ كل مستكبر عن توحيد الله وعن طاعته، ولا يؤمن ولا يعترف بيوم الحساب؛ أن الله يحاسب الخلق ويجازيهم بعد ذلك.

بعد ذلك، قيض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا الرجل المؤمن، الذي هو من حاشية فرعون، وممن له المكانة عند فرعون؛ ولذلك يعني قيض الله دفاعاً عن موسى. فموسى استعاذ بالله ولجأ إليه؛ فلما استعاذ ودعا

ربه أن يكفيه شر فرعون من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، قيض الله هذا الرجل المؤمن الذي أعلن هذه الدعوة والنصح.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حاكياً عن هذا الرجل المؤمن، قال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر: ٢٨]؛ يعني يخفي إيمانه، ما أظهر إيمانه.

ولكنه مؤمن بموسى، ويكتم إيمانه خشية من فرعون وملئه؛ إما أنهم قد يبطشون به ويقتلونه، وإما أنه لا يريد أن يبتعد عنهم لعلهم يدعوهم ولعله يكون له أثر عليهم؛ فكتم إيمانه وقال ذلك منكراً عليهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ﴾ [غافر: ٢٨]؛ تستحلون قتل رجل من غير سبب إلا أنه يقول ربي؟

يعني هو ما قال إلا أنه اعترف بوحدانية الله، اعترف بوحدانية الله، وآمن بالله أن يقول ربي؛ شوف توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية؛ قال إنه قال ربي؛ أي خالقي هو الذي رباني وخلقني ورزقني وهو الله الذي أعبده، لا أعبد غيره.

ثم قال الرجل: ﴿وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]؛ يعني أقام عليكم الحجة بالأدلة القاطعة الصحيحة أنه رسول من عند الله، وأتاكم بالحجج والبينات من ربكم.

ثم قال سلمنا لكم أنه كاذب: ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ [غافر: ٢٨]؛ يعني إن كان كاذباً في دعواه فإن وبال كذبه راجع عليه وعائد عليه، وعائد عليه.

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]؛ احذروا، إن كان صادقاً لحقكم بعض الذي يتوعدكم به، ونزل بكم بعض الذي يهددكم به؛ فاحذروا إن كان كاذباً اتركوه كذبه عليه لا يضركم، وإن كان صادقاً فيما يقوله فقد يصيبكم بعض ما يهددكم به، بعض الذي يعدكم به.

ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]. تأمل هذه الجملة؛ هل هي عائدة إلى موسى أو عائدة إلى فرعون؟ كلاهما؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨]، ونحن نعلم أن موسى ليس بمسرف ولا كذاب؛ لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله، هذا وجه.

الوجه الثاني هي أيضاً كأنه يقصد فرعون ومن كان على شاكلته؛ الله لا يهدي فرعون ولا من كان على شاكلته، ما دام مسرفاً بالذنوب والمعاصي وكذاباً لا يتقبل ما جاءه عن الله.

ثم هذا الرجل بعدما بين حقيقة موسى وأنه إما صادق أو كاذب؛ بعد ذلك يبين ما أنعم الله به على فرعون وملئه، يقول: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢٩]؛ وينابيهم بهذا الأسلوب، أسلوب الترقيق والنصح، يقول: أنتم قومي وأنا منكم، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين، لكم القوة، لكم القوة في الأرض ظاهرين منتصرين في أرض مصر، وأنتم الذين تحكمونها، وكل من تحت حكمكم وهم رعيتكم.

يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين بقوتكم في الأرض؛ ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾ [غافر: ٢٩]؛ من ينصرنا لو جاءنا بأس الله وعذابه، من يدفع عنا العذاب لو حل بنا إن جاءنا؟ فذكرهم بالنعمة؛ أنتم بخير وأمن وقوة، لو جاءنا ما أصابنا من الله شيء ما الذي يدفعه عنا؟

فماذا كان من موقف فرعون لما رآه ينصح؟ أراد أن يصرف الناس عن نصحه، وأراد أن يصرف الناس عن أن يستمعوا لما يقول؛ فقال: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]؛ بدا يخاطب الذين حوله حاشيته يقول: أنا أنصح لكم مثل ما أنصح لنفسي، ما أريكم إلا ما أرى، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

أنا أنصح لكم مثل ما أنصح نفسي، وأدلكم على الخير والصلاح، وأدعوكم إلى طريق الحق والصواب، طريق الرشاد والنجاة والسلامة، وهو يعلم أنه ما يهديهم إلا إلى طريق الضلال، ويعلم أنه هو في ضلال؛ فكيف يريهم ما يرى لنفسه؟ لكنه هذا من باب التمويه، ويموه على قومه، ويشغلهم ويضحك عليهم ويستخف عقولهم.

لكن الرجل الصالح المؤمن الذي كتم إيمانه لا يزال مستمراً في دعوته؛ ثم إنه بعد ذلك لما ذكرهم بنعم الله عليهم خوفهم؛ شوف ترغيب وترهيب، خوفهم بالأمم الماضية فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ [غافر: ٣٠]؛ أخاف عليكم مثل الأمم الماضية التي تحزبت على الشر وعلى العداوة وعلى الكفر والإسراف.

قال: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: ٣١]؛ مثل طريقتهم ومنهجهم وعادتهم التي سلكوها. قوم نوح ماذا صنعوا بنوح؟ استهزؤوا به وسخروا به وآذوه، وعاد مع

هود، وثمود مع صالح، والذين من بعدهم من الأمم التي جاءت بعد هؤلاء كلهم؛ كقوم شعيب (مدين)، وقوم لوط، وإبراهيم؛ كل هؤلاء جاءوا بعد هذه الأمم.

ثم قال: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]؛ الله لا يظلم، ولا يريد الظلم، ويبغض الظلم ويمقت الظلم، ولا يريده لنفسه ولا لغيره، ولكنكم أنتم لا تريدون إلا الضلال؛ فلذلك ذكرهم أن الله ما ظلمهم؛ أقوام مضت هلكت وأهلكها الله بالعذاب بسبب تحزبها وكفرها وإسرافها وردها رسالات ربها.

ثم لما ذكرهم بهلاك الأمم الماضية وخوفهم أن الله يهلكهم في الدنيا كما أهلك الأمم الماضية، أيضاً هددهم وخوفهم بيوم القيامة فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢].

يوم التناد: أن ينادي بعضهم بعضاً؛ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار، ونادى أصحاب الأعراف، ونادى أصحاب النار، والله ينادي ويوم يناديهم فيقول أين شركائي، والملائكة تناديهم، وينادي بعضهم بعضاً، كل ذلك يسمى يوم التناد.

وقرأت بقراءة أخرى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]؛ والتناد من (الند) وهو الهروب؛ ند البَعيرُ إذا شرد يند نداً، فـ (التنادِّ) بتشديد الدال يعني يوم تفرون من ذلك اليوم، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، يفرون في هذا اليوم؛ فيقول: إني أخاف عليكم يوم التناد.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ﴾ [غافر: ٣٣]؛ يعني هاربين مسرعين، إذا رأوا النار أمامهم أرادوا الفرار أن يمنعوا أنفسهم من السقوط في النار، يولون مدبرين عن النار فما يستطيعون، ما لكم من الله من عاصم؛ لا أحد يستطيع أن يعصمكم ويمنعكم من عذاب الله وينصركم من الله.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣]؛ من يخذله الله ولا يوفقه لا في الدنيا ولا في الآخرة، لن يجد من يهديه إلى الحق أبداً.

ثم بعدما خوفهم بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة وذكرهم بهلاك الأمم الماضية، ذكرهم بدعوة نبي كان قريباً عهده منهم وهو يوسف بن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ملك مصر ودعاهم إلى التوحيد وعبادة الله لأنه نبي رسول.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ﴾ [غافر: ٣٤]؛ يعني جاء أجدادكم القريبين وآباءكم القريبين؛ لأن المسافة بين يوسف عَلَيْهِ

السَّلَامُ وبين موسى ليست بالطويلة؛ فقال: قد جاءكم يوسف من قبل بالبينات وبالأدلة الحجج الواضحة، فما زلتم في شك مما جاءكم به.

أقول: ما زال أجدادكم وآباؤكم يشكون في يوسف وفي دعوته. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر: ٣٤]؛ قالوا خلاص انتهى ما عاد فيه بعثة رسل، بل بعث الله ولم يترك الناس هملاً؛ بل أرسل إليهم الرسل، فبعث موسى وبعث هارون وبعث أنبياء جاءوا كثيرين بعد ذلك.

فقالوا: ﴿لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر: ٣٤].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]؛ مثل ما أضل هؤلاء الذين فعلوا هذه الأفعال، يضل الله من هو مسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي ومرتاب شاك في وعد الله وفي دعوته وفي رسله.

وكل هذه حوارات مع هذا الرجل المؤمن يحاور قومه وهم الملأ من آل فرعون؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ﴾ [غافر: ٣٥]؛ الذين يجادلون ويحاورون ويخاصمون في آيات الله وحججه ولا يريدون قبولها وهم الكفار، ويريدون دفعها وإبطالها، وهؤلاء ما عندهم دليل؛ بغير سلطان، ما عندهم حجة ولا دليل مقبول.

هؤلاء كبر مقتاً عند الله؛ يقول هذا الذي يفعلونه هذا غضب شديد من الله، كبر يعني هذا الجدال وهذا النقاش والحوار عندهم، عند الله مقتاً؛ يعني أن الله مقتهم وأن الله غضب عليهم غضباً شديداً؛ كيف تجادل في آيات الله وما عندك سلطان ولا حجة؟

ومن الذي يجادل في آيات الله؟ ما يجادل فيها إلا الكافر الشاك في آياته؛ أما المؤمن فيصدق ويؤمن ويتبع. يقول: كبر هذا الأمر عند الله مقتاً، وكبر غضباً عند الله وعند الذين آمنوا أيضاً؛ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والمؤمنون يكرهون ذلك ويبغضون هذا الأمر، وهو الجدال بالباطل، الجدال بالباطل والكفر.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]؛ المتكبر المستكبر عن توحيد الله وعن طاعته، الجبار الذي كثير الظلم والعدوان ويقتل ويسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي.

الله يطبع على قلبه، يطبع على قلبه بحيث لا يتقبل الحق؛ لأنه متكبر عن الحق ولأنه مسرف على نفسه وجبار، والجبار ما يتقبل الحق، الجبار صاحب ظلم وبطش وعدوان فلا يتقبل الحق.

فالله أبعدهم عن قبول الحق وطبع على قلوبهم، وطبعه يعني ختمه على القلوب حيث إنها لا تتقبل، تنصح أو لا تنصح، تدعو أو لا تدعو، تعظ أو لا تعظ؛ سواء عليهم أوعظت أم لم تكن من الواعظين، خلاص القلوب متحجرة، القلوب عليها غلاف، خلاص قلوبهم غلف ما يفقهون، خلاص أغلق عليهم.

- **هل هذا الكلام من مؤمن آل فرعون هو الذي يقول: الذين يجادلون، ولا هذه وقفة جاء بها اللّٰه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليقرر قضية الجدال في اللّٰه بغير حق؟**

قيل هذا وقيل هذا، والسورة مبنية على إبطال المجادلة بغير حق؛ وكأن هنا جاءت هذه الآية في وسط حوار مؤمن آل فرعون ليبين لك الحوار الحق للحوار الباطل؛ مؤمن آل فرعون يحاور ويجادل قومه بالحق وبيان وإظهار الحق وبيانه، وهؤلاء هؤلاء الذين يجادلون في الله بغير سلطان جدالهم باطل ومردود والله يعاقبهم عليه.

وفرعون لا يزال في غيه وفي ضلاله وفي سكرته، تأتيه النصائح ويسمعها ويصرف الناس عنها؛ يعني لا يتقبلها هو ولا يريد من الناس أن يتقبلوها، ولذلك يشغل الناس عن دعوة هذا الرجل المؤمن.

ففي أول الأمر قال: ما أريكم إلا ما أرى؛ الآن يقول: يا هامان -وهامان وزيره، وزيره الذي ينفذ أوامره- فيقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ [غافر: ٣٦]؛ يعني بناء عالياً عظيماً حتى أصعد، ابني لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، لعلي أصل إلى السماء التي فيها إله موسى.

هو يعلم أن الله في السماء، ويعلم أنه لن يصل إلى هذا الأمر، ولكنه يريد أن يضيع الوقت ويشغل الناس، ويريد أن يصد الناس عن هذه الدعوة، ويضحك ويستخف قومه، وإلا هو يعلم هذا، هذا كله.

- **فيقول: ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب؛ ما هي الأسباب؟**

الطرق يعني، الطرق، الأبواب، ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٧]؛ يعني أنظر إلى إله موسى وأطلع عليه وأشوف هل هو صادق أو لا، لكنني أجزم جزماً يقيناً وأعتقد اعتقاداً لا شك فيه أن موسى كاذب؛ يقول: وإني لأظنه؛ أي أتيقن أنه كاذب، لكنني من باب إقامة الحجة ومن باب إظهار حقيقة موسى أمامكم، وهو يعلم أن موسى على الحق وهو على الباطل.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾ [غافر: ٣٧]؛ كما زين لغيره من الأعمال السيئة، قد زين الشيطان لفرعون سوء عمله السيئ، العمل السيئ، وصد عن السبيل؛ أي أشغل عن السبيل، الشيطان زين لفرعون سوء عمله فرآه حسناً.

ويرى أن هذا هو الصح وهذا هو الحق، وصد عن سبيل الحق بسبب الباطل وبسبب الشيطان وبسبب مكره وكيده وكراهيته للحق؛ ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧]؛ كل ما يكيد وكل ما يدبر وكل ما يفعل هو في تبّ وفي خسارة وفي شقاء وضياع، لن يجد لهذا كله أي نتيجة.

ثم هذا المؤمن الصالح الذي يكتم إيمانه لا يزال مستمراً في دعوته؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]؛ الآن بعد هذه المرحلة، في الأول كان يلمح وكان لا يصرح في ذلك، وإنما يذكرهم عن طريق الكناية وعدم التصريح لعلهم يفهمون الكلام، الآن صرح قال: اتبعوني أنا على الإيمان، أنا أظهرت إيماني أمامكم.

الآن قال: اتبعوني أهدكم؛ أنا على الحق وأنا جئت ناصحاً لكم فاتبعوني أهديكم طريق الرشاد والصواب، طريق النجاة والسلامة؛ اتبعوني واسمعوا كلامي وأنا جئت ناصحاً لكم ومذكراً لكم بما جاءكم به موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم ذكرهم بسرعة زوال الدنيا وبقاء الآخرة ومقارنة بين الدنيا والآخرة: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]؛ يمتع بها الإنسان ويتنعم بها قليلاً، ثم هو يذهب أو هي تذهب عنه، لا تبقى هي ولا هو يبقى؛ متاع يتمتع به، وإن الآخرة هي دار القرار، مقارنة بين هذا وهذا؛ النعيم المقيم الذي لا يزول ولا يتغير، نعيم الآخرة، أما الدنيا وإن جاءك منها شيء من النعيم فإنه لا يبقى، مكدر ويذهب سريعاً؛ متاع.

ثم بين لما قارن بين الدنيا والآخرة، قال: أيهم أفضل؟ متاع الدنيا ولا دار القرار؟ ثم بدأ يبين لك كيف نصل إلى هذه الدار دار القرار، وكيف نسلم من دار الهلاك.

قال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ﴾ [غافر: ٤٠]؛ الذي يعصي الله في حياته وينحرف عن طريق الهداية لا يجزى في الآخرة إلا العقاب الذي يساوي معصيته؛ لا يزيده ولا يظلمه سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

من الأعمال الصالحة وآمن وصدق، من أي جنس، وهو مؤمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعمل الأعمال الصالحة، قال: أولئك يدخلون الجنة كما وعدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإذا دخلوا الجنة يرزقون فيها بغير حساب؛ يرزقهم الله من ثمارها ونعيمها من غير تقدير من غير حساب من غير حساب، فبين لهم المقارنة بين الدنيا والآخرة وسرعة زوال الدنيا، ثم بين لهم ما الذي يجعلك تصل إلى الآخرة بالفوز فيها.

ثم أيضاً حذرهم من النار وقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤١]؛ مالي أدعوكم إلى النجاة والسلامة، وأدعوكم إلى الإيمان بموسى والنجاة والسلامة في الدنيا والآخرة، تسلمون من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وأنتم تدعونني إلى النار، تدعونني إلى النار؟ كيف يدعونه إلى النار؟ كيف قال؟

﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ [غافر: ٤٢]؛ أنتم إذا دعوتوني إلى الكفر بالله والكفر برسالة موسى دعوتوني إلى النار؛ لأن الذي يكفر بالله ويشرك به ما ليس له به علم مصيره إلى النار.

يقول: وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار؛ العزيز ذو العزة والقوة الذي ينتقم من أعدائه، والغفار الذي يغفر الذنوب ويتجاوز عن كل من تاب ورجع إليه؛ فأنتم ما بين عزيز وغفار؛ إن عصيتموه فهو عزيز قوي ينتقم ويصيبكم بالعذاب، وإن تبتم إليه فهو غفار كثير المغفرة، أنا أدعوكم إلى النجاة وأنتم تدعونني إلى النار؛ تدعونني للكفر والشرك وأنا أدعوكم إلى رب العالمين، فرق شاسع بين هذا وهذا.

ثم قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [غافر: ٤٣]؛ لا جرم يعني حقاً؛ لا جرم أنما تدعونني إليه، ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة؛ هذا الذي تدعون إليه وهو الكفر والشرك ليس له دعوة، لا يستحق أن يدعى، لا يستحق أن يدعى، ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة.

- **كيف ندعو هذا الذي لا ينفع لا في الدنيا ولا ينفعك في الآخرة؟**

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]؛ سنعود إلى الله ولا بد أن نحشر إلى رب العالمين، ويبعثنا الله ويجمعنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مردنا إلى الله؛ لكن المسرفين هم أصحاب النار؛ الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي والذنوب والقتل والكفر والإجرام هم أصحاب النار؛ فكأنه يقول: احذروا أن تكونوا من المسرفين الذين يكون مآلهم إلى النار.

ثم في الأخير انتهى أمره دعاهم بهذه الدعوات كلها وقال: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]؛ هذا نصحي لكم وهذا تذكيري لكم وهذا وعظي لكم؛ إن أطعتموني خير لكم، وإن استمريتم في ما أنتم عليه ستذكرون وستندمون ما أقول لكم.

ولكنني أفوض أمري إلى الله؛ ألجأ وأعتصم برب العالمين وأتوكل عليه؛ لأن الله هو الذي سيحميني من شركم إن أردتم البطش بي أو إيذائي، أفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصير بالعباد، مطلع علي وسيحميني ويحفظني من شركم.

- **ما هي النتيجة؟**

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٥]؛ وقاه الله شر ما، وقاه الله سيئات وقاه الله شر ما أرادوا وما مكروا، وآل فرعون ومن معه بهذا الرجل المؤمن الذي أعلن أمامهم إيمانه ونصحهم؛ وقاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصرف عنه شرهم ما مكروا. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥]؛ حاق بآل فرعون سوء العذاب؛ أي أن الله أغرقهم جميعاً في اليم وأهلكهم وأهلكهم.

ثم إنهم لم ينتهِ الأمر في إغراقهم وانتهى؛ لا: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ﴾ [غافر: ٤٦]؛ وهذا هو عذاب البرزخ، عذاب القبر؛ كل صباح إلى قيام الساعة، كل صباح وكل مساء يعرضون على النار فيعذبون، تعرض أرواحهم على النار فيعذبون.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]؛ فإذا جاء يوم القيامة ينالون أشد العذاب؛ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، أدخلوا آل فرعون أشد العذاب.

تأمل أخي الفاضل هذه هذا هذه القصة العجيبة، وهذه الحوارات، وهذا الداعية المصلح الذي نصح قومه؛ تأمل كيف دعاهم في بدايته:

- أولاً: حذرهم فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ﴾ [غافر: ٢٨]؟
- ثانياً: ثم بعد ذلك بين لهم فقال: إن كان صادقاً في تهديده سيصيبكم بعض الشيء، وإن كان كاذباً كذبه عليه.
- ثالثاً: ثم بعد ذلك يعني أيضاً ذكرهم بهلاك الأمم الماضية؛ أولاً ذكرهم بالنعمة التي هم فيها، ثم بهلاك الأمم الماضية، ثم ذكرهم بيوم القيامة يوم التناد، يوم التناد وعقوبة الآخرة.
- رابعاً: وذكرهم برسالة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.
- خامساً: وأيضاً دعاهم صريحاً فقال: اتبعوني، ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨].

- ذكرهم بسرعة زوال الدنيا وبقاء الآخرة، وأن الآخرة تريد الآخرة لها عمل، إما صالح وإما سيئ؛ فمن عمل الصالحات دخل الجنة ومن عمل السيئات دخل النار.
- وبين لهم أنه يدعوهم إلى النجاة ويدعوهم إلى السلامة، ولكنهم لا يريدون ذلك فصرح لهم.

فوقاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ سلمه من عذاب من عذاب قومه أو من إيذائهم لما قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]. حقيقة قصة عجيبة وفيها دروس وفيها عبر نستفيد منها حقيقة في دعوة في كيفية يدعو الداعي، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينصر أولياءه ويخذل أعداءه؛ وهكذا نصره عليهم مع أنه أقرب الناس إليهم وليس معه أحد، مع ذلك حفظه، حفظه الله ووقاه سيئات ما مكروا. وأما آل فرعون الذين استمروا في عنادهم ولم يقبلوا الدعوة؛ النار أدخلهم الله، أهلكهم الله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحفظنا وإياكم من كل سوء، وأن يوفقنا وإياكم لمرضاته ولطاعته. إن شاء الله لنا لقاء قادم نستكمل فيه ما في هذه السورة من توجيهات ومواعظ وتذكير؛ والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(غافر ٤٧ - ٦٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين؛ أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للتاسع عشر من شهر شعبان من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة. درسنا المبارك في تفسير القرآن العظيم؛ (سورة غافر)، وتسمى بـ(سورة المؤمن)؛ لأن الله ذكر فيها قصة مؤمن آل فرعون.

وقفنا عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية السابعة والأربعين من السورة: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧].

- **﴿يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ من هم؟**

أهل النار؛ أهل النار يتحاجون، يعني: كل واحد يناقش الثاني، كل واحد يلقي اللوم على الآخر، هذه الآية لما تقرؤها تجدها مرتبطة بما قبلها، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما حكى ما جرى لفرعون وآل فرعون؛ لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥]؛ هذا في الدنيا؛ أغرقهم الله، أغرقهم الله في اليم.

وأما في الآخرة قال: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]؛ هذا في القبر، النار يعرضون عليها غدواً وعشياً في القبر، في الصباح والمساء يعذبون.

ثم قال بعدها: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [غافر: ٤٦]، أي: في يوم القيامة ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]؛ يعذبون أشد العذاب بسوء أعمالهم السيئة التي كانوا يعملونها في الدنيا؛ من تعذيب بني إسرائيل، وتقتيلهم؛ يذبحون الأبناء ويستحيون النساء.

قال الله بعدها: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ﴾ [غافر: ٤٧]، يعني: يتخاصمون في النار؛ هم آل فرعون وغيرهم من أهل النار، كل أهل النار؛ إذا دخلوا النار يتخاصمون، ويعاتب بعضهم بعضاً، ويلوم بعضهم بعضاً؛ فيحصل بينهم من المخاصمة والمحاجة، ولكن لا جدوى ولا فائدة؛ ما في فائدة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]، عندما يدخلون في النار يتخاصمون ويتحاجون، ويلعن بعضهم بعضاً، يشتم بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض.

قال: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ [غافر: ٤٧]؛ الضعفاء هؤلاء هم الأتباع، هم عامة الناس الأتباع الذين يتبعون الملا الكبار الذين هم الكلمة؛ السادة والكبراء.

وهؤلاء ضعفاء يتبعونهم لأنهم يحصلون على مبالغ ويحصلون على مكانة عندهم؛ فيتبعونهم في الدنيا، فإذا أمروهم بأمور نفذوها؛ هؤلاء يعملون عندهم الضعفاء.

قال: ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [غافر: ٤٧]؛ الذين استكبروا هم السادة والكبراء؛ مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية أخرى: ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

المستكبرون قالوا لهم الضعفاء: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [غافر: ٤٧] في الدنيا؛ نحن نتبع معكم، كنا تقولون لنا افعلوا نفعل ولا ندري، نحن نتبع لكم، أنتم تأمروننا ونحن ننفذ، ما ندري عن شيء؛ فكنا لكم تبعاً ونقلدكم فيما تأمروننا ونستجيب لكم.

فهل أنتم الآن -يقول إنا كنا لكم تبعاً يقول الضعفاء للمستكبرين-: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ [غافر: ٤٧]؟ هل أنتم تغنون عنا؛ يعني: تدفعون عنا، أو تخففون عنا؛ يعني: تأخذون شيئاً قليلاً عنا من العذاب؟

تغنون عنا وتدفعون؛ أغنى يعني ما أغنى؛ أي: ما نفع؛ ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨]؛ أي: ما نفعني ولا دفع عني العذاب ولا خلصني؛ فهم يقولون: هل تستطيعون أن تخلصوننا ولو شيئاً قليلاً، تدفعون عنا العذاب، نصيباً قليلاً ولو شيئاً قليلاً من العذاب؟

- **ماذا سيكون رد المستكبرين؟**

السادة الذين هم الملا الذين يأمرون وينهون؛ ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ [غافر: ٤٨]؛ كلنا في النار، ما في تقولون خفف أو خذ نصيب أو كذا؛ خلاص ما في شيء، كلنا في النار ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾؛ يعني: نحن ما عندنا قدرة، ولا عندنا نستطيع أن نفعل شيئاً، ولا نتحمل عنكم ولا شيئاً يسيراً.

- **وفي الدنيا ماذا يقولون؟**

يعدونهم المواعيد الكاذبة؛ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢]؛ يعني: لا يقولون هذا الكلام في الآخرة.

- **ماذا يقولون؟**

قالوا كلنا في العذاب، كلنا سواء، إنا كل جميعاً فيها في النار؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨]؛ قضى الله وحكم وكل أخذ حقه؛ الله يقضي بالعدل ويحكم، ولا نأخذ منكم شيئاً ولا تأخذون منا شيئاً، إن الله قد حكم بين عباده.

ثم لما عرفوا؛ عرف الفقراء أو الضعفاء هؤلاء والمستكبرون أنهم لا جدوى ولا فائدة؛ ماذا صنعوا؟ كلهم، كل أهل النار استغاثوا وطلبوا الشفاعة من خزنة النار ومن ملائكة النار، فالتفتوا إلى خزنة النار فقالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ [غافر: ٤٩]؛ أي أهل النار ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٤٩].

الملائكة ملائكة النار: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]؛ يوماً واحداً فقط يخفف عنا؛ تخفيفاً، يعني: لا يرفع عنا العذاب كله، يخفف تخفيفاً عنا حتى نتنفس قليلاً، نشعر بالراحة؛ ادعوا ربكم يا ملائكة يا خزنة جهنم، ادعوا الله أن يخفف عنا ولو شيئاً يسيراً من العذاب.

فماذا كان رد الملائكة؛ ملائكة النار، ملائكة العذاب؟

﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [غافر: ٥٠]؛ يقرعونهم بالكلام ويوبخونهم بقوة؛ قالوا: أنتم ما الذي أتى بكم في النار؟ ما الذي جعلكم تدخلون النار؟ ما جاءتكم رسل؟ ما أتتكم رسل بالبينات والحجج والأدلة الواضحة؟

أرسل الله إليكم رسلاً، وما من قرية؛ ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، ولقد بعثنا في كل أمة؛ ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]؛ ما جاءتكم رسل من عند الله؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ [غافر: ٥٠]؛ قالوا: نعم، بلى جاءتنا رسل.

- **فقالوا؛ يعني: أنتم جاءتكم الرسل فلماذا رفضتموهم؟**

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾؛ قالوا فادعوا إذاً، الحجة قائمة عليكم وأنتم الآن اعترفتم بأنكم جاءتكم الرسل فكفرتم بهم واستكبرتم؛ فلا ينفع الآن، قالوا: ﴿فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٥٠]؛ دعاؤهم في ضياع ولا يستجاب ولا يقبل ولا يسمع منهم؛ تدعون أو لا تدعون الأمر سيان؛ كل واحد يعني ما فيه جدوى ولا فيه فائدة ولا فيه استجابة، دعاؤكم في ضلال، في ضلال.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أما الكفار وأهل الضلال لا يستفيدون من ذلك؛ يقول: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

الله يتولى؛ يتولى أهل الطاعة وأهل الاستقامة، يتولى أولياءه الرسل والأنبياء، وأتباع الرسل والأنبياء المؤمنين؛ هؤلاء يتولاهم الله في الدنيا والآخرة، فينصرهم ويدافع عنهم في الدنيا والآخرة.

وكما قال هنا؛ قال في الدنيا: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١] ينصرهم ويؤيدهم ويدفع عنهم أذى المعتدين عليهم، وفي الآخرة قال أيضاً ينصرهم الله ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

- **من هم الأشهاد؟**

الأشهاد كل من يشهد؛ الملائكة تشهد، والأنبياء يشهدون، والمؤمنون يشهدون؛ فالشهادات هذه كلها، أولاً: يشهدون عليهم، وهم أيضاً شاهدون بأعينهم ما يقضي الله بينهم، فيوم يقوم الأشهاد ويحضرون ويرون كل ذلك.

وأيضاً يعني يشهدون بهذا أن الرسل بلغوا، وأن الله جازاهم على ما يستحقون؛ فهذا اليوم يوم الأشهاد، يوم يقوم الأشهاد؛ يوم يعني تشهد كل من يشهد هذا اليوم، ويشهد بإقراره، ويشهد بما يرى على أهل الإيمان وأهل الكفر.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]؛ يقول هذا اليوم يوم القيامة، يوم عظيم؛ يوم القيامة هذا اليوم: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ معذرتهم﴾ [غافر: ٥٢]؛ إذا جاء يوم القيامة ويوم الحساب، ونوقش هؤلاء الكفار وحوسبوا؛ لا ينفع الاعتذار.

يقول: والله ربنا نعتذر إليك، وربنا إننا أخطأنا واعترفنا بذنوبنا، ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]؛ ما يقبل، لا ينفع الظالمين معذرتهم؛ تقدم اعتذارك ليس هذا وقته، لا يقبل منك الاعتذار، بل قال: ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ [غافر: ٥٢]؛ الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢] وهي نار جهنم.

الظالمون الذين ظلموا أنفسهم، وظلموا حق الله، واعتدوا؛ هؤلاء إذا جاء يوم القيامة ما ينفعهم اعتذارهم لما يعترفون بأنهم قد أخطأوا، وأنهم يريدون العودة ويريدون التوبة؛ ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ لا يقبل منهم، بل يضاعف لهم العذاب، ولهم اللعنة، ولهم سوء الدار.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك؛ بعدما ذكر ما مصير أهل النار، وأنهم يتحاجون في النار، وأنهم يلوم بعضهم بعضاً، ثم يستغيثون بملائكة النار أن يخفف عنهم، وكل هذا ما يجدي بشيء؛ ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الله ولي المتقين وولي الصالحين، وأن الله ينصرهم في الدنيا وفي الآخرة؛ ذكر من أوليائه الرسل فذكرنا برسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التي مر ذكرها قبل، مر ذكر قبل آيات في قصة موسى مع فرعون، وموسى مع مؤمن آل فرعون.

فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾ [غافر: ٥٣]؛ أتى الله سبحانه موسى الهدى، أي: الهدى الهداية التي يهتدي بها قومه؛ من المعجزات والآيات العظيمة كـ **(اليد)** و**(العصا)** وغيرها، والتوراة.

قال: ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ﴾؛ الهدى يدخل فيه كل ما يهتدى به إلى الحق؛ يعني التوراة هدى، والمعجزات التي شاهدها آل فرعون وشاهدها بنو إسرائيل كلها هدى يهتدي بها المهتدون، ويستنير بها المستنيرون بنور الله.

قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ [غافر: ٥٣]؛ أي التوراة.

- **لماذا هذا لم يورثهم الهدى كلها؟**

الجواب: لأن المعجزات كالعصا واليد هذه ما تورث، انتهت؛ لكن الكتاب الذي أنزله الله وهو التوراة ورثه بنو إسرائيل، وحفظوه وتناقلوه وحكموا به.

قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ [غافر: ٥٣]، ثم قال هذا الكتاب والتوراة هو في الحقيقة: ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [غافر: ٥٤]؛ يعني لا تظن أن الهدى مقتصر على المعجزات الحسية كالعصا واليد؛ لا، حتى التوراة هي في الحقيقة هدى وهي ذكرى وموعظة لأولي الألباب؛ لأصحاب العقول النيرة الذين يستفيدون.

أما عامة الناس لا ينفعهم الكتاب؛ ولا التوراة، ولا الإنجيل، ولا القرآن؛ لأنهم مساكين ما يعرفون قيمة هذا، أما أصحاب العقول الذين أنار الله قلوبهم وعقولهم بالإيمان والطاعة والعلم هم المستفيدون.

فلما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قصة موسى، وأن الله تفضل عليه بالكتاب، وأرسله إلى فرعون وأرسله إلى بني إسرائيل وأنزل عليه التوراة؛ وذكر أنه صبر على قومه وعلى شدة عداوة فرعون وكذلك على شدة تعامل بني إسرائيل.

ذكر نبينا محمد بالصبر فقال: ﴿فَاصْبِرْ﴾ [غافر: ٥٥]؛ يا محمد فاصبر، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٥٥]؛ اصبر على أذى المشركين كما صبر موسى على أذى قومه، اصبر على أذى المشركين واعلم أن وعد الله حق، أن الله وعدك بالنصر، ووعدك بإظهار دينك؛ ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

- **﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]؛ هنا مسألة: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ هل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذنب حتى يستغفر لذنبه؟ والأنبياء يذنبون؟**

الجواب: الأنبياء معصومون فيما يتعلق بالوحي؛ أن الوحي معصومون ما يخطئون فيه؛ لأن الله يبلغهم الرسالة فيؤدونها على أكمل وجه؛ هذا ما يتعلق بالوحي فهم معصومون.

وكذلك كبائر الذنوب لا يقعون فيها؛ حتى موسى ما قتل موسى؛ وكزه بيده فسقط ميتاً لم يقصد قتله؛ فالأنبياء كلهم لا يقعون في كبائر الذنوب، أما صغائر الذنوب فإنها قد تقع منهم ويبادرون بالتوبة ويوجهون إلى الحق؛ فلذلك قوله هنا: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ مما قد يقع منه من صغائر الذنوب فيبادر بالتوبة.

أو لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدوة؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدوة أمته فيؤمر بالاستغفار كما تؤمر أمته؛ فإذا رأوه يكثر الاستغفار اقتدوا به.

☜ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في مجلسه يعد له في الاستغفار أنه يستغفر مائة مرة؛ يقول: «أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» مائة مرة؛ تعويداً لهم، والآن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قد غفر الله له؛ فاستغفاره تعليماً لذنبه، أو لأنه كأنه يقول استغفر لذنبك وللمؤمنين، فهو يستغفر للمؤمنين، يستغفر لهم.

قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾، ودم على قال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥]؛ يعني استمر في ذكره وتسبيحه وتنزيهه وحمده وشكره، واستمرار في الأوراد في الصباح والمساء وكثرة الذكر.

وقوله هنا: ﴿بِالْعَشِيِّ﴾ يعني في المساء، ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾ يعني الصباح؛ البكرة يعني أول النهار، والعشي آخر النهار، وهذا لا يعني أنه فقط يذكر الله في أوله؛ لا، يذكر الله في جميع أحيانه؛ يعني كل ما بين الوقتين هذا ذكر لله في الليل والنهار، في الليل والنهار.

وإنما خص هذين الوقتين؛ لأن هذين الوقتين فيها تغير؛ الليل يأتي والنهار يذهب، أو النهار يذهب ويأتي الليل؛ فتغيرها يدل على أن هناك من يغير ويتصرف في هذا الكون، فيكثر من ذكر الله.

تأتي الآيات لنا موقف المجادلين؛ السورة مثل ما ذكرنا مر معنا كثير من الآيات في جدال الكفار، أولاً: مثل ما مر معنا وكررنا كثيراً؛ **(الجدال بالحق)** مطلوب، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فالجدال في بيان الحق وإظهاره هذا أمر مطلوب.

أما **(الجدال في دحض الحق وإبطاله)**؛ مثل الكفار يجادلون بالباطل، هذا جدال محرم ولا يجوز؛ كيف تجادل في آيات الله وتجادل في الله وفي وجوده؟ ومن الناس من يجادل في الله؛ كيف تجادل في الله؟

ما يجادل في الله إنسان يقر بوجوده وبقدرته وبعبوديته ويخضع له؛ أما تجادل، تجادل في الشك في الشيء الذي تشك فيه، أما الله ما يجوز، ولا يجوز أن يجادل في آيات الله؛ آيات الله الحجج الدالة على وجود الله وعلى آيات الله في الكون؛ الشمس، والقمر، والليل، والنهار، والسماوات، والأرض؛ هذه ما يجادل فيها إنسان، تجادل فيها من الخالق لها؟ هو الله؛ فلا يجوز.

قال: شوف ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ [غافر: ٥٦]؛ ما عندهم حجة ولا شيء يعتمدون عليه؛ ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر: ٥٦] ما أعطاهم أحد، يقول هؤلاء الذين يجادلون سببه الاستكبار؛ ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ [غافر: ٥٦]؛ يقول ما في صدورهم إلا كبر، هو الذي جعلهم يتكبرون عن آيات الله وعن طاعته استكباراً؛ يقول عندهم في قلوبهم وفي صدورهم كبر.

لكن هذا الكبر لن يصلوا إليه: ﴿مَّا هُم بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]؛ هم يريدون أن يصلوا إلى الكبر والحسد والتكبر، لكنهم لن لن يصلوا إليه؛ يتكبرون عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتكبرون على شرع الله، ولن يبلغوا هذا الكبر أبداً.

لكن الواجب على المؤمن، والواجب أيضاً على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأى هؤلاء المشركين يتكبرون؛ وأنت إذا رأيت من يتكبر عن طاعة الله فاستعذ بالله من شره، فاستعذ؛ يعني: الجأ إلى الله واعتصم بالله.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]؛ اعتصم بالله من شر هؤلاء الذين يجادلون لأنهم شر، وقد يؤثرون، يأتون بالشبهات؛ فالجأ إلى ربك واعتصم به، إنه هو السميع للأقوال، البصير بالأفعال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويجزي كلاً بما يستحق.

عرفنا أن هؤلاء يجادلون في آيات الله؛ الآن تأتيك آيات الله؛ شوف آيات الله: خلق السماوات والأرض؛ هذه أكبر من أكبر آيات الله الدالة على وحدانيته.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]؛ خلق السماوات والأرض آية عظيمة وهي أكبر من خلق الناس؛ وأيضاً لأن هؤلاء الذين يجادلون في آيات الله غرضهم إنكار البعث، وغرضهم إنكار إحياء الموتى.

فأتى الله بالأدلة فقال الله خلق السماوات والأرض وهي أكبر من خلق الناس، وقادر على أن يخلقهم ويعيدهم مرة أخرى؛ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] هذه الحقائق، إنما هم جهلة لا يعلمون؛ وإلا خلق السماوات والأرض لا يعجزه الله.

ثم بين؛ قال أصحاب الطاعة والإيمان وأصحاب الكفر والضلال لا يستوون عند الله؛ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ﴾ [غافر: ٥٨]؛ الأعمى لا يبصر

طريقه، والبصير يبصر؛ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يستوون مع المسيء؛ أهل الطاعة هم أولياء الله، والمسيء ومن معه هم أولياء الشيطان، هم أولياء الشيطان.

قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨]؛ يقول قليل ممن يتذكر هذا التذكر العجيب ويقف ويتأمل في آيات الله وخلق السماوات والأرض وأن هؤلاء لا يستوون مع هؤلاء.

- **هل يستوي الذي يعرف ربه ويتقي الله ويطيعه مع الذي لا يعرف ربه ولا يطيعه؟**

لا يستوي هؤلاء.

ثم ذكرهم بحقيقة اليوم الآخر فقال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ وهي يوم القيامة ﴿لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [غافر: ٥٩]؛ لا ريب، لا شك فيه؛ إن اليوم الآخر آتٍ ولا ريب فيه؛ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩] ولا يصدقون بمجيئها.

ولذلك يشككون بل بعضهم ينكر ويكفر، يكفر وينكر اليوم الآخر ويقول ويستبعد؛ لا، الله يقول لا ريب فيه مجيئه، وهو قادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فالمؤمن يعرف الإيمان، وأن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان؛ فيصدق بكل ما جاء مما يتعلق باليوم الآخر.

والمؤمنون هم أولياء الله يلجؤون إلى الله في الشدائد ويدعون ربهم؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]؛ ادعوني **(دعاء سؤال)** و**(دعاء عبادة)**، اخضعوا لي؛ اخضعوا لي واستجيبوا لي، وادعوني أستجب لكم، وأجيب دعوتكم.

أما الذين يتكبرون عن شرع الله وعن طاعته وعن عبادته؛ هؤلاء سيعذبهم الله العذاب الشديد؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ يعني حقيرين صاغرين ذليلين؛ لأنهم تكبروا فعاقبهم الله بالصغار والحقارة حقيرين، أما المؤمنون فإنهم قد رفعوا رؤوسهم ولجأوا إلى ربهم ورفعوا أيديهم ودعوه واستجابوا واستجاب الله لهم.

تأتيك الآن الآيات الكونية؛ من الذي جعل الليل هكذا سكناً حتى يسكن الناس فيه؟ من الذي جعل النهار مبصراً يبصرون الناس فيه ويمشون ويتحركون ويبتغون من فضل الله؟

هو الله وحده؛ ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر: ٦١]؛ جعل الليل ليسكن الناس فيه ويستريحوا ويرتاحوا من عناء النهار، والنهار مضيئاً ليتصرفوا فيه فيما ينفعهم من الطاعة وابتغاء الفضل.

يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [غافر: ٦١]؛ الذي جعل الليل وجعل النهار هو صاحب الفضل العظيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١] لا يشكرون نعمة الله.

أنت لما تسمع مثل هذه الآيات ينبغي لك أن تركز على ثلاثة أمور:

- الأمر الأول: أن الذي جعل الليل والنهار وجعل هذه الآيات كلها هو الواحد المنفرد بالخلق والتدبير المنفرد بالعبادة.
- الأمر الثاني: ثم تتذكر أمراً آخر وهو قدرة الله عَزَّ وَجَلَّ.
- الأمر الثالث: ثم تتذكر أمراً ثالثاً وهو لطف الله ورحمته ونعمته عليك؛ يعني قدرته، وحدانيته، نعمته علينا في هذه الآيات.

فلذلك قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [غافر: ٦٢]؛ المنفرد بالعبادة، الذي يستحق العبادة ذلكم الله ربكم؛ هو الذي خلقكم ورباكم، هو خالق كل شيء؛ كل شيء في هذه الدنيا خالقه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإذا كان هو خالق كل شيء ينبغي أن نخضع له ونعبده؛ ﴿لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢].

- **كيف تصرفون عن عبادته إلى غيره من الأصنام؟**

ثم قال كذلك مثل هذا الصرف؛ أن الله صرفهم عن عبادة الله، قال: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [غافر: ٦٣]؛ كذلك يصرفون عقوبة عليهم عن الإيمان؛ لأنهم جحدوا آيات الله، وهذه عقوبة لأنهم ردوا الحق ولم يقبلوه؛ فالنتيجة أنهم ماذا؟ أنهم يصرفون عن طاعة الله، يصرفون عن طاعة الله.

يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً آيات أخرى مشاهدة؛ يقول: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر: ٦٤]؛ الأرض جعلها قراراً مستقرة تبني عليها وتزرع وتمشي، والسماء بناء كالسقف فوقك حفظاً.

وصوركم أنتم فأحسن صوركم؛ جعل الإنسان في أحسن تقويم وأحسن صورة بخلاف الحيوانات الأخرى، ورزقكم من الطيبات، يعني خلقكم وخلق الأرض وخلق السماء وخلقكم ورزقكم من الطيبات ولم يترككم هملاً، أعطاكم من الطيبات والنعم.

يقول: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]؛ الله المنفرد بالعبادة هو ربكم خالقكم، فتبارك الله رب العالمين؛ كثر خيره وإنعامه.

تذكر مثل ما ذكرت لك قبل قليل؛ هذا الذي خلق الأرض وجعلها والسماء وصور الإنسان وأنزل الأرزاق هو الواحد المعبود الذي يجب أن يعبد وحده لا شريك له، ويخضع له ويعظم، وهو القادر وهو المنعم على عباده وهو المنعم على عباده.

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥]؛ هو الحي سبحانه، والناس والخلق والجن والإنس يموتون، وهو الحي الذي لا يموت؛ توكل على الحي الذي لا يموت ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ تقرير التوحيد؛ شوف التوحيد يمشي معنا في جميع الآيات.

﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]؛ ادعوا الله عَزَّ وَجَلَّ مخلصين، اعبدوه وادعوه واسألوه مخلصين له الدين؛ أخلصوا عبادتكم لله عَزَّ وَجَلَّ واحمدوه؛ فإن الحمد له سبحانه قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥]؛ نحمده أولاً وآخراً على عامة نعمه؛ فإنه حمد نفسه وحمده الحامدون قبل أن يحمده غيرهم؛ فنسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين الحامدين لله عَزَّ وَجَلَّ.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين.

(غافر ٦٦ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للسادس والعشرين من شهر شعبان من عام ألف وأربعمائة وستة وأربعين.

أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبلغنا وإياكم الشهر المبارك؛ شهر رمضان الكريم، ونحن في صحة وعافية، ونسأل الله أن يعيننا وإياكم على طاعته، وعلى صيامه، وعلى قيامه إيماناً واحتساباً، وأن يوفقنا وإياكم لقيام ليلة القدر إيماناً واحتساباً؛ نسأل الله ألا يحرمنا هذا الفضل العظيم.

سورة غافر وخاتمة السورة؛ لأن هذا الدرس، تعرفون يعني رمضان سيتوقف الدرس ولن نستأنف إلا بعد رمضان إن شاء الله حتى نبدأ بسورة جديدة؛ فلذلك عقدنا هذا المجلس المبارك في خاتمة هذه السورة وخاتمة هذا اللقاء.

سورة غافر تحدثنا عنها في اللقاءات الماضية، ووقف بنا الكلام عند الآية السادسة والستين من السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦].

شوف هذه الآية لما تقرأها: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٦]؛ يعني هذه المعبودات والآلهة الباطلة، نهى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمداً أن يعبد ما يعبده قومه من هذه المعبودات الباطلة.

وهذا النهي لا يقتصر عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنه خطاب له ولأمته ولكل إنسان؛ كل إنسان يجب ألا يعبد غير الله، وواجب عليه ألا يعبد إلا الله.

فقوله: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ﴾ [غافر: ٦٦]؛ أي نُهي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونُهيت أمته، ونُهي كل إنسان يسمع هذا الكلام؛ نُهي أن يعبد الذين يدعون من دون الله؛ يعني يعبد هذه الأصنام والمعبودات.

سواء كانت أصناماً وأوثاناً، أو كانت شجراً أو حجراً أو شمساً أو قمراً أو ملائكة أو صالحين أو أمواتاً؛ كل من يُعبد من دون الله فعبادته باطلة ومنهي عنها، هذا هو المقصد: ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٦٦].

﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ [غافر: ٦٦]؛ يعني جاءته الآيات الواضحة والدلائل الدالة على وحدانية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ الآيات الشرعية والآيات الكونية.

فانت ترفع رأسك إلى السماء فتجد هذه الآيات الدالة على وحدانيته من خلق السماوات وما فيهن من الكواكب والنجوم والشمس والقمر، وهذه الآيات والسحاب والماء والمطر وما في هذه السماوات السبع من مخلوقات؛ من خلقها إلا الله وحده لا شريك له؟

هو الخالق الواحد، ومن خلق الأرض وما فيها وبث فيها من كل دابة، والأشجار والأنهار والجبال؟ هذه كلها أدلة وآيات وحجج دالة على وحدانية الله، وعلى أنه هو المستحق للعبادة؛ الخالق لكل شيء، الرازق لكل شيء، الذي يجب أن يعبد ولا يعبد من دونه؛ لأنه لا يستحق العبادة.

﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ﴾ [غافر: ٦٦]، وجاءته الأدلة؛ يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نصب الأدلة الكونية في السماوات والأرض دالة على أنه هو الواحد، وأيضاً جاءته الأدلة الشرعية؛ أنزل الله القرآن وبعث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا حجة لأحد.

قال: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ [غافر: ٦٦]، وهي الآيات الواضحة مثلما ذكرنا؛ آيات شرعية وآيات كونية. ﴿جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ [غافر: ٦٦] دل أنه من ربه الذي خلقه، وهو ربه ورب العالمين جميعاً؛ هو الخالق المصور، وهو الخالق البارئ وهو الرازق سبحانه.

قال: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ [غافر: ٦٦]؛ زيادة على أنه لما نُهي عن عبادة غير الله، أُمر بعبادة الله وحده لا شريك له.

ولاحظ أنه ما قال: وأمرت أن أعبد رب العالمين؛ قال لا: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ [غافر: ٦٦]؛ وأسلم وأخضع وأنقاد بالطاعة التامة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو رب العالمين. بين لك العلة؛ قال: هذه تعبد

من دون الله ما صنعت شيئاً وليس لها تصرف في هذا الكون، وأما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يجب علينا أن نسلم وننقاد له ونخضع له؛ فلأنه هو رب العالمين.

و(العالمين) -مثلما هو واضح- ليس المقصود به عالم الجن، ولا عالم الإنس، ولا عالم الملائكة، ولا عالم السماوات، ولا عالم الأرض، ولا عالم النبات، ولا عالم البحار؛ كل شيء، كل شيء هو ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو خالقه.

فتأمل هذه الآية، وقف عندها وتدبرها، واربطها بما قبلها أيضاً. لاحظ أنه قبلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر الأدلة الدالة على قدرته وعلى رحمته وعلى وحدانيته؛ خلق السماوات، وجعل الأرض قراراً، وخلق الإنسان وصوره في أحسن صورة ورزقه من الطيبات؛ قال: فتبارك الله رب العالمين.

ثم قال: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥]؛ الحي الذي لا يموت، لا إله إلا هو؛ معبود بحق إلا هو؛ فادعوه مخلصين له الدين، لما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وذكر الأدلة الواضحة على وحدانيته، نهاه عن عبادة الأصنام والعبادة من دون الله، وأكد عليه أنه قد أمر أن يسلم وينقاد لرب العالمين.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يضيف على هذه الأدلة الدالة على وحدانيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيقول: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

خلق يا بني آدم؛ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧]؛ أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر: ٦٧]؛ أي جعل سلالته وذريته يتوالدون عن طريقها؛ هذا الماء المهين، ماء النطفة التي تخرج من الرجل وتستقر في رحم المرأة، فيتولد منها ويخلق الله منها هذا الإنسان، يقول: خلقكم من نطفة، وهو ماء المني الضعيف المهين.

قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: ٦٧]، و(ثم) تفيد الترتيب والتراخي؛ المدى نطفة أربعين يوماً، ثم علقة وهي قطعة الدم الغليظة الحمراء التي تعلق بجدار الرحم، وسُميت علقة لأنها تعلق بجدار الرحم.

قال: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [غافر: ٦٧] وهي المرحلة الثانية؛ الأربعين الثانية.

ثم قال: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]؛ أي أنها تمر بأطوار في رحم الأم؛ تمر بأطوار نطفة، علقة، مضغة، ثم عظام، ثم تُكسى العظام لحماً، ثم يتم خلقه، ثم يخرج طفلاً.

قال: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]؛ لاحظ قال (طفلاً) مع أنه يقول يخرجكم كلكم.

- **لماذا لم يقل أطفالاً وإنما قال طفلاً واحداً؟**

الجواب: لأن كلمة (طفل) هذه مصدر، والمصدر يبقى على ما هو عليه؛ فتقول: هذا طفل، وهذان اثنان طفل، وهؤلاء الثلاثة طفل؛ لأنه مصدر ما يتغير، ويجوز أن تقول أطفال لكنه جاء مفرداً لأنه مصدر.

قال: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]؛ صغاراً أطفالاً صغاراً، ثم تعيشون في هذه الدنيا تقوى بنيتكم ومع الوقت والزمن، وثم بعد ذلك ماذا قال؟

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [غافر: ٦٧]؛ يعني قوتكم؛ يعني يبلغ الإنسان قوته العقلية والبدنية بعدما يبلغ وبعدما يتجاوز سن البلوغ، ويبقى حتى قال بعضهم بلوغ الأشد ثلاث وثلاثون سنة إلى أربعين؛ هذه المدة من ثلاث وثلاثون إلى أربعين هي مدة كمال العقل وكمال البدن والجسم.

قال: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [غافر: ٦٧]، ثم بعد ذلك يبدأ الإنسان يرجع إلى الخلف؛ قال: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ [غافر: ٦٧]؛ يعني تدخل مرحلة الشيخوخة، الكهولة والشيخوخة، تنزل شيوخاً.

قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ [غافر: ٦٧]؛ منكم من يتوفى من قبل هذه المدة، من قبل ذلك؛ إما في قبل الشيخوخة أو قبل الأشد، قد يتوفى وهو طفل صغير، يتوفى وهو في شبابه وقوته، في كهولته ونحو ذلك.

قال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ [غافر: ٦٧]؛ يقول يعني تبلغ بهذه الأطوار وهذه المراحل الأجل الذي قدره الله لكم وسماه، وهو مدة عيشكم وحياتكم في هذه الدنيا، تبلغوا أشدكم، قال: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ [غافر: ٦٧]؛ أي تبلغوا هذه المدة.

ثم قال بعدها: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧] راجع لأول الآية؛ يقول الله يذكركم بخلقكم حتى تعقلوا.

تعقلون حجج الله عليكم، وتعقلون ما الذي يريده الله منكم، وتتدبرون آياته الشرعية، وتتفكرون في آياته الكونية، وتكون عندكم عقول تميزون بها؛ تعرفون أنه لا إله إلا هو ولا معبود بحق إلا هو؛ فتتوجهون إليه بالعبادة.

إذاً سياق هذه الآية في خلق الإنسان من تراب وهو أبونا آدم، ثم ذريته من النطفة والعلقة والمضغة، ثم يخرج طفلاً، ثم يمر بمراحل، ثم يبلغ أشده، ثم يعود إلى مرحلة الشيخوخة، ثم ينتهي أجله ويخرج من هذه الدنيا؛ هذه تذكرك بقدرة الله وخلقك، وأنك في هذه الحياة مخلوق للعبادة؛ تعبد الله وحده لا شريك له، وتقر بأن الله هو الخالق وهو المدبر لهذا الكون.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تقرير أنه هو الواحد في الخلق والإماتة والتدبير في هذا الكون؛ قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

هو فقط؛ لا إله غيره، وليس هناك من يتصف بهذه الصفة؛ من الذي يحيي ويميت؟ هو الله وحده لا شريك له.

ولاحظ أنه قال: ﴿هُوَ الَّذِي﴾ [غافر: ٦٨]، وهو ضمير إشارة؛ يعني هو لا غير، ليس هناك شبيه ولا مثيل ولا ند معه يحيي ويميت، لما قال الملك لابراهيم: أنا أحيي وأميت؛ فأتى برجلين أحيا أحدهما وأمات الآخر ليموه على الناس؛ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عرف أنه لا يريد الوصول إلى الحق، فترك هذا الدليل إلى دليل آخر، وهو يعلم هذا الرجل أن الذي يحيي ويميت حقاً هو الله.

ولاحظ أيضاً في كلمة ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [غافر: ٦٨] الفعل المضارع، ودائماً يمر معنا هذا؛ يفيد الاستمرار، ليس لا يقال إنه أحيا وأمات؛ لا يزال يحيي ويميت في كل لحظة، في كل لحظة الآن من يموت ومن يحيا؟ ومن الذي يميتهم ويحييهم؟ هو الله.

يقول: ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ [غافر: ٦٨]؛ أمراً من الأمور الكونية أو الشرعية؛ إذا قضى أمراً من الأمور فإنما يقول له كن فيكون، والذي يظهر أن المراد بالأمر هنا الأمر الكوني؛ لأنه قال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

والله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يقضي بالأمور الشرعية والأمور الكونية؛ هو الذي يقضي ويحكم ويريد، وهذا لا شك أنه يدخل؛ يعني أن الله يقضي بالحق. وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ هذا قضاء شرعي؛ أي أمر وشرع.

لكن هنا لما يقول: ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨]؛ هذا دل على أنه أمر كوني؛ لأنه قال: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

يقول: إذا قضى أمراً فإنما يقول له بمجرد كلمة كن؛ الكاف والنون ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨]، ولا يتردد، لا راد لقضائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فالذي يحيي ويميت والكون كله بيديه بمجرد أن يقول كن فيكون؛ هذا هو الذي يستحق العبادة، ولكن مع الأسف تجد من يجادل في الحق، ويرد الحق ويباطل ولا يريد أن يصل إلى الحق.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [غافر: ٦٩] استفهام، ولكنه للتعجب؛ يقول تعجب من حال هؤلاء الذين يجادلون الحق؛ ما يجادل في الله، لا يجادل في رسالته، لا يجادل في كتابه؛ لا يجادل في الأشياء التي غير واضحة.

أما الحق الواضح فكيف يمكن الجدال فيه؟ فهؤلاء يجادلون؛ يعني ويخاصمون ويناقشون ويحاورون، لا يريدون الوصول إلى الحق، وإنما يريدون إبطال الحق وإثبات الباطل؛ فيجادلون ليدحضوا الحق بالباطل؛ يريدون أن يدحضوا الحق، ولكن جدالهم ونقاشهم وخصوماتهم هذه كلها مردودة عليهم؛ لأن الحق واضح.

- **كيف تجادل في الله؟**

تجادل في آياته؛ هذه ما أحد يجادل فيها، ولذلك قال: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]؛ كيف يصرفون عن هذا الشيء؟ كيف ينصرفون عنه ويذهبون إلى هذا وهو قد وضح وبان مثل الشمس في رابعة النهار؟ كيف يعدلون عن هذه الأدلة الواضحة والآيات وينصرفون؟ إنما صرفهم الشيطان وأعمالهم السيئة حرمتهم ذلك.

- **من هم هؤلاء الذين يجادلون؟ هل تعرفهم؟**

قال: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٧٠].

الذين كذبوا بالكتاب؛ وبالقرآن وبالكتب السماوية وردوها، وكذبوا بما أرسلنا به رسلنا من المعجزات والأدلة الواضحة؛ كذبوا بهذا كله وبما أرسلنا به رسلنا.

فهؤلاء الذين يجادلون الحق بالباطل؛ أول وأعظم صفة عندهم تكذيبهم للحق، وردهم لكتب الله ورسله، وتكذيبهم للرسل والكتب؛ كذبوا بالكتاب وبما أنزل الله من كتب، وبما أرسل الله به الرسل من الآيات والمعجزات.

قال الله تهديداً لهم وجزاءً يستحقونه؛ قال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٧٠]؛ أسلوب التهديد، يعلمون قال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ [غافر: ٧١-٧٢].

حينما؛ يعني وقت ﴿إِذِ﴾ [غافر: ٧١]؛ الأغلال جمع (غُلّ)، والغل هو الرباط الذي تربط به الأعناق والأيدي؛ تربط الأيدي بالأعناق، (الغِلّ) غير (الغُلّ)؛ (الغِلّ) بالكسر الحسد: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠]؛ يعني حسداً.

و(الغُلّ) بالضم يجمع على أغلال، وهي الأربطة. إذاً الأغلال؛ أي الرباط الذي تربط به أعناقهم؛ قال: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [غافر: ٧١]؛ في أعناقهم والسلاسل في أرجلهم؛ يعني أيديهم قد ربطت في أعناقهم لا يستطيعون التصرف بالأيدي، والأقدام قد سُلْسِلَت خلاص أصبحوا في أيدي الملائكة.

قال حالهم أن الأغلال قد ربطت أيديهم بالأعناق والسلاسل في أرجلهم، والحال أنهم يسحبون؛ يسحبون إلى أين؟ قال: يسحبون إلى النار؛ ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ [غافر: ٧٢] وهو شدة الماء الحار؛ تسحبهم الملائكة وتعذبهم بالماء الحار الذي يصب من فوق رؤوسهم ويصهر به ما في بطونهم والجلود، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً: قطع أمعاءهم لشدة غليانه وحره؛ يعني وصل منتهاه في الحرارة.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٢]؛ يسجرون يعني يوقدون؛ يعني سجرتُ النارَ: أوقدتها؛ فهم يدخلون في النار؛ يعني ينقلون من الماء الحار الشديد الحرارة ثم يلقون في نار جهنم

فتتوقدهم النار وتتسعر بهم. هذا جزاء كل مجادل وكل معرض وكل من لا يقبل الحق بعد ظهوره ولا يريد اتباعه؛ هذا جزاؤه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً: فبعد العذاب الجسدي يأتي العذاب النفسي، ثم يوبخون توبيخاً شديداً؛ قال:

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [غافر: ٧٣-٧٤].

ثم قيل لهم: أين شركاؤكم؟ أين الذين كنتم تشركونهم تعبدونهم من دون الله؟ أين هم؟ الأموات تطوفون حول قبورهم، والأصنام تخضعون لها وتقدمون لها القرابين؛ أين هم من دون الله؟ أين تعبدونهم؟ ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ [غافر: ٧٤]؛ تاهوا وضلوا ما ندري أين ذهبوا، ما نجد لها أثراً؛ ضلت عنهم وتاهت ولم يجدوها.

قالوا: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾ [غافر: ٧٤]، ثم قالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٤]؛ أنكروا! قالوا: ما كنا ندعو أصلاً، ما كنا نعبد، وهذا قد يكون على حقيقته إنكاراً منهم أنهم ما عبدوا؛ لأنهم متى ولماذا قالوا ذلك؟

لأنهم إذا رأوا أن الله يغفر الذنوب للعصاة والمذنبين يتمنون أن تُغفر لهم ذنوبهم؛ لأن الله يغفر ما دون الشرك، فيتمنون أن يُغفر لهم فيأتون يقولون: والله ربنا ما كنا مشركين؛ فيحلفون يحلفون أنهم ما أشركوا.

قالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٤] وينكرون عبادة الأوثان، فينكرون ذلك؛ لا يريدون أن يعترفوا لأنهم يقولون: هذه خلاص ضلت عنا ونحن أصلاً ما عبدنا، ما كنا نعبد من دون الله من شيء.

أو أنه يقول؛ قد يكون هذا اعترافاً منهم، اعترافاً بأنهم كانوا على خطأ؛ قالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا﴾ [غافر: ٧٤]؛ أي ما كنا ندعو حقيقة، إلا أنها لتشفع لنا فقط.

وإلا ما كنا نحن نعرف، بل ندعوها لهذا الغرض لتشفع لنا؛ ولكن لا شفاعة حقيقة ولا صحة لإنكارهم، بل كانوا يعبدون ويدعون أنها تشفع لهم، ولكن كل ذلك أمر لا ينفعهم في ذلك اليوم العظيم؛ لا ينتفعون به.

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر: ٧٤]؛ يضلهُم في الدنيا ويضلهم في الآخرة؛ ضلوا في الدنيا فأضلهم الله في الآخرة، ولم يعرفوا طريق النجاة والسلامة من النار، هذا معناه؛ كذلك يضلهم الله لا يستطيعون أن يجدوا حجة يحتجون بها، ولا يستطيعون أن يخرجوا من النار فيظلون الطريق.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]؛ أي هذا العذاب الشديد والعقوبات الشديدة في الحميم وفي النار يسجرون، ويضلهم الله ويتركهم في ضلالهم.

قال: ذلكم بسبب أنهم كانوا في الدنيا يفرحون ويمرحون. قال: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]؛ يفرحون في الدنيا ويمرحون، ولكن فرحهم هذا ليس فرحاً بالحق، وإنما فرحاً بغير الحق؛ يعني فرحاً في معصية الله؛ يفرحون بما يقترفونه من المعاصي والآثام وبما يفعلونه من السيئات.

أما الفرح بالحق فهذا أمر مشروع؛ أمر الله عَزَّ وَجَلَّ أباحه والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]. الفرح ليس فرح بطر وليس فرحاً في معصية؛ هذا أمر جائز، أما فرح المعاصي وفرح الآثام والذنوب والبطر والاستكبار فهذا أمر ممنوع؛ ولذلك قال: ﴿تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [غافر: ٧٥].

ثم قال: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]؛ والمرح المراد به التكبر؛ يمشي في الأرض مرحاً؛ إذاً يتكبر، فيمرح هنا المرح والتكبر؛ يعني البطر والبغي والتعدي على حق الناس والاستكبار عليهم؛ فهذا هو المقصود به؛ يمرحون يعني هم أهل معاصي وذنوب وشرك وكفر ويفرحون بها ويمرحون ويتكبرون على عباد الله.

- **شوف ماذا قال الله فيهم؟**

قال الله عَزَّ وَجَلَّ لهم: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦]؛ عقوبة لكم على كفركم: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [غافر: ٧٦]؛ هذا جزاؤكم خالدين فيها.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦]؛ قال: هذا جزاؤكم؛ تخلدون في نار جهنم والسبب، وهذا الجزاء بئس جهنم مثواكم؛ وبئس يعني أسلوب ذم، ويقابله نِعْمَ؛ نِعْمَ أسلوب مدح، فالله ذمهم قال: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦]؛ أي بئس المقام والمكان مثوى المتكبرين؛ مقامهم ومكانهم لأنهم تكبروا.

شوف قال: (متكبرين)؛ لأنهم يمشون في الأرض مرحاً ويمرحون ويتكبرون، هذا جزاؤه؛ جزاء المتكبرين أنهم يقال لهم ادخلوا أبواب جهنم، فهذه عقوبة كل من جادل وعاند واستكبر ورد الحق؛ هذه نتيجته.

فلذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مخاطباً نبيه؛ وإن كان هذا الخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره يدخل لأن خطابات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها ما هو خاص به فلا تدخل الأمة.

مثلما قال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ومنها ما هو خطاب له ولأمته؛ فقوله هنا: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

اصبر له ولغيره؛ يقول: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٧٧]؛ اصبر على ما تواجه في دعوتك وامضِ وتحمل ولا تضجر واثبت على هذا الحق؛ فاصبر عليه فإن وعد الله حق لابد أن يأتي، لابد الله ناصر أولياءه.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]؛ فالله ناصر أولياءه، والانسان مطالب بالصبر؛ والصبر قد يكون على أقدار الله، الصبر عن المعاصي، الصبر على الطاعات، الصبر على الدعوة؛ كل هذا أمر مطلوب.

الإنسان مطالب بأن يدعو ويصبر، وأن يتعبد ويصبر، وأنه إذا رأى المنكرات صبر، وإذا أُصيب بشيء قدره الله صبر؛ ولذلك قال: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [غافر: ٧٧] في إنجازه لوعده؛ لابد أن ينجز الله ما وعده لرسله ولأوليائه؛ وعد حق.

ثم قال: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]؛ هذا خطاب الرسول؛ لأنه يقول يا نرينك أنت بعض الذي نعدهم؛ أي من العقوبات، فالله قد يريه ما يصيبهم من المصائب مثلما أراه في بدر ورؤوس الشرك تقتل وتلقى في الأرض؛ فأراه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعض الذي نعدهم.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [غافر: ٧٧]؛ قد تموت قبلهم؛ ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]؛ يعني هم إن متَّ أنت وذهبت فإنهم سيرجعون إلى الله وأجازيهم؛ يعني أنْ سواء رأيت أنت هذه العقوبات تنزل بهم أو شيئاً منها، أو توفاك الله، فإن رجوعهم إلى الله ومصيرهم إلى الله وسيجازيهم على أعمالهم كما بين في الآيات السابقة؛ ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧] ويجازون على ذلك.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسلي رسوله بما أصاب الأمم الماضية، ويسلي رسوله بأنه ليس؛ ليثبت على الحق بذكر الرسل الماضين إخوانه من الرسل؛ يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

أرسلنا رسلاً من قبلك؛ أرسلنا رسلاً كثيراً إلى أقوامهم ودعوهم؛ فادعُ أنت مثلما دعوا، واصبر مثلما صبروا على أذاهم، ويقول الله: منهم من قصصنا عليك وأعطيناك أخبارهم كنوح وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم، ومنهم من لم نقصص عليك؛ وأنت لا تعلمهم ولا الناس يعلمونهم؛ وهؤلاء كلهم يعلمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [غافر: ٧٨]؛ هم يطالبونك؛ يطالبونك بالآيات الحسية ويقولون: لماذا لا تفعل كذا؟ ولماذا لا تفعل كذا؟ ولماذا لا تأتينا بكذا؟ فأتوا بآبائنا، فأتوا بكذا؛ يطالبونك بالآيات.

ما كان الرسول يأتي بآية إلا بإذن الله؛ إذا الله عَزَّ وَجَلَّ أعطاه الآيات أتى بها، سواء آيات حسية أو حتى الآيات الشرعية؛ حتى الآيات الشرعية ما يكون الرسول أن يأتي ينزل آية كما قالوا هم؛ يقولون لولا أُنزل عليه آية من ربه؛ ما يأتي بالآيات إلا الله، إلا بإذن الله.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٧٨]؛ إذا جاء أمر الله وأراد الله أن ينزل العذاب بهم، قُضي بالعدل بين الرسل ومكذبيهم، وقُضي بالقضاء الأول في الدنيا والقضاء الآخر في الآخرة بالحق.

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]؛ المجادلون بالحق الباطل؛ الذين يفترون على الله الكذب ويحاولون إبطال آياته؛ هؤلاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجعلهم يخسرون دنياهم وآخرتهم.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً يأتينا بالآيات الدالة على وحدانيته وعلى أنه مستحق؛ فيأتينا بالآيات التي تدل على أنه منعم علينا فيقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ الله سبحانه وحده لا شريك له، الله عَزَّ وَجَلَّ وحده ماذا قال؟

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [غافر: ٧٩-٨١].

جعلها؛ خلقها وصيرها مسخرة لكم. لماذا؟ قال: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ [غافر: ٧٩]؛ يعني منها ما تركب كالإبل، ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [غافر: ٧٩] كالبقر والغنم والإبل تؤكل؛ فمنها ركوب، منها ركوب ومنها حلوب، ومنها ما يؤكل.

قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ [غافر: ٨٠]؛ يعني منافع كثيرة؛ منافع في ركوبها، وفي حلبها، وفي أولادها ودرّها وذريتها، وفيما فيها من المنافع الكثيرة التي تخرج منها الصناعات الكثيرة؛ من أشعارها وأوبارها وأصوافها؛ منافع كثيرة لا تعد ولا تحصى.

قال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ [غافر: ٨٠]؛ يعني في أشياء في نفوسكم ما تستطيعون أن تبلغوها إلا عن طريق هذه الإبل وهذه المراكب.

قال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [غافر: ٨٠]؛ أماكن وأقطار بعيدة تريدون الوصول إليها، هذه الإبل وهذه السفن تنقلكم إليها؛ سخرها الله لكم تحملكم في البر والبحر.

يقول: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [غافر: ٨١]؛ آيات كونية واضحة كثيرة جداً. يقول: ﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١].

- **ما وجه الإنكار؟**

أيّ آيات الله تنكرونها؟ ما يمكن، كلها يجب أن تعترفوا بها وأن تقروا بها، ما للإنكار وجه أن تنكروا آيات الله الواضحة الدالة على وحدانيته؛ كيف؟

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يهددهم ويبين لهم إن لم يقروا بوحدانيته ويعرفوا نعمه؛ يهددهم بما جرى في الأمم الماضية؛ يقول: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

لماذا لم يسيروا؟ ما الذي منعهم أن يسيروا في الأرض سير تدبر وتأمل في آياته؛ يسير في الأرض فينظر نظر تأمل؟ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كعاد وثمود ولوط وغيرهم من الآيات التي يمرون عليها؛ يمرون عليها بالليل والنهار؟ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟

كانوا أكثر منهم عدداً وأكثر عُدَّةً وأشد قوة؛ هم أقوى أجساداً وأثاراً في الأرض؛ بنوا وحفروا الخنادق وبنوا البنايات والمصانع وغيرها، وغرسوا الأشجار وأجروا الأنهار؛ آثارهم واضحة.

قال: ﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]؛ ما نفعهم ما كانوا يكسبون من السيئات؛ السيئات هي التي دمرتهم ودمرت حضارتهم وبناياتهم.

السيئات والذنوب والمعاصي؛ ما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، ما نفعهم ما كانوا يكسبونه حين حل بهم العذاب؛ هذا الكسب سواء في الدنيا من كسب الدنيا أو من أعمالهم السيئة؛ ما أغنت عنهم ولا نفعتهم لما نزل بهم العذاب.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر: ٨٣-٨٥].

أرسل الله إليهم رسلاً قامت عليهم حجة؛ وجاءتهم رسلهم بالبينات؛ شعيب أرسله الله إلى مدين، وعاد أرسل الله إليهم هوداً، وقوم ثمود أرسل الله إليهم صالحاً وغيرهم. لما جاءتهم رسلهم، هؤلاء الكفار ماذا كان موقفهم من الرسل؟

قال: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]؛ فرحوا بما عند الرسل من العلم وأخذوا هذا العلم لينتفعوا به في دنياهم، أو أنهم فرحوا بما عندهم من العلم الذي عندهم ليردوا على الرسل ويردوا الحق بالباطل.

يقول: لما جاءتهم رسلهم بالدلائل الواضحات؛ فرحوا بما عندهم من العلم الذي يرد الحق، أو فرحوا بما عند الرسل من العلم حتى يستفيدوا منه ويأخذوا منه؛ يحتمل هذا وهذا.

قال: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣]؛ لأنهم لم يقبلوا رسالات ربهم، وإنما أرادوا دحض الحق بالباطل؛ فحاق بهم؛ نزل بهم ما كانوا به يستهزئون ولم يقبلوا رسالات ربهم، ولم يقبلوا ما جاءهم عن الرسل، بل قدحوا وشكوا وردوا الحق؛ فهذه نتيجة ما كانوا به يستهزئون.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤]؛ لما رأوا العذاب بدأت أماراته وظهرت علاماته؛ قالوا: آمنا! وهذا لا ينفع، لا ينفع مثل فرعون لما رأى الموت أمامه قال: لا، أقر بأنه لا إله إلا الله؛ فما ينفع، التوبة عند الغرغرة وعند معاينة العذاب ما تنفع خلاص، ما ينفع ما يرفع العذاب.

لما رأوا بأسنا وعذابنا قد ظهرت أماراته؛ قالوا: آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين؛ آمنوا بالله وأقروا بأن الله هو الواحد وهو الإله، وكفروا بشركهم؛ ما نفعهم ما نفعهم، ولذلك قوم ثمود لما عقروا الناقة أصبحوا نادمين، والندم توبة لكن لا تنفعهم، ما ينفعهم لأنهم تُوُعِّدوا بالعذاب.

قال: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥]؛ خلاص عاينوا العذاب ما ينفع.

قال: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥]؛ هذه طريقته وسنته ومنهجه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أعدائه وفي الأمم الماضية؛ سنة الله، لقد خلت في عباده ومضت في الأمم الماضية أنه إذا جاء العذاب لا يرفع ولو تابوا؛ إلا قوم يونس، هو الذي استثناهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، استثناهم لما آمنوا حقيقة رفع الله عنهم العذاب.

قال هنا: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥]؛ خسروا دنياهم وخسروا آخرتهم ولم يفلحوا، بل خسروا خسارة عظيمة؛ خسروا أهليهم ودينهم وخسروا آخرتهم.

لاحظ أنه قال هنا: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥]، وقبلها بآيات قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

- **كيف نجمع بينهما؟**

الجواب: الآية الأولى لما كانت في إبطال؛ في الجدال وإبطال الحق قال: ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨]. وهذه لما كانت في الكفر والإنكار؛ في الكفر وإنكار الحق قال: ﴿الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥]؛ خسر هؤلاء وقت العذاب وفي الآخرة؛ خسروا دنياهم وخسروا آخرتهم وخسروا دينهم، هذه نتيجة الكافرين.

إلى هنا تنتهي السورة؛ سورة غافر سورة عظيمة جميلة، فيها آيات عظيمة عشنا معها الأيام الماضية، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلها حجة لنا لا علينا، وأن ينفعنا بها وأن يبارك لنا.

وإن شاء الله لقاؤنا إن شاء الله في لقاء قادم بإذن الله مع السورة التي تليها، وهي سورة فصلت وتسمى بحم السجدة؛ إن شاء الله لنا اللقاء بإذن الله في لقاءات قادمة، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ فُصِّلَت)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(فصلت ١ - ٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وحبيبنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى آله ومن اتبع سنته إلى يوم الدين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

هذا اليوم هو اليوم العاشر من الشهر العاشر من عام (١٤٤٠ هـ) من الهجرة، درسنا المبارك في تفسير القرآن العظيم في يوم الثلاثاء بعد صلاة المغرب من كل أسبوع.

واليوم معنا سورة جديدة وهي (سورة فصلت)، وتسمى أيضاً بـ (سورة حم السجدة)؛ لأنها هي السورة المختصة بالسجدة من بين الحواميم السبع، فهي السورة الوحيدة التي اختصت بسجدة، ولذلك تسمى بـ (حم السجدة) تفريقاً بينها وبين السورة الأخرى التي اسمها (ألم السجدة).

وتسمى أيضاً بـ (سورة المصابيح)؛ لقوله: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: ١٢]. وأحياناً تسمى أيضاً بـ (سورة الأقوات)؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠].

فالمشهور أنها تسمى في المصاحف وغيرها وكتب التفاسير (سورة فصلت)؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في أولها: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٣]، وقال في آخرها: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤].

فهي تتحدث عن هذا التفصيل، أو ورود هذا اللفظ فيها: ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾. والسورة من السور المكية التي نزلت في مكة. وجميع الحواميم السبع - التي أولها (غافر)، وثانيها (فصلت)، وثالثها (الشورى)، ثم بعد ذلك (الزخرف)، ثم بعد ذلك (الدخان) و(الجاثية) و(الأحقاف)؛ هذه السبع السور التي تسمى بسور (الحواميم) - هذه كلها سور مكية نزلت بمكة.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْه يقول: "هِيَ دِيبَاجُ الْقُرْآنِ"؛ يعني: حرير القرآن، هي زبدة القرآن، خلاصة القرآن. لماذا؟ لأنها كلها تتحدث عن القرآن.

وسورة فصلت أيضاً تفصل وتبين القرآن الكريم، وصفات القرآن، وما تميز به القرآن، وثناء الله على كتابه وعلى كلامه فالسورة لو تقرؤها من أول آياتها تجد أن الله يثني على هذا القرآن، فيقول: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]؛ يعني كأن القرآن رحمة، تنزيل من الرحمن الموصوف بالرحمة ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم يقول: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۝٤﴾ [فصلت: ٣-٤]، كل هذا ثناء على القرآن ومدح وتنويه بشأن القرآن.

ثم تجد السورة تبين موقف هؤلاء المشركين من القرآن الكريم، قال: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤]، وقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] إلى آخره.

وثم يبين وظيفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه بشر يوحى إليه، وأنه يدعو إلى التوحيد: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]. ثم تهديد المشركين بالعذاب الأليم، بيان عاقبة أهل الإيمان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨].

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين موقف هؤلاء الكفار؛ لما كفروا بالله لم يعرفوا حقيقة الله، لم يعرفوا حق الله عليهم، ولم يعرفوا عظمة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي قال الله فيهم: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت: ٩].

وقال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠]، ثم قال بعدها: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [فصلت: ١١] إلى آخر هذه الآيات: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢].

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما بين عظمته، وأنهم لم يعرفوا وما قدروا الله حق قدره، هددهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فساق لهم إهلاك أمتين عظيمتين وهي إهلاك قوم عاد وقوم ثمود: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

ثم بعد ذلك يأتيهم التهديد بالعذاب الأليم في الآخرة لما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمُ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصلت: ١٩-٢٠] إلى آخر الآيات.

ثم تعود الآيات في الحديث عن القرآن وموقف المشركين منه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. ثم بعد ذلك لما ذكر الله حشر هؤلاء المجرمين وأعداء الله إلى النار، ذكر أيضاً حشر أوليائه المتقين، يحشر المتقين إلى الجنة، قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

ثم تتحدث الآيات أيضاً عن وحدانية الله وقدرته، وشيء من مظاهر قدرته، ثم بعد ذلك تذكر السورة التنويه بالقرآن مرة أخرى في آخر السورة لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]؛ مدح للقرآن.

ثم تختم السورة بشيء من صفات هذا الإنسان؛ أنه إذا أصابته الضراء ماذا يصنع؟ وإذا أصابه الخير ماذا يصنع؟ يعني إذا أصابته الضراء فإذا هو ذو دعاء عريض، وإذا أصابته نعمة كفر بها، وهذه من صفات الكافر.

☜ **أما المؤمن فقد بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ شَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ». أما الكافر فيجزع في الضراء، ويتكبر ويتبختر إذا أُعطي، يجحد ويكفر نعمة الله إذا أعطاه الله الخير.

هذه السورة بشكل عام - يعني مررنا على كثير من آياتها - واتضحت لنا السورة الآن كقطعة وكتلة كاملة، عرفناها من أولها إلى آخرها، وهي تركز على المدح والثناء من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتنويه بشأن هذا الكتاب العظيم (القرآن الكريم)، كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه السورة بشكل عام، وعرفنا أنها من السور المكية التي نزلت تعالج قضايا العقيدة: الإيمان بالله وحده لا شريك له ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦]، الإيمان بالله، الإيمان

بالقرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ وتصديقه واتباعه، الإيمان بالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المبلّغ والرسل السابقين، الإيمان باليوم الآخر.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ [فصلت: ١٩]، الإيمان باليوم الآخر بالجنة وبالنار إلى آخره، تقرر هذه الأسس والقواعد التي يقوم عليها إيمان العبد وعلاقته بربه.

فمتى تمسك بهذه الأصول - أصول الإيمان الستة، أو الأصول التي ذُكرت في هذه السورة - فإنه تكون له قاعدة أساسية في دخول الإيمان في قلبه وطمأنينته وبشاشة الإيمان بقلبه، وتحذير من خلاف ذلك من الكفر بالإيمان أو بشيء من أصول الإيمان.

نبدأ بالسورة على بركة الله، افتتحت بحرفين من حروف الهجاء، وهي ما تسمى بـ **(الحروف المقطعة)**.

- **لماذا قيل إنها مقطعة؟**

الجواب: لأنها تقرأ مقطعة، يعني ﴿حم﴾ لا تقرأ (حَمْ)، و﴿الم﴾ لا تقرأ (أَلَمْ)، وإنما تقرأ مقطعة حرفاً حرفاً، فلذلك سميت حروفاً مقطعة، تقول: (حا ميم)، و(حاء) يمد مداً طبيعياً حركتين: (حا)، و(ميم) يمد مداً لازماً حرفياً مخففاً ست حركات: (ميم): ﴿حم﴾.

فهذه من حيث المعنى أنها حروف هجائية من حيث القراءة، أما من حيث دلالاتها والمقصد منها فإنها جيء بها للإعجاز؛ بأن القرآن مؤلف من حروف هجائية، فيا أيها العرب، أنتم أهل العربية، وأنتم أهل الهجاء وأهل الحروف وتتكلمون بحروفكم العربية، القرآن مثل كلامكم، فاعرفوه واعرفوا مقاصده واعملوا به.

فإن كفرتم وكذبتم ولم تقبلوا فأتوا بمثله، ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ [الطور: ٣٤]، فإن قلتم إنه أساطير الأولين، أو قلتم إن محمداً افتراه وأنه محمد ينسبه إلى الله فأتوا بمثله.

- **لماذا محمد رجل واحد يأتي بكتاب كامل، وأنتم لا تأتون ولا بسورة؟**

فأتوا بسورة، فجيء بهذه الحروف للتحدي والإعجاز.

ولذلك دائماً تلاحظ إذا جاءت الحروف يأتي بعدها ذكر القرآن: ﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ ۝٢﴾ [فصلت: ١-٢]، بعدها ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف: ١-٢]، ﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢]، فيأتي القرآن بعدها إقامة وتحدياً لهم، إقامة الحجة عليهم.

بعدها قال: ﴿تَنزِيلٌ﴾ [فصلت: ٢]؛ أي هذا القرآن الذي أنتم تسمعونه، وهذه السورة هي تنزيل، ليست أساطير الأولين وليست افتراءً من محمد وكذباً، بل هو تنزيل من أين؟ ما مصدره؟ من الله، ﴿مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢].

فالذي نزله على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بواسطة الوحي هو الله عَزَّ وَجَلَّ، والذي تكلم به هو الله، فالقرآن كلام الله بلا شك، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]. فالقرآن كلام الله ليس مخلوقاً، وليس مفتراً يفتريه محمد، وليس من كلام البشر، بل هو كلام الله، والله عَزَّ وَجَلَّ نسبه إليه فقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ولاحظ لم يقل: "من القوي العزيز" أو "القدير" أو أي اسم، قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ يعني هذا قرآن رحمة عليكم، لماذا أنتم تصدون عنه؟ جاءكم من الرحيم الذي هو أرحم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرحم بخلقه من الأم بولدها.

فمن رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي عمت كل شيء، رحمته وسعت كل شيء، من رحمته أن أنزل عليكم هذا القرآن، وجعله غضاً طرياً باقياً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فهذا من تأمله وتدبره، عرف فضل القرآن، وعرف عظمة القرآن، وعرف حق القرآن عليه؛ كيف يأتيك قرآن من الله ومن الرحمن ورحمة عليك، ثم أنت تعرض عنه؟!

ثم بدأ يفصل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذا القرآن فقال: هذا القرآن الذي نزله الله عَزَّ وَجَلَّ ونزله من الرحمن الرحيم، نزله ومصدره من الرحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرحمن الرحيم، هذا الكتاب ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: ٣]؛ أي بينت ووضحت وجعل لها مقاطع وفواصل تنتهي بها آيات هذا القرآن المفصل بهذا التفصيل العجيب.

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ﴾ ووضحت وبينت آياته، وبينت معانيه وأحكامه، كلٌ يقرؤه ويفهمه، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، ليس غامضاً على أحد.

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ للعرب يفهمونه، فقرآن بلغة العرب ليقيم الله الحجة عليهم، ثم قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]؛ يعلمون ماذا؟ يعلمون أنه بالعربية وأنه لسان عربي ويفهمونه، وأنه يسير وسهل، فما الذي يمنعكم؟ ما الذي يمنعكم من تأمل آياته والتفكر فيه؟ لقوم يعلمون.

ثم قال: هذا القرآن أيضاً ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت: ٤]، فيه بشارات بالثواب العاجل والآجل، ثواب الدنيا والآخرة لمن تمسك به، فيه بشارات، بشيراً ونذيراً لمن آمن. تسمع الآيات القرآنية كثيراً يبشر الله ويقول هذا بشرى، ويبشر الله الذين آمنوا، يبشرهم برحمة منه وفضل، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥]، فالقرآن كله بشارات لمن آمن به وصدق واتبعه وعمل به.

هذا كله بشارات، وفي نفس الوقت ﴿وَنَذِيرًا﴾، كله إنذارات لمن كفر وأعرض ولم يقبل هذا القرآن الكريم، فالقرآن ينذره ويحذره بالعقاب والعقوبات والعذاب العاجل في الدنيا والآجل في الآخرة. القرآن كله بشارات للمؤمنين وإنذارات للمعرضين الكافرين الذين لم يقبلوا القرآن، يحذرهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١] وغيرها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، وغيرها من الآيات التي فيها تهديد وتخويف بالعقوبات لمن أعرض وكفر بهذا القرآن، ولذلك قال: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤].

أعرض الكثير، لم يقبل القرآن، ولم يقبل عليه ويؤمن به ويتدبره، بل أعرض عنه وكذب به، أعرض أكثرهم، أكثر الذين أُرسل إليهم نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعرضوا عن القرآن.

وإلى العصر الحاضر تجد الكثير معرضاً عن طاعة الله، معرضاً عن شرعه، معرضاً عن كتابه، بل إنك تجد من أبناء المسلمين ممن ينتسبون إلى الإسلام ويصلي، وتجد اعتنائهم واهتمامهم بالقرآن ضعيف جداً، ليس لهم، تجد القرآن ليس له مكان عندهم، ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

- **لا يسمعون؟ هم يسمعون، لهم آذان، كيف لا يسمعون؟**

الجواب: لا يسمعون سماع قبول وإجابة وتدبر وتفكر، وإلا هم يسمعون ما يريدون، لكن إذا جاء القرآن صمّوا آذانهم عن قبوله وعن تدبره.

- **ويحتجون أيضاً بأن يقولوا ماذا؟**

﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]. هؤلاء المعرضون الكافرون لا يقبلون الحق، يقولون: قلوبنا في أكنّة، والأكنّة هي الأغطية المانعة، يقولون الأكنّة جمع (كِنَان) وهو الغطاء، يقولون لا.

وهؤلاء المشركون حتى في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأتون إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: **"يا محمد، لا تقرأ القرآن علينا، لا تتعب نفسك، قلوبنا مغلقة، قلوبنا في أكنّة؛ في أغطية مانعة، ما نفهم ماذا تقول ولا نستوعب ماذا تقول"**، يعني أغلقوا على أنفسهم، قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، ما نسمع ولا ندري ولا قلوبنا تفقه ماذا تقول.

ثم زيادة على ذلك قالوا: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]؛ أي ثِقَل لا نسمع، صمم آذاننا صَمَّتْ عنك لا نسمع، وفي آذاننا وقر، ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]؛ شيء ساتر يحجبنا عنك، لا نراك ولا نسمع ولا نجيب دعوتك، ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]؛ فأنت استمر في دعوتك، فاعمل في دعوتك ونحن عاملون على ما نحن عليه في ديننا وفي صدنا عن دعوتك وعدم قبولنا لدعوتك.

هذا موقف واضح جداً يذكره القرآن عن هؤلاء المعرضين، أشد المواقف، يعني أغلقوا جميع الطرق التي تكون هداية لهم، يقولون كأنهم يقولون: لا نريد الهداية، ولا نريد الاستقامة، ولا نريد الجنة، ولا نريد قبول ما تدعونا إليه، قلوبنا في أكنة، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب. فأغلقوا جميع الطرق من شدة العداوة والتكبر والاستكبار وعدم قبول الحق.

فالله عَزَّ وَجَلَّ أراد أن يُسلِّي نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويثبته، فوجه بهذا التوجيه الكريم فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦]، أنا إنسان مثلكم، إنسان ورجل منكم من رجالكم، لا فرق بيني وبينكم إلا أنه يوحى إليّ، يأتيني الوحي من السماء، ويوحى إليّ، يأتيني الخبر من السماء.

ويأتيني الوحي من السماء بأنني آمركم بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له، لا تعبدوا غيره من الأصنام والأوثان، دعوتي لكم التوحيد: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت: ٦]. يعني الذي يستحق العبادة هو الإله الواحد، لا تشركوا مع الله، لا تشركوا مع الله إلهاً آخر، يقول: ﴿أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

ويُلاحظ أنه قال: ﴿إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ﴾، مرتين، يعني ممكن أن تقول: **"إنما إلهكم واحد"** يكفي، قال: لا، ﴿أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾، أتى بـ﴿إِلَـٰهٌ﴾ مرة ثانية للتأكيد، يعني كأنما تقول: **"إنما الفائز أو الرجل الفائز هذا الفائز"**، فتعيد الكلمة مرتين لتؤكد عليها. ﴿أَنَّمَا إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾، هذا إلهكم هو إله واحد، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٦]؛ اطلبوا الاستقامة.

والاستقامة أصل الاستقامة هي سلوك الطريق المستقيم والصراط المستقيم، هذا هو أصل الاستقامة، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾؛ يعني اعبدوه طالبين الوصول إليه، الوصول إليه وإلى مرضاته وإلى جنته، هذا مقصود ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾.

استقيموا يعني وحدوه واتبعوا شرعه واسلكوا رضاه، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦] عما حصل منكم من الذنوب والمعاصي والشرك والكفر، توبوا إلى الله واستغفروه، واستقيموا على شرعه ووحدوه.

ثم حدد فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]، الذين لا يعترفون بأنه هو الإله الواحد، ويشركون معه آلهة أخرى، ويعبدون معه أصناماً ومعبودات وأوثاناً، ويل لهم! وكلمة (ويل) تهديد شديد ووعيد شديد لكل من يعرض عن طاعة الله ويشرك معه، ويل تهديد شديد.

ثم بين من هم المشركون، فقال: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٧]؛ لا يتصدقون ولا يعطون من أموالهم لهؤلاء المساكين، وأيضاً لا يؤتون الزكاة؛ أي لا يزكّون أنفسهم بالعبادة والتوحيد والإخلاص، لم يطهروا أنفسهم.

فهم كما قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] زكى نفسه، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧] قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾. فلا يزكي ماله ولا يزكي نفسه، فتزكية المال الصدقة، وزكاة النفس عبادة الله وحده لا شريك له والإخلاص لله، يعني لا يؤتون الزكاة لا يخلصون عملهم لله ولا يعبدون الله ولا يتصدقون بأموالهم.

ثم قال: ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٧]؛ يعني لا يؤمنون باليوم الآخر ولا بجنة ولا بنار ولا ببعث ولا بجزاء ولا بحساب، كافرون بالآخرة، وهم مشركون بالله يعبدون معه غيره، ولم يطهروا أنفسهم بالطاعة ولا بالصدقة، وهم أيضاً كافرون بالآخرة.

- **فهؤلاء ماذا قال الله فيهم؟**

قال: ﴿وَيْلٌ﴾، هذا الذي نقول: (بشيراً ونذيراً)، هذا نذير إنذار لهم.

ثم بشر المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [فصلت: ٨]؛ الذين آمنوا وصدقوا، صدقوا بالله وآمنوا بالله وصدقوا ما جاءهم عن الله ورسوله، آمنوا بالله والرسول وبالكتب المنزلة، وعملوا الصالحات.

أتبعوا الإيمان بالأعمال الصالحة من الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك، مخلصين ذلك لله، قال: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾ ثواب عظيم، ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أي غير مقطوع ولا ممنوع، لن يقف ولن ينقطع هذا الأجر في جنات النعيم، في جنات النعيم.

الآيات الآن تستمر، والحقيقة لا يمل الإنسان - حقيقة لا يمل - من تدبر هذه الآيات، فيها كنوز، فيها أشياء عجيبة، لا يشبع الإنسان من تأملها، هي تزيدك كل ما تدبر وكل ما تتفكر في هذه الآيات تزيدك إيماناً وقرباً وقربةً إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذا ذكر الله وذكرت آياته، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

فالآيات حقيقة جميلة جداً، والتفكر والتأمل فيها جميل جداً، لكن الوقت يضيق بنا، لعلنا نقف عند هذه الآية؛ لأن التي بعدها لما يقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩].

ستكون الآيات كلها في بيان أفعال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعظمته وقدرته في هذا الخلق؛ لأنه خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماوات في يومين، ثم دحا الأرض وبث فيها أقواتها في يومين، فأصبحت الأيام ستة أيام. هذا الكلام يأتي الحديث عنه إن شاء الله في اللقاء القادم.

نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله الهادي والموفق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(فصلت ٩ - ٢٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وحبيبنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى آله ومن اتبع سنته إلى يوم الدين، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

هذا اليوم هو اليوم العاشر من الشهر العاشر من عام (١٤٤٠ هـ) من الهجرة، درسنا المبارك في تفسير القرآن العظيم في يوم الثلاثاء بعد صلاة المغرب من كل أسبوع.

بعد ذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم بعدما هددهم بالعذاب؛ لما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في العذاب في تهديدهم قال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت: ٦-٧]، توعدهم بالعذاب الأليم؛ قال لهم مخاطباً ومتعجباً من حالهم: كيف تعبدون شجراً وحجراً وصوراً وتتركون الملك العلام؛ الخالق لكل شيء، الرازق المدبر؟! كيف تتركونه؟!

فلذلك قال تعجباً، قال: قل لهم: أئنكم؟ استفهام، الهمزة الأولى للاستفهام والثانية همزة (إنّ)، أئنكم؟ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، يقول: أنتم الآن تكفرون، ولكن أنتم تكفرون لما لم تقبلوا الدعوة وتصروا على شرككم وعلى كفركم، أنتم تكفرون بمن؟ تعجباً منه؛ كيف تكفرون بهذا الذي خلق الأرض في يومين؟!

فيبين لهم دلالات وآيات قدرته الباهرة وملكه الواسع وعلمه؛ فيقول: أنتم الآن أيها الكافرون الجاهلون تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين، تعجباً منهم: كيف تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً؟! تجعلون له شركاء تعبدونهم من دون الله وهو الخالق لكل شيء، تجعلون له ذلك؟!

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩]؛ هو الرب الخالق المالك المدبر الرازق، وتجعلون له أنداداً؛ يعني تجعلون له شركاء تعبدونهم من دونه وهو الذي خلق الأرض في يومين.

ثم قال بعدها لما خلق الله الأرض في يومين، قال بعدها: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]؛ الجبال الرواسي الثابتة التي تثبت الأرض حتى لا تميد بأهلها. **ثم قال:** ﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ١٠]؛ أي بارك في هذه الأرض؛ جعلها أرضاً مباركة، وجعل فيها الخير الكثير.

ثم قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]؛ أرزاقها من الغذاء والطعام والخضرة والزرع والثمار؛ قال: وقدر فيها أقواتها وما في الأرض من المعادن والذهب والفضة؛ قال: وقدر أقواتها ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠]؛ يعني خلق الأرض في يومين، وقدر فيها وجعل فيها الرواسي وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين، فأصبح الجميع أربعة أيام، أربعة أيام.

قال: ﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠]؛ يقول: خلقها خلقاً تاماً مستوياً لمن يريد أن يسأل؛ فهذا هو لمن أراد السؤال عن ذلك أو العلم بذلك فعليه أن يتعلم، وعليه أن يقرأ القرآن، لا أن يصد عن القرآن ويقول: بيننا وبينك حجاب، ويقول: في آذاننا وقر؛ تعلموا، فالله خلق الأرض في يومين وبث فيها أقواتها في يومين، أصبح المجموع أربعة أيام.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]؛ استوى إلى السماء يعني قصدها، وكانت دخاناً متصاعداً من الماء أو من البحر، فقال لها وللأرض؛ يعني خلق السماء، استوى إلى السماء يعني قصدها وخلقها وأوجدها، خلقها سواها سبع سماوات.

قال: فقال لها وللأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]؛ قال: انقادي لأمري، ائتيا يعني استجيبا وانقادا لأمري طوعاً واختياراً أو كرهاً وإجباراً وإلزاماً، لابد أن تأتيا، فكان الجواب: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]؛ مذعنين منقادين دون تردد.

قال بعدها: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]؛ لما استوى إلى السماء وهي دخان، قضاهن يعني انتهى منهن فأصبحت سبع سماوات، سبع سماوات سواهن سبع سماوات، سماء فوق سماء، سبعاً طباقاً.

قال: فقضاهن سبع سماوات ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]؛ أوحى في كل سماء ما أراده منها، وقضى فيها ما أراد، وأنشأ فيها ما أراد في يومين؛ قال: وأوحى في كل سماء أمرها مما أراده الله. قال: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [فصلت: ١٢]؛ السماء الدنيا زينها الله بمصابيح.

- **ما هي المصابيح؟**

هي النجوم المضيئة التي في السماء؛ قال: وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴿وَحِفْظًا﴾ [فصلت: ١٢]؛ يقول: هذه النجوم التي في السماء زينة، زين الله بها السماء جمالاً وزينة وبهاء، وأيضاً حفظاً من كل شيطان مارد، فالفائدة من النجوم أنها زينة في السماء، وأنها أيضاً حفظ من الشياطين.

وهناك فائدة أخرى ذكرها الله في موضع آخر قال: ﴿وَعَلَامَاتٍ ۚ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]؛ ففائدة النجوم أنها علامات ويهتدون بها، يهتدي بها الناس في البر والبحر، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وأيضاً أنها زينة في السماء وحفظاً من كل شيطان مارد. يقول: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

ما الذي خلقه الله أولاً؛ السماء أو الأرض؟ نقول: الله خلق الأرض أولاً. في **(سورة النازعات)** قال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧] ثم قال بعد ذلك: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]،

- **كيف نجمع؟ كيف الله ذكر السماء ثم قال والارض بعد ذلك دحاها؟ فكيف نجمع؟**

الجواب: أولاً خلق الله الأرض في يومين، ثم خلق السماء السبع في يومين، ثم عاد إلى الأرض وبث فيها أقواتها وأرزاقها وجعل فيها الرواسي وقدر فيها وبارك فيها في يومين؛ فهذا معنى قوله، معنى قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة النازعات: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]؛ أي بث فيها أقواتها، **(الدحو)**؛ دحو الأرض أن يجعل فيها خزائنها ويجعل فيها أرزاقها.

فالترتيب: خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماوات في يومين، ثم عاد وإلى الأرض ودحاها وبث فيها أقواتها وأرزاقها؛ فأصبح للأرض أربعة أيام، يومين في خلقها ويومين يتعلق بما فيها من أرزاق، وأما السماوات فخلقها في يومين.

- **قد يأتيك سائل ويسألك فيقول: السماوات أكبر وأعظم من الأرض، كيف تُخلق في يومين والأرض في أربعة أيام؟!**

الجواب: الأرض لما كانت مستقراً لبني آدم خلقها الله وبث فيها أقواتها وأرزاقها وخزائنها في أربعة أيام؛ لأهميتها للإنسان؛ لأن الإنسان سيعيش عليها ويمشي عليها ويبني عليها ويزرع، فلذلك يعني استحقت أن تُخلق في أربعة أيام، تُخلق ويُخلق ما فيها، والسماوات خلقها الله في يومين؛ إذاً المجموع كم؟ المجموع ستة أيام، بدأ الله بالخلق يوم الأحد وانتهى من الخلق يوم الجمعة، ستة أيام.

- **أيضاً هنا سؤال: هذه الأيام ما مقدارها؟ هل هي مثل أيام الدنيا منذ طلوع الشمس أو منذ طلوع الفجر إلى غروب الشمس ولا كيف؟**

الجواب: الله أعلم بتلك الأيام؛ لأنه ليس هناك شمس ولا قمر ولا ليل ولا نهار، الشمس والقمر والليل والنهار بعد يعني بعدما خلق الله السماوات والأرض جاءت، لكن نحن نقول هي أيام.

وبعضهم يقول: أيام الله، أيام الله وهي اليوم عند الله ألف سنة مقداره ألف سنة، الأيام عند الله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. وبعضهم قال: ألف سنة، وبعضهم قال: مثل أيام الدنيا، وبعضهم قال: الله أعلم بذلك لا نعلم نحن، ما حضرنا ولا نعلم في ذلك الوقت، الله أعلم بمقدار اليوم.

- **قد يسأل أيضاً سائل فيقول: لماذا يعني الله يخلق السماوات في ستة أيام؟ يعني يخلقها في لحظة، الله قادر يقول للشيء كن فيكون، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، حتى تكون المدة ستة أيام؟!**

الجواب: الله قادر، نعم، ولا يعجزه شيء، ولو أراد أن يخلق السماوات والأرض في لحظة لخلقها، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أراد أن يعلّم، يعلّم العباد كيف يتأنّون في الأمور؛ أنت أحياناً تريد أن تبني داراً أو تزرع شجراً أو تفعل شيئاً تحتاج إلى وقت، فالله يعلمك أن الأمور لا تكون في لحظة، تحتاج إلى وقت؛ فهذا من باب، من باب التعليم، من باب التعليم.

إذاً هنا قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [فصلت: ١١]، بعدها قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]. عرفنا إذاً الحكمة من سياق هذه الأمور والأخبار، أخبار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأمور غيبية لا نعلمها نحن، أنه خلق الأرض في يومين وخلق كذا وخلق كذا، ليعجّب ويتعجب من حال

هؤلاء الكفار: كيف تكفرون بالله وتعبدون أصناماً وأوثاناً وتتركون الخالق المالك المدبر المتصرف القوي العزيز؟!

يتعجب الله سبحانه: قل: أئنكم تكفرون؟ كيف تكفرون بالله والله الذي يفعل هذه الأفعال، وهذه الأصنام لا تصنع شيئاً؟! فيتعجب منهم، لكن مع هذا ومع إخبارهم بهذه الأمور العظيمة، وأن الله هو المستحق، إلا أنهم لا يزالون في إعراض وعدم تقبل؛ فلذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هددهم، لأنهم لا ينفع معهم الإنذار والتخويف؛ يعني ولذلك هددهم بتهديد آخر فقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

الصاعقة هي الصوت القوي الذي يهلك صاحبه، صاعقة لأنها صاعقة قوية تهلكهم وتقضي عليهم؛ أنذرتكم يا أهل مكة صاعقة تصعق، تصعقكم صعقة تهلككم.

وهي والمراد بالصاعقة: العذاب، العذاب الذي ينزل بهم مثل صاعقة عاد وثمود، مثل ما نزل بعاد وثمود؛ الله أنزل بعاد الريح أهلكتهم، وثمود الصيحة أهلكتهم؛ فيحذرهم يقول: إن لم تستجيبوا فاحذروا من العذاب الذي ينزل بكم كما نزل بالأمم الماضية.

يقول: عاد وثمود ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤]؛ يعني جاءت رسل كثيرة قبلهم وبعدهم، وأيضاً عبارة عن أن الرسل لم يقصروا في دعوتهم.

بل بذلوا ما يستطيعون، جاءتهم من بين أيديهم ومن خلفهم؛ يعني بذلوا، يعني مثل ما صنع نوح دعا قومه ليلاً ونهاراً وسراً وعلانيةً، فهؤلاء الرسل ما تركوا شيئاً، جاؤوا هؤلاء المنذرين والأقوام من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ما تركوا شيئاً فيهم، كل هذا جاؤوا بأي شيء؟

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٤]؛ وحدوه واتقوه واتركوا الأصنام وعبادتها واعبدوا ربكم.

- **ماذا كان رد هؤلاء الأمم؟ لعاد وثمود، وثمود ماذا كان ردهم لأنبيائهم هود وصالح؟**

﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤]؛ الله لو أراد أن يرسل حقيقة ما أرسلكم أنتم، من أنتم عشان يختاركم الله ويرسلكم؟!

لو أراد الله أن يرسل لأنزل ملائكة غيركم، لو أراد الله لو شاء الله لأنزل ملائكة، أما أنتم ما، ما يدل على أنكم أنبياء أو رسل، الله يختاركم؟! يختار من الملائكة لأنهم أقرب من الله، ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ١٤]؛ أما أنتم نكفر بكم ولا نصدقكم، أنتم بشر مثلنا وأنتم تكذبون على الله، فنحن نرد رسالتكم ولا نقبلها، ولا نقبلها.

فأما عاد فبدأت الآيات تفصل في كل قبيلة؛ أما عاد وهي قبيلة عظيمة تسكن جنوب الجزيرة العربية، أرسل الله إليهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

استكبروا في الأرض يعني تكبروا واستعلوا في الأرض، وجعلوا أنفسهم أنهم هم لهم الكلام ولهم ولا أحد يستطيع أن يوجههم لا نبي ولا أحد، استكبروا في الأرض بغير الحق وبدأوا يبطشون.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، فاستكبروا في الأرض بغير الحق وتعالوا حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؛ اغتروا بقوتهم لأن الله أعطاهم الأجسام، ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، أعطاهم الأجسام الطوال والعقول والقوة، فافتخروا بأنفسهم قالوا: من أشد منا قوة؟! ما في أحد أشد منا قوة.

رد الله عليهم قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؛ الذي خلقهم وأوجدهم هو اللي أقوى منهم، الله أقوى منهم؛ إذاً أنتم تغترون بقوتكم والله أقوى منكم، قال: إن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]؛ جاءتهم الآيات والأدلة والحجج فجحدوا بها، جحدوا بآيات الله وكانوا بآياتنا يجحدون.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]؛ لما أصروا واستكبروا ولم يقبلوا دعوة نبيهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ مع أنه بذل ما يستطيع في دعوتهم،

- **ما هي النتيجة؟**

قال: أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام، سبع ليال وثمانية أيام حسوماً؛ محسومة عند الله ومقدرة عند الله أن ينزل بهم العذاب من الأربعاء إلى الأربعاء، أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً.

الصرصر: الريح الباردة الشديدة الصوت المزعجة، صوتها شديد وقوية وباردة، أرسلها الله ريحاً صرصراً ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]؛ أيام نحسة يعني أيام فيها النحس والشؤم والعذاب والقلق، أيام غير مباركة أيام غير سعيدة، أيام نحسات.

وقال في (سورة القمر): ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]؛ يعني جنس الأيام. قال: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦]؛ ليذيقهم الله عذاب الخزي يعني الذل والهوان في الحياة الدنيا؛ يعني هذا عذابهم في الدنيا.

أما في الآخرة: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦] وأشد وأذل هواناً، ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]؛ لا يجدون من ينصرهم. هؤلاء من هم؟ قوم عاد الذين كذبوا نبيهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ، النتيجة هذه النتيجة؛ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ لأهل مكة: فإن أعرضوا فقل أنذرتكم ما جرى لعاد وثمود.

أما ثمود قال الله فيهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]؛ أي أعطيناهم الأدلة القوية الواضحة التي من أعظمها هذه الناقة؛ ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]، واضحة يعرفها الصغير والكبير والرجل والمرأة، ويعرف الأحياء التي حولهم والقبائل يعرفون أن هذه ناقة، أن هذه ناقة الله.

فهداهم الله ودلهم على الحق ولكنهم: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]؛ قدموا العمى على الهدى، يعني قدموا الضلالة على الهدى والغي على الرشاد، ما يريدون الخير، استحبوا العمى على الهدى، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: فأخذتهم صاعقة العذاب، صاعقة اللي أخذتهم الصوت، صاح بهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى تقطعت قلوبهم.

قال: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]؛ العذاب الذي أهانهم وأذلهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]؛ بسبب كسبهم هم. قوم، هم ثمود الذين يعيشون في الشمال الغربي من الجزيرة العربية، أرسل الله إليهم صالحاً فكذبوه، وأعطاهم الناقة آية عظيمة فكفروا بها وعقروها، فأنزل الله بهم العقوبة بما كانوا يكسبون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]؛ نجى، نجى الله هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن آمن معه، ونجى صالحاً ومن آمن معه؛ لأنهم آمنوا وصدقوا برسالات ربهم وكانوا يتقون الله ويخافونه فسلموا، وكل من آمن واتقى سلم من العذاب.

هذا عذاب الدنيا الله يذكر أهل مكة ويذكر كل من أعرض إلى قيام الساعة بعذاب الدنيا الذي أصاب قوم عاد وثمود، وأصاب الأمم الكافرة كقوم شعيب ولوط وإبراهيم وغيرهم من الأمم التي أهلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهلك أهلها؛ فقال سبحانه: هذا في الدنيا، هذا العذاب عذاب الدنيا.

ثم حذرهم من عذاب الآخرة الذي هو أشد وأبقى، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]؛ واذكر لهم ذلك اليوم عندما يحشر أعداء الله، يحشرون يعني يجمعون في محشر واحد وفي مكان واحد، يجمع أولهم على آخرهم في مكان واحد؛ يحشرون أعداء الله، ما قال الكفار أو المشركين، قال لا، هم أعداء الله، ﴿إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]؛ يوزعون يعني يجمع أولهم إلى آخرهم ثم يدفعون دفعة واحدة في النار، فهم يوزعون.

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]؛ أي النار جاؤوها، شهد عليهم؛ شوف: حتى إذا ما جاؤوها، (ما) هنا هذه (ما) تأكيد، ما نسميها حرف تأكيد، حتى إذا ما جاؤوها يعني إذا جاؤوها، إذا وصلوا النار ما الذي يحصل؟

قال: شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون؛ بسبب أعمالهم السيئة وذنوبهم تخبر هذه الجوارح، تخبر بما فعلوا؛ فالسمع يخبر ويتكلم، وكذلك البصر، وسائر الجلود؛ الأصابع والأيدي والأرجل ونحو ذلك؛ بسبب أعمالهم.

﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١]؛ شوف قال لجلودهم ما قال وقالوا لسمعهم وأبصارهم؛ لأن السمع والأبصار داخلة في الجلود، وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا؟! لماذا تشهدون علينا؟! ما الذي جعلكم تشهدون علينا؟! ﴿قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١]؛ كيف وإليه ترجعون؟ فهو الذي خلقكم وهو الذي جعل لكم هذا الموعد ترجعون إليه وهو الذي جعلنا نتكلم، قدرة الله الباهرة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٢]؛ ما كنتم تخفون هذه الشهادات، ولا استطعتم أن تخفوا شيئاً منها؛ لما تحدثت، تحدث السمع والبصر والأيدي والأرجل تكلمت أنه فعل كذا من المعاصي وفعل كذا وفعل كذا، نظر إلى الحرام وأكل الحرام وشرب الحرام وفعل الحرام بدأت تتحدث.

قال: ما تستطيعون أن تخفوا هذه الأشياء وتستروها، تسترون، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون؛ تظنون أن الله لا يعلم، الله عالم بكل شيء، فتظنون أنكم تفعلون أشياء تقولون الله لا يعلم؛ لا، الله يعلم كل حركة تتحركونها.

ولكن هذا الظن الذي ظننتم أن الله لا يعلم هو الذي أهلككم؛ ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٣] أنه لا يعلم، النتيجة ما هي؟ أرداكم؛ أهلككم وجعلكم تصبحون من أهل النار، أوردكم النار وأهلككم، فأصبحتم من الخاسرين؛ خسرتم الدنيا وخسرتم الآخرة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]؛ هؤلاء أهل النار إن يصبروا فالنار مثوىً لهم، لكن ما يستطيعون أن يصبروا، النار ما فيها صبر، اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم، ما في صبر أصلاً، العذاب أمامكم.

فالنار مثوىً لهم؛ يعني مقامهم، وإن يستغيثوا، وإن يستعتبوا، وإن يستعتبوا؛ يطلبون يعني العتبى ويطلبون الرضا، يستعتبوا يعني يسترضون الله يقولون: يا ربنا ارضَ عنا، فما هم من المعتبين؛ لن يرضى الله عنهم ولن يقبل أعذارهم، لو قدموا ما قدموا من الأعذار لن يقبل الله أعذارهم أبداً.

لعلنا نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم يعني إن شاء الله نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(فصلت ٢٥ - ٣٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للرابع والعشرين من شهر شوال من عام (١٤٤٦ هـ) من الهجرة، درسنا المبارك في تفسير القرآن العظيم في هذا المجلس.

والسورة التي بين أيدينا هي (سورة فصلت)، وقف بنا الكلام عند الآية الخامسة والعشرين؛ قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[فصلت: ٢٥].

- **من هم هؤلاء؟**

الجاحدين أعداء الله المفسدين الظالمين الذين ذكرهم الله في الآيات السابقة؛ ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات السابقة بعض أعداء الله، أو من أعداء الله؛ كقوم عاد الذين استكبروا في الأرض وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وثمود الذين عموا وبغوا وأفسدوا فاهلكهم الله؛ هؤلاء أهلكهم الله بالريح، وهؤلاء أهلكهم الله بالصيحة، هذا عذاب الدنيا.

أما عذاب الآخرة قال الله فيه: ﴿وَيَوْمُ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ [فصلت: ١٩]. بعدما ذكر الله مصير أهل النار، وأنها تشهد عليهم، تشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم، وقال الله فيهم في آخر الكلام، في آخر ذكر أهل النار قال: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]؛ يطلبون الرضا والعتبى فما هم من المعتبين؛ لن يرضى عنهم.

ثم قال بعدها: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]، هذا عذابهم قبل الآخرة؛ ومن كان على طريقتهم وأمثالهم الله يقيض لهم قرناء، يقيض لهم قرناء من (الجن)؛ يعني أن كل من أعرض عن ذكر الله وجاءه الحق فأبى إلا الكفر والاستكبار وأعرض، فإن الله يرسل إليه قرناء من الشياطين تؤزهم أزاً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]؛ تزعجهم، ولا تجعلهم يهنؤون بعيش، وتحركهم إلى لذاتهم، تدعوهم إلى لذاتهم وإلى شهواتهم المحرمة، وتزين لهم أعمالهم، هؤلاء القرناء؛ يعني يعزونهم أزاً.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قيض لهم؛ يعني هيأ لهم ودفع لهم هؤلاء القرناء بسبب إعراضهم؛ لما أعرضوا وتخلوا عن ولاية الله سلط الله عليهم الشياطين يتولونهم.

يتولونهم قرناء من شياطين (الإنس) و(الجن)؛ يعني ليس فقط تظن أنه قرين من الجن، لا، قرين من الجن وقرين من الإنس؛ الجن يعزه إلى الشر، وقرين الإنس صديق يلازمه ويحثه ويحرضه على فعل المحرمات. كل من أبى واستكبر وأعرض عن طاعة الله ولم يكن ولياً لله.

- **ما هي النتيجة؟**

النتيجة إذا تخلى الله عنه ولم يكن ولياً من أولياء الله فإنه سيكون ولياً من أولياء الشيطان.

شوف قال: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم﴾ [فصلت: ٢٥]، هذا هو الهدف؛ لما قيض لهم لماذا؟ قال: حتى يزين لهم أعمالهم السيئة، قال: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

- **ما الذي بين أيديهم وما خلفهم؟**

قال: ما بين أيديهم الدنيا؛ يزين لهم الدنيا حتى يفسدوا فيها، وما خلفهم من الآخرة التي تأتيهم؛ يزين لهم الصد عن الآخرة، وعدم الإيمان وعدم الاستعداد للآخرة، أو يزين لهم ما بين أيديهم وخلفهم من أعمالهم السيئة الماضية والقادمة.

يعني ما مضى من أعمال سيئة الشيطان زينها لهم ولا يزال يذكرهم بها: أنت فعلت في العام الماضي، وأنت فعلت قبل كذا، وأنت فعلت قبل أيام، ويزين لهم أعمالهم القادمة: افعل كذا وافعل كذا، فهذا معنى قوله: ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [فصلت: ٢٥]؛ وجب عليهم القول.

- **ما هو القول؟**

أنهم من أهل النار؛ يعني استحقوا دخول النار ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [فصلت: ٢٥]؛ أمم ماضية كثيرة كانوا من أهل النار، أمم سابقة من الجن والإنس.

هؤلاء أمم سابقة يلحقونهم هؤلاء، قال: ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ﴾؛ قد مضت قبلهم من الجن والإنس، ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]؛ خسروا دنياهم وخسروا آخرتهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين موقف هؤلاء أعداء الله الكفار المعرضين المستكبرين، يبين موقفهم من القرآن الكريم، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [فصلت: ٢٦]؛ الذين كفروا وجحدوا آيات الله وجحدوا رسله، ماذا يقولون؟ ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ [فصلت: ٢٦]، شوف خصوا القرآن: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ الذي يقرؤه محمد ويأتي به، ﴿وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

يقول: لا تسمعوا له ولا تطيعوه ولا تنقادوا لأوامره، ولا تسمعوا لما يقرؤه محمد، وأعرضوا عن سماعه، ثم لو حصل قراءة للقرآن أو سماع فالغوا في هذه القراءة وارفعوا أصواتكم بالصياح والصفير والخلط بالكلام حتى لا يتأثر أحد.

كل هذا خوف من أن يسمع أحد القرآن فيتأثر به؛ لأنهم عرفوا عظمة القرآن، وعرفوا تأثير القرآن، أثّر على كبار المشركين كـ(الوليد بن المغيرة) أو غيره، تأثروا، وشيبة وعتبة وغيرهم، هؤلاء تأثروا بالقرآن، فهم يخافون، فيقول ينهى بعضهم بعضاً: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾؛ اخلطوا فيه الكلام حتى لا يُفهم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

شوف ما قالوا: "سنغلب" وجزموا، لا، ما جزموا، قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، هذا اعتراف منهم بعظمة القرآن وبعظمة الدعوة وأنها ظاهرة وقوية، ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾؛ يعني يمكن إن شاء الله أنكم مثل يقول إن شاء الله أننا سنغلب، ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يرجون ذلك، يرجون ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ﴾؛ لأنهم عرفوا، وهذا اعتراف من عدو الإسلام من أعداء الإسلام، اعترافهم بالقرآن وبعظمة القرآن، فهذا وعرفوا أيضاً عظيم تأثير القرآن على النفوس.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الوعيد الشديد لهم: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٧]؛ قال نذيقهم العذاب الشديد في الدنيا والآخرة، يذيقهم الله في

الدنيا وفي الآخرة، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ نجزيهم أسوأ الذي كانوا يعملون؛ يعني نجزيهم على أسوأ أعمالهم السيئة.

﴿أَسْوَأَ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ يعني أقبح أعمال الأعمال السيئة نجزيهم الجزاء الشديد العظيم على قدر معاصيهم؛ فإذا كانت معاصيهم من أسوأ المعاصي كان العذاب من أشد العذاب.

ثم قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ٢٨]، يقول ذلك؛ أي الجزاء والعقوبة، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ﴾؛ أعداء الله جزاؤهم النار، وإذا دخلوا النار ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾.

أنهم يبقون في النار لهم فيها دار الخلد، أي أنهم من أهل النار المخلدين فيها، ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾؛ جزاءً هذا الجزاء لأنهم جحدوا آيات الله وكفروا بها، فالجزاء من جنس العمل.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر لنا حال أهل النار ويذكر المستضعفين، المستضعفين التابعين للكبراء والسادة، فيقول ماذا سيقول هؤلاء المستضعفون وهؤلاء التابعون.

- **ماذا سيقولون للمتبوعين الكبراء؟**

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩]؛ يقولون: ربنا أرنا هؤلاء المجرمين الذين دلونا على الشر وحرضونا عليه من كبرائنا وسادتنا، الذين كنا قد أطعنا كبراءنا وأطعنا سادتنا، أرنا إياهم نطأ عليهم نجعلهم تحت أقدامنا نطأ عليهم بأقدامنا حتى يكونوا من الأسفلين؛ لأنهم هم سبب ضلالنا، هم الذين أضلونا.

شوف بعد عرض لهؤلاء الأشقياء أعداء الله في الدنيا وفي الآخرة؛ في الدنيا أن الله سلط عليهم قيض لهم قرناء من الجن والإنس يعزونهم إلى الشر أزاً ويحثونهم على الشر حثاً شديداً، ومن أشد الحث أنهم يقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن ولا لهذه الدعوة ولا لمحمد، والغوا في كلامه والغوا فيما يقرؤه، وتوعدهم الله بالعذاب الشديد، نذيقنهم العذاب الشديد في الآخرة.

يأتي في مقابل أولياء الله؛ هؤلاء أعداء الله وهؤلاء أولياء الله.

- **من هم أولياء الله؟**

الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]؛ ربنا؛ الله ربهم الذي خلقهم ورزقهم هو إلههم.

شوف (**توحيد الربوبية**): ﴿رَبُّنَا﴾، و(**توحيد الإلهية**): ﴿اللَّهُ﴾، فجمعوا بين التوحيدين؛ اعترفوا بربوبية الله وأنه هو الخالق والرازق والمالك المتصرف فيهم وهو المنعم عليهم، وهو إلههم المعبود الذي لا يعبدون سواه هو إلههم، فلما حققوا التوحيد تحقيقاً واضحاً لا شريك له، وجردوا هذا التوحيد من الشرك.

قالوا: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾؛ يعني استقاموا على شرعه والتمسك به ولم يزيغوا ولم يضعفوا، وإنما ثبتوا على الحق؛ يعني وحدوا الله واعترفوا بربوبيته وإلهيته وأخذوا بشرعه وثبتوا عليه حتى الممات، حتى الممات ثبتوا على شريعته وتمسكوا بها.

- **ما هي النتيجة؟**

النتيجة تتنزل عليهم الملائكة، تتنزل عليهم الملائكة عند الموت، عند الاحتضار، إذا رأى الموت أمامه نزلت الملائكة تطمئن هؤلاء العباد الصالحين، المستقيمين على طاعته، تنزل عليهم الملائكة تبشرهم بهذه البشارات العظيمة، تتنزل عليهم الملائكة ويرون الملائكة أمامهم عند الاحتضار.

والملائكة تقول لهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾؛ لا تخافوا على ما مضى، ولا تخافوا من الموت ولا ما بعد الموت، لا تخافوا في المستقبل؛ الحالة والاستقبال لا تخافوا من الموت ولا تخافوا لما بعد الموت، فأنتم في طمأنينة، ولا تحزنوا على ما تركتموه خلفكم من أمور الدنيا من أموال ولا أولاد، ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ التي وعدها الله المتقين، تبشرهم الملائكة بهذه الجنة، تبشرهم بها.

ثم زيادة على ذلك أيضاً تبشرهم بأن أولياءهم الملائكة؛ شوف أولياء أعداء الله هم قرناء: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ من الجن والإنس، قيض الله لهم قرناء يوزنهم إلى الكفر والشرك أزاً، وهنا ملائكة الرحمة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]؛ يعني الملائكة أولياء لعباد الله الصالحين في الدنيا تنصرهم وفي الحياة الدنيا وتسددهم وتحفظهم وتدلهم على الخير وتهيئ لهم الطاعات والعبادات.

هذا في الدنيا، وفي الآخرة؛ يعني أولياءهم في قبورهم، ملائكة الرحمة تأتي للعبد في قبره وعند خروجه من قبره في عرصات يوم القيامة، ثم في الجنة؛ يعني في يوم القيامة عند البعث تتلقاهم الملائكة: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ويوم أيضاً في دخول الجنة الملائكة يدخلون عليهم من كل باب: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٤]، فالملائكة مع أولياء الله في الدنيا وفي القبر وفي المحشر وفي جنات النعيم.

ثم إذا دخلوا جنات النعيم تقول لهم الملائكة: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ﴾؛ ما تقر به أعينكم وتشتهيه الأنفس وترغب الأنفس فيه وتطلبه، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾؛ ما تطلبونه، ما تطلبونه من شهوات وما تطلبونه من نعيم الجنة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٢]؛ هذا النزل ضيافة لكم، وهذه الضيافة من أين أتت؟ من غفور قد غفر ذنوبكم وتجاوز عنكم وطهركم من الذنوب، ورحيم بكم حيث أدخلكم جنات النعيم.

شوف لاحظ الآن هذا يعني مقارنة بين أعداء الله: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً﴾، وهؤلاء لهم جنات النعيم ولهم ما يدعون فيها.

- **ماذا قال الكفار؟**

قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾، وقالوا كلمات الكفر والشرك، والمؤمنون ماذا قالوا؟

مثل ما ذكر الله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]؛ شوف المقارنة بين هؤلاء وهؤلاء عباد الله الذين استقاموا على شرع الله، لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله.

حث الناس على الخير ودعاهم إلى التوحيد وعبادته وحده، حثهم على الخير ودعاهم ووعظ وذكر وعلّم؛ الذي يعلّم الناس ويذكرهم ويعظهم ويدلهم على الخير داخل في هذا، ما في أحد أحسن قولاً منه.

وزيادة على ذلك: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾؛ لا أنه يدعو الناس ويحثهم على الخير ولا يمتثل، لا، هو يمتثل الأعمال الصالحة ويسارع؛ لا يدعو الناس إلى الصلاة وهو لا يصلي، أو إلى الصدقة وهو لا يتصدق، يدعو الناس ويمتثل قبل أن يدعوهم.

قال شوف: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ لسان الحال ولسان المقال كلها خير في خير وإقبال إلى الله ومحبة للطاعات، قال: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ منقادين لأمر الله وشرعه، يدعون إلى الله ويحثون الناس على الخير ويعلّمون الناس الخير ويعظون ويذكرون ويعملون الأعمال الصالحة وينقادون لأمر الله وشرعه دون تردد.

هؤلاء فرق بينهم وبين الذين يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾؛ هؤلاء يصدون عن ذكر الله وهؤلاء يدعون إلى ذكر الله، ولذلك شوف ماذا قال الله؟

قال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]؛ هؤلاء قدموا حسنات ودعوا إلى الله وعملوا الأعمال الصالحة، وهؤلاء سيئات؛ كفروا وجحدوا ودعوا الناس إلى الصد عن سبيل الله.

قال: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾.

ثم قال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ هذا في التعامل، التعامل بين أعداء الله والتعامل بين من لا يقبل منك أو يسيء إليك؛ كيف تتعامل معه؟ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ إذا أساء إليك عامله بالأحسن، قابل السيئة بالحسنة وادفع السيئة هذه بالحسنة وبالعفو والحلم والإحسان.

كما قال (أبو الدرداء) رَضِيَ اللَّهُ عَنْه يقول: "مَا عَاقَبْتَ أَحَدًا أَسَاءَ إِلَيْكَ بِمِثْلِ أَنْ تُحْسِنَ إِلَيْهِ"؛ هو يسيء وأنت تحسن، هذه أشد العقوبة، تعاقبه هو، يعني الذي يفهم يستحي ويخجل إذا أنت أحسنت إليه وهو يسيء إليك، يكف إساءته إذا رآك تحسن إليه.

شوف: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ يعني عامله بأحسن شيء، ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾؛ يقول هذا الذي بينك وبينه عداوة يعاديك اجعل هذه العداوة من أحسن العلاقات كأنه ولي حميم؛ يعني قابل هذه العداوة بأن يكون هو أفضل الناس وأقرب الناس إليك ولي حميم، صديق من أشد الناس قريب من أشد الناس قرابة لك.

إذا كان هو عدواً اجعله أنت أحسن الناس، لكن هذه الخصلة وفعل مثل هذا الأمر قد يصعب على كثير من الناس إلا من وفق، إلا من وفق؛ يعني تعامل السيئة بالحسنة وتعامل المسيء بالإحسان، يسيء إليك وتحسن إليه وهو عدو لك تجعل عداوته محبة، هذه مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]؛ ما يصل إليها ويوفق لها، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾؛ الذي يصبر ويحتسب الأجر يوفق لهذه الخصلة الحميدة، والذي لا يصبر على المكاره وعلى تصرفات الناس هذا لا يصل إلى هذه الدرجة، لا يصل، يحرم منها ويفقدها. ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾.

- **من هم الصابرون؟**

قال: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾؛ ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا، وهذا توفيق من الله أن يوفق العبد للصبر ولهذا الحظ العظيم، وهو مجرد أنها تعامل من أساء إليك، أخطأ إليك وهو في سيارته وأنت في سيارتك، أو في طريق، أو في سوق، أو في مسجد، أو في مكتب، أو في عمل؛ أخطأ إليك وأساء إليك بلسانه أو بيده، عامله بالعكس، كن له حبيباً، عامله من أحسن المعاملات، تكسب هذه الخصلة، ومثل ما ذكرنا قد تصعب على كثير من الناس، لكن الموفق من وفق لهذا الأمر.

والتعامل مع الإنس أشد من التعامل مع الجن؛ الجن أهون، شوف ماذا قال الله في الجن؟ قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]؛ يوسوس لك الشيطان ويحثك على ترك الطاعات أو على فعل المعاصي، هذا أمر سهل، مجرد أنك تستعيذ.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾؛ قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، واستجر بالله واعتصم بالله، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ يسمع لقولك ولتضرعك ولجوئك إليه واعتصامك بربك، وعليم بحالك فيكف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شر هذا الشيطان فينطرد ويذهب، أمره سهل، تعوذ يذهب، أما إنس الإنس يحتاج إلى أشد وأشد.

شوف لما كان الآيات التي قبل التي فيها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠﴾ [فصلت: ٩-١٠].

لما ذكر آيات الله وخلقه السماوات والأرض، عاد إلى الآيات مرة أخرى ليذكرك بآيات الله الكونية الدالة على وحدانيته وأنه المستحق للعبادة، شوف قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

هذا في العلو في السماء، الليل آية ياتي الليل ويأتي بظلامه وتستقر النفوس وما فيه من المصالح العظيمة، ثم يذهب ويأتي النهار مشرقاً والناس يقومون إلى معاشهم ويتحركون في مصالح عظيمة، آيات عظيمة، يأتي الليل ويذهب يذهب النهار، ويأتي النهار ويذهب الليل.

والشمس والقمر آيات عظيمة فيها منافع ومصالح العباد، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾؛ هذه آيات الله ومخلوقاته، تسجد لمخلوق؟! لا تسجد للشمس ولا للقمر، ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

هذا شوف هو الآن ينتقل بك إلى أن تعرف من الذي يستحق العبادة؛ لا الشمس ولا القمر، اسجد للذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون؛ إن كنتم مطيعين له منقادين فاسجدوا له لا لمخلوقاته.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۩﴾ [فصلت: ٣٨]؛ هؤلاء ولم يقبلوا منك، ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة يسبحون له بالليل والنهار، ملائكة تسأل لطاعة الله ولا تستكبر وتسبح الليل والنهار لا تفتر أبداً ولا تتوقف الليل والنهار، ﴿وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾؛ ولا يملون ولا يفترون، دائماً في عبادة.

شوف لما لفت نظرك إلى الشمس والقمر والسماء، لفت نظرك إلى الأرض فقال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]؛ ترى الأرض أمامك خاشعة هامدة لا تتحرك، مغبرة قاحلة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

تحركت وأنبتت وربت وارتفعت بالماء والزرع وتحركت ونشطت، قال: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾؛ الذي أحيا هذه الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الخلق جميعاً لمحيي الموتى، وهذا قياس مشاهد؛ من الذي يحيي الأرض؟ هو الذي يحيي من تحت الأرض من الموتى، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولذلك قال: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ كل شيء قدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

لعلنا نقف عند هذه الآيات ونكتفي بما ذكرناه، ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(فصلت ٤٠ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الثلاثاء الموافق لغرة ذي القعدة من عام (١٤٤٦ هـ) من الهجرة.

وهذا الشهر هو من الأشهر الحرم الثلاثة المتتالية؛ ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الفرد وهذه الأشهر الحرم لا تخفى على الجميع أن الله حرمها؛ ومعنى حرمها أي جعلها معظمة عنده ومحرمة، أي محرم انتهاكها، ومن انتهاكها المعصية والمجاهرة بمعاصي الله عَزَّ وَجَلَّ في هذه الأشهر الحرم.

فعلى المسلم العاقل التقي أن يقصر عن المحرمات، وأن يقبل على الخيرات، وأن يكثر من الاستغفار، ويكثر من الدعاء الصالح، ويكثر من الطاعات، ويتجنب المعاصي، وألا يستمر على معاصيه؛ فإن الله من حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل هذه الأشهر الحرم يقف عندها الإنسان ويتأمل ويتدبر.

إذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرم القتال فيها، حتى ذكر بعض أهل العلم القتال مطلقاً، سواء في مكة أو في غير مكة لا يجوز القتال في الأشهر الحرم، فكيف بما دون القتال؟!

وهي المعاصي التي في يد الإنسان وأنه يتصرف فيها كيف شاء، وإذا أراد أن يقصر نفسه قصرها، فحتى كان في الجاهلية قبل الإسلام لا يسمع قرع السيوف في الأشهر الحرم، ولذلك يسمونه الشهر الحرام؛ رجب يعني الشهر الحرام يسمى عند العرب (الأصم)؛ لأنه لا تقرع فيه السيوف، فتعظيم الشهر الحرام بلا شك أنه ينبغي تعظيمه واحترامه، واحترام هذه الشعيرة العظيمة.

لا نطيل في هذه المقدمة، نأخذ ما تيسر من تفسير هذه الآيات التي بين أيدينا، وهي آيات من (سورة فصلت) التي تسمى بـ (حاميم السجدة)، ووقف بنا الكلام في لقائنا الماضي عند الآية الأربعين، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠].

(الإلحاد) مع الميل؛ قال: ألحد فلان؛ أي مال، ومنه (اللحد)؛ لحد القبر، وهو الميل الذي يكون في القبر؛ فإن اليهود تشق القبر شقاً، والمؤمنون يلحدون لحداً يميلون بالقبر.

فالكلام هنا قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾؛ الإلحاد في آيات الله هو صرفها عن معانيها إلى معانٍ غير صحيحة، تأويلها وصرفها وتفسيرها على معانٍ لا تصح؛ مثل أن يقول في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

يقول: استولى، وهكذا تأويلها وصرفها عن معانيها الصحيحة، ويدخل في ذلك تعطيلها وإبطالها، كل هذا داخل في الإلحاد في آيات الله. قال: إن الذين يلحدون في آيات الله، ويلحدون في أسمائه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٤٠]، هذا وعيد شديد؛ لا يخفون علينا، هذا وعيد من الله أن لا يخفى عليه عملهم وإلحادهم؛ فإن الله مطلع عالم بحالهم وسيجازيهم على أعمالهم، ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ هذا تهديد بالعقوبة لهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يوضح لنا أيضاً هذا التهديد والمقارنة بين هؤلاء الذين يلحدون وأهل الكفر والإلحاد وبين أهل الإيمان والطاعة، قال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]. ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ﴾ هذا استفهام؛ أهذا خير أم هذا خير؟

الذي يلحد في آيات الله ويكفر بها ويؤولها على ما يشاء ويعطلها عن معانيها، هذا خير؟! يقول: يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة؟ يأتي آمناً يوم القيامة مطمئناً، قد أَمِنَ من الخوف.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، والذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]، يأتي آمناً يوم القيامة.

ثم أتى بأسلوب آخر كالأسلوب الأول وهو تهديد أيضاً، قال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠]؛ هذا تهديد، كما إذا كنت تقول للشخص الذي لا يطيع ولا يسمع: اعمل ما شئت فإني سأحاسبك.

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾؛ أي بأعمالكم، إنه بما تعملون بصير، مطلع عالم بأحوالكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يخفى عليه شيء، فهؤلاء الذين يلحدون ويجحدون ويكفرون بآيات الله لا يخفون على الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإن الله مطلع عليهم وسيجازيهم، والله بما يعملون بصير.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً يبين لنا موقفاً آخر من هذه المواقف السيئة، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١]؛ جحدوا القرآن وكفروا به ولم يؤمنوا به ولم يتبعوه، وحاربوه، وجاهدوا بأن جاهدوا أنفسهم على أن يردوا هذا الحق، وأن يشوهوا سمعة الإسلام والدين، فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾، والذكر هنا هو القرآن.

- **(الذكر) اسم من أسماء القرآن الكريم؛ لماذا سمي بالذكر؟**

قال بعض أهل التفسير: **"معنى الذكر هنا التذكر والاتعاظ"**، سمي القرآن ذكراً لأن الناس يتذكرون به ويتعظون.

وأيضاً هناك معنى آخر وهو أن الذكر معناه الشرف، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ يعني شرف، ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ فيه شرفكم وفيه مكانتكم. فالقرآن يشرف الإنسان به ويعلو به؛ الله يشرفك إذا جعلك من أهل القرآن حافظاً، متقناً، قارئاً، تالياً له بالليل والنهار.

هذا منّة من الله وتشريف لك أن يشرفك الله بالقرآن الكريم، أن تكون ممن دائماً مع القرآن، دائماً المتعلق قلبه بالقرآن تلاوةً وحفظاً وتدبراً وبياناً لمعانيه، تعيش مع القرآن حياتك كلها، لا شك أن هذا فضل من الله.

هؤلاء كفروا بالذكر لما جاءهم، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١].

- **أين الجواب؟**

الجواب: الجواب محذوف، أو نقول: الخبر محذوف؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ سينالهم ما ينالهم من العذاب والعقوبة، هذا معناه؛ الذين كفروا بالذكر لما جاءهم سيصيبهم ما يصيبهم بسبب كفرهم.

ثم بين عظمة القرآن الذي سماه (الذكر)، أيضاً سماه بوصف آخر، قال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]؛ قوي منيع لا يمكن الوصول إليه، عزيز ذو عزة ومنعة وغلبة، يغلب كل شيء.

قال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾؛ من عزته ومنعته: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]، لا يمكن أن يأتيه الباطل لا من أمامه ولا من خلفه، الباطل يصعب عليه أن يأتي لهذا الكتاب.

وأي إنسان، أي شخص يريد أن يحرف في القرآن ويبدل، ويزيد أو ينقص أو يحذف أو يبدل كلمات؛ لا يمكن له ذلك؛ لماذا؟ لأن الله تعهد بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال هنا: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ﴾ لا يمكن أن يأتيه الباطل، لو أراد المبطلون إبطاله ما استطاعوا؛ ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ لأنه كلام الله ليس كلام بشر، ونزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتولى إنزاله وحفظه، ما تنزلت به الشياطين.

قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ شوف اختيار هذين الاسمين الجميلين: (الحكيم) الحاكم على كل شيء، الحكيم ذو الحكمة البالغة لا يعمل الأعمال إلا بحكمة؛ و(الحميد) المحمود على أفعاله، يحمد ويشكر ويثنى عليه الثناء الطيب الحسن، من فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحكمته وحمده أن أنزل هذا القرآن الذي جعله بين أيدينا.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسلي نبيه، ويسلي كل داعية يواجه أموراً صعبة، يسليه فيقال له: ما يقال لك يا محمد، وما يقال لك أيها الداعية إلا ما قد قيل للرسل من قبلك؛ الرسل من قبلك ماذا قيل لنوح؟

استهزئ به وسخر منه، وماذا قيل لهود وصالح وشعيب؟ استهزؤوا بهم وسخروا منهم، ما يأتيهم الرسول إلا كانوا به يستهزئون.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]؛ فاصبر، ولقد استهزئ برسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا. ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ [فصلت: ٤٣] لمن تاب وصبر؛ سواء كان داعية يصبر فالله يغفر له ويجعل هذا الذي يصيبه كفارةً له.

وكذلك من تاب من المستهزئين فإن الله يتوب عليه؛ ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣] لمن أصر على كفره واستهزأ واستمر في محاربته لهذه الدعوة المباركة.

ثم تعود الآيات إلى تعظيم القرآن الكريم؛ شوف التعظيم هنا للقرآن، قال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]. كل هذا في تعظيم القرآن. ثم يقول حتى يقيم الحجة على هؤلاء المشركين الكافرين، يقول: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا﴾ [فصلت: ٤٤]؛ مكتوباً بلغة غير لغة العرب، نزل بغير لغة العرب، لقال المشركون ماذا؟

لقالوا: لولا فُصّلت، لولا بينت آياته بالعربية حتى نعرفها؛ كيف تريد منا أن نقرأ كتاباً ليس بلغتنا ونحن لا نعرف هذه اللغة؟ لو كُتب لهم بأي لغة من لغات العالم غير العربية ما عرفوا يقرؤونها، قالوا: لولا فُصّلت آياته ووضحت لنا وبينت، ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]؛ أكتاب أعجمي ورسول عربي ومخاطب عربي؟ ما يمكن.

ولذلك، شوف هذه الآية: ﴿أَأَعْجَمِيٌّ﴾ فيها قراءتان؛ فيها تحقيق الهمزة (**أأعجمي**) هكذا، وفيها تسهيل الهمزة (**آعجمي**)، لك أن تقرأ بالتحقيق ولك أن تقرأ بالتسهيل، تقول: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ بتسهيل الهمزة لأن همزتين متتاليتين.

فتنطقها بالتسهيل فتقول: (آعجمي)، ﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾؛ أكتاب أعجمي ومخاطب عربي ورسول عربي؟ هذا ما يمكن، لا بد أن يكون فيه اتفاق.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: لو جعلناه لقلتم هذا الشيء، لكن نحن جعلناه عربياً؛ القرآن عربي فصيح بليغ واضح الدلالة، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

لكن هؤلاء إذ انطمست بصائرهم وانعمت عيونهم فلذلك لا يدركون هذا الشيء، ولذلك بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عظمة هذا القرآن وأثره على المؤمنين، فقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، هو للذين آمنوا فقط؛ الذين آمنوا وصدقوه واتبعوه، هو ماذا؟

قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾؛ يهتدون به في حياتهم، يعرفون كيف ينطلقون في حياتهم ويجدون السعادة في الدنيا والسعادة في الآخرة، يهتدون بالقرآن بالتحاكم إليه وبالعمل بما فيه من أوامر يأتمرون بها ونواهٍ ينتهون عنها وحلال وحرام؛ فالقرآن هدى لهم.

و﴿شِفَاءٌ﴾؛ شفاء من الأمراض النفسية والأمراض الجسدية؛ يعني شفاء لما في الصدور، قد يصيب الإنسان أمراض من الوسوسة والضيق والنكد والكآبة فيقرأ على نفسه القرآن فيكشف الله عنه، يزيل عنه ويشرح الله صدره بالقرآن.

وكذلك الأجساد العضوية؛ كذلك الأمراض العضوية والأمراض الجسدية، يعني الذي لدغته الحية أو العقرب، مر عليه بعض الصحابة، بعض الصحابة مروا بحي من أحياء العرب وطلبوا منهم أن يضيفوهم فلم يضيفوهم، فأصيب سيدهم بلدغة؛ إما عقرب أو حية، فلم يجدوا له علاجاً.

فقال بعضهم: اذهبوا إلى هؤلاء لعلكم تجدون عندهم علاجاً، فجاؤوا إلى هؤلاء السرية وكان فيهم أبو سعيد الخدري، فقالوا: هل عندكم علاج فإن سيدنا لدغ؟ يعني أن سيدنا أصيب، فقال: نعم.

قال أبو سعيد: نعم، فقام وقرأ عليه سورة الفاتحة فكأنما نشط من عقال، كأنما فك من عقال وقام يمشي ليس فيه إلا العافية؛ فالقرآن شفاء، شفاء للأجساد والأمراض والسحر والشعوذة وغيرها من الأمراض التي تصيب الإنسان.

قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [فصلت: ٤٤] الكفار الذين لا يصدقون به ولا يؤمنون به، ماذا؟

قال: ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٤٤]؛ ثِقَل فلا يسمعون ولا يؤمنون؛ لأن آذانهم صمّ، صمّوا آذانهم فعاقبهم الله.

قال: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]؛ ما يهتدون به، يزيدهم عمىً على عماهم، ويزيدهم ضلالاً على ضلالهم، يخذلهم الله.

هؤلاء المؤمنون ينتفعون بالقرآن ويوفقهم الله للانتفاع به، وهؤلاء الجاحدون المنكرين يخذلهم الله فيكون القرآن عليهم عمىً لا يستفيدون منه؛ ولذلك قال: ﴿أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]؛ يعني ما يسمعون، مثل الذي ينادي من مكان بعيد فلا أحد يسمعه، هؤلاء تنادي أو لا تنادي ما يسمعون، ما يسمعون يعني: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦]، ما يسمعون، يُنادون من مكان بعيد.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين أن هذا القرآن الذي نسمعه وقد أُنزل على نبينا محمد ليس هو أول كتاب ينزل، بل قبله كتب؛ ولذلك ساق لنا قصة موسى أن الله أتاه الكتاب وهي التوراة.

قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [فصلت: ٤٥]؛ التوراة اختلف فيها، يعني اختلف فيها أتباعه من بني إسرائيل، فمنهم من آمن ومنهم من كفر وجحد؛ فأمة موسى فيهم الصالح المطيع المؤمن وفيهم الجاحد الكافر.

قال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [فصلت: ٤٥] في قضائه السابق أنه لا يعجل العقوبة الآن، إنما يؤخر العذاب إلى يوم القيامة، ولولا كلمة سبقت من ربك في تأجيل العذاب إلى يوم القيامة، ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [فصلت: ٤٥] لأُهلكوا جميعاً لأنهم كفروا بالكتاب؛ قُضي يعني فُصل بينهم فيُعذب من يستحق العذاب.

- **﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥]؛ من هم؟**

قيل: هم بنو اسرائيل لفي شك، أي الذين جحدوا يشكون في التوراة، وهناك قول آخر وهو الذي رجحه كثير من المفسرين: وأنهم أي أهل مكة وكفار قريش لفي شك من القرآن، شك منه مريب؛ لأن الآيات تتحدث عن القرآن عن كتابنا القرآن وهذا أرجح؛ وأنهم أي أهل مكة لفي شك منه مريب، شك مريب من القرآن الذي قال: لو جعلناه قرآناً أعجمياً، وقال: إن كفروا بالذكر ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين الفصل بينهم يوم القيامة، وأن الله خلق الخلق لعبادته، وأن من عمل صالحاً فلنفسه ويقدم الخير لنفسه؛ ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ [فصلت: ٤٦]؛ يعني يجد أثر العمل الصالح في الدنيا والآخرة، السعادة في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]؛ أي إساءته على نفسه، من أساء وأظلم طريقه في الدنيا فقد أظلم طريقه في الآخرة. ما ظلمهم الله؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

الله دلّهم على الخير، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل إليهم الكتب، وأقام عليهم الحجج، ونصب الأدلة؛ ليس لأحد حجة؛ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخفى عليه حركاتهم ولا سكناتهم، ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم، بل سيجمعها لهم ويحصيها ويجازيهم عليها.

والله، لو نعلم حقيقة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وسعة علمه، وإدراكه لكل الأمور الدقيقة والجليلة، لأعظمنا ذلك في نفوسنا وعرفنا الله حق المعرفة؛ اسمع ماذا يقول.

قال: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]؛ إلى الله، لا إلى أحد من المخلوقين، إلى الله عَزَّ وَجَلَّ يرد علم الساعة، لا أحد يعلمها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]؛ كاد الله أن يخفيها عن نفسه، لم يعلم بها لا ملك مقرب ولا نبي مرسل؛ قال: عنده علم الساعة، ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ [فصلت: ٤٧]؛ أي ثمرة تخرج من وعائها، والأكمام جمع (كِمّ) بالكسر كِمّ، والأكمام في الثياب مفردها كُمّ بالضم كُمّ؛ الكُمّ للثياب والملابس، والكِمّ أوعية الثمرات، فالنخيل ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: ١١]، والثمرات أكمامها يعني الأوعية التي تخرج منها الثمرات.

قال: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ لا في المزارع ولا في البساتين ولا في البيوت ولا في الحدائق ولا في البراري ولا في الصحاري ولا في وسط البحار ولا في الشواطئ ولا في أي مكان؛ لا تخرج ثمرة من أكمامها إلا يعلمها الله، وليس يعلمها علماً مجملاً بل علماً مفصلاً.

ثم قال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فصلت: ٤٧]؛ أي أنثى من بني آدم، من حيوان، من زواحف، من حشرات، حيوان البحر، حيوان البر، ما تحمل أي أنثى ولا تضع حملها؛ لا تضع حملها لا امرأة ولا حيوان ولا طير.

ما تضع حملها إلا بعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعلم متى تحمل وكيف تحمل، ومتى تضع وكيف تضع، وفي أي وقت تضع، ولا تضع إلا بعلمه. هذا الذي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذه العظمة وبهذا العلم الجليل المحيط بكل شيء، هذا يُشرك به ويُكفر؟! هؤلاء المشركون يعبدون الأصنام ويتركون رب العالمين، عجباً لهم!

قال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [فصلت: ٤٧]؛ أي هؤلاء المشركون الذين أشركوا بالله فيقول لهم أين شركائي الذين كنتم تشركونهم معي؟ أين هم؟ ﴿قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧]؛ اعترفوا الآن وألقوا إلى الله يومئذٍ السَّلَم.

آذناك يعني أعلمناك وأخبرناك، ما منا من شهيد؛ ما في أحد يشهد، ما في أحد يشهد أن معك شركاء، أنت الواحد الأحد، اعترفوا بأن الله هو الواحد، لكن لا ينفعهم ذلك يوم القيامة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [فصلت: ٤٨]؛ تاه، ضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل من الأصنام والشركاء والأموات، الذين كانوا يدعونهم من قبل ويسجدون لهم ويعظمونهم ويطوفون حولهم ويدعونهم من دون الله.

ضلوا عنهم يوم القيامة وتاهوا. قال: ﴿وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾؛ أي هؤلاء المشركون ظنوا - أي اعتقدوا يقيناً - ما لهم من محيص؛ ليس لهم ملجأ ولا مهرب ولا مفر من حكم الله ومن علمه ومن إحاطته بهم سبحانه.

ثم يسوق لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خاتمة هذه السورة حال الإنسان، وخاصة الكافر، أما المؤمن فقد أدّبه الله أحسن الأدب، وأبعده وهداه عن أن يكون على هذه الصفة، اسمع هذه الصفة التي في كثير من الناس.

قال: ﴿لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩]؛ لا يمل أن يدعو بالخير، يسأل الله المال، ويسأل الله الأبناء، والمال، والصحة، والعافية، وسعة الرزق، والدار الكبيرة، والمركب الفاره، يسأل، لا يمل، يريد كل شيء له، لا يمل الإنسان من دعاء الخير، يريد الخير كله له.

﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]؛ لو أصابه فقر، أو ذهبت أمواله، أو أصيب بمرض، أو أصيب بأي عاهة، فمباشرة هو يائس وقنوط، خلاص يائس، قال: أنا ما عاد عندي خير أبداً ولا أجد خيراً أبداً، وقد يئس من رحمة الله، وقال: لن يذهب عني هذا الفقر ولا هذا المرض ولا نحوه، يؤوس يئس وقنط.

شوف، من اليأس والقنوط؛ يعني ييأس من أن يرتفع عنه هذا، ويقنط أن يعود له هذا، شايف الفرق؟ يؤوس قنوط؛ ييأس أن يرتفع عنه الفقر ويذهب، ويقنط أن يغنيه الله؛ ييأس أن يرتفع عنه ويذهب

عنه المرض، ويقنط أن تأتيه الصحة، يؤوس قنوط، هذه حال الإنسان إلا من رحم الله من المؤمنين، فهؤلاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أبعدهم عن هذه الساحة.

قال: شوف قال الإنسان؛ يعني الكافر، الكافر وأهل المعاصي الجاحدين لا يمل من دعاء الخير، أما المؤمن فإن الله أدّبه.

يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ»؛ أما هذا فيجزع ويعترض ويسخط.

شوف، قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ [فصلت: ٥٠]؛ لو رفعنا عنه الضراء؛ المرض أو الفقر، وأذقناه رحمةً بعد ضراء مسته، ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]؛ هذا أنا أستحقه لأنني أنا فلان ابن فلان، لأن الله رفع مقداري وأعطاني لأنني أستحق هذا، مثل ما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. هذا لي.

قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [فصلت: ٥٠]؛ يجحد يوم القيامة ويكفر، أظن هنا يعني أعتقد يقيناً أن الساعة لن تقوم، ليس هناك قيامة. ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]؛ لكن لو فرضنا على سبيل الفرض أن هناك يوم قيامة ورجعت إلى يوم القيامة.

فإن لي عنده للحسنى، سيعطيني خيراً أكثر من الدنيا، الذي أعطاني في الدنيا سيعطيني في الآخرة؛ لأنه يحبني في الدنيا وأعطاني فسيعطيني في الآخرة. شوف كيف يظن أن هذا الذي أعطاه الله في الدنيا يدل على أن الله يحبه؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، أما الآخرة فلا يعطيها إلا من يحب، فلا تظن أن لك الحسنى عند الله وأنت تعمل المعاصي.

ولذلك، شوف قال هددّهم: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]؛ أي لنخبرن الذين كفروا، بماذا نخبرهم؟ بأعمالهم، وإذا أخبرهم بأعمالهم السيئة ماذا قال؟ ولنذيقنهم من عذاب غليظ، تهديد لهم وبيان أن الله الذي أعطاهم الدنيا لن يعطيهم الآخرة.

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ﴾ [فصلت: ٥١]؛ أعرض ولم يطع ولم يسمع، ونأى بجانبه أي أبعد بجانبه، أعرض ونأى بجانبه.

يقول: إذا أعطيناه الخير ما يشكر، يعرض عن طاعة الله ويبتعد. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]؛ إذا أصبناه بالشر بعد الخير، أصابه مرض أو أصابه جوع أو فقر، قال: فذو دعاء عريض؛ لا ينتهي، عريض، دعاء كثير لا ينتهي.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يلفت الأنظار لهذا القرآن العظيم، يقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢]؛ هذا القرآن، أخبروني، شوف السورة تدور حول القرآن كلها من أولها إلى آخرها.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به ولم تؤمنوا به، من أضل ممن هو في شقاق بعيد؟ لا أحد أشد ضلالاً ممن يشاقّ ويجادل ويحادّ في القرآن وفي شريعة الله وفي الوحي، وهذا الشقاق شقاق بعيد لا وجه له ولا قبول له.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]؛ تهديد، تهديد لهم، سنريهم آياتنا الكونية، سنريهم في الآفاق ينظرون إليها في السماء والأرض، سنريهم آياتنا في الآفاق.

نبين لهم ونكشف لهم أموراً لم يعرفوها، نبينها لهم في الآفاق، وهو من الاكتشافات العلمية التي يحدثها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ آيات تهديد، وآيات فيها عبرة، وفيها عظة، وفيها تخويف. سيريهم الله الآيات في الشمس وفي القمر وفي السماء وفي الأرض.

سيريهم الله عَزَّ وَجَلَّ آياته في الآفاق وفي أنفسهم أيضاً؛ يريهم في أنفسهم من العقوبات التي تنزل بهم، أو من الاكتشافات العلمية التي يحدثها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهذا الإنسان، فتنكشف، كل يوم ينكشف علم جديد في هذا المخلوق (الإنسان) العجيب في أجزائه وفي أجهزته، كل يوم ينكشف أمر.

﴿وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾؛ أي يظهر لهم ويتبين أن هذا القرآن حق، ونزل من الحق الكريم الرحيم الغفور، أن هذا حق وأن هذا الشرع حق.

ثم قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾؛ ما يكفيهم أن الله شاهد على أنه حق؟ الله شهيد ومطلع وعالم ويشهد أن محمداً على حق، وأن القرآن على حق.

لكنهم مع ذلك في مرية؛ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]؛ يشكون في يوم القيامة، وفي شك من لقاء ربهم ومن البعث والجزاء والجنة والنار.

ولكن انتبه أيها الجاحد، والذي هو في مرية وفي شك؛ ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ علماً وقدرة وعزة وسلطاناً، كل ذلك في حكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، محيط بكل شيء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهم في قبضته وفي حكمه، لا يعجزونه أبداً.

إلى هنا تنتهي السورة التي كلها تدور حول القرآن العظيم تعظيماً وإجلالاً، وبياناً لعظمة هذا القرآن الكريم الذي هو كلام الله، وبيان موقف هؤلاء الأعداء؛ أعداء الله أهل الضلال من هذا القرآن.

وبيان عقوباتهم وتهديدهم في هذه السورة بذكر العقوبات التي نزلت بالأمم السابقة كعاد وثمود، وأيضاً عقوبات الآخرة وحشر أعداء الله، وبيان أهل الاستقامة والطاعة، كل هذه السورة تقرر هذه الأمور المهمة التي يحتاج لها كل إنسان.

نسأل الله أن ينفعنا بهذه السورة وأن يبارك لنا، بارك الله فيكم وجزاكم الله خيراً، إن شاء الله نلقاكم في سورة جديدة في لقائنا القادم بإذن الله، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الشُّورَى)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الشورى ١ - ٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لا يخفى أيها الإخوة على جميع الحاضرين والمستمعين فضل قراءة القرآن الكريم، ولا يخفى أيضاً تفسير القرآن الكريم وتدبره؛ فإنه هو المقصد الأساس من نزول القرآن.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]. **"مبارك"** يعني: كثير الخير والمنافع، قال: ﴿مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ وأولو الألباب هم أصحاب العقول السليمة، يستفيدون ويتذكرون وينتفعون بالقرآن، والله أمر الجميع أن يدبروا القرآن: ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾.

فالمقصد من مثل هذه الاجتماعات الطيبة، واللقاءات الأسبوعية مع القرآن الكريم، أن نقرأ هذه الآيات الكريمات ونتأملها ونتدبرها ونتفكر فيها؛ كم يحصل لك من الأجر والخير العظيم!

وتنتفع بما ينفعك في الدنيا وفيما ينفعك عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فحقيقةً، مثل هذه المجالس يحرص الإنسان كل الحرص عليها، ولو ارتبطت عنده ارتباطات كثيرة يحاول أن يحرص على مثل هذه الدروس.

والحمد لله، مثل هذه الدروس تُحفظ؛ فمن فاته الدرس حضورياً لن يفوته استماعاً، فالحمد لله نحن نسجل الدروس ونحفظها.

السورة التي بين أيدينا هي **(سورة الشورى)**، وهي من سور **(الحواميم)**، وجاءت بعد **(سورة فصلت)**. ومثل ما ذكرنا لكم سابقاً، هذه **(الحواميم)** السبع التي تبدأ من **(سورة غافر)** إلى **(سورة الأحقاف)**، تركز على القرآن الكريم والوحي، وأنه هو مصدر الحياة؛ فمن أراد الحياة الحقيقية فعليه بمصدرها الأساس: القرآن العظيم.

حتى قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْه : "الْحَوَامِيمُ دِيبَاجُ الْقُرْآنِ"؛ يعني حريره. الذي يريد أن يحصل على فضل عظيم وعلى كنز، فعليه بهذه (الحواميم)، ركز عليها وتأملها.

وهي في الحقيقة تركز على القرآن في بيان فضله، وبيان احتياج الناس إليه. وهذه السورة - (سورة الشورى) - تختلف عن السور التي قبلها والتي بعدها في التركيز على أن المصدر الأساس للحياة، وأن الناس لا يمكن أن يعيشوا إلا بالقرآن.

ولذلك لاحظ في أول آية من آياتها قال : ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ [الشورى: ٣]؛ يوحي، الوحي.

وقال بعدها بآيتين أو ثلاث : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]. وتلاحظ في آخر السورة كذلك: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ سماه روحاً، والروح هو الحياة. ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ فانظر، هو قال: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا﴾ ثم قال: ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾؛ فالنور والروح والوحي والقرآن هذا هو حياة الإنسان.

السورة تركز على أن مصدر الحياة ومصدر التشريع والناس لا يمكن أن يعيشوا بدون تشريعات، وطريقهم القرآن الكريم والوحي، والوحي هو الذي شرع لهم التشريعات.

فالتحاكم لا يكون إلا إلى الله : ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] - ستأتينا هذه الآية- فالإنسان إذا اختلف في شيء يرده إلى الله وإلى الرسول: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وليس العيب في الاختلاف، العيب في التفرق؛ الاختلاف وارد، يعني أنا ممكن أخالفك وأنت تخالفني ويقع بيننا خلاف، لكن يبقى الاجتماع؛ فالاجتماع ليس ضده الخلاف، الاجتماع ضده التفرق، ونحن نجتمع وإن خالف بعضنا بعضاً ولكن لا نتفرق.

ولذلك السورة ركزت على قضية الاجتماع وإن وقع اختلاف، وحذرت من التفرق، وبينت الأثر السيئ للتفرق، وسيتضح لك هذا، السورة تدور حول (الحاكمية) والتشريعات، وأن الذي يشرع ويحكم

هو الله، وأن البشر لا بد أن يرجعوا في أحكامهم وقوانينهم إلى الله وإلى وحيه وإلى القرآن؛ فالقرآن هو الأساس.

ولذلك السورة سميت بـ (سورة الشورى)؛ لماذا؟ لأن الله ذكر أن من مبادئ المسلمين ومبادئ الإسلام والوحي: الشورى هو أساس؛ يعني إذا حصلت قضية أو وقعت واقعة أو احتاج الناس إلى أمر من الأمور، أو فتوى، أو شيء حدث جديد في هذه الحياة؛ فإن مبدأ الشورى هو الأساس في حل مثل هذه الأشياء. يعني مجلس الشورى ومبدأ الشورى تُعرض عليه هذه القضايا، ويعرضها على الكتاب والسنة ثم يبت في هذه القضايا.

ولذلك سميت السورة بـ (سورة الشورى) لأن الله ذكر من صفات المؤمنين أن ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وليس الإنسان يستبد برأيه وينفرد برأيه ويجعل الناس كلهم يتبعونه وإن كان رأيه رأياً ليس على الصواب، لا، أمرهم شورى بينهم.

والشورى تكون على مستوى الدول، وعلى مستوى الشركات والمؤسسات لها مجالس، وعلى مستوى الأسر، وعلى مستوى البيت والأسرة الواحدة؛ أنت في بيتك يكون الأمر شورى بينك وبين الأهل والزوجة والأولاد، فمبدأ الشورى مبدأ أساس، والشورى لا تكون شورى ولا تصح ولا تُقبل إلا إذا كانت معتمدة على الوحي وعلى الكتاب والسنة.

من خلال هذه السورة سيتضح لنا أمر عظيم جداً، وهو أن الله أمر باتباع الوحي وسلوك طريق النجاة وسلوك الصراط المستقيم، وأن الله هو الذي شرع الشرائع وأرسل الرسل وأمرهم بتحقيق مبدأ الشورى وبتحقيق اتباع الوحي، وحذر من خالف من اليهود والنصارى وأهل الشرك الذين خرجوا عن الطريق المستقيم وسلكوا طرق الضلال؛ تحذر السورة وتبين عاقبة المنحرفين وتبين عاقبة المتمسكين.

كلها تركز على قضية التشريع والشرائع والوحي، وأن الحياة لا تقوم إلا على هذا الأساس، ثم في الأخير، السورة تركز أيضاً على تحقيق العقيدة الصحيحة: الإيمان بالله، الإيمان بالرسل، الإيمان بالكتب، الإيمان باليوم الآخر؛ وتعرض صوراً من الإيمان باليوم الآخر، كما أنها تعرض أيضاً صوراً من مظاهر قدرة الله في الكون، وأن الذي ينبغي أن يُعبد ويُخضع له هو صاحب هذا الكون، المدبر المتصرف فيه.

لا نطيل في هذه المقدمة، المقدمة مهمة جداً وتعطيك صورة واضحة. ونبدأ بالسورة بهذه الآيات الكريمات؛ في بداية السورة افتتحت السورة بحروف مقطعة كما هي في السور التي قبلها أو السور التي بعدها بقوله: ﴿حم﴾ [الشورى: ١].

إلا أن (سورة الشورى) زادت على السور التي قبلها والتي بعدها بثلاثة حروف فأصبحت مفتتحة بخمسة حروف: ﴿حم ۝١ عسق ۝٢﴾ [الشورى: ١-٢]. وكما مر معنا كثيراً وعرفنا أن هذه الحروف التي يفتتح الله بها هذه السور هي حروف من حروف الهجاء.

- **بكل بساطة لو سألك أي إنسان قال لك: ما معنى "حم عسق"؟**

الجواب: هذه حروف من حروف الهجاء، الله افتتح بها السور ليثبت للناس أن هذا القرآن مكون من هذه الحروف، وأنه قرآن عربي: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى: ٧]؛ فالقرآن عربي مكون من هذه الحروف.

وهو حجة على الكفار وحجة على العرب والمعاندين المستكبرين أن هذا القرآن ينبغي لكم أن تفهموه وأن تقرؤوه وأن تتدبروا معانيه وألا تغفلوا عنه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة أخرى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]؛ حتى تعقلوا هذه الآيات وتفهموها وتعملوا بها.

والعرب لما كفروا وأعرضوا وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، أقام الله عليهم الحجة قال: هذا كلام تعرفونه أنتم مثل ما تعرفون قصائدكم وأشعاركم، تعرفونه فلماذا أنتم تردونه وتستكبرون ولا تؤمنون به؟

فهذا معنى **"حم عسق"**؛ حروف خمسة من حروف الهجاء جيء بها للإعجاز وإثبات للعرب أن هذا القرآن قرآن عربي منزل من عند الله، وأنه قامت عليهم الحجة ويجب عليهم أن يؤمنوا بهذا القرآن.

ولذلك تلاحظ دائماً إذا جاءت الحروف المقطعة هذه يأتي ذكر القرآن بعدها؛ انظر (سورة البقرة): ﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ ۝٢﴾ [البقرة: ١-٢]، و(سورة الرعد): ﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ١].

وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]، وقبلها (سورة فصلت): ﴿حم ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢﴾ [فصلت: ١-٢]،

وبعدها (سورة الزخرف): ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف: ١-٢]؛ فكلها تدل على أن هذه الحروف المقطعة إشارتها إلى هذا القرآن.

شاهد هذه السورة - (سورة الشورى) - قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]. انتبه، ترى سمعتُ وأسمعُ من بعض الناس يقرأ في المساجد -تسمع صوتاً يقرأ ممن هو بجوارك- يقول: **"كذلك يوحَى إليك"**، لا! هذا خطر، ليست **"يوحَى"**، بل هي **"يوحِي"**.

- **انظر: الحاء تحتها كسرة، كيف تقول "يوحَى"؟**

إذا قلت **"يوحَى"** فالحاء مفتوحة، لا، هي مكسورة: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي﴾، مَن الذي يوحي؟ ﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هو الذي يوحي. فانتبه أن تسمع أحياناً من يقرؤها خطأ فيقول: **"كذلك يوحَى إليك"**؛ لا، ليست **"يوحَى"**، إنما هو: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾، يوحي، والذي يوحي هو الله.

والوحي -الفعل من الوحي- والوحي كما هو معلوم لا يخفى على الجميع، الوحي هو: الصوت الخفي الذي يسمعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يأتيه جبريل بالوحي، يأتيه ويتكلم معه بصوت سريع خفي يلقي عليه الآيات.

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بجانبه يميناً وشمالاً ما يدرون ولا يفهمون ولا يسمعون هذا الكلام، والنبي يُوحى إليه، إلا أنهم يسمعون أصواتاً لا يفقهونها.

ولذلك يقول أحد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْه: "إِذَا أُوحِيَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّنَا نَسْمَعُ دَوِيّاً كَدَوِيِّ النَّحْلِ"؛ لكن لا ندري ما هو.

☜وإذا أوحي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تصيبه شدة عظيمة، حتى يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَكَادُ رُوحِي تَخْرُجُ» من شدة الوحي؛ يتأثر تأثراً عظيماً، يحمر وجهه، يتفصد جبينه عرقاً في اليوم الشاتي البارد.

حتى إنه كان مرة على ناقته فجاءه الوحي وهو على الناقة فبركت الناقة من شدة الوحي؛ فالوحي له ثقل عظيم، ولكن يأتي لأن جبريل يأتي بالوحي وينزله على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيجد شدة قوية: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

قال الله هنا: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي﴾، **"كذلك"** يعني مثل ذلك؛ مثل قال: كما أنزل الله إليك أيها النبي هذا القرآن وهذه السورة، أنزل إليك أيضاً الوحي كله سواء في القرآن أو السنة، أو كما أن الله أنزل إليك هذا القرآن وهذا الكتاب فقد أنزل الكتب السابقة والصحف التي أنزلت على الأنبياء: **(صحف موسى وإبراهيم)**، والكتب المنزلة على الأنبياء السابقين.

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ مثل ما أوحى إليك هذه السورة وأوحى إليك هذا القرآن، يوحي إليك أيضاً ويوحي إلى الذين من قبلك من الأنبياء السابقين، يعني أنت لست جديداً ولست بدعاً من الرسل ولست أول من يوحى إليه حتى ينكر المشركون: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

أتعجبون؟ لا تتعجبوا! فالوحي كما أتى محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى الأنبياء السابقين، كل نبي يوحى إليه، كل أُمّة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣]؛ فالأنبياء كلهم يوحى إليهم، فلماذا أنتم تستنكرون؟

- **﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ مَن هو؟**

قال: الله هو الذي يوحي، الله. ثم قال: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ **(العزيز)** من العزة وهي القوة والغلبة، لا يمكن لأحد أن يتصرف في هذا كون ويأتي بالوحي والتشريع إلا ذو العزة والغلبة والقوة.

و**(الحكيم)** في تصرفاته وأفعاله وأقواله، حكيم لا يفعل شيئاً إلا بحكمة، ويضع الأمور مواضعها، وكلامه كله حِكم، وهو الحاكم المشرع لجميع الخلق، ذو العزة والجبروت.

ثم بعد ذلك، الله لما بين أنه هو العزيز الحكيم وأنه هو الذي يوحي، بيّن سعة ملكه، وأن الخلق كلهم تحت ملكه، قال: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤]؛ **"له"** يعني المستحق له وحده، يملك كل ما في السماوات ملكاً تاماً يتصرف فيه، وما في السماوات وما في الأرض كلها لا أحد يستطيع أن يخرج عن ملكه ولا شعرة واحدة، الكل داخل في ملكه.

ثم قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]. انظر، الأول قال: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، العزة والحكمة، وهنا قال: ﴿الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾؛ لماذا؟

لأنه لما تكلّم أن ملك السماوات والأرض له، وأنه المالك الحقيقي المتصرف، بيّن لك أنه ذو العلو؛ أي أنه عالٍ بذاته فوق السماوات والأرض، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، له علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر؛ قهر المخلوقات تحت حكمه.

وهو ذو القدر والتشريف في علوه، يعني علو منزلة، وأيضاً علو بذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فوق سماواته جل جلاله، مستوٍ على عرشه. و(العظيم) الذي له العظمة وله الكبرياء وله الجلال، فهذا معنى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

انظر، لما ذكر أن السماوات والأرض تحت تصرفه وهو المالك لها، وقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، قال بعدها: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ [الشورى: ٥]. "يتفطرن" يعني: السماوات تتشقق وتسقط.

- **لماذا قال: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾؟**

قال: سقوطها وتشققها من فوق، وإذا كان التشقق من فوق فمن تحت من باب أولى؛ لأن دائماً التحت أضعف والقوة فوق، فإذا كانت هذه القوة الفوقية تتشقق وتضعف، فمن باب أولى ما تحتها سيكون أشد انهياراً.

السماوات تكاد تتفطر، هي ما تفطرت ولكنها تكاد تتفطر، وعندنا (كاد) هذا الفعل إذا كان مثبتاً غير منفي، فإن ما بعده غير واقع؛ فلما يقول "تكاد" يعني ما وقع ولا حصل، لكنها قاربت أن تتشقق من فوقهن.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]؛ الملائكة الكرام ينزهون الله، والتسبيح هو: تنزيه الله عن صفات النقص ووصفه بصفات الكمال.

الملائكة تسبح الليل والنهار لا تفتر ولا تقف أبداً، لا بالليل ولا بالنهار، لا تنام ولا تأكل ولا تشرب ولا تتعب؛ شغلها الشاغل تسبيح الله، يسبحون الله وينزهونه ويعظمونه، راكعون، ساجدون، صافون للعبادة، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

- **الملائكة تستغفر لمن في الأرض، ولكنها تستغفر لمن يستحق الاستغفار؛ من هم الذين يستحقون الاستغفار؟**

انظر، مر معنا في (سورة غافر) -قبل سورة أو سورتين- مر معنا في آية أخرى قال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: ٧]. فلما قال هنا: ﴿لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ عرفنا أن الذين في الأرض هم خاصة المؤمنون؛ لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً.

لما قال في آية أخرى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ عرفنا أن الاستغفار يكون للمؤمنين ولمن تاب وعاد إلى ربه، ولو كان كافراً مشركاً فتاب وعاد فإن الملائكة تستغفر له، وهذا فضل للمؤمنين.

انظر فضل الإيمان عليك؛ أن الملائكة المطهرين، الملائكة المنزهين عن المعاصي الذين لا يعصون الله طرفة عين، هذه الملائكة تستغفر لك، تدعو الله عَزَّ وَجَلَّ تقول: **"اللهم اغفر له، اللهم ارحمه"**؛ فهذا فضل الإيمان، وانظر كيف أن الكافر والمشرك لا تستغفر له الملائكة، إنما تستغفر للمؤمنين؛ فهذا فضل الإيمان.

ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥]؛ ألا انتبه تنبيهاً، إن الله هو الغفور الرحيم، هو الذي يغفر الذنوب، الملائكة تستغفر لك -يعني تطلب من الله المغفرة- والله يغفر ويرحم عباده.

الآن نحن نريد أن نقف عند كلمة: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾.

- **لماذا تتشقق السماوات؟**

قال أهل التفسير: "من قول أهل الشرك والكفر والذين يصفون الله بصفات النقص".

انظر كيف يصف نفسه بصفات الكمال، ويأتي من يصفه بصفات النقص! فالسماوات تكاد تتفطر من كلام هؤلاء، وهناك آية أخرى توضح لك هذا الشيء -لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً- لما تذهب إلى (سورة مريم).

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ [مريم: ٩٠-٩٢].

انظر، وصف الله بأن له ولداً، يعني إذا وُصف الله بالصاحبة أو بالشريك أو بأن له ولداً، السماوات -وهي جامدة- لا تقبل هذا الشيء، وتكاد تتشقق وتسقط غضباً لله على من يصف الله بهذه الصفات التي لا تليق. كيف تصف الله بصفات النقص؟ لا يجوز!

فهذا معنى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾؛ لما يقوله أهل الشرك من الكلمات التي تهز القلوب، وتهتز لها السماوات والأرض من شدة هذه الكلمات العظيمة.

والملائكة تسبح وتقدس وتعظم ولا تعصيه، وأنت أيها الإنسان، أيها الكافر تصف الله بصفات النقص؛ كاليهود الذين يقولون: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، والنصارى يقولون: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، والمشركون يقولون: الملائكة بنات الله، وهم عباد مكرمون، كيف يقولون هذا الشيء؟! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

ولذلك، لما ذكر الله الملائكة وأنهم يسبحون الله وأنهم يستغفرون للذين آمنوا، بيّن حال الذين كفروا بالله وأشركوا، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الشورى: ٦]؛ أشركوا وجعلوا هناك أولياء من الآلهة والمعبودات والأصنام والأموات، جعلوهم أولياء لهم يستنصرون بهم ويدعونهم ويقدمون لهم القرابين ويعبدونهم من دون الله.

يقول: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ لا تظن أنهم يفلتون من الله، وأن الله لا يعلم أحوالهم؛ بل ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦] عالم بأحوالهم وحافظ لأعمالهم وسيجازيهم عليها، ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]؛ أنت يا محمد، أو يا أيها الداعية، لست حفيظاً لأعمالهم، أنت تبلغ رسالة ربك.

والله هو المطلع وهو العالم بأحوالهم وهو الذي يحصي أعمالهم ويجازيهم عليها؛ فلا تظن أن هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء أنهم يعملون هذه الأعمال ويذهبون هكذا ولا يحاسبون، بل سيحاسبون.

ثم تعود الآيات مرة أخرى إلى قضية الوحي وأهمية الوحي؛ الأولى قال: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي﴾، وبدأ يفصل فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الشورى: ٧]. هذا القرآن الذي تسمعه يا محمد هو وحي من عند الله، ورداً على من يقول أن القرآن افتراه محمد أو كتبه أحد؛ لا، هو وحي من الله، قرآناً عربياً.

- **لماذا أوحى الله لمحمد القرآن؟**

قال: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]؛ لتكون منذراً.

- **و"أُمُّ القرى" ما هي؟**

مكة، شرفها الله وحرسها الله، هي أم القرى.

- **لماذا سميت بأم القرى؟**

لأن القرى كلها ترجع إليها، انظر الحجاج كيف يرجعون إليها والعُمار! أم القرى هي قبلة المسلمين جميعاً؛ كل شخص يصلي في أي بقعة في البحر أو في الجو أو في البر أو في أي مكان يتجه لأم القرى، أم القرى شرفها الله وعظمها.

وأم القرى هي -كما قال بعض أهل التفسير- دُحيت الأرض كلها من أم القرى؛ فأم القرى هي أساس دحو الأرض كلها، مدحوة من أم القرى.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من هي التي حول أم القرى؟

الجزيرة العربية، أو بلاد العرب، أو بلاد المسلمين، أو العالم كله.

قال بعض أهل العلم: **"إن من حولها هو العالم كله"**. لأنك لو اطلعت على الكرة الأرضية وعلى الأرض كلها لوجدت أن مكة متوسطة، وأن العالم كله والقارات كلها حول مكة، ومكة متوسطة في قطر العالم ومتوسطة الموقع، فلذلك قال: ﴿أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وفيه دلالة على أن دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للعالم كله في جميع الأقطار والقارات.

انظر، قال: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]؛ تنذرهم بهذا القرآن وتحذرهم يوم الجمع وهو يوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويحاسبهم، لا ريب فيه؛ لا نشك في هذا اليوم أبداً.

ثم بيّن أن هذا اليوم يقسم الناس قسمين: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]؛ فريق في الجنة وهم الفائزون، وفريق في السعير وهم الخاسرون.

ثم لا تظن أن هذه القسمة لا بد منها؛ لا، الله لو أراد أن يجعل الناس كلهم مؤمنين لجعلهم، ما أحد يستطيع أن يرد حكمه، ولو جعلهم كافرين لجعلهم كلهم كافرين، ما أحد يستطيع أن يرد قضاءه.

انظر قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الشورى: ٨]؛ مؤمنين أو جعلهم كافرين، ما أحد يستطيع أن يرد أمر الله، ولكن الله قسمهم قسمين: ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الشورى: ٨]؛ ممن يستحق الرحمة وممن يعمل للرحمة يدخله في رحمته ويدخله في جنته، ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ المعارضون الذين ظلموا أنفسهم وظلموا حق الله ﴿مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٨]؛ ما لهم من يتولى أمرهم ولا نصير ينصرهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الشورى: ٩]؛ هؤلاء الذين اتخذوا أولياء، **"أم"** بمعنى (بل)؛ أي: بل هؤلاء هم الظالمون الذين اتخذوا من دونه أولياء، اتخذوا أصناماً وأمواتاً يعبدونهم ويتقربون إليهم ويدعونهم أولياء.

قال: ﴿فَاللَّهُ هو الْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩]؛ إذا اتخذوا هم أولياء فاعلم أن الله هو الولي حقاً، الولاية الحقيقية لله، هو الولي، لماذا؟ قال: ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [الشورى: ٩]؛ يحيي ويميت، هو الذي يحيي الموتى، والذي بيده القدرة.

أما هؤلاء الأولياء فلا يحيون، هم أموات؛ الأصنام أموات، والأموات في قبورهم أموات، والله هو الذي يحيي الموتى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩]، وهم ليس لهم أي قدرة؛ فهذا الفرق بين ولاية الله وبين ولاية هؤلاء الكفار.

ولعلنا نقف عند هذا القدر؛ حتى لا نطيل عليكم. إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توحي به هذه السورة من توجيهات عظيمة، والحقيقة -مثل ما ذكرت لكم- سورة الشورى سورة تختلف عن السور الأخرى؛ تقوي وتزيد إيمانك وتعلقك بالقرآن وتعلقك بالشريعة وتعلقك برب العالمين.

نسأل الله ألا يحرمنا هذا الفضل، نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى...

(الشورى ١٠ - ١٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للخامس عشر من شهر ذي القعدة من عام (١٤٤٦هـ).

درسُنا المبارك هذا اليوم في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي عندنا هي (سورة الشورى)، تحدثنا عنها في لقائنا الماضي وعن شيء من آياتها، واليوم نستكمل ما توقفنا عنده؛ وقفنا عند الآية العاشرة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠].

هذه الآية؛ لما تريد أن تفهم معناها وتستوعب ما فيها من دلالات وما فيها من معاني، انظر إلى الآية التي قبلها؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول هؤلاء الكفار والمشركون والمعاندون اتخذوا من دون الله أولياء؛ يعني عبدوا من دون الله أولياء، جعلوهم بمنزلة الإله يعبدونهم ويدعونهم من دون الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في إبطال هذه الآلهة وإبطال هذه العبادة قال: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ [الشورى: ٩]؛ لا وليَّ غيره، ليس هناك وليٌّ يتولى أمرك ويتولى ما تحتاج إليه إلا الله، هو مولاكم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي تولى الأمور، وهو الذي بيده زمام الأمور؛ فالله هو الولي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومن ولايته أنه يملك الحياة والموت، قال: ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [الشورى: ٩]، ومن ولايته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأنه يستحق الولاية أنه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩]؛ فلا يعجزه شيء.

فالوليُّ حقّاً الذي ينبغي أن يُعبد وأن يُتخذ إلهاً هو الله الذي يحيي ويميت، أما الآلهة فلا تحيي ولا تميت، ولا تملك أي شيء، والله على كل شيء قدير والآلهة لا تقدر على أي شيء.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]؛ أيها الناس، في أي أمر من الأمور، في شؤون الحياة أو في شؤون الدين، كل ما تحتاج أنت إليه في حياتك أو في دينك، ما اختلفتم فيه من شيء فأمره مرده إلى الله؛ فحكمه إلى الله؛ لأنه هو الولي.

وهذا من معاني اسم (الولي)؛ هو الولي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله هو الولي جل جلاله، وهو الذي ترد إليه الأمور؛ أمور الدنيا وأمور الآخرة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الولي جل جلاله، وإذا كان هو الولي؛ ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت.

الله هو الولي حقيقةً، الولي على جميع الأمور، حتى أمور الكفار في الحقيقة الله هو الولي؛ يعني لا يمكنهم أن يحركوا ساكناً ولا أن يفعلوا شيئاً من الأمور إلا بأمر من الله وقدره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإرادته.

انظر، قال سبحانه هو الولي، وأي اختلاف بينكم أيها الناس في أمور الدين أو أمور الدنيا فحكمه إلى الله؛ ترافَعوا إلى الله وردوه إلى الله، فحكمه إلى الله.

- **لماذا قال مرده إلى الله؟**

هو الذي يحكم به، وهو الذي يعلم ما تقتضيه هذه الأمور وتحتاج إليه، أما البشر فعقولهم قاصرة وعلمهم قاصر، لا يمكن أن يحيطوا بمثل هذه الأمور التي يحيط بها هو الله العالم بكل شيء؛ فحكمه إلى الله.

قال: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ [الشورى: ١٠]؛ ذلكم الله الذي يحكم بينكم ويقضي وترجع الأمور إليه، ذلكم الله ربي، الله هو الإله وهو ربي، هو الرب الإله الذي ينبغي أن يتحاكم الناس إليه، هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك انظر، يقول: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهِ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]؛ ولاحظ أن الذي يتحدث هنا هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هو الذي يبلغ رسالة ربه، ويدخل في ذلك المؤمنون تبعاً له.

فأنت تقول: ذلكم الله ربي، إذا أردت أن تحاكم غيرك أو تحتكم إلى الله، فإنك تقول: ربي هو الله، وهو الحاكم وهو القاضي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ربي هو الله وهو الحاكم جل جلاله.

قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [الشورى: ١٠]؛ وأنت توكل أمرك وأمورك جميعها إلى الله، توكل أمرك كله إلى الله؛ يعني تفوض أمورك إلى الله، فالذي تفوض إليه الأمور ويقضي الأمور لك ويتولى أمرك هو الله، عليه توكلت، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]؛ أرجع إلى الله، فإن الأمور ترجع إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإلى الله تصير الأمور.

فانظر ولاحظ وتأمل هذه الآية، والله يا إخوان آية عجيبة جداً؛ أي أمر، الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]؛ يعني إلى شرع الله عَزَّ وَجَلَّ فيما جاء في الكتاب والسنة.

وهنا قال: ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]؛ لأن **(الوحي)** يشمل **(الكتاب والسنة)**، فحكمه إلى الله، أي شيء يتنازع الناس فيه في امور الدين أو الدنيا فليترافعوا إلى حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولكن ليس كل الناس يتحاكمون إلى الله؛ من الذي يتحاكم إلى الله؟ الذي يقول: هو ربي، والذي يقول: عليه توكلت، واليه أُنيب؛ يعني أرجع إلى الله في جميع شؤوني، وأتوب إلى الله وأستغفر الله وأتحاكم إلى ربي، لا أتحاكم إلى غيره.

أما غيرهم، الذين يتحاكمون إلى **(الطواغيت)**، ويتحاكمون إلى غير شرع الله، ويتحاكمون أيضاً إلى **(القوانين الوضعية)** ولا يعترفون بشرع الله؛ هؤلاء لا يتوكلون على الله، ولا ينيبون إليه، ولا يرجعون إليه، الذين يرجعون إلى الله وينيبون إليه هم المسلمون؛ هم الذين يتحاكمون إلى الله.

ففي هذه الآية توجيه عجيب أن كل ما اختُلف فيه يجب أن يرجع إلى الله وإلى **(الكتاب والسنة)**، فالقاضي هو **(الكتاب والسنة)**.

وسيأتينا بعد قليل في الآيات أن الله قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]، فهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكل الحكومات والقضايا التي يتحاكم الناس إليها مرجعها إلى الله؛ لكن من الذي يرجعها إلى الله؟

- **من هم الذين يتحاكمون إلى الله؟**

هم الذين يقولون: الله ربي، عليه توكلت، وإليه أنيب؛ ثلاثة أمور:

⬅الأمر الأول: الله ربي: إقرار بأن الله المشرّع هو رب العالمين، وهو الذي يقضي وهو الذي يعلم قضايا الناس وما يحتاجون إليه.

⬅الأمر الثاني: عليه توكلت: أن الذي يتوكل عليه هو الله، والتوكل عبادة، وهو تفويض الأمر إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كل الأمور؛ لا أن تفوض أمرك إلى الله في شيء دون شيء، وإنما تعترف بعجزك وقوة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله هو القوي هو العزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأما غيره فإن نظراتهم قاصرة وأحكامهم قاصرة.

⬅الأمر الثالث: وإليه أنيب: تفويض المرجع والإنابة والعودة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم تأتيك الآية التي بعدها تبين لك حقيقة هذا الأمر، وأنه في الحقيقة أن العودة تكون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والرجوع إليه؛ انظر، قال: هو من هو الله؟ قال: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ١١]؛ هو خالقها ومنشئها ومبدعها بقدرته ومشيئته وحكمته، هو فاطر السماوات والأرض؛ من الذي خلق السماوات سبعاً طباقاً ومن خلق الأرض؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى: ١١]؛ يعني خلق لنا من أنفسنا أزواجاً، يعني من جنسنا، يعني الرجال والنساء؛ النساء من جنس الرجال وهن شقائق الرجال.

☚**كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «**النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**». فالله خلق للرجل زوجاً له، كما خلق لآدم حواء، وخلق لكل رجل ما يحتاج إليه من امرأته، فلا يمكن أن يعيش وحده ويقول: والله أنا أكتفي بنفسي؛ فالمرأة مكملة للرجل، والرجل يحتاج إلى المرأة.

قال: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى: ١١]؛ ولأن الزوجة سكن قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]، وأيضاً لوجود المودة والرحمة بينهما، وليحصل التناسل والكثرة ولا تنقطع الأجيال.

قال: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى: ١١]؛ حتى الأنعام جعلها أزواجاً، جعلها ذكوراً وإناثاً، جعل الأنعام ذكوراً وإناثاً.

قال: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١]؛ هذه الحكمة، لماذا جعل للناس أزواجاً نساءً، ولماذا جعل الأنعام وغيرها أزواجاً؟ قال: ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾؛ ليحصل التكاثر.

ويذرأ أصله من (ذرأ)؛ يعني نشر وبث الشيء ونشره، والإنسان والبهائم أو الأنعام تكثر بطريقة التوالد، حيث جعل الله هذه الذكورية والأنوثة تجتمع فيكثر بذلك التوالد.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۚ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١]؛ أي في هذا الجنس، هذا الجنس جنس الإنسان ينشره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه الأرض، وجنس الحيوان ينشره الله على هذه الأرض، فتنتشر الذرية من الجنسين.

انظر إلى ضعف الإنسان واحتياجه وفقره، وغنى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقدرته وقوته ومشيئته؛ ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ١١]، وقبلها قال: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال هنا: ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ١١]، خالق السماوات والأرض، وهو الذي جعل لهذا الإنسان هذا الخلق العجيب، وهو الذي يجعله يسكن إلى زوجته وكذلك الأنعام بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما ذكر هذه الأشياء قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ ما علاقة هذا الأمر: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؟ الله يتحدث عن خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان وجعل هذا الإنسان له زوج ليسكن إليه ولتتكاثر الذرية ويذرأكم فيه وكذلك الحيوان، فما علاقة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؟ لا بد أن نقف عند هذه الآية حتى نتأملها أكثر وأكثر.

لما كان الله عَزَّ وَجَلَّ وصف هذا الإنسان بالضعف والاحتياج والتزاوج؛ نزه نفسه أن يكون له ولد كما يصفه الواصفون، ومثل ما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]؛ لم يلد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولم يكن له ولد، ولم يولد هو، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الفرد الصمد الذي انفرد بالخلق، والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات.

ولذلك جاءت هذه الجملة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ حتى لا يوصف الله بصفات النقص كما يوصف هذا الإنسان، فالتوالد واقع في الإنسان والحيوان، والله لا يشبهه شيء ولا يماثله شيء من مخلوقاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾؛ بعضهم يقول الكاف زائدة، يقول: ليس مثله شيء، ونحن نقول: لا، الكاف تفيد التأكيد، أي لا يمكن ويستحيل أن يماثله شيء من مخلوقاته؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]؛ هو الأحد لا يماثله أحد من مخلوقاته.

وهذا رد على طائفة من طوائف المبتدعة وهم (المشبهة)؛ الذين يشبهون الخالق بالمخلوق، الله أبطل عقيدتهم فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ حتى تشبهوه. وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]؛ ترد أيضاً هذه الجملة على طائفة أخرى من طوائف البدع وهم (المعطلة).

فأثبت لنفسه السميع البصير، فالسميع يسمع والبصير يبصر، وأما نفيهم السمع وقولهم الله لا يسمع ولا يبصر؛ هؤلاء هم (المعطلة)، فالله سميع وبصير ولا يخفى عليه شيء من خلقه؛ يسمع الأصوات الخفية والظاهرة والعالية وغير العالية، يسمعه سبحانه ولا تختلف عليه الأصوات، وبصير بعباده؛ يبصر ويرى النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يخفى عليه شيء، فما قدروا الله حق قدره عندما شبهوه أو وصفوه بصفات النقص.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ١٢]؛ لما تكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن خلق السماوات وخلق الإنسان وجعل منه النساء وخلق الحيوان وجعله ذكوراً وإناثاً؛ لما تكلم الله عن الخلق.

- **هذا الخلق يحتاج إلى رزق، فمن يرزقه؟**

الجواب: الخالق هو الرازق، ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ١٢].

المقاليد جمع مِقْلاد وهو المفتاح، أي مفاتيح الأرزاق والرحمة بيد الله، هذا معناه: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي له خزائن السماوات والأرض، ورزق السماوات والأرض بيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]، هو الفتاح العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يرزق؛ ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو الرزاق، هو الغني، هو الذي يغني.

ولذلك حتى تعرف ارتباط الآية اقرأ ما بعدها، قال: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢]؛ له المقاليد يعني خزائن السماوات والأرض بيده، فالذي يبسط الرزق ويوسع على من يشاء هو الله.

قال: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [الشورى: ١٢]؛ لا يبسطه هكذا عشوائياً، بل يعطي من يشاء بحكمة ومشيئة وعلم سابق؛ فإذا وجدت الغني فاعلم أن الله هو الذي أغناه وأغناه بمشيئته.

قال: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الشورى: ١٢]؛ يقدِر يعني يضيّق، يضيّق يجعل هذا فقيراً وهذا غنياً؛ قال: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢].

هذه الجملة: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]؛ تأملها ودقق النظر فيها، الله لما يغني من يشاء ويجعل من يشاء فقيراً هذا عن علم، ليس هكذا خبط عشواء، لا بل عن علم.

قال: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢]. فإذا رأيت هذا الغني أن عنده مالاً كثيراً فالذي أغناه الله بعلم سابق أعطاه، وإذا رأيت الفقير فقيراً فاعلم أن الذي قتر عليه وضيق عليه هو الله بعلم سابق، والفقير جعل الله فقره خيراً له.

والغني جعل الله غناه خيراً له؛ فهذه الأمور بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحكمته جل جلاله، ولذلك تأمل مثل هذه الآيات تزيدك إيماناً وتجعلك تتعلق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تعرف أن الذي يرزق هو الله؛ لا جهداً منك، ولا أحد يستطيع من المخلوقين أن يرزقك إلا بأمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالرازق حقيقةً هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما تحدث عن الخلق وعن الرزق، أكد على قضية أكبر من الخلق والرزق، ما هي؟ **(الدين والشرع)**؛ فالدين والشرع أعظم من الخلق وأعظم من الرزق، فالله خلقنا للعبادة؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ما قال خلقتهم ليأكلوا ويشربوا، لا بل خلقتهم للعبادة.

ولذلك انظر، تحدث الله عَزَّ وَجَلَّ عن هذا الدين العظيم فقال لنا، والله يخاطبنا في كتابنا القرآن يقول: ﴿* شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]؛ أيها المسلمون، شرع لكم من الدين أي هذا الدين الذي شرعه الله لنا والذي أوحاه إلى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: هو ما وصى به نوحاً؛ أول الأنبياء.

أول الرسل الذين بعثهم الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وصى به نوحاً بالتوحيد والعبادة وشرع له الشريعة، فالذي شرع لنوح الشريعة هو الذي شرع لنا، والذي شرع لنا هو الذي وصى به الأنبياء كلهم؛ قد اتفقوا على التوحيد وإفراد الله بالعبادة.

قال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣]؛ يعني محمداً، ثم قال: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الشورى: ١٣]؛ انظر، قال نوح ثم خاطب محمداً وأدخله بعد نوح.

- **لماذا لم يقل نوح وإبراهيم ويرتبهم؟**

الجواب: لأن محمداً هو خاتمهم، فبدأ بالأول وبالأخير، ثم أتبعه بالثلاثة، وهؤلاء هم **(أولو العزم من الرسل)**؛ خمسة أولو العزم ذكرهم الله هنا وذكرهم في **(سورة الأحزاب)**، أولو العزم خمسة هم خير البرية وهم أفضل الأنبياء والرسل هؤلاء الخمسة.

فقال الله، انظر من فضل الله علينا أن شرع لنا دين هؤلاء الخمسة الذين هم خيرة الخلق، شرع لنا من الدين ما شرع لهم، فنحن فضلنا الله بهذه الشريعة.

قال: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]؛ أي هذه الشريعة التي عندكم هي التي وصى الله بها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وموسى وعيسى من أولي العزم، ما هي حقيقتها؟ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه.

هذا الشرع الذي شرعه هو إقامة الدين، إقامة التوحيد وإظهار العبادة لله والطاعة لله، وإن اختلفوا في الفروع؛ يعني في فروع الشريعة كمثلاً عدد الصلوات وكيفية الصيام وكيفية الزكاة والحج، هذه قد يختلفون فيها؛ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، ولكن الأصل متفق عليه وهو الدين وعبادة الله وحده لا شريك له.

قال: ﴿أَنْ أَقِيمُوا﴾؛ وتمسكوا به، انظر كلمة أقيموا؛ أي اجعله قائماً مستقيماً لا عوج فيه. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾؛ أي لا تختلفوا فيه فتصبحوا كالفرق التي ضلت وهلكت كفرق النصارى واليهود والفرق التي ضلت، تمسكوا واجتمعوا عليه.

ثم قال: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]؛ أي عظم هذا الشيء واشتد عليهم وصعب عليهم ما تدعوهم إليه وهو التوحيد؛ لأنهم لا يريدونه؛ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥]، ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥]؛ لا يريدون ذلك، ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]؛ يختار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويصطفي لعباده من يشاء لهذا الدين، يصطفي لهذا الدين من يشاء من عباده، ويهدي إليه من ينيب.

الذي ينيب ويرجع إليه هو الذي يستحق الهداية، وهو الذي يمنّ عليه بالهداية، أما غيره فلا يهديه ولا يستفيد، وكل ما تعود إلى الله وتنيب إلى الله وترجع فإن الله يزيدك قرباً وهداية.

قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]؛ أي أصحاب الفرق من اليهود والنصارى وغيرهم، يقول لما جاءتهم الشرائع اختلفوا فيها وتفرقوا، فأنتم يا أمة محمد جاءتكم الشريعة وجاءكم القرآن فلا تتفرقوا ولا تكونوا شيعاً وأحزاباً، هؤلاء تفرقوا لما جاءهم العلم تفرقوا، والسبب في ذلك ما هو؟ ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾؛ الحسد والبغي والتقاتل، هذا هو السبب في ذلك.

قال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]؛ لولا أن الله قدّر ألا يقضي بينهم، أي لا يهلكهم جميعاً، لولا الكلمة السابقة عند الله أنه قال: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ يعني أن يؤخر عنهم العذاب لقضي بينهم، لأهلكوا جميعاً، ولكن الله بحكمته أخّر عنهم العذاب إلى أجل مسمى ولم يقضِ عليهم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤]؛ يعني هؤلاء اليهود والنصارى الذين ورثوهم ممن كانوا في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأنهم ورثوا من كان قبلهم.

الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب، يعني أصولهم تفرقوا وتحاسدوا كما حصل بين اليهود والنصارى وأصبحوا شيعاً وفرقاً، ثم جاء أجيالهم وذرياتهم من بعدهم وبدأوا يشكون في شرع الله ويشكون في دين الإسلام وخاصة دين محمد ولا يؤمنون به، وإلا فهم يعرفون في كتبهم أن الله أمرهم أن

يتبعوا شريعة محمد، لكن لا يزالون في شك مريب؛ مرتابون ومترددون وخائفون وقلقون، لا يدرون ماذا يصنعون.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر نبيه بالتمسك بهذا الدين وألا يلتفت لهؤلاء الذين تفرقوا والذين شكوا، فقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ ۖ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥]؛ أي لهذا الدين ولهذه الشريعة ادعُ الناس إليه.

هذا الدين وحثهم على الدخول فيه والتمسك به، واستقم أنت قبل ذلك؛ تمسك بالدين القيم وتمسك بأخلاقه وأفعاله وما فيه من أعمال وما فيه من شرائع، استمسك بهذا الدين كما أُمِرت، ولا تتبع أهواءهم؛ هم على أهواء ليس لهم دين، هم متبعون شهواتهم ولا تتبع أهواءهم.

﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]؛ قل لهم آمنت بالله، آمنت بما أنزل الله، قل آمنت بالله وآمنت بشرعه وآمنت بهذا القرآن وما أنزل الله من كتاب لا أفرق بين الكتب، لا نفرق بين ما أنزل الله نؤمن ببعض ونكفر ببعض.

وقال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾؛ أي إذا تحاكمتم إليّ أقضي بينكم بالعدل. ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾؛ هو ربنا وربكم ومولانا ومولاكم. ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا﴾؛ ونجازى عليها.

﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾؛ وتجازون عليها. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ إذا ظهر الحق فليس هناك احتجاج ولا حجة ولا خصومة بيني وبينكم ولا جدال. ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾؛ أي المرجع إلى الله فيجزي كلاً بعمله.

أما الذين يحاجّون في الله؛ قال بعدها: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]؛ هؤلاء لا يلتفت إليهم، حجتهم داحضة؛ يعني باطلة ومدحوضة وساقطة، لا يلتفت إليهم؛ لماذا؟ لأن الحق قد ظهر وبان، وحجة الله واضحة وهؤلاء الذين يحاجّون في الله، كيف تحاجّ في الله؟

هؤلاء عليهم غضب من الله، ينزل عليهم غضب من الله، ولهم عذاب شديد قد أعده الله لهم وهو في نار جهنم، فلا تحاجّ في الله والله أمرك بالإيمان به ثم تحاجّه وتناقش فيه، هذا ليس له مقام.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الشورى ١٧ - ٢٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وأسأل الله أن يجعله لقاءً مباركاً نافعاً، وينفعنا جميعاً بالقرآن، ويجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يجعله حجةً لنا، حجةً لنا لا علينا.

كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يُمَلُّ أبداً؛ تقرأ هذه الآيات وتقف عندها وتتأمل ما فيها من علوم وخزائن عجيبة، سورة (الشورى)، وما أدراك ما الشورى! وهي التي يعني تدور أو يدور محورها حول الحكم؛ أن الحاكم هو الله، وأن المشرع هو الله، وأن ما سوى الله ليس بتشريع إذا كان مخالفاً لشرع الله مصادماً له.

والسورة هذه كلها تدور حول هذا الأمر: الوحي والشريعة والاجتماع على أمر الله وعلى شريعته ونبذ ما سواه.

يقول: وقفنا عند الآية السابعة عشرة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]. هذا إذا سمعت أنت هذه الآية، وعرفت أن الله الذي أنزل الكتاب ليحكم بين الناس فيه وليتحاكموا فيه.

ولأنها مرت معنا آية قبل في لقائنا الماضي، وهي قول الله: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، عرفت منزلة الكتاب وإنزاله إليك، أن الناس يتحاكمون إليه.

شوف، قال الله وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي أنزل الكتاب، هنا (القرآن) نعم؛ ممكن يكون القرآن، وممكن يكون جنس الكتب المنزلة؛ لأن الذي نزل الكتب كلها هو الله عَزَّ وَجَلَّ.

يعني أنت ممن يؤمن بالقرآن وبما أُنزل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبما أُنزل على الذين من قبله؛ فالكتب كثيرة، والرسل كثيرون، ونحن نؤمن ونعلم أن الله هو الذي أنزل القرآن وأنزل جنس الكتب كلها، ونحن نؤمن بالكتب المنزلة.

يقول: أنزل الكتاب والميزان، أنزل الكتاب بالحق؛ يعني لم ينزله بالباطل، وإنما نزل ملتبساً بالحق، قائماً على الحق، لا يقول إلا الحق، والقرآن كله حق منزل من الله الحق، فهو منزل بالحق.

ثم قال بعدها: ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]. الله الذي أنزل الكتاب، وأنزل الكتاب المشتمل على الشرائع والأحكام، وأيضاً أنزل الميزان، والمقصود بالميزان هنا ليس الميزان الذي يوضع عليه الطعام (الموازين)؛ لا، الميزان هنا مقصود به العدل، مقصود به العدل.

يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل الكتاب، وأنزل الكتاب وما فيه وما اشتمل عليه من أحكام، وأنزل العدل الذي قامت به السماوات والأرض، قامت به السماوات والأرض.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]؛ يعني أقيموا العدل، فالعدل لا بد منه، ولاحظ أن في هذه الآية، لما قال الله: ﴿أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]؛ ينبغي لك أن تقف عندها وتتأملها، أن أحكام الشريعة مرجعها (الكتاب والسنة)، كل الأحكام.

وقد يكون الحكم الشرعي منصوصاً عليه في القرآن أو في السنة، وقد لا يكون منصوصاً عليه، فكيف نحكم به؟ يعني عندنا أشياء مستجدة، وقائع ونوازل، أشياء جديدة.

- **ما الحكم فيها؟**

الجواب: الحكم فيها الميزان؛ العدل والميزان والقياس. (القياس) الآن، لما يقال لك مثلاً: الخمر محرمة، تقول: نعم. أين تحريمها؟ تقول في القرآن: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

هذه الخمر المعهودة في زمن الصحابة التي كانوا يصنعونها من التمر ومن الزبيب والعنب ونحوه، الآن أصبح عندنا أشياء جديدة من المخدرات والحبوب؛ سواء كانت هذه حبوباً زراعية (نباتات)، أو حبوباً صناعية.

- **فالمسكرات الموجودة الآن كيف نلحقها بالنصوص الشرعية؟**

الجواب: بالميزان، الميزان هو الذي يلحقها؛ ننزل هذه على هذه، ونقيس هذه على هذه، فنقول بجامع ذهاب العقل والسكر، فكل ما أذهب العقل وأسكره، حكمنا عليه بالتحريم، حكمنا عليه بأنه حرام، وخذ من الأشياء الكثيرة التي يستعملها العلماء والفقهاء أشياء لم ترد قد تكون مستجدة.

الآن يقول لك مثلاً: الربا يجري في البر والشعير؛ هذا الذي في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأرز والأشياء المستجدة التي لم تكن معروفة في الزمن الأول؟ نقول: نلحق هذا بهذا.

- **كيف تلحقها؟**

بالقياس والميزان، إذاً عندنا أحكام شرعية نصية نص عليها القرآن والسنة، وأحكام لم ينص عليها القرآن والسنة، فنلحق الفروع بالأصول؛ هذا معناه. فلا بد أن نعرف شريعة الله أنها شريعة واسعة، وأنها صالحة لكل زمان ومكان، وأن ما لم ينص الشرع عليه لعدم وجوده في ذلك الزمان أنه يلحق بهذه الأشياء بالميزان.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة (الحديد): ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال هنا بعدها: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]. شوف، هو يتكلم عن الشريعة والأحكام الشرعية والكتاب والميزان، ثم انتقل إلى الساعة؛ لأنه ذكر قبلها الكلام لو ترجع للآيات التي قبلها تجد فعلاً أن الله تحدث عن لما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية التي قبلها: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦] متى؟ قال: يوم القيامة.

ثم تحدث عن الساعة التي هي يوم القيامة، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [الشورى: ١٧]. شوف، كلمة «مَا يُدْرِيكَ» في القرآن خذها قاعدة هذه: إذا جاءت كلمة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فاعلم أن الجواب غير موجود أبداً. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]؛ الجواب غير موجود. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٣]؛ الجواب غير موجود، أما إذا جاءت كلمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، فالجواب موجود.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾[القارعة: ١٠-١١]. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦﴾[الهمزة: ٥-٦]. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾[الطارق: ٢-٣]. ف

كلمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ جوابها موجود، وكلمة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ جوابها لا يمكن الوصول إليه ولا معرفته؛ هذه قاعدة تفسيرية قرآنية يجب أن نفهمها.

قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؛ أي ما يعلمك ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[الشورى: ١٧].

- **كيف (الساعة) ثم يقول (قريب)؟**

الساعة مؤنث، المفترض أنه يقول: لعل الساعة قريبة.

- **لماذا قال قريب؟**

قال: لا، لا يقصد الساعة بذاتها، يقصد أمر الساعة وشأن الساعة؛ يعني شأن الساعة وأمرها ووقوعها هو المقصود، يعني الساعة هي تحديد زمن فقط، لكن الكلام على وقوعها ومرساها وأمرها وشأنها قريب، (قريب) هذا يعني ذكره بعض أهل التفسير، وبعضهم قال: قريب لأنه مصدر يجوز فيه التأنيث والتذكير، فتقول: الساعة قريب وقريبة، كله جائز.

لكن هذه الساعة التي ينتظرها الناس وستأتي لا محالة، لا، ستأتي لا محالة، ما موقف الناس منها؟ الناس على قسمين: ناس مؤمنون، وناس كافرون. فالكافرون ما موقفهم من الساعة؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]. يقولون: متى؟ متى تأتي؟ متى؟ متى يا رسول الله؟ لأن ليس عندهم يقين يعني عندهم ليس عندهم يقين أنها ستأتي، فلذلك هم في شك.

يشكون في الساعة، ويأتون يسألون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقولون: متى يا رسول الله الساعة؟ لأنهم ما عندهم علم يقين بأنها ستأتي، لو كان عندهم علم ما قالوا متى.

ولذلك لا يسأل عنها المؤمن، المؤمن ما يسأل عن الساعة لأنه يعلم أنها ستأتي، ولذلك الذي يستعجل بها هم الذين لا يؤمنون بها، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾[الشورى: ١٨] خائفون وجلون، لا يدرون ماذا سيجري لهم، هل أعمالهم ستنفعهم؟ هل أعمالهم يعني ستكون مقبولة عند الله أو غير مقبولة؟

هل سيئاتهم كثرت؟ يعني الإنسان ما يدري عن نفسه ماذا سيواجه؟ ماذا سيقابل؟ وما رصيده من الأعمال الصالحة؟ وما عنده من السيئات؟ ماذا سيواجه؟

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]. ما تدري ما الذي يحتسب، ولذلك المؤمن دائماً على خوف ووجل، والصالحون يعملون الأعمال الصالحة ويخافون ألا تقبل منهم، ولا يدرون ماذا سيجري.

القيامة شيء أمر عظيم، لا يدرون ما الذي سيحدث، خائفون. ولذلك شوف، قال: والذين آمنوا مشفقون منها -من الساعة- وفي نفس الوقت يعلمون أنها الحق لا يشكون فيها، يعلمون أنها حق وأنها لا بد أن تأتي، لكن على خوف ووجل؛ ما الذي سيجري لهم؟ ما الذي سيحصل؟

شوف، قال: والذين آمنوا مشفقون خائفون منها ويعلمون في نفس الوقت أنها الحق، ثم قال: ألا انتبه! أن الذين يمارون في الساعة، يمارون يعني يشككون الناس ويجادلونهم في الساعة؛ يعني هم شكوا في أنفسهم، يعني هم في مرية، شكوا في أنفسهم ويشككون غيرهم.

يعني ليس فقط هم شاكون، هم يشكون في الساعة وفي مجيئها، لا، هم شاكون ويشككون غيرهم، يمارون ويجادلون ويشككون غيرهم في الساعة. قال: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]. في ضلال، وليس ضلالاً فقط، ضلال بعيد عن الحق أبعد ما يكون، هذا حقيقة الإيمان باليوم الآخر، وحقيقة الإيمان بالساعة ومجيء يوم القيامة.

بعد ذلك سبحان الله يبين رحمته ولطفه ورأفته بعباده حتى بالكفار، فالله يرزقهم ويعطيهم الصحة والعافية والأمن والأمان، اسمع، يقول الله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩].

لطيف بعباده البر والفاجر كله، الله لطيف بعباده، لو لم يكن لطيفاً بعباده ولم يكن براً ولم يكن محسناً ولم يكن رحيماً بهم لهلكوا وماتوا، لهلكوا وماتوا؛ ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بلطفه ورحمته لطف بهؤلاء، لطف بهم.

- **ما معنى اللطيف؟**

نقرأ في القرآن: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾، ﴿اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. اللطيف كما ذكر ابن القيم وذكر السعدي وكل من كتب في الأسماء الحسنى، كتبوا أن اللطيف له معنيان: اللطيف الذي يعلم الأشياء

الدقيقة لا تغيب عنه، لطيف يصل علمه إلى الأشياء الدقيقة التي يعني -مثل ما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: ﴿إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾[لقمان: ١٦].

فالأشياء الدقيقة الخفية التي لا يعلم بها البشر، الله لطيف بها ويعلمها، يعلم دقائق الأشياء، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة (تبارك)، قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، يعلم علماً دقيقاً، هذا من وجه.

المعنى الثاني للطيف: الذي يوصل الأرزاق ويوصل الأشياء إلى العبد ويصرف عنه الأشياء التي تضره وهو لا يشعر، وأنت دائماً تقول: اللّهم الطف بنا، لطيف بنا.

إن الله لطف بنا، لولا أن لطف الله لحقنا كذا وكذا. الله أحياناً يسوق لك الرزق وأنت لا تشعر، يصرف عنك الشر والأذى وأنت لا تشعر؛ هذا معنى اللطيف، يعني اسم عجيب جميل جداً، لكن نحن قد يغيب عنا، ولذلك شوف، اسمع ماذا قال: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾[الشورى: ١٩].

أنا أقول لكم حقيقة، الحقيقة اسم اللطيف هذا عجيب؛ يعني شوف سورة (يوسف)، ماذا جرى ليوسف؟ من الذي لطف بيوسف في الجب ونقله بأمان إلى مصر؟ من الذي لطف بيوسف وجعله يعيش في القصر؟ من الذي لطف بيوسف وأنقذه من جريمة الفاحشة فجعله في السجن؟ من الذي لطف بيوسف فأخرجه وجعله وزيراً في مصر؟ من الذي لطف بيوسف؟

ماذا قال الله في آخر شيء في القصة؟ قال يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ بعدما حصلت له النعمة الكاملة باجتماع أبويه وإخوته وحصل له بكونه ملكاً: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾[يوسف: ١٠١]، ماذا قال؟

قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. اسم اللطيف جميل جداً، قال هنا: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾[الشورى: ١٩]؛ يعني شوف، لطيف بالكل، كلهم حتى الحشرات والإنسان والكافر والمؤمن كلهم، لم يجعلهم يموتون من الجوع ولا من الظمأ، بل ساق لهم الأرزاق.

- **ولذلك شوف، ماذا قال بعدها؟**

قال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩]. يرزق من يشاء، هم يعصونه وهو يرزقهم، يرزق من يشاء، وقال: (من يشاء)، قد يرزقهم كلهم، قد بعضهم لا يرزق أو يرزق رزقاً قليلاً.

قال: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾؛ لأنه يدبر الأمور بمشيئته، يرزق من يشاء، وهو القوي على ما يريد، العزيز الغالب على أمره، إذا أراد شيئاً قال: كن فيكون. ليس رزقه بتصرف غيره فيه؛ لا، هو يرزق بقوته وبعزته.

ثم لما تحدث عن الأرزاق في الدنيا، وأنه يرزق البر والفاجر ويرزق الخلق كلهم، بيّن موقف الناس في العبادات، فقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ [الشورى: ٢٠].

يقول: من كان يريد بعمله الدار الآخرة، يحرث للآخرة، يحرث حتى يزرع للآخرة ويحصد في الآخرة؛ هو قصده الآخرة ويعمل للآخرة ويجعل أعماله كلها لتكون في الدار الآخرة وكسبه لله وثوابه، ويريد الثواب عند الله، هذا ما هو؟

قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠]؛ بحيث أن الله يضاعف له الحسنات، الحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة، فالذي يريد الآخرة ونيته وقصده في عمله الدار الآخرة ورضا الله، هذا فإن الله يزيده في حرثه ويضاعف له ويوفقه للخير.

وقال: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. الذي يريد الدنيا، يحرث عشان يأخذ الدنيا فقط، ويريد الدنيا، والدنيا هي التي أمامه لا يريد الآخرة ولا يعمل للآخرة.

قال: ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ نعطيه حقه ونعطيه نصيبه في الدنيا، وما قسم الله له يعطيه إياه، وما له في الآخرة من نصيب؛ يحرم الآخرة، يعني ما يكون له في الآخرة حظ وافر، وليس له في الآخرة ما يسعده وينجيه، ليس له عمل، ما له في الآخرة من نصيب، ما له عمل.

فالناس في الدنيا من يحرث ويزرع للدنيا، وهذا ليس له حظ في الآخرة؛ ومنهم من يزرع ويحصد للآخرة ويقدم أعماله للآخرة، يصلي لله، ويصوم لله، ويتصدق لله، ويحسن ويعمل الأعمال الصالحة لله، هذا يجدها مضاعفة أضعافاً كثيرة.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مثل ما ذكرنا لكم، الله الذي أنزل الكتاب والميزان وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المشرع وهو الحاكم، بدأ يناقش هؤلاء الكفار في شركائهم وشرائعهم وأديانهم الباطلة، فيقول لهم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].

يقول: لهؤلاء شركاء من الشياطين، شياطين الإنس والجن، شرعوا لهم -أي هؤلاء الشركاء شرعوا لهم للكفار- من الدين ما لم يأذن به الله، هذا دين فاسد باطل. شرعوا لهم أدياناً وعبادات، تذهب تجد عند أهل البدع والكفار واليهود والنصارى من العبادات التي شرعت، التي شرعها لهم شياطينهم، شياطين الإنس والجن، لم يشرعها الله ولم يأمر بها الله.

يقول: هل لهم شركاء شرعوا لهم من الدين؟ أي الدين الذي يتعبدون به وهو دين باطل، ما لم يأذن به؛ شرك وكفر وبدع وإنكار للبعث ما لم يأذن به الله.

يقول: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ﴾ [الشورى: ٢١]؛ لولا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قضى وفصل وحكم بأن الجزاء لا يكون إلا في الآخرة.

قال: ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٢١]؛ لنزلت بهم العقوبة مباشرة ونزل بهم العذاب، ولكن الله يؤخرهم إلى هذا اليوم ليحكم بينهم يوم القيامة، وإلا لقضي بينهم.

قال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]. الظالمين الذين شرعوا وتعبدوا غير الله ودانوا لغير الله، هؤلاء ظلموا حق الله وظلموا شرعه وخرجوا عن دينه، هؤلاء لهم عذاب أليم يوم القيامة.

ولذلك قال بعدها: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ [الشورى: ٢٢]. الظالمين يوم القيامة مشفقين خائفين مما كسبوا من أعمالهم، شوف، قبل قليل الساعة يستعجلون بها والمؤمنون خائفون منها في الدنيا، شوف: من خاف في الدنيا آمنه الله في الآخرة.

هؤلاء الكفار آمنون في الدنيا، لما جاء يوم القيامة قال الله عنهم مشفقين: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ خائفين؛ لماذا؟ لأن بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون، ظهرت لهم أمور ما كانوا يتوقعونها، يقولون: ربنا ارجعنا نعمل صالحاً، ربنا أعدنا، ربنا أخرجنا.

قال: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢]؛ خائفين مما كسبوا من أعمالهم السيئة، قال: ﴿وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾؛ يعني هذا العمل السيء لا بد أن يجازون به، واقع بهم ولا بد أن يحيط بهم هؤلاء.

وإذا وقع بهم وأحاط بهم، ذاقوا العذاب بسبب هذه الأعمال، بسبب أعمالهم السيئة، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ [الشورى: ٢٢]؛ آمنوا حققوا الإيمان، آمنوا بالله وبرسله، وآمنوا بما جاءهم عن الله، واتبعوا إيمانهم هذا بالأعمال الصالحة.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾، في روضات الجنات، ليست روضة ولا روضة، رياض روضات؛ والرياض هي الأماكن الخضراء التي حفت بالخضرة وبالزهور وبالروائح الطيبة والألوان الذكية والمكان الواسع، وهم يتقلبون في هذه الروضات، هم وأزواجهم وذرياتهم، في روضات الجنات، وليست أي روضة، لا تظنها أنها روضة من رياض الدنيا؛ لا، روضات الجنات.

يقول: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢].

وهم في هذه الروضات يطلبون ما يشاؤون، لهم ما يشاؤون عند ربهم، كل ما تلذ الأعين وتشتهي الأنفس في هذه الروضات، لهم ما يشاؤون عند ربهم، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]. هذا الفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشورى: ٢٣].

يقول: هذه بشارات للمؤمنين، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، آمنوا وعملوا الصالحات واتبعوا ما أنزل الله وتمسكوا بشرعه، هذه بشارات لهم، يبشر الله بها عباده.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبر عن نبيه محمد في دعوته؛ الرسول يدعو قومه، وقومه يؤذونه، يؤذونه ولا يرضون بدعوته ويضيقون عليه، فيقول: قل لهم أنا أدعوكم ولا أطلب منكم الأجر، ما أقول لكم في دعوتي أعطوني أجراً حتى تضيقون علي، لا أسألكم عليه أجراً ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣].

أنا ما أدعوكم ولا أسألكم إلا أن تودوني في قرابتي، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما من بطن من بطون قريش إلا وله قرابة فيه، فيقول: يعني الطفوا بي واعرضوا عني ولا تؤذوني لأجل قرابة بيني وبينكم، رحم؛ فلا تؤذونني وتنسون هذا الرحم، فاتركوا دعوتي.

وقال بعضهم: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾؛ أي إلا محبةً تقرب إلى الله، يعني أنا ما أسألكم أجراً ولكني أتقرب بمحبتي لعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أحب عبادة الله وأحب التقرب إليه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]. يقترف يعني يكسب الحسنات، قال: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾. يقول: الذي يكسب الحسنات ويجمع الحسنات ويعمل الحسنات، يقدم صدقة، يقدم كلمة طيبة، يقدم عملاً صالحاً، هذه الله يزيدك أجوراً عظيمة.

يقول: نزد له فيها حسناً. تصور معي أيها الأخ الفاضل لو تصدقت أنت بريال واحد، أو تصدقت بعدل تمرة بمقدار تمرة أو نصف تمرة.

- **ما هي النتيجة؟**

يأخذها الله بيده، يتقبلها قبل أن تقع في يد الفقير، تقع في يد الله؛ فيأخذها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيده الكريمة، فيربيها عنده كما يربي أحدكم فلوه، كما يربي الخيل، حتى تكون هذه التمرة مثل الجبل.

يعني تصور أنت تصدق بشيء خفي وقد لا تلتفت إليه، لكنه عند الله عظيم. يقول: ومن يقترف - من يعمل- حسنة نزد له فيها حسناً، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى: ٢٣]؛ غفور لما حصل من التقصير، وشكور يجازي القليل بالكثير، القليل بالكثير.

ولذلك هؤلاء الكفار مثل ما ذكرنا يضيقون على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويمنعونه من الدعوة، فلذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حتى إنهم اتهموا النبي بأنه يفتري على الله الكذب، ويقولون محمد يكذب على الله، فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ عنهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤].

أم يقولون أن محمداً افترى على الله كذباً؟ قال الله: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] يا محمد؛ لو افتريت عليه ما تركك، ختم على قلبك فأصبحت لا تفقه شيئاً، ولكن الله أعلم ما تركك هكذا وأنت تبلغ وتقول الله أمرني والله أرسلني والله يتركك، ما افتريت على الله.

والله عَزَّ وَجَلَّ هو الذي يمحو الباطل ويزيله ولا يبقيه لو كان باطلاً؛ بل محاه الله؛ ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الشورى: ٢٤]، يظهر الحق ويحق بكلماته، إنه عليم بذات الصدور، عالم بأحوال الخلق كلهم، وعالم بما يدور في صدورهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمن تاب، لعل هؤلاء الكفار يتوبون ويرجعون إلى الله، يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات يتجاوز، يقبل التوبة لمن تاب، وإذا تاب عليه عفي عن سيئاته، ويعلم ما تفعلون.

يعلم ما تفعلون من الأعمال، تبتم أو لم تبتم فإن الله عالم؛ فقوله يعلم ما تفعلون فيه ترغيب لمن يتوب، وترهيب لمن يبقى على معاصيه.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ٢٦]. فالذي يستجيب، الله لعباده المؤمنين إذا دعوه، فإنه يستجيب لهم، وإذا سألوه استجاب لهم ويزيدهم من فضله، وأما الكافرون لهم عذاب شديد؛ لأنهم لم يستجيبوا لربهم ولم يقبلوا عليه، هذا تفسير.

وبعضهم يقول: يستجيب أي المؤمنون يستجيبون لربهم؛ لأن الله قال: استجيبوا لربكم، وهم يستجيبون لربهم، فإذا استجابوا وعملوا الصالحات، فإن الله مقابل استجابتهم لربهم وإقبالهم على ربهم يزيدهم من فضله، وأما الكافرون الذين لم يستجيبوا لهم عذاب شديد.

لعل نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الشورى ٢٧ - ٣٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

... محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم. هذا اليوم يوافق التاسع والعشرين من شهر (ذي القعدة) من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، وهذه الليلة هي الليلة الأولى من شهر (ذي الحجة) فيما وصل؛ أن غداً هو اليوم الأول من شهر (ذي الحجة).

☜**ومن هذه الليلة تبدأ أعمال العشر، أو أعمال العشر، ومن أهمها وأبرزها التكبير؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ».

☜**وجاء في آخر الحديث قال:** «فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ» وغيره، فمن هذه الليلة يبدأ (التكبير المطلق): الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، يبدأ (التكبير المطلق) من هذه الليلة إلى أن تغرب شمس اليوم الثالث عشر من شهر (ذي الحجة)، هذا يسمى كله تكبيراً مطلقاً.

وأما (التكبير المقيد)، فإنه يبدأ من بعد صلاة الفجر من يوم عرفة، اليوم التاسع، إذا صلى الفجر من يوم عرفة يبدأ التكبير المقيد بدبر الصلوات؛ إذا سلّم الإمام وإذا سلّم المصلي صلاة الفرض، وقال: استغفر الله ثلاثاً، اللّٰهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

يبدأ (التكبير المقيد): الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، يكبّر إلى عشر مرات أو قريب من ذلك، ثم يشرع بأذكار الصلاة. هذا ما يتعلق بالتكبير.

☜**والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتح المجال لنا فقال:** «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِنَّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ...» ولم يقيد، فالأعمال الصالحة في هذه الأيام هي أفضل الأعمال وأحب إلى الله؛ أحب إلى الله أن يشتغل بالأعمال الصالحة، سواء من صيام هذه العشر أو التسع.

☜**وكذلك الصيام والذكر والتكبير؛ لأنه من خصائص هذه العشر بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ»**. ما قال: فكبروا، قال لا: فأكثروا، فأكثروا فيهن من التكبير والتهليل إلى آخره.

وكذلك المحافظة على صلاة الفجر، المحافظة على الصلوات الخمس وخاصة صلاة الفجر التي يغيب عنها كثير في هذه الأيام لقصر الليل وتبكير صلاة الفجر، الآن يؤذن ثلاث ونص وخمس أو سبع دقائق تجد المساجد الآن تقام الصلاة ويصلي الإمام وتنتهي الصلاة والعدد قليل جداً.

ففي هذا العشر فرصة للتوبة إلى الله والاستغفار والعودة إلى الله والندم على ما فات، والمسارعة في المحافظة على الصلوات، المحافظة على صلاة الفرض التي هي أحب ما يعمل العبد، كما في الحديث.

يعني مما افترضها الله عليه وهي الصلوات الخمس، يحرص عليها جماعة، يبكر للمسجد، يحافظ على (السنن الرواتب)، يكثر من قراءة القرآن، يجلس في المسجد كثيراً ويكثر من الذكر والتكبير والتهليل وتلاوة القرآن والصدقات.

والمجال مفتوح في كل شيء: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصح للمسلمين في كل مكان، وتذكيرهم بالأعمال الصالحة، والتوبة إلى الله، والاستغفار.

والإقلاع عن كثير من الذنوب، الاشتغال بما ينفع من تلاوة كتاب الله والذكر وطلب العلم وقراءة كتب أهل العلم و(كتب التفسير)، ولا يشغل نفسه أمام هذه الشاشات أو أمام الجوالات أو غير ذلك مما يأخذ وقته، والأيام أيام معدودات قليلة جداً، كلها تسعة أو عشرة أيام هذه هي العشرة، فليحرص الإنسان عليها.

ومن أهم هذه الأعمال أيضاً الحج إن تيسّر له، ومن أهم الأعمال الأضحية أيضاً، فـ يعني **«مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ مِنْ عَمَلٍ يَوْمَ النَّحْرِ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ إِهْرَاقِ الدَّمِ»**. وإنها لتقع بمكان قبل أن تقع على الأرض، فالإنسان يحرص على هذه الأعمال، نسأل الله الإعانة والتوفيق والسداد، وأن يبارك لنا في هذه العشر، وأن يجعلنا ممن استغله في طاعته.

عندنا (سورة الشورى)، ووقف بنا الكلام عند الآية السابعة والعشرين، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]

شوف الآية هذه دائماً، ويتكرر معنا كثيراً دائماً، انظر لما قبلها وما بعدها يتضح لك، تتضح لك، الآية التي قبلها يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن أنه يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون.

وأن المؤمنين يستجيبون لربهم ويبادرون بالطاعات والتوبة ويزيدهم من فضله من الأعمال الصالحة، يزيدهم من الأجور من فضله، وأما الكافرون فقد توعدهم الله بالعذاب الشديد.

لما بيّن أعمال العباد وأن الله محصيها ومجازيهم عليها، وأن حسابهم يوم القيامة، بيّن هذه الدنيا وأن الله يرزق المؤمن والكافر فيها، ولكنه يرزق بقدر ما يشاء سبحانه، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين في هذه الآية حكمته في رزق العباد، وأنه يرزق بقدر.

وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لو بسط الرزق ووسّع على الناس، ووسّع على الخلق أو على الناس عموماً وسّع عليهم الرزق وأصبحوا في نعم عظيمة، فإن الغالب عليهم، الغالب قلة الشكر، والغالب عدم حسن التصرف في هذا الرزق.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿لَبَغَوْا﴾ [الشورى: ٢٧] وتجاوزوا الحد وطغوا وبطروا واستكبروا واستعملوا هذه النعمة في معاصيه.

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكيم، حكيم لما ينزل بقدر؛ هذا يدل على حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لأنه لو أنزل عليهم الرزق ووسّع عليهم سيكون الأمر أنه يؤدي ذلك إلى الطغيان والاستكبار والاستبداد وعدم شكر النعمة واستعمالها في معصية الله.

وهذا مشاهد واقع، مشاهد تجد بعض الناس إذا وسع الله عليه طغى، ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾ [العلق: ٦-٧]، إذا رأى نفسه استغنى طغى، طبيعته هكذا، وبطر واستكبر واستعمل النعمة في معاصيه.

فالله سبحانه حكيم، قال: ﴿يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٧] ينزل الأرزاق بقدر ما يكفيهم، ولذلك ختم الآية قال: ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧]، خبير بما ينفعهم ويصلحهم، ولذلك ينزل بقدر، بصير، خبير بصير.

قال: بصير حيث دبّر وحيث تصرّف في أحوالهم وما يحتاجون إليه، وهو عالم بأحوالهم خبير بها، بصير بما ينفعهم، وجمع الله بين اسمين عظيمين من أسمائه: الخبير البصير، فالخبير الذي يعلم خفايا وخبايا الأمور، والبصير المطلع، المطلع العالم بأحوالهم.

ولذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر بسط الرزق والأرزاق وإنزالها، ذكر أن من أعظمها هذا المطر والغيث الذي يسوقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

هو المنفرد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الواحد المنفرد، الواحد المنفرد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الذي ينزل الغيث، لا ينزل الغيث ويأتي بالأرزاق إلا الله سبحانه، هو الرزاق، هو الرزاق ذو القوة المتين.

وهو الذي الغيث قال: ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨] ينزل المطر من السماء فيغيث العباد بعدما أيسوا وانقطع رجاؤهم ويبست آبارهم وماتت زروعهم وماتت مواشيهم، فحتى إذا قنطوا وأيسوا أن يأتيهم الرزق والمطر.

ساق الله لهم الغيث حتى يعرفوا قيمته؛ لأنه لو كان عندهم الخير والأمطار والآبار والمياه ثم ينزل غيث لا يكون له وقع ولا يكون له أهمية، لكن إذا يبست وبدأت تموت الأشجار والمزارع واحتاج الناس، ومسّ الناس الضر ووجدوا في أنفسهم القنوط واليأس، جاءهم الخير وتكون القلوب يعني متعلقة فتشكر الله عَزَّ وَجَلَّ وتحمده.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى: ٢٨] فيعمّهم الغيث، قال: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى: ٢٨] ينشرها في الأرض فتنتشر الأمطار وينتفع العباد والبلاد بهذا الخير، قال: ﴿وَهُوَ الْوَلِىُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨].

شوف الأول قال: خبير بصير، هنا قال: الولي الحميد؛ لأن هذا فيه خير وفيه رزق ساقه الله، هو وليهم وهو الذي يتولى، هو الذي يتولى العباد ويحسن ويمن عليهم بالإحسان وبالفضل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حميد يعني محمود على أفعاله، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يدبر الأمور وينفع العباد بما يحتاجون إليه.

فهم يحمدونه ويشكرونه وله الحمد وله الشكر، فهو وليهم الذي لم يتركهم يموتون ولم يتركهم هملاً، بل ساق إليهم الغيث حتى يعيشوا، ساق لهم الأرزاق فهو وليهم، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو الذي يُحمد على أفعاله هو الحميد.

شف لما ذكر لك الأمطار وإحياء الأرض وقدرته على إحياء الأرض، ذكر هنا قدرته أيضاً على بعث الناس من قبورهم، على بعث الناس من قبورهم، يقول هنا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾[الشورى: ٢٩].

يقول لك الآيات الدالة على عظمته، وعلى قدرته، وعلى سعة ملكه، هو الذي خلق السماوات، خلق السماوات والأرض دالة على عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعلى قدرته وعلى سعة ملكه، وهو الذي خلقها وملكها ويتصرف فيها.

قال: ﴿خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٩] دالة على أنه هو الواحد والمنفرد بالخلق والتدبير والعبادة، قال: ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩] لاحظ شوف كلمة ﴿فِيهِمَا﴾ [الشورى: ٢٩].

تعود إلى السماوات والأرض، إذن السماوات فيها دواب، الأرض فيها دواب وكلنا نعرف ذلك واطلعنا عليه، الأرض مليئة بالدواب من الهوام والحيوانات المتوحشة وغير المتوحشة ومن الأنعام ومن الناس، الأرض مليئة.

لكن السماوات نقول الآية تدل على أن السماوات فيها دواب، الملائكة تطير في السماوات، الملائكة لها أجنحة تطير وقد تمشي، وقد يكون هناك مخلوقات لا نعلمها، لكن الآية تشير إلى أن السماوات فيها دواب قد نعلم وقد لا نعلم علمها، وهذه الدواب التي في السماوات والتي في الأرض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بثها ونشرها، وهو قادر على جمعها يوم القيامة.

شوف قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩]، شوف ﴿إِذَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٢٩] للمستقبل، (إذا) و(يشاء) فعل مضارع، أي إذا أراد، إذا أراد جمعها فإنه قادر.

- **متى يجمعها؟**

يجمعها يوم القيامة، إذا جاء يوم القيامة جمع الأولين والآخرين وجمع الخلق كله في ذلك اليوم للحساب والجزاء ومصير الخلق، الذي خلقها قادر على أن يحشرها وأن يجمعها، الذي بثها في الأرض قادر على جمعها، فهذا معنى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] إذا أراد جمعهم ما يعجزه شيء.

قال: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]

ما وقع من مصيبة أصاب الإنسان قال: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، أي مصيبة تقع صغيرة أو كبيرة على هذه الأرض فإنها لا تقع إلا بسبب الذنوب، بسبب الذنوب والمعاصي.

قال: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] من الذنوب والآثام، ومع هذا يعفو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كثير من السيئات، فلو يؤاخذ الناس بما كسبوا ما ترك عليها من دابة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك عليها من دابة، ولكن الله رحيم وغفور وعفو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإذا أصاب العباد بشيء من ذلك يصيبهم بقدر ذنوبهم، والذي يعفو هو أكثر وأكثر.

- **شوف الآن حتى نعرف نربط الآية هذه، لما يأتيك شخص ويقول لك: طيب وش علاقة المصائب في هذه الآيات في مجيئها في هذه الآية؟**

الجواب: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق السماوات والأرض وبث فيها من الدواب وقادر على أن يجمعها.

وإذا جمع الخلق فإنه يحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم ويقضي بينهم ويفصل بينهم، ولما كانت الدنيا قد يصاب الإنسان ببعض ذنوبه ويجازيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ذكر أن هذه المصائب التي تصيب الإنسان هي جزء من العقوبات التي يعاقب الله بها عباده، فالإنسان في هذه الدنيا يقع في الذنوب والمعاصي ويقع فيما لا يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالله عَزَّ وَجَلَّ قد يجازيه ويحاسبه على هذا الأمر بهذه الذنوب والمعاصي.

قال: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣١].

يقول: أيها الناس، الله قادر على أن يصيبكم وأنتم في ملكه وتحت قدرته، ولن تفوتوا أبداً من حكمه ولن تخرجوا من حكمه، أنتم غير معجزين في الأرض ولا يمكن لأحد أن يفر من حكم الله أو يفوت من حكم الله، بل هو في قبضة الله وفي ملكه، ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى: ٣١].

يقول: إذا أراد الله بكم، فمن يتولى أمركم؟ ومن يصرف عنكم؟ ومن ينفعكم؟ ومن يصرف عنكم الضر والعقوبة إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ فأنتم في قبضته، فعودوا وتوبوا إلى الله وارجعوا إليه، واعلموا أن ما أصابكم هو بسبب ذنوبكم وأن الله يعفو عن كثير.

لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات السابقة أنه خلق السماوات والأرض وبث فيه من دابة، هذه من آيات الله، من آياته خلق السماوات والأرض، ذكر أيضاً من آياته هذه الجواري؛ يعني السفن التي تنطلق في البحار، قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الشورى: ٣٢].

وهي السفن في البحار كالأعلام، يقول كالأعلام؛ يعني إذا ارتفعت هذه الأشرعة أو الموضوعة التي وضعت لها هذه الأشرعة وراها الرائي من البعيد يظن أنها كالجبال، كالأعلام أي كالجبال، فترى في البحر هذه السفن والبواخر العظيمة تراها كالأعلام، تراها كالجبال لارتفاعها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الجواري التي وضعها الله وخلقها، وهذه السفن التي خلقها لمصلحة العباد في تنقلهم من مكان إلى مكان ومن دولة إلى دولة ونقل بضائعهم وما يحتاجون إليه، قال: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٣].

يقول: لو أراد الله إسكان الريح وأسكنها، أصبحت راكدة على ظهره، ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ [الشورى: ٣٣]؛ أي يبقين، تبقى هذه السفن سواكن، تبقى ساكنة على ظهر البحر لا تتحرك، لا تجري إلا بقدرة الله

وإرادته، ﴿رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣]. قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الشورى: ٣٣].

يقول في هذه: إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور. أنا ودنا يا إخوان نتأمل كلمة (صبار شكور)، وش علاقتها بالسفن والبحار؟ يقول: شف، يقول إن هذه السفن التي ينعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بها فتنطلق وتنقل البضائع وتنقل الناس.

إذا كانت تجري على هذا البحر والناس يركبونها، هذه تحتاج شكر، وتحتاج شكر، وإذا حصل مصيبة على هذا البحر أو تناطمت الأمواج، فهذا يحتاج إلى صبر، فالعبد بين الشاكر والصابر؛ يشكر على النعم إذا جاءته النعم شكر، وإذا أصابه ما أصابه من الأقدار فإنه يصبر.

وكذلك أيضاً في لمحة جميلة ذكرها بعض المفسرين يقول: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ [الشورى: ٣٣] يقول: يصبر على طاعة الله وهو على البحر ويصلي ويحافظ على طاعة الله ويبتعد عن المعاصي، ويصبر على أقدار الله المؤلمة إذا أصابه ما أصابه في البحر، ويشكر إذا أنعم الله عليه، فأهل البحر ما بين شاكر وصابر، لا أنه يجحد ويكفر كما يفعله الكفار.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال بعدها: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤]

أي يغرق هذه السفن في البحار بما كسبوا، يقول يغرقها بسبب ذنوبهم، لو أراد الله إغراقها أغرقها بسبب ذنوبهم، ولكن يعفو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعفو عن كثير، ليس عن شيء يسير، هذا ما يعفو الله عنه هو الكثير، ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم بعد هذه الآيات العظيمة الدالة على وحدانيته تجد من يجادل في الله ويجادل في توحيده وفي ألوهية، ويجادل في عبادته ويجادل في ملكه، كيف تجادل في الله وهذه آيات أمامك؟

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ هنا: ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى: ٣٥].

يقول: يعلم هؤلاء الذين يجادلون في آياتنا وفي توحيد الله وفي قدرته وفي ملكه أنهم ليس لهم محيد ولا ملجأ ولا مفر من هذا الشيء، فهم في قبضة الله، ما لهم من محيص؛ ما لهم من مفر ولا ملجأ ولا مخبأ يختبئون عنه، إذن الواجب عليهم ألا يجادلوا في آيات الله، بل الواجب عليهم أن يذعنوا ويقبلوا على طاعة الله.

يقول بعدها: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

يقول: ما جاءكم من خير ومن هذه الدنيا ومما يحصل لكم من هذه الأشياء من خير وأرزاق هي متاع الدنيا، لا تفرح بها فرح بطر، اشكر الله، والذي عند الله خير وأبقى، الذي عند الله في الآخرة خير وأبقى من هذا.

- **لمن خير وأبقى؟**

قال للذين آمنوا، للذين آمنوا. شوف هذه الآية الآن: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦] تذكر لنا مَن هم الذين لهم الآخرة؟ ومَن هم الذين ستكون الآخرة خيراً لهم؟ مَن هم؟ قال: الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون.

ثم ساق أوصافاً، ساق أوصاف المؤمنين من اجتنابهم الكبائر والفواحش، ومغفرتهم إذا غضبوا، واستجابتهم لربهم، وإقام الصلاة، والصدقات، وأمرهم شورى بينهم، إلى آخر هذه الصفات الست أو السبع أو الثمان، هذه سيأتي الكلام عنها إن شاء الله.

صفات المؤمنين الذين ذكرهم الله والذين جعل لهم الآخرة وقال الآخرة خير لهم وأبقى، هذا ما يأتي في ذكر هذه الصفات، يأتي الكلام عنها إن شاء الله في اللقاء القادم.

لكن أيها الإخوة الأسبوع القادم لا يوجد درس؛ لإجازة الحج إن شاء الله، والذي بعده نعلن عنه إن شاء الله في وقته، نسأل الله أن يتقبل.

وأعيد وأكرر هذه الليلة من العشر نحرص على أعمال العشر ومن أبرزها وأهمها التكبير في كل وقت، في الطريق وفي كل وقت، نسأل الله الإعانة والتوفيق والسداد، والله أعلم وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الشورى ٣٦ - ٤٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم هو يوم الثلاثاء، الموافق للحادي والعشرين من شهر ذي الحجة من عام ستة وأربعين للهجرة، درسنا في تفسير القرآن العظيم و (سورة الشورى)؛ (سورة الشورى) يعني تحدثنا عنها في لقاءات ماضية، وأخذنا آيات منها، الآن نواصل ما توقفنا عنده.

أولاً عندنا الآية السادسة والثلاثون من السورة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه المحكم في هذه السورة العظيمة: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

"فما أوتيتم من شيء" يعني: ما أُعطيتم في هذه الدنيا من أي شيء؛ كثيراً كان أو قليلاً، ثميناً أو ليس بثمين، أو غير ذلك، فهو متاع؛ والمتاع أصله ما يتمتع به الإنسان يعني زمناً ثم يذهب ينتهي، متاع يعني عرض لا يبقى.

وهذه الآية، كما نص عليها بعض المفسرين، فيها التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة، وليس معناها الإعراض عن الدنيا؛ لا تعرض عن الدنيا، الدنيا تعين على الآخرة، والدنيا مطية للآخرة.

الله أمر قال -أمرنا أن نسعى في الأرض-: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]؛ فالإنسان لا يعرض عن الدنيا بالكلية، ولكن لا تغلبه الدنيا على الآخرة، والدنيا تكون في يديه والآخرة في قلبه، لا العكس.

والإنسان يحرص على الدنيا لأجل الآخرة، لا يحرص على الدنيا على حساب الآخرة؛ هذا هو المقصود، لا بد أن نأخذ بهذا الميزان حتى لا يطغى هذا على هذا.

الأصل في الإنسان أنه مخلوق لمصيره الأخير وهو الجنة أو النار، والدار الباقية هي الدار الآخرة، وأما الدنيا فهي تعين على الآخرة، والأعمال التي يذكرها الله أو يأمر بها أو يحث عليها هي لتكون للإنسان في الدار الآخرة.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما يزهد في الدنيا هنا يرغب في الآخرة؛ ليسعى الإنسان إلى نهايته وإلى مقامه ومثواه الذي سيقيم فيه، والحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية.

قال: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦]؛ يعني يحيا به الإنسان ويذهب ويتركه، قال: ﴿وَمَا عِندَ اللّهِ﴾، الذي عند الله خير من الدنيا وأبقى منها؛ خير وأبقى، لكن ليس لكل الناس، لمن؟

قال: ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾، آمنوا يعني: صدقوا بما جاءهم عن الله، كل ما جاءهم عن الله وعن رسوله آمنوا وصدقوا واتبعوا من الأوامر والنواهي والأخبار.

فإذا أخبر الله بخبر صدقوا به، وإذا أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بخبر صدقوا به، وإذا أُمروا بأمر ائتمروا به، وإذا نُهوا عن شيء انتهوا عنه؛ هذا حقيقة الإيمان التصديق، **(تصديق مع العمل)**.

قال هنا: ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾. شوف قضية **(التوكل)** دائماً مربوطة بالإيمان؛ لأن **(التوكل)** عبادة وجزء من الإيمان، لا يتم إيمان العبد إلا بالتوكل على رب العالمين.

و **(التوكل)** معناه هو الاعتماد على الله في جلب الخير ودفع الشر؛ تفوض أمرك إلى الله، يتولى أمرك، وتعتمد على ربك في كل شيء، يعني لو استحضرنا دائماً حقيقة **(التوكل)** في جميع أحوالنا وجميع أعمالنا لوجدنا أثر هذا **(التوكل)** أثراً عظيماً.

ولذلك **(التوكل)** هو اعتماد القلب على الله، لا تعتمد على نفسك، ولا على جهدك، ولا على ذكائك، ولا على علمك ومعرفتك، لا تقل: أنا أعرف وأعلم، وأنا ذكي، وأنا أفعل وأنا وأنا، أنت تتوكل على ربك وتفوض أمرك إلى الله وتعتمد عليه في جلب الخير ودفع الشر، لا يأتيك بالخير إلا الله، ولا يدفع عنك الشر إلا الله.

﴿آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، شوف **"يتوكلون"** يأتيك بالفعل المضارع؛ ما الفائدة؟ يفيد الفعل المضارع دائماً يفيد الاستمرار، ما قال «توكلوا» وانتهوا، لا، قال: ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ في جميع أحوالهم؛ في

الصباح والمساء، وفي جميع الأحوال الصغيرة والكبيرة، وفي كل حتى في العبادات وفي العادات وفي كل الأحوال، توكلنا على الله، توكلنا على ربنا، فهذا معناه يتوكلون.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهؤلاء الذين أعد الله لهم الآخرة، وقال ما عند الله خير وأبقى، ذكر صفاتهم:

- الصفة الأولى: الإيمان.
- الصفة الثانية: التوكل على رب العالمين وهو تفويض الأمر إلى الله.
- الصفة الثالثة: قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [الشورى: ٣٧]؛ **(الصغائر)** قد يقعون فيها ولكنهم يبادرون بالتوبة، العاقل المؤمن قد يقع، ما في أحد معصوم من الذنوب إلا الأنبياء والرسل، فالناس غير معصومين فيقعون في بعض الذنوب لكن يبادرون بالتوبة.

والعاقل يكثر من التوبة والاستغفار في الصباح وفي المساء وفي الأوراد وفي كل وقت؛ أستغفر الله وأتوب إليه، أستغفر الله وأتوب إليه؛ لأن كثرة الاستغفار تزيل الذنوب، والأعمال الصالحة تمحو الذنوب.

الصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان، والعمرة إلى العمرة مكفرات تكفر، أما **(كبائر الذنوب)** لا بد من التوبة؛ ولذلك هنا شوف حث على أن هؤلاء، هؤلاء الذين وعدهم الله بأن الدار خير لهم وأبقى، أنهم لا يقعون في كبائر الذنوب، لا يقعون فيها يجتنبونها، واجتنابها الابتعاد عنها بالكلية، ما يقتربون منها.

﴿يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾، الإثم: المعصية، يجتنبون **(الكبائر)** من المعاصي، ثم قال: ﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾.

- **ما الفرق بين (الفواحش) و (الكبائر)؟**

قيل: **(الفواحش)** هي جزء من **(الكبائر)** ولكن خصها الله لشناعتها، وإلا **(الفواحش)** كالزنا واللواط وكل ما فحش من الأقوال والأفعال الكبيرة، وهي جزء من **(الكبائر)**، **(الكبائر)** أوسع و **(الفواحش)** جزء منها، وخصها الله هنا لخطورتها.

قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾؛ هذه الصفة الثالثة: الأولى الإيمان، الثانية التوكل، الثالثة أنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا كانوا يجتنبون كبائر الإثم والفواحش فمن باب أولى يحرصون على البعد عن صغائر الذنوب؛ لأن **(الصغائر)** تجر إلى **(الكبائر)**.

⬅الصفة الرابعة: قال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]؛ إذا ما غضبوا يعني اشتد غضبهم، أو جاء شخص وأغضبهم يغفرون، هذا العاقل. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ يأتيك شخص يثير حفيظتك ويغضبك، فإذا أغضبك، فمن صفات المؤمن أنه يتحمل ويصبر ويتجاوز ويغفر، هذه صفة رابعة.

⬅الصفة الخامسة: قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

"استجابوا لربهم" يعني: أجابوه في كل ما أمرهم، وهذا شيء عظيم؛ أنهم لم يترددوا ولم يتوقفوا ولم يتباطأوا، بل أسرعوا واستجابوا لربهم.

- **كلمة الاستجابة ما الذي يكون ضد الاستجابة؟**

الامتناع، وهم لا يمتنعون ولا يترددون؛ علموا أن الله فرض عليهم هذا الشيء فيبادرون، علموا أن الله نهاهم عن هذا الشيء يبتعدون عنه، استجابوا لربهم.

قال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، إقامة الصلاة من الاستجابة، وذكرها وتخصيصها لعظم الصلاة؛ وإلا هي داخلة في يستجيب لربه لأن الله أمرهم بإقام الصلاة.

قال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، شوفوا التعبير بكلمة **"أقاموا الصلاة"** غير **"صلّوا"**، إقامة الصلاة: الإتيان بها بخشوعها وأركانها وواجباتها وسننها والمحافظة عليها؛ هذا معنى أقاموا الصلاة، أقاموها على الوجه الصحيح.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، يتشاورون، لا يستبد أحدهم برأيه، وإنما كلٌّ يطرح رأيه ويتشاورون، يعقدون مجالس الشورى سواء على مستوى الدول، أو على مستوى المؤسسات والشركات، أو على مستوى البيوت ونحوها.

تجد صاحب البيت يعني يطرح الرأي شورى بين أهل البيت، هذا من منهج الإسلام، منهج الإسلام الاستشارة، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاءه الوحي استشار خديجة، وخديجة استشارت ورقة.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما خرج لبدر لأخذ (العير)، عير قريش، ثم حصل ما حصل من لقاء العدو استشار الصحابة: "مَا تَقُولُونَ؟"، واستشار الصحابة في غزوة الخندق، وأشياء كثيرة؛ (فالشورى) مبدأ إسلامي ضروري، ولا بد أن يكون هذا المبدأ مبنياً على الكتاب والسنة، يستشيرون ويتشاورون فيما بينهم في دائرة الكتاب والسنة.

قال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾؛ شوف جعل الشورى بين الصلاة والإنفاق، مع أن الصلاة والإنفاق دائماً تكون هذه بعد هذه، أدخل الشورى لأهميتها.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، شوف "ينفقون" فعل مضارع يدل على الاستمرار، دائماً ينفقون، هذه صفات من وعدهم الله بأن الدار الآخرة هي خير وأبقى.

الصفة السادسة: قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، البغي: الظلم، إذا ظلموا وظلمهم أحد ينتصرون، ينتصرون لظلمهم، لا يتركون أنفسهم يُظلمون، ولا يقابلون هذا ولا يردون هذا الظلم بل ينتصرون على من ظلمهم، ينتصرون لأنفسهم على من ظلمهم.

شوف كم صفة: أولاً الإيمان، ثم التوكل، ثم اجتناب كبائر الذنوب والفواحش، ثم المغفرة عند الغضب، ثم الاستجابة، ثم إقام الصلاة، ثم التشاور، ثم الإنفاق، ثم الانتصار على العدو؛ تسع صفات.

- **فيأتيك شخص يقول لك: طيب إذا بُغي عليك تنتصر؟**

الجواب: هذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾، ولكن ليس في جميع الأحوال؛ قد تُظلم في حال ولا تنتصر، قد تتجاوز، قد تتسامح، فتختلف الأحوال، ولذلك شوف قال الله بعدها ماذا قال؟ **قال:** ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

شوف هذه الآية فيها ثلاثة أحكام، تأملها جيداً وتدبرها جيداً، فيها ثلاثة أحكام:

الحكم الأول: أن جزاء السيئة سيئة مثلها، يعني لك أن تأخذ حقك ولك أن تجازي من فعل أو أساء إليك، ولذلك قال: جزاء سيئة سيئة، وقال: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

قال شوف: جزاء سيئة بمثلها، إذا أردت أن تنتقم من عدوك فبالقسط والعدل؛ جزاء سيئة مثلها، هذا الحكم الأول: أن لك أن تعاقب من عاقبك، وأن تعتدي على من اعتدى عليك.

الحكم الثاني: العفو، قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾؛ أساء إليك تقابل الإساءة بالعفو والإصلاح، تعفو عنه وتصلح الحالة التي بينك وبينه، لا تعفو وتمشي، أو تعفو وتسكت، أو تعفو وتكون في نفسك شيء، لا، تعفو وتتجاوز عن هذه السيئة وتصلح ما بينك وبينه حتى تعود الأمور إلى أحسن مما كانت، هذه الحالة الثانية: **(العفو عند المقدرة)**.

الحكم الثالث: الحذر من الظلم، قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾؛ تجد بعض الناس إذا اعتُدي عليه اعتدى وزاد وظلم وطغى، فهذه أحكام الآية: ثلاثة أحكام؛ من اعتدى علينا نعتدي عليه بمثل ما اعتدى علينا.

وننتقم ونأخذ حقوقنا منه كاملة بالعدل، وإن عفوت وأصلحت هذا أولى لأن الأجر عند الله، واحذر أن تظلم؛ إذا أخطأ عليك تخطئ عليه **(بالمثل)**، إذا ضربك مرة تضربه مرة، ما تضربه مرتين أو ثلاث وهكذا، هذا معنى هذه الآية.

وهذه الآية تعقيب لما سبق لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾، يعني أن الله أباح لهم أن ينتصر ممن ظلمه ويأخذ جزاءه بالعدل، وبيّن الانتصار ما وجهه، قال: جزاء سيئة سيئة مثلها، هذا انتصارك بالعدل، ولكن في حالات أخرى قد تقتضي الحال العفو والإصلاح، أو احذر أن تظلم، احذر أن تقع في الظلم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]؛ يقول: والذي انتصر، الذي ينتصر على عدوه بعد ما ظُلم ما يقال إنه ظلم واعتدى، له الحق انتصار لنفسه.

﴿فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ ليس عليهم إثم؛ تأكيد بأن للإنسان أن يأخذ حقه بالعدل ويجازي من أساء إليه بالعدل، ينتصر بعد ظلمه، إذا ظُلم له أن ينتصر وليس عليه حرج في ذلك.

قال: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٤٢]؛ السبيل يعني: الإثم أو العقوبة، الإثم عليهم أو العقوبة عليهم، على الذين

يظلمون الناس، هم الذين يأثمون وهم الذين يعاقبون، الذين يظلمون الناس بغير حق، يظلمونهم ويبغون في الأرض أيضاً، يبغون في الأرض يعني: يظلمون ويفسدون في الأرض بغير الحق.

- **لكن قد يأتيك شخص ويقول لك: يبغون في الأرض بغير الحق، هل يمكن أنهم يبغون بحق؟**

الجواب: لا، البغي والظلم والتعدي ليس فيه حق وغير حق، البغي محرم والظلم محرم، لكن قوله **"بغير الحق"** تشديد وتنبيه على أن الظلم كله لا يجوز وفيه تشنيع لهذا الأمر، مثل ما قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن اليهود: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، هل يقتلونهم بحق؟ ما في لا حق ولا غيره، لكن من باب التشنيع.

قال هنا: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، من هم؟ الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، قال: أولئك لهم عذاب أليم، توعدهم الله بالعذاب الأليم، والسبيل عليهم يعني الإثم عليهم.

ثم ختم هذه الصفات الطيّبة والأحوال والتعامل مع الآخرين بأمر من أهم الأمور التي مضت كلها، شوف لك أن تجازي من أساء إليك بالعدل، ولك أن تعفو وتصلح، ولك يعني وجوه كثيرة، لكن آخرها قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

قد يأتيك شخص ويخطئ عليك ويظلمك ويسيء إليك ويسبك ويشتمك، أنت لك أن تنتقم، لك أن تأخذ حقك وتنتقم منه أساء إليك تسيء إليه وتفعل ما تشاء فيه بالعدل، لكن من صبر وتحمل؛ لأن **(الصبر)** أثنى الله عليه، قال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وذكر الله **(الصبر)** في أكثر من سبعين آية كلها فيها ثناء على **(الصبر)** والتمسك، ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وغيرها.

قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾.

قال أهل العلم: "إن الصبر في الدين بمنزلة الرأس من الجسد، لو ذهب الصبر أصبح الدين لا حركة فيه كما إذا ذهب الرأس الجسد لا فائدة فيه"؛ (فالصبر) أمر صعب، ويحتاج إلى مجاهدة.

قال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾؛ قد تصبر وفي نفسك شيء، قد يخطئ عليك شخص وتصبر ولا ترد عليه وتمسك نفسك لكن نفسك ما زالت فيها شيء من الغيظ والحنق، قال لا، قال: **"صبر وغفر"**، درجة عليا.

قال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾؛ يعني هذا الصبر والمغفرة من الأمور التي يُعزم عليها، التي ينبغي للإنسان أن يعزم عليها دائماً وأن يتحلى بها، ولذلك جعلها الله آخر هذه الصفات.

مع أن التعامل مع الناس من أصعب الأمور، والتعامل يعني خاصة في البيوت أو غير البيوت، أو مع الجيران أو مع الناس أو في المسجد أو في السوق أو في أي مكان مسألة تحتاج إلى صبر ومغفرة، وستجد أثرها الطيب مهما حصل، وليس فيها ضعف وخور أن تقول: أنا لا بد أن أنتقم؛ لك أن تنتقم، ما منعك الإسلام، أعطاك الحرية في ذلك: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، لكن **"صبر وغفر"** أمر يحتاج إلى قوة وإلى صبر.

شوف قال بعد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر صفات المتقين وصفات الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إلى غيرها من الصفات وكيفية التعامل مع الآخرين، بيّن أثر الهداية للذين اهتدوا لهذا الشيء، وأثر من ضل ولم يهتدِ؛ قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤].

يقول: هذا الذي أضلّه الله ولم يعرف طريق الهداية، ولم يتخلق بأخلاق القرآن، وصار في ضلال، لن تجد له ولياً يتولى أمره من بعده، قال: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

يقول: الظالمين إذا رأوا العذاب يوم القيامة - لأن عذاب الدنيا إذا عُذّبوا مثلاً بالقتل أو بالأسر فلهم أن يرجعوا، له أن يتوب ويستغفر، أما في الآخرة فليس له رجوع، فلذلك قال لما رأوا العذاب -عذاب النار- هم هؤلاء الظالمون يقولون: هل لنا أن نرجع إلى الدنيا نعمل صالحاً؟ ربي ارجعون، ما في فرصة.

يقولون: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾؛ هل هناك طريق نرجع، نرد إلى الدنيا حتى نعمل صالحاً؟ ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]، ونعمل صالحاً، ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].

الدنيا عندك فرصة تتوب، عندك فرصة ترجع، عندك فرصة تعمل صالحاً، فإذا جاءت الآخرة وخرجت من الدنيا وانتهيت فليس لك مرد وليس لك طريق إلى العودة أبداً ويستحيل.

ولذلك يصف الله أحوال هؤلاء الخاسرين أهل الباطل الذين ضلوا؛ قال: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، أي على النار، يعرضون عليها أمامها على شفير جهنم.

﴿خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ خائفين، خاشعين من الذل، ليس خشوع المؤمن، خشوع المؤمن ليس من الذل، هؤلاء خشوع ذل، فيهم الذلة والمهانة.

قال أيضاً: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾؛ يعني ينظرون مسارقة وشزراً، يعني ينظرون إلى النار، مثل ما تشوف أنت الآن المجرم لما يؤتى به ليحاسب، تجده ذليلاً قد أطرق رأسه إلى الأرض وينظر بنظرات على خوف؛ فهذا الذي ينظر من طرف خفي، من عين ينظر بعينه خافية، قد أخفى عينه لما فيه من الذلة والمهانة والصغار.

- **والمؤمنون يرون هؤلاء ويقولون فيهم، ماذا يقول المؤمنون؟**

﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الشورى: ٤٥]؛ هؤلاء هم الذين خسروا أنفسهم، الخسارة الحقيقية من خسر نفسه وخسر أهله يوم القيامة وأصبح من أهل النار.

ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾؛ مقيم: مستمر قائم لا يفتر عنهم ولا يخرجون منها.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦]؛ ليس لهم أولياء ينصرونهم، أين أولياؤهم في الدنيا؟

لا الأصنام ولا الأموات ولا أحد من المخلوقين ينصرهم ويخلصهم من هذا العذاب. ﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾؛ إذا أضلّه الله وترك طريق الهداية وسلك طريق الشقاوة واستمر فيه، فأضله الله وتركه، لن تجد له، لن تجد من يهديه.

لعلنا نقف عند هذا القدر أيها الإخوة، نكتفي به إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نواصل ما توقفنا عنده. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الشورى ٤٧ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والحمد لله، ونصلي ونسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم. هذا اليوم يوافق الثامن والعشرين من شهر ذي الحجة من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، سورة الشورى وتفسيرها، ومضى الكثير منها وبقي القليل، وفي هذا اليوم نختم السورة بإذن الله.

وقف بنا الكلام عند الآية السابعة والأربعين من السورة، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧].

مر معنا كثيراً أيها الإخوة؛ إذا أردت أن تفهم الآية جيداً، ومما يعينك على فهم الآية: استيعاب معناها، انظر لما قبلها وانظر إلى ما بعدها، يتضح لك المعنى بكل سهولة.

الآن انظروا لما قبلها؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عن الكافرين والخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، لما قال: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥]؛ أي على النار، خاشعين ذليلين متذللين من الذل، ينظرون من طرف خفي من شدة الضعف والخوف والهوان، وهم الخاسرون، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى: ٤٥].

ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٦]؛ ما وجدوا أحداً ينصرهم، ومن يضلل الله فما له من سبيل.

قال بعدها: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾؛ إذا كان هؤلاء الكفار قد توعدهم الله بالعذاب الأليم، وبهذه الصورة التي أوضحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنهم سينالون من العذاب من الذل والهوان، فاستجيبوا! لماذا تترددون؟ استجيبوا لربكم أيها الكافرون المعرضون الذين لم يؤمنوا حتى الآن؛ استجيبوا وبادروا.

وأنتم أيها العصاة من المؤمنين الذين ارتكبتم كثيراً من الذنوب والمعاصي وظلمتم أنفسكم بالخطايا؛ استجيبوا لربكم وتوبوا إلى ربكم توبة نصوحاً، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧].

- **ما هو هذا اليوم؟**

هو يوم القيامة، ويوم القيامة هو قيام الساعة والنفخ في الصور وخروج الناس من قبورهم، هذا يوم القيامة؛ لكن لا يغيب عنا أن كل انسان له يوم خاص وهو أجله، من جاء أجله فقد قامت قيامته، من مات قامت قيامته؛ يعني أنه انتقل إلى عالم الآخرة، لم يكن من أهل الدنيا خلاص طويت صحيفته التي كان فيها في الدنيا فانتهى أمره.

استجيبوا لربكم أيها الكفار، وأطيعوا واستجيبوا وآمنوا، وكذلك أيها المقصرون، أيها المذنبون، أيها المخطئون؛ توبوا إلى الله واستجيبوا واستغفروا، ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ [الشورى: ٤٧] وهو نزول الموت بكم أو يوم القيامة.

هذا اليوم ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٧]؛ لا يمكن رده، إذا جاء الموت ونزل بهم الموت لا يمكن لأحد أن يتأخر أو يتقدم، ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. لا مرد له من الله؛ لا أحد يستطيع أن يرده، ولا يمكن أن يرده لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

لا مرد له من الله، فإذا جاء ذلك اليوم: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ﴾ [الشورى: ٤٧]؛ ليس لكم ملجأ ومكان تختفون فيه وتهربون إليه من العذاب وتسلمون من العذاب، ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]. يقول: إذا جاء هذا اليوم لن تستطيع أن تفر منه أو تلجأ إلى شيء أو تختفي أو نحو ذلك، وبرزوا لله جميعاً.

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]؛ يعني لا يمكن أن تنكرون فيه شيئاً، خلاص ما في إلا التسليم لله، ألقوا إلى الله يومئذ السَّلَم واستسلموا لله واعترفوا بذنوبهم، ما في أحد يقول والله أنا ما فعلت، ما في يعني، ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧].

ففي هذه الآية -كما ذكر بعض أهل التفسير- يقول: هذه الآية فيها الحث على المبادرة إلى التوبة وإلى الاستجابة والحذر من التسويف، كثير من الناس يسوف.

يقول: غداً أتوب، بعدين أتوب، سواء كان من الكفر والإلحاد أو من المعاصي والذنوب، غداً أبادر، غداً أتوب وهكذا؛ فالتأخير سيء ليس في مصلحة الإنسان، قد يمنعك مانع من التوبة ما دام أنك عندك القدرة الآن على التوبة النصوح والله يأمرك بالاستجابة والتوبة؛ فبادر، بادر قبل أن لا تستطيع أن تبادر.

شوف الآن بعد ذلك، قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾؛ ولم يستجيبوا لك ولم يؤمنوا هؤلاء الكفار والمشركون، أو أعرض أولئك المعاندون أصحاب الذنوب والمعاصي ولم يبادروا وسوفوا توبتهم، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الشورى: ٤٨].

إذا أعرضوا ولم يقبلوا دعوتك فانت لست حفيظاً عليهم، لا تحفظ أعمالهم، أنت تبلغ رسالة ربك، أنت تجتهد في إبلاغ الرسالة، انظر قال: ﴿مَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [الشورى: ٤٨] ولا رقيباً ولا محاسباً، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]؛ عليك أن تبلغ رسالة ربك.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بين موقفهم من التوبة والاستجابة، بين حال الإنسان في الدنيا وحبه للدنيا، وعدم اتزانه في مقادير الله وفي ما يقدره الله في هذا الكون، فقال: وهؤلاء الكفار، قال: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ [الشورى: ٤٨].

- **هذا الإنسان ما هو؟ هل هو المؤمن ولا الكافر؟**

الجواب: لا، هذا الكافر ليس المؤمن، المؤمن سيأتيك ما موقفه، هذا موقف الكافر، يقول: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ [الشورى: ٤٨].

الفرح هنا ليس فرح شكر؛ المؤمن يفرح ويسعد بالنعمة من الله ويشكر الله، الكافر يفرح فرح بطر واستكبار وجحود، فهذا هو، قال الشيخ: وإذا أذيق الإنسان منا فرح بها؛ إذا أذاقك الله النعمة والرحمة تشكر الله، تشكر الله وتفرح بها على وجه الشكر والاعتراف بها.

انظر قال بعدها: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ [الشورى: ٤٨]؛ شوف الأول قال: ﴿أَذَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ [الشورى: ٤٨] واحد، ثم جاء بالجماعة قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ [الشورى: ٤٨]؛ لأن المراد بالإنسان هنا جنس الإنسان، ليس إنساناً واحداً.

قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٨]، المراد بالسيئة هنا المصيبة؛ مرض أو فقر أو جوع أو خوف أو حرب، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [الشورى: ٤٨] بسبب ذنوبهم بسبب معاصيهم، إذا أصابتهم سيئة ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]؛ جحود، يجحد وينسى النعم ويعدد المصائب ويقول: أنا ليس لي في هذه الدنيا شيء، أنا مصاب، أنا فيّ كذا، أنا فيّ كذا، فيعدد ما يصيبه من الأمراض والفقر والخوف ونحوه، كفور ما يذكر نعمة الله عليه أبداً.

☜**لكن المؤمن -مثل ما ذكرنا لكم- ما يفعل هذا الشيء؛ يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». المؤمن إذا أنعم الله عليه وإذاقه رحمة ونعمة، شكر؛ يفرح على فرح الشكر والاعتراف بنعمة الله، وإن أصابته مصيبة بما قدمت يداه وسيئه، صبر وتحمل؛ لأنه يعرف أنه هو الذي تسبب، ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فهذا معنى هذه الآية، وهذه الآية حقيقة مهمة في حياة المسلم؛ لأنها تلمس الواقع، ما من إنسان إلا وقد يعني لا نقول لا يخرج من هذين الأمرين، ما بين فرح وترح، وما بين نعمة ونقمة، وما بين رحمة ومصيبة؛ فأنت تارة تأتيك الرحمة من الله وتفرح بها وتشكر الله، وتارة تأتيك مصيبة وتصبر وترضى، فما بين هذا وهذا.

وهذه المصائب والفتن والنعم والنقم البلايا؛ لأن الإنسان يبتلى بالنعمة ويبتلى بالفقر، يعني: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٦]؛ ابتلاه أكرمه ونعمه، وابتلاه فقدر عليه رزقه، فإن كان فقيراً فهو مبتلى، وإن كان غنياً فهو مبتلى.

لكن موقف المؤمن لا موقف الكافر؛ الكافر إذا ابتلي بالرخاء فرح بطر واستكبر وجحد نعمة ربه، وإذا أصيب بالضراء كفر وجحد، المؤمن لا؛ إذا أصيب بالسراء والخير شكر، وإذا أصابته الضراء فإنه يصبر.

قال بعدها بعد ذلك؛ يعني لما ذكر حالة الإنسان في الدنيا، ذكر بعدها أن كل تصرفات الإنسان هي بيد الله وهو المالك لكل شيء المتصرف في العباد، ومن أعظم الأمور التي يملكها الله ويتصرف فيها في العباد هي: رزق العباد بالأولاد.

- **من الذي يرزق العباد بالأولاد؟**

هو الله، ما أحد يستطيع أن يرزق نفسه ذرية، هو يتزوج ويفعل الأسباب لكن الذي يرزق ويهب هو الله. ففي هذه الآية بيان ضعف الإنسان وقلة حيلته، وأن الذي يملك هو الله، وأن الذي يتصرف فيه هو الله.

وأيها الإخوة الكرام، إذا علمنا أن المالك لنا المتصرف فينا هو الله، ما الواجب علينا تجاه ربنا؟ المالك لنا المتصرف فينا هو اللجوء إلى الله، والخضوع لله، والإقبال على طاعته، والاستقامة على شرعه، والإذعان له، والاعتراف بملكه وتصرفته وقوته، وضَعْف هذا الإنسان وانه لا حيلة له.

والله إذا حرم الذرية، والله لو دفع ما في الدنيا كلها وذهب يميناً وشمالاً وما ترك مكاناً ما يستطيع إلا إذا أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ففي هذه الآية بيان لقوة الله وملكه وسعة تدبيره وتصرفه، وضعف هذا الإنسان المسكين الذي لا يملك شيئاً.

انظر قال الله في أول الآية، في بدايتها: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] لا لغيره، هو المالك لها، مالك للسماوات والأرض وما فيها، ولذلك قال بعدها ماذا قال؟ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٤٩]؛ يوجد الأشياء بإرادته، يخلق ما يشاء، إذا أراد أن يخلق خلق، خلق ما يشاء هو.

- **ثم بدأ يفصل ما الذي يخلقه؟**

قال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ [الشورى: ٤٩]؛ يهب، شوف ما قال لك قال لك يهب؛ لأن هذه موهبة من الله، هذه الله يهبك، يعطيك بلا مقابل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تجده كافراً ملحداً معرضاً يسب الله ورسوله ومع ذلك يرزقه الله الذرية، فهذه من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكمة.

- **قال: يهب لمن يشاء إناثاً، لماذا قدم الإناث؟ ما السبب؟**

السبب الأول: ذكر بعض أهل التفسير عدة أسباب، أشهرها أن النساء أكثر من الرجال فقدمهم لأنهم هم الأكثر، فالتقديم سببه الكثرة.

السبب الثاني: قالوا: لأن العرب تأنف النساء ولا تحبها، فأراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يزيل عنهم هذا الشيء فقدم الإناث على الذكور حتى يزيل عنهم هذه الأنفة والكبر، فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا﴾ [الشورى: ٤٩].

وجاء في بعض الآثار عن عائشة وغيرها أن تبكير المرأة بالبنت بحيث أنها تبكر بالبنت، يعني تلد أول ما تلد بنتاً، يقول: هذه بركة، تبكيرها بركة عليها أنها تأتي بأنثى، فقال: يهب لمن يشاء إناثاً، بدأ بالإناث ثم قال: ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، يعطي آخرين ذكوراً.

ثم قال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ [الشورى: ٥٠]؛ يزوجهم يعني يصنفهم، يعني يرزقهم أصنافاً؛ ذكور وإناث، تجد الرجل عنده بنات وعنده بنين كذا وكذا، يزوجهم ذكراناً وإناثاً، شوف لما اجتمع الذكور والإناث قدم الذكران لأنهم أشرف.

شوف قال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ﴾ [الشورى: ٥٠]، ما قال أو يزوجهم إناثاً وذكراناً، لا، قدم الذكور على الإناث؛ لكن تلاحظ أن هنا قال: ﴿ذُكْرَانًا﴾ [الشورى: ٥٠] وهناك قال: ﴿الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]، أيهما أبلغ؟

قالوا: ﴿ذُكْرَانًا﴾ أبلغ، ذكران أبلغ من حيث الجمع أبلغ ويفيد الكثرة.

- **ليش قال ذكراناً وإناثاً؟**

قال: لأنه لما جاء في الإناث، والإناث كثير، أشار إلى صيغة الذكور بالكثرة حتى يعطيهم ميزة؛ لأنه قدمهم لتميزهم لفضلهم وكثرتهم.

قال: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠]، هذا القسم الرابع، القسم الرابع قال: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى: ٥٠] لا يولد له، حكمة من الله؛ لأنه لو فرضنا أن الله أعطاه قد يكون هذا الولد شقياً ويرهق والديه، فمن حكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن جعله لا يولد له لحكمة، والإنسان يرضى بحكمة ربه وتقديره.

قال الأول: إناث، قال: ذكور، ثم قال: ذكور وإناث، قال: عقيم، أربعة. قال بعدها ماذا؟ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٥٠]، لماذا خاتمة الآية بقوله عليم قدير؟ ما قال: إنه على كل شيء قدير، أو قال: إنه عزيز حكيم، قال لا؛ عليم وقدير.

العليم لأنه يعلم ما الذي سيخلقه، يعلم ما الذي سيخلقه؛ يعني لما يخلق الذكر لهذا الإنسان يعلم أن الذكر مناسب، لما يخلق الأنثى يعلم أنها مناسبة وهكذا، عنده الله سبحانه عليم بعلم سابق، وقدير لا يعجزه شيء إذا أراد أن يخلق خلق، لا يمانعه مانع.

لما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين لنا قدرته في خلق الإنسان وتقسيم هذه التقسيمات، رجع إلى الإيمان والوحي والشرع، وأن وسيلة الشرع والإيمان هو الوحي، هو الوحي، والله تكلم عن الوحي في أول السورة قال: كذلك يوحي إليك، وكذلك أوحينا إليك، وهكذا؛ فختمت السورة بما افتتحت به لبيان عظم الشرع والوحي.

انظر قال: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]. ما في بشر من الناس إذا أراد الله يكلمه إلا بهذه الطرق التي يذكرها لك.

- **ما هي الطرق التي يذكرها الله لك؟**

قال أولاً: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١].

- **ما هو الوحي؟**

هو إما إلهام أو الرؤيا الصالحة التي يراها في المنام؛ مثل ما رأى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه يذبح ابنه، ورأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يدخل مكة محرماً ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح:

٢٧]، ورؤيا الأنبياء حق، فيأتيه الوحي وهو في المنام، أو يأتيه يقظة بأنه يلهم هذا الشيء، يلهم هذا الشيء، فما كان للبشر أن يكلمه الله إلا وحياً.

ثم قال: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]؛ يعني بصوت مسموع، الأول ما في صوت ولكنه يعلم أنه وحي، الثاني بصوت لكنه من وراء حجاب؛ مثل ما نادى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موسى ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ [مريم: ٥٢] وكلمه من وراء حجاب وسمع صوته.

ونبينا محمد أيضاً حصل له ذلك فكلمه الله ليلة الإسراء والمعراج وسمع صوته، وآدم كلمه الله؛ ثلاثة أنبياء كلمهم الله من وراء حجاب: موسى كليم الله، وآدم، ومحمد.

قال: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]. الطريق الثالث أن يرسل رسولاً وهو الملك جبريل المكلف بالرسالات فيوحي لهذا الإنسان أو لهذا النبي بإذن الله، بإذنه، بإذن الله لا بمجرد هو ينزل باختياره، لا، إنما يذهب ويكلمه ويوحي إليه إذا أراد الله وأمره، وأمره بإذنه ما يشاء.

- **إذاً طرق الوحي كم؟**

ثلاثة: إما أن يوحي إليه وحياً دون صوته، بدون صوت؛ يعني إلهام يعلم أن هذا وحي، أو صوت يسمعه، أو ملك يرسله فيوحي بإذنه ما يشاء.

قاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]؛ شوف ختم الآية الأول قال: ﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٥٠]. في الخلق، وهنا في الوحي قال: ﴿عَلِيٌّ﴾؛ لأن الوحي يأتي من السماء، علي علو الذات وعلو القهر وعلو المكانة، قال: على سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحكيم في تدبير أمور خلقه، حكيم بأنه يشرع ويدبر ويوحي وينزل الرسالات ويبعث وهكذا.

ثم لما ذكر أنواع الوحي ذكر رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

مثل ما أوحينا إلى غيرك من الأنبياء أوحينا إليك يا محمد، ما الذي أوحاه إليه؟ قال: ﴿رُوحًا﴾.

- **ما هو الروح؟**

القرآن، لماذا سماه روحاً؟ لأن تحيا به القلوب، تحيا به النفوس، سماه روحاً، قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ ما كان عندك كتب تقرأها ولا تعرف تقرأها ولا تكتبها، ما تعرف أنت، ما كنت تكتب ولا تقرأ، ولا الإيمان ما عندك شرع سابق.

﴿وَلَكِن جَعَلْنَاهُ﴾ [الشورى: ٥٢] أي هذا الوحي والقرآن نوراً، ﴿جَعَلْنَاهُ نُورًا﴾ وضياءً نهدي به من نشاء من عبادنا، نور وضياء الناس يهتدي بالقرآن وبالوحي من يشاء من عباده، اهتدى من اهتدى بالقرآن في مواقف كثيرة.

ثم قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ أي تدل الناس، ووظيفتك أنك هادٍ تهدي الناس إلى، تدلهم على الشرع والصراط المستقيم، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هادي يهدي الناس.

قال: ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

- **ما هو الصراط المستقيم؟**

قال هو: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]؛ المالك لما في السماوات وما في الأرض، هو صراطه ودينه وشرعه وحبله المتين.

ثم قال: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]؛ الأمور كلها جميعها الخير والشر ترجع إلى الله، تصير وترجع إلى الله، وإذا صارت ورجعت إلى الله فالنتيجة ما هي؟ يجازي كلاً بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

خاتمة جميلة في بيان عظمة هذا القرآن وأنه روح ونور، ينبغي أن نعرف عظمة القرآن ونعظمه في قلوبنا ونحب القرآن، ومن محبته تلاوته وتدبره وبيان معانيه والعمل به وتلاوته آناء الليل وآناء النهار؛ تقوم به في الليل وتقرأه في النهار.

هذا تعظيم للقرآن، روح تحيا به القلوب، ونور ينير لك الطريق وينير لك الدرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتمسك بهذا القرآن، فتمسك به وكن من أهله، كن من أهل القرآن، فأعظم أمر عندنا في هذه الحياة الدنيا كلها القرآن الذي بين أيدينا، من عظمه كان خيراً له.

بهذا تنتهي السورة إنْ شاء الله، في لقاء قادم ننتقل للسورة التي تليها وهي سورة الزخرف إنْ شاء الله.

نقف عند هذا القدر، الحمد لله أولاً وآخراً على هذه النعمة التي أنعم الله بها علينا أن قرأنا هذه السورة كاملة سورة الشورى، فسرناها وبيناها، ونسأل الله أن يجعلها حجة لنا، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الزُّخْرُف)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الزخرف ١ - ١٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، هذا اليوم يوافق اليوم السادس من شهر الله المحرم من عام (١٤٤٧ هـ).

مجلسنا المبارك مع تفسير القرآن العظيم سورة (الزخرف)، وقبلها سورة (الشورى) التي انتهينا منها في لقائنا الماضي، والعجيب أن سورة (الشورى) تركز على قضية (الوحي) و(الشريعة) والتمسك بها والتحذير من مخالفتها والاختلاف.

حتى إنك تجد في آخر الآيات في السورة أن الله يثني على كتابه فيقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]؛ روح فيه حياة في القلوب، حياة، روحاً من أمرنا، فالقرآن سماه الله روحاً لأنها تحيا به القلوب.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ ثناء ومدح لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سبب لهداية الأمة، ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

لما نسمع مثل هذا الكلام في الثناء على القرآن والوحي والشريعة وذكرها وبيان منزلتها ومكانتها في هذه السورة، وتقرير هذه القضية؛ قضية (الإيمان) بالقرآن الكريم وبالشريعة، تأتي سورة (الزخرف) - وهي تسمى بسورة (الزخرف)- في بيان أن سبب ضلال الخلق هو اشتغالهم بالدنيا.

وخاصة أهل مكة الذين اشتغلوا، وكل من كان على طريقتهم، قدموا الدنيا على الآخرة، واشتغلوا بالدنيا وبزخارفها وبجمالها وحسنها وبهاؤها وبهجتها، اشتغلوا بها عن الآخرة.

فجاءت هذه السورة تحذر من الاشتغال بالدنيا وبزخارفها، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وليس لها قيمة عند الله؛ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة على الكفر والطغيان والاستكبار

والإعراض لجعلنا لمن يكفر بالرحمن -لمن يكفر ليس لمن يؤمن- لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج من فضة عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسرراً كلها من فضة وزخرفة من ذهب، السقف والمعارج والأبواب والسرر من ذهب وفضة.

- **لماذا يجعل الله لهؤلاء الكفار؟**

لأنها لهم الدنيا وليس لهم الآخرة؛ فالدنيا ليس لها قيمة عند الله، ولذلك زهد الله عباده المتقين بالدنيا ورغبهم في الآخرة، فالعاقل يأخذ من الدنيا ما ينفعه ويكون وسيلة له إلى الآخرة:

إِنَّ للهِ عِبَادًا فُطُنَا	طَلَقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الفِتَنَا
نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا	أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا	صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

فالعاقل يعرف كيف يتعامل مع الدنيا ولا يغتر بالدنيا، سورة تركز على قضية الانشغال بالدنيا والاغترار بها، ومقابل ذلك القرآن وعظمة القرآن، وأنه هو الذي ينبغي أن يفتخر به المسلم وأن يغتني بالقرآن.

شوف لما تقرأ سورة (الزخرف) في أول آياتها، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في مدح كتابه قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، أي في (اللوح المحفوظ).

ويأتي في وسط السورة: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ ذكر وشرف لك ولقومك. ومدح الله كتابه في هذه السورة وزهد في الدنيا، وبين أن سبب ضلال الخلق، وسبب ضلال من أُرسل إليهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهم سبب ضلالهم- هو الانشغال بالدنيا وتقديمها على غيرها.

ولذلك ذكر الله نموذجين من الأمم الماضية: نموذج اغتر بالدنيا وبزخارفها وافتخر بها فأهلكه الله وأغرقه، وهو فرعون؛ يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: ٥١ - ٥٣].

يظن أن الأسورة والذهب والفضة هي التي ترفع الإنسان، ويقابله بقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقابله بقصة عيسى الذي لم يرغب في الدنيا وأعرض عنها بالكلية.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]. شوف كيف المقارنة بين هذا وبين هذا! ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين أن زخارف الآخرة وجمال الآخرة هو الذي ينبغي أن يسعى إليه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

هذا الذي ينبغي للإنسان أن يسعى إليه، لا أن يغتر بالدنيا. ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيان أن الإنسان، أو المرأة خاصة والبنت، ضعيفة وناقصة وتكمل بجمال الدنيا وزخارفها: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨].

فالسورة تدور، وتلاحظ آياتها تنطق نطقاً واضحاً بالمقارنة بين الدنيا والآخرة، وبين القرآن والاغترار بالدنيا وزخارفها، فالسورة تدور حول هذه المعاني التي ينبغي لنا أن نفهمها فهماً جيداً، وهذا مما يعين على تدبر القرآن وفهم آياته، لا أننا نقرأ ولا ندري ماذا نخاطب.

سورة سميت بلفظ (الزخرف) ينبغي أن نعرف لماذا سميت، ينبغي أن نعرف عما تتحدث، سورة سميت بـ(الدخان) بعد (الزخرف)، ينبغي لنا أن نعرفها، (الشورى) ينبغي لنا وهكذا في سور القرآن الكريم، آياتها تنطق، وأسماؤها تنطق، ودلالاتها تنطق، وأحكامها تنطق، ولكن هل من مدّكر؟ هل من متفكر؟ هل من متدبر؟ هنا يأتي الكلام.

لا نطيل في هذه المقدمة، الآن الصورة اتضحت لنا جميعاً، محور السورة ومقصد السورة ومقاصدها ودلالاتها قد اتضحت من خلال ما ذكرنا باختصار.

نبدأ بآياتها وهي من (الحواميم). مر معنا (حم)؛ (غافر) و(فصلت) و(الشورى) ثلاث، والآن الرابعة (الزخرف).

قال الله عَزَّوَجَلَّ فيها: ﴿حم ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾ [الزخرف: ١ - ٢].

و(حم) هذه مرت معنا كثيراً؛ **(حروف مقطعة)** من حروف الهجاء، جيء بها لـ**(الإعجاز)** والتحدي، بأن هذا القرآن مكون من هذه الحروف، فأنتم آمنوا به وصدقوا واتبعوه فهو رسالة إليكم، فإن أعرضتم وكذبتم وقلتم إن محمداً افتراه، وادعى أن هذا من عنده -تدعون أن محمداً أتى به من عنده- فأتوا بمثله.

- **لماذا لا تأتون بمثله؟**

فأتوا بمثله إن كنتم صادقين، ولن يستطيعوا، ويستحيل أن يأتوا بمثله؛ لأنه كلام رب العالمين. هذا واضح في مقدمة الحروف المقطعة، مرت معنا كثيراً.

ثم قال الله بعدها: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ٢]. أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -على عظمته جل جلاله وكبريائه- بالقرآن؛ قال: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، الذي هو كلامه، ولِعِظَمِ هذا الكلام وعِظَمِ القرآن، فالله لا يقسم إلا بشيء عظيم، فأقسم.

لاحظ على أي شيء أقسم لما قال: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾. والكتاب؛ الكتاب هو القرآن، سمي كتاباً لأنه مكتوب، وسمي قرآناً لأنه يُقرأ، فالكتاب المبين هذا الذي بين أيدينا وهو القرآن العظيم المشتمل على مائة وأربع عشرة سورة.

الكتاب المبين؛ شوف قال: ﴿الْمُبِينِ﴾، مبين لأي شيء؟ شوف ما علق، ما قال لك ربطه بشيء معين أو قيده، ما قال لك المبين لألفاظه أو المبين لأحكامها، قال لك: ﴿الْمُبِينِ﴾ وتركك، يعني حتى كل ما يدور في ذهنك داخل في كلمة المبين.

فالقرآن مبين؛ الله أبان بهذا القرآن الأحكام والدلائل والألفاظ؛ ألفاظه بينة واضحة، وأحكامه بينة، ودلالاته بينة، وإعجازه بين، وقصصه بينة، فهو مبين من كل وجه من غير تحديد.

ثم قال بعدها: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]. هذا جواب القسم؛ أقسم الله جل جلاله بكتابه المبين على أنه جعل هذا القرآن قرآناً عربياً، والسبب: حتى تعقلوا؛ هذا كلامكم أنتم.

قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أي صيّرنا هذا القرآن بلغة العرب، جعلناه قرآناً عربياً أي جعلناه كلاماً عربياً، حروف عربية وكلمات عربية فصيحة بليغة. لماذا؟

قال: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، لو جاءكم بلسان غير عربي ما فهمتموه؛ لو آتيك الآن بلغة أجنبية وأقول لك اقرأ، أو أقرأ عليك ما فهمت كلامي، تقول: أنا لا أستطيع أن أقرأ، ما عندي معرفة ولا أدري ماذا تقول، لكن يأتينا قرآن من السماء ينزل علينا بلسان عربي مبين، هذا لعلنا نعقل، أي لكي نعقل ما يأتينا من هذه الرسائل.

ثم أثنى على هذا الكتاب الذي أقسم به وجعل جواب القسم أيضاً هو القرآن، قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[الزخرف: ٤].

يقول: هذا القرآن يعني هذا له مكانة عظيمة؛ ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي في **(اللوح المحفوظ)**، ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عند الله عَزَّ وَجَلَّ في **(اللوح المحفوظ)**، ﴿لَعَلِيٌّ﴾ يعني ذو علو وشرف ومكانة، ﴿حَكِيمٌ﴾ محكم حاكم على كل شيء، لا اختلاف فيه ولا تناقض، محكم ومتقن، وهو علي حكيم، وصفه بوصفين؛ قال: علي، وقال: حكيم.

قال بعدها: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ [الزخرف: ٥]. لما أثنى على كتابه بهذا الثناء العظيم، التفت إلى هؤلاء المشركين فقال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾؛ يعني هل تريدون أن نعرض عنكم ولا نأتيكم بالقرآن ولا ننزله عليكم لأنكم قوم مسرفون؟ يقول: هل هذا يمكن؟ لا، ما يمكن.

هل تظنون أنتم أننا نضرب عنكم الذكر صفحاً، يعني نعرض عنكم ولا نأتيكم بالقرآن لأنكم أنتم قوم مسرفون وقوم طاغون ولا تريدون القرآن ولا تريدون أن تستمعوا له، فهل نسلّم لكم أنكم أبغضتم القرآن وكرهتموه ولم تقبلوه أننا لا ننزله؟

لا، سننزله وسيكون حجة عليكم وننزله ويكون نوراً لمن يقبل عليه وحجة وعمى على من يعرض عنه إلى قيام الساعة؛ فالقرآن نازل، ولذلك شوف قال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾، صفحاً أصلها من صفحة الخد؛ يعني أنا ألتفت عنكم ولا أبالي بكم ولا ألتفت ولا أنظر إليكم وأصد عنكم علشان أنكم أنتم كنتم قوماً مسرفين ومعرضين ومكذبين؟

لا، بل ننزل القرآن؛ ننزله لأنه إن كان الكثير منكم من المسرفين فإن هناك من يريد القرآن ويحبه، وهناك من تعلق قلبه بالقرآن وآمن وصدّق.

ثم بيّن سنته في الأمم الماضية؛ الله أرسل محمداً وأنزل عليه القرآن وأعرض هؤلاء وكذبوا وجاءتهم العقوبات وأهلكهم الله، فكذلك الأنبياء السابقين: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧﴾[الزخرف: ٦ - ٧].

(كم) هنا تفيد التكثير؛ خبرية تفيد التكثير، يعني كثير من الرسل أرسلناهم ومن الأنبياء قبلك في الأولين؛ في الأمم الماضية، والعجيب، ما يأتيهم -هؤلاء الأمم- ما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون ويسخرون ويضحكون ولم يأخذوا الأمر بجد.

مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال عن فرعون: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧]. فما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة (يس): ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[يس: ٣٠].

- **ما هي النتيجة؟**

لما يأتيهم الجد والرسالة والوحي والنبي، ثم يستهزئون ويسخرون.

- **ما هي النتيجة؟**

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨]؛ أهلكنا أشد منهم -أشد من قومك يا محمد- أشد منهم بطشاً؛ قوة وبأساً، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ يعني صفة الأولين مضت، وحال الأولين مضى وانتهى وأُهلك وقُضي عليه، أمم مضت وكانت على هذه الصفة وعلى هذه الحال وانتهى أمرها إلى الهلاك، فاحذروا يا أهل مكة، واحذروا كل من أعرض عن القرآن ولم يؤمن به أن يصيبه ما أصابهم، أن يصيبه ما أصابهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقيم الحجة عليهم فيقول: لو سألنا هؤلاء المشركين الذين يعبدون الأصنام ولا يريدون الهداية بالقرآن ولا يريدون (التوحيد) ولا (الإيمان)، لو سألناهم وأقمنا عليهم حجة وقلنا لهم من خلق السماوات والأرض؟ فماذا سيكون جوابهم؟

قال: سيكون جوابهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]. العزيز ذو العزة والقوة في سلطانه والجبروت والملك، العليم بكل شيء لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

الذي خلق السماوات والأرض هو القوي الغالب على أمره، العالم بكل شيء، هم بألسنتهم يعترفون بهذا الشيء، كيف تعترفون بأن خالق السماوات والأرض هو الله ثم تخضعون لغير الله ولا تؤمنون بالله؟

ثم الآيات بعدما أجاب هؤلاء المشركون على هذا الجواب، استطردت في ذكر ما يدل على وحدانية الله وأنه الرب الخالق المدبر المتصرف المستحق للعبادة والإلهية، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

الذي خلق الأرض واعترفتم به هو الذي جعل لكم الأرض مهداً؛ جعلها سهلة ومنبسطة وممتدة تبنون عليها، وتزرعون عليها، وتنامون عليها، وتتنقلون عليها؛ سهلة مهداً، وجعل لكم فيها سبلاً؛ أي طرقاً بين الجبال تتنقلون من مكان إلى مكان.

﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تعرفون الطرق؛ لأن إذا وضع الله لك طرقاً بين الجبال عرفت علامات الطريق هذا وصرت تهتدي وتذهب إلى ما تريد، تهتدي إلى ما تحتاج إليه من مصالح الدنيا والآخرة.

ثم يضيف الله سبحانه ويزيد من آياته الدالة على وحدانيته؛ شوف بعدما ذكر خلق السماوات والأرض بيّن أنه جعل الأرض مهداً، ثم بيّن أنه هو الذي أنزل من السماء ماءً، أنزل من السماء ماءً. المراد بـ(السماء) هنا ما هو؟

- **هل هي السماء السابعة ولا السماء الدنيا؟**

الجواب: لا؛ لا السماء السابعة ولا السماء الدنيا.

- **ما هي؟**

الجواب: السماء (السحاب)، أنزل من السماء ماءً أي السحاب.

يقول الشاعر:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ	رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غِضَابَا

يعني نزل السماء بأرض قوم، يعني نزل المطر والسحاب، والمراد هنا: وأنزل من السماء ماءً من السحاب، وكل ما علاك سماء.

قال: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١]. يعني بتقدير من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا زيادة ولا نقص؛ يعني لو زاد لأصبح طوفاناً وأغرق ولم ينتفع به البلاد ولا العباد، ولو نقص لاحتاجوا إلى زيادة، فالله ينزل بقدر؛ يأتي إلى هذه القرية ويصب عليها الماء بقدر، ويأتي إلى هذا الوادي ويصب الماء عليه بقدر، وهكذا أقدار مقدرة.

شوف قال هنا: ﴿مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ أنشرنا يعني انتفعت الأرض وأنبتت بالزرع، انتشرت بالزروع، قال شوف قال: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي هذه البلدة الميتة المغبرة أنبتت وأحياها الله بالماء، فأنبتت الزروع فانتشرت الزروع، أنشرنا، نشرنا، وأنشرنا يعني أظهرنا فيها هذه، فأنشرنا فيها الزرع وأحييناها.

قال: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾. بلدة ميتًا؛ شوف **(بلدة)** مؤنث، **(ميتًا)** مذكر، كيف ليش ما قال بلدة ميتة؟ نقول: لأن البلدة ليست تأنيثاً حقيقياً فيجوز فيها التذكير والتأنيث، يجوز تقول بلدة ميتة وميتاً، كل ذلك صحيح.

شوف، لما ذكر أن الله أنزل من السماء ماءً وأن هذا الماء كان سبباً في إحياء الأرض بعد موتها، قال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؛ أي مثل ما أحيينا الأرض فإننا نحييكم بعد موتكم.

ومثلها مرت معنا في سورة (فصلت): ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [فصلت: ٣٩].

وهنا قال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا نفخ في الصور النفخة الأولى ومات الخلق كلهم، ثم قبل أن ينفخ **(إسرافيل)** النفخة الثانية -التي هي نفخة البعث-: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

ما بين النفختين ينزل الله ماءً من السماء، فهذا الماء يحيي به الأموات؛ لأن الأموات في قبورهم خلاص انتهوا ولم يبقَ منهم إلا **(عجب الذنب)**، فينزل الله ماءً من السماء فيحيي به الأموات كما يحيي به

الزرع، فإذا نزل من السماء فأحيا به الأموات فحيوا فتشققت الأرض عنهم فخرجوا كالنبات؛ مثل النبات مثل ما قال الله سبحانه قال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢]، خلق الأزواج كلها. كل هذه أدلة تدل على وحدانيته؛ من الذي خلق السماوات والأرض؟ من الذي جعل الأرض مهداً؟ من الذي أنزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها؟

من هو؟ الله، من الذي خلق الأزواج؟ كل الأصناف كلها؛ من الحيوانات، والطيور، والزواحف، وخشاش الأرض، والحشرات، والنباتات بشتى أصنافها من الأشجار والنخيل وجميع الأشجار البرية والبحرية والتي تكون في البيوت؛ أصناف لا حد لها، من الذي خلقها؟ خلق الأزواج كلها.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾. سخر لكم **(الفلك)** تركبونه في البحار وتقطعون المسافات الشاسعة، وينقلكم وينقل بضائعكم، و**(الأنعام)** كذلك؛ الإبل سخرها الله لكم تركبونها وتحملون عليها أثقالكم، وكذلك الخيل تركبونها والحمير تركبونها.

من الذي جعل لكم الفلك والأنعام وجعل لكم ما تركبون؟ هو الله. وهذا لابد أن نفكر فيه؛ بأن الذي خلق هذه الأشياء هو الله، وخلقها بقدرته دالة على قدرته، وخلقها ليظهر نعمه على عباده.

نحن محتاجون لها؛ محتاجون إلى الأرض والزرع والأزواج المختلفة والفلك والأنعام، كلنا بحاجة، فنعم الله وخلقها تدور ما بين قدرته ووحدانيته وتفضله وإنعامه علينا؛ لا ننسى أن هذه نعم من الله علينا.

ولذلك شوف لما ذكر الفلك والأنعام قال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٣ - ١٤]؛ يعني تستقروا عليها، تركبوا وتستقروا عليها.

ثم إذا استقررتم عليها وركبتم في السفن والبواخر والطائرات والسيارات والإبل والحيوانات، تذكرتم نعمة الله بقلوبكم وعلى ألسنتكم فتقولون: الحمد لله، الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي سخر هذا.

شوف قال تذكر نعمة ربك؛ تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾. سبحانه تنزيهاً له عن الشريك وعن الولد، سبحانه المنفرد، سبحانه الذي سخر وخلق، والحمد لله على هذه النعمة، ﴿سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾؛ ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أي مطيقين، لا طاقة لنا بذلك وليس لنا قدرة، ما يمكن أن نملك من هذا شيئاً أبداً.

ثم قال: ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾؛ أي راجعون إلى الله بعد الموت، فالإنسان إذا ركب السفينة فهو على خطر الموت، وإذا ركب الطائرة والسيارة وركب كذلك الإبل قد تعثر به ويسقط ويموت، فيتذكر أنه راجع إلى ربه، فليؤمن بالله وباليوم الآخر ويستعد لهذا اليوم.

الحقيقة السورة عظيمة، سورة عظيمة كغيرها من السور العظيمة، ولكن القلوب تحتاج حقيقة إلى تفكر وفتح، نفتح قلوبنا للقرآن نجد فيه أشياء عجيبة، أشياء عظيمة.

فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفعنا بهذه الآيات التي مرت، وأن يجعلها حجة لنا، وأن يرزقنا وإياكم حسن التدبر، وحسن الفهم، وحسن التلاوة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الزخرف ١٥ - ٣٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، الثالث عشر من شهر الله المحرم من عام (١٤٤٧ هـ). نسأل الله أن ينفعنا، وأن يبارك لنا، وأن يوفقنا لمرضاته.

كتاب الله؛ القرآن الكريم وتفسيره، وسورة (الزخرف). تحدثنا في لقائنا الماضي عن هذه السورة العظيمة الجليلة القدر، (الزخرف) والذهب والفضة والأموال وزينة الحياة الدنيا في مقابل الدين والشرع والقرآن الكريم.

تلاحظ في أول آيات السورة التبجيل والتعظيم لهذا الكنز العظيم وهو القرآن وبيان عظمة هذا القرآن: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]؛ وتفهمون وتتدبرون المعاني.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، أي القرآن في (أم الكتاب) أي في (اللوح المحفوظ) ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عند الله عَزَّ وَجَلَّ، ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾؛ عليٌّ أي له العلو والشرف والقدر والمكانة، وحكيمٌ أي حاكم على كل الكتب، محكم لا اختلاف فيه ولا تناقض، متقن؛ تجد أحسن من هذه العبارات في وصف القرآن وتعظيمه؟!

ثم تجد في وسط السورة يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ ذكر لك ولقومك يعني الذكر هنا مراد به الشرف.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]؛ أي شرفكم ومكانتكم؛ يعني أنت أيها الإنسان تشرف وتعلو بالقرآن الكريم، وقد لا تشرف ولا تعلو بغيره، لا يمكن أن تعلو إلا بالقرآن الكريم؛ لو بحثت عن الشرف وعن المقام الكريم وعن العلو لن تجده إلا في تمسكك بكتاب الله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

السورة هي مقارنة بين الآخرة والدنيا، ونعيم الآخرة ونعيم الدنيا الزائل، **(الزخرف)**، وبين هذه الدنيا؛ أنت ما بين طريقين: إما أن تتأثر بالدنيا وتعيش لأجلها، أو تتمسك بكتاب الله ويكون لك شرف ويكون لك مكانة عند الله. هذه السورة ككل سميت بـ**(الزخرف)**؛ زخرف الحياة الدنيا.

مرت معنا آيات في لقائنا الماضي، وقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، لكن الآية التي قبلها وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾[الزخرف: ١٣ - ١٤]. يعني على ظهور الإبل والفلك.

وتقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾. هذا الدعاء هل يقال؟ يقوله الإنسان إذا سافر أو إذا ركب الدابة؟ يعني نقول إذا ركب الدابة، إذا ركب دابته أو السفينة أو السيارة أو الطائرة أو أي مركوب يركبه الإنسان.

تقول هذا الدعاء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٣ - ١٤]؛ أي: ما كنا له مطيقين، وليس عندنا قدرة عليه، ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ يعني راجعون إلى الله؛ ولو تنقلنا من مكان لمكان فإننا سنعود إلى الله.

☜ **هذا يقال في كل مركوب؛ أما دعاء السفر:** «اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا»؛ هذا دعاء سفر صحيح، إنك تقرأ هذه الآية لا مانع وتأتي بالدعاء، أما ركوب أي دابة تقول: **"سبحان الذي سخر لنا هذا"**، **"بسم الله توكلت على الله، سبحان الذي سخر لنا هذا"**؛ لا بأس أن يقال.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ١٥]. ﴿وَجَعَلُوا﴾ أي الكفار والمشركون، ﴿لَهُ﴾ أي لله عَزَّ وَجَلَّ ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي من خلقه ويقصدون بذلك الملائكة، ﴿جُزْءًا﴾ يعني أن الملائكة جزء من الله، وأنهم بنات الله.

﴿أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات: ١٥١ - ١٥٢]؛ يعني أن الله ولد والملائكة بنات الله، هذه مقولة المشركين؛ أما اليهود فهم يقولون: **"عزير ابن الله"**، والنصارى تقول: **"المسيح ابن الله"**.

كلهم يدعون أن الله ولد، وأن هؤلاء ينسبون إليه؛ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، ما اتخذ صاحبة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا ولداً، جل جلاله، بائن من خلقه، لا يمكن، لم يكن له كفواً أحد، وليس له شبيه ولا مثيل ولا نظير ولا ند من مخلوقاته جل جلاله؛ كلهم عبيد الله وكلهم مخلوقون وكلهم ضعفاء، والله هو الغني القوي الخالق المدبر العالم؛ فتعالى الله.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١﴾ [مريم: ٨٩ - ٩١]، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فهذه مقولتهم الشنيعة.

قال: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾؛ قالوا الملائكة بنات الله، وسيأتيك الآن تفصيل ذلك.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ في الرد عليهم: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾؛ جحود، يكفر نعمة الله، ويكفر عبادة الله وإفراده بالعبادة ووحدانيته، وكفره واضح مبين؛ يعني يعدد المصائب وينسى النعم، كفور جحود لا يعرف عظمة الله ولا قدرته، هذا كافر.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على سبيل السؤال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦]. لو سلّمنا لكم أن الملائكة بنات الله على قولكم، فهل الله يأخذ أدنى الجنسين وأقل الجنسين وهم البنات، يتخذ الملائكة ويجعلهم بنات له، وأنتم يعطيكم البنين؛ يعني يخصكم بالبنين؟!

هذا مستحيل لا يمكن، مستحيل؛ يعني كيف أنتم الآن ترضون أن الله له الأقل؟! لماذا أنتم لا تأخذون الأقل وتعطون الله الأشرف؛ تعطون الله البنين؟!

يعني هذا على سبيل الاستفهام، أو استفهام على سبيل التوبيخ والتقريع لهم، كيف أنتم تقولون ولد الله، وكيف تقولون الملائكة بنات الله وأنتم تقولون البنون لنا وليس البنات؟!

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [الزخرف: ١٧]؛ ويجعلون لله ما يكرهون، يجعلون لله البنات، يجعل لله ما يكرهون. وإذا بُشِّر أحد بالأنثى -أنه رُزق بنتاً- ماذا يصنع؟!

إذا بُشِّر أحدهم بالأنثى التي ينسبها للرحمن، إذا بُشِّر أحد بما ضرب للرحمن مثلاً -حيث جعل الملائكة بنات الله فقال مثلاً- ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾؛ إذاً أنت، إذا أنت أيها الكافر بشرت بأنك رزقت بنتاً ماذا تصنع؟

يصبح وجهك مسوداً من سوء البشارة وأنت كظيم؛ يعني حزين مملوء من الهم والكرب والشدة والغيظ، لا تريد هذا الشيء.

وفي آية النحل قال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

وهنا: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أنت ما ترضى، كيف تنسب إلى الله؟! يعني كيف تفعلون هذا الفعل؟! ألا تخجلون؟!

ثم ذكر ضعف المرأة وضعف البنت؛ ضعفها في خلقتها وفي أيضاً بيانها وحجتها، هي ضعيفة الحجة وضعيفة الخلقة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨].

يعني البنت الصغيرة تنشأ وتربى بالزينة، تلبس الزينة في جمال ملابسها وحليها وكحلها وشعرها، تنشأ على الجمال لأنها ناقصة والرجل أكمل منها.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَآسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ»؛ فقال هنا ينشأ: تنشأ الصغيرة في الحلية.

وأما في الحجة فهو في الخصام غير مبين، ما عندها قدرة على المخاصمة القوية واللجاج، ما عندها، وهو في الخصام؛ فكيف تنسبون لله من هو أضعف لا حجة ولا نحو ذلك؟!

ثم بيّن لك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فقال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ الآن يوضح لك من هم الملائكة حتى تعرف حقيقتهم.

الملائكة خلقٌ خلقهم الله من نور، لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتعبون، يعبدون الله بالليل والنهار، يسبحون الله الليل والنهار لا يفترون، يسبحونه بالليل والنهار لا يفترون، خلقهم الله لعبادته وأعطاهم وظائف كثيرة؛ (جبريل)، (ميكائيل)، (إسرافيل) وغيرهم من الملائكة، ملائكة عدد كثير.

قال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ﴾ حقيقتهم أنهم عباد الرحمن، جعلوهم إناثاً وقالوا هم بنات الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليقيم عليهم الحجة: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾.

هل هم شهدوا خلقهم ورأوهم حتى يصفونهم بأنهم بنات؟! ما شهدوا خلقهم، لما خلقهم الله ما كانوا موجودين يرون كيف خلقهم الله؟!

قال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾؛ هذه الشهادة التي يقولها الكافر؛ أن الملائكة بنات الله وأنهم جزء من الله، تكتب شهادتهم ويسألون يوم القيامة عن ذلك، عن هذه الجرأة التي حصلت منهم.

هذا في نقاشهم في دعوى اتخاذ الله الولد، وأنه جعل الملائكة أو أن الملائكة بنات الله وأنهم جزء من الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً؛ فهذه العقيدة باطلة، عقيدة أن الملائكة بنات الله وأنهم جزء من الله هذه عقيدة باطلة لا تجوز؛ الملائكة خلق من خلق الله خلقهم من نور لعبادته.

هذه عقيدة **(أهل السنة والجماعة)** في الملائكة، عالم غيبي لم نرهم، نؤمن بهم؟ نعم نؤمن بهم ونؤمن بكل ما جاء من أوصافهم في كتاب الله ومن أعمالهم، هذا الذي يجب على كل مسلم أن يعتقده في الملائكة.

ثم هناك أيضاً شبهة أخرى عند الكفار، وهم يدعون أن عبادتهم وأن كفرهم وعدم الإيمان بالرسول أن هذا شيء قد كتبه الله ونحن نسلّم الأمر لله. إذا جئت إلى الكافر قلت له: تعبد صنماً؟

قال: يا أخي الله قدّر عليّ أن أعبد؛ فهل هذه الحجة صحيحة؟! احتجاجهم يقول: لو الله أراد أني ما أعبده ما عبدته، لكن الله أراد أني أعبده فأعبده؛ هذه حجة شيطانية عند المشركين موجودة عند بعض المسلمين. لما تأتي إليه تقول له: يا أخي لماذا لا تصلي؟ لماذا تترك الصلاة مع الجماعة؟

قال: الله ما قدّر عليّ أني أصلي، الله كاتب عليّ أني أصلي في البيت، أو الله كاتب عليّ أني ما أصلي! فاحتجاجهم بالقدر احتجاج باطل ولا يسلّم لهم؛ الله أعطاك قدرة، وأعطاك سمعاً، وأعطاك بصراً، وأعطاك إرادة.

تأتي تقول: والله الله ما أعطاني إرادة، أنا مسيّر لا مخيّر؟! هذا الكلام غير صحيح، واسمع ماذا يقول المشركون وكيف رد الله عليهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا

يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠]؛ لو أراد الله أن نعبد هذه الأصنام ما عبدناها، لكن الله أراد وشاء الشيء فنعبدها بإرادة الله! فهذه حجة باطلة.

قال الله رداً عليهم: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ هل عندهم علم يقولون الله أراد؟! هل أنت كشفت الغيب حتى تعرف أن الله أراد؟! هذه حجة باطلة؛ الله أرسل الرسل وأنزل الكتب وأقام الحجة وقضى وقدر وأبطل الباطل وأحق الحق وأنذر وبعث الرسل.

أما تأتي تقول: والله أنا جالس في البيت والله ما قدّر عليّ، هذا كلام غير صحيح. شوف قال: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾؛ يكذبون تخرصاً وكذباً وافتراءً على الله، وإلا الله أعطاك الإرادة والقدرة أن تتصرف، أما تأتي تعبد الشيطان وتقول: الله كتب عليّ أن أعبد الشيطان! هذا غير صحيح.

فالاحتجاج بالقدر في المعائب وفي المعاصي -الرجل تأتي إليه تقول له: يا أخي صلِّ مع الجماعة، اذهب إلى المسجد، يقول لك: ما هداني الله، إذا هداني الله صليت- هذه حجة شيطانية وباطلة ومردودة؛ كيف علمت أن الله ما هداك؟!

الله هداك؛ دلك على الطريق وأرسل إليك الرسل وأنزل إليك الكتب، أما تقول: ما هداني! الاحتجاج بالقدر على المعاصي والمعايب هذا غير صحيح؛ الاحتجاج بالقدر متى يكون؟ يكون على المصائب؛ إذا قدر الله عليك مصيبة تقول: قدر الله وما شاء فعل.

حادث: قدر الله وما شاء فعل، مرض، مصيبة، فقد حبيب؛ هذا قدر الله، هذا بقدر الله، قدّر لأن ما لك اختيار فيه، هذا شيء مصيبة نزلت عليك؛ أما تأتي وتعصي وتقول: الله كاتب عليّ أن أعصي! هذا غير صحيح. ولذلك شوف الله ناقشهم فقال: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

ثم قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١]. هل عندهم علم؟ أعطيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون حتى يقولون الله أمرنا أو الله أعطانا؟! هل أنزل عليهم كتاباً؟! هل جاءهم رسول قبلك يا محمد؟!

ما آتيناهم كتاباً حتى يتمسكوا به، ولم نرسل إليهم رسلاً حتى يدّعوا أن الملائكة بنات أو يدّعوا أن الله قدّر عليهم هذا الشيء، فلا حجة عندهم ولا عندهم لا عقل ولا نقل؟ بل عندهم **(التقليد الأعمى)** باختصار؛ ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢].

وجدنا آباءنا على طريقة ونحن نسير عليها، على مذهب ودين ونحن نسير على ما كان عليه آباؤنا، وإنّا على آثارهم متبعون مقتدون بهم، هذه حجتهم؛ حجتهم التقليد الأعمى، أما دليل عقلي أو نقلي فليس عندهم.

ولذلك الله أقام عليهم حجة وهددهم فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[الزخرف: ٢٣]؛ تقليد، كلهم على أمة، وإنّا على آثارهم مقتدون؛ نحن وجدنا آباءنا يفعلون هذه الأفعال فنحن نفعل مثل ما يفعلون ونقتدي بهم.

انظروا، تأملوا، تقتدي وأنت لا تدري هل هذا ضار أو نافع؟! هل هذا صحيح أو خطأ؟! لا يمكن.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[الزخرف: ٢٤]؛ قال الرسل لأقوامهم الذين أرسل الله إليهم، أو يكون الرسول هو الذي قال لقومهم: أولَوْ جئتكم يا أهل مكة بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم، أحسن وأفضل وأهدى طريقاً مما وجدتم عليه آباءكم الذين أنتم تقلدونهم؟!

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾. ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[الزخرف: ٢٥]؛ أي من الأمم الماضية، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾. وهذا كله تهديد لأهل مكة الذين كفروا برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم لو سلّمنا لهم أنهم يقلدون، لو سلّمنا أنهم يقلدون؛ لماذا لا يقلدون أباهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهم يعرفون وهم يدعون أنهم ينتسبون إليه؟! إبراهيم تبرأ، تبرأ من الشرك وتبرأ من أهل الشرك وعبد الله وحده، وكان على مِلّة (الحنيفية)، لماذا لا تقتدون به؟!

أنتم تدعون أنكم من ذرية إبراهيم، والنصارى واليهود يدعون ذلك، فلماذا لا تقتدون بإبراهيم؟! ولذلك ساق الله قصته فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾[الزخرف: ٢٦]. أي واذكر حينما قال إبراهيم لأبيه -خصّ أباه بالدعوة- وقومه: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾؛ أنا بريء وأتبرأ ولا أرضى بعبادة ما تعبدونه من دون الله وهي الأصنام، ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٧٤].

فيتبرأ من هذا العمل، ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٧]؛ يقول: لكن الذي فطرني -وهو الله- فإنه سيهديني بطريق السلامة والنجاة، هو الله عَزَّ وَجَلَّ الذي يهديني لطريق أن أسلم وأن أحفظ نفسي من الوقوع في الشرك والكفر: ﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾.

ثم قال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]؛ أي جعلها إبراهيم كلمة باقية في عقبه يعني أوصى ذريته، وجعلها في عقبه أي في ذريته: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

جعلها كلمة باقية في عقبه وذريته لعلهم يرجعون؛ أي يرجعون، أي ذريته يرجعون إلى طاعة الله وتوحيده ويتوبون من كفرهم، أو يرجع أهل مكة لعلهم يرجعون يفكرون أن إبراهيم على التوحيد فيرجعون عن شركهم وعبادة الأصنام إلى عبادة الله.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٢٩]. الله متّع أهل مكة ومتّع آباءهم بالصحة والعافية ورغد العيش والمال، أعطاهم الدنيا والأمن، متّعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق.

جاءهم الرسول أو جاءهم الوحي والرسول المبين يدعوهم إلى عبادة الله، متّعهم الله فعبدوا من دون الله أصناماً وآلهة، فجاءهم الحق وجاءهم الوحي وجاءهم الرسول.

ولما جاءهم الحق ماذا كان موقفهم؟ هل فرحوا به وآمنوا؟! لما جاءهم الحق: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٠]؛ شوف كيف الجرأة! يعني بدل من أن يتقبلوا ويعرفوا أن محمداً جاءهم بالحق، اتهموا محمداً بالسحر، بأنه ساحر وما معه -أي القرآن- سحر، قالوا: هذا سحر، هذا سحر ولا نؤمن به.

قال: ﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أي نكفر به ولا نؤمن به وما معه سحر.

ثم لم يكتفوا بهذا الأمر بل بدأوا يقترحون، يقولون كيف يكون محمد نبياً وفيه من هو أفضل منه؟! من الذي جعل محمداً نبياً؟! محمد يتيم عاش يتيماً فقيراً، فلماذا لا يكون من هو أفضل منه بالنبوة؟!

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. اعترفوا أنه قرآن! قبل قليل يقولون سحر، والآن قالوا قرآن! هذا تناقض.

لولا نزل هذا القرآن، لولا نزلت النبوة على رجل من القريتين عظيم، ويقصدون (مكة) و(الطائف)؛ يقولون مكة فيها (الوليد بن المغيرة) صاحب مال وبنين وعنده خير هو الذي يستحق أن يكون نبياً، أو (عروة بن مسعود) في الطائف أيضاً من أغنياء الطائف ذو مال وبنين، لماذا لا يكون هو النبي أو الوليد هو النبي؟!

أما محمد فاعترضوا، اعترضوا على اختيار الله، ما كان لهم الخيرة، الله هو الذي يصطفي من عباده، ليس الأمر لكم؛ يعني ليس الأمر لكم حتى تختاروا، أنتم نظرتكم نظرة قاصرة، تنظرون إلى المال والى الدنيا وإلى الأولاد والذرية والجاه، ونحن ننظر إلى العقل، تمام العقل وحسن التصرف والتدبير، وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي كمل في عقله وخلقه.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، هم يقسمون الرسالة والنبوة، يقولون أعطها لفلان وأعطها لفلان؟!

- **هل الأمر لهم حيث يختارون ما يشاؤون؟!**

لا، الدنيا وهي تافهة عند الله حقيرة، الله هو الذي قسم لهم؛ هم قسموا دنياهم لهم؟! هذا فقير وهذا غني، وهذا عنده ذرية وهذا ليس عنده ذرية، من الذي قسم هذه الأشياء؟ هو الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

جعلنا هذا غنياً وذا صاحب جاه، وهذا فقيراً وهذا وضيعاً، من الذي جعلهم هكذا؟ الله عَزَّ وَجَلَّ بحكمته قسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات؛ هذا قوي وهذا ضعيف، هذا غني وهذا فقير، جعلهم درجات، ليتخذ بعضهم -هذه الحكمة، السبب- ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً.

يعني يسخر الله بعضهم لبعض، الغني الله سخر الغني للفقير حتى ينفق عليه، وسخر القوي للضعيف حتى يقوم بمساعدته، وسخر الفقير للغني ليقوم بالعمل عنده، وسخر الضعيف عند القوي ليقوم بكذا، وهكذا تجد هذا مملوكاً وهذا ملكاً، وهذا سيداً وهذا ضعيفاً، وهذا رجلاً وهذه امرأة؛ الله قسم المعيشة بينهم وجعل بعضهم مسخراً لبعض.

قال: جعلهم درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً؛ تسخير، مسخر للخدمة، ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ ما عند الله من الأجر والثواب والجنة في الدار الآخرة خير مما يجمعون.

يقول في حق الكفار، يقول: لولا أن يكون الناس أمة واحدة في الكفر -لو كان الناس كلهم على الكفر، ما في مؤمن- لجعلنا لهؤلاء الكفار شيئاً عظيماً من الدنيا ما يتصور!

﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

الأسقف من فضة، والمعارج والسلالم من فضة عليها يظهرون، السقف من فضة والمعارج من فضة، والأبواب للبيوت من فضة والسرر من فضة يتكئون عليها، وأيضاً من ذهب وزخرفة؛ يعني هذه الأشياء التي ذكرها الله من ذهب ومن فضة، يعني السقوف فيها ذهب وفيها فضة، والمعارج السلالم ذهب وفضة والأبواب والسرر.

أعطاهم الله الدنيا كلها، ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ ليست للكفار الذين كفروا أعطاهم الله الدنيا كلها وجعلهم على أعلى منزلة، لكنهم لن يعيشوا إلا عيشة الضنك والضيق، وأما المؤمن فالله أعطاه الآخرة، ﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ للمتقين.

بعدها يبين الله حال من أعرض عن ذكره: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ ويعرض، يقيّض الله له شيطاناً، هذا الكلام يأتي إن شاء الله الحديث عنه في اللقاء القادم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الزخرف ٣٦ - ٦٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للعشرين من شهر الله المحرم من عام (١٤٤٧ هـ).

مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم قراءةً وتفسيراً وبياناً وتدبراً سورة (الزخرف)، وقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

لما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات الماضية، وهذا ما يسمى عند المفسرين بـ (علم مناسبات الآيات)؛ يعني ما المناسبة أن يذكر هذا الشيء لأنه ذكر كذا فيذكر كذا، هذا يسمى (علم المناسبات).

شوف، (علم المناسبات) يعينك على التدبر والتفكر. شوف الآن لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الكفار: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

لهؤلاء الأشقياء لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة، يعني بيوتهم السقف من فضة، والمعارج والسلالم من فضة، وأيضاً الأبواب والسرر كلها من فضة وزخرفاً؛ يعني ذهب، أعطيناهم الدنيا كلها. لكن ماذا يفيدهم؟ ماذا يفيدهم إذا حصلت لهم هذه الدنيا؟ هل يعيشون عيشة الأولياء عباد الله الصالحين ولا ماذا سيعيشون؟

هل سيعيشون في نكد وضنك وضيق ولا ماذا؟ اسمع ما يضيق، يقول: لو أعطيناهم الدنيا كلها بزخارفها وذهبها وفضتها وكل ما هو من جمال الدنيا وزخرف الدنيا، أعطيناهم كل الدنيا، لا تظن أنهم في سعادة، بل هم في شقاوة وعذاب الآخر، هم في أشقياء وأضل وأشد.

اسمع قال: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ يعشو يعني يعرض، أصلها يعشو بالواو. يعشو غير يعيش، يعيش هذا أنه يعيش عيشةً هنا، لا؛ يعشو يعني يعرض ولا يتقبل ويستغني عن ذكر الله، عن ذكر الرحمن وعن شرعه وعن القرآن.

الذي يستغني عن القرآن ويعرض عن القرآن ما النتيجة؟

قال: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، شيطان من شياطين الجن قرين، شيطاناً فهو له قرين لا يفارقه، هذا الذي يعرض عن طاعة الله، ولو أعطيناه الدنيا كلها بحذافيرها، لا تظن أنه مستقر البال ومرتاح؛ يسلط الله عليه شيطاناً من شياطين الجن يكون له قرين في الليل والنهار لا يفارقه.

- **ثم قال: هذه الشياطين ماذا تصنع بهم؟**

قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧]؛ أي الشياطين تصد هؤلاء المعرضين عن سبيل الله، وعن طريق السعادة، وعن طريق شرع الله، تصدهم عن السبيل ويحسبون -أي أهل الضلال والكفر يحسبون- أنهم مهتدون.

وهذا أشد وأشقى؛ يعني هذا الضال المعرض الكافر يظن أنه في سعادة، ويظن أنه على خير وهو لا يدري، يحسبون أنهم مهتدون؛ يظن أنه على هداية وعلى استقامة.

هذا أشد؛ لو كان يعترف بأنه على خطأ، وأنه على ذنب وعلى معصية، هذا أهون، لكن يظن أنه هو أحسن ما يكون من الناس، فهذا أشد في العقوبة ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧]، وإذا ظن أنه مهتدي ازداد في ضلاله، ازداد في ضلاله.

شوف قال: حتى هذا القرين سيستمر معه، وهذا الظن والحسبان سيبقى معه إلى متى؟ قال: حتى يأتي يوم القيامة، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]؛ يعني القرين الشيطان.

يتمنى بعد المشرقين، فبئس أنت القرين! ليت بيني وبينك بعد المشرق، المشرقين.

- **ما المراد بالمشرقين؟**

الجواب: المشرقين هما جهة الشرق، أو أقصى المشرق وأقصى المغرب، العرب يستعملون هذه العبارات اختصاراً، فيقولون مثلاً: التمر والماء (الأسودان)، ويقولون مثلاً: أبو بكر وعمر (العمران)،

وهكذا يستعملون الكلمات تالي المشرق والمغرب (المشرقين)، وهكذا تستعمل؛ يعني (تغليباً) و(اختصاراً).

ليت بيني وبينك بعد المشرقين، يتمنى أنه لا يراه ولا يسمع به؛ يعني كأنه هو في المغرب في جهة المغرب، وهو في جهة المشرق، لا يرى أحدهما الآخر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني شوف لما قال: يا ليت بيني وبينك، وندم، ما ينفعه الندم، ما يصح.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]. يقول: ما ينفع الندم، انتهى الندم، وثم أمر آخر، يظن بعض الناس أنه إذا كان العذاب على الجميع أن هذا يهون عليه.

لذلك يقولون دائماً حتى في الدنيا: إذا صارت المصيبة أو البلاء عاماً هذا يخفف، يعني ليست خاصة في واحد أو اثنين أو بيت أو بيتين، إذا كانت عامة تخف المصيبة.

فالله يخبر، يقول: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩]، يقول: ما ينفعكم اشتراككم كلكم في العذاب أن هذا يخفف عليكم، لا؛ ما يخفف ولا ينفعكم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبر عن حرص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الدعوة، وكان يحرص حرصاً شديداً على دعوة قومه وهداية قومه، فالله يخبره أن يهون على نفسه فيقول: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠].

يعني هم بمنزلة الأصم الذي ما يسمع، هل أنت تسمع الأصم؟ الأصم لا يسمع. فهل أنت تسمع الأصم ما يسمع؟ أو تهدي العمي؟ يعني يهتدي إلى الطريق؟ هل أنت تدله فيهتدي؟ ما يهتدي، خلاص الأعمى لا بد أن تأخذ بيده.

قال: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف: ٤٠]، هل أنت تهديه؟ هل تستطيع أن تهدي من هو في ضلال وضلاله ضلال واضح مبين؟ هذه ما يملكها إلا الله، فهون على نفسك.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هون على نبيه بأنه قادر على هؤلاء، وأن عنادهم لن ينفعهم، وأن الله قادر على أن ينزل بهم العقوبات، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزخرف: ٤١ - ٤٢].

يقول: لو ذهبنا بك، يعني إما بموت أو هجرة أو مفارقة، فإننا ننتقم منهم، فإنا منهم منتقمون، أو نرينك الذي وعدناهم وهي العقوبات والعذاب، وقد أراه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أراه في بدر ورؤوس الشرك تتساقط.

قال: أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوته وقدرته وحكمته أخرجهم من بيوتهم من مكة، وأتى بهم إلى حتفهم ومصارعهم، فجاؤوا إلى هذا المكان في بدر، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينظر إليهم والرؤوس تتساقط على الأرض؛ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٢].

ثم حث نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على التمسك بهذا القرآن وبهذه الرسالة والوحي، قال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]. شوف، **(استمسك)** غير **(أمسك)**؛ **(استمسك)** أقوى.

كما يقول أهل التفسير: "الزيادة في المبنى زيادة في المعنى". فاستمسك بالوحي الذي جاءك وهو القرآن، فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم؛ اثبت وتمسك ولا تتزعزع ولا تتنازل، أنت على صراط مستقيم، وخذ بالقرآن وتمسك به.

وهذا الكلام كله ليس خاصاً بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هو عام لكل داعية؛ كل داعية إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيثبته ويعينه ويسدده، فليتمسك بشرع الله وليدعو ولا يتنازل.

شوف قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ أي القران هو ذكر لك ولقومك.

- **ما معنى (ذكر)؟**

قال أهل التفسير: "﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ﴾ أي شرف ومنزلة ومكانة لأمة محمد"؛ هذا القرآن شرف، أن تكون أنت من أهل القرآن، تقرأ القرآن ولك ورد وحزب كل يوم، وتفهم المعاني، وتستمع لتفسير القرآن وتفهمه، وتقرأ في كتب التفسير، فأنت استمسك به فهو ذكر لك وشرف لك، القرآن شرف وذكر لك وموعظة تذكير لك ولقومك.

ثم قال: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]؛ تسألون يوم القيامة، تسألون عن القرآن، القرآن حجة لك أو عليك، فتسأل أنت عن هذا القرآن: هل أديت هذه الأمانة وعرفت قيمة القرآن قراءةً وتدبراً وفهماً، أو كنت من الذين هجروا القرآن وتركوه خلفهم؟ هذا معناه وسوف تسألون.

ثم **قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:** ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. اسأل الرسل الذين أرسلناهم من قبلك، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون؟ هل جعلنا هناك آلهة تعبد من دون الرحمن؟ هل هناك أصنام تعبد؟ اسأل الرسل.

- **كيف يسألهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد جاء بعدما ذهبوا وماتوا؟**

قال أهل التفسير: "يسألهم إما أنه سألهم أو أمر بأن يسألهم ليلة (الإسراء والمعراج)؛ لأنه اجتمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأرواح الأنبياء في بيت المقدس وصلى بهم".

ولذلك بعض المفسرين يقول أن هذه الآية: "﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الزخرف: ٤٥] أنها نزلت في بيت المقدس، وأن النبي سأل الأنبياء".

وقيل: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ يراد به اسأل أتباع الرسل من (**اليهود والنصارى**)، أتباع الرسل يخبرونك أنهم لم يدعوا إلى عبادة غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فذكر قصة موسى هنا. السورة هذه، سورة (الزخرف)، ذكرت لنا قصتين:

⬅القصة الأولى: قصة موسى مع فرعون وبيان تكبر فرعون واغتراره بالدنيا؛ يقول: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١]، ويهين موسى ويقول: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]؛ نظرته نظرة دنيوية فافتخر بالدنيا، هذه قصة موسى وفرعون.

⬅القصة الثانية: فهي قصة عيسى بن مريم وأن الله زهده بالدنيا، وأن الله زوى عنه الدنيا فعاش زاهداً بعيداً عن الدنيا.

شوف القصة الأولى يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]؛ بآياتنا يعني المعجزات كاليد والعصا وغيرها، إلى فرعون وملئه؛ أصحابه وأتباعه وحاشيته، فقال موسى: إني رسول رب العالمين، يقول: إني رسول من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أرسلني الله من رب العالمين.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧]؛ استهزؤوا وسخروا وردوا رسالة ربهم ولم يعتبروا بها، بل زيادة على ذلك يضحكون على موسى ويضحكون عليه بها، على هذه الآيات.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلهم يرجعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨]؛ يعني ما تأتيهم آية، يريهم الله من الآيات والمعجزات، إلا هي أكبر من أختها الثانية؛ أكبر من الأولى، كل ما تأتي واحدة التي بعدها أكبر منها، ولكنهم ما اعتبروا ولم يخافوا.

وقد أرسل الله عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، ولم يعتبروا ولم يخافوا. فما تأتيهم آية إلا هي أكبر من أختها، وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون؛ أخذهم الله بالعقوبات لعلهم يرجعون إلى ربهم ويؤمنون برسالة موسى.

فلما نزل بهم العذاب وراؤوا العذاب وليس لهم حيلة، ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٩]؛ ينادون موسى.

- **كيف ينادون موسى ويقولون: "يا أيها الساحر"؟**

إما تهكماً واستهزاءً به، أو يريدون بالساحر: الماهر، الماهر العالم المتمكن، ادع لنا ربك يا موسى بما عهد عندك، يقول: ادع الله بما عهد عندك؛ أي بما أعطاك من العهد أنه يكشف عنا إننا إذا اهتدينا أن يرفع عنا، ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون؛ يعني إننا سنتبعك.

وفي آية أخرى: ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، وارفع عنا هذا البلاء ونهتدي ونطيع ونسمع ونتبعك يا موسى.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الزخرف: ٥٠]؛ رفع الله عنهم العذاب إذا هم ينكثون، ينقضون العهد.

- **أين العهد أنتم تقولون إننا لمهتدون؟**

نقضوا ورجعوا إلى ما كانوا عليه. وزيادة على ذلك فرعون يستكبر ويتكبر ويتبجح بأنه يملك مصر كلها، ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[الزخرف: ٥١].

هذه مصر تحت حكمي وملكي، وهذه الأنهار تجري من تحتي، أجرى من نهر النيل أخدوداً في الأرض وأنهاراً وفروعاً تجري من تحت قصره؛ أليس وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون؟ أفلا تبصرون هذا الشيء أم لا تبصرونه؟

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]؛ يقول: أنا خير من موسى، موسى مهين؛ يعني ذليل وفقير وليس عنده شيء، ولا يكاد يبين؛ ما يكاد يفصح، كلامه غير واضح؛ لأنه يقول: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾[القصص: ٣٤]؛ لأن لسانه ثقيل، ويستهزئ به فرعون.

ثم يقول، شوف النظرة الدنيوية: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣]؛ أسورة جمع سوار، وهي الأساور توضع في الأيدي من ذهب، يقول: ليش ما كانت في يديه الذهب بين يديه والأسورة معه؟

ما عنده دنيا ولا شيء. أو جاء معه الملائكة؛ ليش ما أتى بالملائكة معه مقترنين، يقترنون معه الملائكة لا يفارقونه؟ فقال: ما عنده شيء، كيف نطيعه ما عنده شيء!

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]؛ استخف عقولهم، جعل عقولهم خفيفة سفيهة فأطاعوه، فالنتيجة قال: إنهم كانوا قوماً فاسقين؛ لما أطاعوه فسقوا عن طاعة الله وخرجوا.

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥]؛ آسفونا يعني أغضبونا، أغضبونا واشتد الغضب عليهم فانتقمنا منهم؛ انتقم الله وعاقبهم بأن أغرقهم أجمعين في البحر.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٦]؛ قال جعلناهم يسلفون غيرهم ويتقدمون غيرهم، ويكونون عبرةً ومثلاً، عبرةً ومثلاً للآخرين؛ للأمم التي تأتيهم.

يعني إغراق فرعون وقومه آية عظيمة من آيات الله وقدرته وقوته، وجعلها عبرةً لمن يأتي من الأمم.

هذه قصة موسى باختصار، وجاءت في سياق الاغترار بالدنيا.

ويذكر الله قصة عيسى بعد ذلك، يقول: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: ٥٧]؛ كيف ضُرب مثلاً؟ ضرب مثلاً في العبادة أن النصارى عبدوه وجعلوه إلهاً، فالله أنزل قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ الله أنزل في الكفار، قال: أنتم ومعبوداتكم التي تعبدونها من دون الله كلكم حطب لجهنم وحصب لجهنم، أنتم لها واردون.

فاستغل بعض كفار مكة وهو يقال له (ابن الزِّبَعْرَى)، فقال: يا محمد، أنت تقول: إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم، يعني نحن وما نعبد وغيرنا وما نعبد؛ هل هذا صحيح؟

قال: نعم. قال: إذاً عيسى في النار، والملائكة في النار، والذين يعبدون وهم صالحون في النار! قال: كيف ذلك؟ قال: لأنك تقول إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم، وهذا عام.

فانزل الله بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٢]؛ كعيسى والملائكة والصالحين، أولئك عنها مبعدون لا يدخلون النار ولا يسمعون حسيسها.

فلما ضرب ابن مريم مثلاً لمن يعبد من دون الله، إذا قومك منه يصدون؛ فرحوا، يصدون يعني يضجون ويصيحون بقوة لما سمعوا هذا المثل قالوا وفرحوا، بدأوا يصفقون بأيديهم ويرفعون أصواتهم بالصياح، فقالوا: يا محمد، كيف تقول هذا الكلام؟ إذاً عيسى في النار.

رد الله عليهم ولذلك: ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]؛ يعني آلهتنا أفضل ولا هو؟ إذا كان هو سيدخل النار فآلهتنا في النار.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨]؛ ما ضربوه إلا مجرد جدل فقط، وإلا هم يعرفون حقيقة عيسى وأنه نبي وأنه لن يكون في النار، قال: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]؛ كثير الخصومة، يعني شديد الخصومة، يخاصمون بلا فائدة.

ثم بين حقيقة عيسى من هو، أنه هو إلا عبد من عباد الله؛ قال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]؛ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه بالرسالة والنبوة والمعجزة، وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل؛ جعلناه عبرةً ووصفاً عظيماً لبني إسرائيل حتى يؤمنوا به، يعني آيةً عظيمة، وجعلنا ابن مريم وأمه آية؛ ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠].

ثم إن المشركين يقولون: إذا أراد الله أن يدعو ينزل ملك من السماء؟ لماذا يبعث محمداً؟ فقال الله هذا ما يتناسب، شوف قال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠]؛ يقول: لو أنزلنا ملكاً من السماء لذهبنا بكم وأتينا بمكانكم ملائكة يخلفون، يخلفونكم.

ثم قال إن عيسى علامة عظيمة، علامة على قرب الساعة؛ لأن نزول عيسى آخر الزمان من أشراط الساعة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١]؛ علامة على قرب الساعة، فلا تمترن بها؛ لا تشكون بالساعة، واتبعوني هذا صراط مستقيم؛ يقول اتبعوني، يقول عيسى لقومه: اتبعوني هذا صراط مستقيم، أو يقوله محمد، أو كلاهما يدعوان إلى الصراط المستقيم.

ثم قال: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢]؛ احذروا أن يصدكم الشيطان، أن يصدكم عن طاعة الله، إنه لكم عدو مبين.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣ - ٦٤]؛ ولما جاء عيسى بالبينات والحجج والأدلة، قال لقومه: قد جئتكم بالحكمة؛ بالحكمة والعلم ومعرفة الأمور، ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه؛ يوضح ويزيل عنهم بعض الاختلافات التي عندهم في زمنهم وفي شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فاتقوا الله وخافوه وأطيعون، أنا رسول أطيعون، أنا رسول.

إن الله هو ربي وربكم، لست أنا إلهاً معبوداً، أنا عبد، أنا عبد والله هو المستحق للعبادة؛ إن الله هو ربي الذي رباني وأمرني بعبادته وهو ربكم فاعبدوه، فأنا أعبده، اعبدوا الله؛ هذا الصراط المستقيم، عبادته هي الصراط المستقيم.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]؛ ولكن اختلف الأحزاب، تحزبوا؛ أي النصارى أصبحوا فرقاً، اختلف الأحزاب، أصبحوا أحزاباً وفرقاً من بينهم، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم؛ فويل للذين ظلموا واختلفوا وتركوا الصراط المستقيم من العذاب.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الزخرف ٦٦ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وصلى الله وسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للسابع من شهر الله المحرم من عام (١٤٤٧ هـ). أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداةً مهتدين، موفقين لكل خير، ويجعلنا وإياكم من أهل (القرآن العظيم) الذين هم أهل الله وخاصته.

مجلسنا اليوم مع سورة (الزخرف)، ووقف بنا الكلام عند الآية السادسة والستين من السورة؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه العزيز: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

من هم؟ لما ترجع إلى الآية التي قبلها يتضح لك من هم؛ شوف يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآية التي قبلها: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥].

اختلفوا في عقائدهم تجاه عيسى ابن مريم؛ فمنهم من جعله هو الإله، ومنهم من جعله ابن الله، ومنهم من جعله ثالث ثلاثة، ومنهم من جعله رسولاً وعبداً: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، وإني رسول الله. فاختلفوا فيما بينهم.

قال الله مهدداً لهم هؤلاء: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ [الزخرف: ٦٦]؛ يعني (هل) هنا بمعنى النفي؛ أي: لا ينظرون ولا ينتظرون إلا الساعة؛ أي يوم القيامة.

قال بعض أهل التفسير: "هذا يشمل هؤلاء الأحزاب ويشمل غيرهم من المكذبين بالساعة ومن الجاحدين لوعد الله؛ فبعضهم عممها وبعضهم خصها بما يوافق السياق".

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦]؛ أي: هل ما ينتظرون إلا الساعة، يعني سيبقون على ما هم عليه من عقائد فاسدة وباطلة، ما ينتظرون إلا وقد جاءتهم الساعة وحلت بهم بغتة؛ أي فجأة لا يدرون، إلا وقد جاءتهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون.

والساعة هذه هي يوم القيامة؛ يعني إذا جاء يوم القيامة بغتة ما يشعرون ولا يدرون إلا وقد جاءهم هذا اليوم، أو قد يقال -والله أعلم- أن يراد بالساعة هي ساعة كل إنسان؛ كل إنسان له ساعة رحيل من هذه الدنيا إلى عالم الآخرة، إلى عالم الآخرة.

فأنت وغيرك من الناس ينتظر هذه الساعة التي تأتيه فتجعله يرحل من هذه الدنيا إلى الآخرة، وهذه الساعة لا يعلمها إلا الله، ما أحد يدري متى تأتيه الساعة؛ هي تأتيه بغتة، ما يدري متى ينزل به الموت، فهؤلاء ما ينتظرون إلا والموت يأتيهم؛ لأن الموت هو من أمور الآخرة، وأول أيام الآخرة القبر.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. المتقين تبقى محبتهم؛ يعني لأنها محبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، محبة لله وصداقة لله، يتصادقون ويتحابون ويكون بعضهم خليلاً لبعض، يوم القيامة تثبت محبتهم.

المحبة في الدنيا التي تكون لله تبقى في الآخرة، تبقى في الآخرة. لما جاء الرجل الأعرابي فقال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المرء يحب القوم ولما يلحق بهم يعني هو يحبهم بس ما لحق بهم.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»؛ يعني يوم القيامة مع من أحب، فأنت إذا أحببت أصدقاء لك وأحببت إخواناً لك وأحباء لك وأخاً في الله، هذه المحبة باقية؛ لأنك تحبهم في الله، وتزورهم في الله، وتتواصل معهم في الله، وتدعو لهم في ظهر الغيب لله، كل هذه تبقى يوم القيامة ثابتة؛ هذا معنى (الخِلّة) الصالحة.

ولذلك شوف ذكر الله بعد صفات المتقين أو ذكر مآلهم يوم القيامة، مآل هذه التقوى والمحبة والخِلّة تبقى لهم؛ شوف قال بعدها: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

يناديهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيقول: يا عبادي؛ يناديهم بما يسرهم، وشوف وبأحسن الألقاب، ما قال يا أيها الناس أو كذا، لا؛ قال: يا عبادي، أنتم عبادي، يا عبادي؛ فيدخل عليكم السرور، وأنت لما يقول الله لك يا عبدي تفرح أنك تكون عبداً لله.

ولذلك أول ما بدأ بالبشارات هو ذهاب الخوف والحزن، وأن يكون مكان الخوف والحزن الأمان والأمن والطمأنينة والراحة: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[الزخرف: ٦٨].

لا خوف عليكم فيما تستقبلونه، ولا تحزنون على ما فاتكم وما تركتموه وراء ظهوركم من الأولاد والأموال ونحوها، لا تخافون على المستقبل ولا على الماضي. لماذا يطمئنهم ويذهب عنهم الروع والخوف ويدخل عليهم السرور ويذهب عنهم الحزن؟ هذا أهم شيء.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ يوم القيامة لهم الأمن، فهذا معهم؛ إن المتقين في مقام أمين. فأول الأمور أن يذهب عنهم الروع والخوف: لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

ثم بدأ يصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٩]؛ آمنوا يعني صدقوا بآيات الله واعترفوا بها وسارعوا لتطبيقها والعمل بها؛ تصديق مع العمل.

الذين آمنوا بآياتنا؛ كل ما جاءهم من آيات الله الكونية والآيات القرآنية والأحكام الشرعية آمنوا وصدقوا بها، وكل ما جاءهم من وعد الله ووعيده وما أخبر به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كل ذلك آمنوا به.

وزيادة على ذلك قال: ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٩]؛ كانوا مسلمين يعني منقادين لله في جميع أحوالهم، شوف كيف الاتصاف في الظاهر والباطن.

الباطن آمنوا داخل في قلوبهم وعملوا بهذا بكل ما جاء ومصدقوا بقلوبهم، وكانوا مسلمين بالظاهر منقادين لكل أوامر الله، لا يترددون ويقولون هذا ليش كذا وهذا اعتراض، لا؛ وإنما مسارعة للخير، مسارعة لأوامر الله والبعد كل البعد عن نواهيه.

شوف قال هنا: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]؛ لما آمنوا بآيات الله وصدقوا بها واستقر الإسلام فيهم وانقادوا لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يناديهم يوم القيامة فيقول لهم: ادخلوا الجنة هي داركم وقراركم يوم القيامة، ادخلوها أنتم وأزواجكم.

المتبادر أن معنى أزواجكم يعني الزوجات النساء نساؤكم في الدنيا، هذا صحيح، لكن من المفسرين من عمم وقال: أزواجكم نساؤكم وكل من هو على شاكلتكم وعلى طريقتكم وعلى ما أنتم عليه؛ هؤلاء الأزواج، لأن الله يقول في بعض الآيات: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ يعني أقرانهم وأصدقاءهم ومن وما كانوا عليه جميعاً ما كانوا يجتمعون عليه.

فالأزواج أوسع؛ يدخل فيها الزوجات؟

نعم يدخل فيها الزوجات، وأسخ من ذلك، شوف؛ لأن كلمة الأزواج في اللغة معناها الأصناف؛ الأزواج معناها الأصناف والأشكال، شوف قال: ﴿أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣]، وقال: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٨]، وقال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [الزخرف: ١٢] يعني أصناف.

يقول: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]؛ أنتم ومن كان مثلكم، وزوجاتكم ونساؤكم كلكم ذلك داخل.

قال: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠].

- **ما معنى تحبرون؟**

شفت تحبرون.

قال بعض أهل التفسير: "أي تنعمون وتكرمون".

وقال بعضهم أيضاً: "تحبرون يعني تلبسون الحبرات؛ وهي الملابس الجميلة الحسنة"، (الحبرات) يعني الثياب والملابس المحبرة الملونة، ومنه **(الحبر)**؛ حبر القلم لأنه يأتي بألوان، وكذلك **(التحبير)**: الصوت الجميل؛ يقول: **«لَحَبَّرْتُهُ لَكَ تَحْبِيرًا»** أي الجمال والصوت الحسن.

فهم في الجنة إذا دخلوا الجنة هم وأزواجهم يحبرون؛ ينعمون بنعيم الجنة، ويكرمون بكرامات الجنة، ويلبسون أحسن الملابس المحبرة، ويسمعون أحسن الأصوات؛ كل هذا صحيح.

ثم إذا هم دخلوا الجنة واستقروا فيها ونعموا وكرموا، يأتي إليهم الغلمان والولدان فيطوفون عليهم؛ قال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

شوف صحاف وأكواب؛ الصحاف من ذهب والأكواب من ذهب أو من فضة، يدور عليهم الخدام الخدم الولدان والغلمان؛ يدورون، ﴿وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧].

فالصحاف فيها الطعام؛ وهي الأواني التي يوضع فيها الطعام، والأكواب هي الأواني التي يوضع فيها الشراب، فهم يأكلون ويشربون بأفضل وأحسن الأواني، وأصفاها من ذهب ومن فضة.

ثم قال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]؛ يقول: لا تظن أنها فقط هي التي في الصحاف **"جمع صحفة وهي الإناء"** أو الأكواب **"جمع كوب وهو ما يوضع فيه الشراب"**، يقول: لا، فيها ما هو أكبر وأعظم.

﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ﴾ كل ما تشتهيه نفسك موجود في الجنة، ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ كل ما تتلذذ به أعينك هو موجود، يعني كلمة جامعة لكل نعيم وفرح وسرور في الجنة؛ يعني العين تقر بما تراه، والقلب يصبح مسروراً بما يرى، والنفوس تصبح.

ما تشتهيه الأنفس من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وكل ما تتلذذ به الأعين من المناظر الحسنة والأشجار والنعم والفواكه والخضار، وكذلك تتلذذ أعين وتشتهيه النفوس.

ولذلك قال بعدها: لكم فيها فاكهة ليست محددة، ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣]؛ فاكهة كثيرة لا حد لها، قال: لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون؛ زيادة على الفاكهة التي عندهم ما يدعون يعني ما يطلبونه.

شوف قال هنا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، لكم فيها فاكهة كثيرة لا حد لها منها تأكلون؛ تأكلون مما تشاؤون منها.

ولكن هنا قال: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]؛ كيف اورثتموها؟ كيف صارت ميراثاً لهم؟ ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ شوف الجنة ليست مقابل العمل، لو كانت مقابل العمل ما استطعنا أن ندخلها؛ لأن أعمالنا قليلة جداً وهذه الجنة عظيمة.

ولكن الله يعطينا إياها كما يكون لنا الميراث بدون مقابل؛ الميراث يعني الإنسان يرث الميت بدون مقابل، يأتيه المال بالقوة يعني ليس له اختيار؛ خلاص لك النصف لك الربع لك كذا لك سهم.

يعني لأن الجنة كأنها ميراث، الله ورثنا إياها؛ لأنها لو كانت بأعمالنا ما وصلنا هذه الدرجة، ومع ذلك يحث الله على العمل فيقول: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يحثك على العمل، ويبين لك أن الأعمال سبب في دخول الجنة، لكن دخول الجنة في الحقيقة هو بفضل الله ورحمته؛ هذا وجه.

وقيل: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ لأن المؤمنين يرثون منازل الكفار في الجنة، المؤمنين يرثون منازل الكفار في الجنة؛ لأن الكافر له مقعد في الجنة وله مقعد في النار، فإذا كفر أخذ مقعده من النار وترك مقعده من الجنة، وهذا هو الغبن؛ يسمى يوم التغابن، والمؤمن له مقعد في النار ومقعد في الجنة، فإذا آمن ودخل الجنة أخذ مقعده ثم يرث مقعد الكافر.

ولذلك إذا وُضِع في قبره يفتح له باب إلى النار فيقال: هذا مقعدك لو كفرت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال: هذا مقعدك لما آمنت؛ فهذا معنى أورثتموها، يعني لها معنيان والله أعلم.

قال: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣]. لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني أهل الطاعة والأخلاء والمتقين والصالحين، وأن خلتهم ومحبتهم باقية.

وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يمن عليهم بهذا العطاء وهذا الفوز العظيم، يذكر من خسر خلته ومحبته في الآخرة وخسر داره في الآخرة وظل مع الضالين؛ اسمع ماذا يقول الله عن هؤلاء المجرمين وعن مآلهم ومصيرهم، فيقول: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤].

أولاً: قف عند كلمة المجرمين؛ يعني أجرموا، يعني ذنوبهم إجرام؛ إجرام يعني ما يكفيهم أنهم يعصون الله ويقعون في مثلاً نواهٍ ونحو ذلك، لا؛ عندهم من الجرائم ما لا حد لها، يعني إفساد في الأرض وعلو واستكبار إلى أن وصلوا إلى أعلى درجات الكفر والطغيان، مجرمين.

ولذلك وصفهم الله بالإجرام، أجرموا بكفرهم ومعاصيهم وتكذيبهم.

﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾؛ شوف (في) تفيد الانغماس، يعني منغمسون في نار جهنم، وزيادة: ﴿خَالِدُونَ﴾.

وزيادة: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]؛ لا يفتر يعني لا يخفف، يعني يستمر العذاب عليهم، لا لن ينقطع؛ يعني لا يفتر عنهم العذاب ويخفف عنهم العذاب ويزول عنهم أو يرفع عنهم قليلاً أو يخفف، لا يفتر عنهم أبداً، يقال فلان فتر من الشيء يعني تعب؛ يفتر يتعب، لا؛ هذا لا يزول عنهم مستمر.

﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ آيسون من الخروج، آيسون من التخفيف، ما لهم أي حيلة، آيسون؛ قال: وهم فيه مبلسون، من (البَلَس) وهو اليأس.

قال ثم هم ينادون: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]؛ ينادون (خازن النار)، اسمه مالك، خازن النار من الملائكة اسمه مالك، ينادونه: يا مالك، يا مالك؛ ماذا تريدون؟

قال: ادعُ ربك يقضي علينا، يميتنا نستريح؛ نحن نريد أن نموت، خلاص ما نريد يعني هذا الغم والهم والعذاب الغليظ الذي ليس لنا صبر عليه ولا جلد، ليمتنا ونرتاح، فيتمنون الموت: ونادوا يا مالك ليقضي علينا ربك، يميتنا ونرتاح من هذا العذاب.

- **ماذا قال له خازن النار؟**

قال: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾؛ أتى بكلمة شديدة عليهم، قال: ما فيه لا موت ولا خروج، لا أنتم خارجون منها ولا أنتم ميتون، يأتيهم الموت من كل مكان ولا هم ميتون، ولا هم خارجون منها وباقون فيها ولا يخفف عنهم؛ ماكثون على ما أنتم عليه، هذا الجواب القوي الذي لم يكونوا يتوقعوا أن يأتيهم مثل هذا الرد القوي، أصابهم غم على غمهم: إنكم ماكثون.

ثم قال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨]؛ يقوله خازن النار وخزنة جهنم، ملائكة النار يقولون لهم: لقد جئناكم بالحق؛ جاءتكم الرسل بالحق، وأرسل الله إليكم الرسل وأنذركم؛ جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون، لا تريدون؛ لا تريدون الحق، ولا تريدون أن تستمعوا للخير، لا تريدون الحق أبداً.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحكي حالهم في الدنيا؛ خلاص انتهى ذكرهم في الآخرة ثم يذكر حالهم في الدنيا، ماذا كانوا يصنعون؟

قال: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ [الزخرف: ٧٩]؛ يقول: هم أبرموا أمراً يعني أحكموا أمراً شديداً ضد الإسلام ومحاربته، وكادوا للإسلام ومكروا، هم يمكرون ويكيدون للإسلام ويحاربونه بكل ما يستطيعون، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مبرم.

قال: فإنا مبرمون أي نحن أيضاً محكمون أمرنا ومدبرون أمورنا، ونمكر بها كانوا يمكرون ونكيد أيضاً؛ يعني لن نتركهم، إذا هم يخططون ضد الإسلام والمسلمين في كل زمان ومكان فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً فوقهم يمكر بهم؛ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]؛ هؤلاء يظنون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم؟

هل يعني هم يظنون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم؟! نسمع سرهم ونجواهم.

- **ما هو (السر) وما هو (النجوى)؟**

السر: الصوت الخفي الذي في نفسك أنت، والنجوى: حديثك مع صاحبك بصوت منخفض، تتناجى أنت ومن معك؛ أنت وبجانبك، الله يعلم ماذا تقول لصاحبك بجانبك، سواء عن طريق المكالمات الهاتفية أو الحديث السر الذي يسمعه صاحبك وهو قريب والذي بعده لا يسمعه، هذا الله يسمعه، ولو أخفيت في نفسك وأسررت في نفسك كلاماً فالله يعلمه، ويسمع سرك ويسمع نجواك.

ثم زيادة؛ لا تظن أن الله فقط يسمع وانتهى الأمر، لا؛ يسمع وعنده من يكتب، وهم الملائكة ورسل لديهم يكتبون، يكتبون كل ما يتكلم به هؤلاء، وكل ما يفعلونه ويخططون له وما يقعون فيه من المعاصي والشرك والكفر؛ كل ذلك يسمعه الله ويكتبه، وتكتبه الملائكة: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

ثم يناقشهم أيضاً في العقيدة؛ هم يدعون أن لله ولداً، النصارى يقولون: عيسى ابن الله، واليهود يقولون: عزير ابن الله، وطوائف من أهل الشرك يقولون: الملائكة بنات الله.

فالله يناقشهم فيقول: يا محمد قل لهم: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]؛ يعني لو سلمنا وفرضنا أن لله ولداً فأنا أول العابدين، يعني أعبد الله حتى لو كان عنده ولد، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منزه؛ هو الواحد الأحد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، هو الواحد، لكن لو سلمنا لكم جدلاً وتنزلنا معكم أن يكون له ولد، سبحانه جل جلاله.

ولذلك قال بعدها: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [الزخرف: ٨٢ - ٨٣].

ثم قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]؛ أي: له، أي معبود سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، معبود في السماء ومعبود في الأرض، لا يحتاج وغني عن عباده هؤلاء المشركين؛ لأنه حكيم فيما يقضي ويحكم ويدبر، وعليم بأحوال خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

فقوله هنا: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾ يعني معبود في السماء معبود في الأرض، مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]؛ يعني هو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض، مع أننا نعلم جميعاً أن الله فوق عرشه بائن من خلقه، مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، ولا يقال أن الله في السماوات وأن الله في الأرض، تعالى الله عما يصفه هؤلاء.

ولذلك قال: ﴿تَبَارَكَ﴾؛ أي كثر خيره سبحانه وعم كل شيء، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]؛ يملك السماوات والأرض وما فيهن.

فكيف يكون فيهن وما بينهما؟! وعنده علم الساعة، لا يعلم علم الساعة إلا هو؛ عنده هو الذي انفرد بعلم الساعة: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥] يوم القيامة فيجازيكم ويحاسبكم إذا جاءت الساعة.

وهؤلاء الكفار لا يملكون شيئاً، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾ [الزخرف: ٨٦]؛ ما يملكون الشفاعة وهم يدعون من دونه، كفار مشركون الشفاعة ليست لهم، الشفاعة لمن ارتضى الله عَزَّ وَجَلَّ.

الشفاعة لمن أذن الله له: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦]؛ هؤلاء ما يملكون الشفاعة ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ [الزخرف: ٨٦] وهم أهل (التوحيد)، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] أن الشفاعة من عند الله، ويعلمون أن الله هو المستحق للعبادة.

ثم يخاطب هؤلاء المشركين ويسألهم من خلقهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]؛ من خلقكم أيها المشركون؟ سيقرون ويقولون: الله، إذا عرفتم أن الله خلقكم، لماذا تعبدون هذه الأصنام وهذه الأوثان؟! فأنّى كيف يصرفون ويعبدون غيره؟!

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف: ٨٨]؛ يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم الساعة، شوف؛ وعنده علم الساعة، وعنده علم قيله؛ يعني يعلم الساعة ويعلم قول محمد.

يقول: يا رب إن هؤلاء -يعني قومه- قوم لا يؤمنون، كفار يعني أصروا على الشرك والكفر؛ أهل مكة، والله يسمع قول محمد ويعلم كما يعلم الساعة.

ولذلك قال له: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٩]؛ اصفح وتجاوز عنهم، اصفح عنهم وقل سلام، اصفح عن هؤلاء وقل سلام فسوف يعلمون، اصفح عنهم وتجاوز عنهم ولا تعاتبهم.

وإذا خاطبك هؤلاء الجاهلون أعرض عنهم وقل سلام، فالسامة منهم من الأذى ومن أذاهم بالعفو والصفح خير من مقابلتهم بما كان يؤذونك به، ثم هددهم قل لهم: هددهم وقل: فسوف تعلمون نهاية ما أنتم عليه وعاقبة إجرامكم وإعراضكم.

إلى هنا تنتهي السورة؛ سورة (الزخرف) عشنا معها أياماً سعيدة جميلة من أولها وآخرها، وعرفنا هذه السورة؛ زخرف والذهب والفضة وزينة الدنيا وأنها تذهب كالسراب وكالظل.

كالظل الزائل لا يبقى، لا يبقى إلا التقوى والعمل الصالح والقرآن والصلاح والدعوة إلى الله، علينا أن نتمسك بها، نتمسك بكتابنا، بشرعنا فهو الباقي لك في الآخرة وهو الذي ينفعك، والأخلاء بعضهم لبعض عدو ولم تبقَ إلا الخلة الصالحة النافعة.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المتحابين في جلاله، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين يحشرون يوم القيامة مع أهل القرآن، ونسأل الله أن ينفعنا بهذه السورة العظيمة الجليلة.

لقاؤنا إن شاء الله في سورة تليها في اللقاء القادم، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الدُّخان)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الدخان ١ - ٢٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للرابع من شهر صفر من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير.

القرآن الكريم قراءةً وتفسيراً وبياناً وتدبراً وتأملاً وتفكراً؛ كما أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص: ٢٩].

السورة بين أيدينا هي (**سورة الدخان**)، وهي إحدى سور (**الحواميم**) المفتتحة بـ(**حم**)، وهي أيضاً من السور المكية، وبعدما أنهينا (**سورة الزخرف**)، التي من اسمها الأمر واضح فيها؛ وهي زخرف الدنيا وزينة الدنيا، واغتر فيها من اغتر.

وقد ذكر الله من اغتر فيها كفرعون وأهلكه الله لما قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[الزخرف: ٥١]؛ فأهلكه الله بعد أن زهد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الدنيا، وأنها دار ليست دار استقرار، وإنما دار كلها ابتلاءات وامتحانات.

بعد هذا البيان، ننتقل إلى السورة التي تليها وهي (**سورة الدخان**)، (**سورة الدخان**) سورة الإنذار، والتحذير، والتخويف من عذاب الله؛ عذاب الله في الدنيا وعذاب الله في الآخرة، لو نتأمل هذه السورة نجد أنها كلها إنذارات وتخويف وتحذير من عذاب الدنيا ومن عذاب الآخرة.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في هذه السورة، كما ذكر في غيرها من (**الحواميم**)، تعظيم القرآن، تلاحظ أن سور (**الحواميم**)، من (**غافر**) إلى (**الأحقاف**)، سبع سور، كلها يبدأها الله بتعظيم القرآن، والتنويه به، ومدحه، والثناء عليه؛ أي سورة من هذه السور السبع.

(سورة الدخان) عظم الله شأن القرآن ومجده، ثم بين أن الله اختار له أشرف ليلة على الإطلاق وهي الليلة المباركة (ليلة القدر)، ثم بين أن القرآن نزل للنذارة والتحذير والتخويف، ثم خوف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الناس بهذا العذاب الذي يرتقب وهو أن تأتي السماء بدخان مبين؛ هذا من عذاب الدنيا، أو قد يقال من عذاب الآخرة كما سيتضح لنا عندما نصل إلى هذه الآية.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا نموذجاً من موقف الطغاة من التحذير والإنذار والتخويف، لكنهم لم يبالوا ولم يكترثوا بهذا التخويف وهذا الإنذار، وهم فرعون وقومه؛ فأهلكهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ودمرهم وجعل أرضهم ميراثاً لغيرهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخاطب بهذه الآيات أهل مكة، ويحذرهم تحذيراً عظيماً، ويحذرهم كما حذرهم بعذاب الدنيا وأنذرهم من عذاب الدنيا، كذلك حذرهم وأنذرهم من عذاب الآخرة: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ اللَّهُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان: ٤٠ - ٤٢]، ثم قال: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٥] إلى آخر الآيات؛ كلها في التحذير والإنذار.

نبدأ على بركة الله في هذه السورة، هذه السورة تسمى بـ(سورة الدخان)، لا يعرف لها اسم؛ اشتهرت بهذا الاسم لذكر لفظ الدخان فيها: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [الدخان: ١٠ - ١١]؛ فسميت بهذا الاسم لذكر هذا اللفظ فيها.

ودائماً السور في الغالب أنه يختار لها اسم إذا كان هناك لفظ متميز يختار لها؛ مثل: (الدخان)، (الزخرف)، (الأحقاف)، (الجاثية)؛ هذه غالباً، وأحياناً يؤخذ من أول السورة؛ مثل: (الحاقة) أول السورة، (القارعة) أول السورة، (الشمس)، (الليل)؛ هذه من أول لفظ فيها، وأحياناً بحسب ورود القصة؛ مثل سورة (هود)، (يوسف)، وهكذا.

وهذه التسميات في الغالب أنها تسميات (توقيفية)؛ بمعنى أنها موقوفة من الوحي بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوحي إليه باسمها فأثبتها، سورة البقرة ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا الاسم؛ سماها بسورة البقرة، قال: ار. وهكذا، السور التي سماها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرة؛ إن لم يكن القرآن جميعاً مسمى.

هذه تسمى السورة بـ(سورة الدخان)، وتقرأ هكذا: الدُّخَان. تسمع بعض الناس -وسمعتهم أنا- يقولون: سورة الدَخَان؛ لا، الدَخَان غير، هذه هكذا تنطق: الدُّخَان، الدُّخَان مصدر.

السورة مكية، اسمها (الدخان)، هي إحدى (الحواميم) السبع المفتتحة بـ(حم)، وهي مكية لأنها تعالج قضايا العقيدة، وتبين عظمة القرآن، والإيمان به، والرسالة، والوحي، واليوم الآخر، والإيمان بالقضاء والقدر، والإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار.

تدور حول هذا، فهي في قضايا العقيدة، موضوعها في قضايا العقيدة، تركز في محورها ومقصدها -مثلما ذكرنا- على التحذير والإنذار بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

ابتدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿حم﴾ [الدخان: ١]؛ و(حم) -مثلما مر كثيراً- هي حروف من حروف الهجاء، جيء بها للإعجاز والتحدي بأن هذا القرآن مكون من هذه الحروف، فعليكم أن تؤمنوا به، وأن تفهموا آياته، وأن لا تردوها؛ فإن لم تقبلوا وأعرضتم فأتوا بحديث مثله، هذا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءكم بهذه السورة.

- **لماذا أنتم لا تأتون بسورة مثلها؟**

فأتوا بسورة، فأتوا بعشر سور، فأتوا بحديث مثله؛ فعجزوا عن ذلك، إذا عجزتم، فالواجب عليكم أن تؤمنوا، وإلا فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار أمامكم إن لم تؤمنوا وتصدقوا برسالة ربكم؛ هذا معنى جملة (حم).

أقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالقرآن الكريم فقال: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان: ٢]؛ مثلما أقسم في (الزخرف)، قال: ﴿وَالْكِتَابِ﴾، وهنا قال: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، يعني أقسم الله بالقرآن وهو الكتاب. سمي القرآن كتاباً لأنه مكتوب، وسمي قرآناً لأنه يقرأ بالألسنة ويكتب بالأيدي.

- **﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾، والمبين يعني البين الواضح في ألفاظه، ومعانيه، ودلالاته، ما يحتاج إلى أن تقول: ما معنى كذا؟**

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]؛ فالذكر مبين لكل شيء. ولذلك، هذا متعلق؛ مبين في ألفاظه، ولا في معانيه، ولا في أحكامه، ولا في دلالاته؟ مبين في كل شيء.

- **ثم لما أقسم بالكتاب، على أي شيء أقسم بالقرآن؟**

على القرآن؛ ولذلك جواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ [الدخان: ٣]، يعني يقسم الله بكتابه أنه هو الذي أنزله، لا محمد، أو محمد أتى به من نفسه أو افتراه أو أخذه من أحد؛ لا كما يقولون هم، يقولون: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، لا كما يزعمون، وإنما الذي أنزله هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وفي قوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ دلالة على أن القرآن منزل من فوق سبع سماوات وهو كلام الله، وأن الله مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، فوق سماواته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فأنزل كتابه وأنزل آياته وألقاها على جبريل، فسمع جبريل كلام الله فحفظه، ونزل به (الروح الأمين) على قلب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأوحى به إليه، هذا القرآن من أوله إلى آخره.

قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]؛ هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. وهذه الليلة المباركة أيضاً هي من ليالي رمضان؛ لأن الله قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فليلة القدر إحدى ليالي رمضان.

لاحظ أيها الأخ الكريم، مما يدل على عظمة القرآن وعظمة هذه الأمة التي شرفها الله بالقرآن، أن الله لما أراد إنزال القرآن اختار أفضل الشهور وهو رمضان، واختار أفضل الليالي وهي ليلة القدر، واختار أفضل الأماكن وهي مكة بلد الله الحرام.

واختار أفضل الرسل وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واختار أفضل الأمم وهي أمة محمد؛ شوف كيف هذه الاختيارات العجيبة لهذه الأمة ولهذا القرآن ولهذا الدين، فهذا شرف عظيم.

- **قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ ما معنى مباركة؟**

كثيرة الخيرات، والبركات، والأجور.

- **كم يكتب فيها من الأجور؟**

هذه ليلة القدر إذا أدركها الإنسان، إذا وفق لقيامها، كم يكتب له؟ أكثر من أربع وثمانين عبادة؛ أربع وثمانين سنة، ليلة مباركة كثيرة الخير، فمن وفق لها وفق لخير كثير: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]. يقول: أنزلنا هذا القرآن.

- **لكن هنا يا إخوان، أنزل الله القرآن كاملاً ولا أنزل بعضه؟ يعني هل نقول إن الله أنزل القرآن كاملاً في ليلة القدر، ولا نقول أنزله يعني بداية نزوله؟**

الجواب: كلا الأمرين؛ الله أنزل القرآن إلى السماء الدنيا جملة كاملاً، ثم أنزله مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة.

بدأ أول نزوله ليلة القدر؛ هذه الليلة ليلة القدر عندما بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعين سنة، وكان في (غار حراء) في رمضان في تلك الليلة، حتى قيل إنه هو اليوم الرابع والعشرين ليلة الخامس والعشرين؛ كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في (غار حراء) فجاءه الوحي في هذه الليلة، بدأ نزول القرآن، وأول ما نزل الآيات الخمس من سورة العلق، وأنزله الله في تلك الليلة إلى السماء الدنيا كاملاً.

قد يسألك سائل ويقول لك: ما الفائدة من نزوله إلى السماء الدنيا كاملاً؟

الجواب: تشريف لهذه الأمة؛ حتى يعلم سكان السماء الدنيا من الملائكة أن هذه الأمة قد شرفها الله في القرآن فأنزله، كما قال ابن عباس: نزولين؛ نزول جملة ونزول مفرق.

قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾؛ منذرين الناس بما ينفعهم ويضرهم، يعني كنا منذرين بإرسال الرسل وإنزال الكتب، يعني الله أنزل القرآن على محمد عندما أرسله، وأنزل الكتاب للإنذار والتحذير لهذه الأمة الغافلة؛ الأمة التي لا تعرف طريقها إلى الله، وإنما تعبد الأصنام، وتأكل الحرام، وينهب بعضها بعضاً، ويقتل بعضها بعضاً، تعيش في جهل.

فأراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إنقاذها بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ لتعرف لماذا خلقت، وتعرف ما ينفعها، وتعرف ما يضرها وتبتعد عنه، وتقبل على ما ينفعها، ولكن مع الأسف، لما جاء الرسول لهذه الأمة في صدرها عند أهل مكة، أبوا واستكبروا وامتنعوا، ولم يقبلوا رسالة نبيهم ولا هذا القرآن.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]؛ فيها أي: في هذه الليلة؛ أنزل الله فيها القرآن، هذه الليلة فيها أمر وشأن عظيم، ما هو؟ سميت ليلة القدر، معنى القدر يعني الشرف أو التقدير؛ لأن الله يقدر فيها الأقدار السنوية، يقدر فيها كل ما يجري في هذه السنة.

قال: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾؛ يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة ما أراده الله وقضاه وقدره؛ قدره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقضاه يفرقه في هذه الليلة، ويفصله من اللوح المحفوظ إلى الكتبة من الملائكة، ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ محكم؛ مما يتعلق بالآجال، والأرزاق، والخير، والشر، والنفع، والضر.

كل ما يجري من سنة إلى سنة؛ من ليلة القدر إلى ليلة القدر القادمة. كل ما يجري من وفيات، وأرزاق، وولادة، ورزق، وأعمال خيرية، أو أعمال شر، أو نحو ذلك؛ كل هذا قد فصل من اللوح المحفوظ.

إذاً عندنا الآن التقدير؛ تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيما قدره في هذه المخلوقات وفي هذه الدنيا يرجع إلى أربع أشياء، أربع تقادير:

- التقدير الأول: (التقدير العام): وهو أكبره وأوسعه، وهو ما قدره الله قبل خلق السماوات والأرض في (اللوح المحفوظ). كل ما يجري على هذه الأرض قد كتبه الله وقدره قبل خلق السماوات والأرض وقبل خلق الإنسان؛ قدره وكتبه في (اللوح المحفوظ).

لما خلق الله القلم، أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب مقادير السماوات والأرض إلى قيام الساعة؛ فكل ما قدره الله مكتوب في (اللوح المحفوظ)، هذا التقدير العام.

- التقدير الثاني: (التقدير العمري): وهو ما يقدره الله للإنسان وهو في بطن أمه بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد؛ هذا نسميه التقدير العمري لكل إنسان في عمره كله حتى يخرج من هذه الدنيا.

- التقدير الثالث: (التقدير السنوي): وهو المذكور في هذه الآية؛ وهو ما يقدره الله بما يفصله من (اللوح المحفوظ) في أيدي الملائكة الكتبة. كل ما يجري من وفيات -كل يوم وفيات نسمع- كل يوم ولادة، كل يوم خير، كل يوم شر، كل يوم قضاء؛ هذا قدره الله ليلة القدر، ليلة القدر فصله وقدره كله.

- التقدير الرابع: (التقدير اليومي): كما في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ وهي الأقدار اليومية التي يعلمها الله سبحانه ونحن لا نعلمها. هذا التقدير الذي ذكره أهل العلم، التقادير الأربعة: العام، والعمري، والسنوي، واليومي.

يقول بعد ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا﴾ [الدخان: ٥]؛ أي هذه الأمور، الأمر من عند الله، جميع الأمور والأقدار هي بوحي من الله، وبعلم من الله، وبأمر وإذن من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [الدخان: ٥]؛ أي مرسلين إلى الناس رسلنا، ومنهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أرسله الله بهذه الرسالة وبهذا القرآن، وقبله الرسل التي أرسلت؛ ولذلك قال: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان: ٦]، هذه الرسل ومحمد رحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

رحمة أن أرسل رسله إلى الناس، رحمة من ربك؛ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٦]. هذا رحمة وفضل من الله أن أرسل إلينا رسوله، وأنزل إلينا كتبه، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، نعرف نقرأ القرآن ونعرف نصلي ونعرف نعبد ربنا ونتجنب الشر ونقبل على الخير؛ هذه رحمة من الله، رسالة محمد: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] من ربك.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، لا يخفى عليه شيء، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأحوال والأمور؛ كله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، عالم سميع عليم.

ثم قال: ﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الدخان: ٧]؛ الذي أرسل الرسل وفرق القضاء والقدر وأنزل الكتب هو رب السماوات والأرض، خالقها، مدبرها، وما بينهما؛ إن كنتم موقنين، على يقين، على علم راسخ ثابت.

﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الدخان: ٨]؛ إذا كان هو رب السماوات والأرض إقراراً بـ(**توحيد الربوبية**)، فليقروا بـ(**توحيد الإلهية**)؛ لا إله إلا هو، لا معبود بحق إلا هو. الذي يستحق العبادة هو الذي يستحق الدعاء، لا يدعى إلا هو، ولا يخشع إلا له، ولا يخاف إلا منه، ولا يسجد ويركع ويعبد إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مستحق لجميع أنواع العبادة؛ لأنه أيضاً ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الدخان: ٨].

فهو رب الخلق كلهم، وهو الذي تفرد بالإحياء والإماتة. لا يحيي ولا يميت أحد من هذه المعبودات التي تعبد من دون الله؛ هذه الأصنام، والأوثان، والأولياء ولو كانوا ما كانوا من كانوا، لا يحيون ولا يميتون، الذي يحيي ويميت هو الله: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: ٨]؛ فاعبدوه، ولا تعبدوا غيره من الآلهة الباطلة التي لا تقدر، ولا تنفع، ولا تضر، ولا تحيي ولا تميت، ولا تدبر شيئاً في الكون، ولا تملك شيئاً لا لكم ولا لأنفسها.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد هذا البيان العظيم: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]. بل هؤلاء المشركون في شك من الرسالة، والحق، والقرآن، والتوحيد، وهم لاهون يلعبون؛ لا يصدقون ولا يؤمنون

ولا يأخذون بهذه الأمور بجد، وإنما في لهو ولعب وغفلة حتى ينزل بهم ما ينزل بهم، لم يلتفتوا للقرآن وحقيقته، بل هم في ضلال مبين وفي غفلة وشك.

ولكن هدد كفار قريش فقال: ﴿فَارْتَقِبْ﴾ [الدخان: ١٠]؛ انتظر يا محمد، وانتظر أيها المخاطب بهؤلاء المشركين الصادين الضالين الغافلين الذين يلعبون، ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠].

دخان مبين؛ الدخان معروف، الدخان هو ذلك الظل الذي يخرج إلى السماء بسبب النار يرتفع، وهذا الدخان يظلل؛ مبين، واضح يعم الناس، ﴿يَغْشَى النَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١١]، ويعمهم حتى يقولوا: هذا عذاب أليم، مؤلم موجع.

فيدعون ربهم فيقولون: ﴿رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ [الدخان: ١٢]؛ الآن يؤمنون! ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ ودعواهم أنهم مؤمنون لأنهم في العذاب، إذا كشف عنهم عادوا؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]. فهم مؤمنون بك يا محمد ومؤمنون بالقرآن؛ يعني لما رأوا العذاب.

- **وهذا العذاب متى يكون؟ متى حصل؟ وهل كان وحصل ولا سيكون؟**

اختلف المفسرون في ذلك:

القول الأول: فبعضهم يقول إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا على أهل مكة أن يجعل سنينهم كسني يوسف (جوع وقحط)، فماتوا من الجوع حتى إن الواحد من أهل مكة، من كفار قريش.

إذا رفع رأسه إلى السماء لا ينظر إلا إلى دخان من شدة الجوع والألم الذي يصيبه؛ من الألم وشدة الجوع كأنه يرى دخاناً فوقه، وهذا يحصل للإنسان لما يصيبه شدة الجوع، يرى كأن أمامه الدخان من شدة الجوع والشدة.

فهذا يقال إنه حصل، وعلى أن هذا الدخان هو الدخان الذي أصاب أهل مكة، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رآهم على هذه الحال دعا الله أن يكشف عنهم فكشف الله عنهم: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾.

القول الثاني: وقيل إن الدخان هذا هو الدخان الذي يحصل في آخر الزمان، وهو من علامات الساعة الكبرى؛ أن يأتي الناس دخان فيكون في حق المؤمن كالزكام، وأما في حق الكافر فإنه يأخذ به

وبروحه حتى يموت، وهذا من علامات الساعة الكبرى أن يصيب الناس شيء من الدخان فيهلك من هلك.

القول الثالث: وهناك رأي ثالث ذكره (السعدي) في تفسيره وقال إن الدخان هذا هو ما يصيب أهل النار؛ لأن أهل النار إذا اقتربوا من النار أصابهم من الدخان ما أصابهم، فيقولون: اكشف عنا، فلا يكشف عنهم.

والذي يظهر الله أعلم، إما الدخان الذي أصاب أهل مكة، وهذا محتمل لأن الله قال: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ﴾، ويحتمل أن يكون الدخان الذي هو من علامات الساعة الكبرى.

يدعون ربهم: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾؛ ومصدقون مؤمنون بك وبكتابك وبرسولك.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الدخان: ١٣]؛ كيف يكون لهم الذكرى والتذكر والاعتبار والاتعاظ بعد نزول العذاب؟ ما ينفع، إذا نزل العذاب ما ينفع التذكر.

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾؛ ما ينفع إذا جاء الموت، أو رأى يوم القيامة، أو جاءه العذاب؛ الذكرى والتذكر والندم ما ينفع، ليس هذا وقته، إذا نزل العذاب ليس هذا وقته.

﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الدخان: ١٣]؛ يذكرهم ويعظهم ولم يتقبلوا، أعرضوا وتولوا وأعرضوا عنه، ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾[الدخان: ١٤].

قالوا في حق محمد: معلم يعلمه، وفيه جنون؛ تعلمه الكهنة، يعلمه الكهنة والشياطين والجن فهو معلم، نقول: نعم، هو معلَّم، ولكن من الذي علمه؟ نقول: علمه الوحي، علمه جبريل، وليس بمجنون كما تدعون: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[التكوير: ٢٢].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾؛ سنرفع عنكم العذاب قليلاً، سواء كان يا أهل مكة لما أصابكم، أو في آخر الزمان سنرفع عنكم العذاب قليلاً، ولكنكم ستعودون إلى الكفر والتكذيب والضلال؛ فنعاقبكم بما هو أشد وأنكى من ذلك.

متى؟ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]. يعني إما أن تكون (البطشة الكبرى) يوم القيامة في حق الدخان في آخر الزمان، أو في حق مكة؛ البطشة الكبرى هي قتلهم يوم بدر،

فبطش الله بهم يوم بدر، وقطع رؤوس كثير من أهل الشرك، فمات منهم سبعون وأُلقوا في قليب بدر: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسوق لنا قصة فرعون فيقول: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٧]؛ اختبرنا فرعون وابتليناه برسالة موسى فكفر واستكبر، وجاءه رسول كريم على الله وهو موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فكفر به ورد رسالته.

وموسى يقول لفرعون: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٨]؛ يا عباد الله أطيعوني واسمعوا واقبلوا رسالتي، أو أنه يقول لهم: أدوا إلي بني إسرائيل، هم عباد الله، يعني أرسل معي بني إسرائيل ولا تعذبهم، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ يعني رسول قد ائتمنني الله على هذه الرسالة، فأنا أمين على الرسالة وأمين على الوحي وأؤدي رسالة ربي؛ فأرسل معي بني إسرائيل وآمنوا وصدقوا بي.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٩]؛ احذروا أن تتكبروا على الله وعلى دينه وعلى شرعه وعلى رسوله، إني آتيكم بسلطان مبين؛ بحجة واضحة ودليل وآيات عظيمة.

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠]؛ ولذت بربي واستجرت بربي وربكم أن ترجمون، أو تقتلونني أو تؤذونني بأي أذى بحجارة أو غيرها.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ [الدخان: ٢١]؛ وإن لم تؤمنوا ولم تصدقوا لي فاعتزلوني واتركوني أدعو إلى ربي، خلوا سبيلي أدعو إلى ربي لا تؤذونني.

فأصروا على كفرهم وإيذائه، ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢]؛ مستمرون في جرمهم وضلالهم وإيذائهم فدعا عليهم.

فأوحى الله إليه أن يسر بعباده، وأن يخرج ببني إسرائيل ليلاً؛ لأن الإسراء لا يكون إلا ليلاً: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣]؛ سيتبعكم فرعون وجنوده ثم يغرقهم الله في البحر.

فأوحى الله إلى موسى أن يخرج بعباده فخرج بهم، فلما وصل البحر ضرب البحر فانفلق، فكان كل فرق كـ(الطود العظيم)، وأنجى الله موسى ومن معه أجمعين.

فلما خرجوا من الجانب الآخر، قال الله لموسى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤]؛ اتركه ساكناً يبساً، لا تضربه بالعصا فتتلاطم الأمواج؛ لا، اتركه لأن فرعون ومن معه سيتبعونكم،

إنهم جند مغرقون سيتبعونكم، فإذا اكتملوا في البحر اضرب عصاك البحر فيرجع ماء فيغرقون جميعاً؛ فقد تركوا، فأهلكهم الله جميعاً في البحر.

وتركوا: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٦]؛ معيشة طيبة، كل هذا.

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٧]؛ ونَعمة بالفتح، نَعمة غير نِعمة؛ نَعمة يعني متنعمين فيها، فاكهين مترفين، عندهم الخير والأمل والرزق، فتركوا ذلك وخرجوا وأُغرقوا.

﴿كَذَلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٨]؛ أورثنا هذه الديار قوماً آخرين غيرهم، وفي آية أخرى قال: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٩]؛ السماء تبكي على الصالحين، ولم تبكِ على هؤلاء لأنهم مجرمون. تبكي على الصالحين لأن السماء تصعد أعمال الصالحين إليها، والأرض تبكي على الصالحين لأنهم كانوا يتعبدون ويصلون عليها؛ فهؤلاء لم تبكِ عليهم، وما كانوا منظرين، أي ما كانوا مؤخرين عن العذاب بل نزل بهم.

نقف عند هذا القدر لا نطيل عليكم، ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الدخان: ٣٠] عند الآية رقم ثلاثين إن شاء الله نكملها في اللقاء القادم.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الدخان ٣٠ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم. هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من شهر صفر من عام [١٤٤٧ هـ]. نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

(سورة الدخان) وقضينا معها وقتاً في اللقاء الماضي، وأخذنا شيئاً من آياتها، ونستكمل ما توقفنا عنده مما بقي من هذه السورة؛ ووقف بنا الكلام عند قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [الدخان: ٣٠].

(بنو إسرائيل)؛ موسى وقومه نجاهم الله من العذاب المهين الذي كانوا فيه من، يعني من فرعون، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٣١]؛ حيث إن فرعون كان يعذبهم عذاباً أليماً؛ يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، يبقي النساء للاضطهاد والتعذيب والعمل والكد ونحو ذلك.

الآيات التي قبلها الله حكى علينا أنه أرسل موسى إلى فرعون، فدعاه إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يخلص (بني إسرائيل) من العذاب المهين، فأبى واستكبر وكان عالياً من المسرفين.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخرجه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ٥٧] ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدخان: ٢٦]؛ فأخرجه من هذا لما أمر موسى أن يسري بقومه: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣].

فأسرى بهم ليلاً، وخرج بـ (بني إسرائيل) حتى ذكر بعض أهل التفسير أن (بني إسرائيل) الذين خرجوا مع موسى بلغ عددهم ستمائة ألفٍ (٦٠٠٬٠٠٠)، فخرجوا مع موسى وتبعهم فرعون، فاتبعوهم مشرقين.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: فأوحى الله إلى موسى أن يسري بعباده، قال: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رهواً﴾ [الدخان: ٢٤]؛ ساكناً يبساً، ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

فلما وصل فرعون وجنوده إلى البحر فإذا موسى ومن معه قد دخلوا في الماء، قد دخلوا في هذا اليبس الذي جعله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فرقاً كالطود العظيم وبدأوا ينزلون، فتبعهم فرعون.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ﴾ [الدخان: ٢٤]؛ اتركه ساكناً على ما هو عليه يبساً كالجبال، فلما رآه فرعون دخل هو وجنوده، ولما استكمل عددهم **أمر الله البحر أن يلتطم عليهم فغرقوا جميعاً، فغرقوا جميعاً، فقال الله:** ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۝٢٧ كَذَلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨]، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

قال هنا: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [الدخان: ٣٠]، الله نجاهم من فرعون وبطشه، وإذ فرعون كان عالياً مستكبراً في الأرض بغير حق، من المسرفين المتجاوزين لحدود الله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]؛ الله اختار بني إسرائيل واصطفاهم على العالمين، وجعلهم من المصطفين على علم بأنهم يستحقون ذلك، لكنهم تمردوا وعصوا.

اختارهم الله على علم على العالمين؛ عالمي زمانهم وليس العالمين على الإطلاق، فإن أمة محمد أفضل منهم، ولكن عالمي زمانهم؛ فلما جاءت أمة محمد بعدهم كانت أمة محمد هي أفضل، هي خير أمة أخرجت للناس.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ﴾ [الدخان: ٣٣]؛ أي أتى بني إسرائيل وأعطاهم من الآيات الباهرات والمعجزات ﴿مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٣].

امتحان لهم، (البلاء): الامتحان في الخير والشر، فأعطاهم الآيات العظيمة التي رأوها، سواء العصا أو اليد أو المعجزات الباهرة بأن سلط الله على عدوهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم؛ هذه آيات مفصلة، وضرب البحر آية، وإنجاؤهم من فرعون آية، أعطاهم الآيات ما بين بلاء حسن وبلاء سيء؛ لينظر ماذا يصنعون.

وقال: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان: ٣٣].

- **هل يشكرون أو يكفرون؟**

قال بعدها: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ [الدخان: ٣٤]؛ اسم الإشارة ﴿هَؤُلَاءِ﴾ عائد لما حكى الله في أول السورة عن كفار قريش المشركين، ثم عادت الآيات أيضاً في بيان مواقفهم والرد عليهم؛ لأن قصة موسى جاءت عرضاً لبيان العاقبة السيئة لمن كفر نعمة الله وجحدها ولمن عصى الله.

فجاءت هذه القصة تحكي لنا بيان موقف كل عالٍ ومستكبر، وتنبيهاً لـ (بني إسرائيل)، وتنبيهاً لقوم لقريش أنهم إذا أسرفوا واستمروا على كذبهم وعلوهم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيعاقبهم مثل ما عاقب فرعون وجنوده.

قال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ۝٣٤ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ۝٣٥﴾ [الدخان: ٣٤ - ٣٥]؛ منشرين؛ يقول هؤلاء المكذبون بالبعث، المستبعدون الذين يستبعدون البعث والنشور، يقولون: ما هي إلا موتتنا الأولى، ما فيه موتة أخرى ولا حياة أخرى، هي الآن نحن أحياء خلاص يأتينا الموت وننتهي، وما نحن بمنشرين، ما فيه.

لما قال لهم المسلمون إنكم تموتون ثم تبعثون، وإذا بعثتم عرضتم على ربكم بأعمالكم، وتخرجون من قبوركم وتحاسبون وتجازون، إما إلى الجنة وإما إلى النار؛ قالوا هنا: أبداً ما نحن بمنشرين، ولن نبعث ولن نخرج من قبورنا، أإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون؟!

هذا أبعد ما يكون؛ فكفروا باليوم الآخر، وتعاظموا هذا الأمر، وأن الله غير قادر على بعث الناس من قبورهم؛ كيف يموتون ويتمزقون ويصبحون تراباً ثم يبعثهم؟! من أين يأتي بهم؟!

فهم حكموا عقولهم وقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥]؛ لن ننشر ولن نخرج من قبورنا، وليس هناك بعث ولا نشور ولا جنة ولا نار.

ثم انظر إلى الجرأة أيضاً والتحدي؛ قالوا: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٦]؛ أين آباؤنا الأولون؟! أين آباؤنا الأولون؟! لماذا لم تأتوا بهم؟! كأن الأمر متوقف على أنهم أعجزوا، وقالوا: إن كنتم صادقين فأتوا بآبائنا.

هذا غير معجز، هذا اقتراحهم اقتراح عناد، وإلا جاءتهم الآيات الباهرات التي تدل على صدق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته، وصدق الوحي، وصدقه في كل ما أخبر، وليس إخراج أحد الآباء من قبره؛ أن هذا إذا أراد الله إخراجه لا يمنع، فلو أخرجناهم هل سيصدقون أو يؤمنون؟!

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطى عيسى بن مريم المعجزة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]؛ يخرج الموتى من قبورهم، عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أعطاه الله هذه الآية، حتى قيل إنه جاء على قبر (سام بن نوح) أو (حام بن نوح) ونادى قال: يا حام اخرج، فخرج من قبره؛ فهذا بقدرة الله، أعطاها هذه الآية، أعطاها عيسى بن مريم، فيعطيها محمداً فيخرج آباء هؤلاء المكذبين، يخرجهم من قبورهم، لا يمنع ذلك أبداً.

لكن ليس هو الهدف؛ ليس الهدف هو أن الله قادر على إخراجهم أو لا، هم من باب التحدي، وإلا ليس عندهم إيمان ولا تصديق، ولذلك الله لم يحقق لهم ما طلبوه لما قالوا فأتوا بآبائنا، قادر على أن يأتي بآبائهم لكن تركهم؛ لأن ليس الأمر متعلقاً بإخراج آبائهم أو لا، وإنما هم كفار جاحدون للبعث والجزاء والجنة والنار.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تهديدهم: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

قوم (تبع) هم قوم يسكنون اليمن، كانوا كفاراً وكان سيدهم وملكهم (تبع) ملكاً مؤمناً، وكانوا هم كفاراً فأهلكهم الله؛ أهلكهم الله ونجى (تبعاً) ومن آمن معه، و(تبع) هذا لقب لكل من يملك اليمن؛ مثل (فرعون) لكل من يملك مصر، و(النجاشي) لكل من يملك الحبشة، هذه ألقاب كانوا يلقبون بها.

فهنا قال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان: ٣٧].

رُوي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «إِنَّ اللهَ ذَمَّ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذُمَّهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا». فهذا الملك (تبع) كان رجلاً صالحاً، ولذلك الله ذم قومه قال: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان: ٣٧]، ولم يقل تبعاً وملأه مثل ما قال فرعون وملأه.

﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الدخان: ٣٧] من الأمم الماضية كعاد وثمود؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الدخان: ٣٧]؛ نزلت عليهم العقوبات فيهم، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧]، أصحاب جرائم، يعني وقعوا في ظلم وجرائم وتعدٍّ وبغي، إنهم كانوا مجرمين فعاقبهم الله؛ فهل أهل مكة وقعوا في الجرائم والظلم والكفر والعناد؟ ليس بينهم وبين هؤلاء فرق.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لهم قدرته على البعث، وأنه لا يعجزه شيء، ومن أعظم شواهد القدرة هذه السماوات والأرض: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]؛ خلقها الله لحكمة، وتدل على كمال قدرته وتمام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعباً ولهواً أو سدى.

إنما خلقها لمصلحة عظيمة، خلقها بالحق: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩]؛ لإقامة الحق وإقامة العدل، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٩]؛ جهال، لو كانوا يعلمون أن الله خلق السماوات والأرض بالحق، وأنه لم يخلقها عبثاً، وأنه سيجازي المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته ما قالوا ذلك.

ولذلك في آيات أخرى قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، ثم قال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]؛ ما يمكن، لا بد من إقامة العدل.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لنا مصير الخلق في البعث وفي يوم القيامة، وأن يوم الفصل ميقات الجميع، وأن الله سيبعث من في القبور ويجازيهم، وسيكون مصيرهم فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]؛ سمى يوم القيامة يوم الفصل؛ لأن الله يفصل فيه بين الأولين والآخرين وبين كل مختلفين، يفصل الله بينهم ويقضي بينهم، يوم

الفصل، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين، جميعاً هذا ميقاتهم؛ يعني زمن خروجهم واجتماعهم، (الميقات): مكان الاجتماع وزمن الاجتماع، الخلق كلهم يجتمعون.

ثم قال في هذا اليوم: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١]؛ لا يغني صديق عن صديق، ولا قريب عن قريب، ولا شخص عن غيره، ما أحد ينفع أحداً، لا ينفع ولا يغني أبداً في هذا اليوم، حتى الأب مع أبنائه، والأبناء مع والديهم، والزوج مع زوجته؛ كلٌّ مشغول بنفسه، وكلٌّ لن يستطيع أن ينفع أحداً.

كل واحد يقول: نفسي نفسي، لا يغني مولى عن مولى شيئاً أبداً؛ ما ينفع بعضهم بعضاً، ولا هم ينصرون؛ أي إذا حل بهم العذاب لا يمنعون أنفسهم من العذاب، ولا أحد ينصرهم ويدفع عنهم العذاب، ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ [الدخان: ٤٢]؛ يعني الذي ينتفع بالولاية والقرابة والصداقة فينفعه الله به.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. قال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٢]؛ فمن رحمه الله بعزته وقوته ورحمته سلم من ذلك ونجا من العذاب الأليم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في بيان عذاب أهل النار، وأن عذابهم شيء عظيم وأنواع مختلفة، يذكر منها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شيئاً من طعامهم فيقول: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤]؛ شجرة من الأشجار تنبت في النار، وهذه بقدرة الله؛ كيف نار وتنبت فيها شجرة طلعها كأنه رؤوس الشياطين؟! تنبت في النار، وهي شجرة عظيمة شجرة الزقوم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٤]؛ طعام المجرمين الآثمين أصحاب الإثم والذنوب والمعاصي. شجرة (الزقوم) سميت زقوماً؛ لأن صاحبها يتزقم طعامها بقوة، يعني يأخذه ويأكله بقوة وهو لا يريده، وإن طعامها.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان: ٤٥ - ٤٦]؛ (المهل) هو الزيت الحار شديد الحرارة الذي بلغ في حرارته أعلى درجات الحرارة، يأكلونه ويشربونه فيقطع بطونهم ويقطع أمعاءهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ۝٤٦﴾ [الدخان: ٤٥ - ٤٦]؛ (الحميم): الماء الحار شديد الحرارة، فطعامهم هذا (الزقوم) إذا أكلوه قطّع أمعاءهم من شدة حرارته.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في أصحاب هؤلاء، في هؤلاء المجرمين وهذا الأثيم: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧]؛ يخاطب ملائكته خزنة النار: خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، يعني خذوا هذا المجرم فاعتلوه، يعني خذوه بقوة وشدة؛ من (العتل) وهي النزع بقوة وشدة، انزعوه بقوة وشدة والقوه في سواء الجحيم؛ في وسط النار.

ثم إذا ألقيتموه في وسط النار: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨]؛ يصب فوق رأسه من العذاب الحميم؛ من النار أو من الماء الشديد الحرارة، يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم.

ثم يقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]؛ ذق العذاب، فإنك كنت في قومك عزيزاً منيعاً، لك قوة ولك جنود ولك حماية، وكريماً لك كرامة عندهم، اليوم لا عزة ولا كرامة، إنك أنت العزيز في قومك، الكريم في قومك.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٥٠]؛ أي هذا العذاب الذي تسمعونه ما كنتم به تمترون أيها الكفار، كنتم تمترون وتشكون فيه، الآن تسمعونه وسترونه حق اليقين.

وسبحانه وتعالى يحكي لنا ما يقابل عذاب أهل النار؛ نعيم أهل الجنة، ليكون المؤمن بين الخوف والرجاء، وبين الرغبة والرهبة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١]؛ أصحاب التقوى الذين اتقوا الله وخافوه وراقبوه وتركوا المعاصي وقاموا بفعل الخيرات.

- **ما هي النتيجة؟**

في مقام أمين، لهم مقام يوم القيامة، وهذا المقام مقام أمين، آمنين فيه، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، في أمن وأمان، مقام آمنين.

ثم قال هذا المقام: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥٢]؛ ليست جنة ولا جنتين، جنات وعيون، بساتين كثيرة وعيون تجري.

ثم حالهم أيضاً من النعيم: ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الدخان: ٥٣]؛ يلبسون؛ **(فعل مضارع يفيد الاستمرار)**، يلبسون في كل وقت من سندس وإستبرق، **(السندس)**: الحرير الناعم، أو يقال ما رقّ من الحرير يسمى سندساً، وما غلظ يسمى إستبرقاً، فهم يلبسون الحرير مرة ناعماً ورقيقاً، ومرة غليظاً، فهم بين هذا وهذا، نعيم عظيم.

ثم من كمال نعيمهم أن الله قال: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤]؛ مثل ما أعطيناهم هذا النعيم زوجناهم بحور عين، انظر من الذي زوجهم؟ هم ما تزوجوا بأنفسهم، زوجهم رب العالمين؛ زوجناهم؛ الله الذي زوجهم، قرنهم وزوجهم بحور عين.

و**(حور العين)** هن نساء الجنة، **(الحور)**: جمع حوراء، و**(الحوراء)**: التي يحار فيها الإنسان إذا نظر إليها، يحار الطرف في حسنها وجمالها، وينبهر العقل بجمالها، والحور أصلها البيضاء المشربة بحمرة، و**(العين)**: جمع عيناء، وهي واسعة العينين، ضخام عيونها، ضخمة واسعة جميلة حسنة.

قال: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥]؛ وهم في الجنة يطلبون من الفواكه بكل نوع من أنواع الفواكه، وآمنين؛ آمنين من أي شيء؟ من أن تنقطع الفواكه، أو لا تأتيهم.

ثم قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ۖ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]؛ رداً على هؤلاء المشركين الذين قبل قليل يقولون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ [الدخان: ٣٥]؛ لا يذوقون فيها الموت إذا دخلوا جنات النعيم إلا الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا، وما سواها لن يصيبهم الموت، ووقاهم عذاب الجحيم؛ نجاهم من عذاب النار.

يقول هذا كله الذي حصل لهم: ﴿فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الدخان: ٥٧]؛ هو بأعمالهم، والله هو الذي تفضل عليهم بأن يوفقهم للأعمال الصالحة، وسيتفضل عليهم بفوزهم بجنات النعيم.

اعلم أن ما بك من نعمة الطاعة والتوفيق لفعل الخيرات، والمحافظة على الطاعات، واجتناب المحرمات؛ هذا كله فضل من الله؛ اختارك وجعلك من عباده الصالحين، من عباد الرحمن، واختار لك الخير ودلَّك عليه.

وجعلك موفقاً للمحافظة على الصلاة وفعل الخيرات؛ هذا كله من الله، فضل من الله، ليس بقدرتك، ولا بعلمك، ولا معرفتك، إنما هو فضل من الله؛ فالذي تفضل عليك في الدنيا بهذا الفضل، يتفضل عليك في الآخرة بفوزك بجنات النعيم، والعمل هو الذي يميز الإنسان الصالح من غيره.

قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]؛ أي هذا القرآن وهذا الكلام الذي نسمعه كلام رب العالمين، قال: يسرناه بلسانك، جعلناه سهلاً واضحاً بلسان عربي مبين لعلهم يتذكرون، يتذكرون ما ينفعهم ويبتعدون عما يضرهم، لعلهم يتذكرون ويقبلون على الخير، لعلهم يتذكرون.

ثم قال: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ [الدخان: ٥٩]؛ فارتقب؛ انتظر ما وعدك ربك بأن ينصرك عليهم، إنهم مرتقبون ما يحل بهم من العذاب، هم يرتقبون أن محمداً وأصحابه ينتهي أمرهم، ولكنهم سيرتقبون ما ينزل بهم من العذاب والعقوبات، فأنت انتظر وعد الله، وهم ينتظرون ما يحل بهم من العذاب.

هذه هي السورة التي وفقنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لقراءتها وبيان معانيها وتفسيرها، فله الحمد والمنة على ما يسر ووفق؛ فالحمد لله جلسنا معها في لقائنا الماضي، واستكملناها في هذا اللقاء.

سورة كلها تخويف وتهديد لهؤلاء المشركين؛ من أولها: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣]، وتهديدهم: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وتهديدهم بقصة فرعون لما أهلكه الله وأغرقه؛ كل ذلك تهديد لهم لعلهم يرجعون، ثم تهديدهم بعذاب أهل النار وشجرة الزقوم والأكل منها لعلهم يرتدعون، ولعلهم يتفكرون وينظرون في أمرهم، ولكنهم مع الأسف لم يعتبروا ولم يتفكروا.

سورة عظيمة عشنا معها ولله الحمد هذه المدة، هذه الأيام وهذه الساعات؛ فنسأل الله أن ينفعنا بها وأن يبارك لنا. بارك الله فيكم، وجزاكم عنا خيراً.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الجَاثِيَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الجاثية ١ - ٢٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وهذا اللقاء المتجدد من كل أسبوع، هذا اليوم يوافق الخامس من صفر من عام (١٤٤٧ هـ).

نسأل الله أن يبارك لنا، وأن ينفعنا، وأن يجعل هذه الأيام أياماً مباركة على الجميع، وأن يرزقنا وإياكم شكر نعمته، القرآن الكريم أعظم نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علينا؛ هذا القرآن كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يمل من قراءته.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (الجاثية)، وهي من السور المكية. ومعروف أن سور (الحواميم) كلها سبع، وهذه هي السادسة، وبعدها السابعة (الأحقاف) وهي نهاية (الحواميم).

هذه (الحواميم) التي قال عنها ابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: **"هي ديباج القرآن، حرير القرآن"**؛ هذه السور كلها تبدأ بتعظيم القرآن.

الآن أنت تقرأ سورة (الجاثية) يقول لك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حم ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ [الجاثية: ١ - ٢]؛ كلها تعظيم للقرآن الكريم.

ولذلك ابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه نظر نظرة دقيقة فقال: "هي ديباج القرآن"؛ يعني حرير القرآن، يعني الذي فيه تتعلق القلوب في بيان عظمة هذا القرآن الكريم.

هذه السورة، سورة (حم) (الجاثية)، هي من السور المكية التي نزلت بمكة، وكل (الحواميم) مكيات؛ ومعنى مكية أنها نزلت قبل الهجرة، وأنها تخاطب أهل مكة المعاندين المستكبرين الذين يرون آيات الله أمامهم وينكرونها.

ويكفرون بالقرآن، ويكفرون بالله وبملائكته، التي يسمون الملائكة بنات الله؛ وكذلك يكفرون باليوم الآخر ولا يؤمنون به، ويتبعون أهواءهم وشهواتهم، فتأتي هذه السورة تعطيهم درساً عظيماً في كيف يعرفون الحق وكيف يتبعونه.

وهذه السورة تركز على بث الآيات الكونية التي من خلالها تقوم الحجة على وحدانية الله، وعلى فضله ونعمته على عباده، وعلى قدرته، وعلى ملكه وسعته، وعلى تدبيره لهذا الكون؛ وكذلك تدل على قدرته على البعث، فلم يخلق الله الخلق عبثاً؛ وإنما خلق هذا الكون كله لإقامة الحجة على العباد ليعبدوه وحده ولا يعبدون غيره.

فهذا هو المقصد: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، و﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧]، و﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]؛ بل خلقها بالحق.

هذه السورة تعطينا دروساً عظيمة جداً في النظر في الكون والنظر في القرآن الكريم؛ تأمل في آيات الله القرآنية، وتأمل في آيات الله الكونية، ولا تستكبر عن آيات الله بل اخضع لها.

وكذلك هذه الآيات القرآنية تجعل العبد يتطامن ويتواضع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والنظر في هذا الكون، وأن من يستكبر سيلقى جزاءه وهو الصغار عند الله والهوان، ولذلك السورة ذكرت أن جميع الأمم في الآخرة سيصيبها من الصغار والهوان يوم القيامة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]؛ ولذلك سميت بسورة **(الجاثية)** لذكر هذا اللفظ، ولأن الخلق كلهم يجثون على ركبهم.

الجاثي: هو الذي يجثو على ركبتيه ذلاً وهواناً؛ فالخلق كلهم في يوم القيامة سيصيبهم من الذل والهوان ومن شدة الموقف في يوم القيامة، فكل أمة تجثو.

نأخذ هذه الآيات العجيبة الكونية وهذه الشريعة، وبيان أن المؤمنين يتبعون شرع الله وأن الكفار يتبعون أهواءهم وشهواتهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في مطلع هذه السورة: ﴿حم﴾ [الجاثية: ١]. وهذا مر معنا كثيراً؛ وهي حروف مقطعة من حروف الهجاء، جيء بها لـ **(الإعجاز)** والتحدي؛ بأن هذا القرآن مكون من هذه

الحروف، ولذلك إذا جاءت (حم) أو أي حرف من الحروف المقطعة، يأتي ذكر القرآن بعدها: ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[الجاثية: ٢].

وفي هذا بيان أن القرآن الكريم منزل من عند الله، وأن الله هو الذي نزله؛ هذا الذي تسمعونه وهذه السورة هي منزلة، الكتاب هو القرآن، مصدره من الله؛ ليس من الشياطين، ما تنزلت به الشياطين، ولم يأتِ به محمد من نفسه بل هو من عند الله، وحي يوحى إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾[الأنبياء: ٤٥].

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾؛ للعزة والقوة والغلبة والكبرياء له سبحانه، ليست للبشر، البشر ليس لهم أن يتكبروا؛ الكبرياء لله.

ولذلك تقرأ في آخر آية من سورة (الجاثية): ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الجاثية: ٣٧]؛ فالكبرياء لله. ﴿الْحَكِيمِ﴾؛ ليس تكبراً كما يتكبر البشر ويتغطرسون على من هم أدنى منهم، لا؛ كبرياء الله متعلقة بحكمته، فهو عزيز وقوي وذو عزة مع حكمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حكيم في تصرفه، حكيم في تدبيره.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما بين عظمة القرآن وأثنى على كتابه، لما ذكر هذا وأثنى على هذا القرآن وأنه منزل من عند الله ووصفه بصفات الكمال.

قال بعدها: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الجاثية: ٣]؛ يعني أن في السماوات - في ظرفية تفيد أن السماوات مليئة بالآيات- لمن يتفكر فيها: الشمس، والقمر، والنجوم، السحاب، وزينة السماء وجمالها.

وغير ذلك من الآيات العظيمة في السماوات وفي الأرض التي بث الله فيها من دابة، وطير، وإنسان، وجبال، وبحار، وأنهار، وكنوز، إلى آخره؛ آيات عظيمة لمن يتفكر. لكن لمن؟

- **قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ من هم المؤمنون؟**

هم الذين صدقوا واتبعوا الحق وعرفوا طريق الهداية، هؤلاء هم المستفيدون، أما غيرهم من غير المؤمنين، ينظرون في آيات الكون في السماء ولا تحرك عندهم ساكناً.

ثم قال بعدها: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]. هذا أعظم؛ السماوات والأرض هذه آيات ظاهرة، وآيات أخرى أقل ظهوراً هي خلقك أنت؛ كيف خلقت نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظام، ثم تكسى العظام لحماً، ثم يتكون كاملاً بخلقة جميلة.

ثم يخرج في وقت الخروج خلقاً تاماً، ثم بعد ذلك يعيش في هذه الدنيا ويمر بمراحل الحياة كلها، وزيادة على ذلك، انظر في نفسك؛ في أن الله أعطاك سمعاً، وبصراً، ولساناً، وعقلاً، وخلقك في أحسن تقويم: الأصابع، الأيدي، الأرجل، الأجهزة الداخلية في الجسم، الكبد، الكلى؛ كل هذه الأشياء انظر وتأمل فيها، عجائب خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ على هذه الأرض من إنسان وحيوان.

تأمل في هذه الحيوانات؛ الحيوانات المتوحشة والأليفة، انظر في هذه الحيوانات، والطيور، والزواحف، والحشرات، والهوام في البحر والبر، ما بث من دابة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ اليقين فوق العلم، أعلى درجات العلم. شوف، الأول لما كانوا قد صدقوا قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ المصدقين؛ لما صدقوا احتاج الأمر إلى أن يتفكروا تفكراً يغلب على الأول لدقته؛ لأن السماوات والأرض أمور ظاهرة، وهنا أمور خفية في خلق الإنسان وخلق الدواب والتفكر فيها والطيور والهوام والحشرات، هذه تحتاج إلى علم دقيق؛ ولذلك قال: ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

- **ثم يأتيك شيء آخر، ما هو؟**

قال: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]. يعني وفي اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً، وهذا يذهب وهذا يأتي، وهذا يأتي وهذا يذهب؛ آية عظيمة.

ثم قال: ﴿وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ﴾؛ سمى المطر رزقاً؛ لأنه سبب لخروج النبات والأشجار والفواكه والخضروات، فأنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها بالخضرة والزرع ونحوها بعدما كانت مغبرة يابسة.

وقال أيضاً: ومن آيات الله في الكون تصريف الرياح، وتصريف الرياح بمعنى هبوبها؛ شمالية، وجنوبية، وشرقية، وغربية، سريعة، وبطيئة.

من يصرفها؟ من الذي يدبرها؟ من الذي يجعلها بطيئة، أو مرة سريعة، أو متوسطة، أو باردة، أو حارة، أو تلقح، أو تكون عذاباً، أو عقيماً؟ من الذي يتصرف فيها من الذي يدبرها وهي رياح؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. لِمَ قال: ﴿يَعْقِلُونَ﴾؟ قال: لأنهم إذا آمنوا في الآيات الأول، قال: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ آمنوا وصدقوا، ثم ازدادوا علماً ويقيناً أيضاً زادهم تعقلاً؛ لأن اختلاف الليل والنهار، والمطر الذي ينزل، والنبات الذي ينبت، وتصريف الرياح؛ هذه تدعوك إلى أن تعقل هذه الأشياء وتدركها وتفهمها، شوف كيف ترتيب القرآن الكريم.

قال الله بعد: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. تلك آيات الله، يعني القرآن، الآيات الأولى آيات كونية، لما يقول آيات كونية؛ هذه لما يقول تلك آيات الله نتلوها يعني نقرؤها عليك.

هذه آيات قرآنية وهو القرآن الكريم، يقول: نتلوها عليك بالحق ونوحيها إليك بالحق، ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾؛ يقول: ما الذي بعد هذا الإيمان إيمان؟

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن المؤمنين الموقنين العقلاء يدركون هذه الآيات ويؤمنون ويزيدهم إيماناً وحباً وتعلقاً بربهم وعبادة؛ أما غيرهم فلا تزيدهم إلا طغياناً واستكباراً وإعراضاً.

ولذلك ذكر الله وهدد هؤلاء المعرضين فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧]؛ ويل كلمة تهديد وتخويف وعذاب. ويل لكل أفاك؛ كذاب، أثيم؛ يعني ويل لكل أفاك في أقواله، أثيم في أفعاله، لا أفعاله طيبة ولا أقواله طيبة.

﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الجاثية: ٨]. يسمع آيات الله، يسمع القرآن سماعاً تتلى عليه وتقرأ عليه، ثم يصر مستكبراً؛ يمتنع امتناع مستكبر كأنه ما سمعها.

- **ما هي النتيجة؟**

بشره بعذاب أليم لاستكباره وكذبه.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٩]. وإذا علم من آياتنا شيئاً، إذا جاءت الآيات وسمع شيئاً من آيات الله أو معانيها اتخذها هزواً؛ اتخذ الآيات يسخر منها، قال: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

شوف، الأول: أليم، والثاني: مهين؛ أليم؛ لأنه يتألم من سماع القرآن، يتألم في أذنيه من سماع القرآن فجاءه العذاب الأليم، أما لما كان يستهزئ ويسخر عقاب الله العذاب المهين؛ لأنه أهانه على تكبره واستهزائه.

﴿مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠]. من ورائهم، هؤلاء الذين قال الله فيهم ويل لكل أفاك -وليس واحداً بل كثير- من ورائهم؛ يعني أمامهم جهنم تنتظرهم، ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً من مكاسب الدنيا كالأموال والأولاد.

ما تغني عنهم ولا تنفعهم شيئاً، ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء عبدوهم من دون الله كالأصنام والأوثان، واتخذوا الأولياء والأموات يتخذونهم أولياء يظنون أنهم سينفعونهم ويشفعون لهم؛ ما ينفعونهم ولا يغنون عنهم ولا ينفعونهم، ولهم عذاب عظيم؛ لكونهم كفروا بالله وعبدوا غيره، لهم عذاب عظيم.

قال الله في تعظيم القرآن: ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١]. هذا هدى؛ القرآن هدى يهتدي به المهتدون، وأما الكفار المعاندون الذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم.

- **ما معنى الرجز؟**

الجواب: الرجز هو العذاب.

- **كيف لهم عذاب من عذاب؟**

الجواب: نعم، لهم جزء؛ هذا العذاب مأخوذ من عذاب أشد، لهم عذاب أليم مأخوذ من هذا الرجز العذاب الذي ينتظرهم، عذاب من عذاب، هذا معناه.

ثم قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢]. شوف، الآيات الكونية والنعم؛ يعني الآيات السابقة القرآنية نعمة، والآيات الكونية نعمة.

وكذلك أيضاً هنا من نعم الله أن الله سخر لهذا الإنسان هذا البحر، هذا البحر مسخر لك، مليء بالحيوانات التي هي رزق لك، وإذا ركبت البحر على هذه السفن فهي مسخرة لك، تنقل، هذه السفن تنقل وتمشي على هذا البحر وفضل الله عليك في هذا البحر عظيم؛ فضل الله عليك.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ [الشورى: ٣٣]؛ أي السفن رواكد على ظهره، أو يوبقهن؛ يعني يجعلها تهلك هي ومن فيها.

لكن الله سبحانه سخر هذا البحر وهذه الفلك وهذه السفن والبواخر تنطلق ذاهبة آيبة على هذه البحار، تنقل البضائع وتنقل الناس؛ هذا فضل الله.

قال: ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾؛ تبتغوا من فضله وخيره في هذه البحار وعلى هذه الفلك، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ نعمة الله حتى تشكروه وتذكروا هذه النعمة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٣].

وسخر لكم أيها الناس ما في السماوات وما في الأرض جميعاً مسخرة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ مسخرة من الله: السماوات وما أودع الله فيها من الشمس، القمر، والكواكب الثوابت والمتحركة السيارات، وأنواع الحيوانات في الأرض، والأشجار، والثمار، والمعادن؛ كل هذه مسخرة لهذا الإنسان جميعاً منه؛ من الله، أي بأمره وخلقه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ يتفكرون فيشكرون، لا أنهم يتفكرون ويسكتون، هذه البحر المسخر وهذه النعم العظيمة آيات لأناس عندهم تأمل وفكر ينظرون في هذا الكون.

ثم إن المسلمين في مكة عندما نزلت هذه الآيات كانوا قلة وكانوا مضطهدين، وكان الكفار لهم الصولة والجولة والقوة، فالله يوجههم حتى لا يحصل هناك مصادمات وعناد وقد يخسر المسلمون دعوتهم، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى توجيهاً للصحابة القلة في مكة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤]. قل يا محمد للذين آمنوا -أصحابك القلة- يغفروا؛ يعني يتجاوزوا ويتركوا.

مَن؟

قال: يغفروا للذين لا يرجون أيام الله، وهم الكفار لا يرجون ولا يأملون فيما عند الله ولا يخافون الله؛ لا يخافون يعني عقوبته، ولا يرجون ثوابه، ولا يؤمنون باليوم الآخر، فأيام الله هنا مراد بها إما أن يكون أيام الله يعني التي تنتظرهم يعني يوم القيامة، أو أيام الله في الدنيا وهي الوقائع التي أوقع الله فيها أعداءه؛ أيام الله.

قال: ﴿يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. يجزي مَن؟ قال: يجزي المؤمنين الجزاء الحسن، والكافرين الجزاء السيء.

ولذلك بينه الله بعدها فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [الجاثية: ١٥]. من عمل صالحاً فلنفسه؛ هذا جزاء يجزيك الله على أعمالك الصالحة وهي لك، ومن أساء وارتكب السيئات فعليها؛ ترجع عليه سيئاته، ثم إلى ربكم ترجعون، شوف، لما قال ليجزي قوماً، أي يوم القيامة، ذكرهم بهذا اليوم الذي يرجعون فيه إلى الله.

ولذلك في سورة (فصلت) مر معنا نفس الآية: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وهنا قال: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ أي ترجعون إلى الله يوم القيامة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لما الله عَزَّ وَجَلَّ أنعم على هذه الأمة؛ أنعم على هذه الأمة بنعمة الوحي والقرآن، ذكرنا بما أنعم على بني إسرائيل قبل ذلك فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦].

وشوف، لما يذكرنا الله بما أنعم على بني إسرائيل، يذكرنا أيضاً بأن بني إسرائيل ما شكروا هذه النعمة بل كفروها واختلفوا وتفرقوا وضاعت عليهم هذه النعمة؛ فيذكرنا بأن نجتمع وألا نتفرق.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾؛ التوراة والإنجيل، ﴿وَالْحُكْمَ﴾؛ تمام الحكم يعني أسرار الشرائع وحسن التدبير وحسن التصرف، أو حكم القضاء الذي أعطاهم الله يحكمون فيه وهو حكم الله في الشريعة، ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾؛ التي جعلها فيهم، في بني إسرائيل أنبياء كثير.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾؛ أعطاهم الله من الطيبات التي أباحها لهم، وفضل؛ قال: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾؛ فضلهم الله على سائر العالمين، إلا أمة محمد التي جاءت بعدها فكانت أمة محمد خير الأمم.

قال: ﴿وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٧]. آتيناهم بينات؛ حجج وأدلة من الأمر، من أمر الشريعة.

فما اختلفوا، يقول: ما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم؛ لما جاءهم العلم اختلفوا، وسبب الاختلاف هو البغي؛ الحسد، اختلفوا بينهم حسداً، حسد بعضهم بعضاً وبغى بعضهم على بعض.

فلما اختلفوا وتناحروا أصبحوا فرقاً كثيرة. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ سيقضي بينهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحكمه العدل يوم القيامة، يقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، فهم اختلفوا فلما اختلفوا ضاعت شريعتهم وضاعوا وتشتتوا وتبددوا؛ فاحذروا يا أمة محمد أن تصنعوا صنيعهم فتكونوا مثلهم.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]. جعلناك يا محمد بعدهم على شريعة ودين من الأمر، من الأديان الطيبة، من الدين الحسن والأوامر، فجعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها واحذر الاختلاف، فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون؛ احذر من اتباع أعداء الدعوة أصحاب الأهواء والشهوات الذين وصفهم الله بأنهم لا يعلمون.

قال: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]. إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً؛ لن ينفعوك، لن ينفعوك ولن يدفعوا عنك شيئاً، لن يدفعوا عنك شيئاً من الشر ولا ينفعونك بالخير؛ لماذا؟ لأنهم أصحاب أهواء وشهوات.

قال: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أصحاب الأهواء والشهوات ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾؛ بعض هؤلاء بعضهم يوالي بعضاً، وأما المؤمنون المتقون فإن وليهم الله؛ إنه ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، الله ولي الذين آمنوا والذين كفروا أولياؤهم الشيطان.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في تعظيم القرآن: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]. شوف، كل ما تأتينا آيات تأتي آيات تعظم القرآن؛ هذا بصائر، أي القرآن.

القرآن للناس بصائر؛ جمع بصيره وهي العلم، يقول: هذا القرآن علوم للناس، مليء بالعلوم الشرعية ووسائل العلوم؛ هذا بصائر الناس وهدى يهتدون به، لمن أراد أن يهتدي بالقرآن يجد الهدى والعلم، ورحمة يتراحمون به بهذا القرآن، هو رحمة عليهم؛ لمن؟ لقوم يوقنون، ليس لكل الناس وإنما هو لقوم يوقنون.

شوف هذه الآية التي تأتينا الآن؛ هذه الآية تسمى **(مبكية العباد)**، العباد الذين كانوا قد ذكر أهل العلم كثيراً من العباد من الصحابة والتابعين وتابعيهم من صدر هذه الأمة، كانوا عباداً يقومون الليل ويصومون النهار، وكان لا أحد يستطيع أن يسابقهم على الخير، إذا مروا بهذه الآية بكوا بكاءً شديداً؛ هذه الآية تسمى عندهم **(مبكية القرآن)**.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. أم حسب، أيظن هؤلاء المسيئون الذين أكثروا من الذنوب والمعاصي وقصروا في حق الله؛ يظنون أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات؟

كالمسابقين في الطاعات المشمرين، الذين هم أبعد الناس عن سخط الله وأقرب الناس إلى مرضاة الله؟ هل نجعلهم سواء في الحياة الدنيا وفي الآخرة؟ سواء محياهم ومماتهم، ما يمكن، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ يعني حكم سيء إذا جعلناهم سواء.

فنحن أين نصف أنفسنا أمام هذه الآية؟ هل نحن من الذين اجترحوا السيئات ووقعوا في الذنوب والمعاصي وقصروا في حق الله، أم نحن من الذين آمنوا وشمروا وسارعوا؟ الله المستعان! الله يعفو عنا، وما أكثر ذنوبنا وما أكثر تقصيرنا في حق الله عَزَّ وَجَلَّ.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين أنه لم يخلق السماوات والأرض مثل ما ذكرنا عبثاً؛ ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢]؛ خلق الله السماوات

بالحق ليقيم العدل، ولتجزى كل نفس بما كسبت، كل نفس مؤمنة أو كافرة تجازى على عملها وهم لا يظلمون.

لعلنا نقف عند هذه الآية إن شاء الله، لقاؤنا القادم بإذن الله نستكمل ما في هذه السورة من آيات عظيمة وتوجيهات، نسأل الله أن ينفعنا بها، وأن يبارك لنا ولكم. بارك الله فيكم، وجزاكم الله خيراً على حسن إنصاتكم وحضوركم، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الجاثية ٢٣ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين، اللّٰهم اجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعل هذا القرآن حجة لنا لا حجة علينا.

هذا اليوم أيها الإخوة هو اليوم الثالث من الشهر الثالث من عام (١٤٤٧ هـ). مجلسنا مع القرآن الكريم وسورة (الجاثية)، وقف الكلام عند الآية الثالثة والعشرين وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

شوف هذه الآية فيها وعيد شديد وعقوبة شديدة لمن أعرض عن القرآن وعن شرع الله وعن طاعة ربه، شوف الآية التي قبلها التي ذكرناها لكم في اللقاء الماضي التي سماها بعض أهل العلم (مبكية العباد)؛ التي أبكت العباد.

وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، يعني وقعوا في السيئات وعملوا السيئات والمعاصي؛ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم، يعني نجعلهم في حياتهم وفي مماتهم سواء؟

هذا ما يمكن؛ ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]. هذا لا يكون في حكم الله؛ أن يجعل أهل المعاصي والذنوب المقصرين في حق الله كالمشمرين في طاعة الله، هذا لا يمكن، ليس من العدل؛ بل هؤلاء يختلفون عن هؤلاء، هؤلاء مقصرون وهؤلاء مشمرون.

لما ذكر حال المشمرين أهل السعادة وبيّن الحكمة من خلق السماوات والأرض.

- **لو قال لك شخص لماذا خلق الله الخلق وخلق السماوات والأرض ما الحكمة؟**

اقرأ عليه هذه الآية: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢]؛ ما خلقها لا باطلاً أو لعباً أو عبثاً، خلقها بالحق؛ ولتجزى كل نفس بما كسبت، ليجزي الله المحسنين العباد المشمرين يجزيهم على أعمالهم، ويجزي كل نفس، ويجزي المقصرين أصحاب الذنوب والمعاصي والذين لا يبالون في طاعة الله يجزيهم بما كانوا يعملون، وهم لا يظلمون؛ الله لا يظلمهم مثقال ذرة، لا ينقص من أعمالهم شيئاً ولا يزيد على سيئاتهم شيئاً، كلٌّ يُعطى حقه بدقة.

لما ذكر الحكمة من خلق السماوات والأرض وجزاء كل فريق بما عمل، ذكر حال المعرضين المكذبين أهل الضلال، يعني أهل الضلال.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]. شوف الفاء هذه يسميها أهل اللغة (**حرف عطف**)، ولكنها تفريع لما سبق، يقول: إذا كان الأمر كذلك، أن الله لم يخلق السماوات والأرض عبثاً، وأنه سيجازي كلاً بعمله، فانظر إلى حال أهل الضلال وتأمل في حالهم.

﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ يعني أخبرني، والمخاطب هنا كل من يصلح له الخطاب، كل من يقرأ هذه الآية ويُخاطب بها: أخبرني أيها المخاطب، ﴿مَنِ اتَّخَذَ﴾ يعني الذي اتخذ ﴿إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]؛ إلهه يعني معبودَه، يعني جعل الهوى هو معبوده، يعبد هواه وشهواته، ما تهواه نفسه وتشتهيه وترغب فيه نفسه.

هذا جعله يعبد إله، شوف يعبد هواه ويعبد شهواته ويعبد رغبته في الحرام في ارتكاب المعاصي في ارتكاب الفواحش، يعبد، ناس، أناس لا يعبدون الله طرفة عين، وإنما يعبدون شهواتهم وأهوائهم، هذا هو، خذ مثالاً لمن جعل، قال شوف: جعل إلهه هواه.

بعض أهل العلم يقول: "**هذه الآية فيها (تقديم وتأخير)**"؛ يعني جعل هواه إلهاً له، جعل شهواته وهواه ورغبته في الشر هو معبوده، يعبد هواه ويعبد شهوته.

فلما عبد هواه وعبد شهوته وترك عبادة ربه ولم يقبل وأعرض واستكبر عن طاعة الله، عاقبه الله أضله؛ ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] وتركه في ضلاله، لأن الله يعلم أنه لا يستحق الهداية، أضله الله تركه على علم، ليس أضله الله على جهل، على علم عالم الله به.

قال: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]؛ ختم على سمعه وقلبه يعني جعل على سمعه ثقلاً لا يسمع الحق، لا يريد، مختوم على سمعه، آذانه مختوم عليها ما يسمع الحق، وعلى قلبه غشاوة، القلب قد عليه غلاف، قلوبنا غلف، مغطاة، مختوم على قلبه، طبع على قلبه وعلى سمعه لا يسمع، لا يريد أن يسمع الحق.

وأما البصر قال: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣]؛ غشاء لا يرى الحق أبداً، لا يرى الحق، يرى المسجد لا يأته وينصرف عنه، يرى الحق، يرى القرآن ولا يقرؤه، خلاص عليه غشاوة.

يقول: إذا كان الله عاقبه لأنه أعرض واستهزأ وسخر ولم يقبل، وجاءته الرسل والنذر ولم يقبل، عاقب الله بهذه العقوبة الشديدة؛ بمعنى أنه أضله الله، جعله في ضلال، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، قال: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]؟ هل تجد أحداً يهديه؟ ما يمكن، مستحيل، الهادي يعني هو الله عَزَّ وَجَلَّ، فما تجد من يهدي أبداً، ما تجد.

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]؛ أين عقولكم؟ تذكروا وتفكروا وتأملوا في حال هذا الضال الذي زاده الله ضلالاً على ضلاله.

ثم حكى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيضاً حال هؤلاء المشركين من الكفر باليوم الآخر وعدم الإيمان به، وهم يقولون حياتنا الدنيا فقط، لا نعيش إلا لهذه الدنيا، وليس هناك بعث ولا جنة ولا نار ولا حساب ولا عذاب.

وقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ يموت أناس ويحيا ناس، هؤلاء يذهبون إلى القبور ونحيا، وهؤلاء يأتون إلى الدنيا، أرحام تدفع وأرض تبلع، هذه هي فقط؛ بعث وجنة ونار وحساب هذا ما فيه.

قال: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ الأيام، الليالي والأيام، مرورها وسرعتها هي التي تقضي عليهم ويذهبون إلى القبور. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ من أين جابوا هذا الكلام؟ ما عندهم علم، هل عندهم كتاب وعلم؟

ما عندهم علم، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]؛ هذه ظنون، ظنون وجدوا آباءهم على هذه العقيدة فسلكوا مسلك آبائهم، هذا موقفهم من أي شيء؟ من (البعث) و(الجزاء) و(الجنة والنار)، منكرين دهريين.

- **وإذا تتلى عليهم آياتنا، ما موقفهم من القرآن؟**

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]؛ قُرئ عليهم القرآن، ما كان حجّتهم إذا قرأت عليهم الآيات القرآنية التي فيها قدرة الله على البعث، آيات يستدل بها أهل العلم ويقيمون الحجة عليهم أن الله قادر على أن يبعثهم.

مثل هذا الرجل المشرك الذي جاء إلى الرسول، الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفتّ عظماً بيده بالياً متكسراً فيقول: يا محمد، تزعم أن الله يبعث هذا؟! ماذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ؟

قال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يُمِيتُكَ اللهُ ثُمَّ يُحْيِيكَ ثُمَّ يَبْعَثُكَ ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّارَ»، وقال الله فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩].

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]. هذه تتلى عليهم آياتنا، ما كان حجّتهم؟ ما عندهم حجة إلا قالوا: ﴿ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥]. هذه حجّتهم ضعيفة، يقولون إن كنتم صادقين أن هناك بعثاً وأن الله يبعث من في القبور، أين آباؤنا الذين ماتوا يؤتون بهم؟! الله قادر على أن يبعث من في القبور، وقد أثبت لهم أنه أمات أناساً وبعث أو أحياهم.

اقرأ في سورة (البقرة) خمسة أدلة على إحياء الموتى في الدنيا:

➥أولاً: عندنا السبعين الذين خرجوا مع موسى وقالوا: أرنا الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعاً ثم بعثهم الله بعد موتهم، هذا مثال.

➥ثانياً: قتيل بني إسرائيل، قتيل يعني الذي قُتل في سورة (البقرة)، أحياه الله؛ قال: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]؛ فمات فحيّ، أحياه الله فتكلم من الذي قتلك؟ قال: قتلني فلان، ثم مات.

➥ثالثاً: الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، أماتهم الله ثم أحياهم.

⬅رابعاً: الذي مرّ على قرية، أماته الله مائة سنة ثم بعثه، فهذه آيات.

⬅خامساً: الطيور التي قطعها إبراهيم، وثم دعاهن فأتين، يأتين سعياً، أحياهم الله.

من الذي يحيي هؤلاء إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟ هذه أدلة ظاهرة، فهم هؤلاء، قل فأتوا بآبائنا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ رداً عليهم: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦]؛ الحياة الأولى التي خلقكم من تراب وخلقكم من نطفة، يحييكم ويخرجكم من بطون أمهاتكم ثم تعيشون في الدنيا.

ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه؛ أنتم تشكون فيه ليس فيه شك، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لا يعلمون هذه الحقائق ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧]؛ الله له ملك السماوات والأرض، يعني التصرف لله والملك لله والمنفرد بالملك هذا وسعته، والتصرف والتدبير في جميع الأوقات هي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، له ملك السماوات والأرض.

ثم قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٢٧]؛ تأكيد لهم ورد عليهم الذين ينكرون الساعة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧]، الذين يبطلون الآيات والأدلة ويأتون بالباطل، وهم الذين سيخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]. ترى أيها الإنسان كل أمة من الأمم، هناك أمم كثيرة؛ أمة نوح وأمة عاد وأمة ثمود وأمة مدين وأمة موسى وأمة محمد، أمم كثيرة، ترى كل أمة جاثية.

- **كيف جاثية؟**

معنى جاثية: الذي يعتمد على ركبتيه وعلى أطراف أصابع القدمين، هذا يسمى جاثياً، يسمى هذا إنساناً قد جثى على ركبتيه.

- **لماذا يجثون؟ لماذا الناس وكل أمة تجثو على ركبتيها؟**

خوفاً وذعراً وانتظاراً لحكم الله (الملك العلام) في يوم القيامة، كل أمة أصابها ما أصابها من الهم والغم والذعر والخوف، ترى كل أمة جاثية.

كل أمة تدعى إلى كتابها؛ إلى شريعتها وإلى كتابها الذي كتبت فيه أعمالها كلها، كتابها شريعتها، كل أمة لها شريعة؛ موسى كتابه (التوراة) وعيسى (الإنجيل) ومحمد (القرآن)، كل أمة لها كتاب ولها دستور ولها وحي، وكذلك كل إنسان له كتاب، له كتاب تسجل فيه أعماله.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨]؛ ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، تجزون أعمالاً على أعمالكم.

﴿هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩]. هذا كتابنا الذي كنا نكتب فيه ونسجل فيه الأعمال، هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق اقرؤوه، وكأنه ينطق عليكم، كأنه ينطق عليكم تسمعون الكلام كأنكم تسمعون إذا قرأتموه بالحق.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ [الجاثية: ٢٩]؛ الملائكة تكتب وتنقل أعمالكم في هذه الصحف وتسجلها وتسطرها ما كنتم تعملون.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصف يوم الآخر الذي أنكره المنكرون، يصف حال الناس وأنهم ينقسمون قسمين:

القسم الأول: أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات: فهؤلاء ﴿فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ [الجاثية: ٣٠]، في رحمته وفي جنته، ذلك هو الفوز المبين؛ الفوز المبين الواضح، ليس فوقه فوز، فوزهم بدخول الجنة والسلامة من النار واستقرارهم في جنات النعيم ورضا الله عنهم ورؤيتهم لرب العالمين، لا فوز فوقه.

القسم الثاني: أما الذين كفروا وجحدوا آيات الله: يقال لهم: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية: ٣١]؛ في الدنيا، وتقرأ عليكم، وكنتم تعرضون عنها وتكذبون بها وتستكبرون ولا تقبلونها، وكنتم قوماً مجرمين أصحاب جرائم، هؤلاء يعاتبون بهذا العتاب الشديد ومأواهم النار، هؤلاء لما يعاتبون ويذلون بهذا الإذلال يحكم عليهم بنار جهنم.

- **ولأنهم في الدنيا ماذا كان موقفهم؟**

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]؛ أي ما وعدكم الله بنصر أوليائه وتعذيب أعدائه ووعدكم بالجنة والنار والبعث، وأن الساعة حق لا ريب فيها.

قلتم ما ندري لا ندري ما عندنا علم، ما ندري ما الساعة ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً، يعني ما في إلا ظن شك نشك، تخمين وشك وحدس ليس عندهم يقين، وما نحن بمستيقنين؛ يعني هم ما بين منكر يقول ما في بعث، وما بين متردد عنده ظنون وشكوك ليس عنده يقين، فهؤلاء الذين شكوا في يوم القيامة أو أنكروا يوم القيامة ما ينفعهم ذلك، لا ينفعهم، المؤمن بالآخرة من الموقنين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الجاثية: ٣٣]. بدا لهم يعني ظهر لهم سيئات يعني أثر السيئات؛ الذنوب والمعاصي اللي في الدنيا جاءت آثارها الآن، وجدوا آثارها.

- **ما هي آثارها؟**

العقوبات التي سلطها الله عليهم، وجد، بدأ لهم ظهرت لهم عقوبات أعمالهم السيئة وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون، أحاط بهم ما كانوا يستهزئون به ويسخرون من العقوبات ومن النار ومن البعث.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤]؛ إذا جاء يوم القيامة وأُلقوا في النار، الله ينساهم.

- **ما معنى الله ينساهم؟**

يعني يتركهم، وليس النسيان هنا الذهول والغفلة، لا، الله لا يذهل ولا يغفل؛ إنما النسيان هنا الترك، يتركهم الله؛ نسوا الله فنسيهم.

وقيل اليوم ننساكم نترككم كما نسيتم لقاء يومكم؛ تركتم الأعمال الصالحة وتركتم الاستعداد ليوم القيامة، ومأواكم النار مصيركم ومرجعكم إلى النار، وما لكم من ناصرين ينصركم ويخرجكم من النار، مأواكم النار، هذه عقوبة من أنكر اليوم الآخر ولم يعمل به واستهزأ وسخر بآيات الله.

﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]؛ تستهزئون وتسخرون من آيات الله ومن القرآن ومن آيات الله الكونية، وغرتكم الحياة الدنيا؛ اشتغلتم بها وعشتم لأجلها ولجمع حطامها وتركتم الاستعداد لليوم الآخر، عشتم لدنياكم غرتكم الحياة الدنيا.

فاليوم لا يخرجون منها؛ لا يخرجون من النار، هذا هو مأواهم، ولا هم يستعتبون؛ ولا هم يُطلب منهم العتبى يعني يرضى عنهم، لا يرضى الله عنهم ولا يُطلب منهم قبول يعني قبول اعتذارهم، لا يستعتبون لا يُقبل منهم العذر فلا يُقبل منهم، هؤلاء مصيرهم إلى النار.

هذه عقوبات شديدة أيها الإخوة، شديدة لمن كذب وأنكر واستهزأ بدين الله وشرعه، وكذب باليوم الآخر ونسي اليوم الآخر واشتغل للدنيا وعاش للدنيا، هذه نتيجته.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الجاثية: ٣٦]؛ شوف خاتمة جميلة لهذه السورة، الخاتمة الجميلة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا قضى بين العباد ونصر أولياءه وعم برحمته وإدخالهم الجنة، وانتقم من أعدائه أعداء الله وعذبهم بما يستحقون، الكل يحمد الله لذلك.

شوف عند القضاء وعند الحكم الإنسان يحكم، فشوف: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]؛ يحمدون الله عَزَّ وَجَلَّ على حكمه العدل وقضائه وعلى فضله.

فأحكامه بين الفضل والعدل؛ يتفضل على عباده الصالحين، ويعدل في أولئك الذين صدوا عن سبيل الله، فلله الحمد؛ الحمد كله لله، هو رب السماوات وخالقها وهو رب الأرض وخالقها وهو رب العالمين جميعاً.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية: ٣٧]؛ وله الكبرياء، العظمة والجلال والتقديس له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السماوات والأرض معظم ومجلل، وله الكبرياء سبحانه في السماوات والأرض، وهو العزيز ذو العزة والقوة والغلبة، الحكيم ذو الحكمة في قضائه وفيما يقوم به من الحكم بين عباده، فله الحكم وله الحكمة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

خاتمة جميلة لهذه السورة التي عشنا معها الأيام الماضية، ولله الحمد عشنا معها في لقائنا الماضي وفي هذا اللقاء؛ سورة تلاحظ فيها بث الآيات الكونية والآيات الشرعية فيها، وإقامة الحجة على الخلق جميعاً.

وبيان موقف المعاندين المستكبرين الذين إذا تليت عليهم آيات الله استكبروا وردوها وأنكروا ما جاءهم عن الله ولم يستعدوا للقاء ربهم، وأيضاً السورة تبين مآل أهل الصلاح والطاعة المستقيمين

المشمرين في طاعة الله، تقرر الإيمان باليوم الآخر وجزاء كل فريق، وتبين عظمة هذا اليوم العظيم الذي يجثو فيه الناس على ركبهم وأطراف أصابعهم.

فالكبرياء والعظمة لله، وأما غير الله فلا يتكبر لا يتكبر؛ الذين يتكبرون يحشرون يوم القيامة أمثال (الذر) يطأهم الناس بأقدامهم، فالكبرياء لله ليست لكم.

فنسأل الله أن ينفعنا بهذه السورة، وأن يبارك لنا إن شاء الله. لقاؤنا القادم في السورة التي تليها إن شاء الله، نسأل الله أن يبارك لنا وأن يوفقنا لطاعته وأن يعيننا ويسددنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الأَحْقَاف)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الأحقاف ١ - ١٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء المرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للعاشر من شهر ربيع الأول من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم قراءةً وتفسيراً وبياناً وتدبراً، ونسأل الله أن يعيننا وأن يسددنا وأن يوفقنا وإياكم جميعاً.

سورة اليوم سورة جديدة جاءت بعد (سورة الجاثية)، هذه السورة تعد هي خاتمة سور (الحواميم)؛ (الحواميم) أو نقول المفتتحة بـ (حم) سبع سور: أولها (غافر)، ثم (فصلت)، ثم (الشورى)، ثم (الزخرف)، ثم (الدخان)، ثم (الجاثية)، والسابعة (سورة الأحقاف) التي بين أيدينا، وكلها سور مكية.

وقد أثنى عليها ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قال: "الحَوَامِيمُ هِيَ دِيبَاجُ الْقُرْآنِ"؛ يعني حرير القرآن؛ لما فيها من تعظيم القرآن. تلاحظ كل السور هذه السبع كلها مفتتحة بتعظيم القرآن وإجلاله وتقديسه.

(سورة الجاثية) التي مرت معنا، التي بيَّن الله فيها خضوع العالم كله والمخلوقات لله، وأن الكبرياء والعظمة لله، و ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]، وقال: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨] تجثو على ركبها وعلى أطراف الأصابع خضوعاً واستكانةً لله؛ تأتي هذه السورة لتستكمل هذا الأمر.

(سورة الأحقاف) سميت بذلك لسبب؛ والسبب في ذلك أن الله ذكر فيها قصةً واحدةً من قصص الأولين وهي قصة عاد، وعاد يسكنون بالأحقاف، والأحقاف هي الرمال؛ الأحقاف جمع حقف، والحقف هو القطعة من الرمال.

كانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية في أطراف الربع الخالي من الجنوب، والربع الخالي معروف أنه رمال شديدة غزيرة، والأحقاف بلادهم التي يسكنون فيها، فيها من الخير والنعيم والعيون والأشجار والنباتات، فكانوا يسكنونها في رغدٍ من العيش.

ولما عبدوا الأصنام وأشركوا بالله، أرسل الله إليهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأمرهم بتوحيد الله وطاعته وتقواه وعبادته، فأبوا وكفروا واستكبروا، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

- **السورة هنا في الحقيقة تركز على قضية ماذا؟**

نحن عرفنا الآن أن السورة سميت بـ **(سورة الأحقاف)** لذكر قصة أهل الأحقاف وهم عاد، والسورة تدور -إذا قرأتها وتأملت آياتها وأعدت النظر فيها ونظرت فيها وجدتها تتحدث عن- مَن الذي يستجيب لله ومَن الذي لا يستجيب، وما عاقبة مَن يستجيب لله، وما أثر هذه الاستجابة، وما عاقبة مَن لا يستجيب لله، وما أثر عدم الإجابة؛ كل هذه تدور السورة حولها، وسيتضح لك هذا الأمر جلياً عندما نمر على الآيات.

انظر عندما تقرأ في هذه السورة يقول لك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، والله ذكر فيها نماذج من المستجيبين لله ومن الذين لا يستجيبون لله.

أما الذين يستجيبون لله، فذكر نموذجاً من الناس: البار بوالديه المستجيب لله الذي يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥]. ويقابله العاق الذي لم يستجب لله، والذي يقول لوالديه: ﴿أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ [الأحقاف: ١٧] ويكفر بالله.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر لنا أيضاً نموذجين آخرين لمَن يستجيب ومَن لا يستجيب: قوم عاد بالأحقاف أبوا واستكبروا ولم يستجيبوا لرسولهم فأهلكهم الله، ثم يذكر الله مَن استجاب وهم الجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، قالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١].

تلاحظ الإجابة والاستجابة؛ السورة تدور حول هذه المعاني وتركز عليها، وهذا هو المقصد من السورة وهدفها بالنسبة لنا نحن ونحن نقرأ القرآن ونتأمل الآيات ونقرأ في تفسيره: يجب أن نسارع في الاستجابة لله، وأن نكون من المستجيبين لله، وأن نحذر عصيانه والتمرد والمخالفة لأمره؛ هذا هو الهدف الأساس.

نبدأ بالسورة نأخذ آياتها، السورة كغيرها افتتحت بـ: ﴿حم﴾ [الأحقاف: ١].

و (حم) هذه مرت معنا كثيراً، وعرفنا أنها حروف من حروف الهجاء جيء بها للتحدي والإعجاز، وهي حروف من حروف الهجاء لكن أراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يثبت لهؤلاء الكفار أن هذا القرآن منزل بلغتهم؛ فإما أنهم يستجيبون لله ويؤمنون به ويصدقون بهذا القرآن، وإما إن أرادوا التحدي فليأتوا بمثله وإلا أمامهم النار، هذا مر معنا كثيراً.

لما ذكر الله هذين الحرفين قال: ﴿حم﴾، ذكر بعده القرآن، وذكره بأوصاف تدل على عظمة هذا القرآن، وعلى أن الله يثني عليه ويمدحه، فقال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: ٢].

أي هذا القرآن، أو هذه السورة وهذا الكلام الذي تسمعونه، هو تنزيل الكتاب؛ يعني هذا الكلام الذي تسمعونه هو تنزيل الله، نزل الله هذا الكتاب عليكم.

يعني أن القرآن منزل من عند الله ومصدره من الله، ليس من أحد من البشر، وإنما هو من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفيه رد على هؤلاء المشركين الذين يقولون إن محمداً افتراه، لم يفتره محمد، وإنما هو منزل من عند الله ومصدره من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي أوحى به إلى جبريل فنزل به جبريل على محمد.

وانظر إلى كلمة (تنزيل)، تدل على أن القرآن منزل على فترات؛ يعني مقسطاً ومنجماً ولم ينزل جملة واحدة، بل مفرقاً: ﴿تَنْزِيلُ﴾ نزَّله تنزيلاً، وفي كلمة (تنزيل) دلالة على أن الله في العلو، وأنه فوق سماواته بائن من خلقه مستوٍ على عرشه، وينزل القرآن ويتكلم به فيسمعه جبريل فينزل به على محمد، فالقرآن كلام الله وقد نزله إلينا.

قال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾، والكتاب هو القرآن، سمي كتاباً لأنه يكتب، وقرآناً لأنه يقرأ. قال: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾، هذا مصدره، ليس من أحد؛ لا من جبريل، ولا من محمد، ولا من الشياطين، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، إنما هو من الله، والقرآن منه.

وهو ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾؛ العزيز الغالب على أمره، ذو القوة الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولذلك نزل القرآن وبعث الرسل وأنزل الكتب وخلق النار لأهلها وخلق الجنة لأهلها، فهو عزيز قوي نافذ أمره. والحكيم مع عزته وقوته إلا أنها عزة وقوة بحكمة؛ يضع الأمور مواضعها، حاكم على كل شيء.

بعد هذا البيان في تعظيم القرآن، يبين الله الحكمة من خلق السماوات والأرض؛ لو سألك سائل قال لك: ما الحكمة؟ لماذا خلق الله السماوات والأرض؟ اسمع الجواب، قال الله: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لإظهار الحق والعدل، الله خلق السماوات ليظهر عدله ويظهر الحق ويبطل الباطل، خلق السماوات وما فيهن من مخلوقات، وخلق الأرض وما فيهن من مخلوقات، وخلق ما بينهما، وذلك لم يخلقه عبثاً ولم يخلقه لعباً، إنما خلقه بالحق ولم يخلقه باطلاً.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

خلق الله بالحق وخلقها لأجل مسمى، يعني نهاية الدنيا؛ إذا انتهت الدنيا خلاص تذهب السماوات وتطوى وتذهب الأرض خلاص وينتهي، هذه السماوات والأرض خلقت لأجل، لوقت تنتهي فيه، فخلقها بالحق وأجل مسمى.

وأما الكفار الجاهلون الذين لم يتعلموا ولم يعرفوا ما الحكمة من خلق السماوات والأرض: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ ينذرهم الله ويخوفهم ويرسل إليهم الرسل ويحذرهم من النار التي إذا أعرضوا وكفروا صاروا إليها، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ لا يريدون أن يتقبلوا شيئاً؛ تأتيهم الرسل وتنذرهم، ويأتيهم الله ويخوفهم بآياته ومع ذلك معرضون مستكبرون، لا يريدون القبول، لا يستجيبون لله.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يناقشهم ويحاجهم، ويأمر نبيه محمداً أن يحاجهم على أي شيء؟ على عقيدتهم الفاسدة وهو الشرك بالله، فيقول: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[الأحقاف: ٤].

قل يا محمد لهم، قل لهؤلاء المشركين: قل أرأيتم، قل أخبروني، قل لهم أخبروني ما تدعون من دون الله، أخبروني عن هذه الأشياء التي تدعونها من دون الله، هذه الأصنام تذهبون إليها وتدعونها من دون الله، تسجدون لها وتقدمون لها القرابين وتطوفون حولها وتعظمونها من دون الله.

سواء كانت أصناماً حجارةً أو شجراً، أو كانوا أمواتاً غير أحياء لا يسمعون، تدعون من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض؟ هل هذه الأصنام والأموات خلقوا شيئاً من الأرض؟ خلقوا جبالاً أو أنهاراً، أو خلقوا أشجاراً، أو خلقوا حيواناً؟ ما خلقوا ولا أصغر حشرة. أروني، أعطوني، أثبتوا لي أنهم خلقوا شيئاً من الأرض، ما خلقوا شيئاً.

ثم قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ هل هم شركاء مع الله في سماواته وفي خلقها وفي تدبيرها؟ هل هذه لها شرك مع الله؟ هل أذن الله أن تشترك معه في ملكوته؟ ما فيه، هذا دليل عقلي؛ ليس لها دخل لا في الأرض ولا في السماوات، هي أموات وحجارة لا تتحرك.

ثم قال: ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾، إذا أنتم سألناكم بالأسئلة العقلية وما عندكم جواب؛ عندكم كتاب أنزل الله إليكم يأمركم فيه أن تعبدوا الأصنام؟ ائتوني بكتاب قبل هذا، هل عندكم كتاب قبل القرآن يأمركم بعبادة الأصنام؟ ما فيه.

﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ بقايا من علم الرسل؛ هل عندكم أن الرسل أوصوكم، أو جاء فيما نُقل لكم مما أُثر عن موسى وعيسى والأنبياء السابقين أنهم يأمرون بعبادة الأصنام وبالشرك؟ ما فيه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أثبتوا لي، ما فيه كل هذا؛ إذاً النتيجة: ما عندهم لا دليل عقلي ولا دليل نقلي، ما عندهم شيء.

ولذلك قال الله هم في ضلال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾[الأحقاف: ٥].

يقول: ليس هناك أحد أضل من الذي يقوم ويدعو غير الله، هل فيه أحد؟ ما فيه أحد أشد ضلالاً ممن يذهب إلى الأموات أو الأصنام ويدعوها من دون الله وهي لا تستجيب، لا تسمع، إذا دعاها ما سمعت: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤].

انظر قال: ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾، ما يسمعون، غافلون لأنهم أموات غير أحياء.

وإذا جاء يوم القيامة، ماذا ستكون حال هؤلاء المشركين؟ ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

كانوا -أي هذه الأصنام والمعبودات والأولياء- كانوا لهم أعداء يلعنونهم ويتبرؤون منهم؛ يتبرؤون: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، ويلعن بعضهم بعضاً، كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين؛ يكفرون بعبادتهم ويجحدون عبادتهم، هذا موقفهم يوم القيامة.

- **أما موقفهم من القرآن فما هو؟**

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧].

- **إذا قُرئت عليهم الآيات القرآنية وسمعوا كلام الله فالنتيجة ما هي؟**

إنهم يقولون للقرآن وللحق: هذا سحر مبين، انظر كيف عقولهم عقول خالية من كل شيء، القرآن العظيم كلام رب العالمين، أفضل كلام على الإطلاق وأعظم كلام على الإطلاق كلام رب العالمين.

إذا قُرئ عليهم ببيانه ووضوحه مثل هذه الآيات يقولون سحر! هل هذا يستوي مع هذا؟ تسمي القرآن الذي هو أحسن الكلام تقول سحر! السحر كلام باطل سحر من الشياطين، لا يقوله عاقل أبداً، كيف تساوي هذا بهذا؟ سحر مبين.

ثم هم لم ينتهوا إلى هذا الحد، بل إنهم فوق ذلك ماذا؟ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨].

بل يقولون إن محمداً افترى القرآن من عنده، انظر التخبط! مرة يقولون سحر مبين، والآن ماذا يقولون؟ يقولون محمد افتراه.

فرَدَّ الله عليه، قال: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، لو أنا افتريته من عندي فلا تملكون لي من الله شيئاً، ما تستطيعون أن تملكوا لي من الله شيئاً؛ يعني لو أراد الله، لو أنني افتريت على الله هذا القرآن وقلته من عندي فسيعاقبني رب العالمين، ولا تملكون لي أنتم من الله شيئاً، ما تستطيعون أن تمنعوني من عذاب الله لأنني قد افتريت على الله كذباً.

ثم قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، عالم بما تتحدثون فيه وتتكلمون فيه وتخوضون فيه في اجتماعاتكم، كل كلامكم يعلمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ الله يشهد بيني وبينكم على أن القرآن حق وأنه نازل من عند الله، وأن كلامكم هذا واتهاماتكم هذه بأن القرآن سحر أو أن محمداً افتراه كل ذلك باطل، والله يشهد على صدقي.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾؛ غفور وأنتم تعملون هذه الأعمال السيئة وتقولون هذه الأقوال الباطلة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غفور يغفر الذنوب، ورحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفتح لهم باب الرحمة وباب المغفرة لعلهم يرجعون.

ثم يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

أنا لست جديداً، رسالتي مسبوقة برسالَات كثيرة ونبوتي مسبوقة بنبوات كثيرة، أنا آخر الرسل وخاتمهم، ما كنت بدعاً لست جديداً من الرسل، بل أنا متبع لما سبقني من الرسل، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم، ما أدري الأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يقضي بيني وبينكم، لا أدري ما الذي يجري لي ولكم.

الأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ما أدري ما يفعل بي، المتصرف بي والمتصرف بكم هو الله، لا أدري ما يفعل بي ولا بكم. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أنا أتبع ما جاءني عن الله سبحانه بالوحي، ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، أنذركم ونذارتي واضحة بينة.

ثم أيضاً يحاجهم، انظر كم محاجة! ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

إن كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم أنتم به ولم تؤمنوا، وقلتم سحر وقلتم افتراه محمد وتكذبون وتكفرون وتجحدون به، وشهد شاهد من بني إسرائيل -آمنت طائفة من بني إسرائيل وصدقت بالقرآن من عقلاء بني إسرائيل على مثله.

على مثل هذا القرآن وعلى أنه من عند الله آمنت، شهد شاهد من بني إسرائيل فآمن- واستكبرتم أنتم، يعني آمنوا وأنتم استكبرتم أيها الجهلاء، وهم صدقوا وآمنوا لأن لهم عقولاً وصدقوا به، فالله لا يهدي القوم الظالمين المستكبرين المعاندين الذين لا يستجيبون له، آمنوا بالقرآن وآمنوا بمثل القرآن المنزل عليه من الكتب السابقة.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين سخافة عقول هؤلاء الكافرين، انظر، اسمع يقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

انظر كيف سخافة العقل! يقول الكفار: لو كان هذا القرآن خيراً لكنا نحن الأسبق إليه، نحن الذين نبادر إليه، لكنه ليس بخير ولذلك هم الذين سبقوا إليه لأنهم أقل منا، نحن أحسن عقولاً وأكبر عقولاً وأهدى منهم ومعرفة بالحق، فدل على أننا لو كان خيراً لآمنا به وسابقنا إليه.

لكن هذا دليل على أنه ليس حقاً، وهذا يريدون به أن يعزوا أنفسهم ويريدون أن تكون الحجة لهم، قال: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، كذب وكذب قديم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ رداً عليهم: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

إذا أنتم تقولون هذا قديم وكلام وإفك، كتاب موسى شاهد له، ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ﴾ - وهي (التوراة)- إماماً يأتم به علماؤهم وأئمتهم ورحمة لهم، وهذا الذي أنتم تقولون إنه إفك قديم.

هذا كتاب مصدق للكتب السابقة، وبلسان عربي واضح بيّن؛ لينذر الذين ظلموا أمثالكم تحذيراً لكم وبشرى للمحسنين، الذين أحسنوا أعمالهم. ومَن هم المحسنون؟ الذين أحسنوا عملهم مع ربهم ومع الناس.

قال المحسنون: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

- **مَن هم المحسنون؟**

الذين قالوا ربنا الله، اعترفوا بالتوحيد والإيمان بالله ولم يشركوا بربهم شيئاً، ثم استقاموا على شرعه وثبتوا عليه حتى الممات، فهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ لا يخافون من كل شر أمامهم في مستقبلهم، ولا يحزنون على ما تركوه خلفهم، فهم في أمان وفي طمأنينة.

قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤].

لأنهم استقاموا ووحدوا الله، خالدين فيها جزاءً بأعمالهم، هذا عملهم الإيمان بالله والأعمال الصالحة والاستقامات، جعلتهم يرتقون إلى أعلى عليين في جنات النعيم.

لعلنا نقف عند هذا القدر؛ لأن بعدها آيات تحتاج إلى وقفات طويلة، فنكتفي بهذا القدر إن شاء الله، ولنا لقاء نستكمل فيه ما توقفنا عنده، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الأحقاف ١٥ - ٢٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للسابع عشر من شهر ربيع الأول من عام واحد وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة. درسنا في تفسير القرآن العظيم وسورة (الأحقاف)، وقف بنا الكلام عند الآية الخامسة عشرة من السورة.

ذكرنا في لقائنا الماضي أن سور القرآن لمن يريد التدبر، ويريد أن يصل إلى مقاصد السور وأهدافها، والتدبر في الآيات القرآنية، ويفهم فهماً دقيقاً؛ لابد أن يكون عنده تصور في موضوعات السورة ومقاصدها ومحاورها وأهدافها، فكل سورة لها هدف، لها مقصد، لها محور.

وهذه السورة التي بين أيدينا سورة (الأحقاف) تركز على الاستجابة لله، ومن لا يستجيب لمن دون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ذكر في أول السورة -لو نرجع قليلاً- قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]؛ أي لا أحد أضل، لا أحد أشد ضلالاً مِمَّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، لا يستجيب له.

فالسورة تدور حول من يستجيب لك ومن لا يستجيب؛ سواء قلنا الله يستجيب لعباده ويجيب دعواتهم، والمعبودات من دون الله والأصنام لا تستجيب مهما دعوتها، لا تستجيب أبداً، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر موضوع الاستجابة وذكر لنا نموذجاً وهو نفر من الجن قالوا: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١].

فتبين لنا أن هناك من يستجيب لله ويقبل عليه ويؤمن، ومن لا يستجيب لله بل يستجيب للشياطين والأصنام والآلهة من دون الله، تقرر هذه السورة هذا المبدأ وهذا الأمر المهم، وهو قضية من يستجيب

ومن لا يستجيب، وأنت تعرض نفسك: هل أنت من المستجيبين لرب العالمين في كل شيء أو من المقصرين؟

أو تعيد النظر في علاقتك مع رب العالمين تعيد النظر وترتب أمورك؛ هل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستجيب لمن يجيب؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] لما استجابوا له وأقبلوا عليه، فالسورة حقيقة تدور حول هذا الأمر، والآن سيتضح لك الأمر أكثر وأكثر لما نأتي عند قصتين في من يستجيب ومن لا يستجيب، ثم قصتين أخرى.

فالقصة الأولى أو القصتان الأوليان تتحدث عن موقف هذا الإنسان من البر بالوالدين، فلا شك أن البر بالوالدين هو من أجل الطاعات؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوصانا وقضى ألا تعبدوا إلا إياه.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، فجعل مرتبة الوالدين في الطاعة بعد مرتبته؛ فطاعة الله والرسول ثم طاعة الوالدين فيما يرضي الله، ولذلك: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، فأكد القرآن بل أوصى وصايا مهمة أكيدة، وصى هذا الإنسان ببر والديه.

واعلم أن بر الوالدين لا ينقطع؛ لا تظن أنه إذا مات انقطع بره، لا؛ بر الوالدين مستمر في الدعاء له، وفي الصدقة له، وفي زيارته، وكل هذه الأمور التي هي صلة الأقارب التي تكون سبباً في بر الوالدين؛ صلة كل صلة الأحباب، «وُدُّ أَبِيكَ» من البر، فهنا الآن ستأتينا السورة أو ستتحدث السورة عن بر الوالدين وبالمقابل عقوق الوالدين؛ هذا استجاب وهذا لم يستجب.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. (وصينا)؛ شوف ما جاء وقال أمرنا ولا أوجبنا، قال: (وصينا)، والوصية معناها العهد المؤكد؛ يعني الله عهد إلى هذا الإنسان وأكد عليه أن يحسن بوالديه إحساناً.

وشوف كلمة (الإحسان) كلمة فضفاضة واسعة كبيرة؛ يعني أحسن إلى أبيك وإلى أمك، أحسن إلى الوالدين في حياتهما وبعد مماتهما، أحسن إليهم في حياتهم باللطافة: الكلام اللطيف الجميل، الكلمة الطيبة، التقدير، الاحترام، النفقة، الهدية، الخدمة.

كل هذه داخلة في قضية الإحسان؛ صلته، عدم قطيعته، البحث عن رضاه، البحث عن الأمور التي يريدها يحققها له، كل هذا يؤكده القرآن وصحبته، حتى لو كان عنده ما عنده من التقصير.

يقول في الكفار: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]؛ مصاحبته وبره والإحسان إليه.

ثم بين السبب والداعي لذلك، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ يعني على كراهية وعلى صعوبة وعلى مشقة وعلى تعب، ووضعته كرهاً؛ أثناء الحمل كارهة لذلك الشيء لأن فيه تعب ومشقة، وأثناء الولادة أشد؛ ترى الموت أمامها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]. الفصال يعني الرضاع.

- **متى يفطم عن الرضاع؟**

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبرنا في آية أخرى قال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]؛ يعني حولين كاملين يعني سنتين، يعني أربعة وعشرين شهراً.

- **وهنا يقول: ثلاثون شهراً؛ إذا أخذنا الأربعة والعشرين وهي مدة الرضاع، يبقى ستة أشهر، ما هي؟**

الجواب: هذه مدة الحمل؛ أقل حمل ستة أشهر، قد تضع خلال ستة أشهر أو سبعة أو ثمانية أو تسعة، وهو الغالب أن حده تسعة أشهر، لكن قد ينزل، لكن أقل، ولذلك علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْه استنبط من هذه الآية أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأنه لما قال ثلاثون شهراً، عرفنا أخرجنا السنتين فبقي ستة أشهر.

يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى -يعني حمله ورضاعه وفطامه ثلاثون شهراً- ثم بعد ذلك يمتد في زمن الطفولة ويتربى صبياً صغيراً، وتمشي الأيام معه حتى إذا بلغ أشده، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأحقاف: ١٥].

- **ما المراد ببلوغ الأشد؟**

هو نهاية القوة البدنية والعقلية، إذا استكمل قوته البدنية الجسدية والقوة العقلية، وهذا في الغالب من الثلاثة وثلاثين إلى الأربعين؛ هذه المدة إلى الأربعين هي مدة الأشد والقوة.

قال: ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ عند نهاية هذه المدة، مدة القوة العقلية واكتمالها، ولذلك الرسل في الغالب يوحى إليهم في الأربعين؛ نبينا محمد جاءته الرسالة لما بلغ أربعين سنة؛ اكتمال العقل والقوة والنضج.

يقول: إذا بلغ أربعين سنة وقف وتأمل ونظر؛ لأن بعد الأربعين في نزول، وقف وتأمل فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ يعني ألهمني ووفقني، ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ أنعم الله عليه بنعمة القوة والصحة والبدن والعقل والإيمان والطاعة؛ لأن هذا اعترف وشكر، هذا مؤمن صالح.

ولذلك قال: ألهمني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي أنا أولاً، ثم قال: ﴿وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ فهو رجل صالح يتذكر ويشكر نعمة الله عليه وعلى والديه؛ لأن النعمة عليه مباشرة، أنعم الله عليه وتفضل عليه بالصحة والعافية وغيره والعمل الصالح والإيمان، وعلى والديه اللذين كانا سبباً في صلاحه.

ثم قال: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ قال: ألهمني ووفقني للعمل الصالح الذي ترضاه، الأعمال الصالحة التي ترضي رب العالمين وفقني لها.

شوف ما قال: وفقني للعمل الصالح وسكت؛ قد يكون عملاً صالحاً لكنه لا يرضي رب العالمين، أحياناً بعض الناس يعمل أعمالاً في ظاهرها أنها أعمال صالحة لكنها لا ترضي رب العالمين لأنها وقعت في غير موقعها، فيقول: اعمل صالحاً ترضاه.

ثم تذكر ذريته؛ لأنه هو لما تذكر والديه وأن والديه قد تفضلا عليه بالتربية، هو أيضاً تذكر أبناءه وذريته، فقال: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ [الأحقاف: ١٥].

- **قد يسأل بعضكم فيقول: كيف (أصلح لي في ذريتي)؟ ليش ما يقول: أصلح لي ذريتي؟ أنت دائماً في الدعاء تقول: اللهم أصلح لنا ذرياتنا، ليش قال: (في ذريتي)؟ هذه (في)، ما دورها؟ لماذا جاءت؟**

الجواب: هذه (في) عند أهل اللغة تسمى (في الظرفية)؛ يعني تدخل في العمق، فلما يقول: (أصلح لي في ذريتي)، هو لا يقصد ذريته الذين هم أبناؤه فقط، هو يقصد أبناءه وأبناء أبنائه ومن كان تحت أبنائه من الذرية؛ شوف قال: (في ذريتي)، في سلسلة.

ولذلك لاحظ، يعني لما دعا إبراهيم قال: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤] ودعا ذريته، ودعا الصلاح في ذريته؛ دعا إبراهيم، فخرج من ذريته على بعد مسافة بعيدة وأجيال وقرون من هو محمد؛ الذي من

سلالة إسماعيل، محمد هو خير البشر، وكم آمن وصلح على يديه في دعوته إلى قيام الساعة؛ شوف كيف وهو بعيد!

وانظر إلى امرأة عمران لما دعت، أخرج الله من بطن بنتها رجلاً يكون من أولي العزم ومن أنبياء الله وهو عيسى، فأنت لا تقتصر على أبنائك أو بناتك بنات الصلب، لا؛ (أصلح لي في ذريتي)؛ يمكن يخرج من أبناء الأبناء من يكون هو صلاح لك ويدعو لك في قبرك. أنت تدعو لوالديك، تقول: والدي ووالدي؛ تدعو لهم وتستغفر لهم.

الرجل يوم القيامة ترفع منزلته عالية، فيقال له، فيقول هو: يا ربي، كيف وصلتُ هذه المنزلة؟ فيقول: بسبب دعاء ذريتك. فأنت لا تدري، أبناؤك وأبناء أبنائك يدعون وأبناء بناتك.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ تبت إليك من ذنوبي وتقصيري، ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥] المنقادين لطاعتك المستسلمين لأمرك ونهيك، هذا هو الرجل الصالح البار المحسن لوالديه، الذي وفقه الله لبر والديه، ووفقه لشكر نعمته، ووفقه للعمل الصالح وصلاح الذرية والتوبة الصادقة والانقياد لأمر الله.

هذا هو الرجل الصالح؛ فلذلك جازاه الله أحسن الجزاء، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦]؛ نتقبل منهم أعمالهم الصالحة وأحسن ما عملوا.

- **وغير أحسن ما يُتقبل؟**

الجواب: يتقبل الله كل الأعمال الصالحة، لكن لما قال: **"أحسن ما عملوا"** فيه حث على أن الإنسان يحسن عمله، ويكون من المحسنين في عمله؛ أحسن عملك فيما بينك وبين الله أو بينك وبين الخلق، كن محسناً حتى يتقبل الله منك أحسن العمل، وإن كان يتقبل ما دون الأحسن.

فالله يتقبل الصالحات جميعاً، لكن الأعمال الصالحة يتقبلها الله، لكن كأن فيها حثاً كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَأْخُذْ بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]؛ يعني بالحسنى منها، بالأفضل، الإنسان تكون أعماله على أعلى الدرجات والأفضل.

قال: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ١٦]؛ نتجاوز يعني نصفح ونعفو عن تقصيرهم وسيئاتهم، ﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ [الأحقاف: ١٦]؛ أي في جملة أصحاب الجنة.

هذا الوعد من الله أن الله يتقبل ويتجاوز، هو: ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦]؛ هو الوعد الصادق من الله الحق الذي كانوا يوعدونه في الدنيا؛ أن الله يكفر عنهم سيئاتهم ويتقبل منهم أعمالهم.

هذا النموذج المستجيب لله؛ الذي استجاب وأطاع وبر بوالديه، يقابله العاق الذي لم يستجب لله، اسمع: ﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا﴾ [الأحقاف: ١٧]؛ شوف، الذي قال لوالديه، ما في أي مقدمات، لا إحسان ولا بر ولا أي شيء، وإنما عقوق.

ولذلك أتى بكلمة التضجر: (أف)؛ كلمة تفيد التضجر. قال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِى أَنْ أُخْرَجَ﴾ [الأحقاف: ١٧]؛ أنتم تقولون لي إنني سأبعث إذا مت، تعداني هذا الوعد الكاذب أن أخرج.

﴿وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِى﴾ [الأحقاف: ١٧]؛ ذهبت أقوام وأمم في الأرض وأصبحوا تراباً، كيف يبعثهم الله؟ (من قبلي)؛ يعني كأن الآن هو عاق لوالديه ومقصر في حق والديه، ومنكر للبعث كافر بالبعث، ما في جنة ولا في نار ولا في أي شيء.

ولكن الوالدين -لشفقتهما على ولدهما- يستغيثان الله، يستغيثان الله كاستغاثة الغريق، يستغيثان؛ ما قال يسالان أو يدعوان الله، لا، استغاثة أشد وأعظم، وهما يستغيثان الله قد رفعا أيديهما وهما يدعوان الله عَزَّ وَجَلَّ، يستغيثان الله بالدعاء الصالح له بالهداية وفي نفس الوقت يهددانه ويخوفانه: ﴿وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ [الأحقاف: ١٧].

خف من الله، آمن، لا تكفر، إن وعد الله حق بالبعث والجزاء والجنة والنار، لا تكفر لا تقول وقد خلت القرون ولا في بعث، إن وعد الله حق. فيقول لهما رداً عليهما -شوف العقوق-: ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧]؛ ما تقولانه لي إلا كلام الأباطيل وأساطير وحكايات المتقدمين، لا صحة لها ولا نتقبلها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في عقوبته -شوف قارن بين المستجيب وغير المستجيب؛ ذاك قال فيه: أولئك نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم، وهذا قال فيه-: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ [الأحقاف: ١٨]؛ أي حقت عليهم كلمة العذاب.

﴿فِي أُمَمٍ﴾ [الأحقاف: ١٨]؛ يعني يلحق بأمم الكفر من الجن والإنس، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨]؛ يلحق بأمم الكفار ويصبح مع أهل الكفر، خسروا دينهم وخسروا دنياهم وخسروا آخرتهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حكمه العدل قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الأحقاف: ١٩]؛ لكل من أهل الخير وأهل الشر درجات، منازل يوم القيامة؛ درجات أهل الخير والصلاح والإيمان لهم درجات، لهم الدرجات العلى، وأهل الشر لهم الدركات في نار جهنم، ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]؛ يعطي كلاً عمله من غير أن يظلم؛ لا بزيادة في سيئاته ولا نقص في حسناته، يأخذ حقه كاملاً.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]؛ يعطيك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الآن، يصور لك مشهداً من مشاهد يوم القيامة، هذا المشهد العظيم خذ وتأمل شوف فيه.

قال: ويوم يعرض الذين كفروا على النار، النار أمامهم ويعرضون عليها فيقال لهم على وجه التبكيت والتقريع والإهانة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]؛ ذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بالدنيا وضيعتموها على حساب الآخرة، ولعبتم ولهوتم عن طاعة الله واستمتعتم بها دون أن تستعدوا لهذا اليوم.

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأحقاف: ٢٠]؛ شوف الجزاء من جنس العمل؛ لما أهانوا حق الله وما أوجبه عليهم من استعداد لهذا اليوم أهانهم الله بالعذاب، قال: عذاب الهون، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٢٠]؛ تتكبرون في الأرض بغير الحق وتتكبرون عن طاعته وعما أمركم الله به، ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]؛ بما كنتم تخرجون عن طاعة الله، فسق وكفر واستكبار، هذا جزاؤه.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر في آخر السورة نموذجين من المستجيب وغير المستجيب؛ أما عاد فلم يستجيبوا لربهم وكفروا فأنزل الله بهم عقوبة الدنيا والآخرة، وأما النفر من الجن الذين صرفهم الله إلى نبيه قالوا: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]؛ شوف الفرق بين هؤلاء وهؤلاء.

عاد هؤلاء قوم عتو؛ عتو عن طاعة الله، عاتين وكافرين وجاحدين ومعاندين، أعطاهم الله من القوة؛ قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وكفروا وعبدوا الأصنام، وهم الذين جاؤوا بعد قوم نوح وسكنوا الأحقاف.

قال: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ أخاهم في النسب لا بالدين، هم كفار وهو مؤمن، أخاهم بالنسب، واذكر لقومك يا محمد، اذكر قصة عاد وأخا عاد هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ وهو المكان الذي كانوا يعيشون فيه، وهو جنوب الجزيرة العربية قريب من الربع الخالي، والأحقاف جمع حقف، وهي القطعة من الرمل كالجبال الصغيرة وكالتلال.

الأحقاف كانوا يعيشون فيها في جنة عظيمة وبساتين وعيون، وبعدها عبدوا الأصنام وكفروا بالله، فأرسل الله إليهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ. وهود قد خلت من قبله النذر ومن بعده.

﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ يعني قبله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنذر، وبعده جاء من ينذر كصالح وغيره، فهو لم يكن جديداً في نذارته، بل مسبوقاً ومتبوعاً من خلفه، ودعوته كدعوة غيره من الأنبياء: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ وحدوه واعبدوه ولا تعبدوا من دون الله أصناماً وآلهة لا تنفعكم.

ثم هدده وقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ إن استمريتم على كفركم وعنادكم وعبادة الأصنام، أخاف عليكم عذاب يوم عظيم.

- **فماذا كان ردهم؟ هل استجابوا وفرحوا بدعوته؟**

لا؛ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢]؛ لتصرفنا عن آلهتنا التي نعبدها ويعبدها آباؤنا، ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]؛ شوف الوقاحة منهم!

يعني يأتيهم ويذكرهم ويخوفهم بالعذاب وهذا ردهم: لتأفكنا وتصرفنا عن آلهتنا، فأتنا بما تعدنا إن كنت صادقاً، أين العذاب؟ شوف، يعني يتهاونون بالعذاب ولا يبالون.

رد عليهم فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]؛ علم العذاب ووقوعه ومجيئه عند الله أنا لا أعلم، لكني نذير، ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]؛ أبلغكم رسالات ربي،

﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٣]؛ لأنكم تستعجلون العذاب، وهذه جرأة على الله، وهذا دليل على جهلكم، لو كان عندكم مسكة من عقل ما قلتم هذا الكلام.

فانحبس عنهم المطر، ويبست آبارهم، وماتت مواشيهم، فاضطروا إلى الماء، فأرسل الله عليهم سحابة سوداء عظيمة تستقبل أوديتهم فظنوا أنه مطر، فاستبشروا ولم يعلموا.

فلما رأوه -أي رأوا هذا السحاب- عارضاً، وعارضاً أي جاء في الأفق في عرض الأفق مستقبل أوديتهم فرحوا، ﴿قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ يعني هذا العارض السحاب سيمطرنا وستعود آبارنا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ هذا الذي تستعجلون وتقولون فاتنا بما تعدنا، ريح فيها عذاب، لا تظنوا أنها ريح فيها مطر ورحمة، لا؛ فيها عقوبة.

وهذه الريح ريح عقيم تدمر كل شيء، ما تترك شيئاً إلا دمرته، ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]؛ بإذن ربها، الله يأمرها فتنفذ مطيعة، جند من جنود الله، ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥]؛ بقيت المساكن خاوية.

أما هم فتنزع الناس كأنهم أعجاز نخل خاوية، وفي سورة أخرى: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]؛ تأخذ الرجل وترفعه إلى السماء ثم تلقيه على رأسه. كانوا طوالاً فيتساقطون كتساقط النخل، كأنهم أعجاز نخل منقعر، فتساقطوا وماتوا ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٥]؛ هذا جزاؤهم، وكل مجرم يناله من العذاب كما نال هؤلاء.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبر فيقول: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ كأنه يخاطب أهل مكة فيقول: يا أهل مكة، اسمعوا هذه القصة؛ نحن مكنا عاداً، يعني أعطيناهم أسباب التمكين في الدنيا، أعطيناهم كل ما يتمكنون فيه من القوة البدنية والمال والجاه والأولاد والعتاد، مكناهم في كل شيء.

فيما لم نمكنكم فيه يا أهل مكة، ما أعطيناكم مثل ما أعطيناهم، أعطيناهم أقوى، هم أشد منكم قوة، مكناهم ما لم نمكن لكم، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ يعني ما ليس هناك تقصير من الله، كمل خلقهم، جعل لهم الأسماع يسمعون والأبصار يبصرون والقلوب يعون ما يأتيهم.

لكنهم أغلقوا أسماعهم وأبصارهم وقلوبهم: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ يكفرون بآيات الله، ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦]؛ نزلت بهم وأحاط بهم العذاب.

هذه قصة عاد لما كفروا نبيهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ، هذه النتيجة، وهي نتيجة كل من لم يستجب لله، هذه نتيجته، فهذا النموذج لمن لم يستجب، أما نموذج المستجيبين فهم النفر، يأتي الحديث عنهم إن شاء الله في اللقاء القادم.

نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الأحقاف ٢٦ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر من شهر ربيع الأول من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، وهذا المجلس المبارك نتلو فيه آياتٍ من كتاب الله، ونبين معانيها ودلالاتها، وما فيها من علوم وتوجيهات ربانية، وفوائد علمية.

سورة (الأحقاف) تحدثنا عنها في لقائنا الماضي، وأخذنا شيئاً من آياتها، ووقف بنا الكلام عند الآية السابعة والعشرين، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

الخطاب هذا لأهل مكة؛ أهل مكة نزل عليهم القرآن يخاطبهم أول الناس، ثم يدخل في ذلك من جاء بعدهم من الأمم والأجيال والقرون؛ فالخطاب لا يختص بأهل مكة فقط، هو كان في بداية الأمر موجهاً إليهم، إلا أنهم يدخلون دخولاً أولياً وغيرهم يدخل معهم تبعاً.

الله يقول لهم لما عاندوا واستكبروا وأبوا إلا أن يبقوا على ما هم عليه من الكفر وعبادة الأصنام والشرك والاستكبار والعناد؛ هددهم الله بهذا الأسلوب، هددهم قال: والله لقد أهلكنا ما حولكم يا أهل مكة من القرى التي تعرفونها.

كبلاد عاد وهي (الأحقاف)، وثمود التي في الشمال الغربي؛ وثمود معروفة بلادها في ما يسمى الآن ببلاد (العلا) القريبة من (تبوك)، وقوم لوط في أدنى الشام، وغيرها من القرى التي يعرفونها، ومدين يمرون عليها.

أهلكنا ما حولكم من القرى؛ لما عصوا رسلهم وأبوا إلا الشرك والكفر والعناد، فجعل الله ديارهم خالية لا عيش فيها ولا حس فيها، وجعل عروشهم وبيوتهم ساقطة؛ مروا عليهم وانظروا فيهم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهلكناهم؛ هذه آية عظيمة وحجة عليهم، إن لم يستجيبوا لله سيصيبهم ما أصاب هؤلاء.

ثم قال: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ [الأحقاف: ٢٧]؛ يعني الآيات التي أنزلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها حجج ودلالات عليهم، صرف الله الآيات.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩]؛ فصرف الله ونوع وبين وغير في الآيات مرة كذا ومرة كذا؛ مرة ترغيب ومرة ترهيب، ومرة أمر ومرة نهي، ومرة تهديد ومرة وعد ومرة وعيد؛ آيات القرآن مليئة.

﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]؛ عن كفرهم وغيهم وضلالهم إلى الإيمان بالله وبرسوله وبالقرآن، ويغيرون من حالهم إلى حال أحسن؛ ولكن مع الأسف لم يغيروا في ذلك شيئاً.

قال: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ [الأحقاف: ٢٨]. هؤلاء الأقوام الذين ذكرناهم لكم كقوم عاد، وثمود، ومدين، وقوم لوط؛ هؤلاء الأمم التي مضت، هل نصرتهم آلهتهم المزعومة؟ هل وقفت معهم؟ اتخذوا هذه الأصنام آلهة وعبدوها من دون الله، هل نصرتهم؟

يظنون أنهم يتقربون بها إلى الله قرباناً؛ أي يتقربون بها إلى الله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]. هذه الآلهة التي يدعون ويكذبون ويفترون بها على الله الكذب؛ يقولون إن هذه الآلهة تنفعنا عند الله وتشفع لنا عند الله، هل نصرتكم لما نزل بكم العذاب؟

- **هل دفعت عنكم العذاب؟**

ما نفعتكم أبداً، بل ضلوا عنهم؛ ضلت هذه الآلهة وتركتهم ولم تدفع عنهم شيئاً، ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]؛ هذا كذبهم، هذه عاقبة الإفك، هذه عاقبة كذبهم وعاقبة إفكهم على الله؛ يأفكون ويكذبون ويفترون على الله، هذه النتيجة.

هذا أسلوبٌ تهديد وتخويف لهؤلاء لعلهم يرجعون؛ ولكن مع الأسف لم تتغير حالهم، بل بقوا على ما هم عليه.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -لما ذكرنا لكم في أول الأمر أن سورة (الأحقاف) تقرر نموذج المستجيب لله والذي لا يستجيب؛ وذكرت لنا مثالين: البار بوالديه الذي استجاب لله ويقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [الأحقاف: ١٥]، هذا البار بوالديه.

ويقابله العاق الذي قال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾ [الأحقاف: ١٧]؛ هذا استجاب وهذا لم يستجب. ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمة من الأمم وهي عاد؛ وأن الله أعطاهم من القوة، وأعطاهم سمعاً وبصراً وأفئدة، لكن ما نفعتهم بل ضرتهم، وضلوا وأُهلكوا بالريح وماتوا.

ثم يذكر لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نفراً من الجن استجابوا لله: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]؛ استجابوا لله وآمنوا وصدقوا، هؤلاء استجابوا وهؤلاء لم يستجيبوا؛ هذه نماذج ذكرها الله في هذه السورة.

الآن عندنا نموذج المؤمن المستجيب، وهم نفر من الجن، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ أي واذكر أيها الرسول ويا محمد، لما خرج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد وفاة عمه (أبي طالب).

لما توفي عمه (أبو طالب) اشتد أذى قريش عليه، اشتد وآذوه إيذاءً شديداً؛ فخرج إلى (الطائف) يستنصر بهم ويدعوهم إلى التوحيد والإيمان، ولكن مع الأسف ردوا رسالته واستهزءوا به وسخروا منه، وأرسلوا سفهاءهم وصبيانهم ليطردوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويرجموه بالحجارة.

فرجع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حزيناً مهموماً، ونزل من (الطائف) حتى إذا نزل في (وادي نخلة) حضرت الصلاة فقام وصلى، ولما صلى أرسل الله إليه نفراً من الجن، طائفة من الجن الله أعلم بعددهم ولكنهم جاءوا.

وسبب مجيء الجن هو أنه لما بُعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بدأوا يبحثون؛ علموا أن السماء -يعني كانوا يسترقون السمع- فرأوا أن السماء قد ملئت بالشهب ولا يستطيعون الاقتراب منها.

قالوا: قد حدث شيء في الأرض؛ فبدأوا يبحثون في الأرض إلى أن علموا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أُرسل، وأنه قد أُنزل عليه القرآن فبدأوا يستمعون إليه.

وموقف إرسال الجن أو طوائف من الجن إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقع أكثر من مرة، حتى ذكر بعضهم أنه ست مرات أو قريباً من ذلك؛ فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة خرج مع أصحابه إلى (سوق عكاظ)، فحضرت الصلاة فصلى بهم فأحاط به الجن واستمعوا القرآن.

ومرة خرج هو وابن مسعود رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه إلى (غار حراء) وفي طريقه أرسل الله إليهم الجن فسمعوا القرآن؛ فهناك عدة مواقف حصلت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أرسل الله إليه الجن.

هنا في هذه الآية أرسل إليهم؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ أي بعثنا إليك ﴿نَفَرًا﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ أي طائفة، والنفر أصلها من النفيد وهو الانطلاق السريع؛ لأن بعضهم ينفر أو ينفر غيره فينتفرون ويكثرون وينطلقون.

نفراً من الجن يستمعون القرآن؛ أي جاءوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يصلي، وصرف الله ودفعهم وبعثهم إليه، فاستمعوا القرآن وهو يصلي. فلما حضروا مجلس الرسول، أو حضروا صلاته وهو يقرأ، قال بعضهم لبعض: أنصتوا، لا تتكلموا؛ استمعوا للقرآن فأنصتوا، لنستمع للقرآن فأنصتوا.

فبدأوا يسمعون القرآن، فلما فرغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تلاوة القرآن ومن صلاته وقد سمعوا القرآن وفهموه وتأثروا بذلك؛ ماذا صنعوا؟ ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]؛ انطلقوا إلى أقوامهم ينذرونهم.

وقيل إن هؤلاء النفر من الجن جاءوا من مكان يقال له (نصيبين)، ونصيبين هذه في أطراف الشام؛ فجاءوا من أطراف الشام إلى ما بين مكة والطائف، واستمعوا وآمنوا وصدقوا بالقرآن وبادروا بالإيمان؛ ولم يؤمنوا فقط بل أصبحوا دعاة وأصبحوا منذرين: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

قالوا ينادون جماعتهم: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]؛ انظر، **"أُنزل"** يعرفون أنه من عند الله، يعرفون أنه كلام الله، ﴿أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]؛ يعنون القرآن؛ سمعوا القرآن من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتاباً أُنزل من بعد موسى.

- **لماذا لم يقولوا من بعد عيسى، والذي قبل النبي هو عيسى ليس موسى؟**

الجواب: لشهرة (التوراة) وشهرة رسالة موسى وكثرة أتباعه وهم اليهود؛ أما النصارى فهم أقل، وعيسى كان تابعاً لدعوة موسى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن عيسى: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فكان متمماً لرسالة موسى، وإن كان أُنزل عليه (الإنجيل) وأُرسل إلى بني إسرائيل؛ إلا أن دعوته لم تكن مثل دعوة موسى في الشهرة، ولذلك الجن قالوا: ﴿أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٣٠]؛ أي هذا القرآن يصدق لما بين يديه من الكتب السابقة، كل الكتب السابقة يصدقها ولا يخالفها.

ثم قال: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]؛ أي هذا قرآن يهدي إلى الحق لا الباطل، يهدي إلى الصواب والعدل، ويهدي إلى صراط مستقيم؛ وهو صراط الهداية والطاعة والإيمان، الصراط المستقيم؛ دين الله وشرعه والأخلاق والآداب.

ثم لما قالوا لقومهم إنا سمعنا وأخبروهم بالخبر دعوهم؛ قالوا: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾ [الأحقاف: ٣١]؛ أجيبوا رسول الله محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى ما يدعوكم إليه؛ من التوحيد والإيمان والصلاة والزكاة وسائر الأعمال، أجيبوا داعي الله وصدقوه وادخلوا في دينه.

فإنكم إذا أجبتم وآمنتم ترتب على ذلك: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]؛ انظر إلى كلمة أجيبوا واستجيبوا، يغفر لكم من ذنوبكم؛ أي أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -جزاءً لكم على إيمانكم وتصديقكم وإجابة الداعي- يمحو عنكم ذنوبكم.

وانظر قال: "يغفر لكم من"؛ و**"من"** هذه بيانية أو تبعيضية؛ أي يغفر لكم تلك الذنوب، هذه الذنوب التي عليكم يمحوها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويغفرها لكم، ثم قال: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣١]؛ ينقذكم ويسلمكم من عذاب النار.

إذا أنتم آمنتم غفر الله ذنوبكم السابقة ومعاصيكم وأجاركم من عذاب أليم، فإذا أجاركم من عذاب أليم أدخلكم الجنة؛ وإن لم يُذكر هنا دخول الجنة، إلا أنه بيّن في آيات أخرى أن الجن كما أن كفارهم يدخلون النار فالمؤمنون منهم يدخلون الجنة.

ولذلك ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة (الرحمن) في نعيم أهل الجنة لما ذكر نساء أهل الجنة قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، فدل على أن الجن والإنس المؤمنين منهم يدخلون الجنة.

ثم حذروا قالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٣٢].

- **ما النتيجة إذا أنتم لم تستجيبوا؟**

الذي لا يجيب داعي الله ورسول الله محمداً إذا لم يجب داعي الله إلى ما دعا إليه ولم يستجب له فإنه ليس بمعجز في الأرض، لن يعجز الله فهو في قبضته في أي لحظة، وينزل الله به العقوبة في أي لحظة، لن يعجز الله ولن يفر ولن يخرج من حكمه ولو أعطاه الله من القوة ما أعطى؛ فالجن مع قوتهم العظيمة لن يعجزوا الله: ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٣٢].

﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾ [الأحقاف: ٣٢]؛ ليس له من دون الله أولياء وأنصار، ليس له من دون الله أولياء ولا أنصار ينصرونه ويدفعون عنه العذاب. ثم حكموا على الذين لا يستجيبون بأي شيء؟

قالوا: ﴿أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأحقاف: ٣٢]؛ الذي لا يستجيب لله ولا يؤمن ولا يصدق ولا يطيع، هذا أولاً لا يعجز الله لأنه في قبضته، وليس له أولياء ينصرونه بل سيتخلون عنه، والنتيجة أنه في ضلال، وهذا الضلال ليس أي ضلال بل هو ضلال مبين واضح، إلى هنا تنتهي قصة الجن الذين ذكرهم الله في هذه السورة.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر هؤلاء الكفار المشركين الذين أُنزل عليهم القرآن، يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ [الأحقاف: ٣٣]؛ أغفلوا وعموا ولم يعلموا وجهلوا وغاب عنهم هذا الشيء؟

﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]؛ الذي خلق هذه السماوات وخلق الأرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولم يعيَ بخلقهن؛ يعني لم يصبه تعب وإعياء وصعوبة بخلق هذه السماوات والأرض؛ أليس الذي خلق السماوات ولم يعيَ ولم يعجز عنها بقادر على أن يحيي الموتى؟

الكفار الذين يقولون: مَن يحيينا إذا متنا؟ ذلك رجوع بعيد! الله قادر، الذي خلق السماوات والأرض ولم يعجزه خلقهن قادر على أن يحيي الموتى، ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]؛ الجواب بلى، إنه على كل شيء قدير؛ لا يستعصي شيء أمامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم ذكرهم بهذا اليوم الذي سيقفون فيه أمام الله، قال: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ [الأحقاف: ٣٤]؛ يؤتى بالكفار ويوقفون على شفير جهنم، وينظرون إلى النار أمامهم وخزنة وملائكة النار، يُعرضون على النار فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٤]؟

يعني هذه النار التي أمامكم، أليس هذا بالحق الذي قلنا لكم وذكرناكم به في الدنيا، وقلنا لكم احذروا النار وكنتم تستهزئون؟ أليس هذا بالحق؟

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأحقاف: ٣٤]؛ يقسمون بالله: والله يا ربنا هذا هو الحق، ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤]؛ ليس لكم مفر ولا خروج عن هذا الموقف، النار أمامكم وسنذيقكم عذابها وحرها وحميمها؛ ذوقوا هذا العذاب بسبب كفركم في الدنيا لما كفرتم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يوجه خطابه لرسوله يدعوه إلى الصبر، هو وكل داعية وكل مَن يدعو إلى سبيل الله، قال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ فاصبر يا محمد، يصبر على الدعوة، ويصبر على ما يصيبه من أذى قومه، ويصبر غيره من المؤمنين؛ اصبر كما صبر أولو العزم.

- **مَن هم أولو العزم؟**

هم الأنبياء السابقون واشتهر منهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد؛ هؤلاء هم أولو العزم الخمسة، اصبر كما صبروا، صبروا وتمسكوا؛ فلا بد من الصبر.

هذه فائدةٌ؛ فالإنسان قد تمر به أمور في الدنيا وأحوال؛ أمور عصيبة وأحوال وهموم وغموم، وأشياء صعبة في حياته يواجهها مع بيته، ومع أسرته، ومع جيرانه، وفي أحواله وفي نفسه؛ كل هذه الإنسان معرض لها، فالدنيا دار بلاء؛ فليصبر، اصبر واحتسب.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال للمرأة التي يصيبها الصرع لما قالت: ادعُ الله أن يذهب عني، أو تريدين الجنة؟ قالت: بل أصبر وأريد الجنة، فقال لها: «**اصْبِرِي وَاحْتَسِبِي**»؛ فاصبر واحتسب الأجر عند الله، واصبر كما صبر أولو العزم، اصبر وتحمل؛ فهذه الدنيا دار بلاء؛ تريد الأجر؟

تريد الأجر فاصبر؛ أما التسخط والاعتراض وعدم الرضا فهذا لا يأتي بالذي تريده، ولا يذهب عنك الذي تريد أن يذهب، وتخسر الصبر الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وتخسر الأجر؛ لكن إذا صبرت كتب الله لك الأجر العظيم وفرج عنك.

فاصبر؛ الله يقول لنبيه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ لا تستعجل العذاب لهم، انتظرهم.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ إذا جاء يوم القيامة ورأوا النار أمامهم، من شدة هذا اليوم الشديد العصيب، كأنهم في الدنيا لم يلبثوا إلا ساعة، لحظة، زمن قصير، إلا ساعة من نهار.

إذا جاءتهم القيامة وبُعثوا ورأوا النار أمامهم، وعذاباً طويلاً لا ينتهي ولا حد له، عرفوا أن الدنيا ليست شيئاً، وعرف أهل البلاء الذين صبروا أن الدنيا كلها أيام معدودة.

ثم قال: ﴿بَلَاغٌ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ يقول هذا الذي تسمعونه، وهذه السورة وهذا التحذير والإنذار هو بلاغ يبلغ الله به، هذا بلاغ رسول الله يبلغ الناس، والله يبلغهم هذه الرسالة لهم ولغيرهم، بلاغ؛ هذا القرآن سيستمر بلاغاً إلى قيام الساعة.

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ أي ما يهلك الله إلا القوم الفاسقين، لا يهلك إلا القوم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله وأمره ولم يستجيبوا، هم الذين عرضوا أنفسهم للهلاك.

وبهذا تنتهي سورة **(الأحقاف)**، والحمد لله على توفيقه وعلى نعمته وعلى منّته أن منّ علينا وأنعم علينا بقراءة هذه السورة وتبيينها وتوضيحها وتفسيرها وما فيها من أحكام.

أسأل الله أن ينفعنا بها، وأسأل الله أن يجعلها حجة لنا لا علينا، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يثبتنا، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يصبرنا على ما نواجه.

هذه السورة انتهت، وإن شاء الله السورة التي تليها هي **(سورة محمد)**؛ إن شاء الله نقف معها بإذن الله، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ مُحمَّد)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(محمد ١ - ١٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم يوافق الثامن من شهر ربيع الآخر من عام أربعمائة وأربعة وسبعين للهجرة، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يوفقنا لمرضاته.

تفسير قرآن عظيم؛ وسورة (محمد)، والتي تسمى أيضاً بسورة (القتال) في بعض المصاحف، تُسمى بسورة (القتال)؛ لأن الله قال فيها وذكر فيها القتال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ [محمد: ٢٠]؛ ولأنها تتحدث عن القتال ومشروعية (الجهاد) في سبيل الله؛ سميت بهذا الاسم.

وتسمى بسورة (محمد)؛ لأن جاء في أولها: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [محمد: ٢]، فهذه لذكر اسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه السورة؛ سميت السورة باسمه.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نبينا محمد، ذكر اسمه في القرآن أربع مرات:

- الموضع الأول: في سورة (آل عمران): ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].
- الموضع الثاني: في سورة (الأحزاب): ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٠].
- الموضع الثالث: في سورة (الفتح): ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: ٢٩].
- الموضع الرابع: في سورة (محمد): ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ [محمد: ٢].

هذه أربعة مواضع، وأما نداؤه؛ فلم ينادَ باسمه أبداً، مع أن النبيين كلهم نودوا بأسمائهم: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰعِيسَىٰ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ١٩] إلى آخره.

أما محمد؛ فلم ينادَ باسمه، وإنما نودي بالوصف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] وهكذا؛ وهذا تشريف وتوقير لنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

سورة سميت بسورة (**محمد**) كما سميت بعض السور بسورة الأنبياء؛ فسورة (**إبراهيم**)، وسورة (**يوسف**)، وسورة (**هود**)، وسورة (**نوح**)، هذه سورة تسمى بسورة (**محمد**) تشريفاً له أيضاً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أن تسمى سورة كاملة باسمه.

والسورة بشكل عام عندما نتحدث عنها؛ هي سورة تتحدث عن موقف المشركين في الدنيا من القرآن ومن دعوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموقفهم في الدنيا، وأيضاً مآلهم في الآخرة؛ مآلهم في الآخرة يعني نهايتهم في الآخرة.

فالسورة تبين موقف الكفار في الدنيا والآخرة، كما أنها تبين أيضاً موقف أهل الإيمان -المؤمنين- في الدنيا والآخرة، لما يذكر الله يقول: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١]، يقول بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [محمد: ٢].

وتلاحظ أن هناك يعني في السورة نفسها وأنت تقرؤها تقابلاً، تقابلاً في صفات الكفار والمؤمنين، وتقابلاً في أعمالهم، وتقابلاً في أيضاً نهايتهم؛ يعني لما يذكر الله الكفار يذكر صفات الكفار ويذكر صفات المؤمنين، لما يذكر أعمال الكفار يذكر أعمال المؤمنين.

لما يذكر نهاية الكفار في نار جهنم يذكر نهاية المؤمنين في جنات النعيم، تجد فيها مقابلات كثيرة. سترى هذه المقابلات؛ لماذا هذه المقابلات؟ حتى يكون الكفر وأهل الكفر على بينة واضحة، وأهل الإيمان والإيمان على بينة واضحة.

ثم إن السورة نصفها الأول يتحدث عن الكفار وعن موقفهم من الدعوة ومآلهم ونهايتهم في الآخرة مع مقابلة المؤمنين، ثم النصف الثاني تتحدث السورة عن المنافقين؛ عن المنافقين من الآية السادسة

عشرة إلى آخر السورة أو قبيل الآخر كله عن أهل النفاق، ومن أول السورة إلى الآية الخامسة عشرة كلها تتحدث عن الكفار، فالسورة بين بيان حال الكفار ومآلهم، وبيان حال أهل النفاق ونتيجة نفاقهم، كل هذه السورة تدور حول هذه المعاني.

وسميت بسورة (محمد) مثل ما ذكرنا، وهي تدور على تقرير رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن رسالته جاءت فاصلة في بيان أهل الخير والصلاح والطاعة وأهل السعادة، وبيان أهل الضلال أهل الشقاء؛ وأهل الضلال والشقاء يدخل فيهم الكفار كفراً أصلياً، ويدخل فيهم المنافقون.

كل هؤلاء يسمون أهل الضلال، فالسورة تدور حول هذا، وتقرر مشروعية (الجهاد)؛ الجهاد باللسان والسنان؛ أما اللسان فمع المنافقين، وأما السنان والسيف فمع الكفار، كلها تقرر السورة هذه الأمور، تقرأ هذه السورة وتتأمل آياتها وتنظر في موضوعاتها وما تتحدث عنه، تجدها في مثل ما ذكرت لك في هذا المجال.

نبدأ على بركة الله في بيان هذه الآيات؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يعني شوف حتى افتتاحية السورة، افتتاحية السورة في بيان أهل الكفر وأنهم أعداء للإسلام، شوف قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١].

- **الذين كفروا؛ من هم الذين كفروا؟ ما معنى كفروا؟**

(الكفر) الجحود، وأصل الكفر التغطية؛ هم غطوا الحق بالباطل، و(الكفارة) تكفير هي تغطية، تغطية السيئات بالحسنات، هذا أصل الكفر التغطية؛ فهم جحدوا وغطوا الحق بالباطل الذين كفروا ولم يقروا بوحدانية الله، ولم يقروا برسالة النبي، ولا بالوحي، ولا بالقرآن؛ وزيادة على كفرهم صدوا عن سبيل الله.

- **ما معنى صدوا؟**

صدوا عن سبيل الله يحتمل معنيين كلاهما صحيح:

⬅المعني الأول: صدوا هم بأنفسهم؛ يعني أعرضوا ولم يقبلوا الدخول في الإسلام.

⬅المعني الثاني: وصدوا أيضاً غيرهم؛ صدوا غيرهم أي منعوا الناس من الدخول في الإسلام ويصدون عن سبيل الله أي يصدون الناس.

فالذين كفروا وصدوا عن سبيل الله صدوا الناس وصدوا أنفسهم، منعوا أنفسهم عن سبيل الله.

- **ما هي النتيجة؟**

قال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١]. أضلها يعني أبطلها وأذهبها، ولم يبق لهم لهذه الأعمال أي دور.

- **ما هي أعمالهم التي أضلها الله؟**

كيدهم للإسلام والمسلمين؛ يخططون ويدبرون ضد الإسلام والمسلمين، فأضل الله أعمالهم؛ ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤]، كلما أرادوا أن يخططوا لضرب الإسلام والمسلمين الله من ورائهم محيط، فهذا معنى أضل أعمالهم؛ كيدهم كل ما خططوا أبطله الله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

وأيضاً أعمالهم غير هذه؛ أعمالهم التي يظنون أنها تنفعهم، مثل كل أعمالهم التي كانوا يعملونها، مثل يعني مثل إكرام الضيف عندهم موجود، ومثل كفالة الأيتام، وإطعام الطعام، وسقاية الحجاج، وسائر الأعمال التي يظنون أنها تنفعهم، هذه كلها أعمالهم التي يدعون أنها تنفع.

ويعملون أعمالاً يظنون أنها أعمال حسنة، هذه كلها أبطلها الله؛ لماذا؟ لأنها مبنية على كفر، لو كانت مبنية على الإيمان قُبلت؛ فشرط قبولها الإيمان، فلذلك أضلها الله وأبطلها.

قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]. شفت لما ذكر حال الكفار وذكر أعمالهم وأنها لا تنفعهم قابلهم بأهل الإيمان.

قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ آمنوا يعني صدقوا، صدقوا ما جاءهم عن الله من الوحي، آمنوا واتبعوا وعملوا الصالحات؛ يعني ليس مجرد فقط إيمان يقول أنا مؤمن بقلبي ولا يعمل الصالحات ولا يصلي ولا يصوم ولا يحج وإنما يدعي أنه مؤمن يقول الحمد لله أهم شيء التوحيد وأهم شيء نقول لا إله إلا الله.

لا إله إلا الله ما تنفعك إذا كنت لا تعمل الصالح؛ لا إله إلا الله تحتاج إلى ما يتبعها من عمل، أما تأتي تقول أنا أشهد أن لا إله إلا الله؛ إذا كنت تشهد أن لا إله إلا الله، فلا إله إلا الله لها ضوابط وشروط،

فلا بد من الأعمال الصالحة. والذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ عملوا الأعمال الصالحات التي شرعها الله وعملوها خالصة لوجه الله متبعين بها شرع الله.

ثم عطف قال: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]؛ الأول إيمان عام والثاني خاص، وءامنوا تأكيد بما نزل على محمد؛ ما هو الذي نزل على محمد؟ الوحي بنوعيه القرآن والسنة كلها منزلة على محمد.

﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [محمد: ٢] ليس بالباطل ولا نشك أنه حق، من وين؟ ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٢] أي من رب هؤلاء الذين آمنوا، قال إذا كانوا آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد خاصة.

النتيجة: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [محمد: ٢] يعني محا عنهم سيئاتهم وسترها وأبدل سيئاتهم حسنات، ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢] يعني أصلح حالهم وشأنهم في الدنيا والآخرة، شوف المقابلة؛ كفروا ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، آمنوا ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

ثم يأتيك الفرق أيضاً آخر؛ قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣]؛ ذلك أي هذا الحكم في إضلال هؤلاء الكفار وهداية المؤمنين، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل؛ اتبعوا الشيطان واتبعوا أهواءهم وشهواتهم فهذه النتيجة، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق؛ هذا باطل وهذا حق، اتبعوا الحق من ربهم؛ الحق من ربهم الوحي والشريعة والدعوة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٣]؛ مثل ما ضرب لك المثل هنا بين الفريقين حتى تميز بين الحق والباطل، كذلك يضرب الله للناس أمثالهم في كل الأحوال، فلا تجد أحسن من هذا القرآن بضرب الأمثال وبيان الحق من الباطل ومآل هؤلاء ومآل هؤلاء ونتيجة هؤلاء ونتيجة هؤلاء وصفات هؤلاء وصفات هؤلاء، ما تجد أحسن من هذا؛ إذا سمع الواحد، إذا سمع مثل هذه الآيات عرف الحق واتبعه وعرف الباطل وتركه، هذا هو.

قال لما بيّن الله الحق من الباطل وأهل الضلال وهم الكفار وأهل الهداية وهم المؤمنون.

- **ما هي النتيجة؟**

هو الآن في صراع بين الحق والباطل؛ هم لا يريدون هؤلاء الكفار لا يريدون الحق ولا يريدون الدين ولا يريدون أن يعلو الدين ويزداد المؤمنون، وكذلك المؤمنون لا يريدون للكفار أن يقفوا في وجه المؤمنين وفي دعوتهم، فلذلك شرع الله (الجهاد)؛ الجهاد هو الذي يقمع أهل الفساد.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا كان الأمر كذلك: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]. لا بد أن تكون عندكم قوة شديدة أمامهم؛ إذا لقيتموهم وواجهتموهم في ساحات الحرب فاعطوهم أظهروا لهم القوة وضرب الرقاب قطع الأعناق، شوف قال الرقاب يعني تطاير الرؤوس، ضرب الرقاب يعني اضربوهم ضرباً شديداً حتى ماذا؟

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ﴾ [محمد: ٤] أضعفتموهم حتى تذهب قوتهم وتنتهي وتنكسر شوكتهم؛ فإذا يعني شددتم عليهم حتى أصابتهم الجراح بحيث الشخص لا يستطيع أن يسير ولا يعني يقوم من مكانه، في هذه الحالة: ﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤]؛ شدوا الوثاق يعني اربطوهم، يعني اسروهم أسراً وشدوا عليهم الأربطة والحبال والأسير؛ يعني اسروهم أسراً.

﴿فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ ليكونوا ما بين ضرب الرقاب قتلى وما بين أسرى؛ فأنتم لكم القوة بينهم، هم يتساقطون أمامكم ما بين قتلى وما بين أسرى، هذه قوة الإسلام الله يأمرهم بذلك.

فإذا شددتم الوثاق عليهم وأصبحوا أسرى بين أيديكم، فحكم الله فيهم ماذا؟ ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤]؛ يعني تمنون عليهم منّاً يعني تطلقون سراحهم، هذا معنى المن؛ يمن عليك أي يفكك من الأسر بغير عوض، يفكهم ويطلق سراحهم هذا معنى المن.

وإما فداءً يعني يفدونكم فداءً؛ يعني يدفعون لكم أموالاً وتفكون أسرهم؛ فأنتم معكم القوة والمنعة والغلبة والعزة، وهم ما بين قتلى وأسرى، فإن أردتم أن تطلقوا سراح الأسرى فاطلقوه، وإن أردتم أن تأخذوا منهم الفدية فخذوا منهم الفدية؛ كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أسرى بدر أخذ منهم الفدية.

قال هنا: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤]؛ حتى تنتهي الحرب بينكم وبينهم وتصبح لكم القوة والعزة والمنعة. ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾؛ شوف الحرب تضع الحرب تضع ماذا؟

قال أوزارها يعني أثقالها، يعني أهل الحرب يضعون أثقالهم السيوف والرماح والدروع؛ لأن هذه ثقيلة عليهم ثقيلة، والحرب كله ثقيل عليه ثقيل مواجهة العدو، فإذا انتهت الحروب وأصبحت القوة والمنعة للمؤمنين خلاص انتهى الأمر تضع الحرب أوزارها.

قال: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]؛ ذلك أي هذا الحكم الذي ذكره الله من القتل والأسر، هذا الذي يريده الله، لكن لو أراد الله لو شاء الله لانتصر منهم؛ لو شاء الله لانتقم منهم بدون حرب، الله قادر على أن يهلكهم بدون حرب.

ولكن ليبلو بعضكم ببعض؛ يمتحن، يمتحن المؤمنين، ابتلاء المؤمنين بالكافرين ليتميز الصادق من الكاذب وضعيف الإيمان من قوي الإيمان والمنافق من المؤمن، هذه حكمة الله؛ ولذلك لما غزا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهر أهل النفاق وتبينوا، لما وقعت غزوات النبي مع الكفار في أحد وفي الخندق وغيرها تبين الضعفاء وتبين المنافقون، هذا هو المقصود.

قال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٤]؛ هذه بشارة، بشارة يعني عظيمة من الله، وهي أن الذين قتلوا في سبيل الله؛ يعني دخلوا في الحروب هذه ووقع عليهم القتل واستشهدوا في سبيل الله، هؤلاء لهم فضل عظيم عند الله، لهم فضل عظيم عند الله.

قال: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ لن تذهب أعمالهم ولن تفوت على الله ولن تغيب ولن تضيع أبداً لن تضل أعمالهم. ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٥]؛ بل سيهديهم صراطه المستقيم، إذا قتلوا سيهديهم إلى ما، إلى رضاهم وإلى الفوز بجنات النعيم ويصلح بالهم؛ أنهم يصلح أحوالهم ولو كانوا في قبورهم. ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٦]؛ ويدخلهم الجنة إذا جاء يوم القيامة ويرون مقاعدهم وهم في قبورهم، يدخلهم الجنة عرفها لهم.

- **كيف عرفها لهم؟**

يعني عرفوا أوصافها؛ يعني كأنهم في كأنهم في بيوتهم في الدنيا؛ أنت الآن إذا جئت من سفر ودخلت بلدة، البلدة التي أنت تعيش فيها مجرد دخولك تعرف بيتك، تعرف طريقك الذي يوصلك إلى بيتك؛ فكذلك المؤمنون، كذلك المؤمنون ومنهم الشهداء.

إذا جاء يوم القيامة وبعثوا وأدخلوا الجنة كل يعرف مسكنه وكل يعرف قصره كما يعرفون بيوتهم في الدنيا، إذا دخلوا على طول كل شخص يتوجه إلى قصره يعرفه، هذا معنى عرفها لهم.

أو يحتمل أن يكون عرفها لهم أي وصفها لهم في القرآن حتى عرفوها؛ الله وصف، وصف الجنة بأوصاف كثيرة وذكر أسماءها: (جنة المأوى)، و(جنة الفردوس)، وذكر ملابسهم سندس، وطعامهم، وشرابهم، وأزواجهم، والأرائك والسرر، عرفها لهم.

وبعض أهل التفسير: "يقول عرفها لهم من (العَرْف) وهو الرائحة"؛ عرف الجنة يعني رائحة الجنة، أي عرفها لهم أي شموا رائحتها، ويعني هذا يعني هذا قول بعض المفسرين يعني عرفها لهم أي جعلهم يعني يشمون عرفها وهو رائحتها، كل هذه صحيحة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أمرهم بالجهاد فضرب الرقاب وأمرهم بالأسر ونحوه حثهم على نصرة الدين ونادى المؤمنين جميعاً فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]؛ آمنوا وصدقوا واتبعوا شرع الله، ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾.

- **كيف ينصرون الله؟ هل الله يحتاج إلى نصر؟**

الجواب: ينصرون دين الله وينصرون أولياءه وينصرون رسوله، هذا النصر نصر الله؛ أن تنصر دين الله وتجاهد في سبيل الله هذا المقصود.

إذا نصرتم الله نصركم الله؛ إذا أنتم عزمتم على الجهاد في سبيل الله فإن الله يتولاكم وينصركم على أعدائكم ويثبت أقدامكم أمام العدو، العدو لا تثبت قدمه بل تتزحزح ويتساقطون، وأنتم يثبتكم الله عند القتال يثبتكم وينزل عليكم السكينة ويثبت أقدامكم.

قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَـٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٨]؛ الذين كفروا ولم يؤمنوا فتعساً لهم أي شقاءً وهلاكاً لهم، سيشقون ويهلكون وأما أعمالهم قد أضلها كما تقدم؛ لماذا؟

قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٩]؛ لم يقبلوا شرع الله كرهوه وكرهوا القرآن وكرهوا شريعته فأحبط أعمالهم؛ أضلها وأحبط كل ما عملوا من أعمال؛ إما كيد على الإسلام أو أعمال يظنون أنها تنفعهم من بر الوالدين ومن الإحسان إلى الفقراء والمساكين وإلى غيره، هذه كلها تنفعهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني أمرهم بالسير في الأرض حتى ينظروا عاقبة الأمم الماضية التي أهلكها الله كعاد وثمود ومدين وغيرهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

- **لماذا قعدوا في بيوتهم ولم ينطلقوا ويسيروا في الأرض؟**

سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، فانظروا كيف كان عاقبة الأمم الماضية، ماذا صنع الله بهم لما كفروا؟ كفروا وجحدوا رسالته، دمر الله عليهم أنزل عليهم العقوبات، انظروا في قوم نوح وعاد وثمود إلى آخره، وللكافرين أمثالها؛ مثل ما الله دمرهم سيدمر كل كافر معاند سيصيبه ما أصابهم.

يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١]؛ الله هو مولى المؤمنين، يتولى أمورهم وينصرهم، والذين كفروا لا مولى لهم؛ ليس لهم إلا الشيطان والشيطان يتخلى عنهم، لا مولى ولا نصير، أما المؤمنون فالله نصيرهم ومولاهم، وهو الذي يتولى أمورهم وينصرهم ويعيدهم بنصره؛ شوف كيف التقابل.

ثم بيّن التقابل في الآخرة؛ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢]؛ آمنوا وصدقوا واتبعوا إيمانهم بالأعمال الصالحة يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار، جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار ومن تحت قصورها الأنهار كرامة لهم.

- **والذين كفروا ماذا يصنع الله بهم؟**

قال: والذين كفروا، الذين كفروا جحدوا آياته وردوا رسالاته في الدنيا يتمتعون؛ يتمتعون بزهرة الدنيا ويعيشون كالبهائم يأكلون كما تأكل الأنعام، لا يذكرون الله ولا يسمون ولا يشكرون، ولا فقط يملؤون بطونهم يأكلون كما تأكل الأنعام، والنتيجة: النار مثوى لهم، هؤلاء جنات تجري من تحتها الأنهار، وهؤلاء النار مثواهم والنار مقرهم يوم القيامة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]؛ يقول كثير من القرى التي كانت هي أشد قوة وأقوى من قريتك، وهي (مكة) التي أخرجتك وأخرجك أهلها أهلكناهم.

أهلكناهم وهذا تسلية الرسول لما أُخرج من مكة سلاه الله، قال أهلكناهم سيهلكونهم أهلكناهم فلا ناصر؛ لم يجد من ينصرهم لما هذه القرية كفرت وأشركت وآذت، قرى كثيرة أهلكها الله سبحانه، شديد وعيد شديد لهم وتسلية لرسوله.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤]؛ وهم المؤمنون على حجة واضحة برهان ودليل وعلم، بينة من ربه، كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم كالكفار الذين زين الشيطان وحسن لهم أعمالهم وظنوا أنها حسنة، هؤلاء اتبعوا أهواءهم ما عندهم حجة ولا دليل ولا برهان ولا علم، إنما يتبعون أهواءهم وشهواتهم، هل هذا يستوي مع هذا؟ لا يستوي أبداً.

ولذلك بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عاقبة الفريقين فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

يقول حال الجنة التي وعدها الله عباده المتقين ما هي؟ قال فيها أنهار، وهذه الأنهار من ماء غير، أنهار تجري على الأرض، هذه الأنهار فيها أنهار من ماء وهذا الماء غير آسن؛ أي غير متغير؛ تجد أنهار الدنيا يختلط فيها الطين والتربة وغير ذلك.

لكن أنهار الجنة لا تتغير لا بلونها ولا بطعمها نظيفة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه لا بحموضة ولا غيره، وأنهار من خمر لذة للشاربين يتلذذون به لا يذهب، لا يذهب عقولهم كخمر الدنيا.

وأنهار عسل مصفى صافٍ. هذا بالنسبة للأشربة، أما الأطعمة قال لهم فيها من كل الثمرات، وزيادة على ذلك مغفرة من ربهم؛ أن الله يغفر لهم ذنوبهم ويطهرهم من الذنوب والمعاصي.

كمن هو خالد في النار؛ أهل النار كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً، أهل النار يخلدون فيها، وأما شرابهم الماء الحميم الذي انتهى في حره، وهذا الحميم إذا شربوه ماذا يصنع بهم؟ أولاً يشوي الوجوه، ثانياً يقطع الأمعاء يقطع أمعاءهم، فشوف المقارنة والحال بين هؤلاء وهؤلاء.

من أول السورة إلى هنا كلها تتحدث عن حال الكافرين كما ذكرنا لكم، إلى الآية الخامسة عشرة كلها تتحدث عن حال الكفار وحال المؤمنين وأعمالهم وحالهم في الدنيا وحالهم في الآخرة ومصيرهم وماذا سيجد لهم إذا ماتوا وإذا بعثوا، كل هذه تبين وتقرر السورة، وتقرر أيضاً الجهاد للمسلمين وقتال هؤلاء الأعداء حتى يظهر الدين ويقمع أهل الغي والفساد.

بعدها تنتقل الآيات كما ذكرنا إلى أهل، إلى أهل النفاق المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ١٦]، هذا كلام، هذا الكلام أو هذه الآيات تتحدث عن المنافقين، وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله في اللقاء القادم.

نقف عند هذا القدر، والله الموفق الهادي إلى سواء السبيل. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(محمد ١٦ - ٢٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للخامس عشر من شهر ربيع الآخر من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، نسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا في تفسير القرآن العظيم وسورة (محمد)؛ ذكرنا أنها تسمى بسورة (محمد)، وتسمى أيضاً بسورة (القتال)؛ لأنها تتحدث عن الجهاد في سبيل الله. قرأنا في هذه السورة وبينا بعض آياتها، والآن نواصل؛ عندنا الآية السادسة عشرة من السورة.

وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

(ومنهم)؛ هذا ضمير، الضمير هذا يعود إلى أي شيء؟

لما ترجع إلى الآيات السابقة، ليس فيه ما يدل على أن هذا الضمير يعود إلى شيء مذكور، وهذا يعني من بلاغة القرآن وبراعة القرآن؛ أنه أحياناً يأتي بالضمائر من غير ذكر ما يدل عليها؛ لأن هذا يرجع إلى فهم المستمع وفهم السامع وفهم من يقرأ القرآن ويعرف طريقة القرآن ومنهج القرآن، ولغة العرب دائماً مبنية على الحذف والاختصار.

ولذلك الذي يقرأ هذه الآية يعرف أنها تتحدث عن المنافقين؛ فالآيات السابقة كلها كانت تتحدث عن أحوال الكفار الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله، وأن الله أضل أعمالهم، وأن الله رد كيدهم في الدنيا، ثم في الآخرة بين مآلهم في الدار الآخرة في نار جهنم، وأنهم سقوا ماءً حميماً فقطع أمعاءهم.

قال بعدها: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ١٦]؛ منهم أي: من المنافقين، لما ذكرت السورة أحوال الكفار وأحوال المؤمنين، ذكرت هنا مواقف المنافقين وأحوالهم مع المؤمنين، وستستمر معنا الآيات في الحديث عن أهل النفاق، ثم تعود في الأخير.

في آخر المطاف وفي آخر السورة، إلى الحديث عن الكفار وعن مصيرهم، وأن الله قد أحبط أعمالهم، وحث المؤمنين الصالحين المجاهدين على الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته، والانفاق في سبيل الله.

هنا يقول: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ١٦]؛ يعني عرفنا أن الذين يستمعون ليسوا الكفار، الذين يحضرون مجالس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هم المنافقون، ومما يدل على أنهم هم المنافقون أن الله قال في آخر الآية: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

فهم ليسوا من المؤمنين وليسوا من الكفار، وإنما هؤلاء يجلسون في مجالس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويستمعون لأحاديثه ولمجلسه لكنهم لا يفقهون ما يقول.

وهؤلاء المنافقون يأتون ويجلسون في مجالس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحضرون حتى لا يقال إنهم غير مؤمنين؛ لأنهم يظهرون الإيمان أمام المسلمين لحقن دمائهم وحفظ أموالهم، يخرجون للجهاد، ينفقون، يصلون، يحضرون المجالس حتى يظهروا الإيمان أمام المسلمين، ولكن في قلوبهم الكفر والحقد على الإسلام والمسلمين.

فهؤلاء المنافقون اسمع ماذا يقول الله عنهم؛ يقول: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ١٦]؛ يعني يحضر مجالسِك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ [محمد: ١٦]؛ قاموا من المجلس وخرجوا من عندك، ماذا يقولون؟

﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [محمد: ١٦]؛ قالوا للصحابة ولأجلاء الصحابة الذين يحضرون مجالس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحفظون عنه الأحاديث، كأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأنس، وغيرهم من كبار الصحابة الذين يلازمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحفظون الأحاديث عنه.

كانوا يقولون؛ هؤلاء المنافقون يقولون للذين أوتوا العلم من صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦]؛ ماذا قال قبل قليل؟ (آنفاً)؛ يعني ماذا قال قبل هذه اللحظة، ماذا قال؟

هذا يدل على أنهم جلسوا واستمعوا ولكنهم لا يفقهون، لا يفقهون ولا يدرون ماذا قال، يأتون يسألون الصحابة: ماذا قال آنفاً؟ أنتم جلستم ماذا استفدتم؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ عقوبةً عليهم، السبب الذي جعلهم لا يفقهون ولا يعلمون ماذا قال آنفاً؛ هو أن الله طبع على قلوبهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦]، ختم الله على قلوبهم، فالقلوب لا تفقه خلاص لا يدخلها خير؛ لأنهم يستهزئون.

يقولون لأهل العلم وأجلاء الصحابة: ماذا قال قبل قليل؟ ماذا قال قبل هذه اللحظة؟ يستهزئون ويسخرون، كيف أنتم حضرتم لا تفقهون؟ لأن الله قد طبع على قلوبهم، فهم لا يهتدون ولا يفقهون ماذا قال، بل إنهم اتبعوا أهواءهم في الكفر والضلال والحقد على الإسلام والمسلمين.

هذه حال المنافقين في جلوسهم وحضورهم مجالس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنهم حرموا لذة المجلس وأجر المجلس وما فيه من علم، حرموا ذلك بسبب أن الله طبع على قلوبهم وختم عليها، واتبعوا أهواءهم الشيطانية.

وأما المؤمنون الصالحون الذين حضروا مجالس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنية صالحة وبقصد لحصول الثواب والأجر عند الله، ماذا قال الله فيهم؟ قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]؛ اهتدوا لاتباع الحق، واهتدوا لطلب العلم.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]؛ جاؤوا بنية صالحة ليستفيدوا من مجالس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوفقوا فزادهم الله إيماناً وآتاهم تقواهم.

انظر: زادهم الله هدى، وآتاهم تقواهم، ما الفرق بين الهدى والتقوى؟ هو قال: ﴿زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]؛ الهدى هو العلم النافع، لما جاؤوا يهتدون يطلبون العلم في مجالس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زادهم علماً نافعاً، وفتح عليهم من بركات العلم، وآتاهم تقواهم؛ أي: العمل الصالح، فجمع الله لهم بين العلم النافع والعمل الصالح، وحصل لهم هذا وهذا فضل من الله ورحمة.

انظر كيف تغير النيات، انظر كيف أثر النية؛ المنافقون قبلها يقولون: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦]؛ ما يدرون ماذا قال، ولا يدركون ولا يعون ماذا قال، فهؤلاء لما قالوا هذا الشيء واستهزؤوا وسخروا وحضروا المجالس بنية سيئة ولم يقصدوا بذلك وجه الله، عاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم.

ولما طبع على قلوبهم وحرمهم العلم اتبعوا أهواءهم، فلا علم ولا عمل، أما المؤمنون في المقابل، جاؤوا بنية صادقة وبطلب للعلم، فهدوا، طلبوا الهداية، فزادهم الله هدى، وزادهم علماً مباركاً، وآتاهم تقواهم؛ العمل الصالح، فجمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح.

ثم هدد هؤلاء المنافقين الذين أعرضوا ولم يقبلوا الحق، هددهم تهديداً شديداً؛ قال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

يقول: ما ينتظر هؤلاء المنافقون المكذبون إلا أن تأتيهم الساعة، هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتةً؛ فجأةً وهم لا يدرون؟ فقد جاء أشراطها؛ علاماتها.

☜ **جاءت أولاً بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ يقول:** «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، فأشراط الساعة بدأت تظهر في زمن النبي وبعده، حتى إن انشقاق القمر من علامات الساعة: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، فجاءت أشراطها وعلاماتها، ولكن هؤلاء لا يدرون ولا يدركون ما هي أشراطها.

قال: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ [محمد: ١٨]؛ يقول: فأنّى لهم، يقول: أنى؛ يعني كيف يتذكرون عندما تأتيهم الساعة؟ هذا معناها، يقول: فأنّى لهم إذا جاءتهم الساعة ذكراهم، ما تنفعهم ذكرى إذا جاءت الساعة، لا ينتفعون بذلك، لا ينتفعون بذلك.

- **فهؤلاء، طيب هنا سؤال: هل جاءتهم الساعة؟**

الجواب: المقصود بالساعة يوم القيامة.

- **هل جاءتهم يوم القيامة؟**

الجواب: كل من جاءه الموت انتهت دنياه وانتقل إلى الآخرة؛ فالساعة هنا ساعة الموت، أو قيام الساعة على الحقيقة، فإن لم يدركوا قيام الساعة، فقد كل إنسان نزل به الموت جاءته ساعته وجاء وقامت قيامته إذا نزل به الموت.

فهل الله يقول هنا في حق هؤلاء المنافقين: ما ينتظرون إلا الساعة؛ ساعة الموت أن تأتيهم بغتةً ينزل بهم الموت، فقد جاءت علامات قرب الساعة الحقيقية، فأنّى لهم أنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة ونزل به الموت، ما تنفع أنهم يتذكرون، يتذكر ويقول: ليتني أرجع، وليتني أعمل؛ ما ينفع التذكر، يقول: فأنّى؛ يعني ف(وأنّى له الذكرى)، ما تنفعه الذكرى خلاص انتهى الأمر.

لما بين حال الكفار جل جلاله في الآيات الأولى، ثم بين حال المنافقين في هذه الآيات، أمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعلم والتعلم والعمل؛ انظر العلم والعمل، قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾[محمد: ١٩].

فاعلم؛ أيها النبي، أنه لا إله إلا الله، يعني اعلم وتعلم حقيقة التوحيد، توحيد الإلهية، وأنه لا معبود بحق إلا الله، هذا معناه؛ اعلم وتعلم، تعلم واعلم حقيقة التوحيد والعبادة أنها لا تكون إلا لله.

فإذا تعلمت هذا العلم بعدها العمل: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] للمؤمنين والمؤمنات، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩] يعلم تصرفاتكم في الدنيا في اليقظة وفي النوم وفي كل مكان، ويعلم مثواكم؛ إقامتكم، سواء في الدنيا أو في مستقر نومكم أو مثواكم في نهايتكم من هذه الدنيا.

- **هنا سؤال: اللّه عَزَّ وَجَلَّ يقول هنا: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩] يا محمد، هل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنده ذنوب؟ هل يقال إن الرسول يقع في الذنوب؟**

الجواب: هذه المسألة مسألة مهمة جداً وهي ما تسمى عند أهل العلم بـ(**عصمة الأنبياء**).

- **هل الأنبياء معصومون من الذنوب والخطايا؟**

الجواب: أولاً بالنسبة لما يتعلق بالوحي وتبليغ الرسالة، فهم معصومون من الخطأ والزلل، بلغوا رسالات ربهم على أكمل وجه.

وبالنسبة للذنوب؛ كبائر الذنوب لا يقعون فيها، كبائر الذنوب عصمهم الله، أما الصغائر فقد يقعون فيها، ولكن يبادرون بالتوبة، ويوجههم القرآن والوحي إلى التوبة، إلى التوبة. النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتهد في أسرى بدر فعاتبه الله، عاتبه: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[الأنفال: ٦٨].

وعاتبه في الرجل الأعمى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ۝٣﴾ [عبس: ١-٣]، فهناك اجتهادات من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خالف فيها يعني الصواب، فوجهه القرآن ولم يتركه.

فنقول: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩] مما قد يقع فيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو يقارب الوقوع فيستغفر لذنبه، أما النبي ما يقع في الذنوب، معصوم هو، لكن الصغائر إذا حصل منه شيء أو تقصير فإن القرآن يبادره بالتوبة والعودة والاستغفار وتوجيهه للصواب، وتوجيهه للصواب، هذا معه.

وبعض المفسرين يقول: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩] هذا توجيه للرسول، فإذا كان مأموراً بالاستغفار، فغيره مأمور بالاستغفار، مأمور؛ فكان قوله ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ١٩] أي: استغفر لك ولأمتك أو لأصحابك،

ولذلك قال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، يعني الرسول يستغفر.

☜**ولذلك ورد عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:** «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ» وكان يستغفر كثيراً، يقول: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ» هذا يستغفر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقيل إن استغفاره هو من الغيب أنه يُغان على قلبه؛ يعني يصيبه شيء من الغفلة، وكذلك يستغفر للمؤمنين، الرسول دائماً يستغفر، كثير ما يستغفر للمؤمنين والمؤمنات.

قال بعدها: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠].

المؤمنون يحبون نزول القرآن، ويفرحون بنزوله ويستبشرون، ودائماً يترقبون نزوله؛ لماذا؟ لأنه لأن القرآن يزيدهم إيماناً: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

يفرحون لأنها تزيدهم إيماناً وتزيدهم علماً، ويتقربون به إلى الله ويتلونها، هذه حال المؤمنين، يفرحون لأن القرآن هو دستورهم وهو منهجهم في حياتهم، يفرحون تنزل أحكام وتنزل توجيهات ومواعظ.

أما المنافقون فلا يريدون نزول القرآن، إذا ما أنزلت آية يحزنون لها ولا يريدونها: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وهنا انظر قال: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ [محمد: ٢٠]؛ بينة واضحة، فيها آيات واضحات وفيها فرض وفيها جهاد، ذكر فيها القتال.

- **ماذا سيكون موقف المنافقين؟**

قال: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [محمد: ٢٠] المنافقون، ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]. يقول: ينظرون إليك؛ لأن الآيات هذه تزعجهم، تزعجهم، فينظرون إليك نظر من أصابه الموت ونزل به الموت، وكان سكرات الموت قد أحاطت به، ﴿نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠] كأن الموت يعني الآن يأخذهم، فهم في خوف ووجل من الآيات التي تزعجهم.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٠]؛ (أولى لهم) دعاء عليهم، يقول: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٥﴾ [القيامة: ٣٤-٣٥]؛ دعاء عليه يعني: خسرت وهلكت.

وبعض المفسرين يقول: لا، (أولى لهم) متعلقة بما بعدها؛ يقول: لهم الطاعة، لا أنهم يخافون وينظرون إليك نظر المغشي؛ لا، يعني المفترض أنهم يسمعون ويطيعون، الأولى لهم: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد: ٢١]، أن يقولوا: أطعنا، ويقولوا القول المعروف؛ القول الطيب الحسن، يعني قولاً موافقاً لشرع الله، قولاً تقبله القلوب السليمة.

قال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ [محمد: ٢١]؛ يعني عزم الأمر؛ يعني إذا نزلت آيات الجهاد وعزم الأمر على الجهاد، ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]؛ لو صدقوا الله في إيمانهم وفي أعمالهم وفي نواياهم في الجهاد في سبيل الله والغزو لكان ذلك خيراً لهم من هذه المعاصي وهذا وهذه المخالفات وكراهيتهم للجهاد.

ولذلك عاقبهم الله قال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]. يقول: إن توليتم وأعرضتم عن القرآن وعن النبي، وأعرضتم عن تدبر القرآن والعمل بما فيه.

إذا أعرضتم وتوليتم، عاقبكم الله بأن تفسدوا في الأرض فتكفروا وتعصوا وتسفكوا الدماء وتقطعوا الأرحام، كل هذا عقوبة عليهم؛ لأنهم لما لم يستجيبوا لله وأعرضوا، عاقبهم الله بأن أصبحوا آلة

للفساد في الأرض وسفك الدماء وتقطيع الأرحام، والنتيجة ما هي؟ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣].

انظر كيف الإنسان لما يعرض عن طاعة الله ولا يقبل ما أمر الله به، ولا يفرح بالآيات القرآنية، يعاقب بهذه العقوبات الشديدة؛ يزيده الله ضلالاً على ضلالهم، وعتواً على عتوهم.

قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ [محمد: ٢٣] وأبعدهم من رحمته، وأبعدهم من قبول الحق، وأبعدهم من تدبر القرآن وفهمه، قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]، أصمهم؛ يعني لا يسمعون ما ينفعهم، يسمعون لكن إذا جاء ما ينفعهم لا يسمعونه ولا يدركون هذه الأشياء التي تنفعهم من الوعظ والتذكير وقراءة القرآن وأحاديث النبي ما يستفيدون منها.

﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣] فلا يرون ما ينفعهم، يرون كل شيء، يرون الذي أمامهم لكن الذي ينفعهم لا يرونه، ما ينتفعون به لا رؤيةً ولا سماعاً، هذا الحرمان، هذا حرمان وعدم توفيق لهؤلاء الذين ضلوا فأضلهم الله.

ثم عاتبهم الله؛ قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]؛ يعني لماذا لا يتدبرون القرآن؟ جهلوه وصدوا عنه ولم يقبلوا ولم يفقهوا آياته، فلذلك لم يتدبروا ولم يفهموا، أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون المواعظ التي تهز القلوب، ويتفكرون في آيات القرآن الكريم وما فيه من دلالات ومنافع؟

- **لماذا لا يتدبرون؟**

ثم قال: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، (أم) بمعنى (بل)؛ أي بل هذه القلوب أغلق عليها وختم عليها.

- **ما السبب؟**

هو الذنوب والمعاصي والكفر وعدم قبول الحق والإعراض والعتو عن طاعة الله، هذه كلها لما أعرضوا أعرض الله عنهم، ولما فسقوا وزاغوا، أزاغ الله قلوبهم، فهؤلاء المنافقون القرآن أمامهم ويقرأ أمامهم لا يستطيعون سماعه ولا ينظرون ما ينفعهم، ولا يتدبرون القرآن ولا يفهمون هذه الآيات.

والسبب أن القلوب قد أقفلت، قلوبهم عليها أقفال مغلقة مختوم عليها، كل هذا بسبب الإعراض والكفر والذنوب والمعاصي.

أتظن أن الذنوب والمعاصي أمرها هين؟ الذنوب والمعاصي شؤمها سيء وآثارها سيئة، انظر كيف حرموا.

يقول أحد السلف: "نظرت نظرة محرمة فنسيت القرآن"؛ كان يحفظ القرآن فنسي القرآن بسبب ذنب، وما أكثر الذنوب في هذا الزمان!

تفتح الجوال وتفتح وتشوف هذه مواقع وهذه المحادثات والصور وتنظر تجد هذه الكاسيات العاريات السافرات وتجد هذه الأصوات والموسيقى المحرمة، فالسمع ينبغي أن يحفظ.

وكذلك النظر لا تنظر إلى حرام، إذا نظرت إلى حرام، هذه النظرة يعني إذا عصيت الله نُكت في قلبك نكتة سوداء، وكل ما عصيت جاءت نكتة ونكتة حتى يسود القلب، فلا يقبل حقاً خلاص ينغلق، يسود ك **(الكوز مجخياً)** كالكأس المقلوب تصب فيه ما يقبل، تأتي بالمواعظ فلا تصل للقلب. فكلنا نحتاج إلى توبة واستغفار، توبة واستغفار.

انظر كيف المنافقون، كيف عاقبهم الله حيث إنهم حرموا هذا الخير وحرموا العلم وحرموا تدبر الآيات وتدبر القرآن، كل ذلك بسبب الذنوب والمعاصي.

وحقيقةً أنت لما تأتي إلى هذه الآيات وتقرأها ولا تفهمها، اعلم أن هذا قصور منك، وأنك مقصر في حق الله، وأن الله حرمك بسبب ذنوب عندك؛ فلذلك نجد كثيراً الآن يقرؤون القرآن ولا يتدبرون، حرموا هذا التدبر، والقلوب عليها أقفال بسبب الذنوب والمعاصي، فنسأل الله أن يعفو عنا، نسأل الله أن يغفر لنا وأن يرحمنا.

انظر، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]. هؤلاء المنافقون عرفوا الحق؛ كل هذه الآيات في المنافقين، عرفوا الحق فلم يقبلوه، ارتدوا على أدبارهم ورجعوا إلى كفرهم ومعاصيهم من بعد ما تبين لهم الهدى والحق والقرآن.

- **ما هو السبب؟**

طاعة الشيطان، الشيطان زين لهم، سوّل لهم وزين لهم أعمالهم، وأملى لهم؛ أعطاهم الأمل المديد، قال: عش وكل واشرب وتمتع، فأشغلهم الشيطان بمتع الدنيا وضياع الأوقات وحرموا ذلك، وزين لهم الشيطان أعمالهم، فلذلك ارتدوا ولم يقبلوا الهدى، انظر أثر المعاصي.

قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦]؛ ذلك؛ أي هذا الإعراض والإمداد والانشغال بالدنيا، ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله؛ قالوا لليهود وقالوا للكفرة: سنطيعكم في بعض الأمر.

- **ليش ما يطيعونهم في الأمر كله؟**

لأنهم لا يريدون أن يكشفوا سترهم أنهم مع المؤمنين، وهم يقولون: سنطيعكم في بعض الأمر، كل ما وجدنا فرصة أطعناكم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ يعلم ما يسرونه ويخفونه عن المسلمين، ويتعاونون مع الكفرة من اليهود والنصارى ويتولونهم، هؤلاء الله سيكشف سترهم.

قال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]؛ عجباً لهم إذا توفتهم الملائكة، إذا نزل بهم الموت وتوفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، الملائكة تضربهم على وجوههم ضرباً شديداً، وتضربهم على أدبارهم.

وتقول لهم؛ تقول للواحد منهم: "أيتها الروح اخرجي إلى سخط من الله وعذاب"، وينزعون أرواحهم نزعاً؛ ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١]، تغرق وتنزع بقوة، وتضربهم الملائكة على وجوههم وأدبارهم ضرباً شديداً.

قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]؛ ذلك العذاب الذي سلط الله عليهم الملائكة سببه أنهم اتبعوا كل ما أسخط الله، وأطاعوا الشيطان، وكرهوا رضوانه، وكرهوا شرعه وكتابه وطاعة الرسول، فأحبط أعمالهم فلم تنفعهم، لم تنفعهم.

السورة ما زال الحديث عن المنافقين، لكن لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما وقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(محمد ٢٩ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للثاني من شهر ربيع الآخر من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

سورة (محمد) وتسمى أيضاً بسورة (القتال)، وقرأنا في هذه السورة آيات منها وبينا معانيها، ووقف بنا الكلام عند الآية التاسعة والعشرين وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

- **مَن هم الذين في قلوبهم مرض؟**

الجواب: انظر للآيات التي قبلها؛ الآيات التي قبلها كلها تتحدث عن المنافقين؛ لأن سورة (محمد) هي انقسمت قسمين: قسمها الأول من أول السورة إلى الآية الخامسة عشرة، هذه كلها تتحدث عن الكفار وعن موقفهم في الدنيا ومآلهم في الآخرة.

ثم بعد في الآية السادسة عشرة تقريباً إلى قبل الأخير من السورة، كلها حديثها عن المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦]، هؤلاء هم المنافقون، كل الآيات تتحدث تقريباً عن أهل النفاق.

- **هنا يقول: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾؛ ما معنى حسب؟**

يعني ظن، يحسب، نحسب أن فلاناً حاضر، نحسبه حاضراً؛ هذا يعني نظن ظناً.

- **وهنا يقول: هل يظن هؤلاء المنافقون الذين في قلوبهم مرض؟ ما نوع المرض الذي في قلوب المنافقين؟**

الجواب: أنواع المرض في القرآن نوعان: (مرض شبهة)، و(مرض شهوة). أما مرض الشبهة: هم الذين يتتبعون الآيات التي فيها شبهات أو غير واضحة ويأخذون بها ويثيرون الفتن حولها، ومرض الشهوة: هو يعني مرض الشهوات والفواحش الذي قال الله فيه: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فهنا عندنا الآن في قلوبهم مرض؛ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [محمد: ٢٩]، هذا مرض الشبهات والشهوات وهو والمقصود بهم المنافقون؛ المنافقون في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل منافق إلى أن تقوم الساعة يدخل في ذلك.

- **يظن هؤلاء المنافقون أي شيء؟ يظنون فيمَ؟**

قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩]؛ يظنون أن الله يعني لن يخرج ما في قلوبهم من الحقد على الإسلام والحسد على المسلمين، يظنون أن هذا الذي يخفونه في صدورهم عن المسلمين وعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يظنون أن هذا يمشي.

وأن الله لا يعلم ذلك؛ لا، الله عالم وسيخرج، سيخرج أضغانهم، سيخرج ما في قلوبهم من الحسد والحقد للإسلام وأهله، والله سيميز بين الصادقين من المؤمنين والكاذبين وبين المنافقين.

- **ولذلك شوف الآية التي بعدها ماذا قال؟**

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠]؛ هو يخاطب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المبلغ عن رسالة ربه وهو الذي يوحى إليه.

والله أخبره بأسماء المنافقين، حتى إنه جاء في حديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان في المسجد وقد حضر عنده عدد من المنافقين فقال: «**لَوْ شِئْتُ لَأَخْرَجْتُكُمْ**»؛ يعني يكلم الصحابة ومن حولهم المنافقين، ثم قال: «**قُمْ يَا فُلَانُ، قُمْ يَا فُلَانُ، قُمْ يَا فُلَانُ، قُمْ يَا فُلَانُ**»، عدّهم أكثر من عشرة أشخاص كانوا منافقين وقد جلسوا في مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأخبره الوحي والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُخبِر بأسماء المنافقين، وأخبر بها حذيفة؛ كاتم سر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صاحب سر رسول الله، أخبره بأسماء المنافقين.

فهنا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ [محمد: ٣٠]؛ يعني أريناك أسماءهم وبيّنّا لكم أشخاصهم، فلعرفتهم سيماهم في وجوههم تعرفهم إذا جاءك المنافق.

وأحياناً، شوف قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]؛ في كلامهم، كلامهم أحياناً كلام معسول، وأحياناً -سبحان العظيم- تظهر أشياء على فلتات لسانه، لا تدري إلا وقد ظهر شيء مما يخفونه، مما ذكره الله قال: اضغانه؛ الحقد والحسد وكراهية الإسلام تخرج على ألسنتهم وتراهم في وجوههم.

الله أخبر عنهم أنهم إذا أُنزلت آية وذُكر فيها قتال: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠]؛ كأن الموت نزل بهم، فتعرفهم في وجوههم.

فهنا يقول: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]؛ لحن القول كلامهم، اللحن أصله المَيْل؛ تقول: فلان يلحن في قراءته؛ يعني لا يستقيم فيها، فمخالفة الاستقامة لحنٌ، فهم في كلامهم يخرجون عن الكلام المستقيم الصحيح القيم؛ في لحن القول.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠]؛ يعلم أعمالكم وأعمالهم وكلٌّ سيجازيه، أعمال المؤمنين والمنافقين، أعمال أهل الطاعة وأعمال أهل المعاصي، إذا كان الله يعلم أعمالهم فإنه سيجازيهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى شوف الآية لما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة (المنافقون): ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ إذا رأيتهم أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم، فالمنافق واضح.

قال هنا مخاطباً المؤمنين تحذيراً من صفات المنافقين، وتمييزاً للمؤمنين عنهم، ولذلك قال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]؛ يبتلي المؤمنين بالتكاليف وخاصة الجهاد في سبيل الله.

شوف لأنه قال: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. يقول: سيأتيكم امتحان أيها المؤمنون حتى يتميز فيكم المجاهد حقاً؛ الذي يجاهد في سبيل الله بإخلاص، والصابر الذي يصبر في مواطن الجهاد.

قال: ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ أي ما في صدوركم من خفايا يمتحن الله ويظهرها.

حتى كان (الفضيل بن عياض) إذا قرأ الآية يبكي فيقول-: "يَا رَبِّ اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَلَيْنَا، وَاسْتُرْ عُيُوبَنَا، وَاسْتُرْ ذُنُوبَنَا"؛ يخاف من هذه الآية إذا قرأها جلس يبكي يقول: **"اللَّهُمَّ اسْتُرْ عُيُوبَنَا وَذُنُوبَنَا"**؛ لأن هذه لو كشف الله أخبارك (تبلى السرائر)؛ يعني كل مسلم وكل إنسان في هذه الدنيا له علانية وله سريرة.

العلانية ظاهرة أمام الناس، لكن السريرة ما ندري، كل إنسان تجد الشخص يجلس بجوارك ويصلي بجوارك وأنت لا تدري ما يخفيه في صدره، فهذه يعني قد يبتلى الإنسان فيها، فهنا يقول: اللّهم لا تبتلنا، ونبلو أخباركم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى انتقل بالآيات إلى ما ذُكر في أولها من الكفار حتى يرتب عليها يعني قوة الإسلام وعلو الإسلام على الكفار حتى تختم السورة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣٢].

كفروا وجحدوا دعوة الله، وجحدوا رسالته، وجحدوا وحدانيته وصدوا عن سبيل الله، صدوا هم بأنفسهم يعني امتنعوا عن دخول الإسلام وصدوا غيرهم أيضاً منعوا غيرهم؛ يعني هم أعرضوا ومنعوا غيرهم وصدوا عن سبيل الله.

وزيادة أيضاً من صفاتهم: ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ﴾؛ يعني خالفوا الرسول، (المشاقة) المحادة والمخالفة، ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾؛ وضح لهم الدين الشرعي والوحي والرسالة، قال: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾؛ هذا تهوين، تهوين لقوتهم أنهم لن يضروا الله شيئاً ولن يضروا أولياء الله ولن يضروا رسولاً، لن يضروا الله شيئاً ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

- **ما هي أعمالهم التي يحبطها الله؟**

شوف أعمالهم ممكن أن تكون في أمرين:

⬅الأمر الأول: تخطيطهم ضد الإسلام وترتيباتهم في محاربة الإسلام وأهله، الله يبطلها ويبطل كيدهم.

⬅الأمر الثاني: يبطل أعمالهم التي يظنون أنها تنفعهم مثل سقاية الحجاج، وإكرام الضيف، ومثل يعني العطف على المساكين وغيرها من الأعمال التي يعملون يظنون أنها تنفعهم، كـ (سقاية الحاج) و(عمارة المسجد الحرام) وغيرها، قال الله: سيبطل الأعمال؛ لماذا؟ لأنها مبنية على شرك وكفر فلا تُقبل.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينادي المؤمنين تحذيراً من بطلان العمل، شوف لما أبطل عمل الكفار قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]؛ ناداهم بصفة الإيمان، الذين صدقوا وأطاعوا: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾.

أطيعوا الله فيما جاءكم عن الله، وأطيعوا الرسول فيما أخبركم به وأمركم ونهاكم، ولا تبطلوا أعمالكم، احذر أن تخالف أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيبطل عملك.

ومبطلات الأعمال كثيرة: الشرك، والردة، والرياء، كل هذه محبطة للأعمال، ومخالفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى غير ذلك، ومنها حتى استنبط بعض أهل العلم أنك إذا دخلت في عبادة لا تبطلها كالصلاة، لا تقطع صلاتك؛ ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ فهذا منها، فلا يبطل الإنسان ثواب عمله كالكفار الذين أبطل الله أعمالهم، تحذيراً من هذا الأمر.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -بعدها رجع أيضاً إلى ذكر ما يتعلق بالكفار فقال-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [محمد: ٣٤]؛ كفروا وجحدوا آيات الله وجحدوا وحدانيته وصدوا عن سبيل الله كما تقدم، ثم ماتوا وهم كفار، ماتوا على الكفر والشرك.

قال: ﴿فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾؛ شوف الأول قال: أحبط أعمالهم، صدوا وشاقوا الرسول وكفروا أحبط أعمالهم في الدنيا والآخرة، وهنا لما ماتوا شوف قال: ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، أي سيكون مأواهم النار.

إذا فهمت مثل هذه الآيات وهي الله يوهن قوة المشركين ويضعف قوتهم أمام المؤمنين، قال بعدها: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]؛ لا تضعفوا أمامهم وتدعوا إلى السَّلْم.

القوة لكم إلا عند الحاجة كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] عند الحاجة، مثل صلح الحديبية وغيرها، وإلا فالأصل القوة لكم ولا تدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلون؛ شوف قال: ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾، زين.

ثم قال: ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، العلو لكم، ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معية خاصة بالنصرة، ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ أي لن ينقصكم ثوابكم، بل سيضاعف لكم الثواب إذا صبرتم وجاهدتم في سبيل الله وكانت القوة لكم والعلو لكم، فلن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينقص شيئاً من أعمالكم.

ثم لما بيّن قوة الجهاد والنصر، هوّن أيضاً من الدنيا، وأن الدنيا حقيرة والإنسان لا يعيش لأجلها، وإنما الدنيا مطية للآخرة، الدنيا تعينك على الآخرة فقط.

ولذلك شوف هوّن منها فقال: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦]؛ حصرها بأسلوب (إنما).

- **ما هي الحياة الدنيا؟**

قال: لعب ولهو، اللعب ما يلعب به الأطفال، واللهو ما يلهو به الكبار، فهي بين لعب ولهو، فكيف تعيش لشيء فيه لعب ولهو؟

ثم حثهم قال: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾؛ تؤمنوا إيماناً صادقاً وتصدقوا بما جاءكم عن الله، وتتقوا الله وتخافوه، ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ ويضاعفها لكم، ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾؛ شوف الجهاد جهاد بالنفس وجهاد بالمال، قال: لا يسألكم أموالكم كلها، إنما يسألكم شيئاً منها.

شوف قال: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٧]؛ يعني إذا سألكم الله أن تجاهدوا بأموالكم فيحفكم، ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾، يحفكم يعني يلح عليكم بالصدقة لما فيه مصلحتكم والله غني؛ سألكم إخراج الزكاة، ويسألكم المساهمات في الجهاد في سبيل الله فيلح عليكم بهذا الشيء ويجهدكم لما فيه مصلحتكم، ولكن الآن مع الأسف تجد من الناس من يبخل.

قال: ﴿فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا﴾، حتى لا تبخلوا، ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ يخرج ما في القلوب من الحقد ومن كراهية الموت ومن كراهية الصدقة، بعض الناس المال يصعب عليه إخراجه، فالله إذا حثهم وألح عليهم جعل قلوبهم نظيفة من حب المال والبخل به ويخرج أضغانكم.

ثم قال: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا

أَمْثَالَكُم﴾ [محمد: ٣٨]؛ ها أنتم هؤلاء أيها المؤمنون تدعون لتنفقوا في سبيل الله في مصلحتكم المال، فمنكم من يبخل، تجد من الناس من يبخل، لكن هذا الذي يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه.

- **كيف يبخل عن نفسه؟**

يبخل عن نفسه، ما قال يبخل على نفسه، قال: ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾؛ لأن كلمة يبخل هنا تتضمن (يمنع)، يمنع عن نفسه الخير؛ لأن البخيل يمنع نفسه الخير أن ينفق ماله في سبيل الله وفي الجهاد لا أن يمنع نفسه من الخير.

شوف قال: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾.

- **ما معنى والله الغني وأنتم الفقراء؟**

يعني أنفق في سبيل الله ينفق عليك، إذا أنفقت أغناك الله، أنت فقير ومالك هذا قد يذهب منك في لحظة، فاجعله في سبيل الله يعوضك الله ويخلف عليك خيراً، الله الغني وأنتم الفقراء، اسألوا الله الغني يعطيكم.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا﴾؛ ولا تتدبروا مثل هذه الآيات، ولا تعملوا بأوامر الله، ولا تحثوا أنفسكم على الخير، وتتولوا وتعرضوا.

- **ما هي النتيجة؟**

﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾؛ يستبدل قوماً غير، يأتي بأناس آخرين، أي شيء يذهبكم ويأتي بآخرين يستبدل قوماً غيركم، يطيعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويبذلون أموالهم في سبيل الله ويسارعون في الخيرات؛ إذا أنتم أضعفتم أنفسكم في هذا الباب الله غني عنكم ويأتي بمن هو خير منكم.

قال: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾ يكون خير منكم، والله قادر، أي شيء يذهبكم ويأتي بآخرين خير منكم، فالأمر بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والمدبر، وكل هذه الآيات تحث على الخير، والله يدلنا على الخير.

وشوف هذه الآيات تتحدث أو هذه السورة تحدثت عن الكفر والكافرين وحالهم في الدنيا ومآلهم في الآخرة، والمؤمنين، وتلاحظ أنها مقابلات كثيرة، ثم في نصفها الثاني تحدثت عن المنافقين وأوهنت منهم وأضعفت قوتهم وكشفت عوارهم وبين الله يعني ما أخفوه في صدورهم بعلامات.

كل هذا تحذير للمؤمنين من الكفر وهم أعداء الإسلام من الخارج، والمنافقين من الداخل؛ لأن المسلمين هم يعني نصرهم الله وأيدهم بنصره ومَنَّ عليهم بالهداية وبرسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالقرآن، فكانوا خيراً من هؤلاء.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو وليهم، ولذلك حث الله لهم، حثهم على الطاعات وعلى الاستقامة وعلى الثبات، وعدم إبطال أعمالهم، وحثهم على الجهاد وعلى النفقة في سبيل الله، ووعدهم خيراً وألح عليهم وأخلف عليهم خيراً.

فسورة عظيمة حقيقة عشنا معها في لقاءاتنا الماضية، نسأل الله أن ينفعنا بها وأن يبارك لنا فيها، إلى هنا تنتهي السورة إن شاء الله، لقاؤنا بإذن الله في اللقاء القادم في السورة التي تليها.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الفَتْح)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الفتح ١ - ١٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ هذا اليوم يوافق التاسع من شهر ربيع الآخر من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، وبعدما أنهينا تفسير سورة (محمد)، ننتقل إلى السورة التي تليها وهي سورة (الفتح).

وسورة (الفتح) لها ارتباط وثيق جداً بسورة (محمد)؛ سورة (محمد) تتحدث عن (القتال)، وسورة (الفتح) تتحدث عن فتح مكة أو عن (صلح الحديبية)، وما وقع بين المسلمين وبين مشركي مكة، فكلا السورتين عن (الجهاد) وعن (القتال)، وعما وعد الله المؤمنين.

لما وعدهم في سورة (محمد) بالنصر والتأييد في قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، وجاء فيها وعدهم في الآخرة بأن يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

وذكر هنا ما اختص به عباده المؤمنين بشيء من الفضائل وشيء من التكريم، ويعني ما جاء في بداية هذه السورة في قوله تعالى: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الفتح: ٥].

وقال في آخرها أيضاً: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩]. وذكرت السورة أيضاً، صرحت باسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أولها؛ ففي سورة (محمد): ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ [محمد: ٢]، وقال في سورة (الفتح): ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وشهد الله له بالرسالة؛ فالسورتان متقاربتان.

أما سورة (الفتح) التي بين أيدينا، فهي بلا شك من قرأها عرف موضوعات السورة؛ هي تتحدث عن (صلح الحديبية). و(صلح الحديبية) وقع بين المسلمين وبين الكفار في مكان يقال له (الحديبية) على حدود مكة وعلى حدود الحرم، وتلك القصة مشهورة ومعروفة ولا تخفى على أحد.

وذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى وهو في المدينة في السنة السادسة، رأى في المنام أنه يدخل هو وأصحابه مكة ويطوفون بالبيت يؤدون العمرة، فأخبر أصحابه أنه رأى هذه الرؤية ورؤيا الأنبياء حق، فتجهز للعمرة.

فخرج يوم الاثنين، اليوم الأول من شهر ذي القعدة في السنة السادسة وتوجه إلى مكة، وكان قصده العمرة؛ يعني لم يأخذ سلاحاً للقتال وإنما السيف في غمده، وخرج هو وأصحابه وكان عددهم ألف وأربعمائة رجل، خرجوا رجالاً ونساءً متوجهين إلى مكة لأداء العمرة ومحرمين قد أحرموا.

فلما علمت بهم قريش، خرجت لصدهم ومنعوهم من الدخول، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف في (الحديبية) ومعه هديه وقد أحرم، وطلب منهم الدخول إلى البيت ليطوف فمنعوه، وقالوا: لن تدخل مكة، ولن تسمع بين العرب أنك دخلت عنوة وبقوة ونحن لم نمنعك؛ فمنعوه.

فبدأوا يرسلون رجالاً يتفاوضون مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل عثمان بن عفان يخبرهم أنه جاء لأداء العمرة، لا لقتال ولا لغيره، فحبسوا عثمان عندهم، فأشيع أن عثمان قد قتل، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ يُبَايِعُنِي عَلَى قِتَالِهِمْ؟**» فبايعه أصحابه، وسميت هذه البيعة (**بيعة الرضوان**)، فبايعه أصحابه تحت الشجرة.

بعد ذلك جاء عثمان، وعلموا أنه لم يقتل، فبدأ التفاوض حتى أرسلوا سهيل بن عمرو ففاوض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما رآه قالوا: يا رسول الله هذا سهيل بن عمرو.

فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قَدْ سَهُلَ أَمْرُكُمْ**». فتم الصلح بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين أهل مكة على أن تضع الحرب أوزارها عشر سنين، وأن يبقى الصلح لمدة عشر سنوات، هدنة عن القتال لمدة عشر سنوات، وأن يرجع من عامه هذا ولا يدخل مكة، ويحج ويعتمر من العام القادم في ذي القعدة، وأن من أتى إليه مسلماً يرده، ومن أتى إلى مكة مرتداً لا يمنعه.

ووضعوا شروطاً فيها إجحاف على المسلمين، ومع ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رضي؛ لأنه يوحى إليه، ولأنه أعلم بأن هذا الصلح خير للإسلام والمسلمين، وأنه فتح للإسلام والمسلمين، فتم الصلح، ولما تم الصلح، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قدم محرماً، فنحر هديه وحلق شعره وتمت عمرته ولبس ثيابه.

وأصحابه لم يبادروا بهذا الأمر في البداية؛ لأنهم كانوا لهم رغبة أن يدخلوا مكة، فلما رأوه قد فعل فعلوا ذلك، وكانت أنفسهم قد وقع فيها ما وقع من هذا الأمر الذي كان فيه إجحاف على الإسلام والمسلمين، ولكنهم تحملوا هذا الأمر، فأنزل الله السكينة في قلوبهم واطمأنت قلوبهم.

فلما عاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة راجعاً من مكة، وقد بقي فيها بضعة عشر يوماً في هذا المكان في (الحديبية)، رجع وفي تلك الليلة أنزل الله عليه هذه السورة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]، فجمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه وقال لهم: «**أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ، هِيَ خَيْرٌ لِي مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ**»، فطلع عليهم فقال بعضهم: أي فتح هذا يا رسول الله؟ أي فتح؟ قال: «**وَاللهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ، إِنَّهُ لَفَتْحٌ**».

فلما وضعت الحرب أوزارها، وأصبح الناس يتنقلون بأمن وأمان، وأهل مكة يأتون إلى المدينة وأهل المدينة يذهبون إلى مكة، دخل في الإسلام عدد كبير، وتصور أنه بعد سنتين لما نقضت قريش العهد في السنة الثامنة، دخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاتحاً مكة ومعه عشرة آلاف مقاتل، وفي (صلح الحديبية) كان معه ألف وأربعمائة، فكيف زاد العدد هكذا في سنتين؟ دخل وتعرّف كثير من الناس على الإسلام؛ فأنزل الله هذه السورة.

هذه السورة هي التي بين أيدينا افتتحها الله بالخبر فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١]؛ يعني الله الذي فتح لك، والفتح أصله الانتصار، كفتح الفتوحات وفتح البلدان والانتصار عليها.

- **فأي فتح هذا؟**

الجواب: هذا هو (صلح الحديبية)، فلما وقع (صلح الحديبية) انفتح الإسلام للمسلمين فبدأوا يدخلون، وهو الفتح حقيقة؛ انفتحت أبواب الإسلام للناس فدخلوا في دين الله وكثر عددهم، ثم بعد ذلك فُتحت مكة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: ١]، جار ومجرور يدل على أن هذا الفتح من عند الله، وأنه فتح للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن الله أظهر دينه ونصره على عدوه، ووقعت الهدنة في أمن وأمان ولم يحصل قتال، فكان ذلك فتحاً عظيماً؛ فهذا معنى الفتح.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا﴾ ثم وصف الفتح بأي شيء؟ قال: ﴿مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]؛ أي فتحاً بيّناً واضحاً لا غموض فيه، ففتح الله هذا الدين ودخل الناس فيه أفواجاً.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لبيان مآثر هذا الفتح، أو بيان أثر هذا الفتح، وبيان ما يترتب على هذا الفتح من النصرة للإسلام والمسلمين، ومن الأثر الطيب على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم على أصحابه، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]؛ أي فتحنا لك ذلك ليكون سبباً لمغفرة ذنبك.

وهذه المسألة؛ مسألة مغفرة الذنوب، هل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذنب حتى يغفر له؟ هذه مرت معنا؛ إما أنها مغفرة لما قد يخطر بباله، أو لما يكون خالف فيه أمراً كان الأولى الأفضل أن يجتهد فيه، كالمسائل التي مرت معنا.

☜**كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ». فاستغفار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مجلسه ومغفرة الله له هي عن مثل هذه الأمور.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفتح: ٢]؛ يعني ما سلف من الذنوب، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]؛ أي ما سيأتي أيضاً من ذنوب، أو قد يقع، فإن الله يغفر له ذلك.

وقال: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ٢] بإظهار دينه ونصرته على أعدائه، وقال: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]؛ يهديك الطريق، طريق السلامة وطريق الدين الذي لا عوج فيه، وينصر دينك ويدلك على هذا الدين، على هذه الشريعة الطيبة الحسنة. ثم قال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣]؛ يعني نصراً قوياً مؤزراً، وهذا دليل أن الصلح نصر للإسلام والمسلمين.

فانظر كم أمر كان من ثمرات الصلح وهذا الفتح؛ أن الله سبحانه يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ويتم نعمته عليه، ويهديه الصراط المستقيم، وينصره؛ أربعة أمور حصلت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبب هذا الصلح.

ثم ذكر ما حصل للإسلام ولأصحابه الذين خرجوا معه مجاهدين، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ [الفتح: ٤].

- **ما هي السكينة؟**

هي الطمأنينة في القلب؛ بحيث إن القلب يطمئن ويرتاح، وينشرح صدره، ويثبت عند هذه المزعجات وعند هذه القلاقل، يثبت ولا يتزعزع مع مثل هذه الأمور. فثبت الله المؤمنين وثبتهم في هذا.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾ [الفتح: ٤]؛ أي الله الذي أنزل، وإنزالها من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من علو، وأين أنزلها؟ قال: ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]؛ أي تستقر في قلوب المؤمنين، ولماذا؟

قال: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]؛ ليكون مع إيمانهم إيمان، وزادهم ذلك إيماناً، لما أنزل الله السكينة ثبتوا وزادهم إيماناً، وفي هذا دلالة على أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان.

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الله قادر على نصرهم؛ فما الذي يمنعه؟ والله يؤيد نبيه بملائكة، أيدهم ببدر، وأرسل جنوداً في الأحزاب وغيرها من الوقائع، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤]؛ يعني لا يعجزه أن يرد كيد المشركين ويجعل نبيه يدخل مكة، فليس هناك مانع.

ولذلك قال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤]؛ عليم بما يناسب وبما فيه مصلحة للمسلمين، وحكيم في تدبيره.

ثم لما بيّن أثر هذا الصلح على المؤمنين بأن زادهم إيماناً وثبتهم وأنزل السكينة والطمأنينة عليهم، بيّن أثر ذلك حتى في الآخرة فقال: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]؛ ليشمل جميع المؤمنين.

ولاحظ أن الأصل أن الله أولاً يكفر السيئات ثم يدخلهم الجنة، وهذا كثير في الآيات، إلا هذه الآية قال: يدخلهم ثم يكفر، فكيف يدخلهم ثم يكفر؟ لأن هذه الآية في سياق البشارات، فبشرهم بما هو أعظم وهو دخولهم الجنة، بشرهم بما هو أعظم ثم قال: يكفر عنهم سيئاتهم.

ثم ختم ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]؛ أي هذا الفضل وهذه النعم كان ذلك عند الله فوزاً عظيماً، فوز الدنيا وفوز الآخرة.

وأما أعداء الإسلام من المنافقين والمشركين، فقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الفتح: ٦]؛ بهذا الأمر، سينال المنافقين والمشركين ما يناهم في الدنيا والآخرة، فيعذبهم لأنهم يستحقون العذاب، ولأنهم ظنوا بالله ظن السوء.

ظنوا ظناً سيئاً وظنوا أن الدائرة على المؤمنين، وأن الكفار سينتقمون من المؤمنين، ولم يعلموا أن الأمر بيد الله، فهذا الظن السيء أوقعهم في هذه العقوبة، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].

و(**السَّوْء**) غير (**السُّوء**)؛ فـ (**السُّوء**) مصدر يراد به الشر، والظن السيء يعني الظن الذي لا خير فيه، ولذلك قال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]؛ أن الدائرة ستكون عليهم، يعني الهزيمة عليهم، ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٦] على المنافقين والمشركين، ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ [الفتح: ٦]؛ أي طردهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

ثم عاد مرة أخرى فقال: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]؛ أي إن جنود السماوات والأرض لله، والقوة لله والنصرة لله، وأنه سينتقم من هؤلاء المشركين والمنافقين، ولذلك ختم بقوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ عزيزاً قوياً غالباً، وحكيماً في تدبير أموره.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبيّن رسالة النبي التي كفر بها المشركون وقالوا لا نعترف برسالته، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨]؛ شاهداً على أمتك وعلى الناس، ومبشراً المؤمنين بالدرجات العُلى، ونذيراً للكفار بالعقاب الشديد.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: ٩]؛ لتؤمنوا بالله وتصدقوا به وتطيعوه وتطيعوا رسوله.

ثم قال: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾؛ أي تنصروا الرسول، والتعزير هو النصرة؛ تنصروه نصراً مؤزراً، ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾؛ والتوقير هو الاحترام والتعظيم، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ أي تسبحوا الله بكرة وأصيلاً، تذكرون الله في الليل والنهار، وفي الصباح والمساء.

فقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا لله ورسوله، وقوله: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ هذا للرسول، وقوله: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هذا لله؛ فكل صفة من هذه الصفات تعود لما يناسبها.

نحن ذكرنا لكم أن (بيعة الرضوان) وقعت لما أشيع أن عثمان قتل، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ هنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ [الفتح: ١٠] وهم المؤمنون يبايعون النبي بيعة الرضوان، ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]؛ يبايعون حقيقة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في نصرة الدين ونصرة رسوله.

ثم قال تأكيداً عظيماً على ذلك: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]؛ ولا شك أن هذا يعني أنهم بايعوا الله وأنهم كأنهم بايعوه مبايعة حقيقية، ونحن نقول في هذه الآية إثبات اليد لله حقيقة، والله فوق عرشه مستوٍ على عرشه فوق سماواته، ولكن معناه التأكيد على البيعة كأنهم بايعوا الله؛ لأنهم بايعوا رسوله، والذي يبايع رسول الله كأنه بايع الله.

ثم قال: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ [الفتح: ١٠] ونقض البيعة والعهد، ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] كالمؤمنين الذين أوفوا بما عاهدوا الله عليه من البيعة فسيؤتيهم الأجر العظيم.

هذه هي البيعة، **(بيعة الرضوان)**، وسيأتي بيانها أيضاً في آية أخرى، لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الفتح ١١ - ٢٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم؛ هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للسادس من الشهر الخامس من عام سبعة وأربعين هجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

سورة (الفتح) تحدثنا عنها في لقائنا الماضي، وعرفنا أن المراد بالفتح هو صلح الحديبية، وأنه فتح عظيم وتبعه فتح مكة حقيقة؛ وذكر الله فيه ما منَّ الله به على نبيه محمد: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ۝٢﴾ [الفتح: ١-٢].

فمنَّ عليه بفضائل عظيمة، ثم منَّ على المؤمنين في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤] إلى آخر هذه الفضائل، ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تحدث عن رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه أرسله الله رسولاً شاهداً ومبشراً ونذيراً إلى آخر الآيات.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقع بينه وبين الصحابة البيعة وتسمى بـ (**بيعة الرضوان**)، وذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول السورة وفي وسط السورة.

أما في أول السورة فعند الآية العاشرة، عند قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]؛ أي (**بيعة الرضوان**) تحت الشجرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

هذا في بيان البيعة والمعاهدة التي وقعت بين الصحابة لما شُيع أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قد قتله المشركون، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا نُنَاجِزُهُمْ وَنُقَاتِلُهُمْ**»؛ فعقد البيعة بينه وبين أصحابه ألا يفروا وأن يقاتلوا معه، فبايعوا إلا من تخلف من المنافقين.

ولكنهم بايعوا على الموت وعلى يعني أن يناجزوا المشركين ويقاتلوهم، وهذه البيعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عنها في هذا الموضع، وسيأتينا بعدها بعد قليل إن شاء الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[الفتح: ١٠].

ثم قال: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ [الفتح: ١٠]؛ يعني نقض العهد ولم يفِ بعهده: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: ١٠]؛ يعني يعود عليه وباله، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[الفتح: ١٠].

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد الخروج من المدينة إلى مكة قاصداً زيارة البيت وقاصداً العمرة، كان قد طلب من بعض الأعراب الذين حول المدينة أن يخرجوا معه؛ بعض قبائل العرب.

الأعراب أهل البوادي أن يخرجوا معه حتى يكونوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إقناع المشركين بأن يأذنوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالزيارة والطواف، ولا يقصد بذلك القتال، لكنهم أبوا وامتنعوا وتخلفوا ولم يقبلوا.

قالوا: الآن المشركون يحيطون بالمدينة ويطرقون باب المدينة ليقتلوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه، ومحمد يذهب إليهم في قعر دارهم! ماذا سيصنعون به؟ فلن نخرج معه، فظنوا ظن السوء أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيُقتل ومن معه ولن يرجعوا.

ولكن الله خيب ظنهم وآمالهم، وأخبر رسوله بخبر قبل أن يعود؛ لأنهم لما تخلفوا وذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووصل إلى ما وصل في الحديبية وحصل ما حصل ورجع إلى مكة ورجع إلى المدينة، جاءه هؤلاء المخلفون المتخلفون عن الخروج معه وهم من الأعراب جاءوا يعتذرون.

والله أخبر في هذه السورة قبل أن يأتي هؤلاء المعتذرون، قبل أن يأتي أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أخبر عن أي شيء؟ أخبر أن الله أخبره بأنهم سيأتون معتذرين، سيأتون معتذرين إليه، فما هي أعذارهم؟ وهل تقبل أو لا تقبل؟ وما هي أحوالهم؟

القرآن أخبر عنهم قبل حضورهم للاعتذار، قبل أن يصل أو قبل أن يأتوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معتذرين، وهذا من إعجاز القرآن؛ حيث إنه يخبر بأخبار مستقبلة لم يعلم بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ ولم يعلم بها حتى أصحاب الأعذار لا يعلمون، إلا أن الله أخبر عنه فقال هنا: ﴿سَيَقُولُ﴾ [الفتح: ١١]؛ يعني هو حتى الآن ما قالوا.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نزلت عليه السورة وهو في الطريق، وأخبره الله بأنه إذا وصل المدينة سيأتي هؤلاء المتخلفون عن الجهاد أو المتخلفون عن الخروج معه يعتذرون إليه فقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ [الفتح: ١١].

هذه من الآيات التي تعتبر من الإعجاز الغيبي الذي أخبر القرآن عنه قبل وقوعه؛ مثل غلبة الروم، ومثل سيقول السفهاء وغيرها: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ [الفتح: ١١]، الذين تخلفوا من الأعراب ولم يخرجوا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة.

سيقولون: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح: ١١]، يعتذرون إليك، يعتذرون عن سبب تخلفهم بأن أموالهم وذراريهم ونسائهم منعتهم من الخروج، خافوا عليهم من أن تُسرق وأن تُؤخذ وأن يُسطى عليهم، فقالوا: أموالنا، وأموالنا الإبل والأغنام، والنساء والذرية، من يحميهم إذا خرجنا معك يا محمد؟

فقالوا يعني هذا الذي منعنا، فلعلك تعذرنا فاسأل ربك أن يغفر لنا تخلفنا، ولذلك قال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، يقولون هذا على الألسنة فقط، أما حقيقة لو كانوا صادقين ما تخلفوا.

ولذلك قال الله فيهم: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الفتح: ١١]؛ من الذي يمنعكم لو أراد الله بكم ضراً بإنزال العقوبة عليكم، أو أراد بكم نفعاً بالعفو عنكم وإعطائكم الخير؟ بل كان الله بما تعملون خبيراً، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

- **هل هؤلاء الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأعراب الذين أخبر الله عنهم، هل هم منافقون أو ضعفاء؟**

اختلف أهل التفسير في ذلك؛ فبعضهم قال إنهم منافقون؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وبعضهم يقول بل هم مؤمنون ولكن عندهم ضعف في إيمانهم؛ بدليل أنهم يقولون استغفر لنا، والمنافقون إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون.

فاختلف المفسرون في ذلك، والذي يظهر والله أعلم أن الأعراب هؤلاء إنما هم عندهم ضعف الإيمان وقلة الإيمان، وليس عندهم نفاق، وإن كان بعضهم عندهم نفاق، لكن الذين في الآية ليس عندهم نفاق؛ بدليل أنهم جاءوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واعتذروا وطلبوا الاستغفار، والمنافقون لا يطلبون الاستغفار.

قال بعدها قال الله مخبراً عنهم: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ [ملاحظة: لفظ الآية: يَنقَلِبَ] ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]؛ ظننتم ألا يرجع الرسول والمؤمنون إلى أهليهم، ظننتم أن المشركين سيقضون عليهم، هذا الذي كنتم تظنون، وأنهم سيهلكون جميعاً ولن يرجع منهم أحد.

فهذا الذي كنتم تظنونه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢]؛ وهو أن الله لا ينصر رسوله، وكنتم قوماً بوراً؛ بهذا الظن كنتم هالكين، هذا أهلككم وجعلكم تتخلفون بهذا الظن السيئ.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣]؛ هذا وعيد شديد لمن لم يصدق ولا يؤمن بما جاء عن الله وعن رسوله، فالذي لا يؤمن ولا يصدق كافر، والكافر قد أعد الله له نار جهنم تتسعر به.

ثم قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفتح: ١٤]؛ كل من في هذه السماوات والأرض هي ملك لله يتصرف فيها كيف يشاء، إن شاء يغفر غفر لمن يشاء، وإن شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحيم غفور.

يفتح باب التوبة لهؤلاء المتخلفين ولغيرهم أن يعودوا إلى الله قبل أن يحل بهم العذاب، فهذه الآية تفتح لهم باب التوبة وهذا يدل على أنهم ضعفاء إيمان.

ثم يخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن هؤلاء المخلفين؛ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رجع من صلح الحديبية وعقد الصلح بينه وبين أهل مكة وعاد، أوحى الله إليه أن له مغانم كثيرة سيحصل عليها هو وأصحابه.

وذلك في فتح خيبر؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رجع من الحديبية رجع في ذي الحجة، وأوحى الله إليه أن يفتح خيبر في محرم أو في نهاية محرم وبداية صفر، فلما عاد إلى المدينة تجهز إلى فتح خيبر التي فيها اليهود، وقال: «لَنْ يَخْرُجَ مَعَنَا إِلَّا مَنْ شَهِدَ صُلْحَ الْحُدَيْبِيَةِ»؛ فخرج هو وأصحابه.

المخلفون لما سمعوا أنهم سينطلقون إلى مغانم وأنهم سيحصلون على غنائم كثيرة في خيبر قالوا: ذرونا نتبعكم؛ كيف قال؟: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥]؛ هؤلاء المخالفون يقولون خلاص نريد أن نتبعكم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الفتح: ١٥]؛ أوحى إلى نبيه ألا يخرج إلا من شهد صلح الحديبية، يريدون أن يبدلوا كلام الله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾ [الفتح: ١٥]؛ قال الله أوحى وأخبر نبيه أنه لن يصيب غنائم خيبر إلا من حضر صلح الحديبية وأنتم لم تحضروه: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ﴾ [الفتح: ١٥]؛ هم ظنوا بالمسلمين أولاً أنهم يُقتلون، والآن يظنون بالمسلمين ظناً آخر، يقولون: أنتم تريدون أن تمنعونا من الغنائم، ليس هذا من الله، إنما أنتم تريدون أن تمنعونا وتحسدونا على هذه الغنائم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥]؛ لا يفقهون إلا فقهاً قليلاً ما ينفعهم، وإلا كيف تقولون الحسد؟ الرسول لا يحسد ولا المؤمنون، ولكنكم أنتم تقولون قولاً لا علم لكم به.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فتح الباب لهم فقال: إن كنتم صادقين في الخروج وتريدون أن تخرجوا، يلا الآن اخرجوا: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦]؛ هناك فتوح قادمة إن كان عندكم نية خروج وعزيمة فاخرجوا.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح: ١٦].

- **من هم القوم الذين هم أولو بأس شديد؟**

اختلف أهل التفسير فيهم، وأكثر أهل العلم على أنهم (فارس) و(الروم)، وهذا فيه خبر أيضاً مستقبل أن فارس والروم ستسقط في أيدي المسلمين وقد فُتحت في عهد الخلفاء الراشدين.

فلذلك أخبر الله بشيء لم يقع، وهذا أيضاً من الإعجاز الغيبي أن يخبر القرآن بشيء لم يقع، وقيل إن أولي بأس شديد هم (هوازن) في غزوة (حنين)؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما فتح مكة فُتحت صلحاً.

وبعدها خرج إلى هوازن وقاتلهم وحصل على غنائم كثيرة، فهنا الله يأمر هؤلاء المتخلفين من الأعراب أنهم سيدعون إلى قوم أولي بأس شديد سواء قلنا فارس والروم أو هوازن: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦]؛ إما أنكم تقاتلوهم وتنتصرون عليهم أو يستسلمون لكم.

﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾ [الفتح: ١٦]؛ وتخرجوا مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو مع المؤمنين وتقاتلون أعداء الإسلام: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦]؛ يؤتيكم الله الأجر الحسن وهو فوزكم بجنات النعيم، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

هذا كله حديث عن المخلفين من الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلح الحديبية، هذا الذي جرى، وكل الآيات التي أخبرت عنهم وعن أحوالهم.

الآن تعود الآيات إلى البيعة التي ذكرناها في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]؛ جاء الحديث عنها مرة أخرى، لكن قبل الحديث عنها جاءنا في بيان من هم الذين تُقبل أعذارهم، المخلفون الله لم يقبل أعذارهم وردهم؛ (**شغلتنا أموالنا وأهلنا**) هذا غير صحيح، طيب من الذين تقبل أعذارهم؟

قال هم ثلاثة:

- أولاً: الأعمى: هذا يسقط عنه الجهاد لأنه أعمى.
- ثانياً: الأعرج: الذي لا يستطيع المشي يسقط عنه الجهاد.
- ثالثا: المريض: الذي لا يستطيع القيام والمشي يسقط عنه، هؤلاء معذورون، وكذلك الأطفال والنساء والشيوخ هؤلاء كلهم معذورون؛ قال: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧]؛ ليس عليه إثم إذا تخلف.

ثم قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧]؛ ومن يطع الله ورسوله في الجهاد والخروج وعدم التخلف، وطاعة الله ورسوله التي أوجبها عليهم يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، يكون من أهل الجنة، ويدخل جنات تجري من تحت قصورها الأنهار، ومن يتولى ولا يطع الله ورسوله فالنتيجة: يعذبه عذاباً أليماً.

ثم تأتي قصة يعني بيعة الرضوان، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]؛ اللام هنا نسميها (**لام موطئة للقسم**).

تقديره: والله لقد رضي الله عن المؤمنين، من هم الذين يبايعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت الشجرة؟ شجرة السَّمُر؛ يا أهل السَّمُر، شجرة السَّمُر، فبايعوه على الموت وعلى الجهاد تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فلما علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صدقهم في بيعتهم أنزل السكينة عليهم؛ الطمأنينة والراحة وانشراح الصدر وذهاب الهم والغم، وأثابهم فتحاً قريباً وهو فتح خيبر.

شوف لاحظ هنا قال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ﴾ [الفتح: ١٨]؛ قال لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك أيها النبي تحت الشجرة، الله رضي عنهم، ورضا الله فوق كل شيء؛ إذا رضي الله عنك فهذا -ولذلك سميت البيعة بيعة الرضوان- إذا رضي الله عنك هذا لا يعادله شيء من أمور الدنيا كلها.

قال: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾ [الفتح: ١٨]؛ شوف جاء بصيغة المضارع: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ كأنك تشاهدهم الآن، استحضار للصورة تحت الشجرة، وهذه الشجرة هي شجرة عظيمة شجرة السَّمُر.

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحتها والصحابة يأتون ويبايعونه، ألف وأربعمئة رجل، وهذه الشجرة بقيت، وهي ذكرت في القرآن وبقيت، وبدأ الناس يذهبون إليها ويصلون تحتها ويجلسون تحتها، فلما رآهم عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه على هذه الحال ماذا صنع بهم؟ صنع أن قطع هذه الشجرة حتى لا يتبرك الناس ولا يعظمونها، هي شجرة من الأشجار فلذلك قطعت.

قال: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، قال: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٩]؛ وهي مغانم خيبر يأخذونها، وكان الله عزيزاً ذو عزة وقوة وغلبة، حكيماً فيما يدبره.

ثم قال: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]؛ مغانم خيبر وغيرها، مغانم كثيرة تأخذونها.

فعجل لكم هذه التي هي خيبر، عجلها لكم بعد شهر ونصف من قدومه من صلح الحديبية، عجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم، قال عجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم؛ يعني لم يحصل قتال بينه بين أهل مكة، وإنما منعوه من الزيارة والعمرة وبقي أياماً ثم تم صلح الحديبية وعاد، لم يظفر إلا برضا الله، والمؤمنون ظفروا أيضاً برضا الله ولم يحصل هناك قتال وبينه وبين أهل مكة.

قال: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]؛ يعني أهل مكة عنكم، ولتكون آية للمؤمنين؛ آية في صلح الحديبية وآية في فتح خيبر، يعني تكون آية عظيمة دلالة على أن الله ناصر نبيه وحافظ نبيه وأصحابه المؤمنين.

شوف قال: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]؛ في دينكم وفي دنياكم.

ثم قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢١]؛ وأخرى لم تقدروا عليها أي مغانم كثيرة ومعارك ستأتي لم تقدروا عليها أنتم بقدرتكم ولكن الله هو الذي أحاط بها وكان الله على كل شيء قديراً.

هذه المغانم التي أرادها الله للمؤمنين فتوحات مكة وفتوحات وأيضا فتح الطائف ومعارك حنين وهوازن بعدها من الفتوحات التي أحاط بها هو الله، الذي أحاط بها هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الذي أحاط بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال بعدها: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح: ٢١]، ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢]؛ يقول لو قاتلكم هؤلاء الكفار في صلح الحديبية وخرجوا لكم لقتالكم لن ينتصروا عليكم، سيولون الأدبار ويفرون هاربين وينهزمون.

ثم لا يجدون لهم من يتولى أمرهم ولا من ينصرهم فيفرون هاربين؛ لماذا؟ لأن الله ناصر نبيه مهما كان لابد أن يخذل أعداءه وينصر أولياءه، وهذه سنة الله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣]؛ هذه سنة الله في أوليائه ينصرهم، نصر نوحاً ومن معه، ونصر هوداً وصالحاً وشعيباً وسائر أنبيائه من قبل، ولن تجد لسنة الله -تبين- لن تتغير هذه سنة الله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

قال بعدها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

- **متى حصل هذا؟**

الجواب: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان في صلح الحديبية جاء عدد من المشركين من شبان قريش قيل إنهم ثمانون رجلاً.

جاءوا من خلف جبل التنعيم وانحدروا لقتال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعهم سيوفهم يأتونه على غرة، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ألقى في قلوبهم الرعب فقبض عليهم المسلمون ثم تركوهم ليبينوا لأهل مكة أنهم لم يأتوا للقتال.

ولذلك عفوا عنهم وتركوهم، وهو الذي كف أيديهم أي أيدي هؤلاء الشبان الثمانين عنكم وأيديكم عنهم لم تقتلوهم ببطن مكة أي في الحديبية؛ لأن الحديبية على طرف الحرم فكأنه عبر عن بطن مكة لأنها كلها تعتبر حرماً، وهذا دليل على أن من صلى في الحرم يعني في داخل الحرم في أي حي من أحياء مكة أو أي مسجد كأنه صلى في المسجد الحرام؛ لأن الحكم واحد.

شوف قال: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]؛ يعني ظفرتم عليهم وقبضتم عليهم، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤].

بعد ذلك لا تزال الآيات فيما تبين لنا ما جرى في قصة الحديبية وما حصل من ذلك، كل هذه الآيات تتحدث عنها، ولعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الفتح ٢٥ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للثالث عشر من شهر جمادى الأولى من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداةً مهتدين موفقين لكل خير.

درسنا في (تفسير القرآن العظيم)، وسورة (الفتح) بقي عندنا فيها آيات نستكملها هذا اليوم نسأل الله أن يعيننا وأن يوفقنا وأن يسددنا. وقف بنا الكلام عند الآية الخامسة والعشرين؛ وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥].

في هذه الآيات، والآيات لا تزال تتحدث عن (صلح الحديبية) وما وقع بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين أهل مكة من كفار قريش، وقبل هذه الآية أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنعمته وفضله ومنته على رسوله وعلى أصحاب رسوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وذلك أن المشركين أرسلوا عدداً من شبان أهل مكة يصل عددهم إلى ثمانين رجلاً، أرسلوهم إلى عسكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلى ما كان فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرجوا والتفوا حول جبل التنعيم ونزلوا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أصحابه غِرَّةً ليفتكوا بهم.

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أيقظ الصحابة فانتبهوا لذلك وقبضوا عليهم، ثم إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تركهم وعفا عنهم؛ لأنه كان محرماً ولم يكن قد جاء للقتال، فأطلق سراحهم وتركهم.

قال الله فيهم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ [الفتح: ٢٤]، أي أيدي هؤلاء الثمانين عنكم وأيديكم عنهم عندما أسرتموهم وقبضتم عليهم ببطن مكة.

انظر، الآية تقول: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾، وهذا وقع عند التنعيم خارج مكة أو خارج الحرم على حدود الحرم، وسماه الله بطن مكة؛ وهذا من الأدلة الدالة على أن الحرم كله حكمه واحد، فمن صلى في المسجد الحرام أو صلى في أطراف مكة أو في مساجد مكة فالحكم واحد، وهذا فيه تخفيف على الناس والزحام الشديد.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قدم لحجة الوداع وطاف بالبيت وسعى، خرج في اليوم الرابع إلى الأبطح وأقام فيه وجلس فيه أربعة أيام إلى اليوم الثامن وهو يصلي بالأبطح، مع أن الأبطح قريب جداً من المسجد الحرام.

ولم يُذكر أنه كان إذا حضرت الصلاة ذهب إلى المسجد الحرام، وإنما كان يصلي في رحله وفي مكانه، والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحرص الأمة على اغتنام الأجر واغتنام مثل هذه الأشياء التي فيها أجور عظيمة.

فهذا قوله: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني بطنها، يعني وسطها، ومع ذلك حكم الله على أطراف مكة كأنها الوسط؛ الحكم واحد. قال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]، قبضتم عليهم، وكان الله بما تعملون بصيراً؛ مطلعاً عالماً بأحوالهم.

ثم أخبر عن حال المشركين فقال: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٥]، هم الذين كفروا، وصفهم الله بصفة سيئة خبيثة وهي صفة الكفر والجحود.

كفروا برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكفروا بالله، وكفروا بشريعة الله، وزيادة على ذلك صدوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المسجد الحرام وهو قد قدم معتمراً لا يريد إلا الزيارة والعمرة، ومع ذلك منعوه، مع أنهم لم يمنعوا أحداً غيره، وإنما منعوه هو وأصحابه.

﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وليس لهم ذلك؛ هذا بيت الله، وهذا المسجد الحرام لله، لا يجوز أن يمنع أحد منه.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ [الحج: ٢٥]؛ المقيم والقادم سواء، لا أحد يمنع الآخر.

ثم قال: ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾ أي ما أهدى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذا البيت وساقه معه من الهدي والأنعام والإبل، وقيل إنه ساق معه سبعين من الإبل. ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا﴾ أي صدوكم وصدوا الهدي، وحال الهدي معكوفاً؛ يعني محبوساً ممنوعاً من أن يبلغ مكة فنحره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديبية.

قال: ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [الفتح: ٢٥]، انظر، قال: (مَحِلَّه) و(مَحَلَّه) ما الفرق؟ فنقول -والله أعلم- إن (المَحِلّ) يقصد به الزمان، كقوله: ﴿وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وهنا قال: ﴿مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ والمَحَلّ هو المكان، تقول: حلالٌ بالمَحَلّ، أو نزلتم بالمَحَلّ؛ المَحَلّ المكان، والمَحِلّ الزمان، وهنا قال: ﴿أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ﴾ أي وقت نحره.

- **متى يكون وقت نحره؟**

إذا طافوا بالبيت وسعوا وأكملوا عمرتهم وقصروا أو حلقوا، ثم تمت عمرتهم فينحرون هديهم، فلم يبلغ محله ووقت إحلاله.

ثم بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى السبب الذي منع المسلمين من أن يقاتلوا المشركين، وأن يصبروا ويتحملوا، أخبر الله عن الأسباب، فمن هذه الأسباب أن هناك مؤمنين ومؤمنات لم يعلم بهم أحد؛ لا الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ المسلمون ولا المشركون.

قد كانوا في مكة، فلو دخل الصحابة في قتال قد يقتلون هؤلاء المسلمين؛ ولذلك انظر قال: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٥]، أنتم لم تعلموهم؛ ما تعرفونهم ولا تميزونهم، ﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٥].

وتطؤوهم؛ أي أن يحصل قتل بجيوشكم فتقتلوهم وتصيبكم منهم معرة؛ أي عيب وتعيير من المشركين أنهم قتلوا إخوانهم المسلمين، ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ﴾ [الفتح: ٢٥] وأنتم لا تدرون.

ثم بين سبباً آخر فقال الذي منع منه المؤمنين القتال بسبب: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [الفتح: ٢٥]، أي أن الله سبحانه قد كتب لبعض أهل مكة أن يسلموا؛ ولذلك أسلم أبو سفيان، وأسلمت امرأته هند، وأسلم سهيل بن عمرو، وأسلم صفوان وعكرمة، أسلم عدد. قال: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾.

﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ﴾ [الفتح: ٢٥]، هؤلاء المؤمنون والمؤمنات الذين لم تعلموهم؛ لو تزيلوا وانعزلوا، قال الله: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥]؛ لعذب الله الذين كفروا وقد كتبت عليهم الشقاوة ولم يُكتب لهم الإيمان عذاباً أليماً بالقتل والأسر.

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما السبب الذي جعل المشركين يمنعون المؤمنين من دخول مكة ولا يوافقوهم حتى في بنود أو في كتابة صلح الحديبية.

- **ما هو السبب؟**

الحمية وهذه الحمية والكبرياء والأنفة، وهذه هي التي منعتهم؛ أنفة الجاهلية.

قال: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]. وانظر، القرآن ذكر الجاهلية؛ قال: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقال: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦]، وهكذا. فهنا السبب هو الحمية؛ وهي الأنفة والكبر والتمسك بهذا الشيء الذي هو من عادات الجاهلية.

ولذلك لم يقروا برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما كتب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو قال لعلي: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل: لا، اكتب باسمك اللّهم، ما نعرف الرحمن الرحيم، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اكتب باسمك اللّهم.

فلما جاء عند قوله: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، قالوا: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله لآمنا بك، ولكن اكتب: من محمد بن عبد الله، فقال: يا علي، اكتب: من محمد بن عبد الله.

الله أنزل السكينة كما قال هنا: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]، أنزل الطمأنينة وانشراح الصدر وعدم التعجل والثبات والحلم؛ والرسول يأمر بالكتابة وعلي يكتب.

أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦]، جعلهم يلزمونها؛ و(**كلمة التقوى**) هي كلمة التوحيد (**لا إله إلا الله**)، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا﴾ بهذه الكلمة من غيرهم ﴿وَأَهْلَهَاۚ﴾ وكانوا هم أهلها أيضاً، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦].

نحن نعرف أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أراد أن يعتمر، أخبر أصحابه أنه رأى في المنام رؤيا أنه قد لبس إحرامه وأنه يخرج هو وأصحابه متوجهين إلى البيت الحرام يطوفون ويسعون، فأخبر أصحابه

ففرحوا بذلك وتجهزوا. فلما وصلوا إلى الحديبية ومُنعوا من ذلك، قال عمر: يا رسول الله، قد وعدتنا أن ندخل مكة ونطوف بها، كيف يمنعوننا؟! فقال: يا عمر، أهذا العام قلت لك؟ أهذا العام؟

الله أنزل هذه الآية تصديقاً لرؤيا رسوله، قال: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]؛ الله صدق رسوله محمداً هذه الرؤيا التي رآها بالحق لا بالباطل، ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]، تعليق الأمور بمشيئة الله تعليمٌ للعباد، أو تكون (إن شاء الله) تحقيقاً لا تعليقاً، وتدخلونها وحالكم آمنين بأمن.

- **متى دخلوها؟**

في العام المقبل في (عمرة القضاء)، لما منعهم المشركون وكتبوا في صلح الحديبية أن يرجع محمد هذا العام وأن يأتي من العام المقبل، دخلوا في العام المقبل -إن شاء الله- آمنين، دخلوها آمنين.

ولما أرادوا دخولها خرج المشركون من مكة، ولم يبق إلا الصبيان والنساء في الطرقات ينظرون إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى الصحابة قد دخلوا مكة قاصدين البيت معتمرين قد أحرموا آمنين، ثم طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة ثم حلقوا رؤوسهم.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]؛ قدَّم التحليق لأنه أفضل.

وفي الحديث: «اللَّهُمَّ ارْحَمِ المُحَلِّقِينَ» قالها ثلاثاً، ثم قال: «وَالمُقَصِّرِينَ».

قال: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ آمنين لا تخافون؛ يعني آمنين في دخولكم، ولا تخافون فيما تستقبلونه.

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ [الفتح: ٢٧]، علم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما في هذه الأمور الغيبية التي لا يعلمها إلا الله، ولذلك رجعوا في هذا العام وأتوا من العام القادم. لماذا؟

لحكمة أرادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وهو صلح الحديبية الذي دخل في الإسلام بسببه أعداد هائلة كثيرة، ثم إن الله عوضهم بفتوح أخرى؛ قال: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٧] وهو فتح خيبر عند كثير من المفسرين.

وبعضهم يرى أنه فتح مكة، أن الله جعل فتح مكة بعد سنتين من صلح الحديبية، وهم جاؤوا إلى العمرة وأراد الله أن تفتح مكة وتكون بلد إسلام، والفتح القريب -والله أعلم- أنه يكون هو خيبر؛ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ كما تقدم معنا.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]؛ الله الذي أرسل رسوله محمداً، أنِفَ المشركون من ذلك أو لم يأنفوا، قبلوا أو لم يقبلوا، أقروا أو لم يقروا، الله أرسل رسوله، ومحمد رسول الله بالهدى.

بالبيان الواضح وعلم الإسلام؛ بالهدى بالعلم النافع، ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ بالشريعة والعمل بها، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ﴾ جميع الأديان باطلة وبطلت، والاسلام هو خاتمها وهو ظاهر فوقها، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أن يشهد برسالته لرسوله ولو كره الكافرون.

ثم أثبت مرة أخرى أيضاً الرسالة لرسوله محمد فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩]. ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أي صحابته، ما حالهم؟ قال: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ يقاتلونهم ويسيطرون عليهم ويقوون عليهم، وأما بينهم فـ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ﴾.

وأما مع ربهم فـ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾؛ يصلون بالليل والنهار، ويخلصون عملهم ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ ابتغاء ما عند الله ويريدون رضوان الله.

ثم قال: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهو نور الوجه من الطاعة، أو ما يكون على الجباه من أثر السجود، أو نورٌ يرونه في الآخرة؛ كل ذلك محتمل. ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾ [الفتح: ٢٩]، المذكور في (التوراة) أنهم أشداء على الكفار ورحماء بينهم، وأنهم ركعٌ سجَّد، هذه حالهم في (التوراة) وصفاتهم.

- **أما في (الإنجيل) فما هي حالهم؟**

قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ كالنخل أو الأشجار، ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ أي فراخه وهو ما يحيط به كالشاطئ، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ قواه، ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ قوي جذعه وساقه، ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ قام على الساق؛ قال إذا كان على هذه الحال بقوته فإنه ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ الزارع إذا رأى هذه الشجرة الملتف عليها صغارها والتي قد قويت واستغلظت تعجب الزرّاع، وكذلك النخل تعجب الزرّاع.

هذا المثل ضربه الله للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في (الإنجيل)؛ كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحده أو في قِلَّة، ثم لا يزال يزداد أصحابه حتى آزر وقوي واستغلظ هذا الدين، وقويت شوكة الصحابة وشوكة

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستوى على سوقه واستكمل الله دينه. ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، يغيظ بصحابة النبي الكفار.

ثم ختم السورة بهذا الوعد الكريم فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩]؛ صدقوا واتبعوا ما جاءهم عن الله وعملوا الأعمال الصالحة. ﴿مِنْهُم﴾؛ (مِنْ) هنا بيانية أو بعضية؛ لأن معهم منافقين فأخرجهم الله، لأن معهم منافقين فلا يدخلون في ذلك.

فقال: ﴿مِنْهُم﴾ أي بعضهم المؤمنون الصادقون، أما المنافقون وإن كانوا في ظاهر الأمر مع المؤمنين لا يدخلون في الأجر ولا يعمّهم، أما القول بأن بعض الصحابة دون بعض فهذا قول المبتدعة الذي لا يجوز ولا يصح.

﴿مَّغْفِرَةً﴾ تغفر ذنوبهم، ويزيل الله عنهم ذنوبهم ويمحوها عنهم ويغفرها ويسترها، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو فوزهم بجنات النعيم، ورضا الله الذي رضي عنهم تحت الشجرة.

نسأل الله أن لا يحرمنا ذلك الفضل، وأن يحشرنا في زمرة صحابته وفي زمرة النبيين، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، نسأل الله أن لا يحرمنا ذلك الفضل وأن يلحقنا بهم.

إلى هنا تتم سورة الفتح وشرحها وبيانها، أسأل الله أن يبارك لنا وأن يوفقنا لطاعته، وأن يجعلها حجة لنا لا علينا، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الحُجُرَات)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الحجرات ١ - ٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للعشرين من الشهر الخامس من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، نسأل الله أن ينفعنا وأن يرزقنا العلم النافع الصالح، وأن يبارك لنا في أيامنا وفي أوقاتنا.

تفسير القرآن العظيم ودرسنا الأسبوعي، واليوم معنا سورة جديدة هي **(سورة الحجرات)**. **(سورة الحجرات)** هي من السور التي نزلت متأخرة في العام التاسع، وهذا العام يسمى **(عام الوفود)**؛ لما بدأت العرب تفد إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للدخول في الإسلام.

كان من هذه القبائل قبيلة **(بني تميم)** التي جاءت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونادته من وراء الحجرات، فسميت هذه السورة بـ**(سورة الحجرات)**؛ لأن الله ذكر فيها هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤].

والمقصود بالحجرات هي حجرات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حيث جاء هؤلاء في وقت الظهيرة وقت الراحة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إحدى حجراته، فنادى ناداه هؤلاء بصوت عالٍ فقالوا: يا محمد اخرج إلينا. فذمهم الله قال: أكثرهم لا يعقلون، ولو أنهم صبروا لكان خيراً لهم.

- **ما هي الحجرات؟**

هي بيوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سميت حجرات؛ لأنها غرف صغيرة، وحُجَر صغيرة محجرة بالحجارة، هذه السورة تسمى بـ**(سورة الحجرات)**، ويسميها بعض المفسرين بـ**(سورة الآداب والأخلاق)**؛ لاشتمالها على آداب كثيرة: أولاً الأدب مع الله ومع رسوله في أول الآيات، ثم الأدب مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم الأدب مع المؤمنين بعضهم بعضاً إلى آخر السورة.

الحجرات لا تخفى عليكم، هي حجرات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو تلاحظ أن كلمة الحجرات هي من (الحَجْر) وهو المنع؛ لأنه يحجر بعضه على بعض فتكون مانعة من الدخول أو الانكشاف أو نحوه.

وهذا الاسم -اسم الحجرات- ذكر بعض أهل العلم قال: إذا كانت حجرات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محاطة بحيطان وسياج يحفظ من بداخلها، فإن هذه السورة لها نصيب من هذا الاسم؛ وهي أن فيها أخلاقاً، وهذه الأخلاق إذا أخذ بها الإنسان -بهذه الأخلاق الرفيعة والآداب العالية- فكأنها يعني محيطة بهذا الإنسان وكأنها حجرات.

فـ(الحِجْر) العقل، والحجرات هي -مثل ما ذكرنا لكم- تحيط بالشيء، وهذه الآداب والأخلاق التي ذكرت في هذه السورة هي تحيط بالإنسان وتمنعه من سفاسف الأخلاق ومن سيئات الأخلاق فيحافظ عليها؛ فمن حافظ وأخذ بآداب هذه السورة -هذه الأخلاق والآداب- فقد حفظ نفسه بسياج ويعني حائط يحفظه من الأخلاق السيئة، هذا ذكر بعض أهل العلم.

والسورة -مثل ما ذكرنا لكم- من أواخر ما نزل بالمدينة، فهي سورة مدنية فيها النداء؛ نداء المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحجرات: ١]. ذكر فيها خمس مرات مع أن السورة قصيرة.

السورة يعني بضعة عشر آية ومع ذلك نادى الله فيها المؤمنين خمس مرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وهي السورة تعد السورة الثامنة بعد المئة في نزول الآيات، تعتبر السورة رقم مائة وثمانية.

وبعض أهل العلم يقول إنها هي أول (المُفَصَّل)، وبعضهم يقول إن أول (المفصل) هو (سورة قاف)، من بداية (قاف) إلى (الناس) يسمى (المفصل)؛ سمي (المفصل) لكثرة فصله بالبسملة، في بسملة كثيرة.

السورة -مثل ما ذكرنا لكم- فيها النداءات خمس مرات، وكلها نداءات للمؤمنين في توجيههم إلى الأخلاق وإلى الآداب، وفيها نهي وفيها أوامر؛ فيها نواهٍ، فيها يعني أمور ينبغي للإنسان أن يأخذ بها.

وأمور ينبغي للإنسان أن يتجنبها، والنواهي أكثر، النواهي أكثر؛ لأن الإنسان بطبيعته خُلِق وجُبِل على الخلق الطيب، وأما الأخلاق السيئة فإنها أخلاق عارضة ينبغي للإنسان أن يحذرها، ولذلك السورة ذكرت الأخلاق أو حذرت من، أو كان النهي فيها أكثر من الأمر.

تلاحظ أن (سورة الحجرات) جاءت بعد (سورة الفتح)، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في (سورة الفتح) بيّن مقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وهو الذي ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ [الفتح:

٢٨]، فذكر مقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومنزلته؛ فجاءت هذه السورة تعظم حق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ [الحجرات: ٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣]، فتجد هناك ترابطاً بين السورتين.

عندنا يعني نبدأ بالسورة على بركة الله، أول هذه النواهي وأول هذه الآداب هو الآية الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

أولاً عندنا النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، هذا أول نداء، افتتحت السورة بالنداء، ثم نداء المؤمنين وذكرهم بأجل الصفات وأفضل الصفات وهي صفة الإيمان.

أنت تسمع هذه الآية وأنت مؤمن مصدق بما جاءك عن الله وعن رسوله، تستشعر هذا الإيمان الذي في قلبك، والله يناديك يقول لك: أنت مؤمن، نحن نناديك بصفة الإيمان، فأنت إذا سمعت هذا الشيء أقبلت عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾، لا تقدموا بين يدي الله ورسوله، شوف: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، هذا فيه تعظيم واحترام لحقوق الله وحقوق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فلا ينبغي للإنسان أن يتقدم على حق الله وعلى حق رسوله، وأن يقدم شيئاً له على حق الله وعلى حق رسوله، لا يجوز لك أن تتقدم، ويعني لا تقدموا.

المراد: لا تسبقوا الله ورسوله بقول أو فعل؛ يعني لا تقول: لو أني أفعل كذا، لو أني أفعل كذا، لو أن هذا الحكم كذا، أو تقترح أو تأتي بآراء من عندك، لا ينبغي عليك؛ أن تقول: سمعنا وأطعنا، لا تسبق، لا تقدم من التقدم وهو السرعة والسبق إلى الشيء، يقول لك: لا تسبق حكم الله وحكم رسوله.

حتى إنك تلاحظ في بعض المصلين الذي يسبق الإمام ويتسارع يدخل في هذا النهي؛ أنه يسرع في تقدمه على حكم الله وعلى حكم رسوله، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرنا باتباع بأن نتابع الإمام لا أن نسبقه، ولا أن نخالفه، ولا أن نوافقه، وإنما نتبعه؛ نتبع الإمام، «**إِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا**».

والتقدم على حكم الله وعلى حكم رسوله والمسابقة عليه والاعتراض عليه، كل ذلك داخل في هذا، داخل في هذا الشيء، شريعة الله شريعة تامة وكاملة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]،

فتأتي تبتدع وتأتي بشيء من عندك في قول أو فعل يخالف أمر الله وأمر رسوله، هذا داخل في هذا الأمر؛ فلا تفعل ولا تقل شيئاً لا يوافقه الله ولا يوافقه رسوله، فهذا هذا معنى أن تتقدم.

وهذا يدخل في جميع شرائع الدين؛ سواء في الصلاة، أو في الصيام، أو في الحج، أو في الزكاة، أو في بر الوالدين، أو في جميع الأعمال وجميع الشرائع، ينبغي أن تتقبلها وأن تسارع إلى امتثالها وتطبيقها، وأن لا، وأن لا تخالف، وأن لا تأتي بشيء لم يشرعه الله وتقول: هذا أفضل، أو هذا أحسن، أو تسبق حكم الله وحكم رسوله، لا في قول ولا في فعل.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، خافوه وراقبوه واتبعوا أمره ولا تخالفوه، وحققوا ما يريده، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. شوف لاحظ ختم الآية بهذين الاسمين مناسب جداً؛ والله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم، فإن قلت شيئاً وتقدمت الله ورسوله بقولٍ فالله سميع، وإن تقدمت الله ورسوله بفعلٍ فالله عليم بالأفعال والأقوال؛ شوف سميع للأقوال، عليم بالأفعال والأحوال والنيات، والله عالم.

فهذا تحذير شديد أن يبتدع إنسان في دين الله أو يشرع ما لم يأذن به الله، ولا يتقدم بين يدي الله ورسوله؛ أي بين شرعه، بين الكتاب والسنة، فيجب المبادرة إلى الامتثال والطاعة والمسارعة إلى الخير واحترام قول الله واحترام قول الرسول.

فإذا سمعت الله يأمرك بشيء بادر، إذا سمعت الله ينهاك عن شيء تبتعد، وكذلك سنة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا جاءك عن الرسول فعل أو أمر أو نهي تبادر إلى الأمر وتبادر أن تبتعد عن النهي.

هذه الجملة، الآية الأولى كأنها خلاصة لكل ما سيأتي من الأوامر والنواهي؛ شفت الأوامر والنواهي اللي تأتيك بعد قليل كلها داخلة في هذا الحكم.

أنت إذا سمعت أمراً من أوامر الله بادر لامتثاله، إذا سمعت نهياً ابتعد عنه؛ فكأن هذه الجملة حوت كل ما في هذه السورة من الأخلاق ومن الآداب ومن الأوامر والنواهي.

بعدها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مرة أخرى -شوف النداء الثاني-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات: ٢].

مرة أخرى ينادي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المؤمنين بصفة الإيمان ويذكرهم بأنهم هم المؤمنون الذين صدقوا الله وصدقوا رسوله واستجابوا لله ورسوله، ثم يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾. لا يجوز أن ترفع صوتك -يعني فوق صوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

هذا يعني هذه الآية يظن بعض الناس أن هذه الآية يعني هي في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: رفع الصوت في زمانه.

- **لما توفي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماذا نصنع بهذه الآية؟ هل نحن مخاطبون بها؟**

الجواب: نعم، أنت مخاطب بها إلى يوم القيامة؛ لا ترفع صوتك إذا جئت عند حجراته أو عند حجرته حجرة عائشة.

إذا جئت عند قبره فاخفض صوتك ولا ترفع صوتك، إذا جئت عند حديثه واستمعت لحديث من أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقرئ عليك الحديث يجب أن تخفض صوتك، وأن تتأدب، وأن تحترم كلام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالآية عامة ومستمرة، لا يجوز رفع الصوت عند مقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعند قبره، ولا يجوز أيضاً عند حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسماع سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾.

ثم قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

- **لو سألك سائل وقال لك: ما الفرق بين رفع الصوت والجهر؟ في فرق ولا نفسه؟ إن كان نفسه فلماذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ﴾؟**

الجواب: رفع الصوت يكون من طرف واحد؛ يعني هذا الرجل الذي جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورفع صوته فقال: يا محمد، بصوت عالٍ، هذا نسميه رفع الصوت.

أما الجهر فهو صوت مقابل صوت؛ يعني هو يجهر، شو قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾؛ يعني أنت تتحدث مع شخص فتجهر بصوتك أمامه، هذا نسميه جهر، يجهر وهذا يجهر، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خاطبه الرجل والنبي لم يتكلم نقول: هذا رفع صوت عليه، إذا كان النبي يتكلم وهو يرد عليه هذا جهر.

قال: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾، أنتم بعضكم لبعض ينادي بعضكم بعضاً يجهر، اجهر بعضكم بعض، الرسول لا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينبغي أن، يجب عليك أن تخفض صوتك، تخفض صوتك ما ينبغي لك.

ولذلك قيس بن ثابت رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه -أو ثابت بن قيس رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه- لما سمع هذه الآية وكان جهوري الصوت دخل بيته وبدأ يبكي، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقده، فقده لا يدري أين هو، فسأل عنه، فقالوا: إنه في بيته يبكي، فقالوا: لماذا؟

قال: إنه سمع هذه الآية وهو جهوري الصوت وخشي أن عمله قد حبط؛ لأن الله قال: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ هَؤُلَاءِ، إِنَّمَا هُوَ لَيْسَ مِنْهُمْ**» **(بل هو من أهل الجنة)**.

ولذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما نزلت هذه الآية بدأوا يخاطبون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصوت منخفض جداً جداً؛ يعني لا يتحدثون إلا بصوت منخفض جداً، كجهر بعضكم لبعض، لا يجهر أحدكم مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يجهر بعضكم لبعض، احذروا خطاب الرسول يتميز ويختلف عن أي خطاب، هذا مقصود به يجب أن يوقر ويجب أن يحترم ويجب أن يعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فمن يفعل ذلك -لو جهر أو رفع- قال: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، فإذا حبطت الأعمال لم تُقبل، ردها الله عليك لم تُقبل، فإذا لم يُقبل عملك إلى أين يكون مصيرك؟ إلى النار، الذي ليس معه عمل صالح سيحبط، تحبط أعمالك الصالحة، ما الذي معك؟

أجل ما يكون معك شيء، بطلت أعمالك وأنت لا تشعر ولا تحس أنها بطلت، تظن أنها لم تبطل فهذا أشد؛ إذا كنت لا تشعر وأنت لا تدري، ولذلك الذين يرفعون أصواتهم ولا يحترمون الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يحترمون سنته ولا يحترمون حديثه ولا يحترمونه إذا جاؤوا عند قبره.

قد يعرضون أنفسهم لحبوط العمل وهم لا يشعرون؛ فينبغي توقير الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعته ومحبته والإيمان به وتعظيمه في قلوبنا وتوقيره، هذا هو الذي يجب.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مدح المؤمنين الذين لم يكونوا يجهرون بأصواتهم ولا يرفعون أصواتهم؛ مدحهم وأيضاً أثابهم الأجر العظيم، شوف قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

يغضون؛ يعني يخفضون أصواتهم عند رسول الله، شايف كلمة: ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني في مجلسه أو بعد وفاته، يغضون أصواتهم يخفضون أصواتهم عند رسول الله.

أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى؛ امتحنها واختبرها فنجحت واخلصها، بحيث إنها أزال عنها كل ما يعلق فيها مما لا يصلح للتقوى، فامتحنهم فنجحوا في هذا الامتحان، واختبرهم فتفوقوا، وطهر الله قلوبهم وأخلصها في هذا الامتحان فجعلها قلوباً صالحة للتقوى، هذه ثمرة عجيبة وعظيمة جداً.

ثم لما طهر قلوبهم فصلحت للتقوى بعد ذلك أثابهم هذا الأجر فقال لهم: ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾، مغفرة لذنوبهم، وهذه المغفرة تمحو عنهم ذنوبهم جميعاً، ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾، أجر جزيل كثير عظيم وهو فوزهم بجنات النعيم، بجنات النعيم.

لو سألك شخص قال لك: لماذا قدم المغفرة؟ ليش قال لهم مغفرة ثم قال أجر عظيم؟

هذه يقول أهل العلم هي **(التخلية قبل التحلية)**؛ أولاً تتخلى عن الشيء الذي لا يصلح ثم تتحلى بالشيء الحسن، فأولاً يزيل الله عنك ويطهرك من الذنوب ثم يحليك بالحسنات الطيبة والجر العظيم والأجر العظيم، فقبل لو قال لهم أجر ومغفرة وأخر المغفرة فما يتناسب؛ أولاً يغسلك الله من الذنوب ويطهرك حتى لا يبقى لك أي ذنب، ثم بعد ذلك تأتيك الأجور العظيمة التي تفوز بها.

هذه الآيات التي سمعناها في احترام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كأنها مقدمة لهؤلاء الذين رفعوا أصواتهم، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

أن الذين ينادونك بصوت عالٍ ويجهرون لك ويرفعون أصواتهم ولا يغضونها، هؤلاء مَن؟ قال: هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات، وأنت في إحدى حجراتك ترتاح من عناء التعب وهؤلاء لا يحترمون وينادون بصوت عالٍ.

قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. لا يعقلون؛ أي لا يعقلون الأخلاق والآداب الحسنة، قد يعقلون أشياء كثيرة ويفهمون لكن في جانب الأخلاق والآداب واحترام الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتوقيره ليس لهم، ليس هناك عندهم معرفة، ولذلك نقص عقلهم في هذا الجانب: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾.

ولاحظ من احترازات القرآن، لم يقل: إن الذين ينادونك من وراء الحجرات لا يعقلون؛ لأن فيهم ناساً ما نادوا ولا رفعوا أصواتهم فلماذا نحكم عليهم جميعاً؟

ولذلك شوف احتراز القرآن قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، ما قال كلهم. ينادونك؛ يعني يرفعون أصواتهم بقوة، وهذه -مثل ما ذكرنا لكم- نزلت في وفد (بني تميم) في السنة التاسعة، جاؤوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانوا سبعين رجلاً أو قريباً من ذلك.

ونادوا الرسول ليبايعونه وليعلنوا إسلامهم، وقد أسلموا ودخلوا في الإسلام ولكنهم وقعوا في هذا الشيء، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر بأن أكثرهم ليسوا جميعاً.

ثم بيّن قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحجرات: ٥]، ولو أنهم صبروا وتأنوا ولم يستعجلوا حتى تخرج إليهم من غير نداء ومن غير رفع صوت، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، يعني احترامك وتوقيرك ومعرفة حقك العظيم خير لهم من رفع هذا الصوت والنداء؛ فرفع الصوت والنداء قد يكون سبباً في حبوط العمل، وأما الصبر والتأني وخفض الصوت يكون خيراً، وإذا كان خيراً فإن الله يثيب عليه الأجر العظيم.

ثم لاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بلطفه ورحمته ما جازاهم؛ لأنهم لم يعرفوا هذا الحكم، ولأنهم حديثو عهد بالإسلام ولا يعرفون أحكام الرسول، ولا يعرفون توقير الرسول، فلذلك قال الله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥]، غفور لهم لما صدر منهم جهلاً ما يدرون، ورحيم بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، وإنما لم يعاقبهم لأنه رحيم بهم، وغفر لهم أيضاً هذا الذنب الذي وقعوا فيه لأنهم لم يعرفوا حكمه لجهلهم.

عندنا أيضاً -شوف الآيات كلها نداء- هذا النداء الآن الثالث: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

هذه فيها حكم في الأخبار، وأنا أقول حقيقة الفضلاء، جئتم لهذا الدرس تستمعون وتستفيدون وتتقربون إلى الله بهذا العمل الصالح، هذه الآية والله يا إخوان حقيقة تحتاج منا إلى أن نفهمها فهماً جيداً ونبلغ من ورائنا.

أخبار كثيرة تأتينا في هذه الرسائل ووسائل التواصل وغيرها، تأتينا أخبار ما ندري عن صحتها، فتجد كثيراً من الناس بدون؛ يعني بمجرد وصول هذه الرسالة، سواء كانت إرسالها مكتوبة أو صورة أو فيديو أو نحو ذلك، بمجرد أنه يطلع -أو ما يطلع أحياناً- ويرسلها، يرسلها إلى أكثر من شخص، هذه تذهب إلى الملايين من الناس!

فأنت لا تتعجل حتى يتبين لك الأمر؛ إن كان فيها خير ونفع فأرسلها، إن كان فيها غير ذلك لا تستعجل، أحياناً يرسلون أحاديث مكذوبة على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تصح، فتاوى غير صحيحة، آيات فيها أخطاء؛ فلماذا التعجل؟

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُم﴾، إذا جاءتك رسالة ما تدري تأتى، وشف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وفي قراءة: "إن جاءكم فتثبتوا"؛ في قراءة (تثبتوا)، تثبت وتبين ولا تستعجل.

عندنا الأخبار تأتينا -شوف الأخبار تأتينا-: إما أن يأتيك من ثقة فتقبله، إما أن يأتيك من كذاب فترده. شوف إن جاءنا من ثقة قبلناه، وإن جاءنا من ضعيف أو كذاب رددناه مباشرة لأنه كذاب، إذا جاءنا من فاسق -موصوف بالفسق- لكن ما ندري عن خبره هو صحيح ولا لا فنثبت ونتبين.

فالأخبار أو الناس ثلاثة أنواع:

- النوع الأول: شخص ثبت ثقة حجة تثق فيه، يأتيك بخبر تصدق.
- النوع الثاني: شخص معروف بالكذب وعدم الإتيان بالأخبار الصحيحة، هذا ترده مباشرة.

ولذلك أهل الحديث الذين ينقلون الروايات لنا والأحاديث ينظرون في أسانيد الرجال؛ فإن كان هذا الرجل ثقة قبلوه مباشرة، إن كان الرجل هذا كذاباً ردوا الحديث مباشرة، إن كان هذا الرجل ليس ثقة وليس كذاباً -مثل هذا الذي في الآية جاءنا فاسق.

يعني عنده شيء من صفات الفسق- فهذا نتثبت، ما نستطيع أن نرد ولا نقبل إلا بعد التثبت: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

ثم قال: ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾، حتى لا، لا تصيبوا، خشية أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين؛ إذا تعجلت، لكن ينبغي لك أن لا تتعجل وأن تتأنى وأن تتثبت وأن تتبين في هذا الأمر.

وهذه هذه الآية لها قصة؛ وهو أن **(الوليد بن عقبة بن أبي معيط)** أرسله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليأخذ الزكاة من قبيلة يقال لها قبيلة **(بني المصطلق)**، فذهب وكان بينه وبينهم قبل الإسلام يعني نزاع أو سوء تفاهم أو غير ذلك.

فخرج بأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يأخذ الصدقات، فهم لما علموا أن رسول الله قد خرج إليهم ليأخذ صدقات، بادروا مسرعين ليسلموا له، فهو لما رآهم مقبلين بخيولهم وإبلهم خاف، ففر؛ لأنه خاف أنهم سيقتلونه، فرجع للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: إن بني المصطلق خرجوا ليقاتلونا ولم يسلموا لنا الزكاة.

☜فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاءه هذا الخبر لم يستعجل؛ أرسل (خالد بن الوليد) ومعه يعني سرية، وقال: «اذْهَبْ وَتَثَبَّتْ وَانْظُرْ، فَإِنْ وَجَدْتَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ آمَنُوا وَأَنَّهُمْ صَادِقُونَ فَانْظُرْ فِي أَمْرِهِمْ، إِنْ وَجَدْتَ خِلَافَ ذَلِكَ فَقَاتِلْهُمْ».

فلما وصلهم خالد بن الوليد مع غروب الشمس فإذا هم يؤذنون ويصلون المغرب، فعلم أنهم لم يأتوا للقتال، فقابلهم وعلم أنهم أتوا بالزكاة، فقالوا: إننا سمعنا رسول الله قد أقبل علينا فسارعنا لتسليمه الزكاة، فلما رأيناه رجع قلنا إنه قد يعني أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد طلب منه الرجوع أو نحو ذلك.

فبعد ذلك نزلت هذه الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾.

لا نطيل عليكم، لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحجرات ٧ - ١١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للسابع عشر من شهر جمادى الأولى من عام (١٤٤٧ هـ). أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلني وإياكم من أهل القرآن؛ الذين هم أهل الله وخاصته.

درسنا في تفسير القرآن العظيم وسورة (الحجرات)؛ التي سماها بعض أهل العلم (سورة الآداب والأخلاق)؛ لما فيها من الآداب والأخلاق التي تحث عليها.

وذكرنا أن هذه السورة بينت أولاً الأدب مع الله ومع رسوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]؛ لا تسارع وتحكم وتعترض وتقترح أبداً، سلِّم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقل: سمعنا وأطعنا؛ هذا الأدب مع الله.

ثم الأدب مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن يوقر، وأن يعظم، وأن لا يرفع الصوت أمامه؛ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢]. ثم بيَّن من مدح الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله.

ثم بعد ذلك ذكر هذه القصة التي وقعت في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عام الوفود في السنة التاسعة؛ عندما قدمت الوفود إلى المدينة، وكان منهم هذه القبيلة.

قبيلة (بني تميم)؛ حيث جاؤوا وقت الظهيرة، ونادوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصوات، فقالوا برفع الصوت، نادوه يعني بغلظة وجفاء: يا محمد، اخرج إلينا قد جئناك، وكانوا ما يقرب من سبعين رجلاً.

فالله ذمهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]؛ لو كانوا يعقلون ما فعلوا هذا الشيء، النداء بالصوت العالي؛ أين توقير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واحترامه وتبجيله؟

ولذلك قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٥]؛ لكنهم لم يصبروا ولم يتأنَّوا، فذمهم الله.

- **لكن الله بعد ذلك ماذا قال؟**

قال: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥]؛ لأنهم فعلوا ذلك عن جهل وعدم علم، فغفر الله وتجاوز عنهم.

ولذلك تأتي الآية التي هي أيضاً من الآداب في سماع الأخبار، وهذه مهمة جداً سماع الأخبار، إذا سمعت خبراً لا تنقله هكذا، لا تتعجل بنقله، لست ملزماً بنقله لا في وسائل التواصل ولا في غيرها، لست ملزماً ولا بالمجالس ولا غيرها، لست ملزماً بنقل الأخبار.

إذا تأكدت من هذا الخبر وتيقنت، وفيه مصلحة راجحة أنك تنشره وتشيع به فانشره؛ ما في مصلحة، ولم تتأكد، فيُحذر كل الحذر، هؤلاء الذين يتعجلون بنقل الرسائل في ما يسمى بهذه (**الجروبات**) أو هذه المجموعات، ينبغي التثبت فيها.

الله سبحانه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]؛ تبينوا.

شوف الآن، الذين يأتون بالأخبار ثلاثة أقسام:

⬅القسم الأول: رجل ثقة وصادق ومعلوم أنه حجة، وثقة وصادق وكلامه مقبول، سواء في أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو في الأخبار على وجه الإطلاق؛ فهذا خبره صادق، وخبره مقبول، وأنه رجل صادق وثقة، فهذا يُقبل.

⬅القسم الثاني: رجل آخر مقابل هذا؛ عُرف عنه يعني أنه يكذب، وأنه لا يصدق بالحديث، وعُلم أنه لا يأتي بالأخبار الصادقة؛ فهذا ماذا حاله؟ يُرد قوله، فالكاذب يُرد قوله. والصادق المعروف بالصدق يُقبل قوله.

القسم الثالث: يبقى عندنا لا هذا ولا هذا؛ رجل فاسق بين هذا وهذا، لا نستطيع أن نقول إنه صادق، ولا نستطيع أن نقول إنه يكذب، وإنما يأتي بالخبر، ويحتاج هذا الخبر إلى عدم التعجل.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]؛ تثبتوا وتبينوا، هذا خبر فاسق؛ لأنه لو كان ثقة عدلاً قُبل قوله، لو كان كاذباً رُد قوله، لكن هذا بين هذا وهذا.

- **فهذا إذا كان بين هذا وهذا فما الحكم؟**

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]؛ تثبتوا.

وهذه القصة كما ذكرناها لكم واقعة، يعني هذه الآية نزلت في قصة وقعت في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم (**بنو المصطلق**)؛ لما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزاهم، ثم أسلموا بعد ذلك.

أرسل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (**الوليد بن عقبة بن أبي معيط**) ليأتي بالزكاة؛ لأنه أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله قد فرض عليهم الزكاة، فوافقوا وقبلوا ذلك، فأرسل إليهم، فهم لما تباطأ رسول الله، خرجوا ليبادروا بدفع الزكاة.

فلما رآهم الوليد مقبلين خاف، وخاصة أنه قد وقع بينه وبينهم في الجاهلية أمور؛ فلذلك خشي أن يتعرضوا له بسوء، فرجع مسرعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: إن بني المصطلق رفضوا الزكاة وجاؤوا يقاتلون!

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سمع هذا الخبر لم يتعجل، نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

فأرسل (خالد بن الوليد) بسرية وقال له ما معناه: «تَثَبَّتْ وَانْظُرْ فِي حَالِهِمْ، فَإِنْ رَأَيْتَ مِنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى إِسْلَامِهِمْ فَلَا تُسِئْ إِلَيْهِمْ وَلَا تَعْتَدِ عَلَيْهِمْ». فلما أقبل خالد فإذا هم يصلون المغرب والعشاء، فعلم أنهم لم يأتوا للقتال، فقابلهم فقالوا: إنا نبحث عن رسول الله حتى نعطيه، فلما رأيناه قد تأخر وتباطأنا هذا الأمر، جئنا مسرعين.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تثبت في هذا الأمر. والشاهد من القصة أنه أي شخص يأتيه خبر ولا يعرف أن هذا الخبر من جهة موثوقة فلا يتعجل؛ إن علم أنها من جهة موثوقة ومعروفة فيأخذ الخبر ويجعله عنده، وليس ملزماً بنشره.

وإن جاء من جهة غير موثوقة كالكذابين، فهذا يرفضه ولا يقبله، وإن جاء من جهة لا هذا ولا هذا، كالفساق الذين ينشرون الأخبار من غير تثبت، فهذا ينبغي أن يتثبت وأن يتبين ولا يتعجل.

ولذلك يعني هذا الأمر خطير جداً في أن يتعجل بالحكم؛ لو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سارع في ما ذكره الوليد بن عقبة وقاتلهم، لقتل أناساً مؤمنين، ولذلك تأنَّى في الأمر حتى نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]؛ تبينوا حقيقة الأمر واحتاطوا، ولا تتعجلوا بالحكم. الله هنا ما رد خبر الفاسق، ولم يحكم عليه بتكذيب، ولم يقبل قوله مباشرة، إنما قال: تبينوا.

فمثل ما ذكرنا: الثقة يُقبل، والكذاب يُرد خبره، وهذا ما رُد خبره ولم يُكذبه، وإنما قال: تبينوا؛ حتى يظهر لكم هل هو صادق أو كاذب؛ لأنه يحتمل أن يكون صادقاً ويحتمل أن يكون كاذباً، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبه على هذا الأمر صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال:

واعلموا أيها الصحابة أن فيكم رسول الله بين أظهركم، الرسول الكريم البار الذي يريد لكم الخير وينصح لكم بين أظهركم؛ فاحذروا أن تريدوا الشر له والمضرة عليه، فقد يوافقكم وقد يطيعكم في كثير.

ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]؛ يعني لأوقعتم أنفسكم في العنت وهو المشقة. يقول: لو أطاعكم الرسول في كل ما تقولون لوقعتم في مشقة عظيمة، فاحذروا واسمعوا وأطيعوا.

ولكن اعلموا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته بعث إليكم سيد البشر، هذا النبي الكريم؛ هذا النبي الذي يحب لأمته ما يحبه لنفسه، اعلموا أن هذا فضل من الله، ولذلك قبولكم له، وحرصكم عليه، وإيمانكم به، كله من الله.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

شوف لاحظ، حبب إلينا الإيمان فقط؛ حبب إلينا الإيمان، وكره إلينا ثلاثة؛ قال: الكفر والفسوق والعصيان.

- **لماذا حبب إلينا أمراً واحداً وهو الإيمان، وكره إلينا ثلاثة أشياء؟**

الجواب: لأن الإيمان إذا تأملت في الإيمان، شوف هذه حقيقة مهمة جداً جداً ينبغي لنا أن نتأملها، وهي: لما كان الإيمان ثلاثة أشياء؛ الإيمان هو: تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، هذا هو الإيمان؛ القلب يصدق، واللسان يقر، والجوارح (الأيدي والأرجل) تعمل.

لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]؛ الكفر يتعلق بالقلب، يقابل التصديق بالقلب، وكره إليكم الكفر، والفسوق يقابل الإقرار باللسان، الفسق باللسان.

ثم قال: والعصيان، العصيان العمل بالأركان؛ فالذي يعمل بطاعة الله بجوارحه هذا لا يعصي، والذي يحفظ لسانه لا يقع في الفسق والكلام السيء والشتم واللعن والكذب، والذي يصدق بقلبه لا يقبل الكفر.

فلذلك شوف قال هنا: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، ثم قال: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]؛ دل على أن الإيمان ثلاثة أشياء.

ثم قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]؛ أولئك الذين زين الله الإيمان في قلوبهم وحببه إليهم، وهم الراشدون الذين صلحت قلوبهم وصلحت ألسنتهم وجوارحهم.

هؤلاء هم الراشدون الذين اتصفوا بهذه الصفات، صلحت علومهم وأعمالهم. وضد الراشدين: (الغاوون)؛ الغي هو الضلال وهو الانحراف عن طاعة الله.

فهؤلاء أهل الرشد والعقل التام والاستقامة والثبات على الحق: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]؛ يثبتون على الحق ويستقيمون على طاعة الله.

هذا كله؛ أن الله حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم ونفعهم بهذه الأشياء، ليعلم الجميع أن ذلك كله فضل من الله ونعمة، ليس بقوة منك، لا تقول: أنا عندي وعندي وأنا أفعل؛ أنت ضعيف، هذه منة

من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا الخير الذي أنت تتقلب فيه فضل من الله عليك وإحسان، لا حول لك ولا قوة به، فضل من الله.

فاعلم أن ما فيك من هداية، ما فيك من خير، ما فيك من حفظ اللسان عن الغيبة والنميمة وحفظ اللسان عن الكذب، ما فيك من محافظة على طاعة الله وعلى ما أوجب الله من المكتوبات ومن الفرائض التي فرضها الله عليك ووفقك لطاعته؛ هذا فضل من الله.

أنت بقوتك وحولك والله لن تستطيع أن تذهب إلى المسجد ولا تصلي ولا تفعل شيئاً إلا أن يكون هذا فضلاً من الله ونعمة، ينبغي لنا أن نفهم هذا الأمر: فضل من الله ورحمة ونعمة، ينبغي أن نشكر الله عليها.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٨].

- **كيف عليم حكيم؟**

يجعل فضله بمن يستحقه، عليم وحكيم بمعنى أنه يضع الأمور مواضعها، هذا هو فضل من الله، حكيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليم بمن يشكر النعمة فيزيده ويوفق لها، وعليم بمن لا يشكر أو لا تليق به هذه النعمة فيضعها عند غيره فيحرمه منها بحكمته وعلمه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ﴾ [الحجرات: ٩]. شوف لما ذكر قصة الرجل الذي جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الوليد بن عقبة وقال إن القوم أرادوا قتلي وأرادوا أن يفعلوا؛ لو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بادر بقبول قوله لوقعت فتنة عظيمة، وأصبح هناك قتال.

والقتال قد يقع بين المسلمين والكافرين، والقتال مع الكفار هذا (جهاد) لا يناقش فيه، لكن إذا وقع القتال بين قبائل المؤمنين وبين صفوف المؤمنين فما حكمه؟ هذا هو الحكم؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩].

هذا يا إخوان من الأدب، من الأدب في هذه السورة؛ أن إذا حصلت أمور وشقاق بين قبائل وبين بلدان ودول الإسلام، أعطانا الحلول لها.

قال: ﴿وَإِن﴾؛ شوف (إن) ضعيفة هذه، (إن) يعني احتمال ضعيف شك، لكن لو قال (وإذا) فهذه قوية.

- **كيف قال: ﴿وَإِن﴾؟**

يعني قد يحصل طائفتان (مجموعتان، قبيلتان) من المؤمنين، كلهم مؤمنون، اقتتلوا؛ وقع القتال، الشيطان زين لهم هذا العمل فوقعوا في هذا الشر الكبير وهو القتال، فالحكم الشرعي في الإسلام هو أصلحوا بينهما؛ لا بد من التوسط، لا بد من التوسط وحل هذا النزاع حتى لا يتسع الأمر ويزيد الشقاق؛ لا بد من الصلح.

فإن صلحت وتم الصلح فبها ونعمت، وإن لم يحصل، يأتي يبين الله لك هذا فقال: ﴿فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]؛ رفضت وبغت ولم تقبل، والبغي هو التعدي؛ بمعنى تعدت عليها ولم توافق على الصلح، فقاتلوا هذه الباغية.

هذا قتال (البغاة)؛ الذين يخرجون ولا يريدون الصلح ولا يريدون التنازل، هؤلاء يقاتلون حتى يمنعوا من ذلك، وقال: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]؛ حتى ترجع، هذه معتدية تعتبر معتدية، هذه لا بد من مواجهتها بقوة حتى ترجع إلى حكم الله.

فإن فاءت ورجعت إلى حكم الله: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]؛ أصلحوا بينهما بالعدل.

- **ليش قال بالعدل؟**

لأن أحياناً الصلح يقع صلحاً حراماً؛ يعني يقع الصلح على وجه الحرمة.

☜**والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا، أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا»؛ إذاً فيه صلح ليس عدلاً، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ هنا قال: أصلحوا بالعدل، لا بد أن يكون هناك عدل في الصلح.

ثم قال: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾؛ اعدلوا عدلاً دقيقاً، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]؛ العادلين في أحكامهم يحبهم الله، العادلين في الحكم يحبهم الله. فإذاً من قام بالولاية وعدل بين المسلمين، وحكم بينهم وأقسط وعدل، هذا هو الذي أمر الله به؛ أمر: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ [الحجرات: ٩]؛ حتى ينتهي هذا الأمر.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

طائفتان من المؤمنين اقتتلوا؛ أول شيء:

⬅أولاً: أن الله سماهم مؤمنين ما أخرجهم عن دائرة الإسلام، حتى لو وقع القتل ما يسمون كفاراً.

⬅ثانياً: أن الذي يقتل أو يقع في ذنب أو في كبيرة كالقتل لا يخرج عن دائرة الإسلام، لا نخرجه عن الإسلام بل نسميه مسلماً ولكنه فاسق بكبيرته؛ فاسق بكبيرته، وحكمه عند الله في الآخرة تحت مشيئة الله، وفي الدنيا يحاسب على فسقه وهو ما زال في الإسلام؛ لأن الله سماهم مؤمنين.

ثم أكد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على علاقة المسلمين، علاقة قوية، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ في مشرق الأرض ومغربها، كلهم مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقضاء والقدر؛ إذاً هم كلهم واحد، وهذا يدل على أن الأمة أمة واحدة، ينبغي أن تكون أمة واحدة.

☜**كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ»، وقال: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا؛ الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ».

كل هذا ينبغي أن يتقارب المؤمنون بعضهم بعضاً: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ أصلحوا، شوف قال: ﴿أَخَوَيْكُمْ﴾ كأنهم اثنين؛ ليش؟ لأن دائماً أول ما يكون الخلاف بين اثنين فما فوق.

﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وما زاد فوجوب الإصلاح؛ لأن الله لما أمر في الأول قال: الطائفتان اقتتلوا فأصلحوا بينهما، عمم الحكم فقال ليقع الصلح في كل خصومة، والمؤمنون كلهم إخوة؛ لو وقع بينهم أي شيء من هذا فهم ينبغي لهم أن يصلحوا بينهم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ قوموا بحقوقه وبما أوجب الله عليكم وحافظوا على تقوى الله، فإن المحافظة على تقوى الله والقيام بحقها سبب للرحمة.

ولذلك قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ أي إذا اتقيتم الله فإن الرجاء قريب منكم من رحمته.

وشوف قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]؛ أي رجاء أن تعمكم رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ إذا أصلحتم واتقيتم الله وصفحتم عما وقع بينكم، فإنها ستعمكم الرحمة، وإذا عمتكم الرحمة اجتمع المسلمون كأنهم جسد واحد، كأنهم جسد واحد.

شوف عندنا الآية التي بعدها في أحكام وآداب خاصة مهمة جداً، منها السخرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

- **ما هي السخرية؟**

السخرية هي الاحتقار؛ تحتقر أخاك المسلم أو أختك المسلمة، هذه أخلاق سيئة، الإسلام يريد أن يزيل هذه كلها من قلوب المسلمين، هذه الأخلاق السيئة. السخرية استهزاء واحتقار؛ احتقار، لا يستهزئ، لا يحتقر، لا يعيب، لا يزدري، كل هذه لا، لا تحتقره لا بقول ولا بفعل، وحتى ولا بإشارة؛ لا يجوز.

المسلم قال: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]؛ يعني رجال، لأنه قابلهم بالنساء؛ القوم هنا المراد بهم الرجال، لأنه قال: ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ يعني الرجال، ثم قال: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ [الحجرات: ١١].

﴿عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١]؛ عسى أن يكون هذا المحتقر والمسخور منه خيراً من هذا، وهذا الواقع؛ تجد بعض الناس يتكبر وينظر في نفسه أنه أفضل وأحسن، فيسخر من أخيه الذي تحته، فالله رفع هذا فوق هذا.

وقال بعدها: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

- **لماذا خص النساء مع أنهن يدخلن في الخطاب؟**

الجواب: خصَّهن لأن السخرية والاحتقار كثيراً ما تكون بين النساء، والمرأة لسانها كثيراً ما يقع في مثل هذا الأمر؛ فكلام النساء بالسخرية أكثر من كلام الرجال بالسخرية. الرجال تجدهم يعني يقعون في السخرية، والقرآن بيَّن ذلك، لكن الرجل دائماً جرأته في يديه؛ ممكن أن يضرب، ممكن أن يفعل، والمرأة جرأتها بلسانها.

فلذلك خصَّها الله فقال: ﴿عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]؛ عسى أن تكون هذه المرأة التي سُخر منها خيراً من الساخرة، خيراً من الساخرة.

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]؛ لا تلمزوا.

اللمز: العيب، تعيبه، لا تعب أخاك.

- **ما معنى العيب هنا؟**

العيب كأن يقول: يا طويل، يا قصير، يا أسود، يا أبيض، يا سمين، ونحو ذلك، هذه كلها عيوب، يا أعور، يا أعمى، يا هكذا؛ ذكر أشياء هذه عيوب، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل سورة كاملة فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]؛ يلمز الناس.

شوف قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]؛ كيف الإنسان يلمز نفسه؟ أنفسكم يعني إخوانكم؛ جعلهم كالجسد الواحد، يعني أنت إذا لمزت أخاك المسلم فكأنك تلمز نفسك؛ لأنكم كالجسد الواحد.

ولذلك شوف، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]؛ ولا تقتلوا إخوانكم، فكأنهم جسد واحد، فلا يجوز العيب واللمز في إخوانك المسلمين؛ هذا كله ليس من الأدب الإسلامي.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]؛ لا يعير بعضكم بعضاً بالألقاب، يذكر هذه الألقاب؛ أحياناً يقول: يا منافق، أو يقول: يا يهودي، أو نحو ذلك، أو يستهزئ به كأن يكون في رجله عرج فيقول: يا أعرج، أو يكون نظره ضعيفاً فيقول: يا عميان، أنت ما تشوف يا عميان، أو نحو ذلك من الألقاب السيئة؛ هذه ألقاب يعني يلقب بها، لكن يستثنى من ذلك الألقاب الطيبة؛ يعني مثل أن يقال مثلاً: يا فلان، يا هذا لقب.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمى عمر **(الفاروق)**، ولقبه بالفاروق، وعثمان بـ **(ذو النورين)**، هذه ألقاب طيبة، وألقاب أحياناً تكون مشهورة مثل ألقاب السلف.

السلف كانوا يقولون: **(الأعمش)**، **(الأعرج)** إذا كان مشهوراً وليس به بأس، فهذا أو لا يُعرف إلا بهذا؛ فهذا جائز.

لكن إذا كان على سبيل التطنز والتنابز والتداعي بالألقاب السيئة، فهذا سماه الله: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]؛ كيف إيمانك يمنعك، أنت فسقت الآن وخرجت؛ استبدلت ماذا؟ الإيمان والأدب والأخلاق بالفسق والعصيان والتنابز بالألقاب، والتنابز بالألقاب.

هذا ينبغي أن يحذر الإنسان منه، واعلم أن السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، هذه كلها كبائر ينبغي للإنسان أن يحذر منها.

ولذلك شوف قال الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١]؛ سماهم ظالمين. الإنسان إذا لم يتب من هذه الأشياء يقع في الظلم، يقع في الظلم.

لا تزال أيها الإخوة هذه الآيات تتحدث عن هذه الأخلاق؛ سيأتينا الظن السيء، سيأتينا الغيبة التي هي أخطر شيء، التجسس؛ هذا كله سيأتينا، ولكن لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله. في لقائنا القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحجرات ١٢ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من شهر جمادى الآخرة من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، ويجعلنا وإياكم أيضاً من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته. نقرأ آيات من كتاب الله، نبين معانيها، نتدبرها، نتفكر فيها، نسأل الله أن ينفعنا بها.

ما زلنا في (سورة الحجرات) وفي آخرها وهذه التوجيهات الربانية والآداب والأخلاق. وعرفنا أن السورة هي تتحدث عن الآداب والأخلاق؛ الأدب مع الله عَزَّ وَجَلَّ ومع رسوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، ثم الأدب مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، ثم أيضاً الذين ينادون رسول الله من وراء الحجرات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

ثم بدأت الآيات تبين الأدب مع المؤمنين بعضهم مع بعض، سواء كانوا على مستوى الأفراد أو مستوى الجماعات والقبائل والطوائف: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]؛ سماهم مؤمنين.

ثم قال في آخر الآيات: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]. ثم بدأت الآيات تتحدث عن بعض الأخلاق السيئة التي حذر منها القرآن وحذرت منها السنة، وهي: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وغيرها من الآيات، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]؛ كل هذه أخلاق سيئة الإسلام يحذر منها.

ثم وقف بنا الكلام عند الآية الثانية عشرة وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

شوف تأمل أولاً النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ نداء، الله ينادي المؤمنين، ومعنى آمنوا؛ أي: صدقوا الله وصدقوا رسوله، وعملوا الصالحات، وتخلقوا بالأخلاق الحسنة الطيبة. احذروا واجتنبوا وابتعدوا عن كثير من الظن.

- **لماذا لم يقل جميع الظن؟ ليش قال كثير؟**

قال: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، ما قال اجتنبوا الظن، مثل ما قال لا تنابزوا، لا تلمزوا، لا يسخر، ما قال اجتنبوا (**كل الظن**).

الظن فيه ما هو ظن حسن مقبول، وفيه ما هو ظن سيئ؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾. فالظنون الحسنة الطيبة أن تظن بأخيك المسلم الظن الحسن.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]. فأنت إذا رأيت أخاك المسلم على أي أمر من الأمور، أول ما يتبادر لك حتى يكون صدرك سليماً؛ ظن بأخيك الظن الحسن، ظن بأخيك الظن الحسن، أما الظن السيئ فاتركه.

- **ولذلك الله ماذا قال؟**

قال: اجتنب؛ ابتعد عن الظنون السيئة، إلا إذا وجدت أمارات تدل على أنه فعلاً يُظن به الظن السيئ، وجدت أمارات وعلامات تدل؛ لأن الله قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

فالظن، شوف الظن فيه ما هو ظن حسن، وفيه ما هو ظن واجب؛ الشريعة بنت بعض الأحكام على الظنون الواجبة، الآن أنت تصلي في الصحراء مثلاً، أو في طريق أو كذا، تصلي إلى القبلة، هل أنت فعلاً يعني تتيقن هذه القبلة؟ إنما أنت تتحرى، تتحرى القبلة، فالتحري هذا ظن، وهذا ظن واجب عليك أن تظن.

فهكذا في أشياء ظنون يعني الشريعة أقرتها وأمرت بها. وهناك ظنون حسنة مأمور بأن تظن بأخيك المسلم الظن الحسن، وهناك ظنون سيئة محرمة التي نهى الله عنها قال: ﴿ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾؛ لأن

أكثر الظنون من الناس ظنون ليست مبنية على يقين وليست حسنة، ولذلك قال: كثير من الظن. ثم بين السبب والعلة، قال لماذا؟

قال: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾؛ يعني بعض الظن بالمسلمين يجعلك تأثم، يجعلك تقع في الإثم وتقع في الذنب إذا ظننت.

الآن خلونا مع الواقع حقيقة، يعني لو نعيش مع الواقع حقيقة تجد كثيراً ممن يقع في الظنون السيئة؛ يعني مثلاً عاملك شخص معاملة قد تكون معاملة حسنة وظاهرها حسن، تظن تقول: لا، ما فعل كذا إلا لأجل كذا، تظن الظن السيئ.

عندك مثلاً سائق في البيت أعطيته مثلاً شيئاً يذهب به ثم تأخر، ظننت الظن السيئ أنه ذهب إلى كذا وكذا، عاملة في البيت، أنت فقدت شيئاً في البيت ظننت بها أنها هي التي أخذت هذا الشيء.

ظنون كثيرة مرجعها ليس إلى اليقين، وإنما الشيطان هو الذي يحدث هذا الشيء ويصرفك عن أن تظن بأخيك المسلم الظن الحسن، ولذلك ينبغي للمسلم دائماً، ينبغي له أن يظن بأخيه الظن الحسن لا الظن السيئ، يحذر من الظنون السيئة ويبتعد عنها، احملها على المحامل الطيبة إذا تكلم أو فعل أو كذا.

هذا أدب من الله يؤدبنا بأن لا نظن بإخواننا المسلمين الظن السيئ ونحمل هذه الأشياء على ظنون سيئة وهي كلها مبنية على التوهم والحدس ونحو ذلك؛ لا، وإنما ينبغي لنا دائماً أن نحمل كل هذه الأشياء على محامل حسنة حتى ترتاح النفس ويسلم الصدر، ينبغي أن تكون قلوبنا سليمة وصدورنا سليمة من هذه الأمور التي قد تجر إلى مخالفات وإلى آثام ونحن لا ندري؛ الظن بعضه إثم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً نهانا عن خلق سيئ فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢].

التجسس هو تتبع الشخص فيما يفعله، هذا التجسس، عندنا تجسس وعندنا تحسس؛ ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]. التحسس والتجسس؛ تلاحظ أن الله يقول: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، والآية تقول: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾.

التحسس هو تتبع الأخبار، والتحسس قد يكون مباحاً وجائزاً وقد يكون محرماً؛ تحسس لأنه تتبع الأخبار بالسمع، تتبع الأخبار بالسمع هذا نسميه تحسساً.

أما التجسس فهو تتبع الأخبار أو تتبع الأشياء بالعين. وقف صاحب سيارة فيجلس ينظر إليه وينظر إلى سيارته، جارك يريد أن يقف عند بيته ينظر من الذي معه؟ وماذا فعل؟ وماذا صنع؟

هذا تجسس. باب مفتوح تنظر فيه، هذا تجسس. بجانبك شخص في مثلاً في مكان، في مكتب، في مسجد، ينظر في جواله، تأتي أنت وتنظر في جواله، هذا كله من التجسس، أو تستمع لكلامه، أو شخص بجنب آخر يتكلم بعضهم يتكلم مع بعض يأتي هذا ويتسمع؛ فهذا التجسس الله نهى عنه قال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

- **إذا رأيت شخصاً، الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا يقول؟**

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، الإنسان ينظر بعين خائنة، ينظر إلى الناس، ينظر إلى النساء، وينظر إلى البيوت، وينظر إلى الجيران، وينظر إلى من بجانبه في المسجد، ينظر إلى الجوال، ينظر إلى كذا؛ هذه التجسسات الله نهى عنها حتى يسلم قلبك من هذه الأشياء، قد هذا يجرك إلى الحسد والبغض ونحو ذلك فابتعد عنه.

ثم أمر آخر وهو أعظم من هذه الأمور كلها؛ (الغيبة)، قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

الغيبة مأخوذة من الغيب أو من الغيبة؛ لأنك تذكر أخاك وهو غائب، تذكره بسوء، ما تذكره بخير؛ لو كنت تذكره بخير كان هذا أمراً طيباً، لكن تذكره بسوء هنا الإشكال، يعني ذكرك أخاك بما يكره.

تأتي إلى المجالس تقول: ترى فلان فيه كذا، ترى فلان فيه كذا. تأتي إلى بيتك أو إلى جارك أو إلى كذا: تعرف فلان؟ تعرف فلان فيه كذا وفيه كذا، هذه غيبة؛ ذكرك أخاك بما يكره، هو لا يريد أن تتكلم في عرضه.

لكن لو كان حديثك في مدحه وذكره بالخير وبما يحب، هذا ما نسميه غيبة، هذا نسميه مدحاً وثناءً لهذا الشخص، هذا جائز؛ والله فلان ما شاء الله تبارك الله، صاحب ما شاء الله قرآن، صاحب صدقة، صاحب معروف، صاحب خلق عالٍ، تذكره بالخير؛ هذا ما نسميه غيبة.

الغيبة أن تذكر أخاك بشيء لا يحبه ويكرهه، هذه هي الغيبة وهي التي امتلأت المجالس منها، واستحوذت على كثير من المجالس، إذا جلسوا في مجالسهم بدأوا في مثل هذه الأحاديث.

استثنى الإسلام والعلماء وأهل العلم، استثنوا من هذا أموراً من الغيبة؛ يعني مثلاً في حالة تظلم؛ شخص مظلوم، له أن يذكر من ظلمه.

☜**ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاءه رجل وقال:** يا رسول الله إن جاري قد آذاني، قال: «اخْرُجْ»، قال: «اخْرُجْ مَتَاعَكَ فِي الطَّرِيقِ»، فإذا مر أحد قل: جاري آذاني.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أباح له أن يذكر التظلم. وهند بنت عتبة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا جاءت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: «إِنَّ أَبَا سُفْيَانَ رَجُلٌ شَحِيحٌ»؛ هذا غيبة، لكن لما كانت في مصلحة ومن باب التظلم أو الشكاية إلى القاضي أو نحو ذلك؛ هذه جائزة.

أو شخص جاء يسألك فقال: والله فلان قد تقدم لنا خاطباً يريد أن يخطب ابنتنا ونحن لا نعرف هذا الرجل الذي جاء يخطب البنت، فماذا تعرف عنه؟ فلو قلت فيه مثلاً: فيه كذا وفيه كذا من الأخلاق السيئة، هذه ما تسمى غيبة، هذه مستثناة.

أو شخص عرف بصفة معينة كال(الأعرج) وال(الأعمى) وال(الأعمش) وال(الطويل) وال(القصير)، إذا كان هو يعني يسمح بهذا ولا يكون في نفسه شيء أن تقول فلان كذا، فهذه أيضاً استثناها العلماء؛ عندنا من العلماء الإمام (الأعمش) و(الأعرج) ونحوهم، في علماء عُرِفوا بهذا اللقب، هذا جائز.

فالشاهد من الكلام أن الغيبة كبيرة من كبائر الذنوب ومحرمة، وينبغي للمسلم أن يحذر وأن يبتعد عنها.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حذر بأقوى أساليب التحذير؛ فقال أولاً النهي الصريح: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، ثم مثّل بالغيبة فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

شوف الاستفهام على وجه الإنكار؛ هل يحب أحد منا أن يأكل لحم إنسان؟ في أحد يحب أن يأكل لحم الإنسان؟ هذا أمر.

ثم هذا الإنسان أخ لك في الإسلام، ليس أي إنسان، ليس كافراً أو مشركاً؛ لا، أخوك في الإسلام، ثم هذا الإنسان هو أخوك وميت ليس حياً، فكيف تقدم على شخص إنسان وميت ومسلم وأنت نفسك تكره هذا الشيء ولا تقبل عليه؟ كيف تفعل؟ الذي يغتاب هو يفعل هذا الشيء.

- **ولذلك الله ماذا قال بعدها؟**

قال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]؛ خافوه، خافوا الله وخافوا عقابه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾. شوف يقول: اتقوا الله وخافوه واحذروا عقوبته.

ثم يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾؛ يعني أن الله فتح باب التوبة لمن تاب من هذه الأخلاق السيئة، فمن تلبس بهذه الأخلاق السيئة من الظنون السيئة أو من التجسس أو من الغيبة فعليه أن يبادر بالتوبة، فإن الله تواب ورحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يتوب كثير التوبة ويتوب على عباده ويرحمهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينادي نداءً ليس للمؤمنين ولا للكافرين، وإنما نداء للناس عامة، وهم بنو آدم كلهم، فيبين حقيقتهم فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]؛ يعني أصلكم هو آدم وزوجته حواء، أنتم ترجعون كلكم إلى آدم وآدم من تراب، من ذكر وأنثى.

ثم قال لما خلقكم من هذا الأصل فجعلكم شعوباً وقبائل؛ الشعوب أوسع من القبائل، القبائل تحت الشعوب، فتقول هذا الشعب العربي وتحته قبائل، فالشعوب تحتها قبائل، ف﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ لماذا؟

﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾؛ نعرف هذا من أين وهذا من أين، وليس هذا من باب التدخل في الآخرين.

فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا جاءه رجل قال: «مِنْ أَيِّ الْبَلَدِ أَنْتَ؟» ومن أين كذا، فالسؤال عن الشخص وعن بلده وعن أصله هذا لا بأس من باب التعارف، الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾؛ يعني لأن كثيراً مما يجري من الناس من يفتخر بحسبه ونسبه، يفتخر يقول: أنا فلان بن فلان وأنا من فلان وأنا من قبيلة كذا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: هذا لا، هذا ليس في ميزان الإسلام؛ ميزان الإسلام التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾. بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي؛ أين منزلتهم عند الله؟ وأبو جهل وأبو لهب وفلان وفلان من رؤوس الشرك، ما نفعهم نسبهم ولا حسبهم.

فالكرامة عند الله بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ وطاعته والاستقامة على شرعه والتخلق بأخلاق الإسلام، أن أكرمكم عند الله هو الأتقى؛ أنت تقي تخاف الله وتراقبه وتعمل الأعمال الطيبة، أنت كريم عند الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾؛ عليم بكم وبما تكنه صدوركم، وخبير بأعمالكم، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ فلا حاجة إلى التفاخر بالنسب ولا بالحسب.

تختم السورة بموقف الأعراب؛ شوف هذه من الأخلاق أيضاً، من الأخلاق السيئة أن الإنسان يدعي لنفسه أشياء لا ينبغي له أن يذكرها، فهؤلاء الأعراب أولاً افتخروا بأنهم وصلوا إلى منزلة من منازل الدين وهم لم يصلوا إليها، وأيضاً زكوا أنفسهم.

وفي نفس الوقت أيضاً شوف يمنون على الله لإيمانهم؛ أنت تمن على الله وتمن على دينه وتمن على شرعه وتمن على المسلمين في أنك تصلي وأنك تصوم وأنك تفعل! الله هو الذي يمن عليك أن هداك، الذي هداك للصيام والصلاة والطاعة هو الله.

هذه الطائفة من الأعراب، والأعراب هم ساكنو البادية، هم أهل البادية، ونعرف جميعاً أن أهل البادية يغلب عليهم الجهل، يغلب عليهم الجهل والجفاء. فهؤلاء طائفة جاءت إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: آمنا، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم أنهم لم يصلوا إلى درجة الإيمان.

نعرف نحن مراتب الدين: الإسلام، ثم فوقه الإيمان، ثم فوقه الإحسان؛ هذه مراتب الدين، فالإيمان في القلب والاسلام في الجوارح؛ الإسلام صلاة وزكاة وصيام وحج، هذا الإسلام وهذه أركانه.

الإيمان: الإيمان بالله، الأشياء الغيبية، يؤمنون بالغيب، الإيمان بالملائكة، الإيمان باليوم الآخر، بالجنة، بالنار، بالقضاء، بالقدر، بالكتب والرسل؛ هذا هو الإيمان.

- **فهل أنتم وصلتم تقولون آمنا؟**

أنتم حتى الآن في بساط، في بداياتكم، ما زلتم مسلمين؛ ولذلك لما قالوا آمنا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]؛ أنتم لا تزكوا أنفسكم ولم تصلوا للإيمان، ولكن قولوا أسلمنا، أسلمنا نعم استسلمتم وانقدتم إلى ربكم، هذا واضح.

ثم قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾. (لما) غير (لم)؛ لو قال لم يدخل يعني لم يدخل خلاص، لكن يقول (لما يدخل) يعني سيدخل، لما يقال لك مثلاً: هل جاء زيد؟ تقول: لما يأتِ؛ يعني سيأتي بعد قليل، لكن إذا قلت: لم يأتِ، معناه قطعاً أنه لم يأتِ.

فتشوف الآية فرق لما يقول: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ﴾ يعني سيدخل، لكن لا تستعجلوا، لا تستعجلوا أن تقولوا آمنا، انتظروا سيدخل الإيمان. متى يدخل الإيمان؟ إذا رسخ الإسلام وامتثلتم أركان الإسلام وحافظتم عليها، بعد ذلك ترتقون إلى الإيمان: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

ثم وجههم إلى توجيهٍ ما هو أفضل من هذا كله: لا داعي إلى أن تزكي نفسك تقول أنا مسلم ولا أنا مؤمن، أطيعوا الله؛ ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات: ١٤]، طاعة الله ورسوله خير لكم، قولوا: نحن نطيع الله ونمتثل أوامره.

إذا أطعتم لا يلتكم من أعمالكم، لا ينقصكم؛ **(لا يلتكم)** يعني لا ينقصكم من أعمالكم شيئاً أبداً، بل تضاعف لكم الأعمال والأجور، تضاعف لكم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ غفور بعباده، يغفر لذنوب العباد ويرحمهم. فأنتم أكثروا من الطاعات، وأكثروا من الاستغفار، وتواضعوا لله ولا تزكوا أنفسكم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يضاعف لكم الأجور ويتجاوز عن سيئاتكم.

- **ولذلك بين لهم مَن هو المؤمن حقيقة؟**

اسمع هذا، المؤمن حقيقة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]؛ صدقوا بكل ما جاءهم عن الله ورسوله ولم يترددوا في شيء، ثم لم يرتابوا؛ لم يشكوا في شيء مما أخبرهم الله ورسوله، ثم فوق ذلك: ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾؛ قدموا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

ولذلك نعرف مواقف الأعراب لما دعاهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجهاد كثير منهم اعتذروا، ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ [الفتح: ١١]؛ أما هؤلاء فجاهدوا بأموالهم، قدموا أموالهم وقدموا أنفسهم في سبيل الله، الجهاد.

قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]؛ هم الذين هم الذين يحق لهم أن يقولوا: نحن مؤمنون، يقولون: آمنا، أما هذا الذي لم يصل إلى هذه الدرجة فلينتظر.

شوف قال بعدها: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٧]، لا، قال قبلها: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]. قل لهؤلاء الأعراب: أنتم تخبرون الله بدينكم؟ تقولون آمنا أو تقولون أسلمنا! الله يعلم، فلا تزكوا أنفسكم

ولا تخبروا الله، الله خبير بكم، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، لا يخفى عليه شيء في السماوات ولا في الأرض، وهو بكل شيء عليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كل هذه آداب وتأديب لهؤلاء، ثم أيضاً يذكر موقفاً آخر من مواقف هؤلاء الأعراب؛ وهو أنهم يمنون على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإسلامهم، يقولون: جئناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك يا محمد، بل جئناك واستسلمنا لك ودخلنا في دينك؛ تمنون علي؟!

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، لا تمنوا عليّ أن دخلتم في الإسلام، فإن هذا النفع ودخولكم الإسلام لكم أنتم، هذا هو الذي ينفعكم ويعود إليكم. والمنة حقيقة هي لله، هو الذي يمن عليكم؛ ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ ووفقكم لطاعة الله، ولم تكونوا في جاهلية، ولم تكونوا في شرك وكفر، بل منّ الله عليكم بأن هداكم للإيمان ووفقكم لطاعة الله، هذه المنة.

أما أنتم تمنون؟! مَن أنت حتى تمن على الله وتمن على رسوله؟! ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]. فاعلموا، إن كنتم صادقين في إيمانكم، فاعترفوا واعلموا أن المنة كلها لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك بيّن الله لهم سعة علمه وإحاطته بكل شيء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والله بصير بما تعملون؛ مطلع، عالم، محيط، شهيد على أعمالكم، بصير بأعمالكم.

فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بصيراً بأعمال العباد، مطلعاً، عالماً، فينبغي أن يتأدب العباد مع الله، ويعملوا الأعمال التي يجازون عليها بأحسن الجزاء.

هذه الأخلاق والآداب التي ذكرت في هذه السورة وختمت بتعليم هؤلاء الأعراب كيف يتأدبون في حديثهم، كيف يتأدبون في إيمانهم، لا يزكوا أنفسهم ولا يمنوا بإيمانهم؛ كل هذه الآداب ينبغي لنا أن نتخلق بها.

السورة حقيقة مهمة جداً، نحتاج جميعاً لهذه السورة في آدابها وفي أخلاقها، نسأل الله أن يرزقنا الخلق الطيب والخلق الحسن، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يجعلنا وإياكم ممن يقرأ القرآن ويتدبر آياته ويعمل بهذه التوجيهات والأخلاق.

ينبغي لنا أن نتخلق بها وأن نعمل، نحن أولى من غيرنا ما دمنا سمعنا وقرأنا، يجب علينا أن نكون في مقدمة من يتخلق بهذه الأخلاق، نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ ق)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(ق ١ - ٣٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين؛ اللّٰهم بارك لنا في أعمالنا، وأوقاتنا، وعلمنا، وعملنا.

هذا اليوم هو اليوم الثامن عشر من الشهر السادس من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة (١٤٤٧ هـ)؛ أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

بين أيدينا سورة جديدة، وهذه السورة فيها فضائل، وأيضاً لها أشياء أخرى؛ منها أنها تُعد أول سورة من سور (المفصل).

والقرآن يقسمه أهل العلم إلى أربعة أقسام:

- القسم الأول: (الطوال)؛ وتبدأ من البقرة، وهي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة مختلف فيها هل هي الأنفال مع التوبة، أو يونس، على خلاف.
- القسم الثاني: (المئون)؛ ومعناها السور التي عدد آياتها يقارب المائة أو يزيد قليلاً؛ مثل: الإسراء، والكهف، وهود، ونحوها.
- القسم الثالث: (المثاني)؛ وهي السور التي تتراوح آياتها ما بين ستين آية إلى سبعين؛ مثل: غافر، والأحزاب، ونحوها، وسميت مثاني؛ لأنها تُثنى وتُعاد وتُكرر.
- القسم الرابع: (المفصل)؛ وسمي بالمفصل لكثرة الفصل بين سوره بالبسملة، وهو خمسة وستون سورة، وكثير من أهل العلم يقولون إنه يبدأ من أول سورة (قاف)، فهذا يسمى بـ(المفصل)؛ فـ(قاف) هي أول سورة من سور (المفصل).

ومن فضائل هذه السورة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرؤها في صلاة العيد، في العيدين؛ يقرؤها في الركعة الأولى، وفي الركعة الثانية يقرأ سورة ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]؛ لما

بين السورتين من تقارب، ولما في السورتين أيضاً من الحديث عن اليوم الآخر، والتذكير بجمع الناس في يوم القيامة.

وأيضاً من فضائل هذه السورة: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخطب بها في يوم الجمعة؛ يعني إذا جاء يوم الجمعة وأراد أن يخطب بالناس في خطبة الجمعة يقرأ سورة (قاف) ويجعلها في خطبتين.

☜ **تقول أم هشام بنت حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:** «حَفِظْتُ قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مِنْ فِيهِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ عَلَى الْمِنْبَرِ».

☜ **وجاء في حديث قطبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْه أنه قال:** «صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلاَةَ الْفَجْرِ فَقَرَأَ سُورَةَ قَ حَتَّى قَرَأَ: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ [ق: ١٠]»؛ فقلتُ -يقول الراوي- فقلتُ في نفسي: باسقات! باسقات! كأنه لم يستوعب معنى الباسقات، فهذه يعني ما يتعلق بفضائل هذه السورة.

وهذه السورة من السور (المكية)، وهي تسمى بسورة (قاف)، أو أحياناً تسمى بسورة (قاف والقرآن المجيد)، وأحياناً تسمى بسورة (الباسقات)؛ لأن كلمة الباسقات لم ترد إلا في هذه السورة.

وهذه السورة -كما يظهر للجميع وكما هو بيِّن- تتحدث عن اليوم الآخر، وعن البعث، والجنة، والنار؛ وتقرر في بدايتها شرف هذا القرآن وعظمته؛ لأن الله سماه أو وصفه بأنه مجيد.

وتلاحظ أن أول السورة الحديث عن القرآن وتعظيم هذا القرآن، وآخر السورة يتحدث أيضاً عن القرآن في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]؛ إذن القرآن له شرف، والقرآن يُذكَّر به الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم، والقرآن فيه منافع عظيمة؛ لأن الله سماه مجيداً، و(المجيد) -كما سيأتي- هو السعة والخير والبركة الكثيرة.

مثل ما هو واضح، السورة تحدثت عن عظمة هذا القرآن وشرف هذا القرآن، ثم بينت مواقف المشركين من القرآن، والدعوة، ومن البعث يوم القيامة، واستدلت في الرد عليهم لما أنكروا البعث بالأدلة المشاهدة الواضحة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

ثم قال: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧]. ثم بعد ذلك خوفهم وتوعدهم بالوعيد الشديد في إهلاك الأمم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ

وَثَمُودُ﴾ [ق: ١٢] فخوفهم؛ ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى علمه وإحاطته بكل شيء: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦].

ثم دخلت الآيات في الحديث عن اليوم الآخر بدايةً من سكرات الموت: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، ثم نُفخ في الصور: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [ق: ٢٠]، ثم حشر الناس؛ فمنهم الشقي الذي يُحشر إلى نار جهنم، ومنهم التقي الذي يفوز بجنات النعيم.

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى بيان عظمة الله وقدرته: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، ثم الحديث عن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤] إلى آخره.

إذن جو السورة هو جو الحديث عن البعث والجنة والنار، وأن السورة تقرر هذه قضية الإيمان باليوم الآخر التي ينكرها هؤلاء المشركون أو الملحدون أو المشككون بالبعث؛ والله أثبت لهم قدرته على البعث، وأنه لا شك ولا مرية في أن الله سيبعث من في القبور، وأن هناك جنة وهناك ناراً.

وأن هناك حساباً وعذاباً. السورة تقرر الإيمان باليوم الآخر؛ مَن فقد الإيمان باليوم الآخر ولم يستعد لهذا اليوم ضاع في هذه الدنيا ولا يدري أين يذهب، هذا معنى اليوم الآخر.

نبدأ بالسورة في تفاصيلها؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

- **ما معنى كلمة (قاف)؟**

الجواب: (قاف) باختصار وعدم تطويل وعدم دخول في أشياء لا ندري عن صحتها، هو حرف من حروف الهجاء: القاف، والفاء، والطاء، والسين، كلها حروف؛ مثل: (طسم)، و(ألم)، و(حم)، و(ق)، و(ص)، و(ن)، كلها حروف، وأما غيرها مما يُقال إن معناها كذا ومعناها كذا، وأنه جبل قاف، فهذا كله الله أعلم بصحته ولا دليل عليه.

لما افتتح الله بهذا الحرف، أقسم الله بالقرآن؛ قال: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و(المجيد) كما هو معلوم من المجد؛ وهو الشرف، والسعة، والبركة، والخير الكثير.

أقسم الله بالقرآن ووصفه بأنه مجيد لعظمته، وشرفه، ومكانته؛ حتى يثبت لهؤلاء المشركين الذين أنكروا القرآن وقالوا: (أساطير الأولين). ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -مع أن هذا قرآن كثير البركة والخير، لكن هؤلاء المشركين لم يستفيدوا من خيره ولا بركته، بل أعرضوا وكفروا، وزيادة على ذلك عجبوا.

- **ما الذي يجعلهم يتعجبون؟**

عجبوا أن جاءهم منذر، وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينذرهم العقوبة وينذرهم العذاب، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم يعرفونه وهو محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- **ما وجه العجب؟**

يعني القرآن يأتيكم ويتحدث إليكم، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصادق الذي يصدق في كلامه ويعطيكم هذه الأخبار وتتعجبون؟!

- **ما وجه العجب؟**

لا وجه للعجب؛ منذر، ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]؛ هم عجبوا ووصفوا هذا الشيء بأنه عجيب.

- **ما هو هذا الشيء؟**

القرآن، والوحي، والرسالة، والحديث عن اليوم الآخر؛ تعجبوا واستغربوا كيف هذا قرآن ينزل على محمد؟ كيف وحي يأتي من السماء؟ كيف هناك بعث وخروج من القبور؟

يتعجبون! والسورة -مثل ما ذكرنا لكم- تركز على قضية البعث؛ فقال الكافرون: هذا -يعني هذا الحديث الذي يتحدث عنه القرآن في أن الناس يبعثون من القبور- شيء عجيب مستغرب ما يمكن أن نتقبله!

عجيب عندكم، أما في الحقيقة فليس بعجيب. ولذلك انظر ماذا قالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]؛ يعني القرآن يخبرنا بأننا إذا متنا وكنا تراباً -أي متنا وصرنا تراباً، وتمزقنا في الأرض، وذهبت أشلاؤنا، وذهب لحمنا وعظمنا، وصرنا تراباً وعظاماً- ذلك رجع بعيد؛ مستحيل! رجع لا يمكن، بعيد الوقوع، ولا يخطر ببالنا.

إنك تتصور أن هناك أناساً ماتوا في قرون ماضية؛ أين ذهبوا؟ في التراب، أكلتهم الأرض؛ كيف يُبعثون؟ والذين أكلتهم السباع وذهبوا في بطونها؟ واكلتهم الحيتان وذهبوا في بطونها؟ والذين احترقوا؟

والذين ماتوا في البحار؟ كيف يبعثهم الله؟! لما تطرح هذا السؤال تسأل نفسك لأنك ضعيف وعاجز؛ أما في قدرة الله وفي علمه فهذا لا يُقال.

- **اسمع كيف رد القرآن عليهم لما قالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، ماذا رد عليهم؟**

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤].

انظر إلى الدقة! أرأيت هذا الإنسان الميت لما يوضع في قبره؛ الله يعلم كيف يتساقط الشعر ويذهب في التراب، الله يعلم كيف تأكل الأرض من جسده شيئاً فشيئاً، كل يوم كم تأكل منه.

كم ميت تحت الأرض في اليوم الواحد في العالم كله؟! والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يغيب عنه شيء من الأموات الذين ماتوا، قد علمنا وتقرر عندنا علماً يقيناً ما تنقص الأرض وتفني من أجسامهم وتأكل من شعورهم؛ كل ذلك يعلمه الله.

وزيادة على ذلك، عندنا كتاب حفيظ؛ محفوظ لا يمكن أن يتغير ولا يتبدل، بل سُجل فيه كل شيء: أسماء الأموات، وأعمال الأموات، ولا يغيب عنا شيء، فتأتي تقول أنت: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]؟! أنت تحكّم عقلك ولا تحكّم علم الله وقدرة الله!

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رد عليهم؛ بيّن أنهم ما قالوا ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] لأن الله لا يعلم أو لا يقدر، بل: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]. كذبوا بالحق؛ كذبوا بالقرآن، وبالوحي، وكذبوا بالبعث.

كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في (أمر مريج)؛ والأمر المريج هو الأمر المختلط، ليس واضحاً عندهم؛ يعني ليس الأمر واضحاً بل هو مختلط جداً، فهم مرة يقولون: محمد شاعر، ومرة يقولون: كاهن، ومرة يقولون: كذاب، ومرة يقولون: أساطير الأولين، ويقولون: افتراه، وهكذا؛ كل هذه الأشياء يقولونها، الأمر مختلط عندهم، فلذلك أحدثوا ما أحدثوا، وقالوا ما قالوا.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أبطل حجتهم وأبطل هذا الذي يقولونه من هذه الأقوال الباطلة، لفت أنظارهم إلى ما هو أعظم؛ قال: أنتم تشكون في قدرة الله؟! أنتم تشكون في قدرة الله على البعث؟!

انظروا إلى السماء فوقكم دليل على قدرة الله، انظروا إلى السماء وانظروا إلى الأرض؛ هذه الأشياء المشاهدة أمامكم تدل على قدرة الله، وعلى علمه وإحاطته.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَمَن يَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]؛ أعميت أبصارهم فلم يرفعوا رؤوسهم إلى السماء؟!

يعني لا يكلفك شيئاً؛ لا يقال لك مثلاً: اركب واذهب وانظر، لا؛ ارفع رأسك فقط إلى السماء فوقهم، انظر كيف بنيناها؛ جعلناها بنياناً قوياً، مستوية الأرجاء، ثابتة من غير أعمدة، جميلة، حسنة، مزينة بالنجوم، ما فيها شقوق، ما فيها عيوب: ﴿وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

واخفِض بصرك إلى الأرض: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [ق: ٧]؛ لأنها ممتدة مستوية، تزرع، وتبني، وتنام. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [ق: ٧]؛ جبالاً تثبتها حتى لا ترتج. ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق: ٧]؛ أنبتنا فيها من الأشجار المختلفة البهيجة، المبهجة، الجميلة، الحسنة المنظر، كل هذه نافعة.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق هذا الخلق في السماوات وفي الأرض، فلماذا لا تلفتون أنظاركم إلى هذه الأشياء، وتتأملون في هذه الأشياء العجيبة، الجميلة، الحسنة؟! انظروا فيها وتأملوا؛ حتى تعرفوا قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال: هذه الأشياء هي: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]؛ يتبصر بها ويعتبر من يعتبر بها، ويتذكر من يتذكر.

- **لكن للناس جميعاً؟ للغافلين؟ للمنكرين؟**

لا؛ ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨]؛ لكل عبد خائف وجل يرجع إلى ربه دائماً، ويتوب ويستغفر، هو الذي يستفيد، أما الذي يصد ويتكبر ولا يقبل الحق ويعترض، فهذا لا يستفيد من ذلك.

ثم زادهم فقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩]؛ لما لفت أنظارهم إلى السماء وإلى الأرض، بيّن لهم أيضاً أن الله نزل من السماء -يعني السحاب- ماء مباركاً وهو المطر؛ مباركاً يعني كثير البركة والخيرات.

﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩]؛ مختلفة؛ أشجاراً وبساتين، وحب الزرع المحصود، هذا الذي أنبته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]؛ أيضاً أنبت النخل باسقات؛ يعني طوالاً، يعني طوالاً إلى الأعلى، إلى الارتفاع، طويلة الارتفاع تصل إلى عشرة أمتار إلى عشرين متراً؛ باسقات.

وهذه النخل لها: ﴿طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠]؛ النضيد هو المنضود المتراكب بعضه فوق بعض، انظر إلى الشماريخ، تنظر فيها جميلة وحسنة، مركب بعضها فوق بعض؛ من الذي ركبها وصنعها وأعطاها هذه الألوان إلا رب العالمين؟!

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ [ق: ١١]؛ كل هذه أرزاق للعباد يقتاتون ويأكلون ويدخرون؛ ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۚ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] -أي بهذا الماء- أحيا الله به الزروع والنباتات والبلاد الميتة التي أجدبت وقحطت واغبرت، أنبتها الله.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]؛ مثل ما أخرجنا النباتات من الأرض بالماء، الله يخرج الموتى؛ فكيف تشكون بقدرته؟! كذلك الخروج من القبور، كيف تشكون به؟!

وإن لم تعتبروا بهذه الآيات ولم تقبلوها، فسيصيبكم ما أصاب الأمم الماضية: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: ١٢-١٤]. كذبوا رسولهم نوحاً.

وأصحاب الرس كذبوا رسولهم، بل جاء أنهم دفنوه في بئر ورضّوه، وثمود كذبوا صالحاً، وعاد كذبوا هوداً، وفرعون كذب موسى، وإخوان لوط؛ إخوانه يعني معارفه وأصهاره، لوط الذي عاش معهم ويعرفونه معرفة تامة.

وأصحاب الأيكة كذبوا شعيباً، وقوم تُبَّع؛ وهم أهل اليمن، وتُبّع رجل صالح حميري، وقومه هم الذين كذبوا.

ولذلك تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إِنَّ اللهَ ذَمَّ قَوْمَهُ وَلَمْ يَذُمَّهُ هُوَ»؛ قال: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [ق: ١٤]، ما قال تبع؛ مثل ما قال فرعون، لا؛ قال: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [ق: ١٤].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤]؛ كلٌّ من الأمم الماضية كذب الرسل التي جاءتهم فحق الوعيد؛ أي حق العذاب الذي نزل بهم، فانتبهوا يا أهل مكة لا يصيبكم ما أصابهم إن استمريتم على الكفر والعناد ورد الدعوة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

أنتم الآن تقولون ما في خلق جديد؛ هل الخلق الأول أعجزنا؟! لما خلقنا الخلق الأول -آدم وذريته- هل هذا أعجزنا وأعيانا؟!

الخلق الأول ما أعيانا، نحن خلقنا الخلق الأول ولم يسبق له خلق، فكيف تكذبون بالخلق الجديد؟! بل هم في لبس من خلق؛ بل هم يشكون وعندهم لبس في الخلق الجديد، وإلا فالله لا يعجزه شيء، لا يمكن أن يعجزه شيء.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ أهون عليه.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين أنه خلق الإنسان وأن الله قد أحاط به علماً؛ قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

حديث النفس الذي أنت تتحدث به في نفسك الله يعلمه، حتى الذي بجوارك لا يعلمه؛ ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ﴾ [ق: ١٦]؛ ما تحدث به نفسه.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؛ الله قريب منك بعلمه وإحاطته بك، والملائكة أيضاً قريبة منك؛ لأن كلمة (أقرب) هذه ممكن تعود إلى الله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ [ق: ١٦]، وممكن تعود إلى الملائكة.

كيف تعود إلى الملائكة؟

لأنه قال بعدها: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، وهم الملائكة، وإن أُعيدت إلى الملائكة: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ [ق: ١٧]، وإن أُعيدت إلى الله يقول: ونحن ونعلم ما توسوس ونحن أقرب؛ فكلها القرب؛ يعني قرب الله بعلمه، وقرب الملائكة، نحن أقرب إليه من حبل الوريد.

- **ما هو حبل الوريد؟**

قال: هو عرق في العنق -في الرقبة- متصل بالقلب، إذا قُطع مات صاحبه. الله أقرب إليه بعلمه من حبل الوريد؛ فلتكن -أي فلتستحي ولتخجل ولتعرف حق الله عليك، ولا تخالف أمره، تمتثل أمره وتجتنب نواهيه.

قال بعدها: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]؛ الملائكة، هم الكَتَبة؛ عن اليمين وعن الشمال قعيد.

عندك ملائكة تكتب، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالم محيط ووكل ملائكة تكتب كل ما تتلفظ به وتفعله؛ أي شيء يتلقونه ويكتبونه، عن اليمين ملك يكتب الحسنات، وعن الشمال ملك يكتب السيئات؛ عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد. ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؛ هذا الإنسان يتكلم بكلمة إلا وتُكتب عليه وتسجل، أو يفعل فعلاً إلا ويُسجل عليه.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]؛ رقيب يراقبه، وعتيد يعني حاضر لا يغيب عنه ويراقبه ويكتب كل ما يقول.

يعني الحقيقة إذا كنا نسمع مثل هذا الكلام؛ ومعنا ملائكة، والله عالم بأحوالنا، ألا نستحي من الملائكة الكرام الكاتبين؟!

وألا نستحي من اطلاع الله علينا وهو يعلم ويرانا؟! ألا يدفعنا هذا إلى أن نتأدب مع الله، ونمتثل أوامره، ونجتنب نواهيه؛ فلا يفقدنا حيث أمرنا، ولا يجدنا حيث نهانا؟! هذا الذي ينبغي أن نتأدب به.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]؛ سكرات الموت، يعني هذا الإنسان حضرته الآن حضرة الموت، جاءته سكرات الموت تجعله كأنه يُسكر.

سكرة الموت: شدة الموت وغمرته تذهب بعقله، بالحق، ﴿ذَٰلِكَ﴾ [ق: ١٩] -أيها الإنسان- ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]؛ تفر منه وتريد أن تروغ عنه وتهرب، هذا هو جاءك الآن، جاءك الموت الذي تفر منه، فإذا جاءك الموت قُبضت روحك وذهبت إلى الآخرة.

وإذا ذهبت إلى الآخرة، نُفخ في الصور: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠]؛ الذي توعد الله به الكفار، ونُفخ فيه النفخة الثانية، وخرج الناس من قبورهم؛ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

كل نفس معها ملكان؛ أحدهما يسوقه إلى المحشر، والثاني يشهد عليه، ملك يسوق، وملك يشهد بكل ما عمل في الدنيا من خير أو شر، يسوقه ملكان يسيران معه؛ غير الملكين اللذين يأتيانه في القبر: (منكر ونكير)، وغير الملكين اللذين يكتبان السيئات والحسنات.

يُقال له: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]؛ الآن انكشفت الأمور أمامك، وكل شيء تراه رأي العين لا يخفى عليك، بصرك اليوم حديد؛ حاد قوي، وانكشف الغطاء، وظهرت الأمور، وزالت الغفلة؛ ولكن لا ينفع!

قال الله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣]؛ أي هذا قرين من الملائكة. عندنا قرين من الملائكة وقرين من الشياطين (**كل إنسان له قرين من الشياطين وقرين من الملائكة، غير السائق والشهيد**).

وقال قرينه من الملائكة -وهو الملك الذي يكتب أو يشهد-: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣]؛ أي هذا الذي لدي حاضر معي قد أعددته وجئت به. هذا ما لديه عتيد، يقوله الملك الذي يكتب والذي يسجل كل شيء عليه.

قال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۝٢٥ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ [ق: ٢٤-٢٦]؛ الكافر المعاند الذي ينكر البعث، هذا تأخذه الملائكة وتلقيه في جهنم.

(**ألقيا**): إما أن يكون السائق والشهيد يلقيانه، أو ملائكة من ملائكة الله يأخذانه ويلقيانه في جهنم.

لماذا؟ لأنه كفّار وعنيد؛ و﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [ق: ٢٥] يمنع الناس من الخير ويمنع نفسه، و﴿مُعْتَدٍ﴾ [ق: ٢٥] على حقوق الله، و﴿مُرِيبٍ﴾ [ق: ٢٥] شاك في البعث وفي الوحي، ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٦]؛ أشرك وكفر.

فقال الله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق: ٢٦]؛ هذا مآله وهذه نهايته.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧]؛ قال قرينه – هو الشياطين-؛ يقول القرين من الشيطان يتبرأ منه، يقول: أنا ما أطغيته، أنا ما أضللته، هو الذي ضلَّ، ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧]؛ يتبرأ منه، مثل ما قال الله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ

وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]؛ يتبرأ منه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨]؛ لا تختصموا لدي، لا أنت ولا الملائكة، لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد؛ أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت إليكم الكتب، وذكّرتكم بهذا اليوم، لا؛ ما تنفع الخصومات هذه، ما تنفع.

والكلام لا يتبدل: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩]؛ القول الذي أنا حكمت وقضيت بأني لا أعذب إلا من يستحق العذاب: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩]؛ أنا لا أظلمهم، أقمت عليهم الحجج، وأرسلت إليهم الرسل.

☜**والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول للنار لما يُلقى فيها أهل النار وهم كُثر كثير، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لآدم:** «أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ» فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: «مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ»؛ كلهم للنار، وواحد للجنة؛ من كل ألف واحد للجنة، فالأمر خطير! فيذهب بهؤلاء إلى النار.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]؛ هل أنت امتلأتِ من الكفار؟ أم تريدين زيادة من الجن والإنس؟ هل امتلأتِ؟ فهي ترد وتقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[ق: ٣٠] هل من مزيد؟ فتريد الزيادة، وتقول: أعطوني أعطوني! فيضع الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قدمه فيها فينزوي بعضها على بعض حتى تقول: «قَطْ قَطْ»؛ أي: حسبي حسبي، قد امتلأتُ.

بعد ذلك، بعد هذا العرض الواضح في سياق الآيات ومآل أهل الكفر والطغيان والعناد والاستكبار، تتحدث السورة عن مصير أهل التقوى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]، وهذا يأتي الحديث عنه -إن شاء الله- في اللقاء القادم.

نقف عند هذا القدر، ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(ق ١ - ٣١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق لـ (الثالث عشر) من جمادى الآخرة من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية؛ نسأل الله أن يبارك لنا، وأن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، وفي سورة (قاف)؛ ذكرنا هذه السورة وتحدثنا عنها وأخذنا شيئاً من آياتها، ووقف بنا الكلام عند قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

شوف؛ هذه الآية جاءت بعد مصير أهل الشقاوة في النار؛ لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآيات التي مرت معنا: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٨].

ثم قال بعدها: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، وتحدث الله عن النار وأهل النار، بعد ذلك انتقلت الآيات للحديث عن أهل الجنة؛ أهل السعادة، السعداء؛ قال الله في حقهم: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ يعني: من (الزلفة) وهي (القربة)؛ يعني قربت الجنة، قربت لهم الجنة للمتقين ورأوها بأعينهم، ونظروا إلى جمالها وبهائها، وفتحت أبوابها لهم، فقربت مكاناً غير بعيد حتى رأوها.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١]؛ يعني قربت تقريباً ليس بالبعيد حتى رأوها وشاهدوها أمامهم، وهذا زيادة لهم بإدخال السرور عليهم بأن تكون الجنة يرونها.

وهذا بلا شك في أمور الدنيا؛ أنك تقبل على البيت الذي تريد أن تدخله وقد فتحت الأبواب والناس يستقبلونك، هذا يكون أجمل وأفضل وأحسن؛ فكيف بجنات النعيم التي يقربها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتي يجعلها تفتح أبوابها ويشاهدونها ويشمون رائحتها ويرون ما فيها من جمال وبهاء؟!

لا شك أن هذا أمر يغري الإنسان ويشجعه على أن يسال الله عَزَّ وَجَلَّ أن يكون من أهل الجنة، وأن يعمل الأعمال التي تكون سبباً.

ولذلك شوف؛ قال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ لمن؟ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ق: ٣١]؛ أهل التقوى الذين حافظوا على تقوى الله ولازموا التقوى، هؤلاء أهل التقوى هم الذين تقرب لهم الجنة، هم الذين يكونون من أهل الجنة.

قال بعدها: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ [ق: ٣٢]؛ يقال لهم عند دخولهم الجنة: هذا الذي كنتم توعدون به أيها المتقون؛ أهل التقوى والصلاح والعبادة؛ هذه الجنة التي كنا نعدكم في الدنيا ونقول لكم ستدخلونها؛ ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ [ق: ٣٢].

لكن لمن اتصف بهذه الصفات؛ انظر إلى هذه الصفات وتأمل هذه الصفات واحفظها جيداً واعمل بها واتصف بها. ما هي هذه الصفات؟

لما ذكر أن أهل الجنة -أو أن الجنة- للمتقين، بدأ يفصل في صفاتهم؛ فيقول: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣٢].

⬅الصفة الأولى: **أوَّاب**: (الأواب) يعني: الذي يرجع إلى الله دائماً، يؤوب ويرجع إلى الله، ويستغفر ويكثر، ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، يكثر العودة إلى الله، يكثر التوبة إلى الله، يكثر الاستغفار إلى الله؛ (أواب).

⬅الصفة الثانية: **حفيظ**: و﴿حَفِيظٍ﴾ بمعنى: حافظ، حافظ لكل ما فرض الله عليه من الفرائض والنوافل، محافظاً على فرائض الله من الصلوات والصيام والزكاة وغيرها مما فرضه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومحافظ على كل ما جاء في السنة من سنن ومن الأشياء التي ندب الله إليها وحث عليها؛ كصلاة النوافل، وصلاة الليل، وصيام النوافل، والصدقات، وغيرها من النوافل التي حث الله عليها وأمر بها، فهو حافظ لهذا وحافظ لهذا، و(حفيظ) صيغة مبالغة على وزن (فعيل) بمعنى: كثير الحفظ، لا يفرط في ذلك؛ هذه الصفة الثانية.

⬅الصفة الثالثة: **خشية الرحمن بالغيب**: قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]؛ يخاف الله، لم ير الله عَزَّ وَجَلَّ ولكنه يخافه، وإذا خلا بنفسه بالغيب -لم يكن أمام الناس- يخاف الله.

فهذا المؤمن التقي الصالح، الحفيظ، الحافظ لأوامر الله، المبتعد عن نواهيه، الكثير الرجوع إلى ربه، هذا يخشى الله بالغيب؛ يعني يخاف الله وهو لم يره، يعبد الله كأنه يراه، ويخاف الله والله قد غاب عنه لا يراه، وكذلك إذا خلا وغاب عن الناس يخشى الله.

تجد بعض الناس إذا غاب عن الناس وخلى بنفسه ارتكب المعاصي ولم يبالِ، وإذا رأى الناس ينظرون إليه ارتدع؛ هذا لم يحقق هذه الصفة، الذي يحقق هذه الصفة الذي يخشى الرحمن ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالغيب، يخشاه في السر والعلانية؛ سواء أمام الناس يخشى الله ويخافه، وإذا خلا بنفسه يخاف الله، ويعلم أن الله مطلع، عالم، رقيب، حافظ لأعماله؛ فهذه الصفة الثالثة.

الصفة الرابعة: القلب المنيب: قال بعدها: ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]؛ جاء إلى ربه وهو تائب، تائب من الذنوب، مستغفر، قلبه منيب من (**الإنابة**)؛ وهي (**العودة**) إلى الله و(**الرجوع**). (**الأواب**) و(**المنيب**) متقاربان؛ فهو كثير الرجوع، حافظ لكل ما أمره الله به، يخشى ربه ويتجنب الذنوب والمعاصي، ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: خاشع، قلبه راجع إلى الله، منيب تائب من سائر الذنوب.

والذنوب هي المهلكة؛ لاحظ شوف؛ أول الصفات (**أواب**) رجّاع لربه من ذنوبه، وآخر صفة ﴿بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ تائب إلى ربه؛ فالذنوب هي المهلكة، الإنسان لا يدري يقع في الذنوب والمعاصي، والذنب الصغير يتبعه صغير، ويتبعه صغير، ثم يتبعه كبير، ثم تجتمع هذه الذنوب عليه فتهلكه وهو لا يشعر.

والذنوب هي التي تحجب الإنسان عن الطاعات، والذنوب هي التي تعيق، والذنوب هي التي سبب في دخول النار، فالتوبة والاستغفار ينبغي للمسلم في كُلِّ لحظة وفي كُلِّ وقت أن يكثر من الاستغفار، ويكثر من التوبة، ويكثر من الحسنات التي تذهب السيئات.

ولذلك إذا سلم من الذنوب واتصف بهذه الصفات: التقوى، والخشية، والحفظ -حفظ الأعمال- والتوبة النصوح، والقلب الخاشع؛ فهذا يقال له يوم القيامة: ﴿ادْخُلُوهَا﴾ -أي الجنة- ﴿بِسَلَامٍ﴾؛ دخول تكريم وبسلام سالمين من الآفات والشرور، آمنين مطمئنين.

يقال لهم ذلك: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤]. هذا اليوم هو يوم الخلود الذي تدخلون فيه الجنة ولا تخرجون منها، ولا تريدون حِوَلاً عنها، ولا انتقالاً، ولا تغييراً؛ لماذا؟ لأن فيها «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

ولذلك قال بعدها: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]؛ لهم كُلُّ ما تشتهيه أنفسهم وتلذ الأعين، وما يخطر ببالك يأتيك؛ ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾؛ نعطيهم من النعيم ونزيدهم بكُلِّ ما يدخل عليهم من السرور، وفوق ذلك أكبر وأكبر؛ هو النظر إلى وجه الله؛ رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعظم من النعيم.

ولذلك فسر كثير من أهل العلم أن قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ هو رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة؛ إذا رأوا ربهم فهذا أعظم النعيم، ولذلك هذه الآية تدل على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة.

هذه الآية ومثلها في سورة (يونس): ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ فالزيادة فسرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها رؤية المؤمنين لربهم. **وفي سورة (القيامة):** ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

وفي سورة (المطففين): ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؛ فإذا حجب المجرمون فإن المؤمنين يرون ربهم، يرون ربهم، هذه كلها في نعيم أهل الجنة، وأعظم النعيم التلذذ برؤية الله، والقرب والأنس بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

سماع كلامه: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]. هذا نعيم أهل الجنة وصفات أهل الجنة وتكريمهم ودخولهم وفوزهم بجنات النعيم.

ثم السورة بعد ذلك تعود إلى ما افتتحت به؛ نحن نعرف في لقائنا الماضي كيف افتتحت السورة، افتتحت بالرد على المنكرين للبعث؛ هؤلاء الكفار الذين يقولون: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، فرد الله عليهم. وتعود الآيات ترد عليهم؛ لأن الله أخبرهم بمصير الأمم المكذبة الذين قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾ [ق: ١٢ - ١٤]؛ ذكر الله مجموعة من الأمم التي كذبت أن الله أهلكهم.

يعيد الله سبحانه هنا ويهددهم بالإهلاك؛ فيقول: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [ق: ٣٦]؛ قرون كثيرة أهلكهم؛ لماذا؟ لأنهم أبوا وكفروا وعصوا وعتوا عن أمر ربهم، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾؛ أعظم منهم قوة، وأشد منهم بطشاً، يبطشون، وعندهم السطوة والقوة والبطش.

- **﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾؛ كيف نقبوا في البلاد؟**

طافوا البلاد، ما تركوا مكاناً، حفروا وزرعوا وبنوا وسلكوا جميع الطرق وفتحوا الأنفاق وضعوا كُلَّ شيء، نقبوها تنقيباً؛ ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلِ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

قال الله: ﴿هَلِ مِن مَّحِيصٍ﴾.

- **هل استطاعوا أن يهربوا من عذاب الله، ومن إهلاكه لهم؟**

ما استطاعوا، ما في محيص ولا مهرب ولا مفرّ؛ إذا أراد الله قبض أرواحهم وإهلاكهم أهلكهم ولو كانوا في قرىً محصنة، لا يستطيع العدو أن يفرَّ من عذاب الله؛ فالله عالم به ومطلع عليه.

وفي هذه الآية تهديد لأولئك الذين كذبوا رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهددهم؛ قال: أهلكنا الأمم الماضية، سيصيبكم ما أصابهم لما استمروا، أهلكهم الله في بدر، وقطعت رؤوسهم وألقوا في قليب بدر.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق: ٣٧]؛ أي: في إهلاك الأمم الماضية عبرة وذكرى، لكن لمن كان له قلب يعقل ويتدبر ويفهم، ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]؛ أي: أصغى السمع، وسمع سماع تدبر وتأمل، وهو شهيد؛ حاضر قلبه.

هؤلاء هم الذين يستفيدون، يستفيدون من هذه الآيات، ويتذكرون في بيان إهلاك الأمم الماضية أن الله لم يأبه بهم وأهلكهم جميعاً، هذا يتذكر -في مَنْ يتذكر؟ الذي له قلب يعقل به؛ أما القلب الغافل الميت ما ينتفع. ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ حاضر قلبه، حاضر ويستمع، سمع سماع تدبر؛ أما الذي يسمع ولا يستفيد فهذا خارج الخطاب.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين لهم قدرته؛ يظن الظان أن الله لا يقدر، الله قادر، ما الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما؟

قال الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]؛ خلقها الله في ستة أيام، الله قادر على أن يخلقها في لحظة، يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكيف يخلقها في ستة أيام؟

قال أهل العلم: "هذا فيه تعليم البشر أن الأمور لا تقوم بلحظة، وإنما تحتاج إلى وقت؛ تعليم البشر".

والله قادر لا يعجزه أن يخلق السماوات والأرض بلحظة؛ لكن جعل هذه الأيام حتى يعلم عباده ويعلم البشر أن الأمور تحتاج إلى تأنٍّ، تحتاج إلى تؤدة، وأن لا تأتي هكذا.

ولذلك بيّن قال: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]؛ ما أصابنا تعب ولا نصب، والله قادر على كُلِّ شيء، ولا يعجزه شيء، ولا يصيبه تعب.

- **مَنْ هذا؛ لأن هذا رد على اليهود؛ لأن اليهود ماذا يقولون؟**

يقولون: إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، بدأها يوم الأحد وانتهى منها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فنحن نعظم السبت لأن الله استراح فيه، استراح فيه من التعب! ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، وأنتم تقولون استراح! الله لا يتعب حتى يستريح؛ فرد الله عليهم.

ولذلك لما بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إهلاك الأمم تهديداً لهؤلاء المعاندين، وبيّن قدرته وقوته في خلق السماوات والأرض، وعلم منهم أنهم لا يعتبرون ولا يعرفون قيمة هذه الآيات وهذه الدعوة، وجّه نبيه إلى الصبر والتصبر.

قال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٣٩]؛ يا محمد، من الاستهزاء والسخرية، إنهم يسخرون منك، ويردون رسالتك، ويكذبونك؛ اصبر على ما يقولون، وتمسك بدعوتك، وعليك بالصلاة والذكر.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]. استنبط أهل التفسير من هذه الآية أنها تدل على الصلوات الخمس؛ كيف؟

قبل طلوع الشمس: المغرب والعشاء والفجر؛ هذه كلها قبل طلوع الشمس، وقبل الغروب: الظهر والعصر؛ فدلت الآية على فرضية الصلوات الخمس، وغيرها من الآيات كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] يعني زوالها، الظهر والعصر، ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ المغرب والعشاء، ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ الفجر، وغيرها من الآيات.

شوف؛ قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [ق: ٤٠]؛ ليكن لك صلاة من الليل؛ فإن صلاة الليل مشهودة حاضرة، صلِّ من الليل وسبحه؛ ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ۝٤﴾ [المزمل: ٢ - ٤].

سبّح الليل، ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]؛ أدبار السجود يعني: أواخر الصلوات، عقب الصلوات، اذكر ربك، سبّح بحمد ربك واذكر واستغفر وأكثر من ذكره بعد كُلِّ صلاة؛ لتكون صلاتك مقبولة.

﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١]؛ تذكير لهذا اليوم الذي كذب به الكفار، يقول: انتظر واستمع أيها الرسول -وغيرك يستمع أيضاً- يوم ينادي المنادي وهو إسرافيل ينفخ في الصور وفي القرن، من مكان قريب يسمعه الجميع ليس ببعيد، كُلٌّ يسمعه.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ [ق: ٤٢]؛ النفخة الثانية، صيحة البعث، يخرجون من قبورهم، يسمعون الصيحة بالحق، ذلك بالحق الذي ما فيه شك، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]؛ إذا سمعوا الصيحة خرجوا من قبورهم سراعاً، يسمعون الصيحة، ذلك يوم الخروج.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ [ق: ٤٣]؛ هذا رد عليهم بأن الله هو الذي يحيي ويميت، إذ لو الحياة بأيديهم والموت بأيديهم يمكن أن يقولوا أو يستبعدوا هذا الأمر، لكن الأمر بيد الله؛ هو الذي يحيي الخلق ويميتهم، يحييهم في الدنيا الحياة الأولى ويخلقهم الخلق الأول، ثم يميتهم، ثم يحييهم الحياة الثانية، وهو بعثهم من قبورهم.

قال: ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ [ق: ٤٣]؛ يعني حشرهم ومصيرهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أن الله يحشرهم ويبعثهم إليه، المصير والمرجع. متى؟

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ [ق: ٤٤]؛ عندما تشقق الأرض ويخرجون من الأجداث سراعاً؛ ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]، نحشرهم جميع الخلق. شوف؛ من خلق آدم إلى آخر الدنيا، هذه الدنيا كلها الله يجمعهم، بل في لحظة يجمعهم في لحظة.

أنت الآن لو تشوف أعداداً هائلة في اجتماع من الاجتماعات على هذه الأرض، بهذه الأعداد الهائلة لتعجبت من كثرتهم؛ فكيف يجمع الله الأولين والآخرين في مكان وفي صعيد واحد؟! ذلك على الله يسير؛ الحشر على الله سهل، لا تظن أنه صعب.

قال سبحانه: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [ق: ٤٥]؛ رد على هؤلاء الكفار، وتسلية للرسول، الله عالم بما يقول هؤلاء المشركون من الكذب على الله والافتراء على الله، والاستبعاد، والاستهزاء بك يا محمد، والتسلط عليك وإيذائك؛ الله عالم بكُلِّ ما يقولونه، وسيحصي أعمالهم وأقوالهم ويجزيهم عليها، تهديد وتخويف لهم.

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]؛ أنت تذكر، أنت تبلغ رسالة ربك، لست عليهم بجبار؛ يعني تسلط عليهم وتجبرهم على الشيء، لا؛ وإنما عليك أن تبلغ رسالة ربك، فإن قبلوا فبها ونعمت، وما قبلوا فحسابهم على رب العالمين، وأنت عليك أن تستمر في الدعوة، أنت أيها الرسول وكُلُّ مَنْ اقتدى بك في دعوتك.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]؛ عظ وذكر بهذا القرآن العظيم، القرآن المجيد. شوف؛ السورة افتتحت بالقران: ﴿ق ۚ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، وختمت بالقرآن: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ هذا القرآن أنزل عليك ليكون تذكرة لك وموعظة، وتعظ الناس به، وتذكر الناس به؛ فذكر بالقرآن.

ليس الناس كلهم يتذكرون وينتفعون، لا؛ وإنما الذي ينتفع بالقرآن ﴿مَّن يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ الذي يخاف لقاء ربه، ويخاف عقوبة الله، هو الذي يتذكر، ويخشى الله هو الذي يتذكر.

أما من لا يخاف، تذكره بالليل والنهار لا يسمع وليس له قلب؛ فلا ينتفع بذلك، لا يتذكر. الذي يتذكر وينتفع هو من يخاف وعيد، هو الذي يستفيد؛ ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

هذه هي السورة التي بين أيدينا، قرأنا هذه الآيات التي وقفنا عندها وتأملنا ما فيها من أسرار وعجائب، وبيان، ووعد ووعيد؛ وعد كريم للمتقين: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وصفات المتقين، ثم تهديد هؤلاء بقدرة الله وتهديدهم بالأمم الماضية، ثم تذكيرهم بالحشر والوقوف بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كُلُّ ذلك اتضح لنا وتبين.

فنسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، نقف عند هذا القدر، ونسأل الله أن ينفعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الذاريات)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الذاريات ١ - ٢٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِينَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ؛ اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْماً وَعَمَلاً يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للثالث من شهر رجب من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية؛ أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع في هذا اليوم المبارك، وأسأل الله أن يبارك لنا ولكم.

معنا سورة جديدة من سور القرآن الكريم، وهي بداية الجزء تقريباً السابع والعشرين؛ وبعده الثامن والعشرون والتاسع والعشرون؛ يعني بقي عندنا أربعة أجزاء من الآن، وهذا الجزء السابع والعشرون هو سورة (الذاريات).

وسورة (الذاريات) من السور (المكية)، وهي في الحقيقة حري بنا جميعاً عندما نأخذ مثل هذه السور المتوسطة -ليست بالطويلة وليست بالقصيرة، وعموم سور القرآن كلها- أن نأخذها ككل هكذا؛ ننظر فيها، ونتأمل فيها، ونعيد النظر فيها.

ونتأمل آياتها؛ نجدها تهدف إلى هدفٍ معينٍ، وتقصد مقصداً معيناً، لها غاية ولها هدف، وسور القرآن كلها على هذا النمط؛ كلها لها غايات ولها أهداف، سواء كانت سورة طويلة كالبقرة أو أقصر سورة؛ تجد لها غاية وهدفاً.

هذه السورة سورة (الذاريات)، ومن خلال تسميتها بـ (الذاريات) -و (الذاريات) هي الرياح؛ والرياح هي سبب لأشياء كبيرة- عندما تنظر فيها وتقرأ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] في أول السورة، ثم تقرأ في آخر السورة: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

تجد أن السورة تدور حول الرزق، وأن الله هو الرزاق، وأنه يجب على العباد أن يتعلقوا برب العالمين؛ لأنهم يقرون بأن الله هو الرزاق وهو الذي يرزق عباده المؤمنين، ويرزقهم وهو المتكفل بخلقهم فرزقهم؛ فيجب عليهم أن يعرفوا حق الله عليهم وهو الإيمان والتوحيد والعبادة؛ أن يوحدوا الله وأن يعبدوه.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في السورة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ يعبدون يعني يوحدونني، ويعبدونني وحدي لا شريك لي، هذا ما أريد منهم، لا الرزق وما أريد أن يطعمون؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

فالسورة تدور حول الرزق؛ ثم ينبغي لنا أن نفهم ما هو الرزق؛ ليس المقصود بالرزق هو الطعام والشراب، الرزق أوسع معنىً من الطعام والشراب، وسيتضح لنا هذا؛ أن الله يرزق عباده، يرزقك هدايةً، يرزقك ذريةً طيبةً، يرزقك زوجةً صالحةً، هذا من الرزق، فالرزق أوسع.

ولذلك ستلاحظ أن إيراد قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو الذي قد أيس من الولد، وكبرت سنه وطعن في السن، وأصبح شيخاً كبيراً، وامرأته عاقر في الأصل وقد طعنت في الكِبر وأصبحت عجوزاً؛ مع هذا كله الله يسوق لهم الرزق ويرزقهم الذرية الطيبة الصالحة، فرزق الله أوسع.

ثم ستجد السورة مع بيان هذا الرزق، وأن الله متكفل بعباده وقد جعل هناك أسباباً للرزق وهيأ لهم الأرزاق وأنه يجب عليهم أن يوحدوه؛ هدد أولئك المعاندين المستكبرين الذين يعرفون عظمة الله وحق الله ثم يكفرون به، هددهم بإهلاك الأمم الماضية التي عاندت وكفرت.

كم أمة ذكرت في القرآن هنا؟ ذكر الله قصة إبراهيم، وقوم لوط، وفرعون، وعاد، وثمود، ونوح؛ أمم ماضية لما عتت واستكبرت لم يبالِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهم، بل أهلكهم جميعاً؛ فهذا هو المقصد من هذه السورة.

ينبغي لنا جميعاً أن نفهم هذه السور وهذه المقاصد فهماً جيداً؛ يعني ينبغي لنا أن نفهمها ونعرف مقاصدها وما ترمي إليه كل سورة، هذا هو المقصود. وهذا سيتبين لنا من خلال قراءتنا لهذه الآيات وبيان معانيها.

انظر، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]؛ هنا قَسَمٌ، هذه الآن ستأتيك أقسام كثيرة وجواب القسم؛ والله أقسم بـ **(الذاريات)**.

ما هي **(الذاريات)**؟

(الذاريات) هي الرياح التي تذرو الغبار والتراب والرمال ونحوها. والرياح عجيبة، الرياح آية عجيبة؛ الله ذكر أن من آياته تصريف الرياح: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

تصريف الرياح بحيث إنها تختلف في سرعتها وبطئها وسكونها وحركتها وأثرها، وتجد لها عجائب جداً؛ هذه الرياح تجد لها عجائب، وقد تكون عقيماً، وقد تكون عذاباً، وقد تكون رحمةً، فهي فيها دلالات عجيبة أقسم الله بها هنا.

والله لا يقسم إلا بشيء عظيم، وهذا دليل على عظم الرياح وأثرها أيضاً في تلقيح السحاب.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جل جلاله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الحجر: ٢٢]؛ إذن الرياح سبب في تلقيح السحب وتحميلها بالماء، إذن هي لها أثر في الرزق؛ هذه لا بد أن نفهمها لأن السورة تدور حول الرزق، أثر في الرزق.

فـ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]؛ أي أن الله سبحانه يقسم بهذه الرياح التي تثير التراب، وتثير السحاب، وتثير الرمال؛ يقسم الله بأنها تذرو، تذر الرياح التراب ذرواً وتذر كل ما أمامها ذرواً؛ أي تدفعه وتثيره وتحركه، هذا معناها.

فإذا أثارت، قال الله سبحانه بعدها: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: ٢]؛ الحاملات السحب، إذا جاءت الريح ولقحت هذا السحاب الخفيف أصبح سحاباً ثقيلاً بالماء؛ هذا معنى **(وقراً)**، و **(الْوِقْرُ)** بالكسر -كسر الواو- هو الثقل في الشيء الثقيل، الِوقر يعني السحاب وقراً يعني ثقيلةً.

أما الوَقر بالفتح؛ فهو الثقل في السمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]؛ هذا الثقل في السمع.

يقول: ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: ٢]؛ أي تحمل أحمالاً ثقيلةً وهي المياه المحملة، هذا السحاب يحمل الماء الثقيل؛ جبال من بَرَد وجبال من مياه عجيبة تمتلئ الأودية منها.

ولا شك أن الماء والمطر والسحاب هو رحمة في الغالب، وهو رزق للعباد؛ لأن الله يحيي به الأرض وينبت به الزرع فيحيا الناس وتحيا بهائمهم، فالرزق في الرياح والرزق في السحب التي تنزل هذه الأمطار العجيبة.

قال بعدها: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: ٣]؛ ما المراد بالجاريات؟ بعض المفسرين يقول: الجاريات هي السفن التي تجري في البحار، تجري جرياً سهلاً ويسيراً ميسرةً، تنطلق من شاطئ إلى شاطئ ومن بلد إلى بلد، تحمل الأرزاق وتحمل البضائع.

ومن المفسرين من يقول: "الجاريات هي السحب التي تحمل إذا لقحت ثم تجري في السماء، السحاب المسخر بين السماء والأرض، تجري إلى أن تنزل في الأمر الذي يريده الله"؛ ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: ٣].

ثم قال: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]؛ هذه الملائكة تقسم الأرزاق وتقسم ما أمرها الله به في كل شيء.

انظر، عندك أربعة أمور: (الذاريات) الرياح، و (الحاملات) السحب، و (الجاريات) إما السفن أو السحب، و (المقسمات) الملائكة، هذه الأربعة أقسم الله بها على: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥]؛ الذي نعدكم به وهو البعث والجنة والنار، وعد صادق لا شك فيه.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦]؛ الدين هنا الجزاء والحساب والثواب والعقاب واقع؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ أقسم بأن يوم القيامة لا بد أن يأتي، وأن وعده فيه وعد صادق، وأن الدين -الذي هو يوم الدين؛ يوم الجزاء والحساب- واقع، لا بد أن يأخذ كلٌّ نصيبه من أعماله ومن جزاء أعماله من حسنات أو سيئات، هذا هو المقصود.

إذن أقسم الله بهذه الأمور على حقيقة اليوم الآخر، وأنه لا بد أن يأتي، وأنه حق؛ هذا هو المقصود؛ فالسورة تتحدث عن أرزاق العباد في الدنيا، وأنهم لا بد أن يعرفوا حق الله عليهم، وأنهم سيحشرون ويجازون على أعمالهم.

ثم أقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مرةً أخرى -لم يكتفِ بالقسم الأول، أقسم وستأتيك أقسام كثيرة، أقسم هنا مرةً أخرى- فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧].

- **ما معنى (الْحُبُكِ)؟**

التي حُبكت حبكاً حسناً جميلاً؛ يعني السماء المحبوكة التي أُتقن عملها وأُحسن خلقها.

وقيل: (الْحُبُكُ) هي الطرائق التي تكون في السماء لكن قد لا نراها، مثل طرائق الماء؛ انظر إلى الماء أحياناً في البئر أو على الساحل أو في النهر هكذا على طبقات أو على درجات مقسم طرائق، ومثلها الرمال؛ لما تهب الريح على الرمل تعطي طرائق، هذه الرمال الكثيفة تجد فيها طرائق وخطوطاً، هذه الخطوط التي في الماء وهذه الخطوط تسمى حُبكت. السماء بجمالها وحسنها وبهائها تعطي هذه الصورة الجميلة.

أقسم الله بالسماء الجميلة الحسنة على أن هؤلاء الكفار: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ٨]؛ هؤلاء الكفار أقوالهم مضطربة ومتناقضة؛ فهم مرةً يؤمنون بالقرآن ويعترفون بأنه من عند الله، ومرةً يكفرون به ويقولون هو من عند محمد، ومرةً يؤمنون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويعرفون أنه يأتيه الوحي، ومرةً يكفرون ويقولون إنه ساحر أو كذاب أو كاهن أو غير ذلك.

فهم مضطربون، منهم المصدق ومنهم المكذب، ومنهم من يصدق تارةً ويكذب تارةً؛ فهم مضطربون في ذلك؛ في اليوم الآخر، في الحساب، في الجنة والنار، في القرآن، في الرسالة، في الوحي، في الرسول؛ اضطراب شديد، قول مختلف متناقض بينهم.

- **ما السبب في ذلك؟**

قال: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩]؛ عن الإيمان؛ الإيمان بالقرآن، الإيمان بالرسول، الإيمان باليوم الآخر؛ يُصرف عنه من صُرف، ﴿أُفِكَ﴾ يعني يُصرف عنه؛ عن الإيمان به من صرف نفسه ولم يقبل بسبب ذنوبه ومعاصيه، ولم يُوفَّق للخير.

وهذه الآية ينبغي أن نقف عندها ونتأملها؛ تجد كثيراً من الناس يُصرف عن الخير ويُبعد عن الخير بسبب ذنوب سابقة عنده، أو لأنه لا يزال يمارس ذنوباً؛ فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعاقبه بهذه العقوبة: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩]؛ يُؤفك عن الخير، عن الصلاة، عن الصيام، عن ذكر الله، عن أشياء كثيرة بسبب ما عنده من ذنوب ومعاصٍ.

فالذنوب والمعاصي تحرم الإنسان الخير، يؤفك عنه؛ يُصرف عن هذا الإيمان وعن الطاعة وعن الإقبال على الله؛ يعني بسبب الإعراض والكفر وعدم المبالاة والسخرية والاستهزاء والوقوع في الذنوب والمعاصي التي تحرم الإنسان من الخير، هذا ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٩].

هؤلاء الكفار أُفكوا وصُرفوا عن الإيمان باليوم الآخر وبالقرآن وبالرسول بسبب كفرهم ومعاصيهم وعنادهم؛ فالله غني عنهم وغني عن كل العباد، والذي لا يقبل على الله فالله غني عنه، الحاجة لك أنت ليست لله، الله غني عن عباده العابدين.

قال بعدها: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠]؛ الذين أُفكوا وكذبوا على الله وظلموا أنفسهم وتخرصوا ولم يقبلوا الحق؛ هؤلاء لعنهم الله وطردهم، ﴿قُتِلَ﴾ بمعنى لُعنوا؛ لُعن هؤلاء الخراصون ولُعن هؤلاء الكذابون الذين يكذبون ويظنون غير الحق، هؤلاء أُبعدوا ولُعنوا وطُردوا وليس لهم مقام عند الله ولا عند أوليائه؛ لماذا؟

لأنهم: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١١]؛ في غمرة الكفر والضلال غافلون متمادون، هذا معناها؛ فالذي يؤفك عن الحق وعن الطاعة هم هؤلاء الموصوفون بهذه الأوصاف من الكذب والتخرص والظنون السيئة والغفلة عن طاعة الله؛ هذه عقوبة من أعرض.

وهم يسألون: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢]؛ يسألون متى يوم القيامة؟ متى يأتي؟ وسؤالهم هذا سؤال تعنت وسؤال استبعاد وتكذيب لا حقيقة له.

- **المؤمن لا يسأل عن يوم القيامة؛ لماذا؟**

لأنه على يقين بأن يوم القيامة آتٍ، هو يستعد ليوم القيامة، لا يشك فيه ولا يسأل عنه متى يأتي؛ الذي يسأل هو الكافر، هو الشاك في ذلك، الذي هو في غمرة ساهٍ هو الذي يسأل عن يوم القيامة.

فالمؤمن يعرف أن يوم القيامة آتٍ على يقين؛ ﴿وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣]؛ على يقين أن هذا اليوم لا بد أن يأتي، ولكن لا بد لكل مسلم ومؤمن أن يستعد له، أما الكافر فيسأل ولا يستعد؛ ولذلك الله توعدهم فقال: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢]؛ يعني يوم القيامة، ثم قال: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣].

هذا اليوم سيُفتنون على النار؛ يعني يُحرقون، يُؤتى بهم ويُلقون في النار ويُعذبون فيحترقون بالنار، يُفتن بالنار يعني يُحرق بالنار، هذه النار تنتظرهم ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[الذاريات: ١٤].

هذا عذابكم الذي كنتم تستعجلون به وتستهزئون به في الدنيا، هذا عذابكم ذوقوا هذا العذاب الذي كنتم تستعجلونه في الدنيا وتقولون متى يوم القيامة، متى يوم الدين، هذا يوم الدين.

فلما بيّن عقوبة هؤلاء الجاحدين الكافرين المعاندين الذين هم في غمرة ساهون، بيّن مآل عباد الله المتقين الذين هم على يقين بالإيمان باليوم الآخر وما أعده الله لهم في اليوم الآخر، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾[الذاريات: ١٥].

أصحاب التقوى الذين اتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ في عبادات الله، وفي طاعة الله، وفي حقوق العباد، اتقوا الله وخافوه وأقاموا حقوق الله عليهم؛ هؤلاء الذين حصلوا على هذه التقوى وأصبحوا متصفين بالتقوى، مآلهم في الآخرة في جنات عظيمة وعيون مياه جارية، هذا نعيمهم وفوزهم في الآخرة.

﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الذاريات: ١٦]؛ ما أعطاهم الله من النعيم في جنات النعيم؛ من الزوجات في جنات النعيم، ومن المطاعم والمشارب والقصور والمنازل، يأخذونها وهم قد رضوا بها؛ آخذين ما آتاهم ربهم من الخير ومن النعيم.

- **لماذا أعطاهم الله وأخذوا هذا النعيم وأصبحوا في جنات وعيون؟**

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٦]؛ محسنين أعمالهم مع ربهم، أحسنوا عملهم وأتقنوه؛ ومحسن يعني متقن، أتقن صلاته، أتقن زكاته، أتقن صيامه، أتقن عمله وسائر الأعمال؛ محسنين مع ربهم ومحسنين مع الخلق، يعرفون كيف يتعاملون مع عباد الله؛ بحقوق الجار، وحقوق الوالدين، وحقوق المسلم على المسلم، أحسنوا عملهم مع ربهم ومع عباده المتقين.

ثم بدأ يصف شيئاً أو يذكر شيئاً من صفاتهم التي رفعتهم إلى هذه المنزلة، وكانت سبباً في دخول جنات النعيم بعد رحمة الله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[الذاريات: ١٧].

انظر، ما قال كانوا قليلاً من الليل يقومون ساعةً أو ساعةً ونصفاً أو ساعتين أو ثلاثاً؛ بل هجوعهم ونومهم قليل، و (الهجعة) هي النوم القليل؛ يعني ليس لهم رقود يرقدون رقوداً طويلاً، لا، الهجعة غير؛ عندك نوم، وعندك سِنة؛ السِّنة والنوم والهجعة والرقود، هذه أنواع النوم وأشكال النوم.

هم يهجعون قليلاً، ساعات قليلة يهجعون وينامونها، أما الساعات الكثيرة فهم يقومونها لله، يصلونها لله؛ ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧].

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]؛ إذا جاء وقت السحر قبيل الفجر، اشتغلوا بالاستغفار.

- **كيف تتعجب أيها الأخ الفاضل؟**

اسمع! الليل كله يصلون ونومهم قليل، ويتقربون إلى الله ويتضرعون إليه، قائمين راكعين ساجدين يتلون كتاب الله؛ ثم في آخر الليل يكثرون من الاستغفار لعل الله أن يغفر لهم ذنوبهم؛ فكيف بمن ينام كل الليل ولا يستغفر، ولا يقوم إلا وقد أقيمت الصلاة أو ذهب شيء منها أو قد تفوته الصلاة؟!

فرق بين هؤلاء وهؤلاء؛ هؤلاء قدموا أعمالاً صالحةً من قيام الليل وخلوا بربهم ثم يستغفرون حتى طلوع الفجر: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]؛ يكثرون من طلب المغفرة من الله؛ أن يغفر الله ذنوبهم، وأن يعفو عنهم، وأن يتجاوز عنهم؛ حتى يمحصهم من الذنوب والمعاصي.

هذا بينهم وبين ربهم؛ أما بينهم وبين الخلق، فإن في أموالهم حقاً عظيماً لإخوانهم المحتاجين: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

إذا جاءهم سائل يسألهم أعطوه، والذي يجلس في بيته قد حُرم من المال يعطونه؛ ويأتون إلى هؤلاء الذين لا يسألون الناس حياءً وخجلاً ويتعففون، يأتون إليهم ويعطونهم، والذي يسأل في الطرقات ويعرض نفسه يعطونه.

ولاحظ أن هنا قال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، ولما جاء في سورة المعارج قال: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: ٢٤]؛ في المعارج لما قال (حق معلوم) قال أهل التفسير: هي الزكاة، وهنا في الذاريات لما قال (حق للسائل) قالوا: الصدقة عموماً، الزكاة وغيرها.

قال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]؛ لما بيّن صفات المتقين، وأنهم مع ربهم عبادة وطاعة وصلاة، ومع الخلق صدقة وإحسان -أحسنوا مع ربهم وأحسنوا مع خلقهم- أيضاً هم ينظرون ويتأملون في خلق الله ويتفكرون فيه.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]؛ هم الموقنون الذين يوقنون بلقاء ربهم، وعندهم اليقين بوحدانية الله، ينظرون ويتأملون في هذه الأرض ما فيها من عبر ودلائل دالة على قدرة الله، وعلى أن الله هو الذي خلقها وهو المتصرف فيها، آيات عجيبة في هذا الكون ينظرون فيها ويتأملون فيها.

وكذلك ينظرون في أنفسهم، ولذلك قال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]؛ أنتم أيها الناس وأيها المؤمنون، أفلا تبصرون في أنفسكم حتى تروا آيات الله العجيبة في هذا الخلق؟!

انظروا إلى خلقكم؛ خلق عجيب تتأمل فيه، تعرف أن الله هو الخالق، وأنه المستحق للشكر والمستحق للعبادة؛ انظر في نفسك، تملأ بالتأمل في نفسك وفي خلق هذه الأجهزة العجيبة؛ السمع، والبصر، والشم، واللسان، والأسنان، والأيدي، والأرجل، وجهاز البطن وغيرها، والأعصاب، والعظام، والدم، واللحم، والمخ وغيرها؛ أشياء عجيبة سبحان الله العظيم!

تتأمل فيها تجد فيها العِبَر، وتجد في هذا الخلق العظيم آيات الله الواضحة: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]؛ لماذا لا تبصرون في أنفسكم وتتأملون وتتفكرون؟!

ولما قال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١]، لفت أنظارهم إلى السماء فقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]؛ في السماء رزقكم الذي أراده الله لكم وقدره لكم في السماء وهو السحاب والماء، أو ما كتبه الله وقدره لكم في السماء مما توعدون؛ وما توعدون من الخير والشر، والثواب والعقاب، كل ذلك عند الله مكتوب ومقدر.

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]؛ من الأقدار ومن الخير والشر ونحوه، هذا كله بعلم الله، والله الذي ينزل هذه الأشياء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم لما بيّن لهم هذه الآيات العجيبة، أقسم قَسَماً آخر؛ انظر، أقسم في أول السورة، ثم أقسم بالسماء ذات الحُبُك، والآن هذا القسم الثالث؛ فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣].

- **ما هو الذي ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾؟**

ممكن يكون القرآن، وممكن أن يكون الوحي الذي يأتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والرسالة التي كُلّف بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها حق، وممكن أن يكون اليوم الآخر الذي قررته هذه السورة ولفتت الأنظار إليه، فهذا ممكن.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾؛ يقسم الله عَزَّ وَجَلَّ بكونه رب السماء والأرض، يقسم بنفسه سبحانه على أن ما يُذكر لكم ويُقرر من الوحي، والتوحيد، والعبادة، واليوم الآخر حق؛ مثل ما أنك تنطق وتتكلم لا تشك في كلامك، فهذا حق كما أن نطقك حق.

وبعضهم قال في تفسير: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] يعني المطر والرزق، وإنك إذا دعوت وسألت الله أعطاك، وهذا معنى بعيد جداً؛ ليس المقصود، بل ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ يعود إلى ما تقدم من تقرير الإيمان باليوم الآخر، والتوحيد، وعبادة الله، والقرآن والوحي، هذا هو.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذكر قصصاً من الأنبياء مختصرةً، وبيان هذه القصص وما فيها من آيات وعِبَر؛ فبعدما ذكر الله لنا الآيات والعِبَر في الكون؛ في السماء وفي الأرض، لفت أنظارنا إلى الاعتبار والتأمل والتفكر في الأمم الماضية التي كذبت وأنكرت؛ ماذا كان مصيرها؟ هذا يأتي الكلام عنه -إن شاء الله تعالى- في اللقاء القادم.

نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الذاريات ٢٤ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا الدرس المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للعاشر من شهر رجب من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية؛ نسأل الله أن ينفعنا، وأن يبارك لنا، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

درسنا اليوم في تفسير سورة (الذاريات)؛ وقف بنا الكلام عند قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومثل ما ذكرنا لكم أيها الإخوة الكرام؛ سورة (الذاريات) تركز على أن الرزق من عند الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. وذكرت السورة في أوائلها الأرزاق.

- **وقد يسأل سائل فيقول: قصة إبراهيم قد قدمها الله على عاد وثمود ونوح وفرعون -أو نقول فرعون بعد إبراهيم- لكن هؤلاء الأقوام؟**

الجواب: لأن فيها رزقاً لإبراهيم.

- **ما هو الرزق الذي ساقه الله لإبراهيم؟**

هو بشارة الله لإبراهيم؛ حيث بشرته الملائكة بإسحاق؛ ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. هذا حتى نفهم أن الرزق ليس هو الطعام فقط؛ أرزاق الله واسعة كثيرة، فأنْ تُرزَق بالولد الصالح؛ هذا رزق من الله.

ندخل على القصة؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤]. الخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والخطاب خطاب تشويق؛ هل سمعت بالحديث أو سمعت بالضيف الذي جاء عند إبراهيم، أو ما بلغك ذلك؟ إن لم يكن بلغك فاسمعه حقيقةً.

وضيف إبراهيم هم الملائكة؛ قيل ثلاثة، وقيل اثنا عشر ملكاً، والأقرب أنهم ثلاثة؛ هم جبريل، وإسرافيل، وميكائيل؛ رؤساء الملائكة، جاءوا بصورة أضياف إلى إبراهيم ودخلوا عليه.

قال: ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾؛ لأنهم جاءوا على شكل أضياف وعلى صورة أضياف، و(ضيف) هنا مصدر؛ ولذلك جاء مفرداً: ﴿ضَيْفِ﴾، ولم يقل أضياف؛ لأنه مصدر: (ضيف إبراهيم).

﴿الْمُكْرَمِينَ﴾؛ لأنهم أكثر من، يعني ثلاثة فما فوق أو ثلاثة؛ ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ لأن إبراهيم أكرمهم بالضيافة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ أي: واذكر حينما دخلوا على إبراهيم فقالوا: نسلم سلاماً، فرد إبراهيم عليهم بأقوى من سلامهم وأعلى وأعظم، ما هو؟

﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ أي: عليكم سلام، الأولى جملة فعلية: ﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾، والثانية جملة اسمية: ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾؛ والجملة الاسمية أقوى وأثبت؛ فلذلك قالوا إن رد إبراهيم كان أقوى منهم؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ [النساء: ٨٦].

ثم قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٥]؛ ما عرفتكم الآن، من أنتم؟ قوم أنتم قوم منكرون؛ حتى الآن عرّفوني بأنفسكم، وهذا لا يمنع أن الضيف إذا جاءك وهو غريب ولم تعرفه؛ لا مانع من أن تتعرف عليه ويعرفك وتعرفه.

فلما رآهم أضيافاً قد جلسوا بصورة رجال؛ ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ [الذاريات: ٢٦] مباشرةً، وهذا يدل على عظم كرم إبراهيم؛ مباشرةً يعني انطلق إلى أهله.

كلمة (راغ) تدل على الذهاب بسرعة والميل بسرعة مع خفية؛ بحيث لا يشعر به الشخص، فانطلق مختفياً ومسرعاً إلى أهله؛ إلى زوجته وهي سارة، ﴿فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦].

شوف كلمة (فجاء) تدل على السرعة، بمعنى أن إبراهيم كان كريماً وكان يحب الأضياف ويعد لهم كل يوم عدتهم؛ فلذلك لما جاء الملائكة إليه ودخلوا عليه كان قد أعد لهم، ولذلك قال: ﴿فَجَاءَ﴾ مباشرةً.

- **وقال: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]، وفي سورة هود قال: ﴿حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]؛ كيف نجمع؟**

الجواب: هو سمين وقد ذبح وطبخ بالشواء، طُبخ على الحجر، (حنيذ) يعني محنوذ؛ فلا يمنع أن يكون بهذه الطريقة؛ أنه سمين وبنفس الوقت حنيذ، وقوله ﴿سَمِينٍ﴾ دل على كرمه.

﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: ٢٧]؛ قال أهل العلم: ينبغي أن يُقرب الطعام، وأن ما تعده للضيف أن تقربه إليه، لا أن تدعوه إلى الدخول، فيقرب إليه ويوضع بين يديه، فيقال له: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]؛ يُعرض عليه عرضاً، لا يقال: (كل) أو عبارة نحو ذلك، لا، وإنما يُعرض بلطف. ولذلك إبراهيم عرض عليهم هذا الطعام بلطف وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛ يعني كلوا، عرضاً.

فهم لا يأكلون؛ ملائكة، الملائكة لا تأكل؛ فخاف منهم؛ لأن الضيف إذا لم يأكل قد يكون عنده نية شر وقصده الشر، فيُخاف منه؛ أما إذا أكل وملح بملحك فيزول عنه الشر، فهو خاف منهم: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [الذاريات: ٢٨]؛ وقع في نفسه خيفة.

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [الذاريات: ٢٨]؛ طمأنوه حتى يذهب عنه الخوف؛ لا تخف نحن ملائكة لا نأكل، أخبروه بأنهم ملائكة ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨] وهو إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ.

بشروه وهو قد كبر وقد أصبح شيخاً كبيراً وامأته عجوز؛ ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]. فبشروه بغلام عليم؛ ذي علم، هذا الغلام وهو إسحاق، أي ذو علم من علم الله، وهو أنه سيوحى إليه وسيكون نبياً؛ فبشروه بهذه البشارة.

فقبلت امرأته -كانت خلف الستار فسمعت- فقبلت ولطمت وجهها؛ ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ﴾ [الذاريات: ٢٩] سارة ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]؛ صرة: صوت، الصرة هي الصوت الصليب، الصيحة؛ صاحت صيحةً بصوت عالٍ ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ [الذاريات: ٢٩]؛ أي: لطمت وجهها تعجباً؛ كيف أحمل وأنا في هذا السن؟!

حتى قال بعضهم إنها بلغت التسعين أو اثنتين وتسعين أو نحو ذلك؛ كيف عجوز عقيم؟! أنا أصلاً في سن الشباب عقيم لا أحمل، وقد زاد علي كبر السن وأنا عجوز؛ هذا شيء عجيب، فتعجبت ولطمت نفسها.

وقالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]؛ أنا عجوز وعقيم لا أحمل. فردت عليها الملائكة: ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ [الذاريات: ٣٠]؛ أي الأمر كذلك مثل ما أخبرنا، قال ربكِ؛ الله ربك وربنا هو الذي أخبرنا ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٣٠] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ حكيم يضع الأمور في مواضعها بحكمة، وعليم بالأسرار وبمصالح العباد؛ فلذلك وهبكم هذا الغلام، فالأمر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فآمنوا وصدقوا وأيقنوا بذلك وفرحوا بذلك.

ثم لما زال الخوف وذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى؛ أقبل عليهم فقال: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الذاريات: ٣١]؛ أنتم رسل الله جئتم، فما خطبكم؟ ما شأنكم؟

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢]؛ وهم قوم لوط الذين يفعلون الفاحشة؛ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣]، وفي سورة أخرى قال: ﴿مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]؛ الطين الذي قد طُبخ. فقال لهم إبراهيم: إن فيها لوطاً، قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله.

ثم قالوا هنا: ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [الذاريات: ٣٤]؛ معلّمة، كل حجر يرسل إلى صاحبه باسم صاحبه، مسومة عند ربك قد علّمها ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤]؛ لهؤلاء القوم الذين أسرفوا على أنفسهم بالذنوب والفجور والمعاصي وفعل الفاحشة ولم يبالوا، وحاولوا إيذاء لوط وإخراجه من القرية.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥]؛ لوط وبناته؛ أخرجهم الله لأنهم كانوا مؤمنين.

قال: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦]؛ شوف، قال في الأولى: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال في الثانية: ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾؛ يبين لك أن عندهم الإيمان والتصديق التام، والإسلام والانقياد لله؛ فجمعوا بين الإسلام والإيمان، وهم لوط وبناته؛ فأخرجهم الله، أوحى إليهم أن يخرجوا منها، إلا امرأته كانت من الغابرين.

قال: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧]؛ جعل فيها آية وعبرة وعظة لمن يتدبر ويتألم ويخاف الله ويخاف العذاب الأليم؛ حيث إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل، سبع قرى أهلكها الله، قلبت ديارهم عليهم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ﴾ [الذاريات: ٣٨]؛ بدأ يذكر لنا قصص الأنبياء والأمم الماضية التي عصت وتمردت؛ (**وفي موسى**) أي: وفي موسى عبرة وعظة وآية ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٨]؛ بحجة قوية.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ﴾ [الذاريات: ٣٩]؛ بقوته وجنوده، وقال لموسى: أنت ساحر أو مجنون، لا نقبل منك؛ فكفر ورد رسالة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فأخذه الله؛ قال: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠]؛ أخذه الله وألقاهم في اليم، فَنَبَذْنَاهُمْ في اليم ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾؛ يلام على فعله، و(**مليم**)؛ هذا فعله، يعني يلام على هذا الفعل، وقد أتى ما يلام عليه من كفره وجحوده.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقية الأمم -أو بعض الأمم- فقال: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ [الذاريات: ٤١] وهم قوم هود؛ أنهم عصوا رسولهم وكفروا به ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]؛ التي لا خير فيها ولا بركة فيها، (**عقيم**) ما تنفع؛ أرسل الله عليهم ريحاً سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً.

﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]؛ ما تأتي على شيء تدعه إلا صيرته كالمتكسر الفاني البالي الذي لا نفع فيه، فأهلكهم الله بالريح كأنهم أعجاز نخل خاوية.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الذاريات: ٤٣]؛ ثمود أرسل الله إليهم صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدعاهم إلى التوحيد فكفروا وعقروا الناقة، فقال: تمتعوا في داركم ثلاثة أيام، تمتعوا مدة من الزمن؛ لأنهم عتوا وتمردوا وكفروا عن أمر ربهم: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤]؛ فبعد ثلاثة أيام صاح بهم جبريل؛ فأخذتهم الصاعقة والصيحة وهم ينظرون، ينظر بعضهم إلى بعض وهم يتساقطون هلكى وموتى.

قال: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ [الذاريات: ٤٥]؛ فما استطاعوا أن يقوموا ولا يهربوا ولا ينهضوا، وما كانوا منتصرين؛ لم يجدوا من ينصرهم فهلكوا.

وأما قوم نوح؛ فقال الله فيهم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦]؛ فسقوا فأهلكهم الله بالطوفان والغرق، هذه أمم ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وبيّن عقوباتهم لما كفروا وجحدوا رسالات ربهم، وطغوا في الأرض وأفسدوا؛ هذه نتيجة الفساد والطغيان.

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك آيات تدل على عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ تدل على عظمته، لما تقرأ في الآيات الكونية التي يخلقها الله؛ خلق السماء، وخلق الأرض، وخلق النبات، وخلق الإنسان والحيوان.

اعلم أن هذه الأشياء تدل على ثلاثة أمور:

- الأمر الأول: تدل على وحدانيته؛ أنه هو الخالق وحده؛ ﴿هَـٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [لقمان: ١١].
- الأمر الثاني: تدل على وحدانيته وأنه المعبود؛ فالخالق هو المعبود الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له.
- الأمر الثالث: تدل على أن خلق الله لهذه الأشياء هي نعمة للعباد؛ فأنت تشكر الله على هذا الخلق وتعبده وحده لا شريك له، وتعلم أن الله هو الخالق وحده، لا خالق إلا الله.

ولذلك الله قال هنا: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]؛ أي: بنينا السماء، نحن الذين بنيناها بأيد؛ أي بقوة، (الأيدي) هنا معناها القوة؛ ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]؛ أي ذا القوة، القوة العظيمة.

يقول: نحن بنينا السماء ورفعناها ورفعنا سمكها وبنيناها بغير عمد، ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]؛ يعني نوسع أرجاءها وأنحاءها بقوة، والله قادر على ذلك.

وأما الأرض؛ قال الله عنها: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]؛ مهدناها ومددناها ممتدة، قال: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾؛ الله يمدح نفسه ويقول نعمة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]، ومرة قال: ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾، ومرة قال: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥]؛ كل هذا يدل على أن الله يبين نِعمه على الخلق وقدرته وقوته، وأن الله سبحانه يثني على نفسه بقدرته العظيمة.

ثم قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]؛ كل المخلوقات، شوف المخلوقات من طيور وحيوان وزواحف وإنسان؛ خلق الله زوجين؛ ذكراً وأنثى، حتى في النباتات؛ نباتات ذكوراً وإناثاً كالنخيل ونحوها يلقح بعضها بعضاً؛ أجناس الموجودات كلها صنفين؛ ذكوراً وإناثاً لتستمر الحياة وتبقى.

قال: ﴿زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قدرة الله وآياته في الكون؛ فتعتبرون بها وتزيدكم إيماناً. فالإنسان إذا نظر في هذا كونه وفي مخلوقاته؛ يعلم أن هذا كله بعلم الله سبحانه وقدرته.

قال: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠]؛ أيها الكفار وأيها الناس؛ فروا من عقاب الله إلى رحمته، فروا إلى الله، فروا من الكفر إلى الإيمان، ومن المعاصي إلى الطاعة والتقوى، فروا إلى الله ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

إن بقيتم على إعراضكم وكفركم فإنا نذير لكم من أن يصيبكم العذاب؛ فافرّوا وأقبلوا إلى الله، فروا من عذابه إلى رحمته، لا تعرضوا أنفسكم إلى العذاب؛ ففروا إلى الله.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١]؛ لا تشركوا بالله معه غيره؛ فإنه هو المستحق للعبادة ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ بين الإنذار، أن أحذركم من الشرك والكفر وعاقبة ذلك.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسلي نبيه محمداً؛ حيث أحزنه كفر قومه وإعراضهم؛ فقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]؛ من قبل قومك، يعني الأنبياء السابقين والرسل السابقين، الأمم الذين يأتيهم الرسل ماذا كان موقفهم؟

يكفرون بهم ويردون رسالتهم ويقولون: ساحر أو مجنون. فرعون قبل قليل يقول ساحر: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٩]؛ يعني هذه سيرة الأمم الماضية؛ إذاً ما يأتيهم الرسول إلا كانوا به يستهزئون ويسخرون ويردون رسالته، فأنت يا محمد اطمئن ولا تعجل عليهم، واصبر على ما يقولون، واصفح الصفح الجميل، وعاملهم بالأحسن لعل الله يفتح على قلوبهم.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هؤلاء الأمم الذين اتفقوا على الكفر والشرك جميعاً.

- **هل كان بعضهم يوصي فيكتب وصية للآخر؟**

قال: لا لم يوصِ؛ لأنه لم يدرك الأخيرُ الأولَ، ولكن اتفقوا على الطغيان: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٣]؛ تشابهت قلوبهم بالإسراف والفساد والطغيان والكفر والشرك، كلهم اتفقوا على ذلك؛ فكانت كلمتهم واحدة.

ولذلك قال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]؛ يعني أنت بلغ الرسالة لهم، وتول عنهم وأعرض عنهم، ولا تشق على نفسك وتهلكها بسبب عدم إيمانهم، وهون على نفسك؛ فأنت لست بملوم، لا يلومك أحد على أن تبلغ رسالتك وتبلغ ما أُرسلت؛ فلا لوم عليك.

هناك قال عن فرعون: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠]، وهنا قال: ﴿فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤]؛ (مليم) من ألام؛ فعل رباعي، و(ملوم) من لام؛ فعل ثلاثي. يعني لن يلومك الناس وأنت قد بلغت رسالات ربك.

ولكن استمر في دعوتك؛ أعرض عن هؤلاء وابقَ في دعوتك مستمراً، ابقَ واستمر ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]؛ ذكّر واستمر في دعوتك؛ فإن الذكرى تنفع، لو ما نفعت هذا أو هذا ستنفع الثالث والرابع.

☜**كما في الحديث:** «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً». والإنسان يبلغ فتنفع. وفي آية أخرى قال: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩]؛ يقول: إن وجدت للذكرى منفعاً ومكاناً خصباً وقبولاً فاستمر، وإذا وجدت عدم القبول فانتقل إلى مكان أخر، وذكر واستمر في دعوتك، وذكر الناس وعظهم، وذكرهم بما ينفعهم، وخوفهم بما يضرهم؛ استمر في دعوتك.

فإن الله لم يخلق الخلق عبثاً؛ قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ إلا لتوحيد الله وعبادته وعدم الإشراك به؛ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ إلا ليوحدون، فإذا وحدوه وعبدوه؛ فإن الله يرزقهم ويفتح عليهم خير الدنيا والآخرة.

ولذلك قال: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧]؛ أنا لا أريد منهم أن يرزقونني أو يطعمونني؛ لماذا؟ لأن الله هو الرزاق وهو المطعم، هو يُطعِم ولا يُطعَم وهو الرزاق؛ ما أريد منهم الرزق وما أريد أن يطعمونِ؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو المفرد بالرزق، هو الذي يرزق الخلق.

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]؛ هو المتكفل بأقوات العباد وأرزاقهم؛ لأنه ذو القوة، ذو القوة الذي قهر كل شيء وغلب كل شيء؛ قوة ومتانة وقدرة عظيمة، فهو القوي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الرزاق، السورة -كما ذكرنا- تدور حول قضية الرزق، وأن الله هو الرزاق؛ فاسألوه يرزقكم من فضله.

ثم قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الذاريات: ٥٩]؛ هذا تهديد لهؤلاء الظلمة المعرضين المكذبين، قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وأشركوا وكفروا ﴿ذَنُوبًا﴾؛ (ذنوباً) يعني نصيباً، و(الذَّنُوب) أصله الدلو إذا كان فيه الماء، كل دلو يكون نصيباً لشخص؛ فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهؤلاء: كل شخص منكم أيها الظالمون له نصيب من العذاب.

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا﴾ أي نصيباً من العذاب وقدراً من العذاب ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾؛ مثل نصيب السابقين الذين مضوا، سيصيبهم ما أصابهم فلا يستعجلون؛ سينالهم إذا كفروا واستمروا على كفرهم.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠]؛ نسأل الله العافية والسلامة.

وبهذا نكون قد انتهينا من سورة (الذاريات)، وإن شاء الله لقاؤنا في السورة التي تليها في اللقاء القادم، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الطُّور)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الطور ١ - ٢١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، واللقاء المتجدد من كل أسبوع بعد صلاة المغرب، هذا اليوم هو اليوم السابع عشر من شهر رجب من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة النبوية؛ درسنا أيها الإخوة الكرام في تفسير القرآن العظيم.

الحقيقة أنا أقول وأعيد وأذكر نفسي وأذكر الإخوة أن مثل هذا الدرس المبارك، والله حقيقةً إنه نعمة عظيمة؛ أن تعيش مع القرآن ومع الآيات القرآنية. الأيام تمضي وسريعة، والوقت الذي نعيشه مع القرآن هي كلها دقائق معدودة؛ لكنها دقائق ثمينة جداً، ومكانه ومكانته عند الله مكانة عظيمة.

وجلوسك في هذا المكان، سواء كان يعني في أي مكان جلست، المهم أنك تستمع للدرس وتحضر وتواظب وتحرص على هذا الدرس؛ اعلم أن هذا من توفيق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لك، واصطفاء الله لك، نعمة عظيمة أن نجلس نتدارس كتاب الله فيما بيننا؛ نقرأ الآيات، نبين معانيها، نتدبرها، نتأملها.

بدأنا من سورة (الكهف) والآن في سورة (الطور)، كم من السور والآيات الكثير الكثير منها مضى؛ يعني أكثر من عشرة أجزاء عشناها في أيام مضت سريعة؛ فالموفق من وفقه الله لحضور هذا الدرس وحرص عليه.

كلها دقائق تستمع تستفيد، ونسمع لهذه الدروس، نراجع فيها كتب التفسير ونجمع ما فيها من خير، ونحاول نحاول قدر الإمكان أن نوضح هذه الآيات التي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرنا بالتدبر والتفكر والتأمل في الآيات.

الله لم ينزل كتابه ليقرأ فقط، أو يوضع في المصاحف، أو يوضع في المساجد أو نحو ذلك أو في الأدراج؛ لا، الله أنزل هذا الكتاب لنتدبره ونتفكر فيه ونعمل به، وهو كتاب نور وهداية؛ ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾[إبراهيم: ١].

فهذا فضل عظيم يوفق له العبد؛ فنقول حقيقةً ينبغي لنا أن يعني أن نحرص على هذا الدرس، والحمد لله الكثير يحرص الكثير حضر ولله الحمد، ونستصحب معنا نية الحضور لهذا الدرس والتفكر والتأمل فيه، والاستجابة لأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والتفقه في دين الله، والتفقه في كتابه؛ كتاب الله هذا القرآن إما حجة لك أو عليك، هذا قرآن يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه.

هذا من باب التذكير، والسورة التي بين أيدينا هي سورة **(الطور)**، وسورة **(الطور)** جاءت بعد سورة **(الذاريات)**؛ وتلاحظ أن سورة **(الذاريات)** مفتتحة بالقسم: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾[الذاريات: ١]؛ هذا قسم من الله.

وهنا قسم: ﴿وَالطُّورِ﴾[الطور: ١]، وبعدها سورة **(النجم)**؛ كلها قسم؛ لماذا؟ لأنها نزلت في وقت المشركون يعني معاندون مستكبرون، لا يريدون تقبل الحق؛ فجاءت الآيات بقوة.

ولذلك سورة **(الطور)** سورة عجيبة، هي في حديثها لو تتأمل هذه السورة؛ وأنا دائماً أقول: اقرأ السورة وكرر قراءتها وأعد قراءتها، لا تقول أنا متى أخلص من السورة ومتى أخلص من الجزء ومتى أختم؛ لا، خذ سورة **(الطور)** واقرأها وأعد قراءتها وفكر فيها وتأمل؛ ستجدها سورة عظيمة.

هذه السورة عندما تقرأها وتقرأ في تفسيرها وكلام العلماء حولها، ستجدها أنها تقول لكل انسان: اختر طريق النجاة أو طريق الهلاك؛ هذه هي السورة باختصار.

السورة هي تقول يعني اختر طريق الهلاك، اختر طريق؛ عندك طريقين، عندك أمامك طريقان: طريق الهلاك، وطريق السلامة والنجاة. اختر أي طريق: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور: ٢١].

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور: ٢١]، ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[الطور: ٢١]؛ كل إنسان مرهون بعمله، عملك يفكك من هذا الرهن؛ هذا الرهن يعني **(الحبس)**.

عملك يفكك من هذا الرهن فتنجو من النار وتدخل الجنة، عملك ما فكك من الرهن هذا فأنت مرهون ومرتهن لدخول النار، هذه السورة باختصار هي تتحدث عن هذا الموضوع، وستجد هذا واضحاً؛ وتركيزها على العذاب يتكرر فيها كلام العذاب على المشركين: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾[الطور: ٧].

سورة (الطور) أيها الإخوة من فضائلها أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأها في صلاته؛ وقد قرأها في صلاة المغرب كما في حديث (جبير بن مطعم بن عدي)؛ جبير بن مطعم هذا كان من المشركين، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فك أسره لما جاء في غزوة بدر؛ كان من الأسارى.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نظر إلى أسارى بدر -وكانوا سبعين أسير- نظر إليهم؛ منهم من قتله كـ(عقبة بن أبي معيط) الذي بصق في وجه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغيره ممن قتله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما بعض هؤلاء أخذ منهم الفداء، أو الكثير أخذ منهم الفداء؛ وأما (جبير بن مطعم بن عدي) هذا فكان على دين الشرك وكان من أسارى مكة، لكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نظر إليه فقال: «**جُبَيْرٌ؟**»، قال: نعم، قال: «**أَمَّا هَذَا فَأَطْلِقُوا سَرَاحَهُ؛ فَإِنَّ لِأَبِيهِ عَلَيَّ فَضْلًا**».

وذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما اشتد أذى المشركين بعد وفاة (أبي طالب) وخرج إلى الطائف أراد أن يعود إلى مكة فمنعه المشركون من الدخول؛ فلم يدخل إلا بجوار (المطعم بن عدي) أبو جبير.

قال: خرج المطعم هو وأبناؤه ورأوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حدود مكة وعلى أطراف مكة، فقال: «**ادْخُلْ يَا مُحَمَّدُ بِجِوَارِي**»؛ فدخل بجوار المطعم وطاف المطعم بالبيت ومعه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**يَا أَهْلَ مَكَّةَ، إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ دَخَلَ فِي جِوَارِي فَلَا يُؤْذِيهِ أَحَدٌ مِنْكُمْ**».

فالنبي تذكر موقفه؛ هذا الموقف النبيل، فقال لابنه جبير: «**أَمَّا أَنْتَ فَاذْهَبْ**»، وأطلق سراحه؛ فكان ممن يجمع هو الفداء ويأتي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المدينة ليعطيه الفدية لمن يريد أن يفك أسره.

فجاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ سورة (الطور) في المغرب، فسمعها جبير؛ سمعها جبير بن مطعم، حتى إذا بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾[الطور: ٣٥ - ٣٦].

قال جبير هذا وهو كافر مشرك: «كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ»؛ وتأثر تأثراً عظيماً لما سمع النبي يقرأ هذه السورة، ثم بعد ذلك رجع إلى مكة وبعد مدة دخل في الإسلام وحسن إسلامه.

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ سورة (الطور) كاملة في صلاة المغرب؛ هذه سنة، وقرأها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حجة الوداع لما كان يصلي بالحرم، فجاءت (أم سلمة) رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا وقالت: إني أجد يعني تعب وكلفة علي وصعوبة أن أطوف بالبيت، قال: «طُوفِي وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ».

تقول: فطفت بالبيت من وراء الناس وأنا راكبة، فسمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي بالناس ويقرا سورة (الطور). فهذه الآثار تدل على أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ هذه السورة ويعتني بها.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقسم في هذه السورة بخمسة أشياء، على أي شيء أقسم في هذه السورة؟

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: ١]؛ أي أقسم بالطور.

- **ما هو الطور؟**

الجبل الذي كلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موسى وأنزل عنده التوراة؛ هذا الجبل: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]؛ هذا الطور.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة (التين): ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]؛ هذا طور سيناء، سينين وسيناء، هذا القسم الأول، أقسم الله بالطور الجبل؛ لماذا؟ لشرفه، ولأن الله كلم عنده موسى كليمه ونبيه، وأنزل عليه التوراة.

ثم قال بعدها: ﴿وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور: ٢].

- **ما الكتاب المستور؟**

قال أهل التفسير: "الكتاب المستور هو القرآن العظيم، هو كتاب محمد، الكتاب المنزل على محمد".

أقسم الله بالطور وأقسم بالكتاب، كما أقسم بالكتاب في سور أخرى؛ قال: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الدخان: ٢]، وقال: ﴿وَالْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢]؛ فأقسم هنا.

وبعض المفسرين يقول: كتاب مستور هو (اللوح المحفوظ). وبعضهم يقول: الكتاب المستور هنا هو التوراة؛ لأنه لما قال الطور الجبل ذكر بعده التوراة.

وبعضهم يقول: الكتاب المستور هو الكتاب الذي يأخذه كل إنسان يوم القيامة، ينشر تنشر له صحيفة يوم القيامة يأخذ كتابه بيمينه أو بشماله، ولكن الذي يظهر وعليه كثير من المفسرين أن الكتاب هنا هو القرآن؛ تعظيماً لشان القرآن. ومستور أي قد سطرت آياته وكتبت.

ثم قال: ﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ٣]؛ وهذا يدل على أنه القرآن الكريم؛ لأنه كتب في رق؛ يعني في جلد، لأنه يكتب في عمل في زمن الصحابة في جلود.

قال: ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ٤]. شوف الآن عندنا قسم؛ أقسم الله بالطور، هذا واحد؛ وأقسم بالكتاب المستور، اثنين؛ ثم أقسم بالبيت المعمور.

وهو **(البيت المعمور)** هذا هو البيت الذي في السماء السابعة تعمره الملائكة يطوفون به، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون مرة أخرى كل يوم؛ وهو يعني بحيال الكعبة، يعني مباشرة فوق الكعبة لكنه في السماء السابعة.

هذا نقول هذا البيت المعمور سمي معموراً؛ لأنه أعمرته الملائكة بالعبادة.

قال بعض أهل التفسير: "البيت المعمور هنا هو الكعبة"، لكن الذي يظهر أن البيت المعمور.

☜**كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليلة (الإسراء والمعراج)، قال:** «فَنَظَرْتُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ قَدِ اسْتَنَدَ إِلَيْهِ»؛ أسند ظهره إليه جالساً، البيت المعمور في السماء السابعة.

ثم قال: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ [الطور: ٥]؛ هذا القسم الرابع. والسقف المرفوع هي السماء؛ السماء هي السقف المرفوع، هي السقف المرفوع الذي قال الله فيها: ﴿سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]؛ والسقف المرفوع لأن السماء هي سقف العالم وسقف الأرض، ومرفوعة.

ثم قال بعدها: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]. قال البحر المسجور؛ البحر هنا جنس البحار، البحار، والمسجور قال بعض أهل التفسير: المسجور هو المملوء بالماء الذي فتح الماء بعضه على بعض: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

وقيل المسجور المملوك ناراً؛ يعني هو البحار تفجر وتسجر، تفجر وتكون ممتلئة ماء ثم بعد ذلك ينقلب هذا الماء إلى كونه ناراً محرقة مثل البراكين في الدنيا، لأن الله قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ

فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]، وقال في سورة أخرى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]؛ والتسجير هو الإيقاد بالنار.

هذه خمسة أشياء أقسم الله بها؛ قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ [الطور: ٧]؛ أقسم الله بهذه الأشياء على أن العذاب واقع. إن العذاب واقع يعني واقع بمن؟ واقع بمن يستحقه من الكفار؛ عذاب ربك واقع بالكفار، ﴿مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ٨]؛ لا أحد يستطيع أن يدفعه ولا يمنعه.

هذا تهديد تخويف؛ أول بداية السورة الله يقسم على أن عذاب ربك -يعني عذاب الله، وشوف قال: (ربك) يدل على عناية الله ولطفه بنبيه أن يخبره بهذا الخبر- أن عذاب ربك لواقع بأهل الإجرام، بالمجرمين، بالكفرة المعاندين؛ واقع لا محالة، ليس له أحد يدفعه.

- **متى يقع العذاب فيهم؟**

عذاب النار، قال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [الطور: ٩]؛ في ذلك اليوم عندما تمور السماء موراها.

تمور يعني يختل نظامها السماء، وتضطرب وتتشقق وتدور وتتحرك بقوة؛ يصيبها ما يصيبها من هول ذلك اليوم، من شدة يوم القيامة وهول هذا اليوم. السماء على قوتها وصلابتها وارتفاعها تتشقق وتصبح وردة كالدهان؛ تمور مورا تتحرك وتضطرب بقوة.

ثم قال: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠]؛ الجبال تزول عن أماكنها وتسير كسير السحاب، تذهب وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب؛ سيرت الجبال سيراً لم تبقى تذهب حتى تصبح هباء منبثاً وتكون سراباً، هذا كله يحدث يوم القيامة.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما هددهم بالعذاب، قال: ﴿فَوَيْلٌ﴾ [الطور: ١١]؛ تهديد آخر، ومعنى الويل يعني العذاب الواقع والهلاك بالمكذبين؛ ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١] يوم القيامة، للمكذبين الذين يكذبون بالله ويكذبون برسله وبما جاءهم عن الله. هؤلاء يتواعدهم الله بالوعيد الشديد.

- **فيقول المكذبين من هم؟**

قال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ [الطور: ١٢]. شوف الخوض دائماً يكون في خوض الماء؛ إنسان يخوض بالماء، فالذي يخوض بالماء يسمع صوتاً ولا يدري ماذا يقال فما يفهم؛ فكذلك هؤلاء

يخوضون خوضاً؛ يتحدثون بأحاديث لا فائدة فيها ولا يستفيدون منها، أحاديث لا يعني قد تكون وبالاً عليهم.

ويلعبون يعني لعباً وهزواً واستهزاء، ويخوضون بالباطل ويتكلمون بالحرام؛ ولا فائدة من مجالسهم، مجالسهم تذهب عليهم من غير فائدة. يخوضون خوضاً، وكل حديثهم لعب واستهزاء وسخرية؛ هؤلاء لا يعرفون قدر الوقت، ولا يعرفون يعني لماذا خلقوا، ولا يقدرون يعني ما الذي أراده الله منهم؛ فهددهم الله بالعذاب وبالويل.

ثم الآن تهديد أشد وأشد من الأول؛ يقول يوم القيامة ذلك اليوم: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]. يدعون يعني يدفعون بقوة؛ يدعون يعني يدفعون إلى النار دفعاً بعنف وشدة؛ يعني السلاسل في أرجلهم، والأغلال في أيديهم، قد غلت أيديهم إلى أعناقهم.

ثم هم يسحبون إلى نار جهنم ويدفعون الدفعاً؛ لأنهم إذا رأوا النار ويسمعون يسمعون النار وصوت النار والنار تناديهم بقوة، فإذا سمعوا لها شهيقاً فروا هاربين خائفين؛ فتأتيهم الملائكة خزنة النار وتدفعهم بقوة وهم لا يريدون دخولها فيدخلون بقوة.

ثم إذا أدخلوا النار قالت لهم الملائكة: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]؛ هذه النار التي كنتم في الدنيا تكذبون، تقولون ما في نار ما في بعث متى هذا الوعد، تستهزئون وتسخرون.

ثم يقال لهم: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]؟ أنتم تقولون في الدنيا إنه سحر ومحمد يسحرنا وكلامه سحر: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧]؛ هل هذا سحر؟

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]؛ هل انتم ترون النار أنها سحر كما كنتم تقولون في الدنيا، أو أنكم لا تبصرون الآن؟ ما تشاهدون العذاب؟ ما تنظرون إليه؟ ما تشاهدون ما تبصرونه؟

ثم يقال لهم على باب على وجه الإهانة والذلة، يقال لهم: ﴿اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]؛ اصبروا على شدتها وألمها أو لا تصبروا، الأمر سي يعني الأمر كل واحد.

صبرتم أم لم تصبروا هي ناركم وهي يعني مأواكم. اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم؛ إنما تجزون ما كنتم تعملون، هذا عدل الله فيكم؛ الله يحكم بالعدل فيكم، تجزون عملكم هذا معناه: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

قال بعدها لما ذكر مصير أهل النار وعذاب أهل النار ومصيرهم وحالهم في يوم القيامة، قابلهم بحال المتقين؛ وهذه طريقة القرآن: تخويف وترغيب، وتشجيع على الطاعة، وترغيب في الطاعة؛ ما بين ترهيب وترغيب، وما بين تخويف ورجاء.

والمؤمن يعيش في هذه الدنيا يخاف من العذاب ويرجو رحمة الله؛ فلذلك الله يعني يوازن بين هذا وهذا حتى لا تقنط وتيأس من رجاء الله، وحتى لا تغفل عن ما عليه أهل النار ولا تخاف من النار.

ولذلك عطف الله عليه على هذه الآيات ذكر المتقين؛ أهل الطاعة، المستقيمين على طاعة الله، المحافظين على شرع الله؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: ١٧]؛ أهل الطاعة والاستقامة، المحافظين على طاعة الله.

- **ما نتيجتهم؟**

قال: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾ [الطور: ١٧]؛ إذا ماتوا على الإسلام والتوحيد والطاعة، فإن الله وعدهم بأن يكونوا في جنات؛ وليست جنة واحدة، جنات عظيمة ونعيم عظيم يتنعمون به.

ولذلك شرح لك بين لك النعيم؛ قال ما هو النعيم الذي هم يعيشون فيه؟ قال: ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: ١٨]؛ فاكهين يعني يتفكهون يتلذذون.

التفكه هو التلذذ بالشيء، ولذلك سميت الفاكهة فاكهة؛ لأن الإنسان يتلذذ بها يأكلها مباشرة ويتلذذ بها. ﴿فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: ١٨]؛ بما أعطاهم من النعيم الذي لا حد له، أصناف كثيرة يتلذذون بها؛ فهم في جنات النعيم يتفكهون.

ووقاهم ربهم؛ شوف كلمة (ربهم) أتاهم ربهم؛ هذا يدل على رحمة الله بهم، وأن الله تفضل عليهم، وأنه هو الذي رباهم على الطاعة، وهو الذي وعدهم بالإكرام وأكرمهم، هو ربهم الذي رباهم، الذي أنعم عليهم، أتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم؛ سلمهم من النار وأنجاهم من النار، وجعلهم يتجاوزونها وجعلهم يتجاوزون النار: ﴿وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الطور: ١٨].

ثم يقال لهم وهم يتفكهون، يقال لهم على سبيل الإكرام: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩]؛ كلوا من فاكهة الجنة وطعام الجنة، واشربوا مما في الجنة من الشراب المتنوع.

شراب؛ كلوا واشربوا بما كنتم تعملون؛ بسبب عملكم، أعمالكم الصالحة بعد فضل الله ونعمته هي التي يدخلكم الجنة. العمل الصالح هو السبب في دخول الجنة بعد فضل الله؛ هو أولاً فضل الله عَزَّ وَجَلَّ فوق كل شيء، لن يدخل أحد الجنة بعمله، إنما هو بفضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لكن العمل سبب، لو لم يعمل ما دخل الجنة.

الذي قضى عمره ستين، سبعين، ثمانين، تسعين سنة وهو في بين صلاة ودعاء وذكر وقراءة قرآن وتسبيح وتهليل وصدقة؛ الله يقول: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، جزاء بما كنتم تعملون؛ بما كنتم تعملون.

ثم وصفهم قال حالهم حال المطمئن الآمن الذي لا يخاف ولا يخشى شيئاً؛ ولذلك قال: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ [الطور: ٢٠]؛ المتكئ الذي يتكئ على ظهره أو على جنبه أو على يده، ما يتكئ إلا الذي مطمئن ومرتاح.

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠]؛ هذه السرر، السرر مصفوفة قد صفت؛ ليش صفت؟

هذا يعطي جمال ويعطي ترتيب حسن لما تشوف السرر هكذا مصفوفة. وعلى ﴿سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤]؛ ما يكون بعضهم يعني يجعل ظهره للآخر؛ لا، متقابلين وسرر مصفوفة مرتبة؛ السرر هي التي يجلس عليها (الأرائك)؛ على سرر مصفوفة.

وخذ من النعيم العظيم؛ قال: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠]؛ زوجهم من الله الذي زوجك: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ [الطور: ٢٠] جعل لك زوجة من الحور العين غير زوجتك من الدنيا؛ زوجناهم بحور عين.

و (الحور) جمع مفرده (حوراء)؛ والحوراء المرأة الحوراء التي لونها أبيض مشرب بحمرة، اللون الأبيض الذي يكون مشرباً بحمرة يميل إلى الحمرة، هذه تسمى حوراء.

و (العين) أيضاً جمع ومفردها (عيناء)؛ والعيناء هي واسعة العينين الجميلة العينين (النجلاء)، نجلاء العينين واسعة العينين؛ فهذا من جمال الحور العين الذي يبهر، الذي يرى مخ ساقها يعني وعليها سبعون حلة، ويرى مخ الساق من وراء سبعين حلة.

هذه الحور العين الله يزوجك إياها لك؛ شوف النعيم كيف في جنات ونعيم. يعني الله سبحانه أخبر قال: فاكهين بما أتاهم، ثم قال: كلوا واشربوا هنيئاً متهنئ سهلاً أكله لا ليس فيه تنغيص ولا يتكدرون معه، جزاء بما كانوا يعملون؛ متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]؛ شوف لما تجلس أنت في الجنة وعندك الحور العين وعندك زوجتك التي دخلت معك الجنة، في هذه الحالة تتمنى أن يكون الأبناء عندك والآباء عندك والأسرة كاملة.

قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]؛ يعني من صلح من الذرية، الذرية تبعت آبائها بالإيمان سلكوا طريقهم في الصلاح والاستقامة؛ واتبعتهم ذرياتهم بإيمان، ألحقنا بهم هم أعلى الآباء؛ فالله يلحق الأبناء بالآباء يرفعهم.

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]؛ ما أنقصنا من ثواب الآباء شيئاً، وإنما الأبناء رفعوا بفضل من الله، بفضل من الله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

هذا فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجمع لك أبناءك في الجنة، والآباء يكونون؛ وكل آباء فوقهم آباء، وهكذا تجتمع الأسرة ويفرح بعضها ببعض؛ بشرط الإيمان، شوف قال: ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾ [الطور: ٢١]؛ أي لا بد من الإيمان.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]؛ هذه وقفة بين هذه الآيات بين نعيم الجنة، جاءت جملة معترضة؛ لماذا؟ ليبين لك ان كل إنسان مرهون بعمله؛ الذي يوصلك إلى هذه الدرجة عملك، أنت مرهون بعملك.

إن كان عملك كثيراً عظيماً مقبولاً عند الله سيرفعك إلى أعلى عليين، وإن كان عملك بعيد ضعيف قليل لن ترتفع إلا بفضل من الله. ثم أنه ينبغي لنا أيضاً أن نفهم من كلمة: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] أن الله يتفضل على المؤمنين برفع أبنائهم إلى الآباء؛ لكن أهل النار لا ينزل الآباء، يعني نستطيع أن نقول الأبناء في النار لا يعذبون كما يعذب آباؤهم.

لا يعذبون كما يعذب آباؤهم، لا يعذبون؛ لأن الله من عدله ألا يساوي بالعذاب أحداً دون أحد، لا يساويهم ليس هذا مثل هذا، وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين.

ثم أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنعيم أهل الجنة مرة أخرى، قال: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[الطور: ٢٢].

الوقت يضيق أيها الإخوة ولا نريد الإطالة عليكم، وإلا الحقيقة نحن مستمتعون جداً بهذه الآيات التي فيها هذا النعيم؛ نسأل الله أن لا يحرمنا هذا الفضل، نسأل الله أن لا يحرمنا وأن يجعلنا وإياكم وإخواننا المسلمين من هؤلاء الذين فازوا بهذا النعيم العظيم وأن يلحقنا بهم.

نقف عند هذه الآية: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢]؛ لأن كل آية حقيقة تحتاج منا إلى أن نتأملها ونقف معها كثيراً ونتدبرها. فنقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الطور ٢٢ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو اليوم الأول من شهر شعبان من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة، أسأل الله أن ينفعنا، وأن يبارك لنا في هذا الشهر، وأن يبلغنا وإياكم شهر رمضان المبارك، وأن يعيننا وإياكم على صيامه وعلى قيامه ونحن في صحة وعافية وأمن وأمان.

درسنا في تفسير القرآن العظيم وسورة (الطور)؛ وقف بنا الكلام عند قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

الآيات في بيان نعيم أهل الجنة، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعد لأهل الجنة من النعيم «**مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»؛ وكل ما يدور في ذهنك من النعيم فهو على خلافه، نعيم الجنة لا يمكن أن يتصوره الإنسان في ذهنه أبدًا.

انظر لهذه الآية: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾؛ أي أهل الجنة، ﴿بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢]. ما قال: أعطيناهم، قال: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾؛ يعني زدناهم، يعني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يمدّهم ويمدّهم، ليس عطاءً جديدًا وإنما إمدادًا لشيء قد سبق.

فكلمة ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ من المدّ؛ وهو إعطاؤهم زيادة على ما كان عندهم، فهم عندهم من الفواكه واللحوم المتنوعة ويزيدهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يعني والنعيم الذي تقدم أيضًا مما تشتهيه النفس وتلذّ الأعين له، كل هذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أعدّه لهم.

قال: ﴿بِفَاكِهَةٍ﴾، الفاكهة هنا مطلقة تشمل جميع أنواع الفواكه التي تدور في ذهنك، ﴿وَلَحْمٍ﴾ جميع أنواع اللحوم التي تدور في ذهنك؛ وفي آية سورة (الواقعة) قال: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾

[الواقعة: ٢١]، خصّصه قال: "لحم طير"، وهنا قال: "لحم" مطلقًا، فقد يكون لحم طير، وقد يكون لحومًا أخرى الله أعلم، لكنه لحم مما تشتهيه النفوس.

وكلٌّ - خذها قاعدة هذه - كل ما تشتهيه النفس في الجنة يأتي، كل ما تشتهيه النفس وتستطيبه وتتمناه يأتي مباشرةً؛ هذا في الطعام: فواكه ولحوم.

أما في الشراب؛ قال: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]. شوف كلمة الكأس لما تأتي في القرآن، أي كلمة فيها كأس تأتي في القرآن معناها الخمر، هذه لغة العرب؛ الخمر الكأس.

العرب ما تسمي الكأس كأسًا إلا إذا كان قد وضع فيه خمر، أما إذا وضع فيه لبن ولا ماء ولا شراب ولا عصير ما يسمى كأس، يسمى إناء أو كوب، لكن الكأس الكؤوس هذه لا تكون إلا إذا كان فيها الخمر، فـ "كأسًا" هنا أي خمرًا.

وهنا لاحظ أنه قال: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾؛ يعني من كؤوس الخمر يشربون الخمر، ولذلك شوف قال: ﴿كَأْسًا﴾، وهذا الكأس وصفه الله بأي شيء؟ ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]؛ يعني ليس كلامًا لاغيًا ساقطًا ليس له أي قيمة، لا يتكلم أهل الجنة - لا تسمع فيها لاغية - ولا تأثيم كالسب والشتم واللعن ونحوه.

هم يشربون الخمر ولا تؤثر في عقولهم؛ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]، لا تذهب بعقولهم، بل هي شراب خمر لذة للشاربين، بخلاف خمر الدنيا فيها اللغو وفيها التأثيم والسب والشتم والضرب والقتل، هذه لا، ما فيه.

بعدين لاحظ شوف قال: ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾، كيف يتنازعون؟ يعني ينزع الكأس ويعطيه هذا، وينزع الكأس ويعطيه هذا، وينزع الكأس ويعطيه هذا؛ يعني يتنازعون هذه الكؤوس فيما بينهم وهم على أحسن وأجمل قلب، ليس هناك تنازع بحيث إنه يكون هناك بغضاء أو شقاق، لا، وإنما هو من نوع من المداعبة.

يعني يداعب بعضهم بعضًا، فهذا يأخذ الكأس ويعطي هذا، وهذا يعطي هذا؛ يعني على أفضل وأجمل قلوب صافية، ولا غل ولا حقد ولا نحوه، وإنما يتنازعون هذه الكأس ويشربون الخمور، ويشربون الماء ويشربون العسل ويشربون اللبن ويشربون مما تشتهيه الأنفس.

وفي هذه الحال الغلمان يطوفون عليهم، الولدان المخلدون، الغلمان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعل لهم ولدان مخلدون لا يكبرون، في سن معينة، شباب غلمان يطوفون يقومون بخدمتهم، يطوفون هؤلاء الغلمان، وهؤلاء الغلمان على أحسن جمال: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، لؤلؤ مكنون في الصفاء والبياض والتناسق والترتيب والجمال.

في سورة أخرى قال: ﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]، منثورًا لكثرتهم وانتشارهم، واللؤلؤ المكنون المحفوظ في أصدافه بجمالهم؛ و﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩] في جمالهم وحسنهم وبهائهم.

فهم في هذه الحال والغلمان يطوفون عليهم، والكؤوس تدور عليهم، وقد جلسوا على هذه السرر، تبدأ المحادثات بينهم مثل ما تكون في الدنيا؛ إذا جلسوا الآن وأكلوا من الأطعمة وشربوا من الأشربة والقهوة والشاي وهذه الأشياء، بدأوا يتحدثون فيما بينهم، يتجاذبون الأحاديث.

وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون؛ أهل الجنة أقبل بعضهم على بعض وبدأوا يتساءلون، يسأل بعضهم بعضًا: ما حالكم؟ وكيف كنتم في الدنيا؟ وما الذي جرى لكم؟

فقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]، كنا في الدنيا خائفين، نعمل الأعمال الصالحة الكثيرة ونخاف ألا تقبل، لا ندري ماذا سيكون مصيرنا، نخاف من عذاب الله وعقابه ونخاف الوقوف بين يدي الله، كنا خائفين مشفقين.

ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منَّ علينا؛ ﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، منَّ علينا بالهداية، ومنَّ علينا بالثبات، وختم لنا بالخاتمة الحسنة، ويوم القيامة نجانا من النار ووقانا عذاب السموم؛ عذاب النار والسموم الشيء الحار، تقول: ريح سموم؛ ريح حار لأنها تدخل في مسام الجلد فهي حارة، فلذلك سميت النار عذاب السموم.

ثم قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]، كنا في الدنيا من قبل ندعوه، كنا نتضرع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وندعوه لا نقف عند حد، دائمًا الدعاء على ألسنتنا، ندعوه إنه هو البر الرحيم؛ الله سبحانه هو البر، ذو البر والإحسان، أحسن إلينا وبرَّ بنا ورحمنا، فمن بره وإحسانه ورحمته أن ثبتنا وأن ختم لنا بخير وأن وقانا عذاب السموم، جل جلاله برحمته وفضله.

بعد هذا النعيم الذي تستمع إليه وتشتاق النفس إليه، تنتقل الآيات إلى موقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في دعوته وكيف وجَّه القرآن؛ فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]. ذكِّر يا محمد، ذكِّر واستمر في تذكيرك ودعوتك، فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون.

الكفار يقولون عنك إنك كاهن؛ الكاهن الذي يدعي علم الغيب، لأنك جئتهم بهذه الأخبار التي لا يعرفونها فسمَّوك كاهنًا واتهموك بأنك تدعي علم الغيب، ولا مجنون فاقد العقل؛ لأنك تقول أقوالًا لا يرضون بها، أنكم تبعثون، وأن هناك جنة، فقالوا: هذا مجنون.

الله عَزَّ وَجَلَّ قال: أنت بنعمة ربك بالنبوة ورجاحة العقل وتمامه، أنت من خيرتهم، فأنت بنعمة عظيمة.

ثم قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، (أم) هنا بمعنى بل؛ بل يقولون شاعر، يعني هم اتهموك بأنك كاهن ومجنون، ثم مرة يقولون إنك شاعر؛ لأن الذي تأتي به مثل الشعر، كلمات موزونة كالشعر، بل يقولون شاعر نتربص به ريب المنون.

يقولون أنت شاعر وننتظر فيك الموت، ينزل بك الموت كما مات غيرك من الشعراء (**كالنابغة**)، و(**الأعشى**)، و(**امرئ القيس**) وغيرهم، هؤلاء كلهم ذهبوا وأنت ستذهب معهم، فكانوا يظنون هذا الظن.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ قل لهم يا محمد: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٣١]؛ انتظروا، إني معكم للمنتظرين، أنتم تنتظرون وأنا أنتظر، أنتم تنتظرون أن أموت وأذهب، وأنا أنتظر هلاككم أن يعجل الله لكم بالعقوبة، وقد عجل الله بهم العقوبة في بدر، فمات منهم سبعون – الذين ماتوا – وأُسر منهم سبعون.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢]، شوف (أم) هذه ستتكرر معنا خمس عشرة مرة، (أم) بمعنى بل؛ بل تأمرهم أحلامهم عقولهم الراجحة؟ يقول: هل عقولهم إذا كان عندهم عقول تأمرهم بهذا السفه وهذا العقل الناقص؟

يصفونك بأنك كاهن وشاعر ومجنون، كيف يقولون وأين عقولهم؟ وهم أصحاب العقول وأصحاب النهى، كيف يقولون هذا؟ لكن الصحيح: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ بل هم قوم أهل طغيان وإسراف وتجاوز للحدود، وهم يعرفونك معرفة تامة لكن لا يريدون قبول ما تأتي به.

ثم قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]؛ الذي تأتي به إنك متقوّل وإنك تدعي أنه من عند الله وتأتي به من عند نفسك وتقول الله قال هذا، تقول على الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، لو كانوا يؤمنون ما قالوا هذا الكلام إنه من عند محمد، لعرفوا أنه من عند الله، لكن عدم إيمانهم هو الذي جعلهم يرفضون ذلك.

ثم إذا كان محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تقوّله وأتى به وقال إن الله قاله، أنتم لماذا لا تأتون بمثله؟ فليأتوا بحديث، تحداهم الله قال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]؛ بأن محمدًا تقوّله واختلقه، فأتوا أنتم بمثله، وعجزوا عن ذلك ولن يستطيعوا.

ثم ناقشهم في عقيدتهم وفيمن هو الخالق لهم، فحجَّهم بحجة قوية قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]؛ يعني هكذا وجدوا بدون سبب، أم هم الذين خلقوا أنفسهم؟

يعني هل هذا الإنسان أوجد نفسه أو هو وُجد هكذا؟ لا، فيه خالق، يعني لا هذا ولا هذا؛ يعني ليسوا هم خلقوا من غير شيء هكذا وجدوا الطبيعة أوجدتها والصدفة، لا ما يمكن، ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾؛ خلقوا أنفسهم أو خلقوا أولادهم؟

لا، لم يخلقوا أنفسهم ولم يخلقوا أولادهم، إنما الخالق لهم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهم يعترفون بذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ثم تحداهم قال: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦]؛ هل هم قد خلقوا السماوات والأرض؟ بل هم لا يوقنون، وليس عندهم علم ولا معرفة ولا يخشون الله ولا يخافون عذابه، لا هم خلقوا السماوات والأرض ولا خلقوا أنفسهم.

ثم أيضًا ناقشهم على سبيل الاستفهامات الإنكارية: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧]؛ هل هم يملكون ملك الدنيا والآخرة؟ يملكون خزائن الدنيا والآخرة؟ هل عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون على الدنيا ومسيطرون على الأرض؟

لا هم مسيطرون، وليس عندهم الخزائن، بل هم فقراء عاجزون ضعفاء لا يملكون شيئًا، هم مملوكون في ملك الله وفي تدبيره.

ثم أيضًا أنكر عليهم، استنكر عليهم فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨]؛ يعني هل عندهم مصعد يصعدون إلى السماء ويستمعون الوحي، ويقولون إن هذا كذا وهذا كذا؟

يعني هذا كلامهم مبني على وحي وعلى أدلة، فليأتِ مستمعهم بسلطان مبين؛ بحجة قوية، ما عندهم مستمع، ولا هم يستطيعون أن يستمعوا ولا يسترقوا السمع.

ثم ناقشهم أيضًا في العقيدة لما اتهموا الله عَزَّ وَجَلَّ بأن له البنات، ناقشهم قال: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩]؛ بل البنات لله ولكم البنون! ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢٢]؛ كيف تنسبون الأقل وتقولون لله البنات، وأنتم تزعمون أن لكم الأشرف البنون؟ هل هذا يرضيكم؟ أنتم لا ترضون بالبنات، تأتون على البنت وتئدونها وهي حية، فكيف ترضون؟

ثم ناقشهم أيضًا - كل هذه مناقشات مثل ما ذكرنا خمس عشرة مناقشة -: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]؛ يا محمد، هل أنت طلبت منهم أجرة على كلامك وعلى دعوتك؟ فهم قد أثقلهم الأجر، والغرامة أثقلتهم وصعب عليهم سدادها ودفعها، ما طلبت منهم أجرًا، أجرك على الله عَزَّ وَجَلَّ.

﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الطور: ٤١]؛ هل عندهم علوم الغيب يكتبونها؟ يأخذون الغيب من الله ويكتبون عندهم غيب السماوات والأرض؟ ما عندهم، كل هذا نقاش معهم بدون فائدة، ما فيه رد من عندهم.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]؛ هل هم يريدون الكيد بك يا محمد؟ يريدون أن يكيدوا لك ويمكروا بك، فالله هو الذي يكيدهم فهم المكيدون، والله هو الذي يمكر بهم ويكيدهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وكاد بهم وأهلكهم وقتل رؤوسهم في بدر.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٤٣]؛ هل لهم إله يعبدونه غير الله؟ ما في إله إلا الله، فسبحان الله عما يشركون، كيف يشركون؟ يشركون في الله، يعني يشركون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذا ويجعلون لله شركاء، والله هو الخالق وهو المدبر وهو الرازق، كيف يشركون معه؟

ثم قال: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]؛ هذا يدل على ذهاب عقولهم، ما عندهم عقول ولا تفكير ولا تمييز، يرون العذاب ينزل من السماء يقولون: سحاب مركوم، هذا مطر شديد، سحاب قوي، مثل ما قال قوم عاد لما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم قالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هذا النقاش الطويل والمناقشات التي لا جدوى وراءها ولا رد منهم إلا إقامة الحجة عليهم، قال: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]؛ ذرهم واتركهم حتى يلاقوا يومهم، يتركهم حتى يأتيهم اليوم الذي فيه يصعقون، الذي فيه تخرج أنفسهم ويموتون ويهلكون، وقد جاءهم هذا اليوم إما ببدر أو يوم القيامة.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الطور: ٤٦]؛ هذا اليوم لا يغني عنهم كيدهم، لا ينفعهم ولا يدفع عنهم الكيد، ولا هم ينصرون، لا أحد يستطيع أن ينصرهم ولا كيدهم ينفعهم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧]؛ يقول: سيصيبهم عذاب إما في الدنيا أو في القبر، ولكن أكثرهم لا يعلمون، لا يدرون أنه سينزل بهم العذاب.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]؛ واصبر يا محمد – شوف توجيه القرآن، وجَّهه بتوجيهين.

شوف التوجيه الأول – قال: اصبر على ما يقولون، اصبر لحكم ربك، الله يقضي بينك وبينهم فإنك بأعيننا؛ بحفظنا ومرأى منا ورعاية، وأنت نكلأك برعايتنا، لكن اصبر واشتغل بالطاعة، سبِّح الذكر والصلاة، سبِّح بحمد ربك حين تقوم من مجلسك، أو تقوم للصلاة، أو تقوم من النوم، سبِّح واذكر وأكثر من ذكر الله وصلِّ.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩]؛ ومن الليل سبِّح وصلِّ، قم الليل كثيرًا وسبِّحه إلى أن تدبر النجوم، إلى أن تذهب النجوم وينتهي الليل؛ لأن النجوم تغيب عند نهاية الليل.

شوف، هذه هي بقية السورة في مناقشة هؤلاء الجبابرة المتكبرين المستكبرين، هذا نقاشهم وانتهت السورة بنقاشهم، لا جدوى ولا فائدة منه؛ ولذلك وجَّه الله نبيه بالصبر والطاعة، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين، تمسك بالطاعة والصبر، والله هو الذي يقضي بينك وبينهم.

إلى هنا تنتهي السورة، سورة (الطور)؛ إن شاء الله لقاؤنا القادم - بإذن الله - في السورة التي تليها، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ النَّجْمِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(النجم ١ - ٢٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهَدَاهُ إلى يَوْمِ الدِّينِ. اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله أن يجعله لقاءً نافعًا مباركًا مع تفسير القرآن الكريم، ودرسنا اليوم مع تفسير سورة (النجم). وسورة النجم هكذا سُمّيت في بعض التفاسير وفي بعض المصاحف (سورة النجم)، وفي بعضها سورة (والنجم) بالواو: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ [النجم: ١].

وهذه السورة تعتبر مما نزل متقدمًا في (العهد المكي)؛ يعني نزلت مبكرةً، والسورة هي أول سورة نزلت فيها سجدة؛ سجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قرأها وكان المشركون حوله، ولما قرأها كان فيها ذكر اللات والعزى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩-٢٠].

فلما سمعه المشركون واستمعوا له سجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسجد المشركون معه تعظيمًا لآلهتهم؛ إلا رجلًا واحدًا وهو أمية بن خلف، أخذ حفنةً من التراب ووضعها على جبهته.

فالسورة هذه تعتبر مما تقدم نزوله على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضًا هي أول سورة صدع بها بعض الصحابة في مكة؛ قيل إنه عبد الله بن مسعود هو أول من قرأ سورة النجم، وقيل سورة الرحمن.

فالشاهد أن هذه السورة، سورة النجم، نزلت مبكرةً؛ حتى ذكر بعضهم أن الذين هاجروا الهجرة الأولى من الصحابة إلى الحبشة -وكانوا اثني عشر رجلًا وامرأةً- لما قيل إن المشركين سجدوا في سورة النجم ظنوا أنهم أسلموا، فرجعوا من الحبشة؛ فلما أقبلوا إلى مكة تبين أنهم لم يسلموا، بل زاد إيذاؤهم للصحابة وإيذاؤهم للمسلمين، فانقسموا قسمين؛ منهم من دخل بجوار مشركين، ومنهم من عاد إلى الحبشة.

هذه السورة عندما نقرأها ونتأمل آياتها، ونعيد النظر فيها، ونكرر قراءتها حتى نستوعب معانيها ونتدبر آياتها؛ نجد أن هذه السورة تشير إلى أن المصدر الأساس لكل إنسان، مصدره العلمي، هو الوحي؛ هو الوحي والشريعة.

إذا أنت تريد أن تكون مصادرك مصادر موثوقةً وصحيحةً وسليمةً؛ فالمصدر هو الوحي، والآيات في أول السورة تشير إلى هذا الأمر، وتبين أنه ينبغي أن يرجع الناس إلى مصادر الوحي والشريعة والاسلام؛ أما ما سوى ذلك فذلك كله تخبطات.

ولذلك الله لما بيّن أن مصادر الإسلام هي الوحي: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤]؛ بيّن أن المشركين ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]؛ ما عندهم مصادر، مصادرهم ظنون وشكوك وشهوات وأهواء فقط، أما المسلمون والعقلاء وأولو الألباب فمصادرهم مصادر موثوقة.

فالسورة هذه تبين العلم والمصدر الأساس لكل علم، ولذلك افتتح الله بالقسم بالنجم، والنجم فيه نور وفيه إضاءة؛ وفيه إشارة بأن النجم مصدر الإضاءة والوحي مصدر العلم.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في الصحابة: «أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِمُ اقْتَدَيْتُمُ اهْتَدَيْتُمْ»؛ فالنجوم نور على الأرض والوحي نور في القلوب، كما أن النجم يضيء في السماء ويضيء إلى الأرض؛ فكذلك الوحي يضيء للمسلمين طريقهم، طريق النجاة.

فتدبر وتأمل هذه السورة تجدها تتحدث عن هذه الأمور، وأيضًا تتحدث عن أمور غيبية لا يستطيع أي إنسان الوصول إليها إلا عن طريق الوحي، وهي قصة الإسراء والمعراج.

نبدأ بالسورة؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]؛ أقسم الله بالنجم، وهل النجم هنا مراد به نجم معين كالثريا والشعراء ونحوها، أم جنس النجم على العموم؟ قيل هذا وقيل هذا، والصحيح أن الله أقسم بالنجم على عمومه، والنجم الذي في السماء دون تحديد.

﴿إِذَا هَوَىٰ﴾؛ يعني إذا سقط وغاب، النجوم تغيب وتذهب فتطلع وتغيب، فيقسم الله بالنجوم إذا غابت.

- **ليش إذا غابت وإذا هوت وسقطت؟**

قال: لأنها في ذهابها ثم مجيئها مرةً أخرى، هذا يدل على أنها مسخرة، وأن المسخر لها هو الله، وأنها في ملك الله وهو المدبر لهذا الكون؛ ولذلك فيه إشارة إلى التوحيد، وإلى أن الخلق كله بيد الله.

لما أقسم بالنجم إذا هوى على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نبيه محمد أنه ما ضل ولا غوى؛ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]. أنتم تتهمونه بأنه في ضلال وأنه في غواية؛ ليس كذلك، لم يضل ولم يغوِ. ﴿مَا ضَلَّ﴾ يعني أنه على نور وهداية؛ لأن الضلال ضده الهداية.

﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ أنه من أعقلكم وأرشدكم؛ لأن الغواية ضدها الرشد، وهو ما خرج عن الرشاد ولا خرج عن طريق الهداية ولا مقدار شبر، بل هو على نور من الهداية والرشاد.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ لا كما تزعمون؛ فنفى عنه الضلال ونفى عنه الغواية، وبهذا يثبت له الهداية والرشاد. ثم بيّن أيضًا -يعني ردًا عليهم- شوف كلمة ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ يذكرهم بأنه صاحب لهم عاش أربعين سنةً عندهم ويعرفونه معرفةً تامةً.

فلما جاءهم بالحق أنكروا وكفروا واتهموه بأنه صاحب ضلالة وغواية، قال: لا، هو صاحبكم ما زال. ثم لما نفى عنه الضلالة والغواية، أثبت له الهداية والرشاد من الله.

قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤]؛ ما يتكلم من تلقاء نفسه، أنتم مصادركم الهوى، هو لا، ولا يتكلم بشهوة وهوى، إنما كلامه وحي يوحى؛ فالقرآن وحي من الله والسنة وحي، وهو لا يتكلم إلا بالوحي، فكل ما يتعلق بأحكام الشريعة والعبادة هو من كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحي.

☜ **يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «أَلَا وَإِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»؛ فالقرآن والسنة وحي، ما ينطق من نفسه ولا من هواه، إنما يتكلم بالقرآن ويتكلم بالسنة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- **ثم بيّن لك المصدر، قال: من أين أتى بالوحي؟**

قال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

- **النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الذي علمه؟**

شوف ما قال لك علمه جبريل، لا، أعطاك أوصافًا قال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾؛ القوى جمع قوة، يعني صاحب القوة، ومعروف جبريل بقوته وبطشه؛ قيل قد رفع سبع قرى من قرى لوط بريشة من جناحه، وهو قوي، فوصفه الله بالقوة.

ثم قال: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦]، ذو مرة أيضًا القوة بالعقل، قوة بالجسد وقوة بالعقل، أو ذو مرة يعني ذو منظر جميل وحسن، ولا يمنع أن يكون جبريل حسن المظهر وتام العقل.

ثم بيّن لك أين رآه النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكيف أوحى إليه؛ قال: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ [النجم: ٧]، يعني أفق الشمس عند مطلعها، هذه رؤية ثانية.

في سورة التكوير قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]. شوف قال هناك (الأفق المبين) وهنا قال (الأفق الأعلى). الفرق بينهما أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى جبريل في صورته التي خلق عليها مرتين.

المرة الأولى رآه عندما نزل من غار حراء متوجها إلى مكة، وهو في الطريق ناداه جبريل: يا محمد، يا محمد، فالتفت يمينًا التفت يسارًا أمامًا خلفًا ما وجده، فرفع رأسه فإذا جبريل في الأفق المبين قاعد على كرسي سد ما بين السماء والأرض؛ هذه الرؤية الأولى.

الرؤية الثانية ليلة الإسراء والمعراج، رأى جبريل على صورته في السماء؛ قال: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ في السماء، رآه في السماء في صورته التي خُلق عليها.

ثم قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٨-٩]، من هو؟ جبريل؛ يعني قرب من محمد، قرب وازداد قربه، فالتدلي هو من أعلى إلى أسفل، فجبريل في الأعلى في السماء السابعة، ومحمد تحته، فدنا منه وقرب منه.

قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾، يقول: قرب قربًا شديدًا بمقدار القوسين، يعني مسافة يمكن مترين أو متر ونصف؛ كانوا يقدرون بمثل هذه التقديرات، كانوا يقدرون بالشبر والذراع والقوس، قاب قوسين يعني مقدار قوسين، ومؤخرة الرحل، يقدرون بهذه الأشياء.

فالقرآن أخبرهم بأن جبريل قرب قربًا شديدًا من محمد حتى ما بينه وبين محمد إلا مقدار قوسين، أو مقدار ما بين القوس وما يُمسك به السهم، فهذا مقداره؛ يعني مسافة قليلة.

قال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، لما قرب، أوحى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى عبده محمد بواسطة جبريل، فسمع الكلام، قال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾، كلمة ﴿مَا﴾ هذه المبهمة تفيد التفخيم؛ أوحى إليه وحيًا عظيمًا.

ثم قال: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١]، هذا فؤاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلبه.

- **قد يسألك سائل يقول لك: ما الفرق بين القلب والفؤاد؟ هل المعنى واحد أم فيه فرق؟**

الجواب: فيه فرق؛ القلب هو القطعة الجسدية الصنوبرية، هذه القطعة تسمى قلبًا، المضغة هذه اللحمة تسمى قلبًا، والفؤاد هو ما يشتمل عليه القلب من التأثر والاستعداد والإيمان والزيادة والنقص، هذا فؤاد مأخوذ من (الفؤْد) وهو الاحتراق؛ يتحرك ويحترق ويشتد.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾؛ ولو أردت أن تتأكد من الفرق بين الفؤاد والقلب تتبع الآيات التي فيها كلمة الفؤاد: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠]، يعني احترق واشتد؛ تجد كلمة الفؤاد تختلف عن القلب.

ما الفؤاد ما رأى؛ يعني أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى أمورًا عظيمةً في ليلة الإسراء والمعراج.

- **ماذا رأى؟**

رأى سدرة المنتهى، ورأى الجنة، ورأى النار، ورأى الأنبياء، ورأى جبريل، ورأى الملائكة؛ فما كذب فؤاده وقلبه ما رآه بعينيه، بل اتفق القلب والنظر بالبصر، كلاهما اتفقا على هذه الرؤية وما شاهده محمد في رحلته إلى السماء.

ثم قال: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢]؛ يا أهل مكة، أيها المشركون، تمارونه وتجادلونه وتشككون فيه وتكذبون ما رآه، وتقولون ما رأيته كذبًا في كذب، وهو قد شاهد أشياء بعينيه، فما نقبل منكم هذا الجدال وهذا المراء.

ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥﴾ [النجم: ١٣-١٥]؛ يقول: هذه الرؤية التي رآها محمد في السماء هي الرؤية الثانية لجبريل، رآه في الأرض ورآه في

السماء، ولذلك شوف قال: ﴿رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ يعني مكانًا آخر غير الدنيا، أين هو؟ قال: ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾.

- **ما هي سدرة المنتهى؟**

شجرة عظيمة، شجرة نبق.

☜**النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أخبر عنها قال:** «سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى أَوْرَاقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ وَنَبْقُهَا كَقِلَالِ هَجَرٍ»؛ القلة هذه سبعون في سبعين سنتيمترًا، يعني لا يستطيع أن يحملها رجل واحد، هذه ثمرة واحدة من ثمار شجرة النبق، النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رأى هذه.

سُمّيت المنتهى؛ لماذا؟ لأنها ينتهي عندها علم ما دونها من البشر. ومن المخلوقات، وينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينتهي إليها ما يهبط من السماء من العلو، فلذلك سميت (سدرة المنتهى).

رآها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رؤيةً عجيبةً، ورأى فيها أنوارًا شديدةً وألوانًا عظيمةً، وقيل إن فيها من الذهب كالفراش المبثوث، فرآها على حقيقتها وهي في السماء السابعة، وينتهي إليها ما يعرج من الأرض وينتهي إليها ما يهبط من السماء من العلو؛ فهي في هذا المكان فرآها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾؛ هذه سدرة المنتهى عندها الجنة، عندها الجنة جنة المأوى التي يأوي إليها عباد الله المتقون.

قال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٦]؛ يعني لما وصل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه السدرة غشاها شيء عظيم، يغشى هذه السدرة شيء عظيم لا يعلم وصفه وكنهه إلا الله، شيء عجيب من الأنوار والألوان والذهب ونحوه.

قال: وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرى وبأدب رؤياه؛ ولذلك وصفه الله قال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، بصر محمد ما زاغ -مال يمينًا أو شمالًا- ولم يتجاوز فيطغى.

شوف بعض الناس لما يدخل مكانًا يجلس ينظر يمينًا وشمالًا ويرفع رأسه، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان بأدب؛ لا ينظر يمينًا ولا شمالًا ولا يرفع رأسه، إنما ينظر ما يكون له أن ينظر إليه فقط.

ثم بيّن لك فقال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]؛ رأى أشياء عجيبةً من آيات الله -مثل ما ذكرنا- رأى سدرة المنتهى، ورأى الأنبياء في السماوات، ورأى جبريل والملائكة، ورأى الجنة -يقول: رأيت الجنة ودخلت الجنة- ورأى النار؛ فهذه رؤى عظيمة في هذه الرحلة المباركة.

ثم بعد هذا البيان كله يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخاطبًا هؤلاء المشركين الذين ليس لهم اعتماد إلا على الشهوات والأهواء، قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩-٢٠]؛ أخبروني عن هذه الآلهة التي تعبدونها، أخبروني ما هي؟

(اللات): صنم لثقيف، صنم مأخوذ من الإله سموه اللات، اللات صنم يعبدونه.

(العزى): صنم لقريش بين مكة والطائف، العزى من العزيز.

(مناة): من المنان، صنم للأوس والخزرج، مناة الثالثة الأخرى في المشلل في طريق بين مكة والمدينة؛ هذه الأصنام وغيرها أصنام كثيرة، هذه الأصنام هي المشهورة التي يعظمونها.

ولاحظ أنها مسمّاة أسماء إناث؛ لماذا؟ يقول: لأنها بنات الله! والملائكة بنات الله! ولأنها تشفع! وهذا كله كلام لا صحة له ولا دليل عليه، إنما شرك في شرك وكفر في كفر.

ولذلك قال: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٢١-٢٢]؛ أنتم تريدون الذكور لكم وتحبونهم، ولله الأنثى؟ الأنثى ما تريدونها، أنتم إذا بُشِّر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسودًا وهو كظيم ما يريدها، وتنسبون لله الأنثى!

قال: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾؛ هذه قسمة جائرة، ضيزى يعني جائرة ظالمة؛ كيف تريدون الذي تحبون لكم والذي تكرهونه لله، وتجعلون لله ما تكرهون؟

ثم قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ [النجم: ٢٣]؛ هذه لا حقائق لها، إن هي إلا أسماء، مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ما لكم مصادر فيها، وما أنزل الله بها من حجة ولا دليل. ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾؛ الشكوك والظنون، وما تحبه نفوسهم وتشتهيه شهواتهم، ولقد جاءهم الوحي وجاءهم الرسول وجاءهم القرآن ولكن لا يريدونه.

ثم قال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥﴾ [النجم: ٢٤-٢٥]؛ (أم) بمعنى بل، بل للإنسان ما يتمناه من الشفاعة ومن العبادة ومن المال؟ ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾؛ الدنيا والآخرة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الله يملك الدنيا والآخرة، فارغبوا إلى ربكم والفتوا إلى ربكم.

ثم لما كانوا يعتقدون أن هذه الأصنام تشفع لهم عند الله، بيّن الله لهم أن مقام الملائكة مع أنه مقام عظيم وقريب من الله، لا يمكن لأحد أن يشفع إلا إذا رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه.

يقول لك: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦]، (كم) للتكثير، ملائكة كثيرون، السماوات مليئة بالملائكة.

يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا مِنْ مَوْضِعِ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ»؛ وهذه الملائكة المقربون لا تغني شفاعتهم شيئًا، ما تنفع شفاعتهم إلا إذا أذن الله لهذا الملك أن يشفع ورضي عن المشفوع صحت الشفاعة، أما تأتون بأصنام تقولون تشفع عند الله، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، هذا كله كلام لا يصح أبدًا ولا يُقبل.

السورة حقيقةً جميلة جدًا وفيها من العلوم والفوائد التي نحتاج إليها، ومصدر العلم هو القرآن، ولكن الوقت يضيق بنا؛ فلنقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا؛ والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النجم ٢٧ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، ونصلي ونسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ هذا اليوم هو اليوم الخامس عشر من شهر شعبان من عام سبعة وأربعين من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

كتاب الله القرآن العظيم أعظم كتاب وأشرف كتاب، قال الله فيه: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]؛ وقال الله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

درسنا الكرام في سورة النجم وتفسيرها، ووقف بنا الكلام عند الآية السابعة والعشرين؛ وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو ينعى هؤلاء المشركين وأيضاً ينكر عليهم أعمالهم السيئة واعتقاداتهم الباطلة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [النجم: ٢٧]؛ هذا أول وصف لهم؛ لا يؤمنون بالآخرة، لا يصدقون بالبعث ولا بالجنة ولا بالنار، لا يؤمنون بالآخرة.

- **إذا كان هذا موقفهم في الآخرة لا يؤمنون بها، فما معتقدهم؟**

قال: ﴿لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢٧]؛ يسمون الملائكة، يصفون الملائكة بأنهم إناث، وأنهم بنات الله؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال أيضاً عنهم: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]. فهم يقولون: الملائكة هم بنات الله، يصفونهم ويسمونهم بتسمية الإناث، وهم لا يقبلون الإناث ويكرهونهم، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، ويصفون الله بالبنات؛ ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في إبطال عقيدتهم: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ [النجم: ٢٨]؛ ما عندهم علم، من أين أتوا به؟ لا هم رأوا الملائكة حتى يحكمون عليهم، ما لهم علم بذلك، قال: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ [النجم: ٢٨].

- **على ما اعتمدوا على هذا الكلام؟**

قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٨]؛ الظن والخرص والشكوك وعدم الثبات، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨]؛ الظن في مقابلة الحق لا يجدي ولا ينفع، هذا حق وهذا باطل، للحق شيئاً لا يقوم مقام الحق أبداً، ما عندكم دليل ولا عندكم مستند ولا عندكم مصادر تعتمدون عليها ولا علم صحيح، وإنما وجدنا آباءنا على أمة؛ ظنون وشكوك، فأبطل عقيدتهم.

ولذلك قال لنبيه مخاطباً نبيه محمداً: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٢٩]؛ ولم يقبل الدعوة ولم يقبل القرآن، أعرض عنه لا تتعب نفسك معه، ولا تهلك نفسك معه.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]؛ هذا مطمعهم وهذا منتهاهم؛ يريدون الدنيا، منتهى علمهم وغايتهم هو الحياة الدنيا، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]؛ هذا منتهى علمهم، ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠].

ثم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ [النجم: ٣٠]؛ إن السبيل طريق الهدى وطريق الإسلام، الله أعلم بمن يضل وبمن يهتدي، والله هو الذي يضل من أضل ويبعده؛ لأنه لا يستحق الهداية، ويهدي من اهتدى وبحث عن الهداية يدله إلى طريق السعادة.

وفي هذا تحذير وإنذار شديد لمن يعرض ولا يقبل الهدى ويضل عن سبيل الله، ففيه تهديد شديد؛ وأما من أقبل فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقبل هدايته، وفي هذا أيضاً تذكير بأن الإنسان لا يقصد الدنيا فقط.

ما يكن أمله كله لحظوظ الدنيا على الآخرة كهؤلاء المشركين؛ لم، ما يريد إلا الحياة الدنيا، هذا مبلغهم من العلم؛ لا، اعمل للدنيا وخذ حقك منها ولا تنس نصيبك منها، والآخرة هي الأحب التي لها الحظ الكبير.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر عنه أنه سيجازي الناس جميعاً؛ لأنه هو المالك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المتصرف فيهم، القاضي فيهم، قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النجم: ٣١]؛ ملك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتصرف فيها كيف يشاء بحكمته.

ثم قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ [النجم: ٣١]؛ يعني خلق الله السماوات والأرض وأوجدها وملكها ليجازي الذين أساءوا بما عملوا، يجازيهم ويعاقبهم بما يستحقون بعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]؛ بفضله وكرمه، الذين أحسنوا في الدنيا وعملوا الأعمال الحسنة يجزيهم الله بالحسنى بالجنة يفوزون بها.

وهؤلاء الذين أحسنوا وسارعوا في طاعة الله ينبغي أن نعرف أنهم في جانب الطاعات يسارعون، وفي جانب المعاصي يبتعدون أشد البعد؛ ولذلك قال الله فيهم فأحسنوا ثم قال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم: ٣٢]؛ كبائر الذنوب يبتعدون عنها ولا يقعون فيها، لا يقعون فيها، والفواحش.

- **ما الفرق بين كبائر الذنوب والفواحش؟**

الجواب: الفواحش هي من كبائر الذنوب، بل هي أعظم الكبائر وأعظم الذنوب، فالفواحش عطف خاص على عطف عام، فـ (كبائر الذنوب) جمع كبيرة، والكبيرة هي ما خُتم؛ أي ذنب يختم بلعنة أو بطرد من رحمة الله أو بعذاب في النار أو عذاب في الدنيا أو بعقوبة، هذه كبائر، والفواحش أشد منها؛ ما فحش من القول والفعل، وأعظمها فواحش الزنا واللواط ونحوها.

﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]؛ وهي صغائر الذنوب، اللمم لا يسلم منها أحد، صغائر الذنوب التي لا يصر عليها الإنسان؛ لأنه لو أصر على صغائر الذنوب تحولت إلى كبيرة، «**لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ**»؛ أما إذا أصر على الصغيرة واستمر عليها انقلبت كبيرة.

واللمم هي صغائر الذنوب؛ كالنظرة المحرمة عندما ينظر خائنة الأعين، أما النظرة التي من غير قصد هذا معفو عنها، النظرة الأولى لك؛ قد يقع نظره، أو يقصد بنظر خائنة الأعين، أو الحديث الذي يكون لا فائدة فيه؛ يعني الأمور التي لا فائدة فيها هذه من اللمم.

أو كذلك الكذبة؛ قد يقع الإنسان في كذب ونحوه، يعني لا يكون مستمراً على الكذب، وإنما قد يحصل منه مرة، هذه من صغائر الذنوب التي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعفو عنها ويتجاوز عنها، وأيضاً تكفرها الحسنات.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]؛ تكفر عنكم سيئاتكم، ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]؛ تلم بالإنسان، تلم به هذا اللمم فيعود إلى ربه ويستغفر، فإذا استغفر غفر الله له.

إن ربك واسع المغفرة، يغفر للمؤمن ويكفر عنه سيئاته، ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]؛ بأنكم ضعفاء ما تتحملون، الإنسان مهما حاول أن يجتنب صغائر الذنوب إلا وقع فيها، لكنه يكثر من الاستغفار، والله عفو ورؤوف ورحيم وواسع المغفرة، والله عالم بحال الإنسان وضعفه.

ولذلك قال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [النجم: ٣٢]؛ خلق أباكم من تراب، ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]؛ ضعفاء، تخرج ضعيف وتعيش ضعيف، أمهاتكم، ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]؛ لا تقل أنا أحسن الناس وأنا، ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

الله أعلم بالتقوى، أما تقول أنا والله أفعل وأفعل من الحسنات، لا تزك نفسك، لا تمدح نفسك وتصفها بالتقوى وتقول أنا تقي وأنا كذا وأنا كذا، يكن عملك لله وتقواك لربك، ولا تظهر نفسك أمام الناس أنك أحسن الناس وأنك وتمدح نفسك أمام الناس، لا تزك نفسك؛ الله هو الذي يزكي، أما أنت لا تزكيها، زكها بالطاعة أما تزكيها بالمدح لا.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينتقل بعد هذه الآيات إلى موقف المشركين الكفار، فيذكر شيئاً بعض يذكر شيئاً من أوصافهم وعنادهم وكفرهم، فيقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٣٣]؛ أخبرني عن هذا الذي أعرض عن طاعة الله، تولى ولم يقبل شرع الله، عُرِض عليه الإيمان والإسلام فأعرض، وقيل هذه الآية نزلت في **(الوليد بن المغيرة)**؛ عَرَض النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه الإيمان فلم يقبله.

قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ۝٣٤﴾ [النجم: ٣٣-٣٤]؛ يعني إن أعطى، أعطى شيئاً قليلاً ولكن من الأكثر أنه أكدى؛ يعني يمتنع بقوة، لأن (أَكْدَى) من (الْكُدْيَةِ) وهي الأرض أو الصخرة القوية التي لا يمكن يعني تحريكها، فهو قد أكدى؛ يعني قطع بقوة، يعني قطع العطاء ومنع.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني مقرراً له أنه على خطأ عظيم، قال: ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ [النجم: ٣٥]؛ وتلاحظ أن السورة كثيراً ما تذكر العلم؛ ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ [النجم: ٢٨].

﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ [النجم: ٣٥]، كثير من العلم؛ لأن العلم يعني الذي ينبغي أن يؤخذ ومصادره الوحي، وما سوى ذلك من العلوم هي كلها ظنون وشكوك، ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ﴾ [النجم: ٣٥]؛ يقول: أعند هذا الذي أعطى قليلاً ومنع وقطع، أعنده هذا علم الغيب يعني حتى يمسك أو يعطي؟ عنده علم الغيب فهو يرى ذلك عياناً أمامه؟ ما عنده علم الغيب ولا يعلم عن ذلك.

ثم قال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم: ٣٦]؛ أم يعني بل لم يخبر ولم تأته صحف موسى؟ هذا العلم، هذه المصادر؛ (صُحُفِ مُوسَى) وهي (التَّوْرَاةُ)، والصحف التي أُعطي موسى والألواح.

﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]؛ أيضاً أعطاه الله صحفاً، صحف إبراهيم وموسى، قال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾ [النجم: ٣٧]؛ وفى ما أمر الله به، وقام بما ابتلاه الله به وامتحنه به، ووصل إلى أعلى درجات الوفاء بما يعني بما أمره الله به، فالله يمدح هنا موسى كليمه، وإبراهيم خليله بأنه قد أنزل عليهم صحفاً وهي مصادر الإيمان والعلم والطاعة، وهذا ما عنده خبر عن هذه الصحف.

قال هذه الصحف التي أنزلت على موسى وأنزلت على إبراهيم فيها من الأخبار العظيمة مثل قال مثل هذا الخبر: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]؛ أي لا تحمل نفس ذنب غيرها، هذه ما يمكن، كل إنسان مسؤول عن ذنوبه لا يتحمل غيره، فالأب لا يحمل ذنوب ابنه، ولا الابن يحمل ذنوب أبيه أو والديه، إلا في حالة واحدة.

إذا كان سبباً فيها؛ من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، أما الأصل فكل إنسان مسؤول عن ذنوبه إلا إذا تسبب ودل الناس على الشر فهذا يتحمل، ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]؛ والوزر هو الذنب العظيم.

ثم قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]؛ الإنسان ليس له إلا ما قدم، قدم لنفسك واعمل صالحاً تجده، ليس لك إلا ما قدمته.

- **لكن هنا وقف أهل العلم عند هذه الآية فقالوا: هل ينتفع الإنسان بأعمال غيره؟**

الجواب: نعم؛ هناك أمور شرعها الإسلام، منها: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ»؛ ولد صالح يدعو له فينتفع به، أو شخص يعتمر عنك أو يحج، لما قال: «لَبَّيْكَ عَنْ شُبْرُمَةَ» قال: «مَنْ شُبْرُمَةُ؟» قال: أخ؛ إذن تأتيه حسنات بفعل غيره فينتفع الميت أو الحي بفعل غيره.

فالدعاء كذلك يدعو الإنسان لأخيه المسلم وغيرها أكثر، أشياء كثيرة تكلم عنها أهل العلم بأن الإنسان ليس له إلا ما سعى، لكن لا يمنع أن ينتفع بأعمال غيره إذا أُهديت؛ (إِهْدَاءُ الْقُرُبَاتِ).

(إِهْدَاءُ الْقُرُبَاتِ) لكن بحدود الشرع، لا يهدي صلاة؛ الصلاة ما تهدى، يصلي ويقول هذه الصلاة لأمي المتوفاة أو لأبي لا، إنما يدعو، يحج، يعتمر، يضحي، هذه جائزة كلها، والدعاء، والدعاء والأعمال الصالحة الطواف والسعي والعمرة والحج هذه من الأمور، والصدقة كذلك؛ الصدقة يتصدق لوالديه، يتصدق للأموات، هذا كله جائز.

قال: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٤٠]؛ الذي يقدم في الدنيا من الخير أو الشر سوف يرى وإذا جاء يوم القيامة يجازى عليه، ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١]؛ ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]؛ الأمور كلها ترجع إلى الله، والخلق كلهم يرجعون إلى الله.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى انفرد بأمور عظيمة يعني لا يشابهه أحد من الخلق، من الذي يضحك ويبكي؟ الله يضحك من يشاء ويبكي من يشاء، الإنسان أحياناً يضحك لسرور يدخل الله عليه السرور فيضحك، ويبكي لحزن؛ من الذي يفعل هذه الأشياء حزن أو غم أو هم أو نحوه؟

الذي يملك الضحك والبكاء هو الله؛ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣]، ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: ٤٤]؛ الموت والحياة بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والخالق الخلق الأول هو الله؛ ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥].

من بني آدم نعم، من الحيوان، من النبات، كل المخلوقات خلقها، إلا أن الإنسان وكذلك الحيوان ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٦]؛ النطفة الماء المهين يصب في الأرحام فيخلق الله منه الذكر والأنثى.

قال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧]؛ إن هذه المخلوقات سيعيد الله خلقها مرة أخرى؛ حيوان، إنسان، أي شيء سيحشر يوم القيامة لـ (عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ)، وقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ قياس القادر على الخلق الأول قادر على الخلق الثاني.

قال: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨]؛ إذا كان هو الذي أضحك وأبكى وأمات وأحيا، هو الذي أغنى من شاء من خلقه فجعل له الغنى والمال الكثير، وأقنى.

قال بعضهم يعني أفقره، جعله فقيراً، غني وفقير؛ وبعضهم يقول: (أَقْنَى) من (الْقُنْيَةِ) بمعنى مَلَّكه أملاكاً كثيرة من الخزائن والعقارات وغيرها، مَلَّكه أشياء فاعطاه المال ومَلَّكه، فهذا معنى وهذا معنى.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٩]؛ (الشِّعْرَى) نجم معروف في السماء، قيل إنه نجم (الْمِرْزَمِ)، هذا النجم كان بعض أهل الجاهلية وبعض قبائل العرب تعبده، فأراد الله إبطاله فقال هو رب الشعرى؛ الله، كيف تعبدون مربوباً مخلوقاً؟ اعبدوا الخالق رب الشعرى، رد عليهم وأبطل عقيدتهم، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ المنفرد بالخلق والنشأة والضحك والبكاء والإحياء والإماتة والغنى.

- **هو الذي أهلك الأمم الماضية لما كفرت ولم تؤمن بربها؛ من الذي أهلك عاداً؟ ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]؛ وهم قوم هود الذي أرسل الله إليهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ الذين يسكنون الأحقاف، هذه عاد الأولى، أين عاد الثانية؟**

الجواب: عاد الثانية هي (ثَمُودُ)، تسمى عاداً الثانية؛ ثمود الذين أرسل الله إليهم صالحاً وأعطاهم الناقة، ﴿ثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ [النجم: ٥١]؛ أهلكهم جميعاً كما أهلك عاداً، ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢]؛ قبل عاد وثمود، كانوا أظلمهم، إنهم كانوا هم أظلم وأطغى، أشد ظلماً وأشد طغياناً واستكباراً.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣]؛ وفي آية أخرى (الْمُؤْتَفِكَاتُ)، هؤلاء قوم لوط، سموا بـ (الْمُؤْتَفِكَةِ) لأن الله قلب عليهم ديارهم، ائتفك الشيء إذا انقلب، و(الْمُؤْتَفِكَةُ) المنقلبة؛ لأن الله أرسل إليهم جبريل فرفع القرى السبع إلى السماء وجعلها تهوي إلى الأرض، قلبها رأساً على عقب.

قال: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٤]؛ أي أصابها ما أصابها، وغمها ما غمها؛ من جعل عاليها سافلها، وألبسها ما ألبسها من الحجارة، غشاها ما غشى من الحجارة التي أصابتها، غشاها ما غشى.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥]؛ ما هي الآيات التي أنت تشك فيها أيها الإنسان؟ كل هذه الآيات تدل على وحدانية الله، هي آيات الله فكيف تشك بها؟

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٦]؛ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاءكم داعياً إليكم بالعلم والوحي والقرآن، نذير من النذر الأولى على طريقة النذر السابقين؛ كهود وصالح ونوح وغيرهم من الأنبياء.

ثم هددهم قال: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧]؛ قربت القيامة، اقتربت الساعة، ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨]؛ إذا وقعت إذا وقعت ليس لها أحد أن يرفعها أو يعلم، أو ليس لها أحد يستطيع أن يعلم متى تقع، ليس لها من دون الله كاشفة.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ [النجم: ٥٩]؛ أيها الكفار، من هذا القرآن ولا تقبلوا له وتردون، وتتعجبون أنه يأتيكم وحي من الله؟

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ [النجم: ٦٠]؛ وتضحكون وتستهزئون وتسخرون ولا تبكون مع هذه الآيات خوفاً من هذا الوعيد، وأنتم تسمعون الأمم الماضية قد أهلكها الله، ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٦١]؛ وأنتم في غفلة ولاهون وسامدون، تستمعون إلى الأغاني ولا تستمعون إلى القرآن.

ثم قال: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩﴾ [النجم: ٦٢]؛ أخلصوا عبادتكم لله، وأقبلوا على الله واسجدوا له، لا تسجدوا لغيره، وأخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له سبحانه.

هذه هي سورة النجم التي عشنا معها، وقلبنا صفحاتها وآياتها وما فيها من علوم عظيمة، وتبين لنا مصادر العلم وهو الوحي، وأن العلم علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعلم رسوله وعلم القرآن، أما الشكوك والظنون والخرص ونحوه لا يبني ولا يخرج ولا ينتفع به الناس بل يضلهم.

فسورة عظيمة بينت ما فيها من علوم وهددت هؤلاء الكفار، وقررت كثيراً من عقائد الإيمان بالله واليوم الآخر.

فنسأل الله أن ينفعنا بها وأن يبارك لنا، إن شاء الله لقاؤنا الأسبوع القادم بإذن الله مع سورة أخرى، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ القمر)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(القمر ١ - ٢٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك؛ في هذا اليوم، وهذا اليوم هو اليوم الثالث من شهر شعبان من عام سبع وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة (١٤٤٧هـ). أسأل الله أن ينفعنا، وأن يبارك لنا، وأن يوفقنا لطاعته.

درسنا في تفسير القرآن العظيم؛ السورة التي بين أيدينا هي (سورة القمر)، وهي جاءت بعد (سورة النجم)؛ والنجم والقمر كلاهما في السماء، ومتقاربان، وجاءت هذه السورة قرينة لهذه؛ كما أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في آخر سورة النجم: ﴿أَزِفَتِ الْآزِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧]، وقال في القمر: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]؛ فكلاهما يتحدثان عن قرب الساعة.

(سورة القمر) جاء في فضائلها -كما في حديث أبي واقد الليثي- أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ بـ(سورة القمر) في صلاة العيدين؛ يعني صلاة العيد؛ عيد الأضحى وعيد الفطر.

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في الركعة الأولى (سورة ق)، وفي الثانية (سورة القمر)؛ وفي رواية أخرى أنه كان يقرأ في الركعة الأولى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وفي الثانية: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]؛ وكلاهما سنة كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفعلها.

فمن فضائل هذه السورة -أعني (سورة القمر)- أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأها في صلاتي العيد؛ والحكمة في ذلك أن موضوعها كله يدور حول التحذير والتخويف من النار، والتحذير من الإعراض والكفر وعدم الإيمان بالرسل.

ولذلك ساق الله في هذه السورة التخويف والتحذير؛ أولاً من يوم القيامة وبيان موقف هؤلاء المشركين من الدعوة، وأخبر الله عن الأمم الماضية مجملاً ثم مفصلاً؛ مجملاً لما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤]؛ يعني جاءهم من أخبار الأمم المكذبة، ثم ساق الله

خمسة أقوام وخمسة أمم؛ كلهم كذبوا رسلهم فأهلكهم الله؛ وهذا رسالة وتحذير لـ (أهل مكة): إن كذبتم رسولكم سيصيبكم ما أصابهم.

ولما كانت السورة جوها جو التحذير والتخويف وبيان العقوبات؛ تجد أن كل قصة من هذه القصص تفتتح بقوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾، ﴿كَذَّبَتْ﴾، ﴿كَذَّبَتْ﴾؛ فاحذروا يا (أهل مكة) أن تكذبوا رسولكم كما كذبت هذه الأقوام.

ثم يتخلل ذلك بيان عظمة القرآن الكريم، وأنه هو الذي اختص بهذه الأخبار وأتى بها؛ والقرآن يسير وسهل لمن وقف أمامه وتدبره ونظر فيه نظرة التدبر والتفكر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، تجدها تتكرر في هذه السورة؛ كما أن كل قصة يختمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦]؛ يعني انظروا إلى عذابي كيف كان، وانظروا إلى إنذاري وتخويفي كيف كان.

هذه هي السورة؛ تخويف وبيان عقوبات شديدة؛ لكنها في آخر الأمر تأتي رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعباده الصالحين المتقين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

نبدأ بالسورة على بركة الله، ونأخذ شيئاً منها؛ افتتح الله بقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. ومعنى ﴿اقْتَرَبَتِ﴾؛ أي: قربت ودنت القيامة.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»؛ والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسمى (نبي الساعة)؛ فرسالة النبي هي في آخر الزمان وعند قرب الساعة.

لكن لاحظ أنه قال ﴿اقْتَرَبَتِ﴾ ولم يقل (قربت)؛ والقاعدة عندنا: (الزيادة في المبنى زيادة في المعنى)؛ وكلمة "اقتربت" أشد من قولك "قربت"؛ يعني اقتربت؛ أي: قرباً شديداً.

ثم قال سبحانه: ﴿وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]. ما قصة القمر وانشقاقه؟

الجواب: انشق القمر في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في (مكة)؛ سأله بعض المشركين أن يأتي بمعجزة حسية، فقال: "ماذا تريدون؟" فقالوا: "نريد أن تشق لنا القمر شقين"؛ فخرج معهم إلى

الصحراء، فدعا ربه، فانشق القمر شقين؛ فرقتين، فرقة على (جبل أبي قبيس)، وفرقة أخرى على (جبل قعيقعان)؛ فرأوه حقيقة.

☜**فلما رأوه قالوا: "هذا سحر، ومحمد سحرنا"**؛ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنْ كُنْتُ قَدْ سَحَرْتُكُمْ فَاسْأَلُوا الَّذِينَ فِي الْأَسْفَارِ يَأْتُونَ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ؛ اسْأَلُوهُمْ عَنْ لَيْلَةِ كَذَا وَكَذَا**»؛ فلما جاؤوا سألوهم، فقالوا: **"نعم، رأينا القمر قد انشق"**؛ فقالوا: **"سحرنا، وسحر من في الأسفار"**؛ وهذا دليل على تعنتهم، وتكذيبهم، وتكبرهم عن الحق.

الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر أنهم يكذبون؛ قال سبحانه: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]؛ أي آية من الآيات، أي دليل وبرهان على صدق الرسول، أي آية تدل على أن الرسول صادق فيما يقوله؛ يعرضون أولاً، فلا يقبلون، ويعرضون عن الإيمان والتصديق.

ويكذبون ويقولون: **"هذا سحر مستمر"**؛ يقولون ما أتى به محمد وهذه الآية ما هي إلا سحر باطل؛ و(مستمر)؛ أي: قوي وباقٍ طويل، وبعضهم يقول: (مستمر)؛ يعني أنه ذاهب باطل مضمحل لا يبقى.

ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣]؛ أي هؤلاء المشركون كذبوا واتبعوا أهواءهم؛ ما اتبعوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أطاعوه، ولا اتبعوا الوحي ولا الشرع، إنما اتبعوا أهواءهم وشهواتهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ مهدداً لهم ومخوفاً: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾؛ كل أمر من الخير أو الشر سيستقر بصاحبه ويظهر يوم القيامة؛ كل أمر مستقر.

ثم قال سبحانه مهدداً: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤]؛ ألم يعلموا أنهم قد جاءهم من الأنباء والأخبار -هؤلاء كفار (مكة)- جاءهم من الأنباء وأخبار الأمم الماضية ما فيه مزدجر؛ ما يزجرهم عما هم عليه، ويردعهم عن شركهم وكفرهم وإعراضهم؛ جاءهم أخبار الأمم الماضية، وفي القرآن الكريم قصص كثيرة.

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أجمل، فصّل لهم خمس قصص؛ قال سبحانه: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]؛ يقول هذه الأخبار وهذا القرآن وما يأتيهم حِكَمٌ عظيمة بالغة؛ لكن ما تنفع، ولا

تغني النذر عن قوم صمّوا آذانهم، وأعموا بصائرهم، وأعرضوا، وكذبوا، واستكبروا؛ ما تنفعهم لو تأتيهم بكل شيء، ولو جاءتهم كل آية.

- **ما هي النتيجة؟**

قال سبحانه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [القمر: ٦]؛ أي: أعرض عنهم واتركهم، أنت بلغتهم الرسالة وهم لا يزالون مستمرين في طغيانهم؛ اتركهم فأعرض عنهم.

ثم قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: ٦]. انتبه هنا! يوجد **(وقف لازم)**؛ لأنك إذا وصلت اختل المعنى؛ لما تقول: **"فتولّ عنهم يوم يدعو الداع"**؛ هذا غير صحيح؛ هو يقول: تولَّ عنهم الآن في الدنيا، وتذكَّر عندما يدعو الداعي يوم القيامة؛ يقول: اتركهم الآن في الدنيا، وتذكر عندما يدعو الداعي.

- **من هو الداعي؟**

هو الملك **(إسرافيل)** عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما ينفخ في **(الصور)** -وهو القرن- ينفخ النفخة الثانية التي يبعث فيها الخلق كلهم؛ يدعو الداعي؛ أي يصيح وينفخ في الصور يدعوهم إلى شيء نُكُرٍ.

﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾؛ أي إلى شيء عظيم ومنكر فظيع، وهو موقف الحساب الذي كانوا يكفرون به، فإذا دعاهم خرجوا من قبورهم وحالهم ذليلة، أبصارهم خاشعة، يخرجون وهم في صورة مخيفة، خائفون ذليلون.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]. و**(الأجداث)** هي القبور؛ ولا تسمى **(أجداثاً)** إلا إذا بدأت تتشقق ويخرج منها أهلها؛ أما ما دام أنها محفورة يسمى **(قبراً)**؛ دُفن فيها شخص يسمى قبر فلان وقبر فلان؛ فإذا تشققت سُمي **(جدثاً)**؛ من قول العرب: **(جدثت الدابة بحافرها)** إذا حركت بحافرها الأرض.

يقول سبحانه: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾. وفي **(سورة القارعة)**: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]؛ فما الفرق بين التشبيهين؟

قال بعض أهل التفسير: "عندما يخرج الناس من قبورهم لا يدرون أين يذهبون؛ قد ذهبت عقولهم، فيتطايرون يميناً وشمالاً كالفراش؛ لا يدرون أين يذهبون".

فإذا سمعوا الداعي يدعوهم؛ انطلقوا إليه مسرعين جماعات مثل الجراد؛ والجراد ينتشر في الأرض ويكون صفوفاً صفوفاً؛ فتشبيههم بـ(الفراش) أول ما يخرجون، وتشبيههم بـ(الجراد) عندما يناديهم المنادي وينطلقون إليه مسرعين.

ولذلك قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

عندما يناديهم؛ مهطعين.

- **ما معنى (المهطع)؟**

هو الذي قد خضع بعنقه وانطلق مسرعاً ينظر إلى ما تحت أو بين يديه؛ هذا يسمى (مهطعاً).

إذا رأيت الإنسان قد مدّ عنقه وأسرع في مشيته ينظر إلى أسفل؛ هذا يسمى (مهطعاً). فهم لما سمعوا الصوت ما يدرون أين هو، فينطلقون مسرعين مهطعين إلى الداعي.

ثم عرفوا الآن أنهم خرجوا من قبورهم وأنهم يسمعون الداعي؛ ففي هذه الحالة ماذا يقول الكافر؟ ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾؛ أي شديد، عسر على الكافرين، عسير غير يسير، أما على المؤمنين فهو يسير؛ ولكنه شديد الهول.

بعد هذا البيان، وبيان موقف هؤلاء المكذبين، وبيان اقتراب الساعة وخروج الناس من قبورهم؛ تأتي السورة تقص علينا هذه القصص المتتالية؛ وهي خمس قصص مرتبة ترتيباً زمنياً.

أول رسول هو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩]. انظر إلى افتتاح القصة بقوله ﴿كَذَّبَتْ﴾؛ هذا تحذير لهؤلاء المكذبين للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أي: تكذبون بمحمد؟ هؤلاء كذبوا من قبلكم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ الذين أرسل الله إليهم نوحاً يدعوهم إلى التوحيد: أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره؛ فكذبوه واستهزؤوا به وسخروا منه، وقالوا: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]؛ وأرادوا قتله.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾؛ تأكيداً وتكريماً له؛ و(عبدنا) هو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾؛ قالوا استهزاءً: **"هذا مجنون"**؛ و(ازدجر)؛ أي: نهروه وزجروه بقوة.

وأصل كلمة (ازدجر) من (الزَّجْرِ)؛ فدخلت عليها تاء الافتعال (ازْتَجَرَ)، فقلبت التاء دالاً فصارت (ازْدَجَرَ)؛ و(الازدجار) هو أن ينهروه بقوة ويرفعون أصواتهم عليه.

ثم قال سبحانه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]. لما رأى منهم الإعراض الشديد؛ وقد مكث فيهم ألفاً وخمسمائة سنة، مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً؛ يعني تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم، وعرف أنهم لن يؤمنوا، وأخبره الله بالوحي: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦]؛ دعا ربه: **"إني مغلوب فانتصر"**؛ دعا ربه: **"إني قد غلبت وتسلطوا علي، فانتصر لي، وكن معي ونصيراً عليهم"**.

فاستجاب الله مباشرة؛ فقال سبحانه: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١]؛ أتى بالفاء للتعقيب والسرعة؛ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر؛ يعني الله عَزَّ وَجَلَّ أهلكهم بالطوفان وهو الماء الشديد، فانفتحت السماء بالمياه الغزيرة؛ جاءت السحب فوقهم وبدأت تمطر عليهم ماءً منهمراً شديداً كثيراً.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]؛ والأرض بدأت تتفجر عيوناً، انقلبت الأرض عيوناً؛ فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قدره الله تقديراً دقيقاً؛ ليكون عذاباً لهؤلاء، قد قُدِّر وبدأ الماء يعلو الجبال.

قال سبحانه: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر: ١٣]؛ حملناه -أي نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ- على ذات ألواح ودسر، والسفينة ألواحها الخشب، و(الدسر) هي المسامير أو الحبال التي تربط بها السفينة؛ وهذه كناية عن السفينة.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٤]؛ تجري بأعيننا؛ أي بمرأى منا ورعاية من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحفظ؛ أن يصيبهم شيء وهم في السفينة؛ الله قد رعاهم وحفظهم أن يصيبهم شيء وهم على هذه السفينة.

وقوله: ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ هذا الجزاء لمن كفره قومه وهو نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي قراءة أخرى: (جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كَفَرَ)؛ أي هذا العذاب جزاء لمن كفر بالله وكفر بنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]؛ أي هذه العقوبة وهذه السفينة وما جرى لقوم نوح تركها الله آية؛ عبرة وعظة يتعظ بها من يتعظ، كل من يسمعها ويقرأ هذه القصة يتعظ؛ درس وعظة وموعظة له.

وقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؛ أصلها (مُتَذَكِّرٍ)، فالتاء قُلبت دالاً ثم أُدغمت فصارت (مُدَّكِرٍ)؛ فهل من متذكر يتذكر ويعتبر؟

ثم قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦]؛ تعجب وإنكار عليهم؛ كيف كان عذابي؟ عذابي شديد، ونذري -أي إنذاري- شديد؛ هذا الذي جرى لهم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. هذه الآية تتكرر معنا في السورة يمكن أربع مرات؛ الله يقسم بأن القرآن قد يسّره وسهّله حفظاً، وتلاوةً، وتدبراً، وفهماً لمن أراد أن يفهمه؛ قد يسره لمن يريد أن يتذكر ويتعظ ويعتبر: فهل من متذكر؟

ثم قصّ علينا القصة الثانية؛ قال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨]. و(عاد) هم قوم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهم أصحاب (الأحقاف). ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ تعجب وإنكار؛ كيف كان العذاب الذي نزل بهم؟ كان عذاباً شديداً مهولاً مؤلماً.

- **ما هو العذاب؟**

قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩]. العذاب هو ريح أرسلناها عليهم؛ (ريحاً صرصراً)، و(الصرصر) يعني ذات الصوت؛ الصوت مثل ما تسمع صرير الباب؛ الريح إذا كانت باردة شديدة قوية تحدث صوتاً.

فأرسل الله عليهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يوم نحس مستمر؛ في هذا اليوم المستمر القوي الشديد العصيب عليهم الطويل؛ يوم نحس.

أنت تقرأ هنا: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾؛ يوم واحد، وفي سورة أخرى قال: ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]؛ فكيف يكون أياماً وهنا يومٌ؟

وفي آية أخرى قال: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧].

- **فكيف يكون يوماً؟**

الجواب: (يوم) هنا يراد به الجنس؛ يعني أيام، مثل ما تقول: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]؛ ليس إنساناً واحداً بل جنس الإنسان. فهنا نقول: ﴿يَوْمِ نَحْسٍ﴾؛ يعني شؤم عليهم، عذاب ومصيبة عليهم.

وقوله: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾؛ أي شديد قوي هذا اليوم.

- **ماذا تصنع الريح بهم؟**

﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]. تنقض عليهم وتنزعهم؛ **(تنزع الناس)**؛ أي تقلعهم قلعاً قوياً ترفعهم إلى السماء؛ وكانوا طوالاً.

فسلط الله عليهم الريح تأخذ الرجل وترفعه إلى السماء ثم تلقيه على رأسه؛ ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾. انظر إلى النخل لما تموت؛ تمر أنت على وادٍ أو مزرعة قد ماتت نخيلها، تجدها تتساقط على رؤوسها؛ هؤلاء تقلعهم الريح فتسقطهم على رؤوسهم.

وفي (سورة الحاقة) قال: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]؛ أي خاوية ليس فيها شيء ولا يستفاد منها.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٢١]؛ كيف العذاب؟ عذاب شديد، وإنذاري شديد، وعبرة لمن يعتبر.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢]؛ انظر كيف يكررها مرة ثانية؛ القرآن سهّلناه لمن أراد حفظه، وتلاوته، وتدبره، وفهم معانيه، والعمل به ميسر؛ تقرأ وتفهم، هل فيه صعوبة؟ أبداً.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القبيلة الثالثة، أو الطائفة الثالثة، أو القوم الثالث؛ وهم قوم ثمود. وقوم **(ثمود)** يسكنون في الشمال الغربي من الجزيرة العربية؛ عاد في الجنوب، وهؤلاء في الشمال. بعث الله بعد ذلك إلى ثمود نبيهم صالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ، فدعاهم إلى التوحيد، فكفروا وأبوا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]؛ كذبوا بما جاءهم صالح به من الإنذار والوحي، ثم اعترضوا ولم يقبلوا دعوته. ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٢٤]؛ انظر إلى التكبر والاستكبار! قالوا: كيف نطيع واحداً منا؟

﴿إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾؛ أي قد ضللنا الطريق ولم نعرف، و(سُعر)؛ أي أصابنا الجنون، أو عرّضنا أنفسنا إلى العذاب؛ لن نطيعه أبداً.

ثم اعترضوا اعتراضاً آخر؛ فقالوا: ﴿أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥]؛ أأُنزل الوحي عليه واختصه الله من بيننا؟ لا، ثم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ كذاب يكذب على الله ويكذب علينا، و(أَشِرٌ)؛ أي متكبر متجبر متغطرس.

رد الله عليهم فقال: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦]؛ و(غداً) يعني في الأيام القادمة أو يوم القيامة؛ من الكذاب الأشر، أهو أم أنتم؟

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أرسل إليهم الناقة حجة عليهم؛ لأنهم طلبوها، قالوا: **"ائتِ بآية يا صالح"**؛ فأتاهم بالآية، وأرسل الله إليهم ناقة انشقت الصخرة فخرجت منها ناقة فتنة لهم؛ امتحاناً هل يؤمنون أو لا يؤمنون.

فقال سبحانه لصالح: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧]؛ (ارتقبهم)؛ أي اتركهم وراقبهم، واصطبر على ما يأتيك من الأذى منهم؛ لأنهم آذوه حتى أرادوا المكر به وقتله، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عصمه من مكرهم.

قال له اصطبر عليهم، وأخبرهم أن هذه الناقة فتنة لهم يمتحنون فيها؛ وفي نفس الوقت أن لها شِرْبٌ ولكم شِرْبٌ؛ تأتي إلى الآبار وتشرب في يوم، واليوم الثاني يكون لكم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨]؛ أي مقسوم بين قوم صالح وبين الناقة؛ ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾؛ تأتي الناقة تشرب فلا يشربون في يومها، ويأتي اليوم الثاني فلا تأتي ويكون الماء لهم.

فتضايقوا من هذه القسمة ولم يقبلوها؛ فخططوا أن يعقروا الناقة، وقد حذرهم صالح وقال لهم: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]؛ احذروا أن تتعرضوا لها؛ هذه ناقة الله.

فلم يبالوا، وخططوا على عقرها وقتلها؛ فنادوا وبدؤوا ينادون من يقتلها، وبدؤوا يتعاطون الآلة أو السيف من يقوم بقتلها.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]. فخرج هذا الرجل الذي سُمي (الأشقى)؛ وهو (أُحَيْمِرُ ثَمُودَ) (قُدَارُ بْنُ سَالِفٍ)؛ خرج فتعاطى؛ أي أخذ الآلة فعقرها فسقطت ميتة.

وقوله: ﴿فَعَقَرَ﴾؛ بصيغة المفرد؛ بينما قال في (سورة الشمس): ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤] بصيغة الجمع.

- **كيف نجمع بينهما؟**

الجواب: لما كانوا هم الموافقين والراضين بالعقر؛ نُسب العقر إليهم جميعاً ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، وأما الذي باشر الفعل بنفسه فهو هذا الرجل الواحد؛ فلذلك قال هنا: ﴿فَعَقَرَ﴾.

ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٠]؛ ما الذي أصابهم من العذاب؟ أخبروني ما هو العذاب الذي نزل بهم؟

قال لهم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]؛ ثم صاح بهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فماتوا.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١]؛ كعصف مأكول، و(الهشيم) هو هذا الحشيش وطعام الدابة لما يبس ويتكسر وتلوكه بفمها ثم تلقيه في الأرض وتدوسه بقدميها فيتكسر؛ و(المحتظر) هو الحظيرة؛ حظيرة الإبل والمواشي.

و(هشيم) مشتق من (متهشّم)؛ فهم أصبحوا كالهشيم؛ لما صاح بهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ تقطعت قلوبهم وماتوا، فأصبحوا كالهشيم.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خاتمة هذه القصة كما في خاتمة القصص الماضية: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٣٢]؛ هل أحد يتذكر أن القرآن ميسر؟ تلاوة، وحفظاً، وتدبراً، وعملاً.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله؛ وفي اللقاء القادم نستكمل بقية القصص؛ قصة لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفرعون وموسى، ثم خاتمة السورة. أسأل الله أن يعيننا وأن يوفقنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القمر ٢٣ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ هذا اليوم هو اليوم التاسع عشر من شهر شعبان وليلة رمضان من عام ألف وأربعمائة وسبعة وأربعين للهجرة.

أسأل الله التوفيق والسداد، ونبارك للجميع بدخول هذا الشهر، وأن يعيننا وإياكم على صيامه وقيامه إيماناً واحتساباً، وأن يوفقنا لفعل الخيرات وترك المنكرات.

هذا المجلس -وهو (تفسير القرآن العظيم)- نتناول فيه بقية (سورة القمر)؛ وقف بنا الكلام عند قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٣].

الله ذكر في هذه السورة خمسة أقوام؛ قوم نوح، وقوم هود وهم عاد، وقوم صالح وهم ثمود، وقوم لوط، ثم موسى مع فرعون. ومر معنا وتلاحظ أنها كلها تفتتح بقوله **"كذبت"**؛ بياناً لمواقف الأمم الماضية، وبيان حال هؤلاء المشركين الذين عاصوا النبي فكذبوا رسالته؛ فكانت هذه رسالة لهم: أنتم كذبتم وهؤلاء كذبوا؛ ماذا أصاب هؤلاء المتقدمين؟ ماذا جاءهم؟ ماذا أصابهم؟ احذروا لا يصيبكم ما أصابهم!

وقوم لوط هم يسكنون في الأردن، ولوط عَلَيْهِ السَّلَامُ عمه إبراهيم، هو ابن أخ إبراهيم وهاجر معه؛ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي، فهاجر معه من أرض العراق إلى أرض الشام.

إلا أن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ استقر في فلسطين، ولوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أرسله الله إلى هذه القرى السبع التي منها وأكبرها قرية (سدوم)، وكانوا يكفرون بالله ويشركون به، وزيادة على ذلك يعملون الفواحش، وأعظمها فاحشة (اللواط) التي لم يسبق إليها أحد من العالمين، لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٣]؛ يعني بالنُّذُر يعني بالإنذار الذي أنذرهم لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لوط جاءهم وحذرهم وأنذرهم، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وحذرهم من هذه الفاحشة وفعلها السيئ، وحذرهم من عقوبتها، وأنذرهم العذاب الشديد، ولكنهم لم يبالوا به.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تهديداً وتخويفاً وسرعة في العقوبة: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [القمر: ٣٤]؛ والحاصب هي الحجارة، ريح تحمل الحجارة وتلقيها عليهم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبر أنها حجارة من (سجيل) منضود، وقال في آية أخرى حجارة من طين.

وهذه الحجارة إذا سقطت على أحدهم أحرقته، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عذبهم بعذابين؛ العذاب الأول أنه قلب عليهم ديارهم، رفعهم إلى السماء ثم قلب عليهم جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود؛ يعني منضود يعني متتابع، والسجيل هو الطين المطبوخ الذي إذا وقع على أحدهم أحرقه.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣]؛ يعني عليها علامة لكل شخص رجلاً كان أو امرأة. وما آمن مع لوط من قومه إلا بناته، فأمره الله بالهجرة والخروج فنجيناهم بسَحَر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]؛ الحاصب هي الحجارة، ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ استثناء منقطع، يعني إلا آل لوط نجيناهم ولم يصبهم شيء من العذاب.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود: ٨١] فخرج إلا امرأته أهلكها الله لأنها كافرة.

قال الله هنا: ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [القمر: ٣٥]؛ أي إنجاء لوط من هذا العذاب؛ قلبت عليهم ديارهم وأرسلت عليهم حجارة فأنجاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من هذا العذاب الأليم، قال: ﴿نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾؛ هذا فضل من الله ونعمة، يعني جزاء.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٥].

- **مَن هو الذي شكر؟**

هو لوط ومَن آمن معه، شكروا الله على هذه النعمة وعلى الإيمان، وعرفوا أن يعبدوا الله، وشكرهم باللسان والقلب والجوارح فنجوا، وهذا فيه دليل على أن الأعمال الصالحة وشكر الله بالعمل الصالح سبب في النجاة.

قال: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٦]؛ أي لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ أنذرهم وخوفهم بطشتنا؛ أي عذابنا الذي سيصيبهم، فتماروا بالنذر؛ شكوا، التماري والمماراة هو الشك.

﴿فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٠٩] يعني في شك، شكوا بالعذاب واستبعدوا، أو يكون معنى تماروا يعني جادلوا؛ ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً﴾ [الكهف: ٢٢] يعني لا تجادل، فهم بدؤوا يجادلون ويسخرون ويستهزئون ويشكون في العذاب، بالنذر أي بالعذاب والإنذارات.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً ومن أحوالهم السيئة قال: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧]؛ يعني حاولوا أن يأخذوا وطلبوا أخذ الضيوف ليفعلوا بهم الفاحشة.

- **مَن هم الضيوف؟**

الضيوف هم ملائكة أرسلهم الله إلى لوط؛ أولاً أرسلهم الله عَزَّ وَجَلَّ إلى إبراهيم وبشروه بغلام عليم، ثم بعد ذلك أخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط، فجاؤوا إلى قوم لوط ليعذبوا قوم لوط، فجاؤوا على صورة بشر أو شباب مُردٍ جميلين.

فدخلوا على لوط، فلوط ضاق بهم ذرعاً وحزن حزناً شديداً لأنه يعرف قومه، فأدخلهم وأغلق الباب، فجاؤوا وبدؤوا ينادون: يا لوط، أخرج لنا هؤلاء الضيوف الذين عندك، فامتنع وحاولوا كسر الباب وقلعه، فقال: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

فحاول فيهم وحاول أن يمنعهم وهم يحاولون أن يراودوه ويطلبوا منه فعل الفاحشة بالضيوف وهم ملائكة ولا يدرون، فخرج عليهم جبريل فطمس أعينهم، فبدؤوا يتخبطون في الجدران ويتوعدون لوطاً؛ طمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر، هذا العذاب الأول، حتى الآن لم يأتهم العذاب الشديد.

قال: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٨]؛ هذا العذاب صبحهم بكرة، أول النهار، يعني في أول النهار صبحهم بكرة عذاب مستقر، يعني نزل بهم عذاب استقر بهم حتى قضى عليهم،

﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٩]؛ ذوقوا العذاب الذي كنتم تستهزئون وتستبعدون، هذا العذاب وهذه عاقبة الإنذار التي أنذر بها لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم بعد خاتمة القصة قال الله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٤٠]؛ كما هو في خاتمة كل قصة، بيان إلى أن هذا القرآن نعمة عظيمة، سهل القراءة، سهل المعاني، سهل الدلالات، يسره الله عَزَّ وَجَلَّ للذكر لمن أراد أن يتذكر ويقرأ ويتفكر فيه ويتأمل، فهل من متذكر ومتعظ يستفيد وينتفع بهذا القرآن؟ هذه نعمة.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القصة الأخيرة: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٤١]؛ مَن هم؟ موسى وهارون، أرسلهم الله إلى فرعون وآل فرعون؛ فرعون وأتباعه، أرسل الله إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه الآيات التسع.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]، فكفروا بها، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]؛ فرعون وقف في وجهه ولم يقبل واتهمه بأنه ساحر، وجمع السحرة ولكنه لم يفلح، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر؛ أهلك الله فرعون ومَن معه فأغرقهم في البحر، فماتوا، يعني لم يبقَ منهم أحد، أهلكهم الله جميعاً، فأغرقناه ومن معه جميعاً.

ثم بعد هذه القصة الخامسة التي فيها التهديد والوعيد الشديد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يخاطب هؤلاء الكفار المعاصرين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولمن جاء بعدهم: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣]؛ يا أهل مكة أو غيركم، أكفاركم خير من أولئك الأمم؟ أو هم أقوى منكم وأفضل؟ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر؟

يقول: أنتم خير منهم؟ أفضل وأقوى؟ وعندكم عُدة وعندكم كذا؟ ولا عندكم براءة في الزبر؛ أن الله كتب لكم السلامة من العقوبة في الكتب المنزلة، و(الزبر) يعني الكتب المنزلة، ما عندكم لا هذا ولا هذا، لا أنتم خير منهم ولا عندكم براءة تمنعكم من نزول العذاب.

ثم يحكي الله حالهم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]؛ كانوا يدّعون في مكة أنهم سينتصرون على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، ولما خرجوا لبدر كان أبو جهل في مقدمتهم، وكانوا يقولون سنقضي على محمد ومَن معه، هذه فرصة عظيمة.

وكانوا قد قاربوا الألف ومعهم العدة والعتاد، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه قلة، ثلاثمائة وبضعة عشر، وليس معهم تلك العدة، فقالوا نحن جميع منتصر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]؛ هذه الآية نزلت في مكة، وهُزموا متى؟ في المدينة بعد الهجرة بسنتين، والآية نزلت في مكة بسنوات، وهذا من إخبار القرآن عن المغيبات؛ فدليل على الإعجاز، إعجازه بإخباره عن أشياء غيبية، كيف سيهزم الجمع؟ ومع ذلك هُزم.

ولذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه يقول: "كنت أقرأ هذه الآية ولا أدري ما معناها، حتى رأيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بدر يثب في درعه ويقول: «سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ» فعرفت معنى هذه الآية".

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]؛ يقول: هذا العذاب الذي سيصيبهم في بدر ويقتلون، بعده عذاب أشد وهو الساعة يوم القيامة، عذابها أشد، موعدهم الساعة، والساعة أدهى وأمرّ، أعظم وأقسى وأشد عليهم.

ثم بيّن حالهم في الآخرة، قال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]؛ أصحاب الجرائم، أصحاب الكفر والشرك في ضلال؛ يعني المجرمين هؤلاء في تيه، ضالين تائهين عن الحق لا يعرفونه، ﴿وَسُعُرٍ﴾ أي عناء وعذاب وجنون، كلها معاني صحيحة.

- **ثم قال متى؟**

قال: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]؛ هم في ضلال في الدنيا وضلال في الآخرة، وسعر تنتظرهم النار عندما يسحبون على وجوههم في النار، ويقال لهم على وجه الإهانة: ذوقوا مس سقر، ذوقوا شدة العذاب، وسقر اسم من أسماء النار.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن أن هذا الخلق كله والتدبير والعذاب والإنجاء وكل هذه الأمور، وإرسال الرسل، وكفر الكافر وإيمان المؤمن، كل ذلك بقضاء الله وقدره؛ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق الخلق، علم ثم قدر ثم خلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقدّر المقادير قبل خلق السماوات والأرض، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتب في **(اللوح المحفوظ)** كل شيء؛ فعلى الإنسان أن يؤمن بالقضاء والقدر، وأن يلتزم طاعة الله ويثبت على الحق.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]؛ يعني إذا أردنا شيئاً في الدنيا أو الآخرة، ما أمرنا إلا واحدة.

- **ما هي الواحدة؟**

كلمح البصر، طرفة عين، لا يتأخر ولا يتقدم، الله قادر على كل شيء، لا يمنعه مانع.

ثم عادت الآيات في تهديد هؤلاء: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٥١]؛ أي أشباهكم وأمثالكم في الكفر والضلال، أهلكناهم في الأمم الماضية كما ذكرنا لكم وسقنا لكم هذه القصص، فهل من مدّكر ومتعظ ومتذكر ما ينفعه ومبتعد عما يضره؟

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]؛ كل شيء فعلوه من أفعال خير أو شر مكتوب في الكتب التي كتبها الله، سواء في **(اللوح المحفوظ)** أو مكتوبة عند الملائكة الحفظة يكتبونها، كل شيء يُسجل؛ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣]؛ يعني كل الأعمال الصغيرة والكبيرة من أعمال البشر كلها مسطرة ومكتوبة في علم الله وفي اللوح، كل شيء من أعمالك أنت، ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، كل شيء مسجل، صغير أو كبير، أسأل الله أن يعفو عنا وأن يجعلنا ممن يمحو عنه ويعفو عنه السيئات، ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، نسأل الله التوبة النصوح.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤]؛ يعني ختم، لاحظ أن السورة ختمت بجزاء المتقين، لما خوّف خَوَّفَ وأنذر كل السورة، تعرف القرآن ما بين الإنذار والتبشير والبشارة.

فذكر حال المؤمنين المتقين، قال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾؛ الذين اتقوا الله وخافوه وراقبوه وعملوا الأعمال الصالحة التي ترضيه وابتعدوا عن الحرام، في جنات وبساتين ونهر؛ أنهار عظيمة في الجنة.

وزيادة على ذلك: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥] في مجلس حقيقي لا لغو فيه، كله صدق في صدق، ولا تأثيم ولا سب ولا شتم، بالقرب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الجنة، عند الله الملك والملك المقتدر الذي لا يمنعه مانع، القادر على كل شيء.

هذه السورة التي يعني قرأناها وبيّنا معانيها في مجلسنا الماضي وفي هذا المجلس ختمناها، نحمد الله على هذه الختمة ونسأل الله أن يجعلها مباركة وأن ينفعنا بها. إن شاء الله لقاؤنا بعد رمضان، بعد رمضان إن شاء الله مع (سورة الرحمن)، أسأل الله أن يعيننا وأن يوفقنا لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الرحمن)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الرحمن ١ - ٣٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ؛ اللَّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الخامس من شهر شوال من عام [١٤٤٧ هـ]، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، ويجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

لا زلنا نقلب صفحات هذا الكتاب العظيم؛ كتاب ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونمشي على سوره، وبعدما أنهينا سورة (القمر) ننتقل الآن إلى سورة (الرحمن)، ولعلك تجد فيها ترابطاً شديداً، وتجد بين السورتين ترابطاً قوياً.

الله يقول في آخر القمر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ۝٥٥﴾ [القمر: ٥٤-٥٥]، فالمليك المقتدر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو (الرحمن).

ثم تأتي هذه السورة يبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها آلاءه ونعمه العظيمة التي لا يستطيع الإنسان أن يحصرها؛ نعم الدنيا، ونعم الآخرة، ونعمة القرآن، ونعمة الهداية، ونعمة الإيمان، ونعمة السلامة من الشرك والكفر، ونعمة السلامة من أهل النار، كل هذه السورة تعطينا بياناً لما أنعم الله به علينا من نعم خاصة وعامة، ونعم قديمة وحديثة.

سورة (الرحمن) سميت بهذا الاسم لافتتاحها بهذا الاسم العظيم ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ [الرحمن: ١]؛ الذي رحمته وسعت كل شيء وعمت كل شيء، فاسم (الرحمن) اسم عظيم جداً، و(الرحمن) جاء على صيغة مبالغة لكثرة رحمته وسعة رحمته لكل شيء.

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. فافتتاح السورة بكلمة ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ يسميها علماء البلاغة (براعة الاستهلال)؛ وبراعة الاستهلال تعني كيف يبرع الإنسان عندما يريد أن يستهل كلامه بكلام جميل، فبراعة الاستهلال هنا أن تستشف من كلمة (الرحمن) أن هناك رحمات عظيمة.

فلذلك ستجد هذه الرحمات ونعم الله في هذه السورة كثيرة، ولذلك تكرر فيها قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]؛ و(الآلاء) هي النعم، تكررت إحدى وثلاثين مرة، في كل موضع تأتي متكررة ولكل موضع مناسبته.

السورة ككل -مثلما ذكرنا- تحدثت عن نعم الله علينا؛ نعم في الدنيا ونعم في الآخرة، وحديثها عن الدنيا من أول الآيات إلى خمس وعشرين آية تقريباً، ثم بعد ذلك تنتقل بعد قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] إلى الآخرة ونعيم الآخرة.

وأعظم نعمة في هذه السورة على وجه الإطلاق هي الآية الثانية لما قال: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ٢]؛ فأعظم نعمة هي القرآن؛ تعلم القرآن، وفهمه، وتدبره، وتلاوته، والعمل به؛ هذه أجلُّ نعمة وأعظم نعمة.

انظر إلى الأمم السابقة من اليهود والنصارى وغيرهم؛ أُنزلت عليهم كتب وذهبت تلك الكتب ولم تبقَ، وأما القرآن فحفظه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا، ولا يزال غضاً طرياً محفوظاً، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وهذه من أجلِّ النعم.

ولذلك ابتدأ الله بها، ابتدأ الله بهذه النعمة فقال: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ٢]. وتأمل معي، تفكَّر، تدبَّر؛ ما قال الرحمن أنزل القرآن، ولا قال كتب القرآن، أو أظهر كتاب القرآن.

بل قال: ﴿عَلَّمَ﴾؛ وتقدير الكلام: علم الله الإنسان القرآن، علمك أنت القرآن؛ كيف تتلوه، وكيف تحفظه، وكيف تفهم معانيه، وكيف تطبقه في حياتك؛ ولذلك هنا إشارة جميلة حقيقةً لنعلم جميعاً أن القرآن أنزل للتعلم والعمل، لا أن يُقرأ دون فهم.

فالذي يقرأ القرآن دون فهم فقراءته فيها نظر -وإن كان يؤجر عليها- لكن المقصد الأساس هو: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾؛ تعلم القرآن وفهمه وتطبيقه في حياتك، فهو كله أحكام وأوامر ونواهٍ وأخلاق، وإذا لم نعرف قيمة القرآن في أخلاقنا وأعمالنا نعتبر أننا بعيدون عن القرآن.

انظر، قال: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾، ثم قال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن: ٣]. ونحن جميعاً متفقون على أن الله خلق الإنسان ثم علمه القرآن، لكن الله قدم فقال: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣﴾ [الرحمن: ٢-٣]؛ فهذا التقديم له سر، وهو أن نعمة تعليم القرآن أعظم من نعمة خلق الإنسان؛ فالله خلق أناساً إلى النار، فبذلك نعرف نعمة القرآن والهداية والطاعة والاستقامة.

فخلق الإنسان -وإن كان وجوده خلقاً مقدماً في الواقع- لكن الله قدم العلم والتعلم والقرآن والفهم لِعِظَمِ قيمة هذا الشيء ومكانته، والمراد بـ(الإنسان) هنا هو جنس الإنسان؛ كل إنسان منا مخلوق إلى قيام الساعة، فالذي خلق الإنسان وأوجده هو الله، وفي هذا لفتة جميلة بأن الله هو الخالق وحده، وأن الإنسان مخلوق ومملوك تحت حكم الله.

ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]؛ وهذه نعمة عظيمة أخرى، و(البيان): هو أن يبين الإنسان بلسانه ويتفكر بعقله، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ميز هذا الإنسان عن سائر المخلوقات وعن سائر الحيوانات؛ فهل الحيوانات والطيور كالإنسان؟

الإنسان أعطاه الله القدرة على النطق والتكلم والفهم والكتابة، فعلمه أن يبين، سواء كان يبين بلسانه أو بقلمه، المهم أنه علمه العلم والبيان والنطق بخلاف سائر المخلوقات، فيبين عما في نفسه ويتميز عن غيره.

فهذه من أعظم النعم: العلم والتعلم، والكتابة والقراءة، والنطق السليم والتحدث، وقراءة القرآن؛ هذه من أجلِّ النعم، ولذلك انظر، قال: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾، و﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، وجعل ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ في الوسط ليبين لك عظم هذه الأمور.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]؛ يعني أن الشمس والقمر يجريان بجريان دقيق متقن لا يختلف ولا يضطرب، كل منهما يجري بحساب دقيق؛ كيف يزيد الليل وكيف ينقص، وكيف يزيد النهار وكيف ينقص، والشمس في سلطانها بالنهار والقمر سلطانه بالليل، وكل منهما من أجلِّ النعم ومن أعظم النعم.

- **قد يسألك سائل فيقول: الله بين لنا خلق الإنسان، وبين أنه علمه القرآن، وعلمه البيان، فما العلاقة بين الشمس والقمر؟**

الجواب: الشمس والقمر هما ظرف؛ ظرف ليملأه الإنسان بالعلم والتعلم والذكر والعبادة والطاعة، كأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: أيها الإنسان، قد خُلقتَ وعُلِّمتَ، وأُرسل إليك الرسل وأُنزلت إليك الكتب، فهذا الوقت أمامك وهذه الدنيا أمامك سريعة فاستغلها في طاعة الله.

واستعملها فيما يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فالشمس والقمر يجريان بسرعة، والوقت يجري بسرعة، والأشهر تدخل وتخرج بسرعة، والسنوات تمر بسرعة، فأمامك سرعة هائلة من الوقت فلا تضيع وقتك.

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها فقال: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]؛ و(النجم) معروف، فهل هو النجم الذي في السماء أم هو نوع من الزرع؟ في ذلك خلاف بين المفسرين.

فمنهم من يقول: (النجم) هو الشجر الذي لا ساق له، المنبطح على الأرض الممتد عليها، وهذا لو تذهب إلى المزارعين وتسألهم يخبرونك بأن النجم هي الأشجار التي لا ساق لها، تأتي ممتدة على الأرض كشجر القرع والبطيخ ونحوهما مما لا يقوم على ساق.

وأما (الشـــجر) فهو الذي له ساق كأشجار الليمون والحمضيات والموز وغيرها؛ فهذه لها سُوق.

فكل من هذه النجوم أو كل من هذه الأشجار تسجد لله وتنقاد، وهي مسخرة في مصالح العباد ولا تعصي الله، وسجودها يجب علينا أن نؤمن به ونعرف أنه سجود حقيقي.

لكن كيفيته عند الله، فنحن نؤمن بأن هذه الأشجار تسجد، وأنها تسبح وتذكر الله، كما أن الجبال تسجد وتسبح؛ الله يقول في سورة الحج: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨]، فكلها تسجد لا نشك في ذلك، لكن الكيفية قد لا تظهر لنا.

فالشاهد أن النجم هنا إما الشجر الذي لا ساق له، أو يُراد به النجم الذي في السماء؛ فالله يعطينا أو يلفت أنظارنا إلى السماء؛ النجوم التي في السماء، وإلى الأشجار التي في الأرض، أو يكون هذا عما هو حولنا من الأشجار بأنواعها تسجد لله.

وكان في هذا لفتة؛ لأن هذه الجمادات التي لا تنطق ولا تبين ولم تُكلف تسجد وتعبد ربها، فكيف هذا الإنسان الذي خلقه الله وعلمه القرآن وعلمه البيان يسجد لغير الله؟! فتتعجب من ذلك!

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧] -وهذا يؤيد أن الشجر والنجم المذكورين سابقاً هما اللذان في الأرض، لأنه لما فرغ من ذكر الأرض لفت الأنظار إلى السماء- فقال: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ أي: رفعها فوقنا من غير عمد، مرفوعة بعيدة الأمد من غير عمد، ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾.

- **و(الميزان) هنا هل هو الميزان الحقيقي ذو الكفتين واللسان، أم المراد بالميزان (العدل)؟**

قولان للمفسرين وكلاهما صحيح؛ فالله هو الذي وضع الموازين والمكاييل حتى توزن الأشياء ويقوم العدل، والله هو الذي وضع العدل؛ فلم يخلق السماء عبثاً ولم يخلق الأرض عبثاً إلا لإقامة العدل وإقامة شرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا هو المقصود بأنه ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: أمر بالعدل وأمر بالقسط.

ولذلك قال بعدها: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨]؛ يقول: وضع الميزان وأمر بالوزن والعدل حتى لا تعتدوا وتخونوا في الموازين، وتخونوا في العدل، وتظلموا وتجوروا، بل أقيموا الوزن بالقسط؛ وكل هذا تأكيد على العدل، لأن الذي يضاد العدل هو الظلم، والله حرم الظلم على نفسه وحرمه بيننا؛ فالظلم ممقوت صاحبه، والعدل ممدوح صاحبه.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقضي بالعدل ويحكم. ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]؛ أي لا تنقصوا الموازين إذا وزنتم للناس، فأقيموا الموازين بالعدل، وأقيموا العدل في كل أحوالكم، وإذا قلتم فاعدلوا.

لما ذكر السماء قال: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠]؛ و(**الأنام**): مَن هم الذين خلقهم الله؟

هم المخلوقات التي لها أرواح كالإنسان والجان والحيوان والطير؛ هذه كلها من الأنام، وخير الأنام محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والأنام -مثلما ذكرنا- هي المخلوقات التي لها أرواح، ولماذا سميت أناماً؟ لأنها تنام وتحتاج إلى النوم، والنوم جبلة جبل الله عليها المخلوقات ضرورةً للحياة.

قال: ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أي: خلقها وهيأها ليستقر فيها هذا المخلوق، ثم بين ما فيها من النعم فقال: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: ١١]؛ شتى أنواع الفواكه، والفواكه التي تؤكل طازجة كالتفاح والموز والتين ونحوه، هذه فواكه يتفكه بها الإنسان.

قال: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ ثم قال: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾؛ قد يذكر بعضهم أن النخل جزء من الفاكهة، لكن عطفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكثرة منافعه وجعله مستقلاً؛ من باب عطف الخاص على العام.

قال: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾، و(**الأكمام**): هي الأوعية التي تكون فيها الثمار، وتسمى (**القوافير**)؛ أي الوعاء، و(**الأكمام**) جمع (**كِمّ**) بكسر الكاف، وأما (**الكُمّ**) بالضم فهو كُم الثوب، فإذا قيل كِمّ يعني كِم الأكمام وعاء النخل والأوعية التي فيها الثمار.

ثم قال: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢]؛ و(**الحب**): المراد به جنس الحبوب كالقمح والشعير والأرز والذرة والعدس، فكلها حبوب تؤكل وتدخر، ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ لأن فيها الورق الذي هو قشر هذه الحبوب.

إذا عصف بالهواء القوي تطاير هذا القشر وهو (**العصف**)، و(**الريحان**): الرائحة الطيبة، أو الرزق كما فسره بعضهم؛ فالريحان هو الأرزاق. ولاحظ أن الله لما ذكر الأرض ذكر ما فيها من نعم عظيمة، فقال: فواكه، ونخيل، وتمور، وحبوب، ورياحين، وروائح طيبة، وأرزاق للإنسان والحيوان، وكلها نعم عظيمة.

ولذلك جاء بعدها مباشرة: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]؛ أي بأي نعم ربكما تكذبان؟

☜**ولذلك لما قرأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أصحابه هذه السورة سكتوا، فقال:** «مَا لِي أَرَاكُمْ سُكُوتًا؟» فلما لم يردوا قال: «لَقَدْ كَانَ الْجِنُّ أَحْسَنَ مِنْكُمْ مَرْدُودًا؛ مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ قَطُّ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إِلَّا قَالُوا: لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ».

فلذلك سورة (**الرحمن**) تسمى سورة (**النعم**)، وجاء أيضاً عند (**البيهقي**) في سننه عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سماها (**عروس القرآن**)؛ لما فيها من النعم العظيمة والخيرات.

قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ هذه أول آية وستتكرر معنا إحدى وثلاثين مرة، أي بأي آلاء -أي النعم- بأي نعم ربكما الدينية والدنيوية يا معشر الجن والإنس تكذبان؟ كيف تكذبان بنعم الله وهي أمامكما؟! لا يمكن. ولذلك الجن ماذا قالوا؟ قالوا: «لَا بِشَيْءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نُكَذِّبُ فَلَكَ الْحَمْدُ»؛ فالحمد والشكر لله.

لذلك ينبغي لنا عندما نقرأ هذه السورة ونمر بآية ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أن نقول: (**الحمد لله والشكر لله على نعمه**)، فهذا من التدبر والوقوف عند الآيات؛ أن نشكر الله على هذه النعم التي أنعم بها علينا.

ثم لما ذكر خلق الإنسان وتعليمه وقراءته، ثم ما أنعم الله به في هذه الدنيا مما يتعلق بالسماء والأرض، عاد مرة أخرى إلى خلق الإنسان ليذكر بعده خلق الجن، فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]؛ والإنسان هنا هو آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وأما ذريته فخُلقت من ماء مهين، وأما هو فخُلق من صلصال كالفخار؛ و(**الصلصال**) مأخوذ من صلصلة الشيء يعني صوته، و(**الفخار**): هو الطين اليابس، الطين إذا يبس بعد طبخه أصبح فخاراً.

- **قد يسألك سائل فيقول: هل الله عَزَّ وَجَلَّ خلق الإنسان من صلصال، أم من طين، أم من تراب، أم من حمأ مسنون؟**

الجواب: هذه مراحل؛ تراب إذا وُضع عليه الماء أصبح طيناً، وإذا تغيّر وتنتّن أصبح حمأً مسنونا، وإذا يبس أصبح صلصالاً كالفخار؛ فهذه أطوار مر بها خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ولما بيّن خلق الإنسان بيّن خلق الجن، فقال: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]؛ و(**الجان**) المراد به إبليس وذريته، فخلق الله الجان -وهو إبليس- من مارج من نار، و(**المارج**): هو المختلط، يعني لهب النار المختلط ببعضه مع صفائها، لهب النار ودخانها اختلط هذا بهذا فخلق الله منه هذا الجان؛ فإبليس مخلوق من نار.

ولذلك يقول إبليس: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. فهذا معنى ﴿مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾، ثم قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٦]؛ فهل تكذب بنعمة الله عليك أن الله خلقك وأوجدك؟! لا نكذب بها.

ثم قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]؛ فالذي خلق الإنسان وأنعم عليه بهذه النعم هو المنفرد بربوبية المشرقين والمغربين؛ أي الله رب مشرقي الشمس ومغربي الشمس، وإنما خص المشرقين والمغربين لأن نعم الله وآثاره تظهر في ذلك الوقت.

- **قد يسألك سائل أيضاً فيقول: في بعض السور يقول: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] بالإفراد، وهنا بالتثنية ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾، وفي موضع آخر قال: ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] بالجمع؛ كيف نجمع بينها؟**

الجواب: أولاً: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ بالإفراد يعني جهة الشرق وجهة الغرب. وبالتثنية ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ أي: مشرق الشمس ومغربها في الشتاء والصيف.

وأما ﴿الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ بالجمع فهي مشارق يومية ومغارب يومية؛ فللشمس في كل يوم مشرق ومغرب على مدار العام. قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٨]؛ فهذا ربنا الذي أوجد لنا الشمس والقمر وأنعم علينا بهذه النعم، ويجب أن نشكر الله على هذه النعم.

ثم قال بعدها: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]؛ وهذه أيضاً من النعم، فلما ذكر خلق الإنسان والنبات عاد فذكر الماء فقال: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾، والبحران هنا: الملح والعذب؛ يعني البحار المالحة والأنهار العذبة.

﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ نعم يلتقيان يصب هذا في هذا، لكن لا يختلطان؛ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ٢٠]؛ أي بينهما مانع حاجز لا يبغي أحدهما على الآخر، بل هذا يسير في طريقه وهذا يسير في طريقه، ولذلك تلاحظ أن الأنهار في الغالب تصب في البحار.

فنهر دجلة والفرات يصبان في الخليج العربي، ونهر النيل يصب في البحر المتوسط، ومع ذلك لا تختلط؛ فلو اختلطت لضاعت مصالح العباد، فالله جعل لهذا مصلحة ولهذا مصلحة، لا يختلط بعضهما ببعض؛ هذا يمشي في طريقه وهذا يمشي في طريقه، وهي آية من آيات الله العظيمة؛ فلو تأتي بإناء وتصب فيه من ماء البحر المالح وماء النهر العذب لاختلط هذا بهذا، لكن في الطبيعة بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يختلطان. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢١]؛ لأن الله أنعم علينا بهذه المياه التي هي نعمة عظيمة.

ثم قال -هذه البحار والأنهار التي تحتوي على المياه المالحة والعذبة-: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]؛ هذه اللآلئ، والدرر، والنفائس العظيمة يخرجها الله بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ يخلق الله في قاع البحار هذه الأشياء.

- **لكن هل اللؤلؤ والمرجان يخرجان من الأنهار؟**

⬅الأمر الأول: نحن متفقون على أنهما يخرجان من البحار، ولكن هل يخرجان من الأنهار أيضاً؟ بعضهم يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: من أحدهما وهو المياه المالحة كالمحيطات والبحار، وبعضهم يقول: بل يخرجان من كليهما حتى الأنهار، وهذا هو الصحيح؛ لأن الله يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ ولم يقل من أحدهما، هذا أمر.

⬅الأمر الثاني: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ثم قال: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]، فدل على أنه يُستخرج منهما جميعاً، وهذه من أجلِّ النعم؛ نعمة عظيمة البحار وما فيها من الجواهر واللآلئ؛ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٣].

ثم قال: ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ [الرحمن: ٢٤]؛ لما ذكر البحار والأنهار ذكر السفن التي تجري فوق المياه، و(الجواري) جمع جارية وهي السفينة، ﴿الْمُنْشَآتُ﴾ التي رُفعت لها أشرعة طويلة.

﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ أي كالجبال العالية؛ هذه الأشرعة التي توضع عليها لتنقل البضائع والناس، وفيها مصالح ومنافع عظيمة من بلد إلى بلد عبر هذه البحار والأنهار؛ فهذه نعم عظيمة؛ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٥].

ولما ذكر لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه النعم العظيمة كلها، وعرّفنا بآلائه في الأنفس والآفاق، ختم ذلك بقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]؛ فالإنسان والجان والمخلوقات كلها ستذهب وتهلك ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال -أي ذو العظمة- والإكرام -صاحب الفضل العظيم- هو الباقي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وفي هذه الآية إثبات صفة (الوجه) لله عَزَّ وَجَلَّ.

فإنه قال: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وإذا بقي وجهه بقيت ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويجب علينا أن نثبت صفة الوجه لله عَزَّ وَجَلَّ على ما يليق به تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وجهاً حقيقياً يليق به ليس كمثله شيء. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٨]؛ والله هو الذي سيرث الأرض ومن عليها، ويفني الخلق كلهم، وإليه يرجعون.

ثم قال بعدها: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ فالخلق كلهم يسألون الله؛ أنا وأنت وجميع الخلائق نسأله حاجاتنا، فلا غنى لأحد عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى طرفة عين؛ يسأله كل مَن في السماوات والأرض، يطلبونه ويحتاجون إليه، وهو ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾.

أي في كل وقت وحال يغفر ذنباً، ويكشف كرباً، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويعطي ويمنع، ويرزق ويغني ويفقر، ويفعل ما يشاء بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٠]؛ وأنتم الضعفاء المحتاجون لرب العالمين.

ثم تبدأ الآيات بعد ذلك تتحدث عن اليوم الآخر؛ فبعدما قال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، ستتوجه السورة الآن إلى ذكر اليوم الآخر وما يجري فيه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١]، وكل ما سيكون في اليوم الآخر؛ ويأتي الحديث عنه إن شاء الله تعالى في اللقاء القادم.

نقف عند هذا القدر، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الرحمن ٣١ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ هذا اليوم هو اليوم الثاني عشر من شهر شوال من عام سبع وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

في كتاب (تفسير القرآن العظيم)، وسورة الرحمن؛ بيَّنا ما فيها، أو أخذنا شيئاً من آياتها، ووقف بنا الكلام عند الآية الحادية والثلاثين، بقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١].

هذه الآيات السابقة التي مرت معنا من أول السورة إلى الآية الثلاثين، كلها تتحدث عما يتعلق بالدنيا من نعم الله عَزَّ وَجَلَّ على الإنسان: خلق الإنسان، وقبل ذلك إنزال القرآن وتعليمه -أي تعليم الله للقرآن- وخلق الإنسان وتعليمه البيان.

وخلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، والبحار والأنهار، والفواكه والخضار، والنخيل، وغيرها من النعم التي يذكرها الله في السورة كلها، كل هذه النعم تنتهي إلى هذه الآية التي فيها ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾[الرحمن: ٣١].

هذا انتقال من الدنيا؛ فبعد أن قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وبيَّن أن ما على هذه الأرض سيزول ويذهب، ينتقل الحديث بعدها إلى الحساب، والجنة والنار، وما يجري يوم القيامة؛ فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾[الرحمن: ٣١].

و(الثقلان) هما: الجن والإنس. ولماذا سموا بالثقلين؟ لأنهم أثقلوا الأرض؛ أثقلوها لما فيهم من الثقل على الأرض فسموا بالثقلين؛ يعني الأرض في باطنها -في بطنها- وعلى ظهرها الثقلان.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾، ومعنى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم؛ ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا من خير أو شر. ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي: سنتوجه إليكم للمحاسبة؛ وليس معنى سنفرغ يعني أن الله مشغول وأنه سيتفرغ للحساب؛ لا، هذا لا يليق! فلا يشغله شأن عن شأن أبداً، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يقال فيه إنه مشغول أو منشغل.

وإنما معنى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ هذا في لغة العرب كما يقول الرجل أو الأب لابنه: **"سأفرغ لك لمجازاتك"**؛ يعني سأتوجَّه، سأتوجَّه لمجازاتك، فالمعنى هنا ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ أي: سنفرغ لحسابكم ونتوجه لمجازاتكم على أعمالكم؛ فنعاقب أهل المعاصي على معاصيهم، ونثيب أهل الطاعة على طاعتهم.

ثم قال بعدها: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٢].

- **قد يسأل سائل في مثل هذه الآيات التي ستأتينا في عقاب أهل النار وفي المجازاة والحساب، يأتيك شخص يقول لك: "﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ﴾؟ أين النعم؟! الله يقول: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ وهذا تهديد، فأين النعم؟!".**

الجواب: هذه نعمة عظيمة من الله؛ أنه يظهر عدله ويقيم الوزن، ويبين ما لأهل الحق من الحق، وما لأهل الباطل من الحكم بالعدل فيهم، وأهل الخير يثيبهم ويجازيهم؛ فهذا من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلم يترك الناس سدى، ولم يتركهم هملاً، بل يجازي ويثيب سبحانه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مهدداً الجن والإنس -وتلاحظ أن السورة كلها تتحدث عن الثقلين الجن والإنس-: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن: ٣٣].

و(المعشر) يعني: الجماعة أو الطائفة. وقيل: المعشر مشتق من العشرة، فهم من العدد عشرة فما فوق يقال لهم معشر؛ يعني جماعة، وطائفة، وعصبة، وكلها معانٍ متقاربة.

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ هذا تهديد لهم: هل تستطيعون؟ هل عندكم قدرة أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض؟ يعني أن تخرجوا عن حكم الله هاربين من أقطار السماوات والأرض؛ أي من نواحي وأطراف السماوات والأرض.

- **هل تستطيعون الفرار والهروب؟**

إن كان عندكم قدرة ﴿فَانْفُذُوا﴾؛ أي اخرجوا واهربوا، ثم قال: ﴿لَا تَنْفُذُونَ﴾؛ أي لا يمكن ويستحيل ذلك ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾؛ أي بقدرة وحجة، وليست عندكم ولا تملكون ذلك؛ لأنكم في قبضة الله، وفي حكمه، وتحت إرادته، وتحت مشيئته، وفي محيطه، لا يغيب عنه شيء منكم، ولا يمكن أن يفر أحد؛ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ [القيامة: ١١ - ١٢].

فهذا بيان ضعف هذا المخلوق -الجن والإنس- أمام قدرة الله، وهذا تهديد له إن أراد أن يهرب فليهرب؛ فإذا لم يستطع الهروب، فإذاً عليه أن يقبل على ربه تائباً ويعود ليسلم من العذاب، وإلا فقد أحاط الله به وأنزل عقوبته.

ولذلك قال سبحانه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥].

﴿يُرْسَلُ﴾؛ أي أن الله يرسل عليهم العقوبات والعذاب.

قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾، و(**الشواظ**) هو: لهب النار الخالص الذي ليس فيه دخان؛ يرسل عليكم لهب خالص شديد الحرارة من نار. ﴿وَنُحَاسٌ﴾ هو: الدخان على قول بعض المفسرين.

وبعض المفسرين يقول: "النحاس هو النحاس المذاب، أو مثل النحاس ونحوه، والصفر والفضة وغيرها، والحديد يذاب ويصب عليهم ويصب عليهم".

فعموماً الآية معناها على العموم أن هؤلاء الذين يريدون أن يفروا من حكم الله خوفاً من عذابه، الله محيط بهم وينزل بهم عقوبته وينزل بهم عقوبته؛ فهذا معنى أنهم في قبضته، وأنهم لن يستطيعوا إلا أن يعودوا لربهم في زمن المهلة. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٦]؛ أي النعم؟ هذا من نعم الله أنه أحاط بكل شيء وعلم، وجازى ودحر أهل الشر وأهل الباطل.

قال سبحانه: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]؛ يعني إذا جاء يوم القيامة وانشقت السماء، وهذا من علامات يوم القيامة ومن أهوال يوم القيامة أن تنشق السماء وتنفطر يوم القيامة.

قال: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾، والوردة معروفة؛ وهي الوردة الحمراء التي تكون في بعض الأشجار، الورود، هذه الوردة، فالسماء من شدة ما يصيبها من الهول تحمر وتذوب كالزيت؛ ﴿كَالدِّهَانِ﴾ تذوب، يعني على قوتها وصلابتها من شدة أهوال يوم القيامة.

مثل ما أن الجبال تذهب وتصبح سراباً، فالسماء أيضاً تذوب ذوباناً شديداً وتحمر وتصبح كالدهان كالزيت يعني الذي يذوب، وهذا كله من شدة أمر الآخرة وهول القيامة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣٨]؛ أيها الثقلان وأيها الجن والإنس تكذبان؛ تكذب بيوم القيامة، تكذب بنعم الله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيجازيك ويحاسبك.

ثم قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]. إذا جاء يوم القيامة لا يسأل المجرم عن ذنوبه، ولا يسأل المجرمون، المجرمون لا يسألون عن ذنوبهم؛ فلا يسأل عن ذنبه، لماذا لا يسأل؟ لأن الله عالم بهم، ولأنه ليس وقت سؤال.

لكن تجد أحياناً في آيات أخرى يُسأل: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ويقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢] يسألون؛ فكيف نجمع هل هم يسألون ولا ما يسألون؟

فنقول: يوم القيامة مواقف كثيرة، ففي بعض المواقف يسألون: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾، وفي بعض المواقف لا يسألون، أو أن المعنى أنهم يسألون -يعني لما يقال: أين شركائي؟ أو ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ يسألون على وجه التوبيخ والتقريع، ولا يسألون سؤال استفهام؛ لأن الله عالم بهم.

وبهذا تجد أن الآيات لا تتعارض، وأنها تسير في طريق واحد. متى؟ إذا عرفنا هذا المعنى وزال الإشكال، أما إذا وجد الإشكال فقد يصعب على الناس فهم مثل هذه الأشياء.

وهذا في القرآن كثير، تجد بعضها كالمتعارضة، لكن إذا وقفت معها وتأملتها وجدت هذه المعاني واضحة جداً، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، لكن من عند الله لا تجد.

قال بعدها: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]. إذا جاء يوم القيامة وانشقت السماء وحشر الخلق، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد بين أمام الناس هؤلاء المجرمين؛ عُرفوا بين الخلق، يعرفون بأي شيء؟ بسيماهم، بعلاماتهم.

- **ما هي علاماتهم؟**

زرق العيون وسود الوجوه، وجوههم مسودة عليها غبرة ترهقها قترة، اسودت وجوههم وعيونهم قد أصبحت زرقاء، ففي هذه الحالة يعرفون؛ يعرف المجرمون بسيماهم ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

- **يؤخذون كيف؟**

تأتيهم ملائكة العذاب وتأخذهم بالنواصي والأقدام؛ و(النـواصي) جمع ناصية وهي مقدمة الرأس، شعر الرأس مقدمته، والأقدام أطراف الرجلين.

فيؤخذ من هنا وهنا كما تؤخذ البهيمة عند الذبح وعندما تنقل من مكان إلى مكان تجدهم ينقلونها ويأخذونها هكذا بين الأقدام والرؤوس؛ فهؤلاء المجرمون يصنع بهم هكذا إهانة لهم وإذلالاً لهم، فيؤخذون بمقدمة الرؤوس وأطراف الأقدام ويلقون في النار، ترميهم الملائكة في النار.

قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٢]؛ تكذبان بهذه الأخبار والنعم والآلاء ونحوها، أي وجه لأي وجه لهذا التكذيب؟!

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الرحمن: ٤٣]؛ يعني يقال لهؤلاء المجرمين عندما يلقون في النار: انظروا ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾، أنتم تكذبون بها في الدنيا، فيقال لهم على وجه التوبيخ والتحقيق: هذه جهنم انظروها.

ثم قال: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]؛ أي أهل النار يطوفون بينها وبين حميم آن، يعني يُدار بهم، يُطاف بهم في النار، فيطوفون بين النار التي تتلهب وبين الحميم الماء الحار، فتارة ينقلون إلى الحميم وإلى الماء الحار، وتارة يصلون في نار جهنم، فهم يطوفون بين هذا وهذا.

و(حميم آن)؛ آن يعني شديد الحرارة. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٥]؛ فهذا جزاء المجرمين أعداء الله الذين حاربوا شرع الله، ونصبوا العداوة لربهم ولرسله ولأوليائه، وأفسدوا في الأرض؛ هذا جزاؤهم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما يذكر جزاءهم تخويفاً للناس أن يسلكوا مسلكهم، وأن يبتعدوا عما وقعوا فيه، ولذلك القرآن لما يذكر أحوالهم -أحوال أهل النار- يقابلها بمقابلة أخرى؛ فيقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛ هذا جزاء المتقين.

لما ذكر جزاء العاصين المجرمين قابله -يعني ترهيب وترغيب- قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.

من اتقى الله وخاف الوقوف بين يدي الله، وخاف المقام الذي يكون بين يدي الله، وخاف الحشر والجزاء والحساب؛ هذا الذي استعد وخاف واتقى الله، هذا له جنتان، هذا له جنتان كما وعد الله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾.

كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠ - ٤١]. جنتان كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، جنتان: جنتان من فضة وجنتان من ذهب.

هنا قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٧]، والله يخبر بنعمه العظيمة وجزائه لعباده المتقين.

قال في وصف هاتين الجنتين: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨]؛ أي أغصان، أغصان نضرة من الفواكه والثمار، مليئة بالأغصان، أو تكون معنى (أفنان) يعني من الفنون؛ يعني متعددة الأنواع والأشكال، فيها أنواع وأشكال من الأطعمة والأشربة.

قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٩].

ثم قال بعدها: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]. انظر كيف التناسق: جنتان، وعينان تجريان، هاتان العينان تجريان لقوة الماء فيها، فالماء يتدفق بقوة ففيها عينان تجريان.

ثم قال بعد ذلك: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥١].

﴿فِيهِمَا﴾؛ لما ذكر الفواكه والأغصان ذكر العيون والمياه، ثم عاد إلى الفواكه فقال: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]؛ أي من غير حصى، كل فاكهة زوجان؛ أي صنفان: التفاح، الموز، التين، الخوخ، كل شيء فيه نوعان على ما تشتهيه أنت نفسك، أنواع وأشكال، وفيها فاكهة يعني لا حد لها من كل فاكهة من كل فاكهة. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥٣].

فلما ذكر الفواكه وذكر الشراب والمياه والعيون، ذكر حالهم وهم متكئين، حالهم أنهم متكئين على فرش، فقال: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[الرحمن: ٥٤].

والمتكئ في جلسته، وغالباً المتكئ في جلسته على الأرائك وعلى السرر وفي المجالس، إذا اتكأ معناه أنه مطمئن آمن مرتاح، أما القلق الخائف فلا تجده يتكئ؛ وقوله ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ دليل على أنهم في أمن وأمان.

قال: ﴿عَلَى فُرُشٍ﴾ وهذه الفرش قال: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾؛ والبطائن داخلها، و(الإستبرق) هو: غليظ الديباج، من غليظ الحرير. هذه الآن الديباج أو الحرير الغليظ هذه الفرش مبطنة داخلها؛ فكيف بظاهرها؟! كيف بظاهرها؟!

ماذا يخطر ببالك ظاهر هذه الفرش إذا كانت بطائنها كذلك؟! أنت تعرف في الدنيا أن الفرش والوسائد بماذا تبطن؟ تجدها تبطن بالليف ونحوه، فهذه بطائنها من حرير فكيف بظواهرها؟!

قال: ﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ فهم متكئين على هذه الفرش التي على السرر، والأشجار قريبة منهم، ﴿وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾؛ وجنى يعني ثمارها، ثمار الجنتين دان يعني قريب جداً، يأخذه المضطجع، والجالس، والقائم، كلهم يستطيعون الحصول على هذه الثمار اليانعة الطيبة، وإذا قطفها جاء مكانها أخرى وهكذا.

قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن: ٥٥]؛ تكذب بهذه النعم العظيمة.

ثم قال لما ذكر نعيمهم في الطعام والشراب والجلسة والاتكاء، ذكر نساءهم الحور العين اللاتي معهم في الجنة، فقال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾[الرحمن: ٥٦]. فيهن؛ أي في هذه الجنان وهذه الفرش فيها الزوجات.

قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾؛ فيهن الحور اللاتي قد قصرت طرفها؛ أي قصرت نظرها أن تنظر إلى غير زوجها، إنما تنظر لزوجها، وقصرت طرف زوجها أن ينظر إلى غيرها؛ فهي تقصر طرفها عن غيره وتقصر طرف زوجها أن ينظر إلى غيرها، أن ينظر إلى غيرها.

ثم قال هؤلاء قاصرات الطرف وهن الحور العين اللاتي هن على أكمل الجمال، قال: هن أبكار ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾؛ لم يطأها ولم يفض بكارتها لا إنس ولا جان.

وأصل (الطمث) هو: الدم؛ لأن الأنثى أو الفتاة يعني إذا كانت عليها بكارتها ووطئت يخرج منها هذا الدم، فيقول: لا لم يطمث، لم يظهر دم، لم يطمثها لا إنس ولا جان قبله ولا جان.

وفي هذا دلالة على أن مؤمني الجن يدخلون الجنة؛ مسلمي الجن يثيبهم الله ويدخلهم الجنة؛ لأنه قال هنا لم يطأ الحور العين لا إنس ولا جن، فدل على أن الجن يثابون وأنهم يدخلون الجنة، كما أن كفارهم وأهل المعاصي منهم يدخلون النار.

قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥٧]؛ بأي النعم تكذب أيها الإنسان وأيها الجن وأيها الإنس.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في وصف الحور العين اللاتي لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٥٨]. الياقوت في بياضه وجماله وحسنه، والمرجان في حمرته؛ فهي في صفائها وبياضها كالياقوت، وفي جمالها ولونها وحمرتها كالمرجان، لأنها بيضاء مشربة بحمرة كالمرجان، و(المرجان) هي الحجارة الكريمة التي تكون في بعض الشواطئ تميل إلى الحمرة.

قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٥٩]؛ أي النعم تكذب أيها الناس وأيها الجن.

ثم قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ أحسنوا عملهم مع ربهم، ومَلَأوا أوقاتهم بالطاعات، وقدموا لله ما استطاعوا من العمل الحسن، وأتقنوا أعمالهم وأحسنوها، فهؤلاء يجازون بالإحسان؛ ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ جازى هذا بهذا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

لما ذكر الجنتين الأولى، ذكر أن هناك أيضاً جنتين أخريين، فقال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢].

ولذلك وقف أهل التفسير عند هذا فقالوا: كيف هنا جنتان وهنا جنتان؟

قال ابن كثير: الأولى -الجنتان الأولى المذكورة سابقاً- هذه للمقربين وهم أعلى درجة، وهنا للأبرار أصحاب اليمين أصحاب اليمين لأنهم أقل. قال: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾؛ أي من دون الجنتين السابقتين جنتان أخريان.

☜ **لذلك جاء في بعض الأحاديث:** «جَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، وَجَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ»؛ جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من فضة وهذه للأبرار أصحاب اليمين. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٦٣] أيها الإنس والجن.

قال: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]؛ أي هاتان الجنتان مدهامتان، يعني شديدة الخضرة، تميل الخضرة إلى السواد من شدة ما يتدفق عليها من الماء، فإذا اشتد الماء أصبحت الخضرة يعني تميل إلى السواد، مدهامة شديدة الخضرة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]. شوف الأول قال: ﴿تَجْرِيَانِ﴾ تجري بقوة، وهنا تفور؛ نضاختان يعني تفور، فوارتان لا تنقطع لا تنقطع، لكنها تفور، ليست بمنزلة التي تجري، ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٦٧].

ثم قال: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]. هناك قال: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، وهنا قال: فاكهة وفيها النخل وفيها الرمان، وخص النخل والرمان لما يتميز به النخل والرمان، ولكثرة الفوائد وفيما فيهما من المنافع، ولأن أهل مكة يعرفونها؛ فالنخل يعرفونه يأتيهم من المدينة، والرمان يأتيهم من الطائف فهم يعرفون ذلك، فلذلك ذكر الله هذا النعيم.

ولنعلم أيها الإخوة جميعاً أن الجنة ما فيها من النعيم والفواكه والأشربة إنما التشابه بالأسماء، لا تظن أنت أن رمان الدنيا أو رمان الجنة مثل رمان الدنيا؛ لا، بس مجرد الاسم، الاسم، والنخل كذلك هو من أسمائه، لكن الحقيقة تختلف، الحقيقة لا يمكن أن تتشابه.

قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٦٩].

ثم ذكر قال: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]؛ أي فيهن، أي في الأربع: الجنتان الأوليان والجنتان الأخريان، فيهن جميعاً، فيهن خيرات حسان؛ يعني هذه مشتملة على الحور العين وهذه مشتملة على الحور العين.

فيهن خيرات؛ خيرة الخيرات يعني الجميلة الحسنة الطيبة الأخلاق، وهي زوجات أهل الجنة، حسان الوجوه وحسان الأخلاق؛ يعني أخلاقها حسنة، وكلامها حسن، ووجهها وجمالها حسن، فهي جمعت يعني جميع أوجه أو وجوه الحسن فيها. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٧١].

ثم قال: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]. شوف هناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾، وهنا قال: مقصورات؛ هذا معناه مقصورات في الخيام؛ يعني في داخل الخيام، يعني مستورات مصونات في الخيام، حتى استنبط بعضهم أن الأصل في المرأة الستر والبعد عن الرجال وعن الظهور.

ولذلك تجد من الذين يعيشون في شرف وفي القصور تجد لهم -يعني لهم- أماكن خاصة من الحدائق والخيام لا يخرجون أمام الناس، فهذه ميزة هذه ميزة حور ومقصورات وفي الخيام. قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رُبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن: ٧٣].

إذاً الجنة فيها خيام، وفيها روضات الجنات، وفيها الأنهار تجري من على الأرض فيها يعني شيء عظيم ما يتصوره الإنسان. قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رُبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٧٥]؛ أي النعم تكذبان أيها الثقلان.

ثم قال هؤلاء الحور اللاتي مقصورات في الخيام: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٧٤]. لم يطأ هذه الحور إنس إنسان، ولا من الجن أحد يطأ هذه.

يعني كان كما قال الله سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ [الواقعة: ٣٦]. هذا من النعيم العظيم، أسأل الله أن لا يحرمنا ذلك الفضل، أسأل الله يجعلنا وإياكم جميعاً ممن يفوز بهذا النعيم العظيم.

قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رُبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الرحمن: ٧٥].

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمن: ٧٦]. ما هو **(الرفرف)**؟ أنت أحياناً تجلس على السرر وعلى الكنبات تجد لها أطرافاً، هذه الأطراف نهايتها من يمين ونهايتها من شمال مثل المراكي أو المتكآت تكايات، هذه هي التي تسمى رفرف.

مثل رفرف يعني المركبة ونحوها رف رفارف، هذه الرفارف المتطرفة، فيقول: متكئين على هذه الرفارف؛ هذه الرفارف الأطراف، وهذه الرفارف المتطرفة عليها من الأغطية والفرش لأنه قال: ﴿خُضْرٍ﴾؛ ألوان جميلة بديعة فائقة جميلة حسنة.

- **قال: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾، ما هو؟**

هي قطع البسط والسجادات التي تلقى في الأرض، سميت عبقري لأنها تأتي من مكان كانوا عند أهل مكة، في أهل مكة ويعرفونها، تأتيهم قطع السجاد والبسط تأتيهم من مكان أو من بلدة يقال لها عبقر؛ هذه عبقر مكان قيل إنه في اليمن أو غيره كانوا يصنعون منه هذه السجاد وهذه الفرش.

فلذلك الله ذكر مشبهاً حال الدنيا بالآخرة، وإلا عبقري الآخرة لا يمكن أن يصنع لا في اليمن ولا في غيره، لكن الله يشبه ويقرب الصورة؛ فقطع السجاد على الأرض ﴿زَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[الغاشية: ١٦].

قال: ﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ يعني الخضر وهي أيضاً فرش وسجاد جميلة حسنة.

قال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٧٧]؛ أي النعم تكذبان أي النعم.

ثم خُتمت السورة، هذه السورة الجليلة العظيمة يعني التي فيها من النعم الدنيوية والأخروية الشيء العظيم، قال الله سبحانه: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

(تبارك) لا يطلق إلا على الله، ما يقال فلان تبارك، فلان فيه بركة، أو أنت أتيتنا ببركة أو نحو ذلك ما هي بأول بركاتك كل هذا جائز، لكن تقول تبارك تعالى هذا لله لا يجوز أن يصرف لغيره.

تبارك؛ أي تكاثر خيره وبركته، ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ﴾ أي تبارك ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأسمائه الحسنى، هو ذو الجلال والإكرام؛ هو ذو الجلال وذو العظمة، الجلال الباهر والعظمة والمجد الكامل، والإكرام أن أكرم أعطى وأكرم أولياءه، أكرمهم بهذا النعيم وهذا النعيم العظيم الكريم، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى صاحب الجلالة وهو صاحب العظمة وصاحب الكرم والتكريم جل جلاله.

ولاحظ الجمال، يعني انظر أول السورة: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ [الرحمن: ١]؛ اسم عظيم ذو الرحمة، آخر السورة: ﴿ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]؛ بدأت بالرحمة وانتهت بالكرم والتكريم لعباده المتقين.

أسأل الله أيها الإخوة الكرام جميعاً نحن والمستمعون وإخواننا المسلمون أن لا يحرمنا الله هذا الفضل العظيم، وأن يجعلنا وإياكم من الفائزين بجنات النعيم.

إلى هنا تنتهي السورة إن شاء الله، لقاؤنا في السورة التي تليها، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الوَاقِعة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الواقعة ١ - ٥٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو اليوم التاسع عشر من شهر شوال من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة؛ أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا في (تفسير القرآن العظيم)، والسورة التي بين أيدينا سورة (الواقعة)؛ وسورة (الواقعة) هي من السور المكية التي نزلت على نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة، وحديثها عن اليوم الآخر؛ هي تتحدث عن البعث، والجزاء، والجنة، والنار.

وهذه موضوعات -أو أغلب موضوعات السور المكية- هو تقرير العقيدة: الإيمان بالله، الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالبعث، الإيمان بالرسول، الإيمان بالقرآن. والسورة هذه خُصصت في تقرير الإيمان بالبعث.

وهي تعرض لنا صورة البعث بتفاصيله، الناس وأقسامهم وأنواعهم: أصحاب الميمنة، أصحاب المشأمة، السابقون؛ وتفصل في أحوالهم: مَن هم؟ ما صفاتهم؟ وما نعيمهم؟ أو ما يلقونه من جزاء من نعيم أو عذاب؛ كل هذا تتحدث عنه السورة.

ثم بعد ذلك تذكر لنا أربعة أدلة على قدرة الله جل جلاله، وأن قدرته لا تقارن بأي قدرة؛ ولما يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأدلة الأربعة، هي أدلة تدل على وحدانيته، وعلى قدرته على البعث، وعلى إنعامه على الخلق.

بعد ذكر هذه الأدلة الأربعة، تنتقل السورة إلى بيان وقت احتضار الإنسان وكيف سيكون احتضاره، ثم الحديث عما يجري له في القبر؛ والقبر إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار.

والسورة أيضاً قسمت الناس في مآلهم إلى القبر إلى ثلاثة أقسام؛ فالسورة في أولها عن البعث والجزاء والمآل الأخير -أو مصيرهم الأخير- ثلاثة أقسام الناس، وفي السورة أيضاً في آخرها الحديث عن القبر ثلاثة أقسام.

نبدأ بالسورة؛ السورة سميت بسورة **(الواقعة)** لذكر هذا اللفظ فيها، وهذا اللفظ **(الواقعة)** هو اسم من أسماء يوم القيامة: الطامة، الحاقة، الصاخة، الواقعة، الآزفة، كلها هذه، القارعة؛ هذه أسماء يوم القيامة.

الله افتتح هذه السورة بصيغة الشرط، قال: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]؛ وصيغة الشرط تجعل الإنسان ينتظر جواب الشرط؛ إذا وقعت الواقعة ما الذي سيجري؟ ماذا سيحدث إذا وقعت الواقعة؟

يعني معنى وقعت الواقعة بمعنى أنها قامت القيامة وحصلت؛ هذا معنى وقوع الشيء حدوثه، فقال: ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾ أي حدثت وجاءت وقامت القيامة.

ثم قال: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢]؛ يعني ليس هناك نفس ستكذب إذا وقعت، ولا يمكن أن تكذب وهي خبر من الله؛ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ لا نكذب ولا نشك ولا نتردد في أن هذه حقيقة واقعة، فلذلك نفى الله الشك والريب والكذب والتردد؛ ليس للواقعة كاذبة، ستقع.

ثم بعد ذلك قال من أحوالها: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ٣]؛ كيف خافضة رافعة؟ خافضة لأعداء الله، خافضة للأشقياء تخفضهم، ورافعة للأولياء وأهل السعادة؛ تخفض أهل الشقاوة في نار جهنم، وترفع أهل السعادة في جنات النعيم؛ هذا معنى خافضة رافعة.

وقيل خافضة رافعة بسبب ارتجاجها وزلزالها فتنخفض وترتفع؛ لكن الكثير من أهل التفسير قالوا إن ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي خافضة لأناس وهم أهل الشقاوة، رافعة لأناس وهم أهل السعادة.

ثم قال: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤]؛ يعني إذا وقعت أيضاً سيحدث أمر آخر، وهو أن الأرض ترتج؛ ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي حُرِّكت تحريكاً شديداً، وزُلزلت زلزالاً شديداً؛ هذه كلها أحوال يوم القيامة بمرتبة بداية يوم القيامة أو النفخة الأولى؛ ﴿رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ مثل ما ترج العلبة أو القارورة ترج بقوة، هذه ترج الأرض بقوة، ترج رجاً.

ثم قال أيضاً من أحوال يوم القيامة إن الجبال تبس، قال: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]؛ يعني فتتت تفتيتاً كما يفت الشيء الذي يراد أن يدق دقاً، فتدق حتى الجبال تفت فتصبح يعني مثل ما قال:

﴿هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ [الواقعة: ٦]، وفي آية أخرى تصبح كثيباً مهيلاً؛ ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، كثيب الرمل؛ وتندق هذه الجبال الصلبة القوية تصبح هباءً منبثاً.

حتى ذكر الله في سورة أخرى قال: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]؛ إذا جئت ما وجدت شيئاً، صار هباءً منبثاً. الهباء معروف؛ وهو هذا الذي يتطاير عند مثلاً عند النوافذ إذا دخلت الشمس أو نحوها، تجد هذا الهباء المنبث الذي يتطاير؛ يعني أصبحت مندفة دفاً شديداً.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧]؛ كنتم أيها الخلق أصنافاً ثلاثة.

- **ما هي الأصناف الثلاثة؟**

قال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨]؛ هذا هو جواب الشرط؛ الشرط لما قال: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ و﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ فالناس ثلاثة: أصحاب ميمنة، أصحاب مشأمة، سابقون. وأصحاب الميمنة هم أصحاب اليمين الذين يؤخذ بهم إلى اليمين، ويأخذون كتبهم باليمين، أو هم لهم البركة والأمن؛ لأن اليمين من اليُمن وهو البركة.

وأما قال: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾؛ يعني شأنهم عظيم، **(ما)** للتهويل والتعظيم.

قال: ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [الواقعة: ٩]؛ أصحاب الشؤم وسوء الحال ورداءة الحال، هؤلاء من الشؤم أو المشأمة جهة الشمال، يؤخذ بهم إلى الشمال ويأخذون كتابهم بشمالهم، هؤلاء هم أصحاب المشأمة؛ ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ شأنهم شأن عظيم سيئ، وحالهم رديئة، وعاقبتهم عاقبة سيئة.

قال الصنف الثالث: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ١٠]؛ السابقون في الدنيا إلى الخيرات وإلى الأعمال الصالحة، الذين يتسابقون إلى الصف الأول، يتسابقون إلى الصدقات، يتسابقون إلى نفع الناس.

يتسابقون في كل وجوه الخير ووجوه الطاعة في الدنيا؛ هم السابقون في الآخرة إلى الدرجات العلى، فمن كان سباقاً إلى صلاة الجمعة مبكراً، إلى الصلوات الفرض في الصف الأول، إلى سائر الأعمال الصالحة، هؤلاء هم السابقون في الآخرة.

قال: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]؛ انظر لما قال **(المقربون)**، يعني مقربون عند الله، قربهم الله عنده تكريماً لهم، وفي فرق لما يقول: **(أولئك القريبون)**، قريب لكن لا يلزم فيه التكريم؛ قد يكون

شخص قريب من عندك ولا تكرمه، لكن لما يكون (مقرب) بمعنى أنه قُرِّب وأُتي به وأُدخل وأصبح قريباً من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٢]، يفوزون بجنات النعيم.

ثم قال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [الواقعة: ١٣]؛ مَن هم السابقون؟ ثلة يعني جماعة كثيرة من الأولين، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٤]؛ السابقون المقربون قلة في الناس، قلة حتى بين المؤمنين قلة؛

لكن من الأولين مقصود بالأولين هناك قولان لأهل التفسير:

القول الأول: إن ثلة من الأولين أي من صدر هذه الأمة، هم الذين فازوا بكونهم من السابقين، وقليل من الآخرين ممن جاء بعد صدر هذه الأمة؛ ولذلك يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ لما قرئت عليه هذه الآية أو قرأها قال: **"ثلة من الأولين قد سبقونا وذهبوا، وقليل من الآخرين هم أصحاب اليمين، ولعلنا نكون معهم"**.

يقوله الحسن البصري وهو قد توفي سنة مائة وعشرة هجرية، فكيف بمن جاء بعد قرون؟! هذا قول؛ القول الأول أن من صدر هذه الأمة، وأن الأولين من هذه الأمة والآخرين من هذه الأمة.

والدليل على ذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟» ثم قال: «ثُلُثَهَا» ثم قال: «شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ»؛ فدل على أن أمة محمد هي التي تتصدر هذا الشيء.

القول الثاني: إن ثلة من الأولين أي من الأمم الماضية الأولى من عهد نوح وما بعده إلى أمة محمد، وقليل من الآخرين ممن جاء من أمة محمد؛ وهذا قول وهذا قول.

الشيخ (السعدي) رَحِمَهُ اللهُ في تفسيره جمع بين هذا وهذا، فقال: "المقربون هم ثلة من الأولين من أمة محمد والأولين من الأمم الماضية الذين تبعوا أنبياءهم"؛ وأما القول بأن من أمة محمد فهذا رجّحه وانتصر له (ابن كثير) في تفسيره، والذي يظهر والذي عليه الكثير والأدلة أن ثلة من الأولين أمة محمد، وقليل من الآخرين ممن جاء من أمة محمد بعد الأولين.

قال: ما حالهم؟ قال هم: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ [الواقعة: ١٥]؛ سرر كيف؟ قال: يعني منسوجة بالذهب ومرصعة بالذهب، وعلى أطرافها الذهب؛ منسوجة بالذهب، هذا معنى موضونة.

ثم قال: ﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٦]؛ لما يقول (متكئين) يدل على الأمن والراحة والطمأنينة والسعادة، (متقابلين) يقابل بعضهم بعضاً، لا يولي أحدهم ظهره للآخر، بل يتقابلون، وهذا من كمال النعيم.

ثم بين حالهم في الطعام والشراب فقال: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]؛ يعني شباب أو أولاد شباب غلمان من أهل الجنة، مخلدون في سن لا يزيدون عليه، يبقون على شبابهم، لا يهرمون، لا يكبرون، لا يموتون، يبقون ولدان مخلدون.

في سورة أخرى قال: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]؛ في جمالهم كاللؤلؤ، وفي كثرتهم وانتشارهم منثور.

قال: يطوف عليهم بأي شيء؟ يعني يدورون عليهم لإكرامهم وتكريمهم، قال: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٨]؛ الأكواب معروفة توضع فيها الأشربة مثل اللبن، ومثل الماء، ومثل العسل ونحوه، والأباريق هي الأقداح التي لها عرى ولها خراطيم يدورون عليهم بها.

وأما قوله كأس، الكأس والخمر؛ إذا جاءت كلمة (الكأس) في القرآن فالمراد بها الخمر، و﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أي من عين جارية، عين الخمر.

ولذلك انظر بعدها قال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩]؛ لا يصيبهم الصداع في رؤوسهم؛ لأن خمر الدنيا تصدع الرأس، لا يصدعون عنها ولا ينزفون أي لا تذهب عقولهم؛ خمر الدنيا تذهب بالعقل، وهذه لا تذهب بالعقل، الله سلَّم وطهَّرها.

ولذلك قال في آية أخرى قال: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

قال: هذه الأشربة. أما الأطعمة: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠]؛ فاكهة مما يريدونه هم، يتخيرون منها من أنواع الفواكه التي لا حد لها، ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢١]؛ اللحوم المشوية وغير المشوية، لحوم الطير وغيره مما ترغب فيه نفوسهم، أمامهم مما تشتهيه ولا تنقطع، وهم يأكلون ويشربون وعلى الأرائك متقابلين، معهم النساء زوجات الحور العين؛ لهم الحور العين.

قال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ [الواقعة: ٢٢]؛ الحور جمع والواحدة حوراء، والعين جمع والواحدة عيناء؛ والحوراء المرأة إذا قيل لها حوراء أو عيناء تكون واسعة العينين وفيها بياض وعلى أطرافها وحدقها السواد.

وهذا يعطي جمالاً؛ واسعة العينين وقد جمعت بين البياض والسواد، وقيل الحور يعني بياض الجسد مع الحمرة فهي في أكمل جمال: بياض على حمرة واسعة العينين.

قال: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]؛ يعني إذا نظرت إليها، إذا نظرت إلى نساء الجنة الحور كاللؤلؤة في جمالها وزيادة، ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ مصون في أصدافه، ومثل اللؤلؤ إذا كان محفوظاً؛ فهذا دليل على أن نساء الجنة قد حفظن ولذلك هن أبكار.

قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤]؛ جزاءً يعني هذا الجزاء الذي أعطاهم الله بسبب أعمالهم، وفيه دليل على أن الله يجازي ويشكر على الأعمال، وإن كان دخول الجنة يعني بفضل من الله ورحمة إلا أن الأعمال سبب، حتى في ارتفاع الدرجات الأعمال الصالحة هي السبب.

قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥]؛ وهم في الجنة لا يسمعون فيها لغواً كلاماً باطلاً ساقطاً، ولا تأثيماً؛ يعني مما يحصل في الدنيا من السب والشتم ونحوه الذي يأثم صاحبه بقوله بكلامه أو بسماعه.

ثم قال: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٦]؛ (إلا) بمعنى لكن، (استثناء منقطع): لكن يسمعون القول الذي سلم من هذه العيوب، ويسلم بعضهم على بعض، وتسلم عليهم الملائكة، ويدعو بعضهم لبعض ونحو ذلك؛ هؤلاء هم المقربون.

وأما الذين تحتهم -كما مر معنا في سورة الرحمن ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]- قال هنا: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]؛ تهويل وتعظيم، ما أعظم مكانتهم وجزائهم!

ثم قال: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨]؛ شجر السدر معروف الذي فيه النبق؛ هذا سدر ولكنه مخضود يعني ليس فيه شوك، قد أزيل عنه الشوك.

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٩]؛ قيل الطلح هو الموز، منضود متراكب بعضه فوق بعض، وقيل الطلح هو الشجر العظيم الذي له ظل عظيم؛ ولذلك قال بعده: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] أي ظل لا ينقطع طويل.

☜ **ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا»؛ ظل ممدود.

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣١]؛ المياه تنسكب عندهم تجري أنهاراً.

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢]؛ كثيرة لا تنتهي ولا يمكن حصرها، ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٣]؛ لا تنتهي وتنفد ولا يُمنع منها؛ الدنيا قد يمنع إما لا يجدها أو يمنع منها لغلائها أو قِلَّتها أو لسبب من الأسباب، والجنة لا.

ثم قال: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤]؛ أي الفرش التي يجلسون عليها، وإن كان الجنة ما فيها نوم لكن يجلسون عليها وعلى السرر.

ثم قال بعدها: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ [الواقعة: ٣٥]؛ أي أزواج أهل الجنة، نساء أهل الجنة؛ لكن لم يجرِ له ذكر لأن الدلالة واضحة، وهو لما قال (وفرش) عرفنا أن الفرش تكون معهم الأزواج زوجاتهم في الجنة، وقيل الفرش هي المرأة؛ لأن المرأة عند العرب تسمى الفراش؛ ولذلك يقول بعضهم: «أَفْرِشْ فُلَانًا كَرِيمَتَكَ» يعني زوجه.

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ يعني خلقناهن خلقاً جميلاً حسناً، نشأة كاملة لا تقبل الفناء والموت، ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ [الواقعة: ٣٦]؛ بمعنى ليست ثيباً لم توطأ، وإنما على بكارتها، وكلما وطئها زوجها من أهل الجنة عادت بكراً.

قال: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٧]؛ العُرُب جمع عروب، وهي المتحببة إلى زوجها، التي تبتسم وتضحك عنده، والتي تتغنج بالكلام الطيب وتتمايل، هذه العروب.

قال: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾؛ الأتراب جمع تِرب، وهي التي تكون النساء في سن واحدة، ليست عجوزاً وليست صغيرة، وإنما تكون في سن مناسب.

قال: ﴿لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٨]؛ هؤلاء هم أصحاب اليمين الذين تحت المقربين.

قال: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝٤٠﴾ [الواقعة: ٣٩-٤٠]؛ من صدر هذه الأمة، وثلة من الآخرين ممن جاء بعدهم، أو ثلة من الأولين من الأمم الماضية، وثلة من الآخرين من هذه الأمة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]؛ لما ذكر أهل اليمين، وذكر أهل الطاعة والفائزين بجنات النعيم، قابلهم -يعني ترغيباً وتخويفاً- قابلهم بأهل الشقاوة؛ أصحاب الشمال هم أصحاب الشؤم الذين يأخذون كتابهم بشمالهم، ويؤخذون إلى جهة الشمال؛ أصحاب

الشمال هم أصحاب النار أهل الشقاوة، ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمالِ﴾ يعني بيان لعظم حالهم مما سيصيبهم من الجزاء، وبيان أن حالهم سيئة.

قال: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٢]؛ السموم: الهواء الحار الذي يدخل مسام الجسم **(فتحات الجسم)**، حار شديد الحرارة، ومعه أيضاً الحميم: الماء الحار الذي يغلي لشدة حرارته؛ فعندهم الهواء حار ليس بارداً، والماء حار ليس بارداً.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٣]؛ أيضاً هذا الظل الذي فوقهم دخان أهل النار أو دخان النار يظللهم، ولكن هذا الظل ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٤]؛ ليس ظلاً بارداً كالدنيا بل ظل حار، ولا كريم ينتفعون به، لا نفع فيه ولا برد فيه، وإنما يحموم شديد الحرارة والسواد؛ دخان سواد، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل؛ نسأل الله العافية.

- **قال: ما السبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال؟**

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥]؛ كانوا قبل ذلك مترفين منعمين، ومنشغلين بنعيمهم في الفساد والعلو والاستكبار والغطرسة والتكبر وعدم الإيمان بالله ولا بالرسل، ولا استعداد لليوم الآخر ولا الإيمان باليوم الآخر؛ إنما يعيشون للدنيا مترفين منعمين بالحرام، لا يبالون: فسق وكفر وحرام وشراب.

قال: وكانوا أيضاً على عقيدة فاسدة؛ ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦]؛ يقيمون على الشرك والكفر والمعاصي وتجاوز الحدود والأيمان الكاذبة؛ كل ذلك داخل في الحنث العظيم.

قال: وكانوا يقولون -عقيدة فاسدة، وهو الكفر باليوم الآخر-: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝٤٨﴾ [الواقعة: ٤٧-٤٨]؟! هذا يستحيل ومستبعد ولا يمكن وهيهات هيهات، وآباؤنا أيضاً الأولون؟! هذا لا يمكن؛ ولذلك كفروا بهذا.

قال سبحانه قل لهم رداً عليهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠]؛ أخبرهم بأن الأولين والآخرين -الذين تقولون آباؤنا- كلهم سيجمعون في ميقات يوم معلوم، وهو يوم الحشر ويوم الحساب؛ وهذا يوم مؤقت عند الله زماناً ومكاناً.

قال بعدها: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾ [الواقعة: ٥١].

لا نريد الإطالة عليكم، لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الواقعة ٥١ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في درسكم مع القرآن الكريم قراءةً وتفسيراً وتدبراً، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعل القرآن حجةً لنا لا علينا.

سورة الواقعة؛ وهذا اليوم يوافق الثاني من شهر شوال من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، سورة الواقعة وتحدثنا عنها في لقائنا الماضي، وهذه السورة -كما هو من عنوانها- واقعة؛ وهي حديثها عن يوم القيامة وتقرير الإيمان باليوم الآخر، وأن كل مسلم يجب عليه أن يؤمن بما يجري يوم القيامة، بكل ما يجري يوم القيامة.

ويوم القيامة يبدأ من خروج الإنسان من هذه الدنيا إلى أن يدخل الجنة، أو يكون إلى مصيره الأخير؛ حتى القبر هو أول درجات القيامة، أو أول منازل القيامة، مَن مات قامت قيامته.

تعرف أحوال القبر وتعرف أحوال يوم القيامة ما الذي يجري؛ هذه عقيدة لا بد أن نستوعبها، والقرآن أكد عليها في مواضع كثيرة، وناقش وقرر ورد على مَن أنكر.

سورة أثبتت ذلك وذكرت أن الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف؛ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] يعني أصناف ثلاثة: المقربون وهم أعلى الدرجات في الجنة، ثم الأبرار أصحاب اليمين وهؤلاء من أهل الجنة، ويقابلهم أصحاب الشمال وهم أهل النار.

السورة تحدثت عن هؤلاء الثلاثة، الأزواج الثلاثة، بالتفاصيل البينة، ثم تحدثت عن الأدلة الدالة على قدرة الله رداً على المنكرين؛ لأنهم يقولون لا بعث، وأقسموا إيماناً أنه لا بعث.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

فرد القرآن عليهم واستدل بالأدلة الدالة على قدرته؛ أربعة أدلة:

⬅الدليل الأول: خلقك أيها الإنسان، مَن الذي خلقك؟ الذي خلقك قادر على أن يعيدك، الذي خلق الخلق الأول يخلق الخلق الثاني.

⬅الدليل الثاني: هذا النبات الذي ينبته الله، كما ينبت الإنسان في بطن أمه، دليل واضح على قدرة الله.

⬅الدليل الثالث: الماء الذي تشربه، لولا هذا الماء لمات الإنسان، الماء سر الحياة، آية من آيات الله.

الدليل الرابع: النار التي لا يستطيع الإنسان أن يعيش بدونها، فيحتاج إليها في حله وترحاله، هذه كلها أربعة أدلة، ثم تختم السورة بأحوال القبر، ما الذي أعده الله في القبر، سواء للمقربين أو أهل اليمين أو أهل الشمال.

نحن تحدثنا عن أول السورة وما الذي سيجري فيها، ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥﴾[الواقعة: ٤ - ٥].

كانوا يصرون على الحنث العظيم، مع هذا الترف والنعم والباذخ والتكبر والاستكبار والإفساد في الأرض، كانوا على عقيدة فاسدة، يصرون على الحنث العظيم؛ الحنث: الكفر والشرك والإصرار على المعصية، وكذلك حلف اليمين الكاذبة على أنه لا بعث، كما قال الله سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[النحل: ٣٨].

يصرون على الحنث العظيم، وكانوا أيضاً قد اعتقدوا هذا المعتقد الفاسد، وهو أنهم يقولون: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[الواقعة: ٤٧]، استفهام يفيد الاستبعاد؛ يعني أشد البعد، هيهات هيهات ما يمكن أن كيف نبعث نحن وأصبحنا تراباً خلاص.

- **كيف الناس يبعثون؟**

وليس فقط نحن؛ ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾[الواقعة: ٤٨] كيف؟ فعقيدة فاسدة يعني لا بعث، يستحيل عندهم أنه لا بعث، فرد القرآن عليهم رداً قوياً أخرس ألسنتهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾[الواقعة: ٤٩ - ٥٠]؛ قل لهم يا محمد إن الأولين من أول الخلق منذ آدم.

والآخرين إلى آخر الخلق، كلهم سيبعثون ولن يتخلف أحد منهم، مجموعون إلى ميقات يوم معلوم، سيجتمعون في مكان واحد وزمان واحد.

- **ما هو الزمان؟**

يوم القيامة إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، جُمعوا في أرض المحشر، الأرض التي سيحشرون فيها، معلومة عند الله، والوقت والزمن معلوم. ميقات؛ الميقات المكان والزمان، سيجمعون وسيحاسبون ويجازون على أعمالهم، مجموعون.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١]؛ أصحاب الضلال الذين ضلوا عن طريق الهدى وعن طريق الرشاد، وضلوا عن طريق الرسل والتمسك بالصراط المستقيم، وكذبوا كذاباً مكذبون، توعدهم الله بما أعد لهم في نار جهنم.

قال: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ [الواقعة: ٥٢]؛ يقول ستاكلون سيكون طعامكم من الشجر وهو شجرة الزقوم، أصلها في قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٥]، وقال في الزقوم: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ۝٦٢ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ۝٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝٦٥﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٥].

فقال الله هنا هذه شجرة الزقوم؛ وسميت زقوم لأن أهلها يتزقمونها؛ يعني يأكلونها بقوة لشدة الجوع لأنهم خرجوا من قبورهم جوعاً، شديد الجوع، فيأكلون بقوة ولا يستسيغونها شجرة الزقوم، فهي سيملأ منها بطنه؛ شوف قال: ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥٣]؛ أي من هذه الشجرة، منها البطون.

ثم قال أما الشراب قال: ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤]؛ أي على هذا الأكل، عليه من الحميم؛ أي من الماء الذي انتهت حرارته وأصبح ماءً يصهر البطون ويقطع الأمعاء، يشربون من الحميم وليس شرباً خفيفاً مع شدة الحرارة بل ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥].

والهيم هي الإبل العطاش التي أصابها مرض فتشرب ولا تروى، فتشرب شرباً ليس طبيعياً، وبعض المفسرين يقول: الهيم الرمل إذا صببت عليه الماء يشرب الماء يشرب ولا ينتهي، وهؤلاء أهل النار يأكلون الزقوم ويشربون الحميم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥٦]؛ النزل هو ما يعد للضيف، والله يقول هذا ما يعد لكم استهزاءً وسخريةً وتهكماً بهم؛ هذا نزلهم يوم الدين، يوم الجزاء والحساب يوم القيامة.

ثم يناقشهم يقول: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]؛ من الذي خلقكم؟ فلماذا لا تصدقون بالبعث؟ ما الذي يمنعكم من التصديق بالبعث والله هو الذي خلقكم؟ يكفي هذا الدليل، أن الذي خلقك يعيدك.

ثم بدأ بالأدلة الدالة العقلية على قدرة الله: أولاً قال: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]؛ هذا الماء الذي تصبونه في الأرحام، في أرحام النساء، هذا الذي أنتم ترونه بأعينكم وتعرفونه ولا يخفى عليكم.

﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩]؛ من الذي يخلق منه البشر ويجعله رجلاً تام الخلقة من نطفة قليلة صغيرة يكون الله منها بشراً يمشي على الأرض، من الذي فعل هذا؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون؟

الجواب: الله هو الخالق جل جلاله.

ثم قال: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠]؛ الله قدر الموت، قدر الآجال، هذا يموت وعمره سنة، وهذا يموت وعمره عشرون سنة، وهذا يموت وعمره ستون، أقدار مقدرة، نحن الذي قدرنا، لا تموت نفس إلا إذا جاء أجلها، والله يعني قدر الآجال.

نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين، لن يستطيع أحد أن يفلت منا، ولا يعجزنا أو يفر، إذا جاء الأجل سلم نفسه وخرج، هذا يومك، هذا اليوم الموعود الذي تنتظره لن يستطيع الإنسان أن يفر.

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨]، وما نحن بمسبوقين ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦١]؛ ما أحد يستطيع أن يعجزنا على الأجل، ولا عن أن نبدل أمثالكم؛ يعني أن نذهب بكم ونأتي بآخرين، نبدل أمثالكم يعني نذهب بكم ونأتي بأشخاص أمثالكم.

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]؛ يعني نبدل ونغير خلقتكم، قادر الله عَزَّ وَجَلَّ ويستطيع أن ينشئكم في خلقة لا تعلمونها، لو كانت كخلقة الحيوان أو خلقة الجماد أو كالحجارة، الله قادر على أن يبدل خلقتكم وعلى أن يذهب بكم ويأتي بآخرين مكانكم، لا يعجزه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]؛ ولقد علمتم وتيقنتم النشأة الأولى، أنتم صغار وتعرفون أنكم نشأتم صغاراً وأطفالاً، النشأة الأولى فلولا تذكرون، لماذا لا تتذكرون قدرة الله على أنه ينشئكم مرة أخرى؟

لماذا يغيب عنكم هذا الشيء وتتجاهلونه؟ هذه يعني هذا أمر واقع ومتقرر، وقضية مسلمة وهي قضية خلق الإنسان الأول، من الذي خلقك أولاً؟ أليس قادراً على خلقك الثاني؟ لا يمنع.

ثانياً: ثم أتى الله بالمثال الآخر، قال هذا الزرع الذي أنتم تشاهدونه وأنتم تزرعونه؛ تحرثون الأرض وتضعون فيها الحبوب ثم تسقونها الماء، من الذي ينبت الحبوب هذه؟ أنت أيها الإنسان مجرد أنك تحرث الأرض وتضع الحبوب فيها وينتهي دورك، لكن من الذي ينبتها؟

قد لا تنبت، قد تنبت وقد لا تنبت، من الذي يزرعها وينبتها؟ هل هو الإنسان أو الله؟ كل زارع وكل صاحب بستان وصاحب مزرعة يقر بأن الذي ينبت هذا الشيء هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٤].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون﴾ [الواقعة: ٦٥]؛ لو نشاء لجعلناه هذا النبات وهذه الأشجار وهذه الزروع جعلناها حطاماً، أرسلنا عليها ريحاً فأصبحت مصفرة، أصبحت هشيماً تتكسر حطاماً فظلتم؛ يعني أصبحتم تفكهون تتعجبون مما جرى لهذا البستان وهذه المزرعة.

ثم إذا رأيتم ذلك قلتم: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٦]؛ أي قد خسرنا وأصبحنا ذوي غرامة، وأننا مطالبون وأننا سنضطر إلى الخسارة العظيمة، ثم قال بعد ذلك؛ ثم هم يقولون بعد ذلك: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٧]؛ الحقيقة أننا محرومون، لماذا؟ بسبب ذنوبكم وكفركم حرمكم الله هذا النعيم وهذا الخير، بسبب ما ارتكبتموه من الذنوب والمعاصي.

⬅المثال الأول: خلقك أيها الإنسان.

⬅المثال الثاني: إنبات الزرع من الذي ينبته وما الذي يقضي عليه، نبات الزرع كنبات الإنسان في بطن أمه.

⬅المثال الثالث: ثم أعطاك المثال الثالث الذي كل انسان يقول فيه الماء الذي نشربه، من الذي أتى به؟ من الذي خلقه؟ من الذي أنزله؟

﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٦٩]؛ المزن جمع مزنة وهي السحابة الواسعة العظيمة، من الذي أنزله من المزن أنتم أو الله؟

هو الذي خلق الماء، وهو الذي خلق السحاب، وهو الذي أنزله وينزله كيف يشاء ومتى يشاء وفي أي مكان.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه النعمة الماء الثجاج، الماء الفرات: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]، وماء فرات، هذا الماء الفرات العذب الذي تشربونه أنتم وتسقون بهائمكم وتسقون زروعكم؛ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠].

لو جعله الله مالحاً أجاجاً شديد الملوحة كيف ستشربون؟ لا تستطيع أن تشرب ولا بهائمك تشرب ولا الزروع يسقى منها، ستموت الزروع والبهائم وستموت أنت، إلا أن الله تفضل عليكم بهذه النعمة، فتفكروا فيها واعرفوا أن الماء سر الحياة، كما أن الزرع هو يعني السر الثاني للحياة، زروع ومياه وخلق الإنسان، هذه ثلاثة أدلة.

⬅المثال الرابع: قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١]؛ هذه النار التي تتوقد وأنتم تحتاجون إليها في الاستدفاء وفي الطبخ، طبخ الطعام، كثير من الأطعمة تحتاج وتفتقر إلى الطبخ كاللحوم والحبوب ونحوها.

هذه النار التي هي آية من آيات الله التي تورون؛ أي توقدونها، أورى يوري يعني أوقد، التي تورون. وكانوا في الجاهلية أو في العرب وبداية الإسلام كانوا يشعلون النار من شجرتين؛ شجرة يقال لها (المرخ).

وشجرة يقال لها (العفار)، فإذا أتى بغصن من هذا وغصن من هذا وهو أخضر فيه ماء، وضع هذا مع هذا اشتعلت النار، ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠].

قال: ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾ [الواقعة: ٧٢]؛ هذه الشجرة، شجرة المرخ والعفار، أأنتم أنشأتم شجرتها وهي تقدح لكم النار أم نحن المنشؤون؟ من الذي أوجدها؟ الذي أوجدها وهي خضراء فيها ماء ويجعلها الله تشتعل ناراً بهذه القدرة، من هو الذي قدر على ذلك؟ قادر على أن يبعث الأمم.

أربعة أدلة تدل على قدرة الله على البعث: خلق الإنسان، الزرع، الماء، النار.

قال في النار: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣]؛ نحن جعلناها تذكرة يتذكر الإنسان نار جهنم إذا رآها، إذا رأيت النار تشتعل أمامك تذكر نار جهنم أنها شديدة، ومتاعاً يتمتع بها من المقوين.

- **من هم المقوون؟**

المقوين من (القواء) وهي الصحراء؛ يعني المقوين يعني المسافرين.

- **ليش قال المقوين المسافرين، ليش ما قال والمقيمين أيضاً؟**

الناس في بيوتهم يحتاجون إلى النار، قال لأن المسافر أحوج وأشد حاجة، المسافر ليس في يده شيء ولا مطاعم ولا مآكل، فلذلك يحتاج إلى النار يحتاج إلى النار، فخص الله لأنهم أحوج، فهي آية من آيات الله.

قال الله بعد هذه الآيات الأربع قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]؛ عظّمه ونزّهه وصفه بصفات الكمال، فهو ربك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العظيم الذي كثر إحسانه وكثرت خيراته، وهؤلاء يجهلون ذلك ويتجاهلونه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك؛ فإذا كان الأمر كذلك وسمعتم أحوال الناس في البعث يوم القيامة وأنهم ثلاث طوائف؛ السابقون المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وهذه الأدلة الظاهرة.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]؛ هذا قسم، لأن الله قال بعده: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]، واللام متعلقة بمحذوف؛ أي لا كما تزعمون أنه لا بعث، ولكني أقسم بمواقع النجوم.

مواقع النجوم: مساقطها عند الغروب، كل نجم سيار له مكان يسقط فيه عند الغروب، في مغاربها هي تغرب آخر الليل، آخر الليل ينتهي دورها، إذا جاء الصبح ذهبت ثم إذا جاء وقت الغروب ظهرت، فدورها في الليل فهي تذهب وتغيب مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝١٦﴾ [التكوير: ١٥ - ١٦].

﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ [الواقعة: ٧٦ - ٧٧]؛ هذا قسم عظيم عظّمه الله.

- **لماذا أقسم الله؟**

على هذا القرآن وهذه السورة العظيمة؛ إنه لقرآن كريم، كريم كثير المنافع وكثير البركة والخير، غزير العلم لا تنتهي علومه ولا تنضب معارفه، وخيره عظيم ومنافعه عظيمة وأجوره عظيمة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصف كتابه بأنه كريم.

ثم قال: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٨]؛ محفوظ مستور في **(اللوح المحفوظ)**، مكنون ﴿لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]؛ الملائكة، أما الشياطين لا تستطيع أن تصل إليه، إنما يمسه المطهرون من الملائكة والمطهرون من البشر، وفيه دلالة على أن المسلم إذا أراد أن يمس القرآن يجب أن يكون على طهارة.

أما أن يقرأ القرآن عن ظهر قلب ومن صدره فهذا لا يلزم الطهارة إلا الطهارة الكبرى التي من الجنابة، فإذا كان عليه جنابة لا يقرأ القرآن أبداً، فإن كان عليه حدث أصغر فله أن يقرأ القرآن لكن لا يمس لا يمس المصحف إلا طاهر.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في هذا الكتاب الذي مدحه بهذا المدح قال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]؛ ليس من محمد وليس من الكهنة وليس شعراً، وإنما هو كلام رب العالمين، ونزل من عند الله، ليس من عند أحد، من رب العالمين.

ثم قال مخاطباً لهؤلاء: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١]؛ هذا الحديث وهذا القرآن تكذبون وتدهنون أصلاً، تدهنون يعني تلينون لا لا يعني تحزمون لقبوله ولا تجدون له، وإنما تتساهلون

وتتجاهلون وتعرضون وتكذبون، مدهن من أصله من الدهن وهو اللين، وهم ليسوا جادين في قبوله ولا يريدون تقبل هذا القرآن وإنما التكذيب والإعراض وعدم قبوله.

قال: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]؛ يعني تجعلون شكركم لهذه النعم هو التكذيب والتكفير والكفر، رزق، سواء قالوا مثلاً لما إذا نزل بهم المطر قالوا: مطرنا بنوء كذا وبنجم كذا، لا تنسبون المطر إلى الله، ولا تنسبون هذا الرزق إلى الله، تكفرون نعمة الله وتنسبونها إلى النجوم، النجوم هي ليست هي السبب في نزول المطر.

النجوم وضعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسباباً ليست أسباباً أساسية، الذي ينزل المطر ويخلقه هو الله، وأنتم تنسبونه إلى غيره؛ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾، تستعملون الكذب حتى في ارزاقكم وبيوعكم وأسواقكم، كل ذلك كذب في كذب.

ثم حذرهم الله من يعني قرب الموت، وأن الموت حق لابد أن ينزل، فلذلك تتحدث الآيات عن حضور الأجل وحضور الموت وماذا يجري للإنسان عند الاحتضار؟

قال: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]؛ يعني الروح، بلغت الحلقوم يعني انتقلت بدأت تخرج، أصبحت عند الحلقوم لم يبقَ من خروجها إلا مسافة قليلة، وأنتم أيها الحاضرون عند هذا الميت الذي يحتضر تنظرون إليه؛ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٤].

ولكن الله قريب وملائكته وملك الموت أقرب منكم ونحن أقرب؛ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، الله قريب بعلمه، والملائكة حاضرون، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، أنتم ما تبصرون، الميت يبصر لأنه انتقل إلى عالم الآخرة فيبصر الملائكة، وأنتم لا تبصرون، والله عالم وبصير بهم.

﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٦ - ٨٧]؛ إذا كنتم أنتم ليس هناك حساب ولا جزاء ولا جنة ولا نار، أنتم غير مجزيين وغير مدينين، ارجعوا هذه الروح إن كنتم صادقين، ارجعوا هذه الروح إلى مكانها واجعلوا هذا الإنسان يعيش، ما تستطيعون، لابد أن يخرج وسيجازى ويحاسب.

ثم ذكر أحوالهم في القبور، فقال: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة: ٨٨]؛ وهذا أعلى درجات الإيمان والطاعة وأهل الخير، المقربين السابقين، هؤلاء: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩].

الروح: الهواء البارد والنسيم والسعة والمكان الفسيح الذي يرتع فيه الإنسان، وزيادة عن ذلك الريحان؛ والريحان إما هو الطيب المعروف الشجر المعروف الطيب وذو الرائحة الطيبة أو الرزق أحياناً.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجعل هذا المقرب وهذا السابق في قبره في سعة وفي رحمة وفي رائحة طيبة ورزق وجنات نعيم تنتظره جنة النعيم حتى يدخلها في الآخرة.

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩٠]؛ وهو الدرجة التي أقل من المقربين، وهو من أهل الجنة، قال الله: ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٩١]؛ إن كان من أصحاب اليمين فهو في سلامة، سلام لك وأمن، فهو في قبره مطمئن وسالم ولن يصيبه ما يؤذيه.

ثم قال: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ [الواقعة: ٩٢ - ٩٤]؛ الطائفة الثالثة وهم أهل الضلال والكفر، المكذبين الضالين أهل الشقاوة، قال فنزل من حميم، قبورهم فيها الحميم؛ الماء الحار المتناهي الحرارة الذي يحرق، وتصلية جحيم؛ قبره نار تحرقه وتصلاه، هذا عذاب القبر.

وهذه الآيات التي مرت معنا تبين لنا نعيم القبر وعذابه؛ إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار.

هذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]؛ إن هذا الخبر الذي نخبركم به فيما يجري أو فيما أعده الله لأهل الجنة المقربين وأصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

وما ذكرناه مما يحصل عند الاحتضار وما يجري في القبور، هذا هو حق اليقين الذي لا مرية ولا شك فيه، حق اليقين الذي أخبر الله به لا نشك فيه أبداً، كل إنسان سيمر بهذه الحال لكن هو يحدد مقامه بالطاعات والإقبال على الله، حدد مكانك.

قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]؛ نزهه وعظمه واعرف حق الله عَزَّ وَجَلَّ، وصفه بصفات الكمال، وتقرب إليه بالطاعات وعظمه في نفسك بالذكر الحسن والاذكار وتلاوة القرآن واعرف حق الله عليك.

أسأل الله أن ينفعنا بهذه السورة العظيمة الجليلة التي عشنا معها هذه الدقائق في لقائنا هذا واللقاء الماضي، أسأل الله أن لا يحرمنا هذا الفضل وأن يجعلها حجة لنا لا علينا، نقف عند هذا القدر، نسأل الله التوفيق والسداد، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الحَدِيد)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الحديد ١ - ٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، هذا اليوم يوافق الرابع من (ذي القعدة) حسب تقويم (أم القرى)، وأما الرؤية فهو اليوم الثالث؛ لأن حسب ما ذكر في الرؤية أن الشهر دخل يوم الأحد، والسبت هو المتمم لشهر شوال، اليوم حسب التقويم الرابع أو الثالث حسب الرؤية.

ودرسنا في (تفسير القرآن العظيم)، والسورة التي بين أيدينا هي (سورة الحديد)، وهي من السور المدنية التي نزلت بالمدينة؛ والدليل على ذلك أنها مفتتحة بالتسبيح، و(المسبحات) مدنيات؛ (المسبحات): الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، إلا أن التغابن فيها خلاف، فجاءت سلسلة التسبيحات متتالية وكلها مدنية. هذا الأمر.

(سورة الحديد) ذكر فيها الجهاد، وذكر فيها الإنفاق في سبيل الله، وذكر فيها الفتح من قبل الفتح، وذكر فيها النفاق والمنافقون وعاقبتهم السيئة، وذكر فيها أهل الكتاب؛ فهؤلاء هذه كلها تدل على أنها مدنية.

بعض المفسرين يقول أنها مكية؛ لأن الله قال، أو لأن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، قالوا: هذه الآية نزلت في مكة.

قال ابن مسعود: "ليس بين إسلامنا وبين نزول هذه السورة إلا أربع سنين؛ يعني أنها مكية".

- **لكن نحن نقول ماذا نقول؟**

السورة قد تكون مدنية كلها قد ينزل فيها آيات تسبقها، فتكون بعض الآيات مكية، والعكس؛ قد تكون السورة مكية وبعد ذلك يلحقها آيات مدنية، فما في مانعٍ أن تكون السورة -يعني مثلاً- مدنية أو مكية وفيها بعض الآيات التي تكون مدنية أو مكية؛ وبهذا يزول الإشكال.

هذه السورة عندما نقرؤها قراءة تأملٍ وتدبرٍ وتفكرٍ، ننظر فيها نجد أنها سميت بـ **(سورة الحديد)**؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥]، منافع دينية ومنافع دنيوية؛ أما الدينية فإن فيها العدة للجهاد؛ لأن الله قال بعدها: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾[الحديد: ٢٥].

فدل على أن الحديد يعتبر عدةً في إعداد الجيوش وإعداد المسلمين للقتال في الأسلحة ونحوها، وهو في نفس الوقت مصالح دنيوية ينتفعون فيما يتعلق بدنياهم من الأمور التي يحتاجها الناس والمسلمون في ذلك في أوقاتهم وفي احتياجاتهم.

لكن المتأمل الذي نريد أن نصل إليه تدبراً وتأملاً، لابد أن نستشف معنى كلمة **(الحديد)**، والسورة تركز على القلوب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾[الحديد: ١٦].

ويقول: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]؛ إذاً في كلمة قلوب وقسوة ولين، والحديد يلين والحديد يقسو؛ يلين مع النار، ويلين مع الطرق، وهو في الأصل فيه قسوة، فيه صلابة، لكن القلوب كالحديد؛ قد تلين بالآيات والمواعظ، وقد تقسو بالصدود والإعراض والكفر والذنوب والمعاصي.

المتأمل في هذه السورة حقيقةً، وهي سورة عظيمة، أنا أعتبرها من السور العظيمة التي تحتاج منا إلى تدبرٍ وتأملٍ، الآن لو نتأمل افتتاحية السورة بالتسبيح والتنزيه والتعظيم لله، وهي قد ذكرت أسماء الله الحسنى وصفاته، يمكن بضع عشرة اسماً ذُكر في مقدمتها في أولها.

ولذلك جاء في حديثٍ قال: إن سورةً في القرآن من المسبحات تعدل ألف سورة، الحديث جاء قال: إن سورةً في القرآن من المسبحات تعدل ألف سورة، أو قال: آية في سورة الحديد تعدل ألف آية. زَيْنْ، الذي يظهر أنها ألف آية.

آية في كتاب الله في سورة الحديد تعدل ألف آية، وهي قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، مثلما ذكرنا.

هذه السورة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان لا ينام حتى يقرأ المسبحات؛ المسبحات مثلما ذكرنا: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن؛ خمس سور كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرؤها عند النوم، ولما سئل قال: «إِنَّ فِيهَا آيَةً تَعْدِلُ أَلْفَ آيَةٍ»؛ وهي ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]. فأنت لما تقرأ الآيات الأول ستجد فيها التعظيم والتنزيه والتقديس والإجلال والتكريم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم بعد هذا يأتي الأمر بالإيمان: آمنوا بالله، آمنوا، والإنفاق: وأنفقوا؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، فأمر الله بالإيمان والإنفاق، ثم أنكر قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [الحديد: ٨]، هذا في الإيمان.

ثم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٠]، هذا في الإنفاق، ثم بين أثر الإنفاق لما قال: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، يعني ثمرة الإيمان يوم القيامة.

- **ما هي ثمرته؟**

النور يوم القيامة سيجده المسلم المؤمن حقّاً الذي أثمر إيمانه هذه الثمرة العظيمة.

ثم بعد ذلك الله يأمر المؤمنين أو ينكر عليهم لماذا لا تلين القلوب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، كاليهود والنصارى قست قلوبهم، ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبين ثمرة الإيمان والجهاد والشهداء والمصَّدّقين والصدقة والإنفاق في سبيل الله.

ويمايز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين الدنيا والآخرة، السعي للآخرة، الركون إلى الدنيا: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، يزهدنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها حتى نقبل على الطاعات.

حتى لا ننشغل بالدنيا عن الآخرة، نأخذ من الدنيا ما يعيننا على طاعة الله، ولا نجعل الدنيا نصب أعيننا، ونعيش حياتنا كلها لهذه الدنيا ولا نستعد للآخرة؛ ولذلك لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وزهّد في الدنيا قال: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، ثم أمر بالطاعات والجهاد والمسابقة والصدقة إلى آخر ما ذكر في هذه السورة.

المهم نحن جميعاً ينبغي علينا أن نفهم السورة ككل ونتدبرها ونفهم آياتها، فإذا عرفت السورة وعلاقتها بالاسم (الحديد)؛ موضوعاتها تتحدث عن شيء: ما الذي يلين القلوب؟

الإيمان والطاعة والذكر وتعظيم الله وإجلاله والتفكر في أسمائه وصفاته وأفعاله، ثم الإنفاق؛ المال الذي تنفقه أنت في سبيل الله يدل على صحة الإيمان، أنت مؤمنٌ؟

كثير من الناس يدّعي يقول: أنا مؤمنٌ، لكن لما يأتي عند العمل وتحقيق الإيمان -يعني على الواقع- تجد بعض النفوس ضعيفةً عن الإنفاق في سبيل الله، فحث الله على أن الإنفاق يدل على صدق الإيمان؛ ولذلك حث عليه في آيات كثيرة وحذر من حال المنافقين وبيّن لك أثر هذا الإيمان.

والسورة مثلما ذكرنا لما افتتحت بالتسبيح قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١].

(سَبَّحَ) فعلٌ ماضٍ، في سورة الجمعة قال: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ١] فعلٌ مضارعٌ، في سورة الأعلى قال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فعلُ أمرٍ، في سورة الإسراء أخبر بصيغة المصدر: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١]؛ فجمع جميع هذه الصيغ: الماضي، المضارع، الأمر، المصدر كلها؛ حتى يكون تسبيح الله شاملاً لكل الأحوال والأزمنة.

- **هنا ماضٍ (سَبَّحَ)، ماذا يفيد الفعل الماضي؟**

الجواب: دل على أن التسبيح قد حصل وثبت، تسبح أنت ما تسبح الله قد سبح له كل شيء، كل من في السماوات والأرض سبحوا لله، وإذا قرأنا الفعل المضارع (يُسَبِّحُ) لله، دل على الاستمرار والدوام، فالله قد ثبت له التسبيح في أوقات ماضية ولا يزال التسبيح مستمراً.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، شوف قال: ﴿وَالْأَرْضِ﴾ ما قال: «وَمَا فِي الْأَرْضِ»؛ لأن السور الثانية كلها ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، هنا قال: ﴿وَالْأَرْضِ﴾، لماذا قال؟ لأنه اختصر وحذف (مَا فِي)؛ لأنها جاءت بعده صفاتٌ كثيرةٌ، فالصفات الكثيرة هذه تدل على أنه لا نحتاج إلى زيادةٍ في هذه الألفاظ.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ ما معنى (سَبَّحَ)؟

التسبيح من (السباحة) وهي السرعة، السابح الذي يسبح في الماء ينطلق بسرعة، ونعرف نحن والشمس والقمر قال: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣] حركةٌ سريعةٌ دؤوبةٌ.

فالأصل في التسبيح هو السرعة، وهنا معناه تعظيم الله؛ يعني كأنك تسارع إلى أن تنزه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن صفات النقص وعن صفات السوء وتصفه بصفات الكمال.

قد سبح لله، السماوات السبع تسبح، والأرضون السبع تسبح، ومن في السماوات والملائكة ومن في الأرض، كلٌّ يسبح؛ حتى الحشرات، حتى الجمادات، حتى الجبال والشجر، كلها تسبح لله.

ولذلك جاء شوف كلمة (مَا): ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾، (مَا) لغير العاقل، يدخل فيها جميع المخلوقات.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أي هم عظموه، شوف ما قال: (عظموا الله) أو (سبحوا الله)، لا، ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ كأنه إخلاصٌ خاصٌّ لله، وكأنه يدل على ثبوته لله.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]. شوف الآن سنأخذ أسماء الله، الاسم الأول: (اللهُ) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ هذا اسم الله، هو الأول (اللهُ)، هذا واحدٌ.

ثم قال: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذه ثلاثة أسماء في الآية الأولى: (اللهُ)، (الْعَزِيزُ)، (الْحَكِيمُ) ثلاثة أسماء. و(الْعَزِيزُ) هو الغالب على كل شيء الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

و(الْحَكِيمُ) في تدبيره وفي حكمه وفي قضائه حكيمٌ، ولما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (الْعَزِيزُ) قد يُفهم منها أنه قويٌّ غالبٌ يبطش، قال: لا، هو قويٌّ وغالبٌ ويبطش لكن بحكمةٍ.

قال بعدها: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢]، (لَهُ) تفيد الاختصاص؛ أن السماوات والأرض يملكها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يملكها غيره، فهي في ملكه، وخذ من هذا الاسم اسم (الْمُلْكِ)

الذي يملك؛ هذا الاسم الرابع الآن. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، السماوات والأرض تحت تصرفه وتحت ملكه، فهو المتصرف في خلقه.

ثم قال: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [الحديد: ٢] اسمين: (الْمُحْيِي) أو (الْحَيُّ)، (الْمُمِيتُ) الذي يميت ويحيي.

ثم قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢] هذا اسمٌ أيضاً (الْقَدِيرُ). شوف، الرابع: (الْمَلِكُ)، (الْمُحْيِي) أو (الْحَيُّ)، (الْمُمِيتُ)، (الْقَدِيرُ) هذه كلها أسماءٌ أربعةٌ وثلاثةٌ سبعةٌ.

قال: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، شوف فعلٌ مضارعٌ يدل على أنه يحيي ولا يزال يحيي مستمراً، الآن في اللحظات التي نتكلم فيها الله يحيي؛ يحيي أناساً ويميت أناساً، يحيي ويميت، يحيي من؟

يعني كل يوم هو في شأنٍ، تجد من الآن أشخاصاً يولدون وأشخاصاً يذهبون من هذه الدنيا، يحيي ويميت سواء أحيا الإنسان، أو أحيا الحيوان، أو الطير، أو الحشرات، أو أحيا الزرع، أو أحيا النبات، الله يحيي ويميت.

هو المختص، وليس لأحدٍ من المخلوقين أن يحيي ويميت، هو الوحيد الذي يحيي ويميت، أما غيره من مخلوقاته ما في أحدٌ يحيي ويميت أبداً، ولا أحدٌ يدعي أنه يقتل أبداً ما في أحدٍ.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء.

الآن سبعة أسماء، الآن جاءتنا أربعة: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، أحد عشر اسماً.

- **﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾؟**

الجواب: هذه الآية فسرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما تحتاج تفسيراً، فسرها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**».

فالأول لم يسبقه أحدٌ، هو الأول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يسبقه أحدٌ إلى ذلك، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الأزل، المخلوقات كلها محدثةٌ وكلها مخلوقةٌ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس بِمخلوقٍ بل هو الأول في كل شيء لم يسبقه أحدٌ كما جاء في الحديث: «**كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ**».

و(الْآخِرُ) لأنه يميت الخلق ويبيدهم ويهلكهم ولا يبقى أحدٌ، فهو الباقي سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يرث الأرض ومن عليها، و(الظَّاهِرُ) فوق كل شيء، قد ظهر فوق كل شيء وبان واتضح وعلا، وكل شيء تحته ليس فوقه شيء، وكل المخلوقات تحته.

و(الْبَاطِنُ) الذي ليس دونه شيء، الباطن الذي يعلم البواطن ويعلم الأسرار، ولا تدركه الأبصار، ولا يحيط به الخلق سبحانه، وليس دونه شيء يختفي عنه، ولا يخفى عليه خافيةٌ في السماء ولا في الأرض، فهو بكل شيء عليمٌ.

شوف الآن ذكرنا لك أربعة أسماء، والآية ختمت: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]، هذا (الْعَلِيمُ) اسمٌ، أصبح عندنا اثنا عشر اسماً؛ اثنا عشر اسماً. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هو لا يخفى عليه شيء في الأرض، عالم الغيب والشهادة، بكل شيء، ما تستطيع أن تقول الله عليمٌ إلا بك إلا هذا الذي لا يعلم كل شيء.

قال بعدها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الحديد: ٤]، الآن بعدما بين لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أسماءه الحسنى وأنه يسبح له ما في السماوات والأرض، وأنه المالك، والأول، والآخر، والقادر على كل شيء، والمحيي، والمميت، كل هذه من أفعال أسمائه.

وأفعاله زادتك أيضاً من أفعاله فقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد: ٤]، عندنا الآن اسمٌ هنا، ما هو هذا الاسم الثالث عشر؟ (الْخَالِقُ)؛ الخالق الذي خلق السماوات والأرض.

الآن يخبرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بخبرٍ لا يعلمه أحدٌ، وهو ما هو؟ أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، خلق السماوات والأرض وما بينهما، ودحا الأرض، وبث فيها أقواتها، وأودع فيها خزائنها في ستة أيام.

- **ما هي الستة الأيام هذه؟**

الجواب: الأحد والاثنين خلق الأرض، والثلاثاء والأربعاء خلق السماوات، والخميس والجمعة عاد إلى الأرض ودحاها وبث فيها أقواتها؛ هذا معناه.

وهذه الأيام هي أيامٌ من أيام الله لا نعلم قدرها ومدتها، لا نقول يومٌ تطلع فيه الشمس؛ لم يكن هناك شمسٌ ولا سماواتٌ ولا أرضٌ، الله أعلم بمدة هذه الأيام، أيامٌ من أيام الله.

قال لما خلقها: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

- **ما معنى استوى على العرش؟**

علا وارتفع على عرشه الذي هو أعظم المخلوقات، الذي هو فوق السماوات، عرشه العظيم. كيف استوى؟ الله أعلم.

الإمام مالك لما سئل: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ قال: «**الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ**»؛ ما شفناه ما رأيناه حتى نصفه لك، الاستواء معلومٌ والكيف مجهولٌ، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ.

فلا تسأل عن كيفيةٍ؛ كيف يد الله؟ كيف مثلاً سمعه؟ كيف بصره؟ كيف عيناه؟ كيف وجهه؟ هذه لا نكيفها، الله أعلم.

كيف ينزل إلى السماء الدنيا؟ كيف يأتي يوم القيامة؟ كيف استوى؟ هذه كلها الكيفيات لا يعلمها إلا الله، فلا ندخل أنفسنا في أمورٍ نحن لا نعلمها، ونحن مطالبون بالإيمان والتصديق، فهو خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش بعد خلقه كيف استوى؟ الله أعلم، استواءً يليق بجلاله.

ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٤]، شوف مع أنه فوق السماوات ومستوٍ على عرشه، لا يغيب عنه شيء يدخل تحت الأرض، ولو كان حبةً من خردلٍ يعلمها. يعلم ما يدخل ويلج في هذه الأرض من حبٍّ، أو مطرٍ، أو ميّتٍ؛ رجلٍ أو امرأةٍ تُدفن تحت الأرض، أو خزائن، أو شيئاً يوضع تحت الأرض؛ أي شيء يوضع تحت الأرض الله يعلمه.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ [الحديد: ٤] من النبات، أو من المياه كالآبار، أو من الثمار، أو من الناس يخرجون يوم القيامة من بطون الأرض يخرج منها يعلمه الله.

ثم قال: ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحديد: ٤]؛ ينزل من السماء المطر، وينزل من السماء الملائكة، وينزل من السماء الوحي، كل هذه تنزل من السماء، والأعمال أحياناً تنزل وترد من السماء.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤] أيضاً من الأرواح، والأعمال، والملائكة. شوف قال: ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾ ما قال: (**يعرج إليها**)؛ لأن السماوات طبقاتٌ، سبع سماواتٍ طباقٌ، يعرج ثم يعرج في هذا ثم يعرج في هذا؛ لأنها مسافاتٌ بعيدةٌ، كل سماءٍ وسماءٍ مسيرةُ خمسمائة سنةٍ.

ومع هذا العلم الواسع قال: ﴿وَهو مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] معيةً عامةً يدخل فيها جميع المخلوقات، الله معنا في كل مكانٍ، لكن معنى المعية هي معيته بعلمه لا بذاته، فهو معنا أينما كنا؛ اختفيت في مكانٍ، في الأرض، فوق الأرض، في الطائرة، في غارٍ، في شعبٍ من الشعاب، الله معك.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] أينما كنت، ليلاً أو نهاراً، أي مكانٍ، وهو معيته علميةٌ؛ لأن الله قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

خذ هذا الاسم (الْبَصِيرُ) الرابع عشر؛ بصيرٌ يعني عالمٌ بأعمالكم، بصيرٌ بأعمالكم وبما تعملونه وبما تقدمون وتؤخرون وتتكلمون، الله بصيرٌ بما تعملون.

ثم بين لك -أي خذ زيادةً كي يزداد إيمانك ويرسخ ويثبت- قال: ﴿لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٥]، (لَهُ) تفيد الملك وتفيد الاختصاص؛ أن السماوات والأرض ملكٌ لله لا لغيره، هو المالك لها وهو المتصرف فيها المدبر.

قال: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]؛ وإلى الله الأمور تصير إليه، والخلائق يرجعون إليه ويجازيهم، لا يرجعون إليه هكذا أبداً، إذا رجعوا إليه حاسبهم وجازاهم على أعمالهم.

ثم قال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ﴾ [الحديد: ٦]، شوف فعلٌ مضارعٌ حركةٌ دؤوبةٌ سريعةٌ مستمرةٌ، كل يوم يولج الليل في النهار، يدخل الليل في النهار؛ كيف؟ ساعاتٌ تزيد وتنقُص، اليوم يؤذن الساعة السادسة، بعد شهر الساعة السابعة، قبلها الساعة الخامسة، ينقص ويزيد.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦]؛ يجعل الليل يأخذ من النهار، والنهار يأخذ من الليل، أو يجعل الليل يأتي مكان النهار، والنهار مكان الليل حركةٌ، فالآن الليل وبعد ساعاتٍ يأتي النهار، هذا هو، والنهار يزيد والليل ينقص، أو العكس، كل هذه من إيلاج هذا في هذا.

قال: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الحديد: ٦] سبحانه.

- **ليش ما قال: (وهو عليم بالقلوب)؟**

قال: ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي ما تكنه الصدور، ما تخفيه الصدور، ما من خافيةٍ يخفيها الإنسان في صدره؛ الصدر أوسع من القلب، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعلم ما تضمره القلوب وتضمره الصدور.

بعد هذا البيان الجميل الحسن، شوف كيف الآيات، شوف كيف تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونحن الحقيقة قد يغيب عنا هذا الشيء ولا نتفكر في هذه الآيات العظيمة، يغيب عنا تعظيم الله في هذه السورة.

ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حريصاً على قراءتها، يحرص على قراءتها لما فيها من تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أربعة عشر اسماً، وأما صفاته ففيها كثيرةٌ وأفعاله تحتاج إلى تأملٍ، هذه الآيات عجيبةٌ.

قال بعدها لما بيّن ما لله من صفاتٍ -يعني صفات كمالٍ- وما فيها من أسماءٍ وأفعالٍ، قال: ﴿آمِنُوا﴾ [الحديد: ٧] أيها الناس، لماذا لا تؤمنون؟ ما الذي يمنعكم؟ آمنوا صدّقوا بالله، ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحديد: ٧]، آمنوا بما جاءكم عن الله وبصفاته، ما الذي يمنعكم؟ وبرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يأمركم الله بالإيمان به.

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]؛ أنفقوا من المال الذي أعطاكم الله جعلكم مستخلفاً فيه، هذا المال مال الله فأنفِقْ منه، الله جعلك خليفةً فيه، ومن قبلك جعله لك استخلفه لك، وأنت ستستخلفه لغيرك.

فالمال ليس لك هو من الله وسيذهب إلى غيرك كما أنك أنت أخذته من غيرك سيذهب إلى غيرك؛ فالمال وديعةٌ عندك، إن أحسنت التصرف فيه وأنفقت في سبيل الله كان ذلك خيراً، ومالك ما قدمت.

قال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]؛ شوف حثٌّ وبيان صفاتٍ للمؤمنين، فالذين آمنوا وصدقوا بالله ورسوله منكم وأنفقوا، النتيجة ما هي؟ لهم أجرٌ كبيرٌ، ثوابٌ عظيمٌ عند الله، شوف (كبيرٌ) لا يقدّر قدره إلا الله.

قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]؛ ما الذي يمنعكم؟ ما الذي يردك عن الإيمان؟ ما عذرك؟ ما عذرك لا تؤمن بالله والرسول يدعوكم ويحثكم؟

الرسول في زمنه وهو حيٌّ يدعوكم للإيمان، وبعده سنته والقرآن، كلاهما يدعوان إلى الإيمان، يدعوكم لتؤمنوا بربكم وتصدقوا به وتتبعوا ما جاءكم عن الله من الوحي، وقد أخذ ميثاقكم من الإيمان والتصديق، أخذ الميثاق عليكم.

إما الميثاق الأول وأنتم في ظهر أبيكم آدم وهو الميثاق المعروف، أو الميثاق الذي نشره الله -يعني الميثاق الذي بثه الله في الكون وهو ما نصبه من الأدلة الدالة على وحدانيته- أخذ الميثاق عليكم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]، فلا ترددوا في تحقيق الإيمان والتصديق بربكم، ولا ترددوا فيه.

الوقت لا يسعفنا، يضيق بنا، نقف عند هذا القرار إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحديد ٩ - ١٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بِسْمِ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من شهر (ذي القعدة) من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

الكرام؛ درسنا في تفسير القرآن العظيم وسورة الحديد، وأخذنا مطلع هذه السورة، وهو تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتقديسه وتحميده وتمجيده بأسمائه الحسنى وأفعاله وصفاته.

وذكرنا أن السورة ذكرت في مقدمتها ما يزيد على يعني أو يقارب ثلاث عشرة اسماً في هذه السورة؛ الأول والآخر والظاهر والباطن والعليم والعزيز والحكيم إلى آخره، وبيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سعة علمه لما قال وسعة إحاطته لما قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[الحديد: ٤].

واطلاعه على البشر وإحاطته بهم و﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]، وخلقه السماوات والأرض واستواءه على العرش وملك السماوات والأرض، وأن الأمور ترجع إليه، إلى آخر ما جاء في ذلك، ثم حثت الآيات على الإيمان بالله والإنفاق في سبيل الله لما قال: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[الحديد: ٧].

إن كان الخطاب لغير المؤمنين فهو دعوة إلى الإيمان، وإن كان الخطاب للمؤمنين فهو الثبات والازدياد؛ ﴿آمِنُوا﴾ يعني اثبتوا وازدادوا إيماناً بالله ورسوله، ﴿وَأَنفِقُوا﴾؛ أنفقوا من أموالكم في سبيل الله وفي نصرة الدين وفي الصدقات والنفقات مما جعلكم مستخلفين فيه؛ أي في هذا المال.

هذا المال الله استخلفك فيه وجعلك خليفة، وأنت أيضاً خلفت غيرك في هذا المال، وسيخلفك غيرك ويأخذ المال ويكون بين يديه، فهذا المال كالوديعة عندك، إن أحسنت وأحسنت التصرف فيه.

وأنفقت في سبيل الله كان ذلك باقياً لك؛ مالك ما قدمت، ومال غيرك ما أخرت، فجعلك الله مستخلفاً، ولذلك قال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]؛ وعدهم الله بالثواب العظيم الكبير.

ثم أنكر عليهم قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [الحديد: ٨]؛ أي عذر يمنعكم من ألا تؤمنوا ولا تصدقوا بما جاءكم عن الله وعن رسوله؟ ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٨]؛ الرسول وشريعته ودعوته وسنته تدعو للإيمان بالله.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد: ٨]؛ الله قد أخذ الميثاق منكم في ظهور آبائكم، أو في ظهر أبيكم، وأخذ الميثاق منكم بما أرسل من الرسل وأنزل من الكتب ونصب من الأدلة، فقامت الحجة عليكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]؛ لا ترددوا في الثبات والإيمان بهذا الدين وبربكم.

ثم بيّن وظيفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه أدى الأمانة وأدى الرسالة ونصح الأمة، قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الحديد: ٩]؛ هذا الله على نبيه وعلى الأمة، ينزل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آيات بينات وهو القرآن العظيم، بينات يعني واضحات الدلالة مفصلات، هذه الآيات التي ينزلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما الغرض منها؟

قال: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: ٩]؛ أي يخرجكم أيها الناس من الظلمات؛ ظلمات الكفر وظلمات الضلال والمعاصي والبدع، إلى نور الإيمان والطاعة والاستقامة والتقوى، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يرسل الرسل وينزل الكتب حتى الناس يخرجون من ظلمات الكفر والمعاصي إلى نور الطاعة والإيمان، وهذا كله رحمة من الله وفضل ورأفة، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩].

- **(رؤوف) ما الفرق بين الرؤوف والرحيم؟ هل الرؤوف هو الرحيم؟ ولا هناك فرق؟**

الجواب: الرؤوف أخص من الرحيم، فالذي يدفع عنك الضر والشر هو الرؤوف، والذي يجلب لك الخير والنفع هو الرحيم؛ فرؤوف ورحيم يدفع الشر ويأتي بالخير؛ رؤوف رحيم.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٠]؛ شوف لما قال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [الحديد: ٨]، قال: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا﴾؛ أي ما الذي يمنعكم؟

ما الشيء الذي يمنعكم حتى لا تنفقوا في سبيل الله؟ لماذا تمسكون أموالكم وتبخلون بها في سبيل الله ما الذي يمنعكم؟

والحقيقة أن المال والدنيا كلها هي لله، ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠]؛ الله يرث الأرض ومن عليها ويرث السماوات والأرض، يعني أن هذه كلها راجعة إلى الله.

معنى الميراث أنها تعود هي ملك لله، وسيتركها الناس وتعود ملكاً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ميراث السماوات والأرض، كما يرث الحي الميت، الله يرث الأرض ومن عليها بعد هلاك الناس كل من عليها، ويبقى وجه ربك هو الذي هو الوارث سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حثاً على الصدقة والإنفاق قال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]؛ الفتح: فتح مكة أو صلح الحديبية، والذي يترجح -والله أعلم- أنه فتح مكة، لا يستوي الذين أنفقوا أموالهم في الشدة وفي الضيق وفي الفقر، تركوا ديارهم وأنفقوا في سبيل الله؛ المهاجرون والأنصار قبل فتح مكة.

هؤلاء لا يستوون مع من جاء بعد فتح مكة وأنفق، فالذين جاءوا بعد فتح مكة وانتشار الإسلام ليسوا بمنزلة من كان قد آمن قبل، وإن كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد وعد كلاً.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]؛ وعدهم الجنة إلا أنهم متفاوتون في الدرجات متفاوتون، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]؛ عالم بأحوالهم وأعمالهم لا يخفى عليه شيء منها، وسيجازي كلاً بعمله.

وفي هذه الآية من الفوائد؛ لنعلم جميعاً أن المسارعة للخيرات والمسابقة كما سابق المهاجرون والأنصار عند الله أعظم، وخذ على هذا المنوال كل وجوه المسابقات؛ في الصدقة، في الصلاة، في الصيام، في التبكير للمسجد، في الحج، في العمرة، في سائر الأعمال.

السابقون والمسابقون لهم المنزلة عند الله أعظم ممن يأتي بعد، فحري بالمسلم أن يسابق وأن يتقدم على غيره، هذا مضمار المسابقة، هذه الدنيا؛ الدنيا هذه يعني هذه هي مكان العمل، الاستعداد والعمل للطاعة.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحث ويحث ولا يزال يحث على الصدقة والإيمان؛ الصدقة والإيمان إلى آخر السورة وهي تحث على الصدقة والتصدق والإيمان.

شوف قال هنا: ﴿مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١]؛ صيغة استفهام، أخبروني من الذي يقرض الله قرضاً حسناً؟ القرض يكون للمحتاج، القرض يكون دائماً للمحتاج؛ الذي يحتاج ويكون بحاجة يعطى من القرض.

- **يأتيك شخص يقول لك: أقرضني مالاً، فتعطيه، هذا قرض. كيف الله؟ هل هو بحاجة؟**

الجواب: لا، الله غني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وله ميراث السماوات والأرض، ولكنه يحث العباد على أن يقرضوه؛ لأن القرض سيعود لصاحبه، وقرض الله سيعود بزيادات ومضاعفات كثيرة، ليس كقرض الإنسان في الدنيا، فالله يحثهم على الصدقة بهذا الأسلوب.

يقول: أقرضوا الله، تصدقوا كأنكم تقرضونه؛ لأنه سيعيده لكم، فيقول: ﴿يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١] يعني لوجه الله خالصاً لا رياء ولا سمعة، ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]؛ وهو الفوز بجنات النعيم.

في آية أخرى في سورة البقرة قال: ﴿مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] لا حد لها، فليحرص الإنسان على الإنفاق، الإنفاق هو دليل الإيمان والصدق، الصادق في إيمانه يخرج ماله في سبيل الله.

شوف قال: ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]؛ متى؟ يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: ١٢]، لما تذهب الشمس والقمر ويصبح الناس في ظلمة في عرصات يوم القيامة وعند الصراط يأتي النور.

هذا النور على قدر الأعمال وعلى قدر الإيمان؛ إيمانك قوي فنورك قوي، إيمانك ضعيف فنورك ضعيف، ولذلك نوره يسطع على طول الجبل أو طول الإنسان أو نحوه، فحسب الدرجات وحسب الإيمان وحسب المنزلة يوم القيامة.

المؤمنون يسعون، ويسعون بإيمانهم، أو النور يسعى بين أيديهم، النور يسعى؛ النور يسطع لهم ويضيء لهم ما بين أيديهم وعن أيمانهم؛ لأنهم يؤخذ بهم إلى اليمين أو لشرف اليمين: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم﴾ [الحديد: ١٢]. والآن يعني ستعرف قيمة هذا النور عندما يأتي الخبر عن المنافقين.

شوف قال: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ [الحديد: ١٢]؛ يعني النور يسعى أمامهم والملائكة تبشرهم تقول لهم: بشراكم اليوم جنات؛ أي مقركم وفوزكم بجنات، ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الحديد: ١٢].

مقيمين فيها، والأنهار تجري من تحت القصور والأشجار، وأنتم لن تخرجوا منها خالدين فيها، ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢]؛ فوز الفوز الحقيقي هو الفوز بجنات النعيم وبرضى الله، هذا هو الفوز العظيم.

قال ثم لما بيّن حال المؤمنين الطائعين الصادقين الذين يسعون أو يسعى نورهم أمامهم وبين أيديهم، قال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]؛ المنافقون ليس لهم نور، ما معهم إيمان، معهم كفر، وإن كانوا يظهرون الإيمان في الدنيا لكن لا ينفعهم، هم في الدرك الأسفل من النار لن ينفعهم.

ولذلك هم إذا جاء يوم القيامة ينظرون إلى المؤمنين فيريدون أن يأخذوا من هذا النور، يقولون: انظرونا؛ أمهلونا وانتظرونا قليلاً نأخذ من نوركم ولو بقبس، ولو بقطعة نار صغيرة، انظرونا نقتبس من نوركم نأخذ من نوركم ولو شيئاً قليلاً من نوركم.

في يقال لهم ارجعوا، تقول لهم الملائكة أو المؤمنون: ارجعوا وراءكم التفتوا وراءكم، فوراءكم نور فالتمسوا نوراً؛ ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]، هذا على وجه الاستهزاء والسخرية؛ لأنهم كانوا يسخرون من المؤمنين ويستهزئون بهم في الدنيا.

وكانوا يظهرون الجهاد والإيمان والطاعة والصلاة وهم يستهزئون ويسخرون ويضحكون، فاليوم المؤمنون يضحكون منهم، فيقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً؛ ستجدون نوراً، اطلبوا النور خلفكم.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]؛ وضع سور ففصل بينهم وبين المؤمنين؛ باطنه فيه الرحمة من جهة المؤمنين، وظاهره من قبله العذاب من جهة المنافقين والكفار.

قيل هذا السور هو **(الأعراف)**، وقيل هو سور من الأسر يُضرب وله باب، وهؤلاء الكفار هؤلاء المنافقون يكونون خلف السور لا يستطيعون الدخول إلى المؤمنين.

ثم هم ينادون، ينادون المؤمنين؛ يا فلان يا فلان يعرفونهم، ينادونهم: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤] في الدنيا؟ ما كنا نجاهد معكم ونقاتل ونصلي معكم ونتصدق؟

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحديد: ١٤]؛ أنتم امتحنتموها وفتنتم أنفسكم وأوقعتموها في الفتنة؛ لأنكم ما أخلصتم العمل لله ولا أخلصتم الإيمان لله.

ولذلك أظهرتم الإيمان أمام الناس وأبطنتم الكفر، هذه فتنة؛ فتنتم أنفسكم، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤] بالمؤمنين؛ تنتظرون أن يهزم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنون، وأن تنزل الدائرة عليهم، كنتم تتربصون وتفرحون بنصر الأعداء، ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ [الحديد: ١٤]؛ شككتم بالإيمان وبالبعث وبالجنة والنار.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد: ١٤]؛ الأماني الباطلة، كنتم تتمنون فقط دون عمل، هذه الأماني أن يتمنى الإنسان شيئاً دون أن يعمل، يقول: ليتني كذا وليتني كذا، غرتكم هذه الأماني؛ تتمنى وتتمنى وأنت غير صادق، هذه الأماني تغركم، ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤] وهو الشيطان؛ غركم وخدعكم وأوقعكم في هذه الفتنة، وبقيتم في كفركم وضلالكم.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ [الحديد: ١٥]؛ فاليوم يوم القيامة لا يؤخذ منكم فدية، لو قدمتم فدية تفتدون من عذاب جهنم ما يقبل منكم، لا يؤخذ منكم فدية ولا يقبل منكم فدية ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥]؛ حتى الكفار لا يقبل منهم، فأنتم والكفار سواء.

﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥]؛ نهايتكم ومأواكم ورجوعكم هو مأواكم النار هي مأواكم وهي منزلكم وهي مرجعكم، وبئس المرجع والمصير نار جهنم التي تنتظركم.

بعد هذا البيان والعرض الجميل والحسن في الإيمان وأهل الإيمان والإنفاق في سبيل الله والتصديق، وأثر ذلك بأن الله يعطيهم النور على قدر إيمانهم، وهؤلاء المنافقون يخدعون ويذهب عنهم النور، تأتي هذه الآية التي تحث المسلمين وتحرضهم على أن تخشع قلوبهم لذكر الله.

فيقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]؛ ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ يعني ألم يحن ويأتي وقت حقيقة الإيمان؟ متى تخشع قلوب هؤلاء المؤمنين؟ متى؟ أنتم مؤمنون، لكن متى تخشع قلوبكم؟

القلوب قاسية، يعني أنت الآن خاطب نفسك؛ خاطب نفسك وشوف، خاطب نفسك وحدثها، قل لها: ألم يأنِ لكِ أيتها النفس أن تخشعي لذكر الله وما نزل من الحق؟ متى تبكين؟ متى تخشعين؟ متى يخشع القلب؟ متى يلين القلب؟ ألم يأتِ هذا الوقت الذي تلين فيه القلوب؟

واحذر، احذروا واحذري يا نفس أن تكوني ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]؛ وهم اليهود والنصارى، الذين طال عليهم الأمد؛ الزمان طال عليهم.

ولما طال عليهم الزمان وحبوا الدنيا وآثروها قست قلوبهم، ولذلك كثير منهم خرجوا عن طاعة الله وفسقوا وتركوا طاعة الله، فهذه فيها حث حث من الله للمؤمنين أن تخشع قلوبهم.

وأنا أقول حقيقة: ما الذي يجعل قلبك يخشع؟ ما الذي يجعل قلبك يخشع؟

- **ما هي أسباب خشوع القلب؟**

أسباب خشوع القلب:

أولاً: ذكر الله، شوف قال: ﴿لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، تخشع لذكر الله؛ السبب هو كثرة الذكر، أكثر من ذكر الله، والتفكر في آلاء الله وفي نعمه وفي قدرته، تفكر في الله دائماً، وأكثر من ذكر الله، وأكثر من الاستغفار والتسبيح والتهليل، وأكثر من قراءة القرآن؛ ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] وهو القرآن، أكثر من التلاوة تدبراً وتفكراً، فإن هذا سبب لخشوع القلب.

ثم أيضاً هناك أعمال قوية تجعل القلب يخشع، من أعظمها الإنفاق في سبيل الله الذي يدل على حقيقة الإيمان؛ الإنفاق في سبيل الله، تصدّق ما استطعت، وأكثر من ذكر الله ما استطعت، فإن هذه هي من أسباب خشوع القلب، وإذا خشع القلب ولان لذكر الله خشعت الجوارح وأقبلت على الطاعات.

ولذلك قصة (الفضيل بن عياض) لا تخفى على الجميع؛ وأنه كان يسرق من البيوت ويقطع الطريق في أول حياته، فصعد مرة بيتاً، ولما أراد أن يدخل هذا البيت فإذا صاحب البيت يصلي في سطح البيت وهو يقرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ ويكررها ويعيدها ويكرر، فسمعها الفضيل فقال: **"بلى يا رب، قد آن، الآن خشع قلبي، الآن"**. فتاب توبة نصوحاً وأقبل على طاعة الله حتى صار علماً من أعلام الإسلام، وأصبح ممن له المنزلة، وكان من رجالات الإسلام ومن علماء المسلمين؛ هذا سبب التأثر بالآيات، لابد أن نتأثر بالآيات ونتفكر فيها ويكون لها أثر علينا ونخشع وتكون قلوبنا رقيقة خاشعة.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بيّن أن الأرض على قسوتها وصخرتها تلين مع المطر، فكيف أنت لا يلين قلبك مع القرآن؟ وهو ينزل الماء ينزل على الأرض فتلين، وأنت لا يلين قلبك!

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]؛ فإذا كان الله يحيي الأرض بالنبات بعد موتها، فإنه يحيي القلوب ويلينها بعد قسوتها، قال: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]؛ هذه الآيات وتفهمونها وتطبقونها في حياتكم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضاً يحثنا جميعاً على الصدقة؛ اسمع: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]؛ يعني المتصدقين، بس أُدغمت، قُلبت التاء صاداً وأُدغمت الصاد بالصاد وأصبحت (المُصَّدِّقين).

المصدقين والمصدقات، الذكر والإناث، الرجال والنساء، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ صدقوا بأموالهم وأنفقوها في سبيل الله، النتيجة: يُضاعف لهم هذا الأجر، ولهم أجر كريم؛ فوزهم بجنات النعيم، ويضاعف الله لهم الحسنات، هذا حث على الصدقة فإنها تلين القلب.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩]؛ الذين آمنوا بالله ورسله، هؤلاء الذين آمنوا بالله ورسله وصدقوا وقوي إيمانهم، هؤلاء هم الصدّيقون، بمنزلة الصدّيق، والصديقية منزلة عظيمة.

فإذا حقق الإنسان الإيمان ولم يفرق بين الرسل وآمن بالله وبالرسل وقوي إيمانه، أنزله الله منزلة الصديقين والشهداء، قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد: ١٩]، ثم قال: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩]؛ عند الله لهم الأجر ولهم النور الذي يكون أثراً من أثر الطاعات.

هذا وجه، الوجه الثاني: أن تقول ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]؛ هؤلاء الذين آمنوا وحققوا الإيمان هم الصدّيقون؛ يعني كمل تصديقهم فأصبحوا في منزلة الصدّيقين.

ثم ذكر الشهداء قال: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩]؛ وكذلك الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله عند ربهم، يعني هم عند ربهم ولهم أجرهم ونورهم.

فإن أردت أن تقف عند الصدّيقين فتقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩] لك أن تقف، ثم تأتي بجملة جديدة وتقول: ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩]، أو أنك تصل الآية فتقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد: ١٩].

فتقف عند كلمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فتجعل الذين آمنوا بالله ورسوله وقوي إيمانهم فإن الله ينزلهم منزلة الصديقين والشهداء عند ربهم، ثم قال بعدها: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩]؛ أي الذين آمنوا بالله ورسله ونورهم.

ولذلك قابل بالكفار، آمنوا؛ قال بعدها: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩]؛ ولم يؤمنوا وكذّبوا ولم يقبلوا الإيمان وكذّبوا ولم يصدّقوا بآياتنا بما جاءتهم من الآيات؛ القرآن وغيره والوحي.

قال الله، حكم الله عليهم فقال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩]؛ يعني أنهم أهل النار فلا أجر لهم ولا نور، بل لهم نار جهنم.

لعلنا نقف عند هذا القدر ونكتفي به، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل السورة وما بقي منها من آيات، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحديد ٢٠ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته؛ حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو الموافق للثامن عشر من شهر **(ذي القعدة)** من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يوفقنا لطاعته.

درسنا أيها الإخوة الكرام في **(تفسير القرآن العظيم)**، و**(سورة الحديد)**، وقف بنا الكلام عند الآية رقم عشرين، وهي قول المولى جل جلاله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠].

لما تمر على هذه الآية؛ قف عندها. لماذا؟ لأن الله يأمرك أمراً، يأمرك يقول لك: اعلم، وإذا قال اعلم؛ معناه أنك تقف وتتعلم وتفهم وتتدبر وتعمل، ليس مجرد أنك تقرأها وتمر عليها.

اعلم يعني: قف واعلم واستوعب وافهم ما الذي يريده الله منك. الله أعطاك ولخص لك الدنيا كلها؛ هذه الدنيا التي يتنافس فيها من يتنافس، ويتصارع فيها من يتصارع، وفيها من يضيع دينه بعرضٍ من هذه الدنيا.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يزهد أولياءه الصالحين الأتقياء، ويبين لهم أن هذه الدنيا هي متاع، وأن الآخرة هي دار القرار، وأن الإنسان خُلق لدار القرار؛ خُلق للآخرة، لم يُخلق للدنيا. الدنيا هي ممر والآخرة هي المقر.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما يقول: ﴿اعْلَمُوا﴾؛ لابد أن ندرك هذا الأمر ونستوعبه، والخطاب ليس لنا نحن فقط، الله يخاطب الناس جميعاً؛ المؤمنين والكافرين، يقول: اعلموا علماً يقيناً ومدركاً بمعانيه.

ثم حصر لك الدنيا بصيغة الحصر فقال: ﴿أَنَّمَا﴾، هذه الدنيا كلها، وقال: ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾؛ الدنيئة التي حياة يعني مؤقتة بزمنٍ معينٍ. ما هي هذه الحياة؟ قال: هذه الحياة لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد.

المؤمنون العقلاء الذين جعلوا الدنيا مطيةً للآخرة؛ لا يلعبون ولا يلهون ولا يتفاخرون بالدنيا، يتفاخرون بالطاعات، ولا يتكاثرون بأمور الدنيا، يتكاثرون بالطاعات، وإنما يأخذون من الدنيا ما يعينهم على الزاد للآخرة؛ يتزودون للآخرة فقط.

هؤلاء العقلاء الأتقياء الذين يعرفون قيمة الدنيا، وأما مَن اغتر بالدنيا فهو الذي جعلها لعباً ولهواً وزينةً وتفاخراً، ولذلك الله لما يقول الحياة الدنيا هي لعب ولهو؛ لأن الله يبين لنا الذين هم أهل الدنيا، والذين عاشوا للدنيا يعيشون للعب.

- **لو سألناكم يا إخوان قلنا لكم: (اللعب) و(اللهو) ما الفرق بينهما؟**

فبعضهم يقول: اللعب بالأبدان والجوارح، واللهو بالقلوب. فاللعب هو الاشتغال بالأشياء التي لا فائدة وراءها؛ هذا لعب، يضيع وقته بما لا فائدة وراءه، هذا هو اللعب.

و(اللهو) هو الانشغال والالتهاء عما هو أهم؛ فأنت لما تشتغل بأمورٍ وتلهو بأمورٍ قد تكون أقل مما هو مطلوب منك، هذا لهو؛ لهوت عما هو أهم، يعني هو الانشغال بالأشياء، واللهو غالباً يكون بالقلوب؛ تلهى قلوبهم، لاهيةً قلوبهم.

إذاً الدنيا هي مقر اللعب بالأبدان والجوارح واللهو بالقلوب، إلا مَن عصم الله، إلا مَن عرف قيمة الدنيا.

﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ يتفاخر بعضهم على بعضٍ بمتاعها؛ يتفاخرون مثلاً بالأنساب، ويتفاخرون بالأحساب، ويتفاخرون بالأموال، ويتفاخرون بالبنيان والمساكن والمراكب، ويتفاخرون بالجاه والمنصب والمكانة، يتفاخرون فخراً، هذا يفخر على هذا، تفاخر.

شوف كلمة تفاخر تكون بين أناس؛ يعني ما قال يعني فخر الدنيا فخر، لا، هم يتفاخرون بها، هي ليست فخر ولكن هم يتفاخرون فيما بينهم.

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ يتكاثرون بالأعداد في أموالهم: أنا عندي من المال كذا وكذا، وأملك من العقار كذا وكذا، وأملك من السيارات كذا وكذا؛ يتفاخرون بالأموال، ويتفاخرون بالأولاد: عندي من الأولاد كذا وكذا، وبالزوجات، ويتفاخرون بالمساكن، ويتفاخرون ويتكاثرون بكل شيء.

كل ما هو من التكاثر داخل، وإن كان الأموال والأولاد أكثر ما يتكاثرون بها، لكن قد يتكاثرون حتى يدخل في ذلك الذين يفتخرون ويتكاثرون بالمتابعين لهم ممن يعجبون بأنفسهم؛ كل هذا من التفاخر والتكاثر.

هذه الدنيا حصرها الله بهذه الأمور: لعب، لهو، زينة جمال يتزينون بها ويتجملون بها، وتفاخر، وتكاثر؛ خمسة أشياء هذه هي الدنيا، لكن أهل الطاعة يعرفون هذا الشيء ولا يشتغلون بهذه الأمور؛ أهل الطاعة يشتغلون بما يرضي رب العالمين، ويعملون لما فيه مصلحتهم.

ويأخذون من الدنيا ما ينفعهم زاداً للآخرة، لا يعرضون عن الدنيا بالكلية، وإنما يعملون في الدنيا ولكن على قدر ما ينفعهم، بحيث إن هذه الدنيا لا تصدهم ولا تشغلهم عن طاعة الله.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يصف لنا الدنيا عندما بيّن حقيقة الدنيا أنها لعب ولهو وتكاثر؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يشبه الدنيا هذه كلها بالمطر الذي ينزل من السماء، ثم ينبت الزرع، ثم يكون الزرع فيه جمال وفيه حسن وبهاء.

ثم ينتهي بلحظةٍ في أيامٍ معدودةٍ، هذه الدنيا كلها، والذي يعيش في الدنيا يعيش هكذا: صغيراً، نبات جميل حسن يكبر، ثم يذبل ويصفر ويموت ويكون حطاماً يبساً تذروه الرياح وينتهي.

ولاحظ وشوف، قال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠]، **(الغيث)**: المطر الذي ينزل من السماء ويغيث الناس وينفعهم. قال: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ يقول: هذا الغيث النازل من السماء أنبت الأرض فأصبحت خضراء مخضرة، فأعجب الكفار نباته.

- **مَن هم الكفار؟**

الجواب: الذين كفروا بالله ولم يؤمنوا به، **(الكفار)** إذا جاء ذكرهم في القرآن معروف؛ الكافر هو الذي جحد وحدانية الله وكفر برسله وباليوم الآخر، فالكفار يعجبون بالدنيا.

أما المؤمن ولو أعجب المؤمن بالدنيا فإنه لا تأخذ بقلبه، وإنما يتعجب بنظره؛ ولذلك ينظر إليها نظر استحقار وأنها ذاهبة، ونظر التفكر والتأمل، والله يقول لنبيه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨] لا تمدها، انظر ولكن لا تمد عينيك، لا تطيل النظر فيها.

بعض المفسرين يقول: **"(الكفار) هم (الزراع)؛ لأن الزارع يغطي الحبوب تحت الأرض، والكافر سُمي كافراً لأنه يغطي الحق بالباطل"**، من الكفر وهو التغطية، الكفارة تغطية تغطي الذنب، لكن الصحيح الذي يعني أقرب ما يكون أن الكفار هم الكفار.

يقول: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ﴾ [الحديد: ٢٠]، يبس؛ الهيجان: التحرك، يتحرك يعني مع الهواء، ثم إذا يتحرك وأصابه الهواء وأصابته الشمس يبس وتكسر، قال: ﴿فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠] يتكسر، تنتهي هذه الروضة الخضراء، انتهت أصبحت سوداء يابسة تذروها الرياح وتطير بها، لا يبقى لها أثر.

هذه الدنيا الله اختصر لنا الدنيا كلها بهذا التصوير؛ كل الدنيا هذه ليزهدنا بالدنيا حتى نقبل على الآخرة ونعمل للآخرة، كما كان ذلك عليه صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتباعهم ومن جاء من أهل الإسلام في ذلك الوقت في صدر هذه الأمة.

قال: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [الحديد: ٢٠]، هذه النتيجة؛ نتيجة الدنيا والعيش فيها ستظهر في الآخرة: ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٠] لمن كفر وجحد ولم يؤمن ولم يستعد لهذا اليوم؛ له عذاب شديد سينزل الله بهم العقوبات.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد: ٢٠] لمن عرف قيمة الدنيا وأقبل على الآخرة وعمل لها؛ يغفر الله ذنوبه ويمحو عنه سيئاته ويرضى عنه ويرضيه بدخول الجنة.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]. حصرها لنا، الحصر الآخر؛ حصر لنا الحصر الأول في خمسة أشياء، ثم ختمها بأن هذه الحياة الدنيا متاع يتمتع به الإنسان، ومتاع للغرور؛ يعني للذين يغترون بالدنيا وتأخذ بقلوبهم وتشغلهم عن طاعة الله، وتشغلهم عن فرائض الله وما أوجب الله عليهم؛ يشتغلون للدنيا، ويأكلون ويشربون وينامون ويشتغلون، ولا يعرفون ما أوجب الله فرضاً عليهم، هذه هي الدنيا.

إذا ذكر الله الدنيا في القرآن دائماً وزهدنا بها وبيّن حقارتها وأنها ذاهبة؛ ماذا يذكر بعدها؟ يذكر الآخرة: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد: ٢١]. وهذا تجده في القرآن.

لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤]، قال في آخرها: ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]، ثم قال: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥]، هذه الله يقارن بين هذا وهذا.

ولما قال في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ﴾ [يونس: ٢٤]، قال بعدها: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]. وهنا لما قال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠]، قال بعدها: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [الحديد: ٢١].

هذا الذي يفهمه العقلاء، هؤلاء العقلاء الأتقياء الصالحون يشمرون ويسابقون؛ سابقوا، ما قال: اعملوا، أو قال: اتقوا أو كذا، لا، المسألة مسألة السباق؛ مسابقة وسعي سريع إلى المغفرة، إلى أسباب المغفرة، إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كما جاء في أحاديث كثيرة، بيّن لنا أسباب المغفرة؛ يعني الإنسان يذهب يخرج من بيته متوضئاً، فإذا توضأ سقطت خطاياه، هذه أسباب المغفرة، وإذا خرج من بيته فكل خطوة يخطوها تحط عنه سيئة، أسباب المغفرة يبحث عنها؛ سابق إلى أسباب المغفرة، أسباب ما تغفر به الذنوب.

وأهم شيء في الحياة أن تمحى عنك ذنوبك؛ لأن الذنوب هي التي تعيق الإنسان عن فعل الصالحات، أكثر ما يضيع الناس عن فعل الصالحات ويجعلهم تفوتهم كثير من الطاعات هي الذنوب والمعاصي، شؤمها هي التي تعرقل الإنسان، فالانسان يدعو الله بالمغفرة كثيراً، يسأل الله أن يعفو وأن يغفر.

﴿مَّغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني من الله، ولذلك يشرع له التوبة النصوح والابتعاد عن المعاصي حتى تحصل لكم المغفرة من الله، وليجازيكم الله بالمغفرة.

ثم قال بعد المغفرة: ﴿وَجَنَّةٍ﴾؛ سابقوا إلى هذه الجنة، شوف كلها مسابقة، ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

- **لو نسأل يا إخوان: في سورة آل عمران قال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، أيهما أبلغ: ﴿سَارِعُوا﴾ ولا ﴿سَابِقُوا﴾؟**

الجواب: المسابقة أعظم من المسارعة؛ لأن المسابقة مسارعة وزيادة، لأنك تسابق مَن يسابقك، أما المسارعة فتسرع تسرع، وهنا لا، هنا منافسة فهي أبلغ.

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ وقال هنا: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

- **أيهما أبلغ: السماء ولا السماوات؟**

السماوات طباق: واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع، خمس، ست، سبع سماوات. السماء أوسع وأعظم، السماء كل ما علاك؛ كل ما علا هذا ما تحته هو سماء، السماء مترامية الأطراف، السماء واسعة، فقوله هنا: ﴿كَعَرْضِ السَّمَاءِ﴾ أبلغ وأعظم من أن يقول عرضها السماوات والأرض.

ثم هناك قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وهنا لا، أوسع، قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١] يعني يدخل فيه المتقون وغير المتقين، أوسع؛ آمنوا وحققوا الإيمان بالله وبالرسل، وطبقوا ذلك مما يلزم الإيمان من الأعمال الصالحة.

ولذلك قال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]. الله صاحب الفضل العظيم والإحسان والعطاء الكثير الواسع لعباده، لكن هو يريد من عباده العمل الصالح والمسارعة حتى تنال هذا الجزاء وهذه الرحمة وهذا الفضل بالعمل الصالح والمسابقة؛ سابقوا مسابقة.

لما ذكر الدنيا وزهدها، هذه الدنيا كلها مصائب، يعيش الإنسان في أحوال مصاعب، من مصيبة لمصيبة تتكدر عليه الدنيا، يصيبه من الهم والغم والأمراض وغيرها، فالله يزهد، مثلما زهد في الدنيا يهن عليك هذه المصيبة حتى تطمئن وتعرف أن هذا كله بقضاء الله وقدره، وأن الأمور كلها جارية بما جرى به القلم السابق.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]. أي مصيبة وقعت في الأرض من أمراض أو جوع أو أسقام أو أي مصيبة

أو هم أو غم أو أذية أو ما يحصل لك أو فقر: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ مما يصيبك أنت في نفسك.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ في (**اللوح المحفوظ**) مكتوب ومقدر حتى تطمئن وترتاح أن هذا شيء قدره الله بحكمته، وهو خير للمؤمن؛ ما يصيب المؤمن من مصيبة هي خير له، خير له يعني خير له في حياته، لابد يكتب الله له الأجر، قال: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾.

هل هذا خاص بالمصائب؟ ولا بالمصائب وبالمسرات؟

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، وما أسرّكم من أمر يدخله الله عليكم ويقدره لكم من غنى وصحة وعافية إلا في كتاب، كلها الخير والشر مكتوب؛ إن أصابك خير فهو مقدر قدره الله لك، وإن أصابك شر ومصيبة قدره الله لك؛ لكن لما كان الناس يجزعون من المصائب وينسون الخير، جاءت الآية في التركيز على المصائب.

قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ نبرأ الأرض، نبرأ أنفسكم، نبرأ الخلق والخليقة كلها.

قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، هذه الأقدار التي تصيب الناس كلهم هي عند الله يسير؛ يسير لأن الله عالم بها محيط بها، لا تخفى عليه خافية، ما يصيبك ولو تشوكك الشوكة، ولو يجرحك الجرح الصغير، هذا في علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد قدره.

- **وإذا عرفت ذلك واستقر ذلك في ذهنك، النتيجة ما هي؟**

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣]. حتى لا تحزن على ما فاتك؛ ذهب الشيء عنك لا تحزن، ولا تفرح بما أتاك فرح بطر؛ تفرح فرح شكر نعم، لكن فرح بطر وأشر لا تفرح.

افرح واحمد الله إذا جاءك خير، وإذا جاءت مصيبة فقل: إنا لله وإنا إليه راجعون، واحمد الله على المصيبة وارض بها فلا تجزع ولا تحزن. وإذا جاءك خير لا تفرح فرح بطر، احمد الله وافرح فرح سرور وفرح شكر ونعمة.

قال: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾. شوف ما قال: والله لا يحب كل فرح، لا، الفرح مطلوب أحياناً، لكن الفرح الذي فيه اختيال وافتخار وغرور وتكبر هذا الذي لا ينبغي؛ المختال الذي يختال بنفسه ويغتر بنفسه، والفخور الذي يفتخر على غيره، كل هؤلاء ذمهم الله ولا يحبهم.

ثم هؤلاء الذين يفترون بالدنيا إذا جاءهم الخير بخلوا به وأمسكوه: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

لا يبخل فقط، لا، هو يبخل ويأمر غيره بالبخل، ولا يريد أن ينفق في سبيل الله، ولا يريد أن يصنع معروفاً لأحد، ولا بالكلمة الطيبة، وهؤلاء إذا تولوا ولم ينفقوا ولم يحسنوا التصرف بالمال، فالله غني عنهم، الله هو الغني؛ لأنه له الغنى المطلق، كمال الغنى، الغنى له الغنى المطلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهم ولو أُعطوا من الدنيا ما أُعطوا ليسوا أغنياء، هم فقراء إلى الله، والله هو الغني سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن خلقه، و﴿الْحَمِيدُ﴾ حميد يحمده الحامدون على كثرة خيره وسخائه وإعطائه، فهو غني يعطي، غني كريم يعطي سخي، ولذلك دائماً في القرآن: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما بيّن وزهدنا في هذه الدنيا وحثنا على المسارعة إلى الخيرات، بيّن أنه لم يتركنا هملاً نضيع، بل أرسل إلينا الرسل؛ قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

بالحجج والأدلة الواضحة، وأنزلنا معهم الكتاب؛ جنس الكتب التي أنزلها ك(التوراة) و(الإنجيل) و(القرآن)، و﴿الْمِيزَانَ﴾ العدل؛ أنزل الله الكتاب وأنزل الحكم بالعدل بين الناس، أنزل الميزان، لابد أن نعرف أن أحكام الله كلها موزونة بموازين وأنها في مصلحة العباد، ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ليقوم الناس بالعدل في أحكامهم.

ثم قال: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾، أنزل الله الحديد، كيف أنزله من السماء؟ نقول: لا، الحديد في الأرض؛ كيف أنزل من السماء؟ أنزله من الجبال بعدما يخرج من الجبال، أنزله من الجبال ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾، فهذا نزول خاص بمعنى أنه جعله في الجبال فأنزله من هذه، قال: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ قوة شديدة، ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾، الحديد قوي وفيه مصالح للناس.

قال: ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ متعددة كثيرة، ولذلك قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. لأن الحديد يصنعون منه (السيوف) و(الدروع) و(الرماح) للجهاد.

وفيه مصالح كثيرة ومنافع دنيوية مما يستخدمه الناس كـ (السكين) و(الفأس) و(القدوم) وغيره.

قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ لأن الحديد من ينصره ورسله بالغيب، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ قوي لا يُقهر، وعزيز لا يُغلب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم لما ذكر أنه أرسل رسلاً كثيرين، ذكر أشهر هؤلاء الرسل وهم من أولي العزم: نوح وإبراهيم؛ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٦].

أرسل نوحاً إلى قومه وجعل في ذريته -وجعلنا ذريته هم الباقين- وإبراهيم أبو الأنبياء جعل أيضاً في ذريته النبوة، أنبياء كثر، والكتاب المنزَّل أيضاً الكتب الكثيرة المنزلة.

قال: ﴿فَمِنْهُم﴾ أي من هذه الذرية ﴿مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحق، عالم بالحق متمسك به، ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ خارجون عن طاعة الله؛ فلا تظن أن أبناء وذرية الأنبياء كلهم من الصالحين، لا، فيهم وفيهم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

قفينا يعني اتبعنا هؤلاء الأنبياء نوح وإبراهيم ومَن جاء بعدهم، ﴿قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي رسل كثيرين كداود وسليمان وموسى وأيوب وغيرهم. ثم قال: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ وهو آخر الأنبياء، آخر أنبياء بني إسرائيل هو عيسى ابن مريم.

قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، الذين اتبعوا عيسى وآمنوا به، جعل الله في قلوبهم (رأفة) و(رحمة)، الرأفة هي دفع الشر، والرحمة جلب الخير.

- **إذا قيل لك: ما الفرق بين الرأفة والرحمة؟**

الرأفة أن إذا رأف بك يعني دفع عنك الشر؛ فالأم ترأف بابنها إذا أبعدت عنه الشر، والرحمة أن تجلب له الخير.

قال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾، هذه (الرهبانية) هي كثرة التعبد، الرهبانية يعني الزيادة في التعبد. هذه الرهبانية هم ابتدعوها الله ما أمرهم بها؛ قال: ﴿ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

هم الذين جعلوا أنفسهم في الصوامع وتعبدوا الله، والكثير منهم على ضلال، ولذلك الله بيّن أنهم على ضلال، النصارى قال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]؛ النصارى على ضلال لأنهم عبدوا عيسى، وألَّهوا عيسى، وجعلوا عيسى هو الله، ومنهم مَن جعله ابن الله، ومنهم مَن جعلوا ثالث ثلاثة، فهم ضلوا.

وهذه الرهبانية التي شددوها على أنفسهم ما كتب الله عليهم، لكن هم فعلوها ابتغاء رضوان الله، هم فعلوها يريدون ابتغاء رضوان الله، لكنهم ما رعوها حق رعايتهم، ما أحسنوا هذه العبادة بل ضيعوها وزادوا وغلوا فيها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]، الذين آمنوا إيماناً حقيقياً كالحواريين آتاهم الله أجرهم، والكثير منهم إلى زماننا هذا كثير منهم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، وقد ضلوا وأضلوا.

تُختتم السورة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]. خطاب للمؤمنين أن يتقوا الله بامتثال أمره واجتناب نهيه.

قال: ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تمسكوا برسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا تكونوا كهؤلاء النصارى الذين ضلوا؛ فوُعِدوا: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ ضعفين من رحمته، أجرين من رحمته، ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا﴾ تهتدون به في الدنيا ويوم القيامة، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، والله غفور رحيم.

ومن المفسرين مَن يقول: هذه في النصارى، حث النصارى على الإيمان برسالة النبي: اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين؛ لأنكم آمنتم بنبيكم عيسى وآمنتم بمحمد.

مثل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة القصص لما قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ۝٥٤﴾ [القصص: ٥٢-٥٤].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ...».

قال هنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩].

يقول: حتى يعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله، هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، أعطى هذه الأمة ما لم يعطِ غيرها قبلها؛ فعليهم أن يؤمنوا بمحمد ولا يعرضوا عن الدخول في الإسلام؛ لأن الفضل بيد الله، الفضل هو بيد الله يعطيه ويمنحه من يشاء إذا أقبل على طاعته، والله صاحب الفضل العظيم والعطاء الكثير.

فأنتم أيها النصارى أقبلوا على طاعة الله، واعلموا أن هذا لا يحصل إلا بإيمانكم واتباع محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إلى هنا تنتهي السورة، (سورة الحديد)، التي عشنا معها لقاءاتنا الماضية. أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ المُجادَلَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(المجادلة ١ - ١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ وهو الموافق للأول من (ذي القعدة) من عام سبعة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة.

درسنا في (تفسير القرآن العظيم)، و(سورة المجادلة)؛ وهذه السورة من السور المدنية، وهذا الجزء كله مدني؛ يعني من أول (المجادلة) إلى آخر (التحريم) هذا كله سور مدنية، وهو الجزء الثامن والعشرون من القرآن، ويتحدث عن أحوال المؤمنين في المدينة وأحوال المنافقين واليهود ونحو ذلك.

السورة التي بين أيدينا تسمى بـ(سورة المجادلة)؛ لأن وقع فيها جدال، أو جاء وقع فيها الحديث عن الجدال، ولك أن تقول (سورة المجادِلة)؛ لأن المرأة جاء ذكرها في هذه السورة التي جادلت النبي ﴿تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، وتسمى بـ(سورة قد سمع)؛ لافتتاحها بهذا اللفظ ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ١]، تسمى (قد سمع) حتى يسمى الجزء (جزء قد سمع).

هذه السورة إذا قرأتها عدة مرات ونظرت في آياتها وتأملت فيها، وجدتها تركز على قضية مهمة نحتاج إليها جميعاً كلها؛ وهي ما يتعلق بمراقبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

إن الله رقيب، إن الله بصير بالعباد، إن الله سميع، إن الله عليم بأحوال العباد، إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]. والله على كل شيء شهيد؛ تجد هذه الأسماء في السورة: (سميع)، (بصير)، (عليم)، (شهيد)، (خبير).

وهذه السورة فيها -بلا شك- أسماء الله، وخاصة اسم (الله) يتكرر فيها كثيراً.

قال بعض أهل العلم: "إن هذه السورة -سورة المجادلة- هي التي انفردت عن سائر السور بأنها لا يمكن أن تمر آية إلا ويُذكر فيها اسم الله".

شوف! الآية الأولى قال: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ١]؛ الآية الأولى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

ثم قال: ﴿تَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾، ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ [المجادلة: ١]؛ أربع مرات اسم الله، ثم ﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]. فهذه السورة الوحيدة التي لا يمكن أن تمر فيها آية إلا ويُذكر فيها الله.

وهذه السورة -مثل ما ذكرت لكم وأنا أقول حقيقة دائماً وأكرر- ينبغي لنا أن نتدبر القرآن ونفهم معانيه، واعلم أن أي سورة من سور القرآن لا بد أن يكون لها هدف ومقصد وغاية؛ لا تأتي هكذا السورة، كل سورة لها هدف؛ سواء كانت السورة قصيرة أو طويلة، لا بد أن يكون لها مغزى وهدف.

هذه السورة تربي فينا مراقبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإحاطته واطلاعه علينا؛ يسمع دبيب النمل، يسمع في الليلة المظلمة، ويرى النملة السوداء على الصخرة السوداء في ظلمة الليل، فلا يخفى عليه شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

☜حتى قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَاللهِ إِنِّي لَأَسْمَعُ شَيْئًا مِنْ حِوَارِ الْمَرْأَةِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمُجَادَلَتِهَا لَهُ، وَاللهُ قَدْ سَمِعَ فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ وَهِيَ قَرِيبَةٌ».

وتقول: أسمع شيئاً من الكلام؛ يعني ما تسمع كله. فسبحان الذي وسع سمعه السماوات والأرض! فهي تربي فينا مراقبة الله، والإنسان لا يتكلم إلا والله يسمع كلامه إذا تكلم؛ إن كان خيراً فله الأجر عليه.

وإن كان شراً فعليه الوزر وعليه التوبة، والله مطلع وعالم بكل شيء إن تكلمت، أو إن تحدثت وكلمت، أو فعلت، أو إلى آخره؛ فالله عالم بحالك، فهذه تربي فينا درجة **(الإحسان)**؛ **(الإحسان)** أن تعبد الله كأنك تراه.

وأنت لما تقرأ هذه السورة ستجد هذه المعاني والدلالات موجودة فيها. هذه السورة تتحدث -مثل ما ذكرنا- تدور حول العلم، وأن الله عالم بكل شيء ولا يخفى عليه شيء؛ شهيد، محيط، سميع، بصير؛ كل هذه تدل على سعة علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإحاطته بكل شيء.

وأيضاً تعلمنا وتربينا كيف يناجي المؤمن إخوانه المؤمنين: ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المجادلة: ٩].

تعلمنا وتؤدبنا، وتعلمنا كيف نجلس في المجالس؛ ينبغي أن نتفسح، ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا﴾ [المجادلة: ١١] وقوموا وهكذا، وتحذر من طائفتين: المنافقين الذين ذكرهم الله في هذه السورة الذين يقولون: لولا يعذبنا الله بما نقول؛ وكذلك اليهود.

وتحذر من تولي هؤلاء: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فهذا المعنى تدور حول هذه الأشياء، وأنه لا يجوز: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

هذه الآيات تسمى **(آيات الظهار)**، ولها سبب نزول؛ وهي قصة **(خولة بنت ثعلبة)** التي تزوجها **(أوس بن الصامت)** وعاش معها سنين طويلة، ونثرت له ما في بطنها من أولاد، وعاشت على ما هي عليه من الفقر.

فإنه بعد ذلك لما كبر سنها وطعنت في السن وضعفت، قال لها: أنت علي كظهر أمي؛ لأنه كبر في السن وراجعته في بعض ما تحتاج إليه فغضب عليها وقال: أنت علي كظهر أمي؛ يعني ظهرها يعني حرمها عليه. ثم بعد ذلك خرج إلى بعض أصحابه ثم عاد، فلما عاد أرادها فامتنعت وقالت: والله لا تقربني حتى أذهب إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فجاءت للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تشتكي، فقال الله سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾؛ يعني هذا الأمر سمعه الله، و(قَدْ) للتحقيق؛ أن هذا تم وسمعه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ قول هذه المرأة التي تراجعك في شأن زوجها لما ظاهرها وقال لها: أنت علي كظهر أمي، فأصبحت عليه حراماً؛ فقالت: ﴿تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾، هي جاءت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالت: يا رسول الله، أنا أشتكي أمري -أو أشكي أمري- إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يفرج. وهو يقول -النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول-: «**هَذَا ابْنُ عَمِّكِ اصْبِرِي عَلَيْهِ**»؛ هذا ابن عمك.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهدئ من روعها ووجلها وغضبها، وهي تقول: أنا أشتكي أمري إلى الله، أشكي أمري إلى الله، تشتكي إلى الله. شوف قال: ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾؛ ما يجري بينكما من المراجعة والحديث فالله يسمع تحاوركما.

ثم قال الله في خاتمة الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾؛ سميع لكل قول، ليس لقولها فحسب، سميع للأقوال جميعاً، بصير بالأحوال لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ﴾ [المجادلة: ٢] دخل في هذا الموضوع وهذا وما حصل من هذا الأمر: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم﴾؛ يظاهرون يعني يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، أو أنت أمي، أو أنت حرام علي؛ كل هذه العبارات **(ظهار)**.

وإذا حصل **(الظهار)** -ولو كان مازحاً- إذا حصل **(الظهار)** وتلفظ به الرجل حرمت عليه زوجته، فلا يجوز أن يقربها حتى يكفر كما سيأتينا في الكفارة. الله أولاً ابتدأ بين أن **(الظهار)** أمر مردود ولا يصح ولا يقع، وأنه قول منكر، وأنه زور وبهتان وكذب.

اسمع يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم﴾؛ منكم أيها المؤمنون، ﴿مِّن نِّسَائِهِم﴾.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾؛ هم يقولون: أنت أمي أو كظهر أمي، ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ﴾.

- **مَن هن أمهاتهم؟**

قال: ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾؛ أمك حقيقة التي ولدتك، أما زوجتك ليست أمك، لا تقل هي أمي؛ حتى قال بعض أهل العلم: لا يجوز -ولو كان مازحاً- أن يقول: يا أمي، أو يقول: يا أختي، أو يا بنتي؛ لأن هؤلاء كلهم محارم، فلا يجوز ولو كان مازحاً.

قال هنا: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۚ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾؛ أي هؤلاء الذين يتلفظون بهذه الألفاظ، ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾؛ يقولون كذباً فظيعاً ترده العقول السليمة ويرده الشرع، لا يُقبل؛ منكراً من القول وزوراً كذباً وبهتاناً.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة: ٢]؛ لمن تاب ورجع وتدارك نفسه بالتوبة النصوح، الله عفوٌّ عنه يعفو عنه وغفور؛ عفو غفور، شوف الأسماء تأتي: عفو غفور، وقبلها سميع بصير، وهكذا.

- **ثم بدأت الآيات في بيان حكم الخروج من هذا (الظهار)؛ فكيف يخرج من هذا (الظهار)؟**

قال: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣]، كيف يعودون؟ يعني يعزمون العودة إلى نسائهم، أو يريدون الوطء؛ فإذا عزم على رجوعه إلى امرأته أو وطئها فهذا لا بد أن يكفر قبل ذلك.

قال: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾؛ أي لما قالوا، ما هو الذي قالوه؟ قالوا: أنت حرام، فيريد أن يرجع إليها لتكون حلالاً له، فهذا قبل أن يعود قال: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾؛ أن يعتق رقبة مؤمنة كما في سورة النساء: ﴿رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

هنا مطلق وهناك مقيد، فنحمل المطلق على المقيد، فتحرير رقبة مؤمنة سالمة من العيوب، فيحرر يعني يعتق رقبة قبل أن يمس امرأته؛ قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ﴾؛ هذا الحكم موعظة لكم وتذكير لكم حتى لا تعودوا لمثل هذا الأمر، موعظة شديدة لكم، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ عالم خبير مطلع على أحوالكم.

ثم قال بعدها: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ [المجادلة: ٤]؛ إذا ما وجد، إذا ما وجد رقبة، إذا ما وجد مملوكاً يعتقه، إذا ما وجد رقيقاً يعتقه، ولا رجل ولا امرأة، فماذا يصنع إذا لم يجد رقبة؟ لا يجد قيمة يشتري بها الرقبة، فينتقل إلى الصيام؛ إذا عجز عنها ينتقل إلى الصيام وهو غير عاجز.

لابد هو يبدأ بتحرير الرقبة، فإذا عجز عنها انتقل إلى الصيام، فيصوم شهرين متتابعين متواليين لا يفطر بينهما ولا يوماً واحداً إلا إذا كان ذلك الفطر مشروعاً في الإسلام؛ كمثلاً وافق عيداً، أو وافق أيام التشريق؛ لأنه لا يجوز صيامها، أو كان مسافراً، أو مريضاً، فهذا يباح له.

أما من غير ذلك فلو أفطر من غير عذر ففي هذه الحالة يستأنف من جديد ويلغي الأيام التي صامها.

قال بعدها: ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ [المجادلة: ٤]؛ لا يمسها، يبقى شهرين متتابعين يصومها حتى إذا انتهى من الشهرين عاد إلى امرأته؛ كفارة مغلظة شديدة.

قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ [المجادلة: ٤]؛ بسبب مرض أو علاجات ما استطاع، وعنده تقارير طبية أنه لا يستطيع الصيام وأن هذه المدة طويلة عليه ولا يستطيع، في هذه الحالة ينتقل إلى الإطعام؛ إلى الإطعام، قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]، يطعم ستين مسكيناً.

- **هل له أن يطعم مسكيناً وجبات حتى ينتهي من ستين وجبة؟**

الجواب: لا؛ الله يقول: ﴿سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾، ما قال مسكيناً واحداً، ستين مسكيناً؛ بمعنى أنه يجمع ستين ويغديهم أو يعشيهم، أو يعطيهم، لكل مسكين نصف صاع من قوت البلد كالـ (أرز) ونحوه فيعطيهم، أو يعطي من يعرف الأسر كـ (جمعيات البر) ونحوها يعطيهم يسدد لهم وخلاص، وبعد ذلك يرجع إلى زوجته.

شوف قال: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾، ما قال: من قبل أن يتماسا؛ الأول في الأول عتق الرقبة قال: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾، وقال أيضاً في الصيام: ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾، وهنا ما قال؛ لأنه تكرر ذكره قبل، خلاص يكفي، أو لأن الإطعام يعني يمكن أن يطعم في وقت وجيز ما يحتاج أن تطول المدة.

ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [المجادلة: ٤]؛ ذلك الحكم الشرعي والكفارة الغليظة لماذا؟

قال: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾؛ ذلك لتصدقوا شرع الله وتتبعوا ما جاءكم، وتعلموا أن أحكام الله وحدوده شديدة لا ينبغي التهاون بها، ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وما جاءكم عن الله وعن الرسول.

قال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾؛ هذه حدود الله لا يجوز تجاوزها، ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٤]؛ الذين يجحدون حدود الله، ولذلك شدد الله عليهم في الآية التي تليها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٥]؛ يشاقونه ويحادونه ويخالفون أمر الله وأمر رسوله.

ما هي النتيجة؟

قال: ﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ خذلوا وأهينوا وذلوا وأصابهم الخزي والذل والمهانة، يكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأمم الكافرة الماضية.

ثم قال: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾؛ أنزلنا هذه الآيات الواضحات الدلالة في أحكام الله ودلائله ورحمته سبحانه بعباده كيف خلصهم من هذا الأمر، كيف خلص هذه المرأة لتعود إلى زوجها وزوجها ويعود إليها، قال: ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥]؛ لما أهانوا شرع الله وخالفوه كبتهم الله وأهانهم بالعذاب المهين.

- **متى يعذبهم العذاب المهين؟**

قال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ [المجادلة: ٦]؛ إذا جاء يوم القيامة أصابهم ما أصابهم من عذاب، قال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾؛ كلهم يبعثهم الله ويخرجهم من قبورهم ويجمعهم في صعيد واحد.

﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾؛ ويخبرهم بأعمالهم كلها بما عملوا من خير أو شر، كتاب ينطق عليهم، هذا كتاب ينطق عليكم بالحق بما عملوا، ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾؛ وكتبه في اللوح، وكتبته الملائكة والحفظة، وهم نسوه مع الأيام الإنسان ينسى ما فعل لكن الله لا ينسى، والله يكتب ما قدموا والملائكة تكتب ما قدموا.

قال: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]؛ لا يخفى عليه شيء مطلع عالم، جاء اسم الـ(شهيد)؛ (شهيد) أي مطلع عالم بأحوالكم.

بعد هذا البيان وبيان حكم الظهار وأنه قول منكر وزور ولا يجوز وفيه كفارة مغلظة، تنتقل الآيات إلى بيان سعة علم الله وأن الله مطلع على كل شيء، اسمع ماذا يقول الله.

يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [المجادلة: ٧]؛ هنا يعني تعلم، يعني أما علمت ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ الله يعلم كل ما في السماوات يعلمه الله، ما يخفى عليه شيء ولا يغيب عنه شيء، ويعلم ما في الأرض لا يجهله شيء أو يغيب عنه شيء.

إذا علمت هذا وهذه الآية استوعبتها؛ أن الله يعلم ما في السماوات ويعلم ما في الأرض ولا يخفى عليه شيء، هذا يجعلك تربي نفسك على مراقبة الله.

شوف قال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧]؛ النجوى اثنين أو ثلاثة أو يزيد يتناجون يعني يتحدثون فيما بينهم، يسمع بعضهم بعضاً ولا يسمعهم البعيد، يتناجون.

يقول: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾، نحن نعرف أن النجوى تبدأ من اثنين، كيف قال ثلاثة؟ قال: لأنه في آخر الآية يقول: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ﴾؛ ولا أدنى يعني إذا كان اثنين، إذاً يبدأ من الثلاثة عشان يقول أدنى، عشان يرجع إلى الاثنين.

قال: ﴿ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾؛ ما يمكن يجتمعون ثلاثة في أي مكان؛ تحت الأرض، في طائرة، فوق الأرض، في بيت، في أي مكان، في صحراء، ما يكون ثلاثة يتناجون إلا الله رابعهم، ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾؛ يعني اثنين، ﴿وَلَا أَكْثَرَ﴾؛ من الخمسة، ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾؛ معهم يعني معية عامة؛ يعني مطلع عليهم بصير بهم أينما كانوا.

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ يخبرهم كل ما يحصل من نجوى إن خيراً فخير وإن شراً فشر، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]؛ هذا شوف ختم الآية، بدايتها ﴿يَعْلَمُ﴾ وتختم ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يربي فينا مراقبة الله.

ثم قال بعدها: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ [المجادلة: ٨]؛ هؤلاء اليهود وكذلك المنافقون نهاهم الله عن النجوى المحرمة ثم يعودون لما نهوا عنه لا يبالون، فيتناجون في إيذاء المؤمنين.

شوف قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ﴾؛ بالمعاصي ومخالفة أمر الله، ومخالفة أمر الله بالإثم، ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾؛ العداوة يعني ومخالفة الأمر.

قال: ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾؛ خاصة يعصون الرسول ويثيرون العدوان والعداوة ويتناجون بالإثم؛ فهؤلاء يتناجون، قال: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ وقد نهوا عنه وحرم عليهم ذلك.

يقول بعدها: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ﴾؛ جاؤوك يا محمد، هؤلاء اليهود إذا جاؤوك، إذا جاؤوك ماذا يقولون؟ ﴿حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾؛ حيوك بما لم يحيك به الله، يعني يقولون: **(السام عليك)**؛ اليهود كانت تمر بالنبي تقول: **(السام عليك)**، **(السام)** يعني الموت.

- **فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماذا يقول؟**

«وَعَلَيْكُمْ»؛ أي عليكم السلام أنتم، فكانوا يحيون النبي بما لم يحيي، ما يقول: السلام عليك، ويقولون في أنفسهم، يظنون في أنفسهم أن الله لا يعلم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨]؛ يعني هل الله يعلمنا؟ هل يسمع كلامنا؟ لولا يعذبنا بما نقول.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ يعني كافي تكفيهم جهنم تنتظرهم، ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾؛ يدخلونها ويقاسون حرها، ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]؛ فبئس المصير.

- **إذاً هذه مناجاة محرمة وفيها الإثم العظيم؛ لأنها مبنية على شيء لا يجوز؛ ففي هذه الحالة هل المناجاة محرمة على الإطلاق؟**

الجواب: لا، في مناجاة جائزة.

- **ما هي المناجاة الجائزة؟**

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينادي المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ [المجادلة: ٩]؛ ناجى بعضكم بعضاً، ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾؛ أنت احذر أن تكون مناجاتك فيها إثم؛ كالغيبة، والنميمة، والاستهزاء بالآخرين، وإيذاء المؤمنين، والعدوان: التعدي على حقوق الآخرين، ﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾.

- **كيف تكون النجوى؟**

قال: ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ﴾؛ والطاعات، ﴿وَالتَّقْوَىٰ﴾؛ البعد عن المحرمات، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وراقبوه، ﴿الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩]؛ وتجمعون يحاسبكم الله؛ لأن النجوى هذه المحرمة هي من الشيطان، النجوى التي بالإثم والعدوان هي من الشيطان ويريد الشيطان أن يحزن المؤمنين.

قال: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠]؛ لأن إذا تناجوا بالشر حزن بعضهم على حزن بعضهم أنهم يظنون فيهم الظن.

قال: ﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾؛ ما يضرهم لأنهم أولياء الله يحفظهم الله، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ إذا أراد الله هذا الشيء بإرادته ومشيئته هذا يقع لحكمة، ولكن على المؤمن ألا يأبه بمثل هذه المناجاة وأن يتوكل على الله.

قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠]؛ أن يعتمد المؤمنون على ربهم بدعوة هذه في دفع هذه النجوى وعدم الالتفات إليها؛ لأنها لن تضرهم لأنهم أولياء الله فلا يضرهم ذلك.

لعل نقف عند هذا القدر أيها الإخوة الكرام، نكتفي به إن شاء الله، لقاؤنا الأسبوع القادم نستكمل السورة، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(المجادلة ١١ - آخر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما وعملا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الموافق للسادس عشر من شهر (ذي الحجة) من عام سبع وأربعين وألف وأربعمائة من الهجرة، أسأل الله جل جلاله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، ومن أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

نقرأ القرآن ونقرأ هذه الآيات التي بين أيدينا، نبين معانيها ونفهمها فهما واضحا، ونتدبر ما فيها من أسرار، (سورة المجادلة)، والآية الحادية عشرة، وهي تتعلق حقيقة بأدب من الآداب الاجتماعية، وهو (أدب المجالس).

إذا جئت إلى مجلس، ما هي الآداب التي ينبغي أن يتخلق بها المسلم ويتحلى بها عند دخوله في المجالس؟ لا شك أن القرآن أشار إلى ذلك، والسنة جاءت أيضا بأكثر من ذلك.

فمن الآداب التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات، وهي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

أولا، عندما تقرأ هذه الآية تأمل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يناديا بأحسن الأوصاف وأجملها، وهو صفة الإيمان، أنت مؤمن مصدق بكل ما جاءك عن الله وعن رسوله.

فهذه تعتبر صفة جميلة فيك؛ أنك تصدق ما جاءك عن الله وعن رسوله، وتتبع كل ما جاءك بلا تردد، بل تنقاد وتتأسى برسول الله الذي كان مسارعا لطاعة ربك، وتتأسى بأصحابه الذين كانوا يسارعون في الخيرات.

لما تسمع أنت وأنت تخاطب بهذا الخطاب لك ولغيرك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وصدقوا بما جاءهم عن الله وعن رسوله وآمنوا بشرعه وعملوا الصالحات.

☜**ابن مسعود من فقهه الجميل يقول:** «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ يُؤْمَرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ يُنْهَى عَنْهُ».

- **هنا ماذا قال؟**

قال: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾. شوف، أتى بعبارة **"إذا قيل"**، ما قال **"إذا قال لكم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"**، أو **"إذا قال لكم الأمير"**، أو **"إذا قال لكم صاحب المجلس"**؛ لا، خلها مفتوحة.

"إذا قيل"، أي شخص يقول لك في المجلس، سواء كان صاحب البيت، أو ممن كان زائرا في هذا البيت، إذا قيل لكم، سمعت هذه الكلمة: ﴿تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ﴾؛ تفسحوا يعني توسعوا، يعني يوسع بعضكم لبعض، قد يكون المجلس صغيرا.

قد يكون المجلس مكتضا بالحضور، فيأتي أشخاص يدخلون لا يجدون أماكن يقفون، ماذا يصنعون؟ إذا قيل لكم التفسح، هذا أدب التفسح بالمجالس والتوسع حتى تعطي غيرك فرصة أنه يجلس.

- **إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس، قد يأتيك شخص يسألك يقول لك: ما علاقة المجالس والتفسح في (سورة المجادلة)؟**

الجواب: (سورة المجادلة) ذكر الله فيها التناجي والأحاديث والكلام والسلام وغيرها من الآداب، فناسب أن يذكر أيضا المجالس وما يجري فيها، حتى ستأتيك آية بعدها وهي مناجاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والحديث مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأدب معه، هذه ستأتيك.

إذا قيل لكم تفسحوا وأمرتم بالتوسع فتوسعوا، وإذا توسعنا، ما الذي سيترتب عليه؟ ما الذي سيترتب عندما تتوسع؟ هل أنك أنت تقول مثلا: والله قيل لي تفسح فتفسحت، يعني ما ودي أضايق أحدا، ولا ودي يقول لي فلان تفسح ولا أتفسح؟ لا، في نقطة مهمة أكبر من هذه، ما هي؟

﴿يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾، هنا النقطة! يوسع الله عليكم في الدنيا والآخرة. هنا تأتي المسارعة؛ لأنك وجدت أثرا، والله بين لك وأعطاك نتيجة هذا الامتثال. أنت امتثلت هذا الأمر.

- **ما النتيجة؟**

الله يفسح لك ويوسع عليك في الدنيا وفي الآخرة. إذا طلب منك وقيل لك: توسع توسع، فاحتسب الأجر، وأنت في أمور من أمور الدنيا، يعني أمور سهلة يسيرة على الناس؛ يعني افسح لأخيك، لكن النتيجة هي أنك تمتثل، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبرك أنه سيوسع لك في الدنيا والآخرة.

وفي أكبر من هذا، هذا الأمر قد يكون يسيرا على كثير من الناس، لكن في ما هو أعظم، ما هو؟ قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾. إذا قيل لك: قم من المجلس، قم.

لا تجد في نفسك أن قيل لك قم، كيف يقول أحد لي قم من المجلس وأقوم؟ لا، قم؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا﴾، إذا قيل لك وإذا طلب منك أن تقوم من المجلس لأمر من الأمور التي يكون فيها خير لكم، فقم وبادر، ما فيها شيء، هذا قيل لك قم، قم وامتثل أمر الله قبل أن تمتثل أمر فلان ولا فلان.

- **ما الذي يترتب على ذلك؟**

هذا الترتب عليه أكبر وأعظم من الأول؛ الأول الله يوسع لك في الدنيا والآخرة، الثاني الله يرفعك، يرفع مكانتك في الدنيا ويرفع مقامك في الآخرة.

شوف قال: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾. شوف، **"منكم"** بيانية، يعني الذين آمنوا وحققوا الإيمان وامتثلوا أمر الله في مثل هذه الأمور، فإن الله سيرفع منزلتهم ومكانتهم في الدنيا والآخرة، و **"آمنوا"**، وفوق المؤمنين من هم؟

المؤمنون الذين منّ الله عليهم بالعلم، وهذا يدل على مكانة أهل العلم والعلماء؛ فإنهم يرتفعون درجات.

ولذلك ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ، مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ». يعني منازل عالية في الآخرة، قبل الدنيا يرفع الله مكانتك في الدنيا، ويرفع منزلتك في الآخرة أعلى وأعلى، وهذه الدرجات في الثواب ومراتب الرضوان، الله يرضى عنك.

- **ولذلك شوف، تأمل ونحن نقرأ مثل هذه الآية وهي سطر واحد، تأمل ماذا ختمها الله؟**

قال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. يعني أنت تعمل هذا الشيء الله خبير وعالم بهذا الشيء؛ فيثيب من يمتثل، ويجازي من لم يمتثل، تفسحت ولم تتفسح، الله خبير، ما امتثلت الله عالم بك، تفسحت وانفسحت فلك الأجر العظيم عند الله؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سيفسح لك في الدنيا والآخرة. وإذا قيل قم، قم؛ فإن الله سيرفع منزلتك.

ولذلك شوف، قال: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، فدل على أن أهل العلم لهم منزلة، وأن العلم له أثر. الجاهل والعالم غير، لو تجي شخص وهو جاهل ما عنده علم، تقول له قم من المجلس، يقول لك: لا، لماذا أقوم؟

فتجده يعترض، ليش؟ لأنه ما قرأ هذه الآية، لو قرأها وعلم أن هناك درجات لبادر. هذا أدب مثل ما ذكرنا لكم من (**آداب المجالس**).

ناخذ الأدب الآخر وهو (**الأدب مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**). هذه الآية نزلت على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولها سبب نزول؛ وذلك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان الكثير من صحابته يناجونه ويختلون به، وينعزلون به عن الناس.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعرف أنه للأمة كلها؛ يأتي الرجل الكبير، ويأتي الشاب، ويأتي الولد الصغير، وتأتي المرأة، يأتون يسألون عن دينهم وعن حوائجهم، فيأتي الشخص وينفرد بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويجلس يتحدث معه لوحده.

هذا يشق على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويشق على الأمة، فأراد الله تأديبهم، فأمرهم قبل أن يناجوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يقدموا صدقة، هذا من باب التأديب، ولذلك نسخت الآية، لكنها جاءت لأن تؤدب؛ يعني لا تخلو بالنبي والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو لك ولغيرك.

فأدبهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المجادلة: ١٢].

يخبرهم: صدقوا بما جاءهم عن الله وعملوا بشرعه، إذا ناجيتم الرسول، يعني إذا أردتم أن تخلو به وتتحدثوا معه سرا، فقدموا بين يدي نجواكم صدقة.

إذا أردت أن تناجي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم صدقة ولو قليلا؛ ولذلك قال: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾؛ أطهر لقلوبكم وأنقى، لأنك إذا علمت أنك ستتصدق تعرف أنك جاد في مناجاته.

قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا﴾؛ ما وجدت صدقة؟ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. غفور رحيم أنك عرفت هذا الأدب ولم تشق على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وامتثلت أمره فلا تشق عليه فلا حرج؛ لأن الله تجاوز عنك.

هذه الآية واضحة أنها تأمر بتقديم الصدقة من الصحابة إذا أراد الواحد منهم أن يناجي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شوف هذه الآية مثل ما ذكرنا لكم نسخت، لم يعمل بها أحد من الصحابة، وقيل إن الذي عمل بها هو علي رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه؛ قدم صدقة ثم ناجى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الصحابة لما سمعوا ذلك عرفوا أنهم لا ينبغي لهم أن يناجوا الرسول في كل وقت؛ عندك صدقة تعال ناج الرسول، ما عندك صدقة لا تناج. تعرف أنت في عصر الصحابة الكثير منهم فقراء ما عندهم يتصدقون، فنزلت الآية الثانية تبين لهم حتى أن هذا من باب التأديب والأخذ بهذا التوجيه الرباني.

ولذلك قال: ﴿أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المجادلة: ١٣].

﴿أَأَشْفَقْتُمْ﴾؛ أي خفتم، يعني شق عليكم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات؟ يقول: هذا الأمر صار عليكم فيه صعوبة، فإذ لم تفعلوا فإن الله قد تاب عليكم، يعني لا يلزم أن تقدموا خلاص انتهى.

- **ما الواجب علينا؟**

قال: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، خلاص يعني أمر الصدقة انتهى، ولذلك قيل إنها نزلت وبعد ساعة نسخت، وقيل بعد أيام، وقيل بعد عشرة أيام؛ المهم أنها لم تبق لأن الصحابة عرفوا وامتثلوا.

ولذلك الله أمرهم بالتوبة لأن الله قال: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛ أمرهم بالتوبة لأن هذا فيه مشقة على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمرهم بالمحافظة على الصلاة: ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

الواجبة، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. ثم جاءت آية نفس الأولى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، كل أعمالكم هذه الله مطلع عالم بها خبير بها.

بعد هذه التوجيهات ونداء المؤمنين بصفة الإيمان، تنتقل الآيات إلى بيان **(موقف المنافقين)** وموالاتهم لأعداء الله اليهود الذين غضب الله عليهم، و**(موقف المؤمنين)** في **(الولاء والبراء)**. شوف قارن بين المنافق من يوالي، والمؤمن من يوالي.

اسمع يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤].

"ألم تر إلى الذين"، هذا أسلوب يسمونه أسلوب تعجب، يعني تعجب من هذه الطائفة الذين تولوا قوما غضب الله عليهم.

- **من هم الذين تولوا قوما؟**

هم المنافقون، تولوا قوما.

- **من هم القوم الذين غضب الله عليهم؟**

هم اليهود، هم المغضوب عليهم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: تعجب من حال هؤلاء الذين يدعون الإيمان ويدعون أنهم مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنهم يصلون ويزكون ويجاهدون، ويتولون اليهود.

يقول: تولوا قوما غضب الله عليهم، ما هم منكم ولا منهم، يقول: هؤلاء المنافقون ليسوا معكم، ليسوا منكم وليسوا من اليهود؛ يعني هم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كالشاة العائرة ما تدري أين تروح، مرة تروح هنا ومرة تروح هنا.

فهؤلاء اليهود والمنافقون مذبذبين ما يدرون أين يذهبون؛ إذا وجدوا نصرة للإسلام مسلمين جاءوا مع المسلمين، إذا وجدوا هزيمة راحوا مع اليهود.

شوف قال: ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، كثير ما يستعملون الحلف الكاذب والله وهم يعلمون أنهم كاذبون، يعلمون أنه كله كذب في كذب من صفات اتخذوا أيمانهم جنة.

ثم توعدهم الله بالعذاب الشديد قال: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٥].

لماذا؟ لأن أعمالهم سيئة، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، كله نفاق وحلف وكذب وخيانة، فالله قد أعد لهم هذه عقوبة، بشارة بالعقوبة الشديدة لهم.

ثم قال: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٦].

هؤلاء المنافقون جعلوا هذه الأيمان الكاذبة وقاية تحميهم من أن يقتلوا أو تؤخذ أموالهم؛ فكل ما قلت للشيء، قال: والله والله صليت، والله زكيت، وهكذا. قلت كذا، قال: والله ما قلت كذا؛ فأساليبهم كلها حلف كاذب.

شوف قال: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ وقاية تحميهم، تحمي أموالهم وأعراضهم وأنفسهم، قال: ﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، صدوا بأنفسهم وصدوا غيرهم عن الإسلام.

ثم قال: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، كما أهانوا شرع الله أهانهم الله، في الآية الأولى قال: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً﴾، وهنا قال: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

ثم قد يغترون بأموالهم وأولادهم، فقال الله: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة: ١٧].

ما تنفعهم من عذاب الله إذا نزل بهم؛ لماذا؟ لأنهم أصحاب النار هم فيها خالدون، مأواهم جهنم، وهذه أيضا بشارة سيئة لهم أن النار تنتظرهم، وإذا ماتوا كانوا في الدرك الأسفل من النار.

ولذلك شوف قال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

يوم يبعثهم الله وهم يدخلون في نار جهنم، فيحلفون لله كما يحلفون لكم، يحلفون والله يقولون: والله ربنا ما كنا مشركون، والله يا ربنا ما كنا نفعل كذا، تحلفون؟ يحلفون لله على أنهم يحلفون للناس! الله يعلم سرائرهم، كيف تحلفون؟

قال: ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾، يظنون أنهم سينجيهم هذا الحلف، ما ينجيهم الحلف والله عالم بالسرائر. قال: ﴿أَلاَ إِنَّ هُمُ الكَاذِبُونَ﴾، الحقيقة أنها كل حلف كذب في كذب.

- **والسبب ما هو؟**

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

استحوذ عليهم، يعني استولى عليهم وتسلط عليهم وأحاط بهم بحيث أنه لا يستطيع أن يخرج من دائرة الشيطان، الشيطان أحاط به، هذا معنى استحواذ.

فإذا استحوذ الشيطان على هذا الإنسان ماذا سيصنع به؟ أول أمر أنه ينسيه ذكر الله؛ كل ما فيه شيء يتعلق بذكر الله كالصلاة والزكاة والصوم والعبادات وأوامر الله والعمل بطاعة الله، كل هذه الشيطان ينسيه.

وذكر الله في الصباح والمساء والإكثار من التهليل والتكبير والتسبيح، تجد من يغفل عن ذلك اعلم أن الشيطان قد استحوذ عليه، الذي لا يصلي، الذي لا يصوم، الذي لا يمتثل أوامر الله، الذي لا يذكر الله، هذا الشيطان تسلط عليه.

ولذلك قال الله: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾، هؤلاء هم حزب الشيطان وأتباع الشيطان؛ لأن الشيطان استحوذ عليهم وتمكن منهم، وأصبحوا تحت حكمه يديرهم كيف يشاء.

ثم قال الله سبحانه: ﴿أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾. تنبه! حزب الشيطان وأعوانه وحزبه وأتباعه خاسرون في الدنيا والآخرة، هم الخاسرون لا غير، هم الذين يخسرون دنياهم ويخسرون آخرتهم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يخبر عمن يجادل ويحاد ويناقش ويشاق في أحكام الله، تحذير وانتباه، قد يقع بعض المسلمين في هذا الأمر.

شوف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠].

- **يخالفون أمره، ويخرجون عن طاعته ويشاقونه، هؤلاء ماذا قال الله فيهم؟**

قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ﴾، أي سيذلهم الله ويخزيهم ويغلبهم ويهينهم في الدنيا والآخرة. كل من تجده يناقش ويحاد ويشاق ويخالف أوامر الله ولا يمتثلها، اعلم أن الله سيهينه ويذله، مهما أعطي من العزة في الدنيا الذلة لا تفارق رأسه.

ولذلك شوف، هذه بشارة للمؤمنين قال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

كتب الله، إذا الغلبة لأولياء الله، قال: كتب الله، أي كتب وقدر في اللوح المحفوظ وحكم بأن النصرة له وللكتابة ولرسوله ولأوليائه.

الغلبة له ولرسله وأتباعهم؛ لأن الله قوي، قوي لا يعجزه شيء، عزيز لا يغلبه أحد، وهو القوي العزيز سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالغلبة مع الله، ومع رسوله، ومع أوليائه، هم الذين لهم العزة، أما الذين يحادون الله ورسوله فهم في ذلة.

ولذلك أخبر الله عمن يوالي الله ويوالي رسوله، ومن هو المنهج الصحيح في **(الولاء والبراء)** الذي هو أوثق عرى الإيمان، نحن بحاجة لأن نعرف من نحب ومن نبغض.

شوف قال: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

مستحيل تجد أناسا حققوا الإيمان بالله واليوم الآخر ثم تجدهم يوادون ويحبون محبة قلبية من يحاد الله ورسوله، ومن يعادي الله ورسوله، كيف تجد شخصا يعادي الله، ويعادي رسوله، ويعادي شرعه، ويعادي أولياءه ويكرههم ويبغضهم وتأتي أنت تحبه؟! هذا ليس من عرى الإيمان.

قال: ﴿يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، يقول: ولو كان هؤلاء الذين يحادون من أقرب الناس إليهم، لو كانوا آباءهم الذين يجب علينا أن نبرهم، يجب عليك أن تبغضهم في الله إذا كانوا يحادون الله ورسوله، ولو كانوا الآباء والأمهات والابناء والبنات، ولو كانوا الإخوة أو العشيرة.

كل هؤلاء بالترتيب: الآباء لأن برهم واجب، والأبناء لأن الشفقة عليهم عظيمة، والإخوة لأنهم ينبغي لك أن تنصره وأن تساعده وتعينه، وكذلك العشيرة لأنك تنتمي إليها، فهؤلاء أقرب الناس، مع ذلك يجب عليك أن تبغض في الله وتحب في الله؛ فمن أحب الله تحبه، ومن أَبغض الله تبغضه.

ولذلك شوف قال: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾، ثبت الإيمان في قلوبهم ورسخه لأنهم عرفوا من يوالون ومن يعادون، ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾، أيدهم بإيمان قوي وثبتهم بالقرآن وثبتهم بالنصر والتأييد كل هذا، ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾.

إذا أخذوا بالولاء والبراء، من توالي ومن تعادي؛ أوالي من يوالي الله ويحب الله ورسوله، وأعادي من يبغض الله ويبغض رسوله ويبغض شرعه. هذا هو الولاء والبراء.

ولذلك الله أخبرهم بالدنيا أن النصر لهم والتأييد لهم، وفي الآخرة يدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾؛ أولا يجعلهم من أهل الجنة ويفوزون بها، وفوق ذلك رضى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرضى الله عنهم ويرضيهم.

ثم قال: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾، هؤلاء هم أنصار الله، هم حزب الله، هم الفائزون، هم المفلحون، هم الفائزون بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

هنا وقفة حقيقة لا بد أن نفهمها: المحبة القلبية، تحب الوالد ولو كان يعادي الله ورسوله، هذه محبة جبلية لا نناقش فيها، تحبه محبة جبلية، لكن لا تحبه في الله، بل تكره كفره وعداءه لله.

نعم أكرهه إذا كان عدوا لله، والوالد والأم والإخوة والأخوات والأبناء والعشيرة، كل هؤلاء المحبة الجبلية شيء آخر، أما محبة الطاعة والإيمان فلا أحب إلا من يحبه الله ورسوله، ولا أحب إلا من يوالي الله ورسوله، وأبغض وأكره هؤلاء لأعمالهم السيئة، أمر في المحبة الجبلية.

التعامل أن تحسن إليه وتتعامل معه شيء آخر، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ماذا يقول؟ يقول: ﴿لاَّ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ستأتينا في (سورة الممتحنة). يعني أنت وجدت شخصا كافرا غير مسلم لكنه غير معادٍ، لا يحقد على الإسلام ولا يعاديه، فمن باب الإحسان إليه، ومن باب ترغيبه في الإسلام تتعامل معه معاملة حسنة، لا تظلمه.

وممكن أنك تعامله إذا وجدته محتاجا أو كذا تساعده ما في بأس، لكنك أنت تبغضه لكفره؛ لأنه يكفر بالله فأبغضه وأكرهه في قلبي لأنه يبغض الإسلام أو لأنه لا يحقق ما أمر الله به ولا يطيع الله ورسوله، ففرق بين الولاء والبراء في القلوب والمحبة وبين التعامل، التعامل شيء آخر.

إلى هنا تنتهي السورة والحمد لله على تمام قراءتها وتفسيرها وبيانها، وإن شاء الله لقاؤنا في اللقاء القادم في السورة التي تليها، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الحَشْر)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الحشر ١ - ٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المتجدد من كل أسبوع بعد صلاة المغرب من كل ثلاثاء مع درسنا (تفسير القرآن العظيم)، وهذا اليوم هو اليوم الثالث من شهر (ذي الحجة) من عام ١٤٤٧ هـ، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

السورة بين أيدينا هي (سورة الحشر)، وسماها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بـ(سورة بني النضير)؛ لأنها تتحدث عن طائفة من طوائف اليهود، طوائف اليهود التي في المدينة ثلاث طوائف؛ ثلاث قبائل: (بنو النضير)، و(بنو قينقاع)، و(بنو قريظة)، وكلهم عاهدوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألا يضروه بشيء ولا يضرهم بشيء، ولكنهم نقضوا العهد وأذوه.

فـ(بنو قينقاع) أُخرجوا من المدينة بعد غزوة بدر؛ لأنهم نقضوا العهد، وهذه التي بين أيدينا - وهم (بنو النضير) التي نزلت فيهم هذه السورة - أُجلوا منها جلاءً من المدينة إلى (خيبر) بعد غزوة أحد، وذلك أن أحد المسلمين قتل رجلين بينهما وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد، فأُلزم بدفع ديتهما، فاستعان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يأخذ من اليهود ما يعينه على دفع ديتهما.

فلما ذهب إليهم - وهم في ضواحي المدينة في جنوب أو جنوب شرق المدينة وكانوا قريبين من مساكن المدينة وكانت لهم حصون ومزارع - فذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، وكان رأسهم (حيي بن أخطب)، فطلب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم أن يعينوه على الدية، فقالوا: أبشر يا أبا القاسم نعينك على الدية.

فدخلوا دارهم وقالوا: هذه فرصة إن محمداً قد جاء عندنا، فنأمر أحدنا أن يأخذ معه الرحى أو الحجر الكبير ويلقيه على رأسه فيموت ونستريح منه، فلما رتبوا لهذا الأمر وخططوا وأمروا أحدهم أن يأخذ هذا الحجر الكبير، نزل جبريل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره الخبر، فقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ مسرعاً وخرج من ديارهم متوجهاً إلى المدينة ومعه أصحابه، فجهز الجيش لقتالهم لأنهم نقضوا العهد.

فلما سمعوا بذلك - يعني خافوا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجيشه - فجاءهم **(عبد الله بن أبي بن سلول)** رأس المنافقين فقال: نحن معكم وعندي ألفان من الجنود يقفون في وجه محمد ولا تستسلموا ولا تخافوا؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاهم فرصة عشرة أيام أن يخرجوا من ديارهم وإلا قاتلهم.

فقال ابن أبي رأس المنافقين: نحن معكم ونقاتل معكم وعندي ما يقرب من ألف مقاتل، وأيضاً معنا بعض قبائل العرب كـ **(غطفان)** وغيرها، ومعنا أيضاً **(بنو قريظة)** وهم قبيلة كبيرة من اليهود.

فلما سمعوا بذلك وأُدخل عليهم هذا الكلام وهو رأس المنافقين، فأرسلوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: لن نخرج من حصوننا ولا من ديارنا وافعل ما شئت، فكبّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: قد هُزموا، فقام وحاصرهم أياماً عديدة.

فلما حاصرهم وبدأ يحرق النخيل التي حولهم حتى يرعبهم إرعاباً شديداً، والله عَزَّ وَجَلَّ قذف في قلوبهم الرعب فهزمهم بالرعب والخوف، فامتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حتى كاد الرجل لا ينام في الليل ولا يأكل ولا يشرب من شدة الخوف.

حتى استسلموا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: يا محمد نخرج، فقال: تخرجون على ما حملت الإبل فقط ومن غير السلاح، تتركون السلاح وتتركون أموالكم إلا ما حملت الإبل، فحملوا عيرهم وإبلهم وخرجوا، وبدأوا يخربون بيوتهم، فنزلت هذه الآية أو هذه السورة في بيان حال هؤلاء اليهود من قبيلة **(بني النضير)**. هذه هي السورة تتحدث عن أحوالهم.

والسورة في الحقيقة افتُتحت بالتسبيح واختُتمت بالتسبيح؛ قال الله في أولها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]، العزيز يعني ذو العزة والقوة والغلبة لأوليائه، الحكيم في صنعه وتدبيره، وختُمت بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

خُتمت بالتسبيح وافتُتحت بالتسبيح، وما بين التسبيحين أحوال ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ أولها نصرة أوليائه، نصرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، والثناء على (المهاجرين) و(الأنصار) ومن جاء بعدهم محباً لهم ومؤيداً وداعياً لهم.

وبينت حال اليهود وهذه الطائفة وأن الله بين أنهم شاقوا الله ورسوله، ومعنى شاقوا يعني حادوا الله وخالفوه ولم يذعنوا لربهم ولم يطيعوا الله ورسوله، فالنتيجة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزل بهم العقوبة، وعقوبة الآخرة أشد ولهم في الآخرة عذاب النار.

ثم بين حال من أراد نصرتهم من الكذبة المنافقين وأنهم ادعوا أنهم أولياء لهم وأنهم سينصرونهم ولكنهم خذلوهم وتركوهم، وهذا كما قال الشيطان للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك، فهذا حال المنافقين يشجعونهم على القتال ثم يفرون ويتركونهم كما أن الشيطان يشجع على المعصية ويدل على المعصية ثم يترك صاحب المعصية في معصيته.

ثم تُختم السورة بأمر الله عَزَّ وَجَلَّ لكل إنسان أن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسَب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، وهذه محاسبة، حاسب نفسك قبل أن تقف بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ، ثم ختمت السورة بذكر أسماء الله الحسنى أو شيء من أسماء الله الحسنى التي فيها الدلائل.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد ذكر لنا أن أسماء الله الحسنى يُستعان بها أو يُتوسل بها في الدعاء: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فأنت تقول: يا رحيم ارحمني، ويا غفور اغفر لي، ويا تواب تب عليّ، وهكذا؛ فأسماء الله الحسنى يستعين بها الإنسان في الدعاء.

نبدأ بالسورة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أولها: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ١]. نحن ذكرنا في لقاءات ماضية وفي (سورة الحديد) التي افتُتحت أيضاً بـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أن تسبيح الله اشتمل على جميع صيغ الأفعال.

فجاء (سَبَّحَ) في الحديد والحشر والصف، وجاء (يُسَبِّحُ) في الجمعة والتغابن، وجاء الأمر بالتسبيح بصيغة الأمر: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وجاء بصيغة المصدر التي تفيد الثبوت: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، فاشتمل تسبيح الله على جميع الأحوال والأزمنة والصيغ.

وأما معنى التسبيح فهو التنزيه؛ تسبح الله يعني تنزهه، تنزهه عن صفات النقص وتصفه بصفات الكمال، فلما تقول أنت: "سبحان الله" يعني تنزه الله عن كل ما لا يليق وكل صفة من الصفات التي لا تليق به، فتقول: سبحان الله، الله لا ينام؛ سبحان الله، الله لا يعجز؛ سبحان الله، الله لا يُغلب؛ فهذا معناه، وهي أيضاً تفيد تعظيم الله ووصفه بصفات الكمال لما تقول: سبحان الله القوي، سبحان الله المعز، وهكذا؛ فهذا معنى التسبيح.

والله يخبر هنا في هذه الآية أن كل ما في السماوات وما في الأرض من عُقلاء وغير عُقلاء، سواء من الملائكة أو من بني آدم كالأنبياء في السماوات وفي الأرض، بني آدم وكذلك الملائكة في السماوات وفي الأرض تنزل في الأرض، وكل العقلاء ومن الجن المسلمين يسبحون ويعظمون الله وينقادون لأمره، وكذلك غير العقلاء كالمخلوقات الجامدة كالسماوات والأرض والجبال والشجر والدواب وغيرها.

هذه كلها تسبح لله؛ يعني كل ما في السماوات وما في الأرض يسبح لله ويعظمه ويجلله، إلا الكافر الذي جحد نعمة الله وجحد وحدانيته، ولذلك الله أخبر أنه يسجد له من في السماوات ومن في الأرض، فلما جاء عند الإنسان قال: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

هذا التنزيه الله قد نزّه كل ما في السماوات وما في الأرض، لماذا؟ لأنه العزيز الذي لا يُغلب ولا يُغالب، وهو العزيز الذي يعز أولياءه وينصرهم، والحكيم في تدبيره وفي صنعه وفي شرائعه وفي أحكامه، يضع الأمور مواضعها.

ثم لما بين أن كل من في السماوات يسبحه ويعظمه، أخبر عن شيء من قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فقال هو وحده: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢]، وسماهم كفاراً وهم اليهود؛ كفروا لأنهم جحدوا رسوله، جحدوا رسالته، جحدوا القرآن، وجحدوا حق الله عليهم وكفروا به.

- **من أهل الكتاب أخرجهم من أين؟**

قال: من ديارهم، من حصونهم التي كانوا يتحصنون فيها، ومساكنهم التي كانوا يسكنونها في المدينة أخرجهم لأول الحشر.

- **ما هو أول الحشر؟**

قيل: الشام التي يُحشر فيها الناس يوم القيامة، وهذا حشر مصغر لليهود يحشرون في أرض الشام، وهم لا يزالون الآن يحشرون في أرض الشام حتى إذا اجتمعوا جميعاً قتلهم المسلمون.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]، يُلَفّون من كل مكان، وقيل: الحشر هنا حشرهم في الحشر الأول وهو في (خيبر)، ثم يُحشرون الحشر الثاني في الشام الذي حشرهم عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، فهذا من أوجه المعنى، والحشر الأصل فيه هو الجمع؛ أنهم يجمعون في هذا المكان ثم يجمعون في هذا المكان.

فأول إخراجهم والله أعلم هو حشرهم في (خيبر)، ثم يلحقه إخراج آخر وهو في حشرهم في الشام الذي حشرهم عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ [الحشر: ٢]، بمعنى بأن قذف في قلوبهم الرعب وأخافهم حتى خرجوا.

شوف قال: ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾؛ أيها المسلمون ما ظننتم أن يخرجوا، لم يخطر ببالكم أنهم سيخرجون؛ لأنهم متحصنون بحصون قوية.

شوف قال: ما ظننتم أنتم أن يخرجوا من هذا المكان أو من هذه الديار، وهم أيضاً ظنوا واعتقدوا وجزموا أن حصونهم ستمنعهم: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُم حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾؛ من قدرته ونصره لأوليائه، ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾.

- **كيف أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا؟**

هو ما جاء بعدها: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾؛ هذا معنى أن الله أتاهم من حيث لم يحتسبوا، أن أرسل الرعب في قلوبهم حتى امتلأت قلوبهم رعباً وخوفاً من محمد وأصحابه، وهذا أشد الذل والهوان لهم حتى عرفوا أن الحصون لن تنفع عنهم.

فلما أحرق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النخيل التي حولهم وبدأت تشتعل بهم النيران وتحيط بهم وبدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يرمونهم، أُخذ في قلوبهم الرعب ففتحوا الحصون وبدأوا يخرجون، هذا معناه يعني أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في حالهم: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]؛ يعني هم لما أخذوا وحملوا الإبل ما يحملونها وبدأوا يخرجون، لم تسمح قلوبهم ولا أحوالهم بأن يتركوا بيوتهم للمسلمين، فبدأوا يخربونها ويأخذون السقوف والأبواب ويهدمون البيوت بأيديهم وأيدي المؤمنين، واستعانوا بالمؤمنين على تخريبها.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾؛ تفكروا فيهم يا أصحاب العقول السليمة وأصحاب البصائر الراجحة، انظروا كيف وتأملوا كيف الله سبحانه قذف في قلوبهم الرعب فبدأوا يخربون بيوتهم.

وقوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ يعني أن هذه الآية أو هذا الحال الذي وقع لهؤلاء فبدأوا يخربون بيوتهم، أن الله يقذف الرعب في كل من كان على مثلهم من أعدائه، وأن الله ينصر نبيه بالرعب وأن يقذف في قلوب أعدائه الرعب ليس فقط خاصاً بهؤلاء.

فلذلك قال: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾، وقيسوا الأمور على ما حصل على هؤلاء أن يحصل على غيرهم.

- **ثم بين اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الحكمة من إخراجهم، لماذا أُخرجوا؟**

قال: ﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: ٣]. لولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا بالقتل والأسر، ولكن الله قدر بحكمته السابقة وكتب في علمه السابق أنهم يخرجون ويجلون من المدينة.

ولو أن الله ما قدر عليهم هذا الشيء لقتلهم المسلمون كما قتلوا **(بني قريظة)** ما بين قتيل وأسير، فقال هنا: جلاء عذابهم في الدنيا، ولهم في الآخرة العذاب الذي ينتظرهم عذاب النار.

- **لماذا؟ ما السبب؟ لماذا عذبهم الله في الدنيا ويعذبهم في الآخرة؟**

قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۖ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤]؛ يعني أنهم خالفوا أمر الله وخالفوا أمر رسوله ولم يؤمنوا ولم يصدقوا مع أن عندهم علم وعندهم التوراة ويعرفون محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يعرفون أبناءهم، ولا يخفى عليهم أنه رسول، وشاقوه وعاندوه وخالفوه، فالنتيجة: ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب، ولذلك أجلاهم وتواعدهم بالعذاب في النار.

ثم إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما بدأوا يحرقون هذه النخيل ويقطعون النخيل، كان اليهود وبعض المنافقين اعترضوا على النبي: كيف أنت تأمر بالإصلاح وأنت وأصحابك تفسدون في الأرض وتطلقون النار وتقطعون الأشجار والنخيل وتحرقونها؟!

فبين الله أن هذا أمر من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الله هو الذي يقع أمره، قال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]؛ يعني ما قطعتهم أيها المؤمنون من لينة - يعني النخلة - أو تركتموها قائمة على ساقها لم تقطعوها على أصولها على سوقها لم تقطعوها فبإذن الله.

هو الذي أمر، فبإذن الله هو الذي يأمر بالقطع وينهى عن القطع، أو يأمر بالقطع ويأمر بالبقاء فبإذن الله وأمره، ولكن الحكمة من ذلك هو ﴿وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ ليذلهم ويهينهم.

ولذلك لما رأوا قطع الأشجار وإحراقها زادهم ذلك ذلاً ومهانة وخوفاً ورعباً، والمسلمون إذا رأوا أن المصلحة في قطع الأشجار وإحراقها وأن في ذلك إظهاراً لقوة المسلمين وعزتهم فلا مانع.

- **ثم إنهم لما تركوا متاعهم وتركوا بيوتهم وما اشتملت عليه من أثاث ونحوه، هل هذا غنيمة أم ماذا يسمى؟**

الجواب: الغنيمة ما يحصل عليها المجاهد لما يقاتل في سبيل الله ثم يقتل أو ينتصر فيحصل على غنائم، هذه غنائم، لكن هنا ما في قتال وإنما حاصروهم فاستسلموا وخرجوا، هذا يسمى (الفيء)، أصله من فاء يعني رجع، يعني رجعت هذه الأموال إلى المسلمين؛ لأنهم هم أولى بها وتركها اليهود لأنهم ليسوا أولى بها.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦]؛ أي من أموال يهود (**بني النضير**)، ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ انتم ما أسرعتم على الخيول وقاتلتم، لا خيل ولا ركاب ولا إبل، لا ركبتم خيلاً ولا ركبتم إبلاً، وإنما حاصرتتموهم فخافوا وخرجوا، يعني ما حصل هذا الشيء بعد قتال وركوب خيل وركوب إبل، لا.

قال: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ سلط الله رسوله محمداً عليهم فقذف في قلوبهم الرعب، فسلط الله رسوله على هذه القبيلة (**بني النضير**) فاستسلموا بلا قتال، ورجع هذا المال والفيء للمسلمين والسلاح للمسلمين، هذا معناه.

فبعدما خرج بنو النضير وتركوا ديارهم وولوا مدبرين، المسلمون دخلوا وأخذوا هذا الفيء، وأخذه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقسمه على من يشاء هو، فكان فيء بني النضير للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقسمه على من يشاء، فقسمه على الصحابة ممن رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُعطى منه، هذا هو الفيء.

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا بعد ذلك حكماً عاماً للفيء بعد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بعد (**بني النضير**)؛ إذا حصل فيء للمسلمين ماذا يصنعون به؟

الله عَزَّ وَجَلَّ أخبر أنه يُخمّس، فقال: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]؛ يعني ما جعله يرجع من أموال المشركين وأهل القرى من اليهود وغيرهم، ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى مما حاصره المسلمون ولم يقاتلوهم ثم حصلوا عليه.

قال: ما أفاء الله على رسوله أو من يقوم مقام الرسول من الأولياء أو من الأمراء من أهل القرى ﴿فَلِلَّهِ﴾ واحد، ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ اثنين، ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ ثلاثة، ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾ والمساكين، أو يقال: فلله وللرسول هذا واحد، ولذي القربى اثنين، واليتامى ثلاثة، والمساكين أربعة، وابن السبيل خمسة؛ فإذا حصل المسلمون على فيء يقسم على هؤلاء.

ومعنى ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أي في مصالح المسلمين؛ في كل ما هو مصلحة للمسلمين؛ في إعداد الجيوش، وبناء المساجد، وكل ما فيه مصلحة للمسلمين، هذا معنى ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

ومعنى ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي قرابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن لهم حقاً، فقرابة النبي هم (بنو هاشم) و(بنو المطلب). ثم قال أيضاً لأنهم لا يأخذون الزكاة، لا تحل لهم الزكاة.

وقال: ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾، اليتامى منهم هم من فقدوا آباءهم وهم فقراء محتاجون فيُعطون.

و﴿الْمَسَاكِينِ﴾ هم الفقراء الذين أسكنتهم الحاجة.

و﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ هو المنقطع المسافر الغريب، فيُعطى من الفيء، يُصرفون لهؤلاء الأصناف الخمسة.

- **لماذا؟**

قال: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]؛ (دُولَةً) يعني لا يتداوله الأغنياء والفقراء لا يحصل لهم شيء، لا، بل إن الله بحكمته أعطاه الفقراء، بل أعطاه الفقراء وأعطاه من أعطاه، لكن أن يكون يتداوله الأغنياء والفقراء يحرمون، هذا لا يكون في شرع الله، ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾.

ثم نبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على أمر عام وقاعدة شرعية: أن ما أتانا أو ما أعطانا الرسول نأخذه، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]؛ أي ما أمركم الله وما أمركم الرسول بمعنى أنه ما شرعه الرسول لنا أو أمرنا بأن نتمسك به، فكل ما أمرنا به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجب علينا أن نأخذه وجوباً، وما نهانا عنه يجب علينا أن ننتهي ونبتعد عنه.

☜**فكما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»**، فالواجب على المسلمين أن يسارعوا لتحقيق رضا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأن رضاه وطاعته في رضا الله وطاعته.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوه وراقبوه وامتثلوا أوامره، ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ كما عاقب هؤلاء اليهود بالجلاء والعذاب في النار، ليحذر المؤمنون أن يخالفوا أمر الله وأمر رسوله فيعرضوا أنفسهم للعقاب.

- **بعد ذلك يذكر الله أحوال الذين يستحقون الفيء، من هم؟**

(المهاجرون) من صدر هذه الأمة، و(الأنصار)، ومن جاء بعدهم إلى قيام الساعة، هؤلاء هم الذين تُصرف لهم أو يُصرف لهم الفيء على التقسيم السابق الذي قسمه الله على التخميس: لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحشر ٨ - ١٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق غرة شهر الله المحرم من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة (١٤٤٨ هـ).

أسأل الله أن ينفعنا، وأن يبارك لنا، وأن يجعلنا وإياكم ممن طال عمره وحسن عمله، وأن يرزقنا وإياكم الصحة والعافية والعلم النافع والعمل الصالح.

درسنا في تفسير القرآن العظيم و(سورة الحشر)، وقف بنا الكلام عند الآية الثامنة، وهذه الآية الثامنة فيها قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

- **لو نسأل نقول: لِـ(لفقراء)، ما هو الذي للفقراء؟**

الله يقول لـ(لفقراء)، يعني ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾؛ الله وصفهم بأنهم فقراء، وأنهم مهاجرون، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم، وأنهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، وأنهم صادقون. كم صفة؟ صفات كثيرة، لكن ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾.

- **ما هو الذي للفقراء؟**

العلماء تكلموا وقالوا: (الفيء) الذي ذكر في الآيات التي قبلها: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [الحشر: ٧].

عرفنا أن (الفيء) هو الذي يؤخذ من العدو من غير قتال، كأن يستسلم أو يخرج ويجلى؛ مثلما جلّى الله هؤلاء (بنو النضير)، فتركوا أموالهم وديارهم فرجعت للمسلمين.

(فاءت)؛ يعني رجعت. و(الفيء) هو رجوع هذه الأشياء للمسلمين لأنهم أحق بها.

- **فهذا (الفيء) أين يكون مصيره؟**

الله قسمه فقال: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]؛ قالوا: لله وللرسول في مصالح المسلمين، وذو القربى قرابة النبي؛ لأنهم لا يأخذون الزكاة، واليتامى هم الفقراء الذين ليس لهم آباء، والمساكين هم الفقراء الذين أسكنتهم الحاجة، وابن السبيل هو المنقطع في سبيل الله.

يقول: هؤلاء الأصناف المذكورون هنا هم أحق من يُعطى ممن كان من (المهاجرين)، ثم من (الأنصار)، ثم من جاء بعدهم.

وهذا هو تقسيم المسلمين منذ ظهور الإسلام إلى وقتنا الحاضر؛ المسلمون لا يخرجون عن ثلاثة أصناف: إما هم (المهاجرون) وكانوا في عهدهم وانتهت الهجرة بفتح مكة.

☜**والمقصود أن الهجرة من مكة انتهت بـ(فتح مكة) لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:** «لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ»، أما الهجرة مطلقاً فلا تنتهي إلى قيام الساعة؛ فالمطلوب من كل من ضُيِّق عليه في دار لا يستطيع أن يظهر فيها دينه أن يهاجر، فالهجرة قائمة، لكننا نقول: (المهاجرون) المقصود بهم في هذه الآية هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة.

(المهاجرون) هم أفضل هذه الأمة بعد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم (الأنصار). بدأ الله بـ(المهاجرين)، ثم بـ(الأنصار)، ثم من جاء بعدهم من تابعي الأمة إلى قيام الساعة الذين اتبعوهم بإحسان، هؤلاء هم الذين يُصرَف لهم هذا (الفيء).

شوف قال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾؛ يقول: هؤلاء الفقراء المهاجرون هم أولى من يُعطى من (الفيء)، ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في (بنو النضير) أعطى (المهاجرين) وقدمهم.

أولاً: الفقراء تركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا في سبيل الله نصرة لدين الله، وأُخرِجوا من ديارهم؛ أخرجهم المشركون من ديارهم وأموالهم، لو أراد أحدهم أن يبيع داره ما أُذِن له، ولو أراد أن يأخذ أمواله ما استطاع. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾؛ يريدون الفضل والأجر عند الله، والفوز بجنات النعيم ورضا الله فوق ذلك، يريدون هذا لا يريدون أموراً من امور الدنيا؛ لا رياسة ولا منصباً ولا أي شيء من امور الدنيا ولا مالاً، إنما يريدون رضا الله والفوز بما عند الله.

﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ من صفاتهم أيضاً أنهم جاؤوا وخرجوا من ديارهم نصرة لدين الله ونصرة لله ولرسوله.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾؛ هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم الصادقون؛ صدقوا بأقوالهم وأفعالهم، وصدقت أفعالهم أقوالهم، هؤلاء هم أحق الناس بـ(الفيء).

ثم ذكر (الأنصار) فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾؛ أي سكنوا المدينة واستوطنوها قبل أن يهاجر المهاجرون، وآمنوا وتشرفوا بالإيمان واستقر الإيمان في قلوبهم، فتبوؤوا دار الهجرة (المدينة) سكنوها واستقر الإيمان في قلوبهم من قبل أن يهاجر المهاجرون.

ومن صفاتهم أنهم يحبون من هاجر إليهم؛ يفرحون ويسعدون إذا جاء المهاجرون إليهم.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾؛ يحبون المهاجرين لأنهم يعرفون أن المهاجرين جاؤوا وهم فقراء ليس معهم مال ولا سكن، فيفرحون بهم ويواسونهم بأموالهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا.

- **ما هو الذي أوتوا؟**

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاهم من (الفيء)، فلما أعطى المهاجرين لم يجد الأنصار في صدورهم أي حاجة؛ يعني لم يكن في صدورهم لا حسد ولا غل ولا حقد على المهاجرين، ولم يقولوا: لماذا أعطى النبي المهاجرين وتركنا؟ لا، ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ يقدمون غيرهم على أنفسهم ولو كانوا محتاجين، (الإيثار) غير (الأثرة)؛ (الإيثار) أن تعطي الشيء لغيرك وأنت بحاجة إليه تؤثره، وأما (الأثرة) فأن تأخذ الشيء لك وأنت لست بحاجة، وترى غيرك محتاجاً ولا تعطيه وتحب نفسك، فهذه (أثرة).

وهؤلاء يؤثرون، و(الإيثار) عندهم: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

قال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾؛ الذي يقيه الله البخل والشح فهو المفلح.

شوف قال لك: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾، ولم يقل: البخل؛ لأن (البخل) هو الإمساك، و(الشح) هو عدم الإعطاء، يعني أن النفس لا تسمح. ﴿شُحَّ نَفْسِهِ﴾؛ النفس لا تسمح وتمنع، وإذا كانت النفس لا تسمح فلا يخرج المال.

فعندنا (بخل) وعندنا (شح)، و(الشح) أقوى من (البخل). فهؤلاء سلمهم الله من الشح والبخل؛ ولذلك حكم الله عليهم بأنهم هم المفلحون لا غيرهم، هم الفائزون؛ هؤلاء هم الأنصار.

ثم الذين جاؤوا من بعد المهاجرين والأنصار ممن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ كل هؤلاء ممن بعد صحابة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المهاجرين والأنصار، الذين جاؤوا من بعدهم عبر القرون إلى وقتنا هذا وإلى ما بعد وقتنا، هؤلاء كلهم لهم نصيب من (الفيء)؛ يعني (الفيء) نصيب للمهاجرين والأنصار وللمؤمنين إلى قيام الساعة بالصفات المذكورة.

قال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

- **ما صفاتهم؟**

يقول: إنهم يدعون لهم، يقولون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾؛ يدعون لأنفسهم أولاً لأنهم أحوج، ويدعون لإخوانهم المسلمين ولإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان من الصحابة والتابعين، يدعون لهم بالمغفرة.

شوف قال: ويدعون أيضاً بأن لا يجعل الله في قلوبهم غلاً؛ أي حقداً وحسداً على أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا من صحابة النبي ولا ممن جاء بعدهم؛ اجعل قلوبنا طاهرة نقية سالمة من الغل والحسد تجاه إخواننا الذين سبقونا بالإيمان.

وهذا هو الذي ينبغي للمسلم؛ أن يدعو لإخوانه، يدعو لنفسه بالمغفرة ويدعو لإخوانه المسلمين الذين سبقوه بالإيمان، وأن لا يجعل الله في قلبه غلاً.

ولذلك من دعائهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ رؤوف بنا تراف بنا ورئيف ورحيم.

- **ما الفرق بين (الرؤوف) و(الرحيم)؟**

الجواب: (الرؤوف) هو الذي يصرف عنك الشر والأذى، و(الرحيم) هو الذي يجلب لك الخير، وتجد الأم رؤوفة بأولادها إذا صرفت عنهم ما يؤذيهم، ورحيمة بهم إذا قدمت لهم ما يشتهونه، فهذا معنى (الرؤوف الرحيم).

بعدما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أصحاب (الفيء) بأنواعهم المذكورين في هذه السورة، تنتقل الآيات لبيان مواقف المنافقين وادعائهم الكاذب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[الحشر: ١١ - ١٢].

لما حرّض المنافقون (بنو النضير) على القتال، ذهبوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: يا محمد اصنع ما بدا لك لن نخرج. فلما قالوا هذا الكلام كبّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: «**اللهُ أَكْبَرُ**»، فجهز جيشه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحاصرهم مدة، وأغلقوا الحصون.

ولم يَفِ هذا الرجل (**عبد الله بن أُبيّ بن سلول**) بكلامه وإنما تركهم، ولما ضُيِّق عليهم الحصار وأُشعِلت النيران في النخيل والمزارع استسلموا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

- **أين المنافقون وأين رأسهم الذي يقول: عندي ألف من الرجال؟**

تركوهم! الله أخبر عنهم فقال: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾؛ لا نطيع لا محمداً ولا غيره سنقف معكم، ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾؛ هؤلاء المنافقون الله يشهد إنهم لكاذبون.

ثم بين سبحانه فقال: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾؛ سيتركونهم، ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ أيضاً سيقفون ولا يستطيعون أن ينصروهم، ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ على فرض أنهم نصروهم ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ لأن المؤمنين معهم الله، وهؤلاء أولياء الشيطان.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حالهم مع المؤمنين فقال: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[الحشر: ١٣]؛ لأنكم أيها المؤمنون أشد رهبة وخوفاً في صدورهم من الله؛ يخافون منكم خوفاً شديداً لأنكم تواجهونهم بالسيف.

☜«إِنَّ اللهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَا لاَ يَزَعُ بِالقُرْآنِ»؛ يخافون منكم أشد من الله. لماذا؟ لأنهم ما عندهم معرفة؛ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾؛ لا يعرفون عظَمَة الله؛ فـ﴿أَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢]، ولا يخافون عقابه، ولو كان عندهم فقه وعلم ومعرفة ما قالوا ذلك.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن اليهود وعن المنافقين: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤]؛ مثلما فعل (بنو النضير) أو من وراء جدر، بينك وبينهم سور؛ أسوار وجدر.

وحالهم: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾؛ يتخاصمون ويتحاسدون ويتقاتلون فيما بينهم، ليست قلوبهم كقلوب المهاجرين والأنصار. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾؛ تظن أنهم مجتمعون على كلمة واحدة، لا، ما في كلمة واحدة؛ قلوبهم متفرقة شتى، ولذلك لا يستطيعون أن يجتمعوا على كلمة واحدة. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ لا عقل لهم.

ولذلك شبّههم الله في إجلائهم وإظهارهم بمن سلف قبلهم: ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الحشر: ١٥]؛ الذين قبلهم (بنو قينقاع) لما خانوا العهد أخرجهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأجلاهم وطردهم، أو كفار مكة في (بدر). ذاقوا عقوبة كفرهم وعقوبة صدهم عن ذكر الله، ولهم في الآخرة عذاب أليم.

ثم أيضاً يشبه حال هذا المنافق (رأس المنافقين) بالشيطان فيقول: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]. هؤلاء قالوا لليهود: لا تستسلموا وسنقف معكم، ولما حاصرهم النبي تركوهم.

والشيطان يأتي للإنسان ويقول: اكفر اكفر، فإذا أوقعه في الكفر قال: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ﴾ وتبرّأ منه كما فعل الشيطان في بدر لما حرّضهم على القتال وتركهم وقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ۚ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، والشيطان أيضاً يوم القيامة إذا قُضِيَ الأمر يتبرأ منهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [الحشر: ١٧]؛ أي الشيطان ومن معه، فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها، وكذلك اليهود والمنافقون إذا ماتوا

على كفرهم فهم في النار خالدون فيها، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾؛ هذه نتيجة الظلم والكفر والاعراض عن ذكر الله.

نسأل الله العافية، ونسأل الله أن يحفظنا، قرأنا هذه الآيات الطيبات من (سورة الحشر) وبيّنّا ما فيها من صفات المؤمنين المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وبيان مواقف هؤلاء المنافقين وادعائهم أنهم مع اليهود وأنهم يظاهرونهم ويساعدونهم وفي الأخير تركوهم وتخلوا عنهم.

دروس وعبر في هذه القصص وفي هذه الأخبار وفي هذه الأحوال، وفي نفس الوقت نتأمل هذه الآيات ونتفكر فيها، نسأل الله أن ينفعنا بها.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نختم السورة التي نادى الله فيها المؤمنين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]. وأمرهم بالمحاسبة، إلى خاتمة السورة.

نسأل الله التوفيق، والله الموفق الهادي إلى سواء السبيل، وصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(الحشر ١٨ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو يوم الثلاثاء، الموافق للثامن من شهر الله المحرم، من عام ثمانية وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة (١٤٤٨ هـ). أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم هداةً مهتدين، موفقين لكل خير.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، وعندنا الآيات الأخيرة خواتيم (سورة الحشر)، وهي حقيقةً مهمة جداً؛ لأن فيها النداء للمؤمنين.

☜**وكما قال (عبد الله بن مسعود) رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه:** «إِذَا سَمِعْتَ اللهَ يَقُولُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فَأَرْعِهَا سَمْعَكَ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ تُؤْمَرُ بِهِ أَوْ شَرٌّ تُنْهَى عَنْهُ»، أو تحذر منه.

فعندنا قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]. هذا أمر من الله أن نلزم تقواه، وتقوى الله هي في الحقيقة الخوف من الله؛ لا يتقي الله إلا من يخاف الله عَزَّ وَجَلَّ، ويخاف عقابه، ويخاف عقوبته.

فهذا معنى (التقوى): ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾. ولذلك يتكرر معنى هذه الكلمة أو هذا الأمر: يا أيها الذين آمنوا صدقوا وآمنوا واتبعوا ما جاءهم عن الله، اتقوا الله وخافوه بامتثال أوامره والابتعاد عن نواهيه.

ثم قال بعدها: ﴿وَلۡتَنظُرۡ﴾؛ هذا أمر، هذه صيغة أمر، فعل مضارع مبدوء بلام الأمر. ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ﴾، النفس هنا أطلقها الله ولم يحدد أي نفس من بني آدم، ﴿مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾.

وهذه الآية كما قال (الشيخ السعدي) في (تفسير السعدي): هذه أصل في (محاسبة النفس)، ينبغي لكل مسلم أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب، وأن ينظر فيما قدم وفيما أخر، ولينظر ماذا قدم من الخير، وماذا

أسرف على نفسه من الذنوب والمعاصي، يحاسب نفسه ويسارع في مرضاة الله، ويستغفر من كل ذنب وقع فيه.

هذه آية تجعل الإنسان يقف ويحاسب نفسه: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، وغدٌ هو يوم القيامة الذي سيحاسب الله فيه الأولين والآخرين، ويجازي كلاً بعمله؛ أهل الخير بأعمالهم الصالحة يجازيهم ويضاعف لهم الحسنات، وأهل الشر يجازيهم بعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم أعاد مرةً أخرى فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ شوف أهمية (التقوى)؛ لأنها تجعل الإنسان يلتزم الخير، هي جماع الخير، تجعل الإنسان يجمع الخير ويسارع في البر: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

ثم قال بعدها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ جملة تعليلية.

- **لماذا نتقي الله ولماذا نحاسب أنفسنا؟**

الله خبير بأعمالنا وسيحاسبنا عليها ويجازينا. فهذه الجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ حثٌّ على الأعمال الصالحة، تحثك على الأعمال الصالحة، وفي نفس الوقت تحذر من الأعمال السيئة.

إذا كان الله خبيراً بأعمالك التي تعملها ولو كانت قليلة، ولو كانت أمثال الذر، فإن الله يجازيك عليها الحسن بعشر أمثالها إلى أضعاف مضاعفة، وإن كان شراً ولا تتهاون فيه، فإن الله يجازي إلا من تاب وعمل صالحاً.

- **ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قد يسأل سائل فيقول: لماذا الإنسان يحاسب نفسه؟**

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

- **لماذا يحاسب الإنسان نفسه ولماذا يتقي الله؟**

السبب والعلة والحكمة في ذلك هو أن (محاسبة النفس) تجعل الإنسان يستقيم على طاعة الله، ويراجع حساباته مع الله عَزَّ وَجَلَّ، أما إذا غفل عن ذلك ولم يستعد لهذا اليوم ولم يحاسب نفسه ولم يتقِ، فإنه سينسى هذا.

فإذا نسي هذه الأشياء فإن الله ينساه؛ تنسى حقوق الله ينساك. ولذلك اسمع ماذا قال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

يقول: لا تكونوا كمن نسي الله، نسوا حق الله، نسوا أوامره فلم يمتثلوها، نسوا السيئات والمعاصي ولم يبتعدوا عنها، فالله ينساهم، والنسيان هنا معناه الترك؛ إذا تركوا حقوق الله وواجبات الله وفرائضه، فإن الله ينساهم ويتركهم ولا يتجاوز عنهم، وسيحاسبهم الحساب الذي يليق بهم.

﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ بمعنى أنه تركهم، وإذا لم يتوبوا لم يلتفت إليهم. ثم لذلك حكم الله عليهم فقال: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، الخارجون عن طاعة الله، الذين خرجوا عن طاعة الله وكفروا ونسوا حق الله هم الذين فسقوا وخرجوا عن طاعته.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر المحاسبين لأنفسهم المتقين الله، الذين يحاسبون أنفسهم في كل لحظة وفي كل وقت وفي كل يوم، إذا أوى إلى فراشه بدأ يحاسب نفسه ماذا قدم وماذا أخر ولم ينسَ حق الله؛ هؤلاء غير من نسي ولم يبالِ وطرح نفسه على الفراش ولم يحاسب نفسه ولا يدري ماذا قدم وماذا أخر.

الله يقارن بين هؤلاء وهؤلاء، ماذا يقول؟ **قال:** ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[الحشر: ٢٠].

أصحاب النار الفاسقون الخارجون التاركون حقوق الله الذين نسيهم الله، لا يستوون مع أصحاب الجنة الذين حاسبوا أنفسهم واتقوا الله عَزَّ وَجَلَّ وراقبوه. لا شك أن أصحاب الجنة في أعلى عليين وهم الفائزون، وأما هؤلاء الذين نسوا الله فهم في أسفل سافلين.

هذا الحديث وهذا الكلام وهذا الشيء الذي نسمعه، هذا يعني فضل من الله ورحمة؛ حيث أنزل كتابه، أنزل كتابه القرآن الذي فيه التفكر والتأمل في كتابه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفيه الوعد والوعيد.

فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الحشر: ٢١].

ولاحظ أن هذا القرآن العظيم الذي فيه الهدى، وفيه صلاح العبد وسعادته في الدنيا والآخرة، لو أنزله الله على جبل -وهو أقصى ما يكون، حجر قاسٍ تهبه الريح وتنزل عليه الأمطار والثلوج ولا يتحرك هذا الجبل- لو أنزل الله عليه القرآن ماذا سيصنع؟

قال: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾ متذللاً، ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ متشققا من خشية الله! فكيف بالإنسان الذي أنزله الله عليه؟ لماذا لا يخشع؟ لماذا لا يتذلل لله؟ لماذا لا ينكسر؟ لماذا لا يتضرع إلى الله؟ لماذا هذه القسوة عند بعض قلوب الناس؟ ولذلك قال: ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يضرب لنا الأمثال، يشبه لنا هذه الأمثال والأشباه بهذه الأحوال؛ القرآن لو أُنزِل على جبل ماذا سيصنع؟ فكيف ينزل على قلوب الرجال والنساء ماذا سيصنعون؟ هذه أمثال يضربها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والقرآن مليء بالأمثال.

- **لماذا يضرب الله الأمثال؟**

بين لك السبب: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ ويتأملون في هذه الأمثال وفي هذه الدلائل وفي هذه الآيات العظيمة.

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما عظم كتابه وعظم كلامه، فالقرآن الكريم كلام الله، لما عظم الله كلامه وشرفه ورفع مقامه، ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما يليق به مما يتعلق بالتعظيم لله من أسمائه الحسنى وصفاته العلا، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢].

شوف: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾؛ يعني هو الذي انفرد بالألوهية؛ لأن كلمة (الله) تعود إلى الألوهية، هو الذي انفرد بالألوهية سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي لا معبود بحق إلا هو.

ثم زادك فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ الذي الغيب والشهادة عنده سواء، يعلم الظاهر والخفي، يعلم الظاهر والباطن سبحانه. ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، قدم الغيب لأن البشر لا يعلمون الغيب، الغيب أمر دقيق لا يعلمه إلا الله.

فشوف، ذكر أنه المستحق للعبودية والمحبة، المألُوه المحبوب المعبود، ثم ذكر سعة علمه وأنه لا يخفى عليه شيء، ثم ذكر سعة رحمته فقال: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، والرحمن صيغة مبالغة مثل غضبان، التي رحمته وسعت كل شيء، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين؛ أي الذي أيضاً رحمته عمت كل مؤمن، فهو رحيم بعباده رؤوف بهم. فذكر الله سعة علمه وسعة رحمته.

ثم أعاد مرةً أخرى في التأكيد على الألوهية والعبودية فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[الحشر: ٢٣].

يعني الذي يستحق العبادة والخضوع هو الله، لا إله إلا هو، لا معبود بحق إلا هو، اعبدوه واتقوه واعرفوا عظمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ثم أيضاً أعطاك أمراً آخر من صفاته وهو سعة ملكه؛ شوف الأول سعة علمه، الثاني سعة رحمته، الثالث سعة ملكه، فقال: ﴿ٱلْمَلِكُ﴾؛ الذي يملك الدنيا والآخرة وكل مخلوق مملوك تحت قبضته سبحانه.

ثم قال: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾؛ لأن هناك من الملوك من لا يستحق أن يكون ملكاً لكونه يظلم ويبطش ويقتل، لكن الله ملك رحيم رؤوف غني شكور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رءوف بعباده.

ولذلك قال بعدها: ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾، والقدوس من القدس وهو التطهر؛ القدوس يعني المطهر من كل شيء من كل عيب، المطهر من كل دنس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، المطهر من جميع صفات النقص سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وزادك بقوله: ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾؛ السالم من كل عيب، الذي سلم منه المؤمنون ولم يصبهم بسوء، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سالم من كل عيب.

ثم قال: ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾؛ المؤمن معناه المصدق، صدق رسله وأولياءه بما وعدهم، والمؤمن من الأمن الذي أمن عباده من كل فزع وخوف.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾؛ أي الذي هيمن على كل شيء، يعني أحاط بكل شيء وكل شيء تحت حكمه.

ثم قال: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ الذي لا غالب له، ذو العزة والقوة والجبروت.

ثم قال: ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾؛ (الجبار) يقتضي أمرين:

- الأمر الأول: إما من الجبروت وهو القوة الذي ينتقم من أعدائه وينتصر لأوليائه، جبار قوي.
- الأمر الثاني: من الجبر وهو ضد الكسر، يجبر أولياءه الذين يلجؤون إليه، يجبر كسرهم، وهو جبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾؛ المتكبر عن كل صفة نقص، وليس المتكبر كما يتكبر الضعفاء والمساكين؛ الكبرياء لله ليست للخلق، الإنسان ضعيف لا يتكبر، الكبر لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو المتكبر عن كل صفة نقص.

ولذلك لما ذكر المتكبر قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ يعني نزهوه وعظموه، سبحان الله عما يشركون! هؤلاء يشركون مع الله ويعبدون غيره، وهو الذي يستحق بصفات الكمال وبأسمائه الحسنى سبحانه.

ثم ذكر ثلاثة أسماء متتالية تدل على قدرته على الإيجاد والخلق فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٤].

لا خالق إلا الله؛ من خلق السماوات والأرض والجبال والأنهار والأشجار، ومن خلق الناس وخلق الجن والإنس إلا الله! هو الخالق الذي ابتدأهم خلقهم من العدم، ولما خلقهم برأهم بأحسن خَلق، ثم صورهم وشكلهم بأحسن صورة سبحانه.

﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾، ثلاثة أسماء متتالية تدل على ثلاث مراحل: أوجد، ولما أوجد أوجد على أحسن الصفات، ثم صورهم على أحسن صورة.

ولذلك قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ الأسماء الحسنى التي هي أحسن الأسماء لله، والصفات العلا التي هي أعلى الصفات لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك ختم السورة بما ابتدأ بها؛ ابتدأها بـ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الحشر: ١]، وختمها بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ فعل مضارع وفعل ماضٍ ليشمل جميع الأفعال والأحوال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

كل ما في السماوات من المخلوقات الحية والميتة والجامدة كلها، السماوات السبع ومن فيهن والأراضين السبع ومن فيهن كلها تسبح لله وتعظمه وتقدسه، لماذا؟ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ العزيز ذو القوة والغلبة لا غالب له، الحكيم في صنعه وفي تدبيره وفي خلقه.

هذه الآيات التي استمعنا لها كلها فيها شيء عظيم؛ فيها أولاً الحث على تقوى الله ومراقبته وامتثال أوامره، وفيها الإنسان يحاسب نفسه وينظر ما قدم، ثم التحذير ممن نسوا الله الذي أنساهم، والمقارنة بين أهل الخير والسعادة وبين أهل الشر والفساد، ثم عظمة القرآن وعظمة أسماء الله الحسنى.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن المتدبرين لكتابه المتأملين فيه، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ المُمْتَحَنَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الممتحنة ١ - ٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الموافق للخامس عشر من شهر الله المحرم من عام ١٤٤٨ هـ من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

أيها الإخوة الكرام، بين أيدينا سورة تتعلق بـ(العقيدة)، وهي من أوثق عرى الإيمان: (الولاء والبراء)، الحب في الله والبغض في الله.

ما الذي يجب على المسلم أن يبغضه في الله أو يحبه في الله أو يتبرأ منه أو يواليه؟

هذه عقيدة المؤمن، أوثق عرى الإيمان. السورة التي بين أيدينا هي سورة تقرر هذه القضية، وتسمى بـ(سورة الممتحنة)؛ لأن الله امتحن فيها تلك النساء المهاجرات اللاتي هاجرن لله ولرسوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، فالسورة امتحنتهن أو قررت امتحانهن.

تسمى (الممتحنة) أو تسمى (الممتحنة) بالفتح، والممتحنة يعني التي وقع عليها الامتحان؛ وهي المرأة التي أول من هاجرت من النساء؛ وهي (أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط)، هاجرت من مكة إلى المدينة فارةً بدينها.

وسماها (السيوطي) في (الإتقان) (سورة الامتحان)؛ لأن فيها امتحانًا. على كل، هذه التسميات، وسماها بعضهم بـ(سورة المودة)؛ لأن الله ذكر فيها لفظ المودة ولم تذكر في القرآن إلا في هذا الموضع، وسورة الممتحنة من السور المدنية التي نزلت بالمدينة؛ لأنها تتحدث عن واقعة وقعت في المدينة، وهي قصة (حاطب بن أبي بلتعة) رَضِيَ اللَّهُ عَنْه.

(حاطب بن أبي بلتعة) لما سمع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجهز لأهل مكة لفتحها بعدما نقضوا الصلح في السنة الثامنة، لما علم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تجهز، أرسل كتابًا لبعض أقاربه الذين في مكة يحذرهم أن يبتعدوا أو أن يستعدوا من دخول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى مكة.

وهذا لا شك أن فيه نقل أسرار المسلمين إلى الكفار، ولكن حاطبًا رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه ما كان يقصد إفشاء سر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما كما جاء في سبب نزولها أن (حاطب بن أبي بلتعة) لما سمع أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تجهز لفتح مكة، كتب كتابًا لبعض أقاربه وبعض أرحامه يذكرهم ويحذرهم.

ووضع هذا الكتاب مع امرأة كانت تأتي إلى المدينة وتعود إلى مكة، فلما علم أنها سترجع إلى مكة أعطاها هذا الكتاب وقال: سلميه لهؤلاء. فأخذته ووضعته في عفاصها؛ أي في ظفيرتها، وانطلقت.

☜**فجاء الوحي إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبره بالقصة، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لـ(علي) و(الزبير) و(المقداد)**: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ فِيهَا ظَعِينَةً مَعَهَا كِتَابٌ مِنْ حَاطِبٍ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَخُذُوهُ مِنْهَا». (الظعينة) يعني امرأةً مسافرةً، الظعن: التنقل.

فانطلق (علي) و(المقداد) و(الزبير)، ولما وصلوا هذه الـ(روضة) فإذا المرأة فيها، فقالوا: أعطينا الكتاب، قالت: ما معي كتاب، وأنكرته، فقال (علي) رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فلما شد عليها أعطتهم الكتاب، فأخذوه وعادوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأعطوه إياه.

☜**فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «يَا حَاطِبُ، مَا هَذَا؟»؛ لأنه كتب فيه: من (حاطب بن أبي بلتعة) إلى فلان وفلان من أهل مكة.

فقال: يا رسول الله، والله لم أفعل ذلك خيانةً لك، ولا خروجًا عن الإسلام، ولا أمرًا يخالف شرع الله، وإنما كان كثير من المهاجرين لهم هناك من يعينهم أو يساعدهم، وأنا كنت ملصقًا بأهل مكة، لست من أهل مكة، وأردت أن يكون لي يد عليهم، فأخبرتهم بذلك.

☜**فقال (عمر) رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه: يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «وَمَا يُدْرِيكَ يا عُمَرُ؛ لَعَلَّ اللهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ».

و(حاطب) ممن شهد بدرًا، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عذره عن الخطأ، ونزلت الآية في توجيهه بأدب وسمت وخلق.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في أول السورة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[الممتحنة: ١].

نداء للمؤمنين وتذكير لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي يا من صدقوا بالله وبرسوله وعملوا بشرعه، ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾؛ بدأ أو أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ بأنهم أعداء لله قبل أن يكونوا أعداءً لكم، يقول: هؤلاء أعدائي، فكيف تتخذون أعدائي؟!

⬅الأمر الأول: هم أعداء لله ولشرعه ولرسوله وللمؤمنين، فهم أعداء لي ولكم، كيف تتخذوهم أولياء وأحباء وتقدمونهم وتفضون إليهم بالمودة؟! ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ تفضون إليهم المحبة، والحال ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ كفروا بالشريعة وبالإسلام، كفروا بما جاء به محمد وبالوحي، وهو الحق.

⬅الأمر الثاني: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾؛ يعني حاولوا إخراج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل حاولوا قتله، وإياكم أيضًا أخرجوكم من بيوتكم وأخذوا أموالكم.

- **ما هو السبب؟**

﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾؛ لأنكم آمنتم بالله ربكم وصدقتم به وبوحيه، فلذلك فعلوا هذا.

فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾؛ إذا كنتم قد خرجتم من مكة إلى المدينة مهاجرين، وخرجتم للجهاد ورفعتم راية الإسلام ونصرتم رسوله جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته، فكيف تفعلون هذا؟! كيف توادونهم وكيف تلقون إليهم بالمودة؟!

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ تفضون وتلقون وتسرون وتنقلون أخبار المسلمين لأجل محبتكم لهم، ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾؛ الله عالم بما أخفاه أي شخص من الناس أو أعلنه، هو عند الله سواء، الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، أعلنتم أو أخفيتم.

ثم هدد فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ من يفعل الموالاة والمحبة وإفضاء الأسرار والتعاون ومظاهرة المشركين، فقد ضل الطريق السوي السليم وذهب إلى طريق الضلال.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين شدة عداوتهم؛ هؤلاء الذين قد تجد من بعض المسلمين من يحبهم ويفضي إليهم بالمودة وينقل لهم أسرار المسلمين، هؤلاء ما موقفهم منكم؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾؛ يعني إن يظفروا بكم في أي حال من الأحوال، ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾؛ وإن كانوا يظهرون المودة لكم والمحبة والبشاشة والضحك، إذا وقعتم في أيديهم يكونوا لكم أعداءً، ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾؛ (**يبسطوا**) يدل على شدة العداوة وشدة التسلط بالضرب باليد واللسان، يبسطوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل والسبي، وألسنتهم يبسطوها أيضًا بالسب والشتم والإيذاء.

ثم في الأخير قال: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾؛ هم أيضًا قلوبهم ممتلئة بأن يتمنوا أن تكونوا كافرين، متى ما ظفروا بكم وقبضوا عليكم ثلاثة أشياء: الأيدي تضرب، والألسنة تسب، والقلوب تحقد حقدًا عليكم، فماذا بعد هذا الشيء؟! ليس بعده شيء.

ثم قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هؤلاء الأرحام والأولاد والأقارب والأصدقاء لو واليتموهم ما ينفعونكم يوم القيامة: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣].

لن ينفعكم أرحامكم ولا أولادكم؛ الأرحام والقرابات حتى الأولاد وهم أقرب الناس إليكم، يوم القيامة ما ينفعونكم؛ توالي كافرًا ولو كان أحد أبنائك، ولو كان أباك، ولو كان أخاك، ولو كان من أرحامك وأقاربك.

فهؤلاء لا يجوز أن تواليهم، يوم القيامة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يفصل بينكم ويفرق بينكم، فيدخل من يشاء في رحمته ويعذب من يشاء، ويقضي بينكم بحكمته؛ لأنكم واليتموهم والله قد حذركم، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء لا من أقوالكم ولا من أفعالكم.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدما قرر هذه القضية بهذا الأسلوب حتى لا يجد المسلم طريقًا إلى موالاة هؤلاء ولا محبتهم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكر لنا نموذجًا من (الولاء والبراء) فيمن سبق؛ وهي قصة (إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين آمنوا معه كيف كانوا مع قومهم.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للمؤمنين: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ يعني قد كان لكم أن تقتدوا وتتأسوا في إبراهيم، إبراهيم قدوة لكم، ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ المؤمنين الذين معه، كانوا قد وقفوا أمام الكفار، ماذا قالوا؟

قالوا: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ نبرأ منكم ومما تعبدون، نحن برآء منكم أنتم ومن عباداتكم، نكفر بكم وبعباداتكم؛ لأنكم كافرون بالله فعباداتكم شرك وآلهة ومعبودات من دون الله، فنكفر بكم وبأعمالكم وبمعبوداتكم من دون الله.

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾؛ أي ظهر بيننا وبينكم العداوة الشديدة والبغضاء أبدًا مستمرةً لن تنقطع حتى تؤمنوا بالله وحده، فإذا آمنتم وتركتم الشرك والكفر فأنتم أولياء، أما الآن فأنتم بيننا وبينكم عداء وبغضاء، نبغضكم ونعاديكم.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾؛ إبراهيم استثناه الله هنا، إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧].

لكن هذا كان وعدًا، قول إبراهيم هذا كان وعدًا أنه يستغفر له، لكن لما أخبره الله بأنه عدو لله لم يستغفر له: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، فهذا فقط في أول الأمر ثم اتضح أنه عدو لله فتبرأ منه.

ثم بين الله فقال من كلام هؤلاء: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾؛ فوضنا أمرنا إليك واعتمدنا عليك وتعلقنا بك وبرجائك، عليك توكلنا وإليك أنبنا عدنا ورجعنا إليك بالتوبة النصوح

إن حصل منا تقصير أو موالاة لمثل هؤلاء، وإليك المصير المرجع يوم القيامة فتب علينا واجعلنا ممن يتوكل عليك حتى نلقاك يوم القيامة ونحن أبعد ما نكون من موالاة مثل هؤلاء.

ثم أيضًا دعوا دعوات أخرى فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الممتحنة: ٥]. سألوا الله ألا يتسلط عليهم الأعداء والكفار ثم يفتنون في دينهم أن يردوهم إلى الكفر، لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا؛ الفتنة أشد من القتل، يقتل وهو على التوحيد والإيمان والطاعة أهون من أن يفتن في دينه حتى يترك دينه ويرجع إلى الكفر.

هذا دعاؤهم: لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا، أبعدنا ولا تسلطهم علينا يفتنوننا في ديننا ويردوننا عن ديننا أو يتسلطون علينا بحيث لا نظهر ديننا، لا تجعلهم فتنةً.

﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ اغفر لنا ذنوبنا ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ ذو القوة والغلبة والعزة، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أقوالك وأفعالك وفيما تدبره. دعاء ودعوات جميلة وموقف قوي صارم واضح في معاداة أعداء الله وموالاة أولياء الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الممتحنة: ٦].

تأكيد يقول: أيها المؤمنون، إبراهيم وقومه لكم أسوة، تأسوا بهم واقتدوا بهم قدوةً حميدةً، أسوةً حسنةً كان يرجو الله واليوم الآخر، الذي يأمل بما عند الله ويرجوه ويطلب ويطمع في الخير الذي عند الله فهذا يقتدي بهم.

ومن يتول ويعرض ولا يقبل هذا التأسي ولا يتأس بإبراهيم ولا بالأنبياء ولا بالصالحين فإن الله هو الغني عنه وعن عبادته، ﴿الْحَمِيدُ﴾ بأن يشكر من شكره ومن صدقه ومن آمن به.

ثم إن بعض المسلمين من هؤلاء في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم علاقة قوية في أقاربهم، قد يكون الأقارب من الآباء أو من الأمهات أو من الإخوة أو من الأولاد، فيشق عليهم ذلك ويريدون أن يتواصلوا معهم، فوعدهم الله الوعد الكريم بأن تنقلب المعاداة إلى مودة بأن يدخلوا في الإسلام.

فأخبرهم الله ووعدهم بأن كثيرًا منهم سيدخل في الإسلام، فدخل كثير من أهل مكة في الإسلام وأسلموا وحسن إسلامهم كـ(أبي سفيان) وكـ(خالد بن الوليد) و(عمرو بن العاص) و(عكرمة) و(صفوان) وغيرهم من كبار المشركين وصغارهم، دخلوا في الإسلام.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ٧]. (عسى) في حق الله واجبة؛ بمعنى أنه سيتحقق أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودةً.

يقول: هؤلاء الذين بينكم وأنتم عاديتموهم لأجل الله ستنقلب العداوة في أقاربكم إلى محبة ومودة بعد البغضاء وبعد التبرم منهم تنقلب محبةً ويشراح الله صدورهم للإسلام ويدخلون في الإسلام، وقد تحقق ذلك.

﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء، قدير على كل شيء، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لعباده لمن تاب، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم حيث فتح لهم باب التوبة.

السورة حقيقةً مهمة جدًا، وفيها آيات تتعلق بـ(العقيدة) وصلاح (العقيدة)؛ لأن أحيانًا مثل هذه الأمور التي يتساهل فيها قد تقدح في (العقيدة)، وينبغي للإنسان أن يحافظ على عقيدته وعلى (الولاء) وعلى (البراء) وألا يتنازل عن مثل هذه الأمور.

لكن عندنا الآن آية هي والتي بعدها لابد أن نفرق بين هؤلاء الكفار بين المحبة في القلب وبين التعامل، التعامل شيء والمحبة شيء، نعم نبغضهم لكفرهم ونبغضهم لمعاصيهم لكننا نعاملهم بالعدل والقسط.

ولذلك الآية بينت أن الكفار على نوعين: منهم الذين يظهرون العداوة لنا ويقاتلوننا، وبين من لا يظهر ولا يقاتل.

هذه الآية والتي بعدها إلى خاتمة السورة سيأتي الحديث عنها إن شاء الله في اللقاء القادم، نقتصر على هذا على ما ذكرناه، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما نسمع وبما سمعنا، وأن يوفقنا لطاعته، بارك الله فيكم وجزاكم الله عنا خيرًا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الممتحنة ٨ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وصلاة وسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو اليوم الثاني من شهر الله المحرم من عام ١٤٤٨ هـ للهجرة. أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

ولا شك أيها الإخوة الكرام أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرنا بتلاوة القران وأمرنا بالتدبر وحث على ذلك، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. والعبرة من القران أن نتدبر وأن نتفكر وأن نتأمل وأن نستفيد من هذه التوجيهات الربانية والدروس العلمية وهذا العلم الغزير.

كما قال (ابن مسعود) رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، قال: «ثَوِّرُوا القُرْآنَ» يعني حركوا ما فيه ثوروا القران، «فَإِنَّ فِيهِ عِلْمَ الأَوَّلِينَ وَعِلْمَ الآخِرِينَ». أيها الإخوة الكرام، عندنا سورة (الممتحنة) ووقف بنا الكلام عند الآية الثامنة.

والآية الثامنة حقيقة مهمة جدا لأنها تميز بين (الولاء والبراء) وبين التعامل، التعامل شيء: تتعامل مع الكافر بالعدل، بالقسط، تكرمه إذا لم يكن موذيا ولا حربيا، تكرمه، تبره، تنفعه، تساعده؛ هذا شيء، و(الولاء والبراء): محبته وتعظيمه وتقديسه وإفضاء أسرار المؤمنين له؛ هذا شيء آخر. فلا بد أن نميز.

يظن بعض الناس أن (الولاء والبراء) أنك إذا رأيت هذا الكافر أو هذا المعاهد أو الذمي أو المستأمن أنك تعامله بشراسة وبقوة وأنك تغصب ماله وتأخذه وتضيق عليه؛ هذا كله لا.

التعامل وإظهار محاسن المسلمين أمامه والنصح له بحيث إنك تجلب له الخير وتحسن له التعامل فتكسبه وقد يهتدي على يديك بحسن التعامل، قد يكون سائقا، قد تكون عاملة خادمة، قد يكون مزارعا، قد يكون عاملا في محل، فتتعامل معه وتبين له محاسن (الإسلام).

أما محبته والمودة التي نهى الله: ﴿لَّا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]؛ محبته القلبية، إفضاء أسرار المسلمين له، تقديسه، تعظيمه، رفع مكانته؛ هذا شيء آخر، ولذلك الآية هذه جاءت كأنها تبين لك أن هناك فرقا بين العدل والقسط والبر وبين المحبة والمودة.

اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. يعني ليسوا حربيين معادين لكم، يظهرون العداوة لكم ويؤذونكم، وإنما هم مسالمون.

فلا ينهاكم الله عن هؤلاء المسالمين في الدين؛ ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ تحسنوا إليهم، تتعامل معهم معاملة حسنة.

﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ تعدلوا في الحكم بينهم، تعدل له راتب تعطيه راتبه، له أجرة تعطيه أجرته، تقسط تعطيه حقه لا تظلمه وتعدل إليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. شوف كيف رتب الله عَزَّ وَجَلَّ محبته العظيمة على من يقسط لمثل هؤلاء.

ويأتيك من يظن أنك تأخذ ماله أو تؤذيه أو لا تعطيه أجرته أو لا تعطيه راتبه يقول: هذا لأنه عدو للإسلام، لأنه غير مسلم، لأنه كافر! لا، الله يحب القسط في كل شيء ويحب المقسطين.

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذاً من هم الذين لا نودهم ولا نحبهم ولا نتعامل معهم معاملة حسنة؟

قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

قاتلوكم لأجل دينكم وآذوكم، اسمع: ﴿قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ آذوكم، ﴿وَظَاهَرُوا﴾ تعاونوا على إخراجكم، ينهاكم أن تتولوهم؛ تولي محبة، تعظيم، تقديس، ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

إذاً الآن فهمنا أن أعداء (الإسلام) على نوعين: كفار مسالمون لا تؤذون ولا يتعرضون للمسلمين بسوء، وإنما هم على دينهم وعلى حالهم، فهؤلاء لا نحبهم بقلوبنا ولا نعظمهم بقلوبنا، وإنما نتعامل معهم على أحسن التعامل والأخلاق لنظهر لهم محاسن (الإسلام).

أما الذين يؤذوننا ويبغضوننا ويحقدون علينا ولا يجدون فرصة إلا ويؤذوننا، فهؤلاء لا نتعامل معهم معاملة حسنة ولا نحبهم ولا نواليهم. هذه هي خلاصة الكلام في هذا الشيء.

ثم تنتقل الآيات إلى بيان من هاجر من الكفار وهي مؤمنة، النساء اللاتي آمنّ وهم عند الكفار، كأن يكون أهلها كفارا أو زوجها كافرا، ثم تفر بدينها إلى المسلمين وتهاجر؛ فما حكم هذه التي تهاجر؟ هل نردها إلى زوجها أم لا نردها إلى أهلها وإلى ديارها ولا نقبلها؟ قد لا تكون صادقة، ما ندري.

الله أعطانا الحكم، قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[الممتحنة: ١٠].

سماهن مؤمنات؛ آمنّ وصدقن بالله ورسوله وهاجرن لله ورسوله، ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ لا بد من أن نتأكد من حقيقة الهجرة والإيمان، فامتحنوهن.

ثم قال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ يعني الأمر إلى الله ليس لك، لكن أن تأخذ بالظاهر وتتأكد.

﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ تحقق لكم، ظهر لكم بعد الامتحان والتأكد أنها لم تهاجر كراهية لأهلها أو عداوة لزوجها، وإنما هاجرت لله ورسوله، لم تهاجر حبا في بلاد المسلمين أو تهاجر لأنها ترغب في الزواج والمسلمين؛ لا، وإنما هاجرت لله ورسوله فرارا بدينها.

فإذا ظهر هذا الأمر وتبين عندكم، وعلمتموهن مؤمنات حقيقة، ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ لا يجوز أن تردها إلى الكفار، لا يجوز أن ترد المؤمنة إلى الكفار تمتحن في دينها ثم تكفر وهي ضعيفة، ترجعها إلى زوجها الكافر؛ لا يجوز أن تبقى مع زوجها الكافر.

فقال: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ يعني النساء ما يحللن للكفار، المرأة ما تحل لكافر وهي مؤمنة لا يجوز، ولا هم يحلون لهن وهم كفار لا يحلون للمؤمنات.

وهذا الأمر قد وقع في (صلح الحديبية) لما تعاهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع (أهل مكة) بالشروط التي فرضها (أهل مكة) على الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقبلها، كان من ضمن هذه الشروط: من هاجر من الكفار إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلى النبي أن يرده.

فلما هاجر بعض الرجال ردهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولما هاجرت بعض النساء قبلهن، فلما جاء أزواجهن قالوا: يا رسول الله، يا محمد، قد عاهدتنا ألا تقبل.

☜**قال:** «الرِّجَالُ دُونَ النِّسَاءِ». ونزلت هذه الآية، فلم يقبل، رد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يقبل أن يرد النساء لأن المرأة ضعيفة، ولأنه لا يجوز أن تبقى في ذمة الكافر. فلذلك استثناها الشرع ولم يجعلها مقبولة، لذلك الآية هذه قيل أنها نسخت المعاهدة التي وقعت في الصلح وقيل خصصت.

- **فالشاهد أن المرأة إذا هاجرت لا ترد إلى الكفار، ماذا قال؟**

﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ أعطوا الكفار المهور، إذا جاء الرجل الكافر قال: امرأتي هاجرت عندكم ردوها إلي.

قلنا: لا نردها لك، هي مؤمنة وأنت كافر. قال: ماذا أصنع؟ أعطوني مهري. فعلى المسلمين أن يعطوهم مهورهم، يعطوه: كم مهرك؟ قال: مهري كذا وكذا. قيل: خذ هذا مهرك.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾.

ثم قال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يقول: يجوز لك أيها المسلم أن تتزوج بهذه المهاجرة بعدما تتربص وتستبرئ رحمها بحيضة أو تعتد، فإذا اعتدت وتبين خرجت من العدة، فللمسلم أن يتزوج بها بشرط أن يعطيها مهرها.

لذلك قال شوف قال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يعني تعطيها مهرها غير أنك تعطي الكافر حقه ﴿وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا﴾ هذا مهر الكافر هذا حق الكافر، أما المؤمنة تريد أن تتزوجها تعطيها المهر.

وقد تزوج (عبد الرحمن بن عوف) بـ(أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط)، فإنها أسلمت وهاجرت وجاءت إلى المدينة، ثم تزوجها (عبد الرحمن بن عوف)، وغيرها ممن هاجرن تزوج المسلمون بهن.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في المسلمين: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ عصم الكوافر يعني عصمتهن، أي لا تجعل الكافرة في عصمتك، الكافرة لا يجوز للمؤمن أن يبقيها عنده، فإذا كانت الزوجة كافرة الله يقول لا تمسك بها اتركها طلقها، الكافرة تطلق لا يجوز أن تبقى معه.

مثل ما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن المؤمنة إذا هاجرت تنفصل عن زوجها، فكذلك الرجل المؤمن إذا علم أن زوجته كافرة أو لا تصلي أبدا في حكم الكافرة، فهذه لا يجوز أن يبقى معها أبدا، فهذه كافرة، ولذلك لما نزلت هذه الآية كان بعض الصحابة عندهم زوجات مشركات في مكة فطلقوهن ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾.

ثم قال: ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا﴾ إذا فرت الزوجة المؤمنة، إذا فرت إلى ديار الكفار وكفرت وارتدت، فعلى المسلمين أن يطالبوا أولياء المرأة بالمهر: واسألوا ما أنفقتم، أنا أمهرتها وهي فرت مني وكفرت أعطوني مهري ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ﴾ وهم أيضا يسألون ما أنفقوا إذا فرت المؤمنة من الكافر لهم أن يطالبوا بالمهر فاعطوهم مهرهم وأنتم خذوا مهركم ممن فرت.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي هذه الأحكام التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حال المهاجرات وفي حال المرأة الكافرة أو المرتدة.

هذا حكم الله، ذلكم حكم الله يحكم بينكم، يقضي بينكم بحكمه جل جلاله وهو الله، والله عليم؛ عليم لا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق، حكيم في تدبيره وصنعه وشرعه.

طيب قد تفر المؤمنة، ترتد وتكفر وتفر إلى ديار الكفر، ثم نحن نطالب بالمهر، الكفار يقولون: لا نعطيكم شيئا! طيب أنا ذهب مهري وذهبت زوجتي ماذا أصنع؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جل جلاله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[الممتحنة: ١١].

- **ما الحكم؟**

قال: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ يعني غنمتم منهم غنائم، ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم﴾ يعني خذوا من الغنيمة وأعطوا الأزواج قدر مهور نسائهم أعطوهم، ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا﴾ يعني إذا ذهبت المرأة المرتدة أو الكافرة إلى بلاد المسلمين ولحقها زوجها وطالب بالمهر ولم يعطه أولياء المرأة، فللمسلمين أن يعطوا هذا الرجل من المهر، أعطوه من الغنيمة مهرا له قيمة المهر، أعطوه من الغنيمة يقسم له من الغنيمة بمقدار مهره.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ اتقوا الله وخافوه وراقبوه في أحكامه. هذا كفر وشرك وإيمان وزواج ووطء وأولاد، اتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون، أنتم مؤمنون اتقوا الله وخافوه.

ثم تأتي لنا أيضا أو يأتينا حكم جديد وهو حكم المبايعة، بيعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ البيعة على الرجال وأخذ البيعة على النساء، فأما النساء فقد ذكر الله بيعتهن هنا.

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

يقول: إذا جاءتك المؤمنات، وهذه حصلت في (فتح مكة)، جاءت النساء وبايعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاءت تبايعك، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: تبايعك على أي شيء؟ قال: لا بد أن تكون البيعة واقعة على ستة أمور، ما هي؟

- **أولاً:** عدم الشرك، تبايع المرأة على ألا تشرك بالله شيئا بل توحد الله وتعبد الله ولا تشركوا به شيئا، هذا الشرط الأول: الإيمان والتوحيد والطاعة وعدم الشرك.
- **ثانياً:** قال: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾ لا تأخذ المال بغير حق تسرق مال غيرها، فالسرقة كبيرة من كبائر الذنوب. ثم قال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ أي لا تقع في الزنا، لا تقع في الزنا بمعنى أن تمكن غيرها بغير عقد وهذا هو الزنا.

ثالثاً: قال: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ هذه الثالثة؛ لأنهن كن في الجاهلية كانت المرأة تقتل ولدها خشية الفقر أو العار، قال: لا تقتلن أولادهن، ويدخل في ذلك الإجهاض، الإجهاض لا يجوز أن تسقط الحمل كل هذا داخل.

رابعاً: ثم قال: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ البهتان أشد الكذب، ﴿بُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾.

- **ما هو البهتان الذي تفتريه بين يديها ورجليها؟**

هي أن تنسب ولدا لها ولزوجها وهو ليس منها، تأخذ لقيطا وتقول هذا ولدي وهو ابن فلان، هذا بهتان وكذب؛ كيف تنسبين ما ليس لك على أنه منك، ليس منك ولا من زوجك؟ فهذا هو الذي كن يفعلنه النساء.

خامساً: وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ لأن الولد دائما يكون في حجر أمه بين يديها ورجليها، أو لأنه يخرج من بين يديها ورجليها.

سادساً: قال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ يقول: ألا تعصيك فيما تأمر به من الخير، النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يأمر إلا بالخير، فلا يعصينك في معروف وأن تخرج عن طاعتك فتطيع.

إذاً ستة أمور: عدم الشرك يعني التوحيد، والنهي عن السرقة، والنهي عن الزنا، والنهي عن قتل الأولاد، والنهي عن أن تأتي ببهتان تفتري بين يديها ورجليها، وأن تعصي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في معروف.

قال: إذا تمت هذه الأمور الشروط الستة ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ واقبل بيعتهن، والمقصود بالبيعة المعاهدة أنها يقبل أن تكون مؤمنة وأن لا يضرها شيء ولها حق الإيمان والطاعة، ﴿فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ﴾ زيادة على البيعة أن يستغفر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهن ويكثر الاستغفار لعل الله يتوب عليهن، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفور يعني متجاوز عن الذنوب والمعاصي، رحيم بعباده حيث تجاوز وتقبل منهم.

ختام السورة: كما أن الله نهى عن تولي الكفار وأن يلقي المؤمن المحبة والمودة ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ والمحبة، كما نهى الله عن الكفار كذلك نهانا عن اليهود، اليهود هم القوم الذين غضب الله عليهم، هم المغضوب عليهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣]. ﴿لَا تَتَوَلَّوْا﴾ يعني لا تحبوا ولا توالوهم ولا تناصروهم.

﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود، ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ يئسوا من أن تكون الآخرة لهم أو يكونوا من أهل الجنة، عرفوا أن الجنة لمن أطاع الله وهم ما أطاعوه، ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ كما أن الكفار يئسوا من أن أهل القبور يخرجون من قبورهم وتعود لهم حياتهم، فكذلك لا تتولوا هؤلاء اليهود ولا تتولوا الكفار.

فالسورة ختاما وخلاصة السورة أنها تبين لنا أحكاماً مهمة في العقيدة في المحبة والبغض والولاء والبراء الذي هو أوثق عرى الإيمان؛ أن نكره ما يكرهه الله ورسوله وأن نبغض أعداء (الإسلام) ولا نحبهم في قلوبنا ولا نعظمهم ولا نجلهم ولا نقدسهم ولا نفضي لهم أسرار المسلمين ولا نناصرهم، ونبغضهم بغضا شديدا لأنهم أعداء الله.

يقول: ﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾. أما التعامل فشيء آخر: إذا لم يكونوا معادين لنا ولم يؤذونا، فنتعامل معهم بالتعامل الطيب والمعاملة الطيبة والحسنة ونساعدهم إن كانوا محتاجين، إن كان فيهم ضعفاء فيهم أناس قد يحتاجونك، فلا مانع من مساعدتهم وإظهار محاسن (الإسلام) لهم.

ثم إن السورة في القسم الثاني بينت لنا أيضا أحكام الأزواج إذا كان الزوج كافرا والمرأة مؤمنة فلا تبقى معه، أو الرجل مؤمن والمرأة كافرة فلا يبقيها عنده ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾.

ثم بيعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن آمن ولمن هاجر للمؤمنات، والتأكيد على أننا كما لا نوالي الكفار كذلك لا نوالي اليهود؛ لأن الكفار واليهود يسيرون في طريق واحد ضد (الإسلام) والمسلمين.

لعلنا أيها الإخوة نقف عند هذا القدر نكتفي به إن شاء الله، لقاؤنا في اللقاء القادم، نسأل الله لنا ولكم التوفيق والسداد والعلم النافع والعمل الصالح وأن يبارك لنا ولكم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الصَّفِّ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الثلاثاء الموافق للتاسع من شهر الله المحرم من عام ١٤٤٨ هـ من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا في تفسير القرآن العظيم؛ السورة التي بين أيدينا هي (**سورة الصف**)، سميت بذلك لذكر هذا اللفظ فيها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، وتسمى في بعض التفاسير بـ(**سورة الحواريين**) لذكر قصة (**الحواريين**) فيها.

وأيضًا تسمى بـ(**سورة عيسى**) عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذه أسماء قد تكون اجتهادية أو تكون أوصافًا من بعض الصحابة، لكن الثابت المعروف والمشهور في المصاحف وفي كتب التفسير بـ(**سورة الصف**).

وهذا المعنى ليس هو المعنى الذي قد يتبادر للناس أنه الصف يعني الذين يقاتلون في سبيله صفًا، يعني أنهم يصفون صفوفًا في الحرب، المعنى هو هذا صحيح، يعني ظاهر، لكن قد يتضمن معاني الصف جميعًا؛ بمعنى أن الله يحب أن يكون المؤمنون صفًا واحدًا في كلمتهم، صفًا في صلاتهم.

يعني الصلاة يصفون صفوفًا، والملائكة تصف صفوفًا، والنبي كان يحث على تسوية الصف ويأمر بالصفوف وبين أن الله يحب الصف المستقيم ولا ينظر إلى الصف الأعوج.

فكلمة الصف هنا لها معانٍ، ولذلك السورة لو نتأمل آياتها نجدها تحث على الاجتماع وعدم الفرقة وأن تكون كلمتهم واحدة، وتحذر من الاختلاف.

- **ما الذي جعل (اليهود) على هذه الحال إلا اختلافهم على أنبيائهم؟**

فاجتماع الكلمة وتوحيد الصفوف وخاصة في العبادات وفي الطاعات يصفون وتكون كلمتهم واحدة، هذا أمر مطلوب.

السورة مفتتحة بالتسبيح، والسورة بشكل عام هي تدور على ما ذكرناه: كلمة المؤمنين وكلمة المسلمين؛ متى تكون كلمة واحدة؟ متى يجتمع الناس حتى تقوى كلمة (الإسلام) ويقوى (الإسلام)؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطى (اليهود) الفرصة في أن يقيموا شرع الله وأن تكون لهم الخلافة في الأرض فلم يستطيعوا ولم يقدروا على ذلك وخالفوا أمر الله وتركوا طريق الله وتركوا طريق الهداية.

ثم جاء بعدهم (النصارى) وأراد الله منهم أن يكونوا خليفته في الأرض فلم يقيموا شرع الله ولم يعرفوا قيمة هذه الخلافة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هيأ للمؤمنين أمّة (محمد) أن يقيموا خلافته ويقيموا شرعه وأن يتولوا خلافة الله في أرضه فقاموا بذلك.

وأنت ستنظر في الآيات عندما نرى موقف (بني إسرائيل) من (موسى): ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ [الصف: ٥]، ونرى موقف (بني إسرائيل) من (عيسى) يقولون فيه ساحر وسحر ولما جاءهم بالحق، والمؤمنون قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف: ٨]، ثم حثهم وأمرهم بـ(الجهاد) والقتال والتجارة الرابحة وأن ينصروا دينه وأن يعلوا كلمته وأن يقفوا صفًا واحدًا في وجوه الأعداء.

مثل ما ذكرنا السورة مفتتحة بـ(التسبيح): ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الصف: ١]، التسبيح كما مر معنا في (سورة الحديد) وفي (سورة الحشر) هو تنزيه الله وتعظيمه وإجلاله ووصفه بصفات الكمال وتنزيهه عن الصفات التي لا تليق به.

والذي يسبح هو كل من في السماوات وما في الأرض من حيوان ومن جن وإنس وملائكة ومخلوقات وجمادات؛ السماوات تسبح والأرض تسبح، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ويقدسه ويعظمه ويجلله ويصفه بصفات الكمال إلا من أبى.

يقول: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الصف: ١]، ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلب، القوي، و﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأمور مواضعها، حكيم في أقواله وفي أفعاله وفي صنعه وفي تدبيره؛ فالله مع قوته وعزته وجبروته وغلبته إلا أن قوته وعزته وجبروته وغلبته هي في حكمة ويضعها بحكمة.

إذا عرفنا هذا يأتيك النداء الأول في السورة، السورة فيها ثلاثة نداءات للمؤمنين؛ النداء الأول قال الله فيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو أسلوب إنكار على من يقول ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا

تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، أي صدقوا الله بكل ما جاءهم عن الله وعن رسوله، كل ما جاءهم من أخبار وأوامر ونواهٍ صدقوا بها وآمنوا بها وامتثلوها.

أنتم أيها المؤمنون الذين صدقتم الله ورسوله وعملتم بشرعه ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ لِمَ تعدون وعدًا أو تقولون قولًا بأفواهكم ثم لا تفعلونه؟ وهذا أسلوب إنكار واستفهام يفيد الإنكار على من يخالف فعله قوله.

وهذه الآية كما ذكر بعض المفسرين أنها نزلت في بعض أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم قالوا: لو فرض الله علينا القتال لقاتلنا، فلما فرض ضعفت نفوسهم فقال: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، هذا أمر عظيم.

ولذلك قال الله بعده: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]، يعني عظم واشتد المقت، وهو شدة البغض عند الله.

هذا أمر ممقوت ومبغوض عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يقول الإنسان بلسانه ولا يفعل، يعني امسك عليك لسانك لا داعي أن تتكلم وانت لا تفعل: سأفعل وأنت لا تفعل فهذا معناه.

وفي هذا تأديب وتعليم للمؤمنين أن الإنسان لا ينبغي له أن يقول شيئًا إلا إذا أراد أن يفعله، أما أن يقول لو كذا ولو كذا ولو عندي مال لفعلت ثم لا يفعل، احذر من هذه الصفة.

ولذلك مثل ما ذكرنا أن بعض المفسرين لما قال إنها نزلت فيمن كان يتمنى أن يقاتل في سبيل الله فلما فرض القتال ضعفت نفسه، جاء ذكر القتال بعدها قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]، انظر الأولى ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ بغضًا.

وهنا محبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾؛ الله يحب المجاهدين الذين يجاهدون لإعلاء كلمة الله، وإذا جاهدوا صفوا صفًا في وجه العدو كالبنيان المرصوص؛ لأن هذا يرهب العدو.

ونقول إن كان في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن جاء بعده يصفون أمام العدو صفًا ويتراصون والسيوف بأيديهم والرماح، نقول كذلك في الجهاد في آلات الحرب الحديثة أن تصف الطائرات وتصف

الدبابات ويصف الرجال ونحو ذلك، يصفون لأن هذا يرعب العدو ويخيف العدو في مواجهة الأعداء، وهذا يعطي المؤمنين هيبة وقوة.

ثم يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا ما جرى من (بني إسرائيل) تجاه نبيهم (موسى) عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم ما جرى من (بني إسرائيل) أيضًا تجاه نبيهم (عيسى)، انظر الموقف الأول حتى تعرف هؤلاء (اليهود) كيف خذلوا نبيهم، بل إنهم أذوه وأذوا (موسى) إيذاء شديدًا.

قالوا اجعل لنا إلهًا، وقالوا اذهب أنت وربك، واستهزءوا به وغير ذلك. اسمع يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عنهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[الصف: ٥].

اذكر عندما قال (موسى) لقومه: ﴿يَا قَوْمِ﴾ يأتيهم بالكلام الطيب المحبب يذكرهم أنه منهم وهم منه، ينكر عليهم: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بأقوالكم وأفعالكم وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم؟ قد أرسلني الله إليكم فتؤذونني، لماذا تؤذونني بهذه الإيذاءات الكثيرة؟

فقال: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ ولكنهم لم يرجعوا بل استمروا على ما هم عليه، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ ومالت قلوبهم وعدلت عن الحق ولم ترجع ولم تتُب ولم تعد إلى رشدها ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾؛ والجزاء من جنس العمل.

أصروا على ميل القلوب وعلى صرف قلوبهم عن طاعة الله وعن الإقبال إلى التوبة والرجوع وعدم إيذاء نبيهم، فلما استمروا على ما هم عليه عقابًا لهم صرف الله قلوبهم عن التوبة وعن قبول الهداية، وهذا جزاء من جنس العمل.

الذي يقبل على الله يتوب الله عليه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، والذي يبقى على ما هو عليه الله يعاقبه، والذي لا يريد الهداية الله ينصرف عنه ولا يقبل منه صرفًا ولا عدلًا.

ولذلك قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجيين عن طاعته، استمروا على ما هم عليه وعاندوا، فالله لا يهديهم إلا إن تابوا.

أما الموقف الثاني فهو موقف (بني إسرائيل) مع (عيسى) عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

هناك قال (موسى): ﴿يَا قَوْمِ﴾، وهنا ما قال لقومه قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ لأن (عيسى) ليس له أب حتى ينسب إلى (بني إسرائيل)، أمه صحيحة تنسب إلى (بني إسرائيل) لكن هو ليس له أب، ولذلك قال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وهذه احترازات الدقيقة في القرآن.

قال: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ يقول أنا جئتكم رسولًا من عند الله إليكم ومصدقًا لما في (التوراة) يعني لا أخالفها ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم، وجئتكم بكتاب يوافق (التوراة) وهو (الإنجيل).

وأيضًا جئتكم بخبر جديد وهو بشارة عظيمة برسول يأتي من بعدي، فأنا رسول وقبلي (موسى) وسيأتي بعدي (محمد): ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾، و(أحمد) اسم من أسماء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في الحديث الشريف الصحيح: «أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَالْعَاقِبُ، وَالْحَاشِرُ».

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يحتمل أنه (محمد) ويحتمل أنه (عيسى)؛ فجاء (محمد) إلى (اليهود) بالبينات اتهموا (محمدًا) بأن الذي معه سحر وأنه ساحر، أو نقول لما جاء (عيسى) بالبينات لهم بـ(الإنجيل) وبالشريعة اتهموه بالسحر، فمحتمل هذا ومحتمل هذا، لكن الذي عليه أكثر المفسرين أن (محمدًا) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاءهم بالبينات لم يقبلوا دعوته وكفروا به.

والله توعدهم وبين وأخبر قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧]، أي لا أحد أشد ظلمًا ممن يفتري على الله الكذب، كيف تكذب على الله وهو يدعوك للإسلام وتشرك به وتعبد غيره وتصفه بصفات لا تليق به؟

والله يدعوك للإسلام وإخلاص العبادة لله، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك فلا يهديهم ولا يجدون هداية إلا إن تابوا.

وهؤلاء الأعداء من (اليهود) و(النصارى) هم أعداء للإسلام: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ولذلك قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]؛ هم يريدون ويأملون ويتمنون بأقوالهم الكاذبة، لكن لا يمكن أن يطفئوا نور الله؛ لأن الله متم نوره.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩]، أرسل (محمدًا) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالهدى ودين الحق ليظهره على جميع الأديان، ولابد أن يكون الظهور والعلو للإسلام.

وما سواه من الأديان باطلة وإن كانت أديانًا سماوية كدين (عيسى) ودين (موسى)، كلها قد نسخت وبطلت بظهور الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ثم في السورة يأتينا النداء الثاني للمؤمنين، والله يحثهم ويدلهم على الخير وعلى العزة وعلى النصرة وعلى التمكين برفع راية (الجهاد) إذا أرادوا أن يكون لهم التمكين في الأرض والعزة والقوة والغلبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

هذا حث وارشاد لهم، التجارة هي البيع والشراء وتحريك المال بالتكسب، فيقول سبحانه: أنا عندي تجارة عظيمة ليست تجارة الدنيا تكسب فيها أو تخسر، بل هذه تجارة رابحة أعظم ما في ربحها النجاة من النار: ﴿تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهذا أعظم مكسب للإنسان في الدنيا والآخرة أن يسلم من عذاب النار.

- **ما هي هذه التجارة؟**

قال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١١]. تؤمنون يعني تثبتون وتداومون على الإيمان بالله ورسوله بما جاءكم، وتجاهدون أنفسكم وتجاهدون الشيطان وتجاهدون أعداء الله بالمال والنفس.

وقدم المال لأن المال لا يعذر فيه أحد إذا كان عنده مال؛ فالمرأة تجاهد بمالها، والشيخ الكبير والمريض يجاهد بماله، ولأن الجهاد قائم على المال في السلاح والمراكب ونحوها: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فإذا امتثلتم أمره ودخلتم في هذه التجارة النتيجة ما هي؟ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢].

يغفر لكم ذنوبكم ويمحوها عنكم ويسترها عليكم، ويدخلكم جنات النعيم ومساكن طيبة في جنات عدن، وذكر المساكن لأن المجاهدين يخرجون ويتركون بيوتهم وأولادهم وأموالهم إلى الثغور، فتعويض الله لهم بالمساكن الطيبة في جنات عدن، وذلك هو الفوز العظيم.

ثم إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما وعدهم بالفوز في الآخرة أعطاهم من الدنيا أيضًا ما يسعدهم ويدخل عليهم السرور، وهو النصر على العدو والفتوحات: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣]. والفرق بين النصر والفتح: النصر هو هزيمة العدو وانتصار المؤمنين عليه، والفتح هو فتوحات البلدان حتى تسقط في أيديهم.

ثم يأتي النداء الثالث: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

انصروا الله وانصروا دينه كما قال (عيسى بن مريم) لأتباعه (الحواريين)؛ وسموا حواريين لأنهم كانوا أصفياء ومخلصين لـ(عيسى) وناصرين له ولدينه.

☜**كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الشريف الصحيح:** «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ».

فقالت طائفة من (بني إسرائيل): نحن أنصار الله، فآمنت طائفة وكفرت طائفة، فأيد الله المؤمنين وجعل لهم القوة والغلبة على عدوهم فأصبحوا ظاهرين عليهم، ولما كان المؤمنون أنصارًا لله ولما نصروا (محمدًا) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت الغلبة للمؤمنين فأصبحوا ظاهرين على أعدائهم.

نسأل الله أن ينفعنا بهذه السورة العظيمة التي تحث على التمسك والتصبر وأن نكون صفًا واحدًا في وجه العدو، وننصر دين الله لنفوز في الدنيا والآخرة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الجُمُعَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الجمعة ١ – ٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو اليوم السابع من الشهر الثاني من عام ١٤٤٨ هـ من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا الكرام في تفسير القرآن العظيم؛ السورة التي بين أيدينا هي **(سورة الجمعة)**، سميت بذلك لأن الله ذكر في آخرها ونادى للصلاة أو بين أحكام صلاة الجمعة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩]، فقوله: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ علم أن المقصود بذلك هي صلاة الجمعة؛ لأن الله خصص هذا اليوم الذي هو عيد المسلمين بصلاة عظيمة وهي صلاة الجمعة.

السورة التي قبلها كنا في لقائنا الماضي تحدثنا عنها وهي **(سورة الصف)**، وقلنا إن الله جل جلاله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفًا، والصف هو اجتماع المسلمين واتحادهم في قلوبهم وفي أبدانهم.

فهذا المعنى يعني ممكن تجد أنه فعلاً مرتبط بهذه السورة، وهو المسلمون في الثغور يجتمعون أمام العدو ويظهرون هيبتهم أمام العدو عندما يصفون صفوفاً، سواء كانوا صفوفاً على الأقدام أو على المراكب والإبل والخيول أو على المراكب الحديثة كالدبابات والطائرات ونحوها.

كل هذا يرهب العدو: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، يرهب العدو ويخيفه؛ اجتمعت القلوب واجتمعت الأبدان وصفت صفوفاً، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحب ذلك الأمر.

ومثل ما ذكرنا في لقائنا الماضي، حتى إن الله يحب الصفوف في المساجد المستقيمة المعتدلة، وأن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج.

☜**فلذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:** «صُفُّوا كَمَا تَصُفُّ المَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا» أثناء الصلاة، فنصف نحن صفوفاً أثناء الصلاة.

تلاحظ اجتماع المسلمين فيها في اليوم خمس مرات من أول النهار إلى بداية الليل؛ يجتمعون ويرى بعضهم بعضاً ويتفقد بعضهم بعضاً ويسلم بعضهم على بعض، وتجدهم متحدين في الصفوف، متلاصقين، القلوب متحدة والأبدان متحدة، هذا في الصلوات الخمس، فكيف في صلاة الجمعة، والصفوف والمساجد قد امتلأت والطرقات قد امتلأت؟!

ولا تنظر إلى وقتنا الحاضر مع كثرة المساجد التي تقام فيها صلاة الجمعة؛ كان في السابق في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي عهد الخلفاء الراشدين لم يكن في المدينة إلا (مسجد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، فكان الناس يأتون من المزارع ومن العوالي ومن المحلات البعيدة يأتون ليحضروا صلاة الجمعة.

فكان اجتماعاً مهيباً عظيماً، القلوب مجتمعة والأبدان مجتمعة، ولذلك هو قريب من صفوف الناس في المساجد، قريب من الصفوف في الجهاد، فالله لما ذكر وأخبر أنه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً، جاءت هذه السورة لتبين أيضاً أن الله يحب الاجتماع، ويحب أن تكون الصفوف متحدة في الجمعة وفي غير الجمعة، ففيه اتحاد أو اتفاق بين هذا وهذا.

(سورة الجمعة) أيضاً بينها وبين (سورة الصف) توافق؛ حيث إن (سورة الصف) افتتحت بـ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ [الصف: ١]، وجاءت (سورة الجمعة) مفتتحة بـ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ١] بصيغة المضارع، فالماضي يثبت التسبيح وأنه ثابت، والمضارع يفيد كثرة التسبيح واستمراره وأنه لا ينقطع.

(سورة الجمعة) تحدثت عن فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه الأمة في أولها وفي آخرها؛ فضل الله أنه بعث فيهم رسولاً هو أفضل الرسل وهو الرؤوف الرحيم بأمته، وبعث فيهم الرسول وأنزل عليهم الكتاب.

وبين وظيفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يعلم الناس الكتاب والحكمة ويزكيهم ويطهرهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ففضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذه الأمة أن بعث فيهم هذا الرسول الكريم الذي كان رحمة عليهم، فهذا فضل الله عليهم.

ثم إن في آخر السورة فضل الله أن شرع لنا هذه الصلاة العظيمة صلاة الجمعة، وأمرنا أيضاً بالسعي إليها والتبكير لها لما فيها من فضائل عظيمة، وهذا اليوم هو عيد المسلمين يجتمعون فيه ويتفرغون له؛ ولذلك الصلاة لها شأن عظيم، وورد في فضلها والحث عليها أحاديث كثيرة.

وأما (سورة الجمعة) فقد ورد فيها أيضاً أحاديث في فضلها؛ فـ (سورة الجمعة) تقرأ يوم الجمعة في صلاة الجمعة، تقرأ في الركعة الأولى وفي الركعة الثانية (سورة المنافقون)؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرا هذه السورة (سورة الجمعة) في الركعة الأولى وفي الثانية (المنافقون).

وأحياناً يقرا في الركعة الأولى (الجمعة) وفي الثانية (الغاشية)، كل ذلك جائز ووارد وهو سنة؛ تذكيرًا للمسلمين بهذه السورة وتحذيراً من عدوهم (اليهود).

وكذلك أيضاً (سورة المنافقين) تذكيرًا بالاستعداد والتأهب لليوم الآخر كما ذكر في آخرها، وتحذيراً من صفات المنافقين الذين يتخلفون عن صلاة الجمعة والذين هم أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء المؤمنين، هذا ما يتعلق في فضل هذه السورة.

أما في فضل صلاة الجمعة فأحاديثها كثيرة، والنبي ورد عنه أحاديث كثيرة بفضل التبكير والاغتسال والتطهر والتطيب؛ «مَنْ غَسَلَ وَاغْتَسَلَ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَدَنَا مِنَ الإِمَامِ وَأَنْصَتَ؛ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ».

☜ **وحذر النبي أيضاً من ترك صلاة الجمعة وقال:** «مَنْ تَرَكَ ثَلاَثَ جُمَعٍ طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ»، فأكد على الاهتمام بصلاة الجمعة، حتى ذكر أهل العلم يعني أن من أراد أن يسافر في يوم جمعة فيكره له ذلك؛ لأنه تفوت عليه جمعة؛ لأنهم كانوا في السابق إذا خرج من البلدة في أول النهار قد تفوته الجمعة.

ولذلك كرهوا السفر. أما في وقتنا الحاضر في الطائرات وفي السيارات والمدن متقاربة والسيارات تؤدي الغرض، فهذا الأمر يكون فيه الأمر أوسع؛ فمن خرج من بيته يوم الجمعة صباحاً أدرك الجمعة ولو في الطريق.

فالشاهد أن صلاة الجمعة فضلها عظيم، وأيضاً شأنها عظيم؛ الشريعة حذرت من التهاون بترك صلاة الجمعة، حتى إن مما يدل على ذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرم البيع بعد الأذان لأهمية الصلاة: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ [الجمعة: ٩].

وكذلك أيضاً أمر بالإنصات لخطبة الجمعة، وأن من تكلم أو قال لصاحبه أنصت أو فعل شيئاً من مس الحصى فلا جمعة له، فالأمر يدل على أهمية الجمعة وأن شأنها عظيم، وينبغي الاعتناء والاهتمام بها لا كما نرى من بعض أحوال الناس، يأتي متأخراً ويأتي بعد الأذان الثاني.

ويأتي والامام يخطب أو يأتي والامام يصلي، ويأتي بأي ملبس يلبسه، تجد بعضهم يأتي بملابس النوم أو ببعض البدل ونحوها والبناطيل، يأتي من غير أن يشعر نفسه بأهمية هذا اليوم.

هذا اليوم اغتسال وتطيب ولبس أحسن الثياب والمشي للصلاة والتبكير، حتى ورد أن التبكير لصلاة الجمعة من كان قريباً من الإمام في الدنيا وأصبح في الصف الأول وقريباً من الإمام فإنه إذا جاء يوم القيامة ودخل أهل الجنة الجنة.

ونعرف أن هناك الزيارة **(يوم المزيد)**، يزورون رب العالمين، فقربهم من رب العالمين هو قربهم في الدنيا، فمن كان قريباً من الإمام يوم الجمعة كان قريباً ودنوه على دنو ما كان يفعله في الدنيا.

الكلام طويل في فضل الجمعة، ولكننا لا نريد الإطالة، نريد أن ندخل على السورة/ السورة افتتحت بالتسبيح؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجمعة: ١].

عرفنا التسبيح: هو تنزيه الله عن صفات النقص، ووصفه بصفات الكمال.

- **من الذي يسبح لله؟**

الذي يسبح لله كل من في السماوات وما في الأرض، كلهم يسبحون لله، حتى السماوات والأرض تسبح لله وكل المخلوقات، حتى الحجارة والجبال والشجر والحجر، كل هذه تسبح لله لا تنتظر تسبيح المؤمن أو بني آدم الذي بعضهم يسبح وبعضهم لا يسبح، لا، هي تسبح الله، ألم يخبر أنها سبحت ولا تزال تسبح؟

هنا فعل مضارع: ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ لا تزال تسبح مستمرة، قال: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، كل ما في السماوات وما في الأرض خاضعة مطيعة تسبح لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لماذا؟

لأن الله هو (الملك) الذي يملك الدنيا والآخرة، هو مالك كل شيء، وكل هذا الملك وكل هذا الملكوت وكل هذه المخلوقات هي ملك لله، يتصرف فيها كيف يشاء من غير منازع، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المالك لهذا الكون، فمن كان مالكاً لهذا الكون استحق أن يسبح وأن يعظم وأن يجلل.

ثم أيضاً ذكر أنه أيضاً (القدوس)، هذه أسماء ويستنبط منها الصفات؛ فإذا قلت الملك اسم، والملك صفة، والقدوس هو المتطهر من كل نقص الذي يتطهر من كل ما لا يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فنقدسه ونعظمه كما قالت الملائكة: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فتقديس الله تعظيمه، فهو القدوس سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ثم قال: (العزيز) ذو العزة والقوة والغلبة الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، و(الحكيم) الذي يضع الأمور مواضعها، حكيم في صنعه، حكيم في تدبيره، حكيم في أحكامه وفي خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أربعة أسماء: ملك، قدوس، عزيز، حكيم.

- **قد يأتي شخص ويسأل يقول: السور التي قبلها في التسابيح في (الحديد) و(الحشر) و(الصف) فيها (العزيز الحكيم)، هنا زادت؟**

الجواب: زادت لأن السورة تتحدث عن شيء عظيم وهو (صلاة الجمعة)، وشيء عظيم وهو (بعثة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وفضل هذه الأمة، والتحذير من عدوها (اليهود)، وبيان أن (اليهود) لا يستحقون أن يكونوا خليفة الله في أرضه؛ لأنهم كلفوا فلم يقوموا بما كلفوا به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك شوف قال من فضله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقوته وعزته وحكمته أنه بعث في الأميين الرسول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

(الأميون) هم العرب الذين لا يقرأون ولا يكتبون، لا قراءة ولا كتابة، يعني على ما ولدوا لم يتعلموا، فبعث الله فيهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والنبي أمي؛ النبي الأمي الذي لا يكتب ولا يقرأ يأتي بهذا الكتاب العظيم، هذا إعجاز من الله.

قال: ﴿بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾، وهذا استجابة لدعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، فاستجاب الله فبعث فيهم خير رسله وأفضل الرسل وخاتم الرسل.

﴿وَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾؛ القرآن الكريم يقرأه عليهم، وشوف كلمة ﴿يَتْلُو﴾ غير يقرأ؛ لأن التلاوة هي قراءة مع بيان المعاني والدلالات، فهو يتلو ويقرأ عليهم هذه الآيات.

قال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ يطهرهم من الأخلاق السيئة والآداب الفاسدة والعقائد المنحرفة، يزكيهم حتى يزكو الواحد منهم وينمو بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويتطهر من كل دنس ومن كل خلق سيء أو معتقد فاسد.

قال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ يعلمهم القرآن ويعلمهم السنة، ويعلمهم أحكام الشرائع، ويعلمهم الحكم التي اشتمل عليها كتاب الله كل ذلك يعلمهم.

وإن كانوا من قبل أن يبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن قبل أن تأتي هذه الرسالة كانوا في ضلال، في ضلال، في شرك وكفر وضلال وظلمات وجهل، فأنعم الله عليهم بهذه الرسالة فخرجوا من هذه الظلمات إلى نور الطاعة.

انظر الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبل بعثة النبي وانظر لما بعث النبي وأسلموا ودخلوا في الإسلام وأصبحوا مجاهدين في سبيل الله يرفعون راية الإسلام، شوف كيف الفرق! انظر قبل ذلك كيف كانوا؟

كان يعبدون، كان منهم من يعبد الأصنام، فلما جاء الإسلام صاروا يعبدون الله حق العبادة ركعاً سجداً، فهذا فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾.

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فضل النبي وفضل الرسالة حتى على من جاء بعد صحابة النبي؛ قال تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ٣].

أي يعلم هؤلاء ويعلم آخرين، ويتلو على هؤلاء ويتلو على آخرين؛ فرسالة النبي قائمة ومستمرة ودائمة، قال: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، يقول: آخرين سيأتون بعدهم من الأمم الداخلة في الإسلام لما يلحقوا.

يقول: لم يلحقوا الآن ولكنهم سيلحقون؛ لأن كلمة ﴿لَمَّا﴾ تختلف عن (لم)؛ لو قالوا: آخرين منهم لم يلحقوا يعني لا يلحقون، لكن لما يقول: ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا﴾ أي سيلحقون بهم، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قريء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه الآية على الصحابة، فسأله رجل فقال: آخرين منهم يا رسول الله، من هم؟

وكان عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سلمان الفارسي، فوضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده على عاتق سلمان أو على ظهره وقال: «لَوْ كَانَ الإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلاَءِ» - أو رجال من فارس -.

فتأمل أنت في تاريخ الإسلام كيف دخل أولئك الأعاجم في الإسلام وصاروا أئمة العلم والفقه والتفسير والحديث!

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

ثم بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال اليهود وقصصهم؛ قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

حمل التوراة يعني لقراءتها وتعلمها والعمل بما فيها من أحكام، ثم لم يحملوها لم يعملوا بها، بل حرفوا وبدلوا وغيروا. قال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾؛ الحمار يحمل الأسفار، يحمل الكتب العظيمة الكبيرة، لكن ما يدري هل الذي على ظهره كتب، أو الذي على ظهره حجارة؟!

لا يدري ما يميز، فهؤلاء مثلهم **(اليهود)**، مثل هؤلاء ما يميزون ولا يعرفون ولا يفقهون، حرموا ذلك؛ ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، يقول: هذا بئس وذم مثل هؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله ولم يؤمنوا بها، وهم يعرفون أن رسالة محمد على الحق، وهم يعرفون أوصاف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومع ذلك كذبوا وردوا رسالة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: ﴿وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ الظالم لا يهديه الله ما دام مقيماً على ظلمه، فاسقاً بعيداً عن الحق، فلو تاب تاب الله عليه.

ثم يخاطب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى (اليهود) وينادِيهم أو يخاطب نبيه منادياً لليهود: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦].

قل يا محمد لهؤلاء (اليهود)، وقل أيها المخاطب ويا أيها المؤمن لهؤلاء (اليهود) الذين هادوا: إن زعمتم أنكم من أتباع موسى طائفة انفصلت عنهم واعتقدت معتقدات أخرى، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[الجمعة: ٧].

وفي سورة (البقرة) قال: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً﴾[البقرة: ٩٥]، يعني لن يتمناه الآن، و﴿وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ ولا في المستقبل، شوف بين هذا وهذا، أبداً ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ذنوبهم ومحبتهم للدنيا وتحريفهم وكفرهم، بما قدمت أيديهم بأعمالهم السيئة، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

شوف وصفهم بالظالمين مرة أخرى؛ الله في الأول قال: ﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وهنا قال: ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، عالم بأحوالهم وبظلمهم لا يخفى عليه من ظلمهم أي شيء، فهو عالم بهم ولذلك سيحاسبهم ويجازيهم.

ثم قال مرة أخرى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجمعة: ٨].

قل لهم يا محمد وقل لهم أيها المخاطب ويا أيها المؤمن، قل لهؤلاء وحاجهم: قل إن الموت الذي أنتم تخافون منه ولا تريدون أن تتمنوا الموت، هذا الموت سيأتيكم، تفرون منه سيلاقيكم مهما كان، ما من نفس إلا وسينزل بها الموت، سينزل بها الموت.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، بعد الموت النتيجة بعد الموت، ثم تردون سترجعون في يوم البعث ويوم الجزاء والحساب إلى رب العالمين الذي يعلم الغيب والشهادة، يعلم ما غاب وما حضر الغيب والشهادة، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأخباركم وأعمالكم ويجازيكم؛ فإذا أنبأكم وأخبركم جازاكم عليها.

طبعاً أيها الإخوة، الوقت يضيق ونحن لا نريد الإطالة عليكم، بقي في السورة قليل من الآيات ولكنها مهمة وهي ما يتعلق بـ(صلاة الجمعة)، فلعلنا إن شاء الله في لقائنا القادم نستكمل بقية الآيات وندرس شيئاً من السورة التي تليها بإذن الله.

نسأل الله أن ينفعنا بما وقلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الجمعة ٩ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو يوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر من شهر صفر من عام ١٤٤٨ هـ من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

(سورة الجمعة) نحن في لقائنا الماضي اخذنا شيئاً من آياتها وبقي عندنا خاتمة السورة، وخاتمة السورة هي الحديث عن صلاة الجمعة، والسورة سميت بـ(سورة الجمعة) لأن المقصد منها حقيقة هو الحديث عن صلاة الجمعة.

لأن الله فضل هذه الأمة بأن وفقها لاغتنام هذا اليوم الفاضل عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. هذا يوم فضيل عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أمر (اليهود) أن يعظموه فأبوا وعظموا (السبت) فضلوا.

وأمر (النصارى) أن يعظموا (الجمعة) فتركوه وعظموا (الأحد) فضلوا، وهدى الله هذه الأمة ودلها على هذا اليوم العظيم وهو (يوم الجمعة)، فاغتنمت هذا اليوم وعرفت قدر هذا اليوم، فوفقها الله لأن تكون على هداية بخلاف الأمم التي ضلت.

السورة تلاحظ أنت من بدايتها وهي ثناء من الله على هذه الأمة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، هذا أعظم فضل لهذه الأمة أن بعث فيها أفضل الرسل على الإطلاق، وهذا الرسول حريص على الأمة أشد الحرص؛ بعث الله فيهم رسولاً يعلمهم (الكتاب والحكمة)، ويعلمهم العلم والتعلم والهداية، يتلو عليهم آياته: القرآن الكريم.

فلولا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغ أمته هذا القرآن لما كانوا يعرفونه، ولكنه من شدة حرصه إذا نزلت عليه الآيات مباشرة بلغ أصحابه بهذه الآيات القرآنية، فهم يحفظون في صدورهم فبلغوه لمن جاء

بعدهم: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [الجمعة: ٢]، يطهرهم من (الشرك) فحفظوا أنفسهم بـ(التوحيد)، ويطهرهم من الذنوب كبائر الذنوب وصغائرها، ويطهرهم من الأخلاق السيئة.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له فضل علينا، فضل عظيم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فعلمنا هذه الأشياء، تجد الإنسان يتخلق بالأخلاق الطيبة والكلم الطيب، ولا يتحدث إلا بشيء طيب نافع، ويجتنب الأرجاس والأنجاس في الكلام وفي اللسان وفي الأخلاق وفي التعامل.

هذا معنى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ يزكيهم بالطهارة، بالعلم، يزكيهم بتكفير الذنوب، فهذا فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ببعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]؛ فتعلموا وعرفوا القرآن وفضله وتلاوته وما فيه من العلوم والحكم والأحكام، والسنّة أيضاً كذلك، وكانوا من قبل في ضلال.

ثم ذكر الله حال (اليهود) أنهم حملوا علوماً كثيرة وحملوا أحكاماً كثيرة لكنهم لم يعرفوا قدرها ولم يعملوا بها، فشبههم الله بـ(الحمير) التي تحمل على ظهرها الكتب العظيمة ولكنها لا تستفيد؛ تحمل الكتب أو تحمل الحجر لا فرق عندها!

و(اليهود) كذلك حملوا (التوراة) ولم يعملوا بها، بل حرفوا وبدلوا وغيروا وحكموا بغير ما أنزل الله فضلوا وأضلوا، هذه الأمة فضلها الله على سائر الأمم، وهذه السورة التي تبين فضل هذه الأمة تختم بأعظم شيء في دينها وهي (صلاة الجمعة) التي هي عيد المسلمين يجتمعون فيه ويعرفون قدر هذا اليوم، يجتمع فيه القاصي والداني.

ولا تتصور الآن كثرة المساجد التي تقام فيها الجمعة؛ كان في السابق تجد القرية الواحدة أو البلدة الصغيرة ليس فيها إلا جامع واحد، يجتمع أهل البلدة جميعهم لا يتخلف منهم أحد، الصغار والكبار ومن هم حول البلدة من المزارع المحيطة بالبلدة، يجتمعون كلهم يأتون مبكرين.

حتى ذكر أنهم كانوا يأتون قبل طلوع الشمس ومنهم من يأتي مع طلوع الشمس، فيجتمعون بلباس نظيف وهيئة نظيفة بعد اغتسال وتطيب، ويأتون الصف الأول فالأول حتى يكتمل المسجد تلاوة وذكراً وصلاة ويجتمعون.

ثم بعد الصلاة يقابل بعضهم بعضاً ويسلم بعضهم على بعض، فيستفيدون من هذا الاجتماع الطيب في هذا اليوم، يستمعون للخطبة التي تلقى على أسماعهم، يأتون مقبلين على هذه الصلاة.

ولذلك الله سبحانه عظم هذه الصلاة ونادى المؤمنين في هذه السورة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

- **وعرفنا الصلاة، هذه ما هي؟**

هي (صلاة الجمعة)؛ لماذا؟ لأنه ذكر الجمعة فيها، ولأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، والبيع يحرم ويبطل إذا عقد في صلاة الجمعة أو أثناء الخطبة، بخلاف الصلوات الأخرى فإن البيع يحرم لكن لا يفسد وينعقد البيع، لكن الجمعة لا ينعقد ويفسد ويحرم؛ لأن الله نص عليه فقال: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾؛ اتركوا البيع وأقبلوا على الجمعة، فدل على أن المراد بذلك صلاة الجمعة.

والمراد بالنداء هنا: النداء الذي كان في عصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان في عصر أبي بكر الصديق، وكذلك في عصر عمر، وكذلك حقبة من زمن عثمان؛ كان النداء واحداً إذا دخل الخطيب وصعد المنبر وسلم على الحاضرين شرع المؤذن في الأذان.

هذا هو أذان الجمعة، ثم لما اتسعت المدينة وكثر سكانها، أمر الخليفة (عثمان) رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه بأن يؤذن الأذان الأول قبلها بساعة أو أقل أو أكثر لتذكير الناس بيوم الجمعة، فكان يؤذن الأذان الأول.

☜**والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي»، فسنة الخلفاء سنة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأنه نص صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمر باتباعها.

فبعد ذلك صار الأذان أذانين: الأذان الأول والأذان الثاني؛ الأول للتذكير والبيع فيه جائز والناس يبيعون في وقت الأذان الأول وبعده، لكن إذا أذن المؤذن الثاني الذي هو عند دخول الخطيب، فهذا الذي يحرم البيع.

☜**قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:** ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، السعي إلى الصلاة أمر منهي عنه إذا أقيمت الصلاة: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَلاَ تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ، وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ؛ فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا». فكيف نجمع بين هذا الحديث وهذه الآية؟

- **الآية تقول: ﴿فَاسْعَوْا﴾ والحديث يقول: لا تسعون، لا تأتون الصلاة وأنتم تسعون! فكيف نجمع؟**

الجواب: ﴿فَاسْعَوْا﴾ في الآية غير السعي هذا؛ الحديث يقول لك: إذا أقيمت الصلاة، يعني إذا سمعت المؤذن يقول: **"قد قامت الصلاة"**، فلا تسع لها بمعنى أنك تركض وتمشي مشياً سريعاً، هذا منهي عنه؛ لأن المطلوب منك أن تمشي بسكينة ووقار.

لكن السعي في الآية ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ليس مقصوداً به السعي الركض، إنما مقصود به المضي للجمعة وترك الأعمال وترك الأشغال والاستعداد لها والتهيؤ لها، بمعنى أنك إذا كنت منشغلاً بأعمال يجب عليك أن تطلق وتترك عملك وتنطلق للصلاة.

هذا المقصود بالسعي؛ بمعنى أنه يتهيأ قبلها ويستعد بالاغتسال والتطيب ولبس الثياب الطيبة الجديدة النظيفة، ثم التوجه للمسجد، يعني يهيئ نفسه ويمضي مبكراً، ولذلك جاءت أحاديث كثيرة في الحث على الذهاب إلى صلاة الجمعة مبكراً.

قال: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، سمى الخطبة والصلاة ذكراً: **(ذكر الله)**؛ لماذا؟ لأنها مشتملة على الذكر، فالخطبة كلها في ذكر الله وتذكير والمواعظ ووعظ الناس وتذكيرهم، وكذلك الصلاة، فهذا هو ذكر الله، قال: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ بما ينفعكم، ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾؛ اتركوا البيع والشراء.

- **لماذا لم يذكر الشراء؟**

لأنه إذا وجد البيع وجد الشراء، وإذا لم يوجد البيع لا يوجد شراء، فذكر البيع والمقصود بالبيع هنا سائر المعاملات، جميع المعاملات حتى الإيجارات وغيرها من سائر المعاملات والعقود لا تجوز.

ولذلك حكم أهل العلم على أن البيع باطل ولا يصح ويفسد ويجب على صاحبه أن يتوب إلى الله ويستغفر، فلا يجوز البيع ولا يجوز أي عقد من عقود المعاملات كالإجارة ونحوها.

وكذلك الذين يبيعون **(السواك)** عند المساجد لا يجوز لهم أن يبيعوا السواك بعد إذا شرع المؤذن في الأذان الثاني، لا يجوز لهم أن يقفوا وأن يشتغلوا عن الصلاة.

قال: ﴿ذَلِكُمْ﴾؛ أي سعيكم وإقبالكم ومضيكم للصلاة وترككم البيع والاشتغال بالدنيا، ﴿خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الذي ينفعكم، هذا الذي ينفعكم.

فإذا قضيت الصلاة، أدى الخطيب خطبته وقام الناس وصلوا وقضيت الصلاة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

﴿فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾؛ أي امضوا في الأرض واسعوا في الأرض والتقلب في الأرض والمشي في مناكبها. ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾؛ أي انتشروا في الأرض وامشوا في مناكبها لأداء أعمالكم، وكل ما يكون فيه لكم نفع من طلب التكسب والربح والرزق.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾؛ أي من خيره وإنعامه، اطلبوا الخير من الله بالتعامل المباح والبيع والشراء المباح لا المحرم.

فانتشاركم في الأرض لطلب الرزق هذا أمر أباحه الله لكم، فهو على وجه الإباحة ليس أمراً واجباً وليس أمراً مندوباً، إنما هو لطلب الرزق لمن شاء.

ثم نبههم على أمر؛ لأن أحياناً تجد من الناس من يشتغل بالبيع والشراء ويغفل عن ذكر الله، ولذلك حثهم وقال: لا تشتغلوا في الدنيا وتنسوا حقكم من الآخرة، قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾، ما قال اذكروا الله، قال: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾؛ الإكثار من ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولو تأملت في القرآن لم تجد في القرآن شيئاً أمر الله به بكثرة إلا الذكر؛ شوف قال هنا: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٤١]؛ فلا تجد شيئاً يأمر الله بالكثرة فيه إلا ذكره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً﴾.

ثم بين لك الحكمة أو الغاية السامية من ذكر الله وعدم غفلتك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ تفلحون في الدنيا وتوفقون للخير، وتفلحون في الآخرة وتوفقون لخير الآخرة.

وفيه أيضاً إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغي له أن يشتغل لأجل الدنيا وأن ينسى حق الله من الاهتمام بالذكر والتسبيح والاشتغال؛ لأن هذا يوم جمعة يوم فضيل، لا يضيع عليك بالبيع والشراء ويذهب عليك، وإنما تعطي كل ذي حق حقه.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[الجمعة: ١١].

هذه الآية تحكي حالاً وقعت في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك ذكر أهل التفسير سبب نزول هذه الآية: وهو أن المدينة وأهل المدينة أصابهم شيء من الجوع والفقر، وأصابهم شيء من ارتفاع الأسعار وقلة ما يحتاج الناس إليه من المواد الغذائية ونحوها.

ففي ذلك اليوم، يوم الجمعة، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائم على المنبر يخطب، أقبلت عير من الشام فيها ما فيها من الخير ومحملة بالأرزاق الكثيرة. فلما وصلت، كان الناس في ذلك الوقت إذا أقبلت القافلة العظيمة يضربون الدفوف أمامها ليعلموا الناس في بيوتهم أنه قد أقبلت العير.

فلما ضربوا بها وسمع بعض الصحابة وهم في المسجد، خرجوا مباشرة لما سمعوا هذه الدفوف خرجوا والنبي يخطب على المنبر، خرجوا لهذه العير لحاجتهم؛ لأن أصبح هناك جوع وغلاء أسعار، فخرجوا ولم يبق مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا اثنا عشر رجلاً!

فنزلت هذه الآية عتاباً لهم وتوجيهاً لغيرهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْا﴾، شوف جاءت بأسلوب الغائب؛ ما يريد الله سبحانه أن يخاطبهم مباشرة، ما قال: **"وإذا رأيتم"**، قال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا﴾؛ يعني أناس رأوا تجارة وهي العير التي أقبلت، ﴿أَوْ لَهْواً﴾ الدفوف التي تضرب.

﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾؛ انفضوا يعني خرجوا وتفرقوا من عندك، انفضوا إليها وتركوك قائماً تخطب ليس عندك إلا العدد القليل. ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِماً﴾؛ تصوير لحال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو واقف يخطب على المنبر والناس ينصرفون ويخرجون ويتركونه وراءهم.

☜**ولذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «لَوْ خَرَجُوا جَمِيعًا لَبَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمْ نَاراً - أَوْ لَسَالَ الوَادِي نَاراً عَلَيْهِمْ -». فجاء الوعيد الشديد في الانشغال أو الخروج من وقت الخطبة إلا لحاجة ماسة.

ثم قال: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾؛ قل لهم: الذي عند الله من الثواب والخير هو أعظم من الانشغال بهذه الأمور، ما عند الله من الأجور العظيمة وما أعد الله للمصلين من رزق الدنيا والآخرة. ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

في خاتمة السورة وردت أحاديث تدل على فضل يوم الجمعة وفضل الصلاة والتحذير من تركها أو التهاون بها:

☜**جاء في حديث رواه (مسلم) أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ؛ فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ».

☜**جاء أيضاً عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال:** «نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ لَهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ؛ اليَهُودُ غَداً، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ». فهذا فضل من الله أننا هدينا لهذا اليوم ولم نضل كما ضلوا.

☜**جاء في حديث أيضاً رواه (مسلم) قال:** «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الغَافِلِينَ»؛ وهذا تهديد أن هناك من يترك الجمعة، فإذا تركها وتهاون فيها ختم الله على قلبه، وإذا ختم على قلبه فإن قلبه لا يقبل خيراً فيصبح من الغافلين والضالين، وهذا وعيد شديد.

وأول من جمع الجمعة بالمدينة **(لأن الجمعة لم تكن بمكة وإنما كانت بالمدينة)** قيل إنه **(مصعب بن عمير)** الذي هاجر قبل هجرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع المهاجرين الأوائل، فأقام الجمعة لهم.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أول جمعة صلاها عندما وصل المدينة فنزل بـ**(قباء)**، وأمر ببناء **(مسجد قباء)** في **(بني عمرو بن عوف)**، ثم إنه لما مكث عندهم أياماً خرج متوجهاً إلى المدينة، وفي الطريق صادفته الجمعة في وادٍ وصله بين قباء والمدينة، فحالت صلاة الجمعة فجمع أصحابه وخطب، وهي أول خطبة خطبها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة ثم صلى بهم الجمعة.

أما الأحاديث الواردة في الحث على التبكير بالحضور إلى الجمعة والاغتسال والتطيب ولبس أحسن الثياب:

☜**جاء في (البخاري) و(مسلم) أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:** «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً».

وقدر بعض أهل العلم المعاصرين هذا الوقت من طلوع الشمس إلى زوالها؛ فتقسم الوقت إلى خمس ساعات من طلوع الشمس إلى أذان الظهر، وإلى الآن في بعض المساجد الكبيرة في (الرياض) نجد من يأتي بعد صلاة الفجر مباشرة ومنهم من يأتي بعد طلوع الشمس، فيغتسل ويلبس أحسن الثياب ويتطيب ويأتي للجمعة ويشتغل بالصلاة وقراءة القرآن حتى يدخل الإمام.

وورد أن تقدم الإنسان للجمعة وقربه من الإمام يكون سبباً لقربه من الله في (يوم المزيد) في الجنة؛ لأن أهل الجنة يزورون ربهم سبحانه، فقربهم في الجنة كقربهم من الإمام في الدنيا يوم الجمعة.

☜**كما جاء في الحديث النهي الشديد عن ترك ثلاث جمعات:** «مَنْ تَرَكَ ثَلاَثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ».

ومن آداب يوم الجمعة أيضاً: كثرة الصلاة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يومها وليلتها، وقراءة (سورة الكهف)، واغتنام (ساعة الإجابة) التي أرجح أقوال أهل العلم أنها عند دخول الخطيب وصعوده المنبر وأثناء الصلاة، وكذلك آخر ساعة بعد العصر إلى غروب الشمس.

نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الْمُنَافِقُون)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(المنافقون)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علما وعملا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، وهو يوم الثلاثاء الموافق للحادي لشهر صفر من عام ثمان وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة (١٤٤٨ هـ)، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا في (تفسير القرآن العظيم)؛ وبعدما أنهينا سورة (الجمعة)، السورة التي تليها هي سورة (المنافقون). وبين (الجمعة) و(المنافقون) تشابه أو ترابط، وهذه جاءت منتظمة بعد هذه، فبينهما علاقة قوية وثيقة.

- **ما هي العلاقة؟**

العلاقة بينها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما كان يصلي الجمعة، كان يقرأ في الركعة الأولى سورة (الجمعة)، وفي الركعة الثانية (المنافقون). لماذا؟

أنت تقرأ سورة (الجمعة) تجد أن الله ذكرنا وبين لنا موقف اليهود؛ اليهود بين موقفهم من شريعتهم، الله أعطاهم الشريعة وفضلهم على كثير من الخلق، وأرسل إليهم رسلا، أنعم عليهم بنعم عظيمة منها أنه أنزل عليهم هذا الكتاب الذي أنزل على موسى وهو (التوراة).

لكنهم ضيعوا ولم يحملوا هذه الرسالة على وجهها الصحيح، بل حرفوا وبدلوا، وقتلوا الأنبياء، وآذوا الصالحين، وأساؤوا وأفسدوا في الأرض.

فأخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنهم حملوا (التوراة) ولم يحملوها على ما أراد الله، فشبههم الله بالحمير؛ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]؛ الحمار -أعزكم الله- يحمل على ظهره الكتب.

إذا حمل كتبا يحمل على ظهره لكن لا يدري ما هي، هل هي حجارة أو كتب؟

لا يدري ولا يميز، فهؤلاء اليهود حملوا (التوراة) ولم يحملوها، لم يفرقوا بينها: هل هي كتب؟ هل هي (التوراة)؟ هل يعمل بها أو هي مثل غيرها؟

لا يعرفون! ولذلك الله سبحانه حذرنا أن نصير مثل هؤلاء اليهود الذين ضيعوا دينهم واشتروا به ثمنا قليلا، فلنحذر أن نضيع ديننا كما ضيعوه فضاع عليهم دينهم.

الجانب الآخر: هذه الركعة الأولى التي يقرأ فيها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صلاة الجمعة سورة (الجمعة) يذكرنا بفضيلة الجمعة، ويحذرنا أن نقع فيما وقع فيه اليهود.

والركعة الثانية: يقرأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سورة (المنافقون) يذكرنا بـ(العدو الداخلي)؛ عندنا أعداء في الخارج وأعداء في الداخل، الأعداء في الخارج في زمن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان اليهود والنصارى والمشركون، هؤلاء هم أعداء الإسلام وعداوتهم ظاهرة على ألسنتهم، وقد صرحوا بالكفر والعداوة.

المنافقون في الداخل عداوة داخلية لا يشعر بها المسلمون، وهم أخطر في صفوف المسلمين؛ ويصلون مع المسلمين، ويتصدقون، ويجاهدون، ولكنهم شر، وعداوتهم خفية لكنها خطيرة جدا لا يشعر بها المسلم. ولذلك كشف الله عوارهم، وكشف سترهم، وأبان حقيقتهم.

وهذه السورة التي بين أيدينا، سورة (المنافقون)، كلها في المنافقين، في بيان علامات النفاق؛ «إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ»، وعلامات في أحاديثهم وكلامهم، وفي أفعالهم، وفي أخلاقهم.

كل السورة تتحدث عن شيء من صفات المنافقين، وتحذر الأمة الإسلامية أن يسلكوا مسلكهم؛ ولذلك الله ختم السورة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]، كما ألهت المنافقين وضيعتهم.

الأمر الثاني أيضا: سورة (المنافقون) الله سبحانه كشف عوارهم وكشف سترهم في سور كثيرة؛ تقرأ في (البقرة) يبين: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

وتقرأ في (آل عمران): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وأيضا ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، هؤلاء المنافقون في سورة (آل عمران).

وأيضا في سورة (النساء): ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]. وفي سور كثيرة كـ(المائدة) و(التوبة): ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، وكثير: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤]. آيات كثيرة كلها في المنافقين، فضحهم الله وأزال سترهم، وبين حقائقهم، وبين علاماتهم: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

هذه السورة بين أيدينا تتحدث عن المنافقين، افتتحها الله بقوله: ﴿إِذَا﴾ الشرطية، وهي تفيد الاستقبال؛ أي: إذا جاءك يا محمد -والخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضا يصلح لكل مخاطب، لكل مسلم، إذا جاءك أنت أيها المسلم، أنا وأنت والثاني والثالث.

إذا جاءنا المنافق نعرفه، وادعى أنه مؤمن ونحن نعرف أنه منافق، هذا نعرف ونحذر منه، الله عَزَّ وَجَلَّ يخاطب نبيه محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١].

لاحظ كيف الجملة مؤكدة بمؤكدات عجيبة: أول شيء قالوا ﴿نَشْهَدُ﴾، ونشهد هي كأنها قسم بمنزلة القسم؛ لما تقول: **"أشهد أني حضرت"**، **"أشهد أني رأيت فلانا"**، هذه كأنك تحلف يمينا.

ثم قالوا: ﴿إِنَّكَ﴾، **"إن"** المؤكدة. ثم أدخلوا اللام على الخبر: ﴿لَرَسُولُ اللَّهِ﴾، يشهدون أنك يا محمد رسول الله.

هذه شهادتهم كذب، الله ما قال: "الله يشهد أنهم لكاذبون" وسكت، بل قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]؛ يعني لا نحتاج إلى شهادة المنافق، الله يعلم.

ولذلك جاءت هذه الجملة معترضة داخلة بين هذا وهذا؛ لأنهم لما قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾، رد عليهم قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾؛ **"إن"** مؤكدة، واللام في ﴿لَكَاذِبُونَ﴾، يعني شهادتهم كذب في كذب. وإذا ادعوا وحلفوا أيمانا -والمعروف أن المنافق يكذب ولسانه كذب في كذب، و«**إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ**»-، أيمانهم كلها كذب في كذب؛ يظهرون على ألسنتهم ويخفون في قلوبهم الشر والكفر.

قال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾، كيف عرفنا؟ قال: لأنهم ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢]. أيمانهم يعني الحلف والأقسام، اتخذوا أيمانهم جنة يعني وقاية حتى لا يفضحوا، وهم كثير ما يحلفون.

ولذلك تقرأ في سورة (التوبة) كثيرا: يحلفون ويحلفون، وفي سورة (المجادلة): ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١٨]، كله كذب في كذب.

فاتخذوا وجعلوا هذه الأحلاف واليمين والأقسام جنة، يعني وقاية تحفظ لهم أموالهم وتحفظ لهم دماءهم؛ فإذا حلفوا خلاص، المؤمن إذا حلف له لا يستطيع أن يكذبه أو يرد يمينه.

الحلف هذا تأكيد على صدق ما يقول، قال: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٢]؛ صدوا أنفسهم، منعوا أنفسهم من الدخول في الإسلام، وصدوا غيرهم، أعرضوا وعلموا غيرهم ومنعوا غيرهم عن سبيل الله، وشوهوا صورة الإسلام وصدوا الناس عنها.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢]؛ يعني عملهم سيئ عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ كيف تفعلون هذا الشيء؟ تكذبون، وتتخذون أيمانكم جنة، تحلفون أيمانا كاذبة، وتصدون الناس وتصدون أنفسكم!

- **ما حقيقة هؤلاء المنافقين حتى نعرفهم؟**

قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ [المنافقون: ٣]؛ يعني فعلوا هذه الأفعال لأنهم في بداية الأمر آمنوا ثم كفروا.

- **كيف آمنوا ثم كفروا؟**

إما أنهم دخلوا في الإسلام، ولما رأوا جمال الإسلام وما تميز به الإسلام أخذوا الإسلام في ظاهرهم وكفروا في داخلهم، فآمنوا في ظاهرهم وكفروا في قلوبهم؛ أو أنهم آمنوا حقيقة ثم ارتدوا، ارتدوا لأنهم إنما آمنوا لمصالح معينة فارتدوا، ولكنهم لم يرتدوا كارتداد الكفار، ارتدوا في داخل أنفسهم فأظهروا أمام الناس أنهم ما زالوا مع المؤمنين. ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

فلما فعلوا هذا الفعل -أنهم آمنوا في الظاهر وكفروا في الباطن- عاقبهم الله بعقوبة شديدة: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]؛ طبع وختم، يعني أغلق على قلوبهم، فهم لا يفقهون.

لو تأتيهم بكل ما تستطيع لا يفهمون مصلحتهم، ولا يريدون أن يفهموا شيئا ينفعهم في دينهم ولا دنياهم، فقد أغلقوا على أنفسهم، فهذه عقوبة من الله عاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم وختم على قلوبهم؛ لأنهم هم السبب، هم الذين فعلوا الأفعال الشنيعة.

وهذا شؤم وأثر المعاصي والأفعال السيئة على الإنسان؛ حتى في المعاصي، الإنسان أحيانا يزاول بعض المعاصي سواء في خفاء أو أمام الناس، تجد هذه المعاصي لها أثر: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] من الذنوب والمعاصي.

فالإنسان إذا وقع في معصية وزينت له نفسه ووقع في خطأ ومخالفة شرعية، الواجب أن يتوب ويستغفر فيتوب الله عليه، أما أن يزاول ويستمر فهذا هو الذي قد يكون سببا في الطبع على قلبه وصرفه وحرمانه من الخير.

هذه صفة أن ألسنتهم كاذبة، يكذبون ويدعون أنهم يشهدون أن محمدا رسول الله وأنه رسول من عند الله، وهذه أيمان وأحلاف كاذبة، ألسنتهم كاذبة. أما أجسامهم وأبدانهم وصورهم.

اسمع ماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ هيئتهم ومناظرهم منظر جميل، وملبس جميل، واللسان كذب ولكنه في ظاهره جمال.

قال: ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾، تعجبك هيئتهم ومناظرهم، ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ تسمع لحديثهم لفصاحة ألسنتهم، لكن القلوب فارغة، القلوب ليس فيها إيمان، والعقول ليس فيها إيمان ولا فهم ولا علم، وإنما مجرد شكل وصور جميلة وأشكال جميلة واللسان يعجب، ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠].

لكنهم شبههم الله بالأخشاب التي ألقيت على الجدران؛ الخشب إذا لم يستفد منه الإنسان يلقى على الحائط لا يستفاد منه، لكن إذا أريدت الاستفادة منه يوضع في السقوف، في الأبواب، على الطاولات والكراسي.

لكن هؤلاء شبههم الله بـ: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]؛ يعني هم إذا جلسوا في مجلس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتسندوا على الجدران أشباههم أشباه الخشب، لا يستفيدون ولا شيء ولا يرتفع بهم.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾؛ شوف لما يقول لك ﴿مُسَنَّدَةٌ﴾، لو قال **"كأنهم خشب"** فالخشب يستفاد منه، لكنهم ﴿مُسَنَّدَةٌ﴾ موضوعة على الجدران لا تستفيد منها بل تضيق عليك.

قال: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]؛ يظنون كلما سمعوا صوتا أو نادى مناد، يظنون أنه لو سمعوا أحدا يقرأ القرآن أو ينادي أو يتكلم ظنوا أنه يحذر منهم؛ لأنهم كما يقال: **(كاد المريب أن يقول خذوني)**، فهو خائف يتلفت، ليس بمطمئن. ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ كلما سمعوا صوتا يظنون أنهم انكشفت أمورهم.

ولذلك قال الله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]؛ هؤلاء هم أعداؤكم فاحذروهم، قاتلهم الله: لعنهم الله وطردهم من رحمته، أنى يؤفكون: كيف ينصرفون عن طاعة الله وعن الحق وهم يعرفونه وقد دخلوا في الدين؟ قاتلهم الله وطردهم من رحمته.

وهنا الأفضل أن تقف عند قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ يعني ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، ثم تأتي بجملة جديدة تقول: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾؛ لأنك لو وصلتها فقلت **"يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو"** اختل المعنى، وكأن الصيحة هي العدو، لا! ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، كلما سمعوا صوتا عاليا ظنوا أنهم هم الذين يرادون وأن الصائح الذي صاح يريدهم أو يكشف عوارهم.

ثم إنهم أيضا في أخلاقهم السيئة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يخضعون ولا يتواضعون للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يعترفون ولا يندمون على أفعالهم، ولا يرجعون عن غيهم.

شوف: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥]. قيل لهم تعالوا وأقبلوا وتوبوا واعتذروا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنتم فعلتم كذا وكذا، تعالوا والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستغفر لكم؛ لأن مقامه عند الله مقام عظيم، وإذا استغفر لكم قبل دعاؤه لكم بالمغفرة.

﴿تَعَالَوْا﴾ يعني أنتم في مكان منحط، ارتفعوا وتعالوا من العلو يستغفر لكم رسول الله. ﴿لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ﴾ أمالوها إلى الخلف وحركوها استهزاء بكلامه واستكبارا، ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ ينصرفون ولا يقبلون منك ويعرضون والحال أنهم مستكبرون، الذي منعهم الاستكبار.

تعالوا يستغفر لكم الرسول، أنتم فعلتم كذا وكذا من الأخطاء ووقعتم في أمور سيئة، تعالوا يعتذر لكم الرسول ويستغفر لكم، لا يريدون استكبارا في قلوبهم.

هذه أخلاقهم السيئة وتعاملهم مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخبر الله عَزَّ وَجَلَّ أنه لو استغفر لهم الرسول، لو جاؤوا واستغفر لهم الرسول لا يقبل الله مغفرتهم؛ لأن قلوبهم مليئة بالكفر والحقد والعداوة للإسلام، ولو أنهم تابوا توبة نصوحا لقبل الله منهم توبتهم.

شوف قال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦]. استغفرت لهم أو لم تستغفر الأمر سيان، لماذا؟ لأنهم قد أصروا على الكفر والفسق والعناد، لو أقلعوا وأقبلوا لتاب الله عليهم.

ولذلك قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، هم فاسقون خارجون عن طاعة الله، وما داموا فاسقين لا يهديهم، فمن تاب منهم توبة نصوحا وأقلع قبل الله توبته.

ثم اسمع عن أحوالهم ومواقفهم السيئة أيضا مع المؤمنين: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ [المنافقون: ٧]. هؤلاء المنافقون ماذا يقولون؟

يقولون الذين عند رسول الله من المهاجرين فقراء مساكين، تركوا ديارهم وأموالهم وجاؤوا إلى المدينة نصرة لدين الله ونصرة لنبيه، وتركوا كل شيء وراءهم من أموال ومن ديار في مكة وجاؤوا فقراء ليس بأيديهم شيء، هؤلاء المنافقون يقولون: لا تعطوهم شيئا ولا تنفقوا عليهم، لماذا؟

﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ حتى يتفرقوا عنه؛ إذا أعطيتم هؤلاء المهاجرين الفقراء ولزموا محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصروه نحن لا نريد هذا، نحن نريد أن نفرق عنه هؤلاء الجمع، فيقولون: إذا انفضوا وتركوا محمدا أعطوهم!

رد الله عليهم بأقوى الردود، قال: هؤلاء المنافقون المساكين يظنون أن الأموال بأيديهم! الأموال بيد الله، والذي يغني ويعطي وينفق هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والذي يرزق هو الله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

ما بأيديكم أيها المنافقون من الأموال هي لله، الله يسلبها منكم، ولله خزائن السماوات والأرض، السماوات والأرض مليئة بخزائن، وعنده من الأرزاق ما ليس عند الخلق، ولكن المنافقين لقصر نظرهم وضعفهم وقلة علمهم لا يفقهون، لا يفهمون أن الرزق بيد الله وأن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

ثم هناك موقف آخر قد حصل منهم، وذلك في غزوة **(ذات الرقاع)** في السنة السادسة؛ لما حصل ما حصل منهم من أذى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورجعوا، وهم في الطريق قال رأسهم رأس المنافقين وهو **(عبد الله بن أبي بن سلول)**، قال: والله لنخرجن محمدا ومن معه من المدينة، آذونا وضيقوا علينا.

اسمع عبارتهم، يقولون: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

يقصدون الأعز: هم يقولون نحن الأعز ونحن أهل المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل، الأذل: محمد وأصحابه! لنخرجنهم من بلدنا.

وهذه سمعها الصحابي الجليل وكان صغيرا شابا **(زيد بن أرقم)**، فلما سمعها أخبر عمه فقال إن رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول يقول هذه العبارة.

فلما سمعه يقولها أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجاء عبد الله رأس المنافقين فبدأ يحلف عند الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال إن زيدا قد كذب علينا، والله ما قلنا كذا ولا فعلنا كذا ولا قلنا هذه العبارة وإنه يكذب علينا، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رأى هذا المنافق يحلف بالله صدقه، فحزن زيد حزنا شديدا وأصابه من الغم والهم، فأنزل الله هذه الآية.

☜ **فلما أنزلها الله جاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى (زيد بن أرقم) وقال:** «قَدْ صَدَّقَكَ اللهُ بِمَا قُلْتَ».

فأخبرت الآية أنهم يقولون هذه العبارة: ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾، ورد القرآن ما قال أنتم الأذلاء وأن محمدا عزيز، لا! بل قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

هذه العزة، أنتم تقولون يخرج الأعز منها الأذل، صحيح، بس من هو الأعز؟ اعطوني جوابا: العزة لله ولرسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وللمؤمنين الذين مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن المنافقين لا يعلمون من هو العزيز وما هي العزة الحقيقية؛ العزة في نصرة دين الله، هذه العزة، فلقلة جهلهم لم يعرفوا هذه العزة.

مثل ما ذكرنا، تختم السورة بنداء المؤمنين وتحذيرهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم كما شغلت هؤلاء المنافقين.

- **لماذا هؤلاء المنافقون يفعلون هذه الأفعال؟**

لحبهم الدنيا وحبهم المال والأولاد، ألهتهم؛ فكما قال سبحانه: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥].

هذا تحذير من أن يشغلك المال عن طاعة الله كما شغلت المنافقين، المال والولد لا يشغلانك، بل ليكونا ممن يعينك على الطاعة؛ فالمال يعينك على الطاعة بالصدقة والأنفاق في سبيل الله، والولد يعينك على الطاعة إذا ربيته على طاعة الله وحب الإسلام، ليكونا عونا لك لا يصدانك عن طاعة الله.

لا تلهك أمورك عن ذكر الله وعن طاعته وعن الصلاة، ومن يفعل ذلك بأن وقع في هذا الأمر وألهته فهذا هو المغبون الخاسر؛ ولذلك قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

ثم حث على الصدقة التي تنفع الإنسان، قال: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ [المنافقون: ١٠]؛ أنفقوا في سبيل الله، أعطوا المحتاجين من المال، فهذا المال جعلك الله مستخلفا فيه وستذهب وتتركه، فانتفع به.

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]. إذا نزل به الموت قال رب أرجعون، ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾؛ لو أخرتني لحظات أتصدق وأكن من الصالحين! لا، لا ينفع، لماذا؟

خلاص ليس الوقت، لا ينفع نفسا إذا جاء أجلها. المال ليس لك، المال انتقل للورثة؛ فالمال ما دام بين يديك اعرف حق الله فيه واستغله في طاعة الله.

﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ هذا الذي يتمناه، كل شخص ينزل به الموت يتمنى أعظم أمنية أن يتصدق؛ لأنه يعرف عظم الصدقة يوم القيامة، وأن يكون من الصالحين بصلاح عمله.

لكن الله قال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١]؛ هذه النفس إذا جاء أجلها وحل بها الموت ونزل وحضر الموت لا ينفعها ولا يمكن أن تؤجل، إذا جاء الأجل لا تؤخر أبدا ولا لحظة. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر فيجازي كلا على عمله.

هذه سورة **(المنافقون)** قرأناها وبينا معانيها وتدبرناها وفهمناها، أسأل الله سبحانه أن يجعلها في موازين حسناتنا وأن ينفعنا بالقرآن، وأن يجعله حجة لنا وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن المنتفعين به، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ التَّغَابُن)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(التغابن ١ - ٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين. اللّهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو يوم الثلاثاء الموافق للخامس من الشهر الثالث من عام ثمانية وثلاثين وأربعمئة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، السورة التي بين أيدينا هي (سورة التغابن). وهذه السورة قبل الدخول في تفسيرها لا بد أن نتعرف عليها، وهذه قاعدة معنا مستمرة دائماً: أننا إذا جئنا إلى أي سورة قبل أن ندخل فيها لا بد أن يكون عندك يعني خلفية عن السورة ومعرفة؛ وهذا واقع لا بد منه، أي شيء تريد أن تدخل فيه حتى لو كان في امور الدنيا وفي مشاريع الدنيا لا يمكن أن تدخل هكذا عشوائي، لا بد أن يكون عندك معرفة وإلمام بهذا الشيء وقراءة عنه حتى تلم به.

ف(سورة التغابن) أولاً: تسميتها؛ لماذا سميت بهذا اللفظ؟ وهل ورد هذا اللفظ في القرآن أو لم يرد؟ فنقول أولاً: سميت بهذا اللفظ لورود قول الله تعالى فيها: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

ولم يرد في القرآن من أوله إلى آخره إلا في هذه الآية. و(التغابن) اسم من أسماء (يوم القيامة)، و(يوم القيامة) له أسماء كثيرة: هو (يوم الحساب)، و(يوم الأزفة)، وهو (يوم الحاقة)، و(القارعة)، و(الغاشية)، و(الطامة)، و(الصاخة)، و(يوم القيامة)، و(يوم الحساب)؛ أسماء كثيرة وكل اسم له معنى.

لماذا سمي يوم القيامة بـ(يوم التغابن)؟ نقول أولاً: كلمة (التغابن) هذه حقيقة تحتاج منا إلى تأمل طويل، وتحتاج منا إلى أن نتفكر فيها. أصل كلمة (التغابن) من (الغَبْن)، و(الغَبْن) هو الخسارة؛ لما تقول:

فلان غُبن في كذا، لما يدخل في صفقة فيُغبن فيها يبيعها بخسارة عظيمة يقال: هذا مغبون، أو مثلاً تفوته سلعة يريد أن يشتريها فتفوته فيكون يشعر بالغبن؛ أنها كيف راحت عليه!

فشوف الغبن؛ إما في البيع: تبيع سلعة بمبلغ زهيد وهي تستحق مبلغ كبير، كأن يكون عنده قطعة أرض قيمتها تزيد على ثلاثة ملايين، فلا يدري عن أسعار السوق فيبيعها مثلاً بأقل من مليون فيُغبن فيها، هذه غبانة، هذا الغبن كيف يعني؟ يعني خسارة في هذه البيعة. طيب، وأحياناً خسارة في الشراء: تشتري سلعة تظن أن هذه هي قيمتها، ثم يتبين لك أنك مغبون، وأنها بيعت عليك بمبلغ كبير جداً وهي لا تستحق فتتورط فيها، فتكون مغبوناً فيها.

فـ(الغَبْن) أحياناً في البيع وأحياناً في الشراء. طيب، إذا عرفنا أن (الغَبْن) في البيع والشراء أو في غيره، وإن كان غالباً في البيع والشراء؛ ما علاقة يوم القيامة بالبيع والشراء؟ يعني كيف الله سبحانه وتعالى يسمي يوم القيامة (يوم التغابن)؟

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

طيب، ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾؛ يعني ليش سمى الله يوم القيامة يوم التغابن هنا؟ يحتاج منا إلى أن نتأمل أكثر وأكثر؛ إذا عرفت أن (التغابن) هو الخسارة، فالذي يبيع آخرته بدنياه هذا هو المغبون حقاً، ليس غبن الدنيا؛ غبن الدنيا يُعوض، ممكن اليوم تخسر وغداً تكسب ويعوضك الله خيراً مما فاتك، الآخرة ما فيها تعويض، الآخرة إذا خسر الإنسان خسر كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

فالذي يبيع آخرته بدنياه يعيش للدنيا ولا يلقي أي اهتمام للآخرة وأي استعداد للآخرة، هذا هو المغبون في الآخرة غبناً شديداً؛ إذا بُعث الناس وجمع الله الأولين والآخرين وسماه (يوم الجمع): ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، فجمع الله الأولين والآخرين، في هذه الساعة يشعر بأنه مغبون غبناً شديداً، خسر آخرته وذهبت عليه.

فهو اشترى الدنيا بالآخرة، هذا من حيث الشراء، ومن حيث البيع باع آخرته بدنياه واشترى الدنيا على حساب الآخرة. فلذلك هذا معنى عظيم جداً أيها الإخوة، يحتاج منا إلى أن نستشعر هذه الخسارة

العظيمة؛ كم وكم من الذين سيخسرون! وما أكثرهم في زماننا الذين خسروا آخرتهم، والذين سيقفون أمام الله وقد فاتهم الشيء العظيم قد غُبنوا!

وأنا أقول لك: ليس الغبن مع الكفار والمؤمنين، وليس الغبن مع المفسدين وأهل الصلاح؛ لا، الغبن يكون حتى مع المسلمين! فلما ترى الدرجات العُلى في الجنة والناس يصعدون إليها وأنت لا تستطيع الصعود، عرفت أنك مغبون وأنك فرطت في الأعمال الصالحة. غيرك يختم القرآن كل أسبوع وأنت لا تختم القرآن كل شهر، غيرك يقوم الليل ساعتين ونصف ساعة ونصف وأنت لا تقوم ولا لحظة، غيرك لا يؤذن المؤذن إلا وهو في المسجد وأنت تتأخر تصلي في أطراف الصف وقد تفوتك صلاة الجماعة، غيرك لا تفوته تكبيرة الإحرام، غيرك يبادر بصيام الاثنين والخميس والبيض وأنت تتوانى: كل يوم بكرة أصوم!

فإذا جاء يوم القيامة، الكثير والكثير إن لم نقول يعني إلا ما ندر كلهم سيُغبنون وسيخسرون وسيصيبهم شيء من الغبن، حتى من أهل الجنة إذا رأى الدرجات العُلى عرف أنه مقصر، وما أكثر المقصرين في زماننا حتى في أهل الطاعة! يزهدون، تتعجب لا يختم القرآن كل شهر، يمر عليه الشهر كامل ما ختم، هذا الزهد! يصلي الفرض ثم يخرج ولا يحافظ على السنن الرواتب، لا يوتر، هذا الزهد! لا يقوم الليل، لا يتصدق إلا بشيء لا يذكر أو لا يتصدق أبداً، فسيفوته شيء. اجمع لنفسك لا تجمع لغيرك!

فنقول حقيقة: معنى هذا اليوم معنى عظيم؛ (يوم التغابن)، حقيقة إذا قرأه الإنسان ترتعد فرائصه، وحقيقة يقشعر جلده: **قال تعالى:** ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

سيُغبن الكثير والكثير، ما أكثر الذين سيُغبنون! ولذلك حتى في البيع والشراء تأمل أن المؤمن إذا وضع في قبره فُتح له باب إلى الجنة فقيل: هذا مقعدك، فيقول: رب أقم الساعة، ثم يُفتح له باب إلى النار فيقال: هذا مقعدك لو أنك فرطت وضيعت وأسرفت على نفسك. وإذا وُضع الكافر في قبره فُتح له باب إلى النار فقيل: هذا مقعدك، ثم يُفتح له باب إلى الجنة فيقال: هذا مقعدك لو أنك أطعت واتقيت الله. فالمؤمنون يأخذون مقاعد الكفار يوم القيامة، فهذا الغبن أن مقعدك يذهب عليك، تريد أن تدخل الجنة وتبحث عن مقعدك والمقعد ذهب عليك، ما لك مقعد فيه، هذا هو الغبن، خسرت خسارة عظيمة، فـ(الغَبْن) هو الخسارة.

ثانياً: هل السورة مكية أم مدنية؟ إذا نظرنا، هو أولاً مختلف هل هي مكية أو مدنية على ثلاثة أقوال:

- **القول الأول:** أنها مكية.
- **والقول الثاني:** أنها مدنية.
- **والقول الثالث:** أن أولها مكي وآخرها مدني.

طيب، خلينا ننظر الآن: الذين قالوا إنها مكية قالوا لأنها تتحدث عن أحوال الكفار والأمم الماضية، وتتحدث عن موقف الكفار من يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧].

والحديث عن يوم القيامة وهذا من خصائص السور المكية، فقالوا: مكية.

الذين قالوا إنها مدنية قالوا: لا، هي افتتحت بالتسبيح، والسور المفتتحة بالتسبيح كلها مدنية: (الحديد) ﴿سَبَّحَ﴾، و(الحشر) ﴿سَبَّحَ﴾، و(الصف) ﴿سَبَّحَ﴾، و(الجمعة) ﴿يُسَبِّحُ﴾، و(التغابن) ﴿يُسَبِّحُ﴾، كلها مدنيات، كيف تأتي هذه تكون مكية؟ كل التسابيح الخمس كلها مدنية، ولذلك قالوا: هي ضمن التسابيح، مثل الـ (الر) كلها مكيات، ومثل الـ (طس) و(طسم) كلها مكيات. ولأنها تتحدث عن الإنفاق:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

و**قال تعالى:** ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

يعني تتكلم عن الإنفاق؛ لذلك قالوا إنها مدنية.

أما الذين قالوا إن بعضها مكي وبعضها مدني قالوا: أولها لأنها تتحدث عن حال الكفار فمكي، وآخرها يتحدث عن أحوال المؤمنين فهو مدني، جمع بين هذا وهذا.

لكن الذي يظهر والله أعلم أنها مدنية؛ لأنها ضمن سور التسابيح، والله أعلم بذلك.

إذا عرفت نوع السورة، بعد ذلك ندخل إلى تفسير السورة. وقبل الدخول إلى التفسير خذ محتويات السورة وأغراضها، مثل لو أردت أن تشتري بيتاً تعرف محتوياته وأغراضه وأماكنه وغرفه ومنازله؛ خذ السورة ما هي، نقول:

السورة أولاً افتتحت بأي شيء؟ هي افتتحت بالتسبيح والتعظيم والإجلال والتقديس والتنزيه لله سبحانه وتعالى، ففيها كلها تعظيم لله بأسمائه وصفاته وأفعاله، شوف لما تقرأ:

قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١].

شوف فيه ملك، فيه حمد، فيه قدرة. ثم قال:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [التغابن: ٢].

فيه خلق، وقال:﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

وقال:﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤].

كل هذا تعظيم لله وإجلال في أولها.

ثم بعد ذلك بيان موقف الأمم الماضية، وبيان موقف الكفار من الأمم الماضية:﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [التغابن: ٥].

ماذا جرى لهم؟ ذاقوا عقوبتهم، لماذا؟ لأنهم كفروا بالرسل، فأنتم يا أهل مكة كفرتم بمحمد سيصيبكم ما أصابهم: **قال تعالى:** ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦].

فاعترضوا وكفروا. ثم فوق ذلك أنهم زعموا أن لن يبعثوا، فكفروا بالرسل وكفروا بربهم وبرسوله وبآياته وكفروا بالبعث، السورة تدور حول موقف الكفار من رسالات الله وموقفهم من البعث.

فلذلك الله أمرهم فقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

آمنوا بالله وصدقوا به وآمنوا برسوله وآمنوا بالقرآن هذا خير لكم.

ثم حذرهم فقال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩].

تأكيد على البعث وأنكم ستحاسبون، وأن من يعمل الصالحات فإن الله يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، وأما الذين كفروا وكذبوا فأولئك أصحاب النار خالدين فيها.

ثم بين سبحانه وتعالى أن هذا الكون كله بيد الله، وأن التقدير بيد الله، وأن ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله، لا يخرج عن علمه سبحانه وتعالى شيء من ذلك سبحانه وتعالى؛ حتى تؤمن وتطمئن نفسك وتعمل لله. ولذلك أمر الله فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢].

ثم أمر بالتوكل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣].

ثم سبحانه وتعالى بين أن ما يشغل الإنسان ويصده عن طاعة الله في الغالب، المال والبنون، مثل ما قال الله سبحانه وتعالى في (سورة المنافقون) قبلها:﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[المنافقون: ٩].

هم المغبونون. قال هنا: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[التغابن: ١٤].

قد يوجد من الأزواج والأولاد من هو عدو يثبطك عن الطاعة ويمنعك عن الخير وعن الصدقة وعن الصلاة وعن كذا، ولكن الموقف هو العفو والصفح والمغفرة. ثم قال:﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن: ١٥].

الأموال والأولاد تفتن الإنسان وتشغل عن طاعة الله فاحذروهم. واتقوا الله على قدر استطاعتكم:

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[التغابن: ١٦].

لا تقولوا سمعنا وعصينا، اسمعوا وأطيعوا وأنفِقوا، النفقة هي التي تنجي صاحبها يوم القيامة:

قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[التغابن: ١٦].

ثم حث على النفقة والقرض فقال:﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[التغابن: ١٧].

هذه هي السورة، كما اتضح لك الآن محتوياتها وموضوعاتها واضحة جداً.

افتتح الله سبحانه وتعالى بقوله: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ **قال تعالى:** ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[التغابن: ١].

(يُسبح) فعل مضارع، وقبلها السور التي قبلها: (سورة الحديد) و(الحشر) و(الصف) ﴿سَبَّحَ﴾ فعل ماضٍ، الماضي يفيد الثبوت أنه سبّح وثبت، والمضارع يفيد الاستمرار: ﴿يُسَبِّحُ﴾ ولا يزال، هؤلاء يسبحون. من هم الذين يسبحون لله؟ الله يقول: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[التغابن: ١]، من هم؟ قال: ما في السماوات وما في الأرض؛ كل ما في السماوات تسبح وتنزه وتعظم وتقدس الله، وكل من في الأرض إلا من عصى من الثقلين: الكافر من الإنس والجن المتمرد على طاعة الله؛ فهؤلاء خرجوا، كما قال الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

هذه المخلوقات تسبح وتنقاد لربها ولا تعصيه، وتعظمه وتجلله ولا تشرك به؛ لا تشرك به. ما فيه مخلوق من المخلوقات من بهيمة الأنعام أو الطير أو الشجر أو الحجر أو الجبال تشرك بالله إلا هذا الإنسان، أو من تمرد من الجن والإنس، كلهم يسبحون.

طيب، قال: لماذا تسبح له؟ قال: لأنه الملك الذي يملكهم ويتصرف فيهم، قال: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ [التغابن: ١]، ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ التام ليس كملك البشر؛ يملك إلى زمن ثم يذهب عنه ملكه، لا! له الملك التام الثابت له سبحانه وتعالى، ملك السماوات والأرض، ويملك كل شيء في هذا الخلق، له الملك.

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١] يُحمد على أفعاله؛ ليس فقط يملك، في ناس يملكون بس ما يُحمدون على أفعالهم، تجده يملك الدنيا والآخرة -أو نقول تجده يملك ما يستطيع أن يملكه من الأشياء التي يملكها- لكنه مالك وممسك وبخيل وشحيح لا يعطي ولا ينفع ولا يستفيد الناس منه، هذا ما يسمى له الحمد، يقال: له الملك فقط. يملك، كثر يملكون، لكن الله له الملك وله الحمد، فهو سبحانه وتعالى له الملك وله التصرف في هذا الملك المطلق، يعطي من يشاء وسحاء يداه، سحاء الليل والنهار ينفق ويعطي ويرزق ويُحمد على رزقه ويشكره المرزوقون كلهم، فيثنون عليه الثناء الحسن الجميل.

والله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولذلك قالوا: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١] لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بل هو على كل شيء قدير.

فشفت، تأمل هذه الآية الأولى: تسبيح لله، بيان عظمة الله، وبيان سعة ملكه، وله الثناء والحمد، وله القدرة التامة سبحانه وتعالى، لا يعجزه... شوف كم اسم! (الملك) اسم، و(المحمود) اسم، و(القدير) اسم، وفي نفس الوقت صفات: صفة الملك، صفة الحمد، صفة القدرة بيد الله سبحانه وتعالى، هو الذي بيده كل شيء، القدير العليم سبحانه.

ثم قال لما بين هذه الأشياء من عظمته:

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ من الذي خلق الخلق؟ هو الله، ما في أحد خلقهم إلا الله سبحانه وتعالى، فإذا كان هو الخالق لهم والرازق، يجب أن يعبدوه هو وحده الذي خلقكم. ولما خلقكم جعلكم على صنفين: مؤمن وكافر: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾، إما أن يكون المعنى أنه خلقكم وقد علم أن منكم الكافر يعمل بعمل الكفار فيدخل النار، وقد علم أن منكم مؤمناً يعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، بعلمه السابق أن هذا يخلقه للنار وهذا يخلقه للجنة، قبض قبضة فقال: هؤلاء إلى الجنة، وقبض قبضة فقال: هؤلاء إلى النار؛ بحكمته وعلمه.

لأن هؤلاء لا يصلحون إلا للنار وهؤلاء لا يصلحون إلا للجنة. أو أنه خلقهم ثم هم فيهم الكافر المعاند العنيد المتمرد الذي لا يريد الخير المفسد في الأرض، ومنهم المطيع المستجيب التقي. هكذا الله جعل الناس؛ أنت تمشي على الأرض ترى فيها من هو مؤمن يطيع ربه ومن هو كافر متمرد هكذا، وحكمة الله سبحانه وتعالى في ذلك عظيمة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فالله مطلع على أعمال العباد وبصير بها، وكل ما يعملونه من خير أو شر يعلمه، وإذا كان يعلمه وبصير به فإنه يحصيه ويجازي عباده عليه، يجازيهم عليه يوم القيامة.

ثم قال سبحانه وتعالى لما بين خلق الإنسان بين ما هو أعظم وهو خلق السماوات والأرض، وأن الله لم يخلق السماوات والأرض هكذا أبداً، لا تظن أن الله خلق سبع سماوات طباقاً وخلقها بلا عمد وجعل فيها الشمس والقمر والنجوم وزينها هكذا عبثاً، هذا ما يفعله إلا العابثون، الله خلقه لحكمة وخلق الأرض وجعل فيها الجبال والأنهار والأشجار والدواب هكذا عبثاً؟ لا!

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ [ص: ٢٧].

فلا بد أن... ما يمكن أن يخلق هكذا عبثاً؛ لذلك شوف قال الله هنا:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣].

ليش ذكر السماوات أولاً ثم الأرض؟ هل السماوات مخلوقة قبل الأرض؟ نقول: لا، الأرض خلقت قبل السماوات. طيب ليش قدم السماوات؟ نقول: لعظمها وفيها من الآيات العظيمة.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ليس بالباطل ولا بالعبث.

﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ شوف الأول بين أنه خلقكم وأن منكم كافر ومنكم مؤمن؛ خلقكم يعني أوجدكم. طيب صوركم؟ أي جعلكم في صور أشكال جميلة حسنة، هذا معناه التصوير؛ يأتي بعد الخلق، الخلق إيجاد والتصوير تشكيل: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ في الأرحام كيف يشاء.

﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ طيب لماذا قال واليه المصير؟ قال واليه المصير يعني يبين لك أن الله هو الذي خلقك الخلق الأول وأنه سيعيدك إليه وترجع إليه فيجازيك على أعمالك، لم يخلقك عبثاً ولم يخلق السماوات والأرض عبثاً، هذا معناه.

ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤].

شوف لما بين خلقه، بين سعة علمه؛ يعلم سبحانه وتعالى ما في السماوات والأرض، (يعلم) فعل مضارع يدل على استمرار، يعلم مستمراً ولا يزال يعلم سعة علمه في السماوات، كل ما في السماوات لا يخفى عليه شيء منها والأرض.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ يعلم أنتم أيها الناس يعلم ما تسرونه في صدوركم وما تعلنون على ألسنتكم، الله يعلم.

وفوق ذلك: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بما تضمره الصدور مما يعني تخفيه النفوس ويدور في نفوسها، كل هذا يعلمه الله سبحانه وتعالى.

ثم لما بين سعة علمه وقدرته وذكرنا شيئاً من أوصافه وأسمائه وأفعاله حتى نعرف عظمة الله ونعرف حق الله علينا، انتقلت الآيات إلى ماذا؟ إلى تحذير هؤلاء المشركين الكافرين المعاندين، فهددهم الله بهلاك الأمم الماضية، قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التغابن: ٥].

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ استفهام، يفيد التوبيخ، ما جاءتكم أخبار الأمم الماضية؟ قوم نوح وعاد وثمود ماذا جرى لهم لما كذبوا الرسل؟ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ كفروا برسلهم كفروا بالله، ما هي النتيجة؟ ﴿فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ ذاقوا يعني عُذبوا، وبال أمرهم: العقوبة، عقوبة أمرهم تمردهم، ذاقوه في الدنيا، أنزل الله بهم العقوبات في الدنيا؛ إما خسف أو غرق أو ريح أو إلى غير ذلك من العذاب. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أما في الآخرة لهم عذاب أليم ينتظرهم، يعني عُذبوا في الدنيا وفي الآخرة.

ليش؟ لماذا؟ قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

الرسل جاءتهم، أقام الله عليهم الحجة، أرسل إليهم رسله بالبينات، فاعترضوا وكفروا فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ كيف يجينا بشر نصدق نؤمن بهم هم يهدون البشر؟ لا، ما نطيعهم! ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا﴾ فكفروا بالرسل وكفروا بربهم وتولوا وأعرضوا. ﴿وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ واستغنى الله عنهم، والله غني ليس بحاجة لعبادتهم، لو آمن كل من في الأرض ما زاد في ملكه شيء، فاستغنى الله عنهم وأتى بغيرهم، والله غني سبحانه له الملك له الغنى المطلق، وحميد يُحمد على أقواله وعلى أفعاله وعلى تصرفاته سبحانه وتعالى سبحانه وتعالى.

وأما الكفار من أهل مكة فكان موقفهم الكفر باليوم الآخر والزعم والكذب من عندهم، شوف قال: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

شوف قال (زعم) يعني كذب، كذب، الزعم مطية الكذب: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ يظنون أنهم لن يبعثوا ويزعمون ذلك. ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي﴾ قل لهم يا محمد بلى، شوف (بلى) لأنهم نفوا فجاء الجواب بقوله: بلى. بلى وربي، أقسم محمد بربه كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس: ٥٣]، وكقوله تعالى: ﴿بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ والله لتبعثن! تخرجون من قبوركم ثم تنبؤون، تخبرون بما عملتم، تخرجون من قبوركم وتخبرون بكل أعمالكم ثم تجازون عليها. ﴿وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وذلك على الله يسير، خلقكم وبعثكم وإخباركم ومجازاتكم وحسابكم كله على الله يسير لا تظن أنه صعب: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

فموقفكم ما هو؟ ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فآمنوا بالله خير لكم، آمنوا بالله وبكل ما جاءكم عن الله، وآمنوا برسولكم محمد صلى الله عليه وسلم خير لكم. ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ وآمنوا بالنور الذي أنزلنا معه، نورا وهو القرآن، النور هذا نور، نور في القلوب، ونور وسعادة، ونور أمامك يسعدك في الدنيا والآخرة، تمسك بالقرآن، الله سماه نورا. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ والله بما تعملون خبير، فإذا كان خبيراً بأعمالكم فإنه سيجازيكم.

طيب، لعلنا نقف عند هذا القدر نكتفي به إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(التغابن ٩- آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين. أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للثاني عشر من ربيع الأول من عام ثمانية وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، و(سورة التغابن) تحدثنا عنها في لقائنا الماضي. هذه السورة سُمّيت بـ (التغابن) لأن كلمة التغابن، هذا الاسم (التغابن)، هو اسم من أسماء (يوم القيامة):

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

وعرفنا ما معنى التغابن؛ في الحقيقة معناه هو الخسارة العظيمة الشديدة للإنسان، أن يُغبن ويذهب حقه. هذه الخسارة العظيمة لما تدخل في صفقة وتخسر. كل مالك تُغبن، أو أنك يفوتك شيء عظيم فَتُغبن؛ لو أن تبيع سلعة قيمتها عالية ثم تبيعها بمبلغ زهيد قليل، يعني تُغبن في هذا الشيء فتصبح مغبوناً، أو أنك تشتري هذه السلعة بمبلغ كبير ويتضح الأمر أن هذه السلعة ليس قيمتها إلا هذا المبلغ القليل، فتكون مغبوناً: كيف أشتري هذه السلعة بهذا وأدفع عليها هذا المبلغ؟!

يعني هذا معنى الغبن؛ هو أن يخسر. الإنسان في الشراء أو في البيع يخسر.. وخسارة الدنيا أمرها يسير؛ تخسر ثم تربح، يعني مع الأيام يذهب الحزن وتذهب الخسارة ويعوضك الله خيراً، وقد تكون الخسارة هي خير لك من الربح، يعني أمور الدنيا أمرها يسير، لكن الخسارة الفادحة الشديدة هي خسارة الآخرة:

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

ولذلك الله سبحانه وتعالى سمى هذا اليوم (يوم التغابن): ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

عندما يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، وتتطاير الصحف: فآخذٌ كتابه بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله من وراء ظهره؛ وهذا قد فاز فوزاً عظيماً، وهذا قد خسر خسارة عظيمة، هذا هو (يوم التغابن). لما الله سبحانه يقول: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، في هذا الصعيد، وفي هذا اليوم يُغبن هؤلاء الخاسرون.

ما معنى غبنهم؟ أن كل انسان له مقعد في الجنة وله مقعد في النار؛ فالمؤمن له مقعد في الجنة ومقعد في النار، فإذا مات على الإيمان والطاعة والاستقامة، فإن الله سبحانه وتعالى يفتح له في قبره نافذة يقال له: «هَذَا مَقْعَدُكَ مِنَ الْجَنَّةِ» لما آمنت وصدقت واستقمت، فيقول: رب أقم الساعة. ويُفتح له باب آخر إلى النار، فيقال: «هَذَا مَقْعَدُكَ مِنَ النَّارِ» لو أنك كفرت وعصيت. ثم يُؤتى للكافر في قبره، فيُفتح له باب إلى النار فيقال: هذا مقعدك إذا قامت الساعة، هذا مقعدك في النار، فيقول: رب لا تقيم الساعة! ويُفتح له باب آخر إلى الجنة فيقال: هذا مقعدك لو أنك أطعت ولو أنك استقمت. فمعنى التغابن أن المؤمنين يأخذون مقاعد الكفار، فيُغبن هؤلاء الكفار بخسارة عظيمة أن مقاعدهم ذهبت عليهم، هذا معنى قول الله سبحانه وتعالى:﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩].

افتُتحت هذه السورة بالتسبيح والتعظيم والتنزيه له سبحانه؛ لماذا؟ لأن السماوات والأرض ومن فيهن كلها تسبح وتعظم وتقدس وتنزه الله عن صفات النقص وتصفه بصفات الكمال؛ لأنه هو الموصوف بهذه الصفات. ولذلك قال: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ [التغابن: ١]، فهو الملك وهو المالك، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١] وهو المحمود على كل أفعاله، ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]. شوف اسم (الملك) واسم (المحمود) واسم (القدير)، وصفاته: صفة الملك له، وصفة الحمد له، وصفة القدرة له؛ هذه بس آية واحدة فيها أسماء وصفات وأفعال.

ثم قال:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢].

هو الخالق، اسم (الخالق) وصفة الخلق. ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ هو (البصير)، المبصر. الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض، صفة البصر. لله واسم (البصير). خذ من هذه الأشياء والأفعال: خلق الإنسان بحكمة (الحكيم)، كافر ومؤمن لم يخلق كافر ومؤمن هكذا عبثاً، إنما خلقهم وقسمهم لحكمة عظيمة. وخلق السماوات والأرض بالحق ولم يخلقها عبثاً، صور الإنسان

وشكله وجعله في أحسن صورة وفي أحسن تقويم: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]، ﴿وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]، يعني خلقك ولم يتركك عبثاً، ستعود إلى الله ويحاسبك على أعمالك ليوم القيامة.

يعلم ما في السماوات؛ سعة علمه سبحانه وتعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤]. كل ما يدور في الصدور الله يعلم سبحانه وتعالى. تصور كم انسان يمشي على الأرض، الله يعلم ما يدور في صدره يعلمه سبحانه وتعالى، يعلم السر وأخفى من السر. سبحانه وتعالى سعة علمه! ولاحظ الفعل المضارع: (يعلم) يدل على الاستمرار.

ثم الله سبحانه وتعالى يهدد ويخوف وينذر هؤلاء الكفار المعرضين الذين لا يؤمنون بالله، وإنما يعبدون من دونه أنداداً لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون، ينبههم ويحذرهم وينذرهم بما جرى للأمم الماضية:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التغابن: ٥].

ما جاءتكم أخبار الأمم الماضية؟! ذاقوا وبال أمرهم، ذاقوا عقوبة أمرهم، ولهم عذاب أليم؛ متى؟ يوم القيامة. لماذا؟ لأنهم كذبوا بالرسل، جاءتهم الرسل فكذبوا بها واعترضوا ولم يؤمنوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، فكفروا بالرسل وكفروا بالله وتولوا وأعرضوا، فأعرض الله عنهم واستغنى عنهم؛ لأنه غني سبحانه وتعالى وحميد.

ثم ذكر الله سبحانه وتعالى بعد ذلك كفران هؤلاء الأمم بالأنبياء والرسل، وأيضاً كفرهم باليوم الآخر، قالوا: لن نبعث، لن يُبعثوا. رد القرآن عليهم: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

بلى والله، بلى وربي لتبعثن من قبوركم ولتنبؤن بأعمالكم كلها، وتحاسبون وتجازون، وكل ذلك على الله يسير؛ لأنكم أنتم تستبعدون هذا الأمر وتستصعبونه في عقولكم، ولكنه على الله يسير.

ثم جاء الأمر والحث على الدخول في الإسلام والطاعة: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

آمنوا بالله وبالرسول وبالقرآن، والله بما تعملون خبير. فإن آمنتم واهتديتم كان ذلك خيراً لكم، والله خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شيء من أقوالكم ولا من أعمالكم، فآمنوا وصدقوا واحذروا أن تخالفوا ذلك

اليوم، وتذكروا هذا اليوم الذي أنتم تكذبون به وتقولون ان لن نبعث، ذلك اليوم هو يوم الجمع، ذلك اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين هو (يوم التغابن) الذي يُغبن فيه هؤلاء الكفار، عندما تذهب عليهم سعادتهم في الآخرة ويشقون شقاوة عظيمة يوم التغابن.

ثم بين سبحانه وتعالى أن الناس في الآخرة على قسمين: من آمن وعمل صالحاً، كفر الله عنه سيئاته ومحى عنه ذنوبه، وأدخله الجنة ليس عليه أي ذنب، جنات وليست جنة تجري من تحتها ومن تحت القصور وتحت الأشجار هذه الأنهار، وهم خالدون فيها لا يخرجون منها، هذا هو الفوز العظيم:﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

أما الذين كفروا وجحدوا وكذبوا بالرسل وكذبوا بآيات الله، هؤلاء هم أصحاب النار وسيلازمونها ولن يخرجوا منها، خالدين فيها وبئس المصير، بئس المرجع لهم وبئس المآب لهم:﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ١٠].

بعد هذا البيان العظيم أيها الإخوة الكرام، يبين الله سبحانه وتعالى أن كل ما يدور في هذا الكون هو بأمر الله وتدبيره وتصرفه وقدرته، لا يخرج ذلك ولا حركة ولا سكون إلا بعلم الله، ذلك يدل على عظمة الله سبحانه وتعالى، وأن كل ما يجري من الأقدار والمقادير هي بعلم الله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وفي هذا تهوين لما يجري في هذه الدنيا من مصائب وهموم وغموم؛ أنت تعلم أن هذه كلها مقدرة، وأن الله أجراها بعلمه سبحانه السابق:

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣].

أي مصيبة صغيرة أو كبيرة، مصيبة تنزل بالإنسان خيراً أو شراً؛ إذاً المصيبة فيها خير وفيها شر: ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ شر، ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ خير. فما أصاب من مصيبة، ما يقدره الله لك في هذه الدنيا إلا بإذنه سبحانه وتعالى، لا يمكن أن يخرج عن علمه وإرادة الله وكتبه لك قبل أن تُخلق.

فهون على نفسك، ولا تحمل نفسك من الهموم والغموم الشيء الذي يرهقك بلا فائدة، هون على نفسك! فالإيمان الإيمان بالقضاء والقدر، وأنت تعلم أن كل ما يجري في هذا الكون بحكمته سبحانه وتعالى، وأن ما يقع على المؤمن كله خير من شر أو خير هو خير، حتى لو أصابك ما أصابك من الشرور والمصائب والهموم والغموم هذا خير لك لأنك مؤمن.

ولذلك شوف قال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]، ومن يؤمن ويثبت عند المصائب ويصدق ويطمئن؛ هذه النتيجة ما هي؟ اطمئنان القلب، يهدي قلبه: الله يهدي قلبه للإيمان والتصديق، وفي قراءة أخرى (يُهدَأْ قَلْبُهُ) يسكن قلبه ويطمئن ويرتاح. وشوف الفرق بين من يؤمن ويصدق ويهون على نفسه ويعلم أن هذا بقضاء الله وقدره؛ قلبه مطمئن ومرتاح ويُهدى ويصدق ويؤجر على ما يصيبه! وشوف الآخر الذي يتسخط ويغضب ويعترض ويقول: لماذا هذا؟! لم يأتي ما يريده، وخسر الأجر، واشتد البلاء عليه، فرق بين هذا المؤمن والكافر، فرق بينهما!

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١]، ما يخفى عليه شيء، علمه أحاط بكل شيء، فما يجري في هذا الكون من قضاء وتقدير هو بعلم الله. والإيمان بالقضاء والقدر هو أحد أركان الإيمان؛ لا يتم إيمانك إلا أن تطمئن نفسك وترضى بقضائه ولا تعترض وتسلم الأمر لله سبحانه وتعالى، بهذا ترتاح النفس: هذا قضاء وقدر قدره الله قبل أن أُخلق، فما وجه التسخط؟! إنما يجب علي أن أسلم الأمر لله وأرضى وأؤمن بهذا الشيء، فيزيدك الله هداية، يهدي قلبك ويزيدك هداية، ويثبتك عند هذه المصائب وتؤجر على ذلك.

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ»؛ إن أصابه خير كان ذلك خيراً له، وإن أصابته فتنة أو أصابته مصيبة كان ذلك خيراً له، ولا يكون ذلك إلا للمؤمن، المؤمن يرضى ويحمد الله عز وجل ويشكر الله ويرضى بما يقدره الله.

والله هو الواحد في هذا الكون، المدبر لهذه الأمور، هو الإله الواحد الذي يجب أن تخضع له المخلوقات: **قال تعالى:** ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣].

لا معبود بحق إلا هو؛ فإذا كان هذا هو الله، فيجب على المؤمنين أن يتوكلوا على الله ويفوضوا أمورهم ويعتمدوا عليه في كل ما يأتون ويذرون. كل ما تريده توكل على ربك، فوض أمرك إلى الله، لا تتكل على نفسك ولا تتكل على أي مخلوق ولا على مالك ولا على قدرتك ولا على أي شيء في هذه الدنيا،

توكل على الله؛ يعني بيّن ضعف نفسك أمام الله، أنت ضعيف ولولا الله سبحانه وتعالى هو الذي يدبر أمرك لضعت في هذه الحياة، الله هو الذي يتولى أمرك، كُن من أولياء الله، **قال تعالى:** ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ثم سبحانه وتعالى ينادي المؤمنين بنداء الإيمان، ويحذرهم تحذير في هذه الدنيا فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وليس الجميع، بعض الأزواج والأولاد أيضاً الذكور والإناث يكون منهم أعداء للإنسان، فينبغي للإنسان أن يكون على حذر. كيف أعداء؟ أحياناً يصدونك عن طاعة الله ويثبطونك عن طاعة الله: تريد أن تحج يقول لك لا تحج، تريد أن تأخذ عمرة يقول لك لا تأخذ عمرة، تريد أن تذهب إلى الصلاة المبكرة يقول لك توه الأذان أو انتظر قليلاً يثبطونك عن الطاعة، تتصدق يقول لك لا تتصدق هذا لا يستحق الزكاة ويضيقون عليك فيه.

موجود، والله ما قال جميعاً، قال: ﴿إِنَّ مِنْ﴾ تبعيضية، فكن على حذر ممن يصدك عن طاعة الله. ولذلك هذه الآية يقولون إن هناك أناساً في مكة أسلموا وأرادوا الهجرة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة، فمنعوهم أولادهم وأزواجهم، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. لكن الواجب؛ لأن المرأة قريبة من الرجل والأولاد قريبين من آبائهم، فيجب على الأب أن يهون وأن يتعامل بالمعاملة الحسنة، ولذلك قال: ﴿وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

تعفوا وتصفحوا وتغفروا، ما الفرق؟ فنقول: العفو هو ترك العقوبة، تعفو يعني ما تعاقب؛ وتصفح يعني تعرض عن هذا الشيء ولا تذكره أبداً، ما تقول والله إنك في يوم كذا قلت كذا وأنت قلت كذا وأنتِي أيقها الزوجة في يوم كذا قلتي كذا، لا خلاص اصفح الصفح الجميل وتجاوز؛ وتغفر أي تستر هذا الذنب لا تظهره أمام الناس، خلاص اعفُو لا تعاقب، اصفح لا تذكر، اغفر استر ولا تفضح هذا الشيء الذي أنت سترته وتجاوزت عنه؛ لأنك إذا فعلت هذه الأشياء فإن الله غفور رحيم، يغفر لك ذنبك ويتجاوز عنك ويرحمك برحمته، ثم سبحانه وتعالى يؤكد أيضاً أن الأموال والأولاد فتنة، **قال تعالى:** ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وهذا كله تذكير للإنسان أن يكون على طاعة الله وأن يثبت؛ لأن الأموال والأولاد فتنة وقد تلهي الإنسان عن طاعته، كما ذكر الله في (سورة المنافقون):

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩].

الأموال والأولاد فتنة، يعني اختبار وابتلاء يبتلى بها الإنسان فتصد عن طاعة الله؛ فكن على حذر من الزوجة فقد تكون عدوة لك أو الأولاد، وكن على حذر أن الأموال والأولاد فتنة تشغلك عن طاعة الله، ولكن اعرف كيف تتعامل واجعل هذه الأموال في يدك لا تجعلها في قلبك، واحتسب الأجر فيما يصيبك فإن الله عنده أجر عظيم، لمن آثر طاعة الله على طاعة غيره وأدى حق الله العظيم، فهذا على خير.

ولذلك قد انسان لا يستطيع أن يفعل هذه الأفعال كلها وقد يواجه صعوبات، فالله هون عليه قال:﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

على قدر جهدك وطاقتك اتقِي الله، ولو فاتك ما فاتك الزم التقوى على قدر استطاعتك، وخذ هذا المال الذي يأتيك واعرف كيف تتصرف فيه: ﴿وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. لذلك قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا﴾ [التغابن: ١٦] سماع تدبر وقبول، ﴿وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦] أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأطيعوا ما جاءكم عن الله، وأنفقوا أموالكم في طاعة الله ادفعوها خيراً لأنفسكم تجدونها يوم القيامة تجدوه عند الله خيراً وأعظم أجراً.

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]؛ الذي يقيه الله شح النفس ويسلمه من الشح والبخل هذا هو المفلح. لو سألنا قلنا: ما الفرق بين الشح والبخل؟ نقول: البخل هو إمساك المال ما ينفقه، والشح هو بخل وزيادة؛ يمسك المال ويريد أن يأخذ غيره لا يقف عند حد، فتجد بعض الناس بخلاء عنده مال بس ممسك هذا بخيل، وعنده مال ويريد غيره هذا شحيح.

ولذلك الله سبحانه وتعالى حث على الصدقة هنا؛ لأنها هي التي تنفع الإنسان وتدفع عنه الشر. وتدفع عنه المصائب، **قال تعالى:** ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١٧].

أي تنفقوا أموالكم، سمى الله الصدقة قرضاً لأن الله سيعيد له أجره عليها وثوابه عليها مضاعفاً أضعافاً عظيمة. ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني لأجل الله لوجه الله، ﴿يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ يعني يضاعف الله لكم الأجر والثواب، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ يعفو عنكم، ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ شُكور يعني أنه يجازي على القليل بالكثير، وحليم لا يعاجل العقوبة لمن لم يبادر أو يتأخر أو يعصي سبحانه وتعالى.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [التغابن: ١٨]؛ لأنه عالم الغيب لا يخفى عليه شيء، كل ما غاب وحضر هو عالمه، عالم الغيب والشهادة ما غاب وحضر، العزيز ذو العزة والقوة والمنعة، الحكيم فيما يدبره وفيما يقوله وفيما يقضيه سبحانه وتعالى.

هذه هي (سورة التغابن) التي عشنا معها تدبراً وقراءة وتفسيراً وبياناً، ولله الحمد والمنة على ما يسر، قرأناها كاملة وجلسنا فيها هذا المجلس والمجلس الماضي وفهمناها ولله الحمد. نسأل الله أن ينفعنا بها وأن يبارك لنا فيها، ويجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته. نلقاكم على خير في لقاءات قادمة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الطَّلَاق)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الطلاق ١- ٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين. أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للتاسع عشر من شهر ربيع الأول من عام ثمانية وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

بعدما أنهينا تفسير (سورة التغابن)، ننتقل للسورة التي تليها وهي (سورة الطلاق). و(سورة الطلاق) تحدثت عن أحكام الطلاق، وركزت على ذكر التقوى؛ ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ تكررت فيها أربع مرات. والرابط بينها وبين (سورة التغابن) أن الله سبحانه وتعالى قال في (سورة التغابن): ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال هنا: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ [الطلاق: ٢]، وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [الطلاق: ١٠] في آيات متكررة، وبين ثمرة التقوى في هذه السورة قال:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

فتقوى الله هي زمام الأمور كلها، وتقوى الله هي عماد الخير في كل مجالات الحياة، الإنسان يتقي الله عز وجل.

في (سورة التغابن) ذكر الله سبحانه وتعالى الحديث عن الأزواج: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

فجاءت أحكام تتعلق بالنساء في هذه السورة.

هذه السورة تسمى بـ(سورة الطلاق) في كتب التفسير وفي المصاحف تسمى بـ(سورة الطلاق)؛ لأنها تتحدث عن أحكام الطلاق. وسماها ابن مسعود رضي الله عنه من الصحابة سماها بـ (سورة النساء الصغرى)؛ لأنها تتحدث عن أحكام النساء. هي في الحقيقة سورة تتحدث من أولها إلى آخرها عن أحكام الطلاق.

وقد يسأل سائل فيقول: لماذا سورة كاملة تتحدث عن أحكام الطلاق والطلاق هو يعني فك عقد الزوجية وتخلية الزوجة؟ فلماذا السورة كاملة؟ نقول له: أولاً إن أحكام (النكاح) ذكرها الله سبحانه وتعالى في آيات متعددة ولم ينزل فيها سورة كاملة؛ لأن النكاح هو عقد جديد للزواج يجمع بين طرفين، يجمع بينهما، هذا في ناحية وهذا في ناحية فيجتمعان في مكان واحد، هذا يسمى الزواج من التزاوج وهو التضام، يضم هذا إلى هذا.

وهذا الأمر يحتاج إلى أمور كثيرة؛ قد يظن الإنسان أن الزواج أمره يسير، الزواج له أحكام كثيرة وكذلك الطلاق، وقد يكون الطلاق أكثر أحكاماً من النكاح؛ ولذلك أنزل الله فيه سورة كاملة؛ لأن الطلاق هو تفكيك للأسرة في الغالب، والطلاق هادم للبيوت. والطلاق -وإن كان قد أباحه الله وشرعه في الأمور المتعسرة التي لا يمكن أن تستقيم إلا به- إلا أنه يبقى الطلاق تفكيكاً للأسر وضياعاً للأسرة وضياعاً للأولاد.

ولذلك الله سبحانه وتعالى بين لنا إذا ساءت العشرة بين الزوجين أو حصل من الزوج أو الزوجة فعالجها بعدة علاجات؛ فالمرأة إذا نشزت أو قصرت في حق الزوج بين لها عدة مراحل: أولاً قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

أول شيء الوعظ والتذكير والتخويف بالله. إذا لم تستجب يهجرها في المضجع فقط، يهجرها ليبين أنه يعاقبها في مثل هذا الأمر، وليس الهجر في البيت وبين الأولاد. ثم بعد ذلك إن لم ينفع ينتقل إلى الضرب غير المبرح، وهو التهييب والتخويف بأنها قد أخطأت وأنها ينبغي لها أن ترجع إلى الطريق المستقيم.

إذا لم تنفع هذه العلاجات ماذا يصنع الزوج؟

قال الله تعالى:﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥].

خلاص إذا ساءت والأمور صعبت جداً فالمنهج القرآني أنه يرفع الأمر إلى القاضي، فالقاضي يبعث حكماً من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة ويصلحان بينهما.

فإن لم يصلحا بينهما الآن نتنقل إلى الطلاق؛ فالطلاق لا يأتي إلا بعد هذه المراحل، هذا الذي ينبغي. نحن لا ننظر لواقع الناس؛ واقع الناس شيء آخر: حصلت بينه وبين زوجته سوء تفاهم، بمجرد أي أمر يحصل يقول: أنتِ طالق! هذا ليس منهج القران! منهج القران هناك علاجات، إذا لم تجدِي هذه العلاجات ولم تنفع انتقل؛ ولذلك الله وضع أربعة أمور: الوعظ، الهجر في المضاجع، الضرب غير المبرح، أن يبعث حكماً للإصلاح بين الزوجين ببعث حكم من هنا وحكم من هنا، هذه أمور أربعة تتقدم ثم بعد ذلك يأتي الطلاق.

الطلاق ليس مجرد أن يقول الإنسان لزوجته: هي طالق، لا! هذا ليس من شرع الله ولا يجوز له. الطلاق له أوقات شرعها الله، ماذا يقول في هذه السورة؟ يقول:﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

يعني لا تطلق على ما تريد أنت وما تهواه نفسك وتشتهي نفسك، لا! تطلق في أمور شرعها الله لك. متى يجوز الطلاق؟ عندنا طلاق جائز مباح وعندنا طلاق محرم قد يطلق الرجل ويأثم؛ فالطلاق المباح هو أن يطلق الرجل امرأته في طهر لم يمسها فيه، فإن طلقها في حيض فهو آثم ولا يجوز له، إن طلقها في حيض لا يجوز، وإن طلقها في طهر مسها فيه ووطئها فيه فلا يجوز، يحرم عليه.

فالطلاق لا يجوز في كل وقت، لا بد أن يطلق في طهر لم يمسها فيه. الله يقول هنا: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، قال أهل التفسير: أي تستقبل العدة، يعني تستقبل الحيض؛ أما أن تطلقها في الحيض أو تطلقها في ضهر وقع فيه جماع فهذا حرام، هذا لا يجوز! يطلقها في طهر لم يمسها فيه أو هي حامل فهذا جائز.

ثم أمر آخر أيضاً شرعه الله لنا وهو أن يطلق طلقة واحدة، ولا يجوز له أن يطلق طلقات مستمرة، وإنما يطلق طلقة واحدة فيقول: هي طالق طلقة واحدة، أو يقول: هي طالق، أو طلقتك. أما أن يقول:

طلقتك ثلاثاً، أو أنتِ طالق ويكرر، أو طلقتك ألف طلقة أو مئة طلقة، فهذا كله لا يجوز، ويحرم في شرع الله سبحانه وتعالى.

هذه مسائل مهمة، ستأتينا مسائل في هذه السورة تتعلق بالطلاق مهمة جداً؛ لأن الطلاق كما ذكرنا هو هدم للبيوت وتفريق بين الأزواج والأولاد. الله سبحانه وتعالى لا يحب الطلاق، ولكن الله جعل الطلاق حل لأمور تستصعب معها الحياة وتتعسر فيها الحياة بين الزوجين؛ هذه خلاص إذا وقع الزوج في أمر تصعب معه استدامة الحياة هنا يجد له مخرج، أو المرأة وجدت أن ليس لها طريق في هذه الحالة تخرج عنها، فهذا هو الذي ينبغي. أما أن يطلق كما يشاء أو على أتفه الأسباب فهذا ليس من شريعة الإسلام.

اسمع ماذا يقول الله سبحانه وتعالى في هذه السورة: أولاً مما يدل على أهمية الطلاق وأنه ليس كأي أمر من الأمور بل هو أمر من الأمور الصعبة التي ينبغي للإنسان أن يتأنى وان لا يتعجل فيها، اسمعوا الله سبحانه وتعالى لما أنزل هذه السورة، سورة كاملة بأحكام الطلاق، خاطب نبيه ﷺ فقال:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

ما قال "يا أيها الذين آمنوا"، لماذا؟ لأهمية الطلاق وأنه أمر ينبغي أن يراعى فيه الطرفان: الزوج والزوجة؛ ولذلك خاطب نبيه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، ثم وجه الخطاب للأمة قال: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾؛ يعني إذا أردتم الطلاق وعزم الإنسان على الطلاق فالأمر ما هو؟ أن يطلق للعدة.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "مستقبلات لعدتهن"؛ أي في طهر لم يمسها فيه، إذا طهرت من الحيض وبقي الطهر واغتسلت فهذه طلقها الآن إذا لم يكن لك رغبة فيها. أما أن تقع وتجامع ثم إذا انتهيت تطلقها فهذا لا يرضاه الله سبحانه وتعالى، أو تطلقها وهي في حالة الحيض فهذا كله محرم؛ ولذلك قال: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي تستقبل العدة يعني تستقبل الحيض القادمة.

ثم قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: ١].

شايف هذه؟ أول أمر صريح، أول أمر بالتقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾، اتقوه وخافوه، خافوا الله عز وجل في أحكام الطلاق وفي أحكام المرأة وكل ما يترتب على هذه الأمور. اتقِي الله وراقب الله وخاف الله؛ لأن كثيراً من الرجال من يطلق ولا يبالي ولا يدري ولا يعرف أحكام الطلاق، ويترك المرأة في البيت أو يطردها من البيت ويلقيها عند أهلها ولا يحسب عدة ولا يدري عنها، أو يراجعها في كل وقت ويطلق

ويراجع! الطلاق مرتان، فإذا طلق الثالثة لا يملكها خلاص، خرجت عنه إلا بعد زوج آخر؛ فلذلك الله أكد قال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ الذي هو إلهكم ومعبودكم وهو ربكم خالقكم وهو الذي شرع لكم هذه الأحكام، اتقوه وخافوه وراقبوه.

ثم قال سبحانه: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١].

إذا طلق الرجل امرأته لا يجوز له أن يخرجها من البيت، ما يقول اخرجي لا تبقين عندي ولا ساعة، خذي ملابسك وخذي شنطك وخذي أغراضك واطلعي واذهبي لأهلك، هذا لا يجوز! حرام! ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ الله يقول: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ تبقى في البيت، ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ حتى هي ما تخرج إلا إذا استأذنت الزوج فأذن لها. أما أن تقول أنت طلقتني أنا لا أبقى عندك، اتصل على أهلي وأذهب إليهم، فهذا لا يجوز لها أن تخرج إلا بإذن الزوج؛ لماذا؟ لأنها زوجة ما زالت، ما دام انها في العدة فهي زوجة، فالطلاق الرجعي (الطلقة أو الطلقتان) إذا طلقها الإنسان تبقى في بيت الزوجية لأنها زوجة يراجعها في أي وقت، فلا يجوز لها أن تخرج إلا إذا استأذنت وقالت: أنا أريد أن أذهب فأذن لها، فهذا أمر آخر لا يمنع.

قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [الطلاق: ١]، ما هي الفاحشة المبينة؟ قال أهل التفسير: الفاحشة تكون في القول والفعل؛ فالقول بذاءة اللسان وسلاطة اللسان، إذا طلقها وتركها في البيت آذته بلسانها وبدأت تسبه وتسب أهله وتسب أولاده وتؤذيهم، ففي هذه الحالة يخرجها من البيت. أو الأفعال: أن تفسد في البيت وتفسد الأثاث وتفسد على الزوج ففي هذه الحالة تخرج، أو قد تصل الفاحشة إلى ما هو معروف من العلاقات مع رجال آخرين ونحوه، ففي هذه الحالة لا تبقى عنده.

شوف لما قال سبحانه وتعالى اتقوا الله قال في آخرها:﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

هذه حدود حدها لكم. ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١] هذا أمر مهم: إحصاء العدة، العدة يعني عد الأيام، من الذي يحصي العدة؟ الزوج والزوجة أو أولياء الزوجة، لا بد من إحصائها؛ لماذا؟ لأن قد تنتهي العدة ولا يدري، أو ما تنتهي ويمنعها من النفقة؛ لأن وهي في العدة يجب على الزوج أن يسكنها وأن

ينفق عليها، فإذا انتهت العدة لا يلزمه لا سكنى ولا نفقة، ولا يلزمها أن تبقى عنده ولا تحل له أصلاً إذا انتهت العدة حرمت عليه وهو لم يراجعها؛ ولذلك قال: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾.

لأنك كثير الآن تسمع يطلقها ثم يجلس شهراً شهرين ثم يظن أن العدة انتهت أو يقول ما انتهت ثم يراجعها وقد انتهت! فلا يجوز له أن يراجع المرأة وقد انتهت عدتها؛ لأنها أصبحت أجنبية لا بد من عقد جديد بموافقتها ودفع المهر كأنها امرأة جديدة، فيظن أن العدة لم تنتهِ فيقول: راجعتك! فهذا لا بد فيه من إحصاء العدة وضبطها وإتقانها .

تلك حدود الله في الطلاق والسكن والنفقة والعدة وضبطها، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ ولا يبالي بالطلاق فيطلق متى شاء وعلى كيفه ولا يحصي عدة ويضيعها ولا يضبطها ولا يتقي الله في طلاقه ويؤذي وقد يخرجها أو تخرج، ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ عرض نفسه للعذاب فليتقِي الله.

ثم لماذا أكد الله على هذا الأمر وقال:﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]؟

الله جعل لها عدة وأمر بعدم إخراجها من البيت وان لا تخرج؛ لأنك لا تدري تتغير الأمور، قد يكون الرجل طلقها في حالة غضب ثم ندم وهذا هو الواقع الكثير، فإذا طلقها وأُعطي هذه الفرصة تتغير الأحوال فيراجعها وتندم وهي ترغب في مراجعته، فكل هذا يحصل؛ فلا بد من التأني لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً تستقيم فيه الحياة.

ثم قال سبحانه وتعالى:﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ٢].

هذه الآية لا بد أن نفهمها يا إخوان فهماً دقيقاً: ما معنى ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾؟ قال: إذا هي في العدة وقاربت على انتهاء العدة، يعني هي من ذوات الحيض حاضت ثم طهرت ثم حاضت ثم طهرت، ففي الحيضة الثانية أو قبل أن تطهر من الثالثة له أن يراجعها، أما إذا طهرت من الحيضة الثالثة ما يملكها خلاص انتهت عدتها. وقوله هنا: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي شارفت وقاربت المطلقة نهاية العدة ولم يبقَ إلا أيام أو ساعات، فله أن يراجعها ويردها ويقول: راجعتك. والرجعة تكون بالقول وبالفعل: القول ان يقول راجعتك، وبالفعل أن يطأها وهو يرغب فيها فهذه تسمى رجعة .

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يعني يمسكها وهو يقصد الإصلاح لا يمسكها إيذاءً لها، يمسكها بالمعروف يريد الإصلاح والاستقامة وأن تكون الأمور أحسن مما كانت سابقاً. ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ خلاص سرحها اتركها، ما بقي إلا أيام قليلة أو ساعات اتركها وفارقها بمعروف؛ يعني اتركها وأعطها متعة وأعطها هدية وأكرمها لتدعها تذهب وهي طيبة النفس.

ثم قال:﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

أشهدوا يعني تشهدوا رجلين صالحين ذوي عدل منكم من المؤمنين، تشهدوا على أي شيء؟ تشهدوا على الطلاق وتشهدوا على الرجعة؛ حتى تكون هذه الشهادة قاطعة للتنازع، لو جاء وقال: أنا طلقت، وقالت: ما طلقني، أو قال: أنا راجعتك، وتقول: ما راجعني، فصار فيه نزاع فالشهود يقضون على هذا النزاع. ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ أي الشهود يقيمون الشهادة لله، ما يرفض ويقول لا أنا ما أذكر، لا!

﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

يقيم الشهادة لله .

﴿ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]؛ أي هذه الأحكام التي ذكرناها من كيفية الطلاق ومتى يكون وإحصاء العدة وعدم إخراج المرأة من البيت وضبط العدة وطريقة الطلاق ومتى يراجع وكيف يراجع والإشهاد، كل هذه الأحكام الله سبحانه وتعالى يعظ بها من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ويخاف الوقوف بين يدي الله يوم القيامة.

ثم قال تعالى:﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢-٣].

من يتقِ الله ويلزم شرعه ويخافه يجعل له مخرجاً ولو طلق،﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ كُلٌّ مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠].

قد يكون الخير في الطلاق لكن أهم شيء أن تتقي الله سبحانه وتعالى. ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتوكل على الله ويفوض أمره إلى الله فالله حسبه؛ أي كافيه أن يفرج همه. ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ لا بد أن ينفذ أمره ولا يفوته شيء، ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي أجلاً وتقديراً لا يتجاوزه .

ثم ذكر الله أحكام النساء اللاتي لا يأتينهن الحيض: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤].

الآيسة التي انقطع عنها الحيض لكبر، واللائي لم يحضن لصغر أو لأي سبب، فعدتهن ثلاثة أشهر.

وأما الحامل فقال الله فيها:﴿وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

تبقى في عدتها وفي بيت الزوجية حتى تضع الحمل ولو طالت المدة تسعة أشهر أو أكثر.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، يسهل أمره وييسر أموره في الدنيا والآخرة.

ثم ختم هذا المقطع بقوله: ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

هذا الذي تسمعونه هو أمر الله أنزله إليكم في كتابه، ومن يتقِي الله -وهذه هي المرة الرابعة- يكفر عنه سيئاته؛ فالتقوى سبب لتكفير السيئات، ويعظم له أجراً ويجزل له الثواب العظيم.

السورة لا تزال فيها أحكام كثيرة، ولكن إن شاء الله نكملها في لقاء قادم، نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

(الطلاق ٦- آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين. أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، وهو يوم الثلاثاء الموافق للسادس والعشرين من شهر ربيع الأول من عام ثمانية وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

درسنا في تفسير القرآن العظيم، ولقاؤنا الماضي كان في تفسير (سورة الطلاق)، تحدثنا عن السورة وعما يتعلق بها وأخذنا شيئاً من آياتها، ونواصل ما توقفنا عنده، ولكن نعرج على ما مضى: إن السورة تتحدث عن أحكام الطلاق المهمة التي قد يتساهل فيها كثير من الناس ويقعون في مخالفات، والله سبحانه وتعالى شدد في هذا الأمر،﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق: ١].

فالأمر ليس بالسهل، يتساهل كثير من الناس في قضية الطلاق: "ما تماشى طَلَّق"، لا! الطلاق الله قال فيه: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

وهناك علاجات وهناك حلول قبل الطلاق، ليس مجرد أن تطلق؛ فالطلاق مسؤولية كبيرة، تسريح المرأة والأولاد، فهي ليست مسألة سهلة يتساهل فيها كل من أراد أن يطلق. الطلاق جعله الله سبحانه وتعالى بيد الرجل حتى يحسن التصرف ويتأنى وتكون تصرفاته حكيمة، لا أنه يطلق الطلاق في أي وقت. الله جعل له ضوابط، جعل له أوقات، جعل له حدود، وجعل له أيضاً عدد معين: الطلاق مرة، ثم مرة ثانية، ثم خلاص الثالثة لا يملكها، إذا خرجت منه الثالثة ذهبت عليه المرأة ولن ترجع إليه إلا بعد أن تتزوج برجل آخر ويطأها ثم يطلقها راغباً عنها، فهذه الحالة صعبة جداً؛ ولذلك شدد الله في هذا الأمر من حيث العدد ومن حيث الوقت: لا يطلق أي وقت، يطلق وهي ليست بحائض، يطلق وهي في طهر لم يمسها فيه، ففيه ضوابط كثيرة.

طيب، نحن وقفنا عند الآيات، أيضاً تكلمت عن أحكام الطلاق وأحكام الرجعة وأحكام أخرى كثيرة، ولكن عندنا الآيات التي بقيت؛ قوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

شوف الآيات فيها أوامر وفيها نواهٍ؛ ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ هذا أمر من الله سبحانه وتعالى، يعني اسكنوا المطلقات، هذا معناه؛ يعني المرأة إذا طلقت لا تخرج من البيت، وهذا تحدثنا عنه وتكلمنا عنه: المرأة إذا طلقت لا يجوز إخراجها من البيت، لا الرجل يخرجها ولا هي تخرج، تبقى في عصمة الزوج؛ لأنها ما دامت طلقت فهي في عدة، وما دامت في العدة فهي زوجة يستطيع أن يراجعها في أي لحظة.

ففي هذه الحالة يجب عليه أن يسكنها من حيث السكن، ويجب عليه أيضاً أن ينفق عليها؛ السكن والنفقة عليه ما دامت في العدة، فإن خرجت من العدة خلاص هي امرأة أجنبية ولا يلزم أن ينفق عليها ولا يسكنها إذا كانت قد خرجت من العدة. والعدة بينها الله سبحانه وتعالى في كتابه، بينها في (سورة البقرة) أن ذوات الأقراء أو ذوات الحيض هن يتربصن ثلاثة قروء، يعني ثلاث حيض؛ يعني معنى ذلك أنه إذا طلقها وهي طاهر لم يمسها فيه فتستقبل حيضة ثم حيضة، ثلاث حيض، فإذا طهرت من الحيضة الثالثة خرجت من العدة وخلاص ما عاد يملكها، فهذا معناه وهذا المقصود.

هذه عدة المرأة التي تسمى بـ (ذوات الأقراء)، أما إن كانت كبيرة في السن أو صغيرة لم يأتِها الحيض فهذه عدتها ثلاثة أشهر، وإن كانت حاملاً فعدتها وضع الحمل؛ لو أنه طلقها ثم وضعت، يعني لو طلقها مثلاً الصباح وفي المساء وضعت الحمل خلاص تخرج من العدة، ولو طلقها وهي في الشهر الأول سينتظر تسعة أشهر تقريباً أو ثمانية حتى تخرج من العدة، فيلزمه النفقة والسكنى ما دامت في العدة. وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ [الطلاق: ٦].

وهذا الأمر ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ خاص بالمطلقة طلاقاً رجعياً، يعني التي طلقت طلقة أو طلقتين، هذه يلزم الزوج أن يسكنها في بيته أو في أي بيت يكون له وينفق عليها، هذه المطلقة طلاقاً رجعياً . أما المطلقة طلاقاً بائناً، يعني طلقها ثم طلقها (ثلاث طلقات)، فهذه خلاص، الطلاق البائن ما يلزمه؛ لأنها ليس لها رجعة ولا يجوز أصلاً أن تبقى عنده ولا تكشف له ولا يمسها ولا يطأها، هذه بلا شك في هذه الحالة لا يلزم الزوج السكنى ولا تلزمه النفقة؛ لأنها مطلقة طلاقاً بائناً ثلاث طلقات خلاص ما يملكها، هي تخرج

وتذهب إلى أهلها أو تذهب إلى أي مكان، لكنه لا يلزمه، الذي يلزمه المطلقة طلاقاً رجعياً هذه هي التي عليه أن ينفق عليها، هذا المقصود.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ [الطلاق: ٦]؛ يعني من حيث تسكن أنت تسكنها بما يكون مناسب لك من حيث سكنتم. ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]؛ يعني على قدر طاقتكم وعلى قدر ما تستطيع وعلى قدر الاستطاعة، إذا تسكن في بيت سعته كذا وكذا ومستواه كذا وكذا، على قدر مستواك: الضعيف على قدر ضعفه، والغني على قدر غناه، وهكذا، ﴿مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ على سعتكم طاقتكم.

ثم قال: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق: ٦]؛ أي لا تضار المطلقة، الله أمرك أن تسكنها بطيب نفس، يعني لا يجوز لك أن تضارها. كيف تضارها؟ تضيق عليها؛ يعني بعض الأزواج إذا طلقها يضيق عليها، يمنعها من الطعام ومن الشراب، يغلق الماء عنها، يغلق الكهرباء عنها، يتكلم عليها، يسبها، يعني يضيق حتى هي تنفر من البيت وتخرج. الله يقول: ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ لا تضيق عليها ولا تضرها، لا تلحق الضرر بها أبداً ما دامت في العدة فهي زوجة ولها حق الزوجية. هذه واضحة؛ يجب أن تسكنها وأن تنفق عليها ما دامت في العدة .

طيب، ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

إن كانت حاملاً فما الحكم؟ قال: ﴿فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾، هذا يشمل ماذا؟ يشمل المطلقة طلاقاً رجعياً، ويشمل أيضاً المطلقة طلاقاً بائناً؛ لأن النفقة هنا على الحمل لا على المرأة. المرأة الحامل إذا طلقت طلاقاً بائناً يجب على الزوج أن ينفق عليها لأجل الحمل؛ لأن الذي في بطنها حمل تبع له يلحق به.

قال: ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ حتى تضع، فإذا وضعت يأتينا الآن النفقة على الطفل، أما البائن خلاص ما ينفق عليها خلاص، ولا الرجعية لأنها خرجت من العدة، المرأة المطلقة بعد الوضع سواء كانت رجعية أو مطلقة طلاقاً بائناً لا ينفق عليها؛ لأنها ليست بزوجة بعد العدة، ليست بزوجة ولا يملكها، ولكن هناك مولود جديد له أن ينفق عليه .

ولذلك شوف قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ [الطلاق: ٦].

قال: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أي الأزواج: المطلقات طلاقاً رجعياً أو طلاقاً بائناً، ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ لو كانت في عصمة الزوج ما يقول آتوهن أجورهن؛ لأنها زوجة وهذا ابنها والزوج ينفق عليها ويسكنها فلا يلزمه أن يعطيها أجرة الرضاع، لكن الآن هي أجنبية وخرجت عنه، ففي هذه الحالة يعطيها الأجرة، التي تعارف الناس عليها والتي تعاهد الناس عليها. شوف قال: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أجور الرضاع.

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾ تشاوروا بالمعروف؛ يعني تشاوروا على قدر النفقة والأجرة: كم أعطي هذه المرأة التي ترضع الطفل وهي مطلقة؟ كم تأخذ؟ كم المبلغ؟ كم المقدار؟ تحتاج إلى مرتب شهري أصرِف لها مصروف، هذا المصروف يتفق عليه الطرفان: الزوج والزوجة أو ولي الزوجة، يأتمرون بينهم بمعروف ويتشاورون فيما بينهم.

﴿وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ﴾ يعني لم يتفقوا، الزوج والزوجة: الزوجة تقول أنا أريد مبلغ قدره كذا وكذا، والزوج يقول لا أنتِي حقك مقداره كذا وكذا، فلم يتفقوا؛ فهي تطالب بمبلغ كبير وهو يقول لن أدفع إلا هذا المبلغ، فبينهما تفاوت. فهذا يسمى تعاسراً، يعني صار الأمر في صعوبة وما في اتفاق، فإذا وصل الأمر إلى هذا الأمر وحاول الزوج أو الزوجة أن يتفقا على مبلغ معين بسماحة وطيب نفس فهذا طيب، فإذا وصل الأمر إلى الصعوبة والتعاسر ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾؛ يسترضع الرجل (الأب) امرأة أجنبية، فيبحث عن امرأة، قال: ﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى﴾ يبحث عن مرضع ترضع هذا الجنين ويعطيها المبلغ الذي هو يتفق معها عليه.

خلاص، الزوجة أم الطفل ما تبي ترضى إلا بمبلغ باهظ كثير ما يستطيع الزوج أن يدفعه، فيقول أنا لا أستطيع أن أدفع هذا المبلغ أبحث عن مرضعة، هذا الابن ابني أنا أبحث عنه، فيبحث عن مرضعة ويتفق معها ترضعه، فإذا اتفقا خلاص ترضع له أخرى.

ولكن لو أن الطفل رفض، يُعطى لمرضع فيرفض ولا يريد إلا ثدي أمه، لا يريد إلا أن يشرب من حليب أمه ومن لبن أمه، فماذا نصنع؟ نلزم الأم بقوة ولا بد أن ترضعه، لو رفضت تلزم، والمبلغ يقضي فيه القاضي؛ هي تريد مبلغ كبير لا يستطيع الزوج دفعَه، ففي هذه الحالة يقضي القاضي باتفاق على مبلغ معين، يقضي ويلزم الأم أن ترضع هذا الرضيع لأنه لم يقبل أي مرضع، ففي هذه الحالة يلزمها القاضي. هذا معنى

قوله، فإذا قبل المرضع الأخرى فالحمد لله، وإن لم يقبل فقد يأتيك شخص يقول لك: طيب الآن فيه الحليب الصناعي واللبن الصناعي، نقول: اللبن الصناعي والحليب الصناعي يقوم مقامه ما في مانع، إذا هناك عاملة أو خادمة ستقوم بإرضاعه، أو عمته -عمة الطفل الصغير- أو خالته أو جدته تقوم بإرضاعه تصنع له الحليب، خلاص ما في مانع.

قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

يقول لك الزوج يلزمه النفقة على الزوجة ما دامت في العدة وعلى الجنين أو على الطفل المولود يلزمه النفقة، ولكن كلٌ على قدره: ينفق صاحب السعة من سعته، إذا كان الله وسع عليه ينفق ويبذل ويدفع المال على ما يناسبه. ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ضيق عليه رزقه فأصبح فقيرات، ﴿فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ ينفق مما أعطاه الله على قدر استطاعته، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ لا يكلف الله الفقير أن يلزمه بأن يستدين أو أن يقترض أو إلى آخره، لا! لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، إلا على قدر ما تستطيع هذه النفس أو هذا الرجل على قدر استطاعته.

ثم الله سبحانه وتعالى بلطفه ورحمته وعد بالسعة والتيسير فقال: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي بعد الضيق والشدة والكرب سيجعل الله السعة والغنى للزوج وللزوجة وللمولود أيضاً، كلها سيوسع الله عليهم؛ ولذلك قال الله عز وجل:﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ﴾ [النساء: ١٣٠].

الزوجة يغنيها الله عن الزوج، والزوج يغنيه الله عن الزوجة .

ثم أيها الإخوة، في خاتمة السورة تذكير عظيم، أنا مثل ما ذكرت لكم: أحكام الطلاق أحكام مهمة جداً ولا يجوز التساهل بها؛ فيها أوامر، فيها نواهٍ، فيها وعد، وفيها وعيد، ولا يجوز التساهل فيه، ولذلك الله ختمها بالوعيد الشديد في أن الله أهلك الأمم الماضية بسبب خروجها عن طاعة الله وتمردها على شرعه وعدم المبالاة بأحكامه. ماذا جرى لهم؟ اسمع: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ

اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ٨-١١].

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ يعني وكثير من القرى ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ عصت أمر الله وشرعه وخرجت عن طاعته وعن أمر الرسول، وتمادت في الطغيان والكفر والإسراف على نفسها بالمعاصي، فالنتيجة ما هي؟

قال: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ حاسبها الله على أعمالها السيئة في الدنيا حساباً شديداً، ﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا﴾ أي أنزل بها العقوبات. كم من الأمم الماضية التي عتت وعصت رسل ربها وعصت أوامر الله من قوم نوح وعاد وثمود وقوم فرعون وغيرهم، لم يبالِ أهلكهم بأنواع من العذاب! دققنا الحساب معها وجازيناهم على أعمالهم وعذبناهم العذاب النكر، أي العذاب الشديد القوي المنكر .

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ ذاقت عقوبة أمرها، تجرعت سوء العاقبة، عاقبة المعاصي والعتو والإعراض. ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ عاقبة الأمر أنها خسرت أنفسها وأهليها، وخسرت دنياها وخسرت آخرتها، هذا في الدنيا أن الله سلط عليهم العقوبات وأنزل بهم العذاب في الدنيا. أما في الآخرة فاسمع: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أعد الله لهؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم وتجاوزوا حدود الله وعصوا أوامره وخالفوا رسله عذاباً شديداً.

ثم سبحانه وتعالى ينبه تنبيهاً دقيقاً لأهل الطاعة وأصحاب العقول النيرة وأهل الإيمان فيقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اتقوا الله وخافوه واحذروا سخطه، لا تنزل بكم العقوبات التي تنزلت بالأمم الماضية لستم أنتم خيراً منهم، فاتقوا الله يا أولي الألباب، يا أصحاب العقول، يا من عندهم عقول يميزون ويخافون العقوبات ويبتعدون عن المعاصي.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وصدقوا بما جاءهم عن الله وعرفوا وعد الله ووعيده وعلموا أحكامه وأوامره ونواهيه، ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أنزل الله إليكم مواعظ وتذكير لكم ومنافع وأحكاماً خذوا بها وتمسكوا بها. ثم قال: ﴿رَسُولًا﴾ أي أرسل إليكم رسولاً كما أنزل إليكم الذكر وأوحى وأنزل القرآن، أرسل إليكم الرسول محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ يقرؤها عليكم ويبين لكم أحكامها، ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ يخرج الذين آمنوا

وصدقوا واتبعوه وعملوا الأعمال الصالحة من الظلمات، ظلمات الجهل والضلال والكفر والطغيان، إلى نور الطاعة والاستقامة.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ ومن يؤمن بالله ويفعل هذه الأفعال، أن يؤمن ويصدق ويتبع الحق ويتقي الله ويعمل صالحاً؛ يؤمن ليس فقط إيمان القول باللسان فيقول "أنا مؤمن" ولا يعمل الصالحات! تجد بعض الناس يقول: الإيمان بالقلب يا أخي، أهم شيء أني مؤمن! طيب والصلاة والطاعة والاستقامة وتقوى الله؟

لا بد، إذا كان عندك إيمان وفي قلبك إيمان فالإيمان يتطلب منك الاستقامة على شرع الله والتمسك بما أمرك الله، ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ والله هنا بين ثمرة الطاعة فقال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١].

شوف لما ذكر الوعيد الشديد والعذاب النكر، ذكر الوعد الكريم من عنده لمن أطاعه: فمن عصاه توعده بالوعيد الشديد والعذاب النكر، ومن أطاعه واستقام على شرعه وحقق أوامره وابتعد عن النواهي فهذا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، شوف كيف يدخله الجنات التي يفوز بها، وهذه الجنات تجري من تحتها الأنهار وهم خالدون فيها مقيمون فيها أبداً لا يخرجون منها . قال: ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ أعد الله له الرزق الكريم وأحسن له الرزق كما أحسن طاعة الله، المحسن هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟!

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

المحسن وعده الله بالإحسان.

طيب، خاتمة هذه السورة الله يخبر فيها أن الله هو الخالق وهو المدبر وهو الآمر، الخلق والأمر لله:

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالذي خلق هذا الكون وخلق الإنسان هو الذي أمره، فكما أنك تقر بأن الله هو الخالق، يجب أن تقر بأن الله هو الذي يشرع ويأمر وينهى.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

السماوات السبع العظيمة خلقها الله بقدرته، ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ خلق سبع أراضين، هذه كلها خلقها الله سبحانه وتعالى في ستة أيام: خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أربعة أيام للأرض ويومان للسماوات.

قال: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي سبع أراضين. كيف سبع أراضين؟ أين هي؟ نقول: الله أخبرنا بأنه خلق سبع أراضٍين، وجاء في السنة في الحديث الصحيح قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«مَنِ اقْتَطَعَ -أَوْ مَنْ أَخَذَ- قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَاضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

إذاً هي سبع أراضٍي؛ قد تكون طبقات ملتصقة، قد تكون في نواحٍ مختلفة، المهم نحن نؤمن بأن الله أخبرنا بأنه خلق سبع أراضٍين، ولكن لا يلزم أن نراها كما أننا لا نرى السماوات السبع كلها ولا نرى إلا سماء الدنيا، فيجب علينا كذلك أن نؤمن ونصدق بخبر الله ولا يلزم لو جاءك شخص فقال لك والله الاكتشافات العلمية وعلماء الأرض ما بحثوا ولا وجدوا سبع أراضين، نقول: الله أخبرنا ونصدق بما جاءنا عن الله .

شوف قال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾؛ يعني الخالق المشرع الآمر يتنزل الأمر بينهن، يعني بين السماوات ينزل إلى الأرض الأمر: الوحي والشريعة.

قال: لماذا؟ قال: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾؛ يعني ليكون عندكم العلم واليقين أن الله على كل شيء قدير، فالذي شرع الشرع وخلق الخلق هو القادر على كل شيء، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً لا يعجزه شيء في خلقه، وسعة علمه أحاطت بكل شيء فلا يخرج شيء عن علمه سبحانه وتعالى ولا عن قدرته، فالخلق كله خلقه وتحت قدرته وتحت علمه ومشيئته.

فإذاً هذه السورة أيها الإخوة سورة عظيمة، تحدثت عن حكم من أحكام الله الشرعية التي تتعلق بالأسرة وما يقع بين الزوجين، وقد يتساهل أو يغفل كثير من الناس عن أحكام الطلاق الذي هو من أهم الأحكام الشرعية.

شوف، النكاح والزواج ما أنزل الله فيه سورة كاملة، وإنما لـ (أحكام الطلاق) وأهميته أنزل فيه سورة كاملة سميت (سورة الطلاق)، يجب أن نتعلمها ونعرفها، ونعرف أن الله سبحانه توعد وهدد كل من خالف شرعه أو تساهل فيه؛ لأن كثيراً ممن يتساهلون في أحكام الطلاق، فهدد وبين أحكام ما للمرأة

المطلقة وما عليها وما للرجل وما عليه، ثم بين أن من تساهل في أحكامه فإنه متوعد بالعقوبات الشديدة كما أهلك الله الأمم الماضية التي عتت عن أمر ربها. فوالله سبحانه وتعالى هو القادر على كل شيء المحيط بكل شيء.

نسأل الله أن ينفعنا بهذه السورة وأن يبارك لنا، وإن شاء الله لقاؤنا القادم في السورة التي تليها، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ التَّحْرِيم)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(التحريم ١ - ٨)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

أيها الإخوة، سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المتجدد، لقاء مغرب الثلاثاء مع تفسير القرآن العظيم.

وقد وصلنا في اللقاء الماضي، وصل بنا الحديث في تمام سورة (الطلاق)، وفي هذه الأمسية وهذه الليلة نشرع في تفسير سورة (التحريم).

والملاحظ أن سورة (الطلاق) وسورة (التحريم) كلاهما قد افتتح بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الطلاق: ١ / التحريم: ١]، وكلاهما تتحدث عن الأسرة المسلمة. سورة (الطلاق) تحدثت عن علاقة الزوج بزوجته، وأنه إذا وقع الطلاق بين الزوجين فإن الطلاق له أحكام وله حدود، شرع الله أحكامه وحدوده، شرع أحكام الطلاق بأن الرجل لا يطلق كما شاء وكيف شاء، بل يطلق في حدود الشرع، وأن على الزوجين أن يحصوا العدة، وأن على الزوج أن لا يخرج زوجته من دارها وأن لا تخرج إلا بإذنه، إلا أن يجد الزوج أمراً لا يستطيع الصبر عليه.

وكذلك عليه أن يعرف عدة المرأة، وأن يعرف أحكام الرجعة، وأنه إذا طلق امرأته يعرف متى يطلقها، وما هي أحكام العدة، وما أحوال النساء في العدة، وأن المرأة إذا طلقت طلاقاً رجعياً فللزوج أن يراجعها في زمن العدة، فإن انتهت العدة فليس له ذلك. وكذلك إذا طلق الرجل امرأته الطلقة الثالثة فإنها تبين منه ويسمى طلاقاً بائناً، لا يجوز له أن يراجعها حتى تنكح زوجاً غيره، ويطأها ويطلقها مختاراً، ثم تعود إلى زوجها بعقد جديد ومهر جديد وشهود، كل ذلك هو ما يتعلق بأحكام الطلاق.

كذلك إذا طلقت المرأة طلاقاً بائناً فإنها ينفق عليها إن كانت حاملاً فإن على الزوج أن ينفق عليها وإذا وضعت ينفق على الطفل، ويتولى رعاية الطفل، وكذلك الإرضاع فإنها لها أن ترفض الرضاع أو تطلب الأجرة فإن أعطاها وإلا يستأجر من يرضع. ثم ختم الله أحكام الطلاق بأن على الزوجين أن يراعي

الآخر، وأن ينفق الزوج إن كان على سعته وإن كان لا يقدر فإنه ينفق على قدر حاله، هذه كلها -أيها الإخوة- أحكام سورة (الطلاق).

ثم انتقل بنا الحديث إلى سورة (التحريم)، وفيها أيضاً علاقة الزوج بزوجته وأحكام الأسرة المسلمة، وما الذي يجب على الزوج الذي هو راعٍ في بيته، وما الذي يجب على الزوجة التي هي راعية في بيتها.

في هذه السورة يقول الله سبحانه وتعالى بعد بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١].

إذاً هناك حدث، وأمرٌ حصل للنبي صلى الله عليه وسلم، وأن النبي صلى الله عليه وسلم حرم شيئاً قد أباحه الله، وحرم ذلك طلباً لمرضاة زوجاته، وتحريم ما أحل الله لا يجوز، وأن الإنسان إذا حرم شيئاً وقد أباحه الله له كالأكل والشرب والجماع واللباس والجلوس والسفر والدخول والخروج ونحو ذلك من المباحات، إذا حرم شيئاً على نفسه فإنه عليه أن يكفر وأن يعود بذلك.

وقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ هذا عتاب لطيف من الله سبحانه وتعالى، عتاب لطيف من الله لنبيه؛ يعني لم تحرم ما أحل الله لك؟ ثم إن هذا العتاب وهذا الفعل الذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله لنبيه بدليل قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحريم: ١]؛ أي قد غفر الله له ورحمه.

ثم بين أن الله سبحانه وتعالى قد فرض للمؤمنين تحلة أيمانهم؛ إذا عقدوا اليمين على شيء مباح أو عقدوا اليمين على أي أمر من الأمور فإنه له أن يحل يمينه بالكفارة: ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [التحريم: ٢]، والكفارة ذكرها الله سبحانه وتعالى في سورة (المائدة) أن من وقع باليمين وأراد أن يعود ولم يفِ بيمينه عليه الكفارة، والكفارة هي إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو عتق رقبة، ثلاثة أمور مخير بينها، فإن عجز عن ذلك فإنه ينتقل إلى صيام ثلاثة أيام، ولا يجوز له أن يصوم وهو يستطيع أحد هذه الأمور الثلاثة.

وفرض الله لنا أي شرع لنا تحلة الأيمان.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [التحريم: ٢].

أن يتولى أمركم، بحيث إنه لطف سبحانه بنا وشرع لنا أحسن الشرائع، وجعل لنا من كل ضيق مخرجاً. وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢].

العليم بأحوالنا، الحكيم بما يشرع لنا. قال الله بعدها: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

هذا معنى ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾، أشرع الله أو بين الله سبحانه وتعالى أن النبي أسر إلى بعض أزواجه، قال أهل التفسير: هي حفصة حديثاً، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض، فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير.

القصة وما فيها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمر على بيوت أزواجه بعد العصر، يوم من الأيام مر على زينب بنت جحش، وكان إذا مر عليها أطال الجلوس عندها، فاستنكر بعض أزواجه كأم سلمة وسودة وحفصة وعائشة، فاجتمعت حفصة وعائشة على أن يتفطن النبي إذا جاء من عند زينب بنت جحش. فلما جاء في اليوم التالي خرج من بيت زينب بنت جحش ومر بحفصة فاقتربت منه وشمت منه رائحة عسل، فقالت: يا رسول الله، أكلت مغافير؟ والمغافير الشجر يكون فيه الصمغ الحالي وله رائحة قوية. فقال: «وَاللهِ مَا أَكَلْتُ مَغَافِيرَ، وَإِنَّمَا شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ». وقد كان مر على عائشة قبل ذلك أيضاً وشمت منه رائحة العسل فقالت: أكلت مغافير؟ قال: «لَا، وَإِنَّمَا شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ». فلما جاء عند حفصة وقالت له: يا رسول الله أكلت مغافير؟ رائحة المغافير، فقال: «لَا، وَإِنَّمَا شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ». فقالت: أها، شربت عسلاً عند زينب؟ قال: «نَعَمْ». ثم قال: «وَاللهِ لَا أَشْرَبُ عَسَلًا بَعْدَ ذَلِكَ»، حرم شرب العسل على نفسه، وقال لحفصة: «لَا تُخْبِرِي أَحَدًا بِذَلِكَ»، أنني حرمته وأنا امتنعت منه. أبدت حفصة أو أظهرت الأمر لعائشة، أظهرت الأمر لعائشة، فكشف الله هذا الأمر رفقاً بنبيه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ وهي حفصة حديثاً؛ أي أنه حرم العسل على نفسه، ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ يعني أخبرت عائشة، ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ ظهر على محمد، جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة وقال لها: «هَلْ أَخْبَرَتِ عَائِشَةَ؟»، ولم يظهر كل الأمر لها، وإنما عرفها على بعض ما وقع، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ﴾ [التحريم: ٣]، وهذه طريقة الكرماء أنهم لا يستقصون، وأنهم يتغاضون ويغضون طرفهم، والتغاضي هو من أعظم الحلول

لمشاكل البيوت الزوجية، التغاضي لا تكثر من المتابعة والدقة وإنما أغمض عينيك وتغافل. لذلك النبي صلى الله عليه وسلم ما استقصى معها وقال: ماذا قلتِ لها وماذا قالت؟ وإنما قال: «أَخْبَرَتِيهَا؟». ولذلك قرأ بعض القراء: (عَرَفَ بَعْضَهُ) أي عرف شيئاً وترك الكثير. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ لما نبأ حفصة به، ﴿قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣] العليم بكل شيء، والله الخبير بكل شيء.

ثم لام فيهما؛ لأن هذا كان فيه إيذاء للرسول صلى الله عليه وسلم، المتابعة بهذه الطريقة إيذاء له، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى موكلاً الخطاب لحفصة وعائشة أن تتوبا إلى الله، أن تتوبا إلى الله فإن الله يقبل توبتكما ويغفر لكما ذنوبكما، وترجعان إلى حال أحسن:

قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي مالت عن الحق، مالت عن الحق، حالكما الآن أنكما ملتما عن الحق، فارجعوا إلى ربكما وارجعوا، ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ تستمران على هذا الميل والاستمرار عليه وتتظاهران عليه، فإن الله سبحانه وتعالى سيتولى أمر نبي محمد، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ هو مناصره وهو الذي يتولى أمره، وجبريل معه، وصالح المؤمنين من أصفياء ومن الذين اتباع للرسول صلى الله عليه وسلم من المحبين، والملائكة بعد ذلك ظهير أي معينين أيضاً له صلى الله عليه وسلم.

فكل هؤلاء معه، وهذا كله تحذير، تحذير لإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال الله سبحانه وتعالى تأكيداً وتخويفاً: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ يا نساء النبي أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، وهؤلاء الأزواج وصفهن الله بهذه الصفات، قال: ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾ أي مستسلمات لله منقادات لله لا يترددن في أمر من الأمور، ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ أي عرفن حقيقة الإيمان في قلوبهن، ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ كثيرات الطاعة، ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ أن يرجعن كثيرات الرجوع إلى الله، كلما وقعت إحداهن في شيء من المخالفة أو من الذنب تابت إلى الله سبحانه وتعالى، ولذلك وصفهن بالتائبات، ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ أي كثيرات العبادة المتنوعة من الصلاة والصوم وسائر العبادات والصدقة وغير ذلك، ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ كثيرات الصيام أو الهجرة، ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ أي يزوج الله عز وجل

يزوج محمداً أنواع النساء ثيبات وأبكاراً، سبق لهن الزواج أو لم يسبق، كل ذلك كتب لهن، وقد اتصف نساء النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الصفات كلها من الإسلام والإيمان والقنوت والتوبة والعبادة والسياحة وغير ذلك.

لما بين الله سبحانه وتعالى موقف نبيه وبين موقف زوجاته وما جرى بينهما، نادى المؤمنين نداءً عاماً بأن يقوا أنفسهم وأن يقوا زوجاتهم وأن يقوا أهليهم وأن يقوا أولادهم من النار، من النار، وأن يخوفوهم حتى يسلموا من هذه النار التي توعد بها من عصى:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وفي هذا التخويف، أمر الله لأن الرجل راعٍي في بيته والمرأة راعية في بيتها، فعليهم أن يتقوا الله فيمن تحتهم بأن يقوا أنفسهم ويقوا أهليهم من النار الشديدة الحرارة التي جعل الله وقودها الناس والحجارة، وجعل عليها خزنة ملائكة وصفهم الله بأنهم غلاظ الخلقة، غلاظ في القوة، شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، لا يترددون فيما يأمرهم الله به، بل يبادرون ويفعلون ما يؤمرون.

لما حذر الله، وهذا هو أقوى أسباب الحفاظ على الأسرة المسلمة بأن يتذكر دائماً، الرجل يتذكر حقه أو يتذكر واجبه تجاه بيته، والمرأة تتذكر واجبها تجاه زوجها وأولادها. لما ذكر ذلك الأمر، بين أن الكفار ليس لهم اعتذار في يوم القيامة، ولذلك قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧].

اليوم يوم القيامة لا ينفع الاعتذار، لا يقبل، إنما تجزون ما كنتم تعملون، تكونون بأعمالكم.

ثم خاطب الله سبحانه وتعالى المؤمنين وناداهم نداءً ينفعهم ونداءً يجب أن يقفوا عنده يتأملون، وهو نداء التوبة، وهو آخر نداء جاء في كتاب الله كأن هذا النداء جاء للتوبة، قال الله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

ما هي التوبة النصوح؟ النصوح ما اكتملت فيها شروط التوبة: أولاً: الإقلاع عن الذنب. ثانياً: الندم على ما وقع. ثالثاً: العزم على أن لا يعود.

فإذا تاب هذه التوبة النصوح، يعني الخالصة لله، قبل الله توبته، ورتب على التوبة ماذا؟ أن يكفر عنه السيئات، الذنوب كلها، وأن يدخلهم -أن يفوزوا- في جنات النعيم، فيدخلهم في جنات النعيم، تجري من تحتها الأنهار في ذلك اليوم الذي ينصر الله رسوله والمؤمنين، ولا يخزيهم، ولا يفضحهم، ولا يذلهم، بل ينصرهم ويجعل النور أمامهم، يسعى النور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، أمام أيديهم وعن يمينهم، يقولون وهم ينظرون إلى هذا النور: ﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾، أتمم لنا نورنا، ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ لا ينسون ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨].

نقف عند هذا القدر ونستكمل ما تبقى من السورة في لقاء قادم، وأسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(التحريم ٩- آخر)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله حامداً، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد؛ أيها الإخوة المجتمعون والحاضرون معنا، نستكمل ما توقفنا عنده، وهو تفسير (سورة التحريم)، وحيث توقف بنا الكلام في اللقاء الماضي عند قوله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٩﴾ [التحريم: ٩].

هذا خطاب أيها الإخوة لمحمد صلى الله عليه وسلم، والخطاب للرسول خطاب لأمته، والذي جاهد الكفار والمنافقين هو صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه، وكل من يصلح لهذا الخطاب وكل من يوجه له الخطاب فإنه مطالب، ومجاهدة الكفار بالسيف، ومجاهدة المنافقين باللسان والقلم؛ لأن المنافقين يظهرون الإيمان ولا يمكن أن يقتلوا بالسيف وهم يدعون الإيمان، وإنما المنافقون يخشون ويخفون كفرهم ويظهرون الإيمان، ولذلك لم يقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن ظاهرهم الإيمان، ولذلك يجاهدون -إذا جاء دور مجاهدتهم- باللسان ويجاهدون بالقلم، وتبطل دعواهم وتبطل خططهم بهذه الطريقة .

أما الكفار فإنهم يجاهدون بالسيف. قال الله: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: اشدد عليهم بقوة ولا تتهاون في أمرهم، ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ وهذه إشارة سيئة لهم أن مأواهم جهنم، ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ بئس المرجع وبئس المهاد أن يعودوا إلى الله، وقد ضلوا عن المنار والجانب، نسأل الله العفو والعافية.

يختم الله سبحانه وتعالى لنا (سورة التحريم) بأن يضرب لنا مثلين عظيمين؛ في حق زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وفي حق كل مؤمنة تكون تحت مؤمن، أو تكون عاصية وهي تحت مؤمن ولا ينفعها؛ فلا تنفع القرابة، القرابة لا تنفع، عم النبي أبو لهب وعمه أبو طالب لم تنفعهم القرابة، بل أدخلوا النار، فالقرابة لا تنفع، والذي ينفع هو العمل الصالح .

ولذلك يضرب الله مثلاً في الكفار تحت المؤمنين، ومثلاً فيمن صدق إيمانه مع الله سبحانه وتعالى، يقول الله سبحانه وتعالى في النساء: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ كَانَتَا تَحۡتَ

عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

نوح زوجته كافرة وابنه كافر، ومع ذلك صبر وهو من أولي العزم ومن الأنبياء ومن الرسل، ومع ذلك تحمل وصبر؛ فلا تدعُ أنت أيها الإنسان إن كان عندك أحد من أهل الضلال أو من أهل المعاصي فاصبر عليه وادعه وتحمل إذا ابتليت بمثل هذا . نوح عليه السلام ابتلي بامرأته الكافرة، ونوح مقدم ومعظم ومن أولياء الله ومن رسله ومن أصفياء الله، ومع ذلك لم يغنِ نوح عن امرأته شيئاً، بل قيل لها: ادخلي النار مع الداخلين.

وكذلك لوط عليه السلام، هو من أنبياء الله وزوجته كافرة، فلم يغنِ لوط عن امرأته شيئاً، وقيل لها: ادخلي النار. قال الله: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ والمقصود بالخيانة هنا خيانة الدين والكفر بأنهم كفروا ولم تؤمنا، خيانة الدين، وليس المراد به خيانة الفراش؛ خيانة الفراش لا يمكن لأن فراش الأنبياء محفوظ، ولا يمكن لزوجة من زوجات الأنبياء أن تقع في الفاحشة، لا يمكن، والله حفظ فراش أنبيائه من الفواحش . قال: ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

وضرب الله مثلاً لأمرتين صالحتين للذين آمنوا، يضرب الله مثلاً للذين آمنوا بأي شيء؟ امرأة فرعون، وفرعون من أعتى وأشد أعداء الله وكان ينكل بالمؤمنين ويقتل، وهذا الله امرأةً فآمنت وصدقت مع ربها، لما قالت له: "ربي وربك الله"، قال: "من ربك؟"، قالت: "ربي وربك الله"، قال: "لا، أنا ربك"، قالت: "ربي وربك الله". فعتى فرعون عليها، وأخذوا بها ضرباً وتقييداً، فقيدت وضربت ضرباً شديداً حتى بدأت تسيل الدماء منها وتوضع في الشمس، ووضعت الحجارة الحارة عليها في شدة الحر، فلما اشتد العذاب عليها أظلتها الملائكة وكشف لها بيتها في الجنة، فلما رأته ضحكت ثم ماتت رضي الله عنها وأرضاها، آسية بنت مزاحم.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: ١١].

وأما المثل الثاني ففي مريم بنت عمران، القانتة الطائعة الحافظة لله سبحانه وتعالى، ضرب الله بها مثلاً وقال:

﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَانَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾ [التحريم: ١٢].

عفيفة، أحصنت فرجها، حفظت نفسها، وأعظم بها! أحصنت فرجها وقد اتهمها اليهود بالزنا والفاحشة، وطهرها الله سبحانه وتعالى . قال الله عز وجل: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾.

أرسل الله إليها جبريل فتمثل لها بشراً سوياً، قالت:

﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: ١٨]،

قال:

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩﴾ [مريم: ١٩].

فنفخ في جيبها نفخةً حملت منها، ولما حملت ولدت نبياً من أولي العزم وهو عيسى بن مريم ليس له أب، وهي معجزة عظيمة من الله سبحانه وتعالى وآية: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وصدقت هي بكلمات الله صدقاً وآمنت، وتميزت بهذه الميزة وكتبه وكانت من القانتين، كثيرة الطاعات:

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [آل عمران: ٤٣].

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ أَرْبَعٌ: امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ آسِيَةُ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ».

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُ نِسَاءِ العَالَمِينَ أَرْبَعٌ: آسِيَةُ، وَمَرْيَمُ، وَخَدِيجَةُ، وَفَاطِمَةُ».

ثم قال صلى الله عليه وسلم: «وَفَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ».

والثريد معروف، الثريد هو مكون من اللحم والخبز، يكون الخبز في الإناء ثم يوضع اللحم عليه، هذا يسمى طعام الثريد.

فهذه هي (سورة التحريم)، عشنا معها وتأملنا آياتها، وعرفنا ما فيها من أحكام، وعرفنا أسباب ومقومات الأسرة المسلمة؛ كيف يحافظ الإنسان على بيته وعلى أسرته وعلى زوجه وذريته، وكيف إذا سيبهم وتركهم ماذا سيحدث وماذا سيجري .

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيننا على تربية بيوتنا، وأن يجعل بيوتنا عامرة بطاعته، وأن يجعل ذرياتنا وأزواجنا هادية مهدية، وأن يقر أعيننا:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝٧٤﴾ [الفرقان: ٧٤].

نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وإلى لقاء آخر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ المُلْك)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الملك ١ - ٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته واقتفى أثره إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا. أيها الإخوة الكرام، وبعد ما أنهينا الجزء الأخير من القرآن الكريم، فإننا ننتقل وإياكم إلى الجزء الذي قبل الأخير؛ وهو جزء (تبارك)، وهذا الجزء وهو الجزء التاسع والعشرون كل سوره مكية. ومثل ما ذكرنا في لقاءات ماضية، السور المكية لها خصائص تعالج العقيدة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث في قوم يشركون بالله، ويعبدون الأصنام، ولا يؤمنون بالله، ولا يؤمنون باليوم الآخر، ولا يؤمنون بالرسل، ولا بالقرآن، فجاءت السور هذه بقوتها تجادل وتناقش وتخاصم هؤلاء المشركين في هذه العقائد: الإيمان بالله وعدم الإشراك به، والإيمان بالرسل الذين أرسلهم الله رحمة للعالمين، والإيمان بالكتب المنزلة، والإيمان باليوم الآخر والبعث والجزاء والجنة والنار؛ هذه كلها لا يعترفون بها، فجاءت السور هذه تركز على هذه العقيدة، تثبت هذه الثوابت، وتركز على هذه العقيدة المهمة.

وأنت تقرأ في هذا الجزء من أوله إلى آخره -مثل ما ذكرنا- سور تعالج هذه القضايا المهمة، وتعرض لك مواقف هؤلاء المشركين وعناد هؤلاء المشركين ، والرد عليهم وإثبات والتركيز على قضية الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالجنة، الإيمان بالنار، الإيمان بالبعث، والإيمان بإعادة الناس بعد موتهم وبعثهم من قبورهم؛ هذه قضية مهمة أنكرها المشركون فجاء القرآن ليثبتها في قلوب المؤمنين، وهي من أركان الإيمان الستة:

«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، واليوم الاخر وبالقضاء والقدر خيره وشره».

سورة (الملك) ولها أسماء، تسمى بسورة (الملك)؛ لأن الله قال:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

وتسمى بسورة (تبارك)، وتسمى أيضاً بسورة (تبارك الذي بيده الملك)، جاء في أحاديث بهذا النص، وتسمى بأسماء أخرى قد تكون هذه الأسماء الأخرى هي مجرد أوصاف، مثل ما تسمى بـ (المنجية) و(المانعة) وغيرها من الأسماء.

هذه السورة لها فضائل، ورد في السنة بأن لها فضائل، من أشهر ما ورد في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«سُورَةٌ فِي كِتَابِ اللهِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ».

وجاء في أحاديث أخرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وفي رواية أخرى: «شفعت لصاحبها» -يعني في عدة روايات- دخول الجنة والمغفرة، وأيضاً:

«شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى أَنْجَتْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ».

لذلك سميت (المنجية)، تسمى (المنجية) من عذاب القبر، (المانعة) من عذاب القبر في أحاديث كثيرة.

وورد أيضاً في السنة عن هذه السورة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقراها كل ليلة، يقرأ ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ﴾ [السجدة: ١-٢] سورة (السجدة) ويقرا (تبارك) كل ليلة. وجاء عن ابن مسعود أنه أيضاً أوصى بأن تقرأ كل ليلة بعد صلاة المغرب في سنة راتبة المغرب أو راتبة العشاء أو بين العشاءين أو بعد العشاء، يحرص الإنسان على قراءتها. جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقراها، وجاء أيضاً عن السلف أنهم كانوا يحرصون على قراءتها إلى عهد قريب إلى الآن، وأنا أدركت حتى الآن أعرف أناس لا يتركونها كل ليلة، هي المنجية، هي المانعة، هي الشافعة تشفع لك، فيحرص الإنسان على قراءتها. وليست بالطويلة، هي لا تأخذ منك وقتاً طويلاً؛ فمن السنة أن تقرأ كل ليلة ويحرص الإنسان عليها. كثير من الناس قد يغفل عن بعض السنن، فينبغي علينا أن نحيي مثل هذه السنن، لا نغفل عنها، نحييها.

فهذه آثار حتى جاء في بعض الآثار أن رجلاً من الصحابة ضرب خباءً له -مثل الخيمة- على أرض، فلما ضرب هذا الخباء وإذا فيه صوت تحت الأرض يقرا سورة (تبارك)، فعجب وإذا هو قبر ولم يدر عنه أنه قبر قد مسح، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره فقال:

«هَذَا رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ فِي قَبْرِهِ».

فيحرص الإنسان على هذه السورة، هذه السورة ثلاثون آية ليست بالطويلة، ينبغي لنا أن نقرأها، ينبغي لنا أن نقرأها بهدوء، بتأمل، بتفكر شيئاً فشيئاً، ننظر في آياتها حتى نتدبر القرآن. ليس المقصود منك أن تقرأ كما يقرا الجميع، المقصود الهدف أن تقرأ بتمعن وتفكر وتدبر؛ حتى تفهم هذه الرسالة التي يرسلها الله إليك. الله أرسل إليك سورة (تبارك) لا لتقرأها هكذا وتمشي عليها، تقرأ بتفكر، بتأمل، تنظر في آياتها.

ولذلك أنت لما تسمع هذا الاسم: سورة (تبارك)، تعرف أن فيها خيراً عظيماً؛ لأن كلمة (تبارك) تعني الخير العظيم الذي لا حد له، ففيها خير. وقد افتتحت هذه السورة بكلمة ﴿تَبَارَكَ﴾، وافتتحت سورة قبلها وهي سورة (الفرقان):

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١].

وانظر الرابط بين (تبارك) و(الفرقان)، القرآن كله بركة:

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩].

والله يقول: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]، وهنا قد يكون الأمر -يعني- أوضح بكثير وأعظم وأوسع، وهو: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

فالسورة توضح لك ماذا؟ سعة ملك الله سبحانه وتعالى وقدرته، والسورة تدور على هذا. ولذلك بعض أهل العلم يقول: هذه السورة فيها (براعة استهلال). (براعة الاستهلال) يعني تستهل السورة بلفظة أو كلمات تجد السورة تدور حولها، هذا معنى تدور حول شيء معين وهدف معين، هذا يسمونه إذا جاءت السورة تفتتح بهذا اللفظ ففيه براعة استهلال، براعة استهلال هذا عند علماء البلاغة يذكرون هذا الشيء. براعة استهلال يعني كأن السورة تشير في مجموع آياتها إلى آخر آية، تشير إلى قضيتين مهمتين: سعة ملك الله سبحانه وتعالى؛ أنه يملك الدنيا والآخرة ويملك كل شيء، وعظم قدرة الله في الكون، في الكون.

وأنت تقرأ في هذه السورة تجد الملك والقدرة تمشي معك في هذه السورة كلها، تشير إلى صفة الملك لله وصفة القدرة، وأن الله هو الملك القدير سبحانه وتعالى.

ما معنى كلمة (تبارك)؟ نقول: (تبارك) معناها تعالى وتعاظم، وهذا اللفظ لا يطلق إلا على الله، لا يطلق على بشر؛ لا تقول: فلان تباركت علينا، هذا خطأ. (تبارك) لمن؟ لله سبحانه وتعالى. تقول: أنت فيك بركة، أنت حللت علينا وكلك بركة، هذه من بركات فلان، هذه كذا، لكن هذه اللفظة هكذا: (تبارك) وتعالى وتعاظم، هذه لا تكون إلا لله، ولذلك خصها الله، قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى﴾، ولم يقل -شوف لم يقل-: تبارك الله أو تبارك ربنا، لا، جاء بصفة قال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

و(الملك) هنا ملك حقيقي؛ قد يكون بعض البشر عنده ملك لكن ليس ملك تام، يعني ملك نسبي، لكن الله ملكه ملك حقيقي تام، فهو مَلِكٌ ومَالِكٌ مثل ما ذكرنا في لقائنا الماضي الفرق بين مَلِك ومَالِك، عرفنا الفرق بينهما. فالله هو المَلِك المَالِك، وأنت تقرأ في سورة (الفاتحة):﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وتقرأ في سورة (الناس): ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٢].

والله هو المَلِك المَالِك، وهنا قال: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]؛ أي أنه مَلِكٌ مَالِكٌ وبيده الملك. يقول: ﴿تَبَٰرَكَ﴾؛ كثر خيره سبحانه وتعالى وتعاظم، تعالى وكثر خيره. من هو الذي بيده الملك؟ الذي يملك الدنيا ويملك الآخرة، يملك السماوات وما فيهن، يملك الأراضي وما فيهن، كل شيء بيده سبحانه وتعالى بيده الملك.

وفي هذه الآية يجب علينا جميعاً أن نثبت صفة من صفات الله، صفة ذاتية من صفات الله، وهي صفة (اليد)، ولا يجوز أن نؤولها بأي تأويل آخر؛ تجد بعض المتأولة يقول: بيده الملك يعني بقدرته أو هذه نعمة، نقول: لا، الله يقول بيد، نثبت اليد كما أثبتها الله سبحانه وتعالى، قال في خلق آدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

فصفة اليد، صفة الوجه، صفات كثيرة لله يجب علينا أن نثبتها كما أثبتها دون دخول في كيفيات أو التشبيه أو نحو ذلك، نؤمن بها، نؤمن كما أمرنا الله أن نؤمن بها ونثبتها كما أثبتها الله وأثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

لما بين أنه له الملك كله زادك زيادة، قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ لأن بعض المخلوقين من أهل الدنيا قد يملك، يملك لكن ليس له قدرة، والله جمع بين الأمرين: (الملك) و(القدرة)، فهو على كل شيء قدير. وشوف كلمة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا تقف عند حد معين، على كل شيء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كل شيء الله عليه قدير سبحانه وتعالى، يعني جمع بين الملك والقدرة. ثم بين لك لما يقول لك: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، بدأ يوضح لك ما هي الأشياء التي يقدر الله عليها، نقول: كل شيء يقدر عليه، ولكن الله يضرب لك مثال، مثل ماذا؟ قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢].

الذي أوجد الموت من هو؟ الله، والذي أوجد الحياة من هو؟ الله، هو الذي يميت الأحياء، يميتهم وهم أحياء ويقبض أرواحهم، وهو الذي يحييهم، يحيي ويميت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. فالموت بيده والحياة بيده، ما هو الموت؟ ما هي الحياة؟ الموت هو مفارقة الروح الجسد، فإذا فارقت الروح الجسد أصبح جسداً هامداً لا يتحرك، والحياة هي قذف هذه الروح في هذا الجسد. ولذلك إذا خَلق الله الخلق في بطن أمه بعد أربعين نطفة، أربعين ثم علقة أربعين، ثم مضغة أربعين، بعد هذه المائة وعشرين يوماً يرسل الله له الملك فينفخ فيه الروح فتدب فيه الحياة، هذا يحيي، الذي يحيي ويميت هو الله، ولا يمكن لأي مخلوق أن يدعي أنه يحيي ويميت. وما ذكره النمرود الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في محاجة إبراهيم: ﴿قَالَ أَنَا أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

هذا يدل على حماقته وقلة عقله وسفاهته؛ تأتي بشخص تقول: هذا حكمنا عليه بالموت فنحييه، وهذا حكمنا عليه بالقتل فنفيته، هذا تمويه على الناس الجهلة، أما الذي يعرف أن الله هو الذي يحيي ويميت، ولذلك إبراهيم أعرَض عنه، لم يرد عليه، أعطاه دليلاً آخر. الذي يحيي ويميت هو الله سبحانه وتعالى، هو الذي يملك.

طيب، هنا سؤال: قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]، أوجد الموت والحياة، ليش قدم الموت؟ قال: لأن الموت هو الأول، هو الأصل:

قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

فالإنسان أصله معدوم ميت غير موجود، ثم أحياه الله سبحانه وتعالى، ثم يميته، ثم يحييه، هذا أمر. الأمر الثاني: أن الموت قاهر، قاهر للجبابرة الذين يحبون الدنيا الموت يقهرهم، فلذلك قدمه كأنها رسالة لهم، تخويف لهم حتى تكون على استعداد. فالذي خلق الموت والحياة هو الله سبحانه وتعالى.

قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

الله ما خلق الموت وأنت تنظر إلى الأموات تنقل كل يوم إلى المقابر، من الذي أوجد الموت فيهم؟ هو الله، لا أحد يستطيع أن يقبض أرواحهم إلا الله سبحانه وتعالى، أموات ، كل يوم تذهب أعداد هائلة، أنت لا تتصور مسجداً أو مسجدين أو ثلاثة أو منطقة أو مملكة أو نحو ذلك، العالم كله، ذرية آدم كم يذهب يومياً إلى المقابر أو يذهبون إلى الآخرة؟ أعداد هائلة! الله يحيي ويميت، وكم يحيي الله سبحانه وتعالى في الأرحام، وكم يولد على هذه الأرض من الأعداد الهائلة، كل في لحظات، في كل لحظة يولد مولود، فمن يملك هذا الشيء؟ من الذي أحاط بهذا إلا الله سبحانه وتعالى؟

والحياة والموت كلها ابتلاء وامتحان، يعني لا بد أن تفهم أنت أنك الله الذي أحياك في هذه الدنيا وأعطاك مدة تعيش فيها وأجلاً تنتهي إليه ثم ينقلك إلى الآخرة؛ فأنت لا بد أن تكون على بصيرة، على وضوح. ولذلك ماذا قال بعدها؟ قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال: ليبلوكم ويمتحنكم، هذه الدنيا دار امتحان واختبار، أيكم أحسن عملاً. ولاحظ كيف ربط الله بين الملك والقدرة وخلق الموت والحياة ليصل إلى أن يخاطبك أنت، ويخاطب أن الله يبتليك في هذه الدنيا، يبتليك في الأعمال: هل تعمل للدنيا وتنسى الآخرة أو تعمل للآخرة؟ الله خلقك لماذا؟ لتعمل للآخرة لا لتعمل للدنيا، خلقك الله لعبادته، لتسعى لعملك أنت الذي ينتظرك في الآخرة أو تنتظر نتيجته في الآخرة، قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ما معنى أحسن عملاً؟ قال: أخلصه وأصوبه؛ لا سمعة، ما تصوم عشان فلان، ولا تقرأ القرآن وإذا ختمت القرآن قلت: إني ختمته، ولا تأتي المسجد مبكراً تقول: والله أنا أحضر المسجد في الساعة كذا

وكذا، ولا تصلي علشان فلان، ولا تفعل كذا وكذا عشان فلان، أو تذكر الله وتسبح، كل هذه أخفها ما استطعت، أخفي عملك واجعله خالصاً لله، لا تنظر لأحد من المخلوقين، وتحذر من الرياء الذي يحبط عملك وأنت لا تشعر. ولذلك: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أخلصه لله وأصوبه في متابعة النبي صلى الله عليه وسلم، لا تعمل عملاً إلا على نور وعلى سنة وعلى دليل. ليست العبرة بكثرة الأعمال، وإنما العبرة بكيفية الأعمال، كيف تؤديها، يعني لا بد أن تكون أعمالاً حسنة، أيكم أحسن عملاً ليست بكثرتها وإنما بكيفية هذا العمل كيف تؤديه، كيف تؤديه. ولذلك قال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

إذاً الحياة كلها ما هي؟ الحياة سعي وعبادة وطاعة وتشمير في طاعة الله على نور من الله، على إخلاص ومتابعة. هذان الشرطان هما السببان في قبول العمل: لا بد أن يكون خالصاً، متابعاً لسنة النبي صلى الله عليه وسلم. ولذلك قال: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ أي أن الله لا غالب له، قوته وعزته في قبض الأرواح في الموت في الإحياء في قبول الأعمال في الإثابة، وغفور عما يحصل من تقصير، قد يقصر الإنسان قد يحصل منه تقصير، فيعفو الله سبحانه وتعالى ويغفر للتائب ويتجاوز، يتجاوز سبحانه وتعالى.

يقول الله سبحانه وتعالى لما بين لك أنه على كل شيء قدير وأن بيده الملك، ذكر لك ما يدلك على ذلك، يعني مثال يقرب لك هذه الصورة، فيقول:﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

يعني كأن يلفِت نظرك إلى أن ترفع رأسك إلى السماء وتنظر، هذه السماوات العظيمة سبع طباقاً، طبقة فوق طبقة فوق طبقة، سبع طباقاً، كل ما بين سماء وسماء مسيرة خمسمائة سنة، كل واحدة منفصلة عن الثانية، طبق، هذه من غير أوردة ومن غير جدران. من الذي أمسك السماوات السبع؟ هو الله سبحانه وتعالى، يقول:﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

ويقول:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

فالذي أمسكها سبحانه وتعالى هو الله. قال سبحانه وتعالى:﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

يقول: انظر إلى السماء وتأمل هل فيها من فروج؟ هل فيها من عيب؟ هل فيها شقوق؟ هل تستطيع أن تظهر شيئاً قليلاً من العيوب فيها؟ ما فيها. ولذلك قال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ليس في خلق

السماوات، لا، في خلق الرحمن سبحانه وتعالى، كل خلقه ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾: اختلاف وتباين وفروج وشقوق ونقص، كلها يخلق بحكمة، الذي أحسن كل شيء خلقه، أحسن كل شيء خلقه. قال:﴿فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

أعد بصرك مرة ثانية، انظر إلى السماء مرة ثانية، ارجع البصر هل ترى من فطور؟ هل ترى من شقوق؟ هل هي متشققة؟ هل فيها عيوب؟ هل فيها خروق؟ أعد النظر. ثم قال:﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤].

يعني أعد وأعد، وليس المقصود هنا كرتين يعني مرة خلاص يعني كرتين، لا، يعني يقصد كرر نظرك، كرر إلى ما لا نهاية، مثل ما تقول: لبيك، اثنين، ما تقول لبيك مرة، لبيك لا، تقول لبيك اللّٰهم لبيك، لبيك اللّٰهم لبيك، يعني استجابة بعد استجابة بعد استجابة. وهذا مثلاً ارجع بصرك، أعده كرات عديدة، لو عدته وأمضيت حياتك كلها وأنت تعيد نظرك إلى السماء، الله ماذا يقول؟ ما فيه عيب في السماء، لن تستطيع أن تخرج شيئاً، يقول حتى قال الله عز وجل:﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤].

أي خائباً يرجع لا يجد شيئاً، يعني يرجع خاسئاً خائباً، ويرجع خاسئاً وهو حسير: كليل تعب متعب البصر، أتعبت بصرك وأنت تنظر ما تجد في السماوات من عيب، بل بصرك الذي سيتعب وسترجع أنت يعني كليل البصر ضعيف البصر لا تجد شيئاً.

طيب بعدها تنتقل الآيات إلى -لما بين لك صفاء السماء وجمالها وإبداع الله في خلقها وأنها ليس فيها ولا عيب- انتقل إلى ما في السماء من زينة وجمال، وقال:﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وهذه الآية في الحديث عن زينة السماء، زينها بمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين، يأتي الحديث عنها إن شاء الله في اللقاء القادم.

نقف عند هذا القدر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الملك ٥- ١٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للثالث والعشرين من شهر ربيع الآخر من عام ١٤٤٥ من الهجرة. درسنا في تفسير القرآن العظيم قراءة للآيات وتفسيراً وبياناً وتدبراً وتأملاً في هذه الآيات الكريمة.

كان في لقائنا الماضي تعرضنا لسورة (تبارك) التي تسمى بسورة (الملك)، وبينا فضائل هذه السورة، وأنه ورد في فضائلها أحاديث، وتكلمنا عن شيء من بعض آياتها، ونواصل ما توقفنا عنده؛ حيث إن هذه السورة عندما نتأمل تأملاً جيداً، ننظر في آياتها، بمجرد قراءة أول آياتها: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

هذه الآية افتتاحية عظيمة تبين لنا ما يذكره الله في هذه السورة من أولها إلى آخرها؛ بمعنى أن كلمة (تبارك) -التي تعني الخير العظيم، يعني تعالى وتعاظم خيره وكثر خيره- أن هذه السورة مشتملة على خير عظيم. ثم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أن الملك كله لله سبحانه وتعالى وهو على كل شيء قدير؛ فهو المالك القادر. وفي هذه الآيات التي تأتيك بعدها كلها في بيان قدرة الله سبحانه وتعالى وفي بيان سعة ملكه جل جلاله، وفي بيان إبداع خلقه؛ فالله يخلق الخلق ويبدع في خلقه ويملكه ملكاً حقيقياً.

ولما ذكر الله سبحانه وتعالى في بيان الخلق، قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

ثم بين لك، قال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

لا يمكن أن تجد أي عيب لا في خلق الله عموماً -قال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عموماً ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ -، وكذلك السماء، ولذلك قال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

هل ترى من عيب؟ هل ترى من شيء تستطيع أن تنتقده في خلق هذه السماء الجميلة الحسنة البهية؟ ما ترى من فطور. ثم أراد أن يثبت لك حقيقة هذا الأمر ويؤكد عليك، قال: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٤].

يعني أعد البصر وأعد، ومثل ما ذكرنا ليس المراد كرتين يعني مرتين فقط وتقف، لا، كرتين وكرة، وأنت تستمر وأنت ترفع بصرك إلى السماء وتعيده، وترفع وتعيد، لن تجد فيها شيئاً من العيوب أبداً: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، قال: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤].

يعني يعود إليك البصر خاسئاً خائباً وهو حسير: كليل ومتعب من كثرة النظر، تعيد وتعيد وتنظر لن تجد شيئاً في هذه السماء من عيب.

ولما نفى الله سبحانه وتعالى العيب عن هذه السماء بجمالها وحسنها أثبت لك شيئاً من جمالها، فقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

فذكر لك شيئاً من جمالها بصيغة القسم، بأسلوب القسم، لما قال: ﴿وَلَقَدْ﴾؛ يعني والله، هذا أسلوب قسم محذوف: والله لقد زينا، المزين هو الله: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾، ولم يقل لك السماوات كلها؛ لماذا؟ لأنك أنت تنظر إلى السماء التي هي أقرب شيء إليك، ولذلك لفت نظرك إلى ما هو قريب: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾، والدنيا يعني من الدنو وهو القرب؛ يعني السماء القريبة إليك، سبع سماوات أقربها السماء الأولى، السماء الدنيا، قال: زيناها بمصابيح.

والمراد بالمصابيح هي النجوم والكواكب التي في السماء، والشمس والقمر، زين الله السماء الدنيا بهذه المصابيح الجميلة، مثل ما أنك ترى سقفا من السقوف الدنيا قد وضعت فيه هذه المصابيح والأنوار وجملت هذا السقف. ولذلك سمى الله سبحانه وتعالى النجوم مصابيح؛ لأنها تضيء من الصبح وهو النور، فإنها تضيء في السماء، ولو خلت السماء من هذه المصابيح وخلت من هذه النجوم والكواكب لما أعطت هذا الجمال؛ فالله جعل فيها -في هذه الكواكب- جمالاً عظيماً، ولذلك قال: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، وأيضاً قال: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِلشَّيَٰطِينِ﴾؛ يعني أي هذه المصابيح الكواكب جعلناها رجوماً للشياطين؛ يعني من مصالح هذه النجوم في السماء أنها يخرج منها هذا الشهاب، هذه الكواكب

العظيمة في السماء جعلها الله رجوماً للشياطين، أي أنها يخرج منها هذا الشهاب الذي تُرمى به هذه الشياطين التي تأتي لتسترق السمع وتفسد في الأرض، ولذلك في آية أخرى:

قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: ٦-٨].

وقد يأتي أحد هذه الشياطين ويسترق السمع، يأخذ سمع -يعني يستمع إلى ما يسمعه في السماوات من كلام الملائكة-، فيأتي بهذه الأخبار ويلقيها على هؤلاء الكهنة، فيفسد في الأرض ويثير الضلال في الأرض، ولذلك عاقبه الله بأي شيء؟ بأن يصيبه هذا الشهاب الذي يحرقه، والشهاب هو نار تخرج من هذه الكواكب فتحرق هؤلاء، مثل ما ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة الجن:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩].

فجعل الله هذه النجوم رجوماً للشياطين، هذه الرجوم تحرقه عذاب له في الدنيا غير عذاب الآخرة الذي قال الله فيه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾. يعني هذه الشياطين المردة من شياطين الجن التي تسترق السمع، والغرض من ذلك هو إفساد الناس في الأرض وإضلالهم، ولذلك عاقبهم الله بهذه العقوبة؛ لأنهم يثيرون الفساد في الأرض، ويعينون الكهنة الذين يدعون علم الغيب بهذه الأخبار، ويأخذون الخبر الواحد ويضعون عليه أكثر من مائة كذبة، حتى يثيرون هذه الأخبار أو يلقونها على هؤلاء من أوليائهم شياطين الإنس وهم الكهنة، ولذلك يعاقبهم الله في الدنيا بالشهاب، وأما في الآخرة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

والسعير اسم من أسماء النار؛ النار لها أسماء: تسمى بـ (سقر)، وتسمى بـ (الحطمة)، وتسمى بـ (السعير)، وأسماء كثيرة. سُميت سعير لتسعّر نارها وتتلهب نارها، قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

ولا يكفي هذا، أن الله أعد لهؤلاء عذاب السعير، بل أعد لأوليائهم من الإنس الذين يتعاونون معهم على إضلال الناس وإفسادهم، قال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الملك: ٦].

من هؤلاء الكهنة وغيرهم، ولذلك جاء بكلمة ﴿كَفَرُوا﴾ حتى يدخل فيها كل عاصٍ وكل كافر وكل من لا يقبل شرع الله، وكل من أعرَض عن ذكر الله وأعرَض عن شرع الله داخل في قوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، قال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي جحدوا وحدانيته، وجحدوا رسله، وجحدوا شرعه.

النتيجة ما هي؟ قال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الملك: ٦]، أن جهنم تنتظرهم، عذاب جهنم في الآخرة، قال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، جهنم التي تنتظرهم بئس المصير وبئس الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى.

ثم حكى سبحانه وتعالى حالهم في نار جهنم، وماذا سيلاقون في نار جهنم، قال:

﴿إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ [الملك: ٧].

قال: إذا أُلقوا هؤلاء من مردة الجن وشياطين الإنس، الكفرة من الجن والكفرة من الإنس الذين أعد الله لهم هذا العذاب الأليم، إذا أُلقوا في نار جهنم سمعوا لها شهيقاً وهي تفور. هذه نار جهنم التي تحترق وتنتظرهم، قال: سمعوا لها شهيقاً، ما معنى شهيقاً؟ عندنا شهيق وعندنا زفير، لهم فيها زفير وشهيق؛ الشهيق هو سحب الهواء إلى الصدر، والزفير دفعه بقوة، مثل ما يحصل لصوت الحمير، صوت الحمار شهيق وزفير، يسحب ثم يدفع، يسحب الهواء إلى الرئة ثم يدفعه إلى الخارج، والزفير هو دفعه بقوة، والشهيق سحبه بقوة.

وجهنم لها زفير ولها شهيق، وهنا قال الله عز وجل: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ صوتاً عالياً مزعجاً يسحب مثل ما يسحب الإنسان الهواء بقوة، فنار جهنم تسحب بقوة بهذا الصوت المزعج، قال: ﴿إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ [الملك: ٧]. تفور يعني تغلي بشدة كما يفور الإناء أو المرجل على النار، الماء الشديد يبدأ يفور، هي تفور بشدة، تحترق بشدة، ويسمعون هذا الصوت المزعج لهم، قال: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾. وجاء في بعض الأحاديث:

«إِنَّ النَّارَ إِذَا زَفَرَتْ زَفْرَةً وَاحِدَةً جَثَا كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ عَلَى رُكْبَتَيْهِ مِنْ شِدَّةِ المَوْقِفِ».

الموقف عظيم ورهيب جداً. قال: ﴿إِذَآ أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧-٨].

تَكَادُ تَقَطَّعُ، تتميز يعني يتميز بعضها عن بعض، يعني يتقطع بعضها عن بعض، لماذا؟ قال: ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ يعني من الغضب الشديد على أهل النار، أن تنتقم منهم، تنتقم من أهل النار، تكاد تميز من الغيظ، تتقطع من شدة الغضب. والغيظ هو أشد الغضب، الغيظ على هؤلاء أهل النار تريد أن تنتقم منهم؛ لماذا؟ لأنهم أعداء الله، ولأنهم كفروا بآيات الله ولم يؤمنوا به ولم يعبدوه، فهي تنتقم لهذه المواقف منهم. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨].

تأتي أفواج وجماعات، كلما أُلقي فيها فوج، كما قال سبحانه وتعالى في سورة أخرى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ [ص: ٥٩].

تأتي أفواج، كلما أُلقي فيها فوج سألهم خزنتها -ملائكة النار، خزنة النار- سألهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾؟ ما الذي جعلكم تأتون إلى النار؟ ما جاءكم نذير؟ ما جاءكم رسول؟ ما أُنزل عليكم كتاب؟ ما قامت عليكم الحجة؟ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨-٩]. وفي آية أخرى قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الزمر: ٧١].

وهنا قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٨-٩]. كذبنا الرسل وكذبنا بآيات الله، قال: ﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾، أنكروا رسالات ربهم كلها هذه: ﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩]. أنتم أيها الرسل تكذبون على الله، ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾، يعنون رسل الله في ضلال كبير: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

لماذا يقولون هذا الكلام؟ ولماذا تسألهم الملائكة؟ حتى تقيم عليهم حجة أنهم ما دخلوا النار إلا بسبب ظلمهم أنفسهم، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين، لكن ظلموا أنفسهم، ولذلك الملائكة تسألهم على وجه التوبيخ والتقريع: لماذا ما الذي جعلكم تصلون إلى هذا الموصل وتصلون إلى هذا المكان؟ قالوا: نحن الذين فعلنا، واعترفوا بذنبهم، ولذلك قال:

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

يقولون: لو كانت لنا، لو كان لنا سمع وعقول ما صرنا في -ما صرنا من أهل النار، ولكن ليس لنا لا سمع ولا عقل. كيف ليس لهم سمع؟ لهم سمع ولهم عقول! هم لهم عقول وسمع، لكن ليس لهم سمع

يسمعون الخير، يسمعون غير الخير، لكن الخير لا يريدون أن يسمعوه، وليس لهم عقول تفهم وتدرك ما جاء عن رسل الله وينجون أنفسهم من النار، وإنما عقولهم لم تنفعهم، وسمعهم لم ينفعهم. قال:

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

اعترفوا بذنبهم بأنهم دخلوا النار لأنهم يستحقونها: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، بعداً لأصحاب السعير، فسحقاً وبعداً لأصحاب السعير. اعترفوا بذنبهم؛ يعني أقروا بأن هذه العقوبة وهذا الجزاء الذي جازاهم الله في نار جهنم بسبب ذنوبهم وبسبب عصيانهم وتمردهم وردهم لرسالة الله، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، قال: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

قال الله سبحانه وتعالى: مقابل هؤلاء أهل النار يقابلهم بأهل الجنة، وهذه طريقة القرآن دائماً؛ لما يذكر أهل النار يتعقبه بأهل الجنة، ولما يذكر أهل الجنة يذكر بعدهم أهل النار؛ لماذا؟ قال: هذا ترغيب وترهيب؛ حتى تعرف طريق النجاة وتسلكه، وحتى تعرف طريق الضلال وتتجنب، فأنت ترى وتسمع وتعرِف وتنظر في حال أهل النار وتتجنب طريقهم وتسأل الله العافية أن تبتعد عن طريقهم، وتسمع كلام أهل الخير والصلاح والنجاة فتسلك طريقهم وتلحق بهذا الركب الصالح الناجي. ولذلك لما ذكر الله أحوال أهل النار ومصيرهم في نار جهنم، قال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٢].

يعني المؤمنون الصالحون الذين خافوا ربهم بالغيب، خافوه واستعدوا له، ليس مجرد خوف فقط، خوف عن علم واستعداد. ولذلك لو سألت عن الفرق بين الخشية والخوف؛ قلتَ: الخشية أدق من الخوف، الخشية تكون عن علم، ولذلك تقول للحيوان: يخاف الحيوان الصغير، يخاف من الكبير ويخاف من الموت، لكن ما تقول: يخشى؛ لأن الخشية عن علم، ولذلك قال:

﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

الخشية، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ﴾ يعني يخافون الله عن علم، ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾ فإذا خشوا الله، خشيتهم هذه ماذا تصنع بهم؟ تبعدهم عن معاصي الله وتقربهم إلى طاعته، يسارعون في الخيرات ويخشون ربهم ويبتعدون عن المعاصي. إذا سألت هذا الرجل الصالح عن المعاصي؛ أبتعد عنها، قال: يخاف الله، يخشى الله، ويقبل على طاعته؛ لأنه يخشى ماذا سيواجه، ولذلك وصفهم الله بصفة الخشية، قال: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ يخشون خالقهم ومربيهم ورازقهم سبحانه وتعالى وموجدهم، يخشونه بأي شيء؟ ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ يعني أنهم لم يروا الله عز وجل، ولم يروا ناره، ولم يروا جنته ومع ذلك يخافون.

وإذا خلوا بأنفسهم عن الناس أيضاً يخشون الله ويراقبون الله. تجد بعض الناس ممن عنده ضعف في الإيمان إذا خلا بنفسه ارتكب المعاصي، أين الخوف من الله؟ هذا معنى ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، يخشون ربهم ويعبدون الله كأنهم ي... يعبدون الله كأنهم يرونه، وهذه منزلة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، وهم يخشون ربهم بالغيب.

قال الله في جزائهم باختصار وكلمتين، قال: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]. يعني مغفرة لذنوبهم وأجر كبير، ولاحظ أنه قدم المغفرة على الأجر؛ لماذا؟ لينقوا من الذنوب، وتمسح عنهم ذنوبهم، ويطهروا من الذنوب والمعاصي، ثم يحلون بالأجور العظيمة عند الله، بالأجور العظيمة عند الله.

هذا ما تحدثت الآيات عنه في هذا المقطع العظيم، في بيان زينة السماء وخلق الله وإبداعه في هذا الكون وقدرته على هذا الإبداع، ثم توعده سبحانه وتعالى لمن يتمرد على شرعه وعلى دينه وعلى أوليائه بالعذاب الشديد، ثم يذكر الله مقابل من يخاف الله ويخشاه في السر والعلن بهذا الأجر العظيم. يأتي بقية الآيات إن شاء الله في لقاء قادم، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الملك ١٣- ١٩)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

»اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.«

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم، الثلاثون من شهر ربيع الآخر من عام ١٤٤٥ من الهجرة. درسنا في القرآن الكريم، نقرأ آيات من كتاب الله ونتأملها ونتدبرها ونبين معانيها، وكما ذكرنا في لقاءات كثيرة أن المقصد من القرآن هو التدبر والتأمل والتفكر فيه، ليس المقصد فقط أنك تقرأ وتمشي، لا، تقرأ وتقف. ولذلك صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ومن جاء بعدهم كانوا يتأملون الآيات ويقفون عندها ويتأثرون بها، يتأثرون بها.

فالمطلوب منك أن تقرأ وتتأمل وتفكر في الآيات، وتجعل هذه الآيات لها تأثير عليك. السورة التي بين أيدينا تحدثنا عنها في لقاءات ماضية؛ هي سورة (تبارك)، وتسمى بسورة (الملك):

قال تعالى :﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

وذكرنا أن هذه الفاتحة، فاتحة السورة، ﴿تَبَٰرَكَ﴾ أي كثر خيره وعظم خيره، الذي بيده ملك السماوات والأرض، ويملك الدنيا كلها وهو على كل شيء قدير لا يعجزه شيء. هذه الفاتحة فاتحة عظيمة، نتأملها في كل آية من آياتها تجد لها أثراً، تجد لها تأثيراً. وقَفْنا عند الآية الثانية عشرة وهي قول الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٌ وَأَجۡرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].

أنت لما تقرأ هذه الآية وتعيد النظر فيها وتكررها، تجد لها تأثيراً على قلبك، تأثيراً على قلبك، كيف يعني هؤلاء الذين الله... الذين قال الله فيهم ووعدهم بأي شيء؟ بالمغفرة، مغفرة الذنوب، ثم بالأجر الكبير، ليس أجراً فقط، أجر كبير على ما قدموا، بما وصفهم الله؟ بما وصفهم الله؟ وصفهم بالخشية، الخشية والخوف منه، الخشية والخوف من الله سبحانه وتعالى هو الذي رفع مقامهم، هو الذي جعلهم في

هذه المكانة العظيمة وبهذا الوعد الكريم أن تُغفر ذنوبهم وأن يؤتيهم الله الأجر الكبير. لا شك أن هذه الصفة، صفة نحتاج إليها جميعاً في حياتنا؛ وهي صفة الخشية والخوف من الله سبحانه وتعالى. ولذلك جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ). ليست الحكمة فقط أن تكون حكيماً في تصرفاتك، رأس الحكمة مخافة الله.

هذه المخافة والخوف من الله الحقيقة إذا امتلأ قلب الإنسان منه وراقب الله وخاف منه خوف عظيم أن هذا الخوف الذي يدخل في قلبك سيؤثر في جسدك، بحيث إنك تبادر للطاعات ولا تتخلف، وتبتعد عن كل ما يغضب الله. فمباشرةً... أعمال لا نطيقها؛ يعني ورد عن الإمام أحمد أنه يصلي في اليوم الواحد ١٥٠ ركعة، في اليوم الواحد ١٥٠ ركعة، وورد عن السلف أعمال كثيرة تدل على خوفهم، وعلى خشيتهم من الله سبحانه وتعالى، وأنهم يراقبون الله فيما يأتون وفيما يذرون، وما يسارعون فيه وما يبتعدون عنه. إذا أنت جعلت مخافة الله وجعلت خشية الله أمامك، فإنك ستصل هذه الدرجة العظيمة، درجة الخشية ودرجة الخوف من الله، وما يترتب عليها في مثل هذه الآية التي قال الله لهم مغفرة وأجر كبير. يقول الله بعدها سبحانه وتعالى:

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

يعني يعلم من خَشِيه وخافه حقيقة؛ بعض الناس يدعي الخوف ويدعي الخشية أو يظهر الخشية أمام الناس، وإذا خلا بنفسه، إذا خلا بنفسه وقع في بعض الأمور والمخالفات والذنوب والمعاصي، أين خشيتك؟ خشيتك أمام الناس! الله سبحانه وتعالى قرر لك هنا: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ [الملك: ١٣]، تتكلم أو تخفي، تعمل أشياء خفية، تعمل أشياء ظاهرة أمام الناس، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ سبحانه وتعالى، بل إنه أعظم من ذلك أنه عليم بنواياك، نواياك التي لم تتحدث بها حتى الآن، الله يعلم هذه النوايا؛ إن كانت نية صالحة طيبة، أو نية غير ذلك. فله مطلع، فالخشية الحقيقية مراقبة الله، الخشية الحقيقية أن تقدم الخير وأن تبتعد عن الشر؛ فإن الله مطلع على السرائر، وتجهر أو لا تجهر الأمر عند الله سيان، ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. ما المراد بـ(ذات الصدور)؟ هي القلوب التي تحويها الصدور، إذا قيل لك: ما هي (ذات الصدور)؟ هي القلوب التي حوتها الصدور، يعني ما في الصدور، بذات الصدور يعني ما في الصدور، والذي في الصدور هي القلوب.

ثم يقرر لك سبحانه وتعالى بعد ذلك، يقول لك:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

يعني هل خطر ببالك أن الله يغيب عنه هذا الشيء؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ألا يعلم سبحانه وتعالى خلقه؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعني ألا يعلم هو جل جلاله وعظمته وقدست أسماؤه، ألا يعلم خلقه من خلقهم؟ يعلمهم لا يخفى عليه، يعلم حالهم، ويعلم سرهم، ويعلم نجواهم، ويعلم ما يجهرون به وما يخفونه، كل ذلك ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾. وبعض المفسرين يقول: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعني هو الله، يعني الذي خلق الخلق هو الله، فالله يعلم خلقه، يعني الذي يعلم من خلق، أن (مَنْ) هنا ترجع إلى الله سبحانه وتعالى، يعني ألا يعلم الذي خلق الخلق؟ ألا يعلم؟ نقول: بلى يعلم سبحانه وتعالى.

لماذا قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾؟ وشوف اسم (اللطيف) له معانٍ دقيقة جداً، اسم (اللطيف) ليس كالأولى والأسماء الأخرى، (اللطيف) من أسماء الله الحسنى لا يأتي في القرآن إلا مع (الخبير)، ما يأتي مع أي اسم آخر، شوف تدبر هذا الاسم، تدبر هذين الاسمين: (اللطيف الخبير). (اللطيف) لا يأتي إلا مع (الخبير)، ما يأتي في القرآن (اللطيف البصير)، (اللطيف العليم)، ما يأتي أبدًا، لازم (اللطيف) مع (الخبير)، لماذا؟ أكيد وراء هذا سر عظيم، إذا عرفت (اللطيف) ستعرف (الخبير) وستعرف اقتران هذا بهذا. (اللطيف) يأتي وحده؟ نعم، يأتي وحده: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩]، ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، هذا يأتي وحده، لكن لما يقترن لا يقترن إلا بـ (الخبير). و(اللطيف) فسره أهل العلم بأنه الذي يعلم الأشياء الدقيقة الخفية سبحانه، لطيف بعباده يعني يعلم أشياء خفية دقيقة لا تدرك، لا يدركها أي مخلوق، فهو سبحانه وتعالى يصل إلى الأشياء الدقيقة. ولذلك في قصة أصحاب الكهف لما أرسلوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ماذا قالوا في آخر وصاياهم؟

قال تعالى: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩].

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ يعني يمشي بخفية لا يدري عنه أحد، هذا معناه. والله سبحانه وتعالى يعلم الأشياء الخفية الدقيقة التي لا يدركها أي مخلوق. والمعنى الثاني لـ (اللطيف): بعباده بحيث إنه يوصل إليهم الرزق

من حيث لا يشعرون، ويوفقهم ويأخذ بأيديهم وهم لا يدرون، ويصرف عنك الشرور ويدلك على الخير ويسهل لك امور الخير، هذا هو (اللطيف). ولذلك تقرأ في القرآن:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ [الشورى: ١٩].

فمن لطفه أن يسوق لك الرزق وأنت لا تدري، يسوق لك الرزق ويصرف عنك الشرور ويسر لك الأمور ويسر لك الخير وأنت لا تدري. فاسم (اللطيف) اسم عجيب، اسم عجيب، قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؛ يعلم خلقه ويعلم ما يصلحهم ويعلم ما يضرهم ويتولى أمورهم؛ لأنه اللطيف والخبير الذي يخبر الأشياء الخفية. (الخبير) غير (البصير)؛ للأشياء الظاهرة، و(الخبير) للأشياء الخفية التي لا يطلع عليها أي شخص. ولذلك حتى في جانب البشر يقال: فلان خبير بهذا الشيء، إذا كان يعلم دقائق هذه الأشياء، إذا كان يصل إلى دقائقها، يقال: فلان هذا خبير بهذا الشيء. فاسم (الخبير) الذي يعلم ما خفي من الأشياء الخفية ويظهرها سبحانه وتعالى. ولذلك في سورة (العاديات (كلنا نحفظها:

قال تعالى :﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ [العاديات: ٩-١١].

خبير بذات الصدور، خبير بالأشياء الخفية سبحانه وتعالى. ولذلك جاء هذا الاسم.

يقول هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥].

لما ذكر سعة علمه بين ما سخر لعباده؛ ولأنه في أول السورة بين لنا ما في السماوات والأرض من النعم العظيمة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ [الملك: ٣-٤]، لما بين لك نعمته سبحانه وتعالى في هذه السماء وما فيها من المصابيح والنعم وجعلها رجوماً للشياطين، بين لك ما أنعم عليك في هذه الأرض، قال: جعل الأرض ماذا؟ ﴿ذَلُولًا﴾، يعني مذللة ومسخرة لك تمشي عليها، تمشي عليها وتحفر وتزرع وتبني وتجدها ذلولاً لك، أرض لينة وأرض قاسية وأرض جبلية وأرض مرتفعة وأرض نازلة، كل ذلك تسخير من الله سبحانه وتعالى، هي ملينة لك ومسخرة لك ومذللة لك تمشي عليها لا تجد صعوبة، تصعد جبل وتنزل وادي، كل ذلك من نعم الله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى

مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]. امشوا في سعتها، وأنت لك مناكب؛ المناكب هو ما بين الكتف والعضد، هذا يسمى منكب، فيقال: عريض المنكبين. فالأرض مناكبها يعني أطرافها البعيدة، امشوا، الله أباح لنا أن نمشي على هذه الأرض التي خلقها لنا وذللها لنا أن نمشي في مناكبها، ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، سخر لك الأرض وسخر لك ما في الأرض من الأرزاق: المياه التي في جوف الأرض، والنباتات التي تظهر على الأرض، والزروع والحبوب وغيرها، تسخير من الله. قال: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. يعني الأرض الدنيا ممر، تمشي وتأكل رزقك وتمشي في هذه الأرض ثم تتذكر أنك ستعود إلى رب العالمين وأن لك نهاية، ولو طالت المدة لك نهاية، ستنتقل وتعود إلى ربك، ولذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، يعني المصير إلى الله والعودة إلى الله.

هنا وقفة حقيقة لبعض السلف، بعض التابعين، ذكر بعض التابعين عن الربيع بن خثيم وهو من تلامذة ابن مسعود، وكان من كبار التابعين ومن زهاد التابعين، فقال بعض التابعين: لعلنا نذهب إلى الربيع بن خثيم يعظنا بمواعظ يذكرنا ويحيينا بهذه المواعظ، فذهبوا إليه، وكان الربيع بن خثيم لا يتكلم إلا بذكر الله، إن تكلم ذكر الله، وإن صمت تفكر في مخلوقات الله، هذه حياته. فجاؤوا إليه وجلسوا عنده وسألوه: كيف أصبح الرجل؟ كيف أصبح الرجل؟ قال: (أَصْبَحَ ضَعِيفًا فَقِيرًا يَأْكُلُ رِزْقَهُ وَيَنْتَظِرُ أَجَلَهُ). شوف كيف عبارته! كيف أصبح الرجل؟ قال: (أَصْبَحَ ضَعِيفًا فَقِيرًا يَأْكُلُ رِزْقَهُ وَيَنْتَظِرُ أَجَلَهُ)، هذه حياته، هذا حياة الربيع، دروس وعبر.

الله سبحانه وتعالى قال هنا: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]، وينتظر أجله واليه النشور. إذا أنت فهمت هذه الآية وتدبرت مع هذا الأثر الوارد عن بعض السلف وعشت معه، عرفت قيمة الحياة وعرفت قيمة الآخرة، فعشت بهذه الصورة التي يصورها لك ويجسدها لك؛ أن الحياة هكذا: ضعيف فقير مخلوق من أي شيء تأكل رزقك وتنتظر أجلك، هذه هي.

طيب، لما بين الله سبحانه وتعالى لنا في هذه الآيات نعمه في خلق الأرض وتسخيرها، هدد المعاندين المستكبرين الذين لا يعرفون الطريق إلى الله، هددهم وتوعدهم بالوعيد الشديد، فقال:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦].

أأمنتم أيها المعاندون الكافرون المعرضون المكذبون بالرسل؟ أأمنتم ولم تخافوا؟ أأمنتم على ماذا؟ قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، أي في العلو سبحانه وتعالى، ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]؛ يخوفهم ويهددهم هؤلاء المتكبرين المعرضين المكذبين بالرسل، يقول: هل أمنتم ولم تخافوا أن يخسف الله بكم الأرض؟ خسف الأرض شقها بحيث إنها تنزل إلى أسفل سافلين، يقول: هل أمنتم أن الله سبحانه وتعالى يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور؟ تضطرب وترتجف بقوة حتى يكون أعلاها في أسفلها، أأمنتم بقوة الله أن يخسف بكم الأرض وأنتم تعاندون؟

ثم هددهم بتهديد آخر، قال: قال تعالى :﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧].

و(أَمْ) هنا بمعنى (بَلْ)، يعني للإضراب، ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ يقول: هل أمنت ولم تخف من الله؟ أين مخافة الله التي ذكرناها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢]؟ فهل أمنت ولم تخف الله؟ ولم تخف من في السماء وهو الله عز وجل أن يرسل عليكم حاصباً؟ يعني ريحً قوية فيها حصى وحجارة تحصبكم حتى تهلكوا عن آخركم، ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٧]، ستعلمون كيف إنذار الله وتخويفه لكم إذا نزل بكم العذاب، فاحذروا أن ينزل بكم العذاب، احذروا ولا تأمنوا مكر الله، لا تأمنوا عقوبة الله وأنتم على معاصيه مخالفون. ثم بين أن هذه سنة الله، سنة الله، قال:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

كذب الذين... إن كانوا هم كذبوا فقد كذب من قبلهم، والنتيجة ما هي؟ قال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨]، يعني كيف كان نكيري وإنكاري عليهم أن انتقم الله منهم؟ أين قوم نوح وعاد وثمود ومدين ولوط وغيرهم؟ أهلكهم الله لما كذبوا الرسل وعاندوا، أهلكهم الله عن آخرهم، فيقول: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

ثم سبحانه وتعالى يخبر بشيء من دلائل القدرة، تعود الآيات إلى ما أشارت إليه السورة كما ذكرنا في أولها: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، أشارت إلى دلائل القدرة. ما هي دلائل القدرة؟ ذكرنا منها خلق السماوات وإبداع الخلق فيها: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وخلق الأرض

وتسخيرها وجعلها ذلولاً. الآن ما بين السماء والأرض ما هو؟ هذه الأجواء التي بين السماء والأرض يأمرك الله أن تفكر فيها وأن تتأمل فيها، قال:

قال تعالى :﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

الحيوان أو مخلوقات الله الحية منها ما يزحف على الأرض يمشي على بطنه، والله خلق كل دابة من ماء؛ فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان، ومنهم من يمشي على أربع كالحيوان، ومنهم من يطير في السماء، كل هذه بقدرة الله سبحانه وتعالى، خلق هذا الخلق المتنوع بقدرته سبحانه وتعالى. الآن يشير إلى أي شيء؟ إلى ما بين السماء والأرض، هذا الطير الذي يطير، من الذي جعله يطير؟ هو الله. من الذي يمسكه؟ كيف يمسكه؟ شوف قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، يعني غفلوا ولهوا ولم يتفكروا ولم يروا رؤية التدبر والتفكر في هذا الطير وهذه الطيور في السماء، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [الملك: ١٩]، ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ يعني قد مدت أجنحتها فصف أجنحتها في الجو ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، قال: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي يقبضن أجنحتها إلى جوانبها، قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، كيف يمسكهن؟ يعني يمسكها حتى لا تسقط، الذي يجعلها تطير وترتفع إلى أعلى عليين، أحياناً ترتفع إلى مسافات بعيدة، من الذي يمسكها حتى لا تسقط على الأرض؟ هو الله سبحانه وتعالى. ما من طائر يطير في هذه الأجواء إنما الذي يمسكه هو الله سبحانه وتعالى، ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. وشوف لما يقول لك: ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ما قال: إلا الله، لماذا؟ لأن هذه رحمة، رحمة من الله حتى للطير، الذي يجعله يطير بين السماء والأرض ويمسكه حتى لا يسقط، لولا أن الله مسكه لسقط على الأرض، قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]. سبحان الله! شوف جاء ﴿بَصِيرٌ﴾ هنا، هناك ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ وهنا ﴿بَصِيرٌ﴾، لماذا؟ لأن هذه أشياء ظاهرة، أشياء ظاهرة أمامك، الطيور تشوفها بعينيك والسماء والأرض، فناسب أن يقول: ﴿بَصِيرٌ﴾.

طيب، لا نطيل، نقف عند هذا القدر، إن شاء الله في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال تعالى :﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[يوسف: ١٠٨].

(الملك ٢٠- آخر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر من الشهر الخامس من عام ١٤٤٥ هـ. درسنا في تفسير القرآن العظيم، والسورة التي بين أيدينا هي سورة (الملك)، وتسمى بسورة (تبارك). ومر معنا في لقاءاتنا الماضية حديث عن هذه السورة والوقوف على بعض آياتها.

وعرفنا أن هذه السورة يعني من قرأها وتدبرها وتأمل آياتها عرف أنها تدور حول بيان عظمه الله سبحانه وتعالى في هذا الكون، في خلقه هذا الكون، وبيان أن هذا الكون كله هو ملك بيد الله سبحانه وتعالى. ولذلك أنت لما تقرأ أول السورة: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ أي تعالى وتعاظم وكثر خيره وبركته، لماذا؟ قال: هو الذي بيده الملك كله، فالملك كله بيد الله سبحانه وتعالى، ثم زادك أكثر وأكثر لما قال لك:

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

فله الملك والقدرة سبحانه وتعالى، له الملك في هذا الكون، وله القدرة في التصرف في هذا الكون وتدبير هذا الكون سبحانه.

ولذلك شوف افتتاحية السورة -وهذا تكرر معنا- افتتاحية السورة يسميها العرب (براعة الاستهلال)، أن الله يستهل بعض السور بافتتاحية عظيمة إذا تأملت وجدت أن كل ما يأتي بعدها يعود إلى هذه الافتتاحية. فأنت تقرأ في هذه السورة:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

عرفت أن له الملك وعرفت أنه على كل شيء قدير. من يستطيع أن يرفع سبع سماوات طباقاً ما بين سماء وسماء مسيرة خمسمائة سنة وبغير عمد؟ من يستطيع إلا القدير سبحانه وتعالى؟ ولذلك يتحدى الله سبحانه وتعالى يقول: هل ترى من تفاوت؟ هل ترى من اختلاف فيها؟ هل ترى فيها عيب؟ ما تستطيع! يقول لك: انظر إلى السماء الدنيا قريبة من عندك، وارجع البصر وأعده، هل ترى من فطور؟ هل ترى من شقوق؟ هل ترى من عيب؟ ما فيه.

ثم ارجعه كرتين وأكثر، سينقلب البصر إليك خاسئاً، خاسئاً أي خائباً، وهو حسير، قد تعب أشد التعب. ومع ذلك، ثم لما نفى الله سبحانه وتعالى عن هذه السماء أي عيب أثبت لها الكمال والجمال، فقال:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

طيب، أنت لما تقرأ والله سبحانه وتعالى يبين لك أن له الملك وأن كل شيء قدير، ثم يعطيك النظر في السماء في الملك الأعلى، يعطيك أيضاً النظر في ماذا؟ في ملكه الأسفل وهي الأرض، يقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥].

أي مذللة ومسخرة لك. فامشوا في مناكبها، وانظروا وتأملوا الجبال والأودية والأشجار والأنهار، كلها وضعها الله على هذه الأرض لك أنت، سخرها لك. ثم قال: ﴿فِى مَنَاكِبِهَا﴾، ما معنى مناكب؟ المناكب هي الأكتاف، فكأنه يقول لسعتها كان لها أكتاف واسعة الأطراف. قال: ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]؛ هذه الأرض خلقها الله لكم تمشون فيها وتأكلون من رزقه، الأرض مليئة بالخزائن. ثم ذكرهم قال: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]؛ يعني ستعودون إلى الله.

طيب، هذا الحديث واضح كله تكلمنا عنه في لقاءات سابقة، وقفنا عند قوله تعالى:

﴿أَمَّنْ هٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠].

هذا في خطاب الله سبحانه وتعالى وحواره ومناقشته مع من؟ مع هؤلاء المشركين الذين يعبدون من دونه معبودات لا تنفع ولا تضر، كيف تعبد صنماً لا يتكلم، صنماً لا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه الضر ولا ينفعك بشيء، وتترك الذي يرزقك في السماء والأرض والذي سخر لك كل شيء؟ تترك عبادته والذي خلق لك كل شيء وتترك هذه الأشياء وتعبد أصنام؟!

فتحداهم الله قال: ﴿أَمَّنْ هٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم﴾، يقول: هذه الأصنام وهذه المعبودات من دون الله هل هي ستكون جنود لكم تنصركم من دون الله؟ أخبروني! ﴿أَمَّنْ﴾؛ هنا الهمزة همزة استفهام، و(مَنْ) بمعنى (الَّذِي)، أي: مَنْ هَذَا الَّذِي؟

(مَنْ) استفهامية: من هذا الذي هو جند لكم؟ من سينصركم؟ أعطوني جنود تنصركم! هل هذه الآلهة التي تعبدونها وهؤلاء الأموات الذين تطوفون حولهم -أموات غير أحياء تطوفون حول قبورهم

وتقدمون لهم القرابين وتستغيثون المدد-، هل هؤلاء يستطيعون أن ينصروكم إذا نزل بكم عذاب من الله؟ هل هي جند لكم تدفع عنكم العذاب؟ قال: ينصرونكم من دون الله إذا أراد الله بكم العذاب؟

ثم قال: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠].

الكافرون ليسوا إلا في غرور، كيف في غرور؟ يعني غرتهم الدنيا وغرتهم أنفسهم وغرتهم الأماني وغرتهم الصحة والعافية والأمد والأيام، فاغتروا وظنوا أن هذه هي حياتهم فقط، فهم في غرور، ويظنون أن هذه الآلهة تنفعهم، وهي لا تنفعهم!

ثم استفهم مرة أخرى وعلى وجه الإنكار؛ لأن هذا الاستفهام محمول على الإنكار، قال:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١].

أعطوني خبر، لو أن الله أمسك رزقه عنكم، خلاص ذهب الرزق عنكم ما تجدون أرزاقاً في بيوتكم، ذهبت الأرزاق عنكم لا تجدون لا طعام ولا شراب، من الذي يرزقكم إن أمسك رزقه؟ في أحد يرزقكم؟ لو أن بيتك خلا من الأرزاق هل هذه الآلهة التي تعبدها من دون الله ترزق؟ هل تسوق لك رزقاً غير الله؟ ما يرزقك إلا الله، الرزاق هو الله سبحانه وتعالى، هو الذي يرزقكم. يقول: أخبروني هل هناك من يرزقكم إن أمسك رزقه؟ الله عز وجل مسك رزقه عنكم، هل هناك من يرزقكم؟

ثم قال: ﴿بَل لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١].

﴿لَّجُّوا﴾ يعني تمادوا واستمروا في عتوهم وغلظتهم وشدتهم ونفورهم من الحق، ينفرون لا يريدون الحق، تناقشهم تقررهم تبين لهم أدلة لا يقبلون منك، لجوا في عتو ونفور، يفرون وفيهم غلظة وقسوة وتكبر عن الحق.

ثم بين سبحانه وتعالى مقارنة بين الحق والباطل، وأهل الخير والصلاح وأهل الضلال، أهل الضلال ذكر هذا وذكر هذا، قال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

قد سقط رأسه على وجهه يعني كاد أن يسقط على الأرض، هذا الذي يمشي على هذه الصفة أهدى وأحسن وأفضل، أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم؟ مستقيم، سوي، معتدل المشية، ويمشي على طريق، على هداية يعرفها. هل هذا يساوي هذا؟ ما فيه مساواة أبدًا، ما فيه مقارنة، هذا مكب على وجهه

سيسقط على وجهه لا يدري أين يذهب، يعني ضاقت به الأرض ولا يدري، وتقطعت به السبل، مسكين ما يدري أين يذهب ولا يدري لماذا يعيش وما هدفه في الحياة، كل هذا لا يدري عنه. وتأتي بشخص قد استقام على طاعة الله وعرف الطريق إلى الله، هل يستوي هذا مع هذا؟ ما يستوي!

مثل ما قال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

تأتي بواحد كلٌّ على مولاه وأبكم لا يتكلم ولا يأتي بخير أبدًا، كل ما تعطيه ما يأتي بشيء ولا ينفع، وواحد على استقامة على صراط مستقيم، هذا ما يستوي مع هذا! هذا مثال يضربه الله لأي شيء؟ بين الحق والباطل، من أضاء الله قلبه ونور قلبه بالطاعة، ومن أظلم قلبه بالعصيان والذنوب، هل يستوي هذا من هذا؟

أنت شوف الواقع الآن أمامك، اخرج من المسجد وشوف الواقع أمامك، شوف من يحافظ على الصلاة ويحافظ على ذكر الله ويحافظ على الطاعات ويحافظ على بر والديه ويحافظ على كل ما أمره الله ويتقي الله في سره وعلانيته، شوف حاله وشوف كيف يعيش هذا الشخص كيف، وشوف من هو قد انهمك في الذنوب والمعاصي وما ترك ذنباً صغيراً أو كبيراً إلا وقع فيه، وكيف يعيش كيف ينام كيف يقوم كيف يذهب، قد ضاقت به الأرض والأحزان ألمت به ما يدري أين يذهب، هل يستوي هذا من هذا؟

شوف الواقع واحكم. فالله عز وجل لما قال لك هنا يريد أن يوضح لك من هو على استقامة في العقيدة والإيمان والطاعة ومن هو ضال، فلا يستوي هذا مع هذا، كما قال سبحانه:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر: ١٩-٢٢].

كل هذا ما يستوون.

ثم سبحانه وتعالى بدأ يذكرك، يذكر عباده بنعمه، بنعمه التي لا تعد ولا تحصى -أو نقول التي لا يستطيع إن عدها لا يحصيها-؛ لأن كلمة "لا تعد ولا تحصى" فيها نظر، الأصل أن تقول: نعم الله تعد ولكن لا تحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قال: تعد، إن تعد لكن تتعب في العد ما تستطيع أن تحصيها. أما يقال: "لا تعد ولا تحصى" فهذا غير صحيح، تعدها ولكن ما تحصيها.

قال هنا شوف يذكر الله نعمه التي لا تحصى فيقول: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

قل لهم: هو الذي أنشأكم، أوجدكم من العدم، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، يعني خلقك الله سبحانه وتعالى من العدم، وجعل فيك هذه الآلات التي تساعدك وغيرك مفقود الآلات، أعطاك سمعاً تسمع، وأعطاك بصراً تبصر.

تصور الآن لو ذهب السمع عنك لمدة ساعة ما تسمع الناس حولك، تجلس في المجالس ما تسمع، يتحدثون ويضحكون وأنت ناظر ما تدري ماذا يقولون، ويكلمك واحد على الجوال تنظر ما تدري ما تسمع ماذا يقول، لو فقدت هذا السمع ساعة واحدة عرفت نعمة السمع عليك! والبصر لو فقدت البصر وبدأت تمشي وتتخبط وتسقط على وجهك عرفت نعمة هذا البصر! والأفئدة القلوب التي تميز بين الحق والباطل، القلوب كيف تميز لو فقدت قلبك ضعت خلاص، القلب هو سيد الأعضاء هو الذي يسير كل هذه الأعضاء.

لاحظ أنه قدم السمع، ليش؟ لأهميته؛ يعني لو جاءنا شخص فاقد السمع هذا ما يستطيع لا يتعلم ولا يسمع الكلام ولا يدري ولا يدري ماذا يقرأ الإمام ولا يدري ماذا يخطب الجمعة ما يدري، لكن الأعمى أهون، الأعمى يعيش مع الناس ويتعلم، بل يصبح عالماً كبيراً، بل يقود الأمة أحياناً، بل هو المفتي أحياناً تجده أعمى، يسمع الخطب ويسمع كلام الناس ويفتي، لكن السمع أشد فقده أشد، ولذلك قدمه الله لأهميته.

ثم قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، يعني أنتم شكركم قليل، أو أن الذي يشكر قليل من الناس.

ثم ذكرهم بنعمة أخرى، قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٤].

قل هو الذي ذرأكم، نشركم وبثكم في الأرض، ذرأكم، طيب وإذا ذرأنا وش النعمة فيها؟ قال: نشركم في الأرض، هذه آية من آيات الله عظيمة، ويرتب عليها ما هو أعظم، قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾؛ يعني يذكرهم بأن الذي أوجدهم هو الله، وأن الذي سيوجدهم مرة أخرى ويبعثهم هو الله. فلم يخلقكم

عبثاً، الله ما خلقك في هذه الدنيا تمشي عبثاً، تأكل وتشرب كالبهائم وتنام وتنكح كالبهائم، لا خلقك لهدف، لهدف أساسي، وهذا الهدف ستجد أثره متى؟ لما يحشر الله الأولين والآخرين ستجد ثمرة هذا الهدف الذي خلقت من أجله، ما خلقك الله عبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

ما يمكن هذا، مستحيل! تعالى الله سبحانه أن يخلق هذا الخلق ويتركه. أنت الآن لو تصنع لك مصنع وتأتي بالأدوات والمواد وتأتي بالعمال الذين يعملون ويشتغلون طوال النهار والليل أحياناً، ثم يأتيك واحد يقول لك: وش هدفك؟ تقول له: بس مجرد كده أجمع هذه المواد وخليهم يشتغلون، مالك هدف؟ قال له: مالي هدف! هذا عبث! الله ما خلق الخلق كذا، خلق الله وأوجد لهم هذه النعم وجعلهم يعملون في هذه الدنيا عشان في النهاية ما فيه أي هدف؟ مستحيل هذا! الله خلق الخلق لغاية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

لغاية، أما هكذا لا!

ثم بين سبحانه وتعالى موقف هؤلاء المعاندين الذين في عتو ونفور وعناد، ولا يقبلون الحق، بل يسخرون ويستهزئون ويقولون: متى هذا الوعد يا محمد؟ أنت تهددنا بالعذاب وتقول سيأتيكم العذاب، أين العذاب؟ متى يأتينا العذاب؟ يستهزئون: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٥-٢٦].

علم الوعد ونزول العذاب هو عند الله هو الذي يملكه، أنا ما أملكه. قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم أخبر سبحانه قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: ٢٧].

فلما رأوه زلفة، قريب جداً رأوه عياناً بأعينهم، رأوا العذاب أمامهم. قال بعض أهل التفسير: كما رأى ذلك المشركون يوم بدر، رأوا الموت أمامهم ورأوا الملائكة تنزل وتقاتل مع المسلمين وبدأت الرقاب تتساقط. لما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وضاقت بهم الأرض. وبعضهم يقول: لا، لما رأوه زلفة أي يوم القيامة أو العذاب عموماً خلاص انتهى الأمر، ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم

بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: ٢٧]؛ هذا الذي تطلبون أنتم، تقولون متى هذا الوعد، هذا العذاب جاءكم الآن قد أحاط بكم.

ثم سبحانه وتعالى يذكرهم أيضاً ويهددهم بأسلوب آخر، يقول لهم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

قل: أرأيتم، أي أخبروني، قل لهم يا محمد: أخبروني أيها الكفار، إن أهلكني الله أنا وأنا رسوله ومن معي من المؤمنين لو أهلكنا الله أو رحمنا، أنتم من يجيركم من العذاب الأليم؟ من يمنعكم من العذاب؟ أخبروني! أنتم أشد وأقرب إلى العذاب، وإذا كنت أنا أخاف على نفسي ومن معي من المؤمنين أن يصيبنا الله بعذاب من عنده أو يرحمنا، فأنتم ماذا تصنعون؟ أنتم أشد خوفاً مني، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم؟!

ثم قال لهم أيضاً:﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك: ٢٩].

قل لهم يا محمد: هو الرحمن هذا الذي جاءني من السماء بالوحي، هو الرحمن ذو الرحمة الواسعة وآمنا وصدقنا بما جاءنا عن الله، وعليه توكلنا واعتمدنا عليه وفوضنا أمورنا إلى الله عز وجل متوكلين عليه، فستعلمون من هو الذي في ضلال نحن أو أنتم. هم يتهمون الرسول أنه مجنون وأنه ساحر وأنه ما اتبعه إلا الأراذل من الناس والفقراء والضعفاء والذين ليس لهم عقول، وبدؤوا يسخرون من النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، قال: فستعلمون من هو في ضلال نحن أو أنتم إذا تبينت الأمور عرفتم نحن أو أنتم الذين في ضلال مبين. بل هم الذين في ضلال مبين ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم المؤمنون المتوكلون على ربهم الذين يعصمهم الله من كل سوء.

ثم ختمت الآية بأعظم نعمة في هذه الحياة أو من أعظم النعم في هذه الحياة، وهي نعمة الماء الذي هو سبب الحياة، يقول لهم تهديداً لهم: أخبروني!

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].

أخبروني، إن أصبح ماؤكم الذي أنتم تشربون الآن منه بين أيديكم لو ذهب بعيداً، أصبح ماؤكم غوراً أي ذهب بعيداً في القاع ما استطعتم أن تخرجوه بالدلاء، أو ذهب بالكلية وأصبحت الآبار يابسة، من

يأتيكم بماء معين؟ ستهلكون أنتم ومواشيكم وزروعكم، من يأتيكم؟ أخبروني! الجواب هو الله لا إله إلا هو سبحانه وتعالى. بماء معين يعني صافٍي يمشي على الأرض قريباً، من الذي يأتي به ماءً عذباً فراتاً؟ من الذي يأتي به ليس أجاجاً ولا مراً؟ من الذي يأتي به إلا الله؟

لو انقطع الماء عن أي حي من الأحياء في هذا الوقت الآن، لو انقطع الماء عن بيت واحد أو حي من الأحياء، ماذا سيصنع الحي؟ ماذا يريدون؟ يريدون أن يتوضؤوا، يريدون أن يغتسلوا، يريدون أن يشربوا، ما يستطيع أن يعيش الإنسان بل يتذكر نعمة الله.

هذه السورة العظيمة الجليلة التي تحدثنا عنها في عدة لقاءات، سورة (الملك)، سورة (تبارك)، عظيمة، النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأها كل ليلة. ينبغي للإنسان إذا صلى المغرب أن يقرأ هذه السورة إما في راتبة المغرب أو بعد المغرب أو وهو يمشي في الطريق، المهم يحافظ عليها؛ لماذا؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنها المنجية وأنها تدفع عن صاحبها عذاب القبر. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«سُورَةٌ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى أَنْجَتْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ».

شفعت لصاحبها حتى خلصته من العذاب، قال: هي المنجية، هي المانعة من العذاب. ففضل عظيم ينبغي أن نعرف هذا الفضل وأن نحافظ عليه.

أسأل الله أن يبارك لنا وأن يوفقنا لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ القَلَم)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(القلم ١ - ٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، الحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم، الثلاثاء الموافق للحادي والعشرين من شهر جمادى الأولى من عام ١٤٤٥ من الهجرة. مجلسنا المعتاد من كل أسبوع مع القرآن الكريم قراءة وتفسيراً وبياناً وتدبراً وتأملاً وتفكراً في هذه الآيات العظيمة. بعدما أنهينا الحديث والبيان والتفسير والإيضاح لسورة (تبارك)، تأتي بعدها سورة (القلم).

وهذه السورة تسمى بسورة (القلم) لذكر القلم الذي أقسم الله به، وتسمى أيضاً بسورة (نون) لذكر هذا الحرف فيها، وكل ذلك وارد عن السلف أنهم يسمونها بهذا الاسم؛ تسمى بسورة (نون)، وتسمى بسورة (القلم). هذه السورة هي من أوائل ما نزل من القرآن، من أوائل ما نزل من القرآن حتى قيل إنها هي ثاني سورة نزلت في كتاب الله، ثاني سورة نزلت بعد سورة (العلق)، وقيل هي الرابعة؛ يعني أول ما نزل من القرآن الآيات الخمس من سورة (العلق):

قال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

ثم تبعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١].

ثم تبعها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١].

ثم تبعها: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

هذا على رأي بعض السلف، والأكثر على أنها ثاني سورة؛ السورة الأولى ﴿ٱقْرَأْ﴾ ثم ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾. والذي يظهر أنها ثاني سورة، ثاني سورة بدليل يعني حديثها عن موقف المشركين واتهام المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم بالجنون، وأيضاً الحديث عن القلم؛ فإن سورة (العلق) ذكر الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤].

ثم جاء هنا التأكيد على القسم بالقلم وبما يسطرون، وكل هذا يدل على ماذا؟ على العلم والتعلم والقراءة والكتابة؛ فإن وسيلة الكتابة القلم. فهذا من حيث النزول، من حيث النزول.

أما من حيث السورة ككل، وأنت تقرأ السورة وتتأمل معانيها، السورة تتحدث أولاً عن الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم والرد على المشركين المعاندين بما اتهموا النبي صلى الله عليه وسلم به، ووصفهم بالأوصاف التي تليق بهم، لا وصفهم هم للنبي صلى الله عليه وسلم بهذه الأوصاف؛ فهي تتحدث عن الجانب الخلقي للنبي صلى الله عليه وسلم لما قال الله عز وجل فيه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

خلق عظيم، فبرأه مما اتهمه هؤلاء المشركون بهذه الاتهامات.

السورة موضوعاتها وأغراضها متعددة؛ في أولها هو بيان النعمة المسداة للنبي صلى الله عليه وسلم بالنبوة والقرآن والوحي، والنعمة المسداة لقومه بإرسال النبي صلى الله عليه وسلم لهم وموقفهم من هذه الرسالة، فهم كفروا نعمة الله. ثم إن الله سبحانه وتعالى يذكر بعد ذلك قصة أصحاب الجنة:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧].

فالجامع بينهما أن هؤلاء كفروا نعمة الله، أهل مكة كفروا نعمة الله ولم يعرفوا قدر النبي صلى الله عليه وسلم وقدر هذه الرسالة والوحي والقرآن، كما أن هؤلاء أصحاب الجنة كفروا نعمة الله وجحدوا نعمة الله؛ فإذاقهم بأن سلب منهم هذه النعمة، فكانت كأنها تهديد لهؤلاء المشركين لأن يسلب الله منكم هذه النعمة التي أنتم تتقلبون فيها.

ثم إن السورة تقارن بين أهل الحق وأهل الباطل والسعداء والأشقياء في آيات معدودة، في بيان المتقين:

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

ثم بيان مصير المتقين، ثم في نهاية السورة هي مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على الدعوة:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

الدعوة تحتاج إلى صبر، الدعوة وتأدية الرسالة والقيام بها لا بد أن تكون قائمة على الصبر، على الصبر. كل داعية -وليس النبي صلى الله عليه وسلم فقط- كل داعية يواجه ما يواجه في دعوته فيحتاج أن يتحلى بالصبر.

هذه السورة ككل، وتلاحظ اتهام المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم بالجنون في أولها:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

وفي آخرها يقول سبحانه وتعالى في خاتمتها:

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

وهذه يسميها علماء البلاغة (رد العجز على الصدر)؛ هذه من أوجه البلاغة أو مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها. هذا ما تتحدث عنه السورة.

والحقيقة يعني كل منا يقرا القرآن ويمر على هذه السورة ويمر على سور كثيرة ينبغي له أن يقف يتأمل يتفكر ينظر في السورة ككل لا أن يمر عليها مرور الكرام. ماذا تستفيد إذا مررت عليها مرور الكرام؟ هذا مثله كمثل من يمر على بستان قد فُتح له فينظر فيه نظراً سريعاً نظراً سريعاً ويمر ويمضي ما يدري على ما يحتوي هذا البستان ولا يستفيد منه؛ فأنت تدخل في هذه السورة كأنها بستان قد امتلأ بالفواكه والخضروات والأنهار والمياه، إذا مررت فارتع لا تستعجل، انظر وتأمل واستفد من زيارتك لهذه السورة كمن يزور بستاناً أو حديقة؛ ينظر ويتأمل ويعيد النظر ويتفكر ويقف، أما يمر هكذا ما يستفيد.

فالسورة تحتاج منا، تحتاج منك إلى أن تقف تتأمل تنظر، وهكذا. السورة هذه افتتحها الله بأي شيء؟ بالحرف، بحرف وهو (نون)، وهي أول سورة في القرآن نزلت مفتتحة بالحروف المقطعة، وهي آخر سورة في ترتيب القرآن مفتتحة بالحروف المقطعة. ما هي الحروف المقطعة؟ أنت تقرأ ﴿الم﴾ [البقرة: ١] في البقرة، وتقرأ في يوسف ﴿الر﴾ [يوسف: ١]، تقرأ في غافر ﴿حم﴾ [غافر: ١]، تقرأ في الشعراء ﴿طسم﴾ [الشعراء: ١]؛ هذه حروف ماذا؟ ما معناها؟ ماذا تستفيد منها لما تقرأ هذه الحروف؟ هل تقف عندها تشوف معناها ولا تمر مرور الكرام؟

الحروف المقطعة افتتح بها تسع وعشرون سورة، تسع وعشرون سورة في القرآن افتتحت بالحروف المقطعة. إذاً الحروف المقطعة لها قيمة، لها أثر، إذا كانت تسع وعشرون سورة افتتحت بالحروف المقطعة إذا

فإن الحروف المقطعة لها وقعها في القرآن الكريم. ثم إنك إذا نظرت إلى هذه الحروف وجدت هذه الحروف أيضاً بمجموعها ٢٩ حرف مع المكرر، وإذا جردتها من المكرر بقي نصفها تقريباً ١٤ حرف.

ثم إن هذه الحروف افتتحت السور بأنواع منها: فبعضها افتتحت بحرف واحد مثل (ن)، و(ص)، و(ق)؛ وبعضها افتتح بحرفين مثل (حم)، و(طس)، و(يس)، و(طه)؛ وبعضها افتتح بثلاثة أحرف (الم)، و(الر)؛ وبعضها افتتح بأربعة أحرف (المر)، و(المص)؛ وبعضها افتتح بخمسة أحرف (كهيعص)، و(حم عسق). طيب ليش هذا العدد بالشكل هذا؟ هذا من باب التفنن والتنويع، تنويع، أقصى شيء خمسة أحرف، خمسة أحرف.

كل هذا الذي الآن مر معنا نريد أن نصل إلى شيء معين، هدف معين، ما هو؟ لماذا افتتح الله بعض السور بالحروف المقطعة؟ ما معنى هذه الحروف المقطعة؟ هذه وقع الخلاف عند المفسرين وحتى عند السلف في معاني هذه الحروف: على ما تدل؟ ما هي؟ ولكن لا نريد أن ندخل، نعطيك الخلاصة حتى تستوعب وتفهم ولا حاجة إلى الدخول فيها، وأكثرها أقوال لا دليل عليها، أو قد تكون أقوال بعيدة جداً. فنقول: هذه باختصار حروف من حروف الهجاء، من حروف الهجاء، أنت تعرف حروف الهجاء: أ، ب، ت، ث؛ هذه حروف هجاء. حروف الهجاء حروف عربية، والعربي يتكلم بها قبل الإسلام وبعد الإسلام يتكلم بها. هذه الحروف، وكلامه ينشئه من هذه الحروف، وشعره وقصائده والخطب والكلمات والرسائل كلها مبنية على هذه الحروف، والقرآن فوق ذلك مبني على هذه الحروف.

فالله سبحانه وتعالى يريد ماذا؟ يريد أن يبين للعرب -العرب الذين هم فصحاء وبلغاء- يريد أن يبين لهم أن هذا القرآن من جنس كلامكم لا فرق، مثل ما أنك أنت أيها العربي تكتب قصيدة أو تنشئ قصيدة أو خطبة أو كلام أو نظم، هذا مثله القرآن لا يخرج عنه. فأنتم أمامكم كلام يخاطبكم، يخاطبكم، عليكم أن تتدبروا وتتأملوا فيه، تتأملوا فيه وعليكم أن تأخذوا به، فإن أعرَضتم وكفرتم وادعيتم أن محمداً قد افتراه من تلقاء نفسه وأنه كذب وافتراء، فأتوا بمثله؛ ولذلك تحداهم الله سبحانه وتعالى في آيات فقال:

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨].

وقال:﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

وقال:﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤].

ولو أي شيء، حديث ولو كلام مثله. ثم تحداهم جميعاً هم والجن معهم، قال:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

أي معيناً متعاونين متكاتفين يأتون بمثل هذا القرآن. ثم إن الله يتحداهم ومحمد صلى الله عليه وسلم يتحداهم وهو بين أظهرهم، وهم عرب أُقْحَاح وعرب خُلَّص، ويقف كل منهم صامت ما يستطيع أن يتكلم، دل على أن هذا القرآن من عند الله؛ يتحداهم ويسكتون. لو تحدى واحد من العرب، جاء واحد من العرب ووقف أمام مجموعة من فصحاء العرب وألقى عليهم قصيدة ولو هذه القصيدة عشرة أبيات وقال: أنا أتحداكم أن تأتوا بمثل هذه القصيدة، لقاموا جميعاً كلهم وتحداه بهذه القصيدة، والقرآن يتحداهم بسورة واحدة ما يستطيعون ويعجزون وهم ماذا؟ وهم أعداء وخصوم للنبي صلى الله عليه وسلم، والنبي يسفه أحلامهم ومع ذلك الصمت!

ولذلك الله سبحانه وتعالى ذكر لما تحداهم في سورة (البقرة) لما قال:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

فأتوا بسورة واحدة إن كنتم في ريب، كنتم تشكون مما نزلنا، وهذا يدل على أنه مُنَزَّل نَزَّلَه الله على عبدنا؛ سماه عبداً من قادر لله يسمع ويطيع: ﴿نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، ليست سورة مطابقة، قريبة من مثله لو مشابهة، وادعوا أيضاً شهدائكم، كل أعوانكم من الجن والإنس ادعوهم إن كنتم صادقين.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

شوف التحدي: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا﴾، ثم بعدها ماذا قال؟ قال: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾، يعني يستحيل أن تفعلوا. فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ولا في المستقبل، ماذا النتيجة؟ آمنوا وإلا فاتقوا النار، إن لم تؤمنوا وتتبعوا محمداً وتتبعوا ما جاءكم به فالنار أمامكم: ﴿فَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالقرآن والكافرين بالرسالة وبربهم.

فشوف كيف، إذاً خلاصة الكلام أن هذه الحروف التي افتتح الله بها بعض السور هي حروف هجائية، باختصار هي حروف هجائية جيء بها لماذا؟ لماذا افتتح الله بها السور؟ ليثبت لهم أن هذا قرآن، أن هذا القرآن نازل من عند الله وأنه قرآن بلسان عربي مبين، بلسان عربي مبين؛ فأتوا بمثله أو آمنوا، يجب عليكم أن تؤمنوا وتتبعوا إن كنتم تشكون فيه، فأتوا بمثله وإلا اعرض عن هذا الشيء.

ولذلك تلاحظ أكثر السور المفتتح بها الحروف المقطعة يأتي بعدها ماذا؟ ذكر القرآن؛ في سورة (البقرة) ماذا يقول؟ ﴿الم ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١-٢]، سورة (يوسف) ﴿الر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، في سورة (هود) ﴿الر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، (إبراهيم) ﴿الر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم: ١]، وهكذا. إذاً في إشارة إلى أن هذا الكتاب والقرآن عربي وبحروف عربية.

يعني الآن اتضح أن (ن)، و(ص)، و(ق) وغيرها حروف عربية جيء بها ماذا؟ للتحدي والإعجاز، جيء بها للتحدي والإعجاز، ما معناها؟ حروف، حروف فقط ما فيها أكثر من حروف، لا تستطيع أن تقول معناها كذا أو معناها كذا، ولذلك تجد بعض المفسرين يقول: الله أعلم بمراده، يعني الله أعلم بمراده في اختيار هذه الحروف. لما يأتيك واحد يقول لك: سورة (القلم) ﴿نٓ﴾، طيب ليش (ن)؟ طيب وسورة غافر مثلاً ﴿حم﴾ ليش؟ ليش ما قال (الم)؟ نقول: الله أعلم بمراده، الذي اختار هذا الشيء هو الله سبحانه وتعالى لحكمة لا يعلمها إلا هو، هذا معناه. ولما يقول لك بعضهم إن الحروف المقطعة من المتشابه نقول: نعم من المتشابه لأن معناها ما يعلمه إلا الله، أما هي ليست في ذاتها متشابهة، هي حروف، حروف من حروف الهجاء المعروفة، من حروف الهجاء المعروفة سمي بها بعض السور، هذه تسمى سورة (ن)، وهذه تسمى سورة (ص)، وهذه (ق)، وهذه (طه)، وهذه (يس)، كلها حروف مقطعة. ليش سميت مقطعة؟ لأن القارئ يقطع، ما يجمعها مع بعض، لما تأتي (الم) تقول: ألف، لام، ميم؛ تقطعها تنطق مقطعة هكذا.

طيب إذا اتضح لك هذا الأمر، لما بدأ الله أو ابتدأ الله هذه السورة بالحرف هذا، الحرف (ن)، قال بعدها: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾. في أقوال أخرى في معنى (ن) لكن مثل ما ذكرت لكم هو الصحيح أنه حرف من حروف الهجاء، (ن) حرف من حروف الهجاء. بعضهم يقول: هي الدواة، الدواة التي الحبر ونحوه الذي يأخذه الكاتب ويضع فيه الريشة ويكتب، ولكن هذا لا دليل عليه. قالوا: ليش؟ لماذا قالوا الدواة؟ قال:

لأنه قال بعدها ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾؛ فكأنه يقول: هذه الدواة وهذا القلم. وبعضهم يقول إن (ن) هي الحوت؛ لأن الله قال في موضع: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] والنون هو الحوت. لكن لا يمنع أن هناك أسماء متشابهة، هذا يسمى بكذا وهذا يسمى بكذا، ولكن لا تعارض بينها؛ فكما أن الحوت يسمى نوناً فالحرف يسمى نون ولا تعارض، لكن هذا شيء وهذا شيء. فالخلاصة أن (ن) مثل (ص) ومثل (ق) وغيرها حرف من حروف الهجاء.

قال بعدها سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

أقسم سبحانه وتعالى على عظمته بأي شيء؟ بأداة العلم والتعلم لمكانة وشرف العلم، قال: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾، يقسم بالقلم على مكانة العلم، والمكان إشارة إلى الناس في جهل فجاء هذا النور وجاءت هذه الرسالة وجاء هذا العلم. ولذلك تلاحظ حتى السورة الأولى، أول سورة الله أشار إلى القلم قال في:

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥].

وهنا قال: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، يعني أداة الكتابة. والقلم يقسم بالقلم ويقسم أيضاً بكتابتهم: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي بالذي يسطرون، فـ (ما) اسم موصول أو مصدرية؛ فإن قلت بالذي فـ (ما) موصول، أو تقول بتسطيرهم وكتابتهم (ما) مصدرية. ما معنى يسطرون؟ ما هو؟ نقول: التسطير معروف، طيب ما هو التسطير؟ هو التقسيم، سطر الشيء قسمه؛ فأنت تكتب سطر ثم بعده سطر ثم بعده سطر، فكأنك تقسم ما تكتبه إلى أقسام، فهذا معناه: سطر الشيء قسمه، سطره يعني جعله منفصلاً عن الآخر، هذه أسطر أي منفصلة. قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، والمقصود بذلك هي الكتابة، هي الكتابة؛ لأن الكاتب يكتب إلى حد ثم ينتقل إلى حد ثم ينتقل وهكذا.

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، لما أقسم الله بالقلم وبالكتابة، على أي شيء؟ على أن محمداً نبي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، أنه ليس بمجنون كما يدعيه هؤلاء المشركون الأعداء، أعداء الرسالة وأعداء الدعوة وأعداء الله، يقولون إنه مجنون. قال الله سبحانه وتعالى:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

ما أنت يا محمد -خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم- ما أنت بنعمة، ثم ما قال: ما أنت بمجنون وسكت، لا، قال: أنت ما أنت بنعمة، أنت بنعمة كيف يقول مجنون؟ أنت معك نعمة عظيمة: نعمة النبوة

ونعمة الوحي ونعمة الرسالة. شرفك الله، شرفك الله قبل الرسالة بأن أهل مكة يعترفون بمقامك الكريم وبعقلك الرزين، ويعرفون أن محمداً من أحسنهم خلقاً وأدباً وتعاملاً حتى سموه الصادق الأمين ورفعوا مقامه، ثم لما جاء الوحي انقلبوا عليه قالوا: مجنون! قالوا: كيف مجنون وأنتم أمس تقولون من أحسن الناس ومن أفضلنا خلقاً، ثم اليوم تنقلبون تقولون إنه لمجنون؟! وقال الله سبحانه وتعالى: قد من الله عليك بنعم عظيمة قبل الرسالة ورباك أحسن التربية، ثم زاد ذلك بالرسالة والنبوة، وشرفك بأن تكون سيد الأولين والآخرين وسيد ولد آدم، سيد الأنبياء كلهم وأشرف الأنبياء، رفع الله مقامك.

قال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ بهذا النعمة التي أزداها الله إليك بمجنون، الجنون عندهم هم، أما أنت فلست بمجنون. ثم قال:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣].

هذا كله تهوين وكله تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم مما واجهه من أقاربه ومن أعمامه ومن هم من أسرته ومن هم من قبيلته، يواجهون بالمواجهة هذه؛ يعني يتوجهون إليه بالعداوة، فيأتي القرآن يسليه يقول له: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ على ماذا؟ على تبليغك رسالة ربك، على أنك تبلغ الرسالة وتقوم بها فإن لك فيها أجراً عظيماً، أجر الدعوة وأجر الرسالة وأجر كل من يدخل في هذا الإسلام إلى قيام الساعة أجورهم كلها للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه هو أول داعية إلى هذا الدين.

قال الله سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، أجره في الدنيا ويحصد ثمرة هذا الأجر في الآخرة في المقام، في المقام الذي يقومه بين يدي الله سبحانه وتعالى، ويعجز الأنبياء كلهم أن يقوموا به فيقوم به صلى الله عليه وسلم، ويشرفه الله ويرفع مقامه حتى إن أول من يفتح له باب الجنة هو سيد الأولين والآخرين صلوات ربي عليه وسلامه. قال:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٣-٤].

لست بمجنون كما يدعيه هؤلاء المعتدون، بل إنك لعلى خلق عظيم.

طيب، الآيات تطول معنا يعني، الوقت يضيق، والحقيقة المجلس هذا مجلس أول مبارك، وباذن الله تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة ويذكر الله الحاضرين عنده. فما المستعجل عليه الإنسان؟ يخرج من هذا المقام إلى أين تروح؟ إلى أين تذهب؟ فمقام كريم مقام مثل هذا المقام الذي يتمنى كل انسان

أن يحصل على هذا الشيء، ولكن لا نريد الإطالة عليكم، وإلا أنا في الحقيقة استمتع وأنتم تستمتعون بمثل هذا الحديث الطيب الشيق مع القرآن، مع كلام رب العالمين، ولكن لضيق الوقت ولا نريد أن نأخذ أكثر من ذلك، إن شاء الله للحديث بقية في لقاء قادم إن شاء الله. أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وجزاكم الله خيراً على إنصاتكم وحضوركم.

(القلم ٥- ١٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، الثامن والعشرون من شهر جمادى الأولى من عام ١٤٤٥ للهجرة. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضى، وأن يستعملنا وإياكم في طاعته، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

درسنا في تدبر القرآن الكريم وبيان آياته ودلائله، والسورة التي تحدثنا عنها في لقائنا الماضي هي سورة (القلم)، وأحياناً تسمى بسورة (نون). وهي كما ذكر بعض المفسرين أنها ثاني سورة نزلت في القرآن، أو على قول آخر أنها هي الرابعة بعد (العلق) و(المدثر) و(المزمل)، أو أنها بعد (العلق) مباشرة. المهم أنها من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، وهي تتحدث عن أعظم وأجل نعمة أُسديت للعرب؛ وهي نعمة الهداية وإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم وبعثته والقرآن الكريم، وبيان موقف هؤلاء المشركين المعاندين من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، والرد عليهم، وبيان عظمه خلق النبي صلى الله عليه وسلم ومكانته، وبيان منزلة النبي صلى الله عليه وسلم ودفاع القرآن عنه؛ حيث دافع عن جنابه صلى الله عليه وسلم وبيان منزلته التي لا يعرفها هؤلاء المشركون أو يعرفونها ولكن يتجاهلون هذه المنزلة.

تحدثنا عن السورة وعن بداياتها وعن بعض الآيات التي أبتدأها الله سبحانه وتعالى بهذا الحرف وهو من حروف الهجاء كما تقدم: (ن) و(ص) و(ق) و(حم) وغيرها، كلها حروف من حروف الهجاء أنزلها الله سبحانه وتعالى أو افتتح الله بها بعض السور، وهي ٢٩ سورة؛ لبيان أن هذا القرآن منزل بلغة العرب، وأن القرآن جاء يتحداهم أن إما أن يؤمنوا أو تأتوا بمثله. والحديث تحدثنا عنه وبيان أيضاً مواقف المفسرين من

هذه الحروف، وهذا هو القول الواضح بينٌ في معنى هذه الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم.

لما افتتح الله هذه السورة بهذا الحرف أقسم سبحانه وتعالى بالقلم، والقلم هو أداة العلم والكتابة، وكما أشارت السورة الأولى وهي أول سورة قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤-٥].

والقلم هو أداة الحفظ والعلم والتعلم، فوسيلة القلم في الإسلام لها مكانة عظيمة. يقول سبحانه وتعالى:

﴿نَ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

ويسطرون يعني يكتبون كتاباتهم سطراً، والسطر هو الشيء المستقيم فتكتب سطراً وتسطر كتابتك. والقلم حقيقة له أهمية عظيمة؛ يعني ما تستطيع أن تجمع مثل هذه العلوم وتقيدها إلا بالقلم، وتقيد أمورك وأشياء تخصك إلا بهذا القلم.

ولذلك أنا أذكر لكم موقفاً من مواقف السلف في القرن الثاني أو الثالث، كان أحد العلماء من علماء الحديث يتحدث في مجلسه وفي حلقته، وكان الطلاب الذين يحضرون عددا كثيراً وكانوا يكتبون، وهذا الشيخ العالم يتحدث بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وهم يكتبون، فكان أحدهم انكسر قلمه، فقال: (قَلَمٌ بِدِينَارٍ)، دينار من ذهب يأتي بأقلام كثيرة، فقال: (قَلَمٌ بِدِينَارٍ)، فَرُفِعَتْ إليه الأقلام كلها؛ لأهمية هذه العلوم يخشى أن تفوته العلوم، فدفع مبلغ كبير على ألا يفوته مثل هذه العلوم. هذا يدل على أهمية العلم وأهمية الكتابة وتقييد العلوم بهذه الكتابة:

العِلْمُ صَيْدٌ وَالكِتَابَةُ قَيْدُهُ = قَيِّدْ صُيُودَكَ بِالحِبَالِ الوَاثِقَةِ

فَمِنَ الحَمَاقَةِ أَنْ تَصِيدَ غَزَالَةً = وَتَتْرُكَهَا بَيْنَ الخَلَائِقِ ضَائِعَةً

العلوم تمر عليك ما تأتي الفوائد تمر ما تأتي فتقيد هذه الأشياء؛ فالقلم له أهمية.

قال: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]. هذا نسميه أسلوب ماذا؟ أسلوب قسم، يقسم الله سبحانه وتعالى بالقلم. لو سُئلت وقيل لك: ما هو القلم هذا؟ هل هو القلم الذي خلقه الله وهو أول ما خلق الله القلم وقال: اكتب، قال: اكتب ماذا؟ قال: اكتب مقادير السماوات والأرض إلى قيام الساعة؟ أو

قلم آخر غير ذلك؟ نقول: هو جنس القلم، يدخل في جميع أنواع الأقلام من غير تحديد؛ لأن الله قال بعدها: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فدل على أنها كل الأقلام داخلة في هذا القسم، والمقصود هو جنس القلم الذي أقسم الله به لأهميته.

وكل قسم له جواب، أنت لا تقسم إلا على شيء، هذا الشيء هو جواب القسم، هو المقسم عليه. قال: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أقسم الله على أي شيء؟ على أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس بنعمة ربه -كما يدعي هؤلاء- بمجنون، ﴿مَآ أَنتَ﴾، ولذلك جاء النفي بقوة: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾. والنفي إذا جاء ودخلت الباء على الخبر دل على قوة النفي لما قال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، ثم النفي أقوى من الإثبات؛ لما نفى عنه الجنون أثبت له بعد ذلك ما يستحقه من الأوصاف صلى الله عليه وسلم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].

لأن المشركين اتهموه، كل من جاء بمثلها اتهموه بالجنون؛ اتهموا نوحاً، واتهموا هوداً، واتهموا أكثر الأنبياء بمجنون أن به جِنّة، فصفوا قالوا: يا محمد أنت مجنون، تأتي بمثل هذه الأشياء أصابك الجنون! قال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، ثم أثبت له الصفات التي يستحقها صلى الله عليه وسلم. ولاحظ أن أول السورة قال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وقال في أخرها: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]؛ فيصفونه بهذا، فرد القرآن عليهم.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣].

يعني على دعوتك وعلى صبرك على قومك وعلى ثباتك أن لك أجراً لا ينقطع أبداً. وتصور أن النبي صلى الله عليه وسلم الداعي الأول للإسلام والداعي الأول للمسلمين، وكل من دخل في الإسلام أخذ أجره صلى الله عليه وسلم، فأجره لا ينقطع أبداً.

قال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾، لاحظ الجملة الاسمية هذه؛ لغة العرب الجملة الاسمية لما تأتي بمؤكدات تدل على قوة وثبات الخبر فيها، لما يقول: (وَإِنَّ)، هذه (إنّ) تسمى عند العرب حرف توكيد ونصب أي تؤكد الكلام: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾، دخول اللام على المبتدأ المؤخر: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، ووصف الأجر بهذا الوصف، كل هذه مؤكدات تثبت هذا الشيء للنبي صلى الله عليه وسلم.

ثم زيادة على ذلك قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وهذا وصف عظيم للنبي صلى الله عليه وسلم رداً على أنهم يقولون سفيه وأنه مجنون، بل هو أكملهم عقلاً وأحسنهم خلقاً، ولذلك قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ﴾، ولاحظ العبارات قوية أن تأتي التي... كل آية تأتي فيها (إنّ): ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ﴾، ودخول اللام، كل هذا يؤكد رداً على هؤلاء ودفاعاً عن جناب النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، يعني أُعطيت أحسن الأخلاق وأفضل الأخلاق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وقال بعض المفسرين كالطبري وغيره: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي على دين عظيم، والدين بلا شك أنه محيط بالأخلاق، الدين هو الخلق، والاسلام هو الخلق العظيم. فإن قلتَ إن معنى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ على دين عظيم فالدين هو مكارم الأخلاق، والنبي صلى الله عليه وسلم بُعث ليتمم مكارم الأخلاق: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ»، وهو على خلق والدين خلق، ولذلك لما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)، يعني الشرع والدين: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم بشره ببشارات لما ذكر له هذه الصفات الجليلة، بشره بهذه البشارات، قال:

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ [القلم: ٥].

يعني أنت تبصر حالهم ويتضح لك أمرهم وأنهم هم يبصرون أيضاً ويرون ماذا سيحدث لهم وماذا سيحدث لك: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾. شوف ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾، السين هذه تدل على سرعة الشيء غير فسوف تبصر؛ لما يقول: (فسوف تبصر) فيه تراخي، لما يقول: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ دل على السرعة أن الأمر لا يكاد أن تطول مدته، ستبصر أنت حالهم ونتيجة عنادهم وكفرهم وردهم للرسالة واتهام صاحب الرسالة ستبصر نتيجة هذا الأمر، وهم أيضاً يبصرون حالهم ما الذي سيجري عليهم، وسيبصرون أيضاً حالك ما الذي يجري لك، ولذلك جاءت الآية التي بعدها توضح هذا الاستبصار معه، ولذلك قال بعدها:

﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٦].

بأيكم الذي يفتن، وشوف عبارة ما قال: بأيكم المجنون، يعني هم قالوا أنت مجنون، ما رد القرآن قال أنتم المجانين، قال: لا، هذه فتنة، فتنة تختبرون بها؛ إن عرفتم تتعاملون مع هذه الفتنة وتسلمون منها

وتتجاوزونها فهذا خير لكم، وإن وقعتم في الفتنة وقعتم في الشر، ولذلك قال: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾ هل أنت الذي مفتون كما يدعون أنك مجنون قد أصبت بالجنون، أو هم المجانين الذين هم السفهاء الذين لا يعقلون ولا يدركون مثل هذه النعمة العظيمة؛ أَيُّكُمُ المَفْتُونُ.

ولذلك شوف الآيات يوضح بعضها بعضاً، وأنت تقرأ وتتأمل تجد هذه الآيات يوضح بعضها بعضاً، ولذلك لما قال: ﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أيكم أنت أو هم، قال بعدها:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٧].

هذا هو الحكم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ولذلك جاء قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ما قال: إن الله، يعني ربك الذي يتولاك، وربك الذي يدافع عنك، وربك الذي أرسلك وبعثك هو أعلم لا هم يعلمون ولا يدرون عن هذا الأمر وإنما الأمر بيد الله سبحانه وتعالى، والعالم هو الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾، ولذلك جاء ضمير الفصل (هُوَ) تأكيداً للعلم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ لا هم ليس هم، وإنما ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهذا هم حالهم في ضلال: ﴿بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ سبحانه أعلم بالمهتدين.

ودائماً الجملة الاسمية ونحن نتحدث عن هذه الأمور، لغة العرب هذه لغة العرب لازم نتعرف عليها ونعرفها لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين وبلغة العرب وبفصاحة وبلاغة العرب وتحداهم بهذه البلاغة، ولذلك لاحظ قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾، ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ هذه جملة اسمية تفيد الثبوت والاستقرار: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، ثم جاء مرة أخرى وثبت أيضاً وقال: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ جملة اسمية تفيد الثبوت، هو أعلم بالمهتدين، الله هو الذي أعلم بمن معه الهداية وبمن هو في ضلال.

فلما بين له حقيقة هذا الأمر ودافع عنه قال بعدها سبحانه وتعالى:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨].

الفاء للتفريع يعني فرّع على هذا الكلام؛ بعدما أبان سبحانه وتعالى هذا الكلام فرع بعده قال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾. شوف وصف المشركين بالتكذيب بأنهم مكذبون، دل على أنهم ليسوا على بصيرة، ولذلك وصفهم الله بهذا الوصف لأنهم كذبوا رسالة النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾، لا تطعهم.

ثم بين حالهم لما جاءهم النبي بهذه الدعوة غيرت من حالهم شيئاً، ولذلك بدأوا يساومونه على بعض الأشياء، قال: ﴿وَدُّوا﴾ يعني هم تمنوا وأحبوا ماذا؟ أن تلين معهم وتتسامح معهم:

قال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

﴿تُدْهِنُ﴾ مأخوذ من الدهن وهو الشيء اللين يلين الشيء، فقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾، تلين معهم فيلينون معك، يعني تتسامح معهم وتتنازل عن شيء من دعوتك وهم يتنازلون عن رد الدعوة وعن صد الدعوة وعن إيذاء أصحابك، وهم كانوا يساومون على هذا الشيء، فقال القرآن: ما فيه مساومة على الدين وعلى الشرع.

ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه عمه أبو طالب قال: إن قومك قد اشتكوا منك، وأنك قلت فيهم وكذا، فلعلك تنصرف عن هذا الشيء، فقال: «وَاللهِ يَا عَمُّ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ، مَا تَرَكْتُهُ». لا بد أن أظهره ولا أتنازل عن شيء.

فكانوا يتمنون أن يتسامح: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾. ثم أعاد مرة أخرى قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠].

وهذه كلها إشارات إلى أنهم هم المجانين السفهاء، وهم أيضاً المكذبون، وهم من يوصف بالأوصاف السيئة بالأوصاف الدنيئة، ولذلك أتى بأوصاف فيهم أو في بعضهم فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

الحلاف: كثير الحلف، وحلفٌ بالكذب. المؤمن العاقل لا يحلف، كلامه مقبول عند الناس ما يحتاج تحلف ولا تكثر من الحلف، ولذلك الله نهى عن كثرة اليمين والحلف، فينبغي للإنسان ألا يحلف إلا عند الحالات الضرورية. القرآن استعمل القسم والحلف في أشياء تحتاج إلى... أما الإنسان يعود نفسه والله دائماً فهذا الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]. هذا الكافر كثير الحلف والحلف بالكذب؛ فلذلك ذمه الله ووصفه بهذا الوصف على وجه الذم فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، ومهين يعني ذليل خسيس لا يستحق من يلتفت إليه، قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾.

ثم قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١].

شوف هذه الصفات الآن ستأتيك هي الصفات التي تليق بهؤلاء لا بمحمد، عشر صفات يذكرها الله سبحانه وتعالى، قال: ﴿كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ﴾؛ هماز يعني طعان يهمز ويطعن ويسخر ويستهزئ، هذه من صفات هؤلاء السفهاء. قال وزيادة على ذلك: ﴿مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾، يمشي بالنميمة؛ يأتي لفلان يقول: أنت فيك كذا وكذا، قال: لماذا؟ قال: والله سمعت فلان يقول فيك كذا وكذا، ثم يأتي لفلان يقول: إن فلان يقول فيك كذا وكذا، فيمشي بالنميمة ليثير الفتن بين الناس. والنبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ**»، «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ**»؛ فحذر من النميمة. قال: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾.

خذ من الصفات أيضاً، قال: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ١٢].

مناع للخير يعني يمنع الخير، يمنع وجوه الخير مطلقاً، لا يريد الخير لا لنفسه؛ يعني شوف حتى ذكر بعض المفسرين قال: إذا كان هو مناعاً للخير فمن باب أولى أنه هو بنفسه يمنع الناس ويمنع نفسه من الخير، فهو حرم نفسه الخير وحرم الناس من الخير، وهذه من الصفات الذميمة. قال: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾؛ معتدٍ يعني يعتدي على الناس ويتطاول عليهم، وأثيم أي صاحب إثم عظيم، وأثيم صيغة مبالغة تدل على كثرة الإثم.

قال: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾،

قال تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣].

عتل أي غليظ جَافٍ لا يتكلم إلا بقوة ولا يتعامل إلا بقوة، سيئ الخلق بلسانه وسيئ الخلق بتعامله، قال: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾. والزنيم هو الدعي الذي ينتسب أو يُنسب إلى غير أهله أو إلى غير أبيه.

ولذلك الآيات هذه ذُكر أنها نزلت في الوليد، الوليد بن المغيرة، وكان من رؤوس الشرك المعاندين وممن يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت فيه هذه الآية، ونزلت فيه أيضاً آية المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١]؛ فكان له مال وكان له أولاد فذكر الله، حتى إنه لما سمع هذه الآية: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ وهو من ينتسب إلى غير أبيه جاء إلى أمه قال: أخبريني من أبي؟ فقالت: أبوك فلان، قال: لا، إن محمداً أخبرني بشيء آخر فأخبريني، حتى أخبرته بالحال: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.

قال تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: ١٤].

يعني لما صار صاحب مال يتكبر عن الحق: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾؛ أعطاه الله المال والبنين: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

ثم بين حاله من الدعوة لما ذكر صفاته هذه السيئة التي ينبغي الحذر منها، ذكر حاله من الدعوة، قال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥].

أساطير جمع أسطورة وهي الأحدوثة والأخبار التي لا حقائق لها، يقول: هذه أخبار الأولين التي يذكرونها لنا ليس لها حقائق وإنما مجرد يأتون بها للتسلية أخبار فيأتون بها، فقال: أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ.

قال الله في عقابه لما كان هذا موقفه من القرآن، قال الله في عقابه:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦].

أي سنعاقبه بأشد العقوبة التي تهينه فيُوسم على أنفه إذا جاء يوم القيامة، وسمٌ وضع على علامة على أنفه، علامة يُعرف بها أنه من أهل النار، قال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

هذه الآيات التي تحدثنا عنها في أوائل هذه السورة تتحدث عن نعمة الإسلام ونعمة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته، وبيان خلق النبي صلى الله عليه وسلم، ودفاع القرآن عنه صلى الله عليه وسلم، وبيان موقف أعدائه والرد عليهم.

وأنت لما تسمع هذه الصفات لا تظن أنها صفات لشخص واحد وإنما القرآن ماذا قال؟ ﴿وَلَا تُطِعْ﴾، دل على أنها صفات لأشخاص آخرين؛ فالإنسان إذا سمع مثل هذه الصفات يحذر، مثل هذه الصفات أن يتجنبها وأن يبتعد عنها، وأن يتخلق بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاق القرآن.

أسأل الله أن ينفعنا بما وقلنا وبما سمعنا وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القلم ١٧ - ٣٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للسادس من الشهر السادس من عام ١٤٤٥ هـ. مجلسنا المبارك مع تفسير القرآن العظيم قراءة وتدبراً وبياناً. ولا زلنا في الحديث عن سورة (القلم)، وتسمى أيضاً بسورة (نون).

وقف بنا الكلام عند قوله تعالى:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧].

لما بين الله سبحانه وتعالى في الآيات الماضية رده سبحانه وتعالى أو إبطال حجج هؤلاء المشركين، وبيان الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم بما اتهمه المشركون من كونه مجنوناً أو نحو ذلك، وبين صفات هؤلاء المشركين من صفاتهم التي ذكرها الله: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١] إلى آخر ما ذكر، قال: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: ١٤].

يعني لما أنعم الله عليهم، هؤلاء المشركون أنعم الله عليهم بالمال والبنين والصحة والأمن ونحو ذلك، ثم أرسل إليهم هذه الهداية رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والعناد إلى طاعة الله سبحانه وتعالى، هذه من أجل النعم عليهم؛ نعمة الأمن، نعمة المال، نعمة الصحة، وفوق ذلك نعمة الرسالة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم التي هي نعمة لهم بإنجائهم من هلاكهم، ولكنهم لما ابتلوا بهذا الابتلاء لم يعرفوا كيف يتصرفون، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾. بلوناهم بهذه النعم؛ لأن الإنسان أحياناً يبتلى بالنعم وأحياناً يبتلى بالنقم، أحياناً يبتلى بالخير وأحياناً يبتلى بالشر، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فالإنسان أحياناً يبتلى، فهؤلاء ابتلوا بما ابتلوا به. قال الله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]. وأصحاب الجنة بلاهم الله بأي شيء؟ بلاهم الله بالخير، بأن مكن لهم هذه الجنة بما فيها من البساتين والخير والثمار، لكنهم لم يحسنوا التصرف فيها فسلبها منهم. وهؤلاء بلاهم الله بالخير والنعم والأمن والصحة والعافية والمال، وبلاهم أيضاً برسالة النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يحسنوا التصرف فتُسلب منهم، هذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾.

من هم أصحاب الجنة الذين ذكرهم الله هنا؟ ذكر بعض أهل التفسير أنهم من أهل اليمن أو غير ذلك، لا يهمنا المكان، ولكن كما ذكر الله حكايتهم وقصتهم؛ أن لهم أباً كان له هذه الجنة، فإذا أثمرت هذه الجنة وحصد ثمارها قسمها ثلاثة أقسام: قسم يكون له ولأولاده، وقسم يعيدها في هذه الجنة، وقسم يتصدق به على الفقراء والمساكين. وكانت هذه سيرته: ثلث لبيته، وثلث لجنته وبستانه، وثلث يتصدق به على الفقراء، وكان على هذه السيرة. فلما توفي أتى أولاده وقالوا: إن أبانا رجل أحمق، إن أبانا رجل لا يعرف ولا يحسن التصرف، كيف يأخذ ثلثها ويتصدق به على الفقراء والمساكين؟ فمنعوا أن يتصدقوا بثلثها. فلما أثمرت في تلك السنة التي توفي فيها والدهم اجتمعوا مع بعض وأقسموا ألا يدخلنها اليوم عليهم مسكين، ولا يتصدقوا بثلثها ولا لمسكين واحد، وغدوا مبكرين الصباح قبل أن يأتي الفقراء حتى يغلقوا أبواب البستان ويحصدوا ما يشاؤون ويتصرفون فيه كيف يشاؤون، والله من فوقهم وهم لا يعلمون، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، فأصبحت كالصريم، كالليل المظلم أصبحت سوداء، طاف عليها ونزل عليها عذاب من السماء فاحترقت جميعاً.

فلما جاؤوا وهم في الطريق ما يدرون أهذا هو الطريق أو لا أنحن أضللنا الطريق، هل هذا البستان هنا أو في مكان آخر؟ ثم فكروا وتأملوا فقالوا: نعم، هذا بستاننا وهذا طريقنا، ولكننا في الأمر شيء، في الأمر شيء وعرفوا، ولما عرفوا تحدث أعقلهم وقال: أنا نبهتكم على هذا الأمر وذكرتكم، ولكنكم لم تعقلوا هذا الشيء. فندموا أشد الندم على ذهاب هذا البستان بأجمعه، ورجعوا إلى ربهم وقالوا: إنا إلى ربنا راغبون، والندم توبة، الندم توبة؛ حتى قال بعض المفسرين إنهم لما قالوا عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إن الله استجاب دعاءهم لما ندموا وأبدلهم خيراً منها.

قصة سيقت درساً وعبرة وعظة بهذا الابتلاء الذي ابتلوا به ولم يحسنوا التصرف معه. وهناك قصة شبيهة في الحقيقة لهذه القصة، التي ذكرها مسلم في (صحيحه) وغيره من أهل السنن؛ أن رجلاً كان يمشي في فلاة فسمع أو رفع رأسه فإذا سحابة في السماء، وسمع صوتاً في السحابة يقول: «اسْقِي حَدِيقَةَ فُلَانٍ»، وبدأ يتتبع هذه السحابة حتى وصلت هذه الحديقة فأسقت هذه الحديقة. فلما نزل السحاب فيها ذهب هذا الرجل إلى صاحب الحديقة فقال: ما اسمك؟ قال: ولماذا؟ قال: ما اسمك أنت حتى أخبرك بالخبر، فقال: أنا فلان، قال: إني سمعت صوتاً في السحابة يقول: «اسْقِي حَدِيقَةَ فُلَانٍ» سمّاك باسمك، فأخبرني ما حالك مع هذا البستان وهذه الحديقة؟ فقال: أنا إذا حصدت ثمارها وحصادها فإنني أقسمه ثلاثة أقسام: قسم على أولادي وبيتي، وقسم أعيده فيها، وقسم أتصدق به على الفقراء والمساكين. فقال: هذا هو السر.

ولذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنه في كل صباح ينادي منادٍ من السماء: «اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»، كل صباح ينادي ملك من السماء بهذا النداء، بهذا النداء.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]؛ يعني بلونا أهل مكة بما بلوناهم مما ذكرناه سابقاً، كما بلونا مثل ما بلونا أصحاب الجنة. ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ أي إيماناً حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾؛ يجذون ويصرمون ثمارها ويقطعونها مصبحين يعني مبكرين في الصباح، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ [القلم: ١٨]؛ لم يقولوا إن شاء الله، ولم يجعلوا شيئاً أو نصيباً كما كان يفعله أبوهم للفقراء والمساكين، بل حرموا ذلك ولم يستثنوا ولم يقولوا إن شاء الله.

قال تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٩].

أرسل الله عليهم من يطوف عليها فيحرقها حتى لا يبقى منها شيء، ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ في فرشهم لا يدرون في وسط الليل في آخر الليل لا يدرون عن ذلك إلا وقد احترقت.

قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ٢٠].

أصبحت كأنها الليل الأسود المظلم، سوداء لا تجد فيها شيئاً فيه حياة.

قال تعالى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ٢١].

لما أصبحوا الصباح نادى بعضهم بعضاً: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي مبكرين في الصباح.

قال تعالى: ﴿أَنِ ٱغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ [القلم: ٢٢].

أي عجلوا في وقت الغدوة، وقت الغدوة ووقت الصباح المبكر أن اغدوا على حرثكم أي على مزرعتكم وبستانكم إن كنتم صارمين قد نويتم صرم هذه وقطعها وجذها. فغدوا مسرعين قبل أن يأتي هؤلاء الفقراء.

قال تعالى: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ [القلم: ٢٣].

فانطلقوا مسرعين وهم يتخافتون ويتسارون الكلام فيما بينهم، يتحدثون على أن يجزموا على ما قالوا واتفقوا عليه، قال: ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾، على أي شيء يتحدثون؟ قال:

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ [القلم: ٢٤].

ألا يدخل اليوم عليكم مسكين، بمعنى ألا تتصدقوا ولا على مسكين ولا واحد.

قال تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥].

يعني غدوا مبكرين على عزيمة، على حرد على عزيمة وعلى منع بأن يعزموا على أن يمنعوا دخول الفقراء وأن يغلقوا الأبواب في وجوه الفقراء، ﴿قَادِرِينَ﴾ يعني قادرين عندهم عزيمة وعندهم قدرة. ولذلك عاقبهم الله وإن لم يفعلوا؛ فإن العزم على الشيء كالفعل، فإذا عزم الإنسان ولم يكن مانع يمنعه فحكمك حكم الفاعل. فلو أن إنساناً عزم على أن يتصدق بمال وخرج من بيته بهذا المال يتصدق به، ثم منعه مانع بغير اختياره كُتبت صدقته كاملة، كتب الله له صدقته كاملة؛ بخلاف الذي مجرد النية أو يفكر ويقول أنا سأتصدق سأنشئ إن شاء الله إذا حصل لي مال أتصدق أو نحو ذلك، فهذا يختلف. النية هي النية التي فيها العزيمة هي التي يثاب عليها الإنسان، ولذلك هنا لما أصروا ونووا نية وعزموا على ذلك عاقبهم الله، عاقبهم: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ [القلم: ٢٦].

قد ضللنا الطريق، تهنا ولم نعرف طريق البستان، لعله مع طريق آخر، لعلنا ضعنا، ظنوا أنهم قد أضاعوا الطريق، ثم لما فكروا ووقفوا قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: ٢٧].

و(بَلْ) للإضراب، انتقال من معنى إلى معنى؛ أي أننا في الحقيقة محرومون، أي حُرمنا ثمارها وحُرمنا هذا البستان وهذه الحديقة بكاملها.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨].

أعدلهم وأعقلهم: ألم أقل لكم لولا تسبحون، تذكرون الله وتستثنون وتقولون إن شاء الله وتعرفون حق الله في هذا البستان وفي ثماره بأن فيه حقاً لله يُعطى هؤلاء الفقراء والمساكين الذين أوجب الله علينا أن نقف معهم ونساعد فيما يحتاجون إليه، لولا تسبحون.

قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩].

فنزّهوا الله وعرفوا حق الله وعرفوا قدرة الله وأن لله في هذا حقاً يُعطى أهله فندموا، قالوا: سبحان ربنا إنا كنا ظالمين، فاعترفوا بأنهم ظلموا أنفسهم وظلموا حق الله في هذا الشيء.

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠].

يلوم بعضهم بعضاً: كيف تقولون كذا، وهذا يقول: لماذا نقول هكذا؟ فبدأ يلوم بعضهم بعضاً.

قال تعالى: ﴿قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: ٣١].

إنا كنا أسرفنا وطغينا وتجاوزنا الحد في عدم إعطاء هذا الشيء حقه بحيث إننا منعنا وبخلنا بها. ثم دعوا ربهم وهذا يكفي أنهم ندموا وعرفوا واعترفوا بذنبهم ودعوا ربهم قالوا:

قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢].

فدعوا ربهم وندموا ورجعوا إلى الله وقالوا سألوا الله عز وجل أن يبدلهم خيراً مما ذهب وأنهم راغبون إلى الله في طاعته، وراغبون في الله عز وجل بأن يعطوا أهل الصدقة حقها.

قال الله عز وجل: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

مثل هذا العذاب الذي أصابهم يصيب غيرهم، يعني لا تظن أن العذاب خاص بأصحاب البستان وأصحاب الجنة لا، فإن كل من كان على سيرتهم أو اتصف بهم أو فعل فعلهم فإنه على خطر أن يصيبه العذاب مثل ما أصابهم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾. والعذاب الذي أصابهم أيضاً والذي قد يصيب غيرهم عذاب أهون من عذاب الآخرة، يقول: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾، أعظم؛ عذاب الدنيا أن تذهب الحديقة بكاملها هذا أهون من عذاب الآخرة الذي ينتظرهم وهو أشد وأبقى، ولذلك قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. لو كانوا يعلمون حقيقة الأمر لما حصل منهم هذا الشيء ولما ترتب هذا الأمر على هذا الأمر.

هذه القصة التي ساقها الله سبحانه وتعالى قصة يعني فيها العبرة، فيها العظة، فيها الدروس، وينبغي للإنسان إذا قرأ مثل هذه الآيات وهذة القصص أن يقف عندها ويتأملها، ويعرف أنها إنما سيقت لناخذ الدروس والعبر ونستفيد ولا يفوتنا مثل هذا الشيء.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما وقلنا وأن يوفقنا وإياكم لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القلم ٣٤- ٤٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للثالث عشر من شهر جمادى الآخرة من عام ١٤٤٥ هـ. درسنا في تفسير القرآن العظيم؛ قراءة وتدبراً وتأملاً لآياته. لا زلنا في سورة (القلم)، وتعرضنا لآيات منها، ووقف بنا الكلام عند قول الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤].

وهذه الآية كما لا يخفى جاءت بعد ذكر قصة أصحاب الجنة، أصحاب البستان والجنو، الذين قال الله فيهم سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ [القلم: ١٧].

وقصة أصحاب الجنة مرت معنا وتحدثنا عنها، وذكر الله بعدها قال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤]. وذكر الله قبلها قوله تعالى:

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

فلما أصابهم ما أصابهم، أهل البستان وأهل الجنة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، فعذاب الآخرة أعظم لو كانوا يعلمون. فلما ذكر عذاب الآخرة وعذاب النار قابله بنعيم أهل الجنة فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤]، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهذا وعد من الله سبحانه وتعالى وبشارة من الله لمن اتقى الله سبحانه وتعالى، وقام بما فرض الله عليه من الواجبات والسنن. وتقوى الله هي صفة كل مسلم ينبغي له أن يلازمها، وتقوى الله المقصود بها الخوف من الله.

وتلاحظ أنت دائماً وتقرأ في القرآن الكريم أكثر الوعود في جنات النعيم لأهل التقوى: ﴿وَسَارِعُوٓا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فكثير من الآيات يأمر الله بالتقوى أو يرتب الجزاء في جنات النعيم على المتقين، ولم يقل على المسلمين أو المؤمنين؛ وإنما على المتقين. فالتقوى هي الخوف من الله، التقوى هي مراقبة الله، التقوى هي تحقيق ما أمر الله به سبحانه وتعالى وملازمته والبعد عما نهى الله عنه.

ولذلك اختلفت عبارات السلف في معنى التقوى، حتى قال عمر رضي الله عنه لما سُئل عن التقوى، قال: (هَلْ نَزَلْتَ إِلَى أَرْضٍ فِيهَا شَوْكٌ؟)، قال: نَعَمْ، قال: (فَمَاذَا صَنَعْتَ؟)، قال: شَمَّرْتُ وَحَذَرْتُ، قال: (فَذَاكَ التَّقْوَى)؛ فالتقوي في الحياة تشمر في الطاعة وتحذر من المعاصي، هذه هي حقيقة التقوى.

ولذلك ابن مسعود رضي الله عنه لما جاء يبين لنا معنى التقوى، قال: (هِيَ الْخَوْفُ مِنَ الْجَلِيلِ، وَالْعَمَلُ بِالتَّنْزِيلِ، وَالرِّضَا بِالْقَلِيلِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِيَوْمِ الرَّحِيلِ). هذه إذا حققتها أصبحت من أهل التقوى. وأنت تقرأ كثيراً في الآيات القرآنية: المتقين، وأنت تسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل في زمرة هؤلاء وأن يجعلك من المتقين: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وجاء بعض السلف أيضاً ففسر التقوى فقال: (هِيَ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى)؛ تحفظ رأسك، تحفظ سمعك لا تسمع إلا حلالاً، وتحفظ نظرك وبصرك لا تبصر إلا ما أباح الله، وتحفظ لسانك من الحرام، هذه التقوى: (أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى)؛ لا تدخل في بطنك كل شيء، وإنما تدخل ما أباح الله لك وأحله الله لك. فإذا لزمت التقوى -بإذن الله- ستكون مع من وعدهم الله بهذا الوعد الكريم: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤].

ولاحظ كلمة: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ هذا تشريف لك، تشريف لكل متقٍي؛ أن الله وعد هذا المتقي بأن يكون له المكانة العالية؛ لأنه لما قال: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ العندية هذه تفيد القرب من الله سبحانه وتعالى، فيكفيك شرفاً أن تكون من المقربين عند الله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. وقدم كلمة: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قبل أن يأتي بخبر ما لهم عند الله، قال عند الله أولاً؛ ولذلك امراة فرعون ماذا قالت؟

﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١].

قدمت المكان واختارت أن تتشرف بقربها من الله سبحانه وتعالى.

ثم قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥].

هذا يحكيه الله سبحانه وتعالى عن حال هؤلاء المجرمين كفار مكة، لما قالوا للصحابة رضي الله عنهم: نحن خير منكم، نحن أهل الحرم، ونحن أغنى منكم، ونحن خير منكم وأشرف منكم؛ فإن الله سيكرمنا كما أكرمنا في الدنيا بالشرف والمال والخير سيكرمنا في الآخرة، وإن لم يكرمنا سنكون نحن وإياكم سواء. هذا ظنٌّ من ظنِّ هؤلاء الكفار، فرد الله عليهم بردود قوية حتى لا يظنوا هذا الظن السيئ الذي لا يقبله عاقل.

ولذلك قارن الله سبحانه وتعالى، فقال على وجه الاستفهام الإنكاري: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]؛ هل يمكن هذا عقلاً؟ في العقل ما يمكن أن يستوي المسلم مع المجرم أبداً، ما يمكن، فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾.

ثم قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦].

استفهام يقول: كيف تحكمون بهذا الحكم العقلي من عندكم؟ العقل ما يقبله، فكيف حكمتم بعقولكم هذا الحكم؟ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

ثم قال: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ [القلم: ٣٧].

عندكم نقل؟ عندكم عقل؟ ما عندكم لا عقل ولا نقل، ما فيه دليل يدل على أن هذا يساوي هذا أبداً، قال: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾؛ جاءكم كتاب من الله تدرسونه وتتدارسونه فيما بينكم وتحفظونه على أن الله وعد المجرم كما وعد المسلم، وأن المجرم والمسلم سواء؟ ما عندكم! ولذلك لم يأتي بالجواب لأن الجواب معروف.

ثم قال: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ [القلم: ٣٨].

أي في هذا الكتاب، تختارون الأفضل والأخير، ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، يقول: لو كان عندكم كتاب أنزل عليكم لاخترتم منه ما تشاؤون، ولكن ليس عندكم أصلاً حتى تحكموا وتدعوا هذه الدعوة الباطلة.

وقال أيضاً سبحانه وتعالى بعدها: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٩].

يقول: هل هناك عهد بيننا وبينكم؟ يمينٌ أن الله اقسم أن يعدكم بهذا الوعد الذي وعد به المتقين جنات النعيم؟ هل عندكم أيمان وعهود على هذا؟ ما عندكم! ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾، يقول: أيمان بالغة وقوية وثابتة ومستمرة إلى يوم القيامة أن المجرم كالمسلم؟ هل عندكم شيء؟ ما عندكم!

قال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ كأنه جواب قسم؛ لأن الأيمان أقسم حلف، فقال: كأنه قال والله إنكم ستساوون هؤلاء، أو سنساوي هؤلاء بهؤلاء؛ قال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾، هذا حكمكم أنتم، أما حكم الله فلا.

ثم زاد على ذلك -وشوف قوة الردود القوية عليهم- زاد على ذلك فقال:

قال تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠].

هل عندهم كفيل يكفل هذا الكلام؟ هل عندهم من يتزعم هذا الشيء ويقوم به؟ ما فيه، ما فيه أحد يستطيع أن يتكلم منهم بهذا الكلام.

ثم قال زيادة على ذلك: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ [القلم: ٤١].

يقول: هل لهم شركاء مع الله في ملكه وفي تصرفه وفي وعده ووعيده؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾.

كم رد! ردود كثيرة عليهم تدل على بطلان اعتقادهم بأن المتقين أو بأن المسلمين كالمجرمين؛ لا يمكن ما يمكن نجعل المسلمين كالمجرمين، ولا يكون هذا لا في العقل ولا في النقل. فلذلك رد عليهم بالرد العقلي قال: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦]، ثم بالرد النقلي: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ [القلم: ٣٧]، ثم رد عليهم بالعهود والأيمان، ما لهم حتى ذلك، ثم رد عليهم أيضاً: هل لهم كفيل وزعيم يدعي هذا الشيء أنه سيتزعم هذا الأمر؟ ما لهم أبداً! هل شركاؤهم أخبروهم بذلك وأنهم سيتكفلون بهذا الأمر؟ كل ذلك بين أنه باطل لا يمكن.

ثم هددهم بيوم القيامة، لما تحدث عن نعيم أهل الجنة في يوم القيامة هددهم بهذا، فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

واذكر حينما يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود. ما معنى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾؟ بعض أهل التفسير يقول: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي أن الأمر يصل إلى شدته وغلظته وهوله، يقال: كشفت

الحرب عن ساقها إذا اشتدت، إذا اشتد الأمر قيل: كشف الأمر عن ساقه؛ كأنه تصوير لشدة الهول وعظم الموقف يوم القيامة، تشتد الأمور في هذا الوقت، ويدعى هؤلاء إلى السجود، الذين كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود فلا يستطيعون أن يسجدوا في الآخرة، لا يستطيعون ولا يمكن أن يقبل منهم ولا يستطيعون أن يسجدوا؛ هذا رأي لبعض المفسرين.

وبعض المفسرين يرى أن الساق هذا يعود إلى الله سبحانه وتعالى جل جلاله، وهذا جاء في الحديث؛ جاء في حديث في (البخاري) أن الله سبحانه وتعالى إذا جاء يوم القيامة يكشف عن ساقه. ونحن في مثل هذه الصفات مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب كل من يعرف حقيقة القرآن والسنة؛ يجب عليه أن يثبت ما أثبته الله وأثبته الرسول صلى الله عليه وسلم. فإذا أخبرنا الله بصفة من صفاته وجب علينا أن نثبتها كما أخبر، فإذا قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وجب على كل مسلم أن يثبت الاستواء على العرش حقيقة، أما الكيفية فلا ندري عنها، كل الصفات لا ندري عن كيفيتها، أما حقائق هذه فلا بد أن نثبتها كما أثبتها القرآن. إذا قال الله:

قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

يجب عليك وأنت تقرأ هذه الآية أن تثبت صفتي اليدين لله سبحانه وتعالى حقيقة، أما الكيفية فلا نعلمها، لم نَرَهَا؛ ولذلك الإمام مالك لما سُئل: كيف استوى على العرش؟ قال: (الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ) ما نعرف الكيف، (وَالإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ)؛ لا تسأل عن الكيف. مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يؤمنون بهذه الصفات إيماناً حقيقياً.

فقوله هنا، ماذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث؟ قال عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِنَّ اللهَ يَضَعُ الأَرْضَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالسَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ...» إلى آخر الحديث، «وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ»؛ نثبت لله أن لله أصابع. وجاء في حديث آخر: «إِنَّ قُلُوبَ العِبَادِ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»؛ إذاً يجب عليك أن تثبت هذا الحديث. وإذا جاء يوم القيامة فإن الله يكشف عن ساقه فيسجد كل من يسجد، فإذا سجد فإن المؤمنين يسجدون لربهم، وأما المنافق والكافر فإنه إذا أراد أن يسجد لا يستطيع، يصبح ظهره طبقاً لا يستطيع أن يسجد؛ لأنه لم يسجد في الدنيا.

هذا الحديث حديث يثبت لنا ماذا؟ يثبت لنا صفة ساق لله جل جلاله. وأما الآية فإن الآية جاءت مطلقة، قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ لا ندري ما هو هذا الساق؛ فبعضهم فسر الآية بالحديث، وبعضهم جعلها عامة. الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره فسرها بالحديث فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، الآية جاءت مبهمة أو جاءت مجملة أو جاءت عامة أو مطلقة فقيدها الحديث، قيدها الحديث، نعم.

قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ [القلم: ٤٢]، يدعون؛ من الذين جاؤوا في سياق الآيات وهم الكفار المجرمون، يدعون إلى السجود فلا يستطيعون، لا يستطيعون أن يسجدوا، لماذا؟ لأنهم في الدنيا كانوا يدعون للسجود فلم يسجدوا، فعوقبوا في الآخرة أنهم إذا جاؤوا يسجدون - لأنهم بحاجة الآن- ما يستطيعون، يصبح الكافر أو المنافق ظهره طبقاً لا يستطيع أن يسجد. كانوا يدعون إلى الصلاة في الدنيا ويسمعون المآذن ويسمعون النداء ولا يأتون إلى المسجد، فإذا جاء يوم القيامة جاؤوا يسجدون ما يقبل منهم، ليس وقت القيامة وقت عبادة ووقت تكليف، انتهى الأمر، يوم أنتم في الدنيا وأنتم تنادون إلى الصلاة وأنتم تسخرون وتستهزئون وتنشغلون عنها. قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]. أما المؤمن فيسجد كما كان يسجد في الدنيا.

قال في حق هؤلاء: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣].

أبصارهم قد خشعت من الخوف من شدة الموقف والخوف والهول خشعت أبصارهم، والذلة ترهقهم لا تفارقهم الذلة، فأصبحوا في موقف خشوع وذلة من الناس ومن الله سبحانه وتعالى. قال: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي في الدنيا وهم سالمون لم يكن ظهرهم طبقاً، وهم سالمون كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون فلم يسجدوا.

قال الله سبحانه وتعالى مهدداً لهم: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

أي يقول: دعني، نحن ناقشناهم وبينا لهم وأقمنا عليهم الحجة ورددنا عليهم بهذه الردود وبينا لهم الحق، فاتركهم، ذرني؛ اتركني وشأني وشأنهم، وهذا أسلوب تهديد وتخويف: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا

﴿ٱلۡحَدِيثِ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. يقول: هؤلاء يكذبون، يكذبون بالقرآن، يكذبون بالرسالة، ويكذبون بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يؤمنون بما جاءهم؛ فسيستدرجهم الله أي أنه سيتركهم ويغدق عليهم المال والولد والخير والصحة، وهذا استدراج؛ لأن العاصي إذا كان قائماً على معصية ومستقراً ومستمراً على المعصية والله يعطيه الخير ويغدق عليه الخير فهذه ليست علامة خير، هذا استدراج هذا استدراج، ولا يدري حتى يتركه الله ثم لا يدري إلا وقد نزلت به العقوبة وهو لا يشعر، بغتة وهو لا يشعر. ولذلك قال: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

قال تعالى: ﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥].

أملي لهم، أمهلهم؛ فإن كيدي إذا نزل بهم كيد عظيم شديد، كيد متين.

قال تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ [القلم: ٤٦].

يقول: هل أنت تسألهم مال على دعوتك؟ فإذا سألتهم مال يصعبون الأمر ويشعرون أن هذا مال يدفعونه كالغرامة عليهم، فأنت ما سألتهم الأجر، أنت تدعو وتطلب الأجر من الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].

ما أسألكم عليه من أجر.

قال تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ [القلم: ٤٧].

هل عندهم شيء من الغيب يدعون علوم الغيب ويكتبونها؟ لا هذا ولا هذا.

إذاً لما كانوا على هذا العناد والإصرار، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصبر عليهم كما صبر أولوا العزم: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٤٨].

والصبر يأتي الحديث عنه إن شاء الله وما يتلوه من الآيات التي تليه في لقاء نستكمل فيه هذه السورة وبقية هذه السورة إن شاء الله. أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، ويجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القلم ٤٨- آخر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للرابع والعشرين من الشهر السادس (جمادى الآخرة) من عام ١٤٤٥ هـ. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا ولكم في أوقاتنا وفي أعمالنا وفي علمنا وفي عملنا، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

سورة (القلم)، ولا زلنا نتدبر آياتها، ووقفنا عند آخرها في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٤٨].

خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم لما وجد ما وجد من قومه ومن كفار قريش من العداوة ومن الشدة ومن العناد والرد وعدم قبول دعوته والإعراض والتسلط عليه وعلى أصحابه، أمره الله سبحانه وتعالى بالصبر كما أمر غيره من الأنبياء: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال سبحانه وتعالى هنا: ﴿فَٱصْبِرْ﴾؛ الفاء هنا هي تفريعية؛ تفرع على شيء قبلها، يعني كما أنهم هكذا يفعلون معك فينبغي لك أن تصبر.

الصبر هو حلية المسلم يتحلى بها، والصبر من الإنسان كالرأس من الجسد؛ فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، وإذا ذهب الصبر ذهب الدين؛ ولذلك تحلَّ بالصبر في جميع الأمور.

الله سبحانه وتعالى هنا يقول: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾؛ حكمه ماذا؟ قضاؤه وتدبيره وقدره؛ قدره الكوني وقدره الشرعي. اصبر لحكم ربك الكوني والشرعي؛ فما يقدره الله في الكون يجب أن نصبر أمامه. قد يأتيك شيء من الابتلاءات والامتحانات فينبغي لك أن تصبر أمام هذه الابتلاءات والامتحانات والأقدار الكونية، ينبغي أن تصبر أمامها.

والله سبحانه وتعالى يوجه خطابه لرسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا الخطاب للرسول ولغيره من الأمة؛ كلنا مخاطبون بهذا أن نصبر لما يقدره الله من الابتلاءات والامتحانات في هذه الدنيا.

وأيضاً: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي لشرعه، لما يحكم الله به من الشرع؛ يعني أنك أحياناً تُكلف بتكاليف شرعية ينبغي أن تصبر أمامها، تجد من المشقة؛ تجد بعض الناس يشق عليه الصيام، يشق عليه الحج، يشق عليه القيام؛ فهذه ينبغي أن نواجهها بالصبر والتحمل. وقوله تعالى هنا: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يعني اصبر لما يقدره الله قدراً وشرعاً.

قال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨].

وصاحب الحوت هو ذو النون، وهو يونس بن متى عليه السلام، وقد أرسله الله إلى قومه ودعاهم إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى تقواه، فأبوا وأبوا وكفروا وردوا رسالته وعاندوه كما عاندت قريش وكفار قريش محمداً صلى الله عليه وسلم فأبوا.

فلما اشتد الأمر معه لم يصبر عليهم، وخرج مغاضباً لربه، وكان الأولى ألا يخرج إلا بأمر من الله. حتى النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءه أبو بكر الصديق وقال: يا نبي الله، قد أذونا أهل مكة، لَمَا لا تهاجر إلى المدينة كما هاجر أصحابك؟ قال: «لَمْ يُؤْذَنْ لِي، إِذَا أُذِنَ لِي هَاجَرْتُ». وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينتظر الإذن، وفي يوم من الأيام جاء إلى بيت أبي بكر الصديق وطرق عليه الباب وقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، قَدْ أُذِنَ لِي بِالْهِجْرَةِ».

يونس عليه السلام لما اشتد غضبه مع قومه خرج مغاضباً لله؛ نصرة لله ولدينه وغضباً على قومه، ولكنه لو تؤنى حتى يؤذن له لكان هذا أولى، ولكنه استعجل الأمر. فقال الله سبحانه وتعالى: لا تكن يا محمد مع قومك تستعجل عليهم، اصبر عليهم ولا تكن كصاحب الحوت: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

لما خرج مغاضباً ووصل البحر ركب البحر فراراً من قومه ونصرة لدين الله وغضباً على قومه. فلما ركب البحر -وقد توعدهم بأن الله سينزل عليهم العذاب وفر هارباً وركب البحر- وبدأت الأمواج تتلاطم ورأى أهل السفينة أن يلقوا أحداً منهم حتى يخففوا الحمل على السفينة، فاقترعوا؛ ساهموا مساهمة (قرعة)، من وقعت عليه القرعة يلقي بنفسه، فساهم معهم يونس فكان من المدحين أي من المنهزمين، فوقعت عليه القرعة أكثر من مرة فألقى بنفسه في البحر، فالتقمه الحوت وذهب به إلى قاع البحر ولم يصبه شيء. ذهب به في ظلمات: ظلمات الليل، وظلمات البحر، وظلمات بطن الحوت.

فنادى في الظلمات؛ قال الله سبحانه وتعالى هنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، قد اشتد به الكرب واشتد به الغم، ما له حيلة في بطن الحوت وفي قاع البحر، فعرف أن ليس له إلا الله سبحانه وتعالى، فنادى في الظلمات بهذا الدعاء العظيم؛ هذا الدعاء العظيم الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «مَا دَعَا بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ» «مَا نَادَى مَكْرُوبٌ وَمَغْمُومٌ إِلَّا فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ»؛ فنادى في الظلمات: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٧].

شوف كيف العبارة؛ توحيد وتجريد لله، وعرف أنه ليس هناك إلا الله: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ﴾، ونَزَّهه من أي صفة من صفات النقص، ثم اعترف بما اعترف به وهو نبي واصطفاه الله واجتباه، ومع ذلك يقر: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، فاستجبنا له ونجيناه من الغم.

وليس له فقط، بل وكذلك ننجي كل مؤمن: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنبياء: ٨٨].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[القلم: ٤٨].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾[القلم: ٤٩].

يعني لولا أن النعمة أدركته؛ نعمة الله سبحانه ورحمته -ورحمة الله أدركته- لأُلقي بالعراء إلقاءً وهو مذموم، يذمه كل أحد، ولكنه ماذا؟ ولكنه أُلقي بالعراء وهو غير مذموم. ولذلك لو تقرأ هذه الآية وتذهب إلى سورة (الصافات) والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[الصافات: ١٤٥].

نبذناه بالعراء، وهنا يقول: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾، نقول: نعم، نبذ هو بالعراء بلا شك، ولكن الله هنا قال تداركته نعمة ربه؛ لنبذ بالعراء والحال أنه مذموم، لكن الله نزهه عن الذم. يعني ألقاه لأنه ألقاه بالعراء وأنبت عليه شجرة من يقطين وأعاده إلى قومه؛ أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون. أعاده الله وألقاه بالعراء لكنه لم يُلقَه على وجه الذم وهو مذموم. ولذلك أكد الله هنا لما قال: ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، نبذناه ولكن ليس مذموماً، ليس عندما أُلقي وهو مذموم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[القلم: ٥٠].

مثل ما أن الله اجتبى آدم لما وقع في الخطيئة، تاب الله عليه واجتباه وهداه، وكان حال آدم بعد التوبة خيراً من قبلها. وهنا كانت حال يونس عليه السلام بعد التوبة أكثر قرباً إلى الله؛ ولذلك قال: ﴿فَٱجْتَبَـٰهُ

قَرَّبه واصطفاه ربه. ولذلك شوف قال: ﴿فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾ يعني ربه الذي خلقه والذي دبره وتصرف فيه ورباه التربية الحسنة هو الذي اجتباه، ﴿فَٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ رفع مقامه.

قد يخطئ الإنسان أحياناً ويقع في بعض الذنوب فيندم أشد الندم ويتحسر ويغتم، نقول: توبتك قد تكون بعد التوبة خيراً لك من قبلها، فلا تيأس ولا تقنط من رحمة الله. الإنسان إذا وقع وقصر في شيء وحسن عمله قد تكون حاله خير حال، وهؤلاء الرسل الله سبحانه وتعالى جعل حالهم بعد التوبة خيراً مما قبل التوبة، قال: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾؛ فأثنى الله على نبيه وصفيه يونس عليه السلام، وأمر نبينا محمداً أن يقتدي بيونس ويقتدي بالرسل: ﴿أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

قال الله سبحانه وتعالى في خاتمة السورة: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

أي قومك اصبر أمامهم؛ لأن الذي دفعهم إلى الإيذاء والعناد والكفر هو الحسد، حسدوك على أن الله اجتباك واختارك وأوحى إليك وجعلك سيد الأولين والآخرين، فهذا الذي جعلهم يعاندون ويستكبرون ويردون دعوتك.

يقول: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ اسمع يا محمد حال قومك معك وانظر إلى حالهم: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ﴾، يزلقونك أي يسقطونك على الأرض بأبصارهم بشدة النظر؛ لأنهم يريدون أن يعينوك، يعني يصيبونك بأعينهم حتى تسقط على الأرض مصاباً بعين فتكون معيناً بهم.

وما يُعرف بإصابة العين كما قال صلى الله عليه وسلم: «لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ القَدَرَ لَسَبَقَتْهُ العَيْنُ». فالعين حق كما قال صلى الله عليه وسلم، العين تجعل الإنسان يقع في القبر والجمل في القدر؛ شدة العين أوردت الجمل القدر وأوردت الرجل القبر، فالعين حق. الإنسان يتعوذ بالله ويحصن نفسه من العين؛ ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم من دعائه ومن أوراده صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ». قد يصاب الإنسان بالعين بحسد الناس وأعينهم الحارة.

ولذلك أهل مكة وقفهم النبي صلى الله عليه وسلم بأفعالهم وأقوالهم فعلاً وقولاً، هذا الفعل: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ هذا فعلهم. وأما قولهم ماذا قالوا؟

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾، يعني ما سلم محمد صلى الله عليه وسلم منهم لا بأفعالهم ولا بأقوالهم؛ يريدون أن يوقعوه وأيضاً يتهمونه بالجنون.

ولاحظ هنا في آخر السورة يقول: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾، وفي أول السورة ماذا قال لما قال: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾؟ قال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]؛ بدأها بتنزيهه عن الجنون، وختمها بموقفهم أنهم يتهمونه بالجنون وليس هو بمجنون، بل هو أعقلهم وأرشدهم.

قال: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢].

أي هذا الذي جئت به يا محمد وكلفت به دعوتك، ما هو إلا ذكر للعالمين على مر السنين. فدعوة محمد صلى الله عليه وسلم دعوة قائمة ودعوة مستمرة إلى قيام الساعة لكل سقع من أسقاع الأرض وفي كل زمان من هذه الأزمنة فهي قائمة؛ ولذلك قال: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أي هذا القرآن وهذا الوحي ﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

وهذه خاتمة أيضا مناسبة جداً؛ أن الله ختم هذه السورة بأن هذا القرآن وهذه الدعوة وهذا الوحي هو ذكر يتذكر به من تذكر، وهو أيضاً رفعة وعزة ومكانة لكل من تمسك بهذا القرآن.

أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن ينفعنا وإياكم بما سمعنا، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الحَاقَّة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الحاقة ١- ١٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، الرابع من الشهر السابع من عام ١٤٤٥ للهجرة. مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم كلام الله سبحانه وتعالى؛ نقرأ آيات من كتاب الله ونتدبرها ونتأملها ونتفكر فيها وما فيها من آيات وعبر.

حديثنا اليوم حديث عظيم، وسورة جليلة القدر عظيمة الشأن، هذه السورة حديثها كله عن اليوم الآخر وتقرير قضية البعث والجزاء والحساب وتطاير الصحف واخذ كتابه بيمينه وأخذ كتابه بشماله ونهاية الخلق يوم القيامة ومستقرهم الاخير. السورة جوها جو الحديث عن اليوم الآخر من أولها لآخرها.

هذه السورة افتتحها الله سبحانه وتعالى باسم من أسماء اليوم الآخر، وهذا الاسم لم يرد في القرآن إلا في هذا الموضع. وقد سمى الله سبحانه وتعالى هذا اليوم العظيم بأسماء كثيرة؛ سماه ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]، وسماه ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١]، وسماه ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١]، وسماه ﴿يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، و ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١٣]، و ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]، و ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، وأسماء كثيرة جداً. فسماه بأسماء كثيرة دلالة على عظمه وعظم شأنه؛ وإذا تعددت الأسماء دلت على أن المسمى شأنه عظيم، ولذلك الله سبحانه وتعالى أسماؤه كثيرة، أسماؤه غير محصاة كثيرة، فلذلك تتعدد الأسماء لعظم الشيء.

سورة (الحاقة) هذه هي حديثنا هذا اليوم، سورة (الحاقة) تتحدث عن اليوم الآخر من بدايتها. وإذا تأملتها وقرأت فيها وأعدت النظر وأعدت القراءة بقراءة تدبر وقراءة تأمل وعدم استعجال، رأيت أن هذه السورة تتحدث عن ثلاثة أمور هامة حقيقة، ثلاثة أمور:

الأمر الأول: اليوم الآخر، وموقف الأمم الماضية من هذا اليوم، وموقف المشركين في زمن نزول القرآن من هذا اليوم، وبيان مواقفهم وعاقبة موقفهم هذا السيئ في كفرهم وعدم إيمانهم باليوم الآخر ما الذي جرى لهم؟ فالسورة تتحدث في أولها عن هذا الشيء، ما الذي جرى لهذه الأمم لما كفرت وكذبت باليوم الآخر؟

ثم وصف وعرض لصورة من صور اليوم الآخر؛ وكل سورة وكل آيات أو مواضع من القرآن الكريم تجدها تعرض لك صورة أو موقف من مواقف يوم القيامة، لا يأتيك جميع هذه المواقف في موضع واحد؛ لأنها مواقف متعددة وكثيرة ومختلفة، فكل سورة تعطيك موقف، وكل موضع على حسب سياقاته وحسب ما يريده الله في هذا الموضع. هذه الصورة التي تصور لنا اليوم الآخر تصور لنا نفخ الصور وخروج الناس من قبورهم، ثم عرض لهذه الكتب التي تتطاير؛ كلٌ أخذ صحيفته وكتابه بيمينه أو بشماله من وراء ظهره، وهذا عرض لتطاير الصحف. يعني اليوم الآخر لما يبعث الناس من قبورهم ماذا سيواجهون؟ ما هي الأشياء التي سيواجهها كل انسان يخرج من قبره؟ أمامه الحوض، أمامه تطاير الصحف، أمامه الميزان توزن الموازين؛ ولذلك بعض السور تتحدث عن الميزان فقط، وهذه تتحدث عن تطاير الصحف، ثم بعد ذلك الصراط والنار والجنة، هذه الأمور وما تحتويه من غير ما ذكرناه كلها سيمر بها كل انسان، كل انسان يمر بهذه الأشياء.

تتحدث السورة عن موقف هؤلاء المعاندين من هذا اليوم، ثم تتحدث في القسم الثاني عن هذا الموقف الذي يعرض لك يوم القيامة وتطاير الصحف؛ وفائز بصحيفته وخاسر خسارة عظيمة.

ثم بعد ذلك تختم السورة بالحديث عن حقيقة هذا الخبر؛ من الذي أتى به؟ إنه لقول رسول كريم، محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي أتى به إليكم يا أهل مكة، ليس بشاعر ولا بكاهن وإنما هو رسول من عند الله أرسله الله سبحانه وتعالى ليبلغ رسالته، وحقيقة هذا القرآن أنه لقول رسول، ليس بشعر وليس بكهانة وليس بسحر.

هذه خلاصة السورة اقرأها أنت وتدبرها وارجع وتأمل، والحقيقة أنا دائماً أكرر ليس المقصد أنك متى تنتهي من السورة، ليس هذا هدف أي انسان يقرأ القرآن، أي عاقل يقرأ القرآن ليس هدفه أن ينتهي من السورة، إنما هدفه أن يفهم السورة، هدفه هذه رسالة توجه لك أنت، تقرأها وتتأملها حتى لو قرأت آية

واحدة. النبي صلى الله عليه وسلم ليلة واحدة كاملة وهو يردد آية واحدة حتى أصبح الصبح. ليس بعجيب أنك تأخذ آية واحدة تتأملها، العجيب أنك تنتهي من القرآن وأنت لم تفهمه، تنتهي من القرآن وأنت لم تقف ولم يحرك فيك ساكناً، هذا هو الذي يتأسف الإنسان عليه ويتحسر عليه؛ يقول كيف أنا قرأت القرآن وختمته ولم أخرج بشيء! فالمقصد التدبر والتأمل والتفكر وأن تأخذ هذا القرآن وتردده وتفهمه.

هذه السورة التي بين أيدينا من السور المكية التي نزلت في مكة، تعالج قضية مهمة من قضايا الإيمان وأصلاً من أصول الإيمان؛ وهو الإيمان بالبعث والجزاء والجنة والنار، التي ينكرها المشركون ولا يؤمنون بها، يقولون: ﴿إِنَّمَا هِيَ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧].

ولا يعترفون لا ببعث ولا جزاء ولا جنة، فجاءت الآيات تقرر بصورة قوية تهز النفوس وتهز القلوب؛ ولذلك تسمع أنت هذه الآيات التي تقرأ في أول السورة وهي تحرك القلوب بقوة وتهزها هَزّاً؛ لأن أمامك شخص منكر لا يؤمن ولا يصدق، فلا بد أن تأتيه الآيات بقوة حتى تجعله يتحرك وتجعل قلبه ينكشف ويظهر.

ولذلك اسمع ماذا يقول الله سبحانه وتعالى بعد:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣].

حتى ﴿الْحَاقَّةُ﴾ عندما تقرأها أنت تقرأها بمد لازم متصل مثقل بست حركات، ما تستطيع تقرأها أن تقول: الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة، هذه ليست قراءة، القراءة أن تقرأها كما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم، قراءة بحروف ظاهرة من مخارجها وأن تعطي كل حرف حقه: ﴿الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ﴾.

﴿الْحَاقَّةُ﴾ ما معناها؟ لما تسمع يقول لك الحاقة ما معناها؟ الحاقة مأخوذة من الحق الذي هو ضد الباطل، يعني يوم القيامة يوم حق أنه لحق، والذي أخبرك به هو الحق سبحانه وتعالى، فهو حق من عند حق لا مرية فيه ولا شك فيه، ولذلك وجهت هذه الرسالة إلى منكر البعث، ما نناقشهم نقول هل اليوم الآخر موجود أو سيأتي أو لا يأتي، لا، حقيقة واقعة تؤمن أو لا تؤمن، حقيقة واقعة حق، هذا حق لا بد أن يظهر وما سواه باطل، فلذلك افتتح الله بهذه الكلمة وهي وصف لليوم الآخر، كأنه يقول اليوم الآخر يوم حق لا بد أن يظهر أَبَى من أَبَى وكفر من كفر لا بد أن يأتي، هو يوم حق أحقه الله.

فهذا معنى الحاقة؛ ولذلك أبهمه قال: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ ما يدرون هم حتى الآن ما هي الحاقة؟ قال: ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ يعني هذا استفهام، الآن يقول لك: ما الحاقة؟ يسألك يقول لك: الحاقة هذه الحاقة، ثم قال لك: ما الحاقة؟ يسألك الآن، والسؤال هو يعلم سبحانه وتعالى الإجابة، ولكنه يأتي بهذا السؤال حتى ينبهك ويذكرك يقول لك: انتبه وأجب على هذا السؤال، ما هي الحاقة؟ ثم يزيدك سؤالاً آخر فوق السؤال فيقول لك: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾، ما أعلمك؟ تعلمها؟ تعرفها؟ ما تعرفها، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ ما تدري ما الحاقة.

ومثل ما ذكرنا يمكن في لقاءات ماضية كثيرة؛ إذا جاءتك في القرآن ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ الجواب موجود، وإذا جاءتك ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فالجواب غير معروف ما أحد يعرفه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

ما أحد يدري، ما يدريك ما أحد يعلم. لكن إذا جاءتك ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فالجواب موجود: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١٠-١١].

وقال: ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ...﴾ [القارعة: ١-٤].

فالجواب موجود.

وهنا يقول: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ ما تدري ما الحاقة، ثم يأتيك بالجواب، ما هو الجواب؟ أين الجواب؟ قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤].

إذاً الحاقة هي القارعة؛ تحق حقاً وتظهر حقيقة وتقرع الأسماع بأصواتها المزعجة الصاخة والطامة والقارعة. ولذلك انظر، قال الله سبحانه وتعالى لما قال لك: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ وأنت تنتظر الجواب، قال لك: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾. أنتم يا أهل مكة كذبتم باليوم الآخر وكذب من كان قبلكم، وما النتيجة لما كذبوا باليوم الآخر؟ انظروا ما الذي جرى لهم؛ فأنتم تكذبون باليوم الآخر فانتظروا ما الذي سيجري لكم كما جرى لهم. ولذلك قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾.

ثم أخبرك بنتيجة التكذيب هذا ما هو، لما كذبوا ما الذي جرى لهم؟ قال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥].

أُهلكوا يعني أصابهم الهلاك ونزلت بهم العقوبات، أُهلكوا بالطاغية. من هم ثمود؟ ثمود هم الذين يسكنون وادي القرى أو مساكن الحجر وهي في شمال غرب الجزيرة العربية ومدائنهم موجودة حتى الآن، منذ أهلكهم الله إلى الآن ومدائنهم قائمة. هم ثمود الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام وكانوا عرباً، فأرسل الله إليهم، وثمود جاءت بعد عاد، عاد سبقتها، عاد كانت قبلها؛ ولذلك تلاحظ في القرآن كثيراً ما تأتي ترتيب القصص: نوح عليه السلام، ثم هود إلى عاد، ثم صالح إلى ثمود.

قال هنا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، لما كذبوا بالقارعة وكذبوا رسولهم وعقروا ناقة الرسول، أنزل الله بهم العذاب فأُهلكوا بالطاغية. والطاغية من طغى الشيء إذا تجاوز الحد، فأُهلكوا بأي شيء؟ بالصيحة التي صاح بهم جبريل فتقطعت قلوبهم في أبدانهم وماتوا عن آخرهم فأُهلكوا بالطاغية. وقيل أُهلكوا بالطاغية أي أُهلكوا بطغواها، أي باستكبارهم؛ لما طغوا واستكبروا عذبهم الله لأنهم لم يؤمنوا بالله ولم يؤمنوا برسوله.

قال: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].

وهم ممن يسكن في جنوب الجزيرة العربية في بلاد الأحقاف في أقصى الجنوب من الجزيرة العربية، أرسل الله إليهم نبيه هوداً عليه السلام فدعاهم إلى التوحيد وكفروا ولم يؤمنوا برسولهم ولم يؤمنوا باليوم الآخر، فأُهلكوا بأي شيء؟ قال: ﴿فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾. أرسل الله عليهم ريحاً قوية، ومعنى صرصر أي لها صوت، لها صوت إما لشدة حرها أو لشدة بردها؛ ولذلك الصرير شدة الصوت، ويقال لك: صرير الباب إذا أحدث صوتاً. فالصرصر هذا معناه الريح الشديدة التي بشدتها وقوتها إذا دفعت بقوة أحدثت صوتاً معها. قال: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ومعنى عاتية أي شديدة غليظة قوية، قوية بمعنى أن الله دفعها بقوة عليهم.

قال: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧].

ذللها سبحانه وتعالى وجعلها مسخرة عليهم مذللة تستجيب لربها ولا تعصيه وهي جند من جنود الله. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، يقول: سخرها عليهم مدة سبع ليال وثمانية أيام مستمرة. حسوماً أي مستمرة لا تنقطع.

ذكر بعض أهل التفسير أن أول يوم كان يوم الأربعاء نزلت بهم العقوبة في يوم الأربعاء لمدة ثمانية أيام، قال: ﴿حُسُومًا﴾ أي حسمتهم حسماً لم تترك منهم أحداً، أو أنها محسومة العدد عند الله سبحانه وتعالى فهي محسومة، وقد حسمتهم حسماً لم يبقي منهم أحد.

في سورة أخرى قال: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

وهنا قال: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

تأتي الريح وتأخذ الشخص وترفعه إلى السماء ثم تلقيه على رأسه فينقلع رأسه عن جسده فيسقط عليه. وكانوا قد أعطاهم الله القوة قالوا: من أشد منا قوة! وأعطاهم الله القوة وطول الأجساد، فأصبحت أجسادهم بعدما هلكوا كأنها أعجاز نخل خاوية، ساقطة وليس عندها أحد. فتأخذ الريح الشخص الواحد فترفعه إلى السماء ثم تلقي به حتى يهلك.

قال: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨].

هل بقي منهم أحد؟ ما بقي أحد منهم، أتت عليهم جميعاً فأهلكتهم. يدعون أنهم هم أَقوَى الناس، قالوا: من أشد منا قوة! فأهلكهم الله بأخف الأشياء؛ ريح أرسلها عليهم فدمرتهم وأهلكتهم، قال: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ ما بقي منهم أحد. وجاء كلٌ بأسباب ماذا؟ كفرهم وعنادهم وتكذيبهم برسول الله وكفرهم باليوم الآخر وتكذيبهم بالقارعة.

قال: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ٩].

فرعون هو فرعون موسى الذي أرسل الله إليه موسى عليه السلام يدعوه إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكفر وأبى واستكبر فأهلكه الله وأغرقه في البحر.

قال: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ﴾ أي من الأمم الكثيرة التي أهلكها الله قبل فرعون.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ أي وجاءت المؤتفكات بالخاطئة، والمؤتفكات هم قوم لوط عليه السلام سموا بالمؤتفكات، حتى في آية أخرى قال: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣].

وهم قوم لوط عليه السلام، سموا بالمؤتفكات لأن الله سبحانه وتعالى قلب ديارهم عليهم، أصل الإفك هو القلب، أفك الشيء والإفك هو الكذب، فقلب الحقائق يسمى إفكاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١].

جاؤوا بالإفك أي قلبوا الحقائق. فالمؤتفكات لما ردوا رسالات ربهم وكفروا بها، قلب الله عليهم ديارهم وعذبهم بعذاب لم يعذب به أحداً من العالمين؛ لماذا؟ لأنهم أتوا بشيء لم يسبقهم إليه أحد وخالفوا فطرة الله، وكانوا يأتون الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٥].

وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾ [النمل: ٥٥].

فعاقبهم الله بأشد العقوبات؛ رفعت وقُلبت عليهم ديارهم ثم أُتبعوا بالحجارة.

قال: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾، الخاطئة يعني أنهم أخطأوا في حق الله وفي حق رسوله. والخَاطِئ غير المُخْطِئ، لازم إذا قرأت في القرآن تفرق بين الخاطئ والمخطئ، إذا قيل لك ما الفرق بينهما؟ تقول: الخاطئ الذي يتعمد الخطأ، والمخطئ الذي يقع في الخطأ من غير تعمد. ولذلك في سورة يوسف وأنت تقرأها: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

أي متعمده خطأها، لم تكن فعلت هذا الشيء من غير عمد. فالخاطئ غير المخطئ، المخطئ يعني الذي يفعل الشيء بغير قصد ففَرِّق بينهما. ولذلك قال هنا: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾.

قال: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠].

كل الأمم هذه: ثمود وعاد وفرعون ومن قبله وقوم لوط كلهم عصوا رسول ربهم. لو سئلت: هل هم عصوا رسولاً أم عصوا رسلاً كثيرين؟ نقول: عصوا رسلاً كثيرين، طيب لِمَ ليش قال الرسول؟ نقول: لأن الذي يكذب برسول كأنه كذب الرسل كلهم، ولذلك قال: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾، أو يراد بالرسول هنا جنس الرسول؛ جنس الرسول يعني عموم الرسل.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي أخذهم أخذة، والأخذ هنا معناها العقوبة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [هود: ١٠٢].

يعني عاقبهم، فالأخذ هنا معناها العقوبة. ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ يعني عاقبهم عقوبة شديدة زائدة عن الحد الذي كانوا يتوقعونه، فهذا معنى رابية يعني أنها زائدة عظيمة شديدة.

ثم قال سبحانه وتعالى في بيان أيضاً أمة أخرى أهلكها الله، وهي أول أمة أُهلكت وأول أمة أُرسل إليها رسول وهي أمة نوح عليه السلام، قال: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

أي إن الله أهلك قوم نوح بالماء، بالغرق بالطوفان. ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا﴾ زاد الماء ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي في السفينة. لكن أسأل أنا هنا الآن: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ الله يخاطب من؟ يخاطب أهل مكة الذي نزل عليهم القرآن، يقول: أنتم يا أهل مكة حملناكم في الجارية! هل أهل مكة حملهم الله في الجارية ولا حمل قوم نوح ومن معه ومن آمن معه؟ نقول: حمل نوح ومن آمن معه فقط، وما آمن معه إلا قليل، فالذين ركبوا في السفينة هم الذين نجوا والبقية هلكوا بالماء وأغرقهم الله. كيف يقول الله: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أنتم؟ نقول: لأنكم أنتم ذرية من سبق، يعني لما يقول الله: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أنتم يخاطبهم يذكرهم بأنه حمل أجدادهم وأسلافهم، فالنعمة على الأجداد والأسلاف نعمة عليهم، ولذلك تقرأ أنت في سورة يس: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

ما حمل الذرية، هو حمل الأجداد، لكن لما كانت في سياق ذكر النعمة ذكرهم بأنهم حملوا وكانوا في أصلاب آبائهم. وهنا يقول: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أنتم لما كنتم في أصلاب آبائكم، وهذا كثير في القرآن، يعني أنت لما تقرأ الله يخاطب اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ...﴾ [البقرة: ٥٥].

هل هم قالوا يا موسى؟ هم ما حضروا موسى، كيف يقول: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ﴾؟ يخاطبهم القرآن يخاطب أجدادهم يذكرهم بما فعل أجدادهم فيحذرهم من أفعال أجدادهم وأسلافهم. وهنا يذكرهم بهذه النعمة: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أنتم في الجارية. ولذلك يسمى نوح الأب الثاني، أبو البشر الثاني نوح، نوح هو أبو البشر الثاني لأن من كان في زمانه كلهم هلكوا، ولم يبقي من ذرية من جاء من العالم كلها يرجعون إلى ذرية نوح عليه السلام.

قال: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

أي هذه السفينة نجعلها لكم تذكرة تتذكرون كيف أنجى الله من ركب في السفينة وأهلك من لم يرطب فيها. قال: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ يعني تعي من الوعي، يعني تدركه وتفهم هذا المعنى وتدركه. قال: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ ليست كل أذن، كثير من الآذان ما تسمع، تسمع ولا تدرك ولا تفهم، لكن الذي يفهم والذي يستوعب ويطبق ويتفكر ونتذكر ويعقل ما يخاطب به فهذه الأذن، كل

انسان له أذن لكن ليس كل انسان له أذن واعية، كثير من الناس يسمع ولا يدرك ولا يفهم ولا يتذكر ولا يتعظ. هنا المراد به من الأذن الواعية هي الأذن التي تتعظ، الذي يتعظ صاحبها ويفهم.

ولذلك ختم الله إهلاك هؤلاء الأمم بأن هذه رسالة لكل من عنده سمع يسمع به سمع إدراك وفهم، هذا المقصود بعد هذا العرض الذي يعرضه الله لنا في القسم الأول من هذه السورة عن إهلاك الأمم المكذبة لهذا اليوم العظيم، يعرض لنا بعده ما يجري في هذا اليوم لما يقول: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣].

وهذا يأتي الحديث عنها إن شاء الله في اللقاء القادم. أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحاقة ١٣ - ٣٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من شهر رجب من عام ١٤٤٥ هـ. مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم دراسة وتلاوة وقراءة وتفسيراً وتدبراً وتأملاً. ما زلنا في هذه السورة العظيمة التي تحدثنا عنها في لقائنا الماضي، وهي سورة (الحاقة). و(الحاقة) اسم من أسماء يوم القيامة، وإذا تعددت الأسماء للمسمى دل ذلك على عظم المسمى؛ فلما كان يوم القيامة يوماً عظيماً رهيباً مخيفاً جاءت أسماؤه في القرآن متعددةً كثيره، ومن هذه الأسماء: (الحاقة). وإنما سميت القيامة بـ (الحاقة) لأنها تحق الحق وتبطل الباطل وتظهر الحق جلياً واضحاً، وهي حقٌّ لا مرية في ذلك؛ وقوعها حق، ومجيئها حق، وما يقع فيها من أمور كلها حق في حق، ولذلك سماها الله (الحاقة)، وسماها بأسماء كثيرة ذكرناها: ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ [النازعات: ٣٤]، و ﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، و ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١]، وغيرها من الأسماء الكثيرة، سماه ﴿يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، وسماه ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، وسماه ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٢]، أسماء في القرآن كثيرة جداً.

الله سبحانه وتعالى لما افتتح هذه السورة بهذا الاسم العظيم وكرره ثلاث مرات بأساليب مختلفة: مرة بالخبر ومرة بالاستفهام: ﴿ٱلْحَآقَّةُ مَا ٱلْحَآقَّةُ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١-٣].

ثم بين لنا موقف أمم مضت قديماً كذبت باليوم الآخر وكفرت به ولم تؤمن به. ولما كان التكذيب باليوم الآخر أمراً عظيماً عند الله وله شأن عظيم، أهلك هؤلاء الأمم على قوتهم وما أُعطوا، أهلكهم ودمرهم تدميراً بسبب كفرهم بالله وبرسله وباليوم الآخر: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤].

أي بيوم القيامة كذبت به ولم تؤمن به ولم تستعد له. فذكر الله الأمم التي أهلكها: عاد، وثمود، وقوم فرعون، ومن قبله، ولوط وهم المؤتفكات. وسميت قرى لوط بالمؤتفكات لأن الله قلبها؛ لأن اتفك معناها انقلب، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ [النجم: ٥٣].

أي قلبها رأساً على عقب. وذكر الله أيضاً قصة نوح:

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ [الحاقة: ١١-١٢].

تذكرة لما ذكر لنا وقدم لنا هذه المقدمات؛ بأن التكذيب بهذا اليوم أمر عظيم ليس بالسهل، تكذب بما جاءك عن الله بأن الله يبعث الأولين والآخرين، تكذب بأن الله يجازي عباده؛ المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته، تكذب بأن الله وعد المتقين بجنات النعيم ووعد الكافرين بنار جهنم! فالمكذب لهذا مكذب لأمر عظيم، أصل من أصول الإيمان، ولذلك قدم هذه المقدمة تحذيراً لمن يكذب بهذا اليوم.

ثم ساق لنا بعد ذلك موقفا من مواقف يوم القيامة، وليس هو كل مواقف يوم القيامة، ليس هو عرض لجميع ما يجري يوم القيامة، وإنما كل سورة وكل آيات وكل موضع في القرآن يسوق لك بعض هذه المواقف، المواقف كثيرة؛ ولذلك يأتيك مرة كذا ومرة كذا. أنت لما تقرأ سورة (القارعة) يسوق الله لك موقفا من مواقف ماذا؟ الموازين؛ الميزان، موقف الموازين، كيف توزن، من الذي يوزن؟ توزن الأعمال ويوزن الأشخاص، حتى الأشخاص يوزنون يوم القيامة! يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «يَأْتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»؛ فالرجال والنساء يوزنون على موازين، وأعمالهم توزن. فسورة (القارعة) تعطيك جانباً من جوانب عرض يوم القيامة.

والسورة التي بين أيدينا تعطيك جانباً من جوانب عرض يوم القيامة وهو: تطاير الصحف، وأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره، كما فسرته الآية الأخرى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠].

فيأخذه بشماله من وراء ظهره، وهذا أشد الإهانة له؛ لما أهان شرع الله وأهان حقوق الله أهانه الله يوم القيامة بأن تُلوى يده من خلفه ويُعطى كتابه بشماله. وما موقفه يوم القيامة أمام الناس والأمور علانية، ﴿يَوْمَهُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ [غافر: ١٦].

وكيف سيكون موقف من يفوز بأن يأخذ كتابه بيمينه؟

وحقيقة لما تقرأ هذه الآيات وتتأملها وتتصور نفسك أنت في هذا الموقف، تأخذ كتابك بيمينك، ماذا ستقول أمام الناس؟ هذا الذي يحكيه الله سبحانه وتعالى.

يقول: لما ذكر لنا هلاك الأمم المكذبة لهذا اليوم ولغيره، قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣].

شوف جاء بالفاء ليفرع لك أن هؤلاء الذين كذبوا بهذا اليوم، فإذا جاء هذا اليوم الذي هو حق كما سماه الله (الحاقة)، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣].

والنفخ في الصور كما جاء بيانه في كتاب الله نفختان، وقال بعض أهل العلم هي ثلاث نفخات: النفخة الأولى نفخة الموت والصعق، والنفخة الثانية نفخة البعث؛ يصعق من في السماوات والأرض يعني يموتون، ثم يبعثون في النفخة الثانية. قيل: كم بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ». وهناك من يقول إن هناك ثلاث نفخات: نفخة الموت، ونفخة الفزع: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النمل: ٨٧].

والنفخة الثالثة هي نفخة البعث.

والصحيح الذي عليه أهل التحقيق أن النفخ نفختان كما في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

فهاتان نفختان.

قال الله هنا: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣]؛ أهي الأولى أم الثانية؟ الأولى. كيف عرفنا أنها الأولى؟ يمكن تكون الثانية؟ نقول: لأن الأولى فيها الموت والصعق وخراب الكون، خراب الكون كله، لا تظن أنه خراب المباني، لا؛ خراب الأرض والجبال والسماء وكل شيء.

ولذلك اسمع ماذا يقول الله عز وجل حتى نتدبر ونتأمل الآيات: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣]؛ هذه النفخة الأولى نفخة الصعق، ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الحاقة: ١٤] دل على أنها الأولى. ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ الآن يعطيك الله سبحانه وتعالى ما الذي يجري للأرض عند النفخة الأولى، ما الذي يجري لها؟ قال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

فأصبحت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً؛ لا وادي ولا جبل، لا مرتفع ولا نازل، قاعاً صفصفاً مستوية.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة المزمل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

أصبحت رملاً كثيباً. وفي آيات أخرى يقول: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥].

أي فتتت. وفي آية أخرى قال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

ترى أنها سراب، ما فيه جبال راحت سراباً انتهت ذهبت، أصبحت ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

كالصوف المنفوش يطير في الهواء يتطاير، هذه الجبال الصلبة القوية تتطاير من شدة الهول، شدة هول يوم القيامة وعظم هذا الأمر، واستجابتها لربها وإذعانها لربها.

قال: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]؛ شوف لما تسمع دكة، الدك هو التسوية، دكة واحدة بلحظة أن تكون مستوية قطعة واحدة. يقول: إذا حصل هذا اليوم ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٥].

يعني جاءت القيامة العظيمة.

وبعدها ماذا قال؟ ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦].

انشقت السماء فهي يومئذ واهية ضعيفة، ضعيفة جداً خلاص انشقت. وفي آية أخرى قال: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

وردة يعني حمراء شديدة الحمرة من شدة الهول، وكالدهان تذوب كالدهان تذوب. وفي آيات أخرى قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

ومرة يقول: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

ومرة يقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧].

كل هذه الأمور العظيمة التي هي أكبر وأكبر من الإنسان تكون على هذه الحالة العظيمة.

قال: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦].

قال: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة: ١٧].

والملك يعني الملائكة ليس ملكاً واحداً، الملائكة على أرجائها. كيف عرفت أن الملك هو الملائكة؟ لو جاءك واحد وقال لك: الله يقول ملك وتقول لي ملائكة، كيف عرفت؟ شوف لما نتدبر القرآن؛ يعني يهمنا نحن تدبر القرآن وفهمه. يعني لما قلنا لك قبل قليل: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ قلنا: النفخة الأولى، كيف عرفنا؟ قال: لأن الجبال والأرض والسماوات كلها يصيبها ما يصيبها.

طيب، لما يقول لك هنا: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ نقول: الملك ليس واحداً. طيب كيف عرفت أنه ليس واحداً؟ نقول: اسمع القرآن ماذا يقول: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ أي على أطرافها ونواحيها، أطراف السماء ونواحي السماء.

قال: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

دل على أنه ملائكة. والثمانية من هم؟ هل هم ثمانية أعداد ولا ثمانية صفوف؟ قال بعض أهل التفسير إنهم ثمانية أعداد لا يعلم عظم خلقتهم إلا الله سبحانه وتعالى. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَكم عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ»، هذا أحد حملة العرش، فثمانية ممكن ثمانية، وقيل ثمانية صفوف، ذكر ابن كثير هذا وهذا، والله أعلم هذه امور الله أعلم بها قد تحتمل كذا وتحتمل كذا فهي من الأمور الغيبية.

طيب، وحملة العرش هم الملائكة المقربون، الملائكة المقربون؛ عندنا ملائكة حملة عرش وعندنا ملائكة تحف حول العرش: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر: ٧٥].

تسبح، يسبحون بحمد ربهم، وملائكة تحمل العرش، والله أعلم بذلك.

قال: لما يحصل ما يحصل يؤتى ببني آدم ويحشرون، يحشرون على هذه الأرض ثم تتطاير الصحف، قد يسبقها أعمال مثل الحوض وغيره ويلحقها أعمال مثل الموازين والصراط، هذه أعمال كلها تمر بهذا الإنسان. نحن الآن بصدد تطاير الصحف كما تتحدث عنه السورة.

قال: ﴿فَأَمَّا﴾ تفريع: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩].

وهم أهل اليمين. شوف حتى قراءة ﴿هَآؤُمُ﴾ تمدها كأنه من السعادة التي غمرته يمد صوته بقوة يقول: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ يعني خذوا كتابي اقرأوه. يعني هو الآن أخذ ونظر فيه وعلم أنه اخذه بيمينه وأنه سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً، ولكن من شدة الفرح والسعادة يريد أن يجعل غيره يفرح معه، يسعد غيره معه من شدة الفرح فيقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ اقرأوا كتابي. والهاء في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ هذه يسميها علماء القراءات هاء السكت، تسكت عندها، وإلا الأصل: اقرأوا كتابي، ولكن تأتي الهاء هاء السكت: ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾.

قال: لماذا أخذ كتابه بيمينه؟ بدأ يجيب حتى يبين لك السبب الذي جعله يفوز ويأخذ كتابه بيمينه، لماذا؟ قال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠].

ظننت يعني جزمت واعتقدت، ليس الظن هنا الشك، لا؛ لأن الظن ياتي في القرآن بمعنى الشك ويأتي بمعنى اليقين، فهنا بمعنى اليقين؛ مثل قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

لكن يأتي الظن بمعنى الشك مثل: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوءِ﴾ [الفتح: ٦].

هذا شك ما لنا علاقة به، لكن هنا في الآية معناه اليقين: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ يعني عندي يقين بأني سأُبعث وألاقي حسابي ألاقي حسابي. ولذلك أنا استعددت، كنت أستعد لهذا اليوم؛ أعمل الصالحات، وأتصدق، وأصلي، وأحافظ على صلوات الجماعات، وأفعل كذا وكذا من الأعمال الصالحة؛ لأنني اعرف أن هذه الأعمال كلها تحصى لي يوم القيامة تحصى لي ولا يضيع عند الله شيء: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

فلا يضيع الله. ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ﴾.

فالنتيجة ما هي؟ جاءه الخبر: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١-٢٢].

عيشة راضية؛ هذه العيشة الراضية أن يعيش عيشة مرضية له، يرضى بها ويسعد بها سعادة لا شقاء بعدها أبداً، وهذا هو الفوز بكرامة الله ونعيمه.

لما قال: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ وصفها الله بأنها عالية، جنة القصور والغرف العوالي، قال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٢-٢٣].

فواكهها وثمارها قريبة دانية، تأكلها وأنت قائم وأنت جالس وأنت مضطجع، قريبة: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

قريبة تأخذها بسهولة، قال: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾.

قال: ثم أعاد لك مرة أخرى عن السبب الذي جعل هذا الشخص يصل إلى هذه الدرجة العالية والجنات العالية، قال: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

في الجنة، تأكلونه أكلاً هنيئاً طيباً سائغاً جميلاً، قال: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾؛ بما أتبعتم أنفسكم في الدنيا وصبرتم على الأعمال الصالحة، قدمتم ما قدمتم. كل ما تستطيع من

أعمال، كل ما تستطيع من عمل صالح لا تحتقره، لا تحتقر شيئاً من الأعمال الصالحة ولو بأي شيء لا يلتفت إليه. اشغل نفسك بالتسبيح والذكر والتهليل والطاعة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والإحسان، الإحسان إلى الخلق؛ الإحسان بالكلام الطيب، الكلمة الطيبة، الإحسان بالاعمال بالصدقات بغيرها، وأحسن عملك مع ربك؛ مع ربك أحسن عملك وقوِّي علاقتك بربك: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ وقدمتم ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ في الأيام التي مضت في الدنيا.

هذه حال أهل السعادة الذين يفوزون بكرامة الله.

ولو سمعت حال أهل الشقاوة لقلت: ليتني لم أسمع أحدهم ولا أريد أن أكون معه، نسأل الله العفو والعافية.

يقول: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

من وراء ظهره، يتمنى أنه لم يؤتي كتابه من الفضيحة والخزي يوم القيامة أمام الناس وأمام أهاليه وأقاربه؛ يُؤتى كتابه وبين زوجاته وبين أبويه وبين أبنائه يؤتى كتابه بشماله؛ لأنه فرط في الدنيا ولم يعرف قدر الله ولم يستعد لهذا اليوم فندم أشد الندامة، ولا تنفع الندامة: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٦].

يقول: ما كنت أدري الحساب، كنت غافلاً عنه، مشغول بهذه الدنيا، لاهي في هذه الدنيا، لم يعمل لله طرفة عين وإنما مشغول بأمور الدنيا: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ لم يستعد.

ثم يقول: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧].

يقول: يا ليت الموتة التي متها موتة قاضية، لا أُبعث بعدها أنتهي خلاص أموت! ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾.

قال تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨].

يقول: المال ما أغنى عني المال الذي كان يجمع في الدنيا من الحلال والحرام، وأشغله في الليل والنهار لا ينام إلا وهو يفكر في ماله ويقوم ويفكر في ماله، هذا المال أشغله عن طاعة الله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾، ما نفع عني المال، أين المال يوم القيامة؟ يذهب ويتركه، ما فيه أحد يخرج من هذه الدنيا ومعه شيء من المال إلا ما قدمه، ما ينفع ماله: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ﴾.

قال تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٩].

أين القوات التي معه؟ أين الأشخاص الذين معه؟ أين المنازل والاماكن؟ أين المقام الذي كان يعيش في الدنيا؟ أين الجاه والمنصب؟ كلها ذهبت: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾.

فإذا بدأ يندم ويبين أسباب ندامته ما تنفعه، فيقال له: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠].

يقال لملائكة الزبانية، ملائكة النار: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾، يُؤخذ بقوة كما يؤخذ المجرم.

ثم يغل، كيف يغل؟ تؤخذ يديه وتربط في عنقه وتشد عليه، هذا معنى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ [غافر: ٧١].

والأغلال في أعناقهم والسلاسل في أقدامهم يسحبون.

قال: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣١].

يعني النار ادخلوه فيها، صلوه يعني اجعلوه يصلى نار جهنم، يُلقى في نار جهنم ويحترق فيها.

ولا ينتهي الأمر إلى هذا الحد، قال: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٢].

يؤتى بسلسلة، والسلسلة هي عبارة عن حلقات مرتبط بعضها ببعض، طولها سبعون ذراعاً، ذراعٌ من ذراعك ولا ذراع من...؟ قيل: ذراع الإنسان، وقيل: ذراع الملائكة، والله أعلم بذلك.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾، قال ابن عباس: تدخل مع دبره وتخرج مع منخريه أو مع فمه، فسلسلة من النار، وقيل إنها تسلسل به من رأسه إلى قدميه تلف عليه تسلسل به. قال: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ يسلك هو وتلف عليه السلسلة.

قال: ما السبب؟ لماذا؟ مثل ما ذكرنا في أهل السعادة سبب نجاتهم ما هو بعد رحمة الله، وهنا أيضاً هناك أسباب، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٣٣].

لا يصدق بكل ما يأتيه عن الله، جاءته الرسل وأنزلت عليه الكتب وأعطاه الله العقل والسمع والبصر وغفل عن ذلك كله؛ لا يؤمن ولا باليوم الآخر ولا بشيء، لا يؤمن بالله العظيم.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٤].

شوف أمران عظيمان: علاقته بربه: لا يؤمن بالله العظيم، وعلاقته بالناس: لا يحض على طعام، لا يتصدق لا يعرف الصدقة، إذا جئت له بالصدقة كما يقول الكفار: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧].

هؤلاء الله يرزقهم! يقول بعضهم: الله يرزقهم، تقول: عندك فقراء وعندك محتاجين وعندك أرامِل وعندك أيتام وعندك كذا، قال: الله الذي خلقهم يرزقهم! ويمنع نفسه من الصدقة.

شوف القرآن ما قال لا يتصدق، قال هو ما يتصدق ولا يفتح المجال لغيره، قال: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، يعني منع نفسه ويمنع غيره، ما يحض الناس يمنع الناس حتى أنه يأتي إلى الشخص يقول: هل أنت تثق في هذا؟ هل أنت تعرف هذا؟ هل هؤلاء فعلاً فقراء؟ ويبدأ يثير امامه ما يثبطه عن الصدقة. قال: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يعني منع نفسه ومنع غيره عن مساعدة إخوانه المحسنين التي أمر الله بها: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾.

في وقفة جميلة الحقيقة، وإن أطلنا عليكم، عن أبي الدرداء رضي الله عنه الصحابي الجليل؛ كان يأتي إلى امرأته أم الدرداء فيقول: (إِذَا طَبَخْتِ فَزِيدِي فِي مَرَقَةِ الطَّبْخِ، زِيدِي وَتَصَدَّقِي؛ فَإِنَّ السِّلْسِلَةَ قَطَعْنَا نِصْفَهَا بِالْإِيمَانِ، وَبَقِيَ نِصْفُهَا الثَّانِي نَقْطَعُهُ بِالصَّدَقَةِ). عرفت كيف؟ يقول: هذه سلسلة طولها سبعون ذراعاً نخاف منها، آمنا بالله ولله الحمد، وبقية ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، هل نحن طبقنا هذه وإلا نحن...؟ وعيد شديد هذا، هذا السبب الذي جعله في سلسلة؛ لا يؤمن ولا يتصدق. فيقول أبو الدرداء: آمنا فقطعنا نصف السلسلة وباقي النصف الآخر، فيقول: زيدي في مرقها حتى نتصدق.

قال الله عز وجل: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ [الحاقة: ٣٥].

يقول: ليس له في هذه النار، ليس له هناك صديق ينفعه، والحميم أشد الصديق لك، الخليل الصديق، يقول: ليس له أحد ينفعه. ما فيه، وأين أصدقاؤك في الدنيا الذين ينفعونك؟ تركوك: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾، ليس له أحد يشفع له ولا يدفع عنه العذاب ولا يتوسط له، تركوه.

والأمر الآخر قال: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦].

شوف لما كان في الدنيا يمنع الصدقة ويحبس نفسه ولا يحض الناس على الصدقة، عاقبه الله أن يعطى من هذا الشيء، قال: وليس له طعام يهنأ به إلا طعام من غسلين. ما هو؟ ما معنى غسلين؟ قيل: الغسلين

هو عصارة أهل النار من الصديد والدماء ونحوه تجمع له فيسقى، وقيل: هو نوع من شجر النار مثل الضريع ونحوه، والله أعلم بذلك، ولكنه سيئ جداً.

قال: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [الحاقة: ٣٦-٣٧].

لا يكون طعاماً إلا لهؤلاء الذين هم تسببوا فتعمدوا الوقوع في مثل هذه الأمور، ومثل ما ذكرنا في لقائنا الماضي: الخاطئ المتعمد غير المخطئ؛ الخاطئ المتعمد، قال: ﴿لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ الذين تعمدوا الإساءة على أنفسهم والإعراض عن طاعة الله.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله، وفي لقائنا القادم نستكمل ما تبقى من هذه السورة الجليلة العظيمة، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحاقة ٣٨- آخر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله جميعاً في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للثامن عشر من شهر رجب من عام ١٤٤٥ للهجرة. درسنا أيها الإخوة في تفسير القرآن وفي تدبرات وتأملات القرآن الكريم. وحديثنا لا يزال في هذه السورة العظيمة الجليلة وهي سورة (الحاقة)، التي حديثها عن اليوم الآخر.

وذكرنا في لقاءات مادية بعدما تحدثنا عن هذه السورة وأخذنا شيئاً من هذه الآيات أن السورة تحدثت عن مصير الذين كذبوا وكفروا واعترضوا ولم يقبلوا قضية البعث والجزاء والحساب والجنة والنار وخروج الناس من قبورهم ومجازاتهم على أعمالهم، فلما أنكر من أنكر من هذه الأقوام تحدث الله عن هذه الأقوام ومصيرها في الدنيا قبل الآخرة:﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤].

فتحدث سبحانه وتعالى عن من كذب بهذا اليوم؛ ماذا كان جزاؤهم وماذا كان مصيرهم؟ ثم ساق سبحانه وتعالى لنا بعد ذلك عرضاً بيِّناً واضحاً في مصير الناس يوم القيامة وأنهم على فريقين: أخذ كتابه بيمينه وهو فائز، ويقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]، وأخذ كتابه بشماله ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥].

لما بين سبحانه وتعالى هذا العرض العظيم، وكأنك أنت حاضر في هذا الموقف وتشهد الناس أمامك يتطايرون وتتطاير الصحف أمامك، وأنت تنظر متى تأتي صحيفتك؛ هل تأتي بيمينك أو تأتي من وراء ظهرك بشمالك؟ كل يترقب هذا الموقف العظيم. هذا موقف لا يشك فيه أي إنسان مؤمن عاقل عنده الإيمان وعنده أصول الإيمان أن يشك في هذا اليوم العظيم.

ولذلك الله سبحانه وتعالى قال في آخر السورة في المقطع الثالث؛ تحدثنا أن السورة إذا تأملتها وجدتها على ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول:** بيان مصير من كفر وكذب بهذا اليوم.
- **القسم الثاني:** مشهد من مشاهد هذا اليوم العظيم كأنك تشاهده.
- **القسم الثالث:** بيان أن هذا الكلام الذي يأتيكم لا يشك فيه مسلم عاقل ولا يكون في مرية ولا في شك منه، بل يكون على يقين بهذا اليوم، بل يكون على استعداد وكأنه سيرحل هذه الساعة وهذا اليوم.

ولذلك يؤكد الله سبحانه وتعالى هذا اليوم، ويؤكد أن هذا الكلام الذي يأتيكم هو من الله سبحانه وتعالى، وهو كلام الله الذي لا أصدق منه حديثاً ولا قيلاً.

ولذلك لما حكى لنا موقف وعرض هذا اليوم قال بعدها:﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

يعني ما الذي جعل الله سبحانه وتعالى أن يقسم بهذا الأمر، يقسم بهذا القسم العظيم؟ ولاحظ أنه قال: (فَلَا)؛ فجاء بالفاء التي تدل على تفريع، يعني كان هذا القسم مترتباً على الحديث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة، ثم يأتي يقول لك: هذا المشهد أُقسم بأنه حق، أُقسم بأن هذا اليوم يومٌ عظيم حق لابد أن يقع، فأتى بالقسم العظيم فقال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩]. وهذا قسم، ودخول (اللام) عليه لا تعني أنه ليس بقسم، هذه تأتي للتأكيد؛ تأكيد القسم، مثل ما تقول أنت: لا والله، بلى والله، أو نحو ذلك تقدم بشيء على القسم.

وهذه الآية مثل قوله تعالى:﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]،

وقوله:﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١].

هذا كله تأكيد للقسم وليس معناه النفي؛ يعني كأن الله سبحانه وتعالى يقول: لا يحتاج الأمر إلى أن أُقسم، ولكنني أُقسم! يعني (اللام) هذه كأنها متعلقة بشيء يُقدَّر: لا يحتاج، الأمر واضح لا شك فيه، ولا أحد يحتاج إلى أن أُؤكد لك هذا الأمر، ولكنني أُقسم!

يُقسم بأي شيء؟ يُقسم بما تبصرون وما لا تبصرون؛ يعني يُقسم بكل شيء، كل شيء؛ ما تبصره أنت من السماوات، من الأرض، من النجوم، من الجبال، من الشجر، الشمس، والقمر، الخلق الذي أنت تشاهده كله، يقول: أُقسم بما تبصرونه أنتم أنا أُقسم به، وأُقسم بما لا تبصرون مما هو غائب عنكم. فكأنه يُقسم حتى بنفسه، وحتى يُقسم بالملائكة التي لا نراها، وبالجن، وبكل شيء يغيب عنك يُقسم الله. يعني ما ترك شيئاً إلا وأقسم به.

يعني لما يقول لك مثلاً: أُقسم برب البيت، خلاص هذا بيت رب البيت الكعبة، لما أقسم يقول: أُقسم بكذا، شيء معين، أُقسم بيوم القيامة هذا يوم القيامة، لكن لما يقول لك: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ ما ترك شيئاً.

ولذلك أقسم على أي شيء؟ قال: أقسم على أن هذا الكلام الذي تسمعونه في هذه السورة وهذا القرآن العظيم كله:﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠].

وهو محمد صلى الله عليه وسلم، يقول: هذا الذي تسمعونه من محمد هو كلام يبلغه لكم. ولاحظ لما يقول... يعني قد يأتيك شك يقول لك: طيب كيف الله سبحانه وتعالى يقول قول رسول وهو كلام الله؟ نقول: هو ما قال قول محمد، هو قال: إنه قول رسول؛ إذاً كلمة (رسول) تدل على أنه مُرسَل، وأن الذي أرسله هو الله سبحانه وتعالى، والذي كلفه بأن يبلغ ويلقيه عليهم ويتلوه عليهم هو محمد، يعني كأنه يقول: هذا الكلام الذي تسمعونه هو ما يتلوه عليكم محمد صلى الله عليه وسلم وتسمعونه.

ولذلك في هذه السورة: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠] هو محمد صلى الله عليه وسلم. وفي سورة التكوير يقول:﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢٠]،

هذا جبريل عليه السلام. وهو كلام الله، هو في الأصل كلام الله؛ يلقيه على جبريل، جبريل يتكلم به، جبريل يلقيه على محمد، محمد يتكلم به، فهذا معناه.

ولذلك حتى تفهم أن هذا الكلام الموجه للرسول، ووصف الله رسوله محمداً بأي شيء؟ قال: ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾؛ يعني ذو منزلة عظيمة، وذو فضل، وذو كرامة، وهو كريم عند الله من المكرمين عند الله، فهو قول رسول كريم، وهذا ثناء من الله يدل على أنه موحى إليه، وأنه رسول يبلغ رسالة ربه.

ولذلك قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤١].

هذا الذي تسمعونه ما هو بقول شاعر، لا تتهمون محمداً بأنه شاعر؛ محمد لا يتكلم بالشعر ولا يعرف الشعر: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩].

ما هو بقول شاعر، قليلاً ما تؤمنون، يقول: لو كان شاعراً صدقتم، لكن لا تؤمنون، قليلاً ما تؤمنون؛ لأنه ليس بشعر؛ لأن القرآن الكريم في آياته وفي فواصله وفي خواتيمه يأتي على نسق واحد فيظن الظان أنه شعر؛ لأن الشعر له قوافٍ، فيظن الظان أنه شعر لأنك أنت لما تقرأ مثلاً:

﴿وَٱلطُّورِ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ١-٣]،

تجده على وتيرة واحدة، هذا نسميه فواصل القرآن، تأتي على طريقة العرب في كلامهم، ولذلك قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، لا تظنوا أن هذا شعر، هذا ليس بشعر، لا يلتبس عليكم الأمر ليس بشعر، ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾.

قال:﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤٢].

لأن الكهنة يأتون بكلمات على طريقة الأسجاع، يسجع في كلامه، يعني يرتب كلامه على حروف وعلى كلمات يسجع فيها، وهذا يُسمى السجع. فالكاهن الذي يدعي الغيب ويتحدث عن أمور غيبية وهو كاذب في كلامه يأتي بهذه الكلمات الموزونة، فيظن الظان أن هذا القرآن شيء من كلام الكهان، فقال: ليس بكاهن، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ يقول: لو كان كاهناً، لأن الكاهن قد يسلب الناس بكلامه ويؤثر عليهم، فقال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه كلام كاهن، ليس بكلام كاهن؛ لا شاعر ولا كاهن.

إذاً ما هو؟ إذاً هو كلام الله، ولذلك قال:

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣].

لا شعر ولا كهانة، بل هو منزل من عند الله، بل هو الذي تكلم به الله سبحانه وتعالى وأنزله، وسمعه جبريل، ونزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين؛ ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. وشوف لما قال لك: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فكان هذا كلام رب العالمين الذي سيكون بالغة دعوته إلى أقصى الأرض، تنزيل من رب العالمين.

ثم أراد سبحانه وتعالى أن يؤكد حقيقة القرآن وعظمة القرآن وأنه من عند الله، وأنه لا يمكن لأحد أن يفتري أو أن يأتي بشيء ويقول هذا قرآن، لا يمكن! حتى محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو أمين

الوحي في الأرض؛ وجبريل أمين الوحي في السماء ومحمد أمين الوحي في الأرض، حتى محمد لا يفتري ولا تتهمونه بأنه يفتري وأنه يأتي بهذا الكلام وهو أساطير الأولين وكلام يفتري، لا؛ محمد لا يفتري ولا حرفاً واحداً!

ولذلك جاء بصيغة التخويف والتهديد لو فرضنا أنه افترى على الله كذباً، ولذلك قال ولو على سبيل الفرض، (لَوْ) وهذه أبعد ما تكون، ولكن لو افترى محمد وأتى بكلام من عنده وقال هذا من عند الله وهو ليس من عند الله:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٥].

لو تقول علينا بعض الأقاويل، والأقاويل جمع الجمع: قول ثم أقوال ثم أقاويل، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾. وتعرف أنت المجرم لما يؤخذ بيمينه بقوة ويسحب بيمينه بقوة يكون هذا إذلال وإهانة له، وهذا يدل على قوة الأخذ. وقال بعض المفسرين: أخذنا منه باليمين أي بقوة، بشدة، أخذنا بيمينه بشدة. وقيل: اليمين عبارة عن القوة، كما فعل إبراهيم لما كسر الأصنام باليمين، أخذها باليمين وكسرها باليمين يعني بقوة. فكلمة (اليمين) تستعمل ويراد بها اليمين التي هي ضد الشمال، وتستعمل ويراد بها القوة؛ اليمين بمعنى القوة، فقال: أخذنا منه باليمين أي بقوة.

قال:﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٦].

يعني أهلكناه. وقطع الوتين: الوتين هو عرق قيل إنه عرق متصل بالقلب، فإذا قُطع مات صاحبه، هذا هو الوتين. قال: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

لا يمكن منكم أحد أن ينصره أو يمنع ما يريده الله لو افترى على الله، ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾. كل هذا دليل على أن القرآن من عند الله، وأن الله حافظ كلامه، حتى محمد الذي هو أقرب الناس لهذا القرآن لا يفتري على الله، ولذلك قال: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾.

ثم بين عظمة هذا القرآن فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

وليس تذكرة لجميع الخلق ولا للكفار، وإنما لأهل التقوى الذين حافظوا على تقوى الله سبحانه وتعالى وعلى أوامره ونواهيه ولزموا تقواه، هم الذين ينتفعون بالقرآن ويتذكرون به وينتفعون به، وهم أقرب الناس إلى الانتفاع بهذا القرآن العظيم ويتذكرون به: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ثم قال سبحانه وتعالى:﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: ٤٩].

أنتم الذين تفترون على الله وأنتم الذين تكذبون بالقرآن، والله يعلم من المكذب بهذا القرآن، فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الحاقة: ٥٠].

وإنه؛ أي القرآن، لحسرة على الكافرين؛ حسرة يعني شدة ندامة، أنهم سيندمون أشد الندامة في الدنيا وفي الآخرة، كل من أعرَض عن القرآن وكفَر به ولم يقبله ولم يعرف عظمة هذا القرآن فسيكون حسرة. ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم ماذا يقول؟ يقول: «الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»؛ فهو على من أعرَض عنه وهجَرَه حسرةٌ عليه وحجةٌ عليه: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. كل هذا تعظيم للقرآن.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٥١].

وعندنا (علم اليقين)، و (عين اليقين)، و (حق اليقين)، أعلاها حق اليقين. علم اليقين: أن تعلم علماً يقينياً، وعين اليقين: أن ترى؛ لأنك إذا أتاك خبر تسمعه خبر يقين تصبح أنت على علم يقين، فإذا رأيت – مثل ما قال إبراهيم قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فأراد أن يصل إلى درجة اليقين بعينه يرى– وقال عين اليقين، ثم قال حق اليقين؛ فحق اليقين هو أعلى درجات أن تعرف أن القرآن حق ويقين من عند الله سبحانه وتعالى فلا تشك فيه: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾.

كل هذا تعظيم للقرآن، وكل هذا يدل على تعظيم هذه السورة التي تُليت علينا وقُرئت علينا ومررنا على آياتها وتدبرنا هذه الآيات. كل هذا يؤكد على عظمة هذا القرآن، وأنه من عند الله، وأنه تنزيل من رب العالمين، وأنه لحق اليقين، وأنه لحسرة على الكافرين، وأنه لتذكرة للمتقين. كل هذا تعظيم ورفع وإجلال للقرآن الكريم.

ولذلك ختم الله السورة بأي شيء؟ قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ٥٢].

سبّح الله عز وجل وعظّمه بأسمائه الحسنى، ونزّهه عن كل صفة عيب. ولذلك حتى نعرف عظمة القرآن ونعرف أن الذي أنزل القرآن هو الله؛ هدى ورحمة من عنده سبحانه وتعالى، ينبغي أن ننزه الله عن كل صفة لا تليق، وأن نعظمه حق التعظيم، قال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

ومن تعظيمك للقرآن وتعظيمك لله أن تشكر نعمة الله على أن أنزل الله سبحانه وتعالى هذا القرآن علينا، وأن جعلنا من أهل القرآن، وأن وفقك لقراءة القرآن والحرص وقضاء وقتك كله مع القرآن، كل هذا من أجل نعم الله؛ أن يوفقك، والقرآن حجة لك ولا يكون عليك، لا يكون عليك، يكون حجة لك إذا عرفت قيمة هذا القرآن العظيم: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

وبهذا ننتهي من هذه السورة إن شاء الله، ونحمد الله على أن وفقنا لقراءتها وتلاوتها وتدبرها، وإن شاء الله في اللقاء القادم ننتقل إلى سورة تليها. نسأل الله التوفيق والسداد، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ المَعَارِجِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(المعارج ١- ١٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للخامس والعشرين من شهر رجب من عام ١٤٤٥ للهجرة. مجلسنا المبارك أيها الإخوة الكرام من مجالس القرآن الكريم وحلقة من حلقات القرآن الكريم؛ نجلس في هذا المكان المبارك نتناول شيئاً من آيات القرآن الكريم قراءة وتفسيراً وبياناً وإيضاحاً.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (المعارج)، وتسمى بسورة (سأل سائل)، وأحياناً تسمى في كتب التفسير بسورة (الواقع)؛ لقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، فالمشهور من أسمائها أنها تسمى بسورة (المعارج)؛ لقوله تعالى: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٣]، أو بـ(سأل سائل) لافتتاحها بهذا اللفظ.

هذه السورة عندما نقرؤها أيها الإخوة ونتأملها، وهي من السور المكية التي نزلت بمكة وتخاطب أُناساً معاندين كافرين مشركين لا يقبلون الحق ولا يريدونه، تأتي بقوة وبصلابة في مخاطبتهم، وتتحدث عن قضية من قضايا العقيدة الصحيحة، قضية تقرير اليوم الآخر.

عندنا أيها الإخوة في سورة (الحاقة) -وسورة الحاقة مرت معنا وتقرر فيها الإيمان باليوم الآخر وعرض شيء من مواقف يوم القيامة وهي تطاير الصحف، أخذ كتابه بيمينه ويقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]، وأخذ كتابه بشماله ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٧]- لما يسمعها هذا المشرك الكافر المعاند، يسمعها على وجه الاستهزاء والسخرية والاستبعاد، حتى وصل بهم هؤلاء المشركون في قسوة قلوبهم إلى أنهم يتحدون النبي صلى الله عليه وسلم، يقولون: يا محمد، إن كان هذا الذي تذكره أنت من البعث، أن الله يبعثنا من قبورنا، وأن هناك جنة وأن هناك نار، إن كان هذا الذي تقوله هو الحق فأتِنا بالعذاب! أين العذاب الذي تتحدانا؟

يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

فأتِنا بالعذاب، حتى يقول الواحد منهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

من شدة العداوة ومن شدة قسوة القلوب يتحدون، حتى وصل بهم أنهم يدعون على أنفسهم بالهلاك. ولذلك تقرأ هذه السورة في افتتاحيتها يدعو الواحد منهم على نفسه بالهلاك: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾ [المعارج: ١]؛ بمعنى دعا داعٍ، ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾؛ دعا الداعي منهم على نفسه بالعذاب الواقع، وجاءه العذاب.

وقيل إن هذه الآية أو بدايات السورة نزلت في رأس من رؤوس الشرك وهو النضر بن الحارث. النضر بن الحارث كان من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم وأشد الناس عداوة لهذا الدين، حتى قال هو هذه العبارة. يقول الله عز وجل عنه: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾؛ دعا داعٍ على نفسه بالعذاب، وجاءه العذاب. وكان هو من أسرى بدر ممن أُسر في غزوة بدر، والنبي صلى الله عليه وسلم لما أُسر هؤلاء الأسرى بعضهم أخذ الفداء منه وتركه -وهو الكثير منهم- وبعضهم لم يتركه وإنما قتله صبراً حبساً، ومنهم النضر بن الحارث قُتل يوم بدر؛ أُسر ثم قُتل. ومنهم عقبة بن أبي معيط الذي بصق بوجه النبي صلى الله عليه وسلم، وقال النبي فيه: «وَاللهِ لَئِنْ خَلَوْتُ بِكَ لأَقْتُلَنَّكَ»، فلما جاء يوم بدر ورأى عقبة قال: «أَمَّا هَذَا فَاقْتُلُوهُ». ولما نظر إلى النضر بن الحارث الذي كان يستهزئ ويسب ويسخر ويعادي النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: «وَأَمَّا هَذَا فَاقْتُلُوهُ»، فكان ممن قُتل يوم بدر هذا الرجل.

أو هذه الآية التي بين أيدينا يقول الله فيها سبحانه وتعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]؛ دعا داعٍ على نفسه بالعذاب وجاءه العذاب، ومات على الشرك والكفر.

هذه السورة في بدايتها تتحدث عن موقف هؤلاء المشركين المعاندين ونهاية مصيرهم إلى نار جهنم، ثم تعرض لنا صورة للمتقين الذين ينتظرون دار الكرامة عند الله، وما هي صفاتهم؟ ما هي صفات المتقين الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم:

﴿أُولَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

تذكر السورة شيئاً من المتقين وصفاتهم، ثم تختم السورة بموقف من مواقف الكفار أيضاً يوم القيامة؛ لما يرون الجنة ويرون بعثهم واليوم الآخر والنار والجنة، يتمنون هناك الأماني التي لا تنفعهم.

نأخذ الجزء الأول من هذه السورة؛ كما ذكرنا تستطيع أن تقول إنها تتحدث عن ثلاث قضايا مهمة: نأخذ القضية الأولى المهمة؛ وهو موقف المشركين واستهزاؤهم وسخريتهم وعاقبة أمرهم.

يقول الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١].

دعا داعٍ علي نفسه بالعذاب الواقع. ولاحظ أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ولم يقل بعذاب سيقع أو وقع أو نحو ذلك؛ لا، أتى باسم الفاعل: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، اسمٌ بمعنى أنه تحقق الوقوع لا يُشك في وقوعه أنه واقعٌ فيه ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. ولذلك أكد هذا الوقوع بأي شيء؟ بالجملة التي تليها لما قال:

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ٢].

يعني هذا العذاب الذي سيقع على الكافرين ليس له دافع، لا يمكن أن يُدفع، لا يمكن أن يأتي شخص يدفع هذا العذاب عنه؛ لأنه قد وقع فيه وتحقق فيه.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٣].

هذا العذاب من أين يأتي؟ من أين يصيب هذا الشخص العذاب؟ قال: هذا عذاب من الله: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ عذاب واقع ليس له دافع لا يمكن لأحد أن يدفعه، وهذا العذاب من الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسله على هذا الشخص، عذاب من الله.

والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بأي شيء؟ بأنه ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾. و (المَعْرَج) مثل مَصْعَد ومَصَاعِد، والمعارج هي الطرق التي تصعد إلى السماء والدرجات؛ معارج الملائكة مثل قوله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَاتِ﴾ [غافر: ١٥].

سبحانه وتعالى، فالملائكة تعرج من الأرض إلى السماوات حتى تصل إلى العرش وتنزل؛ تعرج وتنزل في كل لحظة وفي كل وقت، وفي كل وقت تعرج يعني لها أعمال ووظائف تعمل بها. ولذلك المعارج هذه تفسرها الآية التي تليها مباشرة.

قال:﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].

إلى الله، الله رفيع الدرجات ذو العرش مستوٍي على عرشه بائن من خلقه فوق سبع سماوات، فتعرج الملائكة إليه. قال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾، من هو الروح؟ الملائكة معروفون؛ الملائكة خلق من خلق الله خلقهم من نور لعبادته وكلفهم بأعمال ووظائف، هؤلاء هم الملائكة. والروح هو جبريل عليه السلام خصه الله لمزيته ولمكانته. قال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾؛ فالروح هو جبريل عليه السلام يخصه الله بذكرٍ خاص؛ من باب عطف الخاص على العام يخصه بالذكر لمكانته ومنزلته.

قال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

هذا اليوم متى؟ اختلف أهل التفسير: هل هو يوم من أيام الدنيا، أو اليوم الآخر؟ فمن قال إنه يوم من أيام الدنيا فقال: إن السماوات السبع ما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة سنة، وما بين الأرض إلى السماء مسيرة خمسمائة سنة، وما بين كل أرض وأرض خمسمائة سنة إلى أن يصل إلى العرش، هذا ما يقرب من خمسين ألف سنة في عد الإنسان. وأما في صعود الملك فهو في لحظة يقطع هذه المسافة كلها في لحظة، ولكن في عد الإنسان أو عد البشر: تعرج الملائكة إلى السماء، تعرج إلى الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

وقيل: هذا اليوم هو اليوم الآخر، هو اليوم الآخر كما جاء في بعض الأحاديث؛ جاء في بعض الأحاديث أن الله يحشر الخلق ثم يُؤتى بصاحب الزكاة الذي لا يؤدي زكاته فتؤخذ زكاته أو يُؤخذ ذهبه إذا كان له؛ صاحب ذهب وفضة، وتُصفح له صفائح من نار ثم يُكوى بها جبينه وجنبه وظهره، قال: «فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ». فهذا اليوم، اليوم الآخر مقداره خمسون ألف سنة على الكافرين غير يسير، وأما على المؤمنين فإنه يسير؛ حتى ذكر بعض أهل العلم أن مقدار وقوف المؤمنين في عرصات يوم القيامة بمقدار أداء صلاة فريضة، مقدار وقت صلاة فريضة. فهذا اليوم يوم عصيب على الكافر، عسير وعصيب على الكافرين. قال: ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥].

يقول: اصبر على ما يقولون ويتحدون ويستهزئون ويسخرون ويدعون على أنفسهم، اصبر صبراً جميلاً. والصبر الجميل ما هو؟ قال: الذي لا جزع فيه ولا تسخط ولا اعتراض. يقال: هذا يصبر صبراً جميلاً إذا كان صبره من غير تسخط ولا اعتراض ولا رد لهذا الشيء: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦-٧].

وهذا يدل على أي شيء؟ يدل على أن هذا اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة، أقرب ما يكون هو يوم القيامة؛ لأن الله قال بعدها: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ﴾؛ أي هذا اليوم، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا﴾ يعني يتوقعون بعده بل وصل الأمر إلى جحوده وإنكاره، ومنهم من يقول هو بعيد البعث بعيد الوقوع لا يمكن، ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾. كيف يراه؟ يراه الله عز وجل ويراه المؤمن قريباً؛ لأن من مات قامت قيامته وانتهى ورحل إلى الآخرة، فهو قريب؛ في لحظة يذهب الإنسان ويترك هذه الدنيا فهو قريب.

ثم وصف الله سبحانه وتعالى هذا اليوم العظيم بصفات عظيمة، قال:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨].

تذوب السماء وقوتها وصلابتها وارتفاعها واتساعها، من شدة هذا اليوم وشدة هذا الهول تصبح السماء كالمهل؛ كالزيت المذاب كعكر الزيت، وتموج هذه السماء وتضطرب وتذوب كما يذوب الشحم من شدة هذا اليوم العظيم، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

تذوب من شدة هذا اليوم. إذا كانت السماء أيها الإخوة جامدة، والأرض جامدة، والجبال أشد جموداً يحصل لها ما يحصل من هذه الأهوال العظيمة؛ فكيف بهذا الإنسان؟ كيف سيواجه هذا اليوم العظيم؟ يقول: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾.

قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩].

الجبال الصم الشامخات الصلبة تذوب وتصبح كالعهن حتى تكون سراباً وحتى تُنسف نسفاً؛ تكون كالرماد أو تكون كالرمل تذوب وتذهب وتنتهي وتصبح كالصوف المنفوش الذي يتطاير مع الهواء، قال: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾.

في هذا اليوم: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠].

أي صديق، له صديق حميم، له شخص من أشد الناس علاقة به، إذا جاء يوم القيامة لا يسأل أحد لو كان لك علاقة؛ لأن أحياناً الأصدقاء تكون علاقة بعضهم ببعض أشد من علاقة الإخوة الأشقاء، أو أشد علاقة من الابن مع أبيه أو الأب مع ابنه، تجد الصديق مع صديقه علاقته قوية وبينهم من الصداقة الشديدة، ولذلك قال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ يراه ولا يسأله، لماذا؟ من شدة الهول.

قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ [المعارج: ١١].

لأنك لما تقول: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ يظن بعضهم أنه لا يسأل لأنه ما رآه، قال: لا، يراه أمامه ولكن مع ذلك لا يسأله لأنشغاله عنه؛ لأنشغاله عنه من شدة الهول: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يعني يبصر بعضهم بعضاً ويرى صديقه وحميمه الذي كان معه في الدنيا ولا يستطيع أن يسأله، لا يسأل هذا، هذا كلٌّ مشغول بنفسه لشدة الهول: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

طيب لما تسمع هذا الكلام الشديد العظيم وموقف هذه المواقف العصيبة الشديدة؛ ما موقف الكافر الجاحد لهذا اليوم مثل هذا النضر بن الحارث ونحوه من الذين يجحدون آيات الله ولا يقبلونها ويدعون على أنفسهم بالعذاب؟ ماذا سيكون موقفه؟ اسمع ماذا يكون موقفه!

يقول في هذا اليوم: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: ١١].

يود؛ يعني يتمنى هذا المجرم، وشوف وصفه بالمجرم لأنه صاحب جرائم؛ صاحب معاصٍ كبار وذنوب عظيمة. قال: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ يود أي شيء؟ قال: ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ يعني يخلص نفسه من عذاب يومئذ ببنيه، يقول: يتمنى لأن ما عنده مال، ما عنده مال حتى يدفع المال، ولو عنده مال ما قُبل منه ولو ملأ الأرض ذهباً ما قُبل منه، فهو يتمنى أن يقدم أبناءه وهم أحب الناس إليه. ولاحظ شوف بدأ بالأحب فالأحب والأغلى فالأغلى والأَنفَس فالأنفس، بدأ بأبنائه قال: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾؛ العذاب الذي يراه أمامه يفتدي ويخلص نفسه بأن يقدم أبناءه ويخلص ويخرج من هذا العذاب ببنيه.

ثم انتقل لما هو أقل من الأبناء فقال: ﴿وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج: ١٢].

زوجته، زوجته أحب الناس إليه بعد أبنائه، ومع ذلك يقدمها: ﴿بِبَنِيهِ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ حتى الأخ يقدمه.

ثم قال:﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـٔوِيهِ﴾[المعارج: ١٣].

يعني قبيلته وعشيرته التي يأوي إليها وتأويه وتقف معه وتساعده، إذا جاء يوم القيامة يريد أن يقدمها ما يُقبل منه.

قال تعالى: ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾[المعارج: ١٤].

حتى لو أتى بالكل، من في الأرض جميعا أن يقدمه فداء ما قُبل منه.

طيب السؤال هنا: لماذا لم يذكر أمه وأباه؟ ليش ما قال أمه وأباه؟ نعم؟ أحسنت، يقول: ما يمكن أن يقدم، يستحيل أن يقدم أمه وأباه؛ لأن هذا من العقوق الذي لا يرضى به الله ولا يرضى به أي عاقل؛ أنه يأتي يقدم أبناءه نعم، يقدم زوجته نعم، يقدم إخوانه نعم، لكن تقدم أمك وأباك عشان تخلص نفسك! هذا لا يمكن أن يُقبل أبداً، يستحيل.

طيب في هذه السورة قدم الأبناء ثم الزوجة ثم الأخوة، لما ننتقل إلى سورة (عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ):

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾[عبس: ٣٤-٣٦].

شوف الأبناء آخر شيء والصاحبة قبل الأبناء، في الأخيرة الزوجة والأبناء في الأخيرة، هنا لا، قدمهم في الأول، ليش؟ قال: هذا فدية؛ لأنه يريد أن يتخلص، وهناك يفر من هو الأبعد فالأبعد ثم يتدرج؛ فهو يفر من أخيه وأمه وأبيه، ثم يتدرج إلى أن يفر من زوجته، ثم آخر شيء يفر من أبنائه؛ لأنه لا يفر من أبنائه مباشرة؛ لأن الفرار غير الفدية، فالفدية يقدم أغلى ما يملك، ولذلك قدم أبناءه أولاً. فشوف كيف توازن الآيات في سورة المعارج وفي سورة عبس، لماذا؟ لأن هنا فدية ويقدم أشد ما يملك، وهناك فرار يفر أولاً بنفسه ثم يفر من إخوته ثم يفر من أمه وأبيه ويتدرج شيئاً فشيئاً.

طيب لما قال الله سبحانه وتعالى يود أن يفتدي بنفسه من هؤلاء، هل يُقبل منه؟ قال: ﴿كَلَّآ﴾[المعارج: ١٥].

﴿كَلَّآ﴾ كلمة ردع وزجر، لا يمكن ويستحيل وهيهات أن يُقبل منه هذا الشيء، ما يمكن أن يُقبل منه، أَيُقبل منه؟ لا يمكن أن يُقبل. لماذا؟ قال: أمامه نار جهنم لا يمكن أن يفر منها: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾[المعارج: ١٥].

اسم من أسماء النار سميت بذلك لكونها تتلظى بنار جهنم؛ يعني تشتعل وتستعر لأن سعيرها ولهبها وشعلتها شديدة، فسميت (لَظَى)، وهذا اسم من أسماء النار، النار لها أسماء كثيرة ذكرها الله في كتابه وهذه اسم من أسمائها؛ سُميت بالحطمة، وسُميت بنار الله الموقدة، وسُميت بأسماء.

قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ﴾.

ثم بين لك أيضاً من أحوالها قال:﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٦].

تنزع، يعني تنزع بقوة وتجذب الشيء بقوة. ما هي الشوى؟ قال الشوى جمع شَواة. ما هي الشواة؟ قال: هي جلدة الرأس. تنزع النار أول ما تبدأ بهذا الإنسان تنزع جلدة رأسه، وقيل أطرافه؛ أطراف اليدين والرجلين؛ لأن هذه الأطراف والرجلين واليدين وجلدة الرأس غالباً ما يموت الإنسان معها، لكنه يتحسر ويتعذب يتعذب. ولذلك قال: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، والشوى هو أخذ الشيء قليلاً مثل ما تقول أنت: أعطني شوية، شوية هذه هي معنى الشوى، فهو أخذ الشيء قليلاً الذي لا يتأثر منه صاحبه، فقوله: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ هذه نار جهنم.

نقف عند هذا القدر إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستكمل بقية السورة. أسأل الله أن ينفعنا بما وقلنا وبما سمعنا، والله الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(المعارج ١٩- ٣٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو اليوم الثالث من شهر شعبان من عام ١٤٤٥ للهجرة. مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم؛ قراءة وتفسيراً وبياناً وإيضاحاً.

قبل أن نقتصر على درسنا المعتاد؛ وقفة مع هذا الشهر الكريم، وهو شهر شعبان؛ فإن كثيراً من الناس قد يغفل عن هذا الشهر وما فيه من فضائل. هذا الشهر الكريم، شهر شعبان، فيه فضائل وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن السلف أحاديث وآثار تدل على فضل هذا الشهر. منها حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا نبي الله، أراك تصوم هذا الشهر، أو تصوم أكثره؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «ذَاكَ شَهْرٌ يَغْفُلُ عَنْهُ النَّاسُ بَيْنَ رَجَبٍ وَرَمَضَانَ، وَهُوَ شَهْرٌ تُعْرَضُ فِيهِ الأَعْمَالُ إِلَى رَبِّ العَالَمِينَ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ».

وعرض الأعمال على الله لها أحوال؛ قد يكون عرض سنوي وهو العرض الذي يكون في شعبان، تعرض أعمال الإنسان كاملة، خيرها وشرها على الله سبحانه وتعالى، فيقبل منها ما يقبل ويرد منها ما يرد. وهناك عرض أسبوعي وهو عرض الأعمال يوم الاثنين والخميس؛ ولذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يصوم الاثنين والخميس، فلما سُئل عن ذلك قال: «هَذَانِ يَوْمَانِ تُعْرَضُ فِيهِمَا الأَعْمَالُ عَلَى اللهِ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ». وهناك عرض يومي وهو أن عمل الإنسان بالنهار يُعرض قبل الليل، وعمل الإنسان بالليل يُعرض قبل النهار، فهذا عرض الأعمال على الله سبحانه وتعالى.

ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: أحب أن يُعرض عملي وأنا في عبادة، ومن أجل العبادات الصيام، فيستحب صيام شعبان. وأكد أهل العلم على أن أكثر الشهر إذا صامه الإنسان فهذا هو السنة، أن تصوم أكثر الشهر إلا يوماً أو يومين أو ثلاثة، هذا أمر.

الأمر الثاني: استحب أهل العلم، أو السلف كانوا يسمون هذا الشهر (شهر القراء)، فكانوا يكثرون من قراءة القرآن وتلاوته استعداداً لرمضان. وورد عنهم أيضاً أنهم كانوا يحرصون على أداء الزكاة والصدقات في هذا الشهر، في شهر رجب أو في شهر شعبان، وكانوا يقولون: أغنوا هؤلاء الفقراء والمساكين عن السؤال في رمضان حتى يشتغلوا بالعبادات. حتى ورد عن بعض السلف أن أحدهم كان يغلق حانوته -أي دكانه- إذا دخل شعبان حتى يشتغل بالطاعات استعداداً لاستقبال رمضان.

وذكر بعضهم قال: ما الحكمة أن النبي صلى الله عليه وسلم يصوم شعبان؟ قالوا: هذا الصيام كأنه راتبة مقدمة لراتبة الفريضة التي تكون قبل المقدمة؛ يعني عندنا فرائض الصلوات مثلاً: الظهر له راتبة قبلية وراتبة بعدية، فقالوا: رمضان له راتبة قبلية في الصيام وهو صيام شعبان، وراتبة بعدية وهو صيام الست من شوال، فيكون الإنسان في رمضان ما بين صيام سابق وصيام لاحق. والنفس ضعيفة تحتاج إلى ترويض وتحتاج إلى تنشيط وتحتاج إلى همة عالية ودفع قوي، وإلا تضعف ويمر الشهر مرور الكرام على كثير من الناس؛ لا الذي صام فيه أو صام بعض أيامه، ولا الذي استعد له بقراءة القرآن وتلاوته وتحسين تلاوته.

والله إنك لتعجب أن تجد بعض من يقرأ عندك ممن هم متعلمون وقد يكون بعضهم خريج جامعات شرعية والله ما يعرف يقرأ سطر واحد من كتاب الله! كيف هذا يقرأ القرآن؟ كيف يفهم الآيات القرآنية فضلاً عن أن يتدبر القرآن الكريم إذا كان لا يحسن تلاوة القرآن الكريم؟ ففرصة للإنسان أن يدفع نفسه قليلاً ويلتحق بالحلقات، الآن الحمد لله توفرت الحلقات، يستطيع أن يلتحق بحلقات عن بُعد ويقرأ ويحسن تلاوته، لا أن يبقى على ما هو عليه من الضعف وعدم الاهتمام بالقرآن الكريم.

لا نطيل أيها الإخوة، نبدأ بما يتعلق بدرسنا؛ تفسير القرآن العظيم. السورة التي تحدثنا عنها في لقائنا الماضي هي سورة (سأل سائل) أو سورة (المعارج)، وبينا شيئاً من آياتها. ووقف بنا الكلام عند قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩].

فما معنى كلمة ﴿هَلُوعًا﴾، وما علاقتها بقبلها وبما بعدها؟ لأن القرآن أنت لما تقرؤه تقرؤه بتدبر وتأمل حتى تستفيد؛ تنظر إلى الآيات وتنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها فيتضح لك المعنى. لو سألنا أي إنسان قلنا له: ما معنى ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾؟ يمكن يجلس يفكر فيها، وهو موجود الجواب؛ ما معنى ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾؟ الجواب كما قال ابن عباس رضي الله عنه لما سُئل عن قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، ما معناه؟ قال:﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾[المعارج: ٢٠-٢١].

هذا الهلوع؛ من الهلع وهو الجزع وعدم الاستقرار وعدم ارتياح النفس، فإذا مسه الشر -المصائب والآلام والأقدار والفقر والجوع ونحو ذلك- يجزع؛ إذا مسه جزوع يجزع، ما يصبر ما عنده صبر أبداً ولا رضا. تجد بعضهم يفوته كثير من الناس؛ إذا حصل له مصيبة في نفسه أو في ماله أو في ولده أو في زوجه ينبغي له أن يقول: الحمد لله، ويرضى بما كتب الله، ويبين نفسه بالرضا والصبر في مثل هذا الأمر. أما هذا فإذا مسه الشر يجزع ويتسخط ويعترض ولماذا ولا يقبل ذلك. وإذا مسه الخير منوعاً؛ إذا حصل له خير - مال، أو رتبة، أو بدلات، أو ربح في تجارة، ونحو ذلك- مسك ماله بقوة وفرح به، وإذا مسه الخير منوعاً؛ إذا أعطاه الله الصحة والغنى والخير والأولاد يمنع نفسه، يمنع نفسه عن أي شيء؟ عن أن ينفع غيره، أن يساعد غيره، أن يقف مع غيره.

ولذلك الآن سيتضح لك: الله سبحانه وتعالى لما ذكر في الآيات التي قبلها عاقبة المجرمين المكذبين، بين حال الناس في طبيعتهم، وهذا الكلام ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ليس مقصوداً به الكافر ولا المؤمن، هو للجميع، يعني الله خلق هذا الإنسان خلقه هلوعاً في طبيعة خلقه، وعجولاً، و﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، وهكذا، هذه عامة. لكن المؤمن عنده دواعي قوية تجعله ينتقل من هذه الصفة إلى صفات أخرى، والكافر يبقى على هذه الصفة ويزيد عليها. ولذلك في هذا الميزان وهذه الآية التي جاءت بين ما سبق؛ وهو المجرمين: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: ١١]، ثم تأتي بعدها صفات المؤمنين، تجد أن هذا الإنسان مراد به جنس الإنسان؛ فدواعي الخير عنده ودواعي الشر عنده، فالكافر والعاصي والمعرض دواعي الشر عنده قوية فيتأثر بمثل هذا، وأما المؤمن فإن دواعي الخير عنده قوية فينزع نفسه من هذه الصفة إلى أن يتصف بصفات تبعده عن هذه الصفة؛ لا جزوعاً عند المصائب ولا منوعاً في الخير والرخاء.

ولذلك شوف ماذا قال الله سبحانه وتعالى حتى تعرف أن هذا الإنسان هو جنس الإنسان؛ لأنه قال:

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢].

قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، فدل على أن المصلي هو الذي أبعد نفسه عن هذه الصفة؛ فصلاته وأداؤه هذه الفريضة ومحافظته عليها واستمراره وبقاؤه عليها جعلته لا يتسخط عند المصائب وعندما يقع عليه ما يقع من الأقدار، وإنما يحمد الله سبحانه وتعالى ويرضى ويصبر، وكذلك عند العطاء والخير يفعل ذلك. ولذلك الصلاة هي من أقوى أسباب انضباط الإنسان أمام مثل هذه الأمور والأقدار التي تحصل له، فالصلاة هي عنوان الصبر، عنوان الصبر. فالمصلي الذي استثناه الله ووصفه بأنه من المصلين لا يحصل منه مثل هذه الأمور؛ لا يجزع ولا يتسخط، وإذا أنعم الله عليه بالخير لا ينسى إخوانه المحتاجين.

ولذلك قال هنا: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾، ثم بين ما حالهم مع الصلاة فقال:

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

ومعنى ﴿دَائِمُونَ﴾ أي مستمرون على الصلاة لا ينقطعون. تجد بعض الناس يصلي في المناسبات؛ إن جاء رمضان صلى، وإن جاء الحج صلى، وإن كان مستيقظاً أو عنده مناسبة ممن يصلون صلى، وإذا لم يحصل له هذا لم يصلِّ! هذا لم يدخل في هذه الصفة وفي هذا الثناء الذي أثنى الله على أهله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾؛ لا ينقطعون مستمرون، بل يزيدون على فرائضهم. تجد بعضهم متعلقاً بالصلاة؛ كلما وجد فرصة صلى، كلما توضأ صلى، كلما سنحت له فرصة ليلاً أو نهاراً ما لم يكن وقت نهي، تجده دائماً متعلقاً بربه، دائماً يدخل في صلاته مع ربه. قال: ﴿دَائِمُونَ﴾ لا ينقطعون عنها.

هذه الجملة أو هذا الكلام أو هذه الصفة -صفة الصلاة والمصلين، والذي داوم على صلاته- يستطيع أن يعالج نفسه من حيث الجزع والتسخط عند حصول مثلاً الفقر أو المرض أو المصائب أو نحو ذلك.

ثم تأتي الصفة الثانية المتعلقة بالأمر الآخر لما قال:

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥].

هذه تنطبق على أي شيء؟ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢١]، أما المؤمن فلا؛ إذا مسه الخير أعطاه الله الخير لا يمتنع، بل في ماله حق معلوم للسائل والمحروم؛ يعني يبحث ويفرح أن يجد من يعطيه

المال، يسعد لو أخبرته بأن هناك أسر محتاجة أو أن هناك شخصاً عليه دين أو نحو ذلك لسعد بذلك وفرح وقام ونشط أن يعطيه ما يقوم بمساعدته. فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

شوف هذه الآية، آية المعارج، يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

لما تقرأ في سورة (الذاريات) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

ما قال: ﴿مَّعۡلُومٞ﴾، ليش؟ ما السبب هنا؟ هنا يأتي التدبر، التدبر يأتي هنا، أنت تقرأ في سورة الذاريات ثم تأتي إلى سورة المعارج وتمر عليك ما تبين الفرق. الفرق أن سورة المعارج: ﴿حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾، هذا في الزكاة التي هي قرينة الصلاة، الزكاة الواجبة الفرض التي هي فرض. أما في الذاريات فلا، ليست في الزكاة وإنما هي في الصدقات؛ لأنها جاءت في سياق النوافل: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧]، ثم قال: ﴿وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾، ﴿حَقّٞ﴾ ما قال حق معلوم ولم يتعين، وإنما هكذا.

طيب يقول: عرفنا الآن، الصلاة متعلقة بـ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾، والزكاة متعلقة بـ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾، فالمزكي ما يمتنع ويسلم من هذه الصفة، صفة الهلع أو صفة كونه هلوعاً.

طيب، قال بعدها من الصفات -هذه ثمان صفات، ثمان صفات وصف الله بها هؤلاء الذين استثناهم من هذا الأمر؛ ألا يجزع ولا يمتنع-: ما هي الصفات الثمان؟

١. أنه دائماً في صلاة.

٢. أنه يعرف أن في ماله حقاً معلوماً للسائل والمحروم.

٣. الصفة الثالثة، قال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [المعارج: ٢٦].

يوم الدين هو يوم الجزاء والحساب، هو يوم القيامة. فهؤلاء من صفاتهم -الذين استثناهم الله، المصلون- أنهم يصدقون بيوم الدين. شوف لاحظ وأنت تقرأ هذه السورة بتدبر وتأمل؛ الله أخبر عن موقف الكفار لما يقول: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١] أي دعا على نفسه بالعذاب، ثم حكى الله قال: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦-٧]، يأتي المؤمن ماذا يصفه الله؟ يصفه بأي

شيء؟ بأنه ممن يصدق بيوم الدين ولا يشك فيه؛ يصدق وصدقه يتبعه العمل والاستعداد، يعني هو في نفسه يصدق وعنده يقين وصدق بوقوع هذا اليوم، ثم يتبع هذا الصدق بالأعمال الصالحة؛ لا أن يصدق ويجلس، وإنما دائماً نصب عينيه اليوم الآخر، إن قام وإن صلى وإن تصدق وإن أُسيء إليه أو أُحسن، كل هذه تجد اليوم الآخر أمامه دائماً لا يغيب عنه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

١. وزيادة على ذلك، مع أعمالهم الصالحة من الصلوات والزكاة والاستعداد لليوم الآخر والتصديق به، إلا أنهم:

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧].

من عذاب ربهم مشفقون لأنهم يخافون ما الذي سيواجهونه يوم القيامة، ما يدري، يعني يعملون الأعمال الصالحة وهم على خوف ووجل. هذه الآية مثل آية سورة (المؤمنون): ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

لما سألت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم قالت: أَهُمُ الَّذِينَ يَزْنُونَ وَيَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ: «لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ يُقْبَلَ مِنْهُمْ». يعملون الأعمال الصالحة وهم على خوف ووجل، يخشون ألا يُقبل منهم، ما يدرون ما الذي سيواجهونه يوم القيامة. ولذلك قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾؛ خائفون وجلون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٨].

لا تأمن، ما تدري، لا تأمن على هل يُقبل منك أو لا يُقبل. ولذلك كانوا كما قال الله سبحانه وتعالى في سورة (الطور): ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦-٢٨].

خائفين وجلين، إنا كنا ندعوه ندعوه بالقبول؛ إنه هو البر الرحيم. ولذلك هنا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾.

١. ثم ذكر صفة بعدها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ [المعارج: ٢٩].

حافظون لفروجهم من أي وجه؟ من أن يقعوا في الحرام في الزنا أو اللواط أو نحو ذلك، ومن أن يمس أحد منهم فرجه، أو من أن ينكشف، فهم حافظون لفروجهم؛ حافظون لها ألا تنكشف، وألا يمسها

أحد، وألا يقعوا فيما حرم الله. ولذلك قال: ﴿حَٰفِظُونَ﴾، وشوف كلمة حافظون معناها في كل وقت، ما يتنازلون أبداً ولا يسلمون لهذا الأمر أبداً، وإنما محافظة دقيقة:

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المعارج: ٣٠].

وهي ملك اليمين (الأمة)، فملك اليمين أو الزوجة فإن الله أباح ذلك لهم، قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ على ذلك.

ثم شدد سبحانه وخوف قال: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المعارج: ٣١].

يعني غير الزوجة والأمة، بأن يقع في جريمة الزنا؛ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، هم الذين تعدوا حدود الله ووقعوا في محارمه وفي مساخطه.

١. قال: ومن صفاتهم:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾ [المعارج: ٣٢].

يراعون الأمانات. الأمانات ما هي؟ في أي شيء؟ قال: الأمانات كثيرة؛ أعظمها أمانتك مع الله عز وجل، استأمنك على الصلاة وعلى الزكاة وعلى سائر الأمور التي فرضها عليك أو شرع أو أمرك بها أو نهاك عنها؛ ألا تقترف أو تقع فيما نهاك الله عنه، هذه أمانة بينك وبين الله. وهناك أمانات بينك وبين إخوانك المسلمين يستأمنونك على أشياء. فالله سبحانه ذكر من صفاتهم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾؛ يراعون الأمانات ولا يخلون بها.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣].

إذا استشهدوا أو طلبت منهم الشهادة يحفظون الشهادة ويقيمونها على وجهها؛ لا يشهدون شهادة الزور ولا يشهدون في الأمور المحرمة، وإنما يشهدون بما يرضي الله سبحانه وتعالى ويقيمون الشهادة لله.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

شوف بدأ بالصلاة وختم بالصلاة، كأن الصلاة لا تنفك عن الإنسان أبداً، فبدأ بأنهم يداومون عليها باستمرار ويحافظون عليها.

ما الفرق بين قوله: ﴿دَائِمُونَ﴾ و ﴿يُحَافِظُونَ﴾؟ نقول: ﴿دَائِمُونَ﴾ أنهم لا ينقطعون عنها أبداً، لا يمكن أن ينقطع عن الصلاة؛ يعني كل وقته في الصلاة. وأما ﴿يُحَافِظُونَ﴾ فإنه يحافظ على حسن الوضوء،

يعني يعرف كيف يتوضأ ولا يخل بالوضوء ولا يخل بصلاته في أركانها وواجباتها وسننها وخشوعها وتدبر ما فيها، فهو محافظ عليها؛ يعني لا يخرج من صلاته إلا وهو استوعب ما قال وأدرك ما قال، لا أن يدخل في صلاته ويخرج ولا يدري ماذا قال! فهم محافظون على صلواتهم.

قال الله سبحانه وتعالى في جزائهم:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

كما أكرموا ما أمرهم الله وحافظوا عليه وعرفوا قيمة هذه الصلوات، الله سبحانه وتعالى أكرمهم وجعلهم في دار كرامته، وتكرمهم الملائكة بما تشتهي أنفسهم في ملذات جنات النعيم، فهم في دار كرامة الله وعند الملائكة المكرمين يكرمونهم بكل ما يحتاجون إليه. قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾.

نسأل الله سبحانه وتعالى ألا يحرمنا هذا الجزاء وهذا الفضل العظيم، وأن يجعلنا وإياكم ممن لا تفوته هذه الصفات الثمانية، أن يحافظ عليها وأن يراجعها وأن يتذكرها دائماً. أسأل الله التوفيق والسداد، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(المعارج ٣٦- آخر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله لقاء مباركاً نافعاً. مجلسنا المبارك في هذا اليوم الثلاثاء الموافق للعاشر من شهر شعبان من عام ١٤٤٥ من الهجرة في تفسير القرآن العظيم. ولا زلنا في هذه السورة العظيمة وهي سورة (المعارج)، والتي تسمى أيضاً بسورة (سأل سائل)، وتحدثنا عن هذه السورة وأخذنا شيئاً من آياتها من حيث معنى هذه الآيات وتدبرها وما فيها من دلالات.

وقف بنا الكلام عند قول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: ٣٦].

لما بين الله سبحانه وتعالى ما أعده لعباده المتقين الذين وصفهم بالأوصاف العظيمة الجليلة التي مرت معنا؛ لما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢-٢٣].

إلى آخر هذه الصفات، وقال في وعدهم الكريم:

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

ذكر سبحانه وتعالى بعد ذلك موقف المشركين موقفين:

- الموقف الأول: موقفهم من الدعوة ومن رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، وهذا موقفهم في الدنيا.
- وموقفهم الآخر: هو في الدار الآخرة، وكيف يكون مصيرهم في الآخرة.

يقول الله سبحانه وتعالى في بيان هؤلاء الكفرة المعرضين المعاندين، يقول:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: ٣٦].

هذا استفهام، وهذا الاستفهام يفيد التعجب؛ يعني عجباً لهؤلاء، هؤلاء المعاندين الكافرين! ما لهم قبلك؛ يعني جهتك وقبالتك، مهطعين؟

ما معنى مهطعين؟ ومن هو المهطع؟ المهطع الذي يمشي بسرعة قد مد بصره، يقال: هذا مهطع؛ إذا مشى بسرعة مشيته سريعة وقد مد بصره، شاخصاً بصره، قالوا: هذا مهطع.

والقرآن يصور حول هؤلاء الكفرة المشركين من النبي صلى الله عليه وسلم ما بين متاثر بكلامه وكلام الله سبحانه وتعالى وما بين مستهزئ ساخر منه، فإقبالهم هذا بهذه السرعة وبشخوص هذا البصر منهم من هو مستهزئ ساخر، ومنهم متعجب من حديثه وكلامه. ولذلك ذكر الله سبحانه وتعالى الإهطاع في عدة مواضع في القرآن الكريم مهطع، قال سبحانه وتعالى في سورة إبراهيم:

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

مهطعين يعني مسرعين شاخصي أبصارهم، ومقنعي رؤوسهم أي رافعي الرؤوس. وهنا قال: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ﴾ أي تجاهك ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي مقبلين بسرعة شاخصين أبصارهم، هذا معنى مهطعين أو معنى الإهطاع.

قال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج: ٣٧].

يعني أن هؤلاء ليسوا واحداً أو اثنين أو ثلاثة بل هم جماعات؛ كلٌ مقبلٌ عليه جماعات، عن يمينه وعن شماله وأمامه عزين، يعني جماعات متفرقة، العزون هم الجماعات المتفرقة، المفرد: عِزَةٌ، يعني جماعة. يقول: هم حالهم وأنت تصلي أو تقرأ القرآن أو يكون لك موقف معهم في دعوتك يأتون على هذه الصورة؛ تصوير لحالهم أنهم ما بين مستهزئ ساخر، وما بين متعجب متفكر في حالك، فهم على هذه الحال.

ثم إنهم لما يستمعوا القرآن وتأتيهم الآيات في وعد الله للمتقين وفي جنات النعيم، يظن الواحد منهم أنه هو الأولى؛ نحن أولى بدخول الجنة، أولى من هؤلاء الضعفاء والمساكين كسلمان وخباب وبلال ونحوهم، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ [المعارج: ٣٨].

ولاحظ أنه لم يقل: أيطمعون كلهم، لا، قال: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ﴾؛ لماذا؟ لأن كل واحد منهم له غاية وله طمع، كل واحد منهم وليس جميعهم في طمع واحد، وإنما كل منهم يدعي أن له الحظ والنصيب في الدار الآخرة: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾؛ كل منهم يتمنى ويطمع في دخول الجنة. وهل هذا يمكن؟ هل تتحقق يتحقق مطمعه؟ ما يمكن، لم يعمل ولم يذكر الله ولم يوحده ويطمع في جنات النعيم! هذا مما لا يقبله العقل ولا الشرع.

ولذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّآ﴾ [المعارج: ٣٩].

ليس الأمر كذلك، ليس الأمر على ما يطمعون ويتمنون، ليس الأمر بل مصيرهم إلى ما هو أسوأ من ذلك، ولذلك قال: ﴿كَلَّآ﴾.

ثم ذكرهم بقدرة الله سبحانه وتعالى وذكرهم بخلقهم الضعيف، قال:

﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٩].

أي خلقهم السابق يعرفونه؛ أن الإنسان خُلق ضعيفاً، وخُلق من ماء مهين، والله هو الذي خلقه وأوجده وأعطاه القوة والعقل، فكيف ينسون نعمة الله وينسون قدرة الله؟ فيذكرهم بذلك لعلهم يرجعون، يعرفون نعمة الله عليهم، ويعرفون أن الحق ما جاءهم: ﴿كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾.

ثم أقسم سبحانه وتعالى تأكيداً على ما يبين لهم من قدرته، مع أنهم يعرفون قدرة الله، ولكن الله يقسم قسماً عظيماً على قدرته سبحانه وتعالى فيقول:

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠].

يقسم سبحانه وتعالى قسماً عظيماً بنفسه؛ لأنه هو رب المشارق ورب المغارب سبحانه وتعالى. وهنا قسم مؤكد، قسم ليس يعني يظن بعض الناس أن قوله ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ أنه ليس بقسم، بل هذا قسم، بل هو قسم واللام تأتي لتأكيد القسم، كأن الأمر والحال لا يحتاج إلى قسم، يقول: كأن اللام هنا مرتبطة أو متعلقة بمحذوف؛ أي ليس الأمر كذلك ولكني أقسم! مثل قوله تعالى:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، ومثل قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥].

وغيرها التي تأتي اللام داخلة لتؤكد هذا الأمر وكان القسم واقع لا محالة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾.

ما هي المشارق وما هي المغارب؟ وإذا عرفت هذا المعنى تجد في القرآن أن الله يقول: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] بالتثنية، ومرة يقول: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩]، فمرة ذكره مفرداً، ومرة مثنى، ومرة جمعاً كما هنا: ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾. كيف نجمع بين هذه الأمور؟ ما هو المشرق وما هو المغرب وما هي المشارق والمغارب وما هو المشرقان؟ فنقول هنا: ﴿رَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ أن الشمس كل يوم لها موضع شروق، فقوله: رب المشارق أي مطالع الشمس اليومية على مدار السنة. وإذا قيل: رب المشرقين؛ مشرق الشمس مشرق الشتاء ومشرق الصيف، فالصيف له مشرق، والشتاء له

مشرق. وإذا قيل أو جاءت الآية: رب المشرق والمغرب، نقول: جهة الشرق وجهة الغرب، ولا تعارض بينها كلها صحيحة؛ فجهة الشرق تأتي مفردة، وإذا جاءت مثنى فمعناها الشتاء والصيف، وإذا جاءت جمعاً معناها المشارق اليومية.

قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾، شوف الجملة مؤكدة، أصلها: إننا لقادرون، مؤكدة بـ (إنّ) وبالجملة الاسمية وبدخول اللام على الخبر، كل ذلك تأكيداً لأي شيء؟ على قدرة الله سبحانه وتعالى التي لا يعرفها هؤلاء الكفار، ولو كانوا يعرفون عظيمة الله وقدرته لما كفروا به وبرسالاته: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾.

قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤١].

قادر الله على أن يبدل، أن يبدل هؤلاء يأتي بقوم آخرين، يذهب كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [إبراهيم: ١٩].

فالله قادر على أن يبدل هؤلاء ويأتي، وقد بدلهم، بدل أهل مكة الكفار المعاندين بمؤمنين صادقين صالحين، فالله قادر سبحانه وتعالى، قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾؛ أي ليس أحد منهم يسبقنا أو يفلت علينا أو يغيب عنا، بل كلهم في قبضة الله وفي قدرته وتحت سلطانه وملكه، لن يستطيع أحد أن يخرج عن ملكه سبحانه وتعالى، بل هم في قبضته ما أحد يستطيع أن يفوت عليه أو يفلت من حكمه سبحانه وتعالى.

ثم قال: ﴿فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢].

ثم صور حالهم عند خروجهم؛ لما ذكر حالهم في الدنيا ومواقفهم من الدعوة، ذكر حالهم في الآخرة فقال: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

يقول: واذكر حين يخرجون من الأجداث؛ ما حالهم عندما يخرجون من الأجداث؟ ما هي الأجداث؟ الأجداث جمع، والجَدَث هو القبر، لكنه لا يسمى قبراً إلا في حالة، يعني لما يقول الله سبحانه وتعالى يذكر القبور في سور والمقابر، ويذكر القبر في آيات، ثم يذكر الجدث، لا شك أن هناك فرقاً بين القبر والجدث. وأهل اللغة وأهل البلاغة تحدثوا عن كلمة الجدث والفرق بينها وبين القبر، قالوا: القبر اسم لما يوضع فيه الميت، فما دام أنه ميت ما دام أنه ميتاً مكانه يسمى قبر؛ لأنه لا يتحرك صاحبه. فإذا تحرك صاحب القبر

وجاء وقت خروجه من قبره سمي القبر جَدَثاً، فالجدث أصله الحركة، الجدث في لغة العرب أصله حركة حافر الحيوان وخف الحيوان لما يحركه، يقولون: جَدَثَ برجله جَدَثَ. فحركة القبر عندما تعود الروح لصاحبها يبدأ يتحرك القبر، يتشقق القبر وينفك عن صاحبه فيخرج منه، فإذا تحرك القبر سمي جَدَثاً.

فهذه من بلاغة القرآن العجيبة؛ كيف يقول مثلاً مرة يقول قبر يسميه قبر ومرة يسميه الجدث! وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١].

طيب لو سألناك قلنا: ما الفرق بين أَقْبَرَهُ وقَبَرَهُ؟ هل المعنى واحد؟ نقول: لا، أَقْبَرَهُ إذا أمر بدفنه، وقَبَرَهُ إذا باشر. نقول: فلان يقَبَرَ فُلَاناً إذا باشر دفنه، وإذا قلت: فلان أَقْبَرَ فُلَاناً إذا أمر. فالله ما يباشر، الله يأمر، قال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ يعني أمر بقبره. شوف كيف بلاغة القرآن الكريم وسعة اللغة العربية! فنعرف ما الفرق بين الأجداث، نقول: الأجداث هي القبور لكنها في حالة معينة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ منطلقين ينسلون، منطلقين مسرعين، يظنون أنهم إلى أصنامهم منطلقين، أو إلى نُصُبٍ كانوا يعظمونها، أو إلى رايات كانوا يريدونها، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ يعني يسرعون إليها منطلقين إليها.

وحالهم ماذا؟ قال: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي ذليلة، ليس الخشوع الذي يكون مع المؤمن خشوع لله، لا، وإنما خاشعة أبصارهم أي ذليلة أبصارهم من شدة الموقف العصيب لهم، وهم يعرفون ماذا سيصير مصيرهم، حتى يقول القائل منهم: يا ليتني كنت تراباً! يتمنى أنه لم يخرج من قبره، يقول: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧] يعني ليتني مت موتة لا أحيا بعدها.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، معنى ترهقهم ذلة: أن الذلة قد أصابتهم من جميع الجهات، قد عمتهم من جميع الجهات ترهقهم ذلة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، ذلك الذي يذكر في حالهم هو اليوم الذي كانوا يوعدون، هذا اليوم الذي هم يوعدون والذين يستهزئون به ويسخرون منه، لما يقول قائلهم: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] يعني دعا على نفسه ودعا على قومه بالعذاب، يتمنى أن يقول: إن كنت يا محمد صادقاً فأتِنا بالعذاب! يستهزئ ويسخر، حتى يقول الواحد منهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ

﴿ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. متى يا محمد هذا اليوم الذي أنت تعدنا بالعذاب وتعدنا وتهددنا؟ قال الله: هذا ﴿ذٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، هذا هو اليوم وهذه صفته.

فهذه السورة العظيمة الجليلة التي عشنا معها أياماً، سورة عظيمة تحدثت عن اليوم الآخر وعن موقف الكفار في أولها وموقفهم في آخرها؛ موقفهم في أولها وهم يستهزئون في الدنيا، وموقفهم في الآخرة وهم قد خشعت وذلت وذلوا وأبصارهم خاشعة وذليلة وحالهم حالة ضعيفة هذه حالهم. وتوسط بينها صفات عباد الله المتقين وجزاؤهم بما وعدهم الله: ﴿أُولَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥].

أسأل الله أن لا يحرمنا هذا الفضل العظيم، وإن شاء الله لقاؤنا لقاء جديد في سورة أخرى تتبعها بإذن الله، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ نُوح)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(نوح ١ - ٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، اليوم الرابع من شهر شعبان من عام ١٤٤٥ من الهجرة. مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم قراءة وتفسيراً وتدبراً وتأملاً.

السورة التي تحدثنا عنها في لقاءات ماضية سورة (المعارج)، وهي في الحقيقة كما تبين لنا جميعاً عندما قرأناها وبينا معانيها أنها تركز على بيان موقف هؤلاء المعاندين المشركين المستكبرين الذين ردوا الحق بالباطل وتهديدهم بالعذاب الأليم. ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف في وجوههم بالدعوة إلى الله عز وجل والنصح وبيان الحق.

تأتي السورة التي تليها وانت تقرأ هذه السور من الجزء التاسع والعشرين، جزء (تبارك)، تقرأ هذه السور تجد السورة التي تليها مباشرة هي سورة (نوح)، ونوح هو الداعية الكبير العظيم وأول داعية على وجه الأرض وأول رسول أرسل إلى البشر، كان بينه وبين آدم عشرة قرون كلها كانت على الإسلام، التوحيد، حتى أحدث الشرك في قوم نوح لما غلوا في الصالحين؛ كان عندهم رجال صالحون فماتوا وكان من تعظيمهم أنهم كانوا يزورونهم عند قبورهم ويدعون لهم، ثم بعد زمن مضى وقت جاءهم الشيطان وقال: بدلاً من أن تأتوا إلى قبورهم صوروا صوراً واجعلوهم في مجالسكم وتذكروهم وادعوا لهم، وهذه وسيلة من وسائل الشرك. فلما صوروهم بدأوا يدعون لهم حتى جاء جيل ثم جيل إلى أن بدأوا يعبدونهم من دون الله وجعلوهم آلهة من دون الله، ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

فبدأوا يعبدونهم من دون الله، فحدث فيهم الشرك وعبادة الشيطان وعبادة الأوثان.

فمن رحمة الله سبحانه وتعالى بالبشرية أن بعث إليهم خيرهم خُلقاً وأدباً وعلماً وهو نوح عليه السلام، فجاءهم داعياً إلى الله، داعياً إلى الله، ولكن كما ذكرت هذه السورة وهي تصور لنا هذا الداعية العظيم الجليل وهو نوح عليه السلام وكيف مارس دعوته في نصح قومه مع مرور زمن طويل جداً؛ لم يكن لأحد من الدعاة ولا من الأنبياء والرسل مكث في قومه وهو داعية فقط تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى التوحيد وإلى عبادة الله وترك الشرك، وجاءهم بجميع الوسائل واتخذ جميع الطرق في دعوته؛ ورغبهم وهددهم وخوفهم وانفرد بهم ودعاهم جماعات وانفراداً وسراً وعلانية ولم يستجيبوا بل عاندوا أشد العناد، حتى جعلوا أصابعهم في آذانهم كما تحكيه السورة، واستغشوا ثيابهم حتى لا يرونه ولا يراهم، وبدأوا اتخذوا أشد صور العناد والكفر والاستهزاء والسخرية حتى يئس منهم، حتى يئس منهم قال:

﴿وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

كل ما يلد من شخص يربون هذا المولود على معاداة نوح عليه السلام.

فحكت السورة التي بين أيدينا الدعوة إلى الله، وكيف يكون المسلم والداعية حتى في بيته؛ أنت داعية في بيتك، وداعية في الحي، وفي المسجد، وبين أسرتك وأقاربك، وفي كل ما تستطيع أن تدعو إلى الله كما قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فهذه طريقة الرسل، أشرف وظيفة وأشرف عمل يقوم به أحد هي ما كان يقوم به أولياء الله ورسل الله وأنبيائه؛ دعوة إلى الله عز وجل. السورة تحكي لنا ما يتعلق بالدعوة إلى الله وصفات الداعية وطرق وأساليب الدعوة إلى الله التي سلكها نوح عليه السلام، حتى أنك تقرأ هذه السورة ثم تنتقل للسورة التي تليها وهي سورة (الجن)، وتتأمل كيف كان أن هناك دعاة من الجن:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١-٢].

يدعو يهدي إلى الرشد فآمنا به، دعوا قومهم، دعوا قومهم:

﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١].

حتى أنك تقرأ يعني وتنظر إلى نظم القرآن وترتيب القرآن في سورة تأتي بعدها ماذا؟ سورة (المزمل)، وسورة (المزمل) كما ذكر بعض أهل العلم يقال سورة (المزمل) هي زاد الداعية، فالداعية قبل أن ينزل إلى

الميدان للدعوة إلى الله أن يتزود، وسورة (المزمل) نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم مبكرة لأنها زاد له في الدعوة؛ ولذلك تأتي بعدها مباشرة سورة (المدثر)، وسورة (المدثر) مثل ما ذكر الله سبحانه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢].

فهي سورة الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، فتجد هذه السور المتتالية بهذا الترتيب وهذا التنظيم العجيب يعني شيء ملفت لمن يتدبر ويتأمل القرآن الكريم.

السورة التي بين أيدينا وهي سورة (نوح) حتى سماها الله بهذا الاسم سورة (نوح) النبي المعروف لأن كلها تتحدث عن نوح عليه السلام مع قومه وكيف دعاهم، وهناك سور أخرى سميت بأسماء أنبياء: سورة (يونس) و(يوسف) و(هود) وغيرها و(إبراهيم).

طيب، يقول الله سبحانه وتعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١].

أنت لما تتأمل افتتاحية هذه السورة، تجمل لك كما يقول أهل العلم يسمون هذا علماء البلاغة بـ(براعة الاستهلال)، يعني تجد أحيانا السورة فاتحتها فاتحة السورة تدل على محتوى السورة كلها، فأنت بمجرد قراءتك هذا السطر الأول تعرف عما تتحدث عنه السورة، فهذا مجمل، يعني فاتحة السورة من أقوى أسباب التدبر لما تحتويه السورة. ونحن كررنا كثيراً أن المقصود من القرآن في تلاوته التدبر والتأمل، إذا كنت تقرأ بدون تدبر ولا تأمل يعني سيفوتك شيء كبير عظيم، فأنت تقرأ وتتأمل، شوف كيف فاتحة السورة وكثير من سور القرآن لما تأخذ الفاتحة تجد أن هذه الفاتحة تدل على ما تحتويه هذه السورة.

على هذه السورة يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾، وأن أصلها إننا، إنّ الحرف التوكيد والنصب و(نا) الضمير نا الفاعلين اسم إنّ، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾، أرسلنا هي الخبر. طيب أنا لما يفتتح الله بهذا الأسلوب يقول لك (إِنَّا) تعظيم؛ لأن (إنّا) للجمع، فلما تأتي في حق الله سبحانه وتعالى تدل على العظمة مثل قوله تعالى:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩].

تدل على العظمة. فلما يقول: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾ مرتين؛ (إنّا) و (أرسلنا)، ما قال: أرسلت، يدل على أهمية هذا الأمر وعظمة هذا الشيء؛ لأن الله هو الذي تولاه بنفسه، وهو الذي أرسل وهو الذي اختار هذا

الشيء ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾. وفيه دلالة على أن الله سبحانه يرسل الرسل، ورداً على هؤلاء المشركين الذين ينكرون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وأنه ليس برسول، فهذا كله رسل الله سبحانه الذين الله عز وجل اصطفاهم واختارهم وكلفهم بالقيام بهذه الرسالة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾.

ونوح مثل ما ذكرنا هو أول نبي أرسله الله إلى البشرية: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّـۧنَ مِن بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

فدل على أن نوحاً هو أول رسول. وفي حديث الشفاعة يأتون إلى نوح فيقولون: يا نوح، «أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ أَرْسَلَكَ اللهُ إِلَى الأَرْضِ» / «أَنْتَ أَوَّلُ مَنْ بَعَثَكَ اللهُ». فنوح هو أول رسول، ويسمى أيضاً أبو البشر، أبو البشر الثاني، يعني عندنا أبو البشر الأول هو آدم عليه السلام، طيب وأبو البشر الثاني قالوا: نوح، ليش؟ قال: لأن نوحاً عليه السلام لما أغرق الله قومه لم يبقي أحد إلا من ركب في السفينة، والذين ركبوا في السفينة وهم قلة انقرضوا ولم يبقي إلا أبناء نوح الذين تسلسل العالم كلهم من نوح عليه السلام وأبنائه، فسمي نوح أبو البشرية الثاني، أبو البشرية وأبناؤه أربعة، كما جاء في بعض ما نقل في التاريخ وغيره، أن أبناءه: سام، وحام، ويافث، وكنعان. أما كنعان فهو الذي هلك وغرق لما قال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٤٣].

فكان من المغرقين. والثلاثة هم الذين آمنوا وركبوا في السفينة: سام، وحام، ويافث. سام وهو أبو العرب والفرس والروم، حام وقيل إنه أبو القارة الأفريقية وما حولها، ويافث وهو أبو يأجوج ومأجوج. هؤلاء كل العالم تعود إلى هؤلاء الثلاثة.

قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، أرسله الله لأي شيء وما الغرض؟ قال: ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ أي لأجل أن ينذر قومه، قال: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. إذاً أرسله الله نذيراً لهم، قد يأتيك شخص يقول لك: طيب الرسل يرسلون يعني للنذارة والبشارة، بشير ونذير؟ نقول: لما كان الموقف موقف عناد من قومه وشرك وكفر وإعراض، فكان المناسب أن تكون النذارة هنا؛ لأنهم على خطر، يعني لو لم ينذرهم سيهلكون ويذهبون إلى نار جهنم، لأنهم أصبحوا مشركين يعبدون أصناماً من دون الله، فيأتيهم يحذرهم كما النبي صلى الله عليه وسلم حذر قومه قال: «إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ».

قال هنا: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ قبل أن ينزل لأنهم مستحقون لأنهم قد استحقوا العذاب، كل من كفر وأشرك بالله كان عرضة للعذاب، فكانوا قد استحقوا العذاب إلا أن يؤمنوا، إلا أن يصدقوا ويتبعوا نبيهم نوحاً عليه السلام: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فمباشرة قام بالدعوة ولم يتلكأ ولم يتردد بل بادر استجابة لله قال:﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢].

وجاءهم بأحسن أسلوب لطيف يذكرهم بأنه هو منهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أنا منكم وأنتم مني، ﴿يَٰقَوْمِ﴾ وهذه طريقة الداعية؛ أن يستخدم مثل هذا الأسلوب ترغيباً في المدعو، ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، يقول: أنا جئت لكم أنتم وجئت نذير فقط، هذه وظيفتي؛ لا أريد منكم مالاً ولا جاهاً ولا منصباً ولا أي شيء من أمور الدنيا، وإنما جئت داعياً إلى الله نذيراً، ونذارتي واضحة، ﴿مُّبِينٌ﴾ واضحة بينة، لا أريد غير ذلك إلا أن أحذركم عما أنتم عنه، وتحذروا أن تبقوا على ما أنتم عليه فتهلكوا وتموتوا على شرككم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم أفصح عن دعوته وعن نذارته، ما هي؟

قال:﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣].

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، لا تعبدوا هذه الأصنام والآلهة وتعبدوا الشياطين، اعبدوا الله وحده لا شريك له، هو المستحق للعبادة. وسيأتيك بياناً بعد مضي في هذه السورة أن نوحاً بين لهم أن الله هو المستحق للعبادة، وأن الله هو الذي أنعم عليهم، وأن الله هو الذي خلقهم وخلق الذين من قبلهم، فبين أنه هو الذي يستحق أن يُعبد لا هذه الآلهة التي لا تفعل ولا تنفع ولا تضر: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ حققوا العبادة لله واستجيبوا لربكم وأخلصوا العبادة لله واصرفوا كل ما هو من خصائص الله لله سبحانه وتعالى لا لغيره.

﴿وَاتَّقُوهُ﴾، قد يسأل سائل يقول: طيب ما الفرق بين ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ و ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ نفسها؟ نقول: لا، ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني جردوه بالتوحيد وأخلصوا العبادة له، ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ التقوى هي الخوف، هي الخوف من الله، حقيقة التقوى عند كثير من أهل العلم هي الخوف من الله، فيقول: أنتم الآن وحدوا الله واعبدوه وخافوا عذابه، اتقوا الله وخافوا لا يصيبكم بعذاب وأنتم على هذه الحال. فقوله: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾

يعني استجيبوا له وحققوا أوامره وابتعدوا عن نواهيه واحذروا وخافوا عقابه: ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾؛ أمرهم بثلاثة أمور: عبادة الله وحده لا شريك له، وتقوى الله عز وجل، ثم طاعته فيما يأمرهم، فإن طاعة الرسل طاعة لله عز وجل، فقال: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

ثم بين بعد ذلك ثمرة هذا الأمر لما يدعو إلى الله ولما يبين لهم دعوته والغرض منها يرغبهم؛ يعني لما خوفهم قال: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، رغبهم بأمور فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤].

يقول: أنتم أطيعوا اعبدوا الله واتقوه وأطيعون فإنكم إذا حققتم هذه الأمور ما النتيجة؟ قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، يعني أن الله سبحانه وتعالى إذا استجبتم له وأقبلتم عليه وتبتم؛ لأن حقيقة التوبة أن تتوجه إلى الله بالعبادة وأن تخافه وأن تطيع، فإذا حققت هذا الأمر فإن من ثمرته أن يغفر لك ذنوبك.

وقوله هنا: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ يعني يمحو عنكم ذنوبكم وسيئاتكم ويتجاوز عنها ولا يحاسبكم عليها، هذا معناه، هذه حقيقته. وقوله: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ المراد بالذنوب جميعاً، المراد بالذنوب جميعاً؛ لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وحقيقة التوبة أو ثمرة التوبة مغفرة جميع الذنوب، لا نقول يغفر بعض الذنوب لا، يعني ما يكون فيه ترغيب أشد، لما يقول نوح عليه السلام يغفر لكم بعض ذنوبكم، طيب يقول والبقية؟ فهنا ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ الحقيقة أن (مِن) هنا ليست للتبعيض وإنما هي بيانية، تبين لك ما الذي يغفره، قال: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يمد في أعماركم، ولذلك استنبط بعض أهل العلم أن الطاعات والتقوى وملازمة يعني تقوى الله وملازمة طاعته أنها سبب في طول العمر، سبب في طول العمر. ولذلك حتى يذكر أن أهل القرآن الذين يحفظون القرآن ويردون على ألسنتهم ويختمون القرآن في ثلاثة أيام أو أربعة، ودائماً دائماً قلوبهم متعلقة بالقرآن، أن الله يمد في أعمارهم. ومن يقرأ التاريخ في القراء السبعة والقراء العشرة وأئمة القراءات يجد أن الله سبحانه وتعالى أعطاهم من العمر الشيء الطويل. فالطاعات عموماً، والقرآن، والصلاة، وغيرها، الإنسان إذا لزم طاعة ربه وحقق مرضاة الله سبحانه وتعالى فإن الله يمد له في عمره ويحفظه من الأمراض ويسلمه من الحوادث، كل هذه من أسباب طول العمر. ولذلك نوح

عليه السلام نبه على هذا الأمر قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ما سلف من الذنوب، ويمد لكم في أعماركم، أما إذا استمريتم على المعاصي فإن المعاصي سبب للهلاك.

قال: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهي نهاية الحياة في هذه الدنيا.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

يقول: إذا جاء الله؛ إذا أنتم استمريتم على ما أنتم عليه وبقيتم على شرككم فإن العقوبة تنزل بكم ويهلككم الله بسبب ذنوبكم، فإن أجل الله قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أو أن هذه الآية تقرير إلى أن كل إنسان له أجل، وإذا جاء أجله لا يتأخر.

فماذا كان موقفهم بعد هذا الترغيب والتهديد والتخويف والإنذار وبيان ثمرة الإيمان والطاعة والتقوى؟ كان الأولى والمفترض أنهم يستجيبون مباشرة، يأتيهم شخص بهذا الخُلُق والأدب وهذه الطريقة وهذا الأسلوب، فالمفترض أن الاستجابة مباشرة، ولكن مع الأسف لم يستجيبوا. ولذلك يصور القرآن أسلوب الداعية نوح عليه السلام كيف دعاهم، فقال:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥].

وهذا أسلوب ماذا؟ أسلوب شكوى إلى الله، يشتكي إلى الله؛ لأنه عرف أنهم لم يستجيبوا له ولم يقبلوا دعوته، فلذلك توجه إلى الله قال: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠].

وتوجه إلى ربه. فلذلك هذا الأسلوب أسلوب شكاية إلى الله، يشكو حاله وحال قومه من دعوته، قال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، يقول: ما تركتهم لا بالليل ولا بالنهار، أنا أدعوهم في الليل وأدعوهم في النهار، يعني جميع الأوقات يدعوهم. ولاحظ أنه قدم الليل على النهار؛ لأن الليل غالباً ما يكون وقت الدعوة، وقت الهدوء والراحة والسكينة والنوم، ومع ذلك اشتغل بالدعوة: ﴿إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦].

هذا دليل أنه يشتكي إلى ربه، ودليل على أنهم مستمرون على شركهم وكفرهم وعنادهم وعدم قبول الدعوة، فلم يزدهم أي هذا الدعاء هذه الدعوة التي ندعوهم بجميع الأوقات إلا فراراً؛ بدأوا يفرون مني لا يقابلوني، كلما خلوت بشخص منهم لم يقبل مني، وإذا جئتهم في مجالسهم ومجتمعاتهم رفضوا ذلك

ويفرون، وكلما قابل شخصاً في الطريق فر عنه، وكلما جاء إلى مجلس من مجالسهم تفرقوا، فلم يقبلوا من شدة عداوتهم لنوح، لم يقبلوا منه أبداً إلا فراراً.

قال تعالى: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

شوف كلمة ﴿كُلَّمَا﴾ تفيد التكرار، كلما تفيد التكرار: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾، يقول: أدعوهم أنا لأن تغفر، تكون دعوتي سبباً لمغفرتهم، ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ تصوير لشدة العناد والفرار وعدم قبول الدعوة، جعلوا أصابعهم في آذانهم لا يريدون أن يسمعوا من نوح أبداً، ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ غطوا أنفسهم بثيابهم، استغشوا ثيابهم على أجسادهم وعلى وجوههم حتى لا يشر... يرونه وحتى لا يراهم ولا يعرفهم ولا يعرفونه، ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا﴾ إصراراً شديداً على عدم قبول الدعوة، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ على ذلك، تكبروا على دعوته، قالوا: أنتبعك؟ قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

فاستكبروا ورفضوا دعوته، ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾. شوف لما تقول لك: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ دل على شدة الكبر؛ لأن هذا مفعول مطلق أو مصدر يدل على أنهم توغلوا في الاستكبار بشدة: ﴿وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ [نوح: ٨].

قلت جئتهم في كل مكان وجهرت، جهرت لهم بصوت، رفعت الصوت: ﴿دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾. شوف كلمة أو حرف (ثُمَّ) يدل على أن دعوته مرت بمراحل، مراحل حتى وصل أنه جهر لهم، رفع صوته أمامهم ودعاهم، يعني أتعب نفسه وأهلك نفسه أمامهم.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩].

يقول: صرت أدعوهم جهاراً، وصرت مرة أستعمل الإعلان؛ أعلنت لهم، وأسررت مرة أستخدم الإسرار؛ آخذ الشخص وأسر إليه، ومرة آخذ وأعلن، استعملت جميع الطرق كلها، وقلت صرحت لهم: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠-١١].

اطلبوا من الله المغفرة، استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يرسل السماء عليكم مدراراً. ثم بدأ يرغبهم بأسلوب الترغيب وبيان نعم الله عليهم حتى يرجعوا إلى ربهم يتذكروا نعمه.

طيب، الحديث عن هذا في طريقته لما قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ وبيان ما أنعم الله، أو بيان أو تذكيرهم بنعم الله عليهم، هذا يحتاج منا وقت لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله. في اللقاء القادم بإذن الله نستكمل ما بقي في هذه السورة من هذه التوجيهات ومن هذه الوسائل التي استخدمها نوح، وبيان نهاية هذا الأمر في دعوته ونهاية الأمر مع قومه، لنا لقاء إن شاء الله، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(نوح ٩- آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء القرآن الكريم ومجلسنا مع آيات القرآن الكريم. وهذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر من شهر شوال من عام ١٤٤٥ للهجرة. درسنا في التفسير والسورة التي بين أيدينا -وقد تناولنا آيات منها في لقائنا الأخير- هي سورة (نوح) عليه السلام. وسورة (نوح) من السور التي ليست بالطويلة، ولكنها عظيمة من حيث آياتها ومن حيث موضوعاتها.

السورة حقيقة لمن تأملها ونظر فيها هي سورة تعطي الداعية إلى الله الزاد الذي يسير في دعوته ويعينه على الدعوة. ولما أقول الداعية ليس المقصود أن يكون الإنسان مؤهلاً من جميع جوانب الدعوة، لا؛ أنت داعية وكل إنسان منا يدعو إلى الله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالإنسان يدعو إلى الله سبحانه وتعالى على قدر استطاعته. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»، وقال: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ». يمكن أنت تسمع الكلمة ثم تبلغ غيرك فيكون المبلغ أوعى من السامع، والمبلغ يبلغ لمن وراءه، ولا تدري أنت عن هذه الكلمة التي تأخذها وتستفيد منها؛ ولو كلمة واحدة ثم تبلغها، ثم تبلغها غيرك وغيرك يبلغها الآخر، كم يأتيك من الأجور! والـ «الدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِهِ»، لا ينقص من أجره شيئاً.

فالسورة عندما نقرؤها قراءة تدبر وتأمل وفهم ستجد فيها منهج الداعية إلى الله، وكلنا يفتقر إلى أن يكون عنده معرفة في الدعوة إلى الله والمنهج الذي يسير عليه؛ كيف يسير في دعوته إلى الله؟ كيف يسلك المنهج الصحيح في دعوته إلى الله؟ السورة على قصر آياتها -ليست بالطويلة- ومع ذلك أجمَل الله فيها ووفَّى فيها كل ما يتعلق بالداعية وكل ما يحتاج إليه.

ونوح هو أول الدعاة، نوح هو أول داعية على وجه الأرض، نوح هو أول رسول أرسله الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

فنوح هو أول رسول وأول داعية إلى الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك قص الله قصته. ونوح مع أنه أول داعٍي إلى الله، إلا أيضاً أنه هو أطول من دعا، أطول مدة دعا إلى الله، وأطول زمن لبث في قومه؛ تسعمائة وخمسين سنة، ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى.

فأنا وأنت والثاني والثالث جديرٌ حقيقة أن يقرأ هذه السورة ويتأمل كيف دعا نوح قومه وما النتيجة. فالسورة تبين لك المنهج ثم تبين لك النتيجة، ما الطرق التي سلكها نوح عندما دعا قومه؟ مع أن قومه أبوا الإيمان وكفروا واستهزأوا وسخروا وهددوا نوحاً، هددوه بالرجم والقتل وضيقوا عليه وهو لا يزال يدعو، والنتيجة ما آمن معه إلا قليل، والكثير أبوا وكفروا. والسورة تعطيك تصوير لدعوته وموقف قومه منه، وما الطرق التي سلكها نوح، وماذا كان موقفهم من دعوته، وما النتيجة التي حصلت بعد ذلك لما دعا إلى الله ومكث هذه المدة وهو يرجو منهم الإيمان والطاعة والعودة والتوبة؟ ما النتيجة التي انتهت في مآل هؤلاء القوم؟ ما النتيجة؟ تأتيك السورة في آخرها تعطيك النتيجة النهائية لمن دُعي إلى الله ثم أبى وكفر.

الله سبحانه وتعالى ذكر في أول السورة التصريح بدعوة نوح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١].

وهذه الكلمة لما تقف معها حقيقة هي موجهة لأهل مكة؛ يعني كما أرسلنا إليكم محمداً لا تظنون أن محمداً جاء من نفسه، قد أرسلنا نوحاً، ولذلك يثبت الله لهم أن هناك أنبياء سابقين قبل محمد: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، أرسلناه بأي شيء؟ قال: ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾، أرسلناه أن ينذرهم ويخوفهم. لماذا يخوفهم؟ لماذا لا يبشرهم؟ نقول: لأنهم أسرَفوا على أنفسهم بالإعراض وبالكفر، وعبدوا من دون الله، ولم يعرفوا قدر الله، ولم يعرفوا لماذا خُلقوا؛ فلذلك جاء ينذرهم لأنهم إذا بقوا على حالهم وماتوا صاروا من أهل النار، فجاء ينذرهم وينقذهم من النار: ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١] في الدنيا قبل الآخرة، يعني سينزل بهم العذاب؛ إذا أنذرتهم وأبوا وامتنعوا سيصيبهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة.

فماذا كان موقف نوح عليه السلام وأنت تقرأ هذه السورة وتلتمس منها طريقة الداعية ومنهج الداعية؟ بادر نوح مباشرةً؛ بمجرد أن الله كلفه بادر مباشرةً، فزع إلى الدعوة مباشرةً: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢].

صرح بالدعوة قال: أنا نذير ونذارتي واضحة، نذير مبين، أنا أنذركم بكلام واضح لا لبس فيه ولا غموض، نذير مبين.

طيب ما هي دعوتك يا نوح؟ صرح لنا، بين لنا؛ أنت نذير مبين تنذرنا وتأمرنا بأي شيء؟ ماذا قال؟ بدأ بأهم أمر وأعظم أمر، قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣].

اعبدوا الله ووحدوه ولا تشركوا معه أو تشركوا به شيئاً: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾. كيف قال اعبدوا الله وحدوه وافردوه بالطاعة، واتقوه أن تعصوه؛ اتقوا المعاصي وابتعدوا عنها. إذا عرفت الآن الفرق بين العبادة والتقوى: العبادة أن تفرد الله بالتوحيد وأن تقبل على عبادة ربك لا تعبد معه غيره ولا تشرك معه غيره، واتقوه أن تتقوا المعاصي والذنوب ومخالفة أمر الله سبحانه وتعالى. قال: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾، أطيعوا أمري؛ أنا جئت مبلغاً عن الله، وأنا رسول من عند الله، فوجب عليكم أن تطيعوني فيما آمركم به أو أنهاكم عنه: ﴿وَأَطِيعُونِ﴾.

طيب وإذا حققنا هذا الأمر؛ عبدنا الله واتقيناه وأطعناك يا نوح، ما النتيجة؟ أعطاهم النتيجة حتى يرغبهم، قال أولاً:

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤].

الذنوب والمعاصي هذه مصيبة لها شؤم على الإنسان؛ تحرم الإنسان من أشياء كثيرة، تحرمه من الطاعات وتحرمه من رزق الدنيا وتحرمه من الفوز بالآخرة. الذنوب حجاب بينك وبين الله، الذنوب هي وسيلة الوقوع في نار جهنم والوقوع في المخالفة. فأول أمر أمرهم به أو أول ثمرة من طاعتهم لربهم وتقواهم لربهم قال: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، كل ذنوبكم التي سلفت إذا أطعتم الله وأقبلتم على الله وتبتم إليه، فإن الله يغفر كل ما سلف من الذنوب؛ «**والتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ**»، والتوبة تجبُّ ما قبلها: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾.

وعرفنا أن كلمة (مِن) أو حرف (مِن) هنا ليس المراد به التبعيض كما يقول بعضهم: يغفر لكم بعض ذنوبكم؛ لا، إذا قلت يغفر لكم بعض ذنوبكم ما شجعتهم على التوبة! كيف يغفر بعض طيب وبعض الذنوب من يغفرها؟ تبقى عندنا! فنقول: هذه (مِن) بيانية، يعني تبين لك ما هي الذنوب التي تُغفر؟ قال:

كلها، كلها تُغفر. فمثل ما ذكرنا: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ»، ليس له ذنب. فمن باب التشجيع لهم وترغيبهم في العودة إلى ربهم أن يقول: يغفر لكم ذنوبكم جميعاً.

قال: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤]، يمد في أعماركم. والطاعة سبب في مد العمر؛ الله سبحانه وتعالى يمد في عمر الإنسان ويمتعه في حواسه وقواه إذا كان من أهل الطاعة المشمرين في طاعة الله. الطاعة سبب في طول العمر، والطاعة سبب في أن يعطي الله الإنسان قوته في الطاعة؛ قوته وتبقى معه حواسه وتبقى معه جوارحه، هذه من ثمرة الطاعات. قال: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، كما أن المعاصي وإسراف الإنسان على معاصيه تقطع الآجال وتكون سبباً في قصر العمر. قال: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾:

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

فدعاهم وبين لهم وشرح لهم. والآن يعطيك نوح الصورة التي سلكها والمنهج الذي سلكه والطرق التي سلكها في دعوته؛ فتوجه إلى الله لما دعاهم واستمر في دعوته وعرف أنهم لن يقبلوا منه وظهر له من أماراتهم أنهم لم يتقبلوا منه دعوته، بل أعرضوا بل هددوه، ماذا؟ اشتكى إلى الله، قال:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥].

وهذا يعطيك أنه دعاهم؛ لم يألُو جهداً في دعوته ولم يقصر في دعوته، بل دعاهم بالليل والنهار، يعني كل أوقاته دعوة إلى الله ولم يفتر عن الدعوة ليلاً ونهاراً، في الليل والنهار؛ يعني لا يجلس أبداً ولا ينصرف عن الدعوة أبداً، الليل كله والنهار: ﴿دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآئِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ [نوح: ٦].

يقول: أنا أدعوهم وأحثهم وأرغبهم بأن يتوبوا إليك، ومع الأسف دعوتي لهم تزيدهم إعراضاً وفراراً، ولا يريدون أن يقبلوا.

ثم يزيدك يقول لك: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

و ﴿كُلَّمَا﴾ هذه تفيد التكرار، يعني ما انقطع أبداً، أنا مستمر؛ كلما دعوتهم لتغفر لهم، أقول لهم، أدعوهم أقول اقبلوا مني ليغفر الله لكم لتغفر لهم، جعلوا أصابعهم في آذانهم. هذا شدة الإعراض؛ يعني

يقبل عليهم بالليل والنهار ويدعوهم ويفرون منه ولا يريدون أن يقابلوه، إذا جاء في طريق رجعوا إلى طريق آخر وفروا ولا يقابلونه. ثم إذا تقابلوا معه جعلوا أصابعهم في آذانهم لا يريدون أن يسمعوا، يناديهم: يا فلان اتق الله اعبد الله، يجعل أصابعه في أذنيه حتى لا يريد أن يسمع من نوح دعوته! شدة الإعراض وعدم قبول الدعوة. ماذا يريد منكم نوح؟ ما يريد أجراً ولا يريد منكم مالاً، وإنما يدعوكم لله، جاء ينقذكم من النار ومع ذلك قال: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾، وزيادة على الإعراض: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾، غطوا وجوههم بثيابهم حتى لا يرونه ولا يراهم. إذا أقبلوا من طريق ثم رأوا نوحاً قد أقبل إليهم ليدعوهم غطوا وجوههم وتلثموا بثيابهم حتى لا يعرفهم؛ حتى لا يرونه ولا يراهم، ثم يسرعون فارين من أن يسمعوا من نوح شيئاً من دعوته. قال: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ﴾ إصراراً شديداً على عدم قبول الدعوة، ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ على ذلك، تكبروا على دعوته، قالوا: أنتبعك؟ قالوا: ﴿أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

فاستكبروا ورفضوا دعوته: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾. شوف لما تقول لك: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ دل على شدة الكبر؛ لأن هذا مفعول مطلق أو مصدر يدل على أنهم توغلوا في الاستكبار بشدة: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾.

ثم شوف ماذا نستفيد؟ نستفيد أن الإنسان الداعية لا ييأس، يقول: والله أنا دعوت مرة مرتين ثلاث، والله عندي ابن لا يصلي دعوته مرتين ثلاث لم يتقبل مني ولم يصلِّ واستمر على ما هو عليه، خلاص أمره إلى الله! هذا كثير من الناس خلاص أنا دعوته مرة مرتين ما تقبل أمره إلى الله! نقول: لا، استمر وابْقَي على دعوتك وأنت مأجور، ولا تدري قد يهديه الله في يوم من الأيام وانت لا تدري في ساعة من الساعات. عليك بالاستمرار وعليك بالدعاء وابْقيَ على ما أنت عليه، لا تقول دعوت مرة مرتين ثم تستسلم للشيطان وتترك الدعوة. نوح ماذا صنع؟ ليلاً ونهار واستمر وبقي في دعوته ولم يقف عن دعوته حتى أخبره الله بأنه خلاص الأمر انتهى؛ تسعمائة وخمسين سنة يدعو قومه! وأنت لا تستطيع أن تدعو ابنك أو قريباً لك أو جارك أو نحو ذلك ممن كان يقصر في حق الله، لا تدعوه ولا ساعات ولا أيام ولا أشهر! بل استمر وأنت مأجور، أنت الآن تسير على منهج الأنبياء والصالحين والدعاة لا تقصر.

ولذلك يخبر نوح عليه السلام أيضاً طريقته في الدعوة فيقول: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا﴾ [نوح: ٨].

شوف لما قال: ﴿وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾، ماذا قال بعدها؟ قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾.

لما تأتيك (ثُمَّ) يدل على أن هناك دعوة سابقة. ما هي الدعوة السابقة؟ كما ذكر أهل التفسير أن نوحاً أول ما سلك في دعوته الدعوة السرية، فكان يأتي للشخص وينفرد به ويدعوه سراً، يأتي للاثنين ثلاثة قد وقفوا في مكان ما أو جلسوا في مكان ما فيأتيهم سراً ويخبرهم بدعوته، ثم يأتي للشخص والواحد والرجل والمرأة ويأتيهم في بيوتهم وفي مجالسهم سراً. أول ما بدأ دعوته بالسر، كما بدأها محمد صلى الله عليه وسلم؛ نبينا محمد دعا قومه سراً ثلاث سنوات لم يجهر بالدعوة حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

فلما قال الله عز وجل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ جهر بالدعوة. ونوح عليه السلام نفس المنهج؛ دعا قومه سراً ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ بعد ذلك.

ثم قال: ﴿ثُمَّ إِنِّيَ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩].

يقول: أولاً دعوتهم سراً ما قبلوا، دعوتهم جهاراً جهرت بدأت آتي لهم في المجامع وأرفع صوتي بقوة وأبلغهم الرسالة ولم يقبلوا، ثم بعد ذلك بدأ يعلن ويسر، يعني تارة إذا وجد أن المجال أنسب في الدعوة جهراً وإعلاناً أعلن، وإذا رأى المناسب السر أسر، فبدأ يجمع بين هذا وهذا، فهو سلك كل المسالك: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾.

فبدأ الآن يرغبهم في الدعوة ويبين لك ما المنهج الذي سار عليه، الطرق التي سارها يعلن ويسر ونحو ذلك. الآن بدأ يستعمل طريقة الترغيب معهم، الترغيب قال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

يقول: استغفروا ربكم توبوا إليه وارجعوا إليه واستغفروه مما سلف من الذنوب والمعاصي، اطلبوا من الله المغفرة. معنى استغفروا: اطلبوا من ربكم المغفرة أن يغفر لكم ما سلف وكامل من الذنوب: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، يعني غفاراً كثير المغفرة يغفر لكم ذنوبكم إذا استغفرتم. والله سبحانه وتعالى يحب من عبده التوبة، والله يفرح بتوبة عبده؛ لما يتوب الإنسان ويستغفر يفرح الله سبحانه وتعالى بتوبته. ومغفرة الذنوب رحمة من الله أن يفتح الله لك المجال أن تطلب منه أن يغفر لك ذنوبك فيغفر لك ذنوبك. يقول نوح: استغفروه يغفر لكم. هذا الأمر الأول.

الأمر الثاني: أعطاك ثمرات الاستغفار؛ يعني أنت الآن إذا أكثرت من الاستغفار ستجد ثمرة الاستغفار في نفسك. ما هي ثمرات الاستغفار التي بينها نوح لهم؟ قال أولاً:

﴿يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [نوح: ١١].

يرسل السماء؛ يعني يرسل المطر ينزل المطر عليكم أمطار غزيرة تنزل عليكم بسبب استغفاركم وتوبتكم إلى الله. التوبة والاستغفار سبب في نشر الخير: ﴿يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، مدراراً يعني تدر كثيراً، تمتلي الطرقات والأودية من الأمطار والخير والبركة: ﴿يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾. فإذا أرسل السماء عليكم مدراراً امتلأت الآبار، وحييت الزروع والأشجار، وحييت البهائم، وبدأ الناس يرتعون على الأرض، والأرض انقلبت؛ بدل ما تكون غبراء أصبحت خضراء، فالخير كله في هذا المطر المبارك: ﴿يُرْسِلِ السَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾، هذا أولاً.

ثانياً: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٢].

ثمرة الاستغفار كل هذا: يمددنا بأموال خير مال عظيم يفتح الله علينا من الأموال الخير العظيم وبالأموال وبالبنين، والمال والبنون هي زينة الحياة الدنيا، ويجعل لكم جنات يجعل لكم البساتين والأشجار ويجعل لكم الأنهار التي تكون سبباً في إحياء هذه الجنات والحدائق.

ثم لما بين لهم ما قبلوا ولا يريدون أن يقبلوا، حتى لو أعطاهم أكثر وأكثر من هذه الثمرات وهذه الآثار آثار الاستغفار ما قبلوا، عندهم إعراض شديد لم يقبلوا. فاستخدم معهم طريقاً آخر؛ الطريق الأول طريق الرغبة والتشجيع ما قبلوا، استخدم معهم طريق الرهبة والتخويف، قال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

أنكر عليهم: ليش ما ترجون لله وقاراً؟ ليش ما تخافون الله؟ لا تخافون عظمه الله وسلطانه العظيم أن يصيبكم بعذاب؟ لماذا: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، لا تخافون لله عظمه وتوقيراً؟

قال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤].

بدأ يبين لهم حق الله عليهم ويبين لهم أيضاً نعم الله عليهم وقدرته في الكون ودلائل الكون الدالة على وحدانيته، قال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، خلقكم أطواراً في بطون أمهاتكم؛ خلق نطفة ثم علقة ثم

مضغة، ثم بعد ذلك تكون عظاماً ثم يكسو العظام لحماً، ثم إذا تم خلقه خرج من بطن أمه، ثم يمر بأطوار: طور الطفولة، وطور الفتوة، والشباب، ثم بعد ذلك الرجولة، ثم بعد ذلك الكهولة، ثم كما قال تعالى:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

فمر خلقكم أطواراً، وهذا يدل على قدرة الله على خلق هذا الإنسان.

ثم لفت نظرهم إلى السماء، قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

لو أطلنا أيها الإخوة السورة متكاملة ونريد أن نأخذها بكمالها؛ لأنها دعوة رسالة هي رسالة أعطيك إياها وأعطيها كل إنسان وأعطيها نفسي أولاً. هذه الرسالة لو أعطيك نصفها وأجلت نصفها ما استفدت من الرسالة، فلو أطلنا في الجلوس في هذا المكان المبارك والملائكة تحف الحاضرين بإذن الله والسكينة تغشاهم والرحمة تنزل عليهم، هذا خير عظيم فلو أطلنا حتى نستكمل السورة.

فخوفهم قال: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، ثم لفت نظرهم إلى السماء قال: انظروا إلى السماء، من الذي خلق سبع سماوات طباقاً من غير عمد؟ من الذي رفعها وخلقها هذا الخلق العظيم؟ من هو؟ وبدع خلقها، بديع السماوات من هو؟ خلق سبع سماوات طباقاً انظروا، وزين السماء الدنيا، قال:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

جعل القمر ينير على الأرض في ظلمة الليل، وجعل الشمس سراجاً وهاجاً يعطي إضاءة قوية وحرارة لمصلحة الخلق، سراجاً وهاجاً. هذا كله يدل على قدرة الله ونعمه ووحدانيته. لا بد أن نفهم هذه الأشياء؛ الآيات الكونية التي تنظرها أنت في السماء أو في الأرض تدل على أي شيء؟ تدل على وحدانيته سبحانه وتعالى المنفرد بالخلق، وتدل على نعمه عليك أنت وجنسك، وتدل على قدرة الله سبحانه وتعالى القادر. من الذي يرفع السماء؟ من الذي وضع القمر ومن الذي وضع الشمس إلا الله سبحانه وتعالى؟

ثم لما لفت أنظارهم إلى السماء لفت أنظارهم إلى أنفسهم، قال: انظروا في أنفسكم أنتم: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧].

يعني خلق أصلكم آدم من الأرض من تراب: ﴿أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾. ثم لما خلقكم وجعلكم من بعده تتناسلون يعيدكم إلى الأرض مرة أخرى؛ لأنها هي أصلكم وهي أمكم فتعودون إلى الأرض، قال: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٨].

يعيدكم في الأرض أمواتاً، ثم بعد ذلك إذا أراد الله إخراجكم من قبوركم أعاد إليكم أرواحكم وأخرجكم من قبوركم أحياء: ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

ثم بين لهم أيضاً، لفت أنظارهم إلى الأرض، قال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: ١٩].

أي مبسوطة متسعة، تجد أرضاً ممتدة طويلة ليس فيها أودية ولا جبال، وهي من مصلحة العباد؛ يبنون عليها ويزرعون عليها وينامون عليها ويجلسون عليها لمصلحة العباد ويمشون عليها بهدوء، قال: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ لماذا؟

قال: ﴿لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٢٠].

طرقاً واسعة. فذكرهم بنعم الله وذكرهم بآياته في السماء وفي أنفسهم وفي الأرض ومع ذلك لم يقبلوا أبداً.

قال نوح بعد ذلك لما استمر في دعوته وهم لم يقبلوا ولا يريدون القبول منه، كما بين الله سبحانه وتعالى يجعلون أصابعهم في آذانهم ويستغشون ثيابهم، قال نوح يشتكي إلى ربه:

قال تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

عصوني ولم يقبلوا مني أبداً، واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً؛ اتبعوا كبراءهم ورؤساءهم الذين عندهم أموال وعندهم أولاد، وأموالهم وأولادهم لا تزيدهم إلا خساراً؛ لأنهم على كفر وضلال، فلا تنفعهم أموالهم بل تضرهم أموالهم؛ لأن المال إذا كان مع من هو كافر وظالم ومسرف وشقي كان ماله عليه وبالاً ما يزيده إلا خساراً ووبالاً، والولد يزيده خساراً ووبالاً: ﴿لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾.

قال: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ [نوح: ٢٢].

كيف مكروا؟ يعني حاولوا بنوح وأصحاب نوح من آمن معه أن ينتقموا منه. والمكر هو أخذ الشيء بخفية وبحيلة يقتنع عليهم، فكانوا يترصدون لهم ويمكرون بهم، وليس مكرهم أي مكر، وصفه الله عز وجل بأنه مكر كُبَّار، قال: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي مكراً عظيماً.

بل زيادة على ذلك من أنهم يعني اتبعوا أهل الكفر والضلال ومكروا المكر الشديد بنوح وأصحابه، زيادة على ذلك يوصي بعضهم بعضاً بأن يتمسكوا بآلهتهم وعباداتهم، يقولون: تمسكوا ولا تطيعوا نوح أبداً، كما كان يفعله أهل مكة مع محمد؛ إذا جاء أحد داخل إلى مكة يريد أن تؤدي العمرة أو الزيارة إلى مكة لحقه أقوام من أهل مكة فقالوا: احذر عندنا ساحر، عندنا كاهن، عندنا كذا، احذر هذا الرجل! فكان بعضهم يوصي بعض. وهؤلاء قوم نوح نفس الشيء قالوا: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

لا تتركون آلهتكم، احذروا أن تتنازلوا عن آلهتكم وتطيعوا نوحاً الذي يأمركم بعبادة الله، لا تطيعوه ابقوا على عبادة الأصنام: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾. خمسة من الأصنام التي يركزون عليها ويحثون على عبادتها. ما هي الأسماء هذه؟ هذه أسماء رجال صالحين كانوا فيهم، كان فيهم رجال صالحين، فلما كان هؤلاء الرجال الصالحين يدعون لهم الله عز وجل وكانوا سبباً في الخير، فلما ماتوا بدأوا يزورونهم في قبورهم، ثم إنهم بعد ذلك جاءهم الشيطان قال: بدلاً ما تزورون تذهبون إلى قبورهم صوروهم في مجالسكم حتى إذا تذكرتم إياهم بدأتوا تدعون لهم وبدأتوا تطلبون منها التوسل، فمر هذا الجيل ومر جيل ومر جيل إلى أن جاءت أجيال بعدهم فجاء الشيطان فقال: إن هذه الصور كان آباؤكم يعبدونهم من دون الله فاعبدوهم! فعبدوهم فظهر الشرك في قوم نوح، فأرسل الله نوحاً إليهم.

قال: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، قال: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّلِمِينَ إِلَّا ضَلَلًا﴾ [نوح: ٢٤].

يعني أضلوا كثيراً، لم يضلوا بأنفسهم بل أضلوا غيرهم أضلوا كثيراً، ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً أي بعداً عن طاعتك؛ لأنهم لم يقبلوا منه. والظالم إذا استمر والمفسد إذا استمر تدعو عليه بالهلاك؛ لأن هلاك الظلمة وهلاك المفسدين في الأرض خير، ولذلك لما قال الله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فالحمد لله على هلاك الظالمين.

قال الله عز وجل في نهاية المطاف وختام السورة:

قال تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

بسبب خطاياهم، ما هي النتيجة؟ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾، أرسل الله عليهم الطوفان؛ أرسل الله عليهم الطوفان فبدأت الأرض تنبع عيوناً والسماء تنزل بالماء المنهمر، فالتقى الماء على أمر قد قُدر وأغرقهم الله جميعاً، أغرقهم جميعاً حتى وصل الماء إلى أعالي الجبال كما قال ابن نوح قال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ﴾ [هود: ٤٣]، فحال بينهما الموج فكان من المغرقين. قال: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾ هذا العذاب الأول عذاب الدنيا، ﴿فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ هذا عذاب القبر وعذاب الآخرة، ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا﴾ ينصرهم ويخلصهم من هذا العذاب.

ولما أوحى الله إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، لما علم أنهم لن يؤمنوا دعا عليهم فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

أي إنساناً يمشي عليها ويدور عليها ويسكن في دار من دورها، لا تبقِي أحداً لا في دار ولا في طريق، هذا معنى ﴿دَيَّارًا﴾ لا تبقِ أحداً لا في داره ولا في طريقه أهلكهم جميعاً، فدعا عليهم: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾.

لماذا؟ قال: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

لأنهم يضلون الناس ولا يريدون لأحد أن يهتدي: ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾؛ إذا ولدوا ولداً -ذكراً أو أنثى- يربونه على معصية نوح ويقولون احذر هذا الرجل، ويربونهم على عبادة الأصنام وعلى الإعراض عن طاعة الله. فلما علم نوح أن كل ما وُلد -لأن نوحاً مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة- فلما رأى منهم كلما وُلد جيل جاءهم جيل ربوه على الإعراض قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

ثم إن نوحاً لما رأى أن الله أهلكهم جميعاً رفع يديه ودعا ربه سبحانه وتعالى فقال: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: ٢٨].

رب اغفر لي في تقصيري وما حصل مني: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾، وفي هذا دلالة على أن والدي نوح مؤمنين وإلا لم يدعُ، ما الفائدة؟ قال: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾؛ والد نوح أسلموا وآمنوا، وزوجته كافرة وهي كما قيل ادخل النار مع الداخلين وزوجته كافرة، وأحد أبنائه الذي غرق كان كافراً، فآمن بعض

أبنائه وآمن بعض أهله. قال: ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾، كل من دخل بيتي مؤمناً اغفر له، ثم عمم قال: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ أي إلا هلاكاً؛ لأنهم لا يقبلون ولا يريدون قبول الحق.

هذه السورة بكاملها استطعنا ولله الحمد أن نأتي على آياتها جميعاً، ليست بالطويلة ولله الحمد وفقنا الله ويسر لنا أن تناولناها في هذا المجلس المبارك، وهي حقيقة سورة زاد الداعية ومنهج الداعية في دعوته إلى ربه، وهذا نوح نموذجاً لكل داعية يدعو إلى الله. وأنا أقول: كلنا دعاة، لا يقول والله الداعية لا بد أن يكون مؤهلاً من جميع الجهات؛ أنت داعية وفلان داعية يدعو على قدر استطاعته: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**». أما أن نستمع أو نقرأ ثم لا نبلغ ونكتم فهذا ليس من منهج الدعاة، ليس من منهج الدعاة.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمارنا، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يوفقنا لطاعته. وبارك الله فيكم على حسن إنصاتكم واستماعكم وجلوسكم، ونعتذر على التطويل عليكم. جزاكم الله خيراً وبارك الله فيكم، نلتقي على خير والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الجنِّ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الجن ١- ١٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو اليوم الحادي والعشرون من شهر شوال من عام ١٤٤٥ للهجرة. مجلسنا المبارك مع تفسير القرآن العظيم، نأخذ آيات من كتاب الله نقرؤها ونتأملها ونتدبر ما فيها من توجيهات ربانية وعلم، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يزيدنا وإياكم علماً وبركة وتوفيقاً.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (الجن)، وسورة (الجن) من السور المكية، وهي تتحدث عما أخبر الله فيها من أحوال الجن ومواقف عجيبة لعالم الجن، ثم في آخر السورة تتحدث عن موقف النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته، الجن عالمٌ خلقه الله سبحانه وتعالى قبل خلق الإنس وقبل خلق آدم؛

قال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧].

فالجن خلقه الله من النار؛ من نار السموم، مخلوق من نار، والملائكة خُلقت من نور، والإنسان خُلق من تراب. والجن منهم الصالح ومنهم الكافر الظالم الجائر؛ كما قال سبحانه وتعالى:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن: ١١]، وقال: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ [الجن: ١٤]؛ يعني الظالمون الجائرون. فمنهم الصالح المؤمن، ومنهم دون ذلك، ومنهم الكفار المَرَدة.

والجن ينتسبون كلهم إلى أبيهم إبليس، وإبليس خلقه الله وإبليس من الجان كما أخبر: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وهؤلاء ذريته؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [الكهف: ٥٠].

فذريتهم، ذرية إبليس منهم شياطين ومنهم صالحون، كما أن بني آدم منهم شياطين ومنهم صالحون؛ شياطين الإنس والجن.

وهم كما ذكر أهل العلم يسكنون على سطح البحر في الغالب؛ كما أن الشيطان يضع عرشه على سطح الماء، ويسكنون في أماكن أخرى؛ شياطينهم في الأماكن القذرة كدورات المياه ونحوها، وغيرهم يسكنون في البيوت المهجورة وغيرها.

فالجن خلقهم الله لعبادته؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

خلقهم الله للعبادة وكلفهم، وهم مكلفون ومحاسبون على أعمالهم.

الجن كما أخبر الله سبحانه وتعالى، سمى هذه السورة سورة (الجن) لأنها تتحدث عن أحوال الجن ومواقفهم من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، ومواقف أخرى يذكرها القرآن من أشياء غيبية لا يعلمها النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يعلم؛ ولذلك أخبر الله في أولها أن هذا أمرٌ ما كان يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو لما جاءه هؤلاء النفر واستمعوا القرآن ما كان يعلم؛ لما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ١].

أُحي إليه، ولولا الوحي لما علم، فأوحى الله إليه بهذا الخبر.

والجن كما ذكر الله هنا وكما سيأتينا أنهم كانوا يسترقون السمع من السماء ويلقون به على من هم اتباع لهم من الإنس كالكهنة وغيرهم ليخبروا بأخبار الغيب، ولكنهم بعد البعثة لم يستطيعوا أن يسترقوا السمع؛ لأن السماء ملئت حرساً شديداً من الملائكة، وملئت من الشهب وهي ما يُقذف من الكواكب عليهم بالشهاب المحرق، فلما رأوا هذا الأمر استغربوا فقالوا: قد حدث شيء في الأرض! فبدأوا يتلفتون يميناً وشمالاً ويبحثون ويجولون الأرض جوالاً يبحثون عن هذا الأمر.

وكان هناك من الجن مما يقال إنهم جن تهامة أنهم كانوا يبحثون، وفي ذلك اليوم أن النبي صلى الله عليه وسلم ذهب هو وأصحابه إلى عكاظ، إلى مكان سوق عكاظ ذهب إليه صلى الله عليه وسلم، وفي الطريق جاءه وقت صلاة الصبح فصلّى الصبح في مكان يقال له نخلة، فلما صلّى الصبح فيه قرأ القرآن استمع الجن إليه، بعث الله إليهم هؤلاء النفر. والنفر كما قال أهل العلم من الثلاثة إلى العشرة، فاستمعوا إلى القرآن

فعلموا ما الذي جرى، فأخبر بعضهم بعضاً بأنه قد بُعث نبي وأنه أُنزل عليه القرآن، فاستمعوا للقرآن فأخبر القرآن بهذا الموقف العجيب.

فقال سبحانه وتعالى في أول آيات هذه السورة بعد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

كلمة ﴿قُلْ﴾ هذه في القرآن يعني تقريباً خمس سور مفتتحة بـ (قُلْ): ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾، و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؛ خمس سور. ﴿قُلْ﴾ هذه لما تأتي تدل على أن ما وراءها أمرٌ مهم وأنه ينبغي الاهتمام بما بعدها، فكان النبي يخبر أصحابه ويخبر الناس بهذا الخبر؛ لأن الله يقول ماذا يقول؟ ﴿قُلْ﴾ يعني قل لهم وأخبر الناس بأي شيء؟ قال: قل لهم أُوحي إليّ، أي وحيٌ من السماء جاءني، وحيٌ من السماء أوحى إليّ جبريل، أُوحي إليّ ماذا أُوحي؟ ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ أي أن الله أرسل نفراً من الجن يستمعون القرآن.

﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾، و (استمع) غير سَمِعَ، استمع تدل على الاهتمام وعلى أنه جاء لقصد الاستماع؛ لما تقول فلان يستمع غير فلان يسمع، ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ ومثل ما ذكرنا عددٌ من الثلاثة إلى العشرة من الجن، ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾.

هؤلاء النفر هذا موقف، والجن لهم عدة مواقف مع النبي صلى الله عليه وسلم، هذا من المواقف، وهناك في سورة الأحقاف قال:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

هذا موقف آخر، هذا موقف وهذا موقف آخر، وهناك مواقف أخرى ذكر بعضهم أنها أربعة أو أكثر، منها موقف ابن مسعود رضي الله عنه أنه خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما مضى في طريقه وقف في مكان فقال لعبد الله بن مسعود: «قِفْ وَلاَ تَبْرَحْ مَكَانَكَ وَلاَ تَتَجَاوَزْ هَذَا الخَطَّ»، ثم ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وجاء الجن وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الإسلام، فابن مسعود لما رأى سواد عظيم خاف ولكنه تذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم لا تبرح مكانك، فجاءه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «مَاذَا

رَأَيْتَ؟»، قال: رأيت كذا وكذا، قال: «لَوْ جَاوَزْتَ مَكَانَكَ لَهَلَكْتَ». فهذا موقف، وهناك مواقف ذكرها أهل التفسير وأهل السير مع الجن.

قال: ﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]. عجباً في بلاغته وفي فصاحته وفي قوة عباراته، تعجبوا من ألفاظه: ﴿سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ هذه ألفاظه. أما معانيه ودلالاته اسمع ماذا قالوا، قالوا: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢].

والرشد هو الاستقامة ومعرفة الحق، والرشد ضد الغي والضلال، الرشد هداية؛ فقالوا: يهدي هذا القرآن إلى الرشد، يهدي إلى أحسن الأخلاق والأقوال. فالقرآن ألفاظه عجيبة وبليغة وفصيحة وهذه ألفاظه، ومعانيه أعظم، ولذلك من معانيه قال: ﴿يَهْدِيٓ﴾، والفعل المضارع لما أقول يهدي يدل على أي شيء؟ يدل على الاستمرار، لم يهدِي في زمن معين بل القرآن يهدي إلى قيام الساعة؛ ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾.

فماذا كان موقفهم؟ قالوا: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، والفاء تدل على السرعة، ما قالوا ثم آمنا أو جلسنا نفكر ثم آمنا، لا؛ ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ مباشرة، ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾. عرفوا أن القرآن يدل على التوحيد وعلى طاعة الله ولذلك آمنوا وتركوا الشرك؛ لأن بعضهم كان على الشرك وكانوا يسترقون السمع ويؤذون الناس، فلما سمعوا دخلوا في الإسلام وآمنوا ولم يشركوا بربهم أحداً، قالوا: آمنا به ولن نشرك بربنا أحداً.

هنا وقفة عجيبة ذكرها بعض أهل التفسير؛ يقول: الجن سمعوا مرة واحدة موقف واحد، والإنس جلس النبي صلى الله عليه وسلم معهم ثلاث عشرة سنة وما آمن إلا القليل، وأكثر أهل مكة لم يؤمنوا، عجباً لهم! حتى ذكر بعضهم يقول: نوح عليه السلام دعا البهائم دعوة واحدة فركبت، ودعا قومه تسعمائة وخمسين سنة ما آمن معه إلا قليل! الجن مباشرة آمنوا، ولا نقول آمنوا جميعاً، آمن من آمن منهم.

خذ من مواقفهم لما قالوا: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٢-٣]. يقولون: الله سبحانه وتعالى العظيم لم يتخذ صاحبة كما يقوله المشركون من الجن والإنس ولم يكن له ولد.

(الجَدّ) هنا وإن كان بعض الجهلة يفهمها فهماً خاطئاً، الجد هنا ما معناها؟ العظمة والجلال والكبرياء لله، ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ يعني عظمته وجلاله، الجد. وهذه لغة العرب واسعة، تجد الكلمة الواحدة

تُستعمل في أكثر من معنى؛ لو أسألك الآن وأقول لك: كلمة (الأُمّة) ما معناها في القرآن؟ تقول: الأمة الجماعة. طيب لما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

جماعة؟ نقول: لا، ليست بجماعة، ما معناها؟ نقول: هذا دينكم، الأمة هنا معناها الدين؛ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني دينكم دين واحد. طيب وتسمع في قوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].

ما معنى الأمة؟ قال: الزمن. طيب: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠].

ما معناها؟ قال: قدوة. فتجد كلمة واحدة في القرآن لها عدة معانٍ ما تأخذها أنت بمعنى واحد، خطأ لو جاءك واحد قال لك أمة تقول لا، الأمة لها معانٍ كثيرة.

وهكذا كلمة (الجَدّ) هنا، الجد هنا معناه العظمة والجلال. والجد يأتي بمعنى الحظ والنصيب، وأنت بعد الصلاة ماذا تقول؟ ماذا تقول بعد الصلاة؟ «اللَّهُمَّ لاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ»؛ يعني الحظ والنصيب، جد هنا حظ ونصيب. والجد أيضاً أبو الأب تقول له جد، أبو الأب يقال له جد، هذا أب وهذا جد. وهنا جد، فلا بد أن نفهم لغة العرب؛ فقوله هنا: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ معناها عظمته وجلاله. تعالى الله عز وجل بعظمته وجلاله ما اتخذ صاحبة ولم يحتاج ولم يكن له ولد، الذي يتخذ صاحبة هو الفقير المحتاج، والله هو الغني له الغنى المطلق لا يحتاج إلى صاحبة، والذي يحتاج إلى الولد الفقير المحتاج الضعيف، والله سبحانه وتعالى له ملك السماوات والأرض ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ولا يمكن أن يوصف بمثل هذا، سبحانه وتعالى عما يشركون وعما يقولون علواً كبيراً.

فهؤلاء نزهوا الله قالوا ما اتخذ صاحبة، هذا الآن علاقتهم مع رب العالمين.

وقالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: ٤].

يخبرون هؤلاء الجن أنه كان يقول سفيهنا، من هو سفيههم؟ هو إبليس ومن تبعه من أهل الضلال، يقولون على الله شططاً، يقولون قولاً جائراً لا يليق، قولاً لا يصلح ولا يمكن ولا يُقبل، ويصفونه بصفات النقص.

قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن: ٥].

يقول: ظننا ظناً ويقيناً أن الإنس والجن لا تقول على الله إلا الصدق وإلا الحق، لا يقولون على الله كذباً؛ ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً، ولا يمكن أن يكذب أحد على الله! كيف تتجرأ وتفتري على الله الكذب؟ فكان هذا عندهم أنهم لا يمكن أن يُقال في حق الله شيء فيه كذب وفيه ظلم.

ثم ذكروا موقف آخر من مواقف الإنس ويتعجبون من مواقف بعض الإنس، قالوا:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

كيف تتعوذ بمخلوق؟ تتعوذ بمخلوق والمخلوق ضعيف ما عنده شيء حتى تتعوذ! التعوذ ما هو؟ هو اللجوء والاعتصام بالله من الشرور، من الذي يعصمك من الشر ويحفظك من الشر إلا الله سبحانه وتعالى؟ فالاستعاذة لا تكون إلا بالله، فمن استعاذ بمخلوق فقد أشرك مع الله؛ لأن الاستعاذة عبادة لا تصرف إلا لله، وهي من خصائص الله، فلا يجوز لأي مخلوق أن يستعيذ ويلجأ إلى مخلوق مثله ضعيف، فلا يلجأ إلا إلى الله. والاستعاذة لا تكون إلا لله، والاستعاذة هي من العَوْذ وهو اللجوء والاعتصام بالله من الشرور.

يقول: يتعجبون، كان رجالٌ من الإنس يعوذون برجالٍ من الجن، والنتيجة؟ زادوهم رهقاً وخوفاً، أو زادوهم كبرياء وعظمة. كان رجالٌ من الإنس كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، كان الواحد منهم إذا نزل وادياً خاف من أهل هذا الوادي من الجن، فيتعوذ بسيد هذا الوادي من سفهائه فيقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهائه أن يصيبوني بشيء! فهذه استعاذة محرمة ولا تجوز. قال: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ أي زادوا، زاد الإنس الجن فخراً وكبراً وعظمة هذا إذا قلنا إن الإنس تزيد الجن فتكون فخراً وعظمة، وإن قلت فزادوهم أي الجن زادوا الإنس، زادوهم خوفاً وهلعاً.

قال: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ [الجن: ٧].

من هم؟ الإنس كما ظننتم أيها الجن أن لن يبعث الله أحداً. هم كان عندهم اعتقاد، يقصد الإنس وهم المشركون الكفار من الإنس، كانوا يعتقدون أنه لا بعث؛ كما كان أهل مكة يقولون أو كفار العرب يقولون: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦] يستبعدون البعث، فأخبرت الجن أنهم ظنوا هؤلاء الإنس كما ظننتم أيها الجن أن لن يبعث الله أحداً. والحقيقة أن الله يبعث، لما سمعوا

القرآن وآمنوا عرفوا حقيقة البعث، وأن الله لم يخلق الخلق عبثاً وإنما خلقهم لعبادته وأنهم سيجازيهم على أعمالهم وأن الله يبعث من في القبور.

قالوا أيضاً من أحوالهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨].

يقول: لمسنا السماء يعني قاربنا أن نمس السماء ووصلنا إلى أخبار السماء، قال: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ قد امتلات بالحرس من الملائكة والشهب التي ترسل عليهم فتحرقهم.

قال: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩].

قبل البعثة، قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم كنا نقعد منها مقاعد للسمع، كنا نجلس مجالس يجلس بعضنا فوق بعض حتى يصلوا إلى أطراف السماء وعنان السماء ليسترقوا السمع من الملائكة فيأخذوا الخبر وينزلوا به إلى أتباعهم من الإنس من الكهنة. قال: كنا نقعد منها مقاعد للسمع، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾؛ يقول: من يقترب من السماء يحرقه الشهاب، من الكوكب ينزل عليه الشهاب الذي يحرقه، شهاباً رصداً أي مرصود له بحيث إنه بمجرد اقترابه يُحرق.

ثم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

ما ندري ما الذي حصل، قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هل هذا الحدث العظيم الذي أصبحت السماء قد امتلات بالحرس والشهب أشرٌ أُريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً؟ لا ندري هل هو شر ولا خير.

ولاحظ من أدب الجن أنهم لما جاءوا في الشر قالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ولما جاءوا في الخير نسبوا ذلك إلى الله فقالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، وهذا من الأدب ألا تنسب الشر إلى الله والشر ليس إليك. ولذلك إبراهيم عليه السلام تأدب فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

ما قال وإذا أَمْرَضَنِي، هذا من الأدب: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، فلا يُنسب الشر. ولذلك الجن تأدبوا.

ثم أخبروا مثل ما ذكرنا منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

الذين على استقامة وطاعة لله ويعبدون الله حق عبادته؛ الصالحون، ومنا دون ذلك أقل وأقل إلى أن يصل أن منهم أهل الشرك والكفر وأهل الإسراف والسفاهة. قال: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾؛ طرائق يعني ملل كثيرة ومتشعبة، قدداً يعني مختلفة ومتشعبة.

قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢].

علمنا علم اليقين أن لن نستطيع أن نعجز الله في الأرض. (ظَنَنَّا) هنا معناها اليقين والعلم، مثل قوله تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠].

ظننت يعني تيقنت؛ لأن كلمة الظن مثل ما ذكرنا اللغة العربية واسعة، شوف كلمة الأمة كم معانيها، الجد ما معانيه، الظن ما معناه؟ لا تقول الظن الشك دائماً، لا؛ هو يأتي بمعنى الشك مثل قوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسوء﴾ [الفتح: ٦]،

يأتي بمعنى الشك، ولكن يُستعمل أحياناً، القرآن يستعمله أحياناً بمعنى اليقين، قال: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي إيه... أيقنا يقيناً أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً. يقول: أصبح عندنا اليقين أن الواحد منا لن يعجز الله ولن يفلت من حكم الله سبحانه وتعالى وعلمه، بل الله مطلع عليه وتحت حكم الله سبحانه وتعالى، لن نعجزه في الأرض ولن نعجزه لو هربنا من هنا وهنا لن نستطيع، مع أن عندهم القوة في الهروب، مع ذلك لم يهربوا.

قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣].

لما سمعوا القرآن وسمعوا الدعوة آمنوا وهي طائفة منهم كثيرة: آمنا به. والنتيجة؟ قال: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾؛ لا يخاف أن يُظلم فيُنقص ولا يُزاد عليه في شيء، يعني يتأذى منه أو يكون ظلماً عليه أو يكون تعدياً عليه.

فهذه مواقف عجيبة لهذا العالم العجيب نتعلم من الله سبحانه وتعالى، يعلمنا الله عز وجل ويخبرنا بالوحي هذه المواقف العجيبة، وهذا منها عالم الجن لم يكن إنسان يعلمه؛ لا محمد ولا غيره، أخبره الوحي بذلك، وهي مواقف عجيبة ينبغي أن نأخذها كدروس وعبر نستفيد منها في حياتنا.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما في هذه السورة من مواقف عجيبة.

أسأل الله أن ينفعنا وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا ولكم، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الجن ١٣- ٢٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم الموافق للثامن والعشرين من شهر شوال من عام ١٤٤٥ للهجرة. مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم؛ قراءة وتدبراً وتفهماً ومعرفة، وأيضاً نستفيد من توجيهات الله وأخباره وأحكامه.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (الجن)؛ كما مر معنا في لقائنا الماضي تحدثنا عن هذه السورة وعن عالم الجن وما أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة من أخبار لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، وأخبرنا عن أحوالهم وعما قالوه وعن مواقف نبيلة لهم وعن آداب وأخلاق أيضاً منهم، وأخبرتنا السورة أن الجن كالإنس؛ منهم الصالح المطيع المستقيم، ومنهم المتمرد الذي لا يستقيم على طاعة الله. فمثل ما أن الجن فيهم شياطين ومردة، الإنس أيضاً فيهم شياطين وفيهم مردة، والجن فيهم صالحون مستقيمون على طاعة الله منيبون لربهم وكذلك الإنس.

تبين معنا بعض الأحكام وبعض التوجيهات، ونواصل ما توقفنا عنده في هذه الآيات. وقفنا عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤-١٥].

هذه الآية خبر يخبر به الجن، يخبرون عن أنفسهم فيقولون: نحن منا مسلمون استسلموا لربهم وانقادوا لطاعته واستقاموا على شرعه، ومنا أيضاً القاسطون؛ الجائرون الظالمون، القاسطون الجائرون الظالمون. قال: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾؛ الذين أسلموا وانقادوا لربهم فهؤلاء قصدوا خيراً وقصدوا الاستقامة والرشد ووفقوا لها. ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾؛ يقول: القاسطون

الجائرون الظالمون المتمردون عرضوا أنفسهم لجهنم فأصبحوا حطباً لجهنم؛ حطباً، إن نار جهنم وقودها الناس والحجارة ووقودها الجن، قال هنا: كانوا حطباً، ﴿فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

القاسط غير المقسط؛ الذي أَقْسَطَ بمعنى عدل في حكمه، والذي قَسَطَ -شوفوا الفرق بين أَقْسَطَ وقَسَطَ- فإن قلت فلان أَقْسَطَ يعني جار في حكمه فمعناه أنه استقام وعدل في حكمه؛ أَقْسَطَ معناها حكم بالعدل من (القِسْط)، والله يحب المقسطين؛ المقسط الذي أَقْسَطَ بمعنى عدل في حكمه. وأما الذي قَسَطَ بمعنى جار وظلم، قَسَطَ يعني جار وظلم وخالف العدل، هؤلاء هم القاسطون الذين ظلموا وخالفوا حكم الله وخالفوا حكم الله. ففرق دقيق جداً أيها الإخوة بين أن تقول هذا قاسط وهذا مقسط، والله يحب المقسطين ويبغض القاسطين؛ شوف الفرق بين أن تقول قَسَطَ في حكمه وأَقْسَطَ في حكمه، فهناك فرق دقيق.

يقول الله سبحانه وتعالى -شوف الكلام الآن حتى نتفهم الكلام، حتى ندرك معاني هذه الآيات وندرك الخطابات التي فيها- شوف لما يقول: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ هذا كلام الجن. لما يقول الله سبحانه وتعالى بعدها: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]،

هذا كلام الله سبحانه وتعالى؛ لأن الذي أسقاهم هو الله، فشوف تغيرت الخطابات، فقال هنا: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، قل: لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً. من هم القاسطون؟ لو رجعوا إلى ربهم وتابوا وأحسنوا عملهم مع الله سبحانه وتعالى واستقاموا على شريعة الله، ما هي النتيجة؟ قال: لأسقيناهم؛ ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ على شريعة الله ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾. والمراد بالماء هو المطر الذي ينزل من السماء وينبت الزرع؛ يعني معنى هذا الكلام لو أنهم استقاموا على الطريقة لفتح الله عليهم بركات السماء والأرض؛ السماء تمطر والأرض تنبت، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

فمعنى هذا: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ يعني لفتحنا عليهم الخيرات، لجاءتهم الخيرات.

قال: وهذه الخيرات هي فتنة؛ هي فتنة للناس جميعاً، حتى الأنبياء يفتنون في الخير؛ ولذلك سليمان لما فتح الله عليه الخير قال:

قال تعالى: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ أَءَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]،

هذا امتحان يختبرني ربي؛ أكفر هذه النعمة أو أشكر هذه النعمة. ولذلك هنا قال: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٧]، أي هذا الخير الذي يأتيهم يفتنون فيه. فالإنسان يفتن في الخير ويفتن في الشر: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]،

وقال: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فالإنسان أحياناً يبتلى بالسيئات ويمتحن هل يبتعد عنها، هل يتجنبها أو يقع فيها؟ وأحياناً يبتلى بالخير هل يشكر؟ إذا أعطاه الله خيراً هل يشكر؟ فإن لم يشكر وكفر هذه النعمة سُلبت منه، ولذلك هنا قال: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾؛ امتحان الدنيا.

قال: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

يقول: من يعرض عن ذكر الله ويعرض عن طاعة ربه ولا يستقيم على شرع الله، النتيجة ما هي؟ قال: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾؛ أن الله يدخله نار جهنم، هذا معناه: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ أي يجعله يسلك ويدخل هذا العذاب. وهذا العذاب وصفه الله بأي شيء؟ بأنه عذاب صعد، وصعد من التصعيد وهو الشدة والقوة، بمعنى أنه يسلك عذاباً عظيماً لا يقدر قدره إلا الله سبحانه وتعالى. وفي هذا تهديد عظيم شديد لمن يعرض عن ذكر الله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

فمن أعرض عن ذكر الله عرّض نفسه للعذاب.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

هذا من خبر الله سبحانه وتعالى ليس من خبر الجن؛ الآيات بدأت تتغير في خطاباتها، كان في أول السورة كله أخبار عما قاله الجن، وهنا أخبار من الله سبحانه وتعالى. قال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾. ما المراد بالمساجد؟ أهل التفسير اختلفوا في ذلك؛ فبعضهم -وهو الكثير منهم- أن المساجد هي المساجد المبنية للصلاة، المساجد لله فلا تُقام المساجد إلا لله، فلا يُدعى مع الله إلهاً آخر لا في المساجد ولا في غيرها، فإنما بُنيت المساجد التي هي بيوت الله لعبادته وإقامة شرعه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾. وهناك من المفسرين من يقول إن المساجد المراد بها مواضع السجود للإنسان؛ مواضع

السجود للإنسان كالجبهة والأنف والأيدي والركبتين والقدمين، هذه لا الإنسان يخضعها إلا لله ولا يمكنها إلا لله، لا يسجد لبشر، لا يسجد لصنم، ولا يسجد لمخلوق، وإنما تكون مواضع السجود لله. فالمعنيان متقاربان؛ مواضع السجود التي هي المساجد لم تُبنَ إلا لله ولإقامة شرعه، والإنسان إنما خُلق لعبادة الله فلا يسجد إلا لله فلا يسجد إلا لله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾. ولذلك قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا﴾؛ فلا تدعوا يعني لا تدعُو في المسجد مع الله إلهاً آخر، ولا تجعل أنت نفسك يعني تدعو غير الله أو تخضع إلا لله سبحانه وتعالى، ولذلك قال: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ﴾ إلهاً آخر. والدعاء هنا هو دعاء المسألة ودعاء العبادة؛ دعاء المسألة أن ترفع يديك تقول يا رب، هذا نسميه دعاء المسألة، ودعاء العبادة هي عباداتك كلها لأن عباداتك كلها دعاء لله وتقرب إلى الله، فالدعاء على ما ذكرنا: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لما قابل نفراً من الجن، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

شوف ولم يقل: وأنه لما قمت يا محمد، أو لم يقل: وأنه لما قام نبينا أو رسولنا؛ لا، قال: ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾. لماذا؟ لماذا قال ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾؟ تشريف للرسول صلى الله عليه وسلم، شوف العبودية شرف، العبودية شرف؛ ولذلك الله سبحانه وتعالى وصف نبيه محمداً بالعبودية في مواضع التشريف، مثل ماذا؟ مثل لما جاء في موضع نزول القرآن قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١].

ولما جاء في الإسراء وهي معجزة عظيمة قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

ولما جاء في مقام الدعوة هنا قال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، ففي مقامات التشريف تأتي العبودية، الخضوع لله. ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ يدعوه؛ يدعو من؟ يدعو إلى الله عز وجل.

قال: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩].

أي الجن كادوا يكونون عليه لبداً؛ لأنهم بدأوا يتخابرون ويتعالمون فاجتمعوا جمعاً عظيماً على النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون القرآن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فأصبحوا منذرين داعين إلى الله عز وجل، فكانوا قد تجمعوا على النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا قد يكون يعني كما ذكرنا في لقاءاتنا الماضية أو اللقاء الماضي أن النبي صلى الله عليه وسلم قابل الجن أكثر من

مرة في عدة لقاءات؛ أول لقاء لما ذهب إلى مكان يقال له عكاظ توجه هو وأصحابه فأدركتهم صلاة الصبح فصلّى بأصحابه وقرأ فسمعه نفر من الجن فاجتمعوا عليه واستمعوا وعرفوا، استمعوا القرآن وقال الله سبحانه وتعالى في أول السورة يعني أخبر عنهم أنهم استمعوا القرآن قال: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، هذا موقف وهو الموقف الأول. وهناك مواقف كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه لما قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «امْكُثْ مَكَانَكَ هَذَا لاَ تَبْرَحْ»، وخط له خطاً قال: «لاَ تَتَجَاوَزْ»، ثم ذهب النبي صلى الله عليه وسلم فقابل الجن وكانوا عدداً كبيراً، فسمع ابن مسعود أصوات عظيمة ورأى سواداً عظيماً، فلما جاء النبي وأخبره قال: «مَاذَا رَأَيْتَ؟»، قال: رأيت سواد عظيم وسمعت أصواتاً، قال: «لَوْ جَاوَزْتَ خَطَّكَ هَذَا لَهَلَكْتَ». فهذا موقف، وهناك مواقف أكثر من هذا. فالشاهد من الكلام أنه لما قام يدعوهم لأنه اتفق معهم على موعد للدعوة وبيان أحكام الشريعة وقابلوها، وفي هذا يعني أمر عجيب؛ يعني الجن جاءوا واتفقوا على موعد وقبلوا دعوته وانطلقوا مسرعين دعاة يدعون إلى الله، وأهل مكة في عناد وكفر ومحاربة ورد للدعوة. يقول هنا: حتى ذكر بعض المفسرين أنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً أن هذا في حق المشركين، وأن المشركين يريدون أن يصدوا النبي صلى الله عليه وسلم عن دعوته وكانوا كلما قرأ النبي صلى الله عليه وسلم أو دعا تجمعوا حوله ليمنعوه، لكن الذي يظهر والله أعلم أن هذا يعني من أحوال الجن، وأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إليهم داعياً وأنهم اجتمعوا عليه بكثرة.

يقول سبحانه وتعالى: قل يا محمد، قل لهم ولغيرهم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠].

يقول: أنا أدعو الله وحده لا شريك له، أدعو ربي دعوة إلى الله ولعبادته ولا أشرك به أحداً.

ثم قال: ﴿قُلْ﴾، وهذه كلها توجيهات للرسول لنعرف ماذا؟ لنعرف منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته؛ فإنه داعية إلى الله.

قال: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

يقول: أخبرهم أني لا أملك لكم، لا لي ولا لكم، لا أملك لكم ضراً ولا رشداً، إنما الذي يملك الضر والرشد هو الله سبحانه وتعالى. فتجردوا أو جردوا عبادتكم لربكم، أقبلوا على الله؛ فإن الذي يملك الضر أو يملك الضر والرشد هو الله سبحانه وتعالى.

ثم قال: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢].

لن يمنعني ولن يحفظني ولن يسلمني من العذاب، لن يجيرني أحد من الله، لن يجيرني أحد لو أراد الله عذابي وإصابتي بالعذاب لن يستطيع أحد أن يمنع هذا العذاب أو يرده. هذا إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم على فرض أن العذاب وُجه إليه؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لا يملك أن يصرف العذاب عنه فكيف بمن وُعدوا بالعذاب الأليم من يصرف عنهم العذاب؟ هذا معناه. قال: لا أملك لنفسي؛ ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾؛ لن أجد ملجأ ألجأ إليه وأفر من عذاب الله مهما فعلت، لن أستطيع أن أفر وأجد ملجأ ومكاناً ألوذ به عن عذاب الله، لا يمكن لا يمكن.

قال: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢٣].

يقول: أنا وظيفتي تبليغ الرسالة، لا أملك الضر، هذه منزلة النبي صلى الله عليه وسلم؛ هو أن يبلغ رسالة ربه، لا يملك أن يمنع ولا يملك أن يضر ولا ينفع أحد، وإنما هو مبلغ لرسالة ربه، ولذلك قال: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾؛ أبلغ رسالة ربي وما يوحي الله سبحانه وتعالى به إليّ.

ثم قال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

يقول: من يعص الله ولا يطيع الله ويخالف أمره ويعصي رسوله صلى الله عليه وسلم فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً. هذه الآية لو أخذناها بظاهرها فإن معناها أن كل من عصى الله فإنه موعود بنار جهنم وخالد أبداً، ولكننا لا نأخذ القرآن بنص واحد وإنما نأخذ القرآن بأدلة أخرى من القرآن والسنة حتى نفهم منهج الله سبحانه وتعالى ومنهج الشريعة. من يعصي الله ورسوله نقول على نوعين: إما أن يكون كافراً، وإما أن يكون مؤمناً. الكافر يعصي، والمؤمن أيضاً يقع في المعاصي، يقع في الكبائر. فهل هؤلاء كلهم إلى نار جهنم خالدين فيها أبداً؟ نقول: لا؛ أما الكافر فإنه عرّض نفسه الكافر المشرك خالداً فيها مخلداً وقد منع نفسه، إن الله حرم على الكافرين الجنة ومأواهم النار، هذا الكافر. أما المؤمن العاصي فإننا نقول ماذا؟ مذهب أهل السنة والجماعة أن المؤمن العاصي الذي يقع في الكبائر والمعاصي قد عرّض نفسه للعذاب، قد

عرّض نفسه للعقوبة والعذاب، وعرّض نفسه للنار، وهو موعود بالنار، إلا أن يعفو الله؛ إلا أن يتوب في الدنيا، أو يعفو الله، أو يكون له عذاب القبر، أو يدخل جهنم ويعذب بها بمقدار معصيته ثم يخرج منها. فأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون. فهذه الآية لا بد أن نأخذها بآيات أخر، لا نأخذها هكذا كما يذهب إليه بعض أهل البدع فيقولون أهل الكبائر في نار جهنم خالدين فيها مخلدين، لا؛ هذا منهج خاطئ.

يقول هنا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٤].

إذا رأوا ما يوعدون من العذاب فسيعلمون أنهم لا طاقة لهم بعذاب الله، وأنهم ضعفاء، وليس لهم ناصر ينصرهم، وأنهم سيكونون أقل بل سيبعث الواحد منهم فرداً كما أخبر الله سبحانه، ويأتي يوم القيامة فرداً، يأتي وحده لا أحد معاضد معه ولا أحد مساعد معه وأقل عدداً.

طيب لعلنا نقف عند هذا القدر، الآيات كثيرة والسورة ستختم بآيات مهمة حقيقة، ونحن بحاجة إلى أن نتأمل هذه الآيات. وليس العبرة بأن ننتهي من السورة، العبرة ماذا خرجت من هذه السورة؟ ما هي الدروس والعبر التي استفدت منها لما قرأت هذه السورة؟ ماذا استفدت؟ ما هي المعاني التي أدركتها وفهمت وازددت علماً وازددت قرباً إلى الله؟ لأن هذا كلام الله سبحانه وتعالى؛ فإن قرأته ازددت قرباً إلى الله، وإن فهمته ازددت قرباً وزيادة، على قراءتك فهم، فأنت تقرأ بفهم، وإن تدبرت وإن طبقت، كل هذه الأمور نحتاج إليها. لا نقرأ هكذا القرآن، وإنما نستفيد من توجيهات الله، وهذه الآيات في الحقيقة لها معانٍ عظيمة نحتاج إليها نتدبرها. فلعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، وفي اللقاء القادم نستكمل ما وقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الجن ٢٥- آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

«اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا، وَانْفَعْنَا بِمَا عَلَّمْتَنَا، وَزِدْنَا عِلْمًا وَعَمَلًا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو اليوم السادس من شهر ذي القعدة من عام ١٤٤٥ للهجرة. مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم قراءة وبياناً وتفسيراً وتدبراً، ونسأل الله سبحانه وتعالى ألا يحرمنا أجر هذا المجلس المبارك؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»، فخير الناس وأفضلهم وأقربهم عند الله من يتعلق قلبه بالقرآن الكريم قراءة وتدبراً وتأملًا وعملاً.

السورة التي تحدثنا عنها في لقاءات ماضية هي سورة (الجن)، وبقي فيها بعض الآيات التي نتمها إن شاء الله فيما تنتهي إليه هذه السورة.

وقف بنا الكلام عند الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، السورة -مثل ما ذكرنا- هي تحدثت عن عالم الجن، وموقف الجن من القرآن والإيمان ومن توحيد الله سبحانه وتعالى، وبيان أحوال الجن ومصيرهم في الآخرة، ثم بينت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الجن -ومناسبة هذا الشيء- أن الجن جاءوا يستمعون لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم وللقرآن، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فهم جاءوا واستمعوا وعرفوا دعوة النبي صلى الله عليه وسلم واقتدوا به في أن يكونوا دعاة، أن يكونوا دعاة إلى أقوامهم: ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

فهنا يبين الله سبحانه وتعالى دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لما قام، لما قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [الجن: ١٩]، وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قام عبد الله يدعوه، دعوة إلى الله

سبحانه وتعالى: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾؛ أي الجن على القول الصحيح كادوا أي الجن يكونون عليه لبداً؛ يعني يتراكمون عليه لكثرتهم ولحرصهم على استماع القرآن والدعوة إلى الله.

قال الله عز وجل قل لهم ولغيرهم من الناس حتى يعرفوا من هو محمد صلى الله عليه وسلم وما هي دعوته وما هي وظيفته: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا رَبِّي﴾ [الجن: ٢٠]؛ يعني هذه منزلتي أني رسول أني نبي، أني أدعو إلى الله على بصيرة: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾، كما أقر الجن في أول السورة لما قالوا، قالوا: ﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ يعني القرآن، ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢]. هذا موقف الجن، والرسول صلى الله عليه وسلم هذه دعوته: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾، لا أشرك بربي أحداً؛ لأن الشرك محبط للعمل، ولأن الشرك صاحبه مصيره إلى نار جهنم خالداً مخلداً فيها:

﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾.

﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١].

أيها المخاطبون من الجن أو من الإنس؛ لأن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم دعوة عالمية، دعوة إلى الإنس والجن: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، يقول: أنا لا أضركم ولا أنفعكم، لا أملك الضر أن أضركم بشيء، ولا أملك النفع أن أنفعكم بشيء، الذي يملك الضر والنفع هو الله سبحانه، الضار النافع هو الله سبحانه وتعالى، الذي يملك أن يضر أحداً أو يصيبه بمصيبة أو عذاب أو ينزل به عقوبة هو الله وحده لا شريك له، والذي إن أراد بأحد خيراً ونفعاً هو الله سبحانه وتعالى. أما أنا فلا أملك لنفسي فضلاً عن أن أملك لغيري، لا أملك ضراً ولا رشداً، لا أملك لنفسي ولا أملك لغيري، أنا عبد من عباد الله.

ثم قال حتى في تقرير رسالة النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ [الجن: ٢٢].

لن يعصمني ولن يحفظني ولن يقيني من العذاب؛ لا يقي إلا الله سبحانه وتعالى، ولا يصرف ولا يعصمك ولا يحفظك إلا الله، تقرير توحيد، تقرير توحيد: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾، ما أحد يستطيع أن يمنعني من عذاب الله لو أراد الله أن ينزل بي عذاباً، لن يستطيع أحد من الخلق أن يرد هذا

العذاب وأن يمنع هذا العذاب إذا أراد الله إنزاله بي. وهذا بيان ضعف الإنسان وضِعف الخلق أمام قوة الله سبحانه وتعالى، والله لو أراد الله سبحانه وتعالى أن ينزل عقوبة بنبيه على فرض وتقدير أن أنزل به فإنه لضعفه ولضعف الخلق لن يجيره من الله أحد.

قال تعالى: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢٢].

أي ملجأ ألجأ إليه ومكاناً أعتصم به، لا تستطيع أن تجد مكاناً تعتصم به ولا تجد أحداً ينصرك ويرد عنك العذاب إذا أراده الله. وبهذا نعرف قوة الله سبحانه وتعالى ووحدانيته وضَعف هذا المخلوق وأنه ليس له إلا الله.

قال: ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن: ٢٢-٢٣]. الآن لما تقرأ هذه الآية: كيف يقول: لن يجيرني من الله -أي يعصمني من الله من عذابه- ولن أجد من دونه ملتحداً -أي ملجأ- ثم قال: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾؟ ما لها علاقة! فهنا نقف عندها حتى نفهم الآية، فتجد المفسرين قالوا إن قوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ ليس متصلاً بهذه الآية، طيب بأي شيء متصل؟ قالوا: بالتي قبلها؛ عشان نفهم القرآن، قال: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]، يقول النبي صلى الله عليه وسلم، يقول الله عز وجل لنبيه: قل لهم أنا لا أملك لكم أن أضركم ولا أنفعكم إلا بلاغاً من الله ورسالاته، هنا يتم الكلام، هنا نفهم الكلام. أما لما تقول ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ مع ﴿لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ ما له علاقة! كيف يقول لن يجيرني من عذاب الله أحد ولن أجد ملتحداً ثم يقول إلا بلاغاً؟ فالكلام لا يتم ولا يستقيم إلا إذا ربطت قوله: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ بـ ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾؛ أي لا أستطيع أن أضركم بعذاب أو بمصيبة ولا أستطيع أن أنفعكم بشيء تنتفعون به إلا أنني أبلغكم رسالات ربي فيستقيم الكلام هنا. قال: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ يعني أنا أبلغ ما يوحى إليّ من الله وأبلغ رسالات الله التي يرسلها لي عن طريق الوحي فأبلغها لكم، هذا الذي أنا أملكه، أما الضر والنفع فلا أملكه، الذي يملكه هو الله، أنا وظيفتي حدي أني أبلغ رسالات ربي.

ثم حذر سبحانه وتعالى وبين عقوبة من يعرض عن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، ما مصيره؟ الذي لا يقبل ولا يرفع بدعوته رأساً ما مصيره وما نهايته؟

قال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

شوف عطف الرسول على الله؛ يعني من يعصِي الله يعصِي ويخالف شرعه ولا يطيع ما أمره الله به ويعصِي الرسول صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله عز وجل؛ لأن الله يقول:﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾؛ يعني موعده نار جهنم، أي مصيره إلى النار، في نهايته في نهاية يوم القيامة أن موعده نار جهنم كما قال الجن: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥]، فمن يعصِي الله ورسوله فهو حطب لجهنم. قال: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾؛ أبداً مؤبداً لا يخرج منها.

لكن لاحظ هنا: هو يقول: ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ كم واحد؟ واحد: ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ ثم قال: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ليس واحد، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ كثرة؛ يعني ترتيب الآية في نظري أو نظرك: فإن له نار جهنم خالداً فيها، أما يقول ﴿خَٰلِدِينَ﴾ طيب كيف نقول؟ لأن كلمة (وَمَنْ) هذه: ﴿وَمَن يَعْصِ﴾ لفظها مفرد ومعناها جمع، ولما كان لفظها مفرد ومعناها جمعاً جمع الله بين المفرد والجمع حتى يُفهم أن هذا ليس خطاباً لواحد وإنما هو خطاب لكل من يعصي، لكل من يقع في هذا الخطاب ويعصي، فإن مصيره إلى نار جهنم ليس واحداً ولا اثنين، ولو كانوا أكثر من على الأرض فإن من وقع في هذا الأمر فإن مصيره خالدين فيها أبداً.

وهذه الآية وقف عندها أهل التفسير: ليس كل من يعصي يخلد في نار جهنم، هذا لا يستقيم؛ كل من يعصي يكون مخلد؟! لا، نقول: كل من يعصي وهو ليس من أهل التوحيد، يعني إذا كان عنده التوحيد والإيمان فإنه لا يخلد في نار جهنم، هذه قاعدة شرعية مهمة في العقيدة؛ أن أهل الكبائر من أهل الملة ومن أمة محمد في النار لا يخلدون. دلت الأدلة الكثيرة على أن الإنسان إذا كان صاحب معاصٍي وكبائر كشرب الخمر والزنا وعقوق الوالدين وغيرها من المعاصي الكبار ثم مات عليها، فما مصيره؟ ما نقول مصيره خالد في جهنم خالداً فيها أبداً، هذا لا يقوله أي مسلم عاقل يعرف أحكام الشريعة وأحكام الله عز وجل. فما مصيره؟ نقول هؤلاء كما قال الله سبحانه وتعالى ونحن لا بد أن نعرف أدلة القرآن كلها، ما نعرف دليلاً ونترك دليلاً ماذا يقول الله سبحانه وتعالى؟

قال سبحانه وتعالى في آيات أُخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

فأصحاب الكبائر وهم من أهل التوحيد عندهم الإيمان بالله ومات على كبائره ومعاصيه، فنقول: هو تحت المشيئة؛ إن شاء غفر له وإن شاء عذبه بمقدار معاصيه ثم مصيره إلى الجنة. الله سبحانه وتعالى يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان من توحيد، فأهل التوحيد لا يخلدون في النار، وهذا خلاف لبعض أهل البدع الذين يقولون أصحاب الكبائر خالدين مخلدين في نار جهنم، هذا كلام غير صحيح؛ المذهب الذي يجمع بين نصوص القرآن والسنة ويعرف يستنبط ويعرف أن يحكم بهذا الحكم يميز بين من كان كافراً ومن كان مؤمناً وهو صاحب معاصٍي وكبائر، ولذلك هذه الآية تصدق على الكفار لا على المؤمنين، أما المؤمنون فنعم قد يدخل نار جهنم، قد يعذب في الدنيا، قد يعذب في القبر، قد يعذب في نار جهنم بمقدار معاصيه ثم يخرج إلى الجنة أو يعفو الله عنه، هذا الأمر بمشيئة الله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٤].

يقول: الذين توعدهم الله بهذا الوعيد ممن يعصي الله ورسوله يظلون في الدنيا يبقون على ما هم عليه في المعاصي ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ﴾؛ متى؟ إما الموت ينزل بهم أو العذاب أو إذا جاء يوم القيامة رأوا ما يوعدون، ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾، سيعلمون أنهم ضعفاء أمام قوة الله، هم الضعفاء وليس أحد ينصرهم، فهم الضعفاء وهم الأقل عدد. لماذا؟ لأن ما من ميت إلا يأتي إلى الله فرداً: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [الأنعام: ٩٤].

يأتي فرداً، حتى ملابس ما يأخذها معه، يأتي ترك الدنيا وترك أمواله وحساباته كل شيء خلفه، ما أخذ معه أي شيء، يأتي فرداً كما قال هنا: ﴿فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

ولما كان الكفار يستهزئون ويسخرون ويقولون: متى هذا يا محمد الذي أنت تعدنا به وتُهددنا بالعذاب وتقول سيصيبك ما يصيبك؟ أين العذاب يا محمد؟ يستهزئون، فقال الله سبحانه: قل لهم: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ [الجن: ٢٥].

يقول: ما أدري هل العذاب الذي أنتم تقولون أين هو، أقريب أو بعيد؟ هذا لا يعلمه إلا الله، أنا لا أملك شيئاً لا أعلم الغيب، أنا مبلغ رسالة مبلغ رسالات ربي: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أي مدة طويلة، الله أعلم.

من هو؟ الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم الغيب، أما أنا فلا أملك: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦].

يقول: هو يعلم الغيب ولا أحد يستطيع أن يطلع على غيب الله إلا إذا أراد الله أن يظهر غيبه لأحد، قال: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]؛ إلا إذا رضي الله عن رسول من رسله أن يطلعه على شيء من غيبه فالرسول يوحى إليه فيطلع على شيء من غيبه، قال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

وهذا الغيب الذي يطلعه الله بالوحي على رسوله مع أنه غيب والله يشدد في إظهار غيبه إلا للرسول، يجعل للرسول حفظة يحفظونه وحرساً من الملائكة حتى لا تتسلط الشياطين على أخذ شيء من هذا الغيب، ولذلك قال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧]؛ يسلك من بين يدي هذا الرسول ومن خلفه رصداً أي ملائكة ترصده وملائكة تحفظه من شياطين الجن وشياطين الإنس. لماذا؟

قال تعالى: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨].

من الذي يعلم؟ هو الله سبحانه وتعالى. طيب الله عالمٌ قبل ذلك كيف يعلم الآن؟ يعني الآن يعلم أو كيف؟ نقول ماذا نقول؟ نقول: ليظهر علمه، وإلا فهو عالم الغيب والشهادة، ولكنه أراد أن يظهر علمه للخلق فقط وليرتب على ذلك الجزاء. قال: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟﴾ أي أن قد أبلغ الرسل والأنبياء رسالات ربهم، ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي أحاط سبحانه وتعالى بعلمه بما لديهم، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾؛ كل شيء على هذه الخليقة أحصاه الله عدداً، كل شيء على هذه الأرض أحصاه الله عدداً، لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء.

وبهذا تنتهي هذه السورة العظيمة الجليلة القدر، واستفدنا منها:

- أولاً: أن الله أخبر عن عالم الجن وأنهم خُلقوا من نار، وأنهم يتناكحون ويتزوجون وأن لهم ذرية، وأنهم يأكلون ويشربون ويعيشون ولهم مساكن، وأعطاهم الله من القوة والنفوذ أنهم يصلون إلى أقطار السماوات.
- وأيضاً أنهم مكلفون: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فهم مكلفون بالعبادة، وأن منهم الصالحين، وأن منهم المسلمين، وأن منهم القاسطين، وأن منهم الكفار المتمردين كالبشر؛ كبني آدم، بني آدم فيهم شياطين مَردة وفيهم أهل طاعة مستقيمين على طاعة الله، وهؤلاء مثلهم، وأنهم يأكلون ويشربون وينامون ويموتون، كل ما فيهم.

ولا بد أيها الإخوة أن نعلم أن الجن أمرٌ حقيقي لا خيال كما يتصوره بعض الناس أو يعتقده؛ نحن نعتقد كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى في كتابه أن الجن عالمٌ وأن الجن مخلوقون، وأن الله هو الذي خلقهم وكلفهم وأعطاهم عقولاً.

ولذلك شوف كيف تأدبوا مع الله وتأدبوا مع كتاب الله واستجابوا لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، شوف قال: ﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١]، هذا أدبهم مع القرآن، كيف قالوا؟ قالوا سمعنا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد. ثم تأدبوا مع الله قالوا: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢]، ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ٣] يعني عظمته وعلوه ومكانته ما اتخذ سبحانه وتعالى لا صاحبة ولا ولداً بل هو الواحد كما قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤].

فقرروا قضية الإيمان بالله والاعتراف به والدخول بالإسلام والاعتراف بالقرآن والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ذكروا أحوالاً لهم وأن منهم الصالح ومنهم دون ذلك، وغير ذلك من القضايا التي تكلمنا عنها مما أخبر الله سبحانه وتعالى عن أحوالهم.

ثم بيان وظيفة النبي الذي اجتمع معهم، ونعرف نحن أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم اجتمع بالجن أكثر من مرة، التقى بهم وبلغهم هذه الرسالة، وانطلقوا مسرعين دعاة إلى أقوامهم منذرين وأنذروهم.

فسورة في الحقيقة سورة عظيمة فيها أخبار لا يعلمها البشر ولا نعلمها نحن ولا غيرنا إلا بوحي من السماء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]، فلولا أن الله أخبر النبي محمداً صلى الله عليه وسلم بهذه السورة لما علمنا عن هذه الأشياء كلها، ولكن الله أخبر بذلك.

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يوفقنا وإياكم لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ المُزَّمِّل)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(المزمل ١ - ٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للثالث عشر من شهر ذي القعدة من عام ١٤٤٥ للهجرة. مجلسنا المبارك مع تفسير القرآن العظيم؛ نجلسه مجلساً مباركاً، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يعمنا برحمته، وأن يجعل هذا المجلس الذي نحضره مجلساً تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله هؤلاء الحاضرين عنده في الملأ الأعلى بالذكر الحسن، أسأل الله سبحانه وتعالى ألا يحرمنا هذا الفضل العظيم.

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ». فمجلسك هذا تتعلم آيات من كتاب الله، وتعلم أيضاً على قدر استطاعتك ولو آية واحدة ولو كلمة؛ «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، يمكن تأخذ هذه الكلمة وتنقلها إلى غيرك وغيرك ينقلها، فتكون سبباً في خير عظيم وأنت لا تشعر.

نحن تناولنا عدداً من السور الماضية، ووقف بنا الكلام عند سورة (المزمل). وسورة (المزمل) كثير من أهل العلم يذكر أنها هي السورة الثالثة من حيث النزول؛ يعني نزل أولاً سورة (العلق): ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ثم نزلت بعدها سورة (القلم): ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، ثم نزلت (المزمل)، ثم (المدثر)؛ هذا عليه أكثر أهل العلم أن سورة المزمل هي السورة الثالثة.

وسورة (المزمل) من السور التي نزلت مثل ما ذكرنا مبكراً على النبي صلى الله عليه وسلم، وهي في الحقيقة لو قرأتها قراءة تأمل وتدبر؛ لا قراءة سطحية سريعة، القراءة السطحية السريعة هذه ما تستفيد منها إلا أنك تؤجر على كل حرف عشر حسنات، أما أن تستفيد وتأخذ ما تدل عليه الآيات فهذا يحتاج منك إلى أن تقرأ بتدبر وتأمل كما أمر الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩].

ما قال: ليقرؤوا آياته، قال: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾. والتدبر شيء؛ التدبر ما يحصل لك إلا بعد ما تقرأ أكثر من مرة وتستوعب الآيات وتفهمها، بعد ذلك يأتيك التدبر والفهم العميق للآيات. هذه آيات عظيمة، كلام رب العالمين، ودلالاته عظيمة، وهو بحر لا ساحل له؛ تغوص في هذا البحر تستخرج اللآلئ والدرر

منه، ليس كمثل كلام بشر، لا؛ هذا كلام كل كلمة جاءت في مكانها، لو غيرت كلمة مكان كلمة ما يستقيم الكلام أبداً. فمعجز هو القرآن؛ معجز بألفاظه، معجز بمعانيه، معجز بدلالاته، فليس كمثل كلام البشر.

ولذلك الله سبحانه وتعالى تحدى أساطين العربية وبلغاء العربية وفصحاء العرب، تحداهم الله سبحانه وتعالى في القرآن أن يأتوا بسورة واحدة فقط؛ أقصر سورة؛ سورة (الكوثر)، ثلاث آيات، ما استطاعوا! ولو جاؤوا بكلام من عندهم ما يأتيك القرآن، يعني إذا أنت قرأت: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ١-٣]؛ هذه الكلمات معروفة، يمكن يجي واحد يقول: أنا أجيب كلمات قريب منها، لكن لو أتى وصفّ لك الكلمات في سطر واحد هل ستجد في هذه الكلمات ما مثل القرآن في دلالاته وعظمته؟ ما تجد حتى لو جاء! ولذلك الذين عارضوا القرآن حتى في أزمان متقدمة عارضوا القرآن بكلمات وبسور، يعني الذي يقرأ هذه التي أتوا بها يضحك منها البشر! هذا كلام؟! هذا ما يُقبل أبداً. فالقرآن معجز وعظيم جداً، نحتاج نحن جميعاً أن نقبل عليه، أن نعرف عظَم هذا القرآن، أن نتدبر لا أن نقرأ هكذا قراءة سطحية؛ هذه ما تستفيد منها مثل ما تستفيد في التأمل والتفكر.

ولذلك شوف الآن إذا جلسنا مثل هذا المجلس قرأنا ولو وجه واحد أو نصف وجه ستستفيد أكثر وأكثر من أنك تقرأ هذه. ولذلك الله سبحانه وتعالى قال في هذه السورة -وهذا هو الذي جعلنا نقف عندها حتى تستفيد من السورة، أما هكذا...-.

سورة المزمل أيها الإخوة جزاك الله خيراً سورة المزمل إذا قرأتها مثل ما ذكرنا لك بتدبر وتأمل بإذن الله ستخرج بفوائد كثيرة. أولاً: يعني أنت الآن شوف لما تقرأ وتنظر في هذا كلام الله سبحانه وتعالى، من الذي رتبه لنا؟ رتب آياته هو الله، من الذي رتب حتى السور على الصحيح؟ الذي رتبها الوحي، لم يرتبها لا النبي محمد صلى الله عليه وسلم ولا الصحابة. والقول تسمع، يعني قد تسمع أن الذي رتب المصحف الصحابة رتبوه، ليس من تلقاء أنفسهم هم رتبوا، نعم كتبوه ورتبوه في زمن عثمان رضي الله عنه؛ ولذلك يسمى المصحف العثماني، رتبوه ليس باجتهادهم، يعني يأتي الصحابة ويقولون: ضعوا البقرة ثم آل عمران، لا؛ هم يعرفون لأنهم قرؤوا على النبي صلى الله عليه وسلم، وأخذوا القرآن وراجعوا، والنبي صلى الله عليه وسلم قرأ عليهم واستوعبوه، فهم عرفوا ترتيبه، عرفوا ترتيبه في أذهانهم، ثم لما أرادوا أن يكتبوه استوعبوا ذلك.

الآن لما أنت تقرأ سورة (نوح)؛ من هو نوح؟ هو أول رسول، هو أكبر داعية، هو أكبر داعية دعا، كم دعوته؟ تسعمائة وخمسين سنة! يعني تسعمائة وخمسين سنة عاش في الدعوة. ما الذي يخطر ببالك؟ أنه استوعب في أساليب الدعوة؛ هو شوف ماذا يقول الله سبحانه وتعالى في دعوته:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾[نوح: ٥]،

وسراً وجهاراً؛ فاستعمل جميع أساليب الشاهد من الكلام أن الداعية في سورة (نوح)، ثم تقرأ أنت سورة ماذا؟ التي بعدها سورة (الجن)، والجن لما استمعوا القرآن ماذا صنعوا؟ انصرفوا إلى أقوامهم دعاة منذرين؛ كما أخبر الله سبحانه وتعالى انصرفوا إلى أهلهم منذرين، إذاً هم دعاة. إذاً عندنا الآن نوح الداعي الأول، ثم الجن وهم دعاة، إذاً (المزمل) ما القصة فيها؟ نقول: هي زاد الداعية. إن الله سبحانه وتعالى أرسل محمداً داعية ومنذراً، ولذلك شوف على الترتيب العجيب في القرآن؛ لما تقرأ (المدثر) ماذا يقول الله فيها؟ يقول:

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾[المدثر: ٢].

دعوة. قبل أن يقول له قم فأنذر، قالوا أولاً: تزود، قبل أن تذهب تريد أن تسافر تزود قبل أن تسافر حتى تكون مستعداً. هنا في سورة (المزمل) زاد الداعية. طيب ما زاد الداعية؟ كيف يتزود؟ يأخذ ماذا معه؟ يأخذ معه طعام وشراب ولا ماذا؟ قال: لا، يأخذ معه القرآن، ويأخذ معه صلاة الليل، ويأخذ معه الذكر؛ ذكر الله سبحانه وتعالى، وليس ذكراً فقط، ذكر مستمر: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] انقطع له، ثم التوكل على الله في الدعوة: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[المزمل: ٩]، ثم الصبر في الدعوة: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[المزمل: ١٠]؛ أنت ستواجه، ستواجه، واصبر على ما يقولون.

ولذلك لقمان لما قال:: ﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]،

شوف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وأمر بالمعروف وانه عن المنكر، ماذا قال بعدها؟ واصبر على ما أصابك. إذاً في مواجهة، في أعداء، في خصوم. فلذلك شوف سورة المزمل زاد الداعية، كم زاد ذكرنا؟ شوف أولاً: الصلاة؛ أعظم زاد أن يتزود بالصلاة وقراءة القرآن، لأنها مع الصلاة، قيام الليل قرين الصلاة والقرآن، هذان أمران. ثم ذكر الله، وليس ذكراً فقط، ذكر تبتل؛ ذكر مستمر، هذا الثالث. ثم

الرابع: التوكل، التوكل على الله؛ لأن الداعية سيواجه، لا بد أن يفوض أمره إلى الله ويتوكل وينطلق توكلاً: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾. ثم الخامس: اصبر، قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾. والسادس لو أضفناه وهو: واهجرهم هجراً جميلاً؛ يعني لا تؤاخذهم، لا ترد عليهم. هؤلاء يقول الله عز وجل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، يعني اهجرهم هجراً جميلاً لأنك في مواجهة؛ أنت إذا أعطاك كلمة قوية لا تواجهه بالرد عليه، تستطيع أن ترد لكن لا ترد، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. فمثل هذه دعوة، هذا زاد.

ولذلك شوف الآن نقف مع هذه الآيات وهذه السورة العظيمة ونعرف ونتأمل أنها زاد الداعية، لما يذهب يأخذ معه هذا الزاد، إذا فرط في هذا الزاد لن ينجح في الدعوة، وإذا أخذ بهذا الزاد أخذ به أخذاً قوياً أعانه الله ويسر أمره وفتح على يديه؛ فتح على يديه لأنه توكل وصبر وعرف يتعامل معهم، والصلاة معه والقرآن معه، خلاص بإذن الله. هذه هي السورة بشكل عام؛ سورة نستطيع أن نقول هي زاد الداعية، هي تتحدث عن الدعوة في ثناياها، يقول الله عز وجل:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾[المزمل: ١٥].

حديث عن إثبات الرسالة له هو؛ كما أنه الآن وُجه إلى الدعوة وأُعطي الزاد، أُثبتت له الرسالة. وخاطب من هم قبل أن يخاطب، ما قال أرسلناك يا محمد، لا؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾، يعني الذي جاءكم معه الزاد هو محمد، هو رسول من عند الله؛ ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَـٰهِدًا﴾ يشهد عليكم. وإذا أردتم أو أراد هؤلاء الكفار ألا يقبلوا ولا يصدقوا بدعوته، قال: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾؛ مثل ما أرسلنا لكم أنتم يا أهل مكة رسول، أرسلنا إلى فرعون رسول وهو موسى عليه السلام، أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون. وشوف يبين لك حتى يقول لك:

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾[المزمل: ١٦].

يقول: أنتم انتبهوا، احذروا أن تسلكوا مسلك فرعون؛ جاءكم رسول فتقبلوه وخذوا ما عنده، لكن إن عارضتموه وكفرتم به ولم تقبلوه سيكون مصيركم مثل مصير فرعون: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾، فالنتيجة ما هي؟

﴿فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾[المزمل: ١٦]؛

شديداً مهلكاً.

ثم هددهم بأمر آخر أعظم من الدنيا؛ الدنيا إن هؤلاء عصوا وردوا رسالة محمد النتيجة ما هي؟ يصيبهم ما أصاب فرعون، يهلكهم الله كما أهلك فرعون، وأهلكهم الله؛ أهلك رؤوسهم ببدر، ماتوا، خرجوا من مكة لم يخطر ببالهم أنهم سيموتون أبداً، نروح نواجه محمداً عدد قليل ونقضي عليه ونرجع، ما يخطر ببال أبو جهل ولا أمية ولا فلان ولا فلان أنهم ستُقطع رؤوسهم ويلقون في قليب بدر! ما يخطر ببالهم، ولذلك أهلكهم الله في الدنيا. ولكن الله سبحانه وتعالى هنا يهددهم بهلاك الدنيا ويخوفهم كما أهلك فرعون إن لم يقبلوا وسيستمروا، وأيضاً يهددهم بعذاب الآخرة، عذاب الآخرة أشد وأبقى، ولذلك قال:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيبًا﴾[المزمل: ١٧].

كيف تتقون هذا اليوم؟ كيف تتخلص من هذا اليوم أيها الكافر إن كفرت؟ شوف قال: ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾، شوف التأمل، تأمل القرآن، شوف لو قرأتها أنت قلت: فكيف تتقون يوماً، هذا ما يمشي لأن في مؤمنين في صالحين، لا؛ كيف تتقون إن كفرتم أنتم الآن في الدنيا؟ كيف تتقون ذلك اليوم؟ كيف تتخلصون وتنجون من ذلك اليوم؟ ما هو هذا اليوم؟ قال: هذا اليوم يوم عصيب، يوم شديد، ما تتصوره أنت من شدة هذا اليوم، هذا اليوم يجعل الولدان الصغار شيباً، تصور طفل صغير يشيب من هذا اليوم! هذا يوم عظيم. والسماء على أنها جامدة غير متحركة، لا تسمع ولا ترى وليس لها عقل ولا روح، ماذا ستصنع في هذا اليوم؟

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾[المزمل: ١٨]؛

متشققة من شدة أهوال هذا اليوم منفطر، ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ لا بد أن يأتي. شدة التهديد لهم وتخويفهم وإرسال الرسول لهم رحمة وازداد معه ومع ذلك، ويخوفهم بهذا التخويف، وكل هذا ويصرون على كفرهم وعنادهم ولم يقبلوا.

شوف ثم ختم الله هذا الوجه الأول، يقول:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

إن هذه، أي هذه السورة وهذا القرآن وهذه الدعوة تذكرة، يتذكر بها من يتذكر ممن له عقل يتذكر، أما من ليس له عقل فهذا خارج؛ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ﴾ من أراد وشاء ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ سبيلاً سليماً نافعاً لا سبيلاً ضاراً. فشوف كيف الآيات تتحدث وتتكلم بعظم هذه الآيات، تجد مثل هذا الكلام، هل يدخل أسماعك مثل هذا الكلام؟! ما تجد أبداً.

آخر السورة هي تخفيف من الله سبحانه وتعالى؛ ولذلك عائشة رضي الله عنها قالت: نزلت سورة (المزمل) تأمر النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته بالقيام من الليل، فكان قيام الليل واجباً فرضاً على النبي والصحابة، فقاموا كما أمرهم الله: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]، قاموا الليل إلا قليلاً، أو نصفه أو ثلثه أو ثلثيه، قاموا سنة كاملة حولاً كاملاً حتى تفطرت أقدام الصحابة وتشققت، ثم إن الله بعد ذلك خفف عنهم، وبعد حول كامل نزل آخر السورة التي فيها سبحانه وتعالى ذكر فيها التخفيف، قال:

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠].

علم أن سيكون منكم مرضى، وآخرون أيضاً يضربون في الأرض يسافرون في التجارات، وآخرون يقاتلون في سبيل الله مجاهدين؛ ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾. وكان قيام الليل بعد ذلك مستحباً لا فرضاً على الصحابة، إلا على النبي صلى الله عليه وسلم فكان فرضاً عليه، بقي إلى أن مات صلى الله عليه وسلم وهو يقوم الليل لا يتركه؛ كما أنه يصلي الصلوات الخمس يقوم الليل مفروضة عليه.

الآن أخذنا مجمل هذه السورة وما فيها من توجيهات وما فيها من دلالات، وهذا هو التدبر والتأمل، هذا الذي نريد أن نعيشه. والله يا إخوان لو عشنا مع سورة المزمل جلسنا معها شهراً كاملاً لم نعطها حقها من التأمل؛ لا سورة المزمل ولا غيرها من السور. نحتاج نحن أن نعطي القرآن من أنفسنا حتى نعرف عظَم القرآن، ليس العبرة أنك تختم وتخلص وتنتهي، لا؛ قِف وتأمل وتدبر.

يقول الله سبحانه وتعالى في أولها بعد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١].

هذا الأسلوب ما هو؟

هذا أسلوب يسميه أهل اللغة أسلوب نداء، ينادي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾. نداء النبي في فواتح السور خمس مرات: في سورة الأحزاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ثم في سورة الطلاق والتحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿وَيَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١]. شوف كلها فواتح بأوصاف النبي، ثم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، ثم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]؛ خمس سور افتتحت بنداء النبي صلى الله عليه وسلم. ولاحظ أن الله سبحانه وتعالى لم ينادِي محمداً باسمه ولا مرة، ما قال يا محمد، مع أنه قال: يا نوح، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ [هود: ٤٨]، وقال: يا عيسى، وقال: يا موسى، وقال: يا آدم، كل الأنبياء ينادون بأسمائهم إلا محمد؛ تعظيم وتشريف لمحمد صلى الله عليه وسلم. لمحمد وأنت من أمة محمد، شرف لك شرف عظيم.

شوف ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾؛ ما معنى المزمل؟ أصلها المتزمل، أصلها متزمل، أُدغمت التاء بالزاي فشُددت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾. والتزمل: التلفلف بالثياب، يتلفلف بثيابه.

طيب ما قصة التلفلف بالثياب؟ المفسرون ذكروا عدة أسباب؛ بعضهم يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل من غار حراء متوجهاً إلى مكة إلى بيته ناداه جبريل، فالتفت يميناً ولم يجد أحداً، ويساراً وأماماً وخلفاً ما في أحد، رفع رأسه فإذا جبريل قاعد على كرسي بين السماء والأرض قد سد الأفق، فخاف مرتعداً فجاء إلى أهله فقال: « زَمِّلُونِي»، فلفوه بالثياب فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.

وفيه رأي آخر يقال فيه إن أهل مكة لما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة، لما سمعوا عن هذه الدعوة اجتمعوا في دار الندوة فقالوا: ماذا نقول في محمد الذي أتى بشيء لم يأتِ به غيره؟ فقالوا: إنه مجنون، قال بعضهم: لا، نقول كاهن، بعضهم قال: لا، نقول شاعر، بعضهم قال: نقول ساحر. فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بموقف قومه الذين جاء يدعوهم وينقذهم من النار يفعلون به هكذا فحزن حزناً شديداً، فدخل على خديجة وقال: «زَمِّلُونِي»؛ لشدة الموقف الذي أحزنه حزناً شديداً؛ كيف آتيهم بهذا الخير ثم يواجهوني بهذه المواجهة! فقيل هذا قد يكون سبباً، وقد يكون الأمر الذي ذكرناه أولاً سبباً،

الله أعلم بذلك، أو يكون الأمران جميعاً؛ أنه رأى جبريل وأن قومه أيضاً وقفوا منه هذا الموقف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.

ثم أيضاً قيل في رأي ثالث يقال أنه كان نائماً ومتلفلفاً في ثيابه فجاءه جبريل فقال: يا محمد، قم فصلِّي واقرأ القرآن، وكان قد تزمل، فأبعد هذا الذي تزمل به بثيابه وقام وتوضأ وبدأ يصلي، ومن ذلك استمر في صلاة الليل، والله أعلم بذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾.

قال: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢].

ولو ما تقرأ، لما تقرأ مثل هذا الكلام، طولنا عليكم شوي...

لما تتأمل الأسباب الماضية، قد يكون الأقرب يعني جبريل لما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم في فراشه متلفلف قال: قم الليل، قم صلِّي، فقام صلى الله عليه وسلم. هذا يتناسب مع الآية؛ أنت لما تقرأ الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢]، شوف: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني النوم قليل جداً والقيام أكثر: قم الليل إلا قليلاً.

ثم وضح لك كم المقدار فقال:

﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٣-٤].

نصفه، نصفه نوم ونصفه قيام. لو جاءك سائل عشان نقف هنا لو جاءك سائل وقال لك: كيف الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم يقول ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾؟ النصف مو قليل! لما يقول لك واحد: نم نصف الليل وقم نصفه ثم يقول لك يعني النوم قليل، يقول لك لا، هذا نص ونص ما هو قليل، كيف يعني الله سبحانه يقول إلا قليلاً وأنت تقول ليس بقليل؟ كيف؟ فنقول: سبحان الله! شوف التدبر هنا يأتي؛ النوم لما تجعل ليلك كلها نوم هذا كأنه قليل، ذهب عليك، راح، مضت عليك ساعاته كأنها قليلة. فنومك بالليل بكثرة هذا ضياع للوقت، وكان هذا الوقت ذهب وكأنه قليل، استثمارك قليل، ما استثمرته قليل، ضاع عليك! حتى لو نمت بالنهار أو جلست في النهار في القيل والقال والكلام وذهب عليك النهار وذهب عليك الليل بالنوم والنهار بالأشياء التي لا فائدة فيها، هذا هو ضيع العمر، هذا هو الذي لم يستفد منه. فلذلك شفت لما قال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ جعل نصف الليل الذي هو نوم كأنه قليل.

شوف: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ يعني الثلث، ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ يعني الثلثين، يعني ممكن أنك تقوم نصف الليل وإن نقصت قليلاً لا مانع وإن زدت لا مانع، هذا هو، هذا معناه. والأكثر، أكثر أهل العلم لما وقفوا مع هذه الآية ووقفوا مع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ووقفوا مع أيضاً أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم ودوامه على الليل كيف يقوم، استنبطوا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقوم الثلث، يقوم الثلث الأخير، يقوم الثلث، نعم يقوم الثلث. والنبي صلى الله عليه وسلم مما يوضح لك الأخير هو ما قاله صلى الله عليه وسلم لما قال: «خَيْرُ الصِّيَامِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَخَيْرُ الصَّلاَةِ صَلاَةُ دَاوُدَ؛ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ». هذا الذي قاله صلى الله عليه وسلم يقول: خير القيام قيام داود، وكان ينام نصف الليل -يعني إذا صلى العشاء- ثم إذا مضى نصف الليل قام، ثم بدأ يصلي ثلث الليل، ثلث الليل، ثم نام قليلاً وهو السدس. هذه السنة وهذا هو القيام، مثل ما ذكر الله هنا ومثل ما جاءت به الأحاديث.

قال: طيب لما قال ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾، قد يفهم بعض الناس: ماذا يقيم الليل؟ هل صلاة ولا ماذا؟ قيام أو ماذا أو ذكر أو ماذا؟ قال: لا، عرفنا الآن أن المراد بالقيام هنا قيام للصلاة، ولذلك ماذا قال بعدها؟ قال: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]؛ يعني أنت إذا قمت الليل فقم بالقرآن، قم بالقرآن مرتلاً متأملاً متدبراً، لا أن تقرأ قراءة سريعة وإنما تقرأ بهدوء؛ لأن الليل يجذبك التدبر والتأمل؛ هدوء وساكن وليس هناك حركة ولا إزعاج وظلمة، هذا يساعدك على الترسل والتدبر والتأمل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾. شوف الآن صلاة وقراءة؛ قم ورتل القرآن صلاة وقراءة.

وجاء عن النبي ﷺ في حديث حذيفة رضي الله عنه أنه قال: **صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ فَقُلْتُ يَرْكَعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى فَقُلْتُ يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى فَقُلْتُ يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ فَقَرَأَهَا... يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَكَانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ**... ثم رفع ثم سجد. كم جزء؟ خمسة أجزاء تقريباً! خمسة أجزاء في ركعة واحدة! الان إذا صلينا في التراويح وزاد قليلاً نفر الناس منه وتركوه، قالوا هذا ينفر الناس! وهذا لا، هذه صلاة الليل، هذا تراويح ما أحد يلزمك تصلي معه، ما جاز لك الصلاة والمسجد اذهب إلى مسجد آخر. فلذلك شفت لاحظ الناس والائمّة صاروا يتنزلون مع الناس، يندر من تقول إنه يختم القرآن

في رمضان، يختم في رمضان! ونحن أدركنا من يختم مرتين وثلاث في هذه البلاد في رمضان، من يختم القرآن مرتين وثلاث، والان ما يختم ولا نصف القرآن! ما الأعمال والاشغال التي تأخذنا وتخرجنا من القرآن في رمضان؟ شهر في السنة ولياليه قليلة، فلماذا لا تستغله بالصلاة وقراءة القرآن؟ ومن أراد أن يبحث عن مسجد خفيف يبحث عنه، وإنما نقيم السنة ونحيي هذه الصلوات ولا نضيعها تنزلاً لرغبة الناس.

الكلام يطول، لكن ما أخذنا إن شاء الله فيه بركة وفيه فائدة، وإن شاء الله في لقائنا القادم نستكمل ما توقفنا عنده. ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك لنا، وأن يوفقنا لطاعته، وألا يحرمنا فضل هذا المجلس المبارك، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(المزمل ٤- ١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا المجلس المبارك، مجلس القرآن؛ نأخذ آيات من كتاب الله نقرؤها ونتأملها، ونبين معانيها وأحكامها، وما فيها من دلالات ومواعظ وتوجيهات من رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، هذا اليوم هو اليوم العشرون من شهر ذي القعدة من عام ألف وأربعمائة وخمسة وأربعين من الهجرة، السورة التي بين أيدينا -وقد تحدثنا عنها في لقائنا الماضي- هي سورة المزمل، وهي على قول كثير من المفسرين السورة الثالثة في النزول بعد سورة العلق، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وسورة نون ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

هذه السورة الثالثة، وهي -مثل ما ذكرنا- لها علاقة وثيقة جدًّا بالسورة التي تليها والتي قبلها أيضًا كما ذكرنا، لكن التي تليها (المدثر)؛ هي (المدثر) نصت على أي شيء؟ على الدعوة: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]، وهذه كانت تمهيدًا يعني هي زاد الداعية؛ كيف يتزود الداعية قبل أن ينزل في الدعوة إلى الله؟ أن يكون قد تزود بما يعينه على هذه الدعوة، وتحدثنا عن بعض الآيات في مقدمات هذه السورة، وأيضًا ما احتوت عليه السورة، وافتتاحها بالنداء: يا أيها النبي، أو يا أيها المزمل .

السور التي نودي بها النبي صلى الله عليه وسلم خمس سور، خمس سور:

١. سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

٢. سورتان متتاليتان (الطلاق والتحريم): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

٣. سورة المزمل وسورة المدثر.

هذه خمس سور افتتحت بنداء النبي صلى الله عليه وسلم تشريفًا له. ولم يُنادَ النبي صلى الله عليه وسلم -كما ذكرنا- باسمه أبدًا في القرآن؛ نودي الأنبياء كلهم بأسمائهم: ﴿يَا نُوحُ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿وَيَا

هُودُ﴾، ﴿وَيَا صَالِحُ﴾، إلا محمدًا صلى الله عليه وسلم تشريفًا له؛ نودي بمثل ما نودي ولم يُصرَّح باسمه "يا محمد" أبدًا.

ولم يُذكر اسم النبي صلى الله عليه وسلم "محمد" إلا أربع مرات على سبيل الخبر فقط: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وهكذا: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

ولكن كندا تشريفًا له؛ نودي بمثل هذه الألفاظ، نودي بلفظ أو بوصف الرسول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١]. هذا الذي حصل أو هذا الذي ورد في نداءات النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله هنا: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]؛ خطاب للرسول ﷺ. لماذا؟ لماذا يخاطبه؟ مع أن السور التي قبله ما فيها خطابات! هذا ليبين سبحانه وتعالى اهتمامه بنبيه صلى الله عليه وسلم ورعايته ولطفه؛ هذا أولًا.

والأمر الثاني: لأن هذه الخطابات فيها أمور -أو هذه الأمور التي ذكرها الله بعد الخطاب- أمور مهمة جدًّا، ولذلك ناداه قال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢]، وفي الثانية قال: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢].

ما معنى المزمل؟ المزمل أصله (المتزمل)، ثم أُدغمت التاء بالزاي فأصبحت الزاي مشددة: المزمل؛ هذا أصلها. والتزمل: التلفلف بالثياب أو بالرداء أو بالملحفة، وكذلك (المدثر): يتدثر بثيابه وبملحفته ونحو ذلك.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد التحف بثيابه لأسباب؛ لأسباب كما ذكرناها في اللقاء الماضي:

- إما أنه لما رأى جبريل على صورته الحقيقية جاء فزعًا فتلفلف بثيابه وقال: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي».
- أو أنه لما وجد من قومه شدة العناد والكفر والعداوة وهم يتربصون به، وكانوا يعظمونه وكانوا يعرفون قدره ومكانته ووجاهته، ثم بعد ذلك يقلبون هذه النظر إلى أنه كاهن وأنه ساحر وأنه كذاب وأنه يفتري وأنه وأنه... فحزن حزنًا شديدًا، فدخل بيته فتلفلف، فأمره الله.

فأمره الله سبحانه وتعالى فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]. وهذا فيه أسلوب لطيف للنبي صلى الله عليه وسلم، كأنه يناديه بهذا النداء يقول: يا أيها الذي تزمل وتلفلف في ثيابه، ألقِ عنك ثيابك وقم!

قم، ليس هذا وقت التلفلف، وقت التزمل، التدثر؛ ليس هذا وقته، قم! قم! ولذلك قال بعدها: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢].

وهذه الآية أيضًا كلها وما بعدها قد تحدثنا عنها في لقائنا الماضي: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]، وهذا الأمر للوجوب، والنبي صلى الله عليه وسلم قام بعد هذه الآية إلى أن توفاه الله؛ كل ليلة يقوم، لم يترك ليلة من الليالي إلا وقام فيها، لأن قيام الليل في حقه فرض واجب.

وكان ذلك في حق المسلمين أيضًا؛ لما قام النبي صلى الله عليه وسلم في أول الدعوة، قام الصحابة رضي الله عنهم قيامًا واجبًا عليهم؛ امتثالًا لقوله سبحانه وتعالى، وامتثالًا لما كانوا يرونه من فعل النبي صلى الله عليه وسلم. ثم بعد ذلك، بعد سنة، نزلت الآية الأخيرة في السورة التي فيها التخفيف: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ...﴾ [المزمل: ٢٠]؛ فأصبح قيام الليل في حق الأمة سنة ومستحب، وأما في حق الرسول فبقي واجبًا فرضًا عليه.

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]، ﴿نِّصْفَهُ﴾ [المزمل: ٣]؛ بَيَّن أن قيام الليل كم. لما يقول لك: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ تدري كم ساعة وكم مقدار؟ فأوضح لك فقال: ﴿نِّصْفَهُ﴾؛ يعني قم نصف الليل، ﴿نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٣] إلى الثلث، ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [المزمل: ٤] إلى الثلثين.

وأنت تلاحظ لما يقول لك: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢] ثم يقول: ﴿نِّصْفَهُ﴾ [المزمل: ٣]؛ يعني يبقى النصف الثاني، ليش يقول "قليلًا" وهو نصف ثاني مع أن النصف الثاني يعادل النصف الأول؟ فجعل النصف الثاني قليلًا! وأنت في ميزانك الآن لما تقول هذا ما تقول قليل، هذا نصف ونصف متساوي، لو تقول مثلًا السدس تقول قليل، السدس مقابل الثلثين هذا قليل.

لكن لما تأتي تقول قم الليل ثم يقول: ﴿نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾؛ نقول: لأن قيامك لليل وصلاتك هذا شيء عظيم عند الله وكبير، ونومك ولو كان الليل كله هذا قليل عند الله ليس له أي قيمة، لما تجعل ليلك كله نومًا تجعله نومًا لا تقوم فيه ولا ساعة ولا لحظة، هذا قد ذهب عليك ذهب سدى، لم تستفد منه؛ ولذلك شبه سبحانه وتعالى أو بين أن تركك لقيام الليل وعدم قيامك لليل شيء قليل ولو كان الليل كله، ليس النصف فقط ولو كان الليل كله.

قال هنا: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]. عندنا عدة أمور ستذكر هنا هي أسباب

لقبول الصلاة وقبول العبادة:

١. أولًا: الصلاة وأهميتها، ثم صلاة الليل أعظم وأعظم؛ لأنها وقت الهدوء والسكون وعدم الحركة والظلمة.

٢. ثم ترتيل القرآن؛ ما قال: اقرأ، ما قال: اقرأ القرآن وهذّ القرآن، لا؛ قال: ﴿وَرَتِّلِ﴾ وتدبر.

وحتى ذكر لك بعد ذلك قال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾ [المزمل: ٦] -يعني قيام الليل وصلاة الليل ما هي؟- قال: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾؛ اتفاق اللسان مع القلب، فوق السكون والظلمة وقيامك تتهجد وتصلي بهدوء وتقرأ القرآن قراءة الترتيل والتدبر والتفهم والتعقل، اللسان والقلب يتواطآن؛ فيتفق اللسان مع القلب، فتجد الإنسان يتكلم بالآيات أو يقرأ الآيات ويرتلها، والقلب يستوعب هذه الأشياء ويتدبر ويتدبر.

فاجتمعت عدة أمور: ظلمة الليل وسكونه، وصلاتك والناس حولك نائمون، وقراءتك القرآن وترديدك للآيات وتدبرك وقراءتك بهدوء؛ تجتمع عدة أمور تجعل الإنسان يستفيد ويتدبر ويتأمل، لا كما يصليها البعض من صلاة لا يكون فيها تدبر ولا يكون فيها تأمل ولا تفكر . ولذلك قال: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]؛ فتجتمع هذه الأمور ويتدبر الإنسان.

ولذلك جاء في حديث حذيفة وحديث ابن مسعود وغيرهما في صلاة الليل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا مر بآية تسبيح سبح، وإذا مر بآية تنزيه نزه، وإذا مر بآية فيها سؤال سأل الله، وإذا مر بآية فيها حديث عن النار استعاذ؛ فكان يقرأ بترسل، هذا هو المقصود، الإنسان يقف عند عجائبه يحرك به القلب، أما القراءة التي لا يحصل فيها هذا الشيء فقلّ ما يستفيد الإنسان منها.

قال: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٤-٥]. نحن ذكرنا أن هذه السورة هي زاد الداعية؛ الداعية الذي ينزل إلى الساحة ويدعو إلى الله يتزود، ما هو زاد الداعية؟ ذكرناها:

- أولًا الصلاة وأهمها: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]، صلاة الليل أعظم وأشد؛ لأن صلاة النهار قد يصلي الإنسان يصلي ساعات لكن التشويش والإزعاج والأشغال والتفكير... هو يصلي ويكبر ثم يذكر: عنده عمل، عنده شغل، عنده كذا، فلا يكون مثل الليل ما عنده تفكير، فإقباله في الليل أشد. ولذلك أهم زاد للداعية هو الصلاة، صلاة الليل أعظم وأشد .

- ثم بعد الصلاة قراءة القرآن: قراءة القرآن فيها تدبر، فيها تأمل، فيها زاد يستفيد الإنسان منه.
- ثم الأمر الثاني ما ذكره الله سبحانه وتعالى من الذكر: لما قال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [المزمل: ٨]، الذكر أيضًا زاد قوي يعين الداعية. ولم يقل الله "اذكر اسم ربك" فقط، قال: لا، قال: ﴿وَتَبَتَّلْ﴾؛ يعني اذكره ذكرًا كثيرًا. ولذلك حتى القرآن لو تقرأه من أوله لآخره ما فيه شيء أمر الله بالكثرة إلا الذكر إلا الذكر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة: ١٠]؛ ما في كثير في القرآن شيء يوصف بالكثرة حتى الصلاة ولا غيرها إلا الذكر.

ولذلك هنا جاء بعبارة أقوى من "اذكر"؛ قال: ﴿وَتَبَتَّلْ﴾، انقطع لذكر الله، اذكر الله وحدك، اذكر الله بين الناس، اذكر الله في كل أحوالك. ولذلك الله ذكر أن الإنسان يذكر الله على جميع أحواله: ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]؛ ما يترك الذكر. قال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]؛ يعني استمل وانقطع في طاعة ربك وفي ذكره، وكثرة الذكر هي من أقوى وسائل الداعية؛ الداعية يحتاج إلى كثرة الذكر، ولذلك ذكر الله أيضًا في الجهاد في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: ٤٥]؛ أمرنا بالذكر في مواجهة العدو .

قال هنا: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]، ولاحظ أيضًا بعدها قال: ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]؛ هذا أيضًا التوكل على الله، لا أن تفعل الأسباب وتنسى التوكل، ولا أن تتوكل وتترك الأسباب، تجمع بينهما: فعل الأسباب مطلوب، وفوق ذلك كله التوكل والاعتماد على الله وتفويض أمرك إلى الله في أي الأمور، ولو كانت هذه الأمور من الأمور التي قد لا يلتفت إليها، مطلوب منك الاستعانة بالله والتوكل عليه في جميع أحوالك: دخلت بيتًا، خرجت من البيت، ركبت السيارة، فعلت كذا توكل على الله في جميع أحوالك. ولذلك قال ماذا؟

ما قال توكل على الله هنا، قال: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]؛ يعني خلاص اجعله أمامك، ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ يعني اجعله في جميع أحوالك متوكلًا عليه، مفوضًا أمرك له؛ هو الذي يدبر أمرك، ما تستطيع أن تدبر أمرك أبدًا أنت إلا أن يدبر الله ويتولاك الله سبحانه وتعالى بلطفه ورعايته، ولذلك قال:

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

وأيضًا ذكر لك من أقوى أسباب ووسائل الداعية: الصبر، مع كل هذه الأمور يصبر الداعية، يصبر في مواجهة الأعداء، ولذلك قال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]. يصبر، وإذا دعت الأسباب للهجر أن يهجرهم ولا يواجههم، وإذا دعت الأسباب للمواجهة يواجه، فالنبي صلى الله عليه وسلم صبر ولم يواجه وهجر، وجاء في أحوال أنه لم يهجر وإنما واجههم؛ فحسب الأحوال، حسب الأحوال.

هذه هي الوسائل التي يتخذها الداعية عند نزوله للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى. ونحن -مثل ما ذكرنا- يظن بعض الناس أن الداعية لابد أن يكون مسلحًا ومهيأً وعنده شهادات في الدعوة؛ لا لا، كل منا داعية، كل منا داعية يدعو على قدر حاجته وعلى قدر استطاعته: يدعو في بيته، يدعو مع أهله، يدعو ذريته، يدعو من يجد، لا نحصر الدعوة في طائفة دون طائفة، وإنما كل قد أُمر أن يدعو إلى الله: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]؛ ما قال "أنا فقط" أو "أنا والذين قد تخصصوا في الدعوة"، لا: ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾، كل على قدره، كل على قدره.

قال: طيب الآن فهمنا هذه الآيات، وهي آيات حقيقة عظيمة تحتاج منا إلى تأمل عظيم. شوف قال لما ذكر قيام الليل: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٤-٥]. المراد بالقول الثقيل هنا: القرآن. كيف يكون القرآن ثقيلًا بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم؟ ثقيل من وجهين: حسي ومعنوي.

١. الحسي: إذا نزل عليه الوحي وجد ثقلًا صلى الله عليه وسلم، حتى إنه لَيَتَفَصَّدُ عرقًا في اليوم الشاتي شديد البرد، يتفصد عرقًا من شدة الوحي. وقصة زيد بن ثابت رضي الله عنه معروفة؛ أنه -وهو كاتب الوحي- يقول: «كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْتُبُ الْوَحْيَ، وَفَخِذُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَخِذِي، فَنَزَلَ الْوَحْيُ، فَكَادَتْ فَخِذُ النَّبِيِّ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي مِنْ شِدَّةِ الْوَحْيِ».

وذكر لنا عمر رضي الله عنه وغيره أنهم كانوا يرون النبي صلى الله عليه وسلم يحمر وجهه من شدة الوحي، حتى لما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الوحي قال: «إِنْ كَادَتْ نَفْسِي لَتَفِيضُ مِنْ شِدَّةِ الْوَحْيِ»؛ فيجد مشقة شديدة لنزول الوحي عليه، حتى ذكرت أسماء رضي الله عنها أن النبي صلى الله

عليه وسلم كان على ناقته فنزلت عليه سورة (أو نزل عليه الوحي) فبَركت الناقة من شدة الوحي. هذا نسميه القول الثقيل الحسي.

٢. أما المعنوي: فما في الآيات؛ الآيات العظيمة والمواعظ التي تهز القلوب وتحرك القلوب، هذه آيات عظيمة. ولذلك الله مدح كتابه بأنه قول ثقيل؛ ينبغي لنا أن نعرف قيمة هذا القرآن، ففيه المواعظ والتخويف من النار والترغيب في الجنة، وبيان عقوبات أهل المعاصي وأهل الذنوب، يعني فيها آيات إذا أُوردت وقُرئت تتفطر القلوب من شدة هذه الآيات. قال الله سبحانه وتعالى في مدحه لكتابه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ آيات عظيمة تهز القلوب.

قال: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. ثم بيَّن عِظَم قيام الليل وفضله فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

يقول: ناشئة الليل؛ قيامك لليل، ما هي الناشئة؟ طيب ليش لماذا لم يقل "إن قيام الليل"؟ في فرق بين الناشئة وقيام الليل ولا نفسها؟ نقول: لا، الناشئة هي قيامك بعد النوم، وهو ما يسمى بالتهجد؛ قيامك بعد نومك، لأن السنة أن تنام ثلث الليل وتقوم النصف وتنام السدس، هذه السنة وهذا قيام داود عليه السلام الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه: «خَيْرُ الصَّلَاةِ صَلَاةُ دَاوُدَ»؛ فينام النصف ويقوم الثلث وينام السدس، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ [المزمل: ٢٠] ونحوه، ينام النصف ويقوم الثلث... كل هذا يعني ما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [المزمل: ٢٠].

قال هنا: ناشئة الليل قيامك بعد الهجوع وبعد النوم: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]؛ ﴿أَشَدُّ وَطْئًا﴾: تواطؤ القلب، واتفاق القلب مع اللسان واستيعاب القلب لما تقرؤه أنت، استيعابه وتفكره، ولذلك قيام الليل والتدبر أدعى للبكاء والتأثر بالقرآن. قال: ﴿أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، ﴿قِيلًا﴾: يعني القول، الكلام؛ يعني كلام الله هو أقوم، يعني هو أشد استقامة، كلام رب العالمين هو أقوم كلام وأفضل كلام، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]؛ أشد استقامة، الخصال القيمة يهدي القرآن إليها.

﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]؛ إذا سمعنا مثل هذا الكلام أيها الإخوة، فما حال النهار الآن؟ الليل

عرفناه، يُحيي الإنسان ليله بالصلاة، طيب وبالنهار؟ قال: أعمالك وأشغالك، ولك أيضًا عبادات في النهار، ولذلك قال: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧]؛ لأن هذا الليل أقرب إلى التفكر والتدبر ونحوه، أما في النهار فقال: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾؛ يعني أعمالك الكثيرة.

طيب، ما معنى (سبحًا)؟ من السباحة؟ نعم، من السباحة، كيف الإنسان لما يسبح يعوم ويسبح ينطلق بسرعة ينطلق؟ ولذلك الله سبحانه وتعالى وصف الملائكة فقال: ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات: ٣-٤]؛ كأنه يسبح في الجو.

والإنسان في هذه الحياة ينطلق، وأنت تلاحظ هذا مشاهدًا: كيف الناس يذهبون إلى أعمالهم منطلقين كأنهم يسبحون، فالحياة في الدنيا مثل السباحة، ينطلق هذا يذهب هنا ويذهب هنا، أعمال كثيرة.

وتجد بعض الناس منذ طلوع الشمس إلى زوالها إلى الظهر؛ وهو في أعمال من مكان إلى مكان؛ فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل: ٧]، تقضي أعمالك وأشغالك، وإن كان ليس عندك أشغال ولا أعمال تقضي وقتك فيما ينفعك من صلاة الضحى، ومن قراءة القرآن، ومن طلب العلم، ومن قراءة كتب العلم ونحوه؛ تستفيد من وقتك، نهارك لك: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ أوقات طويلة.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] مع هذه العبادات؛ حتى شوف حتى في لفتة جميلة لما يقول: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾، قد يكون الإنسان يعمل أعمالًا كثيرة ويشتغل بأعمال كثيرة، قال: مع شغلك وأعمالك لا تنسَ ذكر الله، لا تنسَ ذكر الله، اشتغل في أعمالك الدنيوية لكن لا تنسَ الذكر، ما يكلفك وأنت في زيارتك، وأنت في عملك، اشتغل بالذكر، الذكر لا ينقطع عنك. ولذلك قال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾؛ يعني استمر وانقطع لله عز وجل، اجعل دائمًا وقتك لله، حتى أعمالك الدنيوية اجعلها لله واجعل الذكر هو أساسها.

قال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [المزمل: ٨]، ثم قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩]. معنى المشرق والمغرب: أي شروق الشمس وغروبها.

- في آية أخرى قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]؛ نقول: المشرقين شروق الشمس في الشتاء وفي الصيف.

- وفي آية ثالثة قال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]؛ نقول: كل يوم الشمس لها مشرق، لها موضع تشرق فيه، فمعناها المشارق؛ فهذه الآيات لا تتعارض، لا تتعارض.

قال: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المزمل: ٩]؛ يعني اذكره بالتوحيد وحده، واذكره واعبده وحده لا شريك له، فهو المستحق للعبادة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. ثم أمرك بالتوكل عليه فقال: ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]؛ يعني الزم طاعة الله واجعل الله دائمًا نصب عينيك في التوكل والاعتماد عليه في كل أعمالك كما ذكرنا قبل قليل.

ثم قال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]؛ لأنه سيواجه لما يأخذ هذا الزاد سينزل ويواجه خصومًا وأعداءً، ولذلك قال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾. اصبر على ما تواجه من أحوال الناس، حتى الإنسان في حياته الآن يواجه أمورًا صعبة في حياته فعليه بالصبر، وعليه بالهجر... وهذه أيضًا لو وقفنا مع كل آية ستأخذ منا وقتًا طويلًا، لكن لا نريد الإطالة عليكم .

الآن شوف الصبر والهجر، الهجر هذا أن تواجه أحيانًا في بعض الأعمال ومواجهة الناس قد تأتي كلمات سيئة، قد تأتيك ممن يسب ممن يشتم من نحو ذلك، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]؛ فالعاقل يعرض ويغض الطرف عن الناس ويهجرهم، يهجرهم لا يرد عليهم ولا... إذا سبك شخص أو فعل معك مثل هذا الأمر عليك بالصبر، قال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

طيب، لا نطيل، لعلنا نقف عند هذه الآية إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل. والحق حقيقة؛ الجلوس مع الآيات القرآنية قراءة وتدبرًا وتأملًا لا يُمل أبدًا، لا يُمل؛ والله لو تجلس ساعات طويلة لا تمل من تدبر القرآن الكريم، ولكن لضيق الوقت وكثرة الأعمال... فنسأل الله سبحانه أن يعيننا، وأن يوفقنا وإياكم لطاعته، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، ويجعله سائقنا إلى جنات النعيم. نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لطاعته.

والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(المزمل ١١- ١٩)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا المجلس؛ مجلس القرآن الكريم، في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للسابع والعشرين من شهر ذي القعدة من عام ١٤٤٥ للهجرة. نجلس هذا المجلس المبارك وبين أيدينا كتاب الله؛ خير كتاب وأفضل كلام على الإطلاق، نقرؤه ونتدبره ونتأمل ما فيه من آيات. ولا زلنا نتفيأ هذه السورة العظيمة الجليلة وهي سورة (المزمل) التي تحدثنا عنها في لقاءات ماضية، وقف بنا الكلام عند الآية العاشرة من السورة وهي قول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

وهذه التوجيهات من الله سبحانه وتعالى من أول السورة وهي توجيهات وتعليم لنبينا محمد المخاطب بهذا الخطاب في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] تعليماً وتوجيهاً من الله سبحانه وتعالى في كيف يدعو إلى ربه، وكيف يتحمل هذه الدعوة أمام من يدعوهم، وما حال المدعوين، كيف سيدعوهم سبحانه وتعالى، كيف سيدعوهم وكيف سيوجه لهم هذه الدعوة ويرغبهم فيها حتى يقبلوا على ما يدعوهم إليه.

هذه التوجيهات الإلهية التي وجه الله بها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم في أمره بالصلاة وقيام الليل وذكر الله سبحانه وتعالى والتبتل والانقطاع إليه واتخاذه وكيلاً والصبر على ما يواجهه من مواجهات شديدة من قومه؛ ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، دل على أن هناك مواجهة قوية، وأنهم لن يقبلوا منه، وأنهم سيعاندون، وأنهم سيواجهون ويردون دعوته. فلذلك هذا يعني تمهيد وتوجيه للصبر لما سيواجهه إذا نزل في ميدان الدعوة، وهذا التوجيه له ولكل من سيدعو إلى الله. ولذلك لقمان وجه ودعا ووعظ ابنه وذكره بالصبر قال:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧].

إذاً أمر بالمعروف، نهي عن المنكر، دعوة إلى الله؛ سيواجه فيها مواجهات عظيمة. ولذلك هنا قال:

﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، وأيضاً ماذا قال؟ قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾؛ لا تقابل الشر بالشر والسيئة بالسيئة، إنما اصبر وتحمل واهجر هجراً جميلاً لا عتاب فيه ولا تأنيب، وإنما هجر بأسلوب سهل طيب لا عتاب فيه ولا مواجهة فيه؛ لأن هؤلاء لو كانوا يعلمون أثر هذه الدعوة وقيمة هذه الدعوة لما حصل ما حصل منهم، لأقبلوا عليها مسرعين لا أنهم يصادمون هذه الدعوة.

ولذلك لما كانوا سيصادمون هذه الدعوة ولن يقبلوها، ذكر الله سبحانه نبيه محمداً بتهديد هؤلاء المعرضين المعاندين إذا عاندوا وأعرضوا، القرآن يهددهم بهذه التهديدات المخيفة، وقال سبحانه وتعالى:

﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[المزمل: ١١]،

يعني اتركني وشأني؛ اتركني والمكذبين الذين يكذبون الدعوة. فصرح بموقفهم؛ الموقف الأول ماذا قال؟ قال: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، يقولون ماذا؟ صرح قال: مكذبين، يكذبون الدعوة ويردون الدعوة ولن يقبلوا الدعوة. فهؤلاء إذا لم يقبلوا، الله سبحانه وتعالى وصفهم بأي شيء؟ بأنهم مكذبين، بأنهم يكذبون الدعوة، ووصفهم بوصف آخر كان سبباً في عدم قبول الدعوة، ما هو؟ هو الكبر والتكبر والترف والنظر إلى الدنيا والإعراض عن الآخرة، الإعراض عما أعد الله سبحانه وتعالى لعباده المتقين. هذا جعلهم يتمسكون بالدنيا ويعرضون عن الآخرة، ويظنون أن الحياة الحقيقية هي الحياة الدنيا. ولذلك وصفهم الله بقوله ماذا؟ قال: ﴿وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ﴾. هناك فرق بين النَّعْمَة والنِّعْمَة؛ الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[الضحى: ١١]،

فالنَّعْمَة تختلف عن النِّعْمَة؛ النَّعْمَة من معناها ما ينعم الله على الإنسان بإنعام والتَّرَف، يكون تقول هذا رجل يعيش في نَعْمَة، يعيش في ترف، يعيش في يعني حياة رفاهية هذه تسمى النَّعْمَة. أما النِّعْمَة التي تجمع على نِعَم فهي يعني ما أنعم الله به على العبد؛ أنعم الله عليك بنعمة البصر، بنعمة السمع، بنعمة الإيمان، بنعمة القرآن، هذه تسمى نِعَم ينعم الله. لكن حال الإنسان الذي يعيش فيه من الترف والرفاهية يسمى نَعْمَة.

قال: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]. اتركهم، مهلهم يعني دعهم قليلاً يعيشون في هذه الحال والإعراض والتكذيب وعدم قبول الدعوة، اتركهم قليلاً لأن المدة قليلة ثم

يصيبهم ما يصيبهم من العذاب، يصيبهم ما يصيبهم من العذاب، فهذا يعني فيه تهديد لهم: ذرني اتركني وهذه حالهم ومهلهم قليلاً، اتركهم ودعهم مدة قليلة سيصيبهم ما يصيبهم من العقوبات.

ثم بين هذه العقوبات، ما هي هذه العقوبات؟ قال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ﴾ أي قد أعددنا واعتدنا لهؤلاء، قال: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾ [المزمل: ١٢].

ما هي الأنكال؟ تقول ننكل بفلان يعني نعذبه، يعني إن لدينا أنكالاً يعني أنواعاً عظيمة من العذاب بما ينزل بهم؛ ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾ أي يعني أنواعاً وألواناً من العذاب الذي سيصيبهم. ﴿وَجَحِيمًا﴾ النار الجحيم، ونار تلظى، ونار محرقة، عياذاً بالله أن العافية.

ثم قال: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١٣].

هذا كله تهديد لأصحاب الترف والرفاهية والنعمة الذين لا يعرفون حق الله عليهم.

قال: متى هذا يحصل؟ متى يكون الذي قال فيه ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾؟ متى؟ قال:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

حتى ما يقول يوم القيامة أو يوم البعث، لا؛ يعطيك صورة عظيمة فيها تهديد شديد أشد من الأول، قال: هذا العذاب الذي سيصيبهم متى؟ عندما ترجف الأرض رجفة قوية وتهز هزاً قوياً وتتزلزل الأرض والجبال أيضاً تهتز بقوة وترجف وتتزلزل. حتى هذه الجبال من شدة هذا اليوم وهوله، هذه الجبال الصماء، الجبال الشامخات القوية التي لا يستطيع الإنسان أن يزيلها عن أماكنها، هذه الجبال كما قال الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾. الكثيب الرمض... يعني هذه الجبال، الصخور الشديدة التي لا يمكن أن يزيلها الإنسان ولا شيئاً منها، هذه بقدرة الله سبحانه وتعالى تتحول إلى أن تكون رملاً، ثم بعد ذلك تكون سراباً؛ بثت الجبال فتتت:

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥-٦]،

كالصوف المنفوش الذي يتطاير بالهواء، فتصبح هذه الجبال الصماء من شدة هذا اليوم وهوله. فوصف الله هذا اليوم بهذا الوصف العظيم، ووصف الله هذا اليوم أيضاً بأوصاف عظيمة في مواطن أخرى في كتاب الله.

ثم ذكرهم سبحانه وتعالى بأن رسالة محمد رسالة من عند الله وليست جديدة، بل أرسل الله قبله

رسله، فقال:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل: ١٥].

أرسلنا إليكم يا أهل مكة ويا من يخاطب بهذا الخطاب رسولاً، وهذا الرسول شاهد، شاهداً عليكم إن كفرتم وبقيتم على تكذيبكم وإعراضكم، وشاهداً لكم إن آمنتم، فشهادة النبي صلى الله عليه وسلم إما عليهم أو لهم. قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾. طيب لماذا قال شاهداً عليكم؟ نقول: لأنه خاطب أولئك المكذبين فهددهم بأن شهادة النبي ستكون عليهم. ورسالة النبي ليست جديدة وليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله رسلاً كثيرة، ولذلك ذكرهم بأقرب رسالة إلى الجزيرة وهم يعرفونها، قال: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾، وأهل مكة لا يخفى عليهم فرعون يعرفونه، قال كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً وهو موسى عليه السلام. فالنتيجة ما هي لما أرسل الله إلى فرعون موسى عليه السلام يدعوه إلى التوحيد كما يدعو محمد إلى عبادة ربه؟ النتيجة:

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦].

أخذاً شديداً من الوبال وهي الشدة والقوة. فلما عصى فرعون ربه وعصى رسول ربه موسى عليه السلام النتيجة ما هي؟ أن الله انتقم منه فأخذه فأغرقه بالماء أخذه أخذاً وبيلاً.

فقال الله سبحانه وتعالى: هذا شاهد من عذاب الدنيا. الآن أنت الآن الله هددهم بالعذاب وخوفهم وذكرهم شاهداً هم يقرون به وهو هلاك فرعون، فالذي أهلك فرعون قادر على أن يهلك هؤلاء المكذبين. ثم أيضاً ذكرهم بهلاك الآخرة وموقفهم من يوم الآخرة فقال:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

على أسلوب الاستفهام، كيف استفهام إنكاري ينكر عليهم وتوبيخ لهم، كيف تتقون؟ تتقون ماذا؟ تتقون هذا اليوم العظيم. يقول: كيف تتقون إن بقيتم على كفركم وكفرتم برسالة نبيكم وكفرتم بهذا اليوم وكفرتم بربكم، كيف تتقون هذا اليوم؟ هذا اليوم يوم عظيم، كيف تنجون منه؟ وكيف تسلمون منه؟ وكيف تأخذون حيطتكم من هذا اليوم العظيم المهيب؟ ماذا سيكون موقفكم؟ قال: هذا اليوم وصف بأي شيء؟ قال: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾. يجعل الولدان شيباً، الولدان جمع وليد، والوليد الصغير، يقول هذا الوليد الصغير الذي لا يدرك هذه الأشياء العظيمة من شدة هذا اليوم العظيم يشيب رأسه من هذا

الهم وهذا الموقف العظيم. إذا كان هذا الذي لا يدرك هذه الأشياء سيصيبه ما يصيبه، فكيف بمن هو أكبر ويدرك هذه الأمور ماذا سيصيبه؟ الله وصف لنا هذا اليوم العظيم بمواقف عظيمة، قال:

﴿يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[الحج: ٢].

فهذا اليوم من شدته يجعل هؤلاء الصغار قد شابت رؤوسهم من شدة هذا اليوم، فكيف بالكبار ماذا سيكون موقفهم؟

قال: هذا في حق الإنسان وفي حق الولدان وفي حق الكبار، فكيف في حق الجمادات الجبال ماذا سيصيبها؟ قال: الجبال ترجف وستدك حتى ماذا تكون كثيباً مهيلاً. والسماء؟ قال: السماء قد انشقت وتفطرت من شدة هول هذا اليوم، قال:

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾[المزمل: ١٨].

السماء منفطر به، لما كانت السماء يجوز تذكيرها وتأنيثها لأنها ليست مؤنثاً حقيقياً، جاز التذكير والتأنيث، فقال: السماء منفطر، تقول هذا السماء منفطر يعني العلو، ويجوز تقول السماء منفطرة كما قال:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾[الانفطار: ١]،

كل ذلك جائز. قال: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِۦ﴾ يعني متشققة السماء، ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي وعد هذا؟ وعد الله عز وجل لهذا اليوم مفعولاً لا نشك فيه ولا مرية فيه ولا ريب فيه، كان وعده مفعولاً.

هذه الآيات التي يسوقها الله سبحانه وتعالى في هذه السورة في توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة، وفي أيضاً توجيهات الصبر على قومه، وأنهم سيكذبون دعوته، والله هددهم بقوله: ﴿وَذَرْنِي﴾، وهددهم بالعذاب: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا﴾، وبين لهم أن عذاب الدنيا قد يكون قريباً لأنه قال: ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾، وذكر لهم مثالاً واقعاً وهو إهلاك فرعون وهم يعرفونه، وذكرهم باليوم الآخر وشدته وهوله، كل هذه الرسالة الله ختمها بأي شيء؟ قال:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[المزمل: ١٩].

هذه موعظة لكل عاقل متذكر، وتذكرة لكل متفكر في آيات الله وفي حال هذه الدنيا؛ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ وهذا القرآن، هذه السورة والقرآن كله تذكرة. قال: تذكرة، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن شَآءَ

﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾. نحن أرسلنا إليكم رسولاً، وأنزلنا إليكم الكتاب، وذكرناكم بهذا الكتاب، ووعظناكم، فمن شاء يصل طريق الخير فالخير موجود، ومن لم يرد ذلك فطرق الشر كثيرة. ولذلك الله أعطى العقل، أعطى الإنسان عقلاً وميزه، وأرسل إليه الرسول، وأنزل إليه الكتاب حتى يكون الأمر أمامه لا غموض فيه ولا مرية، من شاء فليسلك طريق الخير، ومن شاء فليسلك طريق الشر. ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]،

هديناه يعني بينا له، أوضحنا له طريق الخير والشر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا﴾ وهذا خير له ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وهذا شر له. وقال في موضع آخر أيضاً: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، والنجدين طريق الخير وطريق الشر. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، وخير له أن يسلك طريق ربه لينجو في الدنيا والآخرة.

يبقى في خاتمة هذه السورة ما يذكره الله عما بينه في أولها، فكان خاتمة السورة هي عود إلى أولها. الله سبحانه ذكر في أولها توجيه الله سبحانه وتعالى إلى نبيه في كيفية قيام الليل، قال: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]، ثم سبحانه وتعالى أنزل الآية الأخيرة من السورة، وهي بين نزول السورة أولها وآخرها سنة كاملة كما قالت عائشة رضي الله عنها، قالت: فأمسك الله آخرها حولاً كاملاً ثم أنزل. قام النبي صلى الله عليه وسلم نصف الليل وزاد ونقص، وقام أصحابه معه حتى تفطرت أقدامهم، ثم إنه بعد ذلك خفف الله خفف الله، وذكر الأعذار التي ذكرها في آخر السورة يأتي الكلام عنها إن شاء الله في لقاءات قادمة. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(المزمل ١٩ - آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم، هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للسادس والعشرين الموافق من شهر ذي الحجة من عام ١٤٤٥ من الهجرة. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، في مجالسنا المباركة مع كتاب الله سبحانه وتعالى؛ قراءةً وتفسيراً وبياناً وتأملاً وتدبراً.

والسورة التي عشنا معها في أيامنا الماضية ونواصل الحديث فيها هذا اليوم هي سورة (المزمل). ولا عجب يعني أن الإنسان يعيش مع القرآن مدة طويلة، ولو أخذ الوقت منه وقتاً طويلاً ليس بكثير على القرآن في تدبره وتأمله. ابن عمر رضي الله عنه الصحابي الجليل تدبر سورة (البقرة) ثمان سنوات، وهو يتأمل ويتدبر ويتفكر ويراجع ويستخرج ما فيها من كنوز ومن توجيهات ومن مواعظ ومن أحكام. يقول ابن العربي القاضي المعروف رحمه الله، يقول: تأملت سورة (البقرة) فوجدت فيها ألف أمر وألف نهي وألف حلال وألف حرام. فليس بكثير أن الإنسان لو يأخذ آية واحدة ويتأملها يوماً يومين ثلاثة أربعة، ليست بالكثيرة.

النبي صلى الله عليه وسلم في صلاته، في صلاة الليل وقف مع آية واحدة حتى طلع الفجر:

قال تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]؛

جلس يرددها، حتى أصبح الصبح. فليس بكثير أن الإنسان يعطي القرآن شيئاً من وقته؛ كم من الأوقات التي تذهب علينا بدون فائدة، وإذا جاء عند القرآن شيء جلس الإنسان يناظر في الساعة ويناظر في الوقت متى ينتهي ومتى تنتهي السورة، لا! ولذلك ابن مسعود نبه على هذا الأمر، ابن مسعود الصحابي الجليل قال: «لاَ يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»، لا يكن همك آخر السورة متى تنتهي، لا، قال: «قِفُوا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرِّكُوا بِهِ القُلُوبَ»، هذا الذي ينبغي للإنسان يعني أن يفهمه؛ لأن هذه الحروف والكلمات التي هي في المصحف هذه هي وسيلة وليست غاية، هذه وسيلة؛ الغاية منها هو ما وراء هذه الحروف. أنت تقرأ هذه الآيات ما وراء هذه رسائل من الله، الله يرسلها إلينا، رسائل. أنت لو تأتيك أي رسالة على جوالك

جلست تنظر فيها وتتأمل وتعيد النظر فيها وهي رسالة من بشر، قد تكون رسالة بالخطأ وقد تكون رسالة من شخص ما تعرفه، ومع ذلك تجلس تفكر فيها، كيف تفكر فيها وهي من كلام ما تدري وش، وكلام الله أجل وأعظم أن يتفكر وأن يتأمل فيه.

الآية التي معنا في هذا اليوم هي آية واحدة وهي خاتمة سورة (المزمل). الله سبحانه وتعالى افتتح سورة (المزمل) بتوجيه النبي وأمره مع صحابته مع المؤمنين أن يقوم الليل، قال الله سبحانه وتعالى في أول السورة: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]، ثم قال: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ [المزمل: ٣]، يعني قم النصف، أو أنقص منه قليلاً يعني الثلث الذي دون النصف، أو زد عليه الذي زاد فوق النصف يعني الثلثين؛ يعني لتكن صلاتك نصف الليل أو الثلث أو الثلثين، هذا الذي وجهه. وقال:

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]،

يعني قم بالقرآن متأملاً متدبراً متفكراً. ولا شك أن قيام الليل في ظلمة الليل وفي سكون وهدوء وقراءتك ستجد استحضاراً للآيات عجيبة جداً. ولذلك قال رتل القرآن ترتيلاً.

لما نزلت هذه الآية قام النبي صلى الله عليه وسلم وقام أصحابه واستمروا على ذلك حولاً كاملاً؛ سنة، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: قام النبي صلى الله عليه وسلم وقام أصحابه حتى انتفخت أقدامهم وهم يصلون، فخفف الله عليهم ولطف بهم ورحمهم وأنزل هذه الآية التي فيها التخفيف. هذه الآية التي معنا فيها التخفيف وفيها الرحمة، ولذلك نُسخ الحكم الأول وهو القيام الذي أوجبه الله على الأمة كاملاً نُسخ، وبقي واجباً على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. قال الله سبحانه وتعالى في سورة الإسراء:

﴿فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]،

زيادة لك أنت؛ يعني هذا خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم. فكان قيام الليل واجباً على النبي صلى الله عليه وسلم حتى مات صلى الله عليه وسلم، وذلك رفعة له ونافلة له وزيادة له في الخير. وأما أمة محمد فإنه كان واجباً عليهم في أول الأمر لمدة سنة، ثم بعد ذلك جاء التخفيف هنا، جاء التخفيف والرحمة.

وانظر في هذه الآية الأخيرة وتأملها، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل:

٢٠].

شوف لما يأتي بكلمة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ هذه تحتاج منا أن نتأمل لماذا لم يقل إن الله يعلم؟ قال لا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾. الآن أنت لما تأتي عند أحد أبنائك تقول: والدك رؤوف بك، والدك يحبك، والدك غير لما تقول: أنا رؤوف أنا أحبك، يختلف الأسلوب. فشوف كلمة -ولله المثل الأعلى سبحانه وتعالى- شوف يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، هذا دليل على اللطف والرحمة. وافتتاحيتها بهذه الآية يدل على أن ما بعدها فيه تلطف وفيه رحمة وفيه مغفرة وفيه تجاوز وفيه صفح؛ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾. ولذلك قال الله في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

فالله مطلع ولا يغيب عليه شيء، يسمع ويرى؛ يسمع دبيب النملة ويري النملة السوداء على الصفاة السوداء في الليلة المظلمة، تصور! لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؛ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ سبحانه.

تقوم أدنى من ثلثي الليل، يعني كم؟ النصف أدنى؛ يعني ما بين النصف والثلثين، يعني ينقص عنك قليلاً ينقص شيئاً قليلاً عن الثلثين. سنعرف لماذا قال الله هذا الشيء، لماذا قال يعلم أنك تقوم أدنى يعني أنقص من ثلثي الليل، ونصفه أي تقوم نصفه، وثلثه يعني أنك طبقت الآية الماضية، لكن قد يكون هناك اختلاف في الوقت قد يزيد قد ينقص قليلاً. قال: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾؛ يعني حتى أصحابك كانوا يفعلون معك هذا الفعل. هل كانوا يفعلونه جماعة ولا يفعلونه فرادى؟ نقول: تارة هكذا وتارة هكذا؛ مرة صلى النبي صلى الله عليه وسلم فصلّى معه أصحابه، ومرة صلّى معه ابن مسعود، ومرة صلّى معه حذيفة، ومرة صلّى معه ابن عباس، ومرة يصلي كل واحد على انفراد على انفراد. فقال: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

قال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ يعني لو أنك نقصت أدنى من ثلثي الليل أو زدت أو تحريت ذلك لكنك لم تأتِ به بدقة، فالذي يعرف بدقة من هو؟ الذي يقدر الليل والنهار طولاً وقصراً، صيفاً وشتاءً، لا؛ هذا الذي يعلمه ويقدره هو الله سبحانه وتعالى، لا يستطيع أحد أن يصل إلى هذه الدرجة في زيادة النهار أو نقصانه أو زيادة الليل أو نقصانه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، يعني لن تحصوا هذا الوقت بدقة. قد يكون الآن يعني مع وجود الآلات الحديثة والساعات وكذا قد يكون إنسان عنده معرفة قليلة لهذا الشيء، ولكنه ولو

عرف هذا، يعني حتى مع وجود الأجهزة والآلات أنت ما تستطيع أن تدقق في قيامك متى تنهض من فراشك، متى تزيد قد تزيد قد تنقص، قد يفوتك يوم قد لا يفوتك، قد تتأخر قد تتقدم؛ هذا كله أنت بشر. ولو جاءت عندك جميع أجهزة التنبيهات ما تستطيع؛ لأن هذا قد يزيد قد ينقص، قد تتأخر في وقتك في وضوئك في نحو ذلك. ولذلك قال: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ فتاب عليكم قال يعني لم تؤاخذكم، بل يعني بل يجازيكم أحسن الجزاء ولا يؤاخذكم على تقصيركم إن قصرتم في شيء من ذلك؛ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، يعني إن الله تاب؛ يعني تجاوز عن هذا الحكم السابق ورفعه عنكم، ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ اقرؤوا ما شئتم مما تيسر لكم؛ قرأت اليوم ١٠٠٠ آية، وغداً قرأت ١٢٠٠، وبعدها قرأت ٨٠٠، زاد أو نقص أو هذا؛ اقرؤوا ما تيسر مما تيسر لكم مما سهل عليكم اقرؤوه من القرآن.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾؛ هذه في بيان الأعذار ورفع الحرج، لأنه كان مثل ما ذكرنا في أول الأمر حتماً عليهم فقاموا جميعاً حتى انتفخت أقدامهم، ثم الله سبحانه وتعالى يعني رأف بهم ورحمهم وخفف عنهم، وذكر أسباب التخفيف. ما هي أسباب التخفيف؟ أولاً عندنا أسباب التخفيف أن الإنسان لن يستطيع أن يحصي ذلك ولن يستطيع أن يأتي به بدقة مهما كان ومهما أُعطي من العلم لن يستطيع هذا، فلذلك الله تاب قال: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾؛ هذا تخفيف لأنك لم تستطع أن تصل لهذا الأمر. السبب الثاني: الأعذار، المرض والسفر، المرض والسفر. طيب ما هو؟ قال: ﴿سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾، قد يصاب الإنسان قد يعرض له عوارض ما يستطيع يقوم يصاب بأمراض فلن يستطيع. لكن ليعلم لنعلم جميعاً أيها الإخوة أنك أنت إذا كنت مواظباً على قيام الليل في ساعات محددة ثم أصابك عارض من العوارض، مرض أصابك ولم تستطع تقوم إلا قليلاً أو لم تقم أبداً، فاعلم أن الله يكتب لك القيام كاملاً كما كنت عليه، جدولك الماضي مستمر معك، فضل الله واسع. هذا يعني لو عرض لك عارض ولم تستطع أن تأتي بالصلاة بصلاة الليل، أو حتى لو كانت صلاة الفريضة في المسجد وأصابك عارض وصليت خارج المسجد أو في بيتك، فاعلم أن الله يكتب لك إذا سافر أو إذا مرض العبد؛ هذا حديث: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَحِيحًا مُقِيمًا». فضل الله واسع فلا نخسر هذا الشيء.

قال سبحانه وتعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. يضربون في الأرض يعني يسافرون؛ يضرب الأرض لأن المسافر يضرب بقدميه أو بإبله أو بعصاه يضرب الأرض وينطلق ويسافر. قال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، لماذا يسافرون؟ قال: ﴿يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ للتجارة والتكسب وطلب الرزق، وهذا لا شك أن فيه أجر، لا شك أن هذا فيه أجر عظيم عند الله. أنت لما تخرج تطلب الرزق ولتكف حاجتك عن الناس وتطلب الرزق لذريتك ولزوجتك ولبيتك، لا شك أن الإنسان مأجور في هذا الشيء، مأجور. ولذلك قال: ﴿يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. يقول الذين يسافرون أحياناً لطلب الرزق وابتغاء ما عند الله في التجارات، أو يسافرون للجهاد يقاتلون في سبيل الله، أو قد يسافرون للعبادات كالحج والعمرة، كل هذه تعتبر ضرباً في الأرض تسافر كلها سفر. وإذا سافر الإنسان فإنه يُعذر عن قيامه الليل لو تركه لو تركه؛ يعني سبب السفر قد يكون السفر مشقة بلا شك السفر مشقة وقطعة من العذاب، فإذا سافر الإنسان... ولذلك شُرع للمسافر أن يصلي الرباعية ركعتين وأن يجمع بين الظهر والعصر والعشاء والمغرب والعشاء، هذا من باب التخفيف وألا يطيل في الصلاة وأن يخفف. لكن تجد ممن هم ديدنهم قيام الليل لا يتركونه ولا في السفر، لا يتركونه في السفر. وأنا أذكر أحد المشايخ المعاصرين توفي رحمه الله عليه، سافر للحج وكان له قيام ساعتين بالليل، فلما جاء وقت القيام قال لصاحب السيارة وهم كانوا مجموعة للحج فقال: لعلنا نقف هنا لحاجة، قال: طيب، أوقفوا السيارة ونزل وذهب. يقول صاحب القصة: يقول والله كان في شدة البرد وكان الماء والله نحاول أن ينزل الماء ما فيه من شدة البرد والماء ثلج في القربة، فيقول: بدأ يكسر القربة ويتوضأ وقام وبدأ يصلي. يقول: هذا حزبي لا يمكن أن أتخلف عنه، فجلس يصلي والناس جلسوا ويرتاحوا. فالشاهد من الكلام سبحان الله العظيم تجد بعض الناس عنده يعني جدول عنده منهج في حياته، خلاص قيام الليل هذا لا يفرط فيه، صلاة الضحى لا يفرط فيها، صيام الاثنين والخميس لا يفرط فيها، إلا إذا عرض عارض كمرض ونحوه، لكن الأصل أنه يعني تجد بعض الناس يعني حتى لو سافر أو كذا ثم ما صام الاثنين يشعر أن هذا اليوم غير مستقر ما قام الليل لأن غير مستقر. فأناس عودوا أنفسهم تعلقوا بالله، لا يفوته صيام ولا يفوت قيام ولا يفوته حزب القرآن ولا يفوته كذا؛ ولذلك لو تأخر في ختمة القرآن عن منهجه، لو كان يختم كل جمعة ثم تأخر حزن حزناً شديداً وحاول أن يعوض هذا الشيء.

فأناس تعلقوا بربهم وسلكوا مسلك المنهج إلى صراط الله سبحانه وتعالى، والتعلق بربهم؛ فلذلك يحاول أنه لا يتخلف عن شيء من ذلك، وإن كان الأمر مباحاً والأمر فيه سعة، ولكنه نفسه لا تقبل هذا الشيء.

يقول سبحانه وتعالى هنا: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ قال: هؤلاء أصحاب أعذار إما مريض أو مسافر، ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾؛ اقرأ ما تيسر ولو شيئاً قليلاً: ﴿فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾.

ثم حث سبحانه وتعالى على أمر مهم جداً في حياة الإنسان لا يسقط بحال من الأحوال أبداً ما دام عقلك معك، فهو لا بد أن تأتي به كل... شوف كل يعني كل العبادات تسقط إلا هذه العبادة لا تسقط بأي حال؛ ما هي؟ قال: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾. الصلاة لا تسقط بأي حال أبداً؛ شوف الصيام ما تستطيع تصوم أطعم، الحج ما تستطيع ليس عليك حج، الزكاة ما عندك مال ما عندك زكاة، لكن الصلاة ما تسقط بأي حال: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ». ما دام عقلك معك لا بد أن تأتي بالصلاة ولا يجوز تأخيرها عن وقتها أبداً؛ صلِّ ما تعرف القبلة صلِّ، ما عندك وضوء صلِّ، ما عندك سترة يعني قصدي ستر العورة ما تستطيع صلِّ على أي حال، المهم لا يخرج وقتها وأنت لم تصَلِّ. لا تقول والله أنتظر تأتيني سترة العورة أو يأتيني شخص يوجهني للقبلة أو كذا، لا، صلِّ على قدر حالك. فلذلك الله سبحانه وتعالى لما ذكر قيام الليل نبههم على أمر لا يسقط بأي حال قال: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾. شوف كلمة ﴿أَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ غير صلوا؛ تجد الآن في بعض المساجد أربعة خمسة يصلي كلهم، بس من الذي أقام الصلاة؟ أقيموا الصلاة يعني ائتوا بلبها وخشوعها وأركانها وواجباتها وسننها، هذا استحضار الصلاة هذا أقام الصلاة. قال: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي ركن من أركان الإسلام، ﴿وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لماذا؟ لأن شوف الإنسان علاقته مع ربه ومع إخوانه المسلمين؛ فأما صلته بربه الصلاة، وأما صلته مع إخوانه المسلمين فالزكاة، هي التي تقوي الروابط بين المسلمين؛ ولذلك قال: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾. والزكاة فرض وقد لا تكون مع جميع الناس، ولذلك حثهم على أمر آخر شبيه بالزكاة ما هو؟ الصدقة. «وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ»؛ برهان على الإيمان. قال شوف قال: ﴿وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ لم يقل تصدقوا، ليش لماذا قال أقرضوا الله قرضا حسناً؟ هذا فيه فائدتان:

الفائدة الأولى: أن القرض دائماً يعود لك؛ لما يأتيك شخص يقول أقرضني مال تعرف أنه سيعيد لك المال، لكن لما يقول تصدق عليّ ما لن يعيدها لك، فرق بين من يقول تصدق ومن يقول أقرضني. فالله لما

يقول: ﴿وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يعني أن الله سيعيده لك مهما كان، ولن يعيده لك كما كان لن يعيده لك كما كان، سيعيده لك أضعاف لن تشعر بها أبداً. قال: ﴿وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

هذه الفائدة الثانية: أنه لا بد أن يكون القرض قرضا حسناً، لا يكون فيه منٌّ على هذا الشخص، ولا تكون لا يكون فيه منٌّ. والقرض الحسن أن يكون خالصاً لله، لا لقصد هدف من أمور الدنيا، وإنما يكون لله سبحانه وتعالى؛ أقرضوا الله قرضا حسناً، سيكون ذلك القرض في مصلحتكم أنتم.

ولذلك شوف قال بعدها: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾؛ أي خير من الأخيار، الخير من أي خير وأي عمل من الأعمال الصالحة تقدمه لنفسك هذا سينفعك، ولو ابتسامة، ولو كلمة طيبة، ولو سلام، ولو أقل القليل: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾. الخير الذي أنت تقدمه ولو كان قليلاً ستجده عند الله لن يضيع لن يضيع، ستجده عند الله هو خيراً وأعظم أجراً. وما أكثر ما فرطنا في أوقاتنا وفي أعمارنا وذهبت علينا يعني بدون فائدة! الخير واسع ومجاله واسع في القول وفي الفعل وفي كل شيء ومع ذلك نضيع أوقاتنا؛ لا في الأفعال ولا في الأقوال. فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يعفو عنا وأن يرحمنا.

ولذلك شوف ختم الله مع هذه الأعمال الجليلة، أعمال الشريعة عظيمة، ويختمها الله بأي شيء؟ قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. اطلبوا من الله المغفرة: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. لماذا ختم الله سبحانه وتعالى هذه الأعمال الجليلة بالاستغفار؟ الاستغفار ترقيع لما نقص؛ لا شك أن الذي يقوم الليل أو يؤدي الصلوات الفرائض الخمس أو يتصدق أو يخرج الزكاة أو يقوم بجميع الأعمال التي قال الله فيها: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾، كل هذه سيكون فيها خلل سيكون فيها نقص، فتأتي هذه ترقع، فالاستغفار كله يكمل ما نقص. ولذلك الله حتى في آيات الحج قال:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ﴾.

وأنت في الصلاة لما تسلم مع أنك أديت فريضة أديت فريضة مع الجماعة ومع ذلك إذا سلمت، صليت وسلمت تقول: استغفر الله. كل هذا يكمل ما نقص وما حصل من يعني خلل في صلاتك في أعمالك. تتصدق وتقول استغفر الله، تعمل الأعمال، تقوم الليل تقول استغفر الله، ولذلك صلاة الليل

ختامها الاستغفار: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

فيحرص الإنسان على كل ما قدم من عمل أن يكثر من الاستغفار حتى يكمل عمله حتى يتقبله الله.

هذه الآية الخاتمة حقيقة عشنا معها تأملناها وهي آخر آية في هذه السورة، ولا شك أنها مليئة بالفوائد والتوجيهات الربانية، فنسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بها وأن يوفقنا لطاعته، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ المُدَّثر)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(المدثر ١ - ١٠)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعله لقاءً مباركاً نافعاً. هذا اليوم هو اليوم الثالث من شهر الله المحرم من عام ١٤٤٦ للهجرة. درسنا في مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم؛ قراءة وبياناً وتفسيراً وتدبراً.

السورة التي معنا هي سورة (المدثر)، وهي قرينة السورة التي قبلها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، ﴿وَيَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]. وتلاحظ أن السورتين افتتحت بنداء، نداء النبي صلى الله عليه وسلم، نداؤه بوصف مناسب فيه التلطف معه صلى الله عليه وسلم. وتلاحظ أن السورتين كلاهما أيضاً فيها (قُمْ)؛ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]، حتى ذكر بعض أهل العلم أنهم قالوا: إن النبي صلى الله عليه وسلم نُبئ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾، وأُرسل بـ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، ﴿وَٱقْرَأْ﴾ وهي سورة (العلق) هي أول سورة نزلت في القرآن أو الآيات الخمس منها، ثم اختلف أهل العلم ما السورة التي تليها؟ هل هي (المدثر) أو (المزمل) أو سورة (القلم)؟ على خلاف في ذلك، والذي يظهر والله أعلم أن سورة (المدثر) إما هي الثانية أو الثالثة.

فسورة (المزمل) هي مثل ما ذكر بعض أهل العلم، قال: هي تهيئة النبي صلى الله عليه وسلم للدعوة، هي زاد الداعية قبل أن ينزل إلى الدعوة يتزود، فالله سبحانه وتعالى زوده ببعض العبادات كقيام الليل وتلاوة القرآن وتدبره والعمل به، ثم بعد ذلك لما تهيأت النفس للدعوة نزلت السورة: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]، فنزل صلى الله عليه وسلم في دعوة قومه بهذه السورة: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

ما معنى المدثر؟ نقول: المدثر هو من يتدثر بثياب، يتلف بثيابه. والدثار، هناك ما يسمى بـ(الشعار) و(الدثار)؛ فالشعار ما يلاصق البدن مباشرة، ما يباشر البدن، وما يكون فوق الشعار يسمى الدثار. فالنبي صلى الله عليه وسلم تدثر، طيب لماذا تدثر؟ ولماذا وصفه، وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾؟ عدة أسباب ذكرناها في لقاءات سابقة حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، وأقرب ما ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل من غار حراء ناداه جبريل فقال: «يَا مُحَمَّدُ»، فالتفت يميناً وشمالاً

وأماماً وخلفاً ولم يجد أحداً، فلما رفع رأسه فإذا جبريل جالس بين السماء والأرض قد سد الأفق، وله ستمائة جناح على صورته التي خلقه الله عليها، فارتعد وخاف وجاء إلى أهله وقال: «دَثِّرُونِي»، فصبوا عليه الماء ودثروه بالثياب حتى هدأت نفسه، فقال الله سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢].

قم فأنذر، فأنت رسول الله كما قال له جبريل، قال: يا محمد، أنا جبريل وأنت رسول الله. فبعد ذلك نزلت هذه الآيات، هذه السورة إذا قرأناها وتأملنا آياتها وجدناها هي في الحقيقة دعوة.

وتلاحظ التصريح بقوله: ﴿فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢] مع أن النبي صلى الله عليه وسلم نذير وبشير، لكن لما كان في مواجهة قوم معاندين ومستكبرين ولا يتقبلون جاء التركيز على وصفه بالنذارة: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾؛ أنذر قومك، أنذرهم من أي شيء؟ أنذرهم من العذاب الأليم إن أصروا على ما هم عليه ولم يقبلوا دعوتك، فهددهم وخوفهم بالعذاب الأليم. ولذلك جو السورة ككل هو الحديث عن العذاب الأليم والتهديد، ولذلك تلاحظ التهديد بالبعث والجزاء، ثم التهديد بالنار: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٥]، ﴿وَعَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]، كل ذلك يأتي في سياقات أنها دعوة وإنذار وتحذير وتخويف بعاقبة أو بسوء عاقبة من يصر ويكفر ويعارض.

طيب، نبتدئ بالسورة، النداء الأول فيها أو الآية الأولى فيها النداء للنبي صلى الله عليه وسلم الذي يحمل فيه التلطف والمؤانسة؛ لما يقول مثلاً لو قال: يا محمد قم، أو قال: يا رسول الله، يختلف الأسلوب لما يقول: يا من قد تلفلف بثيابه وتدثر بثيابه، اخلع عنك هذا التدثر وقم فأنذر! فيه مؤانسة وفيه ملاطفة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء إلى علي رضي الله عنه وقد نام في المسجد على التراب قال مؤانساً له وملاطفاً له: «قُمْ أَبَا تُرَابٍ». فهذا أسلوب يستعمله العرب في الملاطفة والمؤانسة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١-٢].

أنذر، تلاحظ أن متعلق الفعل محذوف، ما ندري أنذر ماذا؟ مَن أنذر؟ وبم أنذر؟ أطلق القرآن: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾، يدل على أن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم دعوة عالمية ليست محدودة، ما قال أنذر قومك أو أنذر العرب أو أنذر كذا، لا؛ ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فوظيفتك الإنذار، أنذرهم مما هو قد يضرهم أو قد يكون تهديداً لهم إن أصروا على ما هم عليه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

ثم بدأت الدعوة في بيان أن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم جاءت للتوحيد وإقامة العبادة لله سبحانه وتعالى وتوحيده وإفراده بالعبادة ونبذ الشرك، ولذلك تلاحظ قال سبحانه وتعالى:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٣].

وتقديم المفعول به: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ للاختصاص والحصر؛ أي كبر ربك لا تكبر غيره، وعظم ربك لا تعظم غيره، كما يفعله قومك من تعظيم الآلهة وتعظيم المخلوقين؛ عظم الخالق لا تعظم المخلوق: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي عظمه ووحده وافرده بالطاعة وتوجه إليه بالدعاء والدعوة والعبادة لا تتوجه إلى غيره، افرده بالطاعة: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، وهذا هو سبب يعني الحصر والاختصاص لما قال ربك وحده كبره لا تكبر غيره، افرده بالطاعة؛ لا كما يعبد قومك بعضهم يعبد اثنين وثلاثة وأربعة وعشرة، فافرده بالطاعة، لا رب سواه ولا خالق سواه سبحانه وتعالى.

قال: فلما أمره بالتوحيد وهو اعتقاد القلب بوحدانية الله وحده لا شريك له، أيضاً أمره بأن يتوجه بعباداته كلها لله سبحانه وتعالى وأن يطهر أعماله من الشرك والرياء وغير ذلك، ولذلك قال:

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

ما المراد بالثياب هنا؟ اختلف أهل التفسير، والمتبادر من أي شخص يسمع كلمة الثياب هي الثياب بلا شك، أنها المتبادر من اللفظ أن الثياب هي ما يلبسه الإنسان، الثياب هي الثياب؛ طهر ثيابك من النجاسة، واجعلها على أحسن صورة، وأن تكون نظيفة، تقابل الناس بثياب نظيفة وتقابل ربك بثياب نظيفة، هذا المتبادر. وبعض المفسرين يرى أن المراد بالثياب الأعمال، وهذا من استعمالات العرب؛ تستعمل تقول: فلان طاهر الثياب، أي أعماله طاهرة، أعماله خالصة طاهرة لله. فقوله: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي طهر أعمالك واجعلها خالصة صافية نقية لله، لا رياء ولا سمعة. وبعض أهل التفسير يرى أن المراد بالثياب هي الأخلاق، فيقال: فلان طاهر الثياب، أي أخلاقه حسنة، أخلاقه طيبة. فـ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي طهر أخلاقك وتعاملك مع الناس.

ولا مانع، يعني دائماً إذا رأينا مثل هذه الأقوال في كتب التفسير هذا يسميه أهل التفسير يسمونه (اختلاف التنوع)؛ يعني أن الآية تحتمل المعاني كلها ولا تعارض بينها، فإذا قيل لك: الثياب تحتمل ثيابك الحقيقية طهرها، وأعمالك، وأخلاقك، كل هذه تحتملها الآية، فما دامت الآية تحتمل مثل هذا الشيء فلا

مانع من أن نحمل الآية هذه المعاني الصحيحة، ولذلك تجد بعض المفسرين يأخذ بهذا ويأخذ بهذا وكلها صحيحة. ولذلك تلاحظ حتى يعني إذا عممنا تكون الآية محتملة تحتمل الآية وتعطي معاني أكثر، وكل ما تعطي الآية معاني أكثر يكون هذا أولى.

ولذلك قال بعدها:

﴿وَٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥].

الرُّجْز قيل هي الأصنام عند المفسرين، أن المراد بالرُّجْز الأصنام، وقيل هي كل ما يخالف ما أمر الله به؛ كل ما يخالف ما أمر الله به داخل؛ عبادة الأصنام، أو تعظيم المخلوقين، أو الخضوع لغير الله، كل ذلك داخل. ولذلك هذه الآية قُرئت بقراءتين: ﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ ﴿وَٱلرِّجْزَ﴾، كلها صحيحة وهي متقاربة المعاني.

قال: بعدها إذا أنت عظمت ربك ووحدت الله سبحانه وتعالى، وطهرت أعمالك وأخلاقك وثيابك وأقبلت على ربك، وهجرت ما يخالف معتقدك مع ربك وما يخالف طاعتك لله سبحانه وتعالى، قال بعد ذلك:

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

تمنن، ما معناها؟ أي تعطي؛ تمنن يعني تعطي. لا تعطي فتستكثر. يعني هذه الآية تحتمل أيضاً، لأن تلاحظ عبارات القرآن أحياناً تعطيك الألفاظ التي تحتمل أكثر من معنى، فقوله هنا: ﴿وَلَا تَمْنُن﴾ أي لا تعطِي فتطلب ما هو أكثر؛ تجد بعض الناس يعطي حتى يحصل على ما هو أكثر، ويتصدق أو يهدي الناس هدايا أو صدقات أو نحوها لتكون في مقابل ماذا؟ مقابل أن يحصل على ما هو أكثر، فهذه ليست لله لا صدقة ولا هدية، الذي يتصدق على حتى يحصل على ما هو أكثر من الناس من الخلق، أو يهدي هدايا لأصحابه وأحبابه حتى تُرد عليها ما هو أكثر، كل هذا لا يدخل، لا ينبغي أن يفعله الإنسان، ولذلك قال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾.

حتى قال بعض المفسرين إن معنى قوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تمنن على ربك في عباداتك تستكثرها، تجد بعض الناس إذا منّ الله عليه وأعطاه وفتح عليه باب الخير وبدأ يحافظ على ما أمره الله سبحانه وتعالى من صلاة وزكاة وصيام وكثرة نوافل، شعر في نفسه أنه قد أعطى الشيء الكثير فاستكثر هذا العمل؛ لا تستكثر على الله! لو تقارن بين نعمة واحدة من نعم الله عليك وبين أعمالك كلها ما ساوى هذا

بهذا، فكيف تستكثر على ربك بأعمالك وأنت مقصر وأنت عندك من الأخطاء وعندك من التقصير ما الله به عليم؟ فلا يدخل الشيطان عليك أن تقول: أنا والله أنا أصلي وأنا أفعل وأتصدق وأفعل كذا وغيري ما يفعل وغيري مقصر، قد يكون المقصر عند الله أعلى منك ما تدري؛ أن تمن على ربك بعباداتك وهذا يعترف بتقصيره عند الله ويعرف ويعترف بهذا الشيء فيكون قد يكون أفضل منك، فلا تمنن تستكثر.

قال بعدها: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧].

شوف جاءت هذه الآية في آخر الأوامر؛ الأوامر: قم، كبر، طهر، اهجر، ولا تمنن، جاءت في الأخير: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾؛ أي ليكن صبرك لله لا لأجل فلان ولا لأجل أمر من أمور الدنيا. والصبر كما ذكره أهل العلم، الصبر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- صبرك على عبادة ربك؛ أن تصبر على العبادات وتتحمل.
- وصبرك عن المعاصي؛ الصبر الأول على العبادات والطاعة، الثاني الصبر عن المعاصي والابتعاد عنها.
- والثالث الصبر على أقدار الله وما يصاب الإنسان ويبتلى به ينبغي أن يصبر. ولذلك قال: واصبر على ما ينبغي أن يصبر عليه لله لا لغيره، وكأن هذه إشارة إلى ما بدأ الله به لما قال: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]، فإن النذارة تحتاج إلى صبر، تحتاج إلى تحمل، ولذلك الله سبحانه وتعالى أخبر عن وصية لقمان لما قال:

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]،

فدل على أن من يدعو وينذر وينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف أنه يواجه أموراً عظيمة، فلذلك الله هيأ نبيه صلى الله عليه وسلم وهيأ كل داعية على أن يصبر، على أن يصبر.

ولذلك حتى نفهم جميعاً أن هذه التوجيهات لم تكن للنبي خاصة، يعني لما يقول: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ لا نقول إن النبي هو الذي ينذر فقط وغيره ما ينذر، لا؛ هذا يدخل فيه كل داعية، وكل من يستطيع أن يقوم بالإنذار فإنه يجب في حقه الإنذار، وربك فكبر؛ كل شخص، وهكذا سائر هذه الأمور.

قال بعدها سبحانه وتعالى:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨].

يعني بعد هذه التوجيهات والتذكير والأمور هذه يأتي التذكير بهذا اليوم العظيم، ولذلك قال: قم فأنذر؛ أنذر قومك هذا اليوم العظيم وأنذرهم وحذرهم من كفرهم وعنادهم، ولذلك قال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾، جاء بالفاء التي هي متفرعة عما قبلها.

ما المراد بالناقور وكيف ينقر به؟ نقول: المراد بالناقور هو الصور الذي ينفخ فيه، وينفخ فيه إسرافيل. والمراد بالصور هنا المراد به النفخة الثانية وهي نفخة البعث وخروج الناس من قبورهم؛ لأن النفخة نفختان: نفخة الصعق وموت الناس، ثم بعد ذلك تأتي النفخة، النفخة الثانية نفخة البعث وخروج الناس من قبورهم: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾.

هذه النفخة الثانية؛ كيف عرفنا أنها الثانية؟ لأنه قال بعدها:

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ [المدثر: ٩]،

وهو يوم البعث وخروج الناس من قبورهم. ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ شوف تعبير القرآن لما يقول: ﴿نُقِرَ﴾ نقول كأنها نقرة قوية وصوت، ولذلك نفخ النفخ في الصور نفخ قوي وصوت قوي يجعل الناس يخرجون من قبورهم: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾.

هذه الآية قرأها عمر رضي الله عنه في صلاة الفجر، فلما وصل هذه الآية شهق شهقة عظيمة وسقط على الأرض، وحُمل إلى بيته وعاده الناس بعد ذلك. هذا يدل على تأثر الصحابة بالقرآن، وهذه الآية وأمثالها كثير التي مرت معنا كيف كان الصحابة رضي الله عنهم رجالا ونساء يتاثرون بالقرآن، حتى ذكر بعض أهل العلم أن أحد السلف غير عمر يعني من التابعين أو بعدهم أنه قرأ الآية نفسها: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ فسقط ميتاً! فمات من تأثره بهذه الآية. ولا شك أن القرآن عظيم يؤثر في القلوب ويؤثر في النفوس، والنبي صلى الله عليه وسلم تأثر بالقرآن؛ كان يُسمع له أزيز كأزيز المرجل، يُسمع له صوت في صدره من شدة البكاء، كان يبكي ويتمثل بالقرآن، وغيره من الصحابة أمثلة كثيرة ليس الآن مجال ذكرها.

قال: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾؛ أي ذلك اليوم الذي سيأتي، ذلك يومئذ يوم عسير، عسير على الكافرين وليس عسيراً على المؤمنين؛ فإن يوم القيامة يسهله الله سبحانه وتعالى على المؤمن، أما الكافر فيكون صعباً عليه شديداً، ولذلك أكده بقوله:

﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠]؛

يعني يوم عسير لا يسر فيه أبداً، ولذلك أكده يعني وصفه بأنه يوم شديد عسير ونفى عنه أن يكون فيه شيء من اليسر، يعني لا يسير فيه أبداً.

طيب لا تزال الآيات تتتابع في ذكرها، ولضيق الوقت لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله. السورة لها مجالات طويلة ولها وقت طويل، وليس العبرة بأن ننتهي من السورة، العبرة ماذا استفدنا وماذا خرجنا؟ آيات مثل هذه لو آية واحدة تأملتها وتدبرتها وتفكرت فيها تكفيك، تكون لك زاداً، تكون لك زاداً عظيماً. فلا غرو أن يبقى الإنسان مع آية آيتين ثلاث، ليست العبرة بالكثرة ولكنها بالكيفية؛ ما الذي خرجت به؟ وما الذي أنتج عندك هذا الشيء؟ ما هذه الجلسة التي جلستها الآن بماذا استفدت وماذا خرجت؟ لا شك أن تدبر الآيات يزيد في إيمان العبد وقربه إلى الله. نسأل الله ألا يحرمنا هذا الفضل، ولنا لقاء إن شاء الله آخر، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(المدثر ١١ - ٣١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للسابع عشر من شهر الله المحرم من عام ١٤٤٦ للهجرة. مجلسنا المبارك مجلس من مجالس القرآن العظيم، ولا يخفى على الجميع أن مثل هذه المجالس المباركة التي تحفها الملائكة، وتغشاها الرحمة، وتنزل عليها السكينة، ويذكر الله الحاضرين في هذا المجلس المبارك حول القرآن الكريم، يذكرهم الله في الملأ الأعلى بالذكر الحسن؛ فلا يفوت مثل هذه المجالس المباركة أن يجلس الإنسان دقائق معدودة ويحصل على هذا الفضل العظيم والأجر الكريم من الله سبحانه وتعالى. نجلس هذه الدقائق ونقرأ آيات من كتاب الله سبحانه وتعالى؛ كلام الله الذي هو أشرف الكلام وأحسن الحديث، ونتأمل ونتدبر ونتفكر في هذه الآيات تكون موعظة وتكون ذكرى يستفيد منها الإنسان في حياته، ولو سمعت كلمة واحدة فقد تنفعك في حياتك كلها، وقد تغير عليك حياتك كلها، وأحياناً تأخذ هذه الكلمة وتبلغها من وراءك؛ «وَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، والدال على الخير كفاعله، فلا تستقل مثل هذه الأمور بل هذه أمور عظيمة.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (المدثر)، تحدثنا عنها في لقاء ماضٍ وأخذنا شيئاً من آياتها، والآن نواصل ما توقفنا عنده، وقفنا عند قوله سبحانه وتعالى:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر: ١١].

أنت لما تسمع مثل هذا الكلام وتلقي سمعك وتتدبر وتتفكر وتتأمل مثل هذا الكلام، هذا الكلام تقشعر منه الجلود حقيقة؛ هذا تهديد عظيم، ومن المهدد؟ هو الله سبحانه وتعالى، وإذا هدد الله فكيف سيكون موقف هذا الإنسان الضعيف، أمام قوة الله سبحانه وتعالى؟! لما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾؛ يعني خلقته وجاء إلى هذه الدنيا وحيداً متجرداً حتى من ثيابه، ضعيف، أضعف المخلوقات عند الولادة هذا الإنسان، بعض الحيوانات أقوى منه عند ولادته وعند تحركه بعد الولادة إلا هذا الضعيف الذي لا يستطيع أن يستغني بنفسه أبداً. فيقول الله سبحانه وتعالى هنا: ﴿ذَرْنِي﴾؛ ذرني

واتركني. والفعل (ذرني) هذا الفعل يأتي فعل أمر مثل هذا الفعل: (ذرني)، ويأتي فعل مضارع: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١١٠]، لكن لم يُسمع من العرب فعل ماضٍ أبداً، (ذَرَ) كذا ما فيه؛ لأن (ذَرَ) غير مستعمل. فالشاهد من الكلام أن قوله: ﴿ذَرْنِي﴾ معناها اتركني، وغالباً ما تستعمل كلمة (ذرني) على سبيل التهديد والتخويف؛ لما تقول: ذَرْ فلان، اتركه، على سبيل التهديد والتخويف.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾. هذه الآية حتى نفهمها أكثر، ودائماً أيها الإخوة أسباب النزول لها أهمية عظيمة في فهم الآيات القرآنية وتدبرها؛ أحياناً الإنسان يقرأ الآيات فيفهمها فهماً آخر، فإذا قرأ في أسباب النزول اتضح له المعنى على خلاف ما كان في ذهنه. فـ (أسباب النزول) لها دور كبير في فهم الآيات القرآنية تقرر لك المعنى، وأسباب النزول تحدث عنها العلماء والمفسرون وأُلفت فيها مؤلفات خاصة، أسباب النزول جُمعت كثيرة. فـ (أسباب النزول) معناها أنه يكشف لك هذه الآية نزلت فيمن وما سبب نزولها فيتضح المعنى.

هذه الآية نزلت في رجل من أهل مكة يقال له الوليد بن المغيرة، هذا الرجل كان من رؤوس أهل مكة وكان من رؤسائهم وكبرائهم، وكان من أهل المكانة والمنزلة والمال؛ فتح الله عليه بالمال والأولاد والمنزلة والمكانة حتى قال بعض أهل مكة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

رجل عظيم من القريتين يقصدون مكة والطائف، قالوا: أما الطائف فهناك رجل كبير له مكانة اسمه عروة بن مسعود، وأما مكة فكانوا يقولون: لولا أُنزِل هذا القرآن وجعل النبي عندنا في مكة الوليد بن المغيرة وهو الذي يستحق، أما محمد رجل نشأ يتيماً وليس عنده مال ولا له أي مكانة، هذا الذي له مكانة. فكانوا يفتخرون به، فهذا الرجل الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحادثه عن هذا الدين، يقول: يا محمد ما هذا الدين الذي أتيت به ولماذا جئت به ولماذا فرقت... كذا بدأ يناقش النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «يَا وَلِيدُ اسْتَمِعْ وَأَقْرَأُ عَلَيْكَ مِنَ القُرْآنِ»، فقَرَأَ عليه آيات من القرآن الكريم فتأثر الرجل تأثراً عظيماً وقال كلمته المشهورة، حتى سُطِرَت في كتب التاريخ كلمة عجيبة! يقول وهو يتحدث عن القرآن: «إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يُعْلَى عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَحْطِمُ مَا تَحْتَهُ»، يتكلم عن القرآن كلمات بلاغية عجيبة، حتى

سطرها التاريخ، وتأثر تعجباً منه. فرجع إلى قومه فقال: يا قومِ، محمد أتى بشيء لم نسمعه أبداً يؤثر في القلوب، اسمعوا ما يقول. فسمع منه رأس الشرك ورأس الكفر في مكة وهو أبو جهل، فجاءه فقال: يا وليد، إنا رأيناك تذهب إلى محمد تريد أن تأخذ منه مالاً أو تريد أن تأخذ منه جاهاً أو تريد أن تأخذ منه شيئاً، أنت بحاجة يا وليد لأعطيناك، أنت بحاجة لكذا أعطيناك! فقال: لا والله، ليس هناك ما بين وادي مكة أغنى مني في المال ولا أكبر مني ولا أعظم مني، كيف تقول لي هذا الكلام؟! فقال: إذن قُلْ فيما قلت عن محمد قولاً آخر غير ما قلته! فقال: دعني يا أبا الحكم أفكر وأتأمل. فدخل بيته وبدأ يفكر، فأنزل الله في هذه الآيات؛ اسمع ماذا يقول:

قال سبحانه وتعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ [المدثر: ١١-١٢].

مالاً ممدوداً؛ يعني مال كثير جداً.

قال تعالى: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ [المدثر: ١٣]؛

كان له من الأبناء قيل عشرة، وقيل اثنا عشر، وقيل أكثر من ذلك، وكانوا شهوداً معه؛ يعني حضوراً معه دائماً إن مشى مشوا معه، وإن جلس جلسوا معه، وكلهم ماتوا على الكفر إلا ثلاثة؛ ثلاثة: الوليد بن الوليد، وعمار، وخالد؛ وابنه خالد بن الوليد المعروف من كبار ومن أجلاء الصحابة، وكلهم صحابة.

فقال: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾،

وقال تعالى: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [المدثر: ١٤]؛

أعطيته أشياء كثيرة جداً.

ثم قال: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ [المدثر: ١٥]؛

يريد الزيادة لا يقف عند حد.

ثم قال: ﴿كَلَّآ﴾ [المدثر: ١٦].

لا يُعطى شيئاً، بل سيذهب ماله وولده، كلا لا يستحق ذلك.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٦].

العنيد والمعاند الذي لا يقبل والذي يصر على ما هو عليه ولا يتنازل، فكان عنيداً للآيات لم يتقبلها، وكان مصراً على كفره وعناده.

قال الله سبحانه وتعالى تهديداً له؛ حتى لما نزلت هذه الآية ذكر أهل التاريخ أنه بعد نزول هذه الآية لا يزال الوليد في ضعف وفي فقر وذهاب أبنائه عنه لما نزلت؛ لأن الله لما ذكر عنه ما ذكر قال كلا ليس الأمر كذلك، سيتغير وتتغير حاله، وفعلاً تغيرت حاله.

قال سبحانه وتعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧].

الصَّعُود ما هو؟ كيف سيرهقه صعوداً؟ هذا تهديد وتخويف ووعيد شديد له يوم القيامة: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾. قال أهل التفسير: الصَّعُود هي عقبة عظيمة في نار جهنم، صخرة عظيمة في نار جهنم سيرهقه الله؛ أي سيلجئه إليها للعذاب. قال بعض أهل التفسير: إن هذه الصخرة التي في جهنم شديدة الحرارة، إذا وضع الإنسان يديه عليها أكلت يديه ثم تعود، كلما وضعها لصقت وأكلت يديه ثم تعود. هذا الإنسان المعاند الله سبحانه وتعالى سيدفعه بقوة وتدفعه الزبانية، زبانية النار، إلى هذه الصخرة ليعذب بها: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾.

لماذا؟ لماذا هذا التهديد العظيم؟ اسمع ماذا يقول: قال السبب: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]؛

أي في القرآن الكريم، لما قيل له: قل فيه كلاماً آخر، قال: أعطوني وقت أفكر. فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾؛ يعني فكر بدا يتأمل ويفكر ماذا يقول في هذا القرآن. قال: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾؛ أي قدر ما يقول، بدا يأتي بالكلام الذي يقدره ويقوله في القرآن.

قال الله سبحانه وتعالى رداً عليه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٩]؛

أي لُعِنَ كيف يقدر ويصنف القرآن بهذا الوصف، لُعِنَ كيف قدر. وقوله (فَقُتِلَ) أي لُعِنَ كيف قدر.

ثم أكد ذلك سبحانه وتعالى فقال: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ٢٠]؛

أي لُعِنَ لعناً آخر كيف قدر، كيف تقدر في القرآن وانت تقول فيه ما قلت: «**إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً**»، ثم تقلب كلامك هذا؟!

قال: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر: ٢١].

بدا ينظر في أصحابه كيف سيواجههم بالكلام الذي وعدهم به، بدا يتأمل وينظر.

قال: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ [المدثر: ٢٢].

عَبَسَ يعني قطّب عينيه؛ لأنه اشتد الأمر عليه لا يدري ماذا سيقول، كيف أقول أنا إن له لحلاوة وإن

عليه لطلاوة ثم ماذا أقول فيه؟! فبدا يشتد الأمر عليه، والإنسان دائماً إذا اشتد الأمر عليه قد قَطَّبَ عينيه لشدة الأمر الذي واجهه. قال: ﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾، البُسُور يكون على الوجه فتتغير ملامح الوجه لشدة الموقف، كيف سيواجه قومه بكلام آخر؟!

قال:﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [المدثر: ٢٣].

أدبر عن الحق ولم يقول ما قاله سابقاً، واستكبر على الحق، واستكبر على القرآن وعلى ما جاءه من الحق واستكبر.

ثم انتهى الأمر إلى أن يحكم على القرآن بأي شيء؟ فقال: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]؛

لأنه بدا يفكر فقال: إن محمداً جاء بشيء يفرق بين الزوج وزوجه، ويفرق بين الولد ووالديه، ويفرق بين الأخ وأخيه، إذاً هذا سحر السحر هو الذي يفرق، فقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾؛ يعني محمد يأخذه عن غيره ويتعلمه من غيره، ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤-٢٥]، ليس قول أحد، ليس وحياً من السماء ولا شيء، وإنما هو كلام بشر يأتي به محمد.

قال الله تهديداً مرة أخرى، تهديداً له مرة أخرى، قال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦].

و (سَقَر) اسم من اسماء النار، ومنزلة من منازل النار؛ لأن النار دركات، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، قال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ [المدثر: ٢٧]؛

يعني تخويف وتهديد وتعجيب من هذا الأمر: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾. ومر معنا في كثير من الآيات التي مرت: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ [الطارق: ٢]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠]؛ مرت معنا كثيراً أنه إذا جاء في القرآن (وَمَآ أَدْرَىٰكَ) الجواب موجود؛ لأن هذا استفهام، الجواب موجود. هذه خذها قاعدة بجميع القرآن: إذا جاءك (وَمَآ أَدْرَىٰكَ) الجواب موجود، وإذا جاءك (وَمَا يُدْرِيكَ) الجواب غير موجود، لا يمكن أن يأتي إنسان بجوابه أبداً، مستحيل لا أحد يعرفه، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ما تدري هذا شيء لا يعلمه إلا الله، لا ملك ولا رسول. فكذلك إذا جاءت كلمة (وَمَآ أَدْرَىٰكَ)، الجواب هنا يقول: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾، هل تعلم ما هي سقر؟ هل

تدرك معناها ما هي سقر؟ ثم أخبرك وأعطاك الجواب فقال:

قال تعالى: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ [المدثر: ٢٨].

إذا قبضت الإنسان لا تبقيه؛ تهلكه، ولا تذر إنساناً يستحق أن يعذب؛ فهي أن الذي بين يديها لا تبقيه أبداً تهلكه، والذي تعذبه عذاباً شديداً، والذي ليس بين يديها لا تذره يفر ويهرب ويلجأ، وإنما هي على ما بين يديها وما أمامها كل ذلك لا تتركه.

ثم وصف هذه التي قال عنها ﴿وَمَآ أَدْرَيٰكَ مَا سَقَرُ﴾ فقال: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٩].

لَوَّاحَةٌ من الفعل (لاَحَ يَلُوحُ)، المعنى: لَوَّاحَةٌ أي مُغَيِّرَةٌ تُغَيِّرُ الأشياء. يقول: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾؛ لشدة حرارتها ولهبها تغير بشرة الإنسان من شدة حرارتها إذا اقترب الإنسان منها، مثل ما قال الله سبحانه وتعالى: الماء فقط، الماء يشوي الوجوه، فكيف بنار جهنم؟! تغير تجعل الإنسان كالحاً، فلذلك معنى ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ أي مغيرة لبشرة هذا الإنسان.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]؛

أي النار عليها تسعة عشر من الملائكة من خزنة النار. هذا قيل في تفسيره، وهو التفسير المشهور؛ أن معنى ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أن النار عليها من الملائكة تسعة عشر. وبعضهم يقول: لا، تسعة عشر ملكاً نقيباً، ومن ورائه ملائكة؛ يعني هو ملك وتحته أو من ورائه أعداد هائلة، فكل واحد من هؤلاء التسعة عشر هو نقيب ورائه أعداد من الملائكة التي لا يعلمها إلا الله. وهذا الكلام الذي أقوله أو الرأي الثاني قد يرجحه ما جاء في الآيات التي بعدها لما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]؛ فقد تكون عدة ملائكة أهل النار، أي الخزنة الذين يعذبون أهل النار تسعة عشر وهذا ليس ببعيد، وقد يكون تسعة عشر رؤوس ونقباء ومن ورائهم أعداد لا يعلم عددها إلا الله.

هذا كله، ولذلك قال بعض أهل مكة من العتاة غير الوليد، لما سمع هذه ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال: ثمانية عشر في وجهي وواحد تتولونه أنتم! يظن أنهم تسعة عشر أي عدد، ما يدري هذا المسكين أن ملك من الملائكة ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة خمسمائة سنة، ولم يدرِ هذا المسكين أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى جبريل على صورته له ستمائة جناح قد سد الأفق، يظن أن هؤلاء أي شيء ما يدري.

قال الله سبحانه وتعالى لما ذكر لماذا الله عز وجل ذكر العدد، لماذا قال تسعة عشر؟ لماذا الله أخبر عن عددهم؟ لهذا الشيء، اسمع قال:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾؛ يعني خزنة النار، ملائكة النار، ﴿إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ الذين يعذبون ويقومون بتعذيبهم، ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾؛ يعني عددهم ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، هذه امتحان لهم. ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لأن الذين أوتوا الكتاب عندهم علم ويعرفون ذلك، فتطمئن قلوبهم بصدق؛ لأنه أُخبر في كتبهم عن عدد الملائكة فعرفوا أن ما عند محمد هو الموافق لما عندهم فاستيقن، وصل إلى درجة اليقين أوتوا الكتاب. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾؛ إذا أُخبروا بمثل هذا الخبر ثبتوا وازدادوا إيماناً. ﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾؛ يزول الشك عن من؟ عن الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون؛ إذا تيقنوا وازدادوا إيماناً زال الشك عنهم. ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ هذا فتنة للذين في قلوبهم مرض كالمنافقين وضعفاء الإيمان، قال: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، لماذا ذكر الله العدد؟ ماذا؟ فتنة حتى تؤمن أو لا تؤمن، حتى تزداد إيماناً وتزداد يقيناً ويزول الشك عنك والريبة أو لا.

قال: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ما ذكرنا لكم هنا نذكر في مواضع أخرى، ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾؛ لما يشك في عدد الملائكة ويرتاب أو يكفر بها كما كفر بها هؤلاء، قال: يضل الله من كفر وضل وارتاب يضله الله ويتركه في ضلاله وفي غيه من يشاء، ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ ممن استيقن وآمن وازداد إيماناً وزالت عنه الشكوك هذا يهديه الله ويزيده إيماناً، ويهدي من يشاء.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه وتعالى. كم جنود لله عز وجل؟ يعني كم تتصور؟! ليست فقط ملائكة؛ جنود الله الريح جند من جنود الله، والماء جند، والجبال جنود، وغيرها شيء لا يتصوره الإنسان ولا يخطر بباله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿وَمَا هِىَ﴾؛ أي النار أو العدد أو ملائكة النار، ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ يتذكر بها ويتعظ بها.

هذه مواعظ وتذكير وتحذير لكل إنسان يقرأ مثل هذه الآيات ويرى ويسمع ويستمع ويفهم ويدرك معاني هذه الآيات، يكون ذلك ذكرى له وينتفع بهذا الحديث، وينتفع بهذا الكلام الذي هو كلام الله سبحانه وتعالى.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يبارك لنا، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يعيننا وإياكم على ذكره وعلى شكره وعلى حسن عبادته، وأن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وجلاء أحزاننا وهمومنا، وذهاب غمومنا، وأن يجعله حجة لنا لا علينا، وأن يجعله سائقنا إلى جنات النعيم. نسأل الله أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(المدثر ٣٢ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا المجلس المبارك؛ مجلس القرآن الكريم، وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للرابع والعشرين من شهر الله المحرم من عام ١٤٤٦ للهجرة. نجلس هذا المجلس المبارك ومعنا آيات من كتاب الله سبحانه وتعالى نقرؤها ونبين معانيها ونتفكر ونتأمل ونتدبر في هذا المجلس المبارك، ونسأل الله سبحانه وتعالى ألا يحرمنا هذا الفضل العظيم.

السورة التي بين أيدينا وقد تحدثنا عنها في لقاءات ماضية هي سورة (المدثر)، ووقف بنا الكلام عند قول المولى سبحانه وتعالى:

﴿كَلَّآ وَٱلْقَمَرِ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٢-٣٥].

«كَلَّا» هذه تأتي في القرآن، ومن عجائب هذه الكلمة؛ كلمة «كَلَّا»، أنها لم تأتِ إلا في نصف القرآن الثاني، يعني نصف القرآن الأول ليس فيه «كَلَّا» أبداً، النصف الثاني فيه «كَلَّا». هذه اختلف المفسرون في معناها، استعملها القرآن في قصار السور كثيراً:

قال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣-٤]،

وآيات كثيرة.

اختلف أهل التفسير من وجهين: من وجهٍ ما معناها؟ ثم هل يقف القارئ عندها أو يصل؟ فهي تختلف؛ فأما المعنى فأكثر أهل التفسير على أن «كَلَّا» كلمة ردع وزجر، تنبيه على أمر قد يكون قد وقع فيه ولا ينبغي الوقوع فيه، فيقول: «كَلَّا»؛ ليس الأمر كذلك. وأحياناً تأتي بمعنى التهديد والتخويف والردع والزجر. وبعض المفسرين يقول: «كَلَّا» معناها «حَقّـًا»، أن هذا كذا؛ يعني مثل: ﴿كَلَّآ وَٱلْقَمَرِ﴾ أي حقاً وأقسم بالقمر. فاختلف أهل التفسير، والذي يظهر أن كل آية أو كل كلمة تأتي حسب سياقها؛ فقد تكون بمعنى كلمة الزجر مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣]،

و: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]؛

هذه زجر واضحة. وأحياناً تكون بمعنى «حَقّـًا»؛ فهي حسب سياقات الآيات القرآنية.

وكذلك من حيث الوقف: أحياناً في بعض المواقف الأولى أنك تقف، تقول: «كَلَّآ» [عبس: ١١]، ثم تبدأ بـ: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]، وهكذا. وأحياناً يقول لك: لا، الوصل أولى؛ أن تصل هذه الكلمة بما بعدها ولا تقف، ﴿كَلَّآ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣] هذه ما تقف عندها، وهكذا.

وغالباً تكون «كَلَّا» متعلقة بما قبلها؛ مثل هنا لما قال: «كَلَّا»، يعني ليس الأمر كما تزعمون وكما تدعون. لماذا؟ أولاً لأن الكفار ينكرون البعث والجزاء والجنة والنار فلا يعترفون، فقال: كَلَّا؛ ليس الأمر كما تزعمون وكما تظنون أنه ليس هناك بعث، بل هناك بعث وجزاء وجنة ونار.

أو تكون رداً على اعتقادهم لما قالوا ماذا؟ لما قال الله عز وجل:

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠]

في النار، وقال أحد المشركين: أنا أستطيع أن أستكفيكم ثمانية عشر وعليكم كذا وكذا، قال: «كَلَّا»؛ ليس على ظنك واعتقادك، لا تستطيع ولا لملك واحد، كَلَّا.

أو تكون عائدة لما يعتقده بعضهم من الشك في هذا، لما قال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ [المدثر: ٣١]؛

قال: كَلَّا، أراد الله بهذا مثلاً، ليس كما أراد؛ أراد الله بهذا مثلاً في ضرب المثل، وفي تقريب هذه الصورة، وفي بيان حقيقة اليوم الآخر والنار وما أعد الله للكافرين.

إذا عرفنا معنى «كَلَّا» ومتعلق «كَلَّا»، بعدها ماذا قال؟ قال: ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢]؛ هذا الأسلوب ماذا نسميه؟ نسميه أسلوب قسم من الله، يقسم يقول: ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾، أي أُقسم بالقمر. ولله سبحانه وتعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، ولا يقسم الله سبحانه وتعالى إلا بعظيم، فالعظيم لا يقسم إلا بعظيم. فلله أن يقسم، أما المخلوق فليس له أن يقسم إلا بالله؛ إما باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته، ولا يجوز له أن يقسم بمخلوق.

قال الله سبحانه وتعالى هنا: ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ [المدثر: ٣٢]، والتقدير: وأقسم بالقمر.

ثم قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]؛

أي وأقسم أيضاً بالليل عندما يدبر ويذهب ويأتي مكانه النهار.

وأقسم بالصبح:﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤].

أنت تقف عندما تقرأ هذه الآيات حقيقة وانت تقرأ بتدبر وتأمل، الله أقسم بثلاثة أشياء! هذا يدل على أي شيء؟ يدل على أن وراء هذا القسم أمراً عظيم جداً، أن وراء هذا القسم أمراً عظيماً جداً. ما هو؟ ولذلك الله أقسم بهذه الأمور الثلاثة قال: والقمر، والليل، والصبح، على أي شيء؟ قال: ﴿إِنَّهَا﴾ [المدثر: ٣٥]، أي النار، أو الموعظة، أو التهديد، ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٥]. و(الْكُبَر) جمع كبرى، الكُبَر جمع كبرى؛ أي إنها لإحدى الكُبَر يعني لإحدى العظائم، الأمور العظيمة التي لا يعرف عظمها هؤلاء الكفار ولم يدركوا حقيقتها، ولذلك عظمها الله سبحانه وتعالى وأقسم بها حتى يعرف هؤلاء عظَمة هذا القسم. قال: ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾، أي هذا الشيء.

ولكن عندما نتأمل أيها الإخوة ونتدبر اختيار الله سبحانه وتعالى لهذه الأمور الثلاثة وأقسم بها؛ لماذا؟ لماذا أقسم بالقمر؟ ولماذا أقسم بالليل؟ ولماذا أقسم بالصبح؟ لماذا؟ ما وجه اختيار هذه الأشياء؟

فنقول والله أعلم كما ذكر بعض أهل التفسير والعلم عند الله، قالوا: القمر لأنه مضيء، وهذه الآيات مضيئة حقيقة بينة. والليل بظلامه، شدة ظلامه. والصبح بنوره. فكان هناك يعني ظلام ونور، آيات تسطع وجهل وهداية وعلم، فتكون هناك أمور متضادة؛ فالكفار في جهل وفي ضلال وفي كفر وفي عناد، والقرآن والمؤمنون والرسول والوحي في نور كنور الصبح، وفي نور كنور القمر، فتكون هذه الأشياء متقاربة؛ يعني الله يختار هذه الأشياء لما يتناسب مع سياقات القرآن ومع سياقات هذا الكلام.

قال بعدها: ﴿إِنَّهَا لِإِحْدَى ٱلْكُبَرِ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٥-٣٦]؛ أي هذه الآيات وهذه السورة وهذا الوحي كله نذارة للبشر. ما قال نذيراً للكافرين، قال: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾، هل هو نذير للبشر جميعاً وللكافرين؟ نقول: هذه الآيات وهذه السورة نذيرة لجميع البشر؛ مؤمنهم وكافرهم، كل يحذر النار وكل يبتعد عن النار. ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمَرَةٍ**»، وقال: «**اتَّقُوا النَّارَ**»، وخوف الناس بالنار، فهي نذارة لجميع البشر.

ولذلك قال بعدها، لما كانت نذارة للخلق جميعاً قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧].

لمن شاء منكم أن يتقدم في طاعة الله ويسارع ويسابق في طاعة الله، ومن شاء منكم أن يتأخر ويرجع

ولا يسارع في طاعة الله. ولا يزال أناس يتأخرون، حتى يؤخرهم الله في النار! فأمامك طريق طويل وسفر، فسارع وبادر وتزود؛ فإن خير الزاد التقوى، ولا تتأنَّي وتتضاعف وتتكاسل وتتأخر، تتأخر حتى يؤخرك الله! فمن شاء منكم أن يتقدم ويسارع في الخيرات، ومن شاء لا يسارع ولا يتقدم ويرجع ويتأخر.

فالنتيجة ما هي؟ ما هي النتيجة بعد ما ذكر التقدم والتأخر؟ ما هي النتيجة؟ قال:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

معنى (رَهِينَةٌ) يعني مرهونة ومحبوسة؛ كل نفس يوم القيامة يحبسها عملها لا يمكن أن تذهب، محبوسة بعملها، محبوسة في النار بعملها، إلا من خلص نفسه من هذا الحبس ومن هذا القيد بالأعمال الصالحة. وكل نفس مرتهنة وكل نفس محبوسة مثل صاحب الدين؛ صاحب الدين إذا كان قد رهن نفسه أو رهن ماله أو نحو ذلك فهو مرهون ومربوط برهنه حتى يخلص نفسه، فإن خلص نفسه خلص من هذا الدين. وكذلك كل نفس بما كسبت بأعمالها مرهونة بأعمالها.

ثم قال: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٩].

أهل الخير وأهل الطاعة واليمين، أصحاب اليمين قد خلصوا أنفسهم وفدوا أنفسهم من هذا الرهن بالأعمال الصالحة التي سارعوا إليها وسابقوا إليها، وقال الله فيها: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ﴾ [المدثر: ٣٧]؛ فتقدموا وسارعوا، تجدهم في الصفوف الأولى، تجدهم في الصيام متقدمين، تجدهم في الحج متقدمين، تجدهم في الصدقات متقدمين. هؤلاء الذين سارعوا وتقدموا قد خلصوا أنفسهم وفكوا أنفسهم من هذه الرهينة، لم يكونوا رهينة بأعمالهم، وإنما فاقت أعمالهم هذه الرهينة وتخلصوا منها: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾.

قال: أما أصحاب اليمين فقد خلصوا ونجوا من عذاب النار وفكوا أنفسهم من هذه الرهينة. قال أصحاب اليمين قد فازوا بجنات النعيم، فهم:: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المدثر: ٤٠].

وشوف كلمة (يَتَسَآءَلُونَ) قِف عندها؛ يَتَسَآءَلُونَ يدل على أي شيء؟ على أنهم في الجنات مطمئنين مستقرين. ما تجد التساؤل والنقاش والحوار في نفس مضطربة؛ إذا استقرت النفس واطمأنت ودخلوا آمنين مستقرين بدأوا يتساءلون عن أي شيء؟ عن أمور ماضية، عن حقائق ماضية وأمور ماضية: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

يتساءلون عن من؟

قال: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المدثر: ٤١].

طيب لماذا لا يتساءلون عن المؤمنين؟ قال: المؤمنون عندهم يرونهم ويقابلونهم، هم عندهم يعرفون أناساً في الدنيا كانوا مجرمين، كانوا أصحاب جرائم وصحائفهم سود، فرأوا أنهم ينظرون إليها، أين فلان وفلان؟

قال: يتساءلون عن المجرمين؛ لما يتساءلون فيما بينهم، يقول بعضهم نطلع على النار ونشوف أين فلان وفلان، فاطلع فرآه في سواء الجحيم. الله سبحانه وتعالى بقدرته يجعل المؤمنين يطلعون على أهل النار، الجنة في أعلى عليين والنار في أسفل سافلين، فيطلع أهل الجنة على أهل النار. ولذلك في آيات سورة الأعراف: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤]؛

في محاورات، و ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]؛

ففي محاورات بينهم وفي اطلاع ويرونهم: فاطلع فرآه في سواء الجحيم.

قال هنا: يتساءلون: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢].

يقولون لأهل النار: أنتم الآن في سقر وفي نار جهنم، و(سَقَر) طبقٌ من طبقات النار أو اسم من أسماء النار، ما سلككم في هذا المقام وفي هذا المكان؟

قالوا: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣].

لم نكن نعرف الصلاة أبداً، لم نكن من المصلين، لا نصلي مع الجماعة ولا غير الجماعة، لم نكن نعرف الصلاة، منقطعين عن الصلاة: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ [المدثر: ٤٤].

يعني شوف، لا إحسان في صلاتهم ولا علاقة مع ربهم في صلاتهم، ولم يعبدوا ربهم في صلاتهم، ولم يحسنوا إلى الخلق؛ يعني قطعوا علاقتهم مع ربهم وقطعوا علاقتهم مع إخوانهم المسلمين: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾. فقراء، مساكين، معوزين، محتاجين، لا يعرفونهم؛ إنما يجمع ماله، جمع ماله وعدده، قال: ﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾.

وزيادة على ذلك قال: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥].

نتكلم بأمور لا فائدة فيها، نتكلم بأحاديث لا جدوى وراءها، وإنما خوض وكلام. وقد يدخل في هذا الكلام تكذيب باليوم الآخر، وقد يدخل في ذلك استهزاء وسخرية وخوض، مثل ما يخوض الإنسان بالماء يخوضون بهذا الكلام الذي لا فائدة وراءه. وقد يدخل فيها أفعال؛ الخوض قد يكون أقوالاً وأفعالاً. يعني قد يكون أقوالاً وقد يكون أفعالاً؛ يعني كنا نخوض مع الخائضين بالكلام وبالأفعال، بالصد عن سبيل الله وغيره: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٦].

أيضاً كانوا يعتقدون أنه لا بعث ولا جزاء ولا جنة ولا نار، كذبوا بيوم الدين؛ يوم الجزاء والجنة، ويوم الجزاء والحساب، لا يعترفون بذلك: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٤٧].

أي حتى أتانا الموت. واليقين الأصل فيه هو العلم والاعتقاد الجازم ويقابله الشك؛ تقول أنا أشك أو على يقين، هذا هو الأصل. ولكن يستعمله القرآن أحياناً بمعنى الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، أي الموت. وقال هنا: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ يعني الموت. ولماذا سمى الله الموت يقيناً؟ لأنه حقيقة لا شك ولا مرية فيه، كل يعترف حتى الكافر يعترف بالموت: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾.

قال الله سبحانه وتعالى رداً عليهم لما كانوا في نار جهنم وهذه اعترافاتهم، قال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

لماذا ما تنفعهم شفاعة الشافعين؟ لماذا جاء السَّبَبُ في ذِكْرِ الشَّفَاعَةِ؟ يقول: إذا رأى المجرمون في النار أن هناك شفاعات كثيرة؛ شفاعة الملائكة، وشفاعة الأنبياء، وشفاعة الصالحين، شفاعات كثيرة حتى القرآن يشفع وحتى الصيام يشفع، شفاعات! يجدون شفاعات كثيرة، فتتطلع هم هؤلاء المشركين لعلها تأتيهم شفاعة مثل ما جاءت بعض المسلمين أو بعض المقصرين من أهل الإسلام وأهل التوحيد يدخلون نار جهنم، يدخلون النار إذا كانوا مقصرين في أمور كثيرة، قد تكون هذه الأمور والذنوب والمعاصي تدخلهم نار جهنم ثم يخرجون منها، فإذا أُخرج هؤلاء بالشفاعات، تتطلع هؤلاء المشركون، يتطلعون إلى

أن تحصل لهم. قال الله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾. لماذا؟ لأن الشفاعة لا تكون إلا بأمرين: الإذن والرضا؛ أن يأذن الله ويرضى، فإن أذن للشافع ورضي عن المشفوع صحت الشفاعة، وإلا فلا شفاعة. وفي قوله: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ دليل على ثبوت الشفاعة وأنها موجودة، ولكن لا تنفعهم.

قال سبحانه وتعالى بعدما بين حالهم في نار جهنم، ذكرهم وهم في الدنيا فقال:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٩].

لماذا؟ لماذا هم عن التذكرة، عن القرآن، عن الوحي، عن الطاعة معرضين؟ لا يقبلون عليه، ما لهم عن معرضين بشدة! ليس إعراضاً فقط وعدم التفات، لا، نفور بشدة. ولذلك شبههم الله فقال:

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٠].

حُمُر جمع حمار، والحُمُر هنا حُمُر الوحش إذا كانت في الصحراء، إذا رأت الصائد أو رأت المفترس من السباع تفر بسرعة، تفر مستنفرة بشدة. وهؤلاء الله يشبههم إذا ذُكِّروا بالقرآن، وذُكِّروا بالطاعة، وذُكِّروا بالخير، يفرون ولا يقبلون ولا يريدونه، يفرون فرار هذه الحمر المستنفرة. وكل من أعرَضَ عن كتاب الله، عن القرآن، عن الذكر، عن مجالس الخير، شبهه الله بهؤلاء كالحمر المستنفرة التي:

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥١].

والقَسْوَرَة مثل ما ذكرنا الصائد؛ لأنه يقسر بقوة، أو الأسد الوحوش المفترسة تقسر بقوة: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ [المدثر: ٥٢].

يقول هم ما يقبلون، ما يريدون الخير ويفرون منه، وعندهم أمور أخرى منها أنهم كل واحد يقترح ويريد أن يُعطى صحيفة. لماذا؟ ما هذه الصحيفة؟ كان المشركون يأتون إلى النبي صلى الله عليه وسلم استهزاء وسخرية، فيقولون: يا محمد، إن كنت صادقاً أنك رسول من عند الله، فأتنا كل واحد منا بكتاب من السماء مكتوب فيه: إطِع محمد يا فلان، كتاب! قالوا: حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه. وهنا قال: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾، يريد كتاباً منشوراً مكتوباً فيه: يا فلان أطع محمد فإنه صادق! هذه الدعوى منهم، يعني لو جاءكم كتاب فعلاً مكتوب فيه هذا الكلام تؤمنون؟ يعني ما منعكم إلا هذا الكتاب، أما الباقي ما منعكم... يعني التصديق والنظر في محمد والنظر في القرآن هذا لا يلتفتون إليه، وإنما

يريدون مثل هذا الأمر، هذا الأمر التافه الذي لا يلتفت إليه، قال: ﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [المدثر: ٥٣].

وهنا تقف ولا ما تقف؟ نقول: هنا الأولى أن تقف، شايف كل «كَلَّا» لها موضع، وهنا الأولى أن تقف تقول: «كَلَّآ»، لأن «بَلْ» انتقال من معنى إلى معنى: «كَلَّآ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ». و«كَلَّا» هنا الأقرب أن يكون معناها الردع والزجر، ولا تقول معناها «حَقّاً»؛ لأنها ليست تقريراً لشيء وإنما هي رد عليهم، لما قالوا أتنا بصحف منشرة، قال الله: كَلَّا؛ ليس الأمر باختيارهم واقتراحاتهم، بل إنهم لا يخافون الآخرة، لو خافوا الآخرة لبادروا بالاستجابة وبادروا بدخولهم في طاعة الله.

ثم قال: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ [المدثر: ٥٤].

شوف جاءت «كَلَّا»، وهنا الوصل أولى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾. إنه أي القرآن تذكرة، والسورة التي هي جزء من القرآن: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾، ليتذكر بها من يتذكر.

قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٥].

من أراد أن يتذكر وينتفع بالقرآن فليجلس مجالس القرآن ويستفيد ويستمع، فإن هذا خير له: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

من أراد منهم أن يتذكر فليتذكر، ومن أراد منهم أن يدخل في الإسلام ويهتدي فليهتدِي وليدخل، ولكن لنعلم جميعاً أن كل إرادات المخلوقين لا يمكن أن تتحقق إلا إذا أراد الله هذا الأمر. يعني عندنا إرادة العبد وعندنا إرادة الله عز وجل: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]،

فمشيئة الله فوق كل مشيئة، وإرادة الله فوق كل إرادة. ولذلك قال: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ لكن ما يذكرون ولا يمكن وليس لهم قدرة ولا مشيئة إلا أن يشاء الله، إلا إذا أراد الله هذا الأمر. وكل مشيئة وكل حركة للعباد وكل إرادة للعبد لا يمكن أن تتحقق ولا يمكن أن يريد شيئاً إلا إذا أراد الله أن يمكنه من هذا الأمر فهو يستطيع؛ ولذلك قال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

ثم قال: من هو الله؟ قال: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ يعني هو الأهل أن يُتَّقَى سبحانه وتعالى، هو الأولى أن يُتَّقَى وهو أهل للتقوى أن يُتَّقَى وأن يُخَاف، لا أن يخافوا غيره، هو أهل التقوى، ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وهو

صاحب المغفرة وهو الذي يغفر وهو الذي يتجاوز وهو الذي إذا أراد هداية عبد هداه، وإذا أراد إضلاله أضله، فالأمر بيد الله سبحانه وتعالى، بيد الله سبحانه وتعالى. فهو أهل التقوى لمن اتقاه؛ إن أردت أن تتقي فاتقِي الله عز وجل، وأهل المغفرة؛ فاطلب المغفرة والعفو من الله سبحانه وتعالى.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل التقوى وأهل المغفرة، وأن يغفر لنا الله سبحانه وتعالى، وأن يتقبل منا هذا العمل وهذا المجلس المبارك، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ القِيَامَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(القيامة ١ - ١٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا المجلس المبارك؛ مجلس القرآن الكريم. نجلس هذا المجلس المبارك وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للثاني من شهر صفر من عام ١٤٤٦ للهجرة. مثل هذا المجلس المبارك أيها الإخوة الكرام يتعلق بكتاب الله؛ قراءة وتفسيراً وبياناً وتدبراً وتفكراً في هذه الآيات التي يُعد مجلسها من أفضل المجالس على الإطلاق، ليس فوق هذا المجلس مجلس أفضل منه؛ مجلس تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله الحاضرين الذين يحضرون هذه المجالس التي لا تأخذ وقتاً طويلاً، يذكر الله هؤلاء الحاضرين في الملأ الأعلى بأشرف الأسماء وأزكى الأسماء، لا شك أن هذا فضل عظيم حقيقةً وفرصة عظيمة أن تُقام مثل هذه الدروس المباركة المتعلقة بكتاب الله سبحانه وتعالى.

نعيش هذه الدقائق المعدودة الثمينة مع آيات من كتاب الله. السورة التي بين أيدينا سورة (القيامة)، ولا شك أن هذه السورة من ظاهر العنوان أنها تتحدث عن يوم القيامة، وما أحوج الإنسان أن يُذكَّر بيوم القيامة؛ ذلك اليوم العظيم الذي سيقف فيه الأولون والآخرون موقفاً عظيماً عصيباً هويلا لا شك أن الاستعداد لهذا اليوم وأخذ الأهبة لهذا اليوم أمر متقرر ومهم لا بد منه، والتعرف على هذا اليوم الذي الله سبحانه وتعالى أعطاه العناية التامة في كتابه؛ فما من سورة -يعني من سور القرآن- إلا وتجد الحديث عن يوم القيامة صريحاً أو تعريضاً به، تجد كثيراً حتى يعني... بل بعض السور تجد حديث القرآن فيها عن يوم القيامة فيها أكثر من مرة، ويكفيك أيضاً أن الله سبحانه وتعالى أنزل سورة كاملة، سورة كاملة تتحدث عن هذا اليوم وتقرر هذا اليوم؛ سورة سماها الله سبحانه وتعالى بـ(سورة القيامة).

وهل تظن أن سورة القيامة فقط سميت بهذا اليوم فقط أو في غيرها؟ نقول: لا، فيه غيرها؛ (الحاقة)، و(القارعة)، و(التغابن)، سور سميت بهذا اليوم. هذا اليوم يوم عظيم الله سبحانه وتعالى ذكر له في القرآن

أسماء كثيرة؛ (الغاشية) سورة تسمى بسورة الغاشية تتحدث عن هذا اليوم. وهكذا لو جمعنا أسماء... أسماء يوم القيامة، وجمعنا هذه الأسماء وجمعنا السور التي سميت لهذا، ثم جمعنا أيضاً ونظرنا في الآيات التي تتحدث عن يوم القيامة، سواء آيات أسهبت في الحديث أو اختصرت؛ ستجد الكثير والكثير يقرر الله هذه القضية.

لماذا؟ أولاً لأهميتها بلا شك، والأمر الثاني.. لأن الكفار في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا قد يئسوا ولم يخطر ببالهم أن هناك يوماً يُبعث الناس فيه، يعني استبعدوا هذا... هذا اليوم أشد البعد أنهم يرونه بعيداً ولم يؤمنوا به أصلاً، لم يؤمنوا؛ يقول القائل منهم:﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَءَابَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[الواقعة: ٤٧-٤٨].

يستبعد ذلك؛ رجع بعيد، ما يؤمنون به، فجاء القرآن يقرر هذه القضية؛ لأنها تعتبر ركناً من أركان الإيمان، أركان الإيمان الستة التي لا يتم الإيمان إلا بهذه الأركان الستة، منها هذا الركن وهو... الإيمان باليوم الآخر. واليوم الآخر يبدأ من خروج روح الإنسان من جسده؛ من مات قامت قيامته إلى أن يستقر في قراره الأخير، كل هذا يوم القيامة.

السورة -سورة القيامة التي بين أيدينا- يعني الله سبحانه وتعالى جل جلاله افتتحها بأي شيء؟ بالقسم؛ أقسم بيوم القيامة، والله لا يقسم إلا بعظيم، العظيم لا يقسم إلا بعظيم، فأقسم الله سبحانه وتعالى بهذا اليوم. وقابل هذا القسم بحال الإنسان الذي يلوم نفسه اللوامة، النفس هذه اللوامة تشمل المؤمن والكافر؛ ما من نفس إلا تلوم... إلا يوم القيامة، أو ما من شخص إلا سيلوم نفسه يوم القيامة؛ المؤمن يلوم نفسه على التقصير وذهاب وقته وذهاب عمره، والكافر يلوم نفسه أنه ضيع وفرط حياته، فالنفس ستلومنا أو الإنسان سيلوم نفسه يوم القيامة.

الله سبحانه وتعالى يقرر في هذه السورة بالأدلة على قدرته، على قدرته على البعث، والرد على منكري البعث. ثم سبحانه وتعالى يتحدث في هذه السورة عن عدد من الأمور، ومن أهمها: تقرير هذا اليوم بأي شيء؟ تقريره بالموت؛ لما يقول الله سبحانه وتعالى:﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾[القيامة: ٢٦]؛

هذا الموت؛ الروح تبلغ أو تخرج إلى ترقوة الإنسان، إلى حنجرته ثم تخرج. هذا الحديث... عن الموت، وظن أنه الفراق؛ فراق من هذه الدنيا.

ثم يتحدث سبحانه وتعالى في خاتمتها: تقرير اليوم... هذا اليوم؛ يوم القيامة، بأي شيء يقرره؟ بالنشأة الأولى؛ يعني الذي سيبعثك يوم القيامة هو الذي خلقك الخلق الأول. من الذي خلقك الخلق الأول حتى تستبعد؟ من الذي أوجدك من العدم؟ أنت قبل سنين ما أنت... غير موجود، والله أوجدك وخلقك من ماء مهين، من نطفة، وأخرجك من بطن أمك وجعلك تمشي على هذه الأرض: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠].

وهذا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛

أهون عليه، فكيف يستبعد هذا الإنسان الضعيف بعقله قدرة الله سبحانه وتعالى؟!

ولذلك الله يعني ذكر قال في آيات كثيرة، يقول: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]؛

يسير على الله. ويذكر سبحانه وتعالى أن كل ذرية آدم من أول الخلق من آدم إلى آخر الخلق- يقول الله سبحانه وتعالى في بعثهم ماذا يقول؟ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]؛

إلا كنفس واحدة لا تظن هذا. وقال سبحانه وتعالى أيضاً في سرعت البعث قال: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩]؛

خرجوا من قبورهم بسرعة.

يعني الآن في العقل، لو نتحدث عقلاً فقط، الآن يعني أنت احكم بعقلك؛ لا... يعني الله سبحانه وتعالى يقول للشيء كن فيكون، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، لكن الآن خلق الإنسان خلق وإعادة؛ نشأة أولى ونشأة أخرى. النشأة الأولى تمر بأطوار؛ تسعة أشهر وبطن أمه يمر بمراحل وأطوار. النشأة الثانية بلحظة، تتشقق القبور يخرجون من قبورهم سراعا، يعني شوف كيف! بلحظة، يعني ما... ما تأخذ ولا ثواني في... في علم الله سبحانه وتعالى؛ كن فيكون، فـ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]؛

لا يتأخر منهم أحد. شوف الفرق بين هذا وهذا!

الحديث عن يوم القيامة وتقريره والكلام عنه يطول حقيقة جداً وهو له أهمية عظيمة، لكن نحن بصدد آيات لا بد أن نبين ونتدبر ونتفكر في هذه الآيات التي أمرنا الله سبحانه وتعالى بتدبرها والتفكر فيها.

ولا نقول نحن مثل ما يذكر بعض الناس القرآن... بعضهم يقرأ القرآن قراءة؛ هذا في خير وفي أجر، لكن ليس كمن يقرأ بفهم. الذي يقرأ ويعرف المعاني هذا نقول يقرأ بتفسير، في خير عظيم، لكن ليس كمن يقرأ ويفهم ويتدبر؛ شوف المرحلة الثالثة! الله... الله أمر بالتدبر، أمر بالقراءة نعم، أمر بـ... فهم القرآن، لكن التدبر هو الذي -يعني ركز عليه القرآن قضية إنك تتدبر ما تقرأه وإن كنت فاهمًا له. في مرحلة رابعة مهمة؛ يعني شوف القرآن الذي تجاه... أنت تجاه القرآن لا بد أن تنظر إلى أربع أمور مهمة:

١. **القراءة**: نعم تعطيه حقه من القراءة ولا تهجره.

٢. **التفسير**: لا بد أن تعرف، لا تقرأ شيئاً ما تعرفه، قف وبيّن وشوف اللي أمامك المعاني.

٣. **التدبر والتأمل**.

٤. **العمل**: اعمل، اعمل بالقرآن؛ في أوامر، في نواهٍ، لا بد أن تعمل بالقرآن، لا إنك تقرأ وتفهم وتتدبر وبعدين إذا ما تعمل في القرآن ما... ما تخرج بشيء، ما تخرج ما تخرج بشيء؛ لا بد من أن تعمل بالقرآن. ولذلك ذلك... يعني صدر هذه الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين عملوا بالقرآن، يعني طبقوه في حياتهم، طبقوه في حياتهم بمسارعة؛ يعني لا يتأخرون.

طيب، يقول الله سبحانه وتعالى في افتتاحية هذه السورة:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١].

كثير من الناس يظن أن هذا هنا... أن الله يقول... شوف عشان تعرف التدبر، يمكن تفهم المعنى لكن يأتيك التدبر الآن؛ هنا كثير من الناس يقول: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذا ما فيه قسم، الله يقول: لا أقسم، كيف تقول قسم والله يقول لا أقسم؟! فهل هذا نفي للقسم ولا إثبات للقسم؟ هنا يأتي فهم القرآن.

شوف الآن في بعض السور: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، و ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، كثير تدخل اللام؛ ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨]، و ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، تأتي اللام، فهل هذا معناه اللام نفي القسم ولا إثبات؟ نقول: لا، هذا إثبات؛ الله يقسم. وش الدليل؟ اسمع، في سورة الواقعة: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾، ها: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]؛

صار قسم ما صار؟ ليس بقسم؟ صار قسم! ها: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾؛ فدل على أن هذا قسم. فقوله: «لا أقسم» هذا بل هو أقوى من أن تقول أقسم، دخلت اللام تقوي... تقوي المعنى.

هذه اختلف العلماء في اللام هذه؛ هل هي زائدة، يعني والمعنى أقسم، ولا لها معانٍ؟ والصحيح من معانيها أن العرب إذا أرادوا أن يؤكدوا على الشيء أدخلوا اللام: لا والله ما حضرت، لا والله ما شهدت؛ شوف كيف استعمال العرب: لا والله ما قال والله ما شهدت... والله ما حضرت، لا؛ يأتيك باللام ليثبت أقوى: لا والله ما شهدت هذا الموقف، لا والله لا أستطيع أن أحضر. فاللام تفيد التأكيد.

وبعض المفسرين يقول: اللام هذه متعلقة بـ... أمر محذوف متقرر ومفهوم من السياق، وهو: «لا» كما تزعمون أيها الكفار أنه لا بعث؛ أقسم أن فيه بعث. هكذا، وهذا هو أقرب شيء؛ «لا» متعلق بشيء محذوف دل عليه الدليل... السياق والدليل، وهو: لا كما تزعمون أيها الكفار أنه لا بعث؛ أقسم بيوم القيامة.

وهكذا التي بعدها:

قال تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]؛

لا كما تظنون، أقسم بالنفس التي ستلوم نفسها يوم القيامة، أقسم بالنفس اللوّامة.

شوف الترابط الآن حتى نظهر بالتدبر التأمل أكثر؛ يقسم بيوم القيامة ويقسم بالنفس، وش الرابط؟ نقول: لأن يوم القيامة ما من نفس إلا ستلوم نفسها يوم القيامة، ما من امرئ يوم القيامة رجلاً كان أو امرأة إلا سيلوم نفسه أشد اللوم؛ مسلماً كان أو كافراً. مثل ما ذكرنا: المؤمن يلوم نفسه على التقصير وضياع الوقت وذهابه وأنه ما قدم شيء، والكافر أيضاً يلوم نفسه أنه لم يؤمن وأنه لم يعرف هذا اليوم ولم يستعد له.

طيب، قال سبحانه وتعالى... طيب دائماً أيها الإخوة القسم يحتاج إلى جواب؛ يعني ما فيه قسم إلا... دائماً لماذا تقسم؟ أقسم على شيء معين، أقسم على شيء. أين الجواب؟ قالوا هنا: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الله يقسم بيوم القيامة على أي شيء؟ على ثبوت يوم القيامة، وإن لم يذكر لأن لم يذكر يفهم من الآية أن الله أقسم بيوم القيامة على حقيقة هذا اليوم وعلى حقيقة هذا اليوم ومجيء هذا اليوم.

ولذلك شوف يفهم هذا الكلام من وين؟ ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣].

أيحسب ويظن هذا الإنسان ألن نجمع عظامه؟ يظن، لا، ليس على... على كما يقول.

طيب، هنا المراد بالإنسان هذا، هل هو المسلم ولا الكافر؟ ها؟ كلهم؟ ولا...؟ أيد، تأمل شوي؛

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، مؤمن يقول هذا يظن؟ لا ما يظن المؤمن، المؤمن متقرر في نفسه أن الله قادر على أن يجمع عظامه. إذاً الذي ينكر الكافر: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي الكافر ألن نجمع عظامه؟

ولذلك قال: ﴿بَلَىٰ﴾؛ بلى نجمع عظامه، بلى لا يظن هذا... هذا الكافر.

ولذلك شوف كلمة الإنسان تكررت كثيراً في هذه السورة، ستأتيك الآن كم: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، تأتيك أكثر من مرة: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، تكررت: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وهكذا. فكل كلمة من الإنسان لا بد أن نتأمل ونعرف هل المراد بها... لأن الإنسان في القرآن يأتي أحياناً يراد به المؤمن، وأحياناً يراد به الكافر، وأحياناً يراد به المؤمن والكافر حسب، مثل قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]؛ هذا يشمل الجميع، وهكذا.

قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾ [القيامة: ٣-٤].

شوف الرد القوي، أقوى من كلام هؤلاء؛ هم يستبعدون يقولون عظام كيف يبعث الله عظام؟ تركيب جهاز كامل ما يمكن، كيف الإنسان يعاد هذا الإنسان بتركيب، اختلاف العظام اختلاف عجيب قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾، شوف بلى رد عليه، وقادرين إثبات القدرة. طيب وبعدين قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤].

بنان أطراف الأصابع، القدمين والرجلين، هذه البنان؛ البنان هي الأنامل التي فيها البصمات، اللي فيها البصمات التي لا تشتبه بصمة ببصمة، يعني يعيد الله هذا الشيء، يعني إذا كان يعيد هذه الأشياء فمن باب أولى ما هو أشد من هذا. فرد الله عليهم برد قوي مفحم: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾.

وشوف كلمة نسوي قد يفهمها بعض الناس على غير مراد الله، ما معنى نسوي؟ ما هي التسوية؟ ما معنى نسوي؟ التسوية معناته إظهار الشيء بأحسن شيء، بأحسن صورة بأحسن صورة؛ سواها يعني خلقها في أحسنها، يعني خلق فسوى، يعني أحسن على سره أحسن صورة.

طيب يقول هنا: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ يعني نخرج البنان على أحسن صورة كما كانت على أحسن صورة.

لكن هذا الإنسان الكافر لا يقتنع ولا يقبل؛ ولذلك قال:

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [القيامة: ٥].

بل يريد الإنسان؛ شوف و«بل» و«بلى»، «بلى» هذا رد جواب، و«بل» إضراب عن كلامه؛ يعني الله قادر على أن يسوي بنانه، ولكن هذا الكافر ما يؤمن بالكلام هذا ولا يصدق. ولذلك قال: «بل»، انتقل إلى كلام آخر.

طيب ماذا قال؟ ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، من هو؟ الكافر هذا الثاني، الآن هو الكافر.

قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥].

الفجور لا يأتي بخير، الفجور يعني فعل سيء، الفجور فعل سيء، والله وصف قال: الفجار: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧].

هذا يفجر أمامه يعني لا يبالي بحق الله عليه ولا بحق حقوق الناس ولا بأي شيء، يريد بس فقط يسرع في هذه الدنيا، يجمع في هذه الدنيا فقط: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، ينطلق بهذه الدنيا لا يبالي بحقوق الله ولا بحقوق الآخرين.

يَسْأَلُ هذا الكافر يقول: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦].

أيّان يعني متى، متى يوم القيامة هذا؟ هذا السؤال تتوقع أن السؤال هو ينتظر الجواب؟ ما ينتظر الجواب، هذا سؤاله ما ينتظر الجواب؛ سؤال استبعاد، يعني كأنه يقول: مستحيل أن يأتي يوم القيامة!

شوف الذي يسأل عن يوم القيامة الكافر، المؤمن ما يسأل عن يوم القيامة، المؤمن ما يسأل عن يوم القيامة، لماذا؟ لأن عنده يقين؛ لما جاء الأعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى السَّاعَةُ؟»، قال: «مَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»، ما أجابه قال ماذا أعددت لها، فالمؤمن شوف: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وفي آية أخرى أيضاً يبين قال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨]، خائفون لأنهم متيقنون، أما الكافر هو الذي يسأل، يسأل؛ تسأل عن شيء متيقن؟ لا ما في أحد يسأل يقول لك مثلاً: متى يأتي الليل؟ يأتي الليل معروف متى يأتي الليل! فهذا يسأل: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

ولذلك رد الله عليه سبحانه وتعالى؛ لأن سؤاله ليس سؤال استفهام يريد أن يصل إلى الحق، لا،

استبعاد. قال: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ [القيامة: ٧].

إذا بَرِقَ؛ شوف في فرق بين بَرَقَ وبَرِقَ، البرق يعني ظهر لمعانه؛ بَرَقَ يَبْرُقُ بَرَقَ النور، هذا بَرَقَ. لكن بَرِقَ يختلف، لغة العرب حركة تغير؛ بَرِقَ يعني شَخَصَ بصره، يعني أطلق نظره بغير اختيار؛ لشدة الموقف العصيب المهول يوم القيامة. الأبصار شاخصة: ﴿وَٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، والأبصار شاخصة.

قال: ﴿فَإِذَا بَرِقَ﴾، وأنا سمعت كذا شخص يقرأ ذا يقول: ﴿فَإِذَا بَرَقَ ٱلْبَصَرُ﴾؛ كيف بَرَقَ البصر يعني البصر المعنى هذا خطأ! شوف أخطي في القراءة وأخطي في المعنى! ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾؛ شَخَصَ وظهر بصره من غير اختيار.

قال: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾، هذا موقف من مواقف يوم القيامة؛ لأن هذا يسأل الآن أعطاه الله موقف مواقف. قال: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٨]؛

ذهب نوره، خسف أصبح النور أسود، ما في نور ذهب نوره.

قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]؛

كل هذا يحدث يوم القيامة؛ جمع الشمس والقمر. يقول بعض أهل العلم: لم يجتمع الشمس مع القمر ولا يلحقه إلا يوم القيامة، إلا يوم القيامة، الشمس تأتي ما يوجد قمر، إذا جاء القمر ذهبت الشمس، لا يجتمعان في آن واحد إلا في هذا اليوم؛ يجمع الله الشمس والقمر ويلقيهما في النار، لماذا؟ حتى يراها عابدوها؛ الذين يعبدون الشمس ويعبدون القمر ويعبدون الكواكب والنجوم، إذا رأوها في النار كيف تعبدون شيء يلقى معكم في النار ويعذب معكم؟!

قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ٩-١٠]؛

يقول الإنسان يومئذ، أي يوم القيامة الذي يحدث فيه هذا الموقف الآن العصيب الشديد، يقول الإنسان يومئذ: أين المفر؟ يريد أن يفر الآن، أمامه شيء ما يتصوره، أمامه نار جهنم تتلظى، يؤتى بها تقاد بقوة، لها... لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها؛ وجيء يومئذ بجهنم. فإذا رآها الكافر يقول: أين المفر؟ يريد أن يفر، يبحث عن طريق يفر منه، أين المفر؟ أين المؤمن؟ المؤمن ما يقول أين المفر، المؤمن مطمئن. يقول: أين المفر؟

قال الله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرٌ﴾ [القيامة: ١١]؛

ما في مفر، ما فيه مفر، كلا لا وزر، لا ملجأ ولا مفر، وليس هناك مكان تختبئ فيه؛ لا جبل، ولا وادٍ، ولا شجر، ولا أي مكان، الأرض كلها جرداء مستقيمة ليس في... تستطيع أن تفر من هنا إلى هنا: ﴿كَلَّا لَا وَزَرٌ﴾. رد عليه الله بأقوى شيء، قال: «كَلَّا» التي هي كلمة ردع وزجر، ﴿كَلَّا لَا وَزَرٌ﴾.

ثم قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٢]؛

إلى ربك رجوعك، إلى الله سبحانه، كلهم يرجعون إلى الله فيحاسبهم ويجازيهم المؤمن والكافر: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾.

الحديث يا إخوان طويل جداً ولا يمل الإنسان من سماع مثل هذا الكلام حقيقة والآيات العظيمة التي تهز القلوب وتحيي القلوب حقيقة تحييها، ونحن كلنا بحاجة إلى أن نحيي قلوبنا بالقرآن، لكن لا أريد الإطالة عليكم، قد يكون البعض منشغل، ونقف عند هذا القدر إن شاء الله، في لقائنا القادم إن شاء الله نستكمل ما توقفنا عنده.

الحقيقة السورة يعني متواصلة واصلة في تقرير هذا اليوم، لما قال: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]،

وثم قال: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤-١٥]؛

هو عارف كل شيء، مطلع وعارف على... ومقر بكل شيء. لكن لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القيامة ١٣ - ٢٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للتاسع من شهر صفر من عام ١٤٤٦ من الهجرة. درسنا المبارك في هذا المسجد المبارك مع القرآن الكريم؛ قراءة وتفسيراً وبياناً وتدبراً وتفكراً في هذه الآيات.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (القيامة)، تكلمنا عنها في لقائنا الماضي وهي كما هو ظاهر حديثها عن تقرير البعث والجزاء والجنة والنار وما يتعلق بذلك مما يسمى بـ(عالم الآخرة). عالم الآخرة عالم واسع؛ منذ يموت الإنسان وتقبض روحه فقد انتقل إلى عالم الآخرة ومن عالم الدنيا إلى عالم الآخرة، فالقبر يعني القبر عذابه أو نعيمه وما يجري فيه، وبعث الناس وحسابهم ومجازاتهم ثم مصيرهم إلى الجنة أو النار، كل هذا يسمى عالم الآخرة. السورة تقرر هذه القضية التي أنكرها المشركون ولم يؤمنوا بذلك أبداً، فأخبر الله سبحانه وتعالى موقفهم وقرر الرد عليهم بالردود القوية.

فبداية في القسم أقسم الله بهذا اليوم دليلاً على ثبوته، ولذلك في قوله تعالى:

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[القيامة: ١]،

هذا قسم صريح، ومثل ما ذكرنا: ما المراد باللام؟ هل هي تنفي القسم أو تثبته؟ الصحيح أن هنا هذا القسم إثبات للقسم، إثبات للقسم، وجواب القسم مقدر محذوف مقدر هو أن الله يقسم بيوم القيامة على ثبوت هذا اليوم. والحديث عن اللام تحدثنا عنها في لقائنا الماضي.

وقف بنا الكلام عند قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[القيامة: ١٠-١٢].

قال بعدها سبحانه وتعالى: إذا استقر الإنسان وبعث من قبره جاء الجزاء، جاء الحساب، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[القيامة: ١٣].

نحن ذكرنا في اللقاء الماضي أن السورة تكرر فيها لفظ (الإنسان)، فهل هو الكافر أو المؤمن أو يصدق على الكافر والمؤمن حسب السياقات؟ فهنا في قوله: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هذا يشمل الجميع، فكلٌّ

سينبأ وكلٌّ سيخبر بعمله؛ مؤمناً كان أو كافراً. قال: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ﴾؛ يومئذ يعني يوم القيامة، وفي هذا إثبات لهذا اليوم، ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر.

بما قدم أو أخر؛ هذا في حال المؤمن، المؤمن يقدم الخير ويترك الشر خلفه. والكافر أو العاصي على العكس؛ قدم الشر أمامه ويترك الخير ويتساهل فيه ولا يهتم به فيكون خلفه وبالاً عليه، فلذلك يكون الخير خلفه ويحاسب عليه، ويكون الشر أمامه ويحاسب عليه. ينبأ الإنسان يومئذ، يوم القيامة، بما قدم وأخر.

ينبأ هل هو ينكر هذه الأشياء حتى ينبأ ويخبر بها، ولا هو مقر بها؟ هو في حقيقته مقر، لا يمكن أن ينكر هذا الشيء، وإن كان في بعض المواقف يذكر الله أن المشركين ينكرون ذلك:﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]؛

هذا إنكار، لما يرون رحمة الله ومغفرته يدعون هذه الدعوى أنهم ما كانوا مشركين إنكاراً، لكن في قرارة حقيقتهم أنهم يعلمون ذلك.

ولذلك شوف لما ذكر الله أن الإنسان يخبر بأعماله ما قدمه وأخر من خير أو شر، انتقل إلى معنى آخر، قال: (بَلْ)، فـ(بَلْ) هنا تسمى عند أهل العلم تفيد الإضراب؛ يعني تنتقل من معنى إلى معنى، يعني انتهى المعنى الأول ثم أعطاك معنى جديد، فقال لك: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤].

والإنسان هنا يشمل المؤمن والكافر؛ بل الإنسان على نفسه بصيرة، يقول ما نحتاج نخبرك بأعمالك، أنت بصير بعملك، أنت تعرف أعمالك: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾.

الأصل أنها (بَصِيرٌ)، الإنسان بصيرٌ، هنا قال: ﴿بَصِيرَةٌ﴾، لماذا؟ نقول هذه التاء تفيد المبالغة مثل (عَلَّامَة) و(رَوَّايَة)؛ يعني كثرة الإبصار ومعرفته بدقة لا يمكن أن يخفى عليه، ففيها مبالغة؛ بل الإنسان على نفسه هو يحكم على نفسه، وبصير بنفسه، ويعرف ما الذي قدمه وما الذي أخره.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٥]؛

لو اعتذر بما اعتذر؛ قد يعتذر الكافر أعذاراً كثيرة، وقد يعتذر المؤمن عن تقصيره، ولكن هذه المعاذير لا تقبل. وكذلك شوف عندك حتى قال أهل اللغة، قال: الأصل المعذرة والمعاذر، هكذا مَعْذِرٌ، لكن لما يراد بها المبالغة يقال (معاذير)، معاذير؛ فيقول لو أتى بما أتى من أعذار ليس الوقت وقت اعتذار، وقت الاعتذار انتهى، ليس الوقت الآن، ليس الوقت اعتذار، قال: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾.

طيب إلى هنا كل هذا في تقرير البعث والجزاء والحساب؛ الجزاء والحساب والبعث كله يتحدث القرآن في تقرير هذا اليوم، ثم تأتي آية تنتقل إلى أمر وتعود مرة أخرى. هذا الأمر الذي جاء معترضاً متوسطاً له أهمية عظيمة وجاء في مكانه وفي محله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

قد يأتيك سائل يقول لك: الحين الحديث عن يوم القيامة وتقريب البعث والجزاء والحساب، ثم يأتي انتقال إلى مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم في تلقيه للوحي كيف يتلقاه، هذه نقلة ما لها... يعني ما في ترابط بينها! هذا وقف عنده بعض المفسرين وتأملوا في دخول الحديث، هذا الحديث هذا جاء هكذا؛ يعني ما له مناسبة واضحة، فتحرى وبحث أهل العلم وأهل التفسير في ارتباط هذا الشيء، فقالوا: كيف يأتي الحديث عن جمع القرآن وعن بيانه وعن كيفية يعني تلقي النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن ونحن نتحدث عن اليوم الآخر وتقريره وبعثه؟

يعني بعض العلماء قال: إن الله سبحانه وتعالى لما تحدث عن جمع العظام قال:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]،

ويوم القيامة يوم الجمع، يجمع الله فيه الأولين والآخرين، كله حديث عن الجمع، ناسب أن يذكر الله الحديث عن جمع القرآن، فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾. هذا وجه ذكره السيوطي وذكره بعض المفسرين.

ولكن ذكر بعض المفسرين أيضاً رأياً آخر أو وجهاً آخر في الحديث عن الآيات تتحدث عن كيف يتلقى النبي صلى الله عليه وسلم وكيف يجمع القرآن ونحو ذلك؛ قال بعضهم: إن الإنسان أحياناً يعني يكون المعلم أمام الطلاب يتحدث عن موضوع مهم ثم يجد أحد الطلاب مثلاً أو بعض الطلاب قد انصرف عن الحديث، فيأتي ويتحدث عنه أو يخاطبه فيقول: يا فلان نحن نتحدث عن هذا الموضوع لا تشتغل في شيء آخر، لا تشغل نفسك في كذا، فيخرج عن الموضوع ثم يعود، يخرج ثم يعود.

فهذه الآيات والله أعلم، حتى ذكر بعضهم أن أثناء نزول سورة القيامة كان النبي يعني في بدايات نزول السور ونزول القرآن عليه، كان حريصاً على تلقي القرآن وحفظه، وكان يعالج من تلقي القرآن شدة، فكان إذا جاءه جبريل وألقى عليه القرآن أو الآيات أو السورة كان يأخذ القرآن بسرعة منه ويتلقاه بسرعة،

فجاء التوجيه القرآني والوحي بأن يفعل مثل هذا الأمر وأن يتأنى، وأن يتأنى، قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ لا تحرك به لسانك لتعجل به.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]؛ يعني إذا خشيت أنه يتفلت ويذهب منك لا تستعجل، عليك بالهدوء وسيجمع الله القرآن في صدرك. ولذلك جاء عن ابن عباس كما في البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم «كَانَ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً»؛ يعني يحاول أن يحفظه، فجاء التوجيه القرآني بهذا التوجيه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي جمع هذا القرآن في صدرك جمعه وقرآنه؛ قراءته، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨].

فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاءه الوحي، الوحي بعد ذلك، كان ينصت، كان ينصت ويسكت حتى ينتهي من قراءته، حتى ينتهي جبريل من قراءته، فإذا النبي قد حفظه كاملاً، حفظه كاملاً.

قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي فاتبع قراءته، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]؛

توضيحه وبيانه وبيان معانيه. فجمع الله له حفظه وبيان معانيه، حفظه وبيانه، جمع الله له حفظه وبيانه، فكان النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يطرق رأسه ويسكت، فإذا انتهى جبريل فإذا هو قد حفظه.

استنبط بعض أهل العلم من هذا أنه ينبغي لطالب العلم إذا كان عند شيخه أن يسكت ويتأدب وأن لا يدخل على الشيخ بمحادثات أو باعتراضات أو بسؤال أو نحو ذلك، بل عليه أن يستمع وعليه أن يكتب كل ما يحتاج إليه، فإذا انتهى من الدرس أو انتهى من هذه المسألة التي يتحدث عنها، بعد ذلك له أن يتكلم بما شاء، أما الدخول والاعتراض أو الكلام أو هذا قد يشوش على الحاضرين ويضيع المسألة، أحياناً يضيعها، تجد بعض الدروس والمشايخ يتحدث عن مسألة مهمة ويقررها بأدلتها ونحو ذلك فيأتي شخص ويدخل بسؤاله فيضيع المسألة. فينبغي الأدب، استنبط بعض أهل العلم من هذه الآية الأدب بأن يسكت ويستمع فإذا انتهت المسألة له أن يأتي بما شاء.

قال سبحانه وتعالى بعد هذه الجملة المعترضة: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠].

«كَلَّا» مثل ما ذكرنا؛ إما أن تكون بمعنى كلمة ردع وزجر وتهديد وتخويف، أو تكون بمعنى «حَقًّا»، وهي أيضاً مثل ما ذكرنا تختلف في سياقاتها، هنا تبقى على معناها الأصلي؛ كلمة ردع وزجر لهم، الذين

كفروا باليوم الآخر ولم يؤمنوا ولم يصدقوا.

ما السبب الذي جعلهم يكفرون باليوم الآخر؟ لماذا؟ لماذا لم يقروا به؟ لماذا لم يعترفوا به؟ لماذا لا يريدون الحديث عنه والتذكير به؟ هذا هو السبب: تحبون العاجلة؛ لأنهم يرون الدنيا أمامهم، فاغتروا بالدنيا وبزخارفها ونسوا الآخرة ولم يؤمنوا بالأخرة، فيقولون هذه حياتنا نموت ونحيا، إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر. فقال الله: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ تحبون العاجلة، هذا هو السبب الذي جعلكم تنسون الآخرة، ﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢١]؛ تنسون الآخرة.

ثم سبحانه وتعالى أعطانا صورة من صور اليوم الآخر، اليوم الآخر وموقف من مواقف اليوم الآخر، مواقف اليوم الآخر كثيرة؛ ذكر هنا موقفا من مواقف اليوم الآخر، وهي ظهور وبيان وجوه الناس يوم القيامة وأنهم كما هو معلوم على نوعين، قال:﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢].

يومئذ أي يوم القيامة، وجوه يومئذ ناضرة، ناضرة من النَّضْرَة والسرور والبهاء والجمال، هذا معناه النضرة: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]؛

وجوه يومئذ ناضرة بالضاد أخت الصاد.

قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٣]؛

أي تنظر إلى ربها، إلى ربها، المؤمن يرى ربه يوم القيامة، المؤمنون يرون ربهم، ومن أعظم نعيم الجنة رؤية الله سبحانه وتعالى، رؤية الله التي نسأل الله سبحانه وتعالى ألا يحرمنا هذه الرؤية وأن يوفقنا لرؤيته سبحانه وتعالى والتنعم برؤيته. وفي هذا دلالة على إثبات الرؤية، وأن المؤمنين يرون ربهم، وأن الكافرين يحجبون عن رؤية ربهم.

قال سبحانه وتعالى هنا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

قال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤]؛

هذا الجانب الثاني الآخر أو الطرف الآخر وهم الكفار، قال: وجوه يومئذ باسرة؛ يعني عابسة، مسودة، وقلقة، وعابسة.

قال: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٥].

(تَظُنُّ) هنا بمعنى اليقين، يعني تتيقن جزماً أن مصيرها أنه سيفعل بها فاقرة؛ أي ستنزل بها العقوبات

الشديدة، ستنال جزاءها وعذابها في هذا اليوم. الآن أصبح الكافر على يقين بأنه سينال جزاءه، سينال جزاءه.

طيب ستنتقل الآيات بعد ذلك إلى موقف الإنسان عند خروج روحه، عند الموت، عند الاحتضار، ما هو موقفه وما الذي تحدث القرآن عنه، ثم في الأخير تقرير يوم البعث ويوم القيامة التي تتحدث السورة عنه، تقريره بأي شيء؟ بالدليل العقلي؛ أن الذي أنشأ النشأة الأولى قادر على أن ينشئ النشأة الآخرة:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]؛

كيف ينكر وهو في الأول معدوم ليس موجوداً ثم أوجده الله؟! الذي أوجده الوجود الأول قادر على أن يوجده الوجود الآخر.

طيب نقف عند هذا القدر إن شاء الله وللحديث بقية، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(القيامة ٢٦ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ السادس عشر من شهر صفر من عام ١٤٤٦ للهجرة. نجلس مجلسنا المبارك ومع القرآن الكريم وتفسيره.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (القيامة)، ولا زلنا نتفيأ ظلالها، ونتدبر آياتها، ونتفكر فيها. سورة القيامة واضحة وظاهرة من اسمها أنها حديث عن يوم القيامة وتقرير هذا اليوم، وكما مر معنا أن الله سبحانه وتعالى أقسم بهذا اليوم لما قال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، وهذا هو القسم، وأن دخول اللام هنا تأكيد لهذا القسم. وبين الله سبحانه وتعالى حقيقة هذا اليوم، وأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين، ورد سبحانه وتعالى على أولئك المنكرين الذين استبعدوا أن يبعث الله من في القبور. ولا تزال الآيات تتحدث عن تقرير هذا اليوم، ووقف بنا الكلام عند قوله سبحانه وتعالى:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦].

الحديث الآن في الاحتضار وفي نزول الموت على الإنسان وموقف الإنسان من هذه الحقيقة، هذه الحقيقة لا ينكرها أحد أبداً؛ مشركاً كان أو كافراً أو ملحداً أو غير ذلك، حقيقة هذه لا ينكرها أي إنسان؛ لأنه يراها عياناً أمامه. ولذلك أتى الله بها تقريراً لهذا اليوم؛ يعني كما أنك أنت تؤمن بحقيقة الموت وأنك ترى الأموات أمامك، فكذلك البعث كالموت؛ كما أن الله يقبض الأرواح فإنه يحيي الموتى. فأتى بهذا تقريراً لهذه الحقيقة التي لا ينكرها أي إنسان.

ثم أتى سبحانه وتعالى أيضاً بحقيقة أخرى وهي خلق الإنسان، ولا أحد يستطيع أن يجحد نفسه أنه خُلِق من العدم وأنه لم يكن موجوداً، وهو يرى الناس يولدون أمامه؛ فهذا يولد وهذا يموت. هذه حقائق لا يمكن أن ينكرها أي إنسان، فأتى الله سبحانه وتعالى بها هنا ليقرر حقيقة البعث الذي أنكره من أنكره وقال: لا يمكن أن الإنسان يموت ثم يصبح تراباً ورفاتاً وعظاماً ثم يبعثه الله! هذا تصور هؤلاء الكافرين المنكرين للبعث. فأراد الله سبحانه وتعالى أن يقرر هذه القضية وهي قضية الإيمان بالبعث، الإيمان باليوم

الآخر هو أحد أركان الإيمان الستة التي لا يمكن أن يتم إيمان الإنسان إلا بالإيمان بهذه الأركان الستة، وتقرير اليوم الآخر كما قررته الآيات الكثيرة في القرآن تقرير عقلي ونقلي؛ يعني أدلة عقلية وأدلة شرعية:

- أدلة عقلية: الموت الذي يشاهده كل إنسان ويذهب بكل إنسان، وما من أحد إلا سيواجه هذه القضية، هذا أمر.
- الأمر الثاني: الخلق الأول؛ فالذي خلقك الخلق الأول وخلقك من ماء مهين وأنشأك وأوجدك ثم يميتك قادر على أن يبعثك، قادر على أن يخلقك خلقاً آخر، وليس ذلك على الله بعزيز.

فالآيات التي أمامنا الآن تقرر قضية الإيمان باليوم الآخر من وجهين:

- الوجه الأول: يتعلق بالموت وحقيقته الذي يأخذ كل إنسان وينقله من هذه الدنيا إلى الآخرة، هذه حقيقة لا ينكرها أي إنسان أي مخلوق.
- الأمر الثاني: حقيقة الخلق الأول، النشأة الأولى؛ من الذي أنشأك؟

الآن يتضح لنا الأمر، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا﴾ [القيامة: ٢٦]. «كَلَّا» مثل ما ذكرنا قد تأتي يراد بها الردع والزجر؛ يعني كيف تقول هذا الشيء؟ كيف تعتقد هذا الشيء؟! فهو ردع وزجر. أو تكون بمعنى «حَقّـًا»؛ أي حقيقة الأمر كما هو. فهنا تحتمل الأمرين: إما أن نقول «كَلَّا»؛ ليس كما يعتقده هذا الكافر الذي يقول هنا أو يحسب أن لن نجمع عظامه ولن نخلقه مرة أخرى، «كَلَّا» ليس الأمر كما تعتقد، بل انظر إذا بلغت الروح التراقي! هذا وجه. أو يقال «كَلَّا» يعني حقاً؛ حقيقة إن هذا الأمر قد تقرر وهو في حال احتضار الإنسان، في حال وقت الاحتضار، قال: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦].

ما هي التي إذا بلغت التراقي؟ ما هي؟ الروح. وين هي؟ ما ذُكِرَت، كيف عرفناها؟ السياق؛ السياق القرآني يعني أحياناً السياق القرآني يدل، مثل لما تقول: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، ما هو؟ القرآن. طيب ما ذُكِر، نقول: دلائل الآيات وألفاظها تدل على ذلك. فلما قال هنا: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [القيامة: ٢٦]؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]؛ يعني بلغت الروح الحلقوم، قال هنا: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾.

والتراقي جمع مفردها ترقوة، والترقوة هي العظام الملتفة على النحر والعظام التي تكون في أعلى الصدر، هذه الأولى الواحدة منها تسمى ترقوة أو ترقوة، هذه الترقوة تجمع على تراقي؛ يعني معنى أن

الروح في الجسد إذا أراد الله خروجها تصعد، فتصل إلى هذه العظام على الثغرة أو على النحر، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]؛ وصلت إلى الحنجرة وإلى الحلقوم: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾.

فإذا بلغت التراقي وبدأ الإنسان يحتضر ويرى ويشاهد أمامه أن روحه تخرج وأنه سيغادر وسينتقل من هذه الدار، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ [القيامة: ٢٧]؛ أي هل من راقٍ يرقيه؟ هل من طبيب يأتي يعالجه؟ الوقت ليس وقت علاج ولا طبيب ولا رقية، هل من راقٍ يرقيه؟ حتى قال بعض المفسرين المعاصرين، قال: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ أي الرقية الشرعية الإلهية التي إذا عجز الأطباء عن علاج هذا الشخص جاءوا إلى الرقية الشرعية وعرفوا أنه لا علاج إلا بالرقية الشرعية. وقيل من راق؛ يعني من القائل من راق؟ من هو؟ إما المريض الذي يرى الموت، وإما من كان حوله، فالذين حوله يطلبون له العلاج: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾.

شوف هنا تجد في المصحف سين صغيرة فوق الحرف فوق حرف (مَنْ)، هذه السين يسميها أهل العلم سكتة لطيفة؛ يعني إذا قرأتها ما تقول (وقيل مراق) هكذا تصلها وإن كانت القراءة الصحيحة، لكن القراءة التي نتلقاها برواية حفص عن عاصم أنه يسكت سكتة لطيفة حتى لا تكون الكلمة لا تكون هذه كأنها كلمة واحدة: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾. وسكتات القرآن التي يقف عندها حفص عن عاصم: ثلاث سكتات في يس، قالوا: ﴿مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢] تقف قليلاً (مرقدنا هذا) لأنك لو وصلت تقول (من مرقدنا هذا) كأنه المرقد هذا، لا، (هذا ما وعد الرحمن) شيء آخر. ومثلها في المطففين... ليس وصلاً ولا وقفا، وإنما هي سكتة تأخذ نفس قليل، سكتة يسمونها سكتة؛ يعني الوقف تقف عند الآية على رأسها، هذا وقف. هذا لا، ليست وقفا وليست وصلا؛ لا تصل ولا تقف، وإنما تسكت قليلاً تقول: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾، يعني ما تقول (وقيل مراق)، هذا اللي يقال لا تصل هذا بهذا. وفي سورة المطففين: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ﴾ [المطففين: ١٤]، ما تقول (كلا بل رانا)، وإنما تعطي سكتة خفيفة: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]. هذه السكتات التي يقف عندها الإنسان في القراءة.

طيب عرفنا: ﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ﴾ يرقيه من الرقية.

قال تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٨].

من الظان؟ هو المحتضر الذي يحضره الموت، ظن؛ خلاص، والظن هنا بمعني اليقين ليس الشك، أكثر استعمال القرآن كلمة الظن معناها اليقين: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠] هذا يقين، ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦] يقين. فهنا الظن بمعنى اليقين، شوف قال: ﴿وَظَنَّ﴾؛ يعني جزم وتيقن وعلم علماً يقيناً أنه الفراق، سيفارق الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٩].

كله تصوير لانتقال الإنسان وحال حال الموت، قال: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ﴾، ما معنى والتفت الساق بالساق؟ قال بعضهم: أنه إذا اشتد الموت بالإنسان بدأت الأعضاء تضعف فتتقارب حتى إن الساق يقترب من الآخر فيكون من شدة ضعفه لا يستطيع أن يبعد الرجل عن الأخرى فتتقارب، هذا ممكن. وقال بعضهم: والتفت الساق بالساق وقت التكفين؛ فإذا كُفِّن قُرِبَت هذه لهذه، هذا وجه صحيح وكلها تحصل. وقيل: والتفت الساق بالساق معناها اشتد الأمر وكَرُب؛ يقول بعض العرب يقولون: قامت الحرب على ساقها، يعني على الشدة والقوة. فهذا معناه والتفت الساق بالساق؛ يعني كناية عن الشدة، وكل هذه صحيحة.

قال: إذا التفت الساق بالساق، قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠].

شوف التنوين هنا لازم تخرجه ما تدغمه، قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾، تسمع بعض الناس (إلى ربك يومئذ المساق)، لا، اخرج التنوين: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾. المساق يعني يُسَاق الإنسان خلاص، أصبح الآن ما يسمى بسياق الموت؛ إلى ربك الانتقال، تسوقه الملائكة يذهب، إلى ربك يومئذ المساق.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١].

يعني هذا كأنها الآيات تعود إلى المنكر، منكر البعث الذي يحسب أن لن نجمع عظامه؛ ما صدق بقلبه آمن بربه وآمن بما يجب الإيمان به من طاعة الرسول وبما جاء وبتصديق القرآن، كل هذه ما صدق بها بربه ولا بالقرآن ولا إلى آخره، هذا فيما يعتقده في قلبه. أما في أعماله قال: ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾؛ حتى يعني ترك الصلاة وما دون الصلاة، فهو لا طاعة لربه في معتقده ولا في أعماله؛ لا صدق ولا صلى.

طيب ماذا فعل؟ قال: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٢].

لكن كَذَّبَ يقابل ماذا؟ يقابل صَدَّقَ؛ ما صدق ولكن كذب. وتَوَلَّى يقابل صَلَّى؛ ترك الصلاة وترك

المسجد ولم يصلِّي ولكن كذب وتولى. وزيادة على ذلك حتى في معتقده وهذا مما يزينه الشيطان: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]؛ يعني شوف الآن هو زيادة على أنه لم يصدق ولم يصلِّي وكذب وتولى، يرى نفسه أنه على أحسن حال، وأن هذا هو الذي ينبغي أن يكون عليه! شوف قال:

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٣]؛

يتبختر ويفتخر ويمطط رجليه في مشيه، يرى أنه على أحسن حال، وهذا واقع حقيقة واقع؛ تجد لا يصلي ولا يزكي ولا يصوم ولا شيء ويرى أنه على أحسن حال وأنه في صحة وفي عافية وفي مال، فذهب إلى أهله يتمطى.

قال الله سبحانه وتعالى وعيداً شديداً له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٤-٣٥]؛

يعني ويل لك ثم ويل، وشدد يعني أربع مرات: أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى؛ يعني ويل لك ويل لك أربع مرات، كل هذا تهديد لحال هذا المجرم الطاغي المسرف المعرض عن طاعة الله.

ثم سبحانه وتعالى لما قرر قضية الموت وأنها حقيقة لا تخفى على أحد ولا تغيب عن أحد ولا يمكن لأي إنسان وهو يشاهد من حوله يُحْمَلُون على الأكتاف يشاهد ويشوف الموت أمامه لا يمكن أن ينكر هذا الشيء، فإذا كنت تقر بالموت يجب عليك أن تقر بالبعث؛ فالذي أمات هو الذي يحيي. ولذلك شوف أتى سبحانه وتعالى بالدليل الثاني العقلي وهو الإيمان بالنشأة الأولى، قال:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]؛

أن يهمل ويترك؛ يعني تظن أن الظالم يظلم ويطغى ويسرف ويترك ما يحاسب؟ وتظن أن الرجل الصالح المطيع الذي شغل وقته كله في طاعة الله وفي تلاوة كتابه وفي الصلاة وفي رضا والديه وفي رضا ربه سبحانه وتعالى قبل ذلك، أتظن أن هذا يترك ما تضاعف له الحسنات وما يؤجر على أعماله ويقابل بهذا بإكرام الله له؟! هذا لا يمكن في ميزان الله سبحانه وتعالى، لا يمكن أن الظالم يترك يظلم ولا يمكن أن يكون المطيع لربه أن لا يجازى على طاعته، لا، ليس هذا في حكم الله أبداً ولا يمكن ولا في حكم العقلاء من الناس: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ لا يمكن، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، تعالى الله لا يمكن.

قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾، ثم قال: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧].

ألم يكن هو في أول خلقه ماء مهين، قطرة صغيرة، ماء مهين تصب في الرحم حتى يخلق الله منها هذا الخلق فتكون النطفة بعد ذلك علقة؟ قال: ﴿مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾؛ وهو الماء يمنى أي يصب.

ثم كان علقة بعد ذلك؛ شوف قال (ثم) لأن فترة زمنية، كم الفترة؟ أربعون يوم وهي نطفة، ثم تتحول إلى علقة وهي قطعة الدم، سميت علقة لأنها تعلق في جدار الرحم، قطعة دم أربعين يوم، ثم بعد ذلك يتحول إلى قطعة لحم وهي المضغة.

قال: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٨]، هذا الإنسان، فسوى يعني أبدع في صوره، صوركم فأحسن صوركم، جعله في أحسن تقويم، هذا معنى فسوى.

قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [القيامة: ٣٩]؛جعل منه أصناف الناس ذكوراً وإناثاً حتى تستمر عملية التناسل والبقاء، قال: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾.

قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠].

أليس الذي أنشأ النشأة الأولى قادر على أن يعيدها؟ بل في نظر الإنسان الإعادة أهون: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ فدل ذلك شوف الآية الخاتمة كأنها خاتمة الكلام رداً على هؤلاء المنكرين-: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾. بلى قادر!

هل يقول الإنسان إذا قرأ هذه السورة يقول بلى؟ نقول: نعم، تقولها بلى كل ما قرأت مثل هذه ومثلها في سورة التين: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، بلى إنه أحكم الحاكمين. لكن هل يقولها في الصلاة؟ نقول: في صلاة النافلة جائز، إذا كنت تصلي صلاة نافلة النافلة بابها أوسع، أما الفريضة لا، الفريضة يجب الإنسان أن يلتزم ما ورد وما جاءه في سنة النبي صلى الله عليه وسلم ولا يزيد على ذلك، ولكن وردت أحاديث فيها ضعف أنه يقول بلى إنه قادر، لكنها مثل ما ذكرنا في خارج الصلاة أو في السنن، بابها أوسع فكل ذلك جائز.

هذه السورة حقيقة عشنا معها مدة من الزمن وعدة لقاءات والحمد لله وفقنا الله بتأملها وبيان معانيها وتدبرها، وهذا فضل من الله ومنّة على هذا الاجتماع الطيب وعلى كل من حضر، هذا توفيق من الله سبحانه وتعالى. ينبغي لنا أن نشكر الله على هذه النعمة، مَنْ وُفِّقَ لتلاوة كتاب الله ولتدبره وفهمه وحضور

هذه المجالس الطيبة هذا فضل من الله. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يزيدنا وأن لا يحرمنا فضل هذه المجالس، وأن يوفقنا لطاعته. لقاؤنا إن شاء الله الأسبوع القادم إن شاء الله، نبدأ بسورة جديدة أخرى، وهكذا نسير على هذه السور ونسأل الله التوفيق والسداد، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الإِنْسَان)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الإنسان ١ - ٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للثالث من شهر صفر من عام ١٤٤٦ للهجرة. مجلسنا هذا المجلس المبارك ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يضاعف لنا الحسنات وأن يبارك لنا وأن ينفعنا بما نقول وبما نسمع. مجلس القرآن الكريم وكلام الله سبحانه وتعالى الذي هو فوق كل كلام؛

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

نجلس مع القرآن الكريم ومع آياته. والسورة التي بين أيدينا بعدما أنهينا الحديث وتفسير سورة (القيامة) تأتي سورة (الإنسان)، كأنها بعد هذه السورة بعد سورة القيامة- تقرير لهذا اليوم أو شرح واضح وبيان لهذا اليوم الذي هو يوم القيامة. وأنت تقرأ سورة القيامة وفي آخرها والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]،

ثم تأتي سورة الإنسان الحديث عن الإنسان، ثم يقول سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]،

ثم يأتي الحديث عن خلق الإنسان، ثم يأتي سبحانه وتعالى بقوله:

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْيِۦَ الْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠]،

بلى قادر على إحياء الموتى؛ الذي خلق الخلق الأول قادر على الخلق الثاني، لا يعجزه ذلك سبحانه وتعالى. فتجد السورة فيها من التشابه وكأن هذه السورة سورة الإنسان تكمل ما جاءها من تقرير اليوم الآخر والإيمان به؛ فسورة القيامة تقرر بالأدلة حقيقة هذا اليوم، وهذه تكمل وتبين وتوضح وتشرح هذا اليوم وجزاء الفريقين، حتى إنك تقرأ في هذه السورة لما يقول الله سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، ثم يأتي في سورة الإنسان ويقول سبحانه وتعالى:

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]،

فتجد تشابهاً بين هذه السورة وهذه السورة.

وأما من حيث السورة وتسميتها: من حيث تسميتها فهي تسمى على المشهور عند كثير من المفسرين وفي المصاحف أنها تسمى بـ (سورة الإنسان)، وتجد في بعض المصاحف القديمة تسمى بـ (سورة الدهر)، وجاء في السنة أنها تسمى أيضاً بـ (سورة هل أتى) أو (هل أتى على الإنسان).

ومن فضائل هذه السورة أنها تقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة؛ في يوم الجمعة في صلاة الفجر جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرا في الركعة الأولى: ﴿الٓمٓ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ١-٢]، (سورة السجدة)، وفي الركعة الثانية يقرأ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١].

فما الحكمة؟ لماذا اختيرت هاتين السورتين في يوم الجمعة خاصة وفي صلاة الفجر؟ لماذا؟ تجد أحياناً هناك بعض اختيارات السور أو اقتران السور، هناك ما يسمى بـ (اقتران السورة)، سواء كان هذا الاقتران في القراءة في الصلاة مثل ما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرا سورة (ق) و(اقتربت) في أيام العيد في صلاة العيد، أو سورة (سبح) و(الغاشية) في الجمعة والعيدين. هناك أحياناً هذا يأتي في التطبيق في الصلاة، وأحياناً يأتي في اقتران السور في ترتيبها في المصحف؛ يعني مثل التسابيح تأتي متتالية، الحواميم تأتي متتالية، الطواسين تأتي متتالية. وأحياناً تأتي في الأحاديث اقتران؛ يعني في أحاديث ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرن بين السور، مثلاً أنه كان يقرا سورة كذا وكذا وتجد السور هذه مختلفة، مثل هذه يعني؛ وين سورة السجدة وسورة الإنسان؟ كل واحدة بعيدة عن الثانية.

وأحياناً يقرن بين سورتين متتاليتين؛ مثل يقول مثلاً: «اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا». في اقتران في السور، سماها الزهراوين فقرن بينهما. تجد أحياناً بعض السور لها مزايا من حيث الاقتران، سواء كان في القراءة والتطبيق، أو في ترتيب المصحف، أو في الأحاديث والآثار الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

طيب، ما الحكمة لماذا تقرأ سورة الإنسان يوم الجمعة في صلاة الفجر؟ لما تقرأ سورة السجدة وتقرأ سورة الإنسان تتأمل فيهما تجد حكمة واضحة جداً: يوم الجمعة هو أفضل أيام الأسبوع وهو عيد

المسلمين، يوم الجمعة هو الذي خلق الله فيه آدم وكلا السورتين تتحدث عن الخلق الأول. يوم الجمعة هو اليوم الذي تقوم فيه يوم القيامة وتجد السورتين كلاهما تتحدث عن يوم القيامة، وأحياناً تسهب مثل ما في سورة الإنسان أطال الله سبحانه وتعالى الكلام في الحديث عن يوم القيامة وعن نعيم الأبرار، فتجد هناك حكم ظاهرة.

الكلام هنا أن هذه السورة سورة الإنسان من فضائلها أنها تقرأ في هذا اليوم، يقرأها الإمام، يقرأها المنفرد؛ لو صلى إنسان منفرداً فاتته صلاة جماعة يقرأها. يقرأها الإمام ويقرأها المنفرد، وقراءتها ليست تكون دائمة في كل أسبوع لا؛ يقرا أحياناً وأحياناً يتركها، لكنه يحيي هذه السنة. تجد بعض الأئمة يمر عليه سنة سنتين ما قراها أبداً، فهذا من التساهل في إحياء هذه السنن، فينبغي للإمام أن يكون على فترات يقرأها حتى يبين للناس أن هذه من السنة.

سورة الإنسان هل هي مكية أو مدنية؟ وقع فيها اختلاف قوي بين المفسرين هل هي مكية أو مدنية؛ وابن كثير رجح أنها مكية، وكثير من المفسرين على أنها مكية. والمتأمل فيها يجد أنها فعلاً مكية. طيب، ما الفرق بين المكي والمدني حتى نقول مكية ولا مدنية؟ نقول: المكي دائماً آياته تركز على قضايا العقيدة، والحديث عن اليوم الآخر، ومناقشة المشركين في عقائدهم وإبطالها، وتقرير التوحيد. تجد السورة هذه فعلا تتحدث عن الخلق الأول، تتحدث عن مصير الفريقين الشاكر والكفور وغيرها، كلها تتحدث وتلاحظ أنها حتى تجد فيها: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [الإنسان: ٢٧]، ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]، تجدها حديث مع الكفار والمشركين.

الذين قالوا أنها مدنية وقفوا عند آية تقريبا، قالوا وهي فيها نظر يعني، في قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]،

قالوا هذه نزلت في علي وفاطمة رضي الله عنهما؛ قالوا إنه لما فاطمة رضي الله عنها أعدت الطعام العشاء لها ولزوجها ولأبنائها جاءهم في الليلة الأولى مثل ما قال سبحانه وتعالى-: مسكيناً جاءهم مسكين، ثم الليلة الثانية اليتيم، ثم الليلة الثالثة الأسير؛ فنزلت الآية. نقول: إذا ثبت هذا قد تكون الآية نزلت لكن السورة في مكة وجاءت هذه الآية في المدينة وهذا موجود ممكن، هذا وجه. الوجه الثاني: قد يكون أحياناً وهذا كثير تجدونه في التفسير كثير أنهم ماذا؟ يستدلون بالآية؛ مثل ما يقول النبي صلى الله

عليه وسلم قال: «اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ كَذَا»، هذا استدلال بالآيات ليس معناه أنها نزلت الآن، قد تكون نازلة ولكن يستدل بها.

طيب، هذه السورة مثل ما هو واضح في آياتها هي حديث عن الخلق الأول عن الإنسان، ثم كما قال أحد المعاصرين يقول: «سورة الإنسان تحدثت عن الخلق الماضي والحاضر والمستقبل، كل ذا يتعلق بالإنسان: ماضي وحاضر ومستقبل.

أما الماضي: خلق آدم، لما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، هذا الماضي.

وأما الحاضر: قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، هداية السبيل هذه مستمرة في الحاضر.

وأما المستقبل: لما تحدث سبحانه وتعالى عن يوم القيامة وعن جزاء الفريقين: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الإنسان: ٤]، ثم قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ [الإنسان: ٥]، فتتحدث عن هذا».

والسورة تحدثت حقيقة عن الإنسان، ولذلك سميت بـ (الإنسان). وتكرر فيها، شوف حتى من روابط السورتين: سورة الإنسان وسورة القيامة؛ ذكر الإنسان في سورة القيامة بلفظ (الإنسان) ست مرات، لما جاء في سورة الإنسان ذكر الإنسان مرتين: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَـٰنِ﴾ [الإنسان: ١]، ثم قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَـٰنَ﴾ [الإنسان: ٢]. تجد فيه حديث بين هذا وهذا.

هذه السورة تحدثت عن خلق الإنسان: الخلق الأول وهو آدم ثم ذريته. ثم إن الله لما خلق الخلق لم يهملهم، ما تركهم سدى وضيعهم؛ خلقهم وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وبين لهم الدلائل، ونصب لهم الأدلة، لم يهملهم حتى لا يأتي شخص أو إنسان يقول: والله أنا لا أدري ولا أعمل ولا أعلم عن ذلك شيئ لو أُرسِل إلينا رسول! فأرسل الله الرسل وأتى بالأدلة حتى لا تكون للإنسان حجة على الله بعد الرسل وبعد الأدلة، فبين الله سبحانه وتعالى الأدوية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، بين له الطريق. ثم بين سبحانه وتعالى عاقبة الفريقين من آمن، ولذلك شوف قال: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]؛ فبين مصير الكفور المعرض، وبين مصير الشاكر إلى آخر السورة.

ثم في الأخير تتحدث السورة بأن هذا الكلام الذي تسمعونه وهذه الحقائق التي تسمعونها ليست من

محمد، ولم يأتِ بها محمد من نفسه كما تدعون أنتم تقولون أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً؛ هذا الكلام غير صحيح. ماذا قال الله سبحانه في خاتمتها؟

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣]؛

مصدره من الله، وهذا الكلام هو القرآن صدقتم أم كفرتم هو من عند الله والذي نزله هو القرآن.

ثم جاءت التوجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم:: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤-٢٥]؛

صبر وعدم طاعتهم في شيء أو التنازل أو المداهنة. ثم بعد ذلك قال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٥]، وذِكْر والإكثار من الذكر تفريج كرب، ومثل هذه: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]. الإكثار من... إذا اشتد الأمر وأستعصب الأمر واشتد، فأول ما يهون على ذلك الكثرة من ذكر الله.

ولم يأذن الله سبحانه وتعالى لأي مخلوق أن يترك ذكره، حتى لما جاء في معجزة زكريا أنه قال:

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]؛

بالإشارة فقط، لسانك ما ينطلق مع الناس ما يتكلم، هذه علامة على حمل زوجتك، لكن الذكر لا يتوقف معك، الذكر مستمر:

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١].

ولم يأتِ في القرآن الكريم لو تتدبر القرآن من أول تنظر فيه ما ذكر الله، ما أمر الله سبحانه وتعالى بشيء أمره بالكثرة إلا الذكر: ﴿وَالذَّٰكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]؛ آيات كثيرة تدل على أن الله يأمر بالكثرة في الذكر فقط، وغيره ما يأمر بالكثرة.

حتى شوف من أسباب تفريج الكرب وأسباب إبعاد الهم والغم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم واجه قوماً عتاة صادموا الدعوة وردوها فوجد من الهم والغم، فجاءت التوجيهات: اصبر، واذكر اسم ربك، ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ [الإنسان: ٢٦]، الصلاة تزيل الهموم وتبعدها، ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]،

وهكذا تأتي السورة بتوجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم وللأمة كلها، ليس للنبي فقط، كل من سلك مسلك طريق النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة يأخذ بهذه التوجيهات، يأخذ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ

أَدْعُوَا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاوَمَنِ اتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨]؛

لا يتوقف الإنسان يقول: أنا لست داعياً ولست مؤهلاً! تدعو على قدر استطاعتك حتى لو تدعو في بيتك، المهم أنك لا تتخلى عن الدعوة، هذا منصب عظيم أن تكون داعية إلى الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

طيب، الوقت يمشي معنا، لكن نأخذ شيئاً قليلاً من بدايات السورة ثم نكملها إن شاء الله في لقاءات قادمة. يقول الله سبحانه وتعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

نأخذها كلمة؛ هذه «هَلْ» أتى، «هَلْ» هذه ماذا تسمى؟ استفهامية. هل هي على وجهها ولا خرجت عن وجهها؟ الأصل الاستفهام، الأصل كلمة الاستفهام لما تقول: كم؟ أو هل حضر زيد؟ تطلب حقيقة الاستفهام، يعني أعطني الجواب. هنا هل هو ينتظر الجواب؟ نقول: لا؛ إذاً هي خرجت عن معناها الحقيقي إلى معنى آخر، وهذه من بلاغة القرآن أنه يستعمل أحياناً الأمر وأحياناً الاستفهام وأحياناً التعجب؛ يعني أساليب كثيرة في القرآن لها معانٍ أصلية وأحياناً تخرج عن معناها.

فهنا أهل التفسير يقولون: الاستفهام هنا يفيد التقرير، لما يأتي بأسلوب الاستفهام يجذب السامع؛ لما أقول لك: «هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَٰنِ» تقول: نعم أتى على الإنسان، فتجيب. هذا المقصود من أسلوب القرآن لما يأتي بهذا الأسلوب، أسلوب الاستفهام ليجذب ويحرك ذهن الذي أمامك وأنت تسأله وهو يعرف الجواب والجواب موجود. فقوله هنا: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَٰنِ﴾ معناه هذا الاستفهام يفيد التقرير؛ أي قد أتى على الإنسان، قد حصل هذا الشيء.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]؛ نعم، متى؟ لما خلق الله آدم أولاً أتى دهر وزمان طويل وآدم غير موجود ولم يخلق أبداً، ثم قال الله: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]،

بعد ذلك. ثم إن الله سبحانه وتعالى لما خلق آدم وهو ستون ذراعاً؛ يعني ما يقارب كم الحين في الأمتار؟ تقريباً ثلاثين متر، طويل، ستون ذراعاً. لما خلقه الله سبحانه وتعالى كان ملقى على الأرض لا

روح فيه لا يتحرك، جثة هامدة مدة من الزمن؛ حتى قال بعضهم أنه مكث أربعين، وبعضهم قال سبع سنوات، اختلفوا في ذلك، لكن العلم عند الله ما نستطيع أن نقول إلا إذا دل الدليل؛ لأن هذا شيء غيبي ما نستطيع نجزم بتحديد السنين إلا بالدليل والنص، أما كلام هذا الذي ينقل الله أعلم بذاك.

لكن هم ماذا؟ وقفوا عند كلمة (حِينٌ)، (حِينٌ) هذه تطلق أحياناً على السنة، تطلق على السبع سنوات، تطلق على أربعين؛ يعني «حين» هذا زمان. لما يقول: ﴿لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]، سبع سنوات. لما يقول: ﴿تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٥]، كل سنة. ما تستطيع أن تجزم كلمة «حين» أنها كذا أو كذا، فهو حين قال مفتوحة الله أعلم، نقول هو زمن الله أعلم به، هذا أحسن ما يقال فيه.

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَٰنِ﴾ ما المراد بالإنسان هنا؟ نقول: آدم؛ لأنك سيأتيك الآن الإنسان الثاني هو ذرية آدم.

طيب، قال: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ أي من الزمن. والدهر أحياناً حتى الدهر يطلق أحياناً على السنة، وأحياناً يطلق على المدة الطويلة، الدهر أحياناً يطلق على الحياة كلها. النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ»؛ يعني السنة.

فهل هذا سنة؟ الله أعلم.

طيب، ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]؛ يعني إما قبل خلقه لم يكن شيئاً مذكوراً، أو قبل النفخ فيه ما يتحرك جثة هامدة.

ثم سبحانه وتعالى لما أخبر هذا الخبر الذي لا يعلمه الخلق عن آدم بدأ بعد ذلك في ذرية آدم، فقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ﴾ [الإنسان: ٢].

والمراد بالإنسان هنا ذرية آدم، أبناء آدم أو ذريته.

طيب، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ آدم لم يخلق من نطفة، خلق من تراب، والتراب تحول إلى طين، والطين تحول إلى حماء مسنون، ثم تحول إلى صلصال وهو اليابس، هكذا. أما ذريته فمن الماء المهين، من النطفة وهي الماء المهين.

قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]؛ يقول هذه النطفة نطفة أمشاج أخلاط

مختلطة. كيف مختلطة؟ قال بعضهم هي اختلاط ماء الرجل مع البويضة أو ماء الرجل مع ماء المرأة يختلط في الرحم فيخلق الله منه. وقيل لا، النطفة هذه التي في الإنسان ويقذفها الإنسان في رحم المرأة هي أصلها مكونة من أمشاج، من أخلاط مكونة من أخلاط؛ يعني الله سبحانه وتعالى كونها وهي في الإنسان قبل أن تخرج من الإنسان، قبل أن تخرج هي مكونة من أشياء عجيبة، مكونات عظيمة قبل أن تخرج، ليست هي مجرد ماء أو ليست هي شيء بقايا في الإنسان، لا؛ هي أعدها الله سبحانه وتعالى لتكون للذرية، فإعدادها قبل ذلك كان معداً بأخلاط من الطعام الذي يأكل الإنسان، ومن الذي يكون في الإنسان، والدم وغيره الذي تفرزه الكبد وغيرها، ثم تتكون هذه النطفة، ثم هذه النطفة فيها حياة تخرج.

فقال: ﴿أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]؛ كلمة (نَّبْتَلِيهِ) هنا ليبين لك أن خلق الإنسان إنما خلق وأخرج لهذه الدنيا للابتلاء، كما قال سبحانه وتعالى:

﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ﴾ [الملك: ٢].

الحياة ابتلاء، تبلى بأي شيء بالشر ولا بالخير؟ كليهما: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِالْحَسَنَٰتِ وَالسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

سليمان عليه السلام يقول: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]؛

لما أعطاه الله الملك والخير والنعمة قال ليبلوني، ابتلاء أأشكر أم أكفر. فنبتليه في هذه الدنيا؛ منهم الشاكر ومنهم الكافر، ولذلك قال: (نَّبْتَلِيهِ).

ثم مَنَّ عليه بمنة عظيمة، قال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢].

ليش قدم السمع قبل البصر دائماً في القرآن؟ إن السمع والبصر كثير في القرآن يقدم السمع، لأهميته؛ الإنسان لما يفقد البصر يمشي في الحياة بل قد يكون عالماً كبيراً، بل يقود أمة وهو لا يبصر، لكن السمع صعب جداً لا يستطيع التعلم إلا بالأجهزة التي قد تكون تنفع قد لا تنفع، لا يستطيع أن يتعلم، لا يستطيع أن يجلس في المجالس مع الناس؛ يعني فقد السمع أشد، وأهمية السمع لأن السمع يلتقط أشياء أكثر من النظر. قد الإنسان يغمض عينيه في بعض الأوقات، السمع ما تغمض أذنيك. البصر وضع في الأمام لينظر الذي أمامه فقط ما ينظر خلفه، السمع لا؛ يلتقط الذي أمام والخلف والجوانب، حكمة الخالق سبحانه وتعالى.

قال: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]؛ يعني هذا الإنسان جعله الله يسمع ويبصر، ولكن هاتين الآلتين ينبغي للإنسان أن يعرف قدرها من حيث الشكر ويستعملها في طاعة الله؛ لا يسمع إلا ما أحل الله، ولا يبصر إلا ما أحل الله، فإن: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالانسان يحاسب على سمعه وعلى بصره؛ العين تزني وزناها النظر، فلا ينظر الإنسان إلى الأشياء المحرمة، ككثير من الناس يتساهل خاصة في أجهزة الجوال يفتح أشياء محرمة وينظر إلى صور إباحية ويقول: أنا ما قصدي النظر! كيف ما قصدك وأنت فاتح عليها؟! وتأتي موسيقى يقول: أنا ما قصدي موسيقى! لا، قصدك الموسيقى، حتى لو ما قصدت طهر سمعك وابتعد عنها ولا تتساهل.

ولذلك الإنسان أحياناً أول ما ينظر يقشعر جلده ويزيل الصورة هذه ويبعدها، ثم المرة الثانية والثالثة والرابعة ثم الخامسة -نسأل الله العافية- يجلس يتلذذ، يصاب بهذا المرض، هذا مرض خطير جداً. ولذلك يذكر عن بعض السلف أنه يقول: نظرت نظرة محرمة فنسيت القرآن! يعني يحرم أشياء بسبب المعاصي. تجد الحين بعضهم محروم من قيام الليل، ومحروم من قراءة القرآن والتلذذ بالقراءة، محروم من التلذذ بالصلاة والخشوع فيها؛ يصلي ويخرج ما يدري ماذا قال! أشياء كثيرة يحرم من الذكر، يحرم من... تضيع أوقاته بدون فائدة، يجلس على هذه الأجهزة ساعات طويلة بدون فائدة، والله لو يسأله تقول له: ماذا استفدت من جلستك على هذه الأجهزة وعلى هذه المواقع؟ قال: والله ما استفدت شيء إلا كلام فاضي بدون فائدة!

فأحياناً يوفق الإنسان لفعل الخيرات ويوفق للطاعات بسبب ماذا؟ بسبب حفظ لسانه، حفظ سمعه، حفظ بصره، فلم يخلق الله هذه الأشياء حتى تستعملها في معصيته، وإنما تستعملها في طاعته.

ولذلك شوف قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣].

الهداية هنا معناها الدلالة والإرشاد؛ هديناه السبيل يعني كل الإنسان، كل الخلق، كل بني آدم الله هداهم السبيل، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]؛

هداه الله طريق الخير والشر، فمنهم من يسلك طريق الخير، ومنهم من يسلك طريق الشر. فالله بين لهم قال هذا حلال وهذا حرام، ومن سلك الحلال سلم ونجا، ومن سلك الحرام هلك، فأمامك طريقان.

فلذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ﴾؛ يعني أَرشَدْنَاهُ وَدَلَلْنَاهُ، أتينا بالأدلة سواء بإرسال الرسل،

أو إنزال الكتب، أو نصب الأدلة أمامك؛ الأدلة أمامك أدلة التوحيد أمامك واضحة، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

قدم الشاكر لأنه هو المطلوب، وأخر الكفور لأنه الذي ينبغي البعد عنه أن لا تتصف بأن تكون كفوراً. ولاحظ أنه لما جاء عند (شَاكِرً) و(كَفُور)؛ (شَاكِرً) اسم فاعل أقل، (كَفُور) صيغة مبالغة أشد؛ فكفور أشد من الشاكر. لماذا؟ لأن قليل من الناس الشاكر، الشكر صعب: ﴿اعْمَلُوٓا ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]،

ولذلك جاء (شَاكِرًا)، أما الكفور فكثرة، كثرة ويزيد في كفره فلذلك جاء بوصف بصيغة المبالغة (كَفُورًا).

طيب، بعد ذلك تتحدث الآيات عن مصير الكفار وعن مصير الأبرار؛ يعني الشاكر والكفور. ولاحظ أنه قال بدا بالشاكر ثم عطف عليه الكفور ثم ذكر لك مصير... المفترض في الترتيب: شاكر ثم كفور، ثم مصير الشاكر ثم مصير الكفور، هكذا الترتيب، لكنه عكس غير هذا؛ هذا يسمونه عند أهل البلاغة يسمى أسلوب (اللف والنشر)؛ يلف لك الأول ثم ينشر لك الثاني، يعني يغير، يلف الأول ثم ينشر الثاني، وهذا يعتمد على فهم الإنسان وإدراكه، يعني أن هذه الأشياء لا يستطيع أن يستوعبها إلا الذي فاهم بلاغة القرآن وإلا بعضهم ما يدري.

فالآن ستتحدث الآيات عن أي شيء؟ عن مصير الشاكر ومصير الكفور. لا نطيل ونقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما بينا، ونسأل الله أن ينفعنا بالعلم النافع والعمل الصالح.

والحقيقة أيها الإخوة مثل هذه المجالس والله بركة عظيمة حقيقةً؛ تجلس تستمع كلام الله سبحانه وتعالى ويبين لك ويوضح، هذا فضل عظيم وتوفيق من الله؛ من يجلس هذا المجلس هذا بتوفيق من الله سبحانه وتعالى وتيسير، ويسأل الله أن يثبته وأن يزيده. نسأل الله أن يثبتنا جميعاً وأن يزيدنا، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، وأن يختم لنا بخير، والله الموفق الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الإنسان ٤ - ١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المتجدد الأسبوعي من كل يوم ثلاثاء بعد صلاة العصر، وهذا اليوم يوافق الثلاثين من شهر صفر من عام ١٤٤٦ من الهجرة. نسأل الله أن يجعل هذا الاجتماع اجتماعاً مرحوماً، وأن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يتقبل منا سائر أعمالنا. نجلس هذا المجلس المبارك مع كتاب الله سبحانه وتعالى وآيات من كتابه نقرؤها ونبين معانيها ونتدبر ما فيها من أحكام وتوجيهات.

السورة التي بين أيدينا وقد تحدثنا عنها في لقائنا الماضي هي سورة (الإنسان)، وتسمى أيضاً بـ(سورة الدهر)، وتسمى أيضاً بـ(سورة هل أتى). هذه السورة -مثل ما ذكرنا- تتحدث عن الإنسان؛ عن خلقه الأول، وعن حاله الآن في الدنيا، وعن مصيره بعد موته. هذه هي السورة بشكل عام؛ واضح عن خلق الإنسان الأول، سواء قلنا خلق أبينا آدم عليه السلام، أو خلق ذريته ونشأتهم في بطون أمهاتهم، ثم عن حياتهم في الدنيا كيف يعيش مع ربه، ثم بعد موته أين يذهب. هذه السورة إذا قُرِئَتْ قراءة تدبر، تأمل، تفكر؛ وجدت هذه الأشياء واضحة جداً. يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

هذا آدم، لما خلقه الله سبحانه وتعالى بقي ملقى على الأرض سنين طويلة، كم سنة؟ قال الله عز وجل: ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ﴾ [الإنسان: ١]، الله أعلم بعدد السنين، وبعض المفسرين يقول إنه بقي أربعين سنة والعلم عند الله سبحانه وتعالى، ﴿حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ لا يُذكر، ولا حتى نُفِخَ فيه فتحرك.

طيب، ثم قال سبحانه وتعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الإنسان: ٢]؛

هذه ذريته؛ هو خُلِقَ من تراب، ثم طين، ثم حَمَإٍ مسنون، ثم صَلْصَالٍ كالفخار، هذه الأطوار التي مر بها آدم عليه السلام. أما ذريته، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، والنطفة هي الماء المهين الذي يُقْذَفُ في الأرحام، نطفة ماء قليل جداً مهين. قال: ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

(أَمْشَاجٍ) يعني أخلاط؛ قد تكون أخلاط بين نطفة الرجل والمرأة، أو بين البويضة والنطفة، أو أخلاط تعود إلى النطفة ذاتها؛ يعني النطفة لا تخرج هكذا، وإنما تتكون من أشياء، يعني تتكون منها ثم تخرج. قال سبحانه وتعالى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾، والابتلاء الِامْتِحَانُ؛ يُبْتَلَى الإنسان في هذه الدنيا إذا خرج من بطن أمه عاش بين ابتلاءات عظيمة، والابتلاء قد يكون في الخير وقد يكون في الشر؛ فإذا ابتُلِيَ بالخير شكر ربه سبحانه وتعالى، وإذا ابتُلِيَ بالشر صبر؛ إذا ابتُلِيَ ببلاء الشر يصبر. «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ».

قال: ﴿نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]. الله سبحانه خلقه وأعطاه الآلات؛ أعطاه آلة السمع يسمع فلا يستعمل هذه الآلة إلا في طاعة الله، وأعطاه آلة البصر يبصر فلا يبصر إلا فيما هو في طاعة الله سبحانه وتعالى، وأعطاه أيضاً آلة اللسان فلا يتكلم إلا بالخير ويعرض عن الشر ويمسك لسانه عن الشر، وأعطاه أيضاً نعمة القلب، والقلب يتأثر بما تتأثر به هذه الآلات؛ آلة السمع والبصر واللسان، كل هذه تتحول إلى القلب فتؤثر في القلب؛ فإن سمع كلاماً وموعظة تأثر القلب، وإن سمع شيئاً غير ذلك يقسو القلب، وهكذا؛ سَمِعَ أو أَبْصَرَ أو تَكَلَّمَ، كل هذا يؤثر في القلب.

طيب، قال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]،

الآن في الدنيا؛ عرفنا الخلق الأول، هذه المرحلة الأولى، المرحلة الثانية مرحلة الدنيا؛ الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ولم يتركه سدى ولم يتركه هملاً، هداه إلى طريق الخير والشر، والهداية هنا المراد بها الدلالة والبيان والتوضيح؛ لم يتركه يضيع وإنما بين له طريق الخير حتى يسلكه ويسير عليه، وبين له طريق الشر حتى ينتبه ولا يسير معه. ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]؛ طريق الخير والشر. والله سبحانه وتعالى أرسل الرسل، أنزل الكتب، أَوْحَى إلى أنبيائه، جعل لكل إنسان أدلة يعرف فيها، نَصَبَ الأدلة بين السماوات والأرض؛ آيات الله في الكون واضحة تدل على أنه واحد: (وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ)

فلا يُعْذَرُ الإنسان يقول: والله أنا ما أدري أنا ما أعرف! أعطاك العقل، أعطاك السمع، أعطاك البصر، أرسل إليك الرسل، أنزل إليك الكتب، خلاص ما عاد لك أي معاذير، ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٥]؛ شوف تجد الترابط بين السورتين! لم يتركه سدى، ولا يسمح له أن يلقي معاذيره، كل هذه لا تُقْبَلُ

منه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا﴾؛ فليحمد الله عز وجل على هذه النعمة إذا كان شاكراً، يشكر الله ويعرف حق الله عليه وشكر الله، ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]؛ كَفَرَ نعمة الله وأعرض عن طاعة ربه. وهذا طريق؛ هذا طريق الخير وطريق الشر، وهذه نتيجة: من يسلك طريق الخير يكون شاكراً، ومن يسلك طريق الشر يكون كفوراً. وتلاحظ الفرق بين كلمة (شَاكِر) وبكلمة (كَفُوَر)؛ ف (شَاكِر) يسميها أهل اللغة اسم فاعل: (شَاكِر)، والشكور أعظم وابلغ؛ ولذلك من أسماء الله الشكور، من أسماء الله (الشَّكُور). و(كَفُورًا) لو قال: كَافِرًا اسم فاعل ما قال كَفُورًا، دَلَّ على صيغة المبالغة؛ أن الكفر كثير، وأن أهل الكفر كثير، وأن الإنسان يكثر من كُفْرَانِ نِعْمَةِ رَبِّهِ.

ولذلك لاحظ لما قال: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، بَيَّنَ مَآلَهُ في الآخرة. الآن عرفنا خلقه الأول، عرفنا في الحياة ما بين شاكر، أنت الآن تعيش في هذه الدنيا وتشوف الناس أمامك، ترى الناس أمامك ما بين شاكر وبين كافر، ما بين شاكر وكافر؛ لا يخرج بين هذا وهذا؛ يا عاصٍي لربه يا مطيع.

قال سبحانه وتعالى بعد ذلك؛ ذكر الله عز وجل مَآلَ الناس في الآخرة، فبدأ بالكفار، بدأ بالكفار مع أنه بدأ بالشاكر ثم الكفور، ثم عطف عليه مآل الكفور ثم مآل الشاكر، لماذا؟ لأنه اختصر الكلام في مآل الكافر، أعطاه اختصاراً، ثم بعد ذلك تكلم سبحانه وتعالى بكلام طويل مسهب في عاقبة المتقين وعاقبة الأبرار.

طيب، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا وَأَغْلَالا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]،

وهذا يسميه علماء البلاغة يعني يسمى بـ(اللف والنشر)؛ أنه يلف الكلام أول شيء يختصره ثم ينشره، هذا معنى اللف والنشر، فهو لَفَّ الكلام؛ يعني اختصر لك، قال لك: شاكر أو كفور، ثم بَسَطَ لك الكلام فقال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾.

﴿أَعْتَدْنَا﴾ من العُدَّة؛ يعني من العُدَّة لتجهيز الشيء، أَعَدَّ الشيء؛ جَهَّزَهُ. يقول: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾ الموصوفين بالكفر، الذين سلكوا طريق الكفر والشقاوة. ما هي النتيجة؟ قال: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا وَأَغْلَالا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، باختصار؛ يعني يوم القيامة هؤلاء الكفار ينتظرون هذه الأشياء.

السلاسل أين تكون؟ قال: في الأقدام. طيب والأغلال؟ قال: أغلال؛ أن تُغَلَّ الأيدي إلى العنق وتُشَدَّ في عنقه، تُشَدَّ في عنقه. قال سبحانه وتعالى في سورة أخرى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَالسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]؛

تُغَلُّ الأيدي في الأعناق ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَالسَّلَٰسِلُ﴾ في الأقدام ﴿يُسْحَبُونَ﴾ ما يمشون، ما يمشون! يُسْحَبُونَ في النار، ثم يُسْجَرُونَ في نار جهنم، ثم في النار يُسْجَرُونَ، نسأل الله العافية! هذا طريق الشقاوة؛ في الدنيا شَقِيٌّ وفي الآخرة أَشْقَى وأَعْمَى وأَشَدُّ ضَلَالًا. هذه نتيجة الإعراض، نتيجة البعد عن طاعة الله، وقد الله سبحانه وتعالى أقام الحجج عليهم، ليس لهم حجة يوم القيامة يقول والله لا ما جاءنا من بشير ما عرفنا ما ندري؛ كل هذا شيء قد أوضحه الله سبحانه وتعالى وقطع المعاذير عليهم: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا وَأَغْلَالا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]. هذه الآية تكفيك، هذه آية رادعة لكل من يقع في المعاصي أن يخاف خوفاً يرتدع القلب، يَرْعَدُ القلب من هذه الأشياء.

قال سبحانه وتعالى في مَآلِ أهل الطاعة، أهل الكرامة على الله، أهل الخير، القانتين، القائمين، الصائمين، الصالحين، المحبين للخير، المتصدقين، الذين لا يتركون باباً من أبواب الخير إلا ودخلوه؛ هؤلاء الذين وُفِّقُوا بتوفيق الله سبحانه وتعالى. اسمع ماذا أَعَدَّ الله لهم، قال:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥].

قِفْ عند هذه الآية وتأملها، وانظر في نفسك هل أنت منهم ولا لا؟ يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾؛ من هم الأبرار؟ الأبرار جمع بَرٍّ أو جمع بَارٍّ، والبَرُّ أو البَارُّ هو المكثر من الخير، الذي لا يترك باب من أبواب الخير إلا وقد سلكه ودخل فيه؛ لا يقصر في شيء، ولا يجده الله في معصيته، ولا يفقده في طاعته، مسارعاً في طاعة الله؛ أَبْرَارٌ، بَرٌّ. والبَرُّ أصله السعة؛ البر هو المكان الواسع، يعني الأبرار يعني أهل البِرِّ، أهل الطاعات الكثيرة التي لا تُحَدُّ بِحَدٍّ.

ولذلك من أسماء الله (الْبَرُّ): ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨]؛ البر الذي عطاؤه لا يُحَدُّ بِحَدٍّ، هذا معنى البر، والله من أسمائه البر. وأنت تكون بَارّاً أي مسارعاً في طاعة الله؛ ولذلك يسمى من يحسن إلى والديه الإحسان العظيم يسمى بَارّاً بوالديه، بَارٌّ بكثرة الأعمال أو كثرة الإحسان إلى الوالدين.

في القرآن يرد (الأَبْرَار) ويرد أحياناً (البَرَرَة)؛ هل هناك فرق ولا كلها واحد ما في فرق؟ قال بعض

أهل العلم: إن (البَرَرَة) أعظم وأشد؛ ولذلك وُصِفَ به ماذا؟ الملائكة: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦].

وأما المتقون فوُصِفُوا بـ (الأَبْرَار).

طيب، إذا وقفت عند كلمة (الأَبْرَار) تأملها واسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلك الله منهم، وجعلك الله، وسارع وأكثر حتى تكون في زمرة هؤلاء وفي زمرة هؤلاء.

قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ [الإنسان: ٥]، دائماً هذه قاعدة عند أهل التفسير وينبغي أن نفهمها جميعاً ونعرفها: إذا جاءك الفعل المضارع في القرآن فاعلم أنه يدل على الاستمرار وعدم الانقطاع؛ يعني لما يقول لك مثلاً: يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ يعني ما ينقطعون، يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ما يقفون، وهكذا. هنا يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾؛ كيف يشربون؟ يعني ما ينقطع عنهم هذا الشيء، في الجنة ما ينقطع مستمر، غير ممنون، غير مقطوع.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]؛ يعني عندما نبين بعض الآيات لا بد أن نفهم منهج القرآن، طريقة القرآن، لغة القرآن، لغة العرب. الآن لما يقول لك: ﴿مِن كَأْسٍ﴾، الكأس ما هو هنا؟ هو يقول: ﴿مِن كَأْسٍ﴾، ما حدد لك عصير ولا لبن ولا ماء ولا خمر ولا عسل ولا ماذا! نقول: يقول كأس، طيب وش الكأس هنا؟ نقول: المراد بالكأس هنا الخمر؛ لا غير، ما يدخل فيه غيره، لو كان غير الخمر ما يسمى كأس، وهذه لغة العرب؛ ما يطلقون كلمة الكأس إلا على الخمر؛ لما يقول العربي: «أَعْطِنِي كَأْس يعني خمراً. أما إذا كان فارغاً ما فيه شيء يسمى إناءً، أو كان فيه غير الخمر كالماء أو اللبن يسمى إناءً أو يسمى يعني قَدَح، أو القدح قدح اللبن ونحوه هذا ممكن، أما كأس لا؛ الكأس مثل قوله تعالى:

قال تعالى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ [الطور: ٢٣]؛ هذا خمر. و﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٤]؛ كأساً هنا، كل الآيات كل ما ورد في القرآن كلمة (كَأْس) المراد بها الخمر، حتى نفهم لغة القرآن.

يقول: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ [الإنسان: ٥]، (مِنْ) هنا قال بعض أهل العلم إنها تبعيضية، وبعضهم يقول إنها بيانية أو ابتدائية، كلها الله أعلم بذلك.

قال: شوف، ﴿مِن كَأْسٍ﴾، وأنت دائماً حتى تفهم القرآن، تتدبر القرآن؛ ليس المعنى أنك تأخذ

المعنى العام وتمشي، لا، قِفْ مع كل... شوف كل حرف، كل كلمة لها معنى في القرآن؛ لو تشيل الحرف هذا وتبدله بحرف آخر ما يمشي، لو تريد أن تسقطه ما يستقيم الكلام. شوف: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾؛ شوف كلمة (إِنَّ) تفيد التوكيد، ﴿يَشْرَبُونَ﴾ عرفنا أنها تفيد الاستمرار، ﴿مِن كَأْسٍ﴾ يعني إما تبعيضه أو بيانية. طيب، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾؛ طيب لو شلنا (كَانَ) وقلنا: (إن الأبرار يشربون من كأس مزاجها كافوراً) تمشي ما تمشي؟ تمشي: (إن الأبرار يشربون من كأس مزاجها كافوراً) الكأس ممزوجة بالكافور، يمشي! الله ماذا قال؟ ﴿كَانَ﴾، إذن (كَانَ) لها وقع، لها مكان. كيف نعرف؟ لو... شوف لما يقول لك، شوف عشان تعرف لغة القرآن ولغة العرب، لما يقول لك: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا﴾ [الإنسان: ٥] دَلَّ على أن ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أن هذه الكأس، كأس الخمر، ممزوجة من قبل؛ لأنك يقال لك: (كَانَ) الماضي؛ يعني ممزوجة ومستمر معها هذا المزج، لكن لما تقول مثلاً بدون (كَانَ)، تقول: (إن الأبرار يشربون من كأس مزاجها) يمكن مُزِجَتْ الآن! فشوف اللغة العربية كيف يعني تختلف (كَانَ) عن لو رفعتها أو أبقيتها، تجد الفرق كبيراً، فالقرآن جاء على درجات اللغة والبلاغة العربية.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾؛ قال: (مِزَاجُهَا) يعني مخلوطة، تُخْلَطُ، تُخْلَطُ بأي شيء؟ قال: تُخْلَطُ الخمر في الجنة بالكافور. ما هو الكافور؟ قال: الكافور هو نبت شجر نبت، وهو نبت أو نوع من الطيب، ولونه أبيض، ورائحته رائحة قوية زكية وشديدة؛ ولذلك يُخْلَطُ بالخمر، ولا يخلطه في... عند العرب إلا أكابر العرب؛ يعني مو عند الناس كلهم، على درجات، أعلى الناس الذين لهم مستوى عالٍ يخلطونه بالكافور. الكافور غالٍ فلا يجدونه فيخلطونه، إذا خلطوه بالكافور الكافور طعمه... فيه برودة فيخفف من الخمر؛ ولذلك تجد في أشعار العرب، في أشعارهم وفيما ينقل عنهم أنهم يخلطون الخمر بالكافور.

دائماً أيها الإخوة نحتاج إلى تنبيه لها وهي: كل ما يُذْكَرُ في القرآن من نعيم الجنة ليس بينه وبين الدنيا إلا الاسم فقط؛ فرق كبير! لا تتصور أن الخمر تذهب بالعقل، تجعل الإنسان يسكر ويصبح كالمجنون؛ لا، خمر الجنة لذيذ ولا يذهب بالعقول، ولذلك يختلف عن... لا تتصور حتى الكافور، أنت تتصور الكافور أنه أبيض وأنه لونه ورائحته، في الجنة غير؛ «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، وإنما موجود الأسماء، كما قال ابن عباس يقول: «لَيْسَ فِي الجَنَّةِ مِمَّا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الأَسْمَاءُ»؛ إذا قال رمان أو

نخل أو تمر الأسماء فقط، أما الحقائق لا تختلف، لا تتصور أبداً.

فقوله هنا الأبرار، والخمر خمر الجنة، من نعيم الجنة. ولاحظ أن الله سبحانه وتعالى بدأ بأي شيء من نعيمهم؟ بالشراب، والشراب الذي هم يعشقونه؛ يعني شوف الأعشى معروف وهو شاعر من شعراء العرب وصاحب معلقة من المعلقات، لما جاء في السنة السادسة أو السابعة وهو يسمع النبي صلى الله عليه وسلم جاء ليسلم فقابله من قابله، فقالوا: إن محمد يحرم الزنا، كيف تروح؟ قال: الزنا قد كَبِرْتُ، لا ما لي حاجة في الزنا. قالوا: يحرم الخمر! قال: هَا، الخمر؟! قالوا: إيه. قال: لا، عندي مَزَادَةٌ في البيت أروح أكملها ثم آتي وأسلم، فَرَجَعَ ومَاتَ!

فالشاهد من الكلام محبتهم للخمر، لا يمكن أن يتنازلوا؛ ولذلك الخمر ما أتى تحريمه هكذا مباشرة مثل الزنا ولا الشرك وذا، لا؛ أتى... يعني كل الفترة المكية والخمر لم يُحَرَّم، ثلاث عشرة سنة حتى في المدينة لم يُحَرَّم، وجاء تحريمه متدرجاً:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]؛

فقط، ثم جاء التحريم المؤقت وقت الصلاة:

﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]،

ثم جاء التحريم النهائي:

﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

فَمَرَّ بمراحل لأن العرب كانوا متمسكين جداً بالخمر لا يمكن أن يتنازلوا عنه، لذلك جعل الله من أعظم نعيم الجنة هذا الشراب، الشراب المتنوع الذي منه الخمر؛ ولذلك بدأ ابتدأ الله به؛ لأن يعني أول ما يقبل الإنسان في المناسبات وفي الاحتفالات يبدأون بالشراب تتهيأ النفوس للشراب، وكذلك لأن الناس يخرجون من قبورهم عِطَاشاً، فأول ما يجدون أن ذلك ما يروي غليلهم.

قال هنا؛ شوف قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، عرفنا الكافور.

قال سبحانه وتعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

ما هي العين هذه؟ هل هي الخمر، ولا الكافور، ولا ممكن تكون هي الجميع؟ ممكن؛ هذا كله ذكره

أهل التفسير. قالوا: ﴿عَيْنًا﴾، قالوا: الكافور هي عين؛ لأنه قال: ﴿مِزَاجُهَا كَافُورًا عَيْنًا﴾، أو يكون الخمر عين تنبع ويُشْرَبُ منها يُشْرَبُ منها. وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في سور أخرى عن الخمر، قال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَٰمُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٥-٢٦]؛

مسك، طيب، وهنا قال: كافور. وقال أيضاً في السورة، نفس السورة قال: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨]، والتسنيم يعني مرتفعة كالسنام ينزل منها الماء.

طيب، هنا يقول: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]. شوف جاءنا الفعل ما هو؟ ﴿يَشْرَبُ﴾ مضارع، ﴿يَشْرَبُ﴾ يعني ما ينقطعون، شوف النعيم! هذا أعلى درجات النعيم؛ ﴿يَشْرَبُ﴾ ما قال شربوا وانتهوا، لا؛ ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾. طيب قال: الأبرار، كيف قال مرة ثانية عباد الله؟ يعني ما قال: عين يشرب بها الأبرار! قال: لا، تنويع؛ لأن الأبرار هم عباد الله، وهنا تكريم لهم؛ لأنه أضافهم إليه تشريف وتكريم: أنتم عباد الله أعطيناكم ما يرضيكم، ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾.

﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾؛ كيف يشرب بها؟ يعني يشرب بالعين؟ يأخذ العين يشرب بها؟! العين ليست إناءً حتى تأخذ وتشرب بها، كيف يشرب بها؟ ولذلك أهل التفسير قالوا: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي يشرب منها؛ يعني الباء معناها (مِنْ)؛ يشرب منها. وبعضهم يقول: لا، خَلِّ الحرف على ما هو عليه لا تغير، (يَشْرَبُ) يُضَمَّنُ معنى (يَرْوِي)؛ يَرْوِي بها، يعني يروون بها، ترويهم هذا رأي وهذا رأي. وأكثرهم على أن الحروف تبقى على ما هي ما تُغَيَّرُ، حرف الحرف الذي استعمله العرب بكذا يبقى بكذا، لا تقول يشرب يعني يشرب منها وتغير، لا، خَلِّهَا على ما هي عليه.

طيب، قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]. شلون يفجرون العين؟ العين منفجرة، كيف يفجرونها؟ قال: يجرونها إلى ما يشاؤون؛ إلى روضاتهم الخضراء، إلى خيامهم، إلى قصورهم، إلى غرفهم، يفجرونها يذهبون بها إلى أي مكان، تأتي معهم تأتي معهم، ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾. شوف جاء فعل وجاء مصدر: (تَفْجِيرًا)؛ يعني لا حد له، تنطلق معهم حيث شاؤوا حيث شاؤوا، هذا من أعلى النعيم، مع أنه لا؛ تأتي إلى العين تجلس تنتظر يجيك الدور يعطونك كأس تشرب! هذه مملة، في الجنة ما في هذه الأشياء؛ هذه هي تأخذها حيث شئت، ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

ثم ذكر سبحانه وتعالى أعمالهم الصالحة التي يجب عليك أنت الآن أن تقف عند هذه الأعمال وترى،

يعني وتتصور نفسك هل أنت فعلاً يعني وُفِّقْتَ لهذه الأعمال أو لا؟ طيب، نأخذ الأعمال يعني ولا نطيل فيها إن شاء الله، قال سبحانه وتعالى أعمالهم في الدنيا ما هي؟ قال أولاً:

﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧]؛

يوفون بالنذر؛ إذا نذروا لله يوفون. طيب، إذا كان أنهم يوفون بالنَّذْرِ، والمراد بالنذر أنك تنذر لله؛ أن تقول: عليَّ إن حصل كذا وكذا أن أصوم، أو إن شَفَى الله مريضي أن أفعل كذا، أو إن الله أعطاني كذا أن أفعل كذا؛ تُوجِبُ على نفسك شيئاً لم يُوجِبْهُ الله عليك. ولذلك كَرِهَ كثير من أهل العلم النذر، قالوا: لا تُوجِبْ شيئاً ما أوجبه الله عليك، قد لا تستطيع. لكن هؤلاء مَدَحَهُمُ الله أنهم إن نذروا أنهم يوفون بنذورهم.

طيب، الآن أنت خَلِّنَا مع هذه الآية: النذر الآن إذا كان هم يوفون بالنذور التي هم أوجبوها على أنفسهم ما أوجبها الله عليهم، فكيف بالأشياء التي أوجبها الله عليهم؟! من باب أولى! إذا كان هو يقول: أنا والله أنا والله قلت عليَّ نذر أن أصوم من كل شهر ثلاثة أيام، واستمر يستمر يوفي بنذره، كل ما دخل شهر صام ثلاثة أيام، هذا يُعْتَبَرُ أنه وَفَى بنذره. طيب، وإذا كان الله أوجب عليك أعمالاً وعبادات واجبة كالصلاة والزكاة والصيام والحج وغيره، هذا من باب أولى أن يبادر، أن يبادر بالمسارعة في تحقيق هذه الأشياء وتطبيقها في حياته؛ فلذلك قال: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، هذه في أعمالهم.

طيب، ثم قال: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

يخافون يوماً، يوماً ما هو نَكَّرَهُ الله لشدته وعظمه قال: يوماً، هذا اليوم هو يوم القيامة. قال: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾؛ شوف، شره على أهل الشر وليس على أهل الخير؛ يوم القيامة على أهل الخير خير، أما على أهل الشر شر، وإن كان هو في ذاته يعني يوماً عظيماً، لكنه فيه قال: ﴿شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾. كلمة (مُسْتَطِيرًا)؛ شوف، السين والتاء هذه كلها تعتبر زوائد، مثل ما تقول: مستقيمة، أصلها من القيام من القيم أو القيام أو نحوه. مستطيرة أصلها من كلمة (طَارَ يَطِيرُ) إذا اتسع، وإذا اتسع الشيء تقول: طار الغبار علينا، طار الكذا علينا؛ إذا كان الشيء قد سيطر عليك واتسع وليس لك أي سلطة عليه تقول: طار الشيء علينا. فهنا لما يقول الله عز وجل في هذا اليوم وهو يوم القيامة: ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]؛ يعني الشر قد تبدد فيه واتسع وعَمَّ وَطَمَّ، هذا معناه؛ أصبح هذا اليوم طامة، طامة عليهم.

فهُم من صفاتهم الوفاء بالنذور، والقيام بالواجبات والفرائض. ومن صفاتهم خوفهم من الوقوف بين يدي الله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛

خوفهم والوقوف، وهذا الذي دعاهم، كل ما تتفكر في اليوم الآخر وتخاف الوقوف بين يدي الله هذا يجعلك تسارع في الطاعات.

قال: ومن أعمالهم الصالحة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

يُطْعِمُونَ الطعام، يُطْعِمُونَ كثير، صدقاتهم كثيرة جداً، صدقاتهم وإطعامهم الطعام. شوف، نرجع مرة ثانية للفعل المضارع: ﴿يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾؛ ما يطعم مرة مرتين ثم ينقطع سنة سنتين، لا؛ هذا كل ما وَجَدَ، لو في اليوم الواحد، لو في اليوم الواحد يجد أكثر من طريق في إطعام ما وقف عنده لسارع فيه. ﴿يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾؛ على محبته ورغبة فيه، يتركه ويطعم غيره؛ يعني ليس زائداً عنده يقول: والله هذا باقي من الطعام نصرفه، ولا والله نشتري الطعام ونحط جزء منه صدقات، لا؛ هذا يقول: ما عندي إلا هذا الطعام الذي سآكله، أنا مشفق عليه، ثم يأخذه ويتصدق به ويجلس طاوي البطن! هذا معناه ﴿يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾؛ على محبة له وشفقة عليه، ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾.

يطعمون مَنْ؟ يطعمون لا يطعمون بيت واحد أو بيتين أو شخص أو شخصين أو صفة أو صفتين، لا؛ إن وجدوا مسكيناً، قال: ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. قد يطعمهم كلهم في لحظة في وقت واحد أو ينوع، فهؤلاء كلهم بحاجة، والصدقة تقع في مكانها؛ إن كان مسكيناً وقعت في مكانها، أو يتيماً، أو أسيراً. والأسير الذي حُبِسَ سواء في ديار المسلمين أو في ديار الكفار، كل من يكون أسيراً. قال: مسكيناً، ويتيماً؛ من فقد والده، أو من فقد والده أو والديه ولم يبلغوا الحلم، هذا هو اليتيم.

شوف، يطعمون وبعد ذلك يذكرون أنفسهم أنهم يطعمون لله ولا يريدون شيئاً من الدنيا أبداً؛ نطعم ونعطي ونتصدق ولا نريد من أحد أبداً ثناءً ولا شكراً ولا شيء. شوف، قال:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

هذا حكاية حالهم، هم ما يقولون هذا الكلام للفقير؛ يقول: أنت يا فقير أعطيناك مبلغ ترى نطعمك لوجه الله! لا، ما يقولون هذا؛ يقولونه في حال في حال نفسه، لسان الحال: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩]. تجد بعض الناس قد يقع من بعض الناس إذا راح للفقير

وأعطاه مالاً، قال: الله يسلمك هذا المال وأعطيتك إياه وساعدتك، لا تنسي تدعو لي! هذا خطأ، لا تقول: لا تنسي تدعو لي، اتركه، أعطه المال، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾؛ لا تقول ادعو لي ولا شيء، أو تقول: والله أنا عندي بنت تعبانة أباك تدعو لها، أو ولد، أو نحو ذلك، أو كذا؛ لا لا، أعطِي الفقير حقه من المال ولا تتكلم معه بهذا الشيء، أو تعيد عليه تجد بعض الناس يَمُنُّ عليه: وترى العام... أنا العام الماضي أعطيتك كذا، وترى أعطيتك كذا، وترى سويت كذا! كل هذه تفسد النية، ف ﴿لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً﴾ أن تجازوننا بشيء.

شوف، تجد حتى بعض الناس إذا أعطى الفقير، يقول: تصدق إني لي سنين وأنا أعطيه وأتصدق عليه وقابلني في الشارع ما سلم عليَّ ولا تكلم ولا قال ولا كلمة ولا سلم ولا قال ولا يشكرني ولا يذكرني بشيء! أنت تعطيه عشان يشكرك أو عشان يسلم عليك؟! لا، تعطيه لوجه الله. شوف: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

طيب، قال: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠].

شُوف، عاد مرة ثانية إلى هذا اليوم العظيم الشديد: ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾؛ يعني يعملون الصالحات ويخافون يشفقون، ﴿نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ من الله سبحانه وتعالى الذي خلقهم ربهم، ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾. اليوم ما يكون عبوس ولا قمطرير، أهله هم الذين يصيبهم هذا الشيء من هذا اليوم. قال: ﴿عَبُوسًا﴾؛ تعبس الوجوه، تكفهر الوجوه، تسود الوجوه، هذا معنى العبوس. والقمطرير الشديد العظيم الذي يعني لا يستطيع الإنسان أن يبقى فيه.

شوف، لما يقول لك واحد: طيب، يعني الآية التي قبلها قال: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، طيب ليش يعيد مرة ثانية: ﴿إِنَّا نَخَافُ﴾؟! يكفي الأول! نقول: لا، أنت تدبر وتأمل عشان تعرف؛ شوف ذكر بعدها أمر متعلق بها، شوف: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، النتيجة ما هي لما خافوا؟

قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١]؛

سَلَّمَهُمُ الله؛ فوقاهم الله شر ذلك اليوم، هذا الشر المستطير أولاً وقاهم إياه، الذي لِذِكْرِ الأول شر... شوف، شر ذلك اليوم الذي قال الله فيه الشر: ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ وقاهم الله، حتى يبين لك أن

الإعادة هذه ما جاءت هكذا عبثاً، رداً على الأول أن الله وقاهم الشر هذا اليوم.

طيب والثاني العبوس القمطرير؟ شوف قال: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً﴾، العبوس في الوجه؛ العبوس سواد الوجه وتغير الوجه وكون الوجه كالح، هنا قال: لا؛ ﴿نَضْرَةً﴾، ﴿نَضْرَةً﴾ يعني الوجه فيه البهجة وفيه والابتسامة وفيه... يعني الوجه وجه تجد أن فيه السرور والسعادة والراحة، مقابل ماذا؟ العبوس. ثم قال: ﴿نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] مقابل القمطرير؛ الشديد مرة صعب، قابله الله بالسرور وانشراح الصدر والطمأنينة.

طيب، لا نطيل عليكم، الكلام في نعيم أهل الجنة لا ينتهي، ونعيم أهل الجنة لا ينتهي، ليس فقط الكلام فيه؛ نعيم الجنة لا ينتهي والكلام فيه لا ينتهي. والنفوس كلنا جميعاً -يعني- تتشوف وترتاح إلى أن تُذْكَرَ مثل هذه الأشياء، والإنسان يدعو ربه أن يكون في زمرة هؤلاء، وأن لا يحرمنا الله سبحانه وتعالى هذا النعيم العظيم. كلام طويل نقف عند هذه الآية إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الإنسان ١٢ - ٢٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للسابع من شهر ربيع الأول من عام ١٤٤٦ للهجرة، نجلس هذا المجلس المبارك مع كتاب الله وكلام الله، أعظم وأشرف وأحسن كلام على الإطلاق، نستمع لهذه الآيات الكريمات ونبين ما فيها من توجيهات وأخبار ودلائل.

سورة (الإنسان) وقد تحدثنا عنها في لقائنا الماضي؛ ما هي هذه السورة وعما تتحدث ومتى نزلت. ووقف الحديث عند ما أخبر الله سبحانه وتعالى بعلمه الغيب عمّا أعدّه سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين الأبرار.

قال الله سبحانه وتعالى في استكمال ما ذكره، حيث استطردت الآيات وأطالت الحديث عن نعيم أهل الجنة، قال سبحانه وتعالى:

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾[الإنسان: ١٢].

لما تقف عند كلمة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾، دل على أن الدنيا تحتاج وأن الأعمال الصالحة تحتاج إلى صبر ومثابرة وثبات. والصبر كما ذكر أهل التفسير وأهل العلم الصبر على ثلاثة أنواع:

١. أن تصبر على طاعة الله وتستقيم وتستمر؛ لأن تقبل ثم تدبر أو تضعف النفس تحتاج إلى صبر واستمرار ودفع بقوة: الصبر على طاعة الله.

٢. الصبر عن معاصي الله؛ كل ما وجدت طريقاً إلى معصية وخطوة من خطوات الشيطان تصرف وتصبر وتتحمل، هذه شهوات ولذات يعني سريع ما تذهب.

٣. وتصبر على ما قدره الله سبحانه وتعالى من أقدار، وتعلم أن المؤمن ما قدره الله هو خير له مهما كان، وإن كان ظاهره قد يكون شراً إلا أنه خير، ما يصيب المؤمن من مصيبة إلا كانت خيراً له إلا كانت خيراً له.

فيصبر على الطاعة، يصبر عن المعصية، يصبر على أقدار الله.

قال: ﴿وَجَزَاهُم﴾؛ هذا الجزاء العظيم الكبير، جازاهم بأي شيء؟ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾؛ بسبب صبرهم جازاهم الله هذا الجزاء. وتجد الصبر كثيراً ما يذكر في القرآن الكريم، حتى قال أهل العلم: منزلة الصبر في الدين مثل منزلة الرأس في الجسد؛ لو قطع هذا الرأس الجسد ما عاد فيه حركة ما عاد فيه، فإذا ذهب الصبر ذهب دينك، فعليك أن تتحمل، وهذه نتيجة الصبر: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾.

جنة نعيمها لا ينفد، جنة لا يكاد الإنسان يصفها، فيها «**مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»؛ مهما تصور أنت الآن في ذهنك، كل ما تتصور على خلاف ذلك. وشوف لاحظ أنه قال: (جَنَّةً) هكذا نكرة، والتنكير كما قال أهل العلم التنكير يفيد التعظيم، يفيد التعظيم؛ جنة، جنة عظيمة. مثل ما لو أقول لك الآن: أنا قد أعددت لك قصراً؛ قصر، إيش معنى هذا الكلام؟ يعني قصر عظيم ما يمكن أن تتخيله. فقوله هنا: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، حتى (وحريراً) نكرة تفيد حرير لا يمكن أن تصفه، حرير الجنة غير حرير الدنيا، أو حرير الدنيا غير حرير الجنة، لا يمكن.

والله سبحانه وتعالى يخبر عن المكان واللباس؛ مكانهم واستقرار مكانهم واستقرارهم جنات النعيم، ولباسهم فيها حرير.

قال بعدها، لما ذكر المكان واللباس، ذكر حالهم فقال:

﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

حالهم ماذا؟ أنهم في طمأنينة، وأي طمأنينة وراحة! أي راحة واستقرار! استقرار وأمن، أي أمن! إذا وجدت الإنسان جالس وجلسته على اتكاء دل على الارتياح والطمأنينة والراحة والأمن، أما إذا جلس جلسة ليس فيها اتكاء تجده على يعني على قلق ما يستطيع أن يجلس أكثر من كذا. فتجده قال سبحانه وتعالى: ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا﴾؛ أي في الجنة، ﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ﴾، والأرائك هي السرر؛ السرر المبطنة المزينة بالأقمشة ونحوها. حتى ذكر بعض أهل العلم قال: الأرائك، الأريكة هي السرير الذي يجلس عليه ويكون يجلس عليه أكثر من واحد؛ يعني الذي يجلس عليه واحد هذا يسمى كرسي، إذا كان ممتداً يأخذ أكثر من شخص يسمى أريكة. وذكر بعضهم أن الأريكة قد تكون مظللة من الأعلى بالقماش والزخرفة التامة، وهذه إذا كانت ممتدة تكون أجمل وأحسن وأقرب للتلاقي والجلوس ولقاء الأحبة عليها، أما إذا

كان كل واحد على مكان خاص ما يكون مثل هذا الشيء. ولذلك قال الله: ﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ﴾؛ متكئين فيها على الأرائك في طمأنينة وراحة.

أما الجو فالجو من أحسن الأجواء، ما هو؟ قال: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾؛ يعني أوصاف تعطيك تشجعك على أنك تقبل على طاعة الله، تسأل الله بالليل والنهار في سجودك، في كل أوقات الدعوات المستجابة أن تدعو الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ».

شوف قال: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ تؤذيهم بحرارتها، ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ يؤلمهم بشدة البرد، فهم في جو معتدل؛ لا حر ولا برد.

قال: وخذ من أوصافهم وخذ من حالهم أيضاً، قال:

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

يعني ظلال الأشجار، ظل الأشجار قريب دانية، وهذا أجمل وأحسن إذا رأيت هذه الأشجار متدلية عليهم وهم في هذه المجالس الطيبة وقد ارتاحت أنفسهم واستقرت. قال: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾؛ الأشجار وورق الشجر والأغصان متدلية عليهم وقريبة منهم.

قال: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾؛ شوف ذُلِّلَت القطوف، الثمار ما يجنيه الإنسان، مذللة لك يعني مسخرة لك. شوف قال: ﴿ذُلِّلَتْ ... تَذْلِيلًا﴾، دائماً المصدر إذا جاء قال: ذُلِّلَتْ تَذْلِيل يدل على الإطلاق، يسمونه مفعولاً مطلق على الإطلاق؛ يعني قريب جداً. قال ذُلِّلَتْ؛ يعني يستطيع أن يقطف القائم والجالس، القاعد والمضطجع، كلها قريبة؛ يعني في راحة ونعيم لا تتصوره! الله يصور لك هذا الشيء ويقرب لك الصورة. قال: وهم جالسون والثمار عندهم ويأكلون وفي راحة وطمأنينة، وبعضهم ينظر إلى بعض ﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥]، ويتحدث بعضهم مع بعض.

إذا أكل الإنسان يشرب يحتاج إلى الشراب، وقال سبحانه وتعالى:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ [الإنسان: ١٥].

يقول: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾، لم يخبر من الذي يطوف؛ جاء في آيات أخرى وفي هذه السورة نفسها جاء أن يطوف عليهم غلمان شباب، وفي آية أخرى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧]، وهم

الخدم، الخدم الذين يقومون بخدمة أهل الجنة هم بهذه الصورة، وهم الولدان أو الغلمان.

قال: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾، الأواني فيها الأطعمة كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، معروفة الصحاف جمع صحفة وهي الإناء الذي يوضع فيه الطعام، وهنا قال: ﴿بِآنِيَةٍ﴾، والآنية جمع إناء. قال: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾، هذه الجنة أوانيها من فضة، وكذلك كما سيأتينا أيضاً أواني الأشربة أو الكؤوس من فضة.

قال: ﴿بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾، والأكواب هي ما لا عرى لها، الكأس المعروف الكوب الذي يشرب به. قال: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ من فضة أيضاً؛ شوف قال: ﴿بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ من فضة، وهذه الأكواب التي من فضة ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾. والقوارير المراد بالقوارير الزجاج، لكنها هي من فضة ليست من زجاج، فهي في بياضها من فضة وفي شفافيتها كأنها زجاجة يرى ما بداخلها، يرى الرائي ما بداخلها كأنها إذا رأيت كأنها زجاجة.

قال: ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦] بين لك حتى لا يذهب تفكيرك أو نظرك إلى أنها زجاج؛ الزجاج يتكسر، والفضة أجمل وأغلى وأفضل. قال: ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦]. من الذي قدرها؟ إما الذي قدرها الذي يسقي وهم الولدان، أو قدرها الذين يشربونها، هذا يحتمل هذا ويحتمل هذا. كيف الذي يسقي؟ أنت الآن إذا جاءك ضيوف وقام هذا الساقي الذي يصب أو الصباب أو نحوه، يعرف كيف يصب للرجال ويقدر تقديراً، وأنت تأخذ الفنجال أو نحوه بتقدير وترى أنه يعرف يقدر هذا الشيء، كان هذا أجمل وأفضل لتقدير الحاضرين، هذا من وجه. أو أنهم هم يشربون بشيء يقدر لهم تقدير بحيث إنهم يرويهم؛ يعني هم يأخذون ما يكفيهم، يأخذون ما يكفيهم، فهؤلاء يقدرون لهم وهم يقدرون لأنفسهم، كلها صحيحة. قال: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

طيب لما يذكر الله هنا من فضة في الأواني وكذلك الأكواب من فضة، ويذكر في مواضع أخرى في القرآن من ذهب، كيف نجمع؟ هل هي من فضة أو من ذهب؟ للمفسرين عدة أقوال:

- بعضهم يقول: هم يطاف عليهم بالأواني والصحاف مرة بصحاف من ذهب، ومرة تأتيهم الأواني من فضة؛ مرة كذا ومرة كذا، وهذا أكمل في النعيم.
- وقيل لا؛ هي تأتيهم في وقت واحد، في وقت واحد تأتي الصحاف من ذهب ومن فضة في وقت

واحد تدار عليهم، والكؤوس نفس الشيء تدار عليهم ذهب وفضة، وهذا أكمل أيضاً لما تتنوع أمامك الأواني في وقت واحد، أو تأتي هذه وتذهب هذه، كل هذا عليه بعض المفسرين.

- وهناك من يقول لا؛ إن هذه السورة هي تتحدث عن نعيم الأبرار، نعيم الأبرار ونعيم الأبرار يختلف عن نعيم المقربين؛ فالمقربون أعلى درجة، السابقون أولئك المقربون، هؤلاء المقربون لهم الذهب، واما الأبرار فلهم الفضة. حتى لما في الشرب قال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧]، وفي الأول قال: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥]، هذه الخمر التي تمزج هي للأبرار، واما التي تكون خمراً صرفاً فهي للمقربين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨]؛ هي العين الصرف التي ليس فيها مزج من شيء آخر، هذا رأي ذكره ابن كثير.

وهناك الرأي الذي عليه كثير من المفسرين هي التنوع؛ يتنوع للأبرار وللمقربين، لكن المقربين أعلى بلا شك أعلى درجة، والعلم عند الله.

قال سبحانه: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧].

هذه مرت الآية مثلها، لما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] وعرفنا الكافور. الآن هنا الزنجبيل قال: ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾، ومثل ما ذكرنا الفعل المضارع يفيد الاستمرار ما ينقطع، قال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾، وعرفنا الكأس ما هو؛ كأس الخمر، قيل كأس في القرآن فهو الخمر لا ينصرف إلى غيره. قال: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾؛ يعني خُلِطَ بالزنجبيل. والزنجبيل معروف عند العرب وكانت العرب تستخدمه في الخمر إذا جاؤوا يشربون، وخاصة أهل الثراء من العرب يخلطونه، فيخلطونه تارة يخلطونه بالزنجبيل وتارة يخلطونه بالكافور. الكافور يخلطونه لأنه بارد، والزنجبيل يخلطونه لأنه فيه حرارة فيه لذعة، فتارة يفعلون هذا وتارة يفعلون هذا فأخبر الله.

ولكن مثل ما ذكرنا كثيراً نعيم الجنة يختلف عن نعيم ما في الدنيا؛ ليس في الجنة من الدنيا إلا الأسماء فقط، لما يقال لك زنجبيل اسمه فقط، أما حقيقته ما يمكن تتصوره، حقيقة غائبة دائماً في جميع هذه الأشياء. لما يقال لك صحاف، الصحفة غير صحفة الدنيا التي من خشب ونحوه، صحاف من ذهب

وفضة، وكيفيتها وحقيقتها هذه لا يعلمها إلا الله، فيها «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

قال سبحانه وتعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨].

يقول: فيها عين يشرب بها عباد الله، مثل ما ذكر قال سبحانه وتعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦]. قال هنا: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾، هذا اسمها على قول بعض المفسرين؛ يقول هذا اسمها، عين اسمها (سَلْسَبِيل)، عين السلسبيل، مثل ما قال: ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧] عين، وهذه أسماء عرفت بها هذه العيون، فقال: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾. وقال بعضهم: سميت سلسبيلاً أصلها من السلسب السريع؛ يعني الشرب الخفيف الشرب الذي لا يجد صاحبه معه نوع من الشدة أو الغصة ونحو ذلك، وإنما سهل الشرب سلسبيل سهل الانحدار لا يجد أثراً معه.

قال سبحانه وتعالى في أيضاً وصف النعيم، ولا تزال الآيات تستمر في وصف نعيم أصحاب الجنة وأهل الجنة:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

هم يعني مثل ما ذكر يطاف عليهم بالأواني وبالأكواب ويسقون الخمر الممزوج بالزنجبيل، وكذلك زيادة على ذلك هؤلاء الولدان المخلدون. قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾؛ يعني كثرة الولدان وانتشارهم، هذا يعطي وهذا يأخذ وهذا يعطي وهذا يأخذ، كثرة بهذا السن المناسب. قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾، ما معنى مخلدون؟ يحتمل أن معنى مخلدون: مخلدون في السن، سنهم واحد، ومخلدون أنهم لا تزيد أعمارهم يبقون على ما هم عليه، وهذا أجمل وأفضل. وقيل مخلدون: أي قد وضعت الأقراط في آذانهم الخروص، الأقراط وضعت في آذانهم، وهذا ذكر بعض أهل التفسير يقول هذا إذا كان على الغلمان وعلى الولدان وهم يطوفون بهذا الشكل بهذا الجمال؛ لأن الله وصفهم بأحسن الجمال، فقال: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

شوف تشبيه دقيق: لؤلؤاً ومنثوراً، ما وجه التشبيه؟ قال: لانتشارهم؛ اللؤلؤ المنثور إذا نثرته تفرق هنا وهناك وهنا، فهم يقول لانتشارهم وكثرتهم كأنهم لؤلؤ منثور، هذا من وجه. ومن وجه آخر: جمالهم؛ اللؤلؤ إذا نثر في الأرض وهو لؤلؤ بجماله ونظرته يعطي جمالاً أكثر، فهم بانتشارهم بهذه الصورة. يقول

بعض أهل التفسير: إذا كان الولدان الذين هم خدم بهذه الصورة من الجمال، فكيف بالمخدومين من أهل الجنة؟! فكيف بأهل الجنة؟! بلا شك أنهم أعظم جمالاً. ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

قال: إذا رأيت يقول أنت إذا رأيت هؤلاء الغلمان وهؤلاء الولدان شيء عجيب ما تتصوره، فكيف إذا رأيت ما هو أعظم وأعظم؟ ما هو؟ قال:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

(ثَمَّ) معناها هناك ظرفية، وإذا رأيت هناك ماذا رأيت؟ قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ يقول ترى شيئاً نعيم عظيم، وملكا كبيراً إذا رأيت نعيماً. شوف (نعيماً) نكرة في سياق ماذا؟ في سياق الشرط، تفيد العموم؛ يعني نعيماً عاماً لا يكاد يوصف، نعيماً عظيماً ونكرة. قال: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾؛ يعني ملك عظيم، الله سبحانه وتعالى يملكهم القصور، ويملكهم الجواري، ويملكهم النساء، ويملكهم الروضات الخضراء، ويملكهم أملاكاً عظيمة أملاكاً عظيمة ومساكن عظيمة. قال: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

وقرأ بعضهم قال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ الجنة، ﴿وَمَلِكًا كَبِيرًا﴾ وهو الله عز وجل، وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم على هذه القراءة: ﴿وَمَلِكًا كَبِيرًا﴾.

قال سبحانه وتعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

شوف قال: ﴿عَالِيَهُمْ﴾، هل تدري ما الفرق بين (عليهم) و(عَالِيَهُمْ) ولا نفسها؟ ليش الله عز وجل قال ﴿عَالِيَهُمْ﴾ ما قال (عليهم)؟ عليهم ثياب، ليش ما قال عليهم ثياب، قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ﴾؟ قالوا: هذا لما يقول لك ﴿عَالِيَهُمْ﴾ هذه الثياب التي تكون ثياب جمال والأبهة التي يلبسها الملوك مثل المشالح ونحوها، هذه تكون فوق الملابس فتكون عالية عليهم، ولذلك الملوك في الدنيا يلبسون مثل هذه الأشياء لاستقبال الضيوف واستقبال الناس بهذه الأشياء، فتكون عاليهم، تكون ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾.

ما هو السندس وما هو الاستبرق؟ خُضْرٌ معروف هو اللون الأخضر، واختيار الله لأهل الجنة للون الأخضر لأنه يعطي جمال أكثر ويريح النظر؛ ولذلك الذي ينظر إلى الخضرة والرياض والأشجار والمزارع

يعطي راحة للنظر، فلذلك اختار الله هذا من وجه. حتى ذكر بعض المفسرين أن الملوك في الدنيا عند العرب كانوا يلبسون اللون الأخضر كثير ما يلبسون اللون الأخضر يعطي جمال، فلذلك اختار الله سبحانه وتعالى لأهل الجنة هذه الثياب قال خضر.

السندس هو الحرير، والاستبرق هو الحرير، وأعظم ما يلبسه أهل الجنة الحرير، لكن السندس قيل إنه الحرير الرقيق، والاستبرق الحرير الغليظ، وهم يلبسون الحرير سواء كان رقيقاً أو غليظاً يعطون هذا وهذا، فهذا أكمل في الجمال.

قال: هذا اللباس، وزيادة على اللباس قال: ﴿وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، الأساور جمع سوار والسوار يوضع في الساعد في الأيدي، فيها السوارات فيها الأسورة أو الأساور. قال: ﴿وَحُلُّوٓا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، وهذا يؤيد من يقول إن هذا نعيم الأبرار؛ لأنه ذكر سبحانه وتعالى الأواني من فضة والأكواب من فضة والأساور من فضة، مع أن في آية أخرى قال: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الحج: ٢٣]، وهنا قال: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾.

قال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، طيب مرة الشراب أكثر من مرة ليش قال هنا مرة: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾؟ هذا يعني مثل الختام لهذا الشيء، وأنت تلاحظ أحياناً في استقبال الضيوف تبدأ بهم بالقهوة أو نحوها أو العصير وتختم ذلك بمثل هذا، فتختم بذلك، فلذلك ختم نعيمهم قال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾؛ يعني الله سبحانه وتعالى أمر الخدم أن يسقوهم، وهذا لما يقول ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دليل الاهتمام والحرص عليهم، ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾؛ شراباً من أشربة الجنة من الخمر ونحوه طهوراً، أو نقول هو خمر لأنه من أعظم نعيم الجنة، ولكنه خمر لا يسكر ولا يذهب بالعقل، لماذا؟ لأنه طهور؛ طهور يطهر البدن ولا يذهب بالعقل أو يصيب البدن بما يصيبه من خمر الدنيا، خمر الدنيا يذهب بالعقل ويصيبه بالأمراض، أما الجنة فخمرها قال: ﴿طَهُورًا﴾.

قال الله سبحانه وتعالى في خاتمة هذا النعيم، قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

يقول: هذا جزاء من الله وفضل من الله سبحانه وتعالى، وسعيكم الذي سعيتموه في الدنيا وجدتم أثره وجدتم أثره، مثل ما ذكرنا في أول الكلام: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ [الإنسان: ١٢]، وهنا قال: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾؛ أي أعمالكم في الدنيا ﴿مَّشْكُورًا﴾؛ شكر الله لكم سعيكم شكر الله لكم سعيكم فأثابكم هذا

النعيم.

طيب، إلى هنا ينتهي الحديث عن نعيم الجنة المذكور في هذه السورة، وقد أخذت آيات كثيرة وأخذت مساحة كبيرة من السورة في هذا النعيم. بعدها تأتي التعقيبات التي دائماً الله سبحانه وتعالى يذكرها عندما يذكر قصة من قصص القرآن يتعقبها، لما يذكر نعيماً أو عذاباً يتعقبه حتى تكون هذه التعقيبات فيها توجيهات ربانية للناس يستفيدون منها ويعرفون، ولذلك تجد فيها: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٤]، ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٥]، كلها تعقيبات تدل على أن الإنسان يحرص ويكثر من الطاعات.

طيب، نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما تبقى من السورة، ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الإنسان ٢٢ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا المجلس المبارك. أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح. هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر من شهر ربيع الأول من عام ١٤٤٦ من الهجرة. نجلس هذا المجلس المبارك ونسأل الله سبحانه وتعالى ألا يحرمنا فضل هذه المجالس المباركة مع القرآن الكريم الذي بإذن الله تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة وتنزل عليه السكينة ويذكر الله الحاضرين في هذا المجلس عنده بالملأ الأعلى.

الآيات التي بين أيدينا وهي ما نستكمل به هذه السورة العظيمة الجليلة القدر؛ وهي سورة (الإنسان) التي جلسنا معها جلسات مباركة، نستكمل ما يختم الله به هذه السورة. ومثل ما ذكرنا لكم: هذه السورة تحدثت عن الإنسان وسميت بـ(سورة الإنسان) لأنها تتحدث عن الخلق الأول للإنسان وأن الله خلق آدم وبقي مدة من الدهر لا روح فيه ثم نفخ فيه الروح، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى الإنسان في هذه الدنيا لما خلقه من نطفة أمشاج ثم جعله إما شاكراً أو كفوراً في هذه الدنيا، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى مصير هذا الإنسان في الآخرة وذكر أهل الشقاوة وأهل السعادة؛ الأشقياء والسعداء.

فلما ذكر يعني ذكر الله سبحانه وتعالى ما أعده لأهل الشقاوة في قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا وَأَغْلَالا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]،

ذكر ما أعده لأهل السعادة وهم الأبرار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ [الإنسان: ٥]،

إلى آخر ما ذكره؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى أطال الكلام في نعيم أهل الجنة. ثم سبحانه وتعالى يختم هذه الآيات بقوله تعالى:: ﴿إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]؛ أي أيها المتقون، أيها الأبرار، إن هذا المذكور في هذه الآيات كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً.

لاحظ لما تقرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ دل على أن الجزاء من الله وأنه فضل ومنة وتفضل منه سبحانه وتعالى بأن وفق عبده المؤمن في الدنيا للعمل الصالح، ثم وفقه بأن يختم له بخير وأن يكون نعيمه في الجنة أو مآله في الجنة بهذا النعيم العظيم.

ثم أشار سبحانه وتعالى أن هذا بما يقدم الإنسان: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وأن الأعمال سبب؛ الأعمال سبب للفوز بجنات النعيم، وإن كان دخول الجنة بفضل من الله سبحانه وتعالى ورحمة ومنة، فلذلك قال: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

قال سبحانه وتعالى مقرراً أن هذه الحقائق التي يذكرها لنا حقائق لا نشك فيها ولا نردها ولا نتردد في قبولها، بل هي حق من الله سبحانه وتعالى، ورداً على هؤلاء المنكرين من المشركين وغيرهم الذين كذبوا بهذه الآيات وقالوا إنها افتراء على الله وكذب، رد الله عليهم تثبيتاً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم في مواجهة هؤلاء، فقال سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣].

شوف جملة قوية جداً في الرد على من ينكر مثل هذه الحقائق والرد على المشركين الذين كانوا يكذبون النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾. شوف الأوجه البلاغية الدقيقة في أسلوب هذه الآية: (إِنَّا) التوكيد بإن والجملة الاسمية، ثم مجيء (نَحْنُ) وهو ما يسمى بـ (ضمير الفصل) للتأكيد؛ إنا نحن لا غيرنا، إنا نحن لا غيرنا، (نَزَّلْنَا) والفعل نزل يدل على التأكيد والقوة؛ نزلنا عليك القرآن تنزيلاً، ومجيء المصدر (تَنزِيلًا) تأكيداً على حقيقة الأمر، على حقيقة الأمر.

فشوف كيف أكد الله بهذه الجملة أن هذا القرآن منزل ولم يقل نزله أحد، قال: نحن نزلنا، نحن، الذي تولى تنزيله هو الله، الذي تكلم به هو الله، والذي تولى تنزيله على صدر النبي صلى الله عليه وسلم هو الله؛ نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً. وسماه قرآن حتى لا يشك فيه أنه قرآن من عند الله.

ثم سبحانه وتعالى بين موقف النبي صلى الله عليه وسلم أو توجيه النبي وإرشاده في مثل هذه المواقف الشديدة التي يواجهها صلى الله عليه وسلم، كيف يواجهها؟ قال أولاً:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

يقول: اصبر في مواجهة هؤلاء، اصبر في دعوتك وتحمل في نشر هذه الدعوة وما تواجهه وتلاقيه من هؤلاء ينبغي أن تقابله بالصبر، على مثل هؤلاء، على سفاهة عقولهم، قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا﴾، وآثماً كثير الإثم، كثير المعاصي، كثير الذنوب، ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي جحوداً لما أنزله الله، جحوداً لدعوة ربه، جحوداً لرسالة الله.

لاحظ قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، لو قال: (ولا تطع منهم آثماً وكفوراً) هل يكون هناك فرق ولا المعنى واحد؟ يعني لما يقول: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، (أَوْ) هذه للتخيير، لكن لو قال بالواو: (ولا تطع منهم آثماً وكفوراً) هل يختلف أو لا يختلف؟ لا شك أن اختيار القرآن بمجيء (أَوْ) لا شك أنها جاءت في مكانها؛ يعني لو قال مثلاً: (ولا تطع منهم آثماً وكفوراً) يعني إذا اجتمعوا اثنين لا تطعهم، ولكن إذا افترق واحد عن الثاني أطعه! شايف الفرق؟ لكن لما يقول لك: ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ يعني مهما كان هذا أو هذا لا تطع منهم من هذا النوع ولا من هذا النوع.

أعطيك مثال أوضح: لو قيل لك مثلاً: ائذن لزيد وخالد، ائذن لهما معناه أنك تأذن لهما في وقت واحد، لكن لو جاء واحد ما تأذن له، بخلاف لما تقول: ائذن لزيد أو خالد، معناها أن الإذن يتوجه للاثنين جميعاً.

فعبارة القرآن واضحة في اختيار حتى الحروف فيها دقة في الاختيار لا تأتي هكذا عبثاً، لا، وإنما اختيارها في مكانها. فلما قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾، من كان آثماً صاحب آثام عظيمة أو حتى كان كفوراً جحوداً لطاعة ربه وجحوداً لرسالة ربه لا تطع لا هذا ولا هذا، دعهم جميعاً واتركهم.

قال أيضاً من أسباب الثبات ومواجهة مثل هؤلاء بعد الصبر وعدم طاعتهم والتنازل مع التنازل لهم، قال سبحانه وتعالى:

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]؛

أكثر من ذكر الله، وخاصة في أول النهار وآخره: بكرة أول النهار، وأصيلاً آخر النهار. وليس معناه أنك تذكر الله في أول النهار وفي آخر النهار وبقية النهار لا تذكر الله! لا، معناه يعني هذه شوف عبارة دقيقة جداً؛ لما يقول لك: اذكروا الله أول النهار وآخره معناه أنه يشتمل كل الوقت.

الآن لو أقول لك مثلاً: لك هذه القطعة من الأرض من هذا المكان إلى هذا المكان، هذه القطعة لك من هنا إلى هنا، هل معناها أطراف ولا جميعها؟ الجميع. فمعنى هنا لما يقول لك: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ يعني كل الأوقات، لكن هذين الوقتين ليكن يعني ذكرك لربك أكثر وأكثر. لماذا؟ لماذا وقت الصباح ووقت المساء؟ للتغير، التغير الذي يحصل في دخول الليل وذهاب النهار في المساء، أو مجيء النهار وذهاب الليل في الصباح، هذا التغير العظيم يدل على أن وراء هذا إلهاً عظيماً مدبراً متصرفاً، فأنت تذكر الله عند تغير هذه الأشياء حتى تثبت وحدانية الله وتتذكر انفراده بالخلق والتدبير: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

ثم قال سبحانه وتعالى: لما معروف أن بكرة وأصيلاً هو النهار، والليل قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾، لا يفوتك الليل إذا كنت النهار تشتغل بالذكر، حتى ذكر بعض أهل العلم أن الذكر هنا الذكر باللسان والأوراد والذكر بالصلاة، والصلاة داخلة هنا، وسيأتينا الآن هل هي هذه الآية أو هذه الآية وما بعدها تشتمل على الصلوات الخمس أو لا، الآن يأتيك:

يقول: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ [الإنسان: ٢٦]؛

يعني صلي له صلاة كثيرة، وعبر عن الصلاة بالسجود، لماذا؟ لأن السجود ركن من أركانها. أحياناً يعبر بالصلاة بذكر الصلاة ذاتها، وأحياناً يعبر بالركوع، والناس يستعملون يقول: اركع ركعتين، أو إذا فعل كذا فليركع يعني ليصلي، وهنا قال: ﴿فَاسْجُدْ﴾ يعني ليصلي، والسجود هو أهمها وأعظمها.

قال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ﴾؛ عظمه، والتسبيح معناه التنزيه والتعظيم،

قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]؛

يعني لتكون صلاتك صلاة مشتملة على الذكر واستحضار عظيمة الله واستحضار ما تقرؤه أنت من الآيات، وليكن تسبيحك تسبيحاً طويلاً ليس تصلي ركعة ركعتين في عشر دقائق أو... لا، ليكون لك وقت طويل في صلاتك.

شوف هذه الآية مثل ما ذكرنا، قال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، قال أهل العلم: بكرة صلاة الفجر، وأصيلاً الظهر والعصر؛ لأن الظهر تجمع مع العصر. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ المغرب والعشاء، فدلت هذه الآية على فرضية الصلوات الخمس، مثل قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] يعني الظهر والعصر، دلوك الشمس يعني زوالها، ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] هذا المغرب والعشاء، ثم قال بعدها: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أصبحت خمس صلوات، وغيرها في آيات كثيرة دلت على الصلوات الخمس.

طيب قال هنا: لما بين وجه الله سبحانه وتعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بهذه التوجيهات: الصبر، وعدم طاعة هؤلاء، وذكر اسم الله سبحانه وتعالى والذكر، والإكثار من الذكر والصلاة التي هي من أقوى أسباب إزالة الهم والغم، قال سبحانه وتعالى بعد هذا التوجيه، وهذا التوجيه ليس لمحمد صلى

الله عليه وسلم فقط، لمحمد ولمن يتبع محمد على طريقته: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]؛

وكلنا مخاطبون بهذا، أنك إذا جاءك شيء من الأمور العصيبة الشديدة في مواجهة الحياة أن تصبر، وأن لا تتنازل عن شيء من دينك، وأن تذكر اسم الله كثيراً، وتكثر من الذكر، وتكثر من الصلاة، هذا هو، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة.

طيب، قال سبحانه وتعالى في التهوين من حال هؤلاء حتى لا يلتفت إليهم وحتى لا يغتم بهم، قال:

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ [الإنسان: ٢٧]؛ الدنيا، ينظرون نظرة قاصرة نظرة الدنيا، ﴿يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾، يذرون وراءهم: يتركون وراءهم هذا اليوم، وراءهم يعني أمامهم، كلمة (وراء) هنا معناها أمامهم، مثل الذي ينتظرهم أمامهم، مثل قوله تعالى:

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]؛

وراءهم ملك يعني أمامهم. فـ (وراء) هنا يقول أهل اللغة هي من الأضداد؛ تستعمل مرة كذا ومرة هكذا حسب السياق. فقال هنا: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ وهو يوم القيامة الثقيل عليهم، الشديد العصيب.

ثم قال سبحانه وتعالى أيضاً في التهوين من حالهم وإزالة الغم والهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يبالي بهم كما أن الله لا يبالي بهم، قال:

: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]؛ الله هو الذي خلقهم وهو المتصرف فيهم، ثم إنه لما خلقهم قال: ﴿شَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾، ما معنى الأسر؟ قال: شددنا أسرهم يعني قوتهم، قوتهم، لماذا سمي الأسير بهذا الشيء؟ لأنه يقيد بقيود قوية يؤسر، فإذا أسر بقيود قوية ما استطاع أن يتصرف. فهنا شوف قال: أسرهم يعني قوتهم، كأنهم قد شدوا بشيء عظيم، حتى قال بعضهم هي العظام والمفاصل شدة للإنسان، لولا عظامك لولا هذه العظام والمفاصل ما استطعت أن تقوم ولا تتحرك ولا تأخذ ولا تعطي، كل حركتك هذه مبنية على العظام. فلذلك قال:

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨]؛

يقول هم مخلوقون في قدرة الله، هو الذي خلقهم وهو الذي أوجدهم والذي شد أسرهم وجعلهم

أقوياء، جعله قوياً في بنيته وقوياً في عقله وفي سمعه وفي بصره، فإذا أراد الله أن يذهب به يذهب به بلحظة، يعني إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين. قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾؛ يبدلهم تبديلاً، يذهب بهؤلاء ويأتي بغيرهم.

ثم سبحانه وتعالى يختم هذه السورة بالتذكير بأن هذه السورة تذكرة يتذكر بها من يتذكر وموعظة يتعظ بها من يتعظ:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ [الإنسان: ٢٩]؛

هذه السورة وهذا القرآن كله تذكرة، لمن يتذكر. ولكن من شاء، يعني الدعوة أمامك والخير أمامك والقرآن أمامك، فمن شاء سلك هذا الطريق ومن شاء ترك هذا الطريق وسلك طريقاً آخر، قال:

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩]؛

إلى ربه وخالقه ومولاه سبيلاً يعني سبيل النجاة، أن تتخذ إلى ربك أن تسلك طريق النجاة، طريق الصراط المستقيم صراط الله: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، ومن شاء يسلك طريقاً آخر فليسلك. كما قال في أول السورة، قال سبحانه وتعالى في أولها قال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا﴾ وهذا هو طريق الله ﴿وَإِمَّا كَفُورًا﴾ وهو طريق الشيطان، فأنت أمامك طريق النجاة وطريق الهلاك.

قال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، ولكن ليعلم كل الخلق أنهم تحت مشيئة الله، وأن التدبير والتصرف بيد الله سبحانه وتعالى، أنت لا تملك شيئاً إلا بما تستطيع وبما هو في قدرتك فقط. شوف قال:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]؛

فأنت عندك مشيئة، تعرف طريق النجاة وتعرف طريق الهلاك وعندك مشيئة، ولكنها متعلقة ومرتبطة بمشيئة الله، مشيئة الله فوق كل مشيئة. قال:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

شوف ختم الآية بهذين الاسمين ولم تختم بأي اسم آخر؛ ما قال عزيز أو قال غفور، قال: (عَلِيمًا) عالم بأحوال من يصلح الهداية ومن يشاء الله أن يجعله مهتدياً، (عَلِيمًا وَحَكِيمًا) يحكم أمره ويتقنه ويضع الأمور في مواضعها، فالله عليم بأحوال الناس وحكيم بمن يستحق الهداية فيهديه ومن يستحق الشقاوة فيتركه على شقاوته.

لذلك قال:

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الإنسان: ٣١]؛ شوف كلمة يدخل من يشاء تفسير هذين الاسمين: يدخل من يشاء في رحمته بعلمه وحكمته، ﴿وَالظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١]

بعلمه وحكمته، لم يعد لهم عذاباً هكذا عشوائي وإنما عن علم سابق وحكمة لأنهم يستحقون، والظالمين. ولذلك وصفهم بأي شيء؟ وصفهم بالظلم، ما قال: وهؤلاء فقط، لا؛ لما كانوا ظالمين ووقعوا في الظلم جازاهم الله بما يستحقون: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

شوف جمال السورة! حديثها عن خلق الإنسان الأول، ثم حاله في الدنيا، ثم حاله في الآخرة، والحديث عن أهل الشقاوة ما أعد الله لهم، ثم حديثه سبحانه وتعالى عن أهل السعادة بنعيمهم الذي أعده الله لهم بهذه الآيات كلها الذي ساقه الله لنا من الشراب والطعام والمجالس والمراكب وغيرها مما ذكره الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات، يختم بتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم وتوجيه كل داعية يثبت على الحق حتى يلقى ربه، ثم تختم السورة بما افتتحت به: حال هؤلاء وحال هؤلاء.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا وإياكم من الأبرار، وأن يجعلنا وإياكم من أهل الله وأوليائه، وأن لا يحرمنا هذا الفضل، وأن يختم لنا بخير. والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ المُرْسَلَات)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(المرسلات ١ - ١٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا المجلس؛ مجلس القرآن الكريم. نجلس في هذا المجلس دقائق معدودة نقضيها في تلاوة من كتاب الله سبحانه وتعالى وبيانها وتفسيرها وما فيها من دلالات وتوجيهات وتدبرات، ونسأل الله أن يعيننا وأن يفتح علينا وأن يوفقنا. هذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للحادي والعشرين من شهر ربيع الأول من عام ١٤٤٦ للهجرة.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (المرسلات)، وهذه السورة لا تخفى على الجميع؛ جاءت بعد سورة (الإنسان)، وسورة الإنسان ذكر الله فيها نعيم أهل الجنة، وذكر فيها أيضاً عذاب أهل النار: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا وَأَغْلَالا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]،

ثم ساق سبحانه وتعالى حديثاً طويلاً عن نعيم أهل الجنة، فهي تتحدث عن اليوم الآخر. ثم تأتي سورة المرسلات تؤكد، لكن بصيغة أخرى وبطريقة أخرى، ما هي؟ التهديد والتخويف والويل والوعيد الشديد لمن يكفر بهذا اليوم، ولمن يجحد آيات الله ويجحد رسله، ويكذب بما جاءه عن الله. ولذلك تكررت فيها كلمة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]؛ عشر مرات، في كل ما يأتي، يأتي الله بخبر يأتي بعده قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، فهي تتحدث عن اليوم الآخر لكن من جانب، وهذه من جانب، كأن القرآن يكمل بعضه بعضاً؛ فسورة الإنسان استطردت وأسهبت الحديث عن نعيم أهل الجنة، وهذه في الحديث عن الوعيد الشديد لمن يكذب بهذا اليوم.

هذه السورة سميت بـ (سورة المرسلات) لأن الله افتتحها بهذا اللفظ، وهذا كثير في القرآن: سورة (الشمس) ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَٰهَا﴾ [الشمس: ١]، سورة (الضحى) ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١]، سورة (التين) ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]؛ يعني تفتتح أحياناً بأول لفظ، وأحياناً بلفظ في وسطها، وأحياناً تفتتح بغير هذا اللفظ ولا يوجد فيها شيء لكن تفتتح بشيء آخر. فافتتاحيات السور أو تسمية السور لا شك أن تسمية السور تسمية توقيفية، بمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم سماها بالوحي، لكن قد تجد

هناك بعض السور لها أكثر من اسم، فهذه قد تكون أوصافاً ذكرها بعض الصحابة، يعني تجد بعض السور لها أكثر من اسم؛ إما أن النبي صلى الله عليه وسلم سماها بأكثر من اسم، أو يكون من أقوال الصحابة بأن يصفوها بأوصاف. ولكن لا شك أن بعض السور لها أكثر من اسم؛ الفاتحة ذكر (السيوطي) أن لها خمسة وعشرين اسماً: (سورة الفاتحة)، (سورة الحمد)، (أم الكتاب)، وغيرها من أسماء كثيرة، فتسميتها من عند الله تسمية بوحي.

هذه السورة سورة المرسلات نحن نقف معها نتأمل آياتها وننظر فيها ككل. هذه السورة ورد في فضلها أحاديث؛ أحاديث في فضلها، أولاً: نزولها؛ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان ابن مسعود لما أسلم كان من الملازمين للنبي صلى الله عليه وسلم، كان من الملازمين حتى قال أبو موسى الأشعري لما قدم من اليمن مع الأشعريين، قال: ظننت أن ابن مسعود من بيت النبي صلى الله عليه وسلم؛ لشدة يعني ملازمته للنبي صلى الله عليه وسلم. يقول ابن مسعود وهو في مكة: خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم ومعنا بعض الصحابة، فدخلنا في غار في منى، يقول: فلما دخلنا خرجت علينا حية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اقْتُلُوهَا»، فابتدرناها ففرت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «كُفِيتُمْ شَرَّهَا وَكُفِيَتْ شَرَّكُمْ»؛ يعني أنها ذهبت وأنتم سلمتم منها. يقول ابن مسعود رضي الله عنه: وكنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الغار، فنزلت عليه سورة ﴿وَالْمُرْسَلَٰتِ﴾، يقول ابن مسعود: فأخذتها من فِي النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزولها مباشرة، وهو القائل ابن مسعود-: تلقيت سبعين سورة من فِي النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: أخذت مباشرة من فمه. فهذا ورد في فضلها: أنها نزلت في مكة، وأنها نزلت في غار، وأن ابن مسعود أخذها مباشرة من فِي النبي صلى الله عليه وسلم.

حديث آخر أيضاً يدل على فضلها وهو حديث أم الفضل، وأم الفضل هذه امرأة العباس أم ابن عباس (عبد الله بن عباس)، تقول أم الفضل: سمعت من يقرأ سورة المرسلات، قالت: ذكرني بقراءة النبي صلى الله عليه وسلم، إن آخر ما سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم قراءة هي سورة المرسلات، قرأها النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة المغرب، وهي آخر ما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم أو آخر ما سمعته أم الفضل. فأولاً نعلم حرص الصحابة على استماع وعلى متابعة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي امرأة في بيتها وتتابع النبي صلى الله عليه وسلم. الأمر الثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها في صلاة

المغرب، فدل ذلك على فضل قراءتها في صلاة المغرب.

أيضاً من فضائلها: جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر الصديق قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، قد شبت! قد ظهر فيك الشيب قد شبت! قال: «شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا». فقال بعضهم: إن أخوات هود هي ما قبلها وما بعدها؛ ما قبلها هي سورة يونس وما بعدها يوسف، فقال هذه أخواتها. وبعضهم قال: لا، إن أخواتها هي (الواقعة) و(المرسلات) و(عم) وذكر نحو من ذلك، فذكر المرسلات. فالشاهد ذكر سورة المرسلات أنها من السور التي شيبت نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذه أحاديث كلها وردت حول هذه السورة وفي فضل هذه السورة. وهذه السورة مثل ما ذكرنا لكم هدفها وغايتها ومقصدها هو الوعيد الشديد والتهديد للمكذبين خاصة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، تكررت عشر مرات فيها؛ عشر مرات. والسورة تتحدث عن تقرير يوم الجزاء والحساب والجنة والنار؛ اليوم الآخر هي تتحدث عنه. تحدثت عما يحدث عند النفخة الأولى، ثم تحدثت عن قدرة الله في الكون؛ والذي يقدر على هذه الأشياء يقدر على البعث. ولذلك أنت لما تقرأ حتى في سورة (النبإ)، الله أخبر عن اليوم الآخر في سورة النبإ، ثم ذكر أشياء تدل على قدرته: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٦-٨]؛ هذه كلها تدل على أي شيء؟ على قدرته سبحانه وتعالى، وأنه هو الواحد في خلق هذه الأشياء وفي التصرف وتدبير هذه الأشياء. وهو كذلك هنا، ذكر الله ثلاثة أشياء تدل على قدرته سبحانه وتعالى وعلى أنها من اختصاصه وفي ملكه وفي تدبيره.

نبدأ بالسورة؛ السورة تبدأ بالقسم، والله سبحانه وتعالى لا يقسم إلا بعظيم، العظيم لا يقسم إلا بعظيم، ولا يقسم إلا لأمر له أهمية عظيمة، هذه خذها قاعدة في جميع ما يأتي في القرآن من أقسام: لا يقسم الله إلا بأمر عظيم. لما يقول: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١]، الله لا يقسم بالليل إلا لكونه آية عظيمة، لما يقول: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١]، ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١]، ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١]، هذه آيات الله في الكون، أنت قد لا تكون أمامك عظيمة لأنها تتكرر عليك، لكن هي في ذاتها عظيمة، في ذاتها عظيمة؛ لو لم يأتِ الفجر من الذي يأتي به إلا الله؟! وهكذا، فالله سبحانه وتعالى يقسم.

الله عز وجل قال هنا: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ١-٦].

كلمة (المرسلات)، (العاصفات)، (الناشرات)؛ هذه أوصاف، أوصاف لأشياء ما هي؟ مثل لما يقول لك: ﴿وَالنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا وَالنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ١-٢]، هذه أوصاف. لما يقول لك: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١-٣]؛ هذه أوصاف، أوصاف لمن؟ ولذلك العلماء والمفسرون وقفوا أمامها: أوصاف لأي شيء؟

- بعضهم قال: هي أوصاف للرياح؛ المرسلات عرفاً أي الرياح التي يرسلها الله متتابعة، ثم إذا أراد الله أن يجعلها شديدة جعلها عاصفة فالعاصفات، وإذا أراد أن ينشر بها السحاب جعلها ناشرة، وجعل أن يفرق فيها الأمطار على هؤلاء وعلى هؤلاء جعلها فارقة تفرق، فهذه أوصاف للرياح، هذا قول لكثير من المفسرين.
- أما الكلمة بعدها لأن عندنا الآن الأوصاف: المرسلات، العاصفات، الناشرات، الفارقات؛ هذه أربعة، الخامسة منها الأخيرة قال: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾، هذه باتفاق المفسرين على أنها الملائكة تلقي الذكر عذراً أو نذراً، هذا الوحي الملائكة-. لكن ما قبلها قال بعضهم هي الريح، مثل ما اتضح لنا: الرياح التي يرسلها الله متتابعة؛ يقول: ﴿وَالْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ أي الرياح المرسلات، هذا التقدير أنها وصف للرياح، والعاصفات، والناشرات، والفارقات؛ أربعة أشياء.
- وبعض المفسرين يقول: هي أوصاف للملائكة، مثل ما قال: ﴿وَالنَّٰزِعَٰتِ﴾ ﴿والنَّٰشِطَٰتِ﴾ هذه الملائكة، وقال: ﴿وَالصَّٰٓفَّٰتِ﴾ هذه ملائكة. قال: هذه ملائكة؛ ﴿وَالْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ الله يرسل الملائكة لتقوم بأعمال بشؤون؛ منهم من يقبض الأرواح، ومنهم من ينزل بالمطر، ومنهم من يرزق بالأرزاق، ومنهم أعمال، فيرسلها الله رسلاً، ملائكة يرسلهم الله. ﴿فَالْعَٰصِفَٰتِ﴾ وصف للملائكة، كيف عاصفات توصف الملائكة؟ نقول: الملائكة لسرعتها في تنفيذ أوامر الله مثل سرعة الريح العاصفة؛ شدة سرعتها تصعد وتنزل بقوة بسرعة ولها أجنحة. قال: ﴿وَالنَّٰشِرَٰتِ﴾ أيضاً الملائكة، كيف ناشرات؟ قال: تنشر أجنحتها، أو تنشر السحاب، تنشر الأرزاق، تنشر كذا؛ ناشرة. ﴿فَالْفَٰرِقَٰتِ﴾ أيضاً تنزل بالوحي فتفرق بين الحق والباطل. وأيضاً الأخيرة: ﴿فَالْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا فَالْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾؛ الملائكة تنزل بالوحي وتلقيه على الأنبياء وهو ذكر وتذكير للناس ومواعظ، ولذلك قال: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾.

إذن الآن أمامنا ماذا؟ إما أن نقول هي رياح وإما أن نقول هي ملائكة، وبعضهم جمع فقال: أولها في الرياح وآخرها في الملائكة. عموماً هذه أقوال محتملة؛ فمن قال إنها هي الرياح فقوله معتبر وله وجه، ومن قال إنها الملائكة فقوله معتبر وله وجه، والعلم عند الله؛ لأن هذه الأشياء القرآن حمال معانٍ تحتمل كذا وتحتمل كذا. فأنت لما تقول هذا القول هو الصحيح وهذا غير صحيح وما عندك دليل، تجد شخصاً آخر ينقض كلامك؛ فمثل هذه الأشياء إلا إذا اتفق المفسرون على هذا الشيء-. حتى (الصافات)؛ قال بعضهم: الصافات الملائكة تصف عند ربها، وقال بعضهم: الصافات الطير تصف أجنحتها، وقال بعضهم: الصافات هم العابدون الذين يعبدون الله فيصفون صفوفاً في الصلاة وأحياناً يصفون في الجهاد صفاً. فمثل هذه الأشياء ما تستطيع لأنها أوصاف، والقرآن من الصعب أن تجزم إلا إذا كان عندك بينة واضحة ودليل. وأما هذه الأشياء فنقول: الله أعلم؛ تحتمل أنها الرياح وتحتمل أنها الملائكة، فمن قال إنها الرياح فقوله معتبر، ومن قال إنها الملائكة فقوله معتبر.

ولكن بعموم الكلام هذا كله وخلاصه: أن الله أقسم بهذه الأوصاف التي قد تكون الرياح أو الملائكة، أقسم الله بها على أي شيء؟ قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧]؛ وهو يوم القيامة. يعني أقسم الله سبحانه وتعالى لإثبات قضية من قضايا الإيمان مهمة جداً في حياة الإنسان؛ تظهر على سلوكه وعلى عباداته وعلى ضياعه وسفاهته وانحرافه، وهو اليوم الآخر الذي يجعل الناس كيف يعيشون.

الله عز وجل قال: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾؛ قلنا الملائكة تلقي الوحي تنزل بالوحي الذي ينزل به جبريل، إما تعظيماً له جاء بصيغة جمع، أو أنها الملائكة معه تنزل معه تلقي الذكرى. قال: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، ما معنى عذراً أو نذراً؟ نقول: معنى عذراً أو نذراً يعني إعذاراً لهذا الشخص وأنذار له أنه إذا جاءه الوحي وقامت عليه البينة وقام عليه الدليل، وأن الله أنذره حتى لا يأتي يوم القيامة يقول: ما أدري! الله أعذره؛ وقد أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ. يعني أن الله خلاص أعطاك، كما قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]؛ الله أرسل الرسل حتى لا يأتي شخص يعتذر يقول: ما أدري عن شيء! تعتذر أمام الله تقول: أنا والله يا ربي ما دريت ولم أعلم بهذا الشيء ولا جاءني وحي ولا جاء! لا؛ الله ألقى هذا الذكر على الملائكة تنزل به على الأرض وعلى رسله لإقامة الحجة على الخلق: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾، يعني إعذاراً من الله وإنذاراً للبشر؛ ننذر البشر وحتى يُعْذَر، حتى يعذر الله الإنسان

لنفسه عذراً أمام الله أنه لم يقل لم يأتني ما جاءنا من بشير ولا نذير.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧]، يعني أن الذي توعدون وهو يوم القيامة- واقع لا محالة. وهذا لما تفهم هذه الآية وهذه الآية حقيقة يا إخوان تعطينا تربية في حياتنا وتعديلاً في السلوك كيف يعيش الإنسان، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾؛ يعني أنت توعد بأي شيء؟ توعد بهذا اليوم، وهذا اليوم مشتمل على أي شيء؟ على بعث وحشر وحساب وتطاير صحف وميزان وصراط. هذا الذي توعد أنت به تستعد له يجعلك تتربى في حياتك كيف تستعد لهذا اليوم؛ تحسب ألف حساب لهذا اليوم؛ أخطأ عليك إنسان تتجاوز لهذا اليوم، وتتصدق لهذا اليوم، تعمل لهذا اليوم، تصلي لهذا اليوم، تتسامح مع الناس لهذا اليوم، تتخلق بالأخلاق الحسنة لهذا اليوم، تعفو وتصفح؛ تكون تربية لك في هذا اليوم. شوف قال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ أُكِّدَ بالمؤكدات: (إِنَّ) مؤكد، ﴿تُوعَدُونَ﴾، وباللام ﴿لَوَاقِعٌ﴾؛ يدل على تأكيد هذا اليوم.

ثم بدأ يسوق لك الله سبحانه وتعالى شيئاً من علامات هذا اليوم، وهو ما يجري في النفخة الأولى. عندنا نفختان وبعضهم يقول ثلاث نفخات لكن نقول نفختان-: النفخة الأولى هي نفخة الموت والصعق وخراب هذا الكون وانتهائه، والنفخة الثانية نفخة البعث من القبور. وبعضهم قال ثلاث نفخات: نفخة الفزع، والصعق، والبعث: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧]؛ هذه الفزع بعضهم يقول هذا، وبعضهم على اثنتين، والأكثر على أنها نفختان: نفخة الصعق ونفخة البعث.

قال: شوف هنا قال: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨]؛

هذه نفخة ماذا؟ الصعق، الموت؛ يخرب الكون. ﴿النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾؛ يعني ذهب ضوؤها. في سورة أخرى قال: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]؛ انكدرت يعني انمحت وذهب ضوؤها، وهنا طمست، والطمس معروف هو ذهاب الضوء. وفي آية أخرى قال: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢] أي تساقطت. كيف تساقطت وانمحت وطمست؟ نقول: هذه أحوال تمر بها؛ أحوال تمر بها يوم القيامة، يوم طويل فهذه أحوال تمر بها.

حتى اسمع ماذا قال بعدها، قال: ﴿وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: ٩]؛

كيف فرجت السماء؟ قال: فتحت. في آية أخرى قال: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩]،

وفي آية أخرى قال: ﴿إِذَا السَّمَآءُ انشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، وفي آية أخرى قال: ﴿إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، وفي آية أخرى قال: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]. هذه أحوال تمر بها؛ حتى إذا جاءك شخص سألك قل: هذه أحوال، ما في تناقض في القرآن، وإنما هي أحوال تمر بها، أحوال عظيمة؛ لأن يوم القيامة يوم عظيم شديد طويل فتمر به هذه الأحوال.

قال: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠]؛

نسفت: ذهبت وانتهت.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٦].

وفي آيات أخرى قال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]؛ كثيب رمل. وقال: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]، وقال في آيات: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]؛ الصوف الذي إذا نُفِشَ تطاير بالهواء فيذهب. فهذه نقول مثل ما ذكرنا: هذه أحوال تمر بالجبال في اليوم الآخر، دُكَّتِ الأرض والجبال ونحوها فتذهب. فهذه الله يخبر بها، يعني حتى لو جاءك شخص قال لك: كيف يقول هنا نسفت الجبال، وهناك يقول بست، وهناك يقول كانت هباء، وهناك يقول كذا؟ نقول: ما في تناقض! هذه أحوال تمر بها، الله يخبرك مرة كذا ومرة كذا لأنها هي ستمر بها. لو أخبرك مرة عن حالة واحدة ما أعطاك الصورة واضحة، لكن لما يذكر لك الأحوال كلها -مثل ما الإنسان يخلق في بطن أمه يمر بأطوار؛ لو أخبرك الله في خلقك في بطن أمك وذكر لك حالة واحدة مثلاً نطفة أو علقة أو كذا ما اتضحت الصورة أمامك، لكن لما يذكر أنك تمر بحالة وبحالة إلى آخره دل على قدرة الله سبحانه وتعالى وعلى منه وفضله ونعمه عليه-.

ذكر الله لنا هنا: النجوم تطمس، السماء، الجبال وغيرها. نقول: وغيرها فيه أشياء كثيرة، لكن الله ذكر لك هنا غير ما ذكر لك في سور أخرى فأنت تجمعها كلها حتى تتضح لك صورة هذا اليوم العظيم.

قال: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ١١]؛

من هم الرسل؟ هم رسل الله الأنبياء. كيف أُقِّتَت الرسل؟ قال: جُعِلَ لها وقت يوم القيامة تأتي في هذا الوقت؛ إذا جاء يوم القيامة وحان وقت اجتماع الرسل اجتمعت الرسل، أُقِّتَت جُعِلَ وقت تأتي فيه، تأتي الرسل لماذا؟ تشهد على أممها: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾

[النساء: ٤١]؛

فيُؤْتَى بالأنبياء يشهدون على أممهم بأي شيء؟ بأنهم بلغوا رسالات ربهم.

قال: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١١-١٣]؛ تأتي ليوم الفصل. ما هو يوم الفصل؟ هو يوم القيامة. طيب، ليش سمي بالفصل؟ نقول: لأن الله يفصل فيه بين الناس، يقضي بينهم ويفصل بينهم. وخذ مثل هذا: يأتيك في سورة يقول لك: يوم التغابن، ويأتيك يقول لك: يوم الطامة والصاخة، أسماء كثيرة والقارعة والحاقة؛ لأنها كلها أوصاف لما يقع في هذا اليوم.

قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]؛

بعد هذا الوصف والحديث عن اليوم الآخر وما يجري فيه، والله يقسم قسماً عظيماً بأوصاف عظيمة: مرسلات، عاصفات، ناشرات... إلى آخره، ثم يذكر لك شيئاً من أحوال يوم القيامة، ثم يأتي من يكذب! كيف تكذب؟ تكذب بخبر الله عز وجل! تكذب بما يخبرك الله! تكذب بما هو نجاتك يوم القيامة وسلامتك تكذب به! ولذلك توعدهم الله فقال: ﴿وَيْلٌ﴾، وويل هنا كلمة ردع وزجر وتهديد وتخويف وعيد شديد، حتى قال بعض المفسرين: هو وادٍ في جهنم لو ألقيت فيه جبال الدنيا كلها لذابت فيه. فهو توعدهم الله يقول: ويل لكم يوم القيامة؛ هذا الوادي الشديد للمكذبين الذين يكذبون بهذا الخبر. كيف يأتيك الخبر وتقول ما في؟! ولذلك نسمع كثيراً أو نسمع بعض من يقول: ما في يوم آخر ولا في حساب ولا جزاء، خلاص كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]؛

هذا بعض كلام من يتكلم ولا يؤمن باليوم الآخر: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

لعلنا نقف عند هذا القدر إن شاء الله، في اللقاء القادم نستكمل ما توقفنا عنده، ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا وأن لا يحرمنا فضل هذا المجلس الطيب المبارك، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(المرسلات ١٦ - ٣٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين. اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم الثامن والعشرون من شهر ربيع الأول من عام ستة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، نجلس مجلسنا المبارك مع كتاب الله سبحانه وتعالى نقرؤه ونتدبره ونتفكر في آياته.

السورة التي بين أيدينا وتحدثنا عنها في لقائنا الماضي هي (سورة المرسلات)، تحدثنا عن هذه السورة من حيث ما ورد فيها من أحاديث وفضائل، وأيضاً عما تتحدث عنه وما موضوعاتها وعن أي شيء تتحدث، وأخذنا شيئاً من آياتها وهو أول آياتها، وهو القسم من الله سبحانه وتعالى حيث أقسم بهذه الأمور الأربعة: المرسلات، والعاصفات، والناشرات، والفارقات، والخامسة الملقيات.

أما الأربع الأول فمثل ما ذكرنا؛ اختلاف بين أهل العلم: هل هي الرياح المرسلة، أو الملائكة التي يرسلهم الله سبحانه وتعالى رسلاً إلى البشر؟ على خلاف، قد يكون هذا وقد يكون هذا. أما الخامسة وهي قوله تعالى: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ٥-٦]، فهذه لا تكون للرياح، وإنما تكون للملائكة بإجماع المفسرين.

أقسم الله بهذه الأمور الخمسة على أي شيء؟ على يوم القيامة، وعلى أنه أمر لا محالة واقع، وأنه لا ريب في مجيئه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧]؛ وهو يوم القيامة لواقع، لا بد أن يقع ولا بد أن يأتي.

ثم ذكر سبحانه وتعالى شيئًا من علامات هذا اليوم، قال: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨]؛ وذهبت وذهب ضوءها وتساقطت. ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: ٩]؛ وأصبحت أبواباً، فتحت أبواباً وطويت وذهبت. ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠]؛ دُكت ورُجت وقُلعت من أماكنها، ثم أصبحت هباءً منبثاً كالصوف المنفوش، ثم ذهبت ولا يبقى لها أثر كالسراب. ثم

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ١١]، الرسل من هم؟ هم الذين أرسلهم الله، رسل الأنبياء الذين اختارهم الله وأرسلهم أرسلهم إلى البشر، «أُقِّتَتِ الرُّسُلُ» يعني جُعل لها وقت تجتمع فيه؛ لماذا؟ لتكون شاهدة على الأمم، «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا» [الحديث]. فالرسل يُؤتى بهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [المرسلات: ١١-١٣]. سمى الله هذا اليوم (يوم الفصل)، وسماه في آخر السورة أيضاً (يوم الفصل)، لما ذكر في آخر السورة قال؛ ذكر سبحانه وتعالى أن هذا هو يوم الفصل، قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

طيب، قال هنا سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، هذه الجملة تكررت في السورة عشر مرات، وكل ما يأتي خبر من الله سبحانه وتعالى أو أمر أو نحو ذلك يأتي التعقيب بهذه الجملة، وهذا كله وعيد، لمن يكذب بهذا اليوم، وعيد لمن يكذب بما أخبر الله. فقال فلما أخبر عن وقوع يوم القيامة وأخبر عن علامات يوم القيامة بين أو هدد هؤلاء المكذبين، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، وهو تهديد ووعيد شديد لمن يكذب بآيات الله وبخبر الله وبوعود الله ومواعيده، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

ثم سبحانه وتعالى أخبر عن ثلاثة أمور تدل على قدرته وعلى قوته وعلى أنه لا يمانعه مانع ولا يرده عن أن يأتي بهذا اليوم ويبعث الناس جميعاً لهذا اليوم للفصل بين الخلائق.

قال سبحانه وتعالى في الأمر الأول؛ قال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦]، يعني أنتم ما رأيتم كيف أهلك الله الأولين؟ هنا الاستفهام ماذا يفيد؟ يفيد التقرير؛ يعني قد تقرر عندكم وقد علمتم علم اليقين أن الله أهلك الأمم الماضية؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، وشعيب، ولُوط، وغيرهم من الأمم الماضية قد تقرر عندكم وعلمتم ذلك. «أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ»؛ أهلكناهم. قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦] الأمم الماضية، ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٧]. يعني أنها سنة الله، (الآخِرين) غير (الآخَرين)، لما تقول آخَر وآخِر فرق بينهما، فرق كبير؛ لما تقول: خذ هذا الشيء أو الآخَر؛ يعني متقابل، متقابل، هذا أو الآخَر، فهذا لما تقول هذا الشيء أو الآخَر هذا يكون متقابل يعني

أحدهما.

لكن لما تقول هذا أو الآخِر هو الذي يأتي يعني ما يجتمعان، الأول يجتمعان تقول خذ هذا الشيء أو هذا الآخَر، فقد يجتمعان. لكن الثاني لا، لما تقول هذا الشيء والآخِر، الآخِر هو الذي يأتي بعد ذهاب هذا، ولذلك شوف قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ١٦]؛ ذهبوا، ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٧]، الذين جاؤوا من بعدهم، فالآخِر من جاء من بعدهم (الآخِر)، ولذلك يسمى يوم القيامة ماذا؟ (اليوم الآخِر) ولا (الآخَر)؟ (اليوم الآخِر) و(الدار الآخِرة)، الآخِرة لماذا؟

لأنها ما تجتمع مع الدنيا، تأتي بعد، ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٧]، ولذلك تسمع بعض الناس يقرأ يقول: ثم نتبعهم الآخَرين، الكاف مكسورة، الخاء مكسورة والراء مكسورة: (الآخِرين). قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٧]، يعني نهلك هؤلاء ونهلك من جاء بعدهم من الأمم، هذه سنة الله، سنة الله في كل من كذب وكل من أعرض وطغى واستكبر، سنة الله في أن يهلك الطغاة، يهلك الظلمة، يهلك المعرضين، يهلك المكذبين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٧-١٨].

هذه سنة الله، مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بهؤلاء، نفعل بالمجرمين. هذه رسالة لأهل مكة الذين نزل القرآن عليهم وفي وقتهم والنبي صلى الله عليه وسلم ينذرهم ويحذرهم وهم يعرضون ويكذبون، وهي صالحة لكل من جاء بعدهم، لكل من جاء بعده، نعم. ﴿كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٨]، وقد فعل الله سبحانه وتعالى بمجرمي كفار قريش، فعل بهم ما فعل بالأمم الماضية، كذلك نفعل بالمجرمين. ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٩]. مكذبين بأي شيء؟ شوف كل واحدة تأتي هذه عشر كل واحدة تأتي لمناسبتها؛ الأولى قال: ويل يومئذ للمكذبين باليوم الآخر، هذه واضحة: ويل يومئذ للمكذبين. الثانية بمن يكذب بهلاك الأمم وأن الله لا يهلك أو لا يعذب، لا، سنة الله جارية بكل من كذب وأعرض واستكبر أنه تنزل به العقوبة.

قال سبحانه وتعالى في الأمر الثاني ثلاثة أشياء: الأول ألم نهلك الأولين، الثاني قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، كل هذه آيات الله واضحة ودلالة على قدرته؛ من الذي أهلك الأمم الماضية؟ هو الله. من الذي خلق الناس؟ خلقهم جميعاً وخلقهم من أي شيء؟

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ أيها الخلق أيها الناس، ﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]. المهين: الماء القليل الشيء الضعيف الذي لا يلتفت إليه، مهين ويقال: مَهان، وليس من الهَيِّن، ليس هو من الهَيِّن، لا، الميم أصلية، ما تقول هذا هَيِّن؛ هَيِّن شيء آخر، هان يهين هَيِّن، هذا لا، هذا ميم أصلية؛ مَهان، مَهان يعني لا يلتفت إليه، ضعيف قليل جداً لا يلتفت إليه، وهي النطفة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]. تصور هذه النطفة القليلة الصغيرة يتكون منها هذا الإنسان الخلقة العظيمة! ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]، كنتم ضعفاء جداً، أصلكم ضعيف، ﴿فَجَعَلْنَهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢١]، في رحم المرأة؛ قرار مكين، متمكن لا أحد يستطيع أن يصل إليه ولا يستطيع أحد أن يحركه أو يفعل به شيئاً، في مكان متمكن، في هذا المكان متمكن الله جعله في هذا المكان، حتى المرأة لا تستطيع أن تصل إليه، في مكان في هذا المكان، ﴿فَجَعَلْنَهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢١]، هو يكون في هذا المكان محفوظ ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢٢]، إلى أن يخرج إلى هذه الدنيا في تطوراته: ماء مهين، نطفة، علقة، مضغة، ثم تكون عظاماً ثم تكسى العظام لحماً، ثم يتم خلقه في بطن أمه، والأم تجري وتمشي وتأخذ وتطلع وتنزل وتتحرك وتنام وتتقلب، وهو في قرار مكين قدرة الله سبحانه وتعالى. ﴿فَجَعَلْنَهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [المرسلات: ٢١-٢٢]، إلى وقت خروجه إلى هذه الدنيا.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ [المرسلات: ٢٣]؛ سبحانه وتعالى الله هو الذي قدر هذا الوقت وقدره عليه. شوف كلمة (فَقَدَرْنَا) تحتمل الأمرين: إما من التقدير أو من القدرة؛ فَقَدَرْنَا لأنها قُرئت بقراءتين: (فَقَدَرْنَا) هذه قراءة، و(فَقَدَّرْنَا) أيضاً هذه قراءة، فكلها صحيحة؛ فإن قرأت قلت: (فَقَدَّرْنَا) من التقدير؛ يعني أن الله قدر هذا الخلق إلى هذه المدة ثم أخرجه، وعلى القراءة: (فَقَدَرْنَا) يعني نحن قادرون، ولذلك قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ الْقَدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]، ﴿فَنِعْمَ الْقَدِرُونَ﴾، «فَقَدَرْنَا» أي يعني قدرنا هذه المدة في لبث هذا المخلوق في بطن أمه ثم أخرجناه، والذي فعل هذه الأشياء هو القادر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَنِعْمَ الْقَدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]، وهذا «نِعْمَ» فعل يفيد المدح؛ فنعم القادرون.

والله مدح نفسه في مواضع غير هذه؛ في هذا الموضع: ﴿فَنِعْمَ الْقَدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]، وقال في قصة نوح في الصافات: ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥]، ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾

[الصافات: ٧٥]. وقال في النساء أيضاً؛ قال تعالى: ﴿فَنِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨]، نعم، فَنِعِمَّا أو نِعِمَّا.

كل هذه مدح من الله سبحانه وتعالى لنفسه، والله يحب أن يمدح نفسه، ويحب من عباده أن يمدحوه ويثنوا عليه. قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٣-٢٤]. تكذبون بأي شيء؟

شوف كل واحدة لها مناسبة: التكذيب بخلق الإنسان، التكذيب بمرور هذا الإنسان بهذه الأطوار. قد يأتيك شخص يقول لك: طيب من يكذب بخلق الإنسان؟ كل إنسان معترف بنفسه يقول: أنا مخلوق من نطفة، من علقة، من يكذب؟ نقول: أنت إن لم تكذب بخلقك أنت تكذب بقدرة الله؛ لأنك لما قلت إن الله يعجز أن يعيد الخلق كلهم هذا تكذيب منك، تكذيب.

فمن كذب بالبعث والخلق الآخر من كذب بذلك كذب بالأول، كيف؟ ولذلك الله دائماً يقيس يقول لما قالوا: أإذا متنا، لو قال من يعيدنا؟ قال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، أنشأكم أول مرة. فهذه الآية، هذه الآية الثانية أو الأمر الثاني الذي يدل على قدرة الله: الأول إهلاك الأولين، الثاني خلق الإنسان نخلقكم من ماء مهين.

الشيخ: والثالث: قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥]، ألم نجعل الأرض كفاتاً، ما معنى كفاتاً يا سلطان؟ ما معنى كفاتاً؟ ها يا شيخ سعود؟ ها؟ **الحاضرون:** أيوه، أحسنت!

الشيخ: شوف أحياناً الإنسان يقرأ الآية والجواب موجود، ليش أنا سألت؟ الجواب موجود كثير في القرآن، الحين مثلاً يقول لك: ما معنى الطارق؟ يجلس يفكر يقول: ايش الطارق؟ ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾، موجود، الجواب موجود.

يقول لك مثلاً كفاتاً، قال: ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾، هذا كفاتاً. من (الكَفْت)، أصل كلمة كفاتاً من الكَفْت وهي الضم، تكفت الشيء تضمه، فإذا هي ضمت تحتها أمواتاً وضمت فوقها أحياءً أصبحت كفاتاً، هذا معناه. فـ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥]؛ طبقتين: أحياء فوقها يمشون ويسكنون، وتحتها أموات؛ أموات تحت الأرض، فيقول: ألم نجعل الأرض هذه التي أنتم تشاهدونها طبقتين؟ من الذي جعلها؟ هو الله سبحانه وتعالى بقدرته: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦].

وهذه الأرض التي خلقها الله خلق فيها آيات عظيمة، قال منها: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَمِخَاتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]، رواسي: هذه صفة، صفة لأي شيء؟ للجبال، لأن الجبال لما كانت معلومة الله ذكر صفتها، وهذا كثير في القرآن؛ مثل: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ: ١١]؛ يعني دروعاً سابغات، أو مثل قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]؛ أصلها اعملا الأعمال الصالحة، اعملوا صالحاً يعني اعملوا عملاً صالحاً، وهكذا هنا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ [المرسلات: ٢٧]؛ أي جعلنا فيها جبالاً راسية ثقيلة ترسي الأرض أن تميد بكم، أن تتحرك وتضطرب فرساها الله سبحانه وتعالى، ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢]. قال: جعلناها رواسي، وهذه الرواسي موصوفة بأي شيء؟ ﴿شَمِخَاتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]؛ طويلة جداً تجد جبال عالية شامخة: شامخات. ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]؛ دائماً أحياناً هذه يتتبعها الإنسان في القرآن، في الغالب أن الله إذا ذكر الجبال يذكر الأنهار؛ لأن منبع الأنهار في الغالب من الجبال، شوف قال: يعني جعلنا في الأرض رواسي، ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]، ماء فراتاً يعني ماء عذباً سائغاً للشاربين. ما معنى فرات؟ أصلها من (الفَرْت) وهو القطع؛ لأن الماء يقطع العطش ويذهبه ويذهب الظمأ، إذا جاءك ماء فرات ماء يعني عذب وبارد وتشرب يقطع العطش مباشرة، هذا معناه. ماذا قال تعالى؟ ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

يعني أخرجنا لكم هذه المياه التي تجري بها الأنهار من هذا. من هو الذي فعل ذلك؟ هو الله؛ ولذلك شوف بعدها ماذا قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٨]، وعيد شديد لمن يكذب بآيات الله؛ من الذي جعل الأرض كفاتاً، ومن الذي جعل فيها رواسي، ومن الذي أخرج الماء العذب الفرات؟ هو الله، هذه قدرته سبحانه وتعالى. فالقادر على هذه الأشياء قادر على البعث، فكيف تكذب، كيف تكذب بالبعث وأنت ترى آيات الله أمامك؟ لا يمكن هذا. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٢٨].

فلما هدد هؤلاء المكذبين بهذه التهديدات في كل مقطع وفي كل آية من آيات الله قال بعدها ماذا؟

قال تعالى: ﴿انطَلِقُوَا﴾ [المرسلات: ٢٩] أيها المكذبون، لما هددهم الآن بين لهم وجه التهديد، تهددهم بأي شيء؟ قال: نهددهم بالعذاب يوم القيامة وبالنار. ﴿انطَلِقُوَا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، هذا الذي كنتم به تكذبون إذا جاء يوم القيامة يقال لهم: انطلقوا، انطلقوا يعني امشوا مسرعين؛ لأنهم يدفعون بقوة ويسرعون بقوة. ﴿انطَلِقُوَا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، ثم

قال؛ حتى يوضح لك ما هو الذي كنتم به تكذبون، قال تعالى: ﴿انطَلِقُوَا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠]، وهي النار، النار تتلهب بشدة وتتسعر فيخرج منها يخرج منها الدخان، حتى مشاهَد الآن؛ تشاهد الدخان لما يكون دخاناً كثيفاً شديداً يرتفع في أجواء السماء دائماً يتفرع، يصبح له ثلاث طرق: يذهب يمين يذهب شمال يذهب أماماً يذهب خلفاً، فيتفرع في الغالب يصبح له شعب، له شعب. هذه الشعب يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿انطَلِقُوَا إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ أي ظل الدخان؛ ظل دخان النار، ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠]، لشدته وكثرته يظل أهل النار، يتشعب ذي ثلاث شعب.

ثم قد يفهم بعض الناس يقول: ظل، الناس يذهبون إلى الظل يبحثون عن الظل، الظل يتظلل به الناس يرتاحون به، قال: لا، ليس ظل من الذي أنت تفهم في ذهنك أو الذي أنت يعني جاء في ذهنك أنه ظل الراحة، لا، هذا الظل يقول الله فيه: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ [المرسلات: ٣١]؛ ليس ظليل ترتاح فيه مثل ما يقال في الجنة: ﴿وَظِلٍّ ظَلِيلٍ﴾، الجنة فيها ظل ظليل، هذا يختلف، هذا ظل حار شديد الحرارة؛ ولذلك ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣١].

يقول: هذا الظل ليس فيه راحة كظل الأشجار ونحوها، لا، هذا ظل لا ظليل لا ترتاح تحته لا يرتاح الإنسان تحته ولا يغني من اللهب؛ شدة اللهب فيه التي تحرق الإنسان. ثم قال لك: النار هذه التي يخرج منها هذا الظل الشديد؛ لأن الله أخبر في سورة أخرى قال: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، فظلم النار حرارته وشدته ودخانه الذي يحرق.

﴿إِنَّهَا﴾ أي النار شوف ما جاء ذكر لها لكن فُهمت، ما فيها ذكر لها إنما يتكلم عن الظل، ظل النار، لكن قال: إنها أي النار؛ لأنها مفهومة من السياق، ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢].

أي النار، الشرر تعرفون الشرر، شرارات النار تخرج من النار لما تشتعل النار تبدأ باشتعالها في الأول تبدأ تخرج شرارات، هذه شرارات في نظرنا نحن شرارات صغيرة جداً تتطاير تحرق الثياب تحرق من كان حولها، شرارات صغيرة، لكن شرار النار شيء عظيم ما تتصوره؛ الشرارة الواحدة كالقصر! ما هو القصر؟ قصر عظيم كبير، يعني الشرارة الواحدة أكبر من هذا المسجد، شرارة واحدة فكيف كيف تتصور؟!

قال تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢].

وهذه الشرارات شرارات سود، شديدة السواد؛ لأن النار سوداء مظلمة، فشراراتها سوداء، وسوداء من شدة سوادها تميل إلى الصفرة، ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٣]، وفي قراءة: (كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ)، يعني الجمالات والجمالة جمع جمل، ومعروف الجمل: الإبل، لما يكون إبل أسود شديد السواد يعطي على لون الصفرة قليلاً، يعني تجد فيه لون الصفرة من شدة سواده؛ فلذلك قال: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٣]. الجمال صفر يقول: أما من حيث الشرار من حيث حجم الشرارة كالقصر، ومن حيث لون الشرارة كالجمل الأسود الشديد السواد الذي يعطي بالصفرة. ثم قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٤]. ويل هذا الوعيد والتهديد لمن يكذب بهذا بهذه، يكذب بالنار ويكذب باليوم الآخر، هذا هو وعيد له شديد.

طيب بعد ذلك تتحدث الآيات عن هذا اليوم، قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥]، ثم قال تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]. ثم يبين يعني مصير المتقين في جنات النعيم، ثم تهديد لهؤلاء الكفار تختم السورة به، لعل الحديث يأتي عنه إن شاء الله في لقاء قادم. أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله الموفق الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(المرسلات ٣٥ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم؛ يوم الثلاثاء الموافق للخامس من شهر ربيع الآخر من عام ١٤٤٦ للهجرة. مجلسنا المبارك مع القرآن الكريم نأخذ آيات من كتاب الله ونقرؤها ونتأملها ونتفكر فيها وننتفع بها بإذن الله سبحانه وتعالى، وألا يحرمنا مثل هذه الحلقات المباركة والمجالس المباركة مع القرآن الكريم.

السورة التي بين أيدينا هي سورة (المرسلات)، وقفنا معها في لقاءات ماضية؛ تعرفنا عليها وأخذنا شيئاً من آياتها، ونحن الآن في ختام هذه السورة. وقفنا عند قول الله سبحانه وتعالى:

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥].

تلاحظ أن هذه الآية في سياق الحديث عن أهل النار وعن المجرمين وعن المكذبين الذين قال الله فيهم في السورة وكررها كثيراً: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

كررها عشر مرات، في كل مناسبة يعيد سبحانه وتعالى هذا الويل وهذا الوعيد الشديد. وعرفنا أن الويل هذه الكلمة هي كلمة يعني ردع وزجر وكلمة تهديد وتخويف ووعيد شديد، حتى قال بعض أهل التفسير إن هذه الكلمة هي اسم لوادٍ في نار جهنم لو ألقيت فيه جبال الدنيا لذابت فيه من شدة حرارته، فيتوعدهم الله بأن مصيرهم إلى هذا المآل إلى هذا الويل الشديد. فمن يسمع مثل هذا الوعيد الشديد ثم يكذب ولا يقبل ما يأتيه عن الله، هذا بلا شك أنه قد جنى على نفسه.

لما تحدث سبحانه وتعالى عن نار جهنم في قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوٓا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ انطَلِقُوٓا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٢٩-٣١]؛

حديث عن النار، قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥]؛

أي هؤلاء الكفار لا يتكلمون ولا ينطقون. شوف هذه هكذا تقرأ: (هٰذَا يَوْمُ)؛ يعني تجد بعض الناس يقرؤها: (هذا يومٌ)، هي ليست منونة، هي مضمومة ضمة واحدة: (هٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ). و(يَوْمُ) هذا الظرف المقصود به يوم القيامة، وكلمة (يَوْم) سواء في الآخرة أو في الدنيا إذا جاء بعدها الفعل المضارع

تضم دائماً، إذا جاء بعدها فعل ماضٍ تفتح دائماً؛ يعني هذه قاعدة عند أهل اللغة أن كلمة (يَوْم) الظرفية إذا جاء بعدها فعل مضارع مثل: ينطقون هذه تضم، إذا جاء بعدها فعل ماضٍ مثلاً: هذا يومُ نطقوا فيه، تقول: هذا يومَ-، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»؛ لأن (ولدت) ماضٍ: كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، ما تقول كَيَوْمُ أو كَيَوْمِ.

إذاً هذا اليوم هو يوم القيامة لا ينطقون أي لا يتكلمون. طيب، لو وجدنا آية في القرآن تبين أنهم يتكلمون يوم القيامة وهذا وارد، يقولون مثلاً: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]،

يتحدثون ويخاطبون، يخاطبهم الله سبحانه وتعالى ويتكلمون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فكيف مرة يقول لا يتكلمون، ومرة نجد آيات تبين أنهم يتكلمون؟ هذا ظاهره أو يوهم أن هناك تعارض بين الآيات، فكيف نزيل هذا التعارض ونبعد هذا التعارض؟

نقول أولاً: إنهم ﴿هٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي لا يتكلمون بما ينفعهم؛ يعني كلاماً ينفعهم أو ينتفعون به؛ لأن كل واحد تكلم أو لم يتكلم، لما يقولون أخرجنا أو يقولون: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، أو نحوه، هذا كلام لا نفع فيه ولا فائدة. أو يقال إن يوم القيامة يوم واسع يعني يوم طويل فتارة لا يؤذن لهم ولا يسمح لهم بالكلام، وتارة يسمح لهم بالكلام، هذا توجيه وهناك توجيهات أخرى.

﴿هٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي لا ينطقون ولا يتكلمون، ثم قال: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]؛ يعني لا يسمح لهم ولا يؤذن لهم ولا يرخص لهم أن يعتذرون، ليس وقت اعتذار. الاعتذار في الدنيا، التوبة في الدنيا، إذا تاب الكافر يوم القيامة أو اعتذر أو قال إنني فعلت كذا وكذا وأنا قد ندمت على ذلك لا يقبل منه. ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ ما يخرجون، يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٢٧]، ما ينفع خلاص انتهى الأمر، فلا يؤذن لهم ولا يعتذرون؛ يعني يقدمون أعذاراً يقولون فعلنا هذا بسبب كذا وكذا، ويطلبون العذر من الله أن يرفع الله عنهم، هذا لا يقبل منهم. يقبل منهم في الدنيا؛ من تاب في الدنيا وندم وتاب ورجع إلى الله واعتذر قبل الله توبته، أما إذا انتهى أمر الدنيا فلا توبة ولا قبول توبة ولا اعتذار. ولذلك شوف رتب عليه ماذا؟

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٧].

ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بهذا اليوم الذي لا ينطق فيه الكفار ولا يقبل منهم اعتذارهم، قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

ثم أعاد فقال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

يقول هذا اليوم الذي أنتم تكذبون به ولا تصدقون هو اليوم الذي لا يؤذن لكم في الكلام ولا الاعتذار، وهو اليوم الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين. قال: ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ أنتم أيها المخاطبون ومن ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ يعني الذين سبقوكم، الأمم الماضية منذ آدم إلى عصر نزول هذه الآيات إلى قيام الساعة، كل هذا سيجمعه الله، سيجمع الله الأولين والآخرين.

قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾، لماذا سمي بيوم الفصل؟ لأن الله يفصل فيه بين العباد، يقضي ويفصل فيه بين العباد: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النبأ: ١٧]،

فهذا يوم الفصل هو الذي يقضي الله به بين عباده، سماه فصلاً لأنه يفصل بينهم.

قال: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَالْأَوَّلِينَ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٨-٣٩]؛

قل إن كان عندكم كيد ومكر واستطاعة وعندكم قدرة واستطاعة على أن تهربوا وأن تفروا وأن تختفوا ما فيه ما يمكن! إن كان عندكم كيد فكيدونِ، إن كان عندكم مكر فامكروا، إن كان عندكم قدرة أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض وتفروا افعلوا ذلك، ما يمكن لا يخرجون ولا يمكن. قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٠]؛ الذين يكذبون بهذا اليوم ويكذبون بأخبار هذا اليوم.

ثم لما حكى حال هؤلاء المجرمين أصحاب النار، حكى ما يقابلهم من المتقين المحسنين أهل الجنة، وهذه طريقة القرآن مرت معنا كثيراً أن الله إذا ذكر الوعد عطف عليه الوعيد، أو الترغيب والترهيب وهكذا، حتى يكون الإنسان راغباً في طاعة ربه خائفاً من معصيته، المؤمن في الدنيا بين الخوف والرجاء؛ يخاف عذاب الله ويخاف عقابه إذا عصاه، ويرجو رحمته إذا أقبل عليه، ولذلك تأتي الآيات بين الخوف والرجاء.

قال الله سبحانه وتعالى؛ حتى الذي ينبغي لنا إذا قرأنا مثل هذه الآيات، ما الذي ينبغي لك إذا قرأت هذه الآيات؟ النبي صلى الله عليه وسلم من سنته أنه إذا قرأ مثل هذه الآيات، فإذا مر بآية وعيد تعوذ قال: «أَعُوذُ بِاللهِ، أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ وَمِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النَّارِ»، وإذا مر بآية فيها وعد من الله كريم سأل:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ هَذَا النَّعِيمَ، أَسْأَلُكَ أَلَّا تَحْرِمَنَا هَذَا النَّعِيمَ». فهذا الذي ينبغي للإنسان إذا مر هذه قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، قراءة الترسل والتؤدة والترتيل، فإذا مر بآية نعيم سأل، وإذا مر بآية عذاب تعوذ، وإذا مر بآية تسبيح سبح، وإذا مر بآية تنزيه نزه، وهكذا، هذا الذي ينبغي.

طيب، قال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

المتقون الذين اتقوا ربهم وخافوه خافوا الله. لو سألت: ما هي التقوى؟ ما معنى التقوى؟ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «التَّقْوَى هِيَ الخَوْفُ مِنَ الجَلِيلِ، وَالعَمَلُ بِالتَّنْزِيلِ، وَالرِّضَا بِالقَلِيلِ، وَالاسْتِعْدَادُ لِيَوْمِ الرَّحِيلِ». إذا عملت بهذه الأربعة أصبحت من أهل التقوى: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل؛ إذا كانت هذه الأربعة نصب عينيك أصبحت من أهل التقوى.

وسُئِلَ عمر رضي الله عنه سأل الرجل قال: ما التقوى؟ قال: هل نزلت في أرض فلاة أرض صحراء فيها شوك وفيها شجر ونحوه-؟ قال: نعم، قال: ماذا تصنع؟ قال: أشمر عن ثيابي وأحذر، قال: هذه التقوى؛ شمر في طاعة الله واحذر معاصيه، هذه التقوى؛ إن جئت في باب الخير شمر، وإن جئت في باب الشر احذر.

وسُئِلَ بعض السلف أيضاً عن التقوى، قال: التقوى أن تحفظ الرأس وما وعى (أو وما حوى)، وأن تحفظ البطن وما وعى. تحفظ رأسك، ما معنى تحفظ رأسك؟ تحفظ سمعك لا تسمع إلا خيراً، تحفظ بصرك لا تنظر إلا حلالاً، تحفظ لسانك لا تتكلم إلا في خير، وهكذا كل هذا الرأس ما يتعلق به أن تجعله في طاعة الله، هذا معناه.

فتعاريف التقوى هي كثيرة ولكن يجمعها كلها هو خوف الله ومراقبته؛ كل ما سلكت مسلك راقب الله عز وجل فيه هل يرضى الله عنك أو لا يرضى، كل ما سلكت لك مسلك تعرف أن هذا فيه معصية ونحوها تخاف الله عز وجل، فهي خوف من الله ومراقبة الله وخوفه، هي التقوى.

ولذلك شوف وعد الله بها، وعد الله أصحابها بأي شيء؟ قال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

ظلال يعني ظلال الأشجار، ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤]، ظلال يعني ظلال الأشجار تظللهم. لكن السؤال هنا: هل الجنة فيها شمس حتى يكون الإنسان تحت ظلال

الأشجار، هل فيها شمس؟ الشمس ما فيها شمس، ﴿لَّا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]، ليس فيها شمس، لكن من استكمال النعيم؛ حتى في الدنيا لما تظللك الأشجار وإن لم يكن هناك شمس يشعر الإنسان بطمأنينة وسعادة ونعيم، فتظليل الأشجار لهم في الجنة؛ يعني في شجرة واحدة في الجنة يمشي الراكب في ظلها أربعين سنة ما يقطعها (أو مائة عام)، شجرة طوبى، ظلال عجيبة في الآخرة ليست كظلال الدنيا.

فقوله هنا: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾، العيون معروفة عيون الماء أو غيرها مما يسقى به أهل الجنة كالخمر واللبن وغيرها، هذه عيون وأنهار تجري، فهم ما بين ظلال وعيون.

قال تعالى: ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [المرسلات: ٤٢].

قال: فواكه، لم يحددها سبحانه وتعالى لأنها نعيم مطلق كثير. قال فواكه؛ يعني فواكه كثيرة لا حد لها، وفواكه مما يشتهون.

في فائدة ينبغي أن نفهمها؛ يعني إذا مرت عليك، إذا جاءت كلمة فواكه، هذه الكلمة الجمع ما تأتي إلا في السورة التي تأتي بلفظ الجمع مثل: (الصافات)، (المرسلات)، هذه إذا جاءت كذا صيغة الجمع اسم السورة، تأتي الفاكهة فيها جمع. إذا جاءت السورة بلفظ المفرد بلفظ المفرد مثل الزخرف (فاكهة) على طول دائماً، هذه يعني تتبعها بعض أهل العلم، فقال الفاكهة تأتي جمعاً إذا كانت السورة مسماة باسم الجمع، الفاكهة تأتي مفردة إذا كانت السورة مسماة بلفظ مفرد، وهكذا.

طيب قال: ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾؛ مما تتمناه أنفسهم ويدعون ويشتهونه.

قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيًّا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المرسلات: ٤٣].

كلوا مما أباح الله لكم في جنات النعيم، كلوا واشربوا، كلوا من أطعمتها وفواكهها واشربوا من أشربتها وعيونها وأنهارها، كلوا واشربوا أكلاً هنيئاً وشرباً هنيئاً لا يغص الإنسان فيه ولا يتكدر فيه، لا كدر ولا يعني ما يصيبه شيء مما يصيب الإنسان في الدنيا من الأكل أحياناً ومن الشرب يصيبه ما يصيبه، فالآخرة نفى الله عنها قال: هنيئاً، أثبت لها يعني الهناء فيها ولا يصيبها شيء من ذلك.

قال: ﴿هَنِيًّا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، الباء هنا سببية؛ يعني ما أعده الله لكم وأباح لكم في فوزكم بجنات النعيم وبما فيها من الأكل والشرب جزاء بما كنتم تعملون.

ونحن نعلم جميعاً أن كل إنسان لن يدخل الجنة بعمله، وإنما يدخل برحمة الله، لكن الأعمال سبب، الأعمال سبب. لا يستطيع إنسان يقول ليست الأعمال سبباً أنا أدخل أنا متوكل على ربي وأنا أعرف أن رحمة الله فوق كل شيء وسأدخل الجنة برحمة الله، ينوي هذه النية ولا يعمل، هذا غير صحيح! الله أعطاك أعمال في الدنيا وفرق بين الكافر والمؤمن؛ الكافر لا يعمل والمجرم لا يعمل ولا يبالي بما فرض الله عليه، والمؤمن يعمل ويسارع، فهل هذا يستوي مع هذا في ميزان الله أو في ميزان البشر؟! أحياناً لا يقبل هذا، لا، ما يمكن أن نجعل المتقين كالفجار، ما يمكن هذا مستحيل! فالأعمال سبب، الأعمال سبب، ولذلك رتب الله سبحانه على الأعمال يعني على كثير من الأعمال يرتب عليها الثواب في الدنيا والثواب في الآخرة؛ في الصلاة، في الصيام، في الحج: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»، «الحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الجَنَّةُ». فيأتي شخص يقول والله عمل يعني ما دام الإنسان يدخل برحمة الله، أو يقول حتى تجد بعضهم عنده من الجهل ماذا يقول: إن كان الله كاتباً لي أني أدخل الجنة أدخلها، ويجلس لا يعمل يقول المكتوب كَاتِبُهُ الله عليَّ! أنت ما تدري عن المكتوب كَاتِبُهُ الله عليك، اعمل فكل ميسر لما خلق له.

طيب قال سبحانه وتعالى هنا: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤٤].

يعني هذا الجزاء الذي تسمعونه من نعيم الجنة لمن نجزيه؟ الجزاء من الله للمحسنين. شوف بدأ بالآية بالآيات أو بهذا الوعد بدأه بالمتقين ثم ختمه بالمحسنين. ماذا نستفيد لما يقول: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ ثم يقول: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾؟ كأن الله سبحانه وتعالى يريد من العبد أن يكون تقياً محسناً؛ التقي بينكم وبين الله تقوى الله في القلب وفي الأعمال، التقي مثل ما قلنا التقوى خوف من الله ومسارعة في الطاعات. الإحسان فوق التقوى؛ الإحسان هو إتقان العمل بينك وبين الله وبينك وبين الخلق، أن تحسن عملك ليس فقط مجرد أنك تعمل؛ هناك من يعمل من يصلي وهو لا يعرف يصلي ويقع في أخطاء كثيرة، وكثير من الإخوة يسألون عن أشياء بديهية في الصلاة من أركان الصلاة ما يعملون بها، إذا ما تعمل بركن من أركان الصلاة بطلت صلاتك. فتجد كثير من الناس لا يسأل ولا يعمل، يعمل الأعمال الصالحة لكن ما أتقنها ما أحسن عملها. إحسان العمل وإتقانه أن تأتي بالعمل على الوجه المطلوب الذي شرعه الله، لا أن تجتهد من نفسك وتعمل أو تخل بعبادات.

فقوله سبحانه وتعالى (المتقين) ثم قوله (المحسنين) يعني ينبغي لنا أو ينبغي للإنسان أن يكون بين

التقوى والإحسان؛ يتقن عمله بينه وبين الله، ويحسن إلى إخوانه المحتاجين وإخوانه الذين حوله وأقاربه، وفي نفس الوقت يكون تقياً خائفاً من الله مبتعداً، فمن حقق هذين الأمرين التقوى والإحسان فإن برحمة الله سبحانه وتعالى وفضله ألا يحرمه هذا الفضل ألا يحرم من هذا الفضل.

قال سبحانه وتعالى لما ذكر فضل ونعيم أهل الجنة أيضاً أصلح عنها أو توعد هؤلاء قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٥]، بهذا النعيم. قال بعده سبحانه وتعالى مخاطباً هؤلاء المجرمين: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦].

أهل الجنة يقال لهم ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيًّا﴾ وهؤلاء يقال لهم: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾؛ أي كلوا في الدنيا، كلوا في الدنيا أكلاً تتمتعون به، ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾ مدة قليلة تنتهي. كم تعيش في هذه الدنيا وتذهب؟! ستذهب، يعني مصيرك أنك تنتقل من هذه الدار. ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾، حكم الله عليهم بأنهم مجرمون لأن حياتهم في الدنيا حياة ليس فيها طاعة؛ كلوا وتمتعوا متاعاً قليلاً إنكم مجرمون.

هل هذا الكلام يقال لهم متى؟ هل يقال لهم في الآخرة ولا يقال لهم في الدنيا؟

بعض أهل العلم قال: إن الآيات تتحدث عن الآخرة، فيقال لهم في الآخرة وهم على النار يقال لهم: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا﴾؛ يعني كنتم يقال لكم في الدنيا وتنسون الآخرة كلوا تمتعوا لأنكم عشتم للدنيا، هذا يعني يقال لهم من باب التعذيب النفسي لهم وبيان أنهم يعني فرطوا، فيذكرون بهذا الشيء الذي ضيعوه.

وبعض أهل العلم يقول: لا، هذه الآية تخاطبهم في الدنيا أنهم يقال لهم: عيشوا للدنيا ما دمتم غير معترفين بالآخرة ولم تستعدوا للآخرة عيشوا للدنيا، هذه حياتكم الدنيا كلوا في الدنيا وتمتعوا متاعاً قليلاً ثم ستعودون إلى ربكم، إنكم مجرمون.

ثم قال سبحانه وتعالى متوعداً لهم: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٧].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

وهذا يدل على أنه في الدنيا؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ في الدنيا اركعوا وصلوا واعبدوا ربكم وسارعوا إلى طاعة ربكم ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾. شوف ﴿ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، هذه قيل من العلم: المراد بها الصلاة، لكن الصلاة أحياناً تسمى بجزء منها؛ كما تسمى بالقيام: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، تسمى بالسجود: اسجدوا، اركعوا؛ جزء، يعبر عن الصلاة بجزء منها، هذا جائز. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا

﴿يَرْكَعُونَ﴾ يعني إذا قيل لهم صلوا وأطيعوا ربكم وتقبلوا ما جاءكم عن الله لا يستجيبون لذلك، وأهمها الصلاة؛ الصلاة هي الفارق بين المؤمن والكافر، بين المؤمن والكافر.

ثم لذلك توعدهم الله لما كانوا لا يركعون ولا يستجيبون توعدهم فقال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٩].

شوف خاتمة السورة، خاتمة جميلة جداً؛ يعني بعد هذا البيان العظيم مما حوته هذه السورة وإن لم تكن طويلة يقول الله بعد هذا: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠].

هل يحتاجون أكثر من كذا؟ في شيء أكثر من هذا البيان؟! ما في أعظم من هذا البيان؛ بين الله لك كل ما يحتاجه الإنسان في الدنيا والآخرة، وكل ما ينبغي عليه الإنسان وكل ما ينبغي عليه أن يحذر منه، كل هذا مذكور في هذه الآية، مذكور في هذه السورة: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، هل ينتظرون كلاماً آخر وأعظم من هذا الحديث؟! ما في، ما في حديث أعظم وما في بيان أعظم من هذا البيان.

سورة عظيمة عشنا معها لقاءات ماضية وهذا اللقاء، تأملها أنت واقرأها بهدوء وتفكر فيها.

أقسم الله فيها بهذه الأمور التي أقسم الله بها: المرسلات، العاصفات، الناشرات... إلى آخره، على أي شيء؟ على أن وعد الله وقيام الساعة واقع لا محالة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧].

ثم بين شيئاً من أحوال يوم القيامة قال: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَآءُ فُرِجَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: ٨-١١] ... إلى آخر ما ذكر من هذه العلامات وهذه الأشياء التي تقع في يوم القيامة.

ثم ساق الله سبحانه وتعالى لك ثلاثة أمور عظام تدل على قدرة الله، تدل على قدرة الله:

١. قال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ﴾ [المرسلات: ١٦-١٧]، من الذي أهلك الأولين ثم أتبعهم بالآخرين؟ هو الله، دليل على قدرته وأنه لا يمانعه شيء.

٢. ثم ذكر الأمر الثاني خلقك الأول: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

٣. ثم ذكر الثالث قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا أَحْيَآءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥-٢٦]، أحياء فوقها وأموات تحتها، من الذي جعل هذا ويعيد الخلق مرة أخرى، وخلق في هذه الجبال والأنهار، كل هذا بقدرته سبحانه وتعالى.

ثم ساق موقف الكافرين وهددهم، ثم ساق موقف المؤمنين المتقين المحسنين ووعدهم بهذا الوعد الكريم.

أسأل الله أن لا يحرمنا هذا الفضل العظيم، وأن يجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يجعلنا ممن يتلوه بتدبر وتمعن وتفكر، وأن ينفعنا بما نقول وبما سمعنا. لقاؤنا إن شاء الله لقاء قادم إن شاء الله بإذن الله، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ النَّبَأ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(النبأ ١ - ١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام:

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هذَا اللقاء المبارك، ومع تفسير الجزء الأخير من القرآن الكريم، وبين أيدينا أول هذَا الجزء، وهي سورة النبأ، سورة النبأ من السور المكية، وجاء في بعض الآثار أن النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهر فيه الشيب، فقَالَ له أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله أراك شبت، قَالَ: «**شَيَّبَتْنِي هُود وَأَخَوَاتُهَا**»، فقالوا: ما أخواتها؟ قَالَ: أخواتها الواقعة والنبأ والمرسلات وكذا من السور، فذكر منها سورة النبأ.

سورة النبأ سورة عظيمة جدًا، يعني يكفيك من اسمها النبأ، والنبأ هو الخبر المهم، وفرق بين لما تقول خبر ونبأ، شوف القرآن لو نتتبع فيه كلمة النبأ، وكلمة الخبر، تجد أن كلمة النبأ تأتي في الأمور المهمة، بخلاف الخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب، وجاك خبر من فلان وخبر من فلان، يمكن أنه صحيح.

لكن النبأ أدق، ولذلك سمي النبي نبيًّا؛ لأنه يأتي بالأخبار الموثوقة، لكن لو تتبعنا، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥]، ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١]، وهكذا تجد كلمة النبأ تعطي معنى يدل عَلَى الأهمية والدلالة القوية، هذِه السورة الَّتِي بين أيدينا سورة النبأ، هي في الحقيقة هي وما بعدها من السور، تقرر قضايا مهمة جدًا.

ومن أهم هذِه القضايا: قضية الإيمان باليوم الآخر، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما جاء إِلَى أهل مكة يدعوهم إِلَى التوحيد، كانوا لا يؤمنون باليوم الآخر، ﴿يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]، ويقولون في موضع آخر: ذلك رجع بعيد، فكانوا يستبعدون، ما يؤمنون باليوم الآخر، ﴿ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، أرحام تدفع، وأرض تبلع، هذِه هي ليس هناك بعث ولا جزاء، وهذَا ما يمكن.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٧-٢٨]، ما يمكن أن

يكون هذَا، لَا بُدَّ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في ميزانه الحق والعدل، ألا يساوي بين المفسد في الأرض والمصلح، فالمفسد يجازيه عَلَى إفساده، والمصلح يجازيه عَلَى صلاحه، فَلَا بُدَّ أن يكون هناك موعد يجتمع فيه الخلق جميعًا ويحاسبون عَلَى أعمالهم، وكلًّا يأخذ حقه بالعدل، هذَا حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من المستحيل أن يخلق خلقًا ويتركهم عبثًا، يعيشون كالبهائم، هذَا لا يمكن، هذَا يخالف حكمة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، حكمة الله أن يخلق الخلق ويجازيهم ويبعثهم، فهذِه حكمة الله سُبْحَانَهُ.

طيب، وقرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سور كثيرة، أنزل سورة سماها سورة القيامة، وقرر قضية البعث في سور كثيرة، ورد عَلَى الجاحدين المنكرين، ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣]، فرد القرآن عليهم، وأعطاهم الأدلة؛

جاء رجل إِلَى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رأس المشركين، قيل أنه: أُبيّ بن خلف، وقيل أمية بن خلف، جاء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه عظم يفته بيده، يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذَا؟ قَالَ: «نَعَم، يُمِيتَكَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثَكَ ثُمَّ يُدْخِلُكَ النَّار»، وأنزل الله فيه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، الَّذِي أنشأها أول مرة هو الَّذِي يحييها، فرد الله عليهم.

هذِه السورة تتحدث في الحقيقة عن قضية البعث، السورة تدور كلها عَلَى قضية إثبات البعث، واستدل الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَى إثبات البعث بأدلة مشاهدة، عَلَى قدرته بأدلة مشاهدة، كما سيأتينا من الأدلة الواضحة عَلَى إثبات البعث، وأن هؤلاء المشركين ليس عندهم أي دليل يدل عَلَى أن الله لا يبعث من في القبور، بل سيبعث وسيجازي، فلذلك لهم أدلة كثيرة، منها الأدلة الآيات الكونية المشاهدة، اَللَّيْل، وَالنَّهَار، وَالشَّمْس، والقمر، وخلق الإنسان، وخلق النبات، هذِه كلها تدل عَلَى قدرته، وعَلَى نعمته عَلَى خلقه، وعَلَى قدرته عَلَى البعث.

الَّذِي خلق هذِه الأشياء، سيخلقكم مرة أخرى، والَّذِي خلقكم أول مرة قادر عَلَى أن يعيدكم، وهو الَّذِي يبدأ الخلق ثُمَّ يعيد وهو أهون عليه، فالأمر بالنسبة لله يسير وسهل، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٠].

طيب، نبدأ بالسورة، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبأ: ١]، هذَا استفهام، أصلها: عن، حرف جر، وحين يأتيك الإعراب اللي تدرسه، يأتيك الآن، ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [النبأ: ١]؛ يعني عن أي شيء يتساءلون، أصلها: عن وما، فيها ألف، لكن لما اتصلت العين وأُدغمت النون بالميم، عمَّ، حُذفت الألف، فأصبحت عمَّ، حَتَّى سميت السورة بسورة: عمَّ، وعمَّ هذَا استفهام، أسلوب استفهامي، تقول: عمَّ تتحدث عمَّ تقول، عمَّ تخبر؟ هذِه استفهامية.

والله يقول: عم هؤلاء يتساءلون، هؤلاء المشركين يتساءلون عن أي شيء، يتساءلون يعني يسأل بعضهم بعضًا، يتساءلون عن أي شيء، كأنه نوع من التهكم بهم، والاستهزاء، إيش يتساءلون عنه، تسألون عن أي شيء، ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ٢]، تسألون عن هذَا الخبر؟ عن النبأ العظيم الَّذِي هو البعث، والجزاء، وَالجَنَّة، وَالنَّار، يعني يشكون فيه حَتَّى يتساءلون.

وقيل: النبأ العظيم هو القرآن، وقيل: البعثة، وقيل أقوال أخرى، لكن الَّذِي يسنده السياق، أن النبأ العظيم هنا هو البعث، هو يوم القيامة.

ولذلك لاحظ الآن يأتيك أدلة، يقول: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١-٣]، ما بين مصدق ومنكر، ومتوقف، هم مختلفون، بعضهم منكر، وبعضهم مصدق، حَتَّى الكفار من المشركين، منهم من يصدق البعث، ومنهم متردد.

ثُمَّ زجرهم الله زجرًا قويًا، كيف تتردد، كيف تشك في اليوم الآخر، قَالَ: ﴿كَلَّا﴾ [النبأ: ٤]، وكلا كلمة ردع وزجر للتخويف، قَالَ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤]، وهذَا أسلوب تهديد، سيعلم هذَا الَّذِي يشك، والذي ينكر البعث، سيعلمون، ثُمَّ أكد عليهم ردعًا آخر أقوى، قَالَ: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٥]، أي أنهم سيعلمون، ثُمَّ سيعلمون، ثُمَّ قَالَ لهم: أغاب عنكم هذَا الشيء، وغابت عنكم قدرة الله؟

يعني أنت خفي عليك قدرة الله عَلَى البعث، يعني أنت الآن تعجز الله أن يبعثك؟ الله قادر عَلَى أن يبعثك، وش المانع من هذَا الشيء؟ قادر عَلَى أن يبعثك، ثُمَّ قَالَ: انظروا إِلَى آيات الكون، الآيات الكونية في السماء والأرض، تدلكم عَلَى قدرة الله، أنت شكيت في قدرة الله، انظر إِلَى الكون هو الَّذِي يحكم لك.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: ٦]، انظر إِلَى الأرض ما الَّذِي جعلها مهادًا وممتدة، وممهدة، تستطيع أن تزرع عليها، تستطيع أن تمشي، تستطيع أن تنام، تستطيع أن تبني عليها بنايات عالية، من الَّذِي

جعلها ممهدة هكذا، تمشي أحيانًا أنت في الصحراء في السيارة، تجد ارض ممتدة ليس فيها أي جبل، ممتدة عَلَى مسافات طويلة، ما الَّذِي مد الأرض بهذَا الشكل، الَّذِي مدها الله، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: ٦]، ممهدة وممتدة.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧]؛ أي جعل الجبال أوتادًا، الَّذِي جعل الجبال أوتادا الله عَزَّ وَجَلَّ، لماذا؟ قَالَ: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ [النحل: ١٥]، ما الحكمة من جعلها رواسي؟ قَالَ: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، تثبت الأرض، مثل أوتاد الخيمة، سمى الجبل وتدًا كوتد الخيمة، إذا ضُرب الوتد عَلَى الأرض للخيمة، ثبتت الخيمة، إذا شلت الأوتاد سقطت الخيمة، فكذلك الأرض، قد ترتج بالناس، فلا يستطيعون أن يعيشوا عليها، فثبتها الله بالرواسي، جعلنا الجبال رواسي، جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الجبال رواسي.

قَالَ: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٨]، أصنافًا ذكورًا وإناثًا، حَتَّى تكون سبب لبقاء الجنس، لو أن الله لم يجعلهم ذكورًا إناثًا، ولم يخلقهم أزواجًا، لانتهى هذَا الجيل وخلاص انتهى، لكن من حكمته جعلهم أزواجه يتكاثرون، وتستمر هذِه الحياة، تستمر الحياة الأولى، فمن حكمته جعل ذكر وأنثى، وجعلهم أزواجًا، حَتَّى ليس في الإنسان، الله يقول: وخلقناكم أنتم يا بني آدم أزواجًا، وخلق أَيْضًا الحيوانات، والطيور، والحشرات، كلها أزواج تتكاثر، وإلا كان تنقرض، فهذِه حكمة الله سُبْحَانَهُ، الَّذِي خلقك، وجعلنا الناس أصنافًا من هو؟ هو الله، إذًا الذي خلق قادر عَلَى أن يبعث الناس، هذَا يكفيهم أدلة، اسمع عشان تركز معي؛

الدليل اَلْأَوَّلُ: جعل الأرض مهادًا، هذَا دليل.

ثانيًا: الجبال أوتادًا.

ثالثًا: خلق الناس أزواجًا.

هذِه كلها أدلة عَلَى قدرته عَلَى البعث، من المشاهدة، ما أحد ينكرها، أي شخص عاقل تأتي إليه تقول: تعال ما الَّذِي خلقك؟ يقول لك: الله، حَتَّى المشركون، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩]؛ راحة، النوم آية من آيات الله، ينبغي للإنسان أن يتفكر فيها، متى تطرح نفسك عَلَى هذَا السرير ولا تدري عن نفسك، لو يأتي شخص يأخذ ما في جيبك ما تدري عن

شيء، أنت خلاص غبت عن الناس، من الَّذِي قبض روحك؟ هذِه الموتة الصغرى، ولذلك أنت إذا قمت من النوم تقول: الحمد لله الَّذِي أحيانا بعد ما أماتنا، إذًا أنت ميت.

فما الَّذِي أماتك ثُمَّ أحياك؟ ﴿ الله يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجعلك.. ﴿وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، يعني: كسبتم بِالنَّهَارِ، فالله عَزَّ وَجَلَّ يعلم هذَا، إذًا الَّذِي خلق هذَا النوم، وبعثه عَلَى الناس، لولا هذَا النوم لجلس الإنسان في أرق وتعب، ما يستطيع أن يعيش، ولكن رحمة الله أن جعل هذَا النوم نوم راحة وسبات، يرتاح فيها الإنسان، وتستقر نفسه، ويهدأ قلبه، ثُمَّ يقوم بعد ذلك نشيطًا قويًا، هذِه من رحمة الله.

قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠]؛ ساترًا، مغطيًا كل شيء، تذهب الشَّمْس، وتستقر النفوس، وكل يلجأ إِلَى مكانه ويدخل، حَتَّى الحيوانات والطيور، تهدأ النفوس، فالليل راحة، وسكن كما قَالَ الله: جعل الليل سكنًا، قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾[النبأ: ١٠].

وجعلنا النهار مقابل اَللَّيْل، ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، حركة، يقوم الناس تأتي الشمس وتخرج عَلَى الناس، ثُمَّ يقومون لأعمالهم، فيكون في حركة في أعمال الدنيا، وحركة في أعمال الآخرة، تجد منهم من يشتغل بالطاعة، والصلاة، وصلاة الضحى، وقراءة القرآن، والعلم، وَالتَّعَلُّم؛ مشغول، هؤلاء يشتغلون بالدنيا، جعل الله النهار معاشًا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]؛ يعني السماوات السبع الشداد، التي جعل الله فوقنا، سبع طرائق، سبع سماوات بقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أطراف السماوات ما تستطيع أن تصل إِلَى أطرافها، ممتدة، فما الَّذِي رفع السماوات بغير عمد، نرى ما في عمد، رفعها أنت ما تستطيع ترفع ولا قطعة صغيرة بدون شيء، والله رفعها سبع سماوات طباقًا، بغير عمد، آية عظيمة من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وجعل في هذِه السماء الشَّمْس، قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]؛ شوف لما يصف الشمس بالسراج، معناه فيه ضوء وفيه حرارة، السراج فيه ضوء وفيه حرارة، لما جاء القمر، قَالَ: القمر نور، يعني فيه إضاءة نور، وَأَمَّا الشمس لا، قَالَ: الإضاءة ضياء، قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]؛ يتوهج شدة الحرارة فيها، ولذلك إذا دنت في فصل الصيف، تحرق من تحتها.

طيب الكلام يطول، بعدها تأتي آية الَّذِي هو المطر، والمطر إحياء للنبات، ففيه تشبيه بإحياء الموتى، يعني فيه قياس، الَّذِي أحيا الأرض بعد موتها يحيي، ﴿أَن ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [الروم: ٥٠]، طيب إِنْ شَاءَ اللهُ يأتي الحديث عن إنزال المطر من السماء، وما يترتب عليه، الحديث يأتي عنه إِنْ شَاءَ اللهُ في لقاء قادم، نقف عند هذَا القدر، والله أعلم.

(النبأ ١٣ - ٢٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام؛

حياكم الله في هذَا اللقاء المبارك، في هذَا اليوم المبارك، معنا في لقاء هذَا تفسير سورة النبأ، التي تسمى أَيْضًا بسورة عمَّ، وهي أول سورة في الجزء الأخير، ومثل ما ذكرنا في لقائنا الماضي، أن هذِه السورة من السور المكية، وهي اشتملت عَلَى أمور عظام، تتحدث في الحقيقة عن البعث، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر فيها آيات عِظَام، آيات كونية تدل عَلَى قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى الخلق، وعَلَى قدرته عَلَى بعث الناس من قبورهم.

ذكر فيها آيات عجيبة دالة عَلَى قدرته وعَلَى نعمته، عَلَى خلقه، نعمته في الدنيا، وقدرته عَلَى البعث، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الأرض بأنها جعلها مهادًا ممتدة ممهدة، وجعل حولها الجبال التي ترسيها وتثبتها، جبال أوتادًا، كأوتاد الخيام، وقَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من آياته أَيْضًا وقدرته ونعمته، أن خلق هذَا الجنس من الإنسان، خلقه أزواجًا ذكورًا وإناثًا، لتستمر عملية الحياة، تستمر حَتَّى لا تنقطع.

وخلق الله حتي الخلق جميعًا مخلوقاته في ذكور وإناث، كبقية الحيوانات، والحشرات، والطيور، كلها عَلَى هذَا، حَتَّى تستمر عملية الحياة في هذِه الدنيا، وذكر الله من آياته يعني أَيْضًا النوم جعله راحة، وجعله آية من آياته كما قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الروم، قَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣]، جعل النوم آية من آيات الله، جعل منامكم بالليل وَالنَّهَار، فالنوم الأصل هو اَللَّيْل، وقد ينامها من إنسان في النَّهَار، لكن نوم الليل هو الأصل.

قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩]؛ يعني راحة استقرارًا، قد يأتيك سائل، يقول: كيف النوم تقول هو الأصل في الليل؟ نقول: لأنه قابله بأن النهار معاش والليل نوم راحة، فدل عَلَى أن اَللَّيْل سكن، والنهار معاش، قَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ٩-١٠]؛ ظلمة تغطيكم، ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ الليل يغشي النهار ويظلمه يجعله مظلمًا، فهذِه آية من آيات الله، كيف

أنت جالس في النور، والشمس بسطوعها ونورها، ثُمَّ بعد ساعات تجلس في ظلمة شديدة، هذَا تغير الكون، يدل عَلَى أن وراء هذَا التغير خالقًا، مدبرًا، قادرًا، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

قد لا تظهر لك هذِه الآية، بسبب ماذا؟ أنك تعودت عَلَى هذَا الشيء، أَوْ أنك تعيش في نور، إذا جاء اَللَّيْل، اشتعلت هذِه الأنوار، قد ما تجد هذِه، لكن لو جلست في الصحراء يومين ثلاثة أربعة أيام، إِلَى عشرة أيام، شاهدت أن هذِه آية عظيمة، كيف النهار تشوف كل شيء، ثُمَّ في اَللَّيْل الأرض سوداء، ما ترى فيها شيئًا أبدًا، فهذِه آية من آيات الله.

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١]، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَيْضًا من آياته، لما لفت نظرك إِلَى الأرض ممهدة، والجبال، والنوم، وَاَللَّيْل، هذِه كلها تشاهدها أمامك، لفت نظرك إِلَى السماء، قَالَ: ارفع رأسك، ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]؛ عظيمة سبعًا، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق هذِه السماوات العظيمة المترامية الأطراف، بقدرته وقوته، هذَا الشيء العظيم الممتد، سبعًا شدادًا من غير عمد، ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان: ١٠].

ولما لفت نظرك إِلَى السماء والنظر فيها، بجمالها قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]؛ يلفت نظرك إِلَى السماء، أَيْضًا لفت نظرك إِلَى أن تنظر في هذِه السماء بما فيها من مخلوقات، فقَالَ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]، هذِه الشمس فيها مصالح عظيمة للخلق، وجعلها سراج، والسراج دائمًا يكون فيه ماذا؟ يكون فيه نور وفيه حرارة، ولذلك شوف من اللفتات الجميلة، لما وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نبيه محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه سراج، ما قَالَ: سراج وهاجًا، قَالَ: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، ما قَالَ: سراجًا وهاجًا، كأنه قَالَ: يعطيك النور، بس ما يعطيك حرارة، النبي يعطيك نور، بس ما يعطيك حرارة.

لما جاء في الشمس حقيقتها، قَالَ: نور وحرارة، سراجًا وهاجًا، قَالَ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]، ما زلنا في العلو، في السماء، ارفع رأسك، تأمل في مخلوقات الله وقدرته، قَالَ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]؛ ما هي المعصرات؟

اختلف أهل التفسير في معناها، وأقرب ما يُقال فيها: أنها السحب، وقيل الرياح، وقيل كذا، لكن الصحيح من أقوال أهل التفسير: أنها السحاب يعصر بعضهم بعضًا، فينزل الماء، قَالَ: قيل الرياح، وقيل أقوال أخرى؛ لأن الرياح تعصر السحاب، ولكن الأقرب أن المعصرات هي السُّحُب الَّتِي تنزل بالماء.

قَالَ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]، أي الماء الثجاج هو المطر، ومعنى ثجاجًا: ينزل بقوة، يثج ثجًّا، يعني: بقوة، لكن بعضهم يقول: المعصرات يعني: السحاب؛ لأنها سبب في الماء، سبب في المطر، ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، لكن هذَا أقرب ما يُقال فيه.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]، يقول: أنزلنا هذَا الماء من السماء، وماء ثجاجاً، يثج الأرض يضربها ضربًا، بقوة.

قَالَ: ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ [النبأ: ١٥]، يقول: أنزلنا هذَا الماء، والحكمة منه: هو أن يخرج الله هذَا الحب والنبات لهذا الإنسان، حَتَّى يعيش هذَا رزق، ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ [غافر: ١٣]، هذَا الرزق نخرج به حبًا ونباتًا، ما هو الحَبْ، وما هو النبات؟ قَالَ: الحب؛ الحبوب، كالأرز، والقمح، والشعير، والعدس، كل هذِه الحبوب يخرجها الله من مصلحة العباد، متاعًا لكم ولأنعامكم.

والنبات: الأشجار التي تُؤكل طازجة، أَوْ يُؤخذ منها فواكه ثمار، كلها داخلة في النبات، والحشيش يدخل في ذلك، ونبات الأرض من البهائم، كله داخل فيها.

قَالَ: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٦]، هذَا المطر سبب إخراج الحَبْ، والنبات، وهذِه الجنات الملتفة، الحدائق الملتفة، لما يذكر الله لك هذِه الأشياء، يريد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منك أن تصل إِلَى أمر أكبر من هذَا، يعني يقول لك مثلًا: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]، يعني: ميتة، ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى﴾ [فصلت: ٣٩]، إذًا في قياس، يذكرك الله بهذَا الشيء، يقول لك: مثل ما أن الله أحيا هذِه الأرض بعد موتها، فإنه يحييك، فلا يعجزه شيء، ولذلك شوف لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذِه الآيات، كم آية؟

١) الأرض مهادًا.

٢) الجبال أَوْتادًا.

٣) خلقناكم أزواجًا.

٤) النوم.

٥) اَللَّيْل.

٦) النَّهَار.

٧) السماوات السبع.

٨) السراج، الشَّمْس.

٩) المطر.

١٠) النباتات الَّتِي أخرجها الله.

عشرة آيات دالة عَلَى قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مهدها لك وقدمها لك، حَتَّى يصل إِلَى شيء إِلَى أن يثبت لك البعث، ثُمَّ قَالَ بعدها: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ: ١٧]، ما هو يوم الفصل؟ هو يوم البعث، يوم القيامة، ليش سماه الله بيوم الفصل؟ لأن الله يفصل بين العباد، يفصل بأي شيء؟ يفصلهم عَلَى نوعين: فريق في الجَنَّة، وفريق في السعير، ويفصلهم أَيْضًا بما بينهم من خصومات، يفصل الخصومات، كل يأخذ حقه يوم القيامة، خصومات.

يقول في الحديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه «**لَيُؤتَى بِالشَّاة الجَلحَاء وَالشَّاة القَرْنَاء، فَيُؤخَذ لِلجَلحَاء مِنَ القَرْنَاء**»، لأن القرناء ضربتها، أذكر أحد الإخوة والله قَالَ لي كلام عجيب، مع أنه من عامة الناس، قَالَ لي: إذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يحاسب، ويفصل بحكم العدل، بين حيوانات غير مكلفة، فكيف بالمكلفين من الناس، كيف المكلفين؟ يعني حيوان غير مكلف، يأتي به الله ويجمع بينهم، ويفصل بينهم، وهذَا يأخذ حقه وهذَا يأخذ هذَا، ويقتص هذَا من هذَا.

فكيف بالناس، كيف بمن يظلم الناس، كيف بمن يأخذ أموالهم، كيف بمن يغتابهم، وكيف من يفعل بهم الأفاعيل، كيف سيخرج أمام الله عَزَّ وَجَلَّ؟

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ: ١٧]، أن هذَا اليوم يوم عظيم، يفصل الله بين الخلائق جميعًا، يُحشر الله فيه الأولين والآخرين، هذِه تعزية لهم، تعزية تقويه، أنه يقول: خله يأخذ، ما يهمني الدنيا، الآخرة أنا انتظره الآن، سيدفع لي من الحسنات، وهي موعظة لكل ظالم، أنه إذا سمع هذَا يقصر عن ظلمه.

قَالَ: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ: ١٧]، يعني يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويفصل بينهم، ﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾، يعني له وقت محدد، لا يتأخر، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، إذا نُفخ في الصور هذَا اليوم لا يتقدم ولا يتأخر، قَالَ: ما هو يوم فصل الَّذِي كان ميقاتًا؟ قَالَ: هو اليوم الَّذِي يُنفخ في الصور، يعطيك صورة عنه، يُنفخ في الصور، من الَّذِي يُنفخ في الصور؟

يأتي إسرافيل الملك المُوكَّل بنفخ في الصور، يأتي فينفخ في الصور، ما هو؟ قالوا: هو بوق عظيم، يأتي هذَا المَلَك وينفخ فيه، فإذا نفخ فيه الصور سمعه الخلائق، فقاموا من قبورهم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، يُنفخ في الصور.

جاء في حديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «**كيف أَنْعَمُ وقدِ الْتَقَمَ صاحبُ القَرْنِ وحَنَى جَبهتَه وأَصْغَى سمعَه ينتظرُ أنْ يُؤمَرَ أنْ يَنْفُخَ فينفخُ**»، ينتظر أن يُؤمر، يقول المَلَك المُوكَّل: قد أصغى؛ يعني حنى جبهته، وأصغى أذنه، ينتظر أن يُؤمر بالنفخ في الصور، فينفخ.

عندنا نفختان: النفخة الأولى، الله قَالَ في سورة الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ﴾ [الزمر: ٦٨]، ثُمَّ قَالَ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]؛ لأن عندنا نفختين.

النفخة الأولى يسمونها: نفخة الموت، الصعق، إذا نُفخ في الصور، النفخة الأولى مات كل من عَلَى الأرض، حَتَّى الحيوانات، كل شيء يموت، ويخرب كل من عَلَى الأرض، ينتهي، خلاص تخرب الدنيا كلها، ويموت، ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، ولا أحد يرد، يقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

ثُمَّ بعد ذلك يُنفخ النفخة الثَّانِية، فيُبعث الناس من قبورهم، يخرج الناس من قبورهم سراعًا، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، يخرجون من قبورهم، هذِه النفخة الثانية.

قيل لأبي هريرة راوي الحديث، كم بين نفختين؟ قَالَ: "أربعين"، أربعين يوم؟ قَالَ: لا أدري، أربعين سنة؟ قَالَ: لا أدري، ما يدري بينهما مدة، والله أعلم بذلك، قَالَ: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النبأ: ١٨]، هذِه المراد بها نفخة الموت ولا البعث؟ نقول: البعث، وش الدليل؟ قَالَ: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، إذًا هي البعث، فتأتون أفواجًا، يعني تأتون جماعات، يخرجون من قبورهم جماعات.

كيف جماعات؟ الله عَزَّ وَجَلَّ يجعلهم جماعات مصنفين، أهل القرآن يُحشرون، وأهل الغناء والمغنيين يُحشرون، وأهل الخمور يُحشرون، وأهل الزنا يُحشرون، وأهل الطاعات والدعاة إِلَى الله يُحشرون، وأهل العلم يُحشرون، يجعلهم الله أفواجًا، قَالَ: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨].

ومن آيات الكون التي تتغير عند البعث، قَالَ: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩]، السماء تمر بمراحل، في آيات يقول: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ومرة يقول: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ومرة يقول: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ومرة يقول: ﴿السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨]؛ يعني تذوب كالزيت، ومرة يقول: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]؛ يعني وردة حمراء اشتدت حمرتها، فأصبحت كالدهن تنزل وتذوب، هذِه كلها أحوال تمر.

وهنا يقول: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩]، فتنزل الملائكة، كل هذِه المراحل، هذِه الآيات لا تتعارض، يعني تمر بمراحل، قَالَ: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩]، والجبال؟ قَالَ: الجبال تُسَيَّر، حَتَّى الجبال ذكر الله في القرآن أنها تمر بمراحل، قَالَ مرة: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، وقَالَ مرة: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وفيه آيات كثيرة، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

قَالَ هنا: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ [النبأ: ٢٠]، سيرت عن أماكنها، ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، إذا نظر الناظر ينظر أنها جبال، إذا جاء ما وجد جبال، سراب، كانت سرابًا، يقول: تذهب الجبال والسماء عَلَى قوتها وصلابتها تتفتح، والجبال عَلَى قوتها، شوف يذكر لك أشياء القوية.

السماء عَلَى قوتها تتفتح وتذهب وتذوب من شدة الهول، والجبال تذهب، ما يستطيع أن يزيل جبل عن مكانه واحد، فكيف بجبال الدنيا كلها تذهب وتنتهي وتذوب، ولا تجد لها أثر، سُيِّرت الجبال سيرًا، ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، تذهب الجبال لا يبقى لها أثر، هذَا يعني بيان لقوة الله عَزَّ وَجَلَّ وقدرته الفائقة.

طيب، بعد ذلك تنتقل الآيات إِلَى وصف النَّار، ثُمَّ وصف الجَنَّة؛ يعني كأن الآيات تشير إِلَى البعث، والجزاء، وَالجَنَّة، وَالنَّار؛ الآن عرفنا البعث، ينفخ في الصور، ويخرجون الناس من قبورهم، والجبال،

والسماء، وكل شيء ينتهي، الآن أمام الناس: النَّار وَالجَنَّة، النَّار، ثُمَّ الجَنَّة، فيخرجون من قبورهم يتوجهون للحساب والجزاء، ثُمَّ بعد ذلك يكون مصير كل إنسان، إما إِلَى نار جهنم، قرراه الأخير، أَوْ الفوز بجنات النعيم.

يأتي الحديث إِنْ شَاءَ اللهُ عن جهنم، قَالَ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: ٢١]، يأتي الكلام عنها إِنْ شَاءَ اللهُ في اللقاء القادم، واللهُ أَعْلَمُ.

(النبأ ٢١ - ٣٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام؛

في هذَا اللقاء سورة النبأ تحدثنا عنها في لقاءات ماضية، وفي الحقيقة مثل ما ذكرنا، أن النبأ عَلَى القول الصحيح؛ أنه خبر يوم القيامة، والحديث عن البعث والجزاء وَالجَنَّة، وَالنَّار، ومن تأمل هذِه السورة ونظر في آياتها، عرف أنها تتحدث عن اليوم الآخر، وإثبات البعث والجزاء، وَالجَنَّة، وَالنَّار.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتحها بالإنكار عَلَى هؤلاء المشركين، عمَّ يتساءلون، عن أي شيء يتساءلون؟ ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢]، تتساءلون بما بينكم ما بين مثبت، وما بين نافي، وما بين شاك؟ ولذلك قَالَ: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٣]، هم يختلفون فيما بينهم، فمنهم الَّذِي صدق به والَّذِي كفر به، والذي يشك فيه، فقَالَ الله: ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٣]، ثُمَّ حكم عليهم قَالَ: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤]، تهديد لهم لمن ينكر، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٥].

ثُمَّ بعدها ساق الله عَزَّ وَجَلَّ الأدلة الدالة عَلَى قدرته عَلَى البعث، ما هي الأدلة هذه؟ قَالَ انظر فيما بين يديك، ما يحتاج أن تبحث يمين وشمال، أمامك مشاهد تثبت قدرة الله عَلَى هذِه الأشياء، فإن كنت تعترف بقدرة الله بالذي أمامك، يجب عليك أن تعترف بقدرة الله عَلَى البعث، البعث أسهل، الله عَزَّ وَجَلَّ ماذا يقول؟ يقول: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، فذكر الله عدة أدلة مشاهدة تثبت قدرته عَلَى البعث.

﴿ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ٦-١٤]، هذِه كلها مشاهدة، ما ينكرها إلا مكابر، سفيه لا عقل له، أما العاقل الَّذِي يستخدم عقله، يقر بأن الَّذِي جعل الأرض مهادًا بقدرته، قادر عَلَى أن يبعثك من قبرك، وهو الَّذِي خلقك أول مرة، الَّذِي جعل الجعال ثبتها رواسي وأوتاد، وجعل الناس أصنافًا حَتَّى

تستمر عملية النسل ولا ينقطع، جعلكم أزواجًا، وجعل النوم راحة لكم، والليل لباس، والنهار معاش، كل هذِه أدلة عظيمة.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢]، السماوات السبع، لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذِه الأدلة العظيمة، نقلنا إِلَى مشهد من مشاهد يوم القيامة، حَتَّى يعطيك صورة واضحة لهذا اليوم الَّذِي أنت ستقف فيه وستحضر فيه، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ: ١٧]، وقته محدد، ويوم الفصل سماه فصلًا؛ لأنه يفصل بين الخلائق، حَتَّى الحيوانات، حَتَّى يؤتى بالشاة القرناء والشاة الجلحاء، القرناء لها قرون، والجلحاء ليس لها قرون، فيقتص للجلحاء من القرناء.

القرناء جاءت ونطحت الجلحاء، وأثرت فيها، فيؤتى بهم ويقص الله بينهم، يقتص الله لهذا من هذَا، وهي حيوانات ليست مكلفة، ومع ذلك يؤتى بهم، فكيف في بني آدم، الكافر المشرك المكابر، يؤتى به ويقتص من أهل المعاصي، ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ: ١٧]، ثُمَّ قَالَ ما هو يوم الفصل؟

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [النبأ: ١٨]، كأن الله سُبْحَانَهُ يصور أمامنا هذَا، ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، جماعات، ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩]، هذِه من أهوال يوم القيامة، ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، يعني: السماء عَلَى عظمها تذهب، تطوي السماء، يعني: ما يبقى لها شيء في آيات قَالَ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فتذهب.

والجبال تمر بمراحل، قَالَ: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، ما تراها، تظن أنها جبال، ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، تذهب الجبال، كالصوف المنفوش، كالعهن المنفوش، وتذهب وتصبح الأرض ملساء، ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٦]، لما يصور الله لنا هذَا الشيء، يهدد هؤلاء المشركين المعاندين المكابرين، يبدأ بهم، ثُمَّ يعطف عليهم البشارات للمؤمنين، هذِه طريقة القرآن، تهديد وتخويف وإنذار، وبشارة للأتقياء، وتهديد للأشقياء.

فبدأ بالأشقياء فقَالَ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: ٢١]، ترصدهم ترقبهم، مثل ما تقول: منطقة تفتيش، يوقفون أمامها ما يمكن أن يتجاوزوها، خلاص أمامك طريق إيقاف بقوة، كانت مرصادًا

ترصدهم، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: ٢١]، لمن؟ ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢٢]، يعني: مرجعًا، يعني هذِه جهنم الآن تنتظر الطغاة المشركين عَلَى أنفسهم، ثُمَّ هي مآبًا، يعني: هي مرجعهم ومكانهم واستقرارهم فيها، ليس لهم ممر، ولا مهرب، ولا محيص عنها، لَا بُدَّ أن يصلونها، وليس المدة شهر شهرين ثُمَّ يخرج، أَوْ سنة سنتين، لا، ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣]، أزمنة متعددة لا تنتهي، تهديد كل ذلك.

ثُمَّ هم إذا دخلوا النَّار، وأدخلوا نار جهنم، ماذا سيقابلون؟ قَالَ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٤]، البرد والراحة والطمأنينة، وسعة البال، ليست موجودة، قَالَ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٤]، الراحة والطمأنينة، ما يجلس الإنسان فيه، يشق عليه أن يجلس في المكان الحار والمؤذي، لكن المكان البارد يستقر فيه، لذلك قَالَ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٤]، حَتَّى الشراب ما يجيهم، إِلَّا الشراب الحميم الَّذِي انتهى حره، الشراب الحميم الَّذِي يصهر به ما في بطونهم والجلود، الشراب الَّذِي يصب من فوق رؤوسهم، الشراب الَّذِي إذا شربوه كما قَالَ: ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩].

إذا قرب من الوجه، أكل الوجه، هذَا الماء قَالَ: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤-٢٥]، الشراب حميم، والطعام غسَّاق، ما هو؟ قَالَ: هو صديد أهل النَّار، ودماؤهم تنزل وتمشي عَلَى الأرض، فيسقون منه، إنسان في الدنيا لو أعطي ربع ملعقة من الصديد، أَوْ من الدم، ما استساغه، فكيف بشراب لأهل النار من هذَا الشيء، نسأل الله العافية؟

وقَالَ بعضهم: "الغساق يقابل الحميم"، بعض المفسرين يقول: "الغساق يقابل الحميم"، ما هو؟ قَالَ: المكان البارد شديد البرودة، الزمهرير، فهو ما بين حرارة وبرودة، حرارة يعني: يلقون في النار لشدة حرارتها، ثُمَّ يخرجون من النار ويلقون في الزمهرير البارد الثلج الشديد البرودة، وهم ما بين هذَا وهذَا، كله عذاب عظيم، ولكن جمهور المفسرين، عَلَى أن الغساق هو طعامهم من الصديد، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى يبين لك أن هذَا بسبب أعمالهم وفسقهم وضلالهم وطغيانهم، قَالَ: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ [النبأ: ٢٧]؛ هذَا السبب، الآن يعطيك الأسباب، لماذا يعذبون بهذَا العذاب العظيم؟ قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧]، لا يعترفون بيوم القيامة، ولا يحسبون له أي حساب، ولا

يعدون له العدة، ولا يخافون من هذَا اليوم، ولا يعترفون به أبدًا، وينكرونه ويكفرون به، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧]، وزيادة عَلَى ذلك، ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٨]، تأتيهم الآيات والرسل ويكذبون بها، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: ٢٩]، أعمالهم محصية دقيقة لا يفوت.

﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، هذِه الآية سُئل بعض السلف، أشد آية في كتاب الله قَالَ هذِه الآية، أظن ابن مسعود، أَوْ غيره من الصحابة، لما سُئل: أشد آية في كتاب الله في قوله تَعَالَى: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، ذوقوا من العذاب وذوقوا من الحميم والغساق ونزيدكم عذاب، نزيدكم لا ينتهي، -نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالعَافِيَةَ- وأن ينجينا، وأن يصرف عنا عذابه، ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]، -نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالعَافِيَةَ-، وأن يحمينا وَإِيَّاكُمْ، واللهُ أَعْلَمُ.

(النبأ ٢٧ - ٣٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام؛

نعود إِلَى الآيات التي توقفنا عندها، وهي آيات سورة النبأ، عند قوله تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧]، قبلها، حَتَّى نربط الآيات بعضها ببعض، هذَا في عرض يوم القيامة، ومصير الأشقياء ومصير الأتقياء، فبدأ الله بمصير هؤلاء الأشقياء، لماذا؟ لأن السورة جاءت للرد عَلَى المكذبين المنكرين لليوم الآخر، جاءت ترد عليهم بالأدلة العقلية، التي مرت معنا، المشاهدة في الكون، التي لا ينكرها أي عاقل.

فَالَّذِي خلق هذَا الخلق كله قادر عَلَى أن يعيد هذِه الأجساد بلحظة، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، فلا يعجز شيء في الأرض ولا في السماء، فكيف ينكره المنكرون، ينكرون هذَا اليوم، فرد الله عليهم بالأدلة، ثُمَّ بين مآل الأشقياء المكذبين، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: ٢١]، هذِه مرت معنا ولا نحاول أن نطيل فيها، لكن تلاحظ كلمة: جهنم، هذِه اسم من أسماء النَّار، النَّار لها أسماء في القرآن، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى﴾ [المعارج: ١٥]، اسم من أسماء النَّار.

قَالَ أَيْضًا سماها: بالحطمة، الحطمة؛ لأنها يحطم بعضها بعضًا، ولها أسماء كثيرة، سماها: الجحيم، وكل اسم له معنى مناسب، حَتَّى أنك لو تتدبر القرآن، تجد أن اختيار الاسم في موضع له مكان، وله اختيار، وله علة، وله سبب، مثل هنا لماذا قَالَ: إن جهنم؟ لماذا لم يقل: إن النَّار، أَوْ يقول مثلًا: إن الجحيم؟ هنا جهنم لها سر، أصل كلمة جهنم.

كلمة جهنم في اللغة: هي المكان البعيد المدى، الَّذِي له قعر بعيد جدًا، يسمى جهنم، حَتَّى في البئر، أَوْ القليب البعيدة المدى، يسميها العرب جهنمية بعيدة، واختيار اسم الجحيم، سميت النار بالجحيم؛ لكثرة تأججها بِالنَّارِ، ولذلك في قصة إبراهيم قَالَ: ﴿فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]، جحيم ما هي؟ هي النار المتأججة؛ لأنهم أشعلوا نيرانًا شديدة، قالوا: فألقوه في الجحيم، فتجد كل اسم له اختيار وله سر.

طيب، يقول: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النبأ: ٢١]، أي: مرقبًا ترقبهم، ومرصدًا ترصدهم، لا يمكن أن يتجاوز، أي شخص وأي مخلوق لا يمكن أن يتجاوز، إِلَّا ولَا بُدَّ أن يمر عَلَى النَّار، قَالَ: ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢٢]، خص هؤلاء ووصفهم بهذَا الوصف، قَالَ: للطاغين ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١١-١٢]، الَّذِين طغوا وأفسدوا، وجاوزوا الحد في الطغيان والإسراف، هذَا مآلهم، ﴿لِلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢٢]؛ مرجعًا.

﴿لَابِثِينَ﴾ [النبأ: ٢٣]؛ أي مقيمين، ﴿فِيهَا أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣]، والأحقاب مثل ما مر معنا، جمع: حُقْب، أَوْ حُقُب، وهو المدة الطويلة من الزمن، أي أن الزمان لا ينتهي بهم، ولا ينقطع، وما هم منها بمخرجين، مددًا طويلة، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٤]، قلنا البرد هو الماء، أَوْ هو الشيء البارد الَّذِي يشعر به الإنسان بعد وجود الحر؛ لأن أهل النار في لظى وفي حرارة، وفي لهب، فيتمنون أن يمر عليهم شيء من النسيم، شيء من البراد.

قَالَ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٤]، حَتَّى الشراب لا يذوقون شرابًا، استثنى وقَالَ: ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ [النبأ: ٢٥]، وهو الماء الَّذِي اشتد في غليانه، يقطع الأمعاء، وقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، إذا من الوجه اشتوى الوجه به، قَالَ: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٥]، والغسَّاق ذكرناه أَيْضًا: أنه صديد أهل النَّار، وما يتجمع من الجروح من جلودهم من شدة النَّار، يسقون من هذَا، ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٥].

ولهم أنواع من الأطعمة، نسأل الله العفو والعافية، لهم الضليع، ولهم الغسلين، ولهم الزقوم، هذِه كلها من أطعمة النَّار.

قَالَ: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]؛ جزاءً عَلَى قدر أعمالهم، وهذَا يدل عَلَى عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إن عذب فبعدله، وإن عفا وأكرم فبفضله، فعفوه وإكرامه للمتقين فضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا بعمل المتقين ليس بعملهم، وإنما هو تفضل منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإن عذب هؤلاء فبعدله، جزاءً وفاقًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

قَالَ: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]؛ ثُمَّ بين لك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لماذا هم هذَا مصيرهم، ولماذا أعد الله لهم هذَا العذاب الأليم؟ قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ: ٢٧]، كانوا لا يؤمنون باليوم الآخر، ولا

يخافون، لا يرجون ذلك اليوم ولا يخافونه، لا يرجون ما فيه من الخير والنعيم، ولا يخافون بما فيه من العذاب الأليم، كل ذلك ليس في حسبانهم، ولذلك قَالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ [النبأ: ٢٧]، أنهم كانوا لا يطمعون في الجزاء والحساب، حَتَّى يستعدوا له، وَهذِه حال المنكر، لليوم الآخر، ليس له استعداد، حَتَّى تجد ممن غفل عن هذَا اليوم، وإن كان من أبناء المسلمين، إن غفل عن هذَا اليوم، لا يستعد له، ولا يحسب له أي حساب.

ولذلك تجده يعيش لهذه الدنيا، ويأكل لهذه الدنيا، ولا يخطر بباله أنه سيحاسب وسيجازى، لو كان ذلك عنده لاستعد لهذا اليوم، استعد وأصبح عنده رجاء وخوف لهذا اليوم.

قَالَ: وزيادة عَلَى ذلك، مع إنكارهم وكفرهم باليوم الآخر، قَالَ: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٨]، كذبوا باليوم الآخر، وكذبوا بالآيات الَّتِي جاءتهم لتثبت لهم هذَا اليوم، القرآن مليء بالآيات، والآيات الكونية المشاهدة، تدل عَلَى قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والآيات القرآنية أَيْضًا تدل عَلَى أن هناك بعثًا وجزاءً وجنةً ونارًا، كذبوا بذلك.

قَالَ سُبْحَانَهُ ردًا عليهم: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: ٢٩]، كل ما يفعله الإنسان مُحصى، سيحصى وسيجازى، وشوف كلمة: أحصيناه تدل عَلَى أي شيء؟ تدل عَلَى دقة الحساب، الإحصاء بلغة العرب: هو دقة الحساب، لما تقول: أنا أحصي عَلَى فلان ما يفعله، وأحصي ما عنده، معنى هذَا الكلام أنه يتابعه بدقة في الحساب، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ [النبأ: ٢٩]، كل شيء مدخر عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومحسوب عند الله عَزَّ وَجَلَّ، لا يمكن أن يغيب شيء من عمل الإنسان.

وفي هذِه الآية فيها ترغيب وترهيب؛

فيها ترغيب لأهل الخير والصلاح، إذا كان كل شيء عند الله، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا، فلم يبقي عندك أمامك إِلَّا العمل، وهذِه الدار دار عمل، أشغلها بالعمل، اشغلها الله بالذكر، والطاعة، والصلاة، والتسبيح، والعمل الصالح بجميع أنواعه، وشرائع الإسلام كثيرة ليست محدودة، فاحرص عليها، هذَا فيه ترغيب لأهل الخير.

وفي نفس الوقت ترهيب لأهل الشر، إذا كان كل شيء قد أحصاه الله، فإنك ستجازى به، ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، لا يمكن أن يفلت شيء من ذلك إذا كان قد أحصاه الله وجمعه، وادّخره

عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَذُوقُوا﴾ [النبأ: ٣٠]، أي لأهل النَّار، لطاغين أهل النَّار، يُقال لهم إذا دخلوا النَّار: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، هم في نار جهنم، ويُقال لهم: ذوقوا، هذَا يُقال له العذاب النفسي.

عندنا عذاب جسدي، وعندنا عذاب نفسي، لما يُقال لهم: ذوقوا، هذَا أشد في العذاب النفسي، كما في قوله: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، هذَا يسمى عذاب نفسي، والعذاب الجسدي الَّذِي يصيبهم أشد، كل ذلك يجتمع عليهم، ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، لا تنتظرون إلا زيادة، لا النقص، وهم يقولون ربنا خفف عنا من العذاب، ويُقال لهم: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

قَالَ كثير من أهل التفسير: أن أشد آية عَلَى أهل النار هذِه الآية: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، مثل هذِه الآية، هذِه الآية أيها الإخوة إذا وقف عندها الإنسان، لا يستطيع أن يتجاوزها، ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠]، يحتاج الإنسان أن يتدبر ويتأمل هذِه الآية ويقف عندها كَثِيْرًا، كيف تسمع مثل هذَا الكلام، هل يهنأ لك عيش في هذِه الدنيا، وهل تستطيع أن تعيش وأنت تسمع مثل هذَا الكلام الشديد الَّذِي يقال لهؤلاء الكفار.

ولذلك ورد عن كثير من السلف، أنهم إذا مروا بمثل هذِه الآيات، تأثروا تأثرًا عظيمًا، بل بعضهم صُعق ومات من آيات كثيرة، عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قرأ سورة المدثر، وبلغ قوله تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، سقط مغشيًّا عليه وحُمل إِلَى بيته، تأثر السلف، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يُسمع له أزيز، كأزيز المرجل، القِدر في صدره بكاء شديد إذا مر بمثل هذِه الآيات،

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قرأ في سورة المائدة، فلما بلغ قوله تَعَالَى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، أخذ يردده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى أصبح الصبح، فالآيات تحتاج منا أن نقف عندها، يقول ابن مسعود: لا تهزوا القرآن، لا تنثروه نثر الدقل، التمر الرديء ينثر نثرًا، يقول: "لا تنثروا الآيات نثر الدقل، ولا تهذوها هذَّ الشعر"، قَالَ: قفوا عند حدوده وحركوا به القلوب، حركوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة، لا تكون قراءتك أنك تنظر متى تخلص السورة، لا، تقف عند الآية وتتأملها، هذَا أعظم عند الله.

والآيات حقيقة خاصة في هذَا الشهر، عندما تصفو النفس، تستوقف كثير من الناس، تمر عَلَى آية توقفك بقوة، وتقف عندها وتتأملها، وتعيد النظر فيها، وتنتفع بها.

لما ذَكَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حال الأشقياء، عطف عليه حال الأتقياء، وَهذَا طريقة القرآن، بين الترغيب والترهيب، يخافون ويرجون، الإنسان دائمًا بين الخوف والرجاء، يخاف من النَّار وما يقرب إليها من عمل، ويرغب في الجَنَّة وما يقرب إليها من قول وعمل، ولذلك عطف الله سُبْحَانَهُ، وَهذِه طريقة القرآن، كثير إذا ذكر حال الأشقياء، قابلهم بحال الأتقياء الصالحين.

فقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١]، المفاز يعني: الفوز بجنات النعيم، والفوز بالسلامة من أهل النَّار، والسلامة من النار وأهلها، إذًا معنى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١]، من فازوا بالنجاة من النار وسلموا منها، وفازوا بما أعد الله لهم في جنات النعيم، ولاحظ أن الله اختار كلمة المتقين، لم يقل: إن المؤمنين، ولا إن المسلمين، قَالَ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١]، والمتقين جمع متقين، والتقوى أَوْ المتقي: معنى التقوى هي الخوف من الله، التقوى أن تخاف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، التقوى أن تتقي مساخط الله، هذَا معنى التقوى، أن يتقي الإنسان الحرام، أن يتقي أن يقع في فيما حرم الله، أن يتقي أن يقع في مساخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذَا معنى التقوى، تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ومر معنا تعريف السلف للتقوى في كثير، يعني تمر معنا، السلف رحمهم الله عرَّفوا من هو التقي، وما هي التقوى، من هو المتقي في كثير.

طيب، قَالَ هنا: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١]، ثُمَّ بين لك ما هو هذِه المفازات، أَوْ هذَا المفاز، قَالَ: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ [النبأ: ٣٢]، والحدائق جمع حديقة، وهي البستان الواسع، سميت حديقة من حدقة العين؛ لأنها دائما تكون الحديقة ملتفة بالأشجار والنخيل، وتكون كحدقة العين، سميت حدائق.

﴿وَأَعْنَابًا﴾ [النبأ: ٣٢]، لماذا خص العنب؟

قَالَ بعض المفسرين: "لسهولته ولذَّته، وطعمه"، والقرآن حَتَّى لو ذكر غير هذَا، فهو ينوع في النعيم، مرة يذكر هنا الأعناب، ومرة يذكر في آيات أخر رمان ونخيل، وإذا جمعتها، وجدت أن نعيم أهل الجَنَّة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر عَلَى قلب بشر، يذكر الله هذِه الأشياء الكثيرة.

قَالَ: إذا كانوا في هذِه الحدائق الواسعة، وهذِه الأشجار العجيبة، ومنها شجر الكرم أَوْ العنب، قَالَ أَيْضًا: ولهم في هذَا النعيم، ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣٣]، لهم كواعب الأتراب، والكواعب جمع كاعب: وهي الفتاة الَّذِي تكعَّب ثديها في سن الشباب، في بداية الشباب، في بداية شبابها.

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣٣]، والأتراب: جمع ترب، والترب الَّذِي يكون في سن واحدة، فنساء الجَنَّة كلهن عَلَى سن واحدة، وعَلَى جمال فائق واحد، هذَا معنى كواعب أترابًا، وهو وما أعد الله للمتقين من الحور، ومن الأزواج الحسان في جنات النعيم.

قَالَ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٤]، هذَا يتعلق بالشراب، لما ذكر المكان: الحدائق، والأشجار، والأعناب، وذكر الزوجات الحسان في جنات النعيم، ذكر بعد ذلك ما أعده الله لأهل الجنة من الشراب والطعام، فذكر الشراب، فقَالَ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٤]، كلمة كأس عند العرب، لا تطلق إلا عَلَى الخمر، فإن كان هذَا ليس فيه شيء خاليًا يُقال له: إناء، ما يُقال كأس، يسمى إناء، فإذا صُب فيه خمر، سُمي: كأسًا، حَتَّى في جميع أشعار العرب، لا يطلقون كلمة الكأس إلا عَلَى الخمر، لو كان فيه لبن، أَوْ عصير، أَوْ ماء، ما يسمى كأسًا، ما يسمى في لغة العرب كأس.

ولذلك لو تتبع الآيات القرآنية: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ [الصافات: ٤٥]، كلها في الخمر، في خمر الجَنَّة، فالمراد هنا بقوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٤]، هو خمر الجَنَّة، ومعنى: ﴿دِهَاقًا﴾؛ قَالَ بعض أهل التفسير: الدهاق هي الكأس الممتلئة، وَهذَا أحب للإنسان، لما تأتي إليه بكأس ممتلئة، غير لما تأتي بنصف كأس أو نحوه، وَهذَا من تمام النعيم، وقال بعضهم: معنى دهاقًا: أي صافية، وقَالَ بعضهم: دهاقًا أي: متتابعة يتبع بعضها بعضًا، ونقول: هذَا الاختلاف بين كلام أهل التفسير لا يتعارض، فإنك تجد الكأس الواحدة مليئة، وصافية، ومتتابعة، كل المعاني صحيحة، وأهل الجنة لهم هذَا النعيم وأكثر.

أَيْضًا لما ذكر طعامهم أَوْ شرابهم، ذَكَرَ حالهم، فَقَالَ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥]، أي: أسماعهم مطهرة من سماع اللغو وهو الكلام الساقط، الكلام السيء والرديء لا يسمعونه، وإن سمعوا في الدنيا، فإنهم في الآخرة قد نزههم الله، ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، كلام اللغو الساقط لا يوجد فيها، وإذا كان الكلام اللغو الساقط لا يسمعونه في الجَنَّة، زادك أَيْضًا قَالَ: ﴿وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ:

٣٥]، والكذاب أشد، فإذا كانوا لا يسمعون اللغو، فمن باب أولى ألا يسمعون الكلام الَّذِي كله كذب في كذب، وهذَا من التَّدَرُّج.

قَالَ: لا تسمع فيها الكلام الساقط، وأَيْضًا من باب أولى: ألا تسمع فيها الكلام الَّذِي كله كذب ومخالف للواقع والحقيقة، كل هذَا من فضل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومنته عَلَى أهل الجنة المتقين.

قَالَ: ﴿جَزَاءً﴾ [النبأ: ٣٦]؛ أي هذَا النعيم، وما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦]، يقول: هذَا جزاء من الله وفضل من الله، لا تظن أنه بعمل وباجتهاد أبدًا، لن يدخل أحد الجنة بعمله، قَالَ: هذَا فضل من الله، ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦]؛ يعني أعطاك الله إياه عطاءً بفضله، كما منَّ عليك بالهداية في الدنيا، ومنَّ عليك بسلوك طريق أهل الخير، فيمُنّ عليك في الآخرة، وكل هذَا منَّة من الله، لولا أن هداهم الله ما اهتدوا، لولا أن هدانا الله عَزَّ وَجَلَّ ما اهتدينا، ففضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هدانا في الدنيا إِلَى طريق النجاة، ويهدينا في الآخرة، يهديهم ربهم إِلَى جنات النعيم، يهديهم إِلَى هذَا.

﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦]، ما معنى حسابًا؟ قَالَ: عطاءً كافيًا، حَتَّى يكفيك، ولذلك تقول: حسبي هذَا الشيء، يعني كافيني، فمعنى حسابًا: أي ليس معناه الحساب المحاسبة، لا الحساب معناه الكافي، تقول: حسبي أني أفعل كذا، أو حسبنا الله، يعني كافينا الله، فعطائهم عطاءً يكفيهم، لا يحتاجون إِلَى ما فوقه، يكفيهم، يعني النفوس قد امتلأت منه، لا تريد زيادة عَلَى ذلك.

طيب، قَالَ: هذَا ممن؟ قَالَ من الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والذي هو رب السماوات والأرض، الَّذِي خلق السماوات والأرض وأنشأها، هو الَّذِي منَّ عليك بهذَا الشيء، وفي هذَا تعظيم لله، ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٧]، هذَا كله من الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتلاحظ اختيار اسم الرحمن، مناسب للعطاء، والخير، والفضل، والمنة، ﴿عَطَاءً﴾ [النبأ: ٣٦].

قَالَ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٧]؛ أي لا يملكون منه حديثًا، أَوْ مخاطبة، أَوْ كلامًا في مواجهة الرحمن، إلا بإذنه، طيب، الكلام يطول، ولا نريد الإطالة عليكم، فلعلنا نقف عند هذَا القدر، وما تبقى من هذِه السورة إِنْ شَاءَ اللهُ، يكون له مجلس آخر، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، واللهُ أَعْلَمُ.

(النبأ ٣٨ - ٤٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام؛

حياكم الله في هذَا اللقاء المبارك، في هذَا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للحادي عشر من شهر رمضان المبارك، من عام ثلاثة وأربعين وأربع مئة وألف من الهجرة، درسنا المعتاد كل ثلاثاء بعد صلاة العصر في تفسير القرآن العظيم، ولا زلنا في هذِه السورة الجليلة القدر، العظيمة النفع، وهي سورة النبأ، أَوْ سورة عمَّ يتساءلون.

وقف بنا الكلام عند قوله تَعَالَى في جزاء المتقين، الَّذِي أعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لهم في جنات النعيم، في قوله تَعَالَى: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦]؛ أي هذَا الجزاء الَّذِي أعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومنَّ به عَلَى عباده المتقين، عطاءً حسابًا، وحسابًا؛ يعني كافيًا، كما تقول: حسبي هذَا المال، يعني كافيني، ومعنى عطاءً حساباً؛ أي عطاء كافيًا لا يريدون عليه زيادة، أعطاهم الله ما كانوا يتمنونه وزيادة، فقالوا: عطاءً حسابًا.

وهذَا العطاء هو مِنَّة ونعمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بدليل أن الله قَالَ بعدها: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝٣٦ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ [النبأ: ٣٦-٣٧]؛ أي عطاءً من ربك الَّذِي هو رب السماوات والأرض وما بينهما، فَالَّذِي خلق السماوات وما فيها، أَوْ وما فيهن، وخلق الأراضين وما فيهن، هو ربها وهو الَّذِي أوجدها بهذِه الصورة البديعة، هو الَّذِي أعطى هذَا العطاء وهو الَّذِي قسم هذه القسمة العظيمة.

﴿مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ۝٣٦ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ [النبأ: ٣٦-٣٧]، الرحمن الَّذِي رحمته وسعت كل شيء، واسم: الرحمن، واسم: الرحيم، من أسماء الله العظيمة، والرحمن أعمّ من الرحيم، الرحمن رحمته وسعت أهل الصلاح، وأهل الشقاء، كل من في الدنيا عمَّتهم رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالرحمن أبلغ، والرحيم بالمؤمنين، ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]؛ فاسم الرحيم خاص بالمؤمنين، والرحمن عام.

"والرحمن"؛ هذِه الصيغة تدل عَلَى السعة، وسعة رحمته كل شيء، وعَلَى الامتلاء، أن رحمته ملأت الدنيا كلها، كما تقول: فلان غضبان، يعني امتلأ غضبًا، فهذِه الصيغة تدل عَلَى السعة، وتدل عَلَى الامتلاء.

قَالَ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٧]؛ أي الخلق كلهم، من الملائكة المقربين، ومن الرسل، ومن هم تحت هؤلاء كلهم لا يملكون لله خطابًا؛ أي لا يتكلمون أمام الله في هذَا اليوم العظيم، وهو يوم القيامة، إلا بإذنه، وليس لأحد أن يتحدث أَوْ يتكلم، كما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة أخرى: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]، وقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، فلا يمكن لأحد أن يتكلم.

ولذلك قَالَ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٧]؛ أي لا يتكلم، ولا يستطيع أن يخاطب أَوْ يتحدث، إلا بإذن الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ بعدها: متى يكون هذَا الشيء الَّذِي لا يملكون منه خطابًا؟ قَالَ: هذَا في يوم القيامة، بدليل ماذا؟ أن الله قَالَ بعدها: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ [النبأ: ٣٨]، وهذِه ينبغي للإنسان دائمًا، إذا قرأ القرآن، أن يتدبر ما يقرأه، وأن يفهم ما يقرأه، القرآن دائمًا آياته بعضها متماسك لبعض، وبعضها يبين بعض، وأنت تقرأ تجد الآية التي بعدها تبين وتبين، كل شيء يبين بعضه بعضًا.

ولذلك لو سُئلت: ما معنى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، ما معنى الطارق؟ تجد الجواب موجود، بس تجد بعض الناس يقول لك: والله ما أدري، موجود الجواب، بس أنت اقرأ بتأمل وتدبر، تجد الجواب، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٢-٣]، وهكذا تجد في القرآن أشياء بعضها يوضح بعض ويبين بعضه، ولذلك هنا قَالَ: ل ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: ٣٧]، متى؟ قَالَ: لا يملكون منه خطابًا يوم القيامة، بما وصف الله هذَا اليوم؟

قَالَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [النبأ: ٣٨]، شوف الخلق يقومون جميعًا، لكن الله ابتدأ بأعظم خلقه وأقربهم إليه، وهم الملائكة، وأَيْضًا قرب من هو أعظم وأجلّ من الملائكة، وهو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أقرب الناس إِلَى الله جبريل، أقرب الخلق، وأقرب الملائكة إِلَى الله، ولذلك وإلا الخلق كلهم يقومون، ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، الخلق يقومون لله، وهنا قَالَ: يقوم الروح لعظم الموقف، ابتدأ بمن هو أعظم، وقَالَ الروح، والروح من هو هنا؟ هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع أن المفسرين اختلفوا في المراد بالروح.

- وقَالَ بعضهم: "الروح هي أرواح بني آدم".
- وبعضهم قَالَ: "الروح هو مخلوق عظيم"، أعظم المخلوقات، هو أكبر من الملائكة.
- وبعضهم قَالَ: "الروح هنا هو جبريل"، وهذَا هو الصحيح.

والقرآن يفسر بعضه بعضا بدليل ماذا؟ أن الله قَالَ في سورة أخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، والذي نزل به هو جبريل، سماه الله الروح، وفي سورة أخرى أَيْضًا قَالَ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ [القدر: ٤]، فدل عَلَى أن الروح هنا واللهُ أَعْلَمُ، أنه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قَالَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨]، من عظم الموقف، الملائكة تقوم، وجبريل يقوم، ويقومون بهيبة وموقف كله خشوع وتذلل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك قَالَ: صفًّا، والصف هنا يدل عَلَى عِظم الموقف، وهيبة الواقفين، وخشوعهم وتذللهم لله، ولذلك قَالَ: صفًّا، وزيادة عَلَى ذلك: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ [النبأ: ٣٨]، لا يملكون منه خطابًا، ﴿ ولا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، إذا أذن الرحمن تكلم، وإلا لا يمكن لأحد أن يستطيع أن يتحدث ولا بكلمة، ﴿ يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ [النبأ: ٣٨]، وشرط آخر: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

فالمتحدث ذكر الله فيه شرطين:

الأمر الْأَوَّلُ: أنه لا يتكلم، إِلَّا إذا أذن الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الأمر الْثَّانِي: أنه لا يتكلم، إِلَّا بالصواب، ما يتكلم بأي كلام، وَإِنَّمَا يتكلم بالحق النافع، ولذلك قَالَ: ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وأنت تلاحظ تردد اسم الرحمن كم مرة؟ أكثر من مرة، والموقف موقف يعني مهيب ومخيف، ويأتي اسم الرحمن، لو تقرأ سورة مريم تكرر فيها اسم الرحمن أكثر من أي سورة في القرآن، تردد فيها اسم الرحمن من أولها لآخرها، يدل عَلَى الرحمة من الله؛ ولأن سورة مريم كلها رحمات من الله، رحم الله فيها زكريا، ورحم الله بها مريم، رحم بها الأنبياء، ذكر فيها تسعة أنبياء.

فالشاهد: اسم الرحمن، مع أن موقف رهيب وشديد، إلا أنه تأتي رحمة الله فيه، تأتي حَتَّى لا ييأس أهل الخير والصلاح والطاعة من رحمة الله، مع أنه موقف عظيم ومهيب، إِلَّا أن رحمة الله تنال مثل هؤلاء،

ولذلك قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فالرحمن له وقعه في هذِه الآيات.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، قَالَ الله في هذَا اليوم العظيم، وهو يتردد معنا، السورة كلها أصلا تتحدث عن هذَا اليوم العظيم، يقول الله فيه: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩]، أي هذَا اليوم الَّذِي ينتظره الخلق والعباد جميعًا، هو اليوم الحق، يعني لَا بُدَّ أن يقع، وَلَا بُدَّ أن يأتي ذلك اليوم الحق، هذَا اليوم ما يشك فيه لا ريب فيه، كما قَالَ الله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]، لا يشك فيه مؤمن.

ولذلك الصالحون وفقوا للاستعداد لهذا اليوم، بالطاعات، والتقرب إِلَى الله بالأعمال الصالحة، قَالَ: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ: ٣٩]، يقول: هذَا اليوم حق، وَلَا بُدَّ أن يقع، ولكن العاقل يعرف كيف يتخذ هذَا اليوم، ما الطريق الَّذِي يسلكه لهذا اليوم، حَتَّى يسعد في هذَا اليوم سعادةً ليس بعدها سعادة، هذَا اليوم أمامك، فمن شاء اتخذ إِلَى ربه طريقًا ينجو به، ومن شاء لا يتخذه، القرار بيده، ولكن فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، اعملوا ما شئتم، فالإنسان العاقل يعرف أن يتخذ.

الله عَزَّ وَجَلَّ وضع لك الآيات أمامك، ونصب لك الأدلة، قَالَ: هذَا خير وهذَا شر، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، إنا هديناه النجدين، فالطريق أمامك، فمن أراد أن يسلك النجاة سلكها، ومن أراد غير ذلك، يجد طرق الشر، فأعطاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الآلات من السمع والبصر والعقل، وأرسل إليه الرسل، وأنزل إليه الكتب، وأقام عليه الحجة، ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا﴾ [النبأ: ٣٩].

ولذلك ماذا قَالَ بعدها، حَتَّى تتأمل وتتدبر القرآن؟ قَالَ: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠]، ولاحظ ما قَالَ: إنا وعدناكم بهذَا اليوم الَّذِي فيه من يفلح وفيه من يكفر، أَوْ فيه من يفلح وفيه من يخسر، لا، قَالَ: هذَا يوم خطير عليك، انتبه هذَا اليوم ينبغي أن تستعد له أشد الاستعداد؛ لأن الله قَالَ: أنذرناكم، ما قَالَ: وعدناكم، ومعنى أنذرناكم: أي خوفناكم من هذَا اليوم، هذَا اليوم مخيف، ينبغي أن تكون عَلَى أشد الاستعداد لهذا اليوم، أشد الاستعداد بالعمل الصالح والاستعداد لهذا اليوم.

﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠]، كيف قريب؟ قَالَ: كل ما هو آتي فهو قريب، لا تظن أنه بعيد، إنهم يرونه بعيدًا ونراه قريبًا، يعني: كل ما هو آتي فهو قريب، الموت قريب، والآخرة قريبة، والقبر قريب، والمواعيد التي أنت تنتظرها بعد سنوات قريبة تأتي، كل شيء قريب.

ولذلك وصف الله هذَا اليوم بأنه قريب، ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠]، قَالَ: هذَا اليوم الَّذِي أخبرناكم به ووصفناه لكم بهذِه الأوصاف العظيمة، هذَا اليوم، ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، والمراد بالمرء هنا: المؤمن والكافر، كل هؤلاء سيجدون أعمالهم أمامهم، ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، ما قدمت من خير تجده، وما قدمت من شر، أَوْ ما قدمه الشقي من شر سيجده أمامه، كل سيجد عمله أمامه.

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، فينظر المرء ما قدمت يداه، والكافر لمَّا ذَكَرَ، ما تحدث عن المؤمن؛ لأن المؤمن عَلَى خير؛ لأن السياق في أي شيء تحذير، والإنذار قد أنذرناكم، ولذلك ما يناسب ويقول لك: إنا أنذرناكم، ثُمَّ يقول: وأهل الصلاح عَلَى خير، لا، يقول: أنذرناكم عذابًا قريبًا، وهذَا الَّذِي أنذرناكم، سيجد الكافر هذَا اليوم العصيب عليه هذَا الموقف الشديد.

ولذلك قَالَ: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠]، يتمنى الكافر أنه لم يُخلق أصلًا، ويتمنى أنه لم يبعث من قبره، ويتمنى أنه إذا جاء يوم القيامة أن يموت ويهلك، وأن يكون تراب، ﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، يتمنى أنه يكون ترابًا وينتهي أمره؛ لأنه يعرف ماذا سيواجه في نار جهنم، من العذاب الشديد المؤبد، ويتمنى أنه يهلك.

قَالَ بعض أهل التفسير: لماذا تمنى التراب، ما تمنى غير التراب؟ قَالَ: لأنه إذا رأى هذِه الدواب، والحيوانات تُبعث، والحشرات تُبعث، والطيور تُبعث وتُحاسب، ولكنها لا تُعذَّب، ويقتص بعضها من بعض، ثُمَّ يُقال لها: كوني ترابًا، فيتمنى الكافر أنه يكون مثلها؛ لأنها لن تُعذَّب.

والدليل عَلَى ذلك: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى شاتين إحداهما قرناء، والأخرى جلحاء، ليس لها قرون، فنطحت القرناء الجلحاء، فضحك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا رسول الله مما تضحك؟ قَالَ: أضحك أن هاتين ستبعثان يوم القيامة، ويُقتص من القرناء للجلحاء، يُقتص منها، يا إخوان لما تقرأ مثل هذَا الشيء، وتسمع مثل هذَا الكلام، إذا كانت حيوانات يُقتص منها، فكيف ببني آدم؟

حيوانات ما كُلِّفت في الدنيا، لم تكلف لا بأوامر ولا بنواهي، ويُؤتى بالطيور والحيوانات والحشرات، حَتَّى قَالَ في حديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يقتص من الذرة للذرة، فإن كانت والنمل والحشرات والطيور، يعني هذَا إيش يدل عليه؟ يدل عَلَى عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حكمه، وأنه أقام في هذَا اليوم العدل بين الخلق كله، المكلف وغير المكلف، فإذا كان هؤلاء الحيوانات، ويقتص منها، فكيف ببني آدم، كيف يتجرأ هذَا الإنسان أن يأخذ حق غيره، وأن يعتدي، وأن يتعرض لمال غيره، أَوْ لعرضه، يتحدث في أعراض الناس، ويأتي يوم القيامة مفلسًا من أعماله الصالحة، كل هذَا ينبغي للمسلم أن ينتبه لمثل هذَا الأمر، وأن يحذر كما قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ [النبأ: ٤٠].

وبهذا أيها الإخوة تنتهي السورة العظيمة الجليلة، الَّتِي جاء في بعض الأحاديث، وإن كان فيها مقال، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظهر فيه الشيب، فقَالَ أبو بكر: يا رسول الله شبت، قَالَ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا**»، ما هي أخواتها؟ قالوا: "الواقعة، والمرسلات، والنبأ" وغيرها من السور القريبة تتحدث عن هذَا اليوم؛ لأن هود عظيمة جدًا، سورة هود تحدثت عن اليوم الآخر، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]، وفيها آية عظيمة ذكرها أهل التفسير قالوا: إن الله خاطب نبيه محمد بقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، قَالَ هذِه أرعبت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأشفقت.

الشاهد: أن هذِه السورة التي تعرضنا لها في لقاءات ماضية، سورة عظيمة، ينبغي للإنسان أن يقرأها بتأنٍّ وبتدبر، وغيرها من سور القرآن، وألا يمر عليها مرور الكرام، ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لا تهذوا القرآن هذّ الشعر، ولا تنثروه نثر الدقل، التمر الرديء، ولكن قفوا عند عجائبه، حركوا به القلوب، لا يكن هم أحدكم آخر السورة متى تنتهي، قف وتأمل، سورة أخذت منا أوقاتًا طويلة.

ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جلس ثمان سنوات في سورة البقرة يتدبرها ويتأملها، وليس بكثير عَلَى كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أن تقضي هذَا الوقت كله مع القرآن، السورة هذِه بشكل عام حَتَّى نلخص ما مر معنا، افتتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالاستفهام الإنكاري، ينكر عَلَى الخلق، وعن الكفار، عمَّ يتساءلون عن النبأ العظيم؟ وهو يوم القيامة، أنا أعطيكم الآن ما هو النبأ العظيم.

فبدأ يشرح لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويوضح لنا، حَتَّى تقوم الحجة عَلَى الخلق، فبدأ يذكر لنا آيات الكون الدالة عَلَى قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦-٧]، ما ترونها

أمامكم، ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٧-١١]، مع كل هذِه ما تلاحظها؟ هذِه تدل عَلَى قدرة الله، وتدل عَلَى نعمته عليك، ينبغي لك أن تشكر، وأن تعرف قدر نعمة الله عليك، وتعرف قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

ولذلك لما انتهى من هذِه الآيات المشاهدة، انتقل: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، ثُمَّ ذكر أن الناس عَلَى صنفين، أهل الشقاء تنتظرهم جهنم مرصادًا، وأهل السعادة: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١]، ثُمَّ ختم السورة عودًا عَلَى بدا بتقرير هذَا اليوم، وما الَّذِي سيجري فيه، حَتَّى تقوم الحجة عللا الخلق.

تأتي بعدها إِنْ شَاءَ اللهُ لقاءات أخرى نستكمل فيها سورًا أخرى، تأتي سورة النازعات، وعبس، وغيرها يأتي الحديث عنها إِنْ شَاءَ اللهُ في لقاءات قادمة، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، واللهُ أَعْلَمُ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ النَّازِعَات)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(النازعات ١ - ٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام؛

حياكم الله في هذَا اللقاء وفي هذَا المجلس المبارك الَّذِي تحفّه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله أهله في الملأ الأعلى، نسأل الله أن لا يحرمنا هذَا الفضل العظيم، أيها الإخوة درسنا المعتاد في تفسير القرآن العظيم، في كل يوم ثلاثاء بعد صلاة العصر في لقاءاتنا الماضية كان الحديث عن سورة النبأ، تحدثنا عن هذِه السورة العظيمة وهي سورة في الحقيقة تعرض لنا حقائق اليوم الآخر، والأدلة التي ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الدالة عَلَى قدرته، وعَلَى نعمه عَلَى عباده لا يشك عاقل بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى بعث الخلق جميعًا، بل أن الله أوضح ذلك في كتابه، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وسورة النازعات وما بعدها من السور في هذَا الجزء الأخير العظيم، وهو جزء النبأ كله حديث في غالبه عن اليوم الآخر، وتقرير قضية البعث والجزاء والحساب والجنة والنار التي ينتظرها كل الخلق ينتظرون هذَا اليوم، ولابد أن يتعرفوا عَلَى هذَا اليوم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين لنا في كتابه أوضح بيان هذَا اليوم العظيم، وأنه ركن من أركان الإيمان، لا يتم إيمان العبد إلا بالإيمان بهذَا اليوم بحذافير هذَا اليوم وبتفاصيل هذَا اليوم، ولا يشك في شيء منه وهذَا اليوم الآخر يبدأ من قبض روح الإنسان، لما يموت من مات قامت قيامته وانتقل عن الدنيا إِلَى الأخرة، فيؤمن بما بعد الموت إِلَى مستقرة الأخير في الجَنَّة، أَوْ في السعير فهذِه حقائق لَا بُدَّ أن يتعلمها الإنسان والله أوضحها.

ولما كان المشركون والذين يحكمون عقولهم سواء من أهل الجاهلية قبل الإسلام، وفي أول الإسلام أَوْ لا يزالون يحكمون عقولهم، ينكرون قضايا غيبية مثل قضية الإيمان باليوم الآخر، وبعث الناس ومجازاتهم عَلَى أعمالهم، قرر القرآن بل القرآن؛ يعني كاد أن يكون حديثًا عن اليوم الآخر، ولا تجد سورة من سور القرآن إلا وتجد فيها التصريح أَوْ الإشارة إِلَى مسألة وقضية الإيمان باليوم الآخر، فالإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، لا يقوم إيمان العبد إلا بتحقيق هذَا الركن، ومعرفته معرفة اليوم الآخر،

وهناك حقائق لَا بُدَّ أن يقف عليها الإنسان لَا بُدَّ أن يتعلمها، والقرآن الكريم كما ذكرنا وخاصة الجزء الأخير، سورة النازعات أَيْضًا من السور التي قررت قضية اليوم الآخر، وجاءت بصور لم تأتِي بها السورة التي قبلها ولا التي بعدها.

وأنت تقرأ القرآن وتلاحظ أن مثلًا سورة النبأ لها طريقتها في عرض اليوم الآخر، لما تنتقل إِلَى سورة النازعات تجد أن لها أيضًا طريقًا في عرض اليوم الآخر، صور وطرق وأساليب يعرضها القرآن بعدة وجوه تقرر قضية الإيمان باليوم الآخر، وهكذا كل ما تأتي إِلَى سورة تجده، لما يأتي في سورة النبأ يقول: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨].

لما نأتي إِلَى سورة النازعات نقول: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤]، لما نأتي إِلَى سورة عبس يقول لك: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، يعطيك صور طامة، صاخة، يوم ينفخ في السور، وهكذا يعطيك القرآن، بل القرآن ذكر لنا أسماء اليوم الآخر كثيرة جدًا، القرآن الكريم لو تتبعت أنت القرآن الكريم لوجدت أن اليوم الآخر له أسماء كثيرة، وتعدد الأسماء هذِه قاعدة، تعدد الأسماء يدل عَلَى عظم المسمى، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الأسماء الكثيرة، له الأسماء وتعدد أسمائه يدل عَلَى عظم المسمى، وهكذا اليوم الآخر القرآن كثير تجد له أسماء كثيرة يدل عَلَى عظم هذَا الشيء.

الحقيقة لما ينبغي للإنسان حقيقة لما يقرأ القرآن لا يقرأه كما يقرأ أي كلام، القرآن كلام رب العالمين وجاء معجزًا للعرب قاطبة، جاء معجزًا بجميع وجوه الإعجاز، بل أساطيل العربية، وأهل البلاغة العربية وقفوا من القرآن مواقف محيرة لهم تحيروا فيها، لعظم هذَا القرآن الكريم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول في كتابه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وقَالَ في آية أخرى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، وقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية أخرى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ [إبراهيم: ١]؛ يعني آيات كثير كلها تدل عَلَى عظم هذَا القرآن، وأن معجز وأن الله تحدى به الثقلين، ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٨٨].

تحداهم الثقلين جميعًا، وتحدى كل من يستطيع من أساطيل العربية أن يأتي ولا بكلمة واحدة، ولا بحرف ولا بآية ولا بسورة، العجيب أيها الإخوة؛ يعني هناك قصص يذكرها أهل العلم مواقف من كثير، حَتَّى ذكر السيوطي رحمه الله تَعَالَى في كتاب ألفه صغير، عن الَّذِين ماتوا وصعقوا بسماعهم القرآن، ذكر

عدد ممن قرأ عليه القرآن فصعق، ومنهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى شدته وقوته لما قرأ في صلاة الفجر، سورة المدثر ووصل قوله تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ [المدثر: ٨]، سقط مغشيًا عليه وحمل إِلَى بيته، وجلس مدة في بيته.

فالقرآن مؤثر جاء رجل من أعداء الإسلام، ومن أشد الناس عداوة لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولدعوته، وهو الوليد بن المغيرة لما جاء إِلَى النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يا محمد فرّقت عشيرتك وفعلت يا مُحَمَّد، ماذا تريد؟

تريد نزوجك، زوجناك نعطيك مال نرأسك علينا أنت رئيسًا، وأنت سيدنا وأنت، فقَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا وليد اسمع مني، فقرأ عليه سورة فصلت حَتَّى وصل قوله تَعَالَى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، فوضع الوليد يده عَلَى النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَالَ: كفى يا محمد كفى، وقد تأثر بالقرآن فلما جاء إِلَى قومه، قَالَ: ماذا قَالَ لك محمد؟ قَالَ: قرأ عليَّ شيئًا لم أسمعه أبدًا إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه مثمر، وأسفله مغدق وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وإنه يحطم ما تحته، فشوف كيف تأثر بالقرآن.

ذكر عن الفرزدق الشاعر المعروف، أنه لما قرأ آية في سورة يوسف وهي، ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، فسجد عندها قالوا: للفرزدق ليست موضع سجدة هذِه كيف تسجد عندها؟ قَالَ: لبلاغتها، ورجل أعرابي سمع قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، فسجد عندها، قَالَ: سجدت لبلاغتها القرآن بليغ أيها الإخوة، أنا لا أريد أن أدخل في هذَا الموضوع موضوع الإعجاز القرآني، وتحدي الله عَزَّ وَجَلَّ للبشرية بهذَا القرآن قاطبة إِلَى هذَا العصر، وإِلَى ما بعد هذَا العصر حديث يطول لكن بين أيدينا آيات مهمة ولابد أن نقف عندها، ولا نريد الإطالة عليكم، سورة النازعات كثير منا يقرأها والكثير منا يحفظها، لكن حقيقة هي تحتاج منا إِلَى تأمل وتدبر ودخول في عمق هذِه السورة، هذِه السورة تقر لنا حقائق مهمة.

أول حقيقة الإيمان بالملائكة وبأوصافهم، ذكر الله أوصافا في أول السورة، خمس أوصاف للملائكة، النازعات، الناشطات، السابحات، السابقات، المدبرات، لَا بُدَّ أن نعرف وعالم الملائكة عالم عظيم يحتاج

منا إِلَى أن نجلس معه جلسات طويلة، الآن في صلاة العصر يتعاقبون فيكم ملائكة الليل وملائكة النَّهَار، ملائكة الليل تنزل الآن، وتصعد ملائكة النَّهَار.

عالم الملائكة عالم عظيم حقيقة عالم الملائكة الآن كم ينزل كما في قوله تَعَالَى؟ ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٣]، تسبح في الجو صاعدة نازلة، عالم عظيم ماذا يصنع؟ أُسندت إليه أعمال عظيمة ماذا يصنعون؟ ما من ميت الآن في هذِه اللحظة، إلا الملائكة تقبضه وليس ملك الموت فقط معه ملائكة الرحمة أَوْ ملائكة العذاب، كم يموت الآن في لحظة واحدة عَلَى هذِه البسيطة؟ كم ينفخ في جنين في بطن أمه الآن؟ ينزل الملك، وينفخ فيه شي يعني ما تتصوره أنت، في أعمال الملائكة الآن كيف يعملون ما هم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر في هذِه السورة خمس أوصاف فَقَطْ، لكن أوصاف الملائكة كثيرة بالقرآن الكريم جدًا، إذًا قضية الإيمان بالملائكة، قضية الإيمان بالموت والنازعات الناشطات، قبض الأرواح قضية الإيمان بالموت، الموت حتم ولابد كل إنسان أن يذوق، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، لَا بُدَّ هذَا الباب لَا بُدَّ أن يلجئ معه كل الخلق، من بني آدم أَوْ من الجن أَوْ من الملائكة، أَوْ من الحيوانات، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

فإن قضية اليوم الآخر، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧]، وهكذا القرآن بعد ما يقرر أَوْ يذكر هذَا اليوم الآخر، ودعوة النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرض لنا من قصص السابقين عبرة وعظة لنا، ومن هذِه القصص قصة فرعون الطاغية، الَّذِي وصل في طغيانه وتكبره إِلَى أن قَالَ: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ۝٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٤-٢٥]، يذكر الله قصته هنا لماذا؟ ماذا قَالَ في آخرها؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦]، وكلمة الخشية هذِه السورة جوها جو الخشية، هي تتحدث عن الخوف والخشية، يقول: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٩].

وقَالَ بعدها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦]، وقَالَ في آخرها: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، إذًا كلمة الخشية والخوف لها دلائل في السورة؛ يعني الجو جو خشية، وجو خوف وذعر أمام هذِه الآيات وأمام هذَا الشيء العظيم، حَتَّى تلاحظ أن سبب النجاة والسلامة ما هو؟ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [النازعات: ٤٠]، فدلائلها عظيمة ولا تشبع من أن تتأمل هذِه السورة، وتجد وراءها كنوز عظيمة لا تنتهي.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتحدى في إظهار قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الخلق، فيقول: أأنتم أشد خلقا؟ خلقكم أشد أم السماء، والأرض؟ لخلق السماوات والأرض أعظم وأكبر من خلق بني ادم، فكيف تتحدونه؟ ثُمَّ يذكر لك دلائل قدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٨-٣٠]، إلى آخره ثُمَّ تعرض السورة لنا مصير الخلق، ما في أحد إلَّا في يمين أَوْ شمال، ما في طريق آخر تعرض لنا مصير الخلق وتركز السورة هنا ليست كعرضها في سورة النبأ، تركز عَلَى أي شيء تركز عَلَى أسباب النجاة وأسباب الهلاك، ما سبب نجاة من نجا؟ ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

ويعرض القرآن شيء عظيم في عرض يوم القيامة للنَّارِ، قَالَ: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ [النازعات: ٣٦]، وكلمة برزت هذِه وقف عندها أهل البلاغة واللغة، إبراز الشيء إظهاره حَتَّى لا يخفى عَلَى أحد، النار إذا جاء يوم القيامة لا يمكن أن تخفى على أحد، برزت الجحيم.

ولاحظ أنه قَالَ هنا: الجحيم في سورة النبأ، قَالَ: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ [النبأ: ٢١]، كلمة جهنم والجحيم والحطمة هذِه أسماء للنَّارِ، أسماء كثيرة تدل الأسماء عَلَى عظم هذَا المسمى، فلاحظ هذِه دلائل عظيمة حقيقة؛ يعني تحتاج منا إلَى أن نتأمل هذِه السورة وإلَى أن نقف معها الحقيقة أنا لا أريد أن أدخل في السورة في تفاصيلها وبداية آياتها، لأن الوقت يضيق علي ولا أريد الإطالة عليكم، وأنا أعطيكم الفرصة وإلا الحقيقة لا المجلس حقيقة لا يمل، وتدبر القرآن والعيش مع القرآن والله لو مضت حياة الإنسان كله وساعاته وعمره في تدبر القرآن، لم يكن ذلك كثيرًا عَلَى كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

السورة تحتاج منا إلَى تأمل وإلَى وقفات وليس بكثير في حديثنا السابق أن عرضنا إلَى عظمة هذَا القرآن الكريم، وإلَى هذِه السورة عما تتحدث ما الحقائق التي تقررها هذِه السورة، ثُمَّ الدخول في تفاصيلها وقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والله لا يقسم إلا بشيء عظيم يقسم الله بصفات الملائكة والنازعات، عَلَى أي شيء يقسم عَلَى تقرير الإيمان باليوم الآخر وأنه، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦-٨]، فلعلنا إِنْ شَاءَ اللهُ لنا لقاء إِنْ شَاءَ اللهُ في تفاصيل هذِه السورة وأخذ هذِه الآيات

آية من أولها إِلَى آخرها في لقاء قادم بِإِذْنِ اللهِ، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا ويجعلنا وَإِيَّاكُمْ ممن يستمع، فيتبع أحسنه وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير واللهُ أَعْلَمُ.

(النازعات ٣ - ١٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام؛

حياكم الله في هذَا اللقاء المبارك وفي هذَا اليوم، في اللقاء الماضي كنا نتحدث عن سورة النازعات، تحدثنا عنها من حيث ما تتكلم عن هذِه السورة من موضوعات، ما اشتملت عليه، ومن مقاصد تهدف إليه وغايات ترمي إليها هذِه السورة العظيمة، وتبيَّن لنا أن هذِه السورة من سور القرآن الجليلة، التي تتحدث عن أمور عظيمة حقيقة يحتاج إليها المسلم أن يتأملها، وأن يتفكر فيها وأن يتعرف عليها.

من أعظم هذِه الأمور التي تحدث عنها السورة مبنية عليها هي ما يتعلق بيوم الميعاد أَوْ باليوم الآخر، وما يجري فيه وما أوضح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذِه السورة من هذِه الأمور المتعلقة بما يجري يوم القيامة، وافتتح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذِه السورة بالقسم، ومن طريقة العرب ومنهج العرب في لغتهم وبلاغتهم، أنه إذا أراد أن يخاطب المخاطب فإنه أن كان المخاطب مترددًا أَوْ منكرًا فإنه يؤكد ذلك بالحلف، والقسم هذِه طريقة العرب، والقرآن جاء عَلَى سيرتها وطريقتها.

وتلاحظ أنت وأنت تقرأ هذِه السورة أن الله أقسم بأمور عظيمة وأقسم بصفات عظيمة، وهذِه ليست في هذِه السورة فقط تلاحظ أن كثيرًا من سور القرآن تفتتح بالقسم، وأنت تتأمل وتقرأ هذَا القسم لَا بُدَّ أن يكون من وراء هذَا القسم أمورًا أقسم بهذَا الشيء لأجلها؛ يعني وهو ما يسمى عند العرب، أَوْ ما يسمى عند المفسرين بجواب القسم؛ يعني أقسم الله عَلَى شيء هذَا الشيء ما هو الَّذِي أقسم الله عليه ما الَّذِي جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يقسم عليه فأنت تقف عند هذِه هذَا الأمر وتتأمل، لماذا أقسم الله عَلَى هذَا الشيء؟ هذَا أمر، الأمر الثاني أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يقسم إلا بأمر عظيم، إذا أراد الله أن يقسم بشيء فإنه لا يقسم إلا بأمر عظيم من الأمور التي تستحق أن يقسم بها.

و من الأمور العظيمة التي أقسم الله بها أولا أنه أقسم بنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقسم بنفسه في آيات كثيرة، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، وأقسم بنبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقَالَ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وأقسم بالملائكة العظام كما في هذِه

السورة يقسم بالملائكة، ويقسم بصفات الملائكة أقسم الله الملائكة هنا، فقَالَ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ١-٢]، وأقسم أَيْضًا في سور أخرى مثل، ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا﴾ [الصافات: ١-٢]، وغيرها.

إذًا أنت تتأمل أن الله لا يقسم إلا بشيء عظيم، ويقسم بآياته المشاهدة الكونية، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ١-٢]، ويقول: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ١-٢]، أنت تتأمل أن الله لا يقسم إلا بشيء عظيم، فتقف عند هذَا الَّذِي ينبغي لك عندما تريد أن تتدبر القرآن الكريم، أن تقف عَلَى مثل هذه الأشياء، طيب الملائكة عالم غيبي أقسم الله بهذَا بصفاتهم بأعمالهم بوظائفهم في هذِه السورة، أقسم بها والملائكة عالم غيبي يتميز المؤمن عن غيره بالإيمان بعالم الملائكة، عالم غيبي لا نراه ولا نسمعه ، ولا نرى وإنما نؤمن بما جاءنا من وحي بالإيمان بالملائكة.

من هم الملائكة؟ الملائكة من أي شيء خُلقوا؟ هل خُلقوا من طين، أو خُلقوا من نار، أو من أي شيء؟ نقول خلقوا من نور، هل هم يأكلون أو يشربون أو ينامون أو يتناكحون؟ لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون، هذِه أمور ينبغي للمسلم أن يتعلمها أو يفهمها دأبهم وعملهم في اَللَّيْل وَالنَّهَار، لا يقفون في عبادة الله والخضوع لله والاستجابة لأمر الله، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ولذلك ذَكَرَ الله لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذَكَرَ لنا أعمالهم في القرآن الكريم كثيرة وبجب عَلَى المؤمن أن يؤمن بعالم الملائكة، لأنه ركن من أركان الإيمان ويؤمن بهم وبما جاء عن أسمائهم، كجبريل، وميكائيل وإسرافيل وغيرهم من أسمائهم ويؤمن بوظائفهم، ويؤمن بأنهم رسل الله الكرام، ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١-١٢].

وغير ذلك من الإيمان الَّذِي ينبغي للمسلم أن يتعلمها وأن يؤمن بها ويعلم أن الملائكة عدد هائل لا يتصوره الإنسان، أعداد هائلة ملأت السماوات والأرض وتطلع وتنزل عَلَى الأرض، ولذلك وصفهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا وينبغي لنا أن نتأمل هذه الأوصاف يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١]، هذَا قسم الواو واو القسم، يقسم الله العظيم الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقسم بعظيم يقسم

بصفة من صفات الملائكة، ما هي هذِه الصفة؟ هؤلاء الملائكة هم الموكلون بقبض الأرواح، هؤلاء هي صفاتهم: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ١-٢]، إذًا هاتان صفتان.

أولًا: ما معنى النازعات غرقًا، وما معنى الناشطات نشطًا، وعلَى ما تدل هذه؟

النزع أولًا: هو أخذ الشيء بقوة، نزع وفي قوله تَعَالَى: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا﴾ [الطور: ٢٣]، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧]، أخذ الشيء بقوة طيب، والناشطات قَالَ: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ٢]، هي نشط الشيء؛ بمعنى إطلاقه أَوْ أخذه بهدوء وسلاسة، إذًا عندنا أخذ وأخذ إذا هناك أرواح مختلفة أرواح الناس مختلفة، منهم من تأخذ الملائكة روحه بنزع وقوة، وهذَا في حق الكافر فقوله تَعَالَى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١]، أي الملائكة التي تنزع أرواح الكفار نزعًا بقوة بشدة، كما يُنزع الشوك أَوْ السفود من الصوف المبلول، تشوف الشوك إذا كان في صوف مبلول كيف ينزع بقوة، تنزع الملائكة بل يضربون وجوههم وأدبارهم كما في القرآن الكريم، وتنزعها بقوة.

ومعنى غرقًا، أي أنها تنزعها بشدة وقوة وتوغل في أخذها إِلَى نهاية الشيء، ولا يعني تتردد في نزع هذِه الروح بشدة، وهو يتحسر الكافر وأحيانًا تجده يعاني بشدة من هذِه الروح التي يأخذها ملك الموت بشدة وقوة وينزعها بشدة بقوة هذَا في حق الكافر.

أما في حق المؤمن في الجانب الآخر قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ٢]؛ بمعنى أن الملائكة تنزع أو تأخذ، روح المؤمن بهدوء وسلاسة حَتَّى أنه لا يشعر ولا يحس بذلك، كما جاء في الحديث قَالَ: «**مِثْلَ القَطْرَة عِنْدَمَا تَنْزِل مِنَ السَّقاء مَا تَشْعُر بِهَا**»؛ فيعني حَتَّى لا يتأذى المؤمن الصالح العابر التقي، لا يتأذى بخروجه لذلك نسمع قصصًا كثيرة تجده ساجد وخرجت روحه، تجده جالس بجنبه وخرجت روحه، لا تشعر به لأن الملائكة ترفق به رفقًا شديدا فقوله: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ٢]، وأخذها بهدوء وسلاسة وطمأنينة، هذِه من صفات المؤمنين وتلاحظ أنها تتعلق بأي شيء تتعلق بالموت، سيأتيك الآن أحوال عن الموت وما يلاقيه بعد الموت.

ولذلك قَالَ: ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾ [النازعات: ٢-٣]، والسابحات سبحا ما معناها؟ من السبح والسبح السير بسرعة والسابح في الماء وفي البحر يسبح بسرعة، وهذِه من صفات الملائكة بأنها تسبح في الأجواء، وفي الكون طالعة نازلة تدبر يأمرها الله بأعمال، فتنزل وتطلع تطلع بأعمال

العباد، وتنزل وهكذا وتأخذ الأرواح، إذا قبضت روح الإنسان المؤمن بمجرد قبض الملك الموت لها هناك ملائكة مع ملك الموت، تأخذها ومعهم حنوط، وكفن من الجنة تأخذ هذِه الروح وتصعد بها إِلَى السماء، فتفتح لها أبواب السماء فهذَا معنى والسابحات سبحا.

قَالَ بعدها: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات: ٤]، تلاحظ أن جاءت فاء هنا الأول واو، ثُمَّ جاءت فاء فرق بين فاء وعند أهل اللغة، والواو الفاء تدل عَلَى ترتيب شيء عَلَى شيء، لما أقول لك الآن ادخل المسجد فصلِّي ركعتين إذًا هذَا رتب شيء عَلَى شيء، دخلت فصليت لما تقول ادخل المسجد وصلِّي ما في ترتيب في تساوي؛ فمعنى قوله تَعَالَى: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات: ٤]، هذَا إشارة إِلَى أنهم في هذِه الأمور يتسابقون لطاعة وتنفيذ أوامر الله التي يأمرهم بها، أنهم لا يترددون بل يسارعون في ويسابقون إِلَى تنفيذ أوامر الله، لا يترددون في هذَا الأمر بل يسارعون إليه، قَالَ: ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ [النازعات: ٤].

قَالَ: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وهذَا واضح أنها تدبر أمورًا عظيمة في الكون من إنزال المطر ومن إرسال الأرزاق ومن النفخ في أرواح الأجنة، ومن الأعمال وما يتعلق بذلك، تدبر بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهي تعمل ليلًا ونهارا لا يفترون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، لما أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وذكر أن هذِه الصفات الخمس المتعلقة بالملائكة، وأنت تؤمن بالملائكة وبوظائفهم وبأعمالهم الَّتِي كلفهم الله بها يقسم الله على أي شيء.

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]، أقسم عَلَى هذَا اليوم العظيم تحقيقًا لهذَا اليوم، وردًا عَلَى من يستبعد هذَا اليوم أَوْ من ينكر هذَا اليوم ولا يؤمن به، فرد الله عليهم بتحقيق والإيمان كأنهم يرونه رأي العين، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]، وهذِه هي النفخة الأولى، كما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

ومعنى قوله تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]، هذِه الآية تجدها مفسرة في كتاب الله، كما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤]، وقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في موضع آخر: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، يهز الشيء ورجه بقوة، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]، قَالَ بعدها: ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٧]، وهذِه هي النفخة الثانية.

النفخة الأولى ما هي، وما حقيقتها؟ النفخة الأولى هي نفخة الصعق والموت والهلاك بحيث أنه يصعق كل من في السماوات والأرض حَتَّى الملائكة تموت، وحتى الخلق كلهم يموتون الخلق كلهم من بني آدم وغيرهم ويخرب الكون تخرب الأرض، تتساقط ما عليها من بنايات وجبال وأشجار حَتَّى تصبح أرضًا مستوية، فإذا استوت الأرض ولم يكن عليها شيء مرتفع ولا منخفض قاعًا صفصفا، نفخ النفخة الثانية، وهي قوله تَعَالَى: ﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٧].

جاء عن النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ما بين النفختين أربعين، يحتمل أن يكون أربعين سنة أربعين شهرًا أربعين يوما، هي أربعون الله أعلم بذلك بينهما أربعون بين النفختين، فإذا نفخ في النفخة الثانية فإذا هم قيام ينظرون، وإذا هم للأجداث إِلَى ربهم ينسلون يخرجون، قَالَ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦-٨]، قلوب من؟ قلوب الكفار، أما المؤمنون قلوبهم مطمئنة لا يحزنهم الفزع الأكبر، وأما الكفار قَالَ الله في حقهم: حَتَّى يتضح لك أن ذلك في حق الكفار اقرأ ما بعدها من الآيات.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٨]؛ يعني خائفة وجلة؛ يعني أصابها الخوف والشدة، ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨-٩]، أي أبصار أصحاب هذِه القلوب، وإنما قَالَ: أبصارها وكونها عائدة إِلَى القلوب، لأن المقصود أصحاب القلوب التي ترجف قلوبهم أبصارهم خاشعة، أي ذليلة خائفة وجلة ذليلة مهانة، ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ٩-١٠]، هذَا حال من؟ حال الكفار الَّذِين ينكرون البعث.

﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]، ما هي الحافرة؟ ما يرجع الإنسان إليه، ولا يلزم أن تكون أرضا محفورة لا ما يرجع الإنسان إليه، لأن الأنسى إنسان لما يمشي يحفر الأرض بقدميه فهو يريد هل نستطيع، ﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]؛ يعني إذا متنا في وانتهينا ودفنا في قبورنا وتمزقنا وأكلتنا الأرض هل من يمكن أن نعود مرة أخرى إِلَى الدنيا؟ هذَا ما كانوا يستبعدونه ما كانوا ينكرونه، ويستبعدونه.

﴿يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ [النازعات: ١٠-١١]، هذَا دليل عَلَى أنها في حق الكفار، ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ [النازعات: ١١]؛ يعني بالية متمزقة قد نخرها الزمان، تكسرت

وتمزقت وتلاشت، ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١١-١٢]، قالوا أي الكفار: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢]، أي رجعة لا يمكن أن تكون وإن كانت خسرناها، فهم يستبعدون هذَا اليوم، يستبعدون بعث الناس؛ يعني وإعادة الناس وإخراجهم من قبورهم ومجازاتهم كل ذلك ينكرونه، ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً﴾ [النازعات: ١١]، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ردًا عليهم بالرد القوي المزعج.

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٣]، والزجرة هي الصيحة يصيح، يقول: زجر البعير إذا صاح عليه أَوْ صاح به؛ بمعنى الصيحة أي فإذا هي فإنما هي زجرة واحدة صيحة، يصيح بهم إسرافيل ينفخ في البوق أَوْ في الصور، فيخرجون من الأجداث، فإنما هي زجرة واحدة، والله بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آيات أخرى قَالَ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، أَوْ ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وفي آيات أخرى كثيرة تبين حالهم، ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾ [يس: ٥٢]، هذَا ما وعد الرحمن.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، ما هي الساهرة؟ هي الأرض التي لا نوم فيها هم كانوا ينامون عَلَى الأرض، وظنوا أنهم في قبورهم نائمون، ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾ [يس: ٥٢]، فقَالَ: لا نوم بعد ذلك ما في نوم انتهى النوم خلاص ما ليس هنا، ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤]، أي عَلَى وجه الأرض للجزاء والحساب، هذَا وصف دقيق عجيب يذكِّر بهذَا اليوم العظيم، الَّذِي سيقفه كل إنسان.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من عظم هذَا اليوم العظيم الَّذِي ينبغي للمسلم أن يستعد له، أن يتأمله أن يتعرف عليه وأن يستعد له أشد الاستعداد، الله عَزَّ وَجَلَّ عظمه وبينه غاية البيان، بل أقسم بملائكته العظام عَلَى تحقيق هذَا اليوم ونفوذ هذَا اليوم، وأنه لَا بُدَّ أن يقع ولكل مسلم أن يكون مستعدًا لهذا اليوم.

بعد ما بين لنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حقيقة هذَا اليوم تنتقل الآيات بعد ذلك إِلَى عرض قصة من قصص السابقين المهلكين، رسالة لكل من ينكر رسالة لكل من يتساهل في هذَا اليوم، رسالة لكل من يرد الحق ولا يقبله، فماذا جرى لفرعون لما أنكر وطغى في الأرض أخذه الله نكال الآخرة والأولى، ولذلك ختمها

الله بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٦]، يأتي الحديث إِنْ شَاءَ اللهُ، عن قصة فرعون التي ساقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعبرة في سورة النازعات، نقف معها إِنْ شَاءَ اللهُ في لقاء آخر واللهُ أَعْلَمُ.

(النازعات ١٥ - ٢٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَيُّهَا الأخوة الكرام؛

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، حياكم الله في هذَا اللقاء المبارك، وفى هذَا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للثالث والعشرين من شهر شوال، من عام ثلاثة وأربعين وأربعمائة وألف من الهجرة، درسُنا المعتاد في كل أسبوع مع تفسير القرآن العظيم، وكانت لنا وقفات مع سورة النازعات الَّتِي اشتملت عَلَى عِدة قضايا مهمه تهُم المسلم.

ولازلِنا في هذِه السورة، بدأنا في أولها، واتضح لنا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد أقسم بالملائكة، وهى خلق عظيم، لا يعلم عددهُم إِلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أقسم بِهِم لشرفهم ولمكانتهم، فقَالَ: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١]، وَهذَا القسم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقسم بمن شاء، ولا يقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَّا بأمر عظيم عَلَى شيء عظيم، فلا يقسم بأي شيء.

يقسم بالملائكة لِمكانتهم وعِظم خلقهم، وأيضًا وظائفهم، وأعمالهم، وصفاتهم، يقسم بمخلوقاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقسم بما شاء، وليس للمخلوق أن يقسم إِلَّا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فليس للمخلوق أن يقسم بما شاء، وَإِنَّمَا من كان حالفًا فليحلف بالله، أَوْ ليصمت، فلا يجوز أن يحلف بمخلوق، ولا يجوز أن يقول: وَالنَّبِيّ، أَوْ أن يقول: وحيات فلان، أَوْ وحياتك أنت أَوْ نحو ذلك، وَإِنَّمَا من كان حالفًا فليحلف بالله أَوْ ليصمت، يحلف بالله، باسم من أسمائه أَوْ بصفه من صفاته، فبعزة الله يقسم، والذى نفس مُحَمَّد بيده، والذى نفسى بيده ونحو ذلك.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقسم في هذِه السورة عَلَى أمر عظيم، وهو قضية البعث، والجزاء، والحساب، بعث الناس من قبورهم، ومجازاتهم عَلَى أعمالهم، ومصيرهم في جنة أَوْ نار، ثُمَّ بيان بعد ذلك يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بعد ما بيَّن حقيقة اليوم الأخر، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧]، إِلَى آخر الآيات الَّتِي أوضح الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حقيقة اليوم الآخر.

بعد ذلك يسوق الله لنا قصة من قصص القرآن العظيم، والقصة قرآنيه تختلف عن أي قصة من قصص البشر، قصة قرآنيه يَعْنِي: هي حقائق واقعية، بِخلاف قصص البشر، قد تكون حقائق، وقد لا تكون حقائق، فهي حقائق واقعية، والله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى يقول: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وكذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أوضح من خصائص القصة القرآنية، أنها تأتى للعِبْرَةِ، والعظة، وتسلية من يعاني في دعوته، وأيضًا عظة وعبرة لمن يصادم هذِه الدعوة.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكر لنا قصص كثيرة في القرآن الكريم، وبيَّن الحكمة منها، ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، هذَا قصص القرآن لها دوافع، لها أهداف، لها مزايا، ليست كأي قصص من القصص التي تُروى وتُذكر.

أنت لما تقرأ هذِه السورة، وتمر عَلَى قصة موسى مع فرعون، قف عندها وتأمل مع وجازتها مع اختصارها، إلا أنك تجد فيها أشياء عجيبة، ووقفات، وتأملات عجيبة، ودروس، ومواعظ، وأهداف، اسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥-١٦]، شوف هذَا الأسلوب، أولًا إذا أردت يعني أن تقول مثلًا: ما الحكمة من اختيار قصة موسى مع فرعون في هذِه السورة، وما الرابط بينها وبين ما جاء قبلها، لأن القرآن الكريم فيه ترابط في آياته، فيه تماسك، فيه نظم، يعني لم تأتى هذِه الآية عبثاً، وُضعت هذِه الآية بعد هذِه الآية لحكم، ولأهداف، وفيه ترابط وتناسق، يُسميه أهل العلم وأهل التفسير: مناسبة الآيات بعضها إِلَى بعض، ترابط الآيات بعضها إِلَى بعض.

فرعون لما جاءه موسى، وذكَّره بالله، وخوفه بالله، وبيَّن له الآيات العظيمة، ماذا كان موقفه هو وقومه، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ [الزخرف: ٤٧]، وهنا يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موقف المشركين، لما ذكرهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باليوم الآخر، والجزاء، والحساب، وَالجَنَّة، وَالنَّار، مَاذَا كان موقفهم كما في هذِه الآية؟ قَالَ: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١١-١٢]، يَعْنِي: لو رجعنا يستهزئون يسخرون.

نقول: لو فرضنا عَلَى كلامك يا محمد أن الله سيبعثنا، ويبعث آبائنا، ويجمع الأولين والآخرين، ﴿إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢]، يَعْنِي: سنخسر، لو رجعنا سنخسر، يَعْنِي: يستهزئون ويسخرون كما كان فرعون يسخر من موسى، ومن الآيات التي رآها من موسى، لم يذعِن، ولم يقِر، وَإِنَّمَا أخذ يستهزئ ويسخر.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [النازعات: ١٥]، الخطاب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولمن يخاطب، كل من يخاطب بهذا الخطاب يقرأها، ينبغي له أن يقف عندها، مخاطبة الله عَزَّ وَجَلَّ، الله يخاطب كل إنسان، فيقول: يا مُحَمَّد، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [النازعات: ١٥]، وأنت هل سمعت بقصة موسى، ما مر عليك ولم تسمع بقصة موسى؟

وَهذَا الأسلوب يُسميه أهل العلم: أسلوب استفهامي يفيد التشويق، تشتاق أن تسمعه، ما آتاني ولم أسمع به، أتمنى أن أسمع بهذه القصة، حتى آخذُ منها الدروس والعبر، ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥-١٦]، عند جبل الطور، لما جاء راجعاً إِلَى بلده من مَدين، وفر إِلَى مَدين، وأقام فيها عشر سنين، ثُمَّ رجع، فلما قضى موسى الأجل، ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، فلما وصل ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]، ناداه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وكلمه، ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]، فناداه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات: ١٧]، هذِه صفة فرعون، اذهب إِلَى فرعون يا موسى، اذهب داعياً إِلَى الله وناصحاً له، ومنقذاً له من النَّار.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤]؛ طغى يَعْنِي: تجاوز الحد في العتو والفساد، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣]، فتعالى، وتعاظم، وتجاوز الحدود في الطغيان والفساد في الأرض، إنه طغى، قال: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات: ١٨]، إذاً لمن هذِه الرسالة، هذِه القصة تساق لمن؟ تساق لكل طاغية يسرف عَلَى نفسه بالذنوب والمعاصي، والعلو، والعتو في الأرض، هذِه الرسالة توجه إليه، وتوجه لكل داعية أن يدعو إِلَى الله، وأن يصبر.

وَهذِه القصة لما ساقها الله، ساقها في وقت يحتاج إليه نَبِيِّنَا مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأشد الحاجة، لما يواجه من عتو المشركين، وطغيانهم، واستهزائهم، وسخريتهم بمحمد وبدينه، تأتي هذِه القصة تُسلي مُحَمَّد

تسليه، وتعطيه النتيجة، ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥]، وتعطيه نتيجة كل طاغية عَلَى مر السنين، هذِه نتيجة الطغاة، وتُسلي مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتُسلي كل داعية أن يصبر في طريقه وفي دعوته إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الصبر، والاحتساب، والتحمل، حَتَّى تأتي النتائج.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۝١٧ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات: ١٧-١٩]، شوف أسلوب استفهامي، ما قَالَ: قُم وتزكى وأسلم، وَإِلَّا سيأتيك العذاب، ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤-٤٥]، هل لك إِلَى أن تزكى يا فرعون، ما تريد أن تُزكي نفسك، ما تُريد أن تُطهر نفسك، تبعد عن كل ما يسوء نفسك من الذنوب، والمعاصي، والإسراف، والطغيان، ألا تُريد أن تبتعد عن هذَا الطريق، تُزكي نفسك، وتُطهرها، وتبعد عن هذِه الأشياء، تبعد عن الشِّرْك، والكُفر، والطغيان، والاستبداد في الأرض، ألا تُريد هذَا؟

﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٨-٢٠]، أدُلك عَلَى الله، فإذا عَرفت الطريق إِلَى الله جاءت الخشية، ومادام أنك عَلَى طغيانك وإسرافك، لن تحصُل لك التزكية، ولا الهداية، ولا الخشية، إذا أنت بقيت عَلَى ما أنت عليه، وهذه يُسميها أهل العلم: التخلية قبل التحلية، تتخلى قبل أن تتحلى، أولًا: تتخلى عن الذنوب، والمعاصي، والطُغيان، والإفساد، ثُمَّ بعد ذلك تتحلى بهذا العلم.

لكن لا يمكن أنك تتحلى وأنت مازلت يعني مُشرك بالله وتعبُد مع الله إله آخر، تُريد أن تدخُل الجَنَّة، تُشرك بالله وتُريد أن تكون من المُسلمين، ومن المؤمنين، ومن الأتقياء، أولًا: ابتعد عن هذَا الطريق، وزكي نفسك، وطهر نفسك، واغسلها من الذنوب والمعاصي، ثُمَّ تعال وأقبل، هذَا يكون لكل مُشرك، لكل طاغية، لكل مسرف، لكل عاصي يريد أن يتوب، قبل أن تتوب أَقلع عن هذِه الذنوب والمعاصي، واندم عَلَى ما حصل من هذَا، ثُمَّ اعزم عَلَى طاعة الله، وادخُل في سلك الطاعة، تدخُل في سلك الطاعة وأنت مازلت فيما أنت عليه؟

ولذلك قَالَ: ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ [النازعات: ١٨]، تُزكي نفسك بالبعد عن الذنوب، والمعاصي، والطغيان، ومُحادة الله، والمُجاهرة بالمعاصي، ابعد عن هذَا، ثُمَّ أقبل عَلَى الله، فإذا أقبلت وعَرفت الله، وعَرفت الطريق إِلَى الله، بعد ذلك، ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ﴾ [النازعات: ١٩]، جاءت الخشية وجاءَ الخوف، وأخشى الناس أعلمهم بالله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، الَّذِينَ يخشون الله من

الناس هُم العلماء، أشدُ الناس خشيةً، أقربهم أَوْ أعظمهم علماً، كُل ما يزداد الإنسان علماً، يزداد خشية من الله.

ولذلك قَالَ: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٩]، فإذا اهتديت، ودخلت في الهداية، وتعلمت وعرفت حق الله عليك، جاءت الخشية قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٢٠]، الفاء هذِه تدُل عَلَى السرعة، يَعْنِي: لما جائه، وبيَّن له رسالته، أعطاه الآيات، حَتَّى تقوم الحجة عليه؛ لأن أول من ينكر لما تقابله، يُريد منك الحجة، والدليل كيف تقول لي هذَا الكلام.

ولذلك فرعون ماذا قال؟ ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٩]، وهو يعلم، ولكن يُريد أن يُحاجه ويحتج عليه، ولذلك جائه بالحجة مباشرة، قَالَ: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٢٠]، ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ۝١٠٧ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٧-١٠٨]، هذِه آية عظيمة، جاءته وقامت عليه الحُجة ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٢٠].

والنتيجة ماذا؟ لم يقبل، ولم يريد أن يُطهر نفسه، ولم يُريد أن يُزكي نفسه، قَالَ: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾ [النازعات: ٢١-٢٢]، في فرق بينهم كذَّب من؟ كذب موسى، وعصى من؟ عصى الله، كذب موسى بدعوته، ورد دعوته، واستمر عَلَى عصيان ربه، وعصى ربه، ولم يقف عند هذَا الحد، وَهذِه طريقة الطغاة والمُسرفين، لا يُريدون أن يتنازلوا، ولا يُريد أن يتسامح، ولا يُريد أن يقتنع، ولو كان عَلَى خطأ، يُريد أن يستمر، ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ [غافر: ٢٩].

ولذلك قَالَ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ [النازعات: ٢٢]، أعرض وتولى، مُسرعًا عَلَى أي شيء؟ مُسرعًا لا لإقباله عَلَى الدعوة، والتزكية، والهداية، والخشية، لا، مسرعًا لمعارضة موسى، يسعى ليأتي بمن يعارض موسى، فنادى في قومه، وحشر السحرة ضد موسى، وَهذِه طريقة عدم قبول الحق، وعدم الإذعان، وعدم التنازل.

قَالَ: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَى﴾ [النازعات: ٢٢-٢٣]، حشر قومه ومن هم تحته، وأقاربه، ومن كان معه من آله، ومن حاشيته، ناداهم وجمعهم، قَالَ: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤]، موسى يقول: لي رب، لا، أنا ربكم الأعلى، أنا رب موسى وربكم الأعلى، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، استخف قومه وهو يعلم وهم يعلمون، ولكن لما كان لهم مصالح يمشون ورائه، ويطيعونه، ويسمعون له؛ لأن لهم مصالح.

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، فادعى الربوبية، وادعى الألوهية في آية أخرى، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥] هذِه نتيجة العناد، نتيجة الإعراض، وعدم القبول، أخذه الله عقوبة شديدة، عقوبة الآخرة والأولى، عقوبة الآخرة يوم القيامة، أنه سينال العذاب الشديد، أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، وفي الدنيا ينال عذابه بالإغراق في البحر، ثُمَّ الإحراق بِالنَّارِ، ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦]، كُل يوم في الغدو والعشي، كُل يوم تطلع شمسه يُعذبون في قبورهم، النار تُعرض عليهم في قبورهم، يُعرضون عَلَى النار في الغدو والعشي كُل يوم.

قَالَ: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥]، من المُفسرين من يقول أن معنى نكال الآخرة والأولى: الكلمتين الَّتِي قالهما، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ثُمَّ قال ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، فعاقبه الله عَلَى تلك الكلمتين، والصحيح أن المُراد بالآخرة كما هو متبادل: هي الآخرة، والأولى هي الدنيا.

فأخذه الله عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة، وَهذِه رسالة لأهل مكة لقريش، والمعاندين منهم، إن استمريتم عَلَى ما أنتم عليه في مُحادة مُحَمَّد، ومصادمته، ورد دعوته، والكفر به، وإيذائه، سيصيبكم ما أصابه، فرعون أقوى منكم، وأشد منكم قوة، ومع ذلك أخذه الله نكال الآخرة والأولى، فسيأخذكم ما أخذه.

وأنت يا محمد وكل داعية، وكل من يستقيم عَلَى طاعة الله، ويسير عَلَى طريقتك، كل من يواجه في دعوته، فعليه الصبر، ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ في ختام القصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [النازعات: ٢٦]، يَعْنِي: سُقنا لك يا مُحَمَّد، وسُقنا لكُل من يقرأ هذِه الآيات عَلَى مر السنين، عبرة وعظة لمن يخشى الله عَزَّ وَجَلَّ، ويخاف الله، ويعلم حقيقة الخشية والخوف، ويقبل عَلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعتبر ويستفيد، ويعرف سياق هذِه القصة والدروس المستفادة من هذِه القصة.

أسأل الله أن ينفعنا بما قُلنا وبما سمعنا، وأن يوفقنا وإياكم لطاعته، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن، الَّذِينَ هُم أهل الله وخاصته، واللهُ أَعْلَمُ، وصلى الله عَلَى مُحَمَّد وعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

(النازعات ٢٧ - ٣٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لا زلنا في هذه السورة العظيمة الجليلة، وهي سورة النازعات، تحدّثنا عنها في لقاءاتٍ ماضية، والحقيقة أنها سورة تحتاج، وجميع سور القرآن تحتاج منا إلى وقت، وتحتاج منا إلى تأمّل وتدبّر، وكما قال بعض السلف: "الآية من القرآن الكريم، الآية كلما تأملت وتدبّرت فيها وأعدت النظر فيها، ازددت إيمانًا وعلمًا"، يقول: "هي مثل التمرة لما تضعها في فمك وتمضغ، وتمضغ تجد حلاوة التمرة أشد مما أن تأُكل على عجالة"، فتأخذ الآية تعيد النظر فيها، تتأمّلها، تجد فيها تدبّر وتعلّم وعلم، ولذلك أنت تلاحظ هذا الشيء؛ لما تقرأ القرآن، تقرأ السورة، ثم بعد قليل تسمع قارئًا يقرأ السورة نفسها، تجد أن السورة كأنها جديدة عليك، فالقرآن عظيم، ومعجز، ووجوه إعجازه لا تُحد بحدّ معين، السورة سورة النازعات، مثل ما ذكرنا، أعظم موقف فيها وأعظم حديث فيها: الحديث عن المشركين المنكرين للبعث، الذين لا يؤمنون باليوم الآخر، ولا يعترفون بالبعث والجزاء والحساب والجنة والنار، بل يستهزئون ويسخرون من ذلك، حتى قال قائلهم، كما صرّح القرآن بذلك، قالوا: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦-١٧]، وهنا في هذه السورة: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢]، يقول: لو رجعنا، على فرض أننا عدنا ورجعنا، فهذه كرةٌ خاسرة، لن نفلح فيها، يستهزئون ويسخرون، فذكر الله سبحانه وتعالى ردًّا عليهم موقف من مواقف الأمم الماضية، وهو موقف موسى عليه السلام مع فرعون، كيف وقف فرعون في وجه هذا الداعية، وهو موسى عليه السلام؟ كيف وقف فيه؟ كيف ردّ دعوته؟ وما النتيجة لما ردّها؟

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥]، هذه نتيجة من يعاند ومن يستكبر ويردّ الحق ولا يقبل، لما ذكر الله سبحانه وتعالى هذا الموقف، وردّ عليهم بموقفٍ من مواقف الأمم الماضية، وهو موقف فرعون في ردّه، بعد ذلك، حتى تشعر أنت وأنت تقرأ هذه السورة، تجد فيها تدبّر وتأمّل، وتجد فيها ترابط الآيات وتماسك الآيات، لا تجد هناك فاصلًا، يعني يشعر الإنسان أنه غير مرتب، بل الآيات مرتّبة ترتيبًا دقيقًا، انظر موقفهم، ثم ذكر الله سبحانه وتعالى مثال من الأمم الماضية:

كيف كان موقفه وما هي النتيجة؟ وهي رسالة لكل من ينكر هذا البعث ويردّ الحق أن هذه عاقبته وهذه نتيجته.

يذكر الله بعدها ردًّا عليهم بدلائل وشواهد، أدلة وشواهد من الواقع تردّ عليهم، فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ [النازعات: ٢٧]، يعني إنسان يفكر في نفسه: أيهم أعظم خلقًا، هذا المخلوق الإنسان الضعيف أم السماء على سعتها؟ إذا كانت السماء، وهم يعترفون بأن السماء أعظم من خلقهم، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]،

إذا كان خلق السماوات أعظم، يعني أنت تأمّل في السماء: سعة السماء مترامية الأطراف، مرفوعة بغير عمد، من الذي أمسك السماء؟ سعة السماء وبعدها عن الأرض! ولذلك قَالَ: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، يعني بناها في هذه الصورة الجميلة الحسنة، ولذلك يرى بعض القُراء أن الأولى أنك تقف على "السماء"، فتقول عند قراءتك: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، أي هو بناها، وإن وصلت فلا حرج.

﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٨]، السمك: هو العلو والارتفاع، سمك الشيء علوه وارتفاعه، فيقول: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ [النازعات: ٢٨]، يعني أبعدها عن الأرض مسافات بعيدة، فتأمّل في هذه السماء التي بناها الله ورفع سمكها، قَالَ: ﴿فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٨]: أي جعلها في أحسن صورة، لا ترى في خلق الرحمن من تفاوت، ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣-٤]، متحيّر البصر. ورديء، ما يستطيع أن تجد في السماء أي عيب، خلقها بأحسن صورة، جعل فيها المصابيح والنجوم، زيّن السماء الدنيا بمصابيح وجمّلها، وخلقها بغير عمد ورفعها، وفوقها سماوات أخرى، من الذي خلقها؟ يعني: أأنتم أشد في خلقكم هذا الذي خلقكم الله هذا الخلق؟ ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٢٩]، أغطش ليلها: أي أظلم ليلها، يعني جعل الليل مظلمًا فيها.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٩]: أي جعل النهار منيرًا مسفرًا، طيب، السؤال هنا: أخرج ليلها، الضمير يعود إلى السماء؛ لأن السياق في السماء، يعود إِلَى السماء، ما علاقة الليل بالسماء؟ الليل في الأرض أم في السماء؟ نقول: لأن تغير الليل والنهار متعلق بالسماء، الشمس تأتي فيأتي النهار، تذهب الشمس فيأتي الليل مكان النهار، وأنت ترفع رأسك إلى السماء فترى ظلمة الليل وترى وضوح النهار بشمسه، فهذا معنى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٩].

قال سبحانه وتعالى يعني حتى في خلق الأرض وسعتها يعطف عليها خلق السماء، وسعتها يعطف عليها خلق الأرض، قال ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، يعني: أأنتم أشد خلقًا أم خلق السماوات السبع وخلق الأرض العظيمة واسعة الأطراف، المترامية الأطراف؟ أيهما أعظم خلق؟

قَالَ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، " دحاها": أي أن الله سبحانه وتعالى أودع فيها ما يحتاج إليه الخلق، هذا معنى "دحاها"، والذي يفسر لك معنى "دحاها" ما بعدها، قَالَ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١]، هذا معنى "دحاها"، وهذا كثير في القرآن، هذا من تفسير القرآن بالقرآن، وهو أفضل طرق التفسير، أن تفهم الآية والله يذكر لك تفسيرها بعدها مباشرة حتى تفهمها، هنا سؤال: أيهما بدأ الله به الخلق، السماوات أو الأرض؟ يعني، هل الله سبحانه وتعالى خلق السماوات أولًا ثم خلق الأرض؟ أم العكس، خلق الأرض ثم خلق السماوات؟

هذه الآية ظاهرها أن السماوات مخلوقة قبل؛ لأنه قَالَ: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [النازعات: ٣٠]، يعني بعد ذلك، يعني بعد خلق السماوات، لكن إذا تأملت في آيات أخرى، مثلًا في سورة فصلت، ذكر الله سبحانه وتعالى، قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقال قبلها: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ٩-١٠]، ثم قال بعد ذلك: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، فقال لها وللأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١].

أهل العلم، لما نظروا في مجموع الآيات، حتى في آية البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، إذًا السماء بعد الأرض في سورة البقرة، في سورة فصلت، وهنا قَالَ: لا، قَالَ:

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، تأمل أهل العلم في هذا، فاتضح الأمر أن الله خلق الأرض، وخلق السماوات والأرض كان في كم؟ في ستة أيام، خلق الأرض في يومين، ولما خلق الأرض في يومين استوى إلى السماء فخلقها في يومين، ثم عاد إلى الأرض فبث فيها أقواتها وما يحتاج إليه الخلق في يومين، فأصبحت ستة أيام.

وبهذا تنتظم الآيات ولا يصبح فيها إشكال، فالله خلق الأرض، ثم خلق السماء، ثم دحا الأرض وبث فيها، وبهذا يزول الإشكال، وآية النازعات التي هي معنى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ [النازعات: ٢٧]، قال بعدها: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، ما قال خلقها، قَالَ: دحاها، خلقها قبل، والدحُ مثل ما ذكرنا: بث فيها ما يحتاج الخلق إليه من الماء، ومن الأطعمة، ومن المعادن، وكل ما يحتاج الناس إليه، فأصبح خلق الأرض أربعة أيام، وخلق السماء في يومين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، قال بعدها: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١]، هذا الدحُ، وهذا معنى: وبث فيها أقواتها، ما يحتاج الخلق إليه، قَالَ: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ [النازعات: ٣١]، الماء لما أنزله من السماء، أودعه في الأرض، فأخرج الماء للناس، ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ [النازعات: ٣١]: مثل العيون والآبار والأودية والأنهار وغيرها: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١]، المرعى: الزروع التي ترعى منها البهائم، ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١]. ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢].

أي زيادةً على ذلك أن الله ثبت الأرض؛ لأن الناس سيعيشون عليها، ولو لم تُثبت بالجبال لاضطربت، كما قال سبحانه وتعالى، قَالَ: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]، لاضطربت الأرض ولم تثبت، فثبتها الله بهذه الجبال الرواسي، وما فيها من مصالح عظيمة،

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، قَالَ: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣]، وفي هذا دلالة، كلمة "متاع"، لما تقف عندها وتتأملها تدل على سرعة زوال الدنيا، وعلى سرعة ذهاب الإنسان منها؛ لأنه متاع يتمتع به قليلًا ثم يذهب، ما قال: بقاء في هذه الدنيا، وإنما قَالَ: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣]، تتمتعون أيامًا ثُمَّ تذهبون؛ لأن الدنيا لا تبقى لأحد ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣]، طيب، إذا تأملت أن الله يقول: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣]، وهو قد قال ماذا؟

قال :﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣١]، ما ذكر شيء للإنسان حتى يتمتع به، كيف يقول: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣]، لو قَالَ: متاعًا لأنعامكم؛ لأنه أخرج منها ماءها ومرعاها، فالمرعى للبهائم، لو قَالَ: متاعًا لأنعامكم، لكن كيف يقول: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣]، نقول: أن الله سبحانه وتعالى أخرج المرعى، وهذا المرعى فيه ما فيه من مصالح الإنسان، سواءً في أكله أو في احتطابه أو في غير ذلك، وفيه ما فيه مصلحة للإنسان بحيث يستفيد منه، وتستفيد منه هذه البهائم، هذا وجه.

الوجه الثاني: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في سور أخرى، وحتى ليس في سور أخرى، في السورة التي تليها، لما تقرأها؛ لأن الله سبحانه وتعالى أحيانًا يطوي الكلام لحاجة، وأحيانًا يبسط الكلام لحاجة، لما تتأمل في سورة "عبس"، ماذا قال الله سبحانه وتعالى؟ ذكر أنواعًا شتى من أطعمة الإنسان الخاصة: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٢٥-٣٢]، والأب هو الذي للحيوان، وهو الحشيش والنبات الذي يأكله الحيوان، أما ما قبله كله جاء في ذَكَرَ مَاذَا؟ في ذكر نعم الله سبحانه وتعالى على هذا الإنسان: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣].

إذًا، خلاصة الكلام في هذا الموقف وهذه الآيات، أن الله سبحانه وتعالى يقيم الحجة على من ينكر البعث بما يشاهده، كيف تنكر البعث وأنت مخلوق ضعيف، والسماوات أعظم خلق منك، والأرض أعظم خلق منك؟

وتأمل ما في هذه المخلوقات من قدرة الله سبحانه وتعالى، سُبْحَانَهُ الذي رفع السماوات وزينها، والأرض التي بث فيها هذه المخلوقات، بقدرة الله سبحانه وتعالى، وزيادةً على ذلك، وأنت تتأمل نعم الله سبحانه وتعالى، نعمة الله ينبغي لك أن تقرأ هذه الآيات وتشكر، تشكر ما أنعم الله به عليك: من خلق السماوات، من خلق الأرض، ما بث فيها من مصالح لهذا الإنسان، كل ذلك يجب على الإنسان أن يشكر.

وفي خلاصة الكلام، أن هذه الآيات التي ذكرناها، وذكرها الله سبحانه وتعالى في هذه السورة، كلها إقامة الحجة على من ينكر، كيف تنكر أن الله سبحانه يعيدك مرةً أخرى وأنت تشاهد هذه الآيات؟

ولذلك نختم هذا المجلس المبارك بموقف من مواقف أحد المشركين المنكرين للبعث،

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، هذا رجل مشرك، قيل إنه أُبي بن خلف، وقيل أُمية، أو غيره، جاء إلى النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومعه عظم رفات يفته بيده أمام النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقول: يا مُحَمَّد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال النَّبِيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يبيتك الله، ثم يبعثك، ثم يدخلك النَّار»، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، رد الله عليه في هذه الآيات في آخر سورة "يس" بخمسة أوجه عقلية كلها ما يستطيع أن ينكرها.

﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، ثم قَالَ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، الذي عليم بالخلق ما يعجزه،

ثم قَالَ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا .....﴾ [يس: ٨٠]، إلى آخر الردود،

وحتى قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ما يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩]،

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، ما يعجزه شيء في الأرض، الله سبحانه وتعالى يسمع أصوات الخلق كلهم في لحظة، ويرزقهم في لحظة، أيعجزه أن يبعثهم في لحظة، ويحاسبهم في لحظة؟ لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى،

نقف عند هذا القدر، ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نَبِيِّنَا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ.

(النازعات ٣٤ - ٣٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الأخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته

وحياكم الله في هذا اللقاء لقاء الثلاثاء من كل أسبوع مع تفسير القرآن العظيم، لا زلنا نتحدث عن هذه السورة العظيمة الجليلة، وهي سورة النازعات.

الحقيقة لمن يقرأ هذه السورة ويتأملها يجد فيها من المعاني والدلالات العظيمة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقسم في هذه السورة بمخلوقات عظيمة، أو بخلق من مخلوقات الله العظيمة وهم الملائكة، أقسم على ثبوت هذا اليوم يوم المعاد، يوم الجزاء، يوم الحساب، يوم بعث الأولين والآخرين، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧].

المشركون عند نزول القرآن الكريم كانوا لا يقرون بهذا اليوم ولا يعترفون به، يقولون: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: ١٦، ١٧].

فرد القرآن عليهم؛ وفي هذه السورة يأتي الرد على عدة أوجه وأنت تقرأ هذه السورة وتتأملها:

أول الردود: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

ولذلك ساق الله عَزَّ وَجَلَّ لنا قصة موسى مع فرعون، وبيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه طغى، وأنه جاءه موسى وذكره، ﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ۝١٩ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ١٨ - ٢٠]، لكنه كذب وعصى، واستكبر، وتعالى، وطغى في البلاد وأفسد، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، النتيجة، ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥].

هذه القصة يسوقها الله ليعتبر من يعتبر من الطغاة أن العناد والكفر والاعتراض وعدم قبول الحق هذه نتيجته، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما يسوق لنا هذه القصة يرد على هؤلاء من كفار قريش، أنكم أنكرتم

الجزاء والحساب والبعث، والرسالة، والقرآن، وهذا أنكره، فماذا جرى له؟ وما جرى له سيجري عليكم إن لم تؤمنوا.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعد ذلك ذكرهم بخلقه العظيم:

كيف تكفرون باليوم الآخر ولا تؤمنون باليوم الآخر والآيات المشاهدة أمامكم؟

آيات الله واضحة تدل على قدرته لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

ما الذي يعجزه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حتى تقولون: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، وتستبعدون هذا الأمر، والله يستشهد ويدلل لكم بدلالاته العظيمة وآياته في الكون؟ قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]، ثم قال: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، كيف تستبعد؟ وكيف تتعجب؟ وكيف تنكر بعثك أنت، وبعثك وبعث الخلق كلهم عند الله كبعث نفس واحدة؟ قال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

فلما بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأقام الحجة على من ينكر هذا البعث بإقسامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو لا يقسم إلا على شيء عظيم، بالملائكة على هذا اليوم، ثم يذكر لنا قصة من ينكر ويكفر حتى يعتبر من يعتبر، ثم يذكر لنا قدرته وآياته في الكون، كيف تنكر خلقك وأنت ضعيف؟ قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، ثم بعد ذلك تأتي هذه الحقائق أمامك، الآن يأتي يوم الجزاء والحساب، يأتي يوم العرض على الله أنكرت ما لم تنكر، آمنت أو كفرت، أمامك الآن تصوير عظيم لما يجري يوم القيامة، ولذلك لما بيّن الله؛ قال بعدها: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤].

هذه حقيقة واضحة أنكر من أنكر، وآمن من آمن، هذه حقيقة واقعة، ﴿إِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات: ٣٤، ٣٥].

ما هي الطامة الكبرى؟

هي: يوم القيامة، لماذا سميت بالطامة، ما معنى الطامة؟ الله وصف يوم القيامة بأوصاف عظيمة في القرآن الكريم، الصاخة، والحاقة، والقارعة، والطامة، وأوصاف عظيمة تدل على عظم هذا اليوم، والطامة

مأخوذة من طم الشيء إذا غطاه، ويقال: هذا طريق مطموم إذا كان قد غُطي بشيء، ويقال: طُم القبر، إذا دُفن في القبر؛ يقال: طُم عليه قبره.

فالطامة هي: ما يصيب الناس يوم القيامة من الأهوال والشدائد التي تطم عليهم، تطم كل طامة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما قال: ﴿الطَّامَّةُ﴾ [النازعات: ٣٤]، وصفها فقال: ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤].

لماذا وصفها؟ لماذا قال: الكبرى؟

قال أهل التفسير: لأن هذه الطامة تطم كل طامة تحتها، يعني الإنسان لما يبعث من قبره سيواجه طوام ومصائب عظيمة، ثم إذا جاءت هذه الطامة طمت ما تحتها، ولذلك قال: ﴿الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤]، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ﴾ [النازعات: ٣٥].

لاحظ الآن: إذا جاءت الطامة الكبرى ما النتيجة؟

حتى الآن ما جاء الجواب، هذا يسمى عند أهل العلم وأهل اللغة: جملة شرطية، أداة شرط، وفعل شرط، وجوابه، أين جوابه؟ حتى الآن لم يأتي، قال: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ﴾ [النازعات: ٣٤]، هذا اليوم يوم القيامة حال الإنسان ما هي؟ قال: حاله يتذكر الإنسان، لما يرى هذه الأهوال أمامه يتذكر ما سعى في الدنيا، يتذكر سعيه وأعماله، أعمال الخير وأعمال الشر، الآن فتح وبدأ يتأمل ويتفكر في الدنيا التي مرت عليه، ماذا قدم في هذه الدنيا، ما الذي قدمته لك في آخرتك؟ ولذلك يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في سورة أخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣]، ما تنفعه الذكرى، لو تذكر ما تنفعه الذكرى.

وفي آية أخرى لما قال هنا: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤]، في السورة التي بعدها قال: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، هذه أحوال، يعني ما في تعارض، أحوال الناس يوم القيامة يتذكر ويفر ويحصل كذا، أشياء عظيمة تحصل ما يتصورها الإنسان في الدنيا.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤].

السؤال هنا يا أخوان: ليش يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته زوجته وبنيه؟

قال: لأن كل واحد منهم يريد أن يأخذ حقه منه، يأخذ ماذا؟ يأخذ حسنات، ولذلك يفر الإنسان

حتى من أمه وحتى من أبيه، وحتى من زوجه، وحتى من أبنائه، كل ذلك يفر، وهذه الآية ستأتينا ونقف معه ونتأملها،

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ۝٣٥ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٥، ٣٦].

لاحظ كلمة: (وَبُرِّزَتِ)، قوله: (وَبُرِّزَتِ)، أي أظهرت أمام الأعين لا تخفى على أحد، ولما يقول: (وَبُرِّزَتِ)، ما قال: بَرزت، في فرق، فهذه لغة العرب، لما يقول: (وَبُرِّزَتِ)، في وراءها من برزها، في وراءها من أظهرها، لما يقول: بَرزت أي هي برزت، ولذلك جاء في الحديث: **«تُقاد النار لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يقودونها»**، ولذلك في سورة أخرى؛ قال تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣].

إذًا بُرِّزَتِ غير بَرزت، ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦]، أُظهرت أمامهم لا تخفى على أحد، عندنا كلمة الجحيم، وفي سورة قبلها قال: جنهم، أسماء النار كثيرة، لكن أنت لما تقرأ وتمر عليك أسماء النار قف عندها.

طيب لماذا سميت الجحيم؟ ولماذا سميت جهنم؟

هذه الأسماء ما جاءت عبثًا؛ بل لها اختيار ولها معاني في لغة العرب، يقال لكل شيء بعيد القعر: جهنم، يقال: بئر جهنمية إذا كانت بعيدة القعر، هذه كلمة جهنم، الجحيم هو المكان الواسع المترامي الأطراف، فجهنم واسعة كما أنها بعيدة القعر فهي واسعة المدى، ولذلك في قصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]، النار التي أوقدها أعداء الله من قوم إبراهيم أوقدوها لإبراهيم وهو واحد، شخص واحد، أوقدوا واديًا يتلظى، وكما قيل في بعض التفاسير: مضوا سنة وهم يجمعون الحطب حتى ملئوا هذا الوادي فأشعلوه، فسموه جحيم لسعته، ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦].

الحديث يأتيك في حقائق الجزاء، السورة في أولها كلها تقرر هذا اليوم، هنا يأتي الجزاء، ولذلك قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩]، أتاك مرة ثانية بالجحيم، وكلمة طغى لماذا ذكرها؟ لطغيان هؤلاء واستكبارهم؛ لأن السياق في إنكار اليوم الآخر،

ولا ينكره إلا من طغى واستكبر، ولأن الله ذكر طغيان فرعون، ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات: ١٧]، فناسب أن يذكر هنا فأما من طغى وتعالى وأسرف على نفسه واستكبر ولم يقبل الحق، ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النازعات: ٣٧، ٣٨]، قدم الدنيا واشتغل للدنيا، وعمل للدنيا، ونسي الآخره، ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٣٩]، هذه نتائج الآن، تطاير الصحف والميزان وكلٌ آخذ صحيفته بيمينه أو شماله ومن وراء ظهره، وبعد ذلك يأتي الميزان، كلٌ يوزن، تُوزن الأعمال، وتُوزن الأشخاص، ثم بعد ذلك مصير الفريقين، ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۝٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤٠].

ولاحظ الخوف، عبادة، الخوف من الله، الخوف من الوقوف أمام الله، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [النازعات: ٤٠]، خاف الوقوف أمام الله والجزاء والحساب ومصيره في الآخرة واستعد لهذا اليوم، ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ في آية أخرى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]، وفي آية أخرى؛ قال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

فالخوف هو الذي يبعث الإنسان على العمل، أنت تستعد لهذا اليوم، وتحسب ألف حساب لهذا اليوم، وتخاف وقوفك أمام الله عندما تدنو الشمس على رؤوس العباد، عندما يجمع الله الأولين والآخرين، هذا اليوم الذي يجعلك تخاف منه يجعلك تعمل وتستعد له، ولا تفرط في عمل ولا تفرط في عبادة تضعيها، ولا تقترف سيئة من السيئات أو تتساهل في بعض المعاصي، هذا اليوم هو الذي يجعل الإنسان يستقيم في حياته، يتأدب بأخلاق القرآن ويستقيم في حياته.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠]، صد النفس ومنعها، النفس ضعيفة، النفس أمارة بالسوء، تدفع الإنسان للشر، ولكن الإنسان إذا لم يُطاوع هذه النفس؛ لأن النفس تصدك أحيانًا، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠]، النفس تدعُو إلى الهوى والشهوات والميل، «**حفت النار بالشهوات، وحفت الجنة بالمكاره**»، دفع نفسه.

قال تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، إذا أدبت نفسك بهذا الأدب وتمسكت بهذا المبدأ، خُفت من الله عَزَّ وَجَلَّ ونهيت نفسك وأقبلت على الله وصبرت،

﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ [الشورى: ٤٣]، الصبر على الطاعات تجد الإنسان يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ على ما يجد يوم القيامة من نتائج طيبة لما تتطاير الصحف ويؤتى بالميزان، ويؤتى بالحوض، ويؤتى بجهنم تقاد، في هذه الساعة يتذكر الإنسان ما قدم، والدنيا سريعة، ولذلك ختم الله السورة بأي شيء؟ قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً﴾ [النازعات: ٤٦]، أي وقت العصر، ما قال ولا يوم، حتى أقل من اليوم، ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقت الضحوة وهو وقت يسير، الدنيا تنتهي وتمضي، كم يعيش الإنسان فيها ثم يتركها ويمضي، لكن العبرة بما قدم من عمل، بما حافظ عليه من أوامر ونواهي، سابق في جانب المسابقات وابتعد عما نهى الله، ابتعد عما يغضب الله ويسخطه، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وللحديث بقية إن شاء الله في إتمام هذه السورة العظيمة، فيما أوقفناه فيه خير ونفع، أسأل الله أن ينفعنا وأن يبارك في قولنا.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(النازعات ٤٠ – آخر السورة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه واتبع سنته إلى يوم الدين، اللّهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الأخوة الكرام سلام الله عليكم ورحمته وبركاته

وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم يوم الخامس عشر من شهر ذي القعدة من عام ١٤٤٣ من الهجرة، وهو الموافق للرابع عشر حسب رؤية الهلال، واجتماعنا في هذا المقام المبارك حول هذه السورة العظيمة الجليلة التي ذكرناها في مواضع كثيرة وفي لقاءات سابقة، وهي سورة النازعات.

وختام هذه السورة يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [النازعات: ٤٢].

قد يسأل سائل ويقول: ما سبب قولهم أو حديثهم أو سؤالهم عن الساعة؟

نقول: لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه السورة من أولها بيان ما سيقع يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧]، ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤]، مصير الأشقياء، ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النازعات: ٣٧، ٣٨]، ومصير الأتقياء، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠]، بدؤوا يسألون أو يسأل المشركون: متى هذه الساعة؟ وهم يسألون لا يريدون حقيقة السؤال؛ وإنما استهزاءً واستبعاد، كقوله في الحديث عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، إن كنتم صادقين يدل على أنهم لا يريدون الحق في السؤال، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول في موضع آخر: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ [الشورى: ١٨].

ولذلك لما جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال له: يا رسول الله أو يا نبي الله متى الساعة؟ قال: «**ماذا أعددت لها**»، ليست العبرة أن تعرف متى الساعة، العبرة ماذا أنت أعددت للساعة؟ وما موقفك يوم القيامة؟ هذه هي العبرة، ولذلك تتأمل أنت هذه الآيات التي في خاتمة السورة، لما ذكر الله ما

يجري يوم القيامة، ومصير هؤلاء ومصير هؤلاء بدؤوا يسألون، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢]، متى وقوعها؟

مرسى الشيء وقوعه، ومنه مرسى السفينة؛ لأنها تمضي وتقطع البحار ثم ترسو في مكان، رسوها هذا هو نهايتها، والله عَزَّ وَجَلَّ قال في الساعة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢]، متى وقوعها؟ متى تقطع؟ يسألون: متى تقع؟ لا تسأل عن وقوعها؛ بل اسأل ماذا أعددت لها، ما الذي أنت الآن؟ وما موقوفك منها؟

ما هي الساعة؟

الساعة هي: يوم القيامة، لماذا سميت ساعة؟ لأنها هي وقت حلول اليوم الآخر، ولذلك تسمى الساعة، يعني عُرف الآن في القرآن وعند الناس أنه إذا قيل: الساعة، مجيء الساعة، علامات الساعة، أشراط الساعة أن المراد بالساعة هو يوم القيامة، وإن كان الساعة تُطلق ويراد بها الزمن، يُراد بها الوقت، ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ [الروم: ٥٥]، يعني القيامة، ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، يعني زمن، غير ساعة يعني لحظة قليلة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هنا: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢]، قال الله عز وجل مخاطبًا؛ لأن السؤال موجه إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسورة كلها تخاطب المشركين من أولها، ولم يوجه خطاب إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا في هذا الأخير، قال: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ [النازعات: ٤٣]، يعني كيف ستذكرها لهم؟ وكيف يسألونك وأنت ما عندك علم عنها، ليس عندك علم يا محمد، كأنك حفي كأنك حريص جدًا على معرفتها، وما عندك علم فيها فكيف يأتون إليك؟ ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ [النازعات: ٤٣]، أنت ما عندك علم، وهذا استفهام موجه إلى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ليس لديه علم فيها حتى يسألونه، ولهذا لما جاءه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وسأله عن الإسلام وعن الإيمان وعن الإحسان، سأله عن الساعة؛ قال: «**ما المسئول عنها أعلم من السائل**»، لا أنا أدري ولا أنت تدري، ولذلك قال: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۝٤٣ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٣، ٤٤].

علمها ونهايتها عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك الله أخفاها عن الخلق جميعًا، عن الرسول والأنبياء

والملائكة وجميع الخلق، حتى قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة طه: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥].

قال أهل التفسير: معناه أكاد أخفيها عن نفسي، من شدة خفائها حتى كاد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يخفيها عن نفسه، هذا لشدة إخفاء موعد وقوع الساعة، ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ۝٤٣ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٣، ٤٤].

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وظيفة محمد حتى يفهم هؤلاء لما يسألون سؤال تعنت وسؤال استهزاء وسخرية واستبعاد، يُبين لهم جَلَّ وَعَلَا أن وظيفة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، أنت نذير، أن تحذر، أنت تذكر الناس بهذا اليوم الذي سيجمع الله فيه الأولين والآخرين.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، طيب وغير الذي يخشاها لا ينذره؟ نقول: ينذر من يخشاها وغير من لا يخشاها، لكن خص الذي يخشاها لأنه هو المنتفع، مثل قوله تعالى عن القرآن: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، وفي موضع ثاني قال: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

كيف هدًى للناس وللمتقين؟

نقول: هو هدًى عام، لكن المنتفعون حقيقة بالقرآن الذين يهتدون به هم المتقون، ولذلك هنا يقول: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، الذي يخشى هذه هو الذي يستفيد من النذارة، وكأن هذه رسالة لهؤلاء الذين يسألون، كيف تسألون عن وقوعها وأنتم ما تخشونها؟ أولًا اخشوا هذا اليوم، واستعدوا لهذا اليوم، واعملوا لهذا اليوم ثم بعد ذلك اسألوا، أما أن تسأل عن شيء وأنت غير مستعد له، فهذا من السفاهة.

قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ۝٤٥ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ [النازعات: ٤٥، ٤٦]، انتقل الكلام إليهم إلى هؤلاء المنكرين، يقول: هؤلاء ما يخشونها ولا يخافون منها، كأنهم إذا جاء يوم القيامة وعرضوا على ربك وحشروا في هذا اليوم ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، يوم يرون الساعة ويوم القيامة، ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

قال بعض أهل التفسير: كأنهم لم يلبثوا في قبورهم، ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: ٥٢]، كأنهم لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة أو إلا عشية أو ضحاها، وقيل: بل كأنهم لم يلبثوا في الدنيا، والأمران صحيحان كأنه لم يلبث في الدنيا إلا لحظة، وأنت لو تأتي إلى شخص الآن من المعمرين وتسأله كم من الوقت مر عليك في هذه الدنيا؟ لقال: مرت علي بلحظة، ولذلك نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي جاوز الألف سنة، في دعوته ألف إلا خمسين، غير عمره، لما سئل في آخر حياته: ما هي الدنيا أمامك؟ قال: كأني دخلت من هذا الباب وخرجت من هذا الباب، هذه هي الدنيا، دنيا سريعة تمضي، لكن العبرة بالعمل في هذه الدنيا لأن الدنيا تمضي والأيام تمشي وسريعة، وأنت في آخر الزمان والأيام أسرع، فعليك أن تستعد، ولذلك كأنهم لم يلبثوا إلا في هذه الدنيا إلا عشية أو ضحاها، ولم يلبثوا في قبورهم أيضًا إلا عشية أو ضحاها، فإذا كان الأمر كذلك فالعاقل الحصيف عليه أن يستعد.

هنا سؤال: أيهما أطول العشية أو الضحى؟

الله عَزَّ وَجَلَّ قدم العشية، العشية أطول، لماذا؟ لأن العشية تبدأ من بعد زوال الشمس، زوال الشمس دخول وقت الظهر، فمن هنا إلى غروب الشمس هذا وقت العشي، يسمى وقت العشية، ويسمى الأصيل، وقت الأصيل، ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقت الأصيل نهاية النهار، النصف الثاني من النهار، أطول من النصف الأول، وهذا على حسب، يعني أحيانًا أيضا في ارتفاع الوقت وارتفاع الشمس وطول النهار وقصره يختلف.

قال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً﴾ [النازعات: ٤٦]، يعني نصف نهار، ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، أي ضحى هذا اليوم، وإن كان الضمير يرجع إلى العشي فهذا جائز في لغة العرب، ولكنه يفهمه العاقل أن المراد بالضحى ضحى هذا اليوم وعشية هذا اليوم، إذا كانت هذه سرعة الدنيا وهذا ممرها السريع، والإنسان لا يدري متى ينزل به الموت وينتقل من هذه الحياة، عليه أن يستعد وعليه أن يعمل، يعمل في دار العمل حتى إذا انتقل على خير، ومن عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بُعث عليه، ومن بُعث على شيء لقي جزاءه، فالإنسان يعمل في الدنيا على الخير، ويموت على الخير، ويُبعث على الخير، ويلقى جزاء الخير، ويسأل الله الثبات، ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ

وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

هذه وصية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للأولين والآخرين، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، هذه السورة الحقيقة سورة عظيمة جليلة، عشنا معها لقاءات ماضية وتأملناها وتدبرناها، نقرأها، ولكن قراءة التأمل والتدبر والتفكر والتفسير يختلف عن ذلك، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأمرنا دائمًا بالتدبر، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، تتفكر في آية وتتأمل فيها ينفع الله بك وينفع الله أيضًا غيرك، أسأل الله أن ينفعنا وإن يبارك لنا، إلى لقاء قادم إن شاء الله نستمر فيما بقي من هذه السور الكريمة العظيمة، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وما سمعنا والله اعلم.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ عَبَس)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(عبس ١ - ١٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة وبركاته

وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، في هذا اليوم وهو اليوم السابع والعشرين من شهر ذي الحجة من عام ١٤٤٣ من الهجرة، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمارنا، وأن يجعل أعمارنا كلها عامرة بطاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويجعل أوقاتنا كلها في رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، القرآن الكريم هو كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أنزله علينا باقيًا غضًا طريًا لنتأمله، ولنتدبره، أمرنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقراءة القرآن وتلاوته وتدبره والعمل به، لابد أن يكون المسلم له عناية بكتاب الله قراءةً وتلاوة وتدبرًا وتأملاً وتفكرًا وتفسيرًا وفهمًا وتطبيقًا في حياته وعملاً بهذا القرآن الكريم.

في هذه المجال المباركة في هذا المجلس نتناول سورًا من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وفيما مضى تناولنا بعض السور، واليوم أمامنا وبين أيدينا سورة عظيمة من سور القرآن الكريم، والقرآن كله عظيم، وسوره كلها عظيمة، هذه السورة سورة (عبس) على الصحيح إذا وقفت عليها تقف بالسكون، ما تقول: (عبسَ) العرب إذا وقفوا سكنوا، وإذا ابتدؤوا حركوا، حتى الساكن إذا بدأت به تحركه، والمتحرك إذا وقفت عليه تسكن، تقول: جلسْ، ونامْ، وعبسْ، وهكذا.

هذه السورة هي من السور المكية، بمعنى أنها نزلت بمكة قبل الهجرة، ونحن نعرف جميعًا أن السور المكية ما تواجه من الناس أو من الذين يعني تواجههم من الناس؟ وما نوعهم؟ وأيضًا نعرف السور المدنية طبيعتها وكيف تواجه الناس؟

السور المكية تواجه مشركين معاندين، لا يقبلون الدعوة، لا يقبلون النقاش، لا يقبلون الجدال، همهم أنفسهم، ولا يريدون أن يغيروا من حقائقهم أو مما هم عليه، هذا أمر.

الأمر الثاني: أن هذه السورة سورة (عبس) تعد من أوائل ما نزل، يعني أنها نزلت قديمًا في أول

الدعوة، الذي ينظر إلى هذه السورة أو كلنا جميعًا حتى يعني يحصل له تدبر وتأمل، أنت تقرأ هذا واضح كلٌ يقرأ، لكن هل تتأمل، هل تتفكر في هذه الآيات؟ هل هذه الآيات تستوقفك حتى تقف عندها وتتأملها؟ هذا هو المطلوب، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، حث، ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، كل هذا حث على تدبر القرآن وتأمله، أنت لما تنظر هذه السورة، هذه السورة وجه واحد في المصحف، انظر إليها تأملها، اقرأها من أولها إلى آخرها، وأعد القراءة مرة ومرتين وتأمل ستخرج بإذن الله بنتيجة، هذه هي القراءة الحقيقية، القراءة الحقيقية أن تخرج بنتيجة.

طيب أنت تنظر إلى هذه السورة، الحقيقة هذه السورة تعرضت لعدة قضايا مهمة، وهي تدور في الحقيقة عندما تريد أن تتأملها، هي تدور في الحقيقة على أن هذا القرآن جاء تذكرة، تذكير، موعظة، إحياء الناس، في بيان لماذا خلقوا؟ لماذا خلق الله الناس؟ ما الغرض من خلقهم؟ ما نهايتهم؟

هذا القرآن هو موعظة، السورة كلها تدور على حقيقة القرآن والغاية والهدف من هذا القرآن، ثم تتعرض لعدة قضايا.

من أشهرها ثلاث قضايا:

القضية الأولى: خلق الإنسان، ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [عبس: ١٨، ١٩]، أصلك ما هو؟ ومن أين جئت؟ ثم إن الله لما خلقه تكفل برزقه، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]، ثم أنك أيضًا تتأمل في مصيرك، أنت لن تبقى في هذه الدنيا، ولو بقيت لن تبقى طويلاً، سيكون مصيرك إلى أين؟ ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤].

إذًا عندنا ثلاث قضايا مهمة عقدية:

١. خلق الإنسان من أين أتى؟

٢. كيف خلقه الله؟

٣. كيف أوجده الله؟

لما أوجده تكفل برزقه، أوجد له الرزق، ثم يعيش في هذه الدنيا، ثم ينتقل، ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا

أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]، ثم ينقتل، ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢]، متى ينشره؟ إذا جاءت الصاخة، إذًا هذه قضايا مهمة يتقدمها عظمة القرآن، يتقدمها أهمية القرآن أنه تذكره، ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [عبس: ١١، ١٢]، هذه حقيقة هذه السورة.

قبلها التذكير بالقرآن وبيان دور القرآن في هذه الحياة، قبلها موقف، موقف حصل للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو أوائل السورة، هذا الموقف هو موقف عارض لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوقفنا عنده، أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان حريصًا على دعوة قومه، وجاءه رجل أعمى يقال له: عبد الله بن أم مكتوم، كان من خيار الصحابة من المهاجرين، ممن أسلم قديمًا، كان رجلاً أعمى لا يُبصر، ولذلك القرآن صرح بهذه الصفة، ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ٢]، لماذا صرح بهذا الاسم مع أن بعض الناس لا يقبل مثل هذا الشيء أن تصفه بهذا الوصف؟ الله صرح به حتى يُعذر، يعني جاءك رجل هو أعمى لا يدري، فاعذره، اقبل عذره لأنه لا يبصر، ولا يدري أنك قد انشغلت بأمر آخر.

السورة في أولها تتحدث عن هذا الحدث الذي وقع للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان مشغولًا بالدعوة ولم يكن مشغولًا بأمور أخرى من أمور الدنيا، وإنما مشغول بدعوة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويأتيه رجل يعني يريد منه أن يقف معه وأن يأخذ ويعطي معه وهو قد انشغل بما هو كلف به من الدعوة، والقصة يعرفها الجميع، وهي أن عبد الله بن أم مكتوم جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان مشغولًا ببعض المشركين يدعوهم لأن إسلام أحد المشركين أو بعض كبار المشركين سيسلم من وراءه، سيسلم عدد كبير، فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتهز الفرصة بدعوة كبار المشركين، وهذا الرجل يأتي ويسأله عن دينه، يسأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان مشهورًا بهؤلاء، فعبس بوجه هذا الرجل وقطب، واقهر وجهه لهذا الرجل، وتولى أعرض عنه، والقرآن لم يترك هذا الموقف حتى مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا الموقف لم يتركه، ولهذا جاء القرآن وجاء خطاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بعتاب رقيق لطيف، بأسلوب يفهمه من يفهمه، ولذلك افتتح الله السورة بقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]، بصيغة الماضي، بصيغة شخص بعيد عنه، ما قال مخاطبًا نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا محمد قد عبست وتوليت؛ لأن صيغة العبوس والتولي صفة لا تليق بداعية يدعو إلى الله، كيف تدعو الله؟ وكيف تنصح ويكون فيك

هذا التصرف أو هذه الصفة؟ ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعتاب لطيف قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]، من هو؟ رجل بعيد، مع أن الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والسورة تنزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومع ذلك يُخاطبه كأنه رجل بعيد، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۝١ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ١، ٢].

ثم غير الخطاب وقال: وما يدريك يا محمد لعله يزكى، فغير الخطاب، وهذا يسميه علماء البلاغة الالتفات في الضمائر وفيه أسرار، وفيه لطافة وفيه حسن خطاب حتى لا يكون فيه نوع من التعنيف، ولذلك جاء بهذا، ويتدرج باللطافة في الخطاب يأتينا التدرج فيه.

قال: ﴿عَبَسَ﴾ [عبس: ١]، عرفنا العبوس هو تغير الوجه، الإنسان إذا حصل له نوع من الغضب أو نحو ذلك تغير وجهه، فعبس في وجوه الآخرين، وقطب وجهه، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١].

لو سألك سائل وقال:

ما الفرق بين عبس وتولى؟

فنقول: عبس بوجهه، وتولى ببدنه، تولى يعني أعرض ببدنه، فالنبي حصل له هذا الأمر مع هذا الرجل الأعمى، ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ٢]، بسبب مجيء هذا الأعمى يفعل كذا وكذا؟ كيف يفعل هذا الشخص؟ وكأنه شخص غائب لم يخاطبه مواجهة، شخص غائب، ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [عبس: ٢].

ثم واجهه بالخطاب؛ قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس: ٣، ٤]، فهذا جاء يزكي نفسه، جاء يطهر نفسه من الشرك والكفر والمعاصي، ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ [عبس: ٤]، جاء يتذكر ما عندك فينتفع بما عندك، قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [عبس: ٣]، القرآن أحيانًا يقول: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ [الحاقة: ٣]، وأحيانًا يقول: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [عبس: ٣]، هل نعرف الفرق بينهما؟

هنا قاعدة عند المفسرين: إذا جاءت كلمة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [عبس: ٣]، ما أحد يعلم حتى الرسول، ما أحد يدري، وإذا جاءت كلمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ [الحاقة: ٣]، الجواب موجود في الآية، ولذلك في الساعة قال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

فكلمة: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [عبس: ٣]، دائمًا خذها قاعدة: الجواب غير موجود ولا أحد يستطيع أن

يصل إلى جواب، وإذا جاءت كلمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ [الحاقة: ٣]، الجواب موجود على طول، ولذلك ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٢، ٣]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ [القارعة: ٣، ٤]، الجواب كله موجود دائمًا، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ [القارعة: ٣]، الجواب موجود، أما ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ [عبس: ٣]، غير موجود.

قال: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ [عبس: ٥]، من هؤلاء المشركين، ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ [عبس: ٦]، تستقبل بهذا الأمر، والدعوة عامة للصغير والكبير والضعيف والغني، وهكذا، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٧]، أنت عليك الدعوة والبلاغ، أما أن يتطهر ويسلم هذا ليس إليك؛ بل إلى الله، الهداية عند الله، ما تملكها أنت، لا أنت ولا غيرك، عليك أن تدعو إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولذلك أنا قلت لكم: السورة مبنية على أن هذا القرآن كتاب دعوة، كتاب حياة الناس، وهذه كأنها مقدمة، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٧].

قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ [عبس: ٨]، هذا الرجل كيف يصفه القرآن ويرفع مكانته؟ جاء منطلقًا مسرعًا، يريد الخير، ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ [عبس: ٩]، يصفه بالخشوع والخوف من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والخشية، ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: ١٠]، كيف يحصل منك هذا الشيء؟ كل هذا أسلوب لطافة، عتاب بأحسن طرق العتاب، ﴿كَلَّا﴾ [عبس: ١١]، هذه كلمة قوية، ليس الأمر كما فعلت ما محمد أو يفعله غيرك، ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]، أي هذه السورة، وهذه الدعوة وهذه الرسالة إنها تذكرة للخلق جميعًا، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [عبس: ١٢]، مجرم، طاغية، مسلم، ضعيف، قوي، من شاء ذكره المجال مفتوح، وهذا الأسلوب أسلوب تهديد وتخويف، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، ليس الأمر أنت ودك تتذكر وتسلم أو ما ودك لا، المسألة ليست كذلك وإنما يقول لك: الطريق أمامك، فمن شاء سلكه فسينجو، ويسلم ويسعد، ومن تركه فسيشقى ويضل الطريق أمامه، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [عبس: ١٢].

ثم بدأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يثني ويمدح هذا القرآن العظيم الذي قلنا: هو أصل هذه السورة، ﴿فِي

صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٣]، أي هذا القرآن محفوظ بالصحف المكرمة، سواء عند الملائكة في الملأ الأعلى أو عند الخلق، ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٤]، ما معنى مرفوعة؟ أي رفيعة الشأن، رفيعة المقام، رفيعة المكانة، ﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾ [عبس: ١٤]، بعيدة عن الدنس ونحوه، ومن هذا أخذ أهل العلم أنه ينبغي أن يكون المصحف في مكان عالي، لا يوضع على الأرض، وأن يكون بعيدًا عن الأدناس أو عما لا يليق به، لا يوضع في الأماكن التي لا تليق، لا يُدخل به إلى دورات المياه، لا يوضع في أماكن لا تليق، بل يُحفظ؛ حتى نص أهل العلم أنه لا يُسافر به إلى ديار الكفر حتى لا يُهان.

قال: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥]، هم الملائكة، لو سألنا ما معنى سفرة؟ الكثير من الناس يقرأ هذه الكلمة ويمكن يفهما خطأ أو لا يفهمها، السفرة جمع سافر، والسافر معناه الكاتب، وليس من السفر ما له علاقة بالسفر، السفرة جمع سافر والسافر معناه الكاتب، ومنه الأسفار، ﴿يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥]، الأسفار جمع سفر، والسفر هو الكتاب، الكتاب الضخم، فمعنى وصف الملائكة بالسفرة أي الكتاب.

قال: ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦]، الكرام هم المكرمون الذين كرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهم الملائكة، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، كرمهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورفع من شأنهم، ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦]، لا يقعون في معصية، ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦].

ما معنى بررة؟ جمع، ما مفردها؟ مفردها بر، غير الأبرار، الأبرار مفردها بار، تقول: هذا رجل بار، بارٌ بوالديه، بارٌ بأهله، وهؤلاء أبرار، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، هؤلاء أبرار، البررة أعظم وصف، البررة مفردها بر يعني كثير الخير لا يقع منه شر، وهم الملائكة، ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦].

إذًا خلاصة الكلام حتى نختم هذا المجلس:

السورة عندما تقرأها تتأملها، وتعيش معها، هذا الكنز العظيم الذي ينبغي لك أن تقف عنده وتعيش معه، هذه السورة العظيمة هي سورة مبنية على تعظيم هذا الكتاب العظيم القرآن الكريم، تعظيمه وبيان مكانته وقدره كما عظمه الله وعظمته الملائكة، فتعظمه هذه الأمة، هذا الكتاب للأمة لأمة محمد ينبغي تعظيمه.

حدث ما حدث قبل هذا الأمر وهو ما حدث للنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاء عرضًا، ووجه النبي

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا التوجيه العظيم، فتتوجه الأمة بهذا التوجيه، ثم بعد ذلك تنتقل السورة لخلق الإنسان ورزقه ومصير هذا الإنسان، يأتي الحديث عنه إن شاء الله في لقاء قادم، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهدتين موفقين لكل خير، مفاتيح للخير، مغاليق للشر.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(عبس ١٧ - ٢٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وارزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وحياكم الله في لقاءنا المعتاد لقاء الثلاثاء، وهذا اليوم هو اليوم الرابع من شهر الله المحرم من عام ١٤٤٤ من الهجرة، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعل اجتماعنا هذا اجتماعًا مرحومًا، وتفرقنا من بعده تفرقًا معصومًا.

خير ما يقضي المسلم وقته مع القرآن العظيم، كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى المعجز، هذا الكتاب المعجز الذي أعجز الخلق جميعًا ولو اجتمعوا في ساحة واحدة أن يأتوا بآية واحدة من مثل هذا الكتاب لن يستطيعوا أبدًا، هذا القرآن أيها الأخوة أنزله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنتأمله، لنتدبره، لنعمل به، اجتماعنا هذا تحفه الملائكة، وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر عن عظمة هذا القرآن وفضله وفضل تعلمه، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرة لأصحابه: «**أيعجز أحدكم أن يذهب إلى بطحان أو إلى العقيق**»، مكان قريب من المدينة «**ويحصل على ناقتين كوماوين** أي سمينة طيبتين، **قالوا: يا رسول الله كلنا لا يعجز، قال: يذهب أحكم إلى بيت من بيوت الله يتعلم آية أو آيتين خير له من ناقة وناقتين وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع**».

لو جلست في مثل هذه المجالس الطيبة وتعلمت آيتين ثلاث لحصل لك هذا الفضل العظيم، السورة التي تناولناها في لقاءنا الماضي مثل ما مر معنا هي سورة (عبس) وتأملناها وأخذنا شيئًا منها، السورة إذا نظرت إليها نظرة عامة وهذا يحثك على التدبر والتأمل أن تقرأ السورة وتنظر إليها نظرة عامة تتأملها، تعرف أن كل سورة لها مقصد ولها هدف، كل سورة من القرآن سواء كانت سورة طويلة كالبقرة أو قصيرة حتى ولو كانت ثلاث آيات مثل سورة الكوثر لها هدف ولها غاية، ينبغي للمسلم أن يقف عند هذا المقصد.

سورة (عبس) هذه السورة العظيمة هدفها وغايتها بيان عظمة هذا القرآن الكريم، ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ [عبس: ١١، ١٢]، وعظم الله هذا الكتاب لما قال: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣ - ١٥]، أي الملائكة، وعظمه غاية التعظيم، وعرفنا أن السورة تدور حول هذا الأمر وبيان موقف من أقبل على هذا القرآن وأراد الاستفادة منه، وبيان من أعرض عن هذا القرآن واستغنى، ثم بعد ذلك لما بين الله عظمة هذا القرآن وموقف هذا المقبل وموقف هذا المعرض بين سبب إعراض هذا الإنسان، ما هو؟ ما الذي دعاه أن يعرض وألا يُقبل على هذا القرآن؟ هو كُفره وطُغيانه واستكباره، ولذلك الله ذم مثل هؤلاء الذين يستكبرون ولا يريدون الحق، ولا يقبلون على القرآن الكريم، ذمهم الله بقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧].

هذه الآية وقف عندها أهل البلاغة وقفة عجيبة، جمعت من معاني البلاغة الشيء العجيب الذي حير أهل البلاغة، ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ﴾ [عبس: ١٧]، هذه الصيغة ماذا تسمى؟ هذه الصيغة يسميها أهل البلاغة صيغة الذم، وصيغة السب، والشتم، واللعن، ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ﴾ [عبس: ١٧]، يعني لُعن الإنسان ما أكفره، فكلمة، (قُتل) معناه لُعن، ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٠]، أي لعنهم وطردهم وأبعدهم عن رحمته، فقوله: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ﴾ [عبس: ١٧]، هذا الإنسان المقصود به الكافر، ليس كل إنسان؛ بل المقصود به الكافر، كيف عرفت أنه الكافر؟ بعدها قال: ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، فالإنسان هنا الكافر.

قوله: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ﴾ [عبس: ١٧]، أي لعن وطُرد وأُبعد وأُقصي عن رحمة الله، هذه الصيغة صيغة سب وشتم ولعن، ثم بعدها قال: ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، هذه صيغة بلاغية، يسميها العلماء صيغة التعجب، تتعجب من شدة كفره وطغيانه واستكباره، ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، ما أشد كفره وأشد إعراضه وأشد عدم قبوله للحق ما أكفره، ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧].

ثم قال بعدها: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [عبس: ١٨]، هذه الصيغة صيغة استفهام، وليس استفهام على حقيقته استعلام، فالله يعلم، لكنه استفهام إنكار وتوبيخ، ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [عبس: ١٨]، استفهام إنكار، استفهام تقرير، يُنكر عليه ويُقرر عليه في نفس الوقت، ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [عبس:

١٨]، من أي شيء خُلق هذا الإنسان حتى يتكبر؟ لماذا تتكبر؟ من أين أنت حتى تتكبر؟ ما أصلك؟ ثم أجاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ﴾ [عبس: ١٩]، والنطفة هي الماء الرقيق القليل، والكل يعرف النطفة هي أصل الإنسان الماء، ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ١٨، ١٩].

يقول: خُلقت أنت أيها المتكبر المتغطرس المُعرض الذي لا تقبل الحق أنت أصلك ماء مهين، خُلقت من هذا الماء فلماذا تتكبر؟ ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ١٩]، لما خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، خلقه بتقدير، فقدره في بطن أمه تقديرًا عظيمًا، ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]، فقدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مدة بقائه في بطن أمه أيامًا وأشهرًا.

قال: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ١٩]، الإيجاز والإطناب من بلاغة القرآن الكريم، أوجز لك حياة الإنسان في بطن أمه المرحلة الأولى، كلها بكلمتين ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [عبس: ١٩]، قدره أن يبقى هذه المراحل التي يمر بها ثم يخرج.

قال: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]، السبيل ما المراد به؟ اختلف المفسرون في معنى السبيل، بعضهم قال: السبيل هو سبيل الخير والشر، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، طريق الخير والشر، ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]، يعني لما خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأوجده في هذه الدنيا بين له معالم الخير ومعالم الشر، فاسلك طريق الخير أو اسلك طريق الشر، هذا رأي وقول لبعض المفسرين.

والقول الثاني: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ٢٠]، أي يسر له طريقه في خروجه من بطن أمه، هو في بطن أمه فقدر الله له هذه المدة، وهذه المراحل، لما انتهت السبيل يسره، لو لم ييسر الله له السبيل لما خرج، ولكن الله يسر له وسهل له السبيل والسبيل يسره.

قولان للمفسرين: الذي يؤيد سياق الآية والحديث عن هذا الإنسان هو أن يقال: إن السبيل هو خروجه من بطن أمه، بدليل ما قبل الآية وما بعد الآية حتى نتأمل أكثر.

قال: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ١٩ - ٢١]، إذًا

هي تمر بمراحل حياة الإنسان كلها، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١].

العجيب أيها الأخوة الحياة لم تذكر، طويت لحقارتها وعدم الالتفات إليها، ﴿فَقَدَّرَهُ ۝١٩ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: ١٩، ٢٠]، إلى الدنيا خرج، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ﴾ [عبس: ٢١]، أين الحديث عن الدنيا وعن حياته؟ ما ذُكر، وهذه الآية مثلها في سورة المؤمنون، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، وقال: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٤، ١٥].

أين الحياة؟ ما في ذكر، وهذا لحقارتها، لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح، ليس بعوضة؛ بل جناح بعوضة، يعني ما تسوى الدنيا شيء حتى الإنسان يؤمل فيها ويعيش من أجلها، ويظلم ويكذب ويأخذ حقوق الناس، ثم في آخر المطاف يُوقف ويُحاسب، ويترك الدنيا وراءه، لن تخرج بشيء من هذه الدنيا، جئت وليس معك شيء، وتخرج وليس معك شيء إلا عملك الصالح.

قال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١]، فأقبره غير فقبره، أقبره يعني أمر بقبره، قبره يعني باشر دفنه، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يأمر ولا يباشر، ولذلك حتى هذه وقف عندها الإمام الفراء وهو من علماء اللغة وقفة عجيبة، قال: فرق بين قبره وأقبره، أقبره أي أمر بقبره، قبره أي باشر دفنه، وهذا الفرق بينهما، أماته الله هو الذي أماته لا يميته أي مخلوق إلا الله، هذا من خصائص الله، أقبره هو الذي أمر بقبره، ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١]، هذا من إكرام الله لهذا الإنسان أن الله جعل له هذا القبر، يُكرم فيه ويُدفن فيه لا كسائر الحيوانات تلقى في الطرقات وتأكلها السباع أو تلقى في النفايات والزبالات، هذا الإنسان كرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فجعل له هذا القبر الذي يُحفظ فيه.

قال: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢]، أنشره يعني بعثه أخرجه من قبره، نشرت الشيء على المنشر أي أخرجته ووضعه، فهو إخراج من القبور، ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢].

لاحظ أنه قال: ﴿إِذَا شَاءَ﴾ [عبس: ٢٢]، ما قال: ثم انشره، ثم أقبره؛ بل قال: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ﴾ [عبس: ٢٢]، لأن يوم القيامة ما أحد يعرفه، مخفي لا يعلمه إلا الله، فالذي إذا أراد مجيئه هو الله الذي يريد

مجيئه وحلول ذلك اليوم، قال: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢].

ثم قال بعدها: ﴿كَلَّا﴾ [عبس: ٢٣]، كلمة زجر وردع لهذا الإنسان الطاغية المسرف المعرض عن ذكر الله، يقول: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]، يعني لم يقضي هذا الإنسان حقوق ربه؛ بل أهملها وضيعها، وكلمة لما في لغة العرب تختلف عن لم، لم للنفي المطلق، ولما لنفي سيأتي، يقول: هل حضر زيد؟ تقول: لمّا يحضر، يعني سيحضر، ولما يقول: هل حضر زيد؟ وتقول: لم يحضر، هذا خلاص مطلق لم يحضر، أما لمّا يعني سيحضر.

قال: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٢٣]، أي لن تقوم الساعة حتى كل إنسان يقضي ما أمره، وهذا الإنسان لم يقضي ما أمره، لأنها جاءت بالنفي، لم يقضي ما أمره الله وفرضه عليه وشرعه له، وأوجبه عليه، لم يقضي هذا الإنسان ما أمره.

الحديث أيها الأخوة عن خلق الإنسان وإيجاده وبيان الفرق بين المؤمن والكافر؛ لأن الله ذم في هذه الآيات الكافر، الطاغية، المسرف، ومن دلالة المفهوم إذا ذم الله هذا فإن ما سواه.. الذي عرف ربه وعرف من أين جاء؟ وإلى أين يذهب؟ سيعرف حقوق الله، وسيأتي بحقوق الله ما استطاع، ففرق بين هذا وهذا.

السورة لما بينت عظمة هذا القرآن وموقف الناس المعرض والمستغني والمقبل على هذا القرآن الذي جاء يسعى، بيان عظمة القرآن وبيان أصل هذا الإنسان، من أين جاء هذا المتكبر؟ بعدما بين الله خلق هذا الإنسان تأتي الآيات بعدها تبين رزق هذا الإنسان، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]، رزق هذا الإنسان، خلقه ورزقه ثم نهايته، ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، انتهى أمره وهذا مصيره، إن شاء الله يأتي الحديث عن بيان رزق هذا الإنسان، ثم الحديث عن نهاية هذا الكون كله ومصير الخلق جميعًا.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(عبس ٢٤ - ٤٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، في هذا المجلس الطيب من مجالس القرآن الكريم في مثل هذا اليوم من كل ثلاثاء نعيش الحقيقة مع القرآن الكريم، نتلو هذه الآيات ونتدبرها ونتأملها، وخير مجلس يُقضى في الحقيقة أن يكون مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قراءة وتدبرًا وتأملاً، والقراءة غير التدبر، التدبر والتأمل هذا يجعلك تعيش شيء آخر تتأمل هذه الآيات العظيمة، السورة التي ما زلنا نتأملها ونتدبر آياتها هي سورة (عبس) التي مر شيء من آياتها، والحقيقة هذه السورة هي تدور حول عظمة هذا القرآن الذي عظمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ۝١٢ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۝١٤ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ - ١٥].

عظم الله هذا الكتاب وعظم شأنه وبين موقف الناس قبل ذلك؛ لما قال: ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ [عبس: ٥]، استغنى عن القرآن، واستغنى عن ربه، واستغنى عن شرعه، ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ [عبس: ٨]، مقبلاً على هذا القرآن يريد تدبر القرآن، يريد أن يفهم، يريد أن يعرف لماذا خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مصير هذا الطاغية الذي أسرف واستغنى لما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ﴾ [عبس: ١٧]، ولُعن، ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: ١٧]، ما أعظم كفره وإعراضه، ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [عبس: ١٨، ١٩]، ماء مستقذر، ثم نهايته؛ قال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: ٢١]، وانتهى أمره، فما وجه الاستغناء والتكبر والإعراض عن ربه وعن خالقه وعن شرعه الذي أنزله رحمةً وهدًى ورشادًا؟!

ثم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يلفت أنظارنا جميعًا بأن ننظر نظر تأمل وتفكر، هذا الإنسان الذي خلقه الله لم يخلقه عبثًا، خلقه وتكفل برزقه، وأنزل عليه شرعه حتى لا يضيع، ولا يكون كالبهائم، جميع المخلوقات خلقها الله وتكفل بأرزاقها، ولكن هذا الإنسان كرمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالطاعة، ومعرفة لماذا خُلق؟

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس: ٢٤]، خلقك ورزقك، انظر إلى الطعام، وفي آيات أخرى قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، يعني انظر في نفسك، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، ما تبصر في نفسك تنظر وتتأمل في خلقك؟! وتأمل في رزقك.

قال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [عبس: ٢٤، ٢٥]، الذي صب الماء الذي هو أصل هذا الطعام وأساسه هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لم يتدخل أي شخص بمجيء هذا السحاب وإنزاله، يسوقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [عبس: ٢٥]، والماء الذي ينزل من السماء ينزل بقوة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤]، يعني شديد قوي، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [عبس: ٢٥]، يعني بقوة، قال بعدها: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٦].

لما يأتيك الفعل هذا أو يأتيك الحرف في القرآن أو الاسم له دلالته، ما يأتي هكذا عبثًا، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿ثُمَّ﴾ [عبس: ٢٦]، ما قال: فشققنا، ليش؟ لأن ثم عند أهل اللغة تفيد التراخي يعني في مدة صبا الله الماء صبًا، طيب أين ذهب الماء؟ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ﴾ [عبس: ٢٦]، شقها لأي شيء؟ للماء أو للنبات؟ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٦]، شقها للنبات وليس للماء، الله أنزل الماء، الماء يختلف بعضه يسلكه في الأرض، ما قال: يشق الأرض، وأن تلاحظ الأرض لم تنشق للماء، قال: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ﴾ [الزمر: ٢١]، سلوك الشيء من غير ما تشعر فيه تشقق الأرض، والماء الذي ينزل لا يلزم أن يدخل في الأرض، قد يكون على الأرض يبقى.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ [عبس: ٢٥]، ثم فترة زمنية، وشققنا الأرض شقًا للنبات، تنشق الأرض ليخرج النبات من تحت الأرض، هذا الشق راجع إلى النبات لا إلى الماء،

ولذلك قال: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٦]، ثم قال: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ [عبس: ٢٧]، والفاء تفيد السرعة والفور، ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس: ٢٧، ٢٨]، الحب هو كل ما يُدخر ويكال، الحبوب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿حَبًّا﴾ [عبس: ٢٧]، وتركك، انظر وتأمل في سائر الحبوب التي لا تستطيع أن تحدها بحد، حبوب الأرز، حبوب الذرة، حبوب القمح، حبوب العدس، في أشكال وألوان وأنواع، أشكال لا حد لها، ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا﴾ [عبس: ٢٧، ٢٨]، الفواكه، وذكر لك بعض الفواكه، وسيذكر لك الفواكه كلها، فقال: ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ [عبس: ٢٨].

القضب هذا قال أهل التفسير: هو طعام البهائم، ما يسمى بالقت، أو العلف أو نحوه، وبعض المفسرين يقول: القضب هو كل ما يجز ثم ينبت مرة أخرى، مثل الورقيات، يدخل فيها طعام البهائم وطعام الإنسان، كالخص والجرير والنباتات التي يأكلها الإنسان ونحوها.

قال: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [عبس: ٢٩]، ذكر العنب وذكر الزيتون، هذه يذكرها أولًا لشهرتها عند نزول القرآن ومعرفة العرب لها، ولكثرة منافعها، قال: ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ [عبس: ٢٩]، ولم يقل لك: تمرًا أو رطبًا؛ بل قال: نخل، ليش مع أنه في الأول قال: عنب، وزيتون؟

أول شيء: لشهرة النحل باسمها.

الأمر الثاني: لكثرة منافع النخل، ولكثرة أنواع النخيل وأنواع ثمار النخيل، ثمار النخيل أنواع لا يمكن أن تحد بحد، ومنها البُسر والرطب والتمر وأنواع كثيرة، وأشكال ومراحل يمر بها.

بعد ذلك عمم، لما ذكر بعض الأشياء وهو يلفت نظرك، أنت تقرأ هذه الآية يجب عليك أن تتأمل وتتفكر وتنظر أيضًا من ناحيتين:

الناحية الأولى: تتأمل عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقدرته في إنشاء هذه الأشياء وهي تسقى بماء واحد.

الأمر الثاني: تتأمل في نعمة الله عليك، يعني قدرة الله ونعمته، قدرته في خلق هذه الأشياء، ونعمته أن سخرها لك وأوجدها لك أنت حتى تشكر الله، فأنت خرجت إلى السوق أو إلى البساتين والحدائق ونحوها، انظر نظر تأمل وتدبر وتفكر، وعبادة في هذه المخلوقات، (وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد) والله يا أخوان لو أخذنا ثمرة واحدة وشجرة واحدة وجلسنا نفكر فيها ونتأمل فيها، ننظر فيها

بطعومها وألوانها وأشكالها، وفوائدها، ما انتهى الحديث عنها، فكيف بهذه الأشياء كلها؟!!

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ [عبس: ٣٠]، حدائق جمع حديقة، لما ذكر لك هذه الأشياء من باب التمثيل، قال: حدائق لا حد لها، حدائق جمع حديقة، والحديقة هي البستان المعروف الملتف بالأشجار، ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ [عبس: ٣٠]، والغلبا جمع، مفردها غلباء، يعني حديقة غلباء، يعني حديقة كثيرة الأشجار عظيمة الشجر، ولذلك العرب يقولون: رقبةٌ غلباء إذا كانت عظيمة، ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ [عبس: ٣٠]، يعني حدائق عظيمة الأشجار كثيرة.

ثم أعطاك الجميع حتى يزيدك في التفكر والتأمل، قال: ﴿وَفَاكِهَةً﴾ [عبس: ٣١]، ما لها حد، ما أحد يستطيع أن يحدها، كل أنواع الفاكهة داخلة.

قال: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، ختمها بالجميع، يرجع للإنسان ويرجع للحيوان والبهيمة، فاكهة للإنسان، وأبًا للحيوان، ما هو الأب؟ قالوا: الأب كل ما يكون طعامًا لبهيمة الأنعام، ولذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان على المنبر مرة وقال: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، قد عرفنا، فمَ الأب؟ ثم قال: إن هذا لهو التكلف، أو قال: ما لك يا عمر لو لم تعرف الأب؟!!

مقصود عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن تحديد نوعها صعب، فكلمة ﴿وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]، هذه يدخل فيها جميع ما يأكله أو ما تأكله بهيمة الأنعام من غير حد معين، قال: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَتَاعًا لَكُمْ﴾ [عبس: ٣١، ٣٢]، الفاكهة والطعام متاعًا لكم، والأب ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٣٢]، يعني الله عَزَّ وَجَلَّ بقدرته أخرج هذه الأشياء بأشكالها وألوانها وطعومها، وجعل ما فيها يكون للإنسان، وما فيها يكون لبهيمة الأنعام، فاشكروا الله على هذه النعمة، واعرفوا عظمة الله وقدرته، واعبدوا الله، اعرفوا أن الله خلق هذا الخلق، وخلقكم أولًا، وخلق هذا الشيء لكم، لتعبدوه، ما خلقكم عبثًا، وإنما خلقكم لتعرفوا حق الله عليكم، قال: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٣٢]، هذا الإنسان وهذه الدنيا، خلق الإنسان بينه الله لك، وبين لك أيضًا ما تحتاج إليه في هذه الدنيا، وما تحتاج إليه من طعام وشراب، ثم بعد ذلك نهايتك، لابد أن تنتهي، وتنتقل من هذه الدار إلى دار هي مصيرك الأخير الذي فيه إما خير لك، خير دائم، أو شر دائم.

ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آخر الآيات خاتمًا هذه السورة: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ﴾ [عبس: ٣٣]، الفاء هنا يسميها أهل التفسير الفاء الفصيحة أو فاء التفريع، يعني إذا أنت عرفت هذا كله فإنه سيأتيك هذا اليوم، وهذا اليوم سريع، اليوم سريع ما تدري متى يأتيك، **«من مات قامت قيامته»**، وانتهى من هذه الدنيا، فلا تدري، ولذلك ما قال: ثم جاءت؛ بل قال: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ﴾ [عبس: ٣٣]، يعني هذه سريعة جدًا، وكل من انتهت حياته قامت قيامته.

قال: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، هي ما جاءت؛ بل ستأتي، ولكن القرآن يقول: جاءت، وهو فعل ماضي، كيف؟ قال أهل التفسير: لتحقق وقوعها كأنها جاءت، ولذلك تقرأ أنت في القرآن: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الكهف: ٩٩]، ما نفخ، كيف نفسخ في الصور؟ بل ينفخ، قالوا: لا، لما كان كأنه وقع قال: نفخ وانتهى، يعني لا تشك ولا تتردد.

قال: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، الصاخة الصوت القوي الشديد المزعج، والمراد به هو النفخة الثانية، النفخة الأولى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، مات كلهم، ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، هذه النفخة هي الصاخة، هي التي تصخ الأذان فيقوم الناس من قبورهم مسرعين، ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣]، قال: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، صاخة لأنها تصخ الأذان.

ثم قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤]، في هذا اليوم؛ اليوم الشديد يذكر الله لك شيء، صورة من صور هذا اليوم، ما تستطيع أن تصور هذا اليوم، ولا يستطيع أحد أن يصور هذا اليوم كله بما يجري فيه ما يستطيع، ولذلك القرآن يعطيك شيئًا من صور هذا اليوم، في سورة كذا يذكر شيء، وهذه يذكر شيء، وهذه يذكر شيء، فإذا اجتمعت عرفتها أنت، فيذكر هنا شيئًا من مواقف الناس يوم القيامة.

قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس: ٣٤].

السؤال الآن:

ليش يفر الإنسان من أخيه؟

قالوا: لأن هذا الذي فر منه متعلق فيه، يريد أن يأخذ منه، يريد أن يأخذ منه حسنات ويفك نفسه من النار، الأخ يلحق بأخيه ويطالبه، قد يكون له حقوق عنده، فيقول: عندك لي حقوق أعطني إياها، والأبناء يلحقون آبائهم يطالبونه لعلهم يحصلون على شيء من الحسنات وهكذا كلهم، كلٌ يطالبه، ولذلك الإنسان يحاول أن يخلص نفسه في الدنيا من حقوق الناس، حتى لو كان أباك وأمك وأخاك وقريبك وزوجتك، لا يبقى لك شيء في ذمتك للناس، خلص نفسك قبل أن تأتي في هذا اليوم يلاحقونك وما يتركونك أبدًا ولا يتنازلون، وأنت لا تتنازل عن غيرك، يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته يعني زوجته، وبنيه، شوف الترتيب ترتيب عجيب.

أول من يفر من أخيه، ليش؟ لأن الأخ بعيد عنه، هو يمشي تدريجي، أول ما يفر من الأخف، فالأخف ثم لا يزال يتدرج إلى الأثقل إلى الأشد، فأول ما يفر من أخيه، وأمه وأبيه هذه أقل، ثم الزوجة أشد، ثم الأبناء، لا يستطيع أن يتخلص منهم، لو تقرأ هذه الآية وتقرأ آية أخرى في سورة المعارج، يقول تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: ١١].

هنا أخر الأبناء آخر شيء، وأما هناك بدأ بالأبناء، ﴿صَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٦]، عكس ليش؟ هذا ما جاء عبث، العكس ما جاء عبث، الآن المجرم هذا يريد أن يخلص نفسه، يفتدي يخلص نفسه من العذاب بأي شيء؟ بأغلى ما يملك، أغلى ما يملك يقدمه حتى يخلص نفسه، وهنا لا، هنا يفر من أخف ثم يتدرج، ما يفر من أبناءها أول شيء بل يفر من البعيد، لكن هناك لا، هناك عذاب أمامه، يريد أن يفك نفسه من العذاب؛ فيقدم أغلى ما يملك، ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ [المعارج: ١١]، ولذلك قال: ﴿وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ [المعارج: ١٢، ١٣]، تدرج إلى الأبعد.

ثم قال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، الحال عظيمة، وكلٌ يفر، وكلٌ قد انشغل بنفسه، قد لهى بنفسه وما يدري، ولذلك ما أحد يعرف أحد، ولا أحد يتكلم مع أحد، ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ما أحد يتحدث عن أحد، لذلك قال: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، ولذلك عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يُحشر الناس حفاة عراة غرلًا»**، قالت: ينظر

بعضهم إلى بعض؟ قال: **«يا عائشة الأمر أعظم»**، ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

الآن يا أخوان الحقيقة لو يحصل موقف زلزال وأو عمارة تسقط أو شيء هل أحد ينظر في أحد؟ يستحيل كلٌ يريد أن يتخلص بنفسه، ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧]، كافيه ما يستطيع أن ينظر إلى غيره.

ثم بين لك مصير الفريقين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، أهل الخير والطاعة قد ابيضت وجوههم وأسفرت وظهر عليها البشاشة والراحة والطمأنينة وانشراح الصدر، ووجوه على العكس، وقد ذكرنا في أول السورة: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ [عبس: ٨]، يطلب الخير هذا الذي يبيض وجهه يوم القيامة، ولذلك قال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠]، قد اغبرت الوجوه، اغبرت اشتدت، ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤١]، القترة السواد، يعني اسودت وجوههم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

هؤلاء من هم الذين اسودت وجوههم؟

من هم الذين وجوههم عليها غبرة؟

قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٢]، ما الفرق بين الكفرة والفجرة؟ الكفرة الذين كفروا بقلوبهم، وبأقوالهم، والفجرة بأعمالهم، يعني أعمالهم أعمال الفجار، أعمال فاجرة، وكفر في قلوبهم، وكفر بألسنتهم، ولذلك القرآن ميز قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ﴾ [عبس: ٤٢]، الكافر الفاجر فرق بينهما.

هذا ما احتوت عليه هذه السورة، عشنا الحقيقة معها ولا نشبع من العيش مع القرآن الكريم والتدبر والتأمل التفكر في هذه الآيات العظيمة، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعل ما ذكرناه حجة لنا جميعًا، وأن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير، إلى لقاء قادم بإذن الله أسأل الله أن يوفقنا وإياكم لطاعته.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ التَّكْوِيرِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(التكوير ١ - ٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه من اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حياكم الله في هذا اليوم المبارك، وفي هذه اللقاءات المباركة لقاءات الثلاثاء بعد صلاة العصر من كل ثلاثاء، نجتمع في هذا المقام المبارك على كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قراءةً وتفسيرًا، وتدبرًا، وتأملاً، مجلسًا من مجالس الذكر، تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله هؤلاء الحاضرين في الملأ الأعلى بأحسن أسمائهم، ففضل عظيم.

والحقيقة أفضل كلام على الإطلاق وخير كلام على الإطلاق هو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والمسلم يلتزم القرآن الكريم ويحافظ عليه تلاوةً وتدبرًا وفهمًا وعملاً.

السورة التي تناولناها ولازلنا نتناول هذه السورة الآتية في الجزء الأخير من القرآن الكريم، وذكرنا لكم أن هذا الجزء وهو الجزء الأخير يسمى بجزء (عم) أو (النبأ) حديثه كله في تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر، والآيات تعرض لك هذا اليوم الغائب عنك، تعرضه كأنه يوم مشاهد، تشاهده أمام عينيك، وما من أحد إلا سيشاهد هذا اليوم، لكن المؤمن العاقل يكون على يقين وعلى دراية وعلى معرفة، وأن يحسب لهذا اليوم حسابه، أنه سيقف أمام الله وستعرض عليه أعماله، وسيجازي وسيفوز أو يخسر، هذه السور كلها تتحدث عن تقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر.

سورة النبأ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، في النازعات: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤]، سورة (عبس وتولى) قال الله فيها: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣].

السورة التي بين أيدينا وهي السورة الرابعة على الترتيب هذا سورة التكوير، وتسمى في بعض المصاحف سورة (إذا الشمس كورت) هي حديثٌ الحقيقة عن اليوم الآخر بتفاصيله، ما قبل اليوم الآخر، وما في هذا اليوم العظيم، جاء عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من سره أن ينظر إلى اليوم الآخر**

نظر عين فليقرأ سورة التكوير وسورة الانفطار وسورة الانشقاق»، كلها حديث تعرض فيه اليوم الآخر أمامك.

هذه السورة الحقيقة نحن نريد أن نعيش معها، نحن نريد أن نتدبر ونتأمل كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا أن نقرأها هكذا، هذه السورة إذا تأملتها الآيات الاثنتي عشر الأولى من واحد إلى اثنى عشر تتحدث بالتفصيل الدقيق عن اليوم الآخر، هذا نصفها الأول، هي تسعة وعشرون آية، اثنا عشر آية منها كلها في الحديث عن اليوم الآخر، في تقريب وعرض مشاهد لما يحصل في هذا اليوم.

ثم بعد ذلك تنتقل السورة إلى التأكيد على أن هذا الكلام الذي أنت تسمعه ويُعرض لك كأنك تشاهده حقيقة، حقائق وليس كذب، حقائق أتى بها جبريل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نزل بها أمين السماء إلى أمين الأرض، وهذا محمد هو أمين الأرض وهذا الصادق كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

وهذا الكلام الذي تسمعونه ليس كلام بقول شيطان رجيم، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٥، ٢٦]، أين تروحوا؟ هذا كلام الله، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، فأين يذهب الإنسان؟!! هذه السورة بشكل عام ما تتحدث عنه، ما تتكلم عنه بإجمال.

أما التفاصيل فخذها:

الآيات الستة الأولى من واحد إلى ستة تتحدث عما يجري في نهاية هذه الدنيا، عما يجري عند نهاية هذه الدنيا، عندما يأتي اليوم الآخر، علامات مجيء اليوم الآخر ست آيات، وست بعدها تتحدث عما يقع يوم القيامة، إذًا أنت تقرأ هذه السورة، اقرأها بتأمل وتدبر وتفكر، آيات ست تحصل آيات كونية عجيبة، تجري عند نهاية هذه الدنيا، ثم بعدها يأتي الحديث عما يجري يوم القيامة.

اسمع وأرعي سمعك؛ يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، يقول: أهل اللغة: (إذا) أداة شرط، ولابد لهذه الأداة من جواب، كل شرط له جواب، فعل شرط وجواب شرط، الفعل موجود ومقدر، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، يعني إذا كورت الشمس، طيب ما الذي

يحدث؟ أعطنا جاب، ما أعطاك الجواب، ثم قال: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، ثم قال: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، ثم قال: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤].

طيب أين الجواب؟

الجواب يأتيك، لكن هذا أسلوب قرآني عجيب بليغ، وهذا من إعجاز القرآن البلاغي، هو يريد أن يجعلك تشتاق، يجعلك تنتظر وتنتظر بشوق، أين الجواب؟

أنا لو قلت لك الآن في غير القرآن: إذا جاء فلان، ثم جاء فلان، ثم فعل فلان، ثم قال فلان، أنت بلهفة تنتظر الجواب، ماذا يصير؟ فهذا معنى هذه الآيات، إذا الشمس وإذا، النتيجة ما هي؟ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، كل نفس ستعلم ماذا قدمت في الدنيا والآخرة، ما قدمت وما أخرت، ما أحضرته من أعمال فيها خير ينفعها، أو فيها شر يضرها، هذه هي السورة، وهذا هو معنى ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢]، هذه حوادث كونية تحصل بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد وقت لها توقيتًا عجيبًا، لابد أن تحصل.

قال: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، ما معنى كورت؟ ما هو التكوير؟ التكوير هو لف الشيء على شكل دائرة، العجيب أن الشمس كما ذكر أهل العلم هي أضعاف الأرض بستة عشر ضعفًا، يأتي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويلفها، يلفها كما تلف العمامة التي تكون على الأرض، وكما يلف الثوب يطوى، فتلف على شكل دائرة ثم يُذهب بها وينتهي دورها ويصبح الناس في ظلمة، تصور أن الشمس ذهب الله بها الآن؟ ستذهب ويبقى الناس في ظلمة، فهذه هي علامة عند نهاية الدنيا.

قد يأتيك سائل يقول:

سمعنا أحاديث إذا جاء يوم القيامة تدنو الشمس من رؤوس العباد بقدر ميل، وأنت تقول: لُفت وذهبت؟

نقول: أنت لا تتصور اليوم الآخر تصويرك الآن، اليوم الآخر شيء، وما يدور في ذهنك شيء، اليوم الآخر يوم آخر، شيء عجيب، إذا كانت مدة اليوم الآخر خمسين ألف سنة، ما الذي سيجري فيها، سيجري فيها أشياء عجيبة، يؤتى بالشمس وتدنو، وتُذهب بالشمس، وأشياء تمر بالإنسان، ما هو يوم

واحد أو يومين أو ثلاثة، أحيانًا يأتي بعض الناس يقرأ مثل هذه الأشياء أو يسمع فيقول: طيب ليش هناك قال كذا؟ وهنا قال كذا؟ نقول: هذه أحداث عظيمة، الله أخبر أنه لا يكلم المشركين، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧]، وفي آيات أخرى نجده يكلمهم، ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [النحل: ٢٧].

كيف يكلمهم ويقول: لا يكلمهم؟

بعض الناس يقولون: هذا تناقض.

نقول: أنت تتصور أنه تناقض وليس بتناقض، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، لكنه من عند الله فما فيه اختلاف، التناقض عندك أنت، وإلا يكلمهم في وقت ولا يكلمهم في وقت، يكلمهم كلام تكليم؟ لا، بل يكلمهم كلام سخط، هذا معناه، وتجد آيات كثيرة يظن الظان أنها متعارضة، أنها متناقشة، ولا تعارض، لابد أن يكون في ذهنك أنه لا تعارض ولا تناقض في كتاب الله، وإنما التناقض والتعارض والفهم الخاطئ من هذا الشخص.

قال: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢]، انكدرت يعني تساقطت بقوة وتناثرت في الأرض، وهذه الآية تفسرها الآية في السورة التي تليها، ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، وفي آية أخرى وهذا عجيب أيها الأخوة، وهذا الذي ينبغي للإنسان عندما يتدبر أن ينظر إلى الآيات، هذه آية، وهذه آية، إذا جمعها اتضح له الأمر، في سورة المرسلات يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨]، تطمس ويذهب نورها، كما يذهب نور الشمس يذهب نور هذا الكواكب، وكم تتصور من كوكب في السماء؟ كم تتصور من نجم ثابت ونجم متحرك في السماء؟ كلها تتساقط على الأرض في هذا اليوم العظيم.

قال: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، الانكدار هو غير التساقط، وهذا الذي ينبغي للإنسان إذا قرأ القرآن يفهم لماذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول هنا: انكدرت، ويقول هناك: طمست، وهنا يقول: انتثرت؟ هل في فرق؟

هذه أحوال، يأتينا بعد قليل آيات، تحتاج منك تأمل كثير وتدبر، تعيش وتدخل في كنوز هذا الكتاب العظيم، هذا الكتاب شيء عجيب، ما تنقضي عجائبه، تدخل في عمقه تزداد علمًا.

إذًا قوله: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، الانكدار في لغة العرب هو تساقط الشيء بقوة وذهابه وتغيره، لذلك يقولون: تكدر حال فلان، وخاطر فلان يعني تغير، الانكدار هو التغير، فهو ذهاب وسقوط وتغير، وانطماس وذهاب نور، إذًا تجمع بين الآيات وتجمع بين هذه الأشياء، هذا الحال الثانية، وقد قلنا هناك ست حالات.

الثالثة قال: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، أزيلت عن أماكنها، وهذه الجبال عجيبة على قوتها وشموخها وثباتها ورسوخها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يزيلها من أماكنها، لو عندك قطعة جبل صغيرة تريد أن تزيلها بالآلات الحديدية الجديدة الحديثة لجلست أيام وما أخذت إلا شيئًا قليلاً، فالله يذهب بها في لحظة، والقرآن يصف لنا الجبال بحالات وأحوال يمر بها.

هنا يقول: ﴿سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، في آيات أخرى؛ قال: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الواقعة: ٥، ٦]، بست أي فتت تفتيت، وفي آية أخرى قال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]، باختصار: الجبال تمر بأحوال، في مراحل تمر بها، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ [طه: ١٠٥، ١٠٦].

وفي الآيات التي مرت معنا في سورة النبأ: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، سرابًا أي ما لها أثر، خلاص أصحبت مثل السراب ما فيه، وفي أخرى قال: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٩]، أي الصوف، الصوف المنفوش خلاص يذهب، تذهب به الريح ما يبقى له أثر، فالجبال ستذهب ما يبقى منها، ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، هذه الحال الثالثة.

قال: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤].

العشار كما قال أبو العباس وغيره: هي الإبل، وهي أنفث أموال العرب، وإذا جاء وحصل مثل هذا اليوم تركها أهلها لشدة هذا اليوم وهوله، يتركون أنفع أموالهم، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤]، أي تركت ما عندها رعي ولا أحد، ليش قال العشار وما قال الإبل؟ العشار جمع عشراء مثل نفساء،

والعشراء هي الحامل في الشهر العاشر، الإبل مدة الحمل اثنى عشر شهرًا، فتلد بعدما يتم الحمل اثني عشر شهرًا فتضع، وفي العاشر تكون قريبًا من الوضع، فيحبها أهلها ويشتاقون إليها، ويحافظون عليها، فإذا جاء هذا اليوم تركوها لشدة الهول.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ [يس: ٤٨، ٤٩]، يعني يتخاصمون في البيع والشراء، ثم يتركون كل شيء ويذهبون من شدة الهول.

قال: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤]، تُركت بلا راعي، أصحابها انشغلوا عنها.

الخامسة قال: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، الوحوش هي الحيوانات التي لا تألف العيش مع الإنسان، فيه هذا اليوم تجتمع، العجيب أنها لا تألف الإنسان ولا يألف بعضها بعضًا، وفي هذا اليوم من شدة الهول ينظر بعضها إلى بعض ولا يعتدي أحد على أحد من شدة هذا اليوم، حتى الحيوانات تخاف من هذا اليوم، ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، كالأسد، والذئب، والنمر، ونحوها، يأتيها شيء يجعلها تذهل، تشوف الفريسة أمامها لا تعتدي عليها، ولا يعتدي بعضها على بعض، كأنها حُشرت في مكان واحد، وهي ستحشر يوم القيامة، ستحشر كما سيأتي وتُحاسب.

أحد الأخوة ذكر لي وقفة عجيبة:

يقول: يا أخي أنا سمعت حديث يقول: **«تؤتى بالشاة القرناء»**، التي لها قرون **«والشاة الجلحاء»**، التي ليس لها قرون فيقتص من الشاة القرناء من الشاة الجلحاء، يقتص بعضها من بعض، فيكف ببني آدم المكلف؟ إذا كانت حيوانات ما كُلفت يؤتى بها يوم القيامة وتُجازى، الطيور والحيوانات والحشرات كل شيء يُحشر يوم القيامة، فكيف بهذا الإنسان المكلف الذي كلف بهذه الأمانة العظيمة وحملها، ولم يؤدي الكثير من الناس هذه الأمانة؟!!

قال: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، البحار تسجر أي توقد نارًا، وهذه من عجائب الله الماء يصبح نار، قال بعض الناس: الماء يطفر الناء كيف يصح نار؟ تقول له: يا أخي في الدنيا يحصل هذا، البراكين التي تقع في بعض البحار نيران وهي في الدنيا فكيف بالآخرة؟!!

بعد الله قادر على كل شيء، يقلب الأشياء، وما يخطر بذهنك مثل هذه الأشياء، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦].

ومثلما ذكرنا ننظر إلى القرآن بشكل عام، لا ننظر من جانب واحد، فهنا يقول: ﴿سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، البحار سجرت، وفي السورة التي بعدها يقول: ﴿فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

يأتيك واحد ويقول: فجرت ولا سجرت؟

نقول: كلام الله لا يتناقض، تفجر بعضها إلى بعض فتصبح بحرًا واحدًا، ثم تشغل نيران، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]، البحر يصبح قطعة واحدة فلا تناقض، كل هذه الأشياء الستة التي ذُكرت في هذه السورة تحصل عند نهاية الدنيا، ثم تأتيك ما الذي يجري يوم القيامة الستة الآتية؟

قال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، النفوس تزوج، تأتي الأرواح إلى الأجساد، ويصنف الناس بعضهم إلى بعض، يأتي الحديث عن الستة القادمة، يأتي الحديث في مجلس آخر بإذن الله في لقاء قادم إن شاء الله.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا ولكم وأن يجعل هذا المجلس مجلسًا مباركًا، أن يقال لنا: قوموا مغفورٌ لكم وقد بدلت سيئاتكم حسنات، أسأل الله أن يرفعنا بالعلم وأن ينفعنا وإياكم، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، صاحب القرآن له فضل عند الله عظيم في الدنيا قبل الآخرة، فالزم وكن صاحبًا لكتاب الله في كل وقت، كل ما تجد فرصة أن تلازم هذا المصحف لازمه، أسأل الله أن ينفعنا به وأن يجعله حجة لنا لا علينا.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(التكوير ٧ - ١٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ أما بعد ...

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يبارك لنا وأن ينفعنا بما نقول، وبما نسمع، وأن يزيدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، **أيها الأخوة الكرام** نجلس هذا المجلس المتعلق بتدبر القرآن الكريم، ومجالس مضت في مثل هذا اليوم، وهذا اليوم هو اليوم الثالث من شهر صفر من عام ١٤٤٤ من الهجرة.

تحدثنا في لقاءنا الماضي عند حديث في سورة التكوير، وذكرنا أن هذه السورة العظيمة التي تتحدث عن اليوم الآخر، وقد ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها اثنتي عشرة آية، ست آيات تكون في نهاية الدنيا، عند نهاية الدنيا ومجيء الآخرة، قبل مجيء الآخرة، عند النفخة الأولى، النفخة الأولى التي قال الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، هذه النفخة الأولى، نفخة الصعق والموت، وخراب الكون، وانتهاء الدنيا، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة التكوير ست آيات تحدث عند نهاية الدنيا، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ١ - ٦].

وهذه السورة الكثير منها يحفظها ولله الحمد، وهي تحتاج إلى تركيز في ترتيب آياتها، هذه الآيات الست تحدث عند نهاية الدنيا.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها ست آيات تحدث عن قيام اليوم الآخر، عند قيام النفخة الثانية، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، هذا يوم البعث والجزاء والحساب والجنة والنار.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عندما ذكر الآيات الست الأولى أردفها بالآيات الست التي بعدها؛ فقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، هذا يحصل متى؟ بعد البعث، بعد خروج الناس من قبورهم، ما المراد بالنفوس؟

للمفسرين في ذلك قولان:

بعضهم يقول: النفوس هي الأرواح، خرجت نفسه يعني روحه، الأرواح هذه إذا جاء اليوم الآخر تأتي إلى الأجساد، الأجساد بعد خروج الروح بعد موته تنفصل الروح عن الجسد متى تعود؟ عند البعث، تعود الأرواح إلى الأجساد، كل روح تعود إلى جسدها، على اختلاف الأرواح وتعدادها وكثرتها، ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، أي قُرنت الأرواح بالأجساد، هذا رأي.

الرأي الثاني: أن المراد بالنفوس إذا زوجت؛ التزويج هنا تصنيف الناس، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة: ٨ - ١٠]، فيصنف الناس، ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢]، فيحشر الناس على اختلاف أصنافهم وأنواعهم وأشكالهم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨]، أفواجًا يعني جماعات، أهل الخير، أهل القرآن، أهل الصلاح، أهل الفساد والشر، والزيغ والفجور على اختلاف أقسامهم وأنواعهم، ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

وليس هناك تعارض أو منافاة بين القولين، إذا فهمنا وتدبرنا أن الأرواح تعود إلى الأجساد وتصنف الناس؛ حتى نفهم هذه الآية فهمًا دقيقًا، قال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧]، فإذا زوجت النفوس وعادت الأرواح وانقسم الناس في هذا اليوم أقسامًا شتى بعد ذلك يبدأ السؤال والمحاسبة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]، وأول ما يقضى في يوم القيامة بين الناس في الدماء، وهذه الموءودة قتلت بغير حق، فوجه لها السؤال، قال: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]، اي هذه التي وأدت وهي البنت الصغيرة، كان بعض قبائل العرب يفعلون ذلك، أنه إذا ولد له بنت أخذها ودفنها وهي حية، وهذا قد انتشر في القبائل أو في بعض قبائل العرب، أنهم يخشون العار ويخشون الفقر

ونحو ذلك، فيقولون: إن البنت لا تحمل السلاح ولا تدافع عن نفسها، وهي عالة على أهلها، ولذلك إذا ولد لشخص حفروا له حفرة كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]، هذا الحساب الأول، وهو إشارة إلى أن الناس يحاسبون جميعًا، وإذا كان السؤال يوجه لهذه البريئة التي وأدت من غير ذنب، فكيف بوائدها وقاتلها، وكيف بمن يقتل ويتعدى على حدود الله أو كيف بمن يأخذ أموال الناس؟ وكيف بمن يتعرض لحقوق الناس؟ كل هؤلاء يحاسبون، حسابًا عظيمًا.

قال: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ [التكوير: ٨]، فإذا كان السؤال يوجه لها فكيف بالقاتل؟ كيف يكون السؤال إليه؟ وهذا فيه تخويف وفيه إرعاب للقاتلين أو للمعتدين على بناتهم ووأدهم وهن أحياء، وفي قراءة أخرى قال: (وإذا الموءودة سألت) سألت من؟ سألت قالتها، (وإذا الموءودة سألت بأي ذنبٍ قُتلت) تسأل يوم القيامة وتتعلق بقاتلها أبوها أو نحو ذلك، تتعلق به وتقول: أي ذنب فعلته؟ ما فعلت شيء حتى أقتل!! فتطالب بحقها، وهذا إشارة إلى أن الناس سيُسألون.

قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠]، تتطاير الصحف، كلٌ آخذ صحيفته، إما بيمينه أو بشماله أو من وراء ظهره بشماله، جميع الخلق، جميع الناس تتطاير الصحف ويأخذون صحيفتهم، والمؤمن ماذا يقول إذا أخذ صحيفته بيمنيه؟ يقول: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٣].

وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول: ﴿يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٦]، فهذه الصحف تنشر، وكلٌ سينظر إلى صحيفته ويقال له: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، والمجرم يقول: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

ما في حركة تفعلها من خير أو شر إلا ويُسجل عليك وينشر لك هذه الصحيفة وتنظر فيها وتحاسب

نفسك، ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وهذه كلها في عرصات يوم القيامة بعد الخروج من القبور، قال: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١].

كشت السماء هو محوها وإزالتها، قبل ذلك تتشقق السماء، وتنزل الملائكة، وتكون السماء أبوابًا ثم بعد ذلك تذهب السماء، كشت يعني ذهبت وانتهى، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ومن أحوال يوم القيامة والناس في عرصات يوم القيام؛ قال: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢]، يؤتى بنار جهنم تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، ويؤتى بها قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير: ١٢]، أي أوقد عليها إيقادًا شديدًا، جاء في بعض الآثار أنه يوقد عليها ألف سنة حتى تبيض، ثم يوقد عليها ألف سنة حتى تحمر، ثم يوقد عليها ألف سنة حتى تسود فهي سوداء مظلمة.

قال: ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٣]، قُربت، تدنى وتقرب لأهلها، وهذا فيه تكريم لهم وتعجيل لهم بحصولهم، بفوزهم بهذه الجنة كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]، في هذه الحال وهذه الأحوال العظيمة ماذا يقول الإنسان؟ يقول الله عنه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، النفس هنا مطلق النفس، أو عموم النفس، كل نفس يتعلم ما أحضرت من عمل خيرًا كان أو شرًا، ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، ما أحضرته من أعمال، ستشاهدها أمامها، وتتمنى أن لو تعود إلى الدنيا لتعمل أعمالًا صالحة، ولكن هيهات، الآن في الدنيا المجال مفتوح للأعمال الصالحة، الأعمال الصالحة بشتى أنواعها، والباقيات الصالحات، علمت نفسٌ ما أحضرته من أعمال وتجازى عليه، ولا يظلم ربك أحدًا، هذه الآيات الست التي تحصل يوم القيامة ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وصورها لنا في هذه السورة العظيمة كأنك تشاهد يوم القيامة أمامك، كأنك تشاهد ما سيجري قبل قيام الساعة، وتشاهد ما سيجري بعد قيام الساعة كأنك تراه رأي العين، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿عَلِمَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، يعني تيقنت، ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ [التكوير: ١٤]، يعني علمت علمًا يقينًا لاشك فيه، هذه الأحوال وهذه الآيات وهذه الأمور التي يذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ست آيات

تتعلق بنهاية الدنيا، وست آيات تتعلق بما يحصل بعد البعث، فعلينا أن نتدبر القرآن، ونتأمل هذه الآيات، فالقرآن كنز، الحقيقة القرآن كنز لا يفرط فيه إلا جاهل، إلا مغبون، فعلى المسلم أن يقف ويتأمل ويتدبر، لينفع الله بك ويكتب الله لك الأجر عند تدبرك وتأملك لكتاب الله، يأتي بقية الآيات إن شاء الله، بقية السورة في لقاء قادم أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(التكوير ١٥ - ٢٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك وفي هذا المجلس، مجلس القرآن الكريم، نقرأ آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ونتأمل ونتدبر ما فيها من توجيهات وتذكير ومواعظ، هذا اليوم هو اليوم العاشر من شهر صفر من عام ١٤٤٤ من الهجرة، السورة التي بين أيدينا هي السورة التكوير، وقد تناولنا شيئًا من آياتها، وذكرنا في لقاءات ماضية أن هذه السورة تصور لنا اليوم الآخر كأنك تشاهده، قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سره أن ينظر إلى اليوم الآخر أو إلى يوم القيامة نظر عين فليقرأ سورة التكوير، وسورة الانفطار، وسورة الانشقاق**».

سورة التكوير ذكر الله فيها اثنتي عشرة آية، ست آيات عند نهاية الدنيا، وبداية الآخرة، آخر مراحل الدنيا تحصل أمور عظيمة ذكرها الله في أول هذه السورة، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ١ - ٦]، إلى آخر الآيات الست.

ثم ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ست آيات أخرى تصور لك اليوم الآخر، كأنك تشاهده، ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ٧ - ١٣].

قال الله لما ذكر لنا هذه الأمور العظام التي ستحدث بلا شك، قال في آخرها تذكيرًا لهذا الإنسان الذي يعيش في هذه الدنيا: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤]، أي ما أحضرته من أعمال، خير أو شر، ستعلم هذه النفس، ولذلك الله ما قال: ستعلم، مع أنه اليوم الآخر سيأتي؛ بل قال: علمت، يعني علمت علمًا يقينًا أنها ستنظر ما قدمت، وستأتيها أعمالها أمامها، فجعل كل إنسان ما قدم لنفسه، هذا

الأمر أيها الأخوة وهذه الأخبار التي يخبر بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات الست والآيات الأخر الست اثنتا عشرة آية، هذه الآيات هل يشك فيها عاقل؟ هل يتردد فيها؟ لا يشك ويلا تردد؛ بل يؤمن إيمانًا يقينيًا، لكن لما كان المشركون في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكفار العرب ينكرون اليوم الآخر كله ولا يصدقون بأن هناك بعثًا يقولون: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦]، وفي آيات أخرى يقول: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، ويقول: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]، كل ذلك إنكار منهم، يستحيلون أن الله يعيد الخلق كله، فلما صور الله لهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الآيات تصوير اليوم الآخر أمامهم أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، والأمر لا يحتاج إلى قسم، ولكن الله يقسم تأكيدًا على هذه القضايا وأنها حقائق يجب أن نؤمن بها، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦].

هذه اللام يظن بعض الناس أنها نافية يعني لا أقسم، بل هذه اللام ذكر أهل التفسير أنها متعلقة بأمر محذوف، حتى نفهم الآيات؛ لأنك لو أخذتها بظاهرها فلا أقسم، ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢]، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، يظن بعض الناس أن هذا نفي يعني لا أقسم؛ بل هو يقسم، ولذلك في سورة الواقعة؛ قال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦]، إذًا هو قسم، لكن أنت تظن أن اللام هذه تنفي؛ بل هذه اللام يقول أهل التفسير: إنها متعلقة بأمر محذوف يقدر، والقرآن كثير ما يحذف الاختصار، فالأمر هنا يقول: لا تظن أيها الكافر أنك لا تُبعث ولا أنك لا تشاهد هذه المشاهد؛ بل أقسم، ولذلك دخلت اللام، اللام متعلقة بأمر يخاطب الله المنكرين، يقول: لا تظن أيها المنكر أنه لا بعث ولا جزاء ولا حساب؛ بل الأمر على عكس ما تظن، ولكنني أقسم لك والله لا يقسم إلا على شيء عظيم، العظيم لا يقسم إلا على عظيم، وهذه الأمور عظام أقسم الله بها.

قال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، يعني أقسم بالخنس، ما هي الخنس؟ الخنس هي النجوم في السماء، النجوم تخنس يعني تذهب تغيب، هذه حكمة الله، إذا جاء النهار غابت وذهبت، واستسرت، وليس لها سلطان، وليس لها دور ولا وظيفة في وقت النهار، وإنما عملها بالليل، وهناك نجوم

سيارة تتحرك تسير، ولا تتصادم، لها طرق خاصة، وهناك نجوم ثابتة، الثابتة يذهب دورها، وكذلك السيارة.

قال: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٥]، الخنس أنها تخنس وتذهب، ولذلك الشيطان قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الناس: ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس: ٤]، يوسوس وإذا تعوذت بالله هرب وفر، خناس يخنس، فمعنى الخنس أي التي تذهب.

قال: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝١٥ الْجَوَارِ ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، الجوار هي النجوم تجري جمع جارية، تجري في السماء، قد سيرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وجعل لها طرق، وجعل لها أعمال، وسخرها، ﴿ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قال: ﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٦]، ومعنى الكنس أي التي تذهب، الجوار إذا ذهبت قلنا: إنها خنست وذهبت، أين تذهب؟ تروح إلى أماكنها التي تغيب فيها، مواقعها التي تغيب فيها، فالذي يذهب إلى المكان الذي يغيب فيه يقال له: كنس، والمكان هذا يقال له: كِناسة بكسر الكاف، كِناسة، تنكس إلى مكانها أي تستقر، وسميت المكنسة بهذا الاسم لأنها تجمع الأشياء وتغيبها عنك، تذهب بها عنك، فكذلك النجوم تسير ثم تغيب وتستقر في مكانها.

قال: ﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ [التكوير: ١٦]، لما أقسم الله بالنجوم وقد أقسم بالنجوم في سورة أخرى سماها سورة النجم، قال: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ [النجم: ١]، ومثل ما ذكرنا أن الله يقسم بأشياء عظيم، لما أقسم بالنجوم وهي في السماء، والسماء ترى فيه الليل وترى فيه النهار أتبع ذلك القسم بالليل، قال: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير: ١٧]، هذا قسم واضح، ﴿ وَاللَّيْلِ ﴾ [التكوير: ١٧]، أي أقسم بالليل إذا عسعس، ما معنى عسعس؟ هذه تعني الذهاب والإقبال والإدبار، عسعس معناها أقبل وأدبر، الليل يُقبل في أوله ويدبر في آخره، وعلى هذه الحركة كل يوم يقبل ويدبر، يقال له: عسعس الليل، عسعس إذا أقبل ثم أدبر، ثم أقبل ثم أدبر على هذه الحركة، قيل له: عسعس، ويمكن ما تعرفون ما يسمى بالعسة، العسة هي التي تذهب وترجع للحراسة، تجلس في أول الطريق في الأسواق قديمًا، يسمونها العسة، وتجلس في آخر الطريق، ثم يأتي هذا مكان هذا، يراقبون السوق، الليل مثلهم يأتي من هنا ثم يذهب، يأتي من

المشرق في أول الليل، إذا غابت الشمس في المغرب أتى الليل من المشرق، وحل محل النهار، وإذا انتهى دوره وانتهى الليل، ذهب وأدبر من المغرب وجاء النهار من المشرق، ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨]، أي إذا بان وظهر مكان الليل وجاء.

لكن قد يسأل سائل يقول: ليش قال: يتنفس؟

ليش ما قال: والصبح إذا أسفر كما في آية أخرى أو جاء الصبح؟

ليش تنفس؟ قالوا: لسببين والعلم عند الله:

أولًا: لأن الليل ثقيل، إذا جاء على الأرض ثقل بثقله وظلمته الشديدة، فذهابه ومجيء النهار والصبح مكانه يأتي وقد تنفس من شدة الثقل، كأنه يأخذ نفس بعد ذهاب هذا الليل الثقيل، هذا وجه.

وقيل: تنفس لأنه يأتي بالنسيم، نسيم الصباح هواء بارد وجميل وحسن، ولهذا قيل: ﴿تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، والإنسان يتنفس الصباح ويرتاح، يرتاح في بداية النهار، قال: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، هذا القسم على أي شيء؟ كم قسم؟ قسم بقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٥ - ١٨].

أربعة أمور يقسم الله بها على أي شيء؟ ولا يقسم إلا بأمور عظام تدل هذه الحركات وهذا التكوين العظيم على أن وراء هذا الكون خالقًا مدبرًا متصرفًا في هذا الكون، يأتي هذا ثم يذهب هذا، وتلاحظ أنت دقة اختلاف الليل والنهار بزيادة الليل ونقصان النهار أو العكس، من يدبر هذا؟ ما أحد يملكه من البشر. إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فهذه الأمور التي أقسم الله بها أقسم بها على أي شيء؟ على ما ذكرنا، أن هذه الأشياء التي ذكرها الله من الحوادث التي ستحدث في آخر الزمان وتحدث يوم القيامة يقسم الله على أنها حقائق، وأنها قول من؟ قول رسول كريم، من هو الرسول الكريم هنا؟ يظن بعض الناس أن الرسول الكريم هو محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو خطأ، إذا قرأت الآيات اتضح لك الأمر، صح أنه جاء في آيات أخرى أن محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصف بأنه رسول كريم، لكن هنا لا، هنا المراد بالرسول الكريم جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ،

رسول السماء إلى رسول الأرض، أمين السماء إلى أمين الأرض، جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو رسول الملائكة، وهو المكلف بإنزال الرسالات والوحي.

قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، وصفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بأنه رسول، وأنه كريم، ذو صورة جميلة، وبهية، وحسنة، ولذلك لما رأت النسوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قالوا: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، حسن الخلقة، فجبريل خلقه الله بأحسن صورة والملائكة جميعًا.

قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، هذا الرسول ذي قوة، ذو بطش وقوة، ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، ذو قوة وبطش، بدليل أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أمره بأن يخسف أو يقلب ديار لوط أخذ بريشة من جناحه، له كم جناح؟ له ستمائة جناح، ريشة واحدة من هذه الأجنحة قلب بها سبع ديار، رفعها إلى السماء إلى عنان السماء ثم قُلبت عليهم، ديار ثمود، فهو ذو قوة عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

قال: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، أي ذو مكانة، عند ذي العرش عند من؟ ذي العرش هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالملك جبريل يصف الله بأوصاف عظيمة تعظيمًا لأي شيء؟ تعظيمًا لما جاء به من هذه الأخبار، يا أهل مكة ويا كفار قريش تظنون أن هذه الأخبار جاء بها محمد من عنده أو إفك من عنده أو كذب لا، هذا نزل به ملك من السماء هذه أوصافه، لتعرفوا عظم القرآن وعظم الرسالة؛ قال: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠]، أي له مكانة ومنزلة عظيمة عند الله.

خمس أوصاف أو ست أوصاف لجبريل، قال: ﴿مُطَاعٍ﴾ [التكوير: ٢١]، أين هو مطاع؟ مطاع عند الملائكة، هو رئيس الملائكة، والملائكة تسمع له وتطيع إذا أمرها، مطاع في السماء، ولذلك قال: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ [التكوير: ٢١]، ثمَّ هنا معناه هناك، ظرف معناها هناك، ليس ثمَّ حرف عطف مثل ثُم، ثُم هذا شيء ثاني، تقول: دخل زيد ثم عمرو، هذه عاطفة، لكن ثمَّ، ثمَّ هذه معناها هناك، تقول: أجدك يا فلان ثمَّ المكان الفلاني، يعني هناك هذا معناه، ولذلك قال: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ [التكوير: ٢١]، أي في السماء هناك بعيد، ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]، فهو أمين السماء، ويُسمع كلامه ويطاع، ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١]، هذه أوصاف جبريل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ثم بعد ذلك قال في محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ [التكوير: ٢٢]، يا أهل مكة، يا من تخاطبون بهذا الكلام، صاحبكم محمد ليس بمجنون، ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

ليش قال صاحبكم؟

لأنهم صاحبوه وعاشوا معه أربعين سنة، كانوا يسمونه الصادق الأمين، فلما جاءكم بهذه الحقائق التي لا شك فيها إنسان كذبتموه، ورددت رسالته، وحاربتموه، واتهموه بأنه كاهن، بأنه مجنون، بأنه ساحر، كذاب!! كيف تقولون هذا وهو صاحبكم وتعرفون معرفة تامة؟!!

فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، رأي من؟ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى جبريل، رآه على صورته الحقيقة مرتين، رآه بعدما نزل من غار حراء، ونزل إلى الأبطح متوجهًا إلى مكة رآه في هذه الآية، ورآه الرؤيا الأخرى في ليلة الإسراء والمعارج، في ليلة الإسراء والمعراج رآه.

قال هنا: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ليش قال بالأفق؟ لأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لما ظهر بصورته الحقيقية سد الأفق، ونادى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال: يا محمد، النبي التفت يمين وشمال وخلف، قال: يا محمد، فرفع رأسه فإذا هو قد سد الأفق، جالس على كرسي بين السماء والأرض، قال: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فرآه على صورته.

قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، فرآه هناك، ورآه هنا، قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٣، ٢٤]، أي محمد يا أهل مكة ما هو الغيب بضنين، كلما جاء خبر من السماء أخبركم به، ما يُخفي عليكم شيء، بضنين يعني ببخيل بما يوحى إليه، لا يُخفي شيئًا، ما جاءه من وحي بلغ الرسالة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجتهد في إبلاغ هذه الرسالة لأمته، فكلما جاءه خبر.. حتى قصة الإسراء والمعراج التي أنكرها أهل مكة جميعًا ولم يصدقوه أخبرهم بها، قال: **«أتاني آتي فأخذني من مكة وذهب بي إلى بيت المقدس، ثم عرج بي إلى السماء فرأيت كذا وكذا»**، فجاء أهل مكة وقالوا: يا أبا بكر إن صاحبك لمجنون، يقول: ذهبت في ليلة واحدة ورجعت، ونحن نقطع الأشهر ما قطعنا هذه المسافة، فكان يخبرهم بكل شيء.

قال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]، هذا الكلام الذي تسمعونه والأخبار ما هو بقول شيطان رجيم، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، أنتم تقولون: أنه يذهب إلى الكهن، ويذهب إلى السحرة ويأتي به الكلام، هذا غير صحيح؛ بل ينزل عليه الوحي من السماء، ولذلك قال بعدها: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]، أين تروحون؟ هذه حقائق أمامكم، ما يمكن أن تتركوها، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]، ما لكم طريق إلا هذا الطريق، طريق النجاة والسعادة والسلامة، إن أدرتم ذلك فاسلكوه وإلا ما أمامكم إلا طريق الهلاك، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦].

ثم بيّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هذه الأشياء لا يُخاطب بها أهل مكة فقط، تظن أن هذه الرسالة لأهل مكة ولقريش ولمن حولهم، لا، بل هذه الرسالة عالمية، للإنس والجن إلى قيام الساعة، ولذلك قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧]، أنت يا محمد رسول الثقلين، رسول الإنس جميعًا ورسول الجن، رسول الثقلين، قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧].

ثم قال: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، هذا الذكر لمن شاء منكم أن يستقيم ويسلك هذا الطريق والذكر فليسلكه، لكن اعلموا أن مشيئتكم تحت مشيئة الله، لا تدبير لكم ولا مشيئة ولا إرادة إلا تحت إرادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

فكل حركاتك، وسكناتك، وذهابك وإيابك، هي كلها بمشيئة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فإن أردت السعادة، وإن أدرت الهداية فاطلبها من الله الذي بمشيئته كل شيء، فليس لك إرادة ولا قدرة، ولا تتكل على نفسك، ولا تستعين بنفسك، وإنما تستعين بالله، وتطلب التوفيق من الله، والتيسير من الله، فكل الأمور مرجعها إلى الله، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

هذه السورة العظيمة الحقيقة سورة جلسنا معها هذا المجلس المبارك الذي تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة بإذن الله، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله أهله في الملأ الأعلى، هذا فضل عظيم، قوموا مغفورٌ لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات، تعيش مع القرآن، وتتدبر هذا الكنز العظيم، كيف هذه السورة بهذه المثابة

وبهذه المنزلة العظيمة؟ تحتاج منا عند قراءتها إلى أن نتأمل ونتدبر ونتفكر.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وجزآكم الله خير على إنصاتكم وحضوركم، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الانْفِطَار)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الانفطار ١ - ١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول، وبما نسمع وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير، هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق السابع عشر من شهر صفر من عام ١٤٤٤هـ نجتمع في هذا المقام المبارك ونتدارس آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخير ما يقضي المسلم وقته في قراءة القرآن الكريم قراءة وتفسيرًا، وتدبرًا وعملاً، لا زلنا في سياق هذه السور، الجزء الأخير جزء (النبأ) أو جزء (عم) هذا الجزء كما ذكرنا كثيرًا في لقاءات أن هذا الجزء هو من السور المكية التي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قرر فيها قضية الإيمان باليوم الآخر، الإيمان باليوم الآخر، بالبعث، بالجزاء، بالجنة، بالنار.

وهذا اليوم الآخر كان موقف الكفار في نزول القرآن ووقت النزول الإنكار، والاستبعاد أن يكون هناك يومٌ يبعث الله فيه الأولين والآخرين ويجازي به الناس إما بفوز بجنات النعيم أو خسارة في الجحيم كل ذلك كان ينكره الكفار ولا يؤمنون به، ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝١٧ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٦ - ١٨]، ذليلون حقيرون، السورة التي بين أيدينا سورة الانفطار، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«من سره أن ينظر إلى يوم القيامة نظر العين فليقرأ سورة التكوير وسورة الانفطار وسورة الانشقاق»**.

سورة الانفطار تأتي بعد سورة التكوير، وحديثها قريب جدًا مما تتحدث عنه سورة التكوير، وأن تقرأ تلاحظ التشابه والتآخي بين هاتين السورتين، وإذا تأملت أكثر وأكثر وجدت أن سورة الانفطار سابقة في تصوير اليوم الآخر لسورة التكوير، التكوير أكثر تفصيل، وأكثر بيان، وأكثر ذكر للآيات، للآيات التي ذكرها الله، كما مر عنا أن سورة التكوير ذكرت ست آيات أو ستة أحوال قبل النفخة الأولى، ثم ست أحوال أو ست آيات تظهر بعد النفخة الثانية نفخة البعث، هنا نفس الشيء، لكن جاءت بسور أخرى،

والقرآن هكذا طريقته يسوق بصور مختلفة للترغيب وتصوير اليوم الآخر بصور مختلفة، ترغيبًا للعبادة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، هناك قال: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢]، إلى أن قال: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١]، أي أزيلت، وهذا كما ذكرنا أنه يحدث بعد البعث أو بعد النفخة الثانية، هنا يختلف الوضع، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، وقال في سورة تأتي بعدها: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

هذا الانشقاق والانفطار يحدث قبيل النفخة الأولى، في نهاية الدنيا، عند خراب الكون تحصل هذه الآيات، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، وقال بعدها: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، انفطار السماء هل هو انشقاق السماء أو يختلف؟ نحتاج إلى تدبر، نحتاج إلى فهم إلى لغة العرب، العرب تقول: انفطر الشيء وتقول: انشق، بلا شك أن هناك فرق، لو كان المعنى واحد لعبر القرآن انشقت مثل ما ذكر في آيات أخرى، لكن لما كان هناك فرق جاء التعبير مرة هنا، وجاء التعبير مرة هنا، أنت يحتاج منك إلى فهم لغة العرب، يحتاج منك إلى فهم لغة القرآن؛ حتى تتدبر أكثر، وتغوص في عمق الآية، انفطار الشيء هو بداية الانشقاق، ولذلك أنا قلت لك: هذه السورة سابقة للسورة التي قبلها، انفطار الشيء هو بداية الانشقاق، تقول: تتفطر قدماه أي بداية الشقوق، لما تقول: انشق الشيء يختلف، انشق القمر، في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انشق القمر، كيف انشق القمر، فلقة في المشرق وفلقة في المغرب، يعني انشق شقين بعيدين، الانشقاق أكبر وأوسع من الانفطار، إذًا هذا بداية؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قال هنا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]،، وقال في السورة التي تليها أو بعد التي تليها؛ قال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢]، إذًا انشقاق يأتي بعد الانفطار.

قال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، متى؟ في نهاية الدنيا، ثم قال بعدها: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، أنت ستجد في هذه الآيات المتتالية الآن والله عَزَّ وَجَلَّ ذكر أربعة أمور، هناك ذكر اثنتين عشرة آية، وهنا ذكر أربع آيات، اثنتان تتعلق بالسماء، واثنتان تتعلق بالأرض، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، قال بعدها: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

ولاحظ لما أقول لك: هذه السورة سابقة، وحتى أحوالها سباقة للأحول الأخرى أو أحوال السورة الأخرى، فهنا الأمور غير مرتبة، يعني أحداث مزعجة، أحداث متتالية بسرعة، ولذلك قال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ثم قال بعدها: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢].

في سورة التكوير قال: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، وعرفنا الانكدار هو ذهاب الضوء والتغير ثم التساقط، هنا قال: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، يعني هناك يختلف، هنا في شيء مثلما تقول: بعثرة، واختلاف، وتشتت؛ لأن قوله: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ﴾ [الانفطار: ٢]، الكواكب هي النجوم، قال: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، يعني تساقطت في أماكن مختلفة، تقول: هذا الشيء انتشر علي، لما يسقط بطريقة غير مرتبة تقول: انتشر هذا الشيء وتبعثر علي، الكواكب تنتشر، الحقيقة نحن نحتاج إلى أن نتدبر أكثر وأكثر، وتصور أنت الكوكب الواحد يعني أكبر من حجم الأرض، إذا تساقط أين يذهب؟ وليس كوكب واحد أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة، هذه كواكب في السماء مليئة، وكلها في هذا الوقت وعند نهاية الدنيا إذا أراد الله هذا الأمر تتساقط في أماكن مختلفة في هذا الكون الواسع المترامي الأطراف، الأرض حجم صغير بالنسبة لهذا الكون المترامي الأطراف.

قال: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، وتساقطت في أماكن مختلفة، بعدها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]، وأنا أقول لك: اجعل أمامك هاتين السورتين، هنا يقول: فجرت، وهناك يقول: سجرت، التفجير سابق، معنى التفجير أن البحار تفجر بعضها على بعض حتى تصبح بحرًا واحدًا قطعة واحدة، ثم بعد ذلك تسجر، والتسجير مثلما مر معنا هو أن تشتعل نارًا، فتصبح هذه المياه كلها نيران، متى يحدث؟ بعد تفجيرها، لما تفجر هذه مرحلة سابقة، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]، هذه كلها تحدث في نهاية الدنيا، ذكر الله هنا ثلاث آيات، وهناك ذكر ست آيات، وهنا ذكر ثلاث آيات، انفطار السماء، وتناثر الكواكب، وتفجير البحار، هذه كلها تحدث قبيل نهاية الدنيا عند النفخة الأولى.

بعدها قال: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤]، شوف لاحظ تبعثر القبور تحرك بقوة وبشدة، وتتشقق القبور ويخرج الناس من قبورهم، هذا متى يحدث؟ هذا يحدث بعد النفخة الثانية، هذه بعد النفخة

الثانية، إذا نفخ في الصور النفخة الثانية ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨]، هذه هي الآية التي تحدث، تبعثر القبور فيخرج الناس من قبورهم، تعود الأرواح إلى الأجساد ويخرج الناس من قبورهم، ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار: ٤].

قال بعدها: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥]، وهناك قال: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ ﴾ [التكوير: ١٤]، ما قدمت من أعمال، وهنا فصل، ما هي الأعمال التي قدمتها؟ قال: ﴿ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥]، ما معنى ما قدم وما أخر، وهذه الأعمال تصدق على أعمال الخير للصالحين، وأعمال الشر لغير الصالحين، كل نفس ستعلم ما قدمت وما أخرت من خير أو شر.

ما معنى قدمت؟ وما معنى أخرت؟

للمفسرين أقوال:

بعضهم يقول: علمت نفسٌ ما قدمت من خير من أعمال صالحة، قدمته لها وعملته في الدنيا، وما أخرت من أعمال صالحة أيضًا تركتها النفس وراءها في الدنيا، مثل ماذا؟ مثل أعمال البر التي تبقى بعده، الصدقات الجارية، والولد الصالح الذي يدعو له، ونحو ذلك، كل ما تركه من آثار حسنة يعلم هذا الإنسان يوم القيامة أنها تُجمع له أعماله وحسناته التي فعلها في الدنيا قبل أن يخرج من الدنيا، والتي بقيت له بعد أن ينتقل من هذه الدنيا إلى الآخرة، تبقى له أعمال صالحة من أوقاف ونحو ذلك، هذا وجه من وجوه التفسير.

الوجه الثاني: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥]، أي ما قدمت من أعمال صالحة، وما أخرته بمعنى تركته لم تعمله، فإذا جاء يوم القيامة سيندم الإنسان أشد الندم على أنه كيف ضيع عمره؟ ما الذي قدمت من أعمال صالحة ووجدتها؟ ما الذي ضيعته؟ مر عليك يوم ما عملت فيه عمل صالح، هذا أخرت عملك، وضاع عليك هذا اليوم وذهب عليك، صلاة الضحى يبدأ وقتها من هذه الساعة إلى هذه الساعة، عملت فيها وصليت فيها فقد قدمت لنفسك، ما عملت وما صليت قد أخرت وذهبت عليك، فهذا معنى.

إذًا معنى قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥]، إما أن يكون ذلك من

أعمال صالحة يقدمها لنفسه في حياته أو بعد مماته، أو ما يقدمه لنفسه يجده، وما يؤخره فيندم عليه، هذان قولان كلاهما صحيحان، والآية تصدق على كل نفس صالحة أو غير صالحة.

الكافر والفاجر إذا جاء يوم القيامة علم ما قدم من أعمال سيئة، وما ترك، وعلم ما ترك حتى ما سن من السنن السيئة تجد بعض أهل الضلال يسنون سننًا سيئة، ويذهبون من هذه الدنيا ويتركونها خلفهم وراءهم، يعمل فيها الناس وهم يأتيهم أوزارها وسيئاتها، ويحملون أثقالهم وأثقال من عمل بما سنوه للناس، كل هذا يصدق عليه ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

الحقيقة السورة على قصرها وقلة آياتها إلا أن فيها آيات عظيمة تحتاج منا إلى تأمل، قال بعدها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ [الانفطار: ٦]، الخطاب لعموم الإنسان، ولكنه يصدق على الكافر أكثر، لماذا؟ لما يأتي بعده لما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]، فدل على أن الإنسان هنا هو الكافر؛ لأن المؤمن لا يكذب بالدين ولا بالجزاء ولا بالحساب.

قال: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، ما الذي جعلك تغتر بربك؟ ما الذي جعلك تغتر حتى تقع في معاصيه؟ قال بعض السلف: غرني ستور الله، غرني عفوه، لما إنسان يعني الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يستر عليه ويعفو عنه، ولا يُعاقبه ولا يعجل له بالعقوبة يستمر، ويتمادى في معاصيه، وهو يعرف أن الله كريم، لاحظ أنه قال: ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، فالكريم حتى الكريم من بني آدم إذا وجدت الرجل كريمًا فإنك تجسر عليه أكثر وتطمئن نفسك له أكثر، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إذا شعر الإنسان هذا بأن ربه كريم، وأنه يتجاوز، وأنه يعفو وأنه يستر تمادى، والمفترض أنك تقابل الكرم بالكرم، لا يتقابل الكرم بالإساءة، الإنسان يُحسن إليك ويكرمك تقابل هذا الكرم بالكرم، قال: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

ثم بدأ يبين لك من أنت؛ قال: الذي خلقك وأوجدكم من عدم، فالذي خلقك وأوجدك من العدم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو الكريم، ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]، سواك أي جعلك في سورة حسنة، سواك أي خلقك في أحسن تقويم، في أحسن صورة، ﴿فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]، جعلك معتدل القامة وفي صورة جميلة، لا تجد إحدى العينين أكبر من الأخرى، ولا إحدى اليدين أكبر من

الأخرى، ولا إحدى الأذنين أطول من الأخرى؛ بل خلقك في أحسن صورة، وصورك في أحسن صورة.

فمقابل هذا الخلق الطيب الحسن الجميل تُقابله بالمعاصي والكفر والطغيان هذا لا يليق، ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨]، سبحانه وتعالى يركبك في أي سورة، باللون الأسمر، باللون الأبيض، بالطول بالقصر، بصور كثيرة، يصورك الله في أحسن صورة، ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨].

قال بعدها: ﴿كَلَّا﴾ [الانفطار: ٩]، ليس الأمر كذلك، كلا كلمة ردع وزجر، يعني دائمًا إذا قرأت كلمة كلا اعرف أن الأمر فيه مخالفة، فيه عصيان، فيه خروج عن الطريق السوي، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ يقول للإنسان: ما الذي غرك؟ تغتر بربك بفعل المعاصي والفجور والإعراض عنه وهو الذي خلقك، ومع ذلك تكذب بيوم الدين؟!!

قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]، ما المراد بالدين؟ هل الدين هو الشرع؟ ولا الدين يوم الجزاء والحساب؟ الله تعالى قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، يعني يوم القيامة، فالآية تحتمل أنك تكذب بالشرع وبالرسالة، تكذب بما جاءك عن الله، وتكذب بالبعث، كلها صحيحة، تكذب بذلك كله.

قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ٩، ١٠]، يعني كيف تكذب بالشرع؟ وتكذب بالله؟ وتكذب بالجزاء والجنة والنار والبعث والله قد أرسل إليك ملائكة تحفظ أعمالك؟ ما تلفظ من قول إلا سجل عليك، وما تعمل من عمل إلا يسجل عليك، فاحفظ لسانك، واحفظ جوارحك إلا في طاعة الله، خلفك ملائكة تتابعك وتكتب، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ١٠]، ملائكة تحفظ لا تضيع ولا مثقال ذرة من حسنة؛ بل تكتبها وتسجلها، وهؤلاء الملائكة كرام فأكرمهم، إذا كانوا بهذه الصفة الله أكرمهم فعليك أن تكرمهم، ألا يكونوا معك وأنت على معصية، تستحي من الملائكة، وتكرم الملائكة، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]، يكتبون كل شيء ويعلمون كل ما تفعل، كل ما تفعله في نفسك أو أمام الناس كل ما تفعله يعلمه، الله عَزَّ وَجَلَّ وكلهم والله عَزَّ وَجَلَّ أعطاهم ومنحهم القدرة على متابعة كل

إنسان معه ملك، ومعه قرين من الشيطان، قرين من الشيطان وملك من الملائكة، فاستحي من هؤلاء واعمل الصالحات، السورة لا تزال في ذكر مثل هذه الأمور التي نحتاج إليها ونتأملها ونتدبرها، لكن لا نريد الإطالة عليكم، لعلنا نقف عند هذا القدر، وإن شاء الله في لقاء قادم نستكمل ما تتحدث عنه هذه السورة العظيمة الجليلة، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعا، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن ينفعنا بما قلنا وما سمعنا.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الانفطار ١٣ - ١٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصل وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين؛ أما بعد ...

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، الحقيقة أيها الأخوة مثل هذه المجالس المباركة المجالس التي فيها التدبر والتأمل في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أفضل كلام على الإطلاق كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخاصة إذا كان التدبر في الآيات التي تتعلق باليوم الآخر، وما يجري في هذا اليوم العظيم، وهذا اليوم الهويل الذي عظمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأكد عليه في آيات كثيرة؛ بل في سور عظيمة، وما أحوجنا أيها الأخوة في الحقيقة إلى مثل تدبر القرآن وتدبر ما قد يغيب عن كثير من الناس مما يتعلق باليوم الآخر، وما يتعلق بالمعاد، وما يجري في هذا اليوم من أحوال عظيمة، وشدائد عصيبة، وما أنت تسمع وتشاهد وترى مما يذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كأنك تراه رأي العين، مما يحدث لكثير من هذه الجمادات التي تتأثر بهذا اليوم العظيم.

والحقيقة ما أقسى هذه القلوب؟ الكثير من القلوب قاسية تحتاج إلى من يلينها بمثل هذه المواعظ وبمثل هذا التذكير العظيم، سئل أحد السلف جاءه رجل وقال: إني أجد في قلبي قسوة، قال: عليك بالقرآن، قال: أجد في قلبي قسوة، قال: عليك بآيات اليوم الآخر فإنها ترقق القلوب، أنت تقرأ هذه الآيات وتجد فيها تأثير على القلوب الحقيقة، نحن في هذه السورة العظيمة سورة الانفطار أو ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، مع قصرها وقلة عدد الآيات إلا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني أجمل فيها أمورًا عظيمة، وهذا يدل على إعجاز القرآن، تأتيك سورة طويلة، تأتيك سورة قصيرة، تأتيك آيات طويلة أحيانًا، آيات قصيرة، ولكن فيها دلالات عظيمة تحتاج منا إلى تأمل وتفكر، إلى أن نقف معها وقفة عظيمة، هذه السورة تحدثنا عنها في لقاء ماضي، ونستكمل ما توقفنا عنده حتى نختم هذه السورة العظيمة.

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة نظر عين فليقرأ إذا الشمس كورت،**

وإذا السماء انفطرت، وإذا السماء انشقت»، هذه سور عظيمة الحقيقة، لا تقرأها هكذا اقرأها وقف عند آياتها، ورددها وتأملها، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف مع آية ليلة كاملة حتى أصبح، آية واحدة، ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وقف معها ليلة كاملة وهو يرددها، عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الصديقة وقفت مع آية ترددها، قال بعض التابعين: مررت على بيت عائشة وإذا هي تردد آية، يقول: فذهبت إلى السوق وقضيت حاجتي ورجعت وهي تزال تردد هذه الآية، فترديد الآيات سنة، أنك ترددها وتعيد النظر فيها وتتأملها.

قال: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، حصل هذا الانفطار في السماء، وذكرنا أن الانفطار يسبق الانشقاق، تنفطر ثم تنشق ثم يحصل لها ما يحصل لها من أهوال حتى يطويها الجبار سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، آيات كثيرة، ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩]، هذه كلها أحوال تمر بها، السماء من الجمادات ومع ذلك تتأثر بهذه الأهوال العظيمة، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ولاحظ أن هذا في الكون في الأعلى.

ثم قال بعدها: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، تساقطت، لماذا قال انتثرت؟ غالبًا الانتثار هو انتشار الشيء من غير ترتيب، تجد هذا يسقط هنا وهذا يسقط هنا وهكذا، لماذا؟ قال: لشدة الهول، القضية قضية عظيمة، ولذلك الكواكب تتناثر في كل مكان، وتصور أن الكواكب كم عددها؟ كم كوكب في السماء؟ وما حجم الكوكب في السماء؟ وكيف يسقط؟ وأين يسقط؟ وأين يذهب، هذه أمور عظيمة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يذكرها لنا حتى نعتبر، وحتى نتفكر وحتى تلين هذه القلوب.

قال: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]، لو تقرأ في السورة التي قبلها في سورة التكوير قال: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، يعني أشعلت نارًا، وهنا قال: ﴿فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

قد يأتيك شخص ويقول لك:

كيف مرة يقول فجرت؟

ومرة يقول: سجرت؟

نقول: فجرت ثم سجرت، تُفجر حتى تصبح بحرًا واحدًا، ثم تتأجج نارًا، وهذا جماد، الله عَزَّ وَجَلَّ

أقسم بالبحر هذا لما يتفجر أقسم به قال: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور: ٦]، يعني الذي يتوقد نارًا.

قد يأتيك شخص يقول لك:

كيف ماء يصبح نار والماء ضد النار؟

نقول: أنت في الدنيا الآن تشاهد بعض المحيطات تخرج منها نيران في الدنيا، فكيف بالآخرة؟! ثم دائمًا أعطيك قاعدة تستفيد منها في حياتك: أمور الآخرة لا يمكن أن تتصورها في ذهنك، تتصورها بشيء تقريبي ممكن، لكن أن تتصورها على حقيقتها لا، لا يمكن أبدًا؛ لأن اليوم الآخر يختلف عن الدنيا، فكل ما يأتي في بالك كيف يحصل كذا؟ وكيف يحصل كذا؟ هذا الكيف ما يمكن أن يتصوره الإنسان أبدًا لا في الجنة ولا في النار ولا في عرصات يوم القيامة، كل هذه الأمور تختلف عن أحوال الدنيا.

قال: ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤]، وبعثرت القبور تحريكها بشدة وبقوة من غير ترتيب نفس الشيء، فيخرج من في القبور، يخرجون سراعًا، يخرجون إلى المحشر، إلى الحساب، إلى الجزاء، كل الخلق جميعًا كل من في القبور ومن تحت الأرض، حتى من حيوانات، ومن طيور، ومن إنسان، ومن جن، ومن حتى المواد التي في الأرض من كنوز، ومن ذهب، ومن فضة، كلها تُحشر يوم القيامة، ويُؤتى بها يوم القيامة.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر لنا هذه الأحوال مجملة وأعطاك شيء منها وليست هذه كلها، وإنما أعطاك شيئًا منها، نقلك إلى أي شيء؟ نقلك إلى موقف هذا الإنسان، هذا الإنسان المعاند الكافر المصر على كفره وعناده يذكره الله لعله يرجع، أما المؤمن مصدق، المؤمن يصدق بكل شيء ولا يعترض على شيء، لكن من يعترض قال الله فيه: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، لماذا تكفر؟ لماذا تغتر بربك وتكفر وتعاند وتصر؟ قال بعض السلف: غره رحمة الله، وستره، وعفوه، لو أن الله انتقم منه مباشرة ونزلت به العقوبة لما اغتر، لكن الله هو يفسد ويعاند ويكفر ويطغى والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعطيه الصحة والعافية ويمهله، هذا الذي جعله يغتر.

قال: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، ولاحظ أنه قال: ربك الكريم، أي ذو الكرم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يكرم عباده ويعطيهم ويغدق عليهم ويحاربونه ويعاندونه.

ما غرك بربك الكريم الذي خلقك الخلق الأول، أنشأك وأنت من عدم لست موجود على هذه الأرض، فخلقك فسواك فعدلك في أحسن صورة، في أجمل صورة أخرجك، سواك صورة حسنة طيبة، كما قال بعض السلف: لم يجعلك في صورة قردة ولا خنزير وإنما جعلك في أحسن صورة، وجعلك أعضاءك متساوية، لو كانت إحدى اليدين أطول من الأخرى، أو إحدى الرجلين أطول من الأخرى، أو إحدى العينين أكبر لما استقام الشخص، لكن الله جعله في أحسن تقويم، وفي أحسن صورة، يذكره بهذه الأشياء، ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨]، في أي صورة الله اختار لك ما يشاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦].

ومما يدل على أن هذه الآية تخاطب الكافر؛ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]، من يخاطبهم الله يكذبون، لو كانوا ما يكذبون ما خاطبهم بهذا الأسلوب، ولكنهم كانوا يكذبون بالدين، والمراد بالدين هنا؛ قيل: هذا الشرع دين الإسلام، وقيل: الدين هنا هو يوم القيامة، يوم القيامة يسمى يوم الدين، ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، كما سيأتيك في آخر السورة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧]، سمي يوم القيامة بيوم الدين لأن الناس يدانون بأعمالهم يجازون، الدين يعني الجزاء والحساب.

يقول: كيف تكذب بيوم الدين، وتكذب بالله، وتكذب بيوم القيامة، وتكذب بشرعه والله قد وكل عليك ملائكة تحصي كل ما تقوله وما تفعله، حتى النظرة تنظرها تُسجل عليك، حتى الابتسامة والضحكة تُسجل عليك، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ [الانفطار: ٩، ١٠]، يعني ملائكة وصفهم الله بأنهم حفظة يحفظون الأعمال، ما تقدم من خير تجده، كل ما تفعل من خير مسجل ومحصي ومحفوظ لك، فابذل الخير وتجنب الشر، إذا علمت أن وراءك من يكتب، وراءك من يحفظ، وراءك من يسجل ويحصي فالتزم الخير وابتعد عن الشر، كل هذه مواعظ وتوجيهات من رب غفور رحيم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا﴾ [الانفطار: ١٠، ١١]، هؤلاء الملائكة وصفهم الله بأنهم كرام، فإذا كانوا كرامًا ويتابعونك فأكرمهم، الله كريم أكرمه وقابل الكرم بالكرم مع الله، ومع الملائكة.

قال: ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١١، ١٢]، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعطاهم القدرة على أنهم يعلمون كل ما تفعله، كل إنسان في المسجد وفي خارج المسجد في أي مكان الملائكة معه تسجل وتعلم ماذا يفعل؟ لما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الأهوال العظيمة وذكر موقف هذا الإنسان، وذكره بالرجوع إلى ربه، وتذكيره بنعمة الله عليه، وبما خصه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من نعم عظيمة، وجعل عليه ملائكة تحفظ أعماله، ختم الله هذه السورة بمصير الناس اليوم القيامة، هذه هي خاتمة السورة، خلاصة ما تقدم كله النتيجة ما هي؟ ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

الأبرار جمع بر والبر هو من كثرت أعماله الصالحة، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يدخل في زمرة الأبرار، كن في زمرة الأبرار وكن معهم، وسارع في ركبهم، ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣]، وفيه تعليل، وفيه بيان الحكمة والعلة، لماذا الأبرار في نعيم؟ قال: لبرهم، لكثرة أعمالهم، فكأنه إشارة إلى أنه كن من الأبرار واعمل الأعمال البارة الصالحة حتى تكون في النعيم، حتى تحصل وتفوز بجنات النعيم.

كما أنه في المقابل، ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٤]، الذي جعلهم في جحيم فجورهم وكسبهم السيئ، كسبوا السيئات وعملوا السيئات؛ بل زادوا على ذلك بأن كانوا فجرة، كانوا فجارًا، والفجور كثرة الذنوب والمعاصي، كما أن البر والأبرار كثرة الطاعات، يسمى هذا الرجل بارًا إذا كثرت أعماله الصالحة، ويسمى فاجرًا إذا كثرت أعماله السيئة، وفي هذا بيان لحكمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن جازى المحسن بإحسانه، وأن جاز السيئ على إساءته، وهذا عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وحكمته؛ بل يزيد من عباده الأبرار من فضله، ويعطي هذا على قدره.

وتختم السورة بقوله تعالى: هؤلاء الفجار لهم الجحيم ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الانفطار: ١٥]، أي يوم القيامة، ومعنى يصلونها أي يدخلونها ويقاسون حرها، ليست يصلونها من الوصول، ليست من الوصول، وإنما هي من الصلي، يقال: شاة مصلية أي مشوية، وهم هؤلاء وعدهم الله بهذا الوعيد الشديد أنهم يدخلون نار جهنم ويقاسون شدة حرها، ويلاقون ما فيها من العذاب من ألوان العذاب المختلفة.

قال: ﴿ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١٥، ١٦]، ولا لحظة، لا يمكن،

يطلبون التخفيف، خفف عنا من العذاب، أخرجنا من النار، لا يُخرجون ولا يُخفف عنهم من عذابها، وليسوا هم بغائبين ولا لحظة من اللحظات أن يغيبوا عن نار جهنم؛ بل لا يموت فيها ولا يحيى، نسأل الله العافية، وأسأل الله أن يجنبنا طريق أهل النار.

قال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [الانفطار: ١٧]، أتعلم ما هو يوم الدين؟ أتدري ما هو؟ ما أدراك؟ ما تدري يوم الدين؟ ونحن ذكرنا لكم أكثر من مرة: أنه إذا جاءتك ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ [الانفطار: ١٧]، الجواب، موجود، وإذا جاءك: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، الجواب غير موجود أبدًا ولا أحد يعرف، حتى النبي ما يعرف، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ما أحد يدري، إذا قال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ [الانفطار: ١٧]، الجواب موجود على طول، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة: ١٠، ١١].

قال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨]، هذا تأكيد، دليل على أي شيء؟ على عظمة هذا اليوم، تهويل هذا اليوم، ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ [الانفطار: ١٧]، ما تدري ما هو، ثم ما تدري ما هو؟ حتى نعطيك الخلاصة: كل نفس ما تملك عن الأخرى شيء، ما يمكن ولا تحمل عنها شيئًا أبدًا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [الانفطار: ١٩]، مستحيل أن تحمل ولا مثقال ذرة، لو يأتي الأب إلى ابنه يطلب منه مثال ذرة ما أعطاه، والزوج لزوجته والزوجة لزوجها، وأقرب الناس والأبناء لآبائهم كلٌ مشغول بنفسه، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ﴾ [عبس: ٣٤]، ليس مقابل أنه يجلس معه أو يعطيه فرصة؛ بل يفر ولا يريد مقابلته، لأنه سيأخذ منه، يقول: أنا أبوك وأنا فعلت معك كذا وكذا في الدنيا، وأعطيتك، فأعطني حسنة واحدة؟ فيعتذر منه، وهكذا.

قال: ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ [الانفطار: ١٩]، كل نفس على نفسها، لا تتدخل بالأخرى، ﴿ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩]، أمر هذا اليوم العظيم كله مرجعه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مرجع الأمور كلها، ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٣].

السورة الحقيقة سورة عظيمة، قصيرة، آياتها ليست بالكثيرة، وليست بالطويلة، ولكنها رسالة لكل عاقل يقف ويقرأ ويتأمل ويردد، وأنا أقول لكم الحقيقة، إذا قرأتم مثل هذه السورة أو غيرها رددها، وارجع إلى تفاسيرها ومعانيها، وقف عندها وتأملها، هذه تزيدك إيمان، تزيدك إيمانًا على إيمانك، وتنفعك وتتدبرها وتتأملها وتعيش معها، وتستفيد دروس وعبر، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وجزآكم الله خير على إنصاتكم وحضوركم.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ المُطَفِّفِين)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(المطففين ١ - ٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله والحمد لله وأصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا وعملاً يا رب العالمين.

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، أسأل الله أن ينفعنا بما نقول وبما نسمع، أن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير.

لا زلنا في حديثنا عن هذه السور، سور الجزء الأخير من القرآن الكريم، جزء (النبأ) والسورة التي بين أيدينا هذا سورة المطففين، وتسمى بسورة التطفيف، وأحيانًا تسمى بسورة: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، كلها أسماء بمعنى واحد، السورة نحن جميعًا نحتاج إلى أن نقرأها بتأمل وتدبر ونفهم معانيها، ونعرف دلالات هذه السورة، ما الغرض منها؟ وأنت تقرأ هذه السورة وتقرأ ما قبلها، وحديثنا في اللقاء الماضي كان في السورة التي قبلها وهي سورة الانفطار، سورة الانفطار قال الله فيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإيجاز: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، قد تتشوف النفس لمعرفة من هم الأبرار؟ وما صفاتهم؟ وما حالهم يوم القيامة لما يقول الله: ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣]، وكذلك الفجار من هم الفجار؟ وما حالهم؟ ما الذي دعاهم إلى أن يكونوا بهذه الصفة صفة الفجور؟ وما مآلهم يوم القيامة؟ وكيف سيكون مصيرهم يوم القيامة؟

هذا التفصيل لا يعلمه أحد، لا أعرفه لا أنا ولا أنت ولا أي إنسان، لما جاءت سورة المطففين شرحت لنا هذا، أوضحت لنا الأبرار من هم؟ وكيف سيكون حالهم يوم القيامة، أوضحت لنا الفجار من هم؟ وكيف سيكون حالهم يوم القيامة بتفصيل دقيق جميل حسن واضح يجذب الأسماع، ومن أعظم الأمور والأسباب التي تجرُّ الإنسان إلى الفجور وإلى وصفه بكونه من الفجار وفي عداد الفجار أخذ أموال الناس بالباطل، أكل أموال الناس بالباطل من أشد الأمور، ولذلك لو تتأمل في القرآن الكريم سورتان في القرآن افتتحت بهذا الوعيد الشديد: ﴿وَيْلٌ﴾ [المطففين: ١].

سورتان:

السورة الأولى: وهي السورة التي معنا الوعيد لمن يأخذ أموال الناس بالباطل، الذي يأخذ أموال الناس قل أو كثر لا يجوز لك أن تأخذ مال غيرك بغير إذنه، التعدي على حقوق الناس وأموالهم.

السورة الثانية: سورة الهمزة، ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، التعدي على أعراض الناس، **«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم»**، حتى أنك تجد أحيانًا التعرض لأعراض الناس، والتكلم في أعراض الناس أشد من قتلهم، يعني تقتل الرجل ولا تتعرض لعرضه أو تتكلم في ظهره، ولذلك شدد الله؛ فقال: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وفي هذه السورة أيضًا التي بين أيدينا: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

وويل؛ قال أهل التفسير: هذا وعيد شديد لا يعلم قدره إلا الله، يعني الإنسان إذا سمع كلمة ويل خاف منها وارتجف قلبه، وفر مما وراء ويل، ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، العاقل المسلم يخاف من كلمة ويل.

حتى قال بعض المفسرين: إن كلمة ويل هذه وادٍ في جهنم لو ألقيت فيها جبال الدنيا لذابت فيه، فكيف إنسان يُعرض نفسه لهذا الوعيد الشديد.

والعجيب لما تقرأ هذه السورة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَيْلٌ﴾، لمن؟ ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، التطفيف ما هو؟ التطفيف أخذ الشيء اليسير، يعني لو أخذ أموالًا طائلة وكثيرة، واقتطع أموالًا واقتطع أراضي، واقتطع حسابات كيف يكون سبيله ومصيره؟ إذا كان التطفيف شيء يسير، تقول: هذا عنده أشياء طفيفة وعندي أشياء يسيرة، فكلمة التطفيف أصلها الشيء اليسير، فالله توعد هذا الوعيد الشديد على من يأخذ ولو شيئًا يسيرًا، ووصفهم بهذا الوصف المطففين، المطفف الذي يأخذ حق غيره بغير إذنه ولو كان شيئًا يسيرًا، وكلمة التطفيف وبخس الناس في أموالهم ترجع إلى بخص الناس في أموالهم، كلمة التطفيف وبخس الناس في أموالهم في هذه السورة وإن كان الحديث فيها عن المكاييل والموازين والبيع والشراء إلا أن كثيرًا من المفسرين عمم الحكم، فالتطفيف يعم جميع المعاملات، سواء في البيع أو الشراء أو التعامل مع الآخرين، يعني الرجل يتعامل مع زوجته كيف يتعامل؟ يريد أن يأخذ حقه

كاملاً ولا يعطيها حقها، والرجل أيضًا مع أبنائه يريد أن يكون حقه وبره كاملاً ولا يعطيهم حقوقهم، وهكذا في جميع التعاملات، حتى أنك تجد بعض الناس يأتي بالعمال المحتاجين المساكين فيتفق معهم على شيء معين، ثم يأخذ حقه كاملاً وإذا جاء يريد أن يعطيه حقه بخسه ولو شيئًا يسيرًا، إذا اتفقت مع عامل من العمال على شيء وعمل عندك يجب عليك أن تعطيه حقه الذي اتفقت عليه، اتفقت معه على شيء معين أعطه حقه لا تبخسه، لا تدخل في هذه الآية وأنت لا تشعر، تأتي بعامل يشتغل عندك واتفقت معه على شيء معين تجد بعض الناس إما أنه لا يعطه حقه كاملاً، أو يأخذ منه بعمل أشد مما اتفق معه، فيقول: تعالى اعمل كذا، واعمل كذا، يقول: أنا اتفقت معك على هذا الشيء ما تزيد علي، فيقول: لا، كله داخل في العمل، فيبخسه ولا يعطه حقه.

الحقيقة هذه الآية يجب علينا أن نعرف أنها عامة في جميع تعاملات الإنسان في حياته، لا تكون تريد حقك كاملاً ولا تتنازل وإذا جاء في حقوق الناس لا تعطيهم حقهم.

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين: ١]، من هم؟ قال: ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ [المطففين: ٢]، إذا طلبوا من الناس الكيل يأخذون الكيل كاملاً ولا ينقص شيئًا من ذلك، قد تلاحظ أن الآية تقول: ﴿ اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ [المطففين: ٢]، الحقيقة أن الإنسان ما يكتال على الناس؛ بل يكتال من الناس، أنت تذهب تأخذ الكيل من الناس وما تكتال عليهم، لماذا القرآن قال: ﴿ اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ [المطففين: ٢] .؟ حتى حرف الجر له دلالة، لأنه لما كان هذا يأخذ الشيء بطمع واستيلاء وتصرف غير مقبول قال: ﴿ اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ [المطففين: ٢]، كأنهم تسلطوا على الناس واستعلوا عليهم، وأخذوا حقهم وافيًا كاملاً.

قد يأتيك سائل يسألك: طيب أنا أريد أن آخي حقي كاملاً ما فيها شيء أنا اريد أن آخذ مثلاً عشرة كاملة؟

نقول: جميل كلامك وصحيح، تكتال على الناس تأخذ حقك كامل، لكن كمل الآية، إذا اكتالوا على الناس يأخذون حقهم كاملاً هذا لا حرج فيه، لكن خذ الآية بكاملها، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ [المطففين: ٣].

قال: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: ٢]، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، يأخذون حقهم كاملاً، يستوفي يعني يأخذه وافيًا تامًا، قال: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣]، إذا كان الحق له أخذه كاملاً، وإذا كان الحق عند غيره نقص منه ولم يعطه، يخسره يعني ينقص ويبخس الناس، ولذا جاءت آيات كثيرة ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

بل إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهلك أمة كاملة بسبب بخسهم أموال الناس كما في قصة شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، فحذرهم من بخس أموال الناس، ومن النقص ومن عدم إيفاء حقوق الناس، وحذرهم من ذلك ولم يقبلوا منه، حتى قال قائلهم: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧]، هذه أموالنا نفعل بها ما نشاء حتى أهلكهم الله بعذاب يوم الظلة وأخذتهم الصيحة ونزل بهم العذاب بسبب هذا التعامل.

فالحقيقة السورة تحتاج منا إلى تأمل طويل وتدبر، ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٢، ٣]، ما يعطوهم حقوقهم، حتى تجد بعضهم إن كان صاحب تجارة صاحب محب يأخذ حقه ماله كاملاً قبل أن يعطيك حقك، ثم يعطيك حقك ناقصًا، أو العكس إذا كان المشتري جاء إلى هذا المحل فإنه يأخذ حقه كاملاً، وإذا جاء عند دفع المال بدأ يلح على صاحب المحل حتى يُنقص من حقك، يقول له: أنا اتفقت معك على سعر معين أعطني حقي، يقول: هذا كذا وهذا كذا؛ وبدأ يأتي بالأعذار حتى ينقص ويرغم صاحب المحل إلى أن ينقص حقه وهذا بخس لا يجوز إلا برضا صاحب المحل، إذا لم يرضي فلا يجوز لك أن تأخذ شيئًا بغير حق.

فيحذر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مع أن هذه أشياء طفيفة يمكن أن الوزن ينقص منه جرامات خفيفة ما تستحق كل هذا، ولكن الله يتوعد على هذا؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق السماوات والأرض بالعدل، وأقام العدل في كل شيء وتأتي أنت تجور في تعاملك مع الناس!! في التعامل مع الزوجات، والأبناء، والجيران، والتعامل في التجارات، وفي كل شيء تطفيف، هذا يتوعد الله الوعيد الشديد، في أول الآيات

يتوعدهم يقول: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

ثم يقول على وجه التعجب: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤]، أنت الآن تعاملت ومشيت ورحت الحساب أمامك، ألا يظن أولئك الذين أخذوا حقوقهم ولم يعطوا حقوق الناس كاملة ألا يظن أولئك يعني ألا يعلمون؟ اللام هنا لام نفي، يقول: لا يظن، ولا يعتقد هؤلاء ولا يجزم هؤلاء بأنهم سيقفون أمام الله وسيحاسبون، ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤]، يُبعثون يوم القيامة، ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٥]، يُبعثون يوم القيامة لهذا اليوم، شوف كيف يصف الله هذا اليوم بهذا الوصف العظيم، يقول: ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤]، سيبعثون يوم القيامة، يبعثون يوم القيامة، هذا اليوم الذي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عظمه وشدده وقال: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٥]، ثم شدده تشديدًا أعظم، وكل هذا في حقوق الناس، ثم شدده تشديدًا أعظم؛ فقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦].

سيقفون أمام الله وكلٌ سيقف على قدميه أمام الناس في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، فكيف سيكون حالك إذا وقفت أمام الله والناس يريدون أن يأخذوا حقوقهم، يعني حقوق الله مبنية على المسامحة، يعني قصرت في حق الله يعفو الله عنك، حقوق الناس مبنية على المشاحة، ما يمكن أن يتنازلوا ولو عن مثقال ذرة، إذا جاء يوم القيامة الزوجة تريد حقها كاملاً، والزوج يريد حقه كاملاً، والأب يريد حقه كاملاً، والابن يريد حقه كاملاً، والإنسان والرجل وجميع الذين تتعامل معه، لا تظن أن يوم القيامة فيه تسامح، فيه تنازل، لا يمكن أبدًا، كلٌ يريد حقه كاملاً، كلٌ واحد يقول: نفسي، ولذلك تلاحظ في آخر السورة الماضية، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ [الانفطار: ١٩]، ما تملك شيئًا ولا تستطيع أن تدفع عنك شيئًا، فيصف الله هذا اليوم بهذا الوصف العظيم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ربهم الذي خلقهم، رب العالمين، وكلمة العالمين هنا يدخل فيها جميع المخلوقات، عالم السموات وعالم الأرض، عالم البحار، عالم النبات، عالم الجبال، عالم الجن، عالم الإنس، هو ربهم سبا الذي سيحاسبهم بهذا الحساب العظيم، السورة الحقيقة تحتاج منا إلى تأملات أطويل ووقت أطول، وليس أننا ننتهي من السورة بوقت يسير لا، أهم شيء أننا نفهم ونعرف ونأخذ الدروس والعبر من هذه السورة

العظيمة، وهي تمس واقع الناس في تعاملاتهم.

والله يا أخوان بعض الناس يشتري شيئًا يسيرًا لا يستحق كل هذا، سعره خمسة ريال وعشرة ريال ويجلس يبخس الناس ويلح عليهم ولا يعطيهم حقوقهم، فالإنسان ينتبه إلى مثل هذه الأمور التي تكون بين الناس، لو كانت بينك وبين الله لكان الأمر أهون؛ لأن أمور الله مبنية على المسامحة والعفو، والله عفو كريم، لكن الإنسان قد لا يعفو عنك، قد لا يسامحك، سيقتص منك، ويأخذ حقه منك، فلنحذر كل الحذر من هذا التعامل، نسأل الله أن ينفعنا بما سمعنا في هذه الآيات العظيمة، وبما يوجهنا الله بهذا التوجيه العظيم ويحذرنا بهذا التحذير العظيم، أسأل الله أن ينفعنا، وإلى لقاء قادم بإذن الله.

والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ.

(المطففين ٧ - ١٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَيُّهَا الأخوة الكرام السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هٰذَا المجلس المُبارك: مجلس التَّدَبُّر وَالتَّعَلُّم لكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الكثير حقيقة يهتم بالقرآن قراءة، وتلاوة، ويختم ختمات كثيرة، لكن القرآن في الحقيقة ينبغي للإنسان أن يتأمل وأن يتدبر وأن يفهم ما يقرأ، القراءة سهلة كلٌ يقرأ، لكن تمر عليك آيات كثيرة وألفاظ، معاني في القرآن تحتاج منا إِلَىٰ أن نتعلمها.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ [النساء: ٨٢]، ويأمرنا بالتدبر والتفسير، والفهم، كثير من الناس تمر عليه آيات كثيرة ما يفهم، ولا يعرف معانيها، ومعرفة الآيات، معرفة المعاني تزيدك إيمانًا، وتزيدك تقوى، وتزيدك عملًا إذا مرت في بعض الآيات التي ينبغي الإنسان أن يفهمها ويطبقها تزيده عملًا، هذا هو القرآن.

القرآن يزيدك إيمان، يزيدك قربة من الله، يزيدك العمل والتطبيق في حياتك، هذا هو القرآن، أما قراءة مُجردة كلٍ يقرأ، ولا نقول أو ننقص من القراءة لا، القراءة طيبة لك بكل حرف عشر حسنات، ومطلوب منك أن تعتني بالقرآن، وتهتم به، ويكون شغلك الشاغل في قراءته، في مراجعته، في تدبره، في ختماته، هذا كله أمرٌ مطلوب لا ننقص منه، لكن هناك ما هو أعظم، هناك ما هو أكبر وهو الهدف الأساسي من نزول القرآن، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول لنبيه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ [النحل: ٤٤].

لماذا؟

قَالَ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، هٰذَا هو المقصد، فمرورك بآيات كثيرة ينبغي لك أن تقف عندها، ينبغي لك أن تتأملها، النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقف مع آية واحدة ليلة كاملة، وقف مع آية واحدة ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: ١١٨]، بدأ يرددها حَتَّىٰ أصبح الصبح، ليس بكثير عَلَىٰ القرآن تجلس آية ليلة كاملة،

ليس بكثير، المهم أنك تستشعر عظمة القرآن، وتستشعر أن أمامك كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس كلام أي شخص، هٰذَا كلام رب العالمين، وأنت تتعبد، وتتأمل في هٰذِه الآيات القرآنية.

في هٰذَا المجلس المبارك ولله الحمد الَّذِي نعقده كل أسبوع فيه النفع ولله والحمد، لو ما تنتفع إِلَّا بآية واحدة لكان هٰذَا مكسبًا كبيرًا لك، كثير من الناس يسأل يقول أنا أقرأ القرآن لكن تمر علينا آيات ما أفهمها فما الحل؟

أقول أرجع إِلَىٰ كتب التفسير، وليس كل كتاب من كتب التفسير ترجع إلية قد يكون صعب عليك.

والحقيقة أنا أنصح بثلاثة تفاسير مهمة لَا بُدَّ لكل إنسان أن يكون عنده هٰذِه التفاسير الثلاثة، أَوْ يكون البعض عنده، لو واحد منها ترجع إليه، تفهم هٰذِه الآيات الَّتِي تمر عليك.

أشهرها وأوضحها أسلوبًا، وقراءة، وسهولة عبارته.

"تفسير السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ"، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ له تفسير مُختصر، جميل سهل العبارة، فأنا أنصح حقيقة بالرجوع إليه وليكون معك في جوالك، أَوْ معك نسخة منه في بيتك دائمًا ترجع إليه.

التفسير الآخر: هو التفسير المُيسر، وهو ألفه جماعة من العلماء، وأشرف عليه الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ الَّذِي كان وزيرًا للأوقاف سابقًا في مجمع الملك فهد لطباعة المُصحف الشريف، طُبع هٰذَا التفسير وأشرف عليه وهو كتاب.

التفسير موجود حَتَّىٰ مطبوع مع المصحف، أسمه "التفسير الميسر".

وفيه تفسير ثالث آخر هو أسمه المختصر. في التفسير وهو موجود في الكثير من المساجد، المختصر. في التفسير وأيضًا قام عليه نُخبة من العلماء الموثوق بعلمهم وأتوا بتفسيره بطريقة مُختصرة، سهلة العبارة، فمن وقف مع بعض الآيات، ومرت عليه بعض الآيات لا يعرفها، لا يتجاوزها، ويستمر عَلَىٰ أنه لا يعرفها، لا قف عندها وضع تحتها خط إِذَا كان المصحف خاص لك، أَوْ سجلها عندك وأرجع إليها وأفهمها، أَمَّا أن تمر عَلَىٰ آيات كثيرة ليس مجرد ترديد ألفاظ، لا؛ الهدف أكبر من هٰذَا: التَّدَبُّر، التَّعَلُّم، الفهم.

السورة الَّتِي بين أيدينا تطرقنا لها في لقائنا الماضي، تحدثنا عنها هي صورة المطففين، والحقيقة هٰذِه السورة كما ذكرت لكم سابقًا هي تمس كثير من الناس في الواقع،

المطففون من هم؟

الله توعدهم بوعيد شديد، حقيقة والله الإنسان لما يقرأ هٰذِه السورة، لما يقرأ أولها من الوعيد الشديد في هؤلاء لأنزعج قلبه، ولم يستقر باله.

الله توعدهم بأول آية: ﴿وَيْلٌ﴾ [المطففين: ١]، ثُمَّ ﴿وَيْلٌ﴾، وعيد شديد وزجر لمن؟ ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١].

والتطفيف أصله: أخذ الشيء اليسير، الطفيف، ما يسوي أنك تأخذه.

يقول: «مَنِ اقْتَطَعَ مَالَ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ».

قَالَ بعض الصحابة: "يا رَسُولُ اللَّهِ ولو كان عود آراك"، يعني مسواك

قَالَ: «ولو كان عود آراك»، لقي الله عليه غضبان، حقوق الناس صعبة، لا تدخل فيهم، وأبتعد عنده، لما تسمع هٰذَا الوعيد الشديد يرجف قلبك، أبتعد عن حقوق الناس.

النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لأصحابه مرة: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قالوا الَّذِي ما عنده لا درهم ولا دينار هٰذَا مُفلس قَالَ لا المفلس من يأتي بحسنات مثل الجبال»، يجلس في المجلس يقرأ، ويصلي، ويبكر الصلاة، ويصوم التَّطَوُّع، ويقوم اَللَّيْل، وَإِلَىٰ أخره من الأعمال الحسنة والصدقات، يأتي بحسنات مثل الجبال، «وقد قذف هٰذَا، وشتم هٰذَا، وأخذ مال هٰذَا، وضرب هٰذَا، فتؤخذ من حسناته يوم القيامة»، حَتَّىٰ إِذَا نفيت حسناته وانتهت الَّتِي مثل الجبال، «أخذ من سيئات خصومه ووضعت عليه فكب في النار»، وهو يعمل في الدنيا عمل شيء ما تتصوره، فحقوق الناس خطيرة جدًا.

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، من هم؟

قَالَ: ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [المطففين: ٢]، إِذَا أرادوا أن يأخذوا حقوقهم يأخذونها كاملة بلا نقص، يستوفونها، ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ [المطففين: ٣]، إِذَا كالوا للناس، أرادوا أن يعطون الناس حقهم ﴿يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ٣]، يُنقصون حقهم، يبخسون الناس، وَهٰذَا مثل ما ذكرناه في لقائنا الماضي هٰذَا وإن كان الآية صريحة في المكاييل، والموازين، وفي التجارة وفي البيع والشراء، إِلَّا أن أهل التفسير عمموه في كل ماله شخص له حق، وعليه حق تتعامل مع الأشخاص، عامل تأتي به، عاملة شغالة في البيت تأخذ حقك منها كامل بدون نقص، وإذا أرادت حقها يُهضم حقها، وكذلك

في سائر المعاملات في التجارة وفي غيرها، الزوج مع زوجته، والأب مع أبنائه، والأبناء مع آبائهم، يعني والأخ مع أخية كلٌ يعني شُح وبخل، يشح بأن يعطي الناس حقهم، يشح بأن يضيع شيء من حقه، ويبخل بأن يعطي الناس حقهم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هددهم بالويل ثُمَّ هددهم قَالَ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤]، هل غاب عنهم هٰذَا اليوم العظيم، ﴿مَبْعُوثُونَ ٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ٥]، ما يشعر هٰذَا الَّذِي يأخذ حقوق الناس أنه سيقف أمام الله عَزَّ وَجَلَّ.

يومٌ عظيم، ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، يقفون عَلَىٰ أقدامهم حَتَّىٰ ما في مكان تجلس فيه، عَلَىٰ الإقدام كم يوم؟

لو يُقال لك قف يومًا واحدًا عَلَىٰ قدميك ما استطعت، فكيف سيقف يوم مقداره خمسين ألف سنة، أمر عظيم ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، ثُمَّ أيضًا هدد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وخوف في باقي الآيات حَتَّىٰ قَالَ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، يعني هؤلاء الَّذِينَ يستوفون حقوقهم، ولا يعطون الناس حقوقهم، بل يُخسرون حقوق الناس هؤلاء في حُكم الفجار الَّذِينَ قد فجروا في ذنوبهم، وتوسعوا في ذنوبهم وأسرفوا عَلَىٰ أنفسهم.

جاء في حديث عن النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ التُّجَّارَ هُمُ الْفُجَّارُ إِلَّا من أتقى» أَوْ «إِلَّا من أتقى وأصلح»، فتجد فيه رابط الحديث يقول: التجار والفجار ،والآية تقول: في الكيل والوزن ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، ما معنى سجيل كثير من الناس يقرأها تمر عليه يمكن آلاف المرات، شوف لما تقرأ هٰذِه الآية يقو الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، دائمًا القرآن أنت تأخذه بهدوء، وطمأنينة، وتنظر فيه وتتأمل، وتشوف الَّذِي قبله، وتشوف الَّذِي بعده يتضح لك الأمر.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول هنا: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، وفي الآية الَّتِي بعدها، في آيات بعدها تأتي: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، إذن في شيء عالي، وفي شيء نازل، إذن سجيل أين؟

قَالَ في أسفل سافلين، أين أسفل سافلين قَالَ بن كثير في تفسيره: "تحت الأرض السابعة" في سجين مكان ضيق وقيل هي النَّار، سجين هي النَّار مثل ما أن عليين هي الجَنَّة ﴿الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، فكذلك الفجار في سجين، في نار جهنم.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، ولاحظ أن الله ما قَالَ: "الْفُجَّارِ فِي سِجِّينٍ"، قال كتابهم ، قَالَ كتاب الفجار، فالكتاب هو الكتاب الَّذِي سجلت فيه أعمالهم كل شخص له كتاب ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ [الإسراء: ١٤]، هٰذَا الكتاب يسبقك إِلَىٰ سجين يعني أنك قد وضِعت في سجين قد سُجلت في سجين، وأصبحت من أهل النَّار؛ لأن كتابك سبقك إِلَىٰ أهل النَّار، وقُيدت بأن تكون من أهل النَّار ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين: ٨].

أتدري ما سجين؟، ما تدري ما سجين؟، ما أدراك ما سجين؟، ثُمَّ قَالَ: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ ٩﴾ [المطففين: ٩]، معنى مرقوم: أي مكتوب، قد كُتب ولا يمكن أحد يغير فيه، سُجل فيه كل أعمال الإنسان، هٰذَا عملك، وهٰذَا كتابك، سُجل فيه كل أعمالك من خير أَوْ شر.

ملائكة ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١١]، ويكتبون كل شيء، ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١]، كل شيء سُجل وكُتب، ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ۝٧ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ۝٩﴾ [المطففين: ٧]، أي قد كُتِب، وسُجل وأُحصي عند رب العالمين لا يغيب عنه شيء، وكتاب الفجار يسبقهم إِلَىٰ نار جهنم، إِلَىٰ سجين.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ استكمالًا للوعيد قَالَ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين: ١٠]، هٰذَا الكلام الَّذِي تكذب به، كثير تجد بعض من لا يؤمن لا يُصدق بهٰذَا الشيء فهددهم الله قَالَ: ﴿وَيْلٌ﴾ [المطففين: ١٠]، لمن يكذب بهذا الكلام، وبهذا الوعيد.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المطففين: ١٠-١١]،

من هم؟ قَالَ: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين: ١١]، الَّذِي قَالَ الله فيه: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٥]، هٰذَا هو يوم الدين، يقوم الناس لهذا اليوم هٰذَا هو يوم

الدين، ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ [المطففين: ١١]، بالجزاء، والحساب، وَالجَنَّة وَالنَّار، ويظنون أنهم مفلتون لا يحاسبون ولا يجازون كَلَّا

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ١٠ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾[المطففين: ١٠-١١]، ثُمَّ بين لك من الَّذِي يكذب بيوم الدين؟، من هو؟، ما علاماته؟،كيف نعرفه؟

قَالَ: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [المطففين: ١٢]، مُكذب.

ثلاث صفات فيه:

معتدٍ: أي يتعدى عَلَىٰ حقوق الناس، المعتدي الَّذِي يتعدى عَلَىٰ حقوق الناس، ويتعدى أَيْضًا حدود الله هٰذَا يُسمى معتدي يتعدى، وكذلك أثيم.

الأثيم: كثير الذنوب صاحب آثام عظيمة وكثير الذنوب، الإنسان إِذَا كان موصوف بهذه الأوصاف

التعدي عَلَىٰ حقوق الله

التعدي عَلَىٰ حقوق الآخرين

وكثرة الذنوب والمعاصي يجمع من الذنوب والمعاصي، وزيادة عَلَىٰ ذلك أنه إِذَا قرأت عليه الآيات القرآنية مثل هٰذِه الآيات الَّتِي ترجف منها القلوب، إِذَا تليت عليه هٰذِه الآيات ما موقفه؟، مَاذَا يقول؟

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المطففين: ١٣]، قَالَ هٰذِه خزعبلات، خرافات، هٰذِه من أين جاءت هٰذِه؟

هٰذه في كلام المتقدمين السابقين ليس لها حقائق وَإِنَّمَا هي أساطير تردد، أساطير جمع أسطورة: وهي قصص الَّتِي تُحكى علينا ليس لها حقائق، ينكر القرآن كلام رب العالمين تقول فيه ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المطففين: ١٣]، لما تتأمل مثل هٰذَا الكلام، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول لك وإن كان يدعي، وإن كان موصوف بهذه الصفات أنه مُعتدٍ، وأنه أثيم، وأنه يُكذب يوم الدين، ويقول القرآن أساطير الأولين لا تظن هٰذَا هو السبب، في سبب أعظم قد يغفل عنه كثير من الناس ما هو السبب كسب الذنوب، وشؤم هٰذِه الذنوب عَلَىٰ الإنسان؛ ولذلك الله قَالَ: ﴿كَلَّا ﴾ [المطففين: ١٤]، وكلا هنا تأتي أحيانًا بمعنى الردع والزجر، وأحيانًا تأتي بمعنى حق حسب السياق.

هنا يقول كلا ليس هو مجرد أنه يكذب، وأنه يعتدي، وأنه آثم لا فيما هو أعظم، طيب ما هو قَالَ: ﴿كَلَّا بَلْ﴾ [المطففين: ١٤]، وبل هٰذِه تفيد الانتقال من كلام إِلَىٰ كلام يقول أترك عنك الكلام هٰذَا في كلام هو أعظم قد يغيب عنك، ما هو؟

قَالَ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤-١٥]، وَهٰذَا أشد العقوبة أن يصيب الرين القلوب، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤-١٥]، ذنوبهم وكسبهم هو الَّذِي غطى هٰذَا القلب أصبح القلب لا يرى شيئًا، اسود القلب، كثرة الذنوب تذهب إِلَىٰ القلب ،وتجعل القلب يسود، لا يرى شيئًا خلاص ما عد يميز بين الحق والباطل هٰذَا هو، هٰذَا معنى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤-١٥]، أي أصاب القلوب الرين وهو الطمس، انطمست القلوب، أصبحت القلوب في غلاف قولنا في غلف مغلفة ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]، مغلفة أصبح ما يرى؛ ولذلك النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ عُودًا كَالْحَصِيرِ ، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّمَا قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِي قلبه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، فأصبحت القلوب عَلَى قَلْبَيْنِ، قلب أسود وقلب أبيض فَأَمَّا القلب الأسود قَالَ كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا»، يعني مثل الإناء المقلوب خلاص إِذَا قلبت الإناء تصب فيه شيء ما يقبل مقلوب.

القلب خلاص أصبح مثل الإناء المقلوب «كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا، لَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، ولَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا»، أسود القلب خلاص، وإذا أذنب الإنسان ثُمَّ تاب، إِذَا أذنب: نُكِتَ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ في قلبه أي شخص يذنب النكتة السوداء تذهب إِلَىٰ القلب، فإن تاب: ثُقل قلبه فأصبح مثل الزجاجة وإن بقي عَلَىٰ ذنبه وذاد عَلَىٰ هٰذَا الذنب ذنبًا آخر أصبح قلبه مسودًا.

الآية هنا الآن لكيلا نطيل أن السبب الحقيقي في مثل هؤلاء الَّذِينَ لا يعرفون حقوق الآخرين، ولا يعطون الناس حقوقهم، ولا يؤمنون بما جاءهم عن الله، ولا يحسبون لليوم الآخر أي حساب سببه الرين الَّذِي أصاب القلوب، انطمست القلوب خلاص أصبح ما يعرف لا يفكر في اليوم الآخر، ولا يفكر في حقوق الآخرين، تستغرب كثير من الناس يأخذ حق الناس تقول له: حق الناس ما يجوز

قَالَ: لا ما عليك الله عفو كريم

كيف الكلام هٰذَا؟

ما يجوز تأخذه، ويأخذون أشياء كبيرة كبائر عظيمة ولا يبالون لماذا؟ القلب أسود أصبح أسود ما عاد يميز.

ثُمَّ يبين لك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما جاء بين لك القلب، أَيُّهَا الأخوة هٰذَا الآن انطماس للقلب، انطماس القلب واسوداده وحجبه عن الحق هٰذِه عقوبة هٰذِه أول عقوبة في الدنيا، انطماس القلب أَمَّا عقوبة الآخرة أسمع: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥-١٦]، لَمَحْجُوبُونَ عن رؤيته يوم القيامة في الدنيا حجبت قلوبهم السواد وفي الآخرة حجبت أبصارهم لا يرون رب العالمين أعظم نعيم لأهل النعيم رؤية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أسألك لذة النظر إِلَىٰ وجهك الكريم، والشوق إِلَىٰ لقائك أعظم نعيم ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، الزيادة النظر إِلَىٰ وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكريم، فأعظم نعيم يقول: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، نودوا، أَوْ ناداهم منادي أَوْ ناداهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ لهم مَاذَا تريدون قالوا يا ربنا أدخلتنا الجَنَّة وبيضت وجوهنا فماذا نريد فيكشف الحجاب فلا يجدون لذة ونعيم أشد من هٰذَا النعيم»،

أَمَّا هؤلاء ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] ، ثُمَّ النتيجة ﴿لَصَالُو الْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦]، دخول الجحيم والتعذيب بها، ثُمَّ يقال هٰذَا من باب التأنيب، ومن باب العذاب، العذاب الجسدي: دخول نار جهنم، والعذاب النفسي: الإنكار عليهم والتوبيخ هٰذَا عذاب نفسي. ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]، الَّذِي قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المطففين: ١٠].

هٰذَا الَّذِي كنتم تكذبونه، هٰذَا اليوم الَّذِي كنتم به تكذبون ثُمَّ يقال: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]، هٰذَا نار جهنم، وَهٰذَا اليوم الآخر وَهٰذَا العذاب الَّذِي كنتم تكذبون ولا تستعدون له تنتقل الآيات بعد ذلك بعد بيان حل هؤلاء المتمردين المعاندين الكفرة الفجار تنتقل الآيات بعد ذلك إِلَىٰ ذَكَرَ أهل النعيم وهم الأبرار يأتي الحديث إِنْ شَاءَ اللهُ باستكمال هٰذِه السورة في لقاء قادم

ونسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا ويجعلنا وَإِيَّاكُمْ هداة مهتدين موفقين لكل خير واللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّد وعَلَىٰ آلة وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

(المطففين ١٨ - ٢٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَيُّهَا الأخوة الكرام:

درسنا مع تدبر القرآن الكريم، وتفسيره، وَالتَّأَمُّل في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، في لقاءتنا الماضية حول سورة "المطففين"، وما تحدث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها عن المكاييل والموازين، وبخس الناس، وأخذ حقوقهم بغير حق، وعقوبة ذلك، وما يجر ذلك من جرائم ووقوع في كبائر الذنوب، وما بينته الآيات الماضية في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين: ٧-٨]، إِلَىٰ آخر الآيات.

لما ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عقوبة هؤلاء وما آل أمرهم إليه قابل ذلك بعقوبة المتقين، وَهٰذِه طريقة القرآن لما يحذر الله من مسلك الهلاك، يحذر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من طريق الهلاك يُقابل ذلك بطريق النجاة والسلامة، فيجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العبد أمام طريقين طريق السلامة والنجاة وطريق الهلاك والضلال، فَهٰذِه طريقة القرآن بين ترغيبٍ وترهيب؛ حَتَّىٰ يكون العبد يختار ما يشاء من طريق السلامة والنجاة، أَوْ طريق الهلاك والضلال، لما ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عقوبة هؤلاء في قوله تَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٤-١٧]، يسوق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جزاء المتقين، جزاء الأبرار، وَهٰذَا يذكرك بما جاء في سورة الانفطار الَّتِي قبلها لما قَالَ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، أجمل هناك ولم يُفصل.

فجاء هنا التفصيل الدقيق الواضح الَّذِي يجذب القلوب إِلَىٰ المسارعة في صفوف هؤلاء الأبرار وفي زمرة هؤلاء الأبرار يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ [المطففين: ١٨] ، ليس الأمر كما تقولون، وليس الأمر كما تدعون، أَوْ يُقال إن كلا هنا بمعنى: حق؛ لأن كلا هٰذِه للمفسرين في تفسيرها أحوال، أَوْ مجيئها في القرآن أحوال، ولهم فيها أقوال، فكلا: الأصل فيها تأتي للردع، والزجر، والتخويف وأحيانًا تأتي بمعنى

حق كما في هٰذِه الآية: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾ [المطففين: ١٨]، يعني حقًا إن كتاب الأبرار لفي عليين، كتاب الأبرار المراد به أعمال الأبرار -أعمالهم- الكتاب الَّذِي سُجل فيه أعمالهم.

ما من عمل يعمله الإنسان إِلَّا ويُسجل عليه في كتابٍ يُخرج له يوم القيامة، يلقاه منشورًا، هٰذَا الكتاب قَالَ الله فيه: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾ [المطففين: ١٨]، والأبرار من هم؟

الأبرار: جمع بار وهو كثير الأعمال الصالحة، أَوْ يُقال جمعُ بر لأن البار يُجمع عَلَىٰ بررة، والأبرار يجمع الأبرار ومفرده بر: يعني كثير الأعمال الصالحة.

لو قيل لك أيها أبلغ البررة ولا الأبرار لقلنا إن البررة أبلغ وأشد وأعظم في الخير؛ ولذلك وصف الله الملائكة بأنهم ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦]، ولم يقل أبرار، والأبرار من الصالحين من هم تحت المقربين.

المقربون أعلى درجة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠-١١]، هؤلاء أعلى والأبرار من تحت المقربين جمع بر وهو: من يكون خيره كثير وعطاءه كثير، وأعماله كثيرة هٰذَا يُسمى رجلٌ بر، ورجال أبرار قَالَ: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]، أي هٰذَا الكتاب في عليين.

لما ننظر إِلَىٰ كتاب الفجار الله يقول فيه في سجين، في أسفل سافلين وكتاب الأبرار في أعلى عليين، والعليين جمع عِلي، والعلي هو المكان العالي المرتفع وهو أعلى مكان في الجَنَّة وهو تحت العرش، ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨].

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين: ١٩]، ما أعلمك؟، وما أدراك؟، وما أعلمك؟، ما هو هٰذَا؟

قَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ [المطففين: ١٩]، قَالَ هٰذَا الكتاب الَّذِي يكون في عليين وأنت ما تدري ما عليون قَالَ: ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٢٠]، قد رُقم وسُجل فيه أسماء أصحابه وأعمالهم، سُجلت ورُقمت فيه حَتَّىٰ لا تذهب ولا تزول قَالَ: هٰذَا الكتاب الَّذِي في عليين وهو في أعلى مكان في الجَنَّة قَالَ: يشهده المقربون، وَهٰذَا تكريم للأبرار الَّذِينَ يموتون عَلَىٰ أعمال صالحة وعَلَىٰ بر وصلاح هؤلاء تُرفع أعمالهم إِلَىٰ عليين.

فتشهد هٰذِه الأعمال يشهدها المقربون من هم المقربون الملائكة المقربون والأنبياء، والرسل، وصالح البشر، كل هؤلاء من المقربين الَّذِين يقربهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منه، فيشهدون هٰذَا الكتاب الَّذِي وصل إِلَىٰ

هٰذِه المنزلة، ثُمَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما بين كتاب الأبرار ذَكَرَ هؤلاء الأبرار وما أنعم الله به عليهم فَقَالَ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٢]، وكلمة نعيم هٰذِه يصح أن تُقال أنها اسم من أسماء الجَنَّة، ويُصح أن يُقال أن النعيم ما يتنعمون به فهم في الجَنَّة في جنة نعيم وهم في نعيم بمعنى أنهم يتنعمون بما أنعم الله عليهم بهذا النعيم العظيم.

قَالَ: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٢]، ولاحظ أنه أكد باللام المؤكدة قَالَ إن الأبرار مع أنه أكده بإن المؤكدة ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٢]، فيها ثلاثة مؤكدات إن المؤكدة، واللام الداخلة عَلَىٰ الخبر، والجملة الأسمية كل هٰذِه تؤكد تأكيدًا لازمًا عَلَىٰ أن هؤلاء الأبرار في هٰذَا النعيم بِلَا شَكَّ؛ حَتَّىٰ لا يطرأ أي شك لمن يشك في مآل هؤلاء.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٢] قَالَ: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٣]، ما المراد بالأرائك؟

قَالَ أهل التفسير الأرائك جمع أريكة والأريكة هي السرير الَّذِي يكون عليه الحجال، تكون عليه فرش والوسائد هٰذِه هي تُسمى الأريكة، فإذا خلت من الحجال وخلت من الفرش تُسمى السُرر ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الصافات: ٤٤]. تارة وتارة عَلَىٰ الأرائك ينظرون.

وَهٰذَا يعني يدل عَلَىٰ الارتياح، قَالَ: قَالَ: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [المطففين: ٢٣]، في آية أخرى قَالَ: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]، والاتكاء والجلوس عَلَىٰ الأريكة يدل عَلَىٰ الطمأنينة، والأمن، والسلامة أنهم في أمن، بل في طمأنينة.

وَهٰذَا ما يصبوا إليه الإنسان ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ في سورة أخرى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدخان: ٥١]، وهنا قَالَ: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ [المطففين: ٢٣]، طيب،

ينظرون إِلَىٰ أي شيء؟

قَالَ: ينظرون إِلَىٰ ربهم، وينظرون إِلَىٰ النعيم الَّذِي يشاهدونه في جنات النعيم، وينظر بعضهم إِلَىٰ بعض نظرة سرور وبهجة، كل هٰذَا يعني يصدق عَلَىٰ كلمة ينظرون.

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في وصف هؤلاء وهو يزيدنا وصفًا بعد وصف وأنت تتأمل وتسابق حَتَّىٰ تكون في زمرة هؤلاء يقول: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ٢٣ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٣-٢٤]، تعرف في وجوه هؤلاء الصالحين الأبرار نضرة النعيم، هٰذَا النعيم الَّذِي نضر عَلَىٰ الوجه.

نضرة: يعني بهجة وبهاء الوجه هٰذَا ظهر بانعكاس نعيمهم لما كان في النعيم يتقلب ويعيش هٰذَا النعيم كان ذلك أثره عَلَىٰ الوجه، وأنت ترى من أهل النعيم في الدنيا من يظهر نعيمه عَلَىٰ وجهه.

وأهل الصلاح يظهر أيضًا أثر صلاحهم عَلَىٰ وجوههم، أهل الخير والصلاح تجد أثر العبادة، والصلاح قد ظهرت سيماهم في وجوههم، قَالَ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٤]، هٰذَا من النعيم لاحظ يعني قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أولًا

أين كتابهم؟

في عليين.

وهم؟ في نعيم

وماذا؟ قَالَ هم أيضًا عَلَىٰ الأرائك ينظرون،

وماذا؟ قَالَ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٤]،

وخذ من الزيادة قَالَ: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ [المطففين: ٢٥]، لاحظ أن الله يقول " يُسْقَوْنَ " ما قَالَ يشربون؛ يسقون غير يشربون لما تشرب أنت تذهب وتروح تشرب، لكن لما تُسقى يأتيك من يسقيك ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩]، حَتَّىٰ من زيادة الكرم لهم، وهم عَلَىٰ الأرائك ينظرون يأتي من يطوف عليهم فيُسقون.

يُسقون من أي شيء؟ قَالَ: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴾ [المطففين: ٢٥]، الرحيق من كل شيء هو الصافي، والمراد هنا هو الخمر -خمر الجَنَّة- هو كما قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴾ [الصافات: ٤٥-٤٧]، لا يصيبهم ما يُصيب أهل الدنيا من خمر الدنيا الَّتِي تذهب بالعقل، وتصيب الإنسان بالصداع، ويضيع عقله. لا.

خمر الجَنَّة: خمر فيه اللذة؛ ولذلك الله ذَكَرَ لنا عن أنهار الجَنَّة من ماء، ومن لبن، ومن خمر، ومن عسل وَهٰذَا من النعيم قَالَ: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ [المطففين: ٢٥]، صافي، صافي الخمر البيضاء، وَهٰذَا الَّذِي

يسقونه من الخمر، لم يسبق أن أسقي أحد غيرهم، في الدنيا يسقونك من الأشياء قد سبقك من شرب منها، لكن في الجَنَّة يقول لا.

يقول: ﴿رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ [المطففين: ٢٥]، ما معني مختوم: أي مغلق، فيختم كما تُختم العلب الآن، لا أحد يستطيع أن يفتح هٰذِه إِلَّا بعد إزالة هٰذَا الخاتم، فتأتيك في الجَنَّة، تأتيك الخمر، بهذه الأشياء قد خُتمت لم يسبق لأحدٍ أن شرب منها هي لك وحدك، ما يفتحها إِلَّا أنت، فتُفتح لك، مختومة ما يستطيع، مثل ما يُختم الخط، أَوْ الرسالة، أَوْ الجواب تجده مختوم، كانوا يختمونه سابقًا، كانوا يرسلون الرسائل فيختمونها بالطينة حَتَّىٰ إِذَا يبست مسكت في هٰذَه الرسالة، فإذا أراد شخص أن يفتح الرسالة لَا بُدَّ أن يزيل هٰذِه؛ ولذلك يعرف صاحب الرسالة أن الرسالة ما فُتحت لا يفتحها إِلَّا هو، فكانوا يختمونها بالطين حَتَّىٰ إِذَا يبس مسك، وهنا في الجَنَّة تُختم قَالَ: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٥]، ليست طينة، بل هي من المسك الأزفر وهو أعلى أنواع الطيب، فيختم لهم بهذا المسك، فإذا فتحوه شربوا هٰذَا الشراب الطيب، قَالَ: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٦]، هٰذِه أيضًا تتعلق بنهاية الشراب، يعني بداية الشراب مختوم، ونهايته -خاتمته- فيه المسك، فأنت إِذَا شربت الإناء نهايته تجد فيه المسك، هٰذِه ما يُسمى الآن بالخثالة، خثالة الإناء، وخثالة الفنجان، أَوْ نحوه تجد الخثالة في الدنيا الناس ما يشربونها، الناس يرمونها، في الجَنَّة الخثالة من مسك ازفر من خير أنواع الطيب يتلزز الشارب بخثالته أكثر مِمَّا يتلذذ بشرابه.

قَالَ: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، هي الآية مازلت تمشي معنا في بيان النعيم، لكن هٰذِه الآية جاءت دخلت علينا عرض؛ لأنه لو لم تقرأ: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، ستجد الآية تمشى.

يقول: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ٢٥ خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٥]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧]، يعني هٰذَا الشراب الَّذِي يشربونه من الخمر ممزوج بعين أخرى، إذن كلمة ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، جملة معترضة، جملة داخلة علينا، ما الغرض منها؟

لماذا ادخلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين هٰذَا النعيم وَهٰذَا الشراب -الخمر- في الجَنَّة لماذا؟ قَالَ: هٰذَا الَّذِي يتنافس في الدنيا، هم كانوا يتنافسون أهل الكفر بالدنيا قبل الإسلام يتنافسون عَلَىٰ شرب الخمر، وكانوا يدفعون الأموال الطائلة ؛ حَتَّىٰ يحصلوا عَلَىٰ هٰذَا الشيء، وكانوا إِذَا جاءت الخمور ليشتروها تزاحموا عليها،

وتنافسوا عليها في الدنيا، فَقَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم: أنتم تتنافسون عَلَىٰ خمر الدنيا الَّتِي تذهب بالعقول، تنافسوا في خمر الآخرة، تنافسوا في هٰذَا الخمر، الَّذِي هم من نعيم الجَنَّة ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ [المطففين: ٢٦]، أي في هٰذَا الَّذِي نذكره لكم من خمر الجَنَّة، ومن الرحيق المختوم تنافسوا فيه، تنافسوا عَلَىٰ الحصول عليه؛ ولذلك ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة أخرى أنهم في الجَنَّة يتنازعون: ﴿كَأْسًا﴾ [الطور: ٢٣]، أي الخمر ، الكأس هو الخمر ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ [الطور: ٢٣]، ينزع بعضهم بقوة، ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، والنزع: أخذ الشيء بقوة.

قَالَ هنا: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، يعني فليسارع المسارعون، وليسابق المسابقون في الطاعات حَتَّىٰ يحصل عَلَىٰ هٰذَا فمن سابق في الدنيا بالطاعات، وسابق في الصفوف الأُول، وسابق في قيام اَللَّيْل، وسابق في ختم القرآن، وسابق في الصيام، وَالزَّكَاة والصدقات، إِذَا سابق في الدنيا سابق في الآخرة، السابقون في الدنيا هم السابقون في الآخرة، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]،

ما معنى يتنافس: مأخوذة من النفس، مأخوذة من نفس الإنسان؛ لأنه إِذَا أسرع وأراد الحصول عَلَىٰ الشيء يخرج نفسه وبقوة ويمشي، وهو يجد نفسه يخرج معه ويظهر معه، وقيل معنى التنافس: هو طلب الشيء النفيس، طلب الشيء العالي، الغالي، الَّذِي يعني لا يستطيع الحصول عليه، فبهذا يتنافس هؤلاء، يتنافسون في هٰذَا النعيم، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عودًا عَلَىٰ نعيم الخمر، قَالَ:﴿وَمِزَاجُهُ﴾ [المطففين: ٢٧] أي هٰذَا الَّذِي يشربه الأبرار هو من رحيق صافي مختوم، ممزوج. ممزوج بأي شيء؟

قَالَ: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧].

ما معنى التسنيم: أصل التسنيم الشيء المرتفع، منه سنام الأبل، الشيء المرتفع، ويقالوا سنموا القبر: يعني أرفعوه، فالتسنيم هو الشيء المرتفع.

هنا قالوا: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧]، ما أحد يعرف ما هو التسنيم حَتَّىٰ العرب ما يعرفونها؛ لكن فسرها الله لنا بعد ذلك فَقَالَ: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ [المطففين: ٢٧]، هٰذَا التسنيم هو العين، الَّتِي يشرب بها المقربون، ففي الجَنَّة عين تسمى عين التسنيم، هٰذِه العين في مكانة مرتفعة تتدفق منها المياه، أَوْ ما يظهر منها، في هٰذِه العين

تتدفق، فيمزج هٰذَا الخمر والرحيق بهذه العين فيشربه الأبرار، ممزوجًا بهذه العين.

وَأَمَّا المقربون فإنهم يشربون من هٰذِه العين شرابًا صرفًا خالصًا، قَالَ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٨]، جاء بالذكر المقربين الَّذِينَ هم فوق الأبرار، : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٨]، كل هٰذَا في نعيم أهل الجَنَّة في مقابل يعني عذاب الفجار الَّذِينَ قَالَ الله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥-١٦] ، وهؤلاء ينظرون إِلَىٰ الله ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴾ [المطففين: ١٦-١٧] ، يلقون في نار جهنم، فيعذبون وهؤلاء كيف يصل الأمر فيهم إِلَىٰ أن يكونوا في جنات النعيم، وأنهم ما يعطيهم الله من هٰذَا النعيم العظيم الَّذِي ساقه لنا وأخبر الله لنا به وهؤلاء كما أخبر الله الفجار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥-١٧]، يعني يهانون بالكلام وَأَمَّا المتقون الأبرار والمقربون تحييهم الملائكة، تستقبلهم الملائكة وتحييهم الملائكة

﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، وبعد ذلك تُختم السورة بحال المجرمين مع المتقين الصالحين في الدنيا وحالهم في الآخرة لما استهزئوا وبدأوا يتغامزون فيهم

يأتي الحديث إِنْ شَاءَ اللهُ في خاتمة هٰذِه الصورة في لقاء قادم

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وأن يتقبل منا ويعيننا وأياكم عَلَىٰ طاعته، وأن يجعلنا وَإِيَّاكُمْ هداة مهتدين موفقين لكل خير، وأن يحشرنا وَإِيَّاكُمْ في زمرة هؤلاء الأبرار المتقين، واللهُ أَعْلَمُ وصلي الله وسلم عَلَىٰ مُحَمَّد وعَلَىٰ أله وصحبه أجمعين

(المطففين ٢٩ - ٣٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمَّا بعد أَيُّهَا الأخوة الكرام.

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هٰذَا اللقاء المبارك، وفي هٰذَا اليوم، وهو اليوم السَّابع من الشهر الرَّابع من عام أربعةٍ وأربعين أربع مائة من الألف من الهجرة.

مجلسنا المعتاد في مثل هٰذَا اليوم كل ثلاثاء مع آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نتلوها، ونتأملها، ونتدبرها، ونقف معها، والسورة الَّتِي كنا نتحدث عنها في لقاءتنا الماضية هي سورة المطففين وعرفنا المراد بالمطففين، وما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أوصافهم، وفي مآلهم ومصيرهم، وقابل ذلك بعباده الأبرار المتقين في أوصافهم، وفي مآلهم ومصيرهم.

في ختام هٰذِه السورة العظيمة الجليلة يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا موقفًا آخر من مواقف هؤلاء المجرمين الضالين الَّذِين يستهزءون ويسخرون من عباد الله المتقين، فكما أنهم يأخذون أموالهم بغير حق، ويعتدون عَلَىٰ حقوقهم فذلك أنهم يعتدون عَلَىٰ أعراضهم، ويسخرون منهم، ونحن نعرف جميعًا أن سورتين في كتاب الله كلاهما بدأها الله بقوله: ﴿وَيْلٌ﴾، ووَيْلٌ وعيد شديد عظيم لا يقدر قدره إِلَّا الله.

﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، في أخذهم حقوق الناس بغير حق، و﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، من يسخر ويستهزأ بعباد الله المتقين ولذلك السورة في خاتمتها ذَكَرَ الله حال هؤلاء الذين يسخرون ويستهزئون فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩]، ولاحظ كلمة أجرموا تدل عَلَىٰ كثرة ذنوبهم ومعاصيهم وأنهم وقعوا في جرائم الذنوب والمعاصي لم يقل فسقوا، أَوْ كفروا، أَوْ أعتدوا، أَوْ نحو ذلك لا وصلوا إِلَىٰ ما هو أعلى وأعظم فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ [المطففين: ٢٩]؛ ولذلك يعني من صفات المجرمين السخرية والاستهزاء ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، فَهٰذَا من صفات المجرمين ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩]، هٰذَا الضحك: ضحك استهزاء، وسخرية بعباد الله المتقين.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ [المطففين: ٣٠]،

أولًا: ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩]، مَتَىٰ؟، وأين؟،

كانوا إِذَا جلسوا في مجالسهم وفي أنديتهم بدأوا يسخرون ويستهزئون ويكون حديثهم في مجالسهم هو الاستهزاء والسخرية بعباد الله المتقين في مجالسهم، وإذا مروا بهؤلاء المتقين الصالحين، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]، قيل إن الَّذِينَ يمرون هم المجرمون كانوا يمرون عَلَىٰ عباد الله المتقين فإذا نظروا إليهم بدأ يغمز بعضهم بعضًا ويستهزئ ويضحك، ويُحتمل واللهُ أَعْلَمُ أن الَّذِينَ يمرون هم عباد الله المتقين يعني إِذَا مر الصالحون بهؤلاء الَّذِينَ يجلسون يتصيدون لمثل هؤلاء إِذَا مر الصالحون بهم بدأ يغمز بعضهم بعضًا، فيقول انظر إِلَىٰ فلان وبدأوا يضحكون، ويتغامزون ويسخرون ويستهزئون. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠].

الآية تحتمل واللهُ أَعْلَمُ أنها يعني أن الَّذِينَ أجرموا يمرون بالمتقين فيستهزئون أَوْ إن المتقين إِذَا مروا استهزأ بهم المجرمون النتيجة واحدة وهي أن هؤلاء المجرمين ما تركوا أهل الخير والطاعة ما تركوهم إن جلسوا في مجالسهم: اغتابوهم، واستهزئوا بهم، وسخروا منهم، وإن مروا بهم أَوْ هؤلاء مروا بهم استهزئوا بهم وسخروا يعني حالهم كلها سخرية واستهزاء واحتقار ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٣٠]،

والغمز ما هو؟

هو الغمز بالرأس، بالإشارة، بالعين، باليد كل هٰذِه داخلة، أحيانًا بالكلام كل ذلك داخل وهو عَلَىٰ سبيل السخرية وعَلَىٰ سبيل الانتقاص والاستهزاء بالآخرين.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ﴾ [المطففين: ٣١]، هؤلاء المجرمون إِذَا انقلبوا يعني إِذَا رجعوا إِلَىٰ بيوتهم وَإِلَىٰ أهليهم ﴿انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١].

فكهين يعني متفكهين فرحين مبسوطين؛ لأن أصل التفكه هو الانبساط بالشيء وسُميت الفاكهة بهذا الاسم؛ لأن صاحبها ينبسط في أكله؛ لخفتها وسهولتها لا تحتاج إِلَىٰ طهي وطبخ ونحو ذلك يأخذها ويأكلها، فسميت الفاكهة بهذا الاسم؛ لسهولتها فهؤلاء لانبساطهم، واستهزائهم، وسخريتهم، يرجعون إِلَىٰ بيوتهم وهم فكهين فرحين بما فعلوه باستهزائهم بهؤلاء المتقين ولاحظ أيضًا حَتَّىٰ يصل الأمر أنهم من

شدة استهزائهم وسخريتهم وفرحهم واغتباطهم أنهم يغتبطون بأنهم يستهزئون بالصالحين لم يصل الأمر إِلَىٰ هٰذَا الحَدُّ وينتهي وصل الأمر إِلَىٰ ما هو أكبر وهو أنهم يحكمون عليهم.

من خولك؟ ومن فوضك تحكم عليهم؟

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، إِذَا رأوا الصالحين قالوا انظر إِلَىٰ هؤلاء، هؤلاء تركوا دينهم وتركوا دين آبائهم، وتركوا دين عشيرتهم، وتأثروا بهذا الدين الجديد، وبدأوا يستهزئون، ويسخرون، ويحكمون أيضًا ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، من خولك تحكم عليهم؟

يعني وصل أنك تستهزئ وتسخر، وتفرح بما تفعل من هٰذَا، ثُمَّ يأتي الأمر الأخير إِلَىٰ أنك تصل إِلَىٰ أنك تحكم؛ ولذلك رد الله عليهم لما حكموا عليهم بأنهم أهل ضلال، وأنهم ليسوا عَلَىٰ الحق قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [المطففين: ٣٣]، من كلفك؟، ما أرسلناك عَلَىٰ هؤلاء تحفظ أعمالهم حَتَّىٰ تحكم عليهم، وتقول هؤلاء ضالون وهؤلاء غير ضالين من أعطاك هٰذَا الشيء قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ [المطففين: ٣٣].

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]؛لأن يوم القيامة يظهر فيه الحق جليًا، في الدنيا يسخر من يسخر، ويلعب من يلعب، ويستهزأ من يستهزأ، ويضحك من يضحك، لكن إِذَا جاء يوم القيامة ظهرت الحقائق ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، كما الجزاء من جِنس العمل، كما أنهم يستهزئون هؤلاء المجرمون يستهزئون بأهل الخير والصلاح في الدنيا إِذَا جاء يوم القيامة انقلبت الأمور، فأصبح أهل الخير والصلاح يضحكون من هؤلاء وهم يعذبون في نار جهنم، فيقول بعضهم هل أنتم مطلعون؟، ننظر في أهل النَّار ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥]، يطلعون وينظرون إِلَىٰ أهل النَّار وهم يعذبون ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، ولاحظ أن يعني يضحكون يعني عَلَىٰ وجه المُجازاة ليس ضحكهم ضحك استهزاء بهم لا وإِنَّمَا رد عليهم بمقابل ما كانوا يستهزئون في الدنيا ويضحكون هم الآن يضحك المؤمنون منهم؛ لأن المؤمنين الآن أصبحوا في أعلى عليين، وهؤلاء في أسفل سافلين، فأهل الصلاح والخير الَّذِينَ كانوا يُستهزأ بهم كما كان ذلك في أول الإسلام كان طغاة قريش، ومجرمو قريش كانوا يستهزئون ببعض

المؤمنين الصالحين من صحابة النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المهاجرين الفقراء كعمار، وخباب، وبلال وغيرهم كانوا يستهزئون بهم، فإذا جاء يوم القيامة أهل الخير والصلاح يضحكون منهم، يضحكون وهم مغتبطون بحالهم لأنهم أين؟

في جنات النعيم، في جنات وفي عليين.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥]، يعني هم ينظرون إليهم، وينظرون إِلَىٰ نعيم الله، وينظرون إِلَىٰ ما يسرهم، وقد أطمئنوا عَلَىٰ هٰذِه الأرائك، والأرائك جمع أريكة: وهي المجالس والسرر، المجالس السرر الَّتِي قد بُطنت بالبطائن وفُرشت بالفرش يجلسون عليها وهم مطمئنين، وهم فرحين، وهم آمنين، وينظرون لهؤلاء المجرمين عَلَىٰ الأرائك ينظرون.

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خاتمة السورة: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦]، هٰذَا استفهام كما يقول أهل اللغة استفهام، ولكنه يفيد مَاذَا؟ يفيد التقرير يعني قد ثوب والمراد بالثواب هنا الجزاء ليس الثواب الَّذِي يثاب به أهل الخير والصلاح هٰذَا الثواب عَلَىٰ إطلاقه وهو الجزاء ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦]، هل جُزي؟ الكفار بما كانوا يفعلونه في الدنيا؟

نعم الجواب نعم جُزوا بما كانوا يفعلونه في الدنيا لقوا جزائهم يوم القيامة، فالثواب هنا إِمَّا أن يكون معناه الجزاء يعني هل جُزوا بذلك، أَوْ أنه يُقال ثواب استهزاءً بهم وسخرية نقول أنتم أثابكم الله عَلَىٰ أعمالكم لما عملتوها في الدنيا وجدتم ما عملتم قد وجدنا ما عملنا نحن، ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٤٤]، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكم رَبُّكُمْ، هٰذَا جزائكم.

﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦]، الجواب نعم لقوا جزائهم هٰذِه الآيات الحقيقة مهمة وهي تحذر كل من يستهزأ ويسخر بأخيه المسلم ويغمز ويلمز أخاه المسلم كل ذلك ينبغي الحزر ينبغي الحزر من الاستهزاء بالآخرين والسخرية؛ ولذلك نهى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحذر قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، وَقَالَ: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]، كل ذلك تحزير من هٰذِه الصفات صفات أهل الاجرام وصفات اهل النَّار فيحذر المسلم أن يستهزأ خرجوا مع النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للجهاد في غزوة تبوك، خرجوا للجهاد ، ويجاهدون مع النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّبِيّ يقول لهم مَاذَا ؟

﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، والسبب أنهم استهزأوا بالصحابة، استهزأوا بالنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته مجرد كلام يخوضون في الكلام النتيجة فإذا رأى الإنسان بعض المجالس فيها استهزاء وسخرية من أهل الخير فالواجب أن ينصح وأن يغادر وأن يبتعد عن هٰذِه المجالس ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] ، فالخوض في الله، وفي شرعه، وفي رسوله، وفي عباده الأولياء المتقين، كل هٰذَا ينبغي الانسان ألا يجالس ألا يحضر. مثل هٰذِه المجالس الَّتِي فيها قد يعني الأنسان لا يتصور ما عقوبة هٰذَا الشيء فننظر نحن هٰذِه الآيات ونرى أنها عقوبات شديدة بسبب مجرد استهزاء، غمز، لمس، استهزاء، مجرد يظن الإنسان أنها .. أحيانًا تجد بعضهم إِمَّا يحضر مثل هٰذِه المجالس، أَوْ يشاهد بعض المقاطع بعض الأفلام فيها استهزاء بالصالحين فيها استهزاء بدين الله وبشرعه وبأوليائه، ويظن أن هٰذَا الأمر عادي ما فيه أي شيء لا قد تنظر إِلَىٰ هٰذَا الشيء وتعاقب وأنت لا تشعر فعَلَىٰ الإنسان أن يحذر مثل هٰذِه الأمور.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يحفظنا وَإِيَّاكُمْ من كل سوء وأن يجعلنا وَإِيَّاكُمْ من أهل القرآن أهل الله وخاصته واللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ النَّبِيّ مُحَمَّد وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الانْشِقَاق)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الانشقاق ١ - ١٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الاخوة الكرام السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا، وأن يعيننا وإياكم على طاعته، وأن يغفر لموتانا وموتاكم جميعًا وأن يتجاوز عنا وعنهم جميعًا.

أيها الاخوة الكرام في هذا المجلس المبارك، في هذا اليوم، وهو اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الأخر من عام أربعة وأربعين وأربعمئة وألف للهجرة نجتمع في هذا المقام المبارك؛ لنتناول آيات من كتاب الله سبحانه وتعالى نقرأها، ونبين معانيها، ونتدبر ما فيها من حِكمٍ وأحكام، السورة التي بين أيدينا وهي سورة من سور الجزء الأخير.

هي سورة الانشقاق النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في هذه السورة وفي غيرها: «**من سره أن ينظر إلى يوم القيامة نظر عين** يعني: يبصرها كأنه يشاهد يوم القيامة، **من سره أن ينظر الى يوم القيامة نذر عين فليقرأ سورة التكوير وسورة الانفطار وسورة الانشقاق**»، النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرن بين هذه السور الثلاث.

لا شك أنها متشابهة، موضوعاتها متشابهة وحديثها متشابه، هي تتحدث عما يجري يوم القيامة، وتُعطي صورة حقيقية أمامنا، أشياء كثيرة قد نغفل عنها، أَوْ لا نعرفها أصلًا، وينبغي لنا أن نتعرف عليها.

هذا يوم عظيم: يوم لابد أن يأتي لكل إنسان، والخلق جميعًا سيُحشرون يوم القيامة، وسيواجهون هذا اليوم العظيم ما فيه من عرصات، وما فيه من أهوال شدائد.

الجمادات تتأثر فكيف بهذا الإنسان؟

سورة التكوير شرح الله فيها سبحانه وتعالى تفاصيل عظيمة عما يجري في يوم القيامة.

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ١-٤]، ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]

كم آية ذكرها لنا؟

ذكر لنا اثنتي عشرة آية

ست آيات تحدث عند نهاية الدنيا، وست آيات تحدث عند بداية الآخرة، وفي عرصات يوم القيامة.

سورة التكوير فيها تفاصيل عظيمة، لما تنتقل إِلَىٰ سورة الانفطار التي ذكرها النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الْحَدِيثِ، أيضًا تفصل لنا لكن تفصيل أقل، تذكر لنا آيتين في السماء، وآيتين في الأرض ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار: ١-٤]، ثم تفصل في أحوال أُخرى

سورة الانشقاق التي هي حديثنا هذا اليوم لم تذكر هذه التفاصيل، وإنما كأنها جاءت والعلم عند جاءت بعد هذه السور، فهي تقول لك الحديث قد جاءك فيما مضى. فلا حاجة أن أُعيد، أعطيك ملخص؛ ولذلك في سورة الانشقاق لم يذكر الله هذه التفاصيل، وإنما ذكر لنا ما يحدث للسماء وهي من الجمادات وما يحدث للأرض فَقَطْ، وماذا كان جواب السماء؟

تتحدث وهي جامدة من الجمادات، وتستجيب، وتطيع، وماذا يجري للأرض عندما تُؤمر، فتستجيب وتُبادر، ولا تتردد في هذا اليوم العظيم.

ولذلك أجمل الله فيها الحديث وبين موقف هٰذِه السماء، وموقف هذه الأَرْضِ، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١]

لما تقرأ في سورة الانفطار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ [الانفطار: ١]، وهنا يقول ﴿انْشَقَّتْ ﴾ [الانشقاق: ١]

هل بينهما فرق ولا المعنى واحد؟

إن كان المعنى واحد مَالَه حاجة مرة يقول انفطار، ومرة يقول انشقاق

وإن كان هناك فرق إذًا لَا بُدَّ أن تعرف وأنت تقرأ القرآن لا ينبغي لك أن تمر على هذه الاشياء وأنت ما تفهمها يجيب عليك أن تفهم، وتعرف، وتفرق بين هٰذَا.

ونحن تحدثنا في لقاءات ماضية عن كلمة الانفطار لما جئنا وتحدثنا عن هٰذِه السورة، وبينا الفرق بينها وبين الانشقاق، ونحن نقول لك الآن إن سورة الانشقاق جاءت مُتأخرة بعد هاتين السورتين إذًا

الانشقاق أعظم، ولما اقول لك أنت هذا الشيء أنفطر، وهذا الشيء أنشق لا شك أن الانشقاق أعظم من الانفطار.

الانفطار: بداية التشقق

يقول: تفطرت قدماه يعني: بدأ الشقوق فيها، لكن لما تقول انشقت القدم هذَا أعظم إذًا فيه فرق.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول هنا: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]

في آيات أُخرى حتى نربط بين الآيات، ونفهم القرآن جيدًا في آيات أُخرى قَالَ: ﴿فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، انشقت من شدة الهول، وعِظم الأمر، فأصبحت مثل الوردة يعني حمراء، اشتدت السماء أصبحت حمراء، ثم ذابت بدأت تسيل ﴿وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧]، أصبحت مثل الدُهن من شدة الهول، يوم عظيم شديد، في آية أُخرى يقول: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩]، في آية أعظم من هذا كله قد تكون هي المتأخرة قال الله عز وجل فيها: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، يعني خلاص السماء انتهت، ذهبت، طويت مثل ما يطوى السجل إذًا هذه أهوال حوادث عظيمة للسماء فَقَطْ.

أين الكواكب والشمس هنا؟

لا شك أن إذا انشقت السماء ما في كواكب، ما في الشَّمْس، ما في قمر كلها ذهبت

إذًا جاءت متأخرة بعد ذهاب هذه الاشياء العظيمة كلها

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، عرفنا هذه الجملة وهذه الآية بعدها ماذا يقول؟

قَالَ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢]، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا: يعني السماء استمعت لربها، ﴿أَذِنَتْ﴾: معناها استمعت يعني خاطبها الله فاستجابت

وقال في آية أُخرى لما قَالَ: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]، ماذا قالت السماء والأرض؟

﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، مستجيبين، جمادات ولا تتردد

والإنسان يُدعى إِلَىٰ الله وتجد من يتردد، ومن يكفر، ومن يعاند.

﴿وَأَذِنَتْ﴾: يعني استمعت لربها أنظر ما قال لأي شخص قَالَ: ﴿لِرَبِّهَا﴾ [الانشقاق: ٢]؛ لأنها تعرف ربها، تعرف الذي خلقها، وأوجدها ورفعها من غير عمد هو الله، فهي تعرف ربها؛ ولذلك قَالَ: اذنت واستمعت لربها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي خلقها وأوجدها

﴿وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢]، معنى حُقَّتْ: أي حُق لها أن تستمع، وحق لها أن تجيب يعني أن تستجيب يعني ما في تردد، ولا يمكن أن تتردد، حُق لها أن تستجيب، وحُق لها أن تسمع وحُق لها ألا تتردد في إجابة ما يأمرها الله به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

هٰذِه السماء أنشقت؟

نعم أنشقت

استمعت لربها؟

نعم

استجابت؟

استجابت

حُق لها ذلك؟ نعم ولن تتردد

هذا ما يجري في السماء باختصار في هذه السورة.

تنتقل الآيات الى الأرض، تنظر إِلَىٰ السماء، أنظر الى الأرض

ماذا يجري لها يوم القيامة؟

قَالَ: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣]، طيب أين الجبال؟

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر الجبال في سورة التكوير ﴿سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، أين البحار؟

ذكر أنها فُجرت، وأنها سُجرت ما في ذكر؛ لأنها الأمور هٰذِه خلاص انتهت وصلنا مرحلة نهائية، قَالَ: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣]، بُسطت ومُدت كما يُمد الأديم -الجلد- كما تُمد السفرة، تمد الأرض: تبسط بسطا ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، لا انخفاض، ولا ارتفاع

هٰذِه هي الأرض يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، تُبَدَّلُ: يعني تُغير صفاتها، الأرض هي الارض لكن اختلفت عليك ﴿مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣]، وتغيرت صفاتها.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣-٤]، إذًا جاءت متأخرة؛ لأن الآن عندنا مَاذَا؟

عندنا خروج من القبور

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ [الانشقاق: ٤]، ما الذي تُلقيه الأرض؟

الأرض مليئة، قد ثقلت ما الذي تلقيه الأرض؟

تلقي ما فيها من الناس، تُخرج الناس من قبورهم، وتخرج غير الناس، ما فيها من كنوز تأتي كالاسطوان يوم القيامة ذهب والفضة والأموال هذه تأتي؛ ليتحسر أصحابها عليها، الذين يجمعون الأموال ينظرون إلى أموالهم أمامهم

تتحسر كيف ما أنفقت؟، كيف ما تصدقت؟، كيف ما فعلت؟، كيف هذا المال الذي ذهبت وتركته؟ جاءني يوم القيامة

يأتيك لماذا يوم القيامة هذا المال؟

لتُحاسب عليه، تحاسب على النقير والقطمير في هذا المال هل أديته حقه؟ وحق الله فيه؟ ولا بس مجرد أرصدة تتركها وتذهب تأتيك يوم القيامة، فالكنوز والأرض كل ما في هذه الأرض يُخرجها الله؛ ولذلك قَالَ: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤]، يعني أصبحت خالية ما فيها شيء، كل ما تحت الأرض سيخرج على سطح الأرض، على وجه الأرض

وأسمع أيضًا ماذا قالت الأرض؟

﴿وَأَذِنَتْ﴾ [الانشقاق: ٥]: استمعت لربها لما أمرها مثل السماء لا فرق

﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، دون تردد

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ [الانشقاق: ٢]: استمعت لربها، قالت لربها الذي خلقها، وأوجدها ﴿وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢]: اي حُق لها أن تستمع.

أهوال عظيمة يعني الناس في غفلة عنها، تشتغل في هذه الدنيا، وتعمل ليل ونهار وتبحث يمين وشمال، ما تدري إلا قد أتاك الموت، قد يأتيك غفلة ولا تدري، ولا تستعد، ولا تكتب وصيتك، ولا تستعد لهذا اليوم إلا قد جاءك الموت، هٰذِه الأهوال ستواجهها، تعلمها، وتعرف عليها قبل أن تواجهها؛ لتستعد ولذلك السلف الصالح من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين كانت إذا قُرأت عليهم الآيات المتعلقة بأهوال يوم القيامة لا يستطيع أن يملك نفسه.

عُمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأ في صلاة الفجر سورة المدثر لما بلغ ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ٨ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر: ٨-١٠]، سقط مغشيا عليه وحُمل إِلَىٰ بيته، هذا الذي يعرف عظمة يوم القيامة ويعرف ويحسب لهذا اليوم ألف حساب، أما في غفلة واشتغال بهذه الدنيا، الدنيا ليست مقر، وليست دارك أنت دارك في الاخرة، اسمع يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُناديًا هذا الإنسان، ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]

الكدح: هو العمل الدؤوب المستمر، يقول: أيها الإنسان أنت تشتغل في هذه الدنيا ما هي نتيجة هذا العمل؟ تكدح، تشتغل، تعمل ليل ونهار

بشدة عناء وتعب، وتجد من الناس الآن من لا ينام إلا ساعات معدودة، ومن لا يُعطي الصلاة حقها عمل في عمل، دوام في دوام، لا صلاة، النوم، حق البيت حق الاسرة، حق الأرحام كل هٰذَا ضائع، مجرد عمل آلة يشتغل

﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ ﴾ [الانشقاق: ٦]

الكدح: هو العمل الدؤوب السريع الكثير الذي لا ينقطع

كل إنسان يفعل، وكل إنسان مُطالب منه الكدح والعمل لكن عمل بما ينفع الإنسان في دينه، ودنياه، وآخرته.

أما أن يعمل الدنيا، ويترك الآخرة أَوْ يعمل للدنيا، ويترك الدين لا

أن يعمل ويشتغل كل ذلك الإنسان مطلوب منه أن يعمل ويشتغل لكن لا عَلَىٰ حساب شيء دون شيء، أعطي الدنيا حقها، وأعطي الآخرة حقها، وأعطي دينك وشرعك وطاعة الله حقه وهكذا.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾[الانشقاق: ٦]؛ ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما قال لا تكدح، لا تشتغل، لا تعمل لا

قال كادح كل إنسان يكدح يعمل الله أباح لك وفتح لك المجال

لكن اعلم ماذا ستحصد بعد هذا الكدح؟

هنا النتيجة قَالَ: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾[الانشقاق: ٦]

مُلاقي من؟، ملاقي الكدح ولا ملاقي ربك؟ كلاهما، كلا الإثنين

كل إنسان يكدح في هذه الدنيا، ويلقى عمله، ويلقى ربه جميعا؛ حتى نجمع بين المعنيين، أنظر ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾[الانشقاق: ٦]، أي ملاقي هذا الكدح، ومُلاقي ربك كلها وكل إنسان سيواجه عمله والعمل الآن يأتيك، بعد قليل يأتيك، العمل الذي ستواجهه، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾[الانشقاق: ٦]، لَا بُدَّ أن تلقاه، لَا بُدَّ أن يأتيك يعني من الضروريات أن تواجه عملك يوم القيامة ﴿كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾[الانشقاق: ٦]؛ ولذلك فصل الله سبحانه وتعالى في هذا الإنسان الذي سيلقى كدحه، وعمله، ويلقى ربه فصل فيه، فَقَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾[الانشقاق: ٧]، وهؤلاء هم السعداء، هم الذين عرفوا الطريق إِلَىٰ الله، هم الذين استعدوا لهذا اليوم

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾[الانشقاق: ٧-٨]، كيف يحاسب؟ حسابا يسيرا؟

من حوسب ونوقش عُذِب، قال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «معنى يحاسب حسابا يسيرا قَالَ: هي عرض»

تُعرض الأعمال عليه فَقَطْ، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبين له أعماله، ويبين له ذنوبه، فيقول: "فعلت في يوم كذا وكذا، وفعلت في يوم كذا وكذا"، وقد سترتها عليك في الدنيا واليوم أسترها عليك، فتعرض الأعمال أما لو يُحاسب لا ينجو أحد، ولا واحد ينجو، لو كان أعماله مثل الجبال ما ينجوا؛ لأن نعم الله أكثر، وحق الله أعظم من أعمالك التي تقدمها ماذا تُقدم من أعمالك أمام حق الله، ونعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾[الانشقاق: ٧-٨]؛ ولذلك قال حساب يسير، وسهل مجرد تُعرض أمامك أعمالك فقط

مثل ما تُعرض عندك فاتورة من فواتير الدنيا عليك كذا، لكن تجاوزنا عنك أمشي تفرح.

في الآخرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكشفك هذه الأعمال، ويقول فعلت في كذا، وفعلت في كذا، وقد سترت عليك في الدنيا والآن أسترها عليك في أحوج ما تكون.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾[الانشقاق: ٨-٩]؛ لأنه قال في آية أُخرى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾[الحاقة: ١٩-٢١]، هنا ينقلب الى أهله: يرجع الى أهله يوم القيامة ما في دنيا خلاص انتهت الدنيا يرجع الى أهله في الجَنَّة، مغتبطا مسرورا فرحًا، فرحًا بأي شيء؟

بهذه النتيجة ﴿هَاؤُمُ﴾[الحاقة: ١٩]، يرفع نتيجته، يرفع يده، ويرفع صحيفته إذا أُعطيت بيمينه، ﴿فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾[الحاقة: ١٩]، الناس مُبلمة يقرؤون كتابه، الناس مشغولين بأنفسهم، لكن من شدة الفرح كأنه من شدة الفرح ينادي الناس يقول ﴿اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾[الحاقة: ١٩]، فَهٰذِه حال السعداء الذين عرفوا الطريق إِلَىٰ الله واستعدوا في هذه الدنيا لملاقاة ربهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾[الانشقاق: ١٠]، في آية أُخرى قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾[الحاقة: ٢٥]

كيف بشماله؟ ولا من وراء ظهره؟

قال أما يده اليمنى فتُغل في رقبته، وأما يده الشمال فتكون من ورائه، فيأخذ كتابه من وراء ظهره بشماله نسأل الله العفو والعافية، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴾[الانشقاق: ١٠]، من خلف: هذه أشد الإهانة حتى في الدنيا لو تقابل شخص ويعطيك من الخلف هذه شيء من الإهانة، فكيف بيوم القيامة والناس ينظرون إليك وقد عرضت الأعمال أمامك، ثم يُقال يا فلان بن فلان خذ كتابك من وراء ظهرك، خذ كتابك بشمالك ﴿فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴾[الحاقة: ٢٥]، وهنا ماذا يقول؟

يقول: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴾[الانشقاق: ١١]، يدعو على نفسه بالثبور بالهلاك، يقول: يا ليتني أهلك، يا ليتني كُنت ترابا، تُسوى بي الأرض وانتهي

كيف أواجه رب العالمين، وأواجه الناس بهذا الشيء؟ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ [الانشقاق: ١١]، يدعوا على نفسه بالهلاك لكن ما ينفع

لماذا؟ لأن أمامه النَّار؛ ولذلك قال الله بعدها: ﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٢]، معنى يَصْلَى: أي يدخل النار وُيقاسي شدة حرها

ولم يقول الله يدخل النَّار، ما قال يدخل النار قَالَ: يدخل سعيرا؛ لأنها تتسعر امامه، وتتلهب امامه، فهي تشتعل امامه، فيُسحب ويُلقى فيها

بسبب أنه ضيع دينه وضيع اخرته، فضاع عليه كل شيء قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ﴾ [الانشقاق: ١٣]، في الدنيا كان في الدنيا مسرورًا، مُغتبطًا بالدنيا مسرورًا لم يفكر في الآخرة، ولم يعمل للآخرة وإنما عمله للدنيا يأكل، ويشرب، وينام، وينكح كالبهائم لا يفكر في الآخرة ولا شيء؛ ولذلك قَالَ: ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣]، وزيادة على ذلك ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤]، ظن: معناها اعتقد، وتيقن يعني جزم جزما أنه لن يرجع إِلَىٰ ربه، ما في آخره

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٧]، ما في آخرة، فهذا السبب لو كان عنده اعتقاد باليوم الآخر لعمل لليوم الآخر لكن لما أغلق على نفسه قَالَ: ما في يوم آخر، ولا في جزاء، ولا في بعث، ولم يعترف بذلك النتيجة ما هي؟

لما اعتقد هذا ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ [الانشقاق: ١٤-١٥]، يعني لن يرجع إِلَىٰ ربه كانت النتيجة عليه نتيجة سيئة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿بَلَى﴾ [الانشقاق: ١٥]، يحور ويرجع الى ربه، هذا معنى ﴿بَلَى﴾ [الانشقاق: ١٥] .

بلى أنه سيحور وسيرجع إِلَىٰ ربه وسيحاسبه، ويجازيه بالعدل، وبما يستحق.

﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٥]، الله سبحانه وتعالى بصير بالعباد بكل إنسان، بصير مُطلع عليه ومُطلع على أعماله، فلا يخفى على الله شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٥]، به وبغيره، بصير سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مُطلعٌ على أعمال العباد، ما تقدم، وما تؤخر، وما تفعل، وما تذر كل ذلك مُطلعٌ عليه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

وتُكتب أعمالك، وتُسجل عليك، تُفتح لك صحيفتك يوم القيامة، وتنظر فيها ما قدمت، وما أخرت من أعمال كل ذلك تُجزى به حق الجزاء.

طيب إلي هنا، لعل نقف ونحن نعيش حياة أُخرى عن الدنيا نعيش هذه المواقف العظيمة التي سيواجهها كل إنسان هل سيكون كتابك بيمينك أَوْ شمالك؟، أَوْ من وراء ظهرك؟، أمور عظيمة أهوال شديدة السماء ماذا قالت لربها والأرض ماذا قالت لربها؟ ماذا حدث؟ كل هذه نحتاج حقيقة لزيادة التدبر لهذا الكتاب

حتى يزداد إيماننا ويقيننا بربنا، ويقيننا بهذا اليوم العظيم الذي نحشر فيه ويجمع الله فيه الأولين والآخرين

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يُعيننا على ذكره وعلى شكره وعلى حُسن عبادته، وبارك الله فيكم وجزاكم خيرا على استماعكم، وأن يوفقنا سبحانه وتعالى لما يحب ويرضاه والله أعلم، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الانشقاق ١٦ - ٢٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الأخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعله لقاءً مباركًا نافعًا، وأن يتغمدنا وإياكم بواسع رحمته، وأن يغفر لنا ولموتانا وموتاكم، درسنا الأسبوعي في مثل هذا اليوم يوم الثلاثاء مع القرآن الكريم ومع قصار السور من الجزء الأخير، السورة التي تناولناها في لقائنا الماضي هي من عظائم سور القرآن الكريم وهي سورة الانشقاق.

سورة الانشقاق: سورة تتحدث عما سيجري يوم القيامة، وعما سيواجه كل انسان، وَلَا بُدَّ لكل مسلم يقرأ القرآن وخاصة في الجزء الأخير من القرآن الكريم يجد صورًا عظيمة لليوم الآخر الله سبحانه وتعالى يصور لنا هذا اليوم بصور مختلفة مرةً يتحدث عن السماء، مرة يتحدث عن الجبال، مرة يتحدث عن البحار، مرة يتحدث عن الأرض، مرة يتحدث عن خروج الناس من قبورهم، وأحوال الناس كل ذلك يأتي بصور لتقرير هذا اليوم، وتأكيد هذا اليوم في نفوس الناس.

حيث ألا يشك بذلك مؤمن؛ ولذلك دائمًا تقرأ في القرآن الكريم إذا جاء ذكر اليوم الآخر قَالَ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، يعني لا يمكن أن يشك فيه إنسان.

الآيات التي بين أيدينا التي صور الله لنا ما يجري، وما سيجري في يوم في اليوم الآخر

من انشقاق السماء، واستجابتها بسرعة لربها، واستماعها لأمر ربها، ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢]، حُق لها أن تسمع، حُق لها أن تستجيب، ويصور لنا أيضًا الأرض واستجابتها لربها، وحُق لها أن تستجيب، وأن تُمد الارض مدًا كما يُمد الاديم، وتُخرج الارض أثقالها، تُخرج الارض ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤]

ألقت ما فيها من الأموات، من المعادن من الأموال؛ حتى اجتمعت فوق الأرض؛ ليجازي الله كل نفسٍ بما كسبت، ويصور الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا مصير الناس وانقسامهم قسمين في أخذِ كُل مسلمٍ أَوْ كُل إنسان كتابة.

فآخذٌ كتابه بيمينه وراجع إِلَىٰ أهله مسرورا، وآخذ كتابه بشماله لما تُغل يمينه في عنقه فيأخذ كتابه بشماله، ويدعو على نفسه بالثبور والهلاك، كُل هذه تصوير لليوم الآخر.

هل يشك عاقل او يتردد في قضية البعث؟ وإخراج الناس من قبورهم ومُجازاتهم ومصيرهم الى الجَنَّة أَوْ النار هل يشك عاقل في هٰذَا؟

لا يشك عاقل، ومع ذلك نجد من يُنكر هذا اليوم ويستبعد هذا اليوم؛ حَتَّىٰ يقول قائلهم أإذا كنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو اباؤنا الاولون، ويقول بعضهم ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، فيستبعدون لما يستبعد هذا الضعيف المسكين اليوم الآخر القرآن يرد عليه

والله عَزَّ وَجَلَّ يُقيم الحُجة عليه، اسمع ماذا قال لما صور لنا القرآن هذا التصوير العظيم قال ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦]، قد يسأل سائل كيف الله عز وجل يقسم بالشفق؟

نقول هذا تكرر معنا في سورة التكوير لما ذكر الله وصور لنا ما يجري يوم القيامة قَالَ بعدها ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥-١٦]، هذا القسم تأكيد على هذا اليوم وأنه لَا بُدَّ من أن يأتي، وَلَا بُدَّ أن يراه كل مخلوق، وكل إنسان؛

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يؤكد والقسم أسلوب من أساليب العرب للتأكيد في الأخبار القسم أسلوب والقرآن استعمله في آيات كثيرة ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾، قال الله عز وجل ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢]، ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، آيات كثيرة بعض المفسرين وأهل العلم يقول أن اللام هنا لام زائدة

القرآن ما فيه زائد ولا يقال زائدة هم يقولونها من ناحية إعرابية، ولكن الأدب مع القرآن الكريم ألا يقال فيه لا زائد ولا ناقص، وإنما نقول هذه اللام إِذَا تدبرتها وتأملتها وجدتها جاءت في مكانها، من غير زيادة ولا نقصان.

ما معناها؟

نقول هذه اللام متعلقة بمحذوف كما هي في لغة العرب: أي لا، كما يدعي من يدعي أنه لا بعث، ولا جزاء، ولا حساب، بل أُقسم بأن هناك جزاءً، وبعثًا، وحسابًا.

إذا عرفت هذا المعنى زال عنك أن تقول هذه اللام ما معناها؟ فنقول لام ترد على المنكرين للبعث، لا كما يدعي هؤلاء أنه لا جزاء، ولا بعث، ولا جنة، ولا نار، لا ولكنني أُقسم قسمًا عظيمًا بأي شيء يُقسم الله عَزَّ وَجَلَّ؟

يُقسم بما شاء من مخلوقاته، والله لا يُقسم إِلَّا بالأشياء العظيمة، الأشياء العظيمة يُقسم بها يُقسم بِاَللَّيْلِ، يُقسم بِالنَّهَارِ، يُقسم بِاَلشَّمْسِ، يُقسم بالقمر، يُقسم بالسماء، يقسم بالأرض

لله أن يُقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق أن يُقسم إِلَّا بالله، «مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَسكت»، فلا يجوز للإنسان المخلوق أن يُقسم بأي شيء غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا يجوز أن يُقسم بالنبي، أن يقول وَالنَّبِيّ، أَوْ بحياة فُلان، أَوْ بحياتي، أَوْ بالكعبةِ أَوْ نحو ذلك لا يجوز، فلا يجوز القسم إلا بالله سبحانه وتعالى.

الله عَزَّ وَجَلَّ يقسم بمخلوقاته ما بما يشاء مما لها أثرٌ عظيم.

طيب ما هو الشفق؟ وما أثره العظيم؟

الشفق: قال أهل العلم هي الحُمرة التي تكون بعد غروب الشَّمْس، إذا سقط قرص الشمس أصبح في الأُفق لون الحُمرة، وقال بعضهم هو لون البياض الذي يأتي بعد الحُمرة قبل اسوداد اَللَّيْل طيب لماذا يقسم الله بالشفق؟ لماذا اختار الشفق وأقسم به؟

قال بعدها مَاذَا؟ قَالَ: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧]

الشفق: بداية اَللَّيْل، وذهاب النهار دائمًا هذه الحركة والتغير لما يأتي النهار، ثم يذهب النَّهَار، ويأتي الشفق، ثم يأتي اَللَّيْل بشدة سواده، ثم يأتي القمر بسلطانه في السماء، ثُمَّ يأتي الفجر والصبح، هذا التغير يدل على اي شيء؟

يدل على أن وراء هذا الكون، أن وراءه خالقًا مُدبرًا، متصرفًا، فيه مالكا له، مُسخرًا له.

انت لما تشوف هٰذِه الأشياء التي يقسم الله بها يدل عَلَىٰ قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعَلَىٰ عظمة الله، وعَلَىٰ منته ونعمه على عباده، فالقادر المُنعم المُحيط بهذه الأشياء المُدبر لها قادر على بعث الناس فهمنا؟، لكي نعرف أن هذا يرد على من؟ على من ينكر البعث

لما يقولون ما في بعث أنت ما تعرف قدرة الله، لو تعرف قدرة الله ما قلت ما في بعث

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول في الأموات ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤]

الميت في قبره ينقص كل يوم،

الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤]، ما يفوت على الله شيء حتى تقول الله غير قادر؛ فلذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا يقسم بهذه الأشياء المتغيرة تدل على أن وراء هذا الكون مُدبر، مُسخر، عالم محيط بعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولذلك أقسم الله بالشفق، وأقسم بالليل ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧]، معنى ﴿وَمَا وَسَقَ﴾ أي ما جمع، الليل يجمع، إذا جاء الليل واشتد بظلامه آوى كل انسان إِلَىٰ مأواه، وكل حيوان الى مأواه وتجتمع الليل يجمع، فمعنى وسق: أي جمع مخلوقات الله تجتمع في النهار كلٌ يمشي، وكلٌ يجري، وكلٌ يتنقل، وإذا جاء الليل وأشتد السواد كلٌ دخل في مسكنه، فهذا معنى قوله: ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧].

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣]، فهذا يدل على عظمة الخالق، وقدرته وإحاطته بكل شيء، فالذي يدبر اَللَّيْل، ويجمع الخلق ويفرقهم هو الذي قادر على أن يجمعهم يوم القيامة ويبعثهم من قبورهم، قَالَ: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٨]

﴿اتَّسَقَ﴾: يعني كمُل بنوره، وأصبح بدرًا في لياليه -ليالي البدر- الثالث عشر، الرابع عشر، الخامس عشر، السادس عشر، يصبح القمر له سلطان في السماء، وقد أضاء على الأرض بنوره.

من الذي جعله يكمل وينير بهذا النور الساطع القوي؟ وبعد ايام تجده ليس له أي سلطان ويذهب حَتَّىٰ يختفي من الذي يخرجه هلالاً صغيرًا ثُمَّ يكبر، يكبر، ثُمَّ يرجع من؟

هو الخالق سُبْحَانَهُ المسخر، سخر الشَّمْس، سخر القمر، سخر اَللَّيْل، سخر النَّهَار كل هٰذِه الأدلة تدل عَلَىٰ أي شيء؛ حَتَّىٰ نعرف نتدبر، تدل على أن وراء هذا الكون خالقًا مدبرًا وقادرًا على إماتة الخلق بلحظة، وبعثهم بلحظة، بعث الناس ما يعجز الله عَزَّ وَجَلَّ

الله عز وجل ماذا يقول؟ ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، عَلَىٰ هذه الأعداد كلها كنفس واحدة، لما أقسم الله على هذه المتغيرات أقسم أيضًا على هذا الإنسان أَوْ جاء القسم لأجل هذا الإنسان أنه يتقلب في هذه الحياة، يمر بما يمر به من مراحل؛ حَتَّىٰ تنتهي الحياة وفيها ينتقل للآخرة.

أسمع مَاذَا يقول الله لما أقسم بهذه الأشياء الثلاثة الشفق، ﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧-١٨]، قال بعدها ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]، أي: كل إنسان يمر بمراحل نطفة، عقلة، مُضغة، ثُمَّ يخلقه الله خلقًا تامًا، ثُمَّ يُخرجه إِلَىٰ الأرض، ثُمَّ يُصبح طفلًا صغيرًا، ثُمَّ شابًا، ثُمَّ كهلًا، ثُمَّ شيخًا، ثُمَّ ينتقل.

أحواله في الدنيا مُتغيرة مرة صحيحً، ومرة مريضًا، ومرة فقيرًا، ومرة غنيًا، ومرة كذا، تقلب الأحوال هٰذِه تدل عَلَىٰ أي شيء؟

تدل عَلَىٰ أن المُقلب لها، المُدبر هو الله سُبْحَانَهُ، وَهٰذَا الإنسان يسير بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الَّذِي خلقك؟، من الَّذِي أوجدك في هٰذِه الأرض؟، من الَّذِي متعك بالصحة والعافية؟، من الَّذِي جعلك تعيش هٰذِه المُدة في حياتك ثُمَّ تنتقل إِلَىٰ آخرتك؟

هٰذِا معنى ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]، أي كل إنسان يتحول من حال إِلَىٰ حال، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد هٰذَا البيان: هل أحد يشك في قُدرة الله؟،في أحد يشك في قُدرة الله؟، الله يعطيك أشياء تشاهدها أنت يعني أي إنسان نأتي إلية نقول له أنت أحوالك مُتقلبة في الحياة الَّذِي يقلبها هو الله؛ حَتَّىٰ يُقلب القلوب والأبصار، من الَّذِي يُدبر هٰذِه الأشياء؟

هو الله ألا تعترف بقدرة الله، ألا تؤمن بقدرة الله، لا يشك في ذلك أحد ولكن المشركين الكافرين المُعاندين لا يؤمنون ولا يصدقون؛ عِنادًا وكفرا؛ ولذلك أسمع مَاذَا قَالَ الله قَالَ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠]، أسلوب إنكاري، كيف ما يؤمنون؟، ما تؤمن بهذه الأشياء الَّتِي تشاهدها ولا تؤمن بما سيأتي بعد البعث، ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠]، وزيادة عَلَىٰ ذلك، وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يُصدقون، ولا يؤمنون، ولا يسجدون، ولا يتبعون ما في هٰذَا القرآن من مواعظ، من توجيهات، من نصائح، لا يؤمنون ولا يُصدقون أين عقولهم؟، وَهٰذِه الآية إِذَا مررت عليها فأسجد عندها هٰذِه من مواضع السجود، القرآن فيه خمس عشرة سجدة، إِذَا مررت بهذه السجدات يُشرع لك أن تسجد سجدة سجود التلاوة، تسجد عَلَىٰ أي حال، إن سجدت وأنت طاهرًا تامًا مُستقبلًا القبلة هٰذَا كمال، إِذَا لم يتيسر لك الطَّهَارَةِ فأسجد عَلَىٰ الصحيح، إِذَا لم يتيسر لك القبلة وأنت في السيارة فأسجد أَو .. ، كل هٰذَا جائز

المهم أن تحرص عَلَىٰ أن إِذَا مررت بمثل هٰذِه السجدات أن تسجد، وتدعوا بدعاء السجود إِذَا لم تعرف دعاء السجود، فسبح الله "سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَىٰ فإنه يكفي".

قَالَ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الانشقاق: ٢٠-٢٢]، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ السبب بذلك، ما السبب؟

قَالَ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٢]، السبب هو التكذيب والعناد؛ ولذلك جاء بحرف، بل الَّذِي هو للإضراب يعني انتقال من معنى إِلَىٰ معنى، ومن جملة إِلَىٰ جملة أعرض عنهم لماذا لا تؤمنون؟ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ لَا تسْجُدُونَ؟، ثُمَّ بين لك السبب فَقَالَ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٢]، السبب هو التكذيب والعناد، والكفر، والإصرار عَلَىٰ ما هم عليه إن وجدنا آبائنا هكذا، ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٢]، يكذبون بالقرآن، يكذبون بما جاءهم عن الله، يكذبون باليوم الآخر، يكذبون بالرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يكذبون...

ولذلك شوف لاحظ أنه مَاذَا قَالَ: ﴿يُكَذِّبُونَ ﴾، هٰذِه تُسمى صيغة المُضارع، ما قَالَ كذبوا لو قَالَ كذبوا أنتهى الأمر لكن يُكذب دائم باستمرار هٰذِه صفتهم، التكذيب لا يوقنون ولا يريدون التصديق أبدًا ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٣].

الله أقد أحاط بهم، وعلم ما يسرون وما يعلنون، أعلم بما يُعون: أي بما تُكن صدورهم، بما تُخفي صدورهم، هٰذَا الصدر كالوعاء، فيوعي الإنسان فيه ويجمع في صدره فالله عَزَّ وَجَلَّ عالم بذات الصدور ويعلم بما يوعونه، وبما يخفونه، وتُكن صدورهم مِمَّا تظهر عَلَىٰ ألسنتهم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾ [الانشقاق: ٢٣]، قَالَ الله سُبْحَانَهُ تهديدًا لهم، وتخويفًا: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق: ٢٤]، ينتظرهم، بشرهم.

البشارة لا تكون إِلَّا في الخير، أنت تقول لفلان أُبشرك بكذا، لا تكون إِلَّا في الخير كيف كانت في الشر، الله يقول: بشر هؤلاء بالعذاب الأليم، هٰذَه ليست ببشارة، لكن هٰذَا من باب الاستهزاء بهم، وازدرائهم، والسخرية بهم أن هٰذِه ليست بشارة لكنها مثل هؤلاء يُبشرون بالشر. ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [الانشقاق: ٢٤-٢٥]، استثنى الله من يسمع، استثنى الله من يؤمن، استثنى الله من يستجيب له، ولذلك وصفهم بأجل الأوصاف فَقَالَ: لكن إِلَّا

استثناء مُنقطع أي لكن الَّذِينَ آمنوا وصدقوا بما جاءهم عن الله وأتبعوا هٰذَا الإيمان بالأعمال الصالحة، وبمراقبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والخوف والاستجابة لله هؤلاء وعدهم الله بأي شيء أن لهم الأجر العظيم ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾[الانشقاق: ٢٥]، أجرٌ ليوم القيامة، أجرٌ لا ينقطع أبدًا.

غير ممنون: أي غير مُنقطع يأتيهم في كل وقت، ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[مريم: ٦٢]، أسأل الله سُبْحَانَهُ نحن وَإِيَّاكُمْ جميعًا أن يجعلنا من هؤلاء، وأن يحشرنا في زمرتهم، وأن يجعلنا وَإِيَّاكُمْ من أهل الجَنَّة الفائزين بها، وأن يُجنبنا طرق الشيطان، وطُرق الغاوين، المُعاندين.

حقيقة السورة عظيمة عشنا معها تأملنها، تدبرناها فهمنا ما فيها، تقرأ القرآن، أقرء هٰذِه السورة بعد قليل تجد أنك استوعبت معانيها، فهمتها فهمًا جيدًا، تدبرتها أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا يحرمنا هٰذِا الأجر وأن يجمعنا وَإِيَّاكُمْ في مُستقر رحمته ودار كرامته، واللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ النَّبِيّ مُحَمَّد وعَلَىٰ آله وَصَحْبِهِ أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ البُرُوج)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(البروج ١ - ١١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد أيها الأخوة الكرام:

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هذا اللقاء المُبارك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم هداةً مهتدين.

في هذا اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر من عام أربعة وأربعين وأربع مئة وألف من الهجرة نجتمع في هذا المقام المبارك وعَلَىٰ كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قراءةً، وتفسيرًا، وتدبرًا، وتأملًا، وهذا هو المقصد حقيقة من نزول القرآن، القرآن الكريم نزل للتلاوة، نزل للتفسير والبيان، والإيضاح والفهم، نزل للتدبر تقرأ الآيات تفهمها تدبر تفهم والتدبر غير التفسير.

التفسير: تفهم هذه الآية ومعناها أما التدبر فإنك تنظر فيما تدل عليه هذه الآيات، ما ترمي إليه هذه الآيات.

التَّدَبُّر: هو التفكر في الآيات، إعادة النظر فيها، تأملها، هذا فوق التفسير لما تأخذ الآية تفسرها توضح معناها يأتيك التدبر بعد ذلك.

أما أنك تتدبر الآية قبل أن تفهمها ما يمكن، ولا يحصل، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر بالتدبر أكثر من أن يأمر بتفسير الآيات؛ لأن الآيات واضحة، والقرآن واضح نزل بلسان عربي مبين، لكن التدبر هو الذي يحتاج مِنا إِلَىٰ أن نقف معه؛ ولذلك آيات يأمر الله بها بالتدبر

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، هل انغلقت القلوب؟ انغلقت القلوب وانقفلت؛ حتى لا تفهم كلام الله.

لَا بُدَّ أن تفهم وتُدرك هذه المعاني ثم بعد ذلك يأتي التطبيق، والعمل، الآيات القرآنية فيها أوامر، فيها نواهي، فيها أحكام، فيها حلال، فيها حرام، يأتي تطبيق القرآن في حياة المسلم

الحقيقة أيها الأخوة السورة التي بين أيدينا يعني سورة تحتاج منا إِلَىٰ تدبر وَإِلَىٰ تأمل.

السورة حقيقة تهز النفوس، وتهز القلوب، وهي تصلح في كل زمان ومكان، القرآن كله يصلح لكل زمان ومكان، وَهٰذِه السورة حقيقة يعني هي أي سورة؟

هي سورة البروج، الكثير إن لم يكن الجميع يحفظ هذه السورة، يحفظها، ويقرأها في صلاته لكن حقيقة هذه السورة سورة عظيمة جدًا.

يعني مرت معنا آيات وسور كثيرة قبل هذه السورة، وقفنا معها وقفات عظيمة هذه السورة تحتاج منا إِلَىٰ أن نقف، نُنْصت، نتدبر، نفهم هذه السورة أيها الأخوة هي تتحدث عن أي شيء: تتحدث عن مصير كل طاغية.

كل طاغية يطغى في الأرض، ويتكبر، ويتعالى مصيره مثل ما ذَكَرَ الله في هذه السورة،

نهايته نهاية سيئة، سيذله الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وكل من تكبر في كل زمان ومكان نهايته الإزلال، والصَغار عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الله في هذه السورة أيضًا سينصر أولياءه ولو كان واحدًا، سينصر أولياءه، سينصر من ينصر هذا الدين، السورة حقيقة يعني تعجز الكلمات أن تُعبر عنها، وحقيقة أيضًا لو وقفت معها وقفات طويلة ما استطعت أن أُعطي السورة حقها.

كثير منا يقرأها لكن مرور الكرام، يقرأها ويقرأ غيرها مرور الكرام، لكن نحن نحتاج إِلَىٰ أن نقف نتدبر، نعيش مع القرآن، نري ما أهداف السور، غايات السور، هذا هو الهدف الحقيقي السورة أيها الأخوة نزلت في وقت حرج بين الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما أشتد البلاء بالصحابة وأشتد التعذيب لكثير من الذين أسلموا مُبكرًا مع النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أشتد بهم العذاب والإيذاء من المشركين تنزل السورة تعزيهم، وتقويهم، إن كنتم عذبتم يأيها المهاجرون، ويأيها الصحابة، ومن أسلم مُبكرًا مع النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إن كنتم وجدتم أذى من المشركين، وعذاب، وتضييق، فمن كان قبلكم أشد منكم، حُفرت لهم الحفر، والأخاديد، وأُلقوا في النار أمامه، ونسمع هذه السورة ونتأملها، وكل كلمة حقيقة من هذه السورة تحتاج منا أن نقف معها وهي تهدف إِلَىٰ غاية.

أنظر! كل كلمة ليست آية كل كلمة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سماها سورة مَاذَا؟

سورة البروج، طيب لماذا قال سورة البروج؟ وما علاقة البروج بهؤلاء المضطهدين المعذبين بِالنَّارِ؟

تُحفر لهم حفر تحت الأرض، والله يقول البروج، ما العلاق كأنها رسالة لهم، وتعزية لهم، وبشارات لهم أنكم أيها المعذبون تحت الأرض في النَّار، والنار تتأجج عليكم أعلموا أن أرواحكم في أعلى عليين، فوق البروج أعلموا أن أرواحكم وإن تعذبت الأجساد فأنتم في أعلى عليين؛ ولذلك أقسم الله أنظر السور الَّتِي مرت معنا قبل ذلك ما فيها قِسْمٌ.

فيها أساليب شرطية، إذا السماء، هنا لا جاء قسم والقسم أشد، القسم لا يأتي إلا عند تأكيد الأمور العظام، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يُقسم إلا بأشياء عظيمة، أقسم الله هنا بأي شيء؟ أقسم بالسماء العظيمة الخلق.

قَالَ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، أي صاحبة البروج طيب ما هي البروج؟ البروج هي منازل الشَّمْس، القمر، الكواكب، النجوم، منازلها يقسم الله بالسماء صاحبة هذه المنازل العظيمة، وكأنها مثل ذكرت لكم رسالة لهؤلاء المضطهدين أنكم في أعلى عليين ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، منازل الشمس تنزل بمنزلة القمر له منازل ﴿قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]، الكواكب منازل، والكواكب السيارة، الكواكب الثابتة عالم آخر شي ما تتصوره في ذهنك أبدًا، لا تتصور في ذهنك هذه الأشياء التي تدور في هذا الفلك الْعَظِيم.

وفي هذا الجو الواسع العظيم شيء عجيب من هذه الافلاك وهذه الأشياء. يقسم الله بها، يقسم بأربعة أمور أقسم بالسماء، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢]، هو يوم القيامة، وهي رسالة لهم تعذبون الآن بالأخاديد، والنار تأجج عليكم اليوم الموعود يأتيكم أصبروا؛ ولذلك شوف مثل ما أن الآية تقول لهؤلاء واليوم الموعود النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماذا قال لما مر بآل ياسر وهم يعدمون؟

قَالَ: «صبرًا آل ياسر إن موعدكم الجَنَّة» ما قال إنكم ستنتصر، وأنكم سيزول عنكم العذاب، وستحصل لكم كذا وكذا من فتوحات الدنيا والانتصار لا لا هٰذِه كلها ما تقوم عند شيء أعظم من هذا وهو «إن موعدكم الجَنَّة»، أصبر واحتسبوا.

والسورة تنزل تعزيهم تخاطبهم، ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢]، هذا القسم الثاني

ثم قَالَ: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]، الشاهد ومشهود هذه كلمتين لما جاءت هكذا مُجردة اختلف المفسرون في معانيها، وردت أحاديث، وردت آثار، ولكن الذي يظهر والله أعلم في معناها مما

رجحه كثير من أهل العلم ومنهم الشيخ السعدي أن الشاهد هنا والمشهود كل شاهدٍ بعينيه، وكل مشهود ممن يُشهد عليه عام.

أنت تُشاهد، أنت شاهد تُشاهد مَاذَا؟

تشاهد الأرض، تُشاهد الشجر، تُشاهد الجبل، تُشاهد السماء هذه مشهودة فكل شاهد وكل مشهود يُقسم الله مثل ما أقسم في سورة أُخرى قَالَ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩]، فهذا أعم تعميم فأقسم الله بأربعةٍ أمور السماء، واليوم الموعود يوم القيامة، وكل شاهد يُقسم الله به لعظم الشهادة ومشهود لعظم المشهود عليه.

وأنا يعني أقول لكم حقيقة السورة تعجز العبارات والكلمات أن تُعبر عنها

البروج لها معنى ذكرناه، اليوم الموعود له معنى مُرتبط بهذه القصة أصحاب الأخدود

الشاهد والمشهود: هؤلاء ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٦]، ويشهدون والله عَزَّ وَجَلَّ هو فوقهم شهيد وأنظر كلمة الشهيد والشهود تتكرر بالسورة ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، إذا أنتم جلستم عَلَىٰ الأخاديد تتشفون من المسلمين وهم يعذبون ويعذبون، وتنظرون إليهم بازدراء، وتكونون عليها شهود، فالله فوقكم شهيد والله سُبْحَانَهُ يُقسم بكل شاهد وبكل مشهود.

لما أقسم الله بهذه الأمور الأربعة جاءك جواب القسم، أقسم على أي شيء أقسم؟

أقسم على أن هؤلاء الطُغاة الذين يعذبون المسلمين ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، يُقسم الله على أن هؤلاء قد طُردوا من رحمة الله،

وأُبعدوا أشد البعد؛ ولذلك مَاذَا قَالَ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]

هٰذِه أول عقوبة عليهم الطرد من رحمة الله، وحلول العذاب عليهم.

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]: أي طُردوا ولُعن أصحاب الأخدود.

لماذا؟ من هم أصحاب الأخدود؟

قصة طويلة، وكلام طويل، والمفسرون لهم كلام في هٰذِه خلاصته باختصار حتى لا نتشعب ونضيع خلاصة أصحاب الخدود أنهم هؤلاء قوم كفار؟ وسيدهم كافر مشرك بالله، ومنهم من أسلم وآمن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طائفةٌ منهم، فلما رأى هؤلاء قد أمنوا طلب منهم أن يردهم إِلَىٰ دينهم -الكفر- وإلا

سيعذبهم، فأبوا، فلما أبوا وتمسكوا بدينهم لأنهم أسلموا لله قَالَ: يا إما ترجعون إلى دينكم الكفر وإلا العذاب فتنة، فأمر بحفر الأخاديد في الأرض وأضرم فيها النيران، واشتعلت بالنيران، وَقَالَ: "من رجع إِلَىٰ دينه ودين أبائه تركناه ومن أستمر عَلَىٰ ما هو عليه ألقيناه في النَّار"، فبدأ يُلقي في هذه النَّار؛ حتى جاءت امرأة معها طفل الصغير، فتلكأت ورجعت، فقال لها الطفل وهو صغير وقت الرضاعة قَالَ: "يا أمي اقدمي ولا تترددي فهو خير لك"، فألقت نفسها ولدها في هذه النار كل ذلك في سبيل الله ونصرة دينه.

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]، الذين وضعوا هذه النيران.

الاخدود ما هي؟

قَالَ: الاخدود التي فيها النيران، قال الاخدود ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ [البروج: ٥]، أي أنها تتوقد، وتتأجج بشدة ليست أي نار وبعدين حتى نفهم هؤلاء الصالحين المؤمنين يُلقون في النار أحياء ما هي النار هٰذِه؟

النار هذه لا تساوي في الآخرة شيء هي جزء من سبعين جزء وهؤلاء وعدهم الله بالنار

هؤلاء الكفار وعدهم الله بِالنَّارِ قَالَ: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٥-٦]، من هم؟

هؤلاء الذين يعذبون جالسين على الأطراف الأخاديد يتشفون من المؤمنين، وينظرون، ويضحكون، ويستهزئون أمام هؤلاء وهم يُلقون في النَّار، وأيضًا يُشجعون الذين يقومون بإضرام النار أن يعملوا على ذلك قَالَ: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٦-٧]، أنظر هذه شهادة من الله على أنهم مؤمنون.

قَالَ: وهم هؤلاء الكفار على ما يفعلون بالمؤمنين أولياء الله شهود يشهدون هذا الشيء ليسوا غائبين، أَوْ في قصورهم، أَوْ في أماكنهم لا حاضرين أمام المؤمنين وهم يُعذبون، يحترقون بِالنَّارِ، قَالَ: وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، والله شهيد عليهم.

ما السبب الذي جعلهم يفعلون هذه الأشياء؟ ما في سب ولا في أي دافع إلا الإيمان والطاعة لله؛ ولذلك قَالَ الله عَزَّ ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، ما نقم هؤلاء وغضبوا أشد الغضب، وأحرقوهم بالنار ووضعوا لهم أخاديد إلا بسبب مَاذَا؟

إلا بسبب إيمانهم ﴿بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، ولاحظ ستأتيك الآن أسماء لله وصفات عظيمة في هذه السورة ﴿بِاللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ [البروج: ٨]، له العزة، وله القوة، وله الجبروت يستطيع أن يمنع هؤلاء من تعذيب المؤمنين، ولكن أراد الله أمرًا أعظم.

العزيز الحميد، والعزيز ذو العزة والقوة والغلبة لا يغلبه أحد في شيء لا يغلبه أي أحد، والحميد: المحمود على أفعاله الذي يحمده كل مخلوق على حُسن أفعاله وتدبيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحكمته.

فلا تظن أن الله غائب عن هؤلاء، لكن عزيز وحميد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وخذ من الصفات التي هي أعظم وأعظم قَالَ: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البروج: ٩]، يعني أنتم أيها الطُّغاة: الذين تعذبون هؤلاء المؤمنين تحت ملك الله، وتحت تصرفه، ولن يخرج منكم واحد عن ملك الله: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البروج: ٩]، وأنتم في مُلكه، فكيف تفعلون بأوليائه هكذا؟

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]، لا يغيب عنه شيء، من أفعال هؤلاء ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى هنا انتهت القصة خلاص قصة الأخدود انتهت.

الآن تنتقل الآيات إِلَىٰ أي شيء؟

إِلَىٰ مُخاطبة كفار مكة، إِلَىٰ مُخاطبة مجرمي مكة الكفار يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]، يفتنون للمؤمنين ونحن نقول هذا خطاب لأهل مكة ولا يمنع أن يدخل في كل من فتن عباد الله المؤمنين، في كل زمان حتى أصحاب الأخدود وغيرُهم ومن قبلهم، كل من فتن وَحَتَّىٰ عصرنا الحاضر، كل من فتن المؤمنين وأمتحنهم في دينهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠].

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: "انظروا إِلَىٰ رحمة الله وسعة مغفرته، يُعذبون أولياءه ويفتح لهم باب التوبة"، يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠]، يعني المجال مفتوح أمامهم لعلكم تتوبون ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، عذاب جهنم ينتظر كل طاغية يُعذب أولياء الله، ويعذب كل مسلم، توعده الله بهذا الوعيد الشديد.

له عذاب جهنم وله عذاب الحريق، يحرقون أولياءه ينتظرهم الحريق الذي هو أشد

النار أضعاف، نار الدنيا بسبعين ينتظرهم، فكما أحرقتم أولياءه في الأخاديد، ينتظركم العذاب الحريق.

بعد هذا الوعيد الشديد، والتهديد لأهل مكة الذين يُعذِبون بلالًا، وعمارًا، وخبابًا، وسمية وعمار، وياسر كل هؤلاء يعذبونهم الله يتوعدهم بهذا الوعيد الشديد ثم يُبشر أولياءه بأي شيء يبشرهم؟

قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البروج: ١١]، صدقوا وآمنوا بالله وبرسله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البروج: ١١]، أتبعوا هذا الإيمان بالأعمال الصالحة قَالَ: ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ [البروج: ١١]، هذه بشارة، رسالة ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ [البروج: ١١]؛ حتى تطمئن قلوبهم وإن عذبوا ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البروج: ١١].

قَالَ الله: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، شوف ما فيه فوز في الجَنَّة، الجَنَّة توصف بالفوز الكبير في القرآن كله إلا في هذه الآية، لو تبحث القرآن كله يقول لك ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ﴿الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ أي فوز لكن ﴿الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، لم يرد إلا مع هؤلاء المضطهدين، بشارة عظيمة لهم ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، لا تزال الآية في بيان عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقدرته، وجلال صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه مُحيط وأنه شهيد على كل من يعمل ذلك وتأتي البشارات والبشارات، والتهديد لهؤلاء في إِلَىٰ آخر السورة، السورة كلها وعيد شديد الطغاة وبشارات لمن تمسك وصبر على هذا الدين، يأتي إن شاء الله الحديث أَوْ بقية هذه السورة في لقاء قادم إِنْ شَاءَ اللهُ، نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا ويجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير واللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ على مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(البروج ١٢ - ٢٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد أَيُّهَا الأخوة الكرام:

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

حديثنا في لقائنا الماضي كان حول سورة البروج، وما ذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هٰذِه السورة من بطشه الشديد في أعدائه الطغاة ومن نُصرته لأوليائه، وأتضح لنا ما ذكرته السورة من آيات وما ذكرته السورة أيضًا من ذكر قصة أصحاب الأخدود، وأهل الأخدود وما فعلوه بعباد الله المؤمنين، وفتنوا عباده المؤمنين، ومآل ووعيد ووعد للفريقين لا تزال السورة في تأييد عباد الله الصالحين، وتهديد أولئك المُعاندين الطغاة.

وذكرنا في لقائنا الماضي أن السورة نزلت في وقتٍ كان المؤمنون بأشد الحاجة لنُصرتهم، وضعف المؤمنين، وتسلُط الكفار-كفار مكة- عَلَىٰ عباد الله المؤمنين وعَلَىٰ صحابة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الضَعَفَة، المُستضعفين تأتي هذه السورة بشارات لهم بتهديد أعدائهم ونصرتهم وتأييدهم من الله سبحانه وتعالى.

في استكمال هذه الآيات قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، هذه رسالة لأولئك الذين يبطشون بالمؤمنين، ويهددون المؤمنين ويقتلون، ويعذبون المؤمنين هذه رسالة إن كان عندكم بطش بعباده المؤمنين، فإن بطش الله فوقهم، فإن بطش الله أشد؛ ولذلك تلاحظ إذا قرأت هذه الآية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول مَاذَا؟

يقول ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ [البروج: ١٢]، والمُخاطَب من؟

المُخاطَب النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكل من يصلح له الخطاب يخاطبه الله أَيُّهَا الرسول ويأيها المؤمن بطش ربك أشد من ما يفعل هؤلاء، وهذه تفريج وتسلية لهم، ونُصرة لهم ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ

لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وشوف لاحظ التأييد، والتأكيد، على هذه الجملة العظيمة بقوله إن، وإن في لغة العرب تفيد التأكيد.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ [البروج: ١٢]، وإضافة البطش إِلَىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس بطش أي إنسان، ليس بطش أي مخلوق وإنما هو بطش رب العالمين، ﴿بَطْشَ رَبِّكَ﴾ [البروج: ١٢]، قَالَ: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، بدخول اللام للتأكيد، لشديد: يعني ليس فوقه، وليس هناك أشد من بطش الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كُل هذه تهديد لهؤلاء، وأيضًا وعد لهؤلاء المستضعفين، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعدها: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]

﴿يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]: أي يُبدئ الخلق، يبدأ الخلق هو الذي بدأ الخلق وهو القادر عَلَىٰ إعادته، وهو الذي يبدأُ بالعذاب لأولئك المُعاندين في الدنيا، ويعيده عليهم في الآخرة، فالعذاب متصل بهم، عذابًا سرمدًا مُتصلٌ بهم في الدنيا، وفي قبورهم، وعند قيام الناس لرب العالمين، ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣].

ومع هذا التشديد، ومع هذا التهديد والتخويف، والوعيد الشديد إلا أن رحمة الله فوق ذلك؛ ولذلك لما تقرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠]، فتنوا المؤمنين هؤلاء الأعداء، ثُمَّ لم يتوبوا يفتح لهم باب التوبة، ورحمة الله فوق كل شيء.

هنا يقول لما قَالَ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢-١٣]، قال بعدها مَاذَا؟

قَالَ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، غفور لمن تاب، غفور لأوليائه، ودود ومُحبٌ لمن تاب؛ ولذلك الله يحب التوابين، الله أشدُ فرحا بتوبة العبد، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غفورٌ وودود، والودود من المودة: وهي المحبة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ غفور لأوليائه، غفورٌ لمن تاب، مُحبٌ لمن تاب، مُحبٌ للتوابين، مُحبٌ لأوليائه، ومودته ومحبته لأوليائه ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦] أي محبة بينهم، ومحبة من الله لهم.

ثُمَّ بدر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يذكرُ شيئًا من أوصافه، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ * ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٤-١٥]، والعرش هو أعظم المخلوقات، وهو سقف الجَنَّة، وسقف السماوات، فوق السماوات سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أعظم المخلوقات العرش العظيم

وصفه الله بأنه عرش عظيم، وصفه الله بأنه عرش كريم، وصفه الله هنا بأنه عرش مجيد والمجيد: من المجد، وهو كثرة الخيرات والسعة، فعرشه واسع عظيم ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥].

العرش هو أعظم المخلوقات، وتحت العرش الكرسي، والكرسي: موضع القدمين لله جل جلاله، والسماوات تحت الكرسي جاء في حديث؛ حَتَّىٰ تعرف عظمة هذه المخلوقات بالنسبة للإنسان جاء في حديث عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ: «ما السماوات السبع بالنسبة للعرش إِلَّا كدراهم من فضة ألقيت في فلاة»، السماوات السبع بالنسبة للعرش كدراهم ألقيت في فلاة، لو تُلقي الآن دراهم في أرض فلاة ما تشكل شيء بالنسبة للأرض، فكذلك السماوات السبع على عظمتها لا تُشكل شيء بالنسبة للكرسي، والكرسي بالنسبة للعرش ماذا يكون؟

قَالَ: «الكرسي بالنسبة للعرش كحلقة أُلقيت في فلاة»، والعرش فوق ذلك، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالٍ مستوٍ على عرشه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٥-١٦]، وفيه تهديد، وفيه وعدٌ ونصرة لأوليائه، الله عَزَّ وَجَلَّ فعال لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وإن أمهل هؤلاء الطُغاة المعاندين، فإنه فعال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما يريد، لا يرده أحد ولا يرد أمره أحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فعالٌ لما يريد.

ثُمَّ تأتي الآيات في طريقها في التهديد والوعيد لأولئك المعاندين، الذين يبطشون بعباده المؤمنين، ورسالة أيضًا لأولئك المُستضعفين نُصرةً لهم، أسمع ماذا يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ [البروج: ١٧]، هل سمعت بخبر أولئك الجنود؟، هل اتاك؟ هذا يسميه استفهام، استفهام ماذا يُفيد؟

يُفيد التشويق، أما سمعت يا مُحَمَّد، ولم يسمع أصحابك المُستضعفين في مكة، ما سمعوا خبر أولئك حديث أولئك الجنود من هم الجنود؟، من هم هؤلاء الذين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يدعون إِلَىٰ أن ويستفسر منا هل سمعنا أَوْ لم نسمع؟ قَالَ: هم ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج: ١٨]، ذَكَرَ لك من الجنود وهم كثيرون،

كثيرون أعداء الله، كثيرون الأمم التي أهلكها الله، لكن ذَكَرَ لك نموذجين يُناسب كلٍ منهما يُناسب الحال، يناسب حال أهل مكة، قال فرعون من هو فرعون هذه الامة؟ هو أبو جهل.

فيقول: هذا فرعون هذه الأُمة، تهديد له فرعون الذي قبله كان أشد منه بطشًا، يُذبح، ويستحي، ويقتل، ويبطش، ومع ذلك أهلكه الله وأغرقه في اليم ولم يعجزه شيء، لم يعجز الله ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلذلك أهلكه، وثمود على قوتهم وبطشهم أُعطوا من القوة ما لم يُعط أحد مثلهم، وأهلُ مكة أعطاهم الله ومكن لهم كانه يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: "يا أهل مكة إن استمريتم على ما أنتم عليه في عنادكم، وكفركم، وردكم رسالة نبيكم، وإزائكم لعباده المتقين، فهؤلاء ثمود أنتم تنظرون إليهم، وتمرون بديارهم، أهلكهم الله بالصيحة وأنهاهم لا تزال ديارهم قائمة، ينظر إليها مع مرور السنين الطويلة قائمة بقوتهم؛ لتدل عَلَىٰ قدرتهم التي أعطاهم الله إياها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلِ﴾ [البروج: ١٩]، إضراب وانتقال من معنى إِلَىٰ معنى قَالَ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البروج: ١٩]، أي هؤلاء الكفار يا مُحَمَّد الذي أنت تدعوهم ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩]، لا يقبلونه شوف لما يقول ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩]، ويأتي بحرف الفاء يدل على إنهم قد انغمسوا في هذا التكذيب، وتمسكوا به بقوة فكأن التكذيب سيطر عليهم.

هؤلاء الكفار، وقومك المُعاندون لا يزالون، ومستمرون في غمرة هذا التكذيب لا يغادرونه، ولا يتركونه أبدًا ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩]، ولكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠]، تهديد وتخويف لهم، الله مُحيط بهم، ولم يقل والله من ورائهم مُطلع، أَوْ رقيب قَالَ: لا ﴿مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠]، أشد لا يمكن أن يفلت منه أحد قد أحاط بهم من جميع الجهات.

كيف يتصرفون؟ وكيف يؤذون أوليائه؟ وكيف يعذبون عباده المؤمن والله محيطٌ بهم؟

لا يخرج أحدٌ منهم، ولا يعجزه أحدٌ منهم والله من ورائهم محيط، هذا الخبر الذي يأتي أهل مكة المعاندين، ويأتي المؤمنين، من أين هذا الخبر؟ من اين يأتي؟

يقول الكفار لمحمد ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ﴾ [الفرقان: ٤]، ويقولون ومحمد كذاب، ومحمد ساحر، ومحمد شاعر.

هذا الكلام الذي يأتي محمد من أين يأتي؟ أسمع ماذا يقول؟؛ حَتَّىٰ تعلم أن هذه القصة وما يحكيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه السورة وفي غيرها لم يأتي من عبث، ولم يأتي من أحد من الخلق وإنما نزل من السماوات؛ ولذلك قَالَ: الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ﴾ [البروج: ٢١]: أي هذا الذي تسمعونه، وهذه السورة، وهذا الَّذِي يُقرأ عليكم، وأتى به مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتسمعوه ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١]، وصف الله كتابه القرآن بالمجيد، كثرة الخيرات، وكثرة المنافع، وكثرة البركات ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١].

كيف تقفون منه بالرد والتكذيب، وعدم قبوله، وهو قرآن مجيد قد وصفه الله بأجل الصفات، وزيادة على ذلك قَالَ ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]، لا يستطيع مُحَمَّد يغير فيه، ولا يستطيع أحد من البشر يُغير فيه، ولا أعداء الإسلام على مر السنين إِلَىٰ عصرنا أن يزيد حرف، حرفًا واحدًا أَوْ يُنقص حرفًا من القرآن، لماذا؟

لأنه محفوظ، الشياطين لا تستطيع أن تُغير فيه، ولا تزيد ولا تنقص من القرآن الكريم

كما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فكتابُ الله محفوظ، محفوظٌ من شياطين الإنس والجن، ومن أعدائه، وأخباره صدق، جاءت من سبع سماوات لا يُمكن أن يأتي شخص ويتهم القرآن بأنه كذب أو افتراء من مُحَمَّد أو نحو ذلك.

سورة عظيمة حقيقة جاءت رسالة للمُستضعفين في مكة وهم يعذبون تنصرهم هذه السورة وتؤيدهم، جاءت رسالة لأولئك المُعاندين، لأولئك الذين يبطشون بالمؤمنين، أن وإن كانوا يبطشون بالمؤمنين، فإن بطش الله فوقهم، وإن كانوا يبطشون بالمؤمنين فإن غيرهم قد بطش، وأحرق ووضع الأخاديد وألقى فيها المؤمنين والنتيجة نصر الله أوليائه، والنصر لأوليائه ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١-٥٢]. أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفعنا بهذه السورة العظيمة وبغيرها ونجعلنا واياكم هداه مهتدين موفقين لكل خير والله أعلم أسال الله علي نبينا محمد وعلي اله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الطَّارِقِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الطارق ١ - ١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الأخوة الكرام السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، اللّٰهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا طيبًا، وعملًا متقبلًا يا رب العالمين.

أسأل الله أن يجعل هذا الاجتماع اجتماعا مرحومًا، وتفرقنا من بعده تفرقا معصوما.

هذا الدرس الذي يُلقى كل ثلاثاء بعد صلاة العصر في تدبر القرآن الكريم، والعيش مع القرآن الكريم، والتأمل في آياته، والنظر فيها لا شك أنه فضل عظيم، النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ما أجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يقرؤون القرآن، ويتدارسونه فيما بينهم مثل هذا الأمر إلا نزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الملأ عنده».

هذا شرف عظيم، أن تعيش وقتًا من أَوْقاتك في مثل هذه المجالس الطيبة

تسمع كلام رب العالمين، تتدبر، تفهم، وتستفيد فوائد عظيمة.

السورة الَّتِي بين أيدينا وإن كان الجميع بلا شك يحفظها، ويقرأها، ويرددها إن لم يكن كل يوم لا يمضي عليه يوم أَوْ يومين أَوْ ثلاثة إلا ويقرأها، ولكن قراءة سريعة، قراءة تمر عليك مرور سريع غير إنك تقف، تتأمل، تتفكر هذا مكسب عظيم أيها الأخوة أن تسمع، أَوْ تحضر مثل هذه المجالس، أَوْ أنت تقرأ وتستفيد سورة الَّتِي تأتي بعد سورة البروج في النزول من أعلى هي سورة الطارق.

وهي متآخية مع السورة يعني أُختها؛ لأن الله أقسم بالبروج قَالَ: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، ثُمَّ أقسم بالطارق قَالَ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، الَّتِي قبل البروج الانشقاق ما فيها قسم قَالَ: ﴿إِذَا السَّمَاءُ﴾ [الانشقاق: ١]، وهي موافقة لما قبلها ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١]، كلها مبدوءة إِذَا الشرطية هٰذِه لا هٰذِه بالقسم، القسم أعظم لما تسمع أن الله يُقسم قف يعني لا يقسم الله على أي شيء، وإنما يُقسم على أمر عظيم، فأنت إذا سمعت الله يقسم بشيء قف عنده، أنت لو يُقسم شخص من الناس أي واحد يُقسم عَلَىٰ شيء لَا بُدَّ أن يُقسم على شيء عظيم، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما يُقسم، يُقسم عَلَىٰ شيء عظيم.

سورة الطارق ليست طويلة، ولكن أنت لما تقرأها من أَوْلها إِلَىٰ أخرها، وتُعيد النظر فيها تقرأها مرتين ثلاث، تجد أنها لها مقصد، لها هدف كل سورة من سور القرآن أطول سورة في القرآن البقرة، أقصر سورة: سورة الكوثر كل سورة لها هدف ترمي إِلَىٰ هدف معين نزلت من السماء لهدف، لغاية لَا بُدَّ أن نعرفها لا نقرأها هكذا حتى الفاتحة لها هدف كل سورة من القرآن تجد لها هدف معين هذه السورة لما تنظر وتتأمل فيها والله يقسم بشيء عظيم وعَلَىٰ أي شيء يُقسم؟ هنا يأتي الكلام، هنا يأتي التَّأَمُّل، وهنا يأتي الغرض والمقصد من السورة

يُقسم عَلَىٰ أي شيء؟ يُقسم عَلَىٰ أن كُل نفس من بني آدم الله جعل عليها حافظ، جعل عليها حافظ من الملائكة يحفظ أعمالها، لا تظن أنك مفلوت في هذه الدنيا، وتعيش هكذا لا عليك حراسة، وعليك أيضًا من يُحاسب، ومن يُراقب، ومن يُسجل عليك كل أعمالك وكل حركاتك وسكناتك، ونومك وقيامك، وذهابك ومجيئك، وكلامك، كل شيء مُسجل عليك.

والله يا إخوان حقيقة لو أن إنسانًا يدخل له متجر من المتاجر، أَوْ محل، أَوْ أي صالة، أَوْ أي مكان والكاميرات عليه ثُمَّ في الأخير عندما يُريد الخروج يُحاسب بدقة ولا يُمكن أن يخرج إلا قد حاسب وانتهى، في أمور الدنيا لا أقشعر جلده، وأنتظم في مدخله ومخرجه عليه كاميرات، وعليه مُتابعات، وعليه كذا، ولا يأخذ شيء إلا يُنظر إليه، ولا يترك شيء إلا يُنظر إليه وفي الأخير سيحاسب حساب دقيق ولا يُمكن أن يتسامح عنه لا بالنقير ولا بالقطمير.

هذا في جانب البشر، فكيف بجانب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟

أنت مخلوق مُنذ خُلقت ونزلت إِلَىٰ هذه الأرض وكُلفت إِلَىٰ أن تخرج من هذه الدنيا كل حركاتك وسكناتك مُسجلة، شوف ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]

ما في نفس إلا وعليها حافظ تحفظه الملائكة يعني ملك على يمينك يكتب الحسنات، وملك عن شمالك يكتب السيئات، ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، مُحاسب في كل شيء.

إذًا ندخل في السورة، إذا عرفنا السورة الآن عرفنا مقصد السورة، سورة الطارق تتكلم عن أي شيء؟ على أن كل إنسان يمشي في هذه الدنيا مُحاسب على كل شيء خير مُحاسب، شر مُحاسب تتكلم بخير؟ سجل، تتكلم بشر؟ سجل، تمشي إِلَىٰ خير؟ يسجله، تمشي إِلَىٰ شر؟ يُسجل

حركاتك تخرج المسجد تذهب تأخذ سيارتك كل هذا كل شيء مُسجل عليك، كل شيء لا يفوت على الله سُبْحَانَهُ شيء أبدًا، فهذا معنى السورة: أن السورة تُذكر تذكير تُذكر كل إنسان منا أن يُراقب هو أَوْلًا نفسه: تُسمى المراقبة الذاتية، أنت أَوْل راقب نفسك، أحذر أن تفعل شيء لا يُرضي الله، أحذر أن يفقدك الله في شيء أَوْجب الله عليك حضوره

صلاة الفجر تنام عنها، صلاة العصر تنام عنها صلاة كذا، لا يَفَقِدُك الله في شيء أَوْجب الله عليك أن تكون موجودًا فيه.

هذا معنى هذه السورة، السورة تدور كُلها على هذا المعنى إذًا لَا بُدَّ أيها الأخوة أن نفهم أن كل إنسان مُحاسب، طيب وإذا فهمت أن كل إنسان مُحاسب؟ يجب أن تنضبط في حياتك، يجب أن تطبق هذا القرآن، عرفت هذه السورة؟، عرفت مقصدها؟ إذًا الآن امتثل أنت

امتثل، لا تتكلم بشيءٍ يُغضب الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا تفعل شيئًا يُغضب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

بل أفعل الخير، وألتمس الخير ولو أن يكون وجهك طليقًا أمام الناس، ابتسامتك في وجه أخيك فعلك الخير، ذكرك الخير، أشياء كثيرة تفوت عَلَىٰ الإنسان رجل دخل الجنة لما أزاح غُصنًا عن الطريق رأى أنه يؤذي الناس فأزاحه عن الطريق، فدخل به الجَنَّة.

أمور قد لا يلتفت إليها الناس فيها خير عظيم حجر في الطريق قف أزحه ما تدري ماذا يصنع هذا الحجر لك بعدين؟

ندخل على السورة يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، هذا قسم مثل ما ذكرنا يعني يُقسم الله، والله لا يُقسم إلا بشيء عظيم، أقسم بالسماء لعظمها، وكما ذكرنا لا يُقسم إلا عَلَىٰ شيءٍ عظيم يأتي هذا الذي يُقسم الله عليه، أقسم بالسماء وأقسم بالطارق ما هو الطارق؟ شوف دائمًا إذا قرأت في القرآن وما أدراك ما الطارق الجواب بعده مباشرة، إذا جاءتك "وما أدراك" أي شيء ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١٠-١١]، وهكذا كل في القرآن كلمة وما أدراك الجواب بعدها موجود مباشرة، كم مرة وردت ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ في القرآن؟

ثلاث عشرة مرة وردت في القرآن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ والجواب موجود فيها، لكن إذا جاءتك ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ الجواب غير موجود، ولا يُمكن أحد يعرفه ولا النَّبِيّ، ولا الملائكة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وردت في

القرآن ثلاث مرات ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، هذا ما أحد يدري، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ [عبس: ٣] ما أحد يدري هٰذِه الأمور أخفاها الله عَزَّ وَجَلَّ.

إذًا نعرف الفرق لما تقرأ القرآن تأتيك ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ الجواب موجود عَلَىٰ طول إذا جاءتك ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ لا يمكن أحد يعرفه، ما في أحد يعرفه مُستحيل

طيب شوف قَالَ لك ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴾ [الطارق: ١]، طيب، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق: ٢]، ودائما لجأت ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ هٰذِه تُحرك في نفسك أنه لَا بُدَّ أن تعرف هذا الشيء، يقول لك مثلًا: "وما أدراك ما زيد" تبدأ الآن تفكر تقول من هو زيد؟ هذا ما هو؟ الذي يقول وما أدراك ما زيد؟

إذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، ثُمَّ أعاد عليك مرة ثانية وقال لك: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ [الطارق: ٢] الآن تنتبه، وتجد الجواب أمامك يقول لك الطارق هو ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ [الطارق: ٣]، هذا هو الجواب الطارق: هو النجم الثاقب.

طيب نعود مرة أُخرى نطرح سؤال نقول ليش سُمي النجم بالطارق؟ والسورة كلها تسمى سورة الطارق، لماذا سُمي النجم بالطارق؟، ما معنى كلمة الطارق؟

قالوا: كلمة الطارق معناها: أصلها من الطرق، والطرق هو الظهور، البروز والظهور والمجيء ليلًا حتى إن الإنسان إذا قدم من بلد إِلَىٰ بيته وَإِلَىٰ أهله ليلًا يُسمى طارق "لا يطرق أحدكم أهله ليلًا" يعني لا يجيء ليلا، لا تأتي ليلا إِلَىٰ أهلك هذا كان في السابق يعني البيوت يعني صغيرة، والناس قد يكون في خوف، والمرأة قد تكون نائمة ليس عندها أحد، فيأتي الرجل في الليل وهي لا تدري من الذي أتى بالليل لكن الآن الأمور تختلف صار فيه تواصل واتصالات اختلفت الأمور لكن مقصود الحديث "لا يطرق أحدكم أهله ليلا"؛ حَتَّىٰ لا يُخيفهم.

أَمَّا الآن إذا أصبح فيه تواصل ونحوه خلاص الأمور واضحة، فهذا المقصد، المقصد أن كلمة الطارق هي المجيء ليلًا، ثُمَّ بعد ذلك نتج عن المجيء؛ لأن الذي يأتي يطرق الباب

يطرق وسُمي الطرق: طرقًا وإلا الأصل كلمة الطارق هو الظهور والمجيء بِاللَّيْلِ.

طيب كأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول النجم هو الطارق؛ لأنه يظهر ويبرز في اَللَّيْل، ويأتي في الليل لا يكون يعني سلطانه وقوته إلا بِاَللَّيْلِ يقول: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق: ٢]، ثُمَّ قَالَ: الطارق ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣].

ما معنى الثاقب؟ قَالَ: الذي يثقب بنوره؛ حَتَّىٰ ذُكر أن هذه النجوم التي في السماء تثقب بشدة نورها السموْات السبع، بشدة النور تثقب وتضيء إِلَىٰ السموْات السبع بعض المفسرين قَالَ: النجم هنا نوع من أنواع النجوم قال بعضهم إنه زحل، وبعضهم قَالَ يعني ذكر بعض النجوم المعروفة، ولكن أكثر المفسرين وهو الصحيح أن المُراد بالنجم هنا جنس النجوم، ليس نجمًا محددا مُطلق النجوم.

يعني النجوم التي في السماء نجوم كثيرة لا حد لها هذه النجوم تُضيء بقوة في السماء أنت في الدنيا أَوْ في الأرض هي بعيدة عليك، قد لا ترى إضاءتها قوية، أَوْ قد تكون هناك مُؤثرات أُخرى تعكس عَلَىٰ إضاءتها لكن إضاءتها قوية بشدة، قَالَ النجمُ الثاقب الله أخبر بأن النجم هذا نوره يثقب السموْات، ويثقب الأرض ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣].

لما أقسم الله بالسماء، وأقسم بالطارق، وأخبرك ما هو الطارق، أتى لك الآن أتى بالغرض من القسم، يُقسم الله على أي شيء على أن كل نفس مطلقة من غير استثناء، أي نفس كافرة ولا مؤمنة أي نفس تمشي على الأرض من بني آدم ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]، يعني ما من نفسٍ إلا وعليها حافظٌ من الله يحفظها؛ حَتَّىٰ تخرج من هذه الدنيا ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

طيب إذا عرفت هذا الشيء لَا بُدَّ أن تتذكر وتنظر في نفسك، تتأمل في خلقك، وفي نفسك.

ولذلك أنظر أن ارشدك الله للتأمل وَالتَّفَكُّر في نفسك قَالَ: ﴿فَلْيَنْظُرِ﴾ [الطارق: ٥]، النظر هذا قَالَ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، هذا النظر مقصود به نظر التأمل وَالتَّفَكُّر، لا نظر العين لا ما هو بمقصود هذا معروف ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، شايف نفسك ما فيها شيء لا هو يقول لك أنظر نظر تأمل وتفكر في نفسك.

قَالَ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ﴾[الطارق: ٥]، من أين خُلقت أنت؟ من أين جئت؟ كيف خُلقت؟ فكر في نفسك، ثُمَّ هذا ما في أحد يستطيع أن يُنكر نفسه لما تقول من أين خُلقت؟ ومن أين أتيت؟ كل إنسان مؤمن أَوْ كافر لا يُمكن أن يُنكر هذا الشيء.

لكن الكلام بعد، يعني أنت من أين خُلقت؟، كيف خُلقت؟ لكن كلام ليس هنا بعدما خُلقت ووجدت عَلَىٰ هٰذِه الأرض إِلَىٰ أين ستذهب؟ ثُمَّ إذا ذهبت تذهب إلى أين وما النتيجة؟

هنا يأتي الكلام طيب شوف قَالَ: ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ ﴾[الطارق: ٥]، من أي شيء خُلقت، ويأتيك اليوم حَتَّىٰ ما تُقحم نفسك تقول والله ما أدري من أين خُلقت؟، كيف؟ ما أدري قد لا أعلم أنا صغير في مرحلة ما أتذكر أعطيك الجواب الصريح قَالَ لك: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾[الطارق: ٦]، يعني أنت مخلوق من ماء، الماء هذا ما هو؟

هذا هو النطفة، الماء المني النطفة ﴿مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾[القيامة: ٣٧]

أي يسيل هذا الماء الذي يخرج ويسيل قَالَ: ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾[الطارق: ٦]، والدفق: هو الدفع بقوة، قَالَ ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾[الطارق: ٦]، هذا الإنسان مخلوق من ماء مهين خُلق من ماء مهين، خُلق من نطفة، وفي آية قَالَ: ﴿خَلَقَ الإنسان مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾[النحل: ٤]، قَالَ: ﴿مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴾[الطارق: ٦]، من أين يأتي هذا الماء؟ قَالَ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾[الطارق: ٧]، يعني هذا الإنسان المخلوق الذي يمشي على الأرض بهذه الصورة الجميلة الحسنة رجلًا كان أَوْ امرأة هٰذَا أصلُها نُطفة قذرة صغيرة خرجت من صُلب أبيه، قَالَ ﴿الصُّلْبِ﴾[الطارق: ٧]، الصلب: هو العمود الفقري الذي يكون في ظهر الإنسان.

قال ﴿الصُّلْبِ﴾[الطارق: ٧].

والترائب ما هي؟

قالوا: الترائب هو صدر المرأة صدر الأم، هذا قول لبعض المفسرين أن الإنسان هذا المخلوق من ماء دافق، هذا الماء جاء من طريقين من صُلب الأب، وترائب المرأة، فأجتمع هذان المائان، واختلطا، ثُمَّ خُلق منه هذا الإنسان هذا رأي كثير من المفسرين وهناك رأي آخر أن الترائب هنا ترائب الرجل يعني هذا الإنسان خُلق من أبيه الأم اعتبار أنها وعاء، وعاء مستقر رحم تستقر فيه هذه النطفة ثم تتكون.

هذه النطفة من أين جاءت؟ قالوا: جاءت من الأب من ظهر أبيه -الصُلب- ومن صدر الأب الترائب، وهذا الذي رجحه الشيخ السعدي في تفسيره أن الترائب ترائب الرجل، وأن الصُلب صُلب الرجل بعضهم مثل ما ذكرنا أن تكون ترائب المرأة ممكن هذا يعني هذه كلها أشياء غيبية ما ندري لكن اجتهادية قد يكون هذَا، قد يكون هذا الله أعلم لأن العلم الحديث الآن ماذا يقول؟

يقول: أن هذا الماء الذي ينزل في رحم المرأة يُصادف البويضة، ثُمَّ يتلقح، ثُمَّ يتخلق منه هذا الإنسان، هذا هو عندهم في العلم الحديث، لكن في أحاديث عن النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إذا سبق أَوْ إذا علا ماء الرجل ماء المرأة أشبه هذا الأبن لأعمامه، وإذا علا ما المرأة ماء الرجل اشبه هذا المخلوق لأخواله**»، ذهب إِلَىٰ أخواله

هذِه حديث صحيح؛ فلذلك نقول ما نقدر نجزم بأن الترائب هي ترائب المرأة، أَوْ ترائب الرجل اللهُ أَعْلَمُ بذلك اللهُ أَعْلَمُ.

لكن هذا مثل ما ذكرت ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٧]، هذا الماء الدافق ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٧]، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨]، رجع من؟ هل المقصود به رجع الماء؟ يعني هذا الماء الدافق لما يخلق الله منه هذا الإنسان يستطيع الله عَزَّ وَجَلَّ بقدرته، ولا يُمانعه شيء أن يُعيد هذا الإنسان المخلوق إِلَىٰ أن يعود ماء، فيرجع إِلَىٰ ظهر أبيه، نقول ممكن ما يعجزه شيء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُعيد هذا المخلوق الذي يمشي على الأرض يرجع إِلَىٰ أن يكون نطفة، ثُمَّ يرجع إلى ظهر أبيه نعم لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

طيب هذا ممكن أَوْ يُقال: ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ﴾ [الطارق: ٨] بعد موته يعني هذا الإنسان الذي خلقه الله من الماء، وعرف من أين جاء؟، وعرف كيف خلق؟

هذا الإنسان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادرٌ عَلَىٰ أنه إِذَا مات ودُفن تحت الأرض وتمزقت اشلاؤه أن يُعيده مرة أُخرى، فيبعثه من قبره، ويجازيه يوم القيامة طيب أيهما أصح وأقرب؟

نقول ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨]، أي رجعه يوم القيامة، ليش؟

أنظر أحيانًا عندك مُرجحات، عندك أشياء تخليك تختار هذا الصحيح، ولا هذَا، انظر لما تقول ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨]، يعني عَلَىٰ بعثه، عَلَىٰ خلقه مرة أُخرى وإعادته مرة أُخرى يموت الآن،

ويتمزق بعد سنين طويلة بعد مئة سنة، بعد ألف سنة الله يبعثه مرة أُخرى، ويخرج من القبر ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ [الطارق: ٨]؛ ولذلك شوف بعدها ماذا قَالَ؟

قَالَ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق: ٩]، إذًا الرجعة هنا رجعة مَاذَا؟

يوم القيامة رجعة يوم القيامة قَالَ ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق: ٩]، تُبلى يعني: تُختبر.

السرائر ما هي؟ الأشياء الخفية أنت عندك أشياء ظاهرة وقد تُظهرها أنت وتُعلنها عَلَىٰ لسانك، أَوْ حركاتك أَوْ أخلاقك يعرفها الناس يعرفون أن فُلان صاحب خُلق جميل، صاحب كرم، صاحب كذا هٰذِه أخلاق ظاهرة، لكن في أشياء داخلية ما يمكن يعرفها أحد ولا أقرب الناس لك تستطيع أن تُخفيها، هٰذِه في الدنيا، الناس ليس لهم إِلَّا الظاهر.

يوم القيامة تختلف الأمور، الخفية تظهر وَهٰذِه مُصيبة أنت تسترها في الدنيا لكن في الآخرة ما تستطيع أن تسترها، عندك أشياء معاصي، عندك أشياء أخلاق سيئة، عندك كذا قد تسترها في الدنيا وتمشي بين الناس، والناس لا يدرون عنك قد يكون أقرب الناس لك ما يدري عنك وقد تقع في معاصي خفية في بينك وبين نفسك والناس ما يدرون عنك لكن يوم القيامة تنكشف السرائر، الخفايا تظهر أمام الناس تظهر كل شيء يظهر؛ ولذلك قَالَ هنا ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق: ٩].

إذا انكشفت السرائر، فهذا الإنسان ما له من قوة في نفسه، ما عنده قوة، ولا ناصر ينصره، لا هو يستطيع بنفسه بقوته أن يدفع هذه الأشياء عنه، وليس أحد يستطيع أن ينصره ولا أقرب الناس له الأب ما ينصر أبنه والأبن ما ينصر أباه، ولا ينصر أمه، وهنا تظهر الأمور الصعبة ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق: ١٠]،

طيب لا نُطيل السورة تحتاج أيضًا وقفات منا، وتأملات والحقيقة العيش مع القرآن لا يُمل.

والتأملات تزداد كل ما تجلس مع القرآن تزداد علمًا، ولا تنقضي عجائبه وكما قَالَ بعض أهل العلم قَالَ: "هذا بحر لا ساحل له"، بحر ما فيه ساحل، تعيش مع القرآن بحر ما تنتهي لا لو تذهب ساعات وأيام وأنت تجلس مع هذه الصفحة الواحدة لم تنتهي

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "عليكم بالقرآن، فإن فيه علم الأَوْلين والآخرين، هذا هو القرآن فيه علم الأَوْلين والآخرين، أنظر هٰذِه المعلومات ما كنا نعرفها، أَوْ ما كُنا يعني تمر علينا مرور الكرام تقرأ سورة الطارق كلنا نقرأها لكن هل فهمنا هذه الأشياء؟

كثير منا يمر مرور الكرام عليها ويقرأها على لسانه لكن نحن نريد قراءة قلب، ليست قراءة لسان تريد القلب يقرأ ليس باللسان القلب يخشع، ويتأمل، ويتفكر ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، هٰذَا أثر القرآن لَا بُدَّ أن يكون أثره علينا.

السورة طويلة، فهمناها، عرفناها، عرفنا أن الله أقسم بالسماء، وأقسم بالطارق، عرفنا ما هو الطارق، وعرفنا لماذا أقسم بأن كل إنسان عليه من الله حافظ يحفظ أعماله خيرها وشرها كل هذه معروفة، وأن هذا الإنسان قد خُلق في أصله وإنشاءه من ماء مهين، وأن الله قادر على بعثه، وسيجازيه تأتي تكملة السورة في لقاء قادم بِإِذْنِ اللهِ.

نسأل الله أن ينفعنا بما قُلنا، وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير والله أعلم وصلى على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ.

(الطارق ١١ - ١٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الاخوة الكرام:

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في لقائنا الأسبوعي مع تفسير القرآن العظيم وتدبُر معانيه، حديثنا في لقائنا الماضي كان حول سورة الطارق ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق: ٢]، وبينا أن هذه السورة ركزت على قضية مُحاسبة النفس، وأن كل إنسان جعل الله عليه حافظًا يحفظُ أعماله، ويحفظُ أقواله، وأقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جل جلاله بالسماء، وقد أقسم بالسماء في مواضع كثيرة، بل في هذه السورة على قصرها أقسم بالسماء مرتين، أقسم بالسماء هنا فَقَالَ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، والطارق ما هو؟

فسره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وبينه لنا، قال ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٢-٣]، والطارق: هو الذي يطرق ليلًا: يعني يظهر ليلًا، ويبين ليلًا، ويأتي ليلًا، ويُقال للرجل إذا طرق أهله ليلًا أَوْ جاء أهله ليلًا سُمي طارقًا، وليس معنى الطارق الذي يطرق بيده أَوْ بشيء لا إنما الطارق: هو الذي يأتي ليلًا، ومن أتى نهارًا ما يُسمى طارقًا

ثُمَّ بعد ذلك لما كان الطارق إذا جاء يطرق بابه، بعد ذلك سُمي كل من يطرق طارقًا.

قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق: ٢]، عرفنا في لقائنا الماضي أن كل ما جاءك في القرآن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، فالجواب موجود، وقد وردت في القرآن في ثلاث عشرة آية، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾، تجد الجواب موجود.

أما إذا جاءك ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، فإن الجواب غير موجود، وقد وردت في القرآن في ثلاثة مواضع، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، هذه ما يوجد الجواب، ولا يمكن، ولا أحد يصل إليه إذا جاءت ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾.

﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣] ما المُراد به؟

بعض المفسرين حدد نوع النجم الثاقب، وبعضهم قَالَ هو جنس النجوم أي نجم من النجوم في السماء يسمى بالنجم الثاقب، والثاقب: المضيء إضاءة قوية؛ حَتَّىٰ قيل إن النجم الثاقب هو الذي يضيء في السماوات السبع، ويثقب السماوات السبع هذا معناه.

﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤]: هذا جواب القسم، أقسم الله بالسماء، وبالطارق على أي شيء؟

على ان كل نفس من بني آدم عليها حافظ يحفظ أعمالها، فما من نفس إلا وعليها رقيب عتيد ما يلفظ من قول، أَوْ يفعل من فعل إلا ويُسجل عليه ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢].

ثُمَّ أن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكرنا بأصلنا، من أين أتيت؟، وَإِلَىٰ أين ستذهب؟

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ٥﴾ [الطارق: ٥]، من أي شيء خلقه الله؟

ثُمَّ أجاب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٦-٧]، أي أن هذا أصله ماء ونطفة، خرج من صُلب أبيه، ومن ترائب أمه أَوْ أبيه، فخلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنشأه، ثُمَّ بين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه على رجعه -رجع هذا الإنسان، وبعثه يوم القيامة- لقادر، لا يُعجزه شيء، فَالَّذِي أنشأ النشأة الأَوْلى لا يُعجزه النشأة الأُخرى، لا يُعجزه أن يُعيده مرة أُخرى، و﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨]؟ متى؟

قَالَ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، أي يوم القيامة، ﴿تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾: أي تُمتحن سرائر الإنسان: يعني خفاياه ما يخفيه، في الدنيا مستور عليه، قد تكون عنده تقصير، وعنده أشياء، وعنده معاصي، وعنده آثام مستور عَلَىٰ حاله لا يدري عنه أحد يمشي في حاله لا أحد يدري عليه، إذا جاء يوم القيامة كُشفت السرائر، ظهر كل شيء لا يُمكن أن يُخفيه ولا يستطيع إخفاءه، ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، فهذا الإنسان ما له من قوة ولا ناصر، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الطارق: ١٠]، ليس عنده قوة في نفسه، ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠] يستطيع أن ينصره، لا هو بنفسه قوي، ولا هو أيضًا قوي بغيره، فضعفه من نفسه ومن غيره.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعد ذلك: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: ١١]، هذا قسم ثاني في السورة نفسها أقسم الله بالسماء على أي شيء؟، وصفها بأي شيء؟ قَالَ: وصفها بأنها ذات الرجع

ما معنى ﴿ذَاتِ الرَّجْعِ﴾؟ أي أنها ترجع في كل وقت، تبدأ وتعود، ترجع بأي شيء قال أكثر المفسرين أن معنى والسماء ذات الرجع أي ترجع بالمطر، فكلما جاء سحاب جاء بعده سحاب وهكذا بدليل مَاذَا؟

بدليل ما يقابله لما قال ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ [الطارق: ١١]، بالسحاب والأمطار، قَالَ: ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١٢]، تصدع بأي شيء؟، تتشقق بأي شيء؟

تتشقق بالنبات، مثل قوله تَعَالَىٰ ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٥-٢٦] أي بالنبات، فالسماء تأتي بالخير، والمطر، والغيث، وتصب على الأرض ثُمَّ بعد ذلك الأرض تتشقق بالنبات ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١٢].

أقسم الله بالسماء، وأقسم الله بالأرض عَلَىٰ أي شيء؟

عَلَىٰ أن هذا القرآن الذي تسمعونه ويأتيكم بهذه الأخبار قولٌ حق، وقولٌ فصل بين الحق والباطل، والهدى والضلال لا نشك فيه بأن هذا الذي تسمعونه أنتم هو قرآن منزل من عند الله وهو كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولذلك قَالَ: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤]، ولا اللعب، ولا المزاح، بل هو حقٌ من عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣-١٤]، ومثل ما يمر معنا في سور ماضية كل ما ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مثل هذه الأحوال، أَوْ هذه الأخبار في الأخير يُثبت أن هذه الأحوال وهذه الأخبار منزلة من السماء؛ ولذلك السورة التي قبلها -البروج- قَالَ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

وهكذا تجد قَالَ الله سُبْحَانَهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥]: أي أعداء الإسلام يكيدون للإسلام في كل زمان؛ ولذلك جاء بأي شيء؟

جاء بالفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار في كل زمان، في كل وقت، وفي كل بقعة من بقاع الأرض، إن أعداء الإسلام يكيدون كيدا لهذا الإسلام ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ [الصف: ٨]، ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢]

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾[الطارق: ١٥]، يحاولون مُنذ بزوغ هذا الإسلام في زمن نبينا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم يحاولون طمسه بكل ما يستطيعون ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾[الطارق: ١٥-١٦].

قَالَ الله: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾[الطارق: ١٦]: أي أن الله يكيد لهم، ويمكر بهم، ويُبطل حيلهم، ويُبطل مخططاتهم كلما أرادوا أن يفعلوا شيئًا والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم بالمرصاد ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾[الطارق: ١٦]، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾[الطارق: ١٥-١٦].

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾[الطارق: ١٧]: مهلهم، واتركهم، واعطهم وانتظر حالهم ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾[الطارق: ١٧]: أي اعطيهم الوقت والفرصة واستدرجهم رويدًا: أي شيئًا فشيئا، شيئًا قليلًا مثل ما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فما يدري هذا الكائد للإسلام إلا وقد مكر الله به وأبطل كيده، وهذه سُنة الله في أعدائه، لو تتأمل معي خاتمة السورة في بيان هذا القرآن وعظمته وأن ما فيه من أخبار في هذه السورة هي في هذا القرآن، وأنظروا إِلَىٰ خاتمة السورة موقف أعداء الإسلام وأرجع إِلَىٰ السورة التي قبلها، الله عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴾[البروج: ١٩]، والتي قبلها الانشقاق ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴾[الانشقاق: ٢٢-٢٣]، فتجد هذه الأشياء تتكرر معنا

بيان حقائق يذكرها الله وأخبار يُبين لك مصدرها أنه القرآن العظيم ويثني على كتابه

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾[الطارق: ١٣-١٤]، ثُمَّ يُبين لك موقف هؤلاء الأعداء في تكذيبهم، وردهم لهذه الرسالة، وكيدهم، ولكن الله من ورائهم محيط هذه السورة العظيمة الجليلة وقفنا معها تدبرنا آياتها، فهمناها ولله الحمد، وهذه نعمة وفضل أن تستشعر هذه الآيات وتقف معها وتتأملها، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعل ما قُلناه وما سمعناه في موازين حسناتنا.

وأن يجعلنا وإياكم ممن يستمع القول فيتبع أحسنه والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الأَعْلَى)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الأعلى ١ - ٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَمَّا بَعْدُ **أيها الإخوة الكرام**؛

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هٰذَا اليوم المبارك، هٰذَا اليوم هو اليوم السادس والعشرون من شهر جمادى الأولى من عام ١٤٤٤ من الهجرة، مجلسنا المعتاد الأسبوعي في تدبر القرآن والوقوف مع آياته، السورة التي بين أيدينا في هٰذَا اليوم هي سورة من سور القرآن يحفظها الكثير ولله الحمد، ولكن في الحقيقة، نحن في مثل هٰذِه المجالس لا نعرض السورة عرضًا هكذا، وإنما نقف مع السورة، نتأملها ونتدبرها ونفهم مراد الله سبحانه وتعالى منها.

الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن للتدبر، للتَّأَمُّلِ، للتفكر في آياته، الوقوف مع إعجازه، نزل القرآن معجزًا، الله سبحانه وتعالى تحدى العرب وتحدى الناس جميعًا، وتحدى الإنس والجن عَلَىٰ أن يأتوا بمثل هٰذَا القرآن ولن يستطيعوا، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هٰذَا القرآن ما استطاعوا عَلَىٰ أن يأتوا، بل تحداهم أن يأتوا بعشر سور مفتريات ومع ذلك ما استطاعوا، وتحداهم أن يأتوا بسورة واحدة ومع ذلك عجزوا أن يأتوا ولا بسورة واحدة ولا بحديث، ولا بأقصر سورة، ولذلك ينبغي لكل مسلم إذا مر أو قرأ مثل هٰذِه السور وغيرها أن يقف ويتأمل ويتفكر، السورة واحدة هي كيان مستقل، له مبدأه وله نهايته، كل سورة لها افتتاحية، لها خاتمة، لها موضوع، تتحدث عن شيء، تحرك النفوس، تحرك القلوب، ليست هكذا تنزل، وإنما هٰذَا الذي يجب علينا.

السورة التي بين أيدينا هي سورة الأعلى، لها عدة مسميات، تُسمى بسورة الأعلى، وتُسمى بسورة "سبح اسم ربك الأعلى"، وتُسمى بسورة "سبح"، كما ورد كل هٰذَا في أقوال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، أنهم قالوا إنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرأ بسورة "سبح"، ومرّة يقول: يقرأ بسورة "الأعلى"، ومرّة يقول: يقرأ بسورة "سبح اسم ربك الأعلى"، إذًا لها مسميات، دائمًا أيها الإخوان إِذَا وجدت سورة لها عدة أسماء يدل عَلَىٰ أيش؟ يدل على مكانتها وعظمتها، سورة الفاتحة أعظم سورة في كتاب الله، كم لها من اسم؟ ذكر

الحافظ السيوطي أن لها خمسةً وعشرين اسمًا، وهٰذَا يدل على عظمة...، الشيء كلما تعددت أسمائه وصفاته يدلّ على عظمته.

الله عَزَّ وَجَلَّ كم أسماءه؟ وكم صفاته؟ القرآن كم أسماءه؟ كم صفاته؟ النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كم أسماءه؟ كم صفاته؟ كلما تتعدد الأسماء والصفات تدل على عظمة الشيء، سورة الأعلى لها هٰذِه الأسماء، طيب، نأخذها شيئًا فشيئًا، هٰذِه أسماءها، طيب أين نزلت؟ في أي مكان؟ نقول: نزلت بمكة، بل هي من أوائل ما نزل بمكة، الذي يقرأها ويتأملها يعرف أنها من أوائل ما نزل، حتى قَالَ بعض الصحابة أنها هي ثامن سورة نزلت في القرآن، يعني نزل قبلها سبع سور وهي الثامنة.

هي أيضًا من السور التي نقلها الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم إلى المدينة، لما هاجر الصحابة كان من أول ما نُقل إلى المدينة سورة الأعلى، حَتَّىٰ فرحا، قَالَ بعض الأنصار: ففرحنا بها فرحًا شديدًا، انظر كيف كان تعظيم القرآن عندهم! فرحنا بها فرحًا شديدًا، قُرأت عليهم سورة الأعلى، مكانها، وأسماءها، وأيضًا أنها نُقلت، أنها من أوائل ما نزل، هي السورة الثامنة، إذا تعرفت على هٰذِه الأشياء، تدل على عظمة هٰذِه السورة، أنت تعظّم السورة، تعظمها بالتعرف عليها، تريد أن تتعرف على أي شخص على إنسان قبل ذلك تتعرف على هٰذَا الشخص ثم تقابله، قبل ما أن تدخل في السورة لا بد أن تعرفها.

السورة ورد في فضائلها أن النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرؤها في صلاة الجمعة، يقرأها في الركعة الأولى في صلاة الجمعة، وفي الركعة الثانية سورة الغاشية، ويقرأها أيضًا في صلاة العيدين: "بسبح" و"الغاشية"، أيضًا من فضائلها أنها تُقرأ في صلاة الوتر (الشفع والوتر)، إذا أردت أن تختم صلاة الليل، تختمها بالشفع والوتر، فتقرأ في الركعة الأولى: "سبح"، وفي الثانية: "الكافرون"، وفي ركعة الوتر سورة الإخلاص، هٰذِه سنة.

أيضًا من سننها وفضائلها أن النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرشد معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما يعني أرشده أن يقرأ في صلاة العشاء، قال: «اقرأ بسورة "سبح" و"الطارق" و"الليل" و"الشمس"»، فعدَّ هٰذِه السورة من السور التي تُقرأ في صلاة العشاء، فقراءتها في صلاة العشاء سنة، سنها النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هٰذِه السورة إِذَا نظرت وتأملت فيها وجدتها تتحدث عن عدة أمور مهمة، من هٰذِه الأمور والعناصر التي تتعرض لها السورة والموضوعات التي تعرضت لها السورة.

أولًا: تعظيم الله سبحانه وتعالى: بافتتاحيتها: ما من سورة افتُتحت بـ "سبح" إلا هي، عندنا سور افتتحت بـ "سبح لله"، سورة الحديد، سورة الحشر، سورة الصف: "سبح لله"،

وفي سور افتتحت بـ "يسبح" (فعل المضارع) مثل سورة الجمعة وسورة التغابن: "يسبح لله"، وهٰذِه السورة بصيغة الأمر: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وفي السورة افتُتحت بالمصدر: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، هٰذِه التسابيح، إذًا السورة افتتاحيتها وآياتها الأولى تتحدث عن تعظيم الله وإجلاله وتقديسه، وتمجيده، آيات وبيان أفعاله في خلقه وحكمه في تدبيره وتصرفه في الكون.

ثم بعد ذلك تأتي البشارة للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، البشارة للرسول؛ لأنه في أوائل نزول القرآن، السورة الثامنة تأتي تبشر الرسول، تبشره بماذا؟ تبشره بهٰذَا القرآن العظيم، تظن أن القرآن يعني هو أي كتاب؟ لا، القرآن كتاب عظيم، أعظم كتاب وأشرف كتاب أنزله الله، القرآن العظيم، القرآن هو حبل الله المتين، فيه خبر من قبلنا وحكم ما بيننا، فيه نبأ ما قبلنا وحكم ما بيننا وخبر ما بعدنا، يقول ابن مسعود في القرآن: "عليكم بالقرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين"، ما من علم إلا تجده إلا في القرآن الكريم، فالله عظم القرآن مخاطبًا محمدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المُنزل عليه القرآن، قَالَ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧]، هٰذِه بشارة للرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الله عَزَّ وَجَلَّ سيقرئه القرآن كله ولا ينساه: بمعنى أنه سيثبته في قلبه، يقرئه القرآن بطريق الوحي جبريل عليه السلام ويثبته في صدره، فَهٰذِه بشارة عظيمة.

والبشارة الثَّانِية ما هي؟ قَالَ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: ٨] أي أنك ستكون شريعتك يسيرة وسهلة، وأنت يسير وسهل في تعاملك مع أصحابك، وأصحابك أيضًا، كما قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»، فأصل الدين سمح، الدين يسير، وصاحب الدين محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمحٌ يسير، وأصحابه وأتباع هٰذَا الدين إلى قيام الساعة من أسمح الناس وأيسرهم في التعامل، لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: ٨]، فلما اشتروا بهٰذِه البشارات أمره بالتذكير، وإن كان هٰذَا الأمر موجهًا للرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلا أنه لكل إنسان عنده القدرة أن يتولى هٰذَا الأمر.

﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩]، فهٰذِه السورة موضوعها تتحدث عن تمجيد الله سبحانه وتعالى، وعن البشارات التي وُجهت للرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبيان موقف الناس من هٰذِه الدعوة،

من قوس الناس من هٰذِه الدعوة، سيتذكر من يخشى ويتجنبه الأشقى، ثم بعد ذلك يبين الله سبحانه وتعالى من تذكر وخشي ربه، أنه سبحانه وتعالى جعله من المفلحين، وأنه قد تزكى وأفلح ونجى وسلِم وذكر اسم ربه، ثم ختم الله هٰذِه السورة بأي شيء؟ بأن كل ما ذُكر فيها ليس جديدًا، وإنما كان متقررًا في الكتب السماوية الماضية كما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قَالَ: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩]: الصحف التي أُنزلت على إبراهيم، والصحف التي أُنزلت على موسى، وغيرهم ممن ذُكروا من الكتب المنزلة الماضية، أن هٰذَا الذي يذكره الله سبحانه وتعالى في هٰذِه السورة هو شيء مذكورٌ في الكتب السماوية الماضية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى.

لما تسمع أنت أن هٰذَا الكلام الذي موجود هنا الآن في الكتب السماوية، ما لذي يدل عليه؟ يدل على عظمة هٰذَا الكلام الذي يُكرر في الكتب، والله عَزَّ وَجَلَّ ينزله في كتب ماضية، ثُمَّ يقرره في هٰذِه الشريعة، يدل على عظمة هٰذَا الشيء، يدل على عظمته، ليس أي كلام وإنما كلام عظيم، إذًا السورة، يمكن الكثير منا يقرؤها كل ليلة في صلاة الوتر، أو يقرؤها في صلاة الفريضة، أو يقرؤها في غير الفريضة، لكن هل تصورنا حقيقة، يعني لما نعيش مع القرآن، هل تصورنا هٰذِه الأشياء؟ ولا مجرد فقط، قراءة، وبعدين يمكن تقرأ أنت من أول القرآن وتختم كل ثلاث أيام، وأنا أعرف أناس يختمون كل ثلاثة أيام، ومنهم من يختم كل خمسة وسبعة وعشرة وشهر، لكن ليس القرآن يعني مجرد قراءة، القرآن تدبر وتفكر وتعيش معه حياة أخرى.

والسنة في ختم القرآن أن يُختم القرآن في كل سبعة أيام، هٰذِه السنة، وإن ختم دون السبعة إلى الثلاثة جائز، ما دون الثلاثة هٰذَا لم يُشرع إلا في المناسبات، مثل ماذا؟ مثل أيام رمضان، العشر الأواخر، عشر ذي الحجة، هٰذِه مناسبات يشد الإنسان فيها، ورد عن الصحابة كانوا يختمون كل ليلة، كانوا يختمون كل يوم وكل ليلة، جاء عن تميم الداري وعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن بعض الصحابة أنهم يختمون كل ليلة في المواسم، في المواسم الأمر ينبغي للإنسان أن يشد فيها، لكن في أيامه العادية يختم كل أسبوع، ورد عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يختم كل جمعة، كل جمعة يختم، وإن ختم كل ثلاثة أيام لا بأس، بل هو مشروع وجائز وارد، أو خمسة أيام.

وإن ختم كل أسبوعين أو إلى شهر، لكن كره أهل العلم أن يمضي على الإنسان أربعون يومًا لم يختم فيه ختمة واحدة، بل جعلوا ذلك من هجران القرآن، كيف يمر عليك أربعين يوم ما تختم ولا ختمة واحدة؟ جعلوا ذلك من هجران القرآن الكريم.

السورة حقيقة يعني تتعجب أحيانًا، يعني لو تعيش معها ساعات طويلة، والله ما تكفي،

ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاش أو مضى ثمان سنوات في سورة البقرة، ثمان سنوات وهو يتأمل ويتدبر سورة البقرة، ثمان سنوات ليست كثيرة عَلَى البقرة، شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّة أَلَّف كتاب كامل في تفسير سورة الإخلاص، مجلد كامل في سورة الإخلاص، سطر واحد، سورة الإخلاص سطر واحد أَلَّف فيه كتاب، فليس بالعجب أن يمضي وقتك أو تعيش مع القرآن الكريم.

كلمة "سبح" هذه، "سبح" ما معناها؟ "سبح" فعل أمر، الله أمرك، يأمر نبيه ويأمر كل مخاطب: "سبح" ما معنى "سبح"، ﴿سَبِّحِ اسْمَ﴾ [الأعلى: ١]، التسبيح: هو التنزيه والتعظيم والإجلال لله، يعني جَلَّل وعظَّم ونزه الله عن صفات النقص، يقول هنا: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، الإنسان الآن يسبح الله ولا يسبح اسمه، والآية ماذا تقول؟ تقول: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١]، في آيات أخرى يسبحون الله، تسبيح الله، ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، في آيات أخرى قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ فيها: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١]، "يسبح لله"، "سبح لله".

هنا قَالَ: ﴿سَبِّحِ اسْمَ﴾ [الأعلى: ١]، أدخل الاسم، ليش؟ الاسم معروف، اسم الله، الله اسمه الله، والرحمن، والإله، والعزيز، والحكيم، أسمائه كثيرة، كيف نسبحها؟

قَالَ أهل التفسير: معنى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]: أي سبِّح الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه الحسنى، يعني عظِّم الله بأسمائه، كما أن المشركين يعظمون آلهتهم فيسمونها باللات والعزى، ويأخذون أسماء الله؛ لأن "اللات" مأخوذة من "الإله"، و"العزى" من العزيز، فكما أنهم يعظمون، يا مُحَمَّد عظم ربك وجلله بأسمائه الحسنى، وارفع بأسمائه، وادعُ بأسمائه، فأنت تقول: يا الله، يا عزيز، يا رحيم، يا غفور، هٰذَا معناه، التسبيح: تنزيهه عن أن يصفه الواصفون بصفات النقص، فأنت تعظمه، هٰذَا من وجه.

ومن وجهٍ آخر، قَالَ: "اسم"؛ لأن تعظيم الله قد يكون تعظيم بالقلب، وقد يكون تعظيم باللسان، وهٰذَا نصٌ على أن التعظيم يكون باللسان، تقول: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]: أي بلسانك، تسبحه بلسانك، تعظمه بلسانك، كما أنك تعظم الله عَزَّ وَجَلَّ بقلبك بإقرارك بوحدانيته وعظمته، كذلك بلسانك تردد وتقول: "سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله وبحمده"، وهكذا، هٰذَا التعظيم، ولذلك لما نزلت هٰذِه الآية قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ»، في السجود تقول: "سبحان ربي الأعلى"، ولما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٩٦]، قال: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ»، "سبحان ربي العظيم" في الركوع، هٰذَا معنى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

لماذا قَالَ "ربك"؟ لماذا لم يقل "سبح اسم الله"؟ لماذا اختار "ربك"؟ هٰذَا لبيان أو للرد على المشركين أن الذي أوحى هٰذَا القرآن هو ربه، والذي أعطاه القرآن هو رب العالمين، لا كما يزعم هؤلاء المشركون أنهم يقولون إن محمدًا تلقى القرآن من بشر، إِنَّمَا أخذه من بشر. وأنه افتراه، وأنه يُملَى عليه بكرةً وأصيلا، قَالَ: لا، ربك الذي أوحى إليك القرآن، سبحه وعظمه، اختار اسم "الأعلى"، ما قال: "سبح اسم ربك العزيز" ولا "الرحيم"، قَالَ "الأعلى"، ليش؟ دائمًا، إِذَا مريت مثل هٰذِه الوقفات، هٰذِه الكلمات ينبغي أن تقف عندها، يعني ما ذُكرت هكذا عبثًا، ذُكرت لحكمة، لما اختار الله اسم "الأعلى"؟ اختاره عن حكمة، ليس هكذا عشوائيّ، لا، اختار ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، تعظيمًا لله سبحانه؛ لأنه الأعلى فوق سبع سماوات.

والعلو: علو الذات، علو المكان، علو المكانة، أعلى عن كل شيء سبحانه وتعالى، ردًّا على المشركين الذين لم يعرفوا عظمة الله، لم يعرفوا عظمة الله فجاء القرآن يرد عليهم، ثم بعد ذلك تأتي صفات لله وأفعال، من هو الأعلى؟ من هو الذي عليك أن تسبحه وتُعظِّمه؟ من هو؟ قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]، نأخذ بعض الآيات ونقف، لكن؛ لأنها مرتبطة لازم نقف معها حتى نكمل، قال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]، خلق ماذا؟ خلق الخلق كله: خلق السماوات، خلق الأرض، خلق ما بينهما، خلق ما فيهن، خلق الإنسان، خلق الحيوان، خلق الطير، خلق الجبال، ما تنتهي، في عد مخلوقاته، خلق، ولكن خلقه خلقٌ حكيم، ولذلك ماذا قال؟ قال: ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]، كيف سَوَّى؟ يعني جاء خلقه في أحسن شيء، لما تنظر إلى الجبال، حسنة وجميلة، تنظر إلى الأرض، تنظر إلى الأشجار، تنظر إلى

الربيع، تنظر إلى الماء والغدير، تنظر إلى البحار، تنظر إلى السماء، ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]، حتى الإنسان، انظر في نفسك، ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]: العينين جميلتان، الأنف، الفم، الأسنان، يعني خلق عظيم، حتى في الحيوانات، يعني لو وقفنا مع كلمة ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢] ما تنتهي هٰذِه الكلمة، والله هو الذي خلق الخلق وأوجده من العدم، ولكنه خلقه بحكمة، وخلقه بصورةٍ حسنة، ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٧-٨]، شيء جميل حسن.

لو أن هٰذَا الإنسان الذي خلقه الله إحدى يديه أطول من الأخرى، أو إحدى عينيه أكبر من الأخرى، أو إحدى أذنيه أطول من الأخرى، لوجدت أنه يختلف في شخص آخر خلقته مستوية، فالخلق خلق مستوي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]، لما خلق الخلق ما تركهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ما خلقهم وتركهم حتى الحيوانات، قال: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣]، قدر الأقدار، لما يخلق، يخلق بقدر، بحكمة، ويهدي هٰذَا المخلوق لما خُلق له، قَالَ موسى عليه السلام في مخاطبته لفرعون: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، كل شيء، فخلق الإنسان وهداه لمعيشته، وهداه كيف يأكل، كيف يشرب، كيف يتكلم، كيف يسمع، كيف ينظر، كيف يفكر، فخلق الله عَزَّ وَجَلَّ هٰذَا الخلق، وقدره تقديرًا دقيقًا وهداه، وهٰذَا حتى في الحيوانات، هدى الإبل لما خُلقت له، تعرف كيف تعيش، كيف تنام، كيف تأكل، تعرف صاحبها.

البقر خلقها وجعل فيها هٰذَا الحليب، تعرف كيف تنتج الحليب، هي تعرف كيف تنتج الحليب، تبحث عن المراعي، خلق سبحانه وتعالى وقدر فهدى، هداها لما فيه مصلحتها، خذ من الأمثلة والكثير، النحل خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما خلقها هداها، هداها كيف تأخذ من الزهور، وكيف تصنع هٰذِه البيوت العجيبة، وخذ، العنكبوت، الزواحف، الحشرات، عالم البحار، خلقها الله، وقدرها، وقدر خلقها، وهداها لحياتها، تعرف كيف تأكل وتشرب وتتناسل، كل هٰذِه بحكمة الله سبحانه وتعالى ...خلق، قدر فهدى.

قَالَ لما....، انظر كيف الترتيب العجيب، خلق، الخلق جميل، ثم تقدير وهداية، ثم لم يتركهم عبثًا، أخرج لهم المرعى، أخرج لهم النبات على الأرض، وهٰذَا النبات لا يبقى في حكمة الله، مدةً من الزمن وينتهي، ولذلك قَالَ: ﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ [الأعلى: ٤]: أي من الأرض، ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى:

٥]: يعني مدة يسيرة ثم ينتهي، جعله غثاءً أحوى، أي جعله متكسرًا، متهشمًا، أسود، فمعنى أحوى: شديد السواد، فأنت تنظر إلى الربيع وإلى الرياض والخضرة، ثم بعد زمن تمر عليها فإذا هي متكسرة، متهشمة، وإذا وقع عليها شيء من الماء تكسرت واسودَّت، هٰذَا ﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ٥]، فالذي خلق وأوجد النبات والزرع ثم أماته وقضى عليه خلق هٰذَا الإنسان ثم أماته، ثم يبعثه، ثم يجازيه، هٰذَا المقصد.

بهذا التعظيم الجليل لله سبحانه وتعالى في خلقه وأفعاله وصفاته، تنتقل الآيات إلى ماذا؟ إلى هٰذِه البشارات الموجهة لنبينا مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يأتي الحديث عنها إِنْ شَاءَ اللهُ في اللقاء القادم بِإِذْنِ اللهِ، نستكمل فيها هٰذِه البشارات، وإن شاء الله نسأل الله التوفيق والإعانة، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وجزاكم الله خير على حضوركم وإنصاتكم، وبارك الله فينا وفيكم جميعًا، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نَبِيِّنَا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ.

(الأعلى ٥ - ١٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الأخوة الكرام حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا اليوم وهو اليوم الثالث من شهر جمادى الآخرة من عام أربعة وأربعين وأربع مئة وألف من الهجرة، نجتمع في هذا المقام المبارك مع تفسير القرآن العظيم.

حديثنا في اللقاء الماضي كان حول سورة الأعلى، وقلنا إن هذه السورة هي من أوائل ما نزل بمكة، بل هي السورة الثامنة في النزول، وإذا تعرفت على نزول السورة عرفت عمّا تتحدث عنها؛ لأن أول البعثة أو وسط البعثة أو قبل الهجرة أو بعد الهجرة تختلف الآيات وحديث القرآن، ولذلك تعرف عمّا تتحدث هذه السورة، ونحن تحدثنا في لقائنا الماضي أن هذه السورة من أوائل ما نزل، وأن ورد في فضائلها أنها تُقرأ في صلاة الجمعة مع سورة الغاشية، وفي صلاة العيدين، وأيضًا تُقرأ في صلاة الشفع والوتر مع سورة الكافرون، وفي الوتر في سورة الإخلاص.

هذه السورة وحديثها هي تتحدث في بدايتها عن أمر النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأمة داخلة في ذلك، كل مخاطب، أنا وأنت والآخر، كلنا مخاطبون بأن يُؤمر كل إنسان منا أن يعظّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن ينزهه حق التنزيه، ولذلك افتتحها الله بقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وهو أمر بالتسبيح وتعظيم الله وتعظيم أسمائه وأفعاله، ولذلك ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شيئًا من أفعاله المحمودة العظيمة الجليلة في هذا الكون فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢]: خلق الخلق فسوّاه على أحسن صورة، وأجمل صورة، وأبهى صورة، خلق فسوّى ثم قدّر المقادير كلها بحكمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهدى من هدى، فهدى الخلق لما خُلق له. ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ [الأعلى: ٤].

خلق الله الخلق ولم يتركهم بل رزقهم، خلقهم ثم رزقهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه كلها أفعال لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ﴿أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ٤-٥].

أخرجه على أحسن هيئة وأجمل صورة وأحسن لون وأحسن رائحة، ثم بعد ذلك بلحظة جعله غثاءً أحوى، يابسًا متكسرًا، أحوى: أي أسود، قد اسود بعد فترة، كل هذا يدل على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

الذي أحيا الأرض ثم أماتها، فهو قادر على إحياء الناس بعد موتهم، هذا هو المقصد، لما بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عظمته وأفعاله في هذا الكون جاء ببشارتين عظيمتين لنبينا مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

البشارة الأولى: القرآن الكريم، وما أدراك ما القرآن؟ تعظيمًا لهذا القرآن وإجلالًا له، فقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦]: أي أبشر بهذا القرآن الذي سيثبت في صدرك وفي صدر أمتك برجال هذه الأمة ممن يحملون هذا القرآن العظيم، ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦]: فسيثبت القرآن في...، ففرح النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذه البشارة العظيمة لما سمع هذا الكلام من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعلى: ٦-٧]، ما شاء الله أن يُنسِيه، فإنه يُنسيه، يُنسيه ماذا؟ يُنسيه ما شاء أن يُنسيه من الآيات التي نسخها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما في قوله تَعَالَىٰ: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، يُنسيها من الصدور فيبدلها بخير منها.

﴿فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ [الأعلى: ٦-٧]. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تعظيمًا لله عَزَّ وَجَلَّ أنه لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد، ومن أصواتهم وأعمالهم، جهروا بها بأصواتهم أو أظهروها أمام الناس أو أخفوها، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعلم الجهر وما يخفى، لما بيّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بشارته في القرآن، زاده بشارةً أخرى، بأي شيء؟ بهذه الشريعة السمحة، بأن يسّر الله له هذه الشريعة، وجعلها شريعةً يسيرةً سمحة، فقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ [الأعلى: ٨]، فما من أمرٍ شاق يأتي في هذه الشريعة إلا وتجد له طريقًا لليسرى، ولا يمكن أن يأتي، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦]، ما قَالَ: "إن بعد العسر"، قَالَ "مع العسر"، يعني العسر إذا جاء اليسر معه مباشرة، معه، فلا يمكن أن يغلب العسر يسرين ما يمكن، فالعسر ما يمكن، ولذلك يسّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبينا مُحَمَّد، ولنا أتباع مُحَمَّد، هذه الشريعة اليسيرة التي سهلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذا لم تجد الماء وتريد أن تصلي، ، تصلي بالطهور، تصلي بالتيمم، إذا لم تعرف القبلة تجتهد وتصلي، إذا لم تجد مكانًا تصلي على الأرض، «جُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا».

فشريعةٌ سهلةٌ سمحة، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما بشّر نبيه بهاتين البشارتين، دعاه إلى أن يقوم بهذه الدعوة، قال: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩]، وفي آيةٍ أخرى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، يذكر الإنسان ويدعو إلى الله حسب قدرته، النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاطب بهذا، وكل من

يُخاطب أيضًا داخل في هذا، فأنا وأنت والثالث نذكر بدعوة الله، ونذكر بما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على قدر استطاعة كل إنسان.

والمُخاطب الذي أمامك وأنت تُذكره تُذكر كل إنسان، والداعية يذكر الناس أمامه عَلَىٰ نوعين، كما ذكر الله سبحانه، فقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠]، هذا المنتفع بالدعوة، من تدعوه إلى الإسلام أو من تدعوه إِلَىٰ التذكير ينتفع بهذه الذكرى.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١١-١٢].

الأشقى يتجنبها، فكان الناس أمام هذه الدعوة إما هاديًا مهتدٍ سعيد في الدنيا والآخرة، وإما ضالٌ شقي لا ينتفع، ولذلك قال: ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩]، فإذا علمت أن الذكرى لا تنفع، فما الفائدة من الدعوة؟ الدعوة تدعوا أنت وتجتهد، فإذا تيقنت أن هذا المدعو أمامك لا تنفعه الدعوة فلا فائدة لدعوته، قال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١١]، هذا الشقي يتجنب الدعوة ولا يسلك طريقها، فطريقه في الآخرة كما قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قَالَ: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: ١٢]، نار الله الموقدة، يصلى، هذا طريقه إِلَىٰ.....، طريق الشقي إلى الشقاوة، وطريق السعيد إلى السعادة، فقال: ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: ١٢]، وهذه النار إذا وصلها ودخلها، وأُصليَّ فيها وذاق حرها فإنه لا يموت فيها ولا يحيى، لا يموت فيستريح ولا يحيى حياةً مستقرة: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [الأعلى: ١٣].

لما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن من تزكى وانتفع وتذكر ونفعه ذلك، أثنى الله عليه ودله على الخير وفتح له باب الخير، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤]، من زكى نفسه طهرها، طهر أخلاقه، طهر أعماله بالأعمال الصالحة، وسلك طريق النجاة، فقد أفلح: أي فاز في الدنيا والآخرة، وسلم من عقوبة الدنيا والآخرة، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، هذا حال المتزكي، حال المتطهر بالطاعات، أنه دائمًا في ذكر لربه وصلاةٍ لربه، شغله الشاغل وعمله الذكر، قراءة القرآن، الصلاة، هذا كما قَالَ سُبْحَانَهُ، قَالَ: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٥].

ولكن إذا تأملت في حال الناس، حتى المطيعين وحتى الأشقياء، آثروا الدنيا على الآخرة، من وُفق أن يعلم عِلم اليقين أن الآخرة هي دار القرار، وأنها هي التي يسعى لها كل إنسان، ويرجوها كل إنسان، لما آثر

الحياة الدنيا على الآخرة، ولذلك قَالَ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ [الأعلى: ١٦]، أيها الأشقياء وأيها أهل الدنيا، ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦]، والآخرة في الحقيقة هي الخير، ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧]، هذه الأخبار التي نسمعها من تنزيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قول الله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وتعظيمه وذكر أفعاله العظيمة وبشارته لمحمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ببشارتين، بأنه يقرئه القرآن فلا ينساه، وبأن يعطيه الشريعة السمحة السهلة، وبيان طريق أهل الخير وأهل السعادة وأهل الشقاء والضلالة، هذه الأخبار من أين تأتينا؟ تأتينا بالوحي، وقد أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونوه بشأنها في الكتب السابقة.

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: إن هذا الذي تسمعونه في هذه السورة العظيمة، إن هذا الذي لفي الصحف الأولى، هذه الصحف هي صحف إبراهيم التي أُنزلت عَلَىٰ إبراهيم، وصحف موسى التي أُنزلت عليه، عَلَىٰ موسى، فذكر نبيين عظيمين جليلين، أحدهما خليل الله، والآخر كليم الله، أنزل عليهم صحفًا ذُكرت ونوهت فيها أمة مُحَمَّد ومحمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشريعة مُحَمَّد، وما فيها من طريق الخير والسعادة والنجاة والسلامة، هذه هي السورة العظيمة التي وقفنا معها، تأملناها، عشنا معها، تدبرنا آياتها.

أسأل الله أن ينفعنا بها، وأن يبارك لنا ولكم بالقرآن، وأن يجعله ربيع قلوبنا وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم على نَبِيِّنَا محمد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الغَاشِيَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الغاشية ١ - ١٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا المجلس المبارك، مجلس القرآن والتفسير والتدبر، لا زلنا في هذا الجزء الأخير من القرآن الكريم، وهو جزء "عَمّ"، ومثل ما ذكرنا في لقاءات ماضية، أن هذا الجزء حقيقة يركز على قضية أو قضية عقدية مهمة، وهي قضية الإيمان، الإيمان بالبعث والجزاء، والجنة والنار، وأن الله يبعث من في القبور ويجازي عباده المحسن بإحسانه والمسيء على إساءته، ومصير كل إنسان إلى جنة أو نار، لو تقرأ من هذا الجزء من أوله، من سورة النبأ إلى آخره، تجده كله على هذا النمط وعلى التركيز على قضية عقيدة المؤمن: الإيمان بالبعث والجزاء والدار الآخرة وكل ما يشمل هذه الدار.

واليوم الآخر يبدأ بخروج الإنسان من هذه الدنيا، من مات قامت قيامته وبدأت مرحلة اليوم الآخر في عالم البرزخ في قبره، في عرصات يوم القيامة، وفي مصيره الأخير: إما من السعداء في جنات النعيم، أو من الأشقياء في نار جهنم، هذه العقيدة التي يعتقدها كل مسلم ولا يشك فيها، المشركون والكفار عند بعثة النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا ينكرون هذا اليوم ولا يعترفون به، ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، ما كانوا يعترفون به، وكانوا ينكرونه إنكارًا عظيمًا، تأتي السور القرآنية في هذا الجزء تركّز على هذه القضية حتى تزرع في كل قلب مؤمن قضية الإيمان باليوم الآخر؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو أقوى باعث على انضباط المؤمن في حياته، في سلوكه، في تعامله مع ربه، في تعامله مع نفسه، وفي تعامله مع غيره من الناس،

تضبط الإنسان؛ إذا عرفت أنك ستُبعث، ستُجازى، ستُحاسب، يجعلك تنضبط في حياتك، الذين لا يؤمنون باليوم الآخر أو لا يعتقدون اعتقادًا جازمًا أو ينسون هذا اليوم، وإن كان في أنفسهم الإيمان بهذا اليوم، ولكن لا يعني ينسون مع هذه الحياة، ويغفلون عنه، لا يبالون بحقوق الله، ولا يبالون بحقوق الناس، تأتي السور تركز على هذه القضية، السورة التي بين أيدينا ونتناولها إن شاء الله هي سورة سُمِّيت باسم من أسماء يوم القيامة، تركز على هذه القضية، وأنت تقرأ في هذا الجزء تجد أيضًا بعض السور، هذه

السور تسمى بهذا اليوم: القارعة، وهذه السورة التي بين أيدينا سورة الغاشية، والقارعة، وتجد في ثنايا السور حديث عنها، سورة النبأ يقول الله عَزَّ وَجَلَّ فيها: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ [النبأ: ١٧]، فيعرض لك ما يجري في هذا اليوم، تذهب إلى النازعات: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٣٤]، تذهب إلى عبس: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، وهكذا تمشي، ثم تلاحظ أن هذه السور لما تنظر فيها ككل تجد كل سورة تعطيك مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، النبأ تعطيك مشهد، النازعات تعطيك مشهد، وهكذا في سورة الانشقاق، تعطيك مشهد مَاذَا؟ تطاير الصحف: فآخذٌ صحيفته بيمينه وآخذٌ صحيفته بشماله من وراء ظهره، وهكذا، تجد كل سورة تعطيك، القارعة تعطيك سورة ماذا؟ تعطيك مشهد الموازين.

هذه السورة التي بين أيدينا تعطيك مشهد وجوه الناس يوم القيامة إما خاشعة ذليلة، حقيرة، وإما ناعمة منعّمة، تعطيك مصير هؤلاء في جنات النعيم، ما الذي يجدونه في جنات النعيم، وما الذي أعد الله لهم، كما في الحديث: «أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، كل هذا يقيظ في نفسك قضية الإيمان باليوم الآخر، يعرض الله لك مصير هؤلاء الأشقياء: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ....﴾ [الغاشية: ٢-٥]، فيعطيك مشاهد، كل هٰذِه؛ لأن لماذا السور القرآنية تعطيك مثل هذه المشاهد؟ لماذا؟ لأن اليوم الآخر، القيامة يوم طويل، ﴿كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، يوم كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقداره خمسين ألف سنة، والجنة والنار لا تنقضي ولا تنتهي ولا تفنى، ولذلك يعطيك الله صور مرة هنا، مرة هذه الحالة، مرة هذه الحالة.

السورة، سورة الغاشية، أولًا نعرف أن من فضائلها وخصائصها: أن النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقرؤها في صلاة العيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى، يقرؤها في الركعة الثانية وقبلها سورة "سبِّح"، وكذلك كان يقرؤها في صلاة الجمعة في الركعة الثانية وقبلها سورة "سبِّح"، يدل على أي شيء؟ يدل على أن هاتين السورتين متشابهتان، بينهما تشابه كبير،

ثم إن مثل هذه المجامع كثيرة، يعني يوم المجامع العظيمة هذه: يوم العيدين أو يوم العيد، ويوم الجمعة يشهده أعداد كبيرة، فتأتي هذه السور تذكرهم، بحال السعداء، بحال الأشقياء، وتذكرهم بأن هذه

الدعوة التي جاءتهم دعوة التذكير والوعظ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى: ٩]، كلها تحث على هذا الشيء.

سورة الغاشية افتتحها الله بالاستفهام: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، وهذا الاستفهام يفيد ماذا؟ يفيد التشويق: هل أتاك؟ ولا ما أتاك؟ النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ يومًا من الأيام على امرأة وهي تقرأ: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، فسمعها النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**نعم، أتاني حديث الغاشية**».

هذا الأسلوب عند العرب يُسمَّى أسلوب تشويق، تشتاق له النفس؛ لأنك تنتظر الآن أنت ما بعده، لما أقول لك: "هل رأيت فلان؟ هل رأيته؟" أو "هل رأيت هذا المشهد؟"، فأنت تقول: "نعم، رأيته" أو تقول: "لم أره"، تشتاق النفس إلى رؤيته، ولذلك هذا الأسلوب، يقول: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، يعني خبر هذا اليوم، الغاشية: اسم من أسماء يوم القيامة، سُمِّيَت يوم القيامة بالغاشية؛ لأنها تغشى الناس بأهوالها وشدائدها، فيُصيب الناس ما يُصيبهم من الأهوال، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، فلذلك سُمِّيَت باسم الغاشية؛ لأنها تغشى الناس بأهوالها وشدائدها.

ثم بيَّن الله لك الناس أنهم على قسمين:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢]، وهذه وجوه الأشقياء، نسأل الله العفو والعافية، وأن الله يجنِّبنا طرق هؤلاء الأشقياء ومسالكهم، قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢]، ذليلة، حقيرة، مهانة يوم القيامة، خاشعةً وجوههم، ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ [القلم: ٤٣]، هؤلاء هم حال الأشقياء، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢]، قال: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣]: أي أنها يوم القيامة تشتد عليها الأهوال فتعمل ممن يُصيبها من الآلام ويصيبها من العذاب، فتجد الأغلال في أعناقهم والسلاسل يُسحبون، فهذا عملهم في الآخرة، يجدونه بمشقة وصعوبة، ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣]: أي متعبة، هذا المعنى هو الذي عليه أكثر المفسرين، وبعضهم يقول أن "عاملة ناصبة" أنها تعمل في الدنيا، تتعب نفسها، تجد من أهل الضلال، من يعمل في الدنيا، سواءً يعمل للآخرة أو يعمل لدنياه، تعمل في هذه الدنيا، وأهل البدع يعملون ويشتغلون، ثم يوم القيامة لا يجدون لهذا العمل أي أثر، لكن الذي يظهر أن

قوله: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣]، يوم القيامة، لماذا؟ لأن الله قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ [الغاشية: ٢]، فَيَوْمِئِذٍ: هو يوم القيامة، فالحديث عن يوم القيامة، وليس عن الدنيا.

فقال: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣]، ثم قال بعدها: ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤]،

تصلى معناها: تدخل النَّار وتقاسي حرها وشدائدها، هذا معنى تصلى، ليس من الوصول، لا، هٰذَا خطأ، هٰذَا معناها تصلى من الصلي، وهو الشوي، أن تُشوى وتدخل النار وتُعذب وتأكلها النار، قال: ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤]، وصف النار بأنها نار حامية، هذه حالهم:

أولًا: الوجوه خاشعة، ثم الإرهاق في الأعمال، ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٣]، ثُمَّ دخولهم نار جهنم والعذاب بها، ثُمَّ قَالَ: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، هٰذَا مائهم شرابهم، ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، إِذَا دنى من الوجه شوى الوجه، فيسقون من هٰذَا الماء الحميم، قَالَ: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، آنية معناها: شديدة الحرارة، قد بلغت منتهاها في الحرارة، هم عُطاش يبعثون يوم القيامة عطاشًا، ثم يأتون يريدون الماء فيُسقون، يستغيثون فيغاثون بماء كالمهل، ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥].

أما الطعام، قَالَ: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦]، هذا ليس طعام، ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦-٧]، الضريع: هو نوع من أنواع الشجر الذي كله شوك، نوع من أنواع الشوك، رائحته نتنة وطعمه مر، لا يُسمن ولا يُغني، لا ينتفع به الإنسان في أكله، ولا يرد عنك الجوع، ويُطعمون من هذا الطعام، ويُسقون من هذا الماء، قال: ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٧]، هذا حال أهل النار، السؤال هنا: لماذا الله عَزَّ وَجَلَّ بدأ بهم ولم يبدأ بأهل الجنة؟

نقول: لأن السورة هي وجهت لمشركين منكرين، وهي أيضًا تحذير لهم وتهديد لهم، ولذلك بدأت بهذا التهديد.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ بعدها في مصير السعداء، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا وإياكم جميعًا منهم، قال: ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٧]، ناعمة: أي منعمة، قد نعمت بما تجده من النعيم في جنات النعيم، نعيم الجنة انعكس على وجوههم، فوجدوا أثر هذا النعيم على وجوههم، وأنت تلاحظ في الدنيا أصحاب النعيم المترفين، أصحاب الدنيا، ينعكس هذا النعيم على وجوههم، فهؤلاء أهل الخير

والصلاح يجعل ذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هذا النعيم على وجوههم، والوجوه يوم القيامة وصفها الله: "وجوه".

يعني ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وذكر: "وجوه ضاحكة مستبشرة"، وذكر: "وجوه عليها قطرة"، تختلف الوجوه يوم القيامة لشدة أحوال يوم القيامة وأهوالها وطول ذلك اليوم، قَالَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨-٩]، ما قدمت في هذه الدنيا من أعمال يُرضيها الله بجزاء هذه الأعمال، فما تقدم أنت من عمل، من قول أو عمل أو فعل أو أداء فرائض أو سنن أو واجبات، كل ما تُسارع في هذه الأعمال الصالحة ستجد أثرها ونتيجتها بأن يُرضيك الله عَزَّ وَجَلَّ بجزاء هذه الأعمال الصالحة، قال: ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٩].

ثم قال: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ١٠]، وصف جنته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنها جنة عالية، لهم غرف من فوقها غرف مبنية، وهم في عليين، في جنة عالية، قال أيضًا من أوصافهم، وأنت تلاحظ هذه الأوصاف تأتي متتابعة، ترتاح النفس لها وتطمئن النفس لها، قال: ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ [الغاشية: ١١]، لا تسمع فيها اللغو، ولا الكلام السيء، ولا الكلام البذيء، ولا الفحشاء، ولا نحو ذلك، إنما تسمع الكلام الطيب، ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤]، فكلامهم طيب: تسبيح وذكر وسلام، كل هذا لا تجد فيه ما يُكدِّر خاطرك أو يؤذي سمعك، قَالَ: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مقابل في النار لما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، قال هنا في سقي المؤمنين، ماذا قال؟ قال: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢]، والعين هنا ليس المقصود بها عين واحدة، وإنما في عيون، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]، وإنما قال عين جارية؛ لبيان الجنس، عينًا تجري على الأرض وتُفجَّر، يفجرونها، قَالَ، هذا شرابهم، أما أحوالهم، قال: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣]، يعني يتكئون على هذه السرر المرفوعة، السرر المرفوعة يضطجعون عليها ويجلسون عليها في نعيم، في طمأنينة، في أمن، في راحة نفسية.

قال: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣-١٤]، أمامهم الأكواب موضوعة إن اشتهوا أن يشربوا شربوا، والغلمان يطوفون عليهم، الولدان يطوفون عليهم بالشراب، بأنواع الشراب، بأنواع الأشربة: من ماء غير آسن، من لبن لم يتغير طعمه، من خمر لذة للشاربين، من عسل مصفى، يشربون

ما يشاءون، قال: ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ [الغاشية: ١٤-١٥]، والنمارق: هي الوسائد، وأنت إذا دخلت المجلس ووجدته قد رُتبت وسائده، وهُيء، هٰذَا كله يتعلق بالأثاث، انفتحت النفس بهذا الترتيب الجميل، هذه سرر، هذه أكواب، هذه نمارق مصفوفة، هذه زرابي مبثوثة، الزرابي هي البسط والسجاد التي تكون مبثوثة في الأرض في كل مكان، قد رُتبت وجُملت لأصحابها، وأعدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده الصالحين.

قال: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٦]، النمارق مصفوفة ومرتبة الوسائد، والسجاد قد بُثت في الأرض، هذا الترتيب، ترتيب جميل، حسن، يجعل الإنسان تشتاق نفسه إلى هذا اليوم، تشتاق نفسه إلى أن يصل إلى هذا اليوم، وكل هذا يحثك على أي شيء؟

على المبادرة بالأعمال الصالحة والمسارعة إلى الأعمال الصالحة، وحتى كل ما تعمل صالح وأنت تتذكر هذه السورة، وهذا الترتيب، وهذا النعيم العظيم الذي لا ينفذ ولا ينقطع أبدًا، تشتاق نفسك إليه، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا وإياكم من أهل السعداء الذين يُنعمون بهذا النعيم العظيم، السورة لها بقية آيات، لعلنا إن شاء الله نكملها في لقاء قادم، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفعنا بما قلنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ.

(الغاشية ١٦ - ٢٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك، لقاء الثلاثاء مع القرآن الكريم قراءةً وتفسيرًا وتدبرًا، هذا اليوم هو اليوم السابع عشر من الشهر السادس من عام ١٤٤٤ من الهجرة، السورة التي نتناولها، وأيضًا تناولناها في لقائنا الماضي، هي سورة الغاشية، والغاشية اسم من أسماء اليوم الآخر، يوم القيامة، اليوم الآخر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سماه بأسماء كثيرة في القرآن: سماه بالطامة، والصاخة، والقارعة، والتغابن، ويوم الحساب، وغيره من الأسماء الكثيرة التي ذكرها في كتابه، وتعدد الأسماء يدل على عظم هذا الشيء، كلما عظم الشيء تعددت أسماؤه.

السورة هي الغاشية التي تغشى الناس بأهوالها وشدائدها وعظائمها، ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الناس في هذا اليوم على قسمين لا ثالث لهما: إما أهل السعادة، وإما أهل الشقاوة، إما سعداء أو أشقياء، في الدنيا يعملون، لا يتميز أحدهم عن الآخر، شقي أو سعيد، كلٌ يعمل في هذه الدنيا، وكلٌ يقدم ما استطاع من عمل، وفي النهاية وفي الآخرة تظهر هذه الأعمال، ويبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الشقي أو السعيد، ذكر الله في هذه السورة وجوه الناس.

قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢]، و ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨]، الخاشعة: الذليلة، الحسيرة، هذه وجوه الأشقياء، عاملة ناصبة في يوم القيامة، من شدة ما تواجه من الأعمال الشاقة عليها، في نار جهنم التي تصلاها، ﴿تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً * تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٤-٥]، ماء شديد الحرارة، ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]، ليس لهم طعام أبدًا إلا هذا الطعام الذي ذكره الله: ﴿إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦]، وهو الشوك الذي لا يستطيع أن يتناوله، ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٧].

وذكر الله طعام أهل النار، ليس فقط الضريع، ذكر أنواعًا من الأطعمة، قَالَ: "طعام من غسلين"، قَالَ: "طعام الزقوم"، وخذ من هذِه الأطعمة التي لا نفع فيها ولا فائدة، نسأل الله العافية، ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ بعدهم أهل السعادة، السعداء من عباد الله المصطفين، الذين اختارهم الله في الدنيا قبل الآخرة،

وتولى أمرهم في الدنيا، ووفقهم لطاعته قبل الآخرة، من هم؟ قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨]، تنعمت وجوههم بالطاعة قبل الآخرة، تعرف في وجوههم نظرة النعيم، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨]، إلى ما ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال: ﴿لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ [الغاشية: ٩-١١]، كل هذه نعم تُساق لهؤلاء أولياء الرحمن، الذين ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذه كلها ذكرناها، لكن الذي وقفنا عنده هو قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، قد يسألك سائل يقول لك: ذكر الله حال أهل النار ومصيرهم، ثم ذكر حال أهل الجنة ومصيرهم، ثم لفت الناس إلى أن ينظروا إلى هذه المخلوقات العظيمة: أربع مخلوقات، الإبل، والسماء، والجبال، والأرض، يعني ما الحكمة وما السبب في ذكر هذه الأشياء؟ ما علاقتها باليوم الآخر والجنة والنار؟ ما علاقتها؟ ولماذا ذكرها الله؟

أولًا: لما تقرأ هذه الآية، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ [الغاشية: ١٧]، من هم؟ قال: هؤلاء الذين أنكروا اليوم الآخر، ولم يؤمنوا به، ولم يعترفوا به، ولم يعملوا له، ولم يصدقوا بأن الله يبعث من في القبور، قال الله عَزَّ وَجَلَّ لهؤلاء، والمخاطب في أول الأمر هم الذين أنكروا اليوم الآخر من أهل مكة، عندما نزلت هذه الآيات، لفت الله أنظارهم، قال هؤلاء: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ [الغاشية: ١٧]، ولاحظ أن الله لم يخاطبهم، وإنما أشار إليهم بضمير الغائب؛ لأنهم لا يستحقون الخطاب، ما قال: "أفلا تنظرون"، قال: "أفلا ينظرون هم"، لماذا هم؟ غاب عنهم هذا الأمر وجهلوه، لماذا لا ينظرون إلى مخلوقات الله العظيمة؟ لماذا لا ينظرون؟ وإذا نظروا ما النتيجة؟ قال: ليتعرفوا على قدرة الله الذي لا يعجزه شيئًا في الأرض، يتعرفوا على قدرة الله وعلى نعم الله التي أنعم الله بها، أنعم الله عليهم بهذه المخلوقات، وأيضًا الله عَزَّ وَجَلَّ يحثهم ويرشدهم ويوجههم إلى أن ينظروا في هذه المخلوقات العظيمة التي تدل على أي شيء؟ تدل على قدرة الله، وأنه لا يعجزه شيءٍ في الأرض ولا في السماء، فأنتم تنكرون قدرة الله على البعث، الله عَزَّ وَجَلَّ، ماذا قال؟ قال: هذا الخلق كله من بني آدم، من أول الخلق إلى آخره، قال الله فيه ماذا؟ قال: "ما خلقكم الأول وما بعثكم الآخر إلا كنفس واحدة".

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما ذكر في سورة "ق" إنكار المشركين للبعث، أرشدهم إلى النظر في السماوات، قال: ينظرون إلى السماء فأرشدهم إلى النظر إلى السماء وإلى الأرض، ﴿كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ [الشعراء: ٧]، ونظر إلى السماء، رفعها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وزينها، للسماء زينها إلى آخر، ما ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ،

ذكر هنا لفت الأنظار إلى الإبل، واختار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من سائر البهائم هذه البهيمة العظيمة الخلق، المُلفتة للأنظار، العجيبة في خلقها، فلفت الأنظار إليهم ولأنهم يعيشون معها، حياتهم كلها مع الإبل، هي حياتهم وهي أموالهم، هي أنفس أموالهم، فلفت الأنظار إليها لما فيها من المخلوقات العجيبة، لما فيها من العجائب، ولما فيها من الفوائد والمصالح الكثيرة، هي طعامهم حليبهم وطعامهم في الأكل، يأكلون من لحومها ويشربون من ألبانها، وتحملهم إلى بلد لم يبلغوه إلا بشق الأنفس، وتحمل أثقالهم، وعجائب فيها لا تنتهي، حتى ذكر بعض المعاصرين.

قَالَ: حتى البَعْر يستفيدون منه في إيقاد النار، حتى البَعْر في هٰذِه الإبل، فعجائبها عجائب عظيمة، وفي خلقتها، فأرشد الله وألفت الناس إلى أن ينظروا إلى الإبل، رُوي عن القاضي، شريح القاضي أنه قال لأصحابه: "اخرجوا بنا إلى الإبل، ننظر فيها، فإن الله أمرنا أن نتفكر فيها"، تتفكر في هذه المخلوقة، يقودها الصبي الصغير، ولا تتعارض ولا تمانع معه، خلق عجيب، قال: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، ما قَالَ إِلَىٰ الإبل في أي شيء، قَالَ: لا، "انظر إليها كيف خُلقت، كيف خلقها الله بهذا الحجم العظيم، وبهذه هٰذَا..؟"، فتأمل في هذا المخلوق العجيب العظيم، تأمل فيه، فلما أرشدهم إلى الإبل، ولاحظ أن الله قدّم ماذا؟ قدم الإبل على خلق السماوات والجبال والأرض قدمها عليهم، لقربها منهم وكثرة إمساسها والعيش معها، فلفت الأنظار إليها.

هذا المخلوق العجيب الإبل، يعني إذا تفكرت فيه وتأملت فيه، يكفيك بأن الذي خلقه قادر على خلق الناس كلهم ولا يعجزه شيء، قَالَ: ﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ [الغاشية: ١٨]، الإبل أمامك، ارفع رأسك إلى السماء وانظر في هذه السماء فوقهم، ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، خلقها الله بهذا الخلق الحكيم العظيم، وهذه المسافة البعيدة بغير عمل ترونها، مرفوعة، الله عَزَّ وَجَلَّ يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

ثم قال: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٩]، خلق عجيب في الجبال، انظر إليها في ألوانها وفي أطوالها وفي مساحاتها وفي تركيبها، عجائب تلفت الأنظار، ينبغي إذا خرجت إلى هذه الجبال أن تتفكر، إذا خرجت في هذه الصحراء، أن تنظر في هذه الجبال، تجد جبال شاهقة، وجبال أقل، وتجد مناطق ممتلئة بالجبال، ومناطق ليس فيها جبال، وتجد جبل منفرد وحده، من الذي خلقه؟ ومن الذي أوجده؟ ولا يغيب عنك أن هذه الجبال تسجد لله، وأن هٰذِه الجبال تسبح لله، تسبح الجبال، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ﴾ [الحج: ١٨]، كلها تعرف خالقها وتعظم خالقها، إِذَا خرجت يلفت نظرك هٰذِه الأشياء.

قال: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠]، وبُسطت ومُهِّدت حتى تعيش عليها، حتى تزرع عليها، حتى تبني عليها، حتى تتنقل عليها، كل هذا من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقدرته، مناطق منبسطة ومناطق ما تجد فيها انبساط، كل هذا بتقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وتركيبه لهذه الأرض، وصنعه ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، لما لفت إلى التفكر في هذه المخلوقات العظيمة، أمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه محمدًا أولًا، ومن هو عَلَىٰ طريقة نبيه ويسلك منهجه، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، قال: ﴿فَذَكِّرْ﴾ [الغاشية: ٢١]، ذكرهم بهذه الأشياء، ذكرهم بمصيرهم إما الجنة أَوْ النار، وذكرهم بهذه المخلوقات والعجائب آيات الله في الكون، وفي الأرض آيات للموقنين، ذكرهم بهذه الآيات، ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، أنت وظيفتك التذكير والوعظ والإرشاد للناس، فلست مسيطر عليهم، فمن تولى، فيتولاه الله عَزَّ وَجَلَّ ويعذبه العذاب الأكبر.

ثم أعاد آخر السورة إلى أولها تذكيرًا، مثل ما تُطوى الصحيفة، فتعاد السورة من آخرها إلى أولها، قال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦]، فما عرَضنا عليكم في أول السورة حسابهم وجزائهم، فهم عودتهم إلينا، ونجازيهم بهذا الجزاء.

السورة حقيقة، صورة عظيمة، كثير منا يقرأها، تمر عليه مرور الكرام، لكن إذا وقفت معها وتدبَّرتَها وتأملتَ آياتها وجدتَ فيها من العجائب، وهذا الكتاب، القرآن العظيم، لا تنقضي عجائبه، ولا يمل قارئه، وكلما ردده اشتاق إليه، ولا تنقضي علومه، يقول: بحرٌ لا ساحل له، ولا تنتهي عجائبه.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن ينفعنا بهذا القرآن، ويجعلنا ممن يتلوه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيه عنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والله أعلم، وصلى الله وسلم عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الفَجْر)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الفجر ١ - ١٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله وبيّاكم في هذا اللقاء المبارك، وفي هذا المجلس، المجلس الذي تحفه الملائكة وتغشاه الرحمة، وتنزل عليه السكينة، ويذكر الله أهله في الملأ الأعلى، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا يحرمنا هذا الفضل العظيم، وأن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن يبارك لنا ولكم في أوقاتنا وفي أعمارنا.

هذه الجلسة المباركة مع القرآن العظيم، وتدبُّر آيات الكتاب الكريم، نتأمل ونعيش مع القرآن الكريم، ونتفكر كما أمرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ [ص: ٢٩]: أي كثير الخير كثير البركة، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، التدبر والتذكر أمر مطلوب، وليس المقصد هو القراءة فقط، القراءة مطلوبة مع التدبر والتأمل والتفكر والعمل بالآيات القرآنية، والتأثر بها.

السورة التي بين أيدينا، بعد ما تحدثنا عن سورة الغاشية، وما احتوته من عرض ليوم القيامة وبيان مصير السعداء والأشقياء، تأتي سورة الفجر تقرر هذه القضية، ومثل ما ذكرنا في لقاءات ماضية، أن الجزء الأخير هٰذَا كله يدور حول اليوم الآخر، ويقرر قضية الإيمان باليوم الآخر، واعتقاد المسلم اعتقادًا جازمًا بهذا اليوم وما يجري فيه من عذاب القبر ونعيمه، وخروج الإنسان من قبره، وملاقاته لعمله، والميزان، والصراط، والجنة والنار، والحوض، كل ما يجري في هذا اليوم يجب على المسلم أن يعتقد اعتقادًا جازمًا.

والآيات التي في هذا الجزء الأخير كلها والسور تركز على التأكيد على قضية الإيمان باليوم الآخر، وتدور حول الأدلة الدالة على الإيمان باليوم الآخر، الأدلة العقلية والأدلة الشرعية، وتدور حول بيان حال هذا الإنسان في الدنيا وحاله في الآخرة، ومصير كل إنسان في آخرته، كلها تدور حول هذا، السورة التي بين أيدينا، سورة الفجر، أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيها، هذه السورة وما يليها من سور كلها يقسم الله، أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الفجر وفي سورة البلد على الصحيح، وفي سورة الشمس، والليل، والضحى، والتين، والعصر، والعاديات، كلها قسم، يقسم الله على أي شيء؟ لأي غرض؟

دائمًا نعرف في لغة العرب أن القسم لا يكون إلا لتأكيد شيء يحتاج إلى تأكيد، فتقسم على أن هذا الأمر واقع، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقسم ولا يحتاج الأمر إلى قسم، ومع ذلك يقسم على هذه الأمور، يقسم بهذه الأشياء على قضية الإيمان باليوم الآخر، أو التهديد أحيانًا، أو بيان حال الإنسان، كل هذه سور القسم كثيرة في القرآن الكريم، في هذه الآيات أقسم الله بخمسة أمور عظام، يقسم على أي شيء؟ يقسم على تهديد من يخالف، وتهديد من لم يؤمن، ومن يعترض، ومن يعاند، أن مصيره إلى العذاب، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ١-٤]، ثُمَّ يقول بعدها: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]، والمراد بـ "ذي حجر" أي ذي عقل، سُمي العقل حجرًا؛ لأنه يحجر صاحبه عن التصرفات السيئة والأخلاق السافلة، العقل واللب، صاحب لب، وصاحب عقل، وصاحب حجر، هذه كلها تدل عَلَىٰ...، أَوْ من معاني أَوْ من ألفاظ العقل.

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ﴾ [الفجر: ٥]: يعني في هٰذَا الأمر يحتاج إلى قسم؟ أن أقسم بخمسة أشياء لصاحب عقل، يقول السعدي في تفسيره: "والله واحدة تكفي، واحدة من هذه الأقسام الخمسة كافية لكل عاقل"، العاقل...، ولذلك الله خص من؟ خص العاقل من الناس، أما غير العاقل فلا يخاطبه، ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ﴾ [الفجر: ٥]، ألا يكفي هذا القسم، هذه الأقسام الخمسة، لعاقل؟ قال السعدي: "والله يكفي واحدة، واحدة تكفيه".

الله أقسم بالفجر، ما هو الفجر؟ هو الصبح، هو طلوع الصبح، الفجر أقسم الله به لعظم هٰذَا الوقت، هٰذَا الوقت عظيم، أولًا، ما وجه العظمة فيه؟ ما وجه تعظيمه؟ هذا تعظيمه أولًا أنه آية من آيات الله، وهو ذهاب هذا الليل بشدة سواده وثقله، يذهب هذا الليل، ثم يأتي النهار بنوره، هذه آية عظيمة من آيات الله، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، هذه آية.

الآية الثانية في: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحيي هذا الخلق مرةً أخرى، فأنا وأنت والثالث إذا نام وذهب بهذا النوم، ثم بعد ذلك يحييه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك أنت تقول إذا قمت: "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا"، فالحيوانات والطيور كلها تموت موتة صغرى، ثم يحييها، إذًا الفجر آية من آيات الله، والفجر فيه صلاة عظيمة، الله عظّمها؛ لأنها تحضرها وتشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار، ﴿وَقُرْآنَ

الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، تشهده الملائكة تعظيم لهذا الوقت، وتعظيم..؛ ولأن قبله وقت عظيم وهو وقت السحر، وقت السحر وقت الاستجابة، استجابة الْدُّعَاء.

قال: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١]، أقسم بالفجر، سمي الفجر فجرًا؛ لانفجاره، انفجار النَّهَار وذهاب الليل، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، فلق الإصباح: شقه بقوة، ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١]، ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ٢]، والليالي العشر فسرها ابن عباس رضي الله عنهما بسندٍ صحيح أن المراد بها عشر ذي الحجة، أقسم الله بها لعظمها أيضًا، ولما فيها من الثواب والأجور العظيمة، والأعمال التي يحبها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله»، أحب، ليست اكثر ولا أقل، لا، « أحب إلى الله من هذه الأيام»: يعني عشر ذي الحجة، فأقسم الله بها، قال: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ٢]، ثم قَالَ هذَا الثالث: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر: ٣]،

وقُرئت بقراءة: "والشفع والوِتر"، الوِتر والوَتر معنى واحد، والشفع والوَتر، اختلف العلماء والمفسرون في معناه، قال بعضهم: الشفع هو يوم النحر؛ لأنه يوافق العاشر، والوتر هو يوم عرفة؛ لأنه يوافق التاسع، وبعضهم قال: الشفع هي الصلوات الخمس، الشفع والوتر، ففيها شفع كالرباعية، وفيها وتر كالثلاثية، وبعضهم قال: الشفع والوتر، الشفع الخلق، والوتر هو الله، «إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ»، على أقوال كثيرة، لكن الذي رجحه كثير من أهل التفسير أن كلمة الشفع والوتر عامة، يدخل فيها جميع الخلق؛ فالخلق فيه شفع وفيه وتر، فما انفرد سُمي وتر، وما كان زوجًا يسمى شفع في جميع المخلوقات، الجمادات، والحيوانات، والجبال، والأشجار، والإنسان نفسه فيه شفع وتر، فهذه الآية، أو هذا اللفظ الصحيح أنه عام، ويدخل فيه أن الله وتر والخلق شفع.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤].

أصلها: والليل إذا يسري، ومعنى يسري: هو الذي يمضي في الليل، الذي يمشي في الليل يسمى فلان يسري في اَللَّيْل، أسرى، أما في النَّهَار ما يقال يسري، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ليل، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤]: يعني يمضي الليل، ثم يأتي الفجر، وهذا يعني في ختام القسم يعيد الله إلى أوله، بدأ بالفجر وختمه بالليل،

وكأن احتوي على جميع الأوقات، هذا القسم أقسم بخمسة أشياء عظيمة كلها لها دلالات،

ولها عظم، والله لا يقسم إِلَّا بشيء عظيم، لا يقسم بأي شيء إِلَّا شيء عظيم له دلالاته.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤]، أنت تقرأها بدون ياء؛ لأنها بدون ياء؛ لأنها مرسومة بدون ياء، وهذا يجوز في لغة العرب أن تحذف الياء وأن تثبت، يسري أو يسر، وإذا وقفت عليها تقول: "والليل إذا يسر".

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥].

أجيبوا: هل في ذلك قسم؟ ما في قسم، ما يحتاج الأمر كله أن يقسم، ولكن الله مع ذلك يقسم ويؤكد، يقسم: "هل في ذلك قسم لذي صاحب عقل، وصحاب لب، وصاحب إدراك ومعرفة وعلم وحكمة، ما في، ما يحتاج الأمر، ما يحتاج، الذي تؤكد الشاك، الذي يشك ويتردد بالأمر تؤكد له، إذا كان شك، كان متردد بالأمر نؤكد عليه، أما شخص عنده اليقين بهذه الأشياء التي يقسم الله بها، ما يحتاج الأمر إلى ذلك.

قال بعدها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]. قد يسأل سائل: يقول هذه الأقسام الخمسة الآن أين جوابها؟

كل قسم له جواب، لما تقول: أقسم بالله إني حضرت هذا اليوم مجلس كذا وكذا، أين الجواب؟

الجواب: حضورك تقسم بأنك حاضر، هنا أين القسم؟ وتلاحظ أن كثير من الآيات، مثل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢]، ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [الليل: ٣]، قال: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ [الليل: ٤]، هذا جواب، ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ [الليل: ٤]، ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١-٣]، ﴿وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١-٢]، الجواب: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: ٣]، فكل قسم له جواب، هنا ما في جواب، ولذلك قدّره أهل العلم بتقديرات، أنسب ما يقال فيه هو تهديد لكفار مكة المعاندين، يقسم الله على هذه الأمور: ليعذبن أهل مكة، ليصيبن أهل مكة العذاب العظيم، وبعضهم قال الجواب في آخر شيء، لما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]: يعني يقسم الله بهذه الأمور على أن الله لبالمرصاد، وأنه مراقب ومحاسب عباده، ولم يضيع أعمالهم، كل هذه تدخل في جواب القسم.

ثم يعرض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنا طوائف من الأمم الماضية ماذا جرى لهم، وماذا كان موقفهم، ولذلك لما أقول لك أن هذا القسم ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢] أنه جوابه: ليعذبن أهل

مكة، هو المناسب؛ لأن الله عرض ما أصاب هؤلاء الأمم من العذاب، فكأنها رسالة لأهل مكة: يا أهل مكة، لا يصيبكم بسبب عنادكم وكفركم وإصراركم، لا يصيبكم ما أصاب الأمم الماضية، لا، يعني لا يصيبكم ما أصابهم، ولذلك قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]، و"ألم" هذه استفهامية، تفيد التقرير، يعني قد تقرر الأمر بأن الله أهلك عادًا الأولى، بأن الله أهلك عادًا، يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [الفجر: ٦]: يعني هذا في التقدير محذوف، يعني أعميت؟ أجهلت؟ ولم تر كيف فعل الله بهذه الأمم؟ أغاب عنك هذا الشيء؟ ولم تعلم؟ لم يأتك خبر هؤلاء الأمم، كيف فعل الله بهم؟ تقرير، كيف فعل الله بهؤلاء؟ من هم؟ قال: "عاد"، ولاحظ أن الله قال: "فعل ربك"، ما قال: "فعل الله"، لماذا؟ كأن هذه تأييد للرسول وتسري للرسول، فإن ربك أهلك هؤلاء، وأهلك أولئك، وأنه قادر على أن يهلك قومك إِذَا عاندوا أصروا على كفرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]، من هم عاد؟ هم أصحاب الأحقاف الذين يسكنون في جنوب الجزيرة العربية، والأحقاف جمع حقف، وهو المناطق الرملية كانوا يعيشون فيها، وكانوا قد عبدوا الأصنام وأشركوا بالله، وتعالوا عَلَىٰ الله وتكبروا وقالوا: "من أشد منا قوة؟"، وزادهم الله في أجسامهم بسطة وتكبروا، فأرسل الله إليهم هودًا عليه السلام، الذي أنزل الله فيه، سمى سورة كاملة بسورة هود، وذكر قصته في القرآن في مواضع كثيرة، أرسل الله إليهم هودًا عليه السلام، يعرفونه معرفةً تامة بأخلاقه ومعاملته وصدقه، فدعاهم إلى التوحيد، وعاد جاءوا بعد إهلاك قوم نوح، هم الذين جاءوا بعد نوح وسكنوا جنوب الجزيرة، فأرسل الله إليهم هودًا ودعاهم فكفروا وامتنعوا وأصروا على كفرهم وعاندوا وهددوه، فالنتيجة أن الله عذبهم، عذبهم بأي شيء؟ أرسل عليهم ريحًا صرصرًا في أيام نحسات، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، تأخذ الرجل فترفعه إلى السماء ثم تلقيه على رأسه، فماتوا جميعًا، أهلكهم الله، لا تسمع فيها أحد يتكلم، لا يُرى فيها إلا مساكنهم، لم يبقِ منهم أحدًا.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦] من هم عاد؟ قَالَوا: هم إرم، إرم هذا جدهم، ينسبون إلى عاد الجد الأول وإلى إرم الجد الثاني، ولذلك يسمون عاد الْأُولَىٰ؛ لأن هناك عادٍ أخرى، وعاد الْأُولَىٰ، وهؤلاء عرب، عاربة أصلية.

فقال: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر: ٧].

أي صاحبة الأعمدة العظيمة، والمراد بالعماد قيل: أنهم موصوفين لطولهم بالعماد، كأنهم أعمدة من شدة طولهم، أو أنهم يتخذون العماد لضرب الخيام لهم، وقد أسرفوا وضعوا الخيام، أو أن العماد هي أبراج يضعونها، كما في قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]، فكانوا يضعون...، والريع: هو المرتفع بين الجبلين، فكانوا يضعون الأبراج العالية ويفتخرون، فأهلكهم الله.

قال: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨].

التي لم يُخلق مثلها في البلاد، ما هي؟ يعود إلى أي شيء الكلام؟

الطالب: ....

الشيخ: لا، أنا أريد أن أسأل حَتَّىٰ اشوف الخطأ والصواب، كثير من الناس يقرأ بعض الآيات خطأ، ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨]: هي عاد نفسها رجالهم ونساؤهم، لم يُخلق مثلهم في البلاد، أعطاهم الله القوة والبسطة في الجسم، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فلم يخلق الله مثلهم من قوتهم وخلقتهم العظيمة هٰذَا معناه، فقوله: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ﴾ [الفجر: ٨]: أي الَّتِي تعود إلى قوم عاد، التي لم يخلق الله مثلهم في البلاد، ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨].

وبعدما أهلكهم الله، بعد ذلك أنشأ الله بعدهم قومًا آخرين هم ثمود، يسكنون في الشمال الغربي من الجزيرة العربية، ومعروفة مدائن ثمود ومدائن صالح، ووادي القرى معروف، وأهل مكة يعرفونه والناس يعرفونه ويمرون عليه، وأهل الشام رحلاتهم تمر إلى مكة عَلَىٰ هٰذِه المدائن المعروفة، سُميت ثمود لقلة مائها، وأنعم الله عليهم بالنعم العظيمة، وأرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فكانوا يعبدون الأصنام ويشركون بالله، فبعث الله إليهم رسولهم صالحًا عليه السلام ودعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فأبوا واستكبروا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]، فأهلكهم الله، كانوا يعبدون الأصنام ويشركون، حتى تحدوا صالحًا وقالوا: "إن كنت رسولًا من عند الله صادقًا، فأخرج لنا معجزة تدل على صدقك"، قال: "ماذا تريدون؟" قالوا: "فخرجوا معه إلى الصحراء"، فقالوا: "هذه الصخرة العظيمة، إن كنت صادقًا فأخرج منها ناقةً عُشراء": أي حامل في الشهر العاشر، فصلى صالح

عليه السلام ودعا ربه، فانشقت الصخرة وخرجت منها الناقة، وكفروا ولم يؤمنوا وعقروا الناقة، وحذّرهم: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]، لا تتعرضوا لها، فعقروا الناقة فنزل بهم العذاب، أرسل الله عليهم صيحةً واحدة أهلكتهم جميعًا، صاح بهم جبريل صيحةً واحدة فتقطعت قلوبهم في أبدانهم فماتوا عن آخرهم، هذه عبر وآيات عظيمة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]. هٰذِه كلمة أخرى بعد، "جابوا" يعني جيب المصحف؟ ولا ما معنى جابوا؟، جابوا يعني أحضروا؟ ولا كيف؟، قطعوا، الجب: القطع، يقال هٰذَا شيء مجبوب يعني مقطوع، والتوبة تجب ما قبلها، أي تقطع، فقوله هنا: ﴿الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]: أي قطعوا الصخور، لم يكن لديهم آلات مثل الآلات الَّتِي موجودة عندنا الآن ما عندهم، ومع ذلك أعطاهم الله القوة على قطع الصخور ونحت الجبال، ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، تدخل فيها كهوف عجيبة وفيها زخارف حتى الآن موجودة، آيات عظيمة، أعطاهم الله القوة، ﴿وثمود الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]، وادي القرى، كانوا يعيشون في منطقة من أحسن المناطق، فيها الماء وفيها الزروع والخضرة، كانت بين جبل وسهل، ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]: تتخذون من سهولها قصورًا، وتنحتون الجبال بيوتًا، وكانت في وادي يسمى وادي القرى، قال: ﴿الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]، فأهلكهم الله.

ذكر الله أيضًا الأمة الثالثة التي أهلكها الله، فرعون، قال: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠]، وفرعون هو فرعون مصر، الذي أرسل الله إليه موسى عليه السلام يدعوه لعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يترك عنها التَّكَبُّر والتجبر والفساد في الأرض، فأبى واستكبر حتى أغرقه الله، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وهو يغرق في البحر، قال: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠]، صاحب الأوتاد يعني الرجال الأقوياء والجنود، أو الأوتاد هي كان يضع أوتادًا ليعذب بها من يريد تعذيبه، أو الأوتاد هي ما يسمى بالأهرام، كان يصنع هذه الأشياء، يفتخر بها، ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠].

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ١١].

من هم؟ كل هؤلاء: عاد، وثمود، وفرعون، كلهم طغوا في البلاد، يعني أن يبين لك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السبب في هلاكهم، لماذا أهلكهم؟ لأنهم طغوا في البلاد، وزيادةً على الطغيان والتكبر والاستكبار،

فأكثروا فيها الفساد، ما أفسدوا فَقَطْ، أكثروا فيها الفساد، سبب الهلاك: الطغيان، التكبر عن طاعة الله، الفساد في الأرض بعد إصلاحها، كل هذِه من أسباب هلاك الأُمَم، ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: ١٢]، النتيجة: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]، شاهد كيف تعبير القرآني: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣].

يعني أن العذاب لم يكن عذابًا هينًا، عذابًا شديدًا، إذا صبَّ عليك العذاب صبًّا، معناه أنه أحاط بك من جميع الجهات، لم يبقِي فيهم أحدٌ ينجو، صبّ العذاب صبًّا، فأهلكهم جميعًا، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]، شوف "ربك" خطاب للرسول، أن الله مع النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن قومك يأتيهم ما يأتي هؤلاء، وأن الله سيدافع عنك، ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]، والسوط: عبارة عن شدة العذاب، فلما يقال: هذا يضرب بالسياط ويضرب بالسوط، كأنه يدل على شدة العذاب وتكراره واستمراره، ولذلك جاء تعبير القرآن بهذه البلاغة العظيمة، أن العذاب الذي حلَّ بهؤلاء كلهم سوط من العذاب، يعني عذاب شديد، صبَّ عليهم العذاب صبًّا، ولذلك لو ترجع إلى هذه القصص الثلاثة، تجد أن العذاب أحاط بهم، فعاد أحاط بهم الله العذاب، الريح التي تقلع رؤوسهم، وثمود الصيحة التي مزقت قلوبهم، وفرعون وجنوده أُغرقوا جميعًا، فأحاط بهم العذاب من جميع الجهات.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]، قال الله عَزَّ وَجَلَّ تعليلًا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، لكل طاغية ولكل مفسد، ولكل معرض ولكل معاند، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، بأن الله يرصد أعماله ويراقب أفعاله ويجازيه على أعماله، ولا تظن أنك مُفلت في هذه الدنيا ومعجز لله، لا تعجز الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

طيب لا نطيل نقف عند هذا القدر، تلاحظ أن بعد هذه الآيات الحديث عن هذا الإنسان، ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ [الفجر: ١٥]، فيعرض الله لك حال هذا الإنسان في الدنيا، لقلة ضعف تفكيره، ويظن أن الله إذا أعطاه خير له، أو إذا منعه شر عليه، لا، لا تفكر بهذا التفكير، ثُمَّ لا بد تعرف كيف تتعامل مع ربك وكيف تتعامل مع هذا المال الذي أعطاك الله، هذا الحديث يأتي عنه إن شاء الله في لقاء قادم بإذن الله، أسأل الله أن ينفعنا بما قُلنا و بما سمعنا، وأن يجعلنا وَإِيَّاكُمْ ولاةً مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وصلى الله وسلم عَلَىٰ النَّبِيّ مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ.

(الفجر ١٥ - ٢١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَمَّا بَعْد أيها الإخوة الكرام؛ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، حياكم الله في هذا المجلس المبارك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفعنا بما نقول، وهو العليم الحكيم، أيها الإخوة، مثل هذه المجالس المباركة، مجلس القرآن الكريم، تدبر القرآن الكريم، تأمل آياته.

الحقيقة كل مسلم يشعر عندما يقرأ الآيات بتأمل بتدبر يشعر بعدة أمور عظيمة لا تخفى على أي إنسان.

أولًا: يشعر بعظمة هذا القرآن، بحقائق ما يذكره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا القرآن الكريم، يشعر بزيادة الإيمان، التمسك بهذا القرآن، يشعر بمحبة هذا القرآن، العيش مع آياته، تدبره، لا شك أن هذه أمور عظيمة، كلنا نحتاج إليها، العجيب أيها الإخوة، يعني مثل ما ذكرنا، القرآن، الإنسان مع القرآن وعلاقته بالقرآن علاقة تلاوة، علاقة تفسير، علاقة تدبر، علاقة عمل، لا بد من هذه الأمور، فما علاقتك مع القرآن من حيث التلاوة؟

من حيث فهم الآيات وتفسيرها؟ من حيث التدبر، الذي هو فوق التفسير؟ ومن حيث تطبيق ما فيه من أخبار عن أمم ماضية، من أخبار مستقبلية؟ ما الذي سيجري في المستقبل؟

ما فيه من أوامر ونواهي وامتثال هذه الأوامر، والبعد عن نواهيه تحقيق مرضاة الله، فيه ترغيب، فيه ترهيب، العجيب يعني المرحلة الأولى، مرحلة التلاوة، كيف تقرأ القرآن؟

هل أنت تجيد قراءة القرآن؟ هل أنت تحسن كيف تقرأ القرآن؟

العجيب قبل أيام كان بجواري شخص، شباب يعني أعطيه من العمر ٣٠ سنة، خريج جامعة متعلم قرأ بجواري القرآن الكريم، والله لو أقول لكم حقيقة يا إخوان، والله ولا كلمة واحدة أحسن قراءتها، ليس بآية، كلمة، كل كلمة يكسر فيها، كل كلمة يسيء ...، يعني كأني أقول: "والله يا أخي، لا تقرأ، خيرًا لك ألّا تقرأ حتى تتعلم كيف تقرأ القرآن"، ونحن إن شاء الله نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يبلغنا وإياكم هذا الشهر الكريم،

مقبلون على شهر عظيم كريم، فرصة للإنسان أن يتعلم، فضلًا عن أن يفهم التفسير وأن يتدبر وأن يعمل، ما تعرف تقرأ؟ تعلم.

الآن يا إخوان حقيقة، إذا كان عنده تقصير في علوم أخرى، حتى في اللغات الأخرى، يعقد دورات، ويذهب ويسافر ويتعلم حتى يحسن هذه اللغة ويتقنها، وكتاب الله الذي معك في حياتك، معك في قبرك، معك في عرصات يوم القيامة، معك في الجنة، يقال لك: "اقرأ وارتقِي ورتل كما كنت ترتل في الدنيا"، هذا القرآن معك في حياتك كلها، الدنيوية، والأخروية، ما تعرف تقرأ؟ ولا حرف واحد؟ ولا كلمة واحدة؟ فضلًا عن أن يكون آية كاملة؟ كل آية فيها كم كلمة؟ يعني حقيقة إهمال، لا مبالاة، غير معتني، غير مهتمٍّ، القرآن يعني ليس هو شغله الشاغل، متى ما تيسر قرأ، ما يقرأ، هذا عدم مبالاة حقيقة، شيء يندى له الجبين، شيء....، يتحسر الإنسان لما يرى شباب، يعني لو كان رجل، يعني كبير، لم يسبق له التعلم قد يكون عنده تقصير، قد...، لكن خريج جامعة ما تحسن القراءة في الحقيقة يعني شيء يؤلم، نعود إلى الآيات القرآنية لنعيش مع القرآن لنتدبر القرآن، والحقيقة والله يا إخوان، حقيقة مثل هذه المجالس والله فرصة عظيمة لكل إنسان، أنا أولكم وأنا المحتاج لمثل هذه المجالس الطيبة العطرة التي تحفها الملائكة، تغشاها الرحمة تنزل عليه السكينة، وتتدبر القرآن وتعيش مع القرآن الذي لا تنقضي عجائبه، لا ينتهي، والله لو تعيش وتعيش، يعني أنا أعطيك مثال الآن: نحن الآن في سورة الفجر وتأملنا الآيات الأولى من هذه السورة، والله لو نرجع إلى سورة الغاشية وسورة الأعلى، أنك ما تنتهي من تدبر هذه الآيات.

وأنا في لقاءات ماضية تحدثنا عن سورة الأعلى وسورة الغاشية، وأنت عندك علم ومعرفة أن سورة الأعلى وسورة الغاشية تُقرأ في المناسبات والمجامع، مثل يوم صلاة الجمعة وصلاة العيدين، لماذا؟ لماذا خصها النبي صلى الله عليه وسلم بأن تُقرأ؟ في سر، أنا كنت أتأمل سبحان الله العظيم، وأجلس أتدبر هذه السورتين وأقرأ في تفاسير عظيمة يظهر لك أشياء جديدة، تأملات جديدة، سورة الأعلى هي التحذير من الدنيا والانغماس فيها، التحذير من الدنيا: ﴿تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٦]، وفي الغاشية أيضًا لفت الأنظار إلى ما هو أعظم، والحياة الحقيقية في الحياة الأخروية.

والأخروية ذكرها الله سبحانه وتعالى، وبيّن أن الحياة الأخروية هي حياتين: حياة هلاك وموت وشقاء، وحياة سعادة أبدية، فأنت تنظر في هاتين السورتين، وبعدين لما تقرأ يقول لك: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ

﴿الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ [الأعلى: ٤-٥]، على طول أخرجه مرعى جميل، حسن، ملفت للأنظار، فجعله غثاءً أحوى: متكسر، يابس، أسود بلحظة! هذه الدنيا، هذه الدنيا سريعة، ولذلك جاء بكلمة بحرف "ف"، ما قال "ثم جعله"، عشان تكون المدة طويلة، لا، فقال: "فجعله" على طول، بسرعة ما تعيش، ثم ذكرك بما هو الذي يبقى لك في هذه السورة، قال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: ٦]، القرآن هو الذي يبقى، أما الدنيا تذهب.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]، في الغاشية التي ذكرها الله، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨-٩]، أقول لك حقيقة يعني القرآن لا تنقضي عجائبه، تقرأ السورة، تفسرها، تعود مرة ثانية تجد فيها عجائب، طيب سورة الفجر التي أقسم الله سبحانه وتعالى فيها بخمسة أمور: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ١-٤]، أقسم الله ثُمَّ قَالَ: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ﴾ [الفجر: ٥]، هل هناك قسم أعظم من هذا لصاحبي عقل، وصاحب حجر، وصاحب لب يميز؟ هل فيه؟

السعدي رحمه الله في تفسيره، يقول: والله واحدة كافية، قسم واحد يكفي، ما بخمسة، واحد يكفي، يكفينا واحد، أي عاقل يكفيه واحد، لو ما يقسم الله يكفيه، يكون عنده إيمان يكفيه بدون قسم، القسم لمن؟ لمن عنده تردد، ما عنده يقين، هذا تقسيم تأكد عليه القضية، أما شخص عنده الإيمان ما يمكن، وبعدين انظر تأمل لما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأشياء؟ وقال: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ٥]، نعم فيه قسم يكفي لكل أحد نعم.

قال سبحانه وتعالى ذكر لنا ثلاث أمم: قوم عاد، وقوم ثمود، وفرعون، قوم فرعون، ثلاث أمم، كلها وصفها الله بالقوة والصلابة، وأعطاها الله وأنعم عليها: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٨] في عاد، وأما ثمود، فقوتهم: ﴿جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩]، أتوا بهذه الصخور وقطّعوها، قوة، ما عندهم آلات حديثة مثل الآن، ومع ذلك أعطاهم الله، حتى الآن، وأنت ترى وتبصر آثار هذا القوم، وفرعون الذي أعطاه القوة والأوتاد والجنود، كل هذه ما نفعتهم، ما نفعتهم لما تخلوا عن طاعة الله ولم يعرفوا حق الله عليهم، ما نفعتهم قوتهم، ولذلك قال الله سبحانه وتعالى فيهم حتى يبين لك أن الله لا يظلم أحدًا، وإنما أصابهم بذنوبهم.

قال: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ١١]، وتجاوزوا الحدود في حدود الله، طغوا في البلاد، وزيادةً على ذلك أكثروا فيها الفساد، لم يقل أفسدوا، أكثر: أشد يعني، الله عذبهم وأخذهم، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]، بسبب أنهم طغوا في البلاد، فأكثروا فيها الفساد، فكان جزائهم ماذا؟ أن صب الله عليهم العذاب صبًا، وشوف كلمة "صب" تدل على الإحاطة بهم، أن العذاب أحاط بهم من جميع الجهات، صب عليهم العذاب صبًا.

قال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ١٣]، وكلمة "سوط" هذه تفيد ماذا؟ تفيد شدة العذاب وقوته لما يؤتي إنسان بمجرم يستحق العقوبة ويُساط بالسياط، تجد هذا أثره شديد عليه، فالعذاب الذي أحاط بهم كالسوط، شدة العذاب وإحاطته بهم، قال الله عز وجل في آخرها: إن ربك يا محمد، وأيها المخاطب، لبالمرصاد لكل إنسان، ليس لهؤلاء الأمم الثلاثة، المرصاد: أي مراقب ومحاسب أعمال العباد، لا يفوته شيء، شوف ولما قال: إن ربك سبحانه لبالمرصاد: أي إنه يرصد أعمال العباد، لا يخفى عليه شيء، خيرها وشرها، قال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ [الفجر: ١٥]، شوف ، تأمل، ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ [الفجر: ١٥]، فأما جاء بحرف الفاء، لماذا؟ حرف الفاء هنا له أثر يعني شوف القرآن حتى الحروف لها آثار، لها أثر، ولم تأتِ هذه الحروف هكذا عبثًا، إنما يختار الله سبحانه وتعالى؛ لأن القرآن نزل قرآنًا عربيًا غير ذي عوج، وتحدى الله العرب كلهم أن يأتوا بولا بسورة واحدة من مثله، فأعجزهم، وهم أهل العربية، أساطير العرب، أهل العربية وأهل البلاغة، ومع ذلك ما استطاعوا، فكل حرف تجد له دلالة.

قال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ [الفجر: ١٥]، يقول: إذا كان ربك بالمرصاد، وإذا كان الله عز وجل مراقبًا لعباده، ومتابعًا لهم، وحافظًا لأعمالهم، ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ [الفجر: ١٥]، فرّ عليها تفريعات، قال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ [الفجر: ١٥]، جنس الإنسان عمومًا، ويدخل فيه الذي لا يعرف شكر نعمة ربه، وهو الكافر، ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ [الفجر: ١٥]، شوف كلمة "ما ابتلاه" في دليل على أن الدنيا ابتلاء وامتحان، و"ابتلاه" غير "بلاه"، البلاء غير الابتلاء، ما الفرق؟ الفرق كما قال أهل اللغة، يقولون: الزيادة في المبنى زيادة في المعنى، "ابتلاه" أشد امتحان شديد، امتحان بأي شيء؟ ابتلاه بالخير والشر، ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ [الفجر: ١٥]، شوف كلمة "ربه" دليل على أن الذي ينعم ويعطيك هو خالقك، هو رازقك، ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ [الفجر: ١٥]، أعطاه الدنيا كاملة، كل ما يريد

في هذه الدنيا، يعطيك، أغناك الله، أصبحت من أغنى الناس في هذه الدنيا، إذا أعطاك الله هذا الخير، هل هذا دليل على أن الله راضٍ عنك؟ هل هذا يدل؟ ولذلك ماذا يقول الإنسان؟ ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]: يعني هذا خير لي وأكرمني وأعطاني.

فشوف قال: ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ [الفجر: ١٥]، امتحنه بالمال، المال امتحان لك، ولذلك سليمان عليه السلام قال: ﴿لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، هل أنا أصل أشكر هذه النعمة؟ أعطاك الله الصحة والعافية والعقل ونعمة الدين ونعمة الطاعة ونعمة المال، امتحان لك: هل تشكر أو لا تشكر؟ هو ابتلاء، للغني وابتلاء أيضًا في الجانب الآخر، قال: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، أكرمني وأعطاني، هذا الآن جوابه وهذه نظرة قاصرة يظن إن المال إذا جاءه وأن أعطاه الله ووسع عليه وكذا، يقول: هذا كرم من الله كرم، لا، يمكن الذي ما أعطاه الله وزوى عنه الدنيا أكرم عند الله، ليس ميزان الكرامة عند الله كثرة المال وإعطائه الدنيا، الدنيا يعطيها الله من يحب ومن لا يحب، الله ما يعطي الدين كل إنسان، الدين يعطيه الله من يحب، فلا تظن أيها الشخص إذا أعطاك الله المال هذه يمتحنك كيف تتصرف في المال، ماذا تصنع بهذا المال، هذا امتحان، ولذلك قَالَ: ﴿رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥].

قال الله عز وجل في المقابل، ولذلك جاء بحرف الواو؛ لأنه فيه موازنة بين جنسين، قال: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ [الفجر: ١٦]، ضيق عليه رزقه، جعله فقير، سواءً في رزقه، في ماله، في صحته، في دينه، في غير ذلك، ضيق الله عليه، قدر عليه رزقه، ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر: ١٦]، يظن أن هذا إهانة، يظن أن الله لما زاوى عنه الدنيا وجعله يعيش فقيرًا، مسكينًا، أو ابتلاه ببعض الابتلاءات كالمرض ونحوه، يظن أن هذا إهانة له، إهانة، ولذلك الله أنكر عليه: كيف تقول أهانني؟ ما تدري أنت أن هذا إهانة ولا كرم لك، لما يصرف عنك الدنيا قد يكون كرم لك هذا قد يكون خير لك حتى لا يشغلك بهذه الدنيا، ويأتيك الموت وأنت لم تعِي لماذا خُلقت.

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧]، ليس الأمر كما تفهم، أيها ضعيف النظر، وعندك قصور في النظر، أن لا تظن أن من أُعطي الدنيا أُعطي لكرامته، وكم من ملك الدنيا كفرعون وغيره، أُعطي الدنيا ليس لكرامته، وكم من عاش فقيرًا ضعيفًا مسكينًا ليس لإهانته، قد يكون الفقر خيرًا له، ولذلك الله سبحانه وتعالى قال: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧]، ليس الأمر كما يفهم هذا، أو يفهم هذا الأمر

أكبر من هذا، الله أعطاك المال يمتحنك، امتحنك: أتشكر أم تكفر؟ تكون شاكرًا أو لا؟ جعلك فقير ليمتحنك: أتصبر ولا ما تصبر؟ ابتلاك بابتلاءات، يمتحنك في دينك: هل تصبر؟ هل عندك صبر أو لا.

ولذلك قال: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧]، ثم انتقل إلى معنى أكبر من هذا، قال: ﴿بَلْ﴾ [الفجر: ١٧]، و"بل" للإضراب، انتقال من المعنى الأول، انتهى، خلاص، هذه نظرتك، نظرتك قاصرة، ما تعرف أنت، أنا الآن كما كأن الله عز وجل يقول: "ليس هذه النظرة هي النظرة الصحيحة، هناك نظرة أكبر وأعظم"، ما هو؟ أن تعرف كيف تتعامل مع المال، أعطاك الله مال، كيف تتصرف فيه؟ ولذلك قال: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، ما تعرفون قدر المال، ما تعرفون تتصرفون فيه، المال لأهله، أعطوه أهله، ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، واختار اليتيم لحاجته الماسة؛ لأنه فقد من يعوله، يعني يتيم ما يجد.

ولذلك ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، ولاحظ ان الله لم يقل: تعطون اليتيم حقه، تتصدقون على اليتيم، لا، قال: "تكرمون"، لماذا؟ لأن اليتيم ما ينتظر منك مال تعطيه إياه، أنت...أكبر أن تكرمه، وتعرف حق الله فيه إكرامًا ورفعًا لمعنوياته، ليس فقط تعطيه المال وتمن عليه بمالك وتؤذيه بمالك، لا، ما هو أكبر من ذلك، تجعله مثل أبنائك وأعظم، ولذلك لاحظ قال: ﴿تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧].

ثم قال بعدها: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٨]، شوف، يقول: السعدي يعني عنده تأملات عجيبة، يقول: لما قَالَ: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ [الفجر: ١٨]، مَاذَا يدل عليه؟ يدل على أنه ما يتصدق على المسكين، هو أولًا في نفسه ما يتصدق عَلَىٰ المسكين، ثم أمر آخر: ما يحث على الصدقة، يعني لا هو تصدق، يعني هو منع الصدقة ومنع غيره.

لذلك: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ [الفجر: ١٨]، يقولون: ما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ولا تتصدقون على المسكين، قال: لا، أنت ما تحض عَلَىٰ...، من باب أولى أنك ما تتصدق أصلًا، يعني مفروغ منك أنك تتصدق، وزيادةً على ذلك تمنع غيرك أن يقف مع هؤلاء المساكين المحتاجين.

قال: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ [الفجر: ١٨]، لا يحض بعضكم بعضًا، ولا يحس بعضكم بعضًا، ولا يشجع بعضكم بعضًا، مَاذَا يدل عليه؟ يدل على أن الأمة الإسلامية كالقطعة الواحدة، كالجسد الواحد، كل يقف تكافل، تعاون، تساعد بعضهم بعضًا، هذا مسكين، هذا عنده ديون، هذا عنده أُصيب بمصائب، هذا عنده

التزامات مالية، يجب أن نقف معه ونساعد، ولذلك جاء بكلمة: "لا تحاضون"، ما قَالَ: "لا تحثون" أو قَالَ: "لا يحث بعضكم..."، لا، قال: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ [الفجر: ١٨]، كأنها كلهم يحث بعضهم بعضًا، فيقول: لماذا أنتم ما تعرفون تتصرفون مع هذا المال، ولا تحسنون التصرف في أن تعطوا هذا المال حقه في مثل هؤلاء المساكين؟ وذكر لك أشدهم: اليتيم والمسكين.

ثم قال بعدها: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ [الفجر: ١٩]، شوف! عبر بأي شيء؟ عبر بالأكل كأنه يأكله في فمه من شدة حبه للمال، لا يأخذه عنده ويحوزه عنده، لا، يصل إلى درجة الأكل، "تأكلون التراث"، التراث ما ترثه أنت، هذا المقصود، ما ترثه عن غيرك، وهو الميراث، لماذا خص الميراث؟ يعني ما يأكل غير الميراث؟ يأكل المعاملات الربوية، ويأكل المعاملات التجارية، ويأكل كل شيء، لكن لماذا خص الميراث؟ لأن الميراث يأتي بلا تعب، يأتيك أصلًا بغير اختيارك، يُقسم لك من غير اختيارك، ويأتيك..، فمن شدة محبتهم للمال، غير المال الذي عنده، يعني بمجرد موت قريبه يأخذ ماله كله من شدة...، عندهم جشع.

ولذلك أهل الجاهلية كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصبيان، يقولون: الذي يرث الرجل، الذي يأخذ السيف، ويجاهد، ويقاتل، ويدافع عن نفسه، المرأة، الصبي، ما يُعطى من المال، فحبهم للمال حبًا جمًا.

قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ [الفجر: ١٩]، ما معنى "لمًا"؟ يلم الشيء، يلمه لمًا، ما يترك فيه شيء، يعني يأخذ حقه وحق غيره، ما يرفق على نفسه، يأخذ حقه وحق غيره، قال: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، عطف، شوف، لما قَالَ: الميراث يأخذونه على غير وجهه، قالوا: "وأيضًا لا تنسَى أنه يحب المال على أي وجه"، يحبه، ما قال يأخذه، ما قال يتعامل معه، يتكسب، قال: لا، يحب المال حبًا جمًا، شديدًا، قويًا، لا يكاد أن يترك هذا المال، حتى في آخر حياته، ويزداد حبه للمال حبًا جمًا.

بعدها يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ﴾ [الفجر: ٢١]، انتقل الله عز وجل عن هذه الحياة الدنيا، ومواقف الناس من هذا المال، وموقف الكافر الذي لا يعرف حق الله في ماله، أما المؤمن، فالنبي صلى الله عليه وسلم قال: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» الذي يحسن هذا المال ويعرف أين يضع

هذا المال، فأما الكافر أو ضعيف النفس أو العاصي أو الجاهل، ما يعرف يحسن المال، تجد له أرصدة في البنوك ويذهب من الدنيا ويتركها كلها، يجمعها ويتركها لغيره.

فنقلنا الله عز وجل بعد ذلك إلى عالم الآخرة، عالم الآخرة هذا ينتظر كل إنسان، وكل إنسان ينتظره، فيأتي الحديث عنه إن شاء الله في اللقاء القادم حول ما يجري في هذا اليوم العظيم، ومجيء الله سبحانه وتعالى لهذا اليوم، والملائكة تصف صفًا، ثم مجيء النار وهي تُجر بالسلاسل، سبعين ألف زمام في النار، يجر كل زمام واحد يجره سبعون ألف ملك، ويؤتى بها، ثم انقسام الناس في هذه، هٰذَا يأتي الحديث إن شاء الله في خاتمة هذه السورة العظيمة الجليلة، التي والله لا تشبع من تأملاتها والنظر فيها، وكل ما تقرأها وتعيد، ستجد فيها أسرار عجيبة أودعها الله سبحانه وتعالى في هذه السورة.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداةً مهتدين موفقين لكل خير، والله أعلم، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَىٰ النَّبِيِّ مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أَجْمَعِيْنَ.

(الفجر ٢٢ - ٣٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَيُّهَا الأخوة الكرام؛

لا زلنا في مجالسنا المباركة في تدبر القرآن الكريم، وفي هٰذِه السورة العظيمة الجليلة، وهي سورة الفجر، كان لقاؤنا الماضي، وما قبله في بيان هٰذِه السورة العظيمة، وَهٰذَا اللقاء نختم به هٰذِه السورة، سورة الفجر، كما لا يخفى عَلَىٰ الجميع من السور المكية، الَّتِي تعالج قضايا العقيدة.

ومن أهمها توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإفراده بالعبادة، ومن أهمها الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالموت وما بعده، وما يجري لهذا الإنسان بعد موته، وما يجري للخلق جميعًا بعد بعثهم من قبورهم.

السورة عرضت لنا ما جرى لأقوام، أعطاهم الله من القوة، والشدة، والتمكين، كقوم عاد وثمود، وقوم فرعون، ثُمَّ بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هٰذِه الدنيا ابتلاء وامتحان، يبتلي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الفقير بفقره، ويبتلي الغني بغناه، لينظر من يشكر ومن يصبر، وخاصةً الغني ماذا يصنع بهذا المال إذا وسَّع الله عليه وأعطاه، وأن نظرة هٰذَا الإنسان نظرة قاصرة، إذا ابتلاهم الفقر، قَالَ: ربي أهانني، وإذا ابتلاهم بالغنى، قَالَ: ربي أكرمني.

قال الله: كلا، لا هٰذَا ولا هٰذَا، هٰذَا امتحان في هٰذِه الدنيا لمن يشكر نعمة الله عليه، ولمن يكفر، أَوْ لمن يكفر هٰذِه النعمة، وابتلاء لمن زوى الله عنه هٰذِه الدنيا، وجعله فقيرًا أيصبر أم يتسخط ويعترض عَلَىٰ ما قدر الله عليه.

ثُمَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَّن حال الناس وحال الكافر مع هٰذَا المال، هل يعرف التصرف فيه ويحسن التصرف فيه أَوْ لا يحسن، قال الله: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧]، من إحسان الله إليك أن أعطاك المال، أن تحسن إِلَىٰ إخوانك المحتاجين، وأن تحسن التصرف في هٰذَا المال، تعطي المساكين، وتعطي اليتامى، وتنظر في حق هٰذَا المال، وفي حقوق وفي أهل هٰذَا المال.

ثم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر في آخرها لما قَالَ: ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٨-٢٠]؛ يَعْنِي: نقل الله عَزَّ وَجَلَّ أنظار الناس إِلَىٰ ما هو

أعظم، وأن الإنسان ينبغي أن يحسن التصرف هٰذِه الدنيا، لما سيلاقيه يوم القيامة، ولذلك عرض الله لنا مواقف عظيمة في هٰذَا اليوم، وتلاحظ أن كل موقف من مواقف يوم القيامة يتناسب مع السورة، يتناسب مع موضوعاتها، مع ما جرى قبلها، ومع سياقات هٰذِه الآيات.

ولذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيها: ﴿كَلَّا﴾، ليس هٰذَا التصرف المرضي في هٰذَا المال، أن تحرم أهله من هٰذَا المال، المساكين واليتامى، وتحب هٰذَا المال هٰذَا الحب الذي يجعلك تطغى ويجعلك تفسخ، ويجعلك تنسى حق الله فيه، ﴿كَلَّا﴾، ثم لفت الأنظار إِلَىٰ ما هو أعظم، وهو الوقوف بين يدي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومجازاة الناس.

هٰذَا الموقف العظيم الذي وصفه الله لنا بهذا الوصف العظيم، لما قَالَ: ﴿كَلَّا﴾؛ كلمة زجر، أَوْ قيل أن معناها: حقًا ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا﴾، وَهٰذِه من أهوال يوم القيامة، أن تدكي الأرض، ولاحظ أنه قَالَ: إذا دكت، والدك هو دق الشيء، حَتَّىٰ يستوي، لا ترى ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧]، مستوية كالخبزة، ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾ [الفجر: ٢١]، ولاحظ أنه قَالَ: دكت، ﴿دَكًّا دَكًّا﴾، كل هٰذَا تأكيد على أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سيسوي هٰذِه الأرض، أرض المحشر، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

قَالَ: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢١-٢٢]، يأتي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هٰذَا اليوم العظيم للفصل والقضاء بين الناس، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ومجيئه مجيء حقيقي، يجب علينا أن نؤمن بأن الله يأتي يوم القيامة، يأتي مجيئًا حقيقيًا، لا نأوله بتأويل كما يؤوله أهل البدع، وَإِنَّمَا نثبت المجيء، وأنه يأتي حقيقة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليفصل ويقضي بين الناس.

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، أَيْضًا الملائكة تأتي صفوفهم، ملائكة السماء تنزل مع الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، تنزل من السماء عَلَىٰ هٰذِه الأرض، وعَلَىٰ هٰذِه البسيطة صفوفًا، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، أهوال عظيمة حقيقة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]، يؤتى بجهنم كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم وغيره، قَالَ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا حَتَّى يُؤْتَى بِهَا»، قَالَ: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]، في هٰذِه الحال إذا رأى هٰذَا الإنسان بعد بعثه

وخروجه من قبره، ورأى هٰذِه الأهوال العظيمة الشديدة، ومجيء رب العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والملائكة، ومجيء هٰذِه النَّار، وجاء الفصل والقضاء بين الناس، هنا يتذكر هٰذَا الإنسان.

يتذكر ماذا؟ يتذكر الدنيا وما فعل فيها، وما قدم فيها، إن كان مفرطًا، مضيعًا، ضالًا، ندم أشد الندم، وإن كان مقصرًا أَيْضًا ندم اشد الندم، وكلهم كل سيندم، وكل سيرى نفسه أنه قد قصر في هٰذَا الشيء، وتذكر أن لو كان شغل دنياه كلها في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، يتذكر الإنسان قال الله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، كيف تكون له الذكرى؟ ما ينفع بعد انتهاء وقت الذكرى.

الدنيا هي مجال العمل، الدنيا هي وقت العمل، فإذا انتهت دنياه وخرج من هٰذِه الدنيا انتهى عمله، وقضي وانتهى أمره، فَهٰذِه الدنيا هي مجال العمل، قَالَ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، يقول ماذا؟ ﴿يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، يتمنى، هٰذَا أسلوب تمني، يا ليتني قدمت من الأعمال الصالحة لحياتي، أي حياة؟ حياة الآخرة، وعرف الآن أن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]؛ الحيوان يَعْنِي: الحياة الحقيقية الدائمة، التي ليس فيها موت، ولا تنقطع سرمدًا.

يقول هنا: ﴿يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤]، إذًا فيه تذكر، فيه تحسر، فيه ندم، مَتَىٰ؟ إذا فات الأوان، ما دام معك الأواني الآن، والوقت معك، لماذا تعرض نفسك للتحسر، والتذكر، والندم، ما ينفع، فما دام أنك في فرصة فاستغل هٰذِه، ولذلك بعثة الأنبياء، ونزول هٰذَا القرآن كله تذكير لنا، تذكير حَتَّىٰ تحيا قلوبنا مع القرآن، وتحيا قلوبنا ما دام الفرصة معنا، وما دام أن الله أعطانا أعمارًا نستغلها.

قَالَ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ [الفجر: ٢٥]، إذا جاء يوم القيامة، وجاء هٰذَا الندم والتحسر، ﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥]، ما في أحد يعذب مثل عذاب الله، إذًا عذاب الله شديد، لا يمكن أن يوصف، ولا يمكن أن يُقاس عَلَىٰ أي عذاب من عذاب الدنيا، لا يعذب عذابه أحد، عذاب الله عظيم، وَهٰذَا عرض لأهل النَّار.

ثُمَّ يعرض أهل الجَنَّة، قَالَ: ﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥-٢٦]، إذا وُثِّقت الأيدي والأرجل بالسلاسل، وغُلَّت الأيدي بالرقاب، لا يوثق ولا يسلسل مثله، ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي

﴿أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١-٧٢]، ما ينفع، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بدأ بأهل النار تهديدًا للمعاندين المستكبرين، ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٦].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أسلوب الترغيب، وأسلوب ترغيب وتهنئة، وأسلوب شكر ورد معروف، ينادي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هٰذِه النفس الطيبة، النفس المطمئنة، النفس المؤمنة، النفس الَّتِي عرفت لماذا خلقها الله، النفس الَّتِي قدمت لنفسها، قَالَ: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، اطمأنت عَلَىٰ أي شيء؟ اطمأنت عَلَىٰ أنها تلقى الله وهي آمنة، تلقى الله وهي آمنة، لماذا؟ لأنها استعدت لهذا اليوم يوم المعاد، فمن استعد لهذا اليوم، لقي الله وهو مطمئن آمن، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]،

ولذلك قَالَ: ﴿النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وصفها بالطمأنينة، والراحة النفسية، وانشراح الصدر، ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، يقول الله لها، أَوْ للملائكة: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨]؛ يَعْنِي: ترجعين إِلَىٰ رضا الله، وإِلَىٰ جنة ربك، ودار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، دار كرامة، ارجعي إِلَىٰ ربك راضية أنتِي، والله أَيْضًا، وأنتي قد أرضيت الله سُبْحَانَهُ، وقد رضي الله عنك أيتها النفس، أيها الإنسان ارجع إِلَىٰ ربك وأنت راضٍ عما عملت، وعما جُزيت به من الحسنات والجزاء الحسن، وقد رضي الله عنك، فأنت رضيت وأرضيت، ورضي الله عنك.

قَالَ: ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨]، شوف كيف؟ طمأنينة، مطمئنة، وراضية، ومرضية، كل هٰذِه بشارات لهم.

قَالَ: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر: ٢٩]، في زمرة المتقين، وزمرة الصالحين، ورفقة الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين، ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٩-٣٠]، كما قَالَ بعضهم: الجار قبل الدار، أعطاهم الله وصف لهم الجار وصحبة الأخيار، قبل أن يستقروا في هٰذِه الدار.

ذَكَرَ بعض أهل التفسير أن هٰذِه الآية تصدق عَلَىٰ يوم القيامة، وتصدق أَيْضًا عند الموت، فعند الموت تأتي هٰذِه البشارات، إذا خرجت روح الإنسان، أَوْ عند احتضاره يناديه منادي، ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، أخرجي أيتها الروح الطيبة إِلَىٰ مرضاة من الله، ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ

﴿الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، يَعْنِي: يوجه للمؤمن هٰذَا الكلام عند خروجه من الدنيا، وعند ملاقاة ربه في عرصات يوم القيامة.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا يحرمنا فضله، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير، وأن يجعلنا من هٰذِه النفوس المطمئنة، الراضية المرضية، إِلَىٰ لقاء آخر إِنْ شَاءَ اللهُ من سورة أخرى بِإِذْنِ اللهِ، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، واللهُ أَعْلَمُ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ البَلَد)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(البلد ١ - ٢٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيُّها الإخوة الكرام السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، هذا اليوم هو اليوم الثالث والعشرون من شهر رجب من عام أربعة وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة، أسأل اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُعيننا وإياكم على ذكره وعلى شُكره وعلى حُسن عبادته.

هذا المجلس المُبارك وهذه الوقفة المُباركة مع كتاب اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قراءةً وتفسيرًا وتدبُّرًا وتأمُّلًا، مجلس مبارك تحفُّه الملائكة تغشاه الرحمة تنزل عليه السكينة يذكر اللَّه حاضريه في الملأ الأعلى عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

السورة الَّتِي بين أيدينا هي سورة البلد، وأنت تقرأ في سورة الفجر تتأمَّلها ثم تنتقل إلى سورة البلد تتأمَّلها تجد بينهما توافق كبير جدًّا في أولًا القسم فإن سورة الفجر أقسم اللَّه بخمسة أمور كما مر معنا ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ١-٤] خمسة، وأقسم هناك أيضًا بقسمين عظيمين، إذًا توافق بين أنَّ هذه مُفتتحة بالقسم وهذه مُفتتحة بالقسم.

التوافق أيضًا الحديث عن هذا الإنسان هذا المخلوق العظيم، خلق اللَّه عَزَّ وَجَلَّ هذا الإنسان في كبد، وأيضًا ذكر هناك حديثًا عنه، أيضًا تجد التشابه بين السورتين أن اللَّه تحدَّث سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن هٰذَا المال وموقف الإنسان منه، كيف يتصرف بهذا المال، هل يكون هذا المال وبالًا عليه أو يكون هذا المال عونًا له على طاعة اللَّه.

وكذلك الحديث عن أهل المال مَن هم، مَن هم الذين لهم حق في مالك، ذكر اللَّه في سورة الفجر اليتيم والمسكين وذكر هنا أيضًا في هذه عتق الرقبة والمساكين المحتاجين هم أهل المال ولهم حقٌّ في مالك، تشابه عظيم بين السورتين تشابه عظيم.

السورة في مقصدها العام تتحدَّث عن هذا الإنسان، هذا الإنسان كيف خلقه اللَّه وكيف يتصرف في هذه الدنيا، ما بين إنسان منَّ اللَّه عليه بالطاعة والاستقامة والنور والهداية وآخر لم يرى هذا النور ولا هذه الهداية فتخبَّط في هذه الدنيا لا يدري أين يذهب حيران، السورة حقيقة عظيمة تحتاج منها إلى تأمُّل عظيم.

أولًا افتتاحيتها بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١]، القسم له أفعال وله حروف، الفعل أُقسِمُ أحلف هذه أفعال، والحروف الواو والباء والتاء، في الفجر قال ﴿وَالفَجْرِ﴾ أتى بالحرف يعني أُقسِمُ بالفجر، هنا صرَّح بالفعل قال ﴿لَا أُقْسِمُ﴾، اللام هذه كثير من الناس قد يغيب عن معناه أو يظن أنها نفي يعني لا أُقسِم يعني ما يحتاج الأمر قسم، لا هي قسم.

هذا الكلام عندما تتأمل تجد أن اللَّه يُقسِم، بدليل أنه عطف عليه قال: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ٣] كله قسم، حتى أنك لو تقرأ في موضع آخر يقول اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، ثم قال بعدها: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦] إذًا هو قسم حقيقته قسم، أما الَّذِينَ يقولون أنَّه ليس بقسم هذا المعنى بعيد، الصحيح أن السورة مُفتتحة بالقسم، حَتَّىٰ قوله تَعَالَىٰ: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢] هو قسم حقيقة.

طيب شلون يقول (لا) ثم يكون قسم؟ هنا السؤال، كيف يقول الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ وأنت تقول إنه قسم؟ نقول هذا أسلوب من أساليب العرب، القرآن نزل بلسان عربي مبين، أسلوب من أساليب العرب أنت تستعمله أحيانًا، إذا كان الأمر قد وقع حقيقةً وظهر تقول ما يحتاج القسم، لا أُقسِم بهذا الشيء، هذا واقع ظاهر، لو جاءك شخص قال لك الشمس ظاهرة في النهار اليوم، تقول ظاهرة، يقول لك هي ظاهرة؟ تقول لا أُقسِم إنها ظاهرة يعني ما يحتاج الأمر إلى أنني أُقسِم لظهوره وبيانه، هذا معناه، وهذا أسلوب من أساليب العرب، أنت تقول في بيتك لا والله بلا والله، فلا ليس معناها أنني لا أُقسِم، بل أُقسِم.

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ هذا اسم إشارة، يشير إلى أي شيء؟ إلى هذا البلد، ما هي البلد؟ هي البلد المذكورة هنا وقد ذكر اللَّه في موضعٍ آخر القسم بها صريحًا هي مكة شرفها اللَّه وحرسها اللَّه، قال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وهو يُخاطب محمدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقال في سورة التين: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، أقسم بالبلد الأمين وهي مكة، فقوله هنا لا أُقسِم بهذا البلد أي مكة حرسها اللَّه، يقول يعني لا يحتاج الأمر أن أُقسِم بهذا المكان الشريف المُعظَّم؛ لأنه شريف مُعظَّم فلا يحتاج أن أُقسِم به، أو أنني أُقسِم به لشرفه ومكانته.

ثم أتى بجملة اعتراضية قال: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ٢]، خطاب للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعنى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ﴾ للمفسرين عدة معاني، بعضهم يقول وأنت حل أي أنت حالٌّ ومقيمٌ في مكة،

وبعضهم يقول وأنت حلٌّ أي أن اللَّه أحلَّ لك القتال في مكة أحلَّ لك القتل والأسر في مكة مع أن اللَّه عَزَّ وَجَلَّ حرَّم القتل والأسر في مكة، ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة: ١٩١]، وأن نبي اللَّه إبراهيم عليه السلام حرَّم مكة جعلها حرامًا القتل وسفك الدماء والأسر والإيذاء والمعاصي كلها محرمة في هذا البلد، فاللَّه عَزَّ وَجَلَّ أخبر محمدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أباح له ساعةً يُقاتل فيها المشركين.

وفي هذا إشارة أو نقول هي من معجزات القرآن الغيبية إعجاز غيبي؛ لأنه لم يحلَّه إلا لما دخل مكة في السنة التاسعة أو في السنة في السنة الثامنة على الصحيح، دخل مكة وفتحها في السنة الثامنة فأحلَّ اللَّه له ساعة، الآية أو السورة نزلت قبل ذلك بكثير، قبل يمكن عشر سنوات أو أكثر فيخبره اللَّه بخبر لم يأتي، يُخبره بهذا الخبر، قال: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾.

المعنى الثالث قال بعض المفسرين: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ أي أن المشركين أحلُّوا دمك وأحلُّوا دم أصحابك وآذوك لأنهم اجتمعوا على قتله فأحلوا دمه، قالوا أنت حلٌّ بهذا، كيف يحلون دمك وكيف يؤذونك وهم يعرفون عظمة المسجد الحرام ويعرفون أنهم لا يتعرَّضون لمن جاء إلى هذا المسجد؟

كل من جاء قادمًا بعمرةٍ أو حج للمسجد الحرام المشركون لا يؤذونه، وغير المشركين حتى خارج قريش لا يتعرضون له بسوء فكيف هؤلاء المشركون يقتلون ويؤذون النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فكيف يحلون لأنفسهم أذى محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

وكل هذه المعاني صحيحة أنه حالٌّ بمكة، وأنه حِلٌّ بمكة، وأنهم أحلُّوا دمه، كل هذه صحيحة، قال: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، ثم عاد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى القسم مرةً أخرى لما أقسم بهذا البلد الشريف أقسم أيضًا بهذا الإنسان لما سيأتي مما يتعلق بهذا الإنسان فقال: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ [البلد: ٣]، الوالد من هو؟ ومن هو الولد؟ نقول كل إنسان والد ومولود، فيُقسم اللَّه بكل إنسانٍ قد أصبح والدًا وكل إنسان هو ولد أو مولود، فيقسم اللَّه تعظيمًا لهذا الإنسان، هذا الإنسان الذي خلقه سُبْحَانَهُ تَعَالَىٰ وكرمه وشرفه.

ثم جاء الجواب، اللَّه أقسم بأمرين أقسم بمكة وأقسم بهذا الإنسان، على أي شيء؟ قال الجواب: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] اللام هذه يُسميها أهل العلم اللام موطئة للقسم تأكيدًا لهذا القسم،

(وقد) تحقيق الأمر أن اللَّه خلق هذا الإنسان في كبد، والكبد المشقة العظيمة، الكبد المشقة التي يُكابدها الإنسان في حياته.

ولهذا المعنى لهذه الجملة وهذه الآية، للمفسرين فيها معنيان: المعنى الأول أن هذا الإنسان خلقه اللَّه في كبد، فإن أردنا به الكافر فإن اللَّه خلقه في مشقة وتعب في هذه الدنيا وسيواجه من المشاق العظيمة في قبره ويوم القيامة حتى يصل إلى مقره الأخير في نار جهنم وهو يُواجه ويُكابد هذه الحياة، هذا معناه، إلا من عصمه اللَّه فعرف الطريق إلى اللَّه وعرف الهداية.

والمعنى الثاني أن معنى قوله لقد خلقنا الإنسان في كبد أي في مكابدة في حياة المؤمن، سواءً قلنا في حياته في خلقه، كلها مكابدة ومشاقة، فخلقه في بطن أمه مُكابدة، وفي الدنيا يُكابد الحياة ويُواجه أشياء عظيمة، يبحث عن رزقه، يُصاب بالمصائب وغير ذلك، كلها في كبد، حتى في أعماله تحتاج إلى عمل، كل ذلك يعيش الإنسان في هذه الدنيا في كبد، ولكن المؤمن يختلف، المؤمن إذا أصابته ضراء صبر، وإذا أصابته سراء شكر، ولا يكون ذلك إِلَّا للمؤمن، فيُواجه المكابدة بلا شك لكنه يعرف كيف يتصرف مع هذه الأمور الشاقة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥]، يقول هذا الإنسان الكافر؛ لأن المؤمن يعرف أن اللَّه يقدر عليه لكن هذا الكافر يحسب أن لن يقدر عليه أحد، يظن أنه خلاص أصبح في قوة ونشاط ومكابدة لهذه الحياة، فيظن أنه هو القوي وليس هناك أقوى منه، يستطيع أن يبطش بالمال ويأخذ ويُعطي وإلى آخره قوةً فيه وصلابة، فيظن أنه قد وصل إلى أنه لن يقدر عليه أحد، يظن أنه وصل إلى هذه الدرجة وهو أضعف شيء من المخلوقات، قد يكون من أضعف المخلوقات، أي مصيبة تصيبه يسقط منهارًا على طول، فاللَّه أعطاه القوة والنشاط ويظن أنه وصل إلى هذه الدرجة.

وشوفوا موقفه حتى تعرف أن السياق في سياق من لا يعرف الطريق إلى الهداية، السياق في كل من لا يعرفه ولذلك قال اللَّه عز وجل فيه: يقول هذا الإنسان مع قوته ونشاطه ومكابدته وأعطاه اللَّه القوة، ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ [البلد: ٦]، أعطاه اللَّه المال والقوة والنشاط فلم يُحسن التصرف في هذا المال، ولذلك قال: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ يعني مالًا كثيرًا تلَّبد بعضه على بعض فأهلكه، ما عرف يتصرف فيه.

لو كان في باب الخير وكان في باب الطاعة لما قال الله ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾، لقال أنفقت في وجوه الخير فيأخذ المال ويُنفقه في وجوه الخير، لكن لما قال أهلكت دلَّ على أنه لا يُحسن التصرف وأنه كافر يبطش بالمال ولا يدري ماذا يصنع به.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾، فقال الله له هذا الإنسان الذي أعطاه الله القوة والنشاط والمكابدة لهذه الحياة وأعطاه المال الذي بدأ يعني يتصرف فيه بغير حق يقول: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧]، يظن أن الله لم يره ولم يطَّلع عليه، الله مُطَّلع عليه وعالم بحاله فكيف يدَّعي ويفتخر بماله ويبطش بماله ولا يحسن التصرف فيه والله مُطَّلع عليه، قال: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾.

ثم ذَّكره الله عَزَّ وَجَلَّ لما أخبره أن الله مُطَّلع عليه ذكَّره بالنعم التي فيه فذكر أشهر هذه النعم، فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ [البلد: ٨] يُبصر بهما ويرى بهما ويستطيع أن يتحرك ويذهب ويأتي، هذه نعمة العينين من أعظم النعم على هذا الإنسان، جعل الله له عينين يُبصر بهما، تفكَّر في نفسك لو تفقد هاتين العينين كيف ستتصرف؟ ستفقد شيئًا عظيمًا.

قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ يمن الله عليه بأن جعل له عينين يُبصر بهما، ألم نجعل له عينين ولسانًا يتكلم ويتحدث ويُبين ويُفصح؟ والله أنعم عليك بالبصر تُبصر، تنظر السماء وتنظر إلى الأرض وتنظر إلى طريقك، وتُبصر الناس وتعرف فلان وتعرف فلان بعينيك، وأعطاك اللسان تتحدث والبيان، تستطيع أن تأخذ وتُعطي مع الناس وتتكلم، لو فقدت لسانك هذا لم تتحدث وأصبحت ستتحدث بالإشارة، عرفت نعمة هذا اللسان العظيم وهذا البيان.

قال: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد: ٩]، شفتين لجماله بخلقته، لو لم يكن له هاتان الشفتان لأصبح فيه تشويه في خلقته، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى نعمة الشفتين للحديث، لو حصل خلل في إحدى الشفتين لم يُبِن الكلام ولم يُوضِّح كلامه وأصبح كلامه غير واضح، كذلك من نعمة الشفتين أنها تحفظ الطعام والشراب، لو أصبح فيها خلل سقط الطعام والشراب.

فهذه نعمة عظيمة، نعمة الشفتين لو تنظر فيها وتتأمل فيها وجدت فيها من الآيات العظيمة العجيبة في خلقها لما خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لما ذكَّره بنعمة الدنيا يُبصر ويتكلم وخلقه بأحسن صورة وبجمال وبشفتين جميلتين، هذه من نعم الدنيا، ذكَّره بنعمة الآخرة نعمة الهداية التي هي أعظم.

قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، النجدان طريق الخير والشر، هداه اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعني بيَّن له، هداه هداية إرشاد، بيَّن له طريق الخير والسعادة والنجاة وبيَّن له طريق الشر حتى لا يقع فيه، هداه النجدين.

لماذا سُمي طريق الخير والشر بالنجدين؟ أصل النجد هو ارتفاع الشيء، ولذلك تُسمى هذه المنطقة منطقة نجد بارتفاعها، أصل النجد ارتفاع الشيء، وسُمِّيَ طريق الهداية وطريق الضلال النجدين لأنه يحتاج إلى جهاد، يحتاج إلى جهد وبذل كأنه مرتفع، ولذلك اللَّه سبحانه وتعالى قال في موضع آخر: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وهنا قال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ طريق الخير والشر.

أعطاك اللَّه نعمة عظيمة أنك بيَّن لك طريق الشر حتى لا تسلكه وتتجنبه، وبيَّن لك طريق الخير حتى تسلكه وتنجو بهذا الطريق وتسلم بهذا الطريق.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١]، يقول هديناه طريق الخير وطريق الشر، ولكن مع الأسف أنَّ كثيرًا من الناس لم يرد الخير ولم يرد طريق الخير ولم يرد طريق النجاة بل أراد طريق الضلال والهلاك وعاش لحياته فلم يقتحم العقبة، ما هي العقبة وكيف يقتحمها؟ اقتحامها دخولها وصعودها بقوة، وأصل العقبة الشيء المرتفع، وهذا تصوير بديع لأي شيء للأعمال الصالحة، الأعمال الصالحة كالعقبة تحتاج منك إلى جهد، تحتاج منك إلى مجاهدة النفس بالأعمال الصالحة، قيام الليل الصيام في الهواجر أو شدة الحر، قراءة القرآن وغير ذلك، مجالس العلم، هذه تحتاج إلى مجاهدة تحتاج إلى صبر.

يقول هذا لم يقتحم العقبة، ثم قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: ١٢]، ما علمك ما هي العقبة؟ هذا أمر عظيم شديد يحتاج منك مجاهدة، ما هو؟ فسَّر لك العقبة حتى تعرفها، قال هي ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١٣] يعني إعتاق وفك الأسارى في الحروب وإعتاق الرقاب التي جعلها اللَّه دائمًا في الكفارات، يعني تخليص هذا الرقيق من رقه وجعله حرًا وهي أكثر ما يتشوَّف له القرآن ويتشوَّف له الشرع.

قال: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ﴾ [البلد: ١٤]، يعني العَقَبة هذه تحتاج منك أن تبذل المال، لما قال هنا ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا﴾ هذا المال لو صرفته في إعتاق الرقاب وصرفته في إطعام المساكين لما قال هنا: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤] يعني هذا المال تصرفه في إطعام هؤلاء المساكين الجياع، الذين لا مال ولا دار، قد

افترشوا الأرض والتحفوا السماء ولم يجدوا مالًا، لا تجد المرأة الثكلى، المرأة الأرملة، الطفل الصغير اليتيم، الشيخ الكبير لا يجدون ذلك، تأتيهم الكوارث تُصيبهم الجائحات فيحتاجون من يقف معهم.

ولذلك قال: ﴿إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ﴾ [البلد: ١٤] هذا اليوم ما هو؟ قال: ﴿يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ شديد المجاعة، هنا يأتي دور الإنفاق في سبيل الله وهنا يأتي دور اقتحام العقبات الشديدة، لما تدفع المال الطائل، لما دعا النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة إِلَىٰ إنفاق مالهم في جيش العسرة جاء أبو بكر بماله كله، قال: ماذا تركت لأولادك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله، هذا وقت العقبة الشديدة.

قال: ﴿يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ [البلد: ١٤] إطعام مَن؟ قال إطعام اليتيم وخاصةً إذا كان قريبًا، فإطعامه صدقه وصله، أو مسكين الجائع المحتاج الذي قال: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦] الذي لصق من شدة الجوع والمسكنة على الأرض لا يستطيع القيام من شدة الجوع، فقال: يعني ﴿مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، وهذا الذي يعمل هذه الأشياء هذا العمل واقتحام العقبة لا يأتي من فراغ وإنما يأتي من أعمال صالحة وإيمان سابق، فإن كان عندك إيمان قوي وعمل صالح فهذا الذي يساعدك.

ولذلك قال: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧]، أصبح يعني رسخ الإيمان فيه في قلوبهم، ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ وصى بعضهم بعضًا، المؤمنون كالجسد الواحد يوصي بعضهم بعضًا، قال: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [البلد: ١٧] أن يُصبِّر بعضهم بعضًا على الطاعات وعلى الإنفاق في سبيل الله وعلى الوقوف مع إخوانهم، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ بأن يرحم بعضهم بعضًا.

فإذا فعلوا ذلك وتماسكوا وتواصوا وعملوا الصالحة وآمنوا النتيجة قال: ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١٨]، هم أهل الخير والصلاح في الدنيا والآخرة، وهم أهل النجاة، أصحاب اليمين يأخذون كتابهم بيمينهم، أما غيرهم من أصحاب الشمال الذين لم يعرفوا هذا الطريق وخبط في هذا المال وأهلك المال المتراكم ولم يحسن التصرف فيه.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ [البلد: ١٩] كفروا ولم يؤمنوا ولم يعرفوا حق المسكين والضعيف، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ [البلد: ١٩] أي أصحاب الشمال عليهم نارٌ مُؤصدة أي مصيرهم إلى نار جهنم تُؤصد عليهم وتُغلق عليهم، فيصبحوا في مكانٍ قد أُغلق عليهم كما قال

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨-٩]، قد أُغلقت عليهم الأبواب فلا يستطيعون، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

فالسورة عظيمة تحدثت عن عدة أمور، تعظيم المسجد الحرام والبيت الحرام، وتعظيم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذا الإنسان المخلوق وحاله في الدنيا ومواقفه كيف يُكابد الحياة والمشاق إن كان من أهل الخير أو إن كان من أهل الشر، ماذا يصنع بهذا المال، كيف يتصرف به، له إخوان محتاجون يقف معهم ويساعدهم، هذا ما تحدثت عنه السورة، التعاطف والتماسك والتكافل بين المسلمين، حقيقة سورة عظيمة وقفنا معها وتأملناها.

أسأل الله أن يُبارك لنا ولكم وأن يُوفقنا وإياكم لطاعته واللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّد، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الشَّمْس)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الشمس ١ - ١٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوة الكرام السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هذا اللقاء المبارك في هذا اليوم وهو غُرة شعبان من عام أربعة وأربعين وأربعمئة بعد الألف من الهجرة، أسأل اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح وأن يُبارك لنا ولكم في أوقاتنا وفي أعمارنا وفي علمنا وفي طاعاتنا.

درسنا في تأملات القرآن الكريم وتدبُّراته، بين أيدينا سورة من سور القرآن الكريم من قصار سورِه ومن الجزء الأخير، هي تتحدث حقيقة عن موضوع يهُمُّ الجميع ونحتاج إليه لتذكيرنا وتذكير أنفسنا وإخواننا، السورة التي بين أيدينا هي سورة الشَّمْس.

أقسمَ اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأمور عظيمة في هذه السورة، وهذه السورة والتي تليها والتي تليها وكثير من السور الآتية كلها مُفتتَحَة بالقسم، يُقسِم اللَّه بأمور عظيمة، الشمس، الليل، الضحى، العصر، أوقات وأزمنة، وكل قسم يأتي جوابه متناسبًا معه.

يعني اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما يُقسم بهذه الآيات العظيمة، يعني قد يأتيك سائل ويقول لك مثلًا لماذا اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أقسم بالشمس في هذه السورة؟ هذا سؤال يحتاج إلى جواب، لما يأتيك شخص يقول لك طيب سورة الضحى ليش اللَّه اختار وقت الضحى وأقسم به؟ ليش ما يختار وقت الفجر ولا وقت الظهر؟ الضحى له دلالة، يعني أنت تقرأ القرآن تمر على هذه السورة وتسمعها وتقرأها لكن تحتاج منك أن تقف عندها، سورة العصر ليش أقسم اللَّه بالعصر؟ فكل سورة لها دلالاتها، وأهل التفسير وأهل العلم بحثوا في هذه الأشياء وأظهروا لنا بعض الأمور التي لها علاقة حقيقة وقوية في اختيار هذه الأشياء التي أقسم اللَّه بها.

ومن المعلوم عند الجميع أن اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يختار بعلم سابق وبحكمة، ولا يُقسِم إلا بأمور عظيمة عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلما أقسم بالشمس وجعلها هي أول هذِه المُقسَمات بها، لها دلالة عظيمة واختارها اللَّه وجعلها هي أول الأمور التي أقسم اللَّه بها واختار الشَّمْس.

أنت تعرف أن كل قَسَم لازم يكون له جوابه، يكون له المُقسَم عليه، أنت لما تقول مثلًا واللَّه ثم واللَّه، تُقسِم على شيء معين، إيش الشيء هذا؟ هنا هذا يُسمى جواب القسم، تقول واللَّه ثم واللَّه أنني زرت فلانًا،

هذه (إنني زرت فلانًا) هي التي جعلك تقسم تؤكد عليها، فكل قسم له جواب، يعني أن تقسم على شيء معين.

هنا لما يقول اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤)﴾ [الشمس: ١-٥]، شوف كم مِن أمور، والسماء والأرض والنفس، على أي شيء؟ أين الجواب؟ يقسم على أي شيء؟ يُقسم على أمر مهم كلنا نحتاج إليه، هذا الذي أقسم اللَّه عليه هو الذي تدور السورة حوله، كل السورة تدور آياتها حول هذا الشيء، هذا الشيء هو الذي يُميز فلان عن فلان، يُميز كل فلان عن غيره، هنا يأتي المَحَك، يأتي المقصد، يأتي المحور الذي الآيات كلها تدور حوله.

ما هو؟ قال هو جواب القسم، طيب أين جواب القسم؟ قال هو قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، أفلح من زكَّا، زكَّا مَن؟ زكَّا نفسه، زكَّاها بأي شيء؟ وشوف كلمة ﴿أَفْلَحَ﴾ ﴿زَكَّاهَا﴾ وقبلها الشمس، فيها دلالات عظيمة تحتاج أن نتدبرها.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠]، هذا هو الذي تدور عليه السورة، فحتى قبل هذه الجملة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠] الآيات التي قبلها لها ارتباط وثيق بها، وما بعدها في قصة ثمود لها أيضًا رابط قوي في النفس.

حتى أنت الآن كما يقول تعيش مع السورة تتأملها، تُحلِّق في هذه السورة، نحتاج منا تركيز وجهد وفهم لآيات السورة حتى تدخل في معالم هذه السورة، السورة هذه لها معالم لها دلالات عظيمة، أي سورة من القرآن ليست مثل أي كلام، هذا كلام رب العالمين ليس كلام بشر، فيحتاج منك إلى وقوف تأمُّل دخول تدبُّر إعادة، تقرأ السورة أكثر من مرة، ولذلك من المنهج النبوي أنه كان يكرر السورة ويكرر الآية.

النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ في ليلة: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] كرَّرها حتى طلع الفجر، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كرَّرت أيضًا آية حتى قال القائل أني سمعتها تقرأها فذهبت إلى السوق وقضيت حاجتي وجئت وهي تكررها ﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٧-٢٨]، تُكررها، لماذا نكررها؟ حتى نستوعب دلالاتها ما نستوعب الألفاظ واضحة قدامك، تستوعب ما تدل عليه هذه الآيات.

اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أقسم قَالَ: ﴿وَالشَّمْسِ﴾ [الشمس: ١] الشمس هي من أعظم الآيات المُشاهدَة بما فيها من مصالح للبشر وبما فيها من تسخير وعجائب ودلالات عظيمة، لما تتأمل هذه الشمس في طلوعها في أول النهار، في توسطها في الشمس في وسط النهار، في غروبها وذهابها، أين القوة وأين التأثير الذين نُشاهده من الشمس وعظمتها في السماء، وأنها تحطمت على الأرض وأبدت نورها على الأرض حتى تبدد الظلام وذهب، ثم في الأخير تذهب ما لها أي أثر، من الذي ذهب بها إلا الخالق القادر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ هو الذي يُسخرها وهو الذي يُدبِّرها، وقد يأتي يوم لا تأتي.

فيُقسم اللَّه بالشمس، والشمس هذه لما يذكرها اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سطوعها على الأرض ما ذكرها قال والشمس إذا طلعت ولا والشمس إذا غربت، قال: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ضُحاها يعني وقت الضحوة، وقت الضحى لأنه هو أشد سطوع الشمس في الأرض وأشد نور الشمس يكون على الأرض بحيث أنه يذهب كل ظلام، تدخل الشمس في كل دار، تملأ الأرض، ولذلك أقسم بالشمس وضحاها.

وأنت لما تأخذ هذه الجملة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] التي أقسم اللَّه بها ثم تذهب بها إلى جواب القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، عرفتَ أن الإنسان المؤمن الطائع التقي أنَّ صدره ونفسه كالشمس في قُبول الحق وفي انتشار الحق في صدره كانتشار الشمس على الأرض، وحُبه للطاعات وإقباله على الطاعات كالشمس يسطع سطوعًا.

وعكسه من دسَّاها كالظُلمة، ما يقبل شيء وليس له أي أثر إلا هذه الظُلمة والسواد الذي اسودَّ القلب معه واسودَّت النفس معه، النفس تتأثر بالطاعات وتتأثر بالمعاصي.

ما هي النفس؟ النفس هذه يعني خَلْق لطيف جعله اللَّه في هذا الإنسان، خفيف لطيف يتحرك، نحن لا نعلم كيفيته ولا نعلم كنهه ولا صفته لأن اللَّه لما قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] قال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ما نعرف كُنهها، لكن نعرف أنها في هذا الجسد.

إذا خرجت من هذا الجسد أصبح الجسد جماد ما يتحرك، الذي يُحرِّكه هو هذه النفس، ولذلك النفس هذه تصعد بهذا الإنسان إلى أعلى عليين أو تجعله في أسفل سافلين، هذه النفس تجعل الإنسان يسطع بنور

الإيمان حتى يُشاهد كل شيء أمامه ويعرف الحق ويُميزه ويتبعه، ويعرف الضلال ويُميزه ويجتنبه، إذا متى؟ إذا امتلأت بطاعة الله، مثل الشمس إذا ملأت الأرض.

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ثم أقسم بآية أخرى، قال: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ٢] والقمر معروف والشمس معروفة، ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾، كيف يتلوها؟ إذا ذهبت الشمس عن الأرض جاء القمر مكانها، تلاها بحيث أنه يكون له دور على الأرض بعدما كانت الشمس لها دور على الأرض، الشمس لها دور على الأرض ولها تأثير على الأرض، ذهبت الشمس جاء مكانها القمر وأصبح له دور على الأرض في نوره في تأثيره في دلالاته في دوره على الأعمال ونحو ذلك، كل هذا.

فتُلُوِّ القمر يعني يأتي مكانها، وقيل أنَّ ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ أي تبعها في النور، بحيث أن نور الشمس يذهب فيأتي نور القمر.

طيب قال بعدها: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس: ٣]، النهار يُجَلِّي يظهر، التجلية هي الظهور، طيب ﴿جَلَّاهَا﴾ جل ماذا؟ قال بعض المفسرين جلَّى الأرض، يعني النهار إذا جاء كشف لنا الأرض بنوره وبدَوْر النهار، النهار يُصبح الناس يُبصرون، النهار مُبصر، يُبصرون الناس، فإذا جاء جلَّى الأرض، وقيل: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي جل الشمس على الأرض، يعني إذا جاء النهار جاءت الشمس وسطعت على الأرض.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ [الشمس: ٤] إذا جاء الليل غشَّى الأرض بمعنى غطَّاها بظلمتها حتى لا تُبصر شيئًا على الأرض من شدة سواد الليل، إذا اسودَّ الليل واشتد سواده لا تُبصر شيئًا، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي يُغطي الأرض، أو يُغطي الشمس، إذا جاء الليل غطى الشمس فذهبت فأصبح الناس في ظُلمة.

شُوف! آيات عظيمة، اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال في موضع آخر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، فهي آيات من آيات اللَّه، جعلها اللَّه آية يُستدَل بها على أي شيء؟ على قدرة اللَّه وعلى علمه وعلى حكمته وعلى مُلكه وعلى تدبيره، وأن هذه كلها مُسَخَّرَة بأمر اللَّه ومخلوقة خالقها وأوجدها اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لما لفت نظرك إلى الشمس في السماء والقمر والليل والنهار وحركته السريعة وطول الليل وقِصر النهار، لفت نظرك إلى السماء التي هي فوقك، فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥] أي السماء التي يُقسم اللَّه بهذه السماء الواسعة ويُقسم بمَن بناها وهو نفسه، يُقسم بنفسه، يُقسم بالسماء وبانيها وهو اللَّه سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَىٰ، أو نقول والسماء وبُنيانها العظيم، هذا البنيان العظيم المُترامي الأطراف العالي البعيد السَّمْك العظيم، مَن خلق السماء بهذه الصورة وجعل فيها الشمس والقمر والنجوم آيات عظيمة وزينها بزينة الكواكب؟ هو اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيُقسم بها.

ثم مقابل السماء يُقسم بالأرض، ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ [الشمس: ٦] ومعنى طحاها أي جعلها مُنبسطة واسعة، يستطيع الإنسان أن يمشي وأن يزرع وأن يبني وأن يعيش عليها، جعلها مُنبسطة، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: ٦].

قال: ﴿وَمَا طَحَاهَا﴾، ثم أقسم بهذه النفس حتى يربطك بأي شيء؟ بالجواب، جواب هذا القسم، جعل النفس آخر شيء، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس: ٧] ومعنى سوَّاها من التسوية وهو حُسن الخَلق والجمال.

ما المراد بالنفس هنا؟ قال بعض المفسرين: هي نفس بني آدم، نفس ذرية آدم، وبعضهم وسَّع قال لا، النفس هي كل نفس، نفس الحيوانات من بهيمة الأنعام والوحوش وغيرها فيها نفوس تتحرك، وكلها فيها نفس.

فبعضهم قال هذا وبعضهم جعلها في نفس الإنسان، وهذا هو الصحيح هو الأقرب، لماذا؟ لأن الذي ألهمها فجورها وتقواها هي نفس الإنسان، قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨] هذه النفس سوَّاها، لما خلقها في أحسن صورة أودع فيها قبول الخير والشر، هذا معنى ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، أودع فيها قبول الخير والشر، ما من نفس إلا فيها قبول للخير وقبول للشر، فإن استطاع هذا الإنسان الضعيف أن يكون خيره أكثر من شره أفلح وحاول أن يكون الخير بيده، وإن ضعفت نفسه وتسلَّط الشر عليه وضعف الخير عنده قد خاب.

وهذا معنى ﴿أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، لما قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ لاحظ! قدم الفجور على التقوى، ليش؟ قال لأنه يُخاطب أناس كفار، هذا أولًا، والأمر الثاني أن طبيعة الإنسان كذا يفجر أمامه، يحب الشر، طبيعة الإنسان كذا، إلا منَّ اللَّه عليه وهداه إلى الهداية، وإلا طبيعة هذا الإنسان حبه يعني حب الشر طبيعته.

فلذلك قَالَ: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، الفجور معروف والتقوى معروفة، التقوى الخوف من اللَّه والطاعة والاستقامة، والفجور عدم الخوف عدم الطاعة عدم الاستقامة طلب الشر، كل هذا يدخل في فجورها.

قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ الآن حتى يعني كلمة ألهمها فجورها أن اللَّه أودع في هذا الإنسان حب الخير والشر، مثل قول تَعَالَىٰ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقول تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، يعني اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هداه الهداية العامة، لأنه هداية اللَّه على نوعين، هداية عامة بحيث أنه يوضح لك كل ما فيه خير أو شر، وهناك هداية خاصة.

الهداية العامة تشمل الخلق كلهم، حتى الكفار هداهم اللَّه الهداية العامة، ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] فهداية عامة، وهناك هداية خاصة هداية التوفيق والإلهام، هذه خاصة بمن يهديه اللَّه، هداية التوفيق للمؤمنين، أما الأولى يُسَمُّونها هداية الدلالة والإرشاد.

قال: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، اللَّه وضع في نفسك وفي عقلك أنك تعرف الخير وتعرف الشر، حتى الحيوانات، الحيوان يعرف عدوه ويعرف أن هذا خطر عليه ويعرف أن هذا شر ويعرف أن هذا خير، كذلك الإنسان يُمَّيز، أعطاه اللَّه عقل، أعطاه سمع وبصر ويُميِّز أن هذا يضره وهذا ينفعه، فمن تجنب ما يضره وسلك ما ينفعه هذا الذي قد أفلح، ومن عكس هذا الذي قد خاب، هذا معناه، فاللَّه عز وجل أقام الحجة على الخلق سواءً في وضع الآيات أمامه أو إرسال الرسل وإنزال الكتب، أقام الحجة على الخلق.

قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] وشوف كلمة زكَّاها، ما هي التزكية؟ النماء والزيادة، يعني زاد نفسه بالطاعات وكثرت الطاعات عنده، الطاعات هذه لها أثر على الإنسان، كلما يزداد طاعة يزداد قُربة من اللَّه، واللَّه يزداد حبًا، واللَّه يُحبه ويُقَرِّبُه، كلما اقترب من اللَّه اقترب اللَّه منه.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ رفع نفسه بالطاعات وارتفع وعلا بهذه الطاعة، شوف قال ﴿أَفْلَحَ﴾ يعني ظفر بما يريد ونجا مما يخاف، يعني ﴿أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠] دس نفسه وجعلها تندس في الفجور وفي المعاصي والشرك والكفر والضلال، فاندسَّت ولم تظهر، شوف الفرق بين المؤمن العالي، والكافر ينزل والمؤمن يطلع، ولذلك قال أفلح في العلو وخاب، عندنا فلاح وعندنا خيبة

وخسارة، وشوف قدَّم الفلاح لأنه هو المطلوب وهو الذي ينبغي للإنسان أن يُسارع له فيرتفع بالطاعة ويندس ويخسر بالمعاصي.

نختم المجلس بهذه الخاتمة التي ساقها الله لنا في قصة ثمود لما هداها الله ودلَّها على الخير لكنها أبت وعاندت وكفرت وامتنعت، لم تقبل ذلك، ساق الله لنا يعني مثالًا لمن دسَّ نفسه، طيب ليش ما ساق الله لنا مثالًا لمن زكَّى نفسه؟ نقول الأصل هو التزكية، والدعوة كلها قائمة على التزكية، والرسل أُرسلوا لهذا الأمر، والجنة لهم والكتب أُنزلت لأجلهم، الإشكال أنك تخاف من الطريق الذي يهوي بك في نار جهنم، أما الحق واضح تنطلق فيه، لكن تخشى أنت من هذه المهاوي التي تضيع فيها.

ولذلك ساق لك مثلًا من أمة مضت أقام الله عليها الحجة، وأرسل إليها الرسل، وأعطاها الأدلة الدالة على أن الله هو المستحق للعبادة وأنه ينبغي أن يُطاع فأبت وكفرت ولم تقبل وعبدت الأصنام والآلهة وردت رسالات ربها وكفرت وكذَّبت رسولها، بل زادت على ذلك أنها ردت الآية العظمى التي جعل الله لها وهي الناقة التي أخرجها الله لهم.

لما طلبوا من صالح عليه السلام أن يُخرج لهم آية، ما يُؤمنون إلا بآية حِسِّيَّة يُشاهدونها، قالوا إن أردتَ أن نؤمن بك أعطنا آية حِسِّيَّة فأخرج لهم هذه الآية، قال ماذا تريدون؟ فخرجوا معه للصحراء فنظروا إلى صخرة عظيمة صمَّاء، فقالوا يا صالح إن كنت رسولًا صادقًا في دعوتك وتريد أن نتبعك أخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقةً عُشراء حامل في الشهر العاشر، فصلى ودعا فانشقت الصخرة وخرجت منها.

يعني هل بعد هذه الآية آية؟ ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] يعني تشك في هذه؟ ما فيه شك، فقالوا سحرنا صالح، لا يريدون الحق ولا يريدون أن يتبعوا الحق.

ساق الله قصتهم قال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١]، أي بطغيانها وإسرافها وكفرها وعنادها، ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢] أي الأشقى هو الذي انبعث، حرَّضوه على عقر الناقة وشجَّعوه فقام، هذا يُقال له قُدار بن سالف مُحيمِر ثمود هو الأشقى، ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢].

قال: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الشمس: ١٢-١٣] حذَّرهم قبل ذلك وهددهم وخوفهم، ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ﴾ احذروا ناقة الله، لا تتعرضون لها هذه ناقة الله وإضافتها إلى الله تشريف، لا تتعرضون لهذه، ليست ناقة فلان ولا فلان وإنما هي لله، فلا تتعرضوها، ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾

[الشمس: ١٣] سُقياها أي شربها للماء في الآبار، ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وقال بعضهم سقياها أي لبنها، يعني احذروا الناقة واشكروا أن اللَّه أعطاكم ووهبكم لبنها لكم فاحذروا وخافوا اللَّه.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [الشمس: ١٤] والنتيجة عقروها فلما عقروها ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥] وخرج هو ومن معه من المؤمنين وتركهم، فجاءتهم الصيحة والرجفة، رجفت بهم الأرض وصاح بهم جبريل فتقطعت قلوبهم وماتوا عن آخرهم، أصبحوا هامدين.

قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤] فالنتيجة ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾ [الشمس: ١٤]، دمدم عليهم أي أطبق عليهم العذاب، عمهم العذاب جميعًا، لم يترك منهم أحدًا، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ﴾ [الشمس: ١٤] شوف كلمة بذنبهم هذه تحتاج منا أن نقف عندها، يعني ما عذبهم هكذا، بسبب ذنوبهم، بذنبهم لما عصوا اللَّه وتمردوا على شرعه وعلى رسوله، عذبهم بسبب الذنوب، وهذه شؤم الذنوب والمعاصي، خطورة الذنب على الإنسان.

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ جعلها كلها مستوية لم يترك منها أحد، ولا يخاف سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عاقبة هذه العقوبة التي أنزلها وهذا العذاب الذي أنزله عليهم، لا يخاف من عُقبى هذا الشيء ولا من عاقبته لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ملك وقوي وعزيز لا يُعجِزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن عصاه يعني استطاع أن ينتقم منه، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

هذه السورة حقيقة عشنا معها هذه الدقائق المعدودة، حفَّتنا الملائكة وللَّه الحمد، وأنزل اللَّه علينا السكينة وغشيتنا الرحمة، وذكرنا اللَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأسمائنا في الملأ الأعلى، فضل عظيم أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ألا يحرمنا هذا الفضل وأن يكتب لنا أجر هذا الفضل.

عِشنا مع هذه السورة، تدبرناها تأملناها عرفنا ما فيها، وأنت تقرأها مرة ثانية ستجد فرق شاسع بين قراءتك أول وقراءتك الحين، فرق كبير في تدبُّرها، وهذا هو المقصد، المقصد من قراءة القرآن أن تقف وتتدبر وتتأمل وتعمل.

أسأل اللَّه أن يُوَّفِقنا وإياكم لطاعته، واللهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ مُحَمَّد وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ اللَّيْلِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(الليل ١ - ١١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله وَالحَمْدُ للهِ، وأصلي وأسلم عَلَىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نَبِيِّنَا مُحَمَّد، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، ومن اهتدى بهداه إِلَىٰ يوم الدين، اللَّهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، واجعل هٰذِه الجلسة القرآنية جلسة مباركة نافعة.

أَمَّا بَعْدُ؛ أيها الإخوة الكرام السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هٰذَا اللقاء، وفي هٰذَا اليوم، يوم الثلاثاء الموافق للثاني والعشرين من شهر شعبان، من عام أربعة وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة.

مجلسنا المبارك مع تفسير القرآن العظيم وتدبر آياته، وتأملها، ولا شك ونعيد ونكرر كَثِيْرًا؛ أن الغرض والمقصد من قراءة القرآن هو الوقوف عَلَىٰ الآيات، وَالتَّدَبُّر، وَالتَّأَمُّل، وفهم ما تقرأه، لا أن تقرأ شيئًا لا تدري ما معناه، وإذا مر بك شيء من القرآن، أو آية، أو لفظ من ألفاظ القرآن الكريم لا تعرف معناه، كان الواجب عليك أن تقف عنده، وترجع إِلَىٰ كتب التفسير والمعاني التي توضح لك هٰذَا المعنى، ولا أن تقرأ أشياء لا تعرف معناها.

فإذا كنت تقرأ القرآن وأنت لا تعرف المعاني، ماذا تستفيد وكيف تطبق القرآن، والمقصد من القرآن هو فهمه وتدبره وتطبيقه، السورة التي بين أيدينا نقف معها، نتأملها، ونقرأ آياتها، وننظر فيما يريده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنت تقرأ الآية والسورة القرآنية، وكأنك تخاطب رب العالمين، أو أن الله هو الذي يخاطبك، كأنك تحدثه تحدث الله، أو يحادثك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتفهم ماذا تقرأ، وماذا تعني هٰذِه الآيات، ماذا تريد منك هٰذِه الآيات، هٰذَا هو المقصد.

فنقرأ هٰذِه الآية، وهي السورة التي بين أيدينا، هي سورة اَللَّيْل، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سمى بعض هٰذِه السور بأشياء من آياته الكونية وغير الكونية، وهٰذِه السورة وما قبلها وما بعدها، كله سور تبدأ بالقسم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقسم إِلَّا عَلَىٰ أمر عظيم، هٰذَا الأمر أولًا لَا بُدَّ أن نفهمه، الله لا يقسم إلا عَلَىٰ شيء عظيم، هٰذَا يسمى جواب القسم، أو المقسم عليه.

ثم هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقسم إلا بأمور عظيمة عنده، فالليل أمر عظيم، والنهار أمر عظيم، وَالشَّمْس، والقمر، والضحى، والعصر، والفجر؛ كلها أمور فيها آيات عظيمة، والله لما يقسم يختار هٰذَا الشيء، الغرض منه أن يلفت الأنظار إِلَىٰ أن تتفكر في هٰذِه الآيات العظيمة، لا أن تقرأ: وَاَللَّيْل إذا يغشى، وَالنَّهَار إذا تجلى، وما خلق الذِّكْر...!، لا، هٰذَا ليس المقصود.

أولًا: لماذا أقسم الله بِاَللَّيْلِ، هٰذَا أمر، قف عنده، ثم بما وصف الله الليل لمّا أقسم به، قَالَ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]؛ يغطي بظلامه كل شيء، إذًا هو آية عظيمة، الآن أنت في النهار تبصر، والنهار مبصر وتشوف كل شيء، بعد ساعات تصبح في ظلمة شديدة، لولا هٰذِه الأنوار المخترعة، لأصبحت في ظُلمة شديدة، والليل قد غطى كل شيء، حتى لو أردت أن ترى يدك، لا تستطيع أن تراها في بعض الأحيان، إذًا هو آية عظيمة.

أَيْضًا ينبغي لك أن تتفكر وتتأمل، لماذا قدم الله اَللَّيْل، ليش ما قَالَ وَالنَّهَار؟ السورة التي قبلها أقسم الله بِاَلشَّمْسِ، قَالَ: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ثم أقسم بالقمر، ثم أقسم بِالنَّهَارِ، ثم أقسم بِاَللَّيْلِ، أخَّر اَللَّيْل، هنا لا، قدَّم اَللَّيْل، إذًا فيه أسرار، فيه حكم في اختيار هٰذِه الألفاظ، واختيار هٰذِه الأوقات، تقديم هٰذَا الشيء عَلَىٰ هٰذَا الشيء، لَا بُدَّ لك أن تتدبر وتتأمل، هٰذَا هو التدبر والتفكر في القرآن الكريم.

أقسم الله بِاَللَّيْلِ، قَالَ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]، والليل معروف، لا يحتاج أن نفسره، ومعنى إذا يغشى؛ إذا هٰذِه ظرفية زمانية للمستقبل، وإذا قلت: إذ؛ للماضي، وإذا قلت: إذا؛ للمستقبل، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقسم بالليل مَتَىٰ؟ قَالَ: ﴿إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: ١]؛ إذًا فعل يغشى هٰذَا الظرف متعلق به، أي عندما، أو في وقت غشيانه للأرض، عندما يغطي الأرض يقسم الله في هٰذِه الحالة.

يَعْنِي: أنت لما ترى هٰذِه الأرض، وهٰذِه البسيطة قد عمَّها الظلام قف عند هٰذَا، وتفكر، وتأمل، هٰذَا هو المقصود.

طيب، لماذا قدَّم الله اَللَّيْل؟ ذكر بعض أهل التفسير أن فيه إشارة، إِلَىٰ أن اَللَّيْل هو ظلمة الجهل، والكفر، والضلال، وأنها قد أزاحها الله، وذهبت، وجاء مكانها النور، والهداية، والطاعة، النَّهَار أصبح قد عم بنوره وضيائه الأرض كلها، فكأن هٰذِه الرسالة، رسالة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعثة النَّبِيّ صَلَّىٰ

اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأنها سبب لزوال الجهل، والظلم، والكفر، والطغيان، ويحل محله النور، والضياء، والهداية، والاستقامة، والطاعة، كأن إشارة إِلَىٰ هٰذَا الشيء.

وهٰذَا أَيْضًا يتأكد معنى السورة الَّتِي تليها، أشد التأكد في السورة التي بعدها، سورة الضحى لمَّا يأتي الحديث عنها، سيظهر لك جليًّا أنه فعلًا المقصود به رسالة النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢]؛ والنهار معروف، وإذا؛ عرفناها، وتجلَّى؛ أي انكشف، وظهر، وبان لكل إنسان، ما في أحد يخفى عليه النَّهَار، النَّهَار مبصر، واضح، ظاهر بنوره، ترى كل شيء، تبصر نفسك، وتبصر غيرك، فهٰذَا معناه، فهٰذِه آيات عظيمة.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ في موضع آخر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧]، فجعلها من آياته الدالة عَلَىٰ توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وانفراده بالخلق، والتدبير، وَالتَّصَرُّف، وانفراده بالعبادة، والطاعة، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ١-٢]، هٰذَا القسم الْثَّانِي.

القسم الْثَّالِث؛ قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [الليل: ٣]؛ أي والذي خلق الذكر والأنثى، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فأقسم بآيته العظمى، وهي اَللَّيْل، وأقسم بآياته العظمى، وهي النَّهَار، ثم أقسم بنفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه هو الذي خلق الذكر والأنثى، وبعض أهل التفسير يقول: إِنَّمَا؛ هنا مصدرية، يَعْنِي: وخلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذكر والأنثى، فأقسم بِاَللَّيْلِ، وبالنهار، وبخلقه لهذا الجنس مختلف، ذكر وأنثى، لماذا؟ ليبقى هٰذَا الجنس بتناسله، ولا ينقطع، ولا ينقرض.

ما المراد بالذكر والأنثى؟ نقول: يشمل الذكر والأنثى من بني آدم، الرجال والنساء، وأيضًا في البهائم عمومًا، وفي الطيور، وفي كل ما يتناسل، والزواحف كلها ذكور وإناث، صنَّفها الله بهذه الطريقة، صنفها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لتظهر آياته.

ولذلك الله ذكر قَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠]، وآية بعدها قَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]، فهٰذِه كلها آيات الله، فأنت تقرأ وتقف، تقرأ وتقف، وتتأمل هٰذِه الآيات العظيمة.

قَالَ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ [الليل: ٣]، لمَّا أقسم بهذه الأمور، عَلَىٰ أي شيء أقسم؟ قَالَ: أقسم عَلَىٰ أن سعي الإنسان، أو سعي بني آدم مختلف، ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ [الليل: ٤]؛ ما معنى: سعيكم، هل

السعي هو العمل، ولا يختلف؟ لو كان العمل، يَعْنِي هل يمكن أن يستقيم، أن تقول: إن عملكم لشتى؟ نقول: السعي أدق من العمل، وأبلغ من العمل؛ لأن السعي فيه عمل حثيث سريع، وجهد، فالإنسان يسعى بجهد، يعمل بجهد، وبسرعة، وينتج.

فقوله: سعيكم، لما قَالَ الله سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ [الليل: ٤]، دل عَلَىٰ أن الإنسان يسعى في هٰذِه الدنيا، والسعي هنا وإن كان سعي الإنسان في الدنيا يشمل سعي الدنيا والآخرة، أنت تسعى للدنيا لاكتساب، وتسعى للآخرة لتدَّخر أعمالك الصالحة عند الله، الذي كله شامل، لكن الآية خصت عمل الآخرة.

ولذلك يأتيك الآن تفسير هٰذَا السعي، ما المراد به، فنقول المراد بالسعي هنا: هو سعي عمل الإنسان في هٰذِه الدنيا، ماذا يقدم ماذا يفعل في أعماله الصالحة التي يتقرب بها إِلَىٰ الله، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وهل معنى شتى مختلف؟ نقول: لا، أبلغ، شتى أشد من مختلف، يَعْنِي اختلافًا جذريًا بعيدًا، مثل ما تقول: شتان بين هٰذَا وهٰذَا، لا يمكن أن يجتمعا، المختلفات قد تجتمع، لكن الأشياء التي هي أشتات ومختلفة، ومتفرقة بعيدة عن بعض، من الصعوبة أن تجتمع.

ولذلك قَالَ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]؛ أي مختلفًا اختلافًا عظيمًا، لا يمكن أن يجتمع اثنان، وتكون أعمالهم واحدة، مستحيل ولا يمكن، كل إنسان له عمله، ويقدم من عمله ما يستطيع ما يقدر عليه ويستطيع، وكل إنسان يبذل في هٰذِه الدنيا ما يقدمه، ليكون ذخرًا له في الآخرة.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]؛ هل يدخل في هٰذَا الأعمال الصالحة، والأعمال السَّيِّئَة، ولّا نقول فَقَطْ الأعمال الصالحة؟ نقول: لا، سعي الإنسان في الدنيا عَلَىٰ أي وجه، كان سعيه في الخير، والطاعة، أو سعيه في الشر والمعصية، كله داخل.

بدليل ما يأتي تفصيله الآن، فبدأ يفصِّل، وجاء بالفاء التي تفرِّع، قَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٥-٦]، هٰذَا الجانب اَلْأَوَّلُ، أهل الخير، والطاعات، والاستقامة، هؤلاء بدأ الله بهم، لماذا بدأ الله بهم؟ لحث الناس عليه، لحث الناس عَلَىٰ أن يبادروا إذا سمعوا مثل هٰذَا، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ [الليل: ٥]؛ أعطى ماذا؟ أعطى مال، ولّا أعطى عمل، ولّا ماذا؟

نقول: بعض المفسرين يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ [الليل: ٥]؛ أي بذل ماله؛ لأنه قَالَ في الجانب الآخر: بَخِل، وبعض المفسرين يرى أن كلمة أعطى؛ تشمل المال وغير المال، وهٰذَا هو الصحيح، أعطى يَعْنِي بذل، بذل نفسه بالمال والصدقة، وبالأعمال الصالحة، يَعْنِي: بادر بالطاعات، بادر بأداء الصلوات، بادر بقيام اَللَّيْل، بادر بالصيام، بادر بالعمرة، بادر بالحج، بادر بذكر الله، بادر بالتسبيح والأوراد، يَعْنِي: كلمة أعطى تشمل جميع ما يقدمه الإنسان لنفسه.

يَعْنِي كأن الآية تقول: فَأَمَّا من قدم لنفسه الأعمال الصالحة عَلَىٰ شتى أنواعها واختلافها، ولذلك نرجع إِلَىٰ كلمة سعيكم، يَعْنِي مراد به السعي عمومًا، كل الأعمال الصالحة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [الليل: ٥]؛ التقوى في غالب معانيها هي الخوف من الله، ولذلك إذا اجتمع البر والتقوى، يفسر البر بالطاعات، والتقوى بترك المعاصي، وهنا لما جاءت أعطى واتقى، العطاء أو الإعطاء: أعمالك الصالحة الَّتِي تقدمها، واتقى: أي خاف الله عَزَّ وَجَلَّ، خاف الله باجتناب معاصيه، فكأن الوصف هنا يعطينا: أن من بذل وقدم نفسه في الطاعات، وسارع إِلَىٰ رضا الله عَزَّ وَجَلَّ في الطاعات، واجتنب المعاصي، وخاف الله من الوقوع في المعاصي والمخالفات.

فَأَمَّا من أعطى، واتقى، وحقق هٰذِه الجملة، وأيضًا قبل ذلك صدَّق، وكان عنده الإيمان، وَالصِّدْق، والتصديق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبوعده، ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: ٦]، والمراد بالحسنى: ما وعده الله من الخير، يدخل في ذلك الجَنَّة، وما أعده الله للمتقين في قبل الجَنَّة، فيما في الدنيا بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحييه الحياة الطيبة، هٰذَا كله وعد من الله، وبقبره بأن الله سُبْحَانَهُ يجعله روضةً من رياض الجَنَّة، وبعرصات يوم القيامة، بأن الملائكة تتلقى، ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وبدخوله وفوزه بجنات النعيم، وبرضى الله، فكل هٰذَا داخل، وصدَّق بكل ما جاءه بخبر يسره، وبوعد من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وصدق بالحسنى، فالنتيجة ما هي؟ هنا يأتيك الذي نحتاجه حقيقة في هٰذِه السورة كلها، هٰذِه الذي نحتاج له؛ لأن هٰذِه أكثر ما مر معنا قد ذُكر في آيات أخرى، لكن هنا هٰذَا الذي نحتاج إليه.

قَالَ: من فعل هٰذِه الأفعال، النتيجة ما هي؟ قَالَ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٧]، من بذل وقدَّم، واجتهد في الطاعات، وصدَّق بوعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من كرمه، من كرم الله

عليه أن ييسره لليسرى، ما معنى ييسره اليسرى؟ أن يفتح له أبواب الخير في الصدقات، وفي الطاعات، وفي الأعمال الصالحة، وفي الصلاة وغيرها، مما يجد فيه اللذة، لذة الطاعات، ييسر اليسرى، كل خير؛ صلة رحم، طاعات، بر الوالدين، بر الجيران، بر الأعمال الصالحة بشتى أنواعها، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذا علم من هٰذَا الإنسان أنه بذل في طاعة الله، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ييسره ويسهل أمره، وهٰذَا أعظم أمر نحتاج إليه حقيقة.

أعظم أمر تحتاج إليه، أن الله يفتح لك أبواب الخير، ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وفتح لهم باب الخير؛ لأنك إذا أقبلت، أقبل الله عليك، وإذا أتيته أتاك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفتح لك أبواب الخير، هٰذَا الذي نحتاج إليه، نحتاج إِلَىٰ هٰذَا.

ويأتيك الجانب الآخر في السعي المختلف، يأتيك الجانب الآخر مقابل لهذا، ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٨-٩]؛ قَالَ: بخل بنفسه وبماله، لا هو الذي قدَّم نفسه في الطاعات، ولا قدَّم ماله، نفس اَلْأَوَّلُ؛ يَعْنِي بخل، حتى بالصلاة يبخل عَلَىٰ نفسه، التي هي منفعة له، وحتى دفع المال، والتصدق بالمال، وبذل المال في وجوه الخير، يبخل به ويمسكه، فهٰذِه هٰذِه حال أهل العسرى.

قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ [الليل: ٨]؛ استغنى بنفسه عن طاعة الله، استغنى بنفسه عن رضا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتكبَّر عن طاعة الله، وبخل بماله وتكبر، وهٰذَا هو الواقع، ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ [الليل: ٩]؛ كذَّب بما وعد الله، الله وعده بالخير في الدنيا، ووعده في قبره، وفي عرصات يوم القيامة، والفوز بجنات النعيم، كل هٰذَا لم يصدق به ولم يؤمن به.

النتيجة ما هي؟ قَالَ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١٠]؛ وهٰذِه في الحقيقة هي المحك، وهٰذَا هو الموقف العظيم، أن أهل الشر ييسر الله أمورهم للشر، ويفتح لهم أبواب الشر، فتجده إذا وقع في معصية، جاءت المعصية الأخرى، وهكذا تتراكم عليه المعاصي وهو لا يشعر، ويظن أنه عَلَىٰ خير وتنقلب عنده الموازين، فيظن الشر خيرًا والخير شرًا، فتنقلب عنده، ويبدأ يكثر من هٰذِه المعاصي، ويملي الله له ويستدرجه وهو لا يدري.

فهٰذَا هو أشد الأمور أن ييسر أهل الشر للعسرى، ويفتح لهم أبواب الشر، كما قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ: فلما زاغوا ومالوا، وتركوا طاعة الله، أزاغ الله قلوبهم، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]؛ كسب الذنوب والمعاصي لها شؤم عظيم.

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ [الليل: ١١]؛ الذي بخل به، هل سيذهب به؟ لن يذهب، مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخَّرت، ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١]؛ إذا هلك وسقط، وختم له بسوء، وذهب إِلَىٰ النَّار، ما ينفعه ماله، لو جمع الدنيا كلها بحذافيرها ما نفعته أمواله في الآخرة، ما ينفع ماله إِلَّا ما قدمه لوجه الله خالصًا.

طيب، لا نطيل عليكم، الوقت يضيق، والصورة تحتاج منا إِلَىٰ تأمل أكثر وعبرة، هٰذَا القسم اَلْأَوَّلُ؛ وهو أعمال الإنسان في الدنيا، وسعيه في الدنيا، واختلاف الناس في ذلك، يأتي بعد ذلك جزاؤه في الآخرة، يأتي الحديث عنه إن شاء الله في اللقاء القادم، أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين للخير، وميسرين لليسرى، واللهُ أَعْلَمُ وصلي الله علي نبينا محمد وعلي اله صحبه أجمعين.

(الليل ١٢ - ٢١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله وَالحَمْدُ للهِ، وأصلي وأسلم عَلَىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نَبِيِّنَا مُحَمَّد، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، ومن اهتدى بهداه إِلَىٰ يوم الدين، اللَّهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، واجعل هٰذِه الجلسة القرآنية جلسة مباركة نافعة.

أَمَّا بَعْدُ؛ أيها الإخوة الكرام السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هٰذَا المجلس المبارك، مجلس القرآن الكريم، وتفسيره وتدبر آياته، هٰذَا اليوم هو اليوم السَّادِس، من شهر رمضان المبارك عام أربعة وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة، نجلس في هٰذَا المجلس المبارك ومعنا آيات من كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

السورة الَّتِي تناولناها في لقائنا الماضي، هي سورة اَللَّيْل، وعرفنا هٰذِه السورة العظيمة الجليلة وما فيها من آيات، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيَّن فيها أعمال العباد، وأوضحها لنا غاية الإيضاح والبيان، ثُمَّ جاء آخر السورة؛ جزاء أعمال العباد، وجزاءهم في الدار الآخرة.

بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن أعمال العباد في الدنيا في شتى، وفي اختلاف، ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]؛ بعد ما أقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأمور عظام، وهي: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ [الليل: ١-٣]، بيَّن جواب القسم بأن سعي العباد مختلف، ولاحظ مثل ما ذكرنا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، ولم يقل: إن أعمالكم؛ لأن السعي يختلف، السعي يحتاج إِلَىٰ جهد وبذل، بخلاف الأعمال.

لذلك الإنسان في الدنيا يسعى، ويكدح، ويعمل، لأي شيء يعمل؟ لآخرته التي تبقى له، ولاحظ أنه قَالَ: ﴿لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، ولم يقل: مختلف، شتى يَعْنِي: اختلاف بعيد جدًا لا يمكن أن يتقابل، ولا يمكن أن يقترب، شتان ما بينهما، أعمال الأبرار، وأعمال الفجار، بلا شك فرق عظيم.

ولذلك فصَّل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما أجمل، قَالَ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، ما هو السعي المختلف كل يتطلع إِلَىٰ هٰذَا الشيء، ما هو؟ فَقَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧]؛ أهل الخير، والصلاح يوفقون للصلاح، وتتيسر أمورهم للصلاح، وييسر الله لهم الخير، ويفتح لهم أبواب الخير، إذا علم من العبد صدق اَلنِّيَّة، والإقبال عَلَىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أعطى أعماله لله، قدم أعماله لله، قدم ماله وكل ما يملك، ونفسه، وروحه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أعطى وأتقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، واتقى المحارم، وخاف عقوبة الله، وخاف ما توعد الله به أعداءه، اتقى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالسعي إِلَىٰ الخير، وتحقيق مرضاة الله، واتقى أن يقع فيما حرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والبعد عن معاصيه، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: ٥-٦]، صدق بجزاء الله، كل ما وعدك الله من الخير، تكون عَلَىٰ يقين بما وعدك الله.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: ٦]؛ يرى بعض المفسرين أن الحسنى هنا هي الجَنَّة، وقد يكون اللفظ أعم، الجنة بلا شك أنها داخلة في هٰذَا المعنى، وكل ما وعدك الله من الخير في الدنيا، وفي القبر، وفي يوم القيامة، وفي آخر مستقر لك، وهي الجَنَّة بالفوز بها، صدق بذلك كل ما أخبرك الله به من هٰذَا الوعد الكريم، تُصدق به.

النتيجة ما هي؟ ييسره لليسرى، تتيسر أموره للخير، تتفتح له أبواب الخير، اعلم أنك إذا أقبلت عَلَىٰ الله، فتح الله لك الخير، كل ما أقبلت زادك الله خيرًا، وتيسرت أمورك، أمور الآخرة، وأمور الدين، وأمور الدنيا، وعَلَىٰ العكس، وعَلَىٰ المقابل يحذِّر الله، يسوق لنا هٰذَا الشيء حتى نحذر أن نسلك هٰذَا الطريق.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ [الليل: ٨]؛ بخل بأي شيء؟ بخل بنفسه، بماله، بعمله، لا يعطي نفسه، ولا يعطي شيئًا لربه، ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ [الليل: ٨]؛ استغنى عن ربه وعن دينه، عاش للدنيا، ما النتيجة؟ ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ [الليل: ٨-٩]؛ بما وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الوعد والوعيد، كذب بالحسنى من الوعد، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ١٠]؛ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ييسر أموره للشر، والأمور العسرى، والأمور التي لا فلاح فيها، ولا خير فيها، تجد من أهل الشر من يبحث عن الشر، ويفتح له الله أبواب الشر، أبواب الضلال، ويزيده طغيانًا، وكفرًا، وضلالًا، ويملي له الله في عمره ليزداد كفرًا، بسبب أنه أعرض، وأنه لم يقبل، ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ١٠].

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل: ١١]؛ إذا هلك لا ينفعه ماله، المال هٰذَا إِمَّا خير لك، وَإِمَّا شر، وهٰذَا لا ينتفع به، لا ينفعه ماله إذا تردى، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الجانب الآخر من السورة، لمَّا بيَّن

الأعمال، وأثر هٰذِه الأعمال في الدنيا، الآن يأتيك أثرها في الآخرة، ما أثر هٰذِه الأعمال المسابقة في الخير، أو في الشر لأهل الشر، ما أثر هٰذَا؟

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢]؛ الهداية والتوفيق من الله، وتيسير الأمور من الله، الذي يملك الهدى من؟ الذي يملك الهدى، والتوفيق، والتيسير، هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذًا ما الواجب علينا؟ أن نتوجه إِلَىٰ الله بسؤاله الهدى، بسؤاله التيسير، بسؤاله التوفيق، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ [الليل: ١٢].

بعض المفسرين يقول: معنى إن عليه للهدى؛ أي علينا أن عَلَىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الهدى والضلال، أهل بلاغة القرآن: الحذف، يحذف الشيء أحيانًا لدلالته، مثل: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، هٰذِه أحيانا من بلاغة القرآن، الاختصار والحذف.

فمعنى الآية: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ [الليل: ١٢]؛ أي عَلَىٰ الله الهدى والضلال، فمن ضل بأمر الله وقدرته، ومن اهتدى فبأمر الله وقدرته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هو المالك للهدى، والمالك للضلال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فمن ضل فبعلم من الله، ومن اهتدى فبعلم سابق من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالهداية والضلال بيد الله، يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

قَالَ: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣]، الهداية والضلال بيد الله، والدنيا والآخرة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هو المالك لها، طيب، أنت إذا سمعت مثل هٰذَا الكلام، ما الواجب عليك عندما تسمع مثل هٰذِه الآية؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَإِنَّ لَنَا﴾ [الليل: ١٣]؛ يَعْنِي لنا الآخرة، ولنا الأولى، الدنيا لله، والآخرة لله، إذًا ما الواجب عليك أنت؟ أن تتوجه إِلَىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن تسأل الله عَزَّ وَجَلَّ، وألا تلجأ إِلَىٰ أحد من المخلوقين العاجزين الضعفاء، ما ينفعونك، الذي ينفع ويضر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الدنيا لله، والآخرة لله، فاسأل الله عَزَّ وَجَلَّ، اطلب حاجتك وتوجه إِلَىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولمَّا بيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هٰذِه الآيات، أن الدنيا والآخرة لله، عادت الآيات إِلَىٰ التحذير من أهل النَّار، وسلوك مسلك أهل النَّار، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]، إنذار وتحذير أن يسلك الإنسان طريق النَّار، وطريق الهلاك، ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]؛ من سلك طريق الهلاك هلك، ومن سلك طريق النجاة نجا، فالتحذير هنا من طرق أهل الضلال.

فقَالَ: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]؛ أي تتلظى، وتتوقد، وتتوهج بشدة حرارتها، ونار الآخرة لا توصف، ومهما وصفتها لا يمكن أن تتصورها، إذا كانت نار الدنيا التي تحرق وتدمر، هي جزء من سبعين جزء من نار الآخرة، فكيف تتصور نار الآخرة.

﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل: ١٤]؛ والتنكير هنا للتعظيم، لما قَالَ: نارًا؛ أي نارًا عظيمة، لا تتصورها، ولا يمكن أن تتصورها، قَالَ: ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥]؛ لا يدخل هٰذِه النار ويصلاها، ومعنى يصلاها: ليس من الوصول، تجد بعض الناس يقول: لا يصلاها؛ أي لا يصل اليها، لا، هٰذَا معنى خاطئ، لا يصلاها: أي لا يدخلها ويقاسي حرها إلا الأشقى، من الصَّلِيّ، وهو الشواء، يُشوى بِالنَّارِ، وتأكله النَّار.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥]؛ والأشقى: الذي شقي في الدنيا، وشقي في الآخرة، لم يعرف طريق السعادة، ولم يعرف طريق النجاة، وأصبح من الأشقياء هو الذي توعده الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك بيَّن الله من هو الأشقى، والقرآن واضح، وآياته يوضح بعضها بعضًا، إذا قيل لك من هو الأشقى؟ فقل: الذي كذَّب -كَمَا تَقَدَّمَ- كذب بالحسنى، الذي كذب بما أخبر الله به، بوعده ووعيده، كذب بذلك، وتولى، ولم يعمل، تولى وأعرض ولم يقبل عَلَىٰ عبادة ربه، هٰذَا هو الأشقى، وهو الذي يصلى هٰذِه النَّار، وهو الذي مصيره إِلَىٰ نار جهنم.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يذكر لنا أثر هٰذِه الأعمال الَّتِي عملها في الدنيا، يعمل في الدنيا، ويجازى في الآخرة، هٰذَا جزاؤه.

واسمع إِلَىٰ جزاء السعداء؛ قَالَ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧]؛ أي سيبعد عنها أشد البعد، بحيث أنه لا يتأثر بهٰذِه النَّار، ويصير إذا جنب النَّار، كان مصيره إِلَىٰ جنات النعيم، وإلى رضا رب العالمين، وسيجنبها الأتقى، مثل ما مر معنا، ﴿أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [الليل: ٥]، اتقى هنا تأتي النتيجة، هو الأتقى، هو الذي كمل في تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وحافظ عَلَىٰ تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، لا أن يتقي الله في وقت دون آخر، بل يحافظ عَلَىٰ تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧]، من هو الأتقى؟ قَالَ: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٨]؛ يقدم ماله لله، تزكيةً وتطهيرًا لنفسه، ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ [الليل: ١٨]؛ يعطي ماله لله، لا يعطي لأجل الدنيا،

وَإِنَّمَا يقدم ماله لوجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ﴾ [الليل: ١٩]؛ أي هٰذَا الذي يعطي ماله، ويقدم ماله، لا يريد من أحد، ثناء، ولا زكاة، ولا رد معروف منهم، وإنما يريده من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾ [الليل: ١٩]؛ لا يريد من أحد أن يرد عليه نعمته، أو هو يريد يقدم هٰذَا الشيء، أو يتصدق حتى يرد عليه، ولذلك احذر؛ إذا أعطيت الفقير صدقة، من الأخطاء التي يقع فيها بعض المتصدقين، أنه يقول للفقير: ادعو لي، أنت أعطيته لله، دعا فالحَمْدُ للهِ، ما دعا، لا تطلب منه شيء، هٰذَا يخالف الإخلاص، ويخالف أجر الصدقة فمن الأخطاء التي يقع فيها بعض الناس مثل هٰذَا الأمر.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ١٩-٢٠]؛ لا يريد إِلَّا ما عند الله، هٰذَا في قمة الإخلاص، عمله في قمة الإخلاص، ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠]؛ فلما كان عمله خالصًا في صدقاته، وفي أعماله، وفيما يرضي ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، النتيجة ما هي؟ ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ٢١]؛ أن يرضيه الله عَلَىٰ نيته، وعَلَىٰ حسن عبادته، وعَلَىٰ حسن استقامته، يجازيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويرضيه.

ولذلك أجمع أهل التفسير عَلَىٰ أن هٰذِه الآية نزلت في خليفة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، الَّذِي أنفق ماله كله في سبيل الله، ولذلك كثير من المفسرين يروا بإجماع، عَلَىٰ أن هٰذِه الآيات في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكما قرر أهل التفسير، العبرة بعموم اللَّفْظ، لا بخصوص السبب، يَعْنِي وإن نزلت في الصديق فهي عامة، يدخل فيها كل من اتصف بهذه الصفات، فجزاؤه عند الله بهذه الأعمال خير جزاء.

الحقيقة سورة عظيمة، أقسم الله، ودائمًا أيها الإخوة، إذا وجدت أن الله يقسم، لا يقسم إِلَّا عَلَىٰ شيء عظيم، لا يقسم إلا بعظيم، وعَلَىٰ شيء عظيم، هٰذِه السورة بيَّنت لنا أعمال العباد، يَعْنِي: أوْجزت لنا الحياة كلها، كل أعمال الناس في الدنيا أوْجزتها لنا في هٰذِه الأسطر، وأوْجزت لنا نتائج الفوز والخسارة في الآخرة، من الفائز ومن هو الخاسر، من الذي يعمل في الدنيا فيجد جزاؤه في الآخرة، ومن الذي يعمل في الدنيا ويجد جزاؤه في الآخرة، من الخير، أو الشر.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يجعلنا وإياكم من أهل السعداء، من الفائزين في الدنيا، والفائزين في الآخرة، وأن يعيننا وإياكم عَلَىٰ طاعته، وأن يتقبل منا ومنكم، واللهُ أَعْلَمُ صلي الله وسلم علي نبينا محمد وعلي اله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الضُّحَى)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة الضحى)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله وَالحَمْدُ للهِ، وأصلي وأسلم عَلَىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نَبِيِّنَا مُحَمَّد، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، ومن اهتدى بهداه إِلَىٰ يوم الدين، اللَّهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، واجعل هٰذِه الجلسة القرآنية جلسة مباركة نافعة.

أَمَّا بَعْدُ؛ أيها الإخوة الكرام؛ السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هٰذَا اللقاء المبارك، لقاء القرآن الكريم وتفسيره، وهٰذِه المجالس الطيبة العطرة لكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مجلسنا في هٰذَا اليوم، وهٰذَا اليوم هو اليوم الثاني عشر من شهر شوال، من عام أربعة وأربعين وأربع مئة، وألف من الهجرة مع سورة من قصار سور القرآن الكريم.

هٰذِه السورة التي يحفظها الكثير، تحتاج منا إِلَىٰ قراءة بتأني، وفهم، وتفسير، وتدبر لمعانيها، ودلالاتها، ولا شك أن كل مسلم عاقل يعرف أن كل آية من كتاب الله، تحتوي عَلَىٰ معاني عظيمة، تحتوي عَلَىٰ دلالات، وعَلَىٰ معاني، ومفاهيم عظيمة.

السورة التي بين أيدينا، هي سورة الضحى، هٰذِه السورة نحتاج أن نفهمها فهمًا جيدًا، من عدة نواحي:

من حيث: المعنى العام، وما تدل عليه هٰذِه السورة.

من حيث: وقت نزولها، متى نزلت؛ لأن أحيانًا وقت النزول يعطيك معنى جديد، متى نزلت، في أي ظرف نزلت، وهٰذَا يكشف لك أَيْضًا من معاني هٰذِه السورة، وأيضًا سبب النزول، لماذا نزلت؟ هي نزلت لسبب معين.

والقرآن الكريم نعرف جميعًا أنه احتوى عَلَىٰ مئة وأربع عشرة سورة، هٰذِه السور والآيات العظيمة التي جاوزت الستة آلاف آية، بعضها ينزل ابتداءً، وهو الكثير، وبعضها ينزل لسبب معين، إما حادثة تقع، أو سؤال يأتي للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجيب الوحي.

وأسباب النزول ليست كثيرة، لو حصرناها نجد أنها قليلة، يَعْنِي الأصل في الآيات القرآنية أنها تنزل هكذا، يوحى إِلَىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيأتي جبريل، فينزل عليه، قد يكون هناك حوادث تقع، أو أسئلة ترد للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تأتي امرأة تسأل، يأتي رجل يسأل النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيجيب الوحي.

نقرأ جميعًا: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، هٰذِه لها أسباب.

سورة الضحى لها سبب، نأخذها تدريجيًا، أولًا وقت نزولها، وسبب نزولها؛

وقت نزولها كان وقتًا مبكرًا، يَعْنِي تعد هي من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، في وقت مبكر، بعدما نزلت السور في فترة الوحي المبكرة، كان من ضمن هٰذِه السور سورة الضحى، إذًا هي نزلت في أوائل الدعوة، في بدايات الدعوة، وهٰذَا ستأتيك دلالته في السورة نفسها، لما تقرأها وأنت تعرف ظرف نزولها، وتعرف وقت نزولها، هٰذَا سيعينك عَلَىٰ فهمها وتأملها أكثر؛ لأنك إذا عرفت مثلًا هٰذِه السورة نزلت في مكة، أو نزلت في المدينة يختلف الأسلوب، ويختلف الوضع، أو نزلت في أوائل النزول المكي، أو في أواخر الفترة المكية، أو في أوائل الفترة المدنية، كل هٰذِه تساعدك عَلَىٰ فهم الآيات.

طيب، إذا عرفنا وقت نزولها، وأنها من السور التي نزلت مبكرًا، ما سبب نزولها؟ سبب نزولها أن الوحي أتى إِلَىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول ما أتى بالآيات الخمس من سورة العلق، ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، الآيات الخمس، هٰذَا أول نزول القرآن، ثم بعده نزلت آيات، قيل أن بعد العلق سورة المدثر؛ لأنه نُبِّئ بـ: اقرأ، وأُرسل بالمدثر، ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: ٢]، وقيل نزل بعدها أَيْضًا: سورة القلم؛ ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١]، المزمل، هٰذِه من أوائل ما نزل.

ثم جاءت الضحى، لها سبب نزول، ما سبب نزولها؟ هو انقطاع الوحي، الوحي ينزل، ثم ينقطع لحكمة، ثم ينزل، ثم ينقطع، له انقطاعات، يسمى عند العلماء لاحتباس الوحي، احتباس الوحي وانقطاعه، في مكة فترة عاش النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث عشرة سنة في مكة وقت الدعوة، انقطع الوحي أكثر من مرة.

ومن أشهر انقطاعاته: سورة الكهف، انقطع الوحي فيها لمَّا سأل المشركون عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، لم يأتِي الوحي هكذا مباشرة، انقطع خمس عشرة ليلة، لحكمة، لماذا؟ لأن النبي لمَّا جاءه المشركون، قالوا له: "أخبرنا يا محمد عن أصحاب الكهف، وأخبرنا عن ذي القرنين"، من أين جابوا الكلام هٰذَا؟ أتوا به من اليهود.

اليهود قالوا: "إن أردتم أن تعجزوا محمدًا، فاسألوه عن هٰذِه الأسئلة"؛ لأن اليهود ما يعرفون، اليهود ما يعرفون دقائق قصة سورة الكهف، ولا يعرفون دقائق قصة ذي القرنين، فقالوا للمشركين: اسألوا محمد إن كان يوحى إليه، سيخبركم، إن كان هو صادقًا في نبوته فسيخبركم.

فلما جاءوا للرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالوا: "يا محمد أخبرنا عن هٰذَا، وهٰذَا، قَالَ: أخبركم غدًا"؛ لأنه ينتظر الوحي، فانقطع الوحي خمس عشرة ليلة، لماذا؟ لأنه لم يقل: إِنْ شَاءَ اللهُ، مع أنه نبي، ومع أنه يخبر عن الوحي، ومع ذلك قَالَ الله في سورة الكهف نفسها: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣]، فعلق أمرك بالمشيئة؛ لأن هٰذَا أمر غيبي، فانقطع الوحي.

انقطع في المدينة أَيْضًا انقطاعات متعددة، قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا، انقطع الوحي عن توبتهم خمسين ليلة، قصة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، واتهام المنافقين لها بالفاحشة والإفك، انقطع شهرًا كاملًا، والنبي ما يدري عن وضع زوجته، حتى جاءت آيات سورة النور، انقطاعات الوحي كانت تنقطع فترات، لحكمة أرادها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، منها سورة الضحى.

لما انقطع الوحي جاء المشركون، فقالوا: "يا محمد إن شيطانك الذي يأتيك، قد ودَّعك وقلاك، وأبغضك"، وجاءت امرأة قيل إنها أم جميل زوجة أبي لهب، فقالت: لما اشتكى النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحزن حزنًا شديد عند انقطاع الوحي، قالت: "ما أرى شيطانك إلا قد هجرك وتركك"، فأنزل الله هٰذِه السورة ردًّا عليهم.

طيب، نبدأ بالسورة، السورة أقسم الله بها، كما أقسم بغيرها من السور، قبلها وَاللَّيْل، وقبلها والفجر، وقبلها وَالشَّمْس، كلها قسم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يقسم إلا بعظيم، ولا يقسم إلا لأمر مهم، وهنا أقسم بالضحى، لأي شيء؟ لبيان، ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ٣]، يَعْنِي: لم يتركك ربك، ولم يقلاك، ولم يبغضك، عَلَىٰ ما يدعي هؤلاء، فأقسم بالضحى.

وأقسم بِاَللَّيْلِ، قَالَ: ﴿وَالضُّحَى ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١-٢]، اختيار كلمة الضحى، أنت تقرأ في القرآن، مرة أقسم بالفجر، مرة أقسم بالعصر، مرة أقسم بِاَللَّيْلِ، مرة أقسم بِالنَّهَارِ، كما هنا في السورة، ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: ٢]، أقسم بأوقات.

طيب، لِمَا اختار الضحى في هٰذِه السورة، ما السر؟ ذهب بعض أهل العلم التماسًا للسر، اختيار الضحى في هٰذَا الوقت، لماذا، إشارة إِلَىٰ أي شيء؟ وأنت تقرأ وتتأمل يفيدك هٰذَا، إشارة إِلَىٰ أن الدعوة ما زالت في بداياتها، ردًا عَلَىٰ هؤلاء لما قالوا: إنه ودَّعك، وتركك، وقلاك، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: لا، الأمر في بداياته، والدعوة في بداياتها، وقد احتمى الوحي الآن في نزوله، ليس حَتَّىٰ الآن، لم ينزل إلا آيات تعد عَلَىٰ الأصابع، ما بعدت السور الكثيرة؟

واختار الضحى ليش؟ لأنه هو وقت أول النَّهَار، فكأن الدعوة في أولها، في بداية مسيرتها، فأول النهار هٰذَا من وجه، من الوجه الآخر: أن الضحى وقت ظهور الضياء بشدة، ووقت أيضا انتشار النهار في كل بيت وفي كل بقعة، فإشارة إِلَىٰ أن هٰذِه الدعوة ستعم الأرض كلها، وستدخل في كل بيت، وستضيئ في قلوب الناس، كما تضيء الشمس في وقت الضحى، حتى يكون هٰذَا الإسلام ظهوره عَلَىٰ الأرض، كظهور الشمس في وقت الضحى.

لو قَالَك: العصر، ما يتضح هٰذَا الأمر، ما ينجلي لك، ولذلك سورة العصر لما تأتينا، اختيار العصر؛ لأن الله قَالَ فيها: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، والخسارة متى تحدث؟ في نهاية الأمر، فكأن العصر نهاية النَّهَار، تظهر فيه خسارة والربح، انظر كيف اختيار العصر، الفجر، الضحى، هٰذِه الاختيارات لم تأتِي هكذا عبثًا، وَإِنَّمَا اختيار إلهي دقيق.

ولذلك قَالَ: ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: ١]، ثم قَالَ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢]؛ غطى بظلامه كل شيء، لم يترك شيء، مثل ما أن الجاهلية والكفر قبل بعثة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمت كل شيء، وغطت كل شيء، لا تجد أحد يقول: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فلما عمت، قَالَ: هٰذَا الليل الذي عم، وسجى وغطى؛ لأن التسجية: التغطية، كأنه غطى الأرض قَالَ: هٰذَا خلاص انتهى دوره، سيذهب ويأتي الضحى مكانه.

فبدأ بالضحى فَقَالَ: ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: ١]، الذي هو الإسلام، وشروق نور الإيمان، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ٢]، هو الكفر والجاهلية التي بدأت تتلاشى وتنتهي، خلاص انتهى دورها، ثم لما أقسم

بهذين الأمرين العظيمين، جاءك جواب القسم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: ٣]؛ والتوديع هو ترك الشيء ومغادرته، قَالَ: ما ودعك، ما تركك ربك؛ لأنك أنت لما تودع شخصًا، سيسافر أو سينتقل من مكان إِلَىٰ مكان، توديع نهائي، ومغادرة.

فالله عَزَّ وَجَلَّ نفى عنه، قَالَ: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾، ولم يتركك أبدًا، كما يدَّعي هؤلاء المشركون، أن ربك ودَّعك، وجفاك، وتركك، وقلاك، لا، أثبت الله، وردًا عليهم، ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾، لاحظ كلمة: ربك، ما قَالَ: ما ودعك الله، أو: ما ودعك الرحمن، قَالَ: ﴿رَبُّكَ﴾؛ لأنه هو الذي تولى أمرك، وهو الذي رباك، وهو الذي أنشأك هٰذِه النشأة الصالحة، حتى أوحى إليك بهذه الرسالة العظيمة، واختارك عَلَىٰ بني آدم، فجعلك أفضل بني آدم، وخير البشر، وخير ولد آدم، سيد ولد آدم.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: ٣]، الذي رباك، وخلقك، ورزقك، ورباك التربية الصالحة، ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]؛ قلى: معنى أبغض، قَالَ: ما تركك، وودعك، ولا أبغضك كما يقولون أبغضك، ولاحظ؛ ما قَالَ: وما قلاك، حذفها، يَعْنِي من باب التأدب، حتى لا يواجه نبيه بهذه الكلمة القاسية، وهي كلمة البغض، لم يحصل ولم يطرأ بغض لنبينا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الله مُطْلَقًا أبدًا.

لما رد عَلَىٰ هؤلاء المشركين مقالتهم، أنه ودعه، وقلاه، وتركه، بدأ يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنعامه، وفضائله، وخيراته عَلَىٰ نبيه، وما فضَّل به نبيه محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، يا محمد الآخرة خيرٌ لك من الأولى؛ لأن الدنيا دار مشقة، وتعب، وعناء، وهي قصيرة المدى، قصيرة الوقت، تمضي بسرعة وتنتهي، وليست العبرة بالدنيا، العبرة بالآخرة، وما أعد لها الإنسان، فَقَالَ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ [الضحى: ٤]؛ أي الدار الآخرة، ﴿خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]؛ فاصبر عَلَىٰ ما يصيبك من ابتلاءات، وعناء، ومشقة في دعوتك، فإن الآخرة خير لك من الأولى، وفي هٰذَا حث للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استمراره بالدعوة، وأنه لَا بُدَّ أن يتعب، وَلَا بُدَّ أن يواجه مشقة في دعوته، قَالَ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

ثم قَالَ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]؛ أي أن الله سيعطيك في الآخرة عطاءً، حتى يرضيك، ويرضي أمتك، وهٰذِه الجملة: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]؛ قَالَ السعري في تفسيره: "ما أحد يستطيع أن يأتي بعبارة تعطيه هٰذَا المعنى العظيم، أن الله يعطيه، حَتَّىٰ يرضيه، إلا مثل هٰذِه

الجملة"، هٰذِه العبارة عبارة عظيمة، ذكرها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن الله وعد نبيه بأنه يعطيه عطاءً، حتى يرضيه بنفسه وبأمته.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]؛ أنت لما تسمع مثل هٰذِه الآية، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]، وتسمع موقف المشركين أنهم يقولون: "ودعك ربك، وقلاك، وأبغضك"، تعرف كيف إنعام الله عليه، وعناية الله الإلٰهية بنبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتدفق الخيرات عليه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهٰذِه الوعود العظيمة التي يعد بها نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ: ثم لما بشره بهذه البشارة العظيمة، وبهذا العطاء العظيم في الآخرة، بدأ يذكِّر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بنعمه عليه عَلَىٰ مُحَمَّد، كما كان يذكرها عَلَىٰ من سبقه من الأنبياء، ذكَّر موسى في آيات في قصة موسى، أن الله أنعم عليه بنعم عظيمة وهو صغير، وآيات كثيرة تشير إِلَىٰ ذلك.

كذلك نِعم الله عَلَىٰ محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يا مُحَمَّد، ألم يجدك ربك يتيمًا فآوى، فآواك، وجدك يتيمًا في بطن أمه وهو حمل، مات أبوه وهو حمل في بطن أمه، فخرج إِلَىٰ هٰذِه الدنيا يتيم الأب، ثُمَّ بعد ست سنوات تموت أمه، فيصبح يتيم الأب والأم، فيتولى أمره جده عبد المطلب، ثم يموت وهو ثمان سنوات، ثم يأتي عمه أبو طالب ويتولى رعايته، ويدافع عنه إِلَىٰ أن بلغ ما بلغ من السن، وهو يقف معه، ويدفع عنه شرور قومه، كل هٰذِه معنى: فآوى، أن الله هو الذي آواه، وسخر له هؤلاء، مع أنهم مشركون، ومع ذلك كانوا يقفون هٰذِه المواقف.

قَالَ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ [الضحى: ٦]، وقد آواك، وتولى أمرك وأنت صغير، ألم يجدك يتيمًا، ألم يجدك ضالًا فهدى، والمقصود بالضلال هنا عدم معرفة الشريعة، ليس الضلال ضد الهدى أن النبي كان ضالًا لم يهتدِي، لا، النبي منذ النشأة وهو عَلَىٰ التوحيد وعَلَىٰ الطاعة، لكن لم يعرف الوحي، ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان، حتى جاءه الوحي فبعثه الله بهذه الرسالة، وأنزل عليه هٰذَا الكتاب، فهٰذَا معنى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧].

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ [الضحى: ٨]؛ أي فقيرًا محتاجًا، والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نشأ فقيرًا، قَالَ: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، أغناه بالإيمان والطاعة، غِنى النفس، وأغناه بالمال لما فُتحت الفتوحات، وجاء هٰذَا جاء هٰذَا المال إِلَىٰ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأغناه، ثم يخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن

الإنسان يتذكر نعمة الله عليه، وفي هٰذَا حث عَلَىٰ أن الإنسان يرى أولًا نفسه، ثم يرى غيره، يتذكر نعمة الله، فيقول: إن كنت يا محمد يتيمًا، وعائلًا، وضالًا، وقد أنعم الله عليك بهذه النعم العظيمة، فانظر إِلَىٰ غيرك، وراعي غيرك، فإن هناك من الأيتام الكثير.

ولذلك قَالَ بعدها: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]، اليتيم الذي قد فقد من يعوله ويعطف عليه، ويحنو عليه، فقد من يعوله، فلا تقهره، لا تزيده قهرًا عَلَىٰ قهره، وفقد من يعوله، ثم تأتيه وتزيده ذلك، ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾، لا تقهره بالكلام، أو بالتأنيب، أو بالحرمان، أو بعدم العطف عليه، فاحذر أن تعامل اليتيم، بمثل هٰذِه المعاملة، كما أنك لا تريد ذلك لنفسك، فلا ترضى لغيرك.

قَالَ: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]؛ انظر؛ ﴿يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦]، قَالَ: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، قَالَ: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]؛ إذا جاءك السائل لا تنهره بالكلام القوي، الذي يزيد حالة الفقر عليه زيادة بالإهانة والكلام السيء، ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]؛ وأما إذا جاءك السائل، إِمَّا أن تكرمه بالعطاء، وَإِمَّا أن تكرمه بالكلمة الطيبة، تعطيه من الكلمات الطيبة، أو تعطيه مما أعطاك الله، هٰذَا هو المراد بالتعامل مع المحتاجين، والضعفاء، والفقراء إذا سألوك شيئًا.

ولا يلزمك أن تتحقق إذا سألك في الطريق، أعطه شيئًا يسيرًا، الذي ينبغي عليك أن تتحقق فيه هي زكاة المال الكثيرة، هل تصرفها له أو لا، هٰذَا الذي يجب عليك، ألا تضع هٰذَا المال إلا في مكانه، أما الأشياء اليسيرة والمساعدات الخفيفة، فإذا مر بك سائل فأعطه ما تيسر، أو ادعو له، وأعطه الكلمة الطيبة.

ويذكر بعض أهل التفسير أن السائل هنا يدخل فيه سائل العلم، سائل العلم إذا سألك بفتوى بعلم، جاءك من يسألك وأنت أهلًا للعلم، أو عندك معرفة بالجواب، وإن لم تكن عالمًا، وسألك سؤال، فيجب عليك أن تعلمه، وأن تعطيه من العلم، وأن تبين له هٰذَا الأمر، ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠]؛ ولا تنهره بالكلام وتزجره بالكلام.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، نِعَم الله عظيمة، وآلاءه جسيمة عَلَىٰ كل إنسان، فعليه أن يُحدِّث، كيف يُحدِّث بنعمة الله، نقول: نِعَم الله أنواع: نِعَم عامة، ونِعَم خاصة، أن ينعم الله عليك بنِعم عامة، ويُنعم عليك بنِعم خاصة.

أما النِّعم العامة؛ فلا مانع أن تُحدِّث بها، تقول الحَمْدُ للهِ، والتحديث المراد بها إظهارها وشكرها لله، والاعتراف بها، هٰذَا المقصود، تحديث، إظهارها، وشكر الله عليها، والاعتراف بأنها من عند الله، مثل ماذا؟ تقول: الحَمْدُ للهِ الَّذِي هدانا لهذا الإسلام، الحَمْدُ للهِ الذي هدانا للمحافظة عَلَىٰ الصلاة، الحَمْدُ للهِ الذي هدانا نِعم ظاهرة الكل يراها، فهٰذَا تُحدِّث به ولا تجحده، وتشكر الله عليه، فتقول: الحَمْدُ للهِ، وتكثر من الحمد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والشكر لله عَلَىٰ ما أنعم عليك بهذه النِّعم العامة.

هناك نِعَم خاصة؛ فهٰذِه تختلف، لا تحدِّث بها إِلَّا من تحب وتأمنه، لا تحدِّث بها كل الناس، فإذا أنعم الله عليك بنعمة خاصة، كحفظ القرآن، أو قيام اَللَّيْل، أو المحافظة عَلَىٰ صيام النَّوافِل، أو أشياء خاصة، أو ترقية، أو مال، أو حصل أي شيء من أمور الدنيا، أشياء خاصة، فهٰذِه لا تحدِّث بها كل الناس، قد يحسدوك عليها، والناس ليسوا عَلَىٰ درجة واحدة، وَإِنَّمَا تُحدِّث بها من تأمنه، ومن تحبه، وتعرف أنه يفرح لك، وأنه يدعو لك، هٰذَا تخاف تخبره، تحدِّثه وتقول: الحَمْدُ للهِ، أنا والله أخبرك بأني الحَمْدُ للهِ حصلت عَلَىٰ كذا وكذا، أشياء خاصة.

أما أن تعلن، وتحدث الناس بأشياء خاصة، هٰذَا قد يكون ضرره عليك أكثر، وقد تُسلب منك النعمة، وقد تصاب بالعين، وقد تصاب بالحسد، قد تصاب بأشياء، فهٰذَا معنى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؛ النِّعم الظاهرة.

كما كان النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحدث الصحابة بنعم الله عليه، وكذلك الناس يتحدثون بنعم الله عليهم بنعمة الصحة، والعافية، والهداية، وغير ذلك، هٰذَا ما احتوت عليه هٰذِه السورة العظيمة من آيات عظيمة، ومن دلائل، وهدايات، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يتقبل منا، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وانفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، واللهُ أَعْلَمُ وصلي الله وسلم علي النبي محمد وعلي اله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الشَّرْحِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة الشرح)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله وَالحَمْدُ للهِ، وأصلي وأسلم عَلَىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نَبِيِّنَا مُحَمَّد، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، ومن اهتدى بهداه إِلَىٰ يوم الدين، اللَّهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، واجعل هٰذِه الجلسة القرآنية جلسة مباركة نافعة.

أَمَّا بَعْدُ أيها الإخوة الكرام؛ السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هٰذَا اللقاء المبارك، لقاء القرآن، والتفسير، وَالتَّدَبُّر، هٰذَا اليوم هو اليوم التاسع عشر من الشهر العَاشِر، من عام أربعة وأربعين، وأربعمئة وألف من الهجرة، نجتمع في هٰذَا المقام المبارك، لنأخذ سورة من قصار السور، نقرأها، ونتأملها، ونتدبرها، ونتعلم ما فيها.

فإن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**خَيرُكُم مَنْ تَعَلَّم القُرآنَ وَعَلَّمه**»، هٰذِه السورة التي بين أيدينا، والتي تسمى بسورة: الشرح، أو سورة: الانشراح، أو تسمى أَيْضًا بسورة: ألم نشرح، كلها أسماء لهذه السورة، هٰذِه السورة ذكر بعض أهل العلم، بأن لها علاقة قوية بما قبلها، حتى ذكر بعضهم أن سورة الضحى، وسورة الشرح هي سورة واحدة، كأنها سورة واحدة، لشدة ارتباط هٰذِه السورة بهذه السورة.

ما وجه ارتباط هٰذِه السورة بهذه السورة؟ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذكر أفضاله، وأنعامه وتربيته لنبيه محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سورة الضحى التي مرت معنا في لقائنا الماضي، لما قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٦-٨]، كل هٰذِه أنعام وأفضال من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ نبيه، بهدايته، بإيوائه وهدايته، وإغناءه، لما قَالَ: ﴿فَأَغْنَى﴾.

لما جاء في هٰذِه السورة، زاد من فضائله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإنعامه عَلَىٰ نبيه، فَقَالَ: ألم نشرح لك صدرك، وهٰذَا الاستفهام يسميه أهل العلم: استفهام تقريري، يَعْنِي قد شرحنا لك صدرك، لكنه لما يأتي بهذه الصيغة، يلفت النظر ويقرر له هٰذَا الأمر، حتى كأنه علمه واستقر عنده، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]؛ يَعْنِي: قد شرحنا لك صدرك، وشرح الصدر معناه انفساحه وانبساطه، بحيث يتقبل من الله أوامره، ويتقبل من الله ما يكلفه الله من التكاليف، ينشرح صدره للطاعة.

وهٰذَا وإن كان موجهًا للرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن كل مؤمن قد شرح الله صدره للإسلام، ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ [الزمر: ٢٢]، قد شرح الله صدره للإسلام، وأنعم عليه، والصدر معروف، هو ما يكون فيه قلب الإنسان، فإذا انشرح الصدر، واتسع للطاعات، تقبله القلب، واستقرت هٰذِه الطاعات، وهٰذِه الأوامر في قلبه.

يذكر بعض أهل العلم أن انشراح الصدر هٰذَا، انشراح حقيقي، وانشراح معنوي؛

الانشراح الحقيقي: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر بشق صدر النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد شُق صدره، ذكر أهل التاريخ والمغازي، وأهل العلم، والحديث، أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر بمراحل في شق صدره، وقيل أنه شُق صدره أربع مرات، وقيل مرتين، وأول شق صدر للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعمره أربع سنوات، لما كان في ديار بني سعد عند حليمة السعدية، جاءه جبريل ومعه ملك، فأضجعاه، وشقَّا صدره، من حيث لا يشعر، أو من حيث لا يتأذى، ونزعوا منه قطعة سوداء مما تكون في كل إنسان من الغل والحسد، وأبدلوها بما هو خير منها.

وقيل المرحلة الثانية: كان عند وقت الإسراء والمعراج، وهو قد جاوز الخمسين، وقيل غير ذلك واللهُ أَعْلَمُ، ولكن ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ، ذكر أن شرح الصدر هو شق صدر النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو شرحه بالطاعات، ولذلك إذا قرأت أنت هٰذِه الآية: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]؛ يَعْنِي تحقق في ذهنك أن هٰذِه السورة كلها تبين لك شرح صدر الإنسان بالطاعات، وكل ما يأتي بعدها مرتبط بهذا الشرح.

ولذلك تلاحظ لما قَالَ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤]، ثم قَالَ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥]، تلاحظ ارتباط بين تيسير الأمور وشرح الصدور، ولذلك كان من دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: "ربي اشرح لي صدري، ويسر لي أمري"، فإذا انشرح صدرك للطاعة، وتيسرت أمورك، هٰذَا كل ما يتمناه الإنسان، وأنت تلاحظ أهل الخير، والصلاح، والطاعة، تنشرح صدورهم للطاعات، وتتيسر أمورهم في حياتهم.

أعظم ما يتمناه الإنسان، وهو الذي خصه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا، أعظم أمر، لمَّا قَالَ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٢]؛ ووضع الوزر: حط الذنوب، ومسحها، وإزالتها، وهٰذَا الذي يتمناه الإنسان، لما تُغفر له ذنوبه، يرتاح حتى لا يبقى عليه شيء.

ولذلك تلاحظ في آيات كثيرة في القرآن الكريم، مما يتفضل الله به عَلَىٰ عباده المتقين، أول ما يبدأ: بغفران الذنوب، تُغفر لهم ذنوبهم، ثم يجازون، وهٰذَا ما يسمى عند أهل العلم: بالتخلية قبل التحلية، أن تتخلى عن سائر الذنوب، ثم تتحلى بالطاعات، أما أن تتحلى بالطاعات والذنوب ما تزال معك، فإن الذنوب تقلق الإنسان، تقلقه ولا يرتاح.

ولذلك بدأ الله بعد شرح الصدور، في قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢]، والوزر يُجمع عَلَىٰ أوزار، والأوزار هي الذنوب والمعاصي التي تثقل الإنسان، ولذلك قَالَ: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٣]؛ يَعْنِي: اشتد عَلَىٰ ظهرك شد، يَعْنِي: حملًا ثقيلًا عَلَىٰ الظهر، ﴿أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٣].

ثُمَّ من شرح الصدور ومن فضائل الله عَزَّ وَجَلَّ، أن قَالَ بعدها: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وهٰذَا كل من يريد شرح الصدر، ويريد الارتياح، أن يكون له مقام عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا عند الناس، الناس ليس ميزانهم كميزان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أعظم ما يتمناه الإنسان، أن يكون له منزلة ومقام عند الله، أن يكون من أولياء الله، أن يكون من المقربين عند الله.

ولذلك قَالَ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]؛ حتى قَالَ بعض السلف: لا يذكر الله، إِلَّا ويُذكر معه نَبِيِّنَا مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في الشهادة: أشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأشهد أن محمدًا رسول الله، في الآذان، في الإقامة، في الصلاة، في التحيات؛ أشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأشهد أن محمدًا رسول الله، في الخطب في الجمعة، والأعياد، أشهد أن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وأشهد أن محمدًا رسول الله.

فذكره صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلغ ما بلغ من هٰذِه المنزلة العظيمة، بل؛ إن الله وملائكته يصلون عَلَىٰ النَّبِيّ، بل إن من ذكره أن كل مؤمن يحب النبي محبة عظيمة في قلبه، وهٰذَا من رفع ذكر النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن فضائل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ نبيه وعَلَىٰ أمته، أن يسر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأمور، فما من أمر عسير، إلا ويأتي اليسر ويفك هٰذَا العسر، ما يأتي أمر عسير عَلَىٰ أي الإنسان، إلا ويكون اليسر معه.

ولذلك قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، أُلاحظ؛ ما قَالَ: إن بعد العسر يأتي اليسر، ما قَالَ بعده، وَإِنَّمَا قَالَ: معه، كأنه صاحب له، يَعْنِي: لا ينفك عنه، فإذا جاء العسر، فاليسر معه، فلا تظن إذا اشتد الكرب وضاقت بك النفس، أنها خلاص ليس لك حيلة، وليس لك فرج، لا، إذا اشتد الكرب جاء الفرج معه.

لكن الإنسان نفسه ضعيفة، وعَجُول ويتعجل الأمور، ولو تأنى وصبر؛ لأن الصبر هي صفة المؤمن، هي صفة الأتقياء، الصبر يحبه الله، ويحب الصابرين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. الصبر أمر النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ أكثر من ستة عشر مرة، أن يقول الله له: اصبر، أكثر من ستة عشر مرة يأمره بالصبر، بل أن الصبر، وهٰذَا يوجه لكل من تتعسر أموره، وتصعب عليه، وتشتد به الكروب، أن يبشر بأن يصبر، ويبشر بالفرج؛ لأن الله قَالَ: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦]، والصبر أجره لا حد له، أعظم الأمور التي أجرها مفتوح الصبر، ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

قَالَ الأوزاعي: "يُفرغ لهم إفراغًا لا حد له"، قَالَ: إن مع العسر يسرًا، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، جملتان تعطينا معاني عظيمة، لاحظ أن العسر مُعرَّف، واليسر نكرة، وقَالَ أهل العلم أن العسر هنا المعرف هو واحد، ولذلك النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لَنْ يَغلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن**»، إذًا اليسر هنا المُنكَّر يسر ويسر، فإذا اشتد الأمر جاء اليسر، ثم جاء اليسر، ثم انفرج الأمر.

لما بين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هٰذِه الفضائل، وهٰذِه الأنعام لنبينا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكل مؤمن يدخل في ذلك مما هو عام لا خاص، فإذا علم ذلك، فإن الله يأمره بالمبادرة للطاعات، والتزامها وعدم التخلي عنها.

ولذلك قَالَ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ [الشرح: ٧]، إذا فرغت من أشغالك فتعلق بربك، وانصب بالدعاء والعبادة، كل ما أردت، بل إذا فرغت من الطاعة اشتغل بطاعة، لا تنفك حتى قَالَ بعضهم هنا، قَالَ: إذا فرغت من صلاتك الفريضة، فاشتغل بالذكر، وإذا فرغت من الذِّكْر، فاشتغل بتلاوة القرآن، لا يبقى الإنسان هكذا، ليس في يديه شغل الدنيا ولا الآخرة، هكذا جالس عبثًا، لا يكون مؤمن، وَإِنَّمَا المؤمن دائمًا متعلق بربه، كل وقته في طاعة الله، تسبيح، وذِكر، وقراءة قرآن، وصلاة، وعبادات.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٧-٨]، وهٰذَا يدل عَلَىٰ أن الإنسان يعمل لله، لا لأحد من الناس، ويخلص لربه، ولذلك قَالَ: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ﴾ [الشرح: ٨]، لا إِلَىٰ غيره، وَإِلَىٰ ربك فارغب في الطاعات، وأقبل عليها، وسارع في طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، ولذلك موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما قَالَ الله: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ۝٨٣ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٣-٨٤]، الإنسان يتعجل العبادات ليرضي ربه.

ولذلك أول الأوقات رضا الله، في الصلاة أولها رضا الله، فيستعد الإنسان ليرضي ربه، حتى يرضيه الله، السورة عَلَىٰ قصرها والكل يحفظها، والكل يرددها، والكل يسمعها، تأملناها، ووقفنا معها، ووجدنا فيها من هٰذِه الآيات العظيمة الجليلة، ومن هٰذِه التوجيهات العظيمة، التي حقيقة نستفيد جميعا كلنا في حياتنا، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصته، وأن ينفعنا بالقرآن، وأن يبارك لنا في أوقاتنا، وفي أعمالنا، واللهُ أَعْلَمُ وصلي الله وسلم علي نبينا محمد وعلي اله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ التِّين)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة التين)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله وَالحَمْدُ للهِ، وأصلي وأسلم عَلَىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نَبِيِّنَا مُحَمَّد، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، ومن اهتدى بهداه إِلَىٰ يوم الدين، اللَّهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، واجعل هٰذِه الجلسة القرآنية جلسة مباركة نافعة.

أَمَّا بَعْدُ؛أيها الإخوة الكرام؛ السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هٰذَا اللقاء المبارك، وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزقنا وإياكم العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين موفقين لكل خير، هٰذَا اليوم هو اليوم السادس والعشرون، من الشهر العَاشِر، من عام وأربعين وأربعمئة وألف للهجرة.

حديثنا مع القرآن الكريم، ومع تفسيره، ومع قصار السور، السورة التي بين أيدينا، سورة يحفظها الجميع بلا استثناء، ويرددها ويقرأها كَثِيْرًا، وإن كانت قصيرة في آياتها، فمعانيها عظيمة جدًا، وسور القرآن أحيانًا تجد السورة قصيرة جدًا، فتجد ورائها معاني كثيرة، ومهما قرأت في تفسيرها وفي بيانها، قد لا تصل إلا إِلَىٰ القليل، الشيء القليل من معانيها، معانيها بعيدة كثيرة، أحيانًا تجد آية واحدة يتحدث عنها العلماء، يتكلم عنها العلماء، يكتبون فيها مؤلفات.

ولذلك كتب بعض المفسرين وبعض العلماء في آية واحدة، كتب فيها مؤلف، مثل قوله تَعَالَىٰ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قَالَ أهل التفسير، هٰذِه الآية تسمى بآية الأخلاق، جمعت كل الأخلاق في هٰذِه الآية، آية في القرآن قَالَ الله فيها: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، سماها أهل العلم: آية الطب، جمعت الطب كله، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، هٰذَا هو الطب كله، هٰذَا العلاج.

تجد أحيانًا بعض الآيات قليلة الألفاظ، بعيدة المعاني كثيرة، السورة التي بين أيدينا، هي سورة: التين، سورة التين من قصار السور، ولذلك ما يُقال في القرآن آية صغيرة، أو سورة صغيرة، أو مصحف صغير، أو قرآن صغير، القرآن كله كبير عظيم، والسور عظيمة كبيرة، والآيات كبيرة، ما يُقال صغير.

ولذلك الأحناف رحمهم الله يحرمون أن يُقال: مصحف صغير، أو يُقال مثلًا: آية صغير أو سورة صغيرة، هٰذَا لا ينبغي أن يُقال، فسورة التين هي من قصار السور، آياتها قصيرة، وهي حجمها قصير، لكن معانيها عظيمة، إذا تأملتها وتدبرت آياتها، وجدتها فعلًا آية أو سورة عظيمة، هٰذِه السورة من السور التي أقسم الله بها، السور التي مرت معنا، بعضها سور يقسم الله في أولها، والله لا يقسم إلا بأمر عظيم عَلَىٰ شيء عظيم.

عندنا مُقسم به ومُقسم عليه؛

المقسم به: شيء عظيم، الله أقسم بثلاثة أشياء، أو بأربعة عَلَىٰ الصحيح، هي ثلاث آيات لكنها أربعة، ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]، أربعة أشياء يقسم الله بها، يأخذ أربعة أشياء فيقسم بها، لا شك أن المقسم عليه هٰذَا شيء عظيم، ينبغي لك أن تقف عنده، تتأمله.

ما هو المقسم عليه؟ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، السورة حتى نفهمها جيدًا، لما تقرأها، والكثير يقرأها ويسمعها من الأئمة، لكن قراءتها بتدبر يختلف، أنت لما تقرأها وتكرر قراءتها تعيدها مرتين ثلاث، تجدها هي تهدف إِلَىٰ شيء معين، ولها مقصد معين، ما هو؟

طيب، عرفنا أن الله أقسم بالتين، وهو الشجر المعروف، ﴿وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]، أقسم عَلَىٰ أي شيء؟ أقسم عَلَىٰ أن هٰذَا الإنسان قد خلقه الله في أحسن صورة أحسنت، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين: ٥-٧].

إذًا السورة تهدف إِلَىٰ شيء معين، ما هو؟ هو إثبات اليوم الآخر، وإثبات الجزاء لمن عمل الجزاء لأهل الجزاء، بأعمالهم الصالحة، أو غير ذلك، إذًا هي تقرر قضية ماذا؟ قضية الحساب، والجزاء، وَالجَنَّة، وَالنَّار، والبعث، وَالَّذِي أنكره المشركون، هي تقرر هٰذِه القضية، تقررها بسور، ونحن نعرف، مر معنا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقرر اليوم الآخر بطرق مختلفة، طرق عقلية، وأدلة، ومر معنا كَثِيْرًا.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقرر لنا الجزاء والحساب، وما يترتب عليه من الجَنَّة وَالنَّار، وبعث الناس من قبورهم، هٰذِه حقيقة هي من حقائق الدعوة، والإسلام، وهي أَيْضًا تعتبر من أركان الإيمان، أركان الدين.

طيب، إذا فهمنا هٰذَا جيدًا عرفنا أن السورة تقرر هٰذِه القضية، قضية الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالجزاء، والحساب، وَالجَنَّة، وَالنَّار، إذا تقرر عندك هٰذَا، تأخذها الآن شيئًا فشيئًا، حتى تصل إِلَىٰ الهدف.

طيب، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]؛ أقسم بالتين، التين شجر معروف، وثمره معروف، والتين من العجائب، وما فيه من الفوائد؛ لأن الله اختاره وأقسم به؛ لأهميته، ولما فيه من الفوائد والعجائب، حتى قَالَ: بعضهم أنه شبيه بثمار الجَنَّة؛ لأنه ليس فيه عجو، ليس فيه حد، ثمار الجنة تأكلها ليس فيها يَعْنِي ما تخرجه وترميه من الحبوب والبذر، وهٰذَا من غير، قالوا: "شبيه بثمار الجَنَّة".

التين شجر معروف، وفوائده معروفة، والزيتون شجر معروف أَيْضًا، وفوائده معروفة، وزيته مبارك، وشجرة مباركة كما قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كُلُوا وادَّهِنوا، فَإِنَّه مِنْ شَجَرةٍ مُبَارَكَة»، ثم قَالَ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]؛ طور سينين: هو طور الجبل الذي كلم الله عنده موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، هٰذَا هو الطور، ﴿سِينِينَ﴾ [التين: ٢]، يُقال: سينين، ويُقال: سيناء، وهي منطقة معروفة بمنطقة سيناء، سميت سيناء، لكثرة الأشجار الملتفة حول هٰذَا الجبل، والجبل الطور المعروف، كلم الله، أقسم الله به لشرفه؛ لأن الله اختاره ليكلم عنده موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قَالَ: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، وهي مكة شرَّفها الله، البلد الأمين: مكة الذي أوحى الله فيها لنبينا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذًا عندنا موسى، ومحمد، والتين والزيتون، مكانه أين؟ قَالَ: في الشام، وهي بعثة من؟ بعثة عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذًا كأنها إشارات إِلَىٰ مواطن الوحي.

مواطن الوحي: الشام، طور سينين، البلد الأمين، وكأنها إشارات، وبدأ بأولي العزم الثلاثة عَلَىٰ مراتبهم، الأقل، ثم الأكثر أو الأعظم، ثم الذي هو أعظم من الجميع، عيسى، ثم موسى كليم الله، ثم فوق موسى مُحَمَّد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد البشر، سيد الأولين والآخرين، فأقسم بهذه الأشياء، إشارة إِلَىٰ أماكن، هٰذِه الأماكن التي أوحى الله عندها، أو أرسل وحيه عندها.

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، لما أقسم بهذه الأشياء، أقسم عَلَىٰ هٰذَا الإنسان، الذي هٰذَا الإنسان قَالَ فيه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ [التين: ٤]؛ ولقد: اللام موطئة للقسم، وقد: للتحقيق، أي قد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، مر معنا أن الله يذكر لنا، أنه خلق هٰذَا الإنسان في كبد، خلقه في كذا، خلقه في كذا، هنا نشير إِلَىٰ أمر معين يتناسب مع السياق، وما يأتي بعد السياق، فيقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ [التين: ٤]،

خص أو أقسم عَلَىٰ خلق هٰذَا الإنسان في أحسن صورة، وأحسن اعتدال؛ لأن كلمة: في تقويم؛ أي في اعتدال، يَعْنِي في قوامة، واعتدال، واستقامة.

لقد خلقنا هٰذَا الإنسان في أحسن صورة، جعله في صورة جميلة وحسنة، ونضرة في جمال الشعر، والعينين، والأنف، والشفتين، وجمال اعتدال الإنسان في طوله، وفي تقسيماته، لا تجد يدًا أطول من الأخرى، أو قدمًا أطول من الأخرى، أو عين أوسع من الأخرى، وَإِنَّمَا خلقه في أحسن صورة، وأجمل صورة، خلقه في أحسن صورة في خلقته الظاهرة، وأيضًا في أحسن صورة في فطرته الداخلية، فطره الله عَلَىٰ التوحيد، والإيمان، والتصديق، فخلقه الله داخلًا وخارجًا، مظهرًا ومخبرًا، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

ثم قَالَ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥]، الإنسان خُلق في أحسن صورة، في أحسن جمال وخلقة ظاهرًا، وباطنًا في فطرته السليمة، في عبادته لربه، في تصديقه ما يأتيه عن ربه، كل هٰذَا هو الأصل في هٰذَا الإنسان، لكن قد تجد من هٰذَا الإنسان، أو من بني آدم، أو من هٰذَا الخلق من ينحرف في باطنه، أما في ظاهره لا ينحرف، في ظاهره يبحث عن زيادة الجمال، لكن داخله تجد من ينحرف في فطرته إِلَىٰ الكفر، بدل التصديق، وَإِلَىٰ العناد، وَإِلَىٰ الاعتراض، وَإِلَىٰ عدم الإيمان بما يأتيه من ربه، فينحرف عن فطرته، ويخرج عن فطرته، وعن طريق الاستقامة.

الله خلقك في أحسن تقويم في داخلك وخارجك، فتخرج وتترك هٰذَا الطريق، فإذا خرج وترك هٰذَا الطريق، ما النتيجة؟ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥]؛ أي أعطيناه الجمال، والبهاء، والخلقة الطيبة، والعقل التام، والحديث مع الناس، والكلام، والمنطق، الحيوانات ليس معها منطق، الحيوانات ليس معها عقل كعقل الإنسان، يدبر ويتصرف، شرَّف الله هٰذَا الإنسان وكرَّمه عَلَىٰ سائر المخلوقات، ليشكر وليعبد ربه.

ولذلك قَالَ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ﴾ [التين: ٥]؛ ثُمَّ: تفيد الترتيب المتراخي البعيد، يَعْنِي: أعطيناه الحياة الدنيا في جماله، ثم بعد ذلك، بعد ما تنتهي حياته، يعود إِلَىٰ أسفل سافلين إذا غير فطرته، وكفر، ولاحظ أن الله يقول هنا: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥]، ما قَالَ: إِلَىٰ أسفلين، يَعْنِي: أشد انحطاط، إذا انحط عن فطرته،

وانحط عن عبادة ربه، وتكبر، وتمرد عَلَىٰ ربه، الله يجعله في أسفل سافلين، إِلَّا إن حافظ عَلَىٰ فطرته، وإيمانه، وطاعته لربه خرج من هٰذَا، ولذلك استثنى الله.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥]، قَالَ أهل التفسير: رددناه إِلَىٰ أسفل سافلين؛ أي إِلَىٰ جهنم، إِلَىٰ نار جهنم، يقول: أعطاه الله الحياة الدنيا، وخلقه في أحسن صورة داخلًا وخارجًا، ليعبد ربه، فإذا انحرف وترك عبادة ربه، رده الله إِلَىٰ أسفل سافلين، إِلَىٰ نار جهنم، ولا يؤبه به، ولا يُلتفت إليه؛ لأنه هو الذي خرج عن طريق الاستقامة إِلَىٰ طريق الانحراف، فكان انحرافه إِلَىٰ الهاوية.

﴿رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التين: ٥-٦]، فأسفل سافلين هنا: هي نار جهنم، في أقعر وأسفل الأرض، وقيل أسفل سافلين: أن يُرَد إِلَىٰ أرذل العمر، وهٰذَا قول اختاره ابن جرير الطبري، ولكن القول اَلْأَوَّلُ الذي اختاره ابن كثير وغيره أقرب، لماذا؟ لأنه إذا قلنا: أسفل سافلين، ثم قلنا: إلا الذين آمنوا، نجد من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، من يُرَد إِلَىٰ أرذل العمر، تجد أنت من تراه أن هو من الصالحين، بل هو قد عُرف بصلاحه واستقامة ربه طول حياته، ثم في آخر حياته يُرَد إِلَىٰ أسفل السافلين، ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٠].

وهٰذَا واقع في كثير، قد تجد من الصالحين من يمر بهذه المرحلة، ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨]، ولذلك ما نستطيع أن نقول: أسفل سافلين أرذل العمر، ثم نقول: إلا الذين آمنوا؛ لأن الذين أمنوا قد يُرَدُّون، فاختيار أسفل سافلين نار جهنم، هو المتناسب مع، إِلَّا الذين آمنوا، ونقول: أسفل سافلين؛ هي نار جهنم، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [التين: ٦]؛ فإنهم يسلمون وينجون من هٰذِه النَّار، وينجون من اسفل سافلين، فيكون الاستثناء استثناءً متناسبًا.

قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٦]؛ آمنوا: أي صدقوا بما جاءهم عن الله وعن رسوله، وأتبعوا هٰذَا التصديق والإيمان بالأعمال الصالحة، لا مجرد الإيمان، يدَّعي أنه مؤمن، ولا يصليه، يدَّعي أنه مؤمن ولا يزكيه، يدَّعي أنه مؤمن ويعق والديه، ويفعله من الأفعال السَّيِّئَة، والأخلاق البذيئة، ويقول: أنا مؤمن، لا، الإيمان إيمان تصديق وعمل، قول وعمل.

قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٦]، ما هي النتيجة؟ ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦]، غير منقطع، دائم، وذلك في جنات النعيم، ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، لا ينقطع فيها

شيء، ولا تنقطع الحياة، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦]، هٰذِه حياتهم الأبدية السرمدية، ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٦].

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهٰذَا هو المقصد الآن، نصل إِلَىٰ مقصد السورة: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين: ٧]، أيها الإنسان، ما الذي يجعلك؟ إنكار، كيف تكذب بالدين، ما المراد بالدين؟ الدين هنا: الجزاء والحساب، ليس الدين هو الشرع، ليس المقصود بالدين هنا الشرع، إِنَّمَا المقصود به: الجزاء والحساب، مثل ما تقول أنت: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، يوم الدين هو يوم القيامة، يوم الجزاء.

وقوله هنا: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين: ٧]؛ أي ما الذي يجعلك تُكذِّب بالجزاء وَالجَنَّة، وَالنَّار، والمعاد الذي تعود فيه إِلَىٰ رب العالمين، ما الذي يجعلك تكذب أيها المكذب، وأيها الضال، وأيها المنحرف عن فطرتك وعقيدتك، ما الذي جعلك تكذب بهذا اليوم، وأنت تعرف حياتك، وتعرف الذي خلقك وأوجدك، قادر عَلَىٰ يعيدك، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما خلق الخلق، وخلق هٰذَا الخلق كله السماوات والأرض، وخلق هٰذَا الإنسان، لم يخلقه عبثًا، وَإِنَّمَا خلقه ليجازي المحسن عَلَىٰ إحسانه، ويجازي المسيء عَلَىٰ إساءته، فلم يخلقه عبثًا، لهذه الحكمة التي خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، خلق هٰذَا الخلق لحكمة الجزاء، وَالجَنَّة، وَالنَّار، ويثيب المطيع، ويجازي العاصي عَلَىٰ معصيته.

قَالَ الله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ [التين: ٧]؛ بالجزاء والحساب، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]؛ أليس الله هو ذي الحكمة العظيمة، وأليس الله هو الحاكم بين عباده،، الحاكم بالعدل، والقضاء بين عباده، أليس ذلك هو الله، إذًا الذي يحكم بالحكمة العظيمة، وبالحكم والعدل بين الناس، ألا يساوي من غير فطرته وكفر بربه، ويساوى مع من بقي عَلَىٰ فطرته، وعرف الطريق إِلَىٰ ربه، من عمل الأعمال الصالحة، ومن عمل الأعمال السَّيِّئَة، لا يساوي هٰذَا بهذا، فالله يتفضل عَلَىٰ عباده الصالحين، بإكرامهم في دار كرامته، ويحكم عَلَىٰ من يستحق النار بعدله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهو أحكم الحاكمين.

فأليس الله بأحكم الحاكمين؟ بلى إنه أحكم الحاكمين، هل يجوز الإنسان إذا انتهى من هٰذِه السورة أن يقول: بلى، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، بلى إنه أحكم الحاكمين، ومثلها سورة: القيامة، ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠]، بلى قادر، هل نقولها؟ نقول: يجوز أن تقولها خارج

الصلاة، وأنت تقرأ القرآن، أو في السُّنَّة جائز، أما في الفريضة، فلا تأتي إلا بما ورد، وَأَمَّا في غيرها فالأمر واسع، فإن قلتها لا بأس، وإن تركتها فلا بأس، كل ذلك جائز.

هٰذَا ما احتوت عليه هٰذِه السورة، التي ذكرنا في أولها أنها سورة عميقة، مليئة بالعلوم، والفوائد، والتوجيهات، والمواعظ، ومع قصر آياتها وقلة آياتها، إلا أن فيها هٰذِه التوجيهات التي تدبرناها وتأملناها، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن ينفعنا بما قلنا وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين، موفقين لكل خير، واللهُ أَعْلَمُ وصلي الله وسلم علي نبينا محمد وعلي اله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ العلق)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(العلق ١ - ٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله وَالحَمْدُ للهِ، وأصلي وأسلم عَلَىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نَبِيِّنَا مُحَمَّد، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، ومن اهتدى بهداه إِلَىٰ يوم الدين، اللَّهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، واجعل هٰذِه الجلسة القرآنية جلسة مباركة نافعة.

أَمَّا بَعْدُ؛ أيها الإخوة الكرام؛ السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هٰذَا اللقاء المبارك، وهٰذِه الجلسة المباركة، في هٰذَا اليوم، وهو اليوم الثالث من الشهر الحادي عشر، من عام أربعة وأربعين وأربعمئة، وألف من الهجرة، نجتمع في هٰذَا المقام المبارك، لنقرأ آيات من كتاب الله، نتأملها، ونتدبرها، ونتفكر فيها، نعيش معها هٰذِه الدقائق الثمينة.

لا زلنا في قصار سور القرآن الكريم، والسورة التي بين أيدينا في الحقيقة، من أَجَلّ سور القرآن الكريم، وتحتاج منا إِلَىٰ تأمل، وَإِلَىٰ تدبر وتفكر، هٰذِه السورة هي كما ذكر أهل التفسير وأهل العلم، هي أول سورة نزلت في كتاب الله، ولما يقال لك أول سورة نزلت في كتاب الله، تستشعر عظمة هٰذَا الوحي، وتستشعر عظمة هٰذَا الكتاب المنزل، وهٰذِه الدعوة العظيمة التي جاءت لتخرج الناس من ظلمات الجهل، والكفر، والطغيان، والأعراض، والعناد، إِلَىٰ نور الطاعة، والاستقامة، والطريق إِلَىٰ الله.

عندما تقرأ هٰذِه السورة، وهي أول سورة، وآياتها في بداياتها، هي أول آيات يوحي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها إِلَىٰ نبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا شك أنك تحتاج منك إِلَىٰ أن تتأمل هٰذِه الفواتح العظيمة، يَعْنِي لم تأتي هٰذِه الفواتح هكذا، وإنما جاءت لتحرك الأذهان، جاءت لتجعل هٰذَا الإنسان يتفكر في حياته، يتفكر في خلقه، يتفكر في مبدأه، ومعاده، لم يخلقه الله هكذا عبثًا، وَإِنَّمَا خلقه للعلم، وَالتَّعَلُّم، وعبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والطريق إِلَىٰ الله، وطريق النجاة.

هٰذِه السورة افتتحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالأمر، واختتمها بالأمر، إِذًا هي أوامر، وهٰذِه الأوامر لما تسمعها أنت، تُوجه إليك، إِذًا تحرك فيك هٰذِه الأشياء، لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، ثم في آخرها يقول: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، ثم أمر آخر أَيْضًا، حتى نلفت الأنظار، أن هٰذِه الآية، أو

هٰذِه السورة، أول وحي ينزل إِلَىٰ الأرض من السماء يأتي بالأمر، ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، وآخر آية في كتاب الله عهدًا بالعرش، وآخر آية نزلت في كتاب الله عَلَىٰ الإطلاق، تأتي بالأمر، في قوله تَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، شوف كيف بداية السورة هنا، بداية الخلق الذي خلق الإنسان، بداية خلق الإنسان، بداية وجود هٰذَا الإنسان.

وفي السورة الأخيرة، وفي الآية الأخيرة، آخر آية تنزل في كتاب الله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وهنا المبدأ الخلق، وهنا المعاد، يتفكر الإنسان في مبدأه، وفي معاده، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وهنا يذكرك الله بالخلق اَلْأَوَّلُ، وأن الله لم يخلق الآن الإنسان هكذا سُدىً، أو عبثًا، وَإِنَّمَا خلقه للعلم، وَالتَّعَلُّم، والكتابة، والقراءة، ومعرفة النظر في ملكوت السماوات والأرض، والنظر في نفسه، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

هٰذِه السورة ابتدأها الله كما ذكرنا بالأمر، وهي أول آيات القرآن نزولًا، وهي الآيات الخمس، الآيات الخمس؛ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، هي أول ما نزل من الوحي عَلَىٰ الإطلاق، وهو الصحيح عند أكثر أهل العلم، لما جاء في الصحيحين عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أول ما بدأ به الوحي، ثم ذكرت قصة مجيء الوحي، ومجيء جبريل للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في غار حراء يتعبد الله، حتى جاءه الوحي بهذه الآيات.

ثُمَّ إن بقية السورة نزلت بعد فترة من نزول الوحي، ومن بعثة النَّبِيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واشتداد عداوة الكفار للمسلمين في قصة أبي جهل، وما حصل معه مع النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بدايات هٰذِه الآية، أو هٰذِه السورة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]؛ توجيه وأمر بالقراءة وَالتَّعَلُّم، كما قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١-٤]، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن: ٣]، ثم قَالَ: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤].

وهنا قَالَ: اقرأ باسم لربك الذي خلق، ثم قَالَ، ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]، وفي خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أول ما خلقه الله، علمه كل شيء، علمه الأسماء، علمه أسماء كل شيء، وجعله يفوز بعد محاورته مع

الملائكة بفوزه بالعلم، وَالتَّعَلُّم، لما قَالَ: يا ادم أنبئهم بأسماء هؤلاء، فأنبأهم، فسجد الملائكة تعظيمًا، واحترامًا، وتقديرًا، وتحيةً لآدم لما فضله الله بالعلم، فالإنسان يتفضل ويرتفع بالعلم، ويهبط وينزل بالجهل.

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، نقرأ هٰذِه الآيات بتأمل وتدبر، اقرأ: فعل أمر من القراءة، وهي النطق والبيان، ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]؛ أي: اقرأ وأنت متلبسًا باسم الله، وأنت متبركًا باسم الله، ببركة هٰذَا الاسم العظيم، مثل ما تقول: أشرب بسم الله، وآكل بسم الله، وأدخل بسم الله، وأقرأ بسم الله، وأكتب بسم الله، بسم الله تعظيمًا لاسم الله.

وإن كان المقصود أنك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، المقصود هو الله عَزَّ وَجَلَّ، ولكن تقديم الاسم للتَّبَرُّكِ، والتعظيم، وأيضًا للتذكير بأسماء الله الحسنى؛ لأن المشركين يعظمون أسماء اللات، فيتكلمون باللات، أو يتكلمون بالأصنام، باللات، والعزى، ومناة، وغيرها.

قَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ولاحظ أنه قَالَ: باسم ربك، تذكيرًا بأنه هو ربه، وهو خالقه، وهو الذي أوجده، وهو الذي رزقه، وهو الذي هداه، تذكيرًا، بالمربي له اَلْأَوَّلُ، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولم يقل: اقرأ باسم الله، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، تذكيرًا بأن هٰذَا الوحي وهٰذِه الرسالة، هي رحمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من رب العالمين الذي خلق الخلق، ورزقهم وهداهم.

﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، وكلمة خلق هنا تعم جميع المخلوقات، خلق الخلق جميعًا، ولذلك متعلق الفعل محذوف، وحذفه يدل عَلَىٰ العموم، الذي خلق، خلق ماذا؟ خلق كل شيء، هو خالق كل شيء، ثم خصص لتحديده لهذا الإنسان؛ لأنه مخاطب بهذا، ولذلك لما قَالَ: ﴿الَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، قَالَ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]، فحدد بعدما عمم خصص، فَقَالَ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [العلق: ٢]؛ لأنه هو المخاطب بهذه الآيات؛ ولأنه من أعظم المخلوقات.

قَالَ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]؛ والمقصود بالإنسان هنا: هو عموم الإنسان، آدم وذريته، ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]، أو يُقال: ذرية آدم؛ لأن آدم لم يُخلق من علق، وإنما خلقه الله من تراب، ثم من طين، ثم من صلصال كالفخار، فالعلق في ذريته، والنطفة في النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، في ذريته.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]؛ والعلق: هي قطعة الدم الجامدة، بعد ما تتحول هٰذِه النطفة، وهو الماء المهين، يتحول بعد أربعين يومًا إِلَىٰ قطعة دم جامدة، قيل لها: علق؛ لأنها تعلق في جدار الرحم، وتبقى أربعين يومًا هكذا، ثم تتحول إِلَىٰ مضغة، والمضغة قطعة اللحم التي بقدر ما يمضغ الإنسان، قَالَ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]؛ وذِكر العَلَق هنا، حتى سميت السورة بسورة: العلق، وسميت بسورة: اقرأ، وسميت أَيْضًا عند بعض المفسرين بسورة: القلم، وأيضًا سورة نون بسورة القلم، ولا يمنعن أن تكون هناك سورتان باسم واحد، لكن تتميز، كأن يُقال مثلًا: نون والقلم، أو اقرأ القلم.

قَالَ: ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]، وتسمية السورة لذكر هٰذَا اللَّفْظ، الذي ذكر بخلق الإنسان اَلْأَوَّلُ، ونشأة الإنسان اَلْأَوَّلُ، كيف نشأ، وكيف خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتذكيرًا بضعفه، وأنه مر بهذه المراحل، حَتَّىٰ أنشأها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلقًا تامًا، في أحسن صورة، وأحسن تركيب، وهٰذَا يذكرك أَيْضًا بالسورة التي مرت معنا، سورة التين، لما قَالَ الله سُبْحَانَهُ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ذكَّره بأنه من علق، وأنه جعله في أحسن صورة، وفي أحسن تقويم، كل هٰذَا يُذكِّره بالخلق اَلْأَوَّلُ، ويجعل الإنسان يعترف بضعفه، يعترف بعظمة الرحمن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ورحمته التي عمت كل شيء، وفضله وإحسانه عَلَىٰ هٰذَا الإنسان.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]، ثم أعاد مرة أخرى تأكيدًا، وتذكيرًا، وتأكيدًا عَلَىٰ أهمية القراءة، والعلم، وَالتَّعَلُّم، ولذلك قَالَ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣]، تذكير بأن أَيْضًا المعلم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والذي يمن عَلَىٰ عباده بالعلم، وَالتَّعَلُّم، والتعليم هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه من تفضل الله عليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالعلم، وَالتَّعَلُّم، والتعليم، فإن هٰذَا من كرامات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، ومن تفضل الله عَزَّ وَجَلَّ له.

ولذلك قَالَ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣]، وكلمة الأكرم، يقول أهل اللغة: هٰذَا اسم التفضيل، واسم التفضيل، إذا كان مقرونًا بالألف واللام، دل عَلَىٰ الاختصاص، يَعْنِي: الأكرم، لا أكرم معه، ولا أكرم مشابهًا له، فهو الأكرم من جميع الوجوه، لا شبيه له في كرمه، وهٰذَا يذكرنا حَتَّىٰ نعرف أن القرآن الكريم مترابط، يَعْنِي متشابه الآيات ومترابط الآيات، لما تقرأ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣]، يذكرك بأي شيء؟ يذكرك بسورة الانفطار، ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ

فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٧]، ربك الكريم هو الذي خلق، وهنا يقول: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣]، الذي خلقك خلق اَلْأَوَّلُ، وعلمك بعدما أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، وجعل لنا السمع، والأبصار، والأفئدة، كل هٰذَا تذكير لنا بهذه النعمة.

قَالَ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ٣]، ومن كرمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ماذا؟ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]، شوفوا الآن جاءت الكتابة، لمَّا ذكَّرنا بالقراءة، ذكَّرنا بالكتابة، والقراءة سابقة للكتابة، الإنسان يقرأ ثم يكتب، يقرأ ثم يكتب، ولذلك قَالَ: ﴿اقْرَأْ﴾ [العلق: ٣]، والنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قرأ ولم يكتب؛ لأنه أُمِّيّ وبقي عَلَىٰ أميته إعجازًا بأن يأتي بكتاب عظيم، لا يستطيع العرب أن يأتوا ولا بآية، ولا بسورة من مثله، ومع ذلك وهو أُمِّيّ لا يقرأ ولا يكتب.

ولذلك علمه الله القراءة، فقرأ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واستجاب لله، وتعلم القراءة، وحفظ القرآن، وهو أول حفاظ هٰذِه الأُمَّة، وَأَمَّا الكتابة فلم يكتب، وَأَمَّا الكتابة فقد أُمر الناس بها، أن يقرأوا ثم يكتبوا، ولذلك قَالَ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣-٤]؛ القلم: هو آلة الكتابة.

قَالَ: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، هٰذَا من كرم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن علم الإنسان مالم يعلم، الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئًا، فعلمنا ما لم نعلمه، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وعلمك لا يمثل شيئًا في علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك الخضر لما ركب السفينة، وموسى معه، والخضر قد أعطاه الله من العلم عن لدني فوق موسى، فلما ركب السفينة جاء عصفور أو طائر، وأخذ من الماء بمنقاره ثم طار، قَالَ الخضر: "يا موسي، ما علمي وعلمك في علم الله، إلا مثل ما أخذ هٰذَا الطائر من هٰذَا البحر"، فعلم الله واسع.

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ويدخل في ذلك علم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلم أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وعلم شرعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وعلم ما يتعلق بالخلق، وعلم ما يتعلق بالمعاد، كل ذلك داخل، ويدخل فيه سائر العلوم الدينية والدنيوية، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، حتى في العلوم الدنيوية، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥].

هٰذِه الآيات الخمس هي التي نزلت في أول بعثة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأول افتتاحية هٰذِه الرسالة، وأول الكشف وإزالة هٰذِه الغمة، وهٰذِه الجهالة التي عمت عَلَىٰ العرب، أزالها الله بهذه الكلمات

العظيمة التي تقول للجهل وداعًا للجهل والكفر والضلال، وداعًا بمجيء هٰذَا النور، وَهٰذِه الطاعة، هٰذِه الآيات الخمس الَّتِي وقفنا معها، بقية السورة تحتاج منا أَيْضًا إِلَىٰ تأمل وَإِلَىٰ وقفات، تحتاج إِلَىٰ وقت آخر، لا نطيل عليكم، نقف عند هٰذَا القدر، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يبارك لنا ولكم، وأن يوفقنا وإياكم لطاعته، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، واللهُ أَعْلَمُ وصلي الله وسلم علي نبينا محمد وعلي اله وصحبه أجمعين.

(العلق ٦ – آخر السورة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله وَالحَمْدُ للهِ، وأصلي وأسلم عَلَىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين نَبِيِّنَا مُحَمَّد، وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ، ومن اهتدى بهداه إِلَىٰ يوم الدين، اللّٰهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين، واجعل هٰذِه الجلسة القرآنية جلسة مباركة نافعة.

أَمَّا بَعْدُ؛ أيها الإخوة الكرام؛ السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله في هٰذَا اللقاء المبارك، وفي هٰذَا المجلس مجلس القرآن الكريم، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يرزقنا وإياكم العلم النافع، والعمل الصالح، وأن يبارك لنا ولكم في أوقاتنا، وفي أعمالنا، هٰذَا اليوم هو اليوم العَاشِر من الشهر الحادي عشر، من عام أربعة وأربعين وأربعمئة وألف من الهجرة.

مجلسنا مع تفسير القرآن الكريم، وقصار السور، والسورة التي بين أيدينا تحدثنا عنها في لقائنا الماضي، ونكمل الحديث عنها في هٰذَا اللقاء إِنْ شَاءَ اللهُ، هٰذِه السورة كما ذكرنا هي أول سورة نزلت في كتاب الله، أول سورة، وآياتها الخمس هي أول ما نزل في بداية هٰذَا النور العظيم، وهٰذِه الهداية العظيمة التي قشعت ظلمة الأرض، وظلمة الضلال، وبها جاء الخير، وبها ظهرت هٰذِه الأُمَّة التي هي خير أمة أُخرجت للناس.

لما تقرأ هٰذِه السورة وأنت تتذكر حال أهل الكفر والضلال، وكيف كانوا يعيشون، ثم جاء هٰذَا النور، وقشع هٰذِه الظلمة وبددها، وأنت تقرأ هٰذِه السورة تجد أثر هٰذِه السورة عَلَىٰ الأُمَّة الإسلامية، وأثر هٰذِه السورة عليك أنت، وعَلَىٰ كل مسلم، تبدأ هٰذِه السورة بالأمر بالقراءة والكتابة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]؛ يذكرك الله بخلقك اَلْأَوَّلُ، ﴿الَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١-٢]؛ يذكرك بالخلق اَلْأَوَّلُ.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما خلق الخلق، تكفل برزقهم، فما من مخلوق إلا وقد كتب الله له رزقه، فتكفل الله برزقه، وزيادةً عَلَىٰ ذلك وفضلًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورحمة، فوق خلقه الأول في أحسن صورة، وإكمال خلقه بهذه الصورة العظيمة الجميلة، وتكفل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن تكفل برزقه، وفوق ذلك كله

أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنعم عليه بالعلم، العلم، والكتابة، والقراءة، فهذَا فضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أن أخرج هٰذِه الأُمَّة بهذا العلم، وَالتَّعَلُّم، والقراءة، والكتابة من ظلمة الجهل، والتخبط، والضلال.

تقرأ هٰذِه الآية وتعرف نعمة الله عليك، بأن أنعم عليك بالخلق اَلْأَوَّلُ، بهذه الصورة الجميلة، أنعم الله عليك بالرزق، بأن هيأ لك هٰذَا الرزق، أنعم الله عليك فوق ذلك بالعلم وَالتَّعَلُّم، لم تبقى جاهلًا ضالًا، لا تدري أين تذهب، أنعم الله عليك بالعلم والقراءة، تستطيع تقرأ القرآن، تتعلم العلم النافع، تسمع و تستوعب هٰذِه الأشياء، ولكن مع الأسف وأنت تقرأ هٰذِه الآيات، والله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ﴾ [العلق: ٣-٥]؛ مُطْلَقًا، ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]؛ خرج من بطن أمه جاهلًا، لا يعرف.

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]؛ لمَّا تتذكر هٰذَا الكلام وهٰذِه الآيات، وهي تحرك في نفسك، مع الأسف الشديد أنك تجد من الناس من إذا أنعم الله عليه بالعافية، وأنعم الله عليه بالرزق، وقد يكون أَيْضًا أنعم الله عليه بالعلم، إن الإنسان من طبيعته الطغيان، والإسراف، والإعراض، والضلال، طبيعة الإنسان هكذَا، إلا من عصم الله، إلا من أنعم الله عليه بالهداية وعرف الطريق إِلَىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، وأنقذه الله من هٰذِه الصفة السَّيِّئَة.

ولذلك أنت تقرأ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لما ذكر هٰذِه الآيات، وهٰذِه النعم العظيمة، قَالَ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ [العلق: ٦]؛ كلمة كلا، هٰذِه كلمة تكررت في القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة، والعجيب أن: كلا، لم ترد إلا في النصف الثاني من القرآن، يَعْنِي أنت تقرأ النصف اَلْأَوَّلُ إِلَىٰ أن تنتهي من سورة الكهف ما في: كلا، أبدًا، لما تبدأ بسورة مريم إِلَىٰ أن تصل إِلَىٰ آخر القرآن، تأتيك كلا متكررة.

ما معنى: كلا؛ لها معنيان: المعنى اَلْأَوَّلُ: أحيانا تأتي بمعنى: حقًا، يَعْنِي هٰذَا الأمر حقيقةً، ومرة تأتي بمعنى الزجر والردع، كيف يحصل هٰذَا الشيء، وهنا هٰذِه قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا﴾ [العلق: ٦]، وستأتينا بالسورة نفسها مرة ثانية، وفي نفس السورة لها معنيان، جاءت بمعنيين:

المعنى اَلْأَوَّلُ هنا: قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ [العلق: ٦]؛ يقول كلا: يَعْنِي حقًا أن الإنسان هٰذَا المخلوق ليطغى، متى يطغى، متى يصل إِلَىٰ درجة التَّكَبُّر، والاستكبار، والطغيان؟ قَالَ: ﴿أَنْ

رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٧]؛ إذا رأى نفسه مستغنيًا بالمال، تكبَّر، طبيعته يتكبر، وهٰذَا في حق الكافر، أما المؤمن فمن طبيعته التواضع لله، وكلما أعطاه الله، ورفع الله مقامه بالمال، بالعلم، بالجاه، بالمكانة، يتواضع لله.

ولذلك النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمَّا أنعم الله عليه بفتح مكة، كيف دخل مكة؟ دخل مكة متواضعًا أشد التواضع، أنعم الله عليه بأن فتح له مكة، ومع ذلك يتواضع لله، لكن من فقد العلم، وأصبح جائع في جهله، لا يعرف أن الله إذا أنعم عليه، الواجب عليه أن يتواضع لله عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ [العلق: ٦]؛ حقًا إن الإنسان طبيعة الإنسان وهٰذَا الكافر، قَالَ: ﴿لَيَطْغَى﴾؛ أن يصل إِلَىٰ درجة الطغيان والاستكبار، مَتَىٰ؟ قَالَ: ﴿أَنْ رَآهُ﴾ [العلق: ٧]؛ إذا رأى نفسه قد استغنى بالمال، وأعطاه الله، وفتح الله عليه بالمال، فإنه يتكبر، هٰذِه طبيعة الكافر، أما المؤمن فليس داخلًا في هٰذَا.

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ ردًا عليه: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: ٨]؛ تطغى، تتكبر؟ اعلم إنك سترجع إِلَىٰ الله، ستموت وتذهب وتترك هٰذَا المال، وتركنا ما خولناك من المال، أين المال الذي حصلت عليه، وأين ما جمعت في هٰذِه الدنيا؟ أصبح حطامًا، ذهبت وتركته، ولذلك قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: ٨]، ترجع إِلَىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس معك شيء، تركتم ما خولناكم، رجعتم فرادى، ترجع إِلَىٰ الله منفردًا، لا مال، ولا ولد، ولا شيء إلا عملك الصالح.

قَالَ: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: ٨]، وهٰذَا الكافر لما يطغى ويستكبر، أشد ما يكون في تذكيره أن تذكره بمصيره، إِلَىٰ متى تفعل كذا، إِلَىٰ متى تطغى، إِلَىٰ متى تستكبر؟ مصيرك أنك ستنتهي من هٰذِه الدنيا وتذهب، كلها أيام معدودة، كلها سنين عديدة، سنين معدودة وتذهب وتترك هٰذِه الدنيا، فلماذا تطغى؟ فأشد ما يردع الكافر هو تذكيره بالموت، تذكيره بمصيره.

ولذلك ينزعجون أهل الدنيا، أهل الحطام ينزعجون لما يُذكَّرون بمثل هٰذَا الأمر، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قَالَ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، اشتغلتم بالدنيا والتكاثر في كل شيء، ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢]؛ اشتغلتم حتى ذهبتم إِلَىٰ مصيركم في هٰذِه القبور.

قَالَ: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: ٨]؛ ثم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هٰذِه الآيات في السورة هٰذِه في ثناياها وخاتمتها، يذكر لنا حال هٰذَا المتكبر، هٰذَا الطاغية المستكبر، زيادةً عَلَىٰ تكبره، وعناده، وكفره، يمنع الخير؛ يَعْنِي لا يريد الخير لنفسه، ولا يريد الخير لغيره، حتى الخير يمنعه من غيره، يَعْنِي لا يقدم الخير لنفسه

لينفع نفسه، ولا يريد أن الناس ينتفعون بهذا الخير، ولذلك ذكر لنا صورة، ومثلا عَلَىٰ مر السنين لكل من يفعل هٰذَا، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمَّا يذكر لنا قصة من قصص القرآن، أو حالًا من أحوال ما وقع في نزول القرآن، يذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هٰذَا الشيء يُذكِّره لنا، حتى يعتبر من يعتبر، ويتعظ من يتعظ.

ولذلك يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى﴾ [العلق: ٩]؛ إذًا هٰذَا رجل ينهى، يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ [العلق: ٩]، ورأيت هنا معناها أخبرني، أخبرني عن هٰذَا الذي ينهى، ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩-١٠]، ينهى عن المنكر، ينهى عن المعروف، وينهى عبدًا من عباد الله، قد تعبد لله وتقدم لله، فكيف ينهاه، هو لا يمتثل، ولا يريد أن غيره يمتثل، ولذلك يقول: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾ [العلق: ٩-١٠]؛ هٰذَا العبد يصلي لله، ويتقرب إِلَىٰ الله بأعماله الصالحة، فثم تأتي وتمنعه، ولا تريد له الخير؟

وهٰذِه الآيات كما هو معلوم عند الجميع، نزلت في أبي جهل، لمَّا كان يمنع النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصلاة عند الكعبة، فيهدده ويمنعه، ويقول: "لا أراك بعد هٰذَا اليوم تصلي في هٰذَا المكان، فإن صليت فعلت بك كذا وكذا"، ولذلك أنزل الله فيه هٰذِه الآية، إِلَىٰ يوم القيامة تُتلى في حقه، وفي حق كل من يفعل بمثل هٰذَا الفعل، بأن يمنع الناس من الخير، أو يمنعهم من عبادة ربهم.

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى﴾ [العلق: ١١]؛ هٰذَا الذي أنت تنهاه وتمنعه، أخبرني إذا كان عَلَىٰ الهدى، عَلَىٰ الطاعة، عَلَىٰ الإيمان، عَلَىٰ العلم النافع، عَلَىٰ العمل الصالح، أخبرني إذا كان عَلَىٰ خير ثم تمنعه، ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ [العلق: ١٢]؛ أمر بالخير والتقوى، ونهى عن الشر، وحذر منه، ﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى﴾ [العلق: ١٢].

ثم قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمَّا ذكر حال هٰذَا الطائع، العبد الذي يصلي لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكان عَلَىٰ طاعةٍ من ربه، وعَلَىٰ نور من ربه عَلَىٰ الهدى، أو يأمر بالخير، والتقوى، والخوف من الله، قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ [العلق: ١٣]، هٰذَا الحال الذي يقابله، وهو الذي ينهى قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [العلق: ١٣]؛ أخبرني عن هٰذَا الذي يكذب ويتولى، كذَّب بأي شيء؟ كذَّب بالحق، كذَّب بالطاعة، كذَّب بما أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتولى وأعرض عن طاعة ربه، هو كذب وأعرض، وينهى غيره عن الخير، وعن الطاعة، وعن الهدى، وعن تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

هدده الله عَزَّ وَجَلَّ كما هدده في اَلْأَوَّلُ، هدده مرةً أخرى قَالَ: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤]، كيف يغيب عنه هٰذَا أن الله مطلع عليه، وعالم بحاله، ومحسن أعماله، وسيجازيه عَلَىٰ عمله، كيف يغيب عنه أن الله يعلم حاله، ولذلك هدده بأن الله مطلع عليه، وهٰذَا تخويف له، وعالم بحاله ثم هدده مرة أخرى، فَقَالَ: ﴿كَلَّا﴾ [العلق: ١٥]؛ جاءت: كلا، مرة ثانية، كلا، هنا غير الأولى، كلا الأولى بمعنى: حقًا، هنا لا، هنا كلمة ردع وزجر له، قَالَ: ﴿كَلَّا﴾ [العلق: ١٥]؛ يَعْنِي تخويف له.

﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ [العلق: ١٥]؛ عن فعله وعن تهديده، وتخويفه، ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]؛ ما معنى السفع بالناصية، وما هي الناصية؟ السفع هو أخذ الشيء بقوة وبشدة، أو وسمه بِالنَّارِ، ولذلك يُقال: "رجل أسعف الخدين"، أو "امرأة سفعاء الخدين"، إذا كان فيها سواد في خديها، إِمَّا من كي ونحوه، ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾ [العلق: ١٥]؛ نأخذه بقوة، نجذبه بشدة مع ناصيته.

طيب، ليش خص الناصية، الناصية: مقدمة الرأس، لماذا خص الناصية؟ لأن أخذه بناصيته إهانةً له، وإذلالًا له، لمَّا تكبر عن طاعة الله، والجزاء من جنس العمل، لمَّا تكبر عن طاعة الله جازاه الله، بأن أهانه حَتَّىٰ تصل مقدمة رأسه إِلَىٰ الأرض، كما يُفعل بالمجرم، ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١]؛ في يوم القيامة يُؤخذ بالنواصي والأقدام.

قَالَ: ﴿نَاصِيَةٍ﴾ [العلق: ١٦]؛ هٰذِه الناصية، وهٰذَا الرأس، وهٰذَا الإنسان، حاله ماذا؟ ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٦]، ما الفرق؟ نقول: كاذبة في أقوالها، خاطئة في أفعالها، وإن كان الله نص عَلَىٰ الناصية، المراد به الإنسان كله، فأقواله هٰذَا الرجل الذي سيُؤخذ بهذه الحال بقوة، وسيُجذب بهذه القوة ويُرمى في نار جهنم، ويُهان؛ لأن كلامه سيء ومحرم، ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾ [العلق: ١٦]؛ لا يقول إِلَّا أقوالًا كاذبة، ولا يعمل إِلَّا أعمالًا سيئة.

قَالَ: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ [العلق: ١٦]؛ وخاطئة، معنى الخطأ هنا: الخطأ الذي يكون مقصودًا متعمدًا، كما قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قصة امرأة العزيز: ﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]؛ يَعْنِي المتعمدين الخطأ، أما المخطئ الَّذِي يقع منه الخط من غير عمد، ما يسمى خاطئ، ولذلك هنا قَالَ: خاطئ؛ يَعْنِي متعمدًا أن يفعل.

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ تهديدًا له: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق: ١٧]؛ هو يهدد محمدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويهدد ضعفاء المسلمين بأن له القوة، ومن معه من اتباعه، وأنه سيأتي بجنود معه، وسيأتي كذا ويهدد، ويقول للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هٰذَا الوادي كله معي، وسآتي به ليتسلطوا عليك"، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق: ١٧]؛ والنادي: هو المجلس الذي يجلس فيه هو وأصحابه، فليدعوا من معه، وأتباعه، وأصحابه.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ [العلق: ١٧]، ويأتي بما عنده، عندنا ما هو أعظم عندنا، ولذلك قَالَ: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]؛ والزبانية: هي خزنة نار جهنم، الملك الواحد ما يستطيع الإنسان أن يواجهه، فكيف إذا كان أعداد هائلة من زبانية النَّار، أن يسلط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ زبانية النار عَلَىٰ هٰذَا الطاغية، هٰذَا المجرم، سندعو الزبانية، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا﴾ [العلق: ١٩]؛ كلمة ردع وزجر له، كلا: جاءت ثلاث مرات.

قَالَ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق: ١٩]؛ لا تطعه فيما يأمر ويقول، أو فيما ينهى، لا تصلي في هٰذَا المكان، لا أراك بعد هٰذَا اليوم أنك تفعل كذا وكذا، قَالَ الله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق: ١٩]؛ لماذا؟ لأن الله مع نَبِيِّنَا محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۩﴾ [العلق: ١٩]؛ أي استمر في طاعة الله، وتقرب إِلَىٰ الله، وأكثر من السجود، كما قَالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَقْرَب مَا يَكُون العَبْد لِرَبِّه وَهُوَ سَاجِد**»، فأكثروا من السجود، والمقصود بالسجود هنا، ليس مجرد سجود أن تسجد، المراد به العبادة، المراد به الصلاة، الصلاة أحيانًا يُطلق جزء منها ويراد بها الكل، فتقول: يركع ركعتين، أو يركع ركعة، أو يسجد، فكلها يُراد بها الصلاة.

هنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يأمر فيقول: استمر في صلاتك، وأقم صلاتك، وأكثر من سجودك، وكل ما تكثر من السجود والصلاة، فإنك تكون أقرب إِلَىٰ الله، وفي هٰذَا نستفيد أن الإنسان كل ما حصل له فرصة في الصلاة، فليكثر، صلاة الضحى، صلاة اَللَّيْل، أوقات الصلوات المفتوحة، فليكثر من الصلوات؛ لأنه كلما أكثر قرب من الله، والله يحب من العبد أن يكثر من طاعته وصلاته، وكل ما سجد تقرب إِلَىٰ الله بِالدُّعَاءِ، فيُشرع له ذلك.

وهٰذِه السورة فيها سجدة في آخرها، وهي آخر سجدة في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعَلَىٰ الإنسان إذا مر بمثل هٰذِه الآية أن يسجد، يُشرع له السجود إن كان في صلاة فرض، أو صلاة سُنَّة، أو يقرأ وهو

جالس، فإنه يشرع له السجود، أن يسجد سجود التلاوة، وإن كان مثلا في طريق وهو يمشي، أو في سيارته، ولم يتهيأ له السجود، فلا بأس أن يترك السجود، لا بأس إن حصل له السجود سجد، وإن لم يتيسر له، فلا بأس أن يتركه.

فإن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطب مرة بالناس يوم جمعة، وقرأ آية السجدة من سورة النحل، ثم سجد، ثم خطب مرةً أخرى في الجمعة القادمة، وقرأ آية السجدة، ولم يسجد، ولما سئل قَالَ: "أريد أن أُبيِّن لكم أن السجود سُنَّة"، فمن تيسر له أن يسجد فليسجد، ومن لم يتيسر له، فلا حرج أن يتركه، ولكن السجود أفضل، مهما تيسر للإنسان أن يسجد، ولو كان يومي إيماءً، حتى في صلاته، حتى في سيارته، لو يومي إيماءً عَلَىٰ قدر السجود ويسجد، لا يترك السجود، بل يكثر من الطاعة.

الإنسان كل ما حصل له فرص في الطاعات، ألا يفرط في شيء من ذلك؛ لأن هٰذَا ينفعه، هٰذِه السورة العظيمة الحقيقة، وقفنا معها هٰذِه الوقفات، تأملنا هٰذِه الآيات، وانتفعنا بها، نسأل الله أن ينفعنا بها، نسأل الله أن يبارك لنا، وأن يجعلها حجة لنا لا علينا، وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن، الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا، واللهُ أَعْلَمُ وصلي الله وسلم علي نبينا محمد وعلي اله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ القدر)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة القدر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبهِ وَمَنْ اهتدى بهداه واتبعَ سُنتهُ إلى يومِ الدين، اللّٰهمَ علمنا بما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوة الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هذا المجلس المبارك، وَفِي هذا اللقاء لقاء القُرآن الكريم، وتفسير القُرآن وتدبر معانيه، والتفكر فِي آياته، هذا اليوم وهو اليوم السابع عشر مِنْ شهر ذي القِعدة مِنْ عام أربعةٍ وأربعين وأربعمائة وألف مِنْ الهجرة.

مجلسنا مع قِصار السور. الحقيقة قِصار السور هي يعني الكل يحفظ هذه السور القِصار، لكن يحتاج إلى فهمها، فهم معانيها، فهم ألفاظها، ونحتاج إلى أن نعرف حقيقة هذه السور القِصار التي يقرأها الكثر مِنا ويحفظها، وجاء عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّه قال: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزلَ مِنْ الكُتب مائة وأربعة، جمعَ ما فِي هذه الكُتب المائة وأربعة فِي أربعة كُتب: فِي التوراة، وَفِي الإنجيل، وَفِي الزبور، وَفِي القُرآن. ثم جمعَ ما فِي هذه الكُتب الأربعة فِي القُرآن الكريم. ثم جمعَ ما فِي القُرآن الكريم مِنْ هذه العلوم جمعها فِي المفصل.

ما هو المفصل؟

المفصل يبدأ مِنْ سورة (ق) إلى آخر القُرآن، وهو ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

- طوال المفصل؛ مِنْ (ق) إلى سورة (النبأ، عم).
- ثم أواسط المفصل؛ ويبدأ مِنْ سورة (النبأ) إلى (الضحى).
- ثم قِصار المفصل؛ ويبدأ مِنْ (الضحى) إلى (آخر القُرآن).

يقول: جمعَ علوم القُرآن كلها فِي المفصل، ثم جمعَ ما فِي المفصل فِي الفاتحة. ثم جمعَ كل ما فِي الفاتحة فِي قوله تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

المفصل اشتملَ على أعظم علوم القُرآن، كُل علوم القرآن فِي المفصل، وأنت تقرأ أي سورة مِنْ قِصار السور، أي سورة، يعني أي سورة مِنْ قصار السور تجدها فِي الغالب مشتملة على التوحيد، إفراد الله بالعبادة، تقرير التوحيد، طاعة الله، وإفراد الله بالطاعة والعبادة، على شيء مِنْ قصص القُرآن، على شيءٍ مِنْ أحكامه، على شيءٍ مِنْ أخلاقه.

شوف كيف كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اشتملَ على هذه الأمور: الطاعة، والعبادة، والتوحيد، إفراد الله بالعبادة، الخضوع لله، ما فيها مِنْ القصص والوعظ والتذكير؛ لأن القَصص تأتي فِي القُرآن للوعظ والتذكير والتفكر، ما فيها مِنْ الأعمال الصالحة كالصلاة، الصيام، وغيرها التي تُقربك إلى الله، ما فيها مِنْ الأخلاق التي نزلَ القُرآن لأجل هذه الأخلاق.

يعني سورة (الضحى) هي بداية قِصار المفصل، لو تأملتها تجدها هي فِي رعاية النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۝٨﴾ [الضحى: ٧، ٨]، يعني فِي رعاية النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحِسية.

ثم تأتي بعدها سورة الشرح: فِي رعاية النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإكرامه للأشياء المعنوية: شرح الصدور، مغفرة الذنوب، وغيرها.

ثم تأتي بعدها سورة التين؛ وهي تُركز على ماذا؟ على خلق الإنسان وعبادتهُ لله، وأن الذي يرفعهُ عند الله هي الطاعة، والذي يجعلهُ فِي أسفل سافلين هي المعاصي.

بعد سورة التين وأنتَ تقرأ حتى تتأمل أكثر وأكثر وتعيش مع القُرآن، سورة العلق، سورة العلق فيها أعظم نعمة، نعمة القُرآن، نعمة العِلم، نعمة التعلم، القراءة، الكتابة، ولذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهموا هذه السورة فهمًا جيدًا وطبقوه فِي حياتهم، فكان منهم القُراء، وكان منهم الكُتاب، كُتاب الوحي يكتبون القُرآن، وقُراء يتميزون، فطبقوا هذه السورة.

لما تقرأ هذه السورة ثم تنتقل للتي بعدها، سورة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ [القدر: ١]، تجد فيه ترابط شديد بين هذه السورة وهذه السورة. والقدر يعني لما تتأمل هذه السور؛ تجد أجور الأمة كلها فِي هذه

السورة، أعظم الأجور فِي تحقيق هذه السورة وتطبيقها، تطبيقها؛ لأن الله أفاض على هذه الأمة مِنْ الأجور العظيمة.

النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُرضت عَلَيْهِ أعمار أُمته، فكأنه تقالها بالنسبة لأعمار الأُمم السابقة، فأرادَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُرضيهُ بأن يجعل ويُعوض قصار هذه الأعمار -ما بين الستين والسبعين، قليل ما يتجاوز-، عوضهم الله بهذه الأجور العظيمة؛ إذا أدركت ليلة القدر، كم سيحصل لك مِنْ الأجور؟ أكثر مِنْ أربعة وثمانين سنة، ولا نقول: إن ليلة القدر تُعادل، لا ما تُعادل هي خير، الله يقول: ﴿خَيْرٌ﴾ [القدر: ٣]، ما قال تعادل، خير يعني فوق؛ أكثر وأكثر. ما مقدار هذه الخيرية؟ لا يعلمها إلا الله.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال فِي هذه السورة، بعد بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، أول شيء قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ ما هو؟ القُرآن. كيف عرفت أَنَّه القُرآن؟ لأنك لو قرأت السورة التي قبلها، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكرَ القُرآن، فكأنه يقول: هذا القُرآن الذي قال الله فيه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، هذا القُرآن هو الذي أنزلهُ الله ردًا على المشركين الذين يقولون: إن محمد هو الذي افترى القُرآن وأنه أتى، وأنه شاعر، وأنه كاهن. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، و(إنا) تُفيد الاختصاص، ضمير يرجع إلى الله، جمير الجمع والتعظيم، مثل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩].

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، وكلمة (أنزلناه) تدلُ على أن القُرآن نزلَ مِنْ السماوات، نزلَ مِنْ عند الله، مِنْ فوق سبع سماوات، وأن الله تكلمَ به كلامًا مسموعًا سمعهُ جبريل، فحفظهُ؛ فنزلَ به على قلب النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ما الذي نزل فِي ليلة القدر؟

نحنُ نعرف جميعًا أن القُرآن نزلَ مُفرق، مُفرقًا فِي ثلاث وعشرين سنة، تنزل آية، تنزل آيتين، تنزل ثلاث، تنزل سورة كاملة، متفرق، فيه مدني، فيه مكي، فتنزل. كيف يقول: ﴿أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾؟

نقول: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ لأن القُرآن نزلَ جُملةً وتفصيلًا.

نزوله جُملة أن الله أنزلهُ مِنْ اللوح المحفوظ إلى بيت العِزة؛ السماء الدنيا، البيت المعمور، أنزلهُ كاملًا، أنزلهُ كامل. لماذا يُنزلهُ كاملًا؟ تشريفًا لهذه الأمة، حتى تراه الملائكة، البيت المعمور يطوف عَلَيْهِ سبعون ألف ملك لا يعودون مرةً أُخرى، فإنزالهُ فِي هذا المكان تشريف لهذه الأمة، تعظيم لهذه الأمة.

➤هذا معنى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يعني أنزلناهُ جُملةً مِنْ اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

☚وَفِي نفس الوقت أنزلهُ الله بداية نزوله، أول ما نزل مِنْ الآيات هي الآيات فِي قولهِ تَعَالَى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، الخمس الآيات هي أول بداية نزول القُرآن كان ليلة القدر، كان ليلة القدر مِنْ رمضان.

☚وشوف ولاحظ، تأمل: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما أرادَ أن يُنزلَ كتابهُ وشريعته، اختار لها أفضل الأنبياء: محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم اختار لها أفضل الأماكن: مكة، ثم اختار أفضل الملائكة الذي يُنزله: وهو جبريل، ثم اختار أفضل الشهور: رمضان، ثم اختار أفضل الليالي: ليلة القدر.

شوف كيف تشريف هذه الأُمة بهذا القُرآن، كيف يُشرفهُ الله ويرفع مكانته وقدره، وتجد مِنْ النَّاس مَنْ يصد عن القُرآن، أو يلهو، أو لا يُعطي القُرآن حقه، وينشغل عنه، وهذا فضل وكنز عظيم بين أيدينا، كيف نُفرط فِي مثل هذا وأنتَ ترى أن الأُمم السابقة كاليهود والنصارى أُنزلت عليهم الكُتب وضاعت وحُرفت، وهذا القُرآن قال الله فيهِ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

أنزلهُ الله فِي ليلة القدر. ما هي ليلة القدر؟ هي الليلة الشريفة.

لماذا سميت بهذا الاسم؟

لأن الله قدرَ فيها المقادير، مقادير السنة كاملة: الآجال، والأرزاق، والولادة، وغير ذلك، قدرَ الله فيها.

أو أن يُقال: مِنْ القدر وهو الشرف؛ لأنها ليلة شريفة، وليلة قدرَ الله ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

تقدير الأقدار تنقسم إلى أقسام كَمَا ذكرَ أهل العلم-:

تقدير أزلي، قدرهُ الله فِي اللوح المحفوظ، لما خلقَ الله أول ما خلق القلم، قال: «**اكتب**». قال: أكتب ماذا؟ قال: «**اكتب كل مقادير السماوات والأرض**»، كُل شيء إلى قيام الساعة. نسميه هذا التقدير الأزلي.

ثم التقدير العمري، وهو أن الله إذا خلقَ أي مخلوق فِي بطن أُمه يُقدر له أقداره. يُسمى التقدير العمري، كم عمره؟ كيفَ يُرزق؟ هل يُعطيه الله العلم؟ هل كذا.؟ إلى آخرِه. كم أجله؟ هذا نُسميه التقدير العمري، فِي بطن أُمه.

ثم التقدير السنوي، ليلة القدر.

ثم التقدير اليومي، كُل يوم له تقدير. ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، تقادير يومية.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، لما يعني اختصَ الله هذه الليلة وشرفها بقولهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، زادها تشريفًا أن قال بعدها: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ [القدر: ٢]، هذا تشريف وتفخيم لها، تعظيم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢]؟ ثم أجاب.

نحنُ ذكرنا فِي لقاءات ماضية أن القُرآن إذا جاءت كلمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾؛ الجواب موجود. إذ جاءت كلمة ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؛ الجواب غير موجود.

وهنا قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ إذًا الجواب موجود. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠]؟ ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ [القارعة: ١١]. الجواب موجود فكل ما تأتي كلمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾.

هنا قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢]؟ ثم أجاب، قال: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣].

شوف قال: ﴿خَيْرٌ﴾، ما قال لك: مقابل ألف شهر، لا، ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، يعني مَنْ يوفق لإدراك هذه الليلة، فقد كسبَ كسبًا عظيمًا أن يُكتب له أجر ألف شهر، كم ألف شهر؟ كم سنة؟

قدرها بعضهم: بأنها تتجاوز الأربع وثمانين سنة كلها خالية مِنْ ليلة قدر، لو كان فيها ليلة قدر كانت أضعاف.

ثم زادَ هذا التشريف بأن قال: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، يعني هذه الليلة تنزل فيها الملائكة، هذه الليلة التي هي ليلة القدر، مِنْ تشريفها: أن ملائكة السماء تنزل على الأرض.

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لم يستثني منهم أحد.

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ ثم قال: ﴿وَالرُّوحُ﴾ والروح هو جبريل كَمَا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي موضعٍ آخر: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]. الروح الأمين هو جبريل.

قال هنا: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، حتى ذكر بعض أهل العلم: أن الأرض لا يبقى فيها بُقعة إلا وفيها ملك، تمتلئ الأرض بالملائكة؛ تشريفًا لهذه الليلة، وبيانًا لأن هذه الليلة خالية مِنْ الشرور، ما فيها شرور، والملائكة لا تنزل إلا على الخير، ولذلك الملائكة تنزل على حلقات القُرآن، تحفهم، وتنزل على حلقات الذِكر والعلم والتعليم، «**ما اجتمعَ قومٌ فِي بيتٍ مِنْ بيوت الله، ...** »، إلى آخر الحديث، قال: «**إلا حفتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة**»، فالملائكة تنزل للخير، تنزل، بل تضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم.

قال هنا: ﴿وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [القدر: ٤]؛ أي لا ينزلونَ إلا بأمره، وهذا يدل على ماذا؟ على أدب الملائكة، وأنها لا تنزل إلا بأمر الله، لا تتصرف إلا بأمر الله، ﴿وَلَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦].

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]، مِنْ كُلِّ أمرٍ فيه خير، تنزل به الملائكة؛ فهذه الليلة كلها خير.

قال: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥].

أي أنها سالمة مِنْ الشرور، (سلام) ليسَ فيها شر.

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ قال: أن وقتها ينتهي بطلوع الفجر. طيب، متى يبتدئ؟ بغروب الشمس، البداية معروفة، النهاية أعطاك حدها، قال: بطلوع الفجر ينتهي.

ولذلك تجد بعض النَّاس أول الليل فِي الليالي العشر، أو الأوتار العشر، أول الليل ما يشتغل بالطاعة ولا الصَّلَاة ولا شيء، يجلس بين المغرب والعشاء، ثم يُصلي التراويح ثم يرجع.

لا، كلها شريفة، عظمها، استغلها.

ثم تجد بعضهم أيضًا إذا صلى القيام، وانتهت صلاة القيام بالوتر، يجلس، يعني يضيع وقته، إما سواليف أو نحو ذلك، لا، هي إلى طلوع الفجر، الإنسان العاقل يستغل هذه الدقائق الثمينة لئلا تضيع عَلَيْهِ، بجميع أنواع الطاعات.

تحديد ليلة القدر، القُرآن ما حددها، وَالسُّنّة لم يرد تحديد واضح، ولذلك يعني هي مثل ما يُقال: إنها مُبهمة علينا، وإبهامها خير حتى يجتهد الإنسان، يجتهد بالعشر كُلها، لو حُددت لما اجتهد، خلاص عرف مكانها أو وقتها واشتغل بالطاعة، لكن لما أُبهمت كان ذلك خيرًا، فيجتهد فِي سائر هذه العَشر كلها.

وذكر كثير مِنْ السلف مِنْ الصحابة والتابعين أنها ليلة السابع والعشرين لأدلة كثيرة، فهي تتحرى هذه الليلة قريبة جدًا، قريبة أن تكون ليلة القدر، ولكنك فِي الواقع حتى فِي عهد النَّبِيّ وقعت فِي عهد النَّبِيّ ليلة إحدى وعشرين، ووقعت مرةً ليلة ثلاث وعشرين، فيُحتمل أن تكون فِي هذه الليالي.

فالإنسان العاقل الحصيف يستغل هذه الليالي الشريفة فِي طاعة الله.

قرأنا هذه السورة، تأملنا آياتها ومعانيها العظيمة، شدة ارتباطها لما قبلها، وفهمناها، هي مِنْ قِصار السور التي يحفظها الكثير، لكن تحتاج منها إلى تأملات، إلى تفكر فيها.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هُداةً مُهتدين موفقينَ لكُلِّ خير، مفاتيح للخير، مغاليق للشر، واللهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ البَيِّنَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة البينة)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبِهِ وَمَنْ اهتدى بهداه واتبعَ سُنتهُ إلى يومِ الدين، اللّهمَ علمنا بما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هذا اللقاء المبارك، وَفِي هذا المجلس؛ مجلس القُرآن الكريم، نجلس نتناول آيات مِنْ كتاب الله، نتأملُها، نتدبرُها، نفهمُ خطابات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لنا، وكيفَ يأمرنا وكيفَ ينهانا.

الحقيقة مثل هذه المجالس التي تتعطر بكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هي خيرُ المجالس، هي خيرُ المجالس التي تحفها الملائكة وتغشاها الرحمة، وتنزل عَلَيْهَا السكينة، ويذكرُ اللهُ أهلها فِي الملأ الأعلى، أسأل الله ألا يحرمنا هذا الفضل العظيم.

السورة التي نتناولها فِي هذا اليوم هي سورةُ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾، تسمى فِي بعض المصاحف سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾، وقد جاءت هذه التسمية على لسان النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تُسمى بسورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾، **وتسمى بسورة (البيّنة)، وتسمى بسورة (القيمة)، كلها أسماء.**

وردَ فِي فضلِها حديث أُبي رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، أُبي بن كعب، أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأُبي: «**إن اللهَ يأمرني أن تقرأ عليَّ سورةَ ﴿لَمْ يَكُنِ﴾**». قال أُبي: وسماني؟ يعني أن الله سماني باسمي؟! قال: «**نعم**».

فبكى أُبي، كيف رَبُّ العالمين يُسمي أُبي باسمِهِ، ويقول لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرُ البشرية، سيد الأولينَ والآخرين: اذهب إلى أُبي واجعل أُبي يقرأ عليك القُرآن؟! لَا شَكَّ أن هذا فضل عظيم وشرف لهذا الصحابي الجليل. وحقهُ أن يبكي لهذا الشرف العظيم، جَلَّ جلاله رَبُّ السماوات والأرض يُناديهِ باسمه، أو يُسميهِ باسمه.

☚هذه السورة إذا تأملناها ووقفنا معها، ومثل ما ذكرنا يعني عندما أنت تقرأ القُرآن الكريم، وتقرأ قصار السور، ومثل ما ذكرنا أيضًا أن قصار السور هذه مع وجازتها وخلاصتها وقلة آيتها إلا أنها احتوت

على علوم عظيمة، احتوت على علوم عظيمة، أنتَ تقرأ سورة (العَلق) وفيها الإشادة بالقُرآن الكريم، تعظيم القُرآن الكريم، وان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنزلهُ على نبيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيها الحث على العلم والتعلم والكتابة ﴿اقْرَأْ﴾.

☚ثم بيان موقف أعداء الدعوة، وذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى موقفًا واحدًا مِنْ مواقف أعداء الدعوة: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ۝١٠﴾ [العلق: ٩، ١٠].

❍تأتي هذه السورة؛ سورة (القدر) فِي تعظيم القُرآن وتشريفه، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾.

☚ثم تأتي السورة التي تليها وهي سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ أو (البينة) تُبين مواقف النَّاس على اختلافهم مِنْ هذا القُرآن ومن هذه الدعوة، مواقف الْيَهُود، مواقف النَّصَارَى، مواقف الكُفار والمشركين على شتى انواعِهم ومِللِهم، ما موقفهم مِنْ القُرآن الكريم؟ ما موقفهم مِنْ الدعوة ودعوة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذا الإسلام؟

☚ثم لما أقامَ الله عليهم الحُجة وبيّنَ موقفهم وأنه قد جاءتهم البيّنة وقد قامت عليهم الحُجة، يُبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها مصير مَنْ استجاب، ومصير مَنْ رفض وعاند.

هذه السورة، اقرأ أنت السورة، سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾، اقرأها وكَرر قرارتها، تجد ما أذكرهُ لك هو عين هذه السورة، يعني خُلاصة هذه السورة، مقصدها، هدفها، عينُها، هو بيان موقف هذه الطائف التي على الأرض مِنْ بني آدم، جميعُها، ما تركَ الله فيهم أحد، بيان موقفهم مِنْ أي شيء؟ مِنْ هذه الدعوة، مِنْ البينة، مِنْ الشريعة، مِنْ دعوةِ محمد، هل يقبلون ويدخلونَ فيها؟ أو يرفضون ويستمرون على عِنادِهم؟

ثم إذا رفضوا ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، شرُ الخليقة بحكم الله، ثم مصيرهم ﴿نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البينة: ٦]، هذا حُكم الله فيهم.

وأما مَنْ استجاب وأقبل ورضي فقد اللهُ عنه، رضيَ اللهُ عنه وقبلهُ ووعدهُ بالوعد الكريم، ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [البينة: ٨].

هذا لما تقرأ أنتَ هذه السورة، وتنظر حُكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العدل فِي مثل هؤلاءِ، عدلهُ فِي أعدائه، وفضلهُ فِي أوليائه، تقرأها وتتأمل!

➤أولًا: تحمدُ الله وتشكرهُ على أن الله هداك، أن الله هداك لهذا الدين، تحمد الله وتشكرهُ أنكَ لم تكن مِنْ هذه الطوائف، سلمكَ الله منها، وأدخلكَ فِي رحمته، وعرفتَ دين الله وتمسكتَ به.

➤ثم تحمد الله عَزَّ وَجَلَّ أنكَ جعلكَ مِنْ خير البرية، أنتَ مِنْ خير البرية، ثم وعدكَ بهذا الوعد الكريم، فتحمد الله وتشكرهُ على هذه النعمة العظيمة.

ندخل فِي السورة ونتأمل آياتها آية.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]، لم يكونوا تاركينَ ما هم عَلَيْهِ، ولم يكونوا منفصلين ومنفكين عما هم عَلَيْهِ، ولاحظ أن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكمَ عليهم، حكمَ عليهم بأي شيء؟ أهل الكتاب بأي شيءٍ حكمَ عليهم؟ حكمَ عليهم بالكفر، قال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾

فالذين كفروا مَنْ هم؟

هم أهل الكتاب والمشركين.

كفروا بأي شيء؟

كفروا برسالة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكفروا برسالاتِهم وحرفوها وغيروها، الْيَهُود والنصارى لم يكونوا متمسكين بأديانِهم التي أُرسلت إليهم، ولم أيضًا يتمسكوا بشريعة محمد، وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبرَ عن حال الْيَهُود والنصارى، فقال: «**لا يسمعُ بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي، إلا أدخلهُ اللهُ النار**»، فهذه رسالة لهم، لا يظن ظان أن أهل الكتاب مِنْ الْيَهُود والنصارى هم على أديانهم ويُحاسبهم رب العالمين، نقول: هم كُفار بحكم الله: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ﴾ عن أديانهم وعن ما هم عَلَيْهِ وعن عقائدهم الفاسدة، ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾، **ما هي البينة؟**

البينة ذكرها الله، قال: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢]، محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقرأ عليهم القُرآن، وهو أُمي لا يقرأ ولا يكتب، وإنما عن ظهرِ قلب، ينزل عَلَيْهِ جبريل، فيُلقيه القُرآن الكريم، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]، يتلقى القُرآن ثم يحفظهُ فِي صدرهِ، ثم يُبلغهُ الأُمة.

قال: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾، يعني يتلو هذه الصُحف التي أُنزلت عَلَيْهِ، وإن لم تكن بين يديه، وهي قد كُتبت بعدَ ذلكَ بين يدي الصحابة، لكنها صُحفٌ محفوظة، كَمَا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۝١٤﴾ [عبس: ١٣، ١٤].

قال هنا: ﴿يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ [البينة: ٢] هذه الصُحف وهذه الرسالة، وهذا القُرآن، **ما الذي فيه؟ علام اشتمل؟**

قال: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٣] فيه أخبار، أخبار قيمة، فيه أحكام يحتاجها النَّاس، أحكام الحلال، أحكام الحرام، الأوامر، النواهي، ما تركَ القُرآن شيئًا إلا ونبهنا عَلَيْهِ، إلا وذكره القُرآن الكريم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ فِي حق القُرآن: ﴿تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، كُلُّ العلوم فِي القُرآن الكريم.

➤ثم إذا أردت أن تعرف حال هؤلاءِ الْيَهُود والنصارى والمشركون، أيضًا مِنْ العرب وغيرِهم، إذا أردت أن تعرف حالهم، **اسمع ماذا قال؟**

قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] يعني ما تفرقوا، كانوا متمسكينَ بأديانهم ومِللهم الفاسدة الباطلة، لكن لما جاءت شريعة محمد تفرقوا، **كيف تفرقوا؟**

آمنَ مَنْ آمنَ منهم، وكفرَ مَنْ كفر، ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فلذلك تفرقوا. تفرقَ الذين أوتوا الكتاب، فآمنَ بعضهم، وكفر بعضهم، ما تفرقوا إلا مِنْ بعدِ ما جاءتهم البيّنة.

ثم بيّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن دعوة أنبيائهم لهم كموسى وعيسى، ودعوة محمد كلها مُتفقة، كلهم مُتفقونَ على دعوة واحدة، وهي: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، هذه دعوة الله عَزَّ وَجَلَّ، كُل الرُسل يدعونَ إلى هذه العقيدة، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، التوحيد، إقامة التوحيد، إقامة (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ).

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ عبادةً خالصةً لله، دونَ أن يُشركوا معه أحد، لا يعبدوا عيسى ولا يعبدوا أحدًا مِنْ الخلق، ولا يتولوا أحدًا مِنْ المخلوقين، وإنما يتولونَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويعبدونه، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، أكد. الحُنفاء جمعُ حنيف، والحنيف هو المائل إلى طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تاركًا جميعَ الأديان، وكأنها إشارة للنصارى الذينَ يُريدونَ أن يتمسكوا بأديانِهم المُحرفة، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: كونوا حنفاء مُقبلينَ على طاعة الله التي أمرَ الله، والتي خلقَ الخلقَ لأجلِها، عبادة الله.

﴿حُنَفَاءَ﴾ جمعُ حنيف، مُقبلًا على طاعة الله تاركًا جميع الأديان، على دين الإسلام، دين الحنيفية، دين إبراهيم عَلَيْهِ السلام.

قال: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، هذا الدين القيم المستقيم قائم على أي شيء؟ عبادة الله وحدهُ لا شريكَ له، مُخلصًا له، وإقام الصَّلَاة التي هي أساس الدين، وإيتاء الزكاة.

لماذا خصَ الصَّلَاة والزكاة؟

نقول: لأن الصَّلَاة هي الرابط بينك وبين الله، الذي يصلك بالله عَزَّ وَجَلَّ الصَّلَاة، لو انقطعتَ عنها انقطعت الصلة بينكَ وبين الله.

والزكاة: قال هي صلتكَ مع الخلق، مع إخوانك المسلمين المحتاجين.

فإذا ربطت نفسكَ بالله فِي الصَّلَاة، وربطت نفسكَ بإخوانك المسلمين بالزكاة، حققتَ دين الإسلام، ولذلك الله عَزَّ وَجَلَّ قال فِي حق المشركين: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن شِركِهم ودخلوا فِي الإسلام، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وإن لم يتوبوا ولم يُقيموا الصَّلَاة ولا الزكاة فليسوا إخوانًا فِي الدين.

ولذلك النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصَّلَاة، فمن تركها فقد كفر**».

إذا عرفتَ حقيقة هذا الأمر، وعرفتَ هذه الدعوة العظيمة، والمنهج القويم، والدين المستقيم، الآن لم تضر النتائج، مَنْ تمسك وَمَنْ لم يتمسك.

☚**حتى نختم هذا اللقاء،** قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ٦]، أعاد مرةً أُخرى، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ٦] يعني بقوا على كُفرهم ولم يقبلوا هذه الدعوة، ولم يدخل فِي الإسلام، النتيجة ما هي؟

قال: ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [البينة: ٦]، ما دامَ لم يتب ولم يدخل فِي الإسلام واستمرَ متمسكًا على ما هو عَلَيْهِ فِي دينه، وماتَ على ذلك، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [البينة: ٦].

ثم زيادةَ على ذلك: ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦]، شَرُ الخليقة، شَر الخلق عند الله مثل مَنْ كانَ على هذه، كفر بالله وَلِمَنْ يقبل دعوته.

أما مَنْ قبلَ الدعوة وأخذَ بدعوة الله، فما النتيجة؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧]، أول شيء: شرفهم الله وأثنى عليهم؛ لأنهم خيرُ الخليقة، خير مَنْ خلقَ الله هو مَنْ؟ هو مَنْ آمنَ وعملَ الصالحات. آمنَ حققَ الإيمان لله عَزَّ وَجَلَّ، وعملَ الصالحات التي تُرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، ثناءٌ مِنْ الله.

ثم بيّنَ جزاءهم، فقال: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البينة: ٨]، شوف كلمة: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، يعني مُقرب أنت عند الله، هذا أول تكريم لك إنك قريب عند الله.

﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ [البينة: ٨]، ومعنى عدن يعني جنة إقامة، لا تُريد أن ترتحل ولا تنتقل عنها ولا تذهب عنها، هذا معنى كلمة (عَدْن) يعني جنة إقامةً لا تُريد أن تزولَ عنها ولا تُريد أن ترتحل عنها.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ [البينة: ٨]، يؤكد لك هذه الإقامة أنها إقامة مؤبدة، إقامة مُستمرة لا تنقطع أبدًا، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾.

ثم ثناءٌ مِنْ الله عَزَّ وَجَلَّ لهم، وشُكرٌ لهم على أعمالِهم الصالحة وقبولهم وحُبهم لطاعة الله يُثني الله عليهم بأن الله قد رضي عنهم، وهذا أعظم ما يحصل عَلَيْهِ المسلم، بعد رؤية الله عَزَّ وَجَلَّ والنظر فِي جمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرضى اللهُ عنك، وأن ترضى عنه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [البينة: ٨]، قدمَ رضاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أن اللهَ يرضى عنهم، لماذا؟ يرضى عنهم؟ لأنهم أولياءه. لماذا يرضى عنهم؟ لأنهم عرفوا الطريقَ إلى الله، قدموا ما استطاعوا فِي رضى الله فِي الدنيا؛ فرضيَ اللهُ عنهم فِي الدنيا، ورضي الله عنهم فِي الآخرة.

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨]، كيف يرضون عنه؟ يرضونَ عنهُ لما أكرمهم، هل رضيتم؟ قالوا: بلى يا رب، ولما لا نرضى!، أعطيتنا، ونجيتنا، وسلمتنا، فيرضونَ بما أعطاهم اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إشارةً لهؤلاء الذين أكرمهم الله حتى نعرف أن هذا ليسَ خاصًا بطائفة معينة أو بوقت معين إلى مدى، إلى أن تقومَ الساعة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ذَلِكَ﴾ [البينة: ٨] أي هذا النعيم، لِمَنْ؟ ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]. مَنْ خافَ اللهَ فِي الدنيا أمنَ فِي الآخرة، مَنْ خافَ اللهَ فِي الدنيا، حصلَ على هذا النعيم العظيم، وهذا لِمَنْ خشيَ ربَ العالمين، فمن خافَ اللهَ وابتعدَ عن معاصيه وأقبلَ على طاعتهِ ولزمَ طاعتهُ واتقى الله عَزَّ وَجَلَّ فِي الدنيا؛ فإنه يومَ القيامة بإذن الله وكرمهِ أن يكونَ مِنْ المُكرمينَ عنده.

نسأل الله ألا يحرمنا فضله، وأن يجعلنا وإياكم ممن إِنْ شَاءَ اللهُ يُقال لهم: رضي الله عنكم، وقد رضيتم عنه، وأن يجعلنا وإياكم مِنْ الفائزينَ فِي الدنيا والفائزينَ فِي الآخرة، واللهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الزَّلْزَلَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة الزلزلة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبِهِ وَمَنْ اهتدى بهداه واتبعَ سُنتهُ إلى يومِ الدين، أَمّا بَعْدُ: اللّهمَ علمنا بما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هذا اللقاء المبارك، وَفِي هذا المجلس الشريف؛ مجلس القُرآن الكريم، **أيها الإخوة الكرام السورة التي بين أيدينا ونتناولها فِي هذا اليوم هي سورة (الزلزلة)**، سورة الزلزلة حديثها واضح مِنْ بداياتها ومن عنوانها، وأما مِنْ حيث موضع هذه السورة وأنت تقرأ ما قبلها وهي سورة البيّنة وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكرَ مصير الذين كفروا مِنْ أهل الكتاب والمشركين، وأنهم فِي نارِ جهنم، ثم ذكرَ مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأن لهم جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهار، بيّنَ لكَ متى يكون هذا، متى يكون ويتحقق هذا الوعد، الوعد الذي، أو الوعيد الشديد الذي توعدَ الله به الذين كفروا، ثم الوعد الكريم الذي وعدَ الله به عبادهُ المتقين، متى سيتحقق؟

قال: يتحقق ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾، إذا زُلزلت الأرض تحققَ ذلك، وكُلٌّ أخذَ مكانه، واستقرَ فِي قراره.

سورة الزلزلة وردَ فِي فضائلها أحاديث، منها: أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزلت عَلَيْهِ هذه السورة، كان عنده أبو بكر الصديق رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، فلما نزلت على النَّبِيّ، قرأها النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبكى الصديق رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، بكى لعظمِها.

ومن فضائلها أن رجلًا جاء إلى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد طعنَ فِي السن، وكَبُرَ فِي السِن، فقال: يا رَسُول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ، وقد يعني كَبُرَ سِني وضعفَ جسمي وثقلَ لساني، فأرشدني إلى سورة مِنْ سورة القُرآن أقرأها. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عليكَ بسور (ألر)**» -يعني يونس وهود ويوسف وما بعدها-. قال: إني أعجز عن ذلك. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عليك بسور التسابيح**»، -سبِح أو سَبحَ يُسبِحُ-. فقال: يا رَسُول الله أعجز عن ذلك. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عليك بسورة**

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾»، فقال هذا الرجل: واللهِ لا أزيدُ عَلَيْهَا. -يعني آخذ بها ولا أزيدُ عَلَيْهَا-. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفلحَ الرويجل**».

الرويجل تصغير رجل، لما كان ضعيفًا ولا يتحمل، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه رويجل، قال: «**أفلحَ الرويجل**» يعني مَنْ أخذَ بهذه السورة وضبطها حفظًا وتلاوةً ومعنًى وتدبرًا تكفيه.

ولذلك الصديق رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه لما قُرأت عَلَيْهِ أول مرة بكى، عرفَ معانيها، وعرف حقائقها، وهي كافية.

نبدأ بالسورة: قال: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، الزلزلة سُميت بها السورة، سُميت فِي بعض التفاسير سورة (الزلزلة) فِي بعض الآثار. وَفِي بعضها تسمى بسورة (الزلزال).

والزلزلة أصل زلزلَ فعل وتحركَ واضطرب بشدة، واهتزَ بقوة. والزلزلة أصلها تحرك الشيء، مثل ما ذكرنا: تحريك الشيء بقوة، واهتزازه بقوة، هذا يُسمى زلزلة، ولكن لا تُقارن زلزلة الآخرة بزلزلة الدنيا، يعني زلزال مقدار يسير جدًا هزة أرضية بزلزال خفيف، ماذا صنع بالعالم؟ وماذا كانت نتائجهُ؟ فكيف بزلزلة الأرض وتحريكها بقوة فِي اليوم الآخر، بلا شك أَنَّه زلزال عظيم.

ولذلك الله قال فِي سورة أُخرى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، شيءٌ عظيم لا تتصوره أبدًا.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ أي حُركت بقوة، متى يكون هذا؟

عندنا نفختان:

- النفخة الأولى.

- والنفخة الثانية.

☚﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

☚**إذًا نفخة الصعق والموت وخراب الكون وانتهاؤه، ثم الصعقة الأُخرى هي بعث النَّاس مِنْ قبورهم.**

هذا مُتحقق هنا، لما تقرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ **هذه الصعقةِ الأولى،** وهي خراب الكون، تحريكها بقوة بحيث لا يبقى عَلَيْهَا شيء، الجبال تذهب، الجبال تندك مع الزلزلة وتذهب، ولذلك مثل هذه الآية تقرأها أنت فِي سورة الواقعة، يقول: ﴿رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤] إذا زُلزلت هذا بداية خراب الكون، انتهت الدنيا، ذهبت الجِبال وذهبت البنايات العالية، كُل معلم انتهى، أصبحت الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٦، ١٠٧]، أصبحت مستوية، لا ارتفاع ولا نزول، هذه، وانتهى العالم، ذهبَ النَّاس، خلاص، هذه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ النفخة الأولى.

ثم النفخةُ الثانية: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ٢]، بمعنى: نُفخَ فِي الصور النفخة الثانية فخرجَ النَّاس مِنْ قبورهم.

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ما أثقالها؟ النَّاس، المعادن، وما فِي جوفِها، حتى الحيوانات تخرج، حتى الحشرات تُحشر، كُلٌّ يُحشر. ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وكل هذه البهائم تُجمع وتُحاسب، والإنسان يأتي يخرج مِنْ قبرهِ مُسرعًا.

قال: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، فإذا حصلَ هذا الأمر الرهيب العظيم المُلفت الذي يذهب بالعقول، يقول هذا الإنسان: ما لها؟ ما الذي جرى؟ ما الذي حدث؟ هذا قال بعض أهل التفسير: القائل هو الكافر، أما المؤمن عنده يقين، يقول: المؤمن يعلم أن هذا بعث، وأنه خرجَ مِنْ قبرهِ للجزاءِ والحساب، فيخرجُ مُطمئنًا يعني يقول: هذا ما وعدَ الرحمن. يقول المؤمن: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢]، أما الكافر ينبهر ويقول: ما لها؟ ما الذي جرى لها.

وبعض المفسرين يقول: إن القائل هنا ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ [الزلزلة: ٣] هذا يشمل المؤمن والكافر، لماذا؟ لأن الكافر مُنكر ومنبهر، والمؤمن يُصيبهُ ما يُصيبه مِنْ أهوال يوم القيامة، مثل ما قال سبحانه: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ [الحج: ١، ٢] المؤمن والكافر، قد انذهل مِنْ هذا الأمر العظيم.

قال: ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ [الزلزلة: ٤] أي في هذا اليوم، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤] ما هي؟ الأرض، تُحدثُ أخبارها. كيف تُحدثُ الأرضُ أخبارها؟ بأن تتكلم، أنطقها مَنْ؟ الذي أنطقَ كُلَّ شيء، فتتكلم الأرض، وتتكلم الجمادات، وتتكلم الأيدي تنطق والأرجل، كلها تتحدث.

قال: تحدث عن أخبارها، ما هي أخبارها التي تتحدث عنها؟ تقول: فلان فعلَ عليَّ كذا وكذا، وفلان فعلَ عليَّ كذا وكذا، فمن فعلَ خيرًا عَلَيْهَا شهدت؛ فهي تشهد كَمَا تشهد الأيدي وتشهد الأرجل، تشهد الأرض، تنطق وتشهد أن فلان فعلَ عَلَيْهَا مِنْ الخير كذا وكذا، مِنْ الصَّلَاة، مِنْ الزكاة، مِنْ الصوم، مِنْ العبادات، مِنْ كُل أنواع العبادات.

وكذلك الكافر والعاصي، فعلَ عَلَيْهَا كذا وكذا، وتبدأ تُحدث.

ولذلك شوف لاحظ، قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، لو قال (حدثت) انتهت. لما يقول (تُحدث) لا تنتهي على أعداد الخلق، لا تزال تُحدثُ أخبارها، تُخبرُ بما حصلَ عَلَيْهَا، مَنْ فعلَ جريمةً عَلَيْهَا حدثت، مَنْ فعلَ خيرًا حدثت، وهكذا.

كيف تُحدث؟ كيف تتكلم؟ مَنْ الذي أنطقها؟

قال: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥]، الله ألهمها وأوحى لها بهذا الكلام، لما أوحى الله وألهمها تحدثت بهذا، لما تُخبر عن الأرض، والأرض تُخرج أثقالها، ويخرج النَّاس، سيواجهونَ هذا اليوم، وهذا المحشر، وهذا الحساب؛ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] يصدرون مِنْ أين؟ مِنْ أي شيء؟

☚ قال بعضُ أهل التفسير: يصدرونَ مِنْ قبورهم متوجهينَ إلى أرض المحشر ليُحاسبوا، ثم يُجازوا، هذا رأي.

والصدور أصلهُ ضد الورود، تقول: وردَ فلان إلى كذا وصدرَ منه، يعني رجعَ منه، الصادر والوارد، يعني يرد إلى الشيء، ثم يصدر يعني يرجع منه. قالوا يعني أَنَّه صدرَ مِنْ قبرِهِ متوجهًا إلى مكان الحَشر.

☚ والرأي الثاني: أن المراد بالصدور هنا: هو صدورهُ مِنْ أرض المحشر إلى مقرِهِ الأخير: الجنة أو النار.

وهذا واللهُ أَعْلَمُ أَنَّه أقرب، لماذا؟ لأن الله قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أي يُروا نتائج أعمالهم، ليروا ثمرات أعمالهم، متى يرونها ثمرات الأعمال؟ بعدما يصدرونَ مِنْ أرض المحشر، يجدونَ ثمرات أعمالِهم، إما بالفوز العظيم بنعيم أهل الجنة، أو الخسارة العظيمة فِي نارِ جهنم.

قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ ولاحظ كلمة أشتاتًا، أي فرقًا جماعات، جماعة التوحيد، جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجماعة القُرآن، أهل القُرآن، وهكذا جماعات فِي صدورِهم.

وكذلك الكُفار جماعات، وأهل المعاصي جماعات، جماعة المُغنين، وجماعة المُطبلين، وجماعة كذا، وهكذا، جماعة أهل الفِسق، وجماعة أهل الشِرك والكُفر، فيصدرونَ جماعات، قد جُمع بعضهم إلى بعض.

قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ إلى هنا ينتهي خلاص، يرونَ أعمالهم، يرون النتائج: جنة أو نار. هذا يوم البعث والجزاء والحساب والجنة والنار.

ثم يأتي فِي الأخير التعقيب على ذلك، والتوجيه والتذكير، انتهى الآن العرض، بعد ذلك يأتيك التوجيه والتذكير، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾ [الزلزلة: ٧]، الآن أمامكم هذا الخبر، وعُرِضَ عليكم ما سترونهُ عيانًا بعين اليقين، الآن أمامكم فِي الدنيا مَنْ يعمل مثقالَ ذرة خيرًا يرهُ فِي الآخرة، قدمت خيرًا ولو مثقال ذرة، ولو شيئًا ما يُذكر، لو شيئًا ما يُذكر، نشر السلام، إفشاء السلام، الابتسامة فِي وجه أخيك، الأمر بالمعروف، إزاحة ما يؤذي النَّاس فِي الطريق، أشياء لا يُلتفت إليها، لا تُفرط فيها، تسبيحة، «**الحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض**»، (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وسبحان الله والحمد لله)، وغيرها مِنْ الأذكار، لا تُفرط فيها. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨] ولو كان شيئًا، كلمة تُلقيها سيئة تُحاسب عَلَيْهَا، قد لا تُلقي لها بالًا؛ فتهوي بصاحبها فِي نارِ جهنم سبعينَ خريفًا.

فالإنسان يحفظ لسانه، يحفظ سمعهُ، يحفظ جوارحهُ، يُقدم شيئًا ينفعه، يُشغل نفسه، يملأ وقتهُ بطاعة الله.

إذا سمع مثل هذا الكلام وهذه الآيات التي تحثك، تملأ وقتَكَ بطاعة الله، وتصرف نفسك عن كُلِّ ما تتمنى أنكَ ما دخلت فيه، وتتمنى كأنكَ ما تحدثت فيه، كُل شيءٍ يضرك ولا ينفعك فِي دينك، اصرف نفسك عنه، ولا تدخل فيه ولا تتكلم فيه، احفظ لسانك، وليسعكَ بيتُك، وابكِي على خطيئتك.

وبهذا تنتهي السورة العظيمة الجليلة التي قال فيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفلحَ هذا إن أخذَ بها**»، والتي بكى الصديق لما سمعها.

أسأل الله أن يُبارك لنا، وأن يوفقنا لطاعتهِ، وأن يجعلنا وإياكم مِنْ أهل القُرآن الذين هم أهلُ اللهِ وخاصته، وإلى لقاءٍ قادمٍ بإذن الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ العَادِيَات)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة العاديات)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه إلى يومِ الدين، اللَّهمَ علمنا ما ينفعُنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فِي لقاءنا الأسبوعي فِي مثل هذا اليوم وهذا اليوم يوافق الثالث والعشرين مِنْ شهرِ ذي الحجة مِنْ عام أربعةٍ وأربعين وأربعمائة وألف مِنْ الهجرة، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يرزقنا وإياكم العلمَ النافع والعمل الصالح، وأن يستعملنا وإياكم فِي مرضاتهِ.

هذه الوقفة وقفة التأمل مع آيات القُرآن الكريم، ومع قصار السور، ولا زلنا مع هذه السور القِصار، نأخذها سورة.

السورة التي بين أيدينا هي سورة العاديات التي يحفظها الجميع، وتحتاج مِنا إلى قراءة، قراءة تأمل، وقراءة تفكر، وتفسير وفهم وتدبر، هذه القراءة التي أمرَ الله بها، التي قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمرَ بالتدبر والتأمل، والتدبر يتحقق بأن تقرأ قراءةً سليمة صحيحة، وتقرأ قراءة تأمل وتدبر وتفكر، وتفسير وفهم للآيات، لهذا إذا تحققَ لكَ هذا الأمر وعرفت هذه الآيات استطعتَ أن تُطبق ما فِي هذا القُرآن الكريم مِنْ أوامر ومن نواهي، مِنْ حلال، مِنْ حرام، تفهم وتُطبق فِي حياتك.

سورة العاديات سُميت بهذا الاسم لافتتاحها بهذا الوصف، هذا وصف، أقسمَ الله فِي هذه السورة بثلاثة أمور كلها أوصاف، قال: (والعاديات، فالموريات، فالمُغيرات). أو يكون القسم للعاديات، ثم تُعطف عَلَيْهِ هذه الصفات.

ما هي العاديات؟

العاديات جمعُ عادية، والعادية هي التي تعدوا بسرعة، والمقصود بهذا هي الخيول كَمَا عَلَيْهِ جمهورُ المفسرين، وإن كان بعضهم ذهبَ إلى الخيول والإبل، قال: كلها تعدوا، وكلها تنطلق وتسير. ولكن الذي يتأمل هذه الآيات مِنْ أولِها إلى آخرها يجد أنها يعني أقرب ما تكون فِي الخيول، فالخيول تعدوا بسرعة.

قال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ [العاديات: ١].

والضبح كَمَا قال أهلُ التفسير هو صوت الخيل لما تنطلق بسرعة؛ فإنه بقوة نفسها تُحدثُ صوتاً، هذا الصوت يُسمى الضبح، وهذا يتحقق فِي الخيل أكثر مما يتحقق فِي الإبل، هذا مما يُرجح.

قال بعدها: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا﴾ [العاديات: ٢].

الموريات جمع مورية وهي التي تُوري أي تُظهر النار، تقدح. قالك (موريات قدحاً) فمعنى موريات: جمعُ مورية، والمورية مِنْ ورى الشيء إذا قدحَ به أو أخرجَ النار، ﴿النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١]، أي تشعلون النار، (تُورون) أي تُشعلونها.

فسرعة الخيول على الأرض وحوافرها حادة وشديدة وجافة، تضرب بالحجر ثم تُحدث هذا الشرر (القدح)، وهذا أيضًا يتحقق أكثر ما يكون فِي الخيل.

قال: ﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ [العاديات: ٣].

هذا أيضًا وصف لأنها تغُير على العدو، فهي التي تُستعمل كثيراً فِي الحروب، الله عَزَّ وَجَلَّ قال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠].

﴿فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ تُغيرُ على العدو وأكثر ما تُغير فِي الصباح، أكثر ما يُكون الجيش يُصبح العدو وهو فِي الصباح، يُقدم على عدوهِ صباحاً، فِي وقت الغفلة، وقت النوم.

وهذا كَمَا قال بعض أهل التفسير، هذا حُكم أغلبي، قد تُغير فِي الليل، قد تُغير فِي وسط النهار، فِي آخر النهار، لكن فِي الغالب أنها تُغير فِي مثل هذه الأوقات؛ لأنها وقت الحروب.

قال: فإنها إذا غارت على العدو وقت الصباح ففي هجومها على العدو تُثير الغُبار، ولذلك قال: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا﴾ [العاديات: ٤]، والنقع هو الغُبار، أنها تُثير الغُبار بشدة سُرعتها وقدومها على العدو، وفِرارها مِنْ العدو تُحدثُ شيئاً كثيراً أو شيئًا عظيماً مِنْ الغُبار.

قال: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات: ٥]، أي الخيول تتوسط الجموع؛ فإنها تدخل فِي الجموع وتتوسطها إذا كانت خيول مُدربة ومُعلمة وأصحابُها أو الرُكبان الذين عَلَيْهَا يُجيدونَ قيادتها فإنهم يتوسطونَ القوم.

إلى الآن قد تقول: يعني ما الفائدة مِنْ ذِكر هذه الأشياء؟ وما هي النتيجة؟ نحنُ نُريد أن نصل إلى النتيجة، الصورة ككل مع قِصرِها هي تتحدث عن موضوع مهم جداً فِي حياة المُسلم، تتحدث عن موضوع يتعلق بالإنسان مع ربه، ولذلك شوف الجواب كَمَا قال أهل العلم: جواب القسم، الله أقسم بالعاديات، أقسم عندنا فعل القسم، والمُقسم به، وجواب القسم، ففعل القسم محذوف، وناب منابهُ الواو، تُسمى واو القسم، والعاديات، التقدير: أُقسمُ بالعاديات.

المُقسم به هي الخيول. طيب، أين جواب القسم؟

قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، المراد بالإنسان جِنس الإنسان، طبيعتهُ، استثنى مِنْ ذلك المؤمن لما يَمنُ الله عَلَيْهِ بالإيمان والطاعة والاستقامة، استثنى، استخرج، ولكن جِنس الإنسان ﴿لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، ولاحظ أَنَّه قال: (لربه) لربهِ الذي رباه، خلقهُ ورباهُ ورزقهُ وأنعمَ عَلَيْهِ بالنعم العظيمة التي لا تُعد ولا تُحصى، نِعم كثيرة.

(كنود)، ما معنى كنود؟ الكنود هو الذي يعرف نعم الله عَلَيْهِ ثم يجحدُها، يعرف النعم ثم يجحدها، تعرف نعمة الله عليك ثم تجحدها، هذا هو الكنود.

قد يسأل سائل يقول: طيب، ما علاقة الخيول وأوصافها بهذه الأوصاف العظيمة؟

مِنْ أجل الأوصاف أعطاها الله أوصاف عظيمة. ما علاقة الخيول بكون الإنسان كنوداً مع ربه؟ ما الرابط؟ ما العلاقة؟

نقول: السورة أصلاً لها مقصد ولها هدف، وهذا مِنْ التدبر، هذا الذي نُريد أن نصل إليه، نتدبر السورة، السورة تهدي إلى شيء مُعين، ما هو؟ الله يُريد أن يُبين لك موقف هذه الخيول ويُبين لك موقف هذا الإنسان، ما علاقة الخيل مع صاحبها؟ وما علاقة هذا الإنسان مع ربه؟

لو سألنا: أيهما أعظم نعم الله على الإنسان، ولا نعم الإنسان على الخيل؟

لَا شَكَّ أن فيه هناك فرق كبير.

طيب، أيهما استجابة وإذعان وإقبال؟ الخيل مع صاحبها ولا الإنسان مع ربه؟ تتعجب!!!

إذًا هناك فيه رابط شديد قوي، هذا الذي نُريد أن نصل إليه، الخيل لما يأتي صاحبها ومالكها يُربيها تربيةً حسنة، ويضعها فِي مكان نظيف، ويُعطيها الماء النظيف والطعام النظيف ويعتني بها عناية عظيمة

ويُدربُها ويُحافظ عَلَيْهَا، ماذا سيكون موقف الخيل لصاحبها؟ تستجيب له، فإن أمرها بالانطلاق انطلقت، وإن أمرها بالوقوف وقفت، وإن أمرها بالرجوع رجعت، تستجيب ولا تُعاند أبداً.

لكن هذا الإنسان نعم الله عَلَيْهِ أكثر، أنعم الله عليك بأن أوجدك، بأن رباك، بأن رزقك، أنعم عليك بالنعم العظيمة التي لا تُعد ولا تُحصى، ثم يكون موقفك مِنْ ربك الجَحد، تجحد نعمة الله وتكفر بالله ولا تشكر الله، ولا ترد حَقّ هذه النعمة؟! الخيل أفضل مِنك أيها الإنسان!! الخيل يرد الشُكر، يرد هذا المعروف بالشُكر والاستجابة، وأنتَ لا ترد!! عجباً لهذا الإنسان!! إلا مَنْ رحمَ الله، إلا مَنْ الله عَلَيْهِ بالهداية والاستقامة وعرفَ الطريقَ إلى ربه وشكرَ ربهُ، فهذا مَنَّ الله عَلَيْهِ، وهم قِلة، قِلة بالنسبة لجنس الإنسان، كَمَا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، كُل الإنسان لفي خُسر.

ثم استثنى، قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العصر: ٣] استثناء قليل.

هنا كذلك، جِنس الإنسان يكفر نعمة الله، يجحد نعمة الله، لا يعرف نعمة الله، وقد يكون مِنْ أبناء المسلمين ويجحد هذه النِعم، قد تسأله ما يجحدها، يقول لك: لا، أعرف نعم الله عليّ، لكن لا يؤدي شُكرها، لا يعرف نعمة الله عَلَيْهِ؛ ولذلك قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، وجاءَ بمؤكدات عظيمة تؤكد هذا الأمر لما قال: (إن) إن تؤكد. (الإنسان لربهِ)، قدمَ الجار والمجرور، ثم قال: (لكنود) أدخلَ اللام؛ دلَ على أن هذا الأمر صِفة مُتحققة فِي هذا الإنسان لا يتركها إلا مَنْ مَنَّ الله عَلَيْهِ.

ولذلك حتى يؤكد لك الأمر أكثر وأكثر قال: ﴿وَإِنَّهُ﴾ هذا الإنسان، ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ﴾ يعني على هذا الأمر وهو الجحود، ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧]، لما تُناقشه يقول: نعم أعرف نعمة الله عليّ لكن ما أردها ولا وأشكر؛ فهو نظرتهُ نظرة قاصرة، يأخذ هذه النعم ويجحدُها، ولذلك بعضُ أهل التفسير يقول: ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي إن اللهَ لشهيدٌ على، يعني الضمير يعود إلى الله. أي: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شهيدٌ على هذا الإنسان بما يفعل، يعني لا يُمكن أن يُنكر، إذا كان الله شهيداً عليك؛ فلا يُمكن أن تُنكر هذا الشيء أو هذه الصفة.

قال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

يُحبُ الخير، الخير ما هو؟ الخير هنا مقصود به المال كمال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] يعني مالاً، فالمقصود بالخير هنا هو المال، شوف

عِندك عبارات يعني فِي هذه السورة، وعلى قِصرِها فيها كلمات قد تخفى على كثير مِنْ النَّاس، لما تأتي لشخص وتقول له: ما معنى الموريات؟ ما معنى ضبحاً؟

ما أدري.

ما معنى كنود؟

ما أدري.

طيب، ما المراد بالخير؟

يقول لك: الخير ضد الشر. نقول: الخير له معاني، هنا مُرادٌ به المال، ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] يُحب المال حُباً شديداً، جُبلَ وطُبعَ على محبة المال، يُحب المال، يُحب جمع المال، يجمعهُ.

قال: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ يُحب المال ويجحده، ويجحد نعم الله عَلَيْهِ، ولاحظ أَنَّه لم يوصف بأنه يُنفق المال فِي سبيل الله، لم يوصف بأنه يدفع هذا المال لأهلِهِ المحتاجين، لا، يجمعهُ، ويجحد نعمة الله عَلَيْهِ، هذه صفات سيئة.

والمسلم العاقل الذي مَنَ الله عَلَيْهِ بالهداية يُحارب هذه الصفة، يُحاربها، فلا يجحد نعمة الله بل يشكر ويعرف قيمة المال ويعرف حقَ الله فِي هذا المال، ولذلك لما كانت هذه صفة الأكثر مِنْ النَّاس، نبه الله على أمر شديد وعظيم تحذير وتنبيه له عن غفلتهِ؛ لأنه غافل، غافل يأخذ هذا المال ويركد فِي هذه الدنيا لا يدري عن شيء، لا يدري إلا وقد نزلَ به الموت فيُحذرهُ الله، فيقول: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ [العاديات: ٩]، أهذا الإنسان غفل وجهل ولا يعلم، غابَ عنه هذا الشيء؟ ما هو؟

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩] ألا يعلم هذا اليوم الذي تُبعثرُ فيهِ القبور، وشوف كلمة بعثرَ، ما قال: أفلا يعلمُ إذا تشققت القبور، أو خرجَ النَّاس مِنْ قبورهم؟ لا، قال: بُعثرت. أمر عظيم لأنه حدث عظيم، تتبعثر بمعنى: أنها يعني تتشقق الأرض ويخرج ما فيها وينقلب ما بداخلها إلى ظاهرها، ولا تظن أن الذين يخرجونَ مِنْ قبورهم هم النَّاس فقط، الله كَمَا ذكرَ كَمَا مرَ معنا فِي السورة الماضية أن الأرض تُخرج، أخرجت الأرضُ ما فِي بطنها، تُخرج هذا الإنسان، جنس الإنسان، تُخرج النَّاس والحيوانات والكنوز والأموال كلها تُخرج مِنْ الأرض، تُبعثر الأرض، تُبعثر.

﴿بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠].

هذا هو المقصد: ما فِي صدرك مِنْ عمل، ما فِي صدرك مِنْ نياتٍ طيبة مِنْ أعمال، ما تُخفيهِ هذه الصدور الآن، الصدور مخفية الآن، كثير مِنْ النَّاس ما لك إلا الظَّاهِر، الخفي لا تعلمه، مخفية، إذا جاءَ يوم القيامة أصبحت الخفايا ظواهر، ﴿تُبْلَى السَّرَايِرُ﴾ [الطارق: ٩]، فيظهر ما فِي الصدور.

قال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، كُل ما جمعتهُ فِي صدرك وحصلتهُ أخرجهُ الله يوم القيامة.

قال الله جَلَّ وَعَلَا فِي هذا اليوم العظيم: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ﴾ الذي خلقهم وأوجدهم وأنعمَ عليهم بهذه النِعم، ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يوم القيامة ﴿لَخَبِيرٌ﴾ [العاديات: ١١]، لا يخفى عَلَيْهِ شيءٌ مِنْ أحوالِهم جميعاً، سيُحاسبُهم ويُناقشهم ويُجازيهم على أعمالِهم.

ختام هذه السورة الحديث عن يوم القيامة، كُلُّ ذلك تذكير لهذا الإنسان الغافل الذي انغمسَ فِي هذه الدنيا ويركد ورائها ولا يقف، وليس له حد فِي جمع المال، يُنبهُ الله يقول: لم تُخلق لهذا الشيء، وإنما خُلقت لأمرٍ أعظم وأعظم، فانتبه وقِف وحاسب نفسكَ قبلَ أن تُحاسب.

سورة عظيمة حقيقة تُذكر، تُحرك القلوب، تعرف لماذا خُلقت؟ ما الهدف مِنْ حياتك فِي هذه الدنيا، ليس الهدف هو الأكل والشُرب والنكاح والغفلة والنوم، لا، وإنما خُلقتَ لعبادة الله، خُلقتَ للعبادة، فهيئ نفسك للعبادة، وهيئ نفسك لما ستُقابلهُ أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فالسورة حقيقة سورة عظيمة، شوف المُقارنة، وكيف قارنَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين الخيل مع صاحبها، وبين هذا الإنسان الذي عرفَ به.

نسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم هُداةً مُهتدين، موفقينَ لكُلِّ خير، وأن يجعلنا وإياكم مِنْ أهل القُرآن الذين هم أهلُ اللهِ وخاصته، واللهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آلِهِ وصحبهِ أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ القَارِعَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة القارعة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه إلى يومِ الدين، اللَّهمَ علمنا ما ينفعُنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هذا اللقاء المُبارك، في هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للثلاثين مِنْ شهرِ ذي الحجة مِنْ عام أربعةٍ وأربعين وأربعمائة وألف مِنْ الهجرة.

درسنا فِي تفسير القُرآن العظيم، وَفِي هذا المجلس المُبارك مع قِصار السور.

السورة التي سنتناولها إِنْ شَاءَ اللهُ بالقراءة والتدبر والتفكر والتأمل والتفسير، حتى نخرج بالفائدة التي ينتظرُها الكثير، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإعانة والتوفيق والسداد.

السورة هي سورة القارعة، لما تقرأ هذه السورة، ودائماً نُعيد ونُذكر دائماً أن سور القُرآن مترابطة ومُتلاحمة بقوة، وكل ما تقرأ سورة تجد السورةِ التي بعدها كأنها تُمم هذه السورة، فمرَ معنا سورة الزلزلة، وَفِي نهايتها يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، يعني أمامكَ الأعمال الصالحة وغير الصالحة، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾ ولو كان هذا العمل بمقدارِ مثقال ذرة مِنْ الخير؛ فإنه سيرى خيراً، أو العكس.

لما تقرأ السورة التي تليها مُباشرة، وهي سورة العاديات، ويقول الله أيضًا فِي خاتمتها: أفلا يعلم هذا الإنسان ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩]، الحديث عن الآخرة، ثم قال: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠]، يعني أعمالك التي كُنتَ تعملها فِي الدنيا مِنْ خير، ولو كان مثقالَ ذرة؛ فإنها ستجتمع فِي الصدور، ثم تُحصل ما فِي هذه الصدور وتُخرج ما فِي هذه الصدور لتُجازى عَلَيْهَا، متى تُجازى عَلَيْهَا؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [العاديات: ١١]، هذا اليوم هو يوم الآخرة، هو الذي قال الله فيه: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١].

وهذه السورة؛ سورة القارعة انقسمت قسمين على قِصرها، **وتُلاحظ أَنَّه لم يُذكر اسم الله فيها أبداً، ولا اسم مِنْ أسمائه أبداً، على قصر هذه السورة انقسمت قسمين:**

القسم الأول: بيان لعظم أهوال هذا اليوم الذي يصورهُ الله بهذه السورة العظيمة، بهذا التهويل.

ثم جزاء الفريقين، جزاء النَّاس يُجازون على أعمالهم ونهايتهم.

طيب، هذه السورة مثل ما ذكرنا سُميت بهذا الاسم، **سورة القارعة**، ولاحظ على قصرها أن كلمة القارعة التي تدلُ على التهويل والتعظيم ذُكرت ثلاث مرات، يهول الله ويُبين عِظم هذا اليوم، طيب، **لماذا يُهول الله ويُبين عِظم هذا اليوم؟**

حتى يكون الإنسان مُستعداً، حتى يكون الإنسان على بينة، لا يتفاجأ يكونُ يعني على أمل أن اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يؤمنهُ فِي هذا اليوم العظيم الذي يتمنى الإنسان أو كُل إنسان أن يكونَ آمناً يوم القيامة.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١].

هذا الاسم القارعة الذي جاءَ بالألف واللام، القارعة: هذا اسمٌ مِنْ أسماء يوم القيامة، أسماء يوم القيامة فِي القُرآن الكريم كثيرة جداً، يُسمى بيوم الحساب، ويوم التغابن، ويوم الجمع، ويُسمى بالحاقة، ويُسمى بالطامة، ويُسمى بالغاشية، ويُسمى بالصاخة، فأسماؤهُ كثيرة، وكُلُّ اسم يدلُ على معنى، فالطامة لها معنى، والصاخة لها معنى، والغاشية لها معنى.

والقارعة لأنها ماذا؟ لأنها أولاً: تقرع الأسماع بصوتها الشديد وقوتها، لما يُنفخ فِي الصور تقرع الأسماع بصوتها الشديد، ثم هي تقرع القلوب أيضًا بأهوالها وشدتها، هذا معنى القارعة لأنها تقرع الأسماع، وأيضاً تقرع القلوب بشدتها وأهوالها ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨]، القلوب تهتز لمثل هذا اليوم العظيم.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الْقَارِعَةُ ۝١ مَا الْقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة: ١، ٢]، هذا تهويل، هذا استفهام، يُسميه أهل العلم: استفهام يدل على التعظيم والتهويل، يعني يقول لك: هذه القارعة، ثم قال: ما القارعة؟ أخبرني عنها؟ ما هي التي تسمع عنها أنها القارعة؟

ثم زادكَ أيضًا زيادةً قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٣]، أنتَ ما تدري ما هي القارعة؟ لا تعلم. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾. أخبرني ما هي؟

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾، ثم أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وذكرنا أيضًا في لقاءات ماضية أنها إذا جاءت كلمة (وما أدراك)، فالجواب موجود دائماً، (وما أدراك) الجواب موجود، وإذا جاءت كلمة (وما يُدريك) ما أحد يعلم: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٣]، لا أحد يعلم.

لكن لما تأتيك: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣]، ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٣]، ومثل هذه الأشياء، وما أدراكَ، حتى في السورة هذه نفسها يقول: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠]، الجواب موجود مُباشرة.

فلما قال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ أعطاك الجواب، قال: القارعة هذا اليوم العظيم هو اليوم الذي، ثم أعطاك صورة مِنْ صوره، هو له صور عظيمة، وله أحوال عظيمة ذكرها الله في كتابه تحتاج مِنا أن ننظر إليها في كُل موضع، في هذا الموضع يعرض لك ماذا؟ يعرض لك صورة مِنْ صور حال النَّاس وحال القلوب وأهوال النَّاس جميعاً، ثم يعرض لك صورة أُخرى مِنْ حال الجِبال.

وَفي سور أُخرى ذكر لك أحوال، يعني سورة التكوير ذكر فيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى اثنتي عشرةَ حالة مِنْ أحوال يوم القيامة، ما قبلها وما بعدها: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ [التكوير: ١ - ٤] ... إلى أن قال: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣﴾ [التكوير: ١٢، ١٣] هذا كله عرض، تصوير لما يجري يوم القيامة.

وتقرأ في سورة الانفطار، قال لك: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤﴾ [الانفطار: ١ - ٤].

وهكذا تجدهُ في سورة يُعطيك شيء مِنْ أهوال يوم القيامة، ومن الأحداث التي تجري يوم القيامة.

وهنا يقول لك، يذكر لك حدثين:

الحدث الأول: في حال النَّاس.

والحدث الثاني: في حال الجِبال.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤]، عندما يخرجونَ مِنْ قبورهم لا يدرون، أين يذهبون، قد أصابهم ما أصابهم مِنْ الكَرب والشِدة، فأهوال عظيمة لا يدري وهو يخرج مِنْ قبره أين

يذهب، فقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: هم كالفراش المبثوث، ما هو الفراش؟ يظن بعض النَّاس، يظن أن الفراش هو الفراش المعروف عندنا، الحشرة هذه التي تتطاير بين الزهور وبين أوراق الأشجار، معروفة الشكل بألوانها، لا، هذا خطأ، الفراش المُراد به سائر الحشرات، مُطلق الحشرات الصغيرة جداً تُسمى الفراش، التي إذا أنت أشعلت ناراً فِي ظُلمة بدأت تأتي إلى هذه النار تدور حولها، هذه تُسمى فراش.

وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضًا بيّنَ هذه لما قال: يعني «**أني أمنعكم مِنْ النار وأنتم كالفراش تتطايرونَ على النار**».

فالمراد بالفراش بالآية هنا: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ هي هذه الحشرات التي تتطاير صِغار لا تدري أين تذهب حتى تسقط فِي النار، وكذلك النَّاس يخرجونَ مِنْ قبورهم لا يدرون، عقولهم ليست معهم، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]، المرأة الحامل تضع حملها، والمرضعة تذهل عن رضيعها. كَمَا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]، فاليوم عظيم، فلذلك قال: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾.

والجبال الصُم الشديدة القوية على قوتها وصلابتها يصفها الله بأشد الضعف، فيقول: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، كالصوف إذا نفشهُ صاحبه يبدأ يتطاير بالهواء، كَمَا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ۝٦﴾ [الواقعة: ٥، ٦]، فتتطاير، تذهب خلاص، ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، تذهب، ما تجد لها أثر ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥]،الجبال فقط لو تأملناها فِي القُرآن، تدبرناها وبحثنا عن أهوال أو أحوال الجبال يوم القيامة، لوجدت أنها تمر بأحوال. يقول لك: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، ومرة يقول لك: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥]، ومرة قال: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤]، وهكذا تمر هي بمراحل.

كَمَا أن السماء تمر بمراحل: مرة تنشق، ومرة يقول لك: ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ [النبأ: ١٩]، يعني أهوال عظيمة لا يتصورها الإنسان، كل مَا تتصوره فِي ذهنك الآن هُوَ على خلاف؛ لأن اليوم عصيب وشديد ولا يتصوره الإنسان أبداً، الجبال شديدة صلبة تُصبح تتطاير كالصوف، هَذَا أمر، يعني إذا

كانت الجبال على صلابتها وقوتِها تضعف أمام هَذَا الشيء، تضعف وتضيع وتتكسر وتذهب وتتلاشى وهي جامدة، فكيف بهذا الإنسان؟! كيف سيكون موقف هَذَا الإنسان المسكين الضعيف؟!

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكر لنا هذه الأحوال العظيمة ذكرَ بعدها نتيجة هذه الأمور بهذا اليوم، قَالَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: ٦]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: ٨].

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: ٦]، ثقلت بأي شيء؟ بالأعمال الصالحة، الأعمال الصالحة ثقيلة، لها ثِقل عِنْدَ الله عَزَّ وَجَلَّ، لها مكانة، تثقل بالميزان، ولو كانت قليلة، لها مكانة.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بالأعمال الصالحة، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة: ٧]، أي فِي جنةٍ عالية، ﴿عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ بمعنى: أنه يعيش عيشةً هنيئة تُرضيه، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأرضاهم، هَذَا باختصار.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، طيب، مَا هي العيشة هذه؟ العيشة هذه ذكرها الله فِي آيات كثيرة، فصلها لك تفصيل عِنْدَ دخول النَّاس الجنة، المتقين الجنة ماذا سيرون وماذا سيُقابلون، وما هُوَ النعيم الَّذِي يذكرهُ الله لهم، فيه سورٍ أُخرى.

قَالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [القارعة: ٨]، خفت مِنْ الأعمال الطيبة الصالحة، وثقلت بالأعمال السيئة.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: ٨، ٩] أي عاقبتهُ سيئة، ومصيرهُ سيء. مَا معنى (أُمه) هنا؟ قيل: (أُمهُ) كُلُّ شيءٍ يأويك فَهُوَ أُمك. تقول: داري الدار التي تأويك أُم. والمكان الَّذِي يأويك أُم. وأمك الحقيقة لأنها تأويك هي أُم. فلما هذه كانت مأوهم ومصيرهم النَّار، قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (فَأُمُّهُ) أي مأواهُ ومصيرهُ ومرجعهُ إلى النَّار.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾، وهاوية اسم مِنْ أسماء النَّار، وأسماء النَّار كثيرة: الحُطمة، والهاوية، والموقدة، ...، أسماء كثيرة.

طيب، قَالَ: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾، هَذَا معناه.

فِي معنى آخر ذكرهُ بعض المفسرين، قَالَ: المراد بكلمة (أُمُّهُ) يعني رأسهُ، يعني يهوي على رأسهِ فِي نارِ جهنم، يسقط على رأسهِ فِي نارِ جهنم. فمعنى (أُمُّهُ هَاوِيَةٌ) أي ساقطٌ على أُم الرأس، ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾.

هَذَا كله تصوير يعني لسوء عاقبة هؤلاء، سواءً كان يأوي إلى النَّار، و(أُمُّهُ) يعني مأواهُ إلى النَّار. أو يأوي إلى النَّار وَهُوَ على رأسهِ، قد كُبَ على رأسه ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ [القارعة: ١٠]، يعني مَا هي؟ وهذه جاءت كلمة الآن: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يعني مَا أعلمك؟ ولا تدري مَا هذه النَّار؟ لا تتصورها؟ قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌ ۝١١﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، شديدة الحرارة ليست كنار الدُّنْيَا، بل فُضلت بسبعين جزء على نار الدُّنْيَا، - نَسأَلُ اللهَ العَافِيَةَ، نسأل الله أن يحمينا وإياكم ويحفظنا ويجعلنا مِنْ أهل الصِنف الأول الذين ثقلت موازينهم وهم فِي عيشةٍ راضية.

الحقيقة سورة قصيرة، ولكنها موجزة، وتُعطي معاني كبيرة، وتصور لك اليوم الآخر بهذه السورة الوجيزة، وَهَذَا يدلُ على عظم هَذَا القُرآن الكريم، مرةً يأتي بالتفصيل الواسع، ومرةً يختصر، ومع ذَلِكَ لا تشعر أنت باختلاف بين هَذَا وَهَذَا؛ لقوةِ بلاغة القُرآن وجزالةِ عبارته.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، ويجعلنا وإياكم هُداةً مُهتدين، موفقين لكُلِّ خير، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وَسَلَّمَ عَلَى نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ التَّكَاثُر)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة التكاثر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبِهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه إلى يومِ الدين، اللَّهمَ علمنا ما ينفعُنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هَذَا اللقاء المبارك، فِي هَذَا المجلس، مجلس القُرآن الكريم، نقرأُ آياتٍ مِنْ كتاب الله ونتأملُها ونتدبرها ونتعلم مَا فيها مِنْ دروس وعِبر، وما زلنا فِي سياقِ قصار السور مِنْ الجزء الأخير، وَهَذَا اليوم هُوَ اليوم السابع مِنْ شهرِ محرم مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف مِنْ الهجرة.

السورة التي بين أيدينا هي سورة التكاثر، هذه السورة نحفظها جميعاً ونقرأها فِي صلاتِنا السرية والجهرية، ولكن نحتاج، نحتاج إلى أن نقرأها قراءه تدبر وتأمل وفهم لمعانيها، وأنتَ تقرأ السورة التي قبلها، سورة الزلزلة، وهي الحديث عَنْ يوم القيامة، وسورة أيضًا العاديات التي قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠﴾ [العاديات: ٩، ١٠]، ثُمَّ تأتي القارعة الصريحة بعرض مَا يجري أو بعرض شيءٍ مِنْ مواقف يوم القيامة، تأتي هذه السورة فِي مكانها، تأتي فِي مكانها المناسب.

وَهَذَا يدل **أيها الإخوة الكِرام** على أن القُرآن مُنزل مِنْ عِند الله، وأنه كلام رَبِّ الْعَالَمِينَ، ويدل على أن هَذَا الترتيب والتنسيق والتنظيم مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، حتى فِي آيات القُرآن فِي ترتيبها وتوالي هذه الآيات بعضها فوقَ بعض، وكذلك السور على ترتيبها بهذا التنسيق والترتيب، يدلُ على أنه وحيٌ مُنزل مِنْ عِنْدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولم يكن مِنْ أحدٍ مِنْ البشر.

هذه السورة تأتي فِي مكانها المناسب، النَّاس فِي غفلة، فِي حياتهم فِي غفلة عظيمة، فِي غفلة عما خُلقوا لأجله، وغفلة عَنْ هَذَا اليوم الَّذِي سيقفونَ فيه أمام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتُبلى السرائر، وتنكشف الأمور، كُلُّ هَذَا الإنسان فِي غفلة، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالجَ هذه الغفلة بهذه السورة.

مَنْ كان فِي قلبهِ أو فِي حالهِ شيءٌ مِنْ الغفلة والإعراض وعدم التذكر هَذَا اليوم الَّذِي سيقف فيهِ يعني ليس معهُ شيء مِنْ الدُّنْيَا، يتذكر هذه السورة، هذه السورة تُعالج كُل مَنْ فِي قلبهِ إعراضٌ أو غفلةٌ أو سهوٌ عما خُلقَ لأجله، اقرأ هذه السورة، تأمل آياتِها ستجد أنها العلاج الحقيقي لكُل مَنْ وقعَ فِي الانشغال بهذه الدُّنْيَا، والركض وراء حُطام هذه الدُّنْيَا، ثُمَّ فِي الأخير لا يخرج بشيءٍ مِنْ هَذَا الحُطام، وسيأخذهُ غيرهُ بكل ارتياح، وَهُوَ الَّذِي سيُحاسب عَلَيْهِ، وسيوقف ويُسأل عَنْ كُلِّ مَا جمعه، تجمع لغيرك.

هذه تُعالج هَذَا الأمر وَهَذَا المرض الَّذِي قد أُصيبَ به بعضُ النَّاس أو كثيرٌ مِنْ النَّاس.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]، ألهتكم الدُّنْيَا؟ انشغلتم عما خُلقتم لأجله؟ هَذَا أسلوب إنكار وتعنيف، ولوم شديد، كيف أشغلتكم الدُّنْيَا؟!

ولاحظ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ألهاكم وأشغلكم التكاثُر. مَا هُوَ التكاثُر؟ وفي أي شيء؟ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا حدد، ولذلكَ المفسرون وقفوا عِنْدَ هذه الكلمة فذكروا أن التكاثر لا حدَ لَهُ، التكاثر فِي المال، التكاثر فِي الولد، الأولاد، التكاثر فِي المناصب والجاه، التكاثرُ فِي الأنساب ونحنُ أبناء كذا، ونحنُ كذا، والتكاثر فِي كل وجوه التكاثر، بلا حد، يتكاثرونَ بكل شيء، حتى مَا يقع الآن فِي بعض المنتديات والمُتابعين لهم، بعض تجد يتكاثر فِي المتابعين، ويتكاثر فِي نفسه، ويتكاثر فِي....، حتى إذا جلسَ فِي المجالس يقول: أنا عِندي كذا، وأنا عِندي كذا وأنا عِندي كذا، هَذَا التكاثر مَا الفائدة مِنْ ذِكره؟ وماذا يُغنيك لما تقول: أنا عِندي كذا وكذا، وتتباهى أمام النَّاس، وتفتخر أمامَ النَّاس بأن عِندك كذا.

الواجب أن إذا مَنَّ الله عليك، وأنعمَ الله عليك بمثل هَذَا الأمر أن تشكر الله تَعَالَىَ، وأن تسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعل هَذَا لكَ عوناً على طاعته، لا أن تتكاثر وتتباهى أمام النَّاس وتفتخر، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يلوم ويُنكر على مَنْ انشغلَ بهذه الدُّنْيَا، وألهتهُ التكاثر حتى إلى متى؟ إلى متى وأنتَ تتكاثر وتركض وراء هذه الدُّنْيَا؟

وَهَذَا واقع حقيقةً أيها الإخوة، واقع حقيقةً فِي التكاثر وراء المال والعقارات والأراضي والدنيا بشتى أنواعها، تجدهُ يركض ورائها، يركض، إلى متى تركض؟ إلى أن قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ، تكاثرون، تكاثرون، ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢].

حتى انتهيتم مِنْ هذه الدُّنْيَا وانتقلتم إلى دار الآخرة، إلى دارٍ الأُخرى، هذه الدار الأُخرى ليست دار مقر، وإنما هي برزخ بين الدُّنْيَا والآخرة، ولذلك مِنْ عجائب هذه اللفظة ﴿حَتَّى زُرْتُمُ﴾ يُقال أن أعرابياً مِنْ الأعراب القُح الذين يعرفون لغة العرب حقيقةً والذين عاشوا وتمكنوا مِنْ لغة العرب، لما سمعَ قارئاً يقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢]، قَالَ: ليس الزائر بمقيم. يعني مَا يُقال إن القبر هُوَ النهاية، ولا يُقال مثواهُ الأخير، وإنما هي مرحلة، ولذلك قَالَ: ليس الزائر بالمقيم، أنتَ تزور، لما تزور فلان لا تُقيم عِنده إلى الأبد، ولذلك الله مَا قَالَ: حتى ذهبتم إلى المقابر، أو حتى انتقلتم إلى المقابر، حتى لو قِيل كدا لفُهمَ أن المقبرة هي النهاية، وليس هناك بعث، وَهَذَا الَّذِي يعتقدهُ مَنْ؟ يعتقدهُ الكُفار الذين لا يؤمنون باليوم الآخر ولا بالجنةِ ولا بِالنَّارِ.

ولذلك العبارة هنا والكلمة فيها يعني احتراز شديد مِنْ أن يُفهم أن القبر هُوَ النهاية، لا، ولذلك قَالَ: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ٢].

ثُمَّ بدأ يلومهم اللوم الشديد فَقَالَ: ﴿كَلَّا﴾ [التكاثر: ٣].

ولاحظ على قصر هذه السورة تتكرر ﴿كَلَّا﴾ فيها ثلاث مرات، يكفي واحدة. قَالَ: لا، حتى يرتدع هَذَا، ولأن كلمة ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر، يزجرك الله ويردعك بهذه الكلمة ﴿كَلَّا﴾، وَهَذَا يدل على أن الإنسان لا تُلهيه الدُّنْيَا، الدُّنْيَا عَنْ الآخرة.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣]، وكلمة ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أيضًا وعيد شديد، لما تقول لفلان: سوفَ تعلم ماذا سأصنعُ بِك. سوفَ تعلم. فهذا أسلوب أيضاً تهديد وتخويف، فيقول الله ﴿كَلَّا﴾ ثُمَّ يقول: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، وخُذ زيادة: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤]، ولذلك هل هَذَا تكرار؟ أو لا نقول بالتكرار؟ لا نقول أن الآية مُكررة؟ هل هي مُكررة؟

نقول: الأصل عدم التكرير. وكما قَالَ أهل العلم: التأسيس أولى مِنْ التأكيد، فهي ليست للتأكيد وإنما للتأسيس، يعني: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الأولى غير الثانية، هَذَا هُوَ الأولى.

طيب، مَا هي الأولى؟ ماذا تفهم منها؟ ماذا تفهم مِنْ الثانية؟

نقول: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، نعلم ماذا؟ قَالَ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عِنْدَ الموت وعند قبض الروح، وَهَذَا تفسير ابن عباس رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، قَالَ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني تعلم علماً حقيقياً متى؟

عَنْ أي شيءٍ تعلم؟ تعلم أن التكاثر والانشغال بهِ مذمة، وأن اللهَ لا يرضى به، متى تعلم؟ أنتَ الآن فِي الدُّنْيَا لو قلنا لك مَا تلتفت لهذا الأمر، نقول لك: لا تشغلك الدُّنْيَا، مَا تلتفت.

لَكِنّ متى تعلم؟ إذا نزلَ بكَ الموت، إذا بلغت الروح الحلقوم، قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فِي هذه الحالة، فِي هَذَا الوقت ستعلم حقيقة الدُّنْيَا وأنها دار ممر وسريعة الزوال وأنكَ ذاهب وما تعلمها، ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثُمَّ الثانية، قَالَ: ﴿ثُمَّ﴾ شوف جاءَ بـ ﴿ثُمَّ﴾ وهي تُفيد التراخي، قَالَ: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٤].

قَالَ ابن عباس: الأولى عِنْدَ الموت، عِنْدَ مُعاينة ملك الموت، والثانية: إذا وضعَ فِي قبره.

إذا وضعَ فِي قبره تذكر، تذكر ماذا كان يصنع فِي الدُّنْيَا، وكيفَ ضيعَ دُنياه. هنا، ولذلك ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عِنْدَ قبض الروح، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إذا وضعتم فِي القبر، ولذلك قَالَ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، شوف ثلاث مرات ﴿كَلَّا﴾، ﴿كَلَّا﴾، ﴿كَلَّا﴾. و(تَعْلَمُونَ) نفس الشيء ثلاث مرات: الأولى والثانية والثالثة. الثالثة متى؟ قَالَ: إذا بُعثَ مِنْ قبره وخرجَ إلى الدار الآخرة ونظرَ إلى النَّار أمامهُ، ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦] فِي هذه الساعة سيعلم أيضًا أشد مِنْ الأولى والثانية، ولا ينفعهُ، كُل هَذَا العلم مَا يستفيد منه؛ لأنه خلاص خرجَ مِنْ الدُّنْيَا.

قَالَ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ هذه يقول أهل العلم: جُملة شرطية، تحتاج إلى جواب الشرط، أين جواب الشرط؟ لما أقول لك: كلا لو تعلم علم اليقين. طيب، تقول: بعدين ماذا؟ أين الجواب، أنا علمت علم اليقين، وبعدين؟

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ لما أشغلتكم الدُّنْيَا والتكاثر فيها، هَذَا هُوَ الجواب، الجواب محذوف، لماذا حُذف؟ للعلم به، ولأنه تقدم.

حتى مِنْ الخطأ فِي فهم بعض النَّاس أنه يقول: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر: ٥، ٦] هَذَا غلط، وقراءة بعض النَّاس فِي الصَّلَاة سواءً إماماً أو مأموماً أو منفرداً، أو فِي غير الصَّلَاة، إذا وصلها، إذا وصلَ هذه الآية فَقَالَ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾؛ غيرَ المعنى تغييراً جذرياً، غيرهُ بالكُلية، ليش؟

لأنك الآن ماذا تقول؟ تقول: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾، يعني إذا علمت علم اليقين رأيت النَّار، لا، هَذَا غير صحيح. أنتَ سترى النَّار، علمتَ علم اليقين أو لم تعلم علم اليقين، سترى النَّار أمامك.

ولذلك هذه الجملة يجب أن تقف عندها ولا تصلها؛ حتى لا يختلط المعنى.

واضح يا إخوان؟

حقيقة؛ لأني سمعت كثير، حتى مِنْ الأئمة فِي المساجد، ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾؛ هَذَا غلط، ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ لما أشغلتكم الدُّنْيَا.

ثُمَّ تأتي بجملة جديدة وآية جديدة مُستقلة، ليس لها علاقة بما قبلها، تقول: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦]. كلمة ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هذه يعني، ولذلك شوف: قراءة التدبر، قراءة الفهم، قراءة التفسير غير أي قراءة، ولذلك شوف قَالَ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هذه الـ (ل) يسميها أهل العلم (ل) القسم، يعني هناك قسم، يُقسم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يقول: واللهِ لترونَ الجحيم. هَذَا التقدير.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ يعني: واللهِ لترونَ الجحيم، أُقسمُ باللهِ أنكم سترونَ الجحيم جميعاً. عندك يقين، مَا عندك يقين. عالم، جاهل، سترى النَّار أمامك ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٣٦].

فلا نخلط بين هَذَا وَهَذَا. لترونَ الجحيم أمامكم.

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعدها: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، هَذَا يؤكد على أن النَّار لَا بُدَّ أن تُرى أمامه، لَا بُدَّ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ أي لترونَ النَّار، ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾.

شوف قَالَ: ﴿عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥]، ﴿وعَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧].

➤علم اليقين: درجة.

➤وعين اليقين: أشدُ درجة.

لما يأتيك خبر مِنْ شخص ثقة ويُخبرك بالخبر، تقول: هَذَا علم، وما دام أنه جاء مِنْ شخص أثق فيه، فهذا علم اليقين، يعني علمٌ يقين، يعني متأكد.

لما أنت ترى أمامك هَذَا الخبر مُشاهدة، تُصبح ماذا؟ يصبح عين اليقين. يعني أمامك رأيته: عين اليقين.

فأنتَ الآن تسمع عَنْ النَّار، وتسمع عَنْ الدار الآخرة، وتأتيك أخبارُها، وتقرأها فِي كتاب الله حتى إنكَ تعلم علم اليقين أن هَذَا خبر مِنْ الله؛ فيكون عندك ماذا؟ يكون عندك عِلم اليقين فيما سيجري يوم القيامة.

ثُمَّ إذا رأيت هَذَا بعد البعث، ستكون رأيتهُ عين اليقين.

قَالَ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]. كل هَذَا تشديد فِي أي شيء؟ فِي مشاهدة النَّار. طيب، والجنة أين؟

قَالَ: لا، الحديث عَنْ النَّار لأنه أسلوب تهديد، تخويف، النَّاس فِي غفلة مَا يوقظهم مِنْ هذه الغفلة إلا التخويف والتهديد، مَا تقول أشغلك الدُّنْيَا، ترى الجنة تنتظرك، هَذَا مَا يتناسب، لَكِنّ لما تردعهُ بمثل هذه العبارات القوية وتأتي بكلمة (المقابر)، مَا تقول: قبر، قبرين، ولا قبور، قَالَ: (مقابر) يعني المقابر ليست جمع قبر، المقابر جمع مقبرة، يعني أمامك مقابر كثيرة، والمقابر تنتظرك أن تُرفع وتُحمل وتوضع فيها، فشوف كيف التهديد والتخويف لما يأتي بكلمة (المقابر)، وتأتي (ألهاكم)، و(كلا، وكلا، وكلا) و(سوف تعلمون) يتناسب أن يخوفكَ الله بِالنَّارِ التي أُعدت لأهلِها.

ولذلك يقول: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وفي النهاية الختام: الدُّنْيَا التي قد يُنعم فيها مَنْ يُنعم، ويلهى فيها مَنْ يلهى، ويُترف فيها مَنْ يُترف، يُذكره بأن هَذَا الترف، وَهَذَا اللهو، وَهَذَا النعيم، لن يذهب سُدى وأنكَ ستقف وتُسأل عَنْ هَذَا النعيم، تُسأل عَنْ هَذَا النعيم. قَالَ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ والتقدير: واللهِ. كل مَا تأتيك الـ(ل) هنا، هذه لام القسم. (لترونها، أي: واللهِ لترونها)، (ثُمَّ لتسألُنَ، أي: واللهِ لتسألُنَ عَنْ هَذَا النعيم).

السؤال هنا: مَنْ الَّذِي يُسأل عَنْ النعيم، الكافر ولا المؤمن؟

نقول: الجميع.

لَكِنّ سؤال الله للكافر سؤال لوم وعتاب وإنكار ومُحاسبة.

وسؤال الله للمؤمن الَّذِي يأخذ هَذَا النعيم مِنْ المآكلِ والمشاربِ والمراكبِ والمساكن، ويشكر الله عَلَيْهَا، يُسأل بتذكيرِهِ أنه شكرَ الله فيُجازى.

ولذلك النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكر أصحابه فِي يوم مِنْ الأيام لما أكلوا مِنْ الخير والنعيم والماء البارد، والشراب الطيب، قَالَ لأصحابِهِ، وكان معهُ عمر وأبو بكر وبعض الصَّحَابَة، قَالَ: «**واللهِ لتُسألُنَّ عَنْ هَذَا النعيم**».

متى؟

إذا قصر الإنسان فِي شُكر نعمة الله، أو انشغلَ عنه، سيُسأل عَنْ هَذَا النعيم.

نسأل الله أن يجعلنا ممن يُسأل على وجه الشُكر، وعلى وجه الثناء.

هذه السورة حقيقة مثل مَا ذكرنا، سورة جاءت فِي مكانها، تُذكر النَّاس لما ذكرَ الله أحوال يوم القيامة، بدأ الآن أن يوجههم إلى الحذر مِنْ هَذَا اليوم والاستعداد ليوم المعاد، وأن يكونَ على يقظة، ولا أن يكونَ فِي غفلة، ولا تُشغلهُ الدُّنْيَا، ولا تُلهيهِ هذه التكاثر عما خُلقَ لأجله.

أسأل الله أن ينفعنا بما قلنا، وأن يجعلنا وإياكم هُداةً مُهتدين، موفقينَ لكُلِّ خير، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وَسَلَّمَ عَلَى نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وصحبِهِ أَجْمَعِين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ العَصْرِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة العصر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وصحبهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه إلى يومِ الدين، اللَّهمَ علمنا ما ينفعُنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هَذَا اللقاء المبارك، فِي هَذَا المجلس، مجلس القُرآن الكريم، ومجلس التدبر والتفكر فِي آيات الله جَلَّ جلاله، درسنا فِي هَذَا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للرابع عشر مِنْ شهر الله المحرم، مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف مِنْ الهجرة.

درسنا مع سورة مِنْ قصار السور، هي ثلاث آيات، ولكنَ معانيها عظيمة جداً، ووقفَ السلف منها وقفةً عجيبة، مِنْ الصَّحَابَة وَمِنْ التابعين وَمِنْ علماء الْإِسْلَام.

هذه السورة جاء فِي بعض الأَحَادِيْث أن الصَّحَابَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا إذا قابلَ أحدهم الآخر وسلمَ عَلَيْهِ، قرأ عَلَيْهِ هذه السورة العظيمة.

وجاء عَنْ الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ أنه قَالَ: لو مَا أنزلَ الله على عبادهِ، حُجةً على عبادهِ إلا هذه السورة لكفتهم.

يعني لو مَا أنزلَ الله القُرآن كُله، إلا هذه السورة، الثلاث آيات، لكفت العباد جميعاً.

وجاء أيضًا عنه أنه قَالَ: لو تدبرَ النَّاس هذه السورة لكفتهم.

يعني لو تدبرنا هذه السورة تدبراً عظيماً، لتكفينا هذه السورة فِي أن نتدبر القُرآن كُله، لماذا؟ مَا السبب فِي ذَلِكَ؟ هذه السورة حوت كُل مَا يحتاج إليه الإنسان فِي الدُّنْيَا والآخرة، هذه السورة كشفت لنا مَا يعملهُ النَّاس فِي الدُّنْيَا، لو رجعنا قليلاً إلى السور التي قبلها، مثل مَا مرَ معنا فِي لقاءات ماضية، سورة (**الزلزلة**) التي تتحدث عَنْ يوم القيامة: النفخة الأولى، والنفخة الثانية، وحشر النَّاس، ثُمَّ مصيرهم وجزاءهم.

ثُمَّ تأتي (**العاديات**) لتؤكد هَذَا الأمر بالقسم، بالأيمان، ونتيجة ذَلِكَ: يُحصل مَا فِي الصدور.

ثُمَّ تأتي (**القارعة**) التي تزن أعمال النَّاس، ثقلت موازين وخفت.

ثُمَّ يُذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على وجه التحذير والتخويف بالدنيا والانشغال بها، والتكاثر، **التكاثر** بهذه الدُّنْيَا والطمع ومُلاحقة حُطام الدُّنْيَا حتى مَا يدري إلا وقد خرجَ مِنْ هذه الدُّنْيَا.

تأتي هذه السورة التي بعدها كأنها نتيجة، الاختبار كله والابتلاء فِي هذه الدُّنْيَا، مَنْ هُوَ الخاسر، مَنْ هُوَ الرابح، **هذه السورة هي سورة (العصر).**

أقسمَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قسماً عظيماً، والله عَزَّ وَجَلَّ لا يُقسم إلا بشيءٍ عظيم، فأقسمَ بالعصر، قَالَ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١].

مَا هُوَ العصر؟

إما يحتمل أن يكون العصر هُوَ الزمان الَّذِي يعيشهُ الإنسان منذ خلقَ الله هذه الدُّنْيَا إلى أن تنتهي؛ يُسمى عصر، يُسمى الدهر، يُسمى الحياة، كلها، الوقت، الزمان؛ هَذَا هُوَ.

أو يحتمل أن يُراد به: العصر الَّذِي هُوَ وقت العصر، وقت العَشي، وقت صلاة العصر، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أقسمَ بالأوقات، بالأزمنة، فَقَالَ: والليل. وَقَالَ: والنهار. وَقَالَ: والفجرِ. وَقَالَ: والضحى. وَهَذَا أيضًا: والعصر.

ثُمَّ إن هناكَ يعني لِمَنْ يتدبر، يتفكر فِي الآيات هناك رابط بين خسارة الإنسان ونتيجته والعصر. العصر هُوَ نهاية النهار، وأهل التجارات يبدؤون ينظرون فِي حساباتِهم فِي آخر النهار ماذا حصلوا؟ وماذا كسبوا؟ وماذا خسروا؟ وهذه أيضًا فِي العصر إذا جاءَ وقت العصر، كذلك هذه الدُّنْيَا إذا مرت، أو أزفَ الرحيل؛ بدأ الإنسان يُحسب كم مضى مِنْ عُمري، وكم ذهب، وما الَّذِي بقي؟

ثُمَّ القسم بالعصر، سواءً قلنا العصر هُوَ الزمان، أو هذا الوقت المُحدد الَّذِي هُوَ مِنْ أشرف الأزمنة الَّذِي فيه أشرف الصلوات التي قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] صلاة العصر، وَقَالَ عنها النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ فاتتهُ صلاة العصر فقد حبطَ عمله، -أو- فكأنما وُترَ أهلهُ وماله**».

هَذَا الوقت العظيم، أو هَذَا الزمان. هذا الزمان مَا هُوَ؟ حياتك، هَذَا الزمان حياتك، ليلك ونهارك، هَذَا الزمان هُوَ أيامك، ماذا تصنع بهذه الأيام؟

الأيام خزائن، الأيام مثل المستودعات تملأها بالخزائن، تملأها بما أنتَ تحتاج إليه، بما تدخرهُ مما فيهِ مصلحتك ومنفعتك. أما أن يذهب اليوم وتذهب الأيام، ويذهب الشهر، وتذهب السنة وهذه الخزائن فارغة ليسَ فيها شيء، إن لم يكن فيها شيءٌ فقد يكون وزراً على هَذَا الإنسان؛ فهذه مُصيبة، وهذه خسارة.

ولذلك تلاحظ لما قَالَ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١]، قَالَ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، يعني النَّاس خاسرون ومضيعون أوقاتهم، ومُهدرونَ أزمنتهم، ولا يدرون ماذا يصنعون، حتى إنك تسمع بعضهم يقول: ماذا نصنع فِي هَذَا الوقت؟ الوقت طويل، كيفَ نُقطعه؟ الوقت طويل عندك، أما عِنْدَ أهل الذين يعرفونَ ثمن الوقت، ويعرفون قيمة الوقت، ليسَ بالطويل، بل يحتاج أن يأخذ وقتكَ ووقت غيرك؛ مِنْ ضيق الوقت عِنده.

﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١]، لما يُقسم الله بالزمان والوقت، وَهَذَا الزمان والوقت وأهميته وَهُوَ محل الأعمال التي يعمل بها الإنسان، يُعطيك النتيجة، ويحكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحكمهِ العدل، فيقول: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]؛ يعني جنس الإنسان: الكافر والمؤمن، كلهم، كُل بني آدم فِي خسارة، فِي خسارة عظيمة.

لما يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ ويحكم عَلَيْهِ بالخسارة، قد خسرَ دُنياه، وخسرَ آخرته، لم يُفلح لا بالدنيا ولا بالآخرة، خسرَ هَذَا وَهَذَا.

ولاحظ أن الجملة كما يتدبرها أهل اللغة وأهل البلاغة، يقولون: هذه جملة اسمية، ومفتتحة بـ (إن) التي تُفيد التأكيد، (إن)، ثُمَّ يأتي بـ(الإنسان) ويُدخل عَلَيْهِ (ال) التي تُفيد جنس الإنسان عموماً؛ ذكراً كان أو أنثى، صغيراً كان أو كبيراً، مؤمناً كان أو كافراً. (إن الإنسان).

ثُمَّ يأتي كلمة (لفي خُسر) ودخول الـ(ل) المؤكدة، (لفي خُسر).

وناظر أيضًا وتأمل حتى تتدبر كثيراً، يقول لك: (لفي خُسر) يأتي بالـ (الفاء)، الـ(ف) هذه تُفيد الظرف، يعني: انغمسَ فِي الخسارة ولن يستطيعَ أن يخرج منها، ولا يُمكن أن يخرج منها، والله قد حكمَ عَلَيْهِ بالخسارة.

إذا سمعتَ مثل هَذَا الكلام الَّذِي ترتعد منه القلوب، والذي يخشى كُل إنسان أن يكونَ مِنْ هؤلاء، ولا يدري عَنْ نفسه، إذا مَا سمعت مثل هذا ترتجف لَهُ القلوب، يجب عليك أن تقف عندها.

اقرأ مَا بقيَ مِنْ السورة. قَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [العصر: ٣]، استثنى. دائماً الاستثناء لا يكونُ إلا فِي القليل، لما تقول مثلًا: أنفقتُ دراهمي أو أنفقت راتبي، إلا كذا وكذا هُوَ القليل.

فلما يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هُم قِلة. إذاً يعني سائر النَّاس فِي خسارة، فِي دُنياهم وآخرتهم. والخسارة هنا لو كانت فِي الدُّنْيَا أمرها هين، تعوضها، يخسر الإنسان يوم ويكسب يوم، الدُّنْيَا فيها تعويض، تخسر مرة فِي تجارة، فِي أسهم، فِي كذا، ثُمَّ بعد ذَلِكَ تعوضها.

لَكِنّ الخسارة فِي الآخرة مَا بها تعويض، ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ١٥]، خسارة ليس بعدها ربح، مَا فِي ربح، خلاص، النتيجة واحدة.

فالله استثنى فضلاً منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورحمة لهؤلاء الذين استثناهم الله وأعطاهم الصفات الأربع.

وإذا قرأت هذه الصفات الأربع انظر فِي نفسك، هل أنت منهم؟ مِنْ هؤلاءِ الموصوفين بهذه الصفات الأربع؟ أو أنكَ مُقصر فِي شيءٍ منها، أو مُتصف ببعضٍ منها وبعضها غير مُتصف؟

وهل، يعني اسأل نفسك: هل أنت إذا كُنت متصف ببعضها وبعضها لم تتصف به، أو مُقصر به، هل تدخل فِي زمرة المستثنيين مِنْ هؤلاء؟ ولا ستبقى مع الخاسرين؟

السورة عظيمة، ولذلك الإمام الشافعي، قَالَ: لو تدبر النَّاس هذه السورة لكفتهم، لو مَا أنزل الله حُجة على عبادهِ إلا هذه السورة، لكفتهم أنها حُجة.

هذه الصفات الأربع:

صفتان تخصك أنت فِي حالك مع ربك.

وصفتان تخصك أنت مع غيرك، مع النَّاس.

هذب نفسك، وأبدأ بنفسك، ثُمَّ انتقل فِي علاقتك مع الآخرين.

الأولى: حقق الإيمان الَّذِي أمرك الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

هل أنت معهم؟ هل أنت ضمن هؤلاء؟ هل حققتَ الإيمان؟ الإيمان إيمانٌ بستة أركان، هل حققتها؟ لو يأتيك الركن الأخير: الإيمان بالقضاء والقدر. تجد بعض النَّاس لمجرد مصيبة تنزل به أو بلاء يتزعزع.

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، فتجدهم يُصيبهم مَا يُصيبهم. هل حققتَ الإيمان بأركانهِ السِت؟

إذا حققت الإيمان حقيقةً التصديق بكل مَا جاء عَنْ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ رسوله، هَذَا إيمان يلزم منك العمل، ولذلك قَالَ: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣].

أما أن يقول: أنا مؤمن، وَهُوَ لا يُصلي!

يقول: أنا مؤمن وَهُوَ يؤذي جيرانه!

يقول أنا مؤمن وَهُوَ لا يبر والديه ولا يُحسن إليهم ولو بعد مماتِهم، ينساهم!

يقول أنا مؤمن ويتخلق بالأخلاق السيئة!

يقول أنا مؤمن وهو يكذب!

مَا حققتَ الإيمان، لو حققتَ الإيمان لحققتَ مَا يلزم الإيمان، الإيمان لَهُ لوازم، الإيمان ألا تكذب، ألا تغش، ألا تسب، ألا تشتم، هَذَا الإيمان، تعاملك مع النَّاس، أخلاقك إيمان.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣] حققوا الأعمال الصالحة التي فرضها الله عليك، والتي شرعها لك على وجه الاستحباب، والتي ندبَ إليها مِنْ أعمال صالحة بينك وبين الله، أو بينك وبين النَّاس، والتعامل مع الآخرين، التعامل مع رب العالمين التعامل مع الخلَق، هل حققنا هَذَا حقيقةً حتى ندخل فِي زُمرة هؤلاء؟

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣] ولم يقل عملوا الأعمال، لا، (عملوا الصالحات) يعني لَا بُدَّ أن تعمل عملاً صالحاً، أما الأعمال السيئة، أو الأعمال التي لم يشرعها الله مِنْ البِدع، ليست داخلة فِي الأعمال الصالحة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر: ٣]؛ هَذَا بينك وبين الله، علاقتك مع ربك، صلاتك، وزكاتك، وصيامك، وحجك، وسائر الأعمال التي تعملها، وبِرك لوالديك، وغيرها، هَذَا بينك وبين الله.

أما الَّذِي بينكَ وبين النَّاس هل حققته؟

قَالَ الله فيها فِي الصفة الثالثة والرابعة: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ [العصر: ٣]، الحَقّ مَا هُوَ؟ الحَقّ يُقابلهُ الباطل، التواصي بالحَقّ، التواصي بما أحقهُ الله، بما شرعهُ الله، بما أمرَ اللهُ به، التواصي: أن يوصي بعضنا بعضا. شوف كلمة التواصي! لم يقل: يوصي، وإنما قَالَ: يتواصون.

التواصي بين طرفين، ولذلك فهمها الصَّحَابَة: إذا قابل أحدهما الآخر وسلم عَلَيْهِ قرأ عَلَيْهِ سورة العصر؛ لأنها بيني وبينك. التواصي: التعاهد، والموافقة، والتذكير، والنُصح، هَذَا هُوَ التواصي، ينصح بعضهم بعضاً، ويُذكر بعضهم بعضاً.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ [العصر: ٣]، أي بشرع الله، التمسك به، الصَّلَاة، الإعانة على الخير، الإعانة على كُل مَا يحتاج المسلم لَهُ فِي دينه، يوصي بعضهم بعضا، لا يوصيه بأمور الدُّنْيَا، يوصيه بكذا وكذا، تجد بعضهم، حتى بالرسائل، رسائل الجوال فيها وصايا، فيها وصايا على الخير، فيها تذكير، التذكير بالصيام، التذكير بقيام الليل، التذكير بالأعمال الصالحة، قراءة القُرآن.

لَكِنّ لا توصيه بأمور لا تنفعه، قد تضره، تجد بعضهم جاءت لَهُ رسالة فِي أشياء مِنْ أمور الدُّنْيَا قد تضره، يحرص عَلَيْهَا أشد الحرص، وأمور الدين، يقول لك: لا، هُوَ يعرف الصَّلَاة ويعرف الصيام، ولا يُذكره، قد تُذكره تكسب أجراً.

التواصي بالحق، وهذا الحق هُوَ الدين كُله، هُوَ الدين كُلُّهُ الَّذِي شرعهُ الله، كُل مَا يتعلق بالدين داخل فِي هذه الكلمة، يوصي بعضُنا بعضاً.

الأمر الثاني: أن هَذَا الدين، وهذه الوصية تحتاج مِنا إلى صبر، ولذلك قَالَ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، أي يوصي بعضنا بعض أن نصبر، أن نتمسك، **«القابض على دينه كالقابض على الجمر»**، أن يُعين بعضنا بعضاً، تصبر عِنْدَ المصائب، تصبر على الطاعات، على قيام الليل، تجد الفراش أمامك، والنوم جميل وحسن، ومرتاح، وتترك هَذَا كله وتقوم وتُصلي، تقوم وتُصلي.

ولذلك بعض السلف لما يأتي إلى فراشه ويضع يدهُ عَلَيْهِ، فيقول: مَا أنعمك مِنْ فراش، وما أبردك، بارد وناعم، ولكن مَا عِنْدَ الله هُوَ القبر أهم عليّ مِنْ هَذَا. ثُمَّ يقوم ويُصلي، ويترك فراشه.

فهل يوصي بعضنا بعض بمثل هذه الأشياء؟ هذه الدُرر، وَهَذَا التذكير؟ يوصي بعضنا بعض على الصبر على الطاعات وقيام الليل؟ قراءة القُرآن؟ الصَّلَاة؟ التبكير للمسجد؟

يوصي بعضنا بعض على ترك المعاصي بأي وجهة، بأي نوع يتركها؟

يوصي بعضنا بعض على الصبر على ترك المعاصي. الصبر على الأقدار، الصبر على المصائب، إذا أُصيب بمصيبة تُذكره بالصبر، ذكره بثمرة الصبر، الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، يقول الأوزاعي: لا يُكال لهم، ولا يوزن، وإنما يُفرغُ لهم إفراغاً، يعني يُعطى بغير تقدير.

فتُذكر مَنْ عندهُ مُصيبة، مَنْ أصابتهُ مصيبة مثل هَذَا الشيء.

في ختام هَذَا الكلام، هل حققنا هذه الأشياء:

- الإيمان بينك وبين الله.
- والأعمال الصالحة.
- التواصي مع جيرانك، مع أقاربك، مع أصدقائك على الخير، على التحذير مِنْ الذنوب والمعاصي.
- التواصي على الصبر على الطاعات، وعن المعاصي.

هل حققنا هَذَا؟!

إذا أنت حققت هَذَا الشيء، -والله المستعان-، الكثير مُقصر فِي هَذَا الشيء، ونحنُ مُقصرون فِي هَذَا الأمر، ولكن نسأل الله أن يعفو عنا، وأن يتجاوز عنا، وأن يتغمدنا بواسع رحمته، وإلا فِي الحقيقة التقصير وارد.

هذه الأشياء الأربعة عظيمة جداً، يقل مَنْ يُحققها تحقيقاً دقيقاً، ولكن المُسلم يجتهد، ويسأل الله الإعانة، ويسأل الله العفو والعافية، ويسأل الله المغفرة، ويبذل جُهده حتى يدخل فِي زُمرة هؤلاء، وإلا خاسر، خاسرين.

نسأل الله ألا يجعلنا منهم، نسأل الله أن يستثنينا منهم، وأن يجعلنا مِنْ هؤلاء المستثنين، نسأل الله أن يتغمدنا بواسع رحمته.

نقف عِنْدَ هذا القدر ونكتفي به، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا، وأن يجعلنا وإياكم ممن قرأَ هذه السورة وتدبرها حقَ التدبر، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وَسَلَّمَ عَلَى نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الهُمَزَة)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة الهمزة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه إلى يومِ الدين، اللَّهمَ علمنا ما ينفعُنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هَذَا المجلس المبارك، ومع القُرآن الكريم، وهذا اليوم هو يوم الثلاثاء الموافق للحادي والعشرين مِنْ شهر الله المحرم، مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف مِنْ الهجرة.

مجلسنا المبارك مع تفسير القُرآن العظيم، وتعلم القُرآن وتدبره، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خيركم**» وَفِي رواية: «**أفضلكم، مَنْ تعلمَ القُرآن وعلمه**».

فخيرُ النَّاس المُقبل على كتاب الله قراءةً وتدبراً، تفسيراً، تعلماً، وتعليماً.

نجلس هذا المجلس مع قِصار السور، وبين أيدينا سورة قصيرة مِنْ سور القُرآن الكريم، الكُل يحفظها، ولكن نحتاج إلى أن نجلس ونتدبر آياتِها، هذه السورة العجيب أنها افتتحت بلفظ مُشابه لسورة أُخرى.

وكلاهما يتعلقانِ بأمرينِ مهمين فِي حياة المسلم:

الأمر الأول: التحذير والتخويف مِنْ التعرض لأموال النَّاس، أكل أموال النَّاس بالباطل، أخذ أموال النَّاس بغيرِ حق، فيه وعيد شديد، والتعرض لأعراض النَّاس، الكلام فِي أعراض النَّاس، الحديث فِي أعراض النَّاس: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرامٌ عليكم**».

السورة التي تتحدث عن الأموال افتتحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقولهِ: ﴿وَيْلٌ﴾، ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾ [المطففين: ١، ٢].

والسورة الثانية: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، الحديث فِي أعراض النَّاس.

كلاهما مِنْ كبائر الذنوب، وكلاهما مِنْ الأمور المحرمة التي حرمها الله وجعلها مِنْ التعدي على حقوق المسلم.

هذه السورة التي بين أيدينا وهي الحديث عن أو التحذير مِنْ الدخول أو الكلام فِي أعراض النَّاس، تجد أن هذه السورة وأنتَ تقرأها، أن هذا الذي ينتهك أعراض النَّاس ويتكلم فِي، تجدهُ جمعَ بين هذا الخُلق السيء، وبين جمع المال بهذه الصورة السيئة، فجمعَ بين (ويل، -و- ويل) ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾، ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾.

والسورة جمعت بين هذا الذي انتهكَ أعراض النَّاس وتعرضَ لهم وحبهُ وحياتهُ كلها فِي جمع المال، وإساءة التصرف فِي هذا المال، لا يدري كيف يتصرف بهذا المال.

نأخذ السورة آيةً، وكلمةً كلمةً، وجُملةً جُملة حتى نقف ونتدبر هذه السورة العظيمة التي افتتحها الله بهذه الكلمة العظيمة وهي كلمة (ويل) التي تعني العذاب.

وأيضاً اختتمها بمصير هذا إلى هذا العذاب الشديد الذي يصفهُ الله بهذا الوصف الذي تقشعر منه الجلود، مع أن السورة قصيرة، آياتُها قليلة، ومع ذلك ركزت على سوء عاقبة مَنْ يفعل هذا الشيء، وكأن الأمر أمر عظيم شديد ليس بالسهل، لما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يعني يُهدد مَنْ يتخلق بهذا الخُلق، يُهددهُ فِي أول السورة، ويُهددهُ فِي آخر السورة بتهديد عظيم شديد، إذًا الأمر ليسَ بالهين، الأمر عظيم جداً، ولذلك افتتحها الله بقولهِ: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

كلمة (وَيْل) هذه قال بعض أهل التفسير أنها كلمة عذاب. وقال بعضهم: إنها وادي فِي نار جهنم لو أُلقيت فيه جبال الدنيا كلها لذابت مِنْ شدة حرارته. إذًا الأمر صعب جداً، الأمر خطير، يعني هذه ليست معصية فقط، هذه كبيرة مِنْ كبائر الذنوب، والعجيب، العجيب أنها تجدها مُنتشرة وشائعة فِي بيوت كثير مِنْ المسلمين، وَفِي مجالس كثير مِنْ المسلمين.

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ﴾ ولم يقل لفلان أو فلان، أدخلهم جميعاً.

﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾، كُل مَنْ كان موصوفاً بهذا الوصف؛ فإنه موعودٌ بهذا الوعيد الشديد.

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾، (هُمَزَة) هذا الوزن كَمَا قال أهل اللغة: على وزن (فُعلة) يدل على أن هذه الصفة صفة مُتمسك بها، صفة لازمة له، مُحباً لها.

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾. ما معنى الهُمزة؟ وما معنى اللُمزة؟

الهُمزة مِنْ الهمز، همز النَّاس.

واللُمزة مِنْ لمز النَّاس.

طيب، ما الفرق بينهما؟ هل هما بمعنى واحد؟

بعضهم ذهبَ إلى أن المعنى واحد، وبعضهم فَرق فقال: الهُمزة مِنْ الهَمز، وهو تعيير النَّاس والاستهزاء بهم، واحتقار النَّاس والتكبر عليهم بأي وجه مِنْ الوجوه، بجوارحه، إما بشفتيه، إما بعينيه، إما برأسهِ، إما بيديه، هذا كُل ما يتعلق بالجوارح يُسمى هذا الرجل هماز، فقال له: هماز يهمز النَّاس، مِنْ الهمز، الهمز باليد، الهمز بالرأس، الهمز بالشفتين، ونحو ذلك.

وهو يأتي على وجه الاحتقار، احتقار النَّاس والتكبر عليهم، الاستهزاء بهم، ذِكرهم بما لا يُريدونَ ذِكره، ولا يرضونَ به، هذا كله داخل فِي الهماز.

أما اللُمزة واللماز، فقال أكثرهم على أن اللمز يكونُ باللسان، قال تَعَالَى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨] يعني بلسانه، فيقول هذا فيه كذا، وهذا فيه كذا. فالذي يُعير النَّاس ويحتقرهم ويتطنز بالنَّاسِ ويتكبر عليهم، ويسخر منه بلسانه، نقول هذا لُمزة، وهذا لماز.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، لا تلمزوا أنفسكم، أي: لا يلمز بعضكم بعضاً، والله قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ما قال: لا يلمز بعضكم بعضا؛ لأن المؤمنين كالنفس الواحدة، كأن الذي يلمز أخاه المسلم كأنه لمزَ نفسه.

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾، ولاحظ أن اللهَ ما تركَ شيئاً مِنْ هذا الخُلق السيء بأي صورة كانت، هُمزة، ولُمزة. بلسانهِ وبجوارحهِ، كُلهُ، حتى لا يأتي شخص ويقول: أنا والله ما تكلمت فِي عرضه، أنا مجرد أشرت إشارة، أنا مجرد حركت رأسي، أنا مجرد فعلت كذا. نقول: كُلُّ هذا داخل فِي هذا اللفظ، كُل ما يدل على احتقار الآخرين، والسُخرية بهم، والاستهزاء بهم، كُلهُ داخل بهذا، حتى ذكرَ بعضُ أهل العلم أن الاستهزاء بالمؤمنين على وجه العموم داخل فِي هذا الوعيد، أو الاستهزاء بطوائف مِنْ المؤمنين، بمثلاً أحد البُلدان فيقول: فلان كذا، وفلان كذا، مِنْ هذه البلدة، وكذا. داخلٌ فِي هذا الوعيد الشديد.

فالاحتقار سواءً على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، بأن تقول: فلان فيهِ كذا وكذا.

والاحتقار أيضًا حتى نفهم الآية يعني على أوسع معانيها، الاحتقار سواءً كان الشخص موجوداً، أو كان غير موجود، فيحتقر أخاه المسلم أو أختهُ المُسلمة، سواءً كانت أمامهُ، أو كان أمامها، أو كان بعيداً أو كان غائباً، كُلُّ ذلك داخلٌ فِي هذا الوعيد، وَفِي هذا اللفظ، وَفِي هذا الوصف السيء.

هذا إذا كان بهذه الصفة، وبهذه الصفة السيئة والخُلق الرديء، بأن يستهزئ وحالهُ، وتلاحظ أن هذا الوزن: (هُمزة، لُمزة) أنها صفة لازمة له، وأن حالهُ دائماً هكذا، فتجدهُ همهُ الدنيا وحُب الدنيا، ولذلك شوف جمعَ الله بينها، قال: ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، مَنْ هو؟ قال: ﴿الَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ [الهمزة: ٢]، حُبهُ جمع المال، ليسَ همهُ إلا جمع حطام هذه الدنيا. ﴿الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: ٢]، ما معنى: جمعَ مالاً: أي يجمع المال، يجمع مِنْ أي وجه، سواءً مِنْ وجوه الحلال أو وجوه الحرام، همهُ أن ينظر إلى رصيده ويجمع هذا المال. جمعَ مالاً ولا يعرف حق الله فيه.

﴿الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ [الهمزة: ٢]، قِيلَ: عددهُ بمعنى يحسبهُ كُلَّ يوم، يُعدده، ينظر فِي حساباته. وقيلَ: عددهُ، أي: جعلهُ عُدةً له فِي حياته، يعني يجمع المال لمستقبلهِ.

﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ [الهمزة: ٢، ٣]، يظن هذا الظن هذا السيء، يظنُ هذا أن هذا المال إذا كثرَ عنده، واجتمعَ عِنده، ولم يعرف حق الله فيه مِنْ الصدقة وصلة الرحم، وحقوق النَّاس فيه، والنفقة الواجبة عَلَيْهِ، والزكاة الواجبة عَلَيْهِ، لم يعرف لذلكَ طريقاً.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ يظن أن المال هذا يمد له فِي عُمُره.

قال السِعدي رَحِمَهُ اللهُ فِي تفسيره: ولا يظن أن جمع المال وحُبه هو الذي يقسم العمر. هذا الذي يقسم العمر. الذي يمد فِي العمر هو أن يجعل هذا المال صِلة لأرحامه، وصدقة، صدقة للتواصل للقُربى وإعطاء القُربى حقهم مِنْ هذا المال؛ هو الذي يمد فِي العمر، هو الذي يُبارك فِي عمر هذا الإنسان، «**مَنْ أحبَ أن يُبسط له فِي رزقه، ويُنسأ له فِي أجله**» يعني يُمد له فِي أجله، «**فليصل رحمهُ**». وصلة الرحم مِنْ أوسع أبوابها، ومن أهمها صلة الرحم بالصدقة، وإعطاء هؤلاء المحتاجين مِنْ الأقارب، هم أولى، صدقة وصِلة.

﴿الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ۝٣﴾ [الهمزة: ٢، ٣] يظن أن هذا المال سيُخلدهُ فِي الدنيا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا﴾ [الهمزة: ٤]، ليس الأمرُ كَمَا يظن، وليس الأمرُ كَمَا يعتقد ويحسب، لا ليس كذلك، بل بالعكس، ﴿كَلَّا﴾.

ثم هددهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال: ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ [الهمزة: ٤]، والـ(ل) هذه مرت معنا كثيراً، وقلنا إن هنا قسم مِنْ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يُقسم قسماً يقول: واللهِ، واللهِ لَيُنبذنَ هذا الموصوف بهذه الأوصاف السيئة الهماز اللماز الذي همهُ الدنيا وجمع المال، واللهِ لَيُنبذنَ فِي الحُطمة.

وشوف كلمة (يُنبذنَّ)، ما قال: ليُلقى فِي جهنم، أو سيصير مصيرهُ إلى جهنم، قال: يُنبذ نبذاً. والنبذ فِي لُغة العرب هو الطرح مِنْ غيرِ مُبالاة، إذا نبذتَ الشيء تطرحهُ مِنْ غير أن تلتفت إليه، مِنْ غير مُبالاة.

فقولهُ: ﴿لَيُنْبَذَنَّ﴾ بنون مُشددة، ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٤]، الحُطمة ما هي؟ الحُطمة اسمٌ مِنْ أسماء النار، ذكرَ الله لها أسماء كثيرة فِي القُرآن، وهذا مِنْ أسمائها، سماها: الهاوية، وسماها بأسماء كثيرة، هذا مِنْ أسمائها.

لماذا سُميت بالحُطمة؟ لأنها يحطم بعضها بعضاً، ولأنها تحطم مَنْ يُلقى فيها، نسألُ الله العافية، فهي حُطمة.

قال: ﴿لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ [الهمزة: ٤، ٥]، هل تعلم ما هي الحُطمة؟ هل تعرف ما هي؟ (ما أدراك) نعرف أن الجواب موجود، إذا جاءت كلمة (ما أدراك) الجواب موجود. إذا جاءت (وما يُدريك) الجواب غير موجود.

فهنا لما قال: وما أدراك، عرفنا أن الجواب موجود.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ أي ما أعلمُك، وما أخبرُك، وهل تعلم، وهل تدري ما الحُطمة؟

ثم أخبرَ سبحانه، قال: الجواب: هي ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٦]، أضافَ الله هذه النار إليه، قال: ﴿نَارُ اللَّهِ﴾ وإذا أضافها دلَ على عظمِها وشدتها، ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ووصفها بأنها تتوقد، تتسعر بأهلها، ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾.

ثم بَيَّنَ سُبحانه وتعالى عقوبة هؤلاء، وغيرهم مِنْ أهل النار: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: ٧].

الاطلاع هو الوصول إلى الشيء، الاطلاع أن تطلع على كذا، أن تصل إليه بأي شيء.

قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾، يعني تصل هذه النار إلى القلوب، وإذا وصلت إلى القلوب لا تصلها إلا بعد إحراق اللحم والعظم، -نسأل الله العافية-، فتصل إلى هذا الأمر بعدما تُحرق هذا الشيء، والله لما قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾، دلَ على أنها قد أحرقت سائر الجسد بما فيهِ مِنْ اللحوم والعظام حتى وصلت إلى هذا المكان الذي قد اختفى داخلَ هذا الصدر.

قال: ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾، قال الله عَزَّ وَجَلَّ فِي وصفها، وشوف وصفت بعدة أوصاف: ﴿الْحُطَمَةِ﴾، ثم قال: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ۝٧﴾، ثم وصفها قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨]، أي مُغلقة، أوصدَ الباب يعني أغلقه. مؤصدة يعني أبوابها قد أُغلقت على أهلِها.

قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ [الهمزة: ٨، ٩] يعني هذه العَمد قد وضعت على الأبواب وشُدت مثل الأوتاد بحيث أَنَّه لا يتمكنونَ مِنْ الخروج، قد أُغلقت عليهم النار وشُدت على هذه الأبواب، هذه العمد بحيث أنهم لا يستطيعون.

شوف كيف وصفَ الله هذه النار بهذه الأوصاف، وهددَ أهلها، وربطها بهذه بِمَنْ اتصفَ بهاتين الصفتين، مَنْ اتصفَ بتعرضه لأعراض النَّاس، والكلام فِي أعراض النَّاس، والحديث فِي أعراض النَّاس، ويدخل فِي أعراض النَّاس السُخرية، والهمز، واللمز، والاستهزاء، والغيبة، الغيبة ذِكرك أخاك بما يكره، وغيرُها، والنميمة: نقل الكلام على وجه الإفساد بين النَّاس، كُلُّ هذا داخل فِي هذا الوعيد الشديد، داخلٌ فِي الهمزةِ اللمزة، وانظر كيفَ يكون همهُ الدنيا، وهمه المال، ولا يعرف حق الله فيه، كيفَ توعدهُ الله بهذا الوعيد الشديد الذي تهتز له القلوب.

ولذلك هذه السورة هي مِنْ أوائل ما نزل، مِنْ أوائل ما نزلَ مِنْ القُرآن فِي تهديد مُشركي مكة، وَفِي تهديد كُل مَنْ اتصفَ بهذه الصفة؛ لأنهم كانوا يستهزئون ويسخرونَ مِنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسخرونَ مِنْ أصحابه.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحمينا وإياكم مِنْ هذا الخُلق السيء، وأن يُجنبنا هذا الخُلق، وأن يحفظنا وذُرياتِنا وأزواجِنا، وأن يُجنبنا طُرق الشر، واللهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آلِهِ وصحبه أجمعين..

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الفِيل)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة الفيل)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه إلى يومِ الدين، اللَّهمَ علمنا ما ينفعُنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هَذَا اللقاء المبارك، فِي هَذَا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للثامن والعشرين مِنْ شهر الله المحرم، مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف مِنْ الهجرة.

أيها الإخوة الكِرام، فِي هذا المجلس المُبارك، مع القُرآن الكريم، وتدبر آياته، المتأمل فِي كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يجد أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أودعَ فيهِ كُل ما يحتاج إليه الإنسان، وجعلهُ كَمَا ذكرَ أهل العلم على ثلاثة أقسام رئيسة:

- القسم الأول: ما يتعلق بتوحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وإفرادهُ بالطاعة والعبادة، والتوجه إليه بكل ما فرضَ الله على الإنسان.

-القسمُ الثاني: يتعلق بآيات الأحكام التي فرضها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، مِنْ آيات الأحكام والأمور التي يتعبد الإنسان بها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كالصلاةِ والزكاةِ والصيام، ونحو ذلك.

-والقسمُ الثالث: يتعلق بقصص القُرآن الكريم.

والقصة القُرآنية تختلف عن أي قصة ترد على لسان البشر، فقصص القُرآن الكريم لها مزايا، ولها خصائص.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الحِكمة مِنْ إيراد القصة القُرآنية، يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، ويقول: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، ويقول الله أيضا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أيضًا: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

فالقصص، القصة القُرآنية تتميز بمزايا، تختص بخصائص لا توجد فِي غير القُرآن مِنْ قصص البشر.

درسنا فِي قصة أوردها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهي مِنْ القَصص الواقعية، الحق، والعرب كلهم يعرفونها، لا يخفى على أحد منهم لأنها قريبة مِنْ عهد القُرآن وعهد النزول وعهد الرسالة وعهد البعثة، هذه القِصة أوردها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي سورة كاملة، ولكن أوردها بإيجاز واختصار، مع أن تجد أحياناً فِي مواضع قَصص أُخرى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يتوسع فِي ذِكرها، ويذكرها بتفاصيل، أما هذه فجاءت فِي آيات عديدة جداً ومختصرة جداً وإشارات فقط ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وهذه القِصة هي مِنْ قِصار السور، وهي قصة أصحاب الفيل.

قصةُ أصحاب الفِيل الكُل فِي زمن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرفها، والعرب كلهم يعرفونها، ولكن الله أوردها فِي سياق التذكير، تذكير أهل مكة بنعمة الله عليهم، بأن صرفَ عنهم هذا الأمر العظيم، وتذكير وإرهاص أيضًا ببعثة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُذكرهم بأن الذي حماهم وحمى بيتهُ وصرفَ عنهم هذا الشَر هو الذي بعثَ فيهم خيرَ البشر، فليتذكروا نعمة الله عليهم، وليتذكروا رسالة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهناكَ رابط وثيق بين رسالة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبين هذه القصة، فهذه القصة التي وقعت، وهذا الأمر العظيم الذي وقع، كأنه يعني إرهاص ومقدمة وتمهيد لبعثة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

خُلاصة القول فيها، ولا نُريد الدخول فِي تفاصيلها، أن هذا البيت بيتُ الله كان النَّاس يتوجهون إليه، ولا يزال يتوجهون إلى قيام الساعة، ويقدمونَ مِنْ يعني، مِنْ جميع جهات الأرض إلى هذا المكان، فغاظَ أحد ملوك اليمن هذا الأمر، فأرادَ أن يبنيَ بيتاً ليصرفَ النَّاس إليه، ويتركوا بيتَ الله فِي مكة، ففعلَ هذا الفِعل، هذا الأمر، وبنى مبنىً عظيماً شاهقاً، وأمرَ النَّاس أن يتوجهوا إليه، فحصل ما حصل، أن وقعَ فيهِ أمرٌ مِنْ أحد العرب، أمرٌ مشين فِي هذا البيت، ولما سمعَ به ابرهة ملك الحبشة، سمعَ بهذا الأمر، غاظهُ أشدَ الغيظ، وجهزَ جيشاً عظيماً لهدم بيت الله.

ومن الحكمة العظيمة أن الله قادر على أن يُهلكهُ فِي داره، وألا يُسير هذه المسيرات العظيمة، ويُهلكهُ فِي داره، ولكن اللهَ أرادَ هذا الأمر ليتحقق لحكمة عظيمة، حتى يعرف العرب جميعاً أن للبيتِ رباً يحميه.

ولذلك جاءَ هو وجيشهِ العرمرم العظيم، ومعهُ الفِيلة العظيمة، وهابَ النَّاس هيبةً عظيمة، وكُل مَنْ واجههُ قضى عَلَيْهِ، حتى وصلَ إلى هذا الأمر، فلما نزلَ قريباً مِنْ البيت الحرام، قِيلَ أَنَّه نزلَ فِي وادي مُحسر،

وهذا الوادي بينَ مُزدلفة ومِنى، وقيلَ: فِي المُغمس. الله أعلم. فلما استقرَ فِي هذا المكان ليُجهزَ جيشهُ العظيم لهدم الكعبة، فعلمت قُريش بذلك فخافت وأرعبها هذا الأمر، فخرجوا مِنْ بيوتهم، وتركوا ديارهم؛ لأن بيعرفون سيؤذيهم، لن يصلَ إلى البيت إلا بعدما يُهدم ويقضي على أشياء كثيرة.

فلما وصلَ هذا المكان، وخافهُ أهلُ مكة، والقصة معروفة، وأن كان الوالي على أهل مكة هو جدُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد المطلب، فلما راح ذهبَ يُقابله، ظنهَ أنهُ جاء ليتفاهم معه، ويتصالح معه على هذا الموضوع، وإذا هو يسألهُ عن إبل، قال: إن لي مائتين مِنْ الإبل قد أخذها أصاحبك.

فقال: أنا لما رأيتك هبتُكَ وظننتُ أنكَ جئتَ لهذا الأمر العظيم، وإذا أنتَ تسأل عن الإبل، أعطوه الإبل.

والبيت؟

قال: البيت له ربٌ يحميه، وأنا ربُ إبل.

فلما جهزَ جيشهُ وكان معهُ فِيلٌ عظيم يُسمى بـ (محمود) أعظم الفِيلة، ووجههُ إلى مكة ليتوجهَ إلى هدم البيت، لم يتوجه، وربضَ فِي مكانهِ، وحرن ولم يتحرك، وهذه آية مِنْ آيات الله، فإذا ضربوه، ضربوه بالسهام وضربوه لم يتحرك، فإذا وجهوه إلى أي جهة أُخرى قام يُهرول، وإذا وجه إلى الكعبة امتنع.

وهم فِي هذه الحال إذ أرسلَ الله عليهم طيراً أبابيل، هذه الطيور لم يرى العرب مثلها أبداً، جاءت مِنْ جهة البحر طيورٌ عظيمة، وأفواجاً عظيمة، ﴿أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣] يعني جماعات مُتفرقة، كُلُّ طيرٍ يحملُ فِي مِنقارهِ قطعة مِنْ الطين المطبوخ (السجيل)، وَفِي رجليهِ على كُل رجل قطعة، ثلاث قِطع، ويرمي بها كل واحدٍ منهم.

فإذا، كَمَا ذكرَ قتادة رَحِمَهُ اللهُ قال: يرمي الطير هذا الشخص على رأسهِ بهذا الحجر، فيخرج مِنْ دُبره، ويتقطع فِي الأرض، فماتوا عن آخرهم، وأهلُ مكة ينظرونَ إليهم على الجبال.

فلما علموا أن اللهَ أهلكهم جميعاً، عادوا إلى بيوتهم، وبدأت العرب تُعظم أهلَ مكة؛ لأنها عرفت أنهم أهلُ الحرم، وأنَ هذا البيت بيتُ الله، وأن الله قد حماه.

هذه القِصة بإيجاز، وأما السورة، فنقف معها وقفات سريعة، ونتأمل ما فيها مِنْ هذه التأملات التي نسأل الله أن يُعيننا عَلَيْهَا.

يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، شوف كيف الدخول على القِصة مُباشرة؟! لأنها معروفة عندهم، ولكن نأخذ الدروس والعِبر منها، وجاءت بأسلوب الاستفهام، ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؟ وهذا الاستفهام يُسميهِ أهل العلم استفهام تقريري، يعني تقررَ عندك يا محمد، وتقررَ عند قومك، وتقررَ أيضًا عند كُل مَنْ يعرف هذه القِصة أن الله هو الذي فعلَ هذا الأمر، ولم يفعلهُ أحد، وإنما بُقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾، وشوف يأتيك الاستفهام: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾؟ ثم يأتي استفهام آخر يقول: ﴿فَعَلَ﴾ استفهام أول، واستفهام ثاني.

الاستفهام الأول: استفهام للمخاطب، أغابَ عنك ولم ترى، وجهلتَ هذا الأمر ولم ترى، أو أنكَ تعرف؟

لا، الكُل يعرف.

والاستفهام الثاني: فِي طريقة إهلاك هؤلاء، كيفَ أهلكهم الله؟

قال: كيفَ فعل؟

ولاحظ أن كلمة فعل تدل على مزاولة شيء وفعله. ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، ولم يقل: كيفَ فعلَ الله، وإنما قال: (رَبُّكَ)، يعني ربك الذي بعثك يا محمد لأهل مكة، وربُكَ الذي أرسلك، وهو الذي خلقكَ وأوجدكَ ورزقك، وخلقَ الخلقَ كُلهُ ورزقه، وهو الذي فعلَ هذا الأمر.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾؟

ثم قال: ﴿أَلَمْ﴾ [الفيل: ٢] استفهام ثالث. ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢]؟ ما جعلَ كيدهم، وهذا أيضًا استفهام، استفهام تقريري؛ لأن الجميع رأوا أن كيدَ هؤلاءِ وبطشهم ذهبَ لم يكن له أي دور وانتهى وزال.

ألم يجعل كيدهم وتخطيطهم وتدبيرهم فِي تدمير هذا البيت، جعلهُ ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾، فِي ضلال وَفِي هلاك، ولم يبقى له أثر.

ثم قال: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفيل: ٣]، شرح لك أو بين لك سبب إهلاكهم، كيفَ جعلهم فِي تضليل؟

لو سألك سائل قال: علمنا أن الله جعلَ كيدهم فِي تضليل، كيفَ كان ذلك؟

قال: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣]، وهذه الطير كَمَا ذكرنا لم يرى العرب مثلها. (أبابيل) يعني جماعات مُتفرقة كثيرة، ملأت السماء فوقهم.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الفيل: ٤]، السجيل هو الطِين المطبوخ الذي يُحرق إذا وقعَ على الإنسان، كَمَا أهلكَ اللهُ قومَ لوط بحجارةٍ مِنْ سجيل.

قال: (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ) أي جعلَ تدبيرهم وتخطيطهم وكيدهم ومكرهم، ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: ٢].

قال: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: ٣ - ٥]. أي جعلَ هؤلاءِ كالعصف المأكول.

العصف المأكول، قِيلَ: طعامُ البهيمة إذا أكلتهُ ولاكتهُ وألقتهُ على الأرض، وداستهُ بقدميها، قال: هذا أصبحوا كطعام البهائم الذي قد داستهُ بقدميها حتى تمزق فِي الأرض ولم يكن له بقايا.

قال: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥].

السورة قصيرة، دلالاتُها عظيمة، فيها عِبرة، فيها دروس، جاءت لتذكير أهل مكة بأن الذي نجاهم، وبأن الذي حماهم وحمى بيتهُ وصرفَ عنهم هذا الشر العظيم الذي لم يستطع أحد مِنْ العرب أن يقف فِي وجههُ، صرفهم الله عنهم وأهلكهم أمامهم وهم ينظرون، هو الذي بعثَ فيهم رسولاً رحمةً لهم، ولكنه لا يتدبرون، ولا يفقهون، ولا يعقلونَ هذا الأمر العظيم.

ولذلك مرت عليهم هذه القصة، ومرَ عليهم النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يستفيدوا مِنْ هذا الأمر.

نسأل الله أن ينفعنا، وأن يجعلنا مِنْ أهل القُرآن الذين هم أهلُ اللهِ وخاصته، وأن يُبارك لنا فِي أوقاتنا وَفِي أعمارِنا، ويوفقنا لطاعته، واللهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ قُرَيش)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة قريش)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه، وأتبعَ سُنتهُ إلى يومِ الدين، اللّٰهمَ علمنا ما ينفعُنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هَذَا اللقاء المبارك، وفِي هَذَا اليوم يوم الثلاثاء الموافق للسادس مِنْ شهر صفر مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف مِنْ الهجرة.

مجلسنا المبارك مع تفسير القُرآن العظيم، ومع قصار السور، قراءةً وتفسيراً وتدبراً واستنباطاً لما تدل عَلَيْهِ هذه الآيات الكريمات، كلامُ الله هو خيرُ الكلام، وأفضلُ الكلام، وأفضل ما يعيش الإنسان وقتهُ مع القُرآن الكريم، يقرأ هذه الآيات الكريمة، ويتدبر معانيها، والغرض: كَمَا ذكرنا فِي عِدة لقاءات، الغرض مِنْ القُرآن كُلهِ ومن نذورهِ، هو التدبر والعمل، تتدبر القُرآن وتعمل به، أما القراءة دونَ التدبر ففيها خير عظيم، وفيها أجر، ولكن إذا اجتمعت القراءة مع التدبر كان ذلكَ خيراً عظيماً.

السورة التي معنا بعدما ذكرنا فِي لقاءنا الماضي سورة الفيل، قرأناها وتدبرنا معانيها، تأتي سورة بعدها هي لها علاقة وثيقة جداً مُتصلة اتصال قوي بهذه السورة، حتى ذُكرَ أن مُصحف أُبي بن كعب رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، أَنَّه جعلها سورة واحدة، سورة الفيل وسورة قُريش، جعلها سورة واحدة، يعني لتلاحم السورتين بعضهما ببعض، كأنها سورة واحدة، حتى إن عُمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه رويَ عنه أَنَّه صلى بالنَّاسِ المغرب، فقرأ فِي الركعةِ الأولى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾، ثم قرأَ فِي الركعة الثانية سورة الفيل مع سورة قريش فِي وقتٍ واحد، فِي ركعة.

فالتصاقُها وتواصلها قوي جداً.

ولذلك أنتَ لما تقرأ هذه السورة تجدها مُفتتحة بأي شيء؟

مفتتحة بحرف التعليل، حرف التعليل الذي هو: ما السبب؟ يعني ما العِلة، ما السبب فِي هذا الشيء؟ لما يُقال لك مثلًا: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، وهذه تُقرأ بالياء، تجد بعض النَّاس، تسمع أحياناً

يقول لك، حتى أئمة سمعنا، أئمة مساجد يقول: للإلاف قُريش. لَا بُدَّ أن تُعطي حرف الياء حقه ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ﴾ [قريش: ١، ٢]، ولا تقول: إلافهم. إذا قلت: (إلافهم) أسقطت حرف (الياء)، وإسقاط حرف الـ(ي) يُخل بالقراءة، لابدَ أن تأتي بحروف وكلمات الآيات.

وجه الصلة بين السورتين، وجه العلاقة بين السورتين هو كأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: صرفنا عنكم يعني شرَ أصحاب الفيل، ومنعناهم أن يؤذوكم، وأن يهدموا ما أرادوا أن يهدموه، وأن يُخربوا، وكيدهم الذي أرادوا أن يكيدوا، منعه الله وأهلكهم بأي شيء؟

قال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾. ما معنى الإيلاف؟ قال: الاجتماع والإلفة والمحبة والمودة، المودة بينهم. تفرقوا هم، لما رأوا أصحاب الفيل قد أقدموا، تفرقوا، وخرجوا مِنْ مكة وتركوا بيوتهم، وسكنوا أعالي الجبال وبطون الأودية.

فلما أهلكَ اللهُ أصحاب الفيل جمعهم وألفَ بين قلوبهم، فأصبحت قلوبهم مؤتلفة ومجتمعة، بل إن النَّاسَ، النَّاس مِنْ غير أهل مكة بدأوا يهابونَ أهل مكة، ويحترمونهم، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أخبرَ عن ذلك فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، جعلها حراماً آمناً، حتى إن قوافل قُريش إذا خرجت مِنْ مكة متجهةً إلى الشام، أو إلى اليمن يحترمها النَّاس، يحترمها العرب لا يتعرضونَ لها، مع أنهم يتعرضون لغيرها مِنْ القوافل، لكن إذا عرفوا أن هؤلاءِ هم أهلُ البيت، وهم سندة البيت وأهلُ مكة، لا يتعرضوا لهم بسوء.

ولذلك الله حتى أخبر أيضًا عنهم قال: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]، يقولون: لو اتبعناك يا محمد، نتبع الهدى معك؛ نتخطف، النَّاس يعتدونَ علينا، نتخطف.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧]، ذكرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باجتماع وإتلاف واحترام النَّاس وتقدير النَّاس لهم: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١] أهلكنا أصحاب الفيل لتذكروا نعمة اللهِ عليكم، أن اللهَ ألفكم وجعلكم تجتمعون، ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، قال بعدها: ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ [قريش: ٢]، ما معنى كلمة (إيلافِهم)؟ نقول: هي نفسها، هي نفسها مُكررة، مثل ما تقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ

الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، مثل ما قال فرعون: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ۝٣٦ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ﴾ [قريش: ١، ٢]، يعني يقول: أهلكنا ودمرنا أصحاب الفيل لتأليف قلوب النَّاس لكم، ولتأتلف قلوبكم، وقد ائتلفت، وقد تحققَ هذا الأمر، (إيلافِهم)، لأجل الاجتماع، وقد تحققَ هذا الاجتماع.

ثم ذكرهم أن مِنْ ائتلاف هذا الشيء واجتماعهم هذه الرحلة، الرحلة التي يقطعونَ فيها المسافات، ويقطعونَ فيها الأوقات الطويلة، تمضي أشهر وهم يتنقلونَ بين هذا وهذا، وكُلٌّ يحترم أهل مكة إذا رأوا أن هذه القافلة تبع أهل مكة.

قال: ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ﴾ [قريش: ٢] أي تذكروا هذه الرحلة، هذه مِنْ الاجتماع ومن تعظيمكم، ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: ٢] رحلة الشتاء إلى جهة اليمن، ورحلة الصيف إلى جهة الشام.

لماذا يرحلون؟ لماذا يرحلونَ إلى الشام؟ ولماذا يرحلونَ إلى اليمن؟

لأن مكة شرفها الله ليسَ فيها لا زراعة وليس فيها عين لا زرع ولا حرث، لا حرث ولا زرع ولا رعي، حتى الرعي ما فيها، لا فيها، يعني أرض قاحلة، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكرَ ووصفَ قال: ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ما فيها إلا هذا الماء، ماء زمزم، وغيرهُ ما فيها، والله جعلها لهذا الأمر، حتى تعظيماً لهذا البيت، وبياناً لِمَنْ عنده إيمان حقيقي أن يأتي لهذا المكان ليقطع هذه المسافات لأجل عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لا لأجل أمور الدنيا، لا تجارات ولا غيرها.

ولذلك يا أهل مكة ما عندهم إلا هذه التجارة، أن يأتوا بالأرزاق مِنْ الشام أو مِنْ اليمن، ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: ٢]، ورحلاتهم مُستمرة لا يتعرض لهم أحد بسوء، هذا معنى: ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾.

لما ذكرهم بهذه النعمة، ذكرهم أن اللهَ صرفَ كيدَ أهل أصحاب الفِيل عنهم، وجعلهم مُطمئنين ومجتمعين، والأرزاق تأتيهم مِنْ كُلِّ مكان، ولا أحد يتعرض لهم بسوء، مع أنهم أساءوا هذه النعمة، أساءوا نعمة الأمن، ونعمة رغد العيش، كيف أساءوا؟

أصبحت مكة فِي وقت قريش وفي أول الدعوة مسرحاً للإيذاء والقتل لأصحاب مُحَمَّد، فكانوا يؤذون ويُقتلون، فِي البلد الآمن تُقتلون! كان الرجلُ يلقى قاتل أبيه فِي الحرم فلا يتعرضُ لَهُ بسوء، وهم يعني يقتلونَ بأصحاب مُحَمَّد ويؤذونهم بالحديد والنار، فأصبحت مسرحاً للإيذاء والتضييق على محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أصحابه، فبدلوا نعمة اللهِ وهي نعمة الأمن إلى خوف وروع بأصحاب مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك أصبحوا ليس لهم مقام فِي مكة.

قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لما ذكرهم بهذه النِعم، نعمة الأمن بأن صرفَ عنهم كيدَ أصحاب الفيل وجعلهم آمنينَ مطمئنينَ فِي ديارِهم، ذكرهم، قَالَ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: ٣] هَذَا البيت، ورب هَذَا البيت الَّذِي حماه الله، منعَ أن يعتديَ أحد عَلَيْهِ، فليتذكروا هذه النعمة، ولا يجعلوهُ مسرحاً للقتل والسلب والنهب، ولا يجعلوه أيضًا مسرحاً لعبادة الأصنام التي بثوها فِي الحرم وفي الكعبة، لا يجعلوا هَذَا.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ذكرهم بهذه النعمة.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ﴾ [قريش: ٤]، أيضًا مِنْ أسباب عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن اللهَ رزقهم مِنْ الطيبات.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]، فأنتم فِي رغدٍ مِنْ العيش، وفي أمنٍ وأمان، فاعبدوا ربكم.

وهذه وإن كانَ حتى نفهم ونتدبر القُرآن ونعرف يعني توجيهات القُرآن الربانية، وأن القُرآن ليس موجهاً لطائفة معينة، وليس موجهاً لشخص معين، مع أن الخطاب لأهل مكة والله يُخاطبهم ويُذكرهم بأصلهم لما قَالَ: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، وقُريش هُوَ جدهم، وَهُوَ جدُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الثالث عشر، هَذَا قُريش، لما ذكرهم بنسبهم، وذكرهم بهذه النعمة.

نحنُ نعرف أن الآيات تُخاطبهم مُباشرة، وتُخاطب غيرهم، تخاطبنا نحنُ، حتى أي إنسان يعيش فِي رغد مِنْ العيش، وفي أمن وأمان، أن يحفظ هذه النعمة، يحفظها بأي شيء؟

يحفظها بطاعة الله، ويحفظها بعبادة الله، ويحفظها بشكر الله، ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، فالإنسان يتذكر نعمة الصحة والعافية ورغد العيش والأمن والإسلام، هذه كلها نعم تحتاج مِنْ كُلِّ إنسان أن يشكر الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا، يشكر الله، **وشُكر الله كما هُوَ مُتقرر:**

- شُكر الله باللسان.

- شُكر الله بالقلب والاعتراف بهذه النعم.

- شُكر الله بالأعمال الصالحة.

ليس مِنْ شُكر الله أن تعصيَ الله وأنتَ ترى نعمهُ عليك.

أسأل الله أن يُباركَ لنا، وأن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وَسَلَّمَ عَلَى نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الماعُون)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة الماعون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وصحبهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه إلى يومِ الدين، اللَّهمَ علمنا ما ينفعُنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هَذَا اللقاء المبارك، فِي هَذَا المجلس، مجلس القُرآن الكريم، ومع قصار السور التي تناولناها ولا زلنا فِي عرض هذه السور القصيرة.

والسورة التي بين أيدينا فِي الحقيقة تحتاج مِنا إلى تأمل وتفكر، وهذه السورة ذكرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مع قصرها وقصر آياتها، ذكرَ الله فيها سِت صفات ينبغي للمسلم الحذر منها أشد الحذر، وَمَنْ عفاهُ الله منها؛ فليحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليزدد شُكراً وحمداً لله، وَمَنْ وقعَ فيها؛ فهذه نذارة لَهُ، وتحذير لَهُ، فهي رسالة نذارة لمن قد يقع فِي مثل هَذَا الأمر.

هذه السورة التي بين أيدينا اختلفَ العلماء فِي اسمها، واختلفوا أيضًا فِي نزولها، فِي مكان نزولها.

أما اسمها: فالمشهور عِنْدَ المفسرين وفي المصاحف أنها سورة (الماعون). وتُسمى فِي بعض المصاحف: (سورة ﴿أَرَأَيْتَ﴾)، وتُسمى أيضًا بسورة (الدين) لقولهِ تَعَالَىَ: ﴿يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾.

والأسماء أمرها يسير، يعني سُميت بهذا أو بهذا، المشهور أنها سورة الماعون، والتسمية، تسمية السور هَذَا توقيفي بأمرٍ مِنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبوحيٍ مِنْ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن السور توقيفية. قد يكون للسورة الواحدة أكثر مِنْ اسم، وهذه قد تكون مثلاً: صفات لها، أو اجتهادات مِنْ الصَّحَابَة، لكنَ مَا مِنْ سورة إلا ولها اسم، وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمى السور، سمى جميع السور، ورتبَ المصحف، ورتبَ القُرآن كاملاً، ورتبَ آياتهِ وسوره كاملاً.

هذه السورة افتتحت بالاستفهام، وأسلوب الاستفهام أسلوب عربي يوقظ الإنسان ويُحرك الذهن فيه، لما أقول، أطرح عليك سؤال استفهامي، غير لما أُخبرك بخبر، فالاستفهام يُحرك الذهن ويوقظ السامع.

ولذلك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى افتتحها بأسلوب الاستفهام، قَالَ: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى﴾ [الماعون: ١] أرأيتهُ! هل رأيته! مَا رأيته! وَهَذَا الاستفهام يُفيد التعجب، يعني تتعجب مِنْ حال هَذَا، هَذَا الرجل تتعجب مِنْ حاله، وهذه الصفة تتعجب ممن يتصف بها.

﴿أَرَأَيْتَ﴾ وأصل الكلمة (رأيتَ) أصلها رأيتَ، دخلت عَلَيْهَا الاستفهام. و(رأيتَ) تأتي بمعنى أبصرت، تقول: رأيت فلان. يعني أبصرتهُ. وتأتي بمعنى: علمت، العلم. يعني تأتي (رأيت) بصرية وعلمية، فتقول: (رأيتُ الشمس) أي أبصرتُها. و(رأيتُ كذا) أي علمته. فهذا معنى (رأيت).

إذا دخلت عَلَيْهَا الهمزة (أ) غيرت معناها إلى الاستفهام، ويكون المعنى: أخبرني.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ [الماعون: ١]، أي: أخبرني عَنْ حال هَذَا؟! أخبرني عنه، لماذا يُكذب بالدين؟

مَا المراد بالدين؟

أكثر المفسرين على أن الدين فِي الآية: هُوَ يوم الجزاء والحساب. ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وفي قولهِ تَعَالَىَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩]، فالدين المراد به يوم القيامة.

لماذا سُميَ بذلك؟

لأن الإنسان يُدان، يعني يُجازى. ﴿أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصافات: ٥٣]، أي مُجازون. فيوم الدين سُمي بذلك؛ لأن النَّاس يُدانونَ فيه، يُجازونَ فيه.

هَذَا رأي كثير مِنْ المفسرين.

ومنهم مَنْ يرى أن الدين هنا: الدين الَّذِي هُوَ الشَّرْع. ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، الشَّرْع.

والآية تحتمل الأمرين، ولكن الأكثر على أن المراد به هنا: يوم القيامة، وَهُوَ الأرجح، لماذا؟ لأن الَّذِي يُكذب بيوم القيامة، ولا يعترف بيوم القيامة، ولا يُلقي أي حساب ليوم القيامة، تجد حياته منفلتة وضائع، ولا يُبالي بحقوق الآخرين، ولا يهتم، ولا يُبالي بحق الله، ولا حق الآخرين.

ولذلك شوف الآية: لما قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ فيها: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ [الماعون: ١]؟! أخبرني عَنْ هَذَا الَّذِي يجحد يوم الجزاء والحساب والجنة والنار؟!

مَا حاله؟

قَالَ: ﴿فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢] أي هَذَا الَّذِي يُنكر يوم القيامة، ولا يحسب ليوم القيامة أي حساب هُوَ الَّذِي يتصرف بهذه التصرفات السيئة، مَا هي؟ قَالَ: ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي ينهرهُ ويزجرهُ بقوة، يزجرهُ عَنْ أي شيء؟ يزجرهُ أحياناً عَنْ ماله، لا يُعطيه ماله، يأخذ ماله ولا يُعطيه إياه، ومع الأسف تجد هَذَا مِنْ أقاربه، تجد أنه عَمٌّ لَهُ أو خالٌ لَهُ، أو ابن عم أو نحو ذَلِكَ، ويأخذ مال اليتيم ويزجره، يعني يأخذ مالهُ ويأكلهُ ويزجره.

أو يُحتمل أنه لا يعطف على المسكين، ولا يعطف على اليتيم، ولا يتعاطف معه، ولا يُساعده، ولا يقف معه، مع أنه بحاجة، والله عَزَّ وَجَلَّ حث، حثَ على مُراعاة اليتامى واعطائهم حقوقهم، وجاءت السُّنّة بالحث على كفالة اليتامى والوقوف معهم.

فلذلك هَذَا مِنْ صفاتهِ أنه ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي يزجرهُ وينهرهُ بقوة.

هي ست صفات:

- **الصفة الأولى:** التكذيب بيوم القيامة، وهي أعظمُها، وعدم الإيمان بيوم القيامة ولا جزاء ولا حساب، ولذلك هذه حالة.

- **الصفة الثانية:** أنه ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾، أنه ينهر اليتيم ويزجرهُ ولا يعطف عَلَيْهِ، ولا يتعاطف معه. قَالَ: ﴿فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢].

- **الصفة الثالثة:** ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣]، لا يحث النَّاس على الصدقات، ولا على الإطعام، إطعام الطعام، ولا الصدقات ولا غير ذَلِكَ.

طيب، هنا سؤال أيها الإخوة: إذا كان هَذَا لا يحض النَّاس على إطعام الطعام، هل هُوَ يُطعم؟ هل هُوَ يتصدق؟ مِنْ باب أولى أنه لا يتصدق هُوَ، ولا يفتح المجال لغيره. لا هُوَ يتصدق، ولا هُوَ يفعل الخير ويقف مع الفقراء والمساكين، ويمنع النَّاس عَنْ أن يقفوا مع الفقراء والمساكين. شوف كيف الخُلق السيء وصل به إلى هَذَا الحَد. هذه الصفة الثالثة.

ولذلك تُلاحظ الصفات الثلاث هذه مُتلازمة، ولذلك بعض المُفسرين يقول: هذه فِي الكُفار، هذه فِي الجاحدين الذين يجحدون اليوم الآخر، فإذا جحدَ اليوم الآخر؛ لا يُبالي بحقوق النَّاس، لا يتامى ولا مساكين.

القسم الثاني الَّذِي فرعَ الله عَلَيْهِ، فَقَالَ بالفاء.

﴿فَوَيْلٌ﴾ [الماعون: ٤]، وجاء بكلمة (وَيْل)، وَهَذَا وعيد شديد غير الأول، هَذَا وعيد شديد، ومعنى (وَيْل) كما قَالَ بعض أهل العلم: وادٍ فِي جهنم لو أُلقيت فيه جبال الدُّنْيَا كلها لذابت مِنْ شدة حرارتهِ. وقيلَ: هي كلمة عذاب وتخويف وتهديد، لما يُقال: ويلٌ لك.

قَالَ الله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]. **الآن اختلفَ الكلام:**

- الأول جاحد اليوم الآخر، مَا يؤمن باليوم الآخر، ولا يعطف على المساكين ولا اليتامى.

- وهنا جاء بشخص يُصلي.

إذاً اختلفت، كأن السورة الآن انقسمت قسمين:

قسمٌ يتحدث عَنْ الجاحد لليوم الآخر، الكافر باليوم الآخر.

وقسمٌ هُوَ مِنْ جُملة المسلمين، ولكنه ليس فِي الحقيقة مِنْ المسلمين. إذاً مَنْ هُوَ؟ هُوَ المنافق.

وتلاحظ أن آخر السورة، الثلاث آيات الأخيرة هذه تنطبق على المنافق، المنافق الَّذِي يدعي الإيمان، ويتلفظ بالإيمان، وقلبهُ على عكس ذَلِكَ، قلبهُ امتلأ حقداً على المسلمين، وبُغضاً للإسلام وَالْمُسْلِمِينَ.

ولذلك ذكرَ الله مِنْ صفات هَذَا المنافق:

- أولاً: أنه يُصلي مع المسلمين، لكنه لا يُصلي فِي وقتها، وإنما يُصليها إذا خرجَ وقتها، ولذلك توعدهُ الله بهذا الوعيد الشديد. فَقَالَ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٤، ٥] شوف حرف (عَنْ) غيرَ المعنى. لو قَالَ: الذين هم فِي صلاتهم؛ لما سلمَ أحد. النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سهى فِي صلاة، وما مِنْ أحدٍ إلا ويسهو فِي صلاته. لو قَالَ (فِي). ولذلك قَالَ الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: (عَنْ صلاتهم)، ولم يقل: (فِي صلاتهم). لو قَالَ (فِي صلاتهم) لدخلَ كُل المصلين، ولكن مِنْ رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه قَالَ: (عَنْ صلاتهم).

شوف كيف حروف اللغة العربية، الحرف الواحد يُغير ويقلب المعنى.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ أي غافلون، لا يؤدونها، غافلون عنها، لا يؤدونها، وإذا أدوها لا يؤدونها في وقتها المشروع، وإنما كما قَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينتظر المنافق غروب الشمس، حتى إذا سقطَ قُرص الشمس، قامَ ونقرها نقراً سريعاً. فهذا المنافق، فلذلكَ حذرَ الله مِنْ صفات المنافقين.

ومثل مَا ذكرت في أول الكلام: أقول: نسأل الله أن يعافينا مِنْ هذه الصفات السيئة، لا الصفات الأولى، ولا الصفات الأُخرى، نَسأَلُ اللهَ العَافِيَةَ.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٤، ٥]، ولذلك لا يجوز الوقف عِنْدَ قوله: (فويلٌ للمصلين) وتسكت. هَذَا يُخل بالمعنى، مثل لو وقفت عِنْدَ قولهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾[النساء: ٤٣]، كيف تقربوا الصَّلَاة؟ لَا بُدَّ أن تُكمل الآية حتى نعرف.

وهنا لا يجوز أن تقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤] وتركع أو تترك الآية، لَا بُدَّ أن توضح: مَنْ هم المصلون الذين توعدهم الله بهذا الوعيد الشديد؟

قَالَ: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٥].

وما صفاتهم الأُخرى؟ قَالَ: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٦]، (يُرَاءُون) أي لا يُخلصون أعمالهم لله، إنَّمَا يعملها ليراهُ النَّاس، يتصدق حتى يُقال جواد ويُقال كريم، يُصلي حتى يقول: مَا شاء الله، هَذَا صاحب طاعة وحريص على الصَّلَاة، فيعمل الأعمال لأجل النَّاس. هَذَا الرياء، شِرك ومُحبط للعمل، يظن الإنسان أنه يعمل ويدخلهُ الرياء أحياناً، ولذلك شُرع للإنسان أن يتعوذ مِنْ الرياء، في أعمالهِ كُلها، ويسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الإخلاص في القولِ والعمل، وأن يبتعد عَنْ أن يُقال فلان كذا وفلان كذا، ثناء النَّاس لا ينفعك، بل يضرك.

ولذلك قَالَ: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾، وشوف كلمة (يُرَاءُون)؛ فعل مضارع، يدل على أي شيء؟ على أنه دائم، هذه حالهم، حالهم الرياء، الرياء؛ لا يُريد إلا السُمعة: يتصدق لأجل النَّاس، يُصلي لأجل النَّاس، يفعل الأفعال لأجل النَّاس، يذكر الله لأجل النَّاس، يقرأ القُرآن لأجل النَّاس.

ولذلك قَالَ: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾.

ثُمَّ ذكر صفتهم الثالثة، وصفة حقيقة حقيرة جداً، لا ينبغي أن يفعلها، ومع ذَلِكَ يفعلونها، قَالَ: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧].

(يمنعون) والفعل المضارع يدل على الاستمرار، لأنهم دائماً هذه صفاتهم، ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾.

مَا المراد بـ(المَاعُون)؟ كُل مَا احتاجه الإنسان.

الماعون على الصَّحِيح:

-يعني بعضهم قَالَ: هُوَ الصدقة، هُوَ الزكاة.

-وبعضهم قَالَ: يعني اختلفوا فيه، حتى ذكرَ القُرطبي فِي تفسيره، أن المفسرين اختلفوا فيه على اثني عشرَ قولاً، والصحيح: أن الماعون كُل مَا يتعاورهُ النَّاس ويحتاجون إليه النَّاس، كُل مَا يحتاج النَّاس إليه، مثل مَا يُقال: الماء، والنار، والكِبريت، والملح، والدلو، والحبل، والخيط، والإبرة. كُل مَا يحتاج الإنسان إليه، هؤلاء يمنعونه، حتى أشياء حقيرة يمنعونها، لا يُريدها، يعني مَا طُلب مِنك شيء كبير، ومع ذَلِكَ مِنْ صفاتِهم السيئة أنهم (يمنعون الماعون).

لو أراد منه إناء أو نحو ذَلِكَ؛ منعه، وَالنَّاس شُركاء فيما يحتاجون إليه، ينبغي أن يقف المسلم ويتكافل المسلمون بعضهم مع بعض، ويقف بعضهم مع بعض، لا أن يقف فِي مثل هذه الأشياء الحقيرة.

هذه السورة العظيمة التي وقفنا معها، ونُلاحظ أنها اشتملت على مثل هذه الأمور، وهذه الصفات التي ينبغي للمسلم أن يبتعد عنها وأن يحذرها، أشدَ الحذر، وتُلاحظ أنها ابتدأت بأعظم هذه الصفات وَهُوَ إنكار البعث والجزاء والجنة والنار، وَمَنْ أنكرَ ذَلِكَ، فلما دونه وسواهُ أشدُ إنكاراً.

فنسأل الله العافية، نَسأَلُ اللهَ العَافِيَةَ، وأن يحمينا وإياكم مِنْ هذه الصفات، وأن يرزقنا وإياكم حُسن الخُلق، وحُسن العبادة، وأن يرزقنا وإياكم الإخلاص فِي القولِ والعمل. وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وَسَلَّمَ عَلَى نبينا مُحَمَّد، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين..

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الكَوْثَر)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة الكوثر)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه إلى يومِ الدين، أَمَّا بَعْدُ:

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هَذَا اللقاء المبارك، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يجعلهُ لقاءًا مُباركاً نافعاً، وأن يرزقنا وإياكم العلمَ النافع والعمل الصالح.

أيها الإخوة الكِرام هَذَا اليوم هُوَ يوم الثلاثاء الموافق للعشرين مِنْ شهر صفر، مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة، نجتمع فِي هَذَا المقام حولَ القُرآن الكريم، وتفسيرهُ، وبيانُ معانيهِ ودلالاته.

ولازلنا فِي قصار السور وخواتيم هَذَا الجزء المُبارك، الجزء الأخير، والسورة التي بين أيدينا هي فِي الحقيقة أقصر سورة فِي كتاب الله وأعظم مِنْ حيث المعاني وَمِنْ حيث الدلالات، وعلى قِصر هذه السورة وقلة آياتها، ثلاث آيات، إلا أن أهل التفسير والعلماء كتبوا فيها كتابات عظيمة، على يعني قِصرها، بل أُلفَ فيها مؤلف كامل، مؤلف كتاب كامل فِي تفسيرِ هذه السورة التي أقصر سورة فِي كتاب الله، وَهَذَا يدلُ على إعجاز القُرآن، اعجازهُ، على أن قِصر سورة بهذا الشكل فِي آياتِها تدلُ على معاني عظيمة لا حدَ لها.

هذه السورة هي سورة الكوثر، سورة الكوثر هي أقصر سورة فِي كتاب الله، وفيها معاني عظيمة، فيها بشارات، بشارات عظيمة.

لما يعني ننظر هذه السورة، وننظر لما قبلها.

السورة التي قبلها تحدثنا عنها فِي لقاءنا الماضي، هي سورة الماعون، لما توازن بين هذه السورة وهذه السورة، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، يعني أنعمنا عليكَ بالشيء الكثير العظيم الَّذِي لا حدَ لَهُ.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، لما ترجع إلى سورة الماعون، لا يصلون. قَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٤، ٥].

وهنا يقول: ﴿فَصَلِّ﴾ [الكوثر: ٢].

هناك يقول: ﴿يُرَاءُونَ﴾ [الماعون: ٦].

وهنا يقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ٢]، لا تُرائي، إنَّمَا اجعل صلاتك لربك.

هنا يقول: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٧]، ويقول: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ٣]، ﴿وَيَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢].

وهنا يقول: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، انحر النحائر وتصدق بها.

شوف كيف الموازنة بين هذه السورة وهذه السورة؟ هذه كيف اشتملت على ماذا؟ وهذه تأتي بمقابل هَذَا الأمر.

هذه السورة لها سبب نزول، حتى ذكرَ أهل التفسير أن لها سببين:

- السبب الأول: هُوَ ذَلِكَ الكافر العاصي بن وائل، أحد زعماء قُريش، وأحد زعماء الكُفر والطُغيان والضلال، كان إذا رأى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يا أبتر، يا أبتر، إني أشنؤك، يعني أُبغضُك. إني أشنؤكَ يا أبتر.

فَقَالَ الله رداً عَلَيْهِ، أنزلَ هذه السورة فيها بشارتين للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- البِشارة الأولى أنه قَالَ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. وسيأتي معنا هذه الآية.

- والبشارة الثانية: أنه قَالَ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، هُوَ المنقطع، هُوَ المنقطع الذِكر. أين العاصي بن وائل؟ وأين صناديد الكُفر والشِرك؟ أين زُعماء مكة؟ مَا لهم ذِكر، ذهبوا، ويبقى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذكر فِي كُلِّ وقت، وفي كُلِّ صلاةٍ وفي كُلِّ أذان، فِي كُل بُقعة مِنْ بقاع الأرض تسمع ذكر مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي بقُعة وفي كُل صِقع مِنْ أصقاع الأرض، وإلا يتردد ذكرُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أي هنا ﴿شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، أين الأبتر؟ مَا هُوَ الأبتر؟

ذكرَ أيضًا أهلُ التفسير أن هذه السورة نزلت، قيل أنها نزلت مرتين، وقيل: أنها جاءت بشارة. يعني الأول: هي النزول الرد على هَذَا المُجرم، الرد عَلَيْهِ بأنه هُوَ الأبتر.

والنزول الثاني هُوَ جاءَ بشارة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فِي صحيح مسلم، حديث أنس رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، وَهُوَ فِي المدينة، وهذه السورة فِي مكة نزلت، والعاص بن وائل مِنْ أهل مكة، لما يعني استقرَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المدينة، أنس بن مالك مِنْ أهل المدينة، يقول أنس رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه، يقول: كنا جلوس عِنْدَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأغفى إغفاءة ثُمَّ تبسم. فقلنا: يا رَسُول الله، مَا أضحكك؟ قَالَ: أُنزلت عليَّ سورة، ثُمَّ قرأ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١ - ٣].

الشاهد مِنْ الكلام: أنها نزلت فِي المدينة، ونزلت فِي مكة، فَقَالَ بعض أهل التفسير: إنها نزلت مرتين. وبعضهم قَالَ: إنها نزلت فِي مكة، ثُمَّ جاءت بشارةً لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولذلك تبسم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفرح؛ لأنها بشارة عظيمة.

موضوع السورة إذا تأملتها مع قصر آياتها، ثلاث آياتها آيات، موضوعها يتحدث عَنْ أي شيء؟

نقول: يتحدث عَنْ أجل النعم التي أنعمَ الله بها على مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى أُمته، هُوَ موقف الرَّسُول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هذه النعمة، وَهُوَ شُكرُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

طيب، هذه السورة افتتحت بأي شيء؟

افتتحت بضمير، ضمير المتكلم، يقول: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، وشوف اختيار، اختيار كلمة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾، مَا قَالَ: إن اللهَ أعطاك، أو ربُكَ أعطاك، تولى الله الأمر بنفسه، فَقَالَ بضمير الفاعلين، قَالَ: ﴿إِنَّا﴾، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾، شوف كيف رَبِّ الْعَالَمِينَ على عظمتهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُخاطب نبيهُ مُحَمَّد بأنه يقول: ﴿إِنَّا﴾، يُخاطبهُ بالمواجهة، مَا قَالَ: إن ربكَ، أو قَالَ: إن اللهَ، إنَّمَا قَالَ: ﴿إِنَّا﴾، نحنُ، ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، حتى قَالَ أهلُ التفسير: إن كلمة أعطيناك الفعل أعطى، غير الفعل آتى، لو قَالَ: آتيناك، الإتيان قد يأتيك ويذهب، أما العطية فهي عطية لك لا تذهب، لما أقول: أعطيت فلان هكذا، عطية هذه ثابتة لا تذهب، ولذلك قَالَ هنا: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

فِي آيات أُخرى يذكر آتيناك، مثل قولهِ تَعَالَى مثلًا: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]، يأتي الذكر ويذهب، ويزيد وينقص.

هَذَا لا، هَذَا تمليك، تمليك، فكلمة اختيار، شوف حتى تتدبر القُرآن الكريم، وتتأمل آياته، شوف كيف اختيار هذه الكلمات: ﴿إِنَّا﴾ الضمير، ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ العطاء غير الإيتاء.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[الكوثر: ١]، مَا معنى الكوثر؟

اختلفَ المفسرون فِي معنى الكوثر، فبعضهم يقول: إن الكوثر كما فِي الحديث، قَالَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هُوَ نهرٌ أعطانياهُ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي الجنة»، هَذَا رأي.

الرأي الثاني: قيلَ إن الكوثر هُوَ الحوض، هُوَ الحوض الَّذِي تردهُ أُمتهُ بعدَ الخروج مِنْ القبور يتوجهونَ إلى الحوض، كما جاء فِي الحديث: «طولهُ شهر، وعرضهُ شهر، وماؤهُ أبرد مِنْ الثلج، وأبيض مِنْ اللبن، وأحلى مِنْ العسل، مَنْ شربَ منه شربةً لم يظمأ بعدها أبداً»، تأتي أُمة مُحَمَّد، وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقفاً على حوضه، فتأتي أُمة مُحَمَّد لتشرب، فيُزاد ويُمنع بعضهم، فيقول النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُمتي». فيقول: مَا تدري ماذا أحدثوا بعدك، فيُزادون ويُمنعون.

هَذَا الَّذِي أعطيناك الكوثر، عِنْدَ بعض المفسرين أنه الحوض، وبعضهم قَالَ: هُوَ الخير الكثير على وجه العموم، خيرٌ كثير. المقام المحمود مِنْ الكوثر، القُرآن مِنْ الكوثر، الشريعة الإسلامية مِنْ الكوثر، دعوة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الكوثر، إيمان أُمتهُ مِنْ الكوثر. يعني كلمة الكوثر هُوَ الخير الكثير، لا حدَ لَهُ، يدخل فِي ذَلِكَ النهر الَّذِي أعطاهُ الله نبيهُ مُحَمَّد فِي الجنة، يدخل فِي ذَلِكَ الكوثر الَّذِي هُوَ الحوض، يدخل فِي ذلكَ المقام المحمود الَّذِي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليسَ لأحد أبداً، يدخل فِي ذَلِكَ القُرآن، يدخل فِي ذَلِكَ كُلُّ ما هو خير للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فهذا أعم مَا يُقال فيه.

يعني إن كان بعض المفسرين يقول مثلًا: هُوَ الحوض، أو بعضهم يقول: هُوَ النهر، أو بعضهم يقول كذا، أقوى أو أولى مَا يُقال فيه: أن نُعمم، فنقول الكوثر: هُوَ الخيرُ الكثير، وكُلُّ هَذَا داخلٌ فِي معنى كلمة الكوثر.

طيب، يقول: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ١، ٢]، (فصلِّ لربك) يعني الزم الصَّلَاة، واجعلها صلاةً خالصةً لربك؛ لأنه قَالَ: لربك. وشوف كلمة (لِرَبِّكَ) يعني مجيء اسم الرب هنا، مَا قَالَ: فصلِّي لله، لماذا؟ لأنه يُذكره بأن الَّذِي أنعمَ عَلَيْهِ، وأن الَّذِي رباه، وأن الَّذِي خلقهُ وأوجدهُ وأنعمَ عَلَيْهِ بهذه النعم العظيمة، هُوَ ربهُ، هُوَ ربهُ ربُ العالمين، هُوَ الَّذِي أنعمَ عَلَيْهِ بهذه النِعم.

فتذكير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ اجعل عملكَ خالصاً لربك لا شريكَ لَهُ، خالصاً لا رياءَ ولا سُمعة.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، مَا معنى (وانحر)؟ أي: اذبح الذبائح، وانحر النحائر، ينحرها لأي شيء؟ للصدقة. عندنا صلاة وذكاة، صلاة وصدقة، الصَّلَاة بينك وبين الله، ومصلحتها عائدةٌ إليك، والزكاة والصدقة بينك وبين الخلق، إحسانٌ فِي عبادتك مع ربك، وإحسانٌ فِي عبادتك مع مَنْ حولك ممن يحتاج مِنْ إخوانك المسلمين، فجمعت الآية بين هَذَا وَهَذَا، حتى استنبطَ بعضُ أهل العلم مِنْ هذه الآية مشروعية صلاة الأضحى، صلاة عيد الأضحى، قَالَ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي صلاة العيد، عيد الأضحى، ﴿وَانْحَرْ﴾، أي: النحر الَّذِي يكون يوم عيد الأضحى.

حتى استنبطَ بعضهم أيضًا مِنْ آية أُخرى صلاة عيد الفِطر، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٥] فِي قولهِ تَعَالَىَ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝١٧﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، قَالَ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤]، زكاة ماذا؟ زكاة الفِطر، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝١٤ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] أي الذِكر التكبير يوم عيد الفِطر، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٥] أي صلاة عيد الفِطر.

هَذَا استنباطات جليلة وحسنة وداخلة فِي هَذَا المعنى، داخلة؛ لأن قولهُ تَعَالَىَ هنا: ﴿فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٥] داخل فِي جميع أنواع الصلوات، كُل مَا هُوَ صلاة مشروعة داخلة فِي كلمة ﴿فَصَلَّى﴾.

﴿وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] أي الذبح، أن يكونَ الذبحُ لله؛ لأن الذبح عبادة.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، قَالَ بعدها: يعني فَقَالَ فِي آخر شيء: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، هذه جملة كما قَالَ أهل البلاغة: قيل: هذه جملة إسمية، الجملة الإسمية تدل على أي شيء؟ تدل على الثبوت، الثبوت والاستقرار، يعني مُبغضك ومُعاديك هُوَ الأبتر.

وشوف مجيء الضمير، ضمير الفصل هُوَ يدل على أيضًا على التأكيد. ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ لا أنت ولا غيرك، إنَّمَا هُوَ الأبتر. ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مُبغضك، شأنِئك: أي مبغضك وعدوك ومُعاديك فِي دعوة الأبتر لا غير، هُوَ الَّذِي يوصف بأنه أبتر، يعني مُنقطع الذِكر، يعني ينتهي ذِكره هُوَ وَمَنْ شاكلهُ وما كانَ عَلَيْهِ، ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

السورة الحقيقة مع قِصر آياتِها، ثلاث آيات ودلالاتها هذه عظيمة التي وقفنا معها، ولا أقول لك يعني هذه الدلالات فقط، دلالات كثيرة جداً، لَكِنّ هَذَا مُختصر مَا أقول لك، مُختصر مَا تدل عَلَيْهِ الآيات، كثير منا يقرأ هذه السورة ويمر عَلَيْهَا مِرار الكِرام، لا يتأمل هذه الآيات العظيمة، كيفَ ابتدأت السورة؟ وكيف انتهت؟ وكيف دلت على هذه الأمور العظيمة، وأقول لك مثل مَا ذكرت فِي أول الكلام أُلفَ فيها مؤلف كامل، مؤلف كامل فِي إعجازها ودلالاتها، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تحدى الكُفار، فتحدى يعني قَالَ: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: ٢٣]، هذه أقصر سورة، ولا يستطيعون أن يأتوا ولا بأقصر سورة، يعجزون أن يأتوا ولا بأقصر سورة مِنْ هَذَا القُرآن العظيم، لما اختصهُ الله بالإعجاز العظيم فِي دلالته.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، وأن يجعلنا وإياكم مِنْ أهل القُرآن الذين هم أهلُ اللهِ وخاصته، وأن ينفعنا ويُبارك لنا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وَسَلَّمَ عَلَى نبينا مُحَمَّد، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الكَافِرُون)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة الكافرون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وصحبِهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه إلى يومِ الدين، اللَّهُمَ علمنا مَا ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هَذَا اللقاء المبارك، فِي هَذَا اليوم، هُوَ اليوم الرابع مِنْ شهرِ ربيعٍ الأول مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة.

مجلسنا مع القُرآن الكريم، قراءةً وتدبراً وتفكراً فِي هذه الآيات، والعمل بهذه الآيات.

ولا زلنا فِي قصار السور وفي خواتيم هَذَا الجزء المُبارك، الجزء الأخير مِنْ القُرآن الكريم.

والسورة التي بين أيدينا هي سورة الكافرون، هذه السورة عندما نتناولها، مِنْ عدة نواحي:

أولاً: مَا سبب نزولها؟

وثانياً: مَا فضائل هذه السورة؟ هل لها فضائل؟

وثالثاً: مَا معنى هذه السورة؟ نفهم معانيها وألفاظها ودلالاتها.

أما سبب نزول هذه السورة، فإن المشركينَ لما رأوا ظهورَ هَذَا الْإِسْلَام وانتشاره فِي مكة، ودخول عدد كبير للمسلمين، جاءَ رؤساء المشركين إلى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يساومونهُ على هَذَا الدين، ويُريدونَ منه التنازل والمُداهنة بينه وبينهم، فقالوا: يا مُحَمَّد إن كُنت لازلت على هَذَا الدين الَّذِي أتيتَ به ولم يأتِي به آباؤك، ولم يُعرف، فبيننا وبينك عبادتنا وعبادتك، فنعبدُ إلهكَ يا مُحَمَّد سنة، وتعبدُ آلهتنا سنة، ويعني يكون بيننا وبينك تفاهم على هَذَا.

فماذا كان ردُ القُرآن عَلَيْهِ؟ الدين الشرعي مَا فيه مساومة، مَا فيه تنازل، مَا فيه ترك أصول هَذَا الشَّرْع، الشَّرْع هُوَ شرع الله عَزَّ وَجَلَّ، والدين هُوَ دينُ الله، لا يُمكن للإنسان أن يتنازل عَنْ أمور الدين وثوابت الدين أبداً مهما كان، لو قدمَ نفسهُ وروحهُ لهذا الدين، ولا يتنازل.

فماذا كان الجواب؟

الجواب مَا حكتهُ هذه السورة: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١، ٢]، وعندك فِي قولهِ (قُلْ) يدل على أي شيء؟ يدل على أن الرد جاءَ مِنْ السماء، ليس مِنْ مُحَمَّد، مُحَمَّد نذيرٌ مُبين يُبلغُ آياتِ ربه، ولذلك جاءَ كلمة (قُلْ) تفيد ماذا؟ تفيد أن هَذَا وحي مِنْ الله، وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موجه مِنْ الله عَزَّ وَجَلَّ، ونذيرٌ وبشير، لا يملكُ شَيْئًا فِي أن يتنازل أو أن يتسامح أو يُداهن أو شَيْئًا مِنْ هَذَا، فقُل لهم هَذَا الكلام.

هذه السورة على قِصر آياتِها جاءَ فيها أحاديث فِي فضائلها:

أولاً: ثبتَ عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ: «**مَنْ قرأ هذه السورة فكأنما قرأ رُبع القُرآن**»، «**مَنْ قرأ سورة الكافرون، فكأنما قرأ رُبع القُرآن، وَمَنْ قرأ سورة الإخلاص فكأنما قرأ ثُلثَ القُرآن**». هذا الفضل الأول.

الفضل الثاني: أنها تُسمى بسورة (البراءة). سورة الكافرون تُسمى بسورة البراءة مِنْ الشرك، وتُسمى أيضًا بسورة (الإخلاص) لأن فيها براءة عَنْ كُلِّ شرك، وإخلاص العبادة لله وحدهُ لا شريكَ لَهُ.

هذه السورة جاء فِي فضائلها مما يُستحب للإنسان أن يفعله، مثل ماذا؟

عندك أولاً: ركعتا الفجر، سُنة الفجر يُستحب فيها ماذا؟ يستحب فيها أن يُقرأ فِي الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، وفي الركعة الثانية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. هذه سُنة، فِي ركعتي الفجر، فِي سُنة الفجر.

وأيضاً سُنة فِي ركعتي المغرب، راتبة المغرب، إذا صليت فريضة المغرب، وأردت أن تُصلي راتبة المغرب، فيُستحب لك أن تقرأ بهاتين السورتين: الكافرون، والإخلاص.

أيضًا مِنْ فضائلها: أنها تُقرأ فِي ركعتي الطواف، إذا طافَ الإنسان سبعة أشواط، سواءً فِي حج أو عمرة أو نافلة مِنْ النوافل التي يطوف بها البيت سبعة أشواط، يُستحب لَهُ أن يُصلي ركعتين: الأولى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، والثانية: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

أيضًا مِنْ فضائلها: أنها تُقرأ فِي صلاة الشفع، الشفعِ والوتر، فإذا قرأ فِي الشفع فإنه يقرأ فِي الركعةِ الأولى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وفي الثانية: الكافرون، وفي الركعة الأخيرة الوتر: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

قد يسألك سائل يقول: طيب، ليش هذه الأوقات التي جاءت فيها هذه الأَحَادِيْث؟ يعني صلاة الفجر، قبل صلاة الفجر، قبل أن تُصلي، أول مَا تُصلي بعد أذان الفجر هاتين الركعتين، وتقرأ فيها بهاتين السورتين خاصة؟

هذا أمر، الأمر الثاني: المغرب، لماذا خُصصَ الفجر والمغرب؟ ولماذا خُصصَ الوتر؟ ولماذا خُصصَ أيضا بعد الطواف؟ هذه الأوقات لماذا خُصصت؟

لأن فيها إبراز التوحيد، إبراز التوحيد والبراءة مِنْ الشرك، فأنتَ أول مَا تستفتح نهارك وصباحك بإخلاص العبادة لله، والتوحيد لله، والبراءة مِنْ الشرك، وتتذكر هَذَا.

ثانياً: عِنْدَ المغرب، بقدوم الليل، وبداية الليل أيضًا تُحقق هذه العبادة؛ أن العمل لله، وأن عبادتك خالصة لله والبراءة مِنْ الشرك.

وفي الطواف: إظهار العبادة لله والإخلاص لله، وإظهار التوحيد فِي طوافك لله، والطواف بالبيت صلاة، كما قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الطواف بالبيت صلاة إلا أنكم تتكلمونَ فيها**»، وهكذا الوتر.

وأيضاً جاء فِي حديث لا يفوتنا وقد يغفل عنه بعض النَّاس: «**أنه يُستحب قراءة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ عِنْدَ النوم**»، إذا وضعت رأسك على فراشك، وأتيت بأذكار النوم، يُستحب لك أن تأتي بـ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾. ورد فِي أحاديث: «**أنه كان إذا أوى إلى فراشهِ قرأَ بسورة ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾**»، لماذا؟ لأنكَ تودع فِي نومك هَذَا النهار، وقد أويتَ إلى فراشك، وإذا أويت إلى فراشك وانتهيت مِنْ عملك اليومي فإنكَ تتذكر أن عملك لله، تتذكر أن عبادتك لله وأن تُخلص عملك لله وتتبرأ مِنْ كُلِّ شرك.

هَذَا مَا يتعلق بفضائل هذه السورة القصيرة، ومع ذَلِكَ أحاديث تدلُ على فضلِها.

طيب، إذا فهمنا هَذَا فما معنى هذه السورة؟

أولاً: الاستفتاح بـ﴿قُلْ﴾ مثل مَا ذكرنا: يدل على أن هَذَا القُرآن وحي مِنْ عِنْدَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، القُرآن يُنزل على النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالنَّبِيّ لا يملك إلا أن يُبلغ رسالة ربه. قُل.

وأيضاً فيه رسالة لمن؟ لأهل مكة، لكُفار قُريش الذين يساومونَ على هَذَا الدين ويظنون أن مُحَمَّد هُوَ الَّذِي أتى به، فيقولون: أعبد آلهتنا سنة، ونعبد آلهتكَ سنة، النَّبِيّ مَا يملك شيء، النَّبِيّ رَسُول، رَسُول مِنْ

عِنْدَ الله. فلما قَالَ: ﴿قُلْ﴾ هذه رسالة لأهل مكة أن النَّبِيّ مَا يملك شيء، وإنما هُوَ وحيٌ مِنْ عِنْدَ الله، والذي كلفهُ بالرسالة هُوَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، ولاحظ أنه ﴿يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، مَا قَالَ: يا مُشركي مكة، أو يا أيها المشركون، أو كُفارَ مكة، أو يا كُفارَ قُريش، **قَالَ: ﴿يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، لماذا؟ لسببين:**

السبب الأول: أنها رسالة عامة على طول الأزمنة، يعني أهل مكة وَمَنْ جاء بعدهم إلى قيام الساعة، كُل كافر يدخل فِي هَذَا اللفظ، هَذَا سبب.

السبب الثاني: أن كلمة الكافرون، هذه الكلمة (كافر) كُل مَنْ لم يدين الله بشرعهِ الْإِسْلَام فَهُوَ كافر، يدخل فِي ذلكَ اليهود والنصارى والبوذيون وسائر الطوائف وسائر طوائف الأديان الأُخرى، كلها داخلة فِي كلمة: الكافرون، فكأن عندك أمامك الْإِسْلَام والكُفر، فَمِنْ لم يدخل فِي الْإِسْلَام فَهُوَ كافر، فَلَيْسَ هناك ثالث أو رابع أو خامس، الأديان هُوَ دين واحد: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فكلمة (الكافرون) لها معنى عظيم، لها فائدة، هَذَا المقصد مِنْ قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾.

قوله تَعَالَىَ: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢]، هَذَا نفي مُطلق قوي، ينفي أن يعبد النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو كُل مسلم، يعني الخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والحديث مِنْ الرَّسُول لأنه هُوَ المُخاطب فِي الأول، لا يمنع أن يدخل كُل مَنْ يُناقش على دينهِ، ويُساوم على دينه أن يقول هَذَا الكلام.

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١، ٢]، (أَعْبُدُ) فعل مضارع، يُفيد الحال والاستقبال، يعني لا أعبد الآن ولا فِي المستقبل إلى أن أموت. ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يعني لا أعبدُ عبادتكم، لا أعبدُ دينكم، ولا أدينُ بدينكم، ولا أعبدُ آلهتكم الذين أنتم تعبدونهُ مِنْ هذه الآلهة وهذه الأصنام التي لا تنفع ولا تضر؛ فإنني لا أعبدها، مهما كان، ولا أتنازلُ أبداً على مدى العُمر كله، ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]، هذه جملة يُسميها أهل العلم جُملة اسمية، الأولى جملة فعلية، وهذه اسمية، مَا الفرق؟ لماذا؟ لماذا مرة فعلية، ثُمَّ يأتي الإسمية؟

نقول دائماً: أن الفعلية تُفيد الاستمرار، يعني لا أعبد الآن، ولا أعبدُ غداً، ولا أعبد أبداً، مثل مَا ذكرنا.

الجملة الاسمية تفيد الثبوت. يقول: أنتم. مَا أنتم عابدونَ مَا أعبد. ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ يعني مَا دام أنكم تعبدونَ الأصنام، تعبدونَ غير الله، لن تعبدوا حتى تتبرؤوا وتتركوا عبادةَ مَا أنتم عَلَيْهِ، فإذا تركتم هذه العبادات التي مِنْ دون الله، عبدتم الله. أما مَا دام أنكم مُتمسكونَ بأصنامكم، ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

حتى قَالَ بعض أهل التفسير: إن فِي هذه الآية إعجاز غيبي بأن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخبر بشيءٍ لم يحصل، وَهُوَ: أن كثيراً ممن جاءوا للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُناقشونهُ فِي العبادة، ويساومونه، ماتوا على الكُفر، مَا أسلموا، ماتوا على الكفر، ولذلك قَالَ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، أنتم ستبقون على كفركم وتموتون على كفركم ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾.

ثُمَّ قَالَ مرةً ثالثة: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ [الكافرون: ٤]، شوف هذه جملة أيضًا اسمية، ليست مثل الأولى: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٢]، لا، هنا جاء باسمية؛ ليثبت ويدل على استمرار هَذَا الأمر ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾، يعني أنا ثابتٌ على ديني لا يُمكن أن أتغير وأتنازل عَنْ ديني. ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٥]، أنتم أيضًا لن تخرجوا عَنْ دينكم، لن تعبدوا مَا أعبد حتى تخرجوا عَنْ دينكم، وحتى تتركوا آلهتكم، فإن تركتم آلهتكم فإنكم ستدخلونَ فِي دين الْإِسْلَام، أما أنكم تقولون: نعبد سنة، ونحنُ نعبدُ سنة، هَذَا كلامٌ لا يُقبلُ أبداً.

ولذلك يعني شوف أربع آيات: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥﴾ [الكافرون: ٢ - ٥] ليسَ فيها تكرار. بعض النَّاس يظن أنها مُكررة، لا، ليسَ فيها تكرار، إذا تأملتها، وَهَذَا معنى التأمل، لما نقرأها ونتأملها، ليس فيها تكرار، لماذا؟ لأن كُل آية لها معناها، كُل آية لها دلالة.

فيظن بعض النَّاس أنها مُتكررة، لا، هذه لها معنى، وهذه لها معنى، ولذلك خُلاصة هَذَا النقاش والحوار، مَا هُوَ؟

خلاصتهُ فِي الآية الأخيرة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، فبتَ فِي نهاية الأمر، بتَ النقاش والحوار معهم: أنه لا حوار ولا نقاش ولا مساومة ولا تنازل، أنتم لكم دينكم الَّذِي تزعمون أنه دين، وَهُوَ ليس بدين، وليسَ مقبولاً عِنْدَ الله، وإنما أنتم تدعون أنه دين، ولذلك قَالَ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ أي لكم عقيدتكم التي أنتم عَلَيْهَا، عقيدة الكُفر والإلحاد، ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ أنا لي ديني الَّذِي أتعبدُ الله به. فهذا معنى كلام البراءة، هذه الجملة الأخيرة هي البراءة: أنا بريءٌ مما تعملوا، وأنتم بريؤون مما أعمل، وأنا بريءٌ مما تعملون. فأنا على ديني متمسك حتى أموت، وأنتم على دينكم.

إذا عرفت هذه الدلالات، وعرفت هذه البراءة، والإخلاص لله: أن تعبد الله وحدهُ ولا تتنازل، وأن تجعل عبادتك لله خالصةً لَهُ وحدهُ لا شريكَ لَهُ، عرفنا وأدركنا ماذا؟ أدركنا أن هذه السورة فيها فضائل، أنها تُقرأ فِي مثل هذه الأوقات، وأن فيها فضائل عظيمة تُحقق الإخلاص لله، وتُحقق البراءة مِنْ كُلِّ شِرك، وَمِنْ كُلِّ عبادة مِنْ دون الله.

هَذَا معنى لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ٥، ٦].

هَذَا معنى هذه السورة أخذناها، وتأملناها، وعرفنا مَا فيها مِنْ فضائل، وما فيها مِنْ دلالات.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بها، وأن يُبارك لنا، وأن يوفقنا لطاعته، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وَسَلَّمَ عَلَى نبينا مُحَمَّد، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ النَّصْرِ)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة النصر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وصحبهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه إلى يومِ الدين، اللَّهُمَ علمنا مَا ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هَذَا اللقاء المبارك، فِي هَذَا اليوم الحادي عشر مِنْ شهرِ ربيعٍ الأول مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة.

مجلسنا مجلس التدبر لكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى القائل فِي كتابه: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[ص: ٢٩].

جاء عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ: «**خيركم مَنْ تعلمَ القُرآنَ وعلمه**»، وجاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قَالَ مرةً لأصحابه وهم جالسونَ عنده: «**أيكم يعجز أن يذهب إلى بُطحان أو إلى العقيق**»، مكان قريب مِنْ المسجد النبوي. «**أيكم يعجز أن يذهب ويحصل على ناقتين كماوين**» يعني سمينتين. قالوا: يا رَسُول الله كلنا نستطيع، مَا يعجز علينا هَذَا الأمر، الأمر سهل، نذهب إلى هَذَا المكان ونأخذ ناقتين.

قَالَ: «**يذهب أحدكم إلى المسجد يتعلم آيتين، خيرٌ لَهُ مِنْ ناقتين، وثلاث خيرٌ لَهُ مِنْ ثلاث، وأربع خيرٌ لَهُ مِنْ أربع**». والنوق كانت هي أنفس أموال العرب، وأعظم أموال العرب، كانوا يتنافسونَ عَلَيْهَا.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطاهم مَا هُوَ خير مِنْ ذَلِكَ، تذهب إلى بيت مِنْ بيوت الله تتعلم آيةً مِنْ كتاب الله أو آيتين أو ثلاث أو أكثر، خيرٌ لك مِنْ الدُّنْيَا وما فيها.

نقرأ السورة مِنْ سور القُرآن القصيرة، ونتأملها، نتفكر فيها، نتدبرها تدبراً يظهر لك فيها إعجاز القُرآن، يظهر لك فيها تأملات عظيمة، يظهر لكَ فيها علم مِنْ علوم هذه الشريعة.

السورة التي بين أدينا هي تُسمى بسورة: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ هكذا، وتُسمى بسورة (النصر)، وتُسمى أيضًا بسورة (التوديع)؛ لأنها سورة الوداع.

هذه السورة هي آخر مَا نزل مِنْ القُرآن مِنْ حيث السور. شوف عندك سور وعندك آيات فِي القُرْآن الكريم. آخر سورة نزلت فِي القُرآن: سورة النصر. ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، متى نزلت؟ نزلت أيام التشريق، وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حجة الوداع، نزلت أيام مِنى، نزلت عَلَيْهِ، فهي آخر سورة نزلت مِنْ القُرآن، مكث النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدها ثمانينَ يوماً تقريباً ثُمَّ توفي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

آخر آية فِي كتاب الله على الصَّحِيح مِنْ أقوال أهل العلم هي قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] فِي سورة البقرة ٢٨١، هذه هي آخر آية، آخر العهد بالعرش هذه الآية، بينها وبين وفاة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسع ليالي، ثُمَّ ماتَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعدها، ثُمَّ انقطعَ الوحي.

هذه السورة التي ذكرنا إنها هي آخر سورة نزل مِنْ القُرآن، هذه السورة لها يعني معنيان:

- معنى ظاهر.

- ومعنى باطن.

يعني معنى فيهِ دلالة ظاهرة لهذه الآيات يستطيع أن يفهمها كُل إنسان.

وفيه معنى لا يستطيع أي إنسان أن يفهمه، لا يُدركهُ كثير مِنْ النَّاس، بل إن الصَّحَابَة مَا أدركوه، كثير مِنْ الصَّحَابَة مَا فهموه، لَهُ معنى خفي، معني ظاهر، ومعنى خفي.

مَا هُوَ المعنى الظَّاهِر؟ وما هُوَ المعنى الخفي؟

أما معناها الظَّاهِر؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُخبر فِي هذه السورة أنه إذا جاء نصرُ الله والفتح. مَا الفرق بين النصر والفتح؟ هل النصر والفتح واحد؟ ولا النصر شيء والفتح شيء؟

نقول: النصر هُوَ الانتصارات، انتصارات النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غزواته، وانتصارات المسلمين.

والفتح هُوَ سقوط الدول، سقوط المدائن بيده، قد ينتصر فِي المعركة ولا تسقط. يعني فِي بدر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انتصر على المشركين، لَكِنّ لم تسقط فِي يديه أي شيء، لَكِنّ مثلاً: خيبر سقطت، مكة سقطت، وهكذا، يعني ضُمت فِي حكم الْإِسْلَام.

فالنصر، جاء نصرُ الله، والفتح. الفتح هُوَ جزءٌ مِنْ النصر، يعني إذا جاء النصر جاء الفتح، قد لا يأتي الفتح.

فتدبر الفرق بين: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١].

قَالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. طيب، إذا عرفنا هَذَا، مَا المراد بالفتح فِي الآية؟

ذكرَ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ أن المفسرين أجمعوا على أن المُرادَ بالفتح؛ فتحُ مكة. لماذا خصوا فتح مكة؟

أولاً: الآية نزلت بعد فتح مكة، هَذَا أمر.

الأمر الثاني: أن العرب فِي الجزيرة العربية كانوا ينظرونَ إلى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يدخلوا فِي الْإِسْلَام، فقالوا: لا ندري، هل ندخل أو لا ندخل؟ فإن فتحَ مكة ودانت لَهُ مكة، فإنه نبي، وسنتبعه؛ لأنه كان بين أهل مكة وبين النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حروبٌ استمرت، فقالوا: إن دانت لَهُ مكة، دُنا لَهُ ودخلنا فِي الْإِسْلَام. فلما فُتحت مكة دخلوا فِي الْإِسْلَام.

ولذلك قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ﴾ النَّاس هم أهلُ الجزيرة وَمَنْ حولها، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ فالنتيجة مَا هي؟ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، مَا هُوَ التسبيح؟ هُوَ تنزيه الله عَنْ أي صفة لا تليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتعظيمهُ وتبجيلهُ وإجلاله. التسبيح تعظيم وتبجيل وإجلال وتنزيه عَنْ صفات النقص.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، كيف يُسبح بالحمد؟ نقول: سبحهُ وأنتَ تحمده، سبحهُ حامداً لَهُ، فقل: سبحان الله وبحمده، فأنتَ تُسبح وتُعظم وتُنزه، وأنتَ تحمدُ اللهَ وتشكره.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ استغفار أيضًا. التسبيح والتحميد والاستغفار، كُلُّ ذَلِكَ ماذا يُسمى؟ نقول: هَذَا شُكر، شُكرٌ للنعم التي أنعمَ الله بها على نبيهِ وعلى المسلمين فِي ذَلِكَ الوقت، وفي سار الأوقات، كلما حصل نعمة للإسلام وَالْمُسْلِمِينَ، سبح وعظم الله واشكرهُ واستغفرهُ.

﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ الخطاب فِي أول الأمر للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ للأمة.

كيف يُقال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد غُفرَ لَهُ مَا تقدم مِنْ ذنبه وما تأخر؟ كيف؟ هل النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني غُفرت ذنوبه؟ قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا

﴿فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، فالله قد غفرَ لَهُ ذنوبه.

فنقول: استغفار النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

- إما تعليم للأُمة حتى تستغفر.

- وإما يعني الاستغفار عبادة، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعبد بهذا الشيء.

- أو زيادةٌ في حسناته، لا يلزم أن تكون عنده ذنوب. زيادةً في حسناته.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣]، هذه الجملة تعليل بأنكَ كُل مَا تستغفر؛ فإن الله يغفر ذنبك؛ لأنه تواب، فالتواب هُوَ الَّذِي يقبل التوبةَ عَنْ عباده، ويعفو عَنْ السيئات، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه السورة لما نزلت على النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يُكثر مِنْ التسبيح والتحميد والاستغفار، حتى إنه كان يقول في سجودهِ ويقول في ركوعه: «**سبحانك اللهمَ ربنا وبحمدك، اللهمَ اغفر لي**»، فيُشرع لكل إنسان إذا ركع أو سجد مع التسبيح الَّذِي يأتي به، أن يقول: سبحانكَ اللّٰهمَ ربنا وبحمدك، اللّٰهمَ اغفر لي، فإن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أخبرت عائشة رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهَا: أنه لما نزلت هذه السورة، لزمَ هَذَا الدُعاء في سجودهِ وفي ركوعه.

فينبغي للإنسان أن يلزم هَذَا الدعاء.

تُسمى بسورة (التوديع)، ليش سُميت بسورة التوديع؟

لأنها لما نزلت على النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما نزلت عَلَيْهِ صعدَ المنبر، في التشريق، في أيام التشريق، وخطبَ النَّاس خُطبتهُ المشهورة في مِنى، وَقَالَ: «**قد نُعيت إليَّ نفسي**»، وَقَالَ في خُطبتهِ: «**إن رجلاً خُيرَ بين الدُّنْيَا والآخرة، فاختارَ الآخرة**»، ففهمَ ذَلِكَ مَنْ؟ أبو بكر الصديق فبكى، فهذه السورة مثل مَا ذكرنا، هَذَا معناها الظَّاهِر واضح.

لها معنى آخر خفي، مَا أحد يستطيع أن يصل إليه، كثير مِنْ النَّاس لا يعرفه، أنا أذكر لك الآن هَذَا الموقف، وهذه القصة تُبين لك هَذَا المعنى الدقيق، عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه لَهُ مجلس في خلافته، وكان يدخل عندهُ كِبار الصَّحَابَة، وأشياخ بدر، وكان يُدخل ابن عباس، ابن عباس كان صغير عمره خمس عشر سنة أو

ستةَ عشر سنة، أو قريباً مِنْ ذَلِكَ، فكان يُدخله، وكأن كِبار الصَّحَابَة نظروا إلى عمر، كيف تُدخل واحد صغير وإحنا عندنا أبناء في سنه وأكبر؟!

فأرادَ أن يُثبت لهم مكانة ابن عباس وعلمه الغزير، فجاء وسألهم، قَالَ لهم: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١ - ٣]، مَا معناها؟

شيوخ، يعني كِبار مِنْ علماء الصَّحَابَة وأجلاء الصَّحَابَة، سألهم، ماذا تقولون فِي هَذَا المعنى؟

قالوا: إذا فُتحت مكة. وَقَالَ بعضهم: إذا جاءت الانتصارات والغزوات، وكذا.

مَا أعجب عمر هَذَا الجواب، فالتفتَ لابن عباس، قَالَ: يا ابن عباس، مَا تقول فيها؟

قَالَ: هذه جاءت نعي للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه جاءت تُخبر النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقُرب أجله، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر: ١، ٢] فاستعد لمغادرة هذه الدُّنْيَا، فاستعد للرحيل مِنْ هذه الدُّنْيَا.

فَقَالَ عمر: واللهِ لا أعلم مِنْ معناها إلا مَا يعلمهُ ابن عباس.

هَذَا معنى خفي، قد لا يعرفه كثير مِنْ النَّاس. معنى خفي، إشارة، إشارة لأي شيء؟ لقُرب أجله، ولذلك قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نُعيت لي نفسي**»، إذا رأيت، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] واكتملت الفتوحات وظهر الْإِسْلَام، واكتملت دعوة النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لم يبقى إلا الرحيل.

ولذلك أنا أوصي نفسي أولاً وأوصي الحاضرينَ وَمَنْ يستمع: أنه ينبغي لكل مسلم منا كُلنا أن نُكثر مِنْ هذه الكلمات الثلاث: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٣].

سبح، واحمد، واستغفر؛ كل وقتك.

وَالنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لذلك قَالَ لبعض الصَّحَابَة لما نزلت هذه السورة، ما رأيت النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وَهُوَ يُسبح ويحمد، يُسبح ويحمد، كُل عملهُ وكل وقتهُ تسبيح وتحميد.

فَمِنْ تقدمَ به السن فعليه أن يحرص، يحرص على التسبيح والتحميد والاستغفار؛ فإن هَذَا هُوَ مِنْ الباقيات الصالحات.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا فِي تأملات هذه السورة، وأن يجعلها حُجةً لنا لا علينا، وأن يوفقنا لطاعته ولمرضاته، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وَسَلَّمَ عَلَى نبينا مُحَمَّد وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ المَسَد)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة المسد)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا مُحَمَّد، وعلى آلِهِ وصحبهِ وَمَنْ اهتدى بِهُداه إلى يومِ الدين، اللَّهُمَّ علمنا مَا ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وعملاً يا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هَذَا اللقاء المبارك، مع القُرآن الكريم، ومجلس مِنْ مجالس التدبر، هَذَا اليوم يوم الثلاثاء الثامن عشر مِنْ شهرِ ربيعٍ الأول مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة.

مجلسنا مع قصار السور، ولا زلنا فِي نهاية هَذَا الجزء المبارك، والسورة التي بين أيدينا هي مِنْ قِصار السور، ونأخذها تدبراً وتأملاً وتفكراً مِنْ عدة نواحي:

أولاً: اسم السورة.

ثانياً: نزول هذه السورة وسبب نزولها.

ثالثاً: مَا فيها مِنْ إعجاز قُرآني.

رابعاً: مَا احتوت عَلَيْهِ مِنْ معاني.

فالسورة فِي المصاحف تُسمى بسورة (المسد)، وتسمى بسورةِ (تبت)، وأيضًا تُسمى بسورةِ (أبي لهب). والمشهور فِي المصاحف سورة (المسد).

مَا سبب نزولها؟

جاءَ فِي أحاديث أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما نزلَ عَلَيْهِ قولهُ تَعَالَىَ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىَ: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، بداية الدعوة الجهرية؛ لأنه مكثَ ثلاث سنوات، ودعوتهُ كانت سِرية لم يُصرح بالدعوة ولم يجهر بها، فلما نزلَ عَلَيْهِ هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾؛ صعدَ على الصفا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونادى: يا بني فلان، يا بني فلان، ثُمَّ قَالَ لهم: «**لو أخبرتكم أن فِي سفح هَذَا الجبل خيلاً قادمة، أمصدقيَّ أنتم**»؟، قالوا:

مَا علمنا عليك مِنْ كذب أبداً. قَالَ: «إني لكم نذيرٌ بين يدي عذابٍ شديد»، وكان ممن حضر عمهُ أبو لهب، فَقَالَ: تباً لكَ، ألهذا جمعتنا! يعني لهذا الأمر! كأنه فِي نظره أمر لا يستحق.

تباً لكَ، يعني خسرت خسارة عظيمة، وهلكت لهذا الأمر، تدعونا لهذا الأمر!

فتفرقَ الجميع، ونزلت هذه الآية التي فيها شقاء هَذَا الرجل، وشقاء زوجته.

فأخبرَ الله بهذا الخبر العظيم، وهذه السورة تُعدُ مِنْ أوائل مَا نزل؛ لأنها تقريباً فِي السنة الثالثة أو قريباً مِنْ الثالثة، فهي مِنْ أوائل مَا نزل فِي العهد المكي.

مَا وجه الإعجاز فيها؟

الإعجاز أن الله أخبر بشيءٍ لم يحدث حتى الآن، وَهُوَ نهاية هَذَا الرجل، وأنه سيموت على الكُفر، ولن يؤمن مهما كان؛ لأن اللهَ كتبَ عَلَيْهِ الشقاوة، وأخبرَ بمصيرهِ إلى نارِ جهنم، -نسأل الله العفو والعافية-، وَهَذَا مِنْ الإخبار الغيبي.

والقُرآن الكريم فيه أخبار غيبية، أو فيه آيات تدلُ على الإعجاز الغيبي، مثل قوله تَعَالَىَ: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم: ٢، ٣]، غُلبت يعني غلبت فارس الروم؛ لأنها كانت دولتانِ عظيمتان، فغلب فارس الروم قبل الهجرة بسنة، يعني فِي السنة الثانية عشرة مِنْ الدعوة، فلما علمت قُريش فرحت؛ لأنها هي توالي فارس؛ لأنهم كانوا مُشركين يعبدونَ النَّار، والروم كانوا أهلَ كتاب.

فلما علمت قُريش بالانتصارِ فرحت. فأخبرَ القُرآن بهذا الخبر الَّذِي سيأتي بعدَ سنين. ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٤]، والبضع مِنْ ثلاث إلى تسعة. فأخبرَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها غُلبت، ولكنها ستغلبهم، هذا خبر، مَا يصدق أهل مكة ولا غيرهم، كيف تقول: ستغلبهم بعد سنين؟ كيف جبت هَذَا الخبر؟ مِنْ أين؟ أخبر القُرآن به. فلما جاء السنة السادسة مِنْ الهجرة، سنة صُلح الحُديبية، انتصرت الروم على فارس، والقصة معروفة.

أيضًا مِنْ أخبار القُرآن الغيبية، كثيرة، يعني منها قولهُ تَعَالَىَ مثلًا: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، هذه الآية نزلت فِي مكة، فِي مكة قبل الهجرة، وأخبرَ القُرآن بأنَ جمع قُريش سيهزمون ويولون الدُبر.

ولذلك عمر رَضِيَ اَللَّهُ عَنْه يقول: كُنت أقرأ هذه الآية ولم أعلم معناها الدقيق، حتى رأيت النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بدر وَهُوَ يثبُ على رُمح ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، يقول: فعرفت أن هَذَا وقت هذه الآية.

أحياناً القُرآن يُخبر عَنْ أشياء غيبية، هَذَا يُسمى مِنْ الإعجاز الغيبي، القُرآن يُخبر عَنْ أشياء غيبية مُستقبلة، وأحياناً يُخبر عَنْ أشياء غيبية حاضرة، كما ينزل القُرآن لإخبار النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأشياء حاضرة، وأحياناً يُخبر عَنْ أشياء غيبية ماضية، مِنْ الأُمم الماضية التي لا يعلمُها أحد إلا الله، أُمم ماضية مضت وجاء فيها مِنْ الأخبار الدقيقة التي يأتي بها القُرآن بدقائقها الحقيقية.

نعود إلى السورة، السورة فيها إعجاز غيبي، افتتحها الله بالدعاء، هَذَا يُسمى دُعاء: ﴿تَبَّتْ﴾ [المسد: ١] دعاء، افتتحها الله بالدعاء، الدعاء على هَذَا الرجل.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] يعني خسرَ خسارةً عظيمة، وهلكَ هلاكاً عظيماً، تبت يداه.

قد يسألك سائل: يقول لك: طيب، لماذا خصَ اليدين؟ ليش مَا قَالَ: تبت تباً لَهُ هُوَ؟ وهلكَ هُوَ؟ لماذا تهلك يداه فقط؟

نقول: لأن الأخذ والعطاء باليد غالباً، ولأن الجزاءَ مِنْ جنس العمل؛ لأنه لما جمعهم النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رفعَ يدهُ وَقَالَ: تباً لك. فعاقبهُ الله على هَذَا العمل، فالجزاءُ مِنْ جنس العمل.

ودائماً الكسب يكون فِي اليدين غالباً، يكون فِي اليدين ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] دائماً.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، الرجل اسمهُ عبد العزى بن عبد المطلب، القُرآن مَا صرحَ باسمهِ، وإنما أتى بالكُنية، والكُنية دائماً، دائماً تكون على وجه المدح، لما يُقال: يا أبو فلان، دائماً تكون على وجه المدح، فلماذا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذكرَ كُنيتهُ ولم يذكر اسمه؟

قالوا: لأن اسمهُ متعبد لغير الله، عبد العزى، متعبد لغير الله، والقُرآن لا يُريد ذِكر هَذَا الشيء؛ لأن هَذَا مُخالف للشرع، فأتى بكُنيتهِ (أبو لهب)، هَذَا مِنْ وجه.

وَمِنْ وجهٍ آخر: التشابه بين لهب وجههِ؛ لأنه سُميَ لهباً، قالوا: لتلهب وجههِ ووضاءة وجههِ، فسموه أبو لهب، أو سموهُ أبا لهب، ولأن اللهَ أعدَ لَهُ ناراً ذاتَ لهب، فالجزاء مِنْ جنس العمل، يُناسبهُ أن تكون النَّار ناراً ذاتَ لهب لأبي لهب. فيه توافق بين اللفظين.

كانت عداوتهُ شديدة، زوجتهُ عداوتها أيضًا شديدة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ عداوتهِ الشديدة وتسلطهِ على النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يخرج فِي مناسبات الحج، فِي أسواق الحج، المجنة، وسق عكاظ، وأسواق مكة المعروفة، كان يخرج إليها النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو إلى الله، يقول: «**مَنْ يحميني أُبلغ رسالةَ ربي، اعبدوا اللهَ مَا لكم مِنْ إلهٍ غيره**»، ويدور فِي الأسواق، وكان خلفهُ مَنْ؟ أبو لهب، يقول: اتركوه؛ فإنه كذاب. اتركوه فإنه ساحر. دعوهُ. تسلطَ عَلَيْهِ، فجازاه الله، جزاه الله.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، السؤال هنا: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (تبت – تب) هل هي بمعنى واحد، مُكررة؟ ولا الأولى غير، والثانية غير؟

نقول: لا، الأولى شيء والثانية شيء.

الأولى: دُعاء عَلَيْهِ: تبت يداه يعني اللّهم أهلكه، هَذَا دُعاء. اللّهمَ أهلكه، اللّهمَ اجعلهُ يخسر فِي الدُّنْيَا والآخرة.

والثانية: خبر.

يعني دعا عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بهذه الدعوة، ثُمَّ أخبرَ أن هذه الدعوة تحققت، أن هذه الدعوة ثبتت عَلَيْهِ. فَهُوَ دُعيَ عَلَيْهِ بالهلاك، ثُمَّ تحققَ الهلاك لَهُ.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي هلكَ وخسر.

ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢]، يعني (مَا) هنا يسميها أهل العلم نافية تنفي، يعني مالهُ مَا ينفعه، (مَا أغنى) يعني مَا نفعَ عنه، ولم ينتفع بماله؛ لأنه صاحب مال، فَقَالَ: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

أيضًا سؤال هنا: هل قولهُ تَعَالَى: ﴿مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾، مَا كسب هُوَ المال، ولا شيء آخر؟ يعني مَا كسب ماذا؟ إن كان هُوَ المال نفسه فيه تكرار، إن كان شيء آخر، فما هُوَ؟

بعض المفسرين يقول: مالهُ الَّذِي عندهُ، وما كسبَ عَلَيْهِ. مَا زاد عَلَيْهِ مِنْ الكسب.

وبعضهم يقول: لا، (مَا أغنى عنهُ مالهُ) هَذَا المال، (وما كسب) هَذَا الولد؛ فإن الولد مِنْ كسبِ أبيه. حديث: «**إن الولدَ مِنْ كسب أبيه**». فما أغنى عنهُ مالهُ ولا ولده.

ودائماً التفسير لما يُعطينا معنى جديد أولى مِنْ يعطينا تكرار، الجديد المعنى يفيدك أزيد وأكثر. مَا أغنى عنه مالهُ ولا ولده، لا المال ولا الولد نفعهُ.

ثُمَّ أخبرَ بصيغة تدلُ على الاستعجال، شوف لما يقول: ﴿سَيَصْلَى﴾ [المسد: ٣] غير (سوف يصلى). سوف يصلى هذه تفيد البطء مَا تفيد الاستعجال، لما يقول: (سيصلى) هذه دليل على السرعة والاستعجال.

شوف فِي قصة يعقوب وأبنائه، ﴿قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، ماذا قَالَ؟ قَالَ: سأستغفر، ولا قَالَ: سوف؟

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ﴾ [يوسف: ٩٨]، طيب، لماذا قَالَ: سوفَ، لماذا يؤخر؟ قَالَ: أهل التفسير: إنه أخرهُ لوقت السَحر؛ لأن هَذَا الوقت وقت إجابة، فَقَالَ لهم يعقوب: أنا سأستغفر لكم ربي فِي هَذَا الوقت، ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لكم﴾.

هنا قَالَ: ﴿سَيَصْلَى﴾ [المسد: ٣] أي على عُجالة وسُرعة، خبر سريع. وقوله: ﴿سَيَصْلَى نَارًا﴾ [المسد: ٣]، هَذَا دليل على خاتمته السيئة، أن الله كتبَ عَلَيْهِ الشقاوة.

﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣]، وفي هَذَا دلالة على أن القُربة مَا تنفع، قرابك مِنْ الشخص مَا تنفعك، ينفعك عملك الصالح أمام الله عَزَّ وَجَلَّ، أما القرابة مَا تنفع «**مَنْ بطأَ به عملهُ لم يُسرع به نسبه**»، مَا ينفع النسب والقرابة، إلا العمل الصالح.

ولذلك قَالَ: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ٣]، مَا معنى (يصلى)؟ قد يفهمها بعض النَّاس: يصلى مِنْ الوصول، يعني يصل إلى النَّار، يعني يدخل.

(يصلى) مِنْ الصلي، وَهُوَ الاحتراق. كلمة صَلِيَّ يصلىَ يعني يحترق. ليست مِنْ الوصول، وإنما يُقال: شاةٌ مَصلية يعني مشوية. فقولهُ: ﴿سَيَصْلَى نَارًا﴾ أي سيدخلُ النَّار ويحترق فيها. هَذَا معناه: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، والنار وصفها الله بأنها تتلهب لشدةِ احتراقِها، لشدةِ حرها واحتراقِها.

ثُمَّ ذكرَ الله عَنْ زوجتهِ أيضًا بأنها امرأةٌ سيئة، كانت هي تؤذي النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بالسب والشتم، وتؤذيه أيضًا كما ذكرَ أهلُ التفسير: بوضع مَا يؤذي النَّبِيّ فِي طريقه إذا أرادَ أن يذهب آخر الليل ليُصلي عِنْدَ الكعبة فِي ظُلمة الليل، تضع فِي طريقهِ مَا يؤذيه.

فَقَالَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤] أي وامرأتهُ أيضًا ستصلى، هَذَا معناه، معطوفة، أي امرأتهُ ستصلى ناراً ذاتَ لهب.

ثُمَّ أخبرَ بأنها (حمالة الحطب)، يعني أذمُ وأخصُ هذه المرأة التي توصف بأنها حمالة الحطب.

مَا معنى (حمالة الحطب)؟

قيل فِي تفسيرها ثلاثة أقوال:

- القول الأول: حمالة الحطب على ظاهره، أنها تحمل الحطب والشوك وتضعهُ فِي طريق النَّبِيّ. هَذَا هُوَ المتبادر عِنْدَ كثير.

- والرأي الثاني: أن حمالة الحطب، بمعنى: أنها تحمل على ظهرها الأوزار، لأنها كانت تمشي بالنميمة والسب للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتُسمي النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بدل مَا تقول محمداً، تقول: مُذمماً، وتسبهُ. فحملها الحطب على ظهرها كحمل الأوزار على الظهور والذنوب.

- المعنى الثالث: أنها تحمل حطب جهنم على ظهرها وتضعهُ على زوجها فِي نارِ جهنم. يعني تكونُ يعني مُسلطةً على زوجها حتى فِي نارِ جهنم تُعذبُ زوجها بهذا الحطب.

قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]، قَالَ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ [المسد: ٥].

مَا السبب؟ لماذا ذكرَ الله الجِيد؟ الجيد هُوَ العُنق، عُنق الشخص. ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾. أيضًا كلمة ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ قيلَ: إنها كانت تحمل الحطب على ظهرها، وتضعهُ على عُنقها، تربطه، هَذَا الواقع.

وقيل: إنها كانت لها قِلادة تلبسها فِي عُنقها، وكانت لها مكانة عندها وقيمة عظيمة عندها، فأخذتها واشترت بها، باعتها وأخذت المال لتنفق على إيذاء النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بهذا المال. تُنفقهُ فِي إيذاء النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقيل: إن معنى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ أنه يوضع فِي عُنقها سلسلة يوم القيامة، سلسلة مِنْ نار، توضع فِي عنُقها؛ لتحمل الحطب فتُلقيهِ على زوجِها.

كُل هذه الأقوال واردة، وكلها أقوالاً يعني سيئة.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ المسد مَا هُوَ؟ قيل: هُوَ الليف الَّذِي كانت العرب تستعملهُ لربط، للحبال، هُوَ المسد، لكنه مسدٌ فِي نارِ جهنم، غير ليف الدُّنْيَا، مسدٌ تُعذب به وتُخنق به.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ جاء أيضًا مِنْ أخبار إيذائها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها لما نزلت السورة، وأُخبرت بأن القُرآن نزل، وأن محمداً أوحيَ إليه بهذه السورة، وقُرأت عَلَيْهَا فسمعتها، جاءت فِي يوم مِنْ الأيام وأخذت حجراً عظيماً وجاءت إلى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكان جالس هُوَ وأبو بكر عِنْدَ الكعبة، فأقبلت قالت: أين مُحَمَّد، أين مُحَمَّد.

فَقَالَ أبو بكر: يا رَسُول الله، قد أقبلت عليك.

قَالَ: «**لن تراني ولن تؤذيني**».

فلما وصلت إلى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ألقت الحجر فِي الأرض، وقالت لأبي بكر: أين صاحبُك؟ أين صاحبُك؟ فأعمى اللهُ بصرها وبصيرتها.

هذه السورة التي نقرأها كلنا، ونُرددها كُل يوم، أو فِي الأيام، ويحفظها الجميع كلهم الصِغار والكِبار، فيها عِبرة، فيها دروس، فيها آيات عظيمة، فيها دلالات تدلُ على أن القُرآن مُنزل مِنْ عِند الله، تدلُ على سوء الخاتمة لكل مَنْ كانت خاتمتهُ سيئة، تدلُ على كُلّ مَنْ آذى المسلمين، يأخذ العبرة مِنْ هذه الدروس أن يبتعد عَنْ إيذاء المسلمين، أن يحفظ نفسه.

أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بهذه السورة، وأن يُبارك لنا فِي أوقاتِنا وفي أعمالِنا، وأن يجعلنا وإياكم مِنْ أهل القُرآن الذينَ هم أهلُ الله وخاصته، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وَسَلَّمَ عَلَى نبينا مُحَمَّد، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الإِخْلَاص)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة الإخلاص)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبِهِ وَمَنْ اهتدى بهداه إلى يومِ الدين، اللَّهمَ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هذا اللقاء المبارك، هذا اليوم هو اليوم الخامس والعشرون مِنْ شهرِ ربيعٍ الأول مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف للهجرة، مجلسنا المُبارك مع القُرآن الكريم، قراءةً وتفسيرًا وتدبرًا وتأملًا.

السورة التي بين أيدينا، مِنْ قِصار السور، والحقيقة تُعدُ مِنْ أهم سور القُرآن الكريم، ووردَ فيها فضائل عظيمة، بل إن مَنْ أحبَ هذه السورة، مَنْ أحبها أحبهُ الله، وأن هذه السورة سببٌ لدخول الجنة، مَنْ حافظَ عَلَيْهَا ورددها بكثرة كانت سببًا لدخولهِ الجنة.

هذه السورة سورة عظيمة، النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عظمها، فقال: «**أيكم يعجز أن يقرأَ القُرآنَ فِي ليلة؟**» ثم قال: «**مَنْ قرأ سورة الإخلاص فكأنما قرأَ ثُلث القُرآن**»، فإذا قرأتها ثلاثَ مرات فكأنما قرأتَ القُرآنَ كُله، يعني يعدلُ فضلُها كمن يقرأ القُرآن كاملًا مِنْ حيث الفضل، مِنْ حيث الأجر والفضل، لا مِنْ حيث الإجزاء، لا مِنْ حيث الإجزاء لكنه مِنْ حيث الفضل والأجر؛ فإنَ مَنْ قرأها ثلاثَ مرات فكأنما قرأَ القُرآنَ كُله.

☚لما أقول: أنَ مَنْ أحبها أحبه الله.

أن رجلًا كان فِي سرية مِنْ السرايا فِي غزو، فكان يُصلي بأصحابه، وكان يقرأ بعد الفاتحة أو بعدَ السورة التي تلي الفاتحة، كان يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فِي كل ركعة، كُل ما جاء فِي ركعة وقرأ الفاتحة وسورة، قرأَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فِي هذه الركعة، فتعجبَ أصحابه، فلما جاءوا إلى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سألوه، فسألهُ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**ما الذي دعاكَ إلى أن تفعل هذا؟**». قال: إنها سورة عظيمة، وإني أُحبها. قال: «**أحبكَ الله بما أحببتها**» «**-أو بسببِ حُبكَ لها**»-.

◈وفيه أيضًا حديث آخر، وهذه حتى نقف معها وقفة، **هل يجوز للإنسان أن يقرأ بمثل هذا؟ يعني أنت الآن لو تبي تصلي سُنة مِنْ السُنن، أو فريضة مِنْ الفرائض، هل يجوز لك أن تقرأ بعدَ قراءة السورة التي تلي الفاتحة أن تقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في كل ركعة؟ ولا لا يجوز؟ أو نقول هذه خاصة؟**

نقول: هذا جائز، لكنه ليس مِنْ السُّنّةِ؛ لأن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يفعله، ولم يفعلهُ أصحابه، ولكنه أقرهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أقرهُ في الحديث، فما دام أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقرَ هذا الشيء، دلَ على الجواز، على أَنَّه يجوز أن تفعل ذلك أحيانًا.

☚**جاء في حديث آخر:** أن رجلًا كان يُصلي بأصحابهِ في قباء، في مسجد قباء، وكان نفس العمل، كان يقرأ سورة الإخلاص في كُلِّ ركعة، فقال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له: «**ما الذي دعاكَ إلى هذا؟**»، فقال: إني أُحبها. قال: «**حُبُّكَ إيَّاها أدْخَلَكَ الجَنَّةَ**».

☚جاء في فضلها أيضًا أحاديث كثيرة، مِنْ هذه الأحاديث: أن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَ بقراءتها كُلَّ ليلة ثلاث مرات، فمن السُّنّة أن تقرأها كُلَّ ليلة ثلاث مرات. يعني أولًا: أنها سُنة، يعني تقتدي بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بأمرهِ. والأمر الثاني: ما يحصل لك مِنْ الفضل العظيم في قراءتها ثلاث مرات.

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ألفَ فيها كتابين، في هذه السورة، السورة التي هي تقريبًا سطر واحد، ألفَ فيها كتابين:

الكتاب الأول: اسمه تفسير (سورة الإخلاص) موجود ومطبوع.

والكتاب الآخر: اسمهُ (جواب أهل العلم والإيمان بأن سورة الإخلاص تعدلُ ثُلث القُرآن).

ألف فيها مؤلفين، يعني يدل على ماذا؟ يدل على عِظمِ هذه السورة ومكانتِها وشرفِها.

قد يسألك سائل يقول لك: طيب، لماذا النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أنها تعدل ثُلث القُرآن؟ ليش؟ ليش ما قال ربع ولا نصف؟

نقول: لأن القرآن يحتوي على ثلاث أقسام:

القسم الأول: يتعلق بالعقائد؛ وهذا هو الثلث الأول: التوحيد والعقائد.

القسمُ الثاني: يتعلق بالقصص، القصص القُرآني.

والقسمُ الثالث: يتعلق بالأحكام العملية، كالصلاة والزكاة والصوم والحج، الأحكام كُلها.

فلما كان القُرآن بهذا يعني التصنيف أنَّه ينقسم ثلاث أقسام، كان حظ هذه السورة سورة (الإخلاص) كان حظها الثُلث من هذا القُرآن.

ورد فِي فضائل هذه السورة مثل ما ذكرنا هذه الفضائل، **وأيضًا لها يعني أوقات يُستحب أن يأتي الإنسان بها، ما هذه الأوقات التي يُستحب للإنسان أن يأتي بها؟ ما هي السُنن التي ينبغي لنا جميعًا أن فعلها وألا تفوتنا فِي اليوم والليلة؟ ما هي السُنن المتعلقة بسورة (الإخلاص) متى نقرأُها؟ هل نقرأها فِي كل وقت؟ ولا هناك أوقات محددة جاءت السُّنّة فيها؟**

نقول: فيه أوقات أو فيه أشياء ومواضع وأحوال تُسن فيها قراءة سورة الإخلاص، مثل ماذا؟

➤أولًا: الوِتر، إذا أرادَ الإنسان أن يوتر، مِنْ السُّنّةِ أن يقرأ سورة (الإخلاص) بعد الفاتحة فِي الوتر.

➤كذلك فِي ركعتي الطواف يقرأ فِي الأولى (الكافرون)، وَفِي الثانية (الإخلاص).

➤كذلك أيضًا فِي ركعتين الفجر، ركعتي سُنة الفجر (الكافرون)، و(الإخلاص) فِي الركعة الثانية.

➤وأيضًا فيه هناك سُنة أُخرى فِي ركعتين الفجر، سُنة الفجر: أن يقرأ (آيةً مِنْ البقرة) و(آيةً مِنْ آلِ عمران)، وردَ عن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه كان يقرأ فِي الركعةِ الأولى آية مِنْ سورة البقرة، وهي قولهُ تَعَالَى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ...﴾ [البقرة: ١٣٦] إلى آخر الآية. وَفِي الركعةِ الثانية: ﴿قُلْ يا أهل لْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ...﴾ [آل عمران: ٦٤] إلى آخر الآية.

☚هذه يفعلها النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ركعتي الفجر، كان يقرأ تارةً هذه، وتارةً هذه. ولو قرأَ غيرها لأجزأَ ذلك.

➤أيضًا مِنْ السُنن أن الإنسان يقرأها عند الصباحِ وعند المساء، مع المعوذتين، إذا أصبحَ الإنسان فِي أذكار الصباح، فِي أوراد الصباح، مِنْ هذه الأوراد أَنَّه يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين فِي الصباح، وكذلكَ فِي المساء.

متى يكون المساء؟

بعض أهل العلم يقول: المساء يبدأ بعد صلاة العصر. هذا وقت العشي، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: بالعشي والإشراق، العشي يبدأ بعد صلاة العصر، والأذكار تبدأ بعد صلاة العصر، فهذا وقت المساء.

وبعضهم يقول: بعدَ صلاة المغرب.

والأمر فيهِ سِعة، فمن أتى بأذكارهِ وأوراده بعد العصر، أو قُبيل المغرب، أو بعد الصَّلَاة مُباشرة، أو بعد صلاة المغرب، الأمر فيه سِعة، إلا ما دلَ الدليل على أَنَّه فِي الليل، مثل قول النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قرأ الآيتين مِنْ آخر سورة البقرة فِي ليلة»، قال: «فِي ليلة»، ما قال فِي المساء، فهذه مُتعلقة ببعد غروب الشمس.

➤مِنْ الفضائل لسورة الإخلاص أنها أيضًا تُقرأ بعد دُبر كل صلاة، إذا صليت الفريضة تقرأُها فِي صلاة الظهر والعصر والعشاء مرةً مع المعوذتين، وتقرأها ثلاثَ مرات بعد صلاة الفجر وبعد صلاة المغرب.

➤أيضًا مِنْ فضائل هذه السورة: أن الإنسان إذا أوى إلى فراشه للنوم فِي الليل فإنه يأخذُ كفيه ويجمعُ كفيه، ثم يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ثلاث مرات، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثلاث مرات، وينفث فِي كفيه، كل ما قرأَ نفث، كل ما قرأ نفث، ثم مسحَ بها وجههُ وسائر جسده. النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانَ يفعل ذلك كُلَّ ليلة. فهذه مِنْ السُنن.

◈وقد توجد هناك سُنن أُخرى كثيرة فِي هذه السورة، لم أكن يعني أُحصيها جميعًا، ولكن هذا الذي استطعت أن آتي به حتى يكون الإنسان على بيّنة وعلى معرفة بهذه السورة العظيمة التي تعددت وكثرت فيها الفضائل.

هذه السورة لها سبب نزول، وذلكَ أن المشركينَ جاءوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا محمد، انسب لنا ربك. مَنْ هو رَبُك؟

أنتَ تقول: اعبدوا الله، مَنْ هو ربُك؟

فأنزلَ الله هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

➤وجاءَ فِي رواية أيضًا أن الْيَهُود هم الذين سألوا النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: يا محمد انسب لنا ربك؟

➤وجاء فِي حديث ثالث أيضًا أن أعرابيًا جاءَ إلى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: يا محمد انسب لي ربك؟ فأنزل الله هذه السورة.

ولا مانع أن يكون هذه الأسباب كلها صحيحة، يعني أهل مكة سألوه، الْيَهُود سألوه، هذا الأعرابي سأله، قد تتعدد الأسئلة لحالة واحدة، هذا ممكن جائز، هذا فِي سبب نزول هذه السورة.

هذه السورة إذا قرأتها، كلنا نحفظها، الجميع يحفظها، لكن تحتاج مِنا ماذا؟ فهم لآياتِها، وتحتاج مِنا تدبر.

هذه السورة افتُتحت بقولهِ: ﴿قُلْ﴾ [الإخلاص: ١]، يدل على أي شيء؟ يدل على الاهتمام بهذه السورة، لما يقول لك: قُل. وأقول لك أنا: قُل. وأنت قُل، وقل، وأُكرر عليك كلمة (قُلْ) هذا يدل على أَنَّه ينبغي أن تعتني بها.

ولذلك جاءت بعض السورة فِي افتتاحيتها بهذا الفعل (قُلْ) ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وهكذا.

أيضًا هذه افتتاحية يعني واضحة، تدلُ على أن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُخاطب بالآيات، وأنه يأتيه الوحي مِنْ السماء، يأتيه الوحي، وأن الله يُكلفه فيقول له: قُلْ يا محمد لهؤلاءِ كذا وكذا.

هذه السورة إذا نظرتَ إليها وتأملتها تأملًا دقيقًا وجدتها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: فيه إثبات.

والقسم الثاني: فيه نفي.

ما هو الإثبات؟

وما هو النفي؟

الإثبات: أنها أثبتت لنا أنواع التوحيد الثَّلَاثَة:

- توحيد الربوبية.
- توحيد الألوهية.
- توحيد الأسماء والصفات.

فِي الجُمل الأولى الثلاث اشتملت على أنواع التوحيد الثَّلَاثَة.

والقسم الثاني: نفت عن الله صفات النقص التي لا تليق، ولا ينبغي أن يوصف الله بها.

- يعني النصف الأول منها: يجب علينا أن نُثبت لله ما اثبتهُ هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيها.
- القسم الثاني: يجب علينا أن ننفي ما نفاه الله عن نفسه.

فتأمل معي: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، **الله** هذا يدل على أي نوع مِنْ أنواع التوحيد؟ **توحيد الألوهية أو توحيد الإلهية، أو توحيد العبادة،** يعني: الله المألوه المعبود المحبوب المستحق العبادة، المستحق للخضوع والإيمان والطاعة، هذا اللفظ الأول (الله) توحيد الإلهية.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ **(أحد) يدل على توحيد الأسماء والصفات؛** أَنَّه أحدٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ألوهيته، أحدٌ فِي ربوبيته، أحدٌ فِي إلهيته، أحدٌ فِي أفعاله، وهو أحدٌ فِي كُلِّ شيء.

وفرق بين أن يقول: قُل هو الله الواحد، لما تقول: (الواحد) و(الأحد) فيه فرق كبير، (الواحد) و(الأحد) فيه فرق كبير، كيف فرق كبير؟

لما يأتيك واحد ويقول لك: هل فلان عندك فِي البيت؟

تقول: ما عندي أحد. هذا نفي مُطلق ما عندي أحد أبدًا.

لما يقول لك: هل فلان عندك فِي البيت؟

تقول: ما عندي واحد. يعني عندي اثنين، عندي ثلاثة، ما عندي واحد. فكلمة (واحد) ما تُعطيك نفي مثل ما يُعطيك كلمة (أحد) فهو الأحد المنفرد الفرد الأحد فِي إلهيته: لا معبودَ بحقٍ إلا هو، فِي ربوبيته: لا رَبَّ سواه، وَفِي أفعالهِ وتصرفاتهِ فِي الكون؛ فبيدهِ كُل شيء.

هو الغني الأحد، وتأتي بجميع الأسماء الحُسنى وتضعها أمام (أحد) تجدهُ أحدٌ فِي غناه، أحدٌ فِي سمعهِ، أحدٌ فِي بصرهِ، أحدٌ فِي كذا، هذه تعتبر كلمة (أحد) تُثبت لنا ماذا؟ تثبت لنا هذا النوع مِنْ أنواع التوحيد وهو توحيد الأسماء والصفات.

يبقى عندنا التوحيد الثالث: توحيد الربوبية، أين هو؟

نقول: فِي كلمة **(الصمد)** ما معنى (الصمد)؟ ما هو (الصمد)؟

قالوا: الصمد الذي يصمدُ لاحتياجات النَّاس، يعني النَّاس هم المحتاجونَ إليه وهو الغني، فالخلق يصمدونَ إليه، يصمدونَ إليه يعني يلتفتونَ إليه باحتياجاتِهم، حتى سائر المخلوقات، الإنسان محتاج إلى ربه، والحيوان محتاج إلى ربه، وكل المخلوقات حتى الجمادات محتاجة إلى ربها، واللهُ هو الذي يتولاها، وهو الصمد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

كلمة (الصمد) أن الخلقَ يتوجهونَ إليه وهو يصمدُ فِي إجاباتهم ويُعطيهم احتياجاتِهم.

فأنتَ لما تقرأ هذه الكلمة وأنت تقرأ سورة (الإخلاص) وتكررها دائمًا فِي كل وقت، تذكر كلمة (الصمد) أنك مُحتاج إلى ربك، وأن الله هو الذي يُعطيك ما تحتاج إليه، هو الذي يستجيب دُعاءك إذا سألته، وتذكر هذه الكلمة.

وقال بعضهم: إن (الصمد) الذي لا جوفَ له، يعني لا جوفَ له يعني لا يحتاج إلى أكلٍ ولا شُربٍ ولا إلى أي شيء، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي يُطعِمُ ولا يُطعَم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فهو الغني مِنْ كُلِّ وجه.

إذا عرفت هذه الأشياء الثَّلَاثَة التي تُثبت لله أنواع التوحيد.

فننتقل إلى القسم الثاني فِي السورة، وهي ثلاثة أشياء ينفيها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن نفسه، فيقول: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، وهذا ردٌ على هذه الطوائف الثلاث: الْيَهُود والنصارى والمشركين.

◄ الْيَهُود قالوا: عُذير ابنُ الله، والله يقول: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾. كيف يقولون ابن الله؟! تَعَالَى الله عما يقولونَ علوًا كبيرًا. الله يقول ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ وأنتم تقولون ابن الله!! ما هذه الجراءة.

◄ والنصارى يقولونَ: المسيح ابن الله، والله يقول: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

◄ والمشركون يقولون: الملائكةُ بناتُ الله، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، لو كان يولد كان ضعيفًا، كان مُحتاجًا، فهو غنٌى مِنْ كُل وجه، لا يحتاج إلى غيرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالنَّاسُ كلهم محتاجونَ إليه. ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، غنٌى مِنْ كل وجه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، يعني لم يكن له مثيل ولا شبيه، ولا نِد، ما يُشابهُ أحد. لا شبيهَ له، ولا مثيلَ له، ولا نِدَ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هو المُنفرد. المنفرد بالصفات، المنفرد بالأفعال، المنفرد بالأسماء، المنفرد بكُلِّ شيء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والسورة إذا تأملتها تأملًا دقيقًا وجدت أنها سورة على ما سُميت عَلَيْهِ، سورة (الإخلاص) فأنتَ تقرأها وأنتَ تُظهر الإخلاص لله؛ أَنَّه بهذه الصفات، وأنه ينبغي أن ننفي عنه هذه الصفات.

هذه كلمة ﴿كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]، قُرأت قراءات صحيحة سبعية، قُرأت بأن تقول: ولم يكن له كفوًا (بالواو) كفوًا أحد. تضم الأولى (الحرف الأول) والثاني، كُفُوًا أحد.

وقُرأت (كفؤًا) بالهمزة، كُفُؤًا أحد.

لكن القراءة الخاطئة التي نسمعها أحيانًا مِنْ بعض النَّاس، تسمعها أنت وأنا، أن يقول: كُفْوًا، كُفْوًا. (كُفْوًا) هذا خطأ، هذا لحن فِي القراءة، الفاء التي بعد الكاف يسكنونها، يقول: كُفْوًا، هذا خطأ. والصحيح أن تقول: (كُفُوًا) بضم الأولى وضم الثانية. كُفُوًا أحد.

وعرفنا أَنَّه لا يُكافئهُ أحد، ولا يُشابهُ أحد، ولا مَثِيلَ له.

السورة الحقيقة يعني لو تحدثت عنها أنا، وجلسنا جميعًا، نحن نتدبرها ونتأملها وهي سورة قصيرة، ما أعطيناها حقها، لم نُعطيها حقها الحقيقة مما تُدل عَلَيْهِ هذه السورة، واللهُ يُحبُ مَنْ أحبها، ويُدخلُ مَنْ أحبها الجنة، لَا شَكَّ أنها سورة عظيمة.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ألف فيها مؤلفين كِبار، مؤلفات، نأتي نحن ونتكلم بعشر دقائق أو ربع ساعة أو أكثر مِنْ ذلك، أظن أننا ما أعطيناها حقها مِنْ المعاني والدلالات والتدبرات التي حول هذه السورة، لكن ما ذكرناه فيه إِنْ شَاءَ اللهُ الكفاية، وفيه النفع اسال الله ينفعنا بما قلنا وبما تحدثنا عنه والله أعلم وصلي الله وسلم علي نبينا محمد وعلي اله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ الفَلَق)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة الفلق)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبهِ وَمَنْ اهتدى بهداه إلى يومِ الدين، اللَّهمَ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هذا اللقاء المبارك، وَفِي هذا اليوم الثاني مِنْ شهرِ ربيعٍ الآخر مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف مِنْ الهجرة، أسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما نقول، وبما نسمع، وأن يجعلنا وإياكم مِنْ أهل القُرآن الذين هم أهلُ اللهِ وخاصته.

آخر القُرآن وخاتمة القُرآن المعوذتان، سورة الفلق، وسورة النَّاس، حتى ذكرَ أهل العلم أنها أو أنهما نزلتا فِي وقتٍ واحد.

واختلفَ أهلُ العلم فِي نزولها هل نزلت فِي مكة أو نزلت فِي المدينة؟ على أقوال، **والصحيح واللهُ أَعْلَمُ:** أنها نزلت بالمدينة؛ لأن النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المدينة كان يُعوذُ نفسهُ بتعاويذ مِنْ السُّنّة، فلما نزلت أو نزلت هاتان السورتان تركَ التعاويذ وأخذ بهما.

سورة (الفلق)، سورة الفلق وسورة النَّاس وأيضًا التي قبلهما سورة الإخلاص، هذه الثلاث لها فضائل، مثل ما مر معنا، مِنْ فضائلها: أنها تُقرأ فِي الصباح وَفِي المساء، يعني فِي أوراد الصباح، وَفِي أوراد المساء؛ لأنها حفظ وحِرز لكُلِّ مَنْ يقرأها، فمن قرأها كانت حفظًا له مِنْ كُلِّ شر، يقرأها الإنسان بتدبر وبتأمل، يُكررُها ثلاثًا عند الصباح، فِي وِرد الصباح، وَفِي ورد المساء.

وَأَيْضًا مِنْ مواضع قراءتها وفضائلها: أنها تُقرأ بعد كُلِّ صلاة، وصلاة الفجر وصلاة المغرب التي هي أولُ النهار وآخره تُكرر ثلاثًا، وأما بقية الصلوات فإنها تُقرأ مرة.

كذلك مِنْ فضائلها وأماكن قراءتها أنها أيضًا تُقرأ عند النوم، فإذا أوى الإنسانُ إلى فراشه فإنه مِنْ السُّنّة أن يجمع كفيهِ ويقرأ سورة الإخلاص ثلاثًا وسورة الفلق ثلاثًا، وسورة النَّاس ثلاثًا، ثم يمسح وجههُ وسائر جسده، هذا مِنْ السُّنّة، لماذا؟ لماذا خُصصت هذه الأوقات؟

يعني أول الصباح، وَفِي المساء، وعند النوم، وبعد الصلوات الفرائض، لماذا؟ لأنها حرز، حرز وحفظ لهذا الإنسان، فيُصبح فِي حفظ الله وَفِي حِرزه، ويُمسي فِي حفظ الله وَفِي حرزه، ويضعُ رأسهُ على فراشهِ فِي حفظ الله وَفِي حرزه.

وكذلك لما كان مرتبطًا بالصلاة ويُصلي هذه الفرائض وهو أقرب ما يكون إلى الله، وهو فِي حفظ الله، فإذا انفلتَ مِنْ صلاتهِ قد تأتيه الشرور والشياطين، فيحفظ نفسهُ بهذه الأذكار.

هذه الأذكار أيها الإخوة التي يأتي بها الإنسان بعدَ كُلِّ فريضة، إذا صلى الفريضة وسلم، هناك أذكار مختصرة ليست بالمطولة: استغفر الله، اللَّهمَ أنتَ السلام، ومنك السلام، إلى آخر ما وردَ فِي ذلك.

العجيب إنك تجد بعض النَّاس يعني بمجرد الإمام يُسلم ويُسلم بعدهُ يخرج مُباشرة، ويقول: أنا آتي بالأذكار فِي الطريق وَفِي السيارة ويأتيه الشيطان ويُشغله، فهذه أشياء فضائل عظيمة، فضائل حرز وحفظ لك، وفيها أجور عظيمة، لا تحرم نفسك، وهي لا تأخذ منك ولا خمس دقائق أو أقل مِنْ ذلك، فتجد بعض النَّاس سُرعة، إلى أين تذهب؟ ما هذه السُرعة التي تأخذك مِنْ مكانك بعد الصَّلَاة إلى أن تذهب إلى أين؟ فكثير مِنْ النَّاس يتعجل ويستعجل فِي مثل هذا الأمر.

سورة (الفلق) افتتحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقولهِ: ﴿قُلْ﴾، والخطاب للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكُل مَنْ يصلح له الخطاب، أنا وأنت والثاني والثالث يُخاطبهُ الله بهذا، أن نقول: قُلْ. طيب، لماذا تأتي كلمة (قُلْ) أو الفعل هذا؟ تأكيدًا على أهمية هذه السورة، وعلى أهمية ما بعدَ قُلْ. إذا قرأتَ (قُلْ) كأن إنسان يقول لك مثلًا: قُلْ. تقول: ماذا أقول؟ يقول: قُلْ كذا. فهي تأكيد لك. فـ (قُلْ).

ثم قال بعدها: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾، وأعوذُ فعل معناه ألتجئ وأعتصم وألوذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يعني أعتصم بالله، وألتجئ إلى الله مما قد يُصيبُني ومما قد يؤذيني. ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾، والاستعاذة طلب العوذ وطلب اللجوء والاعتصام بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا معنى الاستعاذة: طلب العوذ.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ولاحظ كلمة (رَبّ)، ومعنى الرَبّ أي الخالق الرازق المُدبر المتصرف بهذا الكون، فأنتَ تلجأ وتعتصم بِمَنْ؟ تعتصم بخالق هذا الكون المُدبر له، المُطلع عَلَيْهِ، العالم به، الحكيمُ العليم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الذي لا يخفى عَلَيْهِ شيء وهو القويُ العزيز الذي ينصرك ويحفظك، فتلجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فلذلك قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ما هو الفلق؟ الفلق اختلفَ أهلُ التفسير فيه، وأكثر هذه التفاسير كلها تدور وترجع إلى معنى واحد، يعني اختلافهم اختلاف تنوع، اختلاف يعني لا يتعارض. لو نرجع إلى كلمة (الفلق) هذه الكلمة التي سُميت السورة بها، مِنْ الفعل (فَلَقَ) والفَلق الشق، تقول: انفلقَ الكافور، كافور النخلة، انفلقَ عن كُمهِ أو انفلقَ يعني انشق.

وانفلقَ الشيء انشق. والضربة في الرأس يُقال لها ماذا؟ انفلاق، فلقة. هذا انشقاق. فأصل الكلمة هي الشَّق، الفلقُ هو الشَّق.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، يعني الفلق هو الشَق، ولذلك تجد بعض المفسرين يقول لك: الفَلق الصُبح. طيب ليش سُميَ الصُبح؟ قال: لأنه يشق الليل بقوة، الليل قد ادلهمَ بظلمتهِ الشديدة على الأرض، حتى لا ترى ما أمامك، ثم بشدة هذه الظُلمة يأتي الصباح ويفلق هذه الظلمة حتى تزول، تنشق، تزول، ولذلك مجيء الصبح، مجيئهُ كالشق هكذا، طلوع الصبح، طلوع الفجر الكاذب، وعندنا طلوع الفجر الصادق، فتجد طلوع الفجر الصادق ينشق أُفقيًا هكذا، أفقيًا، فإذا انشقَ بدأَ النهار يشقُ الليل، يشقُ الليل، والفجر والصبح يشق الليل.

إذًا هذه الكلمة لما يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، فالق الإصباح يعني الصباح يفلقُ الليل فيشقهُ حتى يذهب، حتى يتلاشى وينتهي ويذهب، فكلمة الفلق: الشق.

لما يُقال لك: الفلق الصبح، صحيح الصُبح؛ لأن هذا توضيح لمعنى الفلق، وإلا الفلق كله.

وبعضهم يقول: هو فلقُ الحَب، الحب البذر ينفك، ينشق، يقول له: انفلق. ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥]، هذا معنى انشقاق الحب تحت الأرض، لما تضع البذور والحبوب تحت الأرض والنوى، نواة التمر تحت الأرض، بقدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى تنشق فيخرج منها هذا النبات الأخضر، فانشقاقُها يُسمى فلق، الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ شاقُها.

إذًا كلمة (الفلق) حتى نتأملها أكثر، هي انشقاق، طيب، لماذا يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾؟ هو ربُ كُل شيء، ليش خص الفلق؟ لأن هذه الأمور سواءً فلق الصبح أو فلق الحب أو النبات، أو فلق كُل شيء، هذه أمور لا يقدر عَلَيْهَا إلا الله، ما يجيء إنسان، ما يستطيع المخلوق أن يشق الليل ويأتي بالنهار، ولا يستطيع أن يشق ولا الحبة تحت الأرض، مَنْ الذي شقها إذا حرثت الأرض بعد أيام وجدتها

قد انشقت. مَنْ الذي شقها؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [الأنعام: ٩٥] سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فالفلق بيدهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتدبيرهُ بيده، ولذلك سُميت السورة بهذا الاسم.

وخصَ الله بها هذا بها لما قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ فأنتَ تلجأ إلى الله الذي فلقَ كُلَّ شيء مِنْ أي شيء؟ ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، مِنْ شَرِّ كُلَّ ما خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، التي خلقها الله عَزَّ وَجَلَّ على هذه الأرض، وَفِي هذه الأجواء، فيها شر وفيها خير، لا تخلو مِنْ شرٍ ومن خير، فأنتَ تسأل الله خيرها وتعوذ بالله وتلجأ مِنْ شرها أن يُصيبك أو يضرك.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، يدخل فِي ذلك كُل المخلوقات التي فيها خير وفيها شَر، مِنْ بني آدم أو مِنْ حيوان، أو مِنْ هوام أو مِنْ أي شيء، ولذلك شوف هذه الآية جاءت عامة ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، أي مِنْ شر ما خلقهُ الله كله، كُل شيء.

ثم بدأ يُخصص سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لما قال: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، قال: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، الغسق شدة الظلمة، ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، يعني شدة الظلمة، فإذا وقب أي إذا الليل مثلًا: إذا عم واشتدَ فِي ظلمته قِيلَ: الغاسق إذا وقت، أي الليل إذا اشتدَ بظلمتهِ واتسعَ بظلمته وألمَ على هذه الأرض بشدة ظُلمته فِي هذا الوقت فِي شدة الليل والظلمة، تكثر الشرور، ولذلك ينبغي للإنسان عند غروب الشمس أو قُبيل الغروب أن يأتي بهذه الأذكار حتى لا يُصيبهُ ما يظهر فِي هذه الليالي بالشرور، ولذلك النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَ بكف الصِبيان عن الخروج فِي الطرقات والشوارع عند غروب الشمس وعند بداية الليل؛ لأنها تظهر الشرور هناك.

فالليل إذا اسودَ بظلامهِ ظهرت؛ لأن أهل الشر سواءً مِنْ الإنسان أو مِنْ الشياطين أو مِنْ الحيوانات والسباع أو مِنْ هوام الأرض وحشرات الأرض إذا رأت الليل استترت بالليل وبدأت تظهر وتؤذي فالإنسان فِي هذا الوقت يلجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يعصمهُ وأن يحفظهُ وأن يلجأ إلى الله بأن يُسلمهُ وألا يضرهُ مِنْ هذه الأمور.

ولذلك بدأ بالليل لانتشار هذه الشرور وهذا الليل، ولذلك يحرص عَلَيْهِ الإنسان، يحرص على هذه الأذكار فِي هذه الأوقات.

قال: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤﴾ خَص هذه الأشياء التي هي النفاثات، فالنفاثات، قيلَ المراد بها: السواحر، الساحرات التي يسحرن، والسِحر قد يُصيب الإنسان، له حقيقة وله تأثير، وقد يُصيب الإنسان، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حرمَ السِحر، وحكمَ على السواحر بالكُفر، «**الساحر حدهُ ضربةٌ بالسيف**» فيُقتل لأنه كافر ويستعين بالشياطين ويؤذي النَّاس، فالسِحر مُحرم، ولذلك يستعيذ الإنسان مِنْ هذه النفاثات.

النفاثات واحدُها نفاثة، قال بعض أهل التفسير: المراد بها السواحر النساء. طيب، ليش خصَ النساء؟ قال: لأنه يكثر السِحر عندهن، ولا يمنع أن يدخل الرجال.

وبعضهم يقول: لا، المراد بالآية النفاثات يعني الأنفس، يدخل فيها الرجال والنساء، يعني النفس النفاثة يعني الساحرة.

طيب، ما معنى النفاثة؟ لأنه ينفث يعني ينفخ بريقه، يكون نفخٌ به شيءٌ مِنْ الرِيق، به رطوبة، فينفثُ على هذه العُقد. ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ يأتونَ بخيوط وسلوك ويعقدونها ويربطونها بربطات ثم ينفثونَ فيها نفثات بكلامٍ يأخذونهُ مِنْ الكهنة ومن الشياطين، ويفعلون هذه الأفعال، فبإذن الله، بإذن الله قد تؤثر، كَمَا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، إلا إذا أرادَ الله، وهم يفعلونَ هذه الأفعال ويؤذونَ بها الخلق.

فلذلك إنسان يسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحفظهُ ويعصمهُ مِنْ شَرِّ هذه السواحر، قد نسمع نحنُ كثيرًا ممن يُصابونَ بالسحر ويتأذون، لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يُصلي، بسببِ هذا، وهم يؤذونَ هؤلاء، فنسأل الله أن يحفظنا دائمًا مِنْ شَرِّ السحرة وتأثيرهم علينا، وأن يحفظنا وألا يُقيمَ لهم مقامًا بين المسلمين، فيتعوذ بالله مِنْ الشيطان.

فإذا هذه السورة تحفظك مِنْ السحرة.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، والحسد ما هو؟ هو أن يتمنى هذا الشخص أن تزول عنك النعمة، إذا وجد عندك نعمة يحسدك عَلَيْهَا، هذا هو، والحسد محرم وكبيرة مِنْ كبائر الذنوب، و«**الحسد يأكل الحسنات كَمَا تأكل النار الحطب**»، وحرمَ الله عَزَّ وَجَلَّ الحسد ونهى عنه، جاءت السُّنّة بالنهي.

الحسد هو أن يتمنى زوال نعمة هذا الشخص، إذا رآك، والحسد غالبًا يأتي مِنْ أهل الشَر، فإذا رآك فِي نعمة، فِي خير، أو فِي وظيفة، أو فِي مرتبة عالية، أو أنعمَ الله عليك بشيءٍ مِنْ أمور الدنيا يحسدك عَلَيْهَا، أو رُزقت بأولاد صالحين، أو رُزقت بزوجةٍ صالحة، يحسدك عَلَيْهَا، هذا الحسد تمني زوال النعمة، هذا الذي حذرَ الله منه، قال: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

والحسد غالبًا يأتي مِنْ ضُعفاء الإيمان، ما عنده إيمان، ما عنده، ينظر النظرات هذه، ويدخل فِي ذلكَ فِي الحاسدين العاين الذي يُصيب النَّاس بعينه، هذا العاين والحاسد كُلهُ داخل فِي هذا الأمر، يتعوذ بالله مِنْ شر حاسدٍ إذا حسد.

سورة عظيمة الحقيقة، نقرأها كثيرًا، لكن نحتاج إلى أن نتأملها، نتفكر فيها، وعلينا عندما نقرأها بعد الصلوات، أو فِي الصباح، عند الصباح فِي أوراد الصباح، أو فِي المساء فِي أوراد المساء، أو عند النوم أن تقرأها وأنتَ تستحضر هذه المعاني، لا أنكَ تقرأها بلسانك، اقرأها بقلبك، تأمل، تُفكر فيها وشوف، أنت عرفت الآن معناها، تذكر هذه المعاني واقرأها، وستجد أن هناكَ فرق كبير جدًا بين قراءتك السريعة، وبين قراءتك فِي تأمل وفهم المعاني، والتأمل وفهم المعاني يؤثر فيك.

ولذلك هي مِنْ أسباب الشفاء، الإنسان قد يُصاب بأمراض، النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أُصيب بمرض أو نحو ذلك، كان يُرقي نفسه بالمعوذتين، وبسورة الإخلاص، وأنا أذكر فيه يعني ممن استعملها حقيقةً، استعملت هذه الأذكار مِنْ سورة الإخلاص والمعوذتين، يعني استعملها فِي رُقيةِ نفسه فشفاهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأذكر سماحة الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ، جاءه رجل يشتكي، فقال له: عليكَ بآية الكُرسي وهذه السور الثلاث: المعوذتين ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، الزمها وسيشفيك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، سيشفيك.

يقول هذا الرجل: أخذت كلام الشيخ ولازمتها مُدةً ورجعت للشيخ، قلت: شفاني الله عَزَّ وَجَلَّ. شفاني الله، ليش؟ لأنه أخذها بِجد وحِرص بإيمان قوي أنها تشفي، هي رُقية تشفي.

فنسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن ينفعنا بما قلنا، وبما سمعنا، ويجعلنا وإياكم هُداةً مُهتدين، وأن يوفقنا وإياكم إلى ما يُحب ويرضى، واللهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

التَّيْسِيرُ
مِنْ عِلْمِ التَّفْسِيرِ

تَفْسِيرُ
(سُورَةِ النَّاس)

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ:

أ. د. يُوسُفُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الشِّبْل

أستاذ الدراسات العليا في قسم القرآن وعلومه

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(سورة الناس)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بسم الله، والحمد لله، وأُصلي وأسلم على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آلِهِ وصحبِهِ وَمَنْ اهتدى بهداه واتبعَ سُنتهُ إلى يومِ الدين، اللّهمَ علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا رب العالمين.

أيها الإخوةُ الكِرام، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، حياكم الله فِي هذا اللقاء المبارك، وَفِي هذا اليوم يوم الثلاثاء الموافق التاسع مِنْ شهرِ ربيعٍ الآخر مِنْ عام خمسةٍ وأربعين وأربعمائة وألف مِنْ الهجرة، مجلسنا المُبارك مع كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قراءةً وتدبرًا وتأملًا وتفكرًا، ونسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يُعيننا وأن يُوفقنا وأن ينفعنا بما نقول وبما نسمع.

خاتمة القُرآن الكريم، السورة العظيمة الجليلة النفع المُباركة التي ختمَ الله بها كتابهُ العظيم، **هي سُورةُ (النَّاس)** التي تُسمى بالمعوذة.

الحقيقة لما تقرأ فِي هذه السورة، وهي آخر سورة فِي كتاب الله، وتُقارن بينها وبينَ ما قبلها وهي سورة الفلق، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جعلَ فِي هاتين السورتين تعويذًا لكل إنسان، ولجوءً واعتصامًا إليه مِنْ الشرور كلها، وَفِي مقدمتها الشيطان الرجيم.

وما ذكرناهُ فِي لقاءنا الماضي فِي فضائل سورة الفلق، هي فضائل أيضًا فِي سورة النَّاس، فالإنسان يقرؤها فِي المساء فِي أوراد المساء، وَفِي أوراد الصباح حرزًا له وحفظًا له مِنْ شياطين الإنس والجِن، ويقرؤها أيضًا عند النوم حتى تكونَ حفظًا له وحرزًا، ويقرؤها أيضًا دُبرَ كُلِّ صلاة، إلا فِي صلاةِ المغربِ والفجر فيُكررُها ثلاثًا، هذه السور هي السور الثلاث: سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وسورة الفلق، وسورة النَّاس، كلها معوذات وحفظ وحرز لهذا الإنسان.

لو تدبرنا أيها الإخوة وتأملنا هذه السور الثلاث هي خاتمة القُرآن الكريم، وخاصةً السورة الأخيرة؛ سورة النَّاس، لماذا جُعلت فِي هذا المكان؟ لماذا لم تكن فِي أول الأمر؟

أنتَ إذا أردتَ أن تقرأ القُرآن تقولُ: أعوذُ بالله، تبدأ بالاستعاذة، واللجوء إلى الله مِنْ الشيطان الرجيم، هذه جاءت فِي آخر شيء، فِي آخر القُرآن أنكَ تلجأ إلى الله وتعتصم بالله، وتستعين بالله، وتطلب مِنْ الله الحفظ، لماذا؟ لأن الإنسان لما يقرأ هذا القُرآن العظيم، الكنز العظيم هذا بما فيهِ مِنْ أجور عظيمة، وبما فيه مِنْ توجيهات ونصائح وتحذير، وترغيب، وترهيب، يعني لو نعرض القُرآن أمامنا وما فيه مِنْ قصص قُرآنية وعِبر ودروس، الإنسان حصل على أمر عظيم وكنز عظيم.

فقد أولًا: يُعجب بنفسه، قد يدخلهُ الغرور، قد يأتيه الشيطان، فجعلَ الله فِي خاتمتهِ أن يلجأ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ لضعفهِ وعدم قُدرته، والشيطان يتسلط، فكان خاتمة القُرآن خاتمة مُناسبة جدًا أنكَ تلجأ إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتعتصم بالله، لولا الله، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، وما سلمَ منكم مِنْ الشيطان؛ لتسلط الشيطان عَلَيْهِ.

وأنتَ تقرأ فِي كتاب الله فيه سور عظيمة، شَر وعداوة هذا الشيطان لهذا الإنسان.

سورة الفلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال لي ولك ولكل إنسان: ﴿قُلْ﴾ أيها الإنسان، ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ مِنْ ثلاثة أشياء، برب واحد موصوف بأنه ربُ الفَلق، بثلاثة أمور: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق: ٢ - ٤].

جاءت سورة النَّاس بالعكس، تستعيذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بثلاثة أمور: بأنه ربُ النَّاس، ومالكهم، وإلههم، مِنْ شر واحد.

الأول سورة الفلق تستعيذ بالله فقط أَنَّه ربُ الفلق مِنْ ثلاثة أمور.

وهنا عكس، مِنْ أمر واحد.

لماذا؟

هذا الأمر الواحد أخطر مِنْ الأول، الأول: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤﴾، هذه تضرك فِي جسدك وَفِي نفسك، أما الأخير فِي سورة النَّاس يضرك فِي دينك، وهذا أخطر وأعظم، وأنت تحفظ دينك أشد مِنْ أن تحفظ بدنك ونفسك، ولذلكَ يعني، فلذلك يعني أكدَ الله على ماذا؟ على التعوذ باللهِ، أن يتعوذ الإنسان ويلجأ؛ لأن التعوذ ما هو؟ هو الاعتصام

واللجوء، يعني أنكَ تعتصم بالله، تتمسك بالله، وتلجأ إلى الله بأنكَ تكون فِي حفظ الله ورعايته؛ لأنك لو لم تكن فِي حفظ اللهِ ورعايته؛ لتسلطت عليك شياطين الإنس والجِن.

فأنتَ تعتصم، الإنسان فِي هذه الدنيا يعيش فِي هذه الدنيا أمامهُ شرور، أمامهُ يعني أشرارًا مِنْ الجنِ والإنس، لن يتركوه، ولن يفلت منهم إلا بفضلٍ مِنْ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعصمة.

ولذلك الإنسان لما يقرأ هذه السورة يقرأها بتدبر:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١]، فالاستعاذة هي اللجوء والاعتصام بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تلجأ وتعتصم وتلوذ بالله. يلوذ يعني يكون فِي حفظ الله وَفِي حمايته، مِنْ أي شيء؟

قال: تتعوذ بالله وتستعين بالله وتلجأ إلى الله أن يحفظكَ الله، ولذلك شوف: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، رب النَّاس يعني هو الذي خلقهم، رَبُ النَّاس هو خالقهم ومُربيهم ورازقهم ومُسخر لهم كُلَّ شيء فِي هذه الحياة، هذا هو رَبُهم، فإذا كان هو رَبُهم؛ فإنهُ هو مالكهم، ولذلك تقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢﴾[الناس: ١، ٢]، فالذي خلقكَ وأوجدكَ ورباك، هو الذي يملكُكَ ويتصرف فيك، فتلجأ إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾، لاحظ، تأمل معي: أَنَّه هنا قال: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾. فِي سورة الفاتحة ماذا تقول؟ تقول: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، (مالك). وهنا تقول: (مَلِك).

هل مالك وملك واحد؟ ولا يختلف؟

نقول: لا، يختلف.

طيب، ليش؟ ما الفرق؟ كيف نُميز بين هذا وهذا؟

نطبق على أي إنسان. أي إنسان لما تقول: أنا مالك لهذه الأرض يعني مُلكًا تامًا. لما تقول: أنا ملك على هذا المكان، أو ملكٌ على هذه الإدارة، أو هذا ملكٌ على هذه البلدة، لا يملكهم مُلكًا حقيقيًا بحيث أَنَّه يأخذهم ويبيعهم ويشتري بهم، لا، وإنما يُسيطر عليهم، بمعنى: أن يكونوا تحتَ حُكمه.

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جمعَ بين الأمرين، هو يملكهم حقيقة وهم عبادهُ، وهم تحتَ مُلكه، وتحتَ تصرفه. شوف كيف؟!

ولذلكَ سورة الفاتحة قُرأت بقراءتين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤]، و(مالك يوم الدين)؛ لأنه تُعطي هذين المعنيين العظيمين: أَنَّه يملكهم مُلكًا حقيقيًا، وأنهم تحتَ مُلكهِ وتحتَ تصرفه.

ولذلك لاحظ فِي هذه السورة الإنسان يتعوذ بالله لأنه هو إلهه، بأنهُ هو خالقه، أَنَّه ربه، وأنه مالكه، وأنه إلهه. فإذا عرفتَ أن الذي خلقكَ ورباكَ ورزقك هو الله، وهو مالكٌ لك، وملكٌ وأنتَ فِي مُلكه؛ فإنكَ أنتَ عبده، أنتَ عبدهُ وهو ربُك، وأنتَ تتعبد وتخضع له، وما خلقكَ إلا لعبادته، وما أوجدكَ إلا لتُحقق هذه العبادة، وهو إلهُك، ولذلك تقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١ - ٣].

قد يأتيك شخص يقول لك: لماذا تتكرر كلمة (النَّاس)؟ لماذا لم يقل: قل أعوذُ برب النَّاس، ملكهم، إلههم؟

نقول: تأكيد، تأكيد على أن هذا الإنسان فِي حُكم الله، وتحتَ تصرف الله، وَفِي مُلك الله، وهو عبدٌ لله، واللهُ هو إلههُ، فتؤكد على ذلك.

والعجيب أيها الإخوة يعني هذه السورة هي حِرز مِنْ أي شيء؟ مِنْ الشيطان، وتُلاحظ أن تِكرار اسم (النَّاس) والسورة كلها تُسمى (النَّاس)، كأن الموضوع يدور حولَ النَّاس، ليسَ حول الشيطان، مع أنها هي حِرز مِنْ ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، مِنْ هذا الشيطان، لماذا؟ لأن المقصود هو الإنسان، المقصود أنت، والمقصود أنا وفلان أن يكونَ على وعي، فلذلك سُميت السورة بسورة النَّاس، حتى يكون الإنسان على وعي وعلى انتباه، وألا يغفل مِنْ عدوه الذي يتربص به فِي كُلِّ وقت.

ولذلك تلاحظ لما قال هذه الأمور: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣﴾ [الناس: ١ - ٣]، قال بعدها: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤﴾ [الناس: ٤]، واحد.

تتعوذ بالله بصفاتهِ وبأسمائهِ العظيمة مِنْ واحد هذا، هذا الواحد هذا هو العدو، العدو الذي يتربص بكَ فِي كُلِّ وقت، ولذلك ما أتى باسمه، وإنما أتى بوصفين، وصفينِ يعني حتى تعرف حقيقة هذا

الشيطان، ولذلك لم يأتي باسمه، ما قال: مِنْ شرِ الشيطان الرجيم، وإنما قال: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾؛ فهو يوسوس ويُشغل الإنسان، وأصلُ الوسوسة هي الصوت الخفي، ويُزين للإنسان ويضلهُ ويُملي له، ويدله على الشَر، هذه هي الوسوسة.

ثم هو فِي نفس الوقت ضعيف، خناس، يختفي ويذهب ويعود، ويذهب ويعود؛ لأن شرهُ لا ينقطع.

وقد أقسمَ هو، أقسمَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، فهو أقسمَ بالله، وطلبَ مِنْ الله أن يُنظره، أنظرني، حتى يجلسَ لهذا الإنسان.

وأول ما بدأ بأبينا آدم عَلَيْهِ السلام، حتى أخرجهُ مِنْ الجنة، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَا﴾ يمينًا، ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢١﴾ [الأعراف: ٢٠ - ٢١] حتى دلاهما بغرور.

فالعدو يتربص بك وأنتَ لو لم يحفظكَ الله، ولو لم تحفظ نفسكَ بهذه الأوراد لتسلطَ عليكَ الشيطان، و﴿مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]. ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤].

ولذلك جاءَ بالفعل المضارع، (يوسوس) يدل على أي شيء؟ على أَنَّه لا ينقطع، فِي كل وقت. ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، قد يأتيك سائل ويقول لك: (في صدور النَّاس) ولا فِي قلوبهم؟ ليش قال فِي الصدور ولم يقل فِي القلوب؟

نقول: إذا دخلَ فِي الصدر، تمكنَ مِنْ الصدر، تمكن مِنْ القلب؛ لأن القلب داخل الصدر، فهو يأتي إلى هذا المكان الفسيح الواسع الصدر، فيجلس فيه ويتربص لهذا، فيُسيطر على هذا القلب، والقلب هو ملكُ الأعضاء، القلب هو الذي تتحرك الأعضاء بأمره، فإذا تسلطَ على هذا القلب؛ حركَ هذا القلب، حركهُ كيفَ شاء، وبدأ يأمرهُ بما شاء، وصار هذا القلب أسيرًا فِي يدِ هذا الشيطان.

ولذلك قال: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾.

وأعلم أن هذا الشيطان ليسَ جنسًا واحدًا:

- شيطانٌ مِنْ الجِن. - وشيطانٌ مِنْ الإنس.

وشيطان الجِن أضعف مِنْ شيطان الإنس، وشيطان الجِن أخفى مِنْ شيطان الإنس، خفي وضعيف، وبمجرد أن تستعيذ بالله يهرب ويخنس ويختفي، وأما شيطان الإنس فهو ظاهر، وتستعيذ بالله ويبقى أمامك، وشرهُ أشد مِنْ شر هذا شيطان الجِن. لكن شيطان الإنس وإن كان شرهُ شرًا عظيمًا، إلا أَنَّه لا يبقى معك دائمًا، مثل شيطان الجِن وهو الشيطان الرجيم هذا لا ينفلت عنك أبدًا، و«**يجري مِنْ ابنِ آدم مجرى الدم**»، لا ينفك عنه، وهو الذي يُسلط هؤلاءِ الشياطين، تحتهُ جنود، جنود مِنْ شياطين الجِن، وجنود مِنْ شياطين الإنس، كلهم يُسيرهم ويُدبرهم حيثُ شاء.

قال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ [الناس: ٦]، المراد بالجِنة، لما يقول: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، هذا الذي يوسوس، الخناس، الوسواس الخناس ما هو؟ قال هذا: إما أن يكون مِنْ الجِنة، وإما يكون مِنْ النَّاس.

والمراد بـ(الْجِنَّة) هنا: الجِن. المراد بالجِنَّة، ليست الجَنَّة، لا، الجِنَّة بالكسر هي الجِن، كَمَا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]، الجِنَّة يعني الجِن، سموا جِنًا لاختفائهم. فـ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ يعني مِنْ شياطين الجِن.

﴿وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٦]، يعني مِنْ شياطين النَّاس.

☚ فالشيطان تحتهُ جنودهُ مِنْ شياطين الجن، ومن شياطين الإنس.

سورة عظيمة حقيقة، تحتاج مِنا عند قراءتها فِي الصباح، فِي المساء، بعدَ الصلوات الفرائض، عند النوم أن تقرأها وأنتَ تتأمل عِظم هذه السورة التي ختمَ الله بها كتابه، أن تتأملها تأملًا عظيمًا، وتتذكر فيها، وتُلازمها، مُلازمةً تامة؛ لأنها هي وما قبلها مِنْ السورتين، السور الثلاث هذه تُلازمها مُلازمةً تامة؛ لأن فيها بإذن الله حفظكَ مِنْ كُلِّ، مِنْ شياطين الإنس والجِن.

نسأل الله أن ينفعنا وإياكم بما نقول، وبما نسمع، وأن يوفقنا وإياكم لطاعته، واللهُ أَعْلَمُ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.